فهرس موضوعات أعداد
مجلة "الأصالة" الجزائرية
[١٣٩١-١٤٠٢ هـ/ ١٩٧١-١٩٨١م]

الأصالة

مَجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية

السنة الأولى - العدد الأول - محرم 1391 هـ - مارس 1971 م

ثورة متكاملة أصيلة
بقلم الرئيس هواري بومدين

ندوة الأصالة:
مقومات الشخصية الوطنية

اللغة العربيَة
طرق تكييفهَا
ومناهج تعليمهَا

البيئة وسير
التاريخ الوطني



يوغورطة

السنة الأولى، العدد الأول
محرم ١٣٩١ هـ، مارس ١٩٧١ م

القسم الفرنسي:

السنة الأولى، العدد الثاني

ربيع الأول، ١٣٩١ هـ، ماي ١٩٧١م[1]

---

[1]- عدد خاص حول ثورة ١٨٧١.

السنة الأولى، العدد: ٣
جمادى الثانية ١٣٩١ هـ/ أوت ١٩٧١م

السنة الأولى، العدد: ٤
شعبان ١٣٩١ هـ/ أكتوبر ١٩٧١م

السنة الأولى، العدد: ٥
شوال ١٣٩١ هـ/ نوفمبر ١٩٧١م

السنة الأولى، العدد: ٦
ذو الحجة ١٣٩١ هـ/ جانفي ١٩٧٢م

السنة الثانية، العدد: ٧

صفر، ربيع الأول ١٣٩٢ هـ/ مارس، أفريل ١٩٧٢م

السنة الثانية، العدد: ٨

ربيع الثاني، جمادى الأولى ١٣٩٢ هـ، ماي، جوان ١٩٧٢م[٢]

[٢] - عدد ممتاز، بمناسبة الذكرى الألفية لتأسيس الجزائر والمدية ومليانة، والعيد العاشر لاسترجاع الاستقلال.

٢٤- الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ٣٠٥-٣٢٠
٢٥- النشاط الثقافي، إعداد: حكمت ياسين: مهرجان تيمقاد، ص: ٣٢١. الأسبوع الثقافي الخامس في قسنطينة، ص: ٣٢٢. المهرجان الثقافي الجزائري في المشرق العربي، ص: ٣٢٣. الأسبوع الثقافي الجزائري في باريس، ص: ٣٢٤. مهرجان دمشق الأول لسينما الشباب، ص: ٣٢٥. معرض للرؤسوم الفنية المصرية في المانيا الديمقراطية، ص: ٣٢٦. بليغ حمدي وصلاح عزام في الجزائر، ص: ٣٢٦. الثورة الثقافية محاضرة لمحمد الشريف مساعدية ص: ٣٢٦. فيلم الفتح، ص: ٣٢٧. كتب، ص: ٣٢٨. كتبت مجلة تايم، ص: ٣٢٩. الأصالة والتقدم محاضرة لجاك بيرك، ص: ٣٣١

القسم الفرنسي:

ALGER.. RENDEZ-VOUS DE L'HISTOIRE :

1- Alger : La position, p: R. Lespes, p: 3-4
2- L'origine du nom français d'Alger traduit EL DJEZAIR, p: René Lespes, p: 5-7
3- Alger : Essai de topologie poétique, p: 8-10
4- GEZEIR c'est-à-dire ALGER, p: 12
5- Importance du marche d'Alger au 16eme siècle, p: F.D.de Haédo, p: 13
6- Les monnaies a l'époque turque, p: F.D.de Haédo, p: 14
7- Alger au début du 17eme siècle, p: Nicolas de Nicolay, p: 15
8- Parallèle entre Alger et Tunis, p: J.B.Salvago, p: 16-18
9- Industrie et activité artisanales d'Alger a la fin du 17eme siècle, p: 19
10- Alger vue par FROMENTIN, p: 20-21
11- La casbah, p: 22-23
12- Alger a l'époque turque : les femmes- la toilette, p: Pierre Boyer, p: 24-27
13- le commerce, p: PANANTI, p: 28
14- Richesses d'Alger, p: W.Shaler, p: 29
15- Edifices religieux confisques au début de l'occupation française, p: H.Klein, p: 30-34
16- Les édifices religieux de l'ancien Alger, p: Albert Devoulx, p: 35
17- Les français et leurs auxiliaires associes dans les exactions des premières années de la conquete, p: Ives Lacoste, p: 36

السنة الثانية، العددان: ٩-١٠

جمادى الثانية، رمضان ١٣٩٢ هـ/ جويلية، أكتوبر ١٩٧٢م[٣]

القسم الفرنسي:

[٣] - عدد خاص بمناسبة الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي في الجزائر العاصمة من ١٣ جمادى الثانية إلى ١ رجب ١٣٩٢ هـ، الموافق ٢٤ يوليو إلى ١٠ أغسطس ١٩٧٢م.

السنة الثانية، العدد: ١١
شوال، ذو القعدة ١٣٩٢ هـ/ نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٢م

السنة الثالثة، العدد: ١٢
ذو الحجة ١٣٩٢، محرم ١٣٩٣ هـ/ جانفي، فيفري ١٩٧٣م

السنة الثالثة، العدد: ١٣

صفر، ربيع الأول ١٣٩٣ هـ/ مارس، أفريل ١٩٧٣م

٢١- جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي والثقافي، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، ص: ١٩٩-٢١٢
٢٢- من آثارنا المغمورة: "بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد" لأبي زكريا يحيى ابن خلدون، بقلم: محمود بوعياد، ص: ٢١٣-٢٢٢
٢٣- المظهر الاقتصادي والاجتماعي وصلته بالبيئة الجغرافية في بلاد العرب قبل الإسلام، بقلم: موسى لقبال، ص: ٢٢٣-٢٣٣
٢٤- نافذة على العالم، إعداد: ن. شوربجي، ص: ٢٣٥-٢٤٨

السنة الثالثة، العددان: ١٤-١٥
ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب ١٣٩٣ هـ
ماي جوان، جويلية، أوت ١٩٧٣م[٤]

[٤]- عدد خاص بتاريخ الجزائر وموقف المؤرخين الأجانب منه.

٢٢- ندوة الأصالة في المغرب: موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ المغرب العربي، أدار الندوة: عثمان شبوب، شارك فيها: عبد الكريم كريم، إبراهيم حركات، محمد كريم، سعيد النجار، توفيق أحمد، مفدي زكريا، محمد المنوني، إبراهيم الخلادي، جان كاني (بالفرنسية). ص: ٢١٥-٢٣٠

دراسات تاريخية عامة:

٢٣- من آثارنا المغمورة: الذخيرة السنية في الدولة المرينية، بقلم: محمود بوعياد، ص: ٢١٣-٢٤٠

٢٤- الغزو الإسباني للجزائر في القرن السادس عشر أسبابه مراحله نتائجه، بقلم: حكت ياسين، ص: ٢٤١-٢٥٥

٢٥- نبذة تاريخية عن الدولة الجزائرية، بقلم: وليام شالير، ترجمة: محمد العربي الزبيري، ص: ٢٥٧-٢٦٤

٢٦- تراجم بعض مشاهير علماء زواوة القبائل الصغرى والكبرى، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ٢٦٥-٢٧٥

٢٧- أصالة الشعب الجزائري، بقلم: محمد البشير الإبراهيمي، ص: ٢٧٦

مقابلات:

٢٨- آخر حديث لعميد الصحافيين الجزائريين المرحوم أبي اليقظان عن التاريخ النضالي للصحافة الوطنية، إعداد: الزبير سيف الإسلام، ص: ٢٧٧-٢٨٨

ملف:

٢٩- صفحات من تاريخ جامع كتشاوة، إعداد الطاهر بوشوشي، ص: ٢٨٩-٢٩٠

٣٠- مدوا يدا نبن دنيانا موحدة، شعر: مفدي زكريا، ص: ٣٠١-٣٠٣

رسائل جامعية:

٣١- دولة بني حماد في الجزائر، عبد الحليم عويس، ص: ٣٠٥-٣٠٩

النشاط الثقافي:

٣٢- تدشين الرئيس هواري بومدين لثانوية محمد بن عثمان الكبير في وهران، ص: ٣١١

٣٣- توصيات مؤتمر المراكز والهيئات الثقافية الإسلامية يف أوروبا، ص: ٣١٩-٣٢٧

٣٤- دور المؤرخين المغاربة، ص: ٣٢٩-٣٣١

٣٥- حياتنا الثقافية، إعداد: سهيل الخالدي، ص: ٣٣٣-٣٤١

٣٦- ماضي النشاط الثقافي في القصبة، ص: ٣٤٢

٣٧- مجلة المجلات، إعداد: حكمت ياسين، ص: ٣٤٣-٣٥٥

القسم الفرنسي:

1- Il n’est pas de nations.. p: Mouloud kassim nait belkacem, p: 1-2

2- Tirer la sonnette d’alarme, p: Mouloud kassim nait belkacem, p: 3-11

3- Revue d’histoire maghrébine, p: 12

4- L’histoire et sa nationalité, p: Yvone turin, p: 13-22

5- Simple note en faveur de la décolonisation de l’histoire algérienne à propos d’un pseudo-historien de l’algérie française, p: Charles robert Ageron, p: 23-26

6- Les historiens français et l’algerie à l’époque ottomane, p: Moulay Belhamissi, p: 27-34

7- L’algerie et le tiers-monde pour l’ethnologie du 19eme siècle, p: Youcef Nacib, p: 35-37

السنة الثالثة، العدد: ١٦

شعبان/ رمضان، ١٣٩٣ هـ، سبتمبرن أكتوبر ١٩٧٣م

٢٥- خواطر عن الملتقى، بقلم: عبد الملك مرتاض، ص: ١٩٩-٢٠٦
٢٦- التطوع والإسلام، الإمام موسى الصدر (لبنان)، ص: ٢٠٧-٢٠٨
٢٧- سياسة فرنسا تجاه العرب من ديغول إلى بومبيدو (كتاب الأصالة)، تأليف بول بالطا، عرض: إسماعيل العربي، ص: ٢٠٩-٢٢٠
٢٨- من وراء البحار أفكار ومذاهب، بقلم: إسماعيل العربي، ص: ٢٢١-٢٣٢
٢٩- الحياة الثقافية: نشاط المركز الثقافي الإسلامي، دور المثقف في المعركة، ص: ٢٣٣- ٢٤٢
٣٠- مع المجلات العربية: الفكر الوطني المبدع هو طريق النجاة، رحلة المصير، كتب، ص: ٢٤٣-٢٤٦
٣١- رسالة تونس، مراسلة: صالح الحاجة: ابن هانئ لم يكن تونسيا فهو مغربي، دماء وحب وبلاستيك، مصطفى محمود والتفسير العصري، ص: ٢٤٧-٢٥٣

القسم الفرنسي:

1- Tout milite en faveur du regroupement de la oumma, p: Mouloud kassim Nait belkacem, p: 1-6
2- Recommandations du 7éme séminaire pour la connaissance de la pensée islamique, p: 22
3- Séminaire du consensus, par: Mouloud kassim Nait Belkacem, p: 23-25
4- Du congres de Bakou au sommet d’Alger, p: Paul Balta, p: 27-33
5- Le volontariat de l’islam, p: L’imam Moussa Assadr, p: 34-35

السنة الرابعة، العددان: ١٧-١٨
شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٣٩٣، محرم ١٣٩٤ هـ
نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٣، جانفي، فيفري ١٩٧٤م[٥]

[٥]- عدد خاص بالتعريب.

٢٥- أن نكون أو لا نكون تلك هي المشكلة، بقلم: محمد عزيز الحبابي (المغرب)، ص: ٢٢٩-٢٤٢
٢٦- مستقبل اللغة العربية بالمغرب الأقصى، بقلم: محمد محيي الدين المشرفي (المغرب)، ص: ٢٤٣-٢٥٢
٢٧- التعريب بين اللغة والفكر، بقلم: فتيحة بغاي، ص: ٢٥٣-٢٥٨
٢٨- واقع اللغة العربية في الصحافة الإصلاحية الجزائرية، بقلم: محمد ناصر، ص: ٢٥٩-٢٦٩
٢٩- في قضايا اللغة العربية ومستوى التعليم العربي، بقلم: أحمد الأخضر غزال (المغرب)، ص: ٢٧١-٢٨٧
٣٠- لغو في اللغة، بقلم: محمد عزيز الحبابي، ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي (المغرب)، ص: ٢٨٩-٢٩٤
٣١- التعريب والازدواجية في تونس، بقلم: الطيب البكوش (تونس)، ص: ٢٩٥-٣٠٤
٣٢- عبد الله بن المقفع زعيم التعريب في عصره، بقلم: عبد الحميد حاجيات، ص: ٣٠٥-٣١١
٣٣- التعريب قديما وحديثا، بقلم: أحمد فؤاد الأهواني (مصر)ن ص: ٣١٣-٣١٩
٣٤- الرصيد اللغوي المغربي، بقلم: أحمد العابد (تونس)، ص: ٣٢١-٣٢٤
٣٥- إنصاف لا تشريف، بقلم: عبد الكريم غلاب (المغرب)، ص: ٣٢٥-٣٢٨
٣٦- خصوم العربية في المغرب العربي، شعر: عبد الله كنون (المغرب)، ص: ٣٢٩-٣٣٠
٣٧- حول التعريب، بقلم: عبد الوهاب حسن، ص: ٣٣١، ٣٣٨
٣٨- تجربة لغوية من العالم الثالث:
الوضع اللغوي في الهند، بقلم: إسماعيل العربي، ص: ٣٣٩-٣٤٦
٣٩- من الأرشيف:
وختاما.. لك ألف سلام، بقلم: م. دين، ص: ٣٤٧-٣٥٣
٤٠- تحذير المسلمين من بدعة استخدام الحروف اللاتينية بدل العربية، ص: ٣٥٤
٤١- مقابلات:
دور معهد اللسانيات في التعريب، مع: عبد الرحمن حاج صالح، ص: ٣٥٥-٣٦٠
٤٢- أوربا والعالم العربي من حرب الويس إلى حرب أكتوبر، بقلم: بول بالطا (فرنسا)، ص: ٣٦١-٣٦٥
٤٣- مشاكل اللغة العربية، (ندوة الأصالة) أدارها: عثمان شبوب، شارك فيها: عبد المجيد عطية (تونس)، أحمد صوة (تونس)، محمد خليل (المغرب)، عبد القادر بن الشيخ (تونس)، السيدة محفوظ (تونس)، محفوظ شرشان (تونس)، محمد بشوش (تونس)، ص: ٣٦٧-٣٧٨
٤٤- اللغة العربية وكيف حلت محل اللغات القديمة (كتاب الأصالة)، تأليف: موريس لومبارد، ترجمة وتعليق: إسماعيل العربي، ص: ٣٧٩-٣٨٧

التعريب في الجزائر (تقارير الوزارات):

٤٥- التعريب في المرحلتين الابتدائية والثانوية، ص: ٣٩٠-٤٢٠
٤٦- تجربة الجيش الوطني الشعبي في ميدان التعريب ونشر اللغة الوطنية، ص: ٤٢١-٤٢٦
٤٧- التعريب في وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، ص: ٤٢٧-٤٣٢

السنة الرابعة، العدد: ١٩
صفر، ربيع الأول ١٣٩٤ هـ/ مارس، أبريل ١٩٧٤م[٦]

١- الافتتاحية، بقلم: عثمان شبوب، ص: ٢
تاريخ بجاية:
٢- ملاحظات عن ميزات بجاية وأهمية دورها في مسيرة التاريخ، بقلم: موسى لقبال، ص: ٣-١١
٣- دور بجاية في الحضارة، بقلم: إبراهيم حركات (المغرب)، ص: ١٣-١٧
٤- سياسة الناصر بن علناس تجاه بلاط المهدية، بقلم: إسماعيل العربي، ص: ١٩-٣٠
٥- لمحة عن زحف علي بن غانية الميورقي على بجاية (٥٨٠ هـ/ ١١٨٤م)، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، ص: ٣١-٣٧
٦- بجاية، بقلم: هايزيس فون مالتسان (ألمانيا)، ترجمة: أبو العيد دودو، ص: ٣٩-٤٥
٧- نضال بجاية ومنطقتها ضد الاستعمار الفرنسي، بقلم: رشيد قايد، ص: ٤٧-٦٠
٨- بجاية من خلال بعض الرحالة المسلمين، بقلم: رابح بونار، ص: ٦١-٦٩
٩- بجاية من خلال النصوص الغربية، جمعها وترجمها وقدم لها: إسماعيل العربي، ص: ٧١-٨١
١٠- نظرة على تاريخ بجاية، بقلم: السيدة عالمة، ص: ٨٣-٨٨
١١- مخطوط ينشر لأول مرة: تاريخ بني حماد للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، تقديم: رابح بونار، ص: ٨٩-٩٥
١٢- بجاية في حدائق الكتب، نصوص اختارها وعلق عليها: مولاي بلحميسي، ص: ٩٧-١٣٢
الحياة الفكرية في بجاية:
١٣- الحياة الفكرية ببجاية في عهد الدولتين الحفصية والتركية وآثارها، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ١٣٣-١٤٧
١٤- الفيلسوف ريمون لول في بجاية سنة ١٣٠٧م، بقلم: بوعمران الشيخ، ص: ١٤٩-١٥٢
١٥- الحياة العقلية في بجاية: الفلسفة والكلام والتصوف، بقلم: عمار طالبي، ص: ١٥٣-١٧٢
١٦- أعلام أقاموا بجاية في القرن السابع الهجري، بقلم: محمد بلغراد، ص: ١٧٣-١٨٠
١٧- ابن خلدون في بجاية، بقلم: عبد الله عنان (مصر)ن ص: ١٨١-١٩٠
١٨- ابن خلدون في بجاية، بقلم: عبد الحميد حاجيات، ص: ١٩١-٢٠٣
١٩- إقامة ابن خلدون في بجاية ودوره فيها، بقلم: محمد سعيد رعد، ص: ٢٠٥-٢٢٦
٢٠- دقة ابن خلدون وصرامته في شؤون العلم والقضاء ومرونته في شؤون السياسة، بقلم: علي عبد الواحد وافي (مصر)، ص: ٢٢٧-٢٣٢
٢١- إقامة ابن تومرت ببجاية وملالة، بقلم: رشيد بورويبة، ص: ٢٣٣-٢٤٠
الحياة الفقهية في بجاية:
٢٢- عباقرة من رجالنا تزهى بهم عواصمنا الصنهاجية، بقلم: أحمد حماني، ص: ٢٤١-٢٥٨

[٦]- عدد خاص عن مدينة بجاية بمناسبة انعقاد الملتقى الثامن للفكر الإسلامي بها.

٢٣- عبد الحق الإشبيلي البجائي محدث القرن السادس الهجري، بقلم: رابح بونار، ص: ٢٥٩-٢٧٢

الحركة الأدبية في بجاية:

٢٤- الحركة الأدبية في بجاية بني حماد، بقلم: رشيد مصطفاي، ص: ٢٧٣-٢٨٦

٢٥- جهود الجزائر الفكرية في موكب الحضارة العربية، بقلم: يحيى بوعزيز، ص: ٢٨٧-٣٠١

٢٦- عبقرية المشداليين العلمية في بجاية على عهدها الإسلامي الزاهر، بقلم: رابح بونار، ص: ٣٠٣-٣١٦

٢٧- عبد الجبار بن حمديس الصقلي شاعر بني حماد، بقلم: إسماعيل العربي، ص: ٣١٧-٣٢٦

٢٨- بجاية، شعر: عبد الكريم العقون، ص: ٣٢٧-٣٢٩

الحياة الاقتصادية:

٢٩- العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، بقلم: إسماعيل العربي، ص: ٣٣١-٣٦١

كتاب الأصالة:

٣٠- بجاية، تأليف: شارل فيرو، عرض ونقد: إسماعيل العربي، ص: ٣٦٣-٣٧٢

٣١- كتب عن بجاية، بيبليوغرافيا أعدتها السيدة عالمة، ص: ٣٧٣-٣٧٤

السنة الرابعة، العدد: ٢٠

ربيع الثاني، جمادى الأولى ١٣٩٤ هـ/ ماي، جوان ١٩٧٤م[٧]

---

[٧] - عدد خاص بمحاضرات الملتقى الثامن للفكر الإسلامي، بجاية، من ١ إلى ١٢ ربيع الأول ١٣٩٤ هـ، الموافق من ٢٥ مارس إلى ٥ أبريل ١٩٧٤م.

أصداء الملتقى:

الحياة الثقافية:

القسم الفرنسي:

السنة الثالثة، العدد: ٢١

جمادى الثانية، رجب، شعبان ١٣٩٤ هـ/ جويلية، أوت، سبتمبر ١٩٧٤

٢٣- الحاجة إلى تقويم هجري موجه يكون عليه عمل المسلمين في الأرض جميعا، بقلم: محمد عبد الرؤوف، ص: ١١٩-١٢٦

٢٤- من وراء البحار أفكار ومذاهب، إعداد: إسماعيل العربي، ص: ١٣٠-١٤٠

٢٥- نافذة على العالم، إعداد: ن. شوربجي، ص: ١٤١-١٥١

٢٦- صدر أخيرا: المجلة التاريخية المغربية، ص: ١٥٢-١٥٣

القسم الفرنسي:

1- Quatorze siècles après la révélations de la sourate (IQRA).. nous demeurons une nation analphabète ne sachant ni écrire ni compter, p: Mouloud-kassim Nait Belkacem, p: 1-5

2- L'unification du calendrier concernant les solennites et fétes religieuses constitue l'un des aspects les plus importants et les plus nobles de l'unité islamique, p: AHMED HAMMANI, ABDELKRIM GHAZLOUN, p: 6-19

السنة الرابعة، العدد: ٢٢
رمضان، ذو القعدة، ذو الحجة، ١٣٩٤ هـ/ أكتوبر، نفامبر، ديسمبر ١٩٧٤م[٨]

[٨] - عدد خاص بمناسبة الذكرى العشرين لاندلاع الثورة الجزائرية (١٣٧٤-١٣٩٤هـ/ ١٩٥٤-١٩٧٤م).

السنة الرابعة، العدد: ٢٣
محرم، صفر ١٣٩٣ هـ/ جانفي، فيفري ١٩٧٣م

مؤتمرات:

٢١- اللقاء الإسلامي المسيحي بقرطبة، ص: ٢٣٦

٢٢- الدورة الثالثة للجنة المراة العربية، بقلم: زهور ونيسي، ص: ٢٣٩

٢٣- بيان قرطبة، ص: ٢٤٠-٢٤٣

٢٤- المؤتمر السابع للمستشرقين المختصين بالدراسات العربية الإسلامية بلمانيا الاتحادية، بقلم: إحسان عباس (لبنان)، ص: ٢٤٤-٢٤٦

٢٥- مؤتمر السكان العالمي بوخارست، ص: ٢٤٦-٢٥١

السنة الرابعة، العدد: ٢٤
ربيع الأول، ربيع الثاني ١٣٩٥ هـ/ مارس ، ابريل ١٩٧٥م

ندوات:

دراسات لغوية:

مناقشات:

السنة الرابعة، العدد: ٢٥
جمادى الأولى، جمادى الثانية ١٣٩٥ هـ/ ماي، جوان ١٩٧٥م

ندوات:

٢٠- التخلف السياسي وأبعاده الحضارية، بقلم: خاشع المعاضيدي، ص: ٢٦٠-٢٧٥

٢١- تعليق على بحث الدكتور خاشع المعاضيدي، بقلم: حسن صعب (لبنان)، ص: ٢٧٦-٢٨٣

٢٢- الاستعمار وأزمة التطور في الوطن العربي، بقلم: إبراهيم أبو لغد، ص: ٢٨٤-٢٩٦

مناقشات:

٢٣- حول قرية موقع برشك، بقلم: زهير الزاهري، ص: ٢٩٧-٢٩٨

دراسات لغوية:

٢٤- من فصيح العربية في العامية الجزائرية (٣)، بقلم: محمد الصالح رمضان، ص: ٢٩٩-٣٠١

السنة الرابعة، العدد: ٢٦
رجب، شعبان ١٣٩٥ هـ/ جويلية، أوت ١٩٧٥م[٩]

دراسات تاريخية:

١- المراحل والأدوار التاريخية لدولة بني عبد الواد الزيانية، بقلم: يحيى بوعزيز، ص: ٣-٢٩

٢- نهاية دولة بني زيان، بقلم: مولاي بالحميسي، ص: ٣٠-٣٦

٣- تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين، بقلم: أحمد توفيق المدني، ص: ٣٧-٤٥

٤- الهجرة الأندلسية إلى افريقية أيام الحفصيين، بقلم: محمد الطالبي (تونس)، ص: ٤٦-٩٠

٥- زناتة والأشراف الحسنيون في مجال تلمسان والمغرب الأوسط، بقلم: موسى لقبال، ص: ٩١-٩٨

٦- العلاقات التجارية بين المعغرب والسودان عبر الصحراء من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري ودور تلمسان في هذا الميدان، بقلم: عطاء الله دهينة، ص: ٩٩-١٠٣

٧- تلمسان والقدس الشريف، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، ص: ١٠٤-١١٠

٨- دولة بني يفرن الإباضية بتلمسان، بقلم: سليمان داود بن يوسف، ص: ١١١-١١٩

٩- تلمسان ونشأة الدولة الموحدية، بقلم: عثمان الكعاك (تونس)، ص: ١٢٠-١٢٣

الحياة الفكرية والحضارية:

١٠- أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ ونبذ مجهولة من تاريخ حياة بعض أعلامها، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ١٢٤-١٣٥

١١- الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان، بقلم: عبد الحميد حاجيات، ص: ١٣٦-١٥٧

١٢- الموسيقى الكاملة، بقلم: مولود قاسم، ص: ١٥٨-١٦٢

١٣- النشاط العقلي والتقدم الحضاري للجزائر في عهد الزيانيين، بقلم: مفدي زكريا، ص: ١٦٣-١٧٠

١٤- جولة عبر مساجد تلمسان، بقلم: رشيد بوروبية، ص: ١٧١-١٨٢

١٥- الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب، بقلم: غبراهيم حركات (المغرب)، ص: ١٨٣-١٩٤

١٦- الفكر الإسلامي والإنسان المعاصر في رأي عبد الله المنصوري التلمساني (١٨٩٥-١٩٧٢)، بقلم: الشيخ بوعمران، ص: ١٩٥-٢٠٢

التراجم:

١٧- التلمساني محمد بن عبد الكريم المغيلي، بقلم: عبد القادر زبادية، ص: ٢٠٣-٢١٥

١٨- المقري التلمساني، بقلم: الطاهر أحمد مكي (مصر)، ص: ٢١٦-٢٣٠

١٩- لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكري في تلمسان، بقلم: محمد الشريف قاهر، ص: ٢٣١-٢٥٩

٢٠- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان وقيمته التوثيقية، بقلم: محمود بوعياد، ص: ٢٦٠-٢٦٩

---

[٩]- عدد خاص عن تاريخ تلمسان وحضارتها.

٢١- أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة دفين تلمسان أم فاس؟ بقلم: عبد الحميد بن شنهو، ص: ٢٧٠-٢٨٣

٢٢- أبو مدين الغوث دفين تلمسان (٥٢٠-٥٩٤ هـ/ ١١٢٦-١١٩٧م)، بقلم: عبد القادر الخلادي، ص: ٢٨٤-٢٩٥

دراسات ادبية:

٢٣- تلمسان، بقلم: محمد بلغراد، ص: ٢٩٦-٣١٠

٢٤- حركة الشعر المولدي في تلمسان على عهد ابي حمو الثاني، بقلم: عبد الملك مرتاض، ص: ٣١١-٣٣٢

٢٥- العروبة في شعر العفيف التلمساني، بقلم: عمر موسى باشا، ص: ٣٣٣-٣٤٥

٢٦- تلمسان في الأدب العربي، بقلم: رشيد مصطفاي، ص: ٣٤٦-٣٦٠

٢٧- تلمسان موطن السحر والشعر، بقلم: جلول بدوي، ص: ٣٦١-٣٧٤

القسم الفرنسي:

1- Pour un véritable enseignement de la musique classique universelle en algerie, p: Mouloud Kassim Nait belkacem, p: 1-7

السنة الرابعة، العدد: ٢٧
رمضان، شوال ١٣٩٥ هـ/ سبتمبر، أكتوبر ١٩٧٥م[١٠]

انطباعات عن الملتقى:

[١٠] - عدد خاص بالملتقى التاسع للفكر الإسلامي.

السنة الرابعة، العدد: ٢٨
ذو القعدة، ذو الحجة ١٣٩٥ هـ/ نوفمبر ، ديسمبر ١٩٧٥م

السنة الخامسة، العددان: ٢٩ - ٣٠
محرم، صفر ١٣٩٦ هـ/ جانفي، فيفري ١٩٧٦م

السنة الخامسة، العدد: ٣١
ربيع الأول ١٣٩٦ هـ/ مارس ١٩٧٦م

السنة الخامسة، العدد: ٣٢
ربيع الثاني ١٣٩٦ هـ/ أبريل ١٩٧٦م

السنة الخامسة، العدد: ٣٣
جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ/ ماي ١٩٧٦م

١- على هامش مناقشة المشروع التمهيدي للميثاق: التقدمية الأصيلة، بقلم: عثمان شبوب، ص: ٢-٦

دراسات تاريخية:

٢- المجاعة بالجزائر أواخر عقد الستينات من القرن ١٩ ومواقف وآراء الجزائريين من ادعاءات الفرنسيين حول أسبابها، بقلم: يحيى بوعزيز، ص: ٧-٢٩

٣- وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب، بقلم: أبو القاسم سعد الله، ص: ٣٠-٤٧

دراسات ثقافية وأدبية:

٤- دور الآداب والفنون عموما والشعر والموسيقى خصوصا في تعزيز أخلاق أمة أو انحلالها وفي شحذ عزائمها أو قتل روحها، بقلم: عمر فروخ (لبنان)، ص: ٤٨-٦٩

٥- لمحة حول الاتجاه الفكري في فرنسا خلال حرب الجزائر، بقلم: ايفون تورين (فرنسا)، ص: ٧٠-٨٧

٦- معاقد الطرافة في فكر ابن خلدون، بقلم: عثمان أمين (مصر)، ص: ٨٨-٩٣

٧- انطباعات عن ملتقى الدراسات العربية والإسلامية بمعهد تكوين الدعاة للجامعة السيفية ببومباي، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ٩٥-١١٠

كتاب الأصالة:

٨- بعد أن تسكت المدافع، تأليف: محمد سيد أحمد، عرض وتحليل ونقد: محمد الميلي، ص: ١١١-١٢٨

من محاضرات الملتقى:

٩- روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي (٣)، محاضرة: محمد أبو زهرة (مصر)، ص: ١٢٩-١٤٩

١٠- جولة بين المجلات، إعداد: مولاي بالحميسي، ص: ١٥٠-١٥٩

السنة الخامسة، العدد: ٣٤-٣٥
جمادى الثانية، رجب ١٣٩٦ هـ/ يونيو، يوليو ١٩٧٦م[١١]

---

[١١]- عدد خاص عن تاريخ وحضارة عنابة عبر العصور.

عنابة في معركة التحرير:

١٩- معركة عنابة التي تحدت الحلف الأطلسي، بقلم: محمد الصالح الصديق، ص: ٢٦٩-٢٨١

الدراسات الإسلامية:

٢٠- الحياة العائلية في الإسلام، بقلم: فاطمة هيرين (ألمانيا)، ص: ٢٨٢-٢٩٥

جولة بين المجلات:

٢١- لا معارضة بين الإسلام والاستفادة من تجارب الأمم الأخرى على أساس جوهرنا، حديث مولود قاسم نايت بلقاسم مع جريدة "الشعب"، ص: ٢٩٦-٣٠٢

السنة الخامسة، العددان: ٣٦-٣٧
شعبان، رمضان ١٣٩٦ هـ/ أوت، سبتمبر ١٩٧٦م[١٢]

١- كلمة افتتاح الملتقى: صناعة ومناعة، بقلم: مولود قاسم، ص: ٢-٦
النقطة الأولى من جدول أعمال الملتقى:
٢- ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في الغرب الإسلامي ودورهما في تغذية النهضة العلمية والحضارة الأوربية، بقلم: محمد عبد الله عنان (مصر)، ص: ٧-٢٣
٣- تأثيرات ابن رشد في أوروبا وتصحيح التفسيرات الخاطئة عنه، بقلم: سلفادور غوميث نوغاليس (اسبانيا)، ص: ٢٤-٤٠
٤- دور الفكر الإسلامي في ميلاد النهضة في أوروبا: كيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تمارس تأثيرها القوي في أوروبا بالذات؟ بقلم: سيغريد هونكه (ألمانيا)، ص: ٤١-٥٢
٥- ازدهار الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي ودور هذه البلدان في النهضة الأوروبية، بقلم: عثمان أمين (مصر)، ص: ٥٣-٥٨
النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى:
٦- ضرورة تصنيع العالم الإسلامي واختيار أحسن الطرق لتفادي الأمراض التي تعرفها المجتمعات المصنعة، بقلم: محمد الهاشمي بوجلين، ص: ٥٩-٨٦
٧- كيف يمكن للمجتمع الإسلامي أن يتفادى آفات التصنيع؟ بقلم: عمر التومي الشيباني (ليبيا)، ص: ٨٧-١١٠
الأستاذ المرحوم عثمان الكعاك في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي:
٨- آخر تعليق للمرحوم عثمان الكعاك في الملتقى، ص: ١١١-١٢١
٩- عثمان الكعاك علم من أعلام الإسلام والإنسانية الخالدين، ص: ١٢٢
١٠- تأبين المرحوم عثمان الكعاك في قاعة الملتقى، ص: ١٢٣
١١- برقيات التعازي، ص: ١٢٥-١٢٦
١٢- الأبعاد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعبادات وأهميتها لكل من الأمة والفرد، بقلم: عثمان الكعاك، ص: ١٢٧-١٥٠
١٣- كلمات تأبين المرحوم الأستاذ عثمان الكعاك في مطار عنابة، ص: ١٥١-١٦٦ (كلمة مولود قاسم، ص: ١٥١-١٥٣. كلمة المنجي الكعبي-تونس، ص: ١٥٤. كلمة محمد المبارك-سوريا، ص: ١٥٦. قصيدة صلاح الصاوي-إيران، ص: ١٥٧. كلمة سليمان داود بن يوسف، ص: ١٥٩. كلمة كامل البوهي-مصر، ص: ١٦٠. كلمة سليم كلالشة، ص: ١٦٢. كلمة طالب تونسي، ص: ١٦٢)
١٤- كلمة أحمد حماني على قبر الفقيد عثمان الكعاك، ص: ١٦٣-١٦٦
١٥- بمناسبة ذكرى يوم الأربعين لوفاة الأستاذ عثمان الكعاك: كنت عظيما ورحلت كذلك.. بقلم: العروسي وادي، ص: ١٦٧-١٧٠
النقطة الثالثة من جدول أعمال الملتقى:
١٦- مراعاة العبادات هي أسس سعادة الإنسان المسلم، بقلم: داود كاون (بريطانيا)، ص: ١٧١-١٧٨

[١٢]- عدد خاص بالملتقى العاشر للفكر الإسلامي بعنابة.

من خطب الجمعة:

القسم الفرنسي:

السنة الخامسة، العدد: ٣٨
شوال ١٣٩٦ هـ/ أكتوبر ١٩٧٦م

السنة الخامسة، العددان: 39-40
ذو القعدة، ذو الحجة ١٣٩٦ هـ/ نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٦م

السنة السادسة، العدد: ٤١
محرم ١٣٩٧ هـ/ جانفي ١٩٧٧م[١٣]

---

[١٣]- عدد خاص عن تاريخ ورقلة-سدراتة بمناسبة انعقاد الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي بها.

السنة السادسة، العددان: ٤٢-٤٣
صفر، ربيع الأول ١٣٩٧ هـ/ فيفري، مارس ١٩٧٧م[١٤]

١- منسيين لستم يا بني رستم، مولود قاسم نايت بلقاسم، ص: ٣-١٢

النقطة الأولى من جدول أعمال الملتقى:

٢- ملامح عن الحركة العلمية بورجلان ونواحيها منذ انتهاء الدولة الرستمية حتى أواخر القرن السادس الهجري، عمرو خليفة النامي (ليبيا)، ص: ١٤-٣٣

٣- دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب، إبراهيم فخار، ص: ٣٥-٤١

النقطة الثانية من جدول أعمال الملتقى:

٤- مشاكل تواجه الإسلام في إفريقيا اليوم، وليام مونتقومري وات (بريطانيا)، ص: ٤٣-٥٠

٥- المسلمون في إفريقيا بين الحاضر والمستقبل، عبد الحليم عويس (مصر)، ص: ٥٢-٧٧

النقطة الثالثة من جدول أعمال الملتقى:

٦- الدور المفيد للمرأة في مجتمع اليوم، شارل ل. جيدز (الولايات المتحدة الأمريكية)، ص: ٧٩-٨٥

٧- نحن الساحرات، كزافيير قوتيي (فرنسا)، ص: ٨٧-٩٣

٨- ماذا تريد النساء إذن؟ فرانس كيري (فرنسا)، ص: ٩٥-١٠٣

٩- ما أعطاه الإسلام للمرأة كاف وكفيل بأن يجنبنا التجارب والنكسات، محمد الصادق بسيس (تونس)، ص: ١٠٥-١٢٤

١٠- المرأة بعد عام المرأة، كيليا سارنيلي تشركوا (إيطاليا)، ص: ١٢٦-١٣٧

النقطة الرابعة من جدول أعمال الملتقى:

١١- لا تنمية بدون استثمار موارد الثروة الباطنية والتحكم المباشر فيها، الجيلالي صاري، ص: ١٣٩-١٥٠

١٢- البترول العربي نعمة أم نقمة على العرب؟ محمد علي صبري (سوريا)، ص: ١٥٢-١٥٨

١٣- توصيات الملتقى، ص: ١٦٠-١٧٧

١٤- كنوز الأرض للشعب المالك وهذا وحده خير المسالك، كلمة مولود قاسم نايت بلقاسم في اختتام الملتقى، ص: ١٧٨-١٨٤

القسم الفرنسي:

1- Allocution d’ouverture de travaux du 11eme séminaire sur la pensée islmique, Mouloud Kassim NAIT-BELKACEM, p: 2-6

2- Aperçu du mouvement scientifique à Ouardjlane et dans ses environs depuis l’extinction de la dynastrie rostomide jusqu'à la fin du 6eme siecle higirien, Amar Khalifa En-Nami (libye), p: 7-20

---

[١٤] - عدد خاص بأعمال الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي بورجلان (ورقلة)، من ١٧ إلى ٢٦ صفر ١٣٩٧ هـ، الموافق من ٦ إلى ١٥ فبراير ١٩٧٧م.

السنة السادسة، العدد: ٤٤
ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ/ أفريل ١٩٧٧م

السنة الخامسة، العدد: ٤٥
جمادى الأولى ١٣٩٥ هـ/ ماي ١٩٧٥م

السنة الخامسة، العددان: ٤٦-٤٧
جمادى الثانية، رجب ١٣٩٧ هـ/ جوان، جويلية ١٩٧٧م

١- المسجد جامع وجامعة، مولود قاسم نايت بلقاسم، ص: ٢-٩
من محاضرات الملتقى ١١ للفكر الإسلامي:
٢- الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والأندلس من خلال الإباضية، سلفادور غومث نوغاليس (اسبانيا)، ص: ١٠-٢٤
٣- المرأة في صدر الإسلام، سيغريد هونكه (ألمانيا)، ص: ٢٥-٣٣
٤- المرأة التركية الوارثة للتقاليد الوطنية الإسلامية، آمال ايزين (تركيا)، ص: ٣٤-٤٥
من أصداء الملتقى ١١ للفكر الإسلامي:
٥- الإسلام والعالم المعاصر، بقلم: سالفاتوري بونو (إيطاليا)، ص: ٤٦-٥٠
٦- الملتقى الحادي عشر للفكر الغسلامي، بقلم: ميكال دي ايباليزا (اسبانيا)، ص: ٥١-٦٢
٧- الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، بقلم: ارجمند كوران (تركيا)، ص: ٦٣-٦٦
٨- حول الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي، بقلم: ابن الطيب (ليبيا)، ص: ٦٧-٧٠
٩- انطباعات جزائرية، بقلم: فاطمة هيرين سيركا (ألمانيا)، ص: ٧١-٨١
١٠- ورجلان الجزائرية تعيش أياما إسلامية حافلة، مقابلة مع عبد الحليم عويس (مصر)، أجرى الحديث: خالد الرجيحي (السعودية)، ص: ٨٢-٨٦
١١- الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي في ورقلة، بقلم: آمال ايزين (تركيا)، ص: ٨٧-٩٩
١٢- المرأة بعد عام المرأة أحد موضوعات الملتقى ١١ للفكر الإسلامي، بقلم: كزافيير غوتيي (فرنسا)، ص: ١٠٠-١٠٤
مناقشات:
١٣- حول ملاحظات وانطباعات الشيخ سليمان داود بن يوسف عن ثورة ١٨٧١، بقلم: يحيى بوعزيز، ص: ١٠٥-١١٧
١٤- طفل عمره سبع سنوات يحفظ مائة حديث، ص: ١١٩
القسم الفرنسي:
1- 11éme Séminaire sur la islamique à Ouargla, p: Emel Esin (Turquie), p: 2-10
2- L'Islam et le monde contemporain, p: Salvatore Bono (Italie), p: 11-13
3- Le 11éme Séminaire sur la islamique, p: Ercumend à Kuran (Turquie), p: 14-16
4- La femme après l'année de la femme, p: Xavière Gauthier (France), p: 18-20

السنة الخامسة، العدد: ٤٨
شعبان ١٣٩٧ هـ/ أوت ١٩٧٧م

السنة السادسة، العددان: ٤٩ ـ ٥٠
رمضان، شوال ١٣٩٧ هـ/ سبتمبر ، أكتوبر ١٩٧٧م

دراسات وأبحاث:

من أصداء الملتقى الحادي عشر للفكر الإسلامي:

السنة السادسة، العدد: ٥١
ذو القعدة ١٣٩٧ هـ/ نوفمبر ١٩٧٧م

السنة السادسة، العدد: ٥٢
ذو الحجة ١٣٩٧ هـ/ ديسمبر ١٩٧٧م

السنة السابعة، العدد: ٥٣
محرم ١٣٩٨ هـ/ جانفي ١٩٧٨م

السنة السابعة، العددان: ٥٤-٥٥
ربيع الأول، ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ/ فيفري، مارس ١٩٧٨م

السنة السابعة، العدد: ٥٦
جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ/ أفريل ١٩٧٨م

السنة السابعة، العدد: ٥٧
جمادى الثانية ١٣٩٨ هـ/ ماي ١٩٧٨

السنة السابعة، العددان: ٥٨ ـ ٥٩
رجب، شعبان ١٣٩٨ هـ/ جوان، جويلية ١٩٧٨م

السنة السابعة، العددان: ٦٠-٦١
رمضان، شوال ١٣٩٨ هـ/ أوت، سبتمبر ١٩٧٨م[١٥]

---

[١٥] - عدد خاص عن تاريخ منطقة الأوراس بمناسبة انعقاد الملتقى ١٢ للفكر الإسلامي بعاصمتها باتنة.

السنة السابعة، العددان: ٦٢-٦٣
ذو القعدة، ذو الحجة ١٣٩٨ هـ/ أكتوبر، نوفمبر ١٩٧٨م[١٦]

١- إيه سيدتنا الجامعة.. أتبقين في ضلالك هامعة؟ كلمة مولود قاسم في افتتاح الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي، ص: ٢-٧

النقطة الأولى: الأوراس أمجاد وأنجاد:
٢- الاضطرابات الثورية في الجنوب القسنطيني (نوفمبر ١٩١٦ – يناير ١٩١٧)، شارل روبير آجرون (فرنسا)، ص: ٨-٣٨
٣- توصيات لجنة النقطة الأولى، ص: ٣٩-٤٠
النقطة الثانية: الدين والعلم:
٤- الدين والكتب المقدسة والعلم، موريس بوكاي (فرنسا)، ص: ٤١-٥١
٥- توصيات لجنة النقطة الثانية، ص: ٥٣-٥٦
النقطة الثالثة: إلامَ تسير في العالم الأسرة إلى اليسرى أم العسرى؟
٦- تكوين (وحل) الأسرة العصرية، ادوارد شورتر (كندا)، ص: ٥٧-٧٦
٧- توصيات لجنة النقطة الثالثة، ص: ٧٧-٨٠
النقطة الرابعة: نظرة جامعة على الجامعة:
٨- فضل العرب على أوروبا في ميدان نشأة وتطور النظام الاجتماعي في العصور الوسطى، رفعت ي. عبيد (بريطانيا)، ص: ٨١-٩١
٩- توصيات لجنة النقطة الرابعة، ص: ٩٢-٩٧
النقطة الخامسة: ماض ومضى هي الجزائر:
١٠- سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الثورة الجزائرية، شارل ل. قيدز (الولايات المتحدة الأمريكية)، ص: ٩٨-١٠٣
١١- توصيات لجنة النقطة الخامسة، ص: ١٠٤-١٠٦
١٢- فليدق إذن جرس الخطر والحيطة بالطبل والمزمار والغيطة، كلمة مولود قاسم في اختتام الملتقى، ص: ١٠٧-١١٠
١٣- أبعاد ثقافية وتربوية، مقابلة مع مولود قاسم، أجراها: مولود عاشور، ص: ١١١-١٢١
١٤- بلاغ حول الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي، ص: ١٢٣
القسم الفرنسي:

1- O, Madame L'université, p: Mouloud Kassim NAIT BELKACEM, p: 2-7
2- Les troubles insurrectionnels du sud-constantinois (Novembre 1916 – Janvier 1917), p: Charles Robert Ageron, p: 8-29
3- Religion, Ecritures Saintes et Sciences, p: Maurice Bucaille, p: 31-38
4- Edification et Dissolution de la famille moderne, p: Edward Shorter, p: 36-54

[١٦] - عدد خاص بأعمال الملتقى الثاني عشر للفكر الإسلامي، المنعقد بعاصمة الأوراس باتنة، من ٤ إلى ١١ شوال، الموافق من ٧ إلى ١٤ سبتمبر ١٩٧٨م.

السنة السابعة، العدد: ٦٤
محرم ١٣٩٩ هـ/ ديسمبر ١٩٧٨م

السنة الثامنة، العددان: ٦٥-٦٦
صفر، ربيع الأول ١٣٩٩ هـ/ جانفين فيفري ١٩٧٩م

ملف خاص بمناسبة المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني:

دراسات وأبحاث:

ملف عن الملتقى الثاني للإمام المازري بتونس:

باب التفسير:

من محاضرات الملتقى:

١٩- موقف الإسلام من العقل، محاضرة: مصطفى كمال التارزي (تونس)، ص: ١٧٦-١٨٧

٢٠- اللغة العربية في جنوب شرق آسيا، محاضرة: محمد العربي دماغ العتروس، ص: ١٨٨-٢٠٠

قصة:

٢١- الكنز.. الكنز، بقلم: محمد نسيب، ص: ٢٠١-٢٠٧

السنة الثامنة، العدد: ٦٧
ربيع الثاني ١٣٩٩ هـ/ مارس ١٩٧٩م

السنة الثامنة، العددان: ٦٨-٦٩
جمادى الأولى، جمادى الثانية ١٣٩٩ هـ/ أفريل، ماي ١٩٧٩م

دراسات وأبحاث:

١- المجتمعات العربية الإسلامية بين الجماعية والقبيلية، بقلم: عبد المجيد مزيان، ص: ٢-١٧
٢- القيم السائدة في تفكير ابن رشد وأبعادها، بقلم: الربيع ميمون، ص: ١٨-٣٧
٣- مسيرة الكتاب، بقلم: محمد بلقراد، ص: ٣٨-٤٥
٤- صدى وفاة ابن باديس في التقارير الفرنسية والصحافة الأهلية عام ١٩٤٠، بقلم: عبدالكريم أبو الصفصاف، ص: ٤٦-٥٤

ندوة عن الإمام آية الله الخميني:

٥- رأي في الثورة الإيرانية، بقلم: عثمان شبوب، ص: ٥٧-٦٤
٦- إرادة الشعب من إرادة الله، بقلم: أحمد حماني، ص: ٦٥-٨٠
٧- أهم إنجاز للثورة الإيرانية هو القضاء على الحكم الوراثي، بقلم: الطاهر بن عائشة، ص: ٨١-٨٦
٨- الإسلام ثورة سماوية، بقلم: عبد الرحمن شيبان، ص: ٨٧-٩٢
٩- الثورات والانتفاضات الشيعية، بقلم: صالح ماجدي، ص: ٩٣-٩٤

من أعلام الجزائر:

١٠- الأستاذ مبارك الميلي والصحافة، بقلم: أحمد بن ذياب، ص: ٩٥-١٠١

في الفكر الإسلامي:

١١- من هدي القرآن وتربيته، بقلم: أحمد حماني، ص: ١٠٢-١١٠

من محاضرات الملتقى:

١٢- تأثير الثقافة والبيئة الجزائريتين في شخصية ابن خلدون، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ١١١-١١٩

فتاوى:

١٣- إمامة المتجنس، بلية كتب الجنس، الخلوة بالأجنبية، إعداد: أحمد حماني، ص: ١٢١-١٢٥

السنة الثامنة، العددان: ٧٠-٧١
رجب، شعبان ١٣٩٩ هـ/ جوان، جويلية ١٩٧٩ م

ندوة بمناسبة ذكرى وفاة الأستاذ محمد الصادق بسيس:

السنة الثامنة، العدد: ٧٢
رمضان ١٣٩٩ هـ/ أوت ١٩٧٩م

السنة الثامنة، العددان: ٧٣-٧٤
شوال/ ذو القعدة ١٣٩٩ هـ، سبتمبر/ أكتوبر ١٩٧٩م[١٧]

من وثائق الثورة:

[١٧] - عدد خاص بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لفاتح نوفمبر (١٩٥٤-١٩٧٩).

السنتان: ٨-٩، الأعداد: ٧٥-٧٦-٧٧-٧٨
ذو الحجة ١٣٩٩، محرم، صفر، ربيع الأول ١٤٠٠ هـ
نوفمبر، ديسمبر ١٩٧٩، جانفي، فيفري ١٩٨٠م(١٨)

(١٨) ـ عدد خاص بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجري.

السنة التاسعة، الأعداد: ٧٩-٨٠-٨١-٨٢
ربيع الثاني، جمادى الأولى، جمادى الثانية، رجب ١٤٠٠ هـ
مارس، أفريل، ماي، جوان ١٩٨٠م

السنة التاسعة، العددان: ٨٣-٨٤
شعبان، رمضان ١٤٠٠ هـ/ جويلية، أوت ١٩٨٠م[١٩]

١- المقاومة في جبال الونشريس وحوض الشلف وجبال الظهرة ضد الاستعمار الفرنسي (١٨٦٤-٤٠م)، بقلم: يحيى بوعزيز، ص: ٢-١٨
٢- الجوانب المجهولة من ترجمة حياة الإمام أحمد بن يحيى الونشريسي، بقلم: المهدي البوعبدلي، ص: ١٩-٢٨
٣- الونشريس مهد كفاح بعيد وقريب، بقلم: الجيلالي صاري، ص: ٢٩-٣٨
٤- الشهيد عبد الواحد الوانشريسي (٩٥٥ هـ/ ١٥٤٩م)، بقلم: عبد الرحمن الجيلالي، ص: ٣٩-٤٥
٥- الونشريسي، بقلم: عمار طالبي، ص: ٤٦-٤٧
٦- في موكب الخالدين: سي محمد قائد الولاية الرابعة، بقلم: محمد الصالح الصديق، ص: ٤٨-٥٤
٧- الأسقف لافيجري ونشاطه التبشيري في وادي شلف (١٥٩٢-٦٧م)، بقلم: أبو عمران الشيخ، ص: ٥٥-٦٣

---
[١٩]- ملحق خاص وزع بمناسبة الملتقى الرابع عشر للفكر الإسلامي، الجزائر العاصمة ٢٠-٢٧ شوال ١٤٠٠ هـ، ٣١ أغسطس، ٧ سبتمبر ١٩٨٠م.

السنة التاسعة، العددان: ٨٥-٨٦
شوال، ذو القعدة ١٤٠٠ هـ/ سبتمبر، أكتوبر ١٩٨٠م

السنة التاسعة، العددان: ٨٧-٨٨
ذو الحجة ١٤٠٠، محرم ١٤٠١ هـ/ نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٠م

السنة العاشرة، العددان: ٨٩-٩٠
صفر، ربيع الأول ١٤٠١ هـ/ جانفي، فيفري ١٩٨١م

السنة الحادية عشر، العدد: ٩١
محرم ١٤٠٢ هـ/ نوفمبر ١٩٨١

N° 01

فهـرس العـدد

هذه المجلة

ستحاول هذه المجلة ان تعبر عن هذا القطاع من النشاط القومـي كمـا ينبغي ان يكون ، والا فالاحسن الا يكـون !

وسوف تصدع بما تظن انها مامورة بـه مـن وحي ضميرها ومنطق كيانها هذا ، ولا يمكنها ان تكون الا كذلك ، خـاصة والبلاد مقبلة على ثورة ثقافية روحيـة تقتلع اوتادا ناشزة من اصولها، وتجتث اوضاعا شاذة من الغـرائب المستوردة بفروعها وجذورها وحيثما لا تستطيع الاقتـلاع ستعمد الى الاقناع ، اقناع عجـائب المخلوقـات لدينا ، بضرورة الرجوع الى الجادة المستجدة، والصراط المستقيم المستعـاد .

لقد كافح شعبنا اكثر ما كـافح لا مـن اجـل مستوى من المعيشة يضاهي مستوى السويـد او كندا ، ولا من اجل ترف اوبذخ ، ولامظـاهر ،او شكليات وسطحيات ، وانمـا كـانت اقـوى الدوافع له في كفاحه هـي بطاقة تعريفه ، هـي هويته ، هي استرجاع شخصيته وذاتيته ، هـي انيته واصالته ، اللتان هو بهما من هـو ، وليس شيئا بدونهما اطلاقـا !

فمن اجل ذلك كافح ، وباسم ذلك ذاق ما ذاق من زقوم ، وتجرع ما تجرع وابتلع من سموم ، وباسم ذلك نجح وطفا مـن اعمـاق الانكـار ،والتجاهل ، واللااسمية ، رافعا في كلتي يديـه بطاقة تعريفه ، وهو يدوس بكلتـي قدميـه تلك الشارة البالية التي سجل فيها كنكرة من النكرات وضرب فيها بجرة قلم على ماضيه الطويل المجيـد بين الشعوب والامم .

هذا من حيث المبدا والمخبر ، ومن حيث المنهج والمظهر فستصدر هذه المجلة كل شهرين مؤقتا . وسيتحلى مظهرها الخارجي من حين لاخر برسم من رسوم ماضينا التليد المجيد ، من اقدم ما يوجد في بطون التاريخ ، ممن كانوا مرجعا من مراجـع وطنيتنا اثناء الكفـاح التحريري علـى اختـلاف عصوره واطواره ، من الثوري السياسي الـى الثوري المسلح ، او بمنظر طبيعي من تضاريس هذا البلد الجليل الجميل ، او بصورة لشخصيـة مغربية ، او اسـلامية عـامة ، او مـن التراث الانساني المشترك الواسع .

ولمساعدة قرائها من المبتدئين ستجعل جـزءا من مقالاتها مشكولا ، رغم الصعوبات الفنيـة ، كما سيكون جزء منها باللغة الفرنسية كما هـو شان بعض المجلات في بلدان شقيقة ، لتخـاطب بعض الناس لدينا بمـا يفهمون ، وقـد يكـون ذلك احيانا في شكل مقتطفات من صحف اجنبية ، تعبر عما تود ان تقوله هذه المجلة ، وتستغنـي به عن اي شرح او تعليق .

كلمة الأصالة

وفى هذا المجال ايضا ترحب مقدما بكل مـــن يدفعه وازعه الى المساهمة فيها ، بالعربيـــة او الفرنسية ، وحتى بارسال مقتطفات ذات دلالـــة ومغزى ، كما ترحب بكل نقد او انتقـــاد ، وباى لفت نظر او تنبيـــه .

ومن جهتها فسوف لا تقصر لا فى التنويه ولا فى التنبيه : تشيد بالمكرمات ، وتنبه برفق الى كـــل ما يبدو لها شاذا ناشزا ، وسبحان من لايخطىء ولا يضـــل !

وسوف تفضل دائما الاشهار علـــى التشهير ، وتبدا بالتلويح قبـــل التصريح ، ولكنهـــا ايضـــا ستكون طبقا لمبدا : ((كونوا ضد العصاة قساة))!

وانها سوف لاترحم لايتامى الثقافة المستمرين فى عنادهم وجهلهم المركب ضد كل ما يتصل بثقافتنا ومقومات شخصيتنـــا ، لان الاستعمـــار لا يزال متعششا فى امخاخهم ، واحيانا فى قلوبهم ، مـــن حيث يدرون او لا يدرون !

ولا اولئك الذين يظنون ان مجرد معرفتهـــم بلغتهم القومية يخولهم الحق فى ان يجعلوا مـــن معركة البلاد لاسترجاع لغتها موضوعا للاحاديث الطوال على سطوح المقاهى ، او فرصة للكسب السريع ، ويطلبون احيانا خمسين دينارا للدرس الواحد ، وهى كل مساهمتهم فى انجاح التعريب !

ولا اولئك المشعوذين الذين ينصبون من انفسهم مالكا ، وابا حنيفة ، والشافعى ، وابن حنبـــل ، ويودون ان يرجعوا باسلامنا الحى الدائم الـــى عصور الانحطاط ، وهو الذى جاء صالحا لكـــل زمان ومكـــان .

ولا طبعا اولئك المبشرين الذين يسيرون على خطى دوفوكو ، ولافيجرى ، وغيرهم من الدجالين باسم المسيح ، الجواسيس السائرين فى ركـــاب الاستعمار والاستغلال ، ويحاولون حتى بعـــد استرجاع استقلالنا تسميم عقول ابنائنا ، وحـــل نظام اسرتنا ، عوض الاهتمام بابنائهم واسرهم فى بلدانهم وراء البحـــار ، وهى التى تعانى الآن ازمة حضارة اتخذت احيانا اشكالا فى غاية الحدة والخطورة على مجتمعاتها واستقرارها !

ولا أولئك الذين ينكـــرون علينـــا ديننا ، ويخلقون بذلك دينا مضادا يقصدون به الهيمنة على كل من تدفعه سذاجته وسخافته الى الوقوع فى مثل هذه المصيدة ، التى يعززونها بسلســـلة من الاوتاد ، تتمثل فى انكار القيم الاخلاقية وبث الانحلال ، وانفكاك النظام العائلى ، ويرمون كل من يقف فى وجهـــهم ، وينبـــه الى حبائلهم ، بالرجعية ، والتعصب ، والاقطاعية .

ومن حيث المحتوى فزيادة عن نشر محاضرات الملتقى الرابع للتعـــرف على الفكـــر الاسلامى بقسنطينة والمؤتمرات التالية ، حسب تتابعهـــا الزمنى ، ستحاول أن تكون متنوعـــة شاملة ، وعلى كل فهذه ارادتها ، وهذا عزمها ، بـــل واجبها ، اذ تؤمن بحقيقة معروفة لا جدال فيها فى نظر كل مسلم حق ، وهى ان الاسلام عبادات ومعاملات ، ودين ودولـــة ، دين عـــلم وعمل ، وحضارة وثقافة ، دين حتى يتصل بكل مـــا فى الحيـــاة .

مولود قاسم

ثــورة متكامــلة

بدُخُولِ الْمُخَطَّطِ الرُّبَاعِيِّ فِي سَنَتِهِ الثَّانِيَةِ تَنْطَلِق ثَوْرَتُنَا بأعْمِدَتِهَا الثَّلاثَة : الثَّقَافِيِّ ، والصِّنَاعِيِّ ، وَالزِّرَاعِيِّ ، إنْطِلاقَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ نَحْوَتَحْقِيقِ مُجْتَمَعِنَا الاشْتِرَاكِيِّ الْعَادِلِ الْمُزْدَهِرِ، عَلَى أَسَاسٍ سَلِيم مَتِينٍ ، هُوَ ضَمَانُ بَقَاءِ كُلِّ بِنَاءٍ أَصْلِيٍّ أَصِيل .

وَإِذَا كَانَ الْإِزْدِهَارُ الْإِقْتِصَادِيُّ والْإِجْتِمَاعِيُّ ، وَتَوْزِيعُهُ الْعَادِلُ عَلَى جَمِيع أَبْنَاء الشَّعْبِ يَفْتَرِضَانِ نَجَاحَ ثَورَتِنَا الصِّنَاعِيَّةِ وَالزِّرَاعِيَّةِ وَتَنْسِيقَ جَمِيعِ جُهُودِنَا فِي سَائِرِ مجَالاَتِ الاقْتِصَادِ وَالانْتَاج ، فإنَّ ثَوْرَتَنَا الثَّقَافِيَّةَ هِيَ رُوحُ كُلِّ هَذَا الْبِنَاء ، إذْ هِيَ الَّتِي سَتُتَوِّجُ أَعْمَالَنَا، وَتُعْطِيهَا تَمَاسُكًا وَانْسِجَامًا ، وَتَضْمَنُ لَهَا الشُّمُولِيَّةَ ، والْخصُوبَةَ، وَالدَّوَامَ ، وَتُصْبِغُ عَلَيْهَا مَعْنَاهَا الْحَقِيقِيَّ ، وَمَغْزَاهَا التَّام !

وَلِهَذَا وَإِذْ أَحُثُّ عَلَى أَقْصَى الاهْتِمَام بِهَذِهِ الثَّوْرَةِ الثَّقَافِيَّةِ الَّتِي سَتُعَزِّزُ مُقَوِّمَاتِ شَخْصِيَّتِنَا وَعَنَاصِرَ ذَاتِيَّتِنَا ، وَالَّتِي هِيَ



أصيلة

بقلم الرئيس

هواري بومدين

بالتَّالِي عَمِيقَةُ الْمَغْزَى،سَامِيةُ الْمَبْدَإِ ،وَاسعةُ الْأَبْعَاد ، وَإِذ أُؤَكِّدُ مِنْ جَدِيدٍ تَشْجِيعَ مَجْلِسِ الثَّوْرَةِ وَالْحُكُومَة لِجَمِيعِ مَجَلاَّتِنَا ، وَجَرَائِدِنَا ، وَسَائِرِ أَجْهِزَةِ إِعْلاَمِنَا ، فِي هَذَا الْمُنْعَرِجِ مِنْ تَارِيخِنَا ، وَتَطَوُّرِ بِلاَدِنَا وَالْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ كُلِّه ، أرَحِّبُ بِصُدُورِ مَجَلَّةِ « الْأَصَالَةِ » ، الَّتِي تُصْدِرُهَا وِزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْأَصْلِيِّ وَالشُّؤُونِ الدِّينِيَّةِ ، وَبِزَمِيلَتِهَا (الثَّقَافَة) الَّتِي سَتُصْدِرُهَا وِزَارَةُ الثَّقَافَةِ وَالْإِعْلاَم ، وَأَتَمَنَّى لَهُمَا الْقِيَامَ بِدَوْرِهِمَا أَحْسَنَ قِيَام .

الإنيــة والأصــالة

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

يُشَرِّفُنِي أَيَّمَا تَشْرِيفٍ أَنْ أَفْتَتِح هَذَا الْمُلْتَقَى الرَّابِعَ الَّذِي هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِلأَسَاتِذَةِ الْأَفَاضِلِ تَعْرِيفٌ بِالْفِكْرِ الْاسْلَامِي ، وَبِالنِّسْبَةِ لَنَا جَمِيعًا تَعَرُّفٌ عَلَى هذَا الْفِكْرِ الَّذِي كَانَ نِتَاجَ ثَقَافَةٍ مِنْ أَخْصَبِ الثَّقَافَاتِ الْعَالَمِيَّةِ ، وَمَحْصُولَ حَضَارَةٍ مِنْ أَعْظَمِ الْحَضَارَاتِ وَأَشْمَلِهَا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ نَشَاطِ الْانْسَانِ عَبْرَ الْأَزْمِنَةِ والْأَمْكِنَةِ !

وَأَوَدُّ فِي بَدْءِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ أَنْ أُرَحِّبَ بِكُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْ أُخُصَّ بِهَذَا التَّرْحِيبِ حَضَرَاتِ الْأَسَاتِذَةِ مِنْ الْأَقْطَارِ الشَّقِيقَةِ وَجَمِيع

نص المحاضرة التى القاها الاخ مولود قاسم فى افتتاح الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى بقسنطينة 8 — 17 جمادى الثانية 1390 هـ — 10 — 19 اغسطس 1970 م

ألاخْوَةِ الطَّلَبَةِ الَّذِينَ أتَوْا مِنْ خَارِجِ الْقُطْرِ بصِفَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ أبلِّغَكُمْ صَادقَ تَحيَات الْأَخِ هُوَارِي بُومَدْين، رَئيس مَجْلسِ الثَّوْرَة والْحُكُومَة، وَخَالِصَ تَمَنِّيَاته لَكُمْ بطَيْبِ الْمُقَام فِي الْجَزَائِرِ وَبِنَجَاحِ هَذَا الْمُلْتَقَى، وَالتَّوَصُّلِ مِنْ خِلاَله

إلَى نَتَائِجِ إيجَابِيَّة، بِفَضْلِ مَا سَيُتَدَاوَلُ فيهِ مِنْ آرَاء حَوْلَ مَاضِي ثَقَافَتِنَا، وَمَا يَكْتَنِفُ حَاضِرَهَا مِنْ تَحَدِّيَات وَاسْتِفْزَازَاتٍ، بَلْ وَمَا يُحْدِقُ بِهَا مِنْ مَخَاوِفَ وَأَخْطَارٍ، وَأَخِيرًا، مَا يَفْتَحهُ لَنَا مُسْتَقْبلُهَا مِنْ آفَاقٍ هِيَ فِي مُحيطِ أَنْظَارِنَا،

نَرْنُو إِلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ تَمَخُّضَات خِصْبَة ، يُعِيدُ بِهَا التَّارِيخُ نَفْسَهُ، وَيَتَجَدَّدُ بِهَا مَا كَانَ لِلاسْلَام مِنْ قُوَّة ذَاتِيَّة وَقُدْرَة جَبَّارَة عَلَى الْإِعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِه قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فِي إِسْتِيعَابِ آخِرِ تَطَوُّرَاتِ الْعُلُوم وَالْفُنُون ، لِيُقِيمَ عَلَى أَسَاسِهَا ثَقَافَتَهُ وَحَضَارَتَهُ الْأَصِيلَتَيْنِ ، اللَّتَيْنِ بِهِمَا ، وَبِهِمَا فَقَطْ ، يُسَاهِمُ فِي سَيْرِ الْبَشَرِيَّة نَحْوَ مَزِيدٍ مِنَ النُّورِ وَالتَّقَدُّمِ الْمُطَّرِد .

وَإِنَّ مِمَّا يَزِيدُ مِنْ شُعُورِي بِهَذَا الشَّرَف أَنْ يَنْعَقِدَ هَذَا الْمُلْتَقَى فِي هَذِهِ الْمَدِينَة الْعَرِيقَة ، الَّتِي كَانَتْ الْعَاصِمَةَ الثَّقَافِيَّةَ لِبِلَادِنَا فِي حِقَب مُخْتَلِفَة مِنْ تَارِيخِهَا الطَّوِيل ، وَرَمْزَ الْكِفَاحِ وَالْمُقَاوَمَة لِلْبِلَاد كُلِّهَا مِنْ عُهُودِ مَاصِنِيصَا ، وَيُوغُورْطَة إِلَى أَحْمَدَ بَايْ ، وَعَبْدِ الْحَمِيد بْن بَادِيسَ الَّذِي كَانَ شِعَارُ عَمَلِه طَوَالَ حَيَاتِه : « الْجَزَائِرُ وَطَنِي وَالْإِسْلَامُ دِينِي ، وَالْعَرَبِيَّةُ لُغَتِي »

إِلَى 8 مَايُو 1945 الَّذِي كَانَتْ مِنْطَقَتُهَا مَسْرَحًا لَهُ ، وَالَّذِي نَحْتَفِلُ بِذِكْرَاهُ الْخَامِسَة وَالْعِشْرِينَ ، وَإِلَى عَهْدِ النَّشَاطِ السِّيَاسِيِّ الثَّوْرِيِّ الَّذِي مَهَّدَ لانْطِلَاقَة فَاتِح نُوفَمْبَرَ الْخَالِدَة وَإِلَى الْعِشْرِين أَغُسْطُسْ 1955 الَّذِي دَفَعَ بِكِفَاحِنَا التَّحْرِيرِيِّ خُطُوَاتٍ جَبَّارَةً إِلَى الْأَمَام ، سَاهَمَتْ الْمُسَاهَمَةَ الْكُبْرَى فِي مَسِيرَتِنَا نَحْوَ اسْتِرْجَاعِ سِيَادَتِنَا الْمَسْلُوبَةِ وَاسْتِرْدَادِ اسْتِقْلَالِنَا الْمَغْصُوب .

وَبِهَذِهِ الْمُنَاسَبَة وَنَحْنُ بِصَدَدِ الْكَلَامِ عَنِ الثَّوْرَةِ وَالْكِفَاح التَّحْرِيرِيِّ فِي عَرِينِ ابْن بَادِيسِ الَّذِي كَانَ دَوْمًا يَقْرِنُ إِسْمَ فَلَسْطِين بِاسْمِ الْجَزَائِر فِي كِتَابَاتِهِ وَمَوَاقِفِه أَوَدُّ أَنْ أَطْلُبَ مِنْكُمْ مُرَاعَاةَ دَقِيقَة صَمْت تَرَحُّمًا عَلَى شُهَدَاء الْكِفَاح التَّحْرِيرِيِّ فِي الْجَزَائِر وَفِي بَقِيَّةِ الْمَغْرِب الْكَبِير ، وَالْمَشْرِق الْعَرَبِي وَسَائِرِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَفِي فَلَسْطِينَ الْيَوْمَ ، وَفِيهَا بِالذَّات !

حَضَرَاتِ السَّادَة

نَجْتَمِعُ هُنَا لِنَتَصَفَّحَ سِجِلَّ بَعْضِ مَشَاكِلِنَا ، وَنُرَاجِعَ ضَمَائِرَنَا ، وَنَنْظُرَ بِشَيْءٍ مِنَ الْعُمْقِ فِي أَنْفُسِنَا وَنُحَاوِلَ أَنْ نَضَعَ الْأُصْبُعَ عَلَى مَوَاطِنِ الدَّاءِ ، لِنَتَحَسَّسَ حَقِيقَةَ شُعُورِنَا وَمَشَاعِرِنَا ، وَنُدَقِّقَ وَعْيَنَا ، وَنَخْرُجَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ بِنَظْرَةٍ وَاضِحَةٍ بَعْضَ الشَّيْءِ عَنْ كُنْهِ وَاقِعِنَا ، وَعَمَّا يَنْتَظِرُنَا إِذَا لَمْ نُسَارِعْ إِلَى اتِّخَاذِ الْحُلُولِ النَّاجِعَةِ لِبَعْضِ مَا نُعَانِيهِ مِنْ مَشَاكِلَ وَأَمْرَاضٍ ، إِذَا مَا زَادَتِ اسْتِفْحَالاً قَدْ تُؤَدِّي بِنَا إِلَى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ ، وَنَحْنُ لَمْ نَكَدْ نَسْتَرْجِعُ زِمَامَ أُمُورِنَا ، وَنَسْتَعِيدُ حُرِّيَّةَ التَّصَرُّفِ فِي شُؤُونِنَا ، وَالتَّحَكُّمِ فِي مَصِيرِنَا كَشُعُوبٍ حُرَّةٍ وَدُوَلٍ ذَاتِ سِيَادَةٍ.

إِنَّ شُعُوبًا لَمْ تَعْرِفْ تَوَقُّفًا فِي تَطَوُّرِهَا أَصْبَحَتِ الْيَوْمَ تَشْعُرُ دَقِيقَ الشُّعُورِ بِمَا تُسَمِّيهِ أَزْمَةَ حَضَارَةٍ وَبِدَايَةَ الْانْحِدَارِ وَالْانْهِيَارِ ، بِسَبَبِ تَسَامُحِهَا فِي بَعْضِ الْمَبَادِيءِ وَقَوَاعِدِ السُّلُوكِ الْعَامِّ كَأَفْرَادٍ ، وَجَمَاعَاتٍ ، وَأُمَمٍ ، وَإِنَّ مَشَاكِلَ الْأُسْرَةِ ، بِمَا فِيهَا الْمَرْأَةُ وَالشَّبَابُ ، لَتَلْعَبُ الدَّوْرَ الْأَسَاسِيَّ ، بَلِ الْفَاصِلَ فِي هَذِهِ الْأَزْمَةِ الَّتِي قَدْ تَعُودُ نَكْبَةً وَبِدَايَةَ النِّهَايَةِ .

وَاسْمَحُوا لِي إِذَا كُنْتُ هُنَا صَرِيحًا أَكْثَرَ مِنَ اللاَّزِمِ وَلَمْ أَكُنْ عِلْمِيًّا ، مَوْضُوعِيًّا ، هَادِئًا ، كَمَا يُقَالُ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ فِي غَايَةِ الْخُطُورَةِ فِي نَظَرِي ، وَلَمْ تُلَاقِ إِلَى الْآنَ كُلَّ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ عِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ فِي عَالَمِنَا الْعَرَبِيِّ الْإِسْلَامِيِّ ، وَفِيمَا يُسَمَّى بِالْعَالَمِ الثَّالِثِ بِصِفَةٍ عَامَّةٍ .

وَلَقَدِ اخْتَرْتُ كَعُنْوَانٍ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ « الْإِنِّيَّةُ وَالْأَصَالَةُ » ، وَأَقْصِدُ بِالْإِنِّيَّةِ ذَلِكَ الْوَعْيَ الْحَادَّ بِالذَّاتِيَّةِ وَالشَّخْصِيَّةِ ، وَهِيَ تِلْكَ الْإِنِّيَّةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عَنْهَا ابْنُ سِينَا وَالَّتِي تَتَلَخَّصُ فِي أَنَّهُ كَانَ قَدْ

تَصَوَّرَ نَفْسَهُ مُعَلَّقًا بَيْنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ ، وَأَنَّ جِسْمَهُ قَد انْتُزِعَ مِنْهُ وَفِي حُكْمِ الْعَدَمِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَه فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَهُوَ بَيْنَ عَالَمَيْنِ إِلاَّ ذَلِكَ الْوَعْيُ الْحَادُّ بِوُجُودِهِ ، وَشُعُورُهُ بِذَاتِهِ الْمُتَمَيِّزَة ، الْقَائِمَة بِذاتِهَا ، الْمُسْتَقِلَّة عَنْ غَيْرِهَا ، وَهَذَا التَّصَوُّرُ لِابْنِ سِينَا هُوَ الَّذِى كَانَ الْأَصْلَ فِي ذَلِكَ الْكُوجِيتُو الدِّيكَارْتِي الْمَعْرُوف ، الَّذِي يَقُولُ « أَفَكِّرُ فَأَنَا إِذَنْ مَوْجُودٌ » .

لَقَدْ كُنَّا فِي الْعَهْدِ الاسْتِعْمَارِيِّ مُعَلَّقِينَ فِي الْهَوَاءِ بَيْنَ عَالَمَيْن مَنْزُوعَةً عَنَّا جِنْسِيَّتُنَا الْجَزَائِرِيَّةُ ، وَغَيْرَ مُعْتَرَف بِنَا وَلاَ مُعَامَلِينَ كَفرَنْسِيِّينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ كُنَّا كَأَكْثَرِ مَا نَكُونُ اعْتِزَازًا بِذَاتِيَّتِنَا ، وَتَعَلُّقًا بِمُقَوِّمَاتِ شَخْصِيَّتِنَا ، مِنْ دِينٍ ، وَلُغَة ، وَتَقَالِيدَ ، وَبُعْدًا عَنْ كُلِّ مَا يَمُسُّ مِنْهَا أَوْ يَنَالُ مِنْ قُدْسِيَّتِهَا

وَلَقَدْ كُنَّا نُقَاوِمُ جَمِيعَ الْأَمْرَاضِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالآفَات الْمُسْتَوْرَدَ إِلَيْنَا ، الْغَرِيبَة عَنَّا ، وَكَانَ ذَلك بِدَافِعِ مِنَ الذَّوْد عَنْ هَذه الْأَنِّيَّة وَتِلْكَ الْأَصَالَة ، رَافِضِينَ كُلَّ مَا يَفْصِلُنَا عَنْ مُحِيطِنَا الطَّبِيعِيِّ ، وَلِجَمِيعِ مَظَاهِرِ الْإِدْمَاجِ وَالْمَسْخ وَسَائِرِ مُحَاوَلاَت الْإِذَابَةِ وَالسَّلْخ ، وَكَانَ هُنَاكَ إِجْمَاعٌ عَلَى تِلْكَ الْبَدِيهِيَّات بَيْنَ أَغْلَب أَفْرَاد الْمُجْتَمَعِ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَصَانَةُ هِيَ سِلاَحُنَا الْأَوَّلُ فِي الذَّوْد عَنْ أَنْفُسِنَا ، وَبِذَلِكَ ضَمِنَّا لِأَنْفُسِنَا الدَّيْمُومَةَ وَالْحَيَاةَ عَبْرَ الْعُصُورِ وَالْأَعَاصِيرِ .

وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ نَعْتَرِفَ أَنَّهُ ، بَعْدَ زَوَال الْخَصْم وَاخْتِفَائِه مِنْ سَطْحِ أَرْضِنَا ، قَد بَدَأَتْ تِلْكَ الْحَصَانَةُ تَضْعُفُ ، وَأَخَذَ ذَلِكَ الشُّعُورُ بِالإِنِّيَّة وَالْأَصَالَة يَتَضَاءَلُ ، وَأَصْبَحَ الْكَثِيرُ يَتَسَاهَل فِيمَا لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُتَسَاهَلَ فِيه إِطْلاَقًا وَبِأَيَّة صُورَة مِنَ الصُّوَرِ ، إِذَا لَمْ نُرِدْ الامِّحَاءَ وَالذَّوَبَانَ .

وَلَقَدْ نَجَحَ أَعْدَاؤُنَا عِنْدَمَا عَقَّدُوا
بَعْضَ قَادَةِ الْعَالَمِ الثَّالِثِ ، وَكَوَّنُوا
لَدَيْهِمِ ازْدِوَاجًا فِي الشَّخْصِيَّةِ ،
إِنْجَرَّ عَنْهُ ازْدِوَاجُ النَّقَائِصِ
وَالسَّلْبِيَّاتِ ، وَانْعِدَامٌ كُلِّيٌّ لِلْمَزَايَا
وَالْفَضَائِلِ ، إِذْ تَجَرَّدُوا مِنْ مَزَايَاهُمْ
وَلَمْ يَكْتَسِبُوا مَزَايَا أَسْيَادِهِمْ ،
بِدُونِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ عُيُوبِهِمُ
الَّتِي ضَمُّوا إِلَيْهَا عُيُوبَ الْمُجْتَمَعَاتِ
الْغَرِيبَةِ عَنْهُمْ ، وَالَّتِي حَاوَلُوا أَنْ
يَتَقَمَّصُوا شَخْصِيَّتَهَا عَبَثًا وَسُدًى .
وَبَقَوْا فِي تَخَلُّفِهِمْ يَعْمَهُونَ .

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي نَرَى فِيهِ دُوَلا
صِنَاعِيَّةً ، دُوَلاً قَوِيَّةً مُتَقَدِّمَةً ، دُوَلاً
مَتِينَةَ الْأَرْكَانِ ، دُوَلاً اشْتِرَاكِيَّةً
كُبْرَى ، تُكَافِحُ بِكُلِّ صَرَامَةٍ وَحَزْمٍ
وَعَزْمٍ كُلَّ مَا قَدْ يَضُرُّ بِتَمَاسُكِ
شَخْصِيَّتِهَا وَسَلَامَةِ مُجْتَمَعِهَا ، نَجِدُ
أَفْرَادًا مَمْسُوخِينَ فِي مُجْتَمَعِنَا
يَرْمُونَ كُلَّ نِدَاءٍ عِنْدَنَا إِلَى الْفَضِيلَةِ
بِالتَّزَمُّتِ وَالْجُمُودِ ، بَلْ وَالرُّجُوعِ
إِلَى الْقُرُونِ الْوُسْطَى وَعُصُورِ
الظَّلَامِ ، ذَاهِبِينَ فِي جَهْلِهِمْ إِلَى
حَدِّ الْخَلْطِ بَيْنَ الْقُرُونِ الْوُسْطَى
الْاورُبِيَّةِ وَالْاسْلَامِيَّةِ ، وَنَاسِينَ أَنَّ
الْقُرُونَ الْوُسْطَى لَدَى الْاورُبِّيِّينَ هِيَ
عَصْرُ الظُّلُمَاتِ وَالتَّأَخُّرِ ، بَيْنَمَا هِيَ
فِي الْاسْلَامِ تُمَثِّلُ الْعُهُودَ الذَّهَبِيَّةَ
لِلْحَضَارَةِ ، وَالثَّقَافَةِ ، وَالنُّورِ .

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي نَرَى فِيهِ
بَلَدِيَّةَ مُوسْكُو مَثَلاً تَمْنَعُ بَيْعَ
الْمَشْرُوبَاتِ الْكُحُولِيَّةِ قُرْبَ
الْمَصَانِعِ ، وَالْمَعَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ ،
وَالْمَسَارِحِ ، وَقَاعَاتِ السِّينَمَا ،
وَجَمِيعِ أَمَاكِنِ التَّجَمُّعَاتِ الشَّعْبِيَّةِ
وَلَا تَسْمَحُ لِغَيْرِهَا مِنَ الْمَحَلَّاتِ
الْاخْرَى الْبَعِيدَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ
بِبَيْعِ الْخُمُورِ بَيْنَ السَّاعَةِ
الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ نَهَارًا وَالثَّامِنَةِ مَسَاءً
وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَسْبِقُ هَذَا الْمَنْعَ
حَمْلَةٌ وَاسِعَةُ النِّطَاقِ فِي جَمِيعِ
مُدُنِ الْاتِّحَادِ السُّوفْيِيتِي ضِدَّ
الْمَشْرُوبَاتِ الْكُحُولِيَّةِ ، بِدَعْوَى
أَنَّهَا تُخَدِّرُ الشَّعْبَ ، وَتَضُرُّ بِالانْتَاجِ

نَجِدُ أَبْوَاقًا فِي مُجْتَمَعَاتِنَا تَدْعُو إِلَى التَّعَالِي عَنْ مِثْلِ هَذِهِ السَّخَافَاتِ وَتُطَالِبُ بِاحْتِرَامِ الْفَرْدِ لِيَشْرَبَ مَا يَشَاءُ !

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَمْنَعُ فِيهِ جُمْهُورِيَّةُ الصِّينِ الشَّعْبِيَّةُ مَثَلاً الزَّوَاجَ بَيْنَ الصِّينِيِّينَ وَالْأَجْنَبِيَّاتِ وَبَيْنَ الصِّينِيَّاتِ وَالْأَجَانِبِ ، وَتَمْنَعُ فِيهِ دَاخِلَ الصِّينِ مُجَرَّدَ الصِّلاَتِ الْوُدِّيَّةِ بَيْنَ الصِّينِيَّاتِ وَالْأَجَانِبِ ،

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي تَكْتُبُ فِيهِ الْبَرَافْدَا أَنَّ الرُّوسِيَّاتِ اللاَّئِي يُخَالِطْنَ الْأَجَانِبَ لاَ يُشَرِّفْنَ لِينِين وَلاَ الْوَطَنَ السُّوفْيِتِيَّ ، نَجِدُ أُولَئِكَ الْمُنْسَلِخِينَ عِنْدَنَا يُنَادُونَ بِمَا يُسَمُّونَهُ تَحْرِيرَ الْمَرْأَةِ ، وَيُطَالِبُونَ بِأَنْ يُتْرَكَ لَهَا حَبْلُهَا عَلَى غَارِبِهَا ، تَتَزَوَّجُ مَنْ تَرْغَبُ وَتُخَالِطُ مَنْ تَوَدُّ تُسَافِرُ مَتَى وَإِلَى حَيْثُ أَرَادَتْ ، تَعُودُ مَتَى تَشَاءُ أَوْلاَ تَعُودُ !

وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي نَرَى فِيهِ حَاخَامَ تَلْ أَبِيبَ يَرْفُضُ عَقْدَ زَوَاجِ حَفِيدَةِ ابْنِ غُرْيُونَ بِضَابِطٍ إِسْرَائِيلِيٍّ كَبِيرٍ ، لِأَنَّ أُمَّهَا لَمْ تَكُنْ يَهُودِيَّةَ الْأَصْلِ ، وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْفُضُ فِيهِ بَرْلَمَانُ إِسْرَائِيلَ السَّمَاحَ بِتَقْدِيمِ الْخِنْزِيرِ فِي بَوَاخِرِهَا السِّيَاحِيَّةِ لِغَيْرِ الْيَهُودِ ، فِي جَمِيعِ الْبِحَارِ ، لِأَنَّ دِينَهُمْ يَمْنَعُ ذَلِكَ ، نَجِدُ الْمُتَحَرِّرِينَ لَدَيْنَا مِنْ كُلِّ وَازِعٍ مَانِعٍ يَدْعُونَ إِلَى سَعَةِ الْأُفُقِ، وَرُوحِ التَّسَامُحِ ، وَعَدَمِ التَّعَلُّقِ بِمَا يُسَمُّونَهُ الْأَفْكَارَ الْبَائِدَةَ .

مِنْ هَذِهِ الْأَمْثِلَةِ وَمِنْ عَنَاوِينِ الْمُحَاضَرَاتِ تَرَوْنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ سَتَكُونُ فِي هَذَا الْمُلْتَقَى أَحَدَ الْمَوَاضِيعِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّذِي سَيُطْرَقُ مِرَارًا وَتَحْتَ أَوْجُهٍ عِدَّةٍ وَبِإِلْحَاحٍ وَإِصْرَارٍ وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ تَصْغِيرًا لِشَأْنِهَا ، وَتَقْلِيلاً مِنْ أَهَمِّيَّتِهَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمُجْتَمَعِ، بَلْ بِالْعَكْسِ مِنْ هَذَا سَنُرَكِّزُ عَلَيْهَا الْحَدِيثَ لِأَهَمِّيَّتِهَا الْقُصْوَى بِالنِّسْبَةِ لِلْأُسْرَةِ وَالْأُمَّةِ

ولِخُطُورَة دَوْرِهَا فِي حَيَاتِهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ الاسْرَةُ هِيَ الْخَلِيَّةُ الاولَى فِي جِسْمِ الْامَّةِ كَمَا يَقُول عُلَمَاءُ الاجْتِمَاعِ ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ عِمَادُ هَذِهِ الاسْرَةِ ، وَنُقْطَةُ الارْتِكَازِ فِيهَا ، إِذْ بِسَلاَمَتِهَا تَسْتَقِيمُ حَيَاةُ الاسْرَةِ ، وبِسُقْمِهَا تَسْقُمُ وتَنْدَثِرُ وَتَنْهَارُ أَرْكَانُهَا !

وَإِذْ نَقُولُ هَذَا فَلَسْنَا مِنْ أَنْصَارِ رَأيِ بِسْمَارْكِ الَّذِي حَدَّدَ لِلْمَرْأَةِ الأَلْمَانِيَّةِ ثَلاَثَةَ وَاجِبَاتٍ فَحَسْبُ وَهِيَ :

الأَطْفَالُ وَالْمَطْبَخُ وَالْكَنِيسَةُ !

بَلْ نَحْنُ مِنْ أَنْصَارِ ابْنِ بَادِيسَ الَّذِي كَانَ يُلِحُّ كُلَّ الالْحَاحِ عَلَى ضَرُورَةِ تَعْلِيمِ الْبِنْتِ وإِشْرَاكِهَا فِي حَيَاةِ الْامَّةِ ، بِصِفَةٍ أَكْثَرَ فَعَالِيَّةً مِمَّا قَدَّرَهُ لَهَا بِسْمَارْكُ الْمُسْتَشَارُ الْحَدِيدِيُّ كَمَا يُسَمِّيهِ الأَلْمَانُ !

يَقُولُ ابْنُ بَادِيسٍ ، مُسْتَشْهِدًا بِأَحَادِيثَ نَبَوِيَّةٍ تَحُثُّ عَلَى تَعْلِيمِ الْبِنْتِ ، مَا يَلِي :

« وَسَيْرًا عَلَى مَا اسْتَفَاضَ فِي تَارِيخِ الْامَّةِ مِنَ الْعَالِمَاتِ ، الْكَاتِبَاتِ الْكَثِيرَاتِ ، عَلَيْنَا أَنْ نَنْشُرَ الْعِلْمَ بِالْقَلَمِ فِي أَبْنَائِنَا مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، عَلَى أَسَاسِ دِينِنَا ، وَقَوْمِيَّتِنَا ، إِلَى أَقْصَى مَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَصِلَ إِلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ تُرَاثُ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ وَثِمَارُ جِهَادِهَا فِي أَحْقَابِ التَّارِيخِ الْمُتَطَاوِلَةِ ، وَبِذَلِكَ نَسْتَحِقُّ أَنْ نَتَبَوَّأَ مَنْزِلَتَنَا اللاَّئِقَةَ بِنا وَالَّتِي كَانَتْ لَنَا بَيْنَ الْامَمِ » .

وَيُضِيفُ فَيَقُولُ : « عَلَيْنَا أَنْ نُشْرِكَ مَعَنَا نِسَاءَنَا فِيمَا نَقُومُ بِهِ مِنْ مَهَامِّ مَصَالِحِنَا ، لِيَقُمْنَ بِقِسْطِهِنَّ مِمَّا يَلِيقُ بِهِنَّ فِي الْحَيَاةِ ، عَلَى مَا يَفْرِضُهُ عَلَيْهِنَّ الاسْلاَمُ مِنْ صَوْنٍ ، وَوَقَارٍ ، وَحِشْمَةٍ ، وَعَدَمِ زِينَةٍ ، وَعَدَمِ إِخْتِلاَطٍ ، وَلَنْ تَكْمُلَ حَيَاةُ أُمَّةٍ إِلاَّ بِحَيَاةِ شَطْرَيْهَا الذَّكَرِ وَالْانْثَى »

وَيُرْدِفُ قَائِلاً : « وَذَلِكَ أَنَّ

الْمَرْأَةَ هِيَ رَبَّةُ الْبَيْتِ وَرَاعِيَتُـهُ ، وَالْمُضْطَرَّةُ بِمُقْتَضَى هـذِه الْخلْـقَة لِلْقِيَامِ بِه ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُعَلِّمَهَا كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْه لِلْقِيَامِ بِوَظِيفَتِها ، وَنُرَبِّيَهَا عَلَى الْأَخْلاَقِ النِّسْوِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا الْمَرْأَةُ امْرَأَةً ، لاَ نِصْفَ رَجُلٍ ، وَلاَ نِصْفَ امْرَأَة ، فَـالَّتِي تَلِدُ لَنَا وَلَدًا يَطِيرُ خَيْرٌ مِنَ الَّتِي تَطِيرُ بِنَفْسِهَا » .

هَذَا مَا يَقُولُهُ ابْنُ بَادِيسِ عَنِ الْمَرْأَةِ . وَإِنَّ اهْتِمَامَهُ هَذَا بِهَا لَرَفْعٌ مِنْ شَأْنِـهَا ، وَتَمْـجِيدٌ لِدَوْرِهَا ، وَتَشْرِيفٌ لِمَكَانَتِـهَا فِي الأسْـرَة وَالْمُجْتَـمَع ، وَالأمَّـة ، وَلأَنَّـها الْمُرَبِّيَةُ الْاولَى لِلنَّشْإِ ، وَالْمَدْرَسَةُ الْاولَى الَّتِي إِذَا أَعْدَدْتَـهَا أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ ، كَمَا يَقُـولُ حَافِظُ إِبْرَاهِيمُ ، فَبَـادِيس يَـقْبَلُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ مِثْلَ فَاطِمَة نْسُومَـرْ الَّتِي قَادَتْ الْمُسَبِّلِينَ أَوْ الْمُجَاهِدِين سَنَةَ 1857 فِي جِبَالِ جَرْجَرَ ضِـدَّ جِنِرَالاَتِ الْجَيْشِ الْفِرَنْسِي ، وَلِكِنَّ بَادِيس لاَ يَقْبَلُ مِـنْهَا أَنْ تَـكُونَ ضَحِيَّةَ الْانْحِرَافِ وَالْانْـجِرَافِ فِي تَيَّارِ تَوَافِه وَسَطْـحِـيَّاتِ مَا يُسَمَّى بِالْحَيَاة الْاجْتِمَاعِيَّة الْعَصْرِيَّة ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَكْتَفِي مِنَ الْحَضَارَة بِقُشُورِهَا وَجَوَانِبِهَا السَّلْبِيَّة ، وَلاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّةَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى ، وَتَتَـهَافَتَ عَـلَى عَادَات سَيِّئَة لَيْسَتْ مِنْ تَـقَالِيدِنَـا وَلاَ تَتَمَاشَى مَعَ مَبَادِئِـنَا ، وَلاَ يُرِيـدُ مِنْهَا أَنْ تَكُـونَ مِنْ ذَلِكَ الـنَّوْعِ الَّذِي يَبْرَعُ فِي اللَّعِبِ بِالسِّجَارَة وَفِي مَـسْكِ الْـكَأْسِ ، وَلاَ فِي التَّسَكُّعِ عَلَى سَطُوحِ الْمَـقَاهِي ، وَالْحَذْلَقَة بِاللَّهْـجَة الْبَارِيـسِيَّة ، الَّتِي لاَ تَسْتَعْمِلُـهَا حَتَّى جَمِـيعُ الْفَرَنْسِيَّات ، وَأَخِـيرًا ، فَهُوَ لاَ يُرِيدُ مِنْهَا أَنْ تَتَجَرَّدَ مِنْ شَخْصِيَّتِهَا وَتُصْبِحَ مَفْسُوخَةً ، مَمْسُوخَةً وَمَزِيجًا مُزَرْكَشًا مِنْ رُقَـعٍ لاَ انْـسِجَامَ وَلاَ تَجَانُس بَيْنَهَا فَتَـعُودَ وَبَالاً عَـلَى وَسَطِهَا ، وَشَرًّا عَلَى مُجْتَمَعِهَا .

حَضَرَاتِ السَّادَة ،

قَبْلَ أَنْ أَتْــرُكَ مَوْضوعَ الْــمَرْأَة وَأَهَمِّيَّتها فِي الْاسْرَة وَالْامَّة ، أَوَدُّ أَنْ أَطْرُقَ نُقْطَةً حَسَّاسَةً مِنَ الدَّرَجَة الْاولىَ وَتَتَّصِلُ بِهِ مُبَاشَـرَةً وَبِالإِنِّيَّة وَالأَصَالَة ، وَأَكْتَفِي بِإِشَارَة قَصِيرَة إِلَيْهِ لأَنَّهُ سَتَتَعَرَّضُ لَهُ سَــيِّدَةٌ هُنَا مَعَنَا فِي مُــحَاضَرَة خَاصَّة بِهِ ، وَهُوَ مَوْضُــوعُ الزَّوَاج بِالْأَجْنَـــبِيَّات وَالأَجَانِب .

فَإِذَا كَانَ الاسْلَامُ يَسْمَحُ لِلْمُسْلِم بِالزَّوَاجِ بِالْكِتَابِيَّات ، مِنْ مَسيحِيات ويهو ديَّات ، فَإِنَّ مِنَ الْحَلَال مَاهُوَ مَرْغُوبٌ عَنْهُ ، ومُبَغَّضٌ فِيه ، وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلىَ هَذَا مِنْ قَوْلِه صَــلىَّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَبْغَضُ الْحَلَاَلِ إِلىَ اللَّه الطَّلَاَقُ ، وَإِنَّ فِي تَبْغِيضِ بَعْــضِ الْحَلَاَل لأَكْثَرَ مِنْ حِكْمَة وَمَغْزًى !

وَإِذَا كُنَّا نَفْهَمُ وَضْعَ أُولَئِــك الْمُوَاطِنينَ مِنَ الطَّــلَبَة وَالْعُــمَّال الَّذينَ اضْطَرَّتهُمْ ظُرُوفُ الْمَــهْجَرِ فِي أُورُبَا إِلَى التَّزَوُّج بِالْأَجْنَبِيَّات ، وَلَاَ نُنْكِرُ أَنَّ بَعْضًا مِنْهُنَّ صَالِحَاتٌ فَإِنَّ هَذَا يَنْبَغِي أَلَّا يَحْــدُثَ بَــعْدَ الْيَوْم مَهْمَا كَانَت الْأَعْــذَارُ ، وَقَدْ زَالَتْ تِلْكَ الظُّرُوفُ الاضْــطِرَارِيَّةُ كَالْمَنْفَى وَالْغُرْبَة الطَّوِيلَة ، وَيَجِبُ بَعْدَ الْيَوْمِ أَنْ نَعْــمَلَ كُــلَّ مَا فِي وُسْعِنَا لِمَنْعِ تَــكْرَارِ مِــثْلِ هَــذِه الْحَالَاَت وَأَنْ نَتَّخِذَ التَّدَابِيرَ الصارِمَةَ خَاصَّةً ضدَّ مُوَظَّــفِي الدَّوْلَة الَّذينَ تُحَدِّثُهُمْ نَفْسُهُمْ بِذَلِكَ ، لِنَحُولَ دُونَ أَنْ تُصْبِحَ الْجَزَائِرُ بُرْجَ بَابِل وَخَاصَّةً أَنَّ هَذه الْحَالَاَت تَمُسُّ مَنْ لَهُمْ مُسْتَوًى مُعَــيَّنٌ مِنَ التَّعْلِيم وَالثَّقَافَة ، أَيْ تَمُــسُّ الاطَــارَات الَّتِي تُنْفِقُ عَلَيْهَا الدَّوْلَةُ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ ، وَالَّتِي عَلَيْهَا الْمُعَوَّلُ فِي بِــنَاءِ الْبِــلَاَد ، وَضَــمَانِ تَــمَاسُكِ الْامَّة ، وَانْسِجَامِ نُمُوِّهَا وَازْدِهَارِهَا

وَإِذَا كَانَ هَذَا كُلُّهُ بِخُــصُوص الرِّجَالِ الَّذِينَ يَسْمَحُ لَهُــمْ الدِّينُ بِالزَّوَاجِ بِالْأَجْنَبِيَّات فَمَاذا يُمْكِنُ أَنْ يُـــقَــالَ عَـــنْ أُولَـــئِكَ

النِّعَاجِ الْجَرْبَاء اللاَّئِى يَتَــزَوجْنَ بِالْأَجَانِبِ ، وَالــلاَّئِى وَإِنْ كُــنَّ يُعْدَدْنَ عَلَى أَطْــرَافِ الْأَصَــابِــعِ ، إِلاَّ أَنَّهُنَ خِــزْىٌ وَعَارٌ ، وَفَضِيــحَةٌ عَلَى عَائِلَتِهِنَّ وَالْمُجْتَمَعِ كُلِّهِ .

فَزِيَــادَةً عَلَى تَحْــرِيم الــدِّينِ الْاسْلاَمِيِّ لِزَوَاجِ الْمُسْلِــمَةِ بِغَــيْرِ الْمُسْلِم ، فَهُــنَاكَ أَيْضًا بَقِــيَّةٌ مِن الْاحْسَاسِ بِالشَّرَفِ، وَبِمَا نُسَــمِّيهِ النِّيفَ يَجِبُ أَنْ يَمْنَعَ حُــدُوثَ مِثْلِ هَذِهِ الحَالاَتِ .

وَهُنَا يَجِــبُ تَعَاوُنُ الْآبَــاء مَعَ السُّلُطَاتِ لِمَنْعِ احْتِمَالَاتِهِ وَفُرَصِ حُــدُوثِــهِ بِالــسَّهَرِ عَــلَى هَــؤُلاءِ وَمُرَاقَبَةِ مُخَالَطَاتِهِنَّ، وَخَــاصَّةً مَنْعَ سَفَرِهِنَّ إِلَى الْخَارِجِ وَحْدَهُنَّ مَهْمَا كَانَتِ الْأَسْبَابُ وَالتَّعَلُّلاَتُ .

وَإِنِّى لاَ أَجِــدُ أَىَّ حَــرَجٍ فِى الْكَلاَمِ عَنْ هَــذِهِ الْمَأْسَاةِ بِحُــضُورِ إِخْوَانِنَا هُنَا مِنَ الْبِلاَدِ الشَّقِيقَةِ ، خَاصَّةً وَأَنَّ هَذِه الْحَالاَتِ وإِنْ كَانَتْ لاَتَزَالُ قَلِيــلَةً ، إِلاَّ أَنَّــهَا عَامَّــةٌ بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ الْبُلْدَانِ الشَّقِيقَةِ ، وَقَدْ كُنَّا أَيَّــامَ إِقَامَتِنَا فِى أُورُوبَا نَحْزَنُ وَنَأْسَى وَنَخْــجَلُ عِنْدَ رُؤْيَةِ أَخَــوَاتٍ لَنَا مِنَ الْبُلْدَانِ الشَّقِيقَةِ يَتَزَوجْنَ بِالْأَجَــانِبِ، وَإِذَا بِــهَذَا يَحْدُثُ الْآنَ حَتَّى لِلْجَزَائِرِيَّاتِ . وَكُلُّنَافِى الْهَمِّ مَغْرِبٌ وَمَشْرِقٌ !

وَيَكْفِى أَنْ أَلَخِّصَ هَذَا كُلَّهُ فِى الْاشَارَةِ إِلَى كَلِمَةٍ وَرَدَتْ أَخِــيرًا فِى جَرِيدَةِ بَلَدٍ شَقِيقٍ عَنْ خَــطَرِ هَذِهِ الْمُوضَةِ ، مُوضَةِ تَعَــلُّقِ كَثِيرٍ مِنْ شَبَابِ الْيَــوْمِ بِالْأَجْنَــبِيَّاتِ ، وَشَابَّاتِهِ بِالْأَجَانِبِ ، وَفِى الشَّغَفِ بِكُلِّ مَاهُوَ أَجْنَبِىٌّ مِنْ مُنْتُوجَــاتٍ وَمُنْتِجِينَ !

وَفِى هَذَا الصَّدَدِ أَوَدُّ أَيْضًا بِهذِهِ الْمُنَاسَبَةِ أَنْ أُوَجِّــهَ إِنْــذَارًا إِلَــى جَمِيعِ تِلْكَ الْمُنَــظَّمَــاتِ الَّتِــى تُسَمِّى نَفْسَهَا خَيْرِيَّةً ، مِنْ تَبْشِيرِيَّةٍ وَغَيْرِهَا ، وَلاَ تُرِيدُ بِنَا خَيْرًا ، إِنَّنَا لَهَا بِالْمِرْصَادِ ، وَسَنَحْرِصُ عَــلَى تَتَبُّعِ أَعْمَالِهَا التَّخْرِيبِيَّةِ بِــعَيْــنِ

يَقظَة سَاهِرَة ، وَسَنُرَاقِبُهَا وَنُعَامِلُهَا بِكُلِّ حَزْم ، وَعَزْم وَصَرَامَة إِذَا مَا اسْتَمَرَّتْ فِي غَيِّهَا وَإِخْلاَلِهَا بِوَاجِبِهَا نَحْوَ الْبَلَد الْمُضِيف . .

حَضَرَات السَّادَة ....

قَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ كَلِمَتِي هَذه ، أَوَدُّ أَنْ أشِيرَ بِغَايَة الْإِيجَاز إِلَى مَوْضُوع مِنْ أَهَمِّ مَوَاضِيع هَذَا الْمُلْتَقَى وَيَتَّصِلُ الاتِّصَالَ الْوَثِيقَ بِالْأَصَالَة ، وَهُوَ الْعَلاَقَةُ بَيْنَ الاشْتِرَاكِيَّة وَالإِسْلاَم . لَقَدْ كَثرَت الْمُنَاقَشَاتُ حَوْلَ هَذه الْعَلاَقَة ، فَمِنْ قَائِل مُغْرِض دَسَّاس أَن أَلاَّ عَلاَقَةَ لِلاسْلاَم بِالاشْتِرَاكِيَّة ، وَأَنَّ الاسْلاَمَ كَدِين لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَّفِقَ وَالاشْتِرَاكِيَّةَ الَّتِي لَهَا أُصُولٌ إِلْحَادِيَّةٌ أَوْ عَلَى الْأَقَلِّ لاَ دِينِيَّةٌ ، وَهَؤُلاء يُحَاوِلُونَ أَنْ يُبْعِدُونَا عَنِ الاشْتِرَاكِيَّة لِحَاجَة فِي نَفْس يَعْقُوب ، وَهَذه هِيَ الْقُوَى الرَّجْعِيَّةُ وَمِنْ قَائِل آخَر أَنَّ الاسْلاَمَ كَدِين فَهُوَ رَجْعِيٌّ بِحُكْم الطَّبِيعَة وَلاَ يُمْكِنُ بِالتَّالِي أَنْ يَتَلاَقَى وَالاشْتِرَاكِيَّةَ ، وَلِهَذَا فَعَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ اشْتِرَاكِيًّا أَنْ يَنْسَلِخَ عَنْ دِينه الاسْلاَمِيِّ ، وَهَؤُلاء لا يَقِلُّونَ غَدْرًا وَخِدَاعًا ، وَخُبْثًا عَنِ الْأَوَّلِينَ لِأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُعَقِّدُونَا ، بِحَيْثُ نَبْذُلُ الْجُهودَ لِنَنْسَلِخَ عَنْ دِينِنَا ، وَقِيَمِنَا ، وَعَنَاصِر شَخْصِيَّتِنَا ، وَمُقَوِّمَات أَصَالَتِنَا ، وَنَتَحَمَّسَ فِي ذَلِكَ الانْسِلاَخ وَالامِّسَاخ ، وَنُبَالِغَ وَنَعْمَلَ أَكْثَر مِمَّا يَطْلُبُونَ مِنَّا ، لِنَبْدُوَ فِي نَظَرِهِمْ قَادِرِينَ عَلَى الدُّخُول إِلَى نَادِيهِمْ الصَّعْب الْمَدْخَل ، وَلِنَحْصُلَ عَلَى رِضَاهُمْ عَنَّا ، وَقَبُولِهِمْ أَيَّانَا فِي زُمْرَة الْمُقَرَّبِينَ !

وَآخَرُونَ مِنَّا ، وَلَكنَّهُمْ عَلَيْنَا ، انْطَلَتْ عَلَيْهِم تِلْكَ الْحَذْلَقَةُ الْغَدَّارَةُ ، فَأَصْبَحُوا يَسْتَجِيبُونَ طِبْقَ تَجْرِبَة بَافْلُوفْ ، وَهُمْ الَّذِينَ فِيهِمْ الْقَابِلِيَّةُ لِأَنْ يُسْتَعْمَرُوا ، وَالتَّبَعِيَّةُ لِصَاحِب السَّاعَة مِنْ أَيِّ شَكْلٍ أَوْ

لَوْنٍ كَانَ .

وَلِجَمِيعِهِمْ نَوَدُّ أَنْ نَقُولَ أَنَّ الْاسْلَامَ دِينٌ وَدَوْلَةٌ ، وَأَنَّهُ بِصِفَتِه دِينًا سَماوِيًّا كَامِلاً ، وَالدِّينُ عِنْدَ اللَّهِ الْاسْلَامُ ، فَهُوَ فَيَّاضٌ بِالرُّوحِيَّاتِ ، وَالْأَخْلَاقِيَّاتِ ، وَالْمَعْنَوِيَّاتِ عَامَّةً ، كَمَا أَنَّهُ دِينُ الْعَمَلِ وَالْجُهْدِ ، وَدِينُ الْقُوَّةِ وَالْجِهَادِ ، وَلَيْس دِينَ الْاسْتِكَانَةِ ، وَالْمَهَانَةِ ، وَقَبُولِ الْجُورِ وَالْإِذْلَالِ بَلْ هُوَ دِينُ الْعَدَالَةِ وَالْانْصَافِ ، وَدِينُ الْعِزَّةِ وَالْأَنَفَةِ ، وَالشَّرَفِ ، وَدِينُ التَّسَاوِى فِى الْفُرَصِ وَالْإِمْكَانِيَّات بِالنِّسْبَة لِلْجَمِيعِ ، وَبِالتَّالِى فَهُوَ دِينُ الْاشْتِرَاكِيَّةِ بِمَعْنَاهَا الْأَصْلِىِّ الْأَصِيلِ الشَّامِلِ .

فَالاسْلَامُ لَيْس دِينَ الْفَقْرِ ، وَالضَّعْفِ ، وَالْحَاجَةِ ، بَلْ هُوَ دِينُ الْقُوَّةِ وَالْازْدِهَارِ ، وَفِى هَذَا يَقُولُ الْامَامُ عَلِى رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » ، كَمَا كَانَ أَبُو ذَرٍّ الْغَفَّارِىُّ يَقُولُ : « عَجِبْتُ لِمَنْ تَجوعُ بَطْنُهُ وَلَا يَخْرُجُ شَاهِرًا سَيْفَهُ » ، وَيَقْصِدُ بِذَلِكَ تَسَاوِى الْفُرَصِ فِى الْعَمَلِ وَالْإِمْكَانِيَّات ، وَتَوْزِيعِ الثَّرَوَاتِ بِالْعَدَالَةِ بِالنِّسْبَة لِلْجَمِيعِ .

وَبِخُصُوصِ مُكَافَحَةِ الْاسْتِغْلَالِ وَالرِّبَا يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ « ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ ، وَيَقُولُ فِى آخِرِه : وَثَالِثُهُمْ هُوَ مَن اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُوفِه أَجْرَهُ » وَيَقْصِدُ طَبْعًا الْأَجْرَ الْعَادِلَ .

وَفِى هَذَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ الْمُبَارَكُ ، الْاسْتَاذُ بِكُلِّيَةِ الْحُقُوقِ وَعَمِيدُ كُلِّيَةِ الشَّرِيعَةِ بِسُورِيَا سَابِقًا ، وَعَضْوُ الْمَجْمَعِ الْعِلْمِىِّ الْعَرَبِىِّ بِدِمَشْقَ ، وَالْمُقِيمُ حَالِيًا بِالْمَمْلَكَة الْعَرَبِيَّةِ السَّعُودِيَّة ، مُسْتَنِدًا إِلَى ابْنِ تَيْمِيَّةَ ، مَا يَلِى : « إِذَا كَانَتْ الْاشْتِرَاكِيَّةُ اشْتِرَاكَ جَمِيعِ أَفْرَادِ الشَّعْبِ فِى الْمَنَافِعِ وَالْمَصَالِحِ ، وَعَدَمَ اسْتِئْثَارِ فِئَةٍ مِنَ النَّاس

بِالْمَنْفَعَة ، وَتَدَخُّلَ الدَّوْلَــةِ فِــي تَقْيِيد الْفَعَّالِيَّات الْاقْتِصَــادِيَّــة ، كَتَــحْدِيد حُــقُوق الْمِلْكِيَّـــة وَثِمَارِهَا تَقْيِيدًا يُؤَدِّي إِلَى الْعَدَالَة فِي تَوْزِيع الثَّرْوَة ، وَإِلَى تَكَافُؤ الْفُرَص بَيْنَ النَّــاسِ ، بِــحَيْثُ يَعِيشُونَ عَلَى مُسْتَوَىً مِنَ الْحَــيَاة يُؤَمِّنُ لَــهُمْ الْحَاجَــات الْانْسَانِيَّةَ الْمَادِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ ، فَإِنَّ الْاشْتِرَاكِيَّةَ بِهَذَا الْمَــعْنَى لَا مُنَافَاةَ بَيْنَــهَا وَالْاسْلَام ، بَلْ أَنَّ الْاسْلَامَ عَــلَى طَرِيقَته الْخَاصَّة يَتَّجِهُ فِي هَـــذَا الْاتِّجَاه الْمُؤَدِّي إِلَــى تَعْــمِيـــم النَّفْع ، وَإِقَامَة الْعَدَالَة ، وَإِنْصَاف النَّاس ، بَلْ يُجِيزُ تَدَخُّلَ الدَّوْلَة فِي فَعَّالِيَّات الْأَفْرَاد الْاقْتِــصَادِيَّة وَغَيْـــرِ الْاقْتِصَادِيَّــة إِذَا اقْتَضَــت الضَّرُورَةُ أَو الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ ذَلِكَ

وَيُضِيفُ فَيَقُولُ : وَالْاسْلَامُ يَقُولُ بِتَدَخُّلِ الدَّوْلَة وَمِنْ ذَلِكَ مَنْعُهَا الْاحْتِكَارُ ، وَأَخْــذُهَامِنْ أَمْــوَال الْأَغْنِيَاءِ مَالًا غَيْرَ الزَّكَاة إِذَا كَانَت الدَّوْلَةُ فِي حَالَةِحَرْب لِلدِّفَاع عَن حَوْزَة الْمُسْلِمِين ، أَوْ كَانَ فِي النَّاسِ فُقَرَاء وَلَمْ تَكْفِهِمُ الــزَّكَاةُ ، أَوْ غَيْرُ ذَلِــكَ مِــنَ الْــحَاجَات ، فَالْاسْلَامُ إِذَنْ يَقُولُ بِتَدَخُّلِ أُولِي الْأَمْرِ ، أَيْ الدَّوْلَــة ، لِإِحْــقَاق الْحَقِّ ، بَلْ لِلرَّحْمَة بِالضُّــعَفَاءِ ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فَوْقَ الْعَدْل وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَدْل . فَالْقَوْلُ أَنْ لَــيْسَ فِــي الْاسْلَام اشْتِرَاكِيَّةٌ يَنْــطَوِي عَــلَى جَهْلٍ بِحَقِيقَة الْاشْتِرَاكِيَّة ، وَعَلَى قُصُورٍ فِي فَهْم الْاسْلَام ، وَتَعَالِيمِه وَأَهْدَافِه ، وَبُعْدٌ عَنْ مَعْرِفَة أَحْكَامِه الْمُتَعَلِّقَة بِهَذَا الْمَوْضُوع .

وَيَرْدِفُ قَائِــلاً : « وَلَا يَتَصَــوَّر بِحَال مِنَ الْأَحْوَال أَنْ تُؤَدِّيَ أَحْكَامُ الْاسْلَام إِلَى مَوْت فَرِيق مِنَ النَّاسِ جُوْعًا أَوْ وُقُوعِهِمْ فَرِيسَةً لِلْبُــؤْس وَالْفَقْر وَالْمَرَض ، وَيَنْعَم فَــرِيــقٌ آخَرُ مِنَ النَّاسِ فِي الْوَقْت نَفْســه بِالْمَلَاذِّ ، وَالطَّيِّبَات ، وَالْكَمَالِيَّات لِأَنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِأَهْدَاف الْاسْلَام

الْوَاضِحَة فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّة مِثْلِ قَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الْمُسْلِمُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى ، » وَقَوْلُه « إِنَّ الْأَشَاعِرَةَ كَانُوا إِذَا أَمْحَلُوا أَوِ افْتَقَرُوا جَمَعُوا مَا عِنْدَهُمْ وَاقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ بِالسَّوِيَّةِ ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ » وَقَوْلِه أَيْضًا : « فِي الْمَال حَقٌّ سِوَى الزَّكَاة » ، أَيْ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَهَا أَنْ تَأْخُذَ عِنْدَ الضَّرُورَة أَكْثَرَ مِنَ الزَّكَاةِ ، وَمَا رُوِيَ عَنْهُ أَيْضًا عَنْ أَحَدِ أَصْحَابِه قَالَ : « بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ (ص) إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يُدِيرُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً فَقَالَ « ص » مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ فَضْلٌ مِنْ زَاد فَلْيَعُدْ بِه عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ ، فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَاف الْمَال مَا ذَكَرَ ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَد مِنَّا فِي فَضْلٍ »

وَمِنْ هَذَا يَتَّضِحُ أَنَّ أُصُولَ ، الْاشْتِرَاكِيَّةِ قَدْ وُجِدَتْ مُنْذُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْنًا وَذَلِكَ فِي رُوحِ الْاسْلاَمِ وَنَصِّه وَهُوَ دِينُ الْعَدَالَة ، وَالْانْصَاف ، وَالتَّضَامُنِ ، وَالرَّحْمَة مَعَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى حُرِّيَّةِ الْبَادِرَة ، وَالتَّنَافُسِ فِي الْعَمَلِ الْبَنَّاء ، مَعَ الْاحْتِفَاظ بِالْقِيَمِ الرُّوحِيَّة وَالْأَخْلاَقِيَّةِ الْعُلْيَا ، الَّتِي بِهَا يَتَمَاسَكُ الْمُجْتَمَعُ وَيَقْوَى بُنْيَانُهُ وَذَلِكَ كُلُّهُ مَا نَوَدُّ أَنْ نُسَمِّيَهُ بِأَصَالَة مُجْتَمَعِنَا الْاشْتِرَاكِي .

دور الشباب فى حياة الأمة



* نص المحاضرة التى القاها د : احمد طالب الابراهيمى امام الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بمدينة قسنطينة فيما بين 8 - 17 جمادى الثانية 1390 هـ الموافق لـ 10 - 19 اغسطس 1970 م

د : أحمد طالب

وزير الاعلام والثقافة

اننى مبتهج بهذا اللقاء الاسلامى الذى دعت اليه مشكورة وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وهذا اللقاء ، هو ثمرة من ثمرات الاستقلال، من ثمرات استقلال هذه البلاد العربية المسلمة ، فلقد كان وما بالعهد من قدم ، مضروبا بسور من حديد بيننا وبين اشقائنا فى المشرق ، فلا لقاء ، ولا اتصال

ولا تزاور الا فى القليل النـادر تحت المراقبةوالتهديد الاستعمارى واليوم ، وبفضـل الاستقـلال الـذى انتزعنـاه بالتضحيـةوالفداء ، والثمـن الغـالى ، اصبحنـا نجتمع باخواننا المسلمين حيث مـا كانـواونعقد معهم الاجتماعات ، ونقيم اللقـاءات ونتبـاحث معهم فيما يهم شـؤون الاسـلاموالمسلمـين ، ولا نخشـى واش ولا رقيب ، والحمد لله ، والله اكبر . وما يزيد فى اهميةهذا الملتقى ، اقـامته فى مدينة قسنطينـة ، عاصمة الشرق الجزائرى ، وقلعة المقاومـة الصامد ة، ايام الاحتلال ، بلد عبد الحميد بن باديس ، رمز التضحية والتفانى ، فى ايقـاظالجزائر من غفوتها، وتنبيهها مـن غفلتهـا ، وانقاذها من كبوتها ، ذلكم الرجل الذى عاشللاسلام والعربية والجزائر ، وما ترك ميدان العمل والكفاح ، الى ان فارق الحياة .

لقد تعودت فى هذه المواطـن ان اخـاطب الشباب ، واليوم اريد ان اتحدث عن الشباب ، ان الشباب فى كل امة من الامم ، عنوان صادق على ما تبلغه تلك الامة من تقدم او انحطاط ، واذا اردنا ان نصدر حكما على امة مهما كان ماضيها وحاضرها ، هل هى جديـرة بالرقى والصعود ، والبقاء والخلود ، ام هى جديرة بالخمود والجمود ، والاضمحلال ، والزوال ، فانما ننظر الى ما فيها من شباب ، وما يقومون به من اعمال ، فاذا كان شبابها من الطامحين العاملين على ما يرسى بنيانها ، ويرفع شانها فانها باقية ما اتسمت بتلك السمات ، وهبت عليها تلك النفحات ، واذا كان شبابها مـن المتواكلين القانعين فهى امة تنتظر الساعة وما ادراك ما الساعة ، وهى ساعة تودع فيهـا الحياة الى حيث لا رجعة .

فالامة التى لا شباب لها ، لا مستقبل لها ، وقد اشاد القرآن الكريم بذكر الشباب وثباتهم على عقائدهم ، فقال : ((اذ اوى الفتيـة الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيء لنا من امرنا رشدا)) . وقال : ((قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم)) ، فابراهيم عليه السلام ، بعد تامله فى ملكوت الله وآياته فى الكون اهتدى الى وحدانيـة اللـه ، فقلب الاوضاع بما له من قوة ، وفتـوة ، وحـرر العقول ، وكسر الاصنام ، التى كانت تعبد من دون الله ، وقد اقتضت حكمة الله ان تكون غالب الرسالات بين الثلاثين والاربعين ، وقد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة جيش فيه كبار الصحابة ، اسامة بن زيد ، وهو دون سن العشرين .

وقد نجد فى تاريخ الامم كثيرا من العظماء ، وصلوا الى قمة العظمة والبطولة والعبقرية ، فى سن الشباب ، فما هو السر فى هذه الظاهرة يا ترى ؟ ان الشباب قلب الامة النابض ، وامل الوطن الباسم ، ولست اعنى بالشباب ، ذلك الفتى سنا فحسب ، وانما اعنى بالشباب ذلك الكائن الحى، القوى الساعد ، المفتول الذراع، الفتى عزما وحزما ، الفتى جدا ونشاطا، الفتى روحا وعقلا ، الفتى علما وعملا ، والذيـن يزنون الامور بالقسطاس المستقيم ، وينهجون المنهج القويم ، لا يستغنون بطموح الشبـاب وحماسهم طبعا عن تجربة الشيوخ وحكمتهم .

ايها الاخوة ، ايتها الاخوات :

ان الشباب كالعود الطرى ، ميال مع الريح فان لم يسق بماء الحياة ذبل ، واذا كانت الريح عاصفة هائجة قصفته فانكسر ، ماء الحيـاة لهذا العود ، مصدره الاهل الذيـن انبتـوه والمجتمع الذى يتلقفه ، والمدرسة التى تربيه وتثقفه ، والدولة التى تركز حاضره وتخطط لمستقبلـه .

اولا : على الاسرة ان تحبه حبا ، لا تنتظر من ورائه جزاء ولا شكورا ، وان تراقب حركاته وسكناته ، فانها مسؤولة بالدرجة الاولى على تهذيبه وتاديبه ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ،

التى ينفع بها امته ووطنه ، وينتفع بها هــو واسرته فى مستقبل الايام ، اما اذا اهملت تربيته وبخلت عنه فى صغره ، فانه ينشأ نشأة سيئة تتجرع الاسرة مرارتها ، وتتحمــل عارهــا واوزارها ، ويؤاخذها المجتمع بهذه الجريمة ، واى جريمة اعظم من عدم القيام بالواجب ، وعدم الشعور بالمسؤولية ؟ فهى عوض أن تهيء للامة وتقدم لها من يزيد فى الفضائل ، قدمت اليها من يقترف الاثام والرذائل .

ثانيا : على المجتمع الا يسيء اليه بالمنظر والمسمع ، وان يجعل له مثلا عليا ، تسمو عن الكسب المادى والترف ، لان الكسب المادى قدر مشترك بين الانسان والحيوان ، والمولى تبارك وتعالى كرم الانسان بالعقل ، وقد جاء فى القرآن الكريم : ((ولقد كرمنا بنى آدم)) ، فاذا كان الانسان يعيش فى مجتمع ، لا يرى فيه من المناظر ، الا ما يحرك الغرائز ، ويوقض نــار الشهوات ، ولا يسمع من الكلام الا الباطل والزور من القول ، او مــا يبعث الاحقــاد والخصومات ، فانه بحكم الجوار يصبح فردا من ذلك المجتمع الفاسد ، وان كان قبل ذلك صالحا فى نفسه ، واذا كان المجتمع يتكون منا جميعا لا فرق بين عالم وجاهل ، وغنى وفقير ، بل وحاكم ومحكوم ، فان المسؤولية على ما يقع فيه من فقر ، وجهل ومرض ، وجور وفسوق وشرور ، تقع على كاهلنا جميعا ، اذ كل واحد منا مسؤول أمام الله وأمام الوطن عن نفسه ، وعن زوجه ، وعن ولده ، وعن ابنته ، وقد جاء فى الحديث : ((كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته)) ، فليقم كل منا بواجبه ولا يلــق التبعة على غيره .

ثالثا : على المدرسة الا تعتنى بحشو ذاكرته دون تحريك الذهن ، وبتحصيل الشهادة ، دون اعداده للحياة العامة ، فنحن نريد من شبابنا ان يكونوا ممن يتعلم العلم للعلم لا للشهادة ، وأن يشتغلوا بالبحوث الهامة ، والابتكارات التى لها قيمتها فى هذا العصر ، حتى يرفعوا رأس امتهم عاليا ، فى المجامع العلمية ، فتسترد الجزائر مجدها العلمى ، الذى قضى عليه عصر الاستعمار والانحطاط .

رابعا : على الدولة ان توجه هذه الطاقات الهائلة للخير والبناء وترعاها ، وتحميهــا ، وتيسر لها اسباب العيش والرخاء ، والراحة والهناء ، لان الدولة تستمد قوتها من قــوة شعبها ، ولا غرابة اذا رأيناها تسعى جاهدة بكل امكانياتها لتحقيق هذه الاسباب والوصول الى هذه الامنية الغالية

ايها الاخوة :

بعد ان استعرضت ما يرتجى لشبابنــا ، اتوجه الى شباب الجزائر لاعبر لهم عن بعض ما نرجو منهم :

اولا : ان يدركوا ان الجزائــر ، جزائــر الاستقلال ، هى فى طور الشباب مثلهم ، بل فى طور الطفولة ، فوطنهم لم يرتــق الى عهــد السيادة والحرية ، الا منــذ سنــوات ، وفى الواقع انه منذ ان اصبح سيد مصيره قد خطا خطوات واسعة نحو الاستقــرار والتنظيــم فالرجاء من شبابنا الا يتسرعوا والا يقنطوا او ييأسوا ، فنحن على الطريق سائرون، والنجاح آت لا محالة ، ولعل من باب فخرهم أن يعيشوا فى العهد ويراقبوه ، ويسهموا فيه ، ليستعيد وطنهم صفحات مشرقة من مجــده التليــد ، وتاريخه الخالــد .

ورجاؤنا الثانى : على شبابنا ان يدركــوا ايضا ، ان العالم قد اجتاز فى السنوات الاخيرة وسيجتاز فى السنوات القليلة المقبلة مراحــل ومسافــات لم يقطعها طوال قرون عديــدة مضت ، فهذا الغليان وهذه القفزات الجبارة علما ، وتقنية ، وفلسفة ، تولد هزات عنيفــة فى النفوس ، قد تؤثر فى المقومات والمعتقدات والمعطيات ، وهنا يجب مع مواكبة الســير الحفاظ على القيم الاساسية ولا سيما القيــم الخلقية والروحية منها ، نريد من الشبــاب الجزائرى أن يحب الحياة ، الحياة الصاعدة التى توجهه الى ادراك كل ما يستلزمه ووجود امته من دواعى البقاء ، ودعاوى الخلــود ، وفهم كل ما يجمع كيانه من أجل التعبير عــن الارادة القوية المنبثقة من ابعد مطاوى نفسه وخبايا ضميره ، نريد من الشباب الجزائــرى

أن يجدد فى نفسه تعشق القوة ، القوة التى تجعله يحقق فى لحظة واحدة ملايين الاحلام والآمال ، نريد له بكلمة مختصرة الفتوة ، فتوة الروح والجسم ، فتوة المشاعر والخواطر نريد أن تكون الفتوة شارته فى العصر الحاضر ولا يلعب دوره كاملا الا اذا كانت النزاهة غايته ، والاخلاص رائده ، لان كل عمل فى الحياة لا يقوم على الاخلاص ، فهو فاشل ، ولابد أن ينهـــار .

ان الشباب الذى نريده، ونتمناه لهذا الوطن العزيز ، شباب يقضى أوقاته ، بين المسجد والمخبر ، والبحث والتنقيب فى الارض والتنظيم والتدريب فى الثكنة ، فهذه الدعائم الاربع ، لا يقوم بناء أمة الا عليها ، وليس لها بدونها فى الحياة نصيب .

اولا : فى المسجد اتصال الضمير الانسانى بالله جل جلاله ، وهذا يقضى ان تتخذ العقيدة الدينية قاعدة أساسية للتربيـــة الفرديـــة او الاجتماعية ، وهو يحقق غاية الانسانية ، تتسم بالرغبة فى ارضاء الله وحده ، والتضحية بكل شىء ابتغاء وجهه الكريم ، فيصبح القلب عامرا بالايمان ، وتصبح النفس راضية مرضية ثانيا فى المخبر تجرى التجارب العلمية ، وتستطيع الامة بشبابها الذين يدخلون المخابر ، مجاراة الامم الحية ، وتلتحق بركب العلم ، ومن تخلف عن الركب خسر الدنيا والآخرة ، فما لـــه فى الدنيا من نصيب ، وما له فى الآخرة من خلاص وقد جاء فى القرآن : « ولا تنس نصيبك مـــن الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الارض ، ان الله لا يحب المفسدين » صدق الله العظيم .

ثالثا : فى البحث والتنقيب فى خبايا الارض اصلاح وعمران لها ، وقد جـــاء فى القـــرآن الكريم : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، ان الارض يرثها عبادى الصالحون » ، هـــذه سنة من سنن الكون ، ان البقاء للاصـــلح ، ارشدنا اليها القرآن ، منذ قرون ، فالصالحون لعمارة الارض ، هم الذين كتب اللـــه لهـــم السيادة فيها ، اما الذين يعيشون فيها لهوا وعبثا وفسادا ، ليس لهم من السيادة فيهـــا نصيب ، فالصالحون اذا هم البناة ، التقـــاة العاملون العاملون .

رابعا : فى الثكنة مدرسة لرعاية الوطن واذا تسلح شبابنا بالعلم والاخلاق ، والقوة والايمان لا ينطبق عليه قول الشاعر :

عجبـــا لقومـــى والعـــدو ببابهـــم
كيف أستطابـــوا اللهـــو والالعـــاب

هذه ايها الاخوة ، ايتها الاخوات ، بعض الخواطر حول الشباب ، وفى الازمة التـــى يعانيها العالم اليوم ، لابد أن نقول كلمة عن الجامعة ، لان الجامعة تلعب دورا فى اعداد الاطارات لتطوير البلاد . يدخل اليها الشباب ، بعد تحصيلهم الثانوى ، ليتوزعوا على فنون العلم المختلفة فيكون منهم الاستاذ ، والطبيب والمحامى ، والمهندس ، والعالم ، والباحث ، والادارى ، ورجل الاقتصاد ، وغير ذلك .. هؤلاء الشباب بعلمهم ، وايمانهم القوى يسدون الثغرات الموجودة فى هذا الوطن ، ويدفعون به الى الامام ، فى طريق العزة والكرامـــة ، والحضارة التقنية الحديثة ليكون فى مصاف الامم الراقيـــة ، ولقـــد توجهت الى اخوانى الاساتذة والطلبة منذ سنوات ، بكلمـــة قلت فيهـــا :

ان الرسالة الاولى للجامعة الجزائرية ، هى مكافحة التخلف ، والمهمة فى دقتها لا يمكن أن تضطلع بهاالا الاطارات الوطنية ،التى تجمع الى جانب الكفاءة الشعور بالحاجة اليومية للعمل والنضال لتوفير وسائل الحياة الكريمة لجماهير الشعب الذى انبتها ، وبالرغم من الخطوات الكبيرة التى قطعناها الى اليـــوم ، فى هـــذا الاتجاه ، فاننا كلما تقدمنا فى الزمـــن ، ازداد شعورنا باننا ما نزال بعيدين عن الهدف وبانه يجب على هذه المبالـــغ الا تبقى سجينـــة فى الخطب الرسمية ، بل هى مدعـــوة بفضـــل الجامعة ، والجامعة فى الدرجة الاولى ، الى ان تكون كالبذرة متصلة بالحيـــاة ، والنمـــاء نراقب تطورها فنشذبها حينا ، ونطعمهـــا احيانا حتى يصبح اصلها ثابتا وفرعهـــا فى

السماء واننا سنظل حريصين على تحقيقها مهما قلت وسائلنا لان الوسائل قد تتعدد ولكنها تبقى وكلها راجعة الى وسيلة واحدة هى ارادة الانسان .

قلنا ان حقيقة الرسالة التى يجب أن تضطلع بها الجامعة هى مكافحة التخلف فى المجتمع ، ويبدو انه اذا كان كل الناس،عندنا متفقين على هذه التسمية ، فانهم فيما يتعلق بمضمونها يذهبون مذاهب بعيدة عن الاتفاق وأكثريتهم ترى أن مقاومة التخلف بالنسبة للجامعة هى الاكتفاء بتكوين اطارات علمية تقارن بها خريج الجامعات فى أوروبا ، وفى العالم المتقدم ، الذى يسبقنا بمراحل بقطع النظر عن مستوانا الاجتماعى ، والحضارى المتخلف ، وبقطع النظر عما نستطيع أن نهضمه ، أو لا نهضمه من الثقافة ، وما نستطيع أن نستفيد منه ، أو لا نستفيد،فتكون النتيجة فى هذه الحالة ان تخرج الجامعة عندنا اطارات قد تصلح للعالم المتقدم ، الذى قلدناه ولكنها لا تصلح للمجتمع المتخلف الذى نعيش فيه ، والذى نتحمل مسؤولية رفع مستواه ، فمثلا ، الطبيب الذى لا يقرن ثقافته الطبية الحديثة ، بحالة شعبه الصحية ، ولا يعمل على تسليط اضوائها على الهوة المظلمة التى تفصل بين مجتمعه ، وبين تلك الثقافات الحديثة فى مجال الصحة ، ليكشف اقرب السبل ، واقصر الوسائل لسد تلك الهوة ، ولا يبحث ما عند شعبه من أدوية واعشاب صالحة وغير صالحة ، ولا يلتفت الى ما فى تراثه الطبى من تجارب صحيحة او خاطئة،هو طبيب لا يستطيع أن يؤدى رسالته العلمية ، ومسؤوليته نحو مجتمعه .

والاديب او اللغوى الذى يبقى مكتفيا فى مجال اختصاصه بالقواعد والاساليب الرفيعة المعقدة ، التى تعلمها دون أن يهتدى بها الى الطرق التى يسهل بها ايصال هذه الثروة الثقافية الى مجتمعه المتخلف ، ويشركه معه فى مستواه الادبى ، ولا يبحث لغة شعبه ، وما فيها من صحيح وخاطىء ، حتى يصير هذه اللغة ، لغة علم متطورة نامية ، هو أديب ولغوى ، لا يستطيع ان يؤدى رسالته الثقافية ، ومسؤوليته نحو مجتمعه .

ورجل القانون الذى يتبحر فى الفقه الدولى، او القانون الجنائى المسطر فى الكتب ، ولا يسلط معارفه القانونية على المشاكل الاجتماعية فى مجتمعه ، ولا يدرس بها عادات بلاده وتقاليدها ، فيستخرج منها الامراض التى يعانيها مجتمعه ، ويجد لها اقرب العلاجات واسهلها تناولا ، هو رجل لا ينتظر منه أن يكون مصلحا اجتماعيا ، او مشرعا ، لما تفتقر اليه البلاد من انظمة سياسية واجتماعية وادارية ، تتمشى مع وضعه المتخلف وترقى به نحو الخروج من ظلمته القاتلة ، عن مستوى شعبها ، دون أن تعمل على الحاقه بمستواها ، هى جامعة لا تؤدى رسالتها نحو شعبها .

ان كل هذا ، أيها السادة ، يطلق عليه كلمة « الازدواجية » كل مثقف عندنا يعيش هذه المأساة الازدواجية ، دون أن يشعر بها شعورا ايجابيا واعيا ، فيعيش ثقافته فى عالم وحياته العلمية فى عالم آخر ، فاذا بقينا مكتفين بهذه الطرق فى حياتنا الثقافية ، فان الهوة بين المثقفين وبين مجتمعنا لن تزداد الا اتساعا ، لان ما تخرجه المؤسسات الثقافية عندنا من اطارات ، من هذا الطراز ، سيبقى دائما اقلية سلبية ، بالنسبة للاعداد الهائلة، التى تتكون سنويا مع ازدياد المواليد وانتشار الامية ، ولكن من اين جاءتنا هذه الازدواجية؟ لا شك ان هناك اسبابا تاريخية لعبت دورها الرئيسى وجعلتنا ناتى الى العالم المتحضر متأخرين عن القافلة ، الا أن هناك سببا آخر هو استسلامنا العقلى أمام هذا الوضع المتناقض ، الذى وجدنا انفسنا فيه ، اننا استسلمنا من ناحية للتيارات الثقافية الحديثة واساليبها المعقدة ، وادواتها الالكترونية ، ولم نحاول تسخيرها وتبسيطها لفائدة مجتمعنا ، واستسلمنا من ناحية اخرى لتخلف هذا

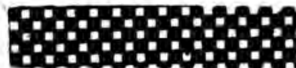
المجتمع ، لاننا عجزنا بروحنا الاستسلامية وبوسائلنا القليلة ، عن الحاقه بالقافلة المتحضرة ، لقد وجدنا انفسنا بين امرين ، اما أن نبقى مع مجتمعنا في تخلفه وعجزه الحضارى ، واما ان نبنى حضارة جاهزة ، غزتنا في بلادنا فقبلناها كما هي لانفسنا فقط في حين ان هناك طريقا ثالثا لم ناخذ به ، وهو تسخير ثقافتنا لخدمة شعبنا ، اى تسخير روح البحث العلمى الذى تعلمناه في دراسة اوضاعنا الاجتماعية والحضارية . اننا حتى الان ، ولا اقصد هنا الجزائر وحدها ، لم نقيم تراثنا الثقافي والحضارى ولم ندرس ما هو صالح منه للحياة والتطور ، وما حكم عليه الزمان بالاعدام والزوال ، وبعد هذا كله ، فلم نستطع المحافظة على حريتنا واستقلالنا، الا بالمحافظة على تقاليدنا وديننا ، واستعمال لغتنا العربية في مخاطباتنا ، وكتاباتنا ، سواء كان ذلك في المنزل ، او السوق ، او في الادارة والدواوين ، بل في سائر الميادين ، وهذه هي الاسس التى قامت من اجلها ثورتنا وبها نجحت وما زالت تعمل في سبيلها رغم كل العراقيل والاباطيل ، وهى المميزات الوحيدة التى تميز هذه الامة عن غيرها من الامم ، فليس بجزائرى من لا يحاول التكلم بالعربية، سواء اكانت فصيحة أم دارجة ، ومن يهجر تقاليد الجزائر ، ودين الجزائر ويتقمص تقاليد اجنبية ، فهو اجنبى عن الجزائر ، وان كان مولودا من اب جزائرى وام جزائرية ويعيش تحت سماء الجزائر ، ويتمتع بالجنسية الجزائرية ، وهذا واقع لا يقبل الجدل ، هذه هى الرسالة المقدسة الملقاة على عاتق شبابنا زيادة على دوره الطلائعى في مكافحة ثالوث التخلف : الفقر ، والجهل ، والمرض .

فعلى شبابنا ، ايها الاخوة ، ايتها الاخوات ان يكونوا في مستوى الامال المعقودة عليهم ، وان يكونوا مواطنين مؤمنين بوطنهم وشعبهم وهذا يتطلب منهم الايجابية في العمل ، فالمواطن الصالح هو الذى يدرك مسؤولياته الكبيرة التى يتحملها ، ويعمل لانجازها ، بوحى من ضمير حى ، اساسه العلم والخلق ، متعاونا متكافلا مع ابناء الوطن جميعا ، وان يشعر بانه جزء من المجتمع ، ويضع مصالح الجماعة قبل مصلحته الفردية .

يا شباب الجزائر : كونوا اصحاب عقائد، تعيشون لها ، لا اصحاب عقائد تعيشون بها ، فان الذى يعيش للعقيدة يبقى حيا خالدا ، ولو اخذته المنية منذ قرون ، اما الذى يعيش بالعقيدة فهو يمشى فوق الارض كمن دفن تحتها :

هذه كلمتى اليكم ، وفي الختام اسال الله تعالى ان يجعل اجتماعنا هذا خالصا لوجهه الكريم ، وان يجعلنا من جنوده الصالحين المصلحين ، وان يمدنا بروح منه حتى تنتصر قضية الاسلام في جميع الميادين .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



* الحرية فى مستوى الاخلاق الراكدة ، تعنى توكيدا مباشرا للذات بحيث لا تعد المسؤولية الا نتيجة لاحقة بها .

* ان حرية الافراد فى جدل الاخلاق الثائرة ، لا تكسب معناها وقدسيتها الا من خلال الاعباء التى يقوم بها هؤلاء الافراد .

* الثورات الكبرى التى تعبر عن انتفاضات حضارية ، تمثلها على صعيد الفكر ثورة فى المفاهيم والافكار ، اى ثورة فى الفلسفة .

* ان الثورة الروحية التى نمر بها تجعلنا نثق ان الوجدان العربى الذى عاش تجربة الألم والتمرد والتضحية سوف يتمخض عن فكر خلاق يتحرق الى الارتقاء بالانسان فى سلم الوجود .

من

خصائص

الثورة العربية

دكتور بديع الكسم

عندما تألق وجودنا العربى بنور من ذاته، وأنوار فاضت عليه ، أضاء الزمان قرونا موصولة ، وحرر المكان من الظلم والظلام ، فتوجهت الحياة، ثم نمت كاشفة عن إمكاناتها، ثم أزهرت ثم أثمرت ، فكان لقاء المشرق بالمغرب ، وكان لقـــاء العقل بالحرية ، وأخذنا نتسلق القمم ونبلور الارادة واقعا صلبا ، وننشر في الآفاق ما كان مطويا في الاعمـــاق .

ولكن المعجزة العربية لم تتحقق مثل فعل بسيط ، أو مثل حركة اليد في الفضاء . لا ، ولم تسلك طريقا لا عوج فيه كأنه خط مستقيم أو شعـــاع من ضوء . وانما كانت تجربـــة ابداع . فكان لا بد لها اذن من أن تخضـــع لمنطق الواقع الحى بكل ما يضج فيه من قوى متحركـــة ، تتعـــــارض أو تتكامـــــل . وكان لابد لها من أن تخضـــع لمنطق المـــادة المقـــاومة ، ومنطق العقل المنظم ، ومنطق الارادة التى ترسم الاهداف ثم تتجاوزها هدفا بعد هدف .

ولهذا كانت التجربة العربية تشق طريقها بالمجـــاهدة والمكـــابرة ، تصطدم بالعقبـــة فتصارعها ، أو تلتف حولها أو تمتصها بقدرة عجيبة كأنها السحر . لقد انطلقت تهـــدم وتبنى ، تساير وتداور ، تأخذ وتعطى ، تكر وتفـــر ، تقبل وتدبر معا كأنها فرس امرىء القيس . فليس عجيبا اذن أن تجفل مـــرة قرب منحدر ، أو تكبو عند صخرة عاتية . ولكن الشوق الذى كان يحدوها ، كان يطيب جراحها ، ويفتح أمامها الافق ، ويدفعها الى أن تبلغ مداه .

نقول بعبارة أخرى . ان بنيـــة المجتمع العربى في الجاهلية كانت تتكون من دوائـــر ضيقة ، مغلقة ، متناثرة ، متباعدة ، ترتكز الى عصبية قبلية وتستهلك طاقاتها دون أن تستولدها . وجاء الاسلام يهدم أسوار هذه العصبية ويقوض بنيـــة معوجة ، يحكمهـــا تناقض يمزق القـــوى الكامنة فيها . ولمـــا انهارت الاصنام تحرر الكيان العربى ، وتجمع حول نفسه ، فتشكلت بنية جديدة يربط بين عناصرها تماسك باطن قوى ، ويوجهها هدف موحد . ثم كانت الفتوحات ، فانفتح الوجدان العربى على عوالم جديدة ، وكان الفعل ورد الفعل ، وكانت التحديات والمجابهات ، ثم كانت من ذلك كله حضـــارة ذات ألـــوان ، حضارة واحدة متصلة ، يغذيها التنافس كما يغذيها التآزر . ومعنى ذلك كله أن الامـــة العربية عبر الزمان والمكان كل موحد ، أو متحد طبيعى يصوغ نفسه في صور متجددة ، وهو في كل صيغة مجسدة يتألف من عناصر ثابتة متحركة ، ثابتـــة في وجـــودها متحـــركة في تطلعاتهـــا .

وهكذا تبلور المجتمع الاسلامى في بنيـــة جديدة كان الوجود العربى بمثابة النواة أو المركز .

ثـــم حلت الفاجعـــة ، فقـــد انزلـــق الوجود العربى من المركز الى المحيط . لم نعد نذكر كيف تم ذلك . كل ما نذكره أن دوامة ملعونة كانت تلفنا وتدور بنا بعنف وحشـــى لتسلمنا الى أمواج مجنونة ، ونذكر أننا كنا نقاوم عبثا حتى ارتمينا على شاطىء مهجور . وغفونا ، ثم أفقنا على أوجاعنا ، وتحسسنا قوانا فوجدنا أن الانهاك لم يستنفدها كلها ، وأن عزيمة فينا مخـــزونة كانت أقـــوى من الفاجعة . وسار التاريخ بنا الى بدء الثورة التى نعيشها اليوم . ونعتقد أننا في اطار هذه الثورة وحدها ، بل بوحى منها : انما نفكر جميعا ، ونعمل .

ان ثورتنا المعاصرة امتداد حـــى للثـــورة العربية التاريخية . ونحب أن نؤكد اليوم على بعض الخصائص التى تميز انطلاقتنا ، والتى تستند الى حـــدس عميق لما بين المبـــادىء الكبيرة من علائق خفيـــة .

فمن ذلك مثلا أن الحق والواجب يمثلان في مستوى الاخلاق الراكـــدة طرفين متقـــابلين بحيث يعتقد الفرد أنه حر التصرف بحقوقه ، بمعنى أنه يستطيع أن يطالب بها كما يستطيع أن يتنازل عنها ، وأن واجباته مفروضة عليه

من خارج بمعنى انه لا يخضع الا بمقدار ما نلزمه ، وان اعفاءه منها يرضيه ولا يسىء اليه، فالحق بهذا المعنى ملك للفرد، والواجب ضريبة يدفعها ثمنا لهذا الحق . ولكن توتر الحياة الاخلاقية الذى يستلزمه كل جهد لتحقيق قيمة عليا يلغى هذا الفاصل بين الحق والواجب ، من حيث هما فكرتان متقابلتان ، ويجعل كلا منهما عنصرا مقوما للآخر .
وعندها لا يحس الفرد بأنه حر التصرف بحقوقه وانما يحس بأنه ملزم بالمطالبة بها ، وبأن واجبه بالمعنى الكامل لكلمة الواجب ، ان يعمل على استردادها فى كل مرة تسلب منه . ان التفريط فى حق من الحقوق ، فى مستوى الاخلاق الثائرة ليس تنازلا مشروعا ولكنه اهمال لواجب . أما الواجب فانه يصبح بدوره حقا من الحقوق ، بمعنى أن الاعفاء منه ووضع العقبات التى تحول دون تحقيقه يعدان فى اخلاق الثورة اهدارا لحق اصيل .

ومن خصائص هذا التفتح الاخلاقى ايضا انه يعمق معنى كل من الحرية والمسؤولية ويكشف عن الرابطة الحقيقية بينهما . **فالحرية فى مستوى الاخلاق الراكدة فى حدود المفهوم الفردى للحياة تعنى توكيدا مباشرا للذات بحيث لا تعد المسؤولية الا نتيجة لاحقة بها .** فشعار الفرد هنا : انا مسؤول بمقدار ما اعطى من حرية . ولكن الايمان بهدف كبير يقلب هذه العلاقة راسا على عقب ويجعل من المسؤولية مبدا اوليا ومن الحرية ثمرة حمل المسؤوليات . ان حرية الافراد فى جدل الاخلاق الثائرة لا تكسب معناها وقدسيتها الا من خلال الاعباء التى يقومون بها ، والانتصارات التى تحققها جهودهم . وهكذا ينقلب الشعار ويصبح : انا حر لانى مسؤول ، بمعنى انى لا اطبع بطابع الحرية الا بمقدار ما اكافح .

ومن خصائص التفتح الاخلاقى انه يرتد بمفهوم العدالة الى اصولها فى الطبيعة والضمير بدلا من أن تظل رهينة الاصطلاح الموقوت . ذلك ان الاخلاق الراكدة تفهم العدالة من زاوية التشريع الوضعى والعادات المستقرة . فبؤس المواطن المحروم



فى نظر هذه الاخلاق ليس انتهاكا للعدالة او ظلما ، وذلك لاستحالة تعيين الظالم ، انه بؤس فحسب قد يثير المواطن الشفقة والاحسان دون أن يجرح حس العدالة فى الضمير . ولكن الاخلاق الثائرة ، لكونها ترتبط بروح النضال المشترك فى سبيل هدف مشترك ، تستطيع ان تكشف فى بؤس المواطن المحروم ظلما يناقض العدالة فى اصولها الطبيعية ، كما تستطيع ان تكشف عن الظالم فى مجموعة النظم الاجتماعية . وعند ذلك يتسامى معنى الاحسان الى معنى تحقيق العدالة . وهنا يكمن منبع اصيل من منابع الاتجاه الاشتراكى .

ومن خصائص الوعى الجديد انه قد ادرك أن الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته الا خلال عمل مشترك مع الاخرين . فالمجتمع هو الجو الطبيعى الذى يتنفس فيه . ولكل مجتمع انسانى شخصية حية دائمة تميزه عن المجتمعات الاخرى وتجعله يتصف بمجموعة من الشروط المادية والروحية التى من شانها أن تطبع تقاليده وتطلعاته بطابع الاستمرار . واذا كانت هناك روابط كثيرة تربط الفرد بالمجتمع ، فان المحبة اكثر هذه الروابط عمقا وشمولا . وذلك لان كل فرد يقدم عن طريق عمله وجهده ، شيئا من ذاته الى مواطنيه . ولا شك ان هذا العطاء المتبادل هو الاساس الاول للمحبه القومية .

ومن خصائص الوعـــي الجديد ايضـــا انه ادرك العلاقة العضوية بين الفكر والثورة . واذا فهمنا من الفكر ههنا نظرة متماسكة الى الحياة في جميع ابعادها ، اى فلسفة ، فهمنا لماذا يرافق النهضة الاجتماعية فكـــر فلسفي يعكسها وينعكس عليها . **فالثورات الكبرى التى تعبر عن انتفاضات حضارية ، تمثلهـــا على صعيد الفكر ثورة في المفاهيم والافكار ، اى ثورة في الفلسفة . قد يقال هنا ان بين الثورة والفلسفة ضربا من التنافر يرجع الى البنية الذاتية لكل منهما . فمفهوم الفلسفـــة قد ينحل في الذهن الى معنى العقل او التعقل ويوحى اليه بفكرة الحركة البطيئة ، بل بفكرة الحركة الدائرية التى تنتقل على ذاتها وتنفصل عن تيار الزمن . اما الثورة فقد تعنى اول ما تعنى تجاوز العقل والمعقول وتحطيم الحركة المتصلة بوثبة في قلب الزمن ، زمن الناس والحوادث والاشياء . الفلسفة في هذه النظرة تساؤل طويل وتامل اطول وتحفظ مستمـــر ، بينما الثورة جواب قاطع فاصل ، وفعل بات ، واطاحة عنيفة بمنطق الوسوسات .**

ولكن يكفى ان نقف عند المعنى الحركى لكل من الفلسفة والثورة ، اى عند المعنى الذى يفصح عن نزوع كل منهما الى ان تتكامل وفق بنيانها العميق ، حتى نكشف التشابه الواضح بينهما . فالفلسفة تفكير . والفكر لا يعمل الا اذا احس بالعقبة وتمرد عليها . ان اخص خصائصه روح نقدية ترتكز الى مثـــل اعلى لتفضح كل خلل ينحرف بالوجود الانســـانى او امكانياته عن دروب النمو المتصل . وبما ان اشكال الانحراف لا تتبدد وتزول كلها الا حين يزول الوجود نفسه ، فقد قدر للفلسفة ان تحمل ، في كل وقت ، علم الثورة المستمر .

ولكن الثـــورة بدورها لا تحقق معناهـــا الا اذا انطلقت من شعور حاد بالفارق الذى يفصل الواقع عن نموذجه في العقل . ان اول شرط فيها هو هذا الوعى المتقد وهذا التمرد الروحى على ما يشوه حقيقة الانســـان . فلابد للثورة اذن من ان ترتوى جذورها بمـــاء الفكر ، ولابد لها أن تنفتح حيث يتطلع الفكر . والثورة بعد ذلك ليست مجـــرد انتفاضة لا تعرف كيف تملك زمام نفسها ، ولا تدرى كيف تحدد وسائلها وخطواتها . انها على النقيض من ذلك لا تكون ثورة حقة الا بمقدار ما تعرف اين تتجه ، اى بمقدار ما تتـــأمل .

بقى ان نقول اذا كان منطق الفلسفـــة لا ينقض منطق الثورة فذلك لان روح هذه من روح تلك ، او لان الواحدة والاخرى تعبيران متكاملان عن نشاط واحد . فالفلسفة لا تقنع بان تحب الحق وانما يدفعها هذا الحب الى ان تبشر بالحق والى ان تحققه في الوجود . وعند ذلك تستحيل الى ثورة . وهذا يعنى ان الفلسفة تمهيد للثورة ، وان الثورة تجسيد للفلسفـــة .

واخيرا فلعل اكبر كسب حققناه خـــلال الخطوات الاولى في ثورتنا المعاصرة اننا عدنا الى ذاتنا عودة واعية خصبة . فمنذ عهـــد ليس بالبعيد كانت لفظة « العرب » رغم كل ايحاءاتها العاطفية ورغم ما تولده في النفس من رعشة الحنين والامل ترمز اول ما ترمز الى اجدادنا العرب في انطلاقهم الكبير . لقد كان هؤلاء يملؤون فسحتهـــا ويستنفـــدون شمولها بحيث لا تصدق علينا نحن الاحيـــاء سكان الوطن العربى ، الا بمقدار ارتباطنا التاريخى بماضينا . فكان شعورنا بالذاتية قد تقلص حتى غدا مشتقا لا اصيلا . ونشأ عن ذلك احساس بما يشبه الضياع . ولكن تفجر الوعى قد رد الينا هويتنا واصبحت لفظـــة العرب تعنى اولا نحن العرب لا هم العرب . ان هذه الوثبة نحو الشعور الملىء بالوجـــود قد جعلتنا اكثر قدرة على مجابهة التحديـــات والصعوبات واكثر وعيـــا لحقـــائق الواقع وقواعد الحركة الصاعدة .

ان الثورة الروحية التى نمر بها تجعلنـــا نثق منذ اليوم ان الوجود العربى الذى عاش تجربة الالم والتمرد والتضحية سوف يتمخض عن فكر خلاق يتحرق اكثر من اى فكر آخر الى الارتقاء بالانســـان في سلم الوجـــود . وذلك لان الروح العربية تؤمن بان للذات الانسانية زيادة على ابعادها الافقية ، بعدا رآسيـــا يصلها باللانهـــاية .

بديع الكسم أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

الأفلاطونية

في فلسفة الجمال عند المسلمين

اتجه الباحثون فى مجال الفلسفة الاسلامية الى ان المشائية او الارسطية هى التى هيمنت على فلاسفة الاسلام ، ابتداء من الكندى (ت ٢٥٢ هـ — ٨٦٤ م) الى ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ — ١١٩٨ م) ولكن الدراسات الاخيرة انتهت الى ان الافلاطونية لا تقل اهمية عن المشائية فى تيارات الفلسفة الاسلامية ، وخاصة تيار التصوف ، الذى نفذ اليه افلاطون ، واحتل منه مكان الصدارة ، الا انه لم ينفذ الى المتصوفة صافيا ، بل شابته عناصر افلاطونية محدثة، وغنوصية فارسية، وعناصر اخرى هندية . وقد درس هذا التيار الافلاطونى فى الفلسفة الاسلامية استاذنا الدكتور على سامى النشار وابان عنه واثبته من خلال النصوص ، والوثائق الصريحة .

ونحن نريد أن نتعرض فى هذه المجالة الى مجال معين ، وهو الفلسفة الجمالية ، وخاصة تصوف ابن الدباغ القيروانى (+٦٩٦هـ — ١٢٩٦ م) .

عمار طالبى

شغل الحب والجمال طائفتين من المفكرين فى تاريخ**الادب الاسلامى** : طائفة الادباء ، وطائفة المتصوفة ، غير ان الادباء اعتبروا الحب ظاهرة انسانية ، تنشأ عن مشاهدة الجمال المخلوق فى مجاليه الطبيعى والانسانى ، فعبروا عن عواطفهم الجمالية فى صور شعرية خلابة ، سواء فى صيغتها الحسية الواقعية او فى شكلها الخيالى الخلاق ، او فى صورة تحليلية حية فى التعبير النثرى .

والغريب ا ن الذين تولوا تحليل هذا اللون من الحب ، ونفذوا الى حقائقه الداخلية ، ومنازعه النفسية ، انما هم الادباء من الفقهاء ، الآخذين بالظاهر ، فى مذاهبهم الفقهية ، ابتداء منمؤسس المذهب الظاهرى، ابىبكر محمد بن داود (ت ٢٩٧ هـ — ٩٠٩) الى ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ — ١٠٦٤ م) ، الى ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ — ١٣٥١ م) السلفى . ولقد نفذ العنصر الافلاطونى فى كتاب ابن داود المسمى بـ « الزهرة » وهو عبارة عن مختارات من الآثار الادبية الرفيعة من شعر ونثر ، ممجدة للحب العذرى ، وطافحة بمعانى الجوى ، والوجد ، والهوى ، والبث ، والشكوى ، والحرقة ، والنوى . اذ ذكر فى كتابه هذا افلاطون ، ونقل نصا من « المائدة » Banquet لافلاطون .

وتسرب من خلال ذلك ، الاثر الافلاطونى الى فيلسوف الجمال والحب ، وأديب الظاهر الاكبر ، ابن حزم الذى يبدو انه اطلع على كتاب « الزهرة » لشيخه وامامه ابن داود ، وافاد منه ، ويستطيع القارىء ان يلمح العنصر الافلاطونى من خلال مطالعته لكتاب ابن **حزم** الرائع الموسوم بـ **« طوق الحمامة »** وقد ورد فى ثنايا هذا الكتاب الفريد من نوعه فى تاريخ الاداب الاسلامية ، نص يعود الى كتاب « المائدة » ايضا ، قال ابن حزم : (قد اعتقد بعض اهل الفلسفة ان اللـه قد اعطى لكل من العقول التى خلقها شكلا كرويا ، ثم جعله قسمين ، ووضع كلا منهما فى جسد) . ان ما ذهب اليه ابن حزم من ان الشبيه ينجذب لشبيهه ، ويسعى اليه ، وأن النفس بما فيها من جمال تشتاق ، وتتوق الى كل ما هو جميل وتهفو الى الاتحاد به ، ليذكرنا بمحاورة افلاطون « فادر » Le phèdre وبما ورد فى المادبة ايضا من المناسبة ، والمشاكلة او المشاركة ، بل يمكن القول بأن نظرية ابن حزم فى الحب قد انتقلت الى اوربا اذ توجد اوجه من التشابه بينه وبين Guillaume d'Aquitaine IX فى كتابه « العلم المرح » Gaie science. وبين الشعراء الفرنسيين المتجولين ايضا كما لاحظ نيكل المستشرق الانجليزى ، وهنرى كوربان المستشرق الفرنسى .

اما الطائفة الثانية فهم المتصوفة الذين اعتبروا الجمال المخلوق الحسى فى شتى مظاهره ، مجلى للجمال الالهى المطلق ، وان الحب الوامق أو العاشق الولهان ، انما ينتقل من الجمال المفرد المنظور ، الى الجمال الكلى اللامرئى .

وان كان افلاطون قد تحدث لاول مرة عن الانسان الجميل الذى يتجلى فيه الجمال المطلق، فان فلسفة المتصوفة فى الجمال والحب قد اكتست صبغة افلاطونية تكاد تكون محضة ، اذ من الجميل بالذات يستمد كل جميل جماله عند افلاطون ، وعند المتصوفة على السواء .

وقد وقع امام المتصوفة السنيين نفسه ، الا وهو الامام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ — ١١١١ م) تحت تأثير افلاطون فى هذا الجانب من فلسفته الصوفية ، وما حبره قلمه الساحر فى كتابه الغنى بالتأملات الفلسفية والتحليلات النفسية وهو كتاب **((احياء علوم الدين))** الذى احتوى على قطعة نفيسة فى تحليل الجمال ، والمحبة والعشق ، اكبر دليل ، واوضح شاهد على ما نقول . اذ طبق فى ذلك كله الجدل الافلاطونى ، تطبيقا كاملا ، واذا كانت مراحل الجدل الافلاطونى متمثلة فى اربع درجات : الجمال الجسمانى ، فالاخلاقى ، فالعقلى ، فالمطلق ، فاننا نجد ما يناظر هذه المراحل لدى الغزالى ولدى ابن الدباغ .

لا نريد أن نتحدث عن جميع المتصوفة ، وانما قصدنا الحديث عن احد الافلاطونيين المغاربة من المتصوفة ، الا وهو ابن الدباغ ابو زيد عبد الرحمن بن محمد الانصارى القيروانى (ت ٦٩٦ هـ — ١٢٩٦ م) صاحب كتاب

« **مشارق انوار القلوب ومفاتح اسرار الغيوب** » الذى حققه المستشرق الكبير هـ . ريتر حينما عثر عليه ضمن مجموعة من الرسائل فى مكتبة ولى الدين فى استانبول يرجع تاريخ نسخها الى ١٧ ذى القعدة سنة ٨٠٦ هـ وهى تقع من ورقة ١ — ٣٩ من المجموعة المذكورة وقد وصلنا من آثار هذا الصوفى ايضا كتاب فى تاريخ القيروان يسمى « **معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان** » وهو الذى اضاف اليه القاسم بن عيسى الناجى (ت ٨٣٧هـ — ١٤٣٤ م) تعليقاته المعروفة .

ان « **مشارق أنوار القلوب ، ومفاتح أسرار الغيوب** » رسالة موجزة فى تحليل المحبة والجمال ، تحليلا عليه مسحة افلاطونية واضحة لا تدع مجالا للشك ، كما يبدو فيها اثر الغزالى ، والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩ هـ / ٩٢٢) الغنوصى الاسماعيلى ، الذى ذكره ابن الدباغ فى رسالته غير ما مرة ، ونقل عنه تعريفه للمحبة وقطعا شعرية عديدة وترحم عليه .

ان معنى الجمال مرتبط فى تصور ابن الدباغ **بمعنى الكمال ، لان معنى الكمال هو سر الجمال ، والكمال هو : « حضور جميع الصفات المحمودة للشىء » غير انه ينقسم الى كمال ظاهر ، وكمال باطن ، فالظاهر يتبدى فى المحسوسات المشاهدة باجتماع محاسن صفاتها ، وهو يختلف باختلاف الاشياء ،** فكمال عالم النبات غير كمال عالم الحيوان ، وكمال الاخير غير كمال عالم الانسان أى أن « كمال كل شىء بحسب ما يليق به » وقد اوضح لنا أوجها من الكمال الظاهر فى شتى الموجودات الحسية فقال : « فكمال صورة الانسان الظاهرة فى تناسب أعضائها واعتدال مزاجها ، وامتزاج البياض والحمرة فى لونها ورقة بشرتها .... وكمال الفرس فى قبوله لما يراد منه ، من الكر والفر ، وحسن تأديبه لكى يتم المقصود منه ، وكمال النبات ، غضارته ونضارته ، وبدائع ازهاره ، واختلاف ألوان انواره » ولم ينس ان ينتبه أيضا الى كمال الصوت وموسيقاه ، فبين لنا أن « كمال الصوت فى رخامته وعذوبته »

وهذه الكمالات الظاهرة الحسية هى مجلى الجمال ، ومظهره ، وبه تعلق النفس بالطبع ، وتميل بالغريزة ، وتنجذب بالمشاكلة أو المشاركة .

اما الكمال الباطن فهو كمال اخلاقى فى حقيقته ، وحاول ابن الدباغ ان يعرفه بقوله : « اجتماع الصفات الفاضلة فى الانسان على اعتدالها ، وتطبعه بها » وحصر الصفات الاخلاقية فى أمهات اربع ، **ألا وهى الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة ، وكمال هذه الصفات هو اعتدالها ، وكمال الانسان أن تجتمع فيه معتدلة ، غير أنه فسر الاعتدال هنا تفسيرا اسلاميا فقال : « واعتدالها بكونها تجرى على قوانين الشرع المؤيد لقضايا العقل»** ولم يمر صاحبنا دون ان يوفق بين الحقيقة الشرعية والحقيقة العقلية فى ثنايا كلامه على حقيقة الحقائق كلها وهذه النزعة فى بيان الفضائل الخلقية نزعة افلاطونية بدون ادنى شك ، وبها قال الغزالى فى كتابه « ميزان العمل » وغيره من الفلاسفة الاسلاميين، وهى النظرية التى انتقدها ابو بكر بن العربى (ت ٥٤٣ هـ / ١١٤٩) نقدا لاذعا ، ثم جاء من بعده ابن تيمية (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧) فبين أنها يونانية ، وان الغزالى لم يزد على أن جاء بميزان يونانى ، والبسه لباسا اسلاميا مكشوفا ، كما فعل بالمنطق اليونانى حيث عبر عنه بمصطلحات عربية اسلامية وزعم أنه استمده من موازين القرآن ، واكبر دليل على ذلك كتابه « القسطاس المستقيم » . وجملة القول أن الكمال الباطنى أو الصفات الخلقية النفسية ، ترجع فى النهاية الى كمال العلم بهذه الاخلاق ، والى كمال القدرة على استخدامها ، والاتصاف بها .

يبنى الدباغ معنى الجمال على معنى الكمال، فيقسم الجمال الى قسمين : جمال مطلق وجمال مقيد ، ويوجد هذا التقسيم عند ابن الفارض ، فى شعره الصوفى ، وفى شعر غيره

من المتصوفين ، فالجمال المطلق هو الجمـــال الالهى ، واما الجمال المقيد فهو : « نور قدسى فائض من جمـــال الحضرة الالهية ، سرى فى ســـائر الموجـــودات علـــوا وسفلا ، باطنا وظاهرا . » وهذا الفيض يذكرنا بفيض افلوطين ، اذ أن هذا الجمال المقيد قد سرى فى اوصال جميع الموجودات عن طريق الاشراق او الفيض وصرح بذلك ابن الدباغ فقال : « فأول اشراق على عالم الملكوت ثم على عالم الجبروت وهو عالم النفوس الانسانية ، ثم على النفوس الحيوانية ، ثم النباتية ، ثم على سائر اجسام العالم السفلـــى على اختلاف أنواعها ، وتباين اجناسها ، فما من ذرة من العالم الا وقد اشرق عليها من هذا النور الالهى ، والجمال القدسى بقدر احتمالها « ولكن هذا الجمال المقيد ينقسم عنده بدوره الى كلى وجزئى ، فالكلى هو ما فاض ، واشرق على سائر المـــوجودات كما سبق أن اشرنا ، اما الجزئى فهو « نـــور علوى يسنح للنفس الانسانية ، عند ادراك الصورة الجميلة الحاصلـــة فى لـــوح الخيال . المنتقش بقلم الحس البصرى . » فهـــو جزئى بسبب انه متعلق بصورة جميلة واحدة ، مدركة عن طريق الحس .

ومن جهة أخرى فانه قسم الجمال المقيد الى ظاهر وباطن ، فالظاهر هو جمال المـــوجودات الحسية ، والباطن هو الجمال العقلى المجرد، وبما أن الجمال نور ، والعقل نور ، فانـــه لا يدرك النور الا النور ، فالحواس لا تـــدرك شيئا من الجمـــال الا مـــع اشكـــال الاجسام واوضاعها ، ولذلك فانهـــا لا تدرك الا مظهر الجمال .

اما ذات الجمال فانها ممتنعة عنها ، ولكن الحواس حين تؤدى ما ادركته الى الخيال ، فان النفس تدرك من ذلك روح الجمال مجردا عن اوضاعه ، وعلائقه ، واشكاله ، ولا يدرك الجمال الحسى الا فى صورة أجسام فى غاية الكمال ، فاذا ما وجد لها كمالها وجد الجمال، وان عدم عدم . وانتهى ابن الدباغ الى تعريف للجمال الظاهر فقال : « هـــو المعنى

اللائح على الهياكل الانسانية التى فى غـــاية كمال الشكل ، وتمام الهيئة » ويتمثـــل الجمال الباطن فى المعرفة الربانية التى تؤدى الى المحبة الحقيقية ، انه ما تشرق به الانوار الالهية على العقول ، وهذا الوجه من الجمال لا يدرك بالحواس،وانما يدرك بالعقل الصافى فهو جمال يتجلى فى القلب المصقول ، المطهر ، البرىء ، ولا يمكن انكار الجمال المعقـــول ، كما لا يمكن انكار الجمال المحسوس «ومن انكر اللذات العقلية فقد عدم البصيرة الباطنية كما أن من انكر جمال الصور الحسية فقد عدم البصر » وقد عبر ابن الدباغ عن صور الجمال بتعبيرات أخرى ، وباصطلاحات مغايرة فالجمال الجزئى سماه « عالم حسن الصورة » والجمال المجرد عن عوارض الاجسام عبر عنه « بعالم صـــورة الحســن » وعبر عن الجمال المطلق بمصطلح آخر هو « الجمال القدسى » . هو الجمـــال الـــذى لا يستحقـــه الا واجب الوجود وبحسب اقسام الجمال انقسم الناس فى ادراكه ، وبذلك ربط بين المعـــرفة والجمال ، وبين الاخلاق والخير ، فقسم الناس الى عوام ، وهم المرتبطون بالجمال الحسى ، وخصوص وهم الذين ادركوا الجمال الحقيقى، ووصلوا الى الله ، وبين ذلك ، من ادركـــوا الجمال الظاهر ، المبدد فى سائر المـــوجودات، ولم يقتصروا على جمال موجود دون موجود ، وهم الذين ادركوا الجمال الكلى ، ولكن ينبغى أن نلاحظ ان ادراك الجمـــال الحقيقى المطلق ليس مكتسبا للانسان ، ولذلك قال ابن الدباغ: « وهذا عسير جدا لانه ليس من كسب الانسان اذ النفس لا تدرك بمجرد ذاتها شيئا حـــتى يمدهاالحق بنوره » ان الله هوالذى يهب المعرفة والوجود ، كما أن مثل افلاطون مبدأ للمعرفة والوجود معا ونرى هنا وجه التشابه الواضح بين ابن الدباغ وافلوطين ايضا ، وذلك فى قول ابن الدباغ : « وانما مثلها (النفس) فى ذلك مثل العين التى هى آلة الابصار لا يمكنها الابصار حتى يتصـــل بهـــا الـــروح الحيوانى المستمد من القلب ، ثم لا تتبين لها الاشياء حتى يشرق على تلك الاشياء نور الشمس ، فتظهر فى نفسها فيدركها اذ ذاك البصر ، كذلك النفس لا تدرك الامور الروحانية حتى يمدها العـــالم

العلوى ولا تظهر لها الحقائق حتى يشرق عليها نورالحق القدسى الواجب لذاته، وهذا امر لا يتوصل اليه الا بالتأييد الالهى » ، ولكن يختلف ابن الدباغ عن افلاطون اليونانى الوثنى فى انه يعتبر الجمال صفة من صفات اللـه ، ويبدو انه يرد على افلاطون حين قال : « واما من احب الجمال واعتقد انه غاية الطلب ، وان لا شىء فوقه اكمل منه ، ولا اشرف ، وجحد رب الجمال الذى الجمال خلق من خلقه ــ كما يحكى عن طائفة من الكفار ــ فهذا كافر بالله عابد وثن » فطائفة لكفار عنده يبدو انها افلاطون واتباعه ممن جعل من الجمال موجودا من موجودات عالم المعقولات ، ومثالا من المثل قائما بنفسه **وهو ما انتهى اليه النظر الفلسفى المحض ، فلم يؤله هذا المتصوف المسلم الجمال ولم يجعله ربا من الارباب ، والها من الالهة كما فعلت اساطير اليونان ، ويمكن لمن يهمه ان يقارن بين الاداب ان يلمح من هذا النص ان المسلمين امكن لهم الاطلاع على اساطير اليونان ولكنهم لم ياخذوا بها لتنافيها مع التوحيد الاسلامى .**

فرق ابن الدباغ بين مصطلحات ثلاثة من اهم المصطلحات الجمالية عنده ، وهى الجمال ، والجلال ، والكمال ، وذلك انه اذا تجلى المحبوب بصفات الرحمة ، والعطف والاحسان، مما يدعو للانبساط ، والانس ، فذلك هو الجمال . واذا تجلى بصفات العز ، والقهر ، والعظمة ، مما من شانه ان يجعل المحب يشعر بالدهشة والذهول ، والضعف حتى تكاد تطمس معالم ذاته ، وتذوب انيته فان ذلك هو الجلال ، اما اذا تجلى له بصفاته الواجبة له من العلم ، والارادة ، والانفراد بالخلق،والغنى المطلق ، فان ذلك هو معنى الكمال .

ومن المعانى الافلاطونية التى اخذ بها ابن الدباغ القيروانى معنى المناسبة ، أو المشاركة اذ قال : « وبقدر هذه المناسبة يكون عشق احدى النفسين للاخرى ، اذ تتصور نفس العاشق انها هى المحبوب ، وان ادراكها لمحبوبها هو نفس ادراكها لذاتها ، وهذا معنى الاتحاد » **واخذ بنظريه المثل ايضا** ، رغم **نقد المشائين الاسلاميين لها ، تبعا لشيخهم** ارسطو ، كما فعل ابن سينا (ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧) فى « الشفاء » قال ابن الدباغ : « واعلم ان اصل التآلف ، التعارف الازلى فى عالم الغيب ، فمن تحققت نسبته هنالك ، ظهرت هنا ، اذ العالم الاسفل ظل للعالم الاعلى ، وهذه الاشباح امثلة لتلك الارواح ، فما من صورة فى عالم الشهادة ، الا وهى مثال لذات روحانية ، من عالم الغيب ، فاذا تحركت تلك الحقيقة هنالك ، لزم أن يتحرك مثالها هنا ، كما ان الظل تابع للشخص فى حركته وسكونه ، فالتعارف هنا ثمرة ما هنالك :

بينى وبينك ذمة مرعية . :
بدات هناك وآخرها هنا »

ان الجمال يؤدى الى التآلف ، والى الحب والعشق ، لان الحب متوقف على المعرفة ، معرفة الجمال والكمال ، ان العشق عند ابن الدباغ عنصر كونى يحكم الكون كله ، حتى عالم الجماد ، « حتى نجد هذا التعاشق بين الجمادات ، مثل الحديد ينجذب للمغناطيس ، وعيون الافاعى تنسلب لحجر الزمرد ، والتبر ينجذب للقهربا ، والزئبق لبرادة الذهب»
وهذا اللون من العشق ، نجده لدى المشائين، لان عالم المادة يتحرك شوقا الى عالم الصورة المحضة ، والعقل المحض ، وهو اللـه عند ارسطو ، ولابن سينا رسالة فى العشق ، كما ان ابن الدباغ اشار الى أقوال بعض الحكماء القدماء ونقل نصامن مأدبة افلاطون، وهو الذى سبق ان اشار اليه ابن داود الظاهرى، وابن حزم قال ابن الدباغ : « ان النفوس خلقت شبه دوائر ، وقسمت كل دائرة منها بين شخصين ، فكل واحد فى العالم يطلب الشخص الذى بهتكمل دائرة نفسه » ونجد فى كتابه ايضا ما يشبه ما ورد فى محاورة « فيدر » لافلاطون « ولهذا قالوا : « الاشكال لاحقة بأشكالها » وقالوا : « القلوب تألف من تجانس وشكل الشىء منجذب اليه » كما قيل .

الى الملا الاعلى سموت بهمتى
كذلك شان الشكل للشكل يجنح

بل نجده ينقل قولا لافلاطون ذكر انه قول لبعض المتقدمين وهو :
« العشق جنون الهى » .

ومن جهة اخرى فانه ورد فى كتابه نص ذو مسحة أرسطية وهو قوله : « قال بعضهم : « كل جوهر فى العالم العلوى والسفلى ، اما عاشق واما معشوق » يعنى : عاشق لمن فوقه ومعشوق لمن تحته ، حتى ان حركة الفلك عند هؤلاء عشقية ، فان كل متلازمين فى العالم انما تلازما بأمر عشقى ، كان ذلك ظاهرا ، او باطنا .

ان المتصوفين امثال ابن الدباغ ينقدون الاتجاه الذى يقتصر على الادراك الحسى ، والادراك الخيالى للجمال ، ذلك ان الادراك عند ابن الدباغ ثلاث درجات : الادراك الحسى والادراك الخيالى ، والادراك العقلى ،فالادراك الحسى أخذ الصورة بحاسة البصر دون تشكل فى الخيال الا بقدر زمان الرؤية ، والادراك الخيالى هو ارتسام صورة المحبوب الذى هو الجميل فى الخيال ، ارتساما ذا نوع من الثبات غير انه لا يلبث ان ينصرم ، ويفنى او يختفى ، واما الادراك العقلى فهو انتقال صورة المحبوب الى ذات النفس ، مجردة عن العوارض لذلك أخذ ابن الدباغ فى نقد الادباء الحسيين ، الذين حبسوا انفسهم فى عالم صور الاجسام وأشكالها ، وفتنوا بتناسب هيئاتها ، وبجمال المرئيات ورونقها وبدائعها ، فهم عنده عوام المحبين ، قال : « فلذلك نجد ارباب هذه المحبة قد افنوا اعمارهم فى ندب الربوع الدارسة ، والبكاء على الاطلال الطامسة ، والحنين الى عرصات الديار ، والتلهف على الكثبان ، والاحجار ، شوقا الى ربات الحجال ، ووجدا على ذات الخال والخلخال ، فقلوبهم بنار الوجد على المغانى محترقة ، ودموعهم ، اثر الظاعنين مستبقة ، يتزايد وجدهم عند رؤية الهوادج تحملها الجمال ، ويتجدد غرامهم لمعاينة الآثار بين احجار ورمال ، كل هذا من غلبة الوهم والخيال ، فان الوهم يخيل لهم ان عين الجمال المطلوب هو حسن الهيئة الحالة فى الاجسام ، ليس وراء ذلك شىء ، فاستحوذ هذا الوهم عليهم حتى عشقوها ، واتلفوا نفائس نفوسهم فيها ، فأعماهم عشقهم عما وراءها من الجمال الحقيقى ، المتجلى عليها ، الذى هو رسول عالم القدس الى النفوس الزكية . »

ولعل الشعراء الذين طردهم افلاطون من جمهوريته كانوا على شاكلة هؤلاء الشعراء ، الذين نقدهم صاحبنا ابن الدباغ ، لانهم تعلقوا بالخيال ، وتمسكوا بالظلال ، والاوهام ، ولم يستطع الجواد الذى قاد عربتهم من أن ينال جمال الحقيقة الابدية الثابتة ، الذى لا تندرس معالمه ، ولا يغيض ماؤه على مر الزمن .

واذا كان لنا أن نربط مفهوم الجمال عند المتصوفة بمفهومه عند المعاصرين فاننا نجد أن ابن الدباغ يذهب الى أن الجمال ليست له صلة بالنفع بل هو أمر زائد على النفع ، يتمثل فى الانس به ، وفى الاستمتاع او اللذة الروحية قال ابن الدباغ : « ولهذا نأنس بالحيوان ، ونلتذ بأصوات الطيور الرخيمة ، ونستحسن اجياد الظبا ، والحاظ المها ، اكثر من عيون النوار ، وأغصان الاشجار ، ولذلك نجد كثيرا من الناس يحب شيات الخيل ، وتناسب اعضائها ، وهو زائد على المنفعة المرادة منها » بل يذكر لنا أن طائفة من الامم القديمة عشقوا بعض الحيوانات لجمالها فعبدوها ، واتخذوها آلهة « ولهذا نجد طائفة من الامم من شدة افراط عشقهم لجمال الحيوان البهيمى عبدوه ، كما يحكى ذلك عن طائفة من الكفار من جهال الامم ، اذ لم يكن لهم نظر الى صانعها الذى وهبها ذلك الجمال . » بل ان جماعة أخرى عبدت النار وهم المجوس ، وآخرون أحبوا الحجارة وعبدوها وهم الهنود ومن تابعهم على ذلك من الروم والعرب ، وعبد بعض الاعراب الشجر ، ومعنى ذلك ان البدائيين هم الذين يتعلقون بالجمال النافع ويعبدونه ، اما من ترقى ادراكه فانه لا يتعلق الا بالجمال ، من حيث هو جمال .

عمار الطالبى
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

ملاحظات



نحو تعريف

الفكر الذاتي

محمد العربي ولد خليفة

- ١ -

على الرغم من غيوم اليأس والشك التـي لفت سماءنا غداة الخامس من جوان ١٩٦٧ وفى زحمة الاعترافات وما تلاها مـن مراثـى «وعكاظيات» يلاحظ المترصد للواقع العربى الراهن خيطا رقيقا من الامل يلوح فى الافـق البعيد ... انـه مطالع الفكر الذاتى الـذى يؤذن بأنبلاج ليلنا عن صبح جديد وينبئى باننا على وشك الخلاص من متاهة الخيبة والضياع التى هوم تفكيرنا التقليدى فى مساربها طويلا فما هو يا ترى هذا الفكر الذاتى الذى سوف يصقل أنيتنا ويوقد جذوة الاصالة فيها ؟

لقد عودنا المنطق التقليدى قبل الشروع فى تناول موضوع أن نبادر الى تعريفه وتحديد ماهيته وتصنيفه الى أضرب ثنائيه تتقابل بالتضاد وهى سنة « مدرسية » شغف بها العقل منذ امد طويل ولم يشذ عن هذه القاعدة حتى المحدثون وبعض المعاصرين فنحن لا نكاد نفتح كتابا أو نطالع بحثا فى موضوع ذى صلة بشؤون الفكر وشجونه حتى يواجهنا فى الصدارة تعريف جامع مانع يسطر الحدود ويشرع البنود . غير أننا لن نسارع الى صياغة تعريف يحدد المقصود بالفكر الذاتى بقدر ما نعنى بتعرف مواقعه وتتبع مسيرته وتحسس بواكيره ، ولعل مما يسوغ ذلك ان حد الشىء يكون تاليا لمعرفته والالمام بأطرافه وضبط مجال انتشاره .

واذا تفاضينا الآن عن المشاكل التى يواجهها مثل هذا البحث على المستوى النظرى وارتأينا مع كـ . ليفين بأن **النظرية الصائبة هى خير ما يمكن التقدم به الى الحياة العملية وان العلم ليس أكثر من فعل صناعة العلم »** اقول اذا تغاضينا عن ذلك لاحظنا أن السمة الاساسية التى تستثنى الانسان من عالمى الالة الصماء والحيوانات العجماء ، هى الشعور بالذاتية او التفرد فان الانسان كما يقول اريك فروم هو الحيوان الوحيد الذى يستطيع أن يقول انا والذى يستطيع أن يكون مدركا لنفسه بأعتبارها وحدة مستقلة فالحيوان جزء من الطبيعة وداخل فيها وليس له وعى بنفسه وليست به حاجة الى الاحساس بذاتيته أما الانسان فلانه ينفصل عن الطبيعة ولانه يتمتع بالعقل والخيال فهو بحاجة الى تكوين فكرة عن نفسه وبحاجة الى أن يحس بذاتيته .

وادراك المرء لانيته لا يتم بالطفرة اوالقفزة الفجائية بل هو يمر بمراحل يكون ــ الانا ــ فى أولاها مندمجا فى النحن غير متميز عنه فلا يتبين الرضيع حدود جسمه والفواصل القائمة بينه وبين ما حوله من أشياء ثم تعقبها مباشرة مرحلة ثانية تتحدد فيها معالم الانا وتصبح الذات وسيلة وغاية فى آن واحد فكل شىء يدرك من خلالها ويتجه فى النهاية اليها . الا أن انتفاء الذات مثل التمركز حولها لا يحل المشكلة بل يضعها فى صورة أخرى ، فلابد اذن من العودة مرة ثانية الى النحن . ويبدو ، كم وكيف المسافة التى ينبغى أن يقطعها الانا فى اتجاه النحن وكأنها محور الاهتمام وقطب النزاع فى الفلسفة ومختلف العلوم الاجتماعية .

وبدون أن نوغل فى فحص اشكال هذا النزاع ومضامينه التى افتتحها سقراط بمقولته المشهورة **((أعرف نفسك))** فان الفكر الفلسفى ما فتئى منذ ذلك الحين يتردد فى التوفيق بين طرفى المشكلة يغريه القالب المثالى الواحد والصورة الثابتة فوق كل تغير ويقلقه التنوع والتفرد الذى تكشف عنه منابع الحياة وتكسوه برونق الجدة والثراء . فلا رضى هذا الفكر بالوجود المجرد فى الاذهان ولا هو قنع بالوجود المشخص فى الاعيان وقد بقيت المشكلة معلقة طوال العصور الوسطى المسيحية فكان السؤال الذى يتردد هو : من نحن ؟ وعند الاجابة يدخل الفرد نفسه فى اطار الطبقة التى ينتمى اليها أو الدور الذى يؤديه فىنطاق نظام اجتماعى سرمدى ، وهى كما يظهر نظرة سكونية (ستاتيك) تهيم بالمطلق والثابت وراء العارض والجائز ، فالانسان أكرم المخلوقات وسيدها بيده زمام الكون الذى استخلف عليه ودنياه فى يد ملك قويم واخراه فىحصن الكنيسة الحصين والسبيل الوحيد لنجاحه اليوم وخلاصة غدا هو أن يسلم أمره الى سيد يسوسه وينسلخ عن انيته لتحقيق غاية أعظم هى الخير الاسمى والحقيقة الثابتة .

غير أن هذه النظرة السكونية ومحاولة الالتحام بالنحن تبدو فى تاريخها أسبق من ظهور المجتمع **الاقطاعى** ، فان الانثروبولوجيين يشيرون الى هذه النزعة عند البدائيين الذين يعرفون أنفسهم بالانتماء الى قبيلة أو بالولاء الى أحد بطونها أو بالاندماج فى فئة من فئات السن فيها وكل خروج عن ذلك يستتبع اللعنة والنبذ ويستحق مقترفه العقاب .



ر ـــل

ولم يكن عجبا والحالة هذه أن يستيقـــظ الفكر الحديث على صيحة لم يالفها منقبل تقلب النسق التقليدى راسا على عقب ويصبـح الانا فيها مفتاح الطمانينة وجســـر الامـــان الى الحقيقة ، تلك الصيحة هـــى المقولـــة الديكارتية التى رجمت شيطان الشك وفاضت باليقينات من مجرد الوعى بالانية والعودة الى تامل باطن الذات .

غير أن الانقلاب الديكارتى على الواقعيـــة الارسطية السائجة لم يلبث أن أذعن الـــى تصورية اعتقادية تسير فى خط مواز لفلسفات الماهية أو النحن ويمكن تعليل هـــذه الـــردة بجملة أسباب :

١ ـــ ان التصور الديكارتى للانيـــة لـــم يكن الا تعبيرا منظما عن المزاج الفكرى السائد فى عصره عندما بدأت البرجوازية الاوربيـــة تقتحم الميدان تحمل بميناها اليسر والثـــروة وتحمل بشمالها الكفاءة ولم تكن بحاجة الى حذف التصور القديم للانيه بقدر ما هـــى فى حاجة الى تعديله لتفسح لنفسها مكانا بـــين صفوف الارستوقراطيـــة المتراجعـــة عـــلى اعقابها فقد اخـــذ نجم « الـــدم الازرق » فى الافـــول . وقـــد فســـر **« كارل مانهايـــم »** هـــذه الظاهرة فى مؤلفـــه الذائع الصيت ـــ **الانسان والمجتمع** ـــ فهو يقول ما مؤداه : اذا استرجعنا الاشـــكـــال الجوهـــرية لانتخـــاب الصفوات التى ظهرت على مسرح التاريـــخ الى الوقت الحاضر أمكننا أن نميز ثلاثة مبادئى الانتخابات على أساس الدم والثروة والكفاءة /كان المجتمع الارستوقراطى يختار صفواتـــه طبقا لمبدأ الدم اولا وبالتدريج اضاف المجتمع البرجوازى الى ذلك مبدأ الثروة الذى ثبـــت أيضا بالنسبة للصفوة المفكـــرة فقـــد كـــان التعليم ميسرا لابناء الاغنياء وحدهم ، حقـــا ان مبدأ الكفاءة قـــد اقترن أحيانا بالمبدأيـــن السابقين فى عصور سابقة الا أنه اليوم يوشك أن يصبـــح معيـــار النجـــاح الاجتمـــاعى فى الديمقراطية الحديثة .

وبذا كتكون عند ديكارت تلوينا خادعـــا لنفس الصورة التقليدية اذ لم تكن فى الواقـــع سوى منفذا مفتعلا وحلا مؤقتا يعيد الـــذات الى غياب قمقمها القديم .

وكأنى به يقول فى النهاية على لسان سلفه الصالح افلاطون الحمد للـــه الذى جعلنـــى انسانا لا حيوانا واغريقيا لا متوحشا وسيدا لا عبـــدا . . . !

٢ ـــ يتضمن الانا عند ديكـــارت بعـــدين فحسب هما الذات والفكر فهو كلما شـــك أدرك أنه يفكر ولا ريب أن الذى يفكر هـــو حتما ذات موجودة غـــير أن هذا الكشـــف لا يعطى للذات صفة التفرد الخلاق الا اذا أضفنا اليه بعدا ثالثا هو العمق او الشعور اذ أن الاقتصار على التصـــور الثنائى الديكارتى يجعل الانسان كائنـــا وسطـــا بـــين الالات والعجماوات يشبه الاولى عند تلقيه المثيرات ويقترب من الثانية عند الاستجابة لها .

ان حذف الحد الاوسط أو العمق يلقى بنـــا فى غمار النزعة الميكانيكية الفجة التى طـــاب لها أن ترى فى الانية مجرد تلقى وارجاع آلية حقا ان المعرفة امتداد للحياة عبـــر الزمـــان والمكان امتداد يكتسب لونه ومذاقه من التنظيم الحيوى الذى يعطيه وهو الذى يسبغ عليـــه تلك الشحنة الذاتية التى نسميهـــا الخلـــق والابداع ولذلك ينبغى القول مـــع بياجيـــه أن الـــذات والفكـــر لا يستوفيـــان وحدهما أبعاد المنظومة الانيه **الا اذا توسطهما** العمق وبذلك يضاف الى الصورة الثنائيـــة للمثير والاستجابة بعدا ثالثـــا هـــو التمثيـــل بالشكل التالى :

مثير تمثيل ـــ استجابـــة او (ر ـــ أ ـــ س)

واذا كان ديكارت قد قرع باب الانيه دون أن يلجه فان مفكرا آخر قريب العهد به قد احس أكثر بوطأة المشكلة فاضطرته لوقفة اطول انه فيلسوف المانيا جوهان جوتلب فيشته (١٧٦٢ — ١٨١٤) الذى سجل موقفه فى مؤلفه غاية الانسان (١٨٠٠) الذى صاح فيه بذاته قائلا : **تكلمى أيتها الروح العجيبة فمهما كنت سانصت أسالى وسأجيبك** وكان الجواب ذا حدين أولهما يمركز الانا ويعطيه القوة **الباطنية** وثانيهما ينتشل — الانا — من التمركز ويوجهه نحو المحيط بدون أن يخرج عنه أو بمعنى اوضح ان الانا يكافح سلبيته بالارادة وعندئذ تتحد الشحنة النفسية أو التجربة المباشرة للذات بصفتها المنطقية . فيجيب فيشته عن سؤال تطرحه عليه الروح مؤداه : كيف وعن طريق أى شىء تعرف انك متأثر ؟ قائلا : « والانا هو الذى يجيب » يصعب على أن أجد تعبيرات استعين بها فى اجابتى لان وعيى باعتبار أنه ذاتى وباعتبار أنه تعين للانا فى حدود كونى كائنا عاقلا على العموم يقع مباشرة على هذا التأثير كما لو كان يقع على شىء يعيه أصلا ويتحد به بطريقة لا تقبل الفصم والحقيقة أنه لا يحدث فى الوعى بصفة عامة الا اذا وصل الى هذا التأثير ومعرفتى لهذا مماثلة لمعرفتى للانا .

لقد تصور فيشته الانية على انها احتكاك بين الانا واللاانا يحدث جزء منه فى الباطن لكن أثره لا يرى الا فى الاطراف وهو بذلك قد « ابتلع » أناه وسار بطريقته الخاصة فى ركب الديكارتية وغمرته الكانطية ، فأخذت بلبه النزعة التوفيقية فى الفلسفة النقدية ، فسجد فى محرابها ولم يجد بدا من اعطاء الانا دور التركيب القبلى لكل ما يدرك فى نطاق الزمان والمكان غير أنه لم يال جهدا فى اطلاق العنان الذات لتعطى أكثر مما تأخذ وتبذل أكثر مما تتلقى ولعل هذا ما جعله ينكر على معاصره العملاق عما نويل كانط تصوره للواجب على أنه تقبل الامر الواقع والسير فى ركابه اذ ليس فى الامكان أحسن مما كان ، فلا يكون الانا عند فيشته حقيقيا الا اذا كان فعالا مناضلا ، كما أوضح ذلك فى خطبه النارية الى الشعب الالمانى .

وعلى أى حال كان لا بد من مضى زهاء قرن يطوف فيه الفكر بهذه المشكلة ويتصورها فى أوضاع مختلفة لا تخرج فى مجموعها عن حلقة مفرغة يتجه الفكر نحو الانا بقدر ما يتراجع عنه فكان أشبه براكب الارجوحة يندفع الى الامام بقدر ما يتقهقر الى الوراء ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة خارج التنظيم الاجتماعى الذى ساد فى أوروبا منذ القرن السابع عشر حتى مستهل القرن العشرين الذى دار فيه صراع مرير لا هوادة فيه بين مبادئى الدم والثروة والكفاءة بين الارستوقراطية والبرجوازية « والقطيع » بين الفردية والتفرد والتجانس والفجوات الكامنة بينها .

وقد حدد **هارولد لاسكى** معالم هذا الصراع فى حديثه عن نشأته التحررية الاروبية : ان البرجوازية التى اخذت معها وهى تتقدم افكارا ومبادىء لم تكن تقصد تشجيعها انها فى حاجة الى دولة زمنية متسامحة ولكى تصل الى هذا النوع من الدولة كان عليها أن تهدم بناء الوحدة اللاهوتية الذى كانت تقوم عليه . والذى انبعث من زواله البطيئى الدولة العلمانية ولكى يحقق البرجوازيون هذه الازالة كان عليهم أن يقبلوا فلسفة جديدة تقضى فى النهاية على المبادئى الدينية التى يعتنقونها والتناقض بين (باكستر) و (هوبز) وبين (ديكارت) و (بوسويه) حاسم فى هذا المجال . ان البورتيانى والكاثوليكى يتلهفان مثل رجل العصور الوسطى لوضع حدود لبحث العقل ولامبراطورية الاشياء الارضية ان كلا منهما يدرك نصف ادراك انهما يقومان بمهمة مستحيلة فالفيلسوف الكاثوليكى والانكليزى المؤمن بالله دون الوحى قد يقبلان الواجب التقليدى لزمنهما ، وقد يكونان حذرين أو حتى خائفين فى طريقة تعبيرهما ولكن كلا منهما ذلك واجهة نصف تقليدية مفتون فى الواقع بالشعور بأمبراطورية لا حد لها للعقل تصنع من الفرد سيدا لهذا العالم ، بالبحث لا بالوحى وببحث النفس لا بالايمان . وكان

فيلسوف العصر لا يقل عن رجـــل الاعمـــال ادراكا للقوة التى يمكن ان يصل اليها وهـــو يعرف ايضا أن شرط الوصول اليها هو أن يترك وشأنه ان الفردية الاقتصادية لاحدهما تناظر الفردية العقلية للاخر .

وفى ظل هذا الوضع بلغ التفاؤل أقصى مداه ورضيت مختلف الفلسفات بما غنمته فى هذه الجولة التى أصبحت فيها المعرفـــة خادمـــا للثروة والثروة حامية للذات وبذلك قدم التفرد قربانا على مذبح الفرديـــة .

وما ان لاحت تباشير هذا القرن حتى أتضح أن هذه النزعة قد ظلت سواء السبيـــل وأن أملها لم يكن أكثر من وهم باطل يحمل فى طياته الخيبة والضياع وكان عليها أن تختار أحـــد اتجاهين فهى اما أن تضرب عن الفردية صفحا وتولى وجهها شطر طريق آخر واما أن تغرق فيها وتتعلق بأهدابها طلبا للانية وهو مـــا حاولته الوجودية بمختلف اتجاهاتها التـــى رفضت علم النفس التقليدى الذى يضحـــى بالفرد فى سبيل النوع ويتلهف لصياغة قوانين عامة تذوب فيها الذاتيـــة وتتلاشى الانيـــة ولتحقيق ذلك لا بد من الانكباب على المشخص والفردى فى انفسنا اى ان نبدأ بالفينومونولوجى فيها فنصف الوقائع الوجدانية التى تكابدهـــا الذات والخلجـــات الباطنية التى لا تنـــالها مناهج علم النفس ووسائله العتيقة يقـــول ــ لويس لوفيل ــ فى تقرير هذا المبدأ الذى يتفحص الانية من الداخـــل ما مـــؤاده : **ان الفلسفة لا تخترع شيئا وهى فى كل واحد منا ذلك الوعى بالوجود وبالحياة هى ذلك المجهود الفكرى الذى نحاول به أن نصل فى أعماقنا الى منبع وجود يبدو أنه فرض علينا فرضـــا دون أن نستشار فيه والذى نقبل رغم ذلـــك أن نتحمل أعباءه ،** ان هذا الوجود الذى قـــد يعرف كل آلام الوحدة والعزلة هو فى حاجـــة الى العالم كله لكى يستند اليه ويدعم به انـــه فى علاقة مع كثير من الموجودات الاخرى هى علاقة تبادل لا ينتطع من اللذات والجـــروح تحاول ان تقبض على ناصية الواقع من الداخل بواسطة فعل من افعال المشاركة الوجدانية الحية بدلا من ان تعطينا عن الواقع منظـــرا خارجيا نكون نحن أنفسنا عنه غائبين .

فالانية اذن ليست اكثر من فعل يتقـــدم يضمنه دوا مالاختيار ويجذبه سراب الحـــرية التى يشيدها ذلك الفعل بالانخراط فلا تذعن الذات لمسلمات العقل ولا للقيم المفروضة عليها بل عليها أن تسير فى ليل حالك وتكتشف طريقها خطوة خطوة وتتحمل فى سبيل ذلك وحشـــة الوحدة ومغبة العثرات وفى نهاية المطاف لا تجد الذات ضالتها لان الطريق طويل يستغرق العمر كله وقد تصادف فى احد منعرجاته الموت فيطويها العدم لقد جعلت هذه النزعة الانية مطلبا يتحقق بالموت أى لكى يتحقق ينبغى أن ينعدم ويزول فكان الانسان هنا اشبه بدابة علق علفها أمام أنفها فهى تشم رائحته ولكنها لا تزال تطلبه حتى تهلك جوعا .

ان الانية الوجودية وليدة الازمة التى اناخت على أوربا غداة الحروب الطاحنة التى شهدت ضراوتهاوويلاتها لاول مرة فقد كانت الحروب السابقة كما يقول سترنبرغ ما عدا الحـــرب السبعينية (١٨٧٠ ــ ١٨٧١) قد نشبت كلها « خارج حدود العالم الاروبى المتحضر » وكانت الفكرة السائدة ان الحرب بين القوىالصناعية الكبرى أمر مستحيل ومن هنا كانت الحـــرب العالميةالاولى مفاجأةمؤلمة للملايين منالاروبيين واتضح للمفكرين بالدرجة الاولى انهم يعيشون فى عالم هش سريع الانهيار ولا سبيل لاصلاح شأنه الا بالالتفـــات الى الوجـــود الـــذاتى والمجاهدة فى سبيل تحقيقه وراء القيود وعبر الســـدود .

ان فكرة الخلاص المسيحية تعـــود مـــرة أخرى وتجد أصداءها العميقـــة فى الانيـــة الوجودية ولكنها فىالواقع فكرة جوفاء ترمى الانا فى صحراء قاحلة لا مسالك فيها ولا دروب لا يجد فيها واحة الامان الا بعد أن يخر صريعا وتحـــرقه الرمضـــاء .

ولعل هذا الطريق المظلم المسدود هو الذى جعل راسل فى حديثه عن المجتمع القادم يرسم صورة أخرى فيها ومضة أمل تخترق سحابة اليأس وشعاع يتلـــوى خلف حجب الحـــيرة فالعالم الذى نعيش فيه فى رأيه ــ عالم تبرز امكانياته أكبر الامال وأبشع المخاوف بدرجـــة



متساوية والاحساس بالمخاوف منتشر جدا ويعمل على خلق عالم كئيب غير مطمئن اما الامال فلانها تحتاج الى خيال وشجاعة فهى أقل وضوحا فى عقول معظم الرجال ، وهى تبدو خيالية لا لشىء الا لانها غير واضحة وليس هناك ما يعترض الطريق سوى نوع من الكسل العقلى فاذا تغلبنا عليه فان الجنس البشرى لديه السعادة فى متناول يديه .

لقد اشتبك الفكر الاروبى مع ذاته فى مواقع كثيرة خرج منها فى كل مرة وهو يجرر أذيال الخيبة لقد كان يبتعد عن فهم الطبيعة الانسانية كلما امعن فى الغوص فيها ، ولا يمكن فهم هذا الفشل الذى جعل عضلاته تتضخم وقلبه يضمر خارج الشروط النفسية والاجتماعية التى نما فى ظلها وترعرع .

وهذا التأويل لا يخل بالموضوعية فالعقل نعمة ونقمة فى آن واحد تمتد بدرجة متساوية الى العالم المادى والانسانى فهو يتعامل مع جزئيات الاشياء مثلما يتعامل مع الموقف الايكولوجى بأجمعه ولكى يدخل فى علاقة مع التنظيم الاجتماعى لابد أن يدخل بادئى ذى بدء فى علاقة مع نفسه اى أن يعى ذاته وبالتالى فان الفكر وحدة تتعمس مع الاشياء والاشخاص والعلاقات بمنظور واحد تختلف عدساته ولا يتغير جوهره الا ان كل ذلك لا يمنعنا من القول مع — مانهايم — بأن ادراك العلاقة بين الفكر ومحيطه الاجتماعى وبؤرته النفسية ، « لا ينقص مطلقا من قيمة الفكر أو المعرفة فى حد ذاتها » ولا يقلل من فاعلية الافكار أو يحد من وظيفتها اذ ان اعتبار الافكار حقائق مجردة ومعلقة مستقلة عن معطيات الزمان والمكان قد يؤدى بنا الى مخاطرة تعيدنا مرة اخرى الى المفهوم السكونى وتجعل الفكر أشبه بشجرة برزت عروقها من الثرى فانقطع عنها الغذاء وحرمت اسباب الحياة والنماء .

* * *

لقد أسالت هذه القضية الكثير من المداد وتقارعت فى معمعتها الاقلام وليست هذه الجولة الخاطفة أكثر من قفز حثيث بين القمم والان يمكن أن نستعيد السؤال الذى صدرنا به هذا الحديث ولكى نتمكن من الاجابة لا بد أن نتفحص على ضوء ما سبق محتويات الواجهة التى طالما عرضها فكرنا التقليدى لنتبين ما تعج به خليفتها من وهج الاصالة أو بهرج التبعية والاستلاب لقد اتى على هذا الفكر حين من الدهر استمد فيه حقائقه من مال مآخر غريب من ذاتيته يكن له فى اعماقه حنينا ممزوجا بالرهبة والاستسلام . فاذا نطق جاك بيرك فذلك هو الحق المبين واذا صرح سارتر أو كتب ماركوز فذلك هو القول الفصل ولم يبق سوى الشرح والتأويل والتهليل والتكبير ، لقد بقى ابن خلدون نشازا فى عصره مغمورا فى العصور التى تلته حتى قيض الله له رجالا من الغرب وعندئذ فقط أنكب عليه القوم نهشا ومضغا فأصبح بين عشية وضحاها شيخ المؤرخين وامام المفكرين الاجتماعيين فان كارل فينشر وكومت ودور — كايم ومن لف لفهم ليسوا اكثر من حجاب على بابه **الم يكن تراثنا الحضارى كله بالامس القريب نسيا منسيا يزدريه البعض ويعتكف البعض الاخر فى صومعته حتى بعثه من سباته ونفض رفوفه سدنة العلم الاشداء ! لقد غرق هذا الفكر التقليدى فى التبعية الى الاذقان فالهاه الانبهار عن ذاته فاخذ يضرب فى كل اتجاه ويغير الاقنعة والمساحيق وبعد أن اعياه التوهيم وجد نفسه لا هو هو ، ولا هو غيره .**

محمد العربى ولد خليفة
استاذ علم النفس بجامعة الجزائر

ان مبدا الاجتهاد يحث عليه الواقع الانسانى فى الحياة ، وهو مبدا مقــرر فى الشريعـة الاسلامية السمحة .

نشأة المدارس الفقهية فى الإســلام

د: عبد القادر زبادية

تنصرف كلمـــة (**الفقــه**) فى اللغة للدلالة على معنيين ، يوجزهما الشريف الجرجانى فى كتاب (التعريفات) بقوله : الاول : ــ مطلق الفهم ، يقال فلان ، يفقه الخير والشر ، اى يفهمه . والثانى : ــ فهم غرض المتكلم من كلامه ، وهو اخص من المعنى الاول .

ويذكر الباحثون أن كلمـــة (فقــه) قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم عشرين مرة ، أما فى مصـــادر التشريع الاخرى ، فقد ورد ذكرها كثيرا ، وفى كل ذلك كانت الدلالة منها تنصرف الى مصطلح أخص ، يعنى به عـــادة الاحكام الدينية والاحاطة بها ، ســـواء ما تعلق منها بالعبادات أو المعاملات أو السلوك الخلقى المنسجم مع روح الاســـلام .

ويتفق الباحثون فى تاريخ الفقه الاسلامى على أن الفقه بهذا المعنى نشأ من الحاجة الى حل المشاكل التى تعترض الناس ، سواء فى حياتهم العملية أو فى أمور ممارستهم لفروض العبــادة . وكانت نشأته تستند الى اعتبار

مبدئى يتعلق بحقيقة الاسلام ، من حيث كونه دين شمول ، لا يقتصر على أمور العبادات وحدها ، وانما يتسع للمعـــاملات وضروب السلوك التى لا مندوحة للفرد عنها أثنـــاء احتكـــاكه بالآخـــرين من ابناء مجتمعـــه أو الغربـــاء عنه .

والنقطة التى ينطلق منها وجود الفقـــه الاسلامى منذ البداية ، كانت تجد مظنة لها فى أن مصادر التشريع الاساسية لا يمكن أن تحتوى من التفاصيل ما يغطى كل القضايا ، وانما تحتوى منها فى الغالب الادلة العـــامة فقط . ومن هنا فان لفظ (الشريعة) هو أعم من لفظ (الفقـــه) ، والفقه ما هو الا جزء متعلق بهـــا .

وبالنظر الى أن الفقه ينصرف مدلوله العام الى القضايا التفصيلية المتعلقة بالشريعة ، فانه كان قد وجـــد منذ البداية ، وفى أيـــام الرســـول صلى اللـــه عليه وسلم بالذات . ومع نشوء الفقه ، ظهرت الملامح الاولى لما يسمى بـــ (المـــدارس الفقهيـــة) فى تاريخ التشريع الاســـلامى ، ولا يعنى بالمـــدارس الفقهية الاختلاف أو التباعد بينها ، وانما يعنى بها الطرق المتبعة من قبل الفقهـــاء فى تفريع المسائل واستخراج الاحكام لها .

ويذهب جل الباحثين فى هذا الموضوع الى حصر جميع المدارس الفقهية فى فئتين اثنتين ، همـــا :

١ ــ مدرســـة اهل الحديث ،

٢ ــ مدرســـة اهل الراى .

أما مدرســـة أهل الحديث ، فطريقـــة اصحابها فى العمل ، هى أنهم يلتزمون بمنطوق النصوص الى حد كبير ، ولا يجيزون لأنفسهم الاجتهـــاد فى توسيع مدلولهـــا الا فى نطاق ضيق جـــدا .

وأما مدرسة اهل الراى ، فان أصحابهـــا يلتزمون ايضا بالنصوص ، ولكنهم أكثر من غيرهم اقتناعا بفـــائدة التوسع فى مدلـــول النصوص وتفريع المسائل عنها .

واذا كان الفرق دقيقا كما نرى بين طريقتى اصحاب المدرستين ، فان مما يجب أن نلاحظه فى هذا الصدد ، هو ان اصحاب المدرســـة الاولى ، قد ظل وجودهم مرتبطا بالحجاز أكثر وبئة الحجاز بقى نظام العيش فيها يتســـم بالبساطة ، ومعظم المشـــاكل التى تعترض حياة الناس بها كانت قد وجدت لها الحلول المناسبة فى الغالب منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم . أما اصحاب الـــرّاى ، فان مدرستهم قد ارتكز وجـــود رجالها غالبا فى الامصـــار أى خـــارج اقليم الحجاز ، حيث ملتقى الحضارات القديمة واحتكاك الشعوب التى كانت تختلف مشاربها فى الماضى .

ومن هنا ، فان البئة كا لها دور هـــام فى طريقة كل من المدرستين ، وأن الاساس لكل منهما كان قد وجد منذ أيـــام التشريع الاولى ، بكل تأكيد . ففى أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، كان التنزيل هو المعول عليه بالدرجة الاولى . فى حل المشاكل التى تعترض حيـــاة المسلمين ، وكان المسلمون كلما أعوزهم الامر الى معرفة حكم اللـــه فى شىء ، هرعوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان اما أن يلبى حاجتهم فى الحال ، او يستشير أصحابه ويأخذ برايهم ، ثم ينتظر التنـــزيل ، أو أنه يجتهد رأيه وينتظر التنزيل .

وبما أن الرسول صلى اللـــه عليه وسلم قد عمل بكل هذا ، فان فى علمه ذلك ، البذرة المثمرة الاولى ، لكل من تينك المدرستـــين الكبيرتين فى الفقـــه الاســـلامى .

وتتمثل أمامنا تلك الاسس التى اختطهـــا الرسول بنفسه ، فى أن النصوص هى المعول عليها بالدرجـــة الاولى ، غير انه فى حـــالة وجودها بشكل شديد الاختصار مثلا ، أو عدم وجودها بالمرة ، فان على المتفقهين فى الدين ان يبذلوا جهـــدهم فى تفـــريع الاحكـــام من النصوص بشكل تكون فيه الاسبـــاب والعلل واضحـــة فيما يتعلق باستنادها الى حكـــم شرعى عـــام .

والثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعمد الى تشجيع أصحابه على مثل هذا الاجتهاد ، وقد فعل ذلك فى عديد من المرات ، وكان هدفه من ذلك ، أن يعودهم على حـــل المشاكل التى قد تبدوا أمامهم ، وما أكثرها ، على ضوء الاحكام العـــامة فى الاســـلام

ومن امثلة ذلك ، ما روى من أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين هم بارسال معـــاذ بن جبل الى اليمن ، قال له : كيف تفعل ان عرض لك قضاء ؟ قال : اقضى بما فى كتاب اللـــه . قال له : فان لم يكن فى كتاب اللـــه ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال له : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال اجتهد رايى ، لا آلو . ثم ذكر معاذ بعد هذا ، ان الرسول صلى الله عليه وسلم ضرب على صدره قائلا : « الحمد للـــه الذى وفـــق رســـول اللـــه ، لمـــا يرضى رسول اللـــه » .

وفى مناسبة أخرى ، دفع الرسول صلى اللـــه عليه وسلم عمرو بن العاص ليفتـــى بحضرته فى نزاع كان قد رفع أمره الى الرسول بحضـــور ابن العـــاص . وقد استنكف ابن العاص على ان يقضى بين الناس فى حضرة الرسول قائلا : الجتهد وأنت حاضر ؟! فقال له الرسول : « نعم ، ان اصبت فلك اجران ، وان اخطأت فلك اجر » . وكان سعد بن معاذ الصحابى المعروف ، قد اجتهد رأيه فى قضية بنى قريظة ، فقال له الرسول : لقد حكمت فيهم بحكم اللـــه . اما على بن ابى طالب رضى الله عنه فقد روى عنه وكيع فى (أخبار القضاة) أنه قال : بعثنى النبى صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، فأزبى قبائل الناس زبية الاسد ، فأصبحوا ينظرون اليه وقد وقـــع فيها ، فتدافعوا حول الزبية ، فخر فيها رجل فتعلق بالذى يليه وتعلق آخر بآخر ، حتى خر فيها اربعة ، فجرحهم الاسد ، فتناوله رجل برمح فطعنه ، واخرج القوم منهـــا ، فمنهم من مات ومنهم من جرح وهو حى ، فماتوا كلـــهم ، فقالت قبائل الثلاثة لقبيلـــة الاول : هاتوا دية الثلاثة ، فانه لولا صاحبكم لم يسقطوا فى البئر ، فقـــالوا : انما تعلق صاحبنا بواحد ، فنحن نؤدى دية واحد ، فاختلفوا حتى أرادوا القتال بينهم .. فأتيتهم ، فقلت : أتريدون أن تقتلوا انفسكم ورسول الله صلى الله عليه وسلم حـــى ، وانا الى جانبكم ؟! انـــى قاض بينكم بقضـــاء ، فان رضيتموه فهو نافذ بينكم ، وان لم ترضوه ، فهو حاجز بينكم ، فمن جاوزه فلا حق له ، حتى نأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو اعلـــم بالقضاء منـــى ، فرضوا بذلك ، فأمرتهم ان يجعلوا دية من الذين شهدوا البئر ونصف دية وثلث دية وربع دية ، فقضيت ان يعطى للاسفل ربع دية ، من اجل انه هلك فوقه ثلاثة ، ويعطى الذى يليه الثلث من اجل انه هلك فوقه اثنـــان ، ويعطى الذى يليـــه النصف ، من اجل انه هلك فوقه واحد ، ويعطى الاعلى الذى لم يهلك فوقه احد الدية ، فمنهم من رضى ، ومنهم من كره ، فقلت : تمسكوا بقضائى ، حتى تأتوا رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم .. فوافوه بالموسم ، فلما قضى الصلاة ، جلس عند مقام ابراهيم فســـاروا اليه ، فحدثوه بحديثهم ، فاحتبى ببرد عليه وقال : انى اقضى بينكم ان شاء الله فقصوا عليه القصة، فأجاز رسول الله القضاء كما قضيت بينهم . اهـ .

ومن كل ما سبق ذكره ، فلعلنا نستطيع أن ننتهـــى الى عـــدد من النقاط التى كانت بمثابة الاسس الاولى التى ارتكز عليها وجود المدارس الفقهية الاولى وهى :

١ — ان النصوص لا يمكن أن تتوفر بشكل يحتوى التفاصيل لحـــل جميع القضايا التى يتعرض لها الفرد والمجتمع فى الحياة ، ولكنها تحتوى على المبادىء العامة ، وهذه المبادىء يستطيع المتفقهـــون ان يفرعـــوا عنهـــا ويستخرجوا منها حلولا للقضايا الجزئية ، وهو ما يسمى بالاجتهـــاد .

٢ — ان مبدأ الاجتهاد يحث عليه الواقع الانســـانى فى الحياة ، وهو مبدأ مقـــرر فى الشريعة الاســـلامية السمحة .

٣ — وبالنظر لما سبق ، فقد بدأ الاجتهاد لاستنباط الحلول المناسبة لمشاكل الناس فى أيام الرسول صلى اللـــه عليه وسلم ، وكان فى ذلك البـــذرة الاولى ، لنشـــأة الفقـــه ، ولنشأة المدارس الفقهية الاولى . أما عن تطور تلك المدارس ، فذلك مما سنتعرض له فى مقال قادم بحول اللـــه .

ـــ د . عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر

اللغة العربية

طرق تكييفها ومناهج تعليمها

لقد اثار منذ زمان بعيد جماعة غير قليلةمن المربين والادباء مشكلة تبسيط النحو العربى على الخصوص ، وتكييف اللغة علىوجه عام ، ثم اصلاح تعليمها من جهة اخرى. وتعددت المحاولات للحصول على اللغةالمثالية والمناهج التربوية الناجحة رغم النية الطيبة التى كانت تحفز هؤلاء المجددين ورغمجهودهم المحمودة لحل هذه المشاكل الخطيرة كانت النتيجة ضعيفة المفعول قليلة الفائدة .والذى يبدو لنا ان هذه الجماعة من المصلحين كانوا يعملون بغير عقيدة تماما او عقيدة غيرمنبثقة من الواقع وبدون علم سابق بمايرجع الى نواميس التطور اللغوى واسرار النظامالذى بنيت عليه الالسنة البشرية .

عبدالرحمن حاج صالح

وأكثرهم ذهب مذهب المقلد غير المتروى . فمنهم من يظن مثلا ان النحـو الـذى اتخذه الاوربيون لتدريس لغاتهم صالح ايضا للغـة العربية لا لشىء الا لانه يدرس فى بلدان راقية ولانهم وجدوا بعض الشبه بين المفاهيم النحوية والحال ان هذا النحو الذى وضعه اليونانيون للغتهم وقد اقتبسته روما وانتشر بعد ذلك فى أوربا كلها ــ قد عابه كل العلماء الغربيين فى زماننا وما راوا فيه كبـير فائدة بالنسبة الى اللغات الاوربية الحديثة وخصوصا بعـد ما حصلوا على هـذه الحصيلـة العظيمـة من المعلومات اللغوية الدقيقة بفضل تقدم العلوم اللسانية فى القرن العشرين . ورغم ذلـك فان المجددين العرب اخذوا يستوحـون من كتب النحوالمدرسية الجارية استعمالهافى الغرب (١) بعض المفاهيم ظنا منهـم ان هـذا احدث ما توصل اليه العلم الحديث فراحوا يستبدلون اصطلاحا بآخر كاستبدالهم كلمة « مفعـول » بكلمة « تكملة » وتركوا المشاكل الحقيقية على ما كانت عليه فبقيت الى ايامنا هـذه بدون حل .

وهذا الذى قلناه من التقليد نقوله ايضا عما اتسمت به حركة التأليف والترجمة فى موضوع اللغة من نزعـة غريبـة . فـقد روج بعض المؤلفين العرب فى زماننا هذا آراء ونظريات ومعلومات شتى تخص قضايا اللغـة والشىء الغريب أن هذه المعلومات النظرية ترجع كلها الى ما لا يقل عن نصف قرن ، راجت فى أوساط اللغويين الغربيين ثم تعداها العلماء وتداركوا ما فيها من نقصان أو فساد منهجى أو غير ذلك من النقائص وما كانت الا مرحلة من مراحـل التطور العلمى فاتخذها العرب فى زمـاننا هذا ــ اى فى النصـف الثـانى مـن القرن العشرين ــ على ما كانت عليه ابان ظهورها وشيوعها وقدموها لجمهور الدارسين على أن ان هذاايضا احدث ما توصل اليـه العلـم الحـديث (٢)

وزاد الطين بلة أن الهيجان العاطفى الذى تصطبغ به غالبا الاعمال العشوائية صار كأنه مشروع بمبداين : الدعوة العامة الى التعريب وقضية استعجال الحلول وايجاد الوسائل . فهذان المبدآن لا ينازع فى صحتهما أحد مـن الناس . الاول مبدأ شريف الغاية بل هو ما يصبو اليه جميع العرب والثـانى معقول لان موكب الحضارة والعلم لا ينتظر المتخلفين . الا ان الغاية والوسائل شيئان مختلفان . فاننا بالنسبة الى اللغة العربية فى حاجة مسيسة الى عقيدة علمية سليمةومؤاتية لعصر الرحلات الفضائية والالات الالكترونية.فان هذه العقيدة ينبغى ان تعتمد على الواقع المشاهد، المعنوى والمادى منه ، اعنى بذلك نزعـات الشعوب العربية العميقة من جهـة ومن جهـة اخرى الامكانيات الجبارة التى تكسبهـا فى الوقت الراهن العلوم الحديثة وتكنولوجية هذا النصف الثانى من القرن العشرين .

فأما النزعات وما تصير اليه الشعوب اثناء تحولها الذى نشاهده الان فهذا حقيق بالدرابسة

(١) نخص بالذكر النزعـة التاريخية التطورية التىاتسمت بها العلوم الانسانية فى القرن التاسع عشر فى اوربا ، فقد كان معظم العلماء فى ذلك العصر يرجعـون كل موقف العلماء اليوم وبين اولائك الباحثين من النظرة غير التاريخيه من هى صانحة للبحث العلمى . وهيهات بين العلماء اليوم وبين اولائك الباحثين من النظرة التاريخية البحتة .

(٢) ونعنى بذلك العلم الذى ماله العمل والانجاز وهويسبق بالضرورة كل عمل مفيد او يقترن به ، ولا نعنى العلم كما يتخيله بعض العلماء « الشعراء » الذين دعوا الى العلم من اجل العلـم . فهذا من تركـة الثقـافة اليونانية الارستوقراطية .

لانه يمكننا من ان نستنبط من ملاحظاتنا لهعددا من الثوابت او كما يسميه قدامى علمائنا بعض « الاصول المستمرة » تشبه شيئا ما القوانين الطبيعية وعليها نستطيع ان نعتمد فى تخطيط عمليات التعريب لان جهلها يؤدينا الى التعارض والتناقض معا فالاليق بنا ان نكشف عنها ثم نسخرها طبقا لاهدافنا .

اما العلم الحديث فلا يمكن ابدا ان يتجاهله اى واحد فقد غـزت الفكـرة العلمية جميع المفكرين وجميع الميادين وتبوأت مكانها فيجميع المشاريع الاجتماعية والاقتصادية فلا سبيل ابدا لردها . واعنى بذلك فكرة الباحث المعاين المستنبط القائس الذى لايترك اية جهة مـن جهات نشاطه عرضة لخطر الحكم الـذاتى ولا يسمح ابدا لنفسه ولا لغـيره بالتسـاهل فى احكامه ومقاييسه . هو الذى يتشدد فى تطبيق مبدأ الاجتهاد المتواصل كما فهمـه العرب فى القديم . هو الذى يتحرج من المجازفة فى القول ولا يتحرج من قلب الاوضاع النظرية اذا اقتضى الحال وايقن بالدلائل القاطعة انه لابد من ذلك . هو الذى يرى انه قد يضطر الانسان الى هدم ما كان قد ابتناه غيره ولكن يرى مع ذلـك ان الهدم اسهل بكثير من البناء وان كانت العمليات الهدامة قد تحتاج الى ايمان راسخ واعمـال جدية فان البناء يحتاج الى علم ومهارة وفطانة وكفاءة زيادة على الايمان والعمل الجدى

فخلاصة القول ان ما يجب اعتقاده برسوخ هو ان الوسائل لبلوغ اهدافنا لابد وأن تكون علمية بحتة (٣) لا عاطفية ديماغوجية لانه اذا جاز للاهداف ان تصطبغ بالعاطفة فهـذا لا يضرها لانها الدافع والمحرك . اما الـوسائل واساليب العمل فانها لا تنجح ولا تبلغ غايتها الا اذا كانت موضوعية لا خيالية رومانتكية .

ان الغاية التى ينشدها كـل عربى هى ان تكون اللغة العربية مثل اللغات الاوربيةالراقية على الاقل او مثل ما كـانت عليـه فى زمان ازدهار الحضارة العربية ومعنى ذلك انه لابد من ان تكون :

— **فى متناول الكافة** : من خواص وعوام والا تخص طبقة دون طبقة وهذا يقتضى قـابليتها للنشر فى المصانع والمعامل الكبرى .

— **أداة تعبير عن جميع الاشياء وفى جميع الميادين** والا تكون لغة ادبية فقط او لغة عادات فقط او لغة فن خـاص . وهذا يستلـزم من الناطقين بها ان ينزلوا بها الى ميدان المعاملة اليومية والتخاطب الادارى وغيره .

اما من الناحية العلمية فانه ينبغى ان ننظر الى مشاكل اللغة من زاويتين مختلفتين :

— الاولى تخص مادة اللغة وجوهرها .

— الثانية تنظر الى طرق تلقينها .

ولا شك ان هذين المظهرين وان كـانا مختلفين الا انهما مرتبطـان اشد الارتباط فى مضاعفة المردود التربوى وذلك لسببين :

الاول هو ان تعليم اللغة لا يتم بوسـائل تربوية فحسب بل بعلاج سابق للمادة الملقنة فليس كل ما فى اللغة يصلح لان يلقن المتعلم المبتدىء وخصوصا الصبية فان فى اللغـة — وفى النصوص المحررة التى يستعملها المعلم — شواذ وشـوارد لغويـة كثـيرة كشواذ المفردات والتراكيب التى كان يقل استعمالها

حتى فى عهد الفصاحة (اى فى عهد الفطـرة اللغوية) وفى اللـغة متـرادفـات كثيرة تعـوق المتعلـم فى تخطيـه الاكتسابى للمفـردات وفى اللغـة كلمـات وصيـغ قديمة مماتة يجهلها المثقفون انفسهم (٤) وهى

---

(٣) كما انه ليس كل ما فى علم الجبر مثلا — يصلح لان يلقن متعلموه — فان هناك من يحتاج الى مفاهيم اخرى تمهد له السبيل الى ذلك ، وهناك من لا يحتاج منه الاعلى قدر ينتفع به فى حل بعض المشاكل الخاصة ، وهناك ايضا مفاهيم جبرية قدمت بحيث تعداها العلم الحديث الى ما هو ارقى منها او على الاقل ما هو افيد بالنسبة الى المشاكل الحيوية الكبرى ، وذلك مثل ما تجده بين الجبر التقليدى والجبر الحديث ، فهذا الاخير قد اصبح اداة لا مثيل لها فى يد الباحث .

(٤) اما دراسة هذه الشوارد والاطلاع على اسرارهافهذا يهم المختصين وهو مفيد جدا اذا اعتبرناها ظاهرة كسائر الظواهر الطبيعية . اما المتعلم فاهتمـامه يتجهنحو شىء آخر غير هذا ، لانه يريد ان يكسب فى اقرب وقت ممكن ومن اخصر الطرق وانجعها اداة للتعبير واداةلاكتساب المعارف التى تنقصه .

اثار بالية يوجد ما يقوم مقامها وما يغنى عنها فى الكلام الفصيح الشائع المشهور . ولو كانت كل هذه الاشياء مما يحتاج اليه المتكلم ولم يوجد على الاطلاق ما يقوم مقامها من الالفاظ الشائعة لما كانت عائقا للمبتدىء بل كانت تكون حينئذ من الادوات البيانية التى لا يستغنى عنها الناطق وتحصيلها امر ضرورى لانه سد لفراغ فكرى لغوى والاهتمام الذى نلاحظه عند المتعلمين بتحصيل هذا النوع من الالفاظ ناتج عن الحاجة وليس من الاعمال الترفية فى شىء

والسبب الثانى هو أن الدراسة العلمية للغة تفضى بالمعنيين بها الى اصلاح النظرية التربوية وتوجيه المعلمين فى استعمال أساليب التلقين اللغوى . لان دراسة الكيفية التى يتم اجراء المتكلم لاليات اللغة بما فيها المظهر الفيزيولوجى والمظهر الوضعى البنائى وغيرها من وجهات نظر البحث العلمى قد توحى للغوى منهاجا خاصا فى اكساب المتعلم هذه الاليات وهذا السلوك اللسانى . فيستفيد معلم اللغة من دراسة اللغوى لظاهرة التخاطب فوائد نظرية هامة ترشده وتوجهه فى نشاطه التعليمى

ان العلاج « ٥ » الذى نريده يمس كما قلنا المادة اللغوية ونحن نشاهد أن التغييرات الاجتماعية والسياسية قد جعلت الامة العربية — من قرون طوال — تختلف لهجاتها احيانا اختلافا شديدا وذلك لانعزالها ، بعضها عن بعض وتطور كل لهجة على حدة . لا شك أن الاختلاف اللهجى كان موجودا يوم انتشرت القبائل العربية فى خارج شبه الجزيرة (٦) الا ان هذا التطور الذى يصيب كل لغة قد زادها تفاوتا وهذا الذى يجعل كل لهجة فى زماننا غير صالحة لان تكون لغة التفاهم بين الشعوب العربية ومن ثم استحال ان تكون اية واحدة منها لغة الدراسة لان ذلك يؤدى — طبعا — الى انعزال كل دولة عربية عن الاخرى وقطع الصلة الروحية والثقافية والاجتماعية بينها بصفة نهائية ثم قطع كل صلة بالماضى وبالتراث العربى العظيم . ومهما كان من أمر فان اختيار لهجة معينة حتى فى داخل بلد واحد سيكون مجرد تحكم بل ظلما واقترافا على الامة العربية .

بالنسبة الى اللهجات الاخرى لانه ليس لاية لهجة عربية فضل على غيرها لا من حيث التأثير والنفوذ المعنوى ولا من حيث الغلبة السياسية او الاجتماعية . فكلها فى ذلك سواء

غير أن هذه اللهجات التى يتخاطب بها أصحابها فى معاملاتهم اليومية والتى ابتعدت عن اللغة الفصحى المشتركة ابتعادا ملحوظا ما هى ألا امتداد للهجات الفصيحة القديمة التى أتت بها القبائل النازحة وعلى هذا فان جل مفرداتها وكثيرا منتراكيبها فصيحة فى جوهرها واحيانا حتى فى صيغتها ولولا التغيير الصوتى العميق (٧) الذى طرأ عليها لما راينا فيها الا اختلافا يسيرا ينحصر فى استعمال بعض الالفاظ فى غير ما وضع لها من مدلول . الا ان هذا التنويع فى أداء العربية لم يمنع من ان يكون مجرد تنويع لمادة واحدة وجوهر واحد ولذلك لا ينبغى ان يستهان بالمادة اللغوية التى تشترك فيها جميع اللهجات الحالية لكونها محولة فى صورتها عن الاصل الفصيح . لان كل ما هو مشترك وأصيل فى نفس الوقت فهو من التراث اللغوى

---

(٥) نعنى بهذه اللفظة : العملية التحويرية والانتزاعيةذات المقاييس العلمية كمعالجة الاختصاصى فى علم الافادة لمجموعة من المعلومات المخرومة فىالبطاقات يتعرض لها بالتركيب والتصنيف والاحصاء وغير ذلك من العمليات المعقدة . وكمعالجة النحاة العرب لماكانوا يأخذونه من فصحاء العرب فيحللونه ويرتبونه ويحصون مفرداته وتراكيبه .

(٦) اختلاف فى الفروع لا فى الاصول كما يقول ابن جنىانظر الخصائص : ١ — ١٤٤ .

(٧) وقد سبب هذا التغيير الصوتى سقوط الحركاتالاعرابية وكثيرا من الحركات الضعفية المختلسة ومن ثم اختزلت الكلمات من حيث مبناها وتغيرت الصيغ الفعليةبخصوص . وسبب سقوط الاعراب جمود الترتيب فى داخل الجملة وغير ذلك .

الذى يجب الاحتفاظ به بل الحث على استعماله قبل غيره بشرط واحد فقط وهو ان يوافق النطق الفصيح ويتفق مع مقاييس اللغة (٨)

والواقع ان هناك لهجات محلية ولغة مشتركة — ولا نعنى بها لغة التحرير والكتابة بل لغة المشافهة — يخاطب بها كل عربى عربيا آخر من قطر آخر شقيق يحاول فيها — ما استطاع الى ذلك سبيلا — أن يتجنب المفردة او التركيب المحلى الذى ربما لا يفهمه مخاطبه وهذا يتفاوت بين الاشخاص .

وقد نمت وترعرعت هذه اللغة الفصيحة منذ ان ازدادت الاتصالات المباشرة بين الناطقين بالضاد كثرة وخصوصا بعد استقلال الدول العربية . وبما انها وليدة الاحتياج الاجتماعى المسمى بالتفاهم والتخاطب والاتصال اللغوى فكأنها بعث للتخاطب الشفاهى الفصيح الذى تقلص ظله منذ ان انزوت الشعوب العربية وتقوقعت . ونحن لا ننكر أن تكون هذه اللغة المشتركة قد تأثرت باللهجات المحلية والحق أن التفاوت كبير جدا بين المتكلمين والمتخاطبين المنتمين الى دول مختلفة فمن محسن لا يعثر لسانه الا قليلا ومن مقصر تتغلب عليه لهجته المحلية وهذا يرجع الى عدم نضوج الوضع اللغوي واذا صح لنا ان نتنبأ فانه يمكننا ان نقول انه لا يبعد الزمان الذى سنرى فيه ظاهرة التوارد اللغوى تتحقق دفعة واحدة بفضل انتشار الثقافة وذيوع المناهج العلمية .

فهذه اللغة الفصيحة المشفوه بها الحية النشيطة هى الاداة التى نريد تدوينها وتقنينها ما دامت هى العربية الفصحى فى أنشط عناصرها وأشدها حيوية بما فيها من صيغ سليمة اقتصادية ونطق سليم واعراب خفيف غير ثقيل (٩) .

ونستطيع بناء على ما سبق ان نستخلص مبدأين رئيسيين هما غاية النظرية العامة التى سيبنى عليها عملنا التحويرى :

(١) مبدأ استمرار اللغة العربية وبقاء كيانها

ان اللغة الاساسية — او الرصيد اللغوى الاساسى — التى سوف يبنى عليها التعليم فى البلدان المغربية يجب أن يستوفى شرطين حتى تحقق وتستمر الصلة بين الناطقين بالضاد زمانا ومكانا وهذان الشرطان هما :

— ثبوت هذه اللغة فى العربية الفصحى القديمة ،
— الاشتراك فى الاستعمال بين كل الشعوب العربية او اكثرها .

٢) مبدأ حيوية اللغة العربية

لا يمكن بحال من الاحوال أن يسهل تلقين هذه اللغة للمتعلم — **وخصوصا الصبية** — الا اذا كانت حية شائعة مشهورة او على الاقل قابلة للذيوع لاجل علاقة لفظية توجد بينها وبين لغة التخاطب اليومى الناتج عن احتياج حيوى .

ولربما صعب او تعذر التوفيق بين المبدأين فحينئذ يلجأ الى اثبات الكلمة او التركيب الأكثر شيوعا وان لم يثبت فى اللغة القديمة لعدم وجود المدلول أو المفهوم الموضوع له اللفظ فى ذلك الزمان على شريطة ان يكون اللفظ المحدث او المولد يجرى على قياس كلام العرب . وفى عكس هذه الحالة اى اذا لم يتم الاتفاق عند أكثر المتكلمين فى كلمة او تركيب ، اعتمد على اقرب الالفاظ الفصيحة الى الافهام او اكثرها دورانا فى لغة التحرير وان لم تكن

---

(٨)أثرت كتب البلاغة فى عهد الانحطاط أيما تأثير فى نفوس المعلمين وكان لها اسوا تأثير مع الاسف، اذ ظن اكثر المعلمين بعد ذلك أن الكلمة او التركيب الذى هو مبتذل فى ألسنة العامة — حتى ولو كان عربيا فصيحا — يجب اجتنابه وطرحه من التعبير البليغ لا لشىء الا انه تكثر العوام من استعماله .

(٩) ليس من المعقول أن يعتقد ان فصحاء العرب كانوا ينطقون كما ينطق اليوم المعلمون وكثير من المثقفين عند تشدقهم ومط حركات الاعراب وعدم الوقف ابدا على متحرك واشباع الحركات التى كانت تختلس (كما يفعله أكثر المعلمين فى المدارس فى تعليم النحو وعذرهم فى ذلك — وهل لهم عذر فى تعقيم وتوعير العربية ؟ — انهم يحاولون دائما تنبيه المبتدئين على نوعية الحركة الاعرابية من ضم وفتح وكسر) .

جارية على الالسنة فى التخاطب اليومى لعدم وجود لفظ فصيح مشترك . ولا تثبت من الالفاظ الكتابية الا ما يتبادر الى السامع لاجل علاقة بين الصيغة والمعنى يسهل ادراكها لوجودها فى لغة التخاطب .

هذا ويجدر بنا أن نتساءل كيف يتم علاج المادة اللغوية المراد تلقينها للمبتدئين؟او بعبارة اخرى ما هى الوسائل العملية التى تساعدنا على التدوين والتحوير(١٠)واستخراج العناصر اللغوية المفيدة فى تعليم اللغة فى ابتداء الامر ؟

لقد شاهدنا ان اللغويين العرب كانوا قديما يقيسون على الكثير الشائع ورأينا ان اقيستهم وقوانينهم قد بنيت على كثرة الاستعمال كما رأيناهم ايضا يجوبون الافاق فى داخل الجزيرة العربيــة وفى ارض الفصــاحة لجمــع اللغة وشاهدنا ايضا الغربيين ـــ وهم شديدو الاعتناء بلغاتهم ـــ قد اعتمدوا فى استخراج النمــاذج اللغــويــة الصــالحــة للتلقــين علــى هذه المفــاهيم والمنــاهج بعينهــا فــذهبوا يلاحظون المتخاطبين اثناء اتصالاتهم ويأخذون من افواه الناطقين اللغة الحية النشيطة ثم احصوا ـــ كما فعل اسلافنا ـــ مفردات وتراكيب لغاتهم . فوضعوا رصيــدا اســاسيا للتعليم واستمروا فى ذلك منذ بداية القرن العشرين الى ايامنا هذه ولم يتم بعد هذا العمل بالنسبة الى بعض اللغات الاوربية القليلة الذيوع .

اما فيما يخص اللغــة العــربية ورصيدها التعليمى فاننا نرى استخراجها بالكيفية الآتية :

تقوم فى كل بلد جماعات من الاختصاصيين بتحريات لغوية (يتوزعون على مختلف الاقاليم والنواحى فى ذلك البلد) وذلك بحسب التوزع اللغوى الاجتماعى وبالاعتماد على مخطط سابق لهذا النوع من العمليــات ومناهج البحث فى ذلك ، هى المناهج الحديثة وهى عبارة عن تسجيلات صوتية لمحاورات وخطب وكل كلام عفوى لا تكلف فيه . ويضاف الى هذا تحر آخر على شكل قوائم من الاسئلة يجيب عنها المتكلمون الموثوق بعربيتهم ونعنى بذلك من عرف بصحة استعمالهم للعربية على اختلاف طبقاتهم واجناسهم . ولابد من اختيار دقيق لهؤلاء واختيار البيئات . كما تجرى تحريــات اخرى فى اوساط مختلفة لا تشترط فيها صحة الاستعمال للغة الفصحى وذلك للحصول على القدر المشترك الفصيح بين اللهجات العربية ويجرى ذلك بنفس الطريقة .

وعندما يتم هذا البحث ويتوفر لدينا عدد معين من العينات (تعد فيها الالفاظ المكررة المسجلة بعشرات الملايين) ، تجرى عملية الصياغة الاصطلاحية لهذه المعطيات الكثيفة ومعنى ذلك ان كل المقول المسجل ينقل رموزا يصطلح عليها اللغويون وتخرم فى بطاقات خاصة ثم تبرمج برمجة تمكن الباحث الرياضى من اجراء عملية الاحصاء عليها وهذا الاحصاء يخص مختلف الاقاليم ثم نحصل بعد ذلك على قوائم تواترية تبين مدى انتشار المفردة او التركيب او درجة شيوعها بصفة موضوعية اى بواسطة الاعــداد والارقــام . وبما ان المعطيات تبلــغ عشرات الملايــين فلابد من استعمال الآلات الحاسبة الالكترونية العظمى لان احصاء مثل هذا العدد الهائل اذا كلفنــا الانسان بالقيام به يحتاج الى استعمال المئات من الافراد ولا يتم الا فى عشرين او ثلاثين سنة ! (هذا بقطع النظر عن الاغلاط) .

(١٠) ربما يظن البعض ان عملية التحوير تؤدى الى افقار اللغة . ان هذا التأويل فاسد بالمرة لان افقار المادة اللغوية التى نريد تلقينها للمبتدىء ليست افقارا فى الحقيقة انما هى حذف للحشو واللغو الذى لا يحتاج اليه المتعلم فى بدء امره (ونحن لا نقصد الا المتعلم) فهو بالعكس اغناء اذ حذف الفضول هو فى الحقيقة تقوية للجــانب الكسبى الايجابى ثم لا ننسى ان الصعوبات التى يلاقيها المتعلم لا تنحصر فقط فى المفردات بل فى الصيغ والتركيب ايضا ، فاذا استعملت مفردة غريبة او غير مانوسة تماما فى تركيب غير معروف فى لغة التخاطب كانت اشق على المبتدىء من ان تنحصر الصعوبة فى شىء واحد كان تريد ان تعمل عمل «ليس» وتستعمل جملة فيها مفردات غير مفهومة لدى الطفل مثلا) . وقد يقال ان العربية ليس فيها حشو ولا فضول . هذه سفسطة لان هذا يقال ـــ وهو صحيح ـــ بالنسبة الى الكلام البليغ الذى يحدثه العربى الفصيح ، فالعربية بهذا المعنى هى هذا الكلام الرائع واللغة من هذه الحيثية هى اشتغال هؤلاء البلغاء وانتقاؤهم العنــاصر اللغوية المناسبة . اما المادة اللغوية فى ذاتها ففيها الغث والسمين ولا ينكر احد ان فى جميع اللغات حوشى وغريب ونادر ومهجور وممات وغير ذلك من العناصر الهامشية .

ولربما يبدو هذا العمل للبعض بسيطا متئتيا وليس ببسيط اذ تدخل فيه عمليات رياضية معقدة (١١) كما ان محصول هذه العمليات ليس بسيطا ايضا اذ يمكن أن نعرف على شكل رياضي العلاقات والنسب التى تربط بين درجة شيوع العنصر اللغوى وبين عدد المعانى التى يتضمنها وموضوعية هذه النتائج ضمن صحة التطبيق ونحن بذلك نلاقى كل حكم ذاتى اذ كثير من الناس يقطعون بأن هذه اكثر استعمالا من تلك وليس الامر كذلك فى الواقع .

اما ما نستلهمه من العلاج للمادة اللغوية ومن الدراسة العلمية لاوضاع القوانين التى تجرى عليها الالسنة من قوانين عامة يمكن ان تطبق على الاساليب التربوية . فمن ذلك القانون المسمى بمبدأ الاقتصاد اللغوى وهو ان المتكلم يحاول دائما وبدون ما يشعر ابلاغ اكبر كمية ممكنة من الفوائد (المعلومات) . بأقل ما يمكنه من الجهود العضلية او الذهنية فهو سر توازن النظام اللغوى فاذا فقد النظام هذا التوازن انتقضت بعض أوضاعه ، فاما ان تجمد اللغة جمودا يجعلها تموت شيئا فشيئا فتصبح لغة تحرير فحسب ، اولغة ادب يكثر فيه التصنع والتكلف ، واما ان تتغير تغيرا ملموسا يجعلها تتطور الى لغة اخرى ليس لها شبه كبير باللغة الاصلية وهذا ما حصل للغة اللاتينية اذ اضمحلت كلغة تخاطب الى لغة كنائس او لغة اثرية وتفرعت عن المشافهة باللاتينية لغات مغايرة لها تمام المغايرة . وهذا ما كنا نخشى على اللغة العربية لولا ان الله بلطفه ورحمته رعاها وما شاء الا ان تنبعث من سباتها الى حياة جديدة تحتفظ بكيانها بخلاف ما اصاب اللغات العتيقة الاخرى .

فنستنتج من ذلك أن المتعلم ايضا — وهذا قد شاهده علماء النفس — يختار (بدون وعى واضح) من مقاييس اللغة ومادتها ما لا يستغنى عنه ليستطيع التفاهم مع غيره . فتعلم اللغة يكون اذا افيد اذا بنى كما قلنا على العناصر الاساسية الشائعة التى لابد منها وهو اقل ما يمكن ان يكسبه المتعلم لكى يؤدى مايحتاج الى تبليغه من مقاصد واغراض. هذا الرصيد اللغوى يمتاز عن بقية العناصر اللغوية بكثرة دورانه على الالسنة ، والملاحظ فى المخابر اللغوية هو ان اكثر العناصر جريانا وتواترا هى ايضا اسهلها تلقنا .

والقانون الثانى هو ان اللغة نظام منسجم الاطراف مترابط الاجزاء لانه آلة وجهاز كسائر الآلات والاجهزة ألتى يسخرها الانسان لقضاء اغراضه الا انها جهاز شديد التعقيد ، تتداخل وتتراكب اجزاؤه ، تداخلا وتراكبا عجيبا ، لا يكاد يوجد له مثيل ولا يمكن استعمال هذه الآلة الا اذا كانت دواليبها متكاملة متكافلة يؤدى كل دولاب منها وظيفته التى وضع من اجلها ، فى موضعه الخاص لغرض خاص . ويكفل بذلك لجميع الدواليب الاخرى مجراها وسيرها لانها منوطة بوجوده كما ان مجراه منوط بوجودها وحسن مجراها . فينبغى أن ينظر الى كل جزء من اجزاء اللغة والى كل مستوى من مستوياتها على انه لا يتم مفعوله الا مع غيره وفى داخل المجموع .

نستنتج من ذلك شيئين ، الاول : هو ما تفطن اليه منذ زمان المربون وهو أن تعليم

---

(١١) منذ أن دعونا الى هذا العمل الجبار فقد تحققت امنيتنا بفضل التفاهم التام الذى حصل فى لقاءات أخرى وتم التحرى بالنسبة الى صبيان المدارس الابتدائية (السنة الاولى والثانية) وستتلوها تحريات أخرى . وتم أيضا خرم الاوراق وعملية الاحصاء فى هذه المرحلة .

القراءة والمحادثة وغير ذلك من احوال التربية اللغوية لا تنجح الا عن شكل اجمالى وأن النظرة الى الجملة تسبق النظرة الى المفرد . ثم ما هو ادنى من ذلك المستوى اى الحروف . الا ان كل ذلك يحتاج الى تلطف من الصنعة لان واقع اللغة اشد تعقدا من اى واقع آخر . ولابد من ربط التجارب التربوية اللغوية بما توصل اليه علماء النفس ، فى هذا الميدان اخص بالذكر تلك الابحاث القيمة التى خرجت الى نظرية تعليمية جديدة اساسها برمجة التعليم التى تمكن التلميذ من أن يتابع الدراسة دون أن يرتبط بالتلاميذ الاخرين الذين ربما يعوقونه فى تخطيه وتقدمه اذ منهم من هو بطيء التحصيل ومنهم من لا يحتاج فى كسب المعارف الى وقت طويل . وزد على ذلك ان التعليم المبرمج لا يترك للطالب اى فرصة للاهمال أو التهاون لانه تخطيط شامل للمادة الملقنة ومن ثم لنشاطه .

والثانى وهو مهم جدا : هو أن أكثر مجارى اللغة (ونعنى بذلك العمليات الذهنية العظيمة التى يقوم بها المتكلم عند استعماله لاوضاع اللغة) هى مجار آلية لا شعورية فمن ثم يحتاج المكتسب لها الى اجراء عمليات خاصة مبرمجة مخططة اشد التخطيط . وليست هذه العمليات من قبيل التلقين العقلى التعليلى لاننا قد لاحظنا أن الفصيح من الناس هو الذى اكتسب أولا وقبل كل شىء ذلك القوام اللغوى اللاشعورى الذى أشرنا اليه فعمله التحصيلى كان من جنس العمل الالى الذى تقوم عليه اللغة فى مجاريها العادية . ولا ننسى ان الحصول على آليات اللغة هو أول المراحل الطبيعية التى يمر عليها الطفل وكذلك كل من عاش مدة طويلة فى بلد أجنبى . ولا نعنى بذلك أن التلميذ ينبغى له أن يستمع الى معلمه وأن يقلده بصفة عفوية . انما المقصود هو ابقاء الصفة العفوية فى التحصيل فقط . اما العمليات التحصيلية فى ذاتها فانها يجب ان لا تكون مجرد تقليد عشوائى بل تكون على مثيرات واستجابات تعتمد على مادة لغوية مرتبة ترتيبا علميا جامعا مانعا . وبهذا أن اللغة انظومة من المثل والانحاء (نماذج) ترسخ فى الذهن شيئا فشيئا فينبغى أن يتخير الملقن هذه المثل حتى تكون مستودعة فى ذاكرته وتحت تصرفه وكل ذلك يصير لا شعوريا فى مدة قليلة . هذا سر كسب اللغات . فطريقة التعليم الناجعة اذا هى طريقة اقامة النماذج الاساسية للغة وتلقينها للطالب بكيفية آلية أيضا . وفى نفس الوقت منطقية من حيث ترتيب المادة اللغوية . أما النحو والصرف والبلاغة فهذا فى نطاق التحليل العلمى للغة لان هناك فرقا بين تحصيل آليات اللغة والبحث التحليلى لهذه الاليات . فلابد ان يأتى التحليل بعد المرحلة الاولى اى بعد اثبات القوالب النطقية الافرادية التركيبية بدون ما تعليل لان تفسير القواعد هو من العمليات العقلية الشعورية التى ربما تعوق المتعلم فى كسب مبادىء اللسان . ولا نريد بذلك أن القواعد النحوية غير نافعة اذ اننا نوقن ان القواعد هى أكثر اللغة . انما مقصودنا أن تقدم هذه القواعد على شكل نماذج تحصل فى الاستعمال ؛ تستخدم فيها طريقة خاصة فى ترسيخها فى الذهن وهو أن يجرى على هذه النماذج تحويلات وتبديلات لفظية يتغير فيه المعنى بتغير اللفظ وبالعكس (١٢) وبذلك التحويل يحصل المتعلم بدون ما

(١٢) وهناك مناهج كثيرة متنوعة كطريقة استبدال مفردات الجملة بأخرى (على شكل منبه يرسله الملقن) فيستلزم من التلميذ جهدا عقليا — لا ذاكريا عضليا فقط — للتوفيق بين احلال هذه المفردات محلها من الجملة ثم محلها من الاعراب وكل ما يقتضيل الاستبدال من تغيير . وكذلك طريقة توسيع الجملة وما يستلزم ذلك من تكييف حتى يسلم الكلام من الاستحالة ومن اللحن .

يشعـــر على الشىء الثـــابت المستمـــر فى الاستعمالات وعلى العلاقات التى توجد بين المعنى المراد وطرق اداثه ثم على كل ما يجوز وما يمتنع . وكل ذلك قد يدركه الالمعى بنفوذ ذهنه الا ان ادراكه على شكل تعليمى تقليدى غير ضرورى بل غير نـــافع ابدا اثنـــاء هذه المرحلـــة .

ويستعين المعلم بقدر الامكان بالوســـائل السمعية البصرية على شرط ان يتفهم مهمـــة الادوات على مفهومها الصحيح اى على انها مجرد وسائل عملية ومجرد معينـــات لانهـــا ليست كل الوسائل وليست غاية يرمى اليها . فمعمل اللغة او مخبرها هو عبارة عن بيوت صغيرة منعزلة صوتيا يجلس فيها التلميذ امام مغنـــاط (مسجلـــة مغناطسية) فيستجيب للمنبهات المسجلة على الشكل المشـــار اليه وليس هذا العمل الا وسيلة للتمرين والتدريب اللغوى ولا يستغنى التلميذ ابدا عن الدرس .

ولا ننسى ايضا ان هذه المناهج التربوية فى تعليم اللغات لا تزال فى طور التحسن ولا يحق لنا ان نرميها بأى شىء او ان نغلـــو فى اطرائها غلوا غير معقول قبل ان تتم الابحاث القائمة الان بهذا الشأن وان كانت قد قطعت اشواطا عجيبة فى بضع سنين . اذ البحث العلمى محاولة متواصلة تتفاوت قيمة انتاجه واكتشافاته على مر الايام ، الا انه لابـــد من الايمان الوثيق العميق بصلاحيته ونفعه بل لابد من الايمان بأنه الطريق الوحيد الذى يؤدى الى نتيجة ملموســـة .

وحاصل الامر هو انه لابد من ان نوجه انظارنا الى ما يقوم به علماء اللسانيات فى زماننا هذا حتى لا يفوتنا الوقت وحتى لا تضيع جهودنا ونحن فى عالم منعزل ، وان نثق بما تثبته العلوم الدقيقة ونعتمد فى محاولاتنا على المشاهدة والاستقراء والتجربة العلميـــة ولا نتسرع فى الحكم قبل الاختيـــار .

عبد الرحمن حاج صالح
أستاذ فقه اللغة بجامعة الجزائر



في الذكـــرى المئوية الثـانية لميـــلاد



"احبب الحرية
فوق كل شيء
ولا تنكر الحقيقة
حتى أمام التيجان"



مولود قـــاسم

احتفلت الجزائر ، مثل بلدان العالم ، فى آخر سنة ١٩٧٠ بالذكرى المئوية الثانية لميلاد الفنان العبقرى الخالد لودفيغ فان بيتهوفـــن (١٧٧٠ — ١٨٢٧ م) .

ولقد ظلت اذاعات وتلفزات العالم المتقدم تعرض طوال السنة الماضية ، سنة بيتهوفن كما سميت هناك ، موسيقى هذا الرجـــل العظيم ، من اول يناير حتى آخر ديسامبر ، حيث ان ميلاده وقع فى اول المنتصف الثانـــى من شهر ديسامبر .

والجزائر ، اذ اقامت له حفلــة ذكــرى ، انما تحــى فيه لا الفنان العبقرى فحسب ، وانما تمجد فيه ايضا الانسان بكامل ابعــاد الانسانية الحقة ، الرجل الاخلاقى ، الذى كرس موسيقاه للتعبير عن الجوانب العليـا للانسان ، والذى لم يؤلف من ذلك النــــوع الخفيف ، الاوبرا ، الا واحدا ، وفى موضوع هام جدا فى نظره ، وهو تقديس الوفاءالزوجى وهو ما جعله عنوانا للاوبرا .

وتحى فيه الجزائر ايضا الثائر العظيـم الذى لم يخضع لضغط ولا استبداد ، بـــل قاومهما حيث لقيهما ، معبرا فى ذلك عن روحه العظيمة ، ومتأثرا ايضا باستاذه الروحى كنط وصديقه الروحى ايضا شيللر .

ولقد كان يكرر طوال حياته تلك العبــارة المشهورة لاستاذه الروحــى كنط : ((**هنــاك شيئان هما اعظم ما فى الوجود : السمـــاء المتلألئة بنجومها فوقى ، والقانون الاخلاقى فى نفســى !**)) وهنا ينبغى لنا ان نذكــر ان بيتهوفن درس فلسفة كنط فى جامعة بــون ، مسقط راسه .

وبقدر ما كان بيتهوفن يحب شيللر الثورى المتأثر بفلسفة كنط هو ايضا ، والذى عانى السجــن والتشــرد لافكــاره السياسيــة الجمهورية ، كانت خيبته من لقاء غوتهمريرة لموقف هذا الاخير من كل من الارستقراطيــة المحلية والمحتلين الاجانب لبلاده ، وهو موقف يناقض كل المناقضة موقف بيتهوفن .

ويكفى هنا ان نذكر حادثتين تعبران عــن موقف كل من الرجلين :

فبينما كان غوته يمجد القوة والعبقرية فى



كنــط

نابليون حتى بعد ان احتل بلاده ، تغير موقف بيتهوفن من القائد الفرنسى راسا على عقب اثر حوادث سياسية معروفة :

لقد اعجب فى اول الامر بنابليون عندمابدا يحطم الاستبدادات فى اوروبا ، من اقطاعيات ودوقيات ، وامارات ، وملكيات وقيصريات وكان بيتهوفن يظن ان نابليون سيحرر اوروبا من كل ذلك ، ولهذا اهدى له سيمفونيتــــه الثالثة وسماها « نابليون » .

ولكن عندما توج نابليون نفســه قيصرا ، غضب بيتهوفن ، ومزق ذلك الاهداء مزمجر وقائلا : ((**انما انت دكتاتور مثــل الاخرين ، تــدوس حريــات الشعــوب**)) ، واعطــى سيمفونيته هذه اسما جديدا هو : ((**البطلة**)) اى بعد إن كانت باسم نابليون اصبحتضده!

وبخصوص موقف بيتهوفن من غوتـــــه والارستوقراطية الالمانية فيحكى انه بينما كان هو وغوته يتفسحــان قــرب كارلوفيفــارى

« كارلسباد » ، وكان ذلك لقاءهما الاول ؛ ، وبرغبة ملحة من بيتهوفن الذى كان معجبا بغوته الشاعر ، واذا بامبراطور وامبراطورة النمسا يقبلان عليهما ، وكان غوته قد وضع ذراعه مشبوكا بذراع بيتهوفن ، ولدى منظر العائلة القيصرية ارتبك غوته ، وسحب ذراعه من ذراع بيتهوفن ، ونزع قبعته ، وانحنى انحناءة عميقة !

وماذا فعل بيتهوفن ؟ فعوض ان ينزع قبعته ، خفظها على جبينه حتى نزلت على عينيه ، واستمر فى مشيه عالى الراس ، ولم يقف ... واذا بالامبراطور والامبراطورة هما اللذان يحييانه ، والجمهور يتفرج معجبا ومندهشا !

وبعد ان الحق غوته ببيتهوفن قال له هذا الاخير : **« هو انت غوته الذى كنت معجبا به » ؟** فقال له غوته : **« لاتنس ياصديقى انى موظف » !**

وكذلك كانت جميع مواقف بيتهوفن ، فلقد كان يعانى الادقاع الفاحش ، ومع ذلك يرفض ان يكون تابعا لقصر هذا او ذاك من الامراء والملوك والاباطرة ، وكان يعلق على عروضهم **« امراء ، وملوك ، وقياصرة ، وجدوا ، وموجودون الان ، وسيوجدون ، اما بيتهوفن ، فليس هناك الا واحد ! »**

وكان مؤمنا كل الايمان بتفوق الموسيقى على كل وسيلة اخرى للتعبير ، ويقول : **«ان الموسيقى هى وحى اعلى من كل فلسفة واعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى ، يتحرر من كل المحن التى تثقل كواهل الاخرين ! »**

وفى آخر عمره ، بعد ان اشاحت عنه فيينا ، فى تعلقها بموسيقى شتراوس (النعامة) ، ولانر ، وروسينى ، وغيرهامن انواع الموسيقى الخفيفة ، كتب بطلنا فى مذكراته وهو يؤلف فى السيمفونية التاسعة الرائعة ، سيمفونية الامل ، والسرور ،



غوته ينحنى محييا ، وبيتهوفن يواصل سيره

والاخوة الانسانية : **« آه يالها من تعاسة ! انى اتضور جوعا ، ولم اذق طعم الخبز منذ ستة ايام » !**

ويوم وفاته خرجت فيينا بكاملها ، تشيع جثمان العبقرى الخالد الى مثواه الاخير !

ومما كان يردده بيتهوفن طيلة حياته : **« احب الحرية فوق كل شىء ! ولا تنكر الحقيقة حتى امام التيجان ! »**

ونكتة اخيرة :

فى آخر احدى مؤلفاته التى كلف بيتهوفن ناسخه بنسخها ، كتب هذا الاخير :

(تم بعون الله)

ولما اطلع بيتهوفن عليها ، ضحك واضاف **« ايها الانسان المسكين اعن نفسك بنفسك!»**

مولود قاسم

الشرق كما يراه الغرب

لمركب النقص عــلاج ، اما مركب الكمال فلا التئام له . العالم الاول منفتــح قد تتسرب اليه أشعــة من الخــارج ، تعين على تبــدده ، اما الشعــور بمركب الكمــال ، فيغلــق النوافذ ولا يعرف اليه النقد الذاتي سبيــلا .



الخوارزمي



ابن رشــــد



ابن سينا

محمد عــزيز الحبــابي

المعاصرة ليست فى متناول جميع المثقفين ، ولو كانــوا غربيين من دم آرى صرف . فالقضية قضية اطلاع وتعلم ، لا علاقة لها بالجنس او الدين او اللغـــة .

آمن مفكر والاسلام بالحتمية العلمية ، ومارسوا التحليـــل والتركيب ، اذ ليس فى هـــذا ما يناقض دينهـــم ، بــل ان الاسلام يحضهم على ذلك .

ـ التفكير افعال تتجسد فى اختراعات ، واكتشافات ، اوآثار مكتوبة وغير ذلك . وليس من وظيفة الفيلسوف ان يقوم بعملية تاريخية ، فلذلـــــك اختصاصيون يقومون به .

نقصد بالعقل هنا ، الجهاز الذى يباشر التفكير وللعقـــل البشرى تاريخ يتصل بتطـــور النوع الانسانى . وفى مراحل التطور المختلفة حصـــل شىء من التباين فى كيفيات استعمال العقل ، وهو تباين اقتضتـــه انماط الحياة ، فالعقل جهـــاز ذهنى تركيبى ، ينمو ويتحسن بالاستعمال الملائم ، ويتعطب او يسوء بالاستعمال ، فالذين ينعتون بالبدائيين لهم نفـــس العقـــل الـــذى للعقلانيين ، ولكن سيطرة السحرة والكهنة ، والمشعوذين ، والفكر الكبشى تقف دون انطلاقـــة العقـــل الخلاقة ، فاذا كـــان العقـــل معطى من المعطيات الطبيعية الاصلية النوعية ، فكيفيـــات استعماله تكتسب بالممارسة ، وهذه الممارسة تتطلب قواعد اساسية ، هى المنطق ، لكـــن الانسانية لم تعرف منطقـــا واحدا احدا ، فهناك « مناطق » (ولا أقصد بمناطق المعـــــنى الجغرافى اى جمع منطقة بـــل جمع منطق) . كثـــير هـــم الغربيون الذين يعتقـــدون ان المنطق واحد ومطلق ، وهـــو منطقهم هم طبعا ، وبمقتضاه يحكمون على سواهم . فكيف يرون العقل العربى ، أو العقل السامى بصفة عامة ؟

هذا ما سنجيـــب عنـــه فى الصفحات الاتية ، فنعـــــطى بعض الامثلة ونحللها ، لنبرز ان كثيرا مـــن المفكريـــــن والجامعيين بالغرب كانـــوا ، ومازالوا ضحية لذهنيـــــة ميثولوجية معادية للمنطق ، بل للمناطق ، الغربى منهـــــا والشرقى .

الشعـــوب « الناميـــة » (اى المتخلفـــة اقتصاديا وثقافيا) مصابة بانحراف شنيع : يعدمها مركب النقص الثقة فى قدراتها العقلية ، وفى ذوقها ، وقيمها ، ومقاييسها ، فيتغلغل فيها الشعور بالعجز مـــن الاقتباس مـــــن الاخرين ، ما يمكن اقتباسه من المفاهيـــــم الحضرية .

ولكن ، رغم الشعور بالنقص والتفاهـــة والهوان ، هناك مركب الكمال الذى هو اكبر وافظع اذ عنه يتولد اخطر انحراف اخلاقـــى ومجتمعى وسيكولوجى يصاب به فـــرد او شعب . لمركب النقصان علاج ، اما مركـــب الكمال فلا التآم له . العالم الاول متفتح قـــد تتسرب اليه اشعة من الخارج تعين على تبدده ، اما الشعور بمركب الكمال فيغلق المنافذ . ولا يعرف اليه النقد الذاتى سبيلا .

هناك طبائع مخضرمة من المركبين ، وتلك هى الكارثة الكبرى ، والانحراف الاقصى . فالذى يود ، عن صدق ، السير الى الامام ، يلزمه ، مسبقا ، أن يتفحص اجهزته المادية والمعنوية ، ماضيا وحاضرا ، لان ذلك زاده فى الموعد مع المستقبل . سنخصص هـــــذا البحث لمناقشة بعض الاساطير التى راجـــت عن ماضى العالم العربى الاســـلامى حتى ترعرعت بذور مركب النقص عند البعض منا .

* * *

التمايز بين الشعوب ، كالتباين بـــــين الثقافات الوطنيـــة ، ليـــس الا « فتـــرات » فى الجدل الدياليكتيكى الذى يسير عليـــــه التداخل بين الجماعات البشرية ، فى الميادين

المادية والمعنوية . فعلى هذا التمايز تتأسس حركات النمو التاريخى والرقى الحضارى .

بيد انه ، ويا للاسف ، مازال ، الى اليوم، الجانب الخرافى من الذهنية البشرية يحدث خللا فى ذلك التداخل ، فيغير من وجهته الديالكتيكية الطبيعية ، الى اتجاه عدائى عدوانى . وهذا ما حصل بالنسبة لموقف الثقافات الاوروبية من الثقافتين العبرانية والاسلامية . وسنضرب على ذلك أمثلة محسوسة تظهر ان الكثير من المفكرين والاساتذة الجامعيين ، يبقون ضحية لصور ميثولوجية .

من هؤلاء الكتاب (جورج دوهاميل عضو الاكاديمية الفرنسية الذى يؤكد فىكتيب سماه « حضارة فرنسا » (1) ان الذهنية الشرقية عاجزة ، تمام العجز ، عن التفكير التركيبى وعن تجاوز الذات . هذا تصريح خطير جدا ، لانه اقرار لادعاء يروج منذ القرن الماضى ، يمكن تلخيصه كما يأتى :

الفكر الشرقى ناقص ، وما ينقصه هو القدرة على عملية التركيب .

ان التركيب شىء اساسى للعقل البشرى.

اذن : الفكر الشرقى ليس بفكر انسانى ، او على الاقل ليس فكرا سويا ، وتنتج عن هذا نتيجة ثانية :

بما أن الفكر الشرقى ناقص وغير سوى ، لا يجوز أن نعامل الرجل الشرقى معاملة العاقل الرشيد .

ومن ثمة يجب اعتباره دون مستوى الانسان مما يبيح ، منطقا واخلاقا ، استعباده واستعمار اراضيه .

ان أول من « لاحظ » وروج عدم كفاءة الفكر الشرقى هم (ارنيست رونان) و (لويز بيرطران) واتباع (دوغوبينو) (٢)

يبدأ (رونان) بفرض عام : « .. أما الفكر العتيق السامى ، فانه ، بطبيعة تكوينه ، معاد للفلسفة ومعاد للعلم » . ويتحدث ، فى الصفحة التالية عن :

« احتقار الساميين للعلم » ، مبررا ذلك بما « فى الفكر السامى من سذاجة مهولة تضيق الدماغ الانسانى ، وتغلقه امام كل معنى لطيف ، وكل غاطفة رقيقة ، وكل بحث معقول. ولا تفتحه الا على تكرار سرمدى تلخصه العبارة : **الله هو الله** التى انما هى تحصيل الحاصل كما يقول الاصوليون والمناطقة .

يختم (رونان) حديثه ، وقد غمرته نشوة النصر ، متوجها الى مستمعيه :

« ان المستقبل أيها السادة ، لاوروبا اذن ، ولاوروبا وحدها ! »(مقتطف من الدرس الافتتاحى بكوليج دوفرانس سنة ١٨٦٢ ، ص ١٨) .

فما هى « البساطة » التى اعطيت الفكر السامى ؟

* * *

الميتافيزيقا الدينية ، عند الاسرائليين وعند المسلمين ، ترتكز على « لا الاه الا الله » . وهذه العبارة خلافا لما أدعاه (رونان) ليست « بسيطة » ، وليست « تكرارا » . على اننا ، ولو فرضنا انها عبارة « طوطولوجية » (محصول حاصل) . فالمناطقة لم يقولوا بأن التعبير الطوطولوجى علامة على عقم فى الذهن .

أن حصول حاصل (الطوطولوجيا) من طرق البحث والتفكير المستعملة ، باحترام ، عند الاغريق وعند مفكرى العصر الوسيط . بل انها لا تزال تستعمل حتى اليوم ، عند المحدثين الاوروبيين . ليس ضروريا أن يعتبر حصول حاصل مرادفا للغلط المنطقى الذى تحتوى عليه اية اعادة بألفاظ مختلفة ، دونما تقدم للتفكير . فعندما يصرح الساميون :

---

(1) ظهر كتاب (دوهاميل) بباريز ، عند هاشيط ،عام ١٩٤٤ .

(٢) ان افكار هؤلاء لم تمت بموتهم ، فالى اليوم يرجع اليها بعض الكتاب . فقد صدر كتاب « أحاديث مع السيد رونان » (باريز جوليار ، ١٩٦٢ . نجد صفحات كثيرة فى هذا الكتاب عن الساميين ، خصوصا من ٦٥ الى ٧٢ (الفصل الثالث) ومن ٧٣ الى ٧٧ (الفصل الرابع) .

« الله هو الله » يستعملون عبارة تعد نموذج الهوية الكاملة : فالمقصود من « الله هو الله» اقرار وحدانية الله . فلنستمع لما يقوله السيد (مانترى Mentré) فى قاموس (لالاند Lalande) : « ان كل تعريف ليس فى الحقيقة الا حصول حاصل ، لانه يعبر عن معادلة بين مفهومين ... (ص ١١٠٣ ، طبعة ١٩٥٩) .

يظهر أن (رونان) تغافل عن المعنى الحقيقى لـ « لا اله الا الله » : انها شهادة ، أى اقرار واقع ارتفع الى درجة الوعى : انها انعكاس لايمان واع . فالمؤمن عندما "يشهد" لا يعيد كلمات الشهادة تعبدا بالتكرار ، بل يعلن عن يقينه ، بشىء أصبح عنده من « البديهيات » وكل العلماء ، على اختلاف ميادين اختصاصهم ، يبدأون باقرار « بديهيات » و « مسلمات » ، لولا تسليمهم ببداهتها ما أمكنهم أن يقوموا بأى بحث ، وأن يصدروا اى حكم علمى «منطقى». فالاسرائيلى أو المسلم ، عندما يشهد أن « لا اله الا الله » ، لا يذكر المحمول مرتين . اذ المبتدأ ، فى تلك العبارة هو غير الخبر . ان الوحدانية لا تتحمل التكرار ، ومن هنا كانت لفظة « الله » لا تعادل لفظة « اله » ، بل تنفيها قطعا . فلفظة « اله » هنا لا تنفصل عن « لا » النافية للجنس ، والنفى يتسلط على فكرة الكثرة : لا آلهة ، لا تعدد ، لا نوع أو جنس الهى . فاذا تم نفى التعدد ، وآمنا بأنه لا كائن الهى ، **أتت « الا » لتستثنى «الله» فى وحدانيته** . ان المفرد والجمع ، لم يكونا متميزين (بالنسبة للالوهية) تميزا واضحا . عند الساميين فأتت الشهادة لتأكيد الفرق بينهما .

فالوثنية والايمان بتعدد الآلهة اتجاهان فى الفكر الانسانى ، كما تقرره دراسات ذهنية الشعوب « البدائية » ، فالوحدانية مرحلة « تقدمية » من مراحل تطور الانسانية ، وان تاريخ الاديان المقارن قد وصل الى نفس النتيجة : التوحيد حصيلة قرون من التفكير ، انه اكتساب وليس معطى .



رينان

سؤال آخر :

كيف يمكن أن نعتبر لفظة معرفة بـ « الـ » ، (أى الله) « تكرارا » لـ : لفظة نكرة (أى اله) ؟ ان التكرار اعادة شىء كما هو دون زيادة ودون نقصان . « اله » ، اذن ليس هو « الله » ومعنى « لا اله الا الله » هو : لم يكن قط ، ولن يكون أبدا ،تعدد الآلهة ، ، فليس هناك الا الله الاحد .

ان الشهادة تتجاوز التعبير اللفظى ، فـ « يهوه » ، أى « الله » ليس مطلق اله ، انه الله القديم الدائم الاوحد الازلى .

فلنضرب مثلا : نأخذ (أ) وهى مفهوم ما . هل يبقى معنى ذلك المفهوم كما كان عند ما يدخل فى القضية الاتية : «أ» هى «أ»؟ طبعا لا. فالقضية «أ» هى «أ» تؤكد أولا **تماثل (أ) لذاتها** وتقر ، ثانيا ، شيئا آخر ، وهو أن ذلك **التماثل حقيقة ثابتة مستمرة .**

من هنا نستطيع ابراز ما بين **التكرار** و **« الشهادة »** من تباين عظيم :

ــ صيغة التكرار : أ ، أ ، أ ، أ ، أ ، أو : الله ، الله ، الله . .

ــ صيغة الشهادة : الله هو الله . لا اله الا الله ، ليس من اله غير الله . . .

اذن :

ان « الشهادة » ، ليست تكرارا ، هذا أولا وثانيا : انها وان كانت فى شكلها تقترب من الطوطولوجيا (محصول حاصل) ، فمعناها فى الواقع تماثل كامل .

تعتمد الرياضيات الى حد اليوم على القضايا المتماثلة ، هكذا يرى (برطان روسل) ان كل الحساب طوطولوجي لانه خلو من العنصر الانسانى ، أى من الزمان .

* * *

يمكننا ان نقلص الشهادة بحذف طرفها الاخير ، فنقول : « لا اله » ، اليست هذه العبارة قضية تامة متكاملة بذاتها ؟ انها اقرار لعدم وجود الوهية : فالجملة قد قامت بمهمتها التعبيرية .

فلنتلفظ الان بالطرف الاخير من الشهادة، على حدة : « الله » . فهذا لفظ ومفهوم من المفاهيم قابل لان يوصف بأوصاف لا تعد ، ويمكنه ان يضم الى مجموعة من الكلمات ليكون معها جملة ، فيكتسب معنى فى التركيب الجديد ، ويسهم هو بدوره (بصفته جزءا من جملة) كيما تحصل الجملة على معنى .

ان كل اسم يدخل فى جمل تعتريه احدى الحالات الثلاث : الاثبات ، او النفى ، او الاستثناء وكل حالة منها تكون كسبا جديدا للجملة . وهذا ما حصل فى :

(لا + اله + الا + الله) .

يجب الان ان نتعرض للدور الذى تلعبه « الا » الاستثنائية . انها فى الواقع **اداة** لا كلمة ، فلا مفهوم لها خارج الجملة ، مثلها فى ذلك مثل و ، او ، ان ، اذا ، حتى ...

التكرار والطوطولوجيا لا يقعان بين الادوات بل بين الكلمات ، لان لكل كلمة مفهوما ودلالة خاصة . فوجود « الا » فى الطرف الثانى من الشهادة ، اضاف الى الجملة معنى جديدا . وهو المعنى الذى اكتسبته من برهان التمانع . ان معنى جديدا تبينه آية قرآنية اخرى : (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) — ٢١ ، ٢٢ —

الله هو المبدا الاول ، منشأ الابداع والتعقل « واجب بذاته » ، كما يقول ابن سينا . فالوحدانية من حيث هى وحدانية ، لا تحتوى على حيثيات ، ولا تحتاج الى غيرية ، ولا الى كثرة : تكاملها فى ذاتها . هذا التكامل الذاتى يصبح كمالا تاما عندما يثبت لدينا أن (أ) هى (أ) باطراد ، ولا تعتريها أعراض ابدا . فلو أن (أ) تحولت شوقا لاحسن مما كانت عليه لقلنا: ان (أ) كانت ناقصة فى حالتها الاولى . أما اذا تغيرت (أ) الى دون ما كانت عليه سابقا ، قلنا: أن (أ) غير مكتملة الذاتية . هكذا ، فى كلتا الحالتين نستنتج أن (أ) تغيرت ، وأن كل متغير ناقص ، وأن كل ما هو ناقص فحادث .

« الله » كامل لان الوحدانية كمال : « لم يكن له كفؤا أحد » (قرآن ، ١١٢ ، ٤) . وأن من صفات الكمال القدم (فالاوثان حادثة لانها من مصنوعات الانسان) . فالله **تام** الوجود ، مادامت وحدانيته لا تنقسم ، **وكامل** الوجود لان الوحدانية استقلال وكمال . فالله ، اذن، وحدة كاملة مستقلة بذاتها ، وقدم : أنه « الاول والاخر ، والظاهر والباطن » (قرآن ، ٥٧ ، ٣) . الله هو الكائن الاوحد الذى يمتزج فيه الواقع بالمثل . فالقرآن يعبر بـ : « كان الله » لا بـ : « سيكون الله » .

* * *

لقد قمنا فيما تقدم بتعليق على مزاعم (رونان) من أن التفكير السامى طوطولوجى محض ، لا يقدر على تجاوز التكرار (مع اعطاء معنى قد حى لطوطولوجيا) . أما الان فسيتوجه اهتمامنا الى نظريات غربية اخرى حول التفكير السامى .

يدعى (رينان) ، فى مؤلفه عن **التاريخ المقارن للغات السامية ،** ان الساميين يجهلون ، جهلا كليا ، المنهج العلمى المجرد النزيه عن كل منفعة شخصية ، عند الحكم على الاشياء ، فالمنهج الرفيع الذى يصاحب الروح العلمى فى البحث والحكم ، ميزة خاصة بالفكر الارى (٣) .

يظهر من خلال هذا ان لـ (رونان) تفكيرا يتألف من النرجسية ومن العنصرية الارية . وسيردد صدى هذه العقيدة ، فى عام ١٩٣٦،

---

(٣) ينطبق هذا على « الشهادة » فى الاسلام ،كما ينطبق على ما جاء فى الكتاب المقدس (سفر تثنية الاشتراع ، ٤ : ٣٥) : « ان الرب هو الاله ، ليس الهسواه » .

(الويزبيرطران) ، وهو من العنصريين المرموقين . ان السلالة نتاج الدم « بحيث انه من الصعب جدا امتزاج الاجناس البشرية » . يذكر تصريح (بيرطران) بنظرية (دوغوبينو) الشهيرة التي تزعم ان السلالة كيان روحي وميتافيزيقي ايضا وهذه الميزة الاصلية الثابتة تجعل امتزاج الاجناس محالا .

من هذين التصريحين ، نستخلص أن بعض المفكرين الغربيين يضعفون ازاء ارستقراطية ثقافية، مما ينزلق بهم عن الموضوعية . فالسيد (جرج دوها ميل) كان ، ولا شك ، ضحية خداع مخيلته ، وهو الكاتب الروائي . لانه غير متخصص في شؤون الشرق . لكن توجد جماعة من المستشرقين ، ذوي اتجاه جامعي محترم ، لهم آراء في موضوع حديثنا ، نرى من المفيد ان نقف عندها قليلا . من هؤلاء الاساتذة (ماكدونا Macdonald الامريكي ، و (جيب Gibb) البريطاني ، و (بيلا Pellat) الفرنسي . فأحكام هؤلاء الاساتذة جديرة بالعناية لما لهم من اختصاص .

* * *

حاول الاستاذ (جيب) ، في كتابه **« الاتجاهات الحديثة في الاسلام »** (٥) ان يبرز القاسم المشترك لدى مفكري الاسلام ، على اختلاف أجناسهم ، فكانت النتيجة هي أن الذهنية الاسلامية تمتاز بـ L'atomisme « الذراتية » (٦) .

فما هذه « الذراتية » ؟

يجيب الاستاذ (جيب) بأنها نزعة الفكر الاسلامي الى اعتبار المفاهيم وظاهرات الطبيعة وأحداث التاريخ ، منعزلة متفرقة يعني ان الفكر الاسلامي غير قادر على عمليات التركيب (نفس نظرية رونان ودوها ميل ... ولكن في قالب آخر !) .

ويرى (جيب) أيضا ، أن المعرفة ، بالنسبة لجمهرة طبقة المثقفين المسلمين تنقصها القوة الدينامية لانها لا تزال (حتى أيامنا هذه) مهلهلة وغير مجهزة ، وذراتية ، (انظر ص ٨٩) .

هل تلك هي خصائص الفكر العربي الاسلامي ؟

فلنفرض أن هناك ميلا ، في فكر انسان ما الى « الذراتية » فهل معنى هذا أن ذلك الفكر معاد بطبيعته ، لكل قابلية للتركيب ؟ هل توجد « ذراتية » محض ، مطلق ؟

اذا أجيب بنعم ، استنتجنا أن صاحب الفكر الذراتي ليس بانسانا ، وانما هو كائن ينتمي الى جنس من الحيوانات التي تفرعت عن غصن عام كان يضم ، من بين ما يضم، الجنس البشري . لقد تأنسن وتطور الجنس البشري ، لكن جنس الذراتيين وقف عن التطور ، لانهم من اخوة أو ابناء عمومة الحيوانات العليا ، مثل الشامبانزي ، واصناف اخرى من القردة ... وما اخالني مبالغا في استخلاص هذا النتيجة !

من المنهجية العلمية المعاصرة ، أو المنطق الحديث ، يتحقق لدى الباحث ان التحليل والتركيب عمليتان متكاملتان : فليس التحليل غاية في ذاته ، وانما هو وسيلة من وسائل البحث ، أو على الاصح ، جانب (وان كان جانبا أساسيا) من جوانب كل منهج يقصد تحليل شيء ما الى عناصره ، أو تقليص معطى من متشعب المعطيات الطبيعية أو الذاتية ، الى مكوناته البسيطة . أما التركيب فهو العملية المضادة :الذهاب من العناصر ، أي من البسيط الى المعقد . فالتركيب يستلزم التحليل ، كما أن التحليل لا يحقق اهدافه الا بتكامله مع التركيب .

ربما اعترض علينا الاستاذ (جيب) بأنه ، وأن كان لا ينكر التكامل والاستلزام بين التحليل والتركيب ، يرفض شرحنا لاننا نفرض مسبقا ، قدرة الفكر العربي الاسلامي على التحليل ، في حين أن « الذراتية » لا تعني التحليل . ان الاستاذ (جيب) يذهب بعيدا في تطرفه ، اذ يرى أن « المفكر » المسلم يبني عمليات (تفكيره) على انطباعات متقطعة ، غير متصلة ، لا على معاني واضحة بينة تنسجم

---

(٥) اعتمدنا على الترجمة الفرنسية التي قام بها (فيرنيي) باريز ، عام ١٩٤٦ .

(٦) اخترنا هذه اللفظة ، رغم ما فيها من زيغ على الاشتقاق العربي ، احتفاظا على المعنى الحرفي الذي ارتضاه الاستاذ (جيب) ، ولان « ذرية » مصطلح علمي موقر لا يلائم هنا .

فيما بينها داخل منظومات علمية. وهذا وضع ناتج . كما يدعيه (جيب) عن انحراف اصيل فى ملكة التخيل عند العرب : ان لها « طبيعة ذراتية تنقيطية » Pointiste — ص ٩٠ — هذه الطبيعة اللاسوية هى التى تجعل التفكير الاسلامى ، فى مظهره الصوفى يميل ، عفويا ، الى تفضيل الجانب الذاتى ، وتعلقه بتسلسل النقط الفردية الموضوعة جنبا الى جنب ، مما يجعله عاجزا عن العمليات التركيبية وينفر دائما من استعمال التحليل (ص ٩٠) .

* * *

فلنتخذ التاريخ حكما بين المدعى (الاستاذ جيب) والمتهم (الفكر العربى الاسلامى) فهو كفيل بان يعرف الاستاذ (جيب) تاريخ الثقافة العربية والى اى حد ساهمت فى نمو الحضارة الانسانية ، بفضل فعاليات التحليل والتركيب التى قام بها المفكرون المسلمون ، من القرن التاسع (اى منذ ايام الكندى ، « فيلسوف العرب ») الى القرن الرابع عشر الميلادى (ايام عبد الرحمن ابن خلدون صاحب العمران البشرى) . كما يعرف (جيب) ان الفضل فى تقدم الجبر يرجع الى اولائك المفكرين ، فهم الذين نفخوا فيه روحا جديدة ، بعد ان كان جامدا يتماوت منذ (ديوفانتس) (٧) فانتعش ودخل فىمرحلة الاكتمال .

فكلمة Algèbre الغربية (الجبر) اصطلاح وضعه الخوارزمى ، اذ سمى كتابه الشهير بـ « الجبر والمقابلة »، وهو كتاب يعد اول محاولة ناجحة فى فصل الجبر عن الحساب واعتباره علما قائما بذاته. (٨) ونذكر، كذلك ، بأن الخوارزمى هو اول من عمل جيبا حاول ان يوفق فيه بين الطرق اليونانية والطرق الهندية فى الحسابات الفلكية (٩) .

ومفكرو الاسلام ، هم **الذين ادخلوا، ايضا،** فى الرياضيات نظام المنازل ، والسلم العشرى والصفر . اخذ الغرب الارقام التسعة عن العرب وسموها « الارقام العربية » . وان اقدم نص عربى يذكر (الصفر) ويصف الارقام هى صفحات جاءت فى كتاب اليعقوبى (سنة ٢٦٩ هـ ، ٨٧٢ م) .. « واذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر ، ويكون الصفر دارة صغيرة » (ص ٨٤) (١٠) .

هذه وقائع تاريخية لن يستطيع نكرانها احد. فعندما نسلم بها ، يلزمنا ان نسأل : هل تعد تلك المساهمة « علما » ، والذين قاموا بها « علماء » ، ام لا ؟ فالذى يشارك فى العلم لا بد له من فكر قادر على « التحليل » (لا الذراتية)، وعلى التركيب لاختيار ما يصل اليه بالتحليلات !

لقد كان من الضرورى على العلماء المسلمين ان ينقلوا الى ميادين التركيب ما وصلوا اليه بالفكر « الذراتى » لان المرا لا يصبح « عالما » الا اذا اظهر القدرة على ادماج ملاحظاته واكتشافاته فى مجموع نظرى متناسق من المعلومات ، ولا نظرية دون امكانية الانتقال من التحليل الى التركيب ، والعودة من التركيب الى التحليل .

اليس البرهان الجبرى نموذجا للبرهنة المنطقية المستوفية لكل شروط العقلانية (المعادية ، طبعا ، للذراتية) ؟

ايجوز ان يعتقد عالم معاصر ان محمد البيرونى (٣٦٢ — ٩٧٣/٤٤٠ — ١٠٤٨) الطبيب الفلكى الرياضى استطاع ان يحلل المتواليات العددية دون ان يكون ، قبل ذلك ، قد كون نظرة تركيبية عن مجموع المعارف الرياضية على عهده ؟

البيرونى اول من وضح ان نصف القطر

---

(٧) رياضى يونانى الاصل ازداد بالاسكندريه حوالى ٢٥٠ م اليه ينسب اختراع علم الجبر .

(٨) للخوارزمى كتاب آخر : « صورة الارض » يصحح فيه اخطاء بطليموس فى الجغرافية .

(٩) انظر ، فى هذا الصدد ، دراسة الاستاذ احمد سليم سعيدان ، فى مجلة الابحاث ، بيروت ج ٤ ، سنة ١٩٦٢ ، ص (٤٧ و ٤٧٢) ، ان الاستاذ الباحث يصرح بانه يكاد يجزم « ان العرب اخذوا الترقيم الهندى فى وقت كان امر الصفر فيه غير غريب عنهم » ، ثم يضيف : « خلاصة القول ان الارقام الهندية سامية الاصل ، استعملت فى الهند واستعملت فى خط التجارة البحرية بين المحيط الهندى والبحر الابيض المتوسط » .

وحدة ، واعطى الجيوب النسب التى مازالت مستعملة الى اليوم .

يقول (كانط) : « ان كل منطوق حسابى لا يعطى الا فى صيغة تركيبية » . فلو أن الفكر الاسلامى كان « ذرانيا » مصاباً بعمى فى كل ما يتصل بالتركيب ، كما يدعيه (جيب) لما احتفظ تاريخ العلم بأسماء لامعة ، مثل الخوارزمى وأبى الوفاء ، اللذين عملا على تقدم علم المثلثات ، وجابر بن افلح الذى اصلح « المجسطى » لبطليموس . أما الادريسى (٤٩٣ — ٥٦٠/ ١١٠٠ — ١١٦٥) فقد أبدع الجغرافية الرياضية ...

* * *

نحن لا نريد هنا أن نعطى عرضا لتاريخ العلم عند المسلمين ، فهذا ليس موضوعنا ، وانما ضربنا امثلة عن موضوعية ومنهجية الفكر الاسلامى لنرساها لامعة على اسطورة « الذراتية » والعجز عن عمليات التركيب .

* * *

يبدأ العلم عندما الحجة تنادى ما — ضد — الحجة . فالتركيب ، كما يعرفه (كانط) ، ضرورى لنتمكن من قراءة التجربة .

لكن ، اذا كانت التجربة قراءة تفهمية ، وجب أن تشمل ، فى آن واحد ، الكل والاجزاء ، فالذى لا يحسن الا تهجى الكلمات منعزلة كل واحدة عن الباقى ، لن يستطيع ، أبدا ، أن يفهم النص المكتوب . ومن جهة اخرى ، ان فهم النص المكتوب يتوقف على فهم سابق للالفاظ التى يتكون منها . فالمؤرخ يضع مشاكل ويحاول بناء وتلفيق الاحداث ثم يقدمها كمعرفة تقريبية (لانه توجد بين الواقع وما نحكى عنه ، ثغرات : من ضياع الوثائق ، أو تدخل الذاتية ، والتزوير فى الشهادة ...) وعلى العكس من المؤرخ ، ان العالم لا يضع مفاهيم مكان « ما — قد — وقع » ، بل يلاحظ « ما — يقع فعليا » ، يلاحظ المعطيات الحاضرة ، يشاهدها الواحدة تلو الاخرى ، فيحللها ، ثم يقارنها مع ما كانت عليه ، فى نظرة عامة ، تركيبية .

من هنا ، نرى ، الى أى حد ، أن نظريات الاستاذ (جيب) ، ونظريات بعض الغربيين غير واقعية ولا موضوعية ، خصوصا اذا تعدت ميدان الملاحظة الى ميدان احكام القيمة .

* * *

لا يكتفى الاستاذ (جيب) بمحاولة اثبات الذراتية العربية الاسلامية ، بل يضيف بأن « الطريقة التحليلية حديثة العهد فى عالم الفكر الاسلامى . فمن العسير عليه أن يتحرر من سيطرة الذراتية الالفية ... » (ص ٩١) . فلا أمل لنا ، اذن ، فى الالتحاق بالنوع الانسانى بل سنبقى جنسا من الحيوانات ، بين الجنس البشرى وجنس القردة .. قضى الامر !

* * *

نجد شيئا يشبه « السيطرة » المذكورة كذلك فى كتاب السيد (جورج دوهاميل) ، وقد تحولت الى عدم مقدرة وعاهة من عاهات الفكر الشرقى . فلننظر الى السيد (دوهاميل) وهو يرتب أنواع الفكر البشرى :

« ان شعوب الشرق تظهر جليا ، بواسطة موسيقاها الاحدية النغمة ، عدم كفاءتها على متابعة أكثر من نغم ، فى آن واحد ، وبالتالى عدم كفاءتها على متابعة أكثر من فكرة فى آن واحد ، فى حين أن شعوب الغرب يقدرون على أن يفهموا وأن يتذوقوا أفكارا كثيرة ، وأنغاما كثيرة ، وجوانب مختلفة تجمع وتقدم طبقا لقوانين الهارمونية » (ص ٣٦) .

فما معنى هذا الحكم ؟

يدعى الاكاديمى المحترم :

اولا : ان الذوق الفنى ، فى الموسيقى على الخصوص منعدم ، أو مصاب بعطب لدى الشعوب الشرقية .

ثانيا : ان هذا العطب ناجم عن عاهة ذهنية الشرقيين أو ان العطب والعاهة متصاحبتان متلازمتان .

لا شك أن السيد « دوهاميل » كان ضحية لبعض الغموض والالتباس **مما ينزلق بالقراء** الى تأويل حكمه تأويلا عنصريا (١٠) .

---

(١٠) رغم تصريحه ، فى نفس الصفحة : « ان الفرنسيين يتسملزون ويفرون ، طبيعيا ، من كل خلط يمكنه أن يؤدى الى الغموض » (ص ٣٦) .

فمجمل كلام الدكتور (دوهاميل) ان للغرب ميزة لا تقاس ، وهى الثروة الهائلة من الذوق والفكر ، ثروة خاصة بالغربيين ، دون سواهم فليس على الشرق الا أن يقنع بما قسم الله له، طبعا ، مثل هذه الاحكام تحمل فى طيها ، ضمنيا انه لا حرج على الغرب اذا استعمل السلاح دفاعا عن حضارة الذوق السليم والفكر الخصب ، التى هى ملك للغرب ، وللغرب وحده . فلنصح ، اذن ، مع (رينان) ، مرة اخرى : « أن المستقبل لاوروبا ، ولاوروبا وحدها ! » . ولنقل للباقى من الشعوب : « موتوا بغيظكم ! »

* * *

اذا قارنا بين هذه الاستنباطات العجيبة والاحكام القطعية التى يصدرها بعض المحدثين من رجالات الغرب وبين ما كتبه بعض قدماء مفكرى الاسلام عن مفكرين اجانب عنهم جنسا ، ودينا ، ولغة ، اكبرنا الانصاف والتسامح . فلنتمعن هذه السطور التى كتبها ابن رشد عن أرسطو . انها اعتراف واعجاب بـ « المعلم الاول » ، فلا نرجيسية ، ولا عنصرية ، ولا صليبية ، وانما الحق فوق كل اعتبار ، يقول ابن رشد ، فى مقدمة كتاب الطبيعة :

« مؤلف هذا الكتاب هو ارسطو (...) واضع المنطق والعلم الطبيعى وما بعد الطبيعة، أقول : انه مرتب تلك العلوم ومقرر قواعدها، لانه لا قيمة لما كتب عنها قبله . فهو اول من رتب مسائلها ، وأحسن بسطها ، حتى فاق من تقدمه . واقول : انه متمم هذه العلوم ، لان كل الذين جاءوا بعده اخذوا فيها غلطا . فمن العجب أن يجتمع ذلك كله لانسان واحد . فهذا الرجل العجيب جدير ، بما جمع الله فيه من الحكمة ، بأن يسمى الرجل الالهى » .

* * *

اننا لا ننكر مطلقا ، أن مناهج البحث تختلف من عصر لآخر ، ومن علم لآخر . ولكن هناك اسسا لا تتغير ، بدونها ما كان بحث ولا منهج ولا علم : مثل تلازم التحليل والتركيب فى تكاملية تامة ، والتوجيه الشمولى للبحث العلمى . . . حقا ، تطرأ على المنهجية تغيرات تبعا لتغيرات المفاهيم والادوات والمخابر ومختلف الوسائل التى هى فى تطور دائم ، مما يطور البحث ذاته . انه لخطأ علمى الاعتقاد بأن التفكير يسير على منهج واحد قار . بيد ان اول ما يطلب من العالم هو أن ينظر الى عناصر اى مشكل فى فردية كل عنصر ، وفى تلاحمه داخل المجموع ، وليسم هذا بـ « الذراتية » من شاء ! . فالعالم ملزم بعملية مزدوجة اساسية : فى البداية كان موضوع الرياضيات ، سواء فى الشرق أو فى الغرب ، هو الحساب والهندسة . أما اليوم فقد اتسع هذا الموضوع وأصبحت الرياضيات تشمل مجموعة من البنيات ، فاضطر الحساب الى أن يغير اسلوبه عندما يريد تحديد خاصيات مجموعة رياضية ما .

فلو أتيح لكبار رياضيى العصر الوسيط ، من الشرق والغرب أن يبعثوا اليوم ، ليفتحوا أعينهم أكثر من النافذة لاندهشوا امام اسلوب الرياضيات المعاصرة ، ولاعترفوا بجهلهم لنظام البنيات الترتيبية من نوع (س — ى) مثلا ، ولبقوا مشدوهين أمام نظام بنيات العلاقات التعادلية ، والبنيات الجبرية ، والبنية الطوبوغرافية . ورغم هذا « الجهل » الصريح لن يستطيع احد أن ينكر فضل أولائك الوافدين من القرون الوسطى على تقدم الرياضيات . ان الاكسيوماتيكا (١١) المعاصرة ليست فى متناول جميع المثقفين ، ولو كانوا غربيين من دم آرى صرف . **فالقضية قضية اطلاع وتعلم لا علاقة لها بالجنس ، أو الدين أو اللغة .**

* * *

فلننظر الان الى تصريح الاستاذ (جيب) عن التفكير العربى الاسلامى الذى لا يتسم بـ « التمييز والوضوح » . انه تصريح يظهر انه

---

(١١) دراسة تحليلية تسبق العرض المنطقى وهو فرع من فروع الرياضيات وترمى الى أن تحدد تحديدا دقيقا ، المسلمات والمصادرات اى كل الفروض الاولية (وهى قضايا غير بديهية ولا يبرهن عليها ، ومع ذلك يسلم بها كأساس للاستدلال فى المسائل النظرية والعلمية) .

انتقاد ، وقد تسده كذلك صاحبه ، ونحن نعتبره على العكس ، مدحا وتقديرا . فلك ان التمييز والوضوح ليسا من لوازم النتائج العلمية الصائبة والافكار النيرة ، بل ان التجربة الوضعية الحسية هى التى تكون فى مستوى التمييز والوضوح فعندما طالب (ديكارت) بان تكون المعانى « متميزة واضحة » نظر الى القضية من جهة المنهج لا من جانب المحتوى . على أن (ديكارت) قد طالب بذلك انتقادا لاساليب البحث والتدريس المتبعة فى عصره (باوروبا) ! . وقبل زمانه ، عند المدرسيين (الغربيين ، المسيحيين ، الآريين!) . لقد كانوا . على ما يظهر منغمسين فى « الذراتية » أو شىء من هذا القبيل كالبيزنطينيات . فحاول (ديكارت) انقاذهم . فهو لم يفكر . مطلقا ، فى شعوب الشرق عامة . وشعوب العروبة والاسلام خاصة . عندما وضع تأليفه الخالد « حديث المنهج » .

* * *

وتهمة أخرى .. الثالثة . وليست الاخيرة :

يدعى الاستاذ (جيب) ان الفكر العربى الاسلامى يرفض الحتمية . رفضا مطلقا .

ان الواقع هو ايضا ، « يرفض » هذه القولة رفضا باتا . للحتمية العلمية مبدأ يثبت: **ان بين الظاهرات علاقات ضرورية بحيث أن وجود أية ظاهرة مقيد بالظاهرات التى سبقتها أو بالظاهرات المصاحبة لها** . اذا كان هذا هو التعريف العلمى للحتمية العلمية ، يصعب ، ويستغرب ، نكران وجوده فى التفكير الاسلامى . او لم يؤسس الفكر العربى الاسلامى الادراج الرحبة التى تسلقها « علم الصناعة » كيما يصبح علم « الكيمياء » ، و « الفلك » ، و « التنجيم » . كيما يغدو علم « الفلك » ان الكيمياء و « الفلك » يعتمدان على قوانين . والتفكير فى « القانون » (فى القواعد المطردة) هو التفكير الضرورى فى الحتمية العلمية ! أيتهم الفكر العربى الاسلامى بـ « اللاحتمية » ، وهو الفكر الذى ساهم ، ايما اسهام ، فى نقل التفكير العلمى الانسانى من الرياضيات الفيثاغورية النظرية ، **ومن** الماهيات الافلاطونية، الى الجبر العلمى ؟

لقد تعرف الاطباء المسلمون على الحتمية العلمية . فالتشخيص الطبى ، يدرس الامراض ، اى **يحدد علاقات المسببات بالاسباب** ، أى بالعوامل السابقة أو المصاحبة التى نشأت عنها الظاهرات المرضية الحاضرة: علاقات المشروط بالشروط . فهل يتصور أن الاطباء المسلمين ، ومنهم من كانوا أساتذة الشرق والغرب فى هذا المضمار . خلال قرون، جهلوا الحتمية ؟

فلنتأمل كيف يحدد ابن سينا الطب : انه العلم الذى بواسطته نعرف حالات الجسم البشرى . وبواسطته نحفظه فى صحة جيدة . فان كان كل علم ملزما بان يعرف أسباب المواضيع التى يهتم بها . فان الطب ملزم . هو كذلك . بأن يعرف أسباب المرض والعافية .

ان كتاب **« القانون فى الطب »** لابن سينا . ككتاب « **الكايات** » لابن رشد . موسوعتان تعطيان نظرة عامة عن أصول الطب . انهما نموذجان مما أحسن ابداعه الفكر الانسانى المؤمن بالحتمية (١٢) .

* * *

فى القرن الثالث عشر الميلادى قام أحد الاطباء العرب الدمشقيين (ابن النفيس) بدراسات علمية اهتدى بها الى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية . **ويوجد وصف دقيق** لهذا الاكتشاف فى الشرح الذى وضعه ابن النفيس للجزء الخاص بالتشريح من كتاب ابن سينا « قانون فى الطب» .

فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٣ تقدم الدكتور هيربان Hirpin لاكادمية الطب بباريز بمذكرة أكد فيها أن ابن النفيس قد قام باكتشافه العظيم بثلاثة قرون قبل العالم **الاسبانى (ميغيل سيرفيتو** M. Servetc**) الذى**

١٢(١٢) تقدم فى باريز ، عام ١٩٥٢ ، طالب سورىبأطروحة نيل الدكتورة فى الطب ، من موضوع مهم « الدورة الدموية الرئوية » . أو « الدورة الصغرى » قبل هذا الدفاع بثلاثين سنة ، كان باحث اخر قد قدم أطروحة فى نفس الموضوع ببرلين .

احرق بجنيف سنة ١٥٣٣ .

آمن مفكرو الاسلام بالحتمية العلميـــــة ، ومارسوا « التحليل » و « التركيب » ، اذ ليس فى ذلك ما يناقض دينهم ، بل ان الاســـلام يحضهم على ذلك ، كما يوضحه ابن رشد فى صفحات نختار منها ما يلى :

« ان كان فعل الفلسفة ليس شيئا اكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع ، اعنى من جهة ما هى مصنوعات ، فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفـــة صنعتها وانه كلما كانت المعرفة بصنعتها اتـــم كانت المعرفة بالصانع اتم ، وكان الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات وحث على ذلك ، فبين ان ما يدل عليه هذا الاسم اما واجـــب بالشرع واما مندوب اليه .

فأما أن الشارع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بين فى غير ما آية من كتا بالله تبارك وتعالى ، مثل قوله : (فاعتبروا يا أولى الابصار) وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلى ، أو العقلى والشرعى معا . ومثل قوله تعالى (أو لـــم ينظروا فى ملكوت السماوات والارض وما خلق الله من شىء) ، وهذا نص بالحث عـــلى النظر فى جميع الموجودات ، وأعلم تعالى ان ممن خصه الله بهذا العلم وشرفه ابراهيم عليه السلام ، فقال تعالى : (وكذلك نرى ابراهيم ملكـــوت السمـــاوات) . وقـــال : (الذين يتفكرون فى خلق السماوات والارض) الى غير ذلكمن الآيات التى لا تحصى كثرة .

واذا تقرر أن الشرع قد اوجب النظـــر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا اكثر من استنباط المجهـــول مـــن المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القيـــاس او بالقياس ، فواجب أن نجعـــل نظرنـــا فى الموجودات بالقياس العقلى . وبين أن هـــذا النحو من النظر الذى دعا اليه الشرع ، وحث عليه ، هو اتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس . وهو المسمى برهانا .

واذا كان الشرع قد حث على معرفة اللـــه تعالى وموجوداته ، بالبرهان ، وكان مـــــن الافضل أو الامر الضرورى لمن أراد ان يعلم الله تبارك وتعالى وسائـــر الموجـــــودات بالبرهان أن يتقدم أولا فيعلم أنواع البرهان وشروطها » (١٣) .

محمد عزيـــز الحبـــابى

(١٣) فصل المقال ، وتقـــرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال ، الجزائر ١٩٤٨ ، ص ١ ، ٢ .

البيئة ..

وسير التاريخ الوطني

تضافرت العوامل الطبيعية والبشرية على تهيئة بلدنا . نوميديا (المغرب الاوسط ــ الواسطة ــ الجزائر) منذ عهد قديم ، لكى يكون مركزا من مراكز الحضارة الانسانية ، سواء فى شرق البلاد حيث مدينة (سرتــه قسنطينـــة) او فى غربهـــا حيث مدينـــة (سيقه على مصب نهر تافنة) .

وهذه العوامل المزدوجة ، التى هيـــأت لابناء الوطن ان يمثلوا منذ عهد قديم ، الدور الذى يضاهى قيمة ، وأهميـــة بلادهم ، هى نفسها التى فرضت عليهم أيضا مســـؤوليات محددة ، وكتبت عليهم أن يدفعوا الثمن دائما، من أجل أمن ، وراحة ، واستقلال جيرانهم ، فى بلاد المغرب ، وقارة افريقيا .

وتوسط موقع بلادنا بالنسبة لبقية أقطار المغرب العربى ، وكـــونها نـــافذة تطل على افريقيا ، السوداء ، ان كانت آثاره الطيبة بارزة ، فى المناخ الطبيعى ، وفى الانتاج ، وفى الاخلاق ، وفى العقليـــة الخاصـــة ، ثـــم فى التجارب الثرية ، فان صيرورة بلادنا بحكم هذه الميزة الجغرافية ، مركز ثقل ، عرضها دائما لاشد الاخطار ، وكان الرومان من أوائل

لقـــبال مـــوسى

الشعوب التى ادركت قيمة نوميديا فى هذه الناحية ، ومن ثم سارعوا الى ربط صلات ودية ، مع ملوك نوميديا ، وموريطانيا ، ومنحوهم مساعدات فنية ، وامتيازات خاصة قبل أن يبدأوا مشروع غزو قرطاجنة ، فى صميم أرضها ، وكان هدفهم فى النهاية ، الافادة من موقع نوميديا المتوسط ، لضرب النفوذ القرطاجنى وتصفيته اعتمادا على حلف ملوك المنطقة .

وعلى نفس الدرب صار الفرنسيون، حيث احتلوا الجزائر ، ومنها توسعوا سياسيا ، واقتصاديا ، وعسكريا ، فيما جاورها ، من أرض المغرب ، وافريقية . أما اشراف بلادنا عبر ساحل طويل ، عـلى البحر الابيض المتوسط ، فانه ميزة طبيعية كبرى ، تـعنى التفتح على العالم الخارجى ، والاهتمام بما يجرى فيه من أحداث ، وبالعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية على مستوى أوسع من اطار شمال افريقيا .

وقد افاد الملوك الوطنيون من هذه الميزة منذ عهد قديم ، حيث ربطوا صلات واسعة مع كثير من مراكز الحضارة والتجارة والثقافة فى العالم القديم . واهتموا بالبحرية ، وبناء الاساطيل بنوعيها التجارى والبحرى . وفى هذه الناحية يبرز اسم الملك ماسنيسا كأول ملك نوميدى انشأ اسطولا قويا كانت هبون (عنابة) وصلداى (بجاية) من مراكزه . وكان الساحل الشرقى للبلاد ، يحتضن عدة مراكز ، ودور لصناعة السفن ، تحدث البكرى والادريسى ، وغيرهما من (الرحالة) على ثلاثة منها ، كانت توجد فى كل من مرسى الخرز (القالة) (بلد العناب) وبجاية

ويلاحظ أن نشأة مثل هذه الصناعة، فى تلك العصور ليس أمرا عسيرا بسبب توفر البيئة المحلية على المواد الاولية لهذه الصناعة ؛

ولئن كان الموقع البحرى فيه من الميزات الطبية ما يربو على ما ذكرنا ، فانه كان ولا يزال ، نقطة ضعف بارزة ، والسبب أن جميع انواع التسلل ، والغزو كانت تتخذ طريقها الى البلاد ، عن طريق البحر ، فالرومان ، والوندال ، والبيزنطيون ، وعنصر النورمان والاتراك العثمانيون ، والفرنسيون ، جميع هؤلاء نفذوا الى داخلية البلاد ، وسيطروا عليها حينا من الدهر ، بواسطة البحر . ولو لم تتوفر البلاد على مناطق عزلة مثل الصحراء ، ومعاقل حصينة مثل الكتل الجبلية فى أوراس ، وجرجرة (جبال الحديد) والونشريس ، وبابور وشمال قسنطينة ، وبو طالب فى الحضنة ، لكانت وجهة البلاد غير التى نراها ونعيشها الآن .

فالكتل الجبلية كانت دائما مهدا لانقى صور القومية فى مراحلها الاولى . ومنها كانت تنطلق المقاومة الوطنية ، للتيارات الاجنبية المختلفة ، منذ عصر القرطاجيين ، الى نهاية عهد الفرنسيين .

وفى ظل ما توفره من حماية ومناعة للعناصر الثورية ، كانت البلاد لا تستكين لاى طارىء جديد ، الا بمقدار ما تهىء نفسها ، وتعبىء قواها ، ومواردها لاقصائه عن حوزتها .

وهكذا نلاحظ أن انطلاق الشرارة الثورية الاولى من أوراس نوفمبر ١٩٥٤ وانتشار لهبها فى جرجرة ، والونشريس وشمال قسنطينة ، كان منسجما مع الدور التاريخى لهذه الظاهرة الجغرافية ، وحلقة أخيرة فى سلسلة حركات المقاومة الوطنية للاحتلال الاجنبى منذ عصر قديم . أما الصحراء فكانت أيضا مركز ايواء وراحة للمقاومين ، اذ كان رجال المقاومة منذ القديم يعتصمون بها ، وبالمناطق الداخلية فى البلاد ، التى كان لا يجرؤ المحتلون قبل الاتراك والفرنسيين على التوغل فيها لملاحقتهم ، بعد أن يقوموا بواجبهم ضد مراكز النفوذ الاجنبى المنتشرة فى السهول ، والهضاب ، أو على السواحل . وكان الجيتوليون ، وهم سكان الصحراء قديما يهيؤون لعناصر المقاومة من نوميديا ، وموريطانيا ، فى أرضهم ، مكانا أمينا وحرزا حصينا للراحة وللتموين ، ولمعاودة الهجوم .

وتظهر اهمية الصحراء فى تاريخ بلادنا ، فى الميادين الثقافية والحضارية عموما ، اذ اصبحت منذ القديم معبرا للتيارات الشرقية السامية ، ومنها الاسلام ، واللغة العربية ، وجميع مظاهر الحضارة الاسلامية ، التى

نعيش الان على فيضها الزاخر ، ونتغذى من تراثها الغنى المتجدد تجدد الحياة . وعن طريق الصحراء ايضا . تكونت الصلات التاريخية . بين المغرب الاوسط . ومجموع افريقية الزنجية . اذ هاجرت منها جماعات واستقرت في بلادنا كما انطلقت من تاهرت . وورقلة وواحة توات . البعثات . والهجرات وخرج الرواد والسفراء والرحالة الى مناطق من افريقية الغربية منذ عصر الرستميين . وآثار هذه الحركة ما زالت ملحوظة هنا وهناك . في أصول السكان وفي الوانهم ، وفي ثقافتهم واديانهم وعاداتهم . وحتى في مظاهر لباسهم .

وعبر طريقين تاهرت . عبر سجلماسة الى مملكة غانة القديمة ثم ورقلة عبر غدامس الى النيجر وغيرها . نفذت القوافل التجارية من المغرب الاوسط . فدخلت أودغشت وغانة . (اسم مدينة ومملكة) . وتمبكتو (اسست ١١٠٠ م وهي في جمهورية مالي) . ومع هذه القوافل كانت تنتقل مختلف التيارات الثقافية والاجتماعية والعقائدية . ومن المعروف عن التجار والرحالة المسلمين في العصور الوسطى انهم كانوا دعاة ، ومعلمين ، وقد اثمرت جهودهم السلمية في مد رقعة الاسلام . الى أماكن ، من افريقية ، وآسيا ، وأوروبا ، لم تطرقها حملات الفتح الاسلامي حتى في عهد الاتراك العثمانيين . ومن هؤلاء الرواد الوطنيين عبد الكريم المغيلي (١٥ م) الذى بذل جهودا مشكورة في كشف أساليب اليهود في واحة توات . وفي تنوير الطريق أمام الحاج أسقيا ، رأس أسرة الاسقيين في مالي . اذ أفتاه في مسائل كانت تشغل باله حول واجب الحكام المسلمين . في محاربة البدع ، والعادات المخالفة للدين . والقيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر . وكان لهذا الرائد الجزائري نشاط آخر . في بعض مناطق نيجريا . (كانو) حيث يحتفظ مسلموها له ، بذكريات حميدةويعتقدون فيه الولاية : ويخلعون عليه كل مظاهر التشريف . وحياة المغيلي . التي تحتاج الى عناية . تقوم برهانا على أن الاسلام لا يعرف حدودا كما لا تثني عزم رجاله . صعاب ، في سبيل أداء رسالته ونشرها في الافاق البعيدة .

وهذه الصحراء التي كنا نتصورها مركز عزلة وخلاء . كانت في العصر القديم والوسيط ، بفضل الرواد ، والرحالة ، والقوافل التجارية ، مركز وصل . وعمران ، وطريقا لاهم تجارات العالم في العصور الوسطى ، وهي تجارة التبر (الذهب غير المضروب) الذى كانت توجد منابعه الاصيلة في مناطق من السودان الغربي . وكان التجار ، يحملون الى هذه البلاد عبر تاهرت . أو ورقلة ، منتجات البيئة المحلية ، ومن اهمها الملح ، الذى يستخرج من السباخ ، والملاحات . ويجلبون منها ، التبر ، وريش النعام ، وأدوات الزينة المحلية .

وقد لاحظ الرحالة : البكري ، والادريسي ، والقزويني . أن سلجماسة (تافلالت) وهي باب السودان الغربي ، ومحطة صحراوية كبرى لتجارة التبر ، كان سكانها يتبايعون في الذهب جزافا بدون وزن ، بينما يتبايعون في الكراث بالوزن .

وبسبب هذه السلعة الهامة ، تمكن سكان سلجماسة من انشاء نظام سياسي قار ، احتفظ بقوته حتى ظهر الصراع الحاد بين الامويين في قرطبة (الاندلس) والفاطميين في المهدية (تونس) من اجل السيطرة على طرق تجارة السودان ، وعندئذ انتاب امارة سلجماسة ، الضعف وتداولها الامويون والفاطميون الذين أثروا من تجارة التبر ، ومن رسوم العبور بدرجة أن آخر حملة وجهها الفاطميون ضد مصر الاخشيدية كانت تصحب معها الفا وخمسمائة حمل من الذهب المضروب . أما المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين في المغرب ، فقد سبك الذهب المخزون عنده ، على هيئة طواحين ضخمة ، وصحبها معه عندما ترك بلاد المغرب نهائيا الى مصر .

وحادث الانتقال الى مصر كان يعني ان طرق التجارة مع السودان الغربي ، أصبحت تحت اشراف الامويين ، وأنصارهم في سجلماسة .

ويلاحظ أن موقع بلاد الملثمين الصحراوية عبر طريق التبر ، هو الذى أتاح لهم ان يلعبوا دورا رئيسيا . في حياة شمال افريقية وبلاد

السودان،من النواحي الاقتصادية والسياسية والدينية .

وعندما انحلت قبضتهم القوية ، بسبب انغماس بعض سلاطينهم . في الترف والنعيم، في المغرب ، والاندلس ، أخذ زمام الامر منهم، الصامدة الجبليون الذين ورثوا دورهم واهميتهم في مناطق السودان وفي المغرب العربي .

واهتمامهم بتوفير الامن ، وبالاشراف على الطرق التجارية ، انعكست آثاره في الارباح الوفيرة ، وفي مظاهر الرخاء ، التي استغلها الموحدون ، في بناء الاساطيل التي ظهر غناؤها في نجدة مسلمي الاندلس ضد الاسبان الشماليين أثناء حركة الركونكستا (حركة غزو مضاد ضد المسلمين) ، وضد غارات النورمان المخزية على طول سواحل شمال افريقية .

وقد كانت الرغبة في الحصول على التبر ، والسيطرة على منابعه في السودان ، هي احدى الدواعي وراء حملات السعديين وسلطانهم أحمد المنصور ، الذي عرف بسبب ذلك بلقب الذهبي .

وتأمل هذه الاعتبارات التي أسلفنا الحديث عنها ، يقود حتما الى التسليم بأن بلادناأسهمت في اقتصاديات العالم الافريقي ، وفي الحضارة الانسانية ، والاسلامية منها ، اسهاما معقولا، وكان لبعض رجالها منذ القديم أدوار رئيسية وتأثير ، تجاوز في أحيان كثيرة ، نطاق الحدود التقليدية للمغرب الاوسط ، فمثلا ، صراع ماسينيسا وصفاقص ، من اجل هدف سام هو الوحدة الوطنية ، الذي حمل كلا منهما على التماس حليف يساعده ، سرعان ما تحول الى حرب دولية ذات صبغة عامة اشترك فيها الى جانبهم الرومان والقرطاجيون .

اما يوغرطة الذي اقتنع باهمية الوحدة الوطنية ، والاستقلال السياسي والاقتصادي، وتنبه الى الدور التخريبي الذي تقوم به الجاليات والعناصر الاجنبية ، في سرتا (قسنطينة) وغيرها من حواضر نوميديا ، فقد قاوم الرومان ، وصفى العناصر الاجنبية وقضى على الانهزاميين . وعلى نفس الخط سار الامير عبد القادر

وكان للقديس أوغسطين ، وليد سوق اهراس (تاقست) أهمية في ميدان الفكر تجاوزت الوطن والامبراطورية الرومانية ،الى أوروبا العصور الوسطى . حيث كان كتابه « مدينة الله » الذي يحمل سمات البيئة الوطنية شرارة أيقظت العقول ، واضافت جديدا .

وهذا الشاعر الزناتي بكر بن حماد التاهرتي ، كان انتاجه الشعري الرفيع الذي يحمل تأثيرات البيئة الحضارية في عصر الرستميين ، يجعله في مصاف فحول الشعراء في العصر العباسي ، لا غرابة اذا نال اعجاب المعتصم العباسي ، فأجزل له الصلات .

أما ابن خلدون فرغم انه عربي من حضرموت اصلا ، الا ان البيئة الجزائرية بجاية وتلمسان ، هي التي كونته وهيأت له الظروف الصالحة كي يظهر ولاول مرة . في عالم الفكر وفي ميدان الدراسات الاجتماعية والحضارية، بقوانين مبتكرة ، صاغها في مقدمة كتابه الكبير « العبر وديوان المبتدأ والخبر » . وكانت تعتبر في وقتها ، وحتى تطور الدراسات الاجتماعية في العصور الحديثة ، كشفا جديدا

أما المقري (مقرة — ولاية الاوراس) . وآل الطبني (طبنة قرية بريكة) ، والونشريسي — وآل العقباني (تلمسان) ، الذين كانوا من صميم البيئة الجزائرية ، وازدهروا في الاندلس أو في فاس ، أو في مصر ، حيث كانت لهم فروع ، وبقي لهم انتاج طيب . فيعتبرون جميعا ، مفخرة للبلاد التي انتسبوا اليها باصولهم ، لان آثارهم تحمل تأثيرات البيئة الاصلية .

ومن ثم فالبلاد التي أهلتها الطبيعة لان تكون على هذه الصورة ، ويبرز فيها رجال على هذا المستوى ، لا يصح قطعا ان يقال عنها أنها ((الشخصية السلبية)) . الا من طرف مؤرخي الاستعمار ، كي يبرروا علة وجودهم الاستعماري فيها ، وليتظاهروا امام غيرهم ، بأنهم هم وحدهم الذين اكتشفوا هذه

البلاد ، ومنحوها ميزاتها المعروفة .

ولاعتقادهم فى هذا الراى ، ولـرغبتهم ، فى حمل الناس على الاقتنـاع بـه . جانبوا الصواب . واغرقوا فى الافتراء وبالغـوا فى التشويه ، ومن ذلك : .

اطلاقهم على كل الثورات الوطنية ضدهم . حتى ثورة نوفمبـر ١٩٥٤ م صفـة التمـرد والعصيـان ، كـى يجـردوها من دوافعها القومية ، أو نوازعها الدينية والاجتماعية .

ثم تصورهم بأن التناقض دائم . بين سكان الجبال . وسكان السهول ، بين الداخل ، والساحل او بين الشمال ، والجنوب ، كما ان العداء مستمر . بين البتروا ليرانس ، اى بين المستقرين من السكان وبين الرحل منهم .

والهدف من ذلك كله : أنهم الذين أوجدوا التوازن بين الظواهر المحلية ، وبين السكان ومهدوا السيادة والامن والاستقرار حسب زعمهـم .

ــ ثم محاربة اللغة العربية ، بحجة انها ليست لغة البلاد . وليست لغة حضارية !! والهدف من ذلك عزل السكان عن ماضيهم العربى الاسلامى ــ وتحـويرهم للالقاب ، والكنى . والاسماء العربية ، واشعار السكان بأنهم لا ينتمون الى العربية ، على نحو يثير الاستغراب والاسف . لبعدها عن الاشتقاق ، وهجنتها ، الهدف منه : التشويـه واشعار السكان بأنهم لا ينتمون الى العربية حتى فى شكل القابهم وكناهم .

واما نشاطهم فى الناحية الدينية ، فكان له مظاهر كثيـرة : منهـا ارسـال البعثـات التبشيرية الى الامـاكن النائيـة ، والمنعزلة خاصة ، تحت ستـار القيـام بالخدمـات الاجتماعية ، والهدف : تخذيل النـاس عن دينهم ، وزعزعة ايمانهم .

ويلاحظ ان مظهر بعض مدننا كمـا خططها المستعمرون يوحى احيانا بأن البلد مسيحى اذ اول ما يرى الإنسان من بعد برج الكنيسة والصليب . كذلك تكثر الكنائس ، وتتركز فى أماكن حساسة حتى فى القرى ، بينما نلاحظ قلة المساجد وعـزلتها حـتى فى بعض المدن والحواضر الكبرى .

واذا كان تأثير البعثـات التبشيرية ، ظل محدودا ، فى العهد الاستعمـارى ، لتغلغل الروح الدينية وقوة المنعة الذاتية ، واقتصر على قلة من الفقراء والايتام ، وبعض ضعاف النفوس . وظهر فى اتخاذ بعض النساء لعلامة الصليب وشما ، بقصد طرد العين عن الاولاد كان الخطر فى نشاط هذه البعثات ، قوى فى وقت أصبح فيـه الوعى الـدينى ضعيفا ، والتوجيه الاسرى منعدما ، مع هذه الحرية المطلقة التى يتمتع بها شباب اليوم .

ــ أما مظاهر التشويه فى الحياة الفكرية ، فمنها اعتقاد البعض بأن المغرب الاوسط على عكس المغربـين الادنـى والاقصى ، كـان باستمرار بؤرة جهـل ، وخلـوا من سمات الثقافة الرفيعة ، انسياقا وراء مظاهر شكلية وتجاهلا لحقائق الاشيـاء . والحقيقـة أن الظروف الصعبة التى مر بها وطننا ، الذى كتب عليه أن يتصـدر الاحـداث منذ عصر الرومان ، ويمتحن بقوى الغزو وينتصب ، جبارا للدفاع عن مقدسـاتـه وعـن الحق ، والعدل ، هى التى كانت سببا فى ضياع تراثه منه ، وهجرة رجاله المثقفين الى بيئات اخرى مجـاورة .

ويلاحظ أن وطـأة الونـدال ، وتخريبهم لمظاهر الحضارة والعمران ، كانا فى نوميديا بسبب كونها نقطة ترسب لهؤلاء المغامرين ، من برير اوربا الذين اضحى اسمهم مرادفا للوحشية والهمجية (القند الزم) ، اللتين لم تفقهما غير همجية المغول (التتار) فى بلاد الشرق الاسلامى .

ــ اما ما انتجتـه البيئـة الجزائريـة فى عصر الرستميين الاباضيـة ، وكـان شيئا معتبرا ، فقد تلف اكثره فى عصر الفتن الداخلية بين أواخر الرستميين ، وما بقى اخذه الشيعة الفاطميون وضموه الى خزائنهم ، أو احرقوه

وما زخرت به البيئة فى عصر الفاطميين تولى نقله هؤلاء ، مع بقية ذخائرهم الى مصر

عند استقرارهم فيها ، وما بقى يحمل تأثيراتهم اتلفه المخالفون لهم من أهل السنة ، وفقهاء المالكية خصوصا فى القرن (٥ هـ) ، الـذى يعرف بانه عصر محنـة الشيعـة ، ونهضة السنة فى بلاد المغرب العربى . أما انتاج ابناء الوطن فى عصور بنى زيـرى وبنـى حمـاد الصنهاجيين وبنى عبد الواد الزيانيين والاتراك العثمانيين ، فقد توزعته بيئات كثيرة ، ويوجد منه فى خزائن المغـرب الاقصى ، وتونس ، وتبوسراى باسطنبـول وفى دور المحفوظات ببعض جامعات فرنسا . أما النزر اليسير منه فيوجد فى المكتبة الوطنية .

وتتوفر الـزوايا ، والمكتبـات الخـاصة بالاسر ، وبالاشخـاص على آثار خطية من انتاج علماء وطنيين فى عصور مختلفة ، وفى قرية (بنى يسجن) قرب غرداية ، تـوجد مكتبة قطب الائمة اطفيش وهى تشتمل على بعض الاثار التى لا تخلو من أهمية .

ويلاحظ أن بيئة المغـرب الاوسط ، كانت منذ القديم مهدا لنشـأة الحركـات المذهبية والاجتماعية فعلى أرضها ازدهـرت الحركة الدوناتيه ، التى كانت حركة مقاومة للنفوذ الاجنبى فى شكليه السيـاسى والمذهبى كما ازدهرت الحركـة الخارجيـة ذات النزعة الجمهورية ، التى نجحت بمساعدة السكان ، فى تأسيس نظام سياسى مذهبى مستقـر فى تاهرت ، سرعان ما تحول الى شكل امـامة كبرى ، فأصبحت البلاد بواسطة هذا التطور مركز جذب جميع فئات الخوارج الابـاضية والصفرية ، من تونس ، وسجلماسة ، وليبيا ، وبلاد المشرق . وكانت هذه الامامة عنـوانا على نجاح التجربة الاستقلالية الاولى فى بلاد المغرب الاوسط فى العصر الاسلامى .

وكانت هذه الامامة أيضا ، بمثابة الدليل الحى على الروابط القومية التى يجب ان تكون وتستمر بين المشرق العربى وبلاد المغـرب لا سيما ، جزءه الاوسط . والى جانب حركة الخوارج ، يلاحظ أن بيئتنا احتضنت الحركة العلوية الشيعية ، التى تقوم على مناصرة آل البيت وحمايتهم ، وتـأييدهم ، لاسترجـاع حقهم فى الخلافة ولذلك تبدو نزعتها ملكية لانها تستمد حقها فى الخلافة من — نسبتها للرسول (صلى الله عليه وسلم) . وكان لابناء كتامة (شمال قسنطينة) دور كبـير فى اقامة مجد العلويـين فى أرض المغـرب ثم فى المشرق ،

وطننا الذى يستقبل ابناء فلسطين ، ويؤيد قضيتهم ، ويفتح أرضه للمضطهدين ، ولرجال حركات التحرر ، ينسجم مع ماضيه فى الوفاء للمبادىء الصحيحة ، وفى الوقوف الى جانب أصحابها ، والمدافعين عن الحق والعدل .

ودعوة بـلادنا الى وحدة المغـرب العربى ، كخطوة أولى نحو بناء الوحدة العربية الشاملة ليست وليدة الظروف الانية ، وانما هى ذات **أصول موغلة فى القدم ، اذ انطلقت الدعوة اليها من قلاع شمال قسنطينة ، وتبنتها كتامة ودفعت أبناءها وزهرة شبابها ليكونوا جنود الوحدة ، ووقودها ، وحربا على التجزئة فى شتى مظاهرها ، وهكذا أصبح المغرب العربى وبلاد الحجاز ، ومصر وبلاد الشـام وحدة سياسية مركزها القوى فى القاهرة المعـزية وجنودها الحارسون لها : هم أبنـاء كتامة وصنهاجة ، وهم من قبائل المغرب الاوسط.**

ولقد حافظ الزيريـون (صنهاجة) على طابع الوحدة المغربية ، من طرابلس الى سبتة كما احتفظوا بالروابط التاريخية مع الفاطميين فى مصر .

وعندما بدا أن الفـاطميين انغمسـوا فى شؤون المشرق ، واصبحوا لا ينهضون بواجب المحافظة على هذه الوحدة ، واصل الزيريون مهمتهم حتى ظهر من أبناء الوطن موحد جديد، انجبته كومية (دائرة ندرومة) فنهض بالعبء وواجه الاخطار الاسبانيـة والنورمانية ضد المسلمين فى المغرب والاندلس ، وحافظ على

الوحدة كما كانت ، وكـان يمكن لخلفاء عبد المؤمن بن على ، أن يقدموا الكثير للمسلمين فى مصر والشام ، اثناء الحـركة الصليبية ، لولا تأثر ابى يعقوب المنصور من معاملة صلاح الدين الايوبى ،الذى أرسل اليه يطلب النجدة ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين .

وبذلك لم يقـدر لهـذه الدولـة العتيـدة (الموحدية) أن تشترك رسميا ، فى المجهود ضد الصليبيين وأن تمكن كثير من رعاياها ، من مد العون والمسـاعدة لاخوانهم فى مصر والشام ، بالاشتراك فى حركـة الجهاد ، أو بمراقبة اساطيل الاعداء ، وبتعطيل ما يمكن تعطيله منها ، أو بارسال أخبار عن تحركات الحمـلات ، والجيـوش والاستعـدادات الصليبية ، الى اخوانهم فى مصر الايوبية .

ويلاحظ أن حركة الضغط التى واجهها مسلمو المغـرب من طـرف الاسبان فى الاندلس ، والنورمان فى صقليـة ، كـانت هى البداية الحقيقية للحركة الصليبية ضد دار الاسلام فى الجناح الغربى ، ومن ثم صرف المسلمون، هنا ، وعاقتهم حركة الاعتداء عن الاشتراك الفعال فى المجهود الحـربى ضد الصليبيين القاسيين فى المشرق العربى . وان امكنهـم فيما بعد ، أن ينزلوا هزيمة ساحقة ، ببعض هذه الحملات الصليبية التى تحاشت ميدان مصر والشام ، وحطت رحـالها فى تـونس الحفصية .

والخلاصـة :

ان العوامل الجغرافية التى كانت عايقـا ضد الغزاة المعتديـن ، وعونـا للوطنيه لعبت أيضا دورا كبيرا فى التوجيه السياسى والاقتصادى والثقافى والعرقى لسكان بلادنا منذ عهد قديم فأملت عليهم أن :

- يهتموا بأدوات الدفاع والهجوم برا وبحـرا .
- ويتصدروا الاحداث ، ويمثلـوا أدوارا رئيسية على نطـاق المغرب وافريقية .
- ويكـونوا حراسا عـلى المبادىء السامية ، ومعـنى ذلك أن يقبلوا التضحية لفائدة الاخوان والجيران .
- ويبقوا متفتحين على التياراتالعالمية فى الشرق والغرب .
- ويقبلوا الدفاع عن الحق والعدل ، والهجـوم ضـد قـلاع الظـلم والاستعمار .
- ويسهموا فى تحقيق الوحدة العربية فى أى صورة من صورها الناجعة .
- ويشاركوا فى انعاش اقتصـاديات المنطقة ، وفى ازدهار ثقافتها بقـدر معقول .

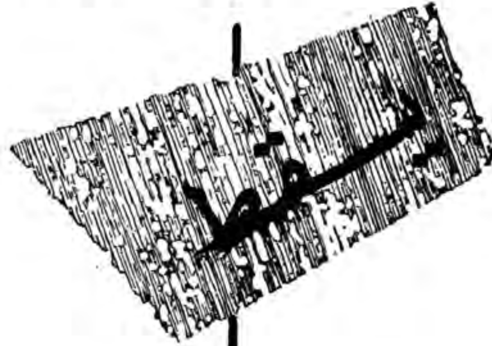
لقبال موسى

أستاذ التاريخ بجامعة الجزائر

مسرحية

الإهداء الى :

كل الصدائيين الفلسطينيين مناضلين متمردين فوق أرضهم المقدسة



الروتين

محمد أبو القاسم خمار

يقوم بالادوار اربعة اشخاص .

المشهد الاول :

الــروتين ـ اسمعــى ايتهــا القضيــة الشائكــة .. مــن سمح لك بالدخول الى قصرى .. الــم اقل لك كــم مرة انني غارق فى

مشاكلى ؟ وليس لـدى الوقت لمقابلتك . ! .. الم تسمعى هذا .. والان هيا .. اغربى عن وجهى .. اخرجى .

القضيـة — (تمثلها فتـاة) .. ولكننى ياسيدى الروتين .. لقد جئتك فى امر هام .. ولولا انك الوصى ، على ، لما دخلت قصرك

الـروتين — انك مازلت قاصرة ايتها القضية ، وباعتبارى الوصى عليك ، فاننى آمرك بالخروج حالا من قصرى .

القضية — قلت لك لقد جئتك فى امرهام.

الـروتين — (بغضب) وانا قلت لك : انك قاصرة وهذا يعنى انك لا تستطيعين التفريق بين ما هو هام ، وما هو غير هـام ، ... اننى انا الوحيد الذى احدد اهمية الامور ، ... اخرجى ..

القضيـة — انها مسألة موت اوحياة يا سيدى الـروتين ..

الـروتين — اعرف ذلك .. انك مريضة .. ولقد ارسلت الى الخارج بمن يأتيك بأطباء مختصين ليعالجوك اخرجى ..

القضيـة — اننى لم ادخل قصرك بسبب المـرض ..

الـروتين — اذن .. ما هى اسباب قدومك ... تكلمى .

القضيـة — لقد جاءتنى رسالة تهديد من احد المجرمين يقول لى فيها: اما ان ارضى به زوجا لى او يقتلنى .

الـروتين — (بتعجب) .. جاءتك رسالة تهديد .. ! قولى رسالة خطوبة .. ؟ من ارسلها لك ؟ اعترفى .

القضيـة — ارسلها لى : قاتل ابى .

الـروتين — تقصدين الاستعمار .. ولكنه اصبح عجوزا لا يقدر على الزواج .. خاصة مع بنت صغيرة ؟ مريضة مثلك .

القضيـة — انه لا يريد ان يتزوجنى هو نفسه ، ولكنه يريدنى لاحد ابنائه المجرمين ..

الـروتين — هل سمع اخوك الشعب بقصة هذه الرسالة .. ؟

القضيـة — نعم يا سيدى الروتين .. سمع ...

الـروتين — (بغضب) ومن اخبرهبها .. انت ؟ ..

القضيـة — لا .. لقد عرف ذلك من تلقاء نفسه ؟ وبحكم عمله ، وتنقلاته فى كل مكان ..

الـروتين — (بيأس) آه ... سيفسد هذا الشعب كل شىء على .. انه جاهل .. ولا قدرة له على استعمال العقل والمنطق ، ومع ذلك يحاول دائما ان يتدخل فى شؤونى .

القضيـة — ان اخى الشعب لم يقل شيئا عندما سمعبقضية الرسالة

الـــروتين — وابنه .. ! ابنـــه ذلـــك الذى تسمونه الثائر ماذا قال..؟
القضيـــة — قال له سيقتل كل مجـــرم يحاول الزواج منـــى .
الـــروتين — (بتهكم) يقتل كل مجرم .. وكيف يستطيع ذلك .. يالـــه من شـــاب مغرور ..
القضيـــة — ولكن ياسيدى .. هـــل لديك حلا آخر .. ؟
الـــروتين — نعم .. وهـــل تشكين فى ذلـــك .. ؟
القضيـــة — لا .. العفـــو يـــاسيدى الروتين ... انك صاحب الحل والربـــط .
الـــروتين — احسنت .. هكذا احبك عـــاقلة يـــاقضيـــة .
القضيـــة — هل استطيع ان اعرف ماذا ستفعل من اجلى حتى اطمئن .
الـــروتين — ستعرفين ذلك .. ولكن بعد ان افكر طويلا فى الطريقـــة المناسبة لك .. والان اخرجى..
القضيـــة — متى اعود اليك لاراك ..؟
الـــروتين — لا تعودى ، ســـأبعث انـــا لاستدعائك عندما احتاج اليك .
القضيـــة — اذن .. الى اللقـــاء ..
الـــروتين — مع الف سلامة ياقضية ..
القضيـــة — (متداركة) سيـــدى ... سيدى الـــروتين ..
الـــروتين — (بحدة) ماذا .. ؟
القضيـــة — لقد اوصانى اخى الشعب بأن ابلغك رغبته فىمقابلتك ..
الـــروتين — (بحدة) قولـــى لـــه اننى ارفض مقابلته .. ليس لدىوقت
القضيـــة — ولكنه يلح على مقابلتك .
الـــروتين — يلح .. ! ياله من ملحاح .. ! قولى لـــه : ليـــس الان . اننـــى مشغـــول ..
القضيـــة — متى تقابله .. غـــدا .. ؟
الـــروتين — لا .. ولا بعـــد غـــد ..
القضيـــة — اذن .. متـــى ؟
الـــروتين — بعد عام .. قولى له بعد عـــام .. هل فهمت .. ؟
القضيـــة — نعم .. بعد عـــام ..
الـــروتين — والان .. اخرجى .. هيا .. اخـــرجـــى .

المشهد الثانى :

* * *

الشعـــب — (ينادى) : ثائر .. ثائر.. ايـــن انـــت ؟ ..
ثـــائـــر — نعم يابـــى الشعـــب .. انـــا هنـــا ..
الشعـــب — اين اختـــى القضيـــة .. هل مازالت مـــريضة .. ؟
ثـــائـــر — نعم يا ابى .. انها طريحة الفراش تعانى الام المفاصل ؟ وتكاد الحمى ان تقضى عليها ..
الشعـــب — مسكينـــة .. اختـــى .. وياليتنى استطيع ان اعمل مـــن اجلهـــا شيئـــا ..
ثـــائـــر — لماذا لا تستطيع يا ابى .. انك قادر على صنع كل شىء .. حتـــى المستحيـــل ..

الشعـــب — حقا ياولدى .. اننى قادر .. ولكن هل استطيع ان اعمل بدون اوامر سيدنا الــروتين..؟
ثـــائـــر — انه سيدك انت اما انا فلا .. ولكن .. لماذا لاتــذهب لمقابلته ، وتطلب منه ان يسمــح لك بالعمل لانقاذ حياة اختك ، ؟
الشعـــب — لقــد طلبــت مقابلتــه ، واعطانى موعدا لمقابلته بعدعام
ثـــائـــر — بعد عام ؟ .. يالك مــن رجل طيب القلب يا ابى الشعب .. ! ومن قــال لك ان اختــك ستقاوم المرض مدة عام كامل .
الشعـــب — لقــد طلبت مقابلتـــــه ، قال سيدى الروتين انه سيأتيها باختصاصيين مــن الخـــارج فى امـــراض المفاصـــل ..
ثـــائـــر — وعندنا .. الا يــوجــد اختصاصيـــون .. ؟
الشعـــب — قال : انه سيفكر طويلا ، اختصاصيـــون حسب الطريقة الحديثة ، ولا يريد ان يعالجهـــا بطريقة اجدادنا القدامى ، قـــال انهـــا لا تنفـــع .
ثـــائـــر — ولكنه لم يجربها .
الشعـــب — هكذا قـــال الــروتين .
ثـــائـــر — وبالنسبة لرسالة التهديد التى جاءتها مــن طــرف احــد المجرمين .. ماذا كان موقفــه منهـــا ..
الشعـــب — نعم .. انك ولدى ، ونعم حتــى يجد لها حلا مناسبـــا بواسطة العقل والحكمة ..
ثـــائـــر — انا اخطر منه يا قضية .. طرف مجرم خطير ، والمجرمـــون لا يعترفون بعقل ولا بحكمة .
الشعـــب — هكذا قـــال الروتين .. !
ثـــائـــر — هكذا قـــال الــروتين .. هكذا قال الــروتين ... ! ولكن ما هو موقفك انت يا ابى .. ؟
الشعـــب — موقفى انا يا ولدى هو كما ترى .. قادر على كـــل شىء ، ولا اعمل شيئا .. اعرف كـــل المجرمين ، واستطيع ان أعدمهم جميعا ولكننى لا اقدم على ذلك .
ثـــائـــر — (بغضب) لماذا يا ابى .. لماذا .. ؟
الشعـــب — هدىء من غضبك ياولدى .. اننى ادرك انك ثائر — ولكن لا تنس اننى والدك — وانا الذى صنعتك ...
ثـــائـــر — اعرف ذلك يا ابى الشعب .. وارجو عفـــوك ..
الشعـــب — الله معكياولدى .. وقلبى معك .. امـــا يـــدى امـــاقدمى .. فأنت ادرى ..
ثـــائـــر — لا تتألم يا ابى .. اعتمـــد علـــى .. ولا تيأس (ينـــادى) القضيـــة .. القضيـــة ..
الشعـــب — لقد قلت انها طريحـــــة الفراش .. ماذا تريد منهـــا ..
ثـــائـــر — (يعيد النداء) القضيـــة

.. القضية .. ستعرف يا ابى ماذا اريـد ..

القضيـة ــ (تتكلم بصوت ضعيف) :
ماذا تريد منى ياثائر .. ؟

ثائـر ــ اريد اوجـه اليـك هـذا النسؤال ؟ وارجـو ان تجيبـين بصـراحـة ..

القضيـة ــ تفضل .. اسأل يا ثائر .

ثـائـر ــ هل تؤمنين بما قاله لـك ذلك الروتين المماطل ، من انـه قادر على حمايتك بواسطـة الحكمة والمنطـق .. ؟

القضيـة ــ واذا كنت لا اومن ممـاذا سيقـع .. ؟

ثـائـر ــ اجيبى عن سؤالى بكـل صـراحة ووضـوح ..

القضيـة ــ ان الروتين هو الوصىعلى .. ولكننى لم اقتنع او اعترف ، ولا مرة بوصايته .. ولا اومـن بمواعيده او عهوده

ثـائـر ــ اذن .. هل تسلمينـى رسالة التهديد التى جاءتك لارد عليهـا ..

القضيـة ــ ولكنه مجرم خطير يا ثائر .

ثـائـر ــ انا اخطر منه يا قضية .. انـى ابن الشعب ..

الشعـب ــ نعم .. انك ولدى. ونعم الابن انت ، اعطيه الرسالـة يا قضيـة

القضيـة ــ وهل سترد على المجـرم بدون استشارة الروتين.

ثـائـر ــ بدون استشارتـه .. !

القضيـة ــ الا تخاف منـه .. ؟

ثـائـر ــ لماذا اخاف .. اننـى اذا انتصرت على المجرم سيفرح لانه تخلص من مشاكله ؟ واذا انتصر على المجرم فالروتين لا يخسـر شيئا ، وتبقى الضحية لا يخسـر هـى الان ..

القضيـة ــ ماذا سيكون ردك علـى المجـرم .. ؟

ثـائـر ــ (بحمـاس) :
سأتحداه .. فأما ان اقتلـه او يقتلنى .. انه لن يستطيـع ان يقترب منك وانا حى .. اعطينى الرسـالة ..

القضية ــ خذها يا ثائر .. الله معاك ..

الشعـب ــ حالفك النصـر يـاولـدى الحبيـب ..

ثـائـر ــ الى اللقـاء ؟ والمـوت والدمار للمجرمين ..

* * *

المشهد الثالث :

الـروتين ــ ايها الخدم ؟ايها الحجاب .. افتحوا الابـواب ودعـوا الشعب والقضية يدخلان ..

(اصوات قوم يدخلـون) ..

الـروتين ــ كيف حالك يا قضية .. ؟

القضيـة ــ كما ترى ياسيدى الروتين.

الـروتين ــ وانت يا شعب ..

الشعـب ــ الحمد لله على كل حال ..

الـروتين ــ لندخل فى الموضوع مباشرة

ولنتكلم حول القضيـــه .

الشعـــب — ذلك ماتريده منك دائمـــا يا سيدى ..

الـــروتين — انكم بدون ريب تعرفـــون زوجتـــى المصونـــة .

الشعـــب — ومن لا يعرفها .. انهـــا السياسة الحكيمة ، سيدة القصر العامر ، حفظها الله .

الـــروتين — لقد تقدمت لى زوجتـــى باقتراح هام لحل مشكلة الرسالة التى بعث بها المجرم الى القضية الا اننى ربما لا اوافق علـــى اقتراحهـــا ..

الشعـــب — ما هو هذا الاقتـــراح يـــا سيـــدى .. ؟

الـــروتين — لقد اقترحت على بأن ارد على رسالة المجرم واخبره باننى رضيت به زوجا للقضية ؟ ثـــم لا اسلمها اليه ، ولا اسمح لـــه بالدخول عليها ، بحجة انهـــا مريضة وصغيرة ، واماطله الى ان يموت من تلقاء نفسه ، او اكون انا قد استعديت غايـــة الاستعداد واقضى عليـــه ..
كما اقترحت على زوجتـــى المصونة ، ان اقنع الثائر بالهدوء والتريث حتى لا ينتبه المجرم لهذه الخدعة ، ويفسد علينا خططنا .

الشعـــب — اننى افضل الجنون علـــى هذه الخطة المشينة .. ثـــم ان ولدى الثائر لن يرضى بها ابـــدا وانه الان فى طريقه يبحث عـــن المجـــرم .

القضيـــة — وانا افضل الموت على قبول هـــذه الفكرة .

الـــروتين — (بهدوء) مهلا .. مهلا.. لقد قلت لكما اننى قد لا اوافـــق على اقتراح زوجتى ، .. والان اتركونى افكر ، واتدبر ..

الشعـــب — لماذا لا تدعنا نفكر معك. هل نحن بلا عقول ؟

الـــروتين — انا لم اقل انكما بلا عقول ، .. ولكن انت بكل اسف ، جاهل واختك مريضة وقاصرة .

القضيـــة — حقا اننى مريضة .. ولكننى لست قاصرة كما تتصور .

الـــروتين — من الخير لك يا ابنتـــى ان تستريحى .. لقد قيل لـــى ان احسن علاج لك هو الراحـــة ، وعدم الانشغال بالتفكير .

القضيـــة — ان هذا لا يمكن .. اننى قد اعمل اى شىء الا الراحة وعدم التفكير ، فهذا مالا استطيعـــه .

الشعـــب — ان خير دواء لها هـــو ان نعالجها حسب الطريقة العربية القديمـــة ... ؟

الـــروتين — ما هى هذه الطريقـــة ..؟

الشعــب ــ الطريقــة هــى ان تعض يهوديا فتذهب عنها الحمى ، امــا مرض المفاصل ، فخير دواء لــه هــو الكــى ..

الــروتين ــ تعض يهوديا .. ! الكــى .. خرافة .. انها لخرافــة .. اسمعا .. اسمعــا .. لقــد خطرت لــى فكرة ..

الشعــب ــ ما هى .. ؟

الــروتين ــ لقد بلغنــى ان المجرمــين يخافون من ابنك ثائر فما رايك لو نتركه يفعل كما يشاء وننتظر النتيجــة .

الشعــب ــ ولكن ..اليس من الاحسن ان نمده بالمساعدة ..

الــروتين ــ اننى ساساعده بعقلــى وحكمتى ... وانت بماذا ؟

الشعــب ــ انه ابنى .. روحى وقلبى كلــه معــه ..

القضيــة ــ اما انا فحياتى بين يديه .. (هنا تسمع طرقات متتالية على الباب واصوات اقدام) ..

الــروتين ــ (بفزع) .. ماذا .. ماذا جرى .. افتحوا الباب .

ثــائــر ــ لا تتعب نفسك يا سيدى لقد فتحت الباب بيدى .

الــروتين ــ (بتعجب) ثائر .. ثائر .. من اين دخلت ؟

ثــائــر ــ لقد حطمت كــل ابــواب قصرك ودخلت ...

الــروتين ــ ما ذا تريــد .. ؟

ثــائــر ــ اننى لا اريد منك شيئــا مطلقا .. وانما جئت لاخبرك .

الــروتين ــ ماذا .. قل .. ؟

ثــائــر ــ لقد خطبنا لك الثورة .

الــروتين ــ وزوجتى القديمة ..

ثــائــر ــ زوجتك القديمة .. لقــد حكمنا عليها بالاعدام .. انهــا خــائنــة ..

الــروتين ــ (بدهشة) خــائنــة ..

ثــائــر ــ نعم .. خــائنــة والموت والدمار للمجرمين .

الجميــع ــ الموت والدمار للمجرمين.. يسقط الــروتين .. عــاشت فلسطين .. العربية الحرة .

نهــايــة

كان البجائيون مولعين بالموسيقى حتى زعم ليون الافريقى
عندما زارها أن كل بجائى يحسن الضرب على الآلة الموسيقية

بجاية
فى عهد الحماديين

دكتور رشيد مصطفاى

لعبت بجاية ايام بنى حماد دورا هاما فى تشييد صرح الحضارة الاسلامية بالجزائر .

ان الحماديين ينتمون الى اهم قبيلة بربرية بافريقية الشمالية تدعى صنهاجة وهى تضم حسب ابن خلدون ثلث البربر ولما قامت دعوة العبيديين ناصرتها صنهاجة وايدتها حتى اذا انتقل العبيديون الى مصر استخلفوا آل زيرى بن مناد الصنهاجى على المغرب الذى كان يضطرب فتنا نشأت من النزاع بين العبيديين والامويين اذ كانت قبيلة اخرى عظيمة تنافس صنهاجة وهذه القبيلة هى زناتة التى ناصرت الامويين وهكذا طيلةقرون نرى مغربنا العربى تتنازعه سياسات مختلفة ويفترق اهله فريقين متعاديين ذ ناصر احدهما سياسة ناصر الاخر سياسة معاكسة

فلا يحصل للمغرب اتحاد شامل الا في العهد الموحدي .

ولذلك لما اعانت صنهاجة العبيديين على تأسيس دولتهم ناصرت زناتة الامويين الاندلسيين أعداء العبيديين فنشبت بذلك بين القبيلتين حروب من اجل السيطرة على البلاد فكان الذي تولى قتال الزناتيين هو حماد اخا المنصور بن بلقين بن زيرى بن مناد الصنهاجي فلما توفى المنصور تولى ابنه باديس واقر عمه على عمله ولكن حمادا اراد ان ينتفع بجهوده وان يؤسس له ولابنه دولة فلم يجد بدا من ان يشيد القلعة على جبل عياض قرب المسيلة .

وبعد حرب دامت عامين بين حماد وابن اخيه باديس ثم المعز بن باديس وقع الصلح بين حماد والمعز وهكذا تثبت اركان الدولة التي يؤسسها حماد بفضل جهاده وثباته وبعد ان ازدهرت القلعة مدة من الزمن وهي حافلة بالعلماء والادباء والطلاب الوافدين اليها من كل ناحية وكانت قاعدة مملكة ذات بأس حدث حادث عظيم الا وهو دخول عرب بني هلال وسليم افريقيا فانتشروا في سهولها فخربت القيروان عاصمة افريقيا فاضطر اهلها الى مغادرتها وهكذا ذهب الى القلعة كثير من علمائها وطلابها كما غادرها ابن رشيق الى صقلية فلم يلبث الناصر بن علناس ان اشتبك مع العرب في حروب طاحنة فراى لزاما عليه لتحصين قاعدة دولته ان ينقلها الى مكان آخر فارسل جماعة من الخبراء يبحثون فاستقر رايهم على صلداى الفنيقية فبنى الناصر بقربها مدينة سماها الناصرية نسبة اليه اما لفظة بجاية التي ستبقى علما لها على الدوام فتدل على اسم القبيلة التي تسكن المدينة ونواحيها وكان تأسيس بجاية سنة ٤٦٠ الموافقة لسنة ٦٧٨م بنيت هذه العاصمة على شاطىء البحر المتوسط وبساحل جبل عال وامامها خليج من اجمل خلجان العالم فكأنه والنهر يصب فيه ذيل العروس .

ثم اخذت منازلها البيضاء ترتفع وتمتد على جنبات الجبل وهي ذات طابق واحد بداخلها احواض لجمع الماء وخزنه وحولها أشجار لها منظر عجيب على الخليج والبحر وعلى ضفتي النهر منتزهات سكانها وقصورهم ، وبساتينهم التي غرست بالبرتقال والتين والرمان والعنب المعش ولقد زارها حسن ابن الفكون الشاعر القسنطيني المشهور فوصفها واحسن وصفها اذ قال :

دع العراق وبغدادا وشامهما
فالناصرية ما ان مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به
مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع
حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصل والجنات مشرفة
والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا (م)
حى الدار للفكر والابصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعة
او تنظر البحر فالامواج تطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذانصف
قل جنة الخلد فيها الاهل والولد

هذه هي بجاية التي زارها هذا الشاعر في اوائل عهد الموحدين اي بعد عهد الحماديين بقليل وابياته تفيض بالاعجاب الذي هي جديرة به الم يجعلها الادريسي (١٠٩١ — ١١٦٦ م) الذي زارها في عهد الحماديين عين بلاد بني حماد لجمالها الساحر وعظمة منزلتها .

واذا اردنا الان ان نقدر عدد سكانها بالتقريب فلنعلم انه كان بها ثلاثة وسبعون مسجدا بقببها ومنارتها البيضاء فلما احتلها الاسبان هدموا عشرة منها وكان قرب قصر اللؤلؤة مسجد عظيم يصلي فيه الملك وكان من اجمل مساجد الدنيا وكان له اثنتان وثلاثون سارية من الرخام الجيد وكان المسجد كله مبلطا بالمرمر وكان له اثنان وعشرون بابا منها باب يدخل منه النساء لاداء صلاتهن تحت حراسة شيخ طاعن في السن .

وكان لبجاية ساحات جميلة ويحكي الاهالي انه كان بها خمسة أنهج كبار مظللة بالنخيل الذي استجلبه الملك من الواحات الصحراوية .

ويحكى كذلك ان الناصر بن علناس الحمادى كان شديد الاهتمام والعناية بتشييدها وكان يكلف رعاياه ان يبنوا منازلهم وكان يحضر المواد البنائية حتى لايتلكأ احد فى رفع منزله وانه اصدر امرا لكل داخل اليها بحمل حجرة او دفع ناصرى وجعل للمدينة سورا الا من الناحية الجبلية التى سيرفع لها (حائط) فى عهد الموحدين بعد احتلال ابن غانية لها وطرده منها وكان لها ارصفة ودار صناعة لانشاء الاساطيل ومبان عمومية ومدارس تعجب كلٌ من زارها وقد كانت تضم كثيرا من العلماء والادباء وكان الطلبة يدرسون التوحيد والفقه وعلوم اللغة والادب والحساب والطب وعلم الفلك وحتى الفلسفة ولكثرة صلحائها واوليائها صار اهاليها يلقبونها بمكة الصغيرة .

كان الملك الناصر يركب سفينة فى صحبة اكابرالدولة والمغنين ويخترق بها الخليج ليتأمل صنعه وكانت تأخذه روعة جمالها الطبيعى الذى لاشك انه كان يشجعه أن يجعل من بجاية مدينة عظيمة اذ وهبها الله منعة وجمالا وهنا يعجبنى ان الاحظ ان عاصمة اخرى بغربى الجزائر اعنى تلمسان قد حازت نصيبا وافرا من هذا الجمال الطبيعى الساحر فصار شاعرها ابن خميس يلهج بذكرها ويصبح .

تلمسان لو ان الزمان بها يسخو
منى النفس لادار السلام ولا الكرخ

ندرك هنا ذوق العرب الفنى وقيمته الرفيعة سواء فى اختيار مواقع العواصم فى ممالكهم او فى الاثار الفنية العجيبة التى تركوها لنا كقصر الحمراء وغيره .

كنا اشرنا من قبل ان بجاية كانت مشهورة بكثرة اوليائها يحكى اهالى بجاية ان احدهم وهو سيدى تواتى صاحب الزاوية الصوفية المشهورة عندما ذهب به الناصر فى سفينته الى وسط الخليج وقال له تأمل كيف يلمع بنيان هذه المدينة التى تزدهر ازدهارا بمنارات مساجدها العديدة الا تستحق لقب مكة الصغيرة اما الولى فلم يتأثر بجمال المدينة ولم يتحمس لها بل اخذ يعظ الناصر وعظا شديدا ويعنفه على عمله هذا وحبهللترف وانشاء القصور وقال له انك نسيت زوال الاشياء فاعلم انك تبنى للخراب وان سمعتك ستتلاشى وتسقط سقوط مدينتك فلم يأبه الملك لهذا الكلام فلما راى الشيخ ذلك نزع برنسه ورفعه بين الملك والمدينة حتى غابت عن عينيه وقال له انظر فنظر الناصر فلم ير بسوى خراب واطلال تتراءى فى برنسه فلم يبق قصور ولا بساتين ولا مساجد فراى ما ستؤول اليه بجاية فى عصورها المتأخرة من خراب وقلة عمران .

اوردنا هذه الحكاية لانها تذكرنا بحكاية شبيهة بها عن عبد الرحمان الناصر عندما بنى مدينة الزهراء ولامه عليها احد فقهائها لوما شديدا وهو القاضى منذر بن سعيد .

ولا نشك ان الناصر بن علناس كان يتشبه بالناصر الاموى العظيم وهذا يجعلنا ندرك فى هذا التشبه رغبة فى المساواة او التفوق لاننا اذا نظرنا الى المغرب والاندلس والشرق نجد التنافس شديدا بين هذه الاقطار الثلاثة وان غرض هذا التنافس هو التفوق وذلك فى كل ميادين الحياة فى الادب والعلوم والصناعات والبطولات الحربية وفى هذا التنافس عند الملوك رغبة فى السيطرة وتعميم حكمهم وهكذا نرى بين ابناء العمومة من الصنهاجيين تنشب حروب لاجل فرض السيطرة على الخصم بعد التغلب عليه .

ونرى فى الادب ابن شهيد الاندلسى يحاول فى كتابه التوابع والزوابع ان يبين لنا تفوقه على فحول ادباء المشرق كأمرئى القيس وغيره لان المشارقة كانوا يحتقرون ادب المغاربة .

وكذلك نجد هذه الرغبة عند المغاربة الذين يريدون ان يتفوقوا على الاندلسيين والمشارقه معا .

فلا عجب أن نرى الناصر بن علناس يرفع شأن عاصمته الجديدة ببنائه من القصور ما بهر العقول وما يستطيع ان يباهى به احسن قصور الدنيا الا وهو قصر اللؤلؤة وسيقفو

ولده المنصور بعده اثره بتوسيع القصور الموجودة وابتناء قصور اخرى وسيتحف قصر اللؤلؤة بالساريتين العجيبتين المصنوعتين من حجر نفيس وقد عثر عليهما فى اطلال كنيسة قديمة ويقال ان البابا سأل المنصور ان يبيعهما له فامتنع وزين بهما قصره ان الذين راوا هاتين السارتين يشهدون انهم لم يروا فى الدنيا احسن منهما .

وعلى كل حال ان الفن الصنهاجى حسب الاستاذ مارصى متأثر بالفن الشرقى والعراقى والفارسى والمصرى والفاطمى ولكن الصنهاجيين تفننوا فى زخرفته حتى استطاعوا ان يباهوا بقصورهم اجمل قصور الدنيا ونجد اثر فنهم فى كنائس بالرم وقصورها بصقيليه التى كانت لها علاقة تجارية مع بجاية وقد مدح ابن حمديس الصقلى المنصور ووصف قصره وابدع فى وصفه الذى يدل على ماذكرنا من حسنه الباهر قال ابن حمديس :

واعمر بقصر الملك ناديك الذى
اضحى بجدك بيته معمورا
قصر لوانك قد كحلت بنوره
اعمى لعاد الى المقام بصيرا
واشتق من معنى الجنان نسيمه
فيكاد يحدث بالعظام نشورا
نسى الصبيح مع المليح بذكره
رسما ففاق خورنقا وسديرا
لو ان بالايوان قوبل حسنه
ما كان شيئا عنده مذكورا
اعيت مصانعه على الفرس الاولى
رفعوا البناء واحكموا التدبيرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا
لملوكهم شبها له ونظيرا
انكرتنا الفردوس حين اريتنا
غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا اعمالهم
فرجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هدوا الصراط وكفرت
حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه
حقر البدور فاطلع المنصورا
ابصرته فرايت ابدع منظر
ثم انثنيت بناظرى مسحورا
فظننت انى حالم فى جنة
لما رايت الملك فيه كبيرا
واذا الولائد فتحت ابوابه
جعلت ترحب بالعفاة صريرا
غضت على حلقاتهن ضراغم
فغرت بها افواهها تكبيرا
فانها ابدت لتهصر عندها
من لم يكن بدخولها مامورا
تجرى الخواطر مطلقات اعنة
فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب انه
فرش المها وتوشح الكافورا
ومحصب بالدر تحسب تربه
مسكا تضوع نشره وعبيرا
تستخلف الابصار منه اذا اتى
صبحا على غسق الظلام منيرا

ثم وصف بركة فيه فقال :

وضراغم سكنت عرين رئاسة
تركت خريرا الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها
واذاب فى افواهها البلورا
اسد كان سكونها متحرك
فى النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما
اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها
نارا والسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول
ذابت بلا نار فعدن غديرا

وكــانمــا نســج النسيــم لمــائــه
درعــا فقــدر ســردهــا تقــديــرا
وبــديعــة الثمــرات تعبــر نحوهــا
عينــاى بحــر عجــائب مسجــورا
شجــريــة ذهبيـــة نــزعت الــى
سحــر يــؤثــر فى النهــى تاثـــيرا
قــد صــوفحت اغصـــانهــا فكــانها
قبضت بهــن مــن الفضــاء طيــورا
وكــانمــا تابــى لوقــع طــيرهــا
ان تستقـــل بنهضتهـــا وتطـــيرا
مـــن كــل واقعـــة ترى منقــارهــا
مـــاء كسلســـال اللجــين نمـــيرا
خرس تعــد مــن الفصــاح فان شدت
جـعلت تغــرد بـــالميــاه صفـــيرا
وكـــانمــا فى كـــل غصــن فضــة
لانت فــارســل خيطهــا مجـــرورا
وتريك فى الصهريج موقــع قطرهـــا
فــوق الزبرجــد لــؤلــؤا منثـــورا
ضحكت محـــاسنـــه اليــك كــانمــا
جعلت لهــا زهــر النجــوم ثغـــورا
ومصفــح الابــواب تبــرا نظــروا
بالنقش فــوق شكــولــه تنظـــيرا
تبــدو مســـامــير النضــار كما علت
تلك النهــود مــن الحســان صــدورا
خلعت عليــه غــلائـــلا مــوشيــة
شمس تــرد الطــرف عنــه حسـيرا
واذا نظــرت الــى غــرائب سقفــه
ابصـــرت روضـــا فى السمـــاء نضـــيرا
وعجبت مــن خطــاف عسجــده التى
حـــامت لتبنــى فى ذراه وكـــورا
وضعت بــه صنــاعهــا اقــلامهــا
فــارتك كـــل طــريدة تصــويــرا
وكـــانمـــا للشمس فيــــه ليقـــة
مشقوا بهـــا التــزويق والتشجـــيرا
وكـــانمـــا لــــلازورد مـخـــرم
بالخــط فى ورق السمـــاء سطـــورا
وكـــانمـــا وشــوا عليــه مـــلاءة
تركــوا مكـــان وشـــاحهـــا مقصـــورا
يـــا مـا لك الارض الذى اضحــى لـه
ملك السمـــاء علـــى العـــداة نصـــيرا
كــم مــن قصــور للملوك تقــدمت
واستوجبت لقصـــورك التــاخـــيرا

هذه القصيدة تدل على براعة ابن حمديس وعظمة المنصور الحمادى وتدل كذلك دلالة قاطعة على هذا التنافس الذى ذكرناه آنفا اذ فضل قصره على مابنى العرب والفرس والروم مـــن القصـــور .

ويظهر كذلك هذا التنافس فيما احتشد فى بجاية من علماء وادباء اشار اليهـــم الغبرينى فى كتابه عنوان الدرايه فى سياق الكلام على ابى على المسيلى الذى كان يلقب بأبى حامدالصغير قال ابو على هذا : ادركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتيا ما منهم من يعرف ابا على الحسن المسيلى من يكون واذا كـــان مـــن المفتيـــن تسعون فكم يكون من المحدثين ومن النحـــاة والادباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم .

كان الناس على اجتهاد وكان الامراء لاهل العلم على ما يليق ويراد وهذه الفترة التـــى اشار اليها الغبرينى والتى لم يشتهر فيها ابو على المسيلى هى فترة بنى حماد وهذا يدل على ان الناس قد حفظوا من هذا العهد الزاهـــر ذكرا يبعث على الاعجاب والاجلال ولا شـــك ان بجاية كانت تزخر بالعلماء والادباء وارباب الصنائع من الجزائريين وممن قدم اليها مـــن الاندلس وافريقيا والمغرب الاقصى والمشرق حتى ارتفع شأنها بين العواصم ولا سيمـــا عواصم شمال افريقيا .

ويظهر التنافس كذلك بين مؤلفى الغـــرب ومؤلفى الشرق اذ كان اهل المغرب سواء فى بجاية او غيرها من العواصم المغربية يطلعون

على كل ما يؤلف فى الشرق ويدرسونه ويجعلونه المرجع الصحيح فى تلقيهم العلوم والادب ولكن كانوا يجارونهم فى التاليف فى نفس المواضيع ويحاولون ان يتفوقوا عليهم وهذا ماذكره الغبرينى عن ابى على المسيلى اذ تعرض لتعليل لقبه بأبى حامد الصغير اذ قال ان ذلك راجع الى تاليف له طرق فيه ما كتب الغزالى فى الاحياء فكان كلامه احسن فيه من كلام الغزالى واسلم وكتابه كثير الوجود بين النـــاس .

وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وايثارهم له وفيه دليل عندنا على ان المغاربة لم يكونوا يحتقرون ما يؤلفه مواطنوهم بل كانوا يعتزون به ويباهون به اهل المشرق

وما قلنا فى علوم الدين نقوله فى الادب فالمنافسة فيه قوية نجد مثلا اهل المغرب يعتزون بأدبائهم ويفاخرون بهم اهل الاندلس واهل المشرق وكثيرا مانجدهم مثل الاندلسيين يتلقبون بأسماء او القاب ادباء المشرق وفى عهد بنى حماد ومايليه كان اهل المغرب يطلعون على كل ما يؤلف فى الادب وما يخبر من مقالات وبقال من شعر وكانوا فى دراساتهم يعطون اهمية كبرى لابى تمام (١٨٠ — ٢٢٨ هـ) والمتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤ هـ) والمعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) ولعمرى فى هذا التفضيل دلالة على ان ذوقهم سليم وانهم يميلون الى الادب القوى الحافل بالحكمة ومعانى القوة والرجولة ولكن اعجابهم بهؤلاء الفحول لم يصرفهم عن الاعجاب بأدبائهم وشعرائهم كالذى ورد عن الغبرينى عن عمارة الشاعر الذى اشتهر بتواشيحه الحسان وكان الناس معجبين بها حتى اذا شط الانسان فى الطلب بجيبه واغنى لك موشحا لعمارة كأنه طلب شيئا نفيسا رفيعا جدا ولعمارة هذا بنت يقال لهاعائشة تعطينا صورة لما كان عليه النساء من مشاركة الرجال فى العلوم والادب اذ كانت عائشة اديبة مشهورة بالنسخ لحسن خطها وكانت تجالس الادباء منهم ابو على الحسن بن الفكون الشاعر القسنطينى المشهور شاعر وقته كما يقول الغبرينى كما تشارك فيها العوام وهكذا كان بعض العلماء يدرس الفلسفة فى منزله لبعض نبهاء الطلبة وكانت تقوم محاورات ومذاكرات بين الاستاذ وطلبته النبهاء اذ يبدون رايهم حتى لا يأخذوا العلوم كقضايا مسلمة لا تقبل الجدل بل يناقشون حتى يستقر فهمهم وادراكهم للمسألة على امر صحيح تسلمه عقولهم وهذه الطريقة لا شك انها طريقة حية تشجع على الاستقلال فى الراى والجراة على التاليف والمساهمة فى الانتاج العلمى والادبى ولذلك كثر العلماء والادباء فى ابناء الجزائر فى هذا العهد الزاهر وحتى فى العهد الموحدى الذى يليه كما يدل على ذلك كتاب الغبرينى .

اما العلوم التى كانت تدرس فعمدتنا فى بيان ذلك على ماورد فى عنوان الدراية اذ نرى العصر يورد لها سندا الى ما قبل العصر الحمادى بحيث هذه العلوم هى التى تدرس فى المشرق بكتب الفت فيه ووصلت الى المغرب فنظر فيها اهل المغرب ودرسوها وزادوا عليها ونقحوها حسبما كان يبدو لهم اذ كانوا يتصرفون فيها بحرية ويؤلفون ما هو احسن منها فى نظرهم كما نبهنا الى ذلك لما تحدثنا عن ابى على المسيلى وفى هذا دليل على حيوية الفكر المغربى فى هذا العصر وعلى عدم جموده

اما العلوم فهى على نوعين علوم الدراية وعلوم الرواية ، تشتمل علوم الدراية على علم الفقه وعلم اصول الدين واصول الفقه وعلم العربية وعلم التصوف وعلم المنطق .

وتشتمل علوم الرواية على علوم تفسير القرآن العزيز وعلوم الحديث وعلوم الفقه وعلوم العربية وعلوم التصوف .

فنستطيع من هذا التفصيل ان ندرك طريقة

التعليم عندهم ولا سيما العالى منه فهـــم يدرسون كتبا لائمة المؤلفين عن شيوخ اجلة مجازين من شيوخ مشهورين وهكذا حتى نصل الى الشيوخ الذين تلقوا محتويات الكتاب من المؤلف نفسه بحيث استطاعوا ان يتمكنوا من روح معانيه وان يلقنوها تلاميذهم تلقينا صحيحا وهذه هى ناحية الرواية .

اما طريقتهم فى الدراية فهى مبنية على القاء الاسئلة والمحاورة والمذاكرة حتى يستقر الفهم فى ذهن الطالب فيكون من المحصلين . اما المعاملة بين الاساتذة والطلبة فكانت على احسن مايرام اذ كان الطلبة يجدون من شيوخهم كل مساعدة وتنشيط وترغيب وان كان من الشيوخ مـــن يتشدد فى الاجازة اذ لايجيز الا بعد الاختيـــار الشديد وبعد ان يتبين ان الطالب من المحصلين تحصيلا تاما دقيقا لا سطحيا وهذه فى نظرنا هى امانة تبليغ العلوم وتلقينها .

ومع هذه العلوم والاداب كانت تدرس علوم اخرى لها صلة بالصناعات والحياة المدنيـــة كالطب وغيره وكان يرد على بجاية طلبة مـــن كل قطر حتى من اقطار النصارى يروون ان ليونارد فيبوناتشى العالم الايطالى الرياضى المشهور تلقى علومه ببجاية وفى هذا شرف لها اذ يعترف لها الاجانب بتفوقها على بلدانهـــم وباشعاعها الثقافى العالمى واذ نحن نتحدث عن الجانب الجدى من الحياة فى بجاية نذكر النزعة الصوفية التى اخذت تسيطر علـــــى العقول فى ذلك المعهد وفى المعهود التى جاءت بعده هذه النزعة كانت لا محالة توجه الناس الى الاخرة وتصرفهم عن الحياة اللاهية وتغرس فيهم ايمانا قويا بالقول والعمل وهذا الايمان ستظهر ثمرته فى الدفاع عن الوطن عندما يوالى الغربيون هجوماتهم عليه كالنرمان والاسبان ولا باس ان نورد مثالا من امثلة البطولة التى اشتهر بها فريق من الصوفيين وقادتهم وان ناخرت الحكاية عن المعهد الذى نتحدث عنه .

يحكى انه عندما احتل الاسبان بجـــايـــة وتحصنوا فى حصونها لدفع المسلمين الذيـــن يريدون اجلاءهم عنها حاول المسلمون يومـــا أن يقتحموا برجا له برج موسى احتمى بـــه الاسبان الذين اخذوا يرمون المهاجرين بقنابل مدافعهم القتالة حتى بعثوا اليأس والفشـــل فى قلوب المسلمين فلما احس بعض الصوفية بذلك برز سبعة منهم وخطبوا فى المقاتلـــين خطبا حماسية حارة وتقدموا انفسهم الـــــى الحصن واسندوا اليه السلالم ولم يصرفهم تذف المدافع فاستطاع احدهم ان يصعد الى رأس الحصن ولكن احاطت به اسلحة العـــدو فخرقت جسمه قنابلهم فسقط عـــلى الارض شهيدا واما رفقاؤه فاستشهدوا قبل أن يصلوا الى ما وصل اليه ولكن هذا المثل الحى الذى ضربوه كان كافيا لبعث الحماس فى المسلمين وروح التضحية فيهم فهجموا على الحصن كرة اخرى وبقوة اشد من ذى قبل واستماتة لا نظير لها حتى استطاعوا أن يحتلوا الحصـــن ويقتلوا كل من فيه من الاسبان فبنى بعد ذلك صالح رايس التركى لاولئك الابطال السبعة اضرحة فى الاماكن التى سقطوا فيها وصارت تلك الاضرحة تزار وتحكى الاهالى أن أتقياءهم اذا مروا عليها بالليل شاهدوا سبعة اضواء تتحرك خلال الحصن واما شرارهم فاذا مروا عليها بالليل قذفوا بالحجارة التى لا يعتصمون منها الا بالفـــرار .

وعلى كل حال فكان للصوفية جانبان جانب ايجابى صالح نافع يتمثل فى كثير من العلماء العاملين الواقفين عند حدود الشرع وجانب سلبى مفسد يتمثل فى بعض الدجالين الـــذين كانوا يسخرون التصوف لاغـــراض دنيئـــة وقد حدث فى ذلك المعهد أن دخل احد هؤلاء بجماعة من مريديه الى المسجد وجلسوا ولـــم يؤدوا تحية المسجد فلما أراد الامام ان ينبههم الى ذلك قال له شيخهم دعهم فثار العالـــم فى وجهه واخرجه من المسجد هو واتباعه ثم نفى عن البلدة وهذا يدل على أن الحرب كانت قائمة بين صلحاء الصوفية وبين دجاليهم .

وازاء هذه الحياة الجدية حياة لاهية كانت نتيجة لما بلغته الحضـــارة الماديـــة ببجايـــة من ازدهار وهذه الحضارة سواء فى بجاية أو فى مصر من امصار الاندلس أو المشرق كانـــت ذات طابع متشابه وذات فتنة قويـــة عـــلى

النفوس حتى اندفع الحاضرون يأخذون منها نصيبا وافرا وهى نتيجة اليسر الكبير الذى كان يعيش فيه المسلمون والذى جعلهم يستكثرون من طيبات الحياة الدنيا ويستعجلونها حتى يبالغ بعضهم ان يجعل جنة الخلد فيها كما فعل ابو نواس فى بغداد وكما فعل ابن خفاجة فى الاندلس وكما فعل ابى الفكون القسنطينى عندما وصف بجاية اذ قال :
ياطالبا وصفها ان كنت ذانصف

وهذه الحياة التى تشمل الجوارى والغناء
قل جنة الخلد فيها الاهل والولد
والخمر صارت ويا للاسف شائعة فى كثير من امصار المسلمين وهى التى ستفقدهم رجوليتهم عن مراقبة العدو الذى كان يتربص بهم الدوائر .

اخذت بجاية حظا كبيرا من هذه الحياة فصار التنافس كثيرا فى اقتناء القصور والمنتزهات على شاطىء البحر او ضفتى النهر الكبير فكانوا يقضون فيها اطيب أوقاتهم وكانهم يتمثلون بقول ابن زهر فى موشحه البديع .

ما للمولة .. من سكره لا يفيق .. ياله سكران
من غير خمر ما للكئيب المشوق .. يندب الاوطان
هل تستعاد .. ايامنا بالخليج .. ولياليننا
او يستفاد .. من النسيم الاريج .. مسك دارينا
اوهل يكاد .. حسن المكان البهيج .. ان يحيينا
روض أظله .. دوح عليه أنيق .. مورق الافنان
والماء يجرى .. وعائم وغويق .. من جنى الرحان

وكان البجائيون كغيرهم من المتحضرين مولعين بالموسيقى حتى زعم ليون الافريقى عندما زارها ان كل بجائى يحسن العزف على آلة الموسيقى وان البجائيين كلهم مخنثون لا يهمهم الا ان يأخذوا متعتهم من الحياة ولم يبق من الرجولة ما يدافعون به عن أوطانهم .

ومهما يكن من صحة هذا القول نرى ان فيه غلوا اذ سيبرهن اهل بجاية على روح التضحية عندما يتصدون للدفاع عن وطنهم العزيز .

وعلى كل حال قد روى لنا التاريخ مرور محمد بن تومرت بها فى عهد العزيز الحمادى واخذ يغير فيها المنكر بيده فكسر آلات الموسيقى واراق دنان الخمر ، حتى صار السكان يضيقون به ذرعا وحتى اخرجه الملك منها .

ان يكون لهذه الحياة اللاهية جانب سيئى فقد دلت على مقدار الرفاهية التى كان عليها الناس فى عهد الحماديين ورغد العيش كان شاملا فى سائر مدن مملكتهم التى كانت تحتوى على ثلاثة ارباع الجزائر الحالية وقد ذكر ذلك الادريسى فى كتابه المشهور نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

واشهر مدنها الجزائر واشير والقلعة وبجاية وقسنطينة وكلها كانت تنعم بحال مادية وادبية حسنة يحق لهذا العهد الزاهر ان يفتخر بها .

ونالت بجاية اسمى منزلة فى عهد الناصر وابنه المنصور من قوة وحسن تدبير لشؤون الدولة ما اعظم امرها فى اعين ملوك عصرها حتى بابا روما كريكوار السابع كان يتودد للناصر ويكاتبه مكاتبات يلاطفه فيها ويوصيه خيرا برعاياه من النصارى اذ كانت فى القلعة كنيسة للنصارى ولا يبعد ان يكون مثلها فى بجاية التى كانت تحتوى على جماعات من نصارى رومة وجنوه وكاصالونيا وهذه الجماعات كانت تشتغل بالتجارة وكانت تكرع كذلك من مناهل العرفان الذى كان منتشرا فى مدن المسلمين ولا سيما بجاية .

وفى وثيقة تاريخية قديمة عثر عليها شارل

فيرو نجد أن المنصور قد ارسل البابا من رومة بنائين لتزيين عاصمته فبنوا له برجا عظيما يدعى برج شوف الرياض لحراسة ثلاثة ابواب منها باب البنود الكبير الذى ينفتح على البساتين والواد الكبير وفى اعلى البرج آلات لها مرايا تجاوب باشارات امثالها فى جهات مختلفة وبفضلها يمكن التخابر مع جميع نواحى المملكة ومدنها كقسنطينة والقلعة وغيرهما وفى الليل تحصل الاشارات بنيران موضوعة بكيفية ملائمة ولذلك يسمى برج شوف الرياض بالمنارة او برج النيران .

واحدث ملوك بنى محاد اسطولا عظيما استطاعوا ان يحافظوا به على شطوط البلاد رغم هجومات النورمان وغيرهم من النصارى الذين كانت لهم مطامع فى بلدان المسلمين مع ما اشتهروا به من روح صليبية عدائية حتى النرمان الذين اشتهروا فى عهد رجار الثانى بحسن معاملتهم للمسلمين لم يسلموا من هذه الروح العدائية ومن هذه المطامع الاستعمارية فلا ننس غزوهم للمهدية .

ولذلك اشتهرت بجاية ثم الجزائر بجماعة اغلبها اندلسيون همها غزو الجزر والشطوط الرومانية وغيرها وكانوا يعدون ذلك جهادا فى سبيل الله اذ كانوا يخمسون غنائمهم وكانوا يسوقون السبى الكثير وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربض سفنهم .

اذ عظمة بجاية فى عهدها الزاهر يرجع الى هيئة مرساها الذى كان يلائم حاجات الملاحة وعاداتها فى القديم ولهذا المرسى قيمة دفاعية كبيرة لانه فى مأمن من العواصف التى تهب من حين الى آخر بالبحر المتوسط وتجعل الشط الافريقى صعب الارساء فيه .

وقد يلخص الادريسى هذه العظمة بقوله :

ومدينة بجاية فى وقتنا هذا مدينة الغرب الاوسط وعين بلاد بنى حماد والسفن اليها مقلعة وبها القوافل منحطة والامتعة اليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة واهلها مياسير تجاروبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد واهلها يجالسون تجار المغرب الاقصى وتجار الصحراء وتجار المشرق وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالاموال المقنطرة ولها بواد ومزارع والحنطة والشعير بها موجودان كثيران والتين وسائر الفواكه بها منها ما يكفى لكثير من البلاد ولها دار صناعة لانشاء الاساطيل والمراكب والسفن والحرابى لان الخشب فى اوديتها وجبالها كثير موجود ويجلب اليها من اواليمها الزفت البالغ الجودة والقطران وبها معادن الحديد الطيب موجودة وممكنة وبها من الصناعات كل غريبة وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبال جرجرة وهذا نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمركب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلا ويجوز من شاء فى كل موضع منه .

« ومدينة بجاية قطب لكثير من البلاد . هـ »

وهكذا لم تزل بجاية مزدهرة تشع ثقافتها وحضارتها فى عهد الحماديين وعهد الموحدين والحفصيين حتى احتلها الاسبان سنة عشر وتسعمائة فخربوا كثيرا منها وخربوا قصريها المشهورين الباقيين الى عهد احتلالهم وهما قصر اللؤلؤة وأميمون ثم اخرجهم الاتراك منها فاخذت بجاية فى الاضمحلال ولولا انها مرسى من المراسى ذات الاهمية لكان شأنها شأن القلعة وقد خرب الفرنسيون ما بقى من آثارها فلم يبق اليوم الا باب البحر الذى يسميه الفرنج الباب الشرقى .

وهذا الباب يشير الى ذلك العهد الزاهر وان اربابه لم يكونوا انكاسا كما قال البحترى فى ايوان كسرى

د . رشيد مصطفاى
استاذ الآدب بجامعة الجزائر .

مقومات الشخصية



عبد الحميد مهرى

ادار الندوة عثمان شبوب

قضية الشخصية الوطنية تحتل مكان الصدارة فى مشاكلنا الفكرية والخلقية والاجتماعية وحتى السياسية والاقتصادية لانها موضوع الساعة الذى تجرى فيه مناقشات واسعة فى مختلف الاوساط . فمن الضرورى ان نبسط هذا الموضوع ، ونحدد معالمه بوضوح ، حتى نعرف وجهتنا ، وطريقنا الى المستقبل .

واود ان الاحظ منذ البدء ان المجلة عندما فكرت فى تنظيم لقاء يضم بعض المثقفين ، لمناقشة موضوع الشخصية الوطنية ، وعرضت الفكرة عليهم اصطدمت بنوع من الحذر والحيرة عند بعضهم . وكان من اسباب هذا الحذر وتلك الحيرة ، ان هذا الموضوع معقد وشاق ومحفوف بالاخطار ونتائجه مشكوك فيها .

وفى راى هؤلاء ان الحديث عن شخصية الامة ــ ايا كانت ــ يواجه من حيث المبدا اعتراضات علمية منهجية ، اذ من الصعب ــ فى نظرهم ــ تشبيه الامة بالفرد من حيث وجود سمات ثابتة للشخصية ، اذ ان مثل هذا التشبيه ينطوى على تعميم لا يستساغ فى العلم

اذ من رايهم ان الحديث عن الشخصية الوطنية يتطلب اجراء بحوث ودراسات منهجية على عدد كاف من الافراد ، حتى يتسنى لنا ان نحكم بان هذا الشعب مثلا ، له خصائص مشتركة تنطبق على جميع افراده .

والاعتراض الثانى يتلخص فى ان اصحابه يرون ان طرح هذا الموضوع فى الوقت الراهن يخلق لنا مشاكل كثيرة ، ونحن فى مرحلة انتقالية احوج ما نكون الى وحدة الصفوف .

فرايى ، ولعل الاساتذة يتفقون معى فى هذا ، ان نبدا نقاشنا بمعرفة مدى وجاهة هذين الاعتراضين :

الوطنية

شارك في الندوة

عبد الحميد مهري
الامين العام لوزارة التعليم الابتدائي والثانوي
عمار طالبي
استاذ الفلسفة بالجامعة
الشيخ بوعمران
استاذ الفلسفة بالجامعة
محمد العربي ولد خليفة
استاذ علم النفس بالجامعة
عبد الرحمن حاج صالح
مدير معهد الليسانيات واستاذ بالجامعة .



عمار طالبي



الشيخ بوعمران



عبد الرحمان حاج صالح

مهري : اعتقد ان الحديث عن الشخصية الجزائرية اذا وقع تناوله في مناقشة من المناقشات ، او بطريقة من الطرق بقصد البحث ، وبقصد بغية التوصل الى الحقيقة ، وبدون افكار مسبقة ، فان هذا سيكون ولا شك عنصرا ايجابيا ، في المرحلة الراهنة ، ولكن محاولة اعطاء تعريف مرتجل ، او غير مدروس للشخصية ، والانطلاق منه بدون درس وبدون تمحيص هو الذي يكون غير مقبول .

بوعمران : رايي ان اعتراض هذا الذي يدعي المنهجية ، ربما يؤدي بنا الى اكثر من المقصود بالنسبة الى الشخصية اذا فكرنا في هذا الموضوع ربما يصعب علينا مناقشة اي موضوع يتعلق بواقعنا . مثلا الثقافة الوطنية هل يمكن تقييمها والتعليم والتربية ، والاقتصاد ؟ . هل كل هذه المسائل ليست لدينا اذا فتحنا هذا النقاش ولا نملك جميع المعلومات والاحصاءات التي تسمح لنا بأن نناقشها على ضوء مناهج سليمة ، واظن بان هذا الاعتراض ليس له فائدة بالنسبة لموضوعنا هذا ، او لموضوعات اخرى ، الا اذا كان المقصود منه التعمق في الموضوع ، والتركيز على بعض القواعد ، سواء كانت منهجية



محمد العربى

او غير منهجية ، هذا مقبول طبعا .

الطالبى : ان من يعترض مثل هذا الاعتراض لا يفترض ا نهناك شخصية جزائرية ، ولكن الواقع ان هذه الشخصية هى التى استطاعت ان تدافع عن نفسها ، فيمكن لنا أن نستعرض هذه الصفات التى استطاعت بها هذه الشخصية أن تقاوم وان تثبت ذاتيتها واستقلالها ، وتثبت انها لم ترض ابدا أن تندمج فى شخصية اخرى او فى حضارة اخرى اندماجا تاما ، والمقاومة المستمرة للشعب الجزائرى تدل على أن هناك شخصية وهذا يبرر لنا البحث فى هذه الشخصيةومعرفة هذه الصفات فى النواحى الحركية مع تغير التاريخ ، وفى النواحى الثابتة ايضا خلال هذا التاريخ .اظن انه باستطاعتنا ان نبحث هذا المشكل ، وأن ننتهى الى صفات مشتركة ولو كانت قليلة ، أظن ان الانسانية كلهاتنتمى الى عنصر واحد من الناحية البيولوجية لا يختلف انسان عن انسان ، فنحن لا نثير البحث فى النواحى البيولوجية التى يشترك فيها بنو آدم كلهم ، وانما نثير النواحى الاجتماعية لا باعتبار انها علم ، او تيار عقائدى فقط .

حاج صالح : نعم انا موافق تماما على هذا الراى ، الا اننى ، أؤكد ضرورة ايجاد وسائل لاثبات هذه الشخصية للكشف عن كنهها بوسائل علمية ، اى بأبحاث ، واحصاءات وغير ذلك ، فانا طبعا اعتقد أن كل موضوع يدور حول الشخصية ، بما أن الشخصية مثل الظواهر الطبيعية ، فلابد من المشاهدة ومن العيان ومن الملاحظة ، وهذه الملاحظة لا تتم الا بتلك الوسائل العلمية ، الا أننا مادمنا مستعجلين فى قضية الكشف عن الشخصية فلا بأس من الاجتهاد الشخصى الذى يمكن ان نسميه الاستبطانى ، اى التأمل الباطن الذى ربما ساعدنا شيئا ما الا اننى شخصيا لا اظن انه يصل بنا الى كبير فائدة ، فأنا متيقن ان قضية ضرورة وجود شروط معينة لموضوعية البحث ، هذا شىء لا بد أن يصبح كل شىء ، لكن هذا لا يمنع من أن يتناقش الالمعيون والناس الاذكياء وذوو البصر ، من المواطنين .

محمد العربى : فيما يخص موضوع الشخصية بقطع النظر عن كوننا نبحث عن الشخصية القومية ، أو الشخصية الوطنية ، وبهذه المناسبة اسمح لنفسى أن الاحظ ملاحظة للاخ عثمان شبوب ، تتعلق بحصره موضوع المناقشة فى شخصية وطنية ، هناك اغفال ، لبعد ثانى ، أو دائرة اوسع تغذى الشخصية الوطنية هى الشخصية القومية .

الشخصية الوطنية ليست الا دائرة صغيرة فى دائرة اكبر ، هى الشخصية الوطنية ،هذه ملاحظة جانبية فقط ، نثيرها حول تعليقكم الاول ، اما موضوع الشخصية نفسه ، فهو موضوع من أعقد الموضوعات سواء كان فى علم النفس أو علم الاجتماع ، فكل بحث يبدأ بمعاجلة الشخصية وينتهى الى محاولة ايجاد حل لها ، لكن أنا أرى ، وفى هذا اوافق بعض الشىء الاستاذ عبد الحميد ، فى ان موضوع التعريف ليس مهما ، فى المرحلة الاولى فمن البديهيات الواضحة وهذا فى مجال الرد على دعاة المنهجية فى هذا الموضوع اننا فى كل يوم ندفع لمحصل الكهرباء ثمن ما استهلكناه ، ولكن لا يعرف أحد من عامة الناس او من خاصتهم ما هو كنه الكهرباء ويبدو على اغلب الظن ان موضوع الشخصية بالنسبة لنا ينبغى أن يطرح فى نطاقين .

نطاق تاريخى وآخر حضارى بمفهوم نفسى اجتماعى ، فى هذه الناحية ينبغى لكل من

يدرس هذا الموضوع ان يلاحظ ظاهرتين حدثتا فى الشخصيــة القوميــة .

الظاهرة الاولى اسميها : ظاهرة الاحتواء وهــو ان الشخصيـــة الوطنيـــة ، او القومية بصفة عامة واجهت فى بداية امــرها عملية امتصاص ، ان الانبهار الذى حدث فى بداية الاحتلال جعل الشخصية القومية امــا ان تندفع فى اتجاه القوة الاستعمارية بعتادها الفنى وبهرجها الحضارى الى غير ذلك ، واما ان تنكمش ، ففى المرحلــة الاولى فضلت الانكماش لكى تتقى الاحتواء ونتج عن ذلــك الانكماش ظاهرة اخرى اسميها « بالنبذ » ، وهو ان المستعمر اغفل هؤلاء الناس وطرحهم تماما ، فانزووا فى القباب ، وظهرت بعــض المظاهر مثل الطرقية واجترار الماضى الى غير ذلك ، فى خلال هذا المجال يمكن ــ يعنى مجال عملية النبذ والاحتواء ــ يمكن ان نجد طريقنا الى وضع الشخصيــة القوميــة موضعــها الصحيــح .

بوعمران : اعتقد اننا فى هذه المرحلة مــن البحث يمكن ان ننتهى الى نتيجتــين :

الاولى : اهمية الموضوع والثانية اهميــة مناقشته مناقشة علمية هادئة ، وهذا طبعا لا يتوقف مثل ما يرى البعض على توفر عدد من الدراسات ، او من الاحصاءات ،

ثانيا : اما الهدف من هذه المرحلــة التى نجتازها ينبغى ان يكون الوصول الى تحديد عام للشخصية ، ينفى النظرات الضيقة او النظرات التحزبية ، التى تريد ان تستعمــل شعار الشخصية وقضية الشخصية لهــدف سياسى قريب فــاذا كــان البحث فى هــذا الموضوع يــرمى الى تحديــد الخصائــص الاساسية الثابتة الدائمة التى من شأنهــا ان تكون عوامل فى تطور المجتمع اعتقد ان هذا من الاهمية بمكان ، وان هذا الموضوع يرتبط تما مالارتباط بمستقبلنا وحاضرنا ، كما يرتبط بماضينا .

انا يودى ان اضيف الملاحظة التى هى : انا دخلنا بعد ، فى بحث مفهــوم الشخصيــة الوطنية ، والتمهيد طبعا الذى تناقشنا فيــه فى المنهجية ، ما هو الا تمهيد ، ويبدو لى ان ندخل الان فى مفاهيم الشخصية الوطنية حتى ندرس ما فيها من سمات ثابتة ، وما هــى الجوانب التى يمكن ان نحصر فيها الشخصية الوطنية ، انطلاقا مــن واقعنــا فى الجزائــر بالــــذات .

الطالبى : الحقيقة اننا فى تنــاولنا لهــذه المشكلة ، لا نبدأ من نقطة الصــفر . بل ان هنا الك وقائع تاريخية وهنا لك وثائق مسجلة فى مختلف الاثار التى تركها الفكــر فى هــذه البلاد ، نستطيع ان ننطلق منها وان نجعلهــا بمثابة مادة نستأنس بها ونعتمد عليها ، وهذا لا يمنع اننا سنبحث هذا الموضوع بحثا قائما على دراسات منهجية ، وعلى احصاءات ، وعلى تحليل هذهالاحصائيات وما الى ذلك ، من المناهج العلمية المعروفة فى الدراســات الاجتماعية والنفسية والتاريخية ايضا ، ولكن ينبغى ان نعترف بأننا نعيش فى هذا المجتمــع المستمر فى التاريخ ، ومن جهة اخرى فاننــا نقرأ وثائق وتاريخ لهذا المجتمع ، ومن خلال هذه الاشياء التاريخية نستطيع ان نستخلص وان نستخرج المقومــات الاســاسية لهذه الشخصية التى نستطيع ان ننتهى فيها الى راى فيما اظن فى هذه الندوة .

سؤال : الان يبدو لى مــن الفائدة ان ننتقل الى مناقشة الاعتراضالثانى الذى يعقتد ان اثارة هذا الموضوع فى الظرف الراهن ، سيهــدد وحدتنا ، ويصيب تماسكنا ،

مهــرى : اعتقد ان هذا العذر الذىيقدمه البعض لعدم بحث هذا الموضوع ، لا اساس له من الصحة لان هذا الواقع عرفته جميــع الشعوب وتعرفه جميع الشعوب فليس هناك شعب يتميز بخصائص مستقلة تماما عــن المجتمع البشرى او مستقلة تماما عن التبادل الحضارى والفكرى ، وليس هناك شعــب تتساوى فيه خصائص وتنسجم الى درجــة انها لا تمثل الا وحدة منسجمة ، فانا لا ارى ان هذا يكون مبررا كافيا لعدم طرح القضية

هناك طريق تناول القضية ، وهذا أشرت اليه فى السابق اذا تناولنا البحث فى قضية الشخصية وانطلقنا من عاطفة عابرة او موقف سياسى وقتى، او نظرة ضيقة للامور فان هذا حتما لا يؤدى الى نتيجة ايجابية .

ولكن أعتقد ان هذا ليس ما نعنيه عندما نطلب او نؤكد على ضرورة البحث لهذا الموضوع فنحن نعنى البحث السليم والبحث العلمى ، وتبادل الاراء فى مشكلة من اهم مشاكل نهضتنا فى العصر الحاضر .

بوعمران : انا فى رائى هذا الاعتراض يرمى الى حقيقة لو اعتنينا بها ربما تبعدنا عن الموضوع ، وهى ربما فى الحالة التى نعيشها الان ، ثمة مجهودات ، ثمة مساعى تتطلب منا بحث مسائل اخرى غير هذه المسألة ، فى رائى هذا الرأى غير سليم من نواحى :

اولا : لا ارى ما يمنع من بحث قضية جوهرية مثل هذه وهى الشخصية الوطنية ، ولا ارى كيف يرى البعض عدم بحث موضوع مثل هذا ، فاننا نبحث فى موضوعات اخرى مثل الثقافة العالمية ، او التقدم العلمى او الاستقلال الاقتصادى ، او السياسى ، وكل هذه المسائل لا تركز الا اذا كانت هناك شخصية وطنية .

والناحية الاخرى : التعريف بالشخصية الوطنية او بحث الشخصية الوطنية ، لا يتنافى مع تفتحنا نحو العالم ، العلمى ، او الثقافى ، لان العالم الذى نعيش فيه الان لا يمكن ان ينزوى على نفسه وكل المعلومات وكل الحدوات اليوم اصبحتمتبادلة ، ولكن اخشى ان يرمى البعض بتقديم هذا العذر او الاعتذار الى ان نذوب فى غيرنا ، فى شخصية غيرنا او فى ثقافة غيرنا ونهمل هذا الجانب الاساسى الذى فى الواقع يقره التاريخ ، تاريخنا القديم ، او القريب ، وحاضرنا ومصيرنا ، كل هذا مرتبط بتعريف شخصيتنا الوطنية ، فى اوصافها العامة كما قلنا ، لا فى التركيز على بعض الفوارق الجزئية التى توجد من قرية الى قرية، او من جهة الى جهة ، او فى عوائد عابرة وفى

خلاصة هذا القول ، اريد ان اركز على حقيقة وهى :

لا وجود لشعب مهما كان الا وكانت له شخصية ، ونحن نبحث فيما يتعلق بنا فى هذه الشخصية ، وهى موجودة كما تفضل بقية الزملاء ، موجودة لا ينكرها احد ، وهى غير مبنية على جزئيات او اختلافات ، او عناصر ، متباينة ، وانما هى تجمع ابناء الوطن كلهم فى مقومات ، ويبدو لى ان الوقت حان لنتحدث على هذه المقومات .

سؤال : اذا سمح لى الاستاذ بوعمران ، اريد قبل ان نشرع فى مناقشة المقومات، ان نناقش مسالة تبدو لغوية فى الظاهر ، ولكنها فى الحقيقة لها ابعاد سياسية، هى مسالة استعمال كلمة الوطنية بدلا من القومية .

محمد العربى : اظننى طرحت من قبل هذا الموضوع ، الحقيقة ان الوطنية بتعبير مبسط وربما ساذج نوعا ما ، هو « عملة » القومية يعنى هناك شىء كلى ، وهناك تنوع داخله ، وهذا التنوع هو ما نطلق عليه الوطنية ، والحقيقة يمكن النظر الى مستويين فى طرح هذه المشكلة . هناك شخصية قومية بما تجمع من مقومات عامة يشترك فيها كل أبناء الوطن الذين لهم لسان واحد ، ودين واحد ، وتراث مشترك من قديم ، وهناك تنوع داخلى يميز بعض المظاهر الاجتماعية والحضارية الجزئية التى تخص كل منطقة داخل الوطن الواحد، وعلى مستوى الوطن كله ، انما اريد ان اضيف تمييزا آخرا ، وربما هذا داخل فى اختصاصالاستاذ الحاج صالح وهذا بمجرد طرحنا لكلمة الشخصية وحتى من الناحية اللغوية كلمة شخص على ما اعتقد لست ادرى هل يوافقنى الاستاذ الحاج صالح فشخص يعنى ظهر وبرز ، فكلمة شخصية نفسها ، ليست فى حاجة بمعناها المنهجى الى الدوران فى الحلقة المفرغة ، وهذا

رد على دعاة المنهجية المتذرعين بأسم المنهجية لاثبات أن الشخصية الوطنية الجزائريـــة غير موجودة فى وقائع مجســدة فى احصائيــات ومواقف تاريخية ودراسات الخ . .

ليس هناك شعب يخلو من الشخصية على ان هذه الشخصية قد تتكامل ، وقد توجد فيها بعض الثغرات ، بالنسبة لنا ، وجدت بعض الثغرات والغموض المفتعل ، نتيجة التصادم الحضارى الذى وقع بيننا وبين حضارة اخرى مختلفة عنا ، اذا فينبغى ان نميز بين التنـــوع وبين التفتت ، فالتفتت هو ان ينسلخ شعب عن شخصيته ، مثلما حاول الامريكيـــون أن يفعلوه بالنسبة للهنود الحمر أو الاسكيـــمو ورد الفعل أو الثبات ، والسعادة والتكامل مثل ما حدث عندنــا .

حاج صالح : القضية صحيح ، لها مساس باللغة ، يظهر لى هنا انها نسبة الى وطن ، ونسبة الى قوم ، الفارق ظاهر ، ان الشىء الوطنى ، المنسوب الى الوطن ، كأنه شىء فردى ، لان السلوك الشخصى يكون وطنيا ، كذلك لكن بنوع من المجاز ، كذلك السلوك الجماعى ، الا ان السلوك القومى لا يكون الا جماعيا ، يعنى من الممكن ان نطلق على الفرد الواحد ان له موقفا مشرفا ،منحيث الوطنية، اما القومية فهى اشمل ، يظهر ان القومية هى اشمل ، لان القومية ظاهرة لا تخص الوطـــن كوطن ،لكن تخص الوطن بما فيه .المواطنون، وبما فيه الماضى ، والمستقبل ، والاقتصاد ، وكل شىء ، لست ادرى هل هذا يعنى .

س : هـــناك مسالــــــة اخرى ، ونحن طبعا ما تزال فى اطار العموميات ، تحتاجفى راى الى تحديد ، وهىمسالة الشخصية البربرية . هنـــاك من يحرف مفهوم الشخصيـــة الوطنية ، ويعتقد ان المقصود بـــذلك ، هـــو الشخصيـــة البربريـــة .

حاج صالح : لا ، هو بالعكس ، قضيـــة الوطنية هنا لا تخص فئة مـــن الفئـــــات خاصة من الفئات التى تتكون من البلد ، هذا البلد الذى نعيش فيه ، الوطنية لا ترادف الاهليـــة اذا قلنـــا الاهـــالى الاولــــون لافريقية الشمالية هم البربر فلا شىء ، أمـــا الوطنية فكأنها شىء متعلق بالارض ، وكلمة وطن لم تعن أبدا عند العرب القومية ، انمـــا هى عندهم دائما مثلا حب الوطن من الايمان هذا فى الحقيقة له معناه ، هو حب مكـــة ، بالنسبة الى النبى عليه الصلاة والســـــلام هو مسقط راســـه . .

الطالبى : يبدو اننا دخلنا فى تحديد الالفاظ اللغوية وما الى ذلك ، لكن المهم هو المعنـــى ويمكن القول بأن هناك طريقـــين للتعبير عن الشخصية اما أن ننسبها الى الوطن ، واما ان ننسبها الى القوم الذين يعيشون فى الوطن، فيمكن أن نقول ان كلمة وطن ، وكلمة قـــوم متطابقتان ، فالقوم يعيشون فى وطن ، والوطن يعيش فيه قوم ، فلا يقصد بالوطن النواحى الجغرافية والترابية فقط ، ولكن ان هـــؤلاء القوم ربما يكونون جزءا من قومية اعم ،فبهذا اعتبرنا أن هؤلاء القوم ، الذين ينسبون الى وطن خاص ، اما اذا نظرنا الى هؤلاء القوم كجزء من قومية أعم ، فيمكن أن نقول بـــأن القومية اعم من الوطنية ، فيصبـــح الوطـــن اقليميا بالنسبة لقوميته العامة، وأما كـــون هؤلاء يقولون بأن القومية هى البربر ، اظـــن ان هذا من الناحية التاريخية لا يجوز أن نقتصر عليه ، لان الاقوام قد اختلطت فى هذه البلاد وتمازجت ، فلا يمكن أن نميز تمييزا واضحا تماما بين عربى أو او بربرى ، أو غير عربى، او رومانى او غير هؤلاء من العناصر العرقية والاجنـــاس .

مهـــرى : اعتقد أن الفارق بين الشخصية الوطنية ، والشخصية القومية هو أن نعطى الاولوية الاولىفىالتعريف الى العامل الجغرافى بمعنى اننا نعتبر السكان الذين يسكنـــون فى

منطقة جغرافية موحدة لهم من الخصائص ومن السمات الاجتماعية ما يميزهم حتى عن جيرانهم الاقربين وسواء كان هذا الشعب محصورا في هذه المنطقة الجغرافية من اصل بشرى واحد ، أو من معتقد واحد ، او كانوا مختلفين في هذه النواحي ، فالمهم اننا اذا تحدثنا عن الشخصية الوطنية ، فأنا لا نعتبر ان حدود الوطن ، الحدود الجغرافية السياسية . لا تقف حاجزا دون شمول هذا التعريف سواء لمجتمعات مجاورة قريبة او بعيدة ، واعتقد ان الاستعمال اليوم لهذه الكلمات قد يعيننا على تحديد مفهومها لا بالنظر لاصلها اللغوى ،ولكن بالنظرللاستعمال المستعمل الان ، وعلى هذا فيكون تفضيلنا، للتعريف ، سواء بالشخصية الوطنية أو الشخصية القومية . بل لتحديد مفهوم هذه الشخصية .

أبو عمران : في راى اذا اردنا الجواب على هؤلاء الذين يقولون بأن الشخصية الوطنية عندنا مثلا هى فقط الشخصية البربرية ،يجب ان نرد عليهم من ناحية التاريخ اولا . ومن ناحية الواقع . من الناحية التاريخية حقيقة

توجهنا الى الاستاذ ابراهيم مزهودىمدير الشؤون الثقافية بوزارة التعليم الابتدائى والثانوى بسؤالين :

١ ــ القنوات التى تصل الشخصيةالوطنية بالشخصية القومية .

٢ ــ تحديد الشيخ باديس لمقومات الشخصية الوطنية وهل ما يزال يحتفظ بقيمته أم تجاوزته الاحداث ؟



وهــذا نص جوابه :

لعل الدراسات التاريخية والجغرافية من جهه ، والسوسيولوجية من جهة أخرى باستطاعتها تحديد نقاط الوطنية والقومية ، أو الشخصية القومية على حدة والوطنية على أخرى ، وهى ظاهرة متطورة عبر العصور والازمنة لم تخضع في عصر من العصور الى مقاييس ثابتة ، بل كانت تتبع مفهوم الوحدة المتطور حسب الازمنة والامكنــة .

فلنأخذ على سبيل التمثيل هذه الظاهرة عند الشعوب السامية في الجزيرة العربية ، فاننا نجد ان المفهوم القومى كان باستمرار عبر التاريخ القديم محاولة للخروج من اطار القبلية الضيق ، الى اطار اكثر منه اتساعا ومرونة وفي هذا الاطار القومى نجد بعثة الانبياء ، ورسالات الرسل ، اذ كانت تلك المجتمعات القبلية يخاطبها زعماؤها وأنبياؤها ــ بالقوم ــ :

(يا قومى أجيبوا داعى الله) وقوم عاد وقوم فرعون. ولعل في هذه العصور القديمة لم تتبلور فكرة الوطن بل كانت مضارب الاقوام ومنازلهم هى أوطانهم تتغير بتغير تحولهم عنها الى غيرها . ولعل هذا المفهوم بدوره هو الذى يبرر لنا تعدد الهجرات من صقع الى صقع طلبا للمحافظة على كيان القبيلة الذى كان يعتبر الخلية الاساسية للعمران في تلك العصور ، كلما داهمه ما يخشى عليه منه ، من تفتت او تصدع ، كالامراض والمجاعات ، والاوبئة ، والحروب المدمرة والافات الطبيعيــة .

واستمر الحال فيما عرفه التاريخ القديم على هذا المنوال أو قريب منه ، حتى كانت العصور الحديثة ، وفي أرض أوروبا تبلورت فكرة الوطن داخل حدود معينة او تكاد ، واصبح عنصر الارض يلعب دوره في هذا المفهوم الذى لا يزال مستمرا حتى الان ، وعمت فكرة الوطنية بمفهومها هذا في سائر أرجاء الارض المتحضرة ، او التى هى في طريق التحضر .

والقومية بدورها في عصرنا الحاضر احدث لها مفهوما اشمل واوسع من العصور القديمة ، اذ اصبحت تحمل بما تحمله من معانى وحدة اللغة المشتركة ، والعقيدة الواحدة ، والخصائص الثقافية والحضارية الجامعة . وارتفعت بالمستوى الانسانى فوق اعتبارات الجنس والقبيلة والحدود الوطنية الضيقة . وفي هذا الاطار نجد خصائص الشخصية الوطنية لا اقول تذوب ، ولكنها تتفاعل وتتفاعل وتتسق لتصبح بخصائصها وخصائص ومقومات الشخصية القومية تتكون الامة بمفهومها الحضارى الحديث .

اما الجزء الثانى من الموضوع المتعلق بتحديد ابن باديس لمقومات الشخصية بعناصر ثلاثة ، فانى أريد

ان السكان الاولين كانوا ينتمون الى هــذا العنصر البربرى ، ولكن اتت حضارات كثيرة على هذا الوطن ، لا على الجزائر فقط ولكــن على المغرب باكمله ، وربما حتى ابعد مــــن المغرب. الوطنية لا تقوم عندنا على عنصـــر معين ، فالواقع لا يبـــرز ما ذهبـــوا اليـــه ، والماضى لا يبرر ما ذهبوا اليـــه ، والعلـــم لا يثبت ما ذهبوا اليه ، وانما اذا اردنا أن نفهم الشخصية الوطنية بمفهوم اوســـع ينبغى ان نفكر فى الطابع الحضارى الذى تنتمى اليـــــه الشخصية الوطنية ، وهذا ما ياتى فيما بعد فى حديثنا .

محمد العربى : انا عندى ملاحظتان :

اولهما : تتصل برای الاستاذ الحاج صالح

ثانيتهما : برأى الاستاذ عبد الحميد .

فيما يخص رأى الاستاذ الحـــاج صالـــح بالتفريق بين الشخصية القومية ، والشخصية الوطنية قال ان الشخصية الوطنيـــة هـــى شخصية فردية ، وأن الشخصية القوميـــة هى شخصية جماعية ، الوطنيـــة مفهـــومها اللغوى فردى ، والقومية مفهومها جمعى ، قد يجوز هذا من الناحية اللغوية البحتة ، لكـــن

الوقوف عند عنصر واحد من عناصر مقومات الشخصـــية الوطنية فى رايه ، وهو عنصر العقيدة والدين . والامام ابن باديس فى هذا المقام يتحدث عن الاسلام .

فى اعتقادى ان الدعوة الاسلامية فى جوهرها تتجاوز حدود مفهوم القومية بمعناها القديم والحديث ، كما تتجاوز حدود مفهوم الوطنية كما عرفت فى العصور الغابرة اذ ان هذه الظاهرة الاجتماعية والتاريخية فى جميـــــع عصورها واصقاعها ، لم تكن تهدف لتحقـــيق الـــوحدة البشرية الا فى حدود اقليمية ، او جنسيـــة او قبليـــة ، او قومية . وهى ظاهرة مهما بلغ بها التطور والشمول لم تكن بالغة الهدف الذى من اجلـــه جـــاءت الدعـــوة الاسلامية فى تجاوز جميع الحدود الشخصية الوطنية أو القومية ، القديمة منها والحديثة .

ذلك أن الاسلام جاء بمفهوم جديد للوحدة الانســـانية ونقطة الانطلاق من هذا المفهوم تبدا اول ما تبدا من عنصر فكرى هو الايمـــان بالتوحيد ، توحيد الخالق ، وفى تسليم البشرية قيادتها لهذا المبدا اسلمت وجهـــا للتشريع والتنظيم والتوجيه الصادر عن هذا المبدا ، والمنبثق عن عنصر الايمان بتوحيد اللـــه . وفى هذا الاطار نشات قاعدة لمفهوم جديد للوحدة الانسانية يتجاوز جميع حدود المفاهيم السابقة واللاحقة ، تلك المفاهيم الضيقة المحدودة للوطنية والقومية . وهى ظاهرة تاريخية ثورية انبثقت مع الاسلام وتعاليم القرآن ، اذ جعلت من العقيدة حجر الزاوية فى البناء الاجتماعى الجديد ، ومن التعاليم التى جاءت بها هذه العقيدة عناصر ومقومات للـــوحدة الانسانية ، تتجاوز حدود الوطن والاوطان ، والقومية والقوميات ، ولاول مرة فى تاريخ الانسان فوق الارض تتبلور الوحدة الاسلامية فى أوطان العرب وقبائلهـــا على أن تعم هذه الوحدة قوميا اوطان اخرى من ارض البربر فى الغرب ، الى مطلع الشمس من أرض الهندوس وعبدة النار فى المشرق .

وعلى ضوء هذه الظاهرة التى ذكرت ، فى اعتقادى أن جعل الاسلام مقوما من مقومات الشخصية الوطنية منسوبا الى الامام ابن باديس فيه من تضييق الواسع ما فيه ، الا على ضرب من التجاوز والتسامح ، ولعل ابن باديس يعنى الاسلام كمقوم للشخصية الجزائرية ، هو حفظها من الانحلال ومحاولة المسخ والدمـــار التى حاولها الاستعمار لتدمير كياننا الروحى والحضارى . وبجعله الاسلام احدى مقومات شخصيتنا كان يهدف الى الابقاء على هذا الكيان الصغير محفوظا سليما فى هذه البقعة الصغيرة من الارض ، ضمن الكيـــان الاســـلامى الكبير الذى لا يعرف له حدودا سوى حدود العقيدة من مطلع الشمس الى مغربها . ولعل باديس هو القائل ما معناه : «بخدمتى لوطنى الجزائر الصغير فانى اخدم وطنى العربى الكبير ، وبمساهمتى المتواضعة فى العمل من اجل الاسلام فانى اعتبر نفسى فى رباط فى ثغـــر من ثغور الدعوة لكتاب اللـــه ، ومختلف امم الارض تسعى لاعداد المواطن الصالح ولكن الاسلام يسعـــى لاعداد الانســـان الصالح لبستحق خـــلافة اللـــه فوق الارض » .

ومن هذا المنطلق الفسيح الذى اتخذته الايديولوجية الاسلامية مجالا لها ، اسهمت الدعوة الاسلامية فى بنـــاء الحضارة البشرية بتصور للحياة جديد ، وأمدت الفكر الانســـانى بآلة تفوق فى اهميتها آلة البخار والكهرباء الالكترونية التى ابدعت الحضارة المادية للانســـان . ذلك ان الجانب المجهـــول فى الانسان الذى لم تستطع الحضارة البشرية المادية والعقلية ، وضع يدها على مغلق سره ، ألا وهو الجانب الذى رشح به الانسان لخلافة الله فى الارض . اعنى جانب الروح .

وجميع فلسفات الارض التى بحثت طويلا عن هذا الاكسير ، والسر المغلق فى الانسان المجهول ، لم توفق فى بحثها توفيق العقيدة الاسلامية فى وضع يدها على السر المحجب ، بحفظها التوازن بين ماديـــة الانسان والكون . وعقل الانسان ، وروح الانسان . وبالتالى نشا عن هذا التوازن بين القيم الثـــلاث : المـــادة ، والعقـــل ، والـــروح ، تساوق وانسجام مع سنة الكون والعمران . وتحدد مفهوم جديد لرسالة الانسان على الارض بعيدا عن طغيان القيم الثلاث بعضها عن بعض بفضل التصور الاسلامى للحياة . ولو مضت الانسانية فى مسيرتها بسلوك طبق هذا التصور ، لتجنبت الارض كوارث الحروب والدمار ، ولا زهرت مدنية انســـانية ، وحضارة بشرية تكون بدايتها فوق الارض ، وفى آفاق السماء ، ونهايتها فى الاخرة وعلى مشارف الجنة .

ابراهيم مزهودى

وجهة النظر الفكرية ، القضيـــة يبدو لى ان هناك اندماجا أو تقمصا ان صح أن نستعمل احدى مقولات التحليل النفسى ، فان هناك ترددا أو ذهابا وعودة ، بين « أنا » «ونحن» الانا لا يكتسب خصائصه الا فينطاق الكل الذى هو « النحن » ، والعكس صحيح لا يوجد نحن بدون انا ، لا يوجد هناك تجريد ماهية مستقلة عن خصائص فردية فيها ، أما فيما يتصـــل بالاستاذ عبد الحميد قال : اننا ينبغى أننركز على العامل الجغرافى ونبنى عليه تمييزنا بين الشخصية القومية والوطنية ان هذا التفسير بعامل واحد قد يبتسر القضية ، أو قـــد يعطيها تفسيرا غير كامل . وهو مالا يعنيـه الاستاذ مهرى .

اسمح لى يا حاج صالح :

فى وجهة النظر هذه ، فقد ســاد فى القرن الثامن عشر من تفسيرات مونتسكيو بالمنـــاخ وحده أو بالجنسى او بالاقتصاد الخ . . . وقد تبين ان هذه التفسيرات التى تعطى جانبـــا واحدا ، أو عاملا واحـــدا ، لتفسير قضيـــة بهذا التعقيد ، لا تستوفى الموضوع كله ،فيبدو لنا على اغلب الظن ان التفسير الصحيـــح للقضية ، هو ان توضح هذه القضية فبالنسبة للبلاد الامريكية ، نجد أن فيها أجناسا مختلفة من الناحية العنصرية .. عناصر ، — يعنى نستطيع أن نقول عناصر ، كل عنصر ينتمى الى سلالة مختلفة — هناك ألمان وأنكليز وبلغار .. لكن رغم ذلك هناك وحدة حضارية تجمع هؤلاء الناس كل منهم يقول انا أمريكى ، مع ان جده الرابع او الخامس قبل ذلك كان المانى او ارلاندى ، أو غـــير ذلـــك ، واذكر بهـــذه المناسبة ان الانجليز الذين هاجروا أو اندمجوا واصبحوا أمريكيين بعد أن استقلت ، وعادوا بعد الحرب العـــالمية الثـــانية الى بريطانيا كانت الوصية الاولى التى يوصون بها هـــى ان يحذروا من السخرية بلهجة الانجليز، لانهم يعتبرون انهم نســـوا اصلهـــم ، واصبحـــوا يشعرون أنهم امريكيون ، ولا صلة لهم بمـــا هو انجليزى خلاصة القـــول ان التفسيـــر الشـــامل ينبغى أن يكون متعدد العوامـــل يحلل الموضوع فى نطاق حضارى ، الحضارة التى يدخل فى نطاقها كل فئات المجتمع العربى مهما كانت نوعية وكيفية الاختلافات الجزئية والتى تثرى مضمون الشخصيـــة الوطنيـــة وتعطيه سندا من الماضى والحاضر لتلتقـــى به مع المستقبـــل .

مهرى : انا لم أنته الى فكرة ، ولم أقترح تحديد معينا ، وانما ظهر لى أننا اذا قيدنا الشخصية بالوطنية فاننا بدانا فى تحديد معالمها ، ونعتبر أن العامل الجغرافى هو العامل الاول فى تحديد الشخصية ، بمعنى ان المجتمع الجزائرى ، اذا قلنا الشخصية الوطنية للجزائر ، فمعنى هذا أننا نعتبر أن المجتمع الجزائرى له من الخصائص ما يكفى لتمييزه حتى على التونسى أو المغربى ، واذا قيدنا الشخصية بالقومية فاننا نكون بدانا بالفعل فى تعريف هذه الشخصية ، واعتبرنا أن المجتمع الذى نريد تعريفه لا يمكن حصره فى الحدود الجغرافية المعروفة للجزائر ، ولهذا بدا لى أن الفارق بين استعمالنا للشخصية الوطنية والشخصية القومية ، هو تقديرنا لاهمية العنصر الجغرافى وانما لم أقل بأنه أهم عنصر فى تعريف الشخصية أو تحديد الشخصية ، هو العنصر الجغرافى ، وانما للتفريق فقط ، وتفضيلنا اطلاق احدى النعتين على الشخصية .

حاج صالح : قضية بناء الشخصية على عامل واحد ، فهذا طبعا لا ، لم اقلها ولا يقولها أى واحد ، هناك عوامل كثيرة تتفاوت على كل حال ، وربما يكون العامل الفلانى مثلا أشد تاثيرا على الاخر ، لكن التحديدات اللغوية لابد منها ، لان التحديد اللغوى للمعانى ليست أشياء ملموسة لابد ان نبحث فى ما وراء الفاظهـــا ، فالالفاظ بما أنها مركب للمعانى لابد أن تدرس ، كاداة لحمل هذه المعـــانى من شخص لاخـــر ، فاذا قلنـــا ان الشخصية الوطنية هى كذا ، فلابد من تحديد ما يقصده الناس ، من وراء هذه الالفاظ ، فانا يظهر لى ان الحضارة وخصوصا اللغة العربية ، تطورت فى السنوات الاخيرة ، ووقع نوع من الموازاة بين تطور المصطلحات الاخلاقية والفلسفية والعلمية فى أروبا من جهة ، وفى الشرق العربى والمغرب العربى كذلك . انا تتبعت شخصيا هذا التطور من ناحية وطنية وقومية ، صار الناس الان فى الشرق لا يطلقـــون وطنيـــة الا على مـــا يسميه الفرنسيـــون (Patriotisme) فاحتاج فى يوم من الايام الى ترجمة كلمة (Nationalisme) او (National) فكان بعض الكتـــاب وبعض العلماء شعروا بنقص فقالوا ان الوطنية فيهـــا نوع من الاشتراك فلجاوا الى هذه اللفظة « قومية » ، لانها تدل على ما يدل عليه اللفظ الاوروبى ، وهذا ليس معناه أن كلمة « قومية » كما كانت موجودة عند العرب وكانت مهمله أو منسية فانبعثت من جديد ..

« القسم الثانى فى العدد القادم »

ابن حماد الصنهاجي

جلول بدوي

تستأثر الجزائر برصيد نادر ، ،ذخيرة فذة ، من خيرة أبنائها الذين رفعوا لواء مجدها الثقافي اجيالا متتالية ، في المشارق والمغارب ، منذ أن أشرق نور العرفان السماوي في هذه الربوع ، وتألق نجم الهدى النبوي في سمائها ، يهتدي به الضالون في الليلة الليلاء ، ويستنير به المدلجون الحياري في المتاهات

لقد خف ابناء هذه الارض الى تناول ذلك المشعل الوهاج الحضاري يتلقفونه من أيدي القادة البهاليل الذين تغلغلت في نفوسهم دعوة الحق، ودفعتهم الى تمكين هذه الدعوة اينما توجهوا وحيثما حلوا رغبة في

تبليغ كلمة الله لعباده ، امانة تعهدوا بادائها يوم أن بايعوا محمد ابن عبدالله ، المبعوث الى الناس كافة ، دانيهم وقاصيهم ، صلوات الله وسلامه عليه ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، اثابهم الله على ما اتوا ، وجزاهم بالحسنى .

عرفت التربة الجزائرية بانها تربة خصبة ، ليس فيها اجادب ،تؤتي ثمار نباتها كلما جادتها السحائب

واحيتها بغيث من وابل مدرار ، لا ينفك ينبت على اديمها افذاذا من ائمة كانت لهم مقامات جلى في ميادين العلم والمعرفة ، ظلوا بها همزة وصل بين العلماء ، الصادرين والواردين من المشرق الى المغرب ، ومن هذا الى ذاك .

ونأسف لكون الايام التى تعرف عددا منهم ليس بالقليل كيف طاب لها أن تسحب عليهم ذيل النسيان ، بينما نجدها تعنى بآخرين دون مستواهم شانا ومقاما . ! أظاهرة عزيز علينا ان نراها بادية على مر الايام ، ثم تبقى هي هي الى يوم الناس هذا ! وهو أمر باعد بين الناشئة وبين ماضيها حتى اصبحت تجهل تاريخ بلادها العلمي ، جهلا يحدمن مداركها ، ويحرمها من الانتفاع بماتي قومها .

والحق أن التبعة تعود أولا وبالذات علينا ، نحن الذين جمدوا على ماحضر ، ففترت الهمم عن التفكير في محاولة الكشف عن تراث الاجداد العلمي الذى عرف بعضه عند الاباعد.

ولقد كنت فيما مضى كتبت شيئا عن بعض علمائنا وادبائنا ، نشر في حينه ببعض الصحف المحلية . واليوم لعود الى الموضوع من جديد ، . وأول ما تمثل في خاطري تجلية شخصية مغمورة ، طوتها الاحقاب فيمن طوت ، وباتت نكرة ، قد لا يعرف عنها الكثير من القراء شيئا ، مع انها جديرة بان تعرف ، وقمنة بان تبرز للظهور ، شان نظائرها من رجالات الادب والعلم . أوليس أن هناك رجلا انجبته بلاد الجزائر في عهد من عهودها الخوالي المزدهرة يدعى (ابن حماد الصنهاجي)؟فمن هو ؟ ومن عساه ان يكون ؟

التعريف به

هو الامام ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى ابن ابي بكر ، ينحدر من قبيلة صنهاجة المتيدة التي كانت تشغل مساحات مترامية الاطراف من القطر الجزائري ؛ ولد باحدى القرى المنبثة حول « قلعة بني حماد » تدعى باسم « حمزة » في أواخر النصف الاول من القرن السادس ، وعلى وجه التقريب سنة ٥٤٨ هـ ١١٠٥ م

ونشأ بالقرية المذكورة في عهد الناصر بن علناس أعظم ملوك بني حماد ، تلك القلعة التي عاشت مزدهرة برجال الفكر والادب والسياسة ، بفضل تشجيع مؤسسها وأهل العلم حينا من الدهر ، حتى كانت كعبة القصاد ، ومنتجع الرواد ، وفيها بدأ ابن حماد يتعلم ويتقلب في مدارج العلم والعرفان ، يأخذ عن كبار علمائها وأدبائها حتى قضى لبانته من ذلك ، ثم تحول الى مدينة بجاية

حيث اتم ما بداه بالقلعة .

نذكر من بين مشائخه واساتذته الذين تخرج على ايديهم :

ا ــ المربى الشهير الشيخ ابا مدين شعيب بن الحسن الاشبيلى البجائى المتوفى بقرية « العباد » من ضواحى تلمسان سنة ٥٩٤ ﻫ ومن جملة ما روى عنه كتاب : (المقصد الاسنى فى شرح اسماء الله الحسنى) .

ب : عبد الرحمن بن عبد الله ، ابا محمد الازدى الاشبيلى المولود سنة ٥١٠ ﻫ باشبيلية ، والمتوفى ببجاية سنة ٥٨٢ ﻫ صاحب التآليف القيمة ، فى الفقه والحديث واللغة ، روى عنه كتبا كثيرة فى الحديث وخاصة موطأ الامام مالك .

ج ــ الامام حسين بن على بن محمد الشهير بـ « ابى على الموسيلى » والملقب بابى حامد الصغير ، بسبب تاليف له سلك فيه مسالك الغزالى فى الاحياء ، قال فيه بعض العلماء : ان كلام ابى على فيه أحسن واسلم من كلام الغزالى . مات ببجاية ، ودفن عند باب « اميسيون » ولم يعلم تاريخ وفاته .

د ــ : الشيخ ميمون بن جبارة ــ ابا تميم البارودى الذى كان قاضيا ببلنسية بالاندلس ، ثم ببجاية الى أن استدعى منها الى تولى خطة القضاء بمرسية . وفى طريقه اليها ادركته الوفاة بتلمسان ، رحمه الله .

ــ : الشيخ ابا العباس بن مبشر .ونأسف لكوننا لم نعثر على شىء من اخبار هذا الشيخ ، فى أى مصدر من المصادر التى رجعنا اليها .

٣ ــ تلامذته

لم نتمكن من معرفة اسماء تلامذته الكثيرين الذين لازموه واخذوا عنه الا واحدا عرف بالشيخ العالم القاضى محمد بن عبد الحق بن سليمان التلمسانى الذى كان حيا سنة ٥٨٤ ﻫ

٤ ــ معلوماته

ابرز ما تلقي من العلوم عن مشائخه هو(١) العلوم القرآنية من تفسير وقراءات وتجويد ، (٢) مصطلح الحديث وعلومه ، (٣) علم الاصول ، (٤) علم النحو والصرف ، (٥) علم الادب ، (٦) علم التاريخ (٧) علوم الرقائق والاذكار . وقد كان له من هذه الفنون حظ وافر وباع اى باع

٥ ــ رحلاته ووظائفه

لقد تقلب فى البلاد ورحل الى مدينة الجزائر وتلمسان ، والى المغرب الاقصى ، ولقى عديدا من العلماء اخذ عنهم واعطاهم . ثم انتقل الى الاندلس حيث اسند اليه القضاء بالجزيرة الخضراء ، وصرف بعد حين عنها ليتولى خطة قضاء مدينة « سلا » بالمغرب سنة ٦١٣ ﻫ

٦ ــ آثاره العلمية والادبية

انتج ابن حماد فى ميادين مختلفة من الفنون كما قدمنا وكتب فيها عدة تآليف لم نعرف من اسمائها الا هذه :

ا شرح كتاب « الاعلام بفوائد الاحكام » تأليف شيخه عبد الحق الاشبيلى .

ب : شرح مقصورة ابن دريد .

ج : النبذ المحتاجة فى اخبار صنهاجة بافريقية وبجاية . وهو اكبر كتاب فى التاريخ الصنهاجى يتضمن فوائد لا يجدها الباحث فى غيره . نقل منه كثيرا علامتنا عبد الرحمن بن خلدون فى تاريخه الكبير عند حديثه عن بجاية وما حولها . وقد اهتم به المستشرق الفرنسى (شربونو) فنشر قسما منه فى « المجلة الاسيوية » سنة ١٨٥٢

د ــ برنامج كبير ذكر فيه شيوخه واسماء الكتب التى قرأها ونص فيه على انه لخص « تاريخ الطبرى » الكبير وقد ضاعت هذه الكتب فيما ضاع من آثار الرجل لم نعرف منها الا اسماءها ، وعسى ان يأذن الله فى العثور عليها او على بعضها ، انه جواد كريم .

هذا وقد حفظت لنا الايام كتابا آخر له فى التاريخ سماه « اخبار بنى عبيد » من

الفاطميين عنى فيه باخبار دولتهم فى الجزائر وتونس ، لم تذكره المصادر القديمة ، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالعاصمة . وهناك من هو منكب على تحقيقه والتعليق عليه ، بغية نشره وتعميم فائدته .

٧ــ شعره وشيء منه

كما يعد ابن حماد عالما بين العلماء يعدايضا شاعرا يجرى مع الشعراء ، ويطرق الاغراض الحساسة من مكامن الشاعرية ، مثل الرثاء والوصف . وشعره ، على قلة ما وصلنا منه يمتاز بالرقة وصدق اللهجة . يدلنا على ذلك ما نقراه من رثائه للقلعة ، ملعب صباه ، ومسرح هواه ، بعد ان اتى عليها الدهر هدما وتخريبا على قصورها ومعالمها محوا وطمسا ، فهو يقول :

ان (العروسين) لا رسم ولا طلل
فانظر هنا ليس الا السهل والجبل
وقصر (بلارة) اودى الزمان به ..
فاين ما شاد منه السادة الاول (كذا)

الى ان يقول :

وقد عفى قصر حماد فليس له
رسم ولا اثر باق ولا طلل

وقال فى شوقه الى (الوادى) أو (وادى الجوى كما دعاه) :

... وما رسوم (المنار) الان ماثلة
لكنها خبر يجرى به المثل ..
اليت شعرى هل ابيتن ليلة
بوادى الجوى ما بين تلك الجداول ؟
...وهل اردن « عين السلام » على الصدى
فابرد من حر الضلوع النواهل
وانظر طيقان « المنار » مطلة
على الدجنات الزاهرات الخمائل
كان القباب المشرقات بافقه
نجوم تبدت فى سعود المنازل
صبرا جميلا غير ان اصابتى
ستبقى بقاء الطالعات الاوافل ،

وقال فى ناحية قريبة من القلعة تدعى (عين السلام) :

على عين السلام سلام صب
غذاؤه ماؤه العذب النمير
تاود ايكها وجرت صباها
وشم لها ــ كما فتق ــ العبير
وابرد ما يكون الجو فيها
واندى ، حين يحتدم الهجير
وما ادرى : ايجرى موق در
أم ابتسمت بمنبعها الثغور ؟
وقد قام (المنار) على ذراها
كما قام العروس أو الامير
بناء يزدرى ايوان كسرى
لديه ، والخورنق والسدير

٨ ــ راى الناس فيه

قال عنه ابو العباس احمد الغبرينى فى كتابه (عنوان الدراية) ، « الشيخ الاجل الفقيه الرئيس الاكمل ، العالم الاوحد ... كان من روى عنه فما هو الا من الجلة لقد بارك الله فى عمر ابن حماد حتى الاعلام »

٩ ــ وفاته :

تجاوزت سنه الثمانين وادركته الوفاة على المشهور سنة ٦٢٦ هــ ١٢٣٠ م
رحمه الله واجزل ثوابه على ما قدم من نفع وما ترك من طيب الاثر .

جلول البدوى

مصادر البحث :

اــ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية ــ طبع بالفرنسية ١٩١٠ م

ب ــ موجز التاريخ العام للجزائر ، لعثمان الكعاك ، طبع بتونس

ج ــ بلاغة العرب فى الجزائر »

د ــ البستان فى ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم التلمسانى ــ طبع الجزائر ١٩٠٨ م

هـ ــ نيل الابتهاج ، لاحمد بابا التنبكتى المطبوع بهامش الديباج المذهب لابن فرحون طبع مصر سنة ١٣٥١ هـ

ــ **تاريخ الجزائر العام ، للشيخ عبد** الرحمن الجيلالى المطبوع بالمطبعة العربية بالجزائر سنة ١٩٥٥ م





الاستبداد والمجتمع الصناعى

تأليف : فرانسوا بيرو
تقديم : الشيخ بوعمران

من جملة الكتب المهمة التى صدرت اثناء ١٩٧٠ نقدم للقراء كتاب الاستبداد والمجتمع الصناعى ، نظرا لاهمية الموضوع والبحث .

قد الف الاستاذ « بيرو » عدة كتب قيمة بحث فيها صلة الاقتصاد بالمجتمع وعالج الكثير من مشاكل الساعة ويعتبر المؤلف من الخبراء فى هذا المجال وهو يدرس الاقتصاد بالمعهد الفرنسى المعروف « بكوليج دى فرانس » بباريس .

وقد اهتم الاستاذ « بيرو » بدراسة العالم الثالث وهو رئيس جمعية العالم الثالث (مقرها بباريس) وقد اكتسب هذا الباحث شهرة كبيرة في الاوساط المثقفة . يعالج الكتاب استبداد المجتمع الصناعي على الانسان ويبحث كيف يمكن التحرر من ذلك الاستبداد بعد عرض ومناقشة عدة آراء وتحليل بعض المجتمعات المتقدمة والمتخلفة في عصرنا هذا .

لا نريد ذكر كل ما جاء في البحث بالتفصيل وانما نقتصر على اهم الجوانب .

ينطلق الكتاب من تعريف الفيلسوف الالماني « هيجل » لمفهوم الاستبداد ويبين كيف حول « ماركس » هذا المفهوم الى مفهوم آخر بناء على دراسة المجتمع الصناعي الاوربي . يرى الاول ان الانسان يعاني من الاستبداد الديني والسياسي ويرى الثاني ان السبب غير ماذكر « هيجل » لان الاقتصاد هو اهم شيء في نظام المجتمع ولهذا يذهب « ماركس » الى ان استغلال الانسان ناتج عن النظام الراسمالي الذي لا يسمح للعامل بأن يتمتع بثمرة كده (ص ٨ — ٩) ان هذه النظرية معروفة ولا حاجة الى الاطالة فيها ، وانما المقصود من الاشارة اليها هو أن تحرر الانسان من الاستغلال والاستبداد مرتبط بنظام اجتماعي جديد يجعل السلطة في يد العمال . ويتساءل المؤلف اذا كان المجتمع الصناعي قد حقق هذه الغاية المنشودة ويبدو لصاحب الكتاب ان دراسة المجتمع السوفياتي هو احسن طريق للجواب (ص ١٧) — وانما الانسان ليس شيئا او آلة ولا يمكن ان نهمل شخصيته وارادته وحرية تصرفه مهما كانت العوامل الاجتماعية وتأثيرها عليه (ص ٢٢ وبعدها) انه يتحكم في مصيره وفي مواقفه انطلاقا من وضعه الخاص والمستقبل الذي يريده لنفسه معتمدا على امكانياته الفردية والاجتماعية . ويبرز وجوده في نشاطه اليومي والانجازات المختلفة التي يحققها (ص ٢٦) تظهر شخصية الانسان في الحوار الفردي والاجتماعي مع الغير (ص ٢٧) ويمكن تطور الانسان بفضل هذا الحوار وليس هذا التطور حتميا بل هو مرتبط بما يقوم به كل شخص من المساعي والاعمال وكل ما يحققه الانسان له صلة وثيقة بمجهوداته وثقافته ، ولهذا تعتبر الاشياء التي ينجزها اشياء ثقافية لا مادية فقط لانها تحمل معاني ورموزا وتدل على نشاط كائن حي يتكيف ويتفاعل مع الواقع متبادلا الخبرة والفكرة مع الغير (ص ٢٩) . ولهذا يتصف التزامه بالتبصر لا بالالية (ص ٣١) وكلمة سارتر غير صحيحة عندما زعم بأن **« جهنم هي الآخرون »** . هكذا يستطيع الانسان ان يتحرر من الاستبداد والاستغلال وان يتمكن من تحقيق انسانيته في اعماله اليومية .

غير ان تحرر الانسان لا يتحقق آليا في المجتمع الصناعي وذلك يظهر بديهيا لكل من يدرس هذا المجتمع ، يلاحظ اولا ان الاستبداد يتمثل في الجهاز الميكانيكي وفي الجهاز النظامي بحيث ان العامل يشعر بانه مسير نحو غايات حتمية لم يشارك في وضعها ويبدو له ان الجهاز قد تسلط عليه (ص ٣٢ — ٣٣) واصبح العامل وسيلة في خدمة الالة واخذ يسعى في تحقيق مشروع لاحظ له فيه . ولهذا ظهر عليه القلق والحيرة .

يركز الاستاذ « بيرو » في منهجه على التحليل الاقتصادي والاجتماعي وعلى التحليل الفلسفي (ص ٣٨) . ويذكر ان انتقاده لآراء « هيجل » و « ماركس » يعتمد على مذهب الوجودية المعاصرة التي عرفت بالشخصية الانسانية تعريفا واضحا (ص ٤٢) . ان التحرر في نظر « هيجل » يتجسم في التاريخ اذا شارك الفرد في نشاط المجتمع ومجرى الحوادث او بعبارة اخرى ان التحرر جماعي لافردي . ولهذا ينبغي ان نتحول من « انا » الى « نحن » وفلسفة « هيجل » فلسفة الجماعة وعلى الفرد ان يذوب في الجماعة باستثناء الابطال الذين يلعبون دورا خاصا في تطور التاريخ . ونظرية ماركس لا تختلف في جوهرها عن نظرية « هيجل » مع التحويل الذي اشرنا اليه آنفا . ان الاساس هنا هو العلم والثقافة ، والعمل له طابع جماعي ولكن الجماعة هي الطبقة الاجتماعية ويقضي التطور



هيجـل

الجدلى للتاريخ بتحرر الطبقة العاملة من الاستبداد الراسمالى . ولاقيمة للضمير الفردى اذا انعزل عن المجتمع او قاومه (ص ٥٠)

ويتصدى المؤلف الى انتقاد النظريتين المعروضتين ابتداء من الغاية التى يرمى اليهاكل من «هيجل» و « ماركس » وهى تحرر الانسان من الاستبداد مهما كان نوعه ، مبينا ان النظام الذى تشخصت فيه آراء المفكرين المذكورين لم يحقق هذا التحرر المنشود لان المفكرين اهملا اهمالا تاما تلك الغاية التى ارادابناء المجتمع من اجلها . وذلك لان الانسان افتقد فيه حريته ومصيره وذهب ضحية المجتمع الصناعى الذى قام على حساب الفرد (ص ٥٣) . وقد ضاعت شخصية الانسان فى « الموضوعية » وتجرد الفرد من انسانيته. وفى الواقع ان الغاء (الانا) والاعتماد على الجماعة وحدها غير كاف اذا اهملنا حقوق الانسان . وقد بينت الفلسفات الوجودية حقيقة الشخصية الفردية وتمييزها عن المجتمع (ص ٥٨) ان الفرد يتفاعل مع المجتمع وفى نفس الوقت انه يشعر بحريته ويفكر فى شؤونه ويكتشف الواقع ويتعلم ويجرب ولا يعتبر نفسه مقيدا بقوانين ومناهج الا اذا تفهمها واقتنع بصحتها والعلوم والثقافة العالمية تبرهن على ذلك ولا يعنى هذا القول ان الانسان يستطيع ان يتصرف كما يشاء فى جميع الامور ، ومن يعتقد ذلك يقع حقيقة فى اخطاء المثالية المجردة وانما الانسان يتفاعل مع المجتمع ومع الاشياء ويتكيف حسب الظروف والاهداف التى سطرها لنفسه فى الحياة . وليس الانسان جسما ماديا فقط ، وانما هو مركب حى تداخل فيه الجسم والروح بحيث لا يمكن فصل الواحد عن الاخر (ص ٦١) وغاية الحضارة هى سعادة الانسان وليس غايتها الاستبداد على الانسان من اجل بناء مجتمع صناعى يضمن له — فى يوم ما — التقدم والعدالة الاجتماعية والرفاهية دون مراعاة حقوقه وقيمه الاساسية .

يرى الاستاذ « بيرو » ان العلوم والصناعة والتكنولوجية تمكن الشعوب والمجتمعات من التقدم ومن المنافسة فى نفس الوقت (ص ٦٥) وتجعل مصيرنا فى خطر اذا فسحنا لها المجال دون شرط او قيد ، ولا سيما فى عصرنا هذا لان طبيعة الانسان والدول تقودنا الى التسلط والوحشية الحيوانية (ص ١٨١) وتتجسم قوة الشعوب الصناعية فى منافسة الدول الكبرى من اجل السيطرة على العالم واحتلال المراكز الاقتصادية والثقافية والسياسة الكفيلة بنشر نفوذها فى البلاد المتخلفة ، سواء كانت هذه الدول من الغرب او من الشرق (ص ١٠٨) . نحن طبعا فى حاجة ماسة الى العلوم والصناعة والتكنولوجية ولكن ما هى الوسائل التى تمكن من استخدامها لصالح الانسان ؟ من جملة الوسائل يذكر المؤلف الحوار المثمر بين الافراد فى المجتمع والقضاء على الاستغلال والاستبداد والخوف واستهداف العدالة الاجتماعية ومراعاة حقوق الانسان واسهام الافراد فى التخطيط والبناء والتركيز على القوة الابداعية والتغلب على روح البيروقراطية والتعاون الدولى بين الامم وبين المؤسسات الدولية ومساعدة البلاد النامية . . .

ابو عمران الشيخ
استاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

قضايا ومناقشات

ضلال أم تضليل!

موسى بن عمار

ننشر هذا المقال فى اطــار حــرية الراى والمناقشة ، دون ان نلتزم بكل ما جاء فيــه من آراء واحكام .

* ——— * ———

فى مقدمة هذا الموضوع اريد ان اتساءل .
لماذا الفرح بكلما يبشر بقرب انهيار الحضارة الاروبية الحديثة ؟
لماذا الفرح كلما ظهر نوع من عجـــز الانسان امام مشكلة من مشاكله الكثــيرة فى صراعه الخالد مع الطبيعة ؟
لماذا الفرح كلما انحدر العلم فى ميدان من الميادين وبدا عاجزا عن النجاح فيه واعترف العلماء بذلك العجز ، حتى لو كان العجز امام المرض والموت والاوبئة وكل ما هــو عــدو للانســـــان ؟
لماذا الفرح كلما اظهر العلمــاء جهلهــم بالانسان او ببعض اسرار الكون التى كان من المرجح التوصل اليها ؟
لماذا التشفى اذا ظهرت بوادر من عجــز الانسان عن الوصول الى الكواكب او سكناها او فشلت العمليات التى تم فيها زرع القلب؟
لماذا الاستشهاد بكل كاتب وبكل كتـــاب ابرز بعض النقــص فى جانب مــن جــوانب الحضارة الغربية والعلم الحديث ، واتخاذه قرآنا يقرا ويرتـــــل ؟
واخيرا لماذا الفرح كلما شكا الغربيون من ازمة اجتماعية او اقتصادية او اخلاقيـــة .. الـــخ ؟

اقول هذا لاننى الاحظ ان طائفة من الكتاب والمفكرين العرب قد ابتدعوا هــذا الفــرح واولعوا به وادمنوه فى كتاباتهم حتى اصبح شيئا مزعجا لا يحتمل ولا يطاق . وقد استغل هؤلاء الكتاب صراحة الاروبيين مع انفسهم حين يتعرضون لمعالجة مشاكلهم واستغلــوا روحهم العلمية التى تلزمهم الصراحة والنقد الذاتى وقول الحقيقة ولو كانت مرة فى معالجة قضاياهم العويصة ومشاكلهم الشائكة التى تطرحها طبيعة المرحلة الحضارية التى يمرون بها فراحوا يطبلــون ويزمــرون ويبالغــون ويضخمون ويرون ذلك دليلا على قرب انهيار هذه الحضارة « المادية » المجرمة التى ابعدت الانسان عن خالقه وجعلتــه عبــدا للعلــم ونظرياته وخادما للمادة واسيرا لها !! فاذا راوا « شبنغلــر » فى كتابه « سقوط الغرب» او « الكسس كارل » فى كتابـــه « الانســـان المجهول » او « كولن ولسن » فى كتابــــه « سقوط الحضارة » قد تنبأوا بقرب انهيــار الحضارة الغربية او ابدوا تخوفاتهم تجــاه هذه القضية وجدنا كتابنا هؤلاء قد اتخــذو ذلك امرا مسلما وقضية مفروغا منها .

وهؤلاء الكتاب المساكين لا يعرفون انهــم بذلك يظهرون سذاجة محزنة اذ يظــنون ان هذه الحضارة سوف تنهار وتمــوت فى وقت قريب او ان العلم سوف يتقهقر او يتوقف فى يوم من الايام . كما يظهرون سوء نية لا لزوم لها تجاه ما حصله الانسان من نصر فى ميادين

المعرفة المختلفة وتجاه نجاح الحضارةالحديثة **المبنية علىالتجربة والنظرة العلمية الى الكون والحياة . كما يحاولون ان يجعلوا من العرب خصما للحضارة الحديثةولروح العلم والتطلع الى المجهول ، او هذا على الاقل ماتوحى به كتاباتهم وافكارهم للمطلع الاجنبى . وهم بذلك يوهمون انفسهم من حيث لا يشعرون او** بشعرون ويصرحون انهم يدافعون عن الاسلام كأن الاسلام يحتم عليهم محاربة النور ومعاداة العلم ومجافاة الحضارة .

مع ان الاسلام برىء مما يحملونه او يحاولون ان يحملوه من مبادىء وافكار هو منها براء . بل اننا لا نعرف دينا قدس العلم واحترم العلماء كما فعل الاسلام حتى ان اول سورة فى القرآن تظهر هذا التقديس « اقرا وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » وامثال هذه الاية كثير فى القرآن لا داعى لذكرها هنا .

وامامنا الآن كاتب عربى مشهور ينتمى الى هذه الطائفة وهو الاستاذ المرحوم « سيد قطب » فى كتابه « الاسلام ومشكلات الحضارة » نتخذه كنموذج لهذا النوع الذى لا يحصى من الكتاب الذين يميلون الى التضخيم والتهويل ، والى المبالغة التى لاتخدم الحقيقة اذ يوهموننا اننا خيرامة اخجرت للناس وان البشرية تتخبط فى مشاكلها وانه لانجاة لها مما هى فيه الا اذا لجأت الينا لتاخذ الدواء وتأخذ الشفاء وتعيش الحياة السوية التى تنقصها الان .

ومعظم كتابه هذا يحتوى على عرض ومناقشة وتأييد لكتاب « الكسس كارل » اشرنا اليه آنفا وقد اعتبره وثيقة هامة تدين الحضارة الغربية بقلم احد ابنائها الخلص فأخذته فرحة غامرة لم ينجح فى كتمانها ، وقد عثر على هذا الكتاب كأنما عثر على كنز فأخذ معظم نصوصه وزين بها كتابه .

ويطول بنا الحديث لو تعرضنا لكل النصوص التى تظهر فيها المغالطات فى هذا الكتاب وانما يكفينا ان نأخذ نصا او نصين كنموذج لبقية النصوص . يقول سيد قطب صفحة ١٢٠ من الكتاب يصف حالة المجتمعات الاروبية « المنحلة » بسبب اتجاهها « المادى والحيوانى » : « وكتب على البشرية ان تؤدى الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروبا رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين ، وازمات تلو ازمات .

ازمات اذا قل الانتاج ، وازمات اذا زاد الانتاج ، ازمات اذا مال الميزان التجارىالى العجز وازمات اذا مال الميزان التجارى الى الزيادة ، ازمات اذا نقصت المحصولات وازمات اذا فاضت المحصولات . ازمات اذا قل النسل وازمات اذا زاد النسل ، وتخبط من هنا وتخبط من هناك وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار ، وضغط على اعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم فيخرون امواتا بالسكتة وتفجر المخ .. الى ان يقول: وما كان ذلك الا نذيرا لله الذى لم تتفتح له القلوب والاذان »

ونحن نقول تعليقا على كلامه : ان هذه المشاكل التى تحدث عنها الكتاب واشار اليها هنا موجودة فعلا فى البلدان الغربية ولكنها ناتجة عن المرحلة الحضارية التى يمرون بها الان وما دمنا نحن لم نبلغ تلك المرحلة فاننا لا نستطيع ان نعطى الحكم الصحيح فكثيرا ما تبدو الاشياء سهلة للمتفرج من بعيد ، حتى اذا تحمل المسؤولية واصبح وسط المشكلة ظهرتله الاشياء على حقيقتها وعرف الصعوبات التى كان يجهلها . ثم ان الكاتب يحلو له ان يرى مشاكل الغرب وعيوبه ولكنه ينسى او يتناسى انه يوجد فى الشرق ما هو افظع واسوا **من هذه العيوب بمئات المرات ولكن الفرق ان الناس فى الشرق لايحسون بمشاكلهم او هم يحسون بها ولا يتحدثون عنها لانهم لا يملكون الجراة ولا الصراحة اللتين اكتسبهما الغربيون بعد تجارب كثيرة وكفاح طويل وهذا هو الفرق بين الشرق**

والغرب ، الغرب الذى يعيش فى اعلى مستوى تهيا للانسان على الارض منذ اقدم الازمنة ومن جميع الوجوه ومع ذلك نراه يثور ويتمرد ويشكو اذا وجد اى انخفاض فى مستوى حياته او اقل تدهور فى واقعه لانه يعلم ان الثورة والنقد هما الوسيلة الناجحة لتغيير الواقع الفاسد والسير نحو واقع اصلح واحسن ، كان الشاعر العربى كان يعنيهم حين قال :

ونحن اناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين او القبر

اما الشرق الخانع الراكع الذليل فانه يقاسى فى صمت كالحيوان الاعجم ، انهيتلقى لطمات الواقع فى صمت ، ويحاول ان يغلفها بغلاف من الرضا بالقضاء والقدر والرضا بالمكتوب واما اشبه ذلك من فلسفات عتيقة ، وتبريرات فاسدة ، هذا فضلا عن ان النقد الذاتى والجراة على كشف عيوب النفس هى مرحلة من التطور لم يصل الشرق اليها لانه مازال يخجل من ذلك ويعده ضعفا بسبب عقليته الطفيلية وبسبب ما ترسب فى نفسه من النفاق والمبالغة فيه .

اما وقدعرفنا الاسباب التى تجعل الغربيين ينقدون انفسهم بكثرة ويتحدثون عن عيوبهم بصراحة فانه لا ينبغى لنا ان نسرع الى الفرح الطفلى الساذج كلما وجدنا مفكرا منهم ينقد مجتمعه او يتحدث عن بعض العيوب التى انتجتها الحضارة الحالية . لا ينبغى ان نتبنى ذلك بسذاجة وسرعة ونتخذه قضية مسلمة فنعتبر انهيار الحضارة وشيكالوقوع كما يفعل هذا النوع من الكتاب .

وفى كتاب سيد قطب ما هو اكثر تطرفا واشد تحاملا من المقطع الذى ناقشته قبل قليل، يقول فىصفحة ١٦٧ من كتابه معلقا على الكسس كاريل صاحب كتاب « الانسانذلك المجهول »: « لامفر اذن — لامثال هؤلاء المخلصين المساكين الا ان يلجأوا الى العلم وحده ، حتى فيما يحسون هم انفسهم ان العلم لن يصل بهم فيه الى نتائج حاسمة قاطعة كالتى وصل اليها فى علم المادة » ولكن ماذا بيدهم ؟ ماذا يملكون للبشرية غير هذا ؟ ثم قال :

« ولكننا نحن نملك ، نحن اصحاب — المنهج الاسلامى للحياة — نملك للبشرية مالا يملكه احد آخر على ظهر هذا الكوكب ونملك ان ننقذ الدكتور كاريل نفسه من حيرته .. نحن نملك منهجا للحياة لا يعادى العلم مطلقا الخ » .

فانظر الى هذه المبالغة الصارخة التى يتبرأ منها كل مفكر يحترم نفسه ، فهم يملكون للبشرية مالا يملكه احد على ظهر هذا الكوكب ! فهلا انقذوا انفسهم وشعوبهم الضائعة الجائعة اولا . ؟

لماذا يفكرون فى انقاذ الامريكيين والاوروبيين وهم عاجزون عن انقاذ شعوبهم المسكينة ؟ افلا يصدق عليهم المثل القائل ان فاقد الشىء لا يعطيه ؟

افلا يكفون عن هذه المبالغات التى تجعلهم يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم ويجدون الحلول لمشاكل العالم وينسون شعوبهم واوطانهم ؟

اما السيد انور قصيباتى فبعد أن تحدث فى كتابه « **الحضارة العربية الجديدة وحتمية الثورة** » على ان الحضارة الغربية فى نزعها الاخير وبين ان هناك سؤالا بدا يرتسم فى الافق الانسانى الواسع هو لمن الدور اليوم فى ابداع حضارة جديدة ؟ قال فى صفحة ٥٣ من الكتاب :

« اما نحن فلن نترك للمستقبل امر تحديد هذا الجواب لاننا نريد استعجاله . ولاننا نملك كل المبررات التى تدفعنا الى ضرورة الاجابة عليه الان فنقول بكل تهور : ان الدور

الان ، لابداع حضارة جديدة هو لنـــا نحن العـــــرب .

فالامة العربية مدعوة من قبل القـــــدر والتاريخ لتأديةرسالتها الحضارية ، مستجيبة بذلك الى النداءات الحـــارة ، التـــى تنبعث واضحة صافية الرنين ، من اعماقها فى كل لحظة وآن ، والتى تنبعث باستجداء انقاذ من الوعـــى الانســـانى كلـــه . »

ونحن لا ننكر عليه ان يرشح الامة العربية لتساهم فى صنع وابداع الحضارة ، وانمـــا ننكر عليه ان يجعل امة وحدها تتفرد بابداع الحضارة وقيادة البشرية دون بقية الامـــم والشعوب ، كما اننا ننكر عليه ان يقول :

« ان الامة العربية مدعوة من قبل القدر والتاريخ لتأدية رسالتها الحضارية مستجيبة الى النداءات الحارة التى تنبعث باستجداء انقاذ من الوعى الانسانى كله » فهذه مبالغة لا تصدر عن كتاب يحترم نفسه ويحترم قراءه فلا بأس ان تلعب الامة العربية دورهـــــا الحضارى ، اما ان تتجه الانسانية كلهـــا اليها بنداءات الاستجداء لتنقذها من مهاوى الجهل والتخلف فهذا لا يصدر الا عن انسان مغرور ضعيف التفكير .

ومن هذا النوع من المبالغات التى تصدر عن السذاجة والغرور ما قاله السيد احمد عبد الرحيم مصطفـــى فى مقدمتـــه لكتـــاب « موجز تاريخ الاشتراكية » صفحة — ٩ —

« اذا كنا نجد اليوم ان المجتمع الغربـــى يحاول ان يحقق لافراده الامن المعنوى ، وان المجتمع الشرقى الذى ينزع الى الاشتراكية يحاول ان يحقق لافراده الامن المادى ، افليس من سبيللان يقدم الشرق العربى للمعسكرين مبدا شاملا يقوم على تحقيق الامن المـــادى والمعنوى معـــــا ؟ »

فهذه نغمة جميلة طالما رددها الكتـــاب المثاليون الحالمون ، والا فكيف يستطيـــــع الشرق العربى ان يقدم الحلول للعالم وهو لم يجد ابسط الحلول لقضاياه ومشاكلــــــه الكثيرة المتراكمة والتى هى دون هذه الدرجة بكثير . ؟ لقدقلت آنفا « ان فاقد الشىءلايعطيه » فلماذا يحاول هؤلاء الكتاب ان يضللوا قراءهم ويعبثوا بعقولهم ويزيدون فى بعث الغرور فى نفوسهم حين يخيلون اليهم انهم فى موقف من يملك الحلول لمشاكل العالم .

هذه نماذج فقط واعتقد ان فيما ذكرتـــه الكفاية لاننا لو اردنا ان نتتبع امثال هـــؤلاء الكتاب لطال بنا الحديث لان كثيرا من الكتب تزخر بمثل هذه الافكار ، وكثيرا من الكتاب يحلو لهم ان يتملقوا الجمهور ويعبثوا بعقول القراء المساكين الذين يقراون كتبهم ويتأثرون بهـــم .

وقد ساهم هؤلاء الكتاب فى خلق جيـــــل عربى مخدوع مغتر بنفسه حين علموه الاوهام والاضاليل ومن واجب كل مخلص ان يكشف الاعيبهم واضاليلهم بما يستطيـــع .

مـــوسى بن عمـــــار

استاذ بثانوية خمار — المدية —

مع
التيارات
الفكرية
العالمية

... فى المجلات الانجليزية

إعداد : محمد طاع الله

قدمت بعض الحوادث التاريخية فرصة العثور على مبررات لضبط الوقت لدى الانسانية ، وبالطبع فقد مضت الصحافة وكتب المناسبات الانفلو سكسونية خلال الا سبوعين الماضيين فى تعداد التاملات والواقع والتىيأتى بها تعاقب وانتقال العالم المسيحى من عام الى عام آخر الى جانب مظاهر الاحتفالات الدينية .

وكان مسالة حساب الوقت لم تعد تثير اهتماما تحدد بالابعاد الجغرافية او المجتمعية وحدها ، وهى ملاحظة ابداها الان بريان فى مقدمة مقال له فى مجلة ((نيوستيس مان)) حيث قال : لقد كانت الشعوب القديمة تحسب وقتها لنفسها لانه لم يكن هناك ما يرغم اغلبية الانسانية على غير هذا الموقف ، اما الان ، فتحسبه الانسانية لكل فرد من افرادها ، واننى استطيع ان اضع حدا لمسيرة عقارب ساعتى ، ولكن الزمن لن يتوقف لا بالنسبة لى ، ولا بالنسبة للآخرين ، وسوف لن اتمكن فيما بعد ، من استعادة الفترة التى توقفت فيها دون الاخرين ، وهذه هى حيرة الانسان الحالى .

ويقول جوزيف الوب فى « هيرالدتيبيون » لا استطيع ان اتذكر عاما يصعب فيه الخروج بخلاصة او تقييم كما هو الحال بالنسبة لعام ١٩٧١ ، وان اكثر المراقبين السياسيين دقة فى التقديرات يشق عليهم ان يعثروا على اهتمام واحد للانسانية كلها .

لقد استغرق العام المنصرم فى ملاحقة الاحداث التى وقعت فى السنوات السابقة ، خاصة فى المجال الدولى . غير ان راى اكثر المعلقين قد استقر على الحرب والموت والجنس ما تزال اكثر العوامل المؤثرة على مصير البشرية .

فما زالت حروب كثيرة تمارس او فى حالة هدنة فى بقاع كثيرة من العالم . وما تزال آلاف الضحايا تتساقط فيها كل شهر ، ولم تكن سنة ١٩٧٠ سنة الوفيات الناجمة عن الحروب وحدها وعن الشيخوخة وحدها ، فقد ، توقفت حياة عدد كبير من السياسيين والادباء وغيرهم وقد كان موتهم فى حد ذاته جزءا من الاثارة التى رافقت علاقاتهم مع الجماهير . وسواء كان الامر يتعلق بالوفيات التى جاءت صدفة او لتلك التى سببتها الحروب والامراض ، فان الانسانية ما تزال بعيدة عن القدرة على الخروج بعبر مفيدة من حياة الضحايا والراحلين ، فقد ودع العالم عددا من الوفيات بينما يذكر غيرهم يوميا بالارقام فقط ، ومازال الجنس والتفاقم السكانى فى العالم يلعب بدوره اثرا كبيرا فى جدل الانسان مع شروط وجوده .

وصدرت بعض الاعترافات والتكهنات غير المشجعة فى الكتابات الانغلوسكسونية ، وهى اعترافات وتكهنات لا تتعلق به سير الذين صدرت عنهم وحدهم ، فقد اعترف مستشار الشؤون الخارجية للرئيس نيكسون « ان التنبأ بالكوارث اسهل واكثر واقعية من التنبؤ بالمناسبات السعيدة » . وفى هذا التكهن ، يساهم بفاعلية فى تخطيط سياسة الولايات المتحدة ربما لم يتصورها صاحب هذا التصريح المتشائم نفسه .

وفى مجلة **نيوزويك** يدعم الصحفى ستيوارت الوب هذا التشاؤم وهو يسوق تعبير كسينغر فيقول : « ان التنبؤ بالكوارث يقدم فى الغالب على فهم لواقع هذا العالم ، فسوف يشهد العالم مثل هذه الكوارث عاجلا او آجلا وهى كالموت نفسه ذات توقيت غير مؤكد ، ولكنها مؤكدة » .

وفى بريطانيا اختارت الامة البريطانية فى شهر جوان من العام الماضى حكومة هيث بدلا من حكومة ويلسون بينماكانت التقديرات توحى بفوز ساحق للعمال . وقد كانت قطاعات من هذه الامةنفسها وخاصة العمال ضد الحكومة التى فازت فى الانتخابات . ومع انقضاء النصف الثانى من العام ، لم يعثر الذين استبدلوا حكومتهم ، كما اكدت جريدة « التايمز » على سبب لتصرفهم فى تلك الانتخابات .

ومع الساعات الفاصلة بين عامين جاء اعتراف الفيزيائى الامريكى ، ادوارد تيلر الالمانى الاصل الذى يعتبر اب القنبلة الذرية التى اسقطت على هيروشيما وناجازاكى عندما قال : « ان الناس لايفهمونه ، لقد هرب من النازية ولكنه ارغم على ارتكاب عمل اكثر نازية من خلال حروب الولايات المتحدة التى منحها خدماته » وقال : « هل استكملت القنلبة الذرية فى منتصف ١٩٤٥ وكان السؤال هل تلقى على اليابان فجاة ام نخيف اليابان بها اولا بعد ان شرح لها اهوالها ، وقد شاركنى الدكتور زيلارد ليو الفيزيائى المجرى فى ذلك الحين ، ولكن راى كل منا لم يقبله الذين امروا بالقاء القنبلة وكان اوبنها يمر صاحب النفوذ الكبير وراء ما حدث » .

وفى مجلة **نيوزويك** صدرت احصائية تفيد ان معدل ٢٠٠٠ كتاب دينى تصل الى المكتبات كل عام . وهو اكبر عدد يسجل فى فئة واحدة من الاهتمامات . وبالرغم من ان معظم هـذه الكتب من الاناجيل وكتب القساوسة فان كل موسم يدفع الى السوق بعدة مجلدات تساهم فى اعادة تشكيل وتعديل نوعية الفكر والتجربة الدينية . وقد كانت السنتان الماضيتان حسب هذه الاحصائيات مثلا على ذلك وخاصة تلك المساهمات التى كتبت عن الدين والعلاقات الروحية من خارج الحدود المألونة للكتابات الدينية .

ويعتبر كتاب **((البحث عن الله فى الزمن وفى الذاكرة))** من بين هذه الكتب ومؤلفه هـو الاب ـ جون دون ـ من جامعة نوتردام بالولايات المتحدة الذى يعتبر نفسه الخليفة المباشر لبول تليش فى ميدان علم اللاهوت المنهجى .

والمؤلف مسيحى وجودى يسلم بنزعة الانسان المعاصر التى تتجه نحو التخلص من كل ما هو تجريدى . ولذلك فقد دعا الانسان من خلال كتابه الى البحث عن فهم « الله » من خلال تجاربه وتأمله الخاص لسير الاشخاص البارزين فى التاريخ ، وكيف حدث لهم ذلك ؟ .

وقد ادى ظهور القوة السوداء فى الولايات المتحدة الى الاهتمام بالفكر الدينى وسط التحولات الاجتماعية ، فظهر ما سمى اخيرا فى الولايات المتحدة بعلم اللاهوت الزنجى . واصدر جيمس كون كتابا لخص فيه الاراء التى وقع عليها اختياره فى كتاب بعنوان « علم اللاهوت الاسود والقوة السوداء » . وقد دعم الكتاب بمقتطفات لفرانزفانون .

وبحثت كتب اخرى مع نهاية العام مصير الكنيسة خلال الاحقاب القليلة القادمة . وقد اكد نقاد هذه الفئة من الكتب ان الكتاب الصادر عن مارتن مارتى هو افضلها وهو بعنوان « البحث عن مستقبل معقول » ، وقال فيه : **((ان محاولة علماء اللاهوت ان يقراوا المستقبل بدون المعطيات التى تقدمها لهم فروع المعرفة الاخرى قد ادى بالبعض منهم الى سلوك عصبى خلال الستينات))** .

ولذلك يتوقع المؤلف صبرا اكثر من حقبة السبعينات التى مضى منها عام ، وان هذا الصبر سيكون خليطا مع عدم التأكد والمخاطرة وهو الشىء الذى يحرص جميع الاوفياء على استبعاده .

وفى ميدان العلاقات الانسانية ايضا اكتشف بول صامويلعون مؤلف اشهر كتاب لمبادىء الاقتصاد الراسمالى والفائز اخيرا بجائزة نوبل ان كتابه يحتوى على هفوة كبرى ، اذ تنقصه فقرة عن اقتصاديات الحب . وقال ان هـذا الاكتشاف يتناقض مع الدروس التى كان يلقنها لتلاميذه فى جامعة شيكاغو حول المبدأ الاول والوحيد من نوعه فى الاقتصاد وهو : « ليس هناك افضل من وجبة مجانية » .

ومن خلال المساعى التى تبذلها الصهيونية ايضا على صعيد العلاقات الانسانية ، حرص علماء اللاهوت اليهود مع نهاية العام على ان يقدموا الدليل القاطع من اجل تقارب افضل مع المسيحية ، على ان المسيح كان يهوديا ، فما الذى ينتظره العالم المسيحى اكثر من ذلك .

الانية فى نظر جاك بيرك



جاك بيرك

في حديث جرى بين مجلة افريقيا الفتية (جون افريك) والمستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك (فى العدد ٥١٦ بتاريخ ٢٤ نوفمبر الاخير) جاء ما يلـــى :

بـــيرك : « ... الى جانب مـــا تشيرون اليه من خطر التطــرف فى المحافظة والتعلق بالقديم البالى أود أن أنبه الى تطرف آخر معاكس يتمثل فى تصور ساذج فى الشرق العربى عن العصرية والتفتح وهو تصور سطحى جدا يدفع كثيرا من العـــرب الـــى السطحية وبالتالى الى البتر الذاتى والقطع مع أنفسهم . »

المجلة : « ألا ترون أن اليابـــان مثل حسن للتوفيق بين العالم الحديث والتراث الوطنى ؟ »

بيرك : « تذكرون مثل اليابـــان بحق . ولكن ماذا تفعلون بمثل آخر أهم وأعظم وهو مثل الصـــين ؟ ان الصينيين يحققـــون الآن منجـــزات عظيمة وبدون أدنى تنازل للخارج . ولا أقل تفريط فى كل مـــا يتصـــل بشخصيتهم الصينية .

على أننى قد عتبت على الصين فى أحد فصول مقالى عدم أخذها الغير بالاعتبار بكفاية .

وفى العالم العربى نفسه نشاهد منذ نصف قرن اتجاها الى الجمع بين العصرية والمحافظة عـــلى الانيـــة الجماعية ، بل تأكيد هذه الانيـــة ، وأحسن مثل لهذا التوفيـــق هـــى الجزائر التى أخذت بعد قرن وثلاثين سنة من الاستعمار تكافح لاسترداد انيتها ، فى الوقت الذى تقتحم فيـــه القرن العشرين من بابه الواسع ، وذلك انه لا يمكن أن يكون هناك أى تقدم لاى بلد يتخلى عن آنيته » .

... فى المجلات الفرنسية

إعداد : عبد القادر رهومى

كثيرة هى القضايا السياسية والفكرية التى تناولتها المجلات الفرنسية ــ خلال الشهـــر الماضى ــ فمن جولة البابا ، بولس السادس الى اقطارآسيا ونتائجها ، وابعادها السياسية والدينية ، « والثورة البيضاء » فى الشيلى ، الى تقييم الفكر السياسى للفيلسوف الفرنسى « جان بول سارتر » ودور المراة الفلسطينية فى الكفاح المسلح الفلسطينى ، والضجة التى اثيرت حول تهريب كتاب المؤرخ السوفياتـــى « أندرى امـــالديك » هـــل « يعيش الاتحـــاد

السوفياتى حتى سنة ١٩٨٤ » الى فرنسا ..

فبالنظر للمسألة الاخيرة انفردت مجلة « لكسبريس » سبع صفحات لترجمة بعض فصول الكتاب الذى نشره المؤرخ الفرنسى بيارنوا تحت عنوان **« سفر قاهر الى سبيريا »**

وقد صدرت المجلة فصول الكتاب بتعريف الاديب الروسى « اندرى امالديك » الذى قالت عنه : انه مؤرخ يبلغ من العمر اثنين وثلاثين سنة ، الف كتابا وصل الى فرنسا عن طريق التهريب اسمه هل « يحيا الاتحاد السوفياتى حتى سنة ١٩٨٤ » .

وتقول لكسبريس : « يعد اندرى امالديك فى طليعة المثقفين السوفيات الذين عارضوا صراحة الحكم فى بلادهم .. » وقد حكم عليه سنة ١٩٦٥ بالسجن سنتين ونصف قضاهما فى سبيريا وبعد « سفره القاهر الى سبيريا » واصل مهاجمته لبعض مظاهر الحكم فى الاتحاد السوفياتى .. فزج به من جديد فى السجن .. ولا يزال حتى الان نزيله .

والصفحات السبع التى ترجمتها لكسبريس هى عبارة عن تسجيل للاحداث التى عاشها « اندرى امالديك » منذ ان داهمت منزله — حيث يعيش مع والده المعطوب المحال على التقاعد — الشرطة .. ووجهت له تهمتين : الاولى اجراء اتصالات مشبوهة مع الاجانب « صحفى ودبلوماسى امريكيان » والثانية رفضه للعمل .. لان مرسوما سوفياتيا صدر فى ٤ ماى ١٩٦١ ينص على محاربة الاشخاص الذين يرفضون المساهمة فى معركة البناء ويحيون حياة طفيلية ولا يمارسون اى عمل ..

وينفى « اندرى امالديك » فى يومياته تلك عن نفسه تهمة الاتصالات المشبوهة مع الامريكيين اللذين زارا بيته .. ويقول : ان الصحفى الامريكى وزميله الدبلوماسى لم يزوراه الا ليشاهدا لوحات صديقه الرسام « زفيرف » .. الذى دخل فجاة الى المستشفى .. والذى ابدى موافقته لاندرى امالديك على مقابلته الصحفى الامريكى ليجرى معه حديثا صحفيا ...

ويستمر الاديب السوفياتى فى تسجيل الاحداث التى صاحبت مداهمة الشرطة لمنزله واعتقالها له .. فيصف قاضى التحقيق الذى استنطقه بانه « يجهل القوانين السوفياتية » .

ويصف المراة التى وشت به الى مصالح الامن بانها « عجوز معتوهة » الجميع يعرف انها فى سنة ١٩٣٠ كانت سببا فى اعدام زوجها رميا بالرصاص بعد ما اخبرت الشرطة بانه يقوم بنشر الدعايات المضادة للاتحاد السوفياتى . وهو فى الواقع لم يقم بهذا العمل .. انما كان يخونها مع امراة اخرى ، كما ندد جاراته وجيرانه الذين قالوا عنه للشرطة كلاما ملفقا ..

ويمضى الاديب السوفياتى فى تسجيل الاحداث التى صاحبت تنقلاته بين مكاتب الشرطة ، ومكتب قاضى التحقيق ودخوله السجن ، الى ان يصل الى ذكر تدرج التهم الموجهة اليه . فقد بدات برفضه العمل ، واجراء اتصالات مشبوهة مع الاجانب وقيامه باعمال معادية للاتحاد السوفياتى ، وانتهت باعتباره مجرم مايستحق النفى الى سبيريا ..

وفى نفس العدد من مجلة لكسبريس كتب مبعوثها الخاص الى « شيلى » تحقيقا عن « الحكم الاحمر » فى هذا البلد الذى وصل فيه الشيوعيون الى الحكم عن طريق الانتخابات الحرة . لا عن طريق الثورة الدموية .. وعن هذا تقول لكسبريس : لاول مرة فى تاريخ امريكا اللاتينية يتمكن الشيوعيون من تاسيس دولة فى الشيلى .. بواسطة الطرق الشرعية « الانتخابات .. »

ولا يخفى الصحفى الفرنسى الانطباع الذى ارتسم فى نفسه عندما قام بجولة فى ربوع الشيلى .. وفحوى هذا الانطباع هو ان الحكم الجديد فى الشيلى .. لقى تاييدا ملموسا لدى الجماهير الشعبية الكادحة .. لان اقتصاد البلاد بكامله كان بيد قبضة اقلية ، من البرجوازيين والشركات الاحتكارية الاجنبية .

• كل الشعر المكافح الفلسطينى يصدر اليوم من العرب الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاقامة الجبرية او فى السجون داخل

اسـرائيل .. بهذا صدرت مجلة جون افريك الصادرة يوم ٨ ديسمبر الماضى .. موضوعها عن « الفلسطينيات » حيث تقول :

ان معظم اشعار سالم جبران ، ومحمـــود درويش وسميح القاسم وغيرهم من شعـــراء فلسطين المحتلة ... هى اغانى حب يائسة لفلسطين التى مثلوها بصورة الام ، والحبيبة ... والمراة .

ويستعرض تحقيق « جون افريك » عــن الفلسطينيات دور المراة الفلسطينية فى ثــورة بلادها .. فهى « تحمـل الســلاح وتقــوم بالعمليات الفدائية » داخل اسرائيل والاراضى الفلسطينية المحتلة بعد ٥ جوان ١٩٦٧ وهى تشتغل ممرضة ومعلمة ، داخل مخيمـــات اللاجئين ... وباختصار ..

فالمراة الفلسطينية هى اليوم مجــاهدة ، ومناضلة فى صفوف ثورة شعبها . الذى صمم على مواصلة الثورة المسلحة ، حتى النصــر النهائى واسترجاع وطنه السليب .

. اين وصل جان بول سارتر ؟ هذا هــو السؤال الذي حللت فيه مجلة لوفيغارو ليتيرار الفرنسية الصادرة يوم ٦ ديسمبر الماضى .. شخصية زعيم الفلسفة الوجودية الفرنسيــة « جان بول سارتر » وقيمت فكــره السياسى والادبى ، بقولها :

ان جان بول سارتر عظيم فى الادب والفن طفل فى السياسة .. والحركات السياسية ..

. « لا ماركس ولا المسيح » هذا عنــوان لكتاب جديد الفه الصحفى الفرنسى « جـــان فرانسوار يفال » موضوعه الرئيسى « الثورة الامريكية » ويرى فى كتابــه هــذا ان الثورة العالمية الجديدة ستندلع فى الولايات المتحدة الامريكية وليس فى اى بلد آخر ..

ويقول : « ان ثــورة القــرن العشريــن ستندلع فى الولايات المتحدة الامريكية .. ولن تندلع فى اى مكان آخر من العالــم .. فقــد بدات هذه الثورة فى الولايات المتحدة ولــــن تنجح فى بقية انحاء العــالم الا اذا نجحت فى امريكا الشمالية نفسهـــا ..

واعتمد « جان فرانسوار يفال » فى توصله الى هذا الاستنتاج على تحليله للاحداث والوقائع التى تعيشها الولايات المتحدة الامريكية منذ قيام الحرب الباردة بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم ..

فهو يعتقد ان بذور ثورة الطلاب شهــدت النور فى امريكا بعد مظاهرات طلبة جامعــة « باركلى » سنة ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ثم انتقلت الى بقية انحاء العالم ..

وكذلك مظاهرات العمال الامريكان سنــة ٦٩ — ٧٠ كانت لها استمرارية فى مظاهرات واضراب عمال اوروبا .. ويلاحظ المؤلف : ان طابع الحيــاة السياسيــة والاقتصاديــة والاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية .. حمل بذور الثورة العالمية فى القرن العشرين التى ستنطلق من امريكا الشمالية لا من روسيا او الصين او من امريكا الجنوبية او العالــم الثـــالث ...

طريــق الوحــدة

ان العرب لا يلمهم الا دين ، ولا ينهضون الا بايمان ، فاذا تخلى الدين عنهم او تخلوا هم عن الدين ، فان الموجة الصاعدة ترتد ، والامة المستجمعة ترجع متفرقة ، والذين وحدتهم طريق الحق ستوزعهم طريق الباطــل ، والنفــس العربية نفس مصابة بالفردية ، بالمفاخــرة ، باشياء كثيرة يقول الله فيها « لو انفقت ما فى الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهــم »

ابن خلدون

Editorial

Ces pages n'ont pour seule ambition que de servir ce secteur d'activité national ainsi que d'exprimer le contenu qui doit être le sien et sans lequel il serait préférable qu'il n'existât pas.

Il ne pourrait en être autrement et ce, au moment où le pays entreprend une importante révolution culturelle et spirituelle qui extirpera chez nous à jamais les étranges mœurs — produit d'une importation involontaire.

Notre peuple a consenti d'énormes sacrifices et a lutté des années durant, non pas dans l'unique but d'atteindre un niveau de vie tel celui de la Suède ou du Canada, ou pour quelque luxe et vie superficielle. L'un des objectifs pour lesquels il a tant combattu a été celui de recouvrer son identité et par là même sa personnalité et son authenticité, d'affirmer son moi et son originalité sans lesquels il n'aurait qu'une existence artificielle.

C'est pour ces objectifs qu'il a tant lutté et c'est au nom de cela qu'il a enduré les pires souffrances, supporté les pires poisons ; et c'est ou nom de ce même objectif qu'il a triomphé et émergé des profondeurs de l'oubli et de l'anonymat infligé par le colonialisme, brandissant des deux mains à la face du monde son identité et abolissant à jamais ce parchemin terni sur lequel on a voulu, d'un trait de plume arbitraire, lui contester une existence propre et nier son glorieux passé parmi les autres peuples et nations.

Quant à la méthode et à la présentation, cette revue sera bimestrielle et, dans la mesure du possible, elle paraitra une fois par mois pour les numéros qui suivront. Sa couverture comportera à chaque numéro des esquisses ou des photos des grandes figures de de notre glorieux passé qui ont toujours fait notre fierté et constitué en quelque sorte nos références pendant les différentes phases de notre lutte de libération, de la lutte révolutionnaire politique à la lutte révolutionnaire armée. Elle comportera également des paysages de notre majestueux et beau pays, ou bien quelquefois la photo d'une célèbre personnalité maghrébine ou musulmane en général, ou encore des photos prises dans l'important héritage commun à l'humanité toute entière.

La revue sera reconnaissante à tous ceux qui voudront bien lui indiquer ou, encore mieux, lui envoyer de tels photos, gravures, paysages ou autres suceptibles d'être publiés. Elle réservera — pour être abordable — certains articles vocalisés à l'intention de ses lecteurs débutants, quoique cela comporte des difficultés énormes d'ordre technique.

Quelques pages seront rédigées, pendant un certain temps, en langue française comme c'est le cas dans certaines revues de pays frères. C'est ainsi que des articles significatifs seront glanés dans certains journaux étrangers. A ce sujet, la revue se fera un plaisir d'accepter toute participation ou contribution, en arabe ou en français. Comme elle ouvrira ses pages à toutes suggestions ou critiques.

Pour sa part, elle aura toujours pour devise de louer plutôt que de dénoncer, d'attirer l'attention plutôt que de chercher la polémique. Mais elle s'emploiera contre ceux qui s'obstinent à vouloir rester dans l'erreur, car si Dieu seul et ses Prophètes sont infaillibles, et si errare humanum est, perseverare (est) diabolicum !

Elle n'aura aucune pitié pour les orphelins de la culture et pseudo-intellectuels qui s'acharnent à dédaigner tout ce qui a un lien avec notre culture et les valeurs de notre personnalité ; car une certaine dépendance du colonialisme est restée incrustée dans leur tête et souvent dans leur cœur, que ce soit de façon consciente ou inconsciente.

Comme elle ne sera pas clémente à l'encontre de ceux qui croient que le fait de connaitre leur langue nationale leur confère le droit de faire du combat que mène le pays pour le recouvrement de sa langue nationale un sujet de discussions stériles, chaque fois qu'ils se retrouvent à la terrasse d'un café. Ce sont ceux-là-mêmes qui n'éprouvent aucune gêne à exiger cinquante dinars pour un cours d'arabe d'une heure, considérant que c'est là un grand « sacrifice » et une « contribution efficace » à la tâche d'arabisation de l'enseignement et de l'administration.

Elle sera sévère à l'égard de toutes sortes de prestidigitateurs obscurantistes qui s'érigent en Malik, en Abou Hanifa, en Chafaï ou Ibnou Hanbel voulant mutiler ainsi notre Islam pour le renvoyer aux siècles de la décadence, cet Islam-même vivant et permanent qui est valable pour tous temps et tous lieux.

Il est évident qu'elle ne ménagera pas ceux qui ont pris pour habitude de suivre la trace de Foucauld et de Lavigerie, ceux qui, au nom du Christ, servent le colonialisme et tendent — oubliant que nous sommes indépendants — à inoculer leur poison dans les esprits de nos enfants pour semer le désordre dans nos foyers. Ne devraient-ils pas plutôt s'occuper de leurs enfants et familles outre-mer ? Oublient-ils que leur société ne cesse de se débattre dans une crise de civilisation dangereuse pour la stabilité de leurs pays. ?

Il va sans dire que nous ne ménagerons pas non plus ceux qui nous reprochent notre respect pour notre religion et qui veulent nous proposer une contrereligion, pour s'imposer à tous ceux dont la volonté est faible, afin de les précipiter dans des idéologies néfastes à notre société musulmane. Ils essaient de renforcer leurs menées par une série d'arguments-pièges tendant à renier nos valeurs morales, à semer le désarroi et la confusion dans les esprits, à dissoudre la morale et les traditions familiales, et à faire de la dissolution des mœurs le symbole du progrès et de l'émancipation pour naïfs éternellement disponibles... !

C'est ainsi qu'ils n'hésitent pas à taxer de réactionnaires, de fanatiques et de sectaires tous ceux qui leur barrent la route et qui restent imperméables à leur dénigrement, à leurs menées et à leur idéologie !

Dans cette entreprise ardue, la revue sera reconnaissante à tous ceux qui l'aideront par toutes sortes d'informations ou qui attireront son attention sur les méfaits de tous ceux qui s'obstinent à demeurer dans l'erreur.

Pour ce qui est du contenu, outre la publication dans leur ordre chronologique des conférences du quatrième séminaire sur la pensée islamique, qui s'est déroulé à Constantine, ainsi que des prochains séminaires, cette revue essaiera d'être très variée dans ses articles et embrassant tous les sujets, dans la mesure du possible.

En tout cas, telle est notre volonté et tel est notre devoir, car nous croyons en une vérité qui ne laisse aucune place à la discussion aux yeux de tous vrais musulmans : à savoir que l'Islam est valable en tous temps et en tous lieux. Il est religion et Etat, droit, morale, culte et culture.

C'est enfin et surtout la religion de lumière, d'action et de civilisation.

Une religion vivante embrassant tout ce qui se rapporte à la vie.

Mouloud Kassim

IDENTITE ET AUTHENTICITE

Conférence de M. Mouloud KASSIM
Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses

lors de l'inauguration du 4e Séminaire sur la Pensée Islamique

(Constantine le 8 djoumada II 1390 - 10 août 1970)

C'est un grand honneur pour moi de procéder à l'ouverture de ce quatrième séminaire qui donnera l'occasion aux professeurs de faire connaître la pensée islamique, et à nous mêmes de nous pénétrer davantage de cet esprit qui a donné naissance à l'une des plus fertiles cultures, l'une des plus florissantes civilisations que l'humanité ait connues à travers les âges.

Permettez-moi, tout d'abord, de vous souhaiter la bienvenue à tous et, en particulier, aux professeurs des pays frères et aux étudiants venant du dehors.

Permettez-moi également de vous transmettre le souhait de bienvenue du président Houari Boumediene, Président du Conseil de la Révolution et Chef du Gouvernement, qui exprime le vœu pour la réussite de ce séminaire grâce à l'échange des idées sur le passé de notre culture, sur les dangers qui menacent son présent ainsi que sur les perspectives de son avenir qui, à nos yeux, peuvent redonner à l'Islam sa grande force, sa grandeur de capacité d'assimilation des derniers progrès de la science et de la technique, pour édifier, à partir de ces bases, sa culture originale et sa civilisation propre, par lesquelles il pourra participer à la marche de l'humanité vers la lumière et le progrès.

C'est pour moi également un grand honneur que de voir le séminaire se tenir dans une ville qui a été à différentes époques de notre Histoire le berceau de la culture de notre pays et le symbole de sa résistance, depuis Massinissa et Youghourtha jusqu'à Ahmed Bey et Abdelhamid Ben Badis qui avait pour devise pendant toute sa vie : « l'Algérie est ma patrie, l'Islam ma religion, l'arabe ma langue », jusqu'au 8 mai 1945, dont nous commémorons le 25ème anniversaire, jusqu'à la période de l'action politique révolutionnaire qui ouvrira la voie au 1er novembre, jusqu'au 20 août 1955 qui donnera un grand essor à notre lutte de libération et un grand pas en avant dans notre marche pour recouvrer notre indépendance et notre souveraineté.

A cette occasion, alors que nous évoquons la Révolution et le combat libérateur dans la ville de Ben Badis, qui a toujours dans ses écrits et ses prises de position lié le nom de la Palestine à celui de l'Algérie, je voudrais vous demander d'observer une minute de silence à la mémoire des martyrs de la lutte armée tombés en Algérie, au Grand Maghrib, au Machrik, dans toutes les contrées islamiques et à l'heure actuelle en Palestine.

Nous nous sommes réunis pour évoquer certains de nos problèmes, faire un examen de conscience et un profond retour sur nous-mêmes dans le but de toucher du doigt les aspects de la maladie dont nous souffrons, afin de les cerner pour avoir une vue claire de nous-mêmes et de notre réalité et de ce qui peut nous attendre si nous n'apportons pas au plus vite les solutions radicales à certains problèmes et maladies qui, en s'aggravant, risqueraient de nous porter un très grand préjudice alors que nous venons à peine de prendre en charge nos affaires et recouvrer notre liberté d'action en tant que peuple libre et pays souverain.

Des peuples qui n'ont pas connu d'arrêt dans leur évolution ressentent aujourd'hui ce qu'ils appellent crise de civilisation et début de décadence, à cause de leur relâchement dans certains principes et modes de vie en tant qu'individus, sociétés et nations.

Les problèmes d'ordre familial, y compris ceux de la femme et de la jeunesse, jouent un rôle déterminant danc cette crise qui peut se transformer en débacle.

Permettez-moi cette franchise dans le langage car, à mon sens, le problème est beaucoup plus grave qu'on le pense généralement et qu'il n'a pas trouvé jusqu'ici toute sollicitude voulue dans notre monde arabo-islamique et dans ce que l'on a convenu d'appeler « tiers-monde ».

J'ai choisi comme thème à cette conférence « Identité et Authenticité », en donnant au premier mot le sens de la conscience aiguë de soi, de sa personnalité. Cette identité-même à laquelle faisait allusion Ibn-Sina lorsqu'il imagina son être complètement détaché de son corps comme suspendu entre ciel et terre pour ne suivre en cet instant que sa conscience d'exister et sentir son moi en tant qu'entité propre et indépendante.

Cette recherche de soi d'Ibn-Sina fut à l'origine du célèbre cogito de Descartes : « Je pense, donc je suis »

Nous étions à l'époque coloniale comme suspendus entre deux mondes, démunis de notre citoyenneté algérienne.

Nous n'étions ni reconnus comme tels, ni traités comme citoyens français, et pourtant nous n'avions jamais cessé d'être nous-mêmes, fiers et attachés aux valeurs de la religion, de la langue, des traditions qui constituent notre personnalité et étions contre tout ce qui pouvait les entâcher ou leur porter atteinte.

Nous combattions alors toutes les maladies sociales importées et qui nous étaient étrangères. Nous le faisions avec la force d'auto-défense pour la sauvegarde de cette identité et de cette authenticité, et nous nous opposions à tout ce qui était de nature à nous détacher de notre environnement naturel, à nous dépersonnaliser.

La société était unanime pour rejeter de telles érosions. Cette auto-défense fut en quelque sorte notre première arme pour la sauvegarde de notre personnalité et la garantie de notre survie à travers les âges et les péripéties de l'Histoire.

Il nous faut reconnaître qu'après l'élimination de notre adversaire, cette immunité commençait à s'éclipser, le sentiment de l'authenticité et de l'identité s'affaiblit, et que nombreux sont ceux qui deviennent indulgents là où il ne faudrait pas et ce, pour éviter un désastre.

Nos ennemis sont arrivés à complexer quelques dirigeants du tiers-monde et à former en eux une double personnalité, fait qui a entrainé une accumulation de défauts et une suppression totale de qualités.
Ces derniers s'étant dépouillés des qualités et vertus de leurs aïeux, n'ont pas pour autant acquis celles des pays qu'ils ont essayé de singer, et aux défauts de ces derniers ils ont ajouté les leurs, sans sortir de leur sous-développement, tout au contraire.

Au moment où nous voyons de grands pays industrialisés, développés et socialistes, en lutte fermement contre tout ce qui est en mesure de porter atteinte à leur intégrité et au salut de leur société, nous trouvons aujourd'hui au sein de la nôtre des personnages dépersonnalisés qui répondent à tout rappel au droit chemin d'une manière négative, ou encore par l'accusation d'un retour au moyen-âge et aux siècles de l'obscurantisme, allant jusqu'à ignorer que le moyen-

age en Europe est le siècle des ténèbres, alors qu'en pays d'Islam, cette même période était un âge d'or, de culture, de lumière et de civilisation.

Au moment où nous voyons la municipalité de Moscou, par exemple, interdire la vente de l'alcool près des usines, des instituts scientifiques, des théâtres, des cinémas et tout endroit public, et ne permettre aux établissements loin de ces lieux la vente de *l'alcool qu'entre onze et vingt heures,* interdiction qui a été précédée d'une importante campagne, expliquant que les boissons alcoolisées droguaient le peuple et nuisaient à la production du pays, nous entendons parfois dans notre société des voix demandant de dépasser ce qu'elles appellent « des futilités », et de permettre aux gens de s'adonner à la boisson. Au moment où la Chine populaire interdit aux Chinois d'épouser des étrangères et aux Chinoises d'épouser des étrangers, et interdit les moindres contacts entre des Chinoises et des étrangers ; au moment où la « K. Pravda » écrit que les femmes russes qui fréquentent les étrangers déshonorent Lénine et la patrie soviétique, nous trouvons chez nous des renégats qui revendiquent ce qu'ils appellent « l'émancipation de la femme », afin qu'elle épouse ou fréquente qui bon lui semble, qu'elle voyage quand et où elle désire, qu'elle revienne quand bon lui semble ou qu'elle ne revienne plus !

Au moment où le grand rabbin de Tel-Aviv refuse d'unir la petite fille de Ben Gourrion, sinistre fondateur de l' « Etat » sioniste, avec un officier supérieur de l'armée sioniste, parce que la mère de la fille, bru de Ben Gourrion, n'était que convertie au Judaïsme et non juive de naissance ; et aussi au moment où la Knesseth refuse l'autorisation de servir même aux non-juifs et partout du porc même à bord de bâteaux de tourisme israéliens, car leur religion hébraïque l'interdit expressément, nous trouvons chez nous des « libéraux » de tout bord et de tout accabit parler au nom de la tolérance et de la largesse d'esprit et ne point s'attacher à ce qu'ils prétendent être « les pensées archaïques ».

Messieurs,

De ces exemples et à travers les sujets de conférences, vous constaterez au cours de ce séminaire que la femme est l'un des principaux points qui sera discuté sans cesse, sous divers angles et avec une insistance particulière, ce qui ne signifie point une diminution et de sa personne et de l'importance qu'elle revêt dans la société. C'est à partir de là, bien au contraire, qu'elle sera le centre des débats en raison de l'importance qu'elle a dans la vie de la famille et de la nation.

Car si la famille est la cellule première dans le corps de la nation, comme disent les sociologues, la femme, par contre, est le pilier de cette famille et son centre de gravité : c'est du salut de la femme que dépend celui de la famille, de même que la faillite de la femme conduit à celle de la famille.

En disant cela, nous ne faisons point nôtre le point de vue de Bismarck qui n'a assigné que trois tâches à la femme allemande et qui sont : les enfants, la cuisine, et l'église (les «3K» : Kinder, Kueche und Kirche). Au contraire, nous sommes avec Ben Badis qui souligne avec très grande insistance la nécessité d'instruire la fille et la faire participer à la vie de la nation d'une manière bien plus efficace que celle précisée par Bismarck, le chancelier à la main de fer, comme l'appellent les Allemands. Se référant à des Hadiths exhortant à l'instruction de la fille, Ben Badis déclare : « Suivant le digne exemple des nombreuses femmes savantes, écrivains, qui jalonnèrent l'histoire de notre nation, nous devons instruire nos enfants garçons et filles et leur faire répandre sans limite le patrimoine de l'humanité et les fruits de ses efforts au cours des siècles.

« C'est grâce à cela que nous serons en mesure d'atteindre la place qui nous convient, celle que nous occupions dans le concert des nations.

« Nous nous devons, poursuit Ben Badis, de faire participer nos femmes à toutes nos entreprises, afin qu'elles accomplissent leur juste part dans la vie, conformément aux obligations morales de l'Islam, tout en s'écartant de l'indécence et des fréquentations douteuses et en veillant à leur pudeur, la vie de toute nation exigeant la complémentarité entre ses hommes et ses femmes. Car, ajoute Ben Badis, la femme est la maîtresse de la

maison, la protectrice du foyer et la gardienne des traditions. Elle est tenue d'accomplir ses obligations. Nous devons lui apprendre tout ce dont elle a besoin pour l'accomplissement de sa tâche, l'éduquer selon la morale féminine grâce à laquelle la femme est femme, et non mi-femme, mi-homme !

« A nos yeux, la femme qui donne naissance à un enfant aviateur est préférable à une aviatrice ».

Voilà ce que proclame Ben Badis au sujet de la femme. Cette importance qu'il accorde à la femme est un honneur pour elle et un hommage à son rôle, à sa place dans la famille, la société et la nation. Elle est l'éducatrice de l'enfant, « la maîtresse première qui, si elle est bien éduquée, saura éduquer un peuple de bonne race » comme le dit si bien Hafidh Ibrahim.

Ben Badis accepte de la femme qu'elle soit à l'instar de Fatima N'Soumer qui a dirigé les moussabiline et les moudjahidine en 1857 dans les monts du Djurdjura, contre les généraux de l'armée française, mais il refuse qu'elle soit victime de la déviation et de tout ce qui est superficiel et qu'il est convenu d'appeler la vie sociale « moderne ».

Ben Badis ne veut pas d'elle qu'elle se contente des aspects négatifs de la civilisation, ni qu'elle soit victime de l'imitation aveugle et servile, s'empressant d'adopter de mauvaises habitudes qui ne font pas partie de nos traditions et contraires à nos principes. Il ne tient point à voir en elle cette personne qui ne songe qu'aux cigarettes, aux boissons, aux fréquentations des cafés et au pédantisme, tout en imitant l'accent parisien que pas toutes les Françaises mêmes **utilisent.**

Ben Badis, enfin, ne veut point qu'elle renie sa personnalité et devienne de la sorte perverse, c'est-à-dire une mosaïque et un mélange chatoyant de pièces dissemblables et bigarrées, devenant ainsi un fléau pour son milieu et un être nuisible à sa société.

Avant de terminer avec le problème de la femme et l'importance de celui-ci par rapport à la famille et à la nation, je voudrais en évoquer un autre, non moins important : celui des mariages mixtes. Je ne m'étendrai nullement là-dessus, car ce sera le thème de la conférence que donnera une dame ici présente parmi nous.

Si l'Islam permet aux Musulmans de se marier avec des femmes de confessions chrétiennes ou juive, il est toutefois préférable d'y renoncer. Bien qu'on comprenne le cas de certains citoyens, étudiants ou travailleurs, contraints par les conditions d'émigration en Europe d'épouser des étrangères, et nous ne contestons nullement l'honnêteté de certaines d'entre elles, cela ne doit plus désormais se reproduire, quels que soient les prétextes invoqués. D'ailleurs, toutes les conditions qui les y ont obligés, tel que l'exil, la longue absence, sont maintenant à jamais révolus. Aussi est-il de notre devoir d'œuvrer afin d'empêcher que de telles situations persistent. Comme il est de notre devoir de prendre les mesures nécessaires afin d'empêcher que l'Algérie ne devienne la « Tour de Babel ».

En invoquant ce problème, je vise plus particulièrement les intellectuels et les cadres pour la formation desquels l'Etat consent les plus grands sacrifices et sur lesquels la nation tout entière ne cesse de fonder les plus grands espoirs pour sa prospérité et son développement. Si tels sont les problèmes en ce qui concerne les mariages mixtes pour les hommes, que peut-on dire de ces brebis galeuses qui épousent des étrangers et qui, même si elles se comptent sur le bout des doigts, ne sont pas moins une honte pour leur famille et la société entière.

Outre que la religion islamique interdit à la femme le mariage avec un étranger, le sentiment d'honneur qui anime chacun de nous doit empêcher l'existence de telle situation.

Aussi, c'est avec franchise et sans complexe que j'évoque aujourd'hui cette tragédie sociale devant nos frères venus de pays qui connaissent le même phénomène.

Je me contenterai de résumer tout cela par l'article d'un journal paraissant dans un pays frère et relatif au danger de cette vague qui consiste pour plusieurs de nos jeunes à épouser des étrangères ou des étrangers, poussés en cela par l'attrait de tout ce qui est étranger, produits et producteurs.

A ce sujet, j'aimerais saisir l'occasion qui m'est offerte pour lancer un avertissement à ces organisations dites de charité, à caractère religieux ou autre, et qui, en fait, ne nous veulent aucun bien. Nous sommes vigilants, nous suivrons avec une attention soutenue leur travail de sape. Nous exercerons sur elles un contrôle rigoureux sans relâche et avec une détermination à toute épreuve si ces organisations continuaient à abuser de l'hospitalité de notre pays.

Messieurs,

Avant de terminer mes propos, j'aimerais aborder très succintement un sujet qui revêt une grande importance pour ce séminaire et qui est étroitement lié à l'authenticité. Je veux parler de la relation qui existe entre le socialisme et l'Islam.

Plusieurs discussions ont eu lieu à ce sujet. Pour certains, il n'existe aucune relation entre l'Islam et le socialisme, l'Islam étant, pour ces derniers, une religion incompatible avec le socialisme, lequel est fondé sur l'athéisme, ou tout au moins sur la négation de la religion. Une pareille attitude vise donc à nous éloigner du socialisme et n'est point désintéressée.

Pour d'autres, l'Islam en tant que religion est réactionnaire de par sa nature. Il est, par conséquent, selon les tenants de cette opinion, incompatible avec le socialisme. Ils soutiennent que pour être socialiste, il faut se désislamiser. Ces derniers ne sont pas moins hypocrites que les premiers. En effet, ils désirent nous voir dépourvus de religion, de valeurs, de personnalité, des composantes de notre authenticité, manifestant un chaud enthousiasme pour la négation de la religion, déployant plus d'effort en ce sens qu'ils ne nous demandent, afin que nous paraissions, à leurs yeux, en mesure d'entrer dans leur « club inaccessible », que nous soyions agréés et acceptés par eux comme faisant partie de leur famille !
D'autres, qui sont des nôtres, mais en fait militent contre nous, réagissent selon l'expérience de Pavlov, sous le couvert d'un pédantisme trompeur. Il s'agit de ceux qui sont disponibles à être colonisés.

A toutes ces opinions, nous répondrons que l'Islam est religion et Etat. En tant que religion complète, l'Islam est spiritualité, éthique et morale en général. Il est également action et effort, force et combat, non point résignation et humiliation, ou acceptation de l'injustice et de l'oppression. Bien mieux, il est celle de la justice et de l'équité, puisqu'il offre à chacun sa chance et ses responsabilités. Par conséquent, l'Islam est la religion du socialisme, dans le vrai sens du mot.

L'Islam n'est pas la religion de la pauvreté, de la faiblesse, du besoin, mais celle de la force et du bien-être. A ce sujet, l'Imam Ali devait dire : « La pauvreté est presque une impiété ». Abu Dhar Elgheffari a déclaré, pour sa part :

« Je suis étonné de voir un homme au ventre creux, qui ne dégaine pas son sabre ». Il faut entendre, à travers ce propos, l'égalité des chances dans le travail et les possibilités offertes et la répartition des richesses pour tous, d'une manière équitable.

Parlant de l'exploitation et de l'usure « Alriba », le Prophète a dit : « Lors du jugement dernier je serai l'adversaire implacable de trois sortes de gens : ..., « en troisième lieu, je serai l'adversaire de celui qui, payant un salarié, ne s'en acquitte pas complètement », c'est-à-dire équitablement.
Toujours dans ce domaine, il nous plaît de rappeler la théorie de M. Mohammed El-Moubarek, ancien professeur à la faculté de Droit musulman de Damas, membre de l'Académie de la langue arabe, qui réside actuellement en Arabie Saoudite.

Citant Ibn Teimayah, le Professeur Mohamed El-Moubarek écrit :

« Si le socialisme est la participation de tous les individus aux intérêts du pays, et l'intervention de l'Etat dans la limitation de la propriété a pour conséquence la juste répartition des biens et l'équitable des forces parmi les individus, dont les besoins humains et matériels seront garantis, le socialisme n'est point en contradiction avec l'Islam.

« En effet, tenant compte de sa propre mission, l'Islam n'est pas opposé à la généralisation des profits garantis et à l'instauration de la justice ».

TEMOIGNAGE CHRETIEN :

NE FERMONS PAS TROP VITE LE DOSSIER « MISSIONS »

Où est le paternalisme

«... Seulement, en même temps, il faudrait se rappeler que certaines Eglises ont encore besoin d'aide, en personnel comme en ressources. *Pour la tâche primordiale de l'évangélisation qui est l'annonce de la Bonne Nouvelle, et pas seulement pour creuser des puits ou nourrir les affamés.* Les institutions internationales officielles sont les premières à reconnaître — sans oser le crier trop fort — que ceux qui évangélisent sont parmi les meilleurs artisans du développement. N'y aurait-il que nous à ne pas le savoir, et à négliger de les aider ?

On a déjà répété bien des fois cette parole saisisante d'un archevêque malgache : « *Je peux vous envoyer la photo d'un malgache qui a faim, mais pas celle d'un malgache qui attend la lumière de l'Evangile. Ça ne se voit pas !* »



Au Burundi, un prêtre indigène au milieu de ses jeunes paroissiens.

LA CROIX :

PROCLAMER LA PAROLE A TEMPS ET A CONTRETEMPS

Par Antoine Wenger

Si la lettre de Paul VI se fait si pressante et si elle est en un sens dramatique, si elle fait aux évêques le devoir de parler en rappelant la grave recommandation de Paul à Timothée : « Je t'adjure devant Dieu... Proclame la Parole, insiste à temps et à contretemps » (2 Tm 4, 1-2) c'est que l'équilibre semble aujourd'hui rompu.

LA CROIX

DES PARENTS QUI N'EN DORMENT PLUS

par André Ironde

Pas méchants, ces grands gosses, mais viscéralement obsédés par leur indépendance. Aussitôt libérés des horaires scolaires ou professionnels, les voilà qui s'envolent à tire-d'aile...

Où vont-ils ? Où sont-ils ? Qu'y font-ils ? Quand rentreront-ils au nid ?... Autant de points d'interrogation pour les parents ! Interrogations souvent anxieuses..

Il en est en effet de ces jeunots qui ont pris l'habitude de rentrer à l'aube. Ou de ne point rentrer du tout. Des garçons. Des filles aussi qui découchent allègrement. J'ai cours des nuits du samedi au dimanche. J'ai été ainsi surpris de découvrir, vers les 3 heures du matin, de grands cafés pleins d'une clientèle de jeunes gens et de jeunes filles, dont certaines n'avaient pas 16 ans. On buvait des « pots » et l'on élucubrait dans la tabagie.

On accuse facilement les parents de ces filles de démission et les réquisitoires pleuvent sur eux, impitoyables et à l'emporte-pièce. A l'examen, les choses ne sont pas si simples. Comment en est-on arrivé là ? Le plus souvent, à « l'usure ».

Je connais un certain échantillonnage de cas où les parents, objectivement, ne sont en vérité que les victimes d'un contexte extérieur autrement plus puissant que leur pauvre « autorité » morale battue et contrebattue par un système de contestation et de provocation. Rien ne compense l'attrait des séductions extérieures qui s'exhibent librement ; pas même le témoignage d'une vie de parents toute consacrée à la fidélité au devoir de chaque jour, vertu dont on se gausse gentiment.

Je pourrais même citer des situations où l'autorité de la mère va devoir s'affronter au chantage.

— Monique, je ne veux pas que tu sortes encore ce soir !

Suit tout un scénario fait de cris, de heurts, de larmes et qui peut finalement déboucher sur une tentative de suicide qui se résoudra par quelques jours d'observation à l'hôpital. C'est rarement dramatique, sauf cette fille qui avait aspiré un petit berlingot d'eau de javel concentrée...

A défaut de suicide, on fugue... pour se faire rattraper au terme d'aventures lamentables qui pèsent lourdement sur une toute neuve et encore fragile adolescence. Car si l'on se donne, en apparence, des allures émancipées, on reste intérieurement toujours faible.

Pour des mamans de la quarantaine, c'est l'effondrement à l'état chronique, l'insécurité permanente, la panique latente et quelquefois l'angoisse pathologique, qui s'installe sans qu'on ose l'avouer. Les pères, de guerre lasse, se sont bouché les oreilles aux boules Quiès !...

Cas extrêmes ? Sûrement pas ! Il n'est que d'être à l'écoute des confidences. La seule consolation qu'on puisse se donner, c'est de savoir qu'en Angleterre, la situation est pire. Mais les mères anglo-saxonnes « encaissent » mieux. L'humour sauve de la dépression.

Chez nous, je sais des parents qui vivent des nuits d'insomnie. Celles où leurs enfants, vers les 9 heures du soir, les ont quittés pour filer en voiture avec une bande de copains et de copines pour quelque virée nocturne et excentrique. Des mères avouent passer la nuit au carreau, anxieuses, tendues au moindre vrombrissement d'un moteur de voiture.

— C'est peut-être eux ?... Non !

Et les heures s'égrènent, interminables.

L'imagination s'affole, échafaude les pires drames. On appréhende la sonnerie du téléphone. On réveille les amis et connaissances.

— Allô ! Allô ! Isabelle ne serait pas chez vous, par hasard ?

Non, Isabelle n'y est point ! Alors, où ? L'aube va naître d'ici à deux heures d'horloge...

J'ai connu un père de la quarantaine qui a payé cher ces attentes anxieuses ; l'infarctus l'a terrasé ; il en a péniblement guéri. Pour se préserver d'une rechute, il avait loué en ville une chambre à son fou de fils.

— Je préfère ignorer.

La Croix :

Ce que peut être le dialogue entre Chrétiens et Musulmans

Les musulmans forment, en France, la confession religieuse la plus nombreuse après le catholicisme : presque un million de fidèles venus du Maghreb, du Mali, du Sénégal, de la Turquie, de la Yougoslavie. Le monde chrétien, pourtant, manifeste une grande ignorance des réalités musulmanes. Pour l'Agence missionnaire Fides, un grand connaisseur de l'islam, le P. Joseph Cuoq, Père Blanc, qui est à la tête de la section islamique au Secrétariat pour les non-chrétiens, a étudié les possibilités d'un véritable dialogue entre musulmans et chrétiens.

A l'universalisme géographique qui met les musulmans à notre porte, il faut ajouter un réel apparentement culturel et religieux avec le christianisme. On se rend vivement compte de ce fait quand on passe de l'hindouisme ou du bouddhisme à l'islam : avec ce dernier, nous nous retrouvons dans le même enracinement philosophique, la philosophie de la Grèce antique, en face de problèmes qui ont été débattus aussi bien en chrétienté que dans le Dar al islam

Mais il y a plus : l'islam plonge ses racines dans l'Ancien et le Nouveau Testament, participe au monothéisme abrahamique et reconnaît la présence de la parole de Dieu dans l'humanité. Tout un vaste terrain commun existe entre musulmans et chrétiens. Les échanges intellectuels, sans doute, en sont facilités et, l'on peut se sentir proche de beaucoup par la pensée et la piété, notamment avec certains mystiques ou avec des âmes simples entièrement soumises à la volonté de Dieu.

Les musulmans ne sont donc pas loin de nous. Si, par ignorance, nous disons que oui, eux se plaisent à affirmer le contraire, prenant à témoin, pour nous en convaincre, leur reconnaissance de Jésus comme prophète, leur dévotion à la Vierge et leur foi aux Ecritures antérieures au Coran.

UNE COMPREHENSION SYMPATHIQUE

A notre époque d'œcuménisme, notre attention se porte avec raison, vers nos autres frères chrétiens, protestants et orthodoxes. Dans un avenir proche, les musulmans viendront demander, eux aussi (comme ils l'ont déjà exprimé ici et là), de participer aux échanges religieux entre chrétiens, au nom de l' « œcuménisme des gens du livre », (c'est-à-dire de ceux qui ont une religion basée sur une révélation).

Il est évident qu'avant dix ans surgiront de plus en plus de chez eux des esprits formés dans leur langue nationale à la culture moderne, qui interrogeront sur le sens et le but de la vie, sur l'homme, son origine et sa fin, sur les religions et le mystère dernier vers lequel nous tendons. Les musulmans, dans leur ensemble, n'attendent pas de nous, chrétiens, et de l'Eglise des réponses à leurs inquiétudes. Ils estiment que l'islam a réponse à tout. Cependant, si nous sommes prêts à entrer en rapports avec eux, en nous mettant à leur point de vue, une compréhension sympathique peut en naître et se développer en dialogue et service.

LES ROCHES DESSECHEES DU DESERT

Les chrétiens n'échappent point à cette interpellation de l'islam et des musulmans. Dès les origines, le Coran avait déjà sommé les chrétiens de justifier leur foi. Cette interpellation s'est poursuivie de siècle en siècle, sous des formes diverses, le plus souvent tragiques.

Jusqu'ici, la réponse donnée n'a pas été satisfaisante. Le sera-t-elle jamais ? Peut-elle même être donnée dans l'histoire ? En effet, ce que l'islam demande aux chrétiens, dans son exigence fondamentale, c'est une purification de leur foi, une religion « en justice et en vérité », bannissant tout anthropomorphisme, tout exclusivisme historique et culturel, politique et sociologique, une foi nue et dépouillée comme ces roches desséchées du désert, calcinées par le soleil.

Quand le chrétien a pénétré au cœur de cette religion dépouillée qu'est l'islam, il y éprouve une purification de sa foi qui, loin d'être amoindrie, en sort plus vive, plus limpide, plus en état de communication avec les autres. Cette constatation, plus d'un chrétien engagé dans le monde de l'islam, saisi par l'ambiance spirituelle et simple de certains milieux islamiques, peuten témoigner. Il n'y a pas eu que Psichari et Foucauld à sortir bouleversés de telles rencontres avec l'islam.

L'ISLAM NOUS INTERROGE

Si l'islam interpelle les chrétiens, ce n'est point pour apprendre d'eux ce qu'il enseigne à ses fidèles, à savoir la grandeur transcendante de Dieu, mais pour connaître — ce qu'il pressent chez les disciples de Jésus — comment le

Très-Haut peut être l'Emmanuel, le Dieu-avec-nous, et comment le fidèle adorateur du Dieu très grand peut aspirer à vivre avec lui. C'est cela qu'ont recherché les mystiques de l'islam et c'est cela même que les musulmans voudraient découvrir chez les chrétiens.

Ce que l'on veut souligner ici ce sont les exigences fondamentales, nulle part écrites mais vécues partout, que l'islam pose au monde chrétien. Nous ne pouvons y échapper. Quelle que soit la voie suivie pour le dialogue avec les musulmans, nous aboutirons toujours, tôt ou tard, à une exigence à notre égard d'une authenticité sans faille de notre témoignage dans une expression de notre foi sans concession anthropomorphique.

TUNISIFICATION ET ARABISATION

Dans son numéro de novembre, la revue culturelle tunisienne « AL FIKR » a publié l'éditorial suivant :

« Notre souci de voir tous les tunisiens, et en particulier les intellectuels et les éducateurs, prendre conscience de l'ampleur des efforts à entreprendre dans le domaine de l'esprit pour sauvegarder notre personnalité, nous dicte entre autres obligations de distinguer lorsqu'il s'agit entre tunisification et arabisation d'élaborer un système éducationnel authentique.

En effet, la tunisification en matière d'enseignement implique la concrétisation des fondements de la nation, la mise en valeur de la foi patriotique chez les jeunes qui, de ce fait, se persuaderont qu'ils appartiennent à une patrie possédant sa civilisation propre, son histoire et ses aspirations. C'est sur cette base que ces jeunes accepteront de s'intégrer en elle, se dévoueront et accepteront des sacrifices pour lui assurer la perennité.

Tout ceci ne s'accomplira que lorsque la tunisification aura été réalisée et établie au niveau des valeurs spirituelles et morales qui inspireront les jeunes dans leurs actions. Cependant, il est faux de croire que la tunisification se limite à prodiguer des cours d'éducation civique. Bien au contraire, ce sont toutes les disciplines de l'enseignement qui sont à revoir et à réformer radicalement de telle sorte qu'aussi bien les objectifs que l'esprit du système éducationnel puissent tendre à cimenter le lien entre les jeunes et leur patrie sans chauvinisme ni fantisme :

Ceci est valable pour l'enseignement de la langue arabe, l'Histoire, la Géographie, la Philosophie et même les langues étrangères. Il apparait paradoxal de revendiquer la tunisification des programmes d'arabe en réalité nous visons par là l'obligation de fournir aux élèves des textes extraits d'œuvres tunisiennes, se relevant au milieu tunisien, capables de susciter en eux là connaissance et l'amour de leur environnement et la fierté d'appartenir à leur peuple. Car, aussi bien au terme du cycle primaire et qu'à celui du secondaire ,dans les programmes actuels, rien ne prouve à l'élève tunisien que son pays a engendré des sommités en maintes sciences. A l'Université, il se retrouve spirituellement orphelin, atteint qu'il est de cette boulimie pour tout ce qui provient d'Occident ou d'Orient. Malgré ses hauts diplômes, il ne sera qu'un déraciné.

Quant à l'arabisation, c'est une nécessité inéluctable, l'arabe étant notre langue nationale. Ceci implique un audacieux effort pour arabiser des disciplines essentielles et principalement l'Histoire, la Géographie et la Philosophie. Il n'est pas superflu de rappeler que des matières comme la Morale, la Sociologie, la Psychologie la Pédagogie étaient, du temps de M. Lucien Paye, Directeur de l'Instruction Publique en Tunisie à l'époque du Protectorat, enseignées en arabe dans les Ecoles Normales d'Instituteurs, sans parler des Sciences Naturelles dans certaines classes du Collègue Sadiki. L'arabisation pourra s'accomplir suivant des étapes raisonnables dans le cadre d'une politique nationale énergique de formation des cadres. Il sera alors aisé de fixer un délai pour que l'Enseignement des Sciences Exactes se fasse en arabe en même temps que se forment les enseignants et les chercheurs d'un niveau honorable, au contact des dernières découvertes et techniques dans le monde, étant entendu que le Français en Primaire, et l'Anglais au Secondaire, doivent être enseignés comme langues étrangères.

En conclusion, si certaines données historiques humaines et pédagogiques ont freiné ou ralenti en Tunisie le rythme de l'arabisation de l'enseignement des sciences exactes, il s'avère impossible aujourd'hui, si nous tenons à être sincères avec nous mêmes et soucieux de l'honneur et de l'indépendance de notre patrie, d'hésiter dans le sens de la tunisification. Bien plus, il urge de la réaliser et d'en imprégner nos programmes dans les limites de la modération bien entendu et aussi de l'efficacité.

Le Professeur Mohamed El-Moubarek ajoute par ailleurs :

« L'Islam n'a jamais permis de voir des gens mourir de faim pendant que d'autres vivent dans le faste et la prospérité, car cela est en contradiction avec les objectifs de notre religion rapportés dans le Coran et dans la Sunna. N'est-il pas dit dans le Hadith que les Musulmans sont comparables à un seul et unique corps, si l'un de ses membres venait à se plaindre tout le reste du corps en serait malade ? ».

Enfin, un des compagnons du Prophète rapporte :

« Pendant que nous voyagions un jour avec le Prophète, un homme se présente sur son chameau et regarda à droite et à gauche, satisfait et embrassant du regard les voyageurs à pieds, le Prophète lui dit alors ; « Celui qui a plus d'une monture, qu'il la cède à celui qui n'en a pas et celui qui a un surplus de nourriture, qu'il le cède à celui qui n'en a pas.

« Il a continué à citer tant de choses qu'il faut partager que nous avons fini par penser qu'il allait interdire tout surplus ! ».

Tout ceci explique que le socialisme, dans son essence, existe depuis plus de 14 siècles. Il existe dans l'Islam qui est la religion de la justice, de l'équitté, de la solidarité, de la liberté d'action, de la stimulation dans l'effort, de la liberté d'initiative et de la compétition dans le bien.

Ces mêmes valeurs qui sont la force même de ce qu'on peut appeler à juste titre la société musulmane socialiste.

« Tels sont les points que j'ai essayé d'exposer, je ne pouvais être bref. Je vous remercie et vous souhaite plein succès dans vos travaux. ».

N° 02

فهـرس العـدد

مولد

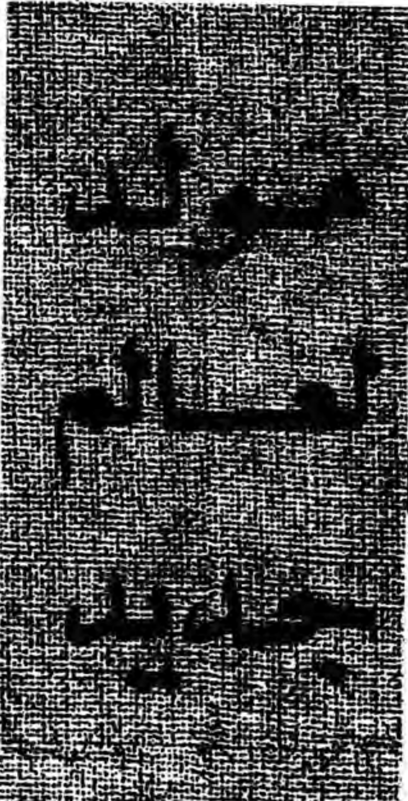
كَانَ الْعَالَمُ فِى عَصْرِ وِلاَدَةِ النَّبِىِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَالَماً مُتَدَاعِيًا ، شُوِّهَتْ عَقَائِدُهُ ، وَاخْتَلَّ نِظَامُهُ ، فَلَمْ يَعُدْ الإِنْسَانُ فِيهِ مُطْمَئِنًّا إِلَى ضَمِيرِهِ . كَمَا لَمْ يَعُدْ يَأْنَسُ إِلَى نِظَامِ دَوْلَةٍ تَعْدِلُ بَيْنَ النَّاسِ وَتُسَوِّى بَيْنَهُمْ أَمَامَ الْقَانُونِ ، وَتَحْمِى الْخُلُقَ ، وَتُحَافِظُ عَلَى كَرَامَةِ الْكَائِنِ الْبَشَرِىِّ . أَمَّا التَّوْحِيدُ فَقَدْ غَشِيَتْهُ غِشَاوَاتٌ، وَدَنَّسَتْ طُهْرَهُ ضَلاَلاَتٌ ، وَذَهَبَتْ بِصَفَائِهِ انْحِرَافَاتٌ ، وَأَصَابَهُ فِى صَمِيمِهِ تَشْوِيهٌ ، وَرَانَتْ عَلَيْهِ مَظَاهِرُ الشِّرْكِ ، وَأَوْضَارُ الْوَثَنِيَّةِ، وَأَوْهَامُ التَّشْبِيهِ الْغَلِيظِ ، وَالتَّجْسِيمَ الذَّمِيمَ ، وَأَضَافَتْ إِلَيْهِ الْعَقْلِيَّةُ الْوَثَنِيَّةُ الْحِسِّيَّةُ مَا أَضَافَتْ مِنْ صُنُوفِ الأَهْوَاءِ ، وَظُنُونِ الْكُهَّانِ، وَنَزَعَاتِ ذَوِى الأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ وَرَغَبَاتِ طَوَاغِيتِ الْكَهَنُوتِيَّةِ فَانْدَثَرَتْ حَقَائِقُ الدِّينِ وَشُوِّهَتْ بِالْمُجَادَلاَتِ الْمَذْهَبِيَّةِ وَالرُّسُومِ وَالأَوْضَاعِ الْمُنْحَرِفَةِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَتَدَاعَتْ مَعَالِمُ الْحَضَارَاتِ بِمَا أَنْهَكَ النَّاسَ مِنْ حُرُوبِ الرُّومَانِ وَالْفُرْسِ فَاشْتَغَلَتْ بِيزَنْطَةُ بِالْجَدَلِ الْعَقِيمِ ، وَغَرِقَتْ فَارِسُ الْمَجُوسِيَّةُ فِى الْفِتَنِ ، وَنَضَبَتْ فِيهَا بَوَاعِثُ الْحَيَاةِ ، وَمَدَدُ الْقُوَّةِ فَأَصْبَحَتْ أُمَّةً آيِلَةً إِلَى التَّدَاعِى وَالأُفُولِ (١) .

وَأَمَامَ هَذَا الْعَالَمِ الْمُتَدَاعِى الَّذِى كُتِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْقَضَّ جِدَارُهُ ، وَتَهْوِى صُرُوحُهُ ، أُمَّةٌ تَتَأَهَّبُ وَتَبْحَثُ عَنْ مَصِيرِهَا ، وَتَنْشُدُ وُجُودَهَا فِى عَالَمِ الْمُسْتَقْبَلِ قَدْ تَفَطَّنَ أَذْكِيَاؤُهَا إِلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنْ فَرَاغٍ ، وَمِنْ حَاجَةٍ إِلَى عَقِيدَةٍ صَحِيحَةٍ، وَإِلَى وَهَنِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ دِينٍ ، وَحَقَارَةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ وَثَنِيَّةٍ وَتَعَلُّقٍ بِالأَصْنَامِ ، فَقَالَ لَهُمْ : (وَاللَّهِ مَا قَوْمُكُمْ عَلَى شَىْءٍ وَإِنَّهُمْ لَفِى ضَلاَلٍ

---

(١) العقاد ، عبقرية محمد ط ٢ بيروت ١٩٦٨ ص ١٢٦ .

النبي



.. فَمَا حَجَرٌ نَطِيفُ بِهِ ، لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ ، وَلاَ يَضُرُّ وَلاَ يَنْفَعُ ، وَمِنْ فَوْقِهِ يَجْرِى دَمُ النُّحُورِ ، يَا قَوْمُ الْتَمِسُوا لَكُمْ دِيناً غَيْرَ هَذَا الدِّينِ الَّذِى أَنْتُمْ عَلَيْهِ) وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ الْعَالَمَ فِي تِلْكَ الْحِينِ كَانَ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَنْ يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ ، وَيَثُورُ عَلَى أَوْضَاعِهِ ، فَيَهْدِمُ مَا فَسَدَ وَيَبْنِى مَعَالِمَهُ التَّارِيخِيَّةَ الإِسْتِقْبَالِيَّةَ ، بِإِحْيَاءِ ضَمَائِرِ النَّاسِ ، وَإِرْسَاءِ الأَخْلاَقِيَّةِ الفَاضِلَةِ وَالْعَقْلاَنِيَّةِ الهَادِيَةِ ، وَالْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُبْدِعَةِ ، أَىْ إِنَّ الْعَالَمَ أَصْبَحَ فِي حَاجَةٍ إِلَى أَنْ يُولَدَ وِلاَدَةً جَدِيدَةً .

إِنَّ وِلاَدَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِعْلاَنٌ عَنْ طُلُوعِ فَجْرِ عَالَمٍ جَدِيدٍ ، وَعَنْ مَلاَمِحِ أُمَّةٍ تُخْرَجُ لِلنَّاسِ ، وَسِمَاتِ حَضَارَةٍ تُشْرِقُ بَيْنَهُمْ ، وَحَقَائِقِ تَارِيخٍ تَنْبَثِقُ مِنَ الصَّحْرَاءِ وَمِنْ ضَمِيرٍ إِنْسَانِيٍّ أَصِيلٍ ، يُوَجِّهُ السُّلُوكَ ، وَعَنْ رُوحٍ عَالَمِيَّةٍ شَامِلَةٍ تَكُونُ رَحْمَةً وَطُمَأْنِينَةً لِكُلِّ قَلْبٍ مُحَيَّرٍ ، قَلِقٍ ظَامِىءٍ .

وُلِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُسْرَةٍ وُسْطَى فَلاَ هِيَ مُتَوَفِّرَةٌ مُتَجَبِّرَةٌ ، وَلاَ هِيَ ضَعِيفَةٌ تَحْتَمِلُ الأَذَى وَتَصْبِرُ عَلَى الْكَرِيهَةِ ، إِنَّمَا هِيَ أُسْرَةٌ ذَاتُ نَسَبٍ عَرِيقٍ ، وَسَمَاحَةٍ وَتَقْوَى ، وَخُلُقٍ وَشَهَامَةٍ ، هِيَ بَيْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ شَيْبَةِ الْحَمْدِ مِنْ صَمِيمِ قُرَيْشٍ ، وَمِنْ بَيْنِ الْمُكَرَّمِينَ فِيهَا ، نَشَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَتِيمًا وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَالْيَتَامَى ، فَانْطَوَى

عَلَى التَّأَمُّلِ وَالنَّظَرِ فِى أَحْوَالِ قَوْمِهِ ، تَكَوَّنَ لِسَانُهُ بَيْنَ أَفْصَحِ الْأَلْسُنِ وَأَبْيَنِهَا ، وَتَرَبَّتْ سَلِيقَتُهُ بَيْنَ أَصْفَى السَّلَائِقِ وَأَجْمَلِهَا ، اخْتَبَرَ ضُرُوبًا مِنَ الْحَيَاةِ عَاشَ فِى الْبَادِيَةِ وَفِى الْمَدِينَةِ، رَعَى الْغَنَمَ ، وَاشْتَغَلَ بِمُعَامَلَةِ النَّاسِ فِى التِّجَارَةِ ، وَشَهِدَ الْمَوَاقِفَ الْحَاسِمَةَ فِى الْأَحْلَافِ وَالْحُرُوبِ ، عَرَفَ الْفُقَرَاءَ ، وَشَاهَدَ سَادَةَ قُرَيْشٍ وَأَثْرِيَاءَهَا ،وَعَلِمَ حَيَاتَهُمْ ، فَقِيرٌ ،ذُو صَبَاحَةٍ مُحَبَّبٌ إِلَى كُلِّ مَنْ رَآهُ ، عَرِيقُ النَّسَبِ لَكِنَّهُ ثَارَ عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، وَعَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ ضَلَالٍ فِى الْعَقِيدَةِ ، وَانْحِرَافٍ فِى التَّقْلِيدِ فَدَعَاهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ النُّورِ وَإِلَى مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ مِنْ حَقٍّ ، وَإِلَى نَبْذِ التَّقْلِيدِ ، وَاللُّجُوءِ إِلَى الْعَقْلِ ، وَإِلَى ضِيَاءِ الْفِكْرِ ، وَهِدَايَةِ الضَّمِيرِ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) .

إِنَّ مُحَمَّدًا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رَجُلٌ حَيٌّ مُفْعَمٌ بِدَوَافِعِ الْحَيَاةِ وَلَيْسَ نَاسِكًا هَزِيلًا مِنْ عُبَّادِ الصَّوَامِعِ الَّذِينَ كَبَتُوا كُلَّ مَا بَيْنَ جَوَانِحِهِمْ مِنْ مَشَاعِرِ الْحَيَاةِ وَأَمَاتُوهَا ، كَانَ عَابِدًا وَلَكِنَّهُ كَانَ مُفَكِّرًا ، وَكَانَ مُتَحَدِّثًا يَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ عَامِلًا ،يَغْمُرُ دُنْيَا النَّاسِ ، وَوَاقِعَهُمُ الْخَارِجِىَّ ، كَمَا يَغْمُرُ نُفُوسَهُمْ وَبَوَاطِنَهُمْ ، كَانَ إِذَا مَشَى يَمْشِى كَأَنَّهُ يَنْحَدِرُ مِنْ جَبَلٍ ، لِأَنَّهُ حَىُّ الْقَلْبِ ، قَوِىُّ النَّفْسِ ، فَحَرَكَاتُهُ حَرَكَاتٌ حَيَّةٌ قَوِيَّةٌ ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ بِجِسْمِهِ كُلِّهِ،يَرْكَبُ الْفَرَسَ فَيُرَوِّضُهُ وَيُدَاعِبُ بِالْمُسَابَقَةِ فِى الْجَرْىِ ، وَقَدْ دَاعَبَ عَائِشَةَ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَسَابَقَهَا وَهُوَ يُقَارِبُ السِّتِّينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَكَانَ يَمْزَحُ وَيَتَفَكَّهُ وَلَكِنَّهُ لَا يَخِلُّ بِحَقِّ الصِّدْقِ وَالْمُرُوءَةِ اقْتَرَنَتْ فِيهِ الْقُوَّةُ بِالنَّشَاطِ فَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ(٢) فِى أَخْلَاقِهِ وَسِمَاتِهِ وَسُلُوكِهِ كُلِّهِ ، إِنَّهُ زَاهِدٌ فِى حَيَاتِهِ لَمْ يَسْتَمْتِعْ بِطَيِّبَاتِهَا رَغْمَ وَفْرَتِهَا إِذَا شَاءَ ، فَلَمْ يَشْبَعْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مُتَوَالِيَةٍ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا : لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِى رَحْمَةً لَهُ ، مِمَّا أَرَى بِهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِى عَلَى بَطْنِهِ مِمَّا أَرَى بِهِ مِنَ الْجُوعِ ، وَأَقُولُ : (نَفْسِى لَكَ الْفِدَاءُ ، لَوْ تَبَلَّغْتَ مِنَ الدُّنْيَا بِقُوتِكَ فَيَقُولُ : يَا عَائِشَةُ مَالِى وَالدُّنْيَا إِخْوَانِى مِنْ أُولِى الْعَزْمِ، مِنَ الرُّسُلِ صَبَرُوا عَلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ هَذَا) وَقَالَتْ زَوْجُهُ أُمُّ سَلَمَى رَضِىَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَاصِفَةً بَيْتَ الرَّسُولِ لَيْلَةَ عُرْسِهَا : (فَإِذَا جَرَّةٌ فِيهَا شَىْءٌ مِنْ شَعِيرٍ،وَإِذَا رَحَى وَبُرْمَةٌ وَقِدْرٌ وَكَعْبٌ فَأَخَذْتُ ذَلِكَ الشَّعِيرَ فَطَحَنْتُهُ ثُمَّ عَصَدْتُهُ فِى الْبُرْمَةِ وَأَخَذْتُ الْكَعْبَ فَأَدَمْتُهُ فَكَانَ ذَلِكَ طَعَامُ

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَطَعَامَ أَهْلِهِ لَيلَةَ عُرْسِهِ) . لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ عَجْزٍ وَلاَ عَنْ كُرْهٍ لِطَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا تَبِـعَ بِذَلِكَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونَ قُدْوَةً ، مُرْتَفِعاً عَنِ الظُّنُونِ ، إِذْ لَـمْ يَكُنْ غَرَضُهُ حُظُوظَ الدُّنْيَا ، إِنَّمَا رَاحَةُ ضَمِيرِهِ وَقُوَّةُ الإِيمَانِ هُمَا غَايَتُهُ .

إِنَّ وِلاَدَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّـمَ ، كَانَتْ فَاصِلاً بَيْنَ عَالَمٍ ، وَعَالَمٍ ، بَيْنَ تَارِيخٍ ، وَتَارِيخٍ ، لَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَاتِحاً لِلْبُلْدَانِ بِمِقْدَارِ مَا كَانَ فَاتِحاً لِلْقُلُـوبِ وَلِلْعُقُولِ وَالضَّمَائِرِ .

وَقَدْ مَرَّ بِمَرْحَلَتَيْنِ مِـنَ الْوَعْيِ النَّبَـوِيِّ ، مَرْحَلَةٍ كَانَتْ لِلتَّهْيِئَةِ وَالْإِسْتِعْدَادِ ، وَمَرْحَلَـةٍ أُخْرَى أَعْقَبَتْهَا لِلتَّبْلِيغِ ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حِـينَ أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ وَابْتَدَأَهُ بِالنُّبُوَّةِ كَانَ إِذَا خَـرَجَ لِحَاجَةٍ أَبْعَدَ حَتَّى تَحْسِرُ عَنْهُ الْبُيُوتُ وَيُفْضِي إِلى شِعَابِ مَكَّةَ وَبُطُونِ أَوْدِيَتِهَا فَلاَ يَمُرُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَجَرٍ وَلاَ شَجَرٍ إِلاَّ قَالَ السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَـالَ فَيَلْتَفِتُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حَوْلَهُ وَعَـنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَخَلْفِهِ فَـلاَ يَرَى إِلاَّ الشَّجَـرَ وَالْحَجَرَ فَمَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَـذَلِكَ يَـرَى ، وَيَسْـمَـعُ مَـا شَـاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ . ثُمَّ جَاءَ جِبْرِيلُ بِمَا جَاءَهُ مِـنْ كَرَامَةِ اللَّهِ وَهُوَ بِحِرَاءَ فِي شَهْرِ رَمَضَـانَ .

(وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَحَبَّبَ اللَّـهُ إِلَيْهِ الْخَلْوَةَ فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِـنْ أَنْ يَخْلُوَ وَحْدَهُ) . وَهَكَـذَا فَإِنَّهُ لَمَّا بَلَغَ مَرْحَـلَةَ الْوَعْيِ الْكَامِلِ وَالنُّضُوجِ أَخَذَ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ الَّتِي امْتَلَأَتْ بِهَا نَفْسُهُ حَتَّى أَصْبَحَ يَشْعُرُ أَنَّهَا تُحَدِّثُهُ الْخَبَرَ ، وَأَصْبَحَ الْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ كُلُّـهُ نَاطِقاً بِهَا . وَجَاءَتْهُ الرِّسَالَةُ كَلِمَاتٍ حَيَّةً تَنْفُذُ إِلَى الْقُلُوبِ فَتَهُزُّهَا ، وَتَبْعَثُ فِيهَا الْحَـيَاةَ ، وَتَضَمَّنَتْ دَعْوَتُهُ جَانِبَيْنِ : جَانِباً رُوحِيًّا وَجَانِباً سِيَاسِيًّا يَتَمَثَّلُ فِي النِّظَـامِ وَفِي الْقَانُـونِ ، وَأَصْبَحَتْ دَعْوَتُهُ دَعْوَةً دِينِيَّةً سِيَاسِيَّةً فِي آنٍ وَاحِدٍ ، فَأَذْهَبَ الْغَوَاشِيَ الَّتِي غَشِيَتْ عَقِيدَةَ التَّوْحِيدِ وَشَوَّهَتْهَا ، وَأَوْضَـحَ الصِّلَةَ بَـيْنَ الْإِنْسَـانِ وَبَـيْنَ اللَّـهِ عَـلَى حَقِيقَتِهَـا ، وَبَـيْنَ اللَّـهِ وَبَـيْنَ الـرَّسُـولِ أَيْضًـا تِلْكَ الصِّلَةُ الَّتِي شُوِّهَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدِّيَانَاتِ ، فَغَلَتْ فِي النَّبِيِّ وَأَلَّهَتْهُ أَوْ شَبَّهَتْهُ بِإِلَهٍ أَوْ صَوَّرَتْ الْعَقِيدَةَ فِي صُورَةٍ قَوْمِيَّةٍ جِنْسِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ ، وَبَيَّنَ النَّبِيُّ نَبِيُّ الْإِسْلاَمِ أَنَّهُ مُكَمِّلٌ لِسِلْسِلَةِ النُّبُوَّةِ وَأَنَّهُ لاَ تَفْرِيقَ بَيْنَ الرُّسُـلِ ، وَأَنَّ الرِّسَالَـةَ رِسَالَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ مَصْدَرُهَا إِلَهِيٌّ . وَلَـمْ تَنْظُرْ الصَّحَابَةُ إِلَى النَّبِيِّ نَظْرَةَ تَأْلِيهٍ وَلاَ تَقْدِيـسٍ وَلَمْ تَعْتَبِرْهُ مَعْصُومًا فِي الرَّأْيِ فِيمَا عَدَا الْوَحْيِ، فَنَظَرَ هُوَ لِنَفْسِهِ نَظْرَةَ إِنْسَانٍ كَمَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ الصَّحَابَةُ أَيْضاً ، وَلَمْ يَزِدْ عَلَى الْإِنْسَانِ سِوَى أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ وَأَنَّهُ مِثَالٌ حَيٌّ عَظِيمُ الْخُلُـقِ

فإذا صدر عن رأيه لا عن وحي فالمسلمون غير ملزمين باتباعه ولا هو بملزم لهم بل قد يرجع إلى رأي أصحابه إن تبين له أنه على غير صواب وهو معرض للخطإ من حيث هو إنسان يرى ويفكر وهو يشارك المسلمين ولا يتميز عنهم في ظاهره في ملبسه ومطعمه ، وكان كثيرا ما يعمل بما يشير عليه أصحابه ويتحول عن رأيه الخاص كما وقع في غزوة الخندق وغزوة بدر (٣) . لم يكن يوم ولادة محمد صلى الله عليه وسلم يوم الإسلام لأن ميلاده لم يكن معجزة الإسلام كما تمثلنا ولذلك لم يؤرخ تاريخ الإسلام بمولده ، وإنما أرخ بهجرته وبيوم نجاة الدعوة وسيادتها وتمكنها في الأرض وفي النفوس ، في عالم كان في حاجة إلى عقيدة وإلى مسوغ يسوغ وجوده لأن الوجود وحده دون مسوغ لا غناء فيه ولا كفاية .

وإذا كنا اليوم نحتفل بذكرى مولده صلى الله عليه وسلم ، فإننا نحتفل بالمعاني الخوالد التي أتى بها لهذا العالم التي تصبح اليوم في بعض جوانبه مماثلا لما كان عليه في عصر النبي ، إذ أن العالم اليوم في حيرة وقلق وظمإ إلى عقيدة أو تصور جديد للكون وللإنسان يسوغ به وجوده ومكانته في هذا الكون الذي أضحى الإنسان فيه غريبا عن نفسه تقدم في علمه ، وتخلف في ضميره حقق انتصاراً عظيماً في سيطرته على عالم الطبيعة الخارجية ولكنه لم يستطع أن ينتصر في مجال طبيعته الإنسانية ولا أن ينفذ إلى حقائقها وعجز على السيطرة عليها والتحكم فيها فكان ضحية نفسه وضحية علمه .

ورسالة المسلم اليوم تدعوه لأن يحقق المعاني الإسلامية التي تبرر وجود الإنسان وتهدي ضميره وتذهب بقلق عقله وحيرة نفسه ولكن لا يجوز للمسلم اليوم بحال أن يعتقد أن هذه الرسالة سهلة .. بل إنها شاقة وعسيرة فلا نزعم أنه قادر على أعباء هذه الرسالة ببساطة وعلى بيانها للناس ! إن لم يبدأ هو أولا بتحقيقها في نفسه كأقوى ما يكون التحقيق وأشد ما يكون التعميق ، وأصفى ما يكون الفهم ، على أن يتخلص من التخلف وأن يخلق الشروط التي تؤهله للدعوة ، ولتحمل الرسالة لأن الظروف الحضارية في هذا العصر معقدة وصعبة فلا بد من التخلص من التخلف الذي سطا على الأمة الإسلامية ، وكان حجاباً كثيفاً بين الإسلام وبين الناس ، وأصبح المسلمون بحالتهم هذه من التخلف فتنة للناس في العالم، إذ تصوروا الإسلام على صورة المسلمين ، وألبسوه لباسهم فضلوا عن الحقيقة ، وما

(٣) عبد الرحمن بدوي الانسانية والوجودية في الفكر العربي بيروت ١٩٤٧ ص ١٤٣ — ١٦٠ .

كانوا مهتدين ، إذ كاد أن يستوى المسلم وغير المسلم فى الإنفصال عن الحقيقة القرآنية التى ليلها كنهارها فى نصاعتها وصفائها ووضوح منهجها .

إن الحضارة لا تقوم إلا على أساس من نظرة كونية تتضمن دوافع تدفع الحركة ، ونظرة أخلاقية متفائلة ، والإسلام يمثل تصورا للكون يتضمن دوافع للحركة وبواعث للعمل التاريخى ، كما يتضمن التفاؤل الذى يتمثل فى الأمل القوى فى القدرة على تغيير المجتمع والعالم ، فلم يكن التصور الإسلامى ينكر الحياة ولا العالم ، ولم يكن متشائما ، ولم يدع إلى إماتة الجسم واحتقار المادة كما يوجد ذلك فى بعض التصورات فى كثير من الأمم ، والحقيقة القرآنية تؤمن أن الأخلاق أسمى من الطبيعة ولهذا ترمى إلى السمو بالإنسان وبالعالم إلى مرتبة الكمال الحقيقى ، فالأخلاقية الإسلامية بذل متواصل للجهد من أجل تغيير العالم ، فهى أخلاقية فعالة ، وعلاقة المسلم بالحياة علاقة حية ، وغاية الأخلاقية الإسلامية تكميل الذات وتكميل الغير بالإيثار ، والتصور الإسلامى يؤكد الحياة ، ويدفع للنشاط الموجه إلى إصلاح أحوال المجتمع البشرى ، فهو نشاط موجه إلى الباطن وإلى الخارج أيضا .

ولذلك كانت عودة النبى صلى الله عليه وسلم من اعتكافه فى غار حراء عودة «مبدعة» شق بها طريقه فى موكب الزمان ، لتغيير معالم مجتمعه ، ولتوجيه التاريخ ، وإنشاء عالم من المثل جديد ، لأن الله أيقظ ما فى أعماقه من قوة تهز الكون هزا ، وتزلزل الأوضاع زلزالا فتغير العالم الإنسانى تغييرا تاما وحولته إلى قوة عالمية حية تحقق وجودها فى عالم الإنسان وفى عالم التاريخ .

وإن فى ختم النبوة نفسها فى الإسلام لمعنى عظيما ، فإن الله أراد أن يبين للإنسانية أنها بلغت مرحلة نضجها ، فأعلن أن النبوة بلغت كمالها الأخير ، ودعا الإنسان إلى أن يبنى أموره على العقل ، وأوضح له أن الأوان قد آن لختم النبوة نفسها ، بعد أن كملت وبلغت غايتها ، ومعنى ذلك أنه نبه الإنسان إلى أنه ينبغى له أن يدرك إدراكا عميقا وجوده ، وأنه أصبح من غير المجدى أن يبقى الوجود البشرى غير رشيد إلى الأبد ، معتمدا على مقود يقاد به ، وأنه لكى يبلغ الإنسان كماله وكمال معرفته لنفسه لابد أن يترك ليستخدم وسائله الخاصة التى نضجت ومن ثم أبطل الإسلام الرهبنة والكهنوت ووراثة الملك ودعا إلى نزعة حرة فى النقد والتمحيص وأنكر كل اتجاه أو زعم يزعم فيه صاحبه أن له سلطانا شخصيا خارقا للطبيعة (٤) لأن ذلك قد فات

(٤) اقبال ، تجديد التفكير الدينى فى الاسلام القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ — ١٤٥ .

أوانه في تاريخ البشرية ، فكان الإسلام ثورة عقلية ، وثورة أخلاقية ، أوكلت الإنسان إلى ضميره ، إلى فطرته ، إلى عقله ، بعد أن بينت له الأصول الأساسية والمبادىء الكلية التي استكملتها الحقيقة القرآنية .

وبذلك كان معنى النبوة في الإسلام معنى واضحا ليس فيه من الزاعم ولا من السحر ولا من الكهنوت ولا من الظلام شيء . فالنبي في الإسلام لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله ، وكان أقل كاهن في الأمم الأخرى يدعي لنفسه العلم بالغيوب .

قال الله تعالى : (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) . وقال (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ؟) . وقال أيضا (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) . إن المعجزة في نظر القرآن غير مجدية ولا مقنعة إن لم يقتنع العقل وأصر صاحبه على باطله (٥) . قال الله تعالى : (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) وقال (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين) إن الدعوة الإسلامية توجهت لهداية الضمير البشري وخاطبت الإنسان في وعيه وإدراكه واستبعدت كل حيلة وكل ما كان يصنع للتأثير على الناس ، فلا علاقة بين حوادث الفلك ، وحادثة موت أحد : إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد .. إن النبوة في الإسلام واضحة لا كهانة فيها ولا سحرا ولا أخيلة شعرية قال الله تعالى : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) .

ويكفي أن تكون الرسالة الإسلامية ، أعادت للإنسان كرامته ومكانته بعد أن تصوره الناس على أنه كائن حقير منغمس في الخطيئة ، متلبس بالإثم ، وارث له لاخلاص إلا بمحو ذاته ، والقضاء على طبيعته وتعذيب نفسه ، وأشعرت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، الإنسان بإنسانيته ، وأضاءت في قلبه نورها الداعية إلى الحق وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ، قد مات فإن رسالته خالدة لم تمت ولن تموت لأنها تخاطب الإنسان بما هو إنسان وتعطيه باستمرار تصورا للكون متفائلا ، فعالا مبدعا ، وتشق له طريق تغيير نفسه ، وتغيير من حوله من الأغيار والأشباه في العالم .

(أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ..

الذكرى المئوية
لثورة
١٨٧١

التنقيب عن التراث

وتطهير التاريخ من الأكاذيب



نص الكلمة التى القاها الاخ الدكتور بوعلام بن حمودة وزير العدل بقلعة بنى عباس يوم ١٠ ربيع الاول ١٣٩١ ه الموافق لـ ٥ مايو ١٩٧١ بمناسبة احياء الكرى المئوية لثورة ١٨٧١ ، واستشهاد المقرانى فى ١٤ صفر ١٢٨٨ ه الموافق لـ ٥ مايو ١٨٧١ .

بعد أن شكر أهالى مجانة والقلعة على احياء هذه المناسبة قال ان بمثل هذه التضحيات والمجهودات حطنا على استقلالنا السياسى ولكننا لم نقف فى هذا المكان بل مضينا لتحقيق الاستقلال الاقتصادى ، فشنت ثورتنا اكبر حرب على مخلفات الاستعمار حتى نتحصل على الاستقلال الاقتصادى ونرجع الى شخصيتنا العربية الاسلامية ، ويجب ان تستخلص العبر من مثل هذا الاجتماع ، فنحث طلبتنا على التنقيب على آثارنا والبحث على المخطوطات حتى يطهروا تاريخنا من كل الرواسب والاكاذيب ليخرج صافيا طاهرا لجيلنا الصاعد ، هذه هى العبرة الاولى ، أما الثانية فيجب أن نعقد العزم على الاعتناء بالطبقة الكادحة طبقة الفلاحين سكان الجبال الذين كانوا عماد جميع الثورات ، فيجب أن تشمل ثمرات الاستقلال هذه النواحى البعيدة الشاسعة حتى نكون أوفياء لشهدائنا الذين سقطوا عبر التاريخ ويجب كذلك أن نشمر على السواعد للقضاء على الفقر والمرض والجهل ، واخيرا رحم الله شهداءنا الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الوطن .

والسلام عليكم ورحمة الله

معزى الاحتفال بذكرى أمجادنا

نص الكلمة التى ارتجلها الاخ مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، فى قلعة بنى عباس يوم الاربعاء الموافق من ربيع الاول ١٣٩١ ٥ مايو ١٩٧١ ، بمناسبة الذكرى المائوية لثورة ١٨٧١ واستشهاد المقرانى ، (وهى تكملة لما كان قد قاله فى كل من صدوق ومجانة فى نفس الاطار) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ الوزير الدكتور ابن حمودة ، حضرات السادة .

بودى اولا فى بدء هذه الكلمة ان اعيد ما قلته قبل فى صدوق وصباح اليوم فى مجانة من ضرورة تقديم الشكر لهذه البلديات وطبعا جميع السلطات العسكرية والمدنية فى هذه الولاية ، لهذه البادرة التى اتخذت لاحياء ذكرى أمجادنا ، لاننا باحياء ذكرى امجادنا نستحق الحياة بالسير على دربهم ومواصلة عملهم .

وان احياء مثل هذه المآثر ، احياء هذا التراث ، احياء هذه الامجاد ، لضرورة قصوى ، وخصوصا ان تاريخنا قد تعرض منذ حقب طويلة منذ دخول الغزو الاستعمارى للتشويه والمسخ ، ولهذا لابد لنا اليوم ونحن قد استرجعنا استقلالنا الان منذ ما يقرب من عشر سنوات ان نشمر عن ساعد الجد وندخل الاكسيجين والهواء على امخاخنا لنطرد ذباب الكسل الذى تعشش فيها حتى نزيح الستار عن تاريخنا لنظهره فى ثوبه الطاهر ، فى ثوبه المجيد ، كما كان وكما تركه لنا امجادنا الاسلاف .

وان ما سنجده فى السنوات المقبلة وفى هذه السنة بالخصوص من احياء ذكريات عديدة ، لما يفسح لنا المجال لنؤدى هذا الدور ونقوم بهذا الواجب ، ففى هذه السنة مثلا التى هى سنة احياء ذكرى ثورة ٧١ والتى احييناها يوم ٨ ابريل فى صدوق بمناسبة اعلانها فى سوق صدوق من طرف الشيخ الحداد ، ونحتفل بها اليوم ، احتفلنا بها صباح اليوم فى مجانة فى دار المقرانى ، قائد هذه الثورة ، احد ابطال هذه الثورة ، ولكن المحرك الاساسى فى الواقع لهذه الثورة ، اقول فى هذا كله ما يفسح لنا المجال لاداء هذا الواجب !

واذا ما رجعنا الى كتابة تاريخنا ، لوجدنا ان علينا عبئا ثقيلا جدا ، عبئا جسيما ، واذا لم نقم به فسنكون مسؤولين امام التـاريخ ،مسؤولية عظمى ، وسيكون ذلك اجراما منا ، فالفرنسيون ــ ولسنا نلـومهم على ذلك فهم كانوا معنيين بالدرجة الاولى فى هذا المجال ، اذ كانوا يحتاجون الى تبـرير استعمارهم ، فمن المعقول جدا طبعا أن يشـوهوا تاريخنا وأن يبـرروا استعمـارهم للبلاد ، بان هذه البلاد لم يكن لها تاريخ ، لم تكن لها امجاد ، لم يكن لها وجود تاريخى كدولـة ، وكامة ، وكشعب ، فطبعا كان معقولا جدا من طرفهم ان يحاولوا مسخ هذا التاريخ ،.ولكنـه ليس من المعقول من طرفنا أبدا أن نبقى متمسكين بالكسل ، وأن نتهاون فى تصحيح الوضع ، فى تصحيح تاريخنا ، وابراز تلك المآثر وتلـك الامجاد ، لتربية شبـابنا وجيلنا الصاعد ، وأمانة للاجيال المقبلـة ، التى ستلومنا لوما مريرا على تقصيرنا اذا لم نقم بهذا الواجب .

فثورة ١٨٧١ لم تكن فى الواقع الا حلقة فى سلسلة محكمة الحلقات ، فى سلسلة طويلة جدا بدأت فى سنـة ١٨٣٠ ، بـدأت فى اليوم الذى غزا فيـه الاستعمار الفرنسى بلادنا ! فمباشرة قام ذلك البطل العظيم عبد القادر فى سن مبكرة جدا واشعلها ثورة فوارة على الاستعمار شملت البلاد واقامت نواة دولـة حديثة ، واثناء هذه الثـورة وفى تلـك الايام قامت ثورات اخرى وان لم تكن منظمة مدبرة فى نفس النسق ومحكمة ومربوطة ، كثـورة مدينة قسنطينة ، قلعة المجد ، قلعة الكفاح ، قلعة الصراع ، قلعة الاصـالة الجزائرية ، قسنطينة ! وكانت بقيادة احمد باى الذى هو من سلالة العمرانى ، دامت سبع سنوات واثناء تلك الايام من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٣٧ ، كتب أحمد باى باسم سكان مدينة قسنطينة رسالـة الى الجيش الفـرنسى وهو محاصر للمدينة تحت قيادة لاموريسيير ودون ريمون وغيرهما يقول فيها من جملة ما يقول : « من سكان مدينـة قسنطينة المحافظـة على دينها وشرفها الى الجيش الفرنسى المعتدى على حقوق غيره » ، والى ان يقول فى آخر الرسالة ــ ونص الرسالة موجود بكامله فى كتاب أمين سعيد المـؤلف المـصرى تحـت عنـوان ــ « الاستعمـار الفـرنسى والايطـالى لشمال افريقية » اقول الى ان يقول : « فاعلموا ان الموت تحت جدران مدينتنا اشرف لنا من الحياة تحت علم فرنسا » ... الخ !

ولم تنته مقاومة الشعب الجـزائرى تحت قيادة الامير عبد القـادر التى كـانت منظمة ومنسقة بخلفاء له فى سائر المقاطعات نستطيع ان نقول انهم كانوا قواد حرب وكانوا ولاة ، كانوا يحملون اسم الخليفة ، منهم مثلا احد سنذكره فى اطار ثـورة ٧١ فى سياق آخر ، اقول لم تنته تلك المقاومة التى دامت اكثر من ١٥ سنة حتى قامت ثـورة ابى معزة فى هذه الجبال وقامت ثورة ابى بغلة كذلك فى سنوات ٥٦ ــ ١٨٥٧ شملت اجزاء كثيرة من البلاد من سطيف فى شرق البلاد الى الظهرة واجزاء اخرى كثيرة من غـرب البلاد ، وقامت ثورة ٥٦ ــ ١٨٥٧ فى جبـال جرجـرة تحت قيادة السيدة فاطمة نسومر ، السيدة اقول السيدة بحق ، قامت تلك الثورة ضد جيش الجنرال روندون الـذى اصـبح فيما بعد المـاريشال روندون ، وغيره من قـواد الاستعمار ، ولم تنته تلك الثور ةالا وقامت ثورة اولاد سيدى الشيخ فى الصحراء الوهرانيـة فى سنة ٦٤ ودامت تلك الثورة كثيرا جدا دامت حتى بعد سنة ١٨٨٠ .

وفى سنة ١٨٧٠ عند قيام الحرب الفرنسية والالمانية بدأ الجزائريون يشعرون بان الفرصة قد حانت لاستئناف القتال وان كان القتال لم يقف ابدا طوال هذه المدة كما قال الاخوان من قبلى ، واكبر دليل على ذلـك دائرة المعارف الاستعمارية الفرنسيـة ، التى تقـول حرفا ومعنى بان مقاومة الشعب الجزائرى المسلحة دامت ٨٠ سنة من ١٨٣٠ الى ١٩١٠ م .

وسنرى فيما بعد انـــه كانت هناك ثورات مسلحة اخرى حتى بعـــد ١٩١٠ ، قبل فاتح نوفمبر ، اقول انه عندما شعروا أن الـــوقت قد حان وهذا يبدو واضحا فى رسائل المقرانى ورسائل الشيخ عزيز ابن الشيخ الحداد الى كثير من مناطق الجزائر من أن الوقت قد حان وأن فرنسا الان فى وحلة كما نقول ، ولابد من استئناف الكفاح لتحرير البلاد ، وكان هذا فى آخر سنة ١٨٧٠ .



محمد بن تومى المعروف بناصر بن شهرة

وكان هناك بوشوشة فى الصحراء جنوب الاغواط ، وكـــان هنـــاك ناصر بن شهرة فى الصحراء كذلك قد بدآ ينظمان فى نفس الوقت الذى كان فيه بومزراق والمقرانى ينظمان فى الشما ل، وكان الابن الثانى للامير عبد القادر محيى الدين قد جـــاء من دمشق ، راى هو ايضا أن الفرصة قد حانت ، الفرنسيون يدعون بأنه جاء بغير علم ابيه ، وأن اباه قد وبخه على ذلك ، ولكن احد مؤرخينا ، وهو الساحلى ،كتب فى كتابه الاخير الذى نشر منذ ٣ سنوات او ٤ بأن هذا ليس صحيحا وان هذا لا يمكن أبدا ولا يمكن ان يلوم الامير عبد القادر ابنه الثانى محيى الدين عن استئناف القتـــال ،وانظم محيى الدين الى بوشوشة وناصر بن شهر فى الصحراء .

وفى هذا الوقت بدا المقرانى يتصل باصدقائه وخاصة الشيخ الحداد فزاره يوم ٨ ينـــاير سرا فى صدوق وتبادل معه النظر فى ضرورة قيام الجهاد ، وفى ١٤ مارس من نفس السنة ١٨٧١ اجتمعت عائلة المقرانى كلها فى مجانة فى الدار التى زرناها صباح اليوم وقرروا اعلان الجهاد فى نفس الليلة واعلن المقرانى الجهاد بطريقة ماخـــوذة من الاســـلام بعدم مباغتة العدو عند اعلان الجهاد ، وكذلك حســب مبادىء الامم المتحدة ، كما ذكر لى ذلك الدكتور بوعلام بن حمودة صباح اليوم ، التى تـــؤكد قوانينها على ضرورة اعـــلان الحرب للعدو وعدم مباغتتـــه ، وهذا ما فعلــه المقرانى فى رسالة رسمية ارسلها الى الحاكم العام فى ذلك الوقت ، الى الجنرال الفرنسى فى العاصمة ،يعلن الحرب ويقول له رسميا ، النص موجود فى الكتب الفرنسيـــة : (اعلموا أننا فى هذا اليوم قد اعلنا الجهـــاد عليـــكم وضدكم وغدا يبتدىء الجهاد) وبعث كذلـــك بتسليمـــه من وظيفته كباش آغا ، ورد الحوالة التى بعثتها له فرنسا كذلك مع هذه البرقية ، وفى اليوم التالى ، يوم ١٥ هاجم برج بوعريريج واحتلها ومن هناك انطلقت ، ولكـــن كان يحتـــاج الى مساندة معنوية ولذلك اتجه الى صدوق بعد مراسلات بينه وبين الشيخ الحداد ، واتصل بالشيخ عزيز وبالشـــيخ الحـــداد نفســـه فى صدوق ، وفى يوم ٨ ابريل ١٨٧١ اعلنها الشيخ الحداد وهو قد تجـــاوز الثمانين من عمره ، اعلنها فى سوق صدوق والقى بعصاه بعد صلاة الجمعة وبعد الذكر فى وسط الجمهور ، وقال

سنرمى بالفرنسيين الى البحر كما رميت آناهذه العصا الى الارض ، وتقول المصادر الفرنسية انه فى يوم ٩ ابريل وصلت الثورة الى باتنة شرقا ودلس غربا .

وبعد ايام قليلة امتدت الى اغلب نواحى البلاد ، وفى اليوم الذى القى عليه القبض وهو قد تجاوز الثمانين كماقلنا وكان مشلولا ومحمولا على نعش ، فى نواحى بجاية ، ظن الفرنسيون ان الثورة قد انتهت ، ولكن ابنيه الشيخ عزيز ومحمد واصلا كفاحهما الى ان القى القبض عليهما بدورهما ، ولكن المقرانى القائد العسكرى والقائد السياسى كان يمد خطوطه الى جميع انحاء البلاد ، وبدات الثورة تنتظم وتشتعل عسكريا وسياسيا ، وكان ما هو موجود فى ثورتنا الاخيرة من المحافظين السياسيين موجودا فى وقته وهم المقدمون فى نظام الشيخ الحداد ، وهم عناصر سياسية ، فكانوا يقومون بالتنظيم وبالتوعية السياسية، وكان بومزراق اعظم من شقيقه المقرانى فى القيادة العسكرية كما تقول الكتب الفرنسية، وقد استشهد المقرانى يوم ٥ مايو ١٨٧١ فى مثل هذا اليوم منذ قرن فى سوفلات قرب عين بسام ، واستمر اخوه بومزراق .

وفى اليوم الذى القى فيه القبض على الشيخ الحداد يوم ١٣ يوليو ١٨٧١ فى نواحى بجاية كما قلت،وفى الوقت الذى استمر فيه بومزراق فى كفاحه وامده الى الجنوب ونظم ذلك مع بوشوشة وناصر بن شهرة فى الصحراء جنوب الاغواط ، اعلنها مالك البركانى فى اليوم نفسه الذى القى فيه القبض على الشيخ الحداد وهو ١٣ يوليو — وهو ابن اخ عيسى البركانى ، احد خلفاء الامير عبد القادر — ،اقول ان مالكا البركانى اعلنها فى سوق الحد بضواحى شرشال وجبال بنى مناصر فى ولاية الاصنام بنفس الطريقة التى اعلنها من قبل الشيخ الحداد ، باسم الجهاد ، وفى الوقت الذى كان فيه مالك البركانى الذى اشار اليه الاخ فى القصيدة يقود الكفاح فى جبال بنى مناصر والظهرة كان هناك آخرون يسيرونه فى الشمال ، مثل الشيخ الصدقاوى فى جبال جرجرة ، وكان شيخا فى زاوية ودريس ، فى هذا الوقت كان بومزراق يسير النضال فى الجنوب ابتداء من الاغواط مع ناصر بن شهرة وبوشوشة ، ولما استشهد مالك البركانى فى بنى مناصر استمر اخوه ابراهيم البركانى حتى استشهد كذلك فاستمر ابنه ، اى ابن مالك ، حتى اسر ، وذلك فى سنة ١٨٧١ ، وحتى عندما هدا الحال بالنسبة للاستعمار فى الشمال ، استمر الكفاح فى الجنوب الى ان اسر بومزراق قرب عين صالح وهو مغمى عليه ، واستطاع ناصر بن شهرة الاختفاء فى الصحراء الى ان دخل الى تونس ، ومن هناك الى سوريا .

واذا كان المقرانى قد استشهد ، والشيخ الحداد وابناه عزيز ومحمد قد اسروا فى سنة ١٨٧١ ، فان بومرزاق لم ياسر الا فى اواخر ١٨٧٢ ، ولم ينته الجهاد بذلك ، لان بوشبوشة استمر فى كفاحه حتى سنة ١٨٧٤ حيث أسر جريحا .

ومن هنا نرى هذه الثورة قد بدات اول مابدات فى اواخر سنة ١٨٧٠ بالمناوشات ، وبدا التنظيم ، واشتعل وطيسها كما ينبغى فى ربيع ١٨٧١ ، واستمرت حتى آخر ١٨٧٤ . هذه هى الثورة التى تسمى ثورة ١٨٧١ ، ولكن فى نفس الوقت كان آخرون كذلك يناضلون ،

كان اولاد سيدى الشيخ فى الصحراء الوهرانية يستمرون فى الكفاح الذى بداوه فى سنة ١٨٦٤ ولم يقف ، وقوى وطيس تلك الثورة خاصة فى سنة ١٨٨١ تحت قيادة ابى عمامة من اولاد سيدى الشيخ ، واستمر الكفاح مدة طويلة ووصلت جيوش ابى عمـامة حتى المـدية ، وضواحى العاصمة ، وحتى لما انطفات ثورة ابى عمامة واولاد سيدى الشيخ ، كان آخرون فى الصحـراء ينظمون هنا وهناك ، والكتب الفرنسية تشهد بان تـوات لم تحتل الا سنة ١٩٠٠ ، والثورة مستمـرة هنا وهناك ولم تخمد ابـدا .

ولما خمدت ثـورة اولاد سيدى الشيخ ، وثورة توات وعين صالح فى سنـة ١٩٠٠ ، واصل الطوارق الكفاح فى الهوقار تحت قيادة الشيخ آمـود حتى سنة ١٩١٢ . واستمرت حتى عندما التجا الشيخ آمود الى ليبيـا ، فى الهوقار وفى نواح اخرى من الجزائر ، وفى سنة ١٩١٦ قامت ثورة اخرى مسلحة فى عين توتة بولاية الاوراس ، ثم حوادث ١٩٤٥ ، الى ان جاءت ثورة اول نوفمبر ١٩٥٤ ، وكانت الثورة التى نعرفها كلنا والتى عشناها وكان لنا الشرف العظيم لحياة هذه الثورة التى استشهد فيها ما نعرفه كلنا من اكثر من مليون ونصف من خيرة ابناء هذه البلاد ، واستشهد فيهـا ابطال عظام ، وفى الوقت الذى نحتفل فيه فى ولاية سطيف بثورة ٧١ واستشهاد المقرانى يوم ٥ ماى ٧١ ، تحتفل ولاية المدية بالذكرى الثانية عشرة لاستشهاد محمد بوقرة فى ثورة فاتح نوفمبر ١٩٥٤ .

ربما اطلت كثيرا عليكم ايها الاخوان ، لكن هذا فقط لاعود لكلمة اخيرة هى المقصودة والتى اشرت اليها فى بدء هذا الحديث ، وهو ضرورة العناية بتاريخنا ، ولابد من اعادة النظر فى كتابة تاريخنا ، ولابد من مراجعة مصادرنا ، ولابد من جمع تراثنـا اينمـا كان ، وفى هذا السياق أود أن أعود فاشير الى البوادر التى اتخذت فى صدوق ، وفى مجانة ، وفى اغيل على ، والمدية ، وغيرها ، لاحياء هذه المناسبات ، فليكن هناك سباق ومنافسات ايجـابية بين مختلف مؤسساتنا وخاصة البلديات وقسمات الحزب ، ليكن هناك تنافس بين مختلف جهات البلاد فى احياء هذا التراث ، فلنتخذ البوادر محليا ، فمثلا كما احتفلت صدوق بالامس ، وكما احتفلت مجانة واغيل على اليوم ، وكما تحتفل المدية اليوم ، لابد لبنى مناصر وسوق الحد ان تحتفل يوم ١٣ يوليو بالذكرى المائوية لثـورة ١٨٧١ هناك ، ولابد للصحـراء من الاغواط الى ورقلة وحتى عين صالح من احياء امتداد هذه الثورة الى هناك ، ولابد للصحراء الوهرانية ان تحيى ثورة اولاد سيدى الشيخ وابي عمامة ، ولابد للاوراس وعين توتة ان تحيى ذكرى ثورة ١٩١٦ ، ولابد لتامنراست ان تحيى ذكرى ثورة الشيخ آمـود ، الخ .. ولابد لنا من احياء ذكرى مرور قرن على وفاة الامير عبد القادر سنة ١٨٨٣ ، ان عشنا الى ذلك الوقت ، ولابد قبل ذلك ان نحيى فى السنة المقبلة كما ينبغى وذلك بالمؤلفـات وبالكتب الفنيـة والادبية والتـاريخية وبالموسيقـى واللوحات الزيتية وبكـل شىء ، الذكـرى العاشرة لاستعادة استقلالنا ، ولابد كذلك ان نحيى الذكرى الالفية لتاسيس العاصمة والمدية ومليانة ، فى السنة المقبلة ان شاء اللـه .

والسلام عليكم

انتفاضة ١٨٧١

مقاومة شعب

يحركه الإيمان



محفوظ قداش

هناك كتابات كثيرة تمجد الذكرى المائوية لانتفاضة ١٨٧١ . وقد لمع فى هذه الحركة كل من الشيخ الحداد والمقرانى اللذين كان لهما الشرف بحمل علم الانتفاضة وبأن يكونا رمز المقاومة الجزائرية . وهناك أسماء كثيرة لمقاومين أماجد مجهولين . ولا بد من تدبيج صفحات طويلة لاعطاء شعب الفلاحين الصغير والاخوان ومآت الآلاف من المكافحين المكانة التى يستحقونها بين شهداء هذه الانتفاضة . وذلك لا بد ان يقود الى اعادة النظر فى تأكيدات المدافعين عن الاستعمار والمجدين له ، الذين كانوا يعتبرون انتفاضة ١٨٧١ تمردا محليا سببه معارضة المسلمين لليهود بعد حصول هؤلاء على حق المواطنية الفرنسية ، وأثارته مناورات المكاتب العربية (الادارة العسكرية الفرنسية) ، وانه يرجع بالاساس الى اطماع الزعماء الاهليين الكبار »

وقد كتب السيد رين فى مقدمة لكتابه ان « انتفاضة ١٨٧١ بالجزائر ، لم تكن تمرد المضطهد (بفتح الهاء) ضد المضطهد (بكسرها) ، ولا مطالبة بوطنية ولا حربادينية أو عرقية .. ولقد قام الباشاغا الحاج محمد بن الحاج أحمد المقرانى وحده باثارة هذا التمرد الضخم . وهو الذى دفع السكان الذين كانوا يخضعون منذ قرون لنفوذ عائلته ، وكذلك السكان الخاضعين لتأثير العمل السياسى والدينى لاخوان الرحمانية ، وحصل على تحالفهم واستطاع ان يجند الشيخ الحداد ابن شيخ الطريقة عن طريق تأجيج اطماعه .. أما نبلاء مجانة وشيوخ صدوق فانهم لم يحاربوا الا للمحافظة على نظام الامتيازات والظلم اللذين كانا مفروضين على الفقراء والمستضعفين المجندين تحت الويتهم . وكما حدث مع جماعات « **البريتون** » و « الفانديين » فان هؤلاء البؤساء ، سواء كانوا عربا أو قبائليين ، قتلوا فى قضية لم تكن قضيتهم . »

وقد ذكرت صحافة الكولون الصادرة فى ذلك الوقت ان المكاتب العربية (أى الادارة العسكرية الفرنسية) وشيوخ الاهالى تحالفوا للدفاع ، بأى ثمن ، عن امتيازاتهم وسلطتهم واستغلالهم »

ان احياء واكاد اقول عبادة المراحل الكبرى من تاريخنا ، وعام ١٨٧١ واحد منها ، يفرض علينا ان نعيد النظر بدقة فيها جميعا ، وذلك فى نطاق المراجعة الضرورية لتاريخنا الذى شوهته الروح الاستعمارية ، ولا بد أولا من الاشارة الى ان الامر لا يتعلق بتمرد فى احد أجزاء بلاد القبائل ، وانما هى حركة عامة تندرج فى خط المقاومة العسكرية التى انطلقت من عام ١٨٣٠ حتى نهاية القرن التاسع عشر .. وذلك ان استسلام عبد القادر ، وبن سالم والباى احمد ، وهزيمة شرفاء القبائل، والصعوبات التى واجهها محاربوا أولا سيدى الشيخ ، والاوراس والاغواط وتوقرت والشعانبة، لم تضع للمقاومة الجزائرية . ان نهاية معركة ما ، لم تكن تعنى ابدا الاستسلام . وقد عرفت الجزائر فى سنة ١٨٧١ اكثر واشمل تمرد عاشته قبل حرب تحرير ١٩٥٤ . وبدا التمرد بالهجوم على سوق اهراس من طرف المقاتلين المنتمين الى قبيلة الحنانشة بقيادة الشيخ

الكبوتى (يناير ١٨٧١) . ثم بعد ذلك حدثت انتفاضة قبيلة اولا عيدون فى الشمال القسنطينى (فبراير) ، تلتها النمامشة واولاد عبيد استجابة لنداء محى الدين بن عبد القادر الذى قدم من تونس بناء على «اوامر السلطان»، لقيادة الانتفاضة ، والذى ذكر فى نداء قرء فى الجوامع ان « **ساعة الخلاص قد دقت** » . وقد تم حصار مدينة تبسة . وفى الجنوب قام الشعانبة الذين كان يتزعمهم بوشوشة بالاستيلاء على مدينة ورقلة (مارس ١٨٧١) . وفى الرابع عشر من نفس الشهر عقدت عائلة المقرانى مجلسا حربيا فى مجانة قررت بعده الانتقال الى الهجوم وقامت بمحاصرة برج بوعريريج . وفى نفس اليوم شنت قبائل هاشم هجوما عاما بزعامة احمد بومزراق المقرانى . وفى ١٨ ابريل وجه الشيخ الحداد من صدوق نداءه الى الجهاد . وقد استجابت له كل القبائل من المتيجة الى سكيكدة. وتعرضت جميع المراكز الفرنسية فى بلاد القبائل الى هجومات منظمة . وهاجمت جماعات أخرى كلا من باتنة وسطيف . وهددت قبائل بنى مناصر طريق السكة الحديدية الرابطة بين وهران والجزائر . اما فى القطاع الوهرانى فقد استأنفت قبائل اولاد سيدى الشيخ القتال . وقاد الوطنيون الجزائريون اكثر من ٣٥٠ معركة فى أراضى كانت تمتد فى الناحية القسنطينية من بلاد القبائل الى توقرت وورقلة ، وفى منطقة الجزائر من المتيجة الى شرشال ، وفى القطاع الوهرانى كانت تشمل كل المناطق الصحراوية . واذا كانت الانتفاضة قد وصلت الى اوجها عام ١٨٧١ ، فانها قد بدات كما راينا قبل شهر ابريل ١٨٧١ بكثير ، واستمرت طويلا بعد اعتقال بومزراق الذى سقط مغميا عليه من فرط التعب فى الصحراء (٥ يناير ١٨٧٢) . وقد التقطت الشعلة جماعات متفرقة من الانصار وبخاصة بوشوشة حتى عام ١٨٧٤، ثم رفاقه الذين نجحوا فى السيطرة على الصحراء الشرقية من عام ١٨٧٤ الى عام ١٨٨٣ . وقد قاوموا حتى آخر واحد منهم واستشهدوا جميعا فى المعركة .

واذن فنحن بعيدون من أن نكون أمام تمرد محلى أو واقعة معزولة . لقد كانت الانتفاضة هبة عامة لجميع القبائل . وحيثما كانت الظروف كان الجزائريون يتسلحون ويتكتلون . وقد كان الشعب الجزائرى مصابا بـ « **حمى التمرد** » على حد تعبير الجنرال بيجو . وارتفعت الحرارة بصورة استثنائية فى سنة ١٨٧١ ، كما حدث فى السنوات السابقة بين أعوام ١٨٣٩ مع عبد القادر ، و١٨٤٥ مع بومعزة ، و١٨٥٧ مع شرفاء القبائل و١٨٦٤ مع أولاد سيدى الشيخ .

فما هى الاسباب الحقيقية التى تفسر ارتفاع حمى الانتفاضات عام ١٨٧١ ؟ انها ليست على كل حال الاسباب التى قدمها مؤرخوا العهد الاستعمارى . فالواقع أن المسلمين لم يتمردوا لانهم ضد اليهود . ان الرسائل التى وجهها المقرانى الى القبائل يدعوها الى التمرد لا تتضمن كلمة واحدة عن تجنيس اليهود . كذلك فان القائد بومزراق لم يتحدث عن اليهود وهو يدعو الجزائريين الى حمل السلاح . ان المسلمين لم يهانوا اطلاقا بسبب رفع اليهود الى مستوى المواطنين ، لانهم لم يكونوا يشعرون أن المواطنية الفرنسية يمكن أن تزيد من كرامتهم . وقد برهنوا على ذلك برفضهم لطلب التجنس الفردى . وقد ذكر اعيان قسنطينة لوجهاء الطائفة اليهودية فيها أن « مرسوم كريمية لم يثر الغضب ولا الحسد لدى المسلمين » . ومن المفيد أن نشير الى انه لا وجود لليهود فى المناطق الثائرة ولا سيما فى بلاد القبائل . ونشير كذلك الى أن مسؤولين فرنسيين من امثال قائد حامية قسنطينة ذكروا أن « مرسوم تجنيس اليهود لم يكن هو السبب المباشر لانتفاضة ١٨٧١ . وكان المسيو « **لوسيه** » الوالى الفرنسى لمدينة قسنطينة قد طرح سؤالا على رؤساء الانتفاضة حينما قدموا لمحكمة الجنايات فأجابوا كلهم بان « تجنيس اليهود لم يكن له دخل فى اثارة التمرد » . يضاف الى ذلك ان كثيرا من الثوار اختاروا محامين من اليهود للدفاع عنهم وهو أمر لم يكونوا يقدمون عليه لو انهم حملوا السلاح ضد اليهود . والذين يقولون بأن تجنيس اليهود كان الباعث على الثورة يعتمدون على التصريح التالى للمقرانى :

« لن اطيع يهوديا على الاطلاق . واذا وقعت ارضكم بين أيدى يهودى فقد انتهى كل شىء انا

اقبل ان اضع نفسى تحت سيف حتى ولو قطع راسى ، ولن ارضى اطلاقا ان اخضع ليهودى . انا اقبل ان اطيع جنديا ولكنى لا انحنى أمام يهودى او مركانتى » . ويجب ان نشير هنا ان عبارة اليهودى تعنى عند المقرانى ، المدنى الذى يمثل الحكومة الفرنسية ، وان كلمة « مركانتى » تعنى التاجر ، اى الكولون . وهكذا ، فان الانتفاضة لم تكن انفجارا عنصريا ضد اليهود . وبالعكس ، وهذا ما يؤكده عدة شهود من تلك الفترة ، فان الثوار كانوا يعتقدون أن مرسوما شبيها بذلك الذى الغى الوضع القانونى الخاص لليهود ، يمكن أن يصدر فى حق المسلمين ويفرض على الجزائريين مواطنية لا يريدونها . وليس صحيحا كذلك الادعاء القائل بأن الانتفاضة من صنع مطامع المقرانى وعزيز بن الشيخ الحداد ، الذين زعم انهما كانا يدافعان عن امتيازاتهما فقط . ولا شك ان نفوذ الرؤوس كان قويا ، لكن ما لا ينبغى ان ننساه هو أن المبادرة والضغط جاءا من الجماهير الشعبية ، وأن العمل الشعبى فى حالات كثيرة هو الذى دفع القادة الى الخروج من التردد . لقد كان التمرد موجودا قبل اعلان الحرب من طرف الرؤساء ، وقد استمر بعد موتهم او اعتقالهم . وفى سنة ١٨٧٠ ، وفيما كان بعض الرؤساء يبعثون برسائل التأييد الى نابليون الثالث ، قامت مبادرات شعبية بتنظيم اغتيالات وبتخريب خطوط التلغراف ، ونظم التلاميذ الاضراب ، واسست مجالس شعبية تقوم بمراقبة القادة وشراء الاسلحة . وقد اضطر القياد والشيوخ المهددون مباشرة بأن يضعوا انفسهم فى خدمة المقاومة وقاموا احيانا بقيادة قبائلهم فى الحرب التى كانت تريد هذه القبائل خوضها ضد فرنسا . وبالنسبة للجماهير الشعبية فان الاستسلام كان شكليا فقط ، وكان يكفى أن تتغير موازين القوى لتنفجر الانتفاضة .

وقد ذكر المقرانى فى رسالة بعث بها الى باشاغا التتري :

« يوجد هنا حماس عام للجهاد ، واذا ثاروا فى كل الجهات ، فأقسم لكم بالله أنهم لن يحتاجوا الى الثورة مرة ثانية » . ولا يغيب عن اذهاننا ايضا أن الانتفاضة لم تكن محصورة فى مناطق نفوذ القادة الكبار ، ولكنها امتدت فشملت الجزائر كلها . واذا كان الكولون قد اتهموا العسكريين ، رؤساء المكاتب العربية ، فذلك لاسباب سياسية داخلية فرنسية محضة : لقد كان العسكريون المؤيدون لنابليون الثالث يعارضون الكولون الذين يؤيدون الحكومة المدنية وعلى الصعيد الجزائرى ، فان القادة العسكريين الذين يرغبون فى سيادة الهدوء بمناطقهم ، لم يكونوا يريدون مضاعفة بواعث الاستياء لدى القبائل ، وكانوا يحدون فى جشع الكولون للاستيلاء على جميع الاراضى ، وهنا منشأ عداء الكولون ازاء المكاتب العربية ، التى كانت توصف بأنها **« حامية العرب »** .

كانت الظروف السياسية ملائمة : هزيمة فرنسا ، وسقوط الامبراطور ، والصراعات بين المدنيين والعسكريين الفرنسيين ، والاهانات التى وجهت للزعماء المسلمين التقليديين ، مثل الاهانات التى تعرض الباشاغا المقرانى : مصادرة جزء من املاكه ، وفقدانه لموارده الجبائية التقليدية ، واقامة ادارة فرنسية فوق ارضه يوجهها ضباط فرنسيون ، وتخفيض عدد فرسان قياده ، والغاء نظام التويزة الذى كان يستخدمه لمصلحته ... ولكن هذه كانت مجرد ظروف سياسية . بيد أن الشرو طالاقتصادية المتدهورة للفلاحين لم يكن من شأنها الا ان تدفع الجزائريين الى الانتفاضة المسلحة .

لقد كان النضال من اجل حماية الدين ، ومن اجل الحرية والاستقلال يمتزج مع النضال فى سبيل الدفاع عن الارض . ولقد خرجت الجماهير القروية وقد ازدادت فقرا ، من الازمة الزراعية (١٨٦٦ الى ١٨٦٩) ومن الازمة المالية عام ١٨٧٠ . لقد افرغ الاحتلال الفرنسى المدخرات التقليدية من محتوياتها . وكان محكوما على الجماهير بالهلاك ، وانتشر التفوئيد والكوليرا ، واندثرت قبائل بكاملها . وكان الفلاحون ورؤساء القبائل يستدينون بكثرة . ولقد اضطر المقرانى ، الذى كان قد اقترض مبالغ من المال لاسعاف منطقته الى ارتهان املاكه لدفع ديون الصيارفة الفرنسيين ، وما هو اخطر من ذلك هو خوف الفلاحين من ضياع اراضيهم ، وتغيير للنظام

العقارى لاراضى « العرش » التى اعترف بملكيتها للقبائل . ان النظام المدنى كان معناه انتصار الكولون والاستعمار ، وضياع الاراضى بالنسبة للجزائريين . ومن البديهى أن افقار الجماهير القروية ، والتهديد الذى تعرضت له الاراضى قد خلقا حالة من التوتر .

ومع ذلك فاننا نجد الاسباب الحقيقية فى القوى الاخلاقية والدينية للجماهير الشعبية والقروية منها بصورة خاصة ، التى جابهت التهديد الذى كانت تتعرض لها اراضيها . ويذكر **« روهين »** أن القبائل لم تكن تحب « لا السلم ولا الازدهار الاستعماريين » ، وأن أى شىء لم يخنق بعد ذكرى الاستقلال الذى تمتعت به قرونا طويلة . ويذكر لامى أن مسلما جزائريا تمكن من الاثراء بواسطة التعاون مع الفرنسيين ذكر انه « اذا وصلت الانتفاضة الى ميناء الجزائر ، وكانت تكفى صفعة واحدة للالقاء بالفرنسيين فى البحر ، فانى سأقوم لذلك » . وكثير من مراقبى تلك الفترة قدروا الانتفاضة حق قدرها . وقد ذكر أوربان : « اننا نجد انفسنا ، وسوف نجد انفسنا لمدة طويلة ، أمام شعب يتحمل سيطرتنا بمشقة ويبحث عن كل الوسائل وكل الفرص للتخلص منها . وللحفاظ على هذه السيطرة لا يمكن أن نعتمد الا على جيشنا ، وسوف يكفى الجيش لهذه المهمة ، مادمنا لا نواجه تعقيدات أوروبية كبرى ، ولكن الافق سيظل قاتما مع ذلك . ويكفى أن تنفجر زوبعة فوق القارة القديمة لنضطر الى تخفيض جيشنا فى افريقيا . ان عاطفة الاستقلال ، وعاطفة التعصب الدينى ما زالت حية . وقد استغلوا الفرصة فحصل تمرد. وأعلن الحاكم العام ماكماهون نفسه ، فى عام ١٨٧٢ ، ان الامن يوشك ان يصبح مهددا ، وذكر فرنسى آخر الاسباب الحقيقية عندما قال : « لا تزال هناك كلمات سحرية ترتعش لها البلاد، وكلما تحدثوا لها عن الجنسية الاسلامية ، وعن الارض المقدسة التى يجب تطهيرها من الكفار كانت مستعدة للتحرك . »ان الاسباب الحقيقية كامنة فى حب الوطن ، فى الدفاع عن الحرية والاستقلال ، التى ظلت طوال التاريخ المغربى احد الملامح المميزة لشعبنا . ان الايمان الدينى الذى لا ينفصل عن حب الوطن هو الذى امد شعبنا بقوة الكفاح . وان العاطفة الدينية التى غالبا ما اختلطت بالعاطفة الوطنية كانت على الدوام عامل مقاومة . والضباط الفرنسيون الذين كانوا يرون فى الايمان تعصبا دينيا ذكروا أن:

« الحج الى صدوق تكاثر وان التعصب الدينى الذى كان حيا كما رأيناه تعزز بشكل مخيف . ان جماعات الحجاج الذين كانوا يتوجهون الى الشيخ الحداد ، يقودهم المقدمون ، كانوا يسلكون الطريق واقدامهم عارية وهم يرتلون الذكر . وكانت النساء يقمن بزيارة الشيخ وهى لسن اقل حماسا من الرجال . كان هناك شىء يعد فى الخفاء » .

وقد كتب بعض القبائل الذين كانوا يتعرضون لمحاولة ترمى لدفعهم لاعتناق الديانة المسيحية ، الى الضابط الفرنسى يقولون :

« اننا لن نتخلى ابدا عن ديننا . واذا كانت الحكومة تريد ارغامنا على ذلك ، فنحن نطلب منها الوسيلة لمغادرة البلاد . واذا لم نجد هذه الوسيلة فنحن نفضل الموت على اعتناق ديانتكم . أما فيما يخص محاولة دفعنا الى

اعتناقها فاننا نفضل الموت على التخلى عن ديانتنا . »

ان كل هذه المحاولات الدينية كانت قليلة الاثر، ولكنها كانت تشكل تهديدا مباشرا بالنسبة لبلاد القبائل . وقد اكد المطران لافيجرى عد مرات نواياه فى هذا الباب . « يجب ان ننتهى من عزله (يقصد المسلم عن القرآن ، كما حدث ذلك لمدة طويلة ، وكما يراد أن يستمر ذلك بالنسبة للملكة العربية المزعومة ، ولا بد من أن نوحى اليه ، عن طريق اطفاله على الاقل ، بعواطف ومبادىء اخرى . ينبغى أن تعطيه فرنسا ، وبالاحرى أن تسمح بأن نعطيه مبادىء الانجيل وان ندخله فىحياتنا أو نطرده الى الصحراء بعيدا عن العالم المتحضر » . وكان الكولون ، يؤكدون فى جريدة الاخبار « أن الجميع متفقون على الحالات افضل من المبادى العقيمة ، اللااخلاقية والمتوحشة للقرآن » .

لقد كانت مساهمة انصار الطريقة الرحمانية فى انتفاضة ١٨٧١ هامة . ان هذه الطريقة الصوفية جزائرية صرفة ، وقد اسسها محمد عبد الرحمن بوقبراين (بوكبراين ؟) الذى ينتمى الى قبيلة كتشولة بحكم مصالحه وتقاليده . وكانت طريقة وطنية تضم جزائريين من كل الجهات ، رجالا ونساء من مثيلات خدوجة بنت أحمد بن كنون من اهالى « ايسر » التى قادت أولاد قاسى ودفعتهم للاشتراك فى الانتفاضة . وقد كون « الاخوان » المنسجمون الذين تعودوا على الانطباط والعمل السرى ، جماعات محاربة عرفت بشجاعتها وبطولتها . وكان المقدمون يحملون اعلام هؤلاء المحاربين الذين لم يكن امامهم اختيار بين النصر أو الاستشهاد .

واذن فان ما هو مهم فى هذه الانتفاضة هو ايمان الشعب وتعلقه بقيمه الدينية والاخلاقية . وما ينبغى الانتباه اليه هو رسالة آلاف الشهداء الذين سقطوا عام ١٨٧١ ، الى الاجيال التالية التى عرفت الاستعمار فى أعتى صوره . وقد كان نظريوا العهد الاستعمارى ، يؤكدون ان « عام ١٨٧١ هو آخر الانتفاضات العسكرية الجزائرية الكبرى » . وقد اخطأوا فى هذا الاستنتاج مثلما حاولوا ان يضللوا حول الاسباب ، أن رسالة المسبلين لكى لا نذكر هنا سوى محنة أولئك الالفين منهم ، الذين بعد أن استمعوا الى صلاة الموتى حاولوا أن يتسلقوا أسوار حصون عين الحمام ، « وطحنوا فى عين المكان » ، ظلت منقوشة فى الصخر ، حتى قام أحفاد هؤلاء المسبلين انفسهم باستئناف المعركة التى أدت الى الاستقلال . انهم مجاهدوا أول نوفمبر ١٩٥٤ . لقد كان يحركهم هم أيضا نفس الايمان وكانوا يعبرون عن مقاومة شعب .

الشيخ عزيز ابن الشيـخ الحـداد



ثورة محمد المقرانى والشيخ ابن الحداد

يحى بوعزيز

من ميزات ماضى الجزائر ، وخصائصه ، انــه تاريــخ بطولة وكفاح متواصل طوال حقب التاريخ ، فلم يستكــن شعب الجزائر ابدا لاى طغيان ولم يقبل الخضوع والاستسلام لاى معتد على بلاده وسيادته واستقلاله . وقاوم الغــزاة بعنف وضراوة عبر الاجيــال والعصــور .

وفى خلال الاحتلال الفرنسى للجزائر ، تزعم هذا الشعــب ثورات مسلحة بطولية ،تعتبر مفاخر كفاحنا الوطنى مــــن ضمنها ثورة المقرانى والحداد التى هزت اركان الاستعمار الفرنسى هزا ، وتعتبر احدى اللبنــات فى ذلــك الاســاس الشامخ لكفاحنا التحريــرى الذى لم يتوقف حتى تحقــق عام ١٩٦٢ حلم الاجــداد ، وآمال الاجيــال . وثــورة المقرانى والحداد عــام ١٨٧١ لا يمكن فهمها على حقيقتهــا الا من خلال التعرف عــلى اوضاع الجزائر فى تلك الفترة

فقد كانت الجزائر فى اواخر الستينات (١٨٦٥ ــ ١٨٧٠) تعيش اوضاعا ومشــاكــل معقدة فى الميادين السياسيــة والاقتصــادية والاجتماعيــة والعسكرية هى التى مهــدت فى النهاية لقيام ثورة عـــام ١٨٧١ م ، ويمكن ايجازها فيما يــلى :

اولا: كانت الامبراطورية الثانية تقوم بعملية تهجير واسعة للاوروبيين من فرنسا واوربا الى الجزائــر من اجل التوطين والتوسع فى الاستعمار ، وصحب عملية التهجير هذه ، مصادرة املاك الجزائريين من اراضى، ومبانى ، وقطعان الحيــوانات لتمليكهــا لهؤلاء المهاجرين الاوروبيين الذين كان الكثير منهــم من المحكوم عليهم بسوابق عدلية اجرامية فى فرنسا وجىء بهم الى الجزائر للتخلص مــن مشاكلهــم واستغلالهــم واستغــلالهم فى حــركة التوســع الاستعمارى . ونتج عن هــذه العملية تضاعــف البؤس والشقاء والحرمان ، بين الجزائريين اصحاب الارض والبــلاد الشرعييــن والغــريــب فى الامــر ان الامبــراطــوريــة الثــانيــة ونــابليون الثــالث بالذات كــان يتظــاهر باتباع مادعى بالسياسة العربية ، الــتى تعنى حمايــة الجزائريين واملاكهم ، ومقاومة تسلط المعمريــن عليهم ، وانشاءها ما دعى بالملكيــة الشخصيــة العربية . وهــذا مما يؤكــد تفاهــة السياســة الاستعمارية مهما يكن طابعها . ويكفى الانســان أن يعيد تصفح جرائد المبشر والاخبــار الصــادرة بالجزائر فى تلك الفترة ليرى القوائم الطويلة لمصادرة الاراضى وتوزيعهــا .

ثانيا : كانت البلاد ما تزال تعيش حالة الحــرب بسبب العمليات العسكرية التى كان يقــوم بــها جيش الاحتلال ، وخاصة فى المناطــق الجنوبيــة العربية حيث ما تزال ثورة أولاد سيدى الشيــخ متواصلة منذ عام ١٨٦٤ بينما تعرض سكان القبائل الكبرى والصغرى خلال احداث راندون للمزيــد من التقتيل، والتشريد، والمصادرة لاراضيهم واملاكهم ، واخضعوا للحكم الزجرى الارهابى تجاوز الحدود المعقولة ، واصبحوا يتحملون أعبــاء طالية فــوق الطاقة اقتصاديا ، واجتماعيا ، وعسكريا ، بــل ودينيا كذلك حيث اخذت الكنيسة تســعى بكــل الوسائل لتنصير الناس وتمسيحهم ، خاصة اثناء مجاعة عام ١٨٦٨ القاسية ، ومارست المزيد من العقاب على قبائل فرجيوة عام ١٨٦٤ .

ثالثــا : واكثر من هذا فقد تعاقبت على الجزائر سنوات الجفاف، وهجمات الجراد، وتفشت الامراض والاوبئة ، وحدثت زلازل مخربة . ونتج عن كــل ذلك حدوث مجاعة حادة ، وازمة اجتماعية فريــدة فى نــــوعهــا .

ففى خلال اعوام ١٨٦٥ ــ ١٨٦٨ تواصــل الجفاف والقحط على البــلاد ، ادى الى انعــدام وجود المواد الغذائية والحبوب للناس ، وانعــدام العلف الحيوانات .

— وفى اعوام ١٨٦٧ — ١٨٦٨ حصل مرض الكوليرا والتيفيويد ادى الى موت عشرات الالاف من الناس .

وفى عام ١٨٦٩ تفجر الوضع الاجتماعى بصورة خطيرة جدا ، فحصلت مجاعة حادة لا نظير لها فى تاريخ هذا البلد ، مات من جرائها عشرات الالاف من اخواننا واجدادنا ، وعشرات الالاف من قطعان مواشيهم نتيجة لغلة الحبوب والعلف . ولم تفعل السلطات الاستعمارية شيئا تجاه هذه المأساة واضطر سكان الهضاب العليا بصورة خاصة الى الزحف على مدن الشمال افواجا وجماعات بحثا عن مورد للرزق ، ومنعهم الاوروبيون حتى من التفتيش فى المزابل ، وأكوام القمامة على بقايا الاطعمة والعظام ، وكثر صياحهم ونداآتهم للسلطات الاستعمارية حتى تبعدهم عنهم فجمعوا بمحتشدات عامة بمليانة والاصنام وغليزان ، للجوع والعطش وقساوة الحرارة ، مما ضاعف من بؤسهم ، وأدى الى تفشى الامراض فيهم ، وموت المزيد منهم ، وقد اضطر الكثير منهم الى النبش عن الموتى فى القبور لاكل لحومهم كما يعترف بذلك الفرنسيون انفسهم ، ونحن نذكر هذا ليعرف من لا يعرف ، رسالة التموين التى كانت فرنسا تدعى القيام بها فى هذه البلاد .

والغريب فى الامر أن هذه المأساة لم يتعرض لها الاوروبيون لانهم كانوا يملكون اراضى خصبة تسقى بالرى، ولديهم فى المخازن المزيد من الحبوب وسلطات الاحتلال تدللهم وتوفر لهم كل ما يحميهم من مثل هذه الاخطار . ولقد استغلت الكنيسة ولافيجرى هذه المجاعة المحزنة ، واخذت تجمع الايتام المسلمين لتنصيرهم وتمسيحهم مقابل اعطاء قطع الخبز لهم . وهذه هى رسالة التموين .

اما الجزائريون فليس هناك الا الرب يحميهم ، والا بعض الاثرياء ، من اخوانهم قدموا ما استطاعوا من معونة ومساعدة . فعندما عجز الفلاحون الجزائريون عن ايجاد الحبوب الضرورية للحرث بعد أن نفذ ما عندهم فى المخازن ، توجهوا الى رؤسائهم من اخوانهم لمديد المساعدة ، ومن هؤلاء الباشاغا محمد المقرانى الذى قدم كل ما عنده من حبوب ومال الى فلاحى منطقة مجانة والبرج ، ولما لم يكف ذلك تسلف بأسمه من بنك الجزائر ، ومن بعض الاثرياء اليهود مجموعة من القروض المالية تزيد على نصف مليون فرنك تديم مع الفوائد التى زيدت عليها . وتعهد له الحاكم العام ماكماهون بتسديد ديونه من ضرائب القبائل اذا ما عجز اصحابها عن الاداء ، ولكن السلطة المدنية التى خلفت السلطة العسكرية تنكرت لذلك ، واضطر ان يرهن املاكه لسداد الديون التى عليه للبنوك والسماسرة اليهود .

فلو كان المقرانى اقطاعيا لا يغار الا على مصالحه وامتيازاته فلماذا يتكبد مثل هذه الصعاب والخسائر ؟ اننا نقول هذا لمن يحاول أن يرمى المقرانى بعدم الغيرة الوطنية .

رابعا : كانت السلطات الاستعمارية فى هذه الفترة تطبق سياسة تحطيم نفوذ الاسر الكبيرة الجزائرية ذات السمعة والنفوذ فى البلاد وبعد ان حصلت على غرضها منها ..

ذلك أن هذه السلطات فى بداية الاحتلال حاولت استمالة هذه الاسر والعائلات الكبيرة ، كوسيلة لفرض سيطرتها على البلاد فقربت اليها اسرة اولاد سيدى الشيخ فى الجنوب الوهرانى ، واسرة المقرانى فى بجاية ، واسرة بن قانة فى بسكرة والزيبان واسرة بوعكاز بن عاشور فى فرجيوة ، واسرة أوقاسى فى تيزى وزو . ومنحت لرؤساء هذه العائلات لقب الخليفة ، وشيخ العرب ، ومكنتها من امتيازات واسعة .

ولكن بعد أن ركزت السلطات الاستعمارية نفوذها فى البلاد ، وتمكنت من تحطيم الكثير من الثورات ، قلبت ظهر المجن لهذه العائلات واخذت تسعى فى الستينات بصورة خاصة لتحطيم كبريائها ، ونفوذها شيئا فشيئا فى محاولة اذابتها ضمن المجتمع الفقير الكادح حتى لا يبقى للشعب اى سند اذا ما اراد الحركة . وقد أوضح لويس رينى هذه الفكرة وأكدها ، وقال بأن رؤساء هذه الاسر لم يريدوا أن يفهموا بأنهم أوتى بهم من اجل خدمة السلطة الفرنسية فقط واوامرها .

ومادمنا نتحدث عن ثورة ١٨٧١ فلنأخذ اسرة المقرانى مثلا لهذا التحطيم . فزعيم هذه الاسرة

الحاج احمد جد الباشاغا ، شارك مع قوات الحاج احمد باى فى مقاومة حملة الاحتلال عـام ١٨٣١ ، وبقى خارجا عن طاعة الفرنسيين حتى عام ١٨٣٨، ثم استسلم بواسطة ضرخة بوعكاز بن عاشـور شيخ فرجيوة الى الجنرال غالبوا ، فأسند اليـه مشيخة مجانة فى شهر جويلية . واحتفل رسميا بتقليده منصب الخليفة يوم ٣٠ سبتمبر ١٨٣٨ فى قسنطينة بحضور الماريشال دوفالى الحاكم العام كما أسند منصب شيخ العرب لاولاد بن قـانة فى بسكرة . وامتد نفوذ الخليفة المقرانى بين مشيخـة فرجيوة شرقا ، وحدود شيخ العرب جـنوبا ، والتيطرى غربا ، وهو الذى سهل للفرنسيين عبور منطقة البيبان بين الجزائر وقسنطينة عام ١٨٣٨ .

وكان مفروضا أن يبقى نفوذ المقـرانى واسعا ، ولكن سلطات الاحتلال بعد عام ١٨٤٠ أخـذت تضغط مـن شأنه وقوته ، فاقتطعت منـه ومـن سلطته جانبا من قبائل وادى الساحل ، والوانوغة الغربية ، عينت عليها قيادا جددا تابعـين مباشرة لسلطتها ، واسست عام ١٨٤٩ مركز بوسعادة وعينت فيه ضباطا يشرفون مباشرة على جانب من قبائل الحضنة .

وعندما توفى الحاج أحمد الموقرانى عام ١٨٥٣ عين الفرنسيون فى مكانه ابنه محمد بلقب بسيـط اقل قيمة ونفوذا من الخليفة وهو لقب الباشـاغا . وفى عام ١٨٥٧ عينت السلطات الفرنسية الليوطنان كولونيل مارمى حاكما أعلى لمنطقة برج بوعريريج وضابطا صغيرا فى مركز تازمالت الـذى انشـأه شقيق الباشاغا الاخضر المقرانى ، وبذلك ضعـف وتقلص نفوذ الباشاغا . وطولب فى الـعام الموالى بدفع كل أموال المخالفات التى يستخلصها الـى خزينة الدولة الفرنسية ، وكان قبل ذلك يحتفظ بها للصرف على فرسانه وقواته .

وفى عام ١٨٦٠ نقل مارمى من البرج ، وعـين فى مكانه ضابط صغير برتبة كابيتان اظهر صلفا تجاه الباشاغا وطالبه بتقديم حسابات مدققة وتقارير عن اعماله الادارية ، والمالية ، فى حـين أن مـركزه لا يسمح بذلـك .

وفى عام ١٨٦٤ تلقى الباشاغا رسالة توبيـخ قـاسيـة مـن الجنـرال ديفـو بسبـب محاولة مساعدة صديق ابيه بوعكاز بن عاشور فى محنته التى تعرض لها فى قسنطينة وفرجيـوة فى نفس السنة واستدعى الى البرج ليجيـب عـلى عدد من الاسئلة بسبب اجتماعه بأبناء عمـه فى الدريعات فى لقاء عائلى وهذا من غرائب الامور ، مما يدل على ان الفرنسيين كانوا غير مرتاحـين للباشاغا منذ بداية تعيينه ، والا لماذا كل هـذه المضايقة .

وفى عام ١٨٦٨ اسست بمدينة برج بوعريريج بلدية مختلطة ، عين الليوطنان اوليفـى رئيسـا عليهـا ، وتقلـص نفـوذ المقرانـى واقتصـر على تعيينه عضوا بسيطا فى مجلسها البلدى .

هكذا ، وبهذا الاسلوب ، والخطوات ، تم تحطيم أسرة الباشاغا ونفوذها ، ومن الطبيعى أن يكون لهذه السياسة رد فعل لان الباشاغا ومن عـلى شاكلته وان ارغمتهـم الظـروف على مسايـرة السلطات الاستعمارية والخدمة تحـت تصرفـها ليسوا حجارا أو تماثيل ، بل هـم رجـال ذوو احساس وكرامة وطنية قبل أن تكون شخصية ، وذلك من ضمن اسباب ثورة ١٨٧١ على اى حال .

الاسبـاب العامـة للثـورة

ان الظروف التى استعرضناها سابقا كافية لان تكون سببا للثورة فى مجموعها بعضا يتصل بشخص المقرانى ، والبعض الاخر مرتبط بظروف البـلاد نفسها اما ما يتصل بشخص الباشـاغا ، فتلـك المضايقة الطويلة التى امتدت طوال سبعة عشر عاما وزيادة ، وتعرضه لمشاكل مادية ومعنويـة لا يمكن تجاهلها ، ومن ضمنها تحديد سلطته ونفوذه واخضاعه لسلطة ضباط صغار قـليلى الشـأن وتوبيخه برسالة قاسية ، وهو الباشاغا المسموع الكلمة والمطاع فى منطقة واسعة من شرقى البلاد .

وأما ما يتصل بظروف البلاد العامة فمنها :

أولا : مأساة المجاعة الحادة الاليمـة التى راح ضحيتها الالاف من الجزائريين ، وامتناع السلطات الاستعمارية عن تقديم المساعـدات الضـرورية للمنكوبين ، مما اقنع الباشاغا بأن هذه السلطات لا يهمها سوى مصالحها. وحفر ذلك جرحا عميقا فى جوارحه واحسـاساتـه .

ثانيا : سعى الكنيسة المسيحية لتمسيح يتامى المسلمين مبالغة فى النكاية بالشعب الجزئرى ، والاهانة لمقدساته . وبالتأكيد تألم الباشاغا لذلك وزاد فى احقاده وضغائنه ضد الادارة الاستعمارية.
ثالثا : نظر الباشاغا للنظام المدنى الجديد الذى اعد للجزئر واعلن فى مرسوم ٢٤ اكتوبر ١٨٧٠ ، على أنه تشجيع وتمكين للمعمرين الاوروبيين فى التحكم فى الشعب الجزائرى وقهره اكثر ، خاصة وان المعمرين كانوا يقومون فى هذه الفترة بحملة مسمومة فى الصحافة والنوادى ضد الجزائريين وضد النظام العسكرى الموجود . فقد نص مرسوم ٢٤ اكتوبر ١٨٧٠ على ثلاثة أشياء :

ـ الغاء النظام العسكرى وتعويضه بالنظام المدنى .

ـ الغاء المكاتب العربية التى كان يراسها الضباط .

ـ اعطاء الجنسية الفرنسية بصورة جماعية ليهود الجزائر وكانو حوالى ٣٨ الف يهودى .وتأكد الباشاغا أن استلام المدنيين الاوروبيين بالجزائر للسلطة ، واليهود معهم بعد تجنيسهم سيضاعف من مآسى للجزائريين ، ولهذا اعلن رفضه للخضوع لمثل هذه السلطة المدنية ، واعلن أنه ، وهو الرجل الذى ينحدر من اسرة شريفة محاربة ، مستعد لان يضع رقبته تحت السيف ليقطعها على ان يطيع مثل هذه السلطة المدنية .

ولا ننسى أن نضيف هنا ما كان يقوم به بونفالى منذ ديسمبر ١٨٧٠ من محاولة الايقاع بين الباشاغا ، وابن عمه عبد السلام المقرانى قائد عين تاغروط ، فى محاولة دفعه الى الانفجار .
رابعا : هناك مشكلة الديون التى اقترضها الباشاغا من بنك الجزائر ، والثرى اليهودى مسرين اثناء ازمة المجاعة عام ١٨٦٩ لمساعدة المنكوبين والفلاحين . فقد تعهد الحاكم العام ماكماهون على ان تسددها له الحكومة من ضرائب القبائل اذا ما عجز المدينون عن أداء ديونهم ، مما شجعه على امضاء وصولات باسمه للبنك ، والسمسار اليهودى . ولكن السلطة المدنية التى خلفت النظام العسكرى بعد رحيل ماكماهون رفضت الايفاء بهذا التعهد ، ووجد الباشاغا نفسه فى ازمة واضطر الى رهن أملاكه للايفاء بالديون التى عليه . وتعلم الدرس الاول عن سياسة السلطة المدنية المقبلة وتأكد ان مصير الشعب كله سيكون على غرار هذا المثال ، وهذه السياسة الغادرة لا محالة ، وهو ما برر فى نفسه ضرورة الاعداد للثورة .

خامسا : وفى بداية عام ١٨٧١ حدثت مشكلة ذات مغزى عميق فى نفسية الباشاغا فلقد كانت هناك حضيرة عمل فى البيبان تقوم بمد الطريق بين الجزائر وقسنطينة يعمل فيها حوالى خمسمائة عامل معظمهم من منطقة البرج ، وفيهم بعض الاوروبيين أسبان ، وايطاليين وغيرهم ، ومارست السلطات الاستعمارية سياسة التفرقة بين العمال فالاوروبيون تدفع لهم أجرا عالية ، وتجنبهم الاعمال الشاقة ، والجزائريون تشغلهم ساعات اطول بأجور اقل من الاوروبيين ، واكثر من هذا انها امتنعت عن دفع أجورهم . وحدث أن قتل اربعة عمال اوروبيين فى الغابة المجاورة لحضيرة العمل ، مصدرت الاوامر بايقاف العمل واعادة العمال الى قراهم ، واضطر الباشاغا أن يدفع من ماله الخاص تسبيقات للعمال ، واكترى لهم الدواب والاحمرة لحمل أمتعتهم الى البرج تحت حراسة اخيه بومزراق وحاولت الدعاية الاوروبية أن تلصق التهمة بالبشاغا ، وقد اعترف رينى بهذا الحيف وهذه الحقائق وأكدها ، وأثرت هذه الحادثة تأثيرا كبيرا على الباشاغا وزادته ايمانا بالنية السيئة للسلطات الاستعمارية تجاهه وتجاه الشعب .

وعمل الباشاغا الان فى المجال الوطنى تجاه عمال حضيرة اشغال البيبان ، وموقفه من منكوبى مجاعة ١٨٦٩ ، تكفى وحدها لتدحض دعوى كونه رجلا اقطاعيا لاهم له الا الحفاظ على مصالحه وامتيازاته ان الذى يشعر بمأساة اخوانه ، ويقدم ثروانه فداء لهم ، وخدماته سندا لهم ، فى مستوى الرجال الوطنيين المحترمين .

سادسا : اما الذى فجر الوضع وكان كالفتيل لايقاد واشعال نيران الثورة فهو نداء كريميو وزير العدل اليهودى فى مندوبية تور من بوردو الى سكان الجزائر المسلمين فى منتصف شهر جانفى ١٨٧١ عند بداية تطبيق النظام المدنى بعد انهيار الامبراطورية ونابوليون ، فقد اعتبر الباشاغا هذا النداء من كريميو اليهودى الرجل البسيط ، تحقيقا

لما كان يتوقعه من تسلط المدنيين الاوروبيين على الجزائريين ، وثارت لذلك ثائرته ، وقال قولته المشهورة ، اطرح راسي للسيف القطع ، ولا أطيع احدا من غير الجنود ، وقرر بصورة نهائية القيام بثورة مسلحة ليحى شريفا او يموت كريما شهيدا ، وهو ما حصل .

بوادر الثورة :

لقد انضح من خلال عرضنا السابق ان الغضب كان عاما وشاملا ضد الاحتلال والسياسة الاستعمارية الجائرة ، التى سلطت على شعب الجزائر الحرمان، والفقر ، والجهل ، والمرض ، والجوع ، والطرد من املاكه وخيراته وثروات بلاده . وفى مطلع عام ١٨٧١ بلغت الامور ذروتها فى التعفن ، والسوء ، والتدهور ، واصبحت الثورة لا مفر منها ، وبقى فقط بروز قائد يتزعمها وجدته فى الباشاغا الحاج محمد المقرانى وسند قوى وجدته فى الشيخ الحداد واتباعه . ورغم أن ثورة المقرانى لم تنطلق رسميا الا فى ١٦ مارس ، الا ان البوادر الاولى للحوادث بدات منذ شهر جانفى . ففى شهر جانفى تمرد جنود السبايس الجزائريون فى بلدة مجبر قرب بوغار ، وفى الطارف وبوحجار وعين قطار ، قرب سوق أهراس ، ورفضوا الذهاب الى فرنسا واوروبا للحرب فى معارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، والتحقوا بالجبال ، وانضم اليهم افراد قبيلة انمامشة وحاصروا مدينة سوق اهراس ، وكان من اسباب هذه الثورة هو تنكر السلطات الاستعمارية لتعهداتها ، فالسبايس حسب عقود العمل لا يعملون الا فى تراب الجزائر ولا يرحلون الى خارجها ، ومهمتهم هى مراقبة القبائل ، وفى شهر فيفرى قامت جماعة من قبيلة اولاد عبدون فى الميلية بمحاصرة برج المدينة والقوات الفرنسية المتمركزة بها وظهرت حركة ثورية فى تبسة وضواحيها كان من زعمائها الكبلوتى بينما كان محى الدين بن عبد القادر يتقدم من طرابلس الى نقطة الالتقاء بالشريف بوشوشة وناصر بن شهرة لتنظيم حركة الجهاد .

انطلاق ثورة المقرانى :

ما سبق من الحوادث خلال شهرى جانفى وفيفرى، هى بمثابة بوادر اما الثورة الحقيقية فهى ثورة الباشاغا التى انطلقت فى مارس ، ومن غريب الامور ان نرى ايفون لاكوست ، واندرى نوشى ، واندرى برنار فى كتابهم : الجزائر فى الماضى والحاضر ، يعتبرون بداية الثورة هو احداث جانفى وفيفرى ، ويعتبرون المقرانى كمنضم اليها فقط بعد ان قامت . ان هذا المنطق لا يتمشى مع حقائق الاحداث ، فلو كان المقرانى انضم الى الثورة فقط وليس زعيمها ، فلماذا توقفت بسرعة تلك الحوادث الاولى ؟ ولماذا لم يرتم الاخوان الرحمانيون فى الثورة خلالها ، وبقوا بعداء عنها حتى شهر ابريل ؟ المبرر الوحيد لهذا الادعاء ، هو محاولة الفرنسيين التقليل من شأن الموقرانى . وثورته بالتبعية . والا فالثورة ثورته ، والعام عامه ومازال الناس حتى يومنا هذا يسمونه عام المقرانى ، وحتى لاكوست ورفيقاه نقضوا انفسهم فى نفس الكتاب عندما اكدوا ان الفترة فى مارس الى ماى ١٨٧١ كانت ذروة الثورة لوجود زعيمها المقرانى ، قبل ان يواصلها الاخوان الرحمانيون بعده .

بعد الاعلان عن قرارات مرسوم ٢٤ اكتوبر ١٨٧٠ القاضية بالغاء النظام المدنى قدم المقرانى استقالته من منصب الباشاغاوية ، كما استقال ضباط المكاتب العربية ، وماك ما هون نفسه الحاكم العام غضبا من الاتجاه الجديد . ولكن ظروف الحرب البروسية جعلت فرنسا تبقى ما كماهون فى منصبه فرجا من المقرانى أن يعبر عن اخلاصه بالبقاء فى منصبه فقبل دون أن يسحب استقالته .

وفى يوم ٢٧ فيفرى ١٨٧١ قدم استقالته الى كل من الجنرال اوجور فى قسنطينة ، والجنرال لالمان فى الجزائر ، فحاول لالمان تهدئته بأسلوبه الادارى المراوغ تمشيا مع ظروف فرنسا المتدهورة . غير ان الباشاغا كان مصمما على قراره فجدد استقالته مرة اخرى يوم ٩ مارس ، واعاد مرتبه الشهرى عن شهر فيفرى ، كما أعاد شارة الباشاغا الى وزارة الحرب الفرنسية ، وقضى الايام ما بين ١٠ و١٥ مارس فى الاجتماعات المتواصلة مع رجال عائلته وكبار قواده آخرها هو الاجتماع الحربى الموسع مساء ١٥ مارس الذى تقرر فيه اعلان الثورة فى صباح اليوم التالى ومع اشراقة شمس صباح يوم ١٦ مارس كان المقرانى الباشاغا يزحف على مدينة برج بوعريريج على راس ثمانية آلاف فارس ومن برج بوعريريج امتدت الثورة لتشمل معظم البلاد الجزائرية من زكار وشرشال غربا

مدينة الجزائر الى جيجل والقل شـــرقا ، والـــى الحضنة والميلية وبوسعادة ، وتوقورت وباتنـــة وبسكرة وعين صالح جنوبا ، وليس بالامكان فى مثل هذه الدراسة القصيرة تتبع الاحداث فى التفصيل ولكن الذى لا بد من تأكيده هو أن حـــزم المقـــرانى وحيويته ، ونشاطه هو الذى دفع الثورة هـــذا الدفع قبـــل أن يرتمى الاخـــوان الرحمـــانيون فى احضانها .

دور الشيـــخ الحـــداد واتباعه الرحمانيين فى الـــثورة :

ادرك الباشاغا أن الديـــن ســـلاح قـــوى فى مقاومة الاعداء ، كما تأكد انه لولا سلاح الديـــن لنجحت الكنيسة ، ولافيجرى وكـــل الـــرهبان ، والقساوسة ، فى تمسيح هذه البلاد وتنصيرها . وعلى هذا الاساس سعى اولا لاصلاح ذات البين بين زاوية صدوق وباشاغـــا شلاطـــة ابـــن علي الشريف قبيل اعلان الثورة بعدة أسابيع ، ثم لمـــا اعلن الثورة أدرك ان اقناع الشيخ الحداد بمبدا الثورة سيزداد الحركة بعشـــرات الالاف مـــن المجاهدين الابطال ابناء زاوية صدوق ، وهو ما حصـــل .

فبعد انفجار الثورة فى مجانة والبرج صباح ١٦ مارس توالى رسل الباشاغات الى صدوق لاقناع الشيخ أمزيان الحداد بمبدأ الثورة . وهو رجـــل مسن يزيد عمره على الثمانين آنذاك ، ولم يخرج من خلوته منذ عدة سنوات . وفى يوم ٦ ابريل حـــل بصدوق آخر هذه الوفود من المقرانى الباشاغـــا ، وفى اليوم الموالى استدعى الشيخ الحداد مقدميه بالمنطقة ، للتشاور ، وفى صباح يـــوم ٨ ابريـــل احتشد بصدوق عدد كبير من أتباع الزاوية ، وخرج لاول مرة منذ عدة سنوات الشيخ امزيان من خلوته متكئا على كتفى ابنيه : الشيخ عزيز والشيخ امحند وصلى بالناس ، ودعا بالنصر ، ثم أعطى اشـــارة الضوء الاخضر لاتباعه ليقتحموا ميدان الجهـــاد المقدس فى سبيل الله وتحرير الوطن .

وكان هذا اعلان مرحلة ثانية وكبيرة وخطيرة فى ثورة الباشاغا المقرانى الى عـــام ١٨٧١ ، اذ فى خلال نصف شهر من اعلان الجهاد بصدوق انضم الى الثورة وحركة الجهاد أكثر من مائة وخمسة وعشرين الفـــا .

وارتماء الاخوان الرحمانيين فى الثورة على هذا الشكل أعطى لها دفعا قويا وامتـــدت الثـــورة حتى شملت معظم البلاد الجزائرية من جبـــال زكـــار وشرشـــال غرب الجزائر العاصمة ، الى جيجـــل والقل شرقا ،والى الحضنة ،والمسيلة ،وبوسعادة وباتنة ، وبسكرة ، وتوقرت ، وورقلة ، وعـــين صالح جنوبا وفوض الثوار الحصار على المعمرين وجيش الاحتلال فى معظم بدن الشمال ، مثـــل : بجاية ، وعين الحمام ، ودلس ، ، وتيزى وزو ، وذراع الميزان ، وغيرها . ولقد اعتبرت السلطـــات الاستعمارية دخول الرحمانيين للثورة ، خطرا كبيرا جدا ، وحدث لديها رد فعل تجاوز الحد . وكل من كتب على هذه الثورة من الفرنسيين ، الا ما قل ، رمى الاخوان بالتعصب الـــدينى ، وبالعنصرية ، وحاولوا أن ينزعوا منهم الروح الوطنية والهـــدف الوطنى ، بل ان البعض منهم مثل فاوتى حاول ان يتهم الاخوان بكونهم مشوشين مدفوعين من قـــوى أجنبية خارج حدود البلاد . وهو أمـــر مدهـــش ومدعاة للحـــيرة .

ــ أليس الفرنسيون أجانب عن البلاد ، غزاة ، محتلين ومعتدين ؟

بالتأكيد نعم ! والعـــدو نفسه يقر ذلك :

ــ أليس الاخوان الرحمانيون ابناء البلاد ؟ أليس اعلانهم للجهاد كفاحا وطنيا صميما يندرج فى اطار الكفاح الوطنى للبلاد ؟

ــ التأكيد نعم : والعدو نفسه يعترف بذلك .

ــ هل للاخوان الرحمانيين طموح لشىء آخـــر غير تحرير البلاد من العدو الاجنبى حتى يرمـــوا بالتعصب الدينى ، والخلو من الهدف الوطنى ؟

ــ واذا كان عزيز متهم بخصومته لابن عـــلى الشريف ، فهل لابيه الشيخ امزيان الحداد الطاعن فى السن هدف من وراء دفعه لاتباعه الى احضـــان الثـــورة ؟ ؟

ــ بالتأكيد ؟ لانه اذا اراد السمعـــة فسمعتـــه طبقت الافاق قبل عام ١٨٧١ ولا يعقل أن يكـــون له هدف الطمع فى منصب وهو قد تجاوز الثمـــانيـــن واذا فخرافة اتهام الاخوان الرحمانيين بالتعصـــب الدينى والعنصرى ، ما هى الا بهتان ، ومن صنع الفرنسيين الحاقدين والعاجزين عـــن مواجهـــة هذه الحقائق الناصعـــة .

اننا نقول : اذا كان الجهاد من أجل تحرير الوطن وطرد الاعداء ، تعصبا دينيا ، فنحن نرحب به ، ونتشرف بأن نوسم به نحن واجدادنا ، واحفادنا أبد الآبدين . واذا كان استغلال الروح الدينية من اجل استنهاض الهمم لطرد الغزاة المعتدين على الوطن والبلاد ، تعصبا دينيا ، فنحن نرحب به ، ونتشرف بأن نوسم به نحن واجدادنا واحفادنا .

اكثر من هذا هناك أمور واضحة عامة ، وخاصة، تزيل كل غموض ، حول ثورة الاخوان وتقضى عنهم هذا التعصب الدينى والعنصرى .

فاولا : تحامل ابن على الشريف بشاغا شلاطة ، وتطاوله على اخوان زاوية صدوق ، ودفعه السلطات الفرنسية لاذايتهم ، وتسليط الاهانة والمذلة عليهم لا لشىء الا لكونهم يتسمون بالروح الديموقراطية ، ويمثلون الطبقة الكادحة ، ويرون فى شيخهم بصدوق الرجل الملهم الذى لا يتصف بالمظاهر الاقطاعية الارستقراطية التى يتصف بها باشاغا شلاطة الذى لم يتورع حتى على رميه وعائلته بكونهم ابناء حداد لا قيمة له ولا وزن ولا نسب . ولكن عزيز يتصدى للرد عليه فى مذكراته ، ويثبت العكس بأنه هو الذى لا أصل له ولا نسب وهو ما ذكره الكولونيل روبيش واثبته رينى كذلك وغيرهما ، وفى هذا المعنى قال عزيز بأنه لا عيب فى أن ينحدر الانسان من جزار أو خماس او حداد ، او حمال ، وانما العيب أن يجهل الانسان اصله .

وثانيا : السلوك السىء الذى كان يتبعه القياد والموظفون وضباط الجيش تجاه الشعب خاصة الاخوان وهذا الموقف اوضحه عزيز فى رسالته الى ريلهاك . حاكم بجاية الفرنسى بتاريخ ١٤ جوان ١٨٧١ حيث اكد له أن السياسة الاستعمارية المتغطرسة هى السبب فى ثورة الاخوان ، وذكر مثلا كذلك ما شاهده اثناء زيارة ولد ابن على الشريف لقرية صدوق حيث تحمل الناس عبء استضافته أربعة ليال كاملة فوق طاقتهم .

وثالثا : الاوضاع الا قتصادية والاجتماعية السيئة التى كان عليها الشعب خلال تلك الفترة ، والتى لا مخرج منها الا بطرد المحتلين ولو باستغلال الروح الدينية وهنا نجد عزيز نفسه فى مذكراته خلال دفاعه فى محكمة قسنطينة يوضح هذا الامر ويبينه بصورة جلية حيث قال بأن الحرب الدينية التى تزعمها ليست الا وسيلة للعمل ، وليست تعصبا دينيا ، ولا حربا دينية ، وان القاب والعناوين التى الصقت به مثل امير المجاهدين ، والمدافع عن الدين ، ما هى الا تصورات نتجت من الظروف .

ورابعا : واخيرا الظروف العامة التى تعيشها البلاد كلها ، من الاقدام على اعادة التنظيم الادارى وتطبيق الحكم المدنى ، وتجنيس اليهود الجماعى ، وارهاق الناس بالضرائب والمغارم ، والتهديد بانتزاع أراضيهم ، واعطائها للمهاجرين الاوروبيين بعد هزيمتهم فى حرب السبعين مع الالمان ، وما سبق ذلك من مجاعة ، وامراض واوبئة ، واطلاق العنان للصحافة الاستعمارية لتشتم وتهين الشعب وتبالغ فى احتقاره واذلاله . وهى أمور كلها ذات صلة بالوضع السياسى للبلاد ومستقبلها .

ان هذه الامور لا تستدعى ، ولا تدعو فقط للتمرد والعصيان والخروج عن القانون حسب منطق الاستعمار ، وللثورة حسب التعبير الوطنى الصحيح ، وانما تستلزم أن يجمع المستعمرون كلهم ويصب عليهم البترول وتشعل فيهم النيران ، ويشرب دماء البعض منهم احياء .

فكيف يقال اذا ان الاخوان الرحمانيين ، متعصبون ، عنصريون ، قاموا بحرب دينية غير شريفة أو غير وطنية ، وكيف سمح المفكرون الفرنسيون لاقلامهم ان تكتب مثل هذه الشعوذة والاباطيل ، والتزييف على التاريخ ، ان الذين مارسوا الحرب الدينية غير المقدسة ، والغير الشريفة هم الفرنسيون منذ حملة الاحتلال ، وتحويل جامع كتشاوة ومعظم مساجد الجزائر الى كنائس يشهد بذلك ، واستغلال لافيجرى لمأساة المجاعة عام ١٨٦٨ من اجل تنصير أبناء المسلمين الايتام يشهد على ذلك . غير أن الفرنسيين كما يقول الاثر ، يرون القذا فى عيون غيرهم ، ولا يرون أشجار الزان فى عيونهم هم أنفسهم . ولقد جاء الوقت لتكشف الحقائق التاريخية ، وليعرف العالم وتعرف الاجيال المسخ الفرنسى الاستعمارى الذى مارسه الفرنسيون فى كل الميادين بهذه البلاد .

يحى بوعزيز
استاذ بالثانوية الفنية ــ وهران

الشيخ ابن الحداد الصوفي

الثائر

عمار الطالبي

سادت ظاهرة التصوف المجتمع الاسلامى فى القرن الثالث عشر الهجرى (القرن التاسع عشر الميلادى) فانطوى الناس على أنفسهم ، ونضبت القوة الخلاقة للحضارة ، واستنفدت طاقتها المبدعة الموجهة للتاريخ، وانطمست معالم الحركة التاريخية الحية ، واصبح المجتمع الاسلامى مجتمعا ساكنا ، منطويا على ذاته ، سادرا فى غفلة عن العالم وعما يجرى فيه ، فتقسمه الاستعمار ، واكله من اطرافه ونفذ الى قلبه ، وقبض على شرايين الدم فيه ،فسقط امامه صريعا فى شتى ميادين الحياة فى السياسة والاقتصاد وفى الثقافة ، وكان المنهج الصوفى قد تحنط وجمد ايضا ونقوقعت الاخلاقية الاسلامية ذات الحركة المبدعة فاضحت خامدة مجمدة فى رسوم وفى مظاهر فقدت كل حياة ، وكان شعار الناس « اعتقد ولا تنتقد » « سلم للرجال »ورغم هذا كله فان التقوى الاسلامية التى ران عليها ركام من الظلمات بقيت كالنار تحت الرماد حتى اذاما هبت عاصفة ورفعت شيئا من الرماد اتقدت شعلة ، وثار وميض نار ليحرق الظلم والظالمين ،ولكن ما يلبث ان ترتد عليه اكوام اخريات من الرماد فيبقى دو نغرضه ، ومعنى ذلك ان التقوى الاسلامية كامنة لم يات عليها العدم المحض وان علتها طبقات من ظلام ، وغشاها جلباب قاتم من الهمود .

ومن القلوب التى كمن فيها التقوى واستقرت بين جوانحها ومضات الايمان وانوار اليقين بالله ، قلب صديق ولد فى جبل اشم فى قرية صدوق الاعلى ليشرف على القلوب ، وليحرك النفوس الى العلو ، وليرفعها الى المعانى المتعالية معانى الجهاد ، ودفع الظلم ، وليعلم الناس اصول الثورة وليبين لهم ان الجهاد ماض الى يوم القيامة ، مغروس فى نفس الانسان المسلم ، ولن يكتب لاية قوة ان تقهر ، ولا ان تطفىء نوره لانه نور خط بالنور ، وحفظ باللهب.



القرية التى اعلن فيهـا ابن الحـداد الجهـاد

ترجمـة ابن الحـداد

يدعى محمد امزيان بن على بن الحداد ويكـنى بابن الحداد (١) ولد كما أشرنا الى ذلـك فى قرية صدوق الاعلى فى سنة ١٢٠٥ هـ (١٧٩٠ م) وتوفى ليلة الثلاثاء أول ليلة من شهر ربيـع الاول سنة ١٢٩٠ هـ (٢٩ افـريل ١٨٧٣ م) ودفـن بمقبرة قسنطينة رغم انه اوصى أن يدفن فى مقبرة أسلافه بقرية صدوق قال ابنه عزيز:(وقد دفن وسط مقبرة المسلمين بقسنطينة عشيـة يوم الثـلاثاء واحسن له (٢) علماء البلد وخاصتهم وعامتهم وشرفوا قدره بما يناسب أمثاله من حضورهم للصلاة عليه وتشييع جنازته بالذكر والدعاء والصدقـات فجـزاهم الله تعالى خيرا واجزل لهم ثوابا واجرا ، ورفع لهم فى الملا الاعلى ذكرا عن فعلهم الحسـن بوليـه لقول الجليل فى محكم التنزيل : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » وذلك بعد ما كنا عزمنـا على ارساله الى مقبرة اسلافنا بقرية صدوق من بلاد القبائل فى ضريح أجدادنا كما أوصانا رحمه الله تعالى بذلك فاذا بحاكم الجزائر الكبـير عجز عن ارساله لتلك المقبرة بالقبائل وأصدر الامر لنا بدفنه فى هذا الوقت بقسنطينة) (٣) ولكن السلطـة الفرنسية ابت أن تنفذ وصيته لفزعها منرجوعه ميتا الىقريته،وعمره ثلاثا وثمانين عاما(٤)وكان قداخذالطريقة الرحمانية التى نشرها فى تلك المواطن من بلاد زواوة الشيخ محمد بن عبد الـرحمن القشطولى الجـرجرى الازهرى (١١٢٦ — ١٢٠٨ هـ / ١٧١٥ — ١٧٩٣ م) الذى أخذ بدوره الطريقـة الخلوتيـة عن شيخه الازهرى المسمى بالشيخ الحفناوى (٥)

وعندما عاد محمد بن عبد الرحمن الى الجـزائر أصبح شيخا كبيرا فى التصوف وتبعه الناس وأخذوا بمنهجه . أما ابن الحداد فانه لم يأخذ هذه الطريقة عن شيخها محمد بن عبد الـرحمن مبـاشرة وانما اخذها عن تلاميذه فتلقاها عن الشيخ الحاج عبد القادر بن المختار التفيشى الذى تولى بعد وفاته محمد بن عبد الرحمن أمر خلافته (٦) ولكنه اختلف معه بعد ذلك واخذ ايضا على الشيخ على بن عيسى وذكر انه لازمه ثمانية عشر عاما طلبا لخلاص نفسه من عللها فعالجه ولكنه لم يلبث ان تركه عليلا وتتلمذ على شيخ آخر هو تلميذ على بن عيسى يدعى الحاج المهدى السكلاوى اليراتنى الزواوى (٧) وأصبـح بعد ذلك كله الشيخ الحقيـقى للطريقة الرحمانية وبلغت شهرة تقواه الافاق . أما قريته فهى قرية صدوق أوفله (الاعلى) واقعة فى جبل سيدى على اوشتوق المقابل لسلسلة جبال اكفادو وهو جبل مشرف على واد جميل وبهذه القرية منزله وخلـوته التى كان يتعبد بها ، وبجدارها طـاقة تؤدى الى الخارج كان يمد منها يده ليأخذ المريدون عنه العهد ، ويدل ذلك على كثرة المريدين كما يوجد بهذه الخلوة رفوف للكتب من حجر الصوان ويقال ان هذا المنزل الذى توجد به خلوته مضى عليه أربعة قرون ، وقد كتب ابن الحداد على حجر فى جـدار الخلوة هذه الاية (الم تر الى الـذين خرجوا من ديارهم وهم الوف) كما يوجد بهذه القرية مسجد بناه الشيخ ابن الحداد وبه مصلى خاص بالنساء ، ويوجد داخله مصباح حديدى يرجع الى عهد ابن الحداد نفسه ، وقد اخفاه اهل القرية عن الفرنسيين فى زمن الثورة، واعيد للمسجد بعد الاستقلال وهو مصباح يضىء بالزيت ، **ان الفرنسيين حولوا هذا المسجد الى مكان للتعذيب وهذا يـدل على مدى احترام الفرنسيـين المتحضرين لاماكن العبادة ! ! .**

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم تسليما

الصفحة الاولى من
مخطوط رسالة فى التصوف
للشيخ الحداد

يقول العبد الفقير لرحمة ربه الجواد
محمد امزيان بن علي الحداد
عامله الله بلطفه الخفي وجازاه في الرحيل والميعاد

الحمد لله الذي بدأ الدين غريبا وختمه بما بداه وجعله عزيزا لدى من اختصه بهدايته وبذكره شغله والهاه حتى كاشفه بغيوبه اولا عن عيوب غيره اعماه واغناه ثم بشهادة جلاله وجماله عن حسه غيبه والفناه ثم لا يزال مترقيا من مقام ادنى الى اعلاه الى حيث شاء الله ومع ذلك لم ير لنفسه حظا ولا له قدرا بل يظهر ويكشف له في كل مقام انما اتحفت بكمالات عديدة وخدايع عويصة ولا تخلص له من ذلك الا الله فلم يحصل له امن ولا قنوط بل كان بين ذلك قواما جمعا بين الشريعة والحقيقة وتاسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم والصلاة والسلام على من ختم به الرسالة وشرفه على جميع الانبياء وجعله خليفتهم في الارض وامامهم في السماء صلاة وسلاما دايمين لا ينقطعان ما دام ملك الله ورضى الله تعالى عن ءاله وازواجه واصحابه واتباعهم باحسان الى يوم النفخ والصعق وعلى الدين الحنيفي عضوا بالنواجذ وبعد فقد ادركنا الزمان الذي وصفه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرءان الا رسمه بلا ريب وقد شاهدنا ذلك في كل قطر وفي كل مصر بلغ اليه علمنا فتجدهم يدعون مسلمين وهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون عند الاستطاعة ولا يومنون بالله ورسله حق الايمان فان فعلوا ذلك او بعضه فعلى غير وجه شرعي فكل ما خالف الشرع فهو باطل فان صلوا لم ياتوا بشروط الصلاة واركانها فتراهم يختلسون الغسل والوضوء قبل الاستبراء او بعده مع عدم الدلك والتعميم الواجبين اما التعميم فلا اعلم فيه خلافا في مذهب مالك رضي الله عنه الا ما قيل في مسح الراس في الوضوء واما الدلك فمشهور المذهب انه واجب لنفسه وقيل لايصال الماء للبشرة وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه وهذا الوصف فيمن يدعي العلم ويتعاطاه حتى اذا نهيت بعضهم عن ذلك ولمته عليه قال ان المطلوب في الوضوء العجلة والتخفيف ويفسر ذلك بالفور الذي هو الموالاة التي هي الاتيان بافعال الوضوء والغسل في فور واحد فيفسر الفور بغير المعنى الموضوع له مطابقة بل بلازمه فاغترت بهم العامة حتى فرطوا في الطهارة فصار بعضهم يغسل الاعضاء دون البعض وبعضهم يلطم الوجه لطما وبعضهم يمسحه مسحا الى غير ذلك من اباطيل افعالهم المضحكة للشيطان ولم يعلموا ان الصلاة بيت الله يأوي اليه كل مومن يريد كرمته وقاعدة عظيمة من قواعد دينه وان الطهارة اساسه الذي تبنى عليه اركانه من احكم الاساس استقر واستقام عليه البنيان ودام ومن لا فلا كما هو مشاهد في الامور المحسوسة وكان الطهارة مفتاح للصلاة كما في الحديث فمن لا مفتاح له لا يجوز ان يتصور له دخول لقوله تعالى واتوا البيوت من ابوابها واذا ارادوا الدخول في الصلاة فجعلهم يتركون الاقامة ويبدلونه بالاستغفار مثلا وبعضهم لا يبالي بعورته اذا انكشفت لا سيما اذا كان المكان خاليا ولا يمدون تكبيرة الاحرام مدا طبيعيا ويلحنون في الفاتحة عمدا وجهلا وقد علمت ان الجهل في العبادة كالعمد فيها اذ لا يعذر احد فيها لقوله تعالى فسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون ولقوله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم

ولا يلحنون

ولابن الحداد زاوية اسفل القرية غير ان السلطة الاستعمارية حولتها الى مدرسة بعد ان القت القبض عليه وقد زرنا هذه الاماكن ، وشاهدنا هذه الاثار بفضل الاخ المناضل وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية الذى تكرم فاوفدنى بمعية الاخ عثمان شبوب وسليم بن الحفناوى هالى الذى صور هذه الاثار التى يراها القارىء على صفحات هذه المجلة وذلك حرصا من الاخ الوزير على احياء التراث وبعث الامجاد .

وقبل وفاة ابن الحداد اوصى ولديه محمد (بفتح الميم الاولى) وعزيز (بضم العين وفتح الزاى) (٨) بسبع وصايا وان كان يحيط ببعضهده الوصايا الشك وقد كان للشيخ ابن الحداد دور كبير فى ثورة ١٨٧١ ، اذ انه خطب فى جموع شعبية حاشدة اثر الصلاة واعلن الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل نصرة دينه ، ونصرة المسلمين ، ورمى بعصاه الى الارض وهى اشارة الى الترهيب والقاء الرعب فى قلوب الاعداء كأنها عصا موسى التى تبتلع كل ما صنعه السحرة من الاعيب زائفة وسطوة



منزل الشيخ ابن الحداد على حاله القديم

مفتعلة ، ودعت الجماهير ، وسألت الله النصر والتأييد فأوقد اعلان ابن الحداد للجهاد أمام الجماهير ومريدى الطريقة الرحمانية نار الثورة واشعل جذوتها اذ انه حرك القلوب ودفع النفوس للنضال ، ومنازلة العدو ، فدوى صوته فى تلك الجبال الشماء ، ورددت صداه ، تلك الصخور وتعالى فى ذلك الوادى الجميل فبلغ اقاصى الجبال واعاليها وسمعه الناس من كل مكان ، وما لبث ان اخرجه الذين تجبروا وطغوا فى البلاد وهم طغاة الاستعمار فصادروا أمواله ونهبوا كل ما يملك ووزعوه على المعمرين .

مؤلفات ابن الحداد

مما الف ابن الحداد رسالة فى التصوف وشرحا لمنظومة ابن راشد (٩) .

تحليل رسالته فى التصوف .

تعتبر هذه الرسالة اهم مصدر لتصوف ابن الحداد وتوجد لدينا من هذه الرسالة نسختان (١٠) نسخة تفضل الاخ الكريم ابن الشيخ محمد الشريف مفتش التعليم ببجاية فمكننا منها وهى تقع فى ٢٩ ورقة وفى كل ورقة ٣٦ سطرا وحجمها ٢٨ سم × ٥ر٢١ سم اولها : يقول العبد الفقير لرحمة ربه الجواد محمد امزيان بن على الحداد عامله الله بلطفه الخفى وخار (١١) له فى الرحيل والميعاد : الحمد لله الذى بدأ الدين ... وآخرها : ووقع الفراغ من تقييده يوم الاربعاء الرابع عشر من شهر الله المعظم رمضان وقت الضحى عام ١٢٦١ هـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كبيرا الى يوم الدين ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وهكذا فان تاريخ تأليف هذه الرسالة يعود الى سنة ١٢٦١ هـ الموافق لسنة ١٨٤٥ م اى انه الفها قبل وفاته بثلاثين عاما اما الناسخ فهو محمد الطاهر بن محمد السعيد بن اسماعيل بن على الزواوى نجل محمد والحاج قرية تفريت نيث الحاج عرش بنى عيسى المنصورى الوغليسى البجائى الذى ينتسب للطريقة الرحمانية وتاريخ نسخها هو الخميس ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٩٧ هـ وجاء فى وصفه لمؤلف الرسالة قوله : (العلامة أمام السالكين وقدوة العارفين وخاتمة المحققين حامل لواء الشريعة والحقيقة شيخنا ووسيلتنا الى ربنا سيدى محمد امزيان ابن الحداد رضى الله عنه) (١٢) وكتب بخط واضح . اما النسخة الثانية فقد مكننى منها تلميذى سابقا

وصديقي الاخ حسيني عبد الرحمن الاستاذ بالتعليم الثانوي مشكورا وهي نسخة تقع عن ٤٥ ورقة في كل ورقة ٢٣ سطرا وحجمها ٢٠ سم × ١١ سم واولها وآخرها يتفقان مع النسخة الاولى غير ان تاريخ الفراغ من تأليفها مسجل في هذه النسخة على انه كان في يوم الاحد ٢ رجب سنة ١٣٤٧ هـ وهو خطأ لان المؤلف مات قبل هذا التاريخ ، ويبدو ان الناسخ اخطأ في كتابة رقم ٢ فكتبه ثلاثة وبذلك يكون المؤلف قد اتم هذه الرسالة في سنة ١٢٤٧ هـ الموافق لسنة ١٨٣١ وهو مخالف لما سجل في النسخة الاولى ، أما الناسخ فهو احمد بن عبد الرحمن بن الحاج السعيد بن حمان وعلى بن محمد البهلولي الامليكشي من قرية تحرفتين اعلى زاوية مجاجة وهو ايضا من اخوان الطريقة الرحمانية وقد نسخها في يوم الخميس ٢٠ شعبان سنة ١٣٠٤ هـ الموافق ليوم السبت ١٤ ماي ١٨٨٧ م وتمتاز هذه النسخة بما حوته من تعاليق على هوامشها ومن المقابلة على الاصل وهي أقدم من الاولى ايضا .

تتكون هذه الرسالة من مقدمة في الاعتقاد ومن ١٢ بابا ومن خاتمة ، فالباب الاول في الترغيب في ذكر الله ، والباب الثاني في الترهيب والتحذير من تركه والباب الثالث في فوائد الذكر والباب الرابع في الجهر بالذكر الباب الخامس هل الذكر افضل ام التلاوة الباب السادس هل الذكر افضل ام الفكر الباب السابع في آداب الذكر الباب الثامن في ذكر بعض أحوالهم الطارئة عليهم الباب التاسع في المشيخة وما يتعلق بها الباب العاشر في التلميذ وطلب الاستاذ . الباب الحادي عشر في موت الشيخ الباب الثاني عشر في الفرق بين الابرار والمقربين اماالخاتمة فتشتمل على مسائل متفرقة(١٣)

بين في فاتحة هذه الرسالة حالة المسلمين الاعتقادية والاجتماعية وما وصل اليه الاسلام من غربة عن أهله ، وذكر انه لم يبق من الاسلام الا اسمه ولا من القرآن الا رسمه وقال : (وقد شاهدنا ذلك في كل قطر وفي كل عصر بلغ اليه علمنا فتجدهم يدعون مسلمين وهم لا يصلون ولا يصومون ولا يزكون ولا يحجون عند الاستطاعة ولا يؤمنون بالله ورسوله حق الايمان فان فعلوا ذلك او بعضه فعلى وجه غير شرعي ...) (١٤) واخذ في نقد

الاوضاع الدينية في ذلك العهد وذكر أن المسلمين بعدوا عن الحقيقة الاسلامية بعدا شديدا وأشار الى أن أهل المغرب قد سقط عنهم الحج لان شرطه وهو الاستطاعة غير متوفر (١٥) أما فيما يتعلق بالايمان فقد أصبح المسلمون — فيما يقول — مقلدين تقليدا رديئا فلا يفرقون بين الرسول ومرسله ولا بين النبيء واصحابه اذ انهم يعتقدون نبوة الخلفاء الاربعة ويؤمنون بالولاية في بعض الاشجار والاحجار ويكذبون باحوال الاخرة ، وتجدهم يحفظون القرآن بغير فهم ولا دراية قال ابن الحداد : (وأما القرآن فقد اهمل العمل به أصلا فترى يحضون على حفظ الفاظه دون معانيه المقصودة فلا يحللون حلاله ولا يحرمون حرامه فيزعمون انهم حملة القرآن وانهم أهل الله واحباؤه وانهم لا يضرهم ما هم فيه من المخالفة مع حفظهم له قال الله تعالى (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعا متصدعا من خشية الله) الاية وقال : (افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) وقال تعالى : ، مثل الذين حملوا التوراة ثملميحملوها كمثلالحماريحمل اسفارا)(١٦)



مصباح زيتي في عهد الشيخ ابن الحداد

وشرح انتشار البدع والضلالات والانحراف عن العقيدة الصحيحة الاصيلة ، وبعد الناس عن الكتاب والسنة فقال : (وانتشرت البدع وفاض بحرها في الارض كلها فلم تخل بلدة ولا قرية بل ولا بيت من بدع شتى ، وشاهدت ذلك بنفسي ... الا من

عصم الله بفضله وهو يسير جدا وخمدت السنة واندرست رسومها لكثرة الجهل وغلبة اتباع الهوى فانقلبت السنة بدعة والبدعة سنة) (١٧) كماوضح ان الولاة والقضاة كانوا من الجهلة المبتدعين اما العارفون بالسنة فقد امسوا غرباء : (فاهل السنة غرباء اذلاء اذا حضروا مجلســا لا يشاورون واذا غابوا عنه لا ينتظرون ، واما اهــل البدعـــة فهم الرؤساء والولاة والقضاة والعمــال فى كل الاقطار والامصار) (١٨) وذكر السبب الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب وهو غيرته الشديدة على الايمان ثم ان شيخه الذى ربــاه وكونـــه وهــو الحــاج المهدى السكلاوى اليراتنى وهو شيخ من شيوخ بنى يراتن ولادة ونشأة اشار عليه ان يكتب تقييدا يرد فيه على الفقهاء الذين تمسكــوا بالظــاهر وانكــروا على المتصوفة بعض الامور التى يستخدمونها فى مناهجهم الصوفية فالف فى الرد عليهم معتمدا فى ذلك حسب رايه على صريح الكتاب والسنة وكلام ايمة الشريعة، منتصرا للصوفية مقيما لهم الحجج والادلة منكرا على اهل الظاهر والغفلة على حد تعبيره (١٩) .

اما المقدمة التى ذكر فيها مســألة الاعتقاد فقد قصد فيها الى اثبات نظريـــة المتصوفـــة فى تربية المريدين حيث ذهبوا الى أن المريد ينبغى له ان يعتقد ويسلم ، ولا يجــوز له أن ينقد او يعــارض وهذه النزعة تنسجم مع مذهبهم فى المعرفة التى تعتمد على الذوق والبصيرة لا على الاستدلال العقلى ولا على النقد والتحليل لان النقد يتنافى مع الروح الصوفية التى لا ترى للعقل اهمية فى طريقها ولذلك فانه أورد قول أبى مدين التلمسانى وهو : « اعتقد ولا تنتقد » وهى العبارة التى كان ابن باديس ينكرها ويرد عليها لانها لا تربى العقل ، ولا تعلــم المنهج الــدقيق فى المعرفة ولكن ابن الحداد بين انه اذا وجب الانتقاد فليكن على شرطه وهو عدم الاضرار كما ان الاعتقاد لا يجوز أن يعتمد على الاعتزاز بالرجال ولا أن ينبنى على مجرد التسليم للرجال ، ونقل عن الفقيـــه ابن عبد الله المغربى قوله : (ان مبـــنى التصوف على التسليم ومبنى الفقه على البحث والتحقيق) (٢٠) فالاصل الاخلاقى فى التصوف هو حمل الناس على حسن الظن حتى يبدو منهم ما يثبت خلافه اما الاصل الاخلاقى عند الفقهــاء فهو حمل النـــاس على غير العدالة حتى تثبت عدالتهم ، وذلك حسب نظرية

فقهاء المذهب المالكى ، واحتاط ابن الحداد اكثر فنقل لنا عن زروق الفاسى رأيا يذهب فيه الى انـــه لا ينبغى الاعتقاد فيمن لم يتحقق من علمه ، ولم يتأكد من سلامة ديانتـــه ، وان كـــان قد اكثـــر من نقل النصوص التى تدل على معنـــى التسلـــيم لشيوخ التصوف وعدم نقدهموتجريحهم ، وذهب الى رأىابن عبد السلام الذى قرر(انمعرفة الولى اصعب واشد من معرفة الله تعالى) ولكن تساهل من ناحية اخرى فى تحديد معنى الولى فذهب ابن الحداد الى القول : (بأن كل مؤمن يوحد الله تعالى ولا يشرك به شيئا مع اقراره برسالة سيدنا محمد صلى اللـــه عليه وسلم ولى الله بلا نزاع (٢١) ثم عقد بابافى الترغيب فى ذكر الله على اساس من الكتاب والسنة واقوال



مسجد الشيخ ابن الحداد الذى بناه بنفسه

المتصوفة مثل ابن عطاء الله الاسكندرى فى كتابه « مفتاح الفلاح » الذى أورد فيـــه أحاديث متعددة ترغب فى ذكر الله رواها عن مالك وعن عمر وعائشة وعن معاذ بن جبل كما نقل من كتـــاب نور الانوار للامام الثعالبى الجزائرى ومن كتاب « بغية السالك فى اشرف المسالك » لابى عبد الله محمد بن أحمد ابن عبد الرحمن بن ابراهيم الانصـــارى المشهور بالساحلى ومن كتاب « تحفـــة السالكين » للشيخ السمنودى الشافعى . (٢٢)

ان الـــذكر عنده سبب المحبـــة وهو يؤدى الى المراقبة التى توصل صاحبها الى مقـــام الاحسان زيادة على ان الذكر يزيل الهم والغم من القلوب ، ويجلب الفرح والبهجة ويفتح باب المعرفة فى القلب وهو قوت الارواح كما ان الغـــداء قـــوت الاشباح والاجسام ، ويجـــلى القلب ويذهب عنـــه الصـــدأ والغفلة والوحشة القائمة بين العبد وربه (٢٣) واشار ايضا بهذا الصدد الى بعض العادات الاجتمـــاعية السيئة فى عهده وهى شطح الرجال مع النساء فى الاعراس فقال : (الذى عمت بهه البلوى وجرت به عادتهم الفاسدة فى البلد ... وعدم الحياء بالغناء والفسق والفواحش فى المحافل) (٢٤) ونعى عليهم هز البطون فى الرقص وما الى ذلك من العـــادات السيئة فى ذلك العهد .

وتجدر الاشـــارة ايضا الى انـــه نقـــل من كتاب الشيخ السنوسى التلمســـانى المسمـــى « بنصرة الفقير فى الرد على ابى الحسن الصغير » (٢٥) واخذ منه عدة نصوص فى مواضيع مختلفة من الكتاب (٢٦) واعتمد على كتاب « نخبة الفكر فى الجهر بالذكر » للحافظ عبد الرحمن السيوطى (٢٧) وانتهى من ذلك كله الى جواز الذكر جهرا واثبت قصيدتين احداهما لابى عبد الله محمد بن غازى والاخرى لابى العباس أحمد بن زكرياء التلمسانى فى هذا المعنى (٢٨) ونقل من كتاب مختصر الاحياء للغزالى الذى اختصره أبو عبد الله محمد بن ابى الحسن الموصلى البلالى (٢٩) كما استدل على ما ذهب اليه من كلام الغزالى نفسه فى احياء علوم الدين حيث رأى جواز الذكر جهرا (٣٠) ومن مصادره كتاب « الجواهر الحسان من تفسير القرآن » للثعالبى وكتـــاب « عنـــوان الاســـرار المصون فى قواعد قوله صلى الله عليه وسلم اذكروا الله حتى يقولوا مجنون للشـــيخ العارف محمد بن محمد على الزواوى النجارى البجائى .

وعقد بابا آخـــر تحدث فيـــه على فضـــل الذكر والتلاوة وهاجم الفقهاء الذين انكروا على المتصوفة الاشتغال بالذكر وترك تـــلاوة القرآن وذكـــر ان الفقهاء يقصدون من علمهم بالظـــاهر الى الرئاسة والزعامة والى احتقار غيرهم من اهل الحقيقة وذهب الى ان علم الظاهر وعلم الباطن متلازمان فمن اقتصر على احدهما دون الآخر فقد زلت به القدم فقـــال : (ان الاقتصار على العلم الظاهر دون الباطن فسق، وعلى الباطن دون الظاهر زندقة وان الجمع بينهما كمال وتحقيق ولكن الجهل مهلك لصاحبه)(٣١)ونقل نصوصا وآراء من كتاب « الاسئلـــة والاجـــوبة » للشيخ احمد بن يوسف الملياني ومن كتاب البغيـــة لابى عبد الله الساحلى الذى قســـم الناس الـــى طبقتين عامة وخاصـــة والخـــاصة الى صنفـــين فقال : (واما الخاصة فعلى قسمين اهل بداية واهل نهاية اما اهل البداية فهم الذين اخذوا فى تخليص انفسهم من شـــوائب الاهـــواء وتطهـــيرها من دنس الشهوات بطبها من علل متعلقـــاتها مجـــاهدة على سبيل الرياضة تربية وتدريجا وسلوكا على طريق التزكية والتحلية بذكر اللـــه تطمئن القلوب) (٣٢) ورأى أن سر القرآن ولبابه ومقصده العميق انما هو دعوة الانسان الى معرفـــة اللـــه وتحـــريك النفس لتتصف بمعنى التـــوحيد الـــذى يجـــذب القلب الى المعرفة الحقيقية ، والذكر انما هو تطهير النفس من كدوراتها لتشرب من عـــين الصفـــاء ويكـــون ذلك بالطريقة الذوقية والتربية الحكيمة (٣٣) وحلل طريقة رسوخ المعانى فى النفس وبينها بيانا تحليليا جميلا يدل على مدى غوص الساحلى فى اعمـــاق النفس وعلى تجربته للمعانى الروحية العميقة وفرق بين الاثر العلمى فى النفس والاثر الذوقى فيها . اما اهل النهاية فهم الذين رســـخ سر التـــوحيد فى بواطنهم ويتلمحون ذلك السر فى كل تصرفاتهم (٣٤) وهناك قسم آخر يسميه بأهل التمكين وللمتصفين بالتمكين حالان حال الاستغراق وحال الصحو ثم اخذ بعد ذلك فى عرض رأى ابن عطاء الله السكندرى والغزالى فى مسألة الذكر والتلاوة وفى بيان اهمية تـــلاوة القرآن وتفهم معانيـــه واسراره فى تربيـــة النفس وتطهيرها والسمو بها الى المراتب العليا من الصفاء والمعرفة والمحبة واوضح ابن الحداد ان الاذكار التى تتعلق بأسماء الله السبعة فى طريقته الخلوتية انما هى اذكار قرآنية ، واطال فى نقل نصوص من كتاب الاحياء للغزالى (٣٥) وفى المقارنة بينه وبـــين كلام الساحلى (٣٦) وجاء بمذهبه فى الذكر والفكر وايهما افضل فأورد نصوصا من رسالة القشيرى عن ابى الحسن السلمى الذى ذهب الى أن الذكر افضل من الفكر (٣٧) بيد أنه نقل من كتاب اختصار الاحـــياء للغزالى لمختصره ، البلالى ان الفكر غاية الذكر ولبه ومن ثم فهو اولى واحرى بالصوفى الحقيقى(٣٨)وبين ابن الحداد أن الخـــلاف بين انصـــار الفكر وانصار الذكر خلاف لفظى اذ أن كليهما بصقل القلب ويؤدى

الى معرفة النفس والى معرفة الخالق (٣٩) وحلل راى الصاحلى فى ذلك واشار الى تأثر الثعــالبى الجزائــرى بــه ونقله عنــه فى تفســيره الجواهر الحســان .

ثم أورد آداب الذكر وذكران اساس الطريق انما هو الادب واتى بنصــوص من كتــاب « الامــر المحكم المربوط فيما لاهل الله من الشروط » لمحى الدين بن عربى ، ورجع الى رسالة القشيرى وشرح احوال الذكر المختلفة وبين مذهب الشيخ مصطفى البكرى فى حاشيته الوصيــة الجليلــة وذهــب الى ان الاهتزاز فى حال الذكر يدل على أن صاحبه ذو شوق وغرام وان التمكن فى ذلك دليل على الوصول اما عن طريق المكابدة الشديدة مع العناية الالهية واما عن طريق محض الجود الالهى ويبدو أن الشــيخ ابن الحداد يدافع عن الاهتزاز متأثرا فى ذلك بشيوخه وشيوخ التصوف عامة فى ذلك العصر (٦) واستعرض راى الشيخ السنوسى التلمسانى وجلال الــدين السيوطى فى هذا المجال ثم اتى بقصيدة تنسب لابى مدين التلمسانى فى الوجد والشوق .

رغم تأثر ابن الحداد بالمتصوفة فانه هــاجم أصحاب البدعة منهم وأوضح انهم على ضلال فى كثير من الاشياء التى اتصفوا بها فى عصره فقال : (ولقد رايت كثيرا من الناس يعتقدون الولاية فى غير اهلها وهم اهل البدعة الشنيعة كترك الصلاة ومنع الزكاة وترك الصوم والذكر وجميع افعال البر وهم من اهل السحر والشعوذة والمكاشفة لا سيما ان كانوا اولاد الصالحين فيعتقدون على ولايــة وشرف آبــائهم واجدادهم ويتولــون لهــم بتسويــل أنفسهم نحن مسرحون من التكاليف الشرعية وقد كفروا بتجاسرهم على الله تعالى وتكذيبهم بالشريعة المحمدية فــانها جاءت بتكليف جميع العقلاء من غير تخصيص فلا احد اشرف ولا احد ارفع قدرا وجاها من شرفه وقدره وجاهه صلى الله عليه وسلم (٤٠) ثم اورد مذهب الثعالبى الجزائرى الذى يرى انه ينبغى تأويل اقوال الصوفية المخالفة للشرع لان التأويل فى نظره أوسع وهذا يجعلنا نبعد الثعالبى من دائرة السلفية وندخله فى زمرة المتصوفين الذين يحاولون ان يدافعوا عن مذاهب دخيلة وأن يبرروا مخالفة الصوفية للشرع بتأويلها قال الثعالبى : (لا تعترض اقوال الصوفية وان تجد اقوالهم مخالفة للشرع فأولها وصف القلب من الكدرة والغل والغش لان التأويل واسع (٤١)

ثم اخذ فى الكلام على منهج التربية الصوفية وعلى شروط المربين من الشيوخ معتمدا فى ذلك على محى الدين بن عربى وعلى زروق الفاسى فقسم الشيوخ الى ثلاثة اصناف : شيخ تعليم وشيخ تربية وشيخ افادة وترقية فشيخ التعليم هو الذى تتوفــر فيــه شروط ثلاثة : (عقل راجح وعلم صحيح ولسان فصيح فبالعقل يهتدى وبالعلم يقتدى وباللسان يبين ومتى بطل واحد منها فلا عبرة به) (٤٢) ويشترط فى شيخ التربية ثلاثة شروط ايضا : (العلم الثــابت والذهن الثاقب والسياسة التامة فبالعلم يهــتدى وبــالذهن يدرك الكمــائل مــن النفــوس وغيرها وبالسياسة يتصرف) (٤٣) ونقل فى ذلك آثارا عن الجنيدى وعن ابن على الثقفى وابن مدين التلمسانى وابى محمد عبد السلام بن مشيش وابن عطاء وتاج



الخلوة التى كان يتعبد بها الشيخ ابن الحداد

الدين العثمانى فى رسالة بيان الطريقة النقشبندية والمليانى وذهب الى أن اكثر اهــل زمــانه فقدوا الشيوخ الذين تتوفر فيهم الشروط (٤٤) ثم تكلم على المريدين والتلاميذ معتمدا فى ذلك على أحد شيوخ التصوف وهو البجائى وعلى أبى يعقوب يــوسف العجمى المالقى والشــيخ زروق فى كتــابه الفصول وعبد الله الحضرمى صاحب رســالة المــريد ،

والشيخ مصطفى البكرى فى رسالة الوصية الجليلة ورسالة النصيحة السنية فى معرفة آداب كسوة الخلوية وعلى الفيته فى السلوك وهى التى مطلعها :

واعلم أن نسبة الروحانى
اقرب عندهم من الجسمانى (٤٥)

كما اتخذ له مصدرا كتاب تاج الدين الثعالبى فى طريق النقشبندية وعلى ابى على الدقاق أيضا حيث بين ضرورة الشيخ للمريد لان الشجرة التى تنبت وحدها لا تثمر كما قال ابو على الدقاق فلابد فى نظره من السبب فكما أن التوالد والتناسل لا يحصل بغير الوالد والوالدة كذلك التوالد المعنوى لا يحصل بغير مرشد وملهم ، ونقل عن عز الدين بن عبد السلام من كتابه « حل الرموز ومفاتح الكنوز » انه: « من لا شيخ له لا قبلة له ومن لا شيخ له فالشيطان شيخه » وما الى ذلك من آراء المتأخرين من لصوفيه الذين رأوا أن الشيخ ضرورة ملحة فى نقل ...راث الروحى الى المريدين وذكر الخلاف الذى وقع بين ...يح شيوخه محمد بن عبد الرحمن وبين مولاى الطيب احد الصوفية المعاصرين له ونقل نصوصا عديدة من كلام محمد بن عبد الرحمن الجرجرى الازهرى التى اوضح فيها أن الشيخ الذى اخذ عنه محمد بن عبد الرحمن التصوف والطريقة الخلوتية انما هو الشيخ الحفناوى الازهرى المصرى (٤٦) انه مخالف للحاج عبد القادر بن المختار الدفيشى الذى اتى ببعض البدع بعد وفاة شيخه محمد بن عبد الرحمن وتبين من هذه النصوص ايضا أن الشيخ ابن الحداد فى التصوف هو احد تلاميذ محمد بن عبد الرحمن وهو على بن عيسى ومن شيوخه أيضا تلميذ على بن عيسى وهو الحاج المهدى .

ثم عقد بابا أوضح فيه الفرق بين المقربين والابرار وختم الكتاب بخاتمة تتضمن عدة مسائل نقلها من عدة كتب فذكر مسالة سند الخرقة ، ومسالة النفس والروح نقلا عن احمد المليانى ومسألة اهل الدائرة ومسائل من رسائل القشيرى مثل مخالفة النفس والقناعة والاخلاص والفتوة والبرزخ والتوبة والخوض فى التوحيد ناقلا من رسالة الغزالى المسماة بقواعد العقائد ومسألة الاتحاد والحلول ومذهب أبى يزيد البسطامى وسهل بن عبد الله التسترى فى هذا الصدد .

وبعد فان ابن الحداد حاول أن يجمع فى رسالته (٤٧) هذه اهم الموضوعات التى يدور حولها التصوف وسلوك اهل الطريق ، ودل بذلك على انه اطلع على مصادر كثيرة فى التصوف سواء ما كان منها من مؤلفات قدماء الزهاد أو من مؤلفات المتأخرين من اهل الطريق ولا نستطيع القول بأنه مجدد فى التصوف بل هو سائر على منهج الخلوتية وهو منهج الطريق الرحمانية التى انتشرت على يديه وكتب لمريديها ان يشاركوا فى ثورة ١٨٧١ وان يكتبوا صفحة ناصعة من تاريخ النضال الجزائرى والذود عن الذات ، وعن المعانى الخوالد التى غرست جذورها فى تلك الجبال الشامخة وامتدت رسوخا وتأصيلا ، وكل من حاول أن يقتحم عرينها أصولها فى الارض فلن تبيد ولن تزيدها الايام الا اتت عليه اسود غابها وسحقته كما سحقت كل معتد اثيم من قبل .

---

(١) التعليق على هامش رسالته فى التصوف ، نسخة د ورقة ٢ .

(٢) فى الاصل واحسنوا به .

(٣) الوصايا السبع لابن الحداد ورقة ١ ، ولقد تكرم الزميل . . سعد الله فمكننى من نسخة مصورة منها .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) رسالة التصوف لابن الحداد ورقة١٩ نسخة ش ورقة٣١هـ

(٦) ابن الحداد ، رسالة التصوف ورقة ٢١ س ، وذكر انه كان يزور قبر الشيخ محمد بن عبد الرحمن ، ويجتمع بالحاج عبد القادر واعجبه حال المزخرف .

(٧) المصدر نفسه .

(٨) وقد ضبط ذلك في الوصايا .

(٩) وقف على هذا الشرح السعيد ابو داود مفتش وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بولاية سطيف .

(١٠) واخبرنى الشيخ السعيد ابو داود أن لديه نسخة اخرى ناقصة لم اطلع عليها .

(١١) في الاصل وحازوا النصيحة نسخة هـ .

(١٢) الرسالة ورقة ٢٩ ش

(١٣) ش ورقة ٢

(١٤) ش ورقة ١

(١٥) ش ورقة ٢

(١٦) ش ورقة ٢

(١٧) ش ورقة ٢

(١٨) ش ورقة ٢

(١٩) ش ورقة ٢

(٢٠) ش ورقة ٢

(٢١) ش ورقة ٣

(٢٢) ش ورقة ٣

(٢٣) ش ورقة ٤

(٢٤) ش ورقة ٥

(٢٥) توجد منه نسخة في المكتبة الوطنية في الجزائر وفي مكتبات أخرى في المغرب .

(٢٦) ش ورقة ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٣

(٢٧) ش ورقة ٦

(٢٨) ش ورقة ٧ ، ٨

(٢٩) ش ورقة ٨

(٣٠) ش ورقة ٨

(٣١) ش ورقة ٩

(٣٢) ش ورقة ١٠

(٣٣) ش ورقة ١٠

(٣٤) ش ورقة ١٠

(٣٥) ش ورقة ١٠

(٣٦) ش ورقة ١١

(٣٧) ش ورقة ١١

(٣٨) ش ورقة ١١

(٣٩) ش ورقة ١١

(٤٠) ش ورقة ١٥

(٤١) ش ورقة ١٥

(٤٢) ش ورقة ١٦

(٤٣) ش ورقة ١٦

(٤٤) ش ورقة ١٦

(٤٥) ش ورقة ١٧

(٤٦) ش ورقة ٢٠

(٤٧) ش رمزت اليه الى نسخة ابن الشيخ محمد الشريف بحرف ش والى نسخة الحسينى عبد الرحمن وهو من اسرة ابى الحداد بحرف هـ .

عمار طالبى استاذ الفلسفة بجامعة الجزائـــــر



"المسبلين"

او

المدانيون الجزائريون الأولون

مبارك الخليجي

« المسبلون »؟ من هم ؟ متى واين ظهروا وما هو دورهم فى مقاومة الغزاة المعتدين وبالخصوص فى ثورة ١٨٧١ التى نحيى ذكراها المائوية فى هذه الاسابيع ؟

هذه هى الاسئلة التى ساحاول ان اجيب عنها فى هذه الكلمة :



المسبلون او الفدائيون

عندما دخل الفرنسيون بلدنا فى جوان ١٨٣٠ انهار الحكم المركزى فى مدينة الجزائر بسرعة مدهشة ... ولكن شعبنا لم يرض بهذا الانهيار ولم يرضخ للاستعمار ، بل انه قاوم الغزاة المعتدين عشرات السنين : دامت مقاومته ما يقرب من نصف قرن ! وفى هذه الحقبة الطويلة من الكفاح بشتى انواعه ورجاله برهن اجدادنا على تفانيهم فى حب الوطن وقدموا آلاف الشهداء قرابين على مذبح الحرية .

وان اصدق صورة لهذا التفانى واكثرها عبرة فى تقديرى لهى ظاهرة « المسبلين » التى لم اعثر على مثلها فى التاريخ الا عند اليابانيين فى صورة « الكاميكازى » أو عند الفيتناميين فى أيامنا هذه.

فكلمة « **المسبلين** » نفسها من حيث مدلولها — ان كانت من مادة « **سبل** » — فمعناها فى الاصطلاح عندنا هو : كل متطوع مستميت للجهاد يعمل بشعار : النصر أو الاستشهاد .

فهو غير الجندى العادى الذى قد يضطر احيانا الى الاستسلام او الى التصالح المؤقت مع العدو .

تراتيب الاستبسال ، او كيف كان يتم هذا التطوع ؟

عندما يحدق الخطر بالوطن ، يشرع اهل الراى فى تنظيم الدفاع عن عشائرهم ، ولهذا كانوا يبعثون مناديا ، ينادى بالجهاد فى المداشر والاسواق ، فيؤجج العزائم ، ويعلن فى الملأ ان الدفاع لا يكتفى بالمجاهدين العاديين فقط ، بل يحتاج الى « المسبلين » .

وفى اليوم الموعود يحشد هؤلاء الابطال ، فيجتمع الناس من جميع القرى ، وبمحضر ائمة العشيرة كلها ، واحيائها ، يسجل

الضرب مـــن الجهاد ، وينتسب امـــام المـــلا ، ويمسمع ذويه ورضاهم .

ب) الشـــروط

قد تتلى عليهم شروط « الاستبســـال » (ان صح التعبير) وتعطى لهم تعليمات الجهـاد ، فيناقشون الخطة التى ينبغى اتخاذها اثنـــاء المعركة ، ويعين لكل واحد منهم ، مركزه الذى يجب ان يحتله فيها ، ونوع الســـلاح الـــذى يستعمله ، ومسافتا الكر والفر عند الحاجة ، ويطلعون كذلك عما لا يجوز لهم اتيانه اثنـــاء المعارك ، كالاختلاط بالمجاهدين الاخـــرين ، أو رفع جثمان شهيد منهم ، بل وحتى ابعاد الجرحى منهم لا يتم الا بأمر من رئيسهم الـــذى يعينونه بأنفسهم ، الى غير ذلك من التراتيب الدقيقـــة التى تضم أسماءهم .

ثم يؤدون اثر ذلك يمين الشرف على المصحف الكريم .. ويختتم هذا الحفل بشىء رهيب : صلاة الجنازة على المتطوعين ، وهم واقفـــون واجمون .

فى انتظار المعركـــة

وبعد هذه التلاوة ، وهذه الصلاة الغريبـــة ، وفى انتظار الحرب ، يعيش « المسبل » فى كفالة أهل القرية الذين يقدمون له اطيـــب طعـــام ، وافخر لباس ، وامضى سلاح . فالكل ينظر اليه باكبار وتقدير ، كأنه شهيد بعث من جديد !

بعـــد المعركـــة

و « المسبلون » الذين يستشهدون اثناء هذه الحروب ، يدفنون فى مقابر خاصة يقصدهـــا الناس جيلا بعد جيل ، زائرين خاشعين للترحم على ارواحهم ، أو للتبرك والاقتداء بهم .

اما أراملهم واعقابهم ، فانهـــم يصـــيرون فى كفالة جماعة المواطنين الذين يقومون بالنفقـــة عليهم ، ويحترمونهم ايما احترام .

وكذلك الابطال الذين لا يستشهدون ، اما لان النصر كان حليفهم ، واما لانهم أبلوا من جراحهم فانهم يعيشون اعزاء مبجلين ، ولهم الصدارة فى قومهم الذين يعولون العجزة منهم والمعطوبين

أما « المسبلون » الفارون مـــن القتال ـــ وكان هذا لا يقع الا نادرا ـــ فانهم يصيرون منبوذين ، لا ينطق باسمهم احد كأنهم غير موجودين ، بـــل لا يكلمهم أحد ولا يصاهرهم ولا يتعامل معهـــم، ولو كان من عشيرته الاقربين .

متى واين ظهـــروا

ان « **المسبلين** » قاموا فى ثورة سنة ١٨٧١ بدور نستطيع أن نعتبره بحق ، مثالا للتضحيـــة والفداء . فبالرغم من ان هذا المقال ليس مجالا للحديث عن دعائـــم الثـــورة ، فانـــى أجـــدنى مضطرا الى أن أؤكـــد هنـــا . أن الطريقـــة « الرحمانية » هى التى ساهمت بالحظ الاوفر فى تحريك الهمم ، وايقاظ الشعور الوطنى ضد الغزاه الدخلاء ، ولهذا فجـــل « المقدمـــين »

الرحمانيين ، كانوا بمثابة ائمة حرب فى كثير من الانحاء الثائرة .

ففى ناحية اربعاء بنى ايراثن تجند « الاخوان» وقام مقدمهم **السيد محمد على السحنونى** بتنظيم الهجوم على هذه المدينة المحصنة التى حاصرها بجيشه اكثر من شهرين ، فأمر فى البداية بحفر خنادق للولوج تحتها الى معاقل الدفاع ، كما قذف المدينة بالمدفع الوحيد الذى استعمله اجدادنا طيلة هذه الثورة كلها .

ولما فشلت هذه الوسائل ، فكر فى الهجوم ليلا على اسوار المدينة وبفضل « المسبلين » الذين كان عليهم أن يتسلقوها فيحرروا المدينة ويطردوا منها ومن الناحية كلها المستعمرين الفرنسيين ، فحشد ما يزيد عن الفى « مسبل » قسمهم قسمين : الاول تعهد باقتحام الاسوار على السلالم ، والثانى بدخول المدينة والاستيلاء عليها . فحدد تاريخ الهجوم بليلة ٢٢ مارس ١٨٧١ — ولكن احد الخونة ، دخل المدينة خلسة واخبر اسياده من « البيرو آراب » فتاهب العدو لابادة « المسبلين » بالحديد والنار .

ولقد وصف احد الغزاة المحاصرين فى المدينة هذه الليلة قائلا : « كانت الليلة هادئة ساكنة ، يخيم على الطبيعة ظلام كثيف رهيب ، لا عهد لنا بمثله من قبل ، لا صيحات ولا طلقات .. ثم بعد ما مضى ، من الليل اكثره تعالت من الفضاء من ناحيتين اثنتين ، أصوات تردد نشيدا دينيا مخيفا ينبئى باقتراب الهجوم ... وفجأة سمعنا فى الشعاب المحيطة بالمدينة قعقعة عظمى ، تبعتها صيحات مزعجة ، وطلقات متتالية ... فتحققنا ان العدو ، وصل الى الخنادق ، وانه يستعد لصعود الاسوار ... ولكننا كنا لهم بالمرصاد ... فحصدناهم بالرشاش حصدا ، واجهزنا عليهم بالمدافع طردا ، فكانت وهادهم لهم لحدا ... »

وفعلا فقد سقط فى هذا الهجوم اكثر من ٣٠٠ مسبل ، بقيت اسماء بعضهم حية ، الى ايام حربنا التحريرية .

ولنا مثال آخر من هذا الجهاد ، جرت حوادثه سنة ١٨٥٤ فى ايام السيد محمد بن عبد الله المكنى « ببوبغلة » عندما حاول الفرنسيون لاول مرة ان يقهروا جبال جرجرة التى كانت تتحداهم بشموخها وصمودها ، فحشد الفرنسيون جيوشهم وجلاءهم ، وقرر بوبغلة من جهته بارشاد من الزعيمة الروحية السيد **فاطمة نسومر** ، أن يستنجد بـ « المسبلين » ، فتطوع من اهل الناحية عشرات الشجعان ، اتخذوا اخاديد واسوارا ليربطوا ، وليردوا منها هجمات العدو ، وكانوا موزعين على ثلاثة مراكز ... وعندما استولى الفرنسيون على احدهما بفضل عددهم وعدتهم ، وجدوا ثلاثة من هؤلاء الابطال فى اخدودهم ثابتين ، وفى ارجلهم قيود بها مترابطين كيلا يتقهقر احدهم او يلين ... !

وفعلا فلم يقبلوا بالاستسلام ، حتى سافهم العدو سيفا ، ولكنهم بفضل تضحيتهم هذه صدوا العدو عن الناحية كلها ، فبقيت حرة عددا من السنين ، ولم تقهر الا فى ١٨٥٧ .

ولنا امثلة اخرى كثيرة من هذا الجهاد، جرت حوادثها فى جهات مختلفة من بلدنا ، منها ما ينكره آباؤنا ، فيفتخرون به فى احاديثهم واسمارهم ، ومنها ما اختلط فى ذاكرتنا ، فامسى عندنا من اساطير الاولين ، ومهما يكن من امر هذا او ذاك ، وايا كان مصدره وزمانه، فلكم اود ان تجمع كل هذه الامجاد ، لتكون عبرة لاولى الالباب .

مبارك الخليجى استاذبثانوية الامير عبد القادر

الذكرى المئوية

سائل الصحراء عنا والجبالا ... هل جلت ساحاتنا الا رجالا
توجوا تاريخهم تاج على ... وكسوه بالبطولات جلالا
عشقوا المجد ، فماتوا دونه ... ميتة ظلت على الدهر مثالا
علموا الاجيال من احفادهم : ... لم يسد فى الارض من هاب القتالا

لا تطا ارضك الا ذاكرا ... ان فى تربتها عما وخالا
مهجا سالت على هذا الثرى ... حقبا شتى واجيالا توالى
ورفاة للاولى سادوا الدنى ... واانالوا عدلهم خصما وآلا
ان ترم شبرا على رحب بها ... لم يرووه دما رمت المحالا

سل ذرى «المسيد» (١) بسل، ميلية (٢) ... سل قرى الصفصاف (٣) تصدقك المقالا
من ثناياها ومن ادغالها ... وعلى هاماتها راشوا النبالا
عج على «البيبان» واسال سفحها ... عن رجال لا يهابون النزالا
وانزل «القلعة» (٤) واطرق حصنها ... وعلى اشياخها الق السؤالا
ان بالقلعة اجداثا حوت ... عزمات لم تهن يوما فلالا
واصعد «البرج» (٥) فلا تعدم به ... حافظا يملى ولا يشكو ملالا
هذه « مجانة » (٦) سل اهلها ... عن شهامات الاولى سلوا النصالا
ها هنا « المقرانى » احماها لظى ... و «ابومزراق» (٧) أضراها اشتعالا
فى ذرى « ديرا » وفى « ونوغة » (٨) ... ضربات لم تزل تكسو الجبالا
قف على « سفلات » (٩) واسال ربعها ... انه اعلم بالثاوين حالا

ان تزر «صدوق» (١٠) تطلعك على ... سرها المدفون اعصارا طوالا
هزها صوت : الى ساح الفدا ... ايها الاحرار ! فانثالوا انثيالا
جيش الاستعمار مهما عصفت ... ريحه ، نلق به بحرا نكالا
فى الثمانين تصدى « شيخها » (١١) ... لعوادى البطش لم يعرف كلالا
جالد الاعداء لم يحفل بما ... اوعدوه ، وقضى شهما فنالا

---

١) جبل فى سوق اهراس بدات المناوشات الاولى فى ٢٣ /١/ ١٨٧١
٢) بلدة الميلية حيث بدات المناوشات الاولى فى نفس الفترة
٣) واد الصفاف قرب عزابة بدات فيه المناوشات فى نفس الفترة كذلك
٤) قلعة بنى عباس حيث يوجد ضريح المقرانى
٥) برج بوعريريج
٦) بلدة مجانة مكان اندلاع الثورة فى ١/٣/ ١٨٧١
٧) اخو الحاج المقرانى
٨) جبلان الاول بالقرب من سور الغزلان والثانى فى الحضنة
٩) بلدة سفلات بالقرب من عين بسام حيث استشهد المقرانى فى ٥ / ٥ / ١٨٧١
١٠) بلدة صدوق المكان الذى اعلن فيه الشيخ محمد امزيان بلحداد الحرب يوم ٨ / ٤ / ١٨٧١
١١) هو الشيخ بلحداد

ثورة ١٨٧١

شعر: عمر شكيري

مل الى « المداد » (١٢) وانزل دوحه   تلق بالمداد من صال وجالا
« مالكا » (١٣) اكرم به من ثائر   واخاه (١٤) فى الوغى انعم خصالا
تواما حرب وخلسا غارة   فجرا الغرب نجودا ودغالا
اقسما لا يعرف الطرف كرى   لا ولا طرفا هما يوما شكالا
اقحما نفسيهما فى غمرة   فتحا منها الى الخلد مجالا
وتبارى القوى فى سحق العدا   صعدا شرقا وغربا وشمالا

اججوا الحرب فعادت جذعة   ثورة عمت سهولا وتلالا
وسرت كالنار فى جنح الدجى   تلهب الشعب يمينا وشمالا
ركزوا الرايات فى اجبالهم   والى الصحراء مدوها ظلالا

ناصر (١٥) يوغل فى غاراته   يتحدى البغى جهرا لاختالا
ذو مروءات تفيا ظلها   من نجا من قبضة البطش وعالا (١٦)

كانت الصحراء ظلا وارفا   لبنيها وعلى الاعداء ثقالا
طحنتهم لم تدع فيهم فتى   وارى العزم ولم تترك رحالا

عصفت بالخصم « اغواط » (١٧) وعمو   ر(١٨)ومقرار(١٩)وصالح (٢٠) والشلالا٢١

ورمت من نخلها ظلا ومن اعذا   قها رطبا واقداحا حفالا
وغدت تحنو على ابنائها   تغدق الدر وتسقيهم زلالا
ايها السائل عن امجادنا   هذه امجادنا عزت منالا
عزة الماضى ، تلاها حاضر   صفحات كللت غارا وهالا

---

١٢) المداد جبل بالونشريس
١٣) هو مالك البركانى الذى اعلن الحرب فى الونشريس فى اليوم الذى القى فيه القبض على الشيخ بلحداد قرب بجاية فى ١٣ /٠٧ / ١٨٧١
١٤) هو ابراهيم البركانى شقيق مالك البركانى
١٥) هو ناصر بن شهرة الذى انضم اليه ابومزراق وبوشوشة وقادوا الثورة فى جهات متعددة
١٦) اشارة الى محافظته على اسرة المقرانى بعد استشهاد الحاج امحمد واسر ابو مزراق والتجا بها الى تونس ثم الى الشام
١٧) بلدة الاغواط
١٨) جبال عمور
١٩) جبال مقرار
٢٠) بلدة عين صالح

معشـــر الاحـــرار حياكـــم حـــمى | شامـــخ العرنـــين مرهوبـــا جـــلالا
ساحـــرا ترتـــاده العـــين فـــلا | تنثنـــى عنـــه صفـــاء وجمـــالا
اينمـــا ســـرت تمليـــت ربـــى | جنـــة فيحـــا واغصانـــا غـــلالا
فتنـــة ابدعهـــا الخالـــق فى شطـــآ | نـــه غابـــا وبحـــرا ورمـــالا
سامقـــا يزهـــو بمـــا انجزتـــم | مـــن جليـــل وبمـــا خـــط مـــآلا
يحكـــم الفكـــرة ، جبـــار الخطـــى | يؤثـــر الحكمـــة لا يالـــو جـــدالا
فـــاذا مـــا سيـــم حيفـــا رده | صـــارم الضربـــة فتاكـــا عضـــالا
صنتـــم الارض وصنتـــم كنزهـــا | وطردتـــم عـــن مغانيهـــا الثعـــالا
وغدوتـــم اســـوة مثلـــى فمـــن | مجـــد الماضـــى اثـــراه فعـــالا
يا دعـــاة الحفـــل جوزيتـــم نـــدى | وبلغتـــم فى امانيكـــم كمـــالا
حزتـــم السبـــق بمـــا احييتـــم | مـــن فخـــار للاولى سنـــوا النضـــالا
وسننتـــم سنـــة محمـــودة | يحتذيهـــا كـــل مـــن بـــر الرجـــالا

القى هذا القصيد بمجانة وقلعة بنـــى عباس بمناسبة الذكرى المئوية لثورة ١٩٧١ واستشهاد المقرانى



---

٢١) الشلالة الغربية والشرقية وهى كلها فى الصحراء الغربيـــة .

قلعة وثائر

شعر: احمد شقار الثعالبى

حى هذى الجمـوع رمـز الفـداء … للمبـادى النقيـة البيضـاء
واثـر فيهـم الحنـين لمـاض … شـاده الثائـرون عـالى البنـاء
ثم صل حاضر الشباب بمـاض … وطدت صـرحه غوالـى الدمـاء
عمـل الخالديـن فى كـل حقـل … يغمر الشعب موكب مـن ضيـاء
ونضـال الثـوار طاقـة وعـى … يجمع النشء فى حقـول الاخـاء
وبـذور الفـدا اذا خضبتهـا … عاصفات مـن مـارج بالدمـاء
تنفخ الـروح فى الجلاميـد نيـا … را يجـر الفنـاء للاعـداء
ابـه يـاروح ثائـر اطلقتهـا … نبسة المـوت فى سبيـل البقـاء
كنت للشعب قوة تسلب النصـر … ولـو كـان فى بحـار الـدماء
كنت اعجوبة الشجاعة فى الحـر … ب وفى السلم نفحة مـن سخـاء
كنت للحس نسمـة فى صبـاح … بـين اغصـان روضـه غنـاء
كنت للبائسيـن ومضـة عطـف … كنـت للكادحـين رمـز رجـاء
قبسا كنت يمـلأ الجـو نـورا … وشهابـا مـن حكمـة ومضـاء
— مقرانى ذكراك شاهد عـدل … انمـا روح همـة ووفـاء
مقرانى هذى سواعـد شعبـى … حطمت صخرة العـدو المرائـى
اعلنت فى صراحـة ان شعبـا … غذتـه فى شجاعـة وابـاء
عربـى اللسـان مسلـم قلـب … مزغنـى الشعـور فى الـلاواء
مقرانى احفادك اليـوم يسعـون … ويشقـون دون درب الضيـاء
واذا كـانت العراقيـل ستـى … يثها لبعض فى طريـق البنـاء
ان فى عـزمنا نوافـذ بـاس … تهـدم الهادميـن دون مـراء
ان فى حـزمنا مباضـع صبـر … عربـى يزيـل كـل شقـاء
قلعتـى هـذه تحيـة شعـرى … كنسيم يشيـع روح الصفـاء
هب يهفو الـى رباك مشيـدا … مزايـاك فى الخـلال الوضـاء
ان تكونى رمـز الابـاء حديثـا … [illegible] الحنقـاء
قد تجسمـت فى الربـوع نباتـا … واعتـزازا كصخـرة الصمـاء
فراك التاريـخ همـة اصـرار … [illegible] مخـاوف الدخـلاء
قد تبنيت فكرة الرائـد المقـدام … [illegible] العلمـاء
ان تكونى امـا رؤ مـا بومـا … [illegible] الانشـاء
وتر الشعـر والتالـم (حلسوا … [illegible] العمـراء
(التريدى حارث) و (ابن [illegible] … [illegible] الفـداء
او يكن من بنيك جبش [illegible] … [illegible] روح الرجـاء فى الارجـاء
ساد فى كل ربوة معمـلا [illegible] … [illegible] الطريـق للانمـاء
او يكن منهـم المعلـم والا[illegible] … تـاذ يحلـو بصائـر النجبـاء
فلقـد كنـت فى القديـم منـسا را … [illegible] والمعلـى والوفـاء
صنعـت انيـة رندت [illegible] … [illegible] الشخصيـة الشمـاء
ما تزالين قلعة المجـد محـررا … لايـادى عـزة قعسـاء
قد ضممت الفخـار فى لحد ([illegible] … [illegible]) فاسبحـت معقـلا للابـاء
شاهدى قلعتى مواكـب نعـب … [illegible] هـام بالتضحيـات والعليـاء
جاءك اليـوم خاشعـا ليحـى — … ذكرى قرن لسيـد الشهـداء

القى هذا القصيد بقلعة بنى عباس يوم ٥ / ٥ / ١٩٧١ بمناسبة الذكرى المئوية لثورة ١٨٧١ واستشهاد المقرانى

نـدوة الأسـاتذة حـول ثـورة ١٨٧١

نظمت اللجنـة الثقافيـة بكلية الآداب بمناسبة الذكرى المئويـة لثورة ١٨٧١ ندوة ضمت عددا من الاساتذة والطلبة .

وأدار الندوة الاستـاذ محمـد العربى ولد خليفـة

محمد العربـي

ايها الزملاء الكرام ، ايها السيدات والسادةان نظرة فاحصة الى تاريخنا القريب لتبعث فينا الزهو والاعتزاز فمنذ وطات اقدام المحتـلهذه الارض وهو يواجه بركان الثورة اينمـا ولى وجهه ، ثورة لم يخمد سعيرها ، ـ وانكمن احيانا ـ حتى لاحت تباشير ثورة فاتح نوفمبر ، التى اختمرت فيها بـذور الحقـدالمقدس المتاجج فى اعماق الشعب منذ قرن ونيف من السنين ، وهى حقيقة طالما انكرهاوتنكر لها سدنة الاستعمار الذين سخـروا العلم لتشويه اصالتنا ومشـوا فى ركـابالاستعمار يمهدون له الطريق ببث الفرقـة

وثورة ـ ١٨٧١ ـ التى غمرت بلادنا منأقصاها الى ادناها واستجاب لها الشعـب الجزائرى فى لمح البصر وقدم اثناءها مواكب منالابطال الشهداء ، لانها خاطبت فيـه قلبـه وروحه ، اباءه ورفضه للخضوع ، هذه الثورةهى فصل من قصة طويلة تكـذب احداثهـا ومواقعها مزاعم الاستعماريين وسدنتهم ، وقدآن الاوان لنكشف اليوم عن هذه الذخيرة التى بقيت ردحا طويلا من الزمان طى النسيـانيكتنفها الغمـوض وتتضـارب فى تعليلهـا وتفسيرها الآراء والتاويلات . ولا ريب ان خيرمكان لطلب الحقيقة فى تاريخنا والاجتهاد فى نفهم مغزاه وابراز احداثه وتجديد مدلولهاهو هذا المكان ، فلابد ان تخـرج كليتنـا ، واعنى كلية الآداب بوجه خاص ، من سباتهاوعزلتها وربطها بمجموع الاحداث الثقافيـة والاجتماعية والوطنية بحيث تكون صـورةصادقة تعكس واقعنا كما هو وكما ينبغى أن يكـون .

ايها الاخوة ، لقد غفلنا ونحن نتطلـع الىالرز نامة لنحدد يوم فاتح افريل موعدا لهذه الندوة أن هذا اليوم ، قد اصطلح البعض علىالسماح فيه بالكذب الابيض ولذلـك فنحـن نلتمس المعذرة عن التقصير وعـدم الايفـاءبما وعدنـا .

ويشترك فى ندوتنا هذه الاخ الاستاذ عمارطالبى الذى كلف نفسه مشقة زيارة المناطـق التى حدثت فيها ثورة ١٨٧١ وتسلق الجبـالليشاهد عيانا خلوة الشيخ ابن الحداد ويجمع الوثائق النادرة والمفقودة وسوف يحلل لنـاالعوامل المختلفة التى ارهصت بالثورة ويرسم لنا ملامح شخصية البطل ابن الحداد وابنائهفى هذه الثورة وكذلك الاخ الاستاذ عبد القادر حليمى الذى سيحدد لنا بواسطة الخرائـطالمنطقة التى دارت فيها رحى المعارك واهمية المواقع من الناحية الجغرافية .

شعبية الثورة وشمولها لأغلب أنحاء الوطن

الاستاذ حليمى :

الذى يهمنى من هذا الموضوع هو الجانب الجغرافى . فالاقليم الذى انطلقت منه ثورة المقرانى فى مطلع سنة ١٨٧١ يتكون من جبال مرتفعة شديدة التضرس وهى جبال البابور والبيبان التى تعد جزءا من جبال جرجرة وجبال الاطلس التلى الشرقى بصفة عامة . والمتتبع لخريطة الاقليم يلاحظ ان وعورة المنطقة ساعدت على ان تكون هذه الجبال ، ملجأ للثوار ، منها ينطلقون وبها يحتمون . وأضرب لذلك مثلا بثورة ١٩٥٤ ، عندنا فى الجزائر ، بدات فى مناطق معينة هى الجبال الوعرة ثم تسربت من تلك المناطق الجبلية الى المناطق السهلية ثم الى المدن اى ان الجبل كان دائما يمثل المعقل الطبيعى ، والاقليم الذى تتبلور فيه الافكار التحررية بهدوء ثم تنطلق . وتعالوا معى الى ثورة المقرانى كيف بدات واين بدات وما هو الاقليم الذى اختارته .

كان محمد المقرانى الباشاغا يتصرف ويشرف باذن السلطة الاستعمارية الفرنسية فى الاقليم الذى يمتدى من جبال فرجيوة شرقا الى جبال تيطرى وجرجرة غربا الى ساحل البحر شمالا وهو اقليم واسع ومتنوع طبيعيا كان تحت نفوذ الباشاغا الذى كان مركزه فى سهل مجانة ، ونظرا لاسباب عديدة سيشرحها زملائى من اصحاب التاريخ بدات الثورة فى هذا الاقليم الجبلى ومنه انحدرت الى سهل مجانة ثم انتشرت فى بقية المناطق من جبال البيبان المشهورة بانحداراتها الشديدة وخوانقها الغربية منها شعبة الآخرة ، وممر باب الحديد ، وحافات وادى قرقور .

انتشرت الثورة فى هذا الاقليم كله فى سنة ٧١ ل توسعت لتشمل سهل متيجة غربا لغاية خط عرض مدينة شرشال امتدت ثورة المقرانى على طول الجزء الشرقى من سلسلة جبال الاطلس التلى وعمت مدن جبال جرجرة مثل تيزى وزو ، والاخضرية وذراع الميزان وصدوق واقبو ، ومدن جبال فرجيوة مثل المسيلة والميلية الى غير ذلك من المدن الجبلية فى هذا الاقليم الذى لا يتميز بشدة تضرسه فقط بل وبغاباته الكثيفة واحراشه الواسعة ومياهه المتوفرة . فالموضع يساعد تماما على نجاح المقرانى الا ان الثورة

كانت غير منظمة وربما كان هذا سبب فشلها ولهذا نترك المجال للاخ عمار طالبى الذى سيحدثنا عن هذا الجانب ، واريد ان الفت الانظار الى أن ثورة المقرانى تحركت من الشرق الى الغرب لغرض وهدف معين وهو القضاء على السلطة المركزية وبالقضاء على السلطة المركزية يمكن القضاء على الاستعمار ، وهذه هى نية محمد المقرانى الذى استشهد فى معركة بسوفلات فى ٥ ماى سنة ١٨٧١ واترك الآن المجال للاخوان لكى يشرحوا لنا الدوافع الدينية لهذه الثورة .

الاستاذ عمار طالبى :

حضرات الزملاء ايها الاخوان . الواقع انى لست من المؤرخين وانما تطفلت على هذا الموضوع تطفلا ولا أريد ان اقحم بنفسى فى بيان النواحى التاريخية والاسباب الاجتماعية الكثيرة التى ادت الى هذه الثورة ، وانما اريد فقط أن اوضح ظاهرة اجتماعية ذات اهمية بالغة وهى تأثير شيوخ الطرق وخاصة الطريقة الرحمانية فى هذه الثورة التى اججها الشعب الجزائرى وبيان تأثير الشيخ ابن الحداد على المريدين وعلى الاخوان وبما أن الوقت لا يساعدنا على أن نتحدث عن هذه الطرق كلها فاننا نريد ان نشير الى طريقة الرحمانية باعتبار أن ثورة ٧١ التى قام بها المقرانى وعزيز ابن الشيخ بن الحداد وشارك فيها الشيخ بن الحداد نفسه بتأثيره الروحى فى المريدين ولذلك فسنقتصر الكلام على هذه الطريقة التىينتسب اليها الشيخ ابن الحداد الذى اعتمد عليه المقرنى نفسه واستند اليه فى كسب المؤيدين له من طوائف الشعب التابعين لطريقة الرحمانية وبهذا سنتكلم باختصار على الطريقة الرحمانية وعن آثار الشيخ ابن الحداد فى هذه الثورة أما الطريقة الرحمانية فهى ترجع الى محمد بن عبد الرحمان القشطولى الجرجرى الازهرى فهذا الرجل ولد فى سنة ١١٢٦ هـ . الموافق لـ (١٧١٥) للميلاد فى قبيلة آيت اسماعيل فى جرجرة وهى قبيلة تتفرع عن قشطولة ويبدو أن هذه الاسرة اقبلت من المغرب الاقصى ونشأ هذا الرجل نشأة صوفية فدرس على الشيخ الصديق واعراب عند آيت اراثن ، وجاء الى مدينة الجزائر ايضا فأخذ بعض المبادىء فى العلوم المختلفة ثم بعد ذلك ذهب الى الحج وفى رحلته هذه مر على البلاد المصرية ومكث مدة طويلة فى الازهر يدرس على اساتذة هذا الجامع حيث اخذ عن سالم النفراوى وعمر الطحلاوى والشيخ العمروسى وغيرهم ولما كمل تكوينه ثقافيا وصوفيا أمره شيخه ان يقوم بالدعوة وان يسير الى الهند والسودان والمهم انه أقام فى السودان مدة طويلة ثم رجع الى الجزائر ومدة غيابه عن الجزائر تبلغ اكثر من ثلاثين عاما ، وبعد مضى هذه المدة امره شيخه بأن يعود الى الجزائر كى يكون الطريقة الرحمانية فى الجزائر فعاد فى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٧٠ م فأخذ يعلم الناس مذهب الخلوتية وسمع به الطلاب فأتوه من كل مكان وقصده المريدون واصبحت له شعبية وعارضه بعض فقهاء الجزائر العاصمة واتهموه بالبدعة واوصى بأن يخلفه فى هذه الطريقة السيد على بن عيسى المغربى وبعد مده توفى وذلك فى سنة ١١٨٣ — ١٧٩٣ وقادها هذا الرجل وهو السيد على بن عيسى الى سنة ١٨٣٥ أى ما يقرب ٤٣ سنة وفى سنة ١٨٥٢ خلفه السيد الحاج البشير المغربى ولالة خديجه زوجة سى محمد بن عيسى الذى بقى فى زاويه آيت اسماعيل واصبح القائد الحقيقى لهذه الطريقة وتوفى فى سنة ١٨٥٤ ، وخلفه فى الطريقة سى الحاج عمر زوج لاله فاطمة بنت سيد الحاج محمد بن عيسى وهذا هو الذى نظم الطريقة تنظيما محكما ونظم مقاومة ضد الفرنسيين فى سنة ١٨٥٧ ولما أن تغلب على هذه الانتفاضة المارشال راندو هاجر الحاج عمر الى تونس وبقى هناك ثم اتجه الناس الى الشيخ الحقيقى للطريقة الرحمانية ، الذى أصبح لامعا فى هذا السبيل فى بلاد القبائل وهو سى محمد آمزيان بن الحداد من قرية الصدوق وهو الذى نستطيع القول بأنه لعب دورا هاما فى ثورة ١٨٧١، وقد كان له تأثير كبير فى الاوساط المختلفة التى نفذت اليها الطريقة الرحمانية .

ويمثل الشيخ محمد بالحداد فى قسنطينة مصطفى بن عبد الرحمن بن باش تارزى الذى الف بعض الكتب فى الطريقة الرحمانية فى قسنطينة وطبع أحد كتبه ، وتابع السير فى هذه

الطريقة كذلك محمد بن عزوز من الصحراء فى الزيبان ولما احتلت بسكرة غادر الجزائر واتجه الى نفطة جنوب تونس واسس زاوية تابعة للرحمانية ايضا وان كان ترك من يخلفه فى الصحراء وهذه الزاوية خلفتها زاوية على بن عمر فى طولقة وكذلك للشيخ المختار بن خليفة فى اولاد جلال وسى المبارك بن قويدر وتوجد زاوية اخرى متفرعة عن الطريقة الرحمانية فى خيران وهى قرية موجودة فى جبل ششار فى أوراس . والحاج صدوق مؤسس زاوية المصمودى هو الذى شارك وآثار الناس فى ثورة ١٨٥٩ ومات فى سجن الحراش الكبير عام ١٨٦٢ ، وقد هدم زاويته الجنرال ديفو فى عام ١٨٥٩ ، وكذلك هناك فرع آخر من هذه الزاوية اسسه عبد الحفيظ من خنقة سيدى ناجى فى اوراس . وقد اتهم هذا ايضا بالاشتراك فى ثورة ١٨٥٩ وكانت زاوية الهامل ايضا قرب بوسعادة وهى التى تتبع الطريقة الرحمانية ، وقبل ان يتوفى محمد آمزيان هذا عين السيد الحاج الحملاوى مقدما لهذه الطريقة وفكر تفكيرا يبدو انه نجح فيه لانه لم يعينه من المنطقة والاهالى الذين ينتسب اليهم كى يستطيع هذا الرجل ان يحتفظ بهذه الطريقة وان كان من جعل خليفة له ابنه عزيز لما قربت وفاته ولكن المهم هو ما بيناه من ان الطريقة الرحمانية لها مراكز كثيرة فى البلاد الجزائرية ونريد أن نبين اثر او مشاركة محمد بن الحداد الذى أصبح الزعيم الكبير لهذه الطريقة فى الصدوق وفى تلك المناطق المحيطة بها فى ٨ افريل ١٨٧١ اتصل به طبعا قبل هذا المقرانى وكذلك ابنه عزيز فما كان من هذا الشيخ الذى طعن فى السن ، بلغ ٨٠ عاما الا ان اعلن الجهاد ورمى بعصاه ودعا الناس للثورة ضد الاستعمار الفرنسى .

وكذلك ابنه فانه كان هو الدافع الاساسى ايضا لهذا الشيخ الكبير ان يعلن بالجهاد، بعث رسائل الى بعض الزعماء الذين يعتقدون ان لهم تاثيرا كبيرا فى الاوساط الشعبية ، من جملة هذه الرسائل رسالة كتبها الى صهره ورد فيها ، اننا قمنا للجهاد وقررنا ان نحارب اعداء الله ورسوله وتحدث عن وحدة المسلمين فى الجزائر وعن ضعف فرنسا وانه متأكد من ان المسلمين متحدون من بجاية الى سطيف ، الى الحضنة ، وقال ان غرضه انما هو اعلاء كلمة الاسلام وختم الرسالة وهى طويلة بالدعاء ، نطلب من الله أن يوفقنا وان يعيننا على الاعداء وتاريخ هذه الرسالة فى ٢٢ صفر ١٢٨٠ للهجرة الموافق ٤ ماى ١٨٧١ وكتب فى آخر الرسالة كتبه ناصر الدين عزيز خليفة الشيخ محمد بن الحداد لكى يترك اسمه وحده لأية كان رمز كأنه عينه خليفة فىهذا الوقت قبل أن يلقى عليه القبض الاستعمار الفرنسى والواقع ان الطريقة الرحمانية تعتبر هى من الطرق التى تشارك فى الثورة ضد الاستعمار بالاضافة الى طريقة أخرى وهى طريقة معروفة بالطريقة الدرقاوية باعتراف الكتاب الفرنسيين أن هاتين الطريقتين الطريقة الرحمانية والطريقة الدرقاوية بالخصوص هما الطريقتان المعاندتان للوجود الفرنسى ، وهما اللتان تساعدان على اشعال الثورة ، ودفع الناس للقيام بها ولكن مؤرخا من الفرنسيين اظن انكم تعرفونه طبعا وهو لوى رين كتب عبارة يوصى بها الفرنسيين للتغلب على وسائل الطرقية يقول وهو يعتمد على شىء من الحنكة السياسية حتى يسيطر على الموقف ، يقول هذا السيد بأن العمل الاساسى فى هذه الثورة ليس عملا دينيا وانما هوبالدرجة الاولى عمل سياسى اقتصادى ويرجع الى غضب بعض العائلات او الاسر التى كانت لها مكانة ويبدو انها لم يعط لها ما يرضيها ، ومن ثم قامت وثارت على فرنسا .
وان الفكرة الدينية ليست هى الا اداة وان الشيخ بالحداد نفسه ليس الا اداة فى هذه الثورة وهى قد صبغت بصبغة سياسية اقتصادية وبصبغة اقطاعيةلبعض الاشخاص الذين يريدون أن يكون لهم مجد وان تكون لهم مكانة فى المجال السياسى .

وذكر ان الشيخ بالحداد نفسه ليس الا اداة فى يد المقرانى ولك نالواقع ان الظاهرة الدينية هى السلاح الذى يلجا اليه هؤلاء القواد لكى يستطيع جمع الشعب اى الطاقة الاساسية للثورة فلولا هذه الرموز الدينية التى استعملوها لما استطاعوا أن يجمعوا الناس ولما استطاعت .

الثورة أن تقوم وهذه تفسيرات طبعا لا تقـوم على اساس علمي صحيح ان هنـاك اسبابـا سياسية واقتصادية ، ولكن الناحية الشعبية لا يمكن أن تقوم الا على الاساس الكبير العميـق المتصل بنفوسهم وهو الظاهرة الروحية التـي تتمثل في هذه الطرق التي تمثل في ذلك الحـين الاخلاق الاسلامية التي حنطتها شيئاما،واضعفها وجعلتها تتمثل فيالاساليب وهي الاخلاق والتربية الجامـدة .

نستطيع ان نقول ان الطريقة الرحمانية لهـا جمهور كبير واتباع ، زعماؤها لهم تأثير في هؤلاء الناس او المريدين وامامي الآن احصائية قام بها احد الفرنسيين يبين لنا انتشار هذه الطريقـة في الجزائر ، مقاطعة الجزائر العاصمة فيهـا (٧٩) زاوية و (١٧٧) مقدم و (١٩٫٧٣٥) من المريدين ضواحي الجزائر فيها (١٣) زاويـة (٦٢) مقدم (١٦٫٩٢٥) اخوان ، قسنطينـة فيها اكثر من الجزائر (٩٣) زاوية (٣١٨) مقدم هذا على طريق الرحمانية (٣٤٫١٢٦) مريـد ضواحي قسنطينة فيها (٢٠) زاوية (١٠٤) مقدم (٢٢١٧٧) اخوان ، وهران فيها (١٠) زوايا (٨٢) مقدم (٢٦٧٧) اخوان ضواحـي وهران فيها (١٠) من الزوايا (٥) مقدمين ، منطقة وهران فيها الطريقة ضعيفة ، المجموع كله (٢٢٠) زاوية (٧٥٤) مقـدم (٩٦١٦١) اخوان واذااضفنا احصائية اخرى للطرق الاخرى نجد ان السكان كلهم تقريبا موزعون على الطرق اى ان الشعب كله دخل في الطرق الصوفية فهو شعب صوفي ومن هنا تعلمون مقـدار تأثـير التصوف في هذا العصر ، القرن التاسـع عشر بالخصوص اصبح التصوف مسيطرا على التربية وعلى الاخلاق وعلى الدراسات الدينية واللغوية وما الى ذلك ومن ثم بعد فان الاستعمار عـرف هذه الحقيقة فحاول ان يسيطر على زعماء هذه الطرق.وان ينفذوا اليها باساليب مختلفةسياسية واقتصادية ، ولذلك نجد ان هذا الفرنسي ينصح حكومته كثيرا في كتابه بأن تحـاول ان تمسـك بقبضة شديدة هؤلاء الزعماء وخاصـة زعمـاء الرحمانية وزعماء الطريقة الدرقاوية اما الشيخ بالحداد فقد قلنا ان له اثرا كبيرا في اعلان الجهاد وانه حينما خرج من بيته او اخرج من بيته ، كتب على حجر صوان آية قرآنية ، هي « **الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف** » كتبها عدة مرات ، وقد زرنا في الايام الاخيرة خلوته وهي صغيرة واقعة في جبل سيدي علي واشطـوق مقابل سلسلة جبال اكفادو في قريـة صـدوق الاعلى ، والغريب أن له طريقة فيمبايعة الاخوان وهذا يدل على كثرتهم بالخلوة (عمـل طاقـة صغيرة شباك ، هذا يدل على انهم يأتون بالمئات ليعاهدهم ويبايعهم ثم ينصرفون) ، وانما بقيت لنا وثيقة مكنني منها الزميل الدكتور سعد اللـه وهي عبارة عن وصية اوصى بها حينما شعر بأن الموت قد قرب اوصى بها ولديه تتكون من سبع وصايا بين فيها أسفه على عدم نجاحه في العمل الذي قام به والاضرار التي لحقتهم من جراء هذه الثورة ولكن حاول ان يسليهم وان يدخل عليهـم الصبر والسلوان واني اقرا عليكم بعض الفقرات واذا كانت لديكم مناقشات او آراء تستطيعون ان تبدوها فيما بعد .

« اعـلام »

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين

اعلان للواقفين على كتابنا هذا من العلمـاء والفقهاء والاخوان وغيرهم من كبراء الاعراش وعامتهم السلام عليكم غاية السلام ولطائـف التحية والاكرام ان كنتم بخير فالحمد لله وبعد نخبركم بوفاة ابينا وشيخنا السيد امحمد آمزيان بن الحداد تغمده الله تعالى برحمته وقد عمـر ثلاث وثمانين سنة واشتهرت طريقة الرحمانية على يده وباسمه في القبائل ، بعد وفاة شيخـه رضى الله عنه بجبل جرجرة منذ ٤٠ سنة فأكثر وقد توفي قدس الله تعالى روحه ونفعنا ببركاته وببركات اشياخه آمين ليلة الثلاثاء اول ليلة من شهر ربيع الاول الانور بمولد سيد البشر صلى الله عليه وسلم من عام التاريخ ١٢٩٠ وذلـك خارج السجن بعد طلبنا الاذن لاخراجه عشيـة يوم الاثنين من حاكم البلد ، فقبـل مطلوبنـا واستكترنا خيره (تعبير شعبي) وهو البريفي ، فاخرجناه من السجن الى قسنطينة ولما وصل

رحمه الله الى الدار التى اعدت لنزوله بها مكث رضى الله تعالى عنه قدر ساعة ونصف وتوفى رحمه الله تعالى عليه وقت العشاء الاخيرة وكانت وفاته رحم الله تعالى غربته وقدس تربته على الشهادتين والخاتمة الحسنى والحمد لله على حياته مسلما طائعا ووفـــاته شهيــدا غريبــا ومدة مرضه ١٢ يوما فقط وقد دفن وسط مقبرة المسلمين بقسنطينة عشية يوم الثلاثاء وأحسن (١) به علماء البلد وخاصتهم وعامتهم وشرفوا قدره بما يناسب امثاله من حضورهم ، للصلاة عليه، وتشييع جنازته بالذكر والدعاء والصدقات فجزاهم الله تعالى خيرا واجزل لهم ثوابا واجرا ورفع لهم فى الملا الاعى ذكرا عن فعلهم الحسن لقوله الجليل فى محكم التنزيل (هــل جــزاء الاحسان الا الاحسان) وذلك بعدما كنا عزمنا على ارساله الى مقبرة اسلافنا بقرية صدوق من بلاد القبائل فى ضريح اجدادنا كما اوصانا رحمه الله تعالى بذلك فاذا بحاكم الجزائر الكبير عجزعن ارساله لتلك المقبرة بالقبائل أصدر الامر لنــا بدفنه فى هذا الوقت بقسنطينـــة ولاشـــك ان اعتراضه هذا عن ترك ارسال الجنازة الــى مقبرة الأهل والاقارب ليس منه انما هو من بعض الحساد الجارين بالاخبار الكاذبة بين الدولـــة ورعيتها فامتثلنا أمر ولاتنا حتى يزول الغمـــام الوارد على سمعهم ونال (٢) المسامحة من الله سبحانه بفضله وكرمه ومن الحكام فينقل الــى صدوق لمقبرة أجدادنا كما اوصانا رضى اللـــه تعالى عنه بحول الله سبحانه وقوته انه عــلى ما يشاء قدير ، هذا ولقد كان المرحوم الشيـــخ قدس الله روحه أوصانا بسبع وصايا واكد علينا فى تبليغها واظهارها ، وذلك بعد ما صدر الحكم بالسجن وقبل وفاته وها هو نص وصاياه رحمه الله فانه قال أوصيكما يا ولدى الاثنان انتما قد اخذتما حقكما معى فيما لحقنا من تعب والم وهم وكبير غم يا محمد بفتح الميم ويا عزيز بسكـــون الياء رحمكما الله تعالى ونجاكما من عذاب الدنيا والآخرة ، اوصيكما اولا واوصى اخوانى بتقوى الله العظيم مع التسليم والتواضـــع لبعضكـــم بعضاواعتصموا بالصبر على ما حكم الله تعالى علينا وقضاه ان الصبر يورث الرضـــا ويجلب الهناء وقد قال صلى الله عليه وسلم ، اذا أحب الله عبدا سلط عليه البلاء لينال شبه الانبياء ، عليهم الصلاة والسلام والاولياء رضوان اللـــه تعالى عنهم لقول الجليل فى محكم التنزيـــل ، « فاصبر لحكم ربك بأعيننا » ولقوله سبحانه ، « وانما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب » وفى الحديث النبوى ايضـــا « اشدكـــم بـــلاء الانبيـــاء ثـــم الانبيــــاء ثـــم الامثـــل فى الامثل » وليس الحكم النـــازل علينـــا مـــن غير اذنه جل وعلا فيشق عليكـــم ، بـــل هـــو حكم سيدكم ومولاكم خالقكم ورازقكم ، القائـــم باحسانه اليكم وقد كان تعالى يقضى ما تحبون ، فاصبروا الآن يقضى ما يحب فيكم ويكفيكم امتثالا قوله سبحانه « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون» واعلموا رحمكم الله تعالى ان الاهتمام والتدبر والمنازعة لا يدفع شيء منه عنكم ما قدر عليكم كما لا يجلب لكم ما لم يقسم لكم فسلموا لقضاء الله سبحانه تسلموا مـــن ضيق الصدر وعذاب القلب ولا تتغـــيروا (٣) ياولداى ويا اخوانى مما نزل بنا وبالحكم الصادر علينا من ارباب الشرع ، بعضنا بالسجن وبعضنا بالنفى مع نهب اموالنا واهمال حريمنا وأولادنا للفاقة والاحتياج مع نزع أملاكنا من ايدينا فيـــه (كلمة غير مفهومة الثقاب او العقاب) فالواجب عليكم انلاتذكروا ما لحقكم غبنا من الدولةوغيرها الا بعد ما تتذكروا ذنوبكم الصادرة منكم مـــع الله سبحانه ومع العباد ، فاذا تذكرتم ذنوبكم قبل ذنب غيركم ستصغرون ما لحقكم من العقوبة وتنالون الراحة فى قلوبكم وانفسكم وتنالون أيضا رضى الله تعالى ورضى العباد ان شاء اللـــه سبحانه وما ذلك على الله بعزيز والشدة لاتدوم

---

(١) فى الاصل احسنوا
٢) فى الاصل نتالوا
٣) كذا فى الاصل
٤) كذا فى الاصل

بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

إعلام

للواقفين على كتابنا هذا من العلماء والفقهاء والإخوان وغيرهم وكبراء الأعراش
وعامتهم السلام عليكم غاية السلام ولكافة التحية والإكرام إن كنتم بخير فالحمد لله
وبعد نخبركم بوفاة أبينا وشيخنا السيد محمد أمزيان بن الحداد تغمده الله تعالى برحمته
وقد بلغ ثلاثة وثمانين سنة واشتهرت الطريقة الرحمانية على يده وباسمه في القبائل بعد
وفاة شيخه رضي الله تعالى عنه بجبال جرجرة منذ أربعين سنة بل أكثر وقد توفي قدس الله تعالى
روحه ونفعنا ببركاته وبركات أشياخه آمين ليلة الثلاثاء أول الليلة من شهر ربيع الأول
الأنور بمولد سيد البشر صلى الله عليه وسلم من عام التاريخ تسعين ومائتين وألف وذلك
خارج السجن بعد ما طلبنا الإذن لإخراجه عشية يوم الإثنين من حاكم البلد وقبل مطلوبنا
واستكثرنا خيره (?) وصول الرحيم (?) فلما أخرجناه من السجن إلى قسنطينة ولما وصل رحمه الله
إلى الدار التي أعدت لنزوله بها مكث رضي الله تعالى عنه فيها قدر ساعة ونصفا وتوفي
رحمة الله تعالى عليه وقت العشاء الأخيرة وكانت وفاته رحمه الله تعالى في بيته وقد مات (?) بيته
على الشهادتين والخاتمة الحسنى والحمد لله على حياته متكلما كلاما جيدا وفاته شهيدا
عن بلد ومدة مرضه اثنا عشر يوما فقط وقد دفن بسكة (?) مقبرة المسلمين بقسنطينة عشية
يوم الثلاثاء وأحسنوا به علماء البلد وخاصتهم وعامتهم وشكروا قدره بما بينا بسبب
امتثاله من حضورهم للصلاة عليه وتشييع جنازته بالذكر والدعاء والقرآن جزاهم الله تعالى
خير أجر (?) الجزيل لهم ثوابا وأجرا ورفع لهم في الملا الأعلى ذكرا أعني يعلمهم الحسن بوليه لقوله الجليل
في محكم التنزيل هل جزاء الإحسان إلا الإحسان. وذلك بعد ما كنا عزمنا على إرساله إلى
مقبرة أسلافنا بقرية صدوق من بلاد القبائل بضريح أجدادنا كما أوصانا رحمه الله تعالى
بذلك فإذا بحاكم الجزائر الكبير عجز (?) عن إرساله لتلك المقبرة بالقبائل وأصدر الأمر لنا
بدفنه في هذا الوقت بقسنطينة ولا شك أن اعترافه هذا عن عدم إرسال الجنازة إلى
مقبرة الأهل والأقارب ليس منه وإنما هو من بعض الحساد الجارين بالأخبار الكاذبة بين
الدولة ورعيتها إلا امتثلنا الأمر ولا تناحينا (?) حتى ينزل الغمام الوارد على سمعهم ونسألوا
المسامحة من الله سبحانه بفضله وكرمه ومن الحكام فينقل إلى مخزون (?) لمقبرة أجدادنا
كما أوصانا رضي الله تعالى عنه بحول الله سبحانه وقوته إنه على ما يشاء قدير.

الورقة الاولى من مخطوط وصية الشيخ ابى الحداد

على كل حال ففى مرور الشهور والسنين المقبلة عليكم الحكام من الاخبار الواردة عليهم فيجدونها زورا عليكم وحسدا فيكم فترتفع عنكم التهـــم النازلة عليكم بشهادة الزور عليكم فيزيلونها عنكم ويصير بغضكم هذا حبا فيكم وكرامة ان شـــاء الله تعالى آمين .

وأما الثانية فانه قال :

اوصيكما أن تبلغوا سلامى لكافة المسلمــين بغير تخصيص وانى طالبمنهم المسامحة والدعاء الصالح كما لهم منى مثل ذلك وعلى الله سبحانه

والثالثـة :

قال أوصيكما ان تدفنونى فى مقبرة اجـدادى بين قرابتى فادفنونى فى قبر ابى وامى قدس الله تعالى ارواحهم جميعا .

والرابعة : قال : تخبروا (٤) كافة الاعراش كتابة بوصيتى هذه لكم ولهم .

والخامسة : قال : نوصيكم أن لا تعـودوا لعداوة الدولة ولا لاتباع من يخاطبكم بذلــك ، فسلموا لجميع الاوامر الصادرة من اربابها ولا تتعرضوا لها تسلموا من غضب الرب سبحانـــه وغضب العباد معا ، جربتم عواقب الزمن وغدر الرجال فيكفيكم ما شاهدتم فى هذين السنتين او ثلاثة وانا حاضر معكم من المبتـدا الى المنتهى ولأجل حضورى معكم وتجربتى معكم الزمن أموت (٥) متهنئا من جانبكم ولا نخاف عليكم مرة اخرى حيث لحقكم فى وقت واحد ما يلحق غيركم طول حياته وكل ذلك ان شاء الله تعالى يصير لكـم راحة ، وما بعد المرض الا الشفاء وما بعد الليل الا النهار .

والسادسة : قال رحمه الله تعالى نوصيكما بطاعة الله سبحانه وطاعة والدتكما وطـــاعة بعضكما بعضا .

والسابعة : نوصيكما ونوصى الاخوان مرة ثانية بدوام نيتهم واستدامة اورادهم وعافيتهم اذ بالعافية والهناء تنبت الطاعـــة فى القلـــوب وتفرغوا لكثرة اعمال الطاعات والحسنـــات ولا تشتغلوا بما يؤديكم لابطال ذلك ثـــم اوكـــد عليكم بالتسليم لبعضكم بعضا مع غيركم وخدمتكم على عيالى بعد غيبتى مع انى تركت لكم من يقوم مقامى ان شاء الإله تعالى بعدى ، مـــن نسلى علما وطريقة وعرفتكم بذلك مصليا ومسلما على سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم انتهى مـــا سمعناه منه على سبيل الايصال والابلاغ لغيرنا والحمد لله حمدا كثيرا دائما الى يوم الدين وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

تعليق الابن : وقد فعلنا نحن اولاد المرحوم ما وجب علينا وحكينا كلامه وما أوصانا به فى حياته وكتبناها بخط ايدينا ورسمناها فى ورقة واحدة وارسلناها مع وكيلنا القائم بحوائجنا بالنصـــح التام المسمى مسيولى يد التاجر بمدينة قسنطينة الى المطبعة بها ليطبعوا لنا عدة اوراق مثلهـــا ونفرقوها (٦) للناس كما أوصانـــا الشيـــخ المرحوم بذلك ... واطلع عليها المصرفون مـــن فرنسيين وغيرهم ، والسلام على الواقف عليه وكتب عزيز وشقيقه محمد ولدى الشيخ المرحوم الحداد وكتب بسجن الكدية بقسنطينـــة فى ١٤ ربيع الاول ١٢٩٠ .

هـــذه هـــى الوثيقـــة واظـــن انهـــا لا تحتاج الى تعليق وما نريد ان نطيل ، والواقع انى لم استعرض الموقف بجميع جوانبه لان هذا يحتاج لعدة اخوان متخصصين وان كان هنـــاك جماعة هربوا ، وبودنا ان يعاد النظر فى مناسبة اخرى فى هذه المشكلات وانما قمت بعمل بسيط هو دراسة وقراءة هذه الوثيقة وبيان كيف ان الطريقة الرحمانية لها قوة شعبية ولذلك تعتمد عليها الثورات التى وقعت وان هذه ظاهرة عامة فى الثورات التى وقعت فى الجزائر سواء فى سنة ١٨٧٦ و ١٨٧٩ ثورة أوراس وعـــين التـــوت وغيرها وثورة ١٨٨٠ جنوب وهران هذه الثورات

---

٥) فى الاصل نموت

٦) كذا فى الاصل

كلها وكذلك ثورة عام ١٩٥٤ نفسها فالرمز الذى يحمله الثوار هو اسم الجهاد هذا كله يدل على ان هناك خيطا اساسيا يربط هذه الثورات كلها وهو الجهاد وهو المعنى الدينى المتصل بالاسلام ولكن هذا الفرنسي — لوى رين — يقول ان الاسباب ليست دينية وانما اقتصادية وغيرها وانما الدين مستعمل كعلامة على الحركة فقط يقول ؛ واللجنة التى كلفت بالبحث الخاص بالاضطرابات التى وقعت فى أوراس قررت هذا المعنى وهو ان أسباب الثورة ترجع الى مسائل اقتصادية والى مسائل شخصية لا غير لكن هذه التأويلات لا تهمنا ، انما يهمنا السياق التاريخى والمعنى الذى نجده يكمن وراء هذه الحركات كلها وهو المعنى النفسى والمعنى الروحى الذى يوجد فى نفوس الجماهير التى تقوم بهذه الثورات المختلفة وارجو ان اكون لم اقلقكم ولم اطل عليكم وشكرا والسلام .

محمد العربى : اشكر الاخوين حليمى وعمار طالبى ، واترك الكلمة الآن للاخوان المستمعين لالقاء الاسئلة .

الاستاذ جمال قنان .

ان هذه الوصية التى قراها الزميل عمار طالبى تثير بعض الملاحظات ، ولا يمكن قراءة هذه الوصية او السماع اليها دون ان نتذكر تلك الوصية التى قيل انه بعث بها الامير عبد القادر فى فترة الحوادث التى وقعت فى ١٨٧١ هذه الوصية التى يؤكد فيها للشعب الجزائرى على ضرورة التزام الهدوء وطاعة الدولة وقد عالجها الاستاذ ساحلى فى كتابه « ازالة الصبغة الاستعمارية عن التاريخ » وبطبيعة الحال ، فالاستاذ ساحلى اعتمد فى نقد هذه الوصية على نقد النص نفسه والتعابير التى استعملت فيها مما ادى به الى الأعتقاد بامكانية تزييف هذه الوثيقة وان السلطات الفرنسية هى التى قامت بوضعها . وهذا راجح ويحتمل ان يكون القنصل الفرنسى فى دمشق قد زورها على حساب الامير لاستغلالها داخليا (فى الجزائر) والشىء الثابت من ناحية أخرى هو انه فى نفس هذه الفترة بالذات كان واحد ، من أبناء الامير عبد القادر وهو عبد الملك قد جاء الى تونس ومكث بها مدة من الزمن وكانت له علاقات مع القنصل الالمانى ودخل الى الجزائر ومكث بها ما يقرب من ستة اشهر ثم رجع الى الشرق مرة اخرى ولم تكشف السلطات الفرنسية امره الا اثر عودته من الجزائر على أثر التقارير التى بعث بها القنصل الفرنسى بتونس الى وزارة الخارجية الفرنسية هذا الحديث يمكن ان ندرجه كدليل على ان موقف الامير عبد القادر من ثورة ١٨٧١ هو فى الواقع موقف محبذ انما السلطة الاستعمارية كانت تحاول أن تستعمل سمعته للحد من انتشار الثورة ونموها . وقد ذكر الاستاذ الاشرف فى كتابه « الجزائر امة ومجتمع » ، الذى هو مجموعة مقالات جمعت فى كتاب ، ان ثوار سنة ١٨٧١ عندما وصل اليهم محتوى « الوصية » التى قيل ان الامير عبد القادر قد بعث بها اليهم ردوا بأن الامير كان يجهل الاوضاع السيئة التى هم عليها ولو يدركها لحمل معهم السلاح وحارب الى جانبهم .

هاته الوصية المنسوبة للشيخ الحداد يمكن ان ندرجها ضمن « الوصايا » التى تعمد السلطات الاستعمارية الى خلقها عندما تجبرها الظروف فهى « وصية » مطبوعة والمطابع فى تلك الفترة كانت تسيطر عليها الادارة والمطابع العربية بالذات تشرف عليها المكاتب العربية . والراجح ان الادارة هى التى ضغطت سواء على الشيخ الحداد أو على ابناء الشيخ الحداد على كتابة هذه « الوصية » ونشرها بين الاتباع والمريدين بقصد الحد من الثورة ووقف حركة التعبئة الشعبية . وهذا هو الهدف الذى كانت ترمى اليه السلطات الاستعمارية . فالمؤرخ يجب أن يقف متحفظا امام هذا النوع من « الوصايا » ويعمد الى نقدها لاستخراج جانب التزييف من الحقيقة .

الطالبى : يبدو انه ادخل فى وصيته ما لم يوص به واستطيع القول انه نص على انها طبعت بمطبعة مارل بقسنطينة ، وعلى حال طبع بعلم الحكومة وبإذنها ربما هى التى دفعت بطبعها ولما سمعت ان هناك وصية قالت اطبعوها وزيدوا كذا وكذا واما قضية الامير عبد القادر فانه طبعا بما قساه من الخذلان والخيانة من

بعض الاوساط سواء كانت من المغرب الاقصى او من الجزائريين انفسهم اى من بعض الجزائريين ربما جعلته يتوقف لحد ما عن الموافقة على الثورات حتى تتغير الظروف وتتاح الفرصة ونحن لا نريد أن ندفع كل شىء طبعا ، جميع التهم ندفعها عن الجزائريين ، لانهم قاموا بالثورات ، بطبيعة الحال هذا ليس عيبا اذا تحفظ شخص ازاء حركة معينة لا نستطيع ان نقول ان هذا خيانة قطعا ، وقد اطلعت على مخطوط فى الخلدونية فى تونس اسمه الرحلة الحجازية لمؤلف اسمه السنوسى ، قام برحلة الى الحجاز حج والتقى بالامير عبد القادر فى الشام واستضافه فى بيته ، وكتب عن حياة الامير عبد القادر وعن اعماله وذكر بعض نماذج من شعره وذكر انه اعلنت الجرائد انه توفى وهو حى فمدحته ورثته الى آخره ثم بعث برسائل يشكر هذه الصحافة التى مدحته ورثته وهو حى وقال هذا السيد الكاتب الرحالة التونسى ان ابنه حاول ان يقوم بثورة فعلا فى الحدود الشرقية ، للجزائر ، ولكنه لم يكن راضيا على كل حال هذا شاهد مسلم عربى غير فرنسى .

هل هو تأثر بالدعاية الفرنسية أم انه فهم هذا من التقائه مع الامير عبد القادر نفسه هذا لا استطيع ان احكم عليه الان وانما هناك احتمال أن يكون قدر الظروف الصعبة القاسية وظن انه من الأحسن ان يترك الامر الى أن تتاح فرصة اخرى ، ان الامير عبد القادر فى هذه المرحلة دخل فى تصوف غريب واصبح صوفيا ودخل فى عالم آخر وهو عالم محى الدين بن عربى عالم قطع صلته بجميع اشياء العالم الخارجى ولذلك اوصى أن يدفن بجانب محى الدين بن عربى فى الشام فى دمشق نفسها .

وانتم اذا قرأتم كتابه المواقف ستعلمون كيف اصبح يعتقد انه يوحى اليه ومواقفه عبارة عن وقوفه عند آيات معينة ويقول : انه اوحى اليه بأن تفسير هذه الآية كذا وكذا .

وصل الى مثل ما وصل اليه محى الدين بن عربى الذى زعم فى الفتوحات اى كتاب الفتوحات المكية ان الله فتح عليه فى مكة بهذا الكلام ودخل فى تلك المرحلة الصوفية فى تلك الازمة الشديدة التى اصابته فى جهاده الطويل الذى انتهى بهزيمة شديدة على النفس حقا وفىظروف قاسية الاعداء من الداخل ومن الخارج ، السلطان مولاى عبد الحفيظ فى المغرب الاقصى وبعض الخونة الذين خذلوه من الجزائريين انفسهم فأصيب بصدمة نفسية ، ادت به الى مرض عقلى لا الى مرض نفسى فقط ولكن كان هذا على كل حال حقيقة ودخل فى عالم التصوف ، واذا كان هؤلاء الذين قادوا ثورات جهاد فى ظروف صعبة وقاسية ، فان هذا لا يجعلنا نتهمهم بالخيانة ، فيمكن أن يكون هذا عن حسن نية فى تلك الظروف ولكن الزعم بأنه كتب وصية يوصى بها الشعب الجزائرى وجميع الناس بأن لا يقوموا وان لا يثوروا على الدولة الفرنسية ، اظن ان هذا غير صحيح ، ولكن ابناءه فيما بعد واحفاده اخذوا يتقاضون المال من فرنسا ويتعلمون فى فرنسا .

واصبحوا اصدقاء للسلطة الفرنسية وتخلوا عن التقليد الثورى وأصبح أحد الاحفاد خائنا كبيرا اظن انه ذهب الى اسرائيل فنحن نتبرأ منه تبرءا تاما ، ولا نستطيع أن ندافع عنه فهؤلاء منحرفون وفى كل الثورات يوجد خونة ويوجد منحرفون ويجب ان نفضح هذا وبدون شك لابد

ان يكون لنا تاريخ حقيقى فيه نقد وفيه بيـــان الوقائع وتمحيصها .

ملاحظات قصيرة فى مسالة المطابع :

الاستاذ حليمى : المطابع فى الجزائر فى العهد التركى كانت مفقودة ، فالمتتبع لتاريخ المطابـــع والجرائد بالجزائر ، يجد انها بدأت تظهر فى عهد الاحتلال الفرنسى فقط . ولهذا فـــان المطابـــع بالجزائر كـــانت تعمـــل تحت ادارة واشراف الاستعمار الفرنسى الذى يملى عليها ما يخـــدم مصلحته فقط .

الاستاذ سعد الله : هناك ملاحظة على هـــذه الوصية فقد قال الاستاذ عمـــار طـــالبى اننى مصورها تصويرا وفرح لما عثر عليها كوثيقـــة تاريخية ، انكم تعرفون ان المؤرخ اذا وجد وثيقة مكتوبة فانه يعتبرها كنزا ان هذه الوثيقة تساعد على فهم ثورة ١٨٧١ وتكشف على نفسية الفترة كتبت فيها سواء من الاشخاص الذين حرروها أو الذين املوها ، وعلى كل حال بالنسبة للمؤرخ فهى مهمة والوصية الاولى بالذات والمقدمـــات تكشف (اذا صح انها منسوبة للشيخ الحداد) على ان الشخص كان ايضا يكتب ويتكلم بمرارة وانه غير يائس . ولو كنا من علماء النفس وحللنا هذه الكلمات لوجدنا مثلا « ان الليـــل يعقبـــه النهار » وأن « بعد الشدة الفرج » وان « الصبر تعقبه نتيجة طيبة » الى آخره .

ومعنى ذلك ان هناك عبارات واحدة فى مرحلة يأس ، لكن ليس هو يأس من المستقبل عـــلى فرض انها منسوبة اليه . لكن هناك شيئا فيها توحى بالشك كما لاحظ بعض الاخوان . ولاشك أن كثيرا من الفرنسيين ، وبالاخص جماعـــة المكاتب العربية المستعربين فكثيرا مـــا كانـــوا يكلفون بعض الجزائريين بكتابة اشياء تخـــدر الشعب وتخدم المصالح الفرنسية .

وخلاصة الفكرة ان هـــذا يحقـــق الفكـــرة الاستعمارية التى كانت تريد تهدئة الناس عندئذ بعد الثورة مباشرة .

النقطة الثانية حول موقف الاجانب أو بعض الاخوان سأل على ثورة ١٨٧١ ففى احد الاصياف كنت فى سورية والتقيت مع جماعة من احفـــاد الامير ومنهم حفيد كان كبير السن وجدته على الفراش وسمعت بأنه توفى اخيرا فقلت له اتيت لكى آخذ بعض المعلومات عن اسرة الامـــير فى دمشق فقال لى أنتم اخذتم منا الحكم ، واخذتم منا السلطنة ، قلت من نحـــن ، قـــال انتـــم الجزائريون . على كل حال قلت هذا شيخ كبير ولعله اصبح لا يسيطر على كلماته فى مرحلة من هذا النوع ، ولكن مع ذلك استفدت من الكلام معه ، ومما قال لى وانا اسجل هذا فى مذكراتى الخاصة بأن الامير عبد القادر هو الذى ارســـل ابنه محى الدين عن طريق طرابلس ، التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، ثم جنوب تونس .

ودخل محى الدين الى الجزائر على طريـــق الجنوب الشرقى ، وكما قال الاستاذ جمال ، ان الامير هو الذى ارسل ابنه محى الدين لتاييـــد الثورة ولاعطاء تأييده للثورة ولكن فى نفس الوقت قال لى الحفيد المذكور ونظرا لان الامير قد تعهد لفرنسا بأنه لا يحمل السلاح وان الامير رجـــل دين يحافظ على كلماته فانه لم يذهب بنفســـه وانما ارسل ابنه سريا ، وكتب فى نفس الوقـــت رسالة يتبرأ فيها من ابنه رسميـــا واعطاهـــا للجرائد ، يعنى انه غير مؤيد له لا يقف معه فى

هذا الموقف وانه ذهب رغما عنه الـــخ . واذا صح فهذا موقف يحتاج ايضا الى فهم نفسيـــة الامير والحرج الذى كان فيه . واذا صح ايضا فهو موقف يؤيد ابنه على الثورة فهو عندما يأتى الى الجزائر سيأتى لتأييد الثورة باسم والده ، باسم الامير عبد القادر بن محى الدين المرابـــط المعروف ، لكن فى نفس الوقت تبرأ منه حتى لا يخون كلماته وتعهده على الاقـــل فى الظاهـــر بالنسبة للاجانب . والاستاذ عمار طالبى فيما اظن اطلق حكما عاما وفى الحقيقة نحن نعرف ان اسرة الامير كان فيها وفيها كما يقال . مثلا الامير على ابن الامير عبد القادر لعب دورا كبيرا ، وقد كان نائبا فى البرلمان العثمانى وأيد الثورة ضـــد الفرنسيين أثناء الحرب العالمية الاولى وكـــان هناك ابن آخر للامير وهو اصغرهـــم وهـــو الامير عبد المالك، الذى قام بثورة ضد الفرنسيين فى المغرب الاقصى وظـــل يحـــارب الفرنسيين حوالى ١٥ سنة وقد مات فى معركة أوت ١٩٢٤ بالمغرب ظن الفرنسيين . طبعا قصته ليست معروفة للجميع ولا تزال فى الغموض . وهى تحتاج ايضا الى تفسير تاريخى وقد مكننى ابنـــه الذى ما زال حيا فى دمشق من وثائق والده الامير عبد المالك ودوره فى ثورة المغرب الاقصى التى قام بها بتأييد من المانيا والدولة العثمانية اثنـــاء الحرب العالمية الاولى . وهناك نقطة اخـــيرة بالنسبة لموقف الاجانب ، من ثورة ١٨٧١ ، لكن ليس لدينا وثائق مهمة على موقف المانيا لثـــورة ٧١ ، لكن نعرف بأن هناك تأييـــدا سياسيـــا ومعنويا للثورة اما التأييد المادى فليس لدينـــا دليل عليه الآن ويحتاج الى الدراسة. اما موقف الدولة العثمانية بالذات من ثورة ٧١ فلدينـــا وثائق تحتاج الى دراسة لكن حصلنا على دراسة فى هذا الموضوع ستظهر قريبا انشاء الله حول موقف الدولة العثمانية من ثورة ٧١ ، بالوثائق ونفس التعبير فى هذه الايام يحتاج الى تحديـــد فهل نكتب ثورة المقرانى او ثورة الشيخ الحداد أو ثورة الجزائر فى ١٨٧١ ، لان الشيخ المقرانى لم يلعب دورا رئيسيا فى الحقيقة ولكن الشيخ الحداد والطريقة الرحمانية لعبت دورا رئيسيا غير ان الثورة فى الواقع كانت ثورة شعبيـــة ، ثورة جزائرية وعلى كل حال انتـــم تـــرون ان الموضوع لا يزال فى حاجة الى دراســـة مـــن الناحية التاريخية .

الطالبى : هذا كلام فيما يتعلق بالامير عبـــد القادر وبراءته هو نفس الكلام الذى قاله هذا الرحالة التونسى فى الرحلة الحجازية قال بالبراءة وذكر شخصا آخر جاء الى سوق اهـــراس ، وعمل ثورة وفر الى تونس وطلبت فرنسا مـــن الباى سجنه فسجن فى تونس فى حلق الوادى الى انه مات ، اظن انه فيما يتعلق باولاد الامير عبد القادر بطبيعة الحال انا لا اقدر ان اتهـــم الجميع وانما البعض فقط وانى اعلم دور عبـــد المالك فى الريف وثورته فيه .

محمد العربى : ارجو ان نكون قد انتهينا من الحديث الآن واشكر الاخوة الزملاء والاخـــوان الذين شاركوا فى المناقشة ولن شاء الله نعدكم أن نلتقى مرة خرى ولا تكون هذه المـــرة أول افريل ان شاء الله سلسلة من هذه المحاضرات وهذا النشاط الثقافى ونحاول ما امكن أن نعطى صوره احسن لفائدة ثقافتنا وتاريخنا ولفائـــدة جامعاتنا وبلادنا والسلام عليكم .

من وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية حول الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى

تعقد وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، فى وهران من ٢٧ جمادى الاولى الى ٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ الموافق لـ ٢٠ يوليو ١٩٧١ م الى ٣١ منه ـ الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى سيحضره طلاب جامعات الجزائر ووهران وقسنطينة وتلاميذ السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقا)

وقد دعيت لهذا الملتقى شخصيات جامعية بارزة من العالم الاسلامى .

والملتقى مفتوح لكل طالب مسلم ، حيثما كان .

ونظام الملتقى هو النظام الداخلى ، ويمكن السماح بالنظام الخارجى لمن يطلبه .

ويسمح للاطارات الادارة الجزائرية ـ بقدر الامكان ـ بالمشاركة فى الملتقى .

هذا وستتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى ، الا انه سيطلب من المشاركين اسهام رمزى لا يتجاوز خمسين دينارا جزائريا .

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ٤ نهج تيمقاد ، حيدرة الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هو ٢٠ ربيع الاول ١٣٩١ الموافق لـ ١٥ ماى ١٩٧١ م .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية .

حول الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الأسلامى

استعدادا للملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى سينعقد بعاصمة الغرب الجزائرى وهران من ٢٧ جمادى الاولى الى ٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ الموافق لـ ٢٠ يوليو ١٩٧١ الى ٣١ منه .

نود أن ننهى الى علم كل من يهمه هذا الملتقى من اساتذة وطلبة وغيرهم ، ان مدار البحث سيكون مركزا حول المواضيع الاتية :

١) اللغة والثورة الثقافية .

٢) مشاكل الاسرة الاسلامية وتربية الجيل فى مجتمع اليوم .

٣) الاسلام ومتطلبات التنمية فى الاقتصاد الحديث .

هذا ونذكر بأن آخر أجل حدد لقبول طلبات المشاركة هو ٢٠ ربيع الاول ١٣٩١ هـ الموافق لـ ١٥ ماى ١٩٧١ م .

وعلى كل مترشح من طلبة وتلاميذ السنتين الاخيرتين من التعليم الثانوى أن يرفقوا طلباتهم بشهادة طبية وشهادة مدرسية ، أما المترشحون من سلك التعليم والموظفين الذين سيسمح لهم بالمشاركة فى حدود الامكان فمطالبون بالشهادة الطبية وشهادة العمل ، وترسل طلبات المشاركة الى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

ـ ٤ ـ شارع تيمقاد حيدرة الجزائر ، مع كتابة كلمة الملتقى على زاوية الغلاف .

الذكرى ٣١ لوفاة



الشيخ عبد الحميد بن باديس

ابن باديس

والشخصية الجزائرية

قتل اللغة العربية
والقضاء على
التراث العربى
الاسلامى فى
الجزائر من أهداف
الاستعمار ليتوصل
الى خلق أجيال
من الجزائريين بلا
اصالة ولا عمق.

تركى رابح



يعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس احدالرجال القلائل الذين ناضلوا بصلابة وايمان طيلــة ربع قرن من الــزمن عن الشخصية الجزائرية التى تتكون فى رايه من ثلاثة عناصر هــى :

١ ــ الاســلام ،
٢ ــ العــروبة ،
٣ ــ الوطنية الجزائرية .

ولعل عبقرية ابن باديس فى هذه الناحيةتعود الى انه كان من الرواد الاوائل الذين ادركوا بعمق نظرتهم ، ونفاذ بصيرتهم الى انتحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسى انمــا تبــدأ الخطوة الاولى فيه من المحــافظة على الشخصية الجزائرية ، والعمــل على بعث مقومات هذه الشخصية من سباتها العميق ،بعد أن عمــل الاستعمار بكل جهــوده على محاولة القضاء عليها ومسخ ملامحها العامة .

لذلــك فان اشادتنــا واشــادة الشعب بشخصية ابن باديس انما ترمز فى الواقع الى هذا المعنى الكبير ، وهو وجوب المحافظة على الشخصية الجزائرية حتى يصبح لاستقلالنا الوطنى مضمونه الايجابى فى حياتنا العامة .

ولا يمكن أن نفهم عظمة الدور الذى نهض به الشيخ عبد الحميد بن باديس فى تــاريخ الجزائر الحديث الا اذا القينا نظرة ولو خاطفةعلى العصر الذى عاش فيه ابن باديس واثر فى توجيهه هذه الوجهة التى سار فيها وهــىوجهة النضال عن الشخصية الجزائرية الذى يقود حتما الى تحرير الجزائر فى النهــاية فىنطاق حضارتها العربية الاسلامية لافىنطاق التجنيس او الاندماج او الفرنسة كما كانالبعض من الجزائريين منذ بداية هذا القرن وخلال العشرينات ينادون بذلك .

وهو ما حققته فعلا ثورة الفاتح من نوفمبرسنـــة ١٩٥٤ حيث اعلنت منذ البــداية بان تحــرير الجــزائر يجب أن يكون فى نطاقالحضارة العربية الاسلامية .

الخطوط العامة لسياسة فرنسا فى الجـزائر

اذا تتبعنا ملامح السياسة الفرنسية منذ الايام الاولى للاحتلال فى عام ١٨٣٠ الى غاية خروج الاستعمار من الجزائر فى عام ١٩٦٢ فاننا نجدها قد سارت فى أربعة خطوط متوازية تلتقى كلها فى النهاية عند نقطة واحدة وهى المحو الكامل للشخصية الجزائرية حتى لا تقوم للجـزائر قائمة فى يوم من الايـام . هذه الملامح او الخطوط العـامة للسياسة الفرنسية فى الجزائر يمكن اجمالها فى الخطوط الاربعة التـالية :

اولا : التفقير ،
ثانيا : التجهيل ،
ثالثا : الفرنسـة ،
رابعا : التنصير .

فالتفقير يتمثل فى اغتصاب الارض من الجزائريين التى هى مصدر حياتهم الاساسى وارهـاقهم بالضرائب والغرامات الجمـاعية الفـادحة التى تسببت فى افتقـار معظم الجزائريين وخروج مصـادر الثروة الوطنية من أيديهم وهى الارض والعقارات .

ومن المعروف أن ملكية الارض فى الجزائر كانت قبل دخول الاحتلال الفرنسى الى البلاد عام ١٨٣٠ تسير حسب القواعد الاصلاحية ، وكانت هناك أربعة انواع من الملكية الزراعية فى الجزائر هى :

١ ـ أراضى الاوقاف الاسلامية ،
٢ ـ أراضى الدولة الجزائرية ،
٣ ـ أراضى القبائل أو العروش ،
٤ ـ أراضى الاملاك الفرديـة .

وقد رسم الجنرال بيجو سياسة الاستعمار الفرنسى فيما يخص الاستيـلاء على أملاك الجزائريين فقد اعلن فى ١٤ ماى ١٨٤٠ فى مجلس النواب الفرنسى قائلا . حيثما وجدت مياه غزيرة ، واراضى خصبة ، يجب أن يقيم المعمرون دون الاهتمام بالسؤال عن أصحاب هذه الارض .. وطبقا لهذه السياسة تـم الاستيلاء على أراضى الاوقـاف الاسـلامية وضمتا معا الى املاك الدولة الفرنسية فى عام ١٨٤٣ . وقد قررت سلطات الاحتلال عـدة اسباب للاستيـلاء على اراضى المواطنـين الجزائريين تتلخص فيما يلى :

١ ـ القيام باعمال عدائية ضـد الاحتلال الفرنسى او اعانة الثوار ضـد فرنسا ،

٢ ـ ترك الارض والالتحاق باعداء فرنسا من الثوار ضد احتلالها ،

٣ ـ احـراق الغابـات .

وبما ان المقاومة للاحتلال قد شملت معظم انحاء الجزائر واستمرت الثورات متوالية ضد فرنسا سنين طويلة ، فقد استولت فرنسا على مآت الالوف من الهكتارات وضمتها الى املاك الدولة الفرنسيه .

ثم قامت بتوزيعها على المواطنين الاوروبيين الذين جلبتهم الى الجزائر من كافة انحـاء اوروبا ، وقد سلكت فرنسا فى مسألة الارض فى الجزائر سياسـة المهاجرين الاوروبيـين لافريقيا الشمالية فى أراضى الهنود الحمر فى أمريكا وتركهم احرارا فى أن يموتوا جوعا .. وكذلك فعلت فرنسا بالنسبة للجزائريين .

ولم يصل عام ١٩٠٠ حتى وصلت جملـة الاراضى التى صودرت من الجزائريين الى ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ هكتـارا من اجـود الاراضى الزراعية وصـار معدل ما يملكه كل فـلاح اروبى من الاراضى الفلاحية ١٠٨ هكتارات فى مقابل ١٤ هكتارا لكل فلاح جزائرى .

وخلاصة القول ان سياسـة فرنسـا فى الجزائر كانت سياسة اسكان ما امكن من المستوطنين الاوروبيين فى الاراضى الجيدة ، وايجاد مستغلات لهم ، وابعاد الجزائريين عن تلك الاراضـى وحصرهم فى الجنـوب الصحراوى وفى المناطق الجبلية فى الشمال ، وقد وضعت الحكومة الفرنسية نصب عينيها عملية انتزاع الارض من الجزائريين وخاصة فى مناطق التل الخصبة وقد ترتب على تنفيذ هذه السياسة أن خرجت مصـادر الثـورة الرئيسية من ايـدى الجزائريين الامر الذى ادى الى تدهور اقتصادى عام فى حياتهم ظهر فى حركات الهجرة الواسعة النطاق الى فرنسا للعمل من اجل كسب القوت .

اما سياسة تجهيل الجزائريين فتتضح فى أن فرنسا قد قضت على معظم المدارس والمعاهد التى كانت موجودة فى الجزائر قبل الاحتلال ، ثم استولت على أملاك الاوقاف الاسلامية التى كانت تقوم بالانفاق على التعليم والثقافة فى البلاد وبذلك ماتت معاهد العلم التى سلمت من الدمار الاستعمارى وتفرق الطلبة والاساتذة شذر مذر . كما عمد قادة الاحتلال الى نهب المكتبات الجزائرية ولم تسلم حتى مكتبة الامير عبد القادر حيث قام جنود الجنرال « دوق دومال » بتخريب هذه المكتبة العامرة حتى ان المؤرخين يقولون بأن الامير عبد القادر اصابته نوبة من الحزن الشديد وهو يتتبع أثر الطابور الفرنسى مسترشدا بالاوراق المبعثرة فى الصحراء التى انتزعها الجنود الفرنسيين من الكتب التى عانى الكثير فى جمعها .

أما عدد التلاميذ الجزائريين فى المدارس الابتدائية الفرنسية فقد بلغ فى عام ١٨٥٠ (٦٤٦) تلميذا ، ووصل عددهم فى عام ١٨٧٠ الى ١٣ الفا ثم هبط عددهم بعد قيام ثورة المقرانى المشهورة الى ٣ر١٧٢ تلميذا ، وذلك فى ١٨٨٠ ، فى حين ان عدد الاطفال الاوروبيين قد وصل فى عام ١٨٧٠ الى (٤٤ر٣٢٦) تلميذا وتلميذة ومما يدل على سياسة التجهيل التى كانت تسير عليها فرنسا فى الجزائر أن ميزانية ادارة الامن العام (البوليس) الخاصة بمكافحة الحركات الوطنية الجزائرية قد خصص لها فى ميزانية عام ١٨٤٧ مبلغ مالى يقدر بمليار من الفرنكات ، بينما لم يخصص لتعليم ابناء الجزائريين فى نفس الميزانية سوى ٨٠ مليون فرنك فقط .

لذلك كانت الامية منتشرة بين النساء الجزائريات بنسبة ٩٩ ٪ وبين الرجال بنسبة ٩٥ ٪ ، اما سياسة فرنسة الجزائر فتتضح فى موقف الاستعمار الفرنسى من لغة البلاد وهى اللغة العربية ، فقد اتخذت الادارة الاستعمارية منذ البداية موقفا عدائيا من اللغة العربية وابعدتها ابعادا كاملا من من الادارة الحكومية ومن معاهد التعليم فى جميع مراحله تقريبا كى تتمكن من فرنسة الجزائريين فرنسة كاملة يدل على ذلك ما جاء فى احدى التعليمات التى صدرت فى أوائل أيام الاحتلال عقب الشروع فى تنظيم الادارة الحكومية فى الجزائر فقد ورد فيها ما يلى : « ان بلاد الجزائر لن تصبح حقيقة — مملكة فرنسية — الا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية . العمل الجبار الذى يترتب علينا انجازه هو السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بين الاهالى الجزائريين بالتدريج الى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الان » ..

وجاء فى تقرير فرنسى رسمى فى عام ١٨٤٩ ما يلى :

« لا ننسى ان لغتنا هى اللغة الحاكمة فان قضاءنا المدنى كذلك يصدر احكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة ، وبهذه اللغة (اى الفرنسية) يجب أن تصدر باعظم ما يمكن من السرعة جميع البلاغات الرسمية ، وبها يجب ان تكتب العقود ، وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا ، فان أهم الامور التى يجب أن يعتنى بها قبل كل شىء هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم الينا وتمثيلهم وادماجهم فينا ، وجعلهم فرنسيين » .

والواقع أن المخطط الاستعمارى قد ركز سياسته منذ البداية على ضرب الشخصية القومية للشعب الجزائرى متمثلة فى اللغة العربية أولا ثم فى تراثها الثقافى والحضارى ثانيا كى يعوق عملية البعث القومى العام فى مستقبل الايام ولذلك اقام انظمته التعليمية فى الجزائر معزولة ومقطوعة عن التاريخ الجزائرى ، وارضية التراث الثقافى القومى وبذلك أراد قتل الاثنين معا :

قتل اللغة العربية ، ثم القضاء على التراث العربى الاسلامى فى الجزائر كى يتوصل الى الهدف الاساسى وهو خلق اجيال من الجزائريين بلا أصالة ولا عمق يمكن فرنستهم بسهولة ويسر ، وقد عمد الاستعمار الى فرنسة سائر مظاهر الحياة الجزائرية حتى المدن اصبحت تحمل اسماء حكماء وجنرالات فرنسيين مثل : باسكال ، وفولتير ، وفيكتور

هيجو ، والجنرال سانتارنو ، وروفيقو ، ولا فاييت ، وميشال الخ .. وكذلك اسماء الشوارع والميادين والساحات الى آخره ..

أما سياسة التنصير وهى النقطة الرابعة فى المخطط الاستعمارى للقضاء على الشخصية القومية للشعب الجزائرى . فتتمثل فى موقف الاستعمار الفرنسى من الاسلام وأوقافه ومحاكمه ومساجده ومعاهده العلمية ، فمنذ البداية عمد قادة الاحتلال الى الاستيلاء على المساجد الاسلامية وتحويلها الى كنائس كما حصل لجامع كتشاوة فى العاصمة ، وغيره من المساجد الاخرى فى كافة المدن الجزائرية وبعد احتلال مدينة الجزائر ارسل قائد الحملة الى القسيس الذى رافقها خطابا قال له فيه : « انكم جئتم معنا الى هنا لتفتحوا من جديد أبواب المسيحية فى افريقيا » ..

وكان الجنرال بيجو احد قادة الاحتلال يجمع الاطفال الجزائريين اليتامى وياتى بهم الى القسيس فيسلمهم له قائلا : « حاول يا أبتى ان تجعلهم مسيحيين واذا فعلت ذلك فلن يعودوا الى دينهم ليطلقوا علينا النار » ، وقد تولى الكاردينال «لافيجرى» مسؤولية تنفيذ سياسة تنصير واسعة النطاق فى الجزائر حددها بقوله : « علينا ان نجعل من الارض الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء ارجاؤها بنور منبع وحيها الانجيل .. تلك هى رسالتنا » ..

والامر الذى يثير الدهشة حقا هو أن فرنسا أصبحت تنشر المسيحية بين الجزائريين بواسطة اموال الاوقاف الاسلامية التى استولت عليها ، وعن طريق المساجد الاسلامية التى حولتها الى كنائس فى مختلف مدن القطر ثم جعلتها مصيدة لتنصير الجزائريين .

وقد تعاونت الادارة الاستعمارية فى الجزائر مع رجال التبشير المسيحى على اختلاف مذاهبهم ونحلهم فى محاولة تنصير الجزائريين واخراجهم من دينهم الاسلامى وبالجملة فقد تجلت سياسة الاستعمار الفرنسى لتحطيم الشخصية الجزائرية فى فى الامور التالية :

١ — القضاء على الدين الاسلامى قضاء تاما ،

٢ — القضاء على الثقافة العربية الاسلامية ،

٣ — القضاء على اللغة العربية التى هى وعاء الفكر والثقافة فى الجزائر ،

٤ — القضاء على الجنسية الجزائرية ،

٥ — العمل على تشويه تاريخ الجزائر فى ظل الحضارة العربية الاسلامية ،

٦ — العمل على تفكيك عرى الوحدة الوطنية للشعب الجزائرى عن طريق اثارة الشقاق والفتن بين ابناء الجزائر بدعوى ان الجزائر يسكنها عنصران من الاجناس لا عنصر واحد وهما : العرب والبربر تمشيا مع سياسة فرق تسد .

وبالاضافة الى كل هذه الامور فقد كان الجزائريون يعيشون فى ظل أحكام قوانين الانديجينا الرهيبة التى كانت منذ بداية صدورها فى عام ١٨٧٤ — وتوسيع نطاق العمل بها فى عام ١٨٨١ وهى مسلطة على رقاب الشعب الجزائرى بحيث لا تترك له متنفسا يتنفس فيه . وقد وصف لنا قسوة هذه القوانين التى لم تلغ الا فى عام ١٩٣٠ الزعيم المصرى المعروف محمد فريد بك الذى قام بزيارة للجزائر فى عام ١٩٠١ فى مقال نشره فى جريدة اللواء المصرية فى ٩ أكتوبر ١٩٠١ فقال : « يعامل المسلمون فى الجزائر بقوانين مخصوصة فى غاية الشدة والصرامة فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع ، بل ومن السفر والانتقال ، وحرية مطالعة الكتب ، والجرائد ، ومن الغريب فى بلاد الجزائر انه لا يوجد للعربى ان يسافر خارج المركز الذى يقيم فى دائرته الا باذن من البوليس يبين له فيه الجهة التى يقصد الذهاب اليها ، والمدة التى يمكنه التغيب فيها عن قريته أو مدينته ، وعليه أن يتوجه لمركز البوليس فى الجهة التى يقصدها بمجرد وصوله اليها كى يعلم له على الجواز .. ثم يقول : وبالجملة فقد كانت حالة الجزائريين فى ظل القوانين الاستثنائية (الانديجينا) المذكورة حالة لا تطاق . وكان الضيق الاكبر

يكتنفهم من كل جهة واحكام الانديجينا الصارمة تنزل على رؤوسهم كالكابوس الرهيب .. » ؛ هذه باختصار كبير هى حالة العصر الذى نشأ فيه ابن باديس الذى ولد فى عام ١٨٨٩ وتوفى فى ١٦ ابريل ١٩٤٠ ، وهذه هى استراتيجية فرنسا والخطوط العامة التى سارت فيها السياسية الفرنسية منذ بداية الاحتلال فى عام ١٨٣٠ حتى فجر يوم الاستقلال فى عام ١٩٦٢ لتحطيم الكيان الجزائرى . ومحاولة القضاء عليه بكل الوسائل الممكنة كما قلنا — التفقير ، والتجهيل ، والفرنسة ، والتنصير — فما هى استراتيجية ابن باديس لمقاومة هذه الاستراتيجية الاستعمارية واحباط مخططاتها العدوانية ضد الكيان الجزائرى أو الشخصية الجزائرية ؟

تقوم استراتيجية ابن باديس على اساس عمل نشيط ومضاد لاهداف السياسة الاستعمارية يتمثل فى العمل بكل وسيلة ممكنة للحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية بكل ابعادها الثقافية ، والحضارية ، والروحية .

ولقائل منا ان يقول لماذا لم يتجه ابن باديس منذ البداية عندما شرع يعمل فىميدان التربية والتعليم والاصلاح الدينى فى عام ١٩١٣ الى السياسة مباشرة كما كان يفعل معظم الجزائريين فى ذلك الوقت ؟

والجواب هو ان ابن باديس لم يتجه الى السياسة لعدة اعتبارات فى نظرنا :

١ — عدم جدوى العمل السياسى الذى كان فى ذلك الوقت يتمثل فى الخطب ، والاجتماعات والمظاهرات فقط لانه غير مجد فى نظر ابن باديس فى الحد من خلافة وعنف السياسة الاستعمارية حيث ان الاستعمار لا يفهم الا لغة واحدة فقط ، هى لغة القوة ، وما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ، كما يقول المثل ، والسياسة لا تؤمن بالقوة ، وانما تعمل فى نطاق الشرعية .

٢ — ان العمل السياسى المجدى غير ممكن فى ظل قوانين الانديجينا الرهيبة التى كان الشعب الجزائرى ابتداء من عام ١٨٧٤ حتى عام ١٩٣٠ يعيش تحت سيفها المسلط على رقابه وهى تحصى عليه حتى انفاسه التى يتنفسها خصوصا وان الوعى الشعبى العام كان فى هذا الوقت فى ركود وخمود تامين .

٣ — ان الاخطار كانت تهدد الكيان الجزائرى فى صميمه تهديدا مباشرا — كما سبق ان ذكرنا — لهذه الاعتبارات التى ذكرنا وغيرها مما لم نذكره لضيق المقام،قامت استراتيجية ابن باديس على اساس احباط خطط فرنسا ضد الكيان الجزائرى التى ذكرناها وهى التفقير ، والتجهيل ، والفرنسة والتنصير ، وذلك عن طريق العمل بكل همة ونشاط على المحافظة على الشخصية الجزائرية التى يلخصها ابن باديس فى فى شعاره المشهور وهو :

« الاسلام ديننا،والعربية لغتنا ،والجزائر وطننا » . ولا ينبغى أن يفهم من كلامنا هذا أن ابن باديس لم يخض فى السياسة أو لم يشارك فى النشاط السياسى الذى كانت تقوم به الهيئات والمنظمات الجزائرية خصوصا بعد الحرب العالمية الاولى ، وانما نقصد ان التركيز فى عمل ابن باديس كان فى البداية موجها كله تقريبا الى الجانب القومى من الشخصية الجزائرية . وعلى كل حال يمكننا ان نميز ثلاث فترات فى نشاط ابن باديس القومى :

الفترة الاولى تبدأ من عام ١٩١٣ الى غاية عام ١٩٢٥

والفترة الثانية تبدأ من عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٣١ وهو العام الذى احتفلت فيه فرنسا **بمرور قرن كامل على احتلالها للجزائر**

أما الفترة الثالثة فتبدأ فى ١٩٣١ وهو العام الذى كون فيه ابن باديس وصحبه جمعية العلماء حتى عام ١٩٤٠ وهو العام الذى توفى فيه .

ففى الفترة الاولى أو المرحلة الاولى فقد ركز عمله وجهوده كلها فى التربية والتعليم بالنهار للاطفال والشباب ، وبالليل للشباب والكبار فىدروس التفسير والحديث ، والحضارة الاسلامية ، وكان هدفه من ذلك هو تكوين مجموعة من الرجال يتلقون عنه الدعوة الاصلاحية والتوجيه العربى الاسلامى الرشيد ، حتى يعملوا على نشر العلم

والاصلاح بعد توزعهم فى مختلف انحاء البلاد كى يمكن الاعتماد عليهم فى بث الوعى القومى والاسلامى العام فى افراد الشعب اى انه بدأ بخلق ارضية ثابتة تقف عليها دعوته الاصلاحية وعمله التربوى قبل ان ينغمس فى التيارات السياسية يقول ابن باديس : فى مقال له بعنوان « عبداويون ثم وهابيون » ثم ماذا ؟ لا ندرى والله نشره فى العدد الثالث من جريدة السنة الصادرة فى ٢٩ ذى الحجة ١٣٥١ هجرية يقول :

« لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ٣٢ هجرية (اى عام ١٩١٣ ميلادية) وعزمنا على القيام بالتدريس ادخلنا فى برنامج دروسنا تعليم اللغة وادبها ، والتفسير والحديث ، والاصول ومبادىء التاريخ ، ومبادىء الجغرافيا ومبادىء الحساب الى ان يقول ... « ومضينا على ما رسمنا من خطة وحمدنا الى ما قصدناه من غاية ، وقضيناها عشر سنوات فى الدرس لتكوين نشء علمى لم نخلط به غيره ، من عمل آخر ، فلما كملت العشر (اى عشر سنوات) وظهرت بحمد الله — نتيجتها راينا واجبا علينا ان نقوم بالدعوة العامة الى الاسلام الخالص ، والعلم الصحيح الى الكتاب والسنة وهدى صالح سلف الامة ، وطرح البدع والضلالات ، ومفاسد العادات ، فكان لزاما علينا ان نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس ، فكان المنتقد ؟ ىجريدة المنتقد التى اصدرها ابن باديس فىعام ١٩٢٥ وكانت جريدة «الشهاب» التى خلفت جريدة المنتقد التى اوقفتها فرنسا بعد صدور ثمانية عشر عددا فقط منها فى عام ١٩٢٥ ايضا ، اذن فقد كانت هذه المرحلة من عمل ابن باديس عبارة عن مرحلة اعداد للجيل واعداد التربة الصالحة للدعوة الاصلاحية السلفية .

اما المرحلة الثانية فتبدا من عام ١٩٢٥ الى عام ١٩٣٠ وفى هذه الفترة او المرحلة بدأ ابن باديس الى جانب عمله الاساسى فى التربية وتكوين الرجال والاصلاح الدينى والاجتماعى للمجتمع الجزائرى ، بدأ يساهم مساهمة هامة فى الافكار السياسية التى تشغل بال المواطنين . ويعمل على الخروج بدعوته القومية من دائرة مدينة قسنطينة وضواحيها فقط الى نطاق القطر الجزائرى كله . وفى هذه الفترة اصدر جريدة المنتقد فى الثانى من شهر جويلية ١٩٢٥ ثم جريدة الشهاب فى نفس العام التى استمرت فى الصدور كجريدة اسبوعية من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٢٩ ثم تحولت الى مجلة شهرية حتى عام ١٩٣٩ حيث توقفت نهائيا عند بداية الحرب العالمية الثانية .

يقول ابن باديس فى أول افتتاحية كتبها فى العدد الاول من جريدة المنتقد ١٩٢٥ تحت عنوان : خطتنا ... مبادئنا ، وغايتنا ، وشعارنا . يقول :

« لسم الله ، ثم باسم الحق والوطن ، ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التى نتحملها فيه ، مستسهلين كل صعب فى سبيل الغاية التى نحن اليها ساعون والمبدأ الذى نحن عليه عاملون ، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التى عقدنا العزم على السير عليها لا مقصرين ولا متوانين ، راجين أن ندرك شيئا من الغاية التى نرمى اليها بعون الله ثم بجدنا وثباتنا ، واخلاصنا، وايمان اخواننا الصادقين فى خدمة الدين والوطن

... ولاننا جزائريون نعمل لاسعاد شعب الامة الجزائرية ، واحياء روح القومية فى ابنائها ، وترغيبهم فى العلم النافع والعمل النافع والعمل المفيد ، وحتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة ، والانتفاع فى العالم وعليها واجب بالخدمة والنفع للانسانية .

ثم يقول : **واننا نحب الانسانية ونعتبرها كلا ، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا ونحب من يحب الانسانية ويخدمها ، ونبغض من يبغضها ويظلمها .. وبالاحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه ، ونبغض من يبغضه ويظلمه ، فلهذا نبذل غاية الجهد فى خدمة وطننا الجزائرى ، وتحبيب بنيه فيه،ونخلص**

لكل من يخلص له ، ونناوىء كل من يناوئه من بنيه وغير بنيــه » .

ويتطرق الى الحديث عن حقوق الجزائر التى ينبغى على فرنسا ان تسلم بها طبقا لمبادىء الثورة الفرنسية فيقول :

« ان الامة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا فى أيام عسرها ويسرها ، ومع الاسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها ، فنحن ندعو فرنسا الــى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية « الحرية ــ والمساواة ــ والاخوة » من رفع مستــوانا العلمى والادبى بتعمـــيم التعليم الحديث . وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا فى ادارة شؤون وطننا الجزائرى .

ويختم هذه الافتتاحية الهامة جدا فى نظرنا بقوله : « هذه مبادئنا وهى مبادىء الصحافة الحرة الصادقة التى هى قوة لا غنى لامـــة ناهضة فى هذا العصر عنها .

هذه مبادئنا وسيرضى عنا بها الاحرار المفكرون اصحاب الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة من الوطنين والفرنسين،وسيغضب بها علينا المستبدون الظـــالمون والدجـــالون المحتالون وصغار الادمغة وضياق الصـــدور من بغات البشر .

ونحن بين الجميـــع لا نخـــدم الا الحق ، والوطن ، والدين ، ولا نسمع الا لصـــــوت وهى : « سعادة الامة الجزائرية بمســـاعدة فرنسا الديموقراطيـــة « صارخـــين دائمـــا بشعارنا الرسمى وهو « الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شىء « وعلى الله ثم على اجتهادنا واخلاصنا ومناصرة انصار المبادىء الحرة الاعتماد والاتكال » .

لقد اطلنا فى نقلنا فقرات كبيرة مـــن هذه الافتتاحية الهامة لانها فى نظرنا تشرح شرحا وافيا عقيدة ابن باديس ومبادئه بكل وضوح وقد يقال ان ابن باديس تحدث فيهـــــا عن الروابط التى تربط الجزائر بفرنسا كقــوله : « سعادة الامة الجزائرية بمساعدة فـــرنسا الديموقراطية » ولكن يمكن الرد علـــى ذلك بكل سهولة فابن باديس كان دائمـــا يستعمل التقيه حتـــى لا يتيــح الفرصـــة للسلطات الاستعمارية كى تقضى على حركته الوليدة ومن هنا رأيناه يعقب على الشعار الســـابق مباشرة بشعار آخر هو قوله : صـــــارخين بشعارنا الرسمى وهو « الحق فوق كل احد ، والوطن قبل كل شـــىء » ومعـــنى هذا بكل بساطة أن سعادة الامة الجزائرية لـــن تكون أبدا بمساندة فرنسا حتى ولو كانت حكوماتها ديمقراطية حقا لان الواقع قد اثبت أنه لن يرجى خير للجزائر من فـــرنسا عـــن طريق العمل السياسى وحده بدون ثورة شعبـــية مسلحة تجبر الاستعمار الفرنسى عـــــلى الاعتراف بالحقوق الشرعية لاصحابهـــا كما حدث مثلا فى ثورة نوفمبر سنة ١٩٥٤ الـــتى اجبرت فرنسا على الاعتراف بالاستقلال التام للجزائـــر .

وابن باديس بوجه عام كان يتبع سيـــاسة مرنة فى الوصول الى اهدافه البعيدة بـــدون اية تضحية بالمبادىء الاساسية التـــى يعمل من اجلها ، يوضح هذا قوله فى أحد شعاراته المشهورة « تستطيع الظـــروف ان تكيفنا ــ ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا » فهو قد يقول كلاما تبدو فيه رائحة التعاون مـــع سلطات الاحتلال مثلا ولكنه انما يقوله كى يـــدارى سلطات الاحتلال فقط فهو من باب التقية كما قلنا . اما المبادىء الاساسية التى يؤمن بها ويطمح اليها الشعب الجزائرى كلـــه فهو لا يتزحزح عنها قيد انملة يوضح هذا قوله فى احد مقالاته فى الشهاب « من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التى نـــؤمن بها ويؤمن بها المؤمنون الصادقون ــ فقد حاول عبثـــا قلب الحقائق ــ ونحن لذلك لا نتزحزح عـــن تلك الفكرة قيد شعرة ــ مهما طغى سيل الكوارث على أمة لها ما للشعب الجزائرى من الصفات المرغوب فيها،الكامنة كمون النار فى الكهرباء»

اما الفترة التابعة التى تبدأ من عام ١٩٣١ فقد خاض ابن باديس فى السياسة والنشاط بقسط وافر واصبحت له كلمة نافذة فى كـــل الاحداث السياسية التى مرت بالوطن وفيها المؤتمر الاسلامى سنة ١٩٣٦ .

الجبهات التى حارب فيها ابن باديس

فاذا تساءلنا عن عدد الجبهات التى حارب فيها ابن باديس دفاعا عن الشخصية الجزائرية او الشخصية القومية للشعب الجزائرى ؟ فالجواب عن ذلك هو أن ابن باديس حارب فى اربع جبهات فى وقت واحد وهى :

١ — الاستعمار .
٢ — رجال التبشير المسيحى .
٣ — رجال الطرقية الذين اصبحوا العوبة فى يد الاستعمار .
٤ — دعاة التجنيس والاندماج والفرنسة .

فأما محاربته للاستعمار فلم تكن بطريقة مباشرة لانه كما سبق لنا ان ذكرنا لم يكون حزبا سياسيا فى حياته على غرار الاحزاب السياسية التى عرفتها الجزائر منذ نهاية الحرب العالمية الاولى ولكنه حارب الاستعمار وافسد سائر خططه ضد القومية العربية الجزائرية وبالتالى ضد حرية الجزائر واستقلالها عن طريق نضاله عن المقومات الاساسية للشخصية الجزائرية .

والملاحظ ان فرنسا لم تحسب أى حساب لعمل ابن باديس فى البداية لانها كانت تظن انه كرجال الدين الاسلامى الجامدين فى عصره وقد كانت تستهين بهم وتعتقد أنهم جميعا بما فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس على شاكلة واحدة يعيشون فى غياهيب الاوراق الصفراء او الثقافة التقليدية الجامدة ولا يفقهون لتطورات العصر شيئا ولم تفطن الى ان ابن باديس هو طراز فريد من العلماء وطراز فريد كذلك من الرجال ، وانه هو الذى سوف يهز الارض من تحتها فى النهاية . وهكذا كان وعندما تنبهت فرنسا الى خطورة الدور الذى يلعبه ابن باديس على استعمارها فى الجزائر بعد تكوين جمعية العلماء — وانتشار تلامذ ودعوة ابن باديس — القومية فى كافة أنحاء الجزائر حاولت الحد من نفوذه وعرقلة اعماله والتضييق على نشاطه الاصلاحى والصحافى والتربوى ولكن زمام الموقف كان قد افلت من يدها الى الابد فلم تستطع أن تفعل شيئا .

أما محاربته لرجال التبشير المسيحى الذين كانوا يعتبرون طابورا خامسا لخدمة الاستعمار واهدافه الخبيثة فى البلاد فتتجلى فى النهضة العلمية والدينية التى بثها ابن باديس فى الشعب وفى النوادى ، والجمعيات العديدة التى كونها هنا وهناك وفى المساجد الحرة التى انشاتها جمعية العلماء بقيادته ، وفى المقالات الدينية والاخلاقية التى كان ينشرها فى جريدة المنتقد ثم فى جريدة ومجلة الشهاب، وفى جرائد جمعية العلماء ، وهى السنة ، والشريعة ، والصراط ، والبصائر وكل هذا النشاط الاسلامى والعربى قد تضافر على احباط نشاط رجال التبشير المسيحى فى تنصير ابناء وبنات الجزائريين ومما يدل على فشل أعمال المبشرين فى الجزائر ما ذكره الدكتور غوستاف لوبون فى كتابه « روح السياسة » حيث ذكر واقعة تدل على فشل اعمال المبشرين وهى أن الكاردينال « لافيجرى » جمع أربعة آلاف طفل يتيم جزائرى ، وقام بتربيتهم تربية مسيحية ولكن معظمهم رجع الى الاسلام بعد أن بلغوا سن الرشد .

أما محاربة ابن باديس لرجال الطرقية فقد كانت بسبب البدع والضلالات التى أحدثوها فى الدين الاسلامى من ناحية ، وبسبب ان معظمهم قد أصبح العوبة فى يد الاستعمار الفرنسى ضد مصالح بلادهم العليا من ناحية اخرى .

يقول ابن باديس فى مقال له نشره فى الشهاب تحت عنوان :

« لماذا حارب الشهاب الطرقية ؟ »

« حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها — علم الله — من بلاء على الامة من الداخل ومن الخارج ، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا فى ذلك من صعاب وقد بلغنا غايتنا والحمد لله . »

أما دعاة التجنيس بالجنسية الفرنسية وكذلك دعاة الاندماج فقد كان ابن باديس لهم بالمرصاد لان ذلك يمس بأسس الكيان

الجزائرى فى الصميم وقد كانت له مع هؤلاء وهؤلاء معركة فاصلة . وعندما كتب أحد الساسة الجزائريين من دعاة الاندماج فى عام ١٩٣٤ مقالا باللغة الفرنسية أنكر فيه وجود الشخصية الجزائرية فى التاريخ ، رد عليه ابن باديس فى مجلة « الشهاب » ردا مفحما أسكته بـه .

يقول ابـن باديـس : **اننا نحن فتشنا فى صحف التاريخ ، وفتشنا فى الحالة الحاضرة، فوجدنا الامة الجزائرية المسلمة متكـونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الـدنيا، ولهذه الامة تاريخها الحافل بجلائل الاعمال ، ولها وحدتها الدينية ، واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة ، وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح ، شأن كل أمة فى الدنيا . ثم ان هذه الامة الجزائرية الاسلامية ليسـت هى فرنسا ولا تستطيع أن تصير فرنسا ، ولـو أرادت ، بل هى بعيدة عن فرنسا كل البعد ، فى لغتها وفى أخـلاقها ، وفى عنصرهـا ، وفى دينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن محدود معين ، هو الوطن الجزائرى،بحدوده الحالية المعروفـة » ..**

مقومات الشخصية الجزائرية فى نظرية ابن باديس .

كان ابن باديس يرى أن مقومات الشخصية الجزائرية تتمثل فى ثلاثة مقومات أسـاسية لا يمكن بقاء الشخصية الجزائرية قائمة فى الوجود الا ببقائها مجتمعة وهى :

١ ـ الاسلام .
٢ ـ اللغة العربية .
٣ ـ الجزائر بحدودها المعروفة .

وقد عبر عن هذه المقومات فى الشعار الذى رفعه لنهضة الجزائر وهو « الاسـلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا . »

فالشيخ عبد الحميد بن باديس لا يتصـور مستقبلا آخر للجزائر خارج دائرة الاسلام ، فالاسلام هو الذى تبنى عليه العـزة القومية للشعب الجزائرى . لانه يشكل مانعا حصينا لشخصية هذا الشعب القومية ضـد كل تبديد داخلى أو خارجى ولذلك بذل ابن باديس جهودا كبيرة فى تطهيره من البدع ، ومحاولة احياء جذوته فى النفوس حتى يصبح قـوة دافعة للجزائريين الى النضال من أجل تحرير بلادهم . ففى عام ١٩٣٨ القى ابـن باديس خطابا فى جماهير المحتفلين بختم تفسـيره للقرآن الكريم فى كلية الشعب بمدينة قسنطينة تحت عنوان : « الاسلام دين الحياة والعلم والفن » ختمه بالقسم التالى :

« اننى اعاهدكم على اننى اقضى بيـاضى على العربية والاسلام ، كما قضيت سوادى عليهما ، وانها لواجبات ـ واننى سـأقصر حياتى على الاسلام والقرآن ، ولغة الاسلام والقرآن .. »

أما اللغة العربية فان الشيخ عبد الحميد بن باديس يراهاالرابطة التى تربط بين ماضى الجزائر المجيد ، وحاضرها الاثير،ومستقبلها السعيد . ولا توجد هناك رابطة أخرى اقوى وامتن من هذه الرابطة لذلك تجب المحافظة عليها . فاللغة العربية هى لغة الدين ، ولغة الجنس . ولغـة القومية ، ولغـة الوطنية المغروسة حسب تعبير ابن باديس لذلك يقول عنهـا :

« انها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا ، وهى وحدها المقياس الذى نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا ، وبها يقيس من يأتى بعدنا من ابنائنا واحفادنا الغر الميامين ، أرواحهم بأرواحنا وهى وحدها اللسان الذى نعتز به، وهى الترجمان عما فى القلب من عقائد ، وما فى العقل من افكار ، وما فى النفس من آلام وآمـال .

... ان هذا اللسان العربى العزيز الذى خدم الدين ، وخدم العلم ، وخدم الانسان . هو الذى نتحدث عن محـاسنه منذ زمان ، ونعمل لاحيائه منذ سنين فليحقق الله أمانينا

وقال فى مقال آخر :

« ان الامة التى لا تحترم مقوماتهـا من جنسها ، ولغتها ، ودينها ، وتاريخها ، لا تعد أمة بـين الامم ، ولا ينظـر اليهـا الا بعين الاحتقار مع القضاء عليها فى ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار . »

وحقا لقد كانت اللغة العربية دائما هى المشعل المنير الذى يثير فى الشعب الجزائرى البطولات التى تدفعه الى التحرر من ربقة الاستعمار ، وتشعل فى نفوس ابنائه الروح الوطنية ، وتوحد اهدافه وافكاره وشعوره واحاسيسه ، وتعبر عن اصالته وطابعه ، وتدفعه الى النضال فى سبيل الحرية والاستقلال والانتصار .

والملاحظ ان القوميات المقهورة فى جميع مراحل التاريخ قد ركزت نفسها على النضال الثقافى من اجل البقاء واهم شىء فى الثقافة هو اللغة لانها وعاء الثقافة .

والعنصر الثالث والاخير فى مقومات الشخصية الجزائرية فى نظر ابن باديس هو الوطن الجزائرى بكل تاريخه وامجاده ، وانتصاراته وهزائمه ، وهو يرى أن شرف الانسان من شرف وطنه ، يقول ابن باديس : « انما ينسب للوطن افراده الذين ربطتهم ذكريات الماضى ، ومصالح الحاضر ، وآمال المستقبل ، والنسبة للوطن توجب عليهم تاريخه ، والقيام بواجباته . من نهضة علمية واقتصادية وعمرانية ، والمحافظة على شرف اسمه ، وسمعة ابنائه ، فلا شرف لمن لا يحافظ على شرف وطنه ، ولا سمعة لمن لا سمعة لقومه . .

هذه هى المقومات الاساسية للشخصية الجزائرية وهى المقومات التى كافح ابن باديس طيلة حياته من اجل المحافظة عليها والدفاع عنها فى وجه اعدائها من المستعمرين والمبشرين ودعاة الفرنسة والاندماج والتجنيس .

وتبقى نقطة واحدة نختم بها هذا البحث وهى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان من المتحمسين لاستقلال الجزائر وقد تنبأ به فى احد مقالاته فى الشهاب ١٩٣٦ حيث يقول :

« ان الاستقلال حق طبيعى لكل امة من امم الدنيا ، وقد استقلت امم كانت دوننا فى القوة والعلم ، والمنعة والحضارة ، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ، ويقولون ان حالة الجزائر الحاضرة ستدوم الى الابد فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن انها تزداد تقلبا مع التاريخ،وليس من العسير بل انه من الممكن ان يأتى يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقى المادى والادبى وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر » .

رحم الله ابن باديس رحمة واسعة والهمنا جميعا للسير على منواله فى المحافظة على مقومات شخصيتنا القومية .

---

(١) انظر مجلة الشهاب ج ١ م ١٤ ص ١ — ٧ عدد مارس سنة ١٩٣٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم » الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص ٧٩ — ٨٥

(٤) المرجع السابق ص ٨٣ .

(٤) انظر الامر شكيب ارسلان « حاضر العالم الاسلامى » ج ٢ ط ٢ القاهرة سنة ١٣٥٢ ه ص ١٨٢ .

(٥) تركى رابح « الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده فى التربية والتعليم » ص ٩٢ .

(٦) المرجع السابق ص ١٣٠ .

(٧) المرجع السابق ص ٤٣ — ٤٨ .

(٨) المرجع السابق ص ٥٠ — ٥٢ .

(٩) انظر محمد فريد بك « الحرية الشخصية فى الجزائر » مقال منشور فى جريدة « اللواء » المصرية عدد ٦٠٩ الصادر فى اكتوبر سنة ١٩٠١ .

(١٠) يقول الاستاذ احمد توفيق المدنى : ان هذا الشعار قد اطلقه هو فى عام ١٩٢٦ فى خطاب عام وليس ابن باديس ، لذلك فان نسبته الى ابن باديس ليست صحيحة تاريخيا .

(١١) انظر جريدة « السنة النبوية » العدد الثالث — الصادر فى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٥١ ه .

(١٢) انظر جريدة « المنتقد » العدد الاول — الصادر فى ٢ جويلية سنة ١٩٢٥ .

(١٣) المرجع السابق .

(١٤) الاستاذ عادل زعيتر .

(١٥) انظر الشهاب ج ١ م ١٤ ص ١ — ٧ عدد مارس سنة ١٩٣٨

(١٦) الشهاب ج ١ م ١٢ ص ٤٥ — ٥٠ عدد ابريل سنة ١٩٣٦

(١٧) انظر الشهاب ج ١ م ١٤ ص ١ — ٧ عدد مارس سنة ١٩٣٨

(١٨) انظر الشهاب ج ٤ — ٥ م ١٤ ص ٢٨٨ — ٢٣١ عدد جوان وجويلية سنة ١٩٣٨ .

(١٩) انظر جريدة « البصائر » السنة الرابعة العدد ١٧١ ص ٤ ٢٢ جوان سنة ١٩٣٩ .

(٢٠) انظر الشهاب ج ٨ م ١١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ عدد نوفمبر سنة ١٩٣٥ .

(٢١) انظر الشهاب ج ١ م ١١ ص ١٥٥ عدد ابريل سنة ١٩٣٥

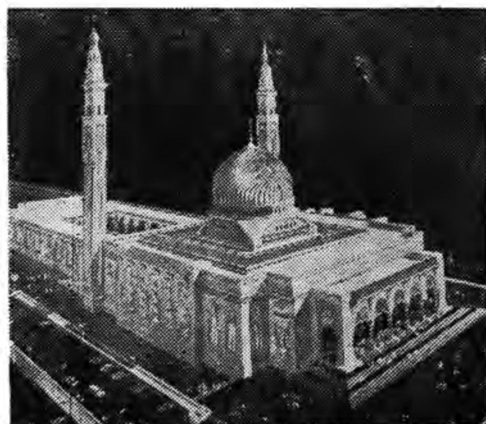
(٢٢) انظر الشهاب ج ٣ م ١٢ ص ١٤٥ — ١٤٦ عدد جوان سنة ١٩٣٦ .

مسجـد الامـير عبد القـادر
بقسنطينـة

ابعثـوا بتبـرعـاتكم لبنـاء
مسجـد الامـير عبد القـادر
بقسنطينـة

الى العنوان التالى :

C.P.A. Constantine
C.C.B. 30141. 1291



ندوة الأصالة



شارك في الندوة

- عبد الحميد مهري
- عبد المجيد مزيان
- عمار الطالبي
- محمد العربي ولد خليفة
- عثمان شبوب

عثمان شبوب : على كل حال نرحب بكم باسم مجلة « الاصالة » ونريد في هذه الجلسة ان يكون حديثنا امتدادا للحديث الذى كنا شرعنا فيه ، في الندوة السابقة وهو الشخصية الوطنية ، وان كان الحوار الذى دار في الندوة السابقة كان حوارا شبه اكاديمى تناول جملة أشياء نظرية ، واليوم بمناسبة ذكرى ابن باديس نريد أن نتعرض لهذا الموضوع من خلال الشيخ ابن باديس وحركته، ومواقف ابن باديس .

وسؤالى الاول هو : هناك وجهات نظر تقول ان ابن باديس رغم الدراسات التى كتبت حوله ، فانه لم يدرس حتى الآن دراسة تاريخية واجتماعية من شأنها ان تفسر بعض الجوانب من تفكيره ، فما رأيكم في هذا الموضوع ؟



عمار طالبى : الواقع ان شخصية ابن باديس شخصية غنية لها جوانب كثيرة جدا ، وهـذه الجوانب كلها تحتاج الى دراسة علمية والـى بحث ، فهو مصلح وهو مربى ، وهو مفسر ختم تفسير القرآن فى ربع قرن وهو محدث ايضـا استطاع ان يشرح كتاب الموطأ ، واقام احتفالا بمناسبة ختمه لهذا الشرح ، وهو اديب له اسلوب وله خصائص ، ولا تنقصه ايضا الموهبة الشعرية وهو خطيب ، وهو صحافى أيضا مـن اوائـل الجزائريين الذين انشأوا الصحافـة الناطقـة بالعربية فى الجزائر ، ولحد الآن لا نستطيع القول بأن ابن باديس قد درس بل هو فى حاجة الـى دراسة ، فاذا قام البعض بكتابة بعض المقالات او بعض الدراسات فهذه فى نظرى ليست كافية ابدا لمعرفة جوانب هذه الشخصية التى ينبغى ان نتعاون جميعا على دراستها وابراز جوانبها الكثيرة للناس خاصة وللشباب الجزائرى ليعرفوا عظمة هذا الرجل والظروف القاسية التى ناضل فيها ودافع عن مبدا يؤمن به ، وسلك فى ذلك منهجا معينا ربما سنشير الى هذا المنهج فيمـا بعد . والمهم اننا لا نستطيع القول بانه قد درس ولم يبق فيه جانب لا يحتاج الى دراسة .

تحالف ابن باديس مع الحركة الاصلاحية السياسية

هل هو موقف فرضته الظروف أم هو تجاوب حقيقي . ؟

عبد المجيد مزيان : اضيف الى ما قاله سى عمار عن شخصية ابن باديس ، ان هناك جوانب اخرى اى ابعاد لابد ان نتنبه اليها ،وهى الابعاد الاجتماعية لما يمكننا ان نسميه **بالثورة الباديسية** استعمل كلمة ثورة عوضا عن نهضة فقط ، لان هناك انقلابا فكريا ثقافيا ، وقع بسبب هذه الثورة الباديسية ، التى لها جوانب مختلفة : الجانب الدينى الجانب اللغوى ، الجانب السياسى ، وبالجملة يمكننا ان نقول ، الجانب الاجتماعى .

يعنى هناك تحولات جذرية وقعت فى المجتمع الجزائرى ، بسبب هذه النهضة الباديسية . وهذه الجوانب لم تدرس لحد الآن بكيفية علمية ان امكننا أن نعبر هكذا ، اى ان هناك دراسات اجتماعية لابد أن نقوم بها ، وأن نحدد تاريخنا من فترة كذا الى فترة كذا ، ما هى التحولات الجذرية التى وقعت فى الشعب الجزائرى ثقافيا ، سياسيا دينا لغويا الخ . اذا درست هذه الجوانب فاننا سنكتشف من خلالها ظواهر تحول مهمة جدا بالنسبة لبروز الثورة العامة التى دخلت فيها الجزائر ابتداء من سنة ١٩٥٤ ، اى ان هذه الثورة الثقافية الكبرى التى اتى بها ابن باديس ورفاقه لها امتداداتها حتى فى عصرنا الحاضر .. بعد الاستقلال . وهذه الامتدادات سنرى بأنها نقطة تحول بالنسبة للمجتمع الجزائرى . من هنا يمكننا ان نقول بأن شخصية ابن باديس كما قال سى عمار ، ثم الحركة الباديسية او الثورة الباديسية فى جملتها لا زالت موضوعا غنيا بالنسبة للدارسين فى ميادين مختلفة سواء فى الميدان الدينى او الاجتماعى والادبى او التاريخى او العلمى بصفة عامة .

عبد الحميد مهرى : اعتقد ان ما تفضل به الاخ عمار طالبى والاخ عبد المجيد مزيان صحيح ، لان الترجمة لشخصية ابن باديس ان بذلت فيها جهود حتى الآن ، فانها لم تستوف كل الجوانب لعمل الترجمة كما نفهمه بالمعنى الحديث ، وهناك ايضا جانب الحركة الباديسية او الثورة الباديسية كما سماها الاخ عبد المجيد مزيان ، لا تنفصل عن شخصية ابن باديس ، ولا يمكن أن تفصل ترجمة شخصية عبد الحميد بن باديس عن هذه الحركة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان كل هذه الحقبة لا يمكن أن تنفصل عن مجموع العوامل الاجتماعية والسياسية الاخرى لفهمها على وجهها الصحيح . ولهذا فاعتقادى ان هذا الجانب من تاريخنا المعاصر ، يدل دلالة واضحة على مدى تقصيرنا فى دراسة حقب تاريخية ما زالت آثارها تمتد حتى الآن على صعيد مختلف النشاطات الوطنية . ولكن هناك جانب آخر ، هل نكتب عن شخصية الشيخ ابن باديس وعن الحركة التى تزعمها لمجرد التأريخ ، أم اننا يجب أن نرمى الى اكثر من ذلك ونطرح على أنفسنا السؤال عن امكانياتنا امداد هذه الحركة فى صورة أو اخرى الى العمل الملتزم الذى يقوم به المناضلون فى هذه البلاد . واعتقد انهذا الجانب ايضا لمنوف له حقه فى عملنا الادبى وما أنتجته الجزائر حتى الآن عن هذه الحقل .

محمد العربى : انا اوافق تماما على التسمية التى عبر عنها السيد عبد المجيد عن حركة الشيخ ابن باديس . ولا ارى ان هناك خلافا بأن الباديسية باعتبارها ثورة . هذا صحيح ، اليس من قبيل الصدفة أن يظهر رجل فى مثل هذه الظروف التى كانت فيها الجزائر فى احوج ما تكون لظهور رجل من هذا النوع ؟ يبدو لى شخصيا ان سر العظمة فى شخصية ابن باديس هو استطاعته الاستفادة من كل الظروف ، التى كانت موجودة حوله . واستطاع أن يقدم اكبر مجهود ممكن فى توعية الشعب . يبدو لى كذلك ان الجانب الاكثر غموضا والاكثر حاجة الى الدراسة هو الظروف التى اعدت لظهور الحركة او الثورة التى قادها



محمد العربى



عمار الطالبى



عبد المجيد مزيان



عبد الحميد مهرى

شخصية ابن باديس كان لهاالدور الحاسم فى زرع بذور هذه الثورة الاصلاحية ، حيث اننا لو نضع الشيخ ابن باديس مع رفاقه لوجدناه قائدا عبقريا بمقياس الظروف التى كان فيها وبالمقياس العصر الذى كان عاش فيه . واظن ان الاستاذ عبد الحميد قد اشار الى نقطة مهمة جدا ، وهى اننا بعد كل هذه السنوات التى مرت ، وبعد هذه الاحداث العظيمة التى عاشتها بلادنا بعد الثورة الاصلاحية والتى كانت فى الحقيقة من بعض نتائج هذه الثورة .

ويبدو أن الجيل الناشىء من ابناء المدارس الجيل الذى سيجد فيما بعد ان هذه الآثار تنمحى شيئا فشيئا ينبغى ان نقدم لهم تراث هذا الرجل بشكل يجعلهم يستلهمون شخصيته ويتخذون من اعماله الفذة نبراسا وطريقا للمستقبل .

عثمان شبوب : انا أردت من سؤالى بان ابن باديس لم يدرس دراسة تاريخية اجتماعية بمعنى أن المواقف العملية و المواقف الفكرية للشيخ ابن باديس لو درست من هذه الناحية لكان بالامكان تفهم مراميها وتقدير اتجاهاتها بشكل علمى سليم ولهذا فانا اعتبر ان سؤالى مازال قائم الذات ، وفى حاجة الى اجابة مقنعة .

عبد المجيد مزيان : نعم يمكننا مثلا ان نعطى محتوى تاريخيا لمناقشة هذا الموضوع . مثلا اذا نظرنا الى الوضعية الاجتماعية المتدهورة فى المجتمع الجزائرى فى ذلك الوقت ، فى سنة ١٩٣٠ مثلا كانت الحركة الوطنية مقبولة فى ذلك الوقت اى حركة وطنية تدعو الى الاستقلال ، وتدعو الى انشاء وطن جزائرى له مقوماته وله حدوده الخ ... ولكن كان لابد من ابراز ذلك فى مستوى ثقافى ، وهذا المستوى الثقافى طبعا كان يقوم به ابن باديس ورفاقه وهذا ما نسميه بالثورة الباديسية فى الميدان الثقافى . ونزيد على هذا اننا مثلا اذا اردنا ان نطلع على الوضعية كما كانت فى ذلك الوقت فاننا سنرى بأن الفترة التاريخية الموجودة سنة ١٩٣٠ هى الفترة التى تدعو فيها فرنسا الى ادماج الشعب الجزائرى فى فرنسا اى ان الحركة الاستعمارية اصبحت فى ذلك الوقت حركة متكالبة خصوصا كما اننا لا ننسى بأن فرنسا عندما احيت الذكرى المائوية للاحتلال ، قد احست بنوع من الاستقرار وكأنها اطمأنت من ناحية الجزائر بأنها سوف لا تكون دولة يوما ما زد على هذا فان الحركات الثقافية الفرنسية المختلفة قد بدات فى خلق ما نسميه بنوع من الخواص تثقفوا بالثقافة الفرنسية الى درجة انهم صاروا يؤمنون بالادماج فىذلك الوقت، اى انها خلقت برجوازية ثقافية وهذه البرجوازية الثقافية تدعو الىالادماج وكانت الثورة الباديسية فى ذلكالوقت هى ثورة الرافض الذى يقول لا ، للوضعية الاستعمارية وهذا الرفض هو مرحلة التحول فى المجتمع الجزائرى ، اذا هذا هو المحتوى التاريخى الذى اعتقده شخصيا ، لانه ثورة بمعنى الكلمة لاننا رفضنا الاستعمار فى ذلك الوقت ورفضنا كذلك التواكل .

مثلا على مستوى الشعب نقول بأن الحركات الثقافية الشعبية كانت ضعيفة فى ذلك الوقت وكانت متواكلة الى اقصى حد . بينما يعنى عنف

هل كانت حركة إبن باديس مجرد امتداد للتيار الإصلاحي في المشرق أم كانت لها ميزات خاصة ؟

الحركة الباديسية الاتجاه نحو رفض الثقافة الاستعمارية ، رفض الاستعمار سياسيا ورفض الوضعية التواكلية التى كان يعيش عليها الشعب ومقاومة الدجل والطرقية ، كل هذه الاشياء التى ثار ضدها ابن باديس ، يمكننا ان نقول اذا رجعنا الى التاريخ بأن هذه الفترة التى هى فترة الثورة الباديسية هى فترة تحول ، عميق بالنسبة للمجتمع الجزائرى وفترة توعية ووعى بأتم معنى الكلمة .

عثمان شبوب : فى اطار المزيد من التوضيح لهذا الجانب من الموضوع ، اود ان اطرح للمناقشة تفسيرا آخر ، يتمثل فى قول البعض بان مواقف الشيخ ابن باديس فى الميدان السياسى خاصة ، والتى ظهر فيها وكانه متحالف مع الطبقة البرجوازية اذ ذاك مواقفه فىهذا الموضوع ليس تكتيكا سياسيا عابرا ، وانما هو تجاوب حقيقى هذا من جهة ومن اخرى ، لقد استعمل الاستاذ مزيان تعبير « الثورة الباديسية » وهنا اريد ان اتساءل ، اذا كان ابن باديس ثائرا ففى اى ميدان ؟

عبد المجيد مزيان : حينما نقول انسان ثورى او انسان يشعر بوجوب تحقيق تحول جذرى فى مجتمعه ويناضل من اجل هذا التحول الجذرى ان هذا لا يتنافى مع التاكتيك كما تقول : يعنى الثورة بدون تاكتيك ليست بثورة يعنى ثورة غير واعية الثورة تقضى كذلك ان يفكر الانسان فى كيفية تطبيق مبادئه . اذا لم يفكر تاكتيكيا فى تطبيق المبادىء فليس بثورى . اذن هذه الجوانب فيما اعتقد كانت متوفرة عند ابن باديس والدليل على ذلك ، ان مواقفه السياسية كانت تتماشى مع الظروف وكانت تستعمل التاكتيك فى كثير من الاحيان لكن المبادىء باقية هى هى يعنى فى صمودها ، فى قوتها ، فى عنفها ، وفى رفض هذا الاستعمار . من هنا يمكننى ان اقول بان هذه المواقف مواقف ثورية .

عثمان شبوب : هل توافقون على ان حركة الشيخ عبد الحميد بن باديس مجرد امتداد للحركة الاصلاحية فى المشرق حركة الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغانى ام انحركة الشيخ عبد الحميد ابن باديس لها مميزات خاصة :

عمار طالبى : اضيف الى ما ذكره الاخ عبد المجيد من ان هناك عوامل داخلية ساعدت على الثورة التى قام بها ابن باديس عوامل اجتماعية سياسية ، دينية ، ثقافية ، وعوامل اخرى استطيع القول بأنها خارجية ، مساعدة للحركات الاصلاحية التى يريدها فى العالم الاسلامى خارج الجزائر فهذه النقائص والعيوب الاجتماعية الموجودة فى الجزائر والتى تتمثل بالخصوص فى الطرقية التى اخذت بقيادة الشعب الجزائرى فى ذلك الحين والتى جمدت الاخلاقية الاسلامية وحنطتها فى الصورة الجامدة ، ومن ناحية اخرى عن ناحية السياسة كان الشعب الجزائرى يتخبط فى استعمار مظلم تماما .

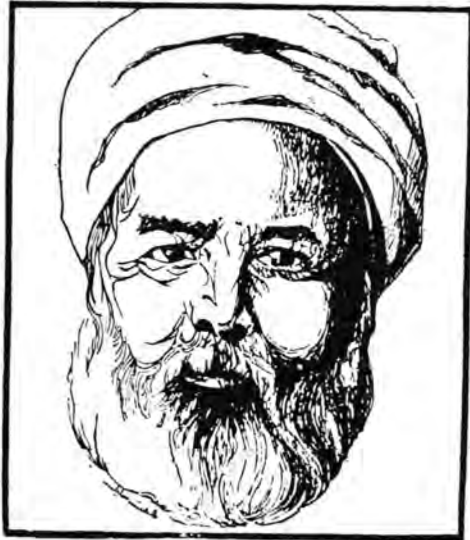
بل ان هناك شخصيات جزائرية قامت قبل ابن باديس او معاصرة له ، وحاولت ان تنهض وان تقوم بنهضة دينية اجتماعية . فابن باديس عاش فى هذه الفترة التى نجد فيها حركات اصلاحية قوية فى المشرق ابتداء من حركة محمد عبد الوهاب الى جمال الدين الافغانى الى محمد عبده الى المنار ، مجلة المنار التى يديرها رشيد رضا فهو دائما كان يطالع المنار بل ينقل من المنار اشياء فى جريدته ونستطيع القول بانه ثائر لانأول جريدة اصدرها هيجريدة المنتقد واود ان اشير الى ان منهجه الاصلاحى منهج نقدى فهو ثائر ناقد قال فى أول جريدة اصدرها اسمها المنتقد ينتقد فيها الاوضاع السياسية والاوضاع

الاجتماعية والاوضاع الدينية يقول فيها : ننقد الحكام والمديرين والمقاديم يقصد مقدم الزوايا وكل صغير وكبير ممن له اتصال بالشؤون العامة للمسلمين فهو ينقد الفرنسيين وينقد الجزائريين المتعاونين مع فرنسا أو الذين يقومون بسلوك غير مشرف للامة الجزائرية او الشعب الجزائرى من جملتها كتب فى جريدة المنتقد يعنى عنده عنوان صغير نقدات نقد عنوان صغير اليس فيكم رجل واحد هكذا العنوان قال سمعنا ان أهالى عين البيضاء ، رشحوا لمجلس العمالة السيد موترونسكى وشىء عن هذا واحد فرنسى هذا يدل على شيئين اما يدل على فقر فى الرجال واما يدل على فقر فى الافكار ، قال وكلا الصنفين ذميم ونحن ننزه اهل ع ين البيضاء الذين عرفوا بالشهامة والرجولة عن هذا واكتفى . (ثلاث أسطر وشىء) وكذلك وجه النقدات لجماعة البلديات ، قال لهم : مقبرة المسيحيين مثلا تبنون لها سورا وتهتمون بها واشجار وورود ، وان مقبرة المسلمين مهملة لا يوجد بها سور يحيط بها ، وكان ينقد حتى العامل ويقول فى أول عدد من المنتقد نرفع شكوى الظالمين ، وننتقد كل من يعتدى على الضعفاء ، فهو لاشك انه اخطأ والشيخ الابراهيمى نفسه يحكى لنا ان هناك طريقتان فى الاصلاح ، طريقة ثورية مزلزلة للاوضاع وطريقة أخرى مسالمة اصلاحية . قال ولكن ابن باديس اختار الطريقة الثورية ، وجريدته سماها المنتقد « للنقد » حتى ان فرنسا لما اوقفتها اصدر مجلة الشهاب وقال : « شهاب ثاقب يحرق الظالمين ، ويحرق المعاندين والمفسدين » فهذه العناوين تدل على ان نزعة الرجل ، نزعة ثورته . . . نزعة هدفها تغيير الاوضاع الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، ولاشك ان له ارتباطا بحركة المشرق. فهو ليس مستقلا تمام الاستقلال ، لانه ولد فى بيئة معينة . فهو ليس مستقلا عن الحركة الاصلاحية التى قادها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ومن بعده رشيد رضا كما أشرت من قبل .

عبد الحميد مهرى : الاخ عثمان شبوب القى سؤالا يرتبط بطابع الحركة او الثورة الباديسية



جمال الدين الافغانى



محمد عبده

حركة ابن باديس ثورية فى الميدان الدينى والاجتماعى
إصلاحية فى الميدان السياسى

كما سماها الاخ مزيان ، واعتقد ان لهذه الثورة جوانب . فهناك المحتوى الاساسى وهى الثورة الاجتماعية والثقافية ، او الثورة الدينية التى كان يعتمد عليها الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله فى الاساس . وهناك جانب العمل السياسى الذى ارتبط بهذه الحركة . لاشك ان هذه الحركة فى مجموعها كانت ثورية باعتبارها كانت تهدف الى تغيير جذرى للمجتمع الجزائرى ، بل انها لم تكتف بالدعوة النظرية ، بل انها اتخذت أساليب عملية لتطبيق هذه الثورة فى العمل اليومى . وهذا ما يميز من جهة اخرى حركة الاصلاح الدينى فى الجزائر ، عن بقية الحركات الاصلاحية التى قامت فى المشرق العربى . ولكن المتتبع لهذه الفترة ، يلاحظ ان هناك تناقضا واضحا عندما تعبر هذه الحركة عن نفسها فى المجال السياسى . فهى عندما تحاول أن تعبر عن نفسها فى المجال السياسى تتقمص عندئذ الاساليب والشعارات التى كانت تتبعها الحركة السياسية اذ ذاك والتى لم تكن ترمى الى ثورة فى الواقع ، وانما كانت ترمى الى مجرد اصلاحات ، ولعل هذا التفسير يرجع الى ان ابن باديس لم يكن يعير اذ ذاك للجانب السياسى الاهمية الاولى فى نظرته للثورة .

عثمان شبوب : اسمح لى سى عبد الحميد هل ترى فى الجانب السياسى من حركة ابن باديس نقطة ضعف ؟

مهرى : اعتقد ان هذه النقطة بالذات ، هى التى نلاحظ . يعنى لا يمكن ان يلاحظها المتتبع لتاريخ الحركة وهو ان حركة الشيخ ابن باديس كانت تتردد بين الاسهام فى الحركة السياسية والبعد عن هذه الحركة . وكانت عندما تشارك تساند فى بعض الاحيان تيارا اصلاحيا فى مجال العمل السياسى . وقلت ان تفسير ذلك يرجع فى رأيى الى ان ابن باديس بالذات لم يكن يعير جانب العمل السياسى الاولوية فى تحقيق ثورته .

فهو كان على ما يظهر ، يعتبره عنصرا مساعدا فقط واما الثورة لا تكون الا بعمل جذرى آخر يعتمد على اصلاح مفهوم الدين ونشر التعليم الى آخره .

عمار طالبى : الواقع ان ابن باديس كان يعطى الاهمية الاولى للثورة الثقافية لانها هى الاساس التى ستعتمد عليه فيما بعد الثورة السياسية ونجد له كلاما فى هذا الموضوع كثيرا . مثلا زار تونس بمناسبة ذكرى بشير صفر المؤرخ التونسى المعروف فطلبوا اليه ان يحاضر فحاضر بعنوان العلم والسياسة وقال : لا يمكن ان نفصل بين النواحى الثقافية وبين النواحى السياسية بالنسبة للاوضاع التى نعيشها فى المغرب العربى . قال : انا لا اتكلم بصفتى رئيسا لجمعية العلماء وانما أتكلم باسمى الشخصى . انا اؤمن ان الناحية السياسية والناحية الثقافية تسيران جنبا الى جنب . ولكن من الناحية العملية نجد ان ابن باديس قد سار خصوصا فى المرحلة الاولى من حياته الثقافية الثورية على اساس المنهج التربوى : من تكوين الوعى عن طريق التعليم ، وعن طريق الرجوع الى الاصول ، الكتاب والسنة وغير ذلك . وهذا يساير فيه ابن باديس طريق محمد عبده الذى اعتمد على التعليم حتى هاجمه أستاذه جمال الدين الافغانى وقال له انك رجل مثبط ، انك تعتمد فقط على التعليم والتعليم يحتاج الى مرحلة طويلة ، ونحن ليس عندنا الوقت ، لننتظر هذه المرحلة الطويلة ويبدو ان ابن باديس كان فى مرحلته الاولى عبدويا ان صح هذا القول ، ثم بعد ذلك راى نفسه مضطرا لان يخوض غمار السياسة . وقد عقد المؤتمر الاسلامى فى جوان سنة ١٩٣٦ . وهنا قام بنشاط طبعا فيه نقائص وعرض عليه ان يتراس هذا المؤتمر ولكن سلم الرئاسة لابن جلول فى ذلك الحين وانما الشىء الذى لا ينبغى ان يتطرق اليه الشك هو ان ابن

باديس كان يرمي الى استعـــادة الشخصيـــة الجزائرية من الناحيـــة الاجتماعيـــة والثقافيـــة والسياسية ايضا وهناك نصوص كثيرة يقول فيها لا يمكن ان نقول ان الشعب الجزائري لا يصبح في يوم ما من الايام مستقلا سياسيا ، وقال انا لا أرهب هذه الكلمة وانا اول من نادى أن الوطن قبل كل شيء أن يعرف احد في الجزائر معنـــى الوطنية . وفعلا تتب هذا الشعار في معهده وفي جرائده : **الوطن قبل كل شيء** .

عبد المجيد : معروف في القصيدة الصغـــيرة التي قالها ابن باديس : هذا نظام حياتنا بالـــدم خط وباللهب ، هذا تعبير ثوري سياسي يدعو الى الثورة المسلحة ، متفقين مع ابن باديس .

عثمان شبوب : سي عبد المجيد بصفتك مدرسا لعلم الاجتماع في الجامعة . هل ترى أن تطبيق المنهج الاجتماعي أو المنهج الماركسي في دراسة الشيخ ابن باديس من شأنه ان يؤدي بنا الى تفسير الجـــوانب السياسية عنده .

مزيان : الواقع ان في علم الاجتماع ينبغي أن يتخذ الانسان المنهج العلمي . في بعض الاحيان المنهج العلمي قد يطابق النظريات الماركسية وفي بعض الاحيان قد يتخذ امام هذه المناهج مواقف خاصة معينة . . مواقف انتقاد او مواقف محايدة . ولكن حينما نتكلم عن طبقة برجوازية ، وعن طبقة شعبية يعني . هذا واقع جزائري . نحن نعرف مثلا انه في سنة ۳۰ ـــ ۳٥ ـــ كانت عندنا طبقات شعبية ، وطبقات اخرى وصلت الى درجة من الثروة والغنى والاتصال بالفرنسي وربط مصالحهم بالفرنسيين تجعلهم طبقة مميزة عـــن الشعب الجزائري وبالضبط هذه الطبقة التي كانت تؤمن بالادماج ، وتدعو له حتى في سلوكها العادي . مثلا أنت ترى بأن هنـــاك امتدادات في عصرنـــا الحاضر : هناك طبقة تريد ان تكون لها ارتباطات مع البرجوازية العالمية الاخرى . هذا معروف . طبعا قد تقول هذه اعتبارات او تحليلات اصلها ماركسي ، ولكن هي جائزة ايضا بالنسبة لجميع المفكرين الاجتماعيين الذين يريدون ان يدرسوا الوضعية الجزائرية بكيفية علمية . في بعـــض الاحيان هناك افكار اسلامية متفقة مع الماركسية، وهناك افكار اسلامية غير متفقة مع الماركسية هذا لا ينفي ان العلم ينبغي أن يقف موقفا محايدا تجاه هذه الفكرة او تلك . حين نقول كانت هناك طبقة برجوازية كانت موجودة سنة ۱۹۳۰ هذا واقع . وكان لها مواقف سياسية معينة وهذا هو الادماج او الدعوة الى الادماج . وسنرى في فترة اخرى طلعت الطبقة الشعبية وهي التي تدعو الى الاستقلال ، الى الشخصية الجزائرية الـــى المقاومة المسلحة . وطبعا هنا يمكننا ان نقول ان البرجوازية الجزائرية المرتبطة مع فرنسا لم تكن مؤيدة لهذه الحركة ، وانما التحقت بالثورة بعد ان ادركت أن مصالحها في جزائر مستقلة . هذا لا يعني انني اذكر مثلا امتداد هذه الطبقة الـــى عصرنا الحاضر . هذا يحتاج الى تحليلات من نوع جديد . وانما الادماج وفكرة الادماج ، فكرة برجوازية مستوحاة من طرف الفرنسيين . تفكر مثلا دي غول وفكرته فيما يخص القوة الثالثة . ما معنى القوة الثالثة . . . معناها خلق برجوازية جزائرية مرتبطة مصلحيا بالبرجوازية الفرنسية لقهر الشعب الجزائري .

اذن كانت هناك محاولات لخلق برجوازيـــة جزائرية ، كانت موجودة فعلا من سنة ۳۰ ـــ ۳٥

محمد العربي : الاخ عثمان يلح على تفسير اجتماعي للحركة الاصلاحية . الحق ان المنهج الاجتمـــاعي يدرس بالضرورة حسب المنهـــج الاكاديمي ، ظواهر موجودة فعـــلا ، ليست في الماضي ، وانما هي موجودة في الحاضر وايضا المستقبل . وانما نستطيع أن نقول تفسير الوضع الاجتماعي من الناحية التاريخية يعني فلسفـــة التاريخ ربما من الناحية العلمية للاوضاع التي كانت تحيط بابن باديس . كيف واجههـــا يعني ارضية الصراع التي كانت موجودة في هذا الوقت اما التشكك في ثورية ابن باديس ، فهذا يمكن الرد عليه من عدة وجوه :

اولا : الثائر وهذا في تاريخنا دائما كـــان في الجزائر بالذات ، حتى ثورة ١٩٥٤ كان الشعار الاول والمنطلق الاول الذي انطلق منه هو الدين . سواء كانت هذه الثورة ثورة مسلحة او ثـــورة اصلاحية في شكل تغيير وضع موجـــود بطـــرق

سلمية . واكبر دليل على ذلك هو الاسم الذى يطلق على الثوريين فى الجزائر هو المجاهد .

ثانيا : ان ابن باديس كان يضرب المثل بنفسه فيما كان يدعو الغير اليه . اعنى انه لم يكن يطلق شعارات ليستفيد هو منها ، واعنى انه لم يكن انتهازيا .

اما صفة المرونة فى شخصيته ، اظن ان هذه من مزاياه : الثورى ينبغى أن يكون مرنا يستطيع أن يستفيد من الظروف التى حوله لكى يحصل على النتائج التى يرمى اليها . وبالنسبة للعوامل الاجتماعية التى كانت سائدة اذ ذاك . أنا كنت اشرت آنفا الى أن الفترة التى سبقت ابن باديس لم تحظ بدراسة . هذا صحيح . يلاحظ الدارس ان هناك عوامل نفسية اجتماعية ، وان الشعب الجزائرى بعد أن اندهش من الصدمة الاولى التى تلقاها فى بداية الاحتلال بدأ يستخدم نوعا من الآلية ... نوعا من الدفاع التلقائى وهو الرفض والعزلة . وهذا السبب هو الذى جعل انتشار ظاهرة الطرقية والانزواء كان سببها الابتعاد عن المستعمر للحفاظ على بعض التقاليد المحنطة كما اشار الى ذلك الاخ طالبى ، وهذه الحقيقة ادت دورا فى فترة ما ثم بعد ذلك اصبحت ضررا . فابن باديس حاول أن يغير هذه الوضعية ، يعنى كانت هناك مقاومة . فمرحلة ابن باديس نستطيع أن نسميها مرحلة المقاومة قبل أن تأتى مرحلة الهجوم عليه وهى التى ابتدأت فى سنة ١٩٥٤ .

شيبوب : من خلال كل ما رايناه وما سمعناه من العروض والتحاليل ، هل الآن نستطيع أن نقول ان ابن باديس مصلح أم ثورى ؟

عبد الحميد مهرى : أعتقد ان الجواب على هذا السؤال ، ليس من البساطة كما قد يتصور . اعتقد انه من الوجهة الدينية والاجتماعية لاشك ان ابن باديس كان ثائرا ، ولكن كما اشرت الى ذلك ، ان هذه الثورة لم تكن تتضمن البعد السياسى الثورى ؛ لان الذى نلاحظه ان حركة ابن باديس كان المفروض ان يكون تعبيرها السياسى هو الشعار الطبيعى ، كان المفروض أن تكون شعارات حزب الشعب الجزائرى او حركة « نجم شمال افريقيا » مثلا ، ولكن لا يمكن للمؤرخ الا أن يلاحظ ان هذه الحركة الثورية فى مضمونها الدينى والاجتماعى كثيرا ما تعبر عن نفسها بالشعارات التى كانت ترفعها اذ ذاك الطبقة الاصلاحية فى الناحية السياسية . ولا اعتقد ان هذا كان قاصرا على حركة الشيخ ابن باديس ، ولا نحتاج الى تحليل ذلك ، تحليلا ماركسيا ، لان حتى دعاة الماركسية اذ ذاك كانوا يسيرون فى نفس الاتجاه ، اعنى ان الحزب الشيوعى اذ ذاك ، كان يساند حركة المؤتمر الاسلامى ، ولهذا ، فاعتقادى ان التطور فى الثورة الجزائرية لم يكن يسير بنفس السرعة . ففى المجال الدينى والاجتماعى كانت الثورة ، والاسلوب الثورى معتمدا من طرف جمعية العلماء ومن طرف الشيخ ابن باديس ولكن هذا العمل الثورى والمفهوم الثورى السياسى كان قاصرا اذ ذاك على فئة قليلة . وان الالتحام الذى كان لابد منه ، لم يتم الا بعد فترة معينة .. لم يتم الا بعد خيبة الطبقة الاصلاحية فى الجانب السياسى ، وعند ذلك احتمع المفهوم الثورى الدينى والاجتماعى ، والمفهوم الثورى السياسى فى ثورة ١٩٥٤ .

عمار طالبى : حتى يقتنع الاخ عثمان شيبوب الذى يلح على هذه الناحية ، فالواقع ان المنهج الماركسى يكتسى صبغة تعسفية ، فى البحث حتى انه يريد ان يسحب هذا المبدا على الماضى الى الازلية فى التاريخ ، وعلى المستقبل .

ونرجع الى ابن باديس فيما يتعلق بالطبقة التى نسميها برجوازية التى اشار اليها الاخ عبد المجيد وهى طبقة تنحصر فى المعلمين ، فى المدارس الفرنسية وفى الموظفين . والنخبة المثقفة التى نسميها نحن ، نخبة مثقفة منفصلة عن المجتمع الجزائرى ، وقع انفصالها نفسيا واجتماعيا ، هذه الطبقة هى التى كانت تريد أن تحصل على حقوق سياسية فى نطاق الجنسية الفرنسية ، الاندماج فى القومية الفرنسية لتحصل على حقوق سياسية . ولكن نجد ان ابن باديس يخالف تمام المخالفة هذه النزعة ، ويقاومها ، فهو يريد أن يثبت الشخصية الجزائرية ، وأن يبين مقوماتها وعناصرها المتمايزة . وقد قاوم أحد زعماء هذه

الطائفة صراحة وكتب فى ذلك وثيقة ما تزال الى اليوم بين ايدينا ، فهو اذن ضد هذه الطائفة التى تريد الاندماج سياسيا مع فرنسا . ولا يمكن أن نلحقه فى نظرى بها ، بل هو يكون تيارا خاصا يحافظ على مقومات الشخصية التاريخية للشعب الجزائرى، ولكنه لم يتخذ صورة سياسية واضحة كما اشار الى ذلك الاخ الاستاذ مهرى . صحيح انه لم يتخذ صورة سياسية واضحة المعالم ولكنه كان يسير فى هذا النطاق ، رغم ان الصورة الواضحة هى صورة الوعى الثقافى التربوى الاجتماعى ، المتمثلة فى مقاومة النقائص الاخلاقية المتمثلة فى الطريقة التى تتعاون بطريقة أو بأخرى مع السياسة الاستعمارية بأنها تمثل الشعب الجزائرى فى صورة معينة ، وهى الصورة الصوفية التى لها نوع من التأثير الروحى على العقلية الشعبية فى ذلك الحين . ومن هذه الناحية

ارتبط بها الاستعمار . ولكن تفطن الى هذه الظاهرة الاجتماعية الشيخ ابن باديس وقاومها كما انه تفطن الى الظاهرة الاخرى المرتبطة بالشخصية الفرنسية وقاومها وأبرز المعالم الذاتية للمجتمع الجزائرى فى صورة نهضة ثقافية تربوية ، ولكنه لم يفصلها تمام الانفصال عن النواحى السياسية ايضا . لا يمكن ان نقول انه فصل هذه النواحى الثقافية عن النواحى السياسية وقال لا شأن لى بالاستقلال السياسى .

عثمان شبوب : يبدو لى اننا قد تكلمنا فى هذا الموضوع بما فيه الكفاية ، وأود أن ننتقل الى نقطة اخرى . ان الشيخ عبد الحميد كان له مفهوم للشعارات التى حملها وهى : العروبة والاسلام . فهل ترون ان المفهوم الذى كان يعطيه لهذين الشعارين بالخصوص مازال يحتفظ بقيمته ام ان الظروف قد تجاوزت ذلك المفهوم ؟

عمار طالبى : فى الحقيقة ابن باديس اراد ان يرجع الى العنصر الاصيل وهو الاسلام وان يخلصه مما علق به طيلة قرون الانحطاط ، من صفات اتصلت بالحياة الاجتماعية ومن تقاليد نسبها الناس الى الحقيقة الاسلامية واعتبروها من سمات الاسلام ومن عناصره ، فهو قد حاول محاولة نقدية ثورية ايضا فى هذا الجانب ، واراد ان يرجع الى اصل الاسلام الاول وهو القرآن والسنة وحاول بكل ما له من قوة ان يقاوم هذه البدع والتقاليد التى نسبت الى الدين وليست منه فى شىء . فهو قد قام بثورة فى هذه الناحية لها جانب اجتماعى طبعا يتمثل فى محاربة الطرقية التى تمثل الحقيقة الدينية فى ذلك الوقت ، فهو قاومها ليقيم الاسلام على اساس من أصوله الاولى ، وهذه الطريقة نسميها سلفية ، وأعطى مفهوما سلفيا للاسلام .

عثمان شبوب : ان الاسلام كجزء من مقوماتنا الشخصية الاجتماعية ، هذا لا جدال فيه ولكن هل هناك مفاهيم جديدة يمكن ان نعطيها لهذا الشعار ، اى نثريه بعناصر جديدة أم ان مفهوم الشيخ ابن باديس مازال يمثل جوابا عن كل التساؤلات التى يمكن ان تطرح فى عصرنا عن هذا الموضوع ؟

عبد المجيد مزيان : نحن نعلم ان الشيخ ابن باديس لما تكلم عن الاسلام كأساس للمقومات الشخصية الجزائرية ، لم يذكر الاشياء هكذا كما نريدها نحن فى عصرنا الحاضر حينما نتكلم عن الاسلام كعنصر من عناصر الشخصية الجزائرية ، يعنى هذا موقف جديد بالنسبة الينا ، لان فى عصر ابن باديس كان الدين هو كل شىء ، أو يمكن ان نقول هوكل الشخصية المميزة بالنسبة للجزائرى. كان هناك مسلمون فى الجزائر وهناك مسيحيون، وحتى مثلا فى بطاقة التعريف فى ذلك الوقت كان هناك الفرنسى المسلم ، والفرنسى . هذه هى التعريفات القانونية فى ذلك الحين .
فى الحقيقة لا يمكننا ان نقول على الشيخ ابن باديس ما لم يقل ، بمعنى ان الشخصية الجزائرية من جملة مقوماتها الاسلام ، ولكن الاسلام يحتل المكانة الاولى عنده أى عند ابن باديس . ولكن رغم هذا يمكننا الآن ان نتكلم عن الاسلام كما نفهمه الآن بعد الاستقلال . نحن نعلم مثلا بأن

هناك الاسلام الذى سميناه فى بعض الاحيان اسلاما فولكلوريا وهو اسلام الطرقية الذى حاربه ابن باديس ... اسلام الزوايا ، اسلام الشعوذة ... الخ .

عثمان شبوب : ويسميه الشيخ ابن باديس الاسلام الوراثى .

عبد المجيد مزيان : او تسميه بكيفية علمية ، الاسلام السوسيولوجى ، طبعا هناك عنصر لابد أن نتنبه اليه فى عصرنا الحاضر ، وهو الناحية التقدمية فى الاسلام . حينما نتكلم عن الاسلام فهناك اناس يفسرون الاسلام تفسيرا تعسفيا أو غير لائق : الاسلام ومعنى السلفية هو الرجوع الى الظروف الاجتماعية السياسية الثقافية التى كانت موجودة فى عصر هارون الرشيد أو غير ذلك اى هناك رجوع الى الوراء ، هذا النوع من التحديد الضيق للاسلام بصفته اسلاما منقولا عن العصور الاخرى . هذا تفسير للاسلام ضيق ومنحرف . لماذا لاننى اعتقد كذلك من جانب آخر ان الاسلام فى بداية امره ، وخصوصا فى الاربعين سنة الاولى كان ثورة بأتم معنى الكلمة ... ثورة على وضعية سياسية واجتماعية واقتصادية معينة . وقلما نتنبه نحن أو قلما انتهينا فى تاريخنا الى هذه الناحية . اى ان هذا الاسلام التقدمى الذى يدعو الى العدالة الاجتماعية والاقتصادية الى المساواة بين البشر ، الى الانهاض بالشعوب الامية ... اى المتخلفة ثقافيا فى ذلك الوقت .

مع خلق نوع من الحكم الديموقراطى ، وليس الحكم الخلافى الوراثى . ان التحديدات التاريخية والتحديدات الفكرية للاسلام ، لابد أن يعاد فيها النظر . ان ابن باديس بصفته سلفيا لم يكن يريد ان يعود بنا الى الوراء .هذا النوع من السلفية ، كان لا يؤمن به ابن باديس ، أنا أعتقد بأنه كان يؤمن بالاسلام الثائر التقدمى . وهنا يمكننا أن نقول ا نهذا المفهوم للاسلام لاز ال فى عصرنا الحاضر نوع التفكير الذى يجب أن نأخذ منه كثيرا فى تفكيرنا الاجتماعى والاقتصادى والثقافى . اذن القضية اذا تكلمنا عن الاسلام كمبدا وكمقوم من مقومات الشخصية يجب ان نفهمها بهذا المعنى ، ان الاسلام بصفته التقدم والانفتاح . وبصفته ثورة اجتماعية جذرية .

محمد العربى : لا يمكن ابدا ان نغفل ان مفهوم الاسلام عند ابن باديس باعتباره أحد الاركان للحركة . فهمه لمضمون الاسلام كان يقصد الى عملية تأصيل . ما معنى تأصيل . لا يعنى اعادة الىالسلفية ولكن الىاسس من المبادىء الاسلامية الصحيحة مع تطهيرها من كل الشوائب التى اشار اليها الاخ عبد المجيد .اما مفهومنا نحن الآن للاسلام، فهو لا يقتصر على مجموعة من العبادات والمعاملات ، بل يجاوز ذلك الى مجموعة من القيم او اسلوب حياة . لا نستطيع ان نقيم المسلم فقط بأدائه لواجباته والتزامه بالعبادات العادية فى الاسلام ، بل نحكم عليه بمجموعة القيم واسلوبه فى الحياة الذى استمده من تنشئته الاولى . اذن حركة ابن باديس كانت تقصر ، الى تأصيل الاسلام اى اعادته الى اصله الحقيقى ، ثم فى مرحلة ثانية تطهيره من الشعوذات .

عبد الحميد مهرى : الدعائم التى قامت بها حركة ابن باديس معروفة لدينا ، واولها الاسلام والعربية لان جانب اللغة العربية فى الجزائر ايضا اخذ مكانة ممتازة فى الحركة الثورية التى قام بها الشيخ ابن باديس لكن اعتقد ان البحث حول هذه المقومات لا يهدينا الى مفتاح الثورة الباديسية كما سماها الاخ عبد المجيد واعتقد ان جوهر هذه الدعوة هو الموقف الاساسى للشيخ ابن باديس من هذه المقومات ، فهو موقف تجديد ثورى . فصلاحية هذه العناصر يتوقف على الموقف الذى نتخذه منها ، فمع تطور الزمن والاستمرار مثلا فى الدفاع عن اللغة العربية بفتح مدارس على الشكل الذى كان يواجه به الشيخ ابن باديس حملة محو اللغة العربية من البلاد لم يعد كافيا بل ان اللجوء الى هذا الاسلوب يعتبر اليوم رجوعا الى الوراء ، وما يصدق على اللغة العربية ، يصدق ايضا على الاسلام ، وغن مجموع المواقف التى كان يعبر عنها الشيخ عبد الحميد فى حركته طيلة حياته .

واذن فجوهر الحركة الباديسية هو موقف التجديد الملتزم ، اعنى الثورى تجاه هذه المفاهيم. واعتقد اننا اذا ذكرنا قبل مدة ، لاحظنا عدم امتداد هذه الثورة او وقوفها عند حدود معينة ، فلان الذين عاصروها ورافقوها والذين ساهموا فيها

الطائفة صراحة وكتب فى ذلك وثيقة ما تزال الى اليوم بين ايدينا ، فهو اذن ضد هذه الطائفة التى تريد الاندماج سياسيا مع فرنسا . ولا يمكن ان نلحقه فى نظرى بها ، بل هو يكون تيارا خاصا يحافظ على مقومات الشخصية التاريخية للشعب الجزائرى، ولكنه لم يتخذ صورة سياسية واضحة كما اشار الى ذلك الاخ الاستاذ مهرى . صحيح انه لم يتخذ صورة سياسية واضحة المعالم ولكنه كان يسير فى هذا النطاق ، رغم ان الصورة الواضحة هى صورة الوعى الثقافى التربوى الاجتماعى ، المتمثلة فى مقاومة النقائص الاخلاقية المتمثلة فى الطريقة التى تتعاون بطريقة او بأخرى مع السياسة الاستعمارية بأنها تمثل الشعب الجزائرى فى صورة معينة ، وهى الصورة الصوفية التى لها نوع من التأثير الروحى على العقلية الشعبية فى ذلك الحين . ومن هذه الناحية

ارتبط بها الاستعمار . ولكن تفطن الى هذه الظاهرة الاجتماعية الشيخ ابن باديس وقاومها كما انه تفطن الى الظاهرة الاخرى المرتبطة بالشخصية الفرنسية وقاومها وأبرز المعالم الذاتية للمجتمع الجزائرى فى صورة نهضة ثقافية . تربوية ، ولكنه لم يفصلها تمام الانفصال عن النواحى السياسية ايضا . لا يمكن ان نقول انه فصل هذه النواحى الثقافية عن النواحى السياسية وقال لا شأن لى بالاستقلال السياسى .

عثمان شبوب : يبدو لى اننا قد تكلمنا فى هذا الموضوع بما فيه الكفاية ، واود ان ننتقل الى نقطة اخرى . ان الشيخ عبد الحميد كان له مفهوم للشعارات التى حملها وهى : العروبة والاسلام . فهل ترون ان المفهوم الذى كان يعطيه لهذين الشعارين بالخصوص مازال يحتفظ بقيمته ام ان الظروف قد تجاوزت ذلك المفهوم ؟

عمار طالبى : فى الحقيقة ابن باديس اراد ان يرجع الى العنصر الاصيل وهو الاسلام وان يخلصه مما علق به طيلة قرون الانحطاط ، من صفات اتصلت بالحياة الاجتماعية ومن تقاليد نسبها الناس الى الحقيقة الاسلامية واعتبروها من سمات الاسلام ومن عناصره ، فهو قد حاول محاولة نقدية ثورية ايضا فى هذا الجانب ، واراد ان يرجع الى اصل الاسلام الاول وهو القرآن والسنة وحاول بكل ما له من قوة ان يقاوم هذه البدع والتقاليد التى نسبت الى الدين وليست منه فى شىء . فهو قد قام بثورة فى هذه الناحية لها جانب اجتماعى طبعا يتمثل فى محاربة الطرقية التى تمثل الحقيقة الدينية فى ذلك الوقت ، فهو قاومها ليقيم الاسلام على اساس من اصوله الاولى ، وهذه الطريقة نسميها سلفية ، وأعطى مفهوما سلفيا للاسلام .

عثمان شبوب : ان الاسلام كجزء من مقوماتنا الشخصية الاجتماعية ، هذا لا جدال فيه ولكن هل هناك مفاهيم جديدة يمكن ان نعطيها لهذا الشعار ، اى نثريه بعناصر جديدة ام ان مفهوم الشيخ ابن باديس مازال يمثل جوابا عن كل التساؤلات التى يمكن ان تطرح فى عصرنا عن هذا الموضوع ؟

عبد المجيد مزيان : نحن نعلم ان الشيخ ابن باديس لما تكلم عن الاسلام كأساس للمقومات الشخصية الجزائرية ، لم يذكر الاشياء هكذا كما نريدها نحن فى عصرنا الحاضر حينما نتكلم عن الاسلام كعنصر من عناصر الشخصية الجزائرية ، يعنى هذا موقف جديد بالنسبة الينا ، لان فى عصر ابن باديس كان الدين هو كل شىء ، او يمكن ان نقول هوكل الشخصية المميزة بالنسبة للجزائرى. كان هناك مسلمون فى الجزائر وهناك مسيحيون، وحتى مثلا فى بطاقة التعريف فى ذلك الوقت كان هناك الفرنسى المسلم ، والفرنسى . هذه هى التعريفات القانونية فى ذلك الحين .
فى الحقيقة لا يمكننا ان نقول على الشيخ ابن باديس ما لم يقل ، بمعنى ان الشخصية الجزائرية من جملة مقوماتها الاسلام ، ولكن الاسلام يختل المكانة الاولى عنده اى عند ابن باديس . ولكن رغم هذا يمكننا الآن ان نتكلم عن الاسلام كما نفهمه الآن بعد الاستقلال . نحن نعلم مثلا بأن

لم يسبهوا الى هذا الشيء الاصلي ، وهو موقف التجديد المستمر في هذه الثورة . وعلى هـــذا الاساس أعتقد ان الاسلام واللغة العربية مازالتا دعامتين في كل نهضة ، وفي كل بنـــاء للمجتمـــع الجزائري ، ولكن هذا يتوقف أيضا على النظرة التي ننظر بها الى هذين العنصرين .

ذكرت قبل قليل مثلا ، ربما كاريكاتوريا عـــن محاولة استمرارية دعوة أو ثورة الشيخ عبد الحميد ، وان كان انقلابها الى حركة رجعية اذا بقينا جامدين على الاسلوب القديم .

واذكر ايضا نفس الشيء فيما يخص نظرتنا الى الاسلام فأعتقد ان محاربة البـــدع التي لصقت بالاسلام اذ ذاك ، كان شيئا ضرورة تاريخية اذ ذاك ، أمام الجمود الذي كان يخيم على المجتمع الجزائري . كان لابد من مواجهتها بالاسلـــوب الثوري ، ولكن الحقيقة الراهنة الآن ، حقيقة الاسلام في عصرنا الحالي والمشاكل التي ينبغي أن يواجهها الاسلام في مجتمعنا تختلف تماما عمـــا عرفه الشيخ ابن باديس في حياته . ونحن اذا بقينا متمسكين بالشعارات التي رفعت اذ ذاك ، فاننا نوشك أن نضل الطريق . نحن اليوم نواجه مشاكل الحياة العصرية بما فيها من تعقيد ، وبما فيها من مذاهب وتيارات فكرية ، نواجه جيـــلا صاعدا ومتفتحا على العالم اكثر مما عرف الناس في الماضي بفضل أجهزة الاعلام والاتصال . ويجب أن نواجه هذه المسؤولية بأسلوب جديد وبنظرة ثورية جديدة .

عمار طالبي : اشار الاخ عثمان الى قول ابن باديس المعروف الاسلام الوراثي ، والاســـلام الذاتي وبطبيعة الحال ، هو ادرك ان الاســـلام جوهرة علاها غبار وصدا . وهذا الصدأ الذي توارثه الناس ، هو الذي يسمونه الاسلام وهو الاسلام القائم على مجرد التقليـــد والسمـــاع والعاطفة فقط ، دون فهم ولا هضم لاصـــــول الاسلام . ففرق بين الاسلام الوراثي والاسلام الذاتي . كالاسلام القائم على الفعـــل وادراك اصوله . اما الاسلام الوراثي فهو مجرد البدع .

مهري : اذا سمحت سي عمار اعطيني فرصة ربما لتوضيح فكرتي . اعتقادي ان مجرد تقليـــد الشيخ ابنباديس يؤدي بنا الى الاسلام التقليدي.

طالبي : انا لا اقصد كلامك اصلا . كلمة اشار اليها الاخ عثمان واود التعليق عليها .

مهري : لقد تحدثت عن الاسلام التقليـــدي والاسلام الذاتي ، واردت ان اوضح ان استمرار الثورة الباديسية لا يكون بمجرد التقليد لابـــن باديس .

عمار طالبي : نلاحظ ابن باديس يعطي سمة أساسية لحركته الاسلامية ، يعتقد ان الاسلام حقيقة تعتمد على نزعة عقلانية ، وانه لابد من الفهم والادراك لحقائق الاسلام لا مجرد تناقـــل البدع الملحقة به ، ونلاحظ ان تفكير المصلحـــين المعاصرين قد انصب على ظاهرتين : ظاهـــرة اجتماعية سياسية ، وظاهرة اللغة بالخصوص . يكاد ينحصر من المصلحين في هذه الاشياء مـــع اتصالها بالحقيقة الدينية . من هنا نربط ابـــن باديس بهذاالتيار الذي يهتم بالمشكلات الاجتماعية والمشكلات اللغوية، لانه ادرك ان الاصلاح الديني الذي يقوم به لا يمكن أن يتم الا عن طريق اصلاح اللغة . ولذلك بدأ حركة اعتبرها كوسيلة لابلاغ افكاره الاصلاحية ابتدا بحركة الاصلاح اللغوي .

صحيح ان الاسلام واحد ، اصوله واضحـــة لا يمكن أن نغيرها وان الذي نغيره هو الظروف . واذا قال ابن باديس بالسلفية فلا يقصد بهـــا الرجوع الىنفس الظروف الاقتصادية والاجتماعية بل هو يقصد بها الاصول الاولى أي الكتـــــاب والسنة ، وعمل الصحابة والسلف الذي ينبغي ان ندخله في حياتنا . وان ما أشار اليه الاخ مهري في منهجنا الجديد ، صحيح لابد ان نغير منهجنا ، لان البدع التي نواجهها الآن غير البدع التـــي واجهها الشيخ عبد الحميد ، فاذا كانت في عصر ابن باديس طبقة برجوازية تدعو الى الاندماج ، مع فرنسا ففي عهدنا طبقات أخـــرى متعلقـــة بمبادىء معينة تريد ان تلحقنا بأصحاب تلـــك المبادىء من الناحيـــة السياسيـــة والعقائديـــة والاقتصادية ، وهذا في نظري اخطر من الصراع العسكري . ان هذا الصراع الفكري العقائدي الخفي لا يتفطن اليه جميع الناس ، وانما تتفطن اليه فئة قليلة واذا قصرت هذه الطائفة القليلة في منهجها ، لا أقول الدفاع فقط ، بل ينبغي أن نكون

فى موقع هجوم ايضا كما كان يفعل ابن باديس عندما يقوم بعملية النقد على الاوضاع .

عثمان شبوب : نحـن الان تكلمنـا وتناقشنا فى هذا الموضوع وكاننا اتفقنا على المبدا . ولكن هناك بعض التيارات عندنا ترى ان الدين على المستوى العالمى ، هو مجرد اختيارات شخصية لا غير . فهل يمكن ان نقر بهذا الراى ، أم ان الدين عندنا له معناه الخاص ، باعتباره مكونا أساسيا من مكوناتنا الاجتماعية ومرتبط بنظرتنا الى الحياة والكون وقيمنا الاخلاقية والسلوكية واعتقد أن مناقشة هذا الراى مهم ، بـل ان انه من الخطا ان نصم آذاننا ونبتعد عن الحوار مع التيارات التى نرى اننا لا نتفق معها ؟

عبد المجيد مزيان : فى هذا الموضوع يمكننا ان نجيب حتى بالدين نفسه الذى يقول لا اكراه فى الدين . أو كذلك الآية : « من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » اذن قضية الاختيـارات الشخصية أو الالتزام الدينى بالنسبة لبعض الاشخاص . الانسان لابد أن يؤمن بدين مجتمعـه . هـذه فى الحقيقة مناقشة من نوع فلسـفى ، وانمـا المعروف ان الدين المتصلب الذى يريد أن يكون بعمليات اضطهادية . نحن نعلـم أن الفـرق الاسلامية التى استعملت الوسائـل الاضطهادية مثل المعتزلة فى عهد المأمون ، أو السنة فى وقـت المتوكل . هذه تيارات فى الحقيقة يمكننا أن نقول انها استثنائية بالنسبة للحرية الفكرية والدينية ، لكن هذا جانب ، أما الجانب الاخر يمكننا ان نقول بأن فكرة اللائكية ، الحقيقة ان هذه دعوة الـى اللائكية ، الاسلام بصفته تيارا فكريا يقبل اللائكية ويتماشى معها أم لا . نحن نعرف مثـلا بالنسبة للمسيحية فى عصرنا الحاضر . اذا قمنا بمقارنة، المقارنة طبعا ليست من نفس النوع لكن لا يهم ، بالنسبة للمسيحيين عندهم مبادىء فى قبول اللائكى كشخص آخر يتعامل معه ، ويتبادل معه ، هـل هذا ممكن بالنسبة للتفكـير الاسلامى فى عصرنا الحاضر . هذه نقطة استفهام . وانا لست رجلا دين لاقول هذا جائز أم غير جائز ، ولكن هـناك شىء ينبغى أن ننتبه اليه ، وهو اننا نعيش فى عصر كثرت فيه التيارات الفكريـة والعقائديـة المختلفة ، والاسلام الذى يبقى محصورا كما قال زميلى عمار طالبى فى موقف دفـاعى ولا يدرس هذه التيارات الفكرية ولا يتخاطب معها فى بعض الاحيان ولا يلتقى معها ولا يعرفها ولا يكسبهـا شيئا . اى انه نفس الاسلام الذى عـرفناه فى العصور الوسطى وفى القرن ١٩ ، وعرفناه فى القرن التاسع الخ . من هنا الموقـف الصحيـح الذى يعطى للاسلام قوة وحيوية هو الموقف الذى يجعله لا يتجاهل ولا يجهل التيـارات الفكريـة الاخرى . اذن هذا نوع من الانفتـاح الـذى لا يضحى بمبادئه وانما طرق الحياة وطرق التعايش انما يبتدىء من الوعى بهذه التيارات . وطبعـا التيار اللائكى اللادينى أو ما نسميه بالعلمانيـة يجب ان يحسب لها حسابها . اذن نحن هنا فى عصر ينبغى أن نغير فيه ذهنيتنا .. هذه الذهنية بصفتنا مسلمين .. اى يجب علينا ان لا نتجاهل الاخرين .. بل يجب أن نتحدث معهم ونتصارع معهم ، وان نعرفهم وان نعطيهم لا ان نأخذ منهم فقط . وبالجملة ، فان التيارات الفكرية الاخرى الموجودة هى واقع ، لا بد أن نقول انه موجود ، والاعتراف بوجوده والحوار معه شىء ضرورى فى عصرنا .

عبد الحميد مهرى : اعتقد أن موضوع الاسلام، من الصعب حصره فى نطاق الجزائر ، الاسـلام دعوة للبشر كلهم ، ووضع الاسلام فى عصرنـا الحديث لا يمكن النظر اليه مـن زاويـة الحدود الضيقة للجزائر ، واعتقد ان مناقشة هل الاسلام عنصر من الشخصية او هو شىء لا يمثل مـن شخصيتنا شيئا ، اعتقد انه نقاش لا يفضى بنـا الى حل ، لان الاسلام واقع يفرض نفسه عـلى الجميع ، ولكن اعتقد ان تناولنا لهـذا الجانـب يحيطه الغموض بعض الشىء ، فكثير من المواقف التى نراها تعارض الاسلام فى مجتمعنا ، هى على ما اعتقد الحاد حضارى أكثر من الحاد عقائدى . ونحن عندما نواجه هذه التيارات نواجهها بالسلاح العتيق ، الذى يكتفى بتكرار أن الاسلام هو كـل شىء فى حياتنا ، ولكن الدعاة ثم يلبسوا لباسا عصريا ، فهناك اديان اقل استعدادا لمجـاراة العصر والطبيعة ، واقل قوة ذاتيـة ومحتـوى

زاخر ، استطاعت ان تتقمص ولو فى الظاهر لباسا جديدا لتواجه به التحديات . راينا مثلا فى أوروبا ظاهرة الرهبان العمال الذين تطوعوا للعمل فى المعامل حتى **يفهموا الدوافع العميقة للثورة الاجتماعية** المعاصرة ؛ فاذا قارنا اسلوب وعاظنا فى المساجد نجد البون شاسعا ؛ واذا راينا مثلا علماء الدين المسيحى يلتقون فى ملتقيات منظمة مع رواد الفكر الماركسى على طريقة المعارضات القديمة ، ويقارعون الحجة بالحجة ، ويستعملون اسلحة العلم فى الدفاع عن عقيدتهم ، واعتقد اننا لو انتبهنا الى هذه النواحى وجعلنا دفاعنا عن الاسلام نتفهم اولا الدوافع العميقة التى تدفع بعض شبابنا الى ما أسميته بالالحاد الحضارى الذى قد يفضى فى النهاية الى الالحاد العقائدى ، لو تفهمنا هذه الدوافع لكيفنا دعوتنا واسلوب دفاعنا عن الاسلام .

محمد العربى : فى الحديث عن الاسلام باعتباره احد المقومات الشخصية ينبغى ايضا العودة الى الطريقة التى فهم بها ابن باديس الاسلام فمفهومه للاسلام نظر اليه باعتباره ذخيرة واستراتيجية فالاسلام واقع موجود ، ومحرك اساسى لحفز الشعب الى خوض معركة من المعارك . ولكن الان هناك ازمة ، يعنى هناك اسلام بدون مسلمين اسلام لم يجد من يثريه . الاسلام عندما يتصارع مع التيارات الحضارية المحيطة به ، ليس له حتى امكانيات الدفاع . اذن وضع الاسلام باعتباره واقفا فى قوالب جامدة كما تركها السلف ، يعنى قوالب مقدسة ، جعل الجيل المعاصر لا يجد بديلا لا يجد سلاحا جديدا يواجه به هذه التيارات المعاصرة . فهو سريع الاستهواء ، وهو اذ يقبلها لا يقبلها عن طريق عقائدى ، وانما يقبلها فى كثير من الاحيان ليقال عنه انه يعيش عصره .

عمار طالبى : الحقيقة اذا تناولنا الاسلام كظاهرة اجتماعية ندرسها علميا بقطع النظر عن كونها عقيدة ، فاننا نجدها ظاهرة اجتماعية تاريخية مرتبطة بضمير هذا الشعب وشعوب اخرى تصدر فى جميع افعالها وتقاليدها وسلوكها عن هذه المعانى التى يمثلها الاسلام . فالاسلام قد طبع حياتها السلوكية بطابع معين ؛ فلا يمكن ابدا أن نتجاهل هذه الظاهرة كعلماء اجتماع ، أو ان نقول انها لا قيمة لها ولا اثر لها من الناحية النفسية ومن الناحية التاريخية . ومن الناحية الثورية ، هذا شىء غير علمى ، والكلام الذى استعرضته حتى من الناحية العلمية غير صحيح. ونحن اذا استعرضنا الثورات المعاصرة فى افريقيا وآسيا نجد روادها من المسلمين . فالهند مثلا ، البوذى يقتصر على ان يحرق نفسه اذا بلغ اقصى درجة من الدفاع يفنى ذاته ، لكن المسلم ، يقاوم ويكافح ، وكذلك فى افريقيا ، هناك ثورات اساسية قام بها المسلمون ، لان الاسلام يأبى الظلم والسيطرة .

واما فيما يتعلق بأسلوب مواجهة التيارات الاخرى . فالأسلام له تجربة خصبة ، فقد حاور المسلمون الفلسفة اليونانية وقد حاور المعتزلة المانوية وجميع المذاهب العتوصية وغيرها . الغزالى مثلا اتصل بالفلسفة اليونانية ، ولكن قام بحركة نقدية لهذه الفلسفة ، ونحن اليوم لا نقول بانغلاق ، بل يجب أن نتحاور مع هؤلاء ، ولكن محاورة الند للند ، لا محاورة الخاضع لمبادىء معينة على اساس انها فى حضارة . نحن صحيح متخلفون اجتماعيا وحضاريا وهذا ادى الى ضعف موقف الاسلام . ولكن رغم ذلك لا ينبغى ان ننغلق على انفسنا ، ولا ان نخضع ايضا ، وان ننكر ذاتيتنا ، وانما ينبغى ان نهتم بأساليب تربيتنا ، لنخلق شبابا اصيلا .

عثمان شبوب : ان ما تفضلت به يا اخ عمار رائع ، ونحن ناخذ هذا القول على انه من قبيل امانينا فى المستقبل ونحن نعمل طبعا على ان يتحقق فى حياتنا العامة .

الجزائر في تاريخ

مصطفى الاشرف

مستشار بالرئاسة

ترجمة : د . حنفي بن عيسى

نص المحاضرة التى القاها الاستاذ مصطفى الاشرف بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٦٧ ، فى مدينة بوانس ايرس ، عاصمة الارجنتين .

* * *

ان الحديث عن دور الجزائر فى تاريخ الحضـــارة يقتضى منا ان نعطى لهذا الموضوع بعدا يتجاوز الحدود الجغرافية الضيقة لقطر صغير ، ويمتد الى كثير من اقطـــار البحـــر الابيض المتوسط وافريقيا ... وما لاشك فيه ان الاطار الجغرافية ومسرح التاريخ ، هما البوتقة المثلى التى تكونت فيها حركة الفكر ، وهى حركة ما فتئت منذ فجر التاريخ تغوص بجذورها فى الاعماق ، وتمـــد فروعها الى اهم الثقافات التى عرفتها اوربا فى العصر الوسيط وفى العصور الحـــديثة .



الحضــارة

ان الوضعية الجغرافية ــ وحكمها فى ذلك حكم الظروف التاريخية ــ لم تكن ابدا بالنسبة الى المصير المغربى مما يبعث على الاستسلام لحتمية القدر ، والجمود الذى يــؤدى بالشعوب الى ان ترضــى بوضعيتها الجغرافية، وتخضع لعوامل المكان والمناخ والسكن ، ولا تتغير آفاقها أبدا . ومما لا ريب فيه أن الظروف الطبيعية تشحذ الهمم احيانا . . . الا انها احيانا اخرى تبعث فيها الخمول القاتل. فالتضاريس فى هذه المنطقة من العالم ، مليئة بالالتواءات الشديدة كما أن البحر الابيض المتوسط الذى قال عنه اليونان بأنه بنفسجى اللون وهادىء كثيرا تجتاحه العواصف الهوجاء .

انظر الى الصحراء التى يهلك من يريد أن يقطعها ولا يهلك من يعبر المحيطات .. وانظر كذلك الى الرياح المحرقة والثلوج المتراكمة فى المرتفعــات ، والارض القاحلة المجــدبة فى السهــول الشبيهة بالسهوب ، والارض الخصبة المثمرة فى الساحل ، والروابى المكسوة بالاشجــار ، المترامية فى تناسق ناعم بديع ، والمجازات والشعاب والمضايق والجبال والهضاب ، والنجود المتتابعة احيانا ، والمتكتلة على بعضها احيانا اخرى . والانهار غير المنتظمــة ، والبحيرات ذات المياه المالحة ، والعيون الجارية ، والغابات التى استوحى منها الانسان مختلف القصص والاساطير واستمد منها كل خير ، ووجد فيها قوته فى ايام الجدب والقحط ..

ذلك هو الوسط الطبيعى الذى عاش فيه سكان المغرب ، وتأثروا به من حيث الاستجابة والحركة والنظر الى الاشياء والحساسية ، وتلك هى العوامل التى تركت فى نفوسهم اثرا عميقا احيانا ، وسطحيا احيانا أخرى ، لانه على اية حال ، اثر لم يخضعوا له خضوعا تاما . انه اثر يتجلى فى العمل الدائب ، وفى الرعب من الكوارث الطبيعية ، وفى الفرحة التى تغمرهم عندما يجنون ثمار اعمالهم ، وفى التناوب بين الحرب والسلم ، والترحل والاستقرار ... كما

يتجلى في الجهد الذي لا ينقطع رغم المحن والعراقيل ، ذلك الجهد الذي بفضله تتبدل الظروف الطبيعية من حالة توحش الى حالة التأنس والاستثمار ، وتتمكن الامم من السيطرة على الطبيعة المستعصية ، وتتغلب شيئا فشيئا على القوى الجبارة المخزونة في عالم الجماد والنبات ، وفي العالم الذي لا يزال مجهولا لان الكشف عنه لم يبدأ بعد ..

واذا نظرنا الى التاريخ على هذا الاساس ، واعتبرنا انه مقترن بهذا الجهد الدائب المتواصل ، وبتلك الانطلاقة التي حولت صفحة البحر الهائج ، وصخور الاطلس الاشم ورمال الصحراء العائقة ، حولتها الى طرق آمنة ، ومسالك مطروقة ، ومدن عامرة بالخيرات وقائمة على سفوح الجبال ، ومراسى مقصودة ، ومراكز تجارية معروفة ، وحواضر تتوافد اليها القوافل ، وواحات ينعم فيها الانسان بالماء العذب الذي فجره السكان من أعماق الارض ، ولم يجدوه هناك على هوى المصادفة .. اقول ، اذا نظرنا الى التاريخ على هذا الاساس ، فانه لن يكون مجرد سلسلة رتيبة من الاحداث المتتابعة التي يطلعنا الرواة على مآثر الامراء وقادة الحرب ، وعلى مناقبهم ... **ان التاريخ الذي يعبر باسلوب غير منمق ، عن احداث بسيطة كثيرا ما تتصل بالحياة اليومية ، ويرينا كيف تتسلسل الوقائع التي يتالف منها نسيج حياة البشر اليومية ، من حيث نشاطهم واتعابهم واوقات فراغهم ، وسعيهم في الارض ، واكتشافاتهم ، مهما كانت تلك الاكتشافات بسيطة .**

ان التاريخ بهذا الاعتبار هو التاريخ المجرد من النظرة التتابعية للاحداث والوقائع ، وهي في اغلب الاحيان نظرة ذاتية غير موضوعية ، حتى انك لتجد من المؤلفين من يضفي على التاريخ طابع الخرافات والاساطير ، ويظن ان التاريخ هو التغني بأمجاد الماضي .

ان التاريخ بالمعنى الذي قصدناه ، وسواء لمسنا فيه طابع النعومة او الخشونة ، وسواء وجدنا له طعما حلوا او مرا ... هذا التاريخ ليس على اية حال من النوع الذي لا يثير اهتمام الانسان ، او على العكس ، من النوع الذي يثير لديه الاستغراب والتعجب . انه اشبه ما يكون بالوجه الذي تقرأ في قسماته البشاعة او الوسامة ... ما التاريخ الا صفحة تطالع فيها الشباب او الشيخوخة ، وترى فيها التجاعيد الصغيرة ، او البشرة الناعمة ، واللون الكامد او اللون الزاهر . ما التاريخ الا كوجه البشر بآثاره القبيحة وثآليه ...

ان هذا الامر ينطلق ايضا على الاقطار والبلدان . فلكل منها وجه او اديم تؤثر فيه العوامل الجغرافية والعوامل التاريخية . اما الاولى من هذه العوامل ، فلقد يكون تأثيرها مباشرا او غير مباشر . واما الثانية فان تأثيرها لا يزال ملحوظا فوق أديم الارض وفي اعماق اعماقها ، وفي كل شبر من التربة التي استصلحها المحراث والمعول والمجرفة ، وعاد اليها السلام وزال عنها الصراع والخصام ، بعدما تقاسمها الناس فيما بينهم ، ووضعوا لها حدودا معلومة ... كما ان تأثيرها لا يزال ملحوظا في بقايا منشآت الري التي خلفها العرب ، وفي الطرق العابرة للقارات ، الحافلة بالحواضر والمراكز التي امحت آثارها اليوم كأنها الحصى المنثور فوق أديم الارض ... ولا يزال ملحوظا في مخلفات الرومان الاثرية التي تشهد — رغم تقادم السنين — بعظمة العقل . وهذه المخلفات الاثرية تبدو اليوم بامتدادها على ارض المغرب ، كأنها حدود داخلية تفصل بين منطقتين متمايزتين في الخصائص الطبيعية وفي انماط المعيشة ... بل لا يزال ملحوظا حتى في الاحجار التي ، اذا استنطقتها ، حدثتك عن ركب التاريخ وتناولت العصور ما بين حضارة وهمجية . وبالفعل فانك الى حد اليوم قد تقع على اطلال وخرائب واحجار متهرئة وانقاض من الاسوار العتيقة متداعية ، وبلاطات بالية واطلال من المدن الاثرية متراكمة ، وشقف لاواني خزفية وقطع من البرونز وكسر من الزجاج .. كما انك قد تعثر على جزء فسيفساء ونصب منقوش وجذع لاحد الاعمدة ورخامة مهشمة ونواة كحبة من الزيتون ، وحبة مسودة من القمح ، ومصباح ، وآنية تسترعي الانظار بين الانقاض المتراكم بعضها فوق بعض على مر السنين ... **ان جميع هذه الادوات التي لم يبق منها سوى الهيكل ، ينبغي للحضارة ان تعنى بها وأن تقدرها حق قدرها ، لكي تجعل منها آثارا حية بها نربط حاضرنا بماضينا البعيد .**

وهكذا فان التاريخ يستمد عناصره من اطلال المدن ومن بقايا الادوات التي استعملها الانسان

فى الزراعة . وهذا يتحقق بانقاذ ما يمكن انقاذه من البلى ، والتقاط تلك الاوانى الصغيرة التى لا تزال تشهد بحياة انتهت ولن تعود . وبهذه الطريقة يحدثنا التاريخ بلسان بليغ ، بل هو ابلغ من النصوص المكتوبة والطلاسم والخرافات التى تحفل بها الاساطير الشعبية او النظريات المتحذلقة التى يضعها بعض الباحثين . وهنا نلاحظ ان الحادثة تقترن دائما بالظاهرة الاجتماعية ، بل هى التى تكشف عنها ، اى ان الحادثة بالنسبة الى التراث الاجتماعى الملموس بمثابة القرينة المادية . ولذلك فان الحادثة تزيد الحقائق التاريخية وضوحا تلك الحقائق التى لا يتوصل اليها الباحث الا بعد استنباطها من اعمق اعماق الارض ، واستخراجها من غياهب الماضى الدفين ، واحيائها من النسيان التام او من اعماق ذاكرة الشعوب . وبالفعل ، فان الاثار الباقية من تاريخ امة من الامم تبدو للباحث كأنها الطلاسم أو الحروف الهيروغليفية المستغلقة على الفهم . وكما ان الابجدية المجهولة تستلزم بذل الجهود لادراك سرها ، فكذلك تلك الاثار الباقية من التاريخ القديم لا تنكشف للانسان الا اذا تسلح بقسط ولو بسيط من الثقافة ، واستعان بوسائل الحضارة ، مهما كانت تلك الحضارة متأخرة . ولقد تكون معلومات الانسان بسيطة نوعا ما ، ولكنها على كل حال نقطة الانطلاق بالنسبة الى الانسان والمجتمعات البدائية او المتحضرة . ان تلك المعلومات ضرورية حينما يأخذ الكائن البشرى فى التعرف بصورة تدريجية على العالم الطبيعى والمحيط الفيزيائى الذى يعيش فيه ويتكيف معه ، وعلى الوسط الحافل بالمخلوقات المنثورة هنا وهناك والعلامات التى يعرف بعضها ويجهل بعضها الاخر فاذا تم له ذلك فانه سيسعى فى استكناه اسرار الكون اللامتناهى ، ذلك الكون الذى انبثق عنه الانسان ، فكان منه المتبصر فى الامور ، وكان منه الغافل الجهول ، وكان منه المبدع الخلاق ، وكان منه الفاتح المقدام . كل ما فى الكون اذن يستحق الاهتمام ... حتى تلك الاشياء التى قد تحتقرها لانك قد تعثر عليها متنافرة ومتراكمة بعضها على بعض ، من غير ترتيب ولا نظام .

كل شىء اذن موجود منذ أن كان التاريخ ... وان لم يكن الشىء موجودا ، فرمزه الذى يدل عليه ويقوم مقامه ، وما من مجتمع ، حتى ذلك المجتمع المتأخر أو المنحط بسبب انعزاله فى صحراء « كالاهارى » أو مفازات « الامازون » ، ما من مجتمع الا وله نصيبه الخاص وسهمه فى هذه الابجدية من الحروف التى قد تزيد او تنقص ، او تظل ثابتة ، وذلك كله بحسب المواقع الجغرافية والعصور التاريخية ومصائب الدهر وكوارثه . وفى تلك المجموعة من الحروف يكمن السر الذى به تحقق الامم مستقبلا زاهرا ، او تتقهقر الى ما كانت عليه فى عهود التاريخ المظلمة .

اترانا بعد هذا سنصل الى موضوعنا عبر هذه الطرق الملتوية التى ما فتئنا خلالها نشير الى المغرب على سبيل التلميح ، ونذكر القارىء به فى كل منعطف ؟ الحقيقة ان الطرق مهما تشعبت ، تؤدى كلها الى **هذا البحر الابيض المتوسط الذى كان مركزا للعالم المعمور ، كما ان الطرق الممتدة على طول سواحل ذلك البحر المتوسط ، تؤدى كلها الى ارض المغرب الذى جعلت منه وضعيته الجغرافية وأحداث التاريخ وتقلبات الدول والمجتمعات والحضارات والمصالح الاقتصادية الدولية ، جعلت منه كل هذه العوامل محطة لا غنى عنها ، وملتقى طرق هام ، ومسرحا كبيرا للبطولة والابداع والصراع ، للشعوب الخلاقة المتوثبة التى وجدت هناك ميدانا فسيحا لتحقق احلامها وتنشر حضارتها ، أو لتعيث فى الارض فسادا وخرابا .**

ان المؤرخ الفرنسى **فرنان برودال** Fernand Braudel موفق جدا حينما اطلق على شمال افريقيا ، وعلى غيرها من المناطق المستقلة من الناحية الجغرافية ، والمتميزة بطابع خاص (كالاناضول والبلقان) ، تسمية **« العوالم الشبجزيرية للبحر الابيض المتوسط . »** فكل بلاد منها عالم بذاته ، الا انها جميعا منسوبة الى حوض البحر الابيض المتوسط . وهكذا ، فان التاريخ الحديث قد اكد بالنسبة الى شمال افريقيا ، التسمية القديمة التى اطلقها العرب على هذا الجزء من العالم ، منذ العصور الوسطى ، اى منتصف القرن السابع . وسواء سميناها شبه جزيرة ، أو جبل الجبابرة ، فان الامر واحد رغم اختلاف التسميات التى قد توحى بها التجربة او الملاحظة . وهناك اشباه جزر أخرى ، وهى فعلا اشباه جزر بالمعنى الحقيقى لا بالمعنى المجازى ،

كاسبانيا وايطاليا ، وهى تؤلف العناصر المتممة لهذه المنطقة الجغرافية الواسعة من حوض البحر الابيض المتوسط الذى يرى المؤرخ السابق الذكر ، **فرنان برودال** ، ان حدوده — مع شىء من التوسع والمجاز — تمتد الى الفيافى والقفار من آسيا وافريقيا . فهو الذى يقول فى كتاب من كتبه : —

« الصحراء هى الوجه الثانى المقابل للبحر الابيض المتوسط . »

ونحن نضيف الى ما سبق ، أن شمال افريقيا ، بطابعها الخاصة من الناحية الطبيعية والبشرية ، ليست شبه جزيرة فحسب ، بل هى كذلك شبه قارة . وقد راينا لزاما على انفسنا ان نشير الى هذه الظاهرة المغربية الجزائرية ، الا اننا لن نتوسع فيها ، لانها لا تحتاج الى دليل ، ولان حجج علماء الاجتماع والتاريخ تخالف احيانا من الناحية الشكلية حجج علماء الجغرافيا ... وهى على كل حال ظاهرة مهمة جدا لفهم الحضارات المتعاقبة فى تلك المنطقة ، عن طريق الهجرة والغزو ... كما أنها تفسر لنا كيف امتزجت الشعوب وكيف اجتمع شملها فى نفس المناطق الجغرافية ، كالنجود والسهوب المشجعة للترحال والتنقل بحسب الفصول ومقتضيات الاحوال ، وكالجبال التى قد تبدو لك منيعة مغلقة على نفسها ، فى حين انها نقطة انطلاق نحو السهول الفسيحة بالنسبة الى الرعاة والفرسان ورجال الحرب والسلم ، والدعاة لشتى المذاهب ، والحمالين والفلاحين ، ورؤساء العصابات الفتاكة التى يضطرها الجوع او ظلم الحياة لحمل السلاح ، والخروج الى البرارى والقفار .

ان المغرب لهو بحق شبه قارة وشبه جزيرة . وشأنه فى ذلك شأن المناطق الاخرى التى لها نفس الوضعية الجغرافية . فالمغرب يعتبر ميدانا واسعا للانطلاق ، وعالما من « **الجزر التى لا يحيط بها البحر** » ، على حد تعبير أحد المؤرخين بصدد حديثه عن اقطار البحر الابيض المتوسط . وهو ، بجباله الداخلية القاحلة وصحاريه المهلكة ونجوده العليا ، واحواضه الطبيعية المحفورة فى الصخر ، مكان فسيح للتنقل داخل الحدود ، او للانطلاق والخروج من تلك الرقعة الواسعة التى تربط البحر بالصحراء . وتشكل ، ببروزها فوق البحر ، شبه جزيرة يمتزج فيها التنافر بالتناسق ، والتنوع بالوحدة .

وتحتل الجزائر التى هى قلب المغرب النابض ، الجزء الاهم من هذه المنطقة ، وتطل على البحر شمالا ، والصحراء جنوبا ، بحسب نظام متناظر ومتعادل يكاد يكون تاما . والجزائر مرتبطة ارتباطا وثيقا بتونس والمغرب الاقصى ، ولها معهما تاريخ طويل مشترك ، وحدود جغرافية مشتركة . ان شمال افريقيا التى تكاد تكون لوحدها قارة ، رغم طول شواطئها الذى يقدر بالفى كلمتر ، وامتدادها عبر الصحراء المتاخمة لافريقيا السوداء ، على مسافة تبلغ عدة آلاف من الكلمترات ، ورغم كونها تشكل رقعة واسعة جدا من الاراضى المتنوعة ، فاننا نستطيع مع ذلك ان نقول بأن وحدة ترابها هى فى حد ذاتها الصورة المصغرة لوحدة جميع الاقطار التابعة لحوض البحر الابيض المتوسط . وهى وحدة ليس لها نظير لعدة اسباب :

أولا : لان الوحدة هى الميزة الرئيسية للبحر الابيض المتوسط ، باعتبار أن هذه الوحدة تمثل الواقع الملموس فى القديم والحديث ، وتفسر الدور الذى لعبه فى مختلف العصور . ولولا هذه الوحدة لفقد هذا البحر كل اهمية . وكان المؤرخ لوسيان لوفابر Lucien Leferbure يقول : « ان الشىء الهام فى حوض البحر الابيض المتوسط هو الطرق . وانه لامر غريب أن نلاحظ كيف ان اشباه الجزر ، أو الجزر الداخلية أو المجموعات من الجزر ، وكيف ان هذين البحرين من الامواج والرمال (اى البحر الابيض والصحراء) ، توجد بينها صفة مشتركة قد يعتبرها البعض ثانوية ، لانها مقصورة على التبادل الحضارى الذى قد يزول احيانا وينقطع ... الا ان هذه الصفة التى تربط بين تلك الجزر أو اشباه الجزر ، وبين البحر والصحراء ، أوثق مما يتصور البعض ، باعتبار أنها هى التى تفسر لنا الامر كله ، وتبرر بالادلة القاطعة وجود هذا البحر الواسع الاطراف فى وسط الاراضى المحيطة به ، وتوضح الدور الذى لعبه من الناحية البشرية . ان المؤرخ السابق الذكر (**لوسيان لوفابر**) ، يتميز بالدقة فى الملاحظة ، لان تعاريفه تحيط بالشىء من جميع الوجوه وتحتوى على جميع الجزئيات التى قد تبدو لاول وهلة تافهة ، فى حين أنها . تكشف لك عن معان

وحقائق تاريخية فى منتهى العمق . وهو الذى اوحى الى تلميذه وصديقه « **برودال** Braudel » ، بصدد الحديث عن منطقة البحر الابيض المتوسط ، اوحى اليه بعبارة موفقة فيها ايجاز وتوكيد ومقابلة، فقال ان المنطقة يكمن سرها فى الصيغة الاتية : **« الطرق ـــ المدن ، المدن ـــ الطرق . »**

وليست هذه العبارة من تلك الكلمات التى تقال جزافا ، بل هى ، رغم ما فيها من ايجاز وتلميح ، تعطى صورة اجمالية عن حركة لا تكاد تنقطع ، وعن ترجح بين حضارتين كل منهما متفاعلة مع الاخرى . ولقد ترجح الكفة من جانب احدى الحضارتين او تتأثر هذه بتلك . ومن الممكن ايضا أن تكون بينهما وجوه اتفاق واختلاف فى نفس الوقت . وعلى كل حال ، لا يحصل بينهما انفصال ، بل تعبران معا ، بتراثهما المشترك ، عن واقع يتفتح على الخارج احيانا ، وينغلق احيانا أخرى ، ويستمد ويمد ، فى حركة جابذة نابذة ، وتنبعث منه تيارات لا تلبث أن تتفرع وتنتشر فى كل مكان ، فيحصل بين الناس تعاون ، وتفتح المحلات التجارية لارضاء الحاجات المتزايدة ، وتنشط الحركة الفكرية والثقافية ، وتنتقل تلك الحركة الى الاقطار الاخرى سواء بالسلم أو بالسيف . وهكذا فان بناء صرح الحضارة يتطلب جهودا متواصلة ، ومثابرة فى العمل .

لقد صدق من قال : « **ان الوحدة البشرية لمنطقة البحر الابيض المتوسط** قائمة **على أساس تمديد شبكة الطرق من جهة ، وعلى أساس بناء الحواضر والمدن من جهة أخرى ... اى انها معتمدة على خطوط النقل وعلى المراكز التى تتجمع فيها الطاقات والامكانيات الفكرية والمادية . فالمدن** والطرق ، أو قل اذا شئت : الطرق والمدن ، ليست الا مظهرا يتجلى فيه تجهيز الانسان للمكان وتنظيمه له .

فالمدينة فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مهما كان شكلها وهندسة بنائها والحضارة التى تنتمى اليها ، هى دائما مولدة للطرق ، كما انها فى نفس الوقت وليدة تلك الطرق ... والنظام الذى تخضع له الطرق والمدن هو الذى فرضه سكان هذه المنطقة ، وهو نظام يهيمن على جميع شؤون الحياة . . . فالزراعة مثلا ، مهما كانت بسيطة ، مآلها الى المدينة ، والمدينة هى التى تتحكم فيها . . . »

ويبدو لنا أن الشىء المهم بالنسبة الى تلك الشبكة الطويلة من المدن والطرق والمحطات ، ليس هو الاشارة الى ما فيها من مظاهر التمدن والاتقان والجمال والرفاهية والفقر ، أو ما فيها من روعة تلفت انتباه العالم وتأخذ بلب المسافر ... ان الشىء المهم فيها ، كما قال برودان : « هو أن ندرك بأن تلك الشبكة تفترض وجود اتصالات دائمة بين سكان المنطقة ، ووجود تاريخ يوحد شملهم. وينبغى الا ننسى فى هذا المجال بأن حركة السفن والدواب والعربات والسكان ، هى التى وحدت منطقة البحر الابيض المتوسط ، كما انها ، الى حد ما ، وحدت انماط حياة السكان ، رغم بعض الفروق المحلية .

ان منطقة البحر الابيض المتوسط تتميز بشىء اساسى وهو انها « **منطقة لا يتوقف فيها النشاط** « ان ما يجرى فى تلك المنطقة من حروب ، وما يدور فيها من صراع ، وما يوجد فيها من فنون وصنائع وما ينتشر فيها من أوبئة ، وما ينتجه السكان من مواد،سواء كانت ثقيلة أو خفيفة ، ثمينة أو رخيصة ... كل ذلك مشحون فى تيار حياتها المتدفق ، ومنقول الى البعيد ، حيث يتوقف ، ثم يشحن من جديد وينقل دوما الى البعيد ، بل يصدر أو يبعث الى خارج حدودها . »

« المنطقة التى لا يتوقف فيها النشاط ... الطرق ـــ المدن ، المدن ـــ الطرق ... «

ذلك هو الاطار ... ولكن الشىء المهم ليس هو الاطار فى حد ذاته ، بل هو الدور الذى يلعبه ذلك الاطار .

ان حضارات البحر الابيض المتوسط تطورت كنتيجة حتمية للفراغ : فراغ البحر من جهة ، وفراغ الصحراء من جهة أخرى ، وذلك ان الصحراء لا تقل عن البحر حركة ونشاطا . وسنرى فيما بعد كيف **ان المجتمعات المغربية ،وخاصة منها الجزائرية نشأت كنتيجة لمقتضيات الاحوال ، واهمها تنقل الناس من مكان الى مكان ، والحاجة الماسة الى الترحال وتعمير المكان ، وانشاء مبادلات وتأسيس محطات للاقامة هنا وهناك .**

ان الوحدة البشرية لمنطقة البحر الابيض المتوسط ليست ، كما يزعم البعض « **ناتجة عن الظروف**

وحقائق تاريخية فى منتهى العمق . وهو الذى أوحى الى تلميذه وصديقه « **برودال** Braudel » ، بصدد الحديث عن منطقة البحر الابيض المتوسط ، اوحى اليه بعبارة موفقة فيها ايجاز وتوكيد ومقابلة، فقال ان المنطقـــة يكمن سرها فى الصيغة الاتية : **« الطرق ـــ المدن . المدن ـــ الطرق . »**

وليست هذه العبارة من تلك الكلمات التى تقال جزافا ، بل هى ، رغم ما فيها من ايجاز وتلميح ، تعطى صورة اجمالية عن حركة لا تكاد تنقطع ، وعن ترجح بين حضارتين كل منهما متفاعلة مع الاخرى . ولقد ترجح الكفة من جانب احدى الحضـــارتين أو تتأثر هذه بتلك . ومن الممكن ايضا ان تكون بينهما وجوه اتفاق واختلاف فى نفس الوقت . وعلى كل حال ، لا يحصل بينهما انفصال ، بل تعبران معا ، بتراثهما المشترك ، عن واقع يتفتـــح على الخارج احيانا ، وينغلق أحيانا أخرى ، ويستمد ويمد ، فى حركة جابذة نابذة ، وتنبعث منه تيارات لا تلبث أن تتفرع وتنتشر فى كل مكـــان ، فيحصل بـــين الناس تعاون ، وتفتح المحلات التجارية لارضاء الحاجات المتزايدة ، وتنشط الحركـــة الفكريـــة والثقافية ، وتنتقل تلك الحركة الى الاقطار الاخرى سواء بالسلم او بالسيف . وهكذا فان بناء صرح الحضارة يتطلب جهودا متواصلة ، ومثابرة فى العمل .

لقد صدق من قال : « **ان الوحدة البشرية لمنطقة البحر الابيض المتوسط** قائمة عـــلى **أساس تمديد شبكة الطرق من جهة ، وعلى أساس بناء الحواضر والمدن من جهة أخـــرى ... اى انها معتمدة على خطوط النقل وعلى المراكز التى تتجمع فيها الطاقات والامكانيات الفكرية والمادية . فالمدن** والطرق ، أو قل اذا شئت : الطرق والمـــدن ، ليست الا مظهرا يتجلى فيه تجهيز الانسان للمكـــان وتنظيمـــه له .

فالمدينة فى حوض البحر الابيض المتوسط ، مهما كان شكلها وهندسة بنائها والحضارة التى تنتمى اليها ، هى دائما مولدة للطرق ، كما أنها فى نفس الوقت وليدة تلك الطرق ... والنظـــام الذى تخضع له الطرق والمدن هو الذى فرضه سكان هذه المنطقة ، وهو نظام يهيمن على جميع شـــؤون الحياة . . . فالزراعة مثلا ، مهما كـــانت بسيطـــة ، مآلها الى المدينة ، والمدينة هى التى تتحكم فيها ... »

ويبدو لنا أن الشىء المهم بالنسبة الى تلك الشبكة الطويلة من المدن والطـــرق والمحطات ، **ليـــس هو** الاشارة الى ما فيها من مظـــاهر التمدن والاتقـــان والجمال والرفاهية والفقـــر ، أو ما فيها من روعة تلفت انتباه العـــالم وتأخذ بلب المســـافر ... أن الشىء المهم فيها ، كما قال برودان : « هو ان ندرك بأن تلك الشبكة تفترض وجود اتصالات دائمة بين سكان المنطقة ، ووجود تاريخ يوحد شملهم . وينبغى الا ننسى فى هذا المجال بأن حركة السفن والدواب والعربات والسكان ، هى التى وحدت منطقة البحر الابيض المتوسط ، كما انها ، الى حد ما ، وحدت أنماط حياة السكان ، رغم بعض الفروق المحلية .

ان منطقة البحـــر الابيض المتـــوسط تتميـــز بشىء اساسى وهو انها « **منطقة لا يتوقف فيها النشاط** » ان ما يجرى فى تلك المنطقة من حروب ، وما يدور فيها من صراع ، وما يوجد فيها من فنون وصنـــائع وما ينتشر فيها من اوبئة ، وما ينتجه السكـــان من مواد،سواء كانت ثقيلة او خفيفة ، ثمينة او رخيصة ... كل ذلك مشحون فى تيـــار حياتهـــا المتدفق ، ومنقول الى البعيد ، حيث يتـــوقف ، ثم يشحن من جديد وينقل دوما الى البعيد ، بل يصدر أو يبعث الى خارج حدودها . »

« المنطقة التى لا يتـــوقف فيها النشـــاط ... الطرق ـــ المدن . المدن ـــ الطرق ... »

ذلك هو الاطار ... ولكن الشىء المهم ليس هو الاطار فى حد ذاته ، بل هو الدور الذى يلعبه ذلك الاطار .

ان حضارات البحـــر الابيض المتوسط تطورت كنتيجة حتمية للفراغ : فراغ البحر من جهة ، وفراغ الصحراء من جهة أخرى ، وذلـــك ان الصحراء لا تقل عن البحر حركة ونشاطا . وسنرى فيما بعد كيف **ان المجتمعات المغربية ،وخاصة منها الجزائرية نشأت كنتيجة لمقتضيـــات الاحـــوال ، واهمها تنقل الناس من مكان الى مكان ، والحـــاجة الماسة الى الترحال وتعمير المكان ، وانشاء مبادلات وتأسيس محطات للاقامة هنا وهناك .**

ان الوحدة البشرية لمنطقة البحر الابيض المتوسط ليست ، كما يزعم البعض « **ناتجـــة عن الظروف**

الطبيعية ، وعن مياه البحر على وجه الخصوص » وذلك ان هذا البحر الاوسط ، ما لبثت السفن أن تغلبت على امواجه واخذت تمخر عبابه وتربط ما بين مختلف الجهات وتنشىء تدريجيا ، وبفضل ابناء المنطقة ، صرح الحضارة المتين .

ان تلك الوحدة اذن ليست ناتجة عن الوسط الطبيعى ، بل حققتها سواعد ابناء تلك المنطقة ، وان حوض البحر الابيض المتوسط لم يكن ولن يكون له وزن على الصعيد العالمى . الا اذا اشترك جميع سكانه فى تشييد صرح الحضارة ، بالسعى والجد والجهد والتفانى فى العمل . ولهذا فنحن نعتقد أن الرابطة الاساسية بين اقطار البحر الابيض المتوسط هى شعوب المنطقة ، لا مياه البحر .

ولقد رأينا من خلال الامثلة التى استشهدنا بها فى موضوعنا ما هى العوامل الجغرافية التى يتجلى فيها الجانب الحركى بوضوح . وهذه العوامل توجد بينها علاقات وثيقة :

كعلاقة الزمان بالمكان ، ونقطة الانطلاق بنقطة الانتهاء ، والمحل الثابت بالسفر ، والاقامة بالترحال ، والطرق بالمدن ، ومقتضيات الاحوال بالانشاء والتعمير ، والادوات المادية بالعناصر البشرية ، وبكلمة مختصرة ، نعنى بذلك جميع مقومات الحضارة حينما تتكيف مع متطلبات الوسط الطبيعى او تستجيب لها او توجد لها الحلول المناسبة باعمال الفكر واستخدام العقل .

ويرى أحد المؤرخين ان المكان الذى وجد فيه ابناء منطقة البحر الابيض فى القرن السادس عشر ، يعتبر من الناحية الجغرافية **« مكانا على غاية من الاتساع ، ولا يكاد ينتهى الى حد »** . ويضيف بأنه لم تكن هناك منطقة فى العالم بها آنذاك من المدن العامرة ما بتلك المنطقة . ويقول : « ان باريس ولندن لا يزالان فى بداية التمدن . اما مدن الاراضى المنخفضة (هولاندا) ، والمانيا الشمالية ، وكذلك المدن النشيطة الصغيرة فى منطقة الهانس ، فهى ، رغم جمالها ونشاطها ، لا تكاد فى عمرانها وتعقدها تبلغ ما بلغته مدن حوض البحر الابيض المتوسط ، حيث نجد الحواضر الكبرى كأنها شريط طويل من الزهور ، ونذكر من بينها : البندقية وجنوة وبرشلونة واشبيلية والجزائر ونابولس والقسطنطينية والقاهرة . » ولكن هذا موضوع آخر ، وسنعود اليه فيما بعد .

ومع ذلك ، فانا اعتقد ان المسألة قد لا تخلو من فائدة ، لمن شاء أن يدرس تاريخ المغرب والجزائر دراسة منهجية ، أن نقدم له هذا الاطار ، وان نتعرض ، على سبيل التمهيد والشرح ، للبنية الطبيعية ، وان نعطى لمحة موجزة عن منطقة البحر الابيض المتوسط النشيطة ، وان نتجاوب مع الاطار الجغرافى الخلاب . وقد تدرج بنا الحديث — فى شىء من التعثر — من العام الى الخاص . فالمغرب والبحر الابيض المتوسط منطقتان تعتبر كل منهما مندمجة فى الاخرى . اما الجزائر فكأنها الزبدة لما فى ذلك البحر الابيض المتوسط من عناصر جغرافية واقتصادية وبشرية . التى خلقت للمغرب تاريخه ، باعتبار ان موقعها فى الوسط جعلها اقرب الى خصائص منطقة البحر الابيض من البلدين الشقيقين : المغرب الاقصى وتونس ، وباعتبار أن موكب التاريخ عندما بدأ زحفه من الشرق لينهى سيره المتباطىء فى الغرب ، انما بلغ اوجه ، واستجمع قوته ، واعد العدة ، وعرف الهزيمة والمحنة ، واسند المقاليد الى زعمائه ، فى قلب تلك المنطقة الشبيهة بالقارة ، اى فى الجزائر . انها انسب مكان فى حوض البحر الابيض ، من حيث الموقع الجغرافى والتضاريس ، برقعتها الواسعة التى وجدت فيها الهمم والعزائم مجالا كبيرا للعمل والتفتح ، وانطلقت منها مواكب التاريخ للنصر المظفر . وبطبيعة الحال لا يمكن وضع تاريخ أى قطر من اقطار شمال افريقيا ، اذا لم نأخذ بعين الاعتبار كونه جزءا لا يتجزأ من هذا العالم الشبجزيرى ، وكون سكان المغرب قد ساهموا كلهم بأعمالهم وتجاربهم ، فى تعبيد الطرق وبناء المدن وتشييد العواصم وتأسيس الممالك وانشاء الاسواق لتبادل السلع ، وتكوين المدارس والجمعيات الثقافية والتجارية والبحرية ، وتدبير الثورات . . . كما انهم جميعا تعرضوا لنفس المحن ، وعرفوا آلام الهجرة والاغتراب .

وبعبارة مختصرة لا يمكن وضع تاريخ اى قطر من اقطار المغرب اذا لم ننظر الى تلك المنجزات

التى حققها اهالى المغرب فى سيرهم المشترك خلال مختلف العصور . وانـه لمـن العبث ان يحـاول الانسان ، بدافع النزعة الاقليميـة ، تفريق مصير هذه الاقطار الثلاثة التى لها مصالح مشتركة عديدة. واذا راجـع الانسان صفحـات التـاريخ فى اقدم العصور ، فانه سيجد انه ، ما من شىء حصل فى مكان ما من بلاد المغرب ، الا وكان له تجاوب سريع بحسب خط افقى يمتد من الشرق الى الغرب ، او العكس ، فلكم راينا من رجـال عامليـن وفاتحين ومهاجرين ياتون من الشرق العربى أو من المغرب الاوسط ، اى من الجزائر ، وينتهى بهم المطاف فى المغرب الاقصى ... كما انه انطلقت من هذا البلد الاخير حركات كبرى اصلاحية ، وسلالتان من اكبر السلالات المالكة التى تفرعت فيما بعد ، وآل بها الامر الى الاستقـلال عن بعضها فى كـل قطر من اقطار شمال افريقيا الثلاث .

ولذلك يبدو لنا من السابق لاوانه ، أن نتحدث ، فى بداية تاريخ هذه المنطقة ، بل حتى فيما بعد ، عن هذا الاقليم او ذاك من اقليم المغرب ، وأن نعزو اليه كيانا مستقلا عن غيره ، وتنظيما سياسيا للـدفاع عن اراضيه . وليس هذا الامر راجعا الى مسألـة الجوار فحسب ، او الى الاصـل المتقارب او الى اللغة المشتركة او الى الحدود التى تكاد تكون بينها معدومة ، او الى نفس الالام التى عانت منها الاقاليم الثلاثة نتيجـة للغـزو والاستعمـار ... ان هذه الظاهرة فى نظرنا ، مرجعها الى أن شمال افريقيا اشبه ما تكون بالجزيرة ، وهو أمر ليس له نظير ، لان المناطق الشاسعة التى تحدق بشمال افريقيا ، — وهى المحيط الاطلسى والبحر الابيض المتوسط ، وكذلك الفيافى والقفار المترامية الاطراف — جعلت شمال افريقيا مخالفة للنوع المتعارف لـدى الناس من الجزر الصغرى او المتوسطة التى لا يحيط بها الا عنصر واحد هو الماء ، كما انه لا توجد فى داخلها مناطق واسعة مترامية الاطراف من اليابسة .

على ان هذا الطابع الشبجزيرى لم يعط لسكان هذه القارة المغربية عقليـة انعـزالية او سلوكا انكماشيا . بل ان هذا الطابع ، على العكس ، قد قرب بينهم من اجل تمتين اواصر التعاون بين اقوام ذات مصالح اقتصادية واحدة او متقاربة ، فى بلاد لا يعيش فيها الا من يصارع المـوج المتلاطم ورمال الصحراء المحرقة ... كما أن هذا الطابع جعل منهم قوما اذا ما اغتربوا ، عملوا وخاضوا غمار القتال ، واذا كانوا فى بلادهم ، رحبـوا بالضـيف وأكرموه وتفتحوا لكل جديد يأتيهم من الخارج .

وهنا ، اما ان نفتـرض بأن السكـان الاوائل الذين استوطنوا هذه الارض منذ ما قبل التاريخ ، وعمروها واستثمروا خيراتها ، اما ان نفترض بأنهم ظلوا ردحا طويلا من الـزمن يقيمـون فى الاراضى الداخلية ، ثم اخـذوا يتقدمـون شيئا فشيئا نحو الساحل والبحر الذى لم يكن احد منهم يجرؤ على ان يمخر عبابه ، فى حين ان الفينيقيين كـانوا قد بداوا يعبرونه طولا وعرضا بقواربهم المستديرة...

او نفترض بأنهـم اضطـروا للاقـامة فى الشعاب والجبال بسبب عدم امتلاكهم للالات اللازمة للفلاحة، فبقوا على تلك الحالة الى ان اخذت تقنيات الحضارة تحل محل الانماط البدائية من الحياة ، كالصـيد والقطف واستصلاح الاراضى وتربية المواشى .. ومهما يكن من أمر ، فان البربر كان لديهم استعداد، منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، للمساهمة فى ثقافة البحر الابيض المتوسط ، ذلك البحر الذى يعد موطنهم جزءا منه ، وان كانوا متخلفين بعض الشىء عن مسايرة التيـارات الجديدة التـى نشأت عند الشعوب المطلة على البحر ... وكـان اليـونان والفينيقيون متمرسين فى خـوض غمـار البحر ، فالفينيقيون الذين كانوا محشورين فى منطقة ضيقة بجبال لبنان ، عقدوا العـزم على أن يخرجوا من عزلتهم تلك ، فركبوا متن البحار . ولما رأوا زوال السلالة الطلسية فى جزيرة كريت ، وكانت تسيطر بقوتها البحريـة عـلى القسم الشرقـى من البحر الابيض ، انشأوا سفنا قادرة على السفر البعيد ، فوصلوا بها الى المغرب . ويمكن القول ان التاريخ الحقيقى لشمال افريقيا والجزائر يبتدىء من تلك الفترة ، وذلك ان وصـول الفينيقيـين كان بمثابة الكاشف ، بالمعنى الكيميائى لهذه الكلمة .

ان اسم الليبيين ، او « الليبو » — وهو الاسم القديم الذى كان يطلق على البربر — ورد ذكره فى الخطوط الهيروغليفية التى خلفها « منفتة » ، وهو

من فراعنة القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وهؤلاء الليبيون ، نجدهم فيما بعد يشتركون مع الفينيقيين ابتـداء من ١١٠٠ ق . م ، فى تأسيس المـراكز التجارية وممـارسة مختلف الحـرف ، على طول شواطىء شمال افريقيا .

ولابد هنا ان نؤكد بأن التاريخ اخذ منذ ذلك الحين ينجلى ويكشف عن خطوطـه العامـة وعنـاصره الاساسية التى تآلفت منها الحياة فى منطقة المغرب. فلاول مرة استطاع بعض السكـان الاصليين ان يقيموا على ساحل البحر بعد ان كانوا يقيمون فى الجبال والنجـود العليا فى داخـل البـلاد ، حيث اسسوا دويلات صغيرة . Gades, ou Cadix

وقد تأسست آنذاك مدينة قادس
عى الساحل الاسبانى القريب ، فاتخذها الفينيقيون نقطـة انطلاق للقيـام باستكشـافات فى افريقيا السوداء . وقد تأسست بعدها مدينـة ليكسوس Lixos الهامة ، على الشاطىء الاطلسى من المغـرب الاقصى . ولا شك أن هـذا الحادث المزدوج الذى اكتمل برحلة هانون Hannon

فى القرن الخامس ق . م . ، ما لبث أن أصبح من اعظم الاحداث الحضارية التى كان لها اثر بعيد فى اقتصاد اقطـار البحـر الابيض المتـوسط ، وفى الاقتصاد الاوربى . وبقى هـذا الاثر ملموسا الى القرن الخامس عشر . واعنى بذلك معادن الذهب الافريقى التى كانت لا تزال مجهولة . فالمتاجرة بهذا المعدن هى الاساس الذى اعتمدت عليه السياسة المالية للممالك العربية فىالعصور الوسطى ، والممالك الاسبانية فى عصر النهضة ، والـدول الاوربية فى العصور الحديثة . وظل الامـر كذلـك الى أن تم العثور على الذهب فى أمريكا الجنوبية .

ان دخول البربر الى مسرح التاريخ موافق لنهاية العهد الميسينى Période Mycémenne ، وبداية ما يمكن ان يسمى العصر الوسيط اليونانى الـذى يمتـد مـن ١٢٠٠ الـى ٨٠٠ ق . م .

مدينة قرطاجنة التى اعتبرت كأنها مدينة صور Tyr ثانية ، لانها نظيرتها فى العظمة ، ولانها هى الـتى حلت محل المدينة الام البعيدة . ورغم الامكانيات الكبرى التى توفرت لقرطاجنة،فلم تبلغ أوج عظمتها الا بعد مضى خمسـة قـرون ، وظلت مدة طويلة تؤدى ضريبة الى ممالك البربر ، مما يدل على أن تلك الممالك بلغت درجة من القوة والتنظيم تمكنها من ممارسة السيادة على اراضيها .

والمركز الاساسى لهذه الممـالك ، وعواصمها واسواقها، وكذلك أهم المراكز التجارية التى اسسها الفينيقيون بعد قرطاجنة ، تقـع كلها فى السهول العليا من نـواحى قسنطينـة ، وعـلى الشاطىء الشرقـى من الجـزائر . وقـد واكبت الحضارة الاقتصادية والتقنية التى اتى بها الفينيقيون، التاريخ السياسى والثقافى الذى سجلته السلالات الوطنية الكبرى وبقى محفوظا فى المدن والقرى . وتبـنى السكان من تلقاء انفسهم اللغة البونيقية وانمـاط المعيشة ومؤسسات ذلك الشعب الفينيقى المتعود على البحر ، فلما استقر به المقام على اليابسة ، تبين انه لا يقل تجربة ومهارة فى ميدان الزراعة عن تجربته ومهارته فى الملاحة والتجارة .

ان هذه الفترة تعتبر حاسمة فى تاريخ شمـال افريقيا ، خاصة اذا عقدنا مقارنة بين هذه الفـترة التى رحب فيها السكان بحضارة اجنبية اتتهم بطريقة سلمية ، فاستفادوا منها ، وتعلموا منهـا الشىء الكثير .. وبين عهود اخرى مرت بها البلاد فيما بعد ، وهى عهود تميزت بالغزو الثقافى الموسوم بطابع السيطرة والقهر والتحكم ، اذ ان الثقـافة اصبحت مفروضة من طرف دولة ، وان تكن متقدمة حضاريا ، الا أنها تستعين بعدد كبير من المستوطنين الاجانب ، وتستحـوذ على الاراضى والطـرق ، وتسلط على البلاد ولاة طغاة ، وطوابير من الجيش الذى ليس له من عمل سوى القمع والبطش .

(يتبـع)

المستشرق المجري

د. الحاج عبد الكريم جرمانوس

• ••• ••• ••• ••• •

الإسلام

كدين عالمي

كنا دعونا المستشرق المجرى الكبير الحاج الدكتور عبد الكريم جرمانوس الذى الف عشرات الكتب عن الاسلام بالعربية والمجرية ، لغته الوطنية ، والالمانية ، الى حضور الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد فى الصيف الماضى بقسنطينة ، ولاسباب صحية لم يتمكن من الحضور ، وقد ارسل الينا فيما بعد هذا المقال القيم . واذ ننشره شاكرين نود ان نعلن الى اننا قد اعدنا الكرة ودعوناه مرة ثانية للملتقى الخامس الذى سينعقد قريبا فى وهران ، ونرجو ان لا تعوقه هذه المرة ظروفه الصحية عن الحضور والقاء محاضرة فى هذا الملتقى وهو الشيخ المسن الذى اشرف على التسعين .



الحاج عبد الكريم جرمانوس فى لباس الاحـرام

منذ عشرات السنين ، ومن خـلال الدراسـات المختلفة ، وانا احاول المقارنة بين النظـم الدينيـة الانسـانية والبناءات الاجتماعية والافكار النظريـة للفلاسـفة المختلفين ، وبـين القوانـين الطبيعيـة للمجتمعات الانسانية والخصائص الجغرافية وهذه التأثيرات الاقتصادية التى اثرت فيها . . بل وشكلت صورتها ووجهتها فى بعض الاحيان .

فاذا ما عرجنا الى التفاصيل ، نجد انها فى العصور القديمة لم يكن لها مجال عنـد اليونانيين اذ كـانت ضعيفة الانتاج والاخصاب نتجية قربهم الى البحـر وانتمائهم اليه . بينما نجدها فى البلاد البعيدة قـد خلقت وكونت مستعمرات عدة وتعرفت على انتاج هذه المساحات الارضية الغربية ، وعلى شعوبها ، وادركت ووصلت الى مواد معرفتهم ، ووسعت من افكارهم الخاصة . لقد رفعت العبقرية اليونانيـة الحية — وبفضل من قوة خيالها — مادةالمعرفـة فى العصور القديمة الى قمة فلسفية عظيمة . فخلقت عالم تكنيك حياتها ، كما خلقت عالم ابداع خيالهـا . لقد عرف افلاطون عالم الانسان فى الصور الذهنيـة المجردة ، بينما حصر ارسطوا التفكير ووجهه الـى النظام الطبقى والطبقات . لقد قسم كل ظـاهرة ، وعين الاجناس والفصائل ، مظهرها الخارجـى وخصائصها حسب ما هيتها وعنصرها الداخلـى .

ونظم فيثاغروث عالم الرياضيات ظواهر العالم حسب اتساع وحجم المساحات . لقد كان كل مـن المفكرين رائدا ، لانه حث على قواعد الفكر . خلق ارسطو المنطق وابدعه . الحد الاصطلاحى هو (منطق) . وهذه الكلمة ماخوذة عن الفكرة ، كمـا كانت تدحددت ان الفكرة يمكن فقط ان تكون مفهومة ويعقل ادراكها بواسطة الكلمة وحدها .

لقد ترجم العرب المنطق الاغريقى بامانة الى كلمة منطق ، من الفعل نطق . وهكذا بنيت العلوم علـى قواعد المنطق ووصلت الى حدود الفكر الانسانى . وبذلك منعت هذه الحدود الوجود الخرافى (غـير الموجود) . لكنها فى نفس الوقت قد طورت مـن التنظيمات الصحيحة المناسبة للظواهر بالنسبـة لعنصر الانسان وجوهره وصفاته .

ان الفكر المنطقى هو الذى اتى بالعلوم الطبيعية ، وهو الذىوفر للانسان وضمن له تكنيك الاستعمال . فالفيلسوف بمستطيع ان يحقق فكرة تماما فى العلوم الطبيعية عن طريق الفكر المنطقـى . ولكن عليه ان يعترف بأن فى الوجود والكيان ماهو ابعد بكثير عن المنصر والجوهر ، وما يتخطى حدودها . . وقـد اعترف ارسطو نفسه بـ « ماخلف المعرفة الفزيقية » واطلق عليها اسم « الميتافزقية » . وهى مسلمات قد لا يمكن انكار تأثيراتها على اى حال من الاحوال .

ان المنطق هو الرقابة او الحكم المطلق فى العلوم الطبيعية . لكنه عند العلوم الذهنية لا يكون غـير متوافق اومتطابق اوهوليس بالضرورةكذلك . خاصة فى علم الاحياء (البيولوجيا) وعلم وظائف الاعضاء (الفزيولوجيا) . وهو غير مناسب ايضا لعلم التاريخ الذى هو امتداد علم الاحياء . الى جانب ان هـناك قوى مادية تتدخل فى تكويناته وتحركاته . ان موضوع التاريخ ومبحثه هو الانسان الحى الذى هو وجود بيولوجى حى بحكم مزاياه المتعددة الفهم ، وطباعاته الموروثة ، واحاسيسه ومادته الخارجية ، وتأثيراته الاجتماعيه . ولهذا لا يمكن الزج به فى تصنيف محدد او داخل نظام رياضى او حسابى . .

ومع هذا فالانسان هو الحقيقة . وهو كشيء ذاتي او كعضو في المجتمع فانه يتكون ،ويتشكل ، ويتطور ويتغير . والحقيقة في عالم الاحساس عند الانسان هي السعادة ، والالم، والرغبة بعد الجمال ، والبحث عن الخير ، والمواساة بعد الخسارة ، والامل في الرضاء والهدوء .

تنبع الاديان من هذه الكينونة ومن هذا الوجود الحي مع انه ليس بالاستطاعة عزاءنبعها الى احساس الحقيقة تماما . ولا يوجد على وجه الخليقة مجتمع انساني لم ينتم الى فكرة دينية . والانظمة الدينية المتعددة هي دائما فوق خوارق الطبيعة واعاجيبها ، فهي تنبع من الوحي والالهام ،وكل نظام ديني يبنى بحكم الضرورة على الاحاسيس والمشاعر الانسانية، اذ يحاول مساعدة الانسان ليتغلب على مصاعبه وعثراته وسقطاته المستمرة المتلاحقة . وهو لهذا انما يبغى مساعدة الانسان ليعيش مع البرية فيسلام واطمئنان ، وليحب اقاربه واصدقاءه والخليقة الانسانية جمعاء . فاذا ما دعت الطبيعة الي التضحية فليقدمها في تمام وكمال وليشارك بالنجاح فيها حتى تعم السعادة عليه ، واذا ما لحقته الخسارة وجد المؤازرة والعزاء .

وبهذاقبلت كل النظم الدينية بالاضطرار هذه القواعد الاخلاقية التي تحكم العالم اجمع وعملت على توجيهها . وبما ان الانسان لم يكن بمستطيع ان يتعرف على عناصر هذه الاساسات الاخلاقية وجوهرها فقد حدد رمزا خاصا لها ، حيث كان الرمز يمثل ما بعد الكمال والتفوق على كل الحدود ، اذا ما قورن بمعرفة الانسان . وهو رمز غير مقيد بحدود الزمان او المكان ، يقف شامخا ويعلوّ على خصائص الانسان ،وهورمز ابدي وفوقكلالقوى واقدرمنكل القدرات . وقد اطلقت اللغات المختلفة اسماء وتعاريف كثيرة على هذا الرمز ، فهو جوبتر ، ديوس براهما ، جود ، دييه ، الوخ . . ثم الله ، لكنها جميعا تحس بالحقيقة التي لا يمكن انكارها ، والتي لا تصل او تستطيع الوصول الى العبقرية الحكيمة.

ان لكل ديانة على مر التاريخ وديعة هي بمثابة الوحي او الاعلان الالهي . . ولقد كان الوحي الالهي الاخير من نصيب النبي محمد عليه الصلاة والسلام آخر الانبياء وخاتم المرسلين . ان هذه الدعوة الالهية الاخيرة والخاتمة تقبل كل الديانات السابقة عليها ، لكنها تكملها ، وتمنح كل الانسانية جمعاء اللغة والخاصية والنوع دون انحراف ، وتجند نفسها لخدمة الحياة ، وتخفف من هلع الموت . هذا هو الاسلام . . الذي يعني أن الانسان هو من ارادةربه ولا رادته ، وهو بالتالي يكون خاضعا لارادة نظم الارض والقوى الاخلاقية ومشتركا في القوانين الاخلاقية المتماسكة على هذه الارض .

ليس الاسلام طبقة مفضلة ممتازة فقط ، يعطي دورا قياديا لمعتنقيه وشيوخهم ، لكنه يمنح الذاتية كل الذاتية للذين يعترفون بهويدركون تعاليمهبعقولهم وايمانهم ، ويحسون واجباتهم تجاه اخوتهم ورفقائهم بقلب رحيم ، وللذين يقفون إمام الله سبحانه وتعالى خاشعين يخدمون بسلوكهم وتصرفاتهم النظام الاخلاقي في المجتمع الانساني .

لهذا كان التعرف علىالاسلام يعني المعرفة والقلب ودين الواجب . ومن خلال هذه النظرة تتضح رؤيا النظام الاجتماعي ، لانه لا يقوم على خبرة الفرد وحده ، التي قد تكون خبرة خاطئة غير سليمة في بعض الاحيان ، لكنه يشيد ويبنى على التفكير ، وعلى مالا تخطئه العين . لأن هدف الديانة الاسلامية هو قيادة المجتمع الانساني الى الطريق السليم ، فوق كل اعتبارات الاخطاء الفردية والمعاناة اللاانسانية، وكذلك وضع القانون الاخلاقي كسلطة عليا تحكم بالحق والعدل . وفي هذا يبلغ القانون أوج العلى حينما يمتنع الانسان عن ارتكاب الضغينة ضد اخيه الانسان ، مثلما يحس بأنه لا يقبل على نفسه ان ترتكب ضده مثل هذه الضغينة .

المــرأة والأســرة في الإسـلام

د : علي عبد الواحد وافي



نص المحـاضرة التي القاهـا د . علـي عبد الواحد وافي استاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة ، والاستاذ بجامعة قسنطينة حاليا ، أمام الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي بقسنطينة بتـاريخ ٨ – ١٧ جمـادى الثانية ١٣٩٠ هـ المـوافق لـ ١٠ – ١٩ اغسطس ١٩٧٠ م .



لقد حفض الاسلام ايها السادة ، للمراة جناح الرحمة ، وشملها في جميع تشريعاته بعطف كريم ورعاية رحيمة ، وسمى بها الى مستوى رفيع لم تصل الى مثله في اية شريعة اخرى من شرائع العالم ، قديمه وحديثه ، وسوى بينها وبين الرجل في معظم شؤون الحياة ، ولم يفرق بينهما الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ومراعاة الصـالح العـام وصالح المراة نفسها .

فقد سوى الاسلام بين الرجل والمراة فى القيمة الانسانيه المشتركة ، فكلاهما فى نظره من عنصر واحد ومن طبيعة واحدة ، وليس لاحدهما من مقومات الانسانية اكثر مما للاخر ، وفى هذا يقول الله تعالى : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ، اى ان المراة مخلوقة من الرجل ومن عنصره نفسه لا من عنصر آخر ، وقد انبث منهما جميع الرجال والنساء ، فكلا الجنسين يرجعان الى اصل واحد . ويقول الله تعالى فى آية اخرى : « فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى بعضكم من بعض » ، اى ان الذكور من الاناث والاناث من الذكور وليس بينهما فرق فى جوهر الطبيعة . وبذلك قضى الاسلام على جميع الآراء الفاسدة التى كانت سائدة فى كثير من الملل والنحل من قبله بشأن طبيعة المراة واختلافها عن طبيعة الرجل . فقد كان بعض هذه الاراء يذهب الى أن المراة من طبيعة انسانية وضيعة بالقياس الى طبيعة الرجل ، وبعضها كان يذهب الى أنها من عنصر غير طاهر وغير زكى ، بل لقد ذهب بعضها الى أبعد من هذا كله ، فاعتقد أنها رجس من عمل الشيطان ، أو من عمل اله الشر ، وعلى اساس هذه العقيدة انتشر فى كثير من الشعوب عادة التخلص من البنات بقتلهن او وادهن عقب ولادتهن ، حتى يتخلص من هذا الكائن الذى هو رجس من عمل الشيطان او من عمل اله الشر ، ومن اشهر الشعوب التى انتشرت لديها هذه العادة على اساس العقيدة التى نتحدث عنها بعض قبائل العرب فى الجاهلية ، خاصة بعض بطون من قريش وتميم وطيى وكندة وربيعة .

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمراة فى القيمة الانسانية المشتركة وقرر أنهما من طبيعة واحدة ومن عنصر واحد ، وأن ليس لاحدهما من مقومات الانسانية اكثر مما للاخر ، كما قرر ذلك وسوى بينهما فى هذه الناحية ، سوى بينهما كذلك فى شؤون المسؤولية والجزاء فى الدنيا والاخرة . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : « من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ويقول فى آية اخرى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » ، ويقول فى آية ثالثة « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمراة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء ، سوى بينهما كذلك فى الحقوق المدنية بمختلف انواعها ، فأعطى المراة الحقوق المدنية نفسها التى اعطاها للرجل ، لا فرق فى ذلك بين ان تكون متزوجة او غير متزوجة ، فمن قبل الزواج يكون للمراة فى نظر الاسلام شخصيتها المدنية الكاملة المستقلة عن شخصية ابيها او من هى تحت رعايته ، فان كانت بالغة كان لها الحق فى اجراء مختلف العقود ، وتحمل الالتزامات ، وتملك العقار والمنقول ، والتصرف فيما تملك ، ولا يجوز لوليها ان يجرى اى اجراء قانونى يتعلق بها او بأموالها الا اذا اذنت له بذلك او وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها ، وان كانت قاصرة وجب على وليها اذا كان له مال انتقل اليها عن طريق الهبة او الوراثة او الوصية وما الى ذلك ان يحتفظ لها بما لها وأن ينميه ويستثمره ما استطاع الى ذلك سبيلا ، حتى تصل الى مرحلة البلوغ فيؤديه اليها مع ما عسى أن يكون قد انتجه من فوائد ، ولا يحق له ان ياخذ شيئا من مالها ، وقد نهى القرآن عن ذلك نهيا شديدا وتوعد مرتكبيه بأشد عذاب فى الاخرة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا اموالهم الى اموالكم ، انه كان حوبا كبيرا » ، ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم اموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبدارا ان يكبروا » ، ويقول : « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما انما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » ، ويقاس على اليتيمات غيرهن اذا انتقل اليهن مال عن طريق الهبة او الوراثة او الوصية او غير ذلك ، هذا فيما يتعلق بوضع المراة من الناحية المدنية قبل الزواج ، وكذلك شأنها فى نظر الاسلام بعد الزواج ، وذلك ان الزواج فى الاسلام يختلف اختلافا جوهريا عن الزواج فى معظم امم الغرب المسيحى فى انه لا يفقد المراة اسمها ولا شخصيتها المدنية ولا اهليتها فى التعاقد ولا حقها

فى التملك ، بل تظل المراة المسلمة بعد زواجها محتفظة باسمها واسم اسرتها ، وبكامل حقوقها المدنية ، وبأهليتها فى تحمل الالتــزامات واجراء العقود بمختلف انواعهــا من بيــع وشراء وهبة ورهن ووصية وما الى ذلك ، ومحتفظة كذلــك بحقها فى التملك تملكا مستقلا عن غيرها وبحقها فى التصرف فيما تملــك ، فللمــراة المتزوجة فى الاســلام شخصيتها المدنيــة الكاملــة وثروتها الخاصة المستقلتان عن شخصية زوجها وثروته ، ولا يحق لزوجها أن يأخذ شيئا من مالها قل ذلك الشىء او كثر . وفى هذا يقــول الله تعــالى : « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتموا احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، اتأخذونه بهتانا واثما مبينا ؟ ! وكيف تأخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا » ، ويقول فى آية اخرى « ولا يحل لكم ان تأخذوا مما آتيتموهن شيئا » ، واذا كان لا يحل للزوج أن يأخذ شيئا مما اتاه لزوجته فانه لا يحل له من باب أولى أن يأخذ شيئا من مالها الاصيــل ، الا أن يكون هذا او ذاك برضاها وعن طيب خاطر منها، وفى هذا يقول اللــه تعــالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فان طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » ، ولا يحق للزوج كذلك أن يجرى اى اجراء قانونى باسم زوجته الا اذا اذنت له بذلك او وكلته فى اجراء عقد بالنيابة عنها ، وفى هذه الحالة يجوز لها أن تلغى وكالته وتوكل غيره اذا شاءت .

ويبدو ايها السادة سمو هذه المبادىءالاسلامية بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام .

فالشريعة اليهودية مثلا تجرد المراة من معظم حقوقها المدنية وتجعلها تحت الوصاية المطلقة لابيها قبل زواجهــا ، وتحت الوصــاية المطلقة لزوجها بعد زواجها ، وتنزلها فى كلتا الحــالتين منزلة لا تزيد كثيرا عن منزلة الرقيق ، بل ان هذه الشريعة لتتيح للوالد المعسر أن يبيع ابنته بيع الرقيق لقاء ثمن يفرج به أزمته .

وكذلك كان الشأن عنــد قــدامى اليونــان والرومــان حتــى فى ازهــى عصورهــم وادناها الى النظام الديموقراطى ، فالقـانون الرومانى يجرد المراة الرومانية نفسها من معظم حقوقها المدنية ويضعها قبل زواجها تحت سيطرة رئيس الاسرة ، الذى قد يكــون اباها او جدها لابيها ، وتعطيه هذه السيطرة كافة الحقوق عليها حتى حق الحياة او الموت ، وحق اخراجهــا من الاسرة وبيعهــا بيع الــرقيق . وبعــد زواجها واعتراف الزوج بها تصبــح فى نظــر القــانون الرومانى بمثابة بنت من بنات الزوج ويحل زوجها محل ابيها او جدها لابيها فى كافة الحقوق السابق ذكــرها .

ولا يقتصر القانون اليونانى على تجريد المراة اليونانية من معظم حقوقها المدنية ووضعها تحت السيطرة المطلقة للرجل فى مختلف مراحل حياتها، بل انه ليعتبرها هى نفسها من « ممتلكات » ولى امرها قبل زواجها ومن « ممتلكات » زوجها بعد زواجها ، ولا يميزها فى الحالة الاخيرة الا بمميزات تافهة عن ملك يمينه من الجوارى والسريات .

بل ان هذه المنزلة من المساواة التى تــررها الاسلام بين الرجل والمراة فى الحقوق المــدنية لم تصل الى مثلها احدث القوانين فى ارقى الامم الديموقراطية الحديثة . فحالة المراة المتــزوجة فى فرنسا مثلا كانت الى عهد قريب اشبه شىء بحالة الرق المدنى ، فقد جــردها القــانون من معظم حقوقها المدنية كما كــانت تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المــائتين من القانون المدنى الفرنسى اذ تقرر : « ان المراة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائما على اساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تبيع ولا أن تهب ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو بغير عوض وبدون اشتراك زوجها فى العقد او موافقته عليه موافقة كتابية » ، ومع ما ادخل على هذه المادة فيما بعد من قيود وتعديلات فان آثارها لا تزال عالقة بوضع المراة الفرنسيــة المتزوجة من الناحية القانونية الى الوقت الحاضر، ولتوكيد هذا الرق المدنى الذى فرضتــه الشعوب الغربية على المراة المتزوجة تقــرر قوانين هذه الشعوب ويقتضى عرفها ا نالمراة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم اسرتها ، فــلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها واسم اسرته ، وفقدان المراة الغربية لاسمها واســم اسرتها وحملها لاسم زوجها واسم اسرته ، كل ذلك يرمز الى اهدار شخصيتها المدنية واندماجها فى شخصية الزوج ، يرمز الى ان الزوج قد اصبح

هو المثل لها فى جميع الشؤون ، على حين ان الاسلام يحيط الشخصية المدنية للمراة المتزوجة بسياج من الحماية والاحترام ، فيحتفظ لها باسمها واسم أسرتها ولا يحملها اسم زوجها ولا اسم اسرته مهما كانت مكانة هذا الزوج ، فزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام انفسهن كن يسمين باسمائهن واسماء آبائهن فكان يقال « عائشة بنت ابى بكر » « وحفصة بنت عمر » ولم تحمل واحدة منهن اسم زوجها ، مع أنهن كن زوجات لخير خلق الله ، واحتفاظ المراة المسلمة المتزوجة باسمها واسم اسرتها وعدم حملها اسم زوجها كل ذلك يدل على احتفاظها بشخصيتها وعدم ذوبانها فى شخصية الزوج ، ومن الغريب ان كثيرا من سيداتنا العربيات المسلمات يحاولن ان يتشبهن بالغربيات ، حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لانفسهن هذه المنزلة الوضيعة ، فتسمى الواحدة منهن نفسها باسم زوجها ، او تتبع اسمها باسم زوجها بدلا من ان تتبعه باسم ابيها واسرتها ، كما هو النظام الاسلامى ، وهذا هو اقصى ما يمكن ان تصل اليه المحاكاة العمياء ،

وكما سوى الاسلام بين الرجل والمراة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء وفى الحقوق المدنية بكافة أنواعها ، فقد سوى بينهما كذلك فى حق التعلم والثقافة، فأعطى المراة الحقوق نفسها التى اعطاها الرجل فى هذه الشؤون ، وأباح لها ان تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وادب وثقافة وتربية ، وقد ذكر لكم الاخ مولود قاسم فى محاضرة الصباح نصوصا كبيرة عن المجاهد الكبير عبد الحميد بن باديس فى هذا الموضوع ، نصوصا تدل على أن الاسلام لا يفرق بين الرجل والمراة فى حق التعلم والثقافة ، واضيف أنا الى ما قاله فى هذا الصدد أن الاسلام لم يكتف باباحة التعلم والثقافة وبالمساواة بينها وبين الرجل فى هذا الحقل ؛ بل انه ليوجب عليها التعلم والثقافة فى الحدوداللازمة لشؤون دينها وحسن قيامها باعبائها فى الحياة ، ولقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ،

وقد ضرب الرسول عليه الصلاة والسلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المراة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة بنت عمر أم المؤمنين فقد ذكر البلاذرى فى كتابه فتوح البلدان . أن الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى رهط عمر بن الخطاب كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات القراءة والكتابة ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالنبىء عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها النبى (ص) طلب الى الشفاء العدوية أن تتابع تعليمها وتثقيفها وان تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها اصول الكتابة ، وتدلنا شواهد تاريخية كثيرة أن ابواب التعلم والثقافة كانت مفتحة على مصاريعها للمراة المسلمة فى جميع عصور الاسلام الزاهية فى عصر الرسول (ص) وعصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى امية وعصر بنى العباس ، وانه بفضل ذلك نبغ عدد كثير من النساء العربيات والمسلمات وبرزن فى علوم القرآن والسنة والفقه والادب واللغة وشتى انواع المعارف والفنون ، بل لقد كان منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الاسلام،فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة نفيسة صاحبة المقام المعروف فى مصر كان لها بمصر مجلس علم شهده الامام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه الحديث ، وذكر ابو حيان من بين اساتذته ثلاثا من النساء درس عليهن واخذ عنهن العلم ، هن مؤنسة الايوبية بنت الملك العادل اخى صلاح الدين الايوبى وشامية التيمية وزينب البغدادية بنت الرحالة الطبيب المؤرخ الكبير عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر بعد موت صلاح الدين الايوبى وكتب عن أحوال مصر كتابا جعل عنوانه (الافادة والاعتبار فى احوال مصر) .

ويظهر سمو هذه المبادىء التى سنها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين المراة والرجل فى حق الثقافة والتعلم بالموازنة بينها وبين الشرائع السابقة للاسلام ، فقوانين أثينا نفسها التى يعدونها من ارقى القوانين فى العصور القديمة وادناها الى النظام الديموقراطى ما كانت تتيح فرصا للتعلم والثقافة الا للذكور الاحرار من المواطنين ، بينما كانت توصدها ايصادا تاما فى وجه النساء ، وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه كبير

فلاسفتهم « أرسطو » وصاغها فى صورة نظرية علمية اذ يقول فى كتابه « السياسة » ان الطبيعة لم تزود المراة بـأى استعداد عقـلى يعتد به ، ولذلك يجب ان تقتصر تربيتها على شؤون التدبير المنزلى والامومة والحضانة وما الى ذلك ، ولم يكن ارسطو فى ذلك معبرا عن رايه الشخصى وانما كان مترجما لنظام كان يجرى عليه العمل فى اثينا التى يعدونها كما قلت لكم من ارقى الامم فى النظام الديموقراطى فى العصور القديمة ، ولذلك لما نادى استاذه افلاطون فى كتابه « الجمهورية » بوجوب المساواة بين الرجل والمراة فى حق التعلم والثقافة وفى حق الانتخاب كانت اراؤه هذه موضع سخرية وازدراء من جميع مفكرى اثينا وفلاسفتها وشعرائها ، حتى ان ارستوفان عميد شعـراء الكوميديا فى ذلك العصر قد وضع تمثيليتين كاملتين وقفهما على السخرية بآراء افلاطون والتهكم بها . وهما : « برلمان النساء » و « بلوكوس » .

بل لقد ظلت الامم الاوربية الحديثـة نفسها تنكر على المراة حق التعلم والثقافة حـتى القرن التاسع عشر الميلادى ، وقد عبر عن ذلك اصدق تعبير فى منتصف القرن السـابع عشر الميلادى شاعر فرنسا موليير اذ يقول فى مسرحيته التى جعل عنوانها « النساء المتحذلقات » على لسان احد ابطالها ، « انه لا يليق بامراة لعدة اعتبارات أن تضيع وقتها فى التعلم والثقافة ، فوظـائفها الاساسية التى ينبغى أن تستـأثر بكل جهودها وفلسفتها لا تتجـاوز تربيـة الاولاد ، وشؤون التدبير المنزلى ، والسهر على حاجة افراد الاسرة الاقتصاد فى نفقات البيت » .

وفى اواخر القرن السابع عشر الميلادى ظهرت اصوات ضعيفة تنـادى بتعليم المـراة فى حدود ضيقة كل الضيق ، وكان على راس المنادين بذلك العلامة الفرنسى « فنلون » فى كتابه الذى ظهر فى اواخر القرن السابع عشر تحت عنوان (تربية البنات) ، ولكن هذه الاصوات — مع شـدة تحفظها وتواضعها فيمـا نادت بـه — لـم تلق استجابة يعتد بها من معظم الامم الاوربية فى ذلك العـهد .

بل لقد ظلت التيارات المعادية لتعليم المـراة مسيطرة على اوروبا الحديثة حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، واليكم مثلا عاهل بروسيا بسمارك الذى حدد للمراة الالمانية — كما أشار الى ذلك معالى الاخ مولود قاسم فى الكلمة التى القاها صباح اليوم — حدد للمراة الالمانية ثلاث مجالات لنشاطها لا تخـرج عنها ، وهى : تربية اطفالها ، وشؤون مطبخها ، واداء شعـائرها الدينية فى الكنيسـة .

ومن هذا يظهـر أن الاسـلام — على عكس الشرائع السابقة واللاحقة له — قد هيأ للنساء فرصا كثيرة لا للتعليم العادى بل كذلك للثقافة العالية ، ويظهر كذلك ان الجهـالة التى كانت متفشية بين النساء المسلمات فى الاجيال السابقة لا يرجع سببها الى النظم التربوية فى الاسلام ، وانما مردها الى انحراف المسلمين عن النـظم القويمة التى سنها الاسلام فى شـؤون التربية والتعليم ، واذا كانت الامم الاسلامية والعربية قد اخذت فى العهد الحاضر تتجه ، الى تعليم المراة وتثقيفها فانها بذلك لم تأت بدعا من العمل ، وانما احيت سنة صالحة قويمة سنها الرسـول عليه الصلاة والسلام نفسه وسار عليها اجيال كثيرة من بعده من المسلمين .

وكما سـوى الاسلام بين الـرجل والمراة فى القيمة الانسانية المشتركة وفى شؤون المسؤولية والجزاء وفى الحقوق المدنيـة وفى حق الثقـافة والتعلم سوى بينهما كذلك فى حق العمل ، فأباح للمراة ان تضطلع بالوظائف والاعمال التى تحسن اداءها ولا تتناقض مع طبيعتها ، ولم يقيد هذا الحق الا بما يحفظ للمراة كرامتها ويصونها عن التبذل وينأى بها عن كل ما يتنافى مع الخـلق الكريم ، فاشترط الاسلام اذا كانت المراة تؤدى عملا فى خارج منزلها ، أن تؤديه فى وقار وحشمة، وفى صورة بعيدة عن مظان الفتنة ، وان لا يكون فى عملها هذا ما يؤدى الى ضرر اجتمـاعى أو خلقى ، أو ما يعوقها عن تأدية واجبها نحو بيتها وزوجها واولادها ، أو يحملها ما لا طاقة لها به ، وان لا تخرج فى زيها وزينتها وسترها لاعضـاء جسمها واختلاطها بغيرها من الرجال أن لا تخرج فى هذا كله عن الاوضاع التى سنها الاسلام فى هذا الصدد ، هذا هو كل ما قيد به الاسلام حق العمل للمراة ، وهذه القيود منصبة على ما تؤديه المراة من عمل فى خارج بيتها ، وقد كانت النساء

فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام يقمن بكثير من الاعمال فى داخل بيوتهن وفى خارجها ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقرهن على ذلك ، واليكم مثلا اسماء بنت ابى بكر الصديق وهى اخت عائشة ام المؤمنين ، وزوجة الزبير حوارى الرسول عليه السلام وابن عمته ، كانت تؤدى جميع الاعمال اللازمة لبيتها وزوجها وانعامها فى داخل بيتها وفى خارجه لا تستنكف عن شىء من ذلك ، وهى نفسها تقول : « كنت اخدم الزبير خدمة البيت كله وكنت اسوس فرسه ، واعلفه ، واحتس له ، وكنت احرز الدلو ، واسقى الماء ، واحمل النوى على راسى من ارض له على ثلثى فرسخ » ، بل لقد اضطلعت المراة المسلمة ببعض شؤون الحرب فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ومن بعده ، فلم تخل غزوة من غزوات الرسول عليه السلام من نساء يقمن بمساعدة المحاربين واعمال الاسعاف للجرحى ، ومن بين هؤلاء من سجل لهن التاريخ مواقف بطولة مجيدة كالسيدة امية بنت قيس الغفارية التى اكبر الرسول عليه الصلاة والسلام حسن بلائها فى غزوة خيبر فقلدها قلادة تشبه الاوسمة الحربية فى هذا العصر ، وظلت هذه القلادة تزين صدرها مدة حياتها ولما دفنت دفنت معها عملا بوصيتها .

ويظهر ايها السادة سمو هذه المبادىء التى قررها الاسلام فيما يتعلق بالمساواة بين المراة والرجل فى حق العمل ، يظهر سموها بالموازنة بينها وبين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور القديمة بل بين كثير من المبادىء التى كانت مقررة فى العصور الوسطى والحديثة ، وقد ذكر معالى الاخ مولود قاسم بعض امثلة وبعض نصوص جاءت على السنة قواد ومصلحين وقادة يقولون فيها ان المراة لا ينبغى لها من الاعمال الا الاعمال التى هى فى داخل البيت او فى داخل الكنيسة او فى داخل المطبخ .

هذه ايها السادة هى اهم وجوه المساواة التى قررها الاسلام بين المراة والرجل : مساواة فى القيمة الانسانية المشتركة، ومساواة فى المسؤولية والجزاء ، ومساواة فى الحقوق المدنية ، بمختلف انواعها ، ومساواة فى حق التعلم والثقافة ، ومساواة فى حق مزاولة العمل ، وهذه هى اهم وجوه المساواة فى الحياة .

ولا يفرق الاسلام بين الرجل والمراة الا حيث تدعو الى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له او حيث تدعو الى هذه التفرقة مراعاة الصالح العام وصالح الاسرة وصالح المراة نفسها واليكم مثلا تفرقة الاسلام بين الرجل والمراة فى الميراث اذ يقرر ان المراة لها فى معظم الاحوال نصف نصيب الرجل المساوى لها فى القرابة ، فقد بنيت هذه التفرقة على اساس اقتصادى سليم ، بنيت على اساس التفرقة بين اعباء الرجل فى الحياة واعباء المراة وذلك ان مسؤولية الرجل فى الحياة أوسع كثيرا فى مسؤولية المراة واعباؤه فيها اشق واثقل كثيرا من اعباء المراة ، فالرجل هو رب الاسرة وهو القوام عليها والمكلف الانفاق على جميع افرادها ، على حين ان المراة لا يكلفها الاسلام حتى الانفاق على نفسها ،فنفقتها واجبة على ابيها او ولى امرها مادامت غير متزوجة ونفقتها ونفقة بيتها واولادها واجبة على زوجها بعد زوجها ، لا فرق فى ذلك بين ان تكون موسرة او معسرة ، فاقتضت العدالة اذن ان يكون نصيب الرجل من الميراث اكبر من نصيب المراة حتى يكون فى ذلك ما يعينه عن القيام بهذه الاعباء الثقيلة التى وضعها الاسلام على كاهله ، واعفى منها المراة رحمة بها وحدبا عليها وحفاظا على سعادة الاسرة ، بل ان الاسلام قد بالغ فى رعايته للمراة اذ قرر لها نصف نصيب نظيرها من الرجال فى الميراث مع اعفائه اياها من جميع الاعباء ، ووضعها جميعها على كاهل الرجل .

وقبل ان اختم كلمتى هذه ، اريد ان اعقب تعقيبا يسيرا على الكلمة القيمة البليغة التى القاها فى افتتاح هذا الموسم صديقى معالى الاستاذ مولود قاسم فيما يتعلق بزواج المسلمين من الاجنبيات ، فقد ذكر سيادته أن هذا الزواج مباح فى الاسلام ولكن على الرغم من انه مباح ومن انه حلال فانه يتنافى مع واجب قومى ، وانا اعقب على هذا بان زواج المسلم بالنصرانية او اليهودية ليس مباحا فى جميع المذاهب الاسلامية بل ان هناك مذاهب اسلامية صحيحة تحرم زواج المسلم بالنصرانية واليهودية ، وهذا هو مذهب الامام جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن على زين العابدين ابن الحسين رضى الله عنه الذى كان استاذا لابى حنيفة وهو المذهب الذى يسير عليه الان نحو خمسين مليونا من المسلمين .

اقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، واساله لى ولكم الهداية والتوفيق .

دراسة تحليلية نقدية لكتاب :

" تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب "

لقبال موسى

اتحفنا الاستاذ الجليل محمدالعروسى المطوى بتحقيق اثر عربى هام ، هو « تحفة المحبين والاصحاب فى معرفة ما للمدنيين من الانساب » لمؤلفه عبدالرحمن الانصارى(١) كما قدم للمكتبة العربية ،وللمهتمين بالانساب ، وبالطبقات ، وبالدراسات التاريخية ، وللمختصين فى فترة الحكم العثمانى للحجاز ،مصدرا اساسيا لاغنى لاى باحث عنه خاصة فى الفترةالتى سبقت بيسير عصر المؤلف او عاصرها وسجل احداثها .

وقد اكتفى الاستاذ المطوى،بمقدمة مختصرة ، ومعبرة عن الاهمية الخاصة لهذا النص الجديد ، ولتواضعه الجم ، ترك للباحثين مهمة القاءالاضواء الكاشفة حوله ، كما طلب منهم ان يمدوه بما يعن لهم من آراء وملاحظات قد تفيد فى بعض جوانب من النص .

ومن يتتبع مقدمة المحقق ، يلاحظ انه امضى فى العناية بتحقيقه واخراجه مدة ست سنوات ، وهى مدة ان كانت طويلة نسبيا ، فقد املتها فيما يبدو لى طريقة الاستاذ المطوى ، القائمة على التمهل ، والتمحيص ، والتدقيق . وبفضلها ظهر الكتاب فى صورة مشرفة ومناسبة ، من حيث الشكل والمضمون .

والذى يلفت النظر حقا ، هو مدى سيطرة الاستاذ على منهجه فى التحقيق ، فهو لا ينساق وراء التعاليق الفضفاضة ، والهوامش الطويلة التى تغرق النص الاصلى حتى يبدو بسبب طولها وتشعبها متضائلا ، كما انه لا يهتم كثيرا بالشرح اللغوى للكلمات ، لانه يثقل جو النص ، بقدر اهتمامه بتوفير جانب كبير من تحقيقاته اللطيفة لشرح الكلمات الفنية ، والمصطلحات الخاصة . اما فى ناحية التعريف ، بالاشخاص ، وبالاماكن فيكتفى باللمح ، او بالاحالة على المصادر والمراجع كما هى عادة الباحثين المحققين .

وقد لخص الاستاذ المطوى اهمية الكتاب بعبارة وجيزة وجامعة عندما لاحظ « انه ليس مجرد كتاب انساب فقط . . بل هو يصور مجتمع المدينة المنورة فى القرن ١٢ هـ فى مختلف اوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية » لكنه ضن علينا هذه المرة بنظرة علمية تحليلية مفصلة لمحتوى الكتاب ، ويبدو لى ان هذه النظرة ينبغى ان تكون على اساس ما يستفاد من الكتاب عن :

ـ طريقة حكم الحجاز (خاصة الحرمين الشريفين وثغرى ينبع وجدة) ، ونوع حكامه وجنسياتهم فى العصر العثمانى ، وفى القرن ١٢ هـ / ١٨ م بنوع اخص .

ـ عن القوميات المختلفة التى استقرت فى المدينة ، واهمية كل منها ، فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ـ عن نشاط حركة الهجرة الخارجية الاسلامية الى الحرمين ، والى اى حد استفاد سكانهما من المهاجرين ، الذين اصبحوا « مجاورين » ؟

ـ عن ملامح المجتمع الجديد فى المدينة المنورة، والى اى حد كان الانسجام والتعاون بين طوائفه التى فرقت بينها اعتبارات كثيرة ، وجمع بينها الاسلام ، والمجاورة ؟

ـ عن دور طائفة المغاربة فى الادارة وفى الجيش العثمانى فى الحجاز .

ـ عن نوع الاسر المغربية التى هاجرت الى المدينة، وعن ظروف هجرتها ، وكيفيتها ، وحجمها والى اى حد كانت هذه الاسر فى مهجرها الجديد ايجابية ومفيدة للمجتمع ، ومندمجة فى اطاره . ؟

ويلاحظ ان تنوع نشاط الاسر المغربية ، وانسجام حكام الحجاز العثمانيين مع كثير من رجالات المغاربة ، وهو الانسجام الذى ترجع اصوله الى ظروف التدخل العثمانى فى بلاد المغرب العربى ، والى نظرة المغاربة الى الاتراك العثمانيين ، كاخوة وكحماة للاسلام والمسلمين ، لا كمستعمرين ــ هيا لطائفة المغاربة مركزا ممتازا فى الباشوية ، وتقديرا لدى طوائف السكان .

وقد تمكن كثير منهم من احتلال مناصب ادارية ودينية كبرى ، منها : ولاية الحسبة ، وامانة ثغر ينبع ، ووظيفة الكتابة ، وخطط الافتاء المالكى ، والخطابة ، والامامة فى المسجد النبوى ، والاشراف على الحجرة المطهرة ، الى جانب مشيخة طائفة المغاربة والاشراف على الاوقاف الخاصة بهم ، والخدمة فى الجيش . وفى مجال النشاط الحر ، كان منهم التجار ، والصناع ، والزراع ، والمعلمون . ومعنى ذلك كله أن وجود طائفة المغاربة فى المدينة كان مفيدا من الناحية الاقتصادية والثقافية والادارية ، ووسيلة لبعث الازدهار والرفاهية فى مجتمع المدينة .

وفى اكثر من مكان ، يشير المؤلف ، الى هذا المعنى معتمدا على تجاربه الشخصية معهم ،

ومعرفة السابقة بكثير من عناصرهم ، وقد أوضح ان بعضهم كان يجاوره فى السكن (٤٦٩ — ٤٧٠) وارتبط ببعضهم بروابط الصداقة والمعاصرة ، والنشأة الاولى ، او جمعت بينهما حلقات الدراسة فى المسجد النبوى .

وكم كنت اود ان تكون ملاحظات المؤلف عن علاقات بعض الاسر المغربية بأسرته ، فى مكانها اللائق بها فى اطار مقدمة المحقق ، وذلك لاهميتها فى توضيح جانب من العلاقة بين عناصر من مجتمع المدينة الاصيل ، وبين عناصر طارئة اختارت الحياة فى اطاره ، سواء كانت مغربية او غير مغربية (١) ومن تتبع ما جاء فى النص ، حول هذا المعنى ، نلاحظ ان المؤلف ، يقول ، اثناء الحديث عن اسرة ابن عبد الله الفاسى : (وبيننا وبينه صحبة ومحبة من الصغر الى الكبر ، لم يشبها شىء من الكدر) (٣٦٤) ، ويكرر مثل هذه العبارة مع بيت الدقاق (٢٢٣) ومع بيت الدرعى (٢٢٤) ، وبيت الغزوانى (٣٧٧ — ٣٧٨) وبيت الحريشى (١٨١) ، ويذكر بصدد الحديث عن جيرانه فى حارة الاغوات وهم من اسرة مولاى المغربية ، انهم «كانوا فى غاية الصلاح والعبادة، وبلغوا الحسنى وزيادة » (٣٦٩ — ٤٧٠) وكان عميد اسرة ابن الطيب الفاسية صاحب ثروة ، وعالما جليلا ، وعندما انتصب للتدريس ، حضر المؤلف دروسه فاستفاد منه (٣٣٥ — ٣٣٦) ، كما استفاد من الشيخ على الحريشى المغربى الذى وصفه بقوله : « شيخنا العلامة على الحريشى شارح الشفاء والشمائل وغيرهما (١٨٢) كما وصف جاره محمد العياشى المغربى بقوله : « شيخنا وبركتنا الولى الشهير والقطب الكبير » (٣٦٧) . وعن اسرة قنتو ، يشير المؤلف الى ان رئيسها عليا ، برغم فقره ، كان يتمتع بحظوة كبرى عند ولاة المدينة العثمانيين ، وبسبب ذلك كثر ماله ، واتسعت احواله » ، (٣٨٧ — ٣٨٨) .

ومن بعض الاشارات التى وردت فى النص ، يتضح انه كان لطائفة المغاربة فى المدينة المنورة اوقاف كثيرة تفى بحاجتهم ، وتغنيهم عن الكسب غير المشروع (٢) ومعنى ذلك ان فقراء المغاربة لم يكونوا عبء على المجتمع فى المدينة ، اما اغنياؤهم فكانوا عناصر ايجابية ومنتجة ، وسببا فى بعض الرخاء والنشاط . ومما حفل به النص ، يتضح لنا ان الاسر المغربية التى كان لها دور فى انعاش الحياة الاقتصادية فى المدينة ، وفى الحجاز عامة منها :

— اسرة السلاوى (٢٩٥) التى كان عبد السلام منها ، (صاحب اموال كثيرة ، ويتعاطى البيع والشراء ، ويسافر الى جدة المعمورة للتجارة) ثم

— اسرة الطالب السوسى وكان رئيسها احمد صاحب ثروة ونشاط تجارى (٣٤٠) وكان له من عقبه « العابد » الذى اهتم بالفلاحة ، وزراعة النخيل (٣٤١) ثم

— اسرة ابن عبد الله الفاسى ، وكان عميدها ، محمد بن عبد الله ، عالما جليلا ، انتصب للتدريس فى الروضة الشريفة فاستفاد منه المؤلف ، كما اصبح ابنه محمد ، صاحب ثروة كبرى بسبب اهتمامه بتجارة الحبوب ، كما انتصب للتدريس فى الروضة مثل ابيه ، واشتهر بارتفاع ، مستوى اخلاقه ، وحسن ادائه للقرآن الكريم (٣٦٤) ثم

— اسرة الغزوانى المراكشى ، وكان رئيسها محمد تاجرا فى القماش ، وعبد الرحمن منها ، عمل فى الجيش ، وولى الحسبة ، وامانة ثغر ينبع ، اما محمد وعبد الله ، اللذان كانا معاصرين للمؤلف فقد اهتما بصناعة الزجاج (٣٧٧ ، ٣٧٨)

— اسرة القبيطى — وقد كان عميدها الحاج عربى — تاجر قماش ايضا ، ومثله ابنه عبد الخالق اما حفيده العربى ، فتقلب بين الخدمة فى الجيش بوصفه جوربجيا (٣) كما ولى خطة الحسبة ، وامانة ثغر ينبع ، اما أخوه غذيب فتقلد خطة الحسبة وخدم فى الجيش ، غير ان نهايته كانت سيئة اذا امتحن واخرج من المدينة وسجن بالتنفذة مدة ثم سرح وعفى عنه . ويبدو ان احدى سيدات هذه الاسرة — وهى فاطمة —

اصبحت زوجة للمؤلف الذى عبر عن نفسه بلقب « الحقير » تواضعا . (٣٩٧ — ٣٩٨) .

— اسرة قصارة وعرف رئيسها ، عبد اللـــه بالثروة الطائلة التى اشترى بهـــا ، ممتلكـــات عقارية ، ونخيلا اوقفها على أولاده ، ثم تؤول من بعدهم الى خطباء الحرمين وائمته (٣٩٨) .

— اسرة ميارة — وكان محمد بن عبد اللـــه الفاسى ، راس هذه الاسرة على حظ كبير من الثـــروة ، بسبب نشاطه التجارى ، لا سيمـــا تجارة القماش فى دكان يملكه فى باب « الحدرة »، كما كان على مستوى اخلاقى رفيع ، حتى وصفه المؤلف بأنه « كان من احسن المجاورين » (٤٢٩)

— اسرة المشاط — وكان رئيسها — عربى — من أصحاب الثراء ، ولكنه كان بـــادى الفقـــر ويعيش عيشة التقشف ، ومن اولاده من اهتـــم بالتجارة وسافر من اجل ذلك الى مصر ، ولـــا لم يوفق فى ذلك ، اتجه نحو الفلاحة ، فكان الفشل نصيبه ايضا ، ويعقب المؤلف على عدم توفيقه ، تعليقا نتبين منه تعاطفه معه وتأثره لحاله « وكل ذلك من قلة الحظ ، وعلى الحظ لا عليه الملام » (٤٣٧) .

وقد وجد من غير هذه الاسر افراد آخرون ، كانت لهم نشاطات ادارية ودينية ومن ذلك ، ان محمدا من اسرة الخالدى المغربية ، باشر بمكة الخطابة والامامة والافتاء المالكى ، ثم فارقها الى المدينة خوفا من شريفها بسبب دعوى اقيمت عليه (٢١٦) ومثله محمد ، من اسرة مولاى فقد حصر اهتمامه فى تحصيل العلم ، وتدريس صحيح البخارى فى المسجد النبوى اثر صلاة العصر ، كما اوقف حديثه « العريضية الخواجية » لسد حاجة من يقومون بقراءة البخارى فى المسجـــد النبوى ، وكان اخوه احمد يهتم بالصياغة ، ثـــم ابتسم له الحظ عندما صار مستحفظا على بيت مال الاسباهية ، ثم جوربجيا ايضـــا (٤٦٩ — ٤٧٠) ، وكان محمد بن الطيب ، العالم بأسرار العربية ، والمؤلف القدير ، رحالة يتنقل بـــين مصر ، والشام ، وبلاد الروم ، والحجاز ، مـــن اجل التجارة ، فلما حصلت عنده اموال كثيرة استقر فى المدينة ، وورث ابنه محمـــد مكى ، طريقته فى الرحلة ، من اجل التجارة ، حتى اثرى وتوصل الى احتلال مناصب رفيعة فى المدينـــة المنورة ، منها نيابة القاضى ، والخطابة والامامة ويلاحظ انه كان من معاصرى المؤلف ، ومـــن الذين جمعتهم حلقات الدراسة على والده محمدبن الطيب ، (٣٣٥ — ٣٣٦) .

ومن اشارات المؤلف ، يظهر ان اسرة احمد المغيربى التونسية حازت مكانة رفيعة فى المدينة المنورة فمحمد سعيد منها عمل فى الجيش ، فصار جوربجيا غير ان اهتمامه بصناعة الكيمياء ، كان سببا فى ضياع امواله حتى صار مفلسا . وقد انخرط ابنه من بعده لفترة مؤقتـــة ، فى اوجـــاق النوبتجية كما ولى الحسبة ، ثم عين كتخدا القلعة السلطانية بالمدينة ، ثم عزل واخرج الى الشام (٤٦٨ — ٤٦٩) اما عبد العزيز ابن عبد اللطيف التمتام التونسى فيبدو إنه كان من اصحاب الثراء الذى مكنه من شراء دارين بزقاق التمتام بخط الحدرة بالمدينة ، اوقفهما على ابنائه ، على ان تؤولا من بعدهم الى طائفة المغاربة (١٣٣) .

وكان احمد بن عبد الرحمن جسوس المغربى ، ايضا من اصحاب الثراء ومن الذين عاشـــوا فى المدينة فى ترف وسعة ، وقد اشترى ايضا دارين بخط زقاق الطوال ، واتخذهما سكنا له ، فلما توفى اضطر ابنه عبد الرحمن لبيع الدارين بسبب كثرة عياله ، وقلة حظه فى التجارة ومن بـــين الاسرات المغربية التى كان لها دور فى الحيـــاة العسكرية فى المدينة بيت الجزائـــرى ، وكـــان رئيسها : خليل بن محمد ، وهو أول مـــن قـــدم المدينة المنورة سنـــة (١٠٨٠) هـ / ١٦٦٩ م) « كاملا عاقلا » وقد اعقب اولادا ، منهم محمد ، الذى عاصر المؤلف وولى وظيفة الكتخـــدا ، فى القلعة السلطانية بالمدينة ، ثم اخوه خليل الذى كان جوربجيا فى نفس القلعة ، وحامت حولـــه شبهة تزييف العملة الرسمية ، فنفاه ايوب اغا شيخ الحرم (٤) من المدينة لكن ابنه احمـــد ، توصل الى الانخراط فى الجيش واصبح ضمـــن اوجاق القلعة السلطانية .

ويبدو ان الخدمة في الجيش ، والمسؤوليات التي تولاها رجال هذه الاسرة ، درت عليهم اموالا كثيرة ، استغلوها في شراء الممتلكات العقارية ، اذ كانت لهم في المدينة اوقاف كثيرة كانت توزع ايراداتها عليهم في كل سنة (١٥٤) .

واما بيت العنابي — فكان رئيسها على الذى قدم ، الى المدينة المنورة (١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م) « صالحا فقيها يعلم الصبيان القرآن » ، كما لاحظ المؤلف انه كان حسن الهيئة وملازما للمسجد غالب الاوقات وسار ابنه على طريقته في الاهتمام بالقرآن ، وبمظهره ، وكان الى ذلك ، قد نشأ نشأة صالحة مثل ابيه . (٣٧١) .

ومما ذكره المؤلف في اكثر من مكان ، نفهم ، ان البيوتات المغربية كانت كثيرة بدرجة ان السلطة العثمانية في الحجاز ، اهتمت بمشاكلها هتماما خاصا ، وجعلت لها مشيخة خاصة اسندتها الى عناصر مغربية . وكانت الاوقات ايضا كثيرة وتنال رعاية خاصة من السلطة ، اذ اقامت لها نظارا مختصين من بين المغاربة ايضا (٢٢٣) ومع ذلك ، فيلاحظ ان الاسر المهاجرة من اقطار المغرب لم تعدم من بينها ، بعض العناصر القليلة التي عرفت بتهالكها على الدنيا ، وعلى طلب الاموال من كل وجه ، والمثل على ذلك ، فيما سجله المؤلف عن افراد بيت المحمودى من عرب درعة في صحراء المغرب الاقصى الذين اتصفوا بالحرص على جمع الاموال وشحوا حتى على انفسهم ، فلم يهتموا بمظهرهم ولا بآراء الناس فيهم . (٤٤٤ — ٤٤٥) وقد اشار المؤلف الى احدهم بقوله « فهو بجمع المال مشهور اذا رآه الرائي يظنه مقطوعا مكسورا وكف بصره في آخر عمره . فطلب منه الطبيب شيئا ، ليداويه فأبى الا الحالة التي هو فيها » .

وعلى كثرة الاسر المغربية المجاورة فالذى يلاحظ ان اغلبيتها الساحقة من المغرب الاقصى ، لان الهجرة من هذا البلد ، وحسب اشارة المؤلف — كانت لا تقتصر على فرد واحد بل تأخذ احيانا شكلا عاما ، فيصطحب المهاجر معه ، اولاده واهله (١٣٥) .

اما اقلها فكانت تنتمى اما الى المغرب الاوسط ، « الجزائر » ، مثل بيت العنابى ، وبيت الجزائرى ، او الى تونس ، مثل بيت المغيربى وبيت التمتام ، او الى طرابلس ، مثل بيت التاجورى .

ويبدو اخيرا ان ظاهرة هجرة المغاربة الى الحرمين الشريفين مازالت ملحوظة ونشيطة ، وتتم بطرق مختلفة، ولا تقتصر على الاغنياء فقط ، لان الاحساس الدينى، والارتباط الروحى بالعتبات المقدسة ، والرغبة في المجاورة لقبر الرسول الاعظم (صلى الله عليه وسلم) امور يشترك فيها جمهور المسلمين في بلاد المغرب العربى . ويعتبر بعض الحجاج ، لا سيما ، الطاعنون في السن منهم ان لقاءهم ربهم في الارض المقدسة بعد اداء واجبهم الدينى شارة على السعادة واليمن ، والرضا الالهى .

— واذا تجاوزنا هذه الاعتبارات الهامة التي يجب أن تحظى بعناية الباحثين المختصين في المستقبل ، فان الاستاذ المحقق ، لم يشر في مقدمته اللطيفة ، الى عدد اوراق كل نسخة من النسختين اللتين اعتمد عليهما في التحقيق ، وقد عرفنا من الترقيم الخاص الذى وضعه في الكتاب ان مجموع اوراق النسخة التي فضلها على غيرها ، واعتبرها قريبة من الاصل بلغ (٢٢٩ ورقة) .

كما اننا لم نستطع من خلال المقدمة ، ان نتعرف (على ناسخ المخطوطة الثانية (هـ) ، ولا على نوعية خطها ، وبالعكس ، اشار المحقق الى ناسخ المخطوطة الاولى (ت) والى نوع خطها ووصفها بأنها « مشرقة النسخ » ويبدو انه قصد « مشرقية النسخ » غير ان تسرب الخطأ المطبعي الى الكلمة ، اوهم ان يكون المقصود منها الاشراق والجودة . وعلى قصر المقدمة ، مع شدة تعبيرها على جوهر الموضوع ، يلاحظ ان المحقق ، سلك في ترقيمها مسلكا جديدا لا يخلو من الطرافة وذلك لعدم شيوعه (مثلا : يا = ١١ ، يج = ١٣) ، لان الشائع الاستمرار مع بقية الاحرف الاخرى

حسب قيمتها العددية فى حساب الجمل فمثلا : هناك بعد الياء (ك ـ ل ـ م ـ الخ) .

وجرت عادة المشتغلين بتحقيق النصوص القديمة ان يميزوا بين المخطوط والمطبوع فيشيروا الى الاول ، بمصطلح : الورقات ، والى الثانى بمصطلح الصفحات (انظر مثلا (ص يج من المقدمة) . كذلك لا يكفى مجرد اشعار القارىء ، فقط عند الانتقال من ورقة الى اخرى ، مثلما فعل المحقق ، وربما كان مضطرا الى ذلك ، (حسب طبيعة كتابة المخطوط) وانما ينبغى ايضا اشعار القارىء حتى عند الانتقال من وجه الورقة ، الى ظهرها .

اما بالنسبة للتواريخ التى حفل بها الكتاب ، فكان يستحسن ، عدم اهمال العلامة المميزة للتاريخ الهجرى (هـ) حتى لا يختلط الامر على القارىء ، ورغم ان الكتاب كله قد اسس على التاريخ الهجرى ، فان الانسب الاشارة احيانا الى مايوافق ذلك فى التاريخ الميلادى ، تيسيرا على الباحثين .ولا يقتضى ذلك غير الرجوع الى الجداول المطبوعة التى وضعها بعض الباحثين امثال (وستنفلد . (٥) وغيره (٦) .

واذكر بهذه المناسبة اننى كثيرا ما كنت احتاج الى وقفة يسيرة وانا اتصفح الكتاب ، لكى اتذكر ، اننى امام توقيت بالسنة الهجرية ، والسبب فى ذلك ، عدم وجود العلامة المميزة ، او ما يوافق التوقيت بالسنة الميلادية ، وقد لا يكون للمحقق ، دخل فى هذا الخلل الفنى ، مثلما لم يكن له دخل فى تسرب بعض الاخطاء الشكلية مثل شكل كلمة الحسبة بضم الحاء ، مع انها بالكسر (٧) (٥٠٦) ، ووضع ضمة على حرف الميم من كلمة مشد ، حتى تصير على صيغة اسم الفاعل ، مع انها بالفتح (٦٩) .

ويبدو أن الاستاذ المحقق رغم انه اشار بصدد التعليق على تاجورة ، بطريقة تشعر بأن موقعها فى ولاية طرابلس الغرب ، الا انه لم يوضح انها فى اطار هذا العصر ـ عصر المؤلف ـ كانت تحت نفوذ اسرة القرمانلى ضمن باشوية طرابلس العثمانية المستقلة ، ولا ترجع الى اعمال تونس الخضراء كما أشار المؤلف . (١٣١) هامش ١ ولا داعى هذا للايقاع فى اللبس بعد التوضيح ، لانه اذا كان هناك جبال تاجرا ، بين قابس ومدنين ، فهناك قرية مندثرة وجبال باسم تاجرا عند ندرومة يظن انها مسقط رأس عبد المؤمن بن على الكومى خليفة الموحدين (٨) .

وقد اهمل المحقق تقويم النص احيانا ، فى وقت كان من الواجب أن يقوم فى الهوامش ، بسبب أن المؤلف وقع فى خطأ فى التحديد الجغرافى ، مثلا ، يذكر المؤلف بصدد الترجمة لبيت الجزائرى ، أن النسبة لمدينة الجزائر ، وهى مدينة مشهورة بأرض المغرب الادنى (١٥٤) . هنا كان من الاولى للمحقق أن يقوم هذا النص ، فى الهامش فيشير الى انها ضمن اقليم المغرب الاوسط ، وبعيدة كل البعد عن اطار المغرب الادنى (ولو إن الاثنين كانا من الاقاليم التى تدين بالتبعية للخلافة العثمانية فى الاستانة) . لا سيما وقد فعل المحقق ذلك ، فى مكان آخر ، بسبب وقوع المؤلف فى خطأ مشابه . (انظر مثلا ٣٧١ هامش ١) ولا ادرى اذا كان قول المؤلف (١٣١) عن احمدة التاجورى ، انه قدم المدينة ١٠٠٠ هـ وتوفى بها ١١٤٨ هـ .

لا يحتاج الى تعليق من الاستاذ المحقق !! ؟

وقد لاحظت فى مكان آخر ان المحقق ، يمس النص ويفضل كلمة على اخرى ثم يترك الامر بدون تعليق ولو وجيز يوضح فيه سبب أرجحية هذه الكلمة على غيرها ، فمثلا اثبت المحقق كلمة « البربرى » وفضلها عن كلمة « البرى » ، التى وردت فى نسخة (هـ) (٥٠٧) ولم يشر الى شىء آخر يدعم اختياره ، كما لم يشر الى تحديد المقصود من كلمة البربرى ، هل هى منسوبة للبربر ؟ وهم اقوام معروفون ، او لمدينة بربر بالسودان ؟ او لبربره فى منطقة الصومال ؟ .

ويبدو ان اشارة الى الموسوعة الميسرة والمراجع فى الحواشى ، اتباع الطريقة المحددة التى اشتهرت بين الباحثين ، وذلك بالاشارة الى

المؤلف والكتاب أول مرة ، ثم الاكتفاء بعد ذلك باستخدام المصطلحات المنهجية المعروفة ، وفي هذا الصدد الاحظ مثلا ان المحقق يشير الى شفيق غربال ضمن مصادره ، ولا يذكر بأزائه اسم المرجع الذي اعتمد عليه ، وهو (مثلا : مصر عند مفترق الطرق ، او ترتيب الديار المصرية الخ) .. اكتفاء بأنه ذكره في ثبت المصادر والمراجع في آخر الكتاب . (انظر مثلا (١٣٦ ، هامش ٢) ، ١٣٧ ، هامش ٣ ، ٥٥٦) وغيرها . هذا بينما نلاحظ انه يشير في الحاشية الى « حقائق الاخبار » . ولا يذكر بأزائه اسم مؤلفه وهو اسماعيل سرهنك ولو مرة واحدة ، اعتمادا على أنه ذكره في ثبت المصادر والمراجع (انظر ٤٣ ، هامش ٢) .

ويبدو أن اشارة المحقق الى الموسوعة المسيرة بكثرة ، فيه اعتراف بأهميتها كمرجع ربما من الدرجة الاولى ، مع أن الهدف من وضعها كما يشير اليه اسمها واضح ، وليس منه فيما يبدو خدمة الباحثين المختصين ، فضلا عن كونها لا تخلو من الاخطاء .

واذا كان الاستاذ المحقق ، قد بذل جهدا مشكورا في شرح المصطلحات الفنية فان الملاحظ أن بعض تعليقاته ، لا تعبر أحيانا عن المعنى المقصود ، مثل قوله عن « الاسباهية » : انها الفرقة الكبيرة من الجيش بدلا من قوله : انها تكون قوة الفرسان او الخيالة في الجيش العثماني (٩) مع أن في النص ما يشير الى هذا المعنى (٤٧ ــ هامش ٤) ولم نعثر في ثنايا الهوامش على شرح مصطلحات اخرى هامة تكررت في النص مثل : جوربجي ونوبتجي ، هذا بينما شرح المحقق كلمة اشراف الناس (٢) واذا كانت كلمة (أوجاق) قد شرحت ، (٢٧ هامش ٣) فانها لم تدمج ضمن قائمة المصطلحات الحضارية في الفهرس الخاص (٥٣٨) . وكان يحسن ايضا ان نتعرف بمناسبة ورود اي بيت شعري تام في النص ، على بحره الخاص وعلى قائله ان امكن ذلك ، فاذا ورد ناقصا يستحسن تكميل نقصه ، سواء كان صدرا او عجزا اذا تيسر ذلك ايضا ، وهنا لاحظت ان المحقق لم يكمل صدر البيت الشعري الذي ورد عجزه فقط (ومن يشابه أبه فما ظلم) مع أنه مشهور (٣٢٣)

وقد تسرب الخطأ المطبعي فيما يبدو الى بعض الحواشي ، فمثلا : نلاحظ ان المحقق ، وهو بصدد تحقيق نص ، ونسبة ، البيت الشعري المشهور « لا يألف الدرهم المضروب صرتنا الخ » يقول (٤٨٩ ، هامش ١) أن صاحب « المغرب » نسبه لملك افريقية يزيد بن حاتم « ويريد قطعا بالمصدر ، » البيان المغرب في اخبار افريقية والمغرب « لابن عذاري المراكشي ، اما وصف يزيد بن حاتم ، بالملك ، فلم يرد في اي مصدر تاريخي ، لانه كان مجرد امير اووال من ولاة الاستكفاء ، من طرف صاحب السيادة العليا على المنطقة ، وهو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور (١٠) .

وكان يمكن للاستاذ المحقق ، بما عرف عنه ، من خبرة ، واطلاع واسع ، أن يخصص بعض هوامش الكتاب ، للحديث ، عن بعض الاسر المغربية المجاورة بالمدينة ، خاصة ، عما اذا كانت لها بقايا في وقتنا بنفس الاسم ؟ ، او باسم آخر جديد ؟ وفي اي اقطار المغرب العربي الكبير الواسع الارجاء ؟ فمثلا توجد القاب المغيربي والعنابي ، والجزائري في وقتنا ، في كل من تونس والجزائر ، كما توجد القاب الثابتي والمحمدي والخالدي ايضا .

وبالرغم من هذه الملاحظات الشكلية ، فان الذى لاشك فيه ان جهد الاستاذ العظيم محمد العروسى المطوى ، كان مثمرا ومفيدا للباحثين الذين اكتسبوا مصدرا هاما ، وللمكتبة التاريخية التى اثرت بنص جديد ، أضيف الى قائمة المطبوعات . واذا كنا نرجو ان يسدد الله خطانا جميعا لحفظ تراثنا من الضياع ، ويمتع الاستاذ الكريم، بدوام الصحة ويهبه القوة على الاستمرار فى هذا العمل البناء ، فاننا ايضا نرجو ان لا يكون قد حصل فى اطار هذه الاستجابة تجاوز ما نحو استاذ كريم تربطنا به منذ القدم صلات روحية لطيفة الخيوط ، وثيقة العرى ، واذا كان قد وقع شىء من ذلك ، ففى رحابة صدر الاستاذ وفى سعة افقه ما يتسع لاكثر من هذا . والله من وراء القصد .

وحيا ربى تونس الخضراء وساكنها
سحب من السعد ترويهم وترويني .

موسى لقبال أستاذ بقسم التاريخ جامعة الجزائر

ط تونس ١٩٣٠ هـ — ١٩٧٠ م . ٥٧٤ صفحة حققه الاستاذ محمد العروسى المطوى ونشرته المكتبة العتيقة .

هوامش :

(١) عن علاقات المؤلف واسرته بغير الاسر المغربية انظرمثلا : ٢٩٠ ، ٢٩٩ ، ٣٣٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٠٧ ، وغيرها من كتاب « تحفة المحبين » .

(٢) عن أوقاف المغاربة فى المدينة انظر ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٨٤ ، ٢٢٤ ، ٤٧٠ . وغيرها من كتاب « تحفة المحبين » .

(٣) يعرف أيضا بالشوربجى ، وهو قائد الاورطة التى تتالف من مائة فرد ، وكان يساعده كاتب يعرف باليازجى ثم حامل العلم ، ويعرف بالبير قدار . انظر عبد الكريم غرايبية : مقدمة تاريخ العرب الحديث ١ ، ٧٢ . دمشق ١٩٦٠ .

(٤) عن أغوات الحرم النبوى ابى شيوجة . انظر ٥٢ ، ٦٥ ، من نفس الكتاب .

(٥) انظر للمؤلف كتاب : « جداول السنين الهجرية والميلادية » بالالمانية ليبزج ، ١٨٥٤ .

(٦) انظر شارل برنوا : « توافق السنين الهجرية والغريغورية » الجزائر ، ١٨٨٥ .

وقد استفاد ناشر كتاب الترجمانة الكبرى للزيانى من جداول وستنفاد ، وترجم جانبا كبيرا منها فى آخر الكتاب . انظر عبد الكريم الفلالى « الترجمانة » وما بعدها مطبعة فضالة بالمغرب ١٩٦٧ .

(٧) عن شكل الكلمة ومدولاتها : انظر مثلا : ابن منظور لسان العرب ، التهانوى ، كشاف ، أصطلاحات الفنون ١ ، كلكتا ١٨٦٢ . حسن ابراهيم : انظر الاسلامية ٢٩٧ ومابعدها ، ابن زيدان العز والصولة ٢ ، ٦١ . دائرة المعارف الاسلامية (مادة حسبة مجلد ٢ ، ٣٣٧) .

(٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقيا والمغرب ٨٠ ط الجزائر ١٩١١ (ط دوسلان) ، الاستعار فى عجائب الامصار (لمجهول) ١٣٥ ، مطبوعات جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ تحقيق ونشر زغلول عبد الحميد .

(٩) انظر مثلا : ولاة دمشق فى العصر العثمانى ٨٥ تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد ط دمشق ١٩٤٩ ويلاحظ ان المصطلح بقى فى تونس ، باسم مقارب للاصل ، وهو أسم الصبايحية كما بقى فى الجزائر حتى وقت قريب باسم عسكر «السبايس» انظر احمد توبق المدنى : محمد عثمان باشا ٢٠٥ ط الجزائر ١٣٥٦ هـ .

(١٠) ابن عذارى : البيان المغرب فى اخبار افريقية والمغرب ١ ، ٩٦ — ٩٧ ط المناهل بيروت ، ١٩٤٧ — ١٩٥٠ . الرقيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب ١٤٩ ، ط تونس ١٩٦٨ ، تحقيق ونشر الكعبى .

• محمد الميلي •

فجر التاريخ في

لم تكن الحدود واضحة بين الممالك والامارات التى تشكلت فى شمال فى افريقيا مع بداية العصور التاريخية ونفس الظاهرة نلمحها فى عصور ما قبل التاريخ ، وفى الفترة الفاصلة بين ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية ، والتى يطلق عليها عادة « فجر التاريخ » . فمناطق الثقافات التى يمكن استقراؤها من المخلفات الاثرية العائدة الى ما قبل التاريخ ، لا تتميز هى الاخرى بحدود قارة ثابتة .

لكن انعدام هذه الحدود القارة فى عصور ما قبل التاريخ وفى فجر التاريخ لا يعنى استحالة ايجاد اى تقسيم للبلاد ، يساعد على متابعة الخطوات المختلفة لتطورها ، اذ اننا نستطيع بناء على المخلفات الاثرية نفسها أن نلمح وجود أقسام متميزة: فهناك الشمال الذى كان يتلقى منذ العصر الحجرى الحديث كميات وفيرة من المطر والذى يتميز بجباله وسهوله المشرفة على البحر ، والتى تسمح بنشأة حياة الاستقرار والمدن، وهناك الجنوب الذى تحول بعد الجفاف الى صحراء اضطرت سكانها الى حياة التجوال والتنقل والرعى .

ويمكن ان نضيف الى هذا التقسيم بين الشمال والجنوب تقسيما آخر بين الشرق والغرب : فنحن نلاحظ ان هناك ثلاث مناطق متميزة : منطقة شرقية يصل خطها الاقصى الى الحضنة وجبال البابور ، ومنطقة وسطى تقف عند واد ملوية ، ومنطقة غربية يحدها المحيط الاطلسي .

على ان التقسيم لا يتطابق دائما مع الحدود السياسية ، لان الحدود السياسية كانت تتغير تحت ضغط الظروف المختلفة للهجرات او الحروب ، ولذلك لم تتطابق دوما مع الحدود المناخية والطوبوغرافية .

المغرب العربي

العلاقات مع اروبا : اذا كانت العلاقة بين الشمال الافريقي وبين اروبا منعدمة قبل العصر الحجرى الحديث ، فانها قد قامت خلال هذا العصر . لكن الجدير بالتسجيل أن هذه العلاقة تمت بين الشمال الافريقي وبين اروبا عبر أراضي كانت على اتصال بثقافات الشرق الادنى وحضاراته اكثر من اتصالها بأراضي القارة الاروبية الاخرى . فقد تم هذا الاتصال مع بلدان الحوض الشرقي من حوض البحر الابيض المتوسط وخاصة مع صقلية وسردينيا . ويدل على هذا الاتصال وجود مخلفات جنائزية من جهة ، وبقايا صناعة الفخار الملون من جهة اخرى . ففيما يتصل بالمخلفات الجنائزية نجد أن الشمال الافريقي يشتمل على نموذجين اروبيين : هما نموذج « الحوانيت » ونموذج « الدولمن » ، فالحوانيت — كما سماها الاثريون الفرنسيون — هي عبارة عن مقابر محفورة في جنبات صخور منعزلة ، او مرتفعات تنحدر شاقوليا . وينتشر هذا النموذج في منطقة الوجه القبلي بتونس . والجهات الواقعة شمال واد مجردة . والمنطقة المحصورة بين الحدود الجزائرية — التونسية الحالية ، وبين واد السيبوس . وترجع هذه « الحوانيت » في صقلية وسردينيا الى عصر البرونز وعصر الحديد . وهي تنتشر اكثر ما تنتشر بتونس والجزائر على الجهات الساحلية ، وان كانت توجد ايضا ، لكن بصفة اقل ، في المناطق الداخلية مثل التي توجد قرب دوقة في تونس . وقرب تبسة وقسنطينة في الجزائر ، ويرى الاستاذ كومبس أن « الحوانيت » الموجودة في المناطق الغربية للشمال الافريقي ، قد انتشرت في عهد متأخر . على يد البونيقيين .

ونظرا لانتشار هذا النموذج بكثرة في شمال تونس ، فقد كان المؤرخون يظنون أنها من أصل فنيقي . لكن التحقيق كشف عن رجوعها الى عهد اسبق من العهد الفنيقي . ويرى الاستاذ كومبس أن ذلك يكشف عن مدى تأثير الثقافات الشرقية السابقة للعهد الفنيقي ، وأن انتشارها في شمال تونس يرجع الى كون هذه المنطقة ما انفكت ذات هوية شرقية .

اما نموذج « الدولمن » فقد انتشر في عدة مناطق هي : منطقة الساحل الشرقي الواقع في تونس ابتداء من الوجه القبلي والذى يتوسطه مركز النفيضة بمعابده الجنائزية . وهناك الساحل الممتد بين طبرقة وبين جيجل . وهناك منطقة ثالثة تشمل تونس الوسطى والغربية وتمتد من اقصى الشرق الجزائرى الى قسنطينة .

وتتميز معابد الدولمن في المنطقة الاولى وخاصة بالنفيضة بالسرداب الذى يؤدى اليها وبحجارة ضخمة موضوعة على الارض لتشكل قاع القبر . ونفس الطابع نجده في مقابر الدولمن بالمنطقة الثانية ، لكن مقابر هذه المنطقة تتميز عن الاولى

بكونها أضخم وأهم حجما . وأهم مقابر هذه المنطقة الثانية هي الواقة في شبه جزيرة القل . وتتميز مقابر الدولمن في المنطقة الثالثة بامتداد مساحاتها وضخامة معابدها الجنائزية التي تعد أحيانا آلاف الدوامن . وفي مقابر هذه المنطقة الثالثة تختفي السراديب .

أما الدليل الاخر على علاقة الشمال الافريقي بالحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، فيتمثل في صناعة الفخار التي تحمل طابع تأثير شرقي سابق على العهد الفنيقي . والواقع انه لا يوجد دليل قاطع على ان تشابه صناعة الفخار بين تونس وشرقي الجزائر من جهة وبين جزر ومناطق الحوض الشرقي من المتوسط من جهة أخرى يرجع الى تسرب قام به اليونانيون أو سكان الجزر الايونية الى النواحي الشرقية من الشمال الافريقي . نعم توجد عدة اشارات في الكتابات التاريخية القديمة الى هذا التسرب وخاصة اشارات ثلاث :

١ — ما ورد في كلام ديدور الصقلي عن مدينة « ميشيلة » — وهي مدينة لم يعرف موقعها بعد وتوجد على اغلب الظن في تونس او في شرقي الجزائر — من أن الاغريق هم الذين بنوها بعد عودتهم من حرب طروادة .

٢ — اشارة هيكاتة المليتي الى ان مدينة « كوبوس » الموجودة على ما يظن في نفس المنطقة كانت مدينة من أصل ايوني .

٣ — مقالة هيرودوت عن الماكسيس (شمال الجريد) بأنهم من أصل طروادي حسب أقوالهم ، لكن هذه الانتشارات ليست لها قيمة كبيرة حسب ستيفان غزيل نفسه . ولعل تنقيبات مقبلة ستكشف في المستقبل عن وثائق أكثر تدقيقا .

هذا فيما يتصل بالعلاقة بين الجهات الشرقية من الشمال الافريقي مع اوروبا .

اما فيما يتصل بعلاقة المناطق الغربية بأوربا ، فيبدو أن العلاقة بين المغرب وبين شبه جزيرة ايبريا كانت موجودة بصفة أكيدة منذ عصر المعادن : فبقايا الفخار التي عثر عليها في المغرب سواء في السواحل المتوسطة او السواحل الاطلسية والتي ترجع الى النصف الثاني من القرن الثالث للميلاد ، ترجع الى نموذج الفخار الاندلسي الذي هو اقدم منها . وقد تطورت العلاقة بين المغرب وايبريا في عصر البرونز ، اذ تجد صناعات هذا العصر قد وصلت الى المناطق الداخلية من الاطلس ، ولم تقتصر على الساحل كما كان الشأن بالنسبة لصناعة الفخار في العهود السابقة .

ويستخلص كامبس ، من المقارنة بين نوعي العلاقة مع أوروبا ، أي مع الحوض الشرقي من المتوسط ومع شبه جزيرة ايبريا ، انه ، على الرغم من كون العلاقة هنا وهناك بدأت في عهد واحد تقريبا ، فان المناطق الشرقية قد تنظمت في شكل ممالك وامارات قبل المناطق الغربية . ويرجع كامبس ذلك الى وجود تأثير ثقافات وحضارات شرقية سابقة على العهد الفنيقي الذي وجد الميدان ممهدا والذي عمق التأثير الشرقي.

العلاقة مع افريقيا : في الجنوب ، تمتد مساحات شاسعة تتخللها السباخ . والطابع المميز للحياة في الجنوب هو الحياة الرعوية المتنقلة . وقد كانت الصحراء ، بسبب موقعها ، اداة وصل في اقدم العصور بين جنوب شمال افريقيا والبلاد الواقعة جنوب الصحراء . ويستطيع المؤرخ ان يتكهن بوجود هجرات قليلة او كثيرة من الجنوب ، اي من البلاد الافريقية في اتجاه الشمال . ولا يستبعد ان تكون هذه الهجرات هي التي ادخلت الى شمال افريقيا . الحيوانات الاهلية أو فكرة استئناس الحيوان . وعلى هذا الاساس تكون الصحراء والنجود هي الطريق الذي اتخذته بعض المبادئ الخضارية وكذلك بعض المعتقدات التي عرفتها ضفاف النيل . وفعلا فنستطيع ان نتبين من دراستنا للاوابد

الجنائزية مدى تأثير الثقافات الافريقية والمصرية بصفة خاصة

ويبدو ان العادات الجنائزية اكتسبت طابعا خاصا في ولاية وهران وفي المناطق الشرقية من المغرب ، ليست له ادنى علاقة مع ثقافات العهود التاريخية ، اي انه لم يتأثر لا بالرومان ولا بالبونيقيين . ومن العادات الجنائزية التي تميزت بها وهران والمناطق الشرقية من المغرب تجد عادة دفن السلاح مع الميت . ونظرا الى انه قد وقع العثور على السلاح في مقابر بجهات تقع في الجنوب مثل عين الصفراء ، فقد رجح بعضهم كون هذه العادة وردت من الصحراء .

شعوب الشمال الافريقي في فجر التاريخ : سجلت الكتابات التاريخية القديمة **اسماء مختلفة للشعوب التي سكنت الشمال الافريقي ابرزها هي :**

النوميديون — المور — الجيتوليون . وهؤلاء الاخيرون يحانيهم الفاروزيون في جنوب المغرب والغرامنت في فزان .

لكن دلالات هذه الاسماء اختلفت باختلاف مستعمليها . فالاغريق — مثل القرطاجيين كانوا يطلقون — تسمية النوميديين على جميع السكان غير الخاضعين لقرطاجة ، ويطلقون اسم « الليبيين » او « اللوبيين » على السكان الخاضعين لسيادة قرطاجة . لكن السكان الذين يقطنون اقصى المغرب ، عرفوا باسم « المور » بدل النوميديين . لكن هذا التمييز لم يتم بصفة نهائية الا في العهد الروماني . فقد كان ارتيميدور ، في القرن الثاني قبل الميلاد يطلق اسم النوميدين على سكان المناطق المجاورة لاعمدة هرقل .

وقد اعطى « بوشار » منذ القرن السابع عشر تفسيرا اصبح معتمدا منذ ذلك ، لتسمية « المور » فقال انه مستمد من كلمة سامية هي Mahourin

التي تعني الغربيين او سكان الغرب . وهذا التفسير معقول نسبيا اذ نجد مثيلا له في المشرق ، في اطلاق « الاموريين » على سكان المناطق الواقعة غرب دجلة . لكن اذا كان هذا التفسير مرضيا لكلمة المور ، فان تفسير اصل كلمة « النوميديين » اصطدم بعدة تأويل .

فقد حاول مختلف المؤرخين من لدى رين الى ستيفان غزيل الى صاحب تاريخ شمال افريقيا الى كامبس ان يقدموا تفاسير مختلفة لاصل كلمة « النوميديين » . فبينما يرى شارل اندري جوليان انها مشتقة من عبارة محلية ، يرى بعض المؤرخين المعاصرين ، اعتمادا على سترابون بأن كلمة النوميديين تعني « النوماد » اي البدو غير المستقلين . لكن كامبس يرفض هذا التفسير ، ويستشهد بهيرودوت الذي يفرق بين « النوماد » « والنوميد »

الا ان ايف لاكوست يرى انه لا يجوز ان نستنتج

من ذلك بأن سكان نوميديا كانوا كلهم بدوا غير مستقرين . ويعتمد في هذا المجال على نظرية ستيفان غزيل الذي يرى بأن الاغريق وجدوا في شمال افريقيا من يطلقون على انفسهم وصفا يقترب من حيث النطق المحلي من الكلمة اليونانية التي تعني البدو المتنقلين . فجمعوا بين الكلمتين واطلقوا على السكان الوصف السابق ، خصوصا وقد لاحظوا ان عددا هاما من اولئك السكان كانوا رعاة غير مستقرين .

ومهما يكن من شيء ، فان هذه التسمية ، « النوميدين » ، التي عرفت في الكتابات الاغريقية منذ القرن الخامس قبل الميلاد . قد اشتق منها في عهد ماصينسا اسم « نوميديا » الذي اصبح علما على مملكة واسعة الارجاء ، تمتد من نهر ملوية غربا الى حدود الممتلكات القرطاجية شرقا . فنحن نجد مثلا هذه التسمية في كتاب ساللوست **« حرب يوغرطا » اذ يقول في الفقرة الخامسة** ما تعريبه

(عن النص الفرنسي) : « اعتزم كتابة (تاريخ) الحرب التي خاضها شعب روما ضد يوغرطا ملك نوميديا » وفي نفس الفقرة يتحدث ساللوست عن « ماصينسا ملك النوميديين . » .

أما شعب الجيتوليين فيبدو أنه كان يقطن الجنوب الذي يمتد من تونس الى المغرب وقد ظهرت هذه النسبة لسكان جنوب الشمال الافريقي ، لاول مرة في كتابات ساللوست . ويبدو ان حدود منطقة الجيتول لم تكن معروفة سواء من ناحية الجنوب أو الشمال . فمن ناحية الجنوب ، يبدو ، حسب بعض الكتابات القديمة أنها تمتد الى « بلاد الايتوبيين » واذا قلنا بأن « الايتوبيين » يعني السكان الملونين ، فان الجيتوليين — الذين هم بيض — يكونون في هذه الحالة قاطنين لمنطقة النجود ، وللقسم الاعظم من الصحراء . لكن بعض المؤرخين ، مثل فوتيي ، يرى أن تسرب البربر الى الصحراء لم يتم الا في مرحلة متأخرة ، تحت ضغط الاحتلال الروماني الذي دفعهم عن الشمال الى الجنوب .

ومن الناحية الشمالية ايضا نجد أن الحدود غير واضحة : فهناك اشارة عند سترابون تفيد بأن الجيتولين يقطنون بعض مناطق نوميديا الوسطى . كما نجد اشارة واضحة عند سترابون أن قفصة تقع في بلاد الجيتول على عهد يوغرطا . لكن الوصف الدقيق الذي أطلقه سترابون نفسه على المناطق التي تفصل بين الساحل المتوسط وبين بلاد الجيتول ، والذي ينطبق على الجنوب القسنطيني ، يبعد هذه المنطقة من الجيتول .

ويرى ستيفان غزيل أن تسمية الجيتوليين تطلق على « الشعوب التي بقيت خارج مصيليا ومصيصيليا بعد تشكل الممالك التي عرفت بهذا الاسم . لكن كامبس يعارض في هذه النظرية ، ويرى أن تسمية الجيتوليين لا مدلولا سياسيا ، ولا مدلولا عرقيا ، ولكنها تعني نمطا من انماط المعاش ، الذي يتمثل في التنقل والحياة الرعوية — وعلى هذا الاساس يرى أن ماصينيصا قد سيطر على الجيتوليين الواقعين جنوب نوميديا الشرقية .

والواقع أن هذا التفسير له ما يؤيده في كتابات تيت ليف الذي ينص على أن الجيتوليين كانوا من جملة من تشكل منهم جيش حنبعل فاذا عرفنا أن قرطاجة لم تصل سيطرتها الى بلاد الجيتول ، استطعنا أن نستنتج بأن الجيتول شعب متنقل وليس مستقرا مثل معظم النوميديين .

وبناء على النظرية التي ارتآها ستيفان غزيل حول الجيتوليين ، كان يرى ايضا أن قبيلة الموسولام تنتمي الى شعب الجيتول . لكن كتابات تاسيت صريحة في نسبة قبيلة الموسولام الى الشعب النوميدي يضاف الى ذلك أن المعطيات والحفريات الاثرية لا تكشف عن وجود أي فرق في نظام حياة وعادات المناطق التي يسكنها الموسولام ومناطق بقية النوميديين ، أي بين الجهة الواقعة ، بين مجردة وخليج عنابة من جهة ، وبين الجهة الواقعة بين مجردة وجبال تبسة من جهة اخرى .

والخلاصة أن الجمع بين المعطيات الايديولوجية وبين النصوص القديمة يسمح بتحديد مكان شعوب الشمال الافريقي في بداية العصور التاريخية :

فالمور يقطنون في الناحية الغربية ، بين الاطلسي وواد ملوية . والنوميديون التابعون لملكة مصايصيليا ، في الوسط أي من ملوية غربا الى واد الكبير شرقا ، والنوميديون التابعون لملكة مصيليا في الناحية الشرقية أي من واد الكبير غربا الى حدود قرطاجة شرقا . أما كل من شعب الجيتول ، وشعب القرامت فهما شعبان متنقلان يقطنان النجود والمناطق الصحراوية .

محمد الميلي مدير الاخبار بوزارة الاعلام والثقافة

التصرفات المعينة فى ظروف خاصة ، هــذا بالاضافة الى انها تربط حاضــرنا بماضينا ، وتكون جزءا من تكويننا الخلقى ، وشخصيتنا القومية .

وهذا المؤلف الغربى ينقــل الينــا حــتى مشاعره نحو الجزائر ، فنلمح بــين سطوره وكلماته ، بين جمله والفاظه الخوف حينا ، والحقد حينا آخر . ومن شان هذا الحقــد ايضا .. هذا الحقد التاريخى أن يفسر لنــا بدوره مسلك بعض الدول والافــراد تجــاه الجزائر المعاصرة التى بدأت تستعيد مكانتها التاريخية وتستعد للقيــام بدورهــا فى بناء حضارة الانسان . فهناك أشيــاء كثــيـرة وتصرفات متعددة ليست جديدة ، وانما هى مواقف تاريخية كتب لها الاستمــرار والبقاء، سجلها غيرنا ولم نسجلها نحن .. لم يسجلها اجدادنا .

واذا كان اغلب من تحدث عن الجزائر من المؤلفين والرحالين الغربيين ، وخاصــة فى الفترة التى اعقبت الاحتلال ، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكــورة ، فان المؤلــف النمساوى آدولف شتــرال قــد تنــاول ، بالاضافة الى ذلك ، جانبا لم يتعرض اليه ، فيما اعلم ، غيره . فهو يقدم لنــا فى كتابــه « صور شمسية جزائرية » ، الذى نشره فى مدينة فيينا سنة ١٨٤٤ ، قصصا وحكايات عن الجزائر . قدم لنا فى جزء منه شخصيات جزائرية واجنبية ، وحلل عواطف بعضها نحو البعض الاخر ، وقد اخضع إسلوبه فيها لموجة الرومانسية التى كانت قد ظهرت قبل ذلــك بسنوات ، كما صور طبيعة بعض المعمرين والجشع الذى حملهم عــلى المجــىء الــى الجزائــر .

وقد قسم المؤلف كتابه الى اربعة اقسام :
ا ــ يحتوى القسم الاول منها على القصص
[...]ية :

[...] ــ **انتقام الحضرى** ، وهى قصــة مــلازم [...]ى جاء الى الجزائر فى الشهر الثانى بعــد الاحتلال ، وقد لعبت براسهطيوف الف ليلة وليلة، وخيل له انه يستنشق روائح البلسم ، ويــرتاد ملاهى الرقص الشرقى ، ويعيش فى نعيم ما بعده نعيم . وشاهد ذات يوم احدى نساء أحمد بــن حمود ، وهو من اثرياء مدينة الجزائر ، فــوق سطح المنزل المجاور لمنزله ، فهام بها ، واخذت تبادله بعض الاشارات ، ولكن سيــدها علــم بأمرها ، ولزمها متلبسة بجريمتها ، فاستسلمت له استسلام الحمامة لمخالب الصقــر الحــادة ، فمضى بها الى ضيعته قرب معسكر بير خادم ، وهناك انتقم منها فى فجر احد الايام . وعند عودته ناداه احد الحراس مناداة برنردولفرنسسكو فى مسرحية هاملت ، ولكن أحمد بن حمود لم يجب ، فأطلق عليه الحارس النار وأرداه قتيلا !

٢ ــ **المعمر المخدوع** ، يتحدث شترال فى هذه الحكاية عن معمر قدم الى الجزائر .. بحثا عــن الثروة والهناء فمر فى طريقه ببناية ، يسكنــــها بضعة جنود فرضت عليهم الاقامــة الجبريــة ، فاقترب منهم واعرب لهم عن رغبته فى الحصول على منزل يكون قريبا من الجزائر .. وبعيدا عن النار والبارود ! واذا باولئك الجنود يعرضــون عليه ، دون استشارة حارسهم ، التنازل له عن تلك البناية مقابل ستين فرنكا ودلو من النبيذ ! وعندئذ تجتاح المعمر موجة من السرور والبهجة ، ويهتز لهذه البداية البديعة . وحين يطلب منهم ان يقدموا له ضمانا على صحة الصفقة ، يجيبه احدهم : « هذا امر غير معمول به فى هذا البلد . يكفى أن يقول المرء فى ذلك : هذا البيت لى ! ونحن شهود !» وهكذا تتم الصفقة بكل سهولة ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى جاء بعض الضباط واخرجوه منها بالقوة .

٣ ــ **مغامرة خطيرة** ، وهى تصف لحظــــات حرجة مرت بضابط فرنسى ومرافقه الصبائحى ، عندما كانا يقومان باحدى المهمــات على طريق وهران ، حيث خرج اليهما رجال من بنى عامــر واعترضوا طريقهما ، ولكن ظهور دورية فرنسية على حين غرة حفظ عليهما حياتهما وابعد طيف الخوف وبالتالى الموت عنهما ، فاختفى رجــال بنى عامر كما خرجوا فجاة .

كتاب قديم

صور شمسية جزائرية

د . ابو العيد دودو

• لاتكاد توجد فى الجزائر نبتة واحدة غير صالحة للاكل او للاستغلال وان الارض الجزائرية تتمتع بحيوية فريدة ، تمكنها من احتضان نباتات كل من اوروبا وامريكا دون عناية خاصة .

لا يكاد القارىء يفتح اليوم كتابا قديما ، يتحدث عن الجزائر فى عصر من عصورها بلغة اجنبية ، حتى يجد نفسه قد انتقل اليها بالفعل ، يعيش ظروفها التاريخية المختلفة ، وأوضاعها الفكرية المتباينة ، ويستعرض معالم تقاليدها وعاداتها ، ويشاهد مبانيها ومساجدها وأزمتها ، بل كثيرا ما يخيل اليه أنه يسمع حركة شوارعها ، وأصوات باعتها ، وصياح دلاليها ، وأحاديث مقاهيها ، وأغانى أطفالها العراة ، ويشعر أنه يحيا فى أجوائها الخاصة . ذلك أن المؤلف الغربى ، الذى أتيح له أن يعيش فيها فترة من حياته ، كان حريصا كل الحرص على ذكر جميع التفاصيل والجزئيات التى لا يهتم بها الكثير منا اليوم ، ويرى فى الحديث عنها ، فى أى مناسبة كانت ، ضربا من اللغو واضاعة الوقت ، مع أنها تفتح أمام الدارس مجالا كبيرا لدراسة نفسية الشعب والتطورات التى تطرأ عليها بين وقت وآخر ، وتساعد على تفسير بعض

التصرفات المعينة فى ظروف خاصة ، هـذا بالاضافة الى أنها تربط حاضـرنا بماضينا ، وتكون جزءا من تكويننا الخلقى ، وشخصيتنا القومية .

وهذا المؤلف الغربى ينقـل الينـا حـتى مشاعره نحو الجزائر ، فنلمح بـين سطوره وكلماته ، بين جمله والفاظه الخوف حينا ، والحقد حينا آخر . ومن شأن هذا الحقـد ايضا .. هذا الحقد التاريخى ان يفسر لنـا بدوره مسلك بعض الدول والافـراد تجـاه الجزائر المعاصرة التى بدأت تستعيد مكانتها التاريخية وتستعد للقيـام بدورهـا فى بناء حضارة الانسان . فهناك أشيـاء كثـيرة وتصرفات متعددة ليست جديدة ، وانما هى مواقف تاريخية كتب لها الاستمـرار والبقاء، سجلها غيرنا ولم نسجلها نحن .. لم يسجلها اجدادنا .

واذا كان اغلب من تحدث عن الجزائر من المؤلفين والرحالين الغربيين ، وخاصـة فى الفترة التى أعقبت الاحتلال ، قد اقتصر على معالجة الجوانب المذكـورة ، فان المؤلـف النمساوى آدولف شتـرال قـد تنـاول ، بالاضافة الى ذلك ، جانبا لم يتعرض اليه ، فيما اعلم ، غيره . فهو يقدم لنـا فى كتابـه « صور شمسية جزائرية » ، الذى نشره فى مدينة فيينا سنة ١٨٤٤ ، قصصا وحكايات عن الجزائر . قدم لنا فى جزء منه شخصيات جزائرية وأجنبية ، وحلل عواطف بعضها نحو البعض الاخر ، وقد اخضع إسلوبه فيها لموجة الرومانسية التى كانت قد ظهرت قبل ذلـك بسنوات ، كما صور طبيعة بعض المعمرين والجشع الذى حملهم عـلى المجـئ الـى الجزائـر .

وقد قسم المؤلف كتابه الى اربعة اقسام :
أ ــ يحتوى القسم الاول منها على القصص التالية :

١ ــ **أنتقام الحضرى** ، وهى قصـة مـلازم فرنسى جاء الى الجزائر فى الشهر الثانى بعـد الاحتلال ، وقد لعبت براسهطيوف الف ليلة وليلة، وخيل له انه يستنشق روائح البلسم ، ويـرتاد ملاهى الرقص الشرقى ، ويعيش فى نعيم ما بعده نعيم . وشاهد ذات يوم احدى نساء أحمد بـن حمود ، وهو من أثرياء مدينة الجزائر ، فـوق سطح المنزل المجاور لمنزله ، فهام بها ، واخذت تبادله بعض الاشارات ، ولكن سيـدها علـم بأمرها ، ولزمها متلبسة بجريمتها ، فاستسلمت له استسلام الحمامة لمخالب الصقـر الحـادة ، فمضى بها الى ضيعته قرب معسكر بير خادم ، وهناك انتقم منها فى فجر احد الايام . وعند عودته ناداه احد الحراس مناداة برنردولفرنسسكو فى مسرحية هاملت ، ولكن احمد بن حمود لم يجب ، فأطلق عليه الحارس النار وأرداه قتيلا !

٢ ــ **المعمر المخدوع** ، يتحدث شترال فى هذه الحكاية عن معمر قدم الى الجزائر .. بحثا عـن الثروة والهناء فمر فى طريقه ببناية ، يسكنـها بضعة جنود فرضت عليهم الاقامـة الجبريـة ، فاقترب منهم واعرب لهم عن رغبته فى الحصول على منزل يكون قريبا من الجزائر .. وبعيدا عن النار والبارود ! واذا باولئك الجنود يعرضـون عليه ، دون استشارة حارسهم ، التنازل له عن تلك البناية مقابل ستين فرنكا ودلو من النبيذ ! وعندئذ تجتاح المعمر موجة من السرور والبهجة ، ويهتز لهذه البداية البديعة . وحين يطلب منهم أن يقدموا له ضمانا على صحة الصفقة ، يجيبه أحدهم : « هذا أمر غير معمول به فى هذا البلد . يكفى أن يقول المرء فى ذلك : هذا البيت لى ! ونحن شهود !» وهكذا تتم الصفقة بكل سهولة ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى جاء بعض الضباط وأخرجوه منها بالقوة .

٣ ــ **مغامرة خطيرة** ، وهى تصف لحظـات حرجة مرت بضابط فرنسى ومرافقه الصبائحى ، عندما كانا يقومان باحدى المهمـات على طريق وهران ، حيث خرج اليهما رجال من بنى عامـر واعترضوا طريقهما ، ولكن ظهور دورية فرنسية على حين غرة حفظ عليهما حياتهما وابعد طيف الخوف وبالتالى الموت عنهما ، فاختفى رجـال بنى عامر كما خرجوا فجاة .

L'ALGERIE

DANS l'Histoire de la Civilisation

Le Professeur Mustapha LACHERAF

(Texte d'une conférence prononcée le 14 *novembre* 1967 *à « Las Salas nacionales de Exposicion de la Secretaria de Estado de Cultura ».)*

Parler de l'Algérie dans l'Histoire de la civilisation, c'est évoquer une dimension qui dépasse de loin le cadre géographique d'un petit pays pour s'étendre à une partie considérable de la Méditerranée et de l'Afrique. Mais la géographie, autant que l'histoire, ont été le tremplin privilégié de cette grande aventure de l'esprit, qui, dès l'aube de l'Humanité et au cours de siècles innombrables, a plongé ses racines et poussé de fécondes ramifications dans les cultures maîtresses de l'Ancien Monde, du Moyen Age et de l'ère moderne. Et la géographie, comme l'histoire, ne fut jamais, dans le destin maghrébin, cette fatalité inerte ou absurde à travers laquelle se fixe un choix millénaire et statique qui plie et asservit la volonté d'un peuple à un site, à un climat, à un habitat, à des horizons immuables. Certes, elle modèle les énergies ou les pénètre, au contraire, d'une douceur mortelle. Son relief bouleversé par des plissements heurtés ; la mer Méditerranée que les Grecs disaient violette et paisible mais que de brusques tempêtes désolaient périodiquement ; le Sahara, désert plus infranchissable encore que l'Océan ; les vents chauds ou la neige tourbillonnante et rageuse des hautes vallées ; la terre fauve et sèche des plaines semi-steppiques ; la terre fertile et sûre du Littoral, le tendre déploiement des collines boisées ; les trouées, couloirs naturels, passages abrupts, montagnes et piémonts contrastés ; les plateaux interminables ou resserrés, les fleuves irréguliers, les lacs salés et les eaux vives, les forêts nourricières dont la légende couvrait le pays comme d'un recours contre les calamités du sol : tout cela a laissé dans l'homme et dans sa mémoire des réflexes, des gestes , une vision des choses, une sensibilité ; pour tout dire, une marque plus ou moins indélibile mais jamais exclusive qui s'est longtemps traduite par l'effort tenace ou la terreur des cataclysmes imprévus ou la joie du travail récompensé ; des modes de vie et de subsistance, des habitudes tour à tour guerrières et pacifiques, transhumantes et sédentaires ; le labeur incessant et parfois contrarié grâce auquel un paysage prend sa forme rassurante et utile, et une nation apprivoise la nature rebelle et triomphe petit à petit des forces titaniques que font peser sur elle un univers oppressant de pierres et de végétaux ; une nébuleuse inextricable et à peine entamée. Et l'histoire elle-même, liée à cet effort incommensurable et patient ; à cet élan par quoi l'espace hostile de la mer et les murailles rocheuses de l'Atlas et les sables noueux du Désert se transforment en routes familières, en jalons, en villes-greniers accrochées aux montagnes, en mouillages de fortune, en comptoirs permanents, en cités caravanières et en oasis de fraîcheur où l'eau profonde témoigne davantage de la création que du pur hasard, l'histoire elle-même, disons-nous, n'est plus cette suite paresseuse d'événements dont on s'est longtemps complu à illustrer les exploits des princes et des guerriers, les fastes et les honneurs : elle est l'expression laborieuse et sans fard de menus faits souvent prosaïques, l'enchaînement de réalités fugaces ou durables qui sont la texture quotidienne de la vie collective des hommes, de leurs travaux, de leurs peines, de leurs loisirs, de leurs recherches et de leurs découvertes les plus modestes, les plus pathétiques. Cette histoire ainsi considérée en dehors d'une optique événementielle que parfois la subjectivité dilate jusqu'aux dimensions du mythe et du panégyrique ; cette histoire donc, rude ou douce au toucher, âpre ou savoureuse, jamais indifférente ou fastidieuse, ressemble aux mille traits burinés ou gracieux, aux formes adolescentes ou vieillies, aux rides les plus imperceptibles, au grain ténu de la peau, au teint hâve ou fleuri, aux flétrissures même et aux verrues d'un visage humain, d'un visage terrestre. Et quand c'est le visage d'un pays, se mêlent alors intimement la géographie encore à l'état brut ou façonnée par les besoins de l'homme, et l'histoire qui s'inscrit en termes secrets ou visibles sur la face de la terre et dans ses proches entrailles ; dans les moindres recoins du sol conquis par la

charrue, la pioche et la houe ; pacifié par le bornage, délimité, libéré des querelles agraires ; dans les restes d'un ouvrage hydraulique arabe ; à travers les voies continentales jalonnées de postes aujourd'hui effacés comme une mince traînée de graviers ; le long du « limes » romain, frontière intérieure dont le tracé archaïque mais rationnel séparait déjà et tout ensemble deux zones naturelles et deux genres de vie majeurs ; dans les pierres-même qui cessent alors d'être muettes ou insensibles à la marche toujours recommencée, toujours disputée de la civilisation et de la barbarie. En effet, les ruines aussi, le roc dégradé, les pans dérisoires des anciennes murailles, les dalles usées, les strates amoncelés des villes mortes, les tessons de poterie, les morceaux de bronze, les éclats de verre, un fragment de mosaïque, une stèle gravée, un fût de colonne, un marbre tronqué, un noyau d'olive, un trop fragile grain de blé tout noirci, une lampe, un outil qu'on retire des décombres tassés et retassés par le temps, ces objets-là, ces squelettes de pierres, il faut que la civilisation les exhausse, les élève au jour pour en faire de vivantes reliques et comme le fil renoué de sa lointaine genèse. Ainsi, l'histoire s'inventorie dans les cendres des villes et l'ortie des champs abandonnés en ramassant les humbles dépouilles sauvées du désastre, les témoins minuscules d'un monde aboli, et, ce faisant, elle se raconte avec autant d'éloquence si ce n'est plus, que les textes et les grimoires ; que les récits fabuleux dont les chroniques populaires sont prodigues ; que les savantes suggestions des chercheurs. Ici, l'événement est le contrepoint du fait social ancien, l'indice matériel d'un patrimoine enseveli, et quand il s'en tient à ce rôle, la clarté devient complémentaire d'une plus grande lumière paradoxalement tirée des profondeurs obscures de la terre, soustraite aux ténèbres millénaires des ruines ravalées et chaotiques, libérée d'un oubli opaque ou somnolent dans la pénombre de la mémoire collective. Et déjà les éléments premiers de l'existence historique d'un pays à l'origine des temps humains s'énoncent pour nous comme un alphabet, comme des hiéroglyphes qu'on déchiffre, et, à l'instar d'un alphabet, ils imposent déjà un moyen de culture abécédaire c'est-à-dire de civilisation balbutiante ; une connaissance peut-être naïve mais par laquelle tout commence quand l'homme, quand les sociétés primitives et plus tard outillées, s'initient de proche en proche à cette totalité géophysique à laquelle ils s'identifient eux-mêmes ; à cet environnement de débris épars et de signes épelés ou reconnus ; à immense matériau cosmique dont ils sont à is et deviendront le produit aveugle ou sen- et le maître-d'œuvre aux mains sûres, à conquérant. Car rien n'est à dédaigner dans un tel inventaire ; dans cet amas hétéroclite et parfois sommaire et pitoyable comme les accessoires de théâtre d'une pauvre troupe ambulante. Tout y est, ne serait-ce qu'à l'état de symboles révélateurs ou didactiques, et chaque société, même la plus démunie, la plus hébétée par les solitudes striles du Kalahari ou de l'Amazone, a sa part subjectivement magnifiée dans cet alphabet primordial, qui selon les latitudes, les époques, les infortunes et les cataclysmes, se multiplie comme le pain de la Cène ou s'amenuise ou demeure inchangé : réserve fruste et féconde de futurs insoupçonnés, ou rétrospective d'une préhistoire à jamais aboutie.

Est-ce par de tels chemins capricieux, le long desquels le Maghreb n'a cessé d'être évoqué en sourdine mais présent à chaque tournant, que nous atteindrons notre sujet ? A la vérité, tout converge vers cette Méditerranée qui fut le centre du Monde habité, et, sur les bords de la Mer Intérieure, vers ce Maghreb dont la présence physique, les transfigurations de l'histoire, le mécanisme dialectique des empires, des sociétés, des civilisations et des économies inter-continentales, ont longtemps fait un relais nécessaire, un carrefour vital, un haut lieu d'épopée, de réalisation humaine et d'avatars pour les peuples créateurs ou turbulents qui trouvaient là un champ illimité à la mesure de leurs rêves, de leur génie, ou simplement de leurs dévastations et de leurs errances. « Mondes péninsulaires de la Méditerranée » — c'est ainsi que le grand historien français Fernand Braudel appelle fort justement, en même temps que l'Afrique du Nord, d'autres régions géographiquement bien typées et autonomes — (L'Anatolie et les Balkans), et qui dépendent cependant à plus d'un titre du Bassin Méditerranéen. Ainsi, la science historique moderne a confirmé pour l'Afrique du Nord le nom que, déjà, au Moyen Age, dès le milieu du VIIe siècle, les Arabes lui avaient donné. Péninsule, île, promontoire cyclopéen : la chose est la même sous différents vocables que suggère l'observation la plus perspicace. D'autres péninsules qui relèvent, celles-là, du sens propre le plus strict — l'Espagne, l'Italie — Complètent les éléments constitutifs de cette immense aire géographique et humaine de la Méditerranée dont le même Fernand Braudel prolonge les frontières envahissantes et vigoureuses jusqu'aux déserts froid et chaud de l'Asie et de l'Afrique. « Le Sahara, second visage de la Méditerranée », dit-il quelque part.

Nous ajouterons quant à nous, qu'en plus de son caractère physique sinon humain de « péninsule », l'Afrique du Nord est aussi un sous-

ب ـ اماالقسم الثاني فيتضمن بدوره الحكايات الاتيــة :

١ ـ **الساحر** ، يعترف المؤلف في مقدمة هذه الحكاية انه استمدها من مذكرات رجل عاش في الجزائر مدة تزيد عن ثماني سنوات ، ويــروى قصة عراف كرغلي ، حدث جلساءه عن نتائــج حملة قسنطينة الثانية قبل القيــام بهــا بمــدة قصيرة ، ووصف مراحل معاركها ، ووقوع قائد الحملة عن ظهر فرسه واصابته وموته ، وتنبــأ كذلك للفتاة نجمــة بمستقبلــها مــع حبيبهــا الفرنسي !

٢ ـ **صيد الضباع في نــواحي الجزائــر** . في هذه القصة يصف المؤلف لحظة يلتقي فيها أحد الصيادين بالضبع فيمنطقة حسين داي، فيكتشف ان بندقيته فارغة وان حزامه خال من الذخيرة ! واجمل ما في هذه الحكاية هو تحليله لمشاعر هذا الصياد ، حين يدرك الخطر المحدق به ، ويشعر بالحيوان يلقيه ارضا ، فيتصور القمر يــدور في حلقته ، والنجوم تتعانق متراقصــة في سعــر غريب ، وذلك بعد ان احس بشعر الحيوان يلامس وجهه وينشر فيه البرودة والجمود .

٣ ـ **حسن واسماعيل** ، وهي قصة العربي ، اسماعيل ، الذي ضحى بابنه حسن ، لانه تعدى على حرمته عندما قتل ضيفه احمد حقدا وغيرة. فقد كانت تعيش في خيمته فتاة ، تدعى عائدة ، يحبها حبه لبنته ، وكانت تبادل أحمد حبا بحب ، الا ان احمد اكتشف ان مضيفه ينوى تزويجها من ابنه حسن ، ولذلك قرر أن يتركه ويرحل عنه . فاجتمع قبل رحيله بعائدة وحدثها بما عزم عليه ، فالحت عليه في البقاء ، الا انه رفــض أن يسيء الى مضيفه بأي شكل من الاشكال . ورآه حسن في موقفه ذاك ، فحقد عليه . ولما عزم احمد على السفر ، عرض عليه أن يرافقــه مسافــة مــن الطريق ، فكان ذلك آخر عهد اسماعيل بضيفه . وما أن عرف نهايته حتى صمم على استــــرداد كرامته التي دنسها ابنه امام القبائــل الاخرى . وهذه القصة اروع ما في الكتاب على الاطلاق ، ويجد القارىء ترجمتها في مكان آخر .

٤ ـ **اليهود في افريقيا** ، يحتوى هذا العنوان على ثلاث حكايات عن علاقات اليهود ببايــــات تونس ودايات الجزائر ووهران . وقــد ركــز المؤلف حكاياته في معاملات اليهود التجارية التي تقوم عليها كل علاقاتهم بما في ذلك العاطفية منها.

ج ـ يتضمن القسم الثالث من هذا الكتــاب التديم :

١ ـ **نبذة عن تاريخ الجزائر** . ويتحدث المؤلف في هذه الدراسة عن أهمية الجزائر وكبر مساحتها وحدودها ، ثم يعدد اسماء ابطالها والدور الذي لعبوه في تاريخ الجزائر القديم ويذكر الـــدول المختلفة التي تعاقبت عليها خــلال العصـــور الطويلة ، وينهي هذه النبذة بالحديث عن سنوات الاحتلال الاولى .

٢ ـ **مملكة النباتات في الجزائر** ، تحت هــذا **العنوان يتحدث المؤلف عن طبيعة بلاد الجزائر ، ويشير في مقدمة مقاله الى انه لا تكاد توجد في نواحي الجزائر نبتة واحدة غير صالحة للاكل او للتجارة او للاستغلال في المعامل ، وان الارض الجزائرية تتمتع بحيوية فــريدة ، تمكنــها مــن احتضان نباتات كل من اوربا وامريكا دون عناية خاصة ! ثم يذكر الاشجار المختلفة والثمــار المتنوعة التي تنشر عطورها وروائحها الزكية في اتجاه أشعة الشمس الرائعة ، ويؤكد أن لكــل شهر براعمه وثماره وان نتاج الارض الخصبة لا ينقطع ابدا بصورة تامة** . ان المؤلف في مقالــه هذا يمجد خصوبة الجزائر وما تقدمه لاهاليها من خير ونعمة وعطاء .

٣ ـ **الجزائر في صورتها الحالية** . يحــاول شترال في هذا المقال ان يقدم صورة عن الجزائر بعد الاحتلال ، فيتحدث عن بعــض الصناعــات الوطنية ويصفها بأنها لم تتعد بعد مرحلة الطفولة، ثم يشير الى ما طرأ على طبيعة الجزائريين مــن تحولات بفعل احتكاكهم بالدخيل الاجنبي ، مــن ذلك انه لا يوجد من يفوق الجزائري في تعاطيــه للنبيذ ، فهو لا ينقطع عن تناول الخمر الا عندما يفقد الشرارة الاخيرة من وعيه ! وبعد هذا يرسم

المؤلف صورة للجزائر ببناياتها الجديدة ، وشوارعها الحديثة وطرق مواصلاتها ، وحركتها المعمارية المتزايدة ، التى تجعل الانسان يشعر بأنه يعيش فى مدينة أروبية ، ومنجزاتها بعد ثمانى سنوات من الاحتلال .

٤ — **حمام حضرى** . يتحدث المؤلف هنا عن تجربة دخوله الحمام ، فيصف داخله، وجدرانه المغلفة بالمرمر ، وغرفه ، وزواره وعملية الاستحمام من أولها الى آخرها ، ويحلل مشاعره تجاه كل ما شاهده واختبره جسما وعقلا لاول مرة !

٥ — **حضريات الجزائر** . يتناول شترال فى هذا المقال بعض مظاهر المراة الجزائرية ، ويقدم وصفا لحياتها المنزلية ، وخروجها لحضور الحفلات الدينية التى كانت تقام يوم الاربعاء من كل اسبوع ، أو لزيارة قبور الاولياء ، وللثياب التى ترتديها فى مثل هذه المناسبات ، ويستعرض حتى الحركات التى تصدر عنها عندما تريد ان تلفت الانظار اليها أو تعرف بنفسها أو تظهر رشاقة قوامها بشكل معين .

٦ — **سهل متيجة** . يعود المؤلف لتمجيد الطبيعة الجزائرية ، فيتصور سهل متيجة حزاما فاخرا تحتزم به منطقة الجزائر تارة ، ويتصوره فى بعض فصول السنة بساطا اخضر تطرزه الازهار والورود تارة اخرى ، ويرى فى آثار الضياع والقنوات ما وصل اليه سهل متيجة من ازدهار وعمران خلال العهود الماضية .

وينفى ما ذكره البعض من أن سهل متيجة كان حتى وقت غير بعيد مرعى لقطعان العرب لا غير . وبالتالى يصف الضجة التى قامت حول متيجة بعد الاحتلال ، وذاك حين أراد كل معمر أن يكون له نصيبه فى خصبها وتربتها المعطاء !

٧ — **قبر الرومية** . يصف شترال موقع هذا الضريح ، ثم يروى الاسطورة التالية :

قبل زمن طويل كان يعيش بين أفراد قبيلة حجوط رجل سعيد يدعى يوسف بن القاسم . وكانت امراته جميلة خيرة ، وكان ابناؤه فى صحة وعافية ، يدينون له بالطاعة . وكان هو نفسه محاربا شجاعا ولكنه وقع ، رغم شجاعته هذه ، اسيرا فى أيدى النصارى ، فأخذوه الى بلادهم وباعوه رقيقا . وكان سيده رفيقا به . ومع ذلك فقد كان يوسف يشعر بشقاء كبير ، وما أن يتذكر ما فقده حتى تنهر الدموع من عينيه .

وذات مساء اشتد به الحزن بعد انتهائه من عمله ، فجلس تحت شجرة وأخذ يناجى نفسه قائلا : « ويلاه ، من سيزرع حقلى فى الوقت الذى أزرع فيه أنا هنا حقل غيرى ؟ وما هو مصير زوجتى واطفالى الان ؟ — هل سأحرم من رؤيتهم مرة اخرى ، وهل سأنهى حياتى بين الغرباء ؟ ؟ » وبينما هو فى مناجاته هذه ، رأى ساحرا مقبلا نحوه . ولما اقترب منه قال له : « من اية قبيلة انت ، ايها العربى ؟ » « يوسف : « أنا حجوطى . » « لا بد أنك تعرف ضريح قبر الرومية ! » «أواه ! انى لاعرفه معرفة جيدة ! — ان منزلى ، الذى تركت فيه كلما هو عزيز على ، يقع بعد ساعة من ذلك الضريح . » « اتريد ان تعود الى اهلك؟» . « أتسألنى هذا السؤال ؟! ولكن لم الحديث عن أمر لن يكون ابدا !» « ان ما سآمرك به ليس امرا مستحيلا . ففى امكانى أن افتح لك طريق العودة الى الوطن واقودك الى اسرتك . ولكنى اطلب منك فى مقابل ذلك عملا . فهل أنت على استعداد للقيام به ؟ » « تكلم وكن على يقين من أنى سأفعل كل شىء من اجل الوصول الى أسرتى . أنا على استعداد للقيام بكل ما يرضى ضميرى . » . كن على اطمئنان فيما يخص هذا . اعرنى الان سمعك ليتضح لك ما اريده منك : سأحررك فى هذه الساعة وأهىء لك سبيل الوصول الى الجزائر . ولك ، بعد عودتك ، أن تعيش بين أفراد عائلتك ثلاثة ايام على أن تذهب فى اليوم الرابع الى ضريح قبر الرومية ، وتشعل نارا صغيرة ، ثم تحرق الورقة التى سأسلمها اليك . ها أنتذا ترى أن هذا من السهولة بمكان . أقسم لى اذن بأنك ستفعل ما أطلبه منك وسأمنحك حريتك فى الحين»

ففعل ابن القاسم ما طلبه منه الساحر ، واخذ منه ورقة تحتوى على حروف ورسوم لم يتوصل الى فهم دلالتها . واستعاد حريته فى اليوم نفسه، فقاده ولى نعمته الى مرفأ ، ركب منــه الــى الجزائر . فلم يبق بها سوى لحظات من شــدة شوقه الى رؤية اهله ، وسافر فى الحال الــى منطقة قبيلته . وفى وسع المرء ان يتصور البهجة التى عمت اسرته ! وقد تقاطر اليه اصدقاؤه ايضا ليشاركوه فرحته بعودته ، فظل منزله مزدحما بالضيوف لمدة ثلاثة ايام .

لمحرره ، فتوجه مع الفجر الى ضريح قبر الرومية واشعل النار ، واحرق الورقة الغريبة كما امره الساحر . وما كادت النار تاتى على الورقــة ، حتى اعترته دهشة كبيرة . فقد برزت من شقوق الضريح آلاف القطع الذهبية والفضية ، كأنهــا اسراب نحل افزعها حادث ما فطارت على غير هدى . وبقيت هذه القطع تحوم حول الضريــح مدة ، ثم غيرت اتجاهها فجأة وسارت نحو بلاد النصارى ، وقد اتخذت شكل عمود لا نهاية لــه ... تماما كما تبدأ الخطاطيف او طيور الهجرة رحلتها البعيدة .

وكان ابن القاسم ينظر بألم كيف تطير هــذه الثروات كلها فوق راسه ، ثم راح يقفز ، محاولا ان يمسك البعض منها . وبعد ان اتعب نفسه دون فائدة ، خلع برنوسه ورمى به فى الجــو ، فاستطاع بهذه الطريقة ان ينزل حوالى مائــة قطعة فضية وعشرين قطعة ذهبية . وما كادت هذه القطع تلامس الارض حتى غلق الكنز ولــم تتسرب بعد ذلك اية قطعة خارج الضريح .

ولم يحدث ابن القاسم احدا عن مغامراته هذه باستثناء عدد قليل من اصدقائه ، ومع ذلك فقد سمع الباشا بذلك وارسل العمال لهدم الضريح والاستيلاء على الكنز . الا انه ما كادت تسقط ضربة المطرقة الاولى ، حتى ظهر شبح على شكل امراة فوق قمة الضريح واخذ يصيح : « علولة ، علولة ! تعالى الى وساعدنى ! انهــم ينهبــون كنوزك . » فلبى نداءها سرب من البعوض بحجم الجرذان العادية ، وخرج من البحيرة المجاورة وطارد العمال بلسعاته القوية الحادة . ومنــذ ذلك الحين فشلت جميع المحاولات التى استهدفت فتح ضريح قبر الرومية . وقد ذكر الحكماء انه لن يتمكن غير النصرانى من استلام الكنوز التى بقيت داخل الضريح !

د ـــ فى القسم الرابع والاخير يتحدث المؤلف عن مجموعة من المدن الجزائرية ، فيذكر شيئا من تاريخ قسنطينة بعد الاحتلال ، ويصف موقعهــا وجسورها وشوارعها وما فيها مــن بنايــات وقصور ، وينوه بحيوية تجارها وصناعها ، ثــم يتعرض لتاريخها فى العصر الرومانى والعصور التى تلته بصورة مختصرة . ويذكر مثل هذا او قريبا منه عن مدينة وهران ، وعنابة ، وبجاية ومعسكر ، وشرشال ، ومستغانم ، والقــل ، ومليانة ، وندرومة ، وينهى ذلك بالحديث عن آثار تكدست ومعامل الاسلحة ، التى نقلها الامــير عبد القادر اليها .

وصاحب الكتاب يقدم آراء حول الجزائــر بصورة عامة ، الا انه لا ينبغى ان يفهم من هذا ان تلك الآراء صائبة دائما ، وانما هــو يخطىء احيانا كما أخطأ غيره قبله او بعده . ويرجع خطأه اما الى التأثر بالافكار الخاطئة التى كانت تشيعها الذهنية الاستعمارية فىذلك الحين أو الى سطحية الاستعمارية فى ذلك الحين او الــى سطحيــة ملاحظاته عن الجزائر ونفسية سكانها . وهذا النوع من الآراء خاضع ، على اية حال ، للمناقشة والرفض .

واذا كان لى ان اقدم نموذجا من القسم الاول الذى يتضمن قصصا وحكايات ، وهو شىء جديد بالنسبة لى على الاقل ، فى الدراسات التى نشرت عن الجزائر فى القرن الماضى ، فانى اختار القصة التالية ، وهى « حسن واسماعيل » وقد اشرت اليها وقدمت خلاصة قصيرة لها اثنــاء عــرض الكتــاب .

كانت هناك عدة خيام قد ضربت تحت أشجار الطلح ، التى تفرز أغصانها من حين لآخر قطرات الصمـــغ ، فتلتمـــع كالزبرجد فى ألق الشمس الغاربة ، وقد جلس أمام تلك الخيام خمسة أشخاص ، هم : الشيخ اسماعيل ، وهو عربى لا يزال ، رغم تقدم السن ، يحتفظ بقوته ونشاطه ، وزوجه ، وابنه حسن ، وفتاة شابة ، وغريب يرتدى الزى التركـــى .

كان الشيخ قد حدث الغريب قبل ذلك بقليل عن السبب الذى جعله يلحق الفتاة ، وهى يتيمة فقيرة ، بأسرته . وبعد أن قبلت عائدة يد مربيها ، واصل الشيخ حديثه قائلا وقد أدار وجهه نحو الغريب :

— لقد أتيح لك أكثر من مرة أن تلاحظ ، خلال المدة التى أقمتها معنا ، مدى حبى لعائدة ، أليس كذلك ؟ — انى أعتبرها ابنتى وأرجو أن —

ظن حسن أن كلمات أبيه تعنيه هو لا غيره ، ولذلك ألقى على عائدة نظرة متشهية ، فاهتزت الفتاة وارتعدت فرائصها كما لو أن هبة السموم المحرقة قد ألهبتها . أما الغريب فقد أطرق مفكرا . ان كلمات الشيخ الواضحة ونظرات حسن قد أثارت فى نفسه مشاعر لا توصف . وعندما انتهت الجلسة اقترب من الفتاة ، وهمس فى أذنها كلمة لم يفهمها سواها ، ثم ابتعد ، وعلامات الحزن بادية عليه ، دون أن يهتم بما ارتسم على جبين حسن من مخايل الغضب والعنف .

لم يخطر بباله ، منذ أن سكن منزل هذا العربى ، أن عائدة يمكن أن تكون عروس حسن ، ولهذا أطلق العنان لحبـــه . كان هو الوحيد الذى نجا من السموم التى قضت على القافلة ، فوجد عند هؤلاء الناس الطيبين كرما حقيقيـــا وضيافة أصيلة ، وتعود على الحياة البسيطة الهنيئة الى الى درجة أنه لم يفكر خلال ذلك فى الانفصال عنهم ، وكانت عائدة تحبه ، الا أنه عرف ، فى الوقت الذى أراد فيه أن يفتح قلبه للشيخ اسماعيل ويطلب منه يد ربيبته ، أن عائدة مخطوبة لشخص آخر .

وهكذا قرر ، وذلك لكيلا يحول بين الشيخ وبين تنفيذ ما عزم عليه ، أن يضحى بحبه لعائدة من أجل المحافظة على واجبات الضيافة ، وأن يهجر الاسرة الى الابد ، ولكنه أخفى ذلك عن الشيخ اسماعيل حتى لا يسىء الى كرمه ، وحسن ضيافته ، ولم يذكر له الحقيقة كاملة ، وانما حمله على الاعتقاد بأنه سيعود اليه بمجرد أن تسمح له أعماله بذلك .

وعندما عاد جميع أفراد العائلة الى خيامهم ، ترك الغريب خيمته واتجه الى العين القريبة . كان الليل هادئا ، وكانت الحشرات تلمع بين الاعشاب كنجوم السماء . وفى تلك اللحظة تهادت فوق المرج قامة رائعة — ها هى العروس تقف أمام أحمد ، فيقول لها :

— انى أحبك ، ويسعدنى أن تبادلينى هذا الحب ، ولكن بما أن الشيخ اسماعيل قد اختارك لتكونى زوجة لابنه ، فيجب أن تكونى زوجته . ولا يليق بنا نحن الاثنين أن نقضى على آماله ، لانه ولى نعمتنا .

— فأجابت الفتاة ، وهى تحاول أن تجد فى نظرات أحمد ما يثبت دعواتها :

— ولكن حسن لا يحبنى .

— تقولين انه لا يحبك ؟ ألم تلاحظى نظراته المشتهيـــة عندما أعلن اسماعيل انك خطيبة ابنه ؟

قالت :

— انصت ! هناك حركة بين الاغصان ..
فأجاب الشاب :

— لعله حيـــوان يصـــغى الى حديثنـــا من مربضـــه ..

ثم أضاف :

— هذا آخر لقاء لنا .

فتساءلت عائدة :

— ما ذا تريد أن تفعل ؟

— انها مشيئة الله — سأسافر —

— ما هذا الكلام يا أحمد ؟ أتراك نسيت ؟ ..

— لم أنس انك جديرة برجل ، هو ابن ولى نعمتنا الذى اقتسم معنا خيمته وخبزه . لم أنس أن ناكر الجميل أسوأ من ذلك الذى لا يقرى ضيوفه.ومع ذلك فان هذا الاخير نفسه بغيض الى الله ، فما بالك بناكر الجميل . — عائدة ! اعتبرينى منذ الان أخا لك !

أحنت الفتاة المسكينة رأسها ، واعترفت أمام نفسها ، والدموع تنهمر من عينيها ، أن أحمد على صواب . واعتراها الفزع فجأة وقالت ، وهى تشير الى الادغال القريبة منهما :

— أنظر يا أحمد ! أليست هذه نظرات الفهد النارية ؟ فمسك أحمد مقبض خنجره ، واتجه نحو المكان الذى أشارت اليه عائدة . وحين اقترب من الادغال سمع خطوات هارب يبتعد . ولما رجع الى عائدة قال لها :

— انها غزالة ..

— أضاف بعد لحظة :

— سأترككم بعد يومين . واذا قلت لك ، يا عائدة ، انى ساعود بعد فترة قصيرة ، فلا تصدقينى : سأتركك الى الابد ! ..

— ولكن كيف يمكن أن أكون زوجة لحسن ، وأنا أحب غيره ؟ — وأنت نفسك .. أنا يا عائدة ؟ انى أحبك حبـــا فاعترضت الفتاة :

صادقا ! ولكن لا أحب خطيبة حسن .. فلنقطع هذا الحديث. عودي الى خيمتك ! لقد استخرت الله ، وهذه ارادته .. ألا تريدين طاعته ؟

أجابه عائدة :

ـ نعم .. لقد قال كلمته على لسانك ؟

وابتعدت عائدة بعد هذه الكلمات . أما أحمد فقد بقي واقفا في مكانه كأنه مغروس في الارض ، وعيناه تتبعان عائدة الذاهبة . وعندما اختفت تحت خيمتها خيل اليه أنه رأى شبحا يقترب منها . وبعد يومين ودع الغريب الاسرة ، وكانت عائدة عاجزة تقريبا عن اخفاء ألمها عندما تحدث أحمد عن رجوعه القريب ، لانها كانت تعرف معنى ذلك .

وفي اللحظة الذي كان فيها أحمد يهيىء نفسه للسفر ، ظهر حسن ممتطيا صهوة جواد ، واقترب منه وقال :

ـ اسمح لي أيها الاخ ، بمرافقتك حتى تلك العين . فقال الشيخ العربي :

ـ احسنت يا بني ! رافق ضيفنا .. حفظه الله وأعاده الينا قريبا ..

كانت عائدة لا تزال منتصبة كالتمثال في المكان نفســه بعد ان اختفى الراكبين عن نظراتها المتطلعة بمدة طويلة .

قال اسماعيل لزوجته وهو ينظر الى الفتاة مبتسما في اعجاب :

ـ سيجد حسن فيها زوجة رقيقة طيعة .

ولكن العجوز أطرقت مفكرة ولم تجب . وفي المساء عاد حسن الى البيت . ومرت الايام التالية ثقيلة بطيئة . فقد ترك سفر أحمد فجوة محسوسة بين أفراد الاسرة التي أحبته باستثناء حسن الذي أبدى ملاحظة خبيثة ، وهي أنه لا يستطع أن يفهم كيف اختفت البهجة من وسط الاسرة باختفاء الغريب . ولكن الشيخ قال :

ـ ان يد الله ، التي قادت الغريب الى خيمتنا ، قد أدخلت البهجة الى وسطنا . ذلك انوصول المسافر انما هو هبة من الله . وانى لارجو أن يعود أحمد قريبا ، فقد أباح لي أكثر من مرة بانه يأمل أن يحصل على زوجة من بين بنات قبيلتنا .

أجاب حسن ، وهو يلقي نظرة نافذة على عائدة المرتجفة :

ـ ان العين الشريرة تفتننا وتضع الغشاوة على ابصارنا وتشل حركتنا كالهوة تحت أقدامنا . ان الضيافة عمياء ، والله لم يضع على جبين أي انسان علامة تدل على أنه خير أو شرير . ألا تشبه الحية الوديعة الافعى السامة ؟!
فقال اسماعيل بشـــدة :

ـ أرجوك يا ابني ، ألا تتضمن كلماتك اتهاما ضد الغائب الذي لا يستطيع أن يسمع ولا أن يدافع عن نفسه !

ـ هل تقتضي الضيافة أن يصبح الغريب ابنا لمضيفه ويغدو الابن غريبا ؟

ـ انك ، يا ابني ، لتحمل معك أفكارا شريرة : أنت غيران . فهل سيلقى الغريب ، عند عودته ، فيك عدوا ؟
ـ وكيف يكون الامر اذن اذا كان الغريب يحب خطيبة ابنك ؟

ـ في هذه الحالة سأترك للفتاة حرية الاختيار بين الاثنين .

ـ اذن .. فلا أعاد الله الغريب أبدا ! ..

قال الشيخ العربي ، وهو يترك مكانه :

ـ طهر الله قلبك من الحسد الجاثم فيه .

ثم سار اسماعيل وقد قطب ما بين عينيه ، وأثقل صدره الظن والهم . وفي صبحة اليوم التالي ترك مضرب خيامه ، ولم يعد اليه الا بعد يومين . كان وجهه شاحبا ،وحاجباه تتقاربان في أغلب الاحيان وبصورة متشنجة . وعندما اجتمعت الاسرة لتناول الطعام ، قال اسماعيل للعربي الشاب بهدوء :

ـ لماذا لا تحمل خنجرك في حزامك ، يا حسن ؟
فأجاب حسن في ارتباك :

ـ لاأدري ، يا أبي ! يبدو أني نسيت أن أغرزه في حزامي !

ـ أمض للبحث عنه ، يا بني ! فانا أريد أن أقارنه بخنجر آخر عثرت عليه يوم أمس .

قال حسن ، وهو يحاول أن يتمالك نفسه :

ـ انى أفتقد الخنجر ، يا أبي منذ بضعة أيام . وأذكر أني انحنيت مرة لاطيل الركاب . فأضعت خنجري ، ولم أعثر عليه .

فأرى اسماعيل ابنه خنجرا ، أخفى شفرته عنه :
ـ أهو هذا ؟

أجاب حسن في حزم :

ـ نعم انه هو .

فقال اسماعيل ، وهو يلعق نظرته النافذة بحسن :
ـ انظر الى هذه الشفرة !

فتراجع حسن فزعا عند ما رأى الشفرة الملطخة بالــدم والصدأ . فنهض الشيخ وهو يقول :

ـ والآن اتبعني !

وسارا الرجلان صامتين جنبا الى جنب ، وعندما اجتازا أشجار الطلح والجميز ، توقف اسماعيل فجأة وقال بصوت جلل رزين :

ـ اين تركت الغريب ، يا حسن ؟

ـ قرب عين الملح .

ـ هل نعرف ما اذا كان قد حل به مكروه ؟

ـ وهل لى أن أعــرف ما اذا كانت نمور الصحــراء قد رفقت به ؟

فصاح الشيخ بصوت غاضب وقد التمعت عيناه كالبرق :

ـ حسن ! وهل للنمور خناجر ، وهل يقتال الشجــاع من خلف ؟!

ـ عندما ينسلل الثعبان الى الخيمة ، فان الانسان يسحقه بدون رحمة .

ـ حسن ! لقد قتلت ضيف أبيك ..

فصاح حسن وقد فقد السيطرة على نفسه :

ـ أجل . لقد قتلت الشقى الذى خــدع مضيفه وكافا جميله بالخيانة .

ثم روى له اللقاء الاخير الذى تم بين أحمد وعائدة .. مستنتجا كل شىء من حركاتهما واشاراتهما ، لانه لم يسمع حديثهما .

وكان اسماعيل يصغى اليه بانتباه ، وبعد ذلك أخــذ بندقيته تحت ذراعه وحك الصوانة بابهامه ثم غرز طرف البندقية فى الارض واتكأ عليها وقال :

ـ حسن ! ان الضيافة واجب مقدس ، ومن اغتال ضيفه ولو كان مجرما ، حل به عقاب الله . لقد جلبت على العار ! قتلت الرجل الذى كنت تسميه « أخا » بطريقة غادرة دنيئة جبان . واذا كنت متيقنا من ذنبه وعدالة عقابه فلماذا لم تتهمه أمامنا وتهاجمه علنا ؟ ها انذا أجيبك على ذلك : انك لم تقتله بعيدا عن خيامنا لانك تخاف أن يدنس دم رجل شرير أرضنا المضياف ، وانما قتلته لانك كنت تعرف انى اصغى الى صوت العدالة لا الى ما تمليه نزوة عمياء . لقد تركت بذرة الافكار الشريرة تنمو فى وجدانك والتزمت الصمت الغادر . فبينما كنت تقدم يسراك للضيف الــواثق بك ، الذى كنت تسميه « أخا » كانت يمينك تتلمس رأس الخنجر . لقد تسللت كالكلب الحقير لتقبل يد ذلك الذى كنت تريد أن تقتله . فرافقت الغريب بدعوى أنك تريد أن تدافع عنه وتحميه ، ثم عرزت الخنجر بين كتفيه ، ولعله كان فى تلك اللحظة يدعو لخيمتنا المضيافة باليمن والبركة ! فالذنب ذنبك اذن اذا طردتنى قبيلتى وارغمت على اللجوء الى القبائل المجاورة التى ستحتقرنى بحق وتشير الى بالبنان وانى لاسمع الان الاطفال يسخرون من « اسماعيل المضياف » بينما الشيوخ يوجهون الى السؤال الذى وجه الى اول من أجرم فوق الارض : « ما ذا فعلت بأخيك ؟ » . لا ينبغى أن يحدث هذا ! أريد أن أسير مرفوع الرأس وأن يكــون فى وسعى أن أعرض على ابن السبيل خيمتى . فلنحتكم الان الى الله . وغدا ستحكم بيننا القبيلة فى اجتماع أفرادها جميعا . اتبعنى ! .

وعندما رجع اسماعيل الى خيمته ، اعترضت طريقــه زوجته باكية ملوحة بيديها ، وصاحت بصوت راش :

ـ ماذا فعلت يا اسماعيل ؟

فاجاب الرجل ، وهو يضع بندقيته فى احدى زوايا الخيمة ويخفى رأسه فى ثنايا ثيابه :

ـ لقد سلمت المذنب الى قاضيه وانقذت شرف قبيلتى !

ومنذ ذلك اليوم لم يظهر أثر لحسن قط ، ولعل أبــاه قد أبعده عنه ، فى سورة غضبه ، الى الابد .

د . أبو العيد دودو
أستاذ الادب بالجامعة



دور اليهودية العالمية في سياسة التوسع الإسرائيلية



اسرائيل الكبرى كما حددها هيرتزل

الدكتور
هشام الصفدى

لعب المال ومـا زال يلعب دورا رئيسيا فى قيام دولـة اسرائيل وفى استمرار بقائها، وقد بدا هذا الدور عندما ابدى هيرتسل رغبته فى انشاء بنـك صهيونى (صندوق الائتمـان اليهودى للاستعمار) ، ثـم تزايد دور المال بشكل مطـرد مع عمليات شراء الاراضى فى فلسطين (الصنـدوق القومى اليهودى) ، واقامة المستعمرات من قبـل الوكـالة اليهودية واشراف هذه الوكالة عـلى تنظيم وتحويل عمليات تهجير يهـود العالـم الى ((الارض الموعودة)) فى فلسطين .

وقد كان الجانب الرئيسى من الاموال يجمع من تبرعات اليهود ، وخاصة يهود الولايات المتحدة . وباحصاء اولى بلغت الاموال التى تبرع بها يهود العالم لاسرائيل منذ انشائها عام ١٩٤٨ حوالى ٥ر٣ ملايير من الدولارات ، يضاف اليها ما قدمه اليهود من قروض لها تقارب ٥ر١ مليار من الدولارات او ما قدمته المانيا الغربية من تعويضات نقدية وعينية . كل هذه الحقن المالية تشير الى أن اسرائيل لا تستطيع الحياة بدون المساعدات الخارجية .

بلغت موجة التبرعات ذروتها عقب حرب عام ١٩٦٧ ، فكانت حسب وصف ناخوم جولدمان رئيس « المؤتمر اليهودى العالمى » دليلا على خوف اليهود على اسرائيل ، وتعبيرا عن الفرح الذى امتلكهم بعد الانتصار ... ومهما كانت التفسيرات التى يقدمها قادة الحركة الصهيونية : من أن التبرع بالمال يعتبر بمثابة ضريبة « الدياسبورا » اى ضريبة على يهود العالم الذين يعيشون خارج اسرائيل ، او ان كل يهودى يتكفل بكل يهود العالم ، أو أن لاسرائيل جيشان : أمامى فى اسرائيل ، واحتياطى موزع فى ارجاء العالم .... الخ — تبقى هناك حقيقة اساسية مفادها انه فى كل مرة تشعر اسرائيل فيها بالخطر يتوجب على اليهودية العالمية أن تظهر استعدادا مماثلا للتضحية بالمال . لذلك سيكون من مصلحة اسرائيل استمرار حالة التوتر فى الشرق الاوسط هذه الحقيقة يعترف بها جولدمان ، ويؤكدها جوتفريد هامر — احد كبار قادة الصهيونية فى الولايات المتحدة — بقوله : عندما يسيل الدم يسيل المال ايضا » ومن البديهى ان استمرار حالة التوتر تؤخر نمو وتطور البلاد العربية المجاورة ولضمان استمرار يهود العالم فىالتبرع لاسرائيل ، يحرص زعماء الحركة الصهيونية على ترسيخ الزعم القائل : « بأن بقاء الشعب اليهودى الموزع فى العالم يتوقف على استمرار وبقاء دولة اسرائيل »، وان انشاء دولة اسرائيل غايته الاولى ضمان الوجود اليهودى »،وبالتالى يجب على كل من يريد الحفاظ على يهوديته أن يساعد اسرائيل . وهذا ما يطلقون عليه اسم « ضريبة الدياسبورا » . ولقد ثبت ان يهود العالم اخذوا يشعرون بالضيق من الضريبة الثقيلة المفروضة عليهم ، والتى لا يعرفون متى تنتهى جبايتها منهم . علاوة على ذلك اصبح على اليهودى الساكن فى فرنسا مثلا اداء ضريبتين : ضريبة الى الدولة التى يحمل جنسيتها ، واخرى الى اسرائيل . هذه الحقيقة تعكس جانبا من الصراع الداخلى الذى يعانيه ذلك الفرد من من ازدواج فى الولاء الى المجتمع الذى ولد وعاش فيه ، والى اسرائيل التى لم تقع عينه عليها قبل اليوم .

من الواضح أن التبرعات لليهود اتسعت عقب الحرب العالمية الثانية وبعد أن استغلت الصهيونية العالمية قصة الاضطهاد النازى الى أبعد مدى لدى الشعوب التى تقيم فيها جاليات يهودية . فالتبرع كان أصلا نتيجة لدوافع انسانية بحتة . وكانت غايته التخفيف من مصائب الافراد ومساعدتهم . أما أن يتحول التبرع من مساعدة الافراد فى مجالات الصحة والثقافة والاجتماع الى دعم دولة — كما هو الامر فى المساعدات الالمانية والتبرعات الامريكية — نصبت نفسها وريثا ليهود العالم ، فيعتبر حتى فى رأى بعض المسؤولين الاميركيين تحولا خطيرا وغير شرعى . خاصة وان أموال التبرعات فى أمريكا تخصم من التكليف الضريبى. ويشترط عندها ان تذهب التبرعات الى مؤسسات انسانية خيرية . والوكالة اليهودية التى تتصرف فى اسرائيل بأموال التبرعات ما هى الا منظمة حكومية وعميلة أجنبية لدى حكومة الولايات المتحدة .

نظر العرب الى التبرعات اليهودية العالمية والى اعتماد اسرائيل الشديد على عناصر خارجة عن المنطقة بأنه برهان قاطع على أن دولة اليهود تشكل جسما غريبا ، وأنها رأس جسر للاستعمار فى قلب المنطقة العربية . فأموال التبرعات التى تنصب على الوكالة اليهودية تحمل عن ميزانية الحكومة الاسرائيلية جانبا ضخما من اعبائها . وبذلك تساعد التبرعات الحكومة الاسرائيلية على تحويل وشن سلسلة الحروب العدوانية التى لم تنقطع منذ عام ١٩٤٨

هذا من الناحية المالية التى لا تنفصل عن الناحية البشرية فى الصراع العربى الاسرائيلى. اذ أن الحروب التى شنتها اسرائيل على الدول

العربية المجاورة استهدفت التوسع فى الاراضى فغدا التوسع الاسرائيلى منسجما مع الشعار الذى رفعه زعماء هذه الدولة بأنها وطن قومى للثلاثة عشر مليونا من اليهود ومحققا له . وقد حرص المسؤولون الاسرائيليون الى أمد تمويه هذا الشعار بشكل أو بآخر . واليوم يخرج صهيونى مسؤول كناحوم جولدمان القناع ليضع النقاط على الحروف فى موضوعين اساسيين مرتبطين ببعضهما بشكل وثيق :

١ ــ دور الرأسمالية العالمية اليهودية المقبل فى العالم العربى .

٢ ــ مستقبل العلاقات العربية الاسرائيلية .

ففى حديث صحفى اجراه جولدمان مؤخرا استغرب مهاجمة العرب تبرعات اليهودية العالمية لاسرائيل . فحاول ان يطمئن العرب بأنه « عندما يسود السلام **سيكون لليهود العالمية مغزى كبير بالنسبة للعالم العربى** فهى تنوى استثمار المليارات فى هذا العالم ..» وبعض هذه الاموال سيخصص على سبيل المثل لحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين .. !!

ولكى يسود السلام يجب على العرب أن يقبلوا بالامر الواقع الذى يتلخص فى « ان اسرائيل مرتبطة باليهودية العالمية ، وبأنها لن تقتصر على اسرائيل فقط . كذلك لكل يهودى الحق فى ان يهاجر الى اسرائيل وأن يصبح مواطنا لتلك الدولة » . « واذا رفض العرب قبول ذلك . أو رفضوا السماح للهجرة اليهودية فلن يوجد هناك أى تفاهم ... » . وباختصار يريد رئيس المؤتمر اليهودى العالمى أن يغرق العالم العربى فى موجتين : موجة الرأسمالية العالمية اليهودية واستثماراتها ، وموجة المستعمرين الجدد .

لايضاح دور المال فى تنفيذ المخططات الصهيونية فى المنطقة العربية رأينا من الضرورى فيما يلى تقديم تلخيص للتقرير الهام الذى نشرته مجلة « المرأة » الالمانية الغربية مؤخرا رغم أسلوبه المتحيز لاسرائيل . وهو بعنوان : « كل يهودى يكفل كل اليهود : تقرير عن المساعدات المالية التى تقدمها اليهودية العالمية لاسرائيل » :



هيرتزل : مهمتنا نقل شعب لا وطن له الى وطن لا شعب فيه

تنوعت فى السنوات الاخيرة الشعارات التى تطلق فى حملات جمع التبرعات لاسرائيل ، وذلك لحض يهود العالم على دفع المال . ولعل أبرز هذه الشعارات واكثرها تصويرا للواقع النداء الذى توجه به مواطن يهودى من جنوب افريقيا الى ثمانمائة عائلة يهودية تعيش فى مدينة بورت اليزابيت قائلا : « أدفعوا حتى تتوجعوا من ألدفع ، بل ادفعوا الى آن يؤلمكم الدفع فعلا ». وكانت حصيلة تبرعاتهم تلك السنة عشرة ملايين من الماركات أمارجل المال الباون روتشليدفقدنادى مواطنيه من يهودى فرنسا مهيبا بهم ان يخصصوا ١٠ ٪ من دخلهم لبناء الدولة اليهودية ولنفس الهدف خاطب رئيس منظمة « النداء اليهودى الموحد » فى نيويورك الستة ملايين يهودى أمريكى قائلا : « ان اضحيات الاسرائيليين تقدر بكمية ما يفقدوه من قتلى ومن جرحى ومن دماء، أما أضحياتنا نحن فتقدر بمقدار ما نتبرع به » . وطالب الجالية اليهودية فى أمريكا بجمع ٥٠٠ مليون دولار خلال عملية التبرعات .

بحقن المال المنظمة التى تزرعها اليهودية العالمية فى شرايين دولة اسرائيل نمت اسرائيل الفقيرة بالسكان خلال عشرين سنة حتى اصبحت اقوى دولة صناعية فى الشرق الاوسط . وبدون هذه الحقن لربما غدت تلك الدولة التى تشن الحروب عاجزة اليوم عن دفع التزاماتها المالية الى الخارج . ومن الادلة التى تؤكد ذلك ان اليهود فى ارجاء العالم ضخوا الى اسرائيل بحوالى مليارين من الماركات فى العام الفائت . فخفضوا عجز ميزان المدفوعات التجارى الاسرائيلى الى النصف تقريبا . ويحلو للاسرائيليين ان يمزحوا بأنهم اوجدوا التزاوج بين الزرافة والبقرة: فالحيوان المستحدث يتناول القوت فى المهجر ويعطى الحليب فى اسرائيل . ويتمثل الحليب هذا فى طائفة من المنجزات التى تحققت مثل بناء ٢٥ الف منزل للمهاجرين الجدد فى اسرائيل ، وحوالى ٤٩٠ قرية جديدة ، وتربية حوالى ٧٠٠ الف طفل ... علاوة على المدارس والجامعات والمستشفيات والمشاريع الاقتصادية والحليب ايضا هو التسلح .

تبتلع آلة الحرب الاسرائيلية حوالى ٨٥ ٪ من دخل الدولة من الضرائب . « وطالما ان اليهودية العالمية تحمل عن اسرائيل اعباءها الاجتماعية ، يستطيع الاسرائيليون ــ حسب تعبير ابا ايبان ــ ان يفرضوا انفسهم فى كل ميدان آخر » . ففى حرب عام ١٩٦٧ جمع يهود العالم ٣٧٠ مليونا من الدولارات لاسرائيل . وهو ضعف المبلغ الذى تم جمعه فى السنة السابقة . وحتى اليهود فى اقصى اصقاع المعمورة اكتشفوا ذلك الحين محبتهم لاسرائيل . اذ استقبل اليهود فى امريكا اللاتينية وزير مالية اسرائيل خلال جولته هناك بالشكات والاموال والحلى التى تبرعوا بها لاسرائيل . هذه الضريبة أى « ضريبة الدياسبورا » يراد منها التأكيد بان اسرائيل ليست مجرد بلد للمليونين ونصف من اليهود الاسرائيليين . بل انها وطن لجميع يهود العالم . وبذلك تعتبر دولة اسرائيل نفسها من ابداع كافة افراد الشعب اليهودى ...

أما مناهضوا الصهيونية مثل اورى افنزى العضو اليسارى فى الكنيست فيهزأ من العملية عندما يلاحظ بأن الاموال المتدفقة من يهود العالم



يعتبرها الصهاينة الاقحاح « كفارة » يدفعها اولئك اليهود الذين لا يتمكنون ــ خلافا لواجبهم القومى ــ من المجىء لاسرائيل .

اشكال التبرع :

لا يكفر اليهود عن تخلفهم عن الهجرةلاسرائيل خلال حياتهم فحسب ، فالبعض منهم يقوم بذلك بشكل او بآخر بعد الموت ، فيهبوا ثرواتهم الى دولة اسرائيل او الى مؤسساتها . فقد خلف احد المخرجين السينمائيين من اليهود الالمان ثروته البالغة ٦٠٠ الف مارك « للصندوق القومى اليهودى » . وآخر من تجار الذهب فى جنوب افريقيا يوصى لنفس الصندوق بثروة بلغت ١٫١ مليون من الماركات . وهنالك مليونير يهودى من هولانده اشترط لوهب ثروته ــ المؤلفة من مليونين من الدولارات ــ الى معهد وايزمان أن يدفن بعد موته الى جانب قبر وايزمان مؤسس الدولة الاسرائيلية . ولكى يحصل المعهد على هذه الثروة اضطر المسؤولون الاسرائيليون لتلبية الشرط فدفن ولكن على مبعدة قليلة من قبر وايزمان . والعديد من اثرياء اليهود فى المهجر خلدوا أسماءهم فى : المعاهد والمبانى والمدارس التى شيدوها بأموالهم فى اسرائيل مثل : « آبى فاينبرج » و « مسرح برونفحان » و «معهد دانزيغر للابحاث الفيزيائية» ... الخ

منظمات جمع المال :

تقف « الوكالة اليهودية » ومركزها في القدس في طليعة هذه المنظمات ، واليها تتدفق اموال التبرعات لتستغل داخل اسرائيل وخارجها . اما جمع الاموال فتقوم به منظمة « الكيرن هايسود » والتي لها فروع موزعة في اربعة وثلاثين بلدا . ويشرف مديروا هذه المنظمة على توجيه الدعاية لاسرائيل ، وعلى تنظيم حملات جمع المال . وتحرص المنظمة على استيراد الخطباء الطويلي الباع من اسرائيل ، مثلما تحرص على ارسال اغنياء اليهود الى الارض المقدسة في زيارات لاسرائيل .

ويكفي لبيان دور منظمة « الكيرن هايسود » المديح الذي قاله لها سيغموند فرويد مرة : « لقد غدت هذه المنظمة اهم اداة في كفاح شعبنا لانشاء وطن جديد في ارض اجدادنا . » . وبواسطة برسالة واسعة من اساليب جمع المال يلائم موظفوا المنظمة انفسهم بلباقة مع الخصائص المحلية ليهود العالم .

اساليب جمع المال

تختلف اساليب الجمع بحسب كل منطقة ، فاليهود السويسريون يقيمون كل عام حفلات راقصة خيرية يتخللها « يا نصيب » واسواق خيرية . اما في فرنسا فترسل الخطابات السرية الى اليهود هناك ترجوهم دفع انصبتهم من التبرعات ، خاصة وان يهود فرنسا اصبحوا متمثلين الى مدى بعيد ضمن المجتمع الفرنسي . والكثير من يهود افريقيا الجنوبية يرسل التبرعات بشكل حوالات مالية منتظمة لمساعدة اسرائيل . ويهود فينلندا يقارب احتفالهم بعملية جمع الاموال السنوية مرتبة الاحتفال بعيد ديني كبير ، اخيرا تبقى تبرعات اليهود الامريكيين السند الاكبر لاسرائيل . وبما ان عددهم يبلغ حوالي ستة ملايين فلا عجب ان كل حوالى ٨٠ ٪ من التبرعات والقروض المرسلة لاسرائيل تتألف من دولارات امريكية .

وفي الولايات المتحدة نفسها تمكن ممتهنوا جمع المال من اليهود الى تطوير هذا العمل الى حد اقصى . ومن بناية في مانهاتن في نيويورك يسير مديروا منظمة « النداء اليهودي الموحد » جيشا من محترفي ومتطوعي جمع المال . وتتصل الادارة المركزية بواسطة جهاز « التلكس » مباشرة بحوالي ثلاثمائة جماعة يهودية .

وزعماء هذه المنظمة يرتبون سنويا اقامة حوالي عشرين الف احتفال خيري لصالح اسرائيل كما يوفدون الساسة الاسرائيليين في رحلات عائية من الشاطي الشرقي الى الشاطيء الغربي للولايا ت المتحدة ، ويستأجرون لدعايتهم اساتذة اسرائيليين وفنانين وصحفيين . واعتبارا من حرب ١٩٦٧ يتزايد طلب الضباط لهذا الغرض . واما رجال الكونغرس الاميركي فيلبون بسرور دعوة المنظمة لهم لحضور الاحتفالات الخيرية ، لانهم يتقاضون عليها مكافآت تصل الى الفي دولار على الاقل مقابل كل محاضرة يلقونها .

وفي نيويورك التي تضم من اليهود مقدار مافي اسرائيل من يهود تقريبا ، يعقد حوالي ثمانمائة اجتماع خلال حملة مدتها ستة اشهر . فتتراوح هذه الحفلات بين دعوات عشاء سخية في فنادق هيلتون ووالدورف استوريا الى حفلات منزلية سرية . وكانت اكبر حفلة تقام بمناسبة زيارة جولدامائير للولايات المتحدة . اذ لبى الدعوة حوالى ٣٠٠٠ يهودى من ابناء الطبقة الامريكية الراقية . واذيعت الحفلة على شبكة تلفزيون خاصة ليتمكن اليهود في تسعة عشر مدينة امريكية من مشاهدة وقائع ذلك الحفل النادر في تاريخ الجالية اليهودية الاميركية . وفي هذا الحفل نادت جولدامائير الحاضرين قائلة : « اسرائيل مركز كل شيء يهودي » وبواسطة الاحتفال تم جمع عشرة آلاف دولار وسيطا منكل فرد منالمدعوين،مقابل الاحتفالات الكبرى الاستثنائية يحرص موظفوا جمع المال علىدعوةالناس الى احتفالات صغيرة ضمن وسط من المعارف ، وتنجح الاحتفالات الصغيرة عندمايدعى اليها اناس معينون من اصحاب المهن او الاعمال الواحدة « كرجال الصناعة » مثلا . وفي تفسير ذلك يقول راخائيل ليفي رئيس منظمة « النداء اليهودي الموحد » : اذا اردت من احدهم ان يدفع بشكل لائق . يتوجب عليك ان تدعوه للدفع وهو موجود بين اقرانه ونظرائه . وعملا بهذه الحكمة غطت المنظة

كل الولايات المتحدة بشبكة كثيفة من « لجان الصناعة » . ويحرص مديروا المنظمة في اختيار رؤساء هذه اللجان ان يكون الرئيس من بين رجال الاعمال الواسعي النفوذ . فعليه ان يدعو الناس لحفلات عشاء خيرية ، او الى « افطارات يوم الاحد » او يدعو « لامسيات اسرائيلية » مع عرض صور بالفانوس السحري . اما في منزله فيستقبل رئيس اللجنة الميسورين القادرين على التبرع بشكل خاص . وبعد ان يختار موظفوا المنظمة اسماء المدعوين بعناية ويرسلوا لهم بطاقات الدعوة ، يقوم رئيس اللجنة في نيويورك مثلا (وقد اغفل ذكر اسمه في التقرير) ولنطلق عليه اسم التاجر (س) ، يقوم هذا التاجر شخصيا بمخابرة المدعو الذي يتردد في قبول الدعوة ، ليفهمه مدى الاهمية التي يعلقها على هذه الحفلة . وفي خلال الاستقبال الذي يتم في منزله الفخم يتولى خدام المنظمة تجهيز الكوكتيل المفضل لدى كل من المدعوين . وقد قدم خبير من المنظمة تحليلا لصراع الشرق الاوسط من وجهة نظر اسرائيلية . وبعدها قام المدعوون بتسجيل ما سيتبرعوا به لاسرائيل فبلغت التبرعات نصف مليون من الدولارات .

طرق لدفع التبرعات :

بما ان معظم الوعود بالتبرعات لا يتم دفعها مباشرة ، بل بعد عدة اشهر واحيانا بعد سنوات ، يعمد المشرفون على عملية جمع الاموال الى تغطية الفترة الزمنية الفاصلة بين الوعد بالتبرع ودفع المبلغ المتبرع به ، وذلك باعطاء الوكالة اليهودية في القدس قروضا مصرفية تساعدها في املاء حساباتها المصرفية بشكل منتظم اما منظمة « النداء الاسرائيلي الموحد » فتقوم دوريا بسحب قروض كبيرة من البنوك الامريكية والاجنبية تكلفها بها شقيقتها منظمة « النداء اليهودي الموحد » . وفي عام ١٩٦٧ وصلت المبالغ التي يدين بها المتبرعون للمنظمة ٧١٫٣٣٧٫٠٥٨ دولارا .

اساليب الضغط للاكراه على التبرع :

تتم الوعود بالتبرع بشكل علني في معظم الحفلات الخيرية . وقد كشف مراسل جريدة الديلي ميل الاسلوب الذي يمارسه جامعوا الاموال لاجبار المدعوين على اداء التبرع . ويضرب مثلا على ذلك ان احد المحاسبين اليهود الامريكيين يقرر الاشتراك في حفلة عشاء خيرية وينوي ان يتبرع بـ ٢٥٠ دولارا . وخلال الحفل يقف رئيس الحفل قائلا : لقد تبرع السيد (س) بعشرين الف دولار ، والسيد (ع) بمثل ذلك المبلغ فبكم تريد انت ان تتبرع ؟ وهنا يقف المحاسب خجلا ليتبرع بـ خمسة وعشرين الف دولار . ويكاد يكون من المتعذر الامتناع عن الدفع ضمن عوامل الضغط الاجتماعي الذي يصفه الحاخام بيرجر — احد مناهضي الصهيونية — بأنه عمل غير اخلاقي ، فاذا اراد المرء تجنب المتاعب فعليه ان يدفع ، ولقد حدث في مدينة دالاس في تكساس ان كف ماركوس تاجر الاقمشة اليهودي عن تهيب المتاعب ، وسمح « للمجلس الامريكي لليهودية » المعادي للصهيونية بأن يطبع اسم ماركوس على مراسلات هذا المجلس ، خاصة وان ماركوس كان لمدة طويلة مؤيدا له . الا ان التاجر الجرىء ما لبث ان علم من زبائنه اليهود بأنهم تحولوا عن شراء منتجاته . ويكفي اليهودي الامريكي ان لا يتبرع بما فيه الكفاية حتى ينظر اليه بازدراء أو ليقال عنه بأ نتجارته متدهورة حسب تعبير ناحوم جولدمان

والخلاصة غدت التبرعات بالمال لاسرائيل نوعا من الاعتراف المدنى بالعقيدة الدينية بالنسبة لليهودية الامريكية . فالذى لا يدفع لا ينتمى الى هذه الطائفة . ومن يتبرع كثيرا يتمتع بكثير من الاحترام . وبالتالى تكاد لا توجد شخصية يعول عليها فى اليهودية الامريكية لا تدين بمركزها الى التبرعات المالية والى النشاط الذى تبديه فى عمليات جمع الاموال لاسرائيل . اما مبررات الضغط الاجتماعى الذى يمارس فى عملية جمع المال فانها تتركز على ان اسرائيل ضمان المستقبل اليهودى فى العالم . وكما يقول جولدمان « بدون اسرائيل ، وبدون مركز يهودى بشكل دولة لسوف يتعرض مستقبل اليهودية لاكثر من الخطر » وبالمثل يقرع المحامى اليهودى جنسبرج رئيس منظمة النداء اليهودى الموحد ناقوس الخطر ، فيصيح فى احدى الحفلات الخيرية فى مكبر الصوت « ان الامر يدور حول البقاء ، يدور حول بقائكم وبقائنا »

موجة النقد لسوء استعمال اموال التبرعات

تصطدم تبرعات اليهود الامريكيين ومساعدتهم للاسرائيليين على الحرب ضد العرب تصطدم منذ مدة طويلة بالانتقاد . اذ ان التبرعات لمنظمة النداء اليهودى تدخل حتى ١٥ ٪ من الدخل فى المواد المعفاة من الضرائب ــ لكونها تمنح لاعمال خيرية وبذلك تكون التبرعات حتى ٧٠ ٪ من اموال الدولة الامريكية . وكما يقول الحاخام بيرجر « **ان الولايات المتحدة تقدم بسبب الاعفاء الضريبى مساعدات مالية لسياسة الاحتلال الاسرائيلية** » .

وسواء اشترت اسرائيل طائرات الفانتوم او الدبابات مباشرة من اموال التبرعات الامريكية او بعد ان تقوم الوكالة اليهودية بحمل اعباء الخدمات الاجتماعية عن الحكومة الاسرائيلية . تساهم التبرعات بالدولارات الاميركية فى تحويل ميزانية الحرب الاسرائيلية . ويؤكد السناتور فولبرايت ان التبرعات الامريكية تملأ احتياطى اسرائيل من العملات النادرة وتسهل لها شراء كل شىء ممكن بما فى ذلك الاسلحة . وبحيلة بسيطة تستطيع الوكالة اليهودية التصرف بأموال التبرعات . فبعد ان تحول الى مركز الوكالة اليهودية فى القدس ، تعيد الوكالة ارسالها الى « المجلس الصهيونى الاميركى » . وبهذه الطريقة تم نقل حوالى خمسة ملايين دولار فى الفترة الواقعة بين ١٩٥٥ و ١٩٦٢ .

الاتهامات الموجهة الى الوكالة اليهودية :

تستمر الوكالة اليهودية فى عملية تحويل اعمال الدعاية الاسرائيلية فى البلدان الاجنبية ، وفى مساعدة نوادى الصداقة الاسرائلية ، وفى تحمل نفقات رحلات الفرق الفنية الاسرائيلية . الا ان التهمة الرئيسية التى يوجهها اعداء الصهيونية الى الوكالة اليهودية تتركز فى **ان الوكالة تحرك سياسة اسرائيل التوسعية** . وكأدلة على ذلك يقدمون الحقائق التالية :

آ ــ هنا لك تقرير لم ينشر قدم الى المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين فى شهر يونيه عام ١٩٦٨ تطلب فيه الوكالة اليهودية تعمير الاراضى المحررة حديثا ــ اى الاراضى التى احتلت نتيجة حرب ١٩٦٧ ــ تطلب اسكان اليهود فيها .

ب ــ هنالك كتيب صغير باللغة الانكليزية نشره « الصندوق القومى اليهودى » وهى منظمة وثيقة الارتباط بمنظمة « كيرن هايسود » . وفى

هذا الكتيب جاء ما يلى : اليوم يتلو تراكتور الصندوق القومى اليهودى دبابة الجيش.وتسقط الاراضى التى وقعت من نصيب اسرائيل نتيجة حرب الايام الستة ـ تسقط الان تحت سكك المحراث »

دور الوكالة اليهودية السياسى والاقتصادى:

تعتبر الوكالة اليهودية ذراع الحكومة الاسرائيلية الايمن ، فهى مسؤولة فى اسرائيل عن تطوير وتعمير الاراضى . والى جانب الزعماء الصهاينة يجلس فى مجلس ادارة الوكالة الذى يقرر طريقة استثمار الاموال — عدد موازى من اعضاء الحكومة الاسرائيلية يشكل نصف الاعضاء وميزانية الوكالة كبيرة الى درجة انها تماثل دخل مؤسسة اوربية كبيرة . وفى عام ١٩٧٠ بلغ ما انفقته ٥٠٠ مليون دولار ، كان حوالى ٦٠ ٪ منها من اموال التبرعات .

وفى طليعةمهامالوكالة تجهيزاليهود الىالارض الموعودة . وقد استطاعت منذ انشاء دولة اسرائيل نقل ١ر٣ منهم الى اسرائيل . وبالمثل نظم خبراؤها عمليتى : « البساط السحرى » لنقل اليهود من اليمن و « عزرا ونحيما » لنقل اليهود من العراق .

وفى اسرائيل نفسها يهيمن مديروا الوكالة اليهودية على امبراطورية اقتصادية هامة : فهنالك خمسة وستون مؤسسة اقتصادية تملكها الوكالة كلية او جزئيا وتقدر ثروتها الاقتصادية فهى تشارك فى شركة (العال) للطيران بـ اليوم بمليار مارك على الاقل .

١٤ ٪ ، وفى شركة الملاحة الاسرائيلية (نريم) بمقدار ١٠ ٪ من راسمالها . وتمتلك ٩٠ ٪ من اسهم شركة (راسكو) للبناء ، والتى يتبعها ايضا بيارات للحمضيات وفنادق ، وبعض الصناعات الخفيفة . ومن المرافق التى تقع فى ملكية الوكالة اليهودية كلية شركة (ديجور لاعول) للبناء ، وشركة بناء المنازل الجاهزة (باتيم ترومين) ، وحتى ان الوكالة لها اسهم فى اكبر بنك من بنوك اسرائيل المسمى (بينك يومى) .

الى متى تستمر التبرعات لاسرائيل :

كرمز للترابط العالمى لليهودية تحرص الوكالة اليهودية على تخليد كلمة قديمة وردت فى التلمود تقول : « كل يهودى يكفل كل اليهود » . لذلك يؤكد زعيم اليهود الامريكى روتبرج بأن على يهود الدياسبورا ان يتكفلوا لامد طويل ايضا بسكان اسرائيل من اليهود . ويعبر عن ذلك بقوله : « فى كفاحنا لدعم اسرائيل لن يكون هنالك هدنة اطلاقا » . ولكن على الرغم من هذه الشعارات الحماسية يلتفت احد اليهود الامريكيين مؤخرا الى موظف من موظفى النداء اليهودى الموحد صائحا به : « الى متى سوف تستمرون فى جز صوفنا كل عام من اجل اسرائيل ؟ » فيجيبه جامع التبرعات : « اتمنى ان يطول بك العمر حتى ذلك الحين » ! !

د . هشام الصفدى استاذ بقسم التاريخ بالجامعة



مدينــة المدية

عبــر العصــور

١) اسمها الحقيقى ومعناه .

اختلف المؤرخون فى تسمية هذه المدينة ،وتعددت الروايات فى صيغة الاسم وفى نسبه وفى تاريخه . فهل المدينة من Lambdia القرية الرومانية التى سبقت فى نفس المكان مدينــة المدية ؟

وهل هى كلمة بربرية كما زعم بعضهم وقال ان معناها العلو ، والارض المرتفعة ؟

وهل رواية ابن خلدون (كتاب العبر ج ٧) هى الصحيحة وقد قال فى حديثه عن عثمان بن يغمرسان الزيانى (٦٨١ — ٧٠٣ هـ) .

« نهض عثمان بن يغمرسان الى المدية وبها أولاد عزيز من توجهيين (وهم بربر من زناتة) فنازلها وقام بدعوته فيها قبائل يعرفــــون لمدية واليهم تنسب .

وفى موضع آخر يقول ابن خلدون : لمدية . .هو اسم بطن من بطون صنهاجة وقد استولى محمد بن القوى (أيام بنى عبد الواد) عــلى حصن هذا البطن المسمى بأهله ونطق بعضهم بلمدونة والنسبة اليها لمدانى .

مـولاي بلحمـــيسى



مدينة المدية فى سنة ١٨٣١

(٢) تأسيس المدينـــة

متى كان ؟ ومن المؤسس الحقيقى لها ؟ لا نعرف شيئا عن ذلك بالضبط .

وأما رواية من قال ان بلوكين بن زيرى هو الذى أسسها حوالى ٣٥٠ هـ — فغير صحيحة . فقد وجدت المدينة قبل العهد الزيرى بكثير .

فعندما قال الشيخ سيد أحمد بن يوسف (ولد بقلعة بنى راشد بين ١٤٦٨ و١٤٧٥ توفى سنة ٩٣١هـ — ١٥٢٤ م ودفن بمليانة) المدية المهدية يدخلها الشر الصباح ويخرج منها العشية لو كانت هى امراة ما ناخذ الاهى .. زعم بعضهم أن المهدية معناه ان البلــدة قديمة عتيقة وانها بنيت فى مكان آخر ثم نقلتها الملائكة الى مكانها هذا . وقد أسس الرومان فى عهد لا يذكرونه مدنا كثيرة بما كان يسمى Maurétanie Césarienne مثل (الجزائر المدينة) Rusguniae وتبازا Tipaza وتنس Cartenae كما أسسوا مدنا أخرى بنوميديا شرق القطر ووسطه مثل Auzia ســــور الغزلان) Thamarammaa قرب البرواقيا و Lambdia المدية .

وقال ابو عبيد البكرى الاندلسى (من رجال القرن (٥ هـ — ١١ م) فى كتاب المسالك والممالك « المدية ... بلد جليل قدم » .

وقال الحسن بن محمد الـوزان الفاسى الاسد الغرناطى Léon L'Africain أن الافارقة القدماء بنوا هذه المدينــة فى حدود ما كان يعرف بنوميديا Numidie وقال Marmol مرمول (مؤرخ اسبانى من القرن ١٦ عاش مدة فى المغرب الاوسط فى جيوش النصارى) ان المدينة عتيقة قديمة اسست فى سهل خصب جميل، فيؤكد كل ما ذكرناه — ان المدية سبقت **بنى زيرى وانها اقدم من أشير .**

٣) المدية فى القرون الوسطى الى بنى زيان

اجمع الكتاب على أن زيرى بن منـــاد (فى أيام الخليفة الفاطمى الثانى ابو القاسم القائم ٣٢٢ — ٣٢٤ هـ — ٩٣٤ — ٩٣٦) أســس أشير قرب حصن عرف فيما بعد بمنزه بنــت السلطان على جبل تيطرى (ولعله الكاف الاخضر اليوم) .

وكان تأسيس أشير حوالى ٣٢٤ هـ — ٦ — ٩٣٥ م

وبنو زيرى من صنهاجة ومــن أعــــوان الفاطميين على الخوارج وامتدت دولتهــم فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهـجرى) من تيارت غربا الى الزاب شرقا وضعــت مراكز مثل الجزائر ومليانة والمدية . وفضلهم الفاطميون على غيرهم لانهم أقدر الناس على محاربة بدو الزناتة جيرانهم فى الناحية الغربية ولما تسلم زير بن مناد سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م حكم تيارت من يد الفاطميين ، اذن لابنـــه بولوغين بتأسيس ثلاثة مركز الجزائر — مليانة — المدية ما بين ٣٥٠هـ و٣٦٠ هـ

ون الواقع فان بولوغين لم يؤسس هذه المدن التى كانت موجودة من قبل بل ادخل عليها تعديلات واصلاحات وبنى بها وشيد . يقول ابن خلدون فى حديثه عن المدية فى ذلك العهد وكان المختط لها بولوغين بن زيرى (كتاب العبر ج ٧) .

حتى اذا كان القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) احتل الثعالبة (وهم بطن من المعقل) الناحية بين تيطرى والمدية كما حكم ابو الفتوح بن خنوش أمير سنجاس نواحى المدية فى نفس القرن ..

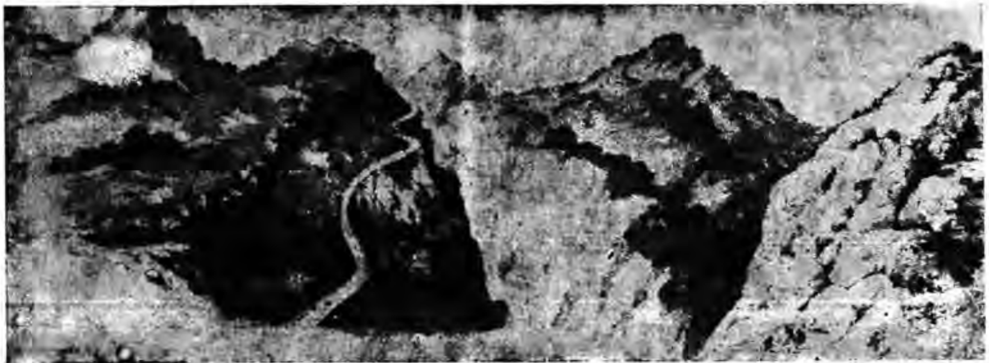
(٤) المدية فى عهد بنى زيان أصحاب تلمسان

قال ابن خلدون فى الخبر عن ابى يحى يغمرسان بن زيان (مؤسس هذه الدولة بتلمسان) مع مغراوة وبنى توجين (وهم زناتة متنقلون دفعهم التيار الهلالى نحو الغرب واصبحوا فى القرن السابع الهجرى اى الثالث عشر الميلادى ما بين الونشريس والسرسو والمدية ولهم قلعة بنى سلامة التى آوت ابن خلدون وعندما انتشر عهد الخلافة (خلافة الموحدين بمراكش حوالى ٦٤٦ — ١٢٤٨م .. وكثر الثوار والخوارج بالجهات .. تغلب بنو عبد الواد على نواحى تلمسان الى وادى وتغلب بنو توجين على ما بين الصحراء والتل من بلدة المدية الى جبل الونشريس ... »

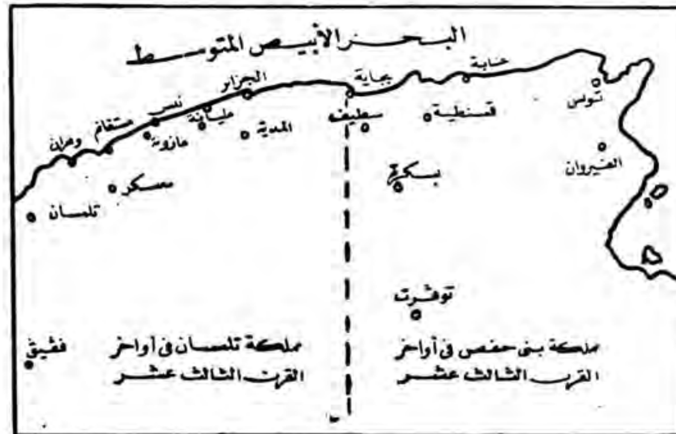
وبادر ملوك تلمسان بالاستيلاء على المدية بما لها من اهمية استراتيجية — اذ هى فى طريق الجنوب وفى طريق الشرق الجزائرى . فتغلب بنو عبد الواد على عامة أوطان بنى توجين وكانت حالتهم مع هؤلاء تختلف بين الحرب والسلم ، ولما استولى محمد بن عبد القوى على المدية وعلى ضواحيها انزل بها أولاد عزيز بن يعقوب من حشمه وجعلها لهم موطنا وولاية وجاء فى خبر ابى سعيد عثمان (٦٨١ — ٧٠٣هـ — ١٢٨٢ — ١٣٠٣)

مع مغراوة وبنى توجين ما يلى : لما عقد عثمان بن يغمرسان السلم مع يعقوب بن عبد الحق المرينى صرف وجهه الى الاعمال الشرقية من بلاد بنى توجين ومغراوة (من زناتة) .

فصارت بلاد بنى توجين كلها من عمله .. ثم نهض بعدها الى المدية (سنة ٦٨٨) وبها أولاد عزيز (من توجين) فنازلها وقام بدعوته فيها قبائل يعرفون بلمدية واليهم تنسب هؤلاء المدية غدروا — حسب قول ابن خلدون بأولاد عزيز ومكنوا السلطان الزيانى من البلدة ، فقام يحى بن عطية كبير بنى تغرين ومال الى السلطان المرينى المناهظ لبنى زيان وبايع يوسف بن عبد الحق ورغبه فى ملك الونشريس ثم عاد الى بلاد بنى توجين فشردهم عنها وانتهى الى المدية فافتتحها واختط قصبتها وبعد مدة بعث أهل المدية بطاعتهم للسلطان عثمان بن يغمرسان فتقبلها منهم واوعز ببناء قصبتها ... ابن خلدون .



ثنية موزاية فى سنة ١٨٣٦



ولما ولى بو سعيد هذا خلفه ابنه ابوزيان ٧٠٣ هـ ــ ١٣٠٤ م .

فتغلب على المدية ... وانتهى الى جبل حصين بن زغبة فى جبل التطرى .. ثم اجلبوا على المدية .. وملكها ابوزيان .. وعاد حصين وامتلك نواحيها وامتنع عليهم مصرها .. ولما هلك ابوزيان ١٣٠٨ م / ٨ ــ ٧٠٧ هـ قام اخوه ابو حمو واراد ان يقسم اعماله بين اولاده فعين المنتصر على مليانة ونواحيها وابازيان على المدية وما اليها من بلاد حصين وعندما رجع السلطان المرينى ابو الحسن من تونس ونزل بالجزائر واراد ان يحارب بنى زيان انظمت اليه قبائل من المغرب الاوسط مثل الثعالبة وصاحب الونشريس (وهو نصر بن عمر بن عثمان) وسويد وزناته . وانظم لابى ثابت الزيانى مغراوة .

فأخذ ابو ثابت على منداس وخرج على السرسو ولحق به مدد السلطان ابى عنان المرينى (الخارج على ابيه) فشرد الزيانى اثار الاعراب ولحق احياء حصين بجبل التيطرى ثم عطف على المدية ففتحها وعقد عليها لعمران بن موسى الجلولى وخلع السلطان المرينى ابى عنان (اباه ابا الحسن وزحف الى تلمسان وحاصرها سنة ٧٣٢ ــ ١٣٣٢ فهزم ملكها واباد بنى عبد الواد ونزل المدية ثم اطل على بجاية (ابن خلدون) .

ودب الضعف فى دولة تلمسان واصبح ملوكها فى اواخر القرن ١٥ م لا يستطيعون قمع الفتن ولا منع الاعراب من غزو اعمالهم . فانفصلت المدية عنهم ومالت الى امير تنس فى مطلع ١٦ هـ ــ وامير تنس من الزيانيين استقر بعيدا عن تلمسان .

وكان امير تنس اقدر من ملوك تلمسان على حماية المدية لانه اقرب اليها وبيده ما ليس بيد ابن عمه هنالك ..

وفى هاته المدة مطلع السادس عشر ــ زار المدية الرحالة الشهير الحسن بن محمد الوزان الفاسى والمعروف عند الغربيين Léon L'Africain فقد اعجب بالمدينة وبموقعها وبأهلها . فالمدينة مبنية فى سهل جميل خصب تسقيه أنهار كثيرة واهلها اغنياء يسكنون دورا جميلة وقد استقبلونى بحفاوة واكرام كأننى امير المدينة ... واذا زارهم اجنبى ذو علم ومعرفة فانهم يعظمونه ويبجلونه ويبقونه عندهم لفصل ما بينهم من القضايا ويعملون بقوله ويصوبون رأيه ... واقمت عندهم شهرين ...

(٥) المدية فى العهد التركى (١٥١٦ الى ١٨٣٠)

ما هو سبب دخول الاتراك الى المغرب الاوسط ؟

فى القرن السادس عشر عندما عمت الفوضى فى المغرب ودب الضعف فى الدول القائمة (بنو حفص فى تونس بنو عبد الواد فى تلمسان وبنو مرين فى فاس) عزم الأسبان على ضرب الاسلام فى دياره بعد اخراجه من آخر

مصر من الاندلس سنة ١٤٩٢ بسقوط غرناطة. فاحتل النصارى المرسى الكبير ١٥٠٥ ووهران ١٥٠٩ وبجاية ١٥١٠ واحتلوا كذلك الصخرة الوسطى Le Penon d'Argel ١٥١٠ فضاقت حالة المسلمين لا سيما بمدينة الجزائر فاستدعى شيخها سالم التومى واعيانها الاخوين عروج وخير الدين لاعانتهم على الاسبان — وقد اشتهر الاخوين فى تونس بالحزم والاقدام والجزءة فى البحر وانقاذ المسلمين .

فجاء عروج الى الجزائر وانتصب ملكا على المدينة وانطلق فى بسط نفوذه داخل البلاد . واحتل عروج المدية بعد انهزام امير تنس حماد بن عبيد بالمتيجة حوالى ١٥١٧ . ثم ترك بالمدية حامية مؤلفة من الاتراك وبعض الاندلسيين وعاد الى الجزائر .

وخلفه اخوه ١٥١٨ والحق الايالة بالملكة العثمانية فزوده السلطان العثمانى بالمدد فعزز خير الدين المراكز الهامة فى البلاد بتأسيس قواعد عسكرية تسمى (التوبة) وبعد ذلك فكر الاتراك فى ادارة هذه البلاد فقسموها الى بايلكات .

(١) دار السلطان (تقريب عمالة الجزائر اليوم ودلس) يحكمها الداى المقيم بالجزائر
(٢) بايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم المعسكر ثم وهران .
(٣) بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة
(٤) بايلك الجنوب وعاصمته المدية .

وكان هذا اصغر الثلاثة — وقد ادخلت عليه تنظيمات عديدة ما بين ١٥١٨ و ١٧٧٥ .

وقد نظمه للمرة الاولى حسن بن خير الدين (الذى عين على رأس الايالة مرارا بين ١٥٢٦ و ١٥٦٧ .) واصبح هذا البايلك يسمى ببايلك التطرى متى ؟ فاننا لا نعرف التاريخ بالضبط .

لكن بين أيدينا مرسوم فى سنة ١٥٤٨ م / ٩٥٥ هـ . بمقتضاه يعفى الباى رجب الشرفاء من دفع الغرامة والضرائب وكان باى التطرى — فى أول الامر يقيم تارة بالمدية وتارة ببرج سباوو حيث توجد للقادة الاتراك مزارع وبساتين بوادى ايسر (Isser) وكانت قبائل وادى سيباوو الى ١٧٧٥ تابعة لبايلك التطرى .

وعين على راس هذا البايلك — بين ١٥١٦ و ١٧٧٥ حوالى ١٨ بايا نذكر منهم :

رجب ١٥٤٨
شعبان ١٦٣٣
فرحات ١٦٦٣
عصمان ١٧٦٣
سفطة ١٧٧٥

ولم يتركوا فى ميدان من الميادين ما يذكرون به . واشتهر من بين هؤلاء البايات عصمان الثانى والباى سفطة .

فأما عصمان فانه عين على التطرى سنة ١٧٦٣ واشترى مزارع عرفت فيما بعد ببلاد سيدون عند أولاد حسن بن على كما عرفت بحوش عصمان — وبنى مخازن ومستودعات واصطبلات ومنه كانت تنطلق الغارات على النواحى الجنوبية .

وكان عصمان يغزو القبائل حتى وقع يوما فى قبضة أولاد سيد أحمد (وهم فرع من أولاد نايل) فقتلوه — بجنوب زاغر توجد الى يومنا كدية تعرف بكدية الباى . .

وامتنع من خلفه من غزو قبائل الجنوب الى أن عين الباى سفطة فحاول تجديد الغارات على أولاد نايل فلقى حتفه أثناء معركة . وحدث فى سنة ١٧٧٥ تعديل على ادارة بايلك التطرى فبعد ٢٢٧ سنة من الحكم التركى بقيت مشاكل هامة بدون حل .

(١) خروج قبائل سيباو عن الطاعة بصفة مستمرة .
(٢) ثورات قبائل الجنوب الغير المنقطعة
(٣) فشل الغارات على الجنوب .
(٤) انسحاب عدد من القبائل أعلنت استقلالها .

فأعاد الاتراك النظر فى نظام البايلك الادارى وكونت بلاد القبائل بين ايسر وخنشة قيادة (Caidat) يحكمها آغا الجزائر — بعد اعوام جرد بايلك التطرى من ناحية طابلات والبويرة — وأصبح مقرباى التطرى

واحدا هى المدية كما أصبح للبايلك حدود معينة :

(١) فى الشمال قبيلة مزايا وبنى صالح فوق البليدة و بنى مسعود .

(٢) وفى الشرق قبيلة بنى سليمان وعريب

(٣) وفى الغرب قبيلة جندل وأولاد خليف

وقسم البايلك الى أوطان (لحل القبيلة ... يحكم بعضها آغا العرب (مثل مزليبيا وعريب وبعضها الآخر خوجة الخيل وهو عضو فى الديوان ومسؤول مالى (مثل زناخة وعبادلية) وأولاد سيدى عمر وأولاد سيدى موسى وتسمى هذه القبائل العزل تدفع جميع انواع الضرائب وتقوم بجميع الخدمات لفائدة الباى او الداى .

وكان على المدية حاكم تركى يعينه داى الجزائر (وكان هذا الاخير يخشى سلطة باى التطرى — والمدية قريبة من الجزائر) .

وتمتد سلطة هذا الحاكم الى ضواحى المدينة .

وما بقى قسم الى تل أعلى وتل أسفل أو تل جنوبى وكان الاول يضم قبائل بنى حسن :

حسن بن على
بنى يعقوب
وزرة
عوامرى
ريغة
هوارة

وهذه القبائل مستقرة تتعاطى الفلاحة .

والثانى يضم قبائل الجنوب المتنقلة فى بعض الفصول الخاضعة لشيوخها المحليين .

دواير
تطرى
أولاد حمزة

أما قايدة ديرة فهى منطقة خاصة بشرقى البايلك مركزها سور الغزلان حيث كانت توجد حامية تركية ويضم قايدة ديرة .

أولاد عبد الله
« » بركة
« » دريس

واخيرا كان جنوب البايلك يضم قبائل من الرحالة .

زيانة
عبادلية
أولاد نايل
« » سيدى عيسى

واسس الاتراك قايدة أولاد المختار فى الجنوب حتى يكون حاجزا بينهم وبين البدو ويمنع هؤلاء من غزو الشمال . وعين الدو مصطفى بن سليمان أوزناجى (من ١٧٧٥ الى ١٧٩٤) .

ومطماطة
وجندل
وبعض قبائل شلف

وتقدمت نحو المدية لطرد الاتراك منها . فتصدى لهم الباى بقومه وشرد جمعهم وجىء بزعمائهم فقتلوا وعلقت رؤوسهم على اسوار المدينة ...

وبعد درقاوة تزعم التيجانية حركة محاربة الحكم التركى وحاول الباى حسن (١٨٠١) الاستيلاء على عين ماضى ولم يستطع وكرر الحملة على التيجانية سنة ١٨١٨ . وانتصرت دعاية التيجانية وكان آخر باى التطرى هو مصطفى بومزراق ١٨١٩ — ١٨٣٠ وكان قبل تعيينه خليفة للباى فغزا اولاد المختار بالجنوب وأولاد أفرج وأولاد شعيب .

ويقال انه بنى جامع مزارى ..

وكان ضابطا ماهرا وقد شارك فى وقعة اسطاويلى (Staoueli) وبعد الهزيمة عاد الى المدينة الا أنه وجد الوضع قد تغير والاهالى قد ثاروا فنهبت البرواقية وبادرت وزرة بالاستيلاء على خيل الباى وبغاله الموجودة بجنان الباى فانسحب بومزراق من المدية مدة ثم عاد اليها ثم غادرها والتحق بالاسكندرية وبها توفى .

(٦) المدية بعد ١٨٣٠ :

كانت المدن الجزائرية منذ القرن ١٨ م فى انحطاط مستمر فقدت نشاطها وحضارتها وخلت من عدد كبير من سكانها فالجزائر مثلا كانت من أعظم الامصار فى القرن ١٧

(۰۰۰ر۱۰۰) نسمة ولم يبق فيها الا ۳۰۰۰۰ حوالى ۱۸۳۰ .

وافتقرت وهـــران وافتقرت من اهلهـــا واصبح هؤلاء ۹۰۰ .

وكذلك شأن تلمسان منذ استيلاء الاتراك عليها (۱٥٥٥) اما المدية فانها مع قلة عدد سكانها (يتراوحون بين ٤۰۰ و ٥۰۰) قـــد حافظت على اهميتها وعلى دورها السياسى والاقتصادى فهى عاصمة بايلك التطرى — وهى قاعدة عدد كبير من الاتراك والكلغلان — وهى فى طريق تجارى بين الجنوب والشمال .

الحملة الفرنسية الاولى على المدية :

من نتائج ثورة جويليت ۱۸۳۰ فى فرنسا أن جيشها هنا أصبح يشعر بعدم مبالاة القادة والساسة بشؤونه وأصبح الجزائريون بعـــد سقوط شارل العاشر (Charles X) يتوقعون انسحاب الفرنسيين من ارضهم — وتســـاءل الجنود ما فائدة احتلال الجزائر العاصمـــة وحدهـــا .

وعين كلوزيل (Clauzel) فى سبتمبر ۱۹۳۰ (الى فيفرى ۱۸۳۱)

فكانت سياسته ترمى الى اهداف ثلاثة :

(۱) بقاء الفرنسيس فى الجزائر العاصمة

(۲) انشاء ادارة فرنسية للاماكن المحتلة

(۳) التوغل داخل البلاد حتـــى يكـــون للمعمرين قواعد ثابتة لا ينازعهم فيها احد .

لا سيما وان الراى العام الجزائرى بـــدأ يميل الى المقاومة مثلا :

استمال بومزراق الاتراك :

وهاجم ابنه القوافل الفرنسية عدة مرات .

وها هو بن مزمون قائد فليسة يعلن عن عدم خضوعه للفرنسيس .

فقرر (Clauzel) كلوزيل حملة عـــلى المدية (التى هى فى نفـــس الـــوقت حملـــة استطلاع) لماذا ؟ ليتخلى المسلمون عن كل أمل فى انسحاب فرنسا من الجزائر ولرفع معنوية الجيوش ولمعاقبة باى المدية الذى كـــان فى نظرهم رمز المقاومة.واخير لان المدية تحكم مع البرواقية طريق الجنوب فخرج الفرنسيس من الجزائر فى ۱۸۳۰/۱۱/۱۷ فى ۱۰۰۰۰ جندى ودخلوا البليدة ونهبوها نهبا وكانت المقاومـــة شديدة ثم استولوا على ثنية مزايا (Cole de Mouzai) ثم دخلوا المدية فى ۱۸۳۰/۱۱/۲۲ فعزلوا بومزراق وعينوا بايا آخر هو مصطفى بن الحاج عمر ثم عادوا الى الجزائر .

وكان سلطان المغرب — مولاى عبد الرحمن قد احتل تلمسان وجعل على رأسها مولاى على — الا ان الاهالى ثاروا على السلطان وطردوا ممثله فبعث مولاى عبد الرحمن قائدين للدواير كانا معتقلين بفاس فجمعا جيوشـــا ونصبا ممثلين للسلطان العلوى احدهما فى مليانة والآخر فى المدية ولم يطل نفوذ السلطان هنا وعاد برتوزين (Berthezene) الى المدية ودخلها فى ۲۹ جوان ۱۸۳۱ .

عهد الامير عبد القادر

كان الامير بعد تأهبه للمعركة (بعد ۱۸۳٤ يفكر فى ضرورة توسيع دولته من الناحيـــة الشرقية بضم التطرى والمدية وبالاستيلاء على مليانة حتى يتمكن من محاربة الاجانب .

ففى ۱۸۳٥ دخل مليانة ونصب اخاه الحاج محى الدين الصغير على رأسها ثم فكـــر فى المدية وكـــان عالمـــا بأهميتهـــا الجغرافيـــة ولاستراتيجية (هى فى طريق الجزائر ولجنوب وهى قاعدة ستنطلق منها غارات على النواحى الشرقية — وهى حصـــن يحمـــى الناحيـــة الغربية) . وكانت نواحى المدية خاضعة لنفوذ ولى من اولياء درقاوة هو :

الحاج موسى الدرقاوى الذى اعلن الجهاد على النصارى فقدم الى المدية فى افريل ۱۸۳٥ وطلب من سكانها أن يسلموا له يهود المدينة وأباضييها فامتنع السكان ثم صالحوا هـــذا الشيخ وسمحوا له بدخول المدية ومنها انطلق نحو الجزائر على حماره لقتال الفرنسيـــس (فسمى بوحمار ...) ولم يرض الامير بغيره ليتزعم الجهاد . ونزل عبد القادر من مليانة فى ۲۰ افريل ۱۸۳٥ واصطدم بالحاج موسى فى حوش عمورة على ۱۲ كلومتر من لربعـــة بنى جندل وانهزم الحاج موسى فمكنه هـــذا النصر من فتح المدية وعين خليفة له بها محمد بن عيسى البركانى واعدم انصار الحاج موسى ثم عاد الى معسكر ، وقبل مغادرته المديـــة استقبل الامير مبعوثا فرنسيا وهو القبطان

(Capitaine St Hippolyte) الذى جــاء ليهنئه ويسلمه بعض الهدايا .

وتعكر الجو بينه وبين الفرنسيس فكــان الامير يغزو القبائل المبايعة لفرنســا وكــان كلوزيل (Clauzel) يغزو القبائل المناصرة لعبد القادر وهكذا عاد (كلوزيل) مرة اخرى الى المدية فىمارس ١٨٣٦ ليفرض على السكان الباى محمد بن حسين الذى عينته السلطــة الفرنسية وكان رد فعل الامير سريعا فهاجم انصاره المدية واستولوا على المدينة وبعثوا الباى الى وجدة حيث قتل لكن فى ٧ افريل ١٨٣٦ دخل ديمشال Desmichelas) المدية من جديــد .

وتطور الوضع شيئا فشيئا وعاد الامير الى وادى شلف سنة ١٨٣٧ ثم الى المدية والقى القبض على ٨٠ من الكرغلان وبعث بهم الى مليانة وفى اثناء اقامته بالمدية استقبل الامير اعيان البليدة ثم نصب بعد ذلك اخاه الحاج مصطفى خليفة له على المدية .

ثم زحف أول ديسمبر ١٨٣٧ الــى أولاد المختار جنوب المدية وكان يوجد بينهم رجــل يدعى الحاج عبد الله اتى من المغرب الاقصى وتنبأ وادعى انه المهدى فوقة هذا فى قبضة الامير فبعثه الى سلطان المغرب الذى كان فى طلبه ولكن خصوم الامير مثل الدواير والعبيد وناحة وأولاد نايل وأولاد المختــار لازالــوا يتربصون الفرص واضطر الامير الى غــزو زنــاجة جنوب بغــار مدة ثلاثة أيــام حتى النصر ، وفى المدية توجه الامـــير لمحــاربة الــزواتنــة وهم كرغـــــلان نزلــــوا وادى الزيتون غــرب يســر ثم عــاد الى المدية وبهذا استقبل مبعوث الوالــى فالــى (Valée) لمباحثة مشروع معاهدة التافنة كما استقبل بها الحاج عيسى الاغواطى فعينه خليفة على الاغواط وكان كلاهما ضد زاويــة التيجانية عين ماضى . قبل نهوضه لمحــاربة الشيخ التيجانى بعث الامير كلفلان المديــة الى تاقدمت وكان يتوقع فيهم الميل الى فرنسا . وفى طريقه الى عين ماضى اختط حص تازا فى الجنوب الغربى للمدية) .

وعندما دخلت حكومة الامير فى عصرهــا الذهبى وبلغت سلطته اقصى ما عرفه قرر ان تكون المدية مقــر الخليفة وعين البركــانى بهــا واصبحت المدية مع تلمسان ومعسكر ومليــانة عبــارة عن جبهــة تســـــاير الســاحل وتقف فى وجــه العـــدو وفى نوفمبر ١٨٣٩ رجع عبد القادر الى المديــة ليستأنف الحرب فكانت المدينة عاصمة دولته فتوجه اليها الاعيان والانصار ونشبت الحرب ولعب خليفة مليانة (وهو بن علال ولد سيدى) مبارك وخليفة المدية وهو البركانى دورا هاما مثل تعطيل مواصلات العدو وقطع الماء على معسكر البليدة .

الاحتلال الفرنسى للمدية

قرر الوالى العام فالى احتلال المدية ومليانة فدخل عاصمة التطرى فى ١٧ مــاى ١٩٤٠ فوجدها خالية من اهلها الذين كانــوا قــد غادروها فعززها وحصنها وترك بها حامية بقيادة الجنرال دوفيفى (Duvivier) الى ان قدم اليها بوجو (Bugeaud) فى ١ افريــل ١٨٤١ ففر البركانى الى الجنوب بعد ما خانه اعوانه وفارقه جنوده (الى ضواحى شرشال) وفى ١٨٤٢ الدائرة العسكرية بالمــدية التى كلفت بالقبض على سمالة الامير تلك العاصمة المتنقلة فى الجنوب .

ثم كان دخول المعمرين الى المدية وضواحيها (فى ١٨٤٧ بلغ عددهم ٢٣٢٢) .

واصبحت المدية بعد ١٨٥٠ تحت الحكــم المدنى فكان يتصرف فى شؤونها مندوب مدنى وبدات الجاليات الزراعية تنزل بضواحى المدية كلودى Lodi ودمياط Damiette فى جانفى ١٨٥٣ وبسطت السلطات الفرنسية نفوذها شيئــا فشيئا وهكذا قررت فى جوان ١٨٥٤ ان تكون المدية بلدية على رأسها شيخ منتخب كما قررت احداث نيابة العمالة فى سنة ١٨٥٨ واستمر

عهد الاحتلال هذا هو تاريخ المدية الى منتصف القرن التاسع عشر تاريخ ثغر ممتاز من ثغور المغرب لانه فى قلب المغـــرب الاوســـط وفى الطريق بين الشمال والجنوب وفى الحدود بين اهل الحضر واهل الوبر وفى ناحية خصبة فلا عجب اذا كان الصراع من اجل ضمها عنيفا وتاريخها كله من اجل هذه الغاية ...

مولاى بلحميسى أستاذ بقسم التاريخ بالجامعة

مصـــادر ومـــراجع

(١) العـــربية :

عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ج ٧

يحيى بن خلدون : بغية الرواد .

ابو عبد الله البكرى : كتاب المسالك .

(٢) الغـــربية :

LEON L'AFRICAIN : Description del'Afrique... Tome III

MARMOL : L'Afrique Tome II page 411.

FOURNEL : La Conquête de l'Afriquepar les Arabes Tome II..

REVUE AFRCAINE : Notice sur l'his-toire et l'administration du Beylik du Titteri (par Federman et au Capitaine) 1865 et 1867.

Le Bey Mohamed Ad-Dabbâh 1873.

P. BOYER : Evolution de l'Algérie Mé-diane de 1830 à 1956. (1960).

ISMAIL URBAIN : Notice sur l'ancienneprovince du Titterie (tableau de la situation en Algérie - Année 1834 - 1844).

JOURNAL ASIATIQUE : XIII Série pp ; 111-112.

E.I. : Art. Médéa (G. Yver) Tome IIIpage 449-500.

H. Guyon : Le département du Titterie,son passé son histoire.

L. Cortès : Monographie de la Communede Médéa. Alger 1909 ; (Brochure).

Léon L'Africain.

قضيـــة



الحيـــاد في العـلوم الاجتماعيـة

نظمت وزارة التعليم العالى والبحث العلمى فى افريل الماضى ملتقى دوليا حول « اصلاح تعليـم العلوم الاجتماعية وتقنياتها وادماجها فى التنميــة الاقتصادية وهياكلها »

وقد طرحت خلال هذا الملتقى الهام عدة قضايا تتصل بهذه العلوم ، سواء مـن حيـث تحديـد تعريفها او تعيين المهام المنوطة بهـا ، او بعـض المقترحات الخاصة بتعليمها بما يحقق اندماجهـا وارتباطها بالتنمية الاقتصادية . كمـا طـرحت للمناقشة قضية الحياد فى هذه العلوم ، باعتبارها ــ عند البعض ــ ضمانا لموضوعيتها وعلميتها ، ويبدو لى ان المسألة الاخيرة تحتاج الى وقفة ولو قصيرة عندها لما لها من الاهمية ، لكن قبل ذلك ارى انه من الاهمية ايضا وضع هذا الملتقى فى اطاره التاريخى والحضارى والفكرى العام .

يستمد هذا الملتقى اهميته ولاشك مـن هـذا المستوى المتقدم ، والتطور المستمر للمعرفـــة العلمية والتكنولوجية . واتجاه التعليم ، بفروعه المختلفة فى اغلب البلدان ان لم نقل كلها ، الى ان يصبح خدمة ينتظر منها عائد او مردود ، كما انه يعبر اصدق تعبير عن هذا الاتجاه . الى اعتبار ان اساسيات المعرفة وحقائقهاتتطور وتتعدل بسرعة كبيرة . خصوصا فى مجال العلوم والتكنولوجيا ، ومن هنا كان من المحتم ان تواكب العلوم الاجتماعية هذا التطور وتتفاعل معه .

وقد ادرك المشتغلون بهذه العلوم انفسهم انهم لا يستطيعون البقاء بعيدين عـن هذه المتطلبات والحاجات الجديدة التى يفرضها التطور فى العالم .

وتتأكد هذه الحقيقة اكثر لدى المجتمعـــات النامية التى اصبح المفهوم العام للتنمية فيها يتخذ شكلا خاصا بها نظرا لطبيعتها الخاصة وظروفها المعنية . اذ كما هو معلوم ان ابناء هذه البلدان النامية يقبلون على العلوم الاجتماعية اكثر مـن غيرها ، ومن هنـا اصبح التفكير فى ربـط هـذه العلوم بخطة التنمية الاقتصاديـة ومشاريعهـا وايجاد حالة من التفاعل الخلاق بينها ، يكتسـى اهمية خاصة .

فهذا الملتقى اذن ، يمثل تطورا فى النظرة الـى العلوم الاجتماعية ، باعتبار ان هذه العلوم . وحتى العلوم الطبيعية ، كانت جزءا من الفلسفة . وقد تقدمت الاخيرة قبل العلوم الاجتماعية بما تبنتـه من طرائق علمية موضوعيـة ، واستطاعت ان تحدث ثورات اقتصادية واجتماعية شاملة .

وبحكم هذا المفهوم الشمولى الجديد للتنميـة الذى يضم كل ما قديمت الى الاقتصاد والاجتماع بصلة ، وتدخل فيه كل انواع النشاط الانسانـى بما فى ذلك العلوم الاجتماعية فان العلوم الاخيرة اصبحت تحتل مكانتها الى جانب بقيـة العلـوم الطبيعية ، واخذت تستخدم طرائق علمية بمـا يناسب طبيعة موضوعاتها ، رغـم الصعوبـات الهائلة فى هذا الموضوع .



عثمان شبوب

لقد مرت هذه العلوم لحداثتها كما قلت سابقا بمرحلة صراع عنيف مع العلوم الطبيعية لتحصل على اعتراف باصالتها العلمية ، وما تزال تناضل من اجل هذا الاعتراف ، ولقد صاحبت مرحلة الصراع هذه ، نزعة من بعض علمائها تهدف الى ايجاد نوع من الحماية لها حتى تضمن لنفسها اللحاق بالعلوم الطبيعية ، ومن بين انواع هذه الحماية تأتى قضية « الحياد » التى اشرت اليها سابقا والتى يقصد منها الاعتماد على المناهج العلمية ، ورفض التصورات المسبقة والافكار الجاهزة . ويعتبر انصار هذه النزعة ان اتباع نمط البحث العلمى فى العلوم الطبيعية ، الذى يعنى عدم الالتزام بشىء سوى البحث ، يمثل نقطة تحول فى تاريخ هذه العلوم اولا ، وخطوة كبيرة نحو تحقيق الاهداف المنتظرة ثانيا .

ولقد لقيت هذه النزعة ، نزعة الحياد فى العلوم الاجتماعية ، هوى خاصا لدى عدد كبير من ابناء المجتمعات النامية وخاصة بعض ابناء البلدان العربية الذين اعتنقوها فى شىء من الانفعال وليس عسيرا على الملاحظ ، ان يضع هذا الانفعال فى اطاره الحضارى والتاريخى .

لقد نشأ هذا الاتجاه ، او بالاحرى اتخذ هذه الصبغة الانفعالية الحادة ، فى البلدان العربية بعد هزيمة الخامس من جوان ، التى جعلت ابناءها يفيقون على وضعية التخلف العام التى عليها مجتمعاتهم ، فأصبحوا يتشككون فى كل القيم التى كانوا ينادون بها ، ويستهينون بجميع الشعارات التى اعطوها لنضالهم قبل ذلك ، ويصورونها كما لو كانت مادة مخدرة ، لاعوامل تحريك وتغيير للواقع الحضارى لمجتمعاتهم ، وكل من يطالع صحافة ومجلات هذه البلدان ، يصادف هذا الاتجاه وان كان اسلوب طرحه ومستواه يختلف بطبيعة الحال من حيث النضج والوعى ويسمى اصحاب هذا الاتجاه الان فى البلدان العربية بـ « التكنولوجيين » .

والواقع ان هذا الاتجاه ليس ما يعيبه سوى هذا التطرف الذى يتصف به ، والصبغة الانفعالية التى تجعله وليد الصدمة اكثر منه وليد التفكير الناضج ، والتأمل الهادى الرزين لان الدعوة الى مجاوزة حالة التخلف ، والاعتماد على العلم والتكنولوجيا دون اهمال دور النظريات والقيم الفكرية فى رسم خطى التقدم العلمى واعطائه روحه ، يمثل الجانب الايجابى لهذا الاتجاه

واذا وضعنا هذا الاتجاه فى سياقه التاريخى والحضارى وجدناه يعبر عن وعى ويقظة فكرية ، ونزوع اصيل مخلص الى التقدم والنهضة الشاملة ونجد شبيها لهذه الوضعية ، ما وقع عشية الثورة الفرنسية من اهتزاز فى القيم والمفاهيم وصراع فكرى عنيف بين مختلف الاتجاهات .وكان موقف اغست كونت شبيها بموقف هؤلاء . فقدكان يرى ان من اسباب هذه الفوضى الاجتماعية والعقلية تواجد اسلوبين متناقضين للتفكير ، احدهما يسميه الاسلوب العلمى الوضعى الذى يتجه اليه الناس فى عصره عندما يفكرون فى الظواهر الكونية والطبيعية والبيولوجيا ، وثانيهما التفكير الميتافيزيقى الذى يتجه اليه الناس اذ يفكرون فى

الظواهر التى تتعلق بالانسان والمجتمع ، فالمنهج الاول يعتمد على الملاحظة وتقرير الواقع كما هو ، والمنهج الثانى يقوم على التأمل النظرى والبحث المطلق ، ولا سبيل للخلاص الا بالالتزام بالمنهج الاول اى العلمى،واستبعاد الفكر النظرى التأملى.
فهذا النقاش الدائرالان اذنفى البلدانالعربية

حول هذا الموضوع له جوانب ايجابية الى جانب جوانبه السلبية فهو كما قلت يعبر عن مرحلة نهضة ويقظة ، وبحث عن سبل انجع للحاق بركب الامم المتقدمة ، والحديث عن الشعارات بهذه اللهجة الساخرة ، ليس كله سلب ، وانما هو فى بعض جوانبه تطور فى الوعى او ان شئت ، يمثل امتداد متطورا لمرحلة الشعارات فالشعارات مرحلة ادت دورها ، واتى دور تقنينها فى الحياة الاجتماعية .

ظهرت الدعوة الى الحياد اذن فى العلوم الاجتماعية ، كضمان لعلميتها وحمايتها من الوقوع فى ضباب التأملات و « الاوهام المتعالية »كما يقول « كونت » يعنى ان الباحث الاجتماعى لا يهمه — مثلا — اى صراع فى مجتمعه ، انه يكتفى فقط بالمراقبة والمشاهدة ، يصف ولا يصدر حكما ، يقول « جورج لنديرج احد اعمدة الوضعية فى علم الاجتماع » لا ينبغى على العالم ، ان يتورط فى اصدار اية احكام تقييمية ، ذلك ان القضايا العلمية والقضايا الاخلاقية ، لا يمكن رد احداها للاخرى .

ويدعو ماكس فيبر احد علماء الاجتماع المشهورين لنفس الفكرة ، وكان يرى ان ذلك ليس مجرد التزام بقواعد المنهج العلمى فحسب ، وانما هو وسيلة للتخلص من سيطرة الحكومات والسلطات فى اى مجتمع . والامثلة فى هذا عديدة لكن السؤال المطروح مبدئيا قبل مناقشة هذه الاراء هو هل : صحيح ان بين العلوم الانسانية ، والعلوم الطبيعية فارقا كبيرا فى درجة العلمية ، ام ان هذه التفرقة وهمية فقط ؟

ان الجواب عن هذا السؤال يتطلب وضع سؤال آخر وهو : ما هو العلم ؟ فاذا اعتبرنا بأن العلم هو جملة قوانين عامة ، والقانون هو كشف عن علاقة بين طرفين او اكثر . واذا صح ان العقل هو منبع هذه العلاقة وليس الواقع لاننا اذا قلنا عكس ذلك مثلا ، اى ان العلاقة آتية من الواقع ، لكان القانون هو عبارة عن تصوير طبق الاصل للواقع ، ولكننا اذا تتبعنا العلم فى سيره عبر التاريخ ، وجدنا ان قوانينه مستمدة من طبيعته التطورية ، اى انها فى تطور دائم ، فالعلاقة — بهذا التحليل — ، ليست متضمنة فى الواقع ، وانما هى مضافة اليه . وهذه الاضافة بدون شك ، آتية من العقل بصفته المنظم لهذه العلاقات .

بهذا نصل الى ان القانون العلمى له طابع انسانى ، وان الانسانيات موضوع علم ومن ناجية اخرى ، فالدعوة الى الفصل بين النظرية والمنهج لم تعد ذات قيمة علمية ، والاعتقاد بأن النظرية تنبثق من الواقع ، وان الامر يتعلق فقط بايجاد واستخدام الوسائل المضبوطة التى تمكن من اكتشافها ، واعتبار ان النظرية ثانوية ، وتالية للواقع ، وانها فوق ذلك محتواة فى الواقع ان هذا الاعتقاد يجهل الدور الخلاق الذى تقوم به المعرفة المسبقة .

لقد دعا الكثير من العلماء الغربيين الى فكرة الفصل هذه ، ولكن هل كانوا فعلا مخلصين لما دعوا اليه ، ام فى التطبيق كانوا غير ذلك ، ولنأت بامثلة . .

اغست كونت الذى اشرنا اليه سابقا ، كان من اوائل الدعاة الى محاربة التفكير النظرى يقول فى « مقال عن الروح الوضعية » : « يختص علم الاجتماع الوضعى ببحث الوقائع ، بدلا من الاوهام المتعالية ، وبالمعرفة النافعة ، بدلا من التأمل العقيم ، وباليقين بدلا من الشك والتردد ، والتنظيم بدلا من السلب » .

وكان كونت يدعو الى اقامة « المجتمع الصناعى الذى لا يقوم على الاديولوجية ، وانما يقوم على « التنظيم . ان المجالا لا يتسع هنا للتفصيل فى نظرية كونت او الرد عنها ، وانما المهم لموضوعنا ان نلاحظ ان كونت عمليا لم يلتزم لبقاواعد

المنهجية التى دعا اليها ، وكان يصدر عن اديولوجية نظرية مثالية تجلت فى دينه الجديد « الانسانية » وقد ساهمت مساهمة كبيرة فى تدعيم القوى المحافظة فى عصره .

ونستطيع تأكيد هذه الحقيقة .. الصبغة الاديولوجية لكل النظريات الاجتماعية ، من خلال التحليل التاريخى لحركة المجتمع الاوروبى فى القرن التاسع عشر ، وما نشأ خلالها من صراع حادبين الوضعية من ناحية والاشتراكية من ناحية اخرى ومن خلال الدراسات النقدية المستفيضة للنظريات الاجتماعية التى نشأت فى هذا القرن من ناحية ثانية ، المعتمدة على منهج علم اجتماع المعرفة ، الذى يربط بين البناء الاجتماعى والفكر ، ويحرص على ابراز الاتجاه الاديولوجى للمفكرين كوسيلة لفهم نظرياتهم .

ونستطيع ان نقول ايضا ان الطابع الاديولوجى للنظريات الاجتماعية لم يكن مجرد مرحلة تاريخية انتهت كما يتصور البعض وانما هو سمة مميزة لها وانما يبقى فقط تحديد نوع الاديولوجية التى تخاز لها مختلف هذه النظريات .

ويعتقد بعض السطحيين ان مسألة الالتزام بنسق من النظريات الاجتماعية والفلسفية ظاهرة موجودة فقط فى البلدان الاشتراكية ، وان الانظمة الراسمالية تكون فيها الابحاث مستقلة غير ملتزمة بأى شىء سوى البحث نفسه .

والوقائع التى كشفت عنها الاحداث الاخيرة حول نشاط وكالة المخابرات الامريكية المتمثلة فيما يسمى بمشروع كاميلوت لضرب الثورة فى البلاد النامية تكذب ذلك ، فقد كان الهدف من هذا المشروع هو : « القيام ببحوث فى مجال العلوم الاجتماعية والسلوكية ، وذلك لتدعيم المهام التى يقوم بها الجيش » .

ويقرر الباحث الامريكى جيدون سويبرج ، انه « ليس من قبيل التعسف استخلاص الهدف الرئيسى لهذا المشروع ، من كونه يبحث مشكلة كيفية مجابهة الثوارت الوطنية ، وذلك باعتبار انه ينهض على افتراض اساسى مؤداه ان البيانات المتزايدة التى يمكن تجميعها فى هذا الصدد ، من شأنها ان تمكن الجيش الامريكى من مجابهة الثوارت الداخلية فى مختلف الدول التى توجد للولايات المتحدة الامريكية مصالح فيها » .

وقد خصص للمشروع ميزانية مقدارها ستة ملايين دولار على اساس القيام بدراسات مسحية ميدانية فى مختلف بلاد امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا ، (انظر الكاتب . مارس ١٩٧١ — العدد ١٢٠) .

وقصة هذا المشروع تبين كيف تؤثر الاديولوجية الراسمالية المسيطرة لتحقيق اهدافها الاستغلالية ، وقد اكد هذه الحقيقة الدكتور احمد ابو زيد فى كتابه : « البناء الاجتماعى — مدخل لدراسة المجتمع » (ص ٢٣١—٢٣٢) « كيف اهتم عدد من علماء الانثربولوجيا فى امريكا لاسباب تتعلق بالحرب والدعاية بدراسة شعوب الاعداء والحلفاء على السواء — فالوقائع التاريخية تقول ان الحكومات واجهزت المخابرات قد زادت من استعانتها بالعلماء ابان الحرب العالمية الثانية لتحقيق اهداف معينة تتوافق مع مصالحها » .

ويقول ابو زيد ايضا « ان مجلة علم الاجتماع الامريكى لم تشر ولو مرة الى الازمات الطاحنة التى يمر بها العالم الان والتى تتمثل بالنسبة لامريكا نفسها فى التفرقة العنصرية ، وحرب الفيتنام ، والظلم الاجتماعى ، وانتشار الجريمة ... الا يتعلق الامر بقضية التوجيه الخارجى والتدخل من قبل السلطات » .

فالقول اذن بان الانظمة الراسمالية تتيح المجال للموضوعية ليس مايؤيده والوقائع التى ذكرناها اكبر دليل على هذا التوجيه والاستغلال .

لكن السؤال المطروح الان ، وقد اثبتنا الطابع الاديولوجى لهذه العلوم ، وصعوبة — ان لم نقل استحالة ، تجرد الباحث من احكامه الذاتية ،

ومعاملة الظواهر الاجتماعية كأنها اشياء خارجة عن ذاته ماهو موقف الباحث الاجتماعى فى البلدان النامية ، وما هى الايديولوجية التى يتعين عليه ان يصدر عنها .

ان الصعوبات التى تواجه الباحث الاجتماعى فى الدول النامة ، يمكن حصرها فى نوعين : صعوبات منهجية خاصة بمجال العلوم الاجتماعية ، وصعوبات خاصة بالباحث نفسه . وقد اشرنا الى بعض المشاكل المتعلقة بهذا الموضوع وهى مشتركة بين الدول النامية والدول المتقدمة منها : تخلف هذه العلوم عن العلوم الطبيعية ، ضعف الامكانيات المتاحة للبحوث فى العلوم الاجتماعية بمقارنتها بالبحوث فى مجال العلوم الطبيعية وغير ذلك .

واما الصعوبات الخاصة بالباحث نفسه ، فتتمثل خاصة فى هذا الضياع بين ايديولوجيات مختلفة فالبلدان التى ينتمى اليها لم تتضح فيها بعد ، الفلسفة التى تتبناها ، او الاختيار الايديولوجى المحدد المعالم ، فهى قد رفضت الرأسمالية كدليل نظرى لميسيرتها نحو التقدم ، وهى فى نفس الوقت لم تقبل بالاشتراكية العلمية فى صورتها المتكاملة .

وبازاء هذا الوضع هناك وجهات نظر مختلفة تحاول ان تجد الحل المناسب لهذا المشكل ، هناك من يدعو الى الالتزام بمشكلات وقضايا هذه المجتمعات . واعتبار ان واقع هذه المجتمعات هو المختبر الحقيقى لمختلف التيارات الفكرية والاجتماعية .

واصحاب هذا الاتجاه لا يرون ضرورة وجود اطار نظرى واضح ، وانما يكفى فقط « وجود مجرد صورة تنظيمية عامة واولية عن الظاهرة المحددة المراد دراستها ، ذلك ان الخطة الطويلة المدى للعمل العلم سوف تبدا مباشرة من النتائج الواقعية ثم نسعى بعد ذلك الى كشف القضايا العامة التى تفسر تلك النتائج » .

ويرون ان كافة العلوم قد بدات بالتفسيرات البعدية وكانت بمثابة الاساس الذى نهضت عليه نظريات ذات قدرة فائقة على تفسير مجموعات كبيرة من الوقائع الجزئية (الدكتور محمود عودة علم الاجتماع بين الوحدة والتعدد الطليعة — يناير ١٩٧١) .

والواقع ان القول بعدم ضرورة وجود اطار نظرى يعتمد عليه الباحث ، كانت احدى الاسباب التى اثرت على قيمة الدراسات الاجتماعية ، اذ كان لها طابع المسح او الوصف العام ، او الوصف الكمى (القياس) كما اتسمت بالجزئية والتجريبية الساذجة والتأويلات الذاتية .

ويبدو لى ان طرح صيغة النقاش بهذا الشكل : الاختيار او الاختبار ، هو طرح خاطىء من الاساس ، ان المجتمعات النامية تواجه مشاكل خاصة مثلا : مرحلة التحول من مجتمع ريفى الى مجتمع صناعى ، والمشكلات المترتبة عن الهجرة ، واستمرار التفكير الغيبى ، والتعامل مع التكنولوجيا الصناعية بعقلية زراعية ، والتعقد البيروقراطى وارتباطه بالتحول الاشتراكى ، والاثار الاقتصادية والاجتماعية للقوانين الاشتراكية ، بالنسبة للبلدان التى اصدرت هذه القوانين .

ويتعين على الباحث الاجتماعى ان يلتزم بالمشاكل الخاصة بهذه المجتمعات ، وعليه ان يقوم فى نفس الوقت بدراسات نقدية نزيهة لمختلف التيارات النظرية الاجتماعية ، ليستعين بها فى الوصول الى نتائج ناضجة .

وهذه النظرة المتكاملة التى تجمع بين النظرى والعملى تستلزمها طبيعة هذه العلوم ، ومتطلبات هذه المجتمعات النامية نفسها ، وفى رايى ان النظرة المباشرة كما هى فى العلوم الطبيعية والتى ينادى بها هؤلاء لا تكفى فى ميدان العلوم الاجتماعية ، فلا بد من نظرة غير مباشرة اى الى استدلال يدلل على فاعلية اية نظرية من النظريات .

فالنظرة الاولى « محافظة » بحكم التصاقها بالواقع ، والنظرة الثانية ثورية بحكم تجاوزها للواقع ، ولذلك فنحن ندعو للتلاحم العضوى بين الفكر والواقع ، لانه بهذا التلاحم نحمى انفسنا من خطر الاصابة بالبيروقراطية والجمود والفصام الاجتماعى والسياسى ، هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الدعوة الى التقدم العلمى تستلزم الرؤية المستقبلية وهذه الرؤية لا تتحقق من غير رؤية فلسفية .

فلسفة ابن باجة الخلقية

ان المشكلة الاخلاقية والاجتماعية تتصلان بصميم الحياة البشرية ولذا فانــه لا تخلــو فلسفة فيلسوف ، ولا مذهب مــن المذاهــب الفلسفية ، من التعرض لها ، وابداء الرأى فيها .

وابن باجة لا يعد من الذين تناولوا الحديث عن المشكلة الاخلاقية فحسب ، بل يعتبر من الفلاسفة المبدعين فى هــذا الميــدان ، وان ارسطو والفــارابى وجميع من تقدمــوه لم يتناولوا المشكلة الاخلاقية كما تناولها ابــن باجــة .

ونحاول ان نلخص افكار مذهبه من خلال المؤلفات التى تركها بين ايدينا ويــعد كتابه « تدبير المتوحد » من أهم مؤلفاته عرض فيه ابن باجة مذهبه الاخلاقى كاملا ، وهو يفترض فى هذا الكتاب وجود كيان سياسى واخلاقى واجتماعى فى المدينة المثالية التى يديرهـــا متوحدون ، أعطى فيها كل واحد منهم افضل ما هو معد له ، وان آراءهم كلها صــادقة ، وأعمالهم هى الفاضلة بالاطلاق ، وان افعالهم كلها صواب ، ولكى يصل ابن باجة الى تعرف اى افعال البشر تؤدى الى هذه الغاية نراه يقسم افعال الانسان الى قسمــين : بهيمية وانسانية ، وذلك أن أعمال الانسان تصــدر عن الغزيرة أو عن العقل والتأمل ويقول فى هذا الصدد :

« وكل ما يوجد الانسان من الافعال المختصة بما اختص به من طباعه المتميزة عما سواه ، فهو بالاختيار ، واعنى بالاختيــار الارادات الكائنة عن روية ، والحيوان غير الناطق انما يتقدم فعله ما يحدث فى النفس البهيمية مــن افعال ، والانسان قد يفعل ذلك من هذه الجهة كما يهوى من فزع ، ومثـــل :

زهـور طـــالبى

(١) ابن باجه من فلاسفة العرب الذين ظهروا فى الاندلس . ولد فى سرقسطة حوالى نهــاية القرن الحــادى عشر الميلادى — الخــامس الهجرى . قتل مسموما سنة ٥٣٢ هـ — ١١٣٨م

ما يكسر عودا لانه خدشه فقط ، وهــذه وأمثالها افعال بهيمية ، فاما من يكسره لئلا يخدش غيره أو عن روية توجب كسره فذلك فعل انسانى ٢)) .

ان تحليل ابن باجة للفعل البشرى يعتمد هنا على تحليل نفسى دقيق ، اذ يعتبر ان الفعل الانسانى الخالص يمكن له ان يستقل عن العناصر الحيوانية وهذا بعد ان يذكـر انواع الافعال الغريزية وانــواع الافعــال الانسانية وما هو الاساس الذى تنبنى عليه :

« فالفعل البهيمى هو الذى يتقدمه فى النفس الانفعال النفسانى فقط مثل الشهوة والغضب او الخوف وما شاكله . والنفسانى هو مـا يتقدمه أمر يوجبه عند فاعله الفكر ، سواء تقدم الفكر ، انفعال نفسانى او اعقب الفكر ذلك ، وسواء كانت الفكرة يقينية أو مظنونة ، وقلما يوجد للانسان الفعل خلوا من الانسانى لانه يفكر فى الاكثر كيف يفعل ذلك الفعــل البهيمى : »

فلغلبة وجود العنصريـن فى الافعــال الانسانية نراه يلاحظ ان الفـعل البهيمى لا يخلو أبدا من الفعل الانسانى ، لان الانسان فى كل حالة من افعاله متميز عـن الحيوان بالاختيار ، كما ذكر لنا ابن باجة قبل هذا ، وان غاب الاختيار فى بعض الحالات : فالفكـر موجود يقينا فى كل الحالات .

والدرجة الاخلاقية الرفيعة عنده انما تتمثل فى ذلك الفعل البشرى الذى ليس عليه ادنى نفوذ من طرف النوازع الغريزية الاخرى غير العقل وهو جدير بان يسمى فعلا الهيا باعتبار ان غاية الفلسفة هى التشبه بالله يقول :

« واما من يفعل لاجل الراى والصواب ، ولا يلتفت الى ما يحدث فى النفس البهيمية ، وهذا يجب أن يكون فاضلا بالفضائل ، حتـى يكون متى قضت النفس الناطقة بشىء لـم تعاند فيه النفس البهيمية بل قضت بذلك الامر ، من جهة ان الراى قضى به ، ففعله بأن يكون اليها . اولى من أن يكون انسانيا » ٣

وهكذا فان العقل هو مصدر للتشريــع الاخلاقى عند ابن باجة ، وليس معنى هذا انه يريد القضاء على النوازع والعزائز البشرية الاخرى وانما شرطه فيها أن تكون خاضعة وخادمة للعقل .

هذا هو الاساس والمبدا الاسمى الذى بنى عليه ابن باجة فلسفته الاخلاقيــة فـما هى المستويات يقتضيها تطبيق هــذا المبدا مــن السلوك الانسانى . ان الغاية من السلــوك الانسانى شغلت ابن باجة سواء من الناحية الاخلاقية او الاجتماعية ، والملاحظ انه يصف سلوك الناس فى زمانه ويذكر امثلة لذلك ، ويتعرض لذكر اسماء اشخاص مما يدل على انه أنتهج منهجا علميا وضعيـا مــن اجـل استخلاص المبادىء والقوانين الاخلاقية انه يقسم سلوك الناس الى ثلاثة اقسام طرفين ووســط :

(١) الصنف الاول يدخل فيه سلوك الناس

(٢) كذا فى الاصل المخطوط وصوابه فى
(٣) المقالة الاولى من كتاب تدبير المتوحد فى مجموعة من الاخلاق مخطوطة

الذين لا يبالون بأجسادهم بل انهم خاضعون لدوافع اللذة والشهوة ، ويعبر ابن باجة عن الدافع بالمحرك ، ويضرب مثلا لهذا الصنف بالمتهورين في المخاطرات بأنفسهم ، والمنهمكين في اللذات المفسدة لامزجتهم ، والمرضى في شهوات انفسهم ومثل لذلك بمحمد ابن عبد السلام من اهل بلنسية وبحال اللصوص وقطاع الطرق وحال المتمردين ، والمتوثبين على الملوك .

٢) **والطائفة الثانية** الذين يكثرون من التوقى ، ولا يرون الا وجود ابدانهم ، فهم يخافون كل شيء ، ويطلبون السكون والدعة ما امكنهم ، لا ينهضون عند ملمة ، ولا يتأهلون لنيل الامال العظيمة وضرب لذلك مثلا بالجماعة التى توالى الحمية وتخشى من كل غذاء مثل على السلمى الذى لم يأكل مدة عشرين عاما الا صنفا واحدا من الطعام .

٣) **الصنف المتوسط** وهم الذين قد يبذلون حياتهم اذا تعين ذلك لدفع مذلة ، او لجهاد العدو ، ولكنهم يحافظون على انفسهم فيما عدا ذلك .

والطرفان المتطرفان عنده خارجان عن الطبع قليلا الوجود ، واما المتوسط فهو الموجود كثيرا ، وهو الطبيعى الذى ورد به القرآن « والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . »

ويرى ان الناس مختلفون فيما ينبغى ، ومعيار السلوك انما هو ما ينبغى ، لا ما هو كائن ، وبهذا يخالف الوضعيين حيث يرى ان ما ينبغى انما هو ابدا شيء آخر غير العمل ، فعمل الناس الطبيعى يتقوم بما ينبغى .

والغايات كثيرة عند الناس اذ هى تختلف باختلاف المعايير التى يضعونها ، ولكن الغاية القصوى عنده ، او الخير الاعظم ، انما هو فيما يكون جوهره فعله فجوهر الانسان جوهر عقلى ومن ثم فعله الاخلاقى الحقيقى هو ما كان مستندا الى العقل وما دفع اليه دافع عقلى وما صدر عن الروية والتأمل وابعد من هذا كله فالفعل الخلقى الخالص يتمثل فى الغاية القصوى وهى الاتصال ، وادراك العقول المفارقة .

يصف ابن باجة غايات الناس فى عصره ويحصرها فى قسمين :

١) الغاية الاولى ما يحسب اهل كل مذهب انه يرضى الله .

٢) غايات تتمثل فى اليسار ، وسير الكرامة من التهويل بالاهتمام باللباس والتزين ووالالتذاذ بشتى انواع اللذة ، فأعمال الصنف الاول الذين غايتهم رضا الله محدودة عندهم ، وكثيرا ما يخل بها اكثرهم الا عند اخيارهم المتمسكين بمذاهبهم ، وهم يقلون ويكثرون حسب الدول والعصور .

واما الذين يقصدون اللذة فهم انواع :

أ ــ من يقصد اللذة الحسية وهؤلاء انعقد الاجماع على ذمهم وخطئهم

ب ــ من يقصد سائرا صناف اللذات الاخرى من جاه وغلبة ، ومال وهؤلاء تختلف آراء الناس فيهم بين ذام وحامد .

ويلاحظ ابن باجة ان هناك لذة داخلة فى هذا الصنف ، وهى اللذة العلمية ، تلك اللذة التى

تغلب على بعض الناس حتى تصبح غايتهم الوحيدة ، وهو يقسم هذه اللذة العلمية الى لذة علمية تكون نحو علم واحد ، والى لذة علمية نحو العلم بصفة عامة ، كيف كان وأى علم كان ، وبما أن العلوم مراتب من حيث الشرف ، فأصحاب اللذة العلمية على الاطلاق يطلبون الالتذاذ بأشرف العلوم ويصبح ذلك همهم الوحيد ، وهذا من قواعد التفلسف الضرورية وابن باجة يضع نفسه فى هذا الصنف من رواد اللذة العلمية فيقول :

« وفى هذا الصنف كنت انا وكنت انت وسائر أصحابنا على اختلاف انواعهم اذا تذكرتهم علمتهم من غير أن يحركنا شىء غير هذا الالتذاذ فقط (٤) »

فالعلم هو الفضيلة الاخلاقية ، وعليها تقوم سائر الفضائل ولا يخفى مافى هذا من تشابه بين ابن باجة وبين سقراط الذى ينادى بان الفضيلة علم ، وبان الرذيلة جهل . فالعلم امل الوصول الى امور ، لا يقدر الانسان ان يعبر عنها .

يقول ابن باجة : وابدا فمعنا رجاء انا نصل الى أمر عظيم لا نعلم ما هو على التحصيل غير أن عظمه لا نجد موقعه من النفس ولا تقدر العبارة على ادائه لعظمته وجلالته ، ورونقه، حتى أن بعض الناس يعتقد أنه يصير نورا وانه يصعد الى السماء . ولذلك قال ابن الجلاب :

محيط السماوات أولى بنا

فماذا الخلود الى المركز (٥)

فالنشوة العلمية ، واللذة العقلية ، ليست فى الواقع غاية عند ابن باجة ، وانما هى دافع الى العلم ، لانه ينقد من يجعل اللذة هى الغاية ، كالغزالى فى نظره ، اذ يقول بصدد حديثه عن الامام الغزالى : الى سائر ما يقوله مما يفهم به ان الغاية القصوى من علم الحق الالتذاذ » ومما يدل على هذا قوله فى رسالة الوداع : « لكن متى طلبنا العلم فلسنا نطلبه لهذه اللذة بل هذه ربح ، لانها لازمة لوجود الحق ، اذ كل لذة فهى أبدا لطل لشىء آخر . فمن طلب العلم للذة كمن يطلب من الاكل والشرب الالتذاذ به لا ليصح به جسمه . »

وهذا يرجع الى أن اللذة عنده انفعال والانفعال تغير ، وكل متغير منقسم وهذا لا يوجد الا فى مصاحبة العناصر العضوية أى البدن .

« ان المحرك الاول ، او الدوافع الى السلوك البشرى فى نظر ابن باجة تنحصر فى الخيال ، والنزوع ، والقوة الفكرية وهو يجعل القوة الفكرية فى مضادة النزوع الذى يعبر عنه بالنفس ، والشوق والرغبة فى الشىء ، قد تكون عن طريق الخيال ، وقد تكون عن طريق الفكر ، والتشوق الخيالى خاصية الحيوان غير الناطق ، واما التشوق الفكرى فهو ما يمتاز به الانسان ، وقد يتنازع هذان الشوقان فيقال : « نازعتنى نفسى » « وقلت لنفسى فى خلاء الوهما » « اقول لها وقد طارت شعاعا » .

وغير هذا من أقوال الشعراء التى كثيرا ما يستشهد بها ، ولا غرابة فى هذا ، ففيلسوفنا قد جمع بين هواتف الشعر ومنطق العقل ، وهو فى شعره أروع أسلوبا واجمل تعبيرا منه فى كتاباته الفلسفية .

يحلل ابن باجة هذه العبارات فيقول : « ان القائل فى : قلت واقول ، هو القوة الفكرية . »

وان المحرك للانسان فى كل افعاله الانسانية انما هو الفكر ، والرأى الصائب ، ويضاف الى هذا عنصر الارادة التى تتبع الروية . وهذا يشبه الى حد ما فلسفة الاخلاق عند كانط ، تلك الفلسفة التى تعتمد على الواجب الذى يقرره العقل مجردا عن الهوىء منزها عن الغرض وعلى الارادة الخيرة التى هى خير مشروط ، وهى العنصر الجوهرى للاخلاق . وسنعالج الموضوع فى بحث آت ان شاء الله

زهور طالبى

(٤) ابن باجة رسالة الوداع ، ضمن رسائل ابن باجة الالهية تحقيق ماجد فاخر بيروت ١٩٦٨ ص ١٢٨
(٥) المرجع السابق ص ١٢١



سوسيولوجيّة الجزائر

تأليف : ب . بورديـو

عرض ونقد :
محـــمد العربي ولدخليفة

كثيرة هى كتب التاريخ والاجتمـــاع التى تتحدث عن ماضى الجزائر وحاضرها عـــن خصائص شعبها ومظاهر ثقافتها ، وما دار فوق اديمها من أحداث ،ولكن قليلة هى تلك الكتب التى تتحدث عن كل ذلك بصدق وتجرد، فقدانساق واضعو هذه‌الكتب ــ الا من رحم ربك ــ وراء عملية طمس وتضليل منظم لتزييف ماضينا وتشويه حاضرنا ، فكانت جهودهــم «العلمية» تسير فى خط مواز للاستعمار تجهز بالقلم على ما لم يجـــد فيـــه السيف وتهيىء الميدان لغزو من الداخل ، لا تدوى فيه المدافع ولا تزهق الإرواح ، ولكنه يتسرب فى يسر الى العقول فيوهنها ويمتد الى شخصية الامـــة وثقافتها فيفكك اواصرها ويجعلها مـــن حيث لا تشعر تابعا ذليلا يستمد غـــذاءه العقلى والروحى من خارج الحدود ، وينقاد الى سيد الامس فيقدم له مجانا ما حصل عليـــه منـــه باغلى الاثمان .

وفى هـــذا السيـــاق يمكـن ان نضـــع كتـــاب سوسيولـوجيـــة الجزائر للاستاذ بورديو الذى ظهر فى طبعة ثالثة فى اواخر السنة الماضية ١٩٧٠. وقد طبع لاول مرة سنة ١٩٣٨ .

ويعتبر المؤلف من أبرز الاخصائيين الذيـن عكفوا على دراسة المجتمع الجزائرى ، والتغيرات التى طرات عليه ابان فترة الاحتلال الاستعمارى البائد ، وقد اشتهر بوجه خاص بدراسته لظواهر التثقيف . وهو يشغـل حاليـا منصب مديـر الدراسات فى المعهد التطبيقى للدراسات العليـا بباريس وكتاب « سوسيولوجية الجزائـر » يقع فى نحو ١٢٧ صفحة من الحجم الصغـير ، ويشتمل على ستة فصول خصص المؤلف الاربعة الاولى منها للحديث عن التجمعات السكانيـة واجمل فى الفصلين الاخيرين بعـض العنـاصر الثقافية المشتركة فى هذه التجمعات .

وسوف لا نتعرض بالتفصيل لما ورد فى هذا الكتاب وانما نكتفى فقط بالاشارة الى بعـض الملاحظات التى تتعلق بالمنهج الذى استخدمـه المؤلف وببعض النتائج التى توصل اليها :

١ ــ ينطلق المؤلف من مسلمة اساسية هى ان الشعوب القاطنة فى شمال افريقيا والجزائر بوجه خاص تتكون من قبائل ذات أصول عنصرية مختلفة كل الاختلاف (Groupes ethniques) لا يجمع بينها الا التجاور فى المكان والتواجد فى الزمان ، ولذلك ينبغى أن تـدرس باعتبارهـا وحـدات منفصلة . ويروى المؤلف أن الخليفة عمر بـن الخطاب قد حلل لغويا كلمة افريقيا وقال انهـا تعنى : « الفرقة والاختلاف والتباين » ولا يرجع هذا الاختلاف الى الاصول العنصرية المتباعـدة فحسب بل هو يظهر ايضا فى الثقافة السائدة لدى كل مجموعة سكانية (ص ٥) .

واطلاق مثل هذا الحكم يقتضى دراسة ميدانية واسعة ومقارنة لم يكلف المؤلف نفسه عناء القيام بها . بل أكتفى بوصف الموقف الايكلوجى لكـل مجموعة قبلية (البربر ، الشاوية ، الميزابية ، العرب .) وبناء على هذا الوصف صمم لكـل مجموعة بناءها الاجتماعى ونسقها الثقافى ونمط الحياة السائد والسمات المميزة التى تجعل كل مجموعة قبلية « تطلب هويتها وتحاول التميز عن غيرهـا » (ص ٧) .

ومن السهل تبين دوافع هذا الالحاح عـلى تقسيم المجتمع الجزائرى الى عناصر اثنولوجية مختلفة وهو الحاح يصل احيانا الى حد التعسف فى الحكم وتلفيق الحجج ويبدو ذلك عندما يقارن الكاتب بين نمط العائلة الممتدة (التى تجمع عدة اسر ينتمون الى جد واحد) فى كل من بلاد القبائل والشاوية والعرب والمركز الذى يحتله الفرد تبعا لطبقة العمر التى ينتمى اليها وبغض النظر عن كفاءاتـه .

وعلى الرغم من أن الباحث قد عجز تماما عن اثبات التمايز العنصرى فى المجتمع الجزائـرى بواسطة دراسة ميدانية اثنوغرافية فانه لم يأل جهدا فى تضخيم التنوع الايكولوجى وافتـراض الحدود الثقافية الوهمية المتمثلة فى العلاقـات الاجتماعية واسلوب الحياة .

غير أن المؤلف يتغافل عن حقيقة لا جدال فيها هى : أنه لا يوجد اليوم على وجه الارض مجتمع يتكون من سلالة واحدة حافظت عـلى نقائهـا العنصرى عبر العصور ، ولعل المجتمع الفرنسى نفسه اكثر هذه المجتمعات تعـددا فى سلالاتـه وتباينا فى ثقافاته فمن يا ترى يستطيع الجزم بأن سكان الالزاس لورين والكورس والبرتون مـن عنصر واحد وينتمون الى ثقافة واحدة ، وعلى حد ما نعلم لم يتطرق باحث فرنسى أو أوروبى الى دراسة اثنوغرافية تستهدف تفتيت وحـدة الشعب الفرنسى ثقافيا وعنصريا بل العكس هو الصحيح فقد دأب هؤلاء الباحثون على التقليل من شأن هذه الفوارق وادماجها فى نسق حضارى وثقافى واحد فلم تدرس المجموعات السكانية فى بريطانيا (الغال والانكليز والا يقوس) ــ على سبيل المثال ــ الا باعتبارها تمثل تكثرا فى وحدة وتنوعا فى تكامل تذوب خلاله الخصائص التـى ينظر اليها باعتبارها مدعاة للاستمرار والاتصال والانسجام لا مثارا للفرقة والتباعد .

٢ ــ **ومن الناحية النظرية** يبدو ان المدرسة الاجتماعية الفرنسية هى المدرسة الوحيدة التى لم تتحرر بعد من المنهج الاثنوغرافى الكلاسيكى ، الذى يرى ان قوام الحياة الاجتماعية هو وحدة

الجنس فلا وجود للمجتمع كقوة ذاتية وانما الموجود هو وحدة الجنس الذى عليه أن يكافح كفاحا مريراً حتى يصمد عنصريا ، ويؤكد غوبينو (١) ان المجتمعات لا تموت اذا انهزمت عسكريا أو حلت بها كوارث طبيعية بل هى تضمحل اذا ما ضعفت عنصريا عن طريق الامتزاج والاختلاط ويؤيد اصحاب هذه المدرسة دعواهم بحجج كثيرة نذكر منها :

ا ـ ان المجتمعات لا يمكن ان ترد الى جنس واحد (سلالة واحدة) فهى خليط من اجناس متباينة ويخطىء أولئك الذين يعتقدون أن البشر ينتمون الى جد واحد من الناحية العرقية .

ب ـ ان الاجناس تتفاوت فى خصائصها وسماتها فمنها الجيد النفيس ومنها المنحط الخسيس ، والجنس الابيض هو وحده خالق الحضارة وحاميها .

ج ـ ان عامل الجنس هو العامل الوحيد والكافى لتفسير كل ما يحدث فى المجتمع من مشاكل وأمراض واتجاهات وتغيرات والواقع أن هذه الحجج لا تصمد للنقد ولا تخلو من مآخذ لانها تستند الى مسلمات واهية :

ا ـ من الناحية التاريخية ليس هناك ما يدعو لاقرار انفراد جنس واحد بالمجد الحضارى وليس هناك اى اساس علمى لتفسير الحضارة على أساس الجنس ، فان ذلك يتطلب قبل كل شىء تحديد الاصول العنصرية ومعرفة نشأتها والطرق التى سلكها ولم ينجح علماء الانثولوجيا والانثولوجيا والانثوغرافيا فى وضع نظرية دقيقة يفسر على أساسها تمايز الاجناس ومما يعقد هذه المهمة تلك الهجرات والحروب التى عرفتها الانسانية منذ ما قبل التاريخ الى اليوم .

ب ـ ان البلاد التى انعزلت لم تبدع اية حضارة بل عاشت فى شبه بدائية مثل الاسكيمو والشعوب الاسكندنافية . ومهما كانت الخصائص المورفولوجية للمجموعات السكانية ، فقد اتضح أن الشعوب التى اختلطت فيها الاجناس كانت اكثر حيوية ورقيا وأسرع تقدما واقدر على الابداع ويبدو مثال امريكا الشمالية دليلا على ذلك .

٣ ـ لقد جهد هذا الباحث نفسه منذ البداية فى التدليل على أن الشعب الجزائرى لا يمثل مجموعة ثقافية منسجمة وليست له انظمة اجتماعية واحدة مؤيدا دعواه بنوع الاحتلال الذى امتحنت به الجزائر وبالعزلة التى امتحنت بها الجزائر ردحا طويلا من الزمن ، واذا جاز لنا ان نأخذ هذه المزاعم باعتبارها وجهة نظر باحث لا يعرف خصائص البيئة التى يبحثها ولم يتعرف على ديناميات ثقافتها فاننا لا يمكن أن نغفر له انكاره وتجاهله لكل ما حدث اثناء ثورة فاتح نوفمبر ١٩٥٤ وبعدها فعلى الرغم من اعادته طبع كتابه فى أواخر السنة الماضية فانه لم يشر على الاطلاق للتغيرات الاجتماعية الراسية والافقية التى تعرض لها مجتمعنا فاذا نستطيع القول بأن هذا الباحث لا زال فى الغيبوبة الدوركايمية التى تفصل الظواهر الاجتماعية عن المجتمع وكأنها كائنات خرافية يمكن أن تبحث مجردة عن صانعيها : افراد المجتمع فبدل ان تبحث المجتمع نفسه ، مشاكله واتجاهاته دينامياته والتغيرات التى تطرأ عليه تعكف على صياغة التعريفات والتفلسف حول المجتمع والاهتمام بوصف ظواهره بالجبرية والشئية ، وهى آراء لم يعد يأخذ بها الا الظالون عن جادة المنهج القويم ، واولئك الذين يحلو لهم أن يجلسوا بين رفوف الكتب فى مكتبات باريس ليشوهوا حقائق العلم ويزيفوا الواقع الاجتماعى لشعوب أخرى يسمونها تارة بدائية واخرى نامية وثالثة بأراضى ما وراء البحار . وهم لو عرفوا أن بيوتهم من زجاج لما تذفوا بيوت الغير بالحجر !

ان بلادنا التى تقبل اليوم على بناء مجتمع جديد فى حاجة الى دحض هذه الافتراءات وتطهير العقول التى اغوتها هذه الادعاءات ، ولن يتم ذلك الا اذا عملنا على صقل شخصيتنا الوطنية واحيينا تراثنا القومى الاصيل وخلقنا مفاهيم جديدة تنبع من واقعنا الثقافى وتلائم تحولاتنا الاجتماعية .

Gobinan Essai sur l'inégalité des races humaines, Paris 1855 P 15-30

مقابلات

مع المستشرق الفرنسي

لوي غاردي

■ اشتغالي بالفلسفة المسيحية جعلني أحمل في نفسي صداقة فكرية للفكر العربي الإسلامي

■ الثقافة الحقة منفتحة على ما سواها من الثقافات بكل عدل وتعاطف

■ لا أوافق جاك ماريتان مطلقاً على مسألة فلسطين

قام المستشرق الفرنسى المعروف لويس غاردى استاذ الفلسفة الاسلامية بجامعة تولوز بفرنسا ، بزيارة للجزائر بدعوة من قسم الفلسفة بالجامعة.
وقد القى بهذه المناسبة محاضرات على طلبةالفلسفة ، كما اشرف على ندوة خاصة باساتذة قسم الفلسفة .
تآليفه : له عدة كتب حول الفلسفة الاسلاميةمنها : « مدخل الى علم الكلام نقل الى العربية منذ سنتين فى بيروت ونشر .
ويتناول هذا الكتاب تاريخ علم الكلام ومدارسهوقام بمقارنة تفكير المتكلمين مع الفكر الغربــى المسيحــى .
وكتاب : « المدينة الاسلامية » بحث فيه النظامالسياسى فى الاسلام ويعتبر من اهم المراجع فى هذا الموضوع ..
وكتاب : فى التصوف الاسلامى . ونقلت الكثير من هذه الكتب الى العديد من اللغات الاوربية ، وقد اغتنمنا فرصة وجوده بالجزائر فاجرينامعه الحديث التالى :

سوال : ارجو ان تعطونا فكرة عن قصة استشــراقكــم ؟

جواب : انا لا اعد نفسىمستشرقا ، فانـــا فيلسوف عشت فى دار الاسلام ولا استطيــع من هذه الوجهة الا اهتم بفكر البلاد الاسلامية وثقافتها ، وسرعان ما انتبهت الى وجود قيــم روحية وثقافية كبرى طالما جهلها الغرب بيد ان اشتغالى بالفلسفة المسيحية جعلنى احمل فى نفسى صداقة فكرية للفكر العربى الاسلامى فانا لست مستشرقا بل فيلسوفا مسيحيــــا للثقـــافات .

س : الى متى يعود الاستشراق من الناحية التـــاريخيـــة ؟

ج : ظهرت فى عرفانى دراسات للاستشراق ابتداء من القرن التاسع عشر بخاصة . واظن انه وقعت تاثيرات مرتبطة بالتوسع الذى كان الاستعمار الغربى يمارسه . واريد ان اقول هنا ، ان بعض العقول على الاقل ، اخذت وهى تعيش فى هذا الجو من الامبريالية الثقافية ، تنفتح على ثروات غير مغايرة لثروات الثقافة الغربية . ومن الواضح انه ساد زمنا طويلا اسلوب دراسة للثقافات الشرقية يستند الى الغرب الذى كان يظن انه متفوق بصورة قبلية وان ايــرنيست رينـــان يمثل هذه النظرة ،

س : الى اين اتجهت جهــود الاستشراق فىالبداية ؟كانت بعض المدارس الاستشراقية مثل المدرسة الفرنسية التى كانت تابعة لزارة الخارجية الفرنسية والمدرسة الالمانية التـــى كانت تابعة لوزارة الخارجية الالمانية ، تخدم اهدافا استعمارية ، واحيانا نزعات دينيـــة

معينة ، فهل هناك تطور فى اتجاه هذه المدارس بحيث تخدم العلم والحقيقـــة ؟

ج : يجب الاعتراف بانهمن الوجهة الدينية نفسها كان الاستشراق بادىء الامر يتم علـــى صعيد الدفاع والهجوم لا على صعيد التعاطف المنفتح .وسواءاتعلقالامر بالاوساطالجامعية او الدينية او الادارية فقد كان ذلك كله مرتبطا بعصر معين ــ وكل انسان يتأثر بالعصر الذى يعيش فيه ــ هو العصر الذى كان ينظر فيه الى التقــدم التقــنى للغــرب عــلى انـــه نوع منمطلق السلطة الكاملة .وهكذا انضاف الى الامبريالية السياسية نوع من الامبريالية الثقافية نتيجته الحتمية انيؤدى الىمآزق لان الثقافة الحق هى بالطبع منفتحة على ما سواها من الثقافات بكل عدل وانصاف وبكل تعاطف ثقافى . ولحسن الحظ نستطيع القول انه منذ بضع عشرات السنين ظهــر فكــر جديـــد فى الاستشراق ، وانا اسمح بذكر اسماء لويس ماسينيون وهنرى لاووست وروجير ارنالديز وجاك بيرك وآخرين هذا اذا لم اذكر غــــير الفرنسيين . واعتقد ان عهدا جديدا للتفاهم يمكن أن يبدا ، وهذا ما اسميهالحوار الصادق بين الثقافات وبهذا لنبتعد عن ان ندرس الاخر دراسة كما لو كان قطعة اثرية او ان نحكـــم عليه من عل . وآمل فى ان نتمكن جميعا مـــن اتباع اتجاه للعمل المشترك والتفاهم والاغناء الثقافى المتبادل . واذا عدنا الى النظرة الدينية التى تحدثنا عنها آنفا فانى اتمنى من صميـــم قلبى ان يقع تجاوب بين ما يقوم به المسيحيون من دراسات اسلامية تتفق مع نظرة المسلـــم لنفســـه ، وبين مـا يقومبه المسلمون من دراسات مسيحية تتفق هى الاخرى مع نظرة المسيحى لنفســـه .



جاك ماريتان
فلسفة فى خدمة الصهيونية

سؤال : يقول جاك ماريتان ان فلسطــين يجب ن تكون لليهود ، فما رايكم فى هذا ؟

جواب : ان جــاك ماريتـــان فيلســـــوف مسيحى عظيم ،وهو صديق لى ،ولكنه يجهل اننى لا اوافقه مطلقا على مسالة فلسطين هذه واعتقد ان رايه صادر عن قراءة مثالية للتوراة بيد ان اجتهادى فى هذه المسالة ان وعد الله لشعبه بمنحه ارضا كان محصورا فى زمن معين لم يكن يعنى مطلقاحلا سياسيازمانيا لعصرنا ومن الوجهة السياسية ارىانحق الفلسطينيين فى البقاء فى وطنهم بوصفه وطنا . ولا يمكن ان يسلب منهم هذا الحق بالاستناد الى نصوص التوراة بأيى معنى من المعانى . .

محاضرات

عرض وتلخيص محمد الصغير ابن الاعلام

قصة الكتابة العربية

ما هى مغامرة الحرف العربى الذى نكتب به الان عبر التاريخ من اين جاء وما هى المراحل التى قطعها حتى وصل الى اسلافنا قبل ظهور الاسلام فى الجزيرة العربية ، هذه الاسئلة وغيرها هى التى حاول ان يجيب عنها الدكتور ابراهيم جمعة استاذ التاريخ الاسلامى بجامعة الجزائر ، فى محاضرة قصة الكتابة العربية .

بدا الدكتور محاضرته بتقرير حقيقة يراها مسلمة وهى ان كتابتنا العربية الحالية ميراث جاهلى اخذها عرب الحجاز عن ابناء عمومتهم عرب الانباط (اوالنبتين) الذين كونوا حضارة زاهرة فى الجنوب الشرقى للبحر الميت حتى الحجاز

ثم انتقل الاستاذ المحاضر الى استعراض آراء المؤرخين فى اصل الكتابة العربية فصنفها الى ثلاث نظريات :

١ـ نظرية التوقيف : التى تذهب الى ان الخط شىء من عند الله وجده العرب على شاطئهم عندما انحصر الطوفان مثلما وجد كل قوم خطهم على شاطئهم وهذه نظرية من السذاجة بحيث يرفظها العقل ويأباها المنطق لان الكتابة حرفة من حرف المدنية كما يقول ابن خلدون تنعدم مع البداوة وتكسب بالتحضر .

٢ ـ نظرية الخط المسند اى ان الكتابة العربية ماخوذة من الخط المسند الحميرى ، وقد دلت الكشوف الاثرية التى اجريت فى خرائب اليمن على بطلان هذه النظرية اذ ثبت بأن الخط الحميرى منفصل الحروف ويبعد كثيرا عن الخط العربى .

٣ ـ نظرية الخط النبطى : يؤكد اصحاب هذه النظرية بأن خطنا العربى قد نبت فى اقليم الحيرة ثم هاجر الى الحجاز مارا بالانبار ودومة الجندل حتى استقر فى مكة والمدينة ، ويذكر هؤلاء ثلاثة اسماء قالوا انهم اجتمعوا فى بقعة من بلاد الحيرة وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ثم انتجوا هجاء العربية ثم يذكر هؤلاء اسم بشير بن عبد الملك الكندى اخى الاكيدر صاحب دومة الجندل على ان هذا الذى اخذ على عاتقه نشر الهجاء العربى وجال من اجل هذه المهمة حتى بلغ الحجاز وادى مهمته .

ويرى الدكتور المحاضر ان هذا القول قريب من الصواب اذ دعمته الكشوف الاثرية التى عثر عليها فى حران وشرق الاردن وسيناء التى دلت على الشبه الكبير الموجود بين هجاء عرب الانباط وهجاء العربية (نقوش زيدوحران والنمارة وسيناء)

وبهذا الخط كتب عرب الجاهلية ودونوا اشعارهم ، وعندما نزل القرآن على النبى (ص)

كتب بهذا الخط على سعف النخيل والعظام وورق الغزال والاشجار ومن هذه الكتابات جمع القرآن فى مصحف الامام الذى امر الخليفة عثمان رضى الله عنه بتوزيعه على الامصار .

على انه ليس لدينا نسخ من القرآن كتبت فى القرن الاول والثانى للهجرة بالخط اللين كل ما لدينا من ذلك مصاحف كتب بخط قوى كبير هو الخط الكوفى ، الذى كان مفضلا لكتابة القرآن لوضوحه وجلاله .

ويلاحظ ان المصاحف التى كتبت بهذا الخط خالية من النقط والشكل وذلك دليل على قدمها غير ان الشكل والنقط وجدا ضروريين لحفظ كلام الله عن اللبس والتحريف ، ووقع اول ضبط للقرآن الكريم فى ولاية زياد بن ابن ابيه والى العراق ، فهو الذى كلف العالم اللغوى ابا الاسود الدؤلى بضبط القرآن ضبطا اعرابيا فقامت اولى مراحل الضبط ، ثم تمت المرحلة الثانية من الضبط فى خلافة عبد الملك بن مروان على يدى كل من يحى بن يعمر ، ونصر بن عاصم اما الاصلاح الثالث فقد تم فى العصر العباسى على يد العالم الخليل بن احمد الفراهيدى وبهذا الاصلاح تم نقط القرآن وشكله على النحو الذى نراه الان .

والواضح ان الخط الكوفى ظل مستخدما فى كتابة المصحف حتى العصر العباسى حين اخترعت اقلام نسخ بها القرآن واشتهر من هؤلاء المبتكرين الخطاط ابن مقلة والوزير ابن البواب ، ويجب ان نعرف بأنه منذ البداية كانت هناك خطوط لينة تخالف الكوفى استخدمت فى التدوين والتراسل وكتابة المخطوطات ، وفى شمال العراق ابتكرت صور الخط النسخى وعنهم اخذها العثمانيون الذين كانوا يعشقون الخط الجيد ويجيزون أصحابه ويقربونهم ويجزلون لهم العطاء

اما فى ايران فقد كتب القرآن الكريم بالخط الفارسى المعروف اما الهند فقد استعارت الخط الفارسى لكتابة المصاحف ، وفى مصر فى عصر المماليك كتب المصحف بخط الثلثين وخط الثلث ، اما فى المغرب فقد كتب المصحف منذ البداية بالخط اللين المغربى وهو المستخدم حتى الان فى نسخ القرآن بتجويد خاص يليق بجلال كتاب الله وخطوط المشارق والمغاربة خطوط عربية اختلفت من الناحية الذوقية الفنية ولكن الجوهر الخطى العربى واحد وتأتى فيهما بدرجة سواء ، وقد بعث الخط الكوفى من جديد لاتخاذه نوعا من الزخرف الكتابى وكثيرا مايعجب الخطاطون بقواعد الخط العربى ويخرجون عن أصوله المرعية التى توارثها المسلمون جيلا بعد جيل .

ولم تحظ كتابة امة من الامم بمثل ما حظيت به الكتابة العربية من عناية وتجويد ، لأنها الكتابة التى شرفت بالقرآن الكريم فسجلته وكأنما كانت قد اعدت فى الحجاز لتلقى هذا الشرف العظيم وقد اكتسبت مكانها من الشرف لانها كانت فى خدمة كتاب الله .

وزادت الكتابة العربية شرفا على شرف عندما صاحبت الاسلام فى انتشاره فكانت سجلا للمعارف العربية الاصيلة وللمعارف المكتسبة ووعاء للتراث العربى الاسلامى ، دخلت حيثما دخلت الى بقاع الارض مقترنة بالاسلام تخدمه فى اغراض الدين والدنيا ، معززة لدى المسلمين محببة اليهم ، وكان حرصهم على تجويدها وتدوين المصحف بخير ما لدى الكاتبين من قدرات الاجادة شيئا يشبه التقديس والتنسك تقربا الى الله وزلفى وابتغاء لمرضاته وثوابه .

فرانز فانون والثورة الجزائرية

هذا هو عنوان محاضرة القاها الاستاذ محمد الميلى مدير الاعلام ، ومدير جريدة المجاهد الاسبوعية ، فى قاعة الموقار بالجزائر مساء يوم الخميس ١٨ مارس ١٩٧١ م .

ولقد استهل الاستاذ المحاضر كلامه بالاشارة الى قلة المراجع بالعربية فى الموضوع وكثرة الدراسات باللغة الفرنسية ثم استرسل فى كلامه قائلا ومع ذلك فسيبقى فانون موضوع دراسات لان المنون قد اختطفه عندما وصل الى مرحلة النضج ، وكتابات فانون هى كتاباته اثناء الثورة الجزائرية وعلى هذا الاساس اعتبر فانون ذا تأثير

فى الثورة الجزائرية ثم اشار السيد المحاضر الى نقطة بقيت فى الظل حتى الان هى مدى تأثير الثورة الجزائرية فى فانون ، وبعد هذا اعطى الاستاذ المحاضر صورة مختصرة لحياة فانون ثم انتقل مباشرة الى الحديث عن الاسباب التى جعلت الغرب يهتم بفانون ونلخص هذه الاسباب كالاتى :

١ — ان فانون كان معروفا لدى الحركات اليسارية فى اوروبا .

٢ — وجود اصول فكرية غربية واضحة فى كتابات فانون وفكره ، وهذا ما جعل الغرب يتقبل فكر فانون الثورى .

٣ — كان عنفه يرفض الارتباط بالماضى (لا اريد ان اكون ضحية عالم اسود ، فيجب ان لا تخضع حياتى للقيم الزنجية) كما كان لا يعتبر التاريخ مصدرا للقيم ، وهذا العامل جلب له عطف الفكر الغربى (الزنجى لم يخط المعركة من اجل الحرية) و (الابيض سيد سمح لعبيده بأن يجلسوا الى مائدته) فهذا الماضى الزنجى لم يجد فيه فانون ما يعتزبه ، وفى اعتقادنا لو ان فانون ينتمى الى بلد افريقى اسلامى لتغير رايه فى الزنجية .

هذه هى بعض العوامل التى تفسر عناية الغرب بفانون .

ولكى نفهم تاثير الثورة الجزائرية فى تفكير فانون لا بد ان نقرا كتبه حسب تسلسلها التاريخى وهذا ضرورى لان العنف الذى نلمسه عند فانون قبل اتصاله بالثورة الجزائرية يختلف عنه بعد اتصاله بالثورة .

فعنفه قبل الثورة لم يكن ذا طبيعة ثورية خلاقة فكتابه (بشرة سوداء ، اقنعة بيضاء) يطرح مشكل كفاح الفرد الانتيلى من زاوية الفرد المستعمر داخل الوطن الفرنسى ، انه كفاح من اجل حياة افضل فى نطاق الوطن الفرنسى وليس كفاحا من اجل الحرية فالاستعمار مجرد وضع طبقى يقف فيه العامل المارتينكى مع العامل الفرنسى ضد البورجوازى المارتينكى والفرنسى ويقول فى نفس الكتاب (اية حكاية هذه حكاية الشعب الاسود ، فانا فرنسى وثقافتى فرنسية اننا نرفض ان نعيش على الهامش بل فى وسط المشكلة الفرنسية) فموقفه هنا انسانى وليس وطنيا ففانون هذه الفترة احس بالاستعمار من خلال العنصرية والطبقية .
غير ان فانون بعد اتصاله بالثورة الجزائرية تعرف على جوانب جديدة كان قد اهملها من قبل ولم يقرا لها ايى حساب ولمس عن كثب مدى ما تعرضت له الثقافة القومية الجزائرية من محاولات التشويه والمسخ ، كما ادرك خطورة الدور الذى تلعبه الثقافة فى الثورة المسلحة ، وتبعا لذلك بدات كتابات فانون تتخذ وجهة جديدة ويتجلى ذلك بوضوح فى مقاله (عنصرية وثقافة) الذى يعتبره الاستاذ المحاضر يمثل فترة انتقال بين فانون (بشرة سوداء ، اقنعة بيضاء) وفانون (الثورة الجزائرية فى عامها الخامس) حيث ظهرت فى هذا المقال لاول مرة عند فانون مقابلة بين الهلال والصليب (مؤتمر الكتاب والفنانين الزنوج سبتامبر ١٩٦٦) .

وفجاة يتطور التاريخ من كونه سجنا لمن يستشهد به الى ان يصبح منارة يستضىء بنوره من يستشهد به ، يتأكد هذا الخط بعد احتكاكه بالثورة الجزائرية ، وفانون فى هذا الموقف لايزيد على ان يتبنى الموقف التقليدى للحركات السياسية والثقافية الجزائرية وهذا يرجع الى انه احتك بالثورة فى قمة معركتها المسلحة ، لقد استطاع فانون ان يرى المجتمع الجزائرى بعين مزدوجة، عين المثقف الغربى ، والمتعاطف مع الثورة ، فملاحظة فانون هذه عن المجتمع الجزائرى التى اعتبرت عبقرية عند المفكرين الغربيين وبعض المشارقة يجد له فى تقارير فترة بعد الإستعمار تظهر مدى احساس المقاومة الشعبية الجزائرية ، وقد اعتبر دونوفو انها مقاومة دينية ، وظهور الطابع الدينى لاينبغى ان يحجب عنا الطابع الثقافى لعلاقة الثقافة بالدين وهذا ما قاله (لاموريسيير) من أن الجزائرى يرفض المدرسة الفرنسية لانها مدرسة الكفار .
هذه الحقائق هى التى اكتشفها فانون وسجلها فى كتابه « الثورة الجزائرية فى عامها الخامس »
ان الثقافة الفرنسية لم تشبع نهم فانون الى

التحرر ، وقد وجد هـذا التحـرر فى الثـورة الجزائرية لانه لايمكن ان يرفض فيها بسبب لونه ، وفى هذا يقول (انه لو كان فرنسيا ابيض اللون وانظم الى الثورة فستستقبله لكن ببعض التحفظ اما هو فان لونه قد كان بمثابة جـواز الدخول له) وهكذا نميز ثلاثة مراحل فى تفـكير فانون .

١ ــ المرحلة الاولى وتسجلها كتاباته ما قبل الثورة الجزائرية حتى ١٩٥٥ .

٢ ــ المرحلة الثانية ويسجلهاكتابه فى (الثورة الجزائرية ، فى عامها الخامس) وبعض مقالاته فى المقاومة الجزائرية والمجاهد وتمتد هذه المرحلة من ١٩٥٦ الى ١٩٥٩ .

٣ ــ المرحلة الثالثة التى انتقل فيها فانون من التفكير داخل الثورة الجزائرية الى الاممية فى العالم الثالث ويسجلها كتابهمعذبوا الارض وبعض مقالات من اجل الثوزة الافريقية وقد بـالغ فى الاعتماد على التلقائية والعفوية مستندا الـى التجربة الجزائرية متناسيا ما كان وراءها من اعداد وتنسيق استطاعت بفضله ان تحافظ على مقومات الشخصية الجزائرية التـى تستمـد جذورها من ماض بعيد يعود الى ما قبل ١٨٣٠ .

التكافل الاجتماعى فى الإسلام

محاضرة القاها الدكتــورفتحى درينى استاذ بكلية الحقوق جامعة الجزائر .

بدا السيد المحاضر كلامــهبالاشارة الى خـطورة هــذاالموضوع الذى حاول كثيرون من قبل ان يتناولــوه بالبحثوالدرس فاتوا بادلة جزئيــةارتاوها ولكن الموضوع مــن الخطورة كما قال لا يمكن انيكتفى فيه بدليل جزئى ، ثــماشار السيد المحاضر الى ان المسالة ليست مسالة عاطفيةاو تعصبية وانما هى مسالــةعلمية يجب ان تطرح علـــى بساط البحث .

لقد عرفنا ان القوانينالتىتحكم اوروبا كلها تقوم علـــىمذهب الفلسفة الفردية التـــى مؤداها ان جميــع الاحكــاموالقوانين يجب ان توجه الىخدمة الفرد وصيانة حقوقــه لانه زود بهذه القوانين منــذولادته ، وهذا تجاهل كامــللجماعة ، وقام على النقيض من هــذا المبــدا التضــامنالاجتماعى الذى اسس ليرعىويسهر على المصلحة الجماعية

فاعتبر الفرد آلة مسخرة للجماعة وبذلك الغى هذا المبدا كل حقوق الافراد .

كلا المذهبين اذا متطرف فى آرائه ، وقد صـرح العميد د ، ح ، بانه اقام المذهب الثانــى ليناقض المذهب الاول ، نخلص من هذا الى ان الفلسفـة الاجتماعية لا يلتمس عندها حل للتكافل الاجتماعى فى الشرق والغرب على السواء .

ثم خلص السيد المحاضر بعد هذه المقدمة الـى السؤال التالى : ما موقف الشريعة الاسلامية مـن المذهبين ؟

الشريعة الاسلامية لا يمكن ان يفهم التكافـــل الاجتماعى فيها الا على اساس النظرية العامة التى قامت عليه ، وهى على النقيض من المذهب الفردى اذ تعتبر الشريعة هى اساس الحق لانها هى التـى انشأته انشاء ، فالاحكام والمصالح منها تعبديــة ومعنى هذا انها من وضع الشارع ، ومهمة المجتهدين هو التفريع والقياس ، ويقرر هذا الامام الشاطبى فى كتابه المــوافقــات .

ما هى الثمرات التى تترب على هذا الاصل ؟

أ ــ ان كل حق فردى وضع للمصلحة ، وان هذه المصلحة مشوبة بحق الله ، ومعنى ذلك ان فيها حقوق الغير ، ومن هنــا تنشــا اصــول التكـافل الاجتماعى ، ولكن باديء ذى بدء يجب ان نلاحظ بأن الشريعة الاسلامية لا ينفصل فيها المعنى الدينى عن التشريع الالزامى ، ومعنى ذلك ان التكافل الاجتماعى يشمل جميع شؤون الحياة .

وقد انطلقت الشريعة الاسلامية فى هذا انطلاقا طبيعيا لانها لم تعن بالجانب المادى فحسب اذ ان مهمتها الاساسية هى اعداد الفرد للحياة ، وهذا لا يتأتى من الجانب المادى فقط فلابد اذا ان تنصب العناية على الانسان ككل فكانت التوجيهات الخلقية والدينية ، ومن الخطا الاعتقاد بأن العلاقات الاجتماعية تقوم على الجانب المادى فحسب والغاء كل القيم كالايثار والمحبة والاخوة الى غير ذلك من المثل ، ومن هنا نخلص الى انه يجب ان يكون المنهج المصطنع هو منهج الغاية والارادة اى ادخال المثل العليا فى القانون واعتبار الخلق اساس القانون ، والشريعة الاسلامية على هذا الاساس هى اغنى شريعة فى العالم ، لانها تسعى الى خلق الارادة فى الانسان اولا وهذا ما تسميه التكافل الذاتى ، والشريعة الاسلامية ربطت الانسان بالمثل الاعلى وهو الله (ولله المثل الاعلى) ثم جعلت هذه الارادة تتحكم فى تصرفات الفرد فى السر والعلن فينتج من ذلك انسان فاضل فى نفسه يراقب جميع تصرفاته فيصون نفسه من الانهيار ، ومن هنا جاءت النداءات الالهية لتثير فى الانسان انبل المشاعر وتوجهه الى اسمى الغايات .

ما هى هذه التوجيهات الدينية والخلقية وما فلسفتها وتحليلها ؟

اول مبدأ وجهت اليه الانسان هذه التوجيهات هى الكرامة ، الانسان كرامة ، وكرامته مصونة عند الله وفى الشريعة ، سواء أكان مسلما او غير مسلم (ولقد كرمنا بنى آدم) .. وهذا إشعار للانسان بأنه ينبغى أن يصون هذه الكرامة لا بالقول ولكن بالعمل لان الكرامة تستدعى السيادة والعزة والحرية (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ومن صور هذه العزة ، التى اظهرها القرآن فى آياته تسخير الكون للانسان وهذا التسخير يدل دلالة ظاهرة بأن على الانسان انيحقق ذاتيته لينتفع بهذا التسخير وهذا لا يكون الا بأمرين : بالعلم والعمل وهما اصلان من اصول التكافل الاجتماعى فى الاسلام .

اما المبدأ الثانى : وهو الاخوة ، والاخوة شعور واحساس عميق بالاعتبار الانسانى من كل فرد لاخيه لانه يشاركه الحياة فكرة وهدفا وهى مصدر التزام كل انسان نحو اخيه فلا يمسه فى شخصه او ماله او عرضه او بأى ضرر آخر ، وهذا المعنى الذى قرره الرسول صلى الله عليه وسلم « المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرئ من الشر ان يحتقر اخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » والاخوة مقتضاها المحبة ، والمحبة قد ربطت بالايمان « لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » فالايمان لم يربط بالمعاملة الحسنة لانها قد تكون نتيجة رغبة أو رهبة ، اما المحبة فهى حقيقة قلبية ، فالاسلام اذا يقيم القيم الاخلاقية مقامها الاول فى المعاملة ومن مستلزمات الاخوة ، الولاية او التناصر « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض » . ثم ان الاخوة تقتضى الرحمة ، والرحمة ليست مجرد عاطفة مجرد عاطفة قلبية ولو كانت ترتكز عليها ، فالعدل رحمة ، والمساواة رحمة ، واغاثة الملهوف رحمة ، ورفع الظلم رحمة ، وتعليم الجاهل رحمة ، وعلاج المرضى رحمة ، ومن هنا غاب عن بعض الناس كيف تجتمع الرحمة مع الغلظة (أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

والايثار وهو تفضيل الغير عن النفس فى حظوظ الدنيا والمنافع ، وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلا رفيعا فى موقف الانصار من اخوانهم المهاجرين « والذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خاصة » فالايثار وهو تفضيل الغير عن النفس يبلغ قمة الفضيلة الانسانية اذ صدر ممن هو اشد حاجة ، بعد ذلك احاط هذه القيم بسياج منيع ، الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمقصود من النهى عن المنكر والامر بالمعروف هو التغيير ولهذا يجب ان يكون امرا حقيقيا « والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليعمنكم الله بعذاب » .

هذا هو السياج المنيع وهو تكوين رأى عام فاضل لا ينحرف ولا يجبن ولا يتقهقر . فالشريعة الاسلامية تتيح لكل فرد أن يحقق فضائل بدون الزام حتى اذا لـم تجد كل هذه المثل جاء التشريع الملزم بفروض عينية يجب على كل فرد أن يؤديها ، وكل حق الغير من افراد المجتمع ، وهو أمر لم تطل

اليه الشرائع الا فى شكل بسيط فى القرن العشرين، ولقد تفرغت الاحكام على هذه المراعاة لا فى المجاوزة والاعتداء فحسب بل فى التعسف والتمكن كذلك .

والشريعة الاسلامية قد جعلت للمصلحة العامة كيانا مستقبلا بل قد جعلت للمصلحة العامة الاسبقية على المصلحة الفردية اذ تعارضتا ولم يمكن التوافق بينهما . وهنا انتقل السيد المحاضر الى الحديث عن الواجبات الملقاة على المجتمع كله كايجاد المرافق العامة للدولة فى كل ما تحتاج اليه الامة لتقوية كيانها والمحافظة على نفسها فهذه اموركلها يجب على المجتمع أن يوجدها ، ويجب على الامة كذلك ان توفر هذه المرافق فى ابنائها لتحقق الاكتفاء الذاتى ولا تلتجىء الى الغير الا فى الضرورة حتى لا يطمع فيها الاجنبى .

ويجب استثمار الامكانيات ويجب منع الصناعات الاجنبية ان كان مما يصنع فى الوطن ، على أن هذا التكافل الاجتماعى لا يعنى اننا لا نؤمن بالتعاون الانسانى المثمر فالله سبحانه يقول :

(وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وهى آية واسعة شريطة أن يكون هذا التعاون على قدم المساواة وأن لا يكون ماسا بالعقيدة أو بالقانون الاساسى للمسلمين لان ذاتيتهم لها خصائصها ، وان كل أجنبى اذا عادى المسلمين فانه يعاديهم لانه لا يشاركهم هذه الخصائص « التكافل الانسانى » ثم ان الاسلام يوجب على اتباعه ان لا يكونوا ذوو منافع أو اغراض ذاتية كالاستعمار ، انهم ذوو رسالة ، وايضا فاذا كانت المعاهدات الدولية تتخذ كوسيلة من وسائل الاكراه للدول الضعيفة ، فان الاسلام قد حذر من ذلك تحذيرا كبيرا (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة هى اربى من امة) اى لا تتخذوا المعاهدات وسيلة للخداع والتضليل .

نخلص من هذا الى ان الاسلام قد حافظ على السلم العالمى ولكن لا يقر هذا السلم الا اذا حقق اغراضه واهدافه فى المجتمع البشرى ،فليس معنى السلم وضع السلاح فالجهاد مفروض ابدا والذين يقفون امام المجاهدين ليس لهم حظ فى الاسلام لانهم غير متكافلين وحكم التكافل فى الاسلام فرض، فالزكاة فرض وهى مظهر من مظاهر التكافل وأمر الزكاة ابسط من الجهاد لانه قائم ابدا .

المشكلة الإديولوجية فى العالم العربى

القى مساء الاثنين الماضى الاستاذ عبد الله العدوى الاستاذ بكلية الآداب بجامعة الرباط محاضرة بقاعة المحاضرات بجامعة الجزائر عنوانها : « المشكلة الايديولوجية فى العالم العربى » حضرها عدد من طلبة واساتذة الجامعة ..

وقد تعرض الاستاذ المحاضر الى مضمون الايديولوجية وتعريفها فى العالم العربى فركز على ضرورة طرح هذه المشكلة « الايديولوجية » فى جوانبها المتعددة بما فيها الاقتصادية والاجتماعية

وهنا تكمن خاصية تحليله لهذا الموضوع اذ قبل هذا انرى معظم المفكرين فى العالم العربى يهتمون بجانب واحد اقتصادى او اجتماعى ، او ايديولوجى. وعندما تعرض الى الايديولوجية ركز على ضرورة انتقادها فذكر من الامثلة على هذا الجانب « الحركة الوهابية » فى الجزيرة العربية فى القرن (١٨ — ١٩) ومميزات ايديولوجيتها وتحديدها التاريخى والاجتماعى والإقتصادى وانتهى الى انها تمثل رد فعل ضد السيطرة العثمانية وتجديد للحركة السلفية فى الرجوع الى منابع الدين وهى كذلك تعبير عن التحولات الاقتصادية التى شهدتها المنطقة فى ذلك الوقت بتحول التجارة الى غرب البحر الابيض المتوسط ورد فعل ضد الاطماع الاستعمارية فى المنطقة .

وفى نقطة ثانية حلل المحاضر وضعية البرجوازية الحضارية فى المغرب خلال القرن ١٩ فى قضية « المكوس » التى فرض النفوذ الاجنبى عدم استيفائها من التجار الاجانب ، وكيف كان رد الفعل لدى التجار المغاربة وقد طرح هذه المشكلة على الصعيد الايديولوجى البحت اذ أن التجار المغاربة كانوا عاجزين عن طرح المشكلة فى قالب لمصالحهم واكتفوا بالاخذ بوجهة نظر الدين فى هذه المسالة ، ومن هنا استنتج المحاضر سلبيات الايديولوجية التى اعاقت التطور الاجتماعى ، وهذا فى رايه يمثل تاخر فى العقلية التى عجزت عن مسايرة التقدم الحضارى الذى وصلت اليه اوروبا عن طريق التجارة الحرة المدعمة بالافكار الليبرالية .

م . ن

• ركن الطلبة •



هذا ركن جديد نخصصه للطلبة والطالبات يعبرون فيه عن آرائهم وافكارهم فى مشاكل مختلفة تهم تطوير مجتمعنا وتحرير الانسان الجزائرى فى جميع مظاهر المسخ والتشويه .

ونحن ندعو كافة الطلبة والطالبات ليساهموا بكتابتهم فى انجاح هذا الركن الذى هو ركنهم .

أصالتى

المجد مجدى والحياة حياتى
ساعيد للتاريخ سيرته التى
واقول للدنيا اشهدى انى هنا
هذى بلادى نفحة جادت بها
هذى بلادى جنة أكرم بها
هذى بلادى نسمة سحرية
هذى بلادى لو عرفت أصولها
هذه بلادى غنوة عربية
سائل زماننا كان فيه شبابها
سائل زماننا كان فيه شيوخها
سائل زماننا كان فيه نساؤها
سائل زماننا لم يزل فى لهفة
واليوم عدنا للزمان نريه من
فى كل ناحية نشاط قائم
والكل يسعى للرقى ويبتغى
فالاصل باق لو تطاول عهده
ذاتيتى أنيتى وحقيقتى
أولست من ترب الجزائر منشا
اولست من جيل تربى واحتمى
شعب الجزائر مسلم قد قالها
بالجد بالعرق المرير بعزمنا
لغة العروبة منطقى وكتابتى
لا ارتضى ابدا بديلا غيرها
سنسير فى طرق الكفاح بقوة
سنعيدها عربية واصيلة
هذى معاهدنا تعلم نشانا
ومنائر الاسلام شع ضياؤها
من كان يبغى عزه وكيانه
ان الشعوب اذا تهدم اصلها
فالفرع لا يبقى بغير جذوره
أبناء جيلى والحياة تحفز
فاليوم نعلنها بان نضالنا
فلسوف نبنى للجزائر مجدها
والقلب منى صادق العزمات
قد سجلتها أعظم الصفحات
لا أرتضى الا اصالة ذاتى
أيدى الاله وواهب النفحات
فى عالم الروضات والجنات
تسرى بانفاس الندى العطرات
لعرفت فيها منبع الخيرات
تشجيك فى الروحات والغدوات
كالمارد الماضى بغير أناة
كشبابها فى قوة وثبات
موتا زؤاما للبغى العاتى
يحنو الى ايامنا النظرات
هم النفوس واعظم النهضات
بالجد يمضى واسع الخطوات
أصل الجدود وانبل العادات
وطفت عليه عوامل النكبات
ستظل رغم تكاثر الازمات
وعلى رباها رفرفت خلجاتى
فى ثورة من اشجع الثورات
شيخ الشيوخ وسيد السادات
سنحقق الامل القريب الاتى
وقراءتى وتعلمى وحياتى
قد انزل الله بها الايات
وعزيمة لا تعرف العقبات
فالنور يمحو داجى الظلمات
لغة العروبة رغم كل عداة
وزها السنا فى سائر الجنبات
فليرجعن لاصله والذات
اضحت سدى فى عالم الاموات
بل تعتريه عوامل النكبات
قوموا تحفكم يد الرحمات
لن يكتفى بشعائر الكلمات
صرحا منيعا ثابت اللبنات

صليحة مؤمن
تكميلة عنابة للتعليم الاصلى

نقطة الانطلاق

ان النكسة التى لحقت العرب من طرف اعدائهم ، قد اثمرت ياسا فى قلوب ضعفاء العقول من ابناء الشعب العربى ، ولكن ابناء الشعب العربى الاصيل قد استفادوا منها استفادة لا مثيل لها ، لقد كانت النكسة محرضة على مزيد من الكفاح فى نظرهم والاستمرار فى طريق تقرير المصير .

لان المهم ان نجعل من النكسة نقطة الانطلاق ببداية لاعادة النظر فى اساليب الكفاح ، ومن هنا يجب علينا ان نخطط للاساليب القمعية لمواجهة اعدائنا ، ومن الطبيعى ان يكون الخطأ الى جانب الصواب ، ولكن على ان نستفيد من اخطائنا ونعمل على خلق الصواب ، ونفكر باستمرار لازالة كل العراقيل والسيطرة على العقبات ، وماذا يهمنا دعم أمريكا لاعدائنا ؟ ولكن المهم الانيأس .

ان اسرائيل صامتة وتتكلم بعيونها فكن ايها العربى ممن يفهمون لغة العيون ، وحطم اطماع العدو على صخرة العزيمة والصمود ، اخى العربى زن نفسك كل يوم قبل ان تشكو من قوة عدوك ومساندة العملاء له ، فاذا ارتقى سواك ، وبقيت انت فاعلم انك قد ضيعت وقتك دون جدوى انا ادرك بأننى لا اشعل فيك نار الغيرة والالم ، لان ذكرى النكسة وان كانت مرة فهى لا تخلو من الحلاوة ، ولولا المر ما عرفنا قد الحو وهى كفيلة بأن تدفع كل عربى الى الغيرة على وطنه فليحسن كل عربى السباحة ، فنهر اسرائيل هادىء ماكر ، وليتعلم الرماية حتى لا يكون كبرة وما دام الموت بدركنا فى كل زمان ومكان ، فلنمت فى ساحة المعركة من اجل اعلاء كلمةالله ، فلاخير من ان تعيش اجسام وتموت الضمائر بين اقبال وادبار وسكوت واستسلام .

للطالب : روبيى صالح
بالسنة : ٤ / ٢
معهد وهران
للتعليم الاصلى

الإستقلال والتعريب

ان ثورتنا تنحصر فى اطار المبادىء الاشتراكية وعلى ضوء هذا النبراس فان الحكم بين يدى الشعب وان الطموح نحو الاشتراكية السليمة هو هدف لكل الشعوب المغلوبة على امرها والتى كان تأخرها من صنع الاستعمار وتخطيطه والجزائر احدى هذه الدول التى كابدت المحن بابشع انواعها للحصول على حريتها واستقلالها وليعلم كل جزائرى ان الاستقلال معناه القضاء على مخلفات الاستعمار ومعناه ايضا انه يجب ان نعمل على تثبيت المبادىء الثورية التى نادى بها الشعب ونادت بها قيادتنا الثورية ، يجب ان نمحو الاستعمار من ارضنا كما يجب علينا ايضا ان نقضى على مخلفاته الثقافية المسمومة يجب علينا ان نعيد شخصيتنا العربية بالرجوع الى لغتنا الاصيلة لغة الضاد ولغة الدستور الاسلامى .. لابد ان نشيد حصن لغتنا وان نحافظ على لغتنا التى هى احدى الاسس التى يبنى عليها الشعب وحدته واهدافه ومجده وكل مقومات تقدمية لان الابتعاد عن العربية والتمسك

بلغة اجنبية هى دخيلة عليه معناه الانفصال عن مقوماتشخصيتنا العربيةوالاسلامية والركون الى العبودية العقلية وهى اكثر شرا من العبودية السياسية فاستعباد العقول واستذلال الروح واعتناق لغة اجنبية وحرمان شعب من لغته الاصيلة هو موت للقومية التىلايقدر على احيائها طبيب ولا سلاح فتاك .

واذا كان الشعب الجزائرى قد طرد اصحاب الاقدام السوداء من ارضه فعليه ايضا القضاء على لغة اصحاب الاقدام السوداء واحياء لغتنا العربية حتى يصبح تراب الوطن حرا لابناء الوطن قيادة ولغة

لقد نجحت القيادة الثورية فى مجالات البناء والتشييد وتمكنت بالقضاء على كثير من المشاكل التى خلفها الاستعمار فكما استطعنا ان نقضى على جميع هذه النقائص يجب ان نقضى ايضا على لغة المسعمرين ونعيد الوجود للغتنا القومية

ان مشكلة التعريب لم تحل بعد رغم ان بلادنا قطعت شوطا كبيرا فى ميدان التشييد ... فعلى شعبنا ان يعمل لاحياء لغته العربية ويحارب اكثر من اجل الحفاظ عليها .. يجب ان يتحطم حاجز الصمت المنيع الذى يحول دون وصول شعبنا الى هدفه .. ان الجزائر يجب ان تكون معربة فى جميع ميادينها سواء منها الادارية والثقافية والاجتماعية لتدرك مقامها المرموق بعد ان نجحت فى التشييد والبناء ونشر العدل

سنة التعريب

بدت نجوم الدجى فى الليل ساطعة
فبددت عن فؤادى كل احزانى
وصاح داعى الهدى فى الفجر فانبلجت
عين تلبى النداء من كل وسنان
واشرقت فى جبين الحق ساطعة
شمس بها لم تكحل قبل عينان
لتبدا السنة الموعودة نائلها
بها نعيد الينا مجدنا الغانى
فنحن كنا يدا فى الحق واحدة
فبعثرت شملنا احداث ازمان
كنا هلالا يضىء الكون معرفة
واليوم جهلا نرى فى قعر بركان
فالآن عدنا الى الفصحى الى لغتى
والويل من غضبى للحاقد الشانى
فهمت خفاقة فى العرب تجمعهم
اذ حقق الوعد من اقطاب اوطانى

بوغفل احمد
معهد وهران
للتعليم الاصلى

بطل المعارك

السيف يحفظ ذكره ... والمجد يرفع قدره
والمرء فى الدنيا بما ... يعلى ويظهر فكره

* * *

هذا الوجود وهل ترى ... يبدى لنا اسراره
ابدا فسر الكون يكشـ ... ـف ان اضات مناره
فارجع الى التاريخ واعر ... ف يا اخى مد ثوره
يخبرك عن شهم الجزائر ... كيف اعلن كره
يخبرك عمن لم يخف ... صعب الطريق ووعره
يخبرك عمن قام للمو ... ت وعرض صدره
يخبرك عن بطل المعارك ... لا يولى ظهره
يخبرك عمن تذكر الهيجا ... له آثاره
هذا هو «المقرانى» لم ... يهب الزمان نظيره

* * *

انف الحياة ذليلة ... والغير يجنى خيره
فانقض كالليث المز ... مجر معلقا اعصاره
فوق الجبال اقامها ... حربا والقى جمره
ورای فى قتال الغاصبـ ... ـين هناءه وسروره
فتزلزلت اقدامهم
رعبا وخافوا باسه
والسهم يمضى مارقا
والطير يعرف وكره
وبشائر النصر تلوح ... مذيعة اخباره
لكن عدو السوء قد ... اخذ الخداع نصيره
وكذلك شان الحر ... يمنح للكفاح مصيره
من خلفه قام ابن حدا ... د يكمل دوره
وعلى طريق الحق والا ... خلاص سار مسيره
ابناء امتنا انهضوا ... كل يدبر امره
من رام نيل المجد ... فليشدد اليه ازره

معهد التعليم الاصلى بعنابة

مع
التيارات
الفكرية
العالمية

فى المجلات الانجليزية :

أعداد : محمد طاع الله

فى محاولة العثور على محاور الاهتمام فى الصحافة الانجلو سكسونية يلاحظ ان هذه الصحافة تكتب عن شؤون الاخرين ، كما تكتب عن شؤون البلدان الانجلو سكسونية نفسها . وغالبا ما تكون الكتابات عن العالم الاخر عبارة عن مقالات سياسية . وفى نفس الوقت من الواضح ان الاهتمام بالسياسة المحضة موضوع تتطرق اليه اليوميات الاخبارية ، ولذلك فان تقربنا أثناء مطلعة تلك الصحافة سيعتنى بالابعاد الثقافية والفكرية للقضايا السياسية .

لا يمر يوم جديد دون أن تتكشف اتجاهات فكرية جديدة ، ولا شك أن رفض الروتين يحمل فى حد ذاته بعض عناصر التطور ، وأول ما يلفت النظر هو تلك المدرسة الجديدة فى الشعر التى ظهرت على أعمدة مجلة « نيوز ستيتسمان » فقد عرفت كثير من المدارس الرومانطيقية والرمزية وغيرها فى الشعر ، ويمكن القول أن المذهب البرجماتى قد لحق هذا الميدان الادبى بدوره .

وقصيدة روجر وودز التى يصف فيها مداولات مجلس العموم البريطانى لا غبار عليها كمثال لهذا الاتجاه الجديد سوى هذه الترجمة التى افقدتها الايقاع دون المعنى .

اخذت أوراقى الى البرلمان
لالقاء بيان عن الميزانية
واجهت المصورين
وزعت الابتسامات لهذا وذاك
صكت المعارضة على اسنانها
عندما سمعت أسوأ الاقوال
ولكن جميع انصارى
كانوا ينفجرون فرحا
هتفوا قائلين
تونى ... ليس لك من مثيل
الحمد لله
فالرجل عبقرى
كلما كانت لديه أموال تستثمر .

قنبلة السكان من جديد

وقد أصبح موضوع السياسة السكانية ينشر الرعب فى أوساط السياسيين . ويقول آلان ويتكنز فى مجلة العلوم الاجتماعية الامريكية : « ان الدرس الذى تقدمه الولايات المتحدة هو أنه من الجوهرى البدء فى الحديث عن التفاقم السكانى بمصطلحات سياسية » وخلال الاشهر الماضية حدثت مجابهة بين اثنين من الباحثين فى شؤون البيئة والمجتمع .

احدهما الاستاذ باري كومينر الذي جاء الى لندن لالقاء محاضرات عن البيئة الجغرافية والبشرية وهو استاذ في جامعة واشنطن . وقد شن حملة مفتوحة على الدكتور بول اهرليخ العالم البيولوجي الشاب بجامعة ستانفورد .

وبول اهرليخ هو الذي اثار مشكلة التفاقم السكاني الى درجة الغليان في مقاله الشهير « قنبلة السكان » منذ ثلاث سنوات . وكون منذ ذلك الحين جماعة تدعى « النمو السكاني صفر » أي ثبات تعداد السكان ، وهي الجماعة التي توغلت الى حد كبير في الجمعيات المحلية الامريكية .

وقد ازدهر مذهب اهرليخ بين الطلاب بصفة خاصة ، وانتشرت نظريته كدين شعبي جديد . وكان مقال « قنبلة السكان » هي الكتاب المقدس ، اما اهرليخ نفسه فقد لعب دور الرسول والمسيح في آن واحد .

اما كومونر الذي اصبح لامعا ويحظى بالتأييد الطلابي ايضا فقد مضى في اتجاه آخر خرج منه بوجهة نظر اخرى . وهو يرى ان الخطأ في التوجيه التكنولوجي وليس في الانتاج البيولوجي . وقال بان جميع الدلائل الديمغرافية توضح ان ازمة السكان تبرز او تختفي لاسباب اقتصادية واجتماعية .

وليس من الانصاف ان نطلق على الرجلين اي بطاقة سياسية فكلاهما من العلماء . ويقول كومونر : كيف يمكن

ان نقنع الناس باستخدام اساليب منع الحمل ؟ وهل يمكن ان يكون من محض الصدفة ان نلاحظ ان جميع الذين يطالبون حاليا بتحديد النسل هم من الفقراء او غير البيض ؟

ويجيب اهرليخ على هذا السؤال بتقديم احصائيات عن معدلات استهلاك المواد الحيوية . فان الاقطار الغنية البيضاء هي المذنبة قبل غيرها ويضيف « رغم الحساسية التي يثيرها العالم الثالث حول هذه النقطة فان الاختيار القائم هو تحديد النسل او الفناء » .

والامر في نظر كومونر ليس بهذه السهولة . فهو يرى ان الاقطار الغنية البيضاء تتحمل مسؤولية التفاقم السكاني في بقية بلدان العالم لان القوى الامبريالية ارادت الحصول على اسواق اليد العاملة الرخيصة فوفرت لسكانها تقنيات متطورة واجوروا افضل وامكانيات الصحة والتربية . ولكن مادام الهدف الرئيسي في العملية كان هو جلب الارباح للاقطار الاستعمارية فقد تطور السكان فقط دون ان تتطور المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في المستعمرات .

وتبرز كل هذه المحاولات بين العالمين مسألة المسؤولية الاجتماعية للعلماء . وضرورة ان يشارك السكان في اتخاذ القرارات السياسية التي توجد لها ادلة في الاستنتاجات العلمية والتكنولوجية . وان الواجب الخلقي على العلماء يفرض عليهم اطلاع الجمهور على استنتاجاتهم .

ضحايا العنف العمراني

كان العنف العمراني يقاس حتى الآن بعدد القتلى والجرحى . ولكن ما هي آثار هذا العنف على الحالات النفسانية ؟ . قام عالمان نفسانيان من بلفاست (ايرلندا) باجراء تجاربهما عن العواقب النفسانية للعنف في الوسط خلال الاضطرابات بين الكاثوليك والبروتستانت عام ١٩٦٩ . وتوسعا في تفاصيل الصحة العقلية لاولئك الذين يعيشون في مناطق التوتر ، واخيرا صدر مقالات في « المجلة البريطانية للطب النفساني » وخلاصة ما جاء فيهما ان تلك القلاقل لم تحدث اضطرابات نفسانية خطيرة . واوضح العالمان ان السبب في قلة العواقب النفسانية هي انها ليست حربا بالمعنى الواسع للكلمة فان المواقف النفسانية المعقدة للبروتستانت والكاثوليك كانت موجودة — كل تجاه الآخر — وقل ان تنشب الاضطرابات . وهي حالات ثقافية نفسانية وتشكل احد اسباب الاضطرابات .

هل انتهى عصر المدن ؟

كتب المعلق المعروف ستيوارت السوب في نيوزويك . عندما يهرب الاغنياء من المدن ويتدفق الفقراء اليها، فان الموارد الاساسية للضريبة في المدن مهددة بالتلاشي . ويبحث الفقراء اكثر فاكثر عن ابواب العمل والموارد المالية . وقليل من الاغنياء يريدون تحمل الاعباء الجبائية لوجودهم في المدينة . والنتيجة لا يمكن تجنبها وقد اشار اليها شيوخ البلديات الامريكية اثناء اجتماعهم الاخير في في نيويورك .

قال عمدة نيويورك « لدينا ٣٠٠ مليون دولار عجز في السنة الحالية وسيصل العجز الى مليون دولار في العام القادم . ولست متأكدا اذا كان في استطاعتنا العثور على حل لازمة العمران » .

وذكرت نيوزويك « ان دراسة اعدتها الحكومة الامريكية اوضحت ظاهرة الارق العمراني . فان معدل جرائم العنف الخطيرة التي يرتكبها السود في الولايات المتحدة يفوق ١٠ او ١٨ مرة معدل تلك الجرائم بالنسبة للبيض . ويصل المعدل الى عشرين ضعفا بالنسبة للطفولة المتحرفة السوداء » .

وليس من السهل اتهام العنصر العرقي بما توحيه — هذه الارقام . اذ يتفق علماء الاجتماع والجريمة على ان هذه الاحصائيات ليس فيها ما يمكن ان يعزى للوراثة ، بل انه ناجم عن الفقر والتفرقة العنصرية والامية وقد تعقدت كل هذه العوامل حاليا بعدوى الهيروين في الاكواخ .

وتضيف نيوزويك « ان علم الاجتماع لا يخفف من الهجرة الداخلية بل هو يسجل وجودها فقط . وقد اصدر مكتب الاحصاء ارقاما تثير « الرعب » في هذا الصدد . فخلال عقد واحد فقدت مدينة مانهاتن ١٥ ٪ من سكانها البيض وفقدت شيكاغو ١٨ ٪ وديترويت ٢٠ ٪ وسان لويس ٣١ ٪ ونيوارك ١٦ ٪ وواشنطن حوالي ٤٠ ٪ . وقد تضاعف عدد السود في تلك المدن بنفس النسبة تقريبا وكذلك عدد البيض في الضواحي » .

وتوضح هذه الاحصائيات على ان عشر سنوات اخرى تكفي لجعل هذه المدى تتكون من السود في الغالب . اما بعض المدن مثل نيووارك وواشنطن فهي مرشحة لكي تكون مدنا للسود وحدهم مع طبقة بيضاء متوسطة قليلة او لا شيء ابيض .

اما كليم موزجيلو المعلق الاقتصادي في « وول ستريت » فقد اختار لمقاله عن ازمة صناعة الطائرات الضخمة في الولايات المتحدة عنوانا جاء فيه « شدوا احزمة مقاعدكم » .

الكنيسة أغنى الاغنياء

ومن الصعب فهم بعض النقاط الهامة في المقتطفات السابقة بدون

معرفة مضمون هذه المقتطفات من مجلة « لوك » .

يقول كاتب المقال « ذات مساء توقفت شاحنة ضخمة امام كنيسة سان باتريك فى مانهاتن وكانت محروسة بالرشاشات . وقد تم شحنها بالقيم المالية من مختلف الانواع النقدية والمعدنية ثم أرسلت لوضعها فى أرقام الحسابات السرية فى البنوك الكبرى . ونفس هذا المنظر يتكرر يوميا فى عشرات المدن الامريكية .

يحدث هذا بكثرة فى نيويورك وهى المدينة التى قررت تخفيض المنح العائلية للإطفال والتى ترهق سكانها بالضرائب بحيث يدفع كل مواطن ثلث كل دولار يكسبه لخزينة الحكومة كضرائب. ومع ذلك فان ممتلكات الكنيسة فى عاصمة الثروة فى العالم — نيويورك — ما زالت غير خاضعة للضريبة كما أن أضخم المؤسسات الاقتصادية الخاصة فيها معفاة من الضريبة لانها ملك للكنيسة .

ويضيف المقال « بينما يطارد التضخم حياة المواطنين الامريكيين فانهم يتجهون بانظارهم الى مركز القداسة الغنى وهو الكنيسة التى لم تجرأ الايدى على لمسها . وهى تزداد ثراء يوما بعد يوم وسط بؤس الاخرين المتفاقم .

فكم تملك الكنيسة الامريكية ؟ ان الله وحده يعلم . وقد جرت عدة محاولات لفهم اتساع ثروة الكنيسة التى لا تخضع للضرائب . ولكن كل صور الاتهامات وجهت لمن يحاولون انجاز مثل هذه المهمة . وربما يضطرب رجل الشارع الامريكى اذا علم انه لا يوجد أى قانون يرغم الكنيسة على كشف حساباتها . وبالعكس فان ما يوجد من قوانين يقصد بها خدمتها. وقد حاول قسيس كاثوليكى من بروكلين أن يتسرب الى بعض الاسرار ولكنه نفى الى احد الاحياء السوداء وقال «بأن عددا كبيرا من الخبراء العسكريين ورجال المخابرات يستخدمون بصفة سرية وخاصة لحماية حسابات الكنيسة .

وفى عام ١٩٦٧ حاولت جريدة « وول ستريت » ان تنفذ الى بعض أرقام استثمارات الكنيسة فكان ردود الفعل ايضا خليط من كل تهمة . وبدات احدى دور الاستقصاء عملية دراسة تقريبية . وبعد دراسة للظاهر من ثروة الكنيسة توصل الباحثون الى أن مبلغ استثماراتها يصل الى ٢ بليون دولار وأنهم ما زالوا فى سطح البحث . وبالرغم من كل الصعوبات فان التقديرات تشير الى ان ممتلكات الكنيسة تصل الى ١٠٠ بليون دولار على الاقل وان هذه الممتلكات موزعة من الاراضى حتى محلات الازياء الفاخرة .

ولابد من القاء نظرة على بريد القراء فى بعض الصحف الانغلوسكسونية . وقد وقع الاختيار على هذه الرسالة المختصرة التى بعثت بها روندا ويليامز الى مجلة التايم :

« يبدو ان جميع النقاد تمنوا فوز فرازير على محمد على ... لماذا ؟ لانهم عبروا عن ذلك بكلمات بسيطة . فان فرازير ملاكم جاهل لا مبالى . وهو من ذلك النوع من الرجال السود الاقوياء الذين يفضل البيض وجودهم فى خدمته . فهؤلاء النقاد يتصورون أن الرجل الاسود عندما لا يبدى اهتماما بقضية السود فان ذلك يعنى ببساطة انه لم يعد اسودا ! .

وقد أثارت قضية الضابط الامريكى كالى جدالا كبيرا حول الجريمة فى الحرب . وهل يمكن الفصل بينهما . وفى المقال الذى كتبه آبل بجريدة نيوز ستيتسمان عرضا لاهم أبعاد هذه المعضلة .

« قال المدعى جورج لايتمر بعد المحاكمة أن الذى يدافع عنه ما هو الا نتاج للنظام . فقد أرغم على الانتقال من وطنه وسلمت له الاسلحة الاوتوماتيكية ودربوه كيف يقتل ثم أمروه أن يقتل . ان المجتمع هو المتهم وربما أتوسع فى هذه النقطة فيما بعد، ولكن من المؤكد أن هيئة المحلفين التى تتألف من رجال المدفعية الذين يوجهون المحكمة كجزء من آدائهم لواجبهم العسكرى لا ينتظر منهم أن يحاكموا المجتمع ، عليهم ان يحاكموا كالى طبقا للقانون الذى أمروا بتطبيقه واننى لا أتصور كيف يمكن لهؤلاء العسكريين أن يرفضوا الاوامر التى وجهت لهم .

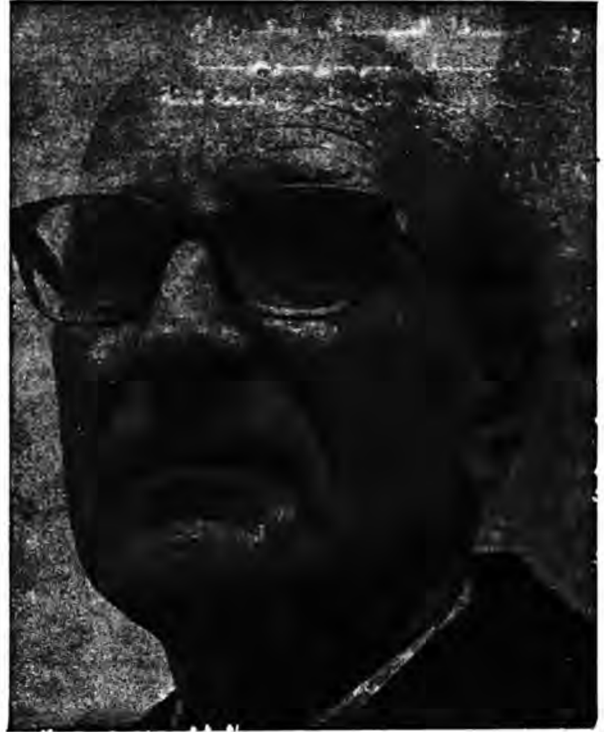
وليس دور الجيش اقل عرضة للاتهام ، فاذا كان كالى مذنبا ، فكثيرون أيضا غيره . هناك قائد فرقة الكابتن ارنست مدينا وهناك تسلسل القادة العسكريين والمدنيين الذين اعطوا الحرب والقتل كل صفات المشروعية .

وبالنسبة للوضع القضائى الراهن انا اعتقد انه من المهم اعتبار المناخ المعنوى العام الذى كان يقلق تصرفات كالى والذى ما يزال يقلق تصرفات المحاربين حتى اليوم . فقد ترددت أثناء محاكمة كالى عبارة « قاعدة فوك المجردة » وطبقا لهذه القاعدة التى يستخدمها الجنود الامريكيون من مختلف الرتب العسكرية ، فان اى شىء يتحرك وله جلد أصفر يعتبر عدوا الا اذا كانت الادلة على عكس ذلك قاطعة . ولم لا فان كل جندى يعرف وجود « مناطق اطلاق النار بحرية » ، وهى المناطق التى يمكن فيها ارتكاب اعمال القتل والقنبلة بدون شفقة ولا تمييز . وكثيرا ما قامت الطائرات المقنبلة بسحق قرى ذنب اطفالها وشيوخها ونسائها ان بضع ثوار قد تسربوا منها او اليها .

تلك هى السياسة الرسمية وهى جزء من الحياة اليومية ، وليس فيها اتهام لاى جندى أمريكى وهى واضحة لنا نحن الصحفيين الذين اتيحت لهم فرصة التنقل فى تلك البلاد ، وهى سياسة مقصودة ترمى الى خلق اللاجئين فى كل مكان . وقد تعرفت على جنرال فى الجيش جيد الاطلاع على نظريات وافكار ماوتسى تونغ فشرح لى فكرته بدوره ، علينا ان نجفف البحر الذى يسبح فيه الثوار انه بحر الفلاحين ، وافضل شىء لانجاز ذلك هو ان نجعل من الريف جهنم ، وعندها ينسحبون الى مخيمات اللاجئين . فلا قرى ولا ثوار .

وقد كان ويست مورلاند يتبع هذه الخطة وما زال ابرامز يسير عليها وهو ما فعله ايضا جونسون ويفعله نيكسون .

الخطر الأكبر على الإنسانية يكمن فى الإنسانية نفسها



ترجمة :

نسيهة تريش

اجرت مجلة « الاكسبريس » الفرنسية استجوابا لكلود ليفى ستروواس مؤسس الانتروبولوجية البنيوية ، والذى كرس ابحاثه منذ اثنين وثلاثين سنة لدراسة الاساطير والعادات لدى الشعوب البدائية بأمريكا . وقد شرح السيد ليفى ستروواس وهو استاذ بالكوليج دى فرانس اهمية اشغال الاتنولوجيين وكيف ان الخطر الاكبر على الانسانية يكمن فى الانسانية نفسها ، وعرف الانسان العالم بانه ليس ذلك الذى يحسن الاجابة بل العالم هو من يجيد طرح الاسئلة . الى هذا العالم وجهت « الاكسبريس » عدة أسئلة نورد هنا بعضا منها .

س ــ باعتبارك اكبر الاتنولوجيين فى عصرنا الحاضر ، وبما ان فضل تاسيس الانتروبولوجية البنيوية يرجع اليكم ، هل تدخل العلوم الإنسانية فى عداد العلوم فى نظركم ؟

ج ــ ان العلوم الانسانية بعيدة كل البعد عن ميدان العلوم ــ ولا ادرى ان كان هذا يدعو للاسف ــ فالعلوم الفيزيائية والطبيعية اصبحت تعد علوما لانها استطاعت أن تعزل عددا من المتغيرات ذات معنى داخل ظواهر غاية فى التركيب . اما بالنسبة للعلوم الانسانية فانها لا تزال تحت وطأة عدد ضخم من المتغيرات .

ومن جهة اخرى فان العلوم تدرس الاشياء ، ومن الصعب على الانسان قبول فكرة اعتباره شيئا والتغاضى عن وجوده كموضوع ، اذ ان الانسان هنا شىء وموضوع فى آن واحد .

والعلوم الانسانية ستواجه فى تطورها هذا

التناقض الحتمى اكثر من العلوم الاخرى .

س ـ ما هو المعنى الذى تريدونه لابحاثكم ؟

ج ـ ان ما نسميه علم البنية يشكل محاولة ـ فى ميادين محدودة ـ للتملص من هذا العارض، وهو يميل الى الموضوعية بان يختار للدراسة ظواهر موجودة خارج خيال الفكر الواعى ، وبهذه الطريقة يصبح املنا محاولة تعميق فهمنا لكشف ما هو غامض ، والسعى وراء الفهم هى الوسيلة الوحيدة التى نملكها لكى نقضى قليلا على الملل . هذا احسن تبرير لعلم البنية بل قد يكون هو مبرره الوحيد .

س ـ هل هناك تعارض عميق بين علم البنية والوجودية فى نظركم ؟

ج ـ هناك اختلاف جوهرى بين طريقة تحرى الظواهر الانسانية ، فقد حلى للبعض ان يجعل غرض علم البنية هو تغيير الاهداف الخلقية والميتافيزيقية تغييرا جذريا ، مع انه فى الحقيقة لا يعدو ما نسميه فى الفلسفة الاتجاه الا بستمولوجى ازاء ظواهر ليست حتميا انسانية . وهذا الاتجاه قديم يعود فى الغالب الى غوتة .

س ـ درستم فى ابحاثكم الاتنولوجية الاولى صلة القرابة ، فهل العادات واحدة فى جميع المجتمعات ؟

ج ـ ان العادات تختلف من مجتمع الى آخر . فهناك مجتمعات صغيرة تربط بين افرادها روابط قرابة حقيقية او مختلفة ، يخضع الزواج فيها بالاقارب لشروط خاصة ، فبينما الزواج من ابنة العم محبذ فى البلاد العربية نجده مستبعدا تماما فى مجتمعات اخرى لا تقبل سوى الزواج من ابنة العمة ، وحتى فى هذا النوع الاخير محرم عند بعض الشعوب التى تحلل الزواج من ابنة الخال فقط ، فالقواعد فى هذا الميدان معقدة جدا .

س ـ ولكن ما السبب فى هذا يا ترى ؟

ج ـ تعود هذه التعقيدات فى الغالب لوضع الافراد الذين يعتبرون انفسهم جميعا اثرياء ، فالقرابة هنا بمثابة اللغة التى تعبر عن الحقوق والواجبات ، وهى العامل المشترك للسياسة والقانون والاقتصاد . وقد فهم كل من انجلز وماركس هذا ، وفرقا بين مجتمعاتنا التاريخية التى تخضع للروابط القائمة بين الطبقات والمجتمعات البدائية حيث تتغلب الروابط الدموية العتيقة .

س ـ بما انكم تحدثتم عن ماركس ، فما رايكم فى الماركسيين الذين ينسبون انفسهم اليكم ؟

ج ـ لا اعتقد ان الماركسيين ينسبون انفسهم اليى ، بل انا الذى اعتمدت فى بعض اتجاهاتى على ماركس .

س ـ هل اثرت الماركسية فى حقبة معينة من حياتكم

ج ـ اثرت ولا تزال تؤثر . فماركس هو الذى علمنا ان الضمير الاجتماعى يغالط نفسه ، وان وراء هذه المغالطة تنكشف الحقيقة . ويعود اليه الفضل كذلك فى تلقيننا ان ايديولوجية مجتمع ما لا تصبح قابلة للفهم الا على ضوء العلاقات المحسوسة القائمة بين الافراد بعضهم بعضا ، وبين هؤلاء الافراد والعالم الذين يعيشون فيه ويعملون . كما ان ماركس هو الذى ميز بين البنيات التحتية والبنيات الفوقية ، وكرس اهتمامه للاولى . اما انا فأسعى للمساهمة فى وضع نظرية البنيات الفوقية .

س ـ يدور محور دراستكم حول المجتمعات التى بادت او فى طريقها الى ذلك ، فما هى الفائدة التى نستخرجها نحن اليوم من هذه الدراسة .

ج ـ تشكل آلاف المجتمعات الانسانية الموجودة حاليا او التى وجدت فى السابق تشكل التجارب الجاهزة الوحيدة لدينا لوضع افتراضات واقامة البرهان عليها . فاننا على

عكس زملائنا بالعلوم الفيزيائية والطبيعية لا نستطيع اجراء التجارب بالمخابر . وتعطينا هذه التجارب احدى الوسائل المضمونة لفهم ما يدور فى فكر الانسان وكيف يعمل ، هذه هى فائدة الاتنولوجية وهدفها البعيد المدى .

س ــ وما هى فائدتها فى المدى القريب ؟

ج ــ تعلمنا الاتنولوجية ان هناك انماطا متعددة للحياة ، ويشهد الاتنولوجيون أن طريقة معاشنا ليست هى الطريقة الصالحة الوحيدة ، بل ان هناك طرق أخرى مكنت مجموعات بشرية على العيش فى سعادة . فالاتنولوجيا تدعونا لاحترام جميع أنماط الحياة ، فالمجتمعات التى يتعرض لها الاتنولوجيون تلقن دروسا غاية فى الاهمية ، خاصة وأن هذه الجماعات عرفت كيف تحقق التوازن بين الانسان والبيئة الطبيعية من حوله ، ذلك التوازن الذى فقدنا نحن معناه وسره .

س ــ هل بامكان الاتنولوجيا ان تصل يوما الى تجديد معرفتنا بالانسان وان تجعلنا أكثر تفتحا وأكثر « انسانية » ؟

ج ــ هذا أقصى ما أتمناه ، وأملى فى تحقيقه صغير .

فالاتنولوجيا تعلمنا شيئا قريبا من قانون الحالات الثلاث لاوغست كونت الذى يفترض أن الانسانية مرت بأطوار ثلاثة هى الطور اللاهوتى ــ والطور الميتافيزيقى ــ والطور الوضعى أو العلمى . الا أن فحوى ومعنى كل حالة يختلف عن افتراض كونت .

فهناك شعوب معروف عنها انها بدائية ، تجهل الزراعة والرعى وتعتمد على القطف فى غذائها ولا ينغص عليها حياتها قلق تخزين قوتها أو خطر الموت جوعا . فقلة عدد السكان ومعرفتهم العميقة للثروات الطبيعية ، تسمح لهم بتوفير قوتهم ، فثلاث ساعات من العمل أو اربع كافية لضمان تغذية كل أسرة . فيتبقى لهم الوقت الكافى والحرية اللازمة للانصراف الى عالم الخيال . فلنفترض أن الانسانية عاشت هكذا مئات الآلاف من السنين ، فهى بالتالى تخرج تدريجيا من هذه الحالة لتغوص فى الواقع اكثر فاكثر .

أما عالمنا فهو يختلف تماما لان الانسانية تواجه مشاكل خاصة ناتجة عن العدد الديمغرافى ، وعن ضيق المساحة الفضائية الشاغرة وعدم وفرة الهواء الطلق جميع هذه الامور اللازمة لضمان الحاجات البيولوجية والنفسية للبشرية .

بين الأصالة والعصرية

عقدت في جامعة لوفان المسيحية ببلجيكا في الاشهر الاخيرة ، ندوة فكرية عن النهضة العربية المعاصرة ومشكلاتها ، دعي اليها عدد من المفكرين والباحثين العرب في مختلف مجالات العلوم الانسانية ، وقد طرح في هذا اللقاء عدد من القضايا المنهجية والنظرية الهامة ، بجانب بعض القضايا التكنيكية التي يفرضها الواقع العربي المعاصر .

وقد بدأ الباحثون ندوتهم بتحديد الاطار التاريخي العام للنهضة العربية تمهيدا لبحث المؤثرات الخارجية والداخلية ، واتفق المشاركون في الندوة على ان اليقظة العربية تتحدد تاريخيا بلحظة الصدام بين الغرب الرأسمالي الاستعماري بحضارته العلمية والتكنيكية والشرق المستيقظ من سبات طويل استمر اكثر من اربعة قرون .. تلك اليقظة المؤلمة التي عبرت عنها صرخة مفكري النهضة الاولى « لماذا أصبح العالم جحيم المؤمنين وجنة الملحدين » اليقظة تتحدد اذن بلحظة الشعور بالخطر المحدق القادم من الغرب ، الشعور بالتحدي المخيف للحضارة العلمية والفكرية الجديدة ، وهذا يفسر الاهمية المعطاة تاريخيا للمؤثرات الخارجية في النهضة العربية .

فالصراع مع الغرب المستعمر شكل على استمرار تاريخ الامة العربية الاطار العام التي تحركت في داخله وتحت تأثيره كل مقومات ومكونات ما اصطلح على تسميته بالنهضة العربية (ابنية اجتماعية — اتجاهات ايديولوجية) .

وتجت تأثير الصدمة ، صدمة الالتقاء بحضارة الغرب المسيطرة بدأ مفكروا النهضة في التساؤل عن اسباب تاخر الشرق وتخلفه .

سؤال واحد ولكن الاجابات ما لبثت أن تعددت ومع هذا بدأت تتضح أولى ملامح الصراع الايديولوجي الداخلي .

وأيا كان مضمون هذه الاجابات ، فالثابت انها مازالت حتى اليوم تجثم بثقلها على الواقع الايديولوجي والثقافي العربي ، وتفسر الكثير من الصراعات الفكرية التي تدور رحاها اليوم في عالمنا العربي وتجثم أيضا على الابنية الاجتماعية نفسها وتعوق في الكثير من الاحيان تطورها .

من هذا نخرج بملاحظة منهجية أولى : ضرورة العودة الى التاريخ لفهم الواقع العربي المعاصر ، تاريخ يحدد اطاره الخارجي الصراع ضد الاستعمار الغربي واطاره الداخلي الصراعات الايديولوجية في مواجهة التحدي الغربي .. صراعات تعكس بالضرورة تناقضات اجتماعية اكثر عمقا .

نعود الان الى مضمون تلك الاجابات التي جاء بها مفكروا النهضة الاولى ردا على التحدي الغربي وبمعنى آخر كيف اجاب مفكروا النهضة على تساؤلهم : لماذا انتكس الشرق وما السبيل الى نهضته .. وأمام التحدي برز اتجاهان أساسيان : اتجاه يرى في المستقبل امتدادا للماضي المشرق ماضي الحضارة العربية الاسلامية قبل انتكاسها ، الحل اذن هو في العودة الى الماضي بعد تنقيته من الشوائب والبدع .. وهذا هو الاتجاه التقليدي ، واتجاه آخرين يرى السبيل الوحيد للنهضة في نقل الحضارة الغربية الى الشرق مع قطع كل صلة بالماضي المسؤول عن التخلف والتاخر وهذا هو الاتجاه التجديدي .

وبين التقليد والتجديد يبدأ صراع طويل ، ولكن هذا الصراع الفكري لا يدور في الهواء ولكن على الارض الوطنية وفي اطار صراع محتدم بين الامة العربية وبين المستعمر المسيطر من ناحية ، وبين القوى الاجتماعية المختلفة في الداخل من ناحية اخرى .

ومن خلال هذه التناقضات والصراعات ونتاجا لتجربة تاريخية طويلة مليئة بالالم والامل يبرز اتجاه ثالث مؤداه ، أن الحضارة العربية الجديدة لا يمكن أن تكون مجرد نقل على الطريقة اليابانية للحضارة الغربية ولا أن تكون استمرارا للحضارة العربية القديمة ولكنها ستكون المحصلة الجدلية للمحلية والعالمية .. التقليد والتجديد ، الاصالة والعصرية .

ومن هنا تبرز القضية النظرية الاولى : كيف يمكن التوفيق بين اعتبارات الاصالة ومقتضيات التجديد والعصرية وما هو السبيل ؟

هذه القضية النظرية تطرح بدورها عدة قضايا نظرية ومنهجية اساسية ، فاذا كانت النهضة العربية نفسها رهينة بذلك الالتقاء الجدلي بين الاصالة والعصرية او بين المحلية والعالمية ، بين التقليد والتجديد ، فكيف يمكن تحديد عناصر التقليد وعناصر التجديد ،

إعداد :
عبد القيوم بوكعباش

وأين تكمن في كل مجتمع عربي قوى التقليد وقوى التجديد .

بعبارة اخرى : ان حل هذه القضية يقتضي دراسات تفصيلية للمجتمعات العربية المعاصرة وهذا يقتضي طرح قضية مناهج مثل هذه الدراسات .

وساد بين الباحثين العرب المجتمعين في لوفان اتفاق عام على رفض مناهج البحث والمفاهيم التي خلفها الاستشراق الغربي التقليدي في ميدان دراسة المجتمعات العربية ، ذلك ان الاستشراق التقليدي كان ينظر الى تلك المجتمعات العربية من خلال دراساته المقارنة للاديان ، لا من خلال الواقع التاريخي الحي لكل منها ، ومن خلال تلك الدراسات خرج الاستشراق بعدة مفاهيم انتولوجية عن الانسان الإسلامي وما هيات هذا الانسان الاسلامي في مواجهة الانسان الغربي ، ثم انتهى به المطاف الى ان يطبع هذه المفاهيم والماهيات على الواقع العربي كله بحيث اصبحت هي المرآة التي تنظر من خلالها الى هذا الواقع . وغني عن الذكر ان مثل هذا المنهج اللاتاريخي يؤدي وادى بالفعل الى كل المفاهيم العنصرية عن العرب وعن الاسلام .

الا ان هذا الاتفاق بين الباحثين العرب لم يدعم وقد برز في هذا الصدد اتجاهان رئيسيان : الاتجاه الاول : يرى امكان الاستعانة بالمفاهيم الاساسية للنظرية الماركسية في دراسة المجتمعات العربية مع الاخذ في الاعتبار ان بعضها لا ينطبق بشكل ميكانيكي على المجتمعات العربية ، وان مثل هذا التطبيق يقتضي صياغة جديدة لهذه المفاهيم ومثل ذلك فكرة الاقطاع .. فالمجتمعات العربية لم تعرف الاقطاع الغربي ، ولذلك فان تطبيق هذا المفهوم على هذه المجتمعات يقتضي صياغة جديدة ابتداء من الواقع العربي وحتى يتم مثل هذا التحديد فمن اللازم وضع مثل هذا المفهوم بين قوسين واستخدامه بحذر .

كذلك فان مفهوم نمط الانتاج الآسيوي يحتاج الى تحديد ادق واعمق من خلال الدراسات المختلفة للتاريخ وللواقع العربي ، حتى يستطيع ان يقوم بدوره كاداة نظرية لفهم الكثير من الظواهر الخاصة بالمجتمعات العربية .

الاتجاه الثاني : يرى عدم امكان الاستعانة بالنظرية الماركسية ومفاهيمها الاساسية في هذا الصدد ، وضرورة الاستعانة بمناهج علم الانثروبولوجيا الامريكي .

فاذا نظرنا الى المغرب العربي مثلا وبالذات الى المجتمع المغربي التقليدي أي المجتمع الذي كان قائما عشية الاحتلال الاوروبي..فلا يمكن ، وصف مثل هذا المجتمع بانه اقطاعي بالمفهوم الاوروبي ، كما انه من غير الممكن ان يطبق عليه مفهوم نمط الانتاج الآسيوي الذي يفترض بالضرورة ان السلطة المركزية تلعب دورا هاما في تنظيم الانتاج . وهو ما لم يكن متوافرا في هذا المجتمع التقليدي .

وينتهي هذا الراي الى ان السبيل الوحيد لفهم حقيقة المجتمع المغربي التقليدي هو الالتجاء الى مناهج علمي الاناتولوجيا والانثروبولوجيا الامريكيين .

وهنا ثار الخلاف بين انصار هذا الاتجاه ، وانصار الاتجاه الاول حول تحديد معنى التقليد والمجتمع التقليدي وهو خلاف سنتعرض له فيما بعد .

علم الكلام ، ام علم الانسان

تحت عنوان « علم الكلام ام الانثروبولوجيا » وليس المقصود من هذا البحث كما قد يفضي اليه عنوانه محاولة لاحلال الانثروبولوجيا او علم الانسان محل علم الكلام ، ولكن المقصود هو تحويل علم الكلام ذاته الى انثروبولوجيا .. اي علم موضوعه الاساسي هو الانسان . وليس بحثا للانسان حول الله . ذلك اننا اذا نظرنا الى التراث الثقافي الاسلامي والى العلوم الاربعة الرئيسية التي تكون لب هذا التراث ، علم الكلام ، الفلسفة ، التصوف ، والفقه لوجدنا ان كل هذه العلوم وان كان ذلك بدرجات متفاوتة تعتبر ان الله هو الموضوع الاساسي لها وهو حجر الزاوية في كل تحليلاتها ويبدو هذا بشكل واضح فيما يتعلق بعلم الكلام .

ويرى الدكتور حسن حنفي في هذا قلبا للاوضاع ، اذ ان الله لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم فليس للانسان أن يجعل الذات الالهية موضوعا لبحثه ، اذ ليس لديه ما يقوله هو عنها . اما الموضوع الوحيد الممكن للعلم فهو خطاب الله فعلم الكلام ينبغي ان يكون هو علم الوحي ، اى علم خطاب الله الى الانسان ، فموضوع الوحي في النهاية هو الانسان ، فالوحي اذن هو علم الانسان وبمعنى آخر فان موضوع علم الله هو الانسان .

ورغم ذلك نجد أن علم الكلام التقليدي قد قلب هذا الموضوع راسا على عقب وحول الوحي من علم الانسان الى علم البحث عن الله ، ماهيته وصفاته .

ويرى الدكتور حسن حنفي أن تحويل علم الكلام الى علم الانسان هو السبيل الوحيد لكي يصبح الدين ايديولوجية ثورية في خدمة الانسان وفي خدمة النهضة .

رسالة من الكاتب البلجيكي السيد فرانسيس منهايم

ولد سنة ١٩٣٤ بانفيرس ببلجيكا كان رئيس فيدرالية طلبة بلجيكة في سنتي ٥٨و٥٩، كما انه قام بعدة اتصالات مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وشارك في انشاء لجنة السلام في الجزائر والتي كانت في الحقيقة شبكة معاونة ومساعدة للطلبة الجزائريين الذين كانوا يرزحون تحت ظغط وحراسة الشرطة الفرنسية، ودخل السيد منهايم ميدان الصحافة سنة ١٩٥٤ م، حيث تام بعدة دراسات في افريقيا الوسطى وامريكة الاتينية والشرق الاوسط العربي وفيتنام ... كما قام بعدة برامج متلفزة ببلجيكة ابرز فيها حالة مغتربي شمال افريقيا ثم ترك الصحافة منذ سنة ونصف واتجه الى الدراسات، وخاصة عن الجزائر كما الف كتابا عنوانه « الثورات الجزائرية » تحت قيادة الاستاذ « ارتوردوسى » رئيس معهد علوم الاجتماع بجامعة بروكسيل

. وهذا نص الرسالة :

ندوة القراء



ان مجلتكم الجديدة« الاصالة » لجديرة بأن يذيع صيتها لا في الجزائر فحسب بل وفي كل مكان يوجد فيه من يرغب في معرفة اوسع للاسلام والحضارة العربية الاسلامية .

ولكن يجب ان نلاحظ ان دينكم وحضارتكم لا يعرف عنهما الا القليل في العالم الغربي ان ذلك ليس من محض الصدفة بل يرجع الى نشاط مقصود ومنسق من قبل الاستعمار وحلفائه .

فقد اراد الاستعمار واذنابه بذلك هدم الاسلام في الجزائر، فكان من بين الوسائل المستعملة لنيل هذا الغرض بالطبع تشويه دينكم وانكار قيمكم الحضارية ، ذلك هو ما فعله ويفعله الغرب منذ قرون عديدة .

ويحمل التعليم المتوسط في بلدي تسمية ينبغي ان يطابق لفظها محتواها وهذه التسمية هي « الآداب » ففي بلجيكا لا يتلقى الطالب التعليم الثانوي كما هو الشأن في فرنسا بل يتعلم « الاداب » وكانت هذه التسمية تعني بدون شك في نظر من اختارها ان التعليم الثانوي كان ينبغي أن يلقن الطالب مبادىء القيم والفضائل الانسانية اي ان يمكنه من التعمق في هذه القيم وتطبيقها تطبيقا احسن .

ولكني الاحظ ان اساتذتي قد قدموا لي خلال ست سنوات من تعلم « الآداب » صورة مزيفة عن الاسلام والعالم الاسلامي والحضارة العربية الاسلامية . وقد نعتت الحضارة العربية الاسلامية دائما بالرجعية والتعصب والانحطاط سواءا كان الامر يتعلق بدروس التاريخ او الدين او الادب والاخلاق . اما فيما يخص الجزائر بالذات فقد كان هذا التعليم يزعم عدم قيام حضارة عربية اسلامية بها ..

ان تزييف التاريخ هذا هو القاعدة العامة في جميع مستويات التعليم في سائر البلاد الغربية . ويعمل بهذه القاعدة الى يومنا هذا بعد مرور عشر سنين على الحرب بالجزائر غيران الملايين من الشباب لا يزالون يتلقون كل يوم اكاذيب المدرسين الغربيين رغم ردود الفعل الصادرة عن بعض الاساتذة الجامعيين الذين يحاولون احقاق الحق .

واخشى فيما يخصنى ان يستمر هذا الوضع مدة طويلة ، خاصة وان هناك اغراضا لا تحصى تتحالف ضد معرفة ابسط الحقائق وخاصة تعليمها .

وفعلا فان الباكين على عهد السيطرة والنفوذ ومعهم انصار الاستعمار الجديد ودعاة التبشير وخليط العنصريين ، كل اولائك يرون انه ليس من مصلحتكم تغيير الصورة التى اصطنعها الغرب لنفسه عن العالم العربى .

وليس بالقريب ذلك اليوم الذى سيعيد فيه هؤلاء القوم كتابة التاريخ الذى يلقنوه لابنائهم لان الحق سيكون فى غير جانبهم اذا ما عرف التاريخ على حقيقته .

ومن اجل هذا كله فانى اعتقد ان ظهور مجلة مثل « الاصالة » اتى فى اوانه بالنسبة للجزائر بدون شك وهى فى مرحلة ثورتها الثقافية، واكرر انه اتى فى اوانه بالنسبة لكل من يرغب فى معرفة قيمكم والتعمق فى فهمها

ولا اعنى بذلك ربط حوار بين « مسلمين » و «مسيحيين» وليس لدى ما يخول لى صلاحية الادلاء برايى فى هذا الموضوع، ولا ادرى هل الظروف مواتية لذلك ، واننى اجهل ايضا اذا كان المسيحيون قادرين حاليا على ربط هذا الحوار ، مثلا على صعيد رجال دينهم .

وارى فيما يخصنى ان الامر يتعلق بشىء اكثر بساطة وواقعية واستعجالا .

لقد تعرفت الملايين من الناس على الجزائر من خلال ذلك الكفاح البطولى الذى خاضه شعب باكمله من اجل استقلاله السياسى .

وقد فهم هؤلاء الناس عندما فوجئوا بشجاعة هذا الشعب واصراره وروح تضحيته ان ما كان يقال عن الجزائر هو مجرد افتراء وكذب .

وليس فى استطاعة اى شعب ان يتحمل الالام التى فرضت على الجزائر اذا كان غير قادر على الاستناد الى قيم متينة ومتمكنة من اعماق الجماهير بالتالى وحدته ومقدرته .

لا معجزة فى تاريخ البشرية ، واذا كانت الجزائر قد تمكنت من القضاء على استعمار خاصيته الوحشية والعنصرية فسبب ذلك هو انها استمدت من كيانها القوة والطاقات التى كانت فى حاجة اليها .

لقد برهن لنا هذا الكفاح نحن معشر الغربيين انه كانت ثمة محاولة مستمرة للاستيلاء على عقولنا ، وكثيرا ما نجحت هذه المحاولة .

فاليوم يريد البعض منا ان يذهب الى ابعد من ذلك . ونود — نحن الذين شهدنا كفاحكم — ان نعرف معرفة اكثر القوة الادبية التى كانت الدافع لهذا الكفاح ، بعد ان ميزنا الدوافع السياسية — فهذا هو الميدان الذى تستطيع «الاصالة» ان تأتينا فيه بالكثير وأن تعلمنا ما لم نعلم ، وان ما ننتظره هو صورة حقة عن الجزائر كما تريد هى لنفسها ان تكون . وان انتظارنا ليتميز بالتعطش بقدر ما غصت أذهاننا بصورة عن الجزائر اختلقتها العنصرية وشوهها سوء الطوية واوجدها حب السيطرة والنفوذ .

وان ما تقوم به يا سيادة الوزير لهو عمل من اجل العدل واحقاق الحق . وبالتالى فانه يندرج فى منطق الكفاح المسلح الذى استعدتم بفضله شخصيتكم . وعليه فاننا نرى من واجبنا ان نؤازركم فى ذلك .

فرانسيس مونهايم .

حــول مقــال :
ضلال ام تضليــل

تحية الى مجلة « الاصالة » التى انشئت لتعبر عن الاصالة الفكرية الاسلامية التى تجابه هــذه الايام اعتى انواع الغزو . الا وهو الغزو الفكرى. ولقد اثلج صدرى صدورها بلــه موضوعاتهــا وخاصة كلمة « الاصالة » للسيد الوزيــر ، ولكن القلم اراد ان يكتب شيئا حول ما جاء فى مقــال « ضلال ام تضليل » للسيد موسى بن عمــار الاستاذ بثانوية غخار بالمدية فى الصفحة ، ١٠٧ . وانه لمقال طافح بالمغالطات وتشويه الحقائــق ومنها سخريته من الامة المسلمــة التى نعتــها القرآن فى قوله تعالى « كنتم خير امــة اخرجت للناس » ومعروف بدهيا الساخر بآيــة مــن القرآن . ولعل هذا المقال يترجــم حال التيــه الفكرى الذى يضل فيــه الكاتــب والضيــاع والانسلاخ القومى الذى يجعلــه يتباكى لقــرب سقوط حضارة الغرب ويسخر مــن حضــارة الاسلام العظيم . ولست بمحلل ومفند لمقاله فى هذه العجالة ، ولكنى انشر الحقائق التالية :

١ ــ يتساءل الكاتب عن سبب الفرح بسبب عجز العلم ــ احيانا ــ فى تذليل بعض مظاهــر الطبيعة . والحق انه ليس من فرح حيال هــذا الموضوع . بل اننا نحن المسلمــين ــ مطالبون قبل غيرنا بسبر اغوار الارض والنفوذ فى اقطار السماوات . وليس من كتاب اسلامى فرح بعجز العلم وانما المفرحون هم بعض الجهلاء من عامة مسلمى هذا الزمان .

٢ ــ يدعى الكاتب ان مشكلات الحضــارة الغربية ناتجة عن التقدم ويوحى الينا باننا سوف نرجوها حينما نصل الى درجتهم تلك . ولست ادرى اذا كنا قد وصلنا الى الحد الذى يفرض فيه علينا دخول كل جحر يدخلونه كى نلقى من الظــلام والضياع ما يلقون . وشتان بين ما يصدر عنــه الكتاب الاسلاميون وبين ما يتخبط فيه الاستــاذ موسى هدانا الله واياه .

وان سيد قطب ــ عملاق الفكر الاســلامى الحديث ــ عندما يقدم للعالم منهجا يخرجه من حماة الرأسمالية ووطأة الشيوعية والويــلات النفسية ــ انما يقدم الاسلام العظيم الذى صنع خير امة وانتج اروع حضارة وقاد الانسانية عشرة قرون .

والكتاب الاسلاميون يخاطبون قادة الفكــر وطلائع البعث الاسلامى والاستاذ موسى يتيه فى مسارب الضياع التى اوجدها التخلف عن المنهج الاسلامى فى ربوعنا .

٣ ــ يقول سيد قطب : « نحن نملك ما ينقذ البشرية » فيضحك الاستاذ موسى منه ويقــول له : انقذ شعبك ! ونحن نقول للكاتب المحترم : ان المنهج الاسلامى الذى يدعو اليه سيد قطــب والكتاب الاسلاميون هو الذى انقذ البشريــة وينقذها ايضا عندما تتاح له طليعة ثورية تطبقــه وتنشره بين الناس وفى النهاية اشكــر مجلــة الاصالة التى اتاحت للكاتب ان يفضح نفســه ويجعل القراء يحترسون من امثاله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الاستاذ محمد العدوى المعهد الاسلامى بباتنة



بدون تعليــق

لقد دارت امامى محاورة فى المسجد وبعدالصلاة حول الموسيقى فى الاسلام ، هل هى محببة ؟ أم مكروهة ؟ وهل كان فى السابـــقموسيقى ؟ وما موقف الخلفاء والامراء والولاة منها ؟ ... الخ لذا وبعد ان سمعت اجوبةمختلفة منها الخاطىء ومنها قليل الصحة،ولعدم اشتراكى فى ذلك النقاش ، فقد وقفت علىمراجع فى هذا الموضوع فاقتبسته وكتبته لينشر فى مجلتكم .

الموسيقى فى صدر الاسلام

مما لا ريب فيه ان النغمة التى استهـل بها صدر الاسلام هى نغمة الآذان فكانت مـن أولى البوادر الفنية التى طرات على العـامين الاول والثانى من الهجرة ، وكان بلال الحبشى اول من قام بتادية الاذان ، وقد أمره به النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعتبر بلال وهو ابن جارية اعتقه ابو بكر ، امام المؤذنين ، ومما يـروى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال له : « يا بـلال غـنى الغزل » . وقد مات فى دمشق ، ولا يزال قبره باقيا حتى اليوم .

وللآذان طابع تعبيرى يحاكى تعبير القرآن ، وقد اباحته المذاهب كلها ما عدا الحنابلة . كما أبيحت فى الاسلام اغانى الحرب ، لاثارتها الحمية، وبثها الشجاعة فى النفوس ، وقد برزت فى هذا العصر أهم النواحى العلميـة فى المـوسيقى ، وادرجت لها القواعد والاسس ومـا تحتاجه من المصطلحات اللغوية ، وقـد نعمـت بالتأييـد والتشجيع من علية القوم والاشـراف الذيـن تعشقوا الموسيـقى وأغـدقوا على المحترفـين الموسيقيين الاموال الطائلة . وكان كل مـن عائشة بنت طلحة رضى الله عنها وسكينة بنت الحسين والحسن وغيرهم مـن اشـد المولـعين بالموسقى ، وقد نذروا انفسهم لرعايتها وحمايـة العاملين بهـا .

وقيل لما استدعت عائشة بنـت طلمـة زوج مصعب بن الزبير ، عزة الميلاء تلك المغنية البارزة للترفيه عن ضيوفها فى احدى الحفلات ، اكرمت وفادتها ، واعتبرتها من طبقة سيدات قريش . واتخذ عبد الله بن جعفر وهو ممن عظمت هوايتهم للموسيقى ؛ من قصره معهدا موسيقيا جلب اليه اكابر الموسيقيين أمثال طويس ، وسائب خاثر ، وعزة الميلاء ، وحنين الحيرى .

— طويـس —

كان طويس (الطاووس الصغير) واسمه فى الاصل أبو عبد المنعم عيسى بن عبد الله الذائب، اول موسيقار ظهر فى الاسلام وهو مولى لبنـى مخزوم . نشأ فى المدينة وفى دار اروى القرشية ، كما نشأت ميوله الموسيقية لدى سماعه الحـان الارقاء من الفرس ، وبـدا يجاريهـم ويقلـد اسلوبهم حتى اشتهر أمـره ، وسجلـت له فى التاريخ صفحة مجيدة بقدرته الموسيقية .

وقد وصفه ابن سريج (تلميذه) بانه اوحـد عصره فى الغناء ، وفى الهزج اصبحت له الزعامة، ولم يكن يصطحب فى غنائه غير الدف الذى كـان يحمله فى ردائه . وكان طويس مـن المخنثين ، ولذلك فقد نبذه المجتمع كما نبذه اكثر الموسيقيين الاوائل ، بخلاف الاشراف فقد اعجبوا به غاية الاعجاب . وعند تولى معاوية الاول الخلافة كان مروان بن الحكم عامله فى المدينة قد أمر بجمـع المخنثين وقتلهم ، فاعتصم طويس فى السويـداء (سورية) بقية حياته . وقد توفى عام (٧١٠) م ومن تلاميذه كل من ابن سريج ، والـــدلال ، ونؤوم الضحى .

— سائب خاثر —

ويدعى أبا جعفر سائب بن يسار ، وهو مـــن موالى الفرس ينتمى أصله للفرع المدنى من بنى الليث . استهل حياته بالتجارة ، وكان يـقضى بعض الوقت فى الاستماع الى النائحات ، ممـا جعل ميوله تتجه نحو الغناء ، فأخذ يوالى دراسة الفن ، ويستقى من مناهله . وحالفه النجاح حتى ان عبد الله بن جعفر ، وهو من اشراف قريش استمع الى غنائه ، فألحقه بخدمته ، وكان سائب اذ ذاك يصطحب القضيـب كالمعـتاد ولـــدى الموسيقيين المبتدئين ، ولكنه سرعان ما استبدله بالعود . وهو اول من اصطحب العود فى اغانيه

بالمدينة . ولما طار صيت نشيط الفارسي واشتهر بجودة اغانيه الوطنية ، حذا سائب حذوه ؛ فسير الغناء مثله في الشعر العربي ، وسائب يعزى ابتكار الايقاع Rhymte من النوع المسمى « الثقيل الاول » وأول اغنية صاغها من هذا النوع كانت الاولى من نوعها في الموسيقى العربية .

وحينما زار عبد الله بن جعفر الخليفة معاوية، كان في صحبته سائب خاثر ، وكان فقهاء دمشق قد حرموا الموسيقى ، فاضطر عبد الله أن يقدمه في البلاط على انه شاعر مجود للشعر ، فنال من الخليفة جائزة ، وفي عهد يزيد الاول قامت في البلاد ثورة طاحنة كان سائب أول ضحاياها في وقعه الحرة . توفي عام (٦٨٣) م ، وكان من أبرز تلامذه ، عزة الميلاء ، وابن سريج ، وجميلة ، ومعبد .

ـ الميلاء ـ

اطلق عليها هذا الاسم بسبب مشيتها ، اشتهرت بجمالها وكانت تلميذة لمغنية عجوز تسمى رائقة ، اخذت عليها دروسا في الموسيقى القديمة التي كانت تتداولها ؛ سيرين ، وخوله ، وسلمى ؛ والرباب ، ثم اقتطفت الالحان الفارسية فيما بعد من : نشيط ، وسائب ، وكانت تشترك مع استاذتها رائقة وحسان بن ثابت الشاعر في حفلات المدينة الكبرى . وفي حفلاتها الاسبوعية اجتذبت عددا لا يستهان به من صغار المغنيين ، وقد تجاوزت شهرتها المدينة حتى بلغت مكه . وقد قال فيها طويس بعد أن حضر بعض حفلاتها :

« اذا جلست الميلاء جلوسا عاما فكأن الطير على رؤوس مجلسها » وكان من المفروض على كل مستمع أن يحافظ على السكون التام . فمن بدرت منه أدنى حركة جوزى بالعصا . ولكن شدة محبة الناس لها اثار حفيظة المتزمتين من المسلمين فشكوا أمرها الى سعيد بن العاص والى المدينة في عهد معاوية فحاول أبعادها لولا التوسط الذي قام به عبد الله بن جعفر . وقد اشاد الشعراء بمدحها فقال حسان بن ثابت : ان عزفها ذكره بما كان يسمعه عند الغساسنة في الجاهلية ؛ وقال طويس انها « سيدة من غنى من النساء» وقد برعت في العزف على العود فضلاعن ابداعها في الضرب على المزهر والمعزفة ، توفيت الميلاء عام (٧٠٥) م .

ـ حنين الحيري ـ

وهو من الحيرة كما يستدل من الاسم . ويدعى في الاصل ابو كعب من بنوع الحيرى ، ومن العرب المسيحيين من بني الحارث بن كعب . استهل حياته كبائع للازهار ، أو صلته هذه الحرفة الى منازل الاغنياء ، حتى هام حبا بحفلات القيان ، وعول على الاشتغال بالموسيقى ، فبدأ دراسته على كبار الموسيقيين ، حتى اصبح في مقدمة العواديين والمغنيين ، واشتهر امره بين الملحنين ، واليه ينسب ادخال الاغنية الفنية من نوع (السناد) وتطويرها في العراق في زمن الاسلام .

اما حياة حنين الموسيقية ، فقد بدأت في عهد عثمان رضي الله عنه ، بيد أن خالد بن عبد الله القسري والى العراق كان قد حظر على الموسيقيين مزاولة العمل مدة خلافة عبد الملك بن مروان . ولم يسمح لحنين باحتراف الغناء الا بشرط عدم الغناء بحضور الفساق والاشرار . وعندما انتقلت ولاية العراق الى بشر بن مروان اخي الخليفة ، قرب حنينا من قصره في الكوفة ، وبقي ملازما للامير .

وفي عام (٧١٨) م . اراد فنانوا الحجاز ان يحتفلوا بزميلهم الكبير حنين ، فدعوه الى حفلة موسيقية كبرى في دار سكينة بنت الحسين . وفي اثناء الحفلة تهدم المنزل المزدحم بالمستمعين وقتل حنين ويدعى ابنه عبيد الله أن اباه احد المغنيين الاربعة المعدودين في الاسلام .

احمد قاسم العقلة .

* * *

امين الغريب

اولا : شكري الحار للوزارة على هذا الاهتمام المتواصل الذي توليه حقا نحو احياء التراث السالف وكذلك جهودها المبذولة لتوعية المجتمع وثانيا : اعجابي المتزايد لدعوتها ونشاطها الدائم

الى ترك اساليب الاخريـن والتمسك بأساليبنا الوطنية الخاصة والعربية العامة من دين ولغة .

وتمسكنا يعنى مباشرة استرجاع شخصيتنا الكاملة ، والاعتزاز بأصالتنا ومقوماتنا ، والاخذ من حضارتنا واعطاء العناية والاهتمام بما تركـه أسلافنا اذ به نبنى صرح الحاضر والتحضير لبناء المستقبل الخالص.

اذ لا نستطيع ان نتصور امة او شعبا بلا ماضى ان ماضى الامة لهو بمثابة روحها تنفخه فى هيكل مستقبلها فتبعثه بشكل جديد الى الحياة الحرة الكريمة وتنطلق ان ذاك الى حيث تبغى وتريد لتحقق مجدها المنتظر . والانية والاصالة واجب التحلى بهما ومن فقدهما فقد احساسه .

وبعد هذا الشكر الجزيل الذى قدمه الاخ امين غريب الى الوزارة لاعتنائها بماضينا ومجدنـا ومحاولتها الجادة لنشر تراثنا ومثلنا التى تكون اسس شخصيتنا .

قدم لنا هدية متواضعة كما سماها هو وهذه الهدية هى قصيدة شعرية تحية للاصالة نكتـفى منها بهذه الابيات الثلاثة

رحبى يـا ارض بالنـور بالاصالـة
بشـرى قومـا فلن تلقـى جهالـة
واهتـفى بالانيـة فى كـل حـارة

من تقاليدنا البالية

كل امرىء يحيى ويضحى بذاتيه .. من اجل احياء ونشر عقائده وآرائه التى يؤمن بها . فكل له عقيدته التى يؤمن بها . ولا يرضى لها بديلا الا بالقوة فيستكين لذلك وحتى بها — فربما لا يميل الى ذلك الا ظاهريا ولكن بعد المران وذوق لذة تلك العقيدة الجديدة فيؤمـن بها ظاهريـا وباطنيـا ...

فهو لا يستكين ولا ينزوى زاوية ويترك مـذ اعتقد به تعبث به ايدى الاخرين . وهذا مـا جعل الانبياء وجميع المصلحين يلقون صعوبات ومصاعب جمة مـن طـرف الذيـن ارادوا اصلاحهم . وما هجرة النبى وايذاه مـن تجاه قريش الا تفسير لهذه الظاهرة وهذه النفسية الفطرية فى كل نفس .

واذا تصفحنا كتب التاريخ والسيرة فاننا نجد ما لا يحصى من المصلحين لاقوا اشد الايـلام وتعرضوا للمخاطر والنفى والـرمى بالزندقـة والكفر . لا لشىء الى انهم استباحوا لانفسهم الى النقد وتجريـح عواطفهـم باستعـراض الاحيان . قصد استحالتها بعقائد اخرى صحيحة عقائدهم بالنقد .. والذم والشتم فى بعـض او مزيفة وهى فى نفس معتنقيها لا تشويها اية شائبة . ولكن كما اراد هؤلاء نشر آرائهـم الصالحة بقدر ما يحتفـض هـؤلاء بعقائدهم الموروثة والحرص عليها . وما من احد ينكر ما للعقيدة من اثر فى اصلاح وتقدم الامة . كما هـو شاهد فى الامة الاسلامية . فتقدمها يتناسـب تناسبا طرديا بتمسك انفرادها بعقيدتهم التـى لا يدخلها الباطل من الخلف ولا من بين ايديهم ..

فالمسلمون تقدموا وسادوا وزعزعوا ودوخوا الممالك الجبارة يوم كانوا يعيشون لعقيدتهم . ويضحون بأنفسهم واموالهم وبنيهم لاعلاء كلمة ربهم ودحض الباطل ومزاعيـم المشعوذيـن الباطلين . ويوم يقتحمون المعمعة قصد مماتهم فى ساحة الشرف ليفوزوا بالجنة التى وعد الله بها الشهداء الابراء .

وهذه العقيدة التى لا تشو بها شائبة قـد حافظت على كيانها وكيان المسلمين لاحتفـاظ معتنقيها بزمامها لا تزعزع ايمانهم اية ظاهرة من الترف والغناء ... ولكن ما ان انحرفوا عن هذه العقيدة قليلا حتى زالت دولتهـم وتقلصـت . فأصبحنا كلما تذكرنا هذه ملأت قلوبنا الحسرة والقلق ، وكلما جادلنا احد اجبناه بـ . « كان . ولا بـ كنا » .. وهذا نتيجة اسباب عدة اهمها فساد عقيدتنا لعدم تمسكنا كما تمسك واحتفض بها اجدادنا الاولون . فتسرب اليها كثير مـن الامور ليست من الدين فى شىء وانما هى مـن كلام وابا طيل المشعوذين والدجالـين الذيـن لا يفقهون من الاسلام سوى القشور والمظاهر . فغدت هذه الامور المزيفة الباطلة من عقائـد الدين يؤمن بها بعض العامة . وهم لا يريدون

لها ... بديلا ولا نقدا او مسا من قريب أو من بعيد . لاعتقادهم أن مسا معناه مس الدين .

ولكن فى الحقيقة هذه ليست من الاسلام فى شىء . وانما هى عادات وتقاليد توائها الجيل عن الجيل .. ومن الواجب الفهم والادراك أن الدين الصحيح شىء لا يقبل التغيير والتحريف . لانه صالح لكل زمان وعصر . أما العــادات والتقاليد فهى قد تقبل النقد والانتقاد ... حذفا وخلقا .. لان لكل وقت عاداته وتقاليده . واذا قلت هذا لا يعنى من ذلك نبذ كل تقاليد شعبنا . لان هذا معناه القضاء على فكر وروح الشعب . وانما حذف التقاليد الرذيلة من المهور الباهظة والشاجر الناشب من أقل الاسباب . والزواج بالاجنبيات للحفاظ على شخصيتنا وقوميتنا . وعدم سجن المرأة داخل الجدران الاربعـــة وحرمانها من العلم والثقافة بعد وصولها الى المرحلة التى يجب مساعدتنا اليها ... الخ ..

ولكن الاعتقاد السائد فى نفوس بعضنا هــو « زيارة القبور وجعلها مساجد » واتخاذ اضرحة الاولياء شكلا من العبادات والتقدسية . فأى حديث وآية تأمرنا بجعل القبــور مساجــد . فالحديث الذى يدل على هذا يقول :

ـــ لا تتخذوا القبور مساجدا ـــ فهذا الشىء نلمسه كثيرا نوعا ما فى القرى والارياف تنقصى الوعى الوازع الدينى فيها . فكم نجد من النساء فى القبور يزغردون ويوقدون الشمعات ويضعن ما تيسر لهن من النقود فى صندوق ضريح الوالى ان كان هناك واليا . او توضع فوقه ـــ الرمس ـــ انواع شتى من الاقمشة الحريرية والاساور ويضعن كثيرا من السحور فيه ناهيك عـــن الدعوات التى يدعون بها الى الوالى قصـــد الحاجات الذاتية من انجاب مولود . واشفــاء مريض . ... فأين كل هذا من الديـــن الاسلامى فى السمح النقى . من كل هـــذه الاباطيل الكاذبة .

يجب علينا القضاء على هذه الامور المزيفة كما قضى عمر ابن الخطاب على تلك الشجرة التى يتقدسها بعض العرب .. الشجرة التــى تمت تحتها البيعة الاولى والثانية أمر بقطعــها لان هذه التقدسية لا فرق بينها وبين عبد الاصنام والاوثان فى الجاهلية . فمتى تزيل هذه العادات السيئة الى الدين والمجتمع معا .

ومن الخصال الرذيلة المتصفـــة كذلــك فى بعضنا تشبثهم بسيرهم وراء مطامعهم الذاتيـــة ولو أدى ذلك الى فساد الوطن والغير . وهـــذا ما يعكس مفهوم الحديــث التالى : « أحـــب لغيرك ما تحب لنفسك . واكره له ما تكره لها »

ومثل هؤلاء الطماعين لسنا هم ابان الانتخاب البلدى الاخير . حيث أنهم ينبذون ويشمئـــزون ويغضون الطرف حتى من رؤية من كان ليس فى حزبهم ولو يصوتوا لفائدتهم .. أما يدرون أن الانتخاب من المفروض أن يتم بحرية تامة لاختيار ذوى الكفاءة والقـــدرة على خدمـــة الوطـــن والاخلاص والتفانى فى المسؤولية الملقـــاة على عاتقـــه .

أما اذا انحاز عن هذا فهو يماثـــل مقدسى وعابدى الشخصيات وهذا نوع من الوثنيـــة والوساطة بشكل آخر .

فمتى تزول هذه الآفات الرذيلة فى مجتمعنا . وكيف السبيل الى الرجوع الى اصل الدين ولبه . الى الاصالة الاسلامية فى مبادئه الجذابة التى تحرص على حرية الفرد والاعتراف بشخصيته .

charrue, la pioche et la houe ; pacifié par le bornage, délimité, libéré des querelles agraires ; dans les restes d'un ouvrage hydraulique arabe ; à travers les voies continentales jalonnées de postes aujourd'hui effacés comme une mince traînée de graviers ; le long du « limes » romain, frontière intérieure dont le tracé archaïque mais rationnel séparait déjà et tout ensemble deux zones naturelles et deux genres de vie majeurs ; dans les pierres-même qui cessent alors d'être muettes ou insensibles à la marche toujours recommencée, toujours disputée de la civilisation et de la barbarie. En effet, les ruines aussi, le roc dégradé, les pans dérisoires des anciennes murailles, les dalles usées, les strates amoncelés des villes mortes, les tessons de poterie, les morceaux de bronze, les éclats de verre, un fragment de mosaïque, une stèle gravée, un fût de colonne, un marbre tronqué, un noyau d'olive, un trop fragile grain de blé tout noirci, une lampe, un outil qu'on retire des décombres tassés et retassés par le temps, ces objets-là, ces squelettes de pierres, il faut que la civilisation les exhausse, les élève au jour pour en faire de vivantes reliques et comme le fil renoué de sa lointaine genèse. Ainsi, l'histoire s'inventorie dans les cendres des villes et l'ortie des champs abandonnés en ramassant les humbles dépouilles sauvées du désastre, les témoins minuscules d'un monde aboli, et, ce faisant, elle se raconte avec autant d'éloquence si ce n'est plus, que les textes et les grimoires ; que les récits fabuleux dont les chroniques populaires sont prodigues ; que les savantes suggestions des chercheurs. Ici, l'événement est le contrepoint du fait social ancien, l'indice matériel d'un patrimoine enseveli, et quand il s'en tient à ce rôle, la clarté devient complémentaire d'une plus grande lumière paradoxalement tirée des profondeurs obscures de la terre, soustraite aux ténèbres millénaires des ruines ravalées et chaotiques, libérée d'un oubli opaque ou somnolent dans la pénombre de la mémoire collective. Et déjà les éléments premiers de l'existence historique d'un pays à l'origine des temps humains s'énoncent pour nous comme un alphabet, comme des hiéroglyphes qu'on déchiffre, et, à l'instar d'un alphabet, ils imposent déjà un moyen de culture abécédaire c'est-à-dire de civilisation balbutiante ; une connaissance peut-être naïve mais par laquelle tout commence quand l'homme, quand les sociétés primitives et plus tard outillées, s'initient de proche en proche à cette totalité géophysique à laquelle ils s'identifient eux-mêmes ; à cet environnement de débris épars et de signes épelés ou reconnus ; à cet immense matériau cosmique dont ils sont à la fois et deviendront le produit aveugle ou sensible et le maître-d'œuvre aux mains sûres, à l'esprit conquérant. Car rien n'est à dédaigner dans un tel inventaire ; dans cet amas hétéroclite et parfois sommaire et pitoyable comme les accessoires de théâtre d'une pauvre troupe ambulante. Tout y est, ne serait-ce qu'à l'état de symboles révélateurs ou didactiques, et chaque société, même la plus démunie, la plus hébétée par les solitudes striles du Kalahari ou de l'Amazone, a sa part subjectivement magnifiée dans cet alphabet primordial, qui selon les latitudes, les époques, les infortunes et les cataclysmes, se multiplie comme le pain de la Cène ou s'amenuise ou demeure inchangé : réserve fruste et féconde de futurs insoupçonnés, ou rétrospective d'une préhistoire à jamais aboutie.

Est-ce par de tels chemins capricieux, le long desquels le Maghreb n'a cessé d'être évoqué en sourdine mais présent à chaque tournant, que nous atteindrons notre sujet ? A la vérité, tout converge vers cette Méditerranée qui fut le centre du Monde habité, et, sur les bords de la Mer Intérieure, vers ce Maghreb dont la présence physique, les transfigurations de l'histoire, le mécanisme dialectique des empires, des sociétés, des civilisations et des économies inter-continentales, ont longtemps fait un relais nécessaire, un carrefour vital, un haut lieu d'épopée, de réalisation humaine et d'avatars pour les peuples créateurs ou turbulents qui trouvaient là un champ illimité à la mesure de leurs rêves, de leur génie, ou simplement de leurs dévastations et de leurs errances. « Mondes péninsulaires de la Méditerranée » — c'est ainsi que le grand historien français Fernand Braudel appelle fort justement, en même temps que l'Afrique du Nord, d'autres régions géographiquement bien typées et autonomes — (L'Anatolie et les Balkans), et qui dépendent cependant à plus d'un titre du Bassin Méditerranéen. Ainsi, la science historique moderne a confirmé pour l'Afrique du Nord le nom que, déjà, au Moyen Age, dès le milieu du VIIe siècle, les Arabes lui avaient donné. Péninsule, île, promontoire cyclopéen : la chose est la même sous différents vocables que suggère l'observation la plus perspicace. D'autres péninsules qui relèvent, celles-là, du sens propre le plus strict — l'Espagne, l'Italie — Complètent les éléments constitutifs de cette immense aire géographique et humaine de la Méditerranée dont le même Fernand Braudel prolonge les frontières envahissantes et vigoureuses jusqu'aux déserts froid et chaud de l'Asie et de l'Afrique. « Le Sahara, second visage de la Méditerranée », dit-il quelque part.

Nous ajouterons quant à nous, qu'en plus de son caractère physique sinon humain de « péninsule », l'Afrique du Nord est aussi un sous-

continent. Ce fait maghrébin, algérien, que nous croyons devoir avancer sans trop l'étayer parce qu'il apparaît jusqu'à l'évidence et parce que les raisons des sociologues et des historiens diffèrent parfois, morphologiquement parlant, de celles des géographes, ce fait est déterminant pour la connaissance des civilisations successives, des mouvements migratoires ou aventureux qui les animent; des brassages qui s'y opèrent, de l'unité qui s'y manifeste autour et le long des mêmes éléments de relief : dorsales ininterrompues, steppes ouvertes à d'éternels cheminements, transhumances qui se croisent, s'attardent ou interfèrent selon les saisons et les dispositions du moment ; montagnes apparemment closes, verrouillées, cadenassées mais d'où sortent vers la plaine mobile des pasteurs et des cavaliers, des hommes de paix et des hommes de guerre, prédicateurs mystiques, colporteurs, arboriculteurs, chefs de bande justiciers quand la faim ou les abus du fisc les contraignent à une sorte d'exil armé. Sous-continent péninsulaire, assez semblable à d'autres régions de même structure géographique, le Maghreb est une terre d'émission, un univers d'« îles que n'entoure pas la mer », selon l'expression d'un historien quand il parle du monde méditerranéen : montagnes arides et reculées, déserts inexpugnables, hauts plateaux, cuvettes naturelles creusées dans le roc, sont de grands exportateurs d'hommes, soit à l'intérieur des frontières, soit à l'extérieur de ce vaste périmètre qui jouxte la Méditerranée et le Sahara et dont la saillante nature paradoxalement composite et homogène, recèle dans ses espaces comme un archipel terrien à la fois divers et unifié. Et là-dedans, pièce maîtresse d'un ensemble qui est aussi le cœur du Maghreb et domine de haut la mer et le Désert suivant un équilibre et une économie quasi-parfaite de l'espace ordonné, l'Algérie a partie étroitement liée avec la Tunisie et le Maroc, dont l'histoire, longtemps commune, est à l'égal de la géographie. Si, à cette échelle presque continentale et en dépit de ses 2.000 km de long et de plusieurs milliers de kms. de profondeur à travers le Sahara et jusqu'aux abords du monde noir, le Maghreb se présente comme un ensemble en même temps diversifié et se répétant fidèlement sur une ligne horizontale à l'intérieur de ses limites et au fil de ses rivages, on peut dire que l'unité qui est la sienne est paradoxalement le microcosme, l'image en miniature de l'unité de toute la Méditerranée. Unité singulière à plus d'un titre, et dabord celle qui est à l'origine de toutes les autres parce qu'elle constitue la caractéristique par excellence de la Méditerranée en tant que seule définition de sa réalité ancienne et permanente, de son rôle dans l'histoire, de sa raison d'être. « La Méditerranée, disait Lucien Febvre, ce sont les routes ». Chose étonnante : ces péninsules, ces îles intérieures, ces archipels, ces océans d'eau et de sable, trouvent, dans une même destination, un lien qui ne serait ailleurs que latéral, voué à la simple communication d'un fait de civilisation temporaire, vulnérable peut-être, aboutissement parfois électique mais qui, en l'occurence, explique et détermine une totalité, justifie péromptoirement, mathématiquement, l'existence et la fonction humaine de cette Mer Intérieure aux prolongements infinis. C'est le même Lucien Febvre dont la science subtile n'est jamais gratuite parce qu'elle draîne tous les détails d'une définition, toutes les miettes apparement dérisoires de la connaissance, les demi-teintes et les quarts de ton d'un langage historique plus précis qu'un bistouri, c'est Lucien Febvre qui suggérait à son disciple et ami F. Braudel cette réflexion ramassée, répétée, inversée, à propos de la Méditerranée : « Routes et villes, villes et routes ». Ce n'est plus une tête de chapitre qu'on énonce sèchement par habitude ou conformisme ; c'est davantage l'expression globale, quoique lapidaire et allusive, d'un mouvement, je dirai perpétuel ; d'une oscillation entre deux termes de civilisation s'engendrant l'un l'autre, celui-ci allant au devant de celui-là, ou recevant son impact ; les deux soudés et distincts, mais jamais autonomes et recouvrant de leur sens bivalent, conjugué, une réalité qui traduit tout ensemble, évoque, indissolublement liés et répartis, un circuit sans cesse ouvert et refermé, des pôles attractifs, des fonctions centrifuges et centripètes qui créent des ondes partagées, étendues, impliquant une complémentarité créatrice d'hommes, de besoins, d'espaces organisés, d'instruments de culture, de courants d'idées, de conquêtes pacifiques ou brutales, d'efficience, d'apports, de mutations, de relais historiques aux bases immuables comme autant d'éléments naturels nés à l'unisson de la Terre et contemporains de ses premiers âges. Ainsi qu'on l'a affirmé, « L'unité humaine de la Méditerranée c'est à la fois cet espace routier et cet espace urbain, ces lignes et ces centres de forces,... villes et routes, routes et villes ne sont qu'un seul et même équipement humain de l'espace... Quelles que soient sa forme, son architecture, la civilisation qui l'éclaire, la ville de Méditerranée est créatrice de routes et, en même temps, est créée par elles... L'ordre routier et urbain est, par excellence, l'ordre humain de Méditerranée. Il domine tout. L'agriculture, même modeste, aboutit à la ville, est commandée par elle... ».

Il nous semble que l'essentiel, quand il s'agit de ce réseau confondu ou mouvant de villes, de routes et d'escales ; de ce réseau schématique ou

dense, de ces carrefours à peine perceptibles, ce n'est pas d'en montrer l'aspect familier, linéaire ou esthétique ou autonome, plein de dépaysement, fertile en plaisirs vagabonds, en agréments, en impressions de pouillerie ou de faste, susceptible de capter la curiosité inébranlable de l'ethnographe ou la béatitude mitigée du voyageur. « L'important, comme l'écrit F. Braudel, est de voir ce qu'un tel réseau implique de rapprochements, d'histoire cohérente ; à quel point le mouvement des bateaux, des bêtes de somme, de voitures, des gens eux-mêmes rend la Méditerranée une, et, d'un certain point de vue, uniforme malgré les résistances locales. L'ensemble de la Méditerranée est cet *espace-mouvement*. Ce qui l'aborde : guerres, ombres de guerre, modes, techniques, épidémies, matériaux légers ou lourds, précieux ou vils, tout peut être pris par le courant de sa vie sanguine, porté au loin, déposé, entraîné à nouveau, véhicule sans fin, voire rejeté hors de ses limites. » Espace-mouvement, routes et villes, villes et routes ; le cadre est là, mais un cadre plus fonctionnel que pittoresque. Les civilisations de la Méditerranée ont grandi sous la détermination du vide : vide de la mer, vide du désert. Car, comme la mer, le désert est mouvement, et nous verrons plus loin que les sociétés du Maghreb, l'Algérie en particulier, sont nées de ces contraintes qui se résument en grande partie en la mobilité des hommes et en leur besoin biologique de franchir l'espace, de le meubler, d'y créer des échanges, des présences itinérantes. L'unité humaine de la Méditerranée n'est pas seulement, comme on l'a dit « le fait de la nature, ou plus spécialement de l'eau méditerranéenne ». Cette mer intérieure, « peu à peu, les barques l'auront vaincue, tendant leurs liens, construisant par dégrés l'ensemble cohérent de la Méditerranée des hommes et de l'histoire. Mais *construit*, disons-le bien, et de main d'homme. Une Méditerranée des hommes n'a existé — n'existe que dans la mesure où continuent à la créer l'ingéniosité, le travail, la peine de ces mêmes hommes. *Ce n'est pas l'eau qui lie les régions de la Méditerranée, mais les peuples de la mer* ».

Nous avons vu à l'aide de touches plus générales, plus rapprochées de notre propos, de quelle façon peut se définir l'ensemble déterminant de ces mécanismes géographiques de la Méditerranée dont les éléments constitutifs sont régis entre eux par une étroite et dynamique relation de temps et d'espace, de point fixe et de projection, de base immuable et de mouvement, d'attaches statiques et de circuits mobiles, de chemins et de cités, de contraintes naturelles subies ou déjouées, de créations et d'aménagements, de matériaux et d'hommes, c'est-à-dire le propre de la civilisation quand elle répond ou s'adapte aux sollicitations, aux impératifs de l'ordre physique et les transcende à son tour par l'initiative de l'esprit. « Immensité et démesure » tel paraît être l'espace méditerranéen au XVIe. siècle selon un historien qui ajoute qu'aucune région du monde n'offre encore à cette époque un aussi puissant réseau urbain. « Paris et Londres, écrit-il, n'en sont qu'au début de leur modernité. Les villes des Pays-Bas et de la Haute-Allemagne ; plus au nord des cités laborieuses mais menues de la Hanse, toutes ces villes, si belles ou si vivantes soient-elles, ne forment pas des ensembles aussi drus et complexes que ceux de la mer Méditerranée où les agglomérations urbaines se succèdent en interminables guirlandes avec de très grands centres ; Venise, Gênes, Barcelone, Séville, Alger, Naples, Constantinople, le Caire. « Mais voilà que nous anticipons un peu trop sur notre sujet !

Je pense, cependant, qu'il n'est pas tout à fait superflu dans une approche méthodique de l'histoire du Maghreb et de l'Algérie, de planter ce décor, d'évoquer en guise de préambule et d'explication ces structures naturelles, cette physionomie active de la Méditerranée, ces appels irrésistibles du cadre géographique et de la nécessité tout court. Nous nous sommes acheminés progressivement — maladroitement, aussi — du général vers le particulier. Le Maghreb, la Méditerranée, sont deux ensembles inclus l'un dans l'autre : quant à l'Algérie, elle est à la fois le résumé géo-économique et humain de la Mer Intérieure, et le générateur de l'histoire maghrébine, en ce sens que sa position centrale la rend plus méditerranéenne que ses voisins, le Maroc atlantique et la Tunisie des Syrtes. En ce sens également que le mouvement de l'histoire, s'il s'est amorcé à l'Est pour aboutir en vagues plus ou moins atténuées à l'Ouest a trouvé son point culminant, ses lignes de forces, ses réserves, ses chutes, ses épreuves, ses conducteurs d'hommes, ses initiateurs, dans ce cœur du sous-continent maghrébin qu'est l'Algérie, région la mieux typée sans doute, géographiquement parlant, de toute l'Afrique méditerranéenne, la plus contrastée aussi, avec un vaste champ attractif d'action et de déploiement d'énergies ; un tremplin qui a propulsé depuis la naissance de la civilisation un tumultueux et pacifique va-et-vient de groupes humains. Bien sûr, l'histoire de l'un ou l'autre pays de l'Afrique du Nord ne peut se concevoir sans une imbrication dynamique à l'ensemble de ce monde péninsulaire ; sans une participation épisodique ou permanente à la totalité des hommes du Maghreb, de leurs œuvres et de leurs aventures : les routes et les

villes, les villes et les routes, c'est-à-dire les capitales, les métropoles, les dynasties, les centres d'intérêts, les tribulations, les échanges, l'exode et les retrouvailles, les institutions, les courants culturels et commerciaux, les pérégrinations pastorales, les fondations maritimes, les révolutions : en somme tout le viatique d'une marche commune à travers les siècles. Il n'est même pas besoin d'essayer, par je ne sais quel régionalisme aléatoire, de séparer les destins convergents et les vocations intimes et complémentaires de ces trois pays. Ce qui, dans l'histoire la plus reculée, a commencé en un lieu donné de l'espace maghrébin, s'est très vite développé selon une ligne horizontale d'Est en Ouest ou inversement. Des idées, des hommes d'action, des conquérants et des émigrés venus de l'Orient arabe ou du Maghreb central. - c'est-à-dire d'Algérie - ont poussé jusqu'aux confins du Maroc, et, de ce pays, sont partis de vastes mouvements de réformateurs et deux grandes dynasties qui se sont ramifiées plus tard d'une façon autonome quoique épisodique, dans chacune des trois régions d'Afrique du Nord.

Aussi, nous paraît-il prématuré, à l'origine des temps et même plus tard, de parler de telle ou telle province du Maghreb comme d'une entité distincte du reste, prémunie contre les dangers qui la menaçaient. Et ce n'était pas le seul fait , la seule conséquence du voisinage, de la parenté ethnique, d'une langue commune, de frontière presque inexistantes, des mêmes dominations subies ou repoussées. Le phénomène relève peut-être d'un caractère insulaire à nul autre pareil puisque l'immensité environnante, faite d'espaces marins atlantiques et méditerranéens, de solitudes continentales plus grandes encore, contribue à sortir l'Afrique du Nord de la catégorie classique de ces îles de petite ou moyenne envergure qu'entoure un seul élément ; auxquelles manque le recul suffisant et parfois illimité de la terre ferme. Mais ce caractère para-insulaire n'a jamais inspiré aux habitants du sous-continent maghrébin une mentalité d'isolationnistes, des réflexes de repliement sur soi. En les rapprochant entre eux pour mieux favoriser par leurs efforts l'implantation de groupes humains de même vocation économique ou presque, dans un pays difficile, battu des flots multipliés de la mer et du désert, il les a aussi ouverts sur l'extérieur, les a rendus entreprenants, voire belliqueux loin de leurs propres rivages, ou, bien au contraire, accueillants, hospitaliers et réceptifs aux apports étrangers. Ou bien, nouveaux venus dès la préhistoire dans une terre à transformer, à réduire à travers ses horizons démesurés, ils se sont attardés sur le continent, atteignant de proche en proche le littoral et la mer, pour eux indomptable, que les Phéniciens commençaient à hanter de leurs barques rondes ; ou bien, voués, par manque d'outillage approprié, au seul habitat de la vallée et de la montagne, les premiers autochtones se sont trouvés à un stade où la civilisation des techniques allait remplacer dans leur existence d'immigrants et de rescapés les genres de vie primaires de la chasse, de la cueillette, du défrichement et de l'élevage. Toujours est-il que la destination de l'homme berbères dès le XIIIe. siècle avant J.C. le prédisposait à participer à la culture du monde méditerranéen dont il faisait partie intégrante bien qu'un peu en retrait des courants nouveaux qui étaient le fait exclusif des peuples de la mer. Les Grecs les Phéniciens étaient de plain-pied avec l'élément marin. Les Phéniciens, acculés, sur une bande étroite, au mont Liban, se jetèrent résolument à l'eau, et, profitant de la disparition de la *Thalassocratie* crétoise, de cette puissance maritime qui régnait sur la Méditerranée orientale, ils créèrent des flottes de longue portée qui bientôt les menèrent jusqu'aux colonnes d'Hercule. L'histoire active de l'Afrique du Nord, de l'Algérie, commence là. Il s'agit plutôt d'un événement révélateur, dans le sens que l'on donne généralement à une réaction chimique. Les Libyens ou Lebou, nom primitif des Berbères, est déjà mentionné dans les hiéroglyphes du Pharaon Menephtah au XIIIe. siècle avant J.C. Plus tard, on les trouve associés à l'active dispersion phénicienne qui, à partir de 1100, essaime le long des côtes nord-africaines pour y établir des comptoirs et des ateliers. Redisons-le : l'histoire

manifeste là ses premiers effets ; elle dégage d'emblée les lignes et les constantes de ce que sera plus tard l'univers maghrébin en soi ou à l'unisson de l'Europe et de l'Afrique. Des hommes d'une trempe exceptionnelle, endurcis à la peine, mobiles, ayant dompté les chevaux et l'espace, rebelles, échappé à un Sahara en partie tropical et humide, apprivoisé la montagne et organisé de petits royaumes claniques s'approchent, enfin, du rivage. Gadès — aujourd'hui Cadix — tête de pont des lointaines et futures explorations phéniciennes vers l'Afrique noire venait d'être fondée sur la côte espagnole toute proche, complétée par l'importante colonie de Lixos sur l'Atlantique marocain, et ce double événement qui trouvera, après le Périple de Hannon au Ve. siècle avant J.C., un prolongement d'une singulière continuité, va constituer l'un des plus grands faits de civilisation qui aient jamais commandé à l'économie du monde méditerranéen et européen jusqu'au XVe. siècle. Je veux parler des sources encore inconnues de l'or africain et du trafic laborieux de ce métal dont seront tributaires, par la suite, les politiques monétaires des empires du Moyen Age arabe, de la Renaissance ibérique et des Temps Modernes européens à la veille de l'ère d'exploitation des ressources précieuses du continent sud-américain récemment conquis et prospecté. L'entrée en scène des Berbères coïncide avec la fin de la période mycénienne et les débuts de ce qu'il est convenu d'appeler le Moyen Age hellénique qui s'étend de 1200 à 800 avant J.C. Aux environs de cette dernière date, Carthage, la Nouvelle Tyr, c'est-à-dire la réplique et la future héritière de sa lointaine métropole, est fondée à l'autre extrémité du monde maghrébin. La grandeur de Carthage, malgré les moyens considérables dont elle disposait, mit 5 siècles à s'édifier, et pendant longtemps elle acquitta un tribut aux royaumes berbères, preuve que ces Etats ou ces peuples avaient déjà atteint un certain degré de force cohérente et d'organisation pour assurer le contrôle de leurs territoires. La base essentielle de ces domaines royaux comme leurs capitales, leurs marchés et, bien sûr, les comptoirs phéniciens les plus notables après Carthage, se situaient dans les hautes plaines du Constantinois et sur la côte orientale, en Algérie. L'histoire de la civilisation économique et technique suscitée par l'exemple ou l'apport phéniciens va marcher de pair avec celle, politique et culturelle, des grandes dynasties autochtones, des cités et collectivités rurales volontairement acquises à la langue punique, aux modes de vie, aux institutions de ce peuple de la mer qui avait pris pied sur la terre ferme et s'était révélé aussi expert en agriculture et en prospection minière qu'en navigation et en échanges commerciaux. Le moment est décisif dans l'existence historique de l'Afrique du Nord, surtout si l'on compare cette période d'initiation consentie et féconde à une civilisation étrangère proposée pacifiquement, cet apprentissage autonome, en un mot, à d'autres périodes ultérieures pendant lesquelles les cultures se faisaient conquérantes, oligarchiques, de caste, portées ou imposées par un ordre organisationnel perfectionné certes, mais à l'aide d'une immigration nombreuse, maîtresse du sol et des routes, et de proconsuls tout-puissants, de légions en perpétuel état d'alerte et de répression.

A suivre

L'INSURRECTION DE 1871

Docteur Mahfoud KEDDACHE

De nombreux écrits ont déjà célébré le centenaire de l'insurrection de 1871. Deux noms émergent, ceux de Cheikh Al Haddad et de Mokrani ; ils ont eu l'honneur d'avoir été les porte-drapeaux de cette insurrection et le symbole de la Résistance algérienne. Combien d'autres noms de glorieux résistants restent cependant oubliés. Que de pages restent à écrire pour donner au petit peuple des fellahs, des khouans, aux centaines de milliers de combattants la place qui leur revient dans le douloureux palmarès des martyrs de cette insurrection. Ce qui revient à revoir les affirmations des apologistes de la colonisation et du colonialisme qui considéraient la grande insurrection de 1871 comme une révolte localisée, causée par l'hostilité des Musulmans aux Juifs à l'occasion de l'octroi de la citoyenneté française à ces derniers, provoquée par les manœuvres des Bureaux arabes (administration militaire française) et due essentiellement aux ambitions personnelles des « grands chefs indigènes ». Rinn écrivait en effet dans la préface de son livre « L'insurrection de 1871 en Algérie n'a été ni la révolte de l'opprimé contre l'oppresseur, ni la revendication d'une nationalité, ni une guerre de religion, ni une guerre de race... Ce fut en effet le Bachagha Al Hadj Muhammad Ben Al Hadj Ahmed Al Moqrani qui seul déchaîna cette lutte formidable. Ce fut lui qui entraîna les populations soumises à l'influence plusieurs fois séculaire de sa famille, et aussi, celles plus nombreuses encore, subissant alors l'action politique et religieuse des Khouan Rahmaniya dont il avait sollicité l'alliance et obtenu le concours en flattant les visées ambitieuses d'Aziz Ben Cheikh El Haddad, le fils du grand maître de l'ordre... Les nobles de la Médjana et les seigneurs religieux de Seddouq ne combattirent que pour la conservation de privilèges, d'immunités et d'abus qui pesaient lourdement sur les pauvres et les humbles enrôlés sous leurs bannières. Ceux-ci, Arabes ou Qbaïl, comme jadis Vendéens ou Bretons, se firent tuer pour une cause qui n'était pas la leur ».

La presse colonialiste de l'époque nota « les Bureaux Arabes et les chefs indigènes ont fait alliance pour défendre par *fas et nefas* leurs privilèges, leur autorité et leur exploitation ».

La célébration, j'allais dire le culte que nous devons aux grandes dates de notre Histoire, et 1871 en est une, nous impose de les restituer exactement, et ce, dans le cadre de la révision impérative d'une Histoire falsifiée par l'esprit colonial. Pour 1871 tout a été dénaturé, les causes, les caractères et surtout le sens. Tout d'abord il convient de souligner qu'il ne s'agit pas d'une révolte d'une partie de Kabylie, mais d'un mouvement généralisé s'inscrivant dans la ligne de la Résistance militaire qui de 1830 va jusqu'à la fin du XIX.. En effet la reddition d'Abdelkader, de Ben Salem, du Bey Hadj Ahmed, celle des Chorfas de Kabylie, les difficultés rencontrées par les combattants des Ouled Sidi Cheikh, de l'Aurès, de Laghouat, de Touggourt, des Chaâmba n'avaient pas mis fin à la Résistance algérienne. La fin d'un combat n'a jamais signifié la soumission. En 1871 l'Algérie connut l'insurrection la plus longue et la plus généralisée de toutes celles qui eurent lieu avant la guerre de libération de 1954. L'insurrection commença avec l'attaque de Souk Ahras par les partisans de la tribu des Hanencha dirigés par Cheikh Keblouti (janvier 1871) ; ce fut ensuite le soulèvement de la tribu des Ouled Aïdoun dans le Sud constantinois (février) puis celui des Nemencha et des Ouled Abid répondant à l'appel de Mahieddine fils de Abdelkader venu de Tunisie par « ordre du Sultan » pour prendre la direction de l'insurrection et qui dans son appel lu dans toutes les djemmaas affirmait : « le moment de votre délivrance est imminent ». Tebessa fut assiégée. Au Sud les Chaâmba entrainés par Bouchoucha s'emparèrent de Ouargla (mars 1871). Le 14 du même mois un Conseil de guerre tenu à Medjana par la famille Mokrani décida de passer à l'attaque, Bordj Bou Arreridj fut assiégé.

L'offensive était également lancée le même jour par les Hachem dirigés par Ahmed Boumezrag Mokrani. Le 8 avril 1871 Cheikh al Haddad lançait à Seddouk son appel au djihad. Toutes

les tribus de la Mititja à Skikda répondirent à son appel. Tous les postes français en Kabylie étaient attaqués. Des groupes de partisans marchèrent sur Batna, sur Sétif ; les Béni Menaceur menacèrent la voie ferrée Alger-Oran, les Ouled Sidi Cheikh dans le Sud-oranais reprenaient la lutte. Plus de 350 combats furent livrés par les patriotes algériens sur un territoire qui dans le Constantinois allait des Kabylies jusqu'à Touggourt et Ourgla, dans l'Algérois de la Mitidja à Cherchell et dans l'Oranie s'étendait sur toute la région saharienne.

Si l'insurrection a atteint son paroxysme en 1871, elle avait commencé, nous l'avons vu, bien avant avril 1871 et s'est poursuivie bien après l'arrestation de Boumezrag tombé évanoui épuisé dans le désert (5 janvier 1872). Le flambeau sera repris par les groupes de partisans dispersés d'abord par Bouchoucha jusqu'en 1874, puis par ses compagnons les Medaganat qui réussirent à être maître du Sahara oriental de 1874 à 1883, et résistèrent jusqu'au dernier.

Nous sommes donc loin d'une révolte locale, d'un fait isolé. L'insurrection a été un soulèvement général, celui de toutes les tribus. Partout où les circonstances les permettaient les Algériens se groupaient et s'armaient. Le peuple algérien était atteint comme l'avait fait remarquer Bugeaud de « la fièvre des insurrections ». La température avait monté d'une façon exceptionnelle en 1871 comme ce fut le cas quelques années auparavant entre 1839 et 1847 avec Abdelkader, 1845 avec Boumaza, 1857 avec les Chorfa kabyles et 1864 avec les Ouled Sidi Cheikh.

Quelles sont les causes réelles qui expliquent cette forte poussée de la fièvre des insurrections en 1871 ?

Elles ne furent pas celles avancées par les historiens de la colonisation ? En effet les Musulmans ne sont pas révoltés par hostilité aux Juifs. Dans ses lettres pour appeler les tribus à se soulever Mokrani ne dit aucun mot sur la naturalisation des Juifs. Le Chef Boumezrag n'a lui aussi, pas parlé des Juifs pour appeler les Algériens à prendre les armes. Les Musulmans n'ont nullement été humiliés par l'élevation des Juifs au rang des citoyens, ils n'avaient pas le sentiment que la citoyenneté française pouvait augmenter leur dignité. Ils l'ont prouvé en refusant de faire leur demande de naturalisation individuelle. Les notables Musulmans de Constantine avaient fait savoir au consistoire israélite de la ville que le « décret Crémieux n'avait excité ni la colère, ni l'envie des Musulmans ». Il est aussi intéressant de noter que dans les régions insurgées particulièrement la Kabylie il n'y avait pas de Juifs. Soulignons également que des responsables français comme le général commandant la division de Constantine avaient reconnu « que le décret de naturalisation des Juifs n'a pas été la cause déterminante de l'insurrection de 1871 ». Le préfet Lucet du département de Constantine avait fait poser la question aux chefs de l'insurrection qui passaient devant la cour d'assises et « tous sans exception avaient répondu que la naturalisation des Israëlites n'avait été pour rien dans les causes de l'insurrection ». Par ailleurs, de nombreux insurgés avaient pris comme avocats des Juifs, ce qu'ils n'auraient pas fait s'ils avaient pris les armes contre les Juifs. On s'est appuyé pour justifier la thèse de l'insurrection - conséquence du décret Crémieux sur la déclaration de Mokrani :

« Je n'obéirai jamais à un Juif. Si une partie de votre territoire est entre les mains d'un Juif, c'est fini. Je veux bien me mettre au dessous d'un sabre, dut-il me trancher la tête, mais au dessous d'un Juif, jamais, jamais... ».

« Je consens à obéir à un soldat, mais je n'obéirai ni à un Juif, ni à un mercanti ». Ce qu'il faut préciser c'est que par juif, Mokrani visait le civil, le représentant du gouvernement français, comme par mercanti il entendait le marchand et surtout le colon. L'insurrection n'a pas été l'explosion d'un quelconque racisme contre les Juifs. Au contraire et de nombreux témoins de l'époque l'ont affirmé les Musulmans se sont révoltés parce qu'ils considéraient qu'un décret analogue au décret Crémieux qui avait supprimé le Statut personnel hébraïque pouvait être pris à l'encontre du Statut musulman et imposer une citoyenneté dont les Algériens ne voulaient pas. Non moins fausse est l'affirmation qui considère cette insurrection comme le fait des ambitions de Mokrani et d'Aziz Ben Cheikh Al Haddad qui n'auraient combattu que pour leurs privilèges. Certes, l'influence des chefs a été grande mais ce qu'il ne faut pas oublier c'est que l'initiative, la pression sont venues des masses populaires, que dans de nombreux cas, c'est cette action des masses qui a fait basculer les personnalités et les chefs hésitants. L'insurrection existait avant les déclarations de guerre des chefs et elle a continué après leur mort ou leur arrestation. Alors qu'en 1870 plusieurs chefs avaient envoyé à Napoléon III une adresse de fidélité, des initiatives populaires organisaient des attentats, sabotaient des fils télégraphiques, des écoliers faisaient grève, des Chartiya sortent d'assemblée populaire se constituaient pour surveiller les caïds et acheter des armes. Les caïds et les cheikhs directement menacés furent obligés de se mettre au service de la Résistance, et souvent se mirent à la tête de leurs tribus dans

la guerre que ces derniers voulaient mener contre la France. Pour les masses populaires la soumission était de pure forme, que le rapport de forces change et l'insurrection éclatait. Dans sa lettre au Bachagha du Titteri, Mokrani notait « Ici il y a un enthousiasme général pour le Djihad, et si les Musulmans s'insurgeaient de tous les côtés, je vous jure par Dieu qu'ils n'auraient plus besoin de s'insurger une autre fois ». Ce qu'il faut aussi avoir à l'esprit c'est que l'insurrection ne s'est pas limité au fief des grands chefs, elle a gagné toute l'Algérie. Si les colons ont accusé les militaires, chefs des Bureaux Arabes, c'est uniquement pour des raisons de politique intérieure française : les militaires partisans de Napoléon III s'opposaient aux colons favorables au gouvernement civil. Sur le plan algérien les chefs militaires tenant à avoir la tranquillité dans leur secteur, ne voulant pas ajouter aux causes de mécontentement des tribus avaient voulu limiter la rapacité des colons qui voulaient accaparer toutes les terres, d'où l'hostilité des colons à l'égard des Bureaux arabes baptisés de « protecteurs des Arabes ».

Les circonstances politiques étaient favorables, la défaite de la France, la déchéance de l'Empereur, les luttes politiques entre civils et militaires français, les humiliations subies par les chefs traditionnels musulmans comme, par exemple, celles subies par le bachagha Mokrani : confiscation d'une partie de ses terres domaniales, perte de ses ressource fiscales traditionnelles, mise en place sur son territoire d'une administration dirigée par des officiers français, réduction du nombre de cavaliers de ses caïds, suppression de touizas faites en sa faveur... mais ce ne furent que des circonstances. Les conditions économiques désastreuses pour les fellahs ne pouvaient aussi que pousser les Algériens à la révolte armée.

La lutte pour la foi, pour la liberté pour l'indépendance s'identifiait avec la défense de la terre. Les masses rurales étaient sorties très appauvries par la crise agricole (1866 à 1869) et la crise financière de 1870. « L'occupation française avait vidé les silos traditionnels de réserve. La masse était condamnée à périr : le typhus le choléra faisaient rage, certaines tribus fondaient ; les fellahs, les chefs de tribus s'endettaient, Mokrani qui avait emprunté de l'argent pour secourir les gens de son secteur, dut hypotéquer ses biens pour rembourser les banquiers français. Ce qui était le plus grave c'était la crainte pour les fellahs de perdre leurs terres, c'était la remise en question du régime foncier des terres arch dont la propriété avait été reconnue aux tribus. Avec le régime civil c'était le triomphe des colons et de la colonisation et donc la perte des terres pour les Algériens. Il est évident que l'appauvrissement des masses rurales, la menace de perdre leurs terres ont provoqué un climat de tension.

Cependant les vraies causes nous les percevons dans les forces morales et religieuses des masses populaires et particulièrement rurales qui ont fait face aux menaces qui pesaient sur leurs terres. Robin reconnaissait que les tribus n'appréciaient « ni la paix ni la prospérité » coloniales, et que rien n'avait encore étouffé le souvenir de l'indépendance absolue dont elles avaient joui pendant des siècles ». Lamy notait qu'un Musulman d'Alger qui s'était enrichi avec les Français aurait déclaré : « Si l'insurrection arrivait jusqu'aux portes d'Alger, et qu'il ne fallut qu'un coup d'épaule de moi pour jeter les Français à la mer je le donnerai ». La plupart des observateurs de l'époque annoncèrent la révolte. Urbain signalait : « Nous nous trouvons et nous trouverons encore pendant fort longtemps en face d'un peuple qui supporte avec peine notre domination et cherche tous les moyens, toutes les occasions de s'en affranchir ; pour le maintenir, nous ne pouvons compter que sur notre armée : elle y suffira tant que nous n'aurons pas quelque grosse complication européenne mais l'horizon est noir ; que quelque orage vienne à éclater sur le vieux continent, nous sommes forcés de réduire notre armée d'Afrique ; le sentiment de l'indépendance et les sentiments du fanatisme religieux veillent. Il profitent de la situation ; un soulévement a lieu... ». Le gouverneur général Mac Mahon lui même annonçait en 1872 que « la sécurité risquait d'être compromise ». Les véritables causes un Français les avait notées « Il y a encore des mots magiques qui font tressaillir le pays et chaque fois qu'on lui parlera de nationalité, d'Islam de terre sainte à purger des infidèles on le trouvera prêt à marcher ». Les causes réelles résident dans cet amour du sol natal, dans cette défense de la liberté et de l'indépendance qui restent à travers toute l'histoire maghrébine l'un des traits caractéristiques de notre peuple. La foi religieuse inséparable de l'amour de la patrie, donna au peuple la force de combattre. Le sentiment religieux, se confondant souvent avec le sentiment national a été toujours un facteur de résistance. Les officiers français pour qui la foi était du fanatisme religieux notaient :

« Les pélerinages à Seddouk se multipliaient de plus en plus, le fanatisme religieux, déjà réveillé, comme nous l'avons vu, s'accentuait encore d'une manière alarmante. Les bandes de pélerins qui se rendaient chez le Cheikh Al Haddad, conduits par leurs mokaddems, suivaient les chemins pieds nus, avec des mines farouches, psalmodiant leur

dékeur ; les femmes elles-mêmes se rendaient chez le vieux et elles n'étaient pas les moins exaltées. Quelque chose se préparait ».

Les Kabyles d'une tribu qu'on voulait convertir écrivaient à l'officier français :

« Nous ne renoncerons jamais à notre religion ; si le gouvernement veut nous y contraindre, nous lui demanderons un moyen de quitter le pays ; si nous n'en trouvons pas nous préférons la mort plutôt que d'embrasser votre religion.. Quant à ce qui regarde notre conversion, nous aimons mieux la mort que de renoncer à notre religion ».

Toutes ces tentatives de prosélytisme religieux n'avaient certes pas de grande portée mais pour les Kabyles c'était une menace réelle. L'archevêque Lavigerie avait affirmé à plusieurs reprises ses intentions : « il faut cesser de le (le musulman) parquer dans le Coran comme on l'a fait trop longtemps, comme on veut le faire encore avec un royaume arabe prétendu ; il faut inspirer, dans ses enfants du moins, d'autres sentiments, d'autres principes. Il faut que la France lui donne, je me trompe, lui laisse donner, ceux de l'Evangile, en le mêlant enfin à notre vie ou qu'elle le chasse dans les déserts loin du monde civilisé ». Et les colons affirmaient dans l'Akhbar : « tout le monde tombera d'accord pour reconnaître que les principes du christanisme, avec tous les défauts qu'on pourra leur trouver, sont, à tous égards, préférables aux principes débitants, immoraux et barbares du Coran ».

L'apport de la confrérie des Rahmaniya à l'insurrection de 1871 est indéniable. Cette confrérie est essentiellement algérienne, par son origine puisque fondée par Mohamed Abderrahmane Bou Qobraïn, qui apartenait à la tribu des Guechtoula, par ses traditions et ses intérêts. Elle était la confrérie nationale groupant des Algériens de toutes origines, des hommes et des femmes, comme Khedoudja Bent Ahmed Ben Kanoun des Isser qui amena les Oulad Ou Kassi à rejoindre l'insurrection. Les Khouans, très homogènes habitués à une sorte de clandestinité, très disciplinés formèrent des groupes de combattants réputés par leur courage et leur héroïsme. Les mokadems furent les porte-drapeaux de ces combattants, pour lesquels il n'y avait d'autre issue que la victoire ou la mort.

Ce qui domine dans les origines de cette insurrection c'est donc la foi d'un peuple, son attachement aux valeurs morales et religieuses, ce qu'il faut retenir c'est le message des milliers et des milliers de martyrs de 1871 légué aux générations qui ont subi la colonisation au fait de sa force. Les théoriciens de cette colonisation affirmaient : « 1871 est la dernière grande insurrection militaire algérienne ». Ils se sont trompés dans la conclusion comme ils avaient voulu nous tromper sur les causes. Le message des mousseblin, et n'en rappelant que celui des deux mille qui, après avoir entendu la prière des morts tentèrent d'escalader les remparts de Fort National et se firent hacher sur place », était resté gravé sur le roc et ce sont les descendants de ces mêmes mousseblin qui ont repris le combat qui a mené à l'indépendance. C'étaient les moudjahidin, de 1954. Ils étaient eux aussi animés par une même foi et exprimaient eux aussi la Résistance d'un peuple.

Lettre de l'Ecrivain Belge Francis MONHEIM

— Né en 1934 à Anvers

— Président de la Fédération des Etudiants de Belgique en 58 - 59

— Nombreux contacts avec l'U.G.E.M.A. - cofondateur du Comité pour la paix en Algérie qui est, en fait, un réseau d'aide aux étudiants algériens persécutés par la police française.

— Journaliste depuis 1954 : reportages en Afrique centrale, en Amérique latine, au Moyen-Orient, au Vietnam etc. ; plusieurs émissions pour la télévision belge notamment sur la condition des immigrés nord-africains.

— Abondonne le journalisme il y a un an et demi pour se consacrer à des travaux plus approfondis sur l'Algérie.

— Vient d'achever la rédaction d'un livre intitulé « Les Révolutions Algériennes » sous la direction du professeur Arthur Doucy, président de l'Institut de Sociologie de l'Université de Bruxelles.

— Etudes de sciences politiques et diplomatiques à l'Université de Louvain.

Votre nouvelle publication, « Al Açala », mérite la plus large audience non seulement en Algérie même, mais auprès de tous ceux qui veulent mieux connaître l'Islam et la civilisation arabo-islamique.

Or, il faut constater que, dans le monde occidental, votre religion et votre civilisation sont très mal connues. Bien entendu, il ne s'agit pas d'un hasard : il s'agit d'une action voulue et concertée par les autorités coloniales et leurs alliés.

Les unes et les autres ont voulu détruire l'Islam en Algérie ; un des moyens d'y tendre fut évidemment de défigurer votre religion et de nier vos valeurs culturelles. C'est ce que l'occident a fait depuis des siècles et c'est ce qu'il continue de faire.

Dans mon pays, l'enseignement moyen porte un nom qui devrait en inspirer le contenu : « humanités ». En Belgique, on ne fait pas « le secondaire » comme en France, on y fait « les humanités ». Cela signifiait sans doute, dans l'esprit de ceux qui avaient choisi ce nom, que le secondaire devait initier l'élève à l'humanisme ; c'est-à-dire, à une plus grande connaissance et à une meilleure pratique des valeurs humaines et des vertus humanistes.

Or, je constate que pendant mes six années « d'humanités », mes professeurs m'ont toujours donné une image fausse de l'Islam, du monde musulman, de la civilisation arabo-islamique. Que ce soit dans les cours d'histoire, de religion, de littérature ou de morale, la civilisation arabo-islamique a toujours été présentée comme rétrograde, intolérante, décadente. Dans le cas concret de l'Algérie, elle n'aurait même jamais existé...

Cette falsification de l'histoire constitue la règle générale à tous les niveaux de l'enseignement et dans tous les pays de l'Occident. Et dix ans après la fin de la guerre d'Algérie, elle est toujours en vigueur. Si quelques professeurs d'université ont réagi et tentent de rétablir la vérité, il n'en demeure pas moins que des millions de jeunes subissent chaque jour les mensonges de leurs maîtres.

Je crains pour ma part que cette situation se poursuive pendant longtemps encore. Car, en l'occurence, trop d'intérêts sont ligués contre la connaissance — et, surtout, contre l'enseignement — des vérités les plus élémentaires.

Nostalgiques de la domination, tenants du néocolonialisme, partisans du prosélythisme chrétien, racistes de tout bord : ils ont tous intérêt à ne pas modifier l'image que l'Occident s'est faite du monde arabe. Et ce n'est pas demain que ces gens-là vont réécrire l'histoire qu'ils enseignent à leurs fils ; parce que l'Histoire — la vraie — leur donnerait tort !

Pour toutes ces raisons, je crois qu'une revue comme « Al Açala » vient à son heure. Pour l'Algérie — sans aucun doute — dans cette phase de révolution culturelle : mais aussi — je le répète — pour tous ceux qui veulent mieux connaître et mieux comprendre vos valeurs.

Il ne s'agit pas, dans mon esprit, d'établir « un dialogue entre Musulmans et Chrétiens » ; je n'ai pas qualité pour me prononcer sur ce point ; je ne sais pas si les temps sont mûrs ; je ne sais pas non plus si les Chértiens seraient capables actuellement d'assumer ce dialogue, au niveau de leur clergé par exemple.

Il s'agit, pour moi, d'une chose beaucoup plus simple, beaucoup plus réaliste et beaucoup plus immédiate.

Des millions d'hommes ont découvert l'Algérie à travers le combat héroïque de tout un peuple pour son indépendance politique.

Confrontés brusquement avec le courage, l'obstination, l'esprit de sacrifice de ce peuple, ces hommes-là ont compris qu'on n'avait cessé de leur mentir à propos de l'Algérie.

Aucun peuple n'est capable d'assumer les souffrances qui furent imposées à l'Algérie s'il ne peut s'appuyer sur des valeurs solides, profondément ancrées dans les masses et qui déterminent, finalement, son unité et sa faculté de résistance.

Il n'y a pas de miracle dans l'histoire des hommes ; et si l'Algérie est venu à bout d'un colonialisme particulièrement sauvage et raciste, c'est parce qu'elle a trouvé, en elle-même, les ressources et la force dont elle avait besoin.

A nous Occidentaux, cette lutte a démontré qu'on avait tenté de coloniser nos cerveaux et, bien souvent, d'ailleurs, avec plus ou moins de succès..

Aujourd'hui, un certain nombre d'entre nous veulent aller plus loin. Témoins de votre lutte, nous aimerions mieux connaître la force morale qui en fut le ressort, après en avoir discerné les motivations politiques. C'est dans ce sens-là que «Al Açala » peut nous apporter beaucoup et beaucoup nous apprendre.

Une image de l'Algérie authentique, telle qu'elle est et telle qu'elle veut être : voilà ce que nous attendons. Et notre attente est d'autant plus avide que nous fûmes gorgés d'images algériennes, faussées par le racisme, défigurées par la mauvaise foi, secrétées par la soif de domination.

Ce que vous entreprenez, Monsieur le ministre, est une œuvre de justice, de réhabilitation, de vérité. Par conséquent, elle se situe dans la logique de la lutte armée qui vous a permis de redevenir vous-mêmes. Par conséquent aussi, nous nous devons de l'appuyer !

Francis Monheim.



●INTERVIEW DE M. GARDET

Professeur d'Islamologie au College philosophique de Toulouse

— *Question. : Pouvez-vous nous donner une idée sur votre orientalisme ?*

— Réponse. : Personnellement je ne me considère pas comme orientaliste, en ce sens que je suis un philosophe qui s'est trouvé vivre dans des pays d'islam et c'est en tant que philosophe que je ne pouvais pas ne pas m'intéresser à la pensée et à la culture des pays musulmans ; et très vite, je me suis aperçu qu'il y avait de grandes valeurs spirituelles, culturelles que l'Occident à trop longtemps ignorées.

Philosophe Chrétien, j'ai ressenti une grande amitié intellectuelle pour la pensée arabo-musulmane. Je ne suis pas « orientaliste », mais bien plutôt philosophe Chrétien des Cultures.

— *Question. : A quelle époque remonte l'orientalisme du point de vue historique ?*

— Réponse. : A ma connaissance il y a eu des travaux d'orientalisme surtout à partir du 19 ème siècle. Je crois qu'il y a eu des influences liées à la poussée du colonialisme de l'Occident. Je voudrais dire que dans cette atmosphère d'impérialisme culturel, il y a eu tout de même des esprits qui ont commencé à s'ouvrir aux richesses autres que celles de la culture de l'Occident.

Evidemment, il y a eu pendant trop longtemps une façon d'étudier les cultures orientales qui prenait ses points de repère dans un Occident considéré comme supérieur à priori.

Le cas d'Ernest Renan relève bien de ce point de vue.

— *Question. : Vers quoi ont convergé les efforts de l'orientalisme au début ? Certaines écoles orientalistes, comme l'école française qui dépendait du ministère français des Affaires Etrangères et l'école allemande qui dépendait du ministère allemand des Affaires Etrangères également, étaient au service d'objectifs colonialistes et parfois de tendances religieuses définies. Y a-t-il une progression dans la tendance de ces écoles de sorte que celles-ci soient au service de la science, de la vérité ?*

— Réponse. : Il faut reconnaître que d'un point de vue religieux même, on est parti, au début, sur un plan d'apologétique combattive plutôt que sur un plan de sympathie ouverte. Qu'il s'agisse des milieux universitaires, religieux ou administratifs, tout cela était lié à une époque et chaque homme reçoit les imprégnations de son époque — époque où le progrès technique de l'Occident était considéré comme une sorte d'absolu donnant tout pouvoir. C'est ainsi qu'à l'impérialisme politique s'est joint une sorte d'impérialisme culturel qui ne pouvait aboutir qu'à des impasses car une culture authentique est de soi ouverte sur l'autre, en toute justice et donc sympathie intellectuelle.

Heureusement, depuis quelques décennies on peut dire qu'un esprit nouveau se fait jour dans l'orientalisme. Je me permettrais ici de citer les noms de Louis Massignon, Henri Laoust, Roger Arnaldez, Jacques Berque, pour ne nommer que des français, et bien d'autres avec eux. Je pense qu'une ère nouvelle de compréhension peut s'ouvrir, ce que j'appellerais un authentique dialogue des cultures. Loin de n'étudier l'autre que comme un objet de musée ou pour le juger d'en haut, j'espère que nous pourrons tout aller dans un sens de travail en commun, de compréhension et d'enrichissement mutuels. Pour revenir à la perspective religieuse que nous évoquions tout à l'heure, je souhaiterais vivement qu'à une islamologie chrétienne en laquelle le Musulman puisse se reconnaître tel qu'il est et se veut être, réponde une christianologie musulmane où le Chrétien se reconnaisse également.

— *Question. : D'après Jacques Maritain, la Palestine doit rester entre les mains des juifs. Qu'en pensez-vous ?*

— Réponse . : Jacques Maritain est pour moi un grand philosophe Chrétien et un ami. Mais il n'ignore pas que sur cette question de la Palestine, je ne suis absolument pas d'accord avec lui. Selon moi, sa position vient d'une lecture idéaliste de la Bible ; mais j'estime que la promesse que Dieu à faite à son peuple d'une terre était pour un temps et ne signifiait absolument pas une solution politique-temporelle pour notre époque.

Politiquement parlant, le droit des Palestiniens à rester dans leur patrie comme patrie ne peut à aucun titre être dénoncé par des textes bibliques.





الأصالة

مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية





السنة الأولى العدد الثالث جمادى ٢ 1391 هـ أوت 1971 م



تناقضات في حياتنا الفكرية

عثمان شبوب

للكلمة المنطوقة أو المكتوبة فى عالمنا اليوم ، وبفضل انتشار وسائل الاعلام من القوة والتأثير على تفكير الافراد والجماعات ، أو على شعورهم وسلوكهم وارادتهم ما لم يسبق له مثيل • فمنذ وجد الانسان على الارض ، وجدت معه اللغة التى يتخذها وسيلة للتفاهم والتخاطب ونقل المعلومات ، ولقد ذهب أصحاب النظرية اللغوية الى أن البناء اللغوى لاحدى اللغات ، يخلق بناء فكريا وسلوكيا ذا طابع خاص • وان اللغة انما هى «عالم لغوى وسط» يقوم بين الواقع الموضوعى وبين الناس ، أى ان اللغة هى التى تحدد للافراد والجماعات طريقة رؤيتهم للعالم وتجربتهم له ، كما تحدد موقفهم منه ، وأسلوب تعاملهم معه

ولعل هذا القول من الشيوع الى درجة ان اعادته تكاد تكون من البديهيات ، لكن الظاهرة التى تفرض نفسها على الملاحظ هو هذا التطور السريع الذى يطرأ على عدد من التعبيرات ، وهذه المصطلحات الجديدة فى اللغة التى تنشأ عن التطور الدائم التجدد فى الاوضاع الاجتماعية والثقافية بحيث لم يتمكن الانسان ـ بعد ـ أن يحدد مدلول هذه المصطلحات والتعبيرات اللغوية بالدقة المطلوبة •

ولو تأملنا تعبير «الاصالة» الذى دخل قاموس حياتنا الثقافية والسياسية الآن ، لوجدناه واحدا من أهم التعبيرات التى ما تزال تفتقر الى تحدد المعنى ، ووضوح المدلول ، ولعل قيامنا بسد هذه الثغرة ، يمثل خطوة فى تحليل الاشكالات التى يمكن أن يؤدى تعمقها الى القاء مزيد من الضوء على التناقضات التى نعانيها فى حياتنا الفكرية فى مرحلتنا الراهنة •



لا شك أن فترة التحرر من الاستعمار ، قد خلقت واقعا جديدا اقتضى استخدام تعبير يكشف عن نزوع شعب لم يعان فقط من الاستغلال الاجتماعى بأشكاله المختلفة ، وانما عانى مما هو أفضع منه وهو الغبن القومى وهـــدم الشخصيـــة •

لقد كان هناك نوع من التجريد ، تجـريد شعب من ثقافته ولغته ، وإحلال لغة وثقافة دخيلة محل ثقافة أصيلة • ومن هنا كانت غاية الشعوب المستقلة اليوم هى اعادة تنصيب الثقافة اليومية ، واخراجها من الظل لمواجهـة مشـاكل الواقع •

والواقع انه منذ الاستقلال بدأت تتبلـور فى حياتنا الفكرية والثقافية اتجاهات وتثار تساؤلات فى كثير من معطياتنا الوطنية ••• وهذه الظاهرة لم تبرز أثناء عهد الاحتـلال أو أثناء الثورة المسلحة لانه كان من الضرورى تعبئة كل القوى والطاقات الوطنية لمقـــاومـة الاستعمار • ولا يهمنا فى هذه الكلمة السريعة أن نركز على الجانب التاريخى وانما يهمنـا فقط محاولة معرفة مدى توفيق هذه التيارات والاتجاهات فى تصور جذور وآفاق نهضتنـــا الثقافية وأصالتنا الوطنية •

وهنا يمكننا أن نشير الى اتجاهات ثلاثة بازاء هذه المشكلـــة :

1) اتجاه الرفض والانطواء : وقد ركز هذا الاتجاه على مقاومة الفكر الحديث والبحث الحـر المجدد ، والتمسك بالمنهج التقليدى الذى يقتصر على التراث القديم ، ويغلق باب الاجتهاد والنقـــد •



ويعتقد أن الاصالة ، اجراء ضدى أو رد فعل على الحضارات الاخرى ، ومن هنا نجـــده يركز على صفة الاختلاف التى تتسم بها بلاده ، ويغفل صفة التخلف • وقد ساعد على تعميق هذا التصور الساذج ، اتجاه بعض المثقفين الاوربيين الرومانطقيين الى رفع شعار الاصـالة ودعوة المجتمعات النامية الى التمسك بها ، ومقصـودهم فى ذلك كما قال أحد الكتـاب أن «تظل المجتمعات» متحفا للقيم الاثرية يأتى اليه العلماء ، ليجـدوا فيه الماضى متجسـدا فى الحاضر •

وهذا هو الذى دفع بعض علماء الاجتمـاع فى أمريكا الى المطالبة بضرب نطاق حديدى على الهنود الحمر ليحافظوا على نقاوتهم حتى يبقوا نماذج للدراسة والبحث •

وقد وجدت هذه الدعوة فى نفوس هؤلاء ارتياحا لانها تمثل تبريرا لجمودهم ، وتجعل من التخلف فضيلة ، وتشعرهم بأن أسلوب حياتهم مرغوب فيه أى انها تريدهم أن يكـونوا شعبا فولكلوريا يتضمن أشياء سياحية غريبـة وطريفـــة •

2) اتجاه المسخ والتنكر للاصالة الوطنية ويتبناه بعض تلاميذ الفكر الغربى •

وهذه الجماعة ترى أن النهضة الفكرية والثقافية تكمن فى قطع كل صلة بالتراث والماضى وحتى باللغة ذاتها لنختار لانفسنا منطلقا حـرا فى مستوى العصـــر •

وداخل هذا الاتجاه ينبغى أن نميز ثـلاث نزعـــات :

1 ـ نزعة تنطلق من الجهل الكلى بما تمثله الثقـافة الوطنيـــة من تـراث ولغة ، وترتكز على أحكام ذات صبغة تعميمية مسبقـــة •

والنتيجة المنطقية لهذا الموقف أو التصور هو : الدعوة الى الانطـــلاق فى مسيـرتنا الثقافية على أساس الثقافة الاجنبية واعتبار اللغة العربية عاجزة على أن تكون كعامل أساسى فى النهضة الثقافية • ولكن من دون أن يصدروا فى هذا الاتجـــاه عن عدائى مبيت ، وهؤلاء بالامكان تمكينهم من الاطلاع على امكانيات وظروف الثقافة الوطنية واجراء حوار معهم •

2 ـ وهناك الذين كونهم التعليم الاجنبى فمسخهم روحا ومحتوى ولغة ، وهؤلاء هم الـذين يبلون اليوم البلاء الحسن فى خدمة الاستعمـار ومساعدته على تدارك هزيمته فى الابقاء على امبراطوريته السياسية ، بتشييد صرح امبراطورية ثقافيـة •

ويحلو لهؤلاء ، عملاء الاستعمار الثقافى،أن يرموا الاتجاه الوطنى الاصيل بالجمـــود والتعصب ورفض تعلم اللغات الحية ، وينسون أن أصحاب هذا الاتجاه الاخير فى موقف يمكنه أن يميز بوضوح بين ازدواجية اللغة وثنائية الثقافة ، وانه اذا كنا فى حاجة الى لغة بـل الى لغات عالمية متعددة للاتصال بالفكر الانسانى والثقافة الانسانية ، فاننا فى نفس الـوقت فى حاجة الى الاحتفاظ بثقافتنا المتميزة وتنميتها وتطويرها • وليس فى هذا أبدا ما يتنافى مع التفتـح والمشاركـة فى اغنـــاء التراث الانســانى •

3) الاتجاه السلفى المتفتح : وقد انتشر هذا التيار فى العالم العربى الاسلامى بعد الاحتكاك بالحضارة الاوربية والتقدم العلمى والفكرى فىأوربا•وكان رجال مثال جمال الدين الافغانى ،



ومحمد عبده والكواكبي وعبد الحميد بن باديس قد ادركوا خطر الانغلاق والعزلة والجمود التي عنيها العالم العربي والاسلامي فحملوا لواء التفتح واستنكار الجمود والتعصب ، والدعوة الى الاتصال بالحضارة والثقافات الانسانية الاخرى في حدود اسلامية متسامحة .

هذا الاتجاه يحاول اليوم أن يربط بين مضينا ومستقبلنا ، بين منابع تراثنا ومصادر تقدمنا في التطورات الفكرية العالمية المعاصرة .

غير انه في داخل هذا الاتجاه نلاحظ نوعا من التردد والبلبلة لدى البعض من ممثليه وذلك لسببين :

أولا : عدم وضوح فكرة التراث نفسها في أذهان الكثيرين من القائلين به ، بمعنى عدم القدرة على صياغتها صياغة علمية تضعها أمام الباحثين والمفكرين وعامة الناس وضعا صحيحا ، واقتصارهم على الترديد اللفظي لها .

ثانيا : ان الربط بين التراث والمعاصرة يبدو في كثير من الاحيان ربطا آليا ، لا ينظر بعين الاعتبار لفكرة التفاعل ومنهج الجدل ، ويوشك أن يكون مجرد اضافة حسابية . ويكمن خلف هذين السببين مفهوم مبتسر ، قاصر،عن الشخصية الوطنية،والاتجاه الى اقتطاع جزء من تاريخها فحسب هو مثلا عروبتها واسلامها فقط ، أو بربريتها فقط .

* * *

وهناك نزعة اخرى ، ولكنها من نسيج آخر ، تدخل – في رأيي – في نطاق الثورة العالمية للشباب ، فهذه تناقش كل القيم والتقاليد ، وتضع نقطة استفهام أمام كل وضع ، وهذا اتجاه طبيعي ومشروع ، ولكن ادعاء بعضهم ان التشبث بالعربية وبالتراث والاصالة ما هو الا اهتمامات شكلية سطحية أمام جوهر المشكلة الانسانية التي تتمثل في الامبريالية والصراع الاجتماعي والثورة التكنولوجية . فهذا فيما ارى نظرة جزئية للمشاكل بينما الجدية الثورة المتماسكة شمولية بطبيعتها فلا يمكن اقامة ثورة صناعية وزراعية بدون ثورة ثقافية تعززها وتدفعها الى الامام .

هذه باختصار فكرة عن التيارات والاتجاهات التي تتوزع حياتنا الفكرية ، واعتقد ان الحوار بين هذه التيارات الموضوعية منها بصفة خاصة ، سيقربنا من الصيغة المشتركة المعبرة عن حقيقة واقعنا وتطلعاتنا ، لاني أرى ان هذا الحوار لم يبدأ بعد ، فكل تيار يعيش منعزلا عن الآخر ويعوض عن أسلوب الحوار بأسلوب التخريب المنفعل او المكر الخفي .

وبهذا الاسلوب ، أسلوب الحوار الصادق ، سنحقق في حياتنا الفكرية ما يسمى بالوحدة في ظل التنوع ، ونقيم حياة ثقافية اصيلة متفتحة تجابه في مركز قوة كل أشكال الاستعمار الثقافي والفكري الذي هو دعامة الاستعمار السياسي والاقتصادي ، كما تعكس حياتنا الوطنية في مختلف الميادين وهي حين تسعى للتعبير عن كل ذلك تسلك طريق الابتكار والابداع ، وتنبذ كل جمود وتعصب ضيق وهذا هو معنى اصالتنا .

وساعود الى هذا الموضوع في العدد المقبل .

القانون خير حارس لمبادئنا

نظام الشريعة الإسلامية نظام اشتراكي وله صفة

ننشر فيما يلى نص خطاب الاخ هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة والحكومة الذى القاه بمناسبة تنصيب اللجنة الاستشارية المكلفة بمناقشة مشاريع القوانين الاساسية ، يوم 1971/3/12 .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ،

حضرات السادة :

تَسْتَهِلُّونَ الْيَوْمَ الْعَمَلَ فِي هَٰذِهِ اللَّجْنَة الاستشارية التي عُهِدَ إِلَيْهَا بالنَّظَر فِي التَّشْرِيعاتِ القَائِمَةِ في بلادنا وما تَتَطَلَّبُهُ من إِصْلَاحٍ وتَعْدِيلٍ لتكُون مُلَائمةً لمَا نَطمَحُ إِلَيه من تَقَدُّمٍ... ولتعزيزِ مَكَاسِبِ ثَوْرَتنا بما يَصُونُهَا وَيَكْفُلُ لَهَا الْحَصَانَةَ وَالنُّموَّ والدَّوَامَ .

إِنَّ التَّشْرِيعاتِ الَّتِي فَرَضَهَا النِّظَامُ الاستعماريُّ عَلَى بلادنا فرضاً مُدَّةَ قَرْنٍ وَرُبْعٍ وَالتِي سَلَبَنَا بها مُكْتَسَبَاتِنا الرُّوحيَّةَ وَالْمَادِّيةَ وَحاوَلَ بها طَمْسَ مَعَالِمِ مَاضِينا وَمَحْوَ عَنَاصِرِ شَخْصِيَّتِنَا قَدْ بَقِيَ مُعْظَمُهَا جَارِياً به العَمَلُ بِمُقْتَضَى قَانُون 31 ديسمبر 1962 وهيَ الْغَرِيبَةُ عَنْ دِيارِنا وَالتي وُضِعَتْ لِاسْتِغْلَالِنَا وَإِنكارِ وُجُودِنا وَذَاتِيَتِنا. **يَجِبُ أَنْ نتخلَّصَ نهائياً من القوانين الدَّخِيلةِ علينا .**

وَالآنَ وَقدِ انفكَّتِ الأَغْلَالُ ومَلَكْنَا زِمامَ أَمْرِنا لتَسْيِيرِ شُؤُوننا بأَنفُسنا فعلَيْنا أن نتخلَّصَ نهائياً مِنَ الْقَوَانِينِ الدَّخِيلَةِ عَلَيْنَا وَمِنَ التَّرِكَةِ التَّشْرِيعيَّة الَّتِي كَانتْ فى خِدمَةِ الإحْتلَالِ الْعَسْكرِيِّ وَ الإسْتغْلَالِ الإِقْتِصَادِي .

أيها الاخوة

تُطْرحُ عَلَى الثَّوْرَة فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ

لاشتراكية

خلود لما فيه من سعة ودقة





مِن مَرَاحِل سَيْرِهَا مهامٌ معيّنة تتطلّبُ ٱلتَّحقيقَ وَالْإِنجازَ وانّ طَبيعَةَ هٰذِهِ ٱلْمَهَام هيَ ٱلتى تَفْرِضُ وَتُحَدِّدُ ٱلْأَسْبَقيَّةَ فِي إِيجاد ٱلْحُلُولِ حَسْبَ دَرَجَة ٱلْأَهَمِّيةِ وَالإِسْتعْجَال • وَقَد تَحَتَّمَ عَلى ٱلثَّوْرَةِ مُنذُ سَنَوَاتٍ أَنْ تُجَابِهَ مشَاكِلَ مُلِحَّةً لمْ تكُنْ تَقبَلُ ٱلتَّأْجيلَ أَو تَتَحَمَّلُ الِانتظَار لِمَا لَهَا منْ أَثَرٍ مُباشِرٍ عَلىٰ مُسْتَقبَل ٱلثَّوْرَةِ نَفسِهَا • وهَكَذَا عَمِلَتِ ٱلسُّلطَةُ ٱلثَّوْرِيَّةُ عَلىٰ تَصْفيَةِ ٱلْمَظَاهِر الصَّارِخَةِ فيمَا خَلَّفَهُ الإِسْتِعمَارُ منَ ٱلتَّشْريعَاتِ ٱلتِي كَانَتْ تَمَسُّ بِمَبْدإِ أَسْتقْلالنَا وَسيَادَتنَا وَعَمِدَتْ بِجِدٍّ وحَزْمٍ إِلىٰ قَطْعِ دَابِرِ ٱلتَّبَعِيَّةِ ٱلتِي تَعَمَّقَتْ جُذُورُهَا وَاتَّسعَ نِطَاقُهَا وإِنَّ عملَ ٱلْيَوْم لِيْسَ إِلاَّ حَلقةً في سِلْسِلَةِ ٱلتَّدَابِيرِ ٱلْمتخَذَة والَّتِي يَنْبَغِي أَن تَسْتَمِرَّ حَتّى نِهَايَةِ شَوْطِهَا وَتَحْقِيق أَهْدَافِهَا •

السُّلْطَةُ الثَّوْرِيَّةُ أنْصَرفَتْ لِبنَاءِ أَجْهِزَةٍ ثَابتَةٍ تُوَفِّرُ الْأَمْنَ وَالطُّمَأْنِينَةَ للْوَطَنِ وَالمُوَاطِنِ •

وَفِى هٰذا السِّيَاقِ أَيضاً أنْصَرفَتِ ٱلسُّلْطَةُ الثَّوْرِيَّةُ لبنَاءِ أَجْهِزَةٍ ثَابِتَةٍ تَمَّ بِهاَ تَوْفِيرُ الأَمْنِ وَالطُّمَأْنِينَةِ لِلوَطَنِ وَالْمُوَاطِنِ وَأَلغَتْ بعْضَ التَّشْريعَاتِ وَأَنشأَتْ أُخْرى أَكْثَرَ مُلَاءَمَةً مَع وَاقعِ بِلَادنَا وَاخْتيَارَاتنَا الْأَسَاسيَّةَ وَرَاجعَتِ النِّظَامَ البَلَدِيَّ الْمَوْروثَ عَنِ ٱلعَهْد الإِسْتعمَارِي وَأَقَامتْ محلَّهُ نظَاماً شَعبيّاً يتَلَاءَمُ وثوْرَتَنا وَيعْمَلُ عَلىٰ تَحقِيق أَهدافهَا وعزَّزَتْهُ بنظَامٍ أَشمَلَ منْهُ وَأَوْسَعَ هِيَ الْمجَالسُ الشَّعبيَّةُ لِلولَايَاتِ •



كمَا أَسَّستْ نظَامَ اُلتَّسيير الذَّاتى ومكَّنته منْ أدَاء الدَّوْر اُلمُنَاط بـه فِى إطـار تنمية اُلبـلاَدِ وتحْقِيـقِ اُسْتِقلاَلِهَا الإقْتصَادى وَإقـامَـةِ مُجتَمَعها الاشْتِراكى الْمُزْدَهِـر ٠ وَسَتُنشىءُ قَريباً مجَالسَ العُمـَّال التى يُشاركُونَ بفَضْلها فـى تَسْيير المُؤَسَّسات التى يعْمَلُون فيهـا إرضاءً لرُوحِ الدِّيمُقرَاطِيةِ وَ ضَمَاناً لمَصْلَحَة الثَّوْرَةِ٠٠ وَضَبَطَتْ قانُونَ الـوَظيف العُمُـومى ٠ ٠ وَوَضَعَتِ الْقَضَاءَ الْعَسْكرى وَأسَّستْ نظَامًا قَضَائياً يُقَرِّبُ القَضاءَ من الْمُوَاطِنِين وَيُبَسِّطُه وبهٰذا كلّه أصْبَحَ جهَازُنـا القَانُونى يَتمَرْكزُ وَيسيرُ نَحْـوَ الإستِقْـرَار ٠

عَلى أنَّه قَد بَقِيَتْ جوَانبُ كثِـيرَةٌ تتطلَّبُ أن يُنْظَرَ فى أمْرهَا وتَـدْعُو الى المُـرَاجَعَة وَقد حَـانَ الـوَقْتُ لِتَطْويرِهَا بماَ يتَّفـقُ وَمُتطلَّبَـات مجْتَمَعناَ الاشْتِرَاكِى الذى يَتماشَى مـعَ شَخْصيتِنـا وَ أصَـالَةِ شَعْبِنَا وَتجَاربهِ ٠

عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ قَانُونَ كُلِّ أُمَّـةٍ قِطْعَةٌ مِنْ مَاضِيهَا الطَّوِيلِ وَحَاضِرِهَا الْمَـاثِل ٠

فَالجَزَائرُ اليَوْمَ وهىَ مُنطَلِقةٌ فى ثَورَتهَا الثَّقَافيةِ الشَّامِلَة تَعلَـمُ أنَّ قانُونَ كلِّ أمَّة قطْعةٌ منْ مَاضيهـا الطَّويلِ وَحَاضـرهَا المَاثل يُمثِّـلُ نشْـأتهـاَ وَتَطـوُّرَهَا وأخـلاقَهـا وَتَقَاليدَهَا ودينَهَا ومُعتَقَدَاتِهَا وتعْلَمُ أنَّ قـوَانيننَا الحَـاليةَ غريبـةٌ عنَّا تَتعَارضُ معَ أَحسَنِ ما فى تشْريعنَا الاسْلاَمى التَّقليدِى وتنقُضُ مُقدَّمـاً مَا نودُّ أن نَسُنَّه منْ قوَانينَ حَديثَـةٍ تَنْسجمُ وأهدَافَنا الثَّوْريةَ ٠

فيجبُ اذنْ اعادةُ النَّظَرِ فيهـا جِذْرِيًّا لِتُرَدَّ الى الْمَصَادِرِ التَّشْريعِيَّة الاسْلاَمِيَّة وَلتسْتَطيعَ تَلْبِيَةَ حَاجياتِ وَأهْدَافِ ثَورتنَا الاشتِرَاكِية ٠

وانَّ مَا فى خَصَائص التَّشْـرِيع الاسْلاَمى مِن سَعَةٍ ودقَّةٍ فى بنـاءِ الأَحْكَام وَمَكانَةِ الْعُرْفِ فِيهِ وَحِرصِهِ عَلى التَّوَازُنِ فى اُلحُقُوق بَيْنَ اُلْفَـرْدِ والجَمَاعَةِ مِثلُ مَنْـع التَّعَسُّـفِ فى اُسْتِعْمَال الْحَقِّ الخَاصِّ وَمَنْع الاحْتكَار فى التجَارَة ومَوْضوعِيَّةِ أحْـكَامِـهِ

أصالتنا هي الجوهر الدائم

وَتجرُّدِها عَن كُلِّ عَصَبيَّة أوْ عاطفـة خاصَّة سِوى فكْرَة العَـدْل والْحَـقّ المُطلَق ومُرُونَةِ أُصُولِه ومصادِرِه.

أقُـولُ إنَّ هـٰذا كلَّهُ قَـدْ أكسَبَ الشَّريعَة الاسْلاميَّةَ صفَةَ الْخُلُـودِ وقَابليَّة الاسْتجَابَة لتَغْطيَّة جَميـع الْحاجَات التَّشْريعيَّةِ تَبعاً لمَصْلَحَـة الْأُمَّةِ في مُخْتَلَف مراحِل نُمُوِّهاَ عَـلى مَرِّ الزَّمَن وعَلى أسَاس الْمُحَافَظة عَلى أصَالَتها وَرُوحها في تَطوُّرها وَتطوُّر الْحَضَارَة الانْسَانيَّة الشَّاملَة.

فقَدْ وضَع مشرِّعُو السَّلَف نُظُماً حكيمَةً مِن التَّشْـريع تَحُـولُ دُون تَضخُّمِ الثَّرَوَات في أيْدي أقَلِّيَّـةٍ وتُقيمُ العَلاَقَاتِ الاقتِصاديَّة بَـيْن النَّاس عَلى دَعَائمَ مَتينَةٍ مِن التَّكَافُل والتَّعاوُن وَالعَدْل وتكَفُل لكُلِّ فَـرْد حياةً انسانيَّةً كريمَةً وَتحْفَظ لَـه حُقُوقَه ومُقَومَاته.

النِّظَامُ الْإِسْلَامِي نِظَامٌ اشْتِرَاكِيٌّ حَقٌّ

وَاذَا كنَّا لاَ بُدَّ من وصْف هَـذَا التَّشريع بصِفَة منَ الصِّفَات المُتداوَل اسْتعمَالها عَلى ألسنَة المُحدِّثـينَ مِن عُلمَاء الاقتصَاد فإنَّنا نَصِفهُ بأنَّـه نظامٌ اشْتراكِيٌّ حقٌّ.. فَقدْ أخـرَجَ فقهَاؤنا منْ نطَاق الملكيَّة الفرْديَّـة الأشياءَ التى تَكُونُ ضَرُورَةً لِجَميـع النَّاسِ فَأَوْجَبوا أَن تكونَ مِلكيَّتُهَـا مِلكيةً جَمَاعيةً حتَّى لا يَسْتَبِدَّ بهَـا فرْدٌ أوْ أفرَادٌ والضَّروريَاتُ في حَيَاة الجمَاعَة تَختَلفُ باخْتلَاف البَيْئـاتِ وَالعُصُـور.

وَذلكَ أنَّه إلى جَانب الْمَصَـادِر الأرْبعَة الْكبْرى للتَّشْريعِ الإِسْلامى هُناكَ مَصَادرُ أُخرَى أهمُّها الِاجْتهَادُ الذِي يُسَايرُ تَغيُّرَ الظرُوف ويُرَاعِى في الدَّرَجَة الأُولى مَصْلَحَةَ العِبَاد وَمَصْلحَةَ الأُمَّة.

وَلقَدْ كَان الاجْتهَادُ بمَثَابَة الرُّوح للشَّريعَة الإِسْلاميَّةِ وَمَنبَع الْحَيَـاة لِفقْهِهاَ وَلا يُعقَـلُ أبَـداً أن تُـؤَدِّيَ الشَّريعَة وَظيفَتَهاَ وأنْ يَكونَ لهَـا فقْهٌ حيٌّ يُنَظِّمُ مَصَـالحَ الْأُمَّـة دون الاجْتهَـاد.

لذَلك وُجدَ الاجْتهَادُ منْذ وُلِـدَتِ الشَّريعَةُ في عَهْد الرَّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِ اجْتَهَدَ الرَّسُول نفسُهُ

عَلَيْهِ السَّلَامُ فى حَوَادثَ عَديدةٍ واجتَهَد أصْحَابُه فى حَيَاتهِ بتَوْجيهٍ منه .

ومِن هُنَا فانَّ توقُّفَ الاجتهادِ مَعناه جُمُودُ الفِقهِ الإسْلَامى وَعُقمُه فى تَقدِيم الحُلول الشَّرْعِية للحَوَادث والمُشْكلاتِ المُسْتَجدَّة وبالتالى عجْزُهُ عَن مُسَايَرَة التَّطَوُّر .. وقد جَاءَ الاسْلَام صَالحاً لكُلِّ زمَان ومَكان .

أيها الاخوة :

إنَّكمْ لتُدْركُون كُلَّ الادْرَاك أَن القَانُونَ لاَ يَكونُ عَادلاً إلاَّ إذا كَان مُعبِّراً عنْ أهْدَاف الجَمَاهِير وَأنَّه لاَ يُحقِّقُ الغَايَة المِثاليَّة منْهُ إلاَّ اذَا كَانَ فِى خِدْمَتها ضَامناً لمبْدَإ اشْتِرَاكِ الشَّعْب فِى تَسْيِير شُؤونِهِ وَتَحْقيق ثَوْرَتِهِ .

وَبذلِك تَتعَزَّزُ المَبَادىءُ الأَسَاسيَّةُ لثَوْرَتنَا الاشتِرَاكِية كَالرُّجُوعِ إلى القَاعِدَة .. وَالتَّسْيِير الجَمَاعِى وَتوْزِيعِ المسْؤُوليَّة وَسَدِّ الطُّرُق عَلى الفَرْدِيَّة وَدَعْمِ الدِّيمُقْرَاطيَّةِ الحقَّة المُتَأصِّلَة فى رُوح شَعْبنَا مُنْذ القِدَم وَالتى هىَ شعَارُ دَوْلَتنَا الاشترَاكِية الحَدِيثَة القَائمَةِ عَليْه والعَاملَة عَلى تَجْسِيمه .

وَإنَّ خَيرَ حَارِسٍ لِهَذِه المَبَادِىءِ التِى يَنْبَغى أَن نَعتَنىَ بِهَا هُو القَانُونُ وأفضَلُه مَا ينَاسبُ ظُروفَ بَلَدنَا وَعَقليَّةَ شَعْبنَا وَإذا كَانَتِ التَّشْريعَاتُ غَيرَ مُلَائمَة معَ الرُّوح الشَّعْبية تَعَطَّلتْ وَلمْ تُحَقِّق الغَايَة المَنْشُودَةَ منهَا .

وإِنَّ منْ أَهَمِّ مَظَاهِرِ عَصْرنَا التَّطَوُّرَ السَّرِيعَ وتَعَاقُبَ الحَرَكَات التِى تَترَتَّبُ عَليْه فَالتَّطوُّرَاتُ التى كَانتْ تَسْتَغرِقُ حقْبَةً منَ الزَّمَن فى أَوَائِل القَرْن نَرَاهَا فى الوَقْت الحَاضر تَتعَاقَبُ أَدْوَارُهَا وَتَتِمُّ بسُرْعَة مُضَاعَفَة فَلا نَكادُ نَألَفُ حَالَةً حتَّى تَتْبَعُها حَالةٌ أخرَى تَخْتَلفُ عنْهَا تمَامَ الاخْتِلَاف .

وَإنَّ كَثيراً مِن التَّشْرِيعَاتِ المُصادَق عليْها بعْدَ الإِسْتِقْلَال وَالتى كَانَتْ تَتَّسِمُ بنَزْعَة إِصْلاحِيةٍ وَاضحَةٍ قَدْ كَلَّ العَمَل بهَا علَى أنَّ بَعضَ النُّصُوص منْهَا قَدْ تجَاوَزتْهَا الأَحدَاثُ وهِى فى حَاجَةٍ أَكيدَةٍ الى المُرَاجَعَة والتَّعْديل .

القَوانِينُ المَوْرُوثَةُ عَن الإسْتِعْمَارِ يَجِبُ أَنْ نَضعَ لَهَا حَدّاً ..

فَهُنَاك مَفاهيمُ قَانُونيَّةٌ كَثيرَةٌ وَرِثْنَاهَا عَن المُسْتَعْمِر يجبُ أن نَضعَ لهَا حدّاً لأَنَّهَا صَالحَةٌ لمجتَمَع لِيبيرَالِى لاَ لمُجْتَمَع اشْترَاكِى منْهَا عَلى سَبيل المثَالِ مفهُومُ الحُرِّيَات العَامَّة الذِى

كَثيرًا مَا يُغطيِّ الاسْتقْلاَلَ الاقتصَاديَّ لفائِدَةِ البَعْضِ عَلى حسَاب الآخَر وفكرةُ الفَصْل بيْنَ القطَاع العَامّ للدَّوْلة والقطَاع الخَاصّ لهَا رَغمَ أنهمَا يكوِّنان قطاعاً واحداً مِلكيتُهُ تابِعَةٌ للدَّوْلة بصفَتهَا مُمثِّلةً لمصَالِح الجَماهِير الكَادحَة وَقوَاعدِ تَسْيِيرهِ تَخْتَلفُ باخْتلاَف المُؤَسَّسَات التِي وُكِّل اليْهَا .

هَذا لاَ يَعْني إطلاقاً أنَّنَا نَغلقُ عليْكُم بَابَ المقَارَنَة بيْنَ التَّشْريعَاتِ بَلْ نَحُثُّكُمْ عليْهَا بِشَرْط أَن تَأخُذوا بعَيْن الاعْتبَارِ خَصَائصَ مُجْتَمِعنَا وَمَبَادىءَ ثَورَتنَا الاشتِرَاكيَّة . .

فَإذَا كَانَتْ بَعْضُ التَّشْريعَاتِ الغَرْبيَّة قَدْ أَدّتْ الَى انحلاَل الأُسْرَة فإنَّهُ بالعَكْس يَجبُ عَلى قوَانِيننَا أَن تُحَافظَ عَلَى الأسْرَة وعَلَى تَمتِّن رَوَابطهَا كَخَليَّةٍ أَسَاسيَّةٍ للمُجْتمَع وَأوَدُّ أن أوردَ مَثلاً آخَرَ في هذا السِّيَاق وهُو أنَّ إشرَاكَ العُمَّال في تَسْيير المُؤسَّسَات قَدْ غيَّر تمامًا من العَلاَقات الاجْتمَاعيَّة وَمِنْ هَيْكَل المؤسَّسَات وَالقَوَاعِد التي تَسيرُ عليْهَا ممَّا سَيُحدثُ بلاَ شَكٍّ تَغييرًا جذْريًّا فِي قَانون العَمَل .

وَالمُقَارَنَة هُنَا مَعَ التَّشْرِيع فِي الدُّوَل الاشترَاكِية أَوْلى طَبْعًا مِن المُقَارنَة مَعَ تَشْرِيع الدُّوَل الرَّأْسمَاليَّة .

نُريدُ تَشْريعَاتٍ مُتَجَدِّدَةً مَعَ الزَّمَنِ مُسَايرَةً للتَّطوُّر.

اخواني

لَقَدْ أَلْقِيَتْ عَلى كَوَاهِلكُمْ تَبعَةٌ ضَخْمَةٌ أَلاَ وَهي التَّشريعُ الثَّوْريُّ أو الإطَارُ القَانُوني الجَديدُ الذي يَتلاَءَمُ وثوْرَتَنَا الشَّامِلَة بأَعْمِدَتهَا الثَّلاَثَة : « الصِّنَاعي » وَ « الزِّرَاعي » وَ « الثَّقَافي » فَعَلَيْكُمْ إذَنْ أن تَأخُذوا هَذا كُلَّهُ بالاعْتِبَار وَتَتَّخذُوا التَّدَابِيرَ الفَعَّالَة لكيْ يُصْبحَ التَّشْريعُ فِي بلاَدنَا مُلاَئماً لمُتَطلَّبَات مُجْتَمعنَا الجَديد . فَأَرْجُو مِن لَجْنَتكُمْ أَن تُوَاجهَ هَذه المُهِمَّةَ الدَّقيقَةَ بِاجْتهَادٍ وإخْلاَص وَتقُومَ بهَا أحْسَنَ قيَامٍ بفَضْل الكَفَاءَات التي تَلاَقَتْ فِي رِحَابهَا .

وَمهْمَا تَبْذلُوا مِن جُهُودٍ فِي النُّهُوض بِالمُهِمَّةِ المُنَاطَة بكُمْ فإنَّه لَنْ يقفَ بكُمُ الجُهْدُ عنْدَ حَدٍّ . . فأمَامَكُمْ أعبَاءٌ مُتَّصلَةٌ فعَليْكُمْ أَن تَسْهَرُوا وَتَكُونُوا دَقيقِي الوَعْيِ بِثِقَلِ المَسْؤُولِيةِ وَتَعَدُّد أعْبَائهَا . . حَتىَّ تَظلَّ تَشْريعَاتُنَا متجَدِّدَةً مَعَ الزَّمَن مُسَايرَةً للتَّطَور نَاميةً معَ الحَضَارَة عَلى أَسَاس أَصَالَتنَا التِي هِيَ الجَوْهَرُ الدَّائِمُ . سَدَّدَ اللهُ خُطَاكُم،والسَّلاَمُ عَلَيْكُمْ .

دراسات

ثقافية و أدبيَّة



طريق الذهب
وطريق الثقافة

* الثقافة الحقة وعى قوى لما نعلم ، وهد فواضح لتطبيق ما نعلم ، وايمان بالشعوب التى نعمل من أجلها ٠

* اذا أردنا أن ندخل فى عهد الثورة الثقافية فلنعلم أن لكل ثورة روحانيتها التى هى الايمان بالعقيدة والايمان بالشعوب ٠

* ان مشاربنا الشعبية فى افريقيا تجعلنا نتجه الى كل حركة فكرية تدعو الى المساواة والاخوة والبساطة ٠

عبد المجيد مزيان

قد تتكون ثورات ثقافية من منظومة فكريةمبسطة اذا وجد لها مناضلون يحملونها بحرارة ويبثونها بايمان وتضحية • وتاريخنا مملوء بالامثلة الحية لهذه الظاهرة • وليس مقصودنا فى هذه اللمحة الخاطفة من تاريخنا الاجتماعىأن نفرض نظريات الماضى على الحاضر لان عالمنا الثقافى أصبح ذا تشعبات وتعقيدات تستدعى مجهودات جبارة للتحليل من أجل التطوير • وليس مقصودنا أن نبين أيضا أن المجتمع يمكنه أن يفصل بمحض ارادته ، حياته الثقافية عن حياته الاقتصادية والسياسية والاجتماعية • ولكن أطوارا من الحياة تأتى على بعض المجتمعات تتجند فيها اغلبية الطاقات للثقافة ، وأطوارا أخرى تأتى لبناء اقتصاد قد ينجح مدخرا أو قد ينهار بالاستهلاك التبذيرى

من هنا نريد أن نشرح طريق الذهب وطريق الثقافة • طرق الذهب كثيرة فى عالمنا القديم ، وليس من الاسراف أن ندعى أن جل الامارات الاسلامية بنيت على طرق التجارة • فمنذ «رحلة الشتاء والصيف» الى رحلة الاندلس والسودان ، تكونت البنيات الحضارية بطرق تكاد تكون متماثلة فى هذا الجزء من العالم • وقد تناول المؤرخون الجدد بالبحث هذه الظاهرة وأكدوا أن قيام الامارات الاسلامية على أساس تجارى وطرق تجارية هو الذى أدى الى انهيارها بسرعة بمجرد ما اتجه العالم المستهلك الذى هو العالم الغربى الى طرق أخرى : طريق البحر البعيد للاتصال مباشرة بآسيا وطريق أمريكا الذى حول الاتجاهات التجارية •

وانه لتحليل يستحق كل العناية لانه تحليل موضوعى فى أغلب مظاهره لولا توغل كثير من التزييفات فى صلب التحليلات التى قدمت الينا عن الظاهرة نفسها •

آخذ مثلا من تاريخنا : امارة بنى زيان تأسست سياسيا قبل انشاء طريق الذهب الى السودان ، ثم «عبد» طريق الذهب والعبيد بعد الاستقرار وصار الخط كما يلى : تلمسان كسوق وسطى لها اتجاهان : القوافل الى توات ثم الى «السوادين» والسفن من مرسى حنين الى غرناطة وامارات شمال البحر المتوسط • ان الاستقرار السياسى هنا هو الذى خلق الازدهار الاقتصادى وهو الذى «عبد» الطرق ، وجلب الاموال من الشمال والجنوب ولكن ماذا وقع لكل هذه الاموال المجلوبة ؟

لماذا لم توطب فى بناء اقتصادى جديد ؟ لماذا لم تؤدى الى خلق منافسة تجارية فى البحر وفى نفس الطرق البعيدة التى اختارها الاوروبيون ؟

هنا أيضا يمكننا أن نجيب بأن عدم الاستقرار السياسى هو الذى عجل بالانهيار الاقتصادى والانهيار الكامل فى الاخير • وكلما حاولنا أن نبسط تحليلاتنا لنردها الى السبب الاقتصادى الرئيسى فى حياة الامارات المغربية الا وعثرنا على أسباب سياسية لا تقل عنها أهمية «وجذرية» • وليس معنى هذا أننا نعطى الاسبقية للاسباب السياسية مبالغين ، ولكن التداخل بين الاسباب يستدعى كثيرا من التدقيق •

هذا اعتراض أول على تخليص التفسيرات الخاصة بانحطاطنا فى تحويل طرق الذهب والتجارة •

أما الاعتراض الثانى فسأضعه جوابا عن سؤال يستدعى كل الاهتمام • هل كان طريق الذهب والتجارة هو الطريق الوحيد للاتصال بين شمال الصحراء وجنوبها ؟ اذا أردنا الجواب على هذا السؤال فلا بد من دراسة البناء المجتمعى لامارات القرون الوسطى • وسيلوح لنا من أول وهلة أن

الامصار التى كانت تعد قاعدة لملك هذه الامارات تعيش على نظام اقطاعى من نوع خاص • وهـذا موضوع يتطلب كثيرا من البحث ، وسنعود اليه ، **أما الاوصاف البارزة لهذه الاقطاعية فمرجعها الى تاسيس طبقات فى داخل المدينة وفى أنحاء الامارة كلها • والمشروعية أو اللا مشروعية السياسية كانت ترجع آنذاك الى مواقف الطبقات • فكلما أسرف الامراء وحاشيتهم فى الترف غضبت عنهم الشعوب وهيئت لهم الهجومات•وكان التجار حلفاء للارستقراطية احيانا وعرضة لنهب الاموال من طرف هذه الارستقراطية أحيانا أخرى•وغالبا ما كانت تاتى أطوار الانحطاط الاقتصادى من مثل هذه الصراعات**،اذ ان التاجر الذى كان يخشى على مدخره من نهب الامراء،كان يفضل استهلاك أمواله حالا فى تبذيرات مهلكة ، وكان الامراء ابان الانحطاط لايعرفون أى نوع من الاستهلاك باستثناء المسالك التبذيرية من أكل مفرط وشراء الجوارى وبناء القصور فلا تستطيع مقاومة أو منافسة المجتمعات الغربية واكرام المغنين • وهكذا كانت تتفتت مجتمعاتنا من الداخل ، فلا تستطيع مقاومة أو منافسة المجتمعات الغربية الصاعدة •

واذا كانت مجتمعاتنا فى القرن الرابع عشر والخامس عشر توصف بهذه الطبقية التى تجعل ارستقراطية البلاد فى القمة فان التبلور المجتمعى لم يكن ثابتا عبر الازمنة • وسواء كانت هناك دورية ، **كما يثبت ذلك ابن خلدون أو حركية** خطية ، **فاننا نلاحظ الى جانب مظاهر الانحطاط قوة ابداع وبطولات عند الطبقات السفلى من صغار الصناع والفلاحين وطلبة ذلك العهد •**

نحن نعلم أن طريق الذهب الذى عبد فى قرون قد أكلته صحراء التبذير والملذات والانحطاط فى سنين وذهب أدراج الرياح بين الجوارى والقصور والخمور فى غرناطة وتلمسان وفاس • هكذا دمرت هذه القرى الفاجرة لان «مترفيها بسقوا فيها» •

ونفد الذهب وتنوسيت مسالك الذهب ولكن الطبقات الشعبية الفقيرة من صغار التجار وقادة القوافل ، والصناع والطلبة استمرت متصلة بافريقيا لاقتناء الذهب والعبيد ولكن لتبادل المعاش البسيط ، وللاتصال الفكرى والحضارى المستمر ولا زالت هذه التبادلات تجرى حتى الآن لم يحدد من شأنها لا انقراض الممالك ولا الاستعمار •

وفى اطار هذا التبادل نريد أن نقف فترة قصيرة لنكون صورة عن التبادل الثقافى بين افريقيا والجزائر فى عصور الانحطاط ، ونستخرج وصفا مختصرا لحملة هذا التبادل ، ولا يهمنا اذا كانت العملية مصطنعة بعض الشىء ، اذ المقصود أن نلتفت الى أبطال مجهولين،لابد من اعطائهم حقهم فى التاريخ ، ثم علينا أن ندقق الواقع بعد ذلك •

يقال ان الاسلام لم يعرف حركة تبشيرية منظمة ، ويقارن المؤرخون بين المسيحية والاسلام

فى هذه الظاهرة فيدعون أن الاسلام كان دين جهاد بالسيف والمسيحية دين تبشير بالتى هى أحسن • ولا ارى تكذيبا لهذا الادعاء مثل انتشار الاسلام فى أفريقيا ، وانتشار المسيحية فى امريكا • لقد قتلت شعوب امريكا تقتيلا لانها رفضت المسيحية ، ودخلت شعوب أفريقيا فى الاسلام بالدعوة والاتصالات الروحية • وان مشاربنا الشعبية فى افريقيا لتجعلنا نتجه تلقائيا الى كل حركة فكرية تدعوا الى المساواة والاخوة والبساطة الانسانية التى ترفض الماديات المزيفة ولا ننسى أن الاسلام كان ولا يزال مبدئيا دين الشعوب الامية ، أى دين الشعوب الفقيرة التى رفضت منذ العهود البعيدة امبرياليات فارس وروما ومصر الفرعونية بصفتها تجسيما للحضارة الكاذبة المبنية على الجبروت واستعباد الشعوب • وظهور مماليك من النوع الفارسى والرومى تنتسب الى الاسلام انما هو انتساب كذب على الاسلام لمخادعة الشعوب •

من أجل هذا كانت الدعوة الى الاسلام بين شعوب أفريقيا ظاهرة متبوعة بالنجاح • والدعوة هنا ليست بالعملية المخطط لها من الجامعات والمجامع ، ولا من البلاطات وقلاع لتفكير الرسمى وانما هى عملية بسيطة تلقائية ، يقوم بها رجال بسطاء ، ويخططوه لها تخطيطا واقعيا تجريبيا مرنا يماشى الظروف ، ويتكيف مع الواقع ، ويغير الاتجاه حسب مقتضيات التجربة اليومية •

لدعاة الاسلام فى أفريقيا أجيال متعددة • فهناك الفاتحون الاولون الذين كانوا يذهبون الى حياتها ويتعلمون لغتها ، وهناك أجيال تابعة أرض مجهولة يندمجون فى الشعوب ويحيون حياتها ويتعلمون لغتها وهناك أجيال تابعة متعددة تذهب لتعليم القرآن والفقه الاسلامى ، وأخرى لنشر الطرق والصوفية ثم يتحول الافريقى نفسه الى داعية لدى أخيه الافريقى فتتوالى الدعوات أجيالا أجيالا وأمواجا أمواجا دون انقطاع •

أما الصفات الاكثر بروزا للداعية فيمكننا أن نلخصها فى الطالب بالمعنى الدقيق الذى تطلقه عليه لهجاتنا المحلية فى الجزائر •

فمن هو هذا الشخص ؟ انه فى الغالب طالب فى العلوم الدينية انقطع عن الدراسة وأصبح معلما للقرآن • وقد كانت أسواق المدن والقرى الجزائرية مملوءة بالطلبة الذين ينتقلون من الدرس الى الحرف السهلة مثل الخياطة والتجارة الصغيرة ، وتعليم الاولاد القرآن والكتابة • وكان من بينهم من يسيح فى الارض اما بحثا عن معاش ، أو بحثا عن علم يقتنيه من شيوخ يسمع عنهم ، وأصبح الطالب طيلة قرون عديدة مثال السائح المتجول فى طرقات البوادى واسواق المدن، ومثال الرجل الملازم للمساجد المشهورة بالعلم والرباطات الذائعة الصيت • وكان هؤلاء الطلبة الشباب أقدر الناس على التكيف وتحمل شرائد السفر مشيا على الاقدام ، كما كانوا أكثر الناس تحملا للجوع ، وأكثرهم صبرا لوطأة المجتمع • وقد عرفنا منهم بقايا انقرضت منذ سنين فقط ، ورأيناهم مشاهدة عيان يحيون هذه الحياة كما لو كانوا أشخاصا شاردين عن قبضة القرون • ونريد أن ننبه الى أنه لا يمكن وجود مثل هذه السياحة العلمية الا فى مجتمعات تقدر العلم وتهىء له الاسباب المادية التضامنية ، رغم ما فيها من صرف وعجز فى بعض الاحيان • فضيوف المساجد عديدون فى كل قرية من قرانا وتزويد المسافر للعلم وكل ابن سبيل فرض من فرائض الاسلام ، فلا غرو أن تسفر هذه الظاهرة عن ايجاد أشخاص يضربون الاراضى ضربا لتعلم الدين وتعليمه •

من هنا بدأت طرق الثقافة ، ثم امتدت أطرافها أبعد فأبعد الى أقاصى الجنوب من الصحراء ، فالطالب القادر على الجمع بين التعلم والتعليم والحرفة البسيطة والتجارة الصغيرة والدفاع

عن النفس بالسلاح اذا داهمته الاخطار . هــو داعية الاسلام بين شعوب الزراعة وتربية المواشي أي بين الاميين في هذه القارة الافريقية .

واذا أردنا أن نأخذ نماذج تاريخية معروفـــة فانه يمكننا الرجوع الى القرن الخامس عشر مثلا. فالتاريخ هنا يخبرنا أن الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي انتقل من تلمسان حيث حصل على العلوم الدينية تحصيلا وافرا قصد توات حيث أنشــأ مركزا ثقافيا ذا اشعاع هائل وهو مدرسة تمنطيط بقرب أدرار . ثم تابع حركتــه التثقيفية بــين شعوب افريقيا في مملكة كانو بنيجريا الحالية ، وترك هناك مدرسة دينية مالكية أشعرية لازالـت على أثره حتى الآن . هذا فقيه مشهور حفـــظ التــاريخ اسمــه ، ولكن التــاريخ لم يحفظ آلاف الاسماء لدعاة مثله ذهبوا الى أبعد من « كـانـو » وتركوا عقيدة دينية بسيطة في قليل من القــرآن وقليل من الفقه والتصوف . وما القرن التــاسع عشر منا ببعيد حيث انطلقت من قرى مـازونـــة وعين ماضي وتماسين ، ووركلة قوافل من الطلبه للدعوة الدينية بتشاد وكامرون وساحل العاج .

ويبدو لي أن البضاعة العلمية كانت هزيلة في غالب الاحيان عند هؤلاء الطلبــة ، ولكن نفسهـم الروحي كان قويا الى أقصى حد .

فبضاعتهم العلمية قرآن محفوظ مع فهم بسيط لمعانيه ، ثم قليل من الفقه المالكي لا يتعـــدى منظومة ابن عاشر الاندلسي ، وتوحيـد أشعـري يتلخص في متن السنوسية ، وقواعد العربيـــة لا تتعدى عندهم الاجرومية . وقد سموا أنفسهم طلبة تواضعا وتشخيصا لواقع . ذلك أنهـــم متفتحون حقا على التعليم طول حياتهم ، يذهبون اليه أين وجد ، وينشرونه أين فقد .

أما نفسهم الروحي فيظهر في صبرهم على كـل المكاره المادية والمعنوية . فتحملهم لصعوبـات الاسفار في الصحاري والادغال وتعودهـم عـلى المعاش القاسي يمثل المكاره المادية ، أما المكاره المعنوية فكانت تظهـر في احتقـار أهل اليسـر لهم (1) وكان العداء بينهم وبين التجار عـــداء روحيا وسياسيا يرجع أصله الى أن جل الطلبـة من أبناء الفلاحين وصغار الصناع وجدوا تعويضا لفقرهم في الثقافة واكتسبوا في مجتمعهم الفقير نوعا من المكانة التشريفية كثيرا ما استعملـوها لتحطيم مكانة التجار في المدينة التقليدية . ثـم ان الشائعات الكثيرة كانت تشاع عنهم كلما دخلوا قرية وهم غرباء فيتهمون بالمكر والخديعة والسحر فكان الناس يتقونهم ويتخـوفون من معاملتهـم . ولا ينكر أن منهم دجالين ومحتالين حقـا ، ولكن ما أقـل هؤلاء العـاجزين المنحـرفين أمام ذوى الايمان القوى والاخلاق السوية .

فالطالب الداعية في الاوساط الافريقية كـان يمثل «المرابط» أحسن تمثيل . ورجال الرباط آنذاك مجاهدون حقا لانهم أكثر النس صبرا في كل أنواع الشدائد وأنواع الكفاح . وانه ليظهر لي أن الاتجاه نحو الامم الامية لمشاركتها معاشها القاسي هو الفضيلة الاساسية التي يتحلى بها هذا الطالب المرابط . انها فضيلة تقتضي كثيرا مـن الرحمة في المعاملات ومحبة لبني الانسان لاتقاس بمقاييس فلسفية أو تقنيات فكرية للاخـــلاق ، وانما هي محبة ورحمة عملية تظهر في الحيـــاة اليومية وفي المواقف تجاه الاحداث . فالرجـل الذي يتواضع في سلوكه ويدعو الى التواضع ، ثم يبرز شجاعته الفكرية في الصبر على أنواع الاذى من أجل أفكاره،والرجل الذي يدعو الى المساواة ،

---

1) يوجد في المدن التجارية مثال يحقر من شأن طلبة القرآن وهو «اللهم اغن التاجر وافقر الدرار» وقد أجيبت هذه الدعوة مسبقا ــ والدرار هو معلم القرآن لانه يشتغل بالدراري أي الذرية «الاطفال الصغار

ويعيش هذه المساواة فىالفقر والجوع بين الفقراء والجائعينوالرجل الذى يتعلم لغة الآخرين محبة فى الآخرين والرجل الذى يتزوج ويندمج فىمجتمعات غريبة عنه،فىسبيل فكرته، والرجل الذى يحارب العرقية بذوبانه فىالعرقالآخر،هو حقا رجليبرهن فى سلوكه عن حقيقة فكره الداعى الى العدالة والمساواة والانسانية العميقة ·

بواسطة هؤلاء الاشخاص تكونت طرق الثقافة، بعد أن انقرضت طرق الذهب ، وذهب النخاسون الى خزى الاجيال ، وحل محلهم دعاة الانسانية فى افريقيا ، وفشل التجار بنظرتهم الى العالم نظرة سطحية محدودة ، ونجح «الطالب» المتواضع لانه كان تواضعه يحمل ايمانا عميقا بالاخوة الانسانية · ولم يقتن «الطالب» درهما ولا معاشا ولكنه اكتسب ثروة روحية لا تعرف الفناء ·

« ما عندكم ينفد وما عند الله باق »

ليس بى حنين الى الماضى حينما أنبش هذا الماضى ولكنى أريد أن أعرف مجتمعى بماضيه وحاضره ، ولا يمكن للماضى ألا يمتد الينا على الاقل فى مبادئه الاجتماعية والروحية الاساسية· أريد أن أعرف النماذج البطولية الحقة وأراها أصدق ما أراها فى صميم الشعب وأعماقه ، لا فى العينات المزيفة التى جمعت الذهب فأكلته أكلة خنازير فى الملذات المتعفنة ·

وانى حينما أريد استقصاء البحث عن فضائل مجتمعى لا أدعى أنها فضائل أبدية · فقد يمكن التحول عن الاصل ولكنى لا أريد لمجتمعى أن يستبدل فضيلة برذيلة بل أن يستبدل فضيلة بمثلها أو أحسن منها · اذ للقرن العشرين فضائله الخاصة به ·

ففضيلة الصبر والنضال من أجل عقيدة كان من فضائل «طلبتنا» فى القديم ، ونريد لطلبة عصرنا أن يكونوا طلبة للعلم «من المهد الى اللحد» متواضعين متفتحين أبد الدهر ، ونريد لهم أن يتحلوا بنفس الصبر والعزيمة التى كان يتحلى بها القدماء ، وليس القدماء بأفضل من أهل هذا الزمن ·

ومن العجب أن فضائل الطلبة القدماء هى نفس الفضائل التى كانت تتحلى بها «نخبة المثقفين المناضلين» أى الانتليجانسيا من الاجيال الثورية الكبرى ، فى هذا القرن العشرين ·

فليس تكديس المعارف المتنافرة المتنافرة هو الذى يمثل الثقافة الحقة ، ولكن الثقافة الحقة هى قوى لما نعلم وهدف واضح لتطبيق ما نعلم ، وايمان قوى لا تزعزعه الاحداث ، بالشعوب التى نعمل من أجلها ·

اذا أردنا ان ندخل فى عهد الثورة الثقافية ، فلنعلم أن لكل ثورة روحانيتها وهى ، وان تعددت مناهجها ، وتجسيماتها ، روحانية واحدة اساسية نسميها الايمان بالعقيدة والايمان بالشعوب ·

أبوبكر محمد بن داوود

كاتب يغمراسن بن زيان

بتلمسان

رابح بونار

تمهيد : اننا نلاحظ عند دراستنا لتاريخ نشأة الدولة الزيانية على يد مؤسسها يغمراسن بن زيان سنة 633 ﻫ ولتاريخ الدول الاخرى التى انفصلت مثلها عن الامبراطورية الموحدية كالدولة المرينية بفاس سنة 668 ﻫ والدولة الحفصية بتونس سنة 626 ﻫ والدولة النصرية بالاندلس سنة 626 ﻫ ، انها دول خلفت الامبراطورية الموحدية فى أنظمتها الادارية وفى تراتيبها الحربية ونشاطها الاقتصادى، وحاولت أن تسبقها فى مجال العناية بالحركة العلمية وتشجيع أعلامها فى كل فن ، وقد سعت بعض هذه الدول لتخلفها فى اتساع رقعتها وضخامة ملكها .

ولما قامت الدولة الزيانية انبرى يغمراسن مؤسسها على قرب عهده بالحياة البدوية الساذجة الى اقامة دولته الفتية على أسس حضارية يتطلبها عصره ، فاهتم بتنظيم ادارته على غرار ما كانت عليه الادارة الموحدية بتلمسان ، وأنشأ قوة عسكرية متألفة من قبيلة بنى عبد الواد وغيرهم ليتقى بها الاخطار التى كانت تحدق به من قبل بنى مرين بفاس غربا ، وبالحفصيين بتونس شرقا وليدافع بها القبائل الاعرابية والبربرية المناوئة له داخل رقعة دولته .

ثم ابتكر سياسة مرنة ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش ولامراء بنى نصر بالاندلس ليدعم بذلك مركز حكمه ، وعلى العداء لبنى مرين الذين كانوا يحاولون القضاء على دولته ليوسعوا بذلك رقعة دولتهم ويخلفوا الموحدين فى أمبراطوريتهم .

وكان يتظاهر بالولاء للحفصيين ـ تقية منه ـ ما كانوا أقوياء وعند ما ضعفوا أخذ هو وخلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم فى قسنطينة وبجاية ، وهكذا تتجلى لنا سياسة يغمراسن فى

مساعيه الجادة لتدعيم أركان دولته مرنة حكيمة قد تكللت بالنجاح ، وتتوجت بالانتصار ، رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل والخارج

تشجيعه للحركة العلمية :

ولم يقتصر نشاط يغمراسن على العناية بالناحية السياسية والحربية والادارية وحدها بل انصب نشاطه أيضا على العناية بتشجيع الحركة العلمية والادبية وعلى تزيين بلاطه بالعلماء والادباء منافسا بذلك غيره من أمراء عصره .

فدعا اليه أبا اسحاق التنسى وكان من أكابر العلماء بعصره وألح عليه حتى غادر موطنه ووفد عليه بتلمسان وانتصب للتدريس بجامعها الاعظم ثم أغدق عليه يغمراسن كل انعام . (1)

ووفد عليه أبو بكر محمد بن خطاب من الاندلس لما بلغه عنه من تشجيع للعلم وأهله فرحب به ، «وأحله المحل الرفيع من دولته» (2) وأكرم أبا عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق من علماء تلمسان واجله وأوصى أن يدفن بازائه من الجامع الاعظم بتلمسان (3) ، كما أكرم غير هؤلاء من علماء تلمسان أو الوافدين عليها .

وقد كانت العناية بتشجيع الحركة العلمية ظاهرة عامة للدول التى خلفت الامبراطورية الموحدية ، وكان التنافس بينها على هذا التشجيع قائما أشده وقد استأثر الحفصيون بالنصيب الاوفر منه فى القرن السابع الهجرى ، وحاول المستنصر من خلفائهم أن يستأثر بأبى بكر بن خطاب لما وفد على تلمسان وكاتبه فى ذلك وبعث اليه بهدية مغرية فرد الهدية وآثر الاقامة تحت كنف الدولة الزيانية .

ان الازدهار العلمي الذى نشاهد آثاره فى القرن السابع الهجرى بالمغرب عامة تعود بعض أسبابه الى هذا التنافس الذى كان يقع بين الملوك حول استقدام العلماء الى بلاطهم واغداق ضروب الانعام عليهم ، والى تدهور الوضع السياسى والاجتماعى بالاندلس الذى حفز كثيرا من رجال الفكر على الهجرة الى أقطار المغرب طلبا للامن والحياة الرضية .

وقد كانت هجرة أبى بكر بن خطاب الى تلمسان مبعث حياة ادبية ملحوظة كما كانت هجرة ابن الآبار وابن عميرة وحازم القرطاجنى منطلق ازدهار أدبى لامع فى تونس ، ويهمنا هنا أن نذكر نبذة من ترجمة أبى بكر بن خطاب وما تركه من آثار فكرية فى الجو الادبى بتلمسان .

لمحة عن حياته ونشأته :

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد الله (4) بن داوود بن خطاب المرسى ، ولا نعلم عن نشأته الا انه ينسب الى مرسية ، وانه كان على حد تعبير ابن الخطيب «شكس الاخلاق متقاطبا زاهيا بنفسه» (5) .

شيوخه :

وذكر ابن الخطيب جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبى عيسى بن أبى السداد ، وابى بكر بن محرز وأبى بكر محمد القرشى وغيرهم (6) ويضيف يحيى بن خلدون والعبدرى الى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم «أبو بكر بن جهور ، وابو بكر الغافقى ، وابو الحسين بن عبد الرحمن الرفاء ، وابو عيسى محمد بن محمد بن أبى السداد ، وأبو المطرف بن عميرة وغيرهم» (7) .

---

(1) الحافظ التنسى : محمد بن عبد الجليل : الدر والعقيان مخطوط مج 1 ص 139
ابن مريم : البستاني ط الجزائر سنة 1908 م ص 67

(2) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة مج 2 ص 275
ابن خلدون يحيى : بغية الرواد ط الجزائر سنة 1903 ج 1 ص 48

(3) المصدر السابق ج 1 ص 48

(4) وفى بغية الرواد ج 1 ص 48 ورد اسمه عبد الله بدون تصغير ووافقه عليه ابن مريم فى البستان ص 227

(5) الاحاطة ج 2 ص 275 — (6) المصدر السابق ج 2 ص 276

(7) العبدرى : الرحلة المغربية تحقيق احمد بن جدو ص 16 — بغية الرواد ج 2 ص 48

ارتحـــاله الى تلمســـان :

التجأ أبو بكر بن خطاب الى تلمسان فى صحبة ابن وضاح والجالية الاندلسية التى آثرت الوفادة عليها وأشار الى ذلك ابن خلدون فقال : «ووفـد عليه (أى يغمراسن) لاول دولته ابن وضاح اثـر دولة الموحدين ، أجاز البحر مع جالية المسلمين من شرق الاندلس فآثره وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه لـــه، ووفد فى جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لاخيه بمرسية» (8)٠ ويبدو أن ورود أبى بكر بن خطاب على تلمسان انما كان على اثر الفتنة التى وقعـت بمرسية وأشار اليها ابن الخطيب بقولـــه : «انه رجع الى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم انفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة» (9) وابن خلدون يذكر انه بايع أخاه بمرسية (10) ، ولم تساعده القلاقل التى كانت تهانيها مرسيـة على المقام بها فارتحل عنها الى المغرب وتقلب فى أنحائه وكان ارتحاله فى تاريخ غير معروف ، وقد يكون قبل سنة 661 هـ بقليل ، ويؤيد ذلك ما جاء فى احدى رسائله التى كتبها عن أميره يغمراسن بعد التحاقه به لتهنئة المستنصر بانتصاره عـلى ابن عمه أبى القاسم بن أبى زيد بقسنطينة وجاء فيها : «وصل الى العبد كتاب مولاه ٠٠٠ يعرفـه بأنه توجه الى قسنطينة فى هذه الايام الفارطـــة قاصدا معالجة دائها بما أعد الله له من دوائها(11)

وفـــاتـــه :

اذا كان تاريخ ميلاد أبى بكر غير معروف فان تاريخ وفاته يكتنفه غموض وقد اختلف مترجموه فى ذلك فذهب يحيى بن خلدون : «الى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636 هـ (12) ووافقه ابن مريـم فى بستانه (13) على هذه الرواية وهى لا شـــك تصحيف واضح من النساخ ، وذهب ابن الخطيب فىاحاطته (14) الى أنه توفى بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة وهو قريب من الصــواب رغم ما فيه من عموم وعدم تحديد ، على أن الاصوب أن نقول فى تاريخ وفاته أنه توفى بعد سنة 681هـ لانه كان حيا فى هذه السنة وقد كتب فيهـــا رسائل ، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبى سعيد ابن يغمراسن وقد تولى الامارة سنة 681 هـ بعـد موت أبيه جوابا عنتعزية الامير النصرى بالاندلس وجاء فيها : «عن الامير عثمان بن الامير أبى يحيى يغمراسن بن زيان ، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى ٠٠٠ وبعد حمد الله مقدر الآجال ، المحمود على جميع الاحوال ٠٠٠» (15) وكذلك رسالتـه التى عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيـــه يغمراسن وجاء فيها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته ، وعرفه من التأييد ما يتكفل لامره بالتأييد» (16) وهكذا يتضح لنا أنه توفى بعد سنة 681 هـ جزما وبقى تحديد سنة وفاتـــه بالضبط وهو متعسر ، ولكن يمكن أن نحصر هذه السنة بما بعد سنة 681 هـ وما قبل سنة 688 هـ وفى هذه السنة الاخيرة مر العبدرى بتلمســـان ووجد أبا بكر قد توفى وسأل عنه تلميـذه ابن خميس وروى عنه بعض شعره ٠

منـزلته فى الشعـــر :

بلغ أبو بكر بن خطاب منزلة سامية فى الشعر كما يذكر مترجموه ولكن ضآلة ما عثرنا عليه مـــن مقطوعاته الشعرية لا يساعدنا على تحليله ولاالحكم عليه وانما نكتفى بما ذكره مترجموه عنه «وهم قد أجمعوا على الاعجاب بشعره ونثره ، فابن الخطيب يقول عنه نقلا عن صلة بن الزبير «أن ابا بكر بن خطاب كان كاتبا بارعا ، وشاعرا مجيدا مشاركا فى أصول الفقه وعلم الكلام وغيرهما» ٠

---

(8) ابن خلدون عبد الرحمن : كتاب العبر ط لبنان سنة 1909 مج 7 ص 163 ــ(9)ابن الخطيب : الاحاطة ج 2 ص 275
(10) كتاب العبر مج 7 ص 163 ــ (11) فصل الخطاب من رسائل ابى بكر بن خطاب مخطوط ص 2 ــ (12) بغية الرواد ج 1ص48
(13) البستان ص 227 ــ (14) الاحاطة ج 2 ص 278
(15) فصل الخطاب ص 13 ــ (16) المصدر السابق ص 14

ويحي بن خلدون يقول عنه انه «كان من أبـرع الكتاب خطا وأدبا وشعرا ، ومن أعرف الفقهـاء بأصول الفقه» (17) ووصفه الحافظ التنيسي «بأنه خاتمة أهل الآداب ، المبرز في عصره على سـائر الكتاب» (18) وأما العبدري فانه كان معجبا كثيرا بشعره وقد روى له بعض مقطوعات وعلق عليهـا ومن ذلك ما قاله في هذه المقطوعة :

1) اشكرن لـربك وانتظـرن
في أثـر عسـر لامـر يسرا
2)واصبر لكـربـك وادخـرن
في سـتـر ضر الفقـر أجـرا
3)فالـدهـر يعثـر بالـورىن
والصبر بالاحـرار أحرى
4)والوفـر أكثـر معشـران
والفقـر بالاحرار يغـرى

ان نظام هذه الابيات يدل على بـاع مـن الادب مديد ، وطبع فاضل ومقول مجيد ، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة ، معراف الاصالة (19) وقال فيه عبد الرحمن بن خلدون: انه كان شاعرا محسنا(20

وروى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة في الحكم مطلعها :

«أقنع بمـا أوتيتـه تنـل الغنى ن
واذا دهتـك مصيبـة فتصبر»

وثانية في الابتهالات مطلعها :

رب أنت الحليـم فاغفـر ذنوبي ن
ليس يعفـو عـن الذنـوب سواك

منزلته في الترسل والكتابة :

ونبغ أبو بكر بن خطاب في الترسل والكتابـة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر ، وقد بلغ فيها درجة كبيرة فاق بها معـاصريه فـي المغرب والاندلس ، وقد ذكرنا من قبل ما حلاه بـه مترجموه من براعته فيفني الكتابة والشعر ،ومن آثاره ايثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطـة .

ولما انتقل الى تلمسان تقلد هذا المنصب في بلاد يغمراسن وأنشأ رسائل عديدة كانت نموذجا يحتذى ، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبي سعيد الى الموحدين بمراكش والى الحفصيين بتونس والى ملوك بني الاحمر بالاندلس في مناسبات مختلفة يقول عبد الرحمن بن خلدون في ترسله «انه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا . . . فستكتبه (أي يغمراسن) وصدر عنه مـن الرسائل في خطاب خلفـاء الموحدين بمـراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل وحوفظ» (21)

وذكر أن حافظ التنيسي أن يغمراسن «جعلـه صاحب القلم الاعلى» في تلمسان (22) على أننـا رغم بحثنا الكثير عن آثاره الكتابية فاننا لم نجـد منها الا بضعة رسائل مخطوطة من مجموع جمعه أديب يدعى الحاج عبد القادر ودعاه فصل الخطاب من رسائل أبي بكر بن خطاب» وقد ذكر فيه تسعة أبواب ، ويبدوا أن أكثر رسائله ضاع فظهر لذلك تقسيم الكتاب غير مرتب ولا منسق تنسيقا منطقيا وهذه الرسائلالباقية من المجموع قد صدرت عن أبي بكر وهو بتلمسان،وروىله ابن الخطيب رسالة اخوانية أنشأها فيالاندلس(23)وخاطب بها صديقين له بمرسية ، وقد بعث بها من مدينة اشبيلية .

وقبل أن نذكر أسلوب هذه الرسائل وخصائصها نذكر كلمة عن أسلوب الرسائل الديوانية وغيرها في الاندلس والمغرب .

أسلوب الرسائل الديوانية في هذا العصر :

لقد أثبت مـؤرخو الادب في هذا العهـد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضي الفـاضل المتوفى سنة 596هـ وهيتمتاز بالتزام السجع واطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق ومراعـاة النظـير ، والغلو في التورية والجناس واثار المعاني الخيالية (24) وجاء بعده محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة 692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه .

---

(17) بغية الرواد ج 1 ص 48 ـــ (18) الدر والعقيان ج 1 مخطوط ص 276 ـــ (19) الرحلة المغربية ص 16
(20) كتاب العبر مج 7 ص 163 ـــ (21) المصدر السابق مج 7 ص 163 ـــ(22) الدر والعقيان ج 1 ص 139
(23) الاحاطة مج 2 ص 277 ـــ (24) الاسكندري احمد : الوسيط في الادب العربي وتاريخه ص 295 ـــ (24) الرحلة المغربية 23

وشاعت هذه الطريقة في المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب والاندلس يتأثرون بكل التيارات التى تحدث فى المشرق يحاكونها ويحتذونها ، وهذا ما لاحظه ابن بسام في القرن الخامس الهجرى ولاحظه آخرون بعده وانتقدوه .

وصار السجع فى الرسائل الادبية والاخوانية ونحوها بعد ذلك حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الادب كالمؤلفات الادبية والرحلات وكتب التاريخ .

والعبدرى هو معاصر لابى بكر بن خطاب يقول فى وصف بجاية فى رحلته : «ثم وصلنا الى مدينة بجاية ، مبدأ الاتفاق والنهاية ، وهى مدينة كبيرة حصينه منيعة شهيرة برية بحرية،سنية سريه،وثيقة البنيان ، عجيبة الاتقان» ، وكذلك ابن جبير فانه يميل الى السجع فى رحلته ، ومثله الرحالة أبو البقاء خالد البلوى الذى زار تلمسان فى أوائل القرن الثامن الهجرى وقال فيها : «فرايت مدينة قل مثلها ، وجل عراها وبانها وأثلها ، بطاح وأدواح ، وربى ملاح ، وضياء وانشراح ...» .

ومن المؤرخين نجد يحى بن خلدون يميل الى السجع فى بعض فصول كتابه : فيقول أبى حمو موسى بن يوسف «ولما كان مولانا الخليفة الامام السلطان الهمام ، الجواد الضرغام ، كبير الملوك وناظم السلوك ، وناهج سبيل الفخر المسلوك» (25) ويقول أيضا فى ذكر السلطانين أبى سعيد وأبى ثابت «قمرا الخلافة وفرقدا الشرف والاناقة ومقرا الامان المنتجع والاخا ، هذا قطب الاسلام والدين ، وهذا يوم الكفاح أسد العرين» (26) .

وأما كتاب الرسائل فى عصر الموحدى فأشهر من يمثلهم ابن عطية وقد كتب رسالة ديوانية عن عبد المؤمن الى أهل تلمسان جاء فيها : أما بعد فالحمد لله وسعت رحمته كل شىء على العموم والاطلاق ، وجمعت عصمته أهل الاجتماع على طاعته والاتفاق ، ونمت نعمته تماما على أبلغ وجوه الانتظام والاتساق (27) ويقول من رسالة أخرى مخاطبا ابن هود الثائر : «وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة» (28) .

وقد لاحظ ابن خلدون فى القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال : «واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها فى المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال فى المنثور كله على هذا الفن الذى ارتضوه وخلطوا الاساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ... والمحمود فى المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير تسجيع الا فى الاقل النادر حيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلف له ثم اعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال.. (29)

ترسل أبى بكر بن خطاب :

ولم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الاسلوب الشائع فى عصره فى الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعة فكان ذا عناية بالسجع واطالة الفقرات كما فى قوله من رسالة أخوانية «ونزلنا فى الاخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا ، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا، وعرض علينا النزول فى الديار داخل المدينة ، فرأينا المقام بالقنب أحد الاسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة (30) » وكقوله من رسالة أخرى «الفقيه الاجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمى شرائعه ، وينمى بضائعه ، ويبنى مصانعه، ولا زال الاعتناء الربانى يسعد مقاصده ويجمع جمع السلامة أوابد أمله

(25) تاج المغرب مخطوط ، الخزانة العامة بالرباط ص 4 —
(26) بغية الرواد ج 1 ص 4 — (27) المصدر السابق ج 1 ص149
(28) كنون عبد الله : النبوغ المغربى ج 2 ص 96 — (29) المصدر السابق ج 2 ص 100 — (30) مقدمة ابن خلدون ص424 425

وشواده ، (31) » وفى هذه الفقرة سجع مختلف بين قصير وطويل كما فيها تورية بجمع السلامة التى يريد بها الجمع اللغوى والجمع الاصطلاحى فى النحو ، ويهتم بالاقتباس من القرآن وغيره كما فى قوله : واستفهم لسان السيف لمن الملك اليوم (32) وكقوله من رسالة تعزية لابى سعيد بن يمغراسن «فقد أدال الله من جزعه صبرا ، وجعل مع عسره يسرا (33) » أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يمغراسن الى المستنصر بتونس «فلم يكن الا قدر ما يلمح البصر ، أو تنداح دائرة فى الماء يرمى فيه بالحجر (34) » .

وهو يهتم أيضا بالتورية كثيرا فيورى بألفاظ نحوية وفقهية ونحوها كقوله من رسالة الى فقيه «والشكر لما حزتم من مآثر الفضل ينقسم بانقسام الزمان كالفعل غير أنه لا ينفى ولا يجزم (35) » وقوله فى رسالة فى الصدقات أو خطبة النكاح «ورسم فيه أثر فعله الذى لا يتصف بالجبر والاكتساب (36) » ويهتم بأنواع الاستعارات وضروب الاخيلة كقوله : «وكتائبه المتعودة لشن الغارة ضراغم آجامها الرماح الخواطر ، وبراثنها السيوف البواتر (37) »وقوله : «وصل النبأ الذى طاشت له الاحلام ، وتعثرت فى الطروس الاقلام (38) » وقوله : «قد طفت جثث قتلاهم فى بحر الزقاق أمثال الزقاق » وقوله : وصل كتابكم الخطير ينصع بيانا ، ويخلو من مصافاتكم صورا حسانا (39) وقوله : «ما أهدى الجذل الى الصدور ومحا أثر الحزن منها بيد الصرور (40) » وقوله فى تنزيه صفات الله عن النقص وغوص الافهام الكاملة لادراكها كأن طيور الاقلام خلال أوراق غصون سطور الكلام تلتقط منها عناقيرها حبا (41) وفى العبارة ضعف تركيب لكثرة الاضافات فيها .

وهكذا نصل الى جملة نتائج وهى أن الاسلوب الفنى للرسائل الديوانية قد نقله أبو بكر بن خطاب الى تلمسان وقد بثه بين طلبتها وشاع عنه هذا الاسلوب فى منتصف القرن السابع وما بعده وكان هو أكبر ممثل له فى تلمسان والمغرب وكان يقابله شيخه أحمد بن عميرة ومواطنه ابن الابار بتونس .

اثرابى بكر بنخطاب فى الحركة الادبية بتلمسان:

اننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تأثير أبى بكر بن خطاب فى الحياة الادبية بتلمسان ، ولكن بعض الاشارات التى وردت عرضا فى بعض المراجع قد تكشف لنا عن هذا التأثير أو بعضه ومن ذلك ما ورد فى رحلة العبدرى (42) من أن ابن خميس كان راوية عن أبى بكر بن خطاب وتلميذا له ، وكان ابن خميس هو أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان فى هذا القرن وقد تأثر به فى اتجاهه الادبى وأسلوبه ونجد رسالته الصوفية تنتحى منحى رسائل شيخه فى التزام السجع ، وفى اطالة الفقرات ، وقد يكون قلده فى رسائله الديوانية التى لم نعثر على أى رسالة منها بعد أن شغل منصب كاتب الرسائل بديوان أبى سعيد خلفا عنه بعد وفاته ، ولا يبعد أن يكون أبو زكرياءيحى بن عصام (43) وكان أديبا شاعرا ملازما لابن خميس قد أخذ عنه وتأثر به .

وكما لا يبعد أن يكون أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان من كتاب يغمراسن (44) قد أخذ عنه وتأثر به ، كما تأثر به الجو الادبى فى تلمسان عامة .

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله فى المغرب كله فقال : وصدر عنه من الرسائل فى خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس فى عهود بيعاتهم ما تنوقل وحفظ (45) وفى هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبى بكر صارت تراثا أدبيا يدرس ويحفظ ونماذج مثالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها فى رسائلهم الديوانية وغيرها .

---

(31) ابن الخطيب : الاحاطة 2 : 277 — (32) فصل الخطاب ص7 —(33) المصدر السابق ص 7 — (34) المصدر الساق 14
(35) المصدر السابق ص 6 وفيه اقتباس من بيت ابن الرومى (36) فصل الخطاب ص 8 — (37) المصدر السابق ص 15
(38) المصدر السابق ص 15— (39) المصدر السابق ص 6 (40) المصدر السابق ص 12 — (41) المصدر السابق ص 13
(42) المصدر السابق ص 16 — (43) الرحلة للعبدرى ص 15 (44) المصدر السابق ص 19 — (45) بغية الرواد ج 1 ص 111

تحليل مضمون بعض رسائله :

ونبدأ من ذلك برسالة عزا بها الامير أبا سعيد عثمان فى أبيه يغمراسن وفيها يقول فى مقدمتها «مولاى السلطان أبو سعيد أدام الله حياته وعرفه من التأييد ، ما يتكفل لامره بالتأييد ، ويقضى بتقديم ملكه واثباته، عبده وخديمه، وولى الشكر لاحسانه الجزيل ومديه ه، محمد بن خطاب سلام الله ، وبعد حمد الله الذى لا يموت والصلاة على سيدنا محمد رسوله الذى أتاه من المعجزات ما يفوق الحصر ويفوت ٠٠٠٠»

ثم يدعو له ويخبره انه كتب اليه من تلمسان حول «وفاة مولاه السلطان أبى يحى والدكم قدس الله ثراه ، وجعل الجنة مثواه ، ما جرى به القدر وشاب لاجله صفو الحياة بالكدر» ٠

ويعظم المصاب ويوضح أثره على النفوس فيقول : «فيا له رزءا فادحا ، وثكلا جرى بنا فى ميدان الاسى جامحا ، ونغص العيش ، وعلم الحليم الوقور الطيش ٠٠٠» ثم يستلم لمشيئة الله التى لا تدفع ، ويرضى بأحكامه فى الارواح «التى هى عوارى تسترجع لوقتها وتسترد ، وذلك ما لا يغيب عن علم مولانا السلطان ٠»

ثم يستطرد الى تهنئته بالسلطان الذى أدال الله به «من جزعه صبرا وجعل مع عسره يسرا ، وهو ما يسر من الاتفاق على بيعتكم السعيدة ، وحلولكم فى مرتبة الملك المشيدة ، وهنيئا لها فاليكم كان ميلها ، وبصبح ولايتكم انجلى عنها ليلها ٠٠»

وأخيرا يختم بالدعاء له بدوام السرور والاعتذار عن تقصيره فى ايفائه حق السلطان ويسجل تاريخ الرسالة التىكتبت فى5 ذى الحجة من عام 681 هـ

رسالة ثانية لـه :

ومن هذه الرسائل رسالته فى الجواب عن تعزية الملك النصرى من بنى الاحمر بالاندلس لابى سعيد حول وفاة أبيه يغمراسن فيقول له فى مطلعها : ان الصداقة التى تربط بين الملكين متينة «لا تحيل صفاءها الايام» ويسبغ عليه من الالقاب ماجرت به العادة السلطانية فى ذلك العصر ويشيد بامارته ذات المآثر الجليلة على لسان سلطانه أبى سعيد ثم يحمد الله ويصلى على النبى ص راضيا بما قدر الله من مصاب يصيب العام والخاص مثبتا ان الصبر هو بمنزلة الرأس من الجسد كما جاء فى الحديث ، ويخبره أنه كتب اليه من تلمسان حرسها الله «وفضل الله تصفو مشارعه وتصفو مذارعه ، وصنع الله الاجمل تتلاحق طلائعه ٠٠٠ وأخاؤكم الكريم عقده وثيق ، ووجهه سافر أنيق والوفاء بأذمته المؤكدة لا يسلك غير طريقه طريق، ولايتخذ عن فريقه فريق، والتعظيم لجنابكم الرفيع موصول أبدا ، موفى قولا ومعتقدا وانه بذلكم لحقيق ٠٠٠»

وبعد أن يؤكد علائق المودة بينهما واللزوم على عهودهما السابقة يخبره انه وعى كتابه الذى عزاه فيه عن أبيه ويشكره عليه ويشيد بحبه لصفيه الراحل ولئن فقدوه فقد بقى لهم من ولده «أخ معاضد فى كافة الاحوال مساعد، يقاسمكم فى المر والحلو ٠٠٠»

وأخيرا يعذرهم عن تأخر كتبهم اليه لانه «قد تقرر بيننا وبينكم من خلوص السر والجهر ما لا يحتاج معه الى تكلف العذر ، فاننا ننظر الى كل ما يصدر عنكم بعين الرضا ، ونقيس مستقبل حالكم فى الوفاء على ماتيقننا منه فيما مضى بحول الله» ٠

وهكذا تنتهى هذه الرسالة التى توضح لنا مدى العلائق السياسية الوطيدة لتى كانت تصل بين مملكتى غرناطة وتلمسان فىالقرن السابع الهجرى وقد تأكدت هذه العلائق لاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية فى القرنين التاليين : الثامن والتاسع وكانت تتسم دائما بالصفاء والتعاون ولم يشبها طيلة هذه القرون الثلاثة ما يكذر صفوها أو يضعف من فعاليتها ٠

وأخيرا نذكر خلاصة لهذه الالمامة التى بدأناها بنبذة عن حياة يمغراسن ونشاطه السياسى وتشجيعه للحركة العلمية ، ثم ذكرنا المامة عن حياة كاتب يمغراسن أبى بكر بن خطاب فى الاندلس وتلمسان ، وحاولنا أن نذكر أقباسا عن عبقريته الشعرية والنثرية وأن نلمح بايجاز عن مدى تأثيره على الحياة الادبية ، ثم عرضنا بايجاز الى تحليل بعض خصائصه النثرية والى تحليل رسالتين له وهكذا نكون قد ألقينا ضوءا خافتا على شخصية علمية كبيرة كان لها تأثير على حياتنا الثقافية بتلمسان فى بعض عهودها الزاهرة ومن الوفاء لها أن نذكرها بالاكبار ، وان نشيد ببعض ما تركت لنا من آثار فكرية تستحق منا العناية بالدرس والتحليل ٠

الاستعمار المقنع (*)

محمد عزيز الحبابي

(للتخلف مظاهر شتى معروفة وشتى هى أسباب التخلف . سنتناول ، فى الصفحات التى تلى ، عوامل الاستعمار الاجنبى فى التخلف الثقافى ، دون أن نتعرض الى علاقات هذا التخلف بالاوضاع الداخلية والذاتية (مثل تآمر «النخبة» الاهلية على التراث القومى وأدوارها فى مسخ ذهنية المواطنين) ، فلذلك حديث آخر.)

يعتبر الاستعمار سلاحا خطيرا يفتك بالانسانية لانه يعوق تطور ثقافة المستعمرين (بفتح الميم) ، بل يعمل جاهدا ليحملهم على نسيان تراثهم القومى ومشاركتهم فى الحضارة. «اننا، فى بعض الحالات نقدم للدول التى نسميها متخلفة الآلات والتقنيين ولكننا لم نقترح قط منهاجا كاملا واقعيا يساعد فعليا ، هذه الشعوب على مواجهة مشاكلها أو على تحقيق مطامحها المشروعة» (1) .

لنضرب مثلا بحالة هنود أمريكا : انها عملية اجتثاث لاصول الثقافة . فلا يكاد يعرف شىء عن ثقافتهم ، وكل ما تبقى هى كمية ضئيلة من الشعر الهندى يرجع الى ما قبل الاستعمار ، ولا يتوفر الباحث الا على ترجمة رديئة باللغة الانجليزية للملحمة الهندية Wallam Ollun، وقد عثر على نقوش تعرض بعض فصولها (2) . أن الاستعمار يقوم قبل كل شىء ، بتفكيك شخصية السكان الاصليين . فافظع جرح تعانيه الانسانية هو اقتلاع جذور كثير من الشعوب المغلوبة الملقاة فى أحضان الضياع مهملة مشردة فوق تراب وطنها ، مفصولة عن تراثها القومى وقد اصبح غريبا بالنسبة ل «الاهالى» «وأهالى» هنا تتخذ معناها القدحى ، طبقا لما اصطلحته لغة الاستعمار) o

لقد أمست الثقافة ، اليوم ، بالنسبة للافراد والشعوب ، ضرورة حياتية ، بالمعنى العميق لهذا اللفظ . ذلك أن الثقافة، كما أوضحناه فى حديث سابق . نستمد مصدرها من العمل ، بصفته ملتحما بالطبيعة الانسانية . ان الثقافة فعالية

*) صفحات من كتاب عن مشاكل الثقافات القومية والحضارة الانسانية ، تحت الطبع (القاهرة الانجلو المصرية)

1) انظر Tibor Mend, in journal Le Monde 7-7-1956.

2) انظر Alain Bosquet, Antholagie de la Poésie Américaine, Paris, Stock 1956.

صادرة عن الوعي بالذات ، الوعي الذي يشمـل التكوين التقني والاقتصـادي والمجتمعي،والسياسي والفكري0ومن هذا المستوى الثقافي الطبيعي، يستطيع الفرد أو الشعـب، أن يتخطى المرحلة التي يرتفع منها الى ما هو شامل ، اى التي تجعل منه متحضرا

لقدكان أمانويل مونيي محقا عندما أبرز قيمة الرابطة الاصلية التي تجمع بين الطبيعة والوجود والعمل في الشخص • ذلك أن الشخص لا يستمر ويتقوى ويتفتح ويعبر عن ذاته الا بفضل جهود متجـددة يوجه بها ذاته وعالم الاشياء (3) • ولكي نحقـق الشمولية ونرتفع الى مستوى الجوهر ، يجب أن نتخلى ، كما قال (هيجل) عن الكائن ـ لذاتـه ، أي عن قيمته المباشرة «لكـن من هنـا يكتسب الجوهر فعاليته» (4) • وهذا هو المستوى السوى للتفتح الواقعي التام للشخص : فبقدر ما يتسع مدى الشخص بقدر ما تتقوى فعاليته وقدراتـه «ان الشخص يستمـــر في تثقيف ذاتـــه الى أن يدرك ما هي الثقافة في ذاتها ، وحينئذ فحسب تصبـــح في الـذات وتكتسب بـذلك كينـونة فعالـة» (5) •

*

* *

بغية ابادة ثقافات الشعوب المستضعفة وفق منهج منظـم ، يمضي المستعمـرون ومـؤرخـوا الاستعمار يعللون ما قامت به ، وما زالت تفعلـه الامم «الناشرة للحضارة» ، فيعطون تفسيـرات أصبحت كلاسيكية ، مثل قولهم :

«الآن وقد حمل الغرب الاهالي فضائل الحضارة فما عليهم الا أن ينتفعوا بها • فان هم لم يستفيدوا فذلك راجع الى طبيعتهم المتوانية المتراخيـــة أليسوا أحـرارا في أن يعملوا لبعـث ثقافتهـم ، ان كانت لديهم ثقافات ؟ لقد منحـوا المســـاواة المدنية والسياسية بالبيض ، ولكنهم لا يعرفـون كيف يستغلونها انهم مفطورون على ذلك ولا أحـد يستطيع أن يغير من طبيعتهم» •

يالها من سفسطة . ••

جميع ذي النوايا الحسنة يدركون لا معقولية النظرية القائلة بوجود طبيعتين متباينتين ، طبيعة «البيض»المتحضرين والمسؤولين عن الرسالـة الحضارية ، وطبيعة بقية أجزاء البشرية التي لا تنتمي الى الغرب ، ولذلك فهي ليست «متحضرة» (6) • ولم تؤد قط رسالة حضارية ، وليست لها قابلية للتحضر، كلهذا مجرد مغالطات وسفسطة يدحضها التاريخ ويكافحها الواقع : لا وجـــود لاختلاف نوعي بين شعوب لها جوهـر بـدائي ، وأخرى لها جوهر قابل للتطور •

لقد برهن (رومانيس) على بهتان تلك الدعاءات بصفة غير مباشرة ، في نهاية القرن الماضي عندم نشر كتابه «التطور الذهني عند الانسان» (7)يأتي المؤلف بمثال على التواصل المتبادل ، مستندا الى التجربة التي أجراها (ماليرى) في الولايات المتحدة وقوام هـذه التجربـة أن مقابلـة نظـمت ، في 6 مارس 1880 بين اناس صم بكم من الجنس الابيض

---

3) انظر J.M. Domenach, in esprit, N° 2. 1956 P. 70.

4) انظر La Phénoménologie de l'esprit I, II, Paris Aubier P. 53

5) نفس المصدر ص 5

6) انظر John Dewey, Freedan and culture (New-York Putman's sons)

7) انظر (7) Romanes, l'évolution mentale chez l'homme TRA, gr, H de Volgny, Paris Alcau 1891.

غير متعلمين وبين فئة من الهنود الحمر، فاستطاع الصنفان من الاشخاص أن يتفاهموا عن طريق لغة الاشارة ، لان الاساس البشرى الخام متشابه (8) . فمثلا «عندما لامست اليد اليمنى اليد اليسرى كان معنى ذلك «لاشىء» وعندما عانقت اليد اليمنى اليسرى ، واستقرت الاصابع فوق ظهر اليدين ، كانت دلالة هذه الاشارة «الصداقة» . وقد استطاع الصم البكم أن يفهموا ذلك ، وأن يفهموا أيضا الاشارة التى ترمز الى حلب البقرة وشرب اللبن (ص 113 من نفس الكتاب)

اذن ليست هناك سوى طبيعة انسانية واحدة أما الاختلافات فمنشؤها أوضاع الحياة التى تتغير من مجتمع لآخر .

«المساواة» التى يدعى البعض أنها منحت لـ «الاهالى» فى الاقطار المحتلة (سياسيا أو اقتصديا ...) لا تعدو أن تكون بندا شكليا محضا مسطرا فى القانون العام . ذلك أنه لا تعطى للمستعمرين سوى حريات ثانوية باستثناء أفراد قليلين يحصلون على هذه الامتيازات ، لكن فى شكل مساومة : يمنحون بعض «الحريات» أو الامتيازات ، على حساب مواطنيهم «الاهليين» وعلى شرط أن يصيروا «متعاونين» أى سدنة لهيكل الاستعمار .

يضاف الى هذا القيد فى الكم ، قيد آخر يفرض على نوع الحريات الممنوحة ، فغالبا ما تكون هذه الحريات مرتبطة بفكرلوجيا مركزة على نظام «الاقتصاد الحر» الذى لا يكفل للمستعمرين حق الثقافة ، وانما يضمن لهم فحسب حرية نسبية تخولهم أن يصبحوا عمالا متخصصين

صحيح أن نوعية الاقتصاد ، فى النظام الاستعمارى ، تسمح أحيانا للسكان الاصليين أن يتعاقدوا مع من يشاؤون ، وأن يتمتعوا بحقهم فى المساواة مع الجميع ، الا أن هذا النظام يغفل دراسة ما اذا كانت الاوضاع الحقيقية تفسح المجال للجميع ، أم أن القوانين هى مجرد ضمانات وضعت لكى يظل الاقوياء أقويا. يمتلكون الموارد المادية الاولى والثقافية التى تتأسس عليها قواهم ويبقى المستضعفون «أحرارا» أمام جهلهم وضعفهم ...

انه نظام تسابق بين اناس قواتهم غير متساوية على الاطلاق ، نظام مباراة بين خرفان حرة ، وذئاب حرة ، فى نفس الحلبة ! وهى نتيجة مرة لنظام الاقتصاد الحر ، تتمسك بها حتى الدول المترفهة. فأولئك المنسيون فى الولايات المتحدة سواء منهم البيض او السود ، وسواء الصفر أو الحمر (والذين لا يقل عددهم عن ثلث مجموع السكان !) يمثلون المهجورين المنفيين فى أرض

*
* *

(8) Garrick Mallery Sing, langage among the North Américan Indiaos, Firt Annual Report of the Bureau of Ethnology, Washington, 1881.

9) انظر كتابنا «أحرية أم تحرر ؟» الفصل المتعلق بالعندية والملكية

النعم ، وكأنهم بمثابة نفايات لفظها المجتمع ، الا أنه، كلما أتيحت الفرص للبعض من المستعمرين المتخلفين ، البدائيين ، حصلوا على نفس النتائج التى يحصل عليها الآخرون ، وأحيانا يتفوقــون على المتمدنين ، المستعمرين ، الممرنين • فكما يلاحظ (اليبر ميمى) فى كتابه «الصور الذاتية للمستعمر» • (10) ان : المستعمرين الــذيــن ينجحون يكونون «عادة متفوقين على الاوروبيين من نفس الدرجــة ، ويستحقــون مــا نالــوه عن جدارة» (11) •

تلك بعض مغامرات «التــآمر» على الثقــافــات «الاهلية» فاذا تجاوز الباحث المظهر الى المكنون ، ماذا يجد ؟

* * *

ذلك ما سنحاول الاجابة عليه فى العدد المقبل

---

(10) A. Memmi, Portrait du colonisé.

11) يمكن الرجوع أيضا الى قصة لنفس الكاتب بعنوان : La Statue de Sel



فلسفة ابن خلدون الواقعية

ابن عمار الصغير

ان الدراسة العلمية تقتضي النزاهة والابتعاد عن العاطفة التى قد تشوه الحقائق وتسبغها بنوع من الانحياز. وان المفكر الحقيقى هو الذى لا يظهر الجانب الايجابى من ظاهرة معينة او عامل معين ، بل فى مقابل ذلك عليه ان لا ينسى الجوانب السلبية التى قد توجد فى الظاهرة ، وذلك ليعطيها صورة امينة وحقيقية واضحة ، ان الابتعاد ونسيان الجوانب السلبية فى الظاهرة يجعل البحث فيها يتسم بنقصان وعدم كمال ـ وليس هذا من قبيل التفكير الحر السليم ـ حقا ان الحقيقة تصبح محرجة فى بعض الاحيان وخاصة اذا كانت هذه الحقيقة تتعلق بالدارس او عقيدته أو شعبه وبنى جنسه ، ها هنا تظهر قيمة المفكر اذا استطاع ان يطفو على مجتمعه ويتعدى العاطفة ، ويزيح الحجاب عن كل نقيصة ـ ان وجدت ـ وعن كل الكمال .

اللاعرقية
أو مفهوم كلمة "عرب"
عند ابن خلدون

ونظرة تأمل الى تاريخ التفكير البشرى فى هذا الصدد تبين لنا بأن المفكرين أو الفلاسفة كانوا دائما ينحازون الى بنى جنسهم . فأفلاطون لا يرى شعبا متمدنا خارج الشعب اليونانى . والفيلسوف الحاكم ـ مارك أوريل ـ الرومانى لا يرى شعبا متمدنا منظما خارج روما وأثينا . «وتوسيديد يبرز لنا قوة اسبارطا . والشعوبيون يظهرون قوة المسلمين من غير فضل العرب . أما هيجل فلا يرى تاريخا ولا سياسة خارج أوربا وعند الجرمان خاصة . واما «ارنست رينان» فيبعد التفكير السليم ، والتحليل والتركيب والربط فى التفكير العلمى عند العرب . فالعربى عنده لا يمكن أن يتعمق فى بحث ما لان ميدانه السطحيات .

ان النظرية العلمية الحديثة أبعدت هذه الخرافات ، وفندت هذا التزوير وذلك بوسائل علمية . واظهرت بان الانسان يساوى الانسان الآخر . وانما النتاج العلمى وليد ظروف جغرافية واقتصادية واجتماعية وتاريخية ـ أى انه لا بد من ايجاد ظروف معينة لكى نتمكن من هذا النتاج ـ ان العبقرية نفسها ليست خاصة بجنس معين وان لكل شعب من الشعوب عباقرة ـ وان طمسوا ـ فالعبقرى اذا قدر له أن يعيش ظروفا غير الظروف التى أنتجته لما استطاع أن يبلغ المستوى الذى بلغه ، «فبتهوفن» ـ مثلا ـ لو وجد فى منطقة جغرافية قاحلة كوسط افريقيا لما أنتج ما أنتجه فى ميدان الموسيقى ولما خلد اسمه بين كبار الموسيقيين ، ولكنه عاش ضمن ظروف مكنته من الوصول الى ما هو عليه ، فتوفرت لديه كل الوسائل التى تمهد له الطريق للخلق والابداع ـ أى لا بد للمجتمع أن يقدم رصيدا من الثقافة لهذا المواطن او هذا المفكر ـ واما ان يخلق عبقرى فى صحراء قاحلة أو فى غابة بعيدا عن الحضارة والثقافة فهذا ما لم يقدمه لنا التاريخ ولو مرة واحدة . واذا كان هناك من الباحثين من يلقب ابن خلدون بالفيلسوف ـ وهو نفسه يفند الفلسفة فانما فلسفته وتفكيره هو تفكير واقعى وليس عرقيا ، أى أن تفكيره علمى موضوعى .

ان ابن خلدون أدلى ببعض الآراء فيما يخص كلمة ـ عرب ـ فأثارت ضجة فى الاوساط العربية فى أيامنا هذه اذ رأوا فيه عدوا لدودا لما يسمى

اليـوم بالقـومية العـربية • كما ان هذه الآراء استغلت من طرف بعض الغربيين الذين يخفون حقدا وكراهية للعرب فوجدوا الفرصة سانحـــة اذ يقدمها لهم عربى قدير ومفكر محترم •

يبدو ان اول ضجة اثيرت فى هذا الصدد كانت فى العراق اذ رأوا بأن ابن خلدون عدو للعـرب ومن الكافرين بالعروبة ولذلك يجب حرق كتبـه نبش قبره وذلك باسم العروبة ـ 1 ـ

ثم قامت حملة أخرى ضد ابن خلدون فى مصر وكان منظمها الاول الدكتور طه حسين الذى غير الاتجاه وحاول أن يجد عاملا آخر وهو التشكـك فى نسبه العربى ولعل هذا التشكك يكون حلقة من سلسلة تشككاته المتعددة فى الادب الجاهلى والعربى • ويرى الدكتور بأن الكره الذى يكنـه ابن خلدون للعرب راجع الى بربريته ـ 2 ـ ثـم يأخذ بهذا الرأى مرة أخرى عبد الله عنان ـ 3 ـ ويقرر بأن حديث ابن خلدون عن العرب طـريف رغم ما يطبعه من شدة وتحامل•فالعرب فى نظره أمة وحشية تقوم فتوحاتهم على النهب ولا يتغلبون الا على البسائط ، ولا يقومون على اقتحام الجبال والهضاب لصعوبتها،واذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب (ص 112 من كتـابه ابن خلـدون وتراثه الفكرى) ثم يبين لنا الاسباب والدواعى التى جعلت ابن خلدون يحكم هذا الحكم القاسى فيقول : قد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة اذا ذكرنا رغم انتسابه الى أصل عربى بأنه ينتـمى فى الواقع الى ذلك الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليـــهم دينهم ولغتهم واضطروا بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض أن يندمج أخيرا فى الكتلة الاسلامية وان يخضع راغما لرئاسة العـرب فى افريقيـا واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضـه •

والخصومة بين العرب والبربر فى افريقيا واسبانيا شهيرة فى التاريخ الاسلامى ، وقد ورث البربـر بغض العرب من بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع فى هذا المجتمع البربرى يضطـرم بمشـــاعره وتقاليده وذكرياته • ونشأت فيه أسرته قبـــل ذلك بمائة عام ونعمت برعاية الموحدين البرابرة وتقلبت فى نعيمه فليس غريبا بعد ذلك أن نسمع منه أشد الاحكام وأقساها ع لىالعرب (ص 113 ـ 114 من نفس المصدر) • ويبين الاستاذ عنان بأن ابن خلدون لسان حال البرابرة ولهذا السبب فان ابن خلدون ينطق هنا بلسان الوطن البربرى الذىغزاه العرب وأثخنوا فيه مدىأحقاب وبسطوا عليه سلطانهم الدينى والسياسى • ولبث عصورا يقاتل فى سبيل حرياته واستقلاله (ص 114 من نفس المصدر) • ان الاستاذ عنان يظهر لنا مغزاه الحقيقى ـ حسب رأيه ـ والانتقادات التى وجهها لابن خلدون انما هى انتقادات مبنية على مفاهيم عرقية أى هناك عرق عربى مداس وداسه بربرى• ومن ذلك فان هجوم الاستاذ عنان موجه للبربـر وعلى رأسهم ابن خلدون • ويبين لنا مـرة أخرى الاستاذ عنان انحياز ابن خلدون للبربر حـــين يفرغ فصلا خاصا للحديث عن خلال البربر • ولم يعقد فصلا للتحدث عن خلال اية أمة من الامـــم الاخرى (فهو هنا ينم عن هواء خاص ونعرة بربرية واضحة ومن ذلك ما يفسر لنا صرامته من الحملة على العرب غزاة افريقيا المتغلبين عليها • • • • ص 114 من نفس المصدر) وأحمد أمين نفســـه وقع فى هذه الازمة غير انه يختلف عن الآخريـــن ورأى بأن ابن خلدون وقع فى تناقض وذلك لانه لم يحدد مفهوم كلمة «عرب» (فى كتابه ظهـــــر الاسلام ص 293 ـ 294) وتحـاشى أن يظهر ابن خلدون بمظهر المتعصب الناقد الحاقد على العرب• ويرى «غوتيه» فى كتابه ماضى شمال افريقيا حين يذكر قول ابن خلدون ليعزز آراءه الهـــدامة :

(ان ابن خلدون مولع باستطلاع الامور فما أغرب هذه الخصلة الغريبة من امرىء مسلم ـ ص 101) ويضيف **(هل نفرض أن ريحا من رياح نهضتنا الغربية قد هبت عبر الاندلس حتى نزلت على روح ابن خلدون الشرقية ـ ص 96) أى ان ابن خلدون ككل العرب لا يمكن «لطبيعته» أن يفكر تفكيرا موضوعيا سليما ٠**

هذا سرد لأهم الآراء التي قيلت فى هذا الصدد عن ابن خلدون وقبل أن نرد عليها علينا أن نعود الى آراء ابن خلدون نفسها ٠ ونتساءل : ما موقف ابن خلدون من كل ذلك ؟ وهل حقا يظهر كراهية للعرب وهو العربى النسب وهل فضل البرابر على العرب ؟

فلنسرد آراءه التى أدلى بها فى ما يخص كلمة عرب ولنتابع مفاهيمها ، وفى اى نطاق ذكرت ليتضح لنا مفهومها الحقيقى ٠

فى الباب الثانى من المقدمة نجده يعقد أربعة فصول (25 ـ 26 ـ 27 ـ 28 ـ أى من صفحة 260 ـ 269) لدراسة هذه الكلمة وهى : **فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط٠وفصل فى أن العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب٠ وفصل فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية او اثر عظيم ٠ وفصل فى أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك٠** ثم يعود ابن خلدون فى الباب الخامس من المقدمة ويعقد فصلا وهو (الحادى والعشرون) ليتكلم مرة ثانية على العرب بقوله : **فى أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ٠**

هذه هى الفصول التى يقرر فيها حكمه ٠ وقد ذكر فى مقدمته وفى تاريخه كلمة «عرب» فى مواطن ومعانى مختلفة ٥ والسؤال الهام الذى نطرحه هنا هو : ما هى الادلة التى استند عليها ابن خلدون فى اطلاق هذه الاحكام العارية من كل مجاملة ؟ وما هى التعليلات التى يوردها لبيان أسباب هذا النوع من الطبائع والاخلاق ؟

ان ابن خلدون بعيد جدا عن الحديث العاطفى لانه لا يدلى بحكم الا ويعلله بعلل جغرافية واقتصادية وتاريخية ٠

اننا نجد ابن خلدون وكأنه يقول : ان كل شعب أو مجتمع احيطت به مثل هذه الظروف ، أو كانت حالته على هذا المنوال الا وكانت طباعه على مثل ما كان عليه العرب ٠ ان ابن خلدون جعل من كلمة عرب معنى ومرحلة من مراحل الاجتماع البشرى أى البداوة والتوحش ـ والتوحش هنا لا يعنى معنى اخلاقيا وانما حالة طبيعية أى لا دخل لحكم القيمة فى ذلك ـ وهى المرحلة الاولى لتكوين المجتمعات وسيرها فى طريق الحضارة ٠ وان أصل الحضارة نفسها انما هى البداوة ٠ ففى هذه المرحلة التى عليها العرب تنسب لهم كل النقائص التى تنسب الى مرحلة بدائية بالنسبة الى مرحلة أكمل منها ٠ انه لم يتحدث عن العرب بوصفهم جنسا من اجناس البشر ـ وان هذه هى خاصته وسيبقى كذلك كما يدعى بعض المتعصبين الغربيين ـ ولكنهم بوصفهم سكان منطقة جغرافية معينة ، وحالة اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة ، سواء كان سكانها جنسا من العرب أو من الترك أو من الصقالبة ٠ انه يستعمل كلمة «عرب» كأنها مرادفة لمعنى من المعانى الاجتماعية ، وليست اسما لجنس من أجناس البشر ، وهو نفسه يوضح ذلك بقوله : «ومن كان فى معناه» ٠

ولنعد الى النصوص ونتأمل ما قاله فى هذا الصدد ، ونتتبع تعليلاته لنتبين هل كانت دراسته مبنية على عاطفة أم هو حكم نتيجة لبحث علمى دقيق ٠

يقول ابن خلدون فى الفصل الحادى عشر ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط ، وذلك لانهم بطبيعة التوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر (4) ٠

ان هذا الوصف وصف حقيقى لحالة طبيعة التوحش ـ التسلط على أسهل الاشياء واخذ ما أمكن أخذه ـ وهذه الاغارات معروفة فى كتب التاريخ أى هناك قبيلة تغير على أخرى وان الاغارات كانت تأخذ أسهل هدف لان الضحية لا بد أن تكون سهلة الوصول وأوهن قوة من القبيلة المغيرة لكى يتمكن من مغالبتها وارضاخها ويقول ابن خلدون فى نفس الفصل (فكل معقل أو مستعصب عليها فهم تاركوه الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له ٠٠٠ واما البسائط متى اقتدروا عليها لفقدان الحامية وضعف الدولة فهى نهب لهم وطعمة لآكلهم) ٠

أما اذا انتقلنا الى فصل آخر ، ولعله الفصل الذى أثار الحمية العرقية عند الناقدين العرب هو الفصل الذى يقول فيه (ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب) واما البرهنة التى يقدمها على هذا الحكم فهى : ان السبب فى ذلك انهم أمة وحشية ، وباستحكام التوحش واسبابه فيهم صار لهم خلقا وجبلة ، وكان عندهم الفا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ٠ هذا الحكم هو وصف للحالة الطبيعية للتوحش ، المقابل للتجمع أو التمدن ٠ وهذا الوصف فى الحقيقة ليس خاصا بالعرب ، وانما يمكن أن يطبق على كل الشعوب فى هذه الحالة أو فى هذا الطور٠والتوحش حالة طبيعية يعيشها الكائن الحى انسانا كان أو حيوانا عيشة منفردة ومنعزلة وبعيدة عن العمران والتنظيم ٠ ان هذا الكائن الحى الذى تعرض لشظف العيش،والجفاف والرمال لا بد أن تكون طباعه على هذه الحالة ، وذلك لعدم توفر انظمة تقهره وتوقفه عند حده ٠ ويضيف ابن خلدون فى نفس الفصل شرحا وتعليما (فغاية العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له) ، أى ان السر هنا فى الترحال وعدم الاستقرار اذ ان المدنية تتبع حتما السكون أما الترحال فغايته مؤقتة ، يأخذ ما قدر عليه ، ويستغل الثمين والخسيس لحل أزمة مؤقتة ٠

ويعقد فصلا آخر ـ وهو الفصل الحادى والعشرون من الباب الخامس (ص720) ـ للحديث مرة أخرى عن العرب ويرى بأنهم ابعد الناس عن الصنائع ٠ **انه لا يعلل ذلك بقلة الذكاء او تاخرهم العقل كما يفعل «رينان» وانما يعلل ذلك بأسباب منها : انهم أعرق فى البدو ، وابعد عن العمران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع ـ أى انهم فى مرحلة اقل من مرحلة الصنائع ـ وهى مرحلة البداوة ـ ولكى تتبين لنا فكرته ـ اللاعرقية ـ أكثر فهو يعطى امثلة لأجناس اخرى فى نفس الفصل (وعجم المغرب من البربر مثل العرب فى ذلك لرسوخهم فى البداوة منذ احقاب من السنين) واذا قال بانهم ابعد الناس عن العلوم علل ذلك بان العلوم محتاجة الى التعليم وهو مندرج فى جملة الصنائع ٠ والصنائع لا تكون الا فى المدن اى فى مرحلة الاستقرار ونشوء الحضارة**

ثم تنتقل بعد ان ذكرنا الاغارات ونتائجها التى هى من صفات التوحش ومن المتطلبات الاقتصادية ـ أى المعاشية ـ وفقدان الصنائع والعلوم فى هذه المرحلة لنفس الاسباب ، لنصل الى مرتبة تأسيس الملك ٠ فكيف يكون ؟ أو ما هى الاسباب التى تمكن العرب من تكوين الملك وتسييره ؟ ان ابن خلدون يرى بأن العرب لا يحصل الملك لها الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم

من الدين عن الجملة • فبما ذا يعلل ذلك ؟ يرى ابن خلدون ان السبب فى ذلك انهم لخلق التوحش الذى فيهم أصعب أمة انقيادا بعضهم لبعض ، للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرئاسة • فقل ما تجتمع أهواؤهم • فاذا كان الدين بالنبوة او بالولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس •• أى ان الدين عنصر لتغييرهم من حالة التوحش والانعزال الى حالة قابلة للاجتماع والتمدن •

ولنا أن نتساءل أخيرا هل ذكر ابن خلدون نقائص العرب فقط أم ذكر فضائلهم مقابل ذلك ؟ – وهى الفضائل الموجودة عندهم وفى حالة التوحش – وذلك ليتبين لنا اذا كان منصفا أم متحيزا ، اذا كان يحكم احكاما عقلية أ معاطفية ؟

اننا نجد ابن خلدون يقرر فى الفصل نفسه الذى يتكلم فيه عن النقائص فى حالة التوحش يبين كذلك الجانب الايجابى فيها (وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير •••) – 5 –

نجد ابن خلدون فى هذه الفترة يلتقى مع «روسو» الذى يرى : بان الحالة الوحشية هى الحالة الطبيعية والمرحلة الاولى للانسانية •

هذه هى الآراء التى أدلى بها ابن خلدون والتى أدت الى كثير من الفهم الخاطيء ، لقد درس ابن خلدون وضعية اجتماعية دراسة موضوعية ، ووصف مرحلة من مراحل البشرية فى حالة تجمعها وذكر الحقائق التى تتسم بها هذه الظاهرة من نقائص وفضائل • ان ابن خلدون أبعد الناس عن التعصب والتحزب وكيف يكون كذلك وقد أدلى برأيه فى التاريخ اذ يرى بأن التحزب والتشيع مفسد لرواية الاخبار وصحتها ، ومفسد للعلم نفسه •

أما اقتصاره على دراسة المغرب • وهذا رد على الاستاذ عبد الله عنان – فهذا ما يخبرنا عنه ابن خلدون نفسه موضحا ذلك (وانا ذاكر فى كتابى هذا ما أمكننى منه فى هذا القطر المغربى اما صريحا ومندرجا فى اخباره وتنميحا **لاختصاص قصدى** من التاليف بالمغرب وأحوال اجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار) لماذا ؟ **(لعدم اطلاع على احوال المشرق وامه واما الاخبار المتناقلة لا توفى كنه ما اريده منه فالمسعودى انما استوفى ذلك أبعد رحلته•••)** هنا تظهر لنا طريقته العلمية لا التعصبية أو التشييعية وهى قيمة المشاهدة وتقلبه فى البلاد• وهذا مايسميه علماء الاجتماع بالممارسة والمشاركة كما ذكر فى كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصد فى استيفاء أحواله • – 6 –

ان هذا اللفظ الصريح ليس تعصبا للبربر ، ولا تعصبا على العربَ وانما النزاهة العلمية تقتضى ذلك ، وابن خلدون الذى نقد أسلافه كيف يمكنه أن يرتد عن رأيه الاول وان يخالف ما اوصى به ، ولذا نجده يتحاشى الكلام عن ظاهرة يجهلها ، او عن أخبار لم تمكنه الظروف من تصحيحها وتمحيصها واما ذكره للمغرب فلانه شاهد تقلباته واحواله وفهم بذلك كل ما يدور به من بنيات اقتصادية واجتماعية وسياسية •

ان دراسته للعرب انما هى دراسة وتحليل اجتماعى لمرحلة من مراحل التجمع البشرى ••انه وصف وتعليل لكل النشاطات والسلوكات واظهار للعلل • وبذلك نعد دراسته دراسة علمية موضوعية لا دخل للحكم الاخلاقى او العاطفى فيها•



ان كلمة عرب تعنى معنى لمجتمع فى الحالة الطبيعية المتوحشة · ونجد ابن خلدون فى هذا الصدد يقدم صورة حية للحياة المجتمعية فى جميع ابعادها · انه يصفها من الداخل حين يكلمنا عن حياتهم الاقتصادية والنفسية والعلاقات الاجتماعية كل ذلك وهو مجترد من الذاتية. ونجده فى دراسته يراعى العامل الحركى لان المجتمع فى تحرك دائم وهذا ما يذكرنا بموقف المدرسة الاجتماعية المعاصرة المختصة بالمجتمعات البدائية ويمثلها ـ ليفى برول ـ ومن ذلك يبدو لنا جليا بان كل مجتمع لا يكتفى بما اجتمعت له من وسائل المعاش دون أن يمتد بصره الى ما وراء ذلك من امكانيات حضارية أخرى · وقد مرت الشعوب حتى فى بدايتها أن تتصور عوالم أخرى خارج عالمها الضيق فى صور شديدة الاختلاف ، فهى أحيانا مبالغة فى القدرة والقوة والمهارة وهى أحيانا امعان فى الضعف والتخلف والتاخر · وهذا ما يبين لنا بأن الانسان يدرك دائما ان هناك انماطا معاشية أخرى ممكنة ، وهذه التحركات والاغارات من الوسائل المغيرة لنمط الحياة البدوية ، أو حياة الترحال ·

واما الدرس الذى يمكن ان نستخلص من هذه الفصول فهو ان ابن خلدون وصف حالة اجتماعية فى طور من اطوارها · ان هذه الدراسة الموضوعية ستعيننا على تفهم المجتمع البدوى فى هذه البلاد فى ايامنا هذه على الرغم من تعاقب الاجيال فان الحالة الاجتماعية فى هذا العصر مضاهية فى كثير من الاوجه للحالة الاجتماعية فى عصر ابن خلدون · وان الحركية ـ أو الصراع ـ ما زال قائما بين طبقتين : البدوية والحضرية ·

مراجع خاصة :

1 ـ الاستاذ ساطع الحصرى يورد الرد على هذه الآراء فى كتابه : دراسات فى مقدمة ابن خلدون ··ويدافع عن ابن خلدون ليثبت عروبته غير اننا نتفق معه فى بعض آراء اخرى اذ غايتنا ليست اثبات عروبته وانما تتبع طريقته العلمية ·

2 ـ الدكتور طه حسين : دراسة نقدية وتحليلية للفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون

3 ـ عبد الله عنان : ابن خلدون حياته وتراثه الفكرى

4 ـ المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص262)

5 ـ المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص266)

6 ـ المقدمة (ط لبنان دار الكتاب ص530 ـ 540)



الأندلس

تاريخ اسم وتطوره

مع اول جماعة من المسلمين وطئت اقدامها الشاطىء الجنوبي من مضيق جبل طارق ، تهيأ التاريخ لمرحلة اخرى في سيره: افريقية تفتح اوربا،وفي جانب منها لاتيني وكاثوليكي ، يستقر الاسلام ، وتعلو كلمة الله ، وتتخذ العربية لسانا ، وعلى سطح الجزيرة الايبرية تتعايش اجناس من البشر واللغات والعقائد ، ويظل الاسلام بيسره وسماحته ومساواته الناس جميعا .

د. الطاهر
أحمد مكي



لم يعد الملوك مردة جبارين ، متعتهم القهر ، وميسمهم الاذلال ، ولم يعد المستعبدون فى الارض رقيقا، يصنعون الرفاهية دون أن يشاركوا فيها ، ويصوغون الحياة دون أن يأخذوا بحظ منها ، وأقام دون الامس ، وما هو غير صالح من عاداته وتقاليده ونظمه ، حجبا كثافا وأستارا صفاقا ، ليواجه المجتمع الجديد مستقبلا أكثر تفاؤلا ، وأخف أثقالا . وكان من بين الجديد الذى جاء به ، اسم جديد لشبه الجزيرة لم تعرفه من قبل ، وما زال حتى أيامنا هذه يثير من حين لآخر شيئا من الفضول العلمى ، لاستكناه أصله ، والتوصل الى مصدر اشتقاقه ، ورغم كل ما كتب عنه ، وبخاصة فى دراسات المستشرقين ، فان تفسيرنا له ، مجرد ظن مصدره التبصر ، وليس حقيقة تقطع بها الوثائق ، وتدعمها الشواهد ، ونجد لها بين مصادر التاريخ دليلا .

كان المسلمون الفاتحون أول من أطلق اسم الاندلس على هذا الجانب من الارض ، أما قبل ذلك فعرفت اسمين مختلفين : أطلق عليها الاغريق لفظ ايبيريا IBERIA الى جانب أسماء أخرى ذات طابع اقليمى . وهو اسم كان فى البدء يعنى شواطىء شبه الجزيرة التى تطل على البحر الابيض المتوسط ، الجنوبية والشرقية ، ثم توسع فى استعمالها حتى شمل شبه الجزيرة كلها ، ونجد اللفظ مستخدما لاول مرة فى مؤلفات HECARTEE DE MILET وهو اغريقى ، مؤرخ وجغرافى، عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . وهى حقيقة لم يغفل عنها الجغرافيون العرب القدامى ، يقول الحميرى ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن عبد المنعم ، المتوفى عام 866 هـ ، فى كتابه «**الروض المعطار فى خبر الاقطار**» (ص 2 طبعة القاهرة 1927) ، وهو يتحدث عن الاندلس ، وقيل اسمها فى القديم اباريه . IBIRIA.

والاسم الثانى ، وأطلقه الاغريق أيضا ،أو على الاقل أول ما نعثر عليه نجده فى كتاباتهم ، فهو ISPANIA ولو أن أصل الكلمة يجب أن نبحث عنه فى لغة قوم هم أقدم من اليونان ، والكاتب BOCHART يرى فى كتابه «الجغرافية المقدسة» وصدر فى مدريد عام 1712 ، أن الاسم مشتق من الكلمة الفينيقية SPAN بمعنى بلاد الارانب ، لان شبه الجزيرة كان غنيا بهذا النوع من الحيوان . واحدى العملات القديمة التى وصلتنا من عصر ADRIANO تمثل اسبانيا فى شكل أم جالسة بين قدميها أرنب ، وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلا . نعم ، هناك من يرى أن الكلمة ربما كانت من أصل سلتى ، وأن أصلها فى هذه اللغة هو نفس أصل الكلمة الالمانية SPANN ومعناها قدم ، ولكنه افتراض أبعد عن التصور من افتراض الاصل الفينيقى ، وقد استخدم اليونان شكلا ثانيا للكلمة وهو SPANIA ،وربما كان الكاتب الاغريقى ARTEMADORO هو أول من استخدمها.

أما الرومان فقد استخدموا الكلمة اليونانية ISPANIA بعد أن زادوا عليها حرف H فى البدء فأصبحت HISPANIA وأول من استخدمها مكتوبة بهذا الشكل الشاعر الرومانى TITO LIVIO وعاش من 59 ق م الى 17 ق م ، واستخدام الشاعر لها ، يعنى أنها كانت معروفة بين الناس قبل هذا التاريخ ، وقد استخدموا اللفظة الاخرى SPANIA استخداما قليلا ، ومن هذه الاخيرة اشتقت لفظة اسبانيا ESPANA الحديثة . ويشير الحميرى أيضا الى هذه الحقيقة فيقول ان «اسم الاندلس فى اللغة اليونانية **اشبانيا**» .

أما كلمة هيبيريا HESPERIA ، وترد أحيانا فى بعض المصادر الاغريقية مراد بها شبه الجزيرة نفسها ، فانها ليست مختصة باسبانيا ، وانما

تعنى ، فى اللغة الشاعرية ، كل الاراضى التى تقع غربا على شاطىء البحر الابيض المتوسط •

لم يعرف العرب قبل الفتح كلمة الانـــدلس وبتعبير يافوت ، فى معجم البلدان : «**هى كلمة اعجمية لم تستعملها العرب فى القديم، وانما عرفتها العرب فى الاسلام**» ، وباستثناء الاشارات العارضة والنادرة الواردة فى كتب الرحالة والمؤرخيـن والجغرافيين الاندلسيين ، فان المصادر العـربية لا تعرف أيضا كلمة «أسبانيا» ، ولا تتحدث **عنها** • والمؤلفون العرب عدا قلة يقولون «**بلاد الاندلس**» فمن أين أخذ العرب هذا الاسم ؟ •

* * *

كان المستشرق الهلندى **رينهارت دوزى R. DOZY** المتوفى عام 1883 ، أول من طرح مشكلـة الاسم ، وحاول أن يجد لها تفسيرا علميا ، وهو نفس التفسير الذى قبله سيبولد **C. F. SEYBOLD** محرر مادة أندلس فى دائرة المعارف الاسلاميـة وتوسع فيه شيئا كلاهما يرى انه مشـــــتق من كلمة WANDALUCIA ، وهى صيغة ربما أطلقت على أقليم باطقة BETICA الذى احتله الوندال قريبا من عشرين سنة ، من 411 م الى 429 ويشمل منطقة واسعة فى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة ، يخترقها نهر الوادى الكبير • وربمـا أطلق أيضا على ثغر TRADUCTA الذى عبر منه الوندال فى طريقهم الى أفريقيا • ويظن ان موقعه هو ما يطلق عليه حاليا الجزيرة الخضراء ALJECIRAS • بينما تشير الروايات العربية الى أن موقعة هونفس المكان الذى حط فيه طريف رحاله مستطلعا ، والذى حمل اسمه الى الابد ، فعرف باسم جـزيـرة TARIFA ، غير أن تحديد الموضع بالدقة ، هل هو مدينة الجزيـرة الخضراء ، أو جزيرة طريف ، أو الصخرة التـى حملت اسم طارق بن زياد ، ما زال موضع خلاف وهو خلاف لا تترتب عليه أية نتائج عملية ، لان المواضع الثلاثة تكاد تكون متصلة •

ووفقا لهذه النظرية ، فان الفاتحين المسلمين من العرب والبربر ، أطلقـوا اسـم الاقليـم أو المدينة ، التى هبطوا فيها لاول مرة عـلى شبـه الجزيرة كلها ، بل وعلى ما دان لهم من ولايات فى جنوب فرنسا ،مثل سبتمانيا SEPTIMANIE ونربون NARBONNE •

هذا التدرج فى التسمية تدعمه رواية للحميرى يقول فيها : ان شبه الجزيرة فى القديم كـــان يسمى أيبيريا ، ثم سميت بعد ذلك باطقة BETICA ، ثم سميت اشبانيا ، اسم رجل ملكها فى القديم ، أو الاشبان الذين ملكوها فى الاول من الزمان ، ثم أطلق عليها الانـدلس ، أخذا من اسم الاندليش الذين سكنوها • • لكن الرواية العربية، وهى بازاء تسمية غامضة تحاول أن تجد لها تفسيرا ، لا تقف عند التاريخ الخالص وحده وانما تضرب فى بيداء الاسطورة على غيـر هدى ، والحق أن أكثر مـا نجـد ذلـك فى كتب التاريخ ، وأقل ما نجده عند الجغرافيين •

فهى سميت بالاندلس ، لان أول م نسكنهـا الاندلس **بن طوبال بن يافث بن نوح ، أو الاندلس بن يافث مباشرة دون عبور بطوبال** • ولتتعادل الحكاية ، وتجد لها من قلوب الناس مكانا ، وان لم يكن لها من عقول المفكرين نصيب• فان سبت بن يافث ، أخو الاندلس بن يافث ، عبر المضيق ونزل بالعدوة بالمقابلة للاندلس ، وحط رحالـه فى مكان نسب اليه ، وحملت المدينة التى نزلها اسمه ، فكانت مدينة سبتة CEUTA ، وما تزال قائمة عامرة حتى أيامنا هذه •

وتضطرب الاسطورة فتجعل اسـم الانـدلس سابقا لاسم اسبانيا ، وتجعل من الاخير اســم



لملك اجتاح الاندلس وملكها وعمرها ، اسمه اشبان بن طيطش ، ولا يجد القاص معنى لكلمة اشبانيا ، فيوشيها بشيء من التوابل ، تجعلها ذات نكهة ومذاق ، فيضيف اليها : وذكر بعضهم أن اسمه اصبهان ، لان مولده كان بها ، وانه استحال فى لسان العجم فأصبح اشبان • وهو استنتاج ذكى تدعمه قوانين اللغات، فالهاء حرف غير منطوق فى اللغات اللاتينية ، والسين والشين والصاد من مخرج متقارب ، ويحل أحدهما مكان الآخر ، ولما كانت اللاتينية ، وبالتالى الاصبانية لا تعرف حرفا لصوت الصاد ، فهى تستعيض عنه عند نقل كلمة اجنبية اليها تضم ذلك الصوت ، بأقرب الحروف اليه مخرجا ، فكانت السين أو الشين • غير أن هذه الاشارة وان اتسمت بالذكاء يبعدها عن الواقع ، أن التاريخ يقف منها فى الجانب المقابل ، ان اسم اسبانيا أقدم بكثير من مجيء اصبهان الى الحياة •

ويمضى **المقرى** فى نفح الطيب مع الاسطورة الى نهايتها ، ورواية عن ابن حيان فى المقتبس ، يزيد فيقول : وذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف على اشبان المذكور وهو يحرث الارض ، فخاطبه ، ودعا له ، وبشره ، فى حديث مسجوع مصنوع ، أشبه بسجع الكهان ولئن كان الخضر فى عالم الاساطير يتحدث بكل اللغات فلم يقل لنا الراوى بأيها تحدث الى هذا الشيخ اشبان !

ومع اشبان هذا تستطيع أن تمضى لحظات ممتعة عبر خيال خصيب ، فهو أحد الذين ملكوا أقطار الدنيا ، فيما زعموا ـ والاحتراز من المقرى! استوت له الاندلس بأسرها ، ودان له من فيها واتخذ اشبيلية دار مملكته واستغلظ سلطانه فى الارض ، وكثرت جموعه فعظم عتوه ، وغزا ايليا ، وهى بيت المقدس الشريف، بعد سنتين من ملكه ، خرج اليها من اشبيلية فى السفن ، فغنمها وهدمها ، وقتل فيها من اليهود مائة الف واسترق مائة ألف ، ونقل رخام ايليا وآلاتها الى الاندلس •

لقد أورد **المقرى** فى الجزء الاول من تاريخه فيضا من هذه الروايات ، وليست كلها صنعة قاص ، وانما فيها تاريخ حقيقى وكثير ، مضطرب نعم ، ومتداخل دون شك ، ولكنه مادة خصبة لفترة تفتقد المؤرخ والتاريخ واشارة المقرى ، منسوبة الى ابن حيان ، الى أنه كان ينقل عن رواة العجم ، صحيحة الى حد كبير ، بل ويخيل الى أن أن المؤرخين الاندلسيين عاشوا على هذه الروايات ، يلتقطونها من أفواه عامة المستعربين فى الاندلس، أوالعجم بتعبير ابن حيان، وهى روايات يتناقلونها شفاها ، وهذا التداول الشفوى هو مصدر هذا الخلط والاضطراب • لقد وجد ابن حيان ، شيخ مؤرخى الاندلس دون منازع ، ان هذه الاخبار لا تستقيم مع موازينه فى الرواية ولا منهجه فى الاداء ، غير أنها سبيله الوحيد الى معرفة شيء عن تاريخ الاندلس القديم ، فاوردها واعتذر لنفسه • والحق أن هذه الاساطير لا تختص بها المؤلفات العربية ، رغم ايهام بعض المستشرقين بذلك ، وانما نجدها فى المؤلفات الاسبانية المسيحية التى كتبت باللغة اللاتينية نجدها فى «مدونة تاريخ اسبانيا العام» التى أمر ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم بكتابتها ، تاليفا فى جانب منها ، ونقلا عن العربية فى جوانب أخرى ، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى وفى مؤلفات **Rodrigo Jiménez de Roda** مطران طليطلة ، وعاش فى النصف الاول من القرن ،لثالث عشر ، وفى مؤلفات أخرى كتبت باللغة اللاتينية خلال هذا القرن أو بعده•وتعكس قصة غزو بيت المقدس وقتل اليهود وأسرهم طابع الصراع العنيف الذى كان قائما بين اليهود والاسبان الكاثوليك فى الاندلس ، قبل مجيء المسلمين ، وخلال حكمهم ، وبعد سقوط دولة الاسلام هناك •

مهما يكن من أمر فقد انتشر اسم الاندلس سريعا بعد الفتح الاسلامى،وشاع استخدامه فى كتب التاريخ والجغرافية والرحلات والوثائق، ومحا من المدونات



وذواكر الناس كلمة اسبانيا محوا تاما ، تحت أية صورة ، وفي البدء ، وكانت دولة الاسلام تشمل كل شبه الجزيرة الايبيرية تقريبا، وجانبا من جنوب فرنسا ، كان لفظ الاندلس يطلق عليها جميعا • غير أن الامر لم يستمر على هذا النحو طويلا ، فقد انحسر سلطان المسلمين سريعا عن جنوب فرنسا ، ومنذ القرن العاشر بدأت حركة المقاومة الكاثوليكية تشتد في الشمال من الاندلس وتجد من البابا وبقية العالم الكاثوليكي عونا وتشجيعا ، دون أن تأخذ في أي من أطوارها معنى قويا ، وبدأت الدولة الاسلامية تتآكل شيئا فشيئا ، حتى انحسرت في القرن الثالث عشر داخل اقليم ضيق ممتد من ساحل جبل طارق حتى المرية ، ويمتد داخلا حتى سلسلة جبال رندة وجبال ألبيرة ، ويرى معظم الباحثين المحدثين ، وجلهم من الاسبان والمستشرقين أن اسم الاندلس كان مرتبطا بالدولة الاسلامية وحدها ، مهما كان امتدادها ، يتسع معها ويضيق بانكماشها • ويجد هذا الرأى سنده في أن المدونات الاسلامية درجت على أن تطلق على الدويلات المسيحية المختلفة التي قامت في الشمال اسماء مختلفة ، غالبا ما تكون اسم المقاطعة التي يملكها الحاكم مثل : نبرة وأرجون وقشتالة و أشتورياش والبرتقال ، وتسميهم بالروم أحيانا وبالنصارى أحيانا أخرى •

وهو رأى لا يقبل على اطلاقه ، ذلك أننا نجد على بن موسى من بني سعيد ، والمتوفى عام 673 هـ ، ومكمل تصنيف كتاب «**المغرب في حلى المغرب**» ، يضمن الكتاب جزءا خص به الاندلس المسيحي ، وأسماه «كتاب لحظة المريب فيما بقى من جزيرة الاندلس لعباد الصليب» ، أي أنه يمتد بالتسمية فيجعلها تشمل تلك الدويلات المسيحية التي تكونت على حساب الدولة الاسلامية ، وانتزعت منها عدد من المدن الكبرى والهامة •

وفيما أرى يجب التفرقة بين المصادر العربية الاولى حين تشير الى هذه الدويلات ، أو الشبيهة بها ، التي قامت في الشمال ، وتكونت في وقت مبكر على الطرف النائي لشبه الجزيرة ، على أرض لم تتأصل فيها الحضارة الاسلامية يوما ، وان مر بها المسلمون من حين لآخر غازين أو عابرين ، أو ملاحقين لجيوش المسيحيين ، ومن ثم لم يرها المؤرخون الاول جزءا من الاندلس الاسلامي ، وبين المصادر المتأخرة حين اتسعت هذه الدول، وقوى شأنها ، على حساب الاندلس الاسلامي ، فضمت اليها مدنا ازدهرت فيها الحضارة الاسلامية ونفقت سوق الادب،وعمرت بالمدارس والمساجد ، وشغلت عقول الناس ، واحتلت من قلوبهم مكانا، مثل طليطلة وشنترين وبلنسية ، وسرقطة ، ثم اشبيلية وقرطبة ومرسية أخيرا ، فاعتبروها اندلسا ، وان كانت في يد المسيحيين •

يقول ابن سعيد : «وأعظم الملوك الذين توارثوا المملكة عند النصارى بالاندلس وقسموا بلادها أربعة : اذفونش ، وهو مالك قشتالة ، وهي اعمال في جهة طليطلة الى البحر المحيط ، كانت قاعدتها قبل أن تصير لهم طليطلة مدينة غليسية (1) ، وهي على البحر المحيط • ثم البرجلوني وهو ملك شرق الاندلس ، ويقال لمملكته ارغون، لانه كان في مدينة أرغون حتى ملك طرطوشة وبرجلونة (برشلونة) وغيرها • ثم الببوج وهو في بلاد الشمال مجاور لبطليوس ، قاعدته ليون • ثم ابن الريق ، وهو ملك جليقية ، وهي في الشمال والغرب من الاندلس ، كانت قاعدته مدينة شانت ياقوه ، وهي عظيمة الى نهاية ، فيها معدن الذهب ، وقد صارت له أشبونة وغيرها من بلاد الاسلام (2) •

بقى أن أشير الى ان المؤرخين المسلمين ، فيما قرأت ، لم يطلقوا أبدا اسم اسبانيا على الاندلس الاسلامي،ولا على ما تبقى منه في يد الكاثوليك، أو استولوا عليه عنوة فيما بعد من المسلمين • كذلك فان المدونات الكاثوليكية ، وهي متأخرة وقليلة ، وكتب معظمها رجال الدين في اللغة اللاتينية ، لا تطلق على الجانب الاسلامي اسم الاندلس الا نادرا ، وانما تتحدث فقط عن العرب والمسلمين • ويرى سيبولد SEYBOLD

1 ـ هكذا في الاصل وتحتاج هذه الفقرة الى تصحيح ، لان عاصمة قشتالة قبل ان تستولى على طليطلة ، كانت في مدينة برغش وهي وسط المملكة ، وبعيدة عن البحر المحيط تماما وعليسية هي صورة عربية اخرى للفظ جليقية اسم مقاطعة في الشمال الغربي —— 2ـ بنو سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ص 473 الطبعة الثانية ، تحقيق الدكتور شوقي الضيف ، دار المعارف بالقاهرة ـ بلا تاريخ ـ



فى دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أندلس ، «أن نصارى اسبانيا الشمالية كانوا يجهلون اسم الاندلس جهلا تاما ، وكانوا يطلقون على الجزء العربى الجنوبى الاسم القديم اسبانيا HISPANIA ، أو سبانيا SPANIA ، أما موطنهم الشمالى فأطلقوا عليه أسماء خاصة مثل : أشتورياش وليون وقشتالة وأرجون» . وهى فكرة تحتاج الى اعادة تحرير . فالحق أن المسلمين هم الذين أطلقوا الاسماء الاخيرة على الدويلات المسيحية التى قامت فى الشمال ، وهى تسمى دويلات تجوزا ، لانها مجرد اقطاعيات يقوم عليها اقطاعي ، فارس أو أمير أو نبيل ، وقد سبقت المدونات الاسلامية فى ذلك أية مدونة مسيحية ، على نحو ما أشرنا اليه .

أما القول بان نصارى الشمال كانوا يجهلون اسم الاندلس جهلا تاما فدعوى لا تحتاج الى فضل بيان . ذلك أنه ينبغى أن نفرق بين المعرفة والتدوين . لا أظن أن ملوك الشمال حين كانوا يهبطون قرطبة طلبا للعلاج عند كبار أطبائها ، او الدارسون المسيحيون حين كانوا ينزلونها التماسا للعلم عند شيوخها ، كانوا يجهلون فى عاصمة دولة تسمى الاندلس . ولا أعتقد أن المسيحيين الذين كانوا يعايشون المسلمين فى دولتهم ، وعرفوا باسم المستعربين LOS MOZARABES ، لانهم اتخذوا العربية لسانا ، فتحدثوا بها ، وشعروا فيها ، ثم هاجروا الى الشمال يعملون مترجمين أو خبراء ، أو ناقلين لما عرفوا من علوم ، كانوا يجهلون هم ، أو الذين يستخدمونهم ، انهم قادمون من عند الاندلسيين ، وانهم — رغم كاثوليكيتهم — يتكلمون لغتهم ، ويحتذون عاداتهم ، تقاليد وملبسا وأنماط حياة . وتجاهل للواقع أن المترجمين الذين عكفوا فى طليطلة على امتداد القرنين الثالث عشر والرابع عشر على نقل التراث الاسلامى من العربية الى اللاتينية ، ثم الى القشتالية فيما بعد ، كانوا يجهلون أن شبه الجزيرة يسمى بلاد الاندلس ، أو الاندلس فحسب ، فى مؤلفات المسلمين . وأما أن المسيحيين كانوا يسمونها اسبانيا ، فذلك قاصر على الكتب المدونة ، وكتابها دون استثناء .

لغتهم اللاتينية ، وجلهم من رجال الدين ، وهم بحكم ثقافتهم الدينية واللغوية المحافظة ، ان لم نقل المتعصبة ، يتمسكون بالقديم ، ويقفون عند مفردات اللغة اللاتينية لا يتجاوزونها الى لفظ آخر لم تعرفه . وكانت اللاتينية تعرف لفظى HISPANIA و SPANIA وتجهل لفظ الاندلس ، لانه جديد مستحدث . وهم عند ماكانوا يستخدمون هذه التسمية كانوا يعنون بها شبه الجزيرة كله ، سواء فى ذلك الاراضى الاسلامية أو التى فى حوزة الكاثوليك . فاذا اتصل الامر بالمسلمين وحدهم سموهم : المسلمين LOS MOROS أو المحمديين ، أو الافريقيين ، أو العرب فى القليل .

يوجد اسم «**الاندلس**» أو «**بلاد الاندلس**» فى أقدم المصادر التاريخية والجغرافية التى لدينا، وأقدمها يعود الى مطلع القرن التاسع ، أى أن بين الفتح الاسلامى وتدوين وقائعه فترة تبلغ المائة أنقص أو أزيد قليلا ، فهل جاء هذا الاسم مع التدوين ، أم عرفه المسلمون قبله؛وفى أى عام؟

لا توجد وثائق أو نصوص تعيننا على هذا التحديد ، غير اننا اذا لجأنا الى المسكوكات ، لا نجد الاسم فى العملة التى ضربت أيام الفتح نفسه ، ويظن أن الذى أمر بسكها موسى بن نصير ، أيام أن كان محاصرا لمدينة ماردة ADIЯƎM وصنعت من ذهب متوسط الجودة . وأقدم ما نحتفظ به منها دينار مثير يوجد فى مكتبة باريس الوطنية ، ويعود الى عام 93 للهجرة الموافق 711 ميلادية ، على وجهه كتابة باللغة اللاتينية ، ويستخدم التاريخين الهجرى والميلادى وهما يتطابقان أحيانا ويختلفان أحيانا أخرى، وفى هذا الدينار نجدهما متوافقين ، وصورة الكتابة على الوجه الذى يحمل التاريخ جاءت على هذا النحو ANN XCIII H e INDCXI (1)

وفى العام التالى ، 94 هـ = 712 م ، ضربت دنانير أخرى وصلنا عدد كبير منها ، وفى سنة 95 هـ = 712 م ضرب نوعان آخران من الدنانير، وهى أندر وجودا الآن من دنانير العام الذىسبقه وفى هذه الدنانير كلها استخدم العرب الاسم اللاتينى لشبه الجزيرة ، وهو كلمة اسبانيا :

(1) N° 128, Catalogue de la Voix.

SAAVEDRA : Invasion arabe en Espana, P. 108.



ويلحظ الدارس لهذه المسكوكات أن المسلمين اتبعوا فى كتابتهم للاتينية نفس الطريقة التى يتبعونها فىاللغة العربية ، فكتبوا فرنسيةالحروف الصامتة دون ان يتبعوها بالحركات ، مما يعنى أن كاتبها كان مسلما يعرف اللغة العربيـة ، وشيئا محدودا من اللغة اللاتينية ٠
ونفتقد بعد ذلك عملات جديدة ، الى أن يجيء الحر بن عبدالرحمن الثقفى واليا على الاندلس،فيأمر فى عام 98 هـ = 716 م بضرب عملة جديدة ، تحمل لاول مرة لغة مزدوجة ، النص اللاتينى على وجه ، وترجمته العربية على الوجه الآخر ، كلمات النص اللاتينى جاءت على الصورة التالية:

Feritus Solidus In Spania anno XCVII

ويقول النص العربى المقابل له : «ضرب هذا الدينار بالاندلس سنة ثمان وتسعين» ٠ وهذا الدينار هو أقدم وثيقة بين أيدينا نجد فيهـا الاسم اللاتينى **SPANIA** مترجما الى اللفظ العربى «الاندلس» ٠ والى جانب ذلك يشير هذا الدينار عددا من الملاحظات ٠ فنجده ، على غير ما تعودنا فى العملات السابقة ، يحمل الكتابة اللاتينية كاملة ، بحروفها وحركاتها ٠ ولو أن الرسم كتبوه على نحو ما رنت فى آذانهم الكلمات ، وليس كما تقتضيها قواعد اللغة واقتصرت الكتابة على التاريخ الهجرى وحده ،سواء فى ذلك الوجه العربى أو اللاتينى ، وان ثمة فارقا بين التاريخين فى النص العربى والنص اللاتينى فالنص الاول يحمل تاريخ 98 هـ ، بينما يحمل الثـانى تاريخ عام 97 هـ ٠ واذا كان الفارق فى هذا الدينار لا يتجاوز العام ، فانه فى دنانير أخرى يتسع أحيانا حتى يبلغ ثلاث سنوات٠وفى عدد منها نجد أخطاء فى النص العربى ، مثلا نجد الجملة مكتوبة على النحو التالى : «سنة مان وتسعين» بدلا من ثمان ، و «ضرب هذا الدينار بالاند ثمان وسنة تسعين » ، وذلك يعنى انصناعة لم يكونوا متمكنين لا من اللغة اللاتينية ولا من اللغة العربية ، أو بتعبير أدق ، لم يكونوا عربا من المشرق ، ولم يكونوا اسبانا من أهل شبه الجزيرة ، وفيما يبدو لى كانوا بربرا من الذين دخلوا الاسلام حديثا ، وحظهم من كلتا اللغتين كان محـدودا ٠

أول استخدام رسمى اذن لاسم «الاندلس» يعود الى عام 98 هـ ، أى بعد ستة أعوام من الفتح، لكن ذلك لا يعنى بأية حال أن استخدام المسلمين لهذا الاسم بدأ فى نفس العام ، لان استخدام اسم فى عملية رسمية ، يعنى أن يكون الاسم المستخدم ذائعا وشائعا ومعروفا بين الناس ، ان لم يكن للجميع ، فللكثرة الغالبة التى ضرب لها على الاقل ٠ وانا أرجح أن اسم «بلاد الاندلس» كان معروفا للكثرة الغالبة من المسلمين ، ليس بعد الفتح فحسب ، وانما عشيته أيضا ، وحتى قبله بزمن ، على نحو ما سنعرض له بعد قليل ٠ أما عدم استخدامه فى الدنانير التى ضربها موسى ابن نصير ، فلانها لم تستخدم العربية اطلاقا ، وانما كانت تقليدا أمينا لدنانير لقيها فىافريقية، تونس الحديثة ، جرى الناس على التعامل بها هناك منذ أيام هرقل ، ابان احتلال الرومان لقرطاجة ٠

ليس ثمة شك فى أن اسم الاندلس يرتبط على نحو ما بالوندال ، وهم قبائل جرمانية غازية ، هبطوا جنوب اسبانيا الشرقى لمدة قصيرة لا تتجاوز الثمانية عشر عاما ، من 411م 429 م ، فعاثوا فيه فسادا ، ودمروا فى طريقهم كل شيء ، ثم عبروا المضيق الى شمال افريقية فاستقروا فيه زمنا ، ولم يكونوا هنا بأحسن حالا مما كانوا عليه هناك ، وتركوا فى حياة الناس وذواكرهم اسوأ الاثر ٠ فالذين اشتق منهم الاسم اذن معروفون للاسبان الذين فى شبه الجزيرة ، ومعروفون أكثر لسكان شمال افريقية، وكان هؤلاء لا يعرفون عن الغزاة الجدد الا انهم قادمون من وراء المضيق ، والارض التى قدموا منها هى بلاد الوندال ٠

ثم تفسير ساذج وكسول يقول ان العرب اشتقوا اسم الاندلس من كلمة **VANDALOS** ، أما كيف تم ذلك دون أن يخضع لاى قانون صوتى أو لغوى فلم يقف عنده أحد ٠ واذا بحثنا الامر علميا ، وتأملناه مليا ، وجدنا اسم الوندال له صورتان ، واحدة جرمانية والاخرى لاتينية ، أما صورته الجرمانيـة فهى **WANDAL** ، والحرف الاول منها ينطق فى اللغة الالمانية واوا ، ومن ثم يجب أن ينطق جمعها فى العـربية وندلس ، وانقلاب الواو همزة لا تعرفه العربية أبدا ٠ واذا قيل ان العرب أخذوها عن الاسانية فان نفس الكلمة يجب أن تكون فى الاسبانية **GUANDALUZ**

لان الاسبانية درجت على أن تحول حرف W الاجنبي الى GU هكذا صنعت مع المفردات الالمانية ، فكلمة WILHEM اصبحت في الاسبانية GUILLEN ومع المفردات العربية ، فكلمة «وادى الرمل» أصبحت GUADARRAMA واذا قلنا ان العرب عرفوا اللفظ في صورته اللاتينية VANDALES ، فيجب أن ينتقل الى العربية في صورة بندلس ، ولم يحدث كذلك أن انقلبت الباء همزة في اللغة العربية . ان تصور أن تكون لفظة WANDALOS أو VANDALOS قد أخذت طريقها الى العربية مباشرة أمر بعيد الاحتمال .

لكن الذى أراه أن شمال افريقية ، كانت تعرف اسبانيا ، وهى منهم على مرأى البصر ، في الفترة التى سبقت الفتح باسم «**بلاد الاندلس**» أى البلاد التى جاء منها الوندال ، وقد ارتبط هؤلاء في مخيلة الناس بقسوتهم وجبروتهم ، وعاشوا في اذهانهم شيئا مرعبا ، وان التسمية شاعت في كل شمال افرقية ، وأصبحت تطلق على الجانب الآخر المقابل لطنجة ، حتى بعد أن آل حكم شبه الجزرة الى القوط وان الاسلام حين جاء الى شمال القارة فاتحا ، عرف العرب اسبانيا باسم الاندلس حتى قبل أن يعبر اليها المسلمون فاتحين ، عن طريق البربر المسلمين ، افتراض يدعمه أن المدونات العربية الاولى التى عرضت لاحداث الفتح ، كثيرا ما تتحدث عن «بلاد الاندلس» ، ولا تذكر كلمة «الاندلس» مفردة الا في القليل .

أضف الى ذلك أن تطور الاسم الى الصيغة التى عرف بها في العربية ، يتفق مع اتجاهات اللغة البربرية ، فنجد في هذه اللغة عددا من الاسماء تضاف اليها الواو بدءا في حالة الجر ، وتجرد منها في الحالات الاخرى . فكلمة ADU ، أى عاصفة ، تصبح في حالة الجر WADU ، وكلمة AMAN بمعنى ماء ، تصبح WAMAN ، وكلمة بمعنى اليوم تصبح WASS و AYYUR بمعنى القمر تصبح WAYYUR . فهم يقولون مثلا : FKIID AMAN اعطنى ماء ، فاذ قالوا أعطنى قليلا من الماء أصبحت FKIID IMIK WAMAN ألا يمكن الافتراض اذن بأن البربر تصوروا أن كلمة WANDALUS الجرمانية جاءتهم في صورة الجر ، فاشتقوا منها اسما في حالة الرفع ، هو على قواعد لغتهم ، ودون استثناء ، يصبح ANDALUS أى ان كلمة ANDALUS تكون بالنسبة لكلمة WANDALUS ما تكونه كلمة AMAN البربرية مرفوعة ، بالنسبة الى WAMAN مجرورة ، وجاء العرب من المشرق فالتقطوها من أفواه البربر ، فهى اذن دخلت اللغة العربية عن طريق اللغة البربرية ، وليس من اللاتينية ، أو الجرمانية ، أو الاسبانية مباشرة . وهكذا يمكن حل المشكلة صوتيا وتاريخيا . ان غياب حرف من كلمة أندلس لا يمكن تفسيره الا في ضوء هذا الفهم .

لم يتلاش الاسم بسقوط دولة الاسلام في الاندلس ، وانما بقى في اسبانيا الحديثة في صورة ANDALUCIA يطلق على ما يسميه أبناء سعيد في كتاب «المغرب في حلى المغرب» موسطة الاندلس ، أى على المنطقة التى تشمل محافظات المرية وغرناطة ومالقة ، وجيان وقرطبة واشبيلية ، وقادس وولبة . وقبل ذلك عبرت التسمية مضيق جبل طارق مع ثلاثمائة أسرة قرطبية ، نفاها الحكم الاول خلال ثورة الربض الشهيرة ، فاتجهوا نحو فاس ، واستقروا فيها ، وأطلقوا على حيهم اسم الاندلس ، وعرفوا هم بالاندلسيين . كذلك أدت كثرة الوافدين من الاندلسيين على القاهرة ، في طريقهم للحج ، أو ينزلونها طلبا للعلم ، أو يستقرون بها عاملين،الى أن تكون لهم بالفسطاط أى القاهرة القديمة ، محلة يطلق عليها اسم الاندلس ، تضم رحبة ومسجدا ومصلى ، وضم اليها مع الزمن رباط للعجائز المنقطعات الصالحات ، وآخر للارامل العابدات ، وبستانا . ومنذ نهاية القرن الخامس عشر حمله معهم أولئك المسلمون الذين أكرهوا على الخروج من الاندلس بعد انتصار الكاثوليك هناك ، الى الامكنة الاسلامية التى لاذوا بها في تونس أو الجزائر أو المغرب . وقبل ذلك وبعده ، بقى لفظ «الاندلس» في أعماق كافة المسلمين ، جوهرا مشعا ، يبعث التأمل والاعجاب ، ويحرك الشجى والندم ، ويثير الاسى والحسرة على الدوام .

الاستئصال

لبيار بورديو - وعبدالمالك صياد

ترجمة : عبدالرحمن بوزيدة

● للسياسة الزراعية التى كانت تنزع الى تحويل الملكية الجماعية الى ملكية فردية ، قد ساهمت فى تفكيك الوحدات المجتمعية التقليدية والقضاء على التوازن الاقتصادى ٠

● ان قرى التجمع تتشابه كلها فى الخطوط العامة لانها ناشئة عن تطبيق انماط لا شعورية اكثر من نشوئها عن نظرية صريحة او ضمنية ٠

● ان سياسة مراكز التجمع تعبر عن الرغبة المرضية الكامنة فى الجهاز الاستعمارى٠

«نترجم هذا الفصل من كتاب صياد و بورديو – لانه يعبر فى نظرنا أكثر من غيره عن دخول الرسمالية بطريقة غير أصيلة الى مجتمعنا – كما يصف بعمق ودقة الصراع الذى دار ويدور بين الاسلوب الانتاجي الاصيل والراس مالية

من بين كل الهزات التى تعرض لها المجتمع الريفى الجزائرى من عام 1955 الى عام 1962 فما من شك فى ان تلك التى نتجت عن تجميع الاهالى هى اكثرها عمقا واثقلها نتائج على المدى البعيد . وكان نقل الاهالى ، فى فترة أولى ، متصلا بأحداث «مناطق محرمة» ، فما تم بين 1954 — هو طرد عدد من الفلاحين من قراهم لا أقل ولا أكثر ، اذ لم تكتسب سياسة التجميع شكلا منهجيا منظما فى النواحى مثل شمال قسنطينة ، الا ابتداء من سنة 1957 على الخصوص . ان الهدف الاول للمناطق المحرمة حسب احدى التعليمات الرسمية هو **احداث فراغ فى بلد غير مراقب وفصل اهاليه عن هيمنة المتمردين .**

والمفروض من تجميع الاهالى المكثف قرب المراكز العسكرية هو تمكين الفرنسيين من مراقبة مباشرة عليهم ومنعهم من مد جنود جيش وجبهة التحرير الوطنى بالاخبار ودلهم « على المسالك » وتموينهم وايوائهم .

وكان متوقعا منه أيضا تيسير عمليات القمع على اعتبار كل من بقى بالمناطق المحرمة متمردا ، ولقد تم الابعاد عنوة فى جل الحالات . وفى أول الامر كان يبدو أن الجيش الفرنسى يطبق بانتظام سياسة الارض المحروقة ، فى ناحية «القل» ، على الاقل ، من اضرام النار فى الغابات ، واتلاف للعولة «الذخيرة» والماشية ، واستعملت كل الوسائل لارغام الفلاحين على هجر أراضيهم ومنازلهم ، وعلى الرغم من كل شىء فقد قابل الاهالى هذا التكتيك بمقاومة جنونية، فكان الكثير منهم يفضلون خطر الموت العنيف على حالة الحشر والخنوع والموت البطىء فى (بيوت التبن) والخيام وبيوت القصدير المخصصة للتجميع(..) وهذه النسوة المعتقلات بعد عمليات «التطهير» بعد أن خربت أغلبية المشاتى ، قد تحملن مشقة الترحيل الاجبارى أربع أو خمس مرات ولكنهن كن فى كل مرة يأخذن طريق العودة الى الدوار .

وفى هذه المرحلة الاولى حيث كان الجيش يسير وفق اهتمامات استراتيجية محضة — أولى اهتمامه على ما يبدو لتفريغ المناطق التى كانت تصعب عليه مراقبتها وذلك بدون اكتراث منه على وجه الدقة بمصير الاهالى الذين تم اجلاؤهم ودون أن يضع لنفسه كهدف علنى تنظيم تقطينهم وبالتالى تنظيم كل «حياتهم» .

ان الفلاحين المنتزعين من مقر اقامتهم الاعتيادى حشروا فى مراكز غير مناسبة اختيرت فى اغلب الاحيان لاغراض عسكرية محضة ، ولنا معرفة بحالة البؤس المادية والمعنوية التى عرفها سكان التجمعات الاول مثل تجمعات « تمالوست وأم طوب وبسنبورغ فى ناحية القل» . وليس هناك أقل تدبيرا ومنهجية أكثر من هذه العمليات. وبلا جدوى نحاول العثور على نظام فى دوامة التنقيلات الفوضوية المترتبة عن حركة القمع ، وقد كان «المجمعون» يجدون انفسهم فى وضعية تبعية مطلقة بالنسبة لرجال «الصاص» ، وهكذا تحت ضغط الظروف التى خلقها هو بنفسه اضطر الجيش ان يتكفل فعلا باشخاص كان ينوى شل نشاطهم ومراقبتهم ، وشرع اذ ذاك فى تحقيق الضغط والتفريق .

وهكذا اذن تحول التجميع فى المدة الاخيرة من مجرد نتيجة للاجلاء ليصبح الموضوع المباشر للاهتمامات ، بل أيضا اصبح تدريجيا محورا لسياسة منتظمة . وعلى الرغم من المنع الصادر فى بداية عام 1959 لعدم تنقيل الاهالى بدون رخصة من السلطات المدنية فقد تضاعفت التجميعات . ففى عام 1960 بلغ عدد الجزائريين المجمعين 2157000 أى ربع مجموع الاهالى ، واذا ادخلنا فى الحساب علاوة على التجميعات، الهجرة الى المدن نستطيع أن نقدر بثلاث ملايين على الاقل (أى ما يعادل نصف أهالى الريف) عدد الافراد الذين يوجدون خارج مقر اقامتهم الاعتيادى . ان هذا الترحيل يعد من أعنف الترحيلات التى عرفها التاريخ .

تجميع الاهالى ومنطق الاستعمار :

فعلا ، ان الاساسى هو تجميع هذا الشعب الموجود فى كل مكان والذى لا يعثر على مقر له ، ان الاساسى هو ان نجعله فى قبضتنا ، ليصبح التحكم فيه ممكنا.وعند مانمسكه سوف نستطيع حينئذ القيام بعدة اشياء مستحيلة علينا اليوم وقد تسمح لنا بالاستيلاء عليه معنويا ، بعد ان استولينا عليه ماديا . قبطان شارل رشارد (1846 ـ 1945)

« اصل من اللورين واحب الخطوط المستقيمة ، والناس هنا فى خصام مع الخط المستقيم . «ملازم دوكركرة» 1960 »

* * *

من جملة الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية التى اتخذت فى اطار «التهدئة» ياتى تجميع أهالى الريف كاجراء يندرج بأكثر وضوح فى استمرار القوانين العقارية الكبرى للقرن «19» أى بالاخص قانون حصر الاملاك العقارية (1857 ـ 1856) والقانون الامبراطورى (1863) وقانون قارنى (1873) ، وما يلفت النظر فعلا هو لجوء الموظفين المكلفين بتطبيق «سيناطس كنسلط» ولجوء الضباط المسؤولين على تطبيق سياسة التجميع الى اجراءات متماثلة بحكم وجودهم فى وضعيتين متماثلتين رغم قرن يفصل بينهما .

التجمعات والقوانين العقارية :

سواء أقرت بكل وقاحة بأنها «آلة حرب» قادرة على «ضعضعة نظام القبائل» ، العقبة الاساسية للتهدئة «أو أعلنت انتماءها الى ايديولوجية اندماجية أكثر سخاء من حيث النوايا » . **فان السياسة الزراعية التى كانت تنزع الى تحويل الملكية «العشائرية» الى ممتلكات فردية قد ساهمت بقوة فى تفكيك الوحدات المجتمعية التقليدية بالقضاء على التوازن الاقتصادى الذى كانت الملكية القبلية والعرفية تشكل احسن ما يحميه ، وكانت فى نفس الوقت تسهل حشد احسن الاراضى بين ايدى المعمرين الاوروبيين عن طريق التلاعبات وصفقات البيع الجائرة . وكانت وظيفة القوانين العقارية الكبرى تاسيس الظروف الملائمة لتنمية اقتصاد عصرى يرتكز على الملكية الفردية ، وكان الادماج القانونى معتبرا كشرط اول وضرورى للتحويل الاقتصادى غير ان الوظيفة الكاملة لهذه السياسة توجد فى موضع آخر .**

فقد كان المقصود فى مرحلة أولى تسهيل نزع الملكية من الجزائريين وذلك بمد المعمرين بوسائل تملك تبدو ، وكأنها شرعية ، وذلك بوضع جهاز قانونى يفترض نظرة للاقتصاد وللزمن ، غريبة عن ذهنية المجتمع الفلاحى . أما فى المرحلة الثانية فكان المقصود ضرب الوحدات التقليدية «كالقبيلة مثلا» التى كانت روح المقاومة ضد الاستعمار وذلك بضرب القواعد الاقتصادية التى تكون التحامها ، وقد تم ذلك بالفعل سنة 1875 ، وكانت نتيجة ذلك فشل التمردات القبلية الكبرى .

فلاحون بدون أرض :

وتحت تأثير عوامل مختلفة مشتركة «متعاونة» من أهمها : الاغتصاب العقارى والضغط الديموغرافى والانتقال من اقتصاد « بدائى» الى اقتصاد الاسواق ، وجدت الطبقة الفلاحية الجزائرية نفسها منجرة فى تيار الكارثة.فاحصاء (5 ـ 1950) يظهر أن 438483 مزرعة يملكها الجزائريون الذين يكونون 69٪ من المجموع ، مساحة كل واحدة منها تقل عن 10 هكتارات ، ويغطى مجموعها مساحة تبلغ 1387164 هـ . أى نسبة 18،8٪ من المجموع ، فمتوسط المساحة لكل مزرعة (بالنسبة لمجموع الجزائريين الملاك) هو 3،1 هكتارا عرض (4،7 فى عام 1940) أى مساحة تقل على الضرورى اللازم لا عالة عائلة فلاحية (ريفية) ، وقد ازداد عدد الذين يملكون أقل من عشر هكتارات بنحو 50 000 بين 1950 ـ

1940 أى بنسبة 12٪ ، فى الوقت الذى نقصت فيه المساحة العامة التى يملكها الجـزائريون ، بـ 000 471 هكتارا ، والامر الاعمق تأثيرا هـو أن بنية المجتمع الزراعى قد أصابها تغيير خطير فى الثلاثين سنة الاخيرة ، فبين سنة 54 – 1930 نقص عدد ملاك الارض بنسبـة 20٪ بينما ازداد عدد عمال الارض بين قارين ومؤقتين بنسبة29٪ من التقاليد الفلاحية • وفى هذا النطاق دفـع وقد أدىانتزاع العقار والملكية الى التخلى عن عدد من التقاليد الفلاحية • وفى هذا النطاق دفـع تقلص الارض،والضغط الديموغرافى اللذان يتطلبان زيادة الانتاج بكل ثمن،عددا من الفلاحين الى التخلى عن تسميد الارض فىكل سنتين،وبالطريقة القديمة

فبالنسبة للسنوات 51 – 1950 (لم تكن تمثل طريقة التسميد القديمة الا 62،7 من التسميدات) أما بالنسبة للسنوات (51–1950 فيسمد بالطريقة القديمة JACHERE ما يعادل 62،7٪ مـن الاراضى • والدليل على أن هذا التجديد محتم وليس تغييرا فى النظرة الاقتصادية ، هو مانلاحظ من ان طريقة التسميد القديمة قد استمـرت فى الضيعات الاكثر اتساعا • ونلاحظ نفـس الشىء بالنسبة لاتساع الاراضىالمزروعة علىحساب المراعى الذى سببه البحث عنأكثر ما يمكن (منالطمأنينة) أو من الضمان• يقول المسير الادارى للشلالة :

«توجد عدة عوامل تؤثر على الزراعة وهى الامطار الغير منتظمة ، وجليد الربيع ، والطبيعة الحجرية للحقول • ومن المؤسف أن نلاحظ انها تتسـع فى كل سنة على حساب المراعى ، مع أن تربيـة المواشى أكثر دخلا • ان زراعة الحبوب كاسدة ، فرغم المصاريف الطفيفة فهى لا تكاد تسمـح للفلاح بان يحصد جزءا مما يسـدبه رمقه مـن القمح والشعير • انها تبقيه فى حالة تنـويم يجب أن يخلص منه» •

فعند الفلاحين الذين لم يتركوا ½ من أرضهم كل سنة JACHERE بدون زراعتها كما عند الذين يحرثون كل أرضهم • نجد نفس القلـق الذى يوحى بتصرفات مستعجلة ، ومتـوترة • صحيح ان فلاحة الحبوب بائرة ، ولكن هـل السؤال المطروح يتلخص فقط فى الانتاج لبيعه فى السوق ؟ ان المراد هو الحصول بأقل ثمن ، وفى أقرب وقت على ما تقتات به العائلة o وهكذا اذاً وبدون تردد ، تقع التّضحية بمستقبل الانتاج الغير مضمون ، والخارج عن كل حوز فى سبيل الاستهلاك المقبل الذى هو وشيك وفورى •

ونظرا لعدم وجود أى تحسين لتعويض فقـر الارض المنجر عن استغلالها الشديد المستمـر ونظرا أيضا الى أن ضغط الحاجة أدى الى فلـح أراضى (تافهة) MEDIOCRE قليلة الخصوبة يسهل تصور بقاء الانتـاج منخفضا جـدا ، أى 4،65 للهكتار الواحد سنة 1955 • ان فلح الاراضى التى كانت بورا فى السابق أو غابا لا يـؤدى الا لتقوية الانجراف ، فبين 54 و 1940 كانت الاراضى المفلوحة من طـرف الجزائريين قد انخفضـت بـ 321000 هكتارا بدون أن تزيد أراضى أملاك الاوروبيين بنفس المقدار ونظرا لجوع الفلاحـين للارض فمن غير المتوقع أن تكون هذه المساحات قد عادت بورا • فنستطيع اذاً أن نعـدها قـد تلفت نتيجة للانجراف الذى يذهب فى كل سنة بعشرات الآلاف من الهيكتارات •

فزرع الفلاحين لأرضهم بدون انقطاع ، حـتى حد الانهاك ، واحتلال القمح الصلب والشعـير لصنع الكسكس ، والخبز ما يناسب 87٪ مـن مساحة الاراضى المزروعة للمـلاك الصغـار ، وبتعاطى كل الفلاحين تقريبا لزراعة الحبـوب وانحسار القسط المخصص للماشية فىالضيعات الصغار واتساعه الموازى لمساحة الضيعة كـل هذا يدل على أن النشاط الفلاحى ليس له ولايمكن أن يكون له هدف سوىالارضاء المباشر للحاجيات القريبة ، واستغلال الارض بشدة يجب أن ينسب الى ضغط الحاجة لا الى الرغبة فى مضاعفـة الانتاج ، وأكثر من هذا فان الجمع بين الحبـوب والماشية الذى يبقى (ثبت) مهما كانت مساحـة الضيعة• (الملاحظ أن ملاك الضيعات التى تتجاوز الـ 100 هكتار يباشرون التسميد مرة كلسنتين، ولا يهتمون اهتماما شديدا بالمواشى • وتعـدد الزراعات POLYCULTURE الطاغى فى المزارع التى لا تتجاوز الهكتار الواحد والفلح المباشـر الذى يقل بارتفاع الضيعة ، واشغال الفـلاحة الجزائرية التى تملك مساحة تفوق ثلاث مـرات مساحة الفلاحة الاروبية لعدد من العمال أقـل

بكثير من هذه الاخيرة ، أقل 2،4 بالنسبة للعمال القارين و ,(I،2) بالنسبة لغير القارين ولجوئها الى الخماسة الذى هو نوع من الشركة يتميز بطابعه القبل رأس مالى ، يدل على أن النشاط الاقتصادى بقى الى الآن متجها نحو الضرورى من المعاش • لا الى تقوية الانتاج • والتجديدات ليست فى أغلب الاحيان الا مخالفات للعادة التى يفرضها البؤس ، وفى تخوفه الذى يفوق كل ما مضى ، من المستقبل ، «يخلق» الفلاح أكثر فأكثر فى تصرفات يمليها عليه بحثه عن أكبر ضمان ممكن •

فبمقدار ما يفلت منه الحاضر بمقدار ما يتشبث هو به مضحيا بكل نوع من النشاط يتعلق بالمستقبل البعيد ومتتبعا ارضاء الحاجات المباشرة القريبة فقد تخلى أكثر الفلاحين فقرا عن التفكير فى الغد الذى كان من مقتضيات العادة • فالتوازنات التقليدية التى انفصمت (انقطعت) أخذت معها ايضا السعى (المحاوله) لانقاء المستقبل اذ ذهب الحد الادنى من الضمانات التى صيرها ممكنة •واذ تيقن الفلاح من انه لن يتمكن مهما فعل من السيطرة على (الزمن) فقد أصبح يعيش على يومه ملتجأ الى القروض القروض،مضيفا الى مدخول أرض الاجرة التى يتقاضاها،من عمله فى ضيعة المعمر فى بعض الايام٥فاليأس الضرورى من التفكير فى الغد هو تعبير عن الرفض الكلى للمستقبل الذى يقرر (يجبر) عن تسليم اتكالى • DEFIANCE

تقليدية اليأس :

وهذه التقليدية المريضة تتعارض مع تأمين الغد السائد فى المجتمع الريفى التقليدى التى كانت بوسائله التقليدية يضمن أقصى ما يمكن من التشوف PREVISIBILITE فى الحدود التى تسطرها وسائل الانتاج الضعيفة
وعدم استقرار الاحوال الطبيعية ، وعلاوة على هذا فان هذا التقليد المريض ، كان يقرن دائما ، وخاصة فى الجهات التى يسيطر فيها المعمرون سيطرة كبيرة، بالمعرفة والاعتراف لتفوق وسائل الاشتغال العقلانية التى يستعملها المعمر • فاذا واصل الفلاحون استعمال المحراث القديم عوض الآلات الحديثة ، واوذا انتجوا للاستهلاك العائلى عوض التسويق واذا استثمروا (صرفوا) أقل ما يمكن وقنعوا بنتاج تافه،واذا لم يستعملوا الاسمدة ولم يغيروا طرق الفلح فليس ذلك دائما باسم التقاليد القديمة التى شرع البؤس فى محوها فاذا رفضوا التحسينات الطويلة المدى ، فلم يعد ذلك راجع دائما لعدم قدرتهم على معرفة التضحية بمستقبل ملموس فى سبيل مستقبل خيالى،ان ذلك يرجع خاصة لفقدانهم وسائل الانتظار•وعلى الرغم من أنهم يعترفون VOLONTIERS على الصعيد المجرد المثالى بفعالية التقنية المستعملة من طرف المعمر والمدخول المتفوق للفلاحة المخصصة للسوق (لفلاحة السوق) هم مضطرين للابقاء على تصرفاتهم التقليدية لان ذلك النوع من الاستثمار يتطلب ، وهم يعرفون ذلك ، وسائل تقنية ونقدية ضخمة ، ولانهم لم يضمنوا العيش الضرورى حتى يبحثوا عن الفائدة (الربح) ، ولان الانتاج المنذور للسوق يبدو لهم وكأنه رهان غير مضمون ما دامت حاجيات الجماعة لم توفر •

ان «الكولون» يقول فلاح من CARNOT يستطيعون الانتاج للتسويق لانهم ضمنوا اللاستهلاك ، فيستطيعون من أجل ذلك أن يهتموا بالزائد لانهم ضمنوا الاساسي او لانهم متيقنون من أن هذا الذى ينقصهم » •

وهكذا عوض الاسلوب التقليدى العتيق الذى يوافق مجتمعا شديد الالتحام بأسلوب تقليدى يائس متصل باقتصاد متهر وبمجتمع متفكك ، وخاص، بطبقة تحت بروليتارية (شغيلة) موثوقة الى ماض تعلم أنه قد مات ودفن •

وبعد اندثار كل امل الا جمع ما يسد الرمق ، بقى لافقر الفلاحين الاختيار بين الاتكال اليائس الذى لا علاقة له بالاسلام ، او الهجرة الضرورية الى المدينة او فرنسا

وعوضا ان تكون هذه الهجرة نتيجة لارادة ورغبة حقيقية، فى حياة المدن ، كانت فى اغلب الاحيان عبارة عن نهاية المطاف المحتوم لسلسلة من التخليات والهزائم ، فسنة غير صائبة تكفى لبيع الحمار والثيران ، وتقع القروض بربح عجيب لسد الدورة الفلاحية او لشراء الزريعة ، وفى الاخير عند ما تكون كل الوسائل قد استنفذت لا تقع مغادرة المكان ، بل التخلص منه ، ابعد التعب والجهد الكبير لتيسير العيش الطفيف ، يقع الاتجاه للمغامرة وتترك الارض للخماس ، وفى كل الحالات يكون الالتحاق بالمدينة ضرب من الفرار الى الامام يمليه البؤس

ان أغنى القوم ، الذين يملكـون مقـدارا من النقود ، فينوون الاقامة كثيرا بالمدن الصغـيرة المجاورة التى تعودوا مخالطتها من أجل الاسواق (أو عند الذهاب الى الاسواق) فالتجارة مـــع الاعمال اليدوية التقليدية يكونان فى الحقيقـــة نمط النشاط الوحيد المناسب لملاك الارض ، الذين يرغبون فى عدم المروق عن العادة ،خاصة عند ما يبقون فى ناحية هم معروفون فيهـــا . والملاك الصغار السابقون الذين فقدوا أرضهـم والخماسة القدماء أو العمال الزراعيين الذين ليس لهم ما يؤهلهم لحياة المدينة ، والذين لا يملكون لا المرافق ، ولا الصلاحيات اللازمة للتعود عليها لا يطمحون الا (الى حالة) الاجير اليومى أو البائع الصغير المتنقل أو البطال الذى ينتظر « جنـة » العمل الدائم .

ولم تزد الحرب وخاصة التجميعات الا فى بؤس الجماهير الريفية . فالغير مأجورين الذين يعدون بـ 000 560 تقريبا فى سنـة 1954 من ملاكـير ، وخمـاس (وشريك) أصبحـوا فى سنة 1960 الا 000 373 أى وقع نقصان بنسبة 33٪ وفى خـط موازى نزل عدد المأجورين من عمال قارين وغير قارين الى 000 421 أى وقع نقصان بنسبة ٪ 28 وليس هناك شك من أن قسم من الفوارق يرجع الى أن عددا من الفلاحين او العمال الزراعيين قد سجلوا أنفسهم عاطلين عن العمل فى سنـة 1960 سواء لانهم فقدوا جزئيا أو كليا عملهم أو لانهـم اتخذوا ازاء أشغالهم موقفا جديدا ، وعلاوة عـلى هذا فانهاء تحطيم التوازن الاقتصـادى بتحطيم الاتزان الزمانى والمكانى اللذان يكونان هيكـل كل الوجود الاجتماعى ، وبتفتيت الوحـــدات التقليدية ، تكون التجميعات قد قوت الهجرة الى المدن ، فراد لايملكون شيئا تمكن خسارته . فبين سنة 195ـ 1960 ازداد عدد سكان المدن والقرى بـ67٪ فى عمالة الجزائر بـ 63،1 بعمالة قسنطينة و بـ48٪ بعمالة وهران، واهمية التزايد الملاحظ مرتبطة بوجود المدن المتمتعة، تقليديا، بجاذبية شديدة ،كالجزائر، ومرتبطة خاصة بأهمية حركة التجميع فى الناحية المذكورة وهكذا تكون هذه قد أدت الى تغييرات لارجعة فيها فى النظرة الاقتصادية، فى نفس الوقت الذى سرت فيه عدوى الحاجيات ، فالاحتكاك بالمدينة قد طور الوعى بالفوارق (التى هى فى ازديـاد) الموجودة بين مستوى العيش فى المدينة والريف حيث يسود التخوف من قلة التغذية ، والفقر فى الوسائل الطبية والاجهزة المدرسية .

فكان اريفيون الذين أقاموا فى المدينة أحسوا بصورة ملموسة ما أثبتته الاحصائيات موضوعيا من أن المدن وخاصة الكبيرة منها تسمح بفـرص أكثر فى التشغيل ، أى بعمل حقيقى بالنسبـــة للفلاحة التى لا تأتى تماما (او الا قليلا) بالنقود، وهكذا يبدو العمل بها وكأنه شغل للوقت لا عمل وبأنها تضمن أجورا منتظمة وأكثر ارتفاعا وخاصة الكبيرة منها ، حيث توجد المنشآت العصرية ، وأخيرا بأنها تسمح بحياة أكثر رفـاهية اذ أن الاستهلاك فى المدينة يفوق الاستهلاك فى الريف فالتاجر مثلا فى المناطق المدنية يستهلك مـــا قدره 96،5 للشخص الواحد فى الشهر بينمـــا يستهلك التاجر الريفى 65،97 فقط . وهكـذا سواء كان بطريق مباشر أو غير مباشر يعـنى سواء بزيادة الهجرة الى المـدن وبمعـــاونة انتشار النمط المدنى أو بطريقة مباشرة ، بنـزع الفلاحين عن قروض وجودهم العادية وباحـداث فجوة حاسمة مع الروتين التقليدى ، قد أسرعت التجميعات من (لا تـرييفة) التى كـانت قـدم ابتدأت بعد .

الاهـانة و الاستهانـة :

لقد أتمت الحرب والقمع ما بدأته السياسـة الاستعمارية وانتشار التعامل النقدى. والنواحى التى أصيبت أكثر من غيرها فى هذه المرة هى النواحى التى نجت نسبيا حتى الآن ، لانهـــا بقت فى مأمن من أعمال الاستعمار،فقد استطاعت فى الحقيقة المجموعات الريفية الصغيرة الموجودة فى المناطق الجبلية ، والمنكمشة على نفسهـــا والمخلصة باصرار لتقاليدها ، أن تحافظ عـلى الخطوط الاساسية لثقافة لا نستطيع اليـــوم الكلام عنها الا بصفة الماضى ، كما هو الشـأن «بالقبائل والاوراس والنمانش والببون والهدنة والاطلس المتيجى وسلسلة التيترى والورسنيس» أين بقيت الثقافة التقليدية نسبيا غير متغيرة على الرغم من حجز الاراضى الذى وقع مع الثـورات وعلى الرغم من الاكثار من الوحدات الاداريـــة

الجديدة وغيرها من الاجراءات وعلى الرغم من التغييرات الناتجة عن العدوى الثقافية ، وفى سنة 1960 كانت المناطق الجبلية أين استطاع جيش التحرير الوطنى أن يتمركز بسرعة وبقوة قد أجلى منها كل سكانها ، وجمعوا فى السهول القريبة من الجبل أو ذهبوا للمدينة ، وكذلك مناطق الحدود ، وكان الحرب أعطت الفرصة لتنفيذ النية الكامنة للسياسة الاستعمارية وهى نية عميقة التناقض ٠

لقد ترددت السياسة الاستعمارية دائما بين هذه الاقطاب المتعارضة ، تشتيت (الفلاحة التقليدية) أو دمجها ٠ تشتيتها لدمجها أم دمجها لتشتيتها ، بدون أن يقع الاختيار بوضوح ودون أن يتم تطبيقه بصورة منتظمة ، مما جعل المسؤولين المختلفين يحملون نوايا متناقضة فى نفس الوقت ، أو نفس المسؤول يحمل نوايا مختلفة فى أوقات مختلفة ، ان ارادة تحطيم بنيات المجتمع الجزائرى قد استطاعت فىالواقع أن تستلهم من اديلجيات متعارضة : احداها تسيطر عليها المراعات البالغة لمصلحة المعمر ، والاغراض الاستراتيجية والتكتيكية أو التبشيرية قد عبرت عن نفسها فى كثير من الاحيان بكل وقاحة ، والاخرى ادماجية أو تذويبية لست أكثر سخاء الا فى الظاهر ٠

وبالنسبة لبعض المسؤولين الذين يحدوهم احتلم مسيطر ، «كسب الاهالى» يحدد دور الجيش بهذا «الثالوث : يحمى ، يلزم ، ويراقب» «ويكتب الآن جاكوب» : الحماية هى قبل كل شيء ، التجميع وفى كل تجميع «خلية عسكرية» عسكرى لكل ثلاثين أو أربعين شخصا ليضمن الحماية القريبة ، ويحصى السكان ، ويقيم المذكرات ، والقيام بالاستنطاقات المستمرة ، أما الالزام فهو يتبع «بنية» الاهالى ، مما يفترض مسؤولين قد تكونوا فى مراكز خاصة (٠٠٠٠) وفى الاخير فان المراقبة الشاملة والمستمرة وحدها هى التى تسمح لهذه الطرق بأن تعطى ثمارها» ٠ وبعض «النظار» فى العمل النفسى ذهبوا الى أبعد من هذا اذ يرون فى التحطيم المنظم وسيلة لتكسير المقاومة ٠

وتتعارض مع هذه الاديولوجية التى تسيطر عليها الاعتبارات الاستراتيجية والتكتيكية ، ذات النزعة الانسانية المتمثل فى ضابط « SAS » كما يعرف رسميا ، فهو فى نفس الوقت بناء، ومعلم بالمدرسة ، وشيخ بلدية وفى بعض الاحيان طبيب : فاحلال السكان الذين كانوا متفرقين أو فى مواقع نائية حيث كان فى قرى مجهزة بمرافق خاصة جماعية موجودة حول محاور المواصلات كان المقصود من كل هذا «احداث تغيير مريع» ٠

وباختصار ان كانت التجميعات قد استعملت فى الاصل «للقبض» على الاهالى ومراقبتهم وذلك بوضعهم بمقربة من مركز عسكرى ، فقد اعتبرت شيئا فشيئا من طرف البعض كـ «عامل تحررى» كان يسمح به ، وفى الواقع مهما تكن نية الافراد،فان «العمل الانسانى» يبقى موضوعيا سلاح حربى موجه الى مراقبة الاهالى ٠

ولم يجد الاستعمار ملجاه الاخير الاديولوجى فى التصريحات الادماجية ، بمحض الصدفة ففى الحقيقة لا تتعارض التفرقة العنصرية المحافظة على الادماج الا ظاهريا ٠ ٠ ففى حالة يستظهر بالفروق الموجودة فى الواقع لرفض التساوى فى الحقوق ، وفى الحالة الاخرى ترفض الفروق الموجودة فىالواقع باسم التساوى فى الحقوق ٠٠٠ فاما أن تمنح مرتبة الرجل ، ولكن للمتفرنس فقط ، واما تعطى هذه المرتبة وذلك بأن يستظهر بالطابع الخاص لحضارة المغرب العربى ، ولكنه طابع خاص كله سلبى مسبقا ٠

والمسؤولون الاداريون أو العسكريون لا يتصورون سخاء أكثر من اعطاء الجزائريين حق أن يكونوا ما يجب أن يكونوا ٠ أى على صورة الاوروبيين وهذا فى النهاية رفض لما هم عليه فى الواقع ، فى طابعهم الخاص ، كأناس خاصين مشاركين فى ثقافة خاصة — وذلك لانهم سجناء المصالح الاستعمارية أو «العالمية المكثفة للحضارة الغربية»كما تسمى ذلك «روث‌بندكتت»

ويستطاع من هنا أن يتخلى عن مساعدتهم لجعلهم تابعين ، أو أن يعطى لهم كيانا على شرط أن يكفوا عن صيغة وجودهم الحالية ٠

ان رفض ـ عن وعي أو غير وعي ـ الاعتراف بأن للجزائر ثقافة خاصة ووطنا ، وبأنها أمة استعمل دائما كأساس لسياسة متضاربة جاهلة لقوتها وضعفها ، قادرة على تقويض النظام القبلي ، وغير قادرة أن تضع في مكانه نظاما أحسن .

فهذه السياسة التي تجمع بين الوقاحة وعدم الوعي ، تسببت في تخريب الاقتصاد الريفي وانهيار المجتمع التقليدي وجدت ذروتها في تجميع السكان .

وعلى الرغم من أن المبادرة الواسعة قد تركت في أغلب الاحيان لسلطات ثانوية ، فان قرى التجمع تتشابه كلها في الخطوط العامة ، لانها ناشئة عن تطبيق أنماط لا شعورية ، تلك التي كانت طاغية منذ قرن مضى . فرق الاستعمار أكثر من نشوئها عن نظرية صريحة أو ضمنية . لقد كانت الجزائر ميدان تجارب : ان اطارات الجيش التي كانت تتمتع في أغلب الاحيان بسلطة مطلقة ، قد قررت كل شيء : موضع القرية ، وهندستها ، واتساع شوارعها والهيأة الداخلية للمنازل . متجاهلين أو يريدون تجاهل القوانين والانماط التقليدية غير راغبين في استشارة الاهالي المعنيين الذين وضعوا في ظرف كانوا فيه يرفضون ضمنيا أي استشارة على فرض وقوعها .

فكل شيء قد وضع تحت شعار الزي ، والاصطفاف : فهذه المنازل المبنية حسب قواعد ومواقع مفروضة ولها طرق طويلة وعريضة ومستقيمة ، أتحكي المخطط الروماني ؟ أم قرى الاستعمار ؟ ففي الوسط توجد الساحة ، مع الثالوث المميز للقرية الفرنسية ، المدرسة ودار البلدية ، والنصب التذكاري للموتى ، نستطيع أن نقول ان ضباط (الصاص) المغرمين بالهندسة لم يكن ينقصهم الوقت ولا الوسائل لاستعمال محل التجارب .

ان الضباط الذين يخامرهم شعور بانهم يطبقون أمرا عظيما وهو «تطوير الجماهير»وتهزهم عاطفة التنظيم والخلق مستعملين في بعض الاحيان كل حماسهم ووسائلهم فيهذه العملية، يعبرون في الواقع وبدون استثناء عن أحلام لا شعورية للتنظيم هي وليدة لجنون الهيمنة الشاملة والمنظمة .

والكل يمر ، وكان المستعمر اكتشف بغريزته القانون الاتلوجي الذي يعتبر اعادة تنظيم السكني ، يؤدي الى تغيير شامل للمنظومة الثقافية . والسيد «لفي ستراوس» يلاحظ مثلا أن تغيير السكن الذي أجبرت عليه قبائل البرور كان الوسيلة الاكثر فعالية لتغيير معتقداتهم .

فاعادة تنظيم أماكن السكن قد فهمت بغموض على انها الطريقة الفاصلة لمحو الماضي وذلك بفرض اطار جديد وطبعه على التربية اشارة ورمزا لملكيتها .

فان كانت سياسة «الحشد» قد لاقت عند العسكريين قبولا حماسيا واسعا ، فذلك لانها تحقق حلما قديما قدم الاستعمار ألا وهو «تغيير (كما يقول واعادة بناء (كما يقول الكولونات) مجتمع باسره .

ويستشهد مصطفى الاشرف بالنقيب ريشار الذي نادى منذ عام 1945 بالحشد المكثف للاهالي الجزائريين : «**ان اول شيء يجب أن نقوم به لننزع للمشوشين سلاحهم هو تجميع أجزاء الشعب المفرقة ، وتنظيم كل القبائل القابعة في الزمالات ، وان نفصل بين الدواوير المختلفة بحاجز من شجر الشوك (السدرة) أو أي نبات آخر . وان نحيط كل زمالة بخندق مملوء بالاشواك» ، ثم يزيد : «ان الاساس هو حشد هذا الشعب الموجود في كل مكان والذي لايعثر على مقر له ، ان الاساسي هو أن نجعله فيقبضتنا وعند ما نمسكه سوف نستطيع حينئذ القيام بعدة أشياء مستحيلة علينا اليوم ، قد تسمح لنا بالاستيلاء عليه معنويا بعد أن استولينا عليه ماديا»** .

ان الامور الثابتة في السياسة الاستعمارية ليس فيها ما يدهش : فالظروف المتماثلة تفرز نفس الطرق رغم فارق قرن من الزمن .

ان سياسة الحشد تمثل النتيجة المرضية للازمة الخانقة للجهاز الاستعماري ، كما انها تعبر في جلاء عن الرغبة المرضية المستولية على هذا الجهاز .

من مشاكل الشعوب النامية :

الهجرة الخطرة

موسى بن عمار

مشاكل الشعوب النامية كثيرة كما هو معلوم ، وقد اخذت الدول النامية تتحسس هذه المشاكل وتبعثها كلما ازداد الوعى فيها واليقظة لدى افرادها وشعوبها . وان الحديث عن مشاكل الدول النامية لا يكاد ينتهى لكثرة هذه المشاكل وتنوعها وحاجتها الى الحلول السريعة وطابع الالحاح الذى تكتسيه ؛ وقد كثر الحديث فى الفترة الاخيرة عن واحدة من اهم المشاكل التى تتعرض لها الدول النامية فى هذه المرحلة الصعبة من حياتها ، ألا وهى مشكلة « هجرة العقول » او الكفاءات كما يسمونها من هذه الدول الى الدول المتقدمة صناعيا حتى كاد ذلك أن يكون موضوع الساعة الذى لا ينتهى الحديث عنه .

هذه المشكلة من المشاكل الهامة التى تواجه الاقطار النامية وهى لا تقل عن مشاكل التنمية، والتعليم ، والتصنيع ، والصحة ، وغيرها من مشاكل هذه الاقطار ان لم تفقها فى الاهمية . وهى لذلك تستحق كل عناية واهتمام من الباحثين والمهتمين سواء فى هذه الاقطار أو فى غيرها .

ومن المعلوم أن حضارات الشعوب متفاوتة بقدر تفاوت هذه الشعوب فى امتلاك الكفاءات الحسنة والاطارات الصالحة تقريبا ، وهذا يعنى أن التفاوت بين الامم راجع الى الامكانيات البشرية بالدرجة الاولى قبل الامكانيات المادية أو غيرها من الامكانيات ، وقد يظن الناس ان القوة المادية هى الفارق بين الشعوب فى القوة والضعف والتقدم أو التخلف ولكنهم ينسون أن الانسان هو الاساس فى كل ذلك ، فهو البذرة التى ان صلحت صلحت الامة كلها حتى ولو كانت الظروف الطبيعية غير صالحة وان فسدت فسدت الامة كلها حتى ولو كانت الظروف الطبيعية صالحة ومواتية . ولذلك كانت الشعوب النامية أحوج الى الانسان الصالح والمثقف الممتاز ، وكانت

هجرة العلماء والمثقفين منها الى الدول المتقدمة يكبدها خسائر فادحة ويعتبر من أهم المشاكل التى تعانيها هذه الشعوب وأكثرها حساسية وأشدها ضررا .

يقول قسطنطين زريق فى كتابه **«فى معركة الحضارة»** : «اذا أردت أن تقيس القدرة الحقيقية لاى مجتمع من المجتمعات فاسأل عما يضمه من أيد وسواعد مدربة ومن عقول مجهزة منظمة . اسأل عن عدد الفنيين فى الزراعة والصناعة والتجارة والمهندسين ورجال الميكانيك والكهرباء والنقل والمواصلات والاطباء والصيادلة والمعلمين وأمثالهم من المختصين فى شتى حقول التطبيق. فبارتفاع مستوى هؤلاء، ووفرة عددهم تقوم قوة الشعوب المتقدمة اليوم قبل أن تقوم بمظاهر التقدم المادية . ان هذه الثروة البشرية المكتسبة هى من أبلغ الادلة على تقدم المجتمع ومن أهم المقاييس لتقدير تحضره» .

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن مشكلة هجرة العقول فى الحقيقة غير مقتصرة على الدول النامية وحدها بل انها مشكلة عامة وظاهرة عالمية ؛ فاذا كانت الشعوب النامية تشكو من هجرة أبنائها المتعلمين الى اوروبا وأمريكا فان الدول الاروبية نفسها تشكو من هجرة أبنائها الى أمريكا شكوى لا تقل عن شكوى الدول النامية ، ولكن لاشك ان الذى يتضرر من هذه الهجرات أكثر هى الشعوب النامية لشدة حاجتها الى رجالها المختصين ولشدة الخسائر التى تتكبدها فى تخريجهم من المدارس واعدادهم للحياة المثمرة ، ولتخلفها عن الدول المتقدمة بمراحل كثيرة .

ملامح من هذه الهجرة

ان البلدان المتقدمة صناعيا تملك أنواعا شتى من الاغراءات تجعلها منطقة جذب للعلماء والمختصين وذوى المواهب على اختلاف أنواعهم بينما الظروف الخاصة بالدول النامية تجعل هذه البلدان منطقة دفع لهؤلاء العلماء . وسبب ذلك أن الانفجار الصناعى والتقدم التقنى فى الدول الصناعية قد خلق حاجة متزايدة الى الفنيين والعلماء المختصين مما جعل هذه الدول تجذبهم بمختلف أنواع المغريات وأساليب الدعايات حتى ان بعض الشركات والمؤسسات فى الولايات المتحدة تبعث بسماسرة خصوصا لاقتناص الفنيين والعلماء من البلدان النامية أو من أروبا واغرائهم بالذهاب الى أمريكا والتعاقد على العمل لصالح تلك الشركة أو المؤسسة بعروض مغرية وشروط حسنة،وكثيرا ما تنجح فى ذلك . هذا بينما التخلف الصناعى والتجارى الموجود فى البلدان النامية لا يتيح الفرص الملائمة لنشاط العلماء فى بلدانهم الاصلية ولا يشجعهم على إستغلال مواهبهم بطريقة مرضية بل كثيرا ما تكون الظروف فى بلدانهم الاصلية عاملا مثبطا لهم ومعاكسا لنشاطهم بحيث لا يصبر على هذه الظروف المعاكسة الا من قويت فيه الروح الوطنية وتغلبت على الانانية فاختار التضحية بمصالحه الشخصية فى سبيل الوطن ، وهؤلاء أقلية قليلة بطبيعة الحال .

واذا كانت أروبا متقدمة بالنسبة الى دول العالم الثالث فان الولايات المتحدة ـ بالمقابل ـ متقدمة بالنسبة الى أروبا فى مجال الصناعة ، وأروبا نفسها تعانى من أجل هجرة العلماء والفنيين منها الى أمريكا بنفس الدرجة تقريبا .

فقد دلت الاحصائيات على أن أمريكا هى أول دولة تجتذب الكفاءات من سائر أنحاء العالم ، ثم تأتى بعدها بريطانيا ثم بقية الدول الاروبية. ودلت الاحصائيات أيضا على أن هجرة الفنيين من أروبا الى أمريكا قد زادت عما كانت عليه ست مرات فى العشر سنوات الاخيرة وان المشكلة آخذة فى التفاقم والازدياد يوما بعد يوم . ومن الحقائق المدهشة التى أظهرتها الاحصاءات أنه يوجد فى مدينة نيويورك وحدها من الاطباء الايرانيين مثلا ـ المتخرجين من جامعات أمريكية أكثر مما يوجد منهم فى ايران كلها . وان عدد المهندسين الموجودين فى أمريكا من ايران وفورموزا وكوريا الجنوبية يفوق عدد العاملين منهم فى بلدانهم . ودلت الاحصائيات على حقيقة رهيبة أيضا وهى أن الاطباء العاملين فى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا هم أكثر من الاطباء العاملين فى جميع الدول الاخرى فى العالم كله

أما فيما يتعلق بالعالم العربى فقد دلت الاحصاءات والدراسات على أن هجرة الكفاءات منه فى تزايد مستمر بشكل يهدد مستقبله تهديدا حقيقيا ويؤثر على حركة التطور فيه بشكل ظاهر. فان 70٪ من العلماء العرب الذين يدرسون أو يتدربون فى أروبا وامريكا لا يعودون أساسا الى بلدانهم وان 80٪ من الطلاب الاردنيين الذين يتعلمون فى الغرب لا يعودون الى بلادهم ، وان جميع الطلبة اللبنانيين فى أمريكا قد قرروا عدم العودة الى بلادهم بعد التخرج ، وان من بين 120 طالبا يخرجون من المملكة السعودية كل عام للدراسة فى الخارج لا يعود الا حوالى 30 منهم ، وان نسبة العلماء المصريين الذين فضلوا الحياة فى الخارج تبلغ 58٪ من مجموع المصريين الذين يعيشون خارج بلادهم .

فهذه الحقائق المدعومة بالارقام تبين كيف أن الدول النامية تخسر خير أبنائها الذين جعلتهم عدة للمستقبل وأساسا للبناء وتبقى صفر اليدين فى الوقت الذى تتمتع بخبراتهم دول وبلدان أخرى لم تنفق على تعليمهم ولم تتعب فى تخريجهم واعدادهم . وفى هذه المشكلة الخطرة يقول قسطنطين زريق فى كتابه المتقدم : «انه لمن المؤسف حقا أن جزءا غير قليل من المواهب التى ننميها لا يبقى لنا بل يجد سبيله الى مواطن أخرى مع جسامة ما يكون قد كلفنا اعداده وشدة حاجتنا اليه . ذلك أن فريقا من شبابنا الذين يذهبون الى مواطن الاختصاص ويقضون فيها سنوات للتهيىء والتجهز ، اما انهم يبقون فيها، أو اذا عادوا الى بلادهم لايجدون مجالات وافية لنشاطاتهم أو اجواء تقدير وتشجيع فلا يلبثون ان يتسربوا الى الخارج وتحرم بلدانهم فى الحالين امكان الافادة من القدرات التى حصلوها» .

أسباب الهجرة :

بعد أن عرضنا الظاهرة وألقينا ضوءا كافيا على طبيعتها وظروفها نود الآن أن نعرف الاسباب الكامنة وراءها أو على الاقل بعض هذه الاسباب وان كنا قد أشرنا الى بعضها عرضا فى السطور السابقة .

1 ـ ان أهم عمل يأتى فى المقدمة هو أن **الفنيين والعلماء فى بلدان العالم الثالث لا يجدون أعمالا تناسب اختصاصاتهم فى بلدانهم الاصلية** فكم من مهندس أو عالم فى الذرة أو غيرها من فروع الهندسة لا يجد العمل فى مجال اختصاصه فيضطر الى الهجرة الى البلد الذى يقدر مواهبه ويفتح له المجال واسعا ليمارس اختصاصه ويشبع رغباته الطبيعية وميوله. وهذا فى الحقيقة سبب أو عامل مزدوج تشارك فيه البلدان المتقدمة والبلدان النامية على السواء . ففى البلدان المتقدمة نجد طلبا كبيرا على العلماء والفنيين لان الثورة الصناعية تطلبهم بالحاح نظرا لاحتياجاتها الكثيرة الى أمثالهم فتصبح هذه البلدان منطقة جذب لهؤلاء العلماء كما قلنا سابقا . بينما نجد العكس تقريبا فى البلدان النامية حيث لا يجد الكثير من العلماء والفنيين أعمالا تناسب اختصاصاتهم فتصبح هذه البلدان منطقة دفع لهؤلاء العلماء تحملهم على الهجرة وتدفعهم اليها ، ولهذا قلنا ان هذا السبب مزدوج تتوزع المسؤولية فيه بين الدول النامية والدول الصناعية على السواء . ومن المتناقضات العجيبة أن يصبح خريجو الجامعات فى كثير من البلدان النامية يمثلون نسبة كبيرة من البطالين والعاطلين عن العمل حتى انه فى الهند وحدها قد بلغ عدد العاطلين من خريجى الجامعات مليونا ونصف مليون وهى نسبة هائلة تدعو الى العجب ، وما ذلك الا لان المرحلة الصناعية التى تمر بها بلادهم تجعلها غير قادرة على استيعابهم فى تخصصاتهم العلمية ولا على اتاحة الفرصة لهم ليجدوا أعمالا تناسبهم .

2 ـ **السبب الثانى الذى يشبه الاول بعض الشبه هو أن العلماء لا تتوفر لهم وسائل البحث العلمى فى بلدانهم الاصلية فيصيبهم ذلك بالجمود والبطالة** وقد يؤدى الى القضاء على مواهبهم فيفضلون الهجرة الى البلدان الصناعية حيث المجال رحبا والوسائل متوفرة هروبا من الموت العلمى ان صح هذا التعبير .

3 ـ وهناك العامل المادى بلا شك وهو من أهم العوامل أيضا حيث يجد العلماء اغراء متزايدا من طرف الدول المصنعة يدفعهم الى ترك

اوطانهم والتخلي عن واجباتهم أحيانا · وقد بينت الدراسات أن المهاجرين الى أمريكا من الفنيين والعلماء تبلغ مرتباتهم فيها ستة أضعاف مرتباتهم في بلدانهم الاصلية وان المهاجرين من العلماء الى أروبا تبلغ مرتباتهم فيها ثلاثة أضعاف مرتباتهم في بلدانهم الاصلية ، وهكذا يظهر الفارق في المرتبات كبيرا جدا ويشكل اغراء لا يقهر ·

4 – ولا ننس ان من أهم الاسباب المشجعة لهذا النوع من الهجرة هو ما يسمى ، **بالارتباط الثقافي** ، وهو يمثل احدى الاسباب المساعدة على الهجرة خصوصا الى الدول الاستعمارية القديمة مثل فرنسا وانجلترا والمانيا وهولندا وغيرها · فالمثقفون في مستعمرات فرنسية قديمة هم مرتبطون بفرنسا بحكم الرباط الثقافي ولذلك يهاجرون اليها ، بينما المثقفون في مستعمرات انجليزية أو أمريكية يهاجرون الى الى أمريكا وبريطانيا بحكم الحنين وسهولة التفاهم والتأثر الثقافي ·

5 – ومن الاسباب الهامة لهذه الظاهرة ، **عدم الاستقرار السياسي وتوالي الثورات والانقلابات وكثرة القلاقل في البلدان النامية بحكم المرحلة الانتقالية التي تعيش فيها هذه البلدان** ، مما يخلق جوا من عدم الاستقرار وكثيرا ما يفقد الثقة بالمستقبل والاطمئنان على المصير ويحمل بعض الناس على الهجرة الى البلدان الاكثر استقرارا وهدوءا ·

6 – ولا ننس أيضا أن **الرجعية في التفكير والعمل والسلوك في النظم الاجتماعية والسياسية ومختلف المؤسسات لا تزال تسود في أغلبية البلدان النامية** ، مما يخلق جوا من عدم الانسجام بين المثقف وبيئته المتخلفة التي تسيء الظن به وبافكاره دائما وحتى بسلوكه ونظريته الجامعية في البلدان وعدم توافر أسباب البحث العلمي ووسائله ، والروح البيروقراطية السائدة فيها ، وتحكم الروتين الاداري ، ونظم الترقية والتوظيف المبنية على المحسوبية وعدم مراعاة الكفاءات واحترام المواهب ·

هذه بعض أسباب هجرة العلماء من البلدان النامية الى البلدان الصناعية أوردناها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر والتقصي ، وأعتقد أن في ذلك ما يكفي لالقاء الضوء على هذه الظاهرة وانارة جوانبها · أما الآن فسنحاول أن نبين آثار هذه الهجرة على الدول النامية ·

الآثار المترتبة على هذه الهجرة :

تترتب على هذه الهجرة آثار كثيرة ومختلفة وكلها ليست في مصلحة الدول النامية وسنحاول أن نوجزها فيما يلي :

1 – هناك أولا خسائر مالية كبيرة تتحملها الدول النامية من جراء هجرة الكفاءات منها ، وقد أشرنا الى ذلك سابقا ·

وهذه الاموال تربحها بالمقابل الدول الصناعية مما يؤدي الى زيادة الغني غنى والفقير فقرا ويزيد في توسيع المسافة التي تفصل بين الشعوب المتقدمة والشعوب المتخلفة التي ترغب في اللحاق ، حتى ان الخبراء ورجال الاحصاء قد قدروا أن الولايات المتحدة تربح سنويا 2000 مليون دولار بسبب الاطباء الوافدين عليها من الخارج ، اذ كان تخريج كل طبيب يكلفها 20 مليون دولار فأصبح هذا الطبيب يأتيها جاهزا لا تتكلف في تخريجه أية نفقة ؛ وفي مقابل ذلك تخسر أمريكا اللاتينية والهند والدول النامية بصفة عامة هذا المبلغ الذي تربحه الولايات المتحدة نتيجة لهجرة هؤلاء الاطباء · وهذا المبلغ تربحه من الاطباء وحدهم فما بالك بالمهندسين والعلماء في شتى فروع المعرفة ؟

2 – ان هذه الهجرة تجعل التنمية تتخلف وتسير ببطء كبير في البلدان النامية التي هي في أشد الحاجة الى الاسراع وحرق المراحل بينما تزداد سرعة في الدول المصنعة المتقدمة وبذلك يزداد الفارق بين الشعوب وتقل فرص المساواة وتنعدم العدالة ·

3 – ان هذه الهجرة تساعد على جعل التنمية في البلدان المتخلفة تعتمد دائما على المعونة الفنية التي تتلقاها من الدول الصناعية هذا في الوقت الذي تدل التجارب ويقرر الخبراء أن التنمية الحقيقية الناجعة لا بد أن تنبع من داخل البلد نفسه سواء في الكفاءات البشرية

والفنيين أو فى الظروف الملائمة . ولذلك فان بعض المفكرين يرون أن هذه الظاهرة هى نوع من الاستعمار الجديد المقنع ؛ فالاستغلال الذى كانت تمارسه الدول الاستعمارية فى أشكال أخرى مثل سرقة ثروات البلاد وخاماتها وامكانياتها المختلفة أصبحت تمارسه الآن فى شكل جديد هو سرقة العقول والادمغة واقتناص الكفاءات البشرية من دول العالم الثالث مما يتركها عزلاء أمام متطلبات الحياة الحديثة تعانى التخلف والسير البطىء . الا أن هذه التهمة تنطوى على شىء من المبالغة التى أملتها العاطفة بلا شك ، فمن الانصاف أن نعترف ــ كما تشهد بذلك الوقائع ــ بأن المتسبب فى هذا النوع من هجرة الكفاءات والعقول ليست هى الدول الصناعية تماما بل هو فى الحقيقة راجع الى ظروف كثيرة وأسباب مختلفة أكثرها نابع من داخل البلدان النامية نفسها كما رأينا ذلك بوضوح عندما تحدثنا عن أسباب هذه الهجرة .

اقتراحات للعلاج :

لكل داء دواء ينبع من طبيعة الداء نفسه وان لم يكن ناجحا فى بعض الاحيان ؛ ولذلك فان اقتراحات العلاج يمكن أن نستقيها من أسباب الهجرة نفسها كما عرضناها آنفا ، لانه بالقضاء على هذه الاسباب والعوامل يمكن أن يقضى على الهجرة نفسها بحكم ارتباط الظاهرة بسببها وجودا وعدما كما هو معروف ، وبذلك تنتهى هذه الظاهرة الجديدة التى تمثل شكلا من أشكال الاستغلال المسلط على الدول النامية ، أو على الاقل تخف شيئا فشيئا ان لم يقدر لها أن تزول تماما خصوصا فى الظروف الراهنة . ويمكن أن نورد فيما يلى عددا من الاقتراحات والحلول التى اتفقت على أغلبها معظم وجهات النظر بالنسبة للمعنيين بهذه القضية :

1 ــ ان النقطة الاولى التى يتفقون عليها والتى يمكن أن تشكل حلا جديا وناجعا هى قضية اعادة النظر فى سياسة التعليم والتربية فى المدارس والجامعات من جهتين :

أ ــ فمن جهة ينبغى أن يقع التوفيق بين احتياجات البلاد النامية وبين الميول الفردية فى الدراسة فيوجه الطلاب الى الفروع التى تكون حاجة البلاد اليها أكثر وأشد الحاحا . وقد تنبه المفكرون الى هذه القضية منذ وقت مبكر حتى قال توفيق الحكيم فى مقال نشره سنة 1938 بصدد هذه القضية ، وهو موجود فى كتابه «تحت شمس الفكر» : لقد قيل ان فتح أبواب التعليم على مصاريعها فى بعض الكليات لا يؤدى فى مصر الى خير ، لماذا ؟ .. لان النشاط التجارى أو الصناعى الذى يستوعب فى أروبا أكثر الخريجين متخلف فى بلادنا عن النشاط العلمى النظرى ، لا بد اذن من ايجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمى ونشاطنا الاقتصادى» .

ب ــ ومن جهة أخرى ينبغى تغيير سياسة التربية فى المدارس منذ المرحلة الابتدائية فلا يكتفى بالتعليم وحده بل لا بد من ادخال التوجيه الوطنى والتوعية القومية فيدبى التلميذ على حب الوطن وفهم وضعيته المتخلفة ومشاكله الكثيرة ومرحلته الحضارية التى تتطلب العمل المخلص لتخطى الواقع المتردى والنهوض من التخلف المزمن بحيث تتحول هذه الافكار الى سلوك وأخلاق ولا تبقى فى حيز النظريات . وليس هذا من قبيل الاحلام التى لا تتحقق ولا تنجح فى الواقع العلمى ، فقد سبق لبعض الامم الحديثة مثل اليابان وألمانيا وايطاليا أن نجحت فى مثل هذا التوجيه فى فترات معينة من حياتها، ومع أنها استغلت ذلك فى أغراض حربية غير انسانية الا أن التجربة مع ذلك تبقى دليلا على امكانية النجاح فى مثل هذا التوجيه الذى أشرنا اليه ووجدت الوسائل الكفيلة بانجاحه . ولكن هذا طبعا متوقف على أن تكون الحكومة ثورية شعبية تقدمية تفهم مشاكل الوطن وتدرك أبعادها وتعمل على حلها والا لم يمكن تطبيق مثل هذه السياسة فى التعليم .



2 ــ يمكن أن تعطى الوظائف المناسبة والاجور المغرية لكل الاخصائيين العائدين الى بلادهم أو المتخرجين منها وخلق الفرص امامهم للبحث المثمر والعمل الجدى حتى يتخلصوا من الضياع المادى والمعنوى الذى يجدون أنفسهم فيه فى كثير من الاحيان مع محاولة خلق الجو المناسب لهم فى أعمالهم وظروف حياتهم ٠

3 ــ ينبغى أن تكون الدولة التى ترسل طلبتها للدراسة فى الخارج على اتصال مستمر بهؤلاء الطلبة للعمل الدائم على توعيتهم وربط عواطفهم وأفكارهم بوطنهم وتوجيههم باستمرار نحو قضايا الوطن فى مرحلته التاريخية الصعبة التى تجتازها البلاد وتحاول فيها اللحاق بركب المدنية الزاحف الى الامام والمتصارع دوما من أجل اثبات الوجود الفعال المجدى ٠

* * *

هذه بعض وجوه المشكلة واسبابها وبعض اقتراحات لعلاجها ، وان كنت اعتقد ــ كما توحى بذلك الظروف ــ ان المشكلة لن تحل حلا جذريا الا بالتقدم العام الذى ستحصل عليه المجتمعات النامية فى المستقبل حين تصبح الصناعة والتجارة والخدمات العامة ــ كما قال توفيق الحكيم ــ قادرة على ان تستوعب الفنيين والاخصاصيين ، وعند ذلك فقط ستضعف هذه الظاهرة وربما تختفى نهائيا ، وحتى ذلك الحين ستبقى سياسة اقامة التوازن فى التعليم بين الميول الفردية فى الدراسة والتخصص وبين احتياجات البلاد هى احسن حل لهذه المشكلة ٠



جورج لوكاتش

الفيلسوف الانسانى المتحرر

نبيهة تربش



جورج لوكاتش

توفى فى الشهر الماضى جورج لوكاتش عن عمر يناهز السابعة والثمانين • وهذه نبذة عن حياته وبعض أفكاره أخذناها بتصرف عن مقدمة الترجمة الفرنسية لكتابه : «التاريخ والوعى الطبقى» لكوستاش اكسلوس •

ولد جورج لوكاتش فى الثالث عشر من شهر أبريل 1885 ببودابست من أبوين ينتميان الى الطبقة النبيلة المجرية ، فتمكن من متابعة دراسته دون انقطاع ، وأسس وهو لا يزال طالبا ، مسرحا حرا ببودابست ، بمساعدة اصدقائه استعرض فيه انتاج كتاب واقعيين وطبيعيين ، وفى سنة 1908 نشر «**تطور الدراما الحديث**» باللغة المجرية وهذا هو كتابه الاول ، ثم بدأ يتردد على جامعات برلين ، وجنوب غرب ألمانيا فتعرف على زملاء وأساتذة كبار من بينهم الفلاسفة : هسرل ، وياسبرس ، وهيدغر ، وعلماء الاجتماع ماكس فيبر وموزنهايم ، والكتاب : غندولف وتوماس مانه ووطد علاقته ببعضهم ، فكان هذا بمثابة اتصال مباشر مع الكانتية المحدثة ، والفينومنولوجيا والهلجية الماركسية وعلم الاجتماع ، واستطيقا الاشكال والمحتويات •

وفى سنة 1911 نشر باللغة الالمانية «**الروح والاشكال**» جمع فيها باكورة مؤلفاته ٠

وبينما رحى الحرب العالمية الاولى دائرة بدأ يتقرب من الحركة العمالية ، وبعدها عاد الى المجر وانخرط في الحزب الاشتراكي وشارك في الجمهورية السوفياتية الاولى واسند اليه منصب محافظ الثقافة الشعبية في حكومة بلاكون ، ثم غادر المجر بعد الهزيمة وعاش حيث الف كتاب « **التاريخ والوعى الطبقى** » وكتبا أخرى ٠

كما مكث بالمانيا الا أنه اضطر لمغادرتها نهائيا بعد انتصار الاشتراكية الوطنية الجأ الى موسكو التي كان قد قضى بها سنتين،وراح يشتغل فى المعهد الفلسفى باكاديمية العلوم ، وأخذ فى نشر عدد من المقالات ، وفى اعداد بعض الكتب التى تم طبعها بعد الحرب ، وعاد الى المجر سنة 1945 حيث عمل كأستاذ للاستيطقا بجامعة بودابست وبدأ ينشر مؤلفاته من بينها «**بالزال**» — «**استندال**» — «**زولا**» — «**نيتش والفاشية** — «**هيجل**» — «**ماركس وانجلز كمؤرخى الادب**» — «الواقعية الروسية فى الادب العالمى» — وجودية أم ماركسية» — نظرة سريعة حول تاريخ الادب الالمانى» — «غوتة وعصره» — تدمير العقل : وهو ينقسم الى : «بداية اللاعقلية الحديثة : من شلنج الى نيتشة» — و «اللاعقلية المحدثة : من دلتى الى توينى» وغيرهم ٠٠ وفى سنة 1949 بدأ لوكاتش يتعرض لهجوم الايديولوجيين ذوى النزعة الستالينية الذين يأخذون عليه التأثير البرجوازى البادى فى انتاجه ، وكان من أشد مهاجميه «روفية» تلميذه القديم وأحد مؤيديه المتطرفين فى السابق والذى أصبح فيما بعد وزيرا للثقافة، فلم يلبث لوكاتش أن رضخ واعترف بما وجه اليه وقام بنقده الذاتى واعترف بأخطائه ولم ينكر انه تجاهل قليلا الواقعية الاشتراكية والواقعية السوفياتية ونشر نقده الذاتى فى المجلة الايديولوجية الرسمية للحزب الشيوعى المجرى ، وعلى اثر هذا نشر كتبه المتعلقة « بالواقعية السوفياتية » — «وتدمير العقل» الذى يعتبر اشادة «فلسفية» لعبقرية ستالين ، ثم أصبح لوكاتش سنة 1956 من محركى الثورة المجرية ، فشارك فى حكومة ناجى الاولى بشغله منصب وزير الثقافة ثم كون مع «ناجى» و «كدار» و «دوناث» وغيرهم لجنة تنظيم حزب شيوعى جديد مناهض لستالين تولى كدار مهمة تقديمه للشعب ٠

ولكن بعد ان انتصرت الفرق الروسية لجأ كل من ناجى ولوكاتش ودوناث الى سفارة يوغسلافيا بعد أن تحول عنهم كدار ، وفشلت جميع محاولات هذا الاخير الساعية الى استجلاب لوكاتش اذ ان لوكاتش البالغ الواحدة والسبعين رفض أن يذعن هذه المرة وأبى أن يقوم بنقده الذاتى والخضوع الى السلطة البيروقراطية التى تدعى الاشتراكية ، مما أدى الى نفيه الى رومانيا ، ولم يسمح له بالعودة الى المجر الا سنة 1957 ٠

ان كتاب «**التاريخ والوعى الطبقى**» عبارة عن مجموعة دراسات حول الجدلية الماركسية وقد ظهر فى برلين 1923 ، وتعرض لهجوم عنيف من طرف بوخارين وزنونياف اثناء انعقاد المؤتمر الخامس للعالمية الاشتراكية سنة 1924 ٠

وأصبح هذا الكتاب فيما بعد يدخل فى عداد الكتب الرجعية الاصلاحية الميثالية ، ولم يرفض لوكاتش هذا الحكم بل قبله بدون معارضة ، والاخطر من هذا انه أخذ فى انتقاد ، ولم يتلق هذا الكتاب ضربات الماركسية اللينينية الارثودكسية فحسب بل هوجم كذلك من طرف الاشتراكية الديمقراطية ٠

وتجدر الاشارة هنا الى أنه ظهر فى سنة 1923 كتاب «الماركسية والفلسفة» لكال تورش والذى يعد مع كتاب «التاريخ والوعى الطبقى» **المحاولتين الوحيدتين لتاسيس الاشتراكية بطريقة فلسفية فكان لاخفاقهما مغزى عميق ·**

وفى سنة 1924 هاجمت صحيفة **«البـرافـدا»** كلا من لوكـاتش وثورش واستعـرضت مبادىء الفلسفة الماركسية وهى التعريف الواقعى للحقيقة بكونها اتفاق الصور مع الاشياء التى توجـد فى العالم الخارجى ، وقد انتقل كورش الى المعارضة اليسارية المتطرفة وقام سنة 1930 بطبعة ثانية منقحة لكتابه «الماركسية والفلسفة» ·

ان كتاب «التاريخ والوعى الطبقى» الذى يعد مؤلفا جوهريا حول التفكير الماركسى فى القـرن العشرين قد اقصى عن التاريخ بدون أن يفرض أية سلطة على اليقظة البروليتارية ·

ان التيارات المختلفة قد قضت على هـــذا الكتـاب بمـا فى ذلك المـاركسية اللينينيـة الستالينية ، والاشتراكية الديمقراطية ، والتفكير اللينينى المتطرف ، والتفكير البرجوازى ، الا أن «التاريخ والوعى الطبقى» الذى لم يتبوأ مكانا فى سجل التاريخ الرسمى كان له أعمق التأثير فقد صبغ تيارات كثيرة وحركات البحث الفلسفـى والاجتماعى والنفسى وحركات علم النفس المرضى·

ان لوكاتش قد غدا اخصائيا فى النقد الذاتى برفضه التضحية متبعا فى ذلك مسار العقليـة الدكارتية والغاليلية ، وان تاريخ الفكر والايمان حافل بامثلة اولئك الذين أبوا أن يتراجعوا عـن مواقفهم ولوكان ذلك على حساب حياتهم،فسقراط والمسيح وغيرهما قدموا حياتهم فداء لمبادئهم·

أفلا نجد «برتول برشت» يصرح على لســان بطله «غاليليه» ان رجلا مثلى لا يمكنه أن يحافظ على كرامته الا بالركوع» ·

ولكن أيمكننا ان نموت من أجل الحقيقـــة العلمية ، وأين تكمل الفعالية ؟ وهل ينبغى عـلى الفكر النظرى أن يقدم أثمن التضحيات !

فمنذ بدأ الفكر يغزو العالم ، جلب المفـكر لنفسه جميع الوان الهوان ، فهذه الضغـــوط الاجتماعية من جهة والاحزاب السياسية من جهة اخرى تحاول ـ كل فى مجاله وميدانه ـ أن تسيره وفقا لمصالحها وطبقا لمعتقداتها ·

ان المفكر بحاجة ان يصرح عاليا بآرائه،ولكن أيحتم عليه هذا ان يطاطىء راسه الذى يكـــون لصدى دويه اكبر الاثر فى حالة ما اذا عبر عن رايه ومات منتصبا ؟ غير انه يبدو ان عصرنـــا الحاضر والعصر المقبل عاجزان عن الاجابة عن هذا السؤال ، خاصة وان التقنية والانتـــاج والاستهلاك الماديين قد تركوا بصماتهم على كل ما هو كائن وسيكــون ·

ان الهدف الذى يرمى اليه لوكاتش من وراء مؤلفاته هى الكلية ، والكلية التى يريدها ليست كلية العالم الخاضع للصيرورة وانما هى كيفيـة سير وتطور التجربة الاجتماعية والتاريخيـة التى تتكون وتكشف عن نفسها فى العمل الاجتماعى وفى كفاح الطبقات ·

فالكلية عنده بمثابة جمع لكل الاحداث المعروفة والتى هى من انتاجنا والفكرة المتغلبة عليه هى كونه يريد ابراز فكرة تاريخية جدلية ماديـــة ونظرية للعمل الاجتماعى تعتمد بل تنبع من ضمير الطبقة البروليتارية ·

ان القضية الرئيسية عند ماركس وهي تجاوز الفلسفة كفلسفة عن طريق تحقيقها في الواقع ، لا نجدها عند لوكاتش ، رغم أن ماركس قد وضع هذه المشكلة الجوهرية في عدة مؤلفات كـان لوكاتش نفسه قد أشار اليها ٠

وهكذا أليس من الاجدر أن نبحث عند لوكاتش عن مشكل مصير الفلسفة ومستقبل الفكر اللذين لا يذوبان تماما في التطبيق الواقعي،فان هذه القضية الخطيرة التي عرف هيدجر على الاقل كيف يطرحها لم تخطر أبدا ببال لوكاتش ، نجد أن المقولة الرئيسية التي يعتمد عليها لوكاتش هي مقولة الوساطة التي تكون الرابطة بين المبـاشرة المصطنعة والكلية الصائرة ، اذ أن الصورة التي يتخذها وعي الطبقة البروليتارية ، والقوة التي تنقل من المباشرة الى الكلية ، والعامل الموحد بين النظر والعمل هو الحزب بنظامه وقـانونه «وبارادته الكلية الواعية» ٠

وبهذه الطريقة يجتمع في الحزب التـاريخ والتطور الاجتماعي ، ووعي الطبقة البروليتارية والتنظيم الثوري ويتحدون فيه ٠ ان هم لوكاتش الاكبر هو جعل الكائنات والاشياء خالية من كل جوهر ومن كل معنى حي ، فهو يحول كل شيء الى بضـاعة ، ان ما يسميـه هيجـل صيرورة الاستلاب ، وما يحلله ماركس الى مظاهر الاستلاب أو فيتيشية البضاعة ، يصبح عند لوكاتش خال من كل جوهر حي ٠

ان هذه الظاهرة التي أصبحت تغزو تمـاما العالم البرجوازي والرأسمالي ، من واجب الطبقة البرولتارية أن تضع لها حدا باستخـدامها أداة قوية ألا وهي الحزب ٠

هذا ما يعتقده لوكاتش وما نجده خاصة في كتابه «التاريخ والوعي الطبقي» ٠

كان لوكاتش في المجال السياسي يعـارض ديكتادورية الطبقة الكادحة بالديمقراطية الثورية ويستعيض عن صراع الرأسمالية والشيوعية بصراع القوى الديموقراطية ضد القوى اللاديموقراطية ٠

ان من أبرز مزايا جورج لوكاتش بالاضافة الى نزعته الانسانية الثابتة المتقدمة هذه المـرونة الذهنية الرائعة التي تجعله يذود عن التـراث الكلاسيكي لشعبه ولغيره من الشعوب في وجه من ينعتونه بالتخلف والانحطـاط والرجوع الى الوراء ، في الوقت الذي يظهر للعالم الرأسمالي غنى الفكر الاشتراكي وخصوبته ٠

فهو محافظ بالمعنى الافضل لهذه الكلمـة ، وثـوري متفتـح في آن واحد ٠

... على ان هنـاك نقطة هامـة ، وان لم نغفلها أبدا ، الا أنها تستحق منا ابتـداء من اليوم جهودا مضاعفة ، وسهرا مستمرا ، اذ انها بالنسبة لجميع جهـودنا بمثابة الروح للجسـد ، الا وهو الجانب المعنـوى ، الجانب الروحى ، أى الثورة الثقافيـة التى هى تاج ثورتنا الشاملة ، بأعمدتهاالثلاثة الصناعى ، والزراعى ، والثقافى .

هوارى بومدين

● نـدوة فلسفيــة ●

الفكر الفلسفي الإسلامي

نظم قسم الفلسفة ندوة فلسفية فى شهر ماى الماضى كان موضوعها « الفكر الفلسفى وتحديـات الفـكر المعـاصر » أشرف عليها الاساتذة د . عبد الحليم محمود وكيل الازهر ، و د . محمود قاسـم عميد كليـة العلوم بجامعة القاهرة ، و د . يحيى هويدى عميد كلية الآداب بجـامعة القـــاهرة .

وحضر هذه الندوة عدد من الاساتذة والطلبة . وتولى الاستـــاذ بوعمران رئيس قسم الفلسفة ادارتها .

ونحن ننشر هذه الندوة كنموذج لوجهة نظر فى موضوع يمـــس صميم حياتنا الاجتماعية والثقافية ، وفى اطار تشجيع الحوار الفكـــرى الذى يهدف فيما يهدف اليه ، تطوير ثقافتنا وتعميق نظرتنا الى الحيـاة والكون وترقية مجتمعاتنا الى مصاف المجتمعات الانسانية التى بلغـت اليوم درجة كبيرة فى مجال التقدم الفكرى والعلمى والحضارى .

ونحن نؤمن اعمق الايمان بجدوى اسلوب الحوار الهادىء الموضوعى فى تحليل المشاكل والبحث عن الحقيقة .

وباب النقاش مفتوح لكافة المثقفين ، وسننشر كل رأى موضوعى يأتينا فى هذا الموضوع .

د. عبد الحليم محمود

الفلسفة لا راى لها ولا تتحـدى ، ولا يتأتى مطلقـــا ان تتحـــدى .

أريد أن أبدأ بهذا السؤال ما هى قيمة تحديات الفكر الفلسفى المعاصر ، وبتعبير آخر ، ما هى قيمة الفكر الفلسفى ، وأريد أن أبدأ فأحدد معنى الفلسفة ، التعريف الذى أسير على منهجه وأسير على ضوئه هو :

الفلسفة هى البحث العقلى فى أمـور ما وراء الطبيعة وفى الاخلاق ، والواقع ان كل فيلسوف تجد فلسفته تنشطـر الى شطـرين : شطر هى

وتحديات الفكر المعاصر

البحث فى ما وراء الطبيعة وشطر هو الاخلاق ٠
وفى هذا المجال نبدأ بقصة لها مغزاها العميق:
اثنان من فلاسفة المدرسة الفيثاغورية أحدهما شخصية من كبار فلاسفة المدرسة الفيثاغورية ، اسمها سمياس ٠ هناك سقراط أبو الفلسفة ، وهناك سيمياس ، وهناك شخصية ثالثة من كبار فلاسفة الفيثاغوريين ، وكانوا يتحدثون فى موضوع محدد : هل النفس باقية خالدة بعد الموت أم أنها فانية مع الجسم ، ويحاولون هم الثلاثة وهم من كبار الفلاسفة ، واحدهم يسمى أبو الفلسفة وأبو الفلاسفة مجتمعين ، يحاولون ما استطاعوا الى ذلك سبيلا : جهدا فى الفكر واعمالا فى الادلة يحاولون أن يبرهنوا على أن النفس باقية بعد الموت وبرهنوا وبذلوا كل ما يستطيعون من جهد فى البرهنة ، ثم سكتوا ومكثوا هنيهة صامتين ثم قال أحدهم بعد هذا الجهد الكبير : ولكن المسالة مازالت بعد فى حاجة الى يقين أكثر وقال سقراط ردا على هذا : نعم ولكن هذا نهاية شوط العقل، نهاية شوط العقل ألا يصل الى اليقين فى موضوع محدد ، وهو الذى نتحدث فيه ، أعنى ما وراء الطبيعة والاخلاق وتتضمن الاخلاق السلوك فيما يتعلق بالمجتمع وتتضمن النظريات الاجتماعية ، ثم قال : ان المسألة فيما يتعلق بما وراء الطبيعة مثلها كمثل البحر المحيط ، ما وراء الطبيعة يشبهه ببحر محيط ، ووسيلة العبور فى ما وراء الطبيعة هى الدين والعقل ٠ وسيلة العبور فيما يتعلق بالبحر المادى المحسوس :

هى السفينة أو لوح من خشب ، السفينة الآمنة فى ما رأى سقراط وفى ما رأى الفيثاغوريون السفينة الآمنة المتينة هى الوحى،أما لوح الخشب فهو العقل ، مثل العقل فى خوض ما وراء الطبيعة وفى خوض الاخلاق مثله كمثل لوح من خشب فى عبور البحر المادى المحسوس ، ومثل الوحى فيما يتعلق بما وراء الطبيعة ، وفيما يتعلق بالاخلاق كمثل السفينة الآمنة المتينة فى عبور البحر المادى ، اذا لم تكن هناك سفينة آمنة متينة فلا مناص اذن من أن يركب الانسان لوح الخشب ليعبر به محيط ما وراء الطبيعة او محيط الاخلاق ٠ ولوح الخشب لا أمان له ولا ينتهى مطلقا الى عبور البحر المحيط : يغرق الانسان بعد فترة طويلة أو قصيرة من الخوض فى محيط ما وراء الطبيعة ، لوح الخشب هذا حينما بدأت به الانسانية منفصلة عن الدين ، أو منفصلة عن السفينة الآمنة المتينة ، ماذا أنتج ؟ ماذا أصبح العقل فيما يتعلق بعالم الفلسفة ؟ لا شىء نظريات متضاربة ، متعارضة ، ونتساءل أليس هناك من فيصل بين الحق والباطل فى محيط ما وراء الطبيعة ، فى محيط الفلسفة فى محيط الاخلاق ، أليس هناك مقياسا نقيس به الحق من الباطل فنفصل الحق عن الباطل ، ونعرف الحق ونهتدى اليه وننبذ الباطل ونرفضه ؟ وأقول بكل بساطة ليس هناك هذا المقياس ٠

لقد حاول أرسطو أن يخترع هذا المقياس فاخترع المنطق ، المنطق الارسطى المنطق الصورى ، اخترعه كفيصل بين الحق والباطل فى محيط ما وراء الطبيعة ، وفى محيط الاخلاق • ولكن هذا المقياس أو هذا الفيصل لم ينتج شيئا وهى دعوى عريضة طويلة مستفيضة التى تقول ان المنطق مقياس للحق والباطل ، انه ليس مقياسا للحق والباطل ، والمسألة بسيطة • ان نتيجة القياس حينما نحب أن تكون يقينية لا بد أن يشترط فى المقدمات ولم يشترط منطقى مطلقا اليقين فى المقدمات لم يشترطه أرسطو ولم يشترطه ابن سينا ولم يشترطه الفارابى ولم يشترطه ابن رشد ، لم يشترط فيلسوف من الفلاسفة اليقين فى المقدمات وبقيت الآراء فى الفلسفة والآراء فى الاخلاق ظنية لا أكثر ولا أقل لم يخترع أحد المقياس الذى مثله فى عالم العقليات كمثل التجربة فى عالم المحسوسات وحاول ديكارت ، أن يخترع هذا المقياس الذى يفصل بين الحق والباطل وأثار ديكارت العالم بمزاعمه وقالوا انه يعتمد فيما يتعلق بالموضوع على قضية يقينية وينطلق منها ، وبدأ يعبر عن الشك • ووضع الشك فى صورة جميلة وقوية ثم قال : اذا وجدنا يقينا نرتكز عليه يمكننا أن نصل الى اليقين فى كل أمر من الامور ، ووجد هذا اليقين الذى اعتبره عقليا ، أنا أفكر اذاً أنا موجود ، وأخطأ ديكارت فى ان هذه القضية قضية عقلية ، انها ليست عقلية ، اليقين لم يأتها من ناحية كونها عقلية لان اليقين أتاها من ناحية كونها شعورية يشعر بها الانسان ولو لم يكن هذا لما كانت يقينية من قبل زال اليقين الذى أضفاه علىّ أنا أفكر اذن أنا موجود لم يأت من ناحية العقل وانما أتاها من ناحية كونها شعورية ولو كانت عقلية بحتة ولم تكن شعورية لما كان فيها هذا اليقين ، وحاول ديكارت ما استطاع الى ذلك سبيلا أن ينطلق من هذا اليقين الى يقين آخر ، فلم يوفق مطلقا ، والواقع أن ديكارت يعتبر هو ومدرسته فى الشك الى الآن لم يخرجوا من الشك الى الآن لانهم لم يستطيعوا أن يأتوا بعد هذه القضية الشعورية التى يشعر بها كل انسان والتى أتاها اليقين من انها شعورية لم يصل ديكارت مطلقا ان يصل فى عالم ما وراء الطبيعة ، أو فى عالم الاخلاق الى اليقين •

اذن نحن فى مجال الفلسفة فى عالم الظن ، الظن المطلق نحن فى مجال ما وراء الطبيعة وفى مجال الاخلاق فلسفيا فى عالم الظن ولا أمل أن يكون هناك مقياس أو يكون هناك يقين واذاً هناك فى كل قضية من القضايا منذ أن بدأت الفلسفة من العصر اليونانى الى الآن هناك فى كل قضية من القضايا الانكار والاثبات ، الرأى وضده ، هناك ابيقور ، الانكار المطلق وهناك أفلاطون ، الانكار المطلق والايمان المطلق ، أو الانكار المطلق والاثبات المطلق وكلاهما ظنى هناك من يثبت واثباته ظن وهناك من ينفى ونفيه ظن •

اذا كان الامر كذلك فيمكننا ان نقول بكل بساطة : ان الفلسفة لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات ، لا رأى لها لانه مادام ان هناك الاثبات وهناك النفى فى كل قضيه من القضايا فلا يمكنك أن تقول ان هذا الرأى الفلسفى سواء كان اثباتا أوكان نفيا ان الرأى فى الفلسفة لا وجود له فى أية قضية من القضايا لا نفيا ولا اثباتا •

لان كل قضية من القضايا فيها النفى وفيها الاثبات كل قضية من القضايا فيها الرأى المثبت وفيها الرأى النافى واذا لا يتأتى مطلقا أن نقول ان الفلسفة لها رأى واذا بالتالى لا يتأتى مطلقا أن نقول ان الفلسفة تتحدى••• تتحدى الاسلام كلا انه لا رأى لها فلا يمكن مطلقا أن تتحدى الاسلام وأظن أنه يمكن أن نقول مثلا فى مجال السخرية ان فلاسفة العصر الحاضر لا يزالون يتخبطون فيما أعلنه زينون من سخريات بالفلاسفة لقد أعلن زينون عدة قضايا سخر بها من الفلاسفة وهو فيلسوف ، من هذه القضايا مثلا ، أنا أقول حبة المسبحة هذه اما ان تكون أكبر من العالم واما أن تكون لا شىء ، وعقليا لايتأتى الامر انه يكون غير ذلك اما انها أكبر من العالم واما انها لا شىء •

اذا سألنا فى البرهان وأرجو الانتباه قليلا الى هذا البرهان• نقول اننا سنجزىء حبة المسبحة

سنجزئها الى أجزاء ، اما ان تنتهى هذه التجزئة الى حد أو لا تنتهى الى حد ، اذا كانت هـذه التجزئة تنتهى الى حد فمعنى ذلك انها تنتهى الى أجزاء لا حجم لها ، لان ما له حجم يقسم ، واذا انتهت الى أجزاء لا حجم لها فمجموع ما لا حجم له لا حجم له فحبة المسبحة لا شيء ، لكن اذا لم تنته التجزئة الى حد معنى هذا اننا نأخذ فى التجزئة اليوم وغدا وهذا الاسبوع والاسبوع المقبل ، وهذا الشهر والشهر الذى يليه ، وهذا العام وهذا القرن والقرن الذى يليه الى ما لا نهاية ما لا نهاية له من أجزاء مهما كانت صغيرة ما دامت لا نهاية لها فانها تتكدس شيئا فشيئا ، فتملأ الكف وتملأ الغرفة وتملأ الشارع وتملأ ما بين السماء والارض وتفيض عن كل ذلك لانها لانهاية لها فهى اذاً أكبر من العالم • لا يزال برغسون وغيره من فلاسفة العصر الحاضر يحاولون حل المسائل التى عرضها زينون على الفلاسفة متحديا لهم ولم يستطيعوا الى الآن حلها ، لقد برهن لهم ان السهم اذا انطلق لا يتحرك فى الانطلاق • وضع لهم مسألة ان السلحفاة اذا سبقها الارنب بمتر فلا يتأتى مطلقا عقليا أن يدركها الارنب ، وهكذا أمور كثيرة من المسائل التى تحداهم عقليا فى أن يصلوا فيها الى حل ولا يزالون منذ 25 قرنا يتحدثون فيها فلا يستطيعون حلها •

الفلسفة اذن لا رأى لها واذا لا تتحدى ولا يتأتى لها مطلقا أن تتحدى ومحيط عالم الفلسفة من أوله الى آخره انما هو محيط الظن •

أيها الاخوة : انى فى هذا كنت أنتقد نفسى اننى درست الفلسفة وأدرسها منذ ثلاثين قرنا ولا أزال أدرسها الى الآن فى كل عام وكنت أدرسها فى هذا العام الحالى واذا أطال الله فى العمر فسأدرسها فى العام المقبل ان شاء الله، ومع ذلك انها كلمة القيها ، للتفكير فيها واذا أثارت التفكير فيكفينى هذا نجاحا •

الاستاذ بوعمران :

قبل ان نحيل الكلمه الى الدكتور محمود قاسم اريد ان اعلق تعليقا ، القصد منه الربط ما بين الموضوعات فقط •

سمعتم راى د • عبد الحليم ، وله موقف من تعريف الفلسفه ووظيفه الفلسفه ، وفى خلاصة اذن فيما ذهب الله هناك مذهب او موقف من الفلسفة وهو : ان الفلسفة ليست بشيء أمام الايمان وهى نوع من نوع الظن، والآن احيل الكلمة الى د • محمود قاسم وارجو ان يبين لنا رايا آخر غير راى د • عبد الحليم محمود حتى يفسح لنا مجال المناقشة ، وأنا أعرف د•محمود قاسم صاحب فلسفة عقلية ، ونحن فى مناهجنا نعتمد على هذا المنهج النقدى كل له راى وله ان يدلل عليه•اذن ستشاهدون هذه الحرية الفكرية فى الفلسفة والفلاسفة والمتفلسفة ولكن ينبغى فى نهاية المطاف ان تكون هذه الفلسفة ملتزمة •

د . محمود قاسم

القول بان الفكر الفلسفى المعاصر لا يستطيع أن يعوق مسيرة الاسلام هو تبسيط للمشاكل أكثر مما ينبغى

أشكر جامعة الجزائر ان اتاحت لنا فرصة لقاء مع أبنائنا من دارسى الفلسفة ومن طلائع الحضارة العربية والاسلامية فى هذا القطر الشقيق

ان الاخ الشيخ بوعمران قد حدد لى ما يريد ولكننى سبقته عند ما حددت لنفسى ما أريد وأنا أحب الاستقلال ولذلك فأنا أختار الاحتمال الثانى لا الاحتمال الاول وهو أن أعرض رأيى مستقلا دون أن أعرض لرأى صديقى وزميلى الدكتور عبد الحليم محمود الذى قرر اننى صاح باتجاه عقلى فصدقه الناس جميعا ، اذا اتجهت الى هذا الموضوع الذى طرحناه للمناقشة وهو فى الفكر الاسلامى وتحديات الفكر الفلسفى بالواقع ولذلك سوف أقدم لرأيى ببعض الاحداث التاريخية التى تتصل بتاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى والفكر الاوروبى ، وفى آخر الامر سوف أشير باختصار الى نموذجين من تحديات الفكر المعاصر للاسلام •

من الواضح فى ذهنى وفى أذهانكم ان هناك تخطيطا مسيحيا من عصور طويلة وان هنـــاك صراعا بين دينين مختلفين : دين الاسلام ودين المسيحية ، وهذا فى ظنى صراع طبيـعى بين دينين مختلفين يمثلان حضارتين مختلفتين لا أريد أن اعترف من التاريخ فأشير الى الحروب الصليبيـة والى بدء حركة الاستعمار الاوروبى للاقطار الاسلامية منذ أن أخرجوا المسلمين من الاندلس فذلك شيء نعرفه جميعا . انما أود ان أشير الى نوع آخر من الصراع الفكرى بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية ابتداء من القرن الثانى عشر ، وهـو الصراع الذى نشب بين ممثلى الفكر الكاثوليكى توماس الاكوينى وابن رشد ، وهذا موضـــوع أشرت اليه فى كثير من مؤلفاتى عند ما بينت أن توماس الاكوينى يعتبر مجدد الدين المسيـحى الكاثوليكى ولكنه جدده على أسس اسلاميـــة لانهم أرادوا أن يستخدموا أسلحة الاســلام فى نقد الاسلام ، من الغريب أن بعض المفـكرين الاحرار باروبا فى القرن الثالث عشر أطلقـــوا على أنفسهم اسم الرشيديين اللاتينيين وقد خيل للكنيسة انها انتصرت على الفكر الاسلامى لكنها لم تنتصر ، ذلك أن الفكر الرشدى وان لم يـكن رشديا خالصا استطاع أن يشق طريقه وتمـكن من أن يفتح الباب على مصراعيه للتفكير العلمى والفلسفى الاسلامى وأنا لا أغلو فى شيء اذا قلت ان حركة النهضة الحديثة ترجع الى عناصــر اسلامية ، اما معتدلة واما متطرفة فالعلـــوم والدراســات التجريبيــة دخلت أروبا بمجهـود المترجمين للعلم العربى كما أن بعض المـذاهب الباطنية قد توغلت فى أروبا ابتداء من القــرن الثالث عشر فى بلاط فيريدريك الثانى امبراطور صقلية ، وانها أدت فيما بعد الى ما نسميــه بحركة النهضة وظهور الماسونية الاروبية الحديثة

هذا التأثير كان متنوعا وأنا الآن بصدد بيان أثر الفكر الاسلامى فى الفكر المسيحى الحديث وأحدد طريقة واضحة اننا نستطيع أن نعـرف فلسفة ليبيتز على ضوء ما انتهى اليه محى الدين ابن عربى . معروف ان محى الدين بن عربـى متصوف ، واعتقد أن محى الدين بن عربى كان فيلسوفا من طراز ممتاز ، وان آراءه قد تسربت الى الفكر الاروبى ، لكن نلاحظ ان الحضــارة الاسلامية بلغت الى مرحلة سيئة فى القــرن التاسع عشر فأدى ذلك الى الاستعمار الاروبى لشمال الافريقى ولمصر ولكثير من أقطارنــا العربية ، والصراع الحربى والسياسى ما زال مستمرا ، ونحن نحيا فى هذه الفترة العصيبة مأساة العرب ومأساة الاسلام فى فلسطـين .

الى جانب هذا الصراع السياسى والحـــربى والاقتصادى فى عصـرنا الراهن نجد صـــراعا فكريا مستمرا ويتخذ ثوب الفلسفة ، فى سـنة 1955 قرأت فى احدى نشرات الكاثوليك انهـم يدعون المسيحيـين الى أن يبشروا بالـــدين المسيحى فى أروبا ،وكل ما يخافونه هـــو امتداد الاسلام بخطى العملاق فى قلب قـــارة افريقيــا ؛ وهم يريدون أن يقف هذا الـزحف ويرون ان يعتمدوا على بعض المذاهب الالحادية يعنى من العجيب أن صاحب المقال فى النشـرة الكاثوليكية كان يتمنى أن تقف الشيـوعية فى وجه دخول الاســلام الى قلب افريقيا . هـــذا موقف عجيب جدا يبين لنا الصراع بين دينـين مختلفين: دين يدعى انه دين المحبة ولكنه يتمنى أن يقف الالحاد فى وجه الاسلام . هناك نماذج معاصرة حاولت ضرب الاسلام من الـداخل فى بلادنا الاسلامية وهى تلبس ثوبا فلسفيا ومـن العجيب أن نجـد أن هذا الاتجــاه منقسم الى فرعين : فرع يتخذ ثوبا صوفيا ودينيا ونوعــا آخر يتخذ اتجـاها الحاديا ، ولكن يبـــدو أن التخطيط ان لم يكن شعوريا فهو غير شعـورى لكنه موجود .

فمثلا أمضى ماسينون حياته لكى يدرس الحلاج ولكى يبين أن هناك وسيلة للربط بين المسيحية وبين الاسلام السنى عن طريق الحلاج . وكتابات ماسينون كما تعلمون بعد المرجع الكبير الذى يعتمد عليه كثيرون ممن يريدون ان يأخـــذوا عن المستشرقين لكن اذا نحن حللنا كتب ماسينون تحليلا دقيقا نجد أنه يهدف الى تفتيت العالــم الاسلامى المعاصر والى بث الفرقة بين المسلمين وبين الفرق الاسلامية لا يريد أن يتنبه المسلمون الى أن زمن الفرقة قد انتهى وانه ينبغى التقارب

لكى يقفوا فى وجه الغزو الاوروبى ولكنه يبعث النزعات الفردية والعصبية وأظنكم تعرفون كثيرا عن محاولات ماسينون فى الشمال الافريقى ، فربما كنتم أكثر معرفة بذلك من اخوانكم فى المشرق . لقد ذهب ماسينون ولكن ارلانهوز أيضا يتابع حركة ماسينون فى اتجاه صوفى ، وهو ويصدر كتابا له باسم الحلاج أو دين الصليب وهذا هو عنوان الكتاب ، وهو عنوان مثير هذا اتجاه صوفى ، وهناك اتجاه مدرسى يسمونه التومية الجديدة وله ممثلون كثيرون منهمجلسمون ومنهم الاب قنواتى عندنا وبعض الدينكان ومنهم لوى غاردى الذى يبدو أنه ليس من القسس ، ولكنه له روحه . هذه التومية الجديدة خطيرة جدا وسبب ذلك انهم يسعون الى ما يسمونه اللقاء الفكرى بين الاسلام والمسيحية وهم يعتمدون على أسس اسلامية وهذا هو وجه الخطر انهم اتخذوا أسلحتنا لكى يناقشوا الاتجاه الآخر أنا لا أريد أن أطيل فى الحديث حتى أدع الفرصة لأخى وصديقى الاستاذ الدكتور يحى هويدى ولكم ، حتى تناقشوا الاتجاه الآخر وما نلاحظه عند بعض اليساريين ولا أستعرضهم جميعا وانما أشير الى روجى غارودى ، يعنى هو جاء الى مصر لكى يرشدنا الى العناصر العلمية التى يجب أن نتخذها حتى نصل الى الاشتراكية العلمية .

وهو يعتمد على عناصر جمعها لا أدرى كيف، هو يتكلم عن القرامطة ويقول انهم اشتراكيون ثم يخلط بينهم وبين ابن رشد ويقول ان ابن رشد ذو اتجاه اشتراكى ثم يتكلم عن ابن خلدون ، نحن اذا رجعنا الى التاريخ وحللنا هذه الحركات المختلفة سواء كانت سياسية أو عقلية نجد أن روجى غارودى يجمع بين عناصر لا سبيل للربط بينها ، فالقرامطة ليست الا نزعة طائفية وابن رشد كان يفضل دين الاسلام على أى دين آخر وابن خلدون وضع لنا أسس المنهج العلمى فى الدراسات الانسانية ، أنا أنصح غارودى ولا أريد أن أفصح عن كل شىء أن يشغل نفسه بالبحث عن الاصول الفلسفية لفلسفة هيجل لانه اذا بدأ بمعرفة هذا ربما وجد سلاحا، لكن لحسن الحظ هو لا يعرف ما هى الاصول الفلسفية لفلسفة هيجل فله اذن أن يشغل نفسه بحضارته الاوروبية بدلا من أن يصنع لنا نموذجا أو يحدد لنا قوالب نصب فيها تفكيرنا ، اننا فى الواقع لا نهون مطلقا من شأن الفلسفة وهنا يعذرنى صديقى وزميلى الدكتور عبد الحليم محمود مخالفتى اياه فى الرأى ، ان هذه المذاهب الفلسفية البراقة ممكن أن تؤثر تأثيرا سيئا جدا ويجب أن لا نعتقد أن المشكلة قد دخلت ، وان الفكر الفلسفى المعاصر لا يمكن أبدا أن يكون له وجود أو انه لا يستطيع أن يعوق مسيرة الاسلام . أعتقد ويغفر لى الزميل الاستاذ الدكتور مرة أخرى ان هذا تبسيط للمشاكل أكثر مما ينبغى ، هناك صراع فكرى وهناك نظام مخطط ومدروس وهناك محاولة لاستجلاب كثير من مفكرى المسلمين الى أن يقعوا فى هذا الشباك الذى ينصبه بعض المفكرين فى أوروبا .

أخيرا شكرا لكم .

د . يحيى هويدى

الصراع الفكرى والحرية الفكرية لا بد أن تنتهى الى خير ولا يمكن أن تنتهى الى شر .

*** الفلسفة موجودة من أجل خير الانسان والمجتمع وتعميق الواقع .**

*** ربط الفكر بالواقع فى كل فكر متفتح لا يعنى ابدا الابتعاد عن الدين .**

هذه فرصة طيبة لكى تسمع قطرا عربيا شقيقا عزيزا علينا نغمات متنوعة تتردد عندنا فى مصر ولعلكم قد لاحظتم من الكلمتين اللتين تفضل بهما الزميلان ، ان هناك اختلافا ، فى

الاتجاهات الفكرية فى مصر وهذا شىء طبيعى ، ونحن فى مصر نخلق كل هذه الاتجاهات ونترك كل الزهور تتفتح واللقاء والصراع الفكرى لابد فى آخر الامر ان ينتهى الى خير ولايمكن ان ينتهى الى شر ابدا ، فالحرية الفكرية لا يمكن ان تؤدى الى شر • الفلسفة عندما تسمع يفهم منها غير المتخصص انها علم عقلى بحت لا صلة له بالايمان، والدين أيضا • عندما تسمع كلمة الدين توحى عند غير المتخصص بانه يعتمد على مجال النقل والايمان فقط ، دون ان يكون للعقل فيه مجال • واعتقد ، ان تصورناللامور على هذا النحو سيؤدى حتما الى عداء مسبق يشنه كل فريق ضد الفريق الآخر • هذا العداء للعقل من جانب رجل الدين ليس له ما يبرره فى تصورى وديننا والحمد لله دين العقل وبالتالى فليس لنا ان نقره فى تصوره على الفلسفة باعتبارها محاولة عقلية من جانب الانسان وهذا شىء مشروع كلفنا به وطالبنا به الشرع ، محاولة عقلية من جانب الانسان لتعميق واقعنا لا للجرى وراء ما بعد الطبيعة ، فما بعد الطبيعة فى اعتقادى أيضا يجب ان لا نفهم منها الغيبيات وانما هو الجزء الخفى من الواقع الذى علينا ان نغوص فيه ونغوص فيه بعقولنا وبالافعال التى تقربنا من هذا الواقع • ومن أجل هذا فأنا أعتقد ان الفلسفة والدين أو الحكمة والشريعة كما قال ابن رشد : اختان رضيعتان و لايمكن أبدا ان يختلفا ، ولا يمكن أن نشن العداء على الفلاسفة لمجرد انهم احتكموا الى العقل ، فديكارت احتكم الى العقل لكنه مؤمن ومؤمن بالله وقد قدم لنا الاها هو الاه الاسلام بالرغم من انه

استأذن الدكتور عبد الحليم فى هذه الكلمة تعقيبا على كلمته : **ولا يمكن ان نقول انالفلسفة او الاتجاهات الفلسفية لا تتحدى الاسلام الفلسفة لها اتجاهاتها هناك تحديات فعلا من جانب الفكر الفلسفى المعاصر للاسلام كما تحدت الفلسفة والاتجاهات الفلسفية المعاصرة الكاثوليكية نشاهدها اليوم فى كثير من الكاثوليكية • هناك مرونة من جانب الكنيسة الاتجاهات الكاثوليكية نحو العقل والتحديات العصرية • ليس لنا اذا بعد هذا ان ندفن رؤسنا فى الرمال ونقول ان الفلسفة لا رأى لها وان الفلسفة ظنية وانه لا وجود لها ٥ الفلسفة موجودةوهى موجودةمنأجل خير الانسان ومن أجل خير المجتمع ومن أجل تعميق الواقع وكل هذا مشروع وطالبنا به ديننا لحسن الحظ •**

ان موضوع الندوة الفكر الفلسفى المعاصر وتحدياته فى مواجهة الفكر الاسلامى الفلسفى المعاصر • لى تعليق بسيط على هذا العنوان ، ليس هناك فكر موحد فى الحقيقة وانما نحن بصدد عدة افكار وعدة اتجاهات ، وعدة تيارات فلسفية معاصرة لكن نستطيع أيضا أن نقول ان هناك فكرا موحدا لان هناك عنصرا مشتركا بين هذه التيارت المعاصرة **وهذا العنصر المشترك هو الفكر المتفتح على مشاكل المجتمع ومشاكل الشعوب وعلاقات الانسان بالاغيار أو بالآخرين وكل هذا موجود فى تقاسم مشترك اعظم بين الاتجاهات الفلسفية المعاصرة •**

فالفكر الفلسفى المعاصر اذا نتفق ، هو هذا العنصر المشترك بين التيارات المعاصرة الفلسفية سواء كانت ماركسية أو بوذية او فينومولوجية أو كاثوليكية أو شخصانية أو شخصية الى آخر التيارات المعاصرة ، هناك محاولات مشروعة من جانب الانسان لدراسة الواقع لدراسة المجتمع وتعميق الواقع وتعميق المجتمع وهذا الربط بين الفكر والواقع هو العنصر المشترك بين التيارات الفلسفية المعاصرة وهذا العنصر المشترك يلقى فى وجه الاديان تحديات معينة لانه قد فهم أو قد فهم بعض السذج ان ربط الفكر بالواقع قد يعنى الابتعاد عن الايمان وقد يعنى أيضا الالحاد فى بعض وجهات النظر ومن اجل هذا على المؤمن الحق أن يواجه هذا التحدى ، وهذا موضوع الندوة أى يواجه هذا التحدى ويبين للناس ان ربط الفكر بالواقع فى كل فكر متفتح لا يعنى أبدا الابتعاد عن الدين وان لدى ديننا الاسلامى عناصر كثيرة الحمد لله تقربنا من هذا العنصر المشترك بعقل متفتح • وهو خدمة الواقع خدمة المجتمعات •

الفكر الاسلامى الجزء الثانى من موضوع الندوة • الفكر الاسلامى كما نعلم عقيدة وشريعة ،فهذا موضوعطويل لا نستطيع ان نغطى حتى العشر فى ندوتنا هذه ، لكن انا سأتناول

نقطة بسيطة من موضوع العقيدة الاسلامية كنموذج لان الاسلام به من العناصر الفلسفية والاسس الفلسفية الذى تستطيع ان تتمشى مع التيارات الواقعية فى الفكر الفلسفى المعاصر وهذا هو الجزء المشترك بين الفلسفة وتيارات الفلسفة المعاصرة ، الحقيقة ان تصورنا او تصور الاسلام لله بصفة خاصة تصور اطنولوجى ، هذا شىء جدير بالعناية • حقيقة ولابد ان يحس الله فى الاسلام اله دائم عن الخلق ، وهو بهذا يترك الفرصة للعبد لكى يمارس حريته كاملة فى محيط العمل نقارن فى هذا بين الاسلام والمسيحية ، فأعتقد ان التصور المسيحي لله الباطن المتجسم باعتباره الاله الحال ، هذا التصور يؤدى وقد أدى بالفعل فى انظار بعض الكاثوليك انفسهم وهذا هو سر عداء الفلسفات الواقعية للدين لان الفلسفات الواقعية المعاصرة تصورت ان كل دين لابد ان يقدم هذا التصور لله ،الله باعتباره باطنا محايثا حالا فى كل جزء من اجزاء الكون ومن اجل هذا شعروا بان وجود هذا الاله الباطن فى الكون وفى الانسان سيؤدى حتما الى عرقلة الفعل وانه نوع من الاحباط للفعل والناس • ومن اجل هذا كان العداء بينهم وبين الدين • لكن الاسلام يقدم لنا صورة اخرى للدين صورة اخرى لله فكلما قلت الصورة التى يقدمها الاسلام هو هذه الصورة الفريدة وهى صورة ديكارت الاله الذى قدمه ديكارت هو أيضا هو هذا الاله وليس الاله الكاثوليكية على كل حال هو خالق الحقائق الابدية الازلية البعيد عن الحلول والمباطنة ، ولكن هذا التصور لله فى نظر البعض قد يؤدى او قد يفهم على انه سيؤدى حتما الى نوع من الجبرية والحتمية، ونوع من المكتوب ، نوع من القدر ، المكتوب سطره الله البعيد عن الكون البائن على البشر ولا يملكون بازائه أى تحول ، كما هو الشأن فى اسبينوزا لكن الواقع هذا التصور لا يمكن ان يكون فى الاسلام لان هناك صلة بين العبد والرب بين الانسان والله فى الاسلام ، لكن هذه الصلة هى اقرب الى العبد من الحبل الوريد اقرب الينا ... الصلة لا يمكن ان تكون صلة قائمة على أسس اطنولوجية كما هو الحال فى الفلسفة المسيحية ، فهناك صلة اذن وعلاقة قوية بين الانسان والله وباب الايمان مفتوح امام العبد المؤمن الذى يتجه الى الله فى خشوع وايمان صادق ، وهذا ما قصده الاسلام فى علاقة العبد بالرب ومن أجل هذا فانا اعتقد اننا اذا اتجهنا الى العقيدة الاسلامية سنجد هذا التصور الفلسفى سيساعدنا فعلا على ان نتحدى ما يقال ضد الدين من انه دين بعيد عن الواقع وما يقال من ان الفلسفة هى بالضرورة الحاد ، فهذا شىء لا نعرفه فى الاسلام والاسلام يفاخر الاديان كلها بهذا التصور الذى قدمه وهو تصور فريد يستحق الدراسة وقد طلبت فى بعض كتبى بدراسة الفلسفة القرآنية الحقة فهى ملاذنا وهى منقذنا من كل هذه التخبطات : تخبطات تقال باسم الدين ولكنها ضد الدين وتخبطات تقال باسم العقل ولكنها ضد العقل ، اذا سرنا فى هذا الاتجاه فلابد حتما اننا سنبتعد عن الصوفية المتطرفة ، سنبتعد عن التوماسية الجديدة ، وسنقوم فعلا بدراسة القرآن وما قدمه القرآن من فلسفة ، فهذا مطلوب منا كمسلمين فى هذه الايام لنتحدى الفكر الفلسفى المعاصر لان هناك تحديا حقا واكتفى بهذا ولكن أوصى بالاتجاه الآن الى هذا الاسلام النقى الصافى الذى عرفناه هنا فى الشمال الافريقى وعرفته مصر أيضا

الشيخ بوعمران

نشكر الحاضرين ونفتح باب المناقشة

عبد المجيد مزيان

موقف المسلمين من التحديات المختلفة كان دائما موقف الانطواء على النفس لا المصارعة الحقيقية •

اولا ، أريد ان نبدأ بتدقيق كلمة تحدى ، وما معنى التحدى ؟ نحن الآن بصدد عراك حضارى بين حضارة تسمى الحضارة الغربية وحضارات أخرى من جملتها الحضارة الاسلامية

وقبل ا ننشرع فى المناقشة الفلسفيه اريد فقط ان ابدأ بنكتة للنكت ، اذا كانت هناك تحديات فنحن نلمسها فى أنفسنا ، لان المظاهر الحضاريه هى ليست مظاهر فكريه فقط ولكن هناك مظاهر ماديه ووجودنا فى هذه الجامعة ببدلة اوروبيه ورؤوسنا عارية ، وكل أساليب معاشنا فى الشارع وفى بيوتنا تبين اننا غلبنا وقهرنا حقا فى مظاهر حياتنا المادية باستثناء واحد منا فقط (ضحك وتصفيق) لا يزال محافظا على زيه المربوط بحضارته المادية الاسلامية (يقصد الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود) هذا دليل على انه وقع تحدى وكان المنتصر فى هذا التحدى هو عالم الغرب .

والآن يمكننى ان أرجع الى بعض المظاهر العلمية لهذا التحدى ، قلنا ان هناك انماطا حضاريه تتصارع والنمط الغربى لا زال هو المنتصر منذ اوائل القرن العشرين اعنى ماديا وعلميا وتيكنولوجيا ، وفكريا فى كثير من المظاهر ، حينما نتكلم عن الاسلام بصفته عقيدة وشريعه اريد ان اعرف اين بقيت الشريعة الاسلامية الحية المعمول بها ، فحينما آخذ الاجهزة القانونية الموجودة فى جميع البلاد العربية الاسلامية التى تنتسب الى الاسلام فاننى اجد بقايا او ما يسميه علماء الاجتماع بـ

فقط ، من هذه الشريعة الاسلامية بينما قوانيننا الاخرى بما فيها القوانين السياسية والقوانين الادارية والقوانين المالية والقوانين الاقتصادية كلها قوانين منشقة عن قوانين غربية وهذه القوانين الغربية هى الاخرى ، لها اصول مختلفة منها اصول رومانيا واصول يونانية واصول فلسفية واصول علمية واصول مسيحية واخذناها فى بعض الاحيان بدون ان نفرق بين هذه العناصر بل اخذناها برمتها وطبقناها على مجتمعاتنا ، لماذا ، لاننا كنا عاجزين على ان نقابل التحدى الذى اتانا من هذه الحضرة التى كنا نعتقد سواء عن وعى او عن عدم وعى ، بانها حضارة متفوقة بالنسبة الينا ، وحينما آخذ كذلك الجانب الآخر الذى هو الجانب العقائدى نعتقد بان ليس هناك اسلام واحد بل هناك اسلام مشتت متعدد ان هناك اسلامات سوسيولوجية كما

سميناها . وشتان ما بين الاسلام الاول او الاسلام الحى اسلام المبادىء ، والاسلامات المختلفة التى نعيشها الآن وهى الاسلامات السوسيولوجية فى نظرى ، والدليل على ذلك تعدد الفرق والانظمة السياسية ، ونحن كنا دائما نعتقد بان الاسلام مر وخصوصا فى هذا المظهر الاقتصادى والسياسى مر على المسلمين الكرام ، اى انه اتاهم محدقا فوق رؤسهم ولم يتوغل فى عقائدهم واعماق حياتهم والدليل على ذلك اننا الآن اصبحنا فى كثير من صراعتنا وفى اجوبتنا عن التحديات التى تأتينا من الخارج فى كثير من الاحيان ، نقف بجانب الرأسمالية سواء عن شعور او عن غير شعور ، وندعى بان الاسلام يدعو الى الحرية الاقتصادية والى الطبقية والى تفوق بعض الناس عن الآخرين بدعوى ان الله فضل بعضنا على بعض فى الرزق ، هذه مشكلة ، حينما نطرحها من هذا الجانب العقائدى المتخصص فى ميادين سياسية واقتصادية واجتماعية نجد بأنها غير مقنعة بالنسبة لشبابنا ، مثلا حينما آخذ الشباب الجزائرى او الشباب المغربى او للسباب السورى او الشباب المصرى ايضا فاننا نجد بان هذا الشباب غير مقتنع بهذا الاسلام السوسيولوجى الذى كان اسلاما عمليا مخالفا لاسلام المبادىء ، هذه نقطة ايضا وحينما وقعت مناقشات او صراعات او تحديات قولوا كما شئتم ، بين هذا الاسلام السوسيولوجى وبين ما نسميه فى عصرنا الحاضر بالمذاهب الاقتصادية والسياسة المعاصرة فاننا سنجد ان كثيرا من الشبان يقولون : « نحن نفضل هذه الفلسفة السياسية المعاصرة التى اتتنا من الغرب وخصوصا من الماركسية لانها تدعو الى المساواة ولا تدعو الى الطبقية » ، وهنا هذه الجامعة وخارج هذه الجامعة وفى تونس وفى المغرب وفى مصر وفى سوريا كذلك عندنا شباب غير مقتنع الآن بهذه العقيدة المنبثقة عن الاسلام السوسيولوجى والتى هى فيما اعتقد غير الاسلام الحقيقى

هذه جملة تحديات موجودة فعلا . أما فى الميدان الفلسفى فلا يمكننا ان نتجاهل التحدى ، اذ نعرف اننا نعيش فى عصر العلم وفى عصر التكنولوجيا ونقول بان الفلسفة سايرت هذه

الروح العلمية وهذه الروح التيكنولوجيـــة وهى الفلسفة التى لها تأثير على الشباب فهل يمكن ان نقول بانشبابنا غير مقتنع بهذه الروح العلميةوهذه الروح التيكنولوجيةوهو يعيشهايوميا ؟ فماذا كان موقف المسلمين من هذه التحديات ! كان دائما الانطواء على النفس لا المصارعة الحقيقيه اذا ح وهى تحديات حيـــة بمعنى الكلمة بينما كانت مواقفنا نحن دائما هى مواقف يمكننى ان اسميها نقوم باحصاء للتحديات التى اتتنا من الخارج نرى بانها تحديات واقعية مربوطة بالحياة الاجتماعية انهزامية ومعنى هذا اننا : ســـواء فى المظهر المادى او المظهر الفلسفى كنا دائما نخضع لهذه التحديات الآتية من الخارج وهذه الهجومات الآتية من الخارج واعتقد شـــــخصيا اننا لا زلنا فى هذا الموقف الضعيف الى الآن ٠

الاستاذ بوعمران :

اظن اننا الآن دخلنا فى صميم الموضوع لان المقدمات التى سمعناها بسطت للموضـــوع تبسيطات عامة ودقيقة ولكننا نحن فى الجزائر نعيش تجربة خاصة مادمنا نحن معشر الفلاسفة فى الجزائر قد اتفقنا مع زملائنا فى المشرق ومع الغربين والشرقيين فى أوربا على ان الفلســـفة مرتبطة بالواقع ينبغى ان نتباحث فى مشاكل الساعة وفى طرق الرد على التحديات ان دورنا فى الجامعة هو ان ندرس هذه المشاكل ونجابه هذه التحديات

د . محمد عزيز الحبابى

أنا متفق مع الاخ عبد المجيد مزيان لانه حدد النقطة الاساسية فى الموضوع ، وهى التحدى ، لقد اشار الى مظاهر هذا التحدى الذى نحيـــاه يوميا ، هنا كمظاهر أخرى لهذا التحدى ، مثلا : السرعة التى اكتسبناها حديثا فغيرت ذهنيتنا ، فلولا السرعة ما كانت هذه الآلة المسجلة ولمـــا اجتمع معنا هؤلاء الاساتذة ، هناك مكتســـبات اخرى هى نظرتنا الى الزمان والى المـــكان ، انها جديدة اذ نحن اليوم لا نحيا بمقـولات ارسطو ، لذلك يجب ان لا نعرف الفلســـــفة بمقولات أرسطو ، اليوم ، النظرة الى الزمان والمكان ، منذ (انشتاين) نظرة جديدة ، هناك مفاهيم اخرى اضيفت الى فكرة الزمان مثلا الديمومة وما اعطته التحليلات النفسانية لفكرة الزمن ٠ فكيف نفكر بذهنية المنطق الصورى ، المنطق الارســـطى ؟ هذا غير ممكن ، اوروبا التى ذكرناها ســـابقا كنموذج ، هى ايضا تتحداها أمريكا ، وقد صدر كتاب احدث ضجة صاخبة ، وهو كتاب جـــان جاك شريبر ، « التحدى الامريكى » واعنى هنـــا أمريكا الشمالية طبعا) ، وبالخصوص الولايات المتحدة التى دخلت عصر التبذير ، أى ان الانتاج يتعدىبكثير الاستهلاك فصار الامريكانيونيبذرون فى حين اننا نحن ننتمى الى عالم التخلف المادى والفكرى : نحن فى حاجة الى المعونات للتغذية الى ما هو ضرورى للحياة فى حين ان الآخـــرين قد وصلوا الى مرحلة التبذير ٠ وللمقارنة نقول : هم وصلوا الى « البوينق » أو الى « الكونكورد » التى تتعدى بكثير سرعة الصوت ، ونحن ما زلنا فى طور الجمل والحمار ٠ فمثلا ، الاغلبيـــة من مواطنى فى المغرب يستعملون ، لحد الساعة ، الحمار ، يتنقلون به من قبيلة الى اخرى فى حين ان الآخرين يزرعون بالطائرة وينتقلون من مكان الى مكان بالبوينق ٠

لمـاذا لا يوجـد عندنا فى المشـرق او فى المغـرب متخصصون فى اللاهوت المسيحى ٠

هذا قوس او أقواس فتحتها قبل ان أقول انى متفق كامل الاتفاق مع صاحب الفضيلة الشيخ عبد الحليم محمود على التعريف بان « الفلسفة هى البحث العقلى فى ما وراء الطبيعة والاخـــلاق) لكنى أضيف : شريطة ان نتقبل ما قلته سابقا : ان لا نستعمل فى هذا التعريف المنطق الصورى الارسطى ، اى المقولات المعهودة سابقا والتى لا يؤمن بها العلم الحديث ، فان أى عالم اذا دخـل المخبر واستعمل المنطق الصـــورى ، وقف عن التفكير وعن الاختراع والاكتشاف كلكم تعرفون، منذ فرانسوا بيكون ،الاتهاماتالموجهة الى ارسطو

ان منطق ارسطو ومقولات ارسطو افقرت التفكير الانساني وعرقلته عن التقدم . لماذا ؟ لانه يدور حول نفسه ، نجد في النتيجة ما هو موجود في المقدمتين الكبرى والصغرى . لذلك فمنطق ارسطو ومقولاته اظهر العلم واظهر التفكير الحديثان انها غير مقبولة اليوم ، لان من سقراط الى اليوم تغيرت الارض والسموات . اليوم الفلسفة تشتغل بأى شيء ؟ الفلسفة تشتغل بعلم اللسانيات وهو علم جديد ، وان كان الخفارجي والسيوطي وغيرهم اشاروا الى مثل هذا وتفلسفوا في اللغة ، ولكن لا بالطريقة العلمية المعروفة اليوم . هذا شيء جديد . والفمينولوجيا الحديثة هي أيضا جديدة وتشتغل الفلسفة بالتحليل النفساني لمعالجة كثير من الحالات المرضية

وهناك علم معالجة الامراض العقلية ، هناك الانتربولوجيا الحديثة التي اعطتنا فكرة عن الانسان غير الفكرة التي كانت في العصر الوسيط . فانظروا مثلا الى خادمة هنا في الجزائر ، أية خادمة لنشاهد كيف نما شعورها بكرامتها وبمساواتها للآخرين . هذا مكتسب ، مكتسب المساواة الفردية وان كانت اصول هذا في الاسلام ، لكن كنا دائما نعيش في جو الاقطاعية والبيه والباشا واحتقار الضعيف . هذه الانتربولوجيا الجديدة اى الفلسفة الجديدة اعطتنا مفهوما آخر وابعاد آخر للانسان .

قلت ان المنطق تجدد ، منذ انشتاين والفزياء الحديثة ، فلا يمكننا ان نقول ان الثورة الفزيائية الجديدة التي قام بها غاليلي كانت ممكنة لا ولا (روجي بيكور) ولولا (ديكارت) في المنهج الجديد . ان الفلسفة دائما توازي في التقدم ، مدا وجزرا العلم ، والعلم كذلك ، فنحن لا نخترع ولا نكتشف أى شيء اليوم ، لانه ليست لنا فلسفة . فاليوم الذي نستطيع فيه ان نتفلسف في الواقع ونتعمق ، كما قال الاستاذ هويدى ، اذ ذاك يمكننا ان ندخل الى المخابر لنكتشف ونخترع .

جاءت جملة أخرى عن الفلسفة للشيخ عبد الحليم . « الفلسفة أشكر الله الذى لا يشكر على مكروه سواه ، انى متهم من كثير من اصدقائي الذين درسوا معي في اوروبا وبعض طلابي بانني رجعي وبدائي ، لانني اؤمن ، وهذه في نظرهم خرافة قديمة لم استطع بعد ان اتعالى عنها فاحرم نفسي من الشامبان ذات اللون الذهبي الرائع واحرم نفسي من كذا وكذا . اذن أنا رجعي . أتصل بهؤلاء واريد أن أدافع ، لذلك ابحث عن وسائل للدفاع أنا دائما متهم ، فماذا ساجد اذا قولت لهم « الفلسفة بدون الدين لا شيء » ؟ يجيبونني « والدين بلا فلسفة لا شيء » ، وسنبقى ندور حول انفسنا ، هم يستعملون الجملة بالسلب وانا استعملها بايجاب ، ونخرج عن الموضوع . حقا المنطق ليس مقياسا للحق وللباطل ، هناك الوجدان ، فينا اشياء لا تتمنطق . أحب الشعر ، والشعر لا يخضع للقوانين المنطقية ، والشعر في نظرى معبر أصدق تعبير عن الوجدان الانساني أكثر من المنطق . ان اتيت وقلت لى « أنا أحب ، وحبي لابنائي كذا وكذا » لن أفهم بدقة ولكن حينما تعبر بصور شعرية فنية يقع تجاوب داخلي . والفلاسفة أشاروا الى هذا ، ومنهم (برغسون) الذى يقول ان العقل غير كاف للتفاهم .

ولا بالعقل . هناك عالم خاص ، ولكن هذا العالم العميق ، الداخلي ، الحقيقي الذى لا يمكن ان يعبر عنه بلغة العامة (اللغة المكتوبة واللغة المقروءة)

العقل مستعمل للتفاهم عن طريق الكلمات ، والكلمات خلقت للمحسوس . لكن عالم الانا لا ينفى عالم العقل ، عالم العقل له مكانته وعالم الوجدان له مكانه ، لانه اذا قلنا ان « المنطق ليس مقياسا للحق والباطل » يمكننا ان نعدم ، ولكن بدون منطق ، امكانه لتنظيم الحياة . انى واياكم نتعامل لاننا متفقون على مبادىء منطقية . والسلوك الشخصي والمعاملات العامة تفترض تلك المبادىء .

وهناك افتراضات نفترضها لتوجيه تصرفاتنا ، ينظمها المنطق . ان اليقين الديني هو ايضا لا يبلغ الشمول . فهل الشعور معيار لليقين ؟ لا ! الشعور ضرورى ولكن ليس هو كل شيء . لذلك لا فائدة في معارضة الفلسفة بالدين أو العكس . فابن رشد ، رضى الله عنه ، وغيره من الفلاسفة ، كانوا يكتبون : « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من اتصال » . ذهبت الى الصين ، ذهبت الى الهند ، ذهبت الى أمريكا ، ذهبت الى كثير

من بقاع الدنيا ، فلم اجد حــرجا فى ان اكون متفلسفا عاشقا للفلســـفة ، وفى نفس الوقت مسلما ، لا حرج اطلاقا • نحن المؤمنين ، اصبحنا، ويا للاسف ، سخرية للملاحدة • اننا فى حاجة الى اعادة النظر فى بنيات تفكــيرنا الدينى ، ان العالم يتحدانا ، بمعنوياته ومادياته (اقصد المادية فى معناها الفلسفى) • ويتحدانا بالاديولوجيات او الفكرلوجيات • (فأين هو الفكر الاســلامى المعاصر ؟ هذه هى النقطة الاساســية • هناك تفكير قبيح او جميل ، هناك الوجودية ، هنــاك الماركسية وهناك وهناك •• اذن ، فأين الفـكر الاسلامى المعاصر الذى يمكن انا يواجه هــذه التيارات ؟

الاحصائيات تظهر على ان العالم لا يذهب الى الايمان بل يبتعد عن الايمان ، ويا للاسف • وهذا ما لوحظ فى احصائيات المعامل وفى البــوادى الاروبية • المسيحية كانت مسيطرة مهيمنة على كل القطاعات فى اوروبا ، ومنذ القرن العشرين أصبحت اقلية • اصدر الفاتيكان ، منذ قليـل كتابا فى أربعة اجزاء ، بكل اللغات الكبرى ، حول الالحاد فى العالم •هذا الكتاب صدر كاشارات خطر لان المسيحية تعانى الآن من الالحاد ما لم تعانيه قط ، فلم تعد الآن هى المهاجمــة ، بل اصبحت مهاجمة فى عقر دارها • اذن الاســلام فى صراع مع المسيحية ، ولكنـــه فى صراعات اخرى • فنحن لا نخاف من المسيحية ، المسيحية نفسها تستغيث بنا ، تريد ان نقيم وحدة دينيــة ابراهيمية ضد الخطر الذى يهدد الجميع ، وهــو الالحاد ، تاريخ حضارتنا كان فى مد وجزر يماشى الفلسفة • ان المعتزلة هم احب طائفة او مدرســة اسلامية عند طلبتى • لان « الكلام » لديهـم ملحم بالفلسفة • ان الصراع الآن ، فى نظرى ، مع الماركسية ، مع الوجودية ، مع غيرها من المذاهب الفلسفية المعاصرة •• ولكن هناك الوجــودية المسيحية والموجـــودية لا المتدينة ، وهناك الشخصانية المسيحية والشخصانية اللا متدينة الى غير ذلك ، كل تلك المذاهب تضع هذا السؤال: ما ومن الانسان ؟

هذا هو السؤال الذى تضعه الفلسفة الآن ، ولم تعد تبحث عن ما وراء الطبيعة بل عن هـــذا الانسان التاريخى المؤطر مكانيا وزمانيا • ما هو وضع هذا الانسان فى الكون ؟ الفلسفة هى تأمل لتعميق الواقع •

وهنا اضع سؤالا : ما هو الفكر الاسلامى المعاصر ؟ اجاب محمد اقبال على هذا الســؤال ، وركز جوابه على الفلسفة ومعطيات العلم المعاصر فهو يذكر بريكسا كما يقول بيرغســـون وابن العربى وغيرهم ، عندنا الآن ليستوريستى هذه مقولة جديدة أيضا فى التفكير لفهم الانسان مصير الانسان التريخية وعنـــدنا البناوية فى علاقتها بالبيولوجيا ولكن ما هو مقدار الاصالة فيما جاء به اقبال ؟ ومن وفاة اقبال رحمه الله الى اليوم يجهل العلوم ومعطياتها الحديثــــة لا يمكن ان يقوم بالتفلسف ، لابدان نعرف ما وصــلت اليــه البيولوجيا والرياضيات • وفى فرنسا عندما يريد الانسان ان يهىء للتبريز ، يطالب بأن يهىء شهادة علمية لماذا ، لان الانسان لا يمكن ان يعرف المنطق الجديد الا اذا عرف العلم الجديد
علم جديد يضع امامنا تساؤلات هناك
تنبؤات بالغد •

وقعت فى اكتـــوبر عام 1969 فى بيريجيا بايطاليا ندوة حول عالمالغد واستدعيت أنا كممثل للعالم الثالث فسخرت منهم وقلت لهم لقد اتيتم بى ، أنا الذى لم ادخل عالم اليوم ما زلت فيما قبل التاريخ تقريبا أو فى العصر الوسيط على الاقل ، لاحدثكم عن المستقبل ، مســتقبلكم انتم الذين تجاوزتم الحاضر ، كيف يمكننى انا ان اشاركم فى الحكم على الحاضر بأنه غـــير صالح ونرمى بأبصارنا الى ما بعد ! اذا تحدثوا ما شــئتم عن المستقبل وعن الحاضر اما انا فما زلت فىمجتمع، المتقدم فيه هو الذى انتقل من مرحلة الحمار أو الجمل الى مرحلة الدراجة •

نعود الى الموضوع فنقول ان المسيحية وخبراءها فى جميع ميـــادين المعرفة المعاصرة يجتمعون لفلسفة اسسها من جديد ولتتخــذ مواقف أمام تحديات الفلسفة المعاصرة والفكر المعاصر ،والعلوم المعاصرة ، فما موقفنا نحن ؟

اعطى تعريفا للفلسفة وأخاطر بهذا التعريف ،

الفلسفة في نظري نسق يتركز على نقطة استفهام. ان المقولة الفكرية قد تغيرت . اذا ، المفاهيم قد تغيرت أيضا فايانا اذا وفلسفة النعامة ، أو سياسة النعامة . النعامة أيضا تتفلسف يعني انها حين ترى الخطر ماذا تفعل ، تغرس رأسها في الرمل حتى يأتي الخطر اليها عوض ان تتجنبه . اذا نحن سنبقى في مكاننا حتى يحدق بنا الخطر اكثر مما هو محيط بنا ، وتكون النتيجة لا قدر الله هي اننا نصبح من الحيوانات المعروضة في المتاحف في القرن الواحد والعشرين ، يقولون هذا نموذج من العالم العربي في القرن العشرين في حين اننا لنا امكانيات . الامة التي انجبت ابن خلدون وامثاله يمكنها ان تعطي ايضا مثله واكثر فمن الواجب ان نواجه هذه التحديات . وحذار من مغادرة الميدان .



قبل ان أودع هذه المنصة اسأل زملائي الافاضل ان يدلوني على كتاب انصحه للشباب ليستطيع به ان يقف من التحديات الاجنبية . اظن ان هذا الكتاب هو كتاب الله . ولكن من منا يعرف اللغة بالقدر الوافي ليفهمه ؟ هناك التفاسير القرآنية ولكن حينما قام احد المجددين المعاصرين وهو صديقنا الدكتور مصطفى محمود بتفسير جديد قامت القيامة ضده في حين ان قراءه وصلوا سبعين ألف حينما كان ينشر مقالاته في احدى الاسبوعيات ولكن القراء للتفاسير الاخرى قليلون لماذا ؟ لان الطريقة لم تتبدل ، ولاننا نمنطق تفسيراتنا بمنطق ارسط وارسطو يجب ان نقضي عليه ونصلي عليه صلاة الجنازة بالفاتحة والتكبير .

الاستاذ بشير الصادق :

ورد على لسان الاخ مدير الندوة الشيخ ابو عمران ان هذه التجربة التي نعالجها خاصة . وأنا استطيع ان اقول انها ليست خاصة . بدليل انني من سوريا واشعر انها مرت بنا ، وهذا هو الشيء الذي وددت فقط ان الفت اليه النظر ، مرت بنا منذ نحو ثلاثين سنة وقطعت مرحلة ليست بقصيرة وتكاد تكون هذه المرحلة في نهايتها وان هذه التجرة التي اسماها الاخ الشيخ ابو عمران تجربة خاصة بالقطر الجزائري ،ربما يكون القطر الجزائري يعانيها الآن فتسمى بهذا المعنى خاصة ولكنها في الواقع ليست خاصة ، واذا كنا قد بدأنا معاناتها منذ ما يقرب من ثلاثين سنة فاننا نعاود الآن ايضا معاناة مثلها تماما .

السيد حجار (طالب) :

السؤال الاول حول مفهوم التحدي ولقد اشار الاستاذ الحبابي والاستاذ مزيان الى تحديده نوعا ما ولكن هذا التحديد يبدو ظاهريا وارجو من الاساتذة توضيحا او تعليقا حول مفهوم التحدي الآن ، التحدي الذي سمعناه الآن يبدو كأنه تحدي مادي لا بالمفهوم الفلسفي ولكن بالمعنى المادي المحسوس ، ثم اقول للاستاذ الحبابي ان تعريفه للفلسفة يحتاج ايضا بدوره الى تعريفات كثيرة او ربما يواجه تحديات كثيرة .

ثم اشار الاستاذ مزيان الى هذا التحدي الذي نتج عن الحاد في وسط الشباب ولكن هل انا ملحدون فعلا أم هناك متلاحدون ان صح هذا التعبير اي يتظاهرون بالالحاد وليس هناك الحاد حقيقي وهو في رأيي ناتج عن الفراغ الذي لم يعتن به الشباب فبحث الشباب بدوره عن سراب او اشياء براقة ليضع نقطا توضح نوعه او معالمه ليكون له مدلول ، واضرب مثلا على ان هذا التحدي ليس قويا ، من اساليب الاستعمار في الجزائر واخص بتجربة الجزائر فقط ، استسمح الاخ السوري انه بقي مائة وثلاثين سنة واستعمل وسائل كثيرة للتحدي والقصد من هذه التحديات هو طمس معالم الشخصية الجزائرية التي تعتمد اساسا على العقيدة الدينية ولكن عندما انطلقت الثورة اول شيء ركزنا عليه دون فهم له وبدون تحديد لفلسفاته هو مفهوم الدين والذين قاموا بالثورة كثيرا منهم اميون بل اغلبهم .

اذا ، في رأيي المشكلة لا تبقى في التحديات الفلسفية وانما تتجه الى الامكانيات الموجودة في شبابنا وفي شعبنا لابرازها واعطائها قيمة ومفهوما جديدا ليساير العصر .

انا كطالب ارى ان الجدال دار كثيرا حول الحاد الشباب وانا كشاب لا امس في هذا زملائي الشباب لان للشباب حقا في ان يلحد الآن ، والشباب اليوم بعيد عن الدين ، الدين شيء غريب



عنه . واذا عرفه عرفه ملوثا فماذا قدمه لنا اخواننا المتمسكون بالدين ؟ قدموا لنا لا شيء وماذا قدمه لنا الغير قدموا لنا الكثير ، قـــدموا لنا افكارا رضعناها فيالحليب افكارا اخذناها من المدرسة وناخذها ولا زلنا نأخذها ، اذا الذنب ليس ذنبنا الذنب يقع على المجتمع والمدرسة والثانوية والجامعة فالشاب غريب عن نفسه بعيد عن شخصيته فهو يتخبط فى بحر لا يجد فيه اى شيء يرتبط به ولا يجد فيه اى شيء يتمسك به فهو يتمسك بأى شيء وجده فى طريقه فقد وجد الاتجاهات الحديثـة الفكرية التى عرفتموها لذا أنا أطلب من السادة الدكاترة والسادةالاساتذة ان يعطوناأشياء وأفكارا مدعمة يمكن لنا ان نتمسك بها وان تهــدينا الى الطريق القويم لا ان نفكر فى أشياء ممكن ان نقول انها بزنطية .

الشيخ بوعمران

الاصالة ليست فقط المحافظة على الماضى ، بل لا بـد من غربلة هذا الماضى عن طريق العقل ، وعلى ضوء متطلبات العصـــر .

الآن يمكننى ان اقول كلمتى كشخص ثم اطلب من الاساتذة المحاضرين ا نيجيبوا كم سبق لى ان قلت على أهم الاسئلة .

عندما طرحنا هذا الموضوع كموضوع للنـدوة كنا نشعر بان هذا موضوع الساعة ، لاننا نعيش بين القديم والحاضر والمستقبل على الابواب ، وورثنا من العهد القديم سواء كان من العهد الاستعمارى القريب أو من عصور لانحطاط أشياء كثيرة لا زلنا نعانى منها ونريد ان نتخلص منها فى اقرب وقت ممكن لندخل القرن العشرين ونســاير الركب الحضارى ونعيش فى حضارة 1971 لا فى حضـارة 1940 ، ولا طبعا فى حضارة الصدر الاول للاسلام لان من طبيعتنا ان نعيش مع الظروف ، وعندنا فى الفكر الاسلامى مجددون كثيرون حاولوا ان يطبقوا مفهوم الاسلام والحضارة الاسلامية عـلى مشاكل الساعة ، ونرى من وظيفتنا نحن كمفكرين مسلمين او غير مسلمين وانما نعيش فى مجتمع اسلامى نرى من واجبنا ان نجيب على تحـــديات الفكر الفلسفى المعاصر . والتحديات قد ذكرها اكثر من واحد فى هذه الندوة واكبر التحديات فى رأيى تتلخص فى عداوة المســيحيين للثقافة الاسلامية ومقاومة الماديين لكل ثقافة دينية بقطـع النظر على الثقافة الاسلامية ، وهناك تحدى آخر فى رأيى لم يذكره احد الا باشارات خفيفة وهـو تحدى الحضارة المعاصرة لنا واشار اليه فى كلمته زميلى الاستاذ عبد المجيد مزيان ، اود ان اقــول انه من واجب المفكري نعندنا فى الجزائر وفى مصر وفى سوريا وفى غير هذه الاقطار العربيـــة لان الفكر الاسلامى لا يقتصر ع لىالاقطار العربية وانما يتسع الى جميع الشعوب الاسلامية ، فى افريقيا وآسيا وأمريكا ، لانى سمعت منذ قليـل أو منذ ايام بأن فيه 12 مليون من العر بفى أمريكا الشمالية ، ولم نسمع بهم وسمعنا بأربعة ملايين من الصهاينة اقاموا الارض والســموات اما 12 مليون من العرب الذين يقيمون فى أمريكا اندمجوا فيها وذابوا ولم نسمع عنهم شيئا .

هذه التحديات الثلاثة : تحدى المسيحية لنا قد أشار اليه الدكتور محمود قاســم منذ العصر الوسيط ولا يزال هذا التحدى مســـتمرا فى اشكال كثيرة واستغرب من موقف الدكتورالحبابى وهو صديقنا وزميلنا لانه يرى بانه يمكن ان نتفق مع الفاتيكان فى مسألة من المسائل .

الاستاذ الحبابى يتدخل محتجا :

لا لم أقل هذا .

الاستاذ بوعمران :

نعم سمعتك واسمح لى ان اوضح فكرتى ، سمعت منك عبارات غريبة ، وانا استغرب هذا ، البابا لا يمكن ان نتفاهم معه فى شيء و لايمكن فى رأيى – هذا رأى خاص – لا يمكن ان اقدم مقالة للبابا والبابوات منذ خلقوا على هذه الارض لان الكنيسة اختارت موقفا حضاريا لا يمكن ان نوافق عليه ، فهى اختارت النظام الراسمالى وكلكم تعرفون بان

الكنيسة لها ثروات هائلة لا يمكن تقديرها ولهذا قاومتها في ايطاليا في عقر دارها العناصر التقدمية اليسارية مهما كان نوعها ، وحاربها في فرنسا التقدميون وفي غير هذين البلدين ولا يمكن ان نتحالف نحن في بلاد اشـــتراكي واتكلم الآن كجزائري ختار لنفســـه نوعا من التنمية وهي التنمية الاشتراكية حتى تشمل العدالة الاجتماعية جميع أعضاء هذا الشعب هذه الاشتراكية التي ليست بغريبة عن الاسلام وعن الفكر الاسلامي وبان الفكر الاسلامي لا يتنافى مع الاختيـــار الاشتراكي الذي نريده لاقطارنا ، طبعا هنـــاك اختلاف هناك من يقول باشتراكية علميـــة مادية وهناك من يقول باشتراكية مؤمنة ولكنها مرتبطة بحل مشاكل العصر ونحن لا نريد ان نتفلسف كثيرا كما فعلنا اليوم ان لم يكن هدفنا حل مشاكل الساعة وان نقضي على الفقر وعن الجهل وعن التخلف في جميع اشكاله وجميع انواعه . والآن اريد ان اتوجه الى الاخ السوري واستسمح له في هذا ، انا لم اقل بان هذه الندوة خاصة بالجزائريين وانما قلت بانها خاصة بطبقة من المفكرين والاساتذة والطلبة ثم ستكون محاضرة اخرى لعامة المثقفين في عاصمة الجزائر . هذا ما كنت اقصد ، أما تجربة سوريا فقد سمعنا بانه وقعت تجـــربة في مصر وتجربة في اليمن ولكن ماذا استخلصنا من هذه التجارب ؟ لم نستخلص شيئا ولم نستفد ، لان التحديات قائمة فينبغي ان نرد على الماركســـيين بأدلة تقنعهم ولا نتفلسف عليهم من زوايانا الخاصة ، ونقول لهم انتم كفار ملحدون فهذه اللغة غـــير مقنعة . ينبغي ان نتحاور معهم ونتحراهم كما تحدونا ونأخذ منهم ما اصابوا فيه ونترك ما اخطأوا فيه ونحتفظ باصالتنا . **ومفهوم الاصالة هنا ليس فقط المحافظة على الماضي فينبغي ان نغربل هذا المـاضي عن طريق العقل ومشاكل الساعة ونبعد ونلغي المقامات الحريرية والسجع والتصوف المتطرف كما اشار الى هذا الدكتور هويدى** ونحتفظ بالتصـــوف السنى اذا كان حقيقة اسلاميا وينبغي ان نبحث في هذا كمفكرين . وقد سبقنا الدكتور محمـــود قاسم في هذا باشارات خفيـــفة وانا أعلم بان الدكتور عبد الحليم محمود رئيس التصوف السنى وقد وضع في رسالته في السوربون موضوع بحثه المحاسب ، وهو عقلي ، والغريب اني اكتشـــفت انه تأثر بالمعتزلة . واخذت من كلمة الدكتـــور الحبابي اشياء كثيرة ولكن وجدت تناقضـــات كثيرة ، وانا أدرس المنطق في هذه الجامعة والمناطقة لا يرضون بالتناقضات . عرفوا الفلسفة تعريفات مختلفة متضاربة فلا ادرى لو كنت طالبا كيف افعل مع هذا ، الاستاذ الذي يعرف الفلســـفة تعريفات متضاربة فقال مرة تهتم بالغيبيات وبالاخلاق وقال الدكتور الحبابي انه يوافق الدكتور عبـــد الحليم محمود في تعريفه لها في هذين الجانبين ثم قال لنا الاستاذ الحبابي فيما بعد ، انها تهتم باللسانيات والانتربولوجيا وبالعلوم ، أنا اعرف الفلسفة بدوري بانها معالجة مشاكل العصر الذي نعيشه ، وليست معالجة مشاكل عصر ارسطو فنحن نعيش القرن العشرين ، فلنا ان نحل مشاكل القرن العشرين وان نفكر عمليا في بنـــاء مجتمع يوفر المعاش لجميع الناس ، وهذه الفلسفة التي لا تريد السعادة الا للفلاسفة ليست بفلسفة ففلسفتنا فكر وعمل ، وفي عصورنا الاسلامية المزدهرة فعلنا هذا . جمعنا ما بين الفكر والعمل ، وجمعنا ما بين الايمـــان والعمل ، والآن نتخبط في رواسب عصور الانحطاط ، وقد طالت عندنا اكثر مما طالت عند غيرنا ، اظن ان الزملاء يوافقون على انها طالت عندنا لا أقل من ستة قرون . كنا نشع الحضارة على اوروبا في العصر الوسيط. لانه عصر ازدهار بالنسبة لينا وعصر ظلمات بالنسبة الى اوروبا . ثم نمنا نومة عميقة واخذنا نؤلف الموشحات ونحلم بذكريات غرناطة ، وبغداد ، ودمشق ، والغوطة الخضراء ، فدخلنا من باب الشعر الى الانحطـاط وانغمسنا فيه وبقينا فيه ستة قرون ، وهذا من اغرب ما يمكن ما نلاحظ في تاريخ فكرنا .

أريد أن أقول كلمة اخيرة : مادام موضـــوع الندوة ، التحديات بالجمع ، ما هو موقفهم من المستشرقين المجددين مثل **جاك بيرك وماكســيم رودنسون وروجي غارودى** وان كان قد اشـــار الدكتور محمود قاسم الى الجدال الذي جرى بينه وبين غارودى وعلمت كما علمتم بان النقاش نشر في مجلة الهلال ولكن أقول لهؤلاء الاساتذة بان الشاب الاخير الذي تكلم والذي قال اذا كنا ملحدين ، فالذنب ليس ذنبنا واذا كنا متطرفين فالذنب ليس ذنبنا ، واذا كان الشباب عندنا في العالم العربي

الاسلامي من نوع الهيبي ، فهذا كله ذنبنا نحن لان الشاب تحدانا ، قال : الذنب ليس ذنبه اذن ذنب من ؟ ذنبنا نحن ، فاليوم نحن في حاجة الى مفكرين في العالم العربي الاسلامي الى اعادة النظر في تراثنا وفي حاضرنا لنبني مستقبلا يوفر المعاش لجميع طبقات الامة ولتتخلص من الصراع الموجود ما بين الغني والفقير ، وما بين المشعوذ والمفكر ، وما بين المحافظ والتقدمي • وفي الختام اسأل زملاءنا ماذا فعلوا وما يمكن ان نفعل معهم لنرد على هذه التحديات ولنتغلب عليها اتمنى ان نكون عمليين مفكرين او مفكرين عمليين في نفس الوقت •

وللدكتور الحبابي حق الرد على ما تحديته فيه وهذا من واجبي •

الاستاذ الحبابي :

اخذ الكلمة مرة اخرى لاعيد الاشياء الى نصابها • نحن في الفلسفة نعلم الطلبة الوضوح في الكلام حتى لا يحصل سوء التفاهم ، اذن اعيد توضيحا لما قلته : أعطيت مثالا على ما يقوم به غيرنا ، وهم المسيحيون الذين هم في تطور دائم • ان الخطر اليوم ليس في الاسلام بل في المادية والالحاد فقاموا بدراسة لهذا الوضع ليتغلبوا عليه وانا كتبت في الكتاب الذي اشرت اليه كما كتب فيه آخرون ، واحد يمثل التفكير في الهند ، وواحد في الصين ، وانا طلبوا مني ان اصف ما يعانيه العالم لاسلامي الآن في موقفه من الالحاد وغير ذلك •

واريد ان اتساءل : لماذا لا يوجد عندنا لا في المشرق ولا في المغرب متخصصون في اللاهوت المسيحي مثلا ، لاننا حينما نريد ان نصارع يجب ان نعرف ما هي اسلحة الخصم • هذا نقص في تكويننا •

اما التناقض في التعريف، فأظن ان السي بوعمران لم يأت بتعريف وان منشأ التناقض عنده هو انه لم يفهم ما قلته ، وسأعيده عليه ، ان المثاليات ليست هي الفلسفة ، وان العلوم الجديدة ليست هي الفلسفة ! ولكنها المواد التي يتفلسف فيها الفيلسوف ، فاذا حذفنا الفيمنولوجيا والمنطق والسيكولوجيا والى غير غير ذلك فأي شيء تريد ان يتفلسف فيها المتفلسف ، في الميتافيزيقا ؟ نريد ان يعود الى ما انت تنهاه عنه اي الى ارسطو ؟ اني اعتقد انه يجب ان نكون مع عصرنا وان ندخل القرن العشرين ، ولكن القرن العشرين يروج عدة مفاهم جديدة وعلوما جديدة ، اذن على الفيلسوف ، اذا أراد أن يكون فيلسوفا حقا ، لا محسوبا على الفلسفة ، ان يهتم بتلك المواضيع ، وهذا لا ينفي المحاولة في التعريف الذي اقترحته بالمناسبة ، وهو « ان الفلسفة نسق تأملي يتركز على نقط استفهام » • أي ما هي السوسيولوجيا ؟ ما هو النقد ؟ ... فاذا انمحت نقط الاستفهام انتهى التفكير ، فنقطة الاستفهام هي محاولة في التفكير ويجب ان تركز هذه النقط على المعطيات الحالية للعلوم والفنون والصنائع والتقنيات •

هذا ما أردت ان أقوله •

ان الفيلسوف يتساءل دائما ليفهم وعندما يحصل الادراك تبدأ عمليات التغيير • وأؤكد ان التعريف السابق لا يفيد الحصر ، وانما هو تعريف تقريبي قابل للمناقشة • الفلسفة دائما في تساؤل:

يحي هويدي : تعليقا على التعريف الذي قدمه الدكتور الحبابي للفلسفة باعتبار انها نسق تأملي يضم مجموعة من علامات الاستفهام

الفلسفة بهذا تلعب دورا نظريا بحتا ، وتضع من مهمتها مجرد تصورات • التيارات الفلسفية المعاصرة مهمتها تغيير وجه الواقع فهي ملتحمة بهذا الواقع •

فالدين ايضا وخاصة دين الاسلام ليس فكرة • الدين الاسلامي وظيفة مرتبطة بالمشاكل الواقعية للناس •

أنا اقابل بكثير من الحذر التعريفات التي قدمها الغربيون • ونكون في كثير من الاوقات مخدوعين• فالفلسفة ليست فقط علامة استفهام فقط ، انما هي وظيفة •

ملاحظة : بقيت فقرات قليلة من تعليق الدكتور هويدي وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود لم نتمكن من نشرها بسبب تعطل جهاز التسجيل فمعذرة للاستاذين وللسادة القراء •

المحرر :

... ولهذا ننتهز فرصة الاحتفال بالعيد التاسع لاستعادة استقلالنا ، واسترجاع سيادتنا ، وقد تعزز استقلالنا الاقتصادى لننادى بضرورة العناية كل العناية بالجانب المعنوى والروحى لثورتنا ، وبجانبها الثقافى ، وذلك بالحرص على ابراز جميع مميزاتنا وخصائصنا ، وتأكيد جميع مقومات شخصيتنا واصالتنا ، والاعتزاز بتراثنا ، كأساس متين ، نبنى عليه يومنا وغدنا ، وبالتخلص من سائر رواسب عهد الاستعمار ، ومحاولات الادماج ، وبالاستنكاف عن كل مظاهر التبعية ، والتقليد الاعمى ، لنكون من نحن كاملى الوعى والثقة بأنفسنا ، جديرين بأسلافنا وماضينا ، وبذلك فقط نستحق الاحترام الكامل من غيرنا ، ومن أنفسنا قبل كل شىء .

من خطاب الرئيس
هوارى بومدين
فى 5 جويلية 1971

... فلقـد كانت مكونات شخصيتنا هى حصانتنا من الاندماج والذوبان ، فبفضلها حافظنا على ذاتيتنا المميـــزة لنا ، وبقينا من نحن ، رغم جميع محاولات المسخ ، والمحـو ، والابادة المعنوية .

من خطاب الرئيس
هوارى بومدين
فى 5 جويلية 1971



... واذا كنا قد عنينا حتى الآن بالجانب الاقتصادى فى بنائنا عناية خاصة ، فقد حان الوقت وقد خطونا خطوات عملاقة فى هـذا البناء المادى ، ان نعير الجانب المعنـوى كل ما يستحقه من جهد ، وسهر ، واهتمام .

هوارى بومدين


دراسات
تاريخيَّة

استفتاء
الأصالة

كيف نكتب ..



د٠ عبد القادر زبادية
استاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الجزائر

ما هي في نظركم المصادر الحقيقية لتاريخ الجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي ، وكيف تتصورون المحتوى الذي يجب ان تشمله الكتابة التاريخية عن الجزائر في تلك الحقبة ؟

ج ـ السؤال ذو شقين ، ولذا فان الجواب عليه يتجزأ تبعا لذلك :

1 ـ المصادر الحقيقية لتاريخ الجزائر خلال العهد الاستعماري :

الواقع أني أجد في هذه المناسبة الفرصة الطيبة للتعبير عن الواقع الذي كنت ولا ازال اعيشه مع هذه القضية بالذات ٠ اذ يلاحظ ان الكثيرين يهمهم الاكثار من ذكر المصادر في الابحاث التي يتصدون لها ، وهذا ليثبتوا سعة الاطلاع ، أو لكي يبرهنوا على انهم اجهدوا انفسهم لكتابة تاريخ الجزائر خلال فترة ما ، أو قد يكون هذا وذاك معا ٠ ولكن المسألة ظلت كما هي ، ولم يطلع علينا أحد بجديد حتى الآن ، وهذا بالرغم من الرغبة الاكيدة التي تراود الجميع في اعادة

تاريخنا

فى نطاق الرغبة التى تراودنا جميعا لاعادة تقييم تاريخ الجزائر وكتابته باسلوب يتناسب ومحتواه الحقيقى ،رأت مجلة « الاصالة » ان تقوم باستجواب بين بعض الاوساط الجامعية التى تعتنى بالابحاث التاريخية وهذا فى شكل استفتاء ،والغرض هو توجيه الجهود للسبل الكفيلة بارشاد الباحثين فى هذا المجال وخاصة الشبان منهم، وتطهير تاريخنامن كل التشويهات الحقت به

تقييم تاريخ شعبنا خلال الفترة الفرنسية بالذات، والراجح ان تحقيق مثل هذا الطموح لم يحصل منه شيء حتى الآن ، **لان قضية المصادر الاساسية** لم يقع تبينها بالشكل المطلوب ، فضلا عن الوصول **الى معرفتها بدقة • واذا كان من الثابت اننا لم نهتد لكيفية العثور عن تلك المصادر الحقيقية الى اليوم ، فان كل ما يبعث على الامل فى الوصول الى تصور كنة تلك المصادر فى وقت ما ، هو الارادة الجارفة لدى معظم باحثينا فى التصدى للكتابة فى تاريخ الجزائر ، وخاصة خلال الحقبة الاستعمارية الاخيرة ، وهذا لاقتناعهم بان استجلاء معالمها لميتم بعد وفق الصورة الواقعية المطلوبة •**

لقد كتب الباحثون الفرنسيون الكثير عن تاريخ الجزائر خلال هذه الحقبة ، ولكنهم ظلوا يعتمدون على المصدر الفرنسية وحدها ، أى الارشيفات الاداريةاو المذكرات الشخصية ،وكذلك الصحف والمجلات ، ولكن كل هذا ، لا يبين ، فى نظرنا ، الا على جانب واحد ، لانه لا يغطى الا وقائع المظهر الخارجى للجزائريين ، ومن هنا فان التوقف عنده غير كاف بالمرة لكتابة تاريخ الشعب الجزائرى خلال هذه الفترة • نقول هذا ، **لاننا نعتقد بان الجزائريين كانوا قد انكمشوا على انفسهم أمام ارادة الفرنسيين فى مسخهم ، وان ذلك الانكماش هو الذى جعلهم يتخذون نوعا من الباطنية ، فهم لا يظهرون للادارة الفرنسية الا الجانب المصطنع ، والى جانب ذلك بى لهم وضع اجتماعى خاص هو وضعهم الحقيقى ، الذى ظلوا يحافظون عليه ويتشبثون به فى شكل عادات جماعية وتقاليد عائلية ومفاهيم خاصة بهم كذلك •**

ومهما تنوعت تلك العادات والتقاليد بين القرية والمدينة والجبل والسهل ، فان المفهوم الذى كان يكيف السلوك العام ، هو الذى ظلت تتجسم فيه فكرة جميع الجزائريين عن الوجود الفرنسى بالجزائر ، ولقد ظل موحدا وتمثل فيه القدر المشترك بين اغلبيتهم الساحقة وان هذا الجانب الخفى عن الادارة الفرنسية والكتاب الفرنسيين ، هو الذى يمكن ان يفسر — من الناحية التاريخية —

بالعزلة التى التجأ اليها الجزائريون ، أمام محاولات الفرنسيين لسلبهم قيمهم الذاتية ومعالم شخصيتهم الوطنية ، وهذا لكي يسهل مزجهم في الامة الفرنسية الى الابد ، هو الجانب الذى لا تزال مصادره غير متوفرة امام الباحثين ، ولا نعتقد ان الوصول الى تلك المصادر من الصعوبة بمكان ، ولكنه يتطلب تظافر الجهود والاتفاق الواعي المسبق، حول المبدأ الذى يمكن الانطلاق منه لتحقيق هذه الغاية .

2 ـ المحتوى الموضوعي للكتابة التاريخية عن الجزائر خلال العهد الفرنسي :

الحقيقة ان الكتابة التاريخية فى شكلها الموضوعى ، انما تحدد نوعيتها المصادر التى تتوفر أمام الباحثين قبل اى شيء آخر ، ومن هنا ، فان للمصادر علاقة كبيرة بالمحتوى الذى ينتهى اليه ويسجله المؤرخ الموضوعى فى أبحاثه .

واذا كان ما كتب حتى الآن عن تاريخ الجزائر خلال العهد الاستعمارى ، لا يرضينا ، فذلك لانه لم يعتمد الا على المصادر التى تغطى جزء ضئيلا أو سطحيا من واقع الحياة لدى الجزائريين فى تلك الحقبة ، وهو ذلك الجانب الذى اتخذ عن اضطرار شكلا من الاصطناع اللاواقعى .

اما الكتابة التى تتعمق الى الواقع الخفى عن الادارة الفرنسية ، وتبرز المطامح والاهداف التى كان الجزائريون يضعونها نصب اعينهم ، كما تلقى الاضواء على واقع الحياة اليومية وتجسم لنا معنى الصلابة واسلوبها الذين يتمثلان فى اختيار الاهالى لحياة الحرمان والانعزال ، كى لا يجرفهم تيار الانسلاخ عن شخصيتهم الوطنية ، فان هذا كله لا يزال لحد الآن لم يكتب ، وهو مما نرى انه من ابرز عناصر المحتوى الموضوعى فى الكتابة التاريخية عن جزائر العهد الاستعمارى الاخير ، خاصة وان الاهالى حافظوا رغم معارضة الفرنسيين على بعض مؤسساتهم القديمة ، مثل مجالس الجماعات والمدارس القرآنية والزوايا وغيرها . وكان للتمسك بتلك المؤسسات ـ رغم جمودها فى كثير من الحالات ، دلالته الهامة التى تنير طريق المؤرخ وتسمح له بالتعمق فى خفايا التقاليد الاهلية ليضع فى النهاية يده على الحقائق كما هى .

ان المحتوى الذى من هذا النوع ، يمكن ان يكون أقرب شيء الى البحث الاجتماعي ، ورغم ذلك ،فانه التاريخ الصحيح ، اذا تصورنا ان الاهالى مارسوا فى البداية المجابهة مع المحتلين ، ولكن هؤلاء الاخيرين ما لبثوا بعد منتصف القرن التاسع عشر ان تفوقوا فى العدة والتنظيم ، ومنذ ذلك الحين اختار الاهالى حياة الانعزال والتمسك بها الى ابعد الحدود ، وكان هذا من اكثر مظاهر المقاومة ايجابية ، وذلك حينما تحول هدف المحتلين الى التعلق بفكرة تمزيق المجتمع الجزائرى ، والى سلبه معالم شخصيته بمختلف الاساليب ، لكى يسهل اندماجه فى الفرنسيين نهائيا والى الابد .

ان الجزائريين فى طور الانعزال تحملوا مصاعب كبيرة وجمة : (اغتصاب الاراضى ـ الانحصار فى الجبال والبوادى الفقيرة ـ الفاقة والجهالة والحرمان كنتيجة لكل ذلك) ، ومع ذلك فانهم اختاروا هذه الوضعية على وضعية اخرى يمكن ان تكون افضل منها بعض الشيء ، ولكنها لم تكن لتؤدى بهم فى النهاية الا الى المسخ .

أما تلك الانتفاضات التى رآها النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فقد غلب عليها عدم الانتظام ، ومع ذلك ، فهى تعبر عن ذلك الفوران الكامن فى النفوس ، وهو الذى ظل يتفجر كلما

وجد الى الثورة سبيلا ، كما تعبر ايضا عن محتوى العزلة فى وجدان الاهالى ، وانه التربص المستمر بغية تغيير الوضع وتحين الفرص لطرد المحتلين ، وليس مجرد الانعزال للاستكانة الابدية لما كان مفروضا بالقوة والغطرسة .

وبالرغم من ان تلك الثورات كانت تخمد لما كان يغلب عليها من نص فى التنسيق ، الا انها كانت تجد دائما الاستجابة العامة والسريعة بين الاهالى فى جميع الجهات ، وهذه الثورات معروفة جميعها ، وربما كانت ــ لحد الآن ــ هى المظهر الوحيد فى حياة الاهالى الذى نال ما يستحقه من عناية الباحثين ، ولكن مكابدة الاهالى لصعوبات العزلة وصمودهم ضد رغبات الادارة الفرنسية ومضايقاتها لهم ، والتزامهم التلقائى تجاهها بموقفهم الخاص الذى كانوا قد حددوه مسبقا ، كل ذلك لا يزال يشكل المحتوى القويم للكتابة التاريخية عن الجزائر فى عهد الاستعمار الفرنسى ، ومن هنا فان الحديث عن الفاقة وعن الحياة الاجتماعية البئيسة ، وكذا عن الخلجات النفسية التى كانت تراود الاهالى وعن دور هيئات اللجان الشعبية فى مجتمع اولئك الاهالى ، هى ايضا من معالم الكتابة التاريخية الموضوعية بدون شك

كما ان تفسيرا تاريخيا رزينا لظاهرة تغلب اسلوبى المجابهة او الانعزال لدى الجزائريين ، عن الاسلوب السياسى فى شكله المعروف ، وهذا طيلة القرن الماضى على الاقل ، مما نرى انه يكون ايضا احد عناصر الكتابة التاريخية الموضوعية فى هذا المجال .

أما عن الثلث الاول من القرن العشرين ، فان التوازن بين الفاقة والانعزال ، على الصورة التى اسلفناها ، والالتجاء الى اسلوب المقاومة السياسية أيضا مع عدم اختفاء الاتجاه الى المجابهة وحدته فى الاخير ، لانه اصبح فى أعين الناس الملجأ الوحيد ، كل ذلك مما لا يزال يستلزم جهود الباحثين .

وخلاصة القول ، القول ، اننا نريد ان نؤكد مرة اخرى ، اقتناعنا بانه لن يكون هناك تكامل فى محتوى الكتابة التاريخية عن جزائر العهد الفرنسى ، اذا هى لم تعتمد على محاولة استقاء السند من وجدان الاهالى ومن حياتهم اليومية ، وكذا من شكل وتطور مؤسساتهم الخاصة مثل الزوايا وغيرها ، قبل الاعتماد على وثائق الادارة الفرنسية وحدها ، كما جرت العادة الى يومنا ، وهذا لان تلك الوثائق لم تكن لتتناول من واقع الجزائريين الا مظهره الخارجى المصطنع .

سؤال :

كيف نستجلى معالم تاريخ الجزائر خلال العهد التركى ؟



الاستاذ محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية

« أليس من الرشد والصواب ان نلغى عبارة العهد التركى من تعابيرنا الخاصة بالتاريخ وان نتكلم على المملكة الجزائرية المستقلة فى العهد العثمانى أى فى عهد الخلافة العثمانية مثلما قلنا العهد العباسى والعهد الاموى فيما يخص عهودا أخرى ومقاطعات أخرى من العالم الاسلامى ؟ » .

كلما تأملت تاريخ بلادنا فى الفترة التاريخية المسماة بالعهد التركى اتجهت افكارى الى الوجهتين التاليتين :

1 ـ ان هذه الفترة من تاريخ بلادنا تحتاج اكثر من غيرها من الفترات الى التنقيب عن المصادر الخاصة بها ٠

2 ـ اننا فى حاجة الى توضيح موقفنا ازاء هذه الفترة ٠ هل كانت بلادنا فى ذلك العهد دولة ذات سيادة ام مستعمرة تركية ؟

فلنتعرض الى النقطتين على التوالى :

1 ـ بعث المصادر :

ان فى متناول الباحث فى ماضى الجزائر ما عدا العهد العثمانى ، مصدر عربية واجنبية كثيرة نسبيا ، وان كانت طبعا بعض الجوانب من تاريخ تلك العهود والجانب الحضرى منها على الخصوص تحتاج الى مستندات جديدة ٠ وهذا لا يعنى ان تلك العصور قد درست دراسة متقنة كافية فتاريخنا بحذافيره فى حاجة الى ابناء هذا الوطن من الباحثين لاعادة النظر فيه واثبات الحقائق التى شوهها غيرنا ، أمافيما يخص العهد العثمانى فانه لم يدرس الى يومنا هذا دراسة علمية كاملة ولم تنشر كل المصادر من محفوظات وكتب الخاصة بتلك الحقبة من ماضى بلادنا ٠ وهذه المحفوظات من مراسلات وتقارير وعقود وكتب لا زال غالبها مدفونا بمختلف دور المحفوظات الموجودة فى بلدان البحر الابيض المتوسط التى كانت لها علاقات مع الجزائر قبل العدوان الفرنسى سنة 1830 وفى مقدمتها دور المحفوظات باستمبول مقر الخليفة من آل عثمان وعاصمة العالم الاسلامى فى تلك الازمنة ٠

وقد زرت بعض تلك الدور التركية منذ سنوات فبهت من أهمية المحفوظات المذكورة بها والتى تنتظر من يخرجها للناس ويتناولها بالبحث والدراسة وكل ما شهدت من تلك الوثائق مكتوب باللغة التركية بحروف عربية ٠ كما توجد محفوظات باللغة العربية وباللغة التركية وبمختلف اللغات المستعملة آنذاك على ضفاف البحر الابيض المتوسط فى موانى ومدن لبلدان كانت للجزائر معها علاقات دبلوماسية ، وتجارية ٠

فمتى يتخصص بعض ابنائنا فى اللغة التركية اولا ومتى يتوجه آخرون لمختلف تلك البلدان الحافظة لمصادر تاريخ بلادنا فيبعثون تلك المحفوظات من مدافنها اذ لن نتوصل الى معرفة حقيقة التاريخ فى ذلك العهد قبل القيام بهذه العملية ٠

2 ـ موقفنا من العهد العثمانى بالجزائر :

2 ـ ان النقطة الثانية وهى نظرتنا لذلك التاريخ متوقفة قبل كل شىء على دراسة تلك الفترة على ضوء المصادر الجديدة غير انه من الممكن ان نلقى سؤالا من الآن على الاختصاصيين وعلى كل من يهمه الامر قبل ان نجد جديدا فى المحفوظات ٠ الا نجد بعض التناقض فى مواقف الذين كتبوا من المؤرخين والصحافيين وغيرهم من الكتاب ، عن تلك الفترة ؟ فاذا تكلما على العدوان الفرنسى سنة 1830 قلنا ان الجزائر كانت دولة ذات سيادة واذا تكلمنا على الاستعمار الفرنسى قلنا ان الجزائر حصلت سنة 1962 على استقلالها بعد 132 سنة من الاحتلال مشيرين حتما الى ان البلد كان مستقلا قبل العدوان فالاحتلال ٠ وقد وقع فى نفس التناقض اختصاصيون اجانب أيضا وانا نلقى على سبيل المثال عند المؤرخ الفرنسى شارل اندرى جوليان فى كتابه الاخير « **تاريخ الجزائر المعاصرة** » فى الصفحة الاولى من الكتاب جملتين متناقضتين فيقول فى الاولى « ان الجزائر كانت سنة 1830 ايالة من ايالات الدولة العثمانية وكانت فى الواقع مستعمر استغلال تديرها اقلية من الاتراك » ويقول المؤرخ الفرنسى بعد ذلك فى نفس الصفحة « ان سلطة الباب العالى رغم شرعيتها لم تكن فى الحقيقة الا وهما » ٠ وامثال هذه التناقضات موجودة بكثرة فى كل ما كتبه قبل سنة 1830 الرحالة والساسة والدبلوماسيون الاجانب فمنهم من تكلم على مملكة الجزائر وسلطان الجزائر والدولة الجزائرية بدون الاشارة الى السيادة العثمانية ومنهم من تكلم خلافا لذلك على ايالة على رأسها حاكم يعينه الخليفة المقيم باستمبول ٠

ولاتمام نص السؤال على المعنيين بالامر نزيد قائلين :

التاريخ الاجتماعي ودوره في تاريخ الجزائر



الاستاذ عبد المجيد مزيان
استاذ علم الاجتماع ـ جامعة الجزائر

ليس من السهل ان ينجو الانسان من اخطار الذاتية عندما ينـــزل من سمائه النظرية الى صلب الواقع الحي في التاريخ الاجتماعي ، بكل ما تكلمنا عن الموضوعية التاريخيـــة وحصرنا كلامنا في ميدان منهجي ، كنا مدققين وموفقين ايما توفيق ، ولـــكن تطبيق هذا المنهج بكيفية تضمن اكتشـــاف الواقع ، يتطلب شروطا قلما يفي بها الباحثون ، ذلك ان التاريخ ذو حركية وسيلان عارم من جهة وذو تشـعبات اجتماعية لا حصر لها من جهة اخرى .

وليس بوسعنا في هذه النظـــرة الخاطفة التي نحاول من خلالها ابراز أهمية التاريخ الاجتماعي ان نقوم بسرد لكل التشويهات المتســـلطة على الواقع التاريخي ، ولكننا نستطيع ، على الاقل أن نذكر بعض الخرافات الفكرية التي تروج حتى الآن عن مفهومنا للتاريخ :

1 ـ فمن الخرافة ان نتصور التاريخ احـداثا ليست من صنع المجتمعات :

ان التاريخ كما يقال ذاكرة الشعوب ، ولكنها ذاكرة مسختمسخا الى حد انتسابها لغير الشعوب، ذلك انها كانت عرضة للصدف والغموض احيانا ، وللتدليس في اغلب الاحيان . وبحكم هذهالصدف التي هي روايات المؤرخين القـــدماء ، فرض على الشعوب ان تنسى تاريخها الحقيقي ، وتتذكر صورا كالاوثان ، لافراد وضعوا على قمم التاريخ ، لانهم كما يقال لنا ، صنعوا أحداث التاريخ .

تقول النظريا تالفردانية التي تدافع عن هذه الخرافة ان كتابة التاريخ عمليـــة تركيبية تلخص الاحداث الجزئية في الحادث الممتاز ، وتركب ارادة المجتمعات في ارادة قادتها ، وتصـــهر مجموعة الاوضاع الاجتماعية في المظهر الاكثـــر بروزا ، وليس كمثل الحادث السياسي ، والقائد العسكري ، والمفكر الكبير تشخيصا حيا للاحداث والتطورات. وتقول هذه النظريات ايضا ان الشعوب لا تصنع شيئا بل يصنع لها ، ولا تريد بل يراد بها ، وخير دليل على ذلك عدم وعيها للتشعبات السياسية ، وتيه الافراد في تفسير حيـــاتهم الاجتماعية ، وانفلات الاحداث من ايديهم الى حد اندهاشهم أمام تطورها . نعم ان هذه المشاهدات صحيحة في حد ذاتها ولكنه من الخطأ ان نستنتج عنها الاستنتاجات الفردانية ، بل لابد من تدعيم هذه المشـاهدات بملاحظات تزيد في تشخيص هذا الاســـتلاب ، ولكنها لا تنفي مصدره الاجتماعي . انه لمن العناد الفلسفي الفارغ ان نقول ان الفرد لا يصنع شيئا في الاحداث الاجتماعية التاريخية ، ولكننا ندعي انه يساهم بقدر مهم أو يسير في هــــذه الاحداث بصفته عضوا في المجتمع وانه لا يفارق هذا المجتمع كالكائن المحلق في العلويات ، انه والآخـــرون

باسم هذا الضمير التاريخي صنفت الامم طبقات منها القادرة على التحضر ومنها المحكوم عليها بالبدائية الابدية - وباسم هذا الضمير قسمت الحروب الى حروب عادلة مشروعة واخرى غير عادلة فنسب العدل الى ابناء الامم الغالبة والفتنة والغزو البدائي الى ابناء الامم المغلوبة • وباسم هذا الضمير حكم على بعض المجتمعات بالانحطاط ونفاذ القوى وخصصت لمجتمعات اخرى وسائل النهوض والتقدم • فليس هذا الضمير الا مطية للتدليس والزور التاريخي ، وليس افتراء الفيلسوف الالماني هيجل منا ببعيد حينما عرض تصنيفاته الفكرية والسياسية للامم على ما سماه بالتاريخ كضمير وحينئذ ادعى ان الهمجية كلها في غير اوروبا والحضارة والفكر كله في اوروبا • واقرب الينامن ذلك ما يقوله مؤرخو الاستعمار عنا من اننا في المغرب العربي اعراق متنافرة لا تعرف الا الفتنة والتشتيت ، واننا استنفذنا قوانا الحضارية منذ سبعة قرون بحكم قوانين التاريخ وبحكم الضمير التاريخي الذي حكم بعجزنا ، فيما يزعمون •

ان كل هذه الاضاليل ترجع الى رواج الخرافات الروحانية حول التاريخ •

ثم ان الخرافة الثالثة التي نريد ان نشير اليها خرافة منهجية تدعي **ان الموضوعية في كتابة التاريخ لا يمكن ان تتحقق اذا كان المؤرخ من المجتمع المؤرخ له •**

ان هذا الموقف يطرح مشكلا منهجيا وعقائديا في نفس الوقت • اننا لا ننكر ان كثيرا من الذين ارخوا لمجتمعاتنا من ابناء امتنا غلبت عليهم عواطفهم ، أو قل وعيهم ، ولكن الذين أرخوا لنا من الاجانب كانوا اكثر عاطفة بأحقادهم ، واقل وعيا لجهلهم بأحوالنا • واذا كان كل من الوطني والاجنبي ينتسب لعقيدة ما ، فمن الاحسن ان تحك العقيدة بالعقيدة وان يقرع المنهج بالمنهج حتى نقترب من الموضوعية في التاريخ • فلا ضمير اذا ان تقف الشعوب مواقف عقائدية احيانا تجاه مواقف عقائدية اخرى مشوهة للواقع • ألم نقل اننا نريد استئصال جرثومة الاستعمار في نظرته لتاريخنا ؟ ان هذا توجيه وموقف عقائدي لا يمكن انكاره ، ولكنه موقف مجتمع بأجمعه نفي بكل ما يكونون المجتمع ، ولا يجوز ان ننزع من المجتمع ما هو منه واليه • هذه ملاحظة اولى ، والثانية هي ان الشعوب تبني مجتمعاتها بيدها وتصنع احداثها التاريخية متداخلة او متصارعة مع شعوب اخرى، ولا يهمنا هل تكون هذه الاحداث منضبطة لارادة المجتمعات او معاكسة لهذه الارادة ، انما المهم ان ننفي خرافة المصدر اللامجتمعي للاحداث التاريخية• والملاحظة الثالثة ترجع الى ان الفرد الذي يعيش ظاهرة اجتماعية ، قليلا ما يمكنه ان يعيها وعيا علميا موضوعيا ، ومن هنا يضع مخاوقه الاجتماعي هذا خارجا عنه ، فاما ان ينسبه الى السماء والسماء منه بريئة واما ان ينسب الى الاوثان البشرية ، والاوثان البشرية عاجزة عن ان تتحمل وحدها مسؤولية التاريخ ولو في الجزء اليسير والزمن القصير •

هذه خرافة أولى •

2 - والخرافة الثانية ان نعطي للتاريخ كينونة تجعل منه كائنا روحيا او ضميرا انسانيا •

وقد تعود كثير من المفكرين ان يقولوا هكذا أراد التاريخ ، و « هذه هي اتجاهات التاريخ » كأن التاريخ كائن روحاني يطفو على البشرية فينسج لها الاحداث ويرسم لها التخطيطات وليس الانسان في هذه الحالة الا منجزا لاوامر هذا الكائن الروحاني المتعالي • ان هذا لحقا قلب الواقع رأسا على عقب حتى أصبح مخلوق البشر يقوم مقام خالق لاعمال البشر • ويغالي المغالون من اصحاب هذه النظرية الروائية الى درجة انهم يتخيلون طبيعة تاريخية لها سننها وقوانينها التي يخضع لها الناس مقهورين ، لا يستطيعون الا الانزلاق مع الاحداث الى هدف لا يعلمه احد ، ذلك لان التاريخ في نظرهم كائن مسير وليس بالمخلوق المتكون من الاحداث المخلوقة •

ثم ان هناك طائفة من المفكرين يتكلمون عن التاريخ كضمير انساني عام موحد ، انتصب فوق الامم ليحاكم الامم فتجدهم يعرضون الاحداث والامم على هذا الضمير المزعوم ويدعون انهم ينجزون للتاريخ وانهم يحكمون التاريخ وانهم ماثلون أمام التاريخ • وليس في مثل هذه المواقف الا تبريرات لافتراءات المفترين ، وعمادا خرافيا للمزورين •

لديه من عزم ، وضعية تاريخية نسميها الانحطاط والاستعمار ، وقد نفاها فى الواقع الحى وصنع بذلك تاريخه بيده ، ثم اصبح عليه ان يسترجع من ماضيه ما هو له حقا وان ينفى ما ينسب اليه زورا وبهتانا ٠

3 ـ ولا تكون مراجعة التاريخ الا بالرجوع الى المجتمع :

قد تعودنا اليوم ان نسمى التاريخ شيخ العلوم لاننا اذا أرخنا للبشرية فى جميع مظاهر حياتها فقد نكون مؤرخين للمجتمع ونشاطاته وللانسان وعلاقاته بالطبيعة ولكل علم بمفرده ولكل العلوم فى تداخلها وتعاونها ، ولكل علم حدث فكرى او مادى فى انعزاله ولكل الاحداث فى شبه نسيج يجمعها ، ان كل ظاهرة انسانية لها بعدها التاريخي او كما نقول اليوم لها تاريخيتها وصيرورتها ٠ ولو فرضنا فى المستقبل وجود مادة تلتقى حولها جميع المواد لبدأنا من هذه المادة التى تعتنى بالصيرورة والتاريخية ٠ ولا يمكن للتاريخ الجزئى والمجزئى ان يفى بهذا الفرض ٠ ولا يمكن للتاريخ المحلق على أعلى القمم الا ان يعطينا نظرات خاطفة عن الواقع المتشعب ٠ أما التاريخ الاجتماعى الذى يرد الاحداث الى مصادرها الحقيقية فهو اقرب مادة ، فيما يبدو لنا لاسترجاع الواقع الانسانى ، ولاعطائنا عنه صورة جد قريبة من الموضوعية الحقة ٠

ما هو دور النخبة فى تاريخ الجزائر المعاصر ؟

د٠ أبو القاسم سعد الله
استاذ التاريخ الحديث ـ جامعة الجزائر

قبل الاجابة على هذا السؤال « لابد من تعريف النخبة » يراد بالنخبة عادة فئة قليلة تمتاز بثقافة معينة راقية وتفتح ذهنى وحرية فكرية وطموح اجتماعى وسياسى احيانا ٠ وهى فى العادة فئة تعيش خارج المجتمع ولها آمالها وبرامجها وافكارها الخاصة ، ويجب الا يختلط معنى « النخبة » بمعنى « الانتيليجنسيا » ٠ ذلك ان هذه تعنى فئة متميزة ثقافيا وسياسيا واجتماعيا وليس من الضرورى ان تكون عناصرها من المثقفين البارزين٠

وقد ساعدنا احد الجزائيين فعرف النخبة بانها جماعة تعيش فوق المجتمع بحكم تكوينها واهدافها٠ واذا عدنا الى تاريخنا الحديث فاننا نجد ان هذه النخبة كانت موجودة حتى فى العهد العثمانى ٠ ذلك ان هذا العهد قد شهد تركيبا طبقيا يشبه الى حد كبير التركيب الطبقى الاوروبى فى القرن الثامن عشر ٠ وكان بعد النخبة فى هذا العهد بعض المفاتى والقضاة وبعض المثقفين الذين كانوا يشعرون بانه لا مكانة لهم فى المجتمع ٠

والذى يتتبع التطور السياسى للجزائر اثناء الفترة الاولى للاحتلال يلاحظ بدون عناء ، مدى الدور الذى لعبته الجماعة المذكورة ٠ فالمفتى ابن العنابى ، والمثقف حمدانى خوجة ، وقضاة قسنطينة وبعض مرابطى معسكر وتلمسان كلهم قاموا بدور نشيط فى الفترة المذكورة ٠

ولكن هذا الدور الفعال سرعان ما كبحه الفرنسيون خشية من العواقب التى تتهددهم لو تسامحوا مع قادته ، لذلك تشتت اولئك القادة فى مختلف البلاد العربية الاسلامية ، بل فى فرنسا ايضا ، وحل بعدهم فراغ مخيف فى الحياة الروحية والفكرية وبالتالى السياسية فى الجزائر ، وظل الامر كذلك الى نهاية القرن الماضى ٠ حقا لقد ظهرت عناصر

روحية يمثلها رجال مؤمنون بقضيتهم امثال الشيخ الحداد والشيخ بوعمامة وغيرهما ، ولكن موجة الاستعمار كانت اقوى فيما يبدو من موجة المقاومة في النهاية .

وبنهاية القرن الماضي ظهرت فئة جديدة وليدة العهد الاستعماري ، ولا نستغرب ان يكون قادة هذه الفئة من المثقفين بثقافة المحتل والمتأثرين بطرق معيشته . وماداموا كذلك فقد زعموا انهم غرباء في مجتمعهم بل انهم فوق هذا المجتمع وانهم يريدون تحوله لكي يرقى الى مستواهم الثقافي والاجتماعي .

ولقد دخل هؤلاء في صراع اجتماعي وسياسي احيانا مع طائفة اخرى من الجزائريين كانت تتمسك بالتقاليد العربية الاسلامية كضمان في وجه موجة الاندماج والتفسخ وتحويل المجتمع الجزائري الى مجتمع اوروبي. وقد احتد هذا الصراع اكثر في فترة ما بين الحربين ، فاصبح لكل فئة حزبها وصحفها ونواديها واتباعها .

وبنهاية الحرب العالمية الثانية نجد ان كفة الصراع قد رجحت لصالح النخبة الوطنية سواء منها من يمثل التيار التقليدي او من يمثل التيار التقدمي المتفتح ، وتبلور هذا الانتصار في ذوبان هذين التيارين معا في ثورة 1954 .

وهذا التاريخ يمثل في الحقيقة نهاية النخبة التي كانت تزعم بانها فوق المجتمع الجزائري والغريبة عنه .

والخلاصة ان النخبة الجزائرية قد مرت بثلاثة ادوار : دور ايجابي فعال اثناء الفترة الاولى للاحتلال ، ودور متذبذب في مطلع القرن الحالي ، ودور طلائعي ثوري ، ابتداء من سنة 1954 ، ولكن هذا لا يعني ابدا ان العناصر المضادة للتيار الوطني قد انتهت .

والخلاصة ان النخبة الجزائرية قد التاريخ الاجتماعي ودوره في تاريخ الجزائر

الجزائر في تاريخ الحضارة

2

مصطفى الأشرف

مستشار بالرئاسة

ترجمة : د. حنفي بن عيسى

(1)

مما لا شك فيه ان بلدان البحر الابيض المتوسط ، باعتمادها على امكانياتها الخاصة في تقرير المصير والاخذ باسباب التقدم ، ما كانت ليستطيع ان تضرب بسهم في الحضارة وان تبرهن عن كفاءتها في ميدان الثقافة ، لو لم يحدث امر وحيد في نوعه ،وهو ان هذه المنطقة من العالم بثت فيها حركة ثقافية مبدعة ،اتسع نطاقها حتى امتدت الى اقصى البلاد ، وتواصلت على مر الدهور ، وعادت بالخير على المنطقة باسرها .

(1) راجع الحلقة الاولى من مقال الاستاذ الاشرف في العدد الثاني من هذه المجلة

ان الدور الذى قام به اليونان فى مضمار الحضارة شبيه بالدور الذى لعبه الفينيقيون فى حضارة البحر الابيض المتوسط ، اى فى اطار عالم كان مغلقا عل نفسه ، فاصبح من الضرورى ان يتفتح عل الحياة ، وان يساهم كل قطر يطل عليه بنصيب ، وان يشارك فى اثراء التراث المشترك وصيانة الخصائص المميزةلهذه المنطقة ،ولقد قال الفيلسوف اليونانى ديون كريزوستوم Dion Crysostome الذى عاش فى القرن الاول الميلادى بان : « اهالى قرطاجنة الدين تحولوا الى ليبيين (اى الى بربر) بعد ان كانوا صوريين Tyriens جمعوا اموالا طائلة وانشاوا اسواقا عديدة وموانىء وسفنا حربية وبسطوا نفوذهم برا وبحرا الى مناطق بعيدة ، ومن المعروف ايضا ان مؤرخى العصور الغابرة كانوا يسمون سكان المدن البونيقية الواقعة عل الساحل المغربى ، الليبيفينيقيين Libyphéniciens

، وان دل هذا عل شىء ، فانما يدل عل ان فئة من سكان البحرالابيض المتوسط القادمين من الشرق استطاعوا، بحكم تفوقهم الحضارى ، وبدون حرب ولا ظلم ، استطاعوا ان يصبحوا من العناصر النشيطة النافعة للبلاد ، حتى انهم اندمجوا فى الفئة الاخرى من سكان البحر الابيض المتوسط ، وربطوا مصيرهم بالمصير الافريقى ، ونقلوا الى الشواطىء الثانية من البحر المشترك ، بعض الجوانب الحضارية المجهوله او الصنائع التى برعوا فيها

واذا نظرنا الى المراكز التجارية والمدن المنشاة عل الساحل الجزائرى وهى يومنيوم Iomnium (تيجزيرت) واكوسيم Icosium (الجزائر) ويول (شرشال) وروسيكاد Rusicade (سكيكدة) وروسوكورو Rusuccuru (دلس) وروسجونا Rusgunac (ماتيفو) (2) وغيرها من المدن الاخرى، فاننا نلاحظ ان التاثير كان متبادلا ومتنوعا بين الطرفين ، من حيث البيع والشراء مع البربر ، ومن حيث الاقبال عل السلع المعروضة ، وطرق التعامل ، بل ومن حيث اللغة التى هى قريبة من الليبية القديمة ، مما جعل الاهالى يتقبلونها بنفوس راضية ، وهكذا ازدهرت الحضارة نتيجة الامتزاج والاشتراك عل مدى التاريخ فى الالام والآمال

انها حضارة ممتزجة فى غيرها ، لان الفينيقيين كانت لديهم قابلية خاصة لتعلم لغات الاهالى ، والتزاوج مع البربر ، ولان سياستهم تتميز بالتعقل والحكمة ، وقد استطاعت قرطاجنه ، بهذه السياسة الحكيمة ، وبنشاطها الاقتصادى الناجح ، ان تعلم الاهالى كيف يستخدمون المعادن وكيف يزرعون القمح وكيف يغرسون الكروم واشجار الزيتون ، وهى لم تحاول ان تخضع ملوك البربر وزعماءهم ، وان تفرض عليهم امرا ما ، بل استدرجتهم بالرضى لعقد احلاف ومعاهدات كان لها تاثير كبير بالنسبة الى ميزان القوى فى حوض البحر الابيض المتوسط Etrusques

ولقد اخذت ثقة ملوك البربر وزعماءهم بمستقبل الامبراطورية البونيقية تضعف فيما بعد ، بسبب المناورات السياسية وتسلط بعض الفئات من الوجهاء والاعيان ، ولان قرطاجنة حاولت ، بعد ما تخل عنها حلفاؤها الاتروسك ، ان تصد الخطر الذى يهددها من طرف الرومان ، ولكن ضعف ثقتهم ربما كان راجعا بالدرجة الاول الى ان الممالك الكبرى التى اسسها البربر آنذاكبلغت مرحلة لا باس بها من حيث النضج الوطنى ، فاخذ ملوك البربر وزعماؤهم يفكرون فى امكانية التخلص من التبعية البونيقيه وتقرير مصير بلادهم تبعا للوضع السياسى والاقتصادى السائد فى حوض البحر الابيض المتوسط ، الا ان الممالك البربرية فى الجزائر كانت آنذاك لا تزال دولا تعتمد عل القوى البرية ، فى حين ان صفحات التاريخ كانت تسجل فى البحار ، وفى الاراضى المطلة عل البحار ، لا فى السهول والقفار ، وهذا الامر لم تدركه روما ، فدارت عليها الدائرة خلال الحرب البونيقية الاول

عل ان روما كانت فى تلك المرحلة الانتقالية المتقلبة ، تجرب سياسة جديدة فى التعامل ، وطرائق تدل عل المهارة ، وتسلك مع بعض ملوك البربر سلوكا جعلهم يميلون اليها ، وبما ان روما بعيدة من حيث المكان عن شمال افريقيا ، فلا مجالللتخوف منها ،ولذلك اخذ ملوك البربر يعملون من اجل التخلص من كل تبعية ومن كل تدخل فى شؤونهم ، حتى ولو كان خالصا من الاغراض الاستعمارية ، وبدات مدينة « سيرتا "Cirta" » (قسنطينة اليوم) تحتل مكانتها فوق الصخرة التىشيدت عليها ، كعاصمة كبرى ، وكان الملك آنذاك هو مسينيسا ، وهو رجل حازم، عمل كل ما فى مقدوره لتمدين بنىقومه وتثقيفهم ، وهو الذى اخذ عل عاتقه مهمه توطينهم بعد ان كانوا رحلا ، واسكانهم فى الاراضى المستصلحة وتعويدهم عل الحياة المثمرة الهادئة فى الحقول والبساتين ، مع تجنيدهم عند اللزوم لشن الغارات النوميدية المظفرة عل اسبانيا وايطاليا ، وادرك مسينيسا ان « سيرتا » هى اجدر مدينة للاشراف عل هذا العمل الجبار ، وعل نوميديا باسرها ، ولعل امة البربر كانت قد اخذت تسلم امرها الى ملوكها من اجل قيادتها واحلالها المحل اللائق بها بين الامم

---

(2) وتعرف باسم رأس تامانتفوست (المترجم)

وتخاصم مسينيسا مع سيفاكس Syphax (ملك نوميديا الغربية) ، فاخذ يفكر فى استبدال حلفائه القدامى بغيرهم

واقنعه سيبيون اميليان Scipion Emilien بالانضمام الى صفه ، فساهم مسينيسا بذلك مساهمة قوية فى هزيمة حنه بعل (القائد القرطاجنى الشهير)

فى زامه Zama عام 202 ق م ، وتعتبر هذه المعركة نقطة تحول بالنسبة الى نوميديا وشمال افريقيا باسرها : فافريقيا ، بعد ان كانت منطلقا للفتوحات البحرية القرطاجنيه ، اصبحت ، لعدة قرون ، حليفة روما فى مشاريعها الاستعمارية، مما قضى على جميع المساعى والجهود التى بذلك من اجل النهوض بامة البربر من شعب متخلف ، الى امة متمدنة ،تلك المساعى والجهود التى كادت تنجح فى تكوين دولة كبرى موحدة منظمة وذات سيادة

ولئن كانت شمال افريقيا ،بالنسبة الى الفينيقيين ،مركزا من مراكز الحضارة ومحطة للتجارة والاستكشاف فىسيرهم نحو الاقطار المجهولة ، وحلقة وسطى بين البحر الابيض المتوسط المعروف لديهم ، وبين المناطق المجهولة التى يريدون الوصول اليها من وراء فيافى الصحراء ، اى الى القارة السوداء ، لئن كان الامر كذلك بالنسبة الى الفينيقيين، فان شمال افريقيا — وهى البلد الكبير المجاور لصقليه واروبا ، الغنى بموارده الطبيعية وامكانياته البشرية — ما لبثت ان صارت بالنسبة الى الرومان الذين اطاحوا بالحكم القرطاجنى ، ارضا للاستيطان ، ومسرحا للمناورات والحروب ، حيث كانت طوابير روما تعيث فيها فسادا

ونحن لا ندعى من وراء هذا الكلام ، ان حكم الرومان لم يكن على وجه الاطلاق مفيدا لشمال افريقيا والجزائر ، ولكن الشىء الذى يهم مؤرخ الحضارة وعالم الاجتماع بالدرجة الاولى ، هو انتشار القيم الحضارية بصورة تلقائية ،والاقبال العفوى على الثقافة والصنائع ، لان الحضارة ، كما نفهمها ، معناها النشاط الذى تساهم فيه الجماهير من غير اكراه ولا ظلم ، ومعناها العمل فى بوتقة البشرية جمعاء ، من اجل ايجاد الحلول المناسبة للحاجات اليومية والمشاكل العملية

وبعد ان خرب الرومان قرطاجنة ، اعلنوا ضمها الى الامبراطوريه لكى يمنعوا حلفاءهم ملوك البربر من الاستيلاء على هذا البلد ، والتفكير فى استعادته بعد ان خرج من يدهم

ان القرطاجنيين الذين نجوا بانفسهم من التقتيل والتخريب — وهو امر يكى له ، فيما يقال ، سيبيون الافريقى نفسه Scipion L'Africain علما بانه هو الذى امر بتلك المجازر الرهيبة — هؤلاء القرطاجنيين استجاروا بالبربر فاجاروهم ، واخذوا يواصلون رسالتهم الحضارية السامية ، وهكذا ، فقد انتشرت اللغة البونيقية اكثر مما مضى ، حتى ان الكتابات المنقوشة بهذه اللغة تكاثرت فى الجزائر عام 118 قم، اى بعد ما يزيد على ثلاثين سنة من دخول الرومان ، وكذلك فان اللهجات البربرية تطورت الى لغات مكتوبة ، واخذ الملوك النوميديون الذين ندموا لو ينفع الندم ، يجمعون الكتب من المكتبات البونيقية التى اراد سيبيون اميليان انيخربها ، رغم انه كانمعروفا بالثقافة والعلم ، كما اعادوا تشغيل المعامل الفينيقية ، ونهضوا بتلك المهمة على احسن وجه ، واستانفوا تشييد صرح الحضارة فى حقل الزراعةوالصناعة تلكالحضارة التى انشاها الليبيفينيقيون منذ عشرة قرون خلت ، فاتى من بعدهم الرومان ، وقضوا على تلك المحاولة المباركة ، وقد كتب المؤرخ جيروم كاركو بينو Jerôme Carcopino فى هذا الصدد يقوه : « لم يبق من قرطاجنة شىء ، بعد ان خربها الرومان تخريبا كاملا : لقد اصبحت هى واهلها اثرا بعد عين »

اما البقية فمعروفة : لقد اخذ خلفاء مسينيسا وورثة عرشه يتناحرون ويتقاتلون ، وفرض الرومان حمايتهم على ما يشكل اليوم الجزائر والمغرب الاقصى ، ثم نشبت الحرب الطويلة التى دامت عشر سنين وتصارع فيها يوغورطا مع اكبر قادة الحرب فى روما ، ونشان الاحزاب السياسية وانخرط فيهاالامراء النوميديون ، بعضهم يناصر قيصر ، والبعض الآخر يناصر انطوان واوكتاف وبومبى ، الى ان جاء عهد اوغسطس الذى بفضله عرفت آخر مملكة بربرية تسست فى الجزائر ، عهدا من الرخاء والازدهار لم تعرفه من قبل ، تحت حكم يوبا الثانى ، وهنا ايضا ، فان هذا الجانب المزدوج المتعلق بالسلطة والحضارة يدعونا الى ان نقف لحظة لكى نتامل قليلا فى الثقافات المفروضة بالقهر والقوة ، او المقبولة من طرف شعب من الشعوب حينما تلبى تلك الثقافة بعض الحاجات الوطنية الملحة ، لابد كذلكمن ان نقف قليلا لكى نرى كيف يستيقظ الشعب بعد طول غفلة ، وما هى الخصائص العامة للمجتمع البناء ،المجتمع الذى يتفتح على الخارج لكى يستفيد من تجارب الغير ، ويلتفت الى الماضى ، لكى يوحد الصف ويحيى التراث ويعيد مجده الغابر وسيادته المغصوبة

او اوكتاف الذى اصبح يعرف ، بعد تقلده للحكم وتعزيز سلطته ، باسم اوغسطس ، كان لا يزال مشغولا بتركيز دعائم الامبراطورية الرومانية الواسعة، والقضاء على الحرب الاهليه فى ايطاليا بالذات ، ولذلك القى عن كاهله شؤون شمال افريقيا واراد ان يتخلص من مشاكلها فقام بتنصيب امير شاب من امراء البربر هو يوبا الثانى ، واسند اليه الحكم فى ثلثى البلاد

ان هذا الملك الذى هو من سلالة نوميدية عريقة ، لم يتاثر بالحضارة

البونيقية ، لانه تربى فى روما وتعلم اليونانية واللاتينية ، واقام فى ديار الغربة ، رهين حرب ، منذ نعومة اظفره ، بعيدا عن افريقيا بلاد الاجداد ، وقد اخذ هذا الملك الشاب منذ عام 29ق.م ، يعمل من اجل احياء عهد الحضارة المزدهرة التى انشاها اجداده الاولون ، وقد تضافرت عدة عوامل فى حياة هذا الملك ، فوضعته فى قلب التيارات الكبرى ، وفى معترك الاحلاف والشدائد والايام التاريخية المشهودة التى برهنت فيها منطقة البحر الابيض المتوسط بانها ارض التعاون العالمى ، والوحدة الثقافية الشاملة ، والبطولات الخارقة ، والاساطير التى رفعت بعض الملوك والرجال العظام الى مرتبة الآلهة ،وفى عام 19ق م ، زوجه الامبراطور اوغسطس بكيلوباطرة سلينى ، بنت كيلوباطرة الشهيرة فى التاريخ ، واصبح بلاط يوبا الثانى مكانا يقصده الفنانون اليونان ، والنحاتون الكبار ، والعلماء الذين اخذوا يجمعون فى مكتبته المخطوطات النادرة ، ومما لا شك فيه ان تشربه للثقافة الرومانية قد سهل عليه المهمة التى كلفه بها اوغسطس ، وهى نشر الحضارة الرومانية ودعوة بنى قومه الى مجاوزتها ، لكى ينسوا حضارتهم الاصيلة التى هى مزيج من الثقافة القومية ومن التقاليد والصنائع الموروثة عن قرطاجنة وعن الليبيفينيقيين ، على ان يوبا الثانى كان ميالا للثقافة اليونانية المجردة من الاغراض والاطماع ، ولم يكن متاثرا بثقافة الرومان الا لانه ظل مخلصا لروما ومعترفا لها وللقيصر اوغسطس بالجميل ، وكان عالما وكاتبا وممن يقدر الروائع الفنية حق قدرها ، ولم يقتصر فى نشاطه الثقافى على المجال الفكرى ، وينبغى ان نذكر هنا بان مملكته كانت تشمل ثلثى مساحة الجزائر الحالية ، ومساحة المغرب الاقصى الذى لم يتمكن المعمرون والتجار والحكام الرومان من الوصول الى اطرافه النائية ، ومن تنظيم شؤونه الادارية ، ونحن نشير الى هذه النقطة لانها ستكشف لنا عن صفتين غريبتين وراسختين فى نفس يوبا الثانى ، رسوخا لا يكاد يترك له مجالا للاختيار

ان العاصمة الجزائرية فى ذلك الوقت هى مدينة شرشال ، وكانت تسمى قيصرة TESARAE ، وهى تكاد تفوق المدن اليونانية والرومانية المعاصرة لها فى العظمة ، اذ كان لها انظمة بلدية نموذجية وكانت حافلة بالمعابد والمبانى الفخمة ، فتوافد اليها رجال الفن والعلم من كل حدب وصوب ، وهنا نلاحظ ان يوبا الثانى وجه نشاطه الى المقاطعات الغربية من مملكته الواسعة ، فاهتم بها اهتماما كبيرا ، وكان يحب الاقامة فى قصره الملكى بمدينة فولوبيليس (شمال مكناس)(3) Volubilis التى بنيت هى كذلك على غرار مثيلاتها من المدن الرومانية ، وكان يحب ان يتردد ،رغم بعد المسافة ، على المغرب الاقصى ،حيث وضع الفينيقيون والليبيفينيقيون اسس المراكز التجارية الاولى ، واكتشفوا طريق الذهب والمعادن الثمينة ومهدوا السبيل للمتاجرة مع القارة الافريقية ، وقام يوبا الثانى ، اما شخصيا او مستعينا باعوانه ، قام باستكشاف المناطق النائية من المغرب الاقصى ،ودرس عالم الحيوان والنبات ورمم المراكز التجارية الفينيقية المهملة طيلة قرون عديدة ، واقام فى جزر الكنارى المصانع الشهيرة التى ما فتىء مؤرخو العصور القديمة يمتدحون مزاياها الحسنة ، وانشا السفن للقيام بابحاث علمية استكشافية ، وجهزها احسن تجهيز

وهكذا اخذ يوبا الثانى يربط الماضى بالحاضر ، ويواصل - من غير ان يتنكر لروما التى اجلسته على عرش الملك - الجهود التى بذلها الاوائل فى اقامة حضارة اصيلة ومستقلة بالمغرب

وكانت سياسة يوبا الثانى هى اغناء التراث ، والقيام بالاستكشاف والترميم ، والرجوع الى الاصل ، اى الى الثقافة التقنية التى برع فيها الليبيفينيقيون ، وقد نهض بتلك السياسة ، متحمسا لها ، لانه مدفوع الى ذلك بحاجة ملحة للتثقف والعمل الجاد ، لا بحكم التبعية للرومان ،ولئن وفق فى سياسته وجهوده التى ظل يبذلها طيلة حكمه ، اى مدة 49 سنة ، فلانه كان بعيدا الى حد ما عن المراقبة الخفية او المباشرة من طرف السلطة الامبريالية ، وبمعزل عن التدخلات والحزازات الشخصية والتاثيرات المفرضة من طرف المستوطنين والمعمرين والتجار الرومان الذين لا يدينون له بالولاء ، لانهم مواطنون رومان ويتمتعون بامتيازات خاصة فيما وراء البحار ،ومن المعروف مثلا ان مجلس الشيوخ الرومانى قرر الاطاحة بحكم يوغورطة وشن عليه حربا شعواء عندما اقدم هذا الملك لدى الاستيلاء على مدينة سيرتا ، على معاقبة جماعة من المهربين الايطاليين ، اى من الرعايا الرومان الذين لا يجوز مسهم باذى

وهكذا عرف يوبا الثانى ، بالتعاون مع شعب البربر ، كيف يوفق - فى صبر واناة ، وبمنتهى البراعة - بين مختلف الحضارات التى ازدهرت فى حوض البحر الابيض المتوسط ، فعمل من اجل احياء الصنائع الفينيقية ، ونهل واختط منهجا مستقلا للنهوض ببلاده نوميديا ، معتمدا فى ذلك على الامكانيات من معين الحضارتين اليونانية والرومانية الوطنية ، الا ان هذا العمل الجبار الذى نهض به يوبا الثانى ، ما كان ليقاوم على طول الزمان ، غزو الاستعمار الرومانى الذى الحق ضربة قاضية ، فى مدى قرنين ، بحضارتين اصيلتين من اكبر الحضارات التى نشات فى حوض البحر الابيض المتوسط ، وهما حضارة الاتروسك Etrusques وحضارة قرطاجنة

وقد بدات روما تمارس سياسة الهيمنة على الممالك البربرية على اثر معركة تابسوس Thapsus (4)

(3) تسمى اليوم قصر فرعون او ليل

(4) – تسمى اليوم : رأس ديماس، وهي توجد بتونس (المترجم)

عام 46 ق‌م ، ولكن شمال افريقيا لم تصبح مستعمرة تابعة لروما الا عام 40 ميلادى ، أو بالاحرى اصبحت مجموعة من المستعمرات ، ومنذئذ اختل التوازن فى تاريخ شمال افريقيا وتاريخ الجزائر على وجه الخصوص ، فقد اخذت كفتا الميزان فى‌الاضطراب ، وهنا نلاحظ من جهة ، كيف ضاعت الفرصة مرة اخرى من اجل السير بالبلاد نحو الوحدة والاستقلال ، ومن جهة اخرى نلاحظ كيف تمت تلك العملية المنظمة فى غزو البلاد ، وفرض حضارة دخيلة ،حضارة قاسية ،شديدة القسوة ، لانها مفروضة على الناس بالقوة ، ومعتمدة على النخبة المختارة من الطبقة الراقية ، ومع ذلك كله ، فهى حضارة وظيفية ، انتفع منها الناس فى كثير من المجالات

ومهما يكن من أمر ، فان هذا الحادث فى حد ذاته مهم جدا ، لانه يكشف لنا لدى عن شخصيتهم العميقة، تلك الشخصية التى تتميز بالتطرف‌من جهتين : فهم يحبون الاستقلال‌بانفسهم، وهذا الحب مرتبط بحبهم للسلام والامان ، من غير استكانة ولا هوان ،ان هذه الروح المغربية نجدها تارة متمردة وتارة اخرى‌طيعة ، فالمغربى ميال‌للقبول تارة والرفض تارة اخرى ، مدفوعا الى ذلك بعواطف الكرم والعنف والاباء والشمم ، حتى انه ليرضى فى سبيل ذلك ان يتجرد من كل شىء ولو كان عزيزا ، وان يضحى بحياته ، فهذه النفس الجياشة الطموحة جعلت المغربى يعبر دائما عن عواطفه بالمرح والهدوء تارة ، والاستماتة فى العيش والضجيج والعنف ، تارة اخرى

ويقول احد المتخصصين فى افريقيا على عهد الرومان ، وهو كريستيان كورتوا

بان تاريخ بلادنا فى تلك الفترة يشبه تاريخ المقاطعة الامريكية المسماة « الفارويست » ، أى « الغرب الاقصى » لانها ، كتلك ، لا تقهر أبدا ، ويبدو لنا ان هذا التشبيه لا يخلو من مبالغة ، وذلك ان « السلام الرومانى » لم يكن له من‌الحقيقة سوى الاسم ، لان الثورات والتمردات وحركات العصيان تواصلت بدون انقطاع مدة اربعين سنة ، طيلة الحكم الرومانى الذى دام قرنين ،ويقول جبرائيل اوديسيو

بان القرون الاربعة الفاصلة بين هذه الفترة وبين دخول العرب كانت حافلة بالحروب والثورات

ولكن ، هل يعنى هذا ان الامر اقتصر على ما ذكرنا ؟ يقول الكاتب جبرائيل اوديسيو ، وهو من ابناء منطقة البحر الابيض المتوسط ، وممن تينتهم الجزائر التى تمثل بالنسبة اليه المركز الحساس، والارض المتجاوبة باستمرار مع المغرب اجمع ، يقول فى مقال رائع خصصه لبلادنا : « كل شىء فى شمال افريقيا متطرف ، واسم « المغرب » فى حد ذاته اكبر دليل على ذلك ، ومن طبيعة الاطراف انها تتجاوب فيما بينها ، بل تجاوب كل من يمد اليها يدا ، وكل مكان فيها مقر لاجتماع يعقد او لقاء يتم بين تلك الاطراف » الى ان يقول : التوازن عندما يختل ذلك التوازن ، والتجاذب او التنافر بين الاطراف »

ان حكم كريستيان كورتوا موسوم بشىء من العجلة والسطحية ، لقد وصف الجزائر كما كان فى عهدالرومان فقال بانها « الفارويست الذى لا يقهر » وهذا حكم ليس صحيحا الا اذا كان المقصود منه هو الاشارة الى بعد من‌ابعاد هذه البلاد التى لم تتفتح امكانياتها الحضارية على الوجه الاكمل فى عهد الفينيقيين ، فلما اتى عهد القياصرة الرومان ، ماتت تلك الامكانيات وقضى عليها تماما ، اما الابعاد الاخرى ، فهى حافلة بالامكانيات الضخمة التى يتمتع بها هذا الشعب المدهش بما فيها من مفارقات عجيبة : فتارة تجده موحد الشمل ، وتارة اخرى مفرق الصف ومن هذا الشعب تجد الفارس المقدام والفلاح المسالم ، والفظ الغليظ والمهذب اللطيف ، والمشرك بالله والموحد لربه ، والمحارب للعوائد والتقاليد والمؤمن بالخرافات والاباطيل

ان الجهود التى بذلك لبناء المدن المزدهرة بالحضارة مثل تيمقاد Timgad

وتافزه Tipasa

وبونة (عنابة) Hippone

وقيصرة (شرشال) Tesarae

وجميلة Djemila

وصلداى (بجاية) Saldae

وميليف Mileve

هذه الجهود لم تكن من عمل الفينيقيين وحدهم ، أو من صنع المؤجرين والمهندسين المعماريين واصحاب الحرف القادمين من بلدان اخرى من حوض البحر الابيض المتوسط ، ان ارض الجزائر التى اتحفت الادب العالمى‌بكاتب يعد من اكبر الكتاب وهو « ابولى دى مادور Apulée de Madaure صاحب كتاب « التحولات Metamorphoses (وهى القصة الوحيدة الباقية من التراث اليونانى) ، وانجبت واحدا من اكبر دعاة الكنيسة الافريقية واعظمهم فى الجدال ، وهو ترتوليان Tertullien ، وتربى فيها حتى صار من النابغين المحفوفين بالتقدير والاحترام، رجل فذ فى‌الفكر المسيحى والتبشير بالدين ، رجل عرف بالزهد والعلم والحجة القوية ، واعنى به اوغسطينوس من ثاغاست (سوق اهراس) اسقف مدينة بونة (عنابة) Hippone ان هذه الارض تستطيع كذلك ان تنجب رجالا آرين ذهبت اخبارهم فاصبحوا من الغابرين

ولعل اكبر شاهد على ما نقول ان يوفينال Juvénal اكد فى القرن الاول الميلادى بان شمال افريقيا هى موطن الفصحاء ، ويضيف لوى فييو Louis Veuillot مؤيدا هذا الكلام ، لانه ممن يقدر

الفصاحة حق قدرها : « ان العبقرية الافريقية تتجلى في كون افريقيااصبحت من اكثر الاقطار غنى بالفصحاء والبلغاء» ويقول هذا الصحافي الكاثوليكي النزعة الذى اشتهر اسمه في القرن التاسع عشر ، يقول متحدثا عن « ترتوليان » ومعبرا عن اعجابه بشجاعته وفصاحة لسانه : « ان الكنيسة الافريقية قد انعمت على البشرية برجل يعد من اكبر العاملين في سبيل اظهار وجه الحقيقة » اما ارنيست رونان Ernest Renan فقد ذهب الى ابعد من هذا ، اذ صرح بان البشرية مدينة لشمال افريقيا بكتاب اساسى وهو الكتاب المقدس باللغة اللاتينية La Bible ،ويمضى قائلا بان « النص اللاتيني ظهر اول ما ظهر في افريقيا ، على الارجح ، ومن المعتقد ان النص اللاتيني للصلاة ، والاقسام الرئيسية من الشعائر المسيحية ، اصلها كذلك افريقى » وينتهى رونان بعد هذا الى النتيجة الآتية : « وهكذا ساهمت اللغةاللاتينية الدارجة في افريقيا ، ساهمت الى حد بعيد في وضع لغة الدين المستعملة في الغرب ، وبذلك كان لها اثر كبير في لغاتنا الحديثة »

ونعيد الى الاذهان ان جبرائيل اوديسيو ، قال ، بعد ان تحدث عن خرافة « السلام الرومانى » المزعوم الذى تخللته ثورات عديدة وعمليات قمع شديدة : « واستمرت نفس المسالة طيلة القرون الاربعة التى سبقت وصول العرب ، فعرفت البلاد غزو الوندال والبيزنطيين ، ولمعت اسماء الزعماء امثال فاراكسين Faraxen وفيرموس Firmus ، وجيلدون وانطالاس Gildon Antalas وجبداس Jabdas وكوتزيناس Cutzinas ، وظهرت حركات الدوناتيست Donatistes واسيركونسيليون وغير هؤلاء كثيرون ، فهل يمكن بعد هذا ان نقول بان البلاد عرفت عهدا من الاستقرار هو السلام الوندالى ؟ »

ان هذه اللمحة الموجزة عن التسلسل التاريخى تدعونا الى ان نتدبر ونفكر كى نفهم الامور على حقيقتها : فزعماء البربر الواردة اسماؤهم آنفا ،والحركات المنشقة التى ذكرها المؤلف السابق الذكر ، كل ذلك يشكل وجهتين ، بحسب ما اذا وقفنا بجانب السلطة الاستعمارية الشرعية الخاضعة لروما وللكنيسة المسيحية التى اخذ نفوذها يتزايد بتشجيع من الرومان ، او بجانب الثورات المشروعة المطالبة بالعدالة ،وقد كتب احدهم فقال : « ان افريقيا هى البلاد التى انجبت كثيرا من القديسين» ونحن نقول : ان القديسين في هذه المنطقة من حوض البحر الابيض المتوسط مثلهم كمثل الشهداء ، لان ظهورهم علامة على وجود حالة مزرية لابد من معالجتها ، وامارة تنبىء بالخراب والدمار بالنسبة الى دولة من الدول

واكبر دليل على ذلك ان البرابرة اخذوا منذ بداية القرن الثالث الميلادى، يتجمعون على حدود الامبراطورية الرومانية التى ضعف شانها بسبب تطاحن عائلاتها العريقة وتمرد جنودها، وبسبب الصراع السياسى او العسكرى بين القياصرة واعدائهم ، وبسبب الحالة الاقتصادية المتردية التى عانت منها كثيرا المقاطعات البعيدة ، بل حتى روما بالذات روما التى كانت في السابق تستنزف بدون شفقة ولا رحمة خيرات البلاد الخاضعة لها ، لكى ترضى بها حاجات الشعب الرومانى وجشع الاعيان من مجلس الشيوخ ومن لف لفهم ، وكانت الامبراطورية مقبلة على انقسام خطير ما لبث ان حصل بالفعل في القرن الذى يلى

وقد عاصر القديس اوغسطينوس هذا التحول الخطير الذى تم في تاريخ البشرية ، في مراحله الحاسمة ، ورغم جهود قسطنطين Constantin الذى وضع اسس الامبراطورية المسيحية ، ورغم مرسوم ميلان ، ورغم المجمع الدينى الذى انعقد في مدينة نيسى Nicée عام 325 ، ورغم تنظيم الكنيسة المسيحية التى اعترفت بها الدولة وانشات معها علاقات رسمية ، رغم ذلك كله فان بذور الاضطراب والشك والعنف والفوضى والصراع الفكرى بدات تختمر في هيكل الامبراطورية الموحدة سياسيا ،المنقسمة جغرافيا ، فالمجتمع كله ، والنخبة المختارة منه ، والافكار السائدة فيه ومذاهبه الفلسفية وصراعاته ومطامحه وآماله ، كل ذلك ما لبث ان آل به الامر الى عهد من المحن والشدائد ، عندما برزت الشعوب الجرمانية المتحفزة، وهى الشعوب التى قضت على حضارة البحر الابيض المتوسط القديمة وحطمت النظام الرومانى المحكم ، واخذت تتبنى عن غير ما تجربة قوانين روما ، وتتقاسم فيما بينها اطراف امبراطوريتهاالغربية، وقد نجم عن هذا الانقلاب الشامل في الوضع العالمى ان اتجهت الامبراطورية الرومانية السفلى (وهو الاسم الذى اطلق عليها بين 476 ـ 275 م) نحو النظام الاستبدادى باتم معنى الكلمة ، ويرى هانرى مارو Henri Marrou صاحب ترجمة حياة القديس اوغسطينوس ، بان هذا المفكر الكبير الذى عاش حتى شهد انحطاط الدولة الرومانية وافول نجمها ، لم يكن مخطئا في تقديراته عن مستقبل الامبراطورية الرومانية الجديدة ومصيرها ، ان هذا الحكم الاستدادى ما لبث ، منذ منتصف القرن الرابع ، ان اخذ يضطهد الشعوب بحسب طريقة جديدة تقوم على تالية الامبراطور ، وفرض ضرائب باهظة ، ومراقبة حركات الناس وسكناتهم ، وتسلط بعض الفئات بصورة وراثية ، واقامة عيشة البذخ والترف ، ومهما يكن من أمر ، فانهذه الدولة القائمة على الاقتصاد الموجه وعلى الارهاب ، والسلطة العسكرية ، قد انقذت الامبراطورية من الاضمحلال ،

فى حـــــين ان الغرب كانت تجتاحه الشعوب البربرية ، وبينما نشـــاهد الجناح الشرقى البيزنطى من الامبراطوريه ينهض وينتعش ابتداء من عام 400 ، عن طريق اقامة الحكم الاســـتبدادى الاقطاعى ، فان الجنـــاح الغربى من الامبراطورية اخذ ينهار تحت ضربات جماهير الفلاحين المسخرين فى بلادالغال (فرنسا) ، وفى نوميديا ، كما اخذ يتعرض لهجوم الشعوب الجرمانيـــة ، ويضيف صاحب الترجمة : « لقد مضت حياة القديس اوغسطينوس كلها فى هذه الظروف ، وان فى ذلك للقارىء اليوم ، لعبرة واية عبـــرة ، انه يعلمنا كيف يواجه المرء ظروف الشدة والمحنة ،وقد شهد فى طفولته الانتفاضات الاخـــيرة للدولة الرومانية ، كما شهد فى كهولته سقوط اسوار روما ، فى 24 غشت من عام 410 ، امام الفيزيقوط ، بقيـــادة ملكهم الاريك

وعندئذ اخذ يتامل فى المعنى العميق الكامن وراء سقوط عاصمة الحضارة ، تلك العاصمة التى ظنت نفسها خالدة، مما جعله يؤلف كتابه الرائع المشتمل على اثنين وعشرين جزءا ، وهو « مدينة الله » ، حيث نجده يعالج موضوعين اساسيين : اولهما ان الحضارات مآلهـــا الى الزوال ، وثانيهما ان البشرية تواقة الى الآخرة ، ولا يزال هذان المبدآن هما اساس الفكر المسيحى فى التاريخ »

(يتبع)

هرمان هاوف

د.
أبوالعيد
دودو

واحتلال الجزائر

عندما سقطت الجزائر فى ايدى الفرنسيين يوم 5 جويلية سنة 1830 ، اخــذ بعض الاروبيين يتساءلون عن الاسـباب الحقيقيــة التى ادت الى احتــلال الجزائر وعن موقف بريطانيــا من هذا الاحتــلال والمعروف ان بريطانيا قد ابدت فى ذلك الحين تخوفهـــا من ان تتخذ من دعوى القضاء على القرصنة وسـيلة لاحتلال الجزائر وجعلها مســـتعمرة فرنسـية والمعروف ايضا انفرنسا قــد اعتبـرت تخــوف بريطانيا تدخلا فى شؤونها الخاصة ، وتكفى هنـــا الاشارة الى ماقالته على لسان شاتوبريان بهــذا الصدد .

ومن بــين اولئك الذين اثــاروا مثــل هذه التســاؤلات المؤرخ الالمــانى هرمان هارف . فقد اصــدر عام 1835 بمشــاركة صــديقه ادوارد نيدرمان كتابا صــغير الحجم ، طــبع فى مدينة شتوتغارت ، وضع له عنوان «الجزائر كماهى» . ويتضمن الكتاب فى مجموعة معلومات عامة ، لا تخــتلف عما نجــده فى بقية الكتـب الاخرى التى تحدثت عن الجزائر مــن الناحيــة الجغرافيــة الطبيعية والمعمارية وغير ذلك . ولهذا لا يهمــنا من هذا الكتاب سوى مقدمتــه . فالمؤلف لايبدى اعجابه بجرآة فرنسا الى الحد الذى ينسيه واجبه كمؤرخ ولا يعتبر مسالة احتلالها للجزائر قضــية مسلمة كما فعل غيره ، وانــما يحاول ان يناقش الاسباب التى ادت اليه مناقشــة هادئــة ، كما يناقش موقف بريطانيا منه .

يرى هاوف ان الاستيلاء على الجــزائر اهــم حادثــة فى القرن الماضى ، اى حتــى الوقت الذى وضع فيه كتابــه ان الجزائر ، على حد تعبيره ، قد ارعبت الشعوب التجاريــة واستبدت بالبحر الابيض المتوسط ، وارغمت شارل الخامس على الفرار امامها بصورة مخزيــة . ومــع ان انجلترا نفســها كانت سيدة البحار فانها لم تســتطع ان

تملى اتفاقياتها على الجزائر الا بصـــورة مؤقتة . وكانت الجزائر ، فى نظره ، قد فرضـــت عـــلى الشـــعوب المتخلفة خلال قرون عديدة دفع اتاوة لها نظير مرور ســـفنها التجارية فى البحر الابيض المتوســـط . ثم كانت هذه الجزائر نفســـها غنيمة للجيش الفرنسى ، فاختفت اختفاء الظل ، وتمكنت فرنسا من احتلال هذه المنطقة الجميلة بكل هدوء مع انه من الممكن ان تؤدى الى نشوب حرب بين انجلترا وفرنسا وتركيا (ص 1) .

وبعد ان يعترف هاون بهذا كله ، يشير الى أن هذه الاسباب كلها لم تكن كافية لاحتلال الجزائر والقضاء على سيطرتها قضـــاء تاما . ثم يقرر ان فرنسا عندما قررت ارســـال حملتها الى الجزائر لم تكن تنظر الى ان وضع حد للقرصنة هو السبب الوحيد فى الاقدام على خطوة جريئة كهذه . ممـــا لا شك فيه ، فى اعتقاده ، ان هـــذه الحملة التى بدت فى ظاهرها عملا انســـانيا وحضـــاريا ، قد ارتبطت بأطماع شخصية بحتة .

ويضـــيف هاوف ان انجليترا قد راقبت الاعداد لتلك الحملة والاتفاق عليها بسخاء ثـــم القيام بها بنجاح ، بنوع مـــن اللامبالاة لم يعهد فيها ، الامر الذى اســـتغربته منها اوروبا كلها . وقد راحت فى ذلك الحين اشاعة مؤداها ان فرنســـا قد تعهدت لانجليترا بالتخلى عن الجزائر بعد القضـــاء على القرصـــنة ، وبعد ترك ســـرب من الجنود فيها لحماية الحركة التجاريةفى البحر الابيض المتوسط غير ان ثورة جويليةقد وضعت لعملية الاســـتيلاء على الجزائر اهدافا اخرى لم تكن مقصودة فىاغلب الظن فى بداية سنة 1830 ، (ص 2)

وبذلك اصبحت مشكلة الجـزائـ فى راى هاوف ، مشكلة وطنية بعد ان كانت مجرد قضيـــة وزارية . واذا كان ملك فرنسا قد حدد فى ذلـــك الوقت نوع تلك الحملة التى كان ينوى القيـــام بها ، وبين طبيعتها فقد اصبح من الصعب عليه آنذاك ان يقرر مصير الجزائر او التخلى عنها دون الرجوع الى الشعب . واذا كانت انجلترا ، حتىلو فرضنا أنها قد ابرمت بالفعل اتفاقا مع فرنســـا ثم تطالب بعد ذلك الاحداث بتنفيذ الامور المتفق عليها ، فان ذلك يرجع الى رغبتها فى المحافظـــة على تحالفها مع فرنسا بأى ثمن وعدم المساس بوضعها الخاص ! ولا يمكن ان يصدق الانســـان أن فرنسا لم تتخذ قرارا بشأن الاستيلاء عـــلى الجزائر خوفا من اى دولة اخرى غير انجلترا ، لان حكومة فرنسا قد اخذت تستهين بدول القارة كلها وتعتدى على مصـــالحها بشـــتى الطـــرق والوسائل

منذ ثورة جويلية . وسواء تم هذا الاتفاق المشكوك فيه من بين انجلترا وفرنســـا او كـــان مجـــرد اسطورة ، فان فرنسا كانت فى حيرة من امرهـــا بشأن احتلال الجزائر او التخلى عنها .

ويبدى هارف بعد هذا كله رايه فى احتـــلال الجزائر ، فيقـــول :

ان عملية احتلال الجزائر فى ظروف من هـــذا النوع لا تفيد فرنسا فى شىء ، وانما تلحق بـــه ابلغ الضرر ، مستدلا على ذلك بارقام المبـــالغ التى كانت فرنسا تدفعها سنويا من اجل المحافظة على المناطق المحتله . ويضيف انه اذا حـــدث سوء تفاهم بين انجلترا وفرنسا وتعرضت هـــذه لاحداث سياسية غير متوقعة ،فان قضية الجزائر

ويستبعد المؤلف أن تكون فرنسا قد اقبلت على تلك التضحيات الجسام لو انها لم تكن تعتقد أن في امكانها الحصول على مبالغ مناسبة من جهة من الجهات ، كما أن اهانة موظف صغير ما كانت لتؤدي بالضرورة الى الحرب مع الجزائر ، لو ان فرنسا كانت في وضع يسمح لها بالتجاوز عن الامور البسيطة . ويقدم هاوف دليلا قويا على هذا ، وهو ان الاهانات المتكررة التي لحقتها من طرف « الدون ميكايل » ماكان في مقدورها ابدا أن تنتهي بها الى اعلان الحرب على البرتغال ! وعلى هذا فا نفرنسا قد مسحت اثر ضربة المروحة من وجه قنصلها بالدم ، لان ذلك يعود عليها بالفائدة ! (ص 3 — 4) .

لم تبق عندئذ غامضة لمدة طويلة .

وينتقل المؤلف في نهاية مقدمته الى الحديث عن الجزائريين فيقول انهم كانوا يعتقدون ، بعد طرد الاتراك ، ان في مقدورهم الان أن يرفعوا رؤوسهم ، خاصة بعد أن الحق بعضهم بوظائف معينة ، غير ان الفرنسيين سرعان ما اظهروا لهم أن عليهم أن يخضعوا للفرنسيين كما خضعوا للاتراك قبلهم . ومنذ تلك اللحظة عاودهم ، في نظره ، الى اسيادهم السابقين ، لان عهدهم كان انسب لهم من جميع الوجوه . وقد دفعهم هذا الحنين الى الهجرة للشرق للالتحاق بهم هناك .

ومن الواضح ان هاوف قد اخطأ في رايه ، فالجزائريون ، في اعتقادي ، لم يهاجروا الى الشرق لانهم اشتاقوا لرؤية الاتراك وانما هاجروا اليه لانهم فقدوا حريتهم ، وارغموا على التخلي عن اراضيهم ، ففضلوا العيش في بلاد اسلامية سواء كانت هذه البلاد تونس او مصر او الشام او الحجاز أو غيرها .

وكيفما كان الامر ، فان هاوف بما يكون ، من بين الالمان ، الوحيد الذي حاول مناقشة الاسباب التي ادت الى احتلال الجزائر ، بهذه الصورة ، وأثار قضية المروحة دون أن يجعلها سببا فيما حدث بعدها . ومن هنا فان مناقشة هذه جديرة بأن يتعرض لها الباحثون عند التاريخ لهذه الفترة والظروف الناتجة عنها . ولا بد ان يبحث كذلك موقف بريطانيا من قضية الاحتلال حتى يتضح لاولئك الحريصين على معرفة تاريخ بلادهم معرفة سليمة ، ويعرفوا كيف استطاع احد المؤرخين الفرنسيين أن يقول بعد ذلك بسنوات كثيرة ، ان الجزائر قد كانت وستكون لنا الى الابد !، وبالتالي حتى يعرف هؤلاء قيمة ما بين ايديهم اليوم .

الأثر الحضاري لقوافل التجارة السودانية عبر العصور

د. عبد القادر زبادية

أ- نبذة عن ماضي الصحراء

اذا ذكرت الصحراء اليوم فكثيرا ما يرتبط اسمها فى الاذهان بمعانى الجفاف والقحل ، وما ذلك الا لان رمال الصحراء وقفارها الشاسعة قد ندرت فيهما معطيات الحياة خلال الاحقاب الاخيرة من تاريخ الانسان على الارض ، وانحصرت فى بعض المنخفضات الضيقة المساحة ، حيث تفسح بعض الظروف الطبيعية لبعض الينابيع ان تسبب فى تكون الواحات المتناثرة هنا وهناك .

(I) هناك شبه اجماع على ان العصور التاريخية تبـدأ مع اختراع الكتابة فى حدود خمسة آلاف سنة قبل الآن ، وما سبق من حياة الانسان على الارض ، يدرج ضمن عصور (ما قبل التاريخ)

الافريقية الكبرى قبل التاريخ

ويظهر أن هذه الوضعية التى عليهـا الصحـراء اليـوم تختلف عن تلك الوضعية التى كانت عليها فى القديم ، اذ يتفق معظم الباحثين على أن الصحراء كانت فى القديم تتسم بالخصب وتتوفر على اديمها كل اسباب الحياة اكثر اى منطقة أخرى على سطح المعمورة ، وهم يستدلون على ذلـك بعـدد من البراهين منها :

1) ان هناك كثيرا من المعالم التى تنبىء عن وجود خـدود ومنخفضات ، وكانت تجرى فى الاولى مياه غزيرة فى شـكل أدوية وأنهار ، وربما كانت قد وجدت فى الثانية بحيرات او مسطحات مائية فى شكل بحيرات أو مصبات لينابيع ومجارى مائية غنية المحتوى وثرة المصدر .

2) وبما أن الجيلوجيين يتفقون على أن المساحات الصحراوية اليوم هى من اقدم اقسام القشرة الارضية ، بدليل أن عوامل التعرية والنحت قد احالت معظم صخورها الى رمال واتربة اكثر من اى منطقة اخرى على سطح الارض ، فانهم يذهبون أيضا الى أن مختزنات الصحراء من النفط ومشتقاته ، انما هى احدى نتائج تحلل المواد العضـوية والنباتية التى كانت المساحات الصحراوية فى عهود خصبها ، تضم على سطحها انواعا عديدة وكميات هائلة منها .

3) وهناك حقيقة ثالثة تتوفر فى دعمها الوقائع التاريخية والطبيعية معا ، فأما الوقائع التاريخية فتتمثل فى أن السكان الاوائل الذين سبقوا الى تكوين المستقرات الحضـارية الاولى على ضفاف الانهار ، فى شرقى أفريقيا وشمالها الشرقى قد أثبتت كثيرا من التحريات أن أغلبيتهم قد نزحت من الصحراء، وربما كان نزوحها عن الصحراء قد اقترن ببداية تحولها الى حالة الجفاف ، وقد حدث هذا عند نهاية الفتـرة الجليديـة الثالثة (1) أما أثناء الفترة الجليدية السالفة للحقبة التى نحن فيها الآن ، فقد انحصرت الحياة الانسانية فى الصحراء ، وتكاثر بها وجود الانسان والنبات والحيوان ، ويحتوى حاليا كل من سطح الصحراء ، وجوفها على العديد من الآثار التى تدل على ذلك .

ولا شك ان الصحراء فى تلك العهود التى غـص خلالهـا سطحها بمظاهر الحياة كانت قد رأت نشوء معالم حضارية عديدة تدل عليها الرسوم التى اثبتها الاقدمون على صخـور التاسيلى ، ومن أكثرها جلبا لانتباه الباحثين لا يزال استعمال العربات التى توصل اليها شعب الجرامونت يحظى بالعناية الفائقة . ومن هذا كله فان الماضى الحضارى الصحراء من الامور التى لا يتطرق اليها الشك ، فى عصور ما قبل التاريخ ، ولا شك أن ذلك كان قد ارتبط بحقبة كانت الصحراء خلالها تتمتع بمناخ غزير الامطار ، ويختلف عن المناخ الذى يسودها الآن .

ب — أثناء العصور التاريخية

---

(1) يفترض الباحثون فى عمر الارض ، انها مرت بثلاثة أدوار جليدية ، تفصل بينها ثلاثة أدوار عم خلالها الصحو ، وأثناء كل فترة جليدية كان يمتد الجليد على كل سطح الارض، ويبقى حزام يتوسطها تنحصر فيه الحياة البشرية والحيوانية والنباتية ، اما حينما ينحصر الجليد فى منطقة القطبين وتأتى فترة الصحو ، فان الحزام الوسطى يغلب عليه الجفاف ، وبما أن صحارى العالم تقع فى الحزام الذى يتوسط الارض ، فان فترة الصحو بقدر ما يطول أمدها بقدر ما يشتد الجفاف فى الصحارى وتضيق مصادر الحياة الحيوانية والنباتية بها ، وعلى هذا الاعتبار فنحن الآن فى فترة الصحو الثالثة أو الرابعة ، والجليد محصور الآن فى منطقتى القطبين ، والصحراء فى حالة من الجفاف الشديد

اذا كان الغموض يكتنف العديد من الجوانب عن الـدور الحضارى للصحراء الافريقية الكبرى فى عصور ما قبل التاريخ فان ذلك الدور الذى لعبته هذ «الصحراء فى ميدان الحضارة الانسانية أثناء العصور التاريخية كان واضح المعالم الى حـد بعيد . ولا تعنينا هنا العصور التاريخية القديمة بمقـدر مـا تعنينا العصور الوسطى والحديثة ، لان العصور التاريخية الاولى لا يزال المؤرخون يعتبرون الوضع البدائى من أهم سماتها ، نقوم هذا ونحن لا ننـكر قيام عـدد من الامارات القبلية التى ظهرت أثناءها سواء فى شمال الصحراء أو فى جنوبها .

أما اختلاط السكان الشماليين والجنوبيين وتعاملهم بمختلف الطرق فهو مما لا ينكره احد كذلك فى تلك الحقبة ذاتها .

ويبدو أن الموقع الجغرافى قد مكن سكـان الشمـال من التطور أكثر مما مكن سكان الجنوب، وهنا لعبت طرق الصحراء فى نقل الحضارة وتمكين الجنوبيين من الاستفادة مما توصل اليه سكان الشمال ، دور لم يلعبه المحيط الاطلسى فى يوم من الايام (1)

فقد ظلت الصحراء طوال العصور الوسطى وخلال جـزء كبير من العصور الحديثة كذلك ، تخترقها القوافل دون انقطاع وكان الباعث الاول على تجهيزها وتحمل الصعاب فى سبيل عدم توقفها فى يوم من الايام ، هو الارباح الوفيرة التى كان يجنيها التجار من ورائها بدون شك ، ولكن نتائج ذلك فى المجال العام كانت غزيرة المحتوى بحق ، وذلك ما يتمثل فيه الدور الحضارى الجليل القيمة ، وقد اختص به المسلمون عامـة والمغاربة بشكل خاص .

لقد كان التجار فى العالم الاسلامى ينتسبون غالبا الى طبقة الفقهاء والمثقفين ، وهذا مما جعل لعلمهم التجارى ، نتائـج تتعدى ميدان التجارة وحده ، واذا عرفنا أن نسبة المسلمين الآن فى السودان الغربى كله تتجاوز التسعين بالمئة ، فاننا نستطيع ان ندرك بسرعة مدى أثر القوافل التجارية التـى كان يجهزها المسلمون الى تلك البلاد ، أما اذا تذكرنا أن كل مسلمى السودان الغربى ، هم على المذهب المالكى ، فاننا ندرك بيسر نسبة دور المغاربة فى التجارة مع السودان وذلك بالقياس مع دور التجار الذين كانوا يأتون من مصر ، وبمثل تلك النسبة ذاتها يتجلى لنا الدور الحضارى لكل من الطرفين

يتفق المؤرخون على أن قبائل السودان الغربى اسلمت عن طريق تجارة القوافل ، ولم يرسل المسلمون فى يوم من الايام جيشا الى تلك المناطق بقصد ادخال الناس فى الاسلام (2)

أما الطريقة التى تم بها اسلام السودانيين ، فقد كانت لاتتجاوز التأثير الثقافى والفكرى الذى يحدثه رجال التجارة من المغاربة والمصريين بالدرجة الاولى ، على رؤساء القبائل فى البداية ، ثم لا يلبث اتباع أولئك الرؤساء من أن يقتدوا برؤسائهم .

وقد كتب الرحالة والتجار المسلمون كل مشاهدتهم عـن افريقيا الغربية ، ودونوا كل ما عرفوه عن طبائع السكان وسلوكهم واسلوبهم فى التعامل ، كما كتبوا الكثير عن انظمة الحكم لديهم ، ومن هنا فان الباحثين اليوم ، لا يجدون من مصادر حقيقية وجديرة بالعناية والاستناد الى صحتهـا غير المصادر العربية، وذلك خلال الفترة بين القرن السابع الميلادى وبين القرن السابع عشر (3)

ومهما يكن ، فان الوضعية التى كان عليها سكان الغرب الافريقى قبل وصول العرب ، كانت على غاية من البدائية اذا قارناها بدرجة التطور التى بلغها المسلمون فى ذلك الوقت ، فقد كان معظم السكان لا يزالون لم يتجاوزوا مرحلة العرى ، كما أن الاستقرار كانت مميزاته المفيدة لم يصلوا الى مرحلة الاستفادة منها ، أما الطراز المعمارى فانهم لم يكونوا يدركون من أنواعه الا استعمال الاخصاص للوقاية البسيطـة من عوارض الطبيعة العاتية . وأكثر من هذا ، فان تصورهم عن الكون ، كان لم يتخط مرحلة الطوطابيات السحرية بعد .

أما بعد وصول المسلمين ، فقد تكونت فى البداية عدة مدن هامة على طول مشارف السودان الشمالية وحافات الصحراء الجنوبية ، وقد نشأت تلك المدن كمحطات للقوافل التى تعبر الصحراء نحو الجنوب ، وكان من أهمها والاتا — تمبكتو — غاو — وتدمكة ، وفى هذه المدن كان يتلقى تجار الجنوب بتجار الشمال ، ويتبادلون البضائع المتنوعة الاصناف ، وقد كانت

---

(1) فى العصور القديمة ربما وصل الفينيقيون الى سواحل الغرب الافريقى ، ولكن عملهم قد اقتصر على التبادل التجارى المحدود ولم يتجاوزوا فى اتصالهم بالسكان مياه الساحل ،اما فى العصور الحديثة فقد كون الاوروبيون عدة مراكز تجارية على السواحل وباشروا منها تجارة العبيد على نطاق واسع ،ويقدر المؤرخون النسبة التى اخذها الاوروبيون كعبيد (خلال القرنين 17 و 18) باكثر من ثلث السكان فى المناطق التى وصل اليها نفوذهم ، ومع نهاية القرن التاسع عشر استعمر اولئك الاوروبيون المنطقة كلها واستغلوها استغلالا مباشرا

(1) نستثنى هنا ما ذكره ابن عبد الحكم من ان عقبة بن نافع الفهرى ، كان قد ارسل حوالى سنة 665 م سرية من برقة بقصد معرفة جنوب فزان ، وقد حدد العلامة (برونشويك) المكان الذى بلغته تلك السرية بين فزان والنيجر الحالى ، ويدعى (ماء الفرس) ، ولم يذهب رجال تلك السرية للفتـح وانما للاستطلاع ، ثم عادوا

(1) وضع جماعة من اليهود خريطة فى نهاية القرن الثالث عشر ، وربما كان مركز عملهم فى (منورقة) وهى الخريطة المعروفة بخريطة (كتالان) ، ولم تحتو عن داخل افريقيـا الغربية سوى اسم غانا وبعض الصور الخيالية التى استقوا معالمها من اتصالهم بالمسلمين فى بالمسلمين فى الاندلس على الاكثر ، ومع ذلك اعتبرت تلك الخريطة آنذاك عملا عظيما فى اوروبا بأجمعها ، وفى ذلك الوقت كان الرحالة والتجـار المسلمون قد عرفوا كل شىء تقريبا عن داخل السودان الغربى، واصبحوا على اتصال به وثيق ، أما الاوروبيون فانهم حتى نهاية القرن السادس عشر كانوا لا يعرفون عن داخل الغرب الافريقى الا ما توفره لهم بعض كتابات الرحالة العرب ، وخاصة كتاب(وصف افريقيا) للحسـن الوزانى الذى وقع بأيديهم فى الثلاثينيات من القرن السادس عشر

تلك البضائع تشمل معظم ما ينتجه العالم الاسلامى من أقصاه الى اقصاه ، كما اشتملت ايضا على عدة أصناف من منتوجات الغرب الاوروبى التى كانت ترد الى المغرب عن طريق موانئه الشمالية .

وقد كان لتلك البضائع أثرها الهام في ترقية الذوق لدى السودانيين ، وساعدت الناس على تنويع رغباتهم الاستهلاكية وخاصة الطبقة الموسرة من بينهم .

والواقع أن اول من تأثر بالحضارة العربية الاسلامية من السودانيين كانوا هم الملوك والرؤساء ، فسارعوا الى العمل على جلب العلماء والخبراء المسلمين الى جانبهم ، وأفسحوا لهم المجال في الاقامة والاستقرار ببلدانهم (1) ، وهذا مما يفسر لنا المغزى من تصريح أمير مدينة جنى ، حينما أسلم في بداية القرن الثاني عشر ، فقد رفع يديه الى السماء أمام ملأ من قومه قائلا : (اللهم اجعل هذا البلد موئلا يتكاثر به التجار ويستقرون به ، وتروق لهم الاقامة فيه) . أما امير البورنو فقد كتب رسالة الى سكان توات في القرن الرابع عشر يرجوهم فيها بذل كل ما في استطاعتهم ليتكاثر ورود القوافل على بلده . ولما تجول ابن بطوطة في السودان الغربي أثناء القرن الرابع عشر كان يجد فيمعظم المدن التى زارها تجار وعلماء مغاربة مقيمين بها وكان قسم هام من بينهم ، من معارفه .

ويتفق كل الرحالة العرب على ان أمراء السودان الغربى كانوا يبذلون كل ما في امكانهم لتوفير الامن والاستقرار لرجال القوافل فيبلدانهم، كما يتفقون على أن السكان كانوا يعاملونهم بمنتهى اللطف . ويذكر العلامة ابن خلدون أن القوافل التى كانت تجهز من المغرب باتجاه السودان الغربى قلما كان عدد جمالها المحملة بمختلف البضائع يقل عن اثنى عشر الف جمل، كما يذهب بالى القول بأن معظم المدن والقرى في بلدان المغرب، كانت تشترك في تجهيز قوافل التجارة السودانية (2) .

وقد بدأ استقرار الممثلين التجاريين العرب بالسودان منذ القرن التاسع الميلادى ، ثم اخذ عددهم يزداد شيئا فشيئا وبما أن قسما هاما من بينهم كانوا من المثقفين فقد باشروا الى جانب عملهم التجارى ، التدريس . وكان الباعث لهم على ذلك هو المجال الفسيح الذى انفتح لعلمهم الثقافى مع اعتناق الناس للاسلام (3) ، اذا يكفى ان يعلن الشخص اسلامه ، وانما يلزم أن يتبع ذلك مجهود خاص ليستوعب ذلك الشخص متطلبات وأهداف الدين الجديد .

وقد كان القرن السادس عشر ، هو الفترة التى بلغ خلالها ازدهار الحضارة الاسلامية في السودان الغربي مرحلة الاوج، فتغيرت مفاهيم السودانيين القديمة عن الكون ، وظهر في مدينة تمبكتو التعليم الجامعى لاول مرة في تاريخ السودان الغربى حتى ذلك الحين ، وهذا بعد أن كانت قد اتسعت قاعدة التعليم الابتدائى والثانوى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر . ولما زار الحسن الوزانى (المعروف بليون الافريقى) تلك المدينة في النصف الاول من القرن السادس عشر ذكر ان بها كثيرا من العلماء والفقهاء والطلبة وأثنى على الازدهار الذى كانت عليه المدينة آنذاك في ميدان الثقافة . وفي تلك الفترة بدأ سكان السودان الغربى يجتازون مرحلة الاخذ وظهرت جماعة من بينهم كعلماء ومثقفين في مختلف فروع المعرفة فشاركت في حركة التدريس والانتاج الفكرى والتأليف العلمى، وقد كان ولا يزال من أشهرهم لدينا :

1) العلامة احمد بابا ، صاحب (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) ، وكتابه من المصادر الهامة عن فقهاء المالكية ، وقد الفه كتكملة لكتاب ابن فرحون في نفس الموضوع ، ولاحمد بابا كذلك ، كتاب آخر لايزال مخطوطا ، وقد عالج فيه موضوع التجارة بالعبيد المسلمين ، وعنوانه : (نيل السعود الى حكم مجلوب السود) .

ولما هاجم جيش المنصور الذهبى مملكة سنغاى السودانية في سنة 1591 م كان أحمد بابا من بين الذين انكروا على المنصور عمله ذاك ، فحمل الى مراكش ، وهناك التف حوله جمع كبير من الطلبة واعترف له الاساتذة الكبار في المغرب الاقصى آنذاك بعلو كعبه في العالم ، ولما رجع الى بلاده ودعه الطلبة والاساتذة وهم يبكون لفراقه وترجوه العودة الى بلادهم ليستفيدوا من غزير علمه .

2) **عبد الرحمن السعدى** ، صاحب تاريخ السودان ، وهو من مصادر الدرجة الاولى لدى الباحثين حتى الان عن تاريخ السودان الغربى الى حدود منتصف القرن السابع عشر .

---

(1) يذكر البكرى منذ القرن الحادى عشر ، ان معظم الخبراء والموظفين في بلاط ملك غانا كانوا من العرب ، ويثبت ان الملك ورعيته كانت تكن لهم كل الاحترام والتبجيل ، وقد سارت معظم الامارات السودانية بعد ذلك على هذا المنوال

(2) ينظر ابن خلدون ، عبد الرحمان ـ التاريخ ـ ج 6ص 405

(3) ويحسن التذكير هنا ، بأن المغاربة الذين دخلوا الاسلام في النصف الاول من القرن السابع الميلادى ، بقيت اغلبيتهم حتى نهاية ذلك القرن في حاجة الى معرفة قواعد الاسلام ومفاهيمه في الحياة ، وهذا مما جعل عمر بن عبد العزيز يرسل جماعة من الفقهاء الى المغرب لتفقيه الناس أمور دينهم ، ومع ذلك لم يستطع سكان البوادى القصية مثل منطقة السوس (في اقصى الجنوب الغربى للمغرب الاقصى حاليا) التمكن من استيعاب الاسلام حتى القرن العاشر للميلاد ، ومن هنا يتضح لنا مدى الحاجة لتكاثر المعلمين في السودان حتى يتمكن سكانه من الدين الجديد ، أما بعد تمكنهم منه ، فان دور رجال القوافل من العلماء يبدو على غاية من القوة والجدارة بالتقدير والاحترام

3) القاضى محمود كعت ، صاحب تاريخ الفتاش فى تاريخ السلاطين والجيوش واكابر الناس ، وكتابه من مصادر الدرجة الاولى كذلك ، فى موضوع تاريخ السودان الغربى حتى نهاية القرن السابع عشر.

وقد كان القرن السادس عشر قد راى ايضا العديد من التاليف التى انتجها علماء سودانيون فى علوم الفقه والشريعة والتفسير والمنطق. ومن الجدير بالذكر هنا أن هناك مؤلفات لعلماء المغرب مثل كتب المغيلى والتادلسى عرفها السودانيون وتدارسوها كما عرفها المغاربة ، ولكنها لم تعرف فى المشرق ، أما مؤلفات المشارقة فقد عرفت فى المغرب كما عرفت فى السودان .

وقد كانت الكتب من بين اهم البضائع التى كانت تحملها القوافل الى غرب افريقيا ، وكان للسودانيين اقبال عظيم على اقتنائها بأغلى الاثمان ، فقد حدث فى سنة 1584 مثلا ان احد العلماء السودانيين تعلقت همته بشراء كتاب كان قد ورد لتوه من المغرب مع احد القوافل ، ولم يجد فى يده ما يمكنه من الحصول عليه ، ثم واتته الفرصة فى ان الامير « اسكيا داود » أراد ان يكرمه ، فعرض عليه ان يحق له كل ما يطلب منه ، فطلب ذلك العالم من الامير ان يشترى له ذلك الكتاب ، ففعل الامير ، وكان ثمن ذلك الكتاب يقارب المليون وستمائة الف من نقودنا الحالية (1)

ومن هذا كله نستطيع الاستنتاج بأنه من طريق القوافل التجارية بين السودان والمغرب ، وصل السودانيون فى القرن السادس عشر الى أن يعيشوا عصرهم ، ويتمثل ذلك فى تفتحم على ثقافة العصر الاول فى ذلك الوقت ، وبهذا عرفوا العالم وعرفهم .

وقد كان الاسلوب المعمارى قبل وصول المسلمين الى السودان لا يتجاوز نظام الاكواخ ، ولكن السودانيين ما لبثوا أن عرفوا ما عند المسلمين من هندسة معمارية راقية ، وهذا مما دفع السلطان المالى كنكان موسى من ان يبذل هبات سخية ليجلب الى السودان الغربى ، احد مهندسى غرناطة اللامعين ، وهو (الساحلى) ولما قدم هذا ، كان أول أعماله تخطيط قصر للملك ومسجدين ، فقلده الناس فى ذلك الطراز الذى كان يخطط على أساسه وبالتدريج تجاوز السودانيون الاسلوب القديم الى اسلوب حديث ، ويظهر انهم مزجوا بين ما كان عندهم وبين ما جلبه الساحلى ، فأسفر ذلك عن بروز أسلوب جديد خاص بالسودان ، يمكن أن نسميه (الطراز المغربى السودانى فى فن العمارة) . وهو يمتاز باتساع الفناء وكثرة الاعمدة ، أما المظهر الخارجى فلا يخلو دائما من امتدادات هرمية بقصد الزينة فى الغالب .

ومن الاثار الاخرى لقوافل التجارة السودانية عبر الصحراء الكبرى ، كثرة التنقل التى ساهمت فيها حركة تلك القوافل التجارية مساهمة عظيمة فعلا ، فبمرافقة القوافل استطاع كثير من الطلبة أن يتجرأ على قطع الفيافى الصحراوية القاحلة ليصلوا الى بلدان المغرب والى مصر ليزدادوا ثقافة واطلاعا ، ويأخذوا من أبرع الاساتذة فى هذه البلدان . كما أن الحجيج كانوا يسيرون فى جموع كبيرة رفقة رجال القوافل ويشاطرونهم متاعب القفار الصحراوية الشاسعة ، وبذلك يستطيعون أداء فروض الحج ، كما يتمكنون أثناء رحلاتهم تلك من الاطلاع على ما بلغته البلدان التى يمرون بها من تقدم حضارى ، فينقلون أخباره الى قومهم بعد العودة ويحفزونهم على الحركة والنشاط فى ذلك الاتجاه .

جـ ـ خاتمة

لقد دخلت مناطق السودان الغربى ، حتى حدود الغابات الاستوائية ، (2) اسلوبا جديدا فى الحضارة يختلف عن الاسلوب البدائى القديم ، وقد تم ذلك عن طريق القوافل التى كانت تخترق الصحراء الافريقية الكبرى ، منطقة من بلدان المغرب ومن مصر الى تلك المنطقة الشاسعة المساحة،

---

(1) ينظر ، تاريخ السودان ـ ص 61

(2) بقى سكان الغابات الاستوائية الذين لم يستطع رجال القوافل الوصول اليهم على الحالة البدائية القديمة وربما كانوا يأكلون اللحوم دون طبخها ولذا اطلق عليهم الرحالة العرب اسم اصحاب (لملم)

وقد بدأ ذلك مع بداية القرن الثامن الميلادى تقريبا .

وبهذا لعبت الصحراء الكبرى فى تاريخ السودان الغربى ما لم يلعبه المحيط الاطلسى من الادوار الحضارية الهامة . اما الذين قاموا بهذا الدور فى خدمة التمدن الانسانى ، فهم العرب المسلمون،وقد قام منهم باكبر نصيب فى هذا المجال سكان المغرب بالدرجة الاولى سكان وادى النيل .

وقد نتج عن جهود المسلمين فى هذا الميدان ان سكان الغرب الافريقى اصبحوا جزء لا يتجزأ من العالم الاسلامى، ورغم الاعمال المعاكسة التى يقوم بها الاوروبيون فى تلك المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر ، بقصد تحويل الناس عن الاسلام او ابعادهم عن الشعور بانتسابهم للعالم الاسلامى على الاقل ، فان مساعيهم فى هذا السبيل لم تسفر لحد الان الا عن نتائج طفيفة الى حد كبير . حيث ان الجماهير الشعبية فى غرب افريقيا لا تزال شديدة التعلق بالدين الاسلامى والحضارة الاسلامية ، وهنا يبدو الى اى حد يحسن بالعرب عامة والمغاربة بشكل خاص الاعتناء بتوثيق الصلة اكثر من اى وقت مضى ، مع اخوانهم فى جنوب الصحراء الافريقية الكبرى التى كانت بحر الاتصال والعلاقات الانسانية المثمرة منذ اقدم العصور .

د . عبد القادر زبادية

استاذ بقسم التاريخ بالجامعة

من بين المصادر الهامة لهذا المقال :

---

1 — ابراهيم حسن — انتشار الاسلام فى القارة الافريقية — القاهرة 1964

2 — احمد بابا — نيل الابتهاج — فاس 1317 هـ

3 — عبد الرحمن السعدى — تاريخ السودان — باريس 1964

4 — محمد كعت — تاريخ الفتاش — باريس 1964

5 — زاهر رياض — الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا وتجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى — القاهرة 1968

(6) Mauny R., Tableau géographique de l'Ouest Africain , Dakar 1961.

(7) J. Léon L'Africain, Description de l'Afrique, T. 3, Paris 1898.

(8) Briggs, L. Cabot, Tribes of the Sahara, Cambridge 1960.

(9) Fage, J., An introduction of to the history of wst Africa, Cambridge 1955.

(10) Lhote, H., A la découverte des fresques du Tassili, Paris 1958.

دراسات إسلامية

التقدم العلمي

هذه المشكلة قائمة فى الغرب منذ اكثر من قرن وقد قامت فى المشــرق الاسلامى منذ السنين : هل يؤدى الى الالحاد او بعبارة اخرى هل الديــن يتناسب مع التقدم العلمى ، هــذا السؤال نجده فى تيارات فكرية عديدة انتشرت غربا وشرقا تحت اسمــاء مختلفة ابتداء من القرن التـــاســع عشر على الخصوص تحت اسمــاء الوضــــعية العلمية *Positivisme scientifique* او اللائكيـــة *Laïcité* ومعناها فصــل الدين عن شؤون الحياة *Séparation du temporel et du spirituel* او فى لغة اليوم « *Progressisme* »

والإيمان

الشيخ بوعمران

• العلم ضرورى ولــكن فوق هذا هناك مفهوم أوسـع للفكر الانسانى تدخل فيه الفلسـفة والدين والعقائد بصفة عامة .

• يقـول باشــلار : الحقائق العلمية نســبية فقط ، اما الحقائق الاخلاقية فهى مطلقة .

هذه التيارات بصفة عامة لها مواقف معروفة من صلة العلم بالعقيدة . وقبل ان تعرض التيارات أود ان اغره بسرعة الاسباب التاريخيــة التــى ادت بالغربيين الى هذه المواقف لاننا اخذناها فى الغالب عن الغربيين وذلك بوسائل شتى : امــا عن طريق البعثات العلمية الى اوروبا ومنها بعثات طلابية الوافدة من البلاد الاسلامية الى الجامعات الغربية لتتعلم وتعود لتقوم فى بلادها بما سميناه (صلاحات) باما بوسائل أخرى عن طريق الترجمة من الكتب الاجنبية الى اللغات المنتشرة فى العالم الاسلامى ، وخاصة منها اللغــة العربية اما عن طريق ثالث وهو التدريــس من طرف اســاتذة اجانب مثل المستشرقين الذين درسوا فى جامعات البلدان الاسلاميــة والذين قد كــانوا وكونوا فى جامعاتهم الغربيــة البعض من الاساتذة الذين اصبحوا يــشرفون على التدريــس فى الجامعات الاسلامية وبطرق أخــرى عن طريــق الاذاعات والصحــافة والافلام وقد برزت فكرة الــعلمانية (SCIENTISME) عند الغربيين فى القــرن التاســع عشر وقد بنــاها المفكرون الذين قالوا بالعلمانية وجعلوا العلم هو الفلســـفة والعقيــدة والتقدم . والعلم هنا له مفهـــوم محدود فهو العلم التجريبى الطبيعى وينحصر فى العلوم الفيزية والكيمائية بصفة خاصة وفى علوم الاحياء لماذا انتــشرت هذه الفكرة عند الغربيين. لأن التصنيع تقدم كثيرا وانتــشرت الالة تقدمت العلوم التجريبية هذا مامن ناحية، وقد برزت فوائد العلم التجريبى بصفة ملحوظة ومن ناحية اخرى

وجدت فى تاريخ الغرب الفكرى بعض العراقيل لهذا التقدم العلمى منهامواقف الكنيسة الكاثوليكية ضد كل تقدم فكرى علمى حتى القرن الســادس عشر عندما انشقت الكنيسة على نفســها وقامت الثورة الدينية التى تزعمها المفكر الالمانى لوثر وقد وجه هذا المصلح بعض التهم للبابا وللكنيســة الكاثوليكية من ضمنها انها جمدت الفكر ومما يدل على صحة هذه الاتهامات موقف الكيسة مثلا من غاليلية (GALILEE) وهو العــالم الفلكى المشهور الذى اكتشف فى القرن الســـادس عشر ان الارض تدور ، فنشر هــذه الفــكرة بعــد ان جربها وتيقن من صــحتها ، فحاكمته المحـــاكم الدينية الكاثوليكية بدعوى انه تدخل فى شىء يمس الدين المــسيحى ، وقصة المحاكمة مشهورة . وقد أرغم على نفى آرائه والا كان يعدم ، وعندمــا فكر فى الموضوع تراجع فى رايه أمام المــحكمة الدينية ولكنه كان متيقنا بأن الأرض تدور ولذلك قال عبارته المشهورة الحقيقة أن الأرض تدور وهذه كارثة كبرى فى العالم الغربى وهو تدخل الدين فيما لا يعينه ، فقد اتت المسيحية

مثل الاديان الاخرى بقواعد دينية وبمبادىء سامية موجودة فى الكتب المقدسة ولم تتناول قط الامور العلمية بأشارات رمزية ، وانما تجمدت الافكار فى الكنيسة فاصبحت ليست فقط سلطة دينية وانما ايضا سلطة اجتماعية وسياسية وكانت لها صلات وثيقة بالحكومات المسيحية لآن الكنيسة سيطرت على الوضع السياسى فى اوروبا الغربية كلها وتحالفت مع الامبراطوريات واشهر تحالفها هو الذى كون الامبراطورية الكاثوليكية الرومانية وهو تحالف بين امبراطور جرمانيا وهى المانيا والبابا حتى سيطرت الكنيسة على اوربا الغربية فى القرون الوسطى بحيث ان الدارس لتاريخ الغربيين يتحقق بأن الكنيسة كانت هى صاحبة الكلمة فى جميع المجالات طيلة العصور الوسطى ولهذا يقال بأن الحضارة الغربية فى ذلك العصر كانت مسيحية والعبارة التى كانت تمثل هذه الحقيقة هى عبارة (CHRETIENTE) ونحن اليوم نقول ان هناك كنائس مسيحية كثيرة قد تخلت شيئا عن هذه السلطة الاجتماعية والسياسية ولكن لم تتخل الكنيسة عن هذه السلطة من تلقاء نفسها وانما ارغمتها الظروف على ذلك فقد وقعت ثورات ضدها ثورا تدينية أولا منها ثورة لوثر التى اشرنا اليها وثورة كالفين الفرنسى الذى اسس جمهوريته البروتستانتية فى مدينة جنيف وحينما زار البابا اخيرا جنيف استقبله السكان ببرودة تامة لانهم أنصار الفكرة البروتستانتية التى قام من اجلها كالفين ولا تزال كنائسه ومدارسه ومعابده هناك

وقد لعبت هذه الحركة دورا خطيرا فى تاريخ الغرب ان الثورة الاولى ضد الكنيسة كانت دينية ثم حدثت ثورات اجتماعية لان الكنيسة اعتمدت على الطبقات المثرية والنبلاء والتجارة وكان فى الكنيسة نفسها طبقات طبقة الرؤساء الزعماء وطبقة شعبية كانت متصلة بالفلاحين والفقراء والمستضعفين . اعتمدت الكنيسة على اهل السلطة من نبلاء وتجار وأغنياء واهملك تعاليم المسيحية لان المسيحية الحقة تقول بالاعتماد على الفقراء وعبارات المسيح عليه السلام فى هذا المعنى كثيرة معروفة الجنة للفقراء السماء الخ ..

فثارت هذه الطبقة الاجتماعية اى طبقة الفقراء ضد الكنيسة كسلطة وكانت الكنيسة تعتبر دولة وحتى عصرنا هذا يعتبر الفاتيكان دولة ونجد فى الفاتيكان سفراء والبابا يعامل معاملة رئيس دولة حين يسافر لبلد ما وهذا يتنافى تماما مع التعاليم المسيحية القديمة مما جعل بعض المفكرين من المسيحيين وحتى من رجال الكنيسة يثورون ضد هذه الاوضاع الاجتماعية التى كانت تعيشها المسيحية وعدد المضطهدين من رجال الكنيسة كثير نذكر منهم فقطفينلون FENELON فى فرنسا وهو الذى وجه رسائل لملك فرنسا لويس الرابع عشر تدور حول قضية فقر الفلاحين وذلك بصفته رجل الكنيسة فاضطهاده المملكة الفرنسية ورجال الكنيسة الكاثوليكية وبأن كان من زعمائها .

بعد هذه الثورات الاجتماعية المتعددة جاء دور الثورات السياسية ضد الكنيسة واشهرها الثورة الفرنسية الكبرى سنة 1781 وقد تميزت هذه الثورة باضطهاد رجال الكنيسة فأممت ممتلكات الكنيسة وزج بكثير من رجالها الى السجون واعدم البعض منهم بصفتهم معارضين للثورة ومن الملحوظ ان بعض رجال الكنيسة من الطبقات الشعبية ايدوا الثورة الفرنسية وبقيت الكنيسة على هذا الوضع حتى دخلت فيها عناصر جديدة ابعدت هؤلاء الثوار المسيحيين وفى القرنين السابع والثامن عشر برزت فى بريطانيا وفرنسا على الخصوص فكرة الالحاد القديمة وتزعم هذه الفكرة بعض المفكرين الذين اشتهروا فيما بعد بفلاسفة الانوار وهم ديدوو وفولتير VOLTAIRE ودالمبير D'ALEMBERT وريسو ROUSSEAU وغيرهم ومنهم ملحدون ماديون أشهرهم ديلفيسيوس D'HELVETIUS وله كتاب فى هذا الموضوع وأراد هؤلاء الفلاسفه ان يتقدموا بالعلوم التجريبية والاجتماعية وأن يحرروا الطبقات الضعيفة من الشعب فقاومتهم الكنيسة فظهر تمثلا مجموعة رسائل الديد والرومى **الخواطر الفلسفية** التى تمثل السلاح الاكبر ضد الكنيسة وكذلك كان فولتير المعجم الفلسفى والمقالات الكثيرة والرسائل التى كان ينشرها قبل

ان تنتشر الصحافة وكانت الحكومة تضطهد نولتير فلجأ الى سويسرا وحكايته معروفة مع النبلاء ، فقد قال له احد النبلاء يوما انت راع ابن راع ابن فلاح ولا تستحق الاحترام » وضربه بالعصا »

لهذه الاسباب اعتقد المفكرون فى الغرب ان التقدم يتنافى مع الدين فاذا اراد مفكر او عالم ان يتقدم علميا أو ان يكتشف شيئا فعليه ان يبتعد عن الكنيسة لانها عبارة عن تجميد فكر وتسلط على المفكرين وطغيان سياسى واجتماعى .

وبعد هذا ازدهرت الحركة الصناعية وتطورت الالات واكتشفت قوة البخار ثم اخترعت الباخرة ثم السكة الحديدية والهاتف ... وهذه الاكتشافات العلمية جعلت الانسان يعتقد بأن عقيدة البحث العلمى هى كل شىء اما عقيدة الكنيسة الكاثوليكية فأصبحت قديمة لا تأتى بطائل للمجتمع الاروبى وادرك هذا الخطر بعض رجال الكنيسة فحاولوا ان يسايروا العصر ولكنهم اخطؤا فى اختيار المناهج فبدلا من ان يدرسوا العلوم ويستنتجوا منها ما يسمح لهم بالدفاع عن عقيدتهم حاربوا العلوم بصفة عامة لانها مصدر الالحاد والعلمانية فكان رد المفكرين عنيفا واشهرهم اوغبست كونت AUG COMTE الفيلسوف الاجتماعى الفرنسى المعروف الذى اخذ عنه جل العلماء فيما بعد فهو صاحب المذهب المشور ب POSITIVISME اى الوضعية وقد سماها هو الوضعية الفلسفية وجاء الكثير من اتباعه وحوروا المذهب قليلا وسموه الوضعية وقد تعلم اوغست كونت فى دير ليكون من رجال الكنيسة ثم تخلى عن هذا الاتجاه لانه فقد الايمان وكان هذا يقع للكثير من رجال الكنيسة منهم ارنست رينان ERNEST RENAN المستشرق المعروف الذى له دراسات فى ابن رشد والرشدية وفى اللغات السامية .

وكان رينان ايضا من انصار الفكرة العلمية وله كتاب **مستقبل العلم**

اما اوغست كونت فقد وضع أسس المذهب الفلسفى على ما سماه بقانون المراحل الثلاث وهو ليس بقانون ، وفى هذا **يقول ان الفكر** الانسانى يمكن حصره فى مراحل ثلاث :

المرحلة الاولى : هى المرحلة الميتافيزيقية بمعنى ان الميتافيزيقيا تشخص بعض القوى الطبيعية مثلا يعتبر بعض اليونانيين والافارقة والاسياويين القدماء انفى السماء قوة فى الشجرة قوة وفى القمر قوة ولهذا كان هؤلاء يقدسون هذه القوى ويخشونها لانها فوق الطبيعة الملموسة .

المرحلة الثانية : هى المرحلة الدينية او اللاهونية وقد اختار عدة مفكرين هذه القوى المختلفة وشخصوها ونسبوا اليها اوصاف البشر وكانت هذه الفكرة تقول بتعدد الالهة عند اليونان فنجد آلهة القمر وآلهة الحصاد وآلهة الصيد وغيرها ، وفوق هذه الالهة كلها اله رئيس وهو جوبيتر . وكان الحال كذلك عند الرومان والفرس والمصريين القدماء واسماء الالهة تختلف ولكن الفكرة واحدة .

وقد تطورت الفكرة حتى وصلت الى فكرة اله واحد حكيم **قدير كامل فيه جميع الاوصاف** الانسانية كما يقول اوغست كونت فى درجة الكمال . لانه من غير المعقول ان توجد خلافات بين الالهية كما فى الالياذة والاودسية ثم عندما انتشر العلم التجريبى تبين ان هذه الفكرة لاصلة لها بالواقع لانها بعيدة عن التجربة والواقعية العلمية وقد كان أوغست يقول ان التقدم الفكرى هو فى نكرة هذه الفكرة المجردة .

المرحلة الثالثة : والاخيرة هى المرحلة العلمية العلمية الوضعية وقد تطور اوغست كونت بعد ذلك وعدل عن فكرته السابقة وبعد ما قال بانه لا وجود للاديان وضع دينا جديدا وسماه بدين الانسانية والسبب فى وضع هذا الدين سببط فقط تعرف على امراة وقامت بينهما علاقة فاصبح يتأمل من جديد فى ضرورة وجود دين ما فوضع هذا الدين غير انه فصله عن الكنيسة وبذلك قضى هو نفسه على فكرته السابقة وهى أن المرحلة العلمية تنفى المرحلة الدينية فوضع دينًا جديدا ، لان الانسان حيوان اجتماعى كما قال ارسطو كما هو حيوان فلسفى وحيوان دينى فى نفس الوقت هذا ما فعله اوغست كونت نفسه وكل المفكرين وصلوا لنفس الفكرة حتى من يقول بالالحاد لان

الالحاد ذاته دين جديد له كتبه المقدسة وله انبياؤه ورسله وفرقهفتوجد فيه كل المظاهر الدينية والالحاد عقيدة غير انها تنكر وجود الالهوهى مبنيةعلىأسس عقلية واذا درسنا التيارات الالحادية المعاصرة نجد فيها كتبا تعتمد كالكتب المقدسة ولكل مدرسة ملحدة كتبها المقدسة ولو كان الالحاد عقليا فقط ما كان يعتمد على هذه الكتب والغير العلمية لان الالحاد المعاصر يعتمد على العلم من حيث هو علمتجريبى فقط فاذا قال بأنه لا وجود للاله وانما توجد المادة والعقل فقط كيف يمكنه ان يبرهن على ان الاله غير موجود عقليا واذا اعتبرنا ما اقترحه بعض المفكرين من ترك الكتب المقدسة جانبا لنفكر بعقولنا ونهتدى الى فكرة معينة واضحة عن وجود الاله او عدم وجوده فلن نستطيع ان نصل الى نتيجة مرضية لان العقل وحده قاصر وهذا ما اكتشفه بعض العلماء الفزيائيين انفسهم لان الفكرة التى تقول بأن العلم هو كل شىء تغلغلت فى الفزياء الحدكثة والكمياء وسبب هذا ان العالم الادوات المادية فى ابحاثه ولا يفكر الا فى الظواهر والفكرة العلمية مبنية على هذا والعالم العصرى يفكر فى الاحداث فقط وفى الانسان ولكن يفكر فى مصير الانسان ولا فى نفسية الانسان لانه يعتقد ان الانسان لا يملك وهذا هو ما يسمى بالمادية او هو يفكر فى العالم كعالم بدون اله وهذا هو الالحاد .

ان العقلية المعاصرة تدعى بأنها هى كل الفكر الانسانى وفى نفس الوقت يتبين لنا ان العلوم المعاصرة الحديثة لايمكنها انتتجاوز بعض الحدود فالعالم الطبيعى مبنى على دراسة الطبيعية

الالهية وكل ما وراء اموره فان ذلك طمع فى محال .

العقل ميزان صحيح واحكامه يقينية لا كذب فيها غير انك لا تطمع ان تزن به امور التوحيد والاخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الصفات الالهية وكل ما وراء اموره فان ذلك طمع فى محال .

وهذه فكرة موجودة عند جل المفكرين المسلمين وهى بعيدة عن الفكر الغربى لان الفكر الاسلامى يميز ما بين العقل والدين ومعنى هو ان الاسلام يأتى بتعاليم دينية موجودة فى القرآن الكريم وفى أحاديثنا الصحيحة وفى تراث الفكر الاسلامى ولكن الاولوية ليست للعقل وحده كما يقول المعتزلة ولكن السنة الاسلامية التى وقع عليها اجماع المسلمين تذهب الى ان الاسبقية للرسالة النبوية وللتعاليم الدينية وللوحى ثم يأتى العقل ولا يخلق العلوم وانما يتأمل الطبيعة ويوجهها ليكتشف ويسيطر عليها ويتجاوز العالم المعاصر حدود العقل عندما يقول أن العقل يستطيع أن يسيطر على كل ما يدور فى فكر الانسان وهناك علوم لا تقر هذا المبدا فمثلا علم النفس السلوكى لا يعتمد الا على الظواهر فاذا تحرك انسان واذا وقع له خلل فكرى عصبى يقوم بحركات يدرسها العالم النفسانى ولكنه لا يستطيع ان يعتمد على العقل وحده وكذلك علم الطبيعة والكيمياء يبحث عن الظواهر ويستعين بمكبرات ليرى الامور كما هى الوسائل التى يمكن للعالم المعاصر أن يتحكم بها فى الغيبيات انه يستطيع ان يصل الى القمر لان القمر موجود يستطيع بالعمليات الحسابية التى تنقل المركب ابولو APOLLO الى سطح القمر القمر ولكن هل يستطيع العلم ان يقول لنا مسبقا ما يدور فى فكر هؤلاء الطيارين عندما يصلون الى القمر .

ان هناك فوارق بين الظواهر العلمية التى يعتمدها العلم المعاصر والغيبيات بصفة عامة هل يستطيع أن يحدد لنا متى تكون نهاية العالم الذى نعيش فيه . هذه غيبات فوق العقل الانسانى وكذلك يعتقد العالم المعاصر ان التقدم مستمر وهذا يدل على شىء من التفاؤل ولكن هذا التفكير قاصر فحينما ندرس تاريخ الفكر الانسانى نجد أن هناك تقدما ماديا بالفعل فقد انتقلنا من المصباح بالزيت الى الكهرباء واكتشفنا الكثير ، ولكن هل تقدمنا مدنيا وخلقيا بشكل مطرد ، هناك تفاوت فنحن تارة نتقدم وتارة نتقهقر فنحن قد تقدمنا علميا حتى اكتشفنا القنبلة الذرية وتقهقرنا **حضاريا واخلاقيا** حتى ابادت هذه القنبلة الذرية الالاف من سكان مدينة هيروشيما هنالك .اذن هناك تقدم مادى وتأخر حضارى فى نفس الوقت مثلا وصل الامريكيون الى القمر واضطهدوا السود فى أمريكا وهنا يتدخل العالم المفكر اذا كان قادرا

على التفكير لان من ظواهر هذه العلوم العصرية ان العالم لا يفكر الا فى علمه وقد ذكر لنا العالم بينيه أستاذ الفيزياء فى جامعة جنيف GENEVE بأن العالم الفيزيائى لا يستطيع فى الغالب انيفكر فى مشاكل الانسان وحاجاته النفسية لانه يعيش بين ادواته ويفكر فى بعض النتائج المحدودة وقد كثرت التخصصات الفرعية فى مجال العلوم ففى مجال الفيزياء مثلا هناك الفيزياء الذرية وفيزياء الجوامد وغير ذلك وهؤلاء العلماء يهملون ويحتقرون كل ما هو بعيد عن هذه العلوم المادية لان العالم العصرى الفيزيائى والطبيعى لا يعتبر من لا يسير على هذه المناهج العلمية يستعمل قوة غير عقلية . فالفلسفة والدين والثقافة العامة كلها أمور تبدو له غير عقلية لانه يعتقد ان الحقيقة هى فقط ما يلاحظه الانسان ويراه من أجل تغيره وان الانسان لا يستطيع ان يصل الى حقيقة ما الا بحواسه وذكائه فيجب علينا اذن أن نبين لهذا العالم العصرى ان العلم شىء والدين شىء آخر والحكمة شىء ثالث فالعلم هو جمع معلومات نحن فى حاجة ماسة اليها لنتغلب على الطبيعة أو كما يقول ديكارت العلم يجعل الانسان سيد الطبيعة والمسيطرة عليها فوظيفة العلم هى التغلب على المشاكل المادية ونتقدم لنتمتع بمرافق احسن فنتغلب على الحر بالات التكييف مثلا ، أما مشاكلنا العقلية والنفسية والعقائدية فلا يمكن للعلم ان يسيطر عليها لانه قاصر على المادة فقط وذلك باعتراف العلماء التجريبيين فمثلا الاميردى بروى وهو من علماء الفيزياء المشهورين وقد نال جائزة نوبل فى الفيزياء يقول العلم الان لايمكنه ان يصل الى اليقين فى جميع المجالات وقد بين باشلار العالم الفيلسوف المعروف فى كتبه **بأن الحقائق العلمية نسبية فقط اما الحقائق الاخلاقية والدينية فهى مطلقة .**

هذا ما جعل المفكر المتدين يقول ا نالعلم ضرورى ولكن بعد هذا هو وفوق هناك مفهوم أوسع للفكر الانسانى تدخل فيه الفلسفات والاديان والعقائد بصفة عامة وهذه الاشياء تسلط على العلم،وهناك تأثير متبادل بين الجانبين

والمهم ان نضع الميزان بين الجانبين فتكون لنا حضارة انسانية لبشر يتحكم فيها انسان متعقل فى اوضاعه متأملا فى مصيره محاولا ربط المصير بالعالم وبخالق العالم .

الإسلام كدين عالمي

للمستشرق المجرى
د. عبد الكريم جرمانوس

ان القانون — وهو الحق الانسانى حسب تعاليم الاسلام — قد ولد وتتطور فى ظل الاخلاقيات . فهو الذى يوجه الناس ، وهو الذى يحميهم وهو فى التسليم والاعتراف بذلك انما ينبع من منبع ومصدر أخلاقى ميتافيزيقى ، اساسه الدعوة الالهية ، حسب ماهو مثبت فى القرآن الكريم وحسب ماأوصى به وما تبع النبى صلى الله عليه وسلم من تقاليد .

لقد حقق العلماء بعد وفاة النبى وعلى مر القرون — نظاما قانونيا محكما ، يعتبر الكمال المذهل الخارق للعقل الانسانى ، وذلك بفضل استنادهم الى المنبع القانونى من ناحية والى عقل الانسان وفهمه من ناحية أخرى .

وهكذا كانت الشريعة بمدارسها الاربع المعروفة .

الحنفى الشافعى ، المالكى ، الحنبلى التى اشتركت فى البناء الهائل العظيم الذى ضبط وقعد بانتظام كل لحظة فى حياة الانسان وعمله .

ليس فى الاسلام طبقة القساوسة المقدسة ، فكل مسلم يقف أمام ربه دون وساطة .

كانت الشريعة الاسلامية ، وقد حددت ماهية الانسان الذاتى الحر ، تعتبر أعلى مستوى وأكثر اكتمالا من نظم القوانين الاوروبية .

وحتى قبل ان تصدر نظم القوانين الاوربية التى تحدد العلاقة بين الدولة وبين الحياة الطبيعية للمجتمع ، وقبل ان يؤخذ الانسان على انه شخصية ذاتية لا يمكن التدخل فى تصرفاته الداخلية والخارجية ، واعنى بها الروحية والطبيعية ، كانت الشريعة ـ وهى القانون الاسلامى ـ قد انتشرت وحددت ماهية الانسان الذاتى الحر ، حياته ، وظيفته ، وهى بهذا السبق ومن هذه الزاوية تعتبر اعلى مستوى واكثر اكتمالا من نظم القوانين الاروبية .

من العبث ان احاول تعريف الشريعة ، خاصة امام اخوتى المسلمين . لقد شرحت وفسرت الشريعة خلال محاضراتى الجامعية للمجريين والالمان والهنود سنوات طويلة ، وفى بقاع عديدة من العالم اقمت سلاسل محاضرات خصصتها لتفسير الشريعة ، وهو ماأعتقد انه من الاهمية بمكان لاخوتى ورفقاء دينى المسلمين ، لان هذه المعرفة الاسلامية التى كانت تمثل العمود الفقرى للثقافة الاسلامية ونقطة الارتكاز الاساسية فيه ما تزال اليوم هى الحقيقة الحية ، على الرغم من ان بعض المسلمين فى بعض البلاد قد اخذوا بسياسة العدل الاوروبية معتبرين ان الشريعة ما هى الا شرط او نص ، او حق موروث او حق شخصى وعلى اساس هذا الاعتبار وسعوا من قوانينهم الارضية استنادا الى قوة هذا القانون المفرد .

من الطبيعى أن نظم القوانين الغربية باالنسبة للتكوينات الانسانية انما تتغذى من منبع الفكر الانسانى . هذا الفكر الذى يتغير من وقت لاخر حاملا فوق كتفيه عذاب الانسان ومتاعبه وطابع الامواج المتقلبة فى حياة المجتمع ، وهو بهذا الشكل فى الحقيقة يكون مؤقت الفعالية والشرعية ، دائم التغير ، مما يجعل العلاقات المتصلة بعضها البعض متعارضة متناقضة .

ومن راى الشريعة انه اذا عرفنا هذا التناقض عن طريق المنطق وحده ، واذا ما دققنا النظر فى بحثها فاننا سنضع ايدينا على نظم الحياة وقواعدها المكتملة التى يمنحها الفكر للانسان . ان المنطلق الاساسى فى نظام الشريعة هو أنه لا بد من وجود خالق لهذا الكون عامة ، هذا اقتناع لا مجال لمناقشته ، لانه حقيقة اولية تعادل الحقيقة الاولية عند العلوم الطبيعية ، التى لا تؤكد او تدحض عقل الانسان ، والتى بانكارها تهدم كل نظم العلوم الطبيعية .

والخالق هو السبب الاول ، وهو المسبب الاول الذى يستمد منه العالم اجمع امتداده . لكن هذا السبب الاول (والنوع المالى) ، العقل ليس بمستطيع فهمه أو الامساك به أو التقرير بشىء فيه ، وهو مع ذلك له من القوة التأثيرية فى الارض جمعاء الكثير ، وبما يؤثر كل لحظة فيها . وهو فى نفس الوقت الالهية التى تفوق تصور الانسان وعقله وادراكه ، وهو ايضا النظام الاخلاقى للارض جمعاء .



لقد قرر ذلك المفكرون العرب وعلماء المعتزلة ابو هذيل محمد العلاف (توفى عام 226 هجرية) النظام (توفى عام 231 هجرية)، بشر بن المعتمر معمر بن عباد ، ثمامة بن اشرس (توفى عام 213 هجرية) . لقد حاول كل هؤلاء المفكرون — بمساعدة من منطق ارسطو — ان يقربوا بين التعبير الالهى وخصائصه وتأثيره على سير العالم اجمع وبين قوة الانسان وتفكيره ، وقد وصلت ابحاثهم وتجاربهم الى النتيجة التالية : وهى ان الالوهية بالنسبة لعقل الانسان لا يمكن التعرف اليها ، لكن وجودها لا يمكن انكاره .

تكون من اعمال وتصرفات علماء الدين على مر القرون ، وبفضل من الشريعة ، فقه المداهب الاربعة . وهو قانون محكم نجده بين ايدينا الان وقاعدته ان يحكم الارض عامة بقوة اخلاقية ، وضمن سبيل التعرف على هذه القوة الاخلاقية بالقرآن وبوصايا النبى صلى الله عليه وسلم وحسب ما يفسره العقل من تفسيرات وفهم وادراك . وفى هذا تقود الشريعة الانسان الى التعرف على كيفية حفظه لجسده وممارسته له حتى يبقى سليما معافى ، وكيف يمكن ان يتطهر روحانيا عند الصلاة عندما يقف خاشعا امام ربه ، وهى كلها اشياء لها مغزاها ومعناها حتى لا تكون حركات لتحريك الفم او مظاهر خارجية ، وانما هى فى الحقيقة تعمق خالص وغراق فى شىء . وهو ما يعنى الاقتناع باننا مسؤولون مسؤولية تامة عن كل اعمالنا وافكارنا وتصرفاتنا امام الناس ، ثم امام الله.

هذا الوجود الذى يكون القوة الارضية والسماوية فى كل مكان ، هذا الارشاد والتوجيه يتاكد ويتقرر فى كل زمان وفى كل تكوين تاريخى وفى كل حركة اجتماعية . . وهو فى نفس الوقت يتضمن السلوك الانسانى للمرء تجاه اخيه ، كما انه يؤثر فى التطهر الجسدى وفى التطهر الروحى ايضا .

وهو ما يعلمه الاسلام عند ما يقول . . «الطهارة من الايمان» . وفى التعاليم الأخلاقية للاسلام كوحى ، نراها تحفظ المجتمع من الذنوب التى تسببها البراءة المطلقة والتمرد والعناد وشدة الشكيمة . فتعاليم الاسلام تحرم بشدة تعاطى الخمر وتعاطى اى نوع من انواع المخدرات او المنومات لانها — بتحكيم العقل الانسانى — تعنى شروع فى الاعتداء على حياة الانسان نفسه . وهذا المنع فى الاسلام يمكن ان يكون مثلا لكل الشعوب وكل المجتمعات ومجسدا فى قوانينها ومقررا ، على اعتبار ان هذا المنع انما يسبق ويتقدم على تأثير المخدر او المنوم قبل ان تحل الجريمة .

والاسلام يحافظ على سلامة الاسرة ويحرسها. وهو يعاقب بشدة على تحطيم الحياة الزوجية وتدهورها ، وكذا على الفسق والفجور . فحياة الاسرة عند الاسلام مقدسة ، وهى مثل الهرم ، شاهقة عالية لا تمس ، حيث يعلن الزوج فيها زوجته ورفيقة حياته كأم لأولاده وكملاك حارس تقف الى جانب زوجها تؤيده وتعضده .

ويتبع الاسلام فى ارتداء الملابس والهندام حكما اخلاقية تؤيد وجهة نظره ويضمن الحياة والعفة والحجاب يجسد هذا الرمز ، وهو يعنى انه لا يجب على النساء أن توقضن بتصرفاتهن من خلال سترة طائشة مستهترة الرغبة الحسية بطريقة خاطئة حتى لا تصيب طهارة المجتمع باالعدوى

لقد اثرت الموضوعات الغربية عند النساء والرجال سواء بسواء بشكلها الفاضح على السلوك الانسانى بما افسد التوازن الاسرى ، فضلا عما فجرته من اضرار وتخريب داخل المجتماعات والدول .

يعاقب الاسلام بشدة وفى سمو على السرقة والانتهاك وقطع الطريق ، ولهذا نادرا ما تقترف امثال هذه الذنوب فى الدول الاسلامية .

والاسلام كدين لا يقيد المؤمن به — على اعتبار المؤمن لابد ان يؤمن بشىء — لايقيده بالا يعرف قوانين الطبيعة ، او يكف النظر عن عملها وكيفية تشغيلها نتيجة خبرته الشخصية وتجاربه وافكاره وعند ما كانت شعوب أوروبا تتلمس طريقها فى غابة الجهل كان العلماء المسلمون يبحثون بالعربية فى العلوم الطبيعية . . فى الجبر والحساب والكيمياء والفلك والطب ، كاشفين اسرار الفلسفة عاملين على نشر تعاليمها فى حرية . لقد كان المدرسون فى مدارس المساجد الاسلامية على اعلى مستوى علمى ،وكانت تعاليمهم هى الاساس الذى سارت عليه أوروبا عندما نهضت من سباتها مؤخراً .

ان الاسلام لا يعرف الفروق او الدرجات بين الانسان .. ليس الغنى او القوى من هو فى الدرجة الممتازة عند الله سبحانه وتعالى ، لكنه هو العالم المفكر الذى يجد طرقه الحر فى بحوثه الحرة ليضىء بها القوانين الاخلاقية ويفتح مجال التعرف عليها، وهو فى هذا يوضح متطلبات الحياة وتجاربها وتجاربها فى تناسق وانسجام .

والاسلام لا يعرف كذلك طبقة القساوسة او الخاصة . لكن تعاليمه تقول بأن على كل مسلم أن يعرف قوانين الاسلام واتجاهاتها الاخلاقية ، وعليه ان يقف ويوازع من نفسه امام الله سبحانه وتعالى خاشعا خاضعا دون وساطة .

والاسلام الى جانب العلوم الطبيعية التى سبق ذكرها قد ابدع ادبا ضخما تتجلى عظمته فى انتاجات الشعر والنثر التى اصبحت مثلا ونموذجا يحتذى به فى الماضى ، ولا زالت باقية حتى اليوم تخدم شعوب العالم المثقفة .

وفى نظام العالم الاسلامى ولدت الرغبة والاشتياق الى العالم الروحى الذى انبثقت منه اصلا . فقد حاول الناسكون والمتقشفون الذين



عزفوا عن غرور الحياة وخيلاء الارض وارتفعوا عن مظهرها الخارجى ان يتخلصوا من قيود الجسد وهؤلاء هم الصوفية ، الذين ارادوا أن يتحدوا بأرواحهم مع الالوهية . وهم فى تجليهم وتطورهم اللدنى عرفوا أن الاخاء والمحبة والمدة هى القوة العظيمة فى العالم جمعاء ، ورفعوا من هذه الخاصية فى اشعارهم واعمالهم .

واقدم هذه الاعمال الصوفية الروحانية من تاليف ابو طالب المكى (المتوفى عام 996) بعنوان « قوت القلوب » ، ومن تاليف عبد الحق سبعين (المتوفى عام 1269) بعنوان « اسرار الحكمة المشرقية » . عمر بن الفارض (توفى عام 1235) كتب « نظم السلوك » و « خمرية » وهى شعر رمزى متجل كتبه عندما ظهرت امامه روح النبى صلى الله عليه وسلم . ثم ابن العربى (توفى عام 1240) ومؤلفيه « فتوحات المكية » وفصوص الحكم » حيث يكتب عن رؤيا صوفية غامضة .

لقد هاجم العلماء الغوامض الصوفية فى البداية . وظل هذا الهجوم حتى كتب الغزالى (المتوفى عام 1111) كتابه « احياء علوم الدين » التى اعلن فيها عن سمو بصيرة النفس وحطم الجسر القائم بين العلماء والتصوف . ان نظرية الغزالى تكمن فى فلسفته الشعور التى وصل فيها الى التعبير عن الخوف عند الانسان ، وهو قد احس بالوحدة عنده وهذه المعرفة فى تعلقه بشخصية محبوبة مفكرة يمكن أن ينادى عليها فى يأسه وقنوطه نتستجيب لندائه ورجائه ، وه ىالتى تعم رحمتها فى الارض والسماء دون حدود .

ان مقدمة ابن خلدون (المتوفى عام 1406) احد كبار عباقرة الاسلام قد قررت هذه الحقيقة .وهى انه طالما تنمو وتترعرع شجرة من بذرة فلا بد من أن تثمر الشجرة ثمارا ، وهى نفس العلاقة بين المجتمع الانسانى وبين التطور . وهذه القوانين تتحقق ضمن التطور فى مختلف بقاع الارض .. فى نظام الحياة اليومية ، فى التركيب الجيولوجى للارض ، وكذلك فى حياة المجتمع الانسانى ايضا .

كل شىء يتحرك ويستمر ولا يتوقف دون مسببات او مقدمات ولا يوجد شىء دون نتائج او عائدة . لكن هذا العقد والارتباط ليس ميكانيكيا ولا يعمل من تلقاء نفسه ، لكنه هو الوعى الانسانى وهو ارادة الانسان نحو التطور والاستمرار .

ليكن امام كل مسلم طريق سلفه فى ظل وعى كامل منه .. لتكن امامه دائما حياة السالفين واعمالهم ،وليحس بواجبه نحو تمجيد هذه الحياة وهذه الاعمال ،تماما كتعاليم الاسلام سواءبسواء التى تمجد الحقوق والواجبات

لقد وجد ابن خلدون هذه التعاليم الاخلاقية فى استمرار قوة المجتمع وسماها « عصبية » . فاذا ما تراخت اوبطات هذه الواجبات او نال منها او من احترامها وتقديرها شىء ، خفض من الاعتقاد واصاب قوةالمجتمع بالضعف والاضمحلال. لنكن فخورين باعمال اسلافنا المسلمين .. ولنتابع بكل قوانا أعمالهم ، حتى نرعى هذه العصبية « بمزيد من التقدير والاجلال ،وحتى ندخل فى عصر الاسلام الذهبى مشاركين فيه بنصيب جليل .



Dynamische Weltwirtschaft

Von Fritz Baadde

List Verlag 1969

ديناميكية الاقتصاد العالمى

تأليف : فريتس باد

عرض وتعليق

د : طيب لحضيرى

يعتبر الاستاد باد من النظرين الاقتصاديين فى العالم ومن قادة مدرسة اقتصادية خاصة فى المانيا ويمكن اطلاق تعبير «الفلسفة الاقتصادية للتعريف بهذه المدرسة : اى انها مدرسة تنظر الى الاقتصـــاد العالمى على انه وحدة متكاملة رغـم جميع ظـواهر التجزئة التى قد توحى بوحدات اقتصادية مختلفة فى العالم وتمنع من الناحية النظرية معـالجة مشكلة الاقتصـــاد كوحدة متكاملة باختصار ان هذه المدرسة ترى ان تقسيم العمل على المســتوى العالمى شىء كان دائما موجودا وسيوجد . وظاهرة تقسيم العمل هذه هى وحدها التى فرضـت مظاهـر التجزئة لوحدة لايمكن تجزئتها باية حـال من الاحوال وهذه الوحدة لايمكن معالجتها بصفة فعالة الا عن طريق تناولها بالبحث ككل وكوحدة وهل هذا سر العنوان الذى يعطيه الاستاد باد لكتابة « ديناميكية الاقتصـــاد العالمى » ولكن

النظرة لاتستفاد فقط من عنوان الكتاب بل لا نبالغ اذا قلنا ان جميع الافكار والاحصائيات ، والازمات الاقتصادية التى عالجها المؤلف فى كتابه الضخم (502 صفحة) توضحلهذه النظرية بصفة تكاد تكون اطلاقية وسوف نتعرض باختصار لمثال يسوقه المؤلف لاثبات نظريته الوحدوية بالنسبة للاقتصاد العالمى .

ولكن قبل ذلك نلقى نظرة عابرة جدا عن نشاط المؤلف ، لان فى نوعية النشاط الذى زاوله ولا يزال يزاوله مايوحى بهذه النظرية الفلسفية الوحداوية فى الاقتصاد العالمى .

اشتغل الاستاذ باد لسنوات عديدة كمدير للمعهد العالى للاقتصاد العالمى التابع لجامعة كيل . واشتهر بمعرفته الدقيقة بتاريخ الاقتصاد العالمى ، وكان نشاطه كمدير لهذا المعهد الذى يوحى الاسم المعطى له باتجاه هذه المدرسة ، من جملة الاشياء التى مكنته من جمع معلومات عن تاريخ وحاضر الاقتصاد العالمى قلما يوجد مثلها فى العالم اذا لم يكن معدوما .

ويدير الاستاذ باد حاليا مؤسسة للبحث العلمى فى المشاكل الاقتصادية العالمية وخاصة مشاكل اقتصاد بلدان العالم الثالث ، وفى هذا الكتاب خاصة يبين الاستاذ باد بكل دقة ووضوح عن توسعه وتعمقه فى البحث فى مشاكل الاقتصاد العالمى ، ويمكن اعتبار هذا الكتاب فى آن واحد نوع من نظرية فلسفية عميقة فى الاقتصاد العالمى وموسوعة ضخمة ومدعمة بجميع انواع الاحصائيات والدلائل لمجمل المشاكل التى عان ويعانى منها هذا الاقتصاد .

النظرية الوحداوية فى الاقتصاد العالمى .

المثال الذى اشرنا اليه اعلاه هو عبارة عن عرض جدولى لمنهجية المؤلف ، وتصوير حى لمدرسته حسبما حاولنا بكل اختصار ، ان نعرفها كمدرسة فلسفية ترى فى الاقتصاد العالمى وحدة متكاملة رغم تعدد الصور والاشكال التى يفرضها واقع التجرئة فيه الى وحدات متعددة : ان الاقتصاد العالمى وحدة وكل منا يعيش داخل هذه الوحدة ، وما صور واشكال التجرئة الا انواع لا عد ولا حصر لها من انواعتقسيم العمل . للبرهنة على هذه الحقيقة يختار المؤلف سيدايسميه (السيد x 1968) ويتبعه مبينا ان جميع حركاته وسكناته اليوم منسوجة بشكل دقيق التنظيم الى وحدة الاقتصاد العالمى . (I)

يقول المؤلف ان السيد x 1968 يستيقظ فى الصباح تاركا فراشه بدون ان يفكر من ان الافرشة القطنية التى قضى فيها ليلته من اصل مصرى ، هندى ، وباكستانى ، وأمريكى ، وان الشعر الذى ملئت به اوسدته من بولونيا . انه يدخل الى حمامه بدون ان يفكر ايضا من ان المادة التى تسخن له الماء عبارة عن بترول آت من العربية السعودية والكويت وليبيا ويغسل يده بصابون مصنوع من زيوت افريقية . ان السيد x 1968 يرتدى قميصه المصنوع من قطن مصرى او من صوف استرالى افريقى . ان حذاءه من جلد مستورد أيضا من افريقيا . انه يجلس ليتناول فطوره بدون ان يتفطن لحظة من ان جل الاثاث المحيط به عبارة عن قطع خشبية وغيرها آتية ربما من القارات الخمس التى تتكون منها الكرة

(I) هذا المثال عبارة عن مدخل عام ، ويعالج المؤلف فى هذاالمدخل القطن ودوره فى الاقتصاد العالمى ولعله اختار القطن لهذا المدخل من اجل ان هذه المادة الخام أول مادة بدأت تكتسح الاسواقالعالمية أثناء الثورة الصناعية فى بريطانيا التى بدات كثورة فى ميدانىالغزل والنسيج تستورد هذه المادة من مصر والهندوباكستان وامريكا لا نعطى لا ترجمة مدققة للمثال ولا سردا كاملا ، انما نلخص فقط روح هذا المثال من اجل الهدف الذى اشرنا اليه

الارضـــية . ان السيد x 1968 يدخل ســيارته ليذهب الى عمله ، ولكن لو حللت هذه الســيارة الى جزيئاتها الاولية لعرف ان العالم كله ،مثل فى عربته . وفى العمل لو فكر السيد x 1968 لحظـــة واحدة لأدرك انه عبـــارة عن ذرة صـغيرة جدا فى وحدة هائلة هى الاقتصـــاد العـــالمى . ان معلمه محكوم عليه بالشلل التام اذا انقطعت عليه جميع المواد الخام التى تستورد من شتى اصقاع العالم.

ان السيد x 1968 تابع تبعية تكاد تكون مطلقة فى جميع انواع حركاته وسكانه ، فى نومه فى عمله وفى أوقات راحته للاقتصـــاد العالمى . انه جزء لا يتجزأ من هذه الوحدة ، وتحـــركه فى داخل هذه الوحدة ماهو الا نصيبه من ملايين الانصبة التى يفرضها قانون توزيع العمل فى المجتمع الانسانى .

عرض موجز لمواد الكتاب

ان عرض فلسفة الكتاب شيء ممكن ، لا لانها فلسفة تتحلل الهيكل النظرى كله للمواد المعروضة والمناقشـــة فى الكتاب ، ولكن لعل عرض المثال يعطى صورة واضحة ولو غير كاملة عن اتجاه هذه المدرسة والمنهج النظرى الذى تحاول ان ستعمله فى البحث ويتناول الكتاب وفقا لهـــذه المنهجية بالبحث والشـــرح والتعليق المشاكل الاقتصادية الاساسية التالية :

1) — نمو ومستقبل الاقتصاد العالمى

2) — المانيا ودورها فى الاقتصـــاد العالمى بين الامس واليوم وغدا .

3) — الاقتصاد العالمى من وجهة نظرانتاج المواد الغذائية .

4) — الانفجار الســكانى فى العالم والمشاكل التى تتولد عنه (خاصة مشاكل المجاعة) .

5) — القوانين العامة التى تتحكم فى الانفجار السكانى فى العالم

6) — الارض كمصدر للتراث الطبيعى

7) — البحـــار والمحيطات كمصدر من مصادر انتاج المواد الغذائية فى العالم .

8) الطاقة ودورها فى الاقتصاد العالمى .

9) — المواد الاوليـــة ودورها فى الاقتصـــاد العالمى .

10) — دور المواصالات فى الاقتصاد العالمى

11) — الثورة الصناعية فى العالم واثرها فى نمو المجتمع البشرى .

هذه بكل اختصار امهات المشاكل التى عولجت فى هذا الكتـــاب ، والتحليل العلمى الدقيق لكل مشـــكل مدعم بمختلف الاحصائات والصـــور والرسوم والخرائط الاقتصادية ، وفى الكتاب 82 صورة وخريطة رسم اقتصادى تبين حالة التطور لكل مشـــكل عولج ، كما يحاول المؤلف ان يدعم نظرياته بواسطة الارقام كلما استدعى الامر ذلك

ولابد من الاشارة بصدد هذا العرض الخاطف لمحتوى الكتاب الى قائمة المراجع التى تحتوى على مئات من الكتب والمجلات والتقارير الصادرة فى جميع مناطق العالم . ولانبالغ اذا قلنا ان هذه القائمـــة عبارة عن سجل ضخم لمكتبة عالمية حول الاقتصاد العالمى ، ولهذه القائمـــة أهمية عظمى للباحثين فى

مشاكل الاقتصاد العالمى .

نـــــقـــــد

لانريد ان نزعم هنااله فى امكاننا توجيــه نقد على بناء للكاتب ، ذلك ليس من اختصاصنا وحتى لو كنا اختصاصيين فىالموضوعلتعذر مثلهذا النقد لضيق المجال وضخامة المادة التى يعرضها المؤلف فى اســلوب على فى غـــاية الدقة لايمكن نقده الا بتدقيق الدراسة والتخصص فى الموضوع .

ولكن ذلكلا يمنع من المناقشة النظرية العامة لكتاب ، والمنهجية المســتعملة فى هذه المنافســة

ان الوحدوية فى الاقتصـــاد العـــالمــى تكون من عنصرين اساسيينيستنتجان حتى من دراسات المؤلف نفسه : العنصر الاول هو المواد الخام .

اذا اردنا ان نستعمل تعبيرا اقتصاديا محضـــا او جميع تلك البلاد المنتجة لهذه المــواد الخام أى بلدان ما يسمى بالعالم الثالث (I)

والعنصر الثانى هو الصـــــناعة الميكانيكية المحولة لهذه المواد الخام ، والبلاد المصــنعة ان معالجة هذين العنصــــرين فى اطار وحدة مغلقة من شأنه ان يترك قضـــية التــوازن والعدالة بين هذين العنصرين لا تدخل فى الحسبان وهذا ما حدث للمؤلف الذى لم يعالج فى نظـرنا هذه القضية ، قضـــية العدالة والتــوازن فى فى التلاؤم الطبيعى الذى يفرضه تقســـيم العمل لمعالجة الاقتصاد العالمى لا يمكن الا ان تكون نقطة الانطلاق فى تبرير للمشاكل الاقتصـــادية التى يعانى منها العالم اليو م.

انه لا يمكن ان يوجد تقســـيم عمل بين عالم يتخبط فى الفقر والجهـــل والجمـــاعات وذلك لعظم مصادر الثروات الطبيعية فى العالـــم ، وبين آخر ينعم فىالرفاهية والثراء فقـط لانه يملك فى تحويل هذه الثروات صناعيا .

أهمية الكتاب :

(I) هذه النظرة النقدية الخاطفة لا يمكن مع ذلك ان تقلل من أهمية الكتـــاب العظيمة التى يمكن فى المجتمع الانسانى ، ومن هنا فان الانطلاق من قضية تقسيم العمل نلخصها فى النقاط الآتية :

1) — ان المؤلف يعرض المشاكل الاقتصـــادية فى قالب اجتماعـــى جديـــد ، فجميــع المشاكل درست فى اطار واســع تبين بدقة اهمية عنصر الاقتصـــــاد كقاعدة اساسية للتقدم الانسانى فى مختلف الميادين .

2) — ان الكتاب يعطى مجموعة من المعلومات عن حالة الاقتصاد العلمى قل ان توجـــد ربما فى غيره من الكتب حول الموضـــوع ، وجميع الارقام مدعمة بنقاس ومقارننات نضرية شائقة

انه فعلا عبارة عن موســـوعة رائعة فى الاقتصاد العالمى .

(I) افريقيا التى تعد شطرا عظيما من العالم الثالث تزود الدولالصناعية والاستعمارية بالنسب الآتية لبعض المواد الخام : 95٪ من الماس 69٪ من الكـــوبالت 63٪ من الذهب 34٪ منالكروم 32٪ من النحاس 66٪ من الكاكاو 65٪ من زيت النخيل 95٪ من الفول السودانى 64٪ من القطن 65٪ من البن

رسائل جامعيّة

الاستجابات السيكولوجية للعاهة الحركية المرئية لدى المجاهد معطوب الحرب

د : محمد العربي ولد خليفة

يرجع تفكيري في هذا البحث الى مصدرين اولهما خاطرة طالما عنت لي وارقتني فقد كنت اسائل نفسي عن جدوى دراساتنا في علوم الانسان وعلم النفس بوجه خاص اذا دابنا على اجترار نظرياتها ومناهجها دون ان نروضها وان نطبقها على واقعنا الخاص وان نخلع عليها خصائص شخصيتنا القومية الاصيلة ونحولها الى اداة لخدمة تطورنا على المستويين المادى والانسانى

وقد اغرتنى هذه الفكرة عندما ادركت أن الجانب التطبيقى فى علم النفس الذى يكاد يطغى اليوم على الجانب النظرى فيه — يمكن اعتباره أحد المزايا التى تعكس واقعنا فى حيويته وثرائه فى نقائصه وسلبياته : وقد خيل لى أننا اذا سرنا فى هذا الاتجاه فسوف نحقق هدفين فى آن واحد فنشرع من جهة فى وضع صياغة وطنية لعلم النفس ولا نكتفى بنقد اولئك الاجانب الذين يبحثون واقعنا بالنيابة عنا بينما نتطفل نحن على بحث شجونهم وشؤونهم ونعتبر واقعنا منطقة حرام ونساهم من جهة أخرى فى تغذية العلم نفسه بما نقدمه من جهد يحمل فى طياته الحذق والابتكار .

أما المصدر الثانى الذى استلهمت منه هذا البحث فيرجع الى ذلك الصيف من سنة 1966 عندما طلب منى التدريس لمجموعة من قدماء المجاهدين كان من بينهم بعض المعطوبين فى حرب التحرير الوطنى فقد أثار انتباهى وأنا أحاورهم ما يبدو عليهم من مظاهر الجد والحرص والحماس ومضاء العزم وسرعان ما تحول انتباهى الى اهتمام وشغف بما تعج به أعماقهم من مشاعر وانفعالات واتجاهات . وكنت على يقين بأن اولئك الرجال الذين كانوا بالامس القريب طليعة الكفاح المسلح ليسوا اليوم أقل استعدادا للمساهمة فى معركة فاصلة لا يقعقع فيها السلاح ولكنها ستعطى لهذا الكفاح مضمونه الايجابى المتمثل فى بناء قوة ذاتية فلا عجز أكثر من الرضوخ للعجز ولا قوة أكثر من ارادة تبنى الحياة وتوزع بذور الامل .

وكنت أطمح فى بادىء الامر الى القيام بدراسة شاملة لسكولوجية المجاهد معطوب الحرب مهما كان نوع عاهته الا أن الحاجة الى نتائج عملية جعلتنى اقصر دراستى على قطاع واحد من ميدان رحب هو العاهات

الحركية البتر والتشوه وفي ضوء ذلك قمنا بتحديد جوانب المشكلة موضوع البحث ووضعها في اطارها العلمي الصحيح فيما أن الانسان وحدة بيولوجية نفسية اجتماعية فان للعطب جوانب ثلاث فهو في الدرجة الاولى مشكلة فردية لان العاهة تتصل مباشرة بالذات ويظهر ذلك من الناحية الجسمية في اضطرار الفرد الى التبعية لغيره وفي احساسه با لعجز والقصور العضوي ومن الناحية النفسية تبدو آثار العاهة في الشعور بالنقص والحرمان والتعرض لمواقف الزمن والاحباط ، كما يعتبر العجز في الدرجة الثانية مشكلة اجتماعية لان النية تساهم الى حد كبير في الفكرة التي يكونها المعطوب عن حالته وهي فكرة وثيقة الصلة باتجاهات الاخرين نحوه وبنمط الثقافة السائدة في المجتمع فهو في الواقع ينظر الى عاهته بعيون الاخرين ويمكن النظر في العجز الجسمي في الدرجة الثالثة باعتباره مشكلة اقتصادية تتمثل في ابقاء فئة كبيرة من افراد المجتمع عالة على الدولة تأخذ ولا تعطي وتعيش في الظل سجينة الوحدة وتحت رحمة القصور والتعوق .

فتنضح اهمية هذا البحث على المستويين العلمي والنظري اذا وضعنا في حسابنا الاعتبارات التالية

1 ـ ان دراسة شخصية وسلوك المعطوبين عموما ما زالت في حاجة الى بحث علمي اكثر عمقا وشمولا على الرغم من اهمية النظريات التي قدمت البحوث التي تمت في هذا الميدان فان تغيراتها ونتائجها تعتبر مساهمات جزئية في حاجة ان يعاد تقويمها في ضوء منظور شامل يعني بسيكولجية المجاهد المسرح بعد حرب تحريرية تختلف في جوهرها عن الحروب الكلاسيكية المتعارفة .

2 ـ ندرة الدراسات الميدانية التي تتناول واقعنا المحلي فما اكثر ما درس الباحثون الماضي البعيد والقريب واليوم آن الاوان للالتفات الى واقعنا الخاص لننفض عنه الغبار ونصقله ونظهر ملامحه الحقيقة

ان بلادنا تقبل على نهضة اقتصادية اجتماعية تتخذ من التخطيط العلمي دعامتها الاولى وتلتمس من امكانياتها الذاتية وسائل الانطلاق وما اشد حاجتها في هذه المرحلة بالذات الى بحوث علمية تتصل بالانسان ذخر الثورة وضمانة استمرارها

3 ـ افتقار مكتبتنا العربية الى بحوث سيكولوجية في هذا الميدان وما تم منها ـ على حد ما نعلم ـ يكاد يقتصر على سيكولوجية الجماعات الخاصة وكان لعلماء النفس التربوي اليد الطولى في دراسة ضروب التفوق الحسي والحركي الولادي والمكتسب لدى الاطفال

4 ـ تمثل فئة المجاهدين المعطوبين قطاعا ضخما يتوزع افراده في هضبة الواقعة بين 30 و 50 سنة وهي المرحلة التي تصل فيها القدرة الانتاجية للشخص الى حدها الاقصى وهذا ما يجعل اعادة تكييف هذه الفئة وتاهيلها أمرا جديرا بالدراسة والاهتمام

5 ـ تشير التوقعات الاحصائية الى تزايد انتشار ظاهرة العطب في العالم بسبب الحروب وحوادث العمل والمرور والتشوهات الولادية

ان المعطوب عندما يتخلص من وطاة الاحباط يعمل جهازه النفسي على اكتشاف السبيل الصحيح للتغلب على تعوقه وعجزه فيعيد تنظيم مجاله السيكلوجي، وقد اتضح من دراسة ظاهرة الاحباط ان مدى قدرة الفرد على تحمل التوتر الناجم عن التعوق والصد والحرمان يتوقف على مجموعة من العوامل التكوينية الكامنة في الفرد نفسه مثل تعوده على مجابهة الزمن منذ صباه والى عوامل اخرى في الموقف الخارجي وان هذه العوامل تتبادل التاثير

وقد لوحظ ان اكثر الاستجابات التعويضية الايجابية لدى المجاهد معطوب الحرب هي الاعلاء وتقبل العجز ومحاولة التسامي عليه فينظر المجاهد الى عاهته على انها امتحان من الله ولاراد لقضاء الله ويبدو ذلك بوجه خاص في انخفاض استجاباته العدوانية والهروبية واعترافه بالحدود التي تقف عندها امكانياته فهو يعتمد على نفسه فيما يستطيع اداءه من اعماله وينتظر العون والسند فيما يعجز عنه

وقد تبين ان الاعلاء عند الكثير من الحالات يأخذ مظهر التقوى والانكباب على العمل بحرص واهتمام بالغ والتدرب على استخدام الجهاز الاصطناعي بدون شكوى او تأفف

ان المجاهد معطوب الحرب يشعر في قرارة نفسه بأنه يفضل اولئك الذين خاضوا حروبا لا تستهدف اعلاء كلمة الحق وانقاذ الدين من براثن « الرومي » مهما سجلوا من بطولات

لان المجاهد يعتقد انه لم يخض حربا من اجل الحرب وانه لم يكره على الانخراط في صفوف الجيش بل انه فعل ذلك تلبية لنداء ضميره ودفاعا عن دينه ما « المحاربون القدماء » فهم في نظره في درجة ادنى

ان المفهوم الديني للجهاد يلعب دورا رئيسيا في صياغة فكرة المجاهد معطوب الحرب عن ذاته وطريقة تعبيره عنها وقد حدد القرآن الكريم تحديدا واضحا مكانة المجاهد بين قومه ومنزلته عند ربه ، يقول تعالى :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرى عظيما »

(النساء آية 95)

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم »
(محمد آية 31)

اذن فالمجاهد يعتبر عاهته دليلا على انه أبلى البلاء الحسن وكفر عن ذنوبه عند ما وهب نفسه لله والوطن واذا اخذنا بعين الاعتبار التصور الخشطالتى لمطاوعة الشخصية فاننا نلاحظ ان ارتفاع درجة الصلابة الاجتماعية لدى معطوب حرب التحرير هو فى الواقع نتيجة الاستجابة لعويضية زائدة صادرة عن الجهاز النفسى بأجمعه ويستهدف هذا النمط من التعويض الاشعار بالعاهة نتيجة تضخم الانا الاعلى ومحاولته السيطرة على الانا فاذا كان البتر والتشوه عند الاخرين علامة على العجز والقصور تجعل الشخص يشعر بالدونية فهو عند معطوب الحرب للامة على الشرف ومصدر للزهد والافتخار ولكى يحتفظ الانا بوحدته ويتحاشى الثنائية .

«العاهة من جهة علامة على العجز والنقص وهى من جهة اخرى علامة على الشرف والتضحية » تستنجد المنظومة النفسية بالية دفاعية مناسبة هى الاعلاء الدين يتخذ شكل صلابة اجتماعية تتمثل فى تقضيته نظام العلاقات الاجتماعية والتمسك الشديد بالقيم والمعايير التى تباركها الجماعة حتى يحتفظ المجاهد برمزية العاهة ويستثنى نفسه من اولئك الذين اصيبوا بعاهات فى ظروف عادية .

تتخلص الخطوط الرئيسية لهذا البحث فى انه محاولة لاقامة فكرة محللة عن شخصية المجاهد معطوب الحرب وهى محاولة ترتكز على محورين اولها دراسة تجريبية وثانيها تحليل نظرى فلم نكتف فى دراستنا بمجرد تطبيقه الاختبارات وتصنيف البيانات ورصف النتائج بل حرصنا على عرض وتحليل الاساس النظرى لكل ذلك .

و يتكون البحث من قسمة اقسام واحد عشر فصلا .

ومن خلال التحليل والمقارنة حاولنا تفسير الجوانب المختلفة للظاهرة فى حدود عينة البحث وفى ضوء الواقع الحضارى لمجتمعنا الراهن فقدمنا صورة واضحة عن شخصية المجاهد معطوب الحرب فى سلوكه وتعبيره عن حاجاته وفى فكرته عن ذاته وفى اتجاهاته نحو غيره من الناس .

ونجز فيما يلى اهم ما توصلنا اليه من نتائج :

1 — ان الاستجابات التعويضية الفاشلة لدى المجاهد معطوب الحرب تتجه فى الغالب الاهم الى الخارج لان الانا عنده لا يعانى من اى شعور بالنقص او الذنب بينما ترتد الاستجابات الفاشلة لدى الفئة الثانية الى الداخل نظرا لتخلص الانا وعجز الفرد من اعادة تنظيم مجاله السكيكولوجى ومن جراء ضغط الاحساس بالنقص ووطاة الشعور بالذنب .

2 — ان درجة الصلابة الاجتماعية تتناقص تدريجيا من المجموعة الاولى حتى الثالثة ، لان العاهة عند المجاهد علامة على الشرف ومصدر للزهو والفخار وهذا ما يجعله يستخدم آلية الاعلاء ويضيف من نطاق علاقاته ويتمسك بالقيم والمعايير الاجتماعية لكى يحتفظ برمزية العاهة .

3 — لا يمكن فهم أثر العاهة على شخصية المعطوب الا فى ضوء كل نفسى اجتماعى سوماتى .

4 — ان تضخم اعباء المعطوب العائلية وعجزه عن الوفاء بالتزاماته المادية والمعنوية يجعله يعيش فصراع عنيف يؤثر على صورته عن ذاته وعلى علاقاته بغيره .

5 — يتعرض المعطوبون من المجموعة الثانية الى شعور ملح بالاحباط فى مجتمع ما زالت فيه قدرات الفرد الفيزيقية تلعب دورا هاما .

كما يتعرض الحاصلون على مستوى تعليمى فوق المتوسط من نفس المجموعة السابقة الى مواقف الزمت والتثبيط لاسباب كثيرة أهمها حدة شعور المتعلم بما يتهدد مكانته الاجتماعية واعتباره لذاته وشدة اهتمامه باتجاهات الآخرين نحوه .

وبناء على هذه النتائج فقد تقدمنا بمجموعة من التوصيات يتصل بعضها بالجانب الفنى الذى ينبغى اتباعه فى مثل هذا البحث ويتصل بعضها الآخر بالجانب الانسانى من المشكلة ونجمل أهم هذه التوصيات فيما يلى

1 — نظرا للصعوبات التى واجهتنا خلال الاجراءات العملية للبحث فاننا نوصى باستخدام المنهج الاكلينيكى الذى يتيح للباحث فرصة اقامة علاقات انسانية مباشرة مع الحالات .

2 — تنظيم المحفوظات والاحصاءات تنظيما فنيا باصدار نشرات ووثائق تبوب فيها المعلومات بطريقة تسهل على الباحثين مهمتهم .

وحبذا لو قامت المصالح المختصة باحصاء وتصنيف فئات المعطوبين بوجود افراد اصحاء جسميا واسوياء عقليا .

3 — نوصى بضرورة توعية البيئة الانسانية المحيطة بالمعطوب لانه فى الواقع ينظر الى عاهته بعيون الآخرين .

4 — نظرا لاعتبارات منهجية واخرى خاصة بحدود الامكانيات المتوفرة اقتصر هذا البحث على قطاع صغير من ميدان فسيح ما زال الكثير من جوانبه بكرا ، ولكى تكتمل الصورة العلمية والعملية لهذا البحث ينبغى القيام بدراسة شاملة لضروب التفوق الحسى والحركى والمتعدد .



وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية
وهران
من 27 جمادى الأولى إلى
8 جمادى الثانية 1391 هـ
الموافق 20 يوليو 1971 م
إلى 31 منه



آراء أبي بكر العربي الكلامية

ونقده للفلسفة اليونانية

وتحقيق كتابه "العواصم من القواصم"

تلخيص لرسالة دكتوراه
الدولة المقدمة من
الاستاذ عمار طالبي

د. عمار
طالبي

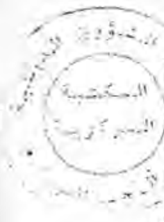
لا يمكن القول بان دراسة الفلسفة الاسلامية قد اشرفت عل الكمال بل ان الطريق ما يزال .امام الباحثين شاقا ومفتوحا في آن واحد ، ونعتقد ان اول خطوة جدية في دراسة هذه الفلسفة انما هي بعث ذخائرها الدفينة في مختلف مكتبات العالم العامة والخاصة ، واخراجها للباحثين في صورة نقدية علمية ، وقد بدا دارسون كثيرون في بناء هذا العمل ، ولكنه لم يبلغ بعد المدى الذى نريده له

لذلك وقع اهتمامى بكتاب وبشخصية يبدو انها مغمورة بعض الشيء لدى المهتمين بتاريخ الفلسفة الاسلامية ، وهي فيواقع الامر شخصية غنية ، كلها اثراء عقل ، وجراة علمية نقدية الا وهي شخصية ابى بكر بن العربى (543 هـ 1138) الناقد المتكلم الاصولى الفيلسوف المسلم الذى تتلمذ للغزالى، وتمثل منهجه النقدى ، وطبقه عل الفلسفة اليونانية ، وعل المتصوفة والباطنية ، كما طبق منهجا آخر نقديا تاريخيا عل احداث الفتنة الكبرى فتنة صفين فاوضح انها اصل لما تولد عنها بين المسلمين وترك لنا وثيقة من اهم الوثائق الفكرية التى تعبر عن روح الحضارة الاسلامية وعن نضالها ضد من فتن ومذاهب وآراء وانشقاق وتنازع النزعات العقائدية الاخرى المناهضة لها، هذه الوثيقة هى كتاب « العواصم من القواصم » الذى اقام فيه مؤلفه عواصم عاصمة من قواصم قاصمة ، عواصم عقائدية تعصم من قواصم هدامة تقصد الى قصم ظهر المسلمين الحضارى ، والى نقض بنائهم العقائدى الذى يكون عصب هذه الحضارة القوى ، ولبها النابض وروحها الوثابة

واهم وجه من وجود هذه الرسالة انما هو المنهج النقدى الذى اتبعه ابو بكر بن العربى ، وسلكه فى كتابه المذكور اذ ليس يخفى ما لهذا المنهج النقدى من صبغة فلسفية ، وروح علمي بالغة الاثر

ان اصول المنهج النقدى الذى نجده عند الباحثين المسلمين لترجع فى اساسها الى القرآن نفسه ، ذلك الكتاب الذى يمثل قطب حياة المسلمين العقائدية والفكرية والحضارية فالقرآن بذر بذور النقد ، فنقد نقدا واضحا مختلف التيارات العقائدية المعروفةحين نزوله ، من مجوسية ويهودية ونصرانية وصابئة ، ودهرية ، ومنكرى النبوات، ونهج فى هذا النقد نهجا عقليا ظاهرا فى اتجاهين رئيسيين : نقد عقائدى ، ونقد اخلاقى اجتماعى اى نقد فى ميدان الميتافيزيقا ، ونقد فى ميدان الاخلاق التى لا يمكن ان تبنى بناء عميقا الا عل اساس ميتافيزيقي او ارضية غيبية ، لذلك كله اتسمت ابحاث المسلمين وكتبهم العقائدية بهذه السمة النقدية ففى اول اتصالهم بذوى العقائدالاخرى والفلسفات المخالفة من يونانية وغيرها اخذوا فى نقدها ومعارضتها ، وقد تصدى السلف لعقائد دخلت فيالمجتمع الاسلامى وراوا انها مخالفة لعقائدهم فقاوموها وفندوها ،واتى المعتزلة فكانت فكانت لهم صولات نقدية عنيفة فى مناضلة المانوية وغيرها من التيارات الفلسفية والمذهبية حتى اتهم بعضهم بانه دنس نفسه بالفلسفة واخذ بها عن طريق مطالعتها والاتصال بها والرد عليها

والذى يتصلببحثنا هنا انما هو بيان نضال الاشاعرة ضد الفلسفة



لان ابا بكر بن العربى اشـعرى فى اتجـاهه العـام ، غزالى فى منهجه النقـدى ، لذلك نجد ابا بكـر بـن العربى يصرح بان اول من تصـدى لنقض آراء الفلاسفة وتفنيـدها انما هـو ابو الحسن الاشـعرى (324) واذا رجعنا الى كتب الاشعرى التى ذكرها المؤرخون فاننا نجـدها ذات صبغة نقدية ، اذ انـه تصدى للمنطق الارسطى فنقده ورده ، كما رد على كتـاب «الاثار العلوية» لارسـطو ، وناقش ابن الراوندى وغيره من الفلاسـفة والملحدين والطبائعيين ، والف كتابـا فى «مقالات الفلاسفة» وكتابا فى «الرد على الفلاسفة» وبـين ابن تيمية (728 هـ) ان ابا الحسن الاشعرى ذكر فى كتابه (مقومات غير الاسلاميين) مالم يذكره الفارابى ولا ابن سينا ولا امثالهما من المقالات والمذاهب .

ثم جاء المؤسس الثانى للمذهب الاشـعرى ولمقدماتـه الطبيعية والمنطقية وهو ابو بـكر الباقلانى (403 هـ) فسـار على ذاك المنهج النقدى الاشـعرى والـف كتاب «الدقائق» الذى رد فيه على الفلاسفة وعلى ما يذهبـون اليه من آراء فى النفوس والعقول ، والافلاك والنجوم وعلى نظرتهـم فى واجـب الوجود والفيض وما الى ذلك من المشكلات الطبيعية والميتافزيقية كمـا رد على المنطق الارسطى وخاصـة المقولات ورجع فى ذلك كله منطـق المتكلمين المسلمين على منطق اليونان .

اما ابو المعالى الجوينى (478 هـ) فقد توثقت صلته بالفلسفة ومع ذلك فانه لم يتردد فى نقدها ، ونجد ذلك فيما وصلنا من كتبـه مثل الشـامل الذى خصص فيه فصولا عدة للرد على الفلاسفة مثل فصل الرد على القائلين بقدم العالم وفصل الرد على القائلين بقدم المادة . وحدثنا ابو بكر بن العربى ان الجوينى الف كتابا «فى النفس» فى ثلاث مجلدات ذكر فيـه من مذاهب الفلاسفة فيها آراء كثيرة ولكنه تاثر بمذهب الرواقيين فى النفس فاخذ به. ونجد فى كتابه «الارشاد» نقدا لفكرة الفيض ولترتيب الموجودات والعقول.

ولكن الذى نقد الفلاسـفة نقدا منهجيا متكاملا حاسما انما هو الغزالى (500 هـ) الذى نفذ الى آرائهم ، ثم توجه بعد ذلك الى بيان تهافتها والى نقدها مما حرك ابن رشد للدفاع عنها ونقض ما اتهمهم بـه الغزالى من التناقض والتهافت والبطلان .

وقد تفطن ابو بكر بن العربى الى منهـج الغزالى النقدى فاوضح لنـا انه فاق منهج كل من تقدمه ممن ناقض الفلاسـفة وناقشهم وبـين لنا انه «ذبحهم بمداهم» اى انه اسـتخدم منهجهم المنطقى للرد عليهم بسلاحهم، واذا كان من تقدمه من المتكلمين ناقض الفلاسفة بمناقضات جدلية فهو قـد ناقضهم ببراهين حاسمة .

والواقـع ان الغزالى لم ينقـد الفلسفة اليونانية فى جملتها ، وانما اهتم بنقدها فى مجال الالهيـات وفى بعض المشكلات الطبيعية . اما المنطق وهو منهج الفلسفة فقد اخـذ به ، وبين لنا انـه لا يختلف عن المنطق الارسطى الا فى الاصلاحات ، وانـه من النادر ان يتطرق الخطا الى المنطق الفلسفى امـا الرياضيات فهى لا تخالف العقل ولا الدين ومن ثمت فانه لم يتناولها بالنقد .

واذا كان ابن تيمية قد ذهب الى ان اول من ادخل المنطق اليونانى فى المناهج الاسلامية فان الواقع التاريخى برهن لنا ان اول من ادخل المنطـق اليونانى فى المناهج الاسـلامية فان الواقع التاريخى برهن لنـا ان ابن حزم (456 هـ) قد سبقه الى ذلك حيث انه ناصر المنطق الارسطى والف فيه ودافع عنه ضد الفقهاء وحسبه منهجا سليما للعلوم كلها وان كان قد خالف ارسـطو فى القيـاس وفى العلية اما العليـة الطبيعية فقد اثبتها وذلـك فى كتابه « التقـريب لحد المنطق » لذلك نرى ابا بكر بن العربى يهاجمه مشيرا الى انه اخذ هذا المنطق اليونانى عن الكندى (252هـ) .

والحقيقـة انه لم ينفرد الاشاعـرة بنقد الفلسفة اليونانية ، وانما شارك فى بيان تهافتها تيارات فكرية اخرى مثل المعتزلة والشيعة والكرامية ايضا اذ نص ابن تيمية على ان سـائر طوائف النظر من المسـلمين كانـوا يعيبون المنطق اليونانى ويثبتون فساده ، ولا نعد والحقيقـة ان قلنا ان ابـرع من تصـدى لنقد المنطـق الارسـطى من الحنابلـة انما هو ابن تيمية فى كتابه الكبير (الرد على المنطقين) وفى كتـابه « نقض المنطق » وكتابه نصـيحة اهل الايمان فى الرد على منطق اليونان ،وفى كتابـه ايضا « جهد القريحة فى تجريد النصيحة » ولم يقتصر على نقد المنطق وانما نقد ما استخدم فيه المنطق لاثباته الا وهو الميتافيزيقا اليونانية والفلسفة الخلقية الاغريقية ونظرية المعرفة ايضا وقد الف رسالة سـماها « الرد على عقائد الفلاسـفة » (مجلة المنار المجلد 10 ص 616 – 621) وليس من شك فى ان ابـن تيمية اسـتفاد من منهج الغزالى ومن منهج تلميذه ابن بكر بن العربى وتاثر بهما غير انه امتاز عنهما بنقده المنطق الذى رحب به ابن حـزم ومن بعده الغـزالى وادخلاه فى صميم المناهج الاسلامية فى مختلف المعارف .

ورد النوبختى من الامامية فى كتابه « الآراء والديانات » على المنطق والف فى ذلك كتابا آخر سـماه « الرد على اهل المنطق » .

بل ان المتصوفة انفسهم شاركوا فى نقده اذ تصـدى شـهاب الدين عمر السهروردى والف فى ذلك كتاب « كشف القبـائح اليونانية ورشـف النصائح الايمانية » وكتاب « ادلة العيان على

البرهــان في الــرد على الفلاســفة بالقرآن » .

رغم سهام النقد العنيف التي وجهت الى المنطق فانه وجد انتشارا وقبولا في العالم الاســلامي بتاثير الغــزالي ، وتسرب المنهج النقــدي للفلاســـفة اليونانية الى المغرب الاسلامي الا انه غلبت على النــاس النزعة المنطقيــة الغزاليــة بعد ان ادخلها ابن تومرت (+ 524 هـ) وابو بكــر بن العــربي وبقيت لدى النــاس الى يومنا هذا ، لذلك نجد احد علماء تلمسان وفقهائها وهو محمد عبد الكريم المغيلي (+ 909 هـ ــ 1503) يــاخذ بها ويــرد علــى السيوطي الذي رفض ان ياخذ بالمنطق ونقده وكانت له صلة بعلماء المسلمين في افريقيا يراسلهم ويراسلونه ، واذا كان السيوطي قد هاجم المنطق متاثرا الى ذلك بابن تيمية في مصر فان المغيلي دافع عنه متاثرا في ذلك بالغزالي الذي بقي مذهبه سائدا في المغرب .

وينبغي ان نشير الى ان الفلاســفة الاسلاميين ايضا قد ردوا على مناهج المتكلمين واوهنوها ، وبينوا طــابعها الجدلي ، وخــاصة منهــج المعتزلــة والاشاعرة لذلك نجد ان اكثر نقد ابن سينا (+ 428 هـ) انما هو موجه الى المعتزلــة ، واكثــر نقد ابن رشــد (+595 هـ) انمــا هو موجــه الــى الشــاعرة . ووصــف ابن تيمية منهج المتكلمين في نقدهم للفلاسفة بانه منهج فاسد ، ولكنه بين أن منهج الفلاسفة ادى الى اخطاء في مسائل الميتافيزيقا والنبــوات أفدح واعظــم من خطــاء المتكلمين اما فيمــا يتعلــق بالعلــوم الطبيعيــة والريــاضية فان صــواب الفلاســفة اكثر من صــواب المتكلمين فيها ، ايضا فان الغزالي نفســه نقد آراء المتكلمين ومنهجهم خاصة وتابعه في ذلك ابن رشد ومن بعده ابن تيمية .

وقد تاثر ابن خلدون بمنهج الغزالي وابي بكر بن العربي في نقده للفلسفة فعقد فصــلا في بيان تهافت الفلســـفة وابطالهــا فنقد المنطــق والالهيــات والطبيعيات وبين لنا ان الفلســفة من ظواهر الحضارة ، وعوارض المدن ، كما اوضح الطابع الصوري للمنطق اذ انه ادرك الصــبغة التجريديــة او الانتزاعية التي اتســم بها المنطــق الارسطي فذهب الى ان صناعة المنطق غير مامونة الغلط لاغراقها في التجريد والبعد عن الواقع المحسوس ، ولكنه لم يغفل عن اهمية المنطق الصوري في الاستدلال وترتيب الادلة وشحذ الذهن، واجــادة البرهنية على ما هو معلــوم ولكن الوســيلة لادراك الحقائق عنده انما هي الفكر الطبيعي ، وليس المنطق الا وصــفا لفعل هذا الفكر الفطــري وبيانا لخطواته ، وبهذا فقد امتاز ابن خلدون عن الغــزالي وابي بكــر بنقده للمنطق والجدير بالاشــارة ان هناك توافقا غريبــا بين ابي بكر بن العربي وابن خلدون في وجهــة نظرهمــا الى الفلســفة والى الاخلاق والى القوانين العلمية .

لقد وجدت بعض الصعاب في دراسة آراء ابي بكر بن العــربي وذلــك من جراء عدم توفر دراسات حول مذهبه ، ولعدم اســتكمال العثــور على جميع مؤلفاته ولانه لم يبحث فيما اعلم لحد الآن لا من قبل المســلمين ولا من قبل المستشرقين ولكن ذلك كلــه لم يمنعنا من محاولة تركيــب مذهبــه ، وبيــان منهجه الذي يعتبر مثالاللمنهج الغزالي في المغــرب ولا من اقتحام المخاطر في سبيل آرائه وابرازها للناس .

ســلكت في هذه الدراســة منهجا تاريخيا موضوعيا فعالجت حياة الرجل ورحلته الى المشرق ، وملامح الحيــاة العقلية في عصره خــلال دراســتي لاساتذته الذين اخذ عنهم وتاثر بهم ، وبيان المواطن التي نزلها واقام فيها ، وصنفت تآليفه تبعا للموضوعات التي عالجتها واشرت الى الكتب التي ورد بها من المشرق وادخلها الى المغــرب معتمدا في ذلك كله على نصوص ترجم فيها لحياته بنفســه ، وان كانت هذه النصــوص مبعثرة في مختلف كتبــه المخطوطة والمطبوعة ا وقد اخترنا ان ندعه يتحدث بنفســه عن رحلته و عن اساتذته احيانا كثيرة فاورد نا من هذه النصوص ما يؤدي الغرض في البحث .

اما المنهج الموضوعي المقــارن فقد استخد مناه في بقية اجزاء الدراســة معتمدين في ذلك على التحليل والتركيب

يتكون هذا البحث من قسمين تناولنا في القسم الاول منه نقــد ابي بكر بن العربي للفلســفة اليونانية ، بجانب آرائه الكلامية ، وتناول القسم الثاني تحقيق كتابه « العواصم من القواصم » تحقيقا نقديا .

اختبار حاسم للصحافة الامريكية

إعداد :
محمد طاع الله

اختبار حاسم للصحافه الامريكيه

بدا هذا الفصل الغريب فى حياة الصحافة الامريكية فى صيف 1967 ، فى اوج معركة الفيتنام ، فقد اراد روبرت مكنمارا ان يؤلف لجنة لكتابة تاريخ ضخم عن صناعة القرارات فى الهند الصينية

وقام ليزل غيلب من موظفى مكنمارا بجمع فريق من الاكاديميين ما بين 30 الى 40 وكلهم من الرسميين المدنيين والعسكريين داخل الحكومة وخارجها ، وكل منهم على اطلاع جيد على احد مظاهر الحرب الفيتنامية

وقد اتيح لهم الحصول على جميع ملفات البنتاغون وعدد كبير من ملفات وزارة الخارجية وكالة المخابرات المركزية وبعض الادارات الاخرى ، بينما لم يسمح لهم الحصول على الاوراق الشخصية للاوراق

وخلال عام انتجوا ما يمكن ان تطلق عليه كل سلطة حكوميه ـ دراسه اكاديمية رزينة لمراحل صناعة القرارات ـ وهى ليست متكاملة او نهائية ولكنهاقائمة على اساس النصوص الموجودة فى اوراق الحكومة السرية والمحاضر والبرقيات ومشاريع المقترحات التى لم يكن من المحتمل ان يطلع عليها الجمهور ، وهى سجل لثنائية العمل السياسى والعسكرى من طرف اربع ادارات حكومية امريكيه

وان دراسه البنتاغون التى جاءت فى 47 مجلدا تتحدث فى تحليلاتها وتشير فى نصوصها الى ان التعهدات الامريكية فى الحرب الباردة والساخنة لا تقيم وزنا فى اى مرحلة لاى قانون داخلى او دولى ولا حتى لحقوق مجلس الشيوخ او متطلبات الدستور وحساسيات الحلفاء وحصير الشخصيات وحقوق المواطنين الامريكيين او حتى لادنى مستويات الصدق

ولا شك ان فى نشر مثل هذا السجل البائس شأن الحرب التى تخوضها الولايات المتحدة نفسها سيضايق الحكومة فى عيون العالم وفى عيون مواطنيها انفسهم ، وقد يضر بالسمعة المعروفة عن بعض الممثلين الرئيسيين فى الدراسة

وقد رحبت حكومة نيكسون من جهة بالفوائد التى ياتى بها نشر تلك المواد الصحفية على الصعيد الداخل الا ان المتهمين فى تلك الوثائق هم من الحزب الديمقراطى ، والوثائق نفسها عبارة عن تاريخ لسلوك الحزب الديمقراطى فى الفيتنام ، ولكن حكومة نيكسون تخشى من ان تكون وثائقها هى موضوع الاهتمام الصحفى فى المستقبل ، وهى تواصل خوض حرب الهند الصينية من جهة اخرى ، وباساليب مماثلة ، وقد وصفت ادارة نيكسون جريدة التايمز بانها تريد خذلان الامة ببضاعة مسروقة

وكتب ماكس فرانكل فى جريدة نيويورك تايمز يقول : لقد طرحت هذه القضية صراعا بين الحرية الشخصية وبعض المفاهيم حول الامن الوطنى ، وقد كانت من الناحية السياسية نتيجة عامين من التوتر بين ادارة نيكسون ووسائل الاعلام السائدة ، وقد اخذ استخدام قوانين التجسس لملاحقة نيويورك تايمز ثم واشنطن بوست كاقصى تدبير تلجا اليه ادارة نيكسون لملاحقة هاتين الصحيفتين بعد الحملات التى شنها آنيو نائب الرئيس على الصحافة عامة .

وقد شكلت المقالات المنقولة ، وليس المحررة ، وثيقة اتهام لا مثيل لهـــا لادارة الرئيس السابق جونسون ولكثير من الرسميين الذين آتى بهم جـــون كنيدى الى الحكم

وبالرغم من ان اعـــدادا كبيرة من القراء سيشكون فى ســـــهولة هذا التسرب « المقصود » للاسرار والوثائق الحكومية من طرف الادارة الحاليـــــة الجمهورية

سبر الدماغ الانسانى

قيل ان مشكلة العلاقات الانسانية ناجمة عن جهل الانسان لنفسه وللطبيعة وبينما تتجه حفارات النفط الى اعماق التربة ويغزو الانسان القمر ، نراه يتجه بنشاط وعزيمة مرتدا نحـــو نفسه ، بحيث يختار من جسمه مركـز القيادة وهو الدماغ ليكون مادة جديدة للدراسة

وفى العيادات والمستشفيات والمخابر الامريكية تلتصق اجهزة قياس تموجات الدماغ برؤوس المرضى والاصحاء وانواع الحيوانات المختلفة للحصول على معلومات دقيقة عن مختلف الانفعالات

وفى ركن الطب كتب المعلق الطبى لمجله نيوزويك يقوم « ليست هــذه المحاولات سوى عينات من المعالجــات والابحاث الكثيرة التى يقوم بها رواد الدماغ ، واذا جاء المستقبل ليؤكد آمال الحاضر فان المغامرة الكبرى التى وضعت اكتشاف الدماغ الانســانى مهمة لها يمكن ان تؤدى الى تحولات كبرى فى البحث الطبى والعلاج النفسانى ،وهناك تقنيات ومعلومات جديدة البتت فائدتها المباشرة للانسان فى مختلف ميـادين حياته

وتجد هـــذه التقنيات والمعالجات الجديدة انتشارا كبـــيرا فى المخابر والمستشفيات الامريكيه ، ويتحـــدث البعض منذ الآن عن « جزئيات الذكاء » وامكانية تعلم كل شىء ابتداء من النحو الفرنسى حتى الرياضـــيات المندمجة بواسطة تناول الاقراص المناســـبة ، ويناقش آخرون بكل جدية امكانيـــة اقتران نتائج مجهـــودات رواد الدماغ بالاكتشافات الاخيرة فى ميدان البيولوجيا الجزيئية لخلق مهندسين عباقرة او ادمغة خارقة تفوق طاقة دماغ انشـــتاين او موهبة باخ

ثمن المناصب الدبلوماسية

واوضحت دراسه صدرت فى شـهر جوان الماضى « ان الرئيس نيكســون تلقى حــــوالى 300 الف دولار من التبرعات من مسانديه الاغنياء ، وقد عينهم الرئيس نيكسون فيما بعد سفراء فى عدد من البلدان بعد ان استطاع ان يقنع مجلس الشيوخ بجدارتهم بهــذه التعيينات

،ومن بين هؤلاء الســـفراء آرثر واطسون الذى كان رئيســا تنفيذيا لمؤسسة الآلات الالكترونية الحاسبه (آى بى ام) ، وقد دفع المبـلغ للرئيس نيكسون تحت ستار عمليات خاصة ، ومن بين السفراء الآخرين اولئك الذين عينوا فى جامايكا والنمسا ومدغشــقر ومالطا ولكسمبورغ وهولندا وايسلندا وترنداد

وقد نشرت قائمة من المتبرعين الذين دفعوا الاموال فى حملة الانتخـــابات للحصول على مناصب اعضاء فى مجلس الشيوخ فقط

تكاليف الانتخابات

وذكرت جريدة واشــــنطن بوست الامريكية « ان تكاليف حملة انتخابات 1968 بلغت حوالى 300 مليون دولار ، اى اكثر من تكاليف اية حملة اخرى مضت ، وهى عبارة عن زيادة 50٪خلال اربع سنوات ، وقد انفق الجمهوريون الذين فازوا ضعف الديمقراطيين

والسبب فى رفـــع ثمن الفوز فى الانتخابات هى التكاليف الضخمة التى انفقت على التلفزة ، وحقيقة ان عددا امريكى ناخب لضمان صوته 60 سنتا (اى حوالى ثلاثة دنانير)

وقد صدرت هذه الخلاصـــة المرفقة بالاحصائيات عن استقصاء واسع اجرته مؤسسه ابحاث المواطنين فى برنسيتون (نيو جرسى) ونشر بعنوان « تمويل انتخابات 1968 »

الكاثوليك فى الفيتنام

عندما تفلس سياسه ما بالجملة ، فانها لا تلبث ان تتخذ لها مواقع من خلال التفاصيل ، ويبدو ان «الانسحاب» التدريجى للقوات الامريكية من جنوب الفيتنام يثير قلق مليون و 700 الف كاثوليكى رومانى من الفيتناميين ومعظمهم من الطبقة الحاكمة فى سايغون ، وهم يمثلون طبقة المعمرين فى الجـــزائر سابقا ، ويتضح هذا القلق فى واشنطن وسايغون والفاتيكان

وقد حدث فى الشهر الماضى حـوار حاد داخل مجلس الشـــيوخ الامريكى عندما حذر زعيم الاقلية هيو سكوت من ان 650 الف فيتنامى شمال كانوا قد هربوا الى الجنـــوب عام 1954 سيكونون اول ضحايا النظام الشيوعى لو وصل الشيوعيون الى الحـــكم فى الجنوب ، وقد افترض الشيخ الامريكى ان عام 1954 هـــو عام 1971 دون ان ياخذ فى الاعتبار فارق الاجيـــال او الاتجاهات الجديدة لهم فى « جنـــة الجنوب » كما رد عليه احد محاوريه

وفى الفاتيكان رغم انه لم يتخـــذ موقف رسمى علنى ، فان الرســمين يوضحون ان الفاتيكان حث الكاثوليك الفيتناميين خلال الاشهر الماضية عـلى الوفاق من اجل الحياة فى ظل حـكومة ائتلافية فى سايغون ، كما نوقش فى باريس مصير كاثوليك جنوب الفيتنام

مع ممثل هانوى وجبهة تحرير جنوب الفيتنام ، ومن سايغون كتب مراسل مجلة نيوزويك نيكولاس بروفيت يقول:
« كان احد الفرنسيين الجزويت (اليسوعيين) وهو الاب الكسندر دو رودس هو الذى منح الطابع اللاتينى للغة الفيتنامية ، ثم كتب دليلا للمبشرين الاوروبيين سخر فيه من البوذيه والكنفوشية وغيرها من العقائد المحليه

وفى القرن الثامن عشر ، كان القسيس الفرنسى بير بينو دو بيهين مسؤولا مباشرا عن أول تدخل استعمارى فى شؤون الفيتنام السياسية وفى ظل النظام الفرنسى خلال القرن العشرين وصل الفيتناميون الكاثوليك الى السيطرة تدريجيا على الجيش والشرطة والخدمات المدنية ، وقد اتيحت لهم فرصة التثقيف ، كما انهم اشد نزعة غربية من الفيتناميين العاديين ، وقد اصبح الذين اعتنقوا الكاثوليكية يشكلون طبقة الخدم للفرنسيين الذين استعملوهم صلة وصل بينهم وبين بقية السكان العادين للوجود الفرنسى

وكنتيجة لذلك ، فان الكاثوليك الفيتناميين يشكلون الآن 25 فى المائة من النخبة الفنية والمثقفة فى جنوب الفيتنام رغم انهم يمثلون 15 فى المائة فقط من مجموع السكان ، والرئيس فان ثيو نفسه من الذين اعتنقوا الكاثوليكية متاخرين

وبالاضافة ، فان اكثر حكام الاقاليم وقادة الفرق العسكرية ونسبة مئوية كبيرة من الضباط هم من الكاثوليك ، ولهذا من الصعب ان ياتى التغيير من الكنيسة ، فهناك الكثير من الكاثوليك الذين يستمدون مصالحهم من الوضع الحالى للنظام ومن الحرب نفسها

وقد ضاعفت هجرة 1954 من الروح المحافظة التاريخية لدى الطائفة الكاثوليكية الفيتنامية ، اذ جاء اغلب اللاجئين من قرى الشمال الكاثوليكية حيث كان القساوسة اصحاب السلطة الاقوى فى المجموعة المحلية

اما فى الجنوب ، فقد وضع هؤلاء المقتربون فى قرى اللاجئين ولم يتبدل وضعهم فى العالم الذى لجأوا اليه ، وما زالوا يعيشون تحت تاثير القساوسة الذين انتقلوا معهم والذين يحملون نزعة عنيفة معادية للشيوعية

« وهؤلاء القساوسة هم سادة الحرب » كما يعترف قسيس شاب ،فهم يجعلون الناس يخشون جهنم وشياطين الشيوعية ، وبالنسبة لكثير من الناس، فان جهنم والشيوعية يعنيان نفس الشئ »

مخاض الكنيسة الهولندية

وحول النزاع داخل الكنيسة الهولندية كتب جيمس جونسون فى الطبعة الدولية لجريدة هيرالد تريبيون يقول :

« رجل هولندى واحد يساوى فقيه واثنان كنيسة وثلاثة يكونون شيعة »

وقد كان الرومان الكاثوليك يستشهدون بهذا القول المأثور خلال اربع سنوات مضت عند الحديث عن المخاض الذىتعيشه الكنيسة الهولندية، فقد ظهرت وجوه جديدة بعد احقاب من الركود الداخلى ، وانشقت « البحار المقدسة » لتقذف بالمخاوف والتحذيرات، وطاف بالبلاد حجاج كثيرون من الصحفيين والكاثوليك المتحررين

وفى البلاد لم ينعدم المتفائلون الذين يرون ان مراجعة الكنيسة لنفسها لا يعنى قطعا ضعفها ، اما المتشائمون فهم يرون فى الاضطرابات السطحية علامة غليان داخلى اخطر من الخلافات العلنية

وفى نفس الوقت ، فان القساوسة الهولنديين يدركون باس ان المعارك مع روما والمحافظين من صفوفهم سوف لا تسفر عن فائز وربما تؤدى فقط الى تغيير طفيف ، ولكن هذه المعارك تستهوى كثيرا من التقدميين

الزواج على الطريقة اليهودية

واشارت صحيفة نيوزويك الى ظاهرة تفوق الابعاد الاجتماعية فى مدلولها ، وقد كتب احد مراسليها من الشرق الاوسط يقول « كان الزواج المختلط يعتبر باستمرار تهديدا للمجموعة اليهودية وقد اصبح الآن احد المشاكل التى تواجه تزمت القوانين الاسرائيلية ، ففى الشهر الماضى قال وزير الشؤون الدينيةالاسرائيلى ان 207 يهوديا وكلهم من النساء قد تحولن الى الاسلام للزواج من مسلمين

وتعتبر هذه اعلى نسبة فى التحول عن الدين اليهوى فى حياة الوجود الاسرائيلى ، وحذر احد الرسميين من ان نهاية هذا السلوك ليست [illegible] وقال اننى لم اسمع قط عن تحول رجل يهودى الى الاسلام ، وربما يحدث مرة واحدة خلال جيل ان تتحول مسلمة الى اليهودية ، ولكن الفتيات اليهوديات هن الشكل »

ويقول ياكوف يهوشا اليهودى الذى يسير الشؤون الاسلامية انه قام بدراسة عينات من الزواج المختلط « ان الفتيات الاسرائيليات يجدن من اسباب الاغراء ما لا يجدنه مع الشباب اليهودى ، فالحفاوة بهن بالغة من طرف الشباب المسلمين الذى يمثل لتلك الفتيات عالما جذابا جديدا ووضعا اقتصاديا افضل او هروبا من حياة بائسة احيانا ، بالاضافة الى وفرة الاسلوب الرومانطيقى»

ومع ذلك فالزواج لا يحل مشكلة فالاطفال فى الشريعة الاسلامية يبقون مسلمين اذا كان آباؤهم كذلك ،والاطفال فى الشريعة اليهودية يبقون يهودا اذا بقيت امهاتهم يهوديات ، وحتى اذا تحولت امهاتهم الى دين آخر

— المحتــوى —



أصالتنا

تعني

[illegible]

الابواب والنوافذ

[illegible]

السقوف والرفوف

المحتوى

جمعـــة .. أوأحـــد ..

من المعلوم ان هناك سورة فى القرآن ، سميت سورة الجمعة ، وفيها وردت آيتان بخصوص هذا اليوم المبارك :

1 – « يا ايهـا الذين آمنوا اذا نودى للصـلاة من يوم الجمعـة فاسعوا الى ذكـر الله وذروا البيع » .

2 – « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله» صدق الله العظيم.

ومن هنا يتضح أمران :

أ) ان وقت صلاة الجمعة لا بد فيه من التوقف عن العمل لادائها .

ب) ان الاسلام لا يطالبنا بيوم كامل كعطلة اسبوعية ، ولكنه اذا كان لا بد من مراعاة يوم كامل ، فالمنطق ، والتاريخ ، والذوق السليم ، والحشمة ، والاحترام لانفسنا ، كل ذلك يفرض علينا ان يكون يوم العطلة – اذا كان لا بد من عطلة يوم كامل – بيوم الجمعة .

وفى حديث للبخارى : « هدانا الله ليوم الجمعة ، والناس لنا تبع : اليهود غدا والنصارى بعد غد » .

وفعلا ، فمنذ البخارى وقبل البخارى حتى اليوم وجميع اليهود فى العالم ، اينما كانوا ، فى ترينيداد وتوباغو أو فى رأس الخيمة ، فى موسكو أو واشنطن ، فى الجـزائر أو كوستاريكا ، يراعون يوم السبت كعطلتهم الاسبوعية ، مـع ظهرية الجمعة ، كما ان جميع المسيحيين اينما كانوا فى العالم ، فى روما أو باريس أو الجزائر أو برلين ، بغربها المسيحى وشرقها الشيوعى ، فى واشنطن أو موسكو ، وفى جميع البلدان الشيوعية يراعون يوم الاحد كعطلتهم الاسبوعية ، مع ظهرية السبت .

وكذلك كان الوضع عند المسلمين ، وعندنا فى الجزائر خاصة ، حتى سنة 1830 كما اشارت الى ذلك بعض الجرائد الفرنسية الكبرى منذ أشهر !

ومنذ 1830 وعطلة الاسبوع عندنا بيوم الاحد عوض الجمعة ، أى اصبحت فرنسية كغيرها من مظاهر الحياة القومية واليومية ...

وكان ينبغى ان يصحح الوضع فى هذه النقطة بالذات منذ استرجاع الاستقلال والسيادة سنة 1962 ، وهى لا تكلفنا كثيرا ، ولا قليلا ، ولا تتطلب اطارات ومتعاونين ، ولا رؤوس اموال !

وقد فعلت ذلك جميع البلدان العربية ، من ليبيا ومصر حتى الخليج ، وبعض البلدان الاسلامية الاخرى ، من التى لديها صناعة وانتاج ، ويكفينا ان نذكر ايران وافغانستان وباكستان .

وبقينا نحن فى الجزائر مع تونس والمغرب ولبنان !

بل ان تونس تراعى النصف الثانى من يوم الجمعة كعطلة اسبوعية وان كانت تضيف اليه يوم الاحد كاملا غير منقوص !

وقد يقول البعض عندنا وفي البـلدان الشقيقة المذكورة ، اننا بحكم اتصالنا باوروبا وامريكا نحتاج فى هذه المرحلة من البناء الى اتباعهما فى يوم العطلة الاسبوعية ، وهنا نقول لهم ان ايران وباكستان وافغانستان ، ليست اقل احتياجا الى الاتصال باوروبا منا ، وانها هى ايضا تخطط وتبنى ولها صناعات !

بل ان اسرائيل نفسها التى هى اكثر اتصالا باوروبا وامريكا منا واكثر احتياجا اليها ، وهى التى تبنى احدث الصناعات واكثرها تنوعا ، لم تتردد فى جعل عطلتها الاسبوعية بالسبت ، بل وان الحزب الدينى فيها تدخل ليمنع سباق الخيل فى ايام السبت ، كما ذكرت ذلك جريدة لوموند الفرنسية .

وقد يقول البعض الآخر لدينا ، اننا نفقد الاتصال بالبنوك الدولية التى تغلق مكاتبها ابتداء من العاشرة صباحا حتى يوم الجمعة ، وهنا نقول لهم ايضا ان هـذه الحجة فى صالح الجمعة ، فاذن لا نخسر شيئا بجعل العطلة الاسبوعية بيوم الجمعة . ثم ان البنوك التى تتصل بالخارج قليلة جدا والموظفين المختصين بذلك فيها أقل ، ويمكن ان يكون فيها دوام مساء الخميس ــ اذا اعتبرناه جزءا من العطلة ــ وصباح الجمعة حتى العـاشرة صباحا ، وهى الساعة التى تنهى فيهـا البنوك الدولية فى الخـارج عملها .

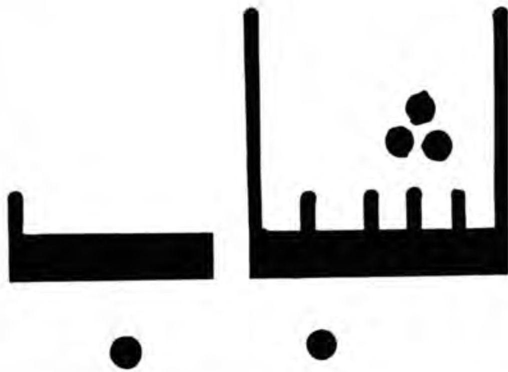
واخيرا قد يقول البعض الآخر ان هذه كلها ليست الا شكليات ، والا فما الفرق بين الجمعة والاحد ؟ ولهؤلاء نقول ان غلواءكم فى التضحية بما تسمونه الشكليات ، كالتعريب ، والجمعة ، والعادات القومية ، قد يحولنا الى مجموعة اشكال ، بدون روح !

لماذا تتعلق هذه الدول كلها بهذه الشكليات ، كاللغة ، والعادات ، والاعياد ، لانها جزء من تراثها الثقافى والروحى ، وارتباطها بالتاريخ ، وهو شىء مهم جدا لكل امة تحترم نفسها وتريد ان تحترم !

ومن الامثلة المذكورة ، من ايران وباكستان وافغانستان الى اسرائيل والبلدان الشيوعية يتضح لنا ان التعلق بيوم الاحد كعطلة اسبوعية ليس الا بقية من بقـايا الرواسب اللاشعورية ... وليس له أى مبرر اقتصادى أو غيره .

جمعة أو احد ؟ بقينا نحن ، والمغرب ، وتونس ، ولبنان !

مـولود قـاسـم
وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية



ريثما يصدر كتاب الملتقى فاننا سنبدأ بنشر محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران حسب التسلسل التاريخى ، وسنتوقف عن نشر هذه المحاضرات فور صدور الكتاب قبل نهاية السنة ان شاء الله.

وفيما يلى نص الكلمة التى القاها الدكتور احمد طالب الابراهيمى وزير الاعلام والثقافة فى افتتاح الملتقى وتليها كلمة الاخ مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

بِسْمِ اللهِ والصَّلاة والسَّلام على رسُول الله

أيها الاخوة ..

أُحَيِّيكُم بمَا حيَّا بهِ رَبُّ العَالمين عبادَهُ المؤْمِنينَ فقَال لِإمَام ٱلمرْسَلين « وَإِذَا جَاءَكَ ٱلذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى

عنصر البقاء والخلود

د. احمد طالب الابراهيمي

وزير الاعلام والثقافة

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » فَسَلامٌ عَلَيكُم أيُّها الإخْوَةُ ورحْمَةُ الله وبَرَكَاتُه .

فإنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ علينَا ورَحمَتِهِ بنَا إقامةَ هٰذا المُلتقَى الاسْلَامي العَظِيمِ هٰذِهِ السَّنَةَ بعاصِمَةِ الغَرْبِ الجزَائِرى بَعْدَ أن أقِيمَ فى السَّنَةِ السَّالفةِ فى عاصِمَةِ الشَّرقِ الجزَائرى ، وهَكَذا بسَعْيِ وفضْلِ وزَارَةِ التَّعليم الأَصْلي والشُّؤونِ الدِّينيَّة أصْبَحَ هٰذا الملتقَى مِنَ السُّنَنِ الحَسَنةِ المُتَّبَعَةِ بالقُطرِ الجَزَائرى وأصْبَحتْ أيامُهُ مِنَ الأَعيَاد السنَويَّة يجتَمِعُ فيهَا عُلَماءُ ومُفكِّرُون وطلبَةٌ ومُصْلحُون يأْتُون من كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ علَى تَباعُدِ مساكِنِهِمْ ، ولا أقُولُ عَلَى اخْتلاَفِ ديارِهم لِأَنَّ المسْلمينَ فى دَارِ الاسْلَامِ هُمْ فى دَارهِمْ .

فالاسلَامُ دِينُ تَوحيدٍ واتحَادٍ وَعِلْمٍ وعَقْلٍ وأُخُوَّةٍ وتسَامُحٍ وهُو لَا يَقولُ بالتَّفرِقَةِ بيْنَ النَّاسِ ولَا بالعَصَبِيَّةِ وَلاَ بِحَمِيَّةِ الجَاهليَّةِ ،

وجَاءَ فى خُطْبَة الرَّسول صَلَّى الله عَلَيْه وسَلمَ يَوْم فَتح مَكَّةَ قولُهُ : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إنَّ اللهَ قَدْ أَذهَبَ عَنْكُمْ نَخْـوَةَ الجَـاهِلِيَّةِ وَتَعَظُّمَهَـا بِالآبَاءِ .. النَّاسُ مِنْ آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » . وَحِينَ سَأله أحَدُهُم مَا الْعَصَبِيَّةُ ؟.. كان جَوَابُه : « أَنْ تُعِينَ قَوْمَكَ عَلَى الظُّلْمِ » على هـذا الأَسَاس يَبْدُو جَلِيًّا أَيُّهَـا الأُخْوَةُ أنَّ كلَّ دَعْـوَةٍ الىٰ طَائِفِيَّةٍ مَذْهَبِيَّةٍ أوْ عَصَبِيَّةٍ عِرْقِيَّةٍ فَهي فِي ظَاهِرِهَا وجَوهَرِهَا دعوةٌ ضدَّ الاسْلاَم .

فَـإذا كـانَ الاسْـلاَمُ يحَـرِّمُ التَّعصُّبَ الطَّائِفى ويَأمُرُ بِالتآخِي بَيْنَ المسْلمينَ وَغيْرهِم ، فمِن بَابٍ أحْرَى وأوْلىٰ أن لاَ يُجيزَ التَحَزُّبَاتِ المذهَبيَّة بَين المُسْلمينَ أنْفُسِهِم . فالمسْلمُون كالجَسَد الوَاحِدِ وَلُحْمَةُ الـدِّين أقْـوى وَأَمتَنُ منْ لُحْمَـة النَّسَب والقَرَابَةِ ، وشَتَّان بَـيْنَ الرَّوَابِـطِ الرُّوحيـَّة التى تَبْقى بِبَقَـاءِ الرُّوح وتَخْـلُدُ بخُلودِهَا ، وَبَيْن الرَّوابطِ المَـاديَّة التى تَفْنىٰ بفَنَـاء الجَسَد وقَـد تزُولُ قبْـلَ زوَالِهِ .

وَبَعْد هٰذا كُلِّه فهَل منَ الاسْلام ونَحْن فى معْرَكةٍ حَاسِمَة مع مَنْ أخرَجُـوا المُسْلمِين منَ المَسْجِـد الأقصىٰ وَمِن ديَارهِم وشرَّدُوهُـم تحْت كلِّ كوْكبٍ .

وهَل من المـُرُوءة والكرَامَــة والحَالةُ هـذه ومَا يَزَال بَيْننَا إلى اليـَوْم مَن يَتَنَـابَزون بالألْقَـاب ويَتقاتَلون بالحِرَابِ وَهـمْ بِمَرْأَى ومَسمَعٍ مِن العَدُوِّ المُشْتَرَك الذِي شَنَّهَا غارَةً شَعْوَاءَ وحَرْبًا عُدوَانيَّة عَلى العَرَب والمسْلمين فأخْرَجَ مَنْ أَخرَجَ منهُمْ وَهُو يَترَبَّصُ الدوَائرَ بالدِّيارِ التى لمْ تَطأْهَا قدَمُه .

فهَل قُمنَا نَحن كمُسْلمينَ بمـَا يَتَطلَّبُه منَّا الاسْلامُ كدين ..

إنَّنـَا مـَا زِلنـَا نَكتَفى بالخُطَب الرَّنانَة فى الاذاعـَات والمقَـالاَت البَليغَةِ فى الصُّحُف ، هٰذا بَعيـدٌ كُلَّ البُعْد عمـَّا يطلُبُه الاسْلامُ منَ المسْلمينَ منَ الدَّعـوَة الى الصُّلْح بَـين الطائفتَيْن منَ المؤمِنين فَـإِن بَغَتْ إحْداهُمَـا عَـلَى الأخْـرَىٰ فالاسْلامُ يأمُـرُ بقتـَال الطَّائفَـة الْبَاغيَة حتى تَفِئَ إلىٰ أَمْر الله .

بِوَدِّى أن يَكـُون هـذا الملتقىٰ يَبحَثُ فى حَاضِرنـَا وَمُسْتَقبَلنَا ، فاننـَـا عشنَا زمَانـًا وَنحنُ إذا اجْتمَعْنَا نُحَـاولُ نسيَانَ واقِعنَا ، فنَلتَفتُ الى المـَاضى فنفتَخـرُ بانتصَارَات صَـلاح الدِّين ، ولا نُفـكِّرُ فيمـَا يَؤولُ اليـْه أمْـرُ فَلسْطينَ . أمَّا وَقد وَقعَت الْوَاقعَةُ فَـلا ننسَى هَزيمتَنَا بفلَسْطينَ لا أقـُولُ نَكْسَتَنَا ، فيجبُ أن نُسمِّيَ الأَشيَاءَ بأسْمَائهَا ولا نَهْـرُب منَ الحقيقَة الى المجَـاز فمَنْ كتَمَ دَاءه قَتـَلَه .

وبودِّى من جهَة أخْرَى أن تَكونَ

العنَايــــةُ بالشَّبَاب فى ســـــائر الميَادين مِن النُّقط الرَّئيسيَة التى يَكونُ الانطلاقُ منهَا إلى غَيرهَا فإن الشبَابَ هُو عُنصُرُ البَقَاءِ والخلوُدِ فِى الأمَم،وَبالشَّبَاب ، نَسْتَطيعُ أنْ نَحْكُمَ عَلَى مُسْتَقْبَلِ الأمة ، فشبَابُ اليَوْم هُو الدَّليلُ الصَّادقُ لمـــا يَأتِى به الغَدُ القريبُ،لذَلك نَأسَفُ اذا رَأيْنـــا مِن بَعْض الشَّـبَاب انحرَافا عَن الجـادَّة وانجرَافــاً فى الْهـاويَة ، فَبِالأمس كَان شبَابُنا يَذوقُ لبـاسَ الجـُوعِ وَالخوْف فى عَهْدِ الاحْتِـلاَل ، فَفجَّرَ ثَوْرَةَ أوَّلِ نوفمْبَر وَنفضَ عَنْـهُ غُبـارَ الذلِّ والهَوَان يَحْـدوهُ حُبُّ الاسْتشهاد فى سَبيل الله وَالوَطن .

ونحْن اليَوْم فى مَعْرَكةِ البنـاءِ والتَّشْييدِ لاَ بُـدَّ لنَا أن نتساءَلَ هَل الرُّوحُ التِى كَانَتْ تُسَيْطرُ عَلى شبَاب معْرَكـةِ التَّحْرير بِالأمْس تُسَيْطرُ اليَوْم علىٰ شَبَاب مَعْرَكةِ البنَاءِ؟ذلكَ مَا لاَ نَرَاهُ (ويَاللأسَف) فى كلِّ شبَابنَا اليَوْم .

ان الأخلاقَ السَّامية والعـادَاتِ والتقاليدَ الوَطنيةَ هِى التى تُكوِّن الشبَابَ الصـَّالحَ وَتحْميـهِ مِن التفَسُّخ والانحِـلاَل والتمـــزُّقِ وتُؤَهِّله لأن يَسُوسَ أمْرَ البلاَدِ .

وَاذا كـان مـنَ الشبـاب مَنْ يُعْرِضُ عَن هٰذِه الأخلاقِ والعادَات والتَّقاليدِ ويَعْدِلُ عنْهَا الى عـاداتٍ وتقاليدَ لا تمُتُّ الىٰ دِينهِ وَأمتـهِ بِسَبَب ولاَ نَسَب ويَتهـــاوَنُ فى حقـوقِ وَطَنـهِ فهُـو غيرُ جَـديرٍ بِالمحَـافَظة عَلى اسْتقلال البــلاَدَ والدِّفَاع عن كَرَامَتهَا فى مُسْتَقبَل الأيام وهُو فى الْحقيقةِ مَرَضٌ مِن الأمـرَاض التى يَنبَغى حمــايَة المجتمَع منهَا بَل هوَ عُضوٌ أشلُّ فى المجتمَع لا يُسْترَاحُ مِنْه الا بِبَتْرِهِ وَإهْمَالِهِ .

وَإذَا شُلَّ فِى الْجَمَاعَـةِ عُضْـوٌ
فَمِنَ الـرَّأْيِ فَصْمُـهُ لاَ خِصَامُهْ

بهـٰذا البَيْت لِشاعِرِ الجَـزَائر الكَبير مُحَمَّدِ العيــد أخْتَتمُ كَلمَتى القَصيرَةِ هٰذه وَأتمَنىَّ لمْتَقاكُمْ كلَّ نَجاحٍ وَتوْفيقٍ وَسَدَادٍ .

النَّجَـاحُ أنْ تَخْـدُموا الاسْـلاَمَ بأسَاليبِ العَصْر الْحديثِ .

التَّوْفِيقُ أَنْ تُحَطِّمُـوا الأَصنَامَ وتَقْضُوا عَلى كُلِّ جَاهِلِيةٍ جَـديدةٍ وَتمْحُوا صَفحَاتِ الخـزْيِ والعـار والْحَديدِ وَالنَّارِ التى يُضْطَهَدُ بهَا إخوَانُكمْ فِى كلِّ بقَاعِ المعْمُورَة .

السَّدَادُ أن تَدْفَعُـوا الْجَمـاهِيرَ الشَّعْبيَّةَ التى تَنْتمُون اليهَـا عَلى أخْذِ حُقوُقهَا وَتحْقيرِ جَلاَّديهَا .

هـٰذا وَأسْألهُ تعـالىٰ أن يَجْعَلَ اجْتماعَنَا هـٰذا خالصـاً لوَجْهـهِ الكَريمِ وأن يَمُدَّنَا بروحٍ مِنْهُ حتىَّ تَنْتَصرَ قضيةُ الاسْـلامِ فى جَميعِ الميَادين .. والسَّلاَمُ عليكم ورَحمة الله وبَرَكَاتُهُ ..

حَضَرَاتِ السَّادَة أعضاء مَجْلس الثَّوْرَة وَالحكومَة ،
حَضَرَاتِ الأَسَاتِذَة الأَفَاضل ،
إِخوانى الطَّلَبَة والطَّالبَاتِ ،
حضرَات السَّادَة والسَّيِّدَات
السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بِمُنَاسَبَةِ افتتَاح هَذا الملتقَى أَوَدُّ أَن أُرَحِّبَ باسْم الرَّئيس هوارى بُومَدين ، فى بَدْء هذه الكلمَةِ ، بالسَّادَة الأَسَاتذة الأَفَاضِل منَ الأَقطَار الشَّقيقَة الذينَ تَجَشَّمُوا مَتاعبَ السَّفَر لمشَارَكتنَا فى هذه الأَيَّام الحافلَة بدرَاسَاتٍ قَيِّمَةٍ عَن ثقَافَتنَا وتُرَاثنَا المشْتَرَكِ المَجيدِ ، ومَا علينَا أَن نقُومَ به للحِفَاظِ عَليْهِ ، والبنَاءِ علَى أَسَاسهِ المَتِينِ !

فبَعْدَ اجْتمَاعنَا مُنذُ سَنَةٍ مَضَتْ فى قُسَنْطينَةَ عَاصمَةِ الشَّرْقِ الجزَائِرى ، هَا نَحنُ نَلتَقى اليَوْم فى عَاصِمَة غَرْبِهِ ، هذه المدينَة الرَّائعة ، وهرَان ، التى كانَتْ مَعْقِلاً مِن مَعَاقِلِ مُقَاوَمَة المَدّ الصَّلِيبى بعْدَ سُقُوط الأَندَلُسِ ، حَيْث ظَلَّتْ صَامدَةً مُسْتَبْسِلَةً حتىَّ انتَصرَتْ فى حَرَكَةٍ عَارِمَةٍ شَمِلتِ البلاَدَ كُلَّهَا وَطَهَّرَتهَا من فُلُوله المنهَزِمَة النَّاكِصَة !

وَفى هذه الظرُوف التى تُعَانى فيهَا بلَادٌ إِسْلَامِيَّة عَزيزَة عَليْنَا جميعاً مَدًّا اسْتعْمَاريًّا عُنصريًّا آخرُهُ هُوَ المَدُّ الصهْيُونى ،

الذِي بَعْدَ أَنِ اُعْتَدىٰ عَلىٰ أَرضِ أولَى القِبْلَتَيْنِ وَثَانِى الحَرَمَيْنِ أَصْبَحَ يَبُوحُ بمُخَطَّطه الْقديمِ الرَّامِى مَا بَيْنَ النِّيل وَالفُرَاتِ ، أَدْعُوكُمْ إِلىٰ مُراعَاةِ دَقيقَة صَمْتٍ تُقرَأُ فيهَا الفَاتحَةُ عَلى شُهَداءِ فَلسْطِينَ العَزيزَةِ وَعَلى جَمِيع شُهَداءِ الإسْلامِ عَلى مَرِّ العُصُور !
سَـــادتى...

مِنْ جَدْوَل أَعمَالنَا وَمن عَنَاوين مُحَاضَرَات مُلْتَقَانَا تَرَوْنَ أَنَّ دِرَاسَاتِنَــا تَنْصَبُّ عَلى ثَــلاَث نِقَــاطٍ جَوْهَرِيَّةٍ تَشمَلُ فى مُحْتوَاها أَوْجُهاً عَدِيدَةً مُتشعِّبَةً مُتنوِّعَة :

1) النقطَة الأولىٰ تتَّصلُ باللُّغَةِ وَدَوْرِهَا فيمَا أَصْبَحَ يُسَمَّى بالثَّوْرَة الثقافيَّة ، والذِى نَقصِــدُهُ من هَــذَا هُو دَحْضُ تلكَ التُّرَّهَاتِ وَالأبَاطِيلِ المغْرِضَةِ مِن طَرَفِ الْبَعْض ، والسَّاذجَةِ الجَــاهلَةِ مِنَ الطَّرَف الآخِرِ ، التى تدَّعِى خارجَ العَالَم العَرَبى والاسْلامى وَدَاخلَهُ ، لمغَالَطَتنَا ، انَّ اللغةَ ليْسَتْ إلاَّ أداةً أو شَكْلاً أيّاً كانَا ، وأَنَّ المحْتوَى هُوَ الأَهمُّ ، وَبالتَّالى نَسْتَطيعُ أن نَستمرَّ فِي تَدريس العُلُومِ بِاللغَاتِ الأجْنَبيَّة .

ولِهؤُلاَءِ نقوُل إِنَّ اللغةَ ليْسَت شَكْلاً أوْ أَداةً فَحَسْبُ ، بَل هِى مُحْتوى أيضًا ، إِذ هى قَالَبٌ تُصَاغُ فيه أفكَارُنَا وَأَحَاسِيسُنَا ، نُعَبِّرُ بهــا عَن كُنهنَا وَحَقيقَتنَا ، تصطَبغُ بهــا هٰذه الأفكَارُ والأحَاسيسُ بِالضَّبْط كمــا تَتَأثَّرُ هِى ، أى اللغة ، بهٰذه الأفكارِ والأحَاسِيسِ التى تعبِّرُ عَنهَا ، والتى تُحَمِّلُهَا شَحْنةً معْنوية قويَّةً تعطيهَا طَابعَهَا المميِّزَ لهَا والخاصَّ بهَا .

واذَا كانَت اللغــةُ شَكلاً فقَط ، أىْ قَالبًا ، كمــا يَدَّعى هَؤلاَءِ ، فَالمعْرُوفُ أنَّ القــالَبَ يُؤثِّرُ فِى مُحْتــوَاهُ ، اذْ يُعْطيهِ شَكلَه ، وحَيْثُ أَن القَالَبَ يوضعُ خِصِّيصًا لِلشَّىْءِ الذى يُرَادُ صُنْعُهُ ، فمَاذا نرِيدُ يَا ترُى أَن نَصْنَعَه بأذهَان أَطفالنَا الغَضَّةِ ؟

وإِن فى الاشرَاف المعْنَوى لرَئيس الدَّوْلةِ الفرَنسِيَّةِ الحَالى عَلَى مُنَظَّمة الْفرَنْكُوفُونِيَّةِ لأَكْثَرُ مِنْ دلاَلَةٍ وَمَعْنىً لمَا لِلُّغَة مِن أَهمِّيةٍ قُصْوَى ، كمَا أنَّ فى مُعَارَضَته مَثلاً لانْضمَام بَريطَانيا الى السُّوق الأُورُوبيَّةِ المشتَرَكَــةِ ، خَوْفًا مِن سَيْطَرَةِ اللّغَــةِ الأنجليزيَّةِ عَلى الفرَنسيَّة ، لأَكثرُ مِنْ إِشَارةٍ ومَغْزَى ! ولقَــدْ صَرَّحَ بذلكَ هُو نفسُه فى الأَسَابيعِ الأَخِيرَةِ .

وَهكَذا قَدْ تُضَحِّي دُولٌ وَأمَمٌ بمصَالحَ اقْتصَادِيةٍ هَامَّةٍ في سَبيل قَضَايَا ثَقَافيَّةٍ ، رُوحيَّةٍ وَمَعنَويَّة تعتَبِرُها أعظَمَ وأهَمَّ !

وربَّمَا يتَّضحُ هَذا المَوْضُوعُ أكثرَ مِن خِلالِ تلكَ الْكَلمَةِ الرَّائعَة للفيْلسُوفِ الألمَاني الشَّهيرِ يُوهَانْ غُوتْليبْ فِيخْتَهْ في اللغَة ، إذ قال إنهَا القُوَّة الطبيعيَّة الأولىٰ لِأمةٍ من الأمَمِ !

ولهَذا أَنتهزُ فُرصَةَ هَذا الْملتَقَى لِأُوَجِّهَ نِدَاءً باسْمكُمْ جَميعًا الىٰ سَائر جَامعَاتنَا في العـَالَم العـَرَبي التي لا تَزَال تَدرُسُ العُلومَ باللغـَات الأجْنبيَّة أن تُرَاجِعَ هـَذا المَوْضُوعَ بكلِّ مَا يَسْتحقهُ من عنَايَةٍ وَاهتمَامٍ .

هَذا بخُصُوص الأدَاة والمحْتَوَى .

أمَّا بشأْن أولَئكَ الذينَ يَدَّعُونَ أن العَرَبيةَ ليْسَتْ قَادرَةً عَلى التَّعبيرِ عَن العُلُوم الحَديثَةِ ويسْتمرُّون في الدَّعْوَةِ إلى الإبقَاءِ عَلى اللغَات الأجْنَبيَّة في جَامعَاتِهِمْ لَا كَلُغَاتٍ أجنبيَّةٍ ، وَلكنْ كَأدَوَاتٍ لِلتَّعليمِ ، فِي الكُلِّيات العِلْميَّة خَاصَّةً ، وَهَذه المُصيبَةُ نَجدُهَا عامَّة في العَالَم العَرَبي ـ أللهُمَّ الاَّ جَامعَةَ دِمَشْقَ ، فيمَا نَعْلمُ ، يَكفي أن نَقـُول إن فِيتنَامَ اسْتطَاعَتْ وهي في حَرْبٍ ضَرُوس ضِدَّ أقوَى دَوْلَةٍ في الأرْضِ أن تُحِلَّ لُغتَهَا مَحَلَّ اللغَاتِ الأَجْنبيَّةِ المتعَاقبَةِ ، بَـل وَاسْتَأْصَلَتْ حُتَّىَ الكلماتِ المتبَقِّية منهَا في لُغتهـَا وعَوَّضَتْهَا بكلمَاتٍ فِيتْنَامِيةٍ ، وأصْبَحَتْ ـ تُدَرِّسُ أحيانًا فِي الكُهُوفِ تَحتَ وَابلِ القَنَابِل الأمبريَاليَّةِ ـ جَمِيعَ المَوَادِّ ومنهَا العِلْميَّةُ طَبْعًا بِاللغَةِ الفيتنَامية !

وَحَتَّى الصَّهَاينَةُ فِي فَلَسْطِينَ المحْتَلَّةِ وهُم مَزيجٌ مِن أكثرَ مِن مِائةِ دَوْلةٍ أحْيوا لغَةً مَاتَتْ مُنْذ أكثَرَ منْ ألفَيْ سَنَةٍ وَأصْبَحُوا يُدَرِّسُون بهَا جَميعَ المَوَادِّ ، وأكثرُ من هَذا أنَّهُم عنْدَمَا تُعْوِزُهُم كَلمَةٌ مَا فِي لُغَتِهِمْ يَعْمِدُون إلى العَرَبيَّة ، أقرَبُ لغَةٍ الَى لُغَتِهِمْ ، لِيَأخُذوا منهَا وَيَثرُوا بهَا لغَتَهُم .

فَالصَّهَاينَةُ إذَنْ لَا يُشاركُونَ الْعَرَبَ فِي الرَّأيِ أنَّ الْعَرَبيَّةَ عَاجِزَةٌ أَمَامَ العُلومِ الحَدِيثَةِ ! غَرِيبٌ وَاللهِ غَرِيبٌ ، وَشَرُّ البَلِيَّةِ مَا يُضْحِكُ ، كمَا يَقولُ المثَلُ العَرَبِيُّ الْقَدِيمُ !

حَضرَات السَّادة ،

الموضُوعُ الثَّانى فى جَدْوَل أعمَالنَا هُو الاسْلاَمُ وَمَشَاكلُ الأُسْرَة وَتَرْبية الْجِيل ، فِى عَالَم الْيَوْم ، وهُو مَوْضُوعٌ وَاحدٌ أو هُمَا مَوْضُوعَان مُتكَاملاَن .

وَوَاضِحٌ مِنَ الْعُنْوَان أَنَّنَا نَنْظُرُ الىٰ مَوْضُوعِ الأُسْرَة بِمَا فيهَا تَرْبية النَّشْءِ ، مِنْ زَاوِيَةٍ إِسْلاميَّةٍ وَتُعْتَبَرُ كَمَثَل أَعْلىٰ لَنَا الأُسْرَةُ الاسْلاَميَّةُ الأَصِيلَة ، المُحْتَرِمَةُ لعَادَاتهَا وَتَقَاليدهَا ، وَالتى تَسُودُ فيهَا التَّرْبيةُ ، لِيَنْشَأَ فيهَا جيلٌ صَالحٌ يُشَرِّفُ أُسْرَتَهُ ، وَيَكُونُ عُدَّةً لِأُمَتِهِ ، بَلْ ويُشرِّفُ الانسَانيَّةَ كُلَّهَا .

وهُنا أيْضاً نَصْطَدمُ بدُعَاة التَّحَلُّل ، وَالانْحلاَل ، وَالاخْتلاَل ، التى جَاءَتْ كُلُّهَا مَعَ الاحْتلاَل ! الذِينَ يَتَشَدَّقُونَ عَلَيْنَا بحُرِّية الْمَرْأَةِ ، وحُرِّيةِ الرَّأيِ ، ومُسَاوَاةِ المرْأَة فى غيْر مَوَاضِعهَا ، كَالإخْتِلاَطِ ، وَالسَّمَاحِ بِالتَّسَكُّع فِى الطُّرُقَاتِ ، وعَلى سُطُوحِ الْمَقَاهِي ، وَأَعْمَاق الْحَانَاتِ بِاسْمِ التَّطَوُّرِ ، والتَّقَدُّم ، والتَّفَتُّح ، الىٰ غير ذَلكَ ممَّا اسْمُهُ صَالِحٌ وَفى حَقِيقَتِه طَالِحٌ ، مُضِرٌّ بِالْمُجْتَمع والأمَّةِ كُلِّهَا !

وانَّ هَـذِهِ التَّصَوُّرَات المُسْتَوْرَدَة لَهِيَ أَخْطَـرُ مِن جَمِيعِ المخَدِّرَاتِ وَالسُّمُومِ الْمَادّيَةِ الأُخْرى ، إِذْ تَغْزُو الْعَقْلَ ، وَالْعَاطِفَةَ معًا ، وتُحَوِّلُ الانسَانَ إِلى آلةٍ تَتَحَرَّكُ بأصَابعَ تَمْسُكُ بطَرَفِ الْخَيْطِ مِن بَعيدٍ ، مِنْ وَرَاء البِحَارِ وَالمُحِيطَاتِ !

هُنَا أَيْضاً يَتحَتَّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِنَ الإنجِرَافِ وَرَاءَ هَذِهِ التَّيَّارَاتِ ، التى تُعَانى منهَا مُجتمَعَاتٌ كَامِلَة فى أمْريكَا وَأورُوبَا ، غَرْبِهاَ وَشَرْقِهَا ، وَتُعرِّضُهَا لِلتَّفكُّك وَالانهيَارِ ، مَع الْفَارِقِ أَنَّهُمْ فى تِلكَ الْبُلْدَان يُعَانُونَ ذَلك وَيأْسَفُونَ لَـه وَيُحَاوِلُونَ انْ يُحَاربُوهُ أَو أَن يحُدُّوا منْه عَلَى الأَقلِّ ويَعْتَبرُونَه مِن عُيُوب حَضَارَتهمْ ، وإِنَّ البلاَدَ التى هى فى طَريق النُّمُوِّ ـ مِثلَنَا ـ تَعْتَبرُ ذَلكَ تَقدمًا ، وَتَفتُّحًا ، وَتَطَوُّرًا ، وَتَمَدُّنًا ، وَثَوْرَةً ، وتَبـذُلُ أقصَى الجهُـودِ لِتَظهَـرَ فِى ذَلك المظْهَـرِ المُخْزِى المشِينِ !

فَالاسْلاَمُ أوَّلُ مَنْ أَعْطَى الْمَرْأَةَ حُقُوقَهَا الْكَامِلَةَ ، التى لَـمْ

تُحَصِّلْ عَلَى بَعْضِهَا فى مُجْتَمعَاتِ أُورُوبَا وَأمريكَا الاَّ فى العَصْرِ الْحَدِيثِ وَلا تَزَالُ لَمْ تُحَصِّلْ بَعْدُ عَلى بَعضِهَا ، فَحَقُّ العَمَلِ ومُبَاشَرَةُ أُمُورِهَا وَأموَالهَا بنَفسهَا بَل والمُسَاهَمَةُ فى النَّشاطِ الإجْتماعِي كَالتَّعْليم وَغَيْرِهِ ممَّا يَبْقَى مَعَهُ الاِحْتِرَامُ لَمْ يَمْنَعْهُ الاسْلامُ فى أَيِّ عَصْرٍ كَانَ .

أمـَّا تلكَ الحَيَوَانِيَّةُ الْعَارِمَةُ التى تَسُودُ فى الاِخْتلاَطَاتِ الْكُبْرَى التِي تُسَمَّى بالْحَفَلاَت الإجْتماعيَّة الصَّاخِبَةِ ، الرَّاقصَةِ منْهَا والسَّاهِرَةِ وَتَرْك الحَبْلِ عَلى الغَارِب للمَرْأَة تَلعَبُ بالكَأسِ التِي تُذْهِبُ الرَّأسَ ، تُسَافِرُ أيْنَ تَشَاءُ وَحْـدَهَا ، تَارِكَـةً وَالِدَيْهَا أوْ زَوْجَهَا وَأبنَاءَهَا وَرَاءَهَا ، وَمَا يَتبَعُ ذَلكَ كُلَّهُ مِنَ انْسلاَخٍ عَنِ الْقِيَمِ ، وَتَفْكيكٍ للأُسَرِ ، وَتَخـرِيبٍ للمُجْتَمَعِ ، فالإسْلامُ ضِدُّهُ وَيَتنَافَى مَعَهُ تَمَامَ التَّنَافِي ، وَهُو مَا يَتنَافَى أَيْضاً مع قَوَاعِدِ كُلِّ مُجْتَمَعٍ يُرِيدُ أَنْ يَبْقَى مُنَظَّماً سَلِيمًا !

وَيَكْفِينَا أَنْ نَذْكُرَ هُنَـا مَثَلاً يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَهُوَ أنَّهُ رَأَى مَرَّةً رَجُلاً يَتَحَدَّثُ مَعَ امْرَأَةٍ عَلى نَاصِيَةِ الطَّرِيقِ ، فَضَرَبَهُ بِدِرَّةٍ كَانَتْ فِي يَدِهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ إِنَّهَا زَوْجَتُهُ ، وَأَجَابَهُ عُمَرُ : إِذَا كَانَتْ زَوْجَتُكَ أَلَمْ تَجِدْ مَكَانًا آخَرَ غَيْرَ الطَّرِيقِ الْعَامِّ تَتَحَدَّثَانِ فِيهِ ؟ أَتَسُنَّانِ لِلنَّاسِ هَـٰذِهِ السُّنَّةَ السَّيِّئَةَ ؟ وَاعْتَذَرَ لَهُ عُمَرُ فِيمَا بَعْدُ عِنْدَمَا عَلِمَ أَنَّ الرَّجُلَ وَزَوْجَتَهُ غَرِيبَانِ عَنِ الْمَدِينَةِ وَأَنَّهُمَا لَيْسَ لَهُمَا سَكَنٌ بِهَا .

وَقَد يَقُولُ قَائِلٌ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَرْجِعُوا بِنَا إِلى مُجْتَمَعٍ كَانَ سَائِدًا فى الْمَدِينَةِ مُنْذُ ثَلاَثَةَ عَشَرَ قَرْنًا ؟ فَنُورِدُ لَهُ مَثَلاً آخَرَ مِنْ فَيْلَسُوف عَظِيم فى عَصْرِنَا الْحَدِيثِ ، مُعَاصِرٍ لنَا ، هُو المفكِّرُ الانْجلِيزِى بِرْترَانْد رَاسل ، الذى كتَبَ فِي مُؤَلَّفِهِ « الْأَخْلاَقُ وَالزَّوَاجُ » :

« هُنَاكَ شَرْطٌ مُهِمٌّ يُسَاعِدُ فِي دَعْمِ الْحَيَاة الزَّوْجِيَّة ، ذَلكَ هُوَ خُلُوُّ الحَيَاةِ الإجْتِمَاعِيةِ مِنَ النُّظُمِ التِي تَسْمَحُ بِالْمُصَادَقَـةِ وَالْمُخَالَطَةِ بَيْنَ الْمُتَزَوِّجِينَ مِن الرِّجَال والنِّسَاءِ ، سَوَاءٌ فِى الْعَمَلِ أوْ فِي الْمُنَاسَبَاتِ وَالحَفَلاَت وَمَا شَاكَلَهَا .

« إِنَّ العَلاَقَاتِ الْعَاطِفيَّةَ بَيْنَ الْمتزَوِّجينَ وَغَيْرِ الْمتزَوِّجينَ مِن رجالٍ وَنساءٍ خَارجَ دَائِرَة الْحَيَـاة الزَّوْجيَّةِ هِى سَبَبُ شَـقَاءِ

الْأزوَاجِ وَكَثْرَةِ حَوَادث الطَّلَاقِ ، وَلَيْسَ عسيرًا أنْ نَجْمَعَ أمْثلةً كثيرَةً عَن البُيُوت التى انْهَارَتْ بسَبَب اتِّصَالِ الأزوَاجِ وَالزَّوْجَات بغَيْر شُرَكَائهمْ فى الحَيَاة الزَّوْجيَّةِ ، سَوَاءٌ فى العَمَل أوْ فى المُنَاسَبَات الاِجْتماعيَّةِ . »

ويَرْتبط بالأُسْرَة مُبَاشَرَةً مَوْضُوعُ تَرْبيَةِ النَّشْءِ ، فَالْكثيرُونَ هُمُ الذينَ يَرَوْنَ أنَّ هٰذه التَّرْبيَةَ مِنْ شَأْنِ الأُسْرَةِ وَحْدَهَا ، أوْ وَزَارَاتِ التَّعْليم وَحْدَهَا ، وَقَليلُونَ هُم الذينَ يُلِحُّونَ بحَقٍّ عَلى أنَّ كُلاًّ مِن المُؤَسَّسَتَيْنِ مَسْؤولَةٌ .

وَلَيْسَ مِنَ الصُّدْفَة أَنْ يُقْرَنَ دَائماً التَّعليمُ بِالتَّرْبيةِ في أَسْمَاءِ مُؤَسَّسَاتِ التَّعْليم فى العَالَم ، وَأَنْ يُسَمِّيَ ابْنُ بَادِيس مدَارسَهُ الحُرَّةَ التى كَانَ يَرْمِي بهَا إلىٰ غَرْسِ الرُّوحِ الإسْلامِية فى نَشْئِنَا مدَارسَ التَّربيةِ وَالتَّعْليمِ .

وأَنَّ التربيةَ الاسْلاميةَ وَحْدَهَا هِيَ التى تَضْمَنُ لنَا نَشْأً صَالحاً ، لنَفْسه وَأسْرَتِهِ ، وَأمَّتِهِ .

ولعَلَّ فى اهْتمَام أَغْلَب دُوَلِ العَالَم الْيَوْم بالعُنْصُر الدِّينِى عَلىٰ مُسْتَوى الْأمة والبلَادِ كُلها لَأكْثرُ مِنْ مَغْزًى ، بَعْدَ تَجَارِبَ مرَّتْ بهَا وعَانتْ منْهَا .

وَأودُّ هُنَا أَنْ أَقْتَصرَ عَلى مَثَلَيْن اُثْنَيْن :

1) لقَدْ خصَّصت فرَنسَا التى فَصَلَتْ بَيْن الدِّين والكَنِيسَةِ مُنْذُ أكثرَ من قَرْن هَذه السَّنَة مبلغَ تِسْعينَ مِلْيَار فرنكٍ قَديمٍ مسَاعَدةً للتَّعليم الدِّينى فِى فرَنسَا ، الذى يُحْظَى كمَا نَعْلَمُ بمُسَاعَدَاتٍ أخرى مِنَ الشَّعْب نَفْسهِ ، زيَادَةً عَن الوَسَائِلِ الْعَدِيدَة للكَنِيسَةِ .

2) وفى الاِتِّحَاد السُّوفْيَتِى احْتُفِلَ أَخيرًا فى زَاقُورْسْك Zagorsk بتَنْصِيب الارْشمَنْدْريتْ بيمَن Pimen بأُبَّهَةٍ عَظيمَةٍ وَصَفَتْهَا الْجَريدَةُ السويديَّة Dagens Nyheter بأنهَا فَخامةٌ وَضخَامَةُ العُصُور الوُسْطى ! Medeltida Pompa

وكلُّنَا سَمعْنَا عَن الاهْتِمَام الذي أخَذَت السُّلُطَاتُ تُجَدِّدُ به في مُوسْكو الكنَائسَ وتُصْلحُهَا وتُرَمِّمُهَا ، وهَذا كلُّه بعْدَ نصْفِ قَرْنٍ مِن ثَوْرَةِ أكتوبر .

وَفى هَذا الوَقْت بالذَّات نسْمعُ أَحيانًا أَنْصافَ المُتَعَلِّمين فى البُلدَان الاسْلامية يَلوكونَ ألفَاظاً بغَيْر وَعيٍ عَن العُنصُر الرجْعى فِى الدِّين .

وَانَّ موْضُوعَ التَّربية هـٰذا لَهُوَ إحْـدَى مُشكلاَت العَصْر بصفَةٍ عامَّة ، ولَيْسَ مِنْ قَبيل الصُّدَف أيْضًا أن يُسَمَّى هَـذَا المَوْضُوعُ بِالثَّوْرَة الثَّقافيـةِ ، وأَنْ تَحمِلَ الصِّـينُ الشَّعْبيةُ هَذه الرَّايَةَ باسمِ الثَّوْرَة الثَّقَافيةِ ، مُوَضِّحَةً فى كُتَيِّب يحْملُه جميعُ الشَّبابِ الصِّينى ويَحْرِصُون عَليْه ويَحْفَظونَه ويُخْرجُونَه من جُيُوبهم فَجْأَةً فى مَحَطاتِ القطَار وقَاعَاتِ الاِنتِظَار وَغيْرِها من المَحَلاَت العَامَّة بنَفس الحَمَاس وَالحُبِّ اللذيْن نَجدُهُما عند الشَّبَاب الأَكْثرِ إيمانًا وأَصْدَقِهِ !

وفِى نَقْد كَتَبَه الأُستَاذُ فيلهيلم شوستراند Wilhem Sjoestrand الأستَاذُ بجَـامعةِ سْتوكهـولم ، فى جَريـدَة Svenskadagbladet السويدية المَعْرُوفَة عَن كتابٍ أصْدَرَتْهُ الهَيْئَةُ التَّرْبَويةُ الجَـامعيَّة فى ستوكهولم تحْتَ عُنـوانِ : « التَّعْليمُ الجَامِعِى » ، خَتَمَ الأُستَاذُ يَقُول : « هل يُمْكنُ الاكْتفَاءُ بالتَّعْليمِ بِدُون تَرْبيةٍ ؟ اذا حَدَثَ هَذا فَستَنْقَلبُ حَضارَتُنا بسُرْعَةٍ الى نَوْعٍ مِن آلةٍ جَهَنَّميةٍ تَنْفَجرُ بنا جميعًا فى الهَوَاء ! » .

حضرات السادة ،

بَقِيَ لِى أَن أَقُولَ كَلمةً قَصيرَةً جدًّا أَختمُ بهاَ هذَا الحَدِيثَ ، وَتَتَّصلُ بالنُّقْطَة الثَّالثَةِ فِى جَـدْوَل أعْمَالنَـا ، وَهى الاسْلاَمُ ومُتَطلبَاتُ التَّنمِيةِ فى الاِقتِصَادِ الحَدِيثِ .

وَهُنَا أَيْضًا يَجبُ رفعُ الْتباسَاتٍ وتَشْويهاتٍ كَثيرَةٍ تُوَجَّهُ لِلإسْلام الذِى يُظْهرُونَه فِى مَظْهرِ التَّوَاكُلِ ، والتَّهَاوُنِ ، بتَفْسِيرٍ خَاطىءٍ لِمعْنَى القَضَاءِ وَالقـدَرِ ، بقَصْـدٍ طَبْعًا وعَن درَايَةٍ ، لتَعْقيدنَا وَتَثْبيط عَزَائِمنَا ، مَعَ انَّ الاسْلاَم هُوَ دينُ الجُهْـدِ وَالعَمَلِ ، اذْ يَدْعُو القرْآنُ فى أَكْثرَ من ثَلاَثمِائةِ آيَةٍ إلى العَمَل ، كماَ أَفادَنَا بذلكَ الأسْتاذُ الدكْتُور الحَبيب بَلخُوجَه .

وَمُحَـاوَلَةُ تَشْويهٍ أُخْـرَى مِن طَـرَفِ مَنْ يُعْنِيهمْ تَشْويهُ الاسْلامِ تَدَّعِى أَنَّهُ رجْعى ، يَدْعُو إِلىٰ تكدُّسِ الأَمْوَال ، وَضِـدَّ

كُلِّ تَطوُّر فى الاقتِصَادِ ، وَكلِّ تَوْزيعٍ عَادِلٍ لِلثَّرَوَاتِ ، وَكُلِّ توزِيـعٍ مَنْطِقى وظِيفى لِلعَمَـل فِى المجتَمَع ، وَغَـيْر ذلكَ مِن الادِّعَـاءَاتِ التى يُرَدِّدُهـا مِن حِـينٍ لآخرَ مُسْلمُون جَاهِـلُون بإِسْلامِهم وَحَضَارَتِهمْ .

وَالوَاقِـعُ الْمَعْـرُوفُ لِكلِّ ذِى عَقْل ورَغْبَـة فى الاطِّـلاَع بمَوْضوعِيةٍ وصِدقٍ أنَّ الاسْلامَ هُـوَ دينُ العَمَل بحَقٍّ ، دينُ العَدْلِ والمُسَاوَاة بحَقٍّ ، كماَ هُو مُبَيَّنٌ فى آيَاتِهِ وَمُؤَسَّسَاتِهِ التى هِى نَفْسُهاَ آيَاتٌ !

وَالْوَاقعُ هُوَ كماَ بَيَّنَهُ الشَّهيدُ حَسَنُ البَنَّا فِى مُقَدِّمَةٍ لِكتَابٍ عَن أَبى ذَرٍّ الغفَارِى رَضِىَ اللهُ عَنْه اذْ كَتَبَ رَحمَه اللهُ :

« ومِنَ الْمُشَاهَد أَنَّهُ كلَّمَا ارْتَقى العَقْلُ الإنسَانىُّ الْحَاضرُ فِى فَهْم حَقائقِ الحَيَــاةِ ، وَاكتشَاف خَوَافِيهاَ ، وَاقْترَاح شَتَّى الْحُلُول لِماَ يُوَاجهُ مِن مَشَاكِلِهاَ عُدْنَا نَحْنُ المسْلمينَ إلىٰ دِينِنَا ، بَعْدَ رُؤْيَة هَذه الْحُلُول ، عَوْدَةَ المَرْءِ الذَّاهل الىٰ مَاضِيهِ الْحَافِل ، وَقَد اتَّصَلَ بهَذا الْمَاضى فَجْأَةً مَا أشرَقتْ به صَفْحَتُه ، وَتَجَدَّدَتْ بِهِ ذِكْرَيَاتُهُ ، وسَرَتْ فيهَا كَرَّةً أخْرى حيَاتُه ، لأنَّ الخَيْرَ الذِى يبْرِقُ خلالَ طَائفةٍ من مَنَاهِجِ الإصْلاَح الْمُعَاصِر انماَ هُوَ بَعْضُ مِيرَاثِنَا ، فيماَ آل إِلَيْنَا مِن دِينٍ عَظيم ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وَيَقول عن الكتَاب : « وبَيْنَ يَدى القَارِىءِ بَحثٌ علمىٌّ دَقيقٌ فِى الاشتِرَاكِية الإسْلامية ، يجْلو هَذه الحَقيقَة ، ويُؤَكِّدُهَا »

« ومنَ المُهِمِّ أَن يَعْرِفَ النَّاسُ أَن الاسْلاَمَ لاَ يُحَاربُ الثَّرَوَاتِ العَامة أو الخاصة ، وانما يحارب تجرد بعض الناس من الثروة عَلى حسَاب تَضَخُّمهَا فى نَاحيَةٍ أخْرَى » .

ويُضيفُ حسَنُ البَنَّا فى مقدمته :

« وَقَد وَصَفَ المؤَلِّف فى إِيضاحِ مَوَاقفَ أَبى ذَرٍّ ، وأَظهَرَ بَوَاعِثَ الإِيمَانِ الْخَالِصِ فِى حَيَاتِهِ المَليئَةِ بالكِفَاح ، والنُّصْـح لِدِين الله ، والحَدَب على جمْهور المُسْلمين ، وشَرْح وِجْهَةِ نَظرهِ رضوانُ الله عليْهِ فى الِاعْتِرَاضِ علىٰ مَظَاهِرِ التَّرَفِ ، وأَخْـلاقِ

الرَّفَاهِية التى كَانتْ قَدْ بَدَأَتْ تَعْمَلُ عَمَلَها بَيْنَ المُسْلِمين » .

ويَخْتِمُ مُقدمته هٰذه بقَوْلهِ :

« وَنَحْنُ يَسُرُّنا ان يَتَّجِـهَ الشَّبَابُ المثَقَّفُ هـٰذه الوِجْهَةَ الصَّالحَـةَ ، مُهَنِّئِين المؤلِّفَ ، ومُؤمِّلين أن يَكونَ لهُ فى نُفوسِ الْقَارِئين أثرُهُ المنشودُ » .

وَقدْ صَدَقَ شَوْقى اذ قَالَ عَن الرَّسُول صَلىَّ اللّٰهُ عَليْه وسَلمَ :

الاشْتِرَاكِيُّونَ أَنْتَ إِمَامُهُـــمْ
لَوْلاَ دَعَـاوِى الْقَـوْمِ وَالغُلَوَاءُ

دَاوَيْتَ مُتَّئِـداً وَدَاوُوا طَفْـرَةً
وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ !

الىٰ أن يَقول :

أَنْصَفْتَ أَهْلَ الْفَقْرِ مِنْ أَهْلِ الْغِنَى
فَالْكُلُّ فِى حَـقِّ الْحَيَـاةِ سَـوَاءُ

فَـلَوَ أنَّ إِنْسَانـاً تَخَـيَّرَ مِـلَّةً
مَا اخْتَـارَ إلاَّ دِينَكَ الْفُقَـرَاءُ !

وَيَطُـولُ بنَـا الحَـديثُ ـ وَهُنَـا أَسَاتِـذة مُتخَصِّصُون سَيَعْرِضُونَ ذَلكَ عَلَيْنا لاَ شكَّ أثنَاءَ الْمُحَاضَرَات ـ لَوْ أرَدْنَا أنْ نَذكُرَ نُبَـذاً عَنْ تَفسِيرِ أَبى ذر لِاشْتِرَاكِيـَةِ الإِسْلامِ ، وَعَنْ تَطْبِيقِهَا مِنْ طَرَف عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ، وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِالعَزيز ، وَغيْرِهِمَا مِن رجَالاَتِ الدَّوْلَةِ فى الإِسْلامِ .

هٰذه أُسُسُنَا ، وَبَعدَ هَذا الأَسَاسِ لَيْسَ هُنَاكَ مَانِعٌ مِن الإِسْتِفادَة مِنْ آخرِ التَّجَارِب النَّاجِحَةِ فِى الْعَـالَمِ فِى تَطْبيق العَدَالةِ الإِجْتمَاعِية وَالاِشتِرَاكِيةِ الحَقَّة فى الْمَجَالِ الاِقتِصَادى ، عَلىٰ ألاَّ نَكونَ إِمَّعَاتٍ ، قَوْمَاً تُبَّعَاً ، فَلَدَيْنَا أَصَالَتُنَا وَمَنَاعَتُنَا ، وَلَديْنَا دينُنَا الحَنِيفُ .

فَنَأْخُذُ مَا يُلاَئِمُنَا مِن تَجَارِبِ الْغَيْرِ ، وَنَسْتَفيدُ مِنْ أَحْدَثِهَا ، بِإِدْرَاجِهَا فِى قَالَبِنَا الإِسْلاَمِى ، لِصَقْلِها وَإِدْمَاجِهَا فى جَوْهَرِنَا .

فَإِسْلاَمُنَا يُسَوِّغُ لَنَا ذَلكَ ، بَلْ يَدْعُونَا إِلَيْهِ وَيَأْمُرُنَـــا

بِالْمُقَارَنَة ، وَالاسْتِنْتَاجِ بِالنَّظَرِ ، وَالتَّفْكِيرِ ، وَاسْتِعْمَالِ الْعَقْل ، وَانَّ الآيَاتِ التى تَدْعُونَا الىٰ ذَلكَ لَتَتَخَلَّلُ القُرْآنَ فى جَمِيعِ سُوَرِهِ !

وَلَقَدْ أَخَذَ أَجْدَادُنَا عَنْ تجَارِبِ الْغَيْرِ ، وَاشْتَقُّوا منْهَا مَا يَلِيقُ بهمْ ، وَيُلاَئِمُ بَيْئَتَهُمْ ، وَيَتَجَانَسُ مَعَ دِينِهِم ، وَتَسْتَسِيغُه عَبْقرِيَّتُهُمْ .

وانَّ الذِى يَحُلُّ لَنَا جَمِيعَ الْمُعْضِلاَتِ هُوَ اُسْتعمَالُ العَقْلِ ، اُسْتِعْمَالُ الاِجْتِهَادِ الذِى هُوَ مَصْدَرٌ مِنْ مَصَادِرِ التَّشْرِيعِ الإِسْلامِى ، وَالذِى وَصَّى بِهِ وَأَقَرَّهُ الرَّسُولُ صَلىَّ اللهُ عَلَيْه وسَلَّمَ ، كمَا يَتَّضِحُ ذَلكَ فِى حَدِيثهِ الْمَشْهُور مَعَ سَيِّدنَا مُعَاذ بنِ جَبَلٍ عِنْدَمَا أَرْسَلَهُ إِلى اليَمَن مُعَلِّماً وَقَاضياً وَسَأَلهُ :

قَالَ « بِمَاذَا تَقْضِى فِيهِمْ يَا مُعَاذُ ؟ قَالَ: بكتَاب الله . قَال: فَإِنْ لَمْ تَجِدْ ؟ قَالَ : فَبسُنَّة رسُول الله . قال: فإِنْ لمْ تَجِدْ ؟ قال : أَجْتَهدُ بِرَأْيِى وَلاَ آلُو » .

حَضرَات السادة ،

قَبْلَ أَنْ أَخْتِمَ كَلِمَتِى هٰذِهِ أَوَدُّ أَنْ أُلَخِّصَ جَوَابَنَا ـ وَأَظُنُّ أَيْضاً انهُ جَوَابُكمْ جَميعًا ـ عَلىٰ فَرِيقَيْنِ اُثْنَيْن ، احَدُهُمَا يَدْعُونَا إِلَى إِغْلاَق جَمِيعِ الْأَبْوَابِ وَالنَّوَافِذِ ، وَالْآخَرُ يَدْعُونَا إِلىٰ تَفَتُّحٍ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ نَفْتَحَ حَتَّى السَّقْفَ ، وَأُجِيبُهُمْ بكَلمَةٍ لِلرَّئِيس بُومَدْينِ فى خطَابِهِ أَخِيرًا بمُنَاسَبَة الذِّكرَى التَّاسعَة لِاسْتِعَادَةِ الاِسْتِقْلاَلِ إِذْ قَالَ :

« بِأَقْدَامٍ رَاسِخَةٍ عَلَى أَسَاسِنَا الثَّابِتِ فَقَطْ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَطَلَّعَ إِلَى آفَاقٍ أُخْرَى ، وَمَعَ الانْغِرَاسِ فِى أَصَالَتِنَا فَحَسْبُ يُمْكنُ لَنَا ، بَلْ يَجبُ عَلَيْنَا ، أنْ نَتَفَتَّحَ عَلَى مُخْتَلَفِ ثَقَافَاتِ وَحَضَارَاتِ الْعَالَمِ ، كَمَا فَعَلَ أَجْدَادُنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنْتَجُوا أَخْصَبَ الثَّقَافَاتِ وَأَرْقَى الْحَضَارَاتِ ، وَكَمَا فَعَلَتْ بِالأَمْسِ وَتَفْعَلُ الْيَوْمَ جَمِيعُ الشُّعُوب التى تَعْتَبرُ مَا تَأْخُذُهُ عَن الخَارِج بمَثَابَةِ مُكَمِّلاَتٍ لِأُصُولهَا ، وَفرُوعٍ لِجُذُورِهَا » .

والسَّلامُ عليْكمْ



دراسات ثقافية وأدبية



رسالة

الجامعة فكرة ، ولكل جامعة في العصر الحديث رسالة يجب ان تؤديها ، ورسالة الجامعة تنظم غرضين اساسيين : الاول تكوين صفوة مختارة من شبيبة الامة واعدادها لقيادة بلادها . والثاني العمل على تقدم المعارف الانسانية بتشجيع البحث العلمي البريء .

الغرض الاول للجامعات هو تربية الصفوة وتكوين رجال قادرين على العمل في تنمية موارد البلاد المادية والعقلية والاخلاقية والفنية ، وهذا الغرض هو الذى دعا الى تنظيم الجامعات بحيث تنقسم كل جامعة منها الى كليات مختلفة ، وبعبارة أخرى ان تكون الجامعات اشبه بمدارس مهنية كبرى تتناول جميع المهمات الاجتماعية التى تقتضى تطبيق المعارف المكتسبة .

وهذا النوع من التعليم يتطلب من جانب من ينقطعون له استعدادا عقليا واخلاقيا خاصا . يقوم فى صميمه على الاخلاص للعلم واحترام





الحقيقة . واذا رسخت هذه العقلية عند القائمين بالتعليم الجـامعى ـ سواء كانوا رياضيين أو جيولوجيين أو مؤرخين أو لغويين أو اجتماعيين ـ أصبحوا جميعا علماء فضلاء . قد تجاوزوا مهنـة المعلمين وصاروا المربين الاوائل فى الامة . وهذا الاعتبار وحـده يجعل من أوجب الواجبات على الدولة ان تكفل لاساتذة الجامعات بين خـدام الوطن منزلة رفيعة .

ولما كانت المهمة الاولى للجامعة ان تعمل لاعداد الصفوة من الشبيبة لقيادة بلادها ، فلا بد من توجيه هذه الشبيبة توجيها صحيحا يعدهـا للنجاح فى معترك الحياة ، ويؤهلها لان تكـون دائما شبيبة عصرية متطورة طامحـة متوثبة ، لا شبيبة رجعية راكدة قانعة .

ومن أجل هـذا وجب على الشبيبة ان تكون عالمة بما يجرى فى بلادهـا وخارج بلادها ، اى أن تكون واقفة على الحركات السياسية والاجتماعية الكبرى التى تسيطر على شؤون أمتها وسائر امم العالم فى العصر الذى نعيش فيه . وطريق الشبيبة الجامعية الى ذلك هو الدرس الجدى والاطلاع الدائم على الكتب والبحوث لا التقليد المنفعل ولا

مطاوعة النزوات الشخصية العابثة ، ولا الانسياق وراء الدعايات السياسية الفاسدة او الاهواء الحزبية المضللة . ويجب ان يكون واضحا لعقلاء الطلاب ان الاشتغال بالسياسة القومية العامة شيء ، والاندماج فى مظاهرات الخصومات الحزبية المغرضة شيء آخر .

وبديهى ان آفة التعليم الجامعى هو الانحصار فى الدائرة الضيقة دائرة الشهادات أو الدبلومات التى هى الد أعداء الثقافة كما قيل بحق . ومن اكبر الاخطار التى تتهدد ذلك التعليم ، السعى الى النجاح فى الامتحانات بالطرق الآلية التى تنتهى غالبا بخنق الفكر ، وصد النفس ، وحشو الذاكرة بالمحفوظات ، وانقطاع الصلات الشخصية بين الاستاذ والطلاب ، والنظر الى هؤلاء وكأنهم « ارقام » توضع لسد خانات ... وشيوع هذا الميل الخطر يجعل التعليم الجامعى على هامش الحياة ويصيره تعليما « مدرسيا » عقيما لا يلائم تطور المجتمع الحديث ولا يوافق غاية التربية الاصلية . وينبغى ان لا ننسى ان هدف التعليم الجامعى هو تربية المواطن الصالح وتكوينه تكوينا مدنيا اجتماعيا انسانيا . ومن اجل ذلك وجب ان يعنى استاذ الجامعة بتفسير الوقائع التى يدرسها تفسيرا علميا محايدا ، وان يهتم بغرس الثقافة المنهجية الدقيقة ، واشاعة روح النقد النزيه ، وتزكية الشعور بالمسؤولية ، وهذا هو ما يعبر عنه باسم « الروح الجامعية » . واذا سيطرت هذه الروح على التعليم الجامعى نتج عنها تقديس الحرية فى مختلف مظاهرها ، حرية القول والكتابة والتفكير ، ونتج عنها التسامح ازاء الغير ، والترحيب باختلاف الآراء والعقائد ، متى توافر فى اصحابها الصدق والاخلاص .

واذن فليس من حق السلطات الحاكمة ان تتدخل فى التعليم الجامعى فى ناحيته العلمية أو الفنية : لا يحل لها ان تعهد الى استاذ الجامعة تعليم بعض المبادىء المعينة دون بعضها الآخر ، وان تجعل منه داعية الى مذهب بعينه أو مبشرا لعقيدة مفروضة ، بل ينبغى ان تترك التعليم الجامعى مفتوحا لجميع التيارات الفكرية والشعورية ، مستقبلا لجميع المطامح البعيدة الصادرة عن الامة ، بحيث يكون معبرا عن هموم عصرنا وشكوكه وآماله واحلامه ، تعبيرا بعيدا عن اهواء الساعة ومنازعات السياسة ومعارك الصحافة وصخب الشارع .

مهما تختلف آراء المربين فان الغاية العليا من التربية هى تحقيق الحرية للناس ، بتحرير عقولهم ونفوسهم وتحقيق المساواة المدنية بينهم ، ومحو ما بينهم من فروق غير طبيعية ، اعنى تلك الفروق الاجتماعية التى تجعل الفروق الطبيعية اليمة لا تطاق . ولا شك ان ارتقاء التعليم العام ، والتعليم الجامعى بوجه خاص ، يجعل من الحرية امرا واقعيا ، لا كلمة رخيصة تدور على كل لسان ويسمعها الناس فى المجالس والاجتماعات ، ويقرأونها فى الصحف والكتب ، وبعبارة اخرى يجعلها حقا من حقوقهم يعرفون كيف يمارسونه ويستمتعون به ويناضلون عنه ولا يستطيعون الحياة بدونه .

واذ اقمنا التعليم الجامعى على مبادىء سليمة كمحبة المواطنين بعضهم بعضا ، والاحترام العميق لكل عقيدة مخلصة والتسامح المتبادل ، وممارسة الحرية ممارسة حكيمة ذكية ، اصبحت مهمة الجامعة

اقامة الانسجام بين تربية الشبيبة وبين الفكر الحديث ، وتسليحها ضد الزيغ والضلال . ولكن ليست مهمة الجامعة ان تقرر اين يكون الخطأ ولا أين يكون ما ينبغي ان يعتقد ولا ما ينبغي ان يرفض . وليست وظيفتها ان تعد اى قيد للعقول والنفوس وانما وظيفتها الحقيقية ان تكشف عن الطالب غطاءه ليكون بصره حديدا : وعندئذ يستطيع ان يميز بين الامور مختارا ويتيسر له ان يحكم بنفسه على الاشياء والاشخاص احكاما خالية من التعصب والهوى . ويتيسر له فى جميع الاحوال ان يشاهد وان يحكم وان يستنتج ، لكى يعمل عند الاقتضاء وفقا للقانون الاعلى الذى هو قانون العقل . وذلك هو صميم الروح الجامعية .

والغرض الثانى من اغراض الجامعة **هو العمل على تقدم المعارف البشرية عن طريق البحث العلمى البرىء** . ولهذا وجب على أولى الامر ان يهيئوا للجامعة وسائل ايجاد البيئة العلمية اللازمة للتوفر على البحث . و لاشك ان اول الوسائل لهذه الغاية اختيار اساتذة من ذوى الكفايات الحقيقية مشهورين بالاخلاص والنزاهة العقلية . بعيدين عن الدعاية والتهريج ، ثم رفع مرتباتهم وتقليل عدد محاضراتهم . وتزويد الكليات بما يلزمها من معامل ومكتبات . وبالاجمال يجب ان تهيأ لأساتذة الجامعة كل وسائل الحياة من اجل العلم . حتى يكون لديهم دائما من الوقت والمال وهدوء البال ما يعينهم على المضى فى بحوثهم على خير الوجوه .

فالعمل على تقدم العلم وتشجيع البحث العلمى من اهم اغراض الجامعة : لان للعلم ثلاث وظائف كبرى كما قيل . **عقلية واقتصادية واخلاقية** هو عقلى لانه خالق للحقيقة . وهو اقتصادى لانه مولد للثروة . وهو اخلاقى لانه موزع للنور فى المثل العليا التى يستطيع الناس ان يترسموها .

والانقطاع للبحث العلمى هو رسالة الجامعة الاصلية ولكن الجامعات لا تستطيع ان تؤدى هذه الرسالة الا اذا تم عملها فى جو من الحرية التامة . والا اذا تآزر جميع الاعضاء فى كل هيئة جامعية . وبالتالى الا اذا تآزرت جميع العلوم التى تمثلها . وساهمت فى حياة واحدة تتجاوز التخصص الذى لا غنى عنه وتخلق عند الجميع وجدانا واحدا يخضع لقانون واحد .

ولا ينبغى ان يكون للبحث العلمى الا غاية واحدة ، هى الظفر بالحقيقة . فليس ابشع من ان نجعل الجامعات آلات لاصحاب السلطان . أو ابواقا تردد ما يريده الحكام . بل الشرف الصحيح والفضل الحقيقى للدولة انما يكون فى التضحيات البريئة التى تبذلها الجامعات لكى تصبح محاريب للثقافة الانسانية الحرة ، التى تتحمس للحقيقة وحدها . ولا تتأثر بالاهواء والعصبيات .

ان جمال العلم وجلاله ان يكون مقصودا لذاته لا لشىء سواه . ومن اجل ذلك وجب ان يقبل العلماء على بحوثهم خالين من كل غرض . متجردين من طلب المنافع التى يمكن ان تنتج عنه . وتاريخ العلوم يشهد بان المعارف العلمية ما ازدهرت ولا ارتقت الى رتبة العلم الحقيقى الا بعد ان انقطع العلماء للبحث لذاته مبرأين من طلب المصلحة غير ناظرين الا الى جلال الموضوع وشرفه : وهذا هو صميم العلم وجوهره الباقى على الزمن .

التربية والشخصية

« ان ثورتنا الخالدة قامت على أسس متينة عتيدة لبناء مجتمع جزائرى معتز بماضيه العربى الاسلامى ، فخور بتراثه الغنى الشاسع ، غيور على تاريخه الذى منه انبثقت قوى عزيمته لاسترجاع سيادته وعزته وكرامته ... وكيف نتمتع بهذه الشخصية ، ونفرض وجودنا كشعب متمسك بتقاليده المستوحاة منها انظمته الحيوية ان لم تتحرر من عادة التعبير باللغة الاجنبية ـ تلك اللغة التى هيمنت على تفكيرنا عهدا طويلا وتعرقل طموحنا الطبيعى الى البروز الى العالم بابتكارات اصيلة وفى حالتنا الخاصة بنا ونحن نعرف ان لكل شىء شكله ومحتواه المتكاملين .

ان لغتنا القومية تحفظ لشعبنا خاصية من خاصيات استقلاله الوطنى وتدرا عن عن شخصيته كل شائبة ، اذ ان الأمة لا يدوم وجدانها الا بدوام لغتها التى هى لسان حالها ، المعبر حقيقة على جميع مقاصدها » .

الرئيس هوارى بومدين
فى افتتاح السنة القضائية
1969 ـ 1970

تخوض الجزائر فى الوقت الحاضر ثورة ذات أبعاد ثلاثة هى :

ثورة صناعية ،

وثورة زراعية ،

وثورة ثقافية .

وذلك كى تستكمل مقومات الاستقلال الذى دفعنا فيه مليونا ونصف مليون شهيد . وموضوع مقالى هو ـ التربية والشخصية الجزائرية او الشخصية الوطنية ـ ولا شك ان الحديث عن الشخصية

الجزائرية

تركي رابح

الوطنية وكل ما يتصل باحد مقوماتها الاساسية هو قضية حيوية تهم كافة الجزائريين والجزائريات فى هذا الوطن العربى المسلم . الذى يعمل اليوم على تحديد كيانه اقتصاديا وفكريا ، وثقافيا بين دول العالم ولذلك فان موضوع التربية والشخصية الوطنية ، هو موضوع هام وخطير فى نفس الوقت ، ذلك ان ثورتنا الخالدة كما قال الرئيس بومدين فى افتتاح السنة القضائية لعام 1969 ـ 1970 « قامت على اسس متينة عتيدة لبناء مجتمع جزائرى معتز بماضيه العربى الاسلامى ، فخور بتراثه الفنى الشاسع ، غيور على تاريخه الذى منه انبثقت قوى عزيمته لاسترجاع سيادته وعزته وكرامته . » ومن هنا فان أى انحراف عن هذا الخط يعتبر خيانة لدماء الشهداء وتضحيات الملايين .

ويقول الشيخ عبدالحميد بن باديس :

« ان الامة التى لا تحترم مقوماتها من جنسها ، ولغتها ، ودينها ، وتاريخها ، لا تعد امة بين الامم ، ولا ينظر اليها الا بعين الاحتقار مع القضاء عليها فى ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار » ، ثم يضيف الشيخ عبدالحميد بن باديس « وان الفرد الذى لا يحافظ على ذلك من أمته لتاخرها فى سير الزمان بما احاط بها من ظروف الحياة. وان تحل بأعظم وأحسن ما يتحلى به الراقون من امة اخرى، لا ينظر اليه الا بالعين التى ينظر بها الى امته » .

والمعروف أن هناك ارتباطا وثيقا بين الثقافة التى تعمل التربية على نقلها من الاجيال الماضية الى الاجيال الحاضرة من جهة وبين الشخصية الوطنية من جهة أخرى . ومن هنا فان الحديث عن الشخصية ومقوماتها الاساسية يجرنا الى الحديث عن الثقافة القومية التى تحدد أبعاد وملامح الشخصية الوطنية تحديدا واضحا .

والثقافة القومية كما نعلم تتمثل فى اللغة القومية ، والفنون ، والعلوم ، والآداب ، والنظم ، والعادات ، والتقاليد ، والاخلاق التى تعبر عنها مقومات الشخصية الوطنية أصدق تعبير ولا يمكن لأية لغة أجنبية أن تعبر عن مقومات الشخصية الوطنية لأية أمة من الامم لأن ذلك يتنافى مع خصائص اللغة والثقافة التى تعبر عنها هذه اللغة .

تعريف الثقافة :

اذن ما هى الثقافة ؟ وما هى وظيفتها فى تكوين الشخصية القومية ؟

الثقافة لها معنيان ... معنى فى اللغة ، ومعنى فى الاصطلاح . اما معناها لغة فهى التهذيب والصقل ـ فالشخص المثقف هو الشخص المهذب المصقول فى اخلاقه وسلوكه العام أو هكذا ينبغى ان يكون .

اما الثقافة فى الاصطلاح فهى ذلك النسيج الكلى المعقد من الافكار والمعتقدات ، والعادات والتقاليد واساليب التفكير ، والعمل ، وانماط السلوك وكل ما ينبنى عليها من تجديدات أو ابتكارات أو وسائل فى حياة الناس ، مما ينشأ فى ظله كل عضو من اعضاء المجتمع .

ومعنى هذا ان ثقافة الامة تتسع لكل ما ابدعته عبقريتها خلال مراحل التاريخ التى مرت بها منذ بدأت تعيش حياة متحضرة على وجه الارض حتى الوقت الحاضر . يتضح من هذا التعريف ، ان الثقافة تتضمن عناصر معنوية كما تتضمن عناصر مادية . فالعناصر المعنوية تتمثل ، فى اللغة ، والفنون ، والعلوم ، والآداب ، والنظم ، والقوانين ، والعادات ، والتقاليد ، والاخلاق .

اما العناصر المادية فهى تتضمن كل مرافق الحضارة المادية التى يستعملها افراد المجتمع كالمواصلات ـ والمبانى ـ والطرق ـ وانواع الملابس ـ والمعامل ـ وكل ما تزخر به الحضارة فى كافة مجالات الحياة المادية .

وظيفة الثقافة :

اما وظيفة الثقافة الاساسية فى حياة المجتمع فهى انها وسيلة المجتمع الرئيسية فى الابقاء على حياته وكيانه ، فكل مجتمع سواء كان جزائريا أو غير جزائرى وسيلته الاساسية فى المحافظة على نفسه ووجوده هو ثقافته القومية الخاصة به .

ولذلك فان كل المجتمعات فى سائر مراحل التاريخ تحاول دائما ان تحقق وظيفة الابقاء على نفسها معنويا عن طريق المحافظة على ثقافتها القومية وليس للمجتمع وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة للمحافظة على كيانه حتى ان المجتمعات اذا اضطرتها الظروف فى بعض مراحل التاريخ ان تضحى بعدد من افرادها من اجل المحافظة على ثقافتها القومية ، ومدنيتها الخاصة فانها لن تتردد فى ذلك مطلقا .. وهذا هو التفسير الحقيقى لبعض الحروب التى تخوضها المجتمعات فى بعض الاوقات دفاعا عن ثقافتها وكيانها الخاص .

فالحرب كما يقول علماء التربية والاجتماع ليست فى الحقيقة والواقع سوى تضحية ضرورية من المجتمعات ببعض افرادها فى سبيل الابقاء على تراثها الثقافى كمظاهر من مظاهر ابقاء الجماعة لنفسها لان الافراد زائلون دائما ، ويمكن تعويضهم دائما بكل سهولة .

اما الثقافة فهى اذا ضاعت فسيترتب عليها ضياع الجماعة نفسها . وهـذا ما فعله الشعب الجزائرى فى ثورة الفاتح من نوفمبر سنة 1954 . فقد ضحى شعبنا بكل سخاء وكرم بمليون ونصف مليون من خيرة ابنائه فى ساحات الجهاد المقدس دفاعا عن شخصيته القومية ـ بكل مقوماتها الاساسية .

هذا بالاضافة الى محاولة استرجاع سيادته الوطنية المغتصبة . فهؤلاء الشهداء الابرار الذين سقطوا فى ثورة الفاتح نوفمبر المجيدة يمكن تعويضهم . كما انهم افراد زائلون مهما طال عمرهم . اما التراث الثقافى الذى تتكون منه شخصية الشعب الجزائرى القومية وكيان الوطن الجزائرى الذاتى فهو الباقى وهو الخالد . وهو المستمر . ما استمرت الحياة على وجه الارض .

دور المدرسة فى المحافظة على الثقافة القومية :

والثقافة القومية أو التراث القومى ، لا يمكن المحافظة عليها الا بوسيلتين :

الوسيلة الاولى هى العلم بها .

والوسيلة الثانية هى تعليمها . للاجيال الناشئة من ابناء الامة . وكلتا الوظيفتين العلم بالثقافة . وتعليمها تدخلان فى نطاق التربية .

ومن هنا كانت خطورة المدرسة فى المجتمع ـ فهى التى تعد الاطفال الصغار لان يكونوا افرادا صالحين فى مجتمعهم عن طريق تزويدهم بالثقافة القومية ـ وهى التى تعمل على ادماجهم فى مجتمعهم عن طريق تطبيعهم بالطابع الاجتماعى لأمتهم . ولذلك كانت الوظيفة الاساسية للمدرسة فى جميع المجتمعات الانسانية هى المحافظة على التراث الثقافى للمجتمع . فالمدرسة هى التى تعلم لغة الامة . وتاريخها وآدابها . وعلومها . وفنونها . وعاداتها ، وتقاليدها . لابناء الامة منذ نعومة أظفارهم الى ان يشبوا عن الطوق .

والمدرسة هى التى تغرس فى نفوس الاطفال الصغار . حب هذا التراث الثقافى والتمسك به ، والاعتزاز به ، وبهذه الطريقة . يبقى للجماعة الانسانية كيانها وتماسكها . وشخصيتها المتميزة بها عن بقية المجتمعات الانسانية الاخرى .

ومن المعلوم ان تراثنا الثقافى الذى تقوم على اساسه علاقاتنا الاجتماعية هو عبارة عن ديننا ولغتنا . وآدابنا . وفلسفتنا . أى هو كل ما يجعلنا نعرف انفسنا على حقيقتها ونعرف حريتنا وانسانيتنا ، ونرى من اجله الحياة جديرة بأن نحياها . وهو من اهم مكونات شخصيتنا ، وانماء ثقافتنا . وتحديد معالم ذاتيتنا بين الامم .

فالحاضر هو حصيلة الماضى . وليس هناك حاضر مهما بلغت درجته من الحضارة والرقى والعمران والازدهار . من غير ماض يقوم عليه لان البناء الثقافى لا يقوم فى الفراغ ولكن لا بد له من اساس يرتكز عليه وتراثنا العربى الاسلامى الذى ارتبطنا به فكرا وعقيدة . وثقافة ، وتاريخا يحتم علينا ان تكون لغة الثقافة التى نتعلم بها هذا التراث هى اللغة التى تبقى على هذا التراث وتحافظ عليه . وتعمل على نشره وازدهاره بين ابنائنا وبناتنا واعنى بها اللغة العربية .

ان هذا التراث العربى الاسلامى الضخم هو الذى كرس له ابن باديس فى بداية نهضتنا المعاصرة قبل الحرب العالمية الاولى حياته العامرة للمحافظة عليه من عوامل الهدم والتخريب من ناحية ثم فى محاولة احيائه وبعثه بعثا جديدا يناسب الحياة العصرية والتطور العالمى من ناحية اخرى .

وهناك ملاحظة هامة ينبغى التنبيه اليها فى هذا الصدد الا وهى ان الثقافة القومية أو التراث القومى هى عملية هامة جدا بالنسبة للعملية التربوية فى المدرسة . اذ من المعروف ان العملية

التربوية في المدرسة تقوم على عاملين اساسيين هما :

اولا : الطفل البشري مع عجزه وجهله الاجتماعيين من ناحية .

ثانيا : الثقافة التي تسود الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي يولد فيه هذا الطفل البشري وينشأ بين احضانه من ناحية أخرى .

فالثقافة تكيف الفرد الانساني على اساس النموذج السائد فيها ولذلك فان الطفل الذي ينشأ مثلا في مجتمع عربي أو متعرب لا بد ان يتطبع ويتخلق بالاخلاق العربية والطفل الذي ينشأ في مجتمع فرنسي أو متفرنس ، لابد ان يتطبع ويتخلق بالاخلاق الفرنسية وهكذا . ولذلك ينبغي العمل على سرعة تعريب التعليم وتعريب المحيط الاجتماعي في بلادنا كي نساعد ابناءنا على التخلق باخلاقنا وطباعنا .

فالثقافة .. هي كما قلنا منذ قليل وسيلة التربية الاساسية لادماج الافراد في مجتمعاتهم وتطبيعهم بالطابع الاجتماعي المميز لكل منهم ولذلك تحرص الامم الواعية على العناية بثقافتها القومية ، ومن بينها اللغة القومية ، والتاريخ القومي ، والجغرافيا الوطنية والآداب القومية . فتعمل على غرسها في نفوس ابنائها منذ المراحل الاولى من عمرهم حتى يشبوا على الولاء لمجتمعهم ، والحب لوطنهم ، والتفاني في خدمة امتهم ، والذود عنها ضد كل عدوان يقع عليها .

فالانسان لا يمكن ان يحب وطنه حبا حقيقيا الا اذا عرفه معرفة جيدة ، في ثقافته الخاصة ، وفي لغته القومية ، وفي جغرافيته وتاريخه وحضارته وكذلك موقعه الاستراتيجي بين اوطان الشعوب والامم الاخرى .

تحديد الشخصية القومية :

والآن أنتقل الى الحديث عن العنصر الثاني وهو « الشخصية القومية » فما هي هذه الشخصية ؟ وما هي مقوماتها الاساسية ؟ وما هو دور التربية في المحافظة عليها والعمل على ازدهارها ؟

تعتبر الشخصية من ابرز المميزات الانسانية واشدها تعقيدا ، ويعرفها علماء التربية وعلم النفس بأنها « مجموعة الصفات والخصائص الجسمية ، والعقلية ، والخلقية ، والنفسية ، والوجدانية والمزاجية ، التي يتصف بها الانسان على المستوى الفردي وكذلك على المستوى الاجتماعي . وتميزه عن غيره من الناس أو من الشعوب الاخرى » ومعنى هذا ان « الشخصية هي جماع ما لدى الانسان من صفات جسمية ، وصفات عقلية ، وصفات خلقية ، وصفات نفسية ومزاجية ، سواء كانت موروثة عن الآباء والاجداد او مكتسبة من البيئة المحلية .

وقد اختلف علماء النفس اختلافا كبيرا في امر تحليل الشخصية الى اصولها وعواملها .. ويرون ان افضل وسيلة لتفهم الشخصية هي ان تدرس على اساس ظاهرها في سلوك الافراد وكذلك في سلوك المجتمع ، فكرا ، وقولا ، وعملا .

والملاحظ ان معنى الشخصية قريب جدا في مدلوله العام من معنى الاخلاق فكلتاهما أي الشخصية والاخلاق تدلان على معنى سلوك الانسان .

وعلى هذا فان شخصية الشعب الجزائري القومية مثلا هي عبارة عن مجموع الخصائص العقلية ، والخلقية ، والنفسية ، والمزاجية التي تظهر في سلوك افراد الشعب الجزائري بمجموعهم وتميزهم عن غيرهم من افراد الشعوب الاخرى .

يقول الدكتور نقولا زيادة في تحديد شخصية الامة العربية في كتابه « العروبة في ميزان

القومية » يقول : « نحن امة لاننا وحدة روحية ، لنا بلاد نقطنها ، وتاريخ نرجع اليه ، ولغة حية نتكلمها ، وادب نستعذبه ، وذكريات نتغنى بها وآمال مشتركة نصبو الى تحقيقها ، ومثل عليا متفقة نسعى اليها ، وقوة نبذلها فى سبيل آمالنا ومثلنا ، وارادة تحملنا على السير فى سبيل الوصول الى ما نؤمل » .

مقومات الشخصية القومية :

اما مقومات الشخصية القومية فان معظم الباحثين الاجتماعيين يتفقون على ان اهم المقومات الاساسية لكل شخصية قومية هى اربعة عوامل رئيسية نلخصها فى العوامل الآتية :

1 ـ اللغة المشتركة .

2 ـ التاريخ المشترك .

3 ـ الثقافة القومية المشتركة .

4 ـ الوطن المشترك .

ويلاحظ ان اللغة القومية المشتركة تعتبر من أوثق الروابط القومية بين افراد الشعب الواحد ، وذلك لسببين جوهريين :

السبب الاول : هو ان استعمال لغة قومية واحدة هو ادعى الى التقارب والتفاهم والانسجام بين ابناء الامة الواحدة وصهرهم جميعا فى بوتقة فكرية واجتماعية واحدة ، وهذا ما نلاحظه فى بلادنا فى المدن بالذات حيث تنعدم الوحدة الفكرية بين المثقفين الجزائريين بسبب الاختلاف فى لغة الثقافة فاحدى اللغتين عربية ـ والاخرى فرنسية . وبالتالى تنعدم وحدة النظرة والحكم على الاشياء لديهم فى بعض الاحيان .

ولعل قائلا يقول : ان دولة مثل سويسرا توجد فيها اربع لغات رسمية وهى الالمانية والفرنسية والايطالية ولغة رابعة سويسرية محلية ، ومع ذلك فان شعب سويسرا يكون امة واحدة ، وقومية واحدة . ونفس الشيء يصدق على بلاد مثل كندا التى لها لغتان رسميتان : فرنسية وانجليزية ، وبلجيكا التى لها لغتان كذلك وجمهورية الهند التى لها مجموعة لغات وطنية وكلها رسمية . فى الادارة كل ولاياتها تسير امورها وشؤونها فى الادارة والتعليم بلغتها الخاصة .. والجواب عن هذا التساؤل هو ان الروابط القومية فى الدول المذكورة ذات اللغات المتعددة كانت تكون اقوى وامتن واصلب عودا لو كانت لها لغة قومية واحدة . والدليل على ذلك هو هذه الاضطرابات السياسية والدموية التى تنشب فى بعض الاحيان فى الهند وبلجيكا وكندا ، بسبب تعصب كل مجموعة من السكان الى لغتها الخاصة ضد لغات المجموعات الاخرى .

اما السبب الثانى : الذى يجعل اللغة القومية المشتركة تعتبر من اوثق الروابط القومية بين افراد الشعب الواحد ، فهو ان اللغة القومية هى فى الحقيقة والواقع مستودع ثقافة الامة ، وتراثها الاجتماعى ، ولذلك كانت الاداة الرئيسية لنشر الثقافة المشتركة فى صفوف ابنائها .

ولا شك ان الثقافة المشتركة التى تشيع فى صفوف ابناء الشعب الواحد هى من اكبر العوامل على بناء الكيان القومى لذلك الشعب . وبقدر ما يكون هذا العامل راسخا فى النفوس ومستوليا على الحياة الاجتماعية والفكرية لابناء ذلك الشعب بقدر ما يكون الشعب قد اندمج فى قومية واحدة قوية راسخة من هنا كانت اهمية اللغة الواحدة أو اللغة المشتركة ومما يدل على خطورة اللغة فى حياة الشعوب وتكوين الامم ما نلاحظه فى تكوين الامة الامريكية فى العصر الحديث ، فقد كان للغة الانجليزية التى شاع استعمالها فى الولايات المتحدة منذ القرن السابع عشر الميلادى الدور الاكبر فى صهر الامة الامريكية فى قومية واحدة

مع ان الامة الامريكية تتركب من جنسيات مختلفة هاجرت اليها منذ اكتشاف القارة الامريكية وهي جنسيات من معظم دول اوربا وافريقيا والشرق الاقصى ما بين ايطالية وفرنسية ، واسبانية ، والمانيــة ، وزنجية وصينية ويابانية وغــيرها من الاجناس الاخرى . غير ان انتشار اللغة الانجليزية بين سكان امريكا وتغلب هذه اللغة على بقية اللغات الاوربية والافريقية والهندية الاخرى طبع هؤلاء السكان بطابع واحد ، وصهرهم جميعا في بوتقة اجتماعية وثقافيـــة واحـــدة نشأت عنها الامة الامريكية الواحدة ، والقومية الامريكية المشتركة . التي اصبحت اليوم تمثل القوة الدولية الاولى في العالم بلا منازع .

دور اللغة القومية :

ولذلك فان كل امة تتمسك بلغتها القومية ، وتعمل على المحافظة عليها انما تعمل في الواقع على المحافظة على اهم مقوم من مقومات شخصيتها ، ويكون هذا العمل منها دليلا على بقائها حية بين الامم حتى وان اضاعت استقلالها السياسي والدليل على ذلك هو الجزائر ، فقد بقيت الجزائر عربية مسلمة رغم ما تعرضت له من محن ، واضطهاد ، وتنكيل . من الاستعمار الفرنسي طيلة 132 سنة .

وبالرغم من ان الجزائر قد اضاعت استقلالها السياسي في عام 1830 نتيجة للاحتلال الفرنسي . فقد بقيت عربية مسلمة لانها حافظت على اللغة العربية ، وتمسكت بها . كما حافظت على الاسلام وتمسكت به وذلك بصمودها في وجه سياســة الفرنسة . والتنصير . والاندماج والتجنيس التي سلطها الاستعمار الفرنسي عليها وبذلك حافظت على شخصيتها القومية وبالتالي بقيت الجزائر في عهد الاحتلال هي هي الجزائر التي كانت قائمــة قبل الاحتلال قطر عربي مسلم له شخصيته الخاصة وكيانه الخاص به بين مختلف اقطار العالم . ولم يستطع الاستعمار الفرنسي ان يذيبها في كيانه العـــام .

ان اللغة القومية : هي بمثابة الوعـــاء الذي تتشكل به ، وتحفظ فيه ، وتنقل بواسطته افكار الشعب ، وعاداته ، وتقاليده ، وروحه ، وطموحه . من جيل الى جيل من السلف الى الخلف الى ان يرث الله الارض ومن عليها . فقلب الشعب انما ينبض حقا وصدقا في لغته القومية ، وروح الشعب انما تكمن حقا وصدقا في لغة الآباء والاجداد ، ومن هنا فان كل امة تنبذ لغتها القومية ، أو تتهاون بشأنها ، وتصطنع لغة غيرها في حياتها العامـة أو الخاصة ، الا وتفقد شيئا فشيئا حياتها وكيانها حتى تذوب في نهاية الامر في كيـــان الامة التي اقتبست لغتها شعرت بذلك أم لم تشعر لان هذه سنة من سنن العمران وهي كذلك سنة من سنن الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ولعل هـذا ما يفسر لنا ظـاهرة السياسة الاستعمارية تجاه البلدان المغلوبة على امرها حيث يبادر المستعمرون منذ البداية الى توجيه سهامهم المسمومة الى لغة وثقافة الشعوب التي تقـــع تحت سيطرتهم حتى يميتوا فيها كل شعور بالعزة والكرامة والشخصية القومية كي يلحقوها بهـم الحاقا .

فرنسا اقامت جهازها التربوي في الجزائر من اجل القضاء على اللغـــة العربية .

لعله ليس غريبا عليكم ان فرنسا قد ركزت سياستها في الجزائر منذ بداية احتلالها على طعن الشخصية القومية للشعب الجزائري في لغتهـــا القومية وهي اللغة العربية أولا ــ ثم بعد ذلـك وجهت طعناتها الواحدة بعد الاخرى الى تراثـه الثقافي والحضاري ، حتى تعـــوق عملية البعث القومي للشعب الجزائري التي يمكن ان تنهض في يوم من الايام . ومن هنا يتضح لنا لماذا اقامت

فرنسا كل جهازها التربوى فى الجزائر ، على اساس القضاء على اللغة العربية وكذلك القضاء على الثقافة العربية الاسلامية بقصد اماتتهما معا ، حتى تتكون الاجيال الجزائرية الناشئة تكوينا مشوها وممسوخا وبالتالى تنشأ تلك الاجيال بلا اصالة ولا عمق ، لانهم يجهلون لغة امتهم وتاريخ وطنهم ، وثقافة شعبهم .

وهذا ما يفسر لنا سياسة مطاردة اللغة العربية من سائر الادارات الجزائرية ثم من سائر معاهد التعليم على اختلاف انواعها فى ايام الاحتلال ثم فى محاولات التشويه والمسخ التى قام بها المبشرون والمستشرقون للثقافة العربية فى الجزائر وهم كما تعلمون طلائع الاستعمار الاوربى فى البلاد العربية والاسلامية ومنها الجزائر .

ومن الملحوظ فى التاريخ المعاصر ومنه تاريخ الجزائر . ان القوميات المقهورة مثل القومية العربية فى الجزائر بعد الاحتلال الفرنسى ومثل القومية الالمانية بعد احتلال نابليون بونابرت لالمانيا فى القرن الثامن عشر انها تركز نشاطها وعملها تركيزا كبيرا على النضال الثقافى من اجل البقاء وهذا ما قام به الامام عبدالحميد بن باديس رحمه الله ابتداء من عام 1913 ثم قامت به جمعية العلماء بعد تكوينها فى عام 1931 برئاسة ابن باديس حيث اتجه ابن باديس ثم جمعية العلماء كما اتجه الالمان من قبل ذلك بقيادة الفيلسوف الالمانى فيخته فى القرن التاسع عشر الى النضال فى الميدان الثقافى بدل النضال فى الميدان السياسى حتى لا تضيع الثقافة القومية ، واللغة القومية . وبالتالى تنهار الشخصية القومية للشعب الجزائرى والشعب الالمانى .

اقتران الكفاح السياسى بالعمل على نشر التعليم .

هناك ظاهرة هامة يلحظها الباحث فى التاريخ الجزائرى الحديث وهى اقتران الكفاح الوطنى من اجل الحرية والاستقلال ابتداء من نهاية الحرب العالمية الاولى بالعمل على نشر التعليم ففى كل خطوة من خطوات الكفاح الوطنى فى الجزائر كان التعليم والعمل على نشره ، والمطالبة بتوفيره للجزائريين يبرز فى المقدمة كسلاح ينشر الوعى القومى بين الجزائريين ، ويدعم قوة الشعب ويكتل قواه ، ولذلك يمكننا القول بكل ثقة بأن مقاومة الاستعمار سياسيا كانت تسير جنبا الى جنب مع العمل على نشر التعليم والمطالبة بأن تصبح اللغة العربية لغة رسمية فى المدارس والمعاهد على اختلافها .

وابتداء من عام 1930 أى بعد احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر بدأ ايمان المواطنين الجزائريين يزداد بأهمية التعليم القومى كواجب قومى يجب ان ينهض به الشعب من ناحية التمويل ، وتنهض به المنظمات الوطنية من ناحية التنظيم والتوجيه ، ووضع الخطط والبرامج ، حتى تتحطم سياسة الفرنسة من الاساس ، وهذا ما يفسر لنا نهضة التعليم العربى الحر منذ الثلاثينيات واحتضان الشعب كله لمعاهده ، ورجاله ، ومنظماته ، رغم الحرب الضارية التى شنتها فرنسا على التعليم العربى وعلى القائمين به كما تعرفون .

وكان من الطبيعى ان تتولد عن هذه الحركة التربوية الشعبية نهضة واسعة فى المعارف ، والافكار ، كان من نتائجها نمو الوعى القومى عند الجزائريين نموا عظيما مضطردا . كما تولد عنها اعتزاز كبير بالشخصية القومية ، والتراث الثقافى العربى الاسلامى وكانت السياسة والتربية القومية بصفة عامة تخوضان معا معركة الحرية والاستقلال والمحافظة على الشخصية القومية فى وجه المحتل الغاصب ، منذ نهاية الحرب العالمية الاولى حتى اندلاع ثورة الفاتح نوفمبر سنة 1954 .

وليس من الغرابة فى شىء ان يتعلق الشعب الجزائرى هذا التعلق الكبير بلغته القومية فلغة الشعب هى رمز رقيه ، وهى عنوان حضارته ، بل هى الدليل على وجوده شعبا حيا بين الشعوب الحية ، لذلك فان مصير كل شعب مرهون بمصير

لغته القومية قوة وضعفا ، رقيا وانحطاطا ، حياة وموتا ، هذا قانون من قوانين الاجتماع والعمران كما يقول ابن خلدون ، قد صدقته الاحداث طوال مراحل التاريخ ، ومن هنا نصل الى قضية تربوية هامة جدا وهى : ان تربية الاطفال الصغار باللغة الاجنبية ، وتعويدهم على التحدث بها كما هو الحال فى الجزائر فى الوقت الحاضر مع الاسف الشديد يجعلهم اطفالا جزائريين من ناحية جنسهم ولكنهم اجانب من ناحية فكرهم ، وعاطفتهم ، ولغة ثقافتهم وهذا اخطر ما فى الامر وهنا تبدو خطورة التعليم باللغة الاجنبية وحدها أو معها اللغة القومية ولكن بشكل ضعيف وهزيل . فاللغة كما يقول علماء التربية وعلماء الاجتماع « تكون الناس اكثر مما يكونها الناس . وتصنع العقول والافكار اكثر مما تصنعها العقول والافكار » .

يقول المربى الانجليزى نيقولا هانز ، فى كتابه « التربية المقارنة » شارحا خطورة التعليم باللغة الاجنبية على كيان الاطفال وشخصياتهم يقول « هناك فوضى كثيرة تحدث لأولئك الذين يستخدمون اللغة الاجنبية كأداة للتعليم فى مدارسهم بدل لغتهم القومية ، فقبل الالتحاق بالمدرسة يكون الاطفال قد ملكوا ناصية الحديث بلغتهم الاصلية ، ويكونون قد كونوا حصيلة لغوية تغطى معظم موضوعات الانطباعات الحسية ، ووجوه النشاط اليومى ـ ثم عليهم فى المدرسة ان يضيفوا الى هذا الاساس اللغوى الذى يغطى وجوه النشاط الحسى يضيفون اليه لغة الافكار والعلاقات المجردة معبرا عنها جميعا بلغة اجنبية . فعقولهم حينئذ تصبح منقسمة الى قسمين منفصلين تمام الانفصال **احدهما** للاشياء العادية والاعمال التى يعبر عنها باللغة الاصلية أو اللغة الوطنية أو لغة الام ، والاسرة . **والثانى** : للاشياء التى ترتبط بالمواد الدراسية فى المدرسة وبعالم الافكار المعبر عنها بلغة اجنبية ونتيجة لذلك ، كما يقول هذا المربى ـ فان هؤلاء الاطفال يعجزون عن التحدث عن شؤونهم العائلية بلغة المدرسة ، كما يعجزون فى نفس الوقت عن التحدث عن المواد التى تعلموها فى المدرسة بلغتهم الاصلية ، وهذا ما يطلق عليه السيد نيقولا هانز اسم « العقل المبلبل » أى العقول المضطربة المبلبلة ومعنى هذا بعبارة اوضح ان شخصية هؤلاء الاطفال الذين يتعلمون بلغة اجنبية عنهم سوف تتكون تكوينا قلقا مضطربا ، ومبلبلا وبذلك يكونون ضحية الازدواج اللغوى الذى سيطرت فيه اللغة الاجنبية على اللغة القومية الحيوية التى تدرس بها . ومما يدل على خطورة اللغة فى حياة الشعوب انها العامل الاساسى فى قيام وحدتها على اسس صلبة قوية . فقد وجدت على سبيل المثال لا الحصر ، اللغة الالمانية فى اواخر القرن التاسع عشر بين الالمان بعد ان كانت المانيا منقسمة الى 360 دويلة صغيرة ضعيفة . ووحدت اللغة الايطالية بين سكان ايطاليا وجعلتهم دولة واحدة بعد ان كانوا عددا كبيرا من الدويلات الصغيرة الضعيفة .

وعلى اساس اللغة المشتركة استقلت دولة بولونيا . ووحدت اقطارها الثلاثة التى كانت من قبل تحت سيطرة روسيا والمانيا والنمسا .

وانفصلت هولاندة عن بلجيكا على اساس اللغة كما انفصلت البلاد العربية بعد الحرب العالمية الاولى عن تركيا بسبب الاختلاف فى اللغة مع ان الدين الاسلامى يجمع بين العرب والاتراك مما يدل على خطورة اللغة فى شخصيات الشعوب وكيانها القومى .

سواء فى الزمان المحدد لها أو فى المواد العلمية

ويحدثنا تاريخ اوربا منذ فجر عصر النهضة ان هناك العشرات من الشعوب قد انفصلت عن غيرها وتجمعت مع بعضها بعضا على اساس من اللغة المشتركة .

ولقد كانت اللغة العربية فى الجزائر طوال فترة الاحتلال المظلمة هى المشعل الذى ينير لابناء الشعب الجزائرى طريق الجهاد المقدس ضد فرنسا .

ويثير في نفوسهم البطولات الرائعة التى تدفعهم للعمل من اجل التحرر من ربقة الاستعمار الفرنسى ، وتلهب في نفوسهم الروح الوطنية والثورية ، وتوحد اهدافهم وافكارهم وشعورهم ، وتعبر عن طموحهم اصدق تعبير . ولازلنا جميعا ننفعل بكلمات نشيد شعب الجزائر مسلم ، والى العروبة ينتسب وبكلمات نشيد من جبالنا طلع صوت الاحرار ينادنا للاستقلال الى آخر الاناشيد الوطنية التى كانت تلهب الحماس والوطنية في نفوس الكبار والصغار معا حتى ولو لم يفهموا معانيها تمام الفهم وتدفعهم الى التضحية بالنفس والنفيس من اجل الحرية .

مكانة اللغة العربية في حفظ كيان الامة العربية

فاذا التفتنا الى دور اللغة العربية في حفظ شخصية الامة العربية وكيانها الذاتى فاننا نجد ان اللغة العربية كانت وما تزال وستبقى حافظة التراث العربى الاسلامى ، ومحتضنة الشعور العربى فى سائر اقطار الامة العربية – فاللغة العربية هى التى ابقت على عروبة كثير من الاقطار العربية ومن بينها الجزائر . وعن طريق عنصر اللغة ترتبط اكثر العناصر الاخرى الهامة بالقومية العربية ، فالتاريخ المشترك الذى يجمع بين ابناء الامة العربية تراث حضارى ثقافى تلعب فيه اللغة العربية الدور الاكبر .

والدين الاسلامى هو قبل كل شىء القرآن الكريم ، وهو كتاب اللغة العربية الاكبر ، وقد جعلت معجزة هذا الدين الكبرى « القرآن » الكريم بل ان ارادة الحياة المشتركة التى تجمع بين ابناء الامة العربية اليوم يغذيها قبل كل شىء آخر ارتباطهم بلغة واحدة هى اللغة العربية . والشعور الحى الذائع فى قلوب ابناء الامة العربية هو شعورهم بالانتساب الى حضارة مشتركة هى حضارة اللغة العربية ، لذلك كانت اللغة العربية وما تزال لها اهمية فى حياة الشعوب العربية .

اللغة صورة وجود الامة بافكارها ومعانيها

هناك ملاحظة هامة ينبغى التذكير بها دائما وباستمرار وهى « ان اللغة كما يقول علماء التربية وعلماء الاجتماع ليست مجرد وسيلة لايصال الافكار بين المتكلمين بها فقط بحيث يستطيع الانسان ان يستبدل لغة بلغة اخرى كما يغير مثلا وسائل المواصلات التى يستعملها فى تنقلاته العامة او يغير نوع ملابسه وانما اللغة وظيفة اجتماعية عبر عنها احد المربين بقوله « ان وظيفة اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم او للتوصيل ، بل وظيفة اللغة هى انها حلقة فى سلسلة النشاط الانسانى المنتظم هى انها جزء من السلوك الانسانى انها ضرب من العمل وليست اداة عاكسة للفكر فقط » يقول الفيلسوف الالمانى « فيخته » ان الذين يتكلمون بلغة واحدة يكونون كلا موحدا ربطته الطبيعة بروابط متينة وان كانت غير مرئية » ومن هنا كانت لغة الامة هى الهدف الرئيسى لمحاربة المستعمرين الطامعين فى استعباد الشعوب ومحاولة السيطرة عليها .

يقول الاستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه وحى القلم (ج 3 ص 36 – 37) تحت عنوان لغة الامة هى الهدف الاول للاستعمار ، يقول : « واما اللغة فهى صورة وجود الامة بافكارها ومعانيها ، وحقائق نفوسها وجودا متميزا قائما بخصائصه فهى قومية الفكر تتحد بها الامة فى صور التفكير واساليب اخذ المعنى من المادة » ثم يقول « لا جرم ، كانت لغة الامة هى الهدف الاول للمستعمرين فلن يتحول الشعب أول ما يتحول الا من لغته ، اذ يكون منشأ التحول من افكاره وعواطفه وآماله وهو اذا انقطع من نسب لغته ، انقطع من نسب ماضيه . ورجعت قوميته صورة محفوظة فى التاريخ ، لا صورة محققة فى وجوده ، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر ، حتى ان ابناء الاب الواحد لو اختلفت السنتهم فنشأ منهم ناشىء على لغة ونشأ الثانى على أخرى ، والثالث على لغة ثالثة لكانوا فى العاطفة كابناء ثلاثة آباء ، وما ذلت لغة شعب الا ذل ، ولا انحطت الا كان امره فى ذهاب وادبار .

الصراع بين العربية و الفرنسية في الجزائر قبل الثورة

يعود الصراع بين العربية ، وهى لغة الجزائريين الوطنية وبين الفرنسية ، وهى لغة دخيلة اكتسحت نفوس بعض الجزائريين وتسربت اليهم عن طريق الاستعمار السياسى للجزائر من قبل الفرنسيين الى نحو قرن ونصف من الزمان . ونحن حين نستنطق التاريخ ، ونستفسر بعض ما بقى لنا من آثاره وذكرياته ، يجيبنا بان العربية كانت هى اللغة الرسمية للدولة الجزائرية والشعب الجزائرى معا ، قبيل الاحتلال الفرنسى . ومن آيتنا على ذلك ان الامير عبدالقادر ، وهو رئيس هذه الدولة ايام حرب المقاومة اثناء القرن الماضى ، كان عربيا ، بل لم يكن عربيا فحسب ، ولكنه كان شاعرا واديبا حفظت لنا الايام كثيرا من قصائده الشعرية التى ان لم تكن فى ذرى الفنون الشعرية فانها تدل بحق على روح عربى صاف ، وعلى عواطف انسانية رقيقة .

د. عبدالمالك مرتاض

وفكرة الصراع بين لغتين : لغة غازية ، ولغة مغزوة ، ليس مما يحلو فيه الحديث ، اذا اعتبرنا انها فكرة معروفة فى التاريخ السياسى ، والتاريخ الادبى جميعا . فليس الفرنسيون وحدهم هـم الذين محـوا لغـات الشعوب التى استعمروها واستبدوا بسيادتها بقوة الحـديد ، ولكن معظم الدول الاخرى ــ ان لم أقل جميعها ــ القديمة والحديثة فعلت ذلك ايضا . وفى طليعة أولئـك العرب .

وعلى اننا لا نملك الا ان نخــرج العرب من قائمة المستعمرين ، سواء علينا أأراد ذلك مؤرخو الغرب أم لم يريدوا ، لان التاريخ أصدق منهم ، ولان الحق أفصح من كتاباتهم التى كثيرا مـــا تزوغ عن قصد السبيل حين يتناولون مسالة من مسائل التاريخ الاسلامى ، أو قضية من قضايا الفكر العربى بوجه عام . اقول : لا نملك الا ان نقرر بان العـــرب كانوا فاتحين ، ولكنهم كانوا ناشرين للحضارة الروحية التى كانت تتمثل فى الاسلام ومبادئه السمحة ، فى ذلك الحين . فلـم يكن العرب يرغمون المتمسحة ، ولا المتهودة ، على الاسلام ، أو يحضونهم عليه ويغرونهم باعتناقه ، وانما كانوا يفعلون ذلك مع المتمجسة ممن لـم يكن لهم دين سماوى .

واذن ، فانما كان دور العرب المسلمين ، فيما فتحوا من أقطار ، دورا تمدينيا وتهذيبيا . كما أن نشر اللغة العربية لم يتم عن طريق تعمد محو اللغات التى كانت سائدة قبل الفتح ، وانما تـم فى معظم الاحوال ، عن طريق التمازج التـــام بالسكان ، والتزوج منهم ، وعدم الترفع عنهم فى الحياة اليومية الاجتماعية . (1)

على حين انك ترى الدول الغربية المستعمرة فى العصر الحـديث ، تسلطت على شـعوب أخـرى فاحتلتها ، واكتسحتها بقوة العـدد والعـدد ، واستولت على أرزاقهـــا وأقواتهـــا وخيراتهـــا ، فافقرتها وحرمتها ، وجهلتها وأخرتها . وان وقع فى بعض الحالات ، تمدين أو تحضير ، فانما كان على حساب محو التاريخ الوطنى، ومسخ الشخصية الاصيلة ، وطمس الحضارة القومية وهدم اركانها . كما كان يحدث بالقياس الى الاطفال الجزائريين الذين كانوا يتعلمون فى المـــدارس الفرنسيـة فان هـــذه المدارس الفرنسية ، كانت تعلمهم مـــع الفرنسيين تعليمـا فرنسيا محضـــا :

---

(1) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة - 52 القاهرة 1957

يمجد الحضارة الفرنسية ، ويدرس التاريخ الفرنسي ، ويمقت كل ما هو عربي . وهذا حق مبين لا يرتاب فيه الا من كان جاهلا بالاوضاع الثقافية التي كانت سائدة في النصف الاول من هذا القرن في الجزائر .

لا غرو اذا رأينا الفرنسيين أول ما يفعلون ، بعد ان استقر بهم المقام بعض الاستقرار ، هو أن يبادروا الى محاولة محو الشخصية الجزائرية الاصيلة عن طريق فرنسة الالسنة والعقول . ولكن هل وجد الفرنسيون في مهمتهم بعض السهولة واليسر ؟ ثم هل استطاعوا ان يقنعوا الجزائريين المخلصين بأن اللغة الفرنسية هي اللغة التي ينبغي ان يتخذوها لهم لسانا ، أو يصطنعوها حين الكتابة والتفكير ، أو يعتقدوا – الى جانب كل ذلك – انها لغة العلم والحياة ؟

وانا نزعم لانفسنا ان الاجابة على هذه الاسئلة مما يسهل علينا ، ومصدرنا في ذلك معاصرتنا للاستعمار الفرنسي في الجزائر . والجواب : ان المستعمرين الفرنسيين كابدوا في ذلك كل عناء ، فلم يكن غرس لغتهم في قلوب الجزائريين بالامر الهين عليهم ، اذ كان الجزائريون أصلب الناس عودا ، وأشدهم عنادا ، واكثرهم تمسكا بشخصيتهم التاريخية العريقة . ولم ينجح المستعمرون في بعض ذلك الا في المدن الكبرى . وفي العقود الاخيرة من وجودهم بوجه خاص ، وذلك حين تقدمت الوسائل العلمية التي كانوا يصطنعونها لهذه الغاية اصطناعا .

ولسنا نتحدث عن اللغة الفرنسية بعد الاستقلال ، فقد كان لها دور تعليمي بحت ، فلم يعد الجزائريون ينظرون اليها اليوم على انها لغة الغالبين المتسلطين المتعنتين ، وانما اصبحوا ينظرون اليها نظرة مجردة عن مثل هذه العواطف والاحقاد ، فاقبلوا على تعلمها باعتبارها احدى اللغات الحية الهامة ، الى جانب اقبالهم على تعلم لغتهم العربية ، دون ان يجدوا في ذلك شيئا كثيرا من التناقض واليأس .

وان كنا ننادي بالغاء تعليم الفرنسية من المدارس الابتدائية الغاء تاما ، والابقاء عليها في المدارس الثانوية والجامعات فقط .

وكان الفرنسيون : سواء منهم من كانوا عمالا بسطاء ، أم موظفين في الشرطة ، أم موظفين في ادارات حكومية اخرى ، كثيرا ما يندهشون ويلم عليهم ما يشبه الذهول ، حين كانوا يتصلون بالجزائريين فيجدون معظمهم لا يتحدثون الفرنسية لانهم لا يتقنونها . فقد كان يبدو للباحث الاجتماعي ، أو الباحث في علم النفس الاجتماعي للشعوب ، وهو يشاهد هذه الظاهرة المذهلة ، ان أمل كثير من مستعمري الفرنسيين قد خاب ، وان خططهم قد فشلت ، وان خطواتهم قد شلت فأصبحوا من الخاسرين . والا فكيف يمضي قرن على وجود هذا الاستعمار في الجزائر ، حتى اذا يمم مواطن جزائري الربوع الفرنسية طلبا للعمل ، لم يجد جملة واحدة صحيحة يحادث بها الفرنسيين في المعامل والمتاجر والشوارع ، والحال انه كان يحمل الجنسية الفرنسية ؟

ومن اغرب ما رأيت من الفرنسيين ، انى لما كنت طالبا بفاس في مطلع النصف الثاني من هذا القرن ، مرض احد الطلاب الجزائريين منا ، فارتأينا ادخاله المستشفى . فلما قصدنا ادارة البلدية لملء استمارة معلومات ، اتفق ان كان رئيس مكتب تلك الادارة فرنسيا ، فانشأ يسائل الطالب المريض الذي كان لا يفهم من الفرنسية شيئا ، فغضب الموظف الفرنسي غضبا شديدا وقال لنا في امتعاض مر :

– ما رأيت عجبا عجابا كاليوم ؟ أجزائري ولا يتكلم الفرنسية ؟ انه يخيل الى ان هذا جاسوس متستر بستار الجنسية الفرنسية ليس غير ، والا فكيف يعقل ان يكون جزائري على الارض وهو يجهل لغته ...؟

وقد اجاب الطالب في شيء كثير من التحدي

والاعتزاز ، بأن الفرنسية فى الجـــزائر لا تكاد توجد الا فى المدن ، حيث ان معظم السكان فيها فرنسيون ، امـــا السواد الاعظـم من الشعب الجزائرى الذى يقطن البوادى والارياف فى غالبيته ، فهو لا يعرف عن الفرنسية شيئا كثيرا . وانـا الذى ترانى ، وتتحدث معى ، احد اولئك الذين لا يفهمون الفرنسية فما تنكر من امرى ؟ فقـد وجدت آبائى يتحدثون العربية فانا اتحدثها ، كما اتنفس الهواء فى الفضاء ، وكما أشرئب الى النور ، وكما أحب الحرية ، وكما أحرص عـــلى الحياة .

انى جزائرى ، ولغتى عربية - بالرغم من أن القانون الدولى يعتبرنى - ظلما - فرنسيا . ولكن القانون سواء كان دوليا أم محليا ، لا يعنى انه يحترم الحقائق الثابتة ويقوم عليها قياما . فكم من قانون كان جائرا ، وكم من قانون جر عـــلى الانسانية كثيرا من الشقاء والآلام . وكم من قانون حرم الانسان من التعليم ، بل كم من قانون حظر عليه الخبز والماء ، وهما قوام الحياة للبدن ..

ولكن المترجم كان لبقا ، فلم ينقل كل كنـه هذا الحديث الى الموظف الفرنسى الذى كان الحقد باديا على صفحات وجهه ، فكفى الطالب الثائـر المريض كثيرا من الاذى . ان هذه الحادثة النفسية تدلنا بوضوح على مدى العسر الذى كان المستعمرون من الفرنسيين يكابدونه فى نشر اللغة الفرنسية واحلالها محل العربية فى الجزائر .

واذن ، فلم يستطع المستعمرون الفرنسيون ينجحـون كل النجـــاح فى فرنسة العقـــول الجزائرية . ولكن ما شأن هؤلاء الكتـــاب الذين يكتبون باللغة الفرنسية وهم جزائريون ؟ اليس ذلك دليـــلا على توفق المستعمرين فى غـــرس لغتهم فى قلوب الجزائريين ؟ ثم كيف اننا نجـد كثيرا من الجزائريين يحسنون الحديث بهذه اللغة ؟

اما تعليل عدم نجاح الفرنسيين فى فرنسة الجزائريين نجاحا باهرا ، فلأن الامة الجزائريـة عريقة فى عروبتها ، اصيلة فى تاريخها ، عنود فى ابائها ، شديدة التمسك بما تراه حقـا . فلم يكن الجزائريون يوما ينظرون الى الفرنسية الا على انها لغة الاجانب . ثـم ان احـــدا من عقلائهم ومفكريهم ، وعوامهم ايضا ، لم يكن يعتقد أو يحاول ان يعتقد بأنه فرنسى من الفرنسيين . فقد كانوا يرون ذلك ، تلقائيا ، خيانة ليس من بعدها خيانة ، وأى خيانة أبشع من أن يتنكر المرء لاصـــله ، ويخرج عن دائرة جنسه ، ويهجر لغة قومه ؟

بل اننا نستطيع أن نذهب الى اكثر من ذلك ، فنزعم بأن الامـة الجزائرية كانت من الحصـــانة اللغوية والوطنية ، ما لم يكن من السهولة واليسر ان يؤثر فيها وجود الاستعمار ولو دام قرونـــا طويلة . ولا يعود ذلك الى عوامل نفسية صرفة ، بل يعود ايضا الى الطبيعة والجغرافيا ، فقد كانت كثير من القبائل العربية الجزائرية متحصنة وراء جبال شامخة ، وبين انهار ووديان ، تعيش آمنة فى دينهـــا ، مطمئنة فى نفسها ، لا تعـرف عن الفرنسيين المستعمرين قليلا أو كثيرا . وكانت تقيم قراها تلك الحصينة ، وكأنها منفصلة عن ذلك الاطار العام الذى فرضه الاستعمار على الجزائريين فى المدن والحواضر فرضا .

ثم ماذا ؟

ان المستعمرين كانوا يـزدرون الجزائريـين ويحتقرونهم - واقول هذا لا للثلب ولكن للتاريخ - ودليلنا على هذا الازدراء ، انهم لم يؤسسوا لهم مدارس فى بواديهم وقراهم ، ولم يجبروهم على التعليم ، بل لم يحثوهم عليه . ولكن الفرنسيين لم يربحوا من وراء هذا التجهيل شيئا ، وخسروا كل ما كانوا يرمون اليه من ذلك . فهم خسروا من حيث ارادوا ان يربحوا ، وأخفقوا من حيث ارادوا ان يوفقوا . لان الجزائريين حين حرموا من المدارس الرسمية العصرية ، اقبلوا بابنائهم على الكتاتيب القرآنية ، ثم على المدارس العربية الحـــرة التى اسسها ابن باديس ونفر آخر من مخلصى الجزائريين

الوطنيين ، فاتسعت الشقة بين العربية والفرنسية، وازداد الصراع بينهما واحتد احتدادا .

ولو فتح الفرنسيون مدارسهم فى وجوه الجزائريين ، وعاملوهم معاملة ابنائهم ، فسكبوا عليهم المنح ، وساعدوهم بالتشجيعات المختلفة ، لكان لتاريخ اللغة العربية فى الجزائر شأن غير هذا الذى كان لها .

ولم يكن ميسورا على الاستعمار ان يعلم الجزائريين جميعا لبعض هذه الاسباب :

1 – ان الاستعمار كان يحتقر الجزائريين ، ويراهم ، فيما يبدو ، ليسوا اهلا للتعليم .

2 – ان تعميم التعليم فى جميع ربوع الجزائر بما فيها القرى النائية ، يسبقه تعبيد الطرقات ، وتهيئة جيش من المعلمين الاكفاء أو غير الاكفاء ، وهذا ما لم يكن الاستعمار متأهبا ليحتمل تبعته الثقيلة .

3 – ان اجبار الجزائريين على التعلم من جانب آخر ، كان يتطلب تخصيص ميزانية ضخمة لهذه الغاية ، ولم يك مثل هذا ميسورا للاستعمار الجشع ، لان معظم خيرات البلاد من مزارع ومعامل ومتاجر ضخمة ، وشركات عامة ، كانت تحت قبضة كمشة من المعمرين ، بحكم النظام الرأسمالى. فكانت خيرات الجزائر تتقاسمها السلطة الاستعمارية والمعمرون والشركات الاحتكارية بدون مراعاة لحقوق الشعب الذى جوع وجهل .

وقد رأينا ان الحكومة الجزائرية خصصت اليوم ما يقرب من مائة مليار فرنك قديم ، ولا يزال التعليم لم يشمل ابناء الجزائريين قاطبة .

ونتج عن ذلك نتائج ايجابية بالقياس الى الشعب الجزائرى منها :

1 – ان الجزائريين ظلوا بمعزل فى معظمهم عن الاحتكاك بالفرنسيين المستعمرين .

2 – ان الجزائريين ظلوا ، من اجل ذلك ، جاهلين بلغة الفرنسيين وحضارتهم ، فزادهم ذلك تعلقا بالحضارة الاسلامية ومقوماتها الروحية السامية ، وتشبثا بلغتهم الوطنية .

3 – ان هذا الحرمان اقنع الجزائريين بان الاستعمار لا يريد لهم اى خير .

* * *

وأما ان هناك كتابا باللغة الفرنسية وهم جزائريون ، فهم بالرغم من انهم لم يكونوا يصطنعون غير هذه اللغة فى التعبير عن آرائهم ، وافكارهم ، ونظراتهم الى الوجود ، ومذاهبهم فى الحياة ، فان هذه الآراء فى حد ذاتها لم تكن تعدم فى كثير من عناصرها ، واصولها ، الروح الجزائرى النابض . فقد كان الذين يكتبون منهم عن الحياة فى فرنسا مثلا ، يحتالون فى ان يتحدثوا عن موضوع له صلة قوية ، أو ضعيفة بحياة الجزائريين هناك ، كما نجد فى قصة « رصيف الازهار لم يعد يجيب » . اما الذى كان يعالج الحياة فى القبائل الكبرى ، أو الحياة الجزائرية فى غير القبائل من ارض الوطن ، فانك لا ريب تشعر وانت تقرأ ما كتب ، بان الشخصية الجزائرية تتجلى بقوة ووضوح فى هذا الادب .

ولو نجح الفرنسيون فى فرنسة العقول الجزائرية نجاحا كاملا ، لما راودت اى جزائرى منا فكرة العربية والعروبة ، ولما حن احد منا الى ما ضيه العظيم ، ولا الى تاريخه المشرق ، ولا الى اصله العريق ، ولا الى حضارته الغنية بالمقومات الروحية والانسانية والاخلاقية .

* * *

وعلى انى لا اريد ان اعطى لهذه الآداب الجزائرية التى كتبت بالفرنسية كل هذه الاهمية التى قد تدرك من بعض ما قررت ، وان اضعها فى غير ما وضعت له ، فان رأيى فى هذا الادب سىء جدا ، وقد اكون مخطئا فيما ارى وقد اكون قاسيا فيما احكم ، ولكننى لا اريد ان اكون منافقا فى آرائى ، فاجهر بغير ما اخفى ، واظهر غير ما أبطن .

ولو اردت ان اقول ما اعتقد ، لقررت بان هذا الادب غريب فى نفسه ، ومنفى من موطنه الذى كتب فيه . ولم يستطع ان يلعب دورا كثيرا فى نهضة الادب المعاصر بالجزائر ، فضلا عن ان يلعب دورا خطيرا فى اذكاء نار الثورة التى قيظت للشعب الجزائرى ان يكسر قيود الاستعمار الثقيلة . وقد قررنا منذ قليل بان حرمان معظم الجزائريين من التعليم الرسمى الفرنسى ، ادى الى نتيجة عكسية خطيرة بالقياس الى وجود الفرنسيين فى الجزائر . وانما يدل هذا على ان الجزائريين الذين لم يتعلموا الفرنسية ، أو تعلموها الى جانب تعلمهم العربية ، ظلوا ينظرون الى هذه اللغة الاستعمارية نظرة حذرة فيها كثير من الخوف والاشفاق . فكان ذلك مما باعد الشقة بين الجانبين. وعسر التفاهم بين الفرنسيين كمستعمرين ، وبين الجزائريين كمواطنين وطنيين .

* * *

وقد ظل هؤلاء الكتاب الجزائريون بالفرنسية ، فى معظمهم ، معجبين كل الاعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص . والحضارة الغربية بوجه عام . جاهلين بالتاريخ العربى ، غير ملمين بمعالم الحضارة الاسلامية . اذ أنى لهم ان يدركوا شيئا من ذلك وهم محرومون من الالمام الكافى بلغتهم التى بواسطتها يطلعون على التراث العربى وكنوز حضارته الغنية بمعطياتها الانسانية ؟!

فقد كانت هذه الحضارة العربية ومعطياتها ، بالقياس الى كتابنا بالفرنسية ، فى بيت مغلق وهم لا يملكون مفتاحه . ولم يكن لهم سبيل ليملكوه .

لسنا نتهمهم بغير هذا . فلم تكن تنقصهم الوطنية . ولم يكن ينقصهم الشعور بالمسؤولية كما يقال . وانما كان ينقصهم شىء واحد فقط ، ولكنه عظيم الاهمية . وهو الالمام باللغة العربية التى كان شعبهم يتحدثها . فحرموا كل شىء .

وعلى ان تعلمهم الفرنسية جر عليهم مصيبة لا تبرح بعض آثارها ماثلة فى المجتمع الجزائرى الى اليوم ، وهى انهم اقبلوا على محاربة العربية مع من يحاربها من الفرنسيين ، متهمين أهلها بالجمود ، رامين اصحابها بالقصور ، مسلطين عليهم كل وصمة ،وملحقين بهم كل عار وشنار .

والذى يتأمل هذا الامر ويسبر أغواره ، يعذر هؤلاء القوم ... فهم ليسوا مذنبين من حيث انهم اقحموا فى مدارس فرنسية وهم أطفال لا يملكون من أمرهم شيئا ، فشربوا من ألبان هذه اللغة ، وتغذوا بغذائها ، وألموا بتاريخها ، وتشبعوا بآدابها. فهم اذن من هذه الوجهة معذورون .

ولكن العذر الذى التمسناه لهم ، لا يلبث ان يزول ، اذا ذكرنا انهم تنكروا للغتهم ، وحكموا عليها بالقصور والجمود وهم لها جاهلون . ومن الخطأ العظيم ، والاثم الكبير ان تحكم على شىء وانت أجهل الناس له ، وأبعدهم عن معرفة حقائقه ، وفهم كتبه . ولو حكم قاض على متهم بجريمة أو مخالفة بالسجن أو الاعدام ، دون ان يكون قد الم بملف المتهم فأشبعه دراسة ، معتبرا كل القرائن والظروف التى تحيط بالجريمة أو المخالفة . لما ارتبنا فى انه قاض غشوم ظلوم لا يعرف الحق ، ولا يحترم العدل والانصاف .

فكيف بهؤلاء الذين حسبوا العربية لغة الجمود والتأخر . فراحوا يكيلون لها التهم ، ويرجفون فى شأنها بالاباطيل التى لا تقال !؟ ولعل أشد هؤلاء مغالاة كاتب ياسين الذى لا يبرح يغط فى بعض النوم ، حين يزعم ان العربية قد تبقينا متأخرين ...

* * *

فكأنى بهؤلاء السادة وهم يحسبون ان اللغة هى التى تقدم الشعوب . ولو أدركوا الحق واهتدوا الى سبيله ، لعلموا ان الشعوب الحية العاملة هى التى تقدم اللغات . فكم من شعب متأخر وهو يتحدث الفرنسية ، ولم تنفعه هذه اللغة فى شىء . وكم أمة خاملة لا شأن لها فى النباهة والمجد ، وهى مع ذلك تتحدث الانجليزية !

وقد وجدنا اللغة الصينية من اللغات التى لم تنتشر فى العالم ولم يقبل على تعلمها الناس ، ومع ذلك فان الصينيين صنعوا بهـــا القنبـلة الذرية ، وأمسوا من الدول التى يحسب لهـــا الحسبان . وقل مثل ذلك فى اليابان وما حققته من تقدم صناعى عظيم ، دون ان تتبنى لغة اجنبية اكثر انتشارا ، واشهر فى العالم ذكرا .

انما اللغة كائن حى يتطور ويجمد ، ويتأخر ويتقدم ، ويحيـــا ويموت ، كالانسان بالذات . فعسى ان يقتنع بعض هؤلاء الناس ، بان الامـة التى تريد ان تتقدم حقا ، وتسود حقا ، فان أول ما ينبغى ان تفعله ، هو أن تقبل على لغتهـــا فتحييها وتتشبث بها ، ولا سيما اذا كانت لغـة حضارية كالعربية . والا فهى امة مهرجة لن يكون لها شأن فى التاريخ اذا راحت تبحث عن نفسها فى لغات غيرها من الامم .

* * *

وعلى ان هنالك مسألة نفسية لابد من اثارتها فى هذا المقام ، ولا بد من اعطاء رأينا فيها واضحا ، ذلك بان كثيرا ممن يجهلون حقيقة روح المواطن الجزائرى ، يرون ان الجزائرى متفرنس بالطبع ، طالما كان يصطنع الفرنسية ويرطن بها . ونحن نحسب ان هذا الرأى سىء جدا ، وهو غير قائم على أساس من الحق والنصفة ، فلم يكن الجزائرى بمتفرنس القلب البتة .

وتدل على ذلك دلائل ، وتشهد له شهادات ، وتبرهن عليه آيات بينات . وما اخال الا أن أكبر هذه الآيات وأعظمها ثورة الجزائريين على وجود الاستعمار الذى نحن بصدد الحديث عن لغته ، ومدى تأثيرها فى حياة وتفكير الشعب الجزائرى . هذه واحدة .

واما الثانية ، فهى ان الثقافة الفرنسية ـ كما أسلفنا ـ لم تتمكن تمكنا عميقا الا من نفوس نسبة ضئيلة من الجزائريين الذين اتيح لهم ان يدرسوا فى المدارس الفرنسية على نحو واسع ، مما جعل عامة الشعب الجزائرى يظـــل جاهلا بالادب الفرنسى ، والتاريخ الفرنسى ، والفكـــر الفرنسى فى عمقه وأصالته .

وحتى اولئك الذين كنت تجدهم فى المـــدن الجزائرية ، يتحدثون اليك بالفرنسية ، حـين يدعوهم داعى الاضطرار ، أو داعى الاختيـــار سواء ، ليسوا فى حقيقة امرهم ، الا اصحـــاب كلمات فرنسية معدودة لا تكاد تعبر الا عن المعانى السطحية والمظاهر الحسية . أما ما وراء ذلك من المعانى العميقة ، والافكار العالية ، فقد تجدهـم عنه بعيدا .

واذن ، فأصالة الشعب الجزائرى ، وحنينه الى عروبته ، واهمال الانسان الجزائرى فى البادية اهمالا كليا واغلاق أبواب المعرفة فى وجهه ، كل هذه العوامل تجعل الباحث يقرر بحـــق ، بان الجزائر كانت مستقلة من الناحية الاجتماعية ، عن الاستعمار الفرنسى استقلالا يكاد يكون تاما . ولا نكاد نستثنى من ذلك الا بعض المدن التى كانت تكتظ بالاوروبيين كبلعباس ووهران مثلا .

فهل يحق لنا ان نقول بعد كل هذا : ان البادية والقرى الجزائرية لم تفد من وجـــود الاستعمار الفرنسى الذى كان طويل العمر فى هذه الارض ، لا اقتصاديا ، ولا حضاريا ، ولا ثقافيـــا ، ولا اجتماعيا ، ولا لغويا ، بل ظل المجتمع الجزائرى فى البوادى والقرى النائية ، على ما كان عليه قبل الاحتلال الفرنسى : لم يتقدم ولم يتأخر ، ولـم يتبدل ولم يتغير ؟

انا نميل الى ذلك كل الميل .

ذلك بان تحويل المجتمع من طور الى طور ، يستدعى التمازج والتخالط والتعامل على نحـو من المساواة تام . وقد وجدنا الاستعمار الفرنسى منطويا على نفسه ، بحيث لم يكن اهله يمازجون الجزائريين ، ولم يتعاملوا مع الشعب على نحو من المساواة قط ، ولم ينظروا الى هذا الشعب فى مجموعه على انه يتألف من بشر جديرين بالاحترام والحرية والحياة ، فساء ظن الجزائريين بالمستعمرين، وعزفوا عن عاداتهم ، ونظروا اليها نظرات حذرة فيها كثير من الاشفاق .

وقد ظل هذا الصراع الاجتماعى الحاد قائمـا بين الجانبين الى ابان الثورة الكبرى ، بل الى سنة اثنين وستين من هذا القرن ، وهى السنة التى اعترفت فيها فرنسا بسيادة الشعب الجـزائرى بعد حرب ضروس قدم فيها الجزائريون اكثر من مليون شهيد .



الوجه الحقيقي لديمقراطية التعليم

عبد القادر فضيل

تتلخص مثل التربيـــة المعاصرة فى المناداة بضرورة العناية بجميع الافراد أو ما يعبر عنه « بالتربية للجميع » ذلك ان توسيع نظام التعليم وجعله يشمل كل الفئات من الامـور التى اصبحت تطـالب بهـا المجتمعات الحديثة وبخاصـة المجتمعـات الاشتـراكية التى تؤمن بحق كل فرد فى الحيـاة الكريمة ، ومن هنـا نجـد ان التخطيطات التربوية فى هـذه المجتمعات تصرف كل جهودها لجعل التعليم حقا لكل فرد مهما كـان مستـواه الاجتمـاعى والاقتصادى ، ومن هذا الاتجاه انبثقت فـكرة « ديمقراطيـة التعليم » حيث اننا نتحـدث اليوم كثيرا عن المقادير الكمية التى تستطيع النظم التربوية ان تفسح لها المجال وتوفر لهـا المكان والزمان لتأخذ حقها فى التعليم . كما اننا نتحدث كثيرا عن نوع الجهود والتدابير التى تسمح باستيعاب كل الاطفال الذين اهلتهم اعمـارهم لتلقى الخبرات التعليمية ومن المعـلوم ان (الجزائر) من البلدان التى تعمل جاهـدة وبكل عنـاية لتحقيق مبدأ ديمقراطية التعليم بل انها اشد البلدان حرصا على استثمار كل امكانياتها بغيـة تحقيق آمال المجتمع فى الحصول على قدر من المعرفة والتكوين يمكن افراده من التمتع بالحياة المستقـرة والعيش المنســجم ويؤهلهم للاندماج والتوافق مع الظروف والاوضاع الاجتماعية المختلفة ، بيد انه من الصعوبة بمكان تحقيق هذا الهدف ما دام نظامنـا التربوى لا يعنى الا بالاستمارات الكمية ـ فالجانب الكمى فى العمـل التربوى لا يمثل الا جانبـا واحـدا من جوانب عديدة ومختلفة تتظافر كلها لتجعل الحقيقة التربويـة ذات اثر فى الحيـاة والظروف والناس جميعا . ولكن لا ينبغى ان يقودنا هذا الى الاستهانـة (جملة) بقيمة الخطوات التى تخطـوها والانجـازات التى تحققها يوما بعد آخر فى هذا الصـدد ، حتى ولـو كانت النتائج غير كافية .

ان الجهود التى تبـــذل فى هذا المجال لتعبر بصدق عن رغبة الحكومة فى تطبيق مبـدأ تكافؤ الفرص الذى هو أحد اركان الديمراطية الحقة ـ غير اننا ما زلنا بعيدين عن السبيل الذى سيمكننا من التطبيق الحقيقى لديمقراطية التعليم التى لا تتمثل فى الاستثمارات الكمية فحسب بل تتمثل بالاضافة الى ذلك فى الاستثمارات النوعية ـ كما سنشرح ذلك .

نحن نعرف ان طاقة الاستيعاب (استيعاب الاطفال) ترتفع سنة بعد أخرى نظرا للمجهودات الضخمة التى تبذلها السلطات فى مجال التربية والتعليم . ونحن واثقون من ان الثورة زاحفة الى الامام لا يصدها عن زحفها شىء . ويكفى كدليل على ذلك ان نتتبع الاحصائيات السنوية الخاصة بتطور معدلات الاستيعاب لنرى الانجازات التى تمت فى هذا الميدان . فلقد كان عدد التلاميذ بالمدرسة الابتدائية فى عام 1963 أقل من مليون تلميذ وقد ارتفع هذا العدد فى ظرف ســبع سنوات الى مليونين . وهذا ما يدل على ان المساعى التى تبذل من اجل تحقيق الاهداف الكمية مساع حميدة يجب تشجيعها . ولكن هذا كله لا ينبغى ان ينسينا العديد من الضحايا الذين ترمى بهـــم المدرسة الى الشوارع كل عام دون ان تمكنهم من السلاح الذى يؤهلهم للحياة .

لقد بلغ عددهم فى عام (64 ـ 1965) حوالى 54٪ وفى عام 67 ـ 1968 41٪ (1) .

واذا نظرنا الى البيانات الاحصائية التى تصدرها مديرية التخطيط والتوجيه المدرسى بوزارة التعليم نتبين ضخامة هذه المشكلة (مشكلة الفاشـلين الذين ينقطعون عن المدرســة دون ان يتمـوا دراساتهم . والذين تقدر اعدادهم باكثر من 50٪) ان الاغلبية الساحقة من أبنائنا يكبو بهم الحظ عند نهاية التعليم الابتدائى وسواء حصـلوا على الشهادة ام لم يحصلوا فالنتيجة تكاد تكون واحدة.

وليتهم يجدون بعد ذلك مراكز مهنية أو مدارس خاصة تعنى بهم وتحفظهم من الضياع الذى يهددهم ويحفظ المجتمع مما قد يحدثوه من اضطراب .

وفى نفس الوقت تخلق منهم اطارات تتحمل دورها المتواضع فى مختلف النشاطات . ان نظام التعليم بوضعه الحالى لا يحقق الاغراض التى وجد من اجلها (لا يستطيع تلبية حاجات الافراد ولا حاجات المجتمع) وبالتالى لا يحقق مبدأ الديمقراطية فى حين انه وحده المسؤول عن تكوين الانسان بوصفه غايـة يتـــولى مختلف النشاطات بصفته وسيلة للانتاج فقط .

واذا كان كثير منا ما زال يعتقد ان هـــذه الخطوات التى نخطوها كافية لجعل الديمقراطيـة التعليمية شيئا واقعا وملموسا . (فى أمد قريب) فلانهم يرون أن الديمقراطية متمثـلة فقط فى توزيع التعليم توزيعا عادلا من الوجهة الاقتصادية (أو من الوجهة الشمولية) وهذا خطأ تربـوى ـ يجب فى رأى تصحيحه ، اذ لا ينبغى الاعتقاد بان تحقيق مبدأ ديمقراطية التعليم الذى هو أحد الدعائم الكبرى (2) لسياستنا التعليمية فى الجزائر معناه : جعل المدرسة تسع كل الاطفال الذين بلغوا السن الدراسية لان توفير المكان للطفل ليس كل شىء فى العملية التربوية ، فقد نستطيع فى ظروف قصيرة ـ أن نقوم باجراءات ثورية حازمة نتمكن بواسطتها من توفير المدارس الكفيلة بالاستيعاب الكلى لمجموع الاعداد القادرة على التعليم . ولكن الشىء الذى لا نستطيعه فى ظروف قصيرة ـ هو القيام بتدابير حاسمة من شأنها ان تغير وجـــه العملية التربوية فى حد ذاتها . تدابير تخلق لنا أولا النظام التربوى المناسب الذى يستطيع تلبية واشباع حاجات الطفولة من جهة والمواءمة بينها وبين الظروف الخارجية من جهة ثانية . وتخلق لنا ثانيا المعلم أو المربى القادر على الاضطلاع بهـذه المهمة الصعبة . اذ ليس كل من يمارس التعليم شخصا قادرا على رسالة التعليم ـ خاصة وان التعليم أصبح الان لا يقتصر على اكساب المتعلم مهارات وانماطا من السلوك والمعارف وانما أصبح يهدف الى اكساب القدرة على التكيف .

قلت : اننا لا نستطيع ـ فى امد قصير ـ (بالنظـــر الى امكانياتنا البشرية) ان نغير من

---

(1) احصائيات 69 (مديرية التخطيط والتوجيه المدرسى)

(2) تقوم سياستنا التعليمية على دعائم ثلاث : 1) ديمقراطية التعليم 2) تعريب التعليم 3) اعطـــاء الاولوية للعلوم .

الاوضاع التعليمية حتى نجعلها اوضاعا تعنى فيها بالناحية النوعية الى جانب الناحية الكمية كما نراعي فيها المشاكل المتعلقة بالمستوى التحصيلي والعوامل المعوقة لهذا المستوى وعلاقة ذلك بالصحة النفسية التى هى هدف التربية الاسمى . واذا كنا لا نستطيع تحقيق ذلك فى أمد قصير فلا يعنى اننا عاجزون كلية عن تحقيقه خاصة وأننا نتمتع بميزتين قلما توجدان فى بلدان العالم الثالث هما :

1) توفر الامكانيات المادية .

2) وجود الحماس الثورى ، وهاتان الميزتان كفيلتان بأن تذللا كل صعب .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر اننا فى الجزائر نستهلك فى مجال التعليم موارد ضخمة تقدر بالملايين من الدينارات (3) وغرضنا هو اتاحة الفرصة لجميع أبنائنا وبناتنا لكى يجدوا اماكنهم فى المدرسة غير اننا لا ننظر الى ما بعد ذلك ، فهناك الالاف ممن يدخلون المدرسة ولكن يخرجون منها كما دخلوا ، كما سبقت الاشارة الى ذلك . لان المدرسة ما تزال عاجزة (4) عن فهم دورها كمؤسسة تربوية مهمتها تخريج القادة والمواطنين القادرين على النهوض بأنفسهم وبمجتمعهم . فما الفائدة فى ان نستنفد طاقاتنا ونجند امكانياتنا لبناء المدارس ولكننا بعد ذلك لا نحاول ان نجعل هذه المدارس قادرة على بناء البشر .

فالمدرسة كما يراها المربون ، انما تنشأ من اجل الطفل لتهيىء له بيئة يعيش فيها وينمو وفقا لقوانين النمو الطبيعية الخاصة به .

ومهمة العاملين بها بناء الذات البشرية بناء يقيها عوامل الصراع ويحفظها من التداعي ويمنحها الشعور الجماعي العميق الذى على اساسه يقوم تمثل القيم الاجتماعية والانماط الثقافية ، بناء تشترك فيه الذات نفسها باعتبارها مجموعة من القوى والاهتمامات والنوازع ، ومن المعلوم ، أن بناء الذات هو المثل الاعلى للتربية الحديثة .

يقول (دوركايم . « ان الانسان الذى تريد التربية ان تحققه ليس الانسان كما صنعته الطبيعة ولكن الانسان الذى يريده المجتمع »(5) ولكن البيئة المدرسية عندنا ما تزال بيئة تقليدية (أى بيئة تعليمية وليست بيئة تربوية) تستقبل فى رحابها حشودا ضخمة من الطلاب يختلفون ميولا واستعدادا وقد يصل عددهم فى الفصل الواحد أكثر من (60) تلميذا الامر الذى يؤدى الى تشتت الجهد وتضاؤل العائد واستحالة القيام بعملية (البناء) التى هى عملية اساسية . ولننظر بعد ذلك من هو الشخص الذى تستطيع المعاناة التى يتطلبها تكوين وبناء مثل هذه المجموعة الضخمة ، لا أعتقد ان احدا يستطيع القيام بهذه العملية على الوجه المرضى مهما كانت خبراته ، ولو كان (المعلم الاول)(6) خصوصا اذا علمنا ان المقياس الوحيد الذى نعتمده فى استقبال وتصنيف هؤلاء هو قياس العمر الزمنى الذى لا يدل دائما على نضج الطفل واستعداده . ومن هنا برزت مشكلة الفروق الفردية التى كثيرا ما تعرقل سير العمل المدرسى وتعقد مشكلة التعليم ومن هنا ايضا تبرز مشكلة المتخلفين الذين لا يستطيعون مسايرة زملائهم الاذكى منهم وينتج عن ذلك كله جذب واختلال فى العملية التربوية (تضاؤل فى الانتاج المدرسى وتضخم فى العادم) يتبع ذلك حتما ضياع فى الجهد والمال .

ان الديمقراطية تستوجب منا تلافى هذه النقائص وتهيئة الغذاء العقلى المناسب لقدرة واستعداد كل متعلم . وتقتضى كذلك تقديم العلاج الناجع لكل انحراف دراسى مهما كان نوعه . لاننا ان لم نفعل ذلك فسنظلم مجموعة كبيرة (قد يصلون الى ربع المنتمين الى المدرسة) لا تستطيع مستوياتهم العقلية ان ترقى الى مستويات النخبة أو المتوسطين — وظلمنا لهؤلاء يكون بتطبيق المنهج العادى الذى لا يناسب جميع المستويات العقلية على الجميع .

---

(3) بلغت ميزانية التعليم الخاصة بالتسيير فقط سنة 1970 (000 000 980) دج

(4) العجز هنا معناه عدم الادراك .

(5) معالم التربية العربية ص 135

(6) المعلم الاول هو ارسطو

وما ذنب هؤلاء الذين حرمتهم الطبيعة الاستعداد الكافي والموهبة اللازمة ؟ ليس لهم ذنب الا كونهم لم يجدوا من يفهمهم ويدرك بعمق حقيقة وضعهم . وكثيرا ما تكون المعاملة والجو المدرسي والمنهاج المطبق سببا من الاسباب التي تؤدي الى ركود الموهبة وتبلد الذهن وتعطل الاستعدادات ثم اننا بعد ذلك نعتبر هذا الطفل أو ذاك عاجزا عقليا أو نفسيا عن ممارسة العمل المدرسي بنجاح . أليست المدرسة هي المسؤولة عن كل هذا ؟ ألسنا مسؤولين عن فشل مجموعة كثيرة من الاطفال في حياتهم الدراسية . وبالتالي في حياتهم الاجتماعية ؟ يجيبنا عن ذلك جماعة من الباحثين في جامعة (آيو) عندما يقولون : « ان العباقرة يصنعون واننا نحن المسؤولون عن بعض ضعاف العقول من الاطفال »(7) واذا كان العباقرة يصنعون فاين يا ترى يصنعون ؟ لا شك ان المعمل الذي يصنع القادة ويكون العباقرة هو المدرسة التي تدرك دورها في الحياة وتعلم ان الذين يأتونها يتفاوتون استعدادا ويختلفون ميولا ومن واجبها ان تساير كلا حسب استعداده وتفسح المجال لمعالجة كل وضع ظهر شذوذه .

يقول الدكتور جيلبرت Gilbert : « انه لا يوجد أطفال كسالى وانما هناك اطفال مرضى ان الكسالى هم الآباء والمربون والاطباء الذين لا يبحثون عن اسباب الضعف الذي يصيب الطفل » وكأني به هنا يذكر بمسؤولية المجتمع (بما فيه آباء ومربون وأطباء ازاء الطفولة) اذن نحن مطالبون بالعناية بجميع الاطفال مهما كانت قدراتهم حتى نحقق لهم - على الاقل - قدرا ولو يسيرا من التعليم والتكوين يؤهلهم للحياة العامة ويجعل منهم مواطنين منتجين لا مستهلكين فقط . كما اننا مطالبون باستغلال قدرات المتفوقين أو مسايرة استعداداتهم الى اقصى حد لان ذلك يجعلنا نوزع الخدمات التعليمية توزيعا عادلا لا من الناحية الكمية فقط ولكن من الناحية النوعية ايضا . وعند ذلك نحس بارتياح في أعماقنا ونشعر باننا قمنا بواجبنا فعلا نحو الاجيال الصاعدة .

وما دمنا لم نقم بكل هذا فان الوجه الحقيقي لديمقراطية التعليم ما يزال غير واضح المعالم باعتبار ان الفرص التعليمية التي نتيحها لاطفالنا - غير متكافئة من الوجهة التربوية - بحيث اننا لا نقدم التعليم المناسب للاستعدادات والميول ولا نراعي عند التقديم الشروط النفسية والتربوية المساعدة على جعل عملية التعليم عملية تلقائية مثمرة .

واذا كانت هذه الجهود التي نبذلها والمشاريع التي نقوم بتحقيقها عاما بعد آخر لا تحقق الغرض المطلوب ولا تجسم الواجهة الحقيقية للديمقراطية التعليمية فما هي التدابير التي بقي علينا أن نقوم بها لتحقيق الديمقراطية الحقة وبعبارة أخرى ما هي الجوانب التي تتمثل فيها الديمقراطية التعليمية ؟ وكيف يتم تطبيقها على الصعيدين النظري والعملي ؟ ثم ما هي المشاكل التي يثيرها هذا التطبيق ؟ كل ذلك نستعرضه في النقاط التالية :

لا يمكن تحقيق الديمقراطية التعليمية الا بمراعاة أمور منها :

1 - تطبيق مبدأ تكافؤ الفرص تطبيقا علميا وتربويا .
2 - العناية بمشكلة المتخلفين دراسيا وعقليا .
3 - جعل الصحة النفسية أسمى اهداف التربية .
4 - تصحيح الاوضاع التعليمية والانظمة التربوية .
5 - تحسين المستوى المعيشي والصحي . وضمان مجانية الكتاب .

أولا : مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية :

من الدعائم الكبرى التي تقوم عليها (ديمقراطية التعليم) مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية الذي سبق ان ألمعنا الى بعض جوانبه في اشارات موجزة ، ونريد هنا ان نركز أكثر ونبحث الموضوع بحثا مفصلا بغية ابراز القيم التربوية التي ينطوي عليها.

ان مبدأ تكافؤ الفرص ليس معناه المساواة في الفرص كما يتبادر الى الذهن أو ضمان مقعد دراسي لكل تلميذ . وانما معناه ان يجد كل فرد الظروف والشروط التعليمية المناسبة له بحيث يتمكن من استغلال قدراته في التعلم الى اقصى حد تؤهله له هذه القدرات .

---

(7) اتجاهات في التربية د محمد جمال صقر ص

1 ـ مشكلة التفاوت فى الاستعدادات :

من المعلوم ان بين الاطفال تفاوتا فى الاستعدادات كما اثبتت ذلك مقاييس الذكاء ، فهناك من يستطيع التكيف مع المناهج العادية واستيعاب فقراتها دون مشقة ، وهناك من لا يستطيع ذلك الا بجهد ومشقة ، ولفترة اطول ، وهناك صنف لا يستطيع ذلك ولو استنفد كل جهوده ، ثم ان هناك بين الاطفال من يستطيعون اجتياز المراحل التعليمية فى المدة المقررة لها دون رسوب أو تخلف (وهم أقلية)(8) ولكن هناك آخرون لا يستطيعون ذلك لان امكانياتهم لا تسمح لهم بذلك ، ولذا تمنحهم المدرسة أحيانا فرصا أخرى ليستطيعوا تدارك ما فاتهم واللحاق بالقافلة من جديد ، ومن هنا نجد ان مبدأ تكافؤ الفرص يحتم على القائمين بالتربية أن يراعوا كل هذا (سواء فى وضع المناهج أو فى تكوين المعلمين أو فى اختيار الطرق أو فى اقامة النظام التعليمى العام) حتى يهيئوا لكل صنف الخبرة المناسبة والمنهج الملائم والمدة اللازمة .

وقد يضطر القائمون بالتعليم تحقيقا للمبدأ المذكور وتمشيا مع قدرات الاطفال الى انشاء مدارس وفصول خاصة تعنى بذوى القصور العقلى توضع لها مناهج خاصة ونظام مخالف للنظام العادى ، وليس هذا كل شىء بل المعلم هو الآخر مطالب عند قيامه بالعملية التعليمية (فى الفصول العادية) وغيرها باحترام هذا المبدأ ، وبتطبيق اصوله المتمثلة فى مراعاة الفروق الفردية بحيث يوزع خدماته توزيعا يتناسب وقدرة كل فرد على الاستفادة من هذه الخدمات ، وهذا يدعوه الى تنويع العلاقات وتغيير الاساليب فى الحصة الواحدة ليستطيع تلبية حاجات طلابه المتنوعة . وتمكينهم من التفاعل مع الخبرات المقدمة حتى يكون التعليم ايجابيا ومثمرا . ويثمر التعليم متى وجد المتعلم رغبة ملحة تدفعه الى **التحصيل والاستفادة** . ونعنى بالتحصيل حدوث عملية التعلم (تعلم الحقائق والمعلومات بما فى ذلك الاتجاهات والقيم والاهتمامات وغير ذلك) من الاشياء أو المهارات التى تهدف اليها المدرسة والنظام التعليمى عموما . غير انه ينبغى التفريق بين الاستعداد للتعلم وبين التحصيل ونقصد بالاستعداد (الذكاء) كما تقيسه اختبارات الذكاء ، وعلى هذا يفترض ان لو تساوت الفرص امام كل المتعلمين فان الفروق بين درجاتهم تبقى قائمة بالنظر الى اختلاف استعداداتهم للتعلم ، اللهم الا اذا وزعت الفرص وفق هذه الاستعدادات.

(ب) هل واجب الدولة ينتهى بانتهاء التعليم الاولى ؟

ان معظم الباحثين يتفقون على ان واجب الدولة فى مجال الخدمات التعليمية يجب ان يستمر الى المرحلة التى تتحملها ميزانية الدولة وكلما ارتفعت هذه المرحلة كان ذلك دليلا على شعبيتها وديمقراطيتها وعنوانا على انها شاعرة بمسؤوليتها الانسانية . على ان لا تقل هذه المرحلة عن مرحلة التعليم الابتدائى الذى يعتبر القاسم المشترك بين جميع المواطنين .

وهذا ما نجد صداه فى المخطط الرباعى الذى يعبر عن اهتمامات واختيارات الثورة (فى الجزائر) ولكن ما دامت بلادنا تتمتع بامكانيات مادية هائلة فان اتاحة الفرصة التعليمية للفرد يجب ان تستمر ما دام الفرد قادرا على التعلم . وما دامت امكانياته العقلية تسمح له بذلك ، اذ ليس من الديمقراطية فى شىء ان نسمح للبعض بمواصلة التعلم ونرفض البعض الآخر بحجج سفسطائية واعتمادا على مقاييس اعتباطية واحكام تكاد تكون ذاتية الامر الذى يخلق غبنا فى نفوس الافراد الذين لم يكن الحظ بجانبهم من اجل الاستمرار فى مزاولة التعلم .

وهذه حالة سيئة ستكون لها آثار سيئة لا على الافراد فحسب بل على المجتمع نفسه لانها تجعل كثيرا من الجهود المادية والبشرية ضائعة أو غير متكافئة مع المكاسب ولانها تجعل المجتمع يضحى بكثير من الطاقات الحية التى لو استعملت واستثمرت خاماتها لكانت مصدر خير وثراء ، ثم انها تخلق نوعا من الطبقة (طبقة تصل الى قمة الثقافة بفضل مواهبها الممتازة أو حظوظها السعيدة وطبقة يبقى افرادها فى شكل أميين) فى حين ان مجتمعنا الاشتراكى يعمل جادا على اذابة الفوارق بين الطبقات والقضاء على كل المميزات (الثقافية

(8) حوالى 20٪ واحيانا اقل (حسب دراسة **تجريبية** قمت بها فى منطقة بوزريعة)

وغيرها) . ولا يقـــال : ان مجتمعاتنا الحاضرة يكفيها انصافا وعدلا انها تحاول ان تضمن لكل الناس حق مزاولة التعليم الاولى على الاقل .

وليس يمكن ابدا ان يصل مجتمع من المجتمعات بجميع افراده الى قمة الثقافة والتعليم . لان هذه مثالية لا يستطاع تحقيقها الا فى الخيال ، ثم ان الافراد انفسهم ليس جميعهم مؤهلا لهذه المثالية .

هذا الاعتراض صحيح من وجهة ولكنه ليس صحيحا من وجهة ثانية ــ اذ لست اطالب المجتمع بتعليم كل افراده تعليما أكاديميا . اذ هذا ليس فى مكنته ولا فى مكنة كل الافراد . ولست اطالبه ايضـــا بتأمين عموميـات وخصوصات الثقافـــة للجميع . ولكنى اطالبــه بان لا يجعل امر ذلك موكولا الى الصدف وبان لا يجعل عملية الاختيار والتقدير مبنية على اعتبارات عشوائية ذاتية . قد تضر بالبعض وتظلم البعض الآخر ، ولنفرض اننا سلمنا جدلا بصدق كلية هذا الاعتراض فهـــل يعقل ــ ونحن فى عصر الكشوف العلمية ــ الاكتفاء بمبادىء التعليم الاولى . اننا فى عصر ارتفع فيه مفهوم التعليم من مجرد محـــو الامية الى تكوين افراد منتجين وقادرين على الارتفـــاع بمستواهم الذهنى والاقتصادى من جهـــة وعلى النهـــوض بمستوى المجتمع من جهة ثانيـــة . على ان الذين وقف بهم الحظ عند نهـــاية التعليم الابتدائى لا يلبثون ان ينضموا الى رصيد الاميين الذى هـــم عالـة على المجتمع دائمـــا باعتبارهـــم اشخاصا مستهلكين فقط .

والحل العلمى السليم هو الاسترشاد بالمقاييس العلمية التى تحدد مستوى واستعداد كل فـــرد من الوجهة النظرية والعملية . ومدى ما يستطيع بلوغه بالاعتماد على هذه الاستعدادات والميول . وعلى ضوء ذلك نهيىء :

1 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى القدرات العقلية المحدودة .

2 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى الميـــول والنزعات التخصصية .

3 ــ الظروف التعليمية المناسبة لذوى القدرات العقلية العالية .

4 ــ الظروف العلاجية المناسبة لذوى القصور العقلى والعاهات .

ينبغى ان يتم كل هذا دون تفريق بين فرد وآخر وفئة واخرى وبغض النظر عن المستويات الاجتماعية والاقتصادية التى أتوا منها . وهنـــا يبـــرز دور التوجيه التعليمى كعامل هام فى عملية التصنيف وتوزيع التلاميذ بين انواع التعليم المختلفة .

(ج) نوع الاطـــارات العاملة فى حقـل التعليم وعلاقة ذلك بتكافؤ الفرص :

من الاسس التى يرتكز عليها مبدأ تكافؤ الفرص جعل المتعلمين سواسية امام الخدمات التعليمية التى تقدم لهم أو لا يتم ذلك الا اذا كان القائمـــون بالخدمات متساويين فى الكفاءات أو قريبين من التساوى لان التفاوت الفاحش الذى نجده بـين اطاراتنا يخلق نوعا من الفوضى فى توزيع الفرص ويجعل التكافؤ امرا غير واقع ، الامر الذى يؤدى الى تفاوت فى التحصيل أو تعطيل لبعض المواهب مما يترتب عنـه حرمان طائفـة من المتعلمين من الفرص الثمينة التى كان يمكن ان يتمتعوا بهـــا لو وجدوا الاطارات القادرة . فالذى يتلقى تكوينه على يد معلم لا يفرق بين الاسم والفعل ولا يعرف عن التربية شيئا غير الذى يتلقى تكوينه على يد معلم مؤهل علميا وتربويا . ولننظر مثلا الى التعليم الاعدادى عندنا ــ فان الذين يمارسون العمـــل بالاعداديات هم من صنف المدرسين واحيانا أقل من المدرسين فى حين ان الذين يباشرون العمل نفسه فى الثانويات هم من صنف اعلى من حاملى (ليسانس)(9) مع ان المرحلة واحـدة فتصور البون الذى قد يكون بين المدرسين الا يعتبر هذا نوعا من الاجحاف فهذا يتلقى تعليمه على يـــد استاذ مجاز . والآخر على يد شخص اقل منه كفاءة وعلما . ومع ذلك فنحن لا نراعى هذه الفوارق فى نهاية المطاف أى اننا لا ندخل فى الاعتبار نـــوع الظروف التى تم فيها تعليمهم ــ يوم الامتحان أو اثناء عملية النقل من فرقة الى اخرى . بـل اننا نعـاملهم معـاملة واحدة ونحاسبهم حسابـا متساويا كاننا مكناهم جميعا من فرص متساوية ووفرنا لهم جميعا ظروفا مناسبة . ما من شك فى

(9) أخذ التفكير يتجه حسب ما جاء فى المخطط الرباعى الى تخصيص الثانويات للمرحلة الثانية فقط لتترك المرحلة الاولى الى مؤسسات التعليم المتوسط فاذا تم هذا فان التكافؤ يصبح امرا واقعا .

ان هذه المعاملة بعيدة عن الصواب والمنطق ايضا . صحيح ان الاطارات لا تكون دائما فى مستوى واحد من الخبرة والثقافة ، ولكنها لا تكون ايضا بهذا التفاوت الذى نشهده عندنا (من الشهادة الابتدائية الى الباكلوريا) فى التعليم الابتدائى على الخصوص .

(د) نوع الخبرة المقدمة (نوع التعليم)

ومما يدخل فى هذا الباب نوع التعليم الذى نقدمه لطلابنا .

هل هناك اسس نعتمدها فى تقديم التعليم المناسب لميول واستعداد كل فرد أم اننا لا نعتمد أى اساس فى اختيار الخبرة المراد تقديمها ؟

هذا سؤال قد يجيبنا عنه نظام الامتحانات الذى لا يقيس الميول والاستعدادات وانما يقيس كميات المعلومات المحصل عليها فى فترة معينة ، وحتى هذه لا يستطيع قياسها بدقة لان اسئلته وضعت بشكل لا يسمح بالتعرف على حقيقة التلميذ ثم ان التلميذ قد يدفع الى هذا الامتحان دفعا ، لانه اخفق فى امتحانات أخرى كان يود لو نجح فيها أو أن عمره لم يسمح له بذلك . (كما يقع فى الامتحانات الخاصة بالمعاهد التكنولوجية او بالدخول للمعاهد الفلاحية وغيرها) .

ومن هنا فاننا نظلم بعض الافراد عندما نقحمهم فى تعليم لم يهيئوا له أو لا ينجحون فيه مثل نجاحهم فى نوع آخر من التعليم ، واذا أردنا ان نتبين ذلك بوضوح فلننظر الى الطريقة التى يتم بها دفع التلاميذ الى معاهد التعليم الفنى أو الفلاحى أو ثانويات التعليم العام أو التعليم المعرب انها طريقة غير علمية لانها لا تعتمد على مواهب التلميذ الحقيقية التى نتعرف عليها بواسطة البطاقات المدرسية والمقاييس وملاحظات المعلمين . انها تعتمد فقط على كشوف الامتحانات التى لا تعبر عن الحقيقة كما أسلفنا . واحيانا نستعين برأى الاولياء والآباء الذين لا يهمهم من هذه القضية الا الجانب المادى أى المرتبة المغرية التى سيصل اليها ابناؤهم عن طريق هذا التعليم ، ولذا تراهم يقبلون كثيرا على التعليم العام فى المراحل الثانوية (15) ويفضلون الطب والهندسة فى المراحل الاخيرة باعتبار ان هذه التخصصات تدر على صاحبها خيرا كثيرا . ثم ان صاحبها يستطيع ان يحيا معززا مكرما فى أى بقعة من الدنيا . اما التلميذ صاحب الكلمة فلا دخل له فى هذا الاختيار لان الاب هو الذى يختار له أو حاجيات البلد هى التى تفرض عليه اتجاها معينا . وقد يكون هذا معقولا لو تسبقه مرحلة اعداد وتهيئة واختبار نتأكد بواسطته من صلاحية الفرد لهذه الخبرة أو صلاحية الخبرة لهذا الفرد .

اعتقد ان عملية التوجيه عملية صعبة ولكن لا بد منها فلمواهب التلميذ الكلمة الاولى ، ثم رأى المدرس وأخيرا رأى الموجه المدرسى الذى يجب ان تنصب ملاحظاته على رأى المدرسين وعلى نتائج البطاقات المدرسية التى تسجل فيها اهتمامات الطفل ونشاطه داخل القسم وخارجه حتى يمكن التكهن ما اذا كان فى الامكان تكييف مواهب الطفل بحيث تناسب الاتجاه المختار .

ومهما يكن فان ضمان تكافؤ الفرص من المشاكل التى أخذت الجزائر على عاتقها ان تحلها مهما كلفها ذلك لان الديمقراطية التى تنشدها لا تتحقق اذا بقى الامتياز الثقافى محصورا فى اقلية بحيث تشغل هذه الاقلية مكانتها الثقافية لفرض سلطانها المادى والمعنوى على الطبقات الاخرى غير المثقفة والتى يصبح لديها شعور بالنقص أمام الطبقات المثقفة مما يترتب عنه خلق برجوازية فكرية تشعر بالتعالى والعظمة المزيفين — ولا يعنى كل ما ذكرت انى متشائم من الوضع التعليمى الراهن أو أن لى أفكارا أفلاطونية غير مرتبطة بالواقع الجزائرى الذى هو فى صميمه ليس الا فترة انتقالية تشهد تحولا جذريا فى أغلب الاتجاهات . ولا ينبغى ان يفهم من حديثى انى متجاهل قيمة المعارك التى تخوضها البلاد فى شتى الميادين — كلا : لست من المتشائمين ولا من المتجاهلين وانما الذى اعنيه هو رغبتى الشديدة فى أن يرى مجتمعنا مندفعا نحو المستقبل شاقا طريقه فى زخم الحضارات يواكب الامم المتقدمة ويرافق التطور العلمى ، وبحثى هذا محاولة من المحاولات التى ينبغى ان يسهم بها المثقفون فى توجيه الرأى العام الى الاسس التى يشاد عليها البناء والتى يجب ان تسبق كل عملية حتى يكون البناء ثابتا والاتجاه أصيلا

---

(15) هذا ما أدى فى السابق الى أن الذين يلتحقون بالثانويات الفنية هم من فضلات الاقسام النهائية للتعليم الابتدائى لان النخبة أخذتها معاهد التعليم العام .

من اعـلامنـا

الشـريف أبوعبد الله

اسـاتذتـه :

وليس بالبعيد عن هذا الرجل أن يبلغ هـذه المنزلة بين جمهور حاشد من أعيان العلماء ، وهو الذى تخرج على أيدى جهابذة أفذاذ كل منهم رأس فيما يتحلى به من فنون العلم . وهؤلاء هم :

1 ـ الرجـلان العظيمان الاخوان أبو زيـد عبدالرحمـان وأبو عيسى موسى الشهيران بابنى الامام(2) .

2 ـ أبو موسى عمـران بن موسى المشدالى البجائى(3) الذى استوطن تلمسان . أخذ عنـه الفقـه والحـديث والاصلين والفـرائض والمنطق والجدل .

3 ـ محمد بن ابراهيم الآبـلى التلمسانى(4) الذى كان نسيج وحده فى المعقولات . وقـد انتفع بـه الشريف انتفـاعا عظيما حتى انتزع اعجاب أستاذه به ، فاهتم به وأفـرده بالعطف والتقدير . وكان من شأنه معه أنه حين يستشكل مع طلابه مسألة من المسائل العلمية العويصة ، أو حين تعترضهم مباحث دقيقة يقول : انتظروا حضور أبى عبدالله !

4 ـ القاضى أبو عبدالله بن هدية القرشى .

5 ـ عبدالله بن عبدالواحد المجاصى ، الرجـل الصالح .

6 ـ أبو عبدالله محمد بن محمد البرونى .

7 ـ القاضى ابن عبدالنور .

8 ـ القاضى على بن الرماح .

9 ـ محمد بن يحى بن على الشـهير بـابن النجار(5) .

التعـريف به :

الامام الحجـة شيخ المشائخ أبو عبد الله محمد بن احمد بن علي التلمساني الادريسي ، ولد بتلمسان سنة : 710 هـ ونشا تحت رعاية والده الفقيه احمد ابن علي التلمساني العلوي(1) وحينما استوى على قدميه اتجه الى الكتاب « الكتاب » ليقـرا القرآن على الشيخ المربي ابي زيد ابن يعقوب حتى اتى عليه حفظا وتجويدا . ثم اخذ يتدرج في مدارج العرفان ، يغـذي عقله بالعلم ، ويحشو دماغـه بالحكمة ، حتى بلغ رتبة انتهت اليه فيها امامة المالكية بالمغرب العربي .

أحمد جلول بـدوي

التلمساني

10 ـ محمد بن عبد السـلام الهواري

وآخرون غيرهم .

قال عنه صاحبه وتلميذه المؤرخ عبدالرحمن ابن خلدون في « التعريف » : « أخذ العلم عن مشيخة تلمسان ، واختصر بأولاد الامام ، ثم لزم شيخنا الآبلي رحل الى تونس سنة أربعين (740) هـ فلقي شيخنا ابن عبدالسلام وأفاد منه ، واستعظم رتبته في العـلم . وكان ابن عبدالسلام يصغي اليه ، ويؤثر محله ، ويعرف حقه » . (6)

ومن بوادر حذقه وادراكه في أيام الطلب أنه حضر ذات يوم مجلس شيخه عبدالرحمن بـن الامام ، وكان الدرس في تفسير القرآن ، وفيـه تعرض الشيخ للكلام على نعيم الجنة ، فابتدره التلميذ قائلا : ليت شعري ، هل يدرس العلم في الجنة ؟ فقال : نعم يا ولدي ، ان فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين ، فابتهج التلميذ وقال : لو كان جوابكم نفيا لقلت اذن ليس في الجنة لذة(7). وهكذا كان صاحبنا يرى أن الغاية التي يجب أن تتوخى انما هي في العرفان ، ولذلك كان يحرم نفسه من راحتها وترويحها ، فيمتنع عن النوم الا اذا ألح عليه النعاس ، فيغفو قليلا ثم يفيق ويقول : يكفي هذه النفس ، فلقد أخذت حظها من النوم ، ثم يستانف ما كان عليه من مواصـلة التحصيل ، وتمكنت من نفسه هذه العادة طوال حياته .

ذكر ولده أبو محمد عبدالله(8) أنه مر على أبيه ، في فترة من الفترات ، نحو من ستة أشهر لم ير فيها أولاده ولم يروه ، اذ كان يفيق باكرا وهم نائمون ، ولا يعـود الى المنزل الا في وقت متخلف من الليل ، فيجدهم قد ناموا ، وهو خبر

عجيب لم يكد يتفق لاحد ! واذا صح فأين واجب الرعاية الابوية ؟!

وذكر ولده ، أيضا ، ان الشيخ كان ينفق بياض نهاره بين اقراء ومطالعة وتلاوة ، ينام ثلث الليل ، ويكب على المطالعة ثلثه ، ويقوم يصلى ثلثه ، وكان يقدم له طعامه أحيانا فى رمضان فيشغله النظر عن تناوله ، ثم يؤتى بسحوره فيذهل عنهما معا حتى يصبح ويواصل الصوم ! (9) ورآه ولده المذكور يوما منهمكا فى تصفح كتب كانت منتشرة حوله ، ليحقق منها ما يهمه من المسائل العلمية ظن أنها تبلغ سبعين كتابا ، وبهذه الهمة وهذا المجهود عنت رقاب علماء زمنه واعترفوا له بالتفوق والتبريز . ودعاه داع الى زيارة (تونس) فلم يرق لتلاميذه أن يغادر بلده ، اما لحرصهم على ملازمته ، أو اشفاقا عليه من عنت السفر ، ما عدا تلميذه الخطيب ابن مرزوق الجد قال عندما بلغه ذلك : كنت كرهت مفارقة أبى عبدالله بلاده ، ولكننى عدت ، فحمدت الله على ذهابه حتى يراه أهل افريقية ويعلموا أن بالمغرب (الاوسط) عالما مثله .

وفى هذه الرحلة دخل مدينة تونس مجهولا لا يعرفه أحد ، وحضر مجلس ابن عبدالسلام(10) فجلس حيث انتهى به المجلس حين كان الشيخ يقرر كلاما فى شأن تحديد معنى كلمة (الذكر) ، وجعل يتساءل ويقول : هل يعتبر الذكر حقيقة فى الحركة التى يجرى بهـا اللسان أولا ؟ فانتهزها الشريف فرصة للاعـلان عن نفسه ، وابتدر قائلا : من الواضح يا سيدى أن الذكر يكون ضد النسيان ، والنسيان محله القلب ، ومن المقرر أن الضدين يجب أن يتحدا فى المحل . فسكت الشيخ ولم يلتفت اليه ومضى يقول : ان الذكر هو ضد الصمت ، وهذا محله اللسان ، فيجب كون اللسان هو محـل ضده ، فيكون حقيقة فيه .

قال الشريف فامسكت عن مراجعته تأدبـا معه ، وقد كنت أعلم أن الصمت ضده النطق لا الذكر .

وفى الغد عاد الى مجلس الدرس وعند ذاك أقبل عليه نقيب الدولة(11) واخـذ بيده حتى أجلسه الى جانب الشيخ ، وعلم بعد ذلك أنه هو الذى أمر بذلك . وما ان أتم الدرس حتى التفت الى ضيفه يسأله سؤالا دل على معرفته به قبل أن يراه . اذ قال : أفدنى ، هل أنت أبو عبدالله الشريف ؟ قال نعم ، هو ذاك ، فرحب به ، ثم راح يجلسه دائما الى جانبه فى حلقة الدرس ، ولم يقف معه عند هذا الحد ، بل كان يدعوه الى منزله حيث يتهيأ لهما أن يطلع كل واحد منهما على ما عند الآخر من نوادر المسائل وغـرائب المباحث . وسرعان ما انقلب الشيخ الى تلميذ يأخذ عن التلمسانى فصل التصوف من كتـاب « الاشارات » لابن سينا ، ودروسا من تلاخيص (أرسطو) لابن رشد ، كما كان يأخذ عنـه دروسا فى الحساب والهيئة والفرائض ، ثم قفل راجعا الى بلده وقومه الذين أوحشهم غيابه . وما أن حل بينهم حتى اقبل عليه الناس يقصدونه من كل وجهة ليأخذوا عنه ويتشرفوا بالانتساب اليه ، وأكبر شأنه الملوك فقـربوه وبالغـوا فى الحفاوة به . فهـذا سلطان تلمسان أبو سعيد عثمان بن عبدالرحمن كان فى طليعة من يجله ، ويخاطبه بقوله : « يا سيدى ... » وعندما احس بزوال ملكه عرض عليه أن يترك أمواله وديعة عنده فأبى أن يجيبه الى رغبته ، وأحاله على غيره ورضى بأن يشهد على من يختاره أمينا على حمل الامانة : فعمل السلطان باشارته .

ولما استولى أبو عنان المرينى ملك المغرب على

تلمسان أمر بتكوين مجلس علمي يشكل من كبار علمائها . فكان صاحبنا في طليعة من اختير لهذا المجلس ، وقد استرعى نظر أبي عنـــان بعلمه وفضله ، فعرض عليه أن يكون الى جانبه بمقر ملكه مدينة « فاس » فعز عليـــه فراق بلاده ، وتردد أول الامر ، غير أنه أذعن في الاخير . وعلم انه لا بد مما ليس منه بد . وطال مقامه بالمغرب ، وثقلت على نفسه وطـــأة الغربة ، فتبرم بها ، وأبدى شكواه لمن حوله،وسرعان ما بلغت الشكوى أبا عنان،فأثارت حفيظته على الشيخ،وصادف أن علم بخبر الوديعة المالية التي أسلفنا ذكرها ، فأرسل اليه في الحال ، وأخذ يعاتبه وينحي عليه باللائمة من أجل كتمان أمر الوديعة ، وامتن عليه بتقريبه اياه ،، فثارت ثائرة الشريف . ووقف في وجه الملك يقول : شهادة كانت عندي لا يجب على رفعها بل على العكس .. انه يجب على كتمانها . وأما تقريبك اياي فقد أضر بي أكثر مما نفعني ، اذ نقص به علمي وضعف ديني .. في كلام لم يتحمله منه الملك . واشتد غضبه عليه . ولم يفتأ أن أمر باعتقاله . وأن تنتزع الوديعة من يـــد المؤتمن عليها . وفي تلك الاثناء صادف أن وفـــد يعقوب بن علي شيخ العرب بالجنوب الجزائري(12) على أبي عنان بالمغرب ، فسأله عما يقول الناس فيه فقال : انهم يلهجون بالثناء عليك ، ولا يقولون الا خيرا ، بيـــد أنهم يستنكرون اعتقالك لابي عبدالله الشريف ذلك العالم الرفيع المنزلة ، وفعل هذا الجواب في نفس السلطان فعله فاصدر أمره باطلاق سراح الشيخ بعد أن مر على اعتقاله شهر كامل . وذلك سنة 776 هـ ولما رآه العاهل اعتذر له وبالغ في ذلك . وبعد امتلاكه قسنطينة سنة 749 أعـاد الشيخ الى مجلسه استئنافا لسالف عهده . وساد الصفاء من جديد بين الرجلين .

وفي ذات مـرة اجتمع بمجلس ابي عنان أعضاء المجلس العلمي . فبدا له أن يأمر شيخ المقرئين بالقاء درس في التفسير فتحرج هذا واعتذر . للسلطان طالبا اعفاءه وقال : أبو عبدالله الشريف أولى مني بذلك . فالح عليه مرة ثانية وقـال : أنت المختص بمعرفة علوم القرآن وبأهل تفسيره فاقرأ علينا . فأعاد هذا الشيخ اعتذاره وسجلها شهادة نادرة المثال في حق السيد الشريف حين قال : ان أبا عبدالله خير من يخوض في هـذا الميدان ، لانه أعلم مني وأقوى عارضة في ذلك ، ولا يسعني الاقراء وهو حاضر ...! شهادة لفتت الانظار الى الشريف ، وجعلت أبا عنان يثني عنانه اليه . ويرجو منه أن يستجيب لرغبته . وهنـا أخذ الشيخ في القـــاء الدرس . وانبرى يفيض سحرا وبيانا . ويصول حجة وبرهانا . وما زال يعلو وأبو عنـــان يسفل حتى نـزل عن سريره وجلس مع القوم على الفراش . وعند انتهاء الدرس توجه أبو عنان الى الشيخ وهو يقول : اني لارى العلم يخرج من منابت شعرك . وبعد انفضاض الجمع تقدم اليه القاضي الفشتالي وطلب منه أن يملي عليه ما صدر منه في الدرس ، فأحاله على مصادر ذكرها . وكانت معروفة عند الجميع .

علـومه ومعـــارفه :

تعددت مناحي العلوم التي ينطوي عليها صدر الشريف ، فهو امام في جميع ما يتعلق بعلوم التفسير . ومحدث بارع في علوم الحديث النبوي من متن وسند وألقاب ورجال . الى الامامة في الدين . والقيام على الفروع والاصول . والرياسة في العلوم العقلية كلها . من منطق وحساب . وتنجيم وهندسة وموسيقى . خبير بعلوم العربية وآدابها ، وقواعدها . حجر في غريب اللغة وأخبار الناس ومذاهبهم ، قيم بفنون الطب والتشريح والفلاحة . ولما كان ذوو الفضل مبتلون في كل

زمان بالحساد وأهل الغيرة ، أراد بعض علماء فاس أن يحطوا من قيمته وشأنه ، فأوعزوا الى من يبلغ الملك بأن الشريف قصير الباع في الفقه والتشريع، فاراد أن يختبر منه هذا الجانب . فبعث اليه وأمره، بمحضر من الفقهاء ، أن يشرح الحديث المعروف : اذا ولغ الكلب في اناء أحدكم ... فلم يتردد لحظة . واخذ في الحال يتكلم ، دون مراجعة أو نظر ، فاول ما قال : ان هذا الحديث يتفرع الى خمس وعشرين مسالة ، ومضى معها واحدة بعد أخرى حتى استخرجها كلها ، مرجحا ومدللا ، كانه يمليها من كتاب . وهنا فطن أبو عنان للدسيسة التي اعدها له خصومه ، فاقبل عليهم يلومهم ويعنفهم حين انكشف حالهم ، وتبددت أغراضهم ، وبقي الشريف بفاس الى أن هلك أبو عنان سنة 759 هـ .

وفي ذلك العهد افتك أبو حمو موسى بن يوسف ملك تلمسان من يــد بني مرين وحــرص على استدعاء الشريف من فاس فبعث اليه في ذلك ، فأذن له الوزير القائم بالامر ، عمر بن عبد اللـه بمغادرة المغرب . ولما بلغ تلمسان تلقاه السلطان بكلتا راحتيه فرحا وابتهاجا بمقدمه ، ولمــا استقر به المقام زوجه ابنته ، وبنى له مدرسـة يبث فيها علومه على من أراد ذلك .

تلامــذتـه :

لا سبيل الى استيعاب أسماء الذين أخذوا عنه من العلماء والطلاب فهم كثيرون ، وانما نأتي على ذكر بعض المشاهير من أعلام وأدباء ، وهم :

1 ـ الامام ابراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشاطبي (13)

2 ـ الوزير الشاعر محمد بن يوسف الصريحي الشهير بابن زمرك(14)

3 ـ ابراهيم الثغري التلمساني

4 ـ أبو عبدالله القيسي

5 ـ عبدالرحمن ابن خلدون

6 ـ محمد بن أبي اسحاق ابراهيم الرنـدي الصوفي الشهير بابن عباد(15)

7 ـ محمد بن أبي البركات المكناسي الشهير بابن السكاك(16)

8 ـ محمد بن علي الميورقي

9 ـ ابراهيم المصمودي

10 ـ يحي ابن خلدون

11 ـ محمد بن عبدالسلام(17)

12 ـ ولده العلامـة المتبحر أبو محمد عبدالله شيخ ابن عاصم صاحب التحفة

13 ـ ولده الثاني الامام البحر عبدالرحمن أبو يحي شيخ ابن مرزوق الحفيد(18) .

هذا وقد كانت للسيـد الشريف صلة وثيقة بالعلماء والادباء الذين كانوا من أعرف النـاس بقدره ومقامه ، نخص بالذكر شيخ علماء الاندلس أبا سعيد بن لب(19) الذى كان يستعين به فيما يشكل عليه من المسائل والفتاوى . وكذلك الشاعر الناثر الوزير الخطير لسان الدين ابن الخطيب الذى تعود أن يرسل اليه بما يؤلفه من الكتب ، ليرى رأيه فيها قبل أن يخرجها للناس .

آثــاره :

لما كان الشيخ ميالا الى الافــادة والتبليغ ، حريصا على بث العلم والعرفان ، سالكا مسلك المشافهة والتلقين ، أنفق جل أوقاته في التعليم والاقراء ، يقضى النهار كله في ذلك ، فقلت تاليفه بالنظر لما كان يرجى منه ، وهو الذى عرفنا مـا

عنده من كنوز وذخائر . اما تآليفه التى ذكرتها المصادر فهى :

1 ـ كتاب فى القضاء والقدر ، جلى فيه وجه الحق من تلك المباحث الغامضة .

2 ـ شرح الجمل للخونجي ، ذلك الكتاب الذى أقبل عليه العلماء قراءة واستنساخا .

3 ـ كتاب فى المعاوضات ، وهو اجوبة عن مسائل وردت عليه من عالم (توزر) الشيخ يحى الرهونى .

4 ـ مثارات الغلط ، ذكره التنبكتى فى نيل الابتهاج .

5 ـ مفتاح الوصول الى بناء الفروع على الاصول ، طبق فيه المسائل الفقهية على القواعد الخلافية فى علم الاصول وقد دل هذا الكتاب على طول باع صاحبه فى هذا الفن .

ومما يؤسف له أن بعض هذه الآثار ضاع أو هو موجود كالمفقود ، عدا الاخير منها الذى طبع بتونس والقاهرة ، وهو معروف عند القراء ، متداول بينهم .

اخلاقه وعاداته :

كان الشيخ الشريف معروفا بالسماحة والحلم، يلتمس لاهل الفضل فى عثراتهم أحسن الوجوه ، يجل اخوانه العلماء فى مجالس الملوك، يتوخى التوسط فى جميع أموره ، ولقد نعم الطلاب فى كنفه بعيش رخى ، وسعادة شاملة ، لا يفشى لاحد سرا ، ولا يضيع امانة . يروى أن قاضى قسنطينة حسن « ابن باديس » أودع عنده نقودا ذهبية كانت محفوظة فى قرطاس ، وبقيت عنده حتى طلبها صاحبها ، فذهب يتفقدها ، فوجد مكتوبا على قرطاسها هذه العبارة : « مائة ذهب » ففكه ليعدها فاذا هى خمسة وسبعون ذهبا ، فزاد عليها خمسة وعشرين ليكمل عد المائة ، ولم ينتبه ابن باديس عندما تسلمها منه للزيادة التى زادها الا بعد زمن . فعاد اليه وقال له : عندما عددت نقودى وجدت زيادة قدرها كذا وكذا ، وهى ليست لى ، فقال الشيخ : فاتنى أن أعدها عند تسلمها ، فلما وقع بصرى على الخط اختبرتها ، فلم أجد العدد المذكور ، فاكملتها ظانا ضياع ما نقص منها وهى عندى . ورد له القاضى ما زاده من النقود بعد شكره وأثنى على تحريه وصدقه .

اقوال النـاس فيه :

قال عنه الامام ابن مرزوق الحفيد :
هو شيخ شيوخنا وأعلم أهل عصره باجماع .

وقال تلميذه أبو زكرياء السراج فى فهرسته :

شيخنا الفقيه الامام العالم ... كان أحد رجال الكمال علما وذاتا وخلقا .. بلغ رتبة الاجتهاد أو كاد .

وقال شيخه الآبلى :

قرأ على كثير شرقا وغربا فما رايت فيهم انجب من أربعة .. أبو عبد الله ارجحهم عقلا ، وأكثرهم تحصيلا .

وقال الامام ابن عرفة يخاطبه :

غايتك فى العلم لا تدرك . ولما سمع بموته قال : ماتت بموته العلوم العقلية .

وقال عنه ابو يحى المطغرى :

حضرت مجالس كثير من العلماء ، فما رايت مثل أبى عبدالله .

وقال عنه تلميذه يحيى بن خلدون فى «بغية الرواد» :

.. شيخنا احد رجال الكمال علما ودينا ، لا

يغرب عن علمه فن عقلي ولا نقلي الا وقد أحاط به .. وبلغ الغاية القصوى من الادراك والتبحر ، مع فصاحة عند الالقاء ...

وفـــاتـه :

كان علم التفسير في طليعة ما يعتني به من الفنون . وقد دأب عليه خمسا وعشرين سنة ، يفسر كل يوم ربع حزب من القرآن الـكريم ، وعندما انتهى به الدرس الى تفسير قوله تعالى : يستبشرون بنعمة من الله وفضل .. الآية ، طرأ عليه مرض حال بينه وبين لقاء الناس ، واضطر الى ملازمة الفراش يعاني شدة وطأة المرض طيلة ثمانية عشر يوما ، أيقن عندها بمجيء أجله ، وعاجلته المنية ، وهو يقبل المصحف الشريف ، ويمسح به على وجهه ويقول : اللهم كما أعززتني به في الدنيا فاعززني به في الآخرة (20) ثم أسلم الروح الى بارئها ، فلحق بربه خاشعا منيبا ، وكان ذلك ليلة الاحد الرابع من ذي الحجة سنة : 771 هـ 1370 م . ودفن بالمدرسة اليعقوبية بتلمسان ، رحمه الله وأثابه (21) .

الهـــوامش :

(1) نسبة الى احدى قرى تلمسان تدعى « العلوين » بفتح العين وسكون اللام .

(2) كانا من أعاجيب الدهر غزارة علم وقوة عارضة في علو شان ومكانة مرموقة وقد ذكر عنهما صاحب « نيـــل الابتهاج » انهما رحلا الى المشرق . وفي دمشق التقيا بالامام ابن تيمية وناظراه في مسائل من العلم أفحماه فيها على قوة حجة الرجل وكونه فارس الحلبة المجلي الذي لا يشق له غبار .. على أننا نحن ننقل هذا بكل تحفظ . وقد توفي عبدالرحمن سنة : 743 هـ 1348 م وعاش أخوه بعده ست سنين ـ الاعلام للزركلي ج : 5 ص 294 .

(3) المتوفى سنة 745 هـ

(4) المتوفى بتلمسان سنة 757 هـ

(5) تلميذ الآبلي والمتوفى بتونس في حدود سنة 750 هـ

(6) التعريف صفحة (757 هـ) .

(7) لقد ضيق الشيخ رحمه الله أمرا واسعا .

(8) كان من كبار علماء زمنه . نزح الى الاندلس وبقي بها زمنا ثم أزمع العودة الى تلمسان من غرناطة فلم يبلغ مناه ومات غريقا سنة 792 هـ .

(9) راجع ترجمة الشيخ في « نيل الابتهـاج » ونحن نستغرب أن يقع هذا منه وهو يعلم أن الوصال في الصوم منهي عنه شرعا .

(10) هو محمد بن عبدالسلام بن يوسف الهواري العلامة المتبحر . ولد بالمستير وولي قضاء الجماعة بتونس . توفي بوباء الطاعون سنة : 749 هـ .

(11) لعل المقصود ذلك الشخص الذى يتولى قراءة ما فى«المتن » من موضوع الدرس المقرر · يسبق المدرس بقراءته ليتولى هذا بدوره شرحه وتحليله · وتلك هى المادة التقليديةفى الدرس ·

(12) الذى كان صديقا للمؤرخ ابن خلدون ·

(13) المتوفى سنة 790 هـ

(14) المتوفى مقتولا سنة 793 هـ

(15) المتوفى سنة 792 هـ

(16) المتوفى سنة 820 هـ بمدينة فاس

(17) ذكرنا هنا هذا الامام للمرة الثانية وعددناه من تلامذةالشريف لانه اعطاه وأخذ عنه · فهو أستاذه وتلميذه !

(18) المتوفى سنة 783 هـ

(19) المتوفى سنة : 776 هـ ·

(20) يبدو من هذا ان الشريف كان عند الاحتضار حاضرالذهن منطلق اللسان ·

(21) ننبه على أن هناك رجلا آخر يدعى أيضا أبا عبداللهويعرف بالشريف التلمساني · عاش بعد صاحبنا بزمن · وقد كان هو الآخر عالما محققا · توفى سنة : 847 هـ ـ ذيل‌الديباج ص : 308 ·

مصـــادر البحث :

نثبت هنا أسماء المصادر التى اعتمدنا عليها فى تحرير هذهالترجمة · ليرجع اليها من شاء الاستزادة والتوسع :

1 ـ نيل الابتهاج للتبكتي · المطبوع على هامش الديباج‌المذهب ·

2 ـ البستان فى ذكر علماء تلمسان لابن مريم المطبوع‌بالجزائر ·

3 ـ تعريف الخلف برجال السلف للحفناوى · المطبـوع‌بالجزائر ·

4 ـ التعريف بابن خلدون · طبع بيروت ·

5 ـ نفح الطيب للمقرى ج : 7 تحقيق محى‌الدين عبدالحميدط : بيروت ·

6 ـ بغية الرواد · ليحى ابن خلدون · طبع بالجزائر

7 ـ نحلة اللبيب لابن عمار مفتى الجزائر · طبع بالجزائر ·

8 ـ القول المنيف فى ترجمة أبى عبد الله الشريف للونشريسى

9 ـ الفتح المبين فى طبقات الاصوليين · لعبدالله المراغى :ج : 2 طبع بالقاهرة ·

10 ـ الاعلام · للزركلى : ج : 6 الطبعة الثالثة ·

سيكولوجية المحارب

د. محمد العربي ولد خليفة

الحرب احدى الظواهر التيلا يخلو منها زمان او مكان فقد عرفتها المجتمعات البدائية منذعصورها الضاربة فى القـــدم ووضعت لهـا طقوسا وشعائريقوم بهـــا المحاربون عندمـــا يشرعون فى القتال وبعـــد انيفرغوا منه ، ومنهذه المجتمعات من لا يتصور امكانية حيـــاةآمنـة مطمئنة الا ان تستوجب اللعنة او تستتبع العقـاب (1)حتى كان الصراع والعـــدوان جبلة فطر عليها الانسان . وقدبدا الاهتمام بهذه الظاهرة منذ بدا الانسان يتامل مـا يجرىحوله من احداث فيدلى فيهـــا برأى او يتخـــذ منها موقفا ،وتراوحت هذه الآراء والمواقف بين مؤيد للحرب وداع لها ،وبين معارض يتنبا بزوالهـــا واختفائها .

---

1 ـ جان كازانوف : سيكولوجية المحارب ص 13 ـ مطالعات فى علم النفس ترجمة د . مصطفى سويف الانفلو ـ المصرية القاهرة 1962 .

وحجة اصحاب الاتجاه الاول أن الحرب « أم الفضائل » وهى التى تبقى على الاصلح من بنى الانسان وتستأصل الاتجاهات العدمية من المجتمع ومن الذين يمثلون هـــذا الاتجـــــاه ماكيافيلى MACHIA VEL وكلوسفيتز CLAUSEWITZ وهـــربرت سبنسر H. SPENTER ونيتشـــه NIETZSCHE (2) .

وأما أصحاب الاتجاه المعارض فيرون أن الحرب ظاهرة مؤقتة وأن العصور التالية ستشهد أختفاءها نهائيا وذلك عندما تبلغ المجتمعات مرحلة التصنيع الكامل ومن ممثلى هذا الاتجـــــاه سان سيمون Saint Simon واوغيست كومت A. Comte (3).

ولا ريب أن الاهتمام بظاهرة الحرب عن طريق تامل أسبابها والتنبوء بمسارها ، وان كان مفيدا فى تعرف منطقها فانه لا يستجلى أبعادها ولا يحدد عواملها وآثارها على الفـرد والمجتمع . ولذلك رأينا حجج فلاسفة التاريخ – محبذين ومعارضين – لا تؤيدها الوقائع ، فان الحروب هى التى تخلف وراءها الامـراض النفسية والاجتماعية وتنتشر بعـــدها الاتجاهات العدمية المتمثلة فى الاجرام والانتحار والطلاق والموجات اللاأخلاقية بوجـــه عام ، وهذا ما حدث فعلا فى كثير من البلاد التى عانت من ويلات الحرب .

كما أن التنبوء باختفاء الظاهرة عندما يعـــم التصنيع لم يكن أكثر من أضغاث أحلام فقـــد شهد عصر التصنيع أشد الحروب ضراوة وفتكا .

وقد تتبع سروكين SOROKIN فى بحث نشره سنة 1934 نسبة الخسائر فى الارواح التى منيت بها الانسانية من جراء الحـروب طـــوال خمس وعشرين قرنا وحسب النسبة بالآلاف من السكان فكان القرن العشرون – وهو عصر التصنيع – أكثرها فى عدد الضحايا (12ر8 ٪) (أستخرج المؤلف النسب المؤية للذين سقطوا ضحية الحروب من مجموع السكان فى كل دولة أو امبراطورية واستخدم عينات تمثل أكثر البلاد التى خاضت حروبا وأكثر القرون التى تعرض فيها بنـــــو الانسان لويلات الحرب) ، كما هو مبين فى الجدول التالى (4) :

الاغريق

القـــرن	النسبة
الخامس ق . م .	9ر2
الرابع ق . م .	من 5ر4 الى 6
الثانى ق . م .	من 3ر0 الى 4ر0

روما (الامبراطورية الايطالية)

القـــرن	النسبة
الرابع ق . م .	4ر1
الثالث ق . م .	3ر6
الاول ق . م .	من 8ر2 الى 3ر0
الاول م .	من 6ر0 الى 8ر0
الثانى م .	من 3ر1 الى 3ر1

اوروبـــا

القـــرن	النسبة
الرابع الثانى عشر	2 ر0
الثالث عشر	20ر0
الرابع عشر	68ر0
الخامس عشر	04ر1
السادس عشر	86ر1
السابع عشر	2ر1
الثامن عشر	1ر1
التاسع عشر	1ر1
العشرون	12ر8

وعلى الرغم من أن ظاهرة الحرب قديمة قـــدم المجتمع الانسانى نفسه . وعلى الرغم من قـــدم الاهتمام الفلسفى والادبى بها (الالياذة والاذويسة فى الادب الاغريقى ، وسيرة عنترة وأبى زيـــد الهـــلالى فى الادب العربى ، والحـرب والسلام لتولستوى فى الادب الحديث) ، فان تاريخ البحث العلمى فيها لا يتجاوز العقود الاولى من هـــــذا القرن ويرجع ذلك الى عدة أسباب :

1 – الاعتقاد السائد بأن الحرب مسألة بديهية تدرك بالحدس ولا تحتاج لاى دراسة أو بحث .

2 – تبدو الحرب وكأنها شىء كامن فى الشخص وليست شيئا خارجيا عنه يمكن أن يخضـــع للدراسة الموضوعية .

3 – الاعتقاد بأن الحرب ذات طابع شـــعورى بالنسبة للافراد وتتم داخل اطار قانونى يبرر الاقدام عليها من طرف الجماعة .

---

2 – G. Bouthoul : Phénomène-guerre P. 8 Payot Paris 1962

3 – ن . م . م . ص 22

4 – ج . كازانوف : ن . مم ص 6

يضاف الى ذلك حداثة الدراسات السيكولوجية وعلم النفس التطبيقى بوجه خاص فقد كانت ظاهرة الحرب تدرس ضمن علوم التاريخ والاقتصاد والاجتماع ، حتى تبين للباحثين « أن للحرب أسسها السيكولوجية الجوهرية وأنها اذا ما بدت مرتبطة بظروف مادية فان ذلك الارتباط عرضى لانه متغير وعابر » .

وعندما أندلعت الحرب العالمية الاولى ، كانت الولايات المتحدة الامريكية أول من عنى بتطبيق مبادىء علم النفس فى الميدان العسكرى فتكونت سبعة عشر لجنة لتطبيق الوسائل السيكولوجية :

وقد تناولت أبحاث هذه اللجان المسائل التالية (5) :

1 – وضع اختبارات نفسية لاختيار قدرات الجنود واستعداداتهم وتنظيم اختيار الجنود .

2 – المشاكل السيكولوجية المتعلقة باستخدام الحواس وخاصة البصر والسمع فى ميدان القتال .

3 – المشاكل السيكولوجية المتعلقة بالطيران .

4 – تنظيم البرامج التعليمية والتدريب العسكرى على أسس علمية صحيحة .

5 – علاج المصابين بالصدمات النفسية الناتجة عن أهوال القتال .

6 – تقوية الروح المعنوية للجنود .

7 – الدعاية .

8 – توجيه الجنود لحياة مدنية سعيدة بعد انتهاء الحرب .

وقام بارتليت F. G. Bartlett سنة 1926 بدراسة توافق الجندى وروحه المعنوية والآثار التى تنجم عن أنتقال الفرد من المحيط المدنى الى المحيط العسكرى .

وفى هذه الفترة كان السيكولوجيون الالمان يوجهون عنايتهم نحو الحرب السيكولوجية ، وبعد ان تدبروا أسباب هزيمة المانيا فى الحرب العالمية الاولى أخذوا يوالون أهتمامهم الى موضوعات أخرى وخاصة أثناء حكم النازى ومن بين المسائل التى درسوها (6) :

1 – المعنوية الدفاعية أى رفع الروح المعنوية للالمان جنودا ومدنيين .

2 – المعنوية الهجومية أى العمل على تحطيم معنويات الاعداء .

3 – سيكولوجية القيادة .

4 – اختيار الجنود .

5 – سيكولوجية الحياة العسكرية .

6 – سيكولوجية القتال .

وأثناء الحرب العالمية الثانية شرع مجلس الابحاث فى الولايات المتحدة فى دراسة مشكلة التوافق النفسى الاجتماعى للجندى وقد أشرف على هذه الدراسة خمسة من العلماء هم :

صموئيل ستوفر S. Tsouffer وادوارد ستيتسمان E. Suchman وليلاندس ديفنى L. Deviney وشيرلى ستار Ch. Star وروبين ويليامز R. Williams ، وقد عنى هؤلاء الباحثون بدراسة نجاح توافق الاخوان باختلاف أصولهم الشخصية وأختلاف الخبرات التى تعرضوا لها أثناء خدمتهم فى الجيش ومدى توافقهم مع العمل الذى يؤدونه .

كما قام أطباء العمل بدراسة الانحرافات السلوكية فى الجيش الامريكى وبلغ عدد الحالات التى قاموا ببحثها حوالى نصف مليون حالة وقد عنوا بتتبع حالات الجنايات العسكرية مثل الهرب والتمارض والسكر ، والجنسية المثلية ، وادمان المخدرات ، والمشكلات الانفعالية المتعلقة بالتدريب والانتقاء والتعبئة واتمام الخدمة العسكرية والعودة الى الحياة المدنية .

وأما فى بريطانيا فقد أقتصر السيكولوجيون على اختبارات الانتقاء لاستقصاء حالات الاضطراب الانفعالى واستبعادها منذ البداية .

وهكذا أصبحت سيكولوجية المحارب تشغل جانبا كبيرا من جهود الباحثين فاهتموا بدراسة شخصيته وروحه المعنوية قبل المعركة وأثناءها . وتتبعوا حالته بعد أن يسرح ويعود الى الحياة المدنية .

---

5 – بوتهول ن . م . م ص 107

6 – عثمان نجاتى علم النفس الحربى ص 14 ط : 3 –النهضة العربية – القاهرة 1960 .

ومن أهم الاسباب التى جعلت السيكولوجيين يعنون بهذا الميدان (7) :

1 ـ ان الجيش أصبح اليوم منظمة تضم أكبر عدد من الافراد وتمثل أضخم تجمع فى الامة بعد المجموعة المدرسية وهو بذلك يضع على عاتق القيادة مشاكل لا نظير لها فى أى مؤسسة أخرى

2 ـ يعتبر موقف الحرب من اشد المواقف خطرا وأطولها زمنا فيها يتعرض الانسان لاعنف صراع بين واقعين يدعوه الاول الى المحافظة على حياته وتجنب الهلاك ويحرضه الثانى على أداء الواجب وأتقاء العار .

وتنجم بعض أسباب هذا الصراع عن المعركة التى تجعل الجندى يتردد بين حاجته الى الامن وبين الواجب الذى يدعوه الى القيام بمهمته والمخاطرة بحياته وينجم بعضها الآخر عن ضروب الالزام Contraintes التى يتعرض لها الفرد ابان خدمته العسكرية وتضطره الى التخلى عن المثل وأنماط السلوك التى تعود عليها فى حياته المدنية وتقبل النظام العسكرى بما فيه من دواعى الضبط الصارم .

3 ـ ان الوسط العسكرى يضخم بطريقة ملحوظة بعض مظاهر السلوك الانفعالى ، اذ لا يوجد فى أى تجمع آخر ظروف أكثر مساعدة على ظهور السلوك الانفعالى .

وقد وجد الادب فى هذه الظاهرة مجالا خصبا للوصف والتصوير لكنها قلما حضيت بدراسة موضوعية . فبمجرد أن ينخرط الفرد فى الخدمة العسكرية يواجه أزمة حادة اذ عليه أن يقطع صلته فورا بمحيطه المعتاد فيتخلى عن جو العائلة والمدرسة والمهنة . وهو يجد نفسه مع اقران ينتمون الى أصول مختلفة من الناحيتين الجغرافية والاجتماعية . ينبغى أن ينشىء معهم نسيجا جديدا من العلاقات الاجتماعية ويتخلى فى نفس الوقت عن مجموعة من الروابط الوجدانية والعاطفية التى اكتسبها من قبل .

وعلى الرغم من دواعى الانضباط فان الفرد يجد نفسه فجأة متحررا بطريقة لم يالفها من قبل حتى لتبدو له هذه الحرية وكانها وحدة أو عزلة خالية من كل سند ويعلل فرانز ألكسندر F. Alexender فشل بعض المجندين في التوافق مع المواقف الجديدة بفشل استجاباتهم القديمة فى التلاؤم مع المثيرات الجديدة وعجزهم عن استبدالها باستجابات أخرى تستعيد لهم حالة التوازن النفسى .

وقد تبين من دراسة تتبعية قامت بها الوحدة العلاجية فى دارتفورد (بريطانيا) باشراف جونز Maxwell Jones على مائة حالة من الجنود الذين تعرضوا للاسر وأمضوا فى الحرب فترة تصل الى خمس سنوات . أن الاسر قد عانت الكثير من المتاعب بسبب محاولات الفرد التوافق مع البيئة ، وتمثل الارقام التالية الصورة العامة للمرضى فى الدراسة التتبعية وذلك فيما يتعلق بالاعراض المرضية :

22 شفوا تماما
66 تحسنوا
12 لم يتحسنوا

أما الذين ذكروا أنهم شفوا تماما فقد قرروا أنهم عادوا الى الحالة التى كانوا عليها قبل الحرب ، أما الذين لم يتحسنوا فقد أكدوا أن حالتهم قد تحسنت نوعا ما خلال اقامتهم بالمستشفى ولكنها ساءت مرة أخرى بعد مواجهتهم لظروف المجتمع الخارجى . أما الباقون فقد قرروا أنهم ما زالوا على حالتهم السابقة .

وفيما يتصل بناحية العمل فقد كانت الصورة العامة كما يلى :

34 عادوا الى عملهم السابق للحرب .
18 اشتغلوا بنفس حرفهم القديمة مع تغيير مكان العمل .
40 اشتغلوا بحرف جديدة تماماً .
8 كانوا متعطلين .

ويعلل فرانز الكسندر F. Alexender فشل بعض المجندين فى التوافق مع الموقف الجديد بفشل استجاباتهم القديمة فى التلاؤم مع المثيرات الجديدة وعجزهم عن استبدالها باستجابات أخرى تستعيد لهم حالة التوازن النفسى .

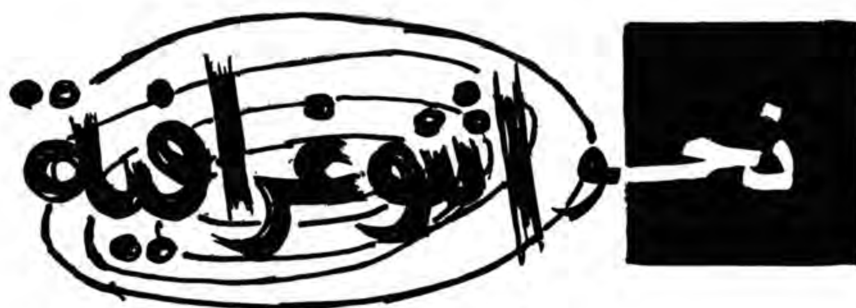
---

7 ـ ن م م ص 14

8 - Charles Chondessais : La psychologie dans l'armée P. 9, P. 32, Paris P.U.F. 1959

9 ـ بول موكور علم النفس العسكرى ص 118 ـ 119

10 ـ محمد عاطف السعيد



جديدة

فى الوقت الذى بدأ الزحف العربى يخطو خطوات متباينة فى الايقـــاع ليحطم تدريجيـا اسوارا من الخمول والخرافات ، ويستيقظ بعد سبات عميق ، ويتوقف متاملا الدرب الطويل الذى قطعه فى زمن قصير يتحتم علينا ان نتوقف بدورنـا وان نعيد النظر فى بعض المفاهيم ، وبعض المعـايير التقليدية التى ورثناها وحفظناها واحتفظنا بها ـ عن حسن او سوء نيــة ـ وذلك لنخرج من حصار وان لا نلج سياجا آخر ..

ان هذه اليقظة هى وعى . هـذا الوعى الذى تمخضت عنه حروب تحريرية أدت بالمجتمـــع العربى الى نوع من التمزق فى الشخصية . وان الثورات والحروب التحريرية التى اجتاحت الوطن العربى أدت الى تحولات ـ بدرجـات متباينـة ـ وفتحت مجالا للشعب للتنفس ، غير أن الجو يبقى مكدرا ما لم يعقبه استقلال اقتصادى وثقافى ..

ونهتم فى هـذا الحديث الموجـز بالتحـرر الثقافى أى التحرر من الطرق التقليدية فى التفكير. وأول شىء يصادفنا هـو ما يسمى بالعـــلوم الانسانية . ان العلوم الانسانية تأخـذ القسط الوافر أو سهم الاسد من اهتمامنا اذا أردنا أن لا نبقى ميدان تجربة للباحثين الغربيين الذين نادرا ما يتصفون بالنزاهة العلمية عندما يتصدون لبحث

ابن عـمار الصغير

مجتمعنا . واذا كانت المجلات الغربية المختصـة تهتم يوميا بالمناهج فى العلوم الانسانية ، واذا كانت الدول المتقدمة تعقـد مؤتمرات للبحث والمناقشة فى هذه المادة بالذات وترى بان المنهج ملتصق دائما بالايديولوجية . فنحن أولى بهـذا الاهتمام لاننا لم نتحرر بعد من المناهج العقيمة التى تجاوزتها الاحداث وتخلى عنهـا الغرب وفضحها بعض الغربيين .

وأود فى هذا الحديث العابر أن ألقى نظرة على الاتنوغرافيا . هذه المادة التى نجد لها فى بعض جامعات العالم الثالث كرسيا وهيئة تدرسـها وتقوم بالبحوث المتعددة ضمن مناهجها ..

فما هى الاتنوغرافية ؟

الاتنوغرافية هى دراسة المجتمعات العتيقة : أى المجتمعات التى ما زالت فيها رواسب بدائية . ولتعريف المجتمع العتيق لنا أن نقول بأنه مجتمع ضيق فى مظهره التقنى والقـانونى . وعلمـاء الاجتماع يفضلون نعته بالمجتمع العتيق ، ويتهربون من نعته بالبدائية لان البدائيـة تتضمن حكما معياريا وبالتـالى فهـو ادخال عنصر قيمى فى الموضوع .. ويقال كذلك بأن المجتمعات العتيقـة ليست لها صبغة تاريخية أى انهـا مجتمعات لا تتصف بتشعب الحضارة .. فالمجتمع العتيق اذن هو مجتمع بسيط وضيق .

كذلك نجـد العـالم الفرنسى دوركايم E. Durkheim يخصص كتابا لدراسة المجتمعات الطوطمية وحاول تقديم تعريف للمجتمع البدائى وذلك فى كتابه : الاشكال الاولية للحياة الدينية. Les temps modernes le N° de Mars 1971 ويرى بأن المجتمع البدائى هو : أبسط المجتمعات وتتجلى بساطته فى أنه يفهم ويشرح بـدون أن نستعين بمجتمعات سابقة له ... ونجد وصفا آخر للمجتمع العتيق هـو كونه متماسك . وهـذا التماسك يؤدى الى وحدة المظهر Uniformité أى اننا اذا أخذنا عينة فهى ممثلة . فالاسرة مثلا نمـوذج ممثل وعينة صالحـة للدرس ، فالاسر متشابهة متماثلة وكذلك السلوكات والذهنيات . ففى المجتمعات الطوطمية أو البدائية نجد وقـوع كارثة أو أفراح تؤدى الى استجابة تلقائية وعامة بل ان الفرد صورة للمجتمع وعينة ممثلة له .

وما هى مهمة الاتنوغرافى ؟

ان مهمة الاتنوغرافى تنحصر فى الوصف المحلى أى : ان الدارس الاتنوغرافى ينتقل الى المحيط المدروس أى الى البيئة التى يعيش فيها هـذا الشعب الذى هو موضوع للدرس .. ولكن قبل أن نستمر فى ذكر مراحل البحث لنا أن نتوقف قليلا لنلاحظ بأن الدراسة الوصفية الشاملة قـد لا تتغلغل الى صلب الموضوع للتعرف على الظاهرة فى مختلف مظاهرها ، بل أن الملاحظة الدقيقة قد تمكننا من التعرف على كثير من وجوه الظـاهرة ولكن ، قد لا نفهم الاسباب الاولية المنشئة لهذه الظاهرة ... هذه هى العقبة الاولى التى تصادفنا فى البحث .

وأما الصعوبة الثانية فتبرز عندما نريد الادلاء بنتائج البحث . فهذه النتـائج بدورها تتضمن

عيبين : فالعيب الاول هو كون النتـائج مرتبطة بآيديولوجية الباحث ، والعيب الثانى هو ادخال النتائج فى نسق مذهبى معاصر للباحث وبعيـد عن واقع المبحوث . هذه الفكرة الاخيرة قد تثير نقاشا وقد يقال بأن مهمة الباحث هو الجمع ثم الهدف الذى يريد الوصول اليه هو تكوين نظرية وادخالها فى نسق معين . ان تكوين النسق فى حد ذاته شيء مرغوب فيه اذا لم تكن العملية عملية تلفيقية بدل التوفيق بين الاجزاء المختلفة . وان محاولة التوفيق أو الحصر فى نسق معين عليها ان لا تنسينا الوحدات المتباينة وفى الرياضيات نعلم بأنه لا يمكن جمع وطرح وحدات مختلفة ... ان قولنا هذا لا يقضى على علم الاجتماع كعلم ولكن الدفاع عن العلمنة شيء والتوصل الى معرفة الحقيقة فى مجتمع معين شيء آخر ..

ولعل من الاحسن أن نذكر بهذا الصدد رأيـا آخر حول خطورة هذا النوع من الدراسة كمـا فعل صاحب مقال « الاتنولوجية ما فائدتها ؟ » (مجلـة طـان مـدارن عـــدد مـارس 1971) .
Les Formes Elémentaires de la Vie Religieuse
وصاحب المقال يرى بأن الدراسات الانتولوجيـة والاتنوغرافية لم تكن فى يوم ما دراسة نزيهـة اذ أن وراء كل اتنولوجى شرطى أو سياسى لا تهمه الدراسة فى حد ذاتها بقدر ما تهمه النتائج العملية التى ينبغى التوصل اليها .. وهـــذه النتائج هى الفهم لتسلط أحسن واستغلال أكثر .
ولكن هل المجتمع العربى صالح لهذا النوع من الدراسة ؟

وهذا السؤال يؤدى بنا الى سؤال آخر : ما نوعية المجتمع العربى ؟ .. لقد قيل بأن المجتمع العربى مجتمع زراعى . فاذا سلمنـا بذلك بدون أن نتطـرق الى بحث دقيق لهـــذا الجانب الذى يستحق وحده اهتماما خاصا . واذا علمنـا بأن الزراعة ترتبط بالتنظيم البـــدوى الذى يعتبر – حتى فى أبسط اشكاله – الاساس الاول لقيام العمران الحضارى نظرا لانه يتطلب ارتباط الناس بالارض والاستقرار فى مكان محدد بالذات وما يترتب على ذلك من الرغبة فى الارتفاع بمستوى المعيشة وتحسين ظروف الحياة من كل النواحى ، والميل الى الخلق والابتكار والعمل على المحافظـة على التراث الاجتماعى والثقافى .

وكذلك الرعى الذى يرتبط بالتنظيم القبـلى وحياة البداوة والنجعة التى تحتمها نفس الظروف العامة السائدة فى الصحراء وبخاصة الظروف الجغرافية والحالة الاقتصـــادية (والمعاشية التى تجعل الاقامة من مكان واحد أمرا صعبا الا حيث تتوفر شروط معينة بالذات . ويقوم النمطان جنبا الى جنب فى العالم العربى ككل وفى كل بـــلد من البلاد العربية على حدة مع اختلاف حظوظهـا منها . ولكن هذا التسرع فى الحكم قد يجعلنـــا نتناسى عاملا هاما هو العامل الذهنى . ان هـــذه المجتمعات بل هذه الانماط لم تكن قارة ومنغلقة ، وهذه المجتمعات لم تكن تحيا منعزلة . لها حياة خاصة وبعيدة عن التيارات الفكرية السائدة بل استفادت ولو قليلا من فوائد الحضارة العالميـة ، فالتأثير الخارجى موجود ولو كان ضئيلا .. أما ان يقال بأن هناك مجتمعات بعيدة عن الحضـــارات الانسانية وعاشت منغلقة تحيا حياة خاصة ولم تكن لها اى علاقة مع المجتمعات البشرية الاخرى فهذا من قبيل الميثولوجيا .

ان الدراسة الاتنوغرافية والاتنولوجية قــد تكون لها فائدة حقيقية . هـذه الفــائدة تتمثل بالدرجة الاولى فى بعث التراث الحضارى .. وهذا البعث ليس بعثا للانغماس فيـه ولكن لانتقــاء الصالح والاعراض عن الطالح .. هنا فقط تكون للاتنولوجية فائدة وفائدة حقيقية .. ولنا عودة الى الموضوع .

الاستعمار المقنع

2

محمد عزيز الحبابي

الاستعمار مدفوع الى تآمر بشع بطبيعة تكوينه : يتآمر ضد خيرات الارض وما تحت الارض ، وضد كرامة « الاهليين » . تتجلى فعاليات القضاء على تلك الكرامة ، مباشرة وبكل وضوح ، فى اقبار الثقافات الوطنية بالبلدان المستعمرة . فأينما مر أشبال وعشاق (أتيلا) المعاصرون ، تقلص الفكر وذبلت الثقافة القومية . من أولئك الهدامين من يعمل عن جهل ، ومنهم من يخرب ليستقيم الامر لارباحه واستغلاله . نعم ، « ما ضاع حق وراءه طالبه » ، ولكن ، اذا قضى على شخصية هـذا « الطالب » سهلت السيطرة على « المطلوب » : بـلدوا ووحشوا « الاهليين » ، باسم الحضـارة والتمدين ، يستقر لكم الامر ! تلك هى « الفلسفة » السياسية للاستعمار .

قد يكون ، احيانا ، من بين انصار الاستعمار ، « مثاليون » ينخدعون بنظريات مغرية وبأساطير غذتهم ، منذ الصبا ، فترعرعت في مخيلتهم ، اذ « صادفت قالبا خاليا ، فتمكنت » . فهؤلاء ، عن حسن نية ، يندفعون والتيار ، مع شيء من العطف على « الاهليين » . قد تنطبق عليهم قولة سقراط : « لا أحد يفعل المنكر عمدا » .

* * *

لهذه الطائفة نخصص هذا الحديث .

ان الميثولوجيا ، اليوم ليست فقط تاريخا خرافيا عن القدماء ، بل أيضا انعكاسا نرجيسيا لـ « المدنين » (بكسر النون) المعاصرين . فنحن ، وان كنا لا نعثر ، في أساطيرنا ، على حروب بين الآلهة والابطال ، نشاهد صراعا ، حاميا ، من نوع جديد ينبعث عن ذهنية خرافية : الصراع من أجل سيطرة بعض الشعوب وبعض الاجناس على أخرى، في كل حلبات الحياة ، باسم أفضلية « الدم » ، أو باسم الرقي ...

طبقا لتلك النظرية العنصرية ، تأخذ نشوة القوة بالشعوب المتقدمة تقنيا واقتصاديا ، وتلعب برأسها ، مما يجعلها تعتقد أن القوة تكسب الفضائل ، وتفرض واجبات لها على الضعفاء . وأول مهام « العظماء » « التبشير » ، ولو عن طريق القوة ، بأن الاشتراكية ، أو الاقتصاد الحر ... هو النظام الصالح لكل العالم ، و « كل ما ليس عليه أمرنا فهو رد » ... فالقيم والمقاييس للتفكير والسلوك والحكم ، يجب أن تقتبس كلها من النظام الذى ارتضاه الشعب القوى لنفسه ولمجموع الشعوب . فمن اختار غير ذلك نظاما في الحياة تعرض للمضايقات الاقتصادية والمؤامرات السياسية . « فاما أن تتعشقنى ، بالرغم عنك ، والا اعلنتها حربا شعواء عليك وعلى من يناصرك ! » لو كان التاريخ يعيد نفسه لصرحنا بأننا دخلنا مرحلة جديدة من الحروب الصليبية ، حرب الفكرولوجيات ، وأن العاقبة لمن هو أكثر قوة سلاحية تدميرية !.. اذ لا مكان للضعيف . .

* * *

من هنا كان انتشار الثقافة والمبادىء العليا لا يتجاوب سويا مع المثل وحاجيات الشعوب ، بل مع الامكانيات الحربية : الدبابات أولا ، والمفاهيم الحضارية ، ثانيا ، وبتعبير أصح : في البداية ، توجد القوة النارية الصماء ، ثم عنها تتولد أسس الباقي .

أليس تقدم الحضارة هو الذى مكن الانسان من الاختراعات والاكتشافات الهائلة ، ومن بينها الاسلحة للدفاع عن تلك المكاسب وتوسيع نطاقها ؟

لكن جدلا ديالكتيكيا غربيا وغريبا قلب الوضع رأسا على عقب : قد أمست الاكتشافات والاختراعات موجهة لصالح الاسلحة والتسليح ! فالحضارة والتقدم جميلان وجيدان ، ولكن القوة غدت أجمل وأنبل : فلنركع ، ولنسجد للقوة ! (قوة النار والحديد والتفجير النووى ...) فما دامت الثقافات تعمل لصالح تلك القوة ، ولم تبق للقيم الاخلاقية والفنية والفكرية والروحية الا القدر النزر من الجاه والقداسة ، سهل طمس كثير من معالم الثقافات « الاهلية » .

* * *

هناك ما هو أنكى وأفظع . عندما تتقدم الثقافات « الاهلية » مزيفة ، محنطة ، مشوهة الى أبنائها ، يستبشعها بعضهم ، ويتنكر لها ويهاجمها ، مفضلا عليها ثقافة الغالب ، ولغة الغالب ، وتاريخ الغالب ، لان النتيجة الحتمية لفعل القوة في الضعفاء ، هي انحلال الشخصية الفردية والتنكر لشخصية الشعب ومقوماتها . وهنا الخطر الاكبر على مصير الانسان بوصفه انسانا .

يحاول « الاهليون » المتنكرون لشخصيتهم القومية أن يكونوا لانفسهم كيانا جديدا ، مقتبسين من ثقافات الاقوياء ، بعض العناصر . لكنهم سرعان ما ينطحون جباههم على الحصون المنيعة ويكسرون أرنبتهم . بنى المستعمرون المتطرفون ، بآسيا وبأفريقيا ، السدود كى لا تتسرب ثقافتهم الا بالقطرات ، ولقلة من المحظوظين ، ويقيم العنصريون امثال (فوبوص Faubus و (والاص Wallace بالولايات المتحدة نفس السدود : المدرسة لابناء لقدر النزر من الجاه والقداسة ، سهل طمس كثير من معاليم الثقافات « الاهلية » .
البيض ، والجامعة لابناء البيض ، لان الاسود لا يستحق أن ينال حظه من الثقافة ، ولان الابيض لا

يختلط بالاسود . ولان الثقافة ميزة للابيض ... وقد استعملت القوة . ضد شبان وشابات سود يريدون مقعدا فى المدرسة والجامعة . وماتوا ، ومعهم ظمأهم وتعشقهم للثقافة . فانتصرت القوة على الثقافة وعلى مبادىء الحضارة (1) . القوة فوقك يا انسانية !...

القوة « قضت » . بمنطق البندقية والمدفع والرشاشة . أن « الاهليين » « والسود » ، و « الحمر » و « الصفر » ليسوا كالآخرين . بل ليسوا « آخرين » : انهم شيء ، أو أشياء . انهم شيء من الاشياء . لكنهم ليسوا شيئا فى حد ذاته !..

* * *

فمن سوء الحظ أن النمو العلمى لم يقض على الميثولوجيا التى تعشش فى كثير من الادمغة ، بل على العكس . قد ذكى خميرتها عند بعض الناس الى حد أنهم آمنوا بمعادلات عابثة : بقدر ما تتقوى اقتصاديات وأسلحة أمة . بقدر ما تزداد يقينا أن الحقيقة الى جانبها . وأن التاريخ « يفرض » قيادتها على الامم الاخرى . هكذا ، تتحالف النرجيسية مع نشوة القوة . فيتمخض عن اتصالهما طقس ذهنى جديد تختنق فيه أنفاس العدل والمساواة والحق . وتنتصر فيه العنصرية . اذ ذاك يضفى الاقوياء صبغة الحضارة على قوتهم ويغلفونها بطابع انسانى ليخدروا الضمير ويهبوه طمأنينة زائفة .

النرجيسيون لا يعون وضعهم كما هو . لانهم ثمالى يجترون ... مستواهم الثقافى قد يعلو عند هذا وينخفض عند ذاك . اذ الثقافة وحدها لا تكفى لاستئصال النرجيسية والعنصرية . فلا عجب أن نرى من بين السلاليين المتطرفين ، مفكرين كبارا وأبطالا عظاما . مثل (ارنيست رينان) و (روزامبرغ) .

فهل سبب ذلك أن العنصرية تشكل انحرافا عرضيا للعقلية المعاصرة . ولا تقوم على أى أساس فلسفى أو دينى أو فكرولوجى ؟

يمكننا تفسير هذا الوضع الغريب ولو جزئيا .

* * *

تقدم البيئة المعاصرة لبعض العنصريين صورا ودلالات عنها وعنهم لا تمت الى الواقع بصلة . بل تستقى من الخرافات . فيفترون ظنا منهم أنهم حاملو رسالة التمدين وانهم الانبياء المنقذون . فبطريقة عفوية يضفون ، على ذواتهم ، معانى مصطنعة تلائم ميولهم وسلوكهم فى الحياة كما يتصورونها . وكما يفهمون دورهم فيها . انهم كالعنكبوت تفتل خيوطها بيدها وتنسج منها الغلاف الذى يعزلها عن الخارج . أو مثلهم كمن ينظر فى المرآة لا يجد الا شخصه كما صبغه وزينه. فالمجاملة مع الذات ترمى فى أحضان النرجيسية . ان العنصريين نرجيسيون ينغلقون على نظرتهم الخاصة عن العالم ويتنكرون لنظرة الآخرين لهم وللواقعية ولعالم الآخرين. يعكس سلوكهم منظومة ضيقة ومنحرفة من المفاهيم والدلالات عن الدم والعرق، وعن الاخلاق، والذهنيات، والعلم، والتاريخ، وكل ذلك يتناغم فى عقليتهم ويسير على ايقاع منسجم داخل نظرية عامة .

انه خطر على تلك النظرية . من الداخل . وكل ما يمكن أن يهددها هو احتكاكها بما هو أجنبى خارجى . تقبل البعض ذلك الاحتكار الى أن كشف له الغطاء . فتراجع عن خيوط عنكبوته الفكرية ، أما البعض الآخر فامتنع ، فى كبرياء . من الاحتكاك حتى لا يواجه الحقيقة . فساهم فى القضاء على الثقافات « الاهلية » . لان وجودها يرغم على الاحتكاك . ثم على اتخاذ موقف من النظرة الى الحياة والسلوك مما يقلق ويحدث مشاقات نفسانية النرجيسيون فى غنى عنها .

* * *

القضية . اذن أعمق مما يظهر لاول وهلة .

---

(1) نشير الى الحوادث المفجعة التى وقعت بمناسبة افتتاح العام الدراسى لسنة 1958 فى جنوب الولايات المتحدة حيث رجمت جمهرة البيض الاولاد السود الى أن لفظوا النفس الاخير وداست بأرجلها جثث الطلبة الذين ضحوا بأنفسهم دفاعا عن القيم الثقافية وعن المساواة التى منحهم اياها الدستور الامريكى .

فالعنصرية ليست خلقا منطقيا أو تحديا للاخلاق : ان لها جذورا ميتافيزيقية (لانها تتولد عن نظرة الى الكون والحياة) ، وسيكولوجية (الميتافيزيقا توجه السلوك) . أما الميتافيزيقا ، بدورها ، فليست بالشيء البسيط ما دامت تتغذى من ميثولوجيا غامضة تهيمن على ارادتنا وشعورنا وتفكيرنا ، انها تقوم بفعالية كبيرة في حياتنا الفكرية والسيكولوجية ، عن غير وعي منا ، كالغدد التي تسير ، في عمق وبتستر ، حياتنا الفيزلوجية ونحن غافلون ، تمام الغفلة ، عن نشاطها الهائل .

ليس من خاصيات عصرنا أن نرى الاساطير تسير تفكيرنا ، فالعقل كان دائما يرضع من ثديي الميثولوجيا . فمن العبث أن نحاول فصل هذين الاخوين من الرضاع . فالمجتمع العصبي المتطور الذي يحتكم بأحكام العقل ، لا يزال ، في الواقع ، خاضعا لكثير من الخرافات والترهات . فتغلب المنطق على الخرافة هو أكثر صعوبة مما يظن للوهلة الاولى . وقد ذهب (روبير) ، في بحث عن « **فلسفة طبيعة الاسطورة** » ، الى التأكيد بأن هذا التغلب ليس عملا عسيرا فحسب ، بل عملا مستحيلا :

« اذ استقلال الفكر عن الاسطورة لا يمكن أن يكون استقلالا مطلقا كاملا دون تناقض . من الممكن أن نفكر بكيفية عقلية وعلمية في مسألة خاصة لا في الطبيعة أو في الانسان داخل الطبيعة. الانسان عندما يقوم بالنظر الخالص يمكنه أن يدرس الطبيعة ، بمجموعها . لكن ، عندما يشعر أن تلك الطبيعة تتضمنه ، وأنه جزء منها ، لا يستطيع أن يبقى صاحب نظر مجرد » (2) .

كيف العمل على زحزحة الميثولوجيا ، ولو الى حد ما ، من فوق عرشها العتيد ، عسى أن يتحرر العقل البشري ، ولو قليلا ، من سيطرتها ؟

* * *

ذاك ما حاولته بعض الديانات .

أول من قام بمحاولة من هذا القبيل هي الديانات الابراهيمية . فعوضا من معرفة الكون والمجهول عن طريق الاسطورة (نتاج التخيل) ، نجد أن الميتافيزيقا الاسرائيلية (العهد القديم) واللاهوت المسيحي وعلم الكلام الاسلامي توجه كامل عنايتها لنبذ الخوف الناجم عن المجهول الكامن وراء الاساطير لفهمه وافهامه . فالله هو السبب الاول ، الخير الاسمى وينبوع كل خير ، انه اله كل الاجناس والاكوان ، وهو عشق وعاشق ومعشوق لذاته . وتزيد الديانتان الاسرائيلية والاسلامية : بأنه اله متعال ، تعاليا مطلقا ، منزه عن كل تشبيه ، مريد بارادة أزلية ، أحكامه غير عرضية،وهو عقل،عاقل ومعقول وينبوع الحياة والعقل ، انه علة العلل المتجلية أبدا :

« وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الخالق »

أحد ، أحد ، فلا معارك بين الآلهة ، أو تدخلات حزبية لرب من الارباب في الحروب الانسانية ، كما هو الشان عند يونان القديمة ، اعتقد القدماء أن للنواميس الطبيعية أرواحا ، فتمثلوا كل واحد منها في صورة مجسمة ، ثم ألهوا أهمها وأقواها ، مما جعل ذهنية القدماء ، بالشرق وبالغرب ، تسبح في بيئات تلعب فيها الآلهة وأرواح الطبيعة دورا أعظم من دور الكائنات البشرية .

فدعوة الديانات الابراهيمية لم تكن دعوة اصلاح فقط ، بل ثورة جارفة زعزعت مقومات التفكير والسلوك ، أخلاقيا ومجتمعيا ، ونفسانيا . فوحدانية الله وتعاليه المطلق سفهتا خرافة الصراع بين الآلهة ومشاركتهم في الحروب الانسانية ، وقضت على الاعتقاد بأن لظاهرات الطبيعة أرواحا تتأله ، كما قضت على الايمان بتعدد الآلهة . فلا آلهة ، الا « الوهيم » ، الاحد :

« ان الرب هو الاله ، وليس اله سواه »(3) . انه أحد ، عالم ، عنه تفيض المعرفة .

« وفوق كل ذي علم عليم » (قرآن 2 ، 6) وقادر « فعال لما يريد » (II : 107)

2) - R. Rayer, La philosophie de la nature du mythe, in, R. Intern de philosophie, n° 36 1056 p. 167.

(3) سفر تثنية الاشتراع 4 : 35 راجع كذلك القرآن 2 : 5

التعليم الأصلى في الجزائر

عبد المجيد الشريف
مدير التعليم الأصلى

ان الجزائر عبر القرون التالية للفتح الاسلامى ، حافظت على الثقافة العربية الاسلامية بصلابة ليس لها مثيل ، واغنت التراث العربى بكثير من الشروح ، والتعليقات ، والمؤلفات الهامة ، وانتفعت بالتيارات الثقافية العربية التى قدمت اليها من الاندلس والاقطار العربية الاخرى .

وقد كثرت الجامعات ، والرباطات ، والزوايا ابان العصور الوسطى ، كثرة ادت الى ثورات ثقافية قدر لها ان تستمر ردحا من الزمن ، وقد اشتهرت بعض هذه الرباطات باسماء اصحابها ، واصبحت مركزا للادب والامامة والارشاد .

ويقول « بولارد » المؤرخ الفرنسى فى كتابه (التعليم فى الجزائر قبل 1835) : « كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة وكان فيها اساتذة متمكنون فى علوم الفلسفة ، والفقه ، والادب ، والطب ، والنحو ، والفلك ، وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد ، والتعليم فيها شرعى ودينى ، ومدنى » .

وحتى فى المدة الطويلة من ايام الاستعمار التى ابتليت بها البلاد ، ورغم الضغط والتنكيل برجال العلم ، ورغم المصادرة والابادة والعمل على محو كل أثر يجعل الفرد الجزائرى يشعر بمقوماتـه ودينه ، حيث اغلق المستعمر المدارس ، واغتصب أوقافها ، ومنع التعليم العربى ، وعاقب بالسجن والتشريد من يمارسه أو يطالب به ، حتى خبت منارات الاشعاع الثقافى من بجاية ، وتلمسان ، وبسكرة ، ومازونـة ، وتيهـرت (تيارت) ، وقسنطينة ، وغيرها من دور العلم والثقافة المنبثة فى كامل التراب الجزائرى ، أقول حتى اثناء ذلك الليل الطويل المظلم ظلت الجزائر تبعث بابنائها لكل مكان تأنس فيه علما طلبا للعلم وبحثا عـن المعرفة ، وبفضل الارادة الشعبية ووفاء هـؤلاء الابناء البررة استطاعت الجزائر ان تحافظ بكل صلابة على دينها ولغتها ، رغم الحديد والنـار ، وبطش المستعمر وجبروته ودهائه ومكره ، وتجنيد كل الطاقات لتشويه ماضيها التليـد ، وطمس معالمه ، والعمل على فصله عنها ، وفصلها عنه .

وهكذا كانت المساجد والرباطات فى الاول ، ثم المدارس الشعبية فى المرحلة الاخيرة ، مراكز اشعاع للثقافة العربية الاسلامية ، وقلاعا حصينة للحفاظ على الشخصية الجزائرية الاصيلة .

واليوم ... وقـــد استعادت الجزائر حريتها واستقلالها يحق لها ان تستعيد مجدها الثقافى الاصيل ، وتتخلص من التبعية الفكرية البعيـدة عن الواقع الجزائرى .

. كما يحـق لهـــا ان تسهم فى بعث التراث الاسلامى ، وترفـــع فى ميدان البحوث مشعلها المجدد . وللمساهمة فى تحقيق هـــذا الهدف تسعى مؤسسات التعليم الاصلى التى تبنت هـــذا النوع من التعليم وعملت على تطويره بما له من اهداف قريبة وبعيدة ، ترمى من ورائها الى الرفع من مستوى الفرد الجزائرى روحيا وخلقيا ، وجعله عضوا نافعا بناء ، تكاملت فيه شروط المعرفـــة والاخلاق ، وتفاعلت فيـــه مثالية الروح وتفتح العقـل .

اهداف التعليم الاصلى :

من جملة الاهداف التى تسعى لتحقيقها معاهد التعليم الاصلى :

ـ تكوين جيل صاعد من الشبان والشابات ، يتوفر فيهم التكوين العلمى باوسع واحدث معانيه مع التربية الاسلامية المتينة .

ـ **تركيز اللغة العربية** حسب الطرق العلمية ، ونشرها على أوسع نطاق بالسرعة الكافية لدعمها وفق مقتضيات العصر .

ـ **انقاذ ابنائنا الذين حرموا من التعليم العام ،** أو ممن فاتهم السن القانونى للدخول فى المدارس ، أو كانوا دون السن المطلوب للدخول فى المدارس المهنية .

ـ **تكوين اطارات دينية متينة** ، قادرة على تحمل رسالتها بصدقويقين ، وعاملة على ازالة ما يعلق بالتعـــاليم الاسلامية من شوائب المغـــرضين ، وافتراءات الدساسين .

الوضع الحالى لمؤسسات التعليم الاصلى :

ان مؤسسات التعليم الاصلى منذ نشأتها تتقدم تقدما حثيثا من ناحية اقبال الشعب عليها ومن ناحية تطويرها واعادة بنائهـــا حسب الاساليب العصرية الحديثة ، وفى مستوى الثانويات العامـة الاخرى بفضل ما أولته القيادة الثورية من عناية خاصة بها ضمن المخطط الرباعى ، حيث قـــال الرئيس الاخ هوارى بومدين غير ما مرة : لا أريد

ان تكون هذه المؤسسات من الدرجة الثانية ، حتى لا تتملك روادها مركبات وعقد ، ويوصم محتواها بالتخلف والرجعية .

وبالفعل فقد تم لهــذه المؤسسات ترسيمها والاعتراف بشهاداتها وتركيز الاطار المشرف على تسييرها وخولت له نفس الحقوق المتمتع بهـا نظراؤه في التعليم العام .

وبذلك فتحت آفاق جديدة امام هذه المؤسسات حسب متطلبات التعليم المتجـددة ، فتمكنت من

في التعليم العالى للعلوم الاسلامية أيضا ، وبهذا تغدو هذه المؤسسات حقولا حية لانتاج التفكير الاسلامى الحق المتماشى مع تيارات العصر السريع ، والاهداف الثورية الطلائعية فى بلادنا .

ويبلغ تعداد مؤسسات التعليم الاصلى حاليـا عشرين ، وهى موزعة على الاماكن التالية :

العاصمة – البليدة – المـدية – الاصنام – معسكر – وهران – بلعباس – تلمسان – بنى دوالة – العثمانية – قسنطينة – عنابة – باتنة –



معهـد التعليـم الاصـلى بالـوادى

معهـد التعليـم الاصـلى بالـوادى

اعادة النظر فى البرامج الدراسية المتبعة لكافـة السنـوات وجعلهـا فى مستوى العصـر ، مـع اعداد ما يلزم لها من الكتب والمراجع الضرورية للاساتذة والطلاب معا ، والمتماشية مع البرامج من جهة ، والمستجيبة للواقع الذى يعيشه الطالب من جهة اخرى .

ان مؤسسات التعليم الاصلى الآن تشرف على تخريج افـواج من الطلبة المحصلين على أهلية التعليم الاصـلى ، وبكالوريا التعليم الاصـلى ، وهؤلاء بدورهم يفرد منهم من يرغب فى التخصص

بسكرة – بوسعادة – الهامل – الاغواط – الوادى – آدرار .

هذا وقد فتحت فى السنة الدراسية الحاليـة 91 – 1392 هـ (71 – 1972 م) مؤسسات أخـرى فى كل من الاماكن الآتية :

تيزى وزو – بجاية – سطيف – قسنطينة – وهران – تجديت (مستغانم) .

كما ان هناك عددا من مؤسسات أخرى قـررت فى المخطط الرباعى أو فى البرامج الخاصة وهى الآن بصدد الانجاز فى عدة مدن من مختلف انحاء الوطن .

برنامج التعليم الاصلي :

ان التعليم ذا الاتجاه الواحد كثيرا ما يدفع صاحبه الى الانزواء والانطواء على النفس ، أو ينمي فيه روح المعاكسة أو المضادة للغير ، وذلك نتيجة تفكير محدود الجوانب ، تنشأ عليه مدارس واتجاهات فكرية غير متفاعلة ولا متلاحقة ولا حتى متقاربة في المشارب والميول بين ابناء جيل واحد . ووطن واحد .

وابتعادا عن الوقوع في هذا المضيق ، وتجنبا لمزالقه الكثيرة جعلت مؤسسات التعليم الاصلي برنامجها الدراسي في كل من المرحلتين التكميلية والثانوية يشتمل على العلوم الشرعية واللغوية والعصرية مما يسمح لخريجيها بفرص التخصص حسب اختيارات الشخص واتجاهه الدراسي .

وعندما يختار الدارس الاتجاه الديني مثلا يكون في مستوى العصر ، لانه مشبع بمتطلباته من أول مرحلة حتى لحظة التخرج ، ويصبح في امكانه ان يناقش المثقف بلغته وفي مستوى تفكيره ، دون مركب ولا ضعف مبعثه التعقيد ، ويخاطب الشباب بروح طلقة يتحسس انحرافاته عن خبرة ويسعى الى توجيهه دون تبرم أو يأس ، ويعمل على تقويم المجتمع ، وينير له سبيل الرشاد .

ومن المنطق ، ودون مبالغة ، ان مثل هذه النوعية من المتخرجين والمتخرجات سيكونون حماة طبيعيين للشخصية الجزائرية الاصيلة وامتدادا للتفكير الاسلامي السليم المتفتح ، لذلك حرصت مؤسسات التعليم الاصلي على ان يكون برنامجها الدراسي في كل من المرحلة الاعدادية والثانوية جامعا بين الاصالة والتفتح ، آخذة بعين الاعتبار ملابسات المستقبل بما تقتضيه من تنقيح أو تعديل .

التعليم الاصلي التكميلي :

وطبقا لما أشرنا اليه فان برنامج المرحلة التكميلية (الاعدادية) يشتمل على جزئين اثنين :

1 ـ العلوم الشرعية والعربية ، وموادها :

القرآن الكريم ـ الفقه ـ التوحيد ـ الحديث ـ السيرة ـ الفرائض ـ الاخلاق والتربية ـ النحو ـ الصرف ـ الادب ـ النصوص ـ المحفوظات ـ المطالعة ـ الخط .

وهذا الجزء هو خلاصة دراسة البرامج المتبعة في المؤسسات المماثلة في البلدان الشقيقة ، بعد أن اضفى عليه من الطابع الجزائري ما جعله يتلاءم واتجاهنا القومي ، وتاريخنا الاصيل .

2 ـ العلوم العصرية وموادها :

رياضيات ـ علوم ـ فيزيا وكيميا ـ تاريخ وجغرافيا ـ لغتان أجنبيتان ـ الرياضة البدنية ـ الرسم ـ الموسيقى .

وفق برنامج وزارة التعليم الابتدائي والثانوي حرفا بحرف وذلك للعمل على وحدة المدرسة الجزائرية باقامة قاعدة من الثقافة العامة تربط بين النوعين وتجعل منهما عنصرين متكاملين يعملان من أجل هدف واحد للنهوض بالوطن ودفعه الى الامام مع الحفاظ على المميزات الذاتية والمقومات الشخصية .

الشهادة الاهلية للتعليم الاصلي :

ان ثمرة الاكتفاء بهذه المرحلة هو الحصول على شهادة الاهلية للتعليم الاصلي التي بدأت بواكيرها منذ سنة 1962 م . وشرعت هذه المؤسسات تتوفر على تخريج مجموعات متفاوتة العدد ، تبعا لنموها الطبيعي .

وبما أن الجزائر في هذه المرحلة الانتقالية في حاجة الى الاطارات وخاصة في مجال التربية والتعليم فان أفواجا كبيرة من هؤلاء الطلبة والطالبات الناجحين في الاهلية التحقوا بالتدريس في المدارس الابتدائية كمعلمين ومعلمات بعد أن يكونوا قد مروا بفترة تدريب من طرف وزارة

التعليم الابتدائي والثانوي تمكنهم من ممارسة المهنة ومنهم من ذهب في بعثات دراسية الى بعض البلدان الشقيقة ومنهم من فضل العمل في قطاعات أخرى ، على ان الذين ما زالوا في سن يسمح لهم بمتابعة الدراسة ، ظلوا يدرسون المرحلة الثانية من التعليم الثانوي .

جدول الناجحين والناجحات في شهادة الاهلية للتعليم الاصلي

السنوات	عدد الناجحين والناجحات	عدد المعاهد التي شاركت
1965 – 64	0092	04
1966 – 65	0257	07
1967 – 66	0390	12
1968 – 67	0628	12
1969 – 68	0788	14
1970 – 69	0813	15
1971 – 70	1080	17

التعليم الاصلي الثانوي

لما كانت وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية تهدف الى تكوين نخبة متضلعة في التشريع الاسلامي ، قادرة على سبر غوره ، عارفة بمكنوناته في جميع الاغراض التي يشتمل عليها الاسلام ، من أحكام ، وفلسفة ، وتوجيه ، وتسعى في ايجاد اطارات صالحة في ميدان التعليم والامامة والتربية الدينية ، والوعظ والارشاد والافتاء ، والى ايجاد اطارات وطنية كفوءة على مستوى التعليم العالي في مختلف فروعه ، فقد عملت على انشاء ثانويات للتعليم الاصلي في مختلف المدن الجزائرية لتدريس المرحلة الثانية من التعليم الثانوي ، والبرنامج الدراسي لهذه المرحلة يشتمل في المرحلة الاعدادية على جزئين اثنين ايضا :

1 – المواد الشرعية ، واللغوية ، وهي : القرآن الكريم ، تفسير ، حديث ومصطلحه ، توحيد ، فقه واصوله ، فرائض ، قواعد اللغة العربية ، الادب العربي وتاريخه ، العروض ، البلاغة ، منطق ، فلسفة ، تربية وعلم النفس .

2 – العلوم العصرية ، وموادها :

رياضيات – علوم – فيزيا وكيميا – تاريخ وجغرافيا – لغات أجنبية – تربية بدنية .

وبانتهاء الطالب من دراسة هذه المرحلة يكون محرزا على شهادة بكالوريا التعليم الاصلي ، التي صدر مرسوم رئاسي بشأنها بتاريخ 18 ربيع الاول عام 1391 هـ الموافق 13 مايو سنة 1971 م يقضي باحداثها عطفا على شهادة الاهلية الآنفة الذكر ، ولقد تحصل عليها فوج الطليعة هذه السنة 70 – 1971 كباكورة أولى بلغ مجموعها ثلاثة وثلاثين طالبا نجحوا في هذه الشهادة .

وهؤلاء حسب اختياراتهم فمنهم من يلتحق بجامعات الجزائر ، ومنهم من يوفد الى جامعات الدول الشقيقة لمتابعة تخصصهم في الشريعة واصول الدين واللغة العربية ، ومنهم من يوجه الى أوربا وذلك بطلب من ودادية الجزائريين في اوروبا التي تحملت منحهم لمتابعة دراستهم العليا هنالك ، واعطاء دروس بالعربية لابناء المغتربين .

وبهذا تقوم مؤسسات التعليم الاصلي بدورها التكاملي في مجال التربية والثقافة ، وتسهم بجهد مأثور على الصعيد الوطني في الداخل والخارج .

التعليم الاصلي العالي

ان تخريج عناصر واعية متشبعة بالروح الدينية متفهمة لاسراره ومتوفرة في نفس الوقت على العلوم العصرية ، يستوجب انبعاث جامعة اسلامية كنتيجة حتمية وملحة : دعتها الضرورة كمرحلة طبيعية يرتقي اليها التعليم الاصلي بعد التكميلي والثانوي ، ونظرا لذلك فقد اعدت الوزارة مشروعا لاحداث ثلاث كليات تضمن لطلبتها المتابعة على أرض الوطن ، وتوفر لهم من الامكانيات ما يشجعهم على المواصلة بنفوس مطمئنة وصدور منشرحة .

لا ينغصها بعد أو اغتراب . ولا تفكير فى عدم كفاية المنحة أو توقع تأخرها ، فتنحصر جهودهم فى التحصيل ، والدراسة ، والبحث ، ويحصل التنافس على الانتساب والتخرج ، وتتضاعف النتائج ، وهذا كله مع البقاء على صعيد الوطن .

ان المشروع يشتمل على ثلاث كليات موزعة على القطاعات الثلاثة الكبرى : الجزائر ، قسنطينة ، وهران . على ان تدرس احداها الشريعة الاسلامية والقانون المقارن . والثانية اصول الدين والفلسفة المقارنة ، والثالثة ، اللغة العربية وآدابها وبعض اللغات القديمة المرتبطة بها .

والوزارة تسعى حثيثا للتطبيق وفق مراحل مدروسة ، مبتدئة بكلية الشريعة والقانون المقارن للحاجة الماسة اليها فى ميادين التعليم والاطار الدينى والقضاء ، وتليها باذن الله وعونه الكليتان الباقيتان .

النشاط المدرسى

لقد دأبت مؤسسات التعليم الاصلى منذ نشأتها على العمل دون ضجيج ، ايمانا منها بأن النتائج الايجابية التى ستحصل عليها من وراء هذا النشاط ستكون وحدها اللسان المعبر بصدق وواقعية عن مدى جهودها لتحقيق النتائج المثمرة ، التى حرصت على ان تكون مسايرة لروح العصر بمعطياته من علم وفن محتضنة بذلك أهم المبادىء الحية لبلوغ الغاية من انشاء جيل مؤمن بشخصيته ومثله العليا ، بعيد عن التعصب والتعقيد .

ولقد كان للتوجيه الهادف اثر بالغ فى خلق روح متوثبة فى اوساط طلاب هذه المؤسسات الذين وجدوا انفسهم امام منهج تعليمى يسمح باتاحة كل الفرص للخلق والابداع ، بما كشف عن طاقات علمية وفنية كامنة ، وساعد على صقل المواهب فى مختلف النشاطات المدرسية ، واظهر بواكير ناطقة بالنبوغ ، ومبشرة بطالع موفق فى شتى المدارك الثقافية ، والفنية ، والرياضية الى جانب ما تضطلع به من رسالة دينية ، واخلاقية ، وقد امكنها من ان تساهم بقدر فى كل من المجالات المذكورة .

فعلى الصعيد الثقافى تكونت لجان ثقافية من بين طلاب مؤسسات التعليم الاصلى للتدرب على الكتابة والخطابة ، ومختلف المواضيع الادبية ، من قصة ، ورواية ، وشعر ، ودراسات تتناول اهم شؤون الساعة ، وخاصة تلك التى تعنى بمشاكل الشباب .

وقد تمكنت بعض هذه اللجان من ابراز خامات دسمة ، واقلام غزيرة ، استطاعت ان تقدم انتاجا حسنا صالحا للنشر ، وقد ظهر بعضه فى شكل مجلات مدرسية تبادلتها المعاهد والثانويات فيما بينها ، كما أذيع البعض الآخر بواسطة الاذاعات المحلية والتلفزيون .

غير أنه بالنظر للامكانيات التى يجب ان تتوفر لمثل هذا وغيره والتى ما زالت بعد فى طور النمو ، فان هذه اللجان لم تتمكن من نشر وتوزيع كل انتاجها على نطاق واسع .

كما كان من ضمن طلاب هذه المؤسسات لجان تعنى بالتوجيه الدينى ، والوعظ والارشاد ، وذلك بحكم وضعيتها الهادفة الى خلق جيل متكامل الخبرات ، فسعت الى ابراز هذا الجانب الروحى وتنميته فى نفوس الطلبة الذين آمنوا برسالة مؤسسات التعليم الاصلى ، ودورها الكبير فى معركة التعريب ، والعودة بالامة الى الاصل الذى هو أساس شخصيتها والدعامة المتينة لمقوماتها ، وللتخلص من العادات النابية عن تقاليدنا فان هذه اللجان قامت وما زالت تقوم بحملة توعية شاملة ، انطلاقا من المسجد الى كل مكان يقام فيه نشاط ثقافى ، طبقا لما نادت به السلطة الثورية فى بلادنا كهدف يجب تحقيقه .

وهكذا فقد كان للدرس والمحاضرات التى القيت بالمساجد والاندية ، والمساهمة الفعالة فى حملة محو الامية والمواضيع الاخرى المقترنة بالمناسبات الدينية والوطنية عامل ايجابى فى الدلالة على الدور الذى تلعبه هذه اللجان فى معركة التعريب والتوعية .

اما فى ميدان الفنون الجميلة ، فان اللجان المؤلفة لهذا الغرض قامت بجهود ينم عن اهلية وولوع ، واستطاعت ان تقدم اعمالا فنية يصح القول فيها بأنها محاولات ناجحة فى العديد من الرسوم التى لا تخلو من ابداع ، فقامت برسم خرائط جغرافية مختلفة ، عالية واقليمية ، فى شتى الاغراض، سياسية واقتصادية ، وديموغرافية وطبيعية ، كما قامت برسم لوحات تاريخية لبعض المشاهد الحربية التى تتصل بكفاح الشعب

الجزائرى ضد الاعداء ، الى جانب صور الشخصيات العلمية والسياسية والوطنية .

وهذا بالاضافة الى رسوم المناظر الطبيعية الاخرى والرسوم العلمية على اختلافها ، كما أن هذه اللجان لم تهمل جانب النحت والتصوير المجسم ، والتطريز فى اشكال جمعت بين جدية العلم ومرح الفن .

أما الرياضة البدنية فان هذه المؤسسات أولتها اهتماما كبيرا لما لها من أثر سليم فى النفوس والاجسام ، فكونت فرقا لمختلف الالعاب سواء فى كرة القدم ، أو السلة ، أو الكرة الطائرة ، أو

الاساتذة

ان المخطط الاساسى الهادف من وراء هذه المؤسسات ، والذى يرمى الى تكوين افواج من المثقفين الاكفاء المتخصصين فى مختلف المجالات سيما فى المواد الشرعية واللغوية والفلسفية ، يتطلب منا أن نوفر لها ما تحتاج من أساتذة ذوى خبرة ومهارة ، ودربة واختصاص لتخريج اطارات واعية بحسب الحاجة ، لها من القدرة والكفاءة والاستعداد ما يؤهلها لتحمل المسؤوليات فى ميدان التوجيه والارشاد ، وتربية الاخلاق ، مما يساعد على تكوين جيل متكامل المواهب والخبرات،



تكميلية التعليم الاصلى بسطيف

تكميلية التعليم الاصلى بسطيف

فى مختلف العاب القوى ، وهى مزودة تزويدا عصريا بكل المعدات الضرورية لمثل هذا النشاط .

وقد أخذت هذه الفرق تحتل مكانها فى الاوساط الرياضية ففاز بعضها فى سباق العدو الذى اقيم على المستوى المدرسى داخل التراب الوطنى ، كما فاز بعضها فى كرة القدم على نفس المستوى فى جهات أخرى .

وهكذا فان هذه البراعم الرياضية ستنمو ويشتد عودها بما يؤهلها لاقتعاد المكانة اللائقة بها فى دنيا الرياضة فى المستقبل .

ومجتمع فاضل مسلح بالعقيدة الحقة والايمان العميق .

ونظرا لهذا فقد كانت الحاجة ملحة وأكيدة الى توفير العدد الكافى من الاساتذة الذين توفرت فيهم شروط الاختصاص والدربة من حاملى شهادة الليسانس ، والاجازات العالية أو مما يعادلها للاضطلاع بمهمة التدريس بهذه المؤسسات .

وقد عملت وزارة التعليم الاصلى والشؤون

الدينية على استجلاب العدد الكافى من هؤلاء منذ أول انطلاقة حيث بلغ مجموعهم حتى غاية السنة الدراسية 70 ـ 1971 : 483 أستاذ وهم موزعون بحسب اختصاصاتهم على النحو التالى :

جـدول الاساتــذة وتوزيعهــم بحسب المـواد

عــدد اساتذة العلوم الشرعية والعربية	عــدد اساتذة الرياضيات والعلوم	عــدد اساتذة العلوم الاجتماعية	عــدد اساتذة التربية البدنية	عــدد اساتذة اللغة الاجنبية
315	73	52	20	21

هذا وسيرتفع الاساتذة الى 554 أربعة وخمسين وخمسمائة اســتاذ فى مستهل السنة الدراسية 71 ـ 1972 م تبعا للنمو المطرد .

الطلبة الافريقيون والآسيويون

ان مؤسسات التعليم الاصلى عملت على ان تكون ابوابها مفتوحة للجميع طبقا للمبدأ والهدف من تأسيسها . ومنذ الانطلاقة الاولى غداة الاستقلال الوطنى ومنذ ان ذاع عن هذه المؤسسات انهــا تعنى بالتثقيف الدينى والدنيوى ، أخذت أفواج من الطلبة الافارقة وغيرهم تؤمها وهى الآن تحتضن عــددا من مختلف البــلدان الافريقية ، مثــل : السينغال . فولتا العليا . غينيا . ساحل العاج . بورندى . الكونغو . موريطانيا . غينيا (بيساو) . السودان . سيراليون . غمبيا . ارتيريا . تيلانده (آسيا) وهم يحظون بالنظام الداخلى ، وبمنحة دراسية من طرف الدولة ، تضمن كل الالتزامات الدراسية .

وقد تحصل الفوج الاول من هؤلاء على شهادة الاهلية للتعليم الاصلى وهم الآن يتابعون المرحلة الثانية من الثانوى ، كما فاز بعضهم هذه السنة فى بكالوريا التعليم الاصلى .

آفـاق المستقبل

ان التعليم الاصلى بمؤسساته العاملة ، وانبعاث جامعة اسلامية منبثقة عنه فى القريب ، سيوفر ولا شك حاجياته من الاساتذة ، وتطعيم المجالات التربوية الاخرى بذوى الاختصاص منهم ، ويهيء عناصر صالحة فى ميدان الوظيف وغيره من مختلف القطاعات .

كما ان التعليم الاصلى يرمى الى ايجاد الاطـار الحقيقى فى ميدان التوعية والتوجيه الدينى والافتاء ويعمل على تكوين دعاة للاسلام ، ومرشدى فضيلة على النطاق الواسع .

ولا يخفى على الاذهان ما نتعرض له اليوم من تيارات دخيلة بعيدة عن طبيعتنا من غزو فكرى يهدف الى ابقــاء السيطرة الاجنبية والنفــوذ الاستعمارى ، ونحن الآن بحاجة ملحة الى دعــاة ومرشدين اسلاميين واعين لما يحيط بهم ، ومتفتحين على العالم دون تهيب أو انحراف ولا انجراف .

ان الجزائر التى كافحت بصمود ، وكانت قدوة حسنة فى كفاحها الوطنى بالنسبة لشعوب افريقيا تشعر اليوم بان عليها واجبا أكبر وابعد شأوا ، فى ان تظل تلك القدوة والرائدة فى طريق المثل العليا والاخلاق السامية لبعث جيل واع يقظ .

من اجل هذا وغيره من الاهداف المتعددة كان العزم معقودا على النهوض بهذه المؤسسات وجعلها فى مستوى نموذجى يسمح باتاحة المنطلق الطبيعى، كى تثمر بالنتيجة المرجوة منها فى اقرب وقت وأيسر سبيل . والله الموفق .

الجامعات

والمشاكل الصناعية

في الدول المتخلفة

حمزة الجاري

ليس هنـــاك شك فى ان الدول المتخلفة تعانى مشكلتين رئيسيتين هما :

1 ـ التربص او الهجـــوم الاستعمارى بواسطة الاستعمار المبـاشر او الانقـــلابات التى تؤدى الى اســـتبدال النظـــم الوطنية بنظم تتيـــح للاستعمار القديم او الجديد ان يستمرا فى حرمـان الدول المتخلفـــة من ثرواتها وان يوقف تقدمها .

2 ـ قضية التخلف الراهن علميا واقتصـاديا واجتمـاعيا وحضاريا . بل قضية استمرار هذا التخلف (بسرعة المتوالية الهندسية لا بسرعة حسابية) اذا مـا قورن هـــذا التخلف بالتقدم العلمى والحضـارى فى الدول المتقدمة .

واحب ان أؤكد ان ايجاد الحلول لهاتين المشكلتين الحيويتين . لن يتم عن طريق العلماء أو الجامعات فى الدول المتخلفة فقط . وانما سيتم الى جانب ذلك بواسطة التحول الاجتماعى الثورى الذى يعتمد على سواعد ملايين العاملين المجتهدين فى مؤسسات يملكها الشعب . ويديرها الشعب بواسطة مؤسساته الديمقراطية الحرة . التى توفر وسائل التعبير الحر ، والنقد والمراقبة الشعبية الحازمة فيها . الشروط والمناخ الملائم لارتفاع صرح البناء الاقتصادى والحضارى والاجتماعى . هذا الطريق السياسى والاجتماعى هو الذى يمكن ان يفتح للجامعات وكلياتها العلمية فى الدول النامية مجالات لكى تسهم اسهاما له شأنه وخطره فى اقامة الامة . وانقاذها من التخلف . المجتمعات اذا . يقدمها ويطورها التغير الاجتماعى والثورى الذى يساعد الجامعات على أن تؤدى وظيفتها بدورها فى خدمة التقدم . واذا كنا سنعتمد فى تطور جامعاتنا علميا على اساس اقتطاع الاعتمادات الكافية بملايين الدنانير من الميزانيات المرهقة للدول المتخلفة لصالح البحث العلمى فنحن واهمون نجرى وراء السراب يكفى ان ندرك ان الانفاق الشهرى على التدخين بواسطة افراد الشعب البريطانى يصل الى 3500 مليون دولار . وهو يزيد عن الدخل الكلى لعدد مماثل من افراد الشعب الهندى .

واذا كان الدخل السنوى للفرد الاوربى أو الامريكى يصل الى 400 جنيه استرلينى . فان دخل الفرد الافريقى والآسيوى واللاتينى يقل عن 40 جنيه استرلينى ! فمن اين لدولنا النامية ان تحلم بان تخصص للبحوث العلمية نفس النسبه المالية التى تخصصها الدول المتقدمة ؟ ان ما ينفق على البحوث فى بريطانيا (سنة 1962) كان 2ر7٪ من الدخل القومى (630 مليون جنيه استرلينى) فى حين لم تكن تنفق الهند ما يزيد عن 0ر2٪ من الدخل القومى .

ليس هناك طريق امام الجامعات فى الدول النامية الا ان تشارك ويشارك اساتذتها فى عملية بناء الامة بالوسائل التى تتيحها لها ظروفها . وحسب الاولويات التى تفرضها عليها حركة النضال فيها ضد الاستعمار وللقضاء على التخلف. وهذه الاولويات يحددها الشعب بتنظيماته الديمقراطية وبواقع احتياجات الغالبية المحرومة .

وحين تسرى فى الامة الروح المقدسة للعمل ، وللعمل الجاد . وللعدالة : العدالة فى كل مؤسسة ومزرعة ومدرسة ومستشفى ومكان ، ولمراقبة الشعب لكل طوبة فى بناء . وكل انتاج فى صناعة وكل غلة فى أرض . وكل خدمة فى مرفق . فان حصيلة هذا كله . تستطيع ان تضيف الكثير الى الجامعات ماليا وانشائيا وتدعيميا ومن ناحية الهدف الذى تعيش الجامعات من اجله .

ولقد اتسعت مجالات البحوث وتفرعت بشكل يفوق كل تصور سابق . ويفوق قدرات الجامعات المنفردة أيضا . بل يفوق قدرات الدول المنفردة ، واصبح هناك ميل واضح فى العالم الى انشاء مؤسسات للبحوث على المستوى القومى بل المستوى الدولى . بل ان التعاون فى بعض المجالات مثل ابحاث الفضاء . أو فيزياء الاجسام الدقيقة والبيولوجيا والعلوم الطبية قد اصبح واجبا على مستوى عالمى شامل . ويطرح هذا الوضع تحديا وتساؤلا خطيرا فى وجه الجامعات فى الدول النامية : كيف ستتمكن من تنظيم عملها بصورة تمكنها من المشاركة الفعالة فى مثل تلك المواضيع الضخمة ؟ ان مساهمة الجامعات فى مثل هذه البحوث يجب ان يكون لها وزنها الحقيقى ، اذ ان اجراء البحوث الثانوية والوصول الى نتائج ثانوية امر غير هام ومضيعة للوقت . ومثل هذه المشاكل يرزح تحت وطأتها كثير من الجامعات الكبيرة ويفرض تشعب البحث العلمى ظروفا جديدة للعمل فى المجتمع العلمى فى العالم . وستتجه مجالات البحث اكثر فأكثر فى كل الدول المتقدمة والمتخلفة على السواء الى تحديد رقعة عملها والى التركيز فى مواضيع بحوثها .

طبعا . تستطيع اى جامعة ان تفسح المجال فيها للبحوث البحتة . ولكن من الضرورى ان تكون هذه البحوث جيدة وذات قيمة . كما انها يمكن ان تصبح اكثر فائدة لو ارتبطت بالاحتياجات الملحة التى تواجه الامة . ومن هنا فان كل امة

ستسعى الى اختيار مجالات البحث التى يمكن ان تستمر فيها بنجاح ملحوظ وتتهرب من الموضوعات التى قد تلائم غيرها فقط . ويمكن للجامعات فى الدول المتخلفة ان تطرق موضوعات جديدة للبحث ولكن ذلك يكلفها فى احيان كثيرة مالاطاقة لها به.

ولذلك فان جامعات الدول النامية يجب ان تعتمد اساسا على المعلومات العلمية والتكنيكية الكثيرة المعروفة فى العالم المتقدم ، وان يقل اعتمادها فى المراحل الاولى على خلق التطورات الجديدة فى العلم والتكنولوجيا . ما تحتاجه الدول النامية – هو تطبيق ما هو معروف سلفا من معلومات علمية على مشاكلهم الخاصة . وتشكل المعلومات العلمية المتجمعة الآن لدى الدول المتقدمة ، اضافة ضخمة تقدمها هذه الدول المتقدمة مجانا للدول النامية . ولكن من المهم ان تطور الدول النامية بشكل فعال وسريع يتطلب قلب الاوضاع المتخلفة الموجودة حاليا لديها فى مجال الاطلاع والمكتبات حتى تجعل المعلومات العلمية العالمية سهلة التناول امام علمائها وحتى يتم اقتباسها ومحاولة تطبيقها على ظروفها الخاصة بالسرعة الملائمة لملاحقة التطور فى العلم والصناعة

ثم ان كثيرا من المشاكل الضاغطة يمكن حلها بتطبيق المبادىء العلمية المعروفة على المشاكل الحديثة .

الا ان مجرد اقتباس هذه الحلول العلمية يقتضى تصورا علميا خلاقا من علماء الدول المتخلفة ولا يجب ان يتصور احد ان الاستعانة بالمعلومات العلمية المعروفة ، هو شىء لا يثير همة العلماء ولا يعطيهم الراحة النفسية أو السرور ، وان الذى يعطيهم هذه الاحاسيس هى البحوث الجديدة فقط . ان تطبيق المعلومات المعروفة فى العالم عمل صادق وجاد من الناحية العلمية كما انه يؤتى نتائج عملية مفيدة جدا وبسرعة لصالح الامة . بل ان كل مشتغل بالبحوث العلمية لا يستطيع ان يفكر فى بحث جديد أو يضع له خطة – فما بالنا بالمضى فيه واستخلاص نتائجه – الا بعد ان يقرأ ويستفيد من كل ما كتب فى العالم من قبل فى موضوع بحثه ، حتى يأتى عمله الجديد اتماما لما تم عمله من قبل ، واضافة حقيقية للعلم . ليس هناك اذن ما يخجل منه علماء الدول المتخلفة عندما يطبقون ما سبقهم اليه علماء العالم المتقدم على ظروف بلادهم . فالاقتباس والتطبيق على ظروف البلاد المتخلفة فى مجال العلوم والصناعة هو عمل مفيد جدا ، ويحتاج الى تصور علمى مبدع وخلاق ، كما انه فى النهاية اضافة حقيقية وجديدة للعلم والآلات التى يصنعها العالم المتقدم يتفق تشغيلها وانتاجيتها وتحملها مع الظروف الجغرافية والجوية فى البلدان التى صنعتها ، ولكن تطويرها بحيث تلائم الجو والرطوبة والخامات الموجودة فى الدول المتخلفة يعتمد على علماء الدول المتخلفة وقدرتهم على تطويع الآلات للظروف الجديدة فى ميادين الفحوص والتشخيص والعلاج والدوار الى فتح الباب امام آلاف من الابحاث الجادة حين نطبق هذه الاكتشافات على الامراض المتفشية فى البلدان المتخلفة . وليس هناك ما يمنع من ان تدور ابحاث الدكتوراه حول التطبيقات الجديدة لوسائل الفحوص المعروفة في العالم المتقدم على ظروف العالم المتخلف .

ويقول الاستاذ (برنال) : « ان كل الامم – حتى افقرها – هى فى حقيقة الامر اغنى بكثير مما تتصور ، وان مشكلة رفع مستوى المعيشة ، ان هى اساسا الا مشكلة اتقان استخدام مصادر الثروة ، وتعنى بها الثروة الموجودة فى المنطقة ، ولكن اهم من ذلك ، الثروة البشرية الكامنة فى الشعب ؟ ان المسألة ليست مسألة بناء ، بمقدار ما هى مسألة اطلاق الطاقات اللازمة لاقامة البناء . ان العامل الايجابى الكبير فى التطور هو المساهمة النشطة للجماهير ، وهذا يضمن سرعة أكبر للتطور مما كان يعتقد ان فى الامكان أو فى التمنى حدوثه » .

ويضيف برنال « ان خلق ثقة الشعب بالنفس يجب ان تكون هدفا حاسما للتطور بحيث لا ينبهر ولا تشل قدراته : امام القفزات التكنولوجية للعالم المتقدم ؟ » .

فاذا تواجدت ثقة الشعب وجامعاته وعلمائه بنفسه – ويجب ان تتوافر أولا – فأى الطرق تسلك الجامعات فى بحوثها العلمية ؟ هل تجرى البحوث العلمية فى المواضع التى لم تطرق من

قبل ؟ أم تحاول اقتباس وتطبيق البحوث العلمية الجديدة التى توصلت فيهـــا الدول المتقدمة الى نتائج ايجابية ؟

ومن الاهمية بمكان ان يدرك علمـــاء الدول المتخلفة ضخامة الثروات الموجودة والمكنوزة فى بلادهم والاحتمالات الكبيرة لاكتشافها من خلال البحث النشيط . ولكم كانت كثير من البحوث الجيولوجية الماضية والقديمة سطحية . ففشلت فى كشف النقاب عن الكثير من المعادن التى عادت البحوث الحديثة فتوصلت الى اكتشافها . وقـد اصبح العلماء فى الوقت الحاضر متأكدين من ان الارض التى تسكنها اغنى بكثير مما كنا نظن منذ عشرين عاما خلت . ولا يزال هناك الكثير امام الامم الناشئة كى تبحث وتنقب صخورها ومعادنها واراضيها ومساقط مياهها ومجـرى انهارها ومسارب مياههـا الجوفيـة ومصائد اسماكها واستغلال غاباتهـا وتنمية مراعيهـا وتخصيب اراضيها واستنبات بذورها واستكثار محاصيلها وتهجين حيواناتها وتصنيع منتجاتها ... الخ . ولا يزال عدد العلماء والباحثين فى كل هذه المجالات فى الدول المتخلفة قلة قليلة ، مما يشكل عقبـة كؤودا فى طريق التخطيط والتنمية (ولقد كانت الايدى العاملة فى الزراعة فى اوروبـا تستهلك 80٪ من المحصول الزراعى فيما مضى . اما الآن فقد انخفض الاستهلاك الى 5٪ . وفى الولايـات المتحدة الامريكية ينتج 5ر2٪ من السكان اكثر من ضعف كمية الطعام اللازمة لاطعام الجميع) ! وتبشر الاكتشافات الرائعة فى ميادين الكيمياء والبيولوجيا باضافات تطبيقية رائعـة فى ميادين الزراعة وتربيـة الحيـوان واستزراع النباتات وتصنيع المخصبات والاسمدة)

اما البحوث البيولوجية فتكشف عن مصـادر غير متوقعة للثروة . فالصحارى المهجورة لسنين طويلة يكتشف بها احواض البترول والمعـادن والمياه الجوفية التى تعوض الاتفاق الكبير عليها ، كما ان الظروف الدولية مواتية للحصـول عـلى المزيد من المساعدات الفنية القيمة والتدريب فى مجالات التنقيب والاستغلال والكشف .

وفيما يتعلق بتقدم العلوم الهندسية فان اختراع ماكينات جـديدة واستعمال اساليب التشغيل الـذاتى سيـؤدى الى زيـادة الانتـاج . ورغم توافر الايدى العاملة فانه لا مفـر أمام الـدول النامية من اختيار الاساليب التكنيكية الحديثـة والاكثر انتاجية مهما كانت مكلفة لاننـا بذلك نحصل على فائض انتاج كبير يمكن من اتاحـة الفرصة ــ باعادة التنظيم الاقتصادى السليم ــ لاعادة توزيع بقية قـوى العمل والانشغال فى بقية فروع الاقتصاد والى توزيع الزيادة الانتاجية ــ اذا توافرت العدالة ــ على الشعب .

واذا كانت هذه هى النظـرة الجديدة لاتساع آفاق الثروة والانتاج امام البحوث العلمية الفاحصة فان على التعليم عموما . وللتعليم الجامعى والعالى خصوصا ــ فى الدول النامية ــ ان يعد نفسه حسب هذه النظرة للمساهمة العملية فى اغنـاء الشعب بثرواته المطمورة بالربط بين نوع التعليم وظروف الامة المتخلفة .

ونظام التعليم فى أى امة ينشأ ثم ينمو ويتطور فى ظروف حياتية وجغرافية وتاريخية خاصة . ويرتفع بناؤه فوق اساس ثقافى معين ويمهد له ويسبقه ميراث حضارى ومزاج انسانى خاص بكل امـة . وعلى الامم المتخلفة وهى تحاول جاهدة ان تبنى صناعتها الناشئة وتنشيء من المدارس ما يساعدها على ذلك . عليها الا تنسى فى نفس الوقت ان يهـدف التعليم الريفى الى التمهيد للدراسة العملية والنظرية لمشاكل الريف . ومن هنا يصبح محتوى التعليم قضية هامة ، كما يصبح التوازن بين التعليم الابتدائى والثانوى بأنواعه والعـالى قضية هامة ثانية . وتصبح العلاقة بـين التعليم الثانوى ومختلف مواقع الانتاج قضية هامة اخرى. وكذلك يصبح تصنيف مختلف انـواع التعليم العالى . وتحديد القدر المناسب من العلوم التطبيقية او العلوم البحتة ، والقدر المناسب من التكنولوجيا او العلم . التى يدور حولها التدريس وتجـرى حولها البحوث . يصبح كل ذلك قضـايا هامة تستحق الجدل والبحث والمناقشة العميقة فى مجال البحث الذى نطرقه .

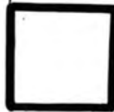


دراسات تاريخية









الجزائر في تاريخ الحضارة

مصطفى الاشرف
ترجمة حنفي بن عيسى

3

شهدت الجزائر في القرن الخامس عهدا (1) من الظلم والجوروالصراع الديني العنيف، وهو صراع تميز بالبدع التي ادخلتها الشعوب الآرية ، وبالخصومات التي قامت بين اتباع « مونتانوس Montanus ومريدي « بيلاج » Pelage واصحاب مذهب الفيلسوف « مانيس » Manès ، حتى ان اسقف هيبون (عنابة) نفسه تاثر بها الى حد ما ...

كما شهدت الجزائر آنذاك جوا من الشقاق والاضطهاد والتقتيل الجماعي ، ونشأت فيها حركات ترمي الى اقرار المساواة والعدالة ، مثل حركة الدوناطيين النوميديين (اتباع دوناط ، اسقف قرطاجنة في القرن الرابع م) ، وحركة الفلاحين الفقراء في جبال أوراس .

1) راجع العدد الثاني والثالث من مجلة الاصالة

وهكذا أخذ ذلك العهد من تاريخ الجزائر ينهار ويتداعى بعد غزو الوندال واستيلاء البيزنطيين للمرة الثانية على البلاد ... كما اخذ عهد جديد يظهر ويمد بالعناصر الفتية تلك الحضارة التى آل أمرها الى الانحطاط فى حوض البحر الابيض المتوسط . وهنا نلاحظ أمرا يستحق الذكر ، خاصة أنه لم يحصل على سبيل المصادفة ، وهو أن الشعوب الغربية المتوحشة التى نهبت أملاك الدولة الرومانية ، وورثت قيمها وأمجادها الغابرة ، من غير أن تستفيد منها فائدة عظمى ... هذه الشعوب لم تستطع أن تواصل العمل البناء الذى بدأ به الرومان . بل ان أبناء حوض البحر الابيض المتوسط هم الذين أخذوا من جديد ينشئون حضارتهم الاصيلة ، بالتعاون مع جيرانهم الاقربين ، وأعنى بهم العرب الذين طالما رأيناهم ـ وان كانوا غير منتظمين ـ يخوضون عباب البحر المتوسط ، ويجولون فى أرجائه وينشئون امارات . وينقلون بذور الحضارة اليونانية ـ اللاتينية الى الجزيرة العربية فى البتراء Pétra وتدمر Palmyre ، وفى الاراضى التابعة للغساسنة بسورية ... بل كان منهم أحد القياصرة فى روما ، وهو فيليب العربى .

ان العرب مرتبطون بصلة مع الفينيقيين فى اللغة ، وتعاطى التجارة ، وموطنهم هو شبه جزيرة تعتبر كأنها لوحدها قارة من القارات . من حيث التضاريس الجغرافية والامكانيات البشرية ، ومن حيث انها مكان تجمعت فيه الطاقات الكبرى ، وانطلقت منه الهجرات العديدة ، وتمازجت فيه الحضارات المختلفة . وليس العرب كما يصفهم بعض المؤرخين بكونهم رحلا ، ولا يستقرون بمكان . فمدنهم وأسواقهم التجارية ، مثل عدن وصنعاء ونجران ومكة والطائف ويثرب والبتراء ، وواحاتهم ، ومحطات قوافلهم فى شمال الجزيرة العربية ، مثل واحة تيماء ، والطرق التىأنشأوها للاتصال بغزة ودمشق ... كل هذه تعتبر من أقدم المنجزات الحضارية وأنشطها فى العالم . وكانت قوافلهم لا تنى تجوب البلاد من الشمال الى الجنوب ، وتصل أحيانا ، بل مرارا وتكرارا ، الى الشاطىء الشرقى من افريقيا . ورجالهم مشهورون بالشجاعة والاقدام ، ولا يهابون الفيافى والقفار ، ويشنون الغارات فى تنقلاتهم الدورية ، على حدود الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية . فالعرب شعب موحد الشمل ، وان كانت امكانياته مشتتة فى بعض المناطق . وله لغة واحدة مكتوبة ، مكتملة النمو ، وهى خير أداة لنظام اقتصادى يتميز بالحيوية والنشاط ، كما أنها أحسن وسيلة يعبرون بها عن ثقافتهم القائمة بالدرجة الاولى على الخطابة والشعر ، اللذين اعتبرا كأنهما من أركان الدين ، لما كان للكلمة من سحر يأخذ بالالباب ، ولما كان لها من نفوذ وقوة .

ان جميع هذه العوامل ، وغيرها مما لم نذكره ، قد تكون قليلة الاهمية ، لو لم يحدث فى حوالى القرن السادس ميلادى أمر تفتحت له عيون العرب ـ وهم ذلك الشعب الحر المقدام ، المحب للمغامرة رغم الظروف المعاكسة ـ عندما شاهدوا الدولتين الكبيرتين : الدولة الفارسية والدولة البيزنطية (وهذه الاخيرة قد أخذت آنذاك بالانحطاط ، وتلك كانت تحاول منذ زمن بعيد أن تجد منفذا على البحر الابيض المتوسط) ... يتصارعان فى حروب فتاكة ، ويتطاحنان فى معارك ضارية ، طلبا للمجد الذى لا طائل من ورائه بالنسبة الى الشعبين اللذين دفعا الثمن غاليا ، مما أدى الى كراهية الناس للحكم السائد فى الامبراطوريتين . أضف الى ذلك ظهور دين جديد هو دين الاسلام الذى ما لبث أن وحد القبائل المتفرقة ، المتقاتلة فيما بينها بدافع المصلحة الشخصية ، فجمع شملها بعد أن كانت ذات نظام عشائرى ، وجعلها أمة تدين بمذهب واحد وتؤدى رسالتها على مسرح التاريخ لنشر مبادىء على غاية من البساطة : وهى المساواة والقضاء على عبادة الاصنام مهما كان نوعها ، واقرار مبدأ التضحية بالنفس ، وتحديد السيرة المثلى للانسان ، وهذه المبادىء يقوم بخدمتها ونشرها قوم لا تزال فيهم روح النضال متأججة ، فعملوا على كسر شوكة الامبراطوريتين اللتين سرى فيهما الفساد . ورغم قلة عددهم ، فان العرب استطاعوا بفضل ما لديهم من رجال أكفاء ، وقادة محنكين ، وبفضل خبرتهم فى التجارة والمبادلات ، ودهائهم بالنسبة الى الوضع

الداخلى فى الامبراطوريتين ، استطاعوا رغم قلة عددهم أن يجندوا بين صفوف أمتهم الفتية ، قادة الجيش ، وولاة مقتدرين ، مما جعلهم يحرزون انتصارات باهرة ، بكتائبهم القلية أمام جيوش أعدائهم الجرارة الكاملة العتاد . كما استطاع العرب فى مدة قليلة ، وبفضل فتوحاتهم الجديدة ، أن يتبوأوا مكانة سمحت لهم بالاستفادة من الشعوب السامية والآرامية ، من حيث العادات والتقاليد والتجارب ... ومكنتهم من اقتباس أنماط الفكر والعمل السائدة فى الشرق وفى السواحل السورية من البحر الابيض المتوسط . وهى المنطقة التى ينتمون اليها من قديم الزمان ، ويتعاملون مع أهلها بالتجارة والصنائع البسيطة ، واستقروا بها منذ أن هاجروا من سبأ ، وأصبحوا يمارسون بها نشاطهم ، ويقومون بشعائرهم الدينية ، ويتناقلون أخبار أدبهم الجاهلى .

وهكذا فان الجزيرة العربية رغم عزلتها الجغرافية ، استطاعت منذ أن كانت تسمى أرض العرب السعيدة ، ومنذ أن انضم اليها الشرق العربى ، استطاعت بفضل تجارها والمهاجرين منها النشيطين ، أن تبعث الى منطقة البحر الابيض المتوسط وآسيا وافريقيا وقسم من أوربا ، رسلا جددا ما بين عرب رحل وبدو وحضر ... وأن تنشر لغة كانت منذ القرن الثامن ، خير أداة للحضارة ، وأن تبرهن بأن أهلها العرب والمستعربين يتمتعون بذكاء عملى ممتاز ، اذ أنهم كانوا يتسامحون مع الثقافات الاجنبية ، بل يستفيدون منها ، ويعملون على نشرها ، ويجهدون فكرهم لتعميق الفلسفة والعلوم اليونانية ، وتطعيمها بحضارة أصيلة وأفكار غير معروفة الى ذلك العهد .

وأما من الناحية العسكرية ، فانهم ، بعد ما أخرجوا البيزنطيين من قواعدهم فى المنطقة الشرقية من البحر الابيض المتوسط ، اخذوا يعملون بدون هوادة من أجل السيطرة على الشواطىء المحيطة بهذا البحر . ونحن نعتقد أن هذا الدافع لفتح شمال افريقيا ، وتطويق البحر الى حد مضيق جبل طارق ، بعد ما كان خاضعا لسيطرة الشعوب اللاتينية ، كان لا يقل تأثيرا فى النفوس من دافع الجهاد فى سبيل نشر العقيدة .

ونلاحظ مرة أخرى أن التاريخ يعيد نفسه ، وأن هناك نظاما بسيطا ليس فيه تعقيد فى بداية الامر ، وما لبث هذا النظام أن ارتبط من جديد بالحضارات الام ، فأضاف اليها ما يفيد وينفع وبث بذوره الطيبة فى شواطىء افريقيا ، حيث ترك السابقون الاولون من الفينيقيين آثارهم الروحية التى تتجلى لدى الطبقات الشعبية من بلاد البربر ، فى اللغة والنظرة الى الحياة والعقلية والصنائع ... فى حين أن روما ، بالرغم من أنها شيدت المبانى وعمرت البلاد ، وفتحت الطرق ، لم تستطع مع ذلك أن تؤثر سوى فى الفئات المتمتعة بالامتيازات ، وفى المواطنين الموالين لها ، وفى المثقفين بالثقافة اللاتينية ، وفى الملاك الكبار من الاقطاعيين الموجودين فى امبراطوريتها الافريقية ... وبصورة عامة لم تؤثر سوى فى سكان المدن . ونحن نعلم أن الوندال كانوا ، خلال قرن من الزمان ، أى من حوالى 535 م ، قد خربوا المدن وأحدثوا الاضطراب فى النظام الاجتماعى القديم الذى أخذ ، قبيل وصولهم ، يتميز بالظلم ، فزادوا الطين بلة ، بادخال عوامل الانشقاق الدينى والاضطهاد والثورة . وقد أشرنا على سبيل التلميح الى الفتح البيزنطى الثانى فى 535 م ، ورأينا كيف ان قادة الامبراطورية السفلى الذين عرفوا بالقصور والفساد ، حاولوا أن يجددوا فى الجزائر عهد الرومان المجيد ، ولعل الشعب النوميدى قد وجد آنذاك ، كما حدث له فى عهد انحطاط قرطاجنة ، لعله وجد فرصة للنهوض من كبوته والتحرر من قيود المجتمع البالية القائمة على أساس النظام الطبقى ، وخدمة مصالح الافراد . ولقد كان يتمتع بالحرية ، فاستعاد الجزء الاكبر من تلك الحرية فى عهد الاحتلال البيزنطى . ولذلك لا نستغرب اذا وجدنا البربر يبادرون الى المقاومة عندما دخل العرب شمال افريقيا عام 647 م . وقد كان فتح البلاد طويلا وشاقا ، وذلك ان الشعب النوميدى أصبح يدرك أمام الدمار الذى خلفه الغزاة الاجانب ، والتخريب الذى أحدثه الرومان والوندال والبيزنطيون ، وبعد الفتوحات المتكررة التى جلبت اليه الخير والبركة احيانا ،

وحملت اليه الخراب والعذاب والانحطاط أحيانا أخرى ... أصبح هذا الشعب يدرك أن مصيره مهدد ، وأنه لا بد من استرجاع السيادة المفقودة .

ان المؤرخ بروكوب Procope الذى كان كاتبا للقائد البيزنطى بليزير Belisaire يرى أن شمال افريقيا فقدت خمسة ملايين من سكانها فى عهد يوستينيان Yustinien وحده . ولا شك أن هذا الرقم لا يخلو من مبالغة ، ولكن اذا قبلنا ثلاثة أرباعه فقط وأخذنا بعين الاعتبار معلومات أخرى تساعد على التقدير الدقيق ، فاننا نستطيع أن نتصور كيف كانت الجزائر آنذاك بسبب ما عرفته من محن وأهوال ، وكيف كان أبناؤها يستبسلون للدفاع عن حريتها واستقلالها . ومهما يكن من أمر ، فان الاحداث أخذت تتطور بشكل غير معهود فى تاريخ شمال افريقيا ، حتى ان المؤرخ الفرنسى فليكس جوتيى Felix Gautier قال رغم تحامله الشديد ، بأن دخول العرب الى المغرب ، وما نتج عن ذلك من امتزاج بين الشعوب ، يعتبر من أهم الثورات التى عرفها تاريخ البشرية .

واذا تساءلنا عن الخطوط العامة لتلك الثورة فان النقاط الآتية تقدم ملامحها الرئيسية . ففى سنة 710 م تم نهائيا فتح بلاد البربر وتنظيمه الادارى ، بفضل العمل السياسى والمعنوى ، والى حد ما ، بفضل العمل العسكرى الذى قام به موسى بن نصير الذى أصبح واليا على الاراضى المفتوحة فى افريقيا . ولم تمض الا سنة واحدة حتى تقلد فى 711 م أحد رجال البربر ، وهو طارق ، قيادة الجيش العربى . فأنقذ اسبانيا من سيطرة الفيزيقوط ، وربط مصيرها بالخلافة الاسلامية الجديدة الواسعة التى وصلت آنذاك الى أطراف الهند وتغلغلت فى أعماق آسيا الوسطى . وكانت مقاليد الحكم بيد الدولة الاموية التى اتخذت دمشق عاصمة لها ، فأخذت على عاتقها النهوض بالحالة الاقتصادية وتخفيف الضرائب الباهظة التى فرضها البيزنطيون والفرس ، ووضع نظام سياسى وادارى يتميز بالمرونة والعدل ، بحيث أن رعايا دولتى الفرس والعجم أصبحوا بفضل المساواة التى أقرها الاسلام ، متحررين تماما من الاستغلال والاضطهاد من طرف أعيان العهد البائد وقساوسته وحكامه الظالمين . ونحن ممن لا ينساق للتمجيد الاعمى ، ومع ذلك فلا يسعنا الا أن نلاحظ بأن الاسلام ، سواء فى المشرق أو فى المغرب حل فى قلوب الشعوب المسخرة المستضعفة المتعطشة للعدالة والكرامة ، حل فى قلوبها المكان الذى احتلته المسيحية الاولى فى قلوب العبيد من الامبراطورية الرومانية . وهناك عوامل كثيرة يمكن أن نفسر بها لماذا اعتنق عدد كبير من الاهالى الدين الحنيف ، بسرعة ، وبنية صادقة . ومن جملة تلك العوامل الخلاف بين الناس والصراع بينهم والاضطهاد والالحاد وتعدد المذاهب المسيحية نتيجة الاختلاف فى تأويل العقيدة خلال القرنين الماضيين، وخاصة فى افريقيا ... الا أن أهم تلك العوامل هو أن الظاهرة الاسلامية قائمة على أساس توحيد الامة ورفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى ، وهذا أمر يهم الطبقات المحرومة من الشعب بالدرجة الاولى . وبالاضافة الى ذلك فان مفهوم المواطنية Citoyenneté أصبح عالميا ، وهو خاضع لقوانين خاصة بالامة التى يدها واحدة وكلمتها واحدة ، مما ادى الى صيانة حقوق الناس أجمعين ، حتى الفقراء منهم ، ورفع المظالم عنهم من أى كان ، ولو كان هو الخليفة بالذات . ونحن نعرف كيف كانت افريقيا عندما اعتنق أهلها المسيحية ، وكيف كانت ، الى حد القرن السادس موطن العلماء والشهداء الذين ضحوا بحياتهم فى سبيل الدين . ويقول أحد المؤرخين بأن : « **الكنيسة الافريقية المضطهدة تفتخر برجل مثل القديس سيبريان** St Cyprien . **وعندما انتصرت الكنيسة ارتفع صوت القديس أوغسطينوس يدوى فى جميع الاقطار المسيحية .** » ويضيف هذا المؤرخ قائلا : « **الا أنه لم يكد يمضى قرن حتى اعتنق اغلب المسيحيين الاسلام بحماس دفعهم الى الاستشهاد فى سبيل دينهم .** »

ان السبب فى ذلك هو أن المغرب عندما فتح صدره لهذه العقيدة الروحية السامية التى ليس فيها فضل لاحد على أحد الا بالتقوى ، وليس فيها رئيس ولا مرؤوس ، ولا بابوية ولا كهنوت ، ادرك أهله البربر أن مصير وطنهم أصبح بيدهم . فقد استعادوا استقلالهم المفقود ، نتيجة دخولهم فى

الاسلام . وهذا الدخول فى الاسلام جعلهم فى نفس الوقت يرتبطون بأمة متطورة وشعب أخذ ينهل من حضارات بلاد فارس ومنطقة البحر الابيض المتوسط . ويقتبس الصنائع الفينيقية والفلسفة اليونانية والتشريعات الرومانية ويحيى كنوز حضارة بنى ساسان . ويستخدم لغة جزلة هى خير أداة للتعبير عن الثقافة ، وأحسن وسيلة للتعامل بين الناس ... وربما أمكن القول بأن تلك اللغة هى التى استمالت القلوب الى الدين الحنيف .

وبعد فترة من الحكم المباشر دام أقل من قرن ، وأسهم فيه البربر بنصيب كبير (وطارق بن زياد ، فاتح الاندلس خير مثال على ذلك) ، فان ممالك عديدة نشأت فى أقطار المغرب ... على أن شمال افريقيا ، برقعتها الواسعة الشبجزيرية ، أصبحت مرة أخرى ، من أقصاها الى أقصاها ميدانا فسيحا انطلق فيه ذلك الشعب الذى طالما كتبت طاقاته وقيدت حريته فى العمل والحركة . ان السيطرة العربية الرسمية فى حد ذاتها لم تدم الا بضع عشرات السنين ، لان دول البربر التى انقرضت بعد يوغورطا ويوبا الثانى ، بدأت تتأسس منذ نهاية القرن الثامن ، وتركزت دعائمها فى القرنين التاسع والعاشر وما بعدهما . ويمكن القول بأن تأسيس تلك الممالك تم بكل حرية ، وبقى دائما فى الاطار الذى حدده ملوكها وأولو الامر فيها وشعبها الذى تبنى بدون تحفظ اللغة والقوانين والثقافة العربية الاسلامية ، وأخذ يساهم فى حل القضايا الاجتماعية والاقتصادية ، ويعمل بحسب مقتضيات الخطة العالمية ، ومتطلبات أداء الرسالة الى البشرية جمعاء . وتلك هى المهمة التى نهض بها العرب بعد ما اجتمع شملهم فى أمة ذات حضارة واحدة ، شغلت منطقة البحر الابيض المتوسط ، وجزءا كبيرا من الاقطار النائية فى آسيا .

وقد تعرب البربر من تلقاء انفسهم . والى ذلك يشير جورج مارسى قائلا : « **ان التعرب فى حد ذاته لم يساير فى تطوره الزمنى الدخول فى الاسلام . فتعرب الاهالى لم يحصل عن طريق هجرة أفراد أو مجموعات كبرى من العرب الى تلك المنطقة الواسعة من بلاد البربر ، من أجل تعريبها بشريا ، بل وقع التعرب عن طريق تبنى الاهالى البربر لحضارة جعلتهم على قدم المساواة مع الوافدين العرب . ولا شك أن أعمق عناصر هذه الحضارة وأبعدها تأثيرا ، عنصر اللغة . ان نشر اللغة العربية فى شمال افريقيا ، وكتابة تاريخ البلاد بتلك اللغة يعدان بحق نقطة البداية لعهد جديد .** » . ولم يبق لنا بعد هذا الا أن نقول بأن تلك اللغة قيض الله لها رجالا أفذاذا فى الثقافة والعلم ، وأن الشعب الذى يرجع أصله البعيد ، بما فيه من البدو والحضر ، الى الشرق ، اندمج فيه العرب بالبربر ، وامتزج فيه البربر بالعرب ، فعاشوا فى تلك الاراضى التى شملت المغرب كله أولا ، ثم انحصرت فى الجزائر ثانيا ... فى تلك الارض التى ارتبطت بعلاقات ، عن طريق الفتوحات والمبادلات ، مع اسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا ، وذلك طوال العصور الوسطى والعصور الحديثة ، فأنشأوا حركات فكرية ، وأثروا فى غيرهم من الشعوب ، وقاموا بأعمال ومنجزات اقتصادية واستحدثوا أنماطا من الحياة استطاعت بها بلادنا ان تساهم فى تطور الحضارة العالمية وسيرها الحثيث أو البطىء نحو الرقى والازدهار .

وما ان انتهت فترة الفتح الذى كان القصد منه بالدرجة الاولى القضاء على الحكم البيزنطى ، وما ان بدأ عهد التنظيم السياسى والثقافى ، حتى أخذت الحكومات الوطنية تمسك بمقاليد الامور ، وتستقل عن الخلفاء الامويين والعباسيين المستقرين فى دمشق وبغداد ، لان هؤلاء الخلفاء لم يكونوا يعتبرون الا كممثلين للسلطة الروحية الموحدة لشمل الامة ...

وهكذا أخذت مدن جديدة تنشأ فى الجزائر ، ومدن أخرى تستعيد نشاطها بعد أن هدمها الوندال أو خربتها الفوضى السائدة فى عهد البيزنطيين ... وامتدت عبر الصحراء طرق كثيرة للوصول الى موارد الذهب الافريقى الذى احتكره العرب مدة قرون عدة ، كما أن السفن أخذت تشق البحار وتتجاوز فى رحلاتها البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى .

وهكذا اصبحنا نرى فئة كثيرة من الرحالة

والعلماء والمستكشفين والفاتحين ، سواء منهم البربر المعربون أو المهاجرون من الشرق المختلطون بالبربر ، أو اللاجئون من الاندلس ، أو غير هؤلاء ممن ولد بأرض المغرب الغنية بالرجال العظام ... أصبحنا نرى هؤلاء جميعا يربطون مصيرهم بمصير الامة العربية ، ويتمتعون بجنسية واحدة قوامها التعامل بلغة واحدة ، والانتماء الى حضارة روحية ومادية واحدة ، وينشرون أنوار علومهم في شتى الاقطار .

ويحدثنا بعض المؤرخين من القرن التاسع عشر ، عن نهضة كبرى شبيهة بالحضارة التى ازدهرت فى عهد الرومان ، بل هى أوسع نطاقا ، نظرا للحرية التى أصبح شعب العرب والبربر يتمتع بها ، وللاراضى الشاسعة التى يعيش فيها ذلك الشعب من غير أن يخضع لاى قيد ولا لاية سلطة أجنبية ... فقد أصبحت أراضى المغرب الفسيحة بيد ثلاث دول مستقلة ، ولكنها جميعا منتمية الى نفس الثقافة والحضارة العربية الاسلامية ، وتسود فيها نفس الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، حتى انه تكون من مجموعها ما يشبه العالم المستقل بذاته ، اذ تشمل منطقة البحر الابيض المتوسط والاندلس والشرق الاوسط وبلاد فارس وآسيا الوسطى .

ويقول جورج مارسى فى هذا المجال :

« من الملاحظ أن حضارة هذه الدول الثلاث ازدهرت فى القرن التاسع بثلاثة مدن هى : مدينة القيروان التى بلغت آنذاك الاوج فى الازدهار ، ومدينة تيهرت الواقعة فى السهوب الجزائرية واخذت تنمو فى منطقة خالية من المدن الكبرى ، ووصلت شهرتها الى آسيا . ومدينة فاس التى ما لبثت أن برهنت عن قدرتها على البقاء عبر العصور ... ولا شك ان نمو هذه المدن وغيرها من المدن الاخرى يعد من اهم الاحداث المميزة لازدهار الحضارة . »

وقد انطلقت فيما بعد ، أى فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، انطلقت من الجزائر حركة انبثقت عن انشاء الدولة الفاطمية التى تعد بحق أكثر عهود الحضارة الاسلامية ازدهارا وأصالة . وتوسعت الى تونس والى مصر ، حيث تأسست عاصمتها القاهرة ، والى سورية والى جزء من الجزيرة العربية . ولكن هذه النهضة ان هى الا حلقة من سلسلة طويلة الحلقات ، وعهد من عهود التاريخ عرفت فيه البلاد الرخاء أحيانا والمحنة أحيانا أخرى ... الا أن الجزائر ما فتئت تبرهن خلال مختلف عهود التاريخ عن قدرتها على مسايرة التقدم ، رغم المحن والاهوال . وهكذا نشأت مدن كثيرة ، وبلغت أوج ازدهارها ثم انقرضت ، كقلعة بنى حماد ، وسدراته فى بلاد ميزاب ... كما نشأت مدن أخرى ، وتحولت الى عواصم ، وكثر فيها العلماء والفقهاء والمهندسون المعماريون ، مثل بجاية وعنابة وتلمسان ، فازدهرت بفضلها البلاد كلها . وبذلك نجد فى تاريخ حضارة الجزائر مصداق الكلمة التى قالها لوسيان لوفيبر من أن سر الحضارة كامن فى العلاقة الوطيدة بين **« الطرق والمدن ، والمدن والطرق »** ... كما نجد أيضا فيه مصداق نظريات فرنان برودال حول أهمية أشباه الجزر فى تاريخ الحضارة ، وحول المسيرة التى يحتمها الوضع الجغرافى فى البحر الابيض المتوسط الحافل بالنشاط ، ذلك البحر الذى تتجه اليه الطرق ويتوافد اليه الناس وتتجمع فيه الافكار ، وتصدر من شواطئه البضائع . فالبحر تمخض عن امارات نشيطة وجمهوريات من التجار والقرصان ... والجبل ازدهرت فيه ممالك متمسكة باهداب الشريعة والفضيلة ، وتوسعت أحيانا حتى وصلت الى السهول ... وحتى الصحراء تأسست فيها دول ما لبث القائمون عليها ان الفوا الحياة فى المدن وأصبحوا من العاملين فى سبيل النهوض بالعمران . وهكذا تمضى القرون ولا تنقضى معها تلك الصفحات المشتركة المتنوعة المتجددة باستمرار من تاريخ المغرب النوميدى القديم ، المغرب الذى امتزج فيه العرب والبربر ، واندمج فى الثقافة العربية وأصبح عربيا بلغته ومثله العليا ، مثلما أصبحت مناطق أخرى من العالم ذائبة الى الابد ، بحكم الضرورة والميل الطبيعى ، فى بوتقة الحضارة الاسبانية أو الفرنسية .

(يتبع)

حمدان خوجه ومنهجه في كتابة التاريخ

عبد الحميد زوزو

مميزات الفترة التي عاشها حمدان خوجه

شهدت الفترة التي عاشها حمدان خوجه (75 17 ـ 40 و 1845 م) (1) حدثين خطيرين ، حدثا في بلدين ، اوروبيين ، في وقت متقارب ، وقع اولهما بانجلترة ، وثانيهما بفرنسا ، وبقدر ما اتسم به الاول من تثبت وهدوء بقدر ما كان الثاني عنيفا ومدويا ، وبالرغم من ذلك فلهما خصائص مشتركة كالحدوث في فترة واحدة تقريبا ، أي خلال العقود الاواخر ، من القرن 18 المعروف بقرن « الفلسفة » ، وقابليتهما للوصف بالثورية ، وما اسفر عنهما من نتائج هي في توالد مستمر حتى ايامنا هذه ، وان كانا يختلفان في طبيعتهما ، ذلك أن الاول كان ثورة صناعية اقتصادية أحدثت انقلابا في وسائل الانتاج وطرقه ، وخلقت مقاييس ومفاهيم جديدة . أما الثاني فهو تلك الثـــورة الفرنسية التي امتازت بالقساوة ، والعنف الدموي لتتمكن من هدم أركان مجتمع كانت وطاته عنيفة على السواد الاعظم من الفرنسيين ، وتقوى على ازالـة ما تبقى من ترسبـات القرون الوسـطى ،

واجتثاث جذور الانظمة القديمة الجائرة اجتثاثا كليا . وما قدر لكل هذا أن يحدث لولا ما بشر به الفلاسفة الانجليز فى بداية القرن الثامن عشر عصر الانوار ، وعبادة العقل والتفكير الديمقراطى والحقوق الطبيعية (2) . وغير ذلك من الافكار التى تصدت لنشرها الطبقة المستنيرة (جان جاك روسو ـ منتسكيو ـ فولتير ...) فى اوساط الطبقات المختلفة . كما تصدت لانتقاد الاوضاع القديمة الموروثة . والعمل على ضرورة التغيير ومسايرة العصر باقامة أسس جديدة لصرح مجتمع جديد . فساعدت بذلك على تعميم التوعية . والاعداد للانتفاضات الجماهيرية . فكانت الثورة الفرنسية ذروة هذه الانتفاضات . التى أثبتت مفاهيم جديدة (الحرية ، المساواة ، الاخاء) حلت محل مفاهيم اجتماعية بائدة . كما قضت على خرافة « الحق الالهى المقدس » الذى أقامته أسرة « البوربون » (1589 ـ 1830 م) وتوارثه ملوكها ودعموه .

وباختصار فان تأثير كل من هاتين الثورتين ، لم يقتصر على مكان الحادث ، بل تجاوز نطاق المحلية ليشمل القارة الاوروبية باكملها أولا . ثم غيرها من القارات ثانية .

أو لم تكن شعارات الثورة الفرنسية المذكورة قد هزت عروش ملوك أوروبا وجعلتهم يتنادون . للوقوف فى شكل أحلاف ضدها ، ومضادة من كان يلوح بها . لتحقيق امجاد ومكاسب . فعرف العالم الاوروبى سلسلة من الحروب المتواصلة ، تعرف بحروب الثورة الفرنسية ، أو الحروب النابوليونية لتتحول الى حرب سياسية ، بين الدول المتحالفة ذاتها . كما كان الامر فى مؤتمر فينا (سبتمبر 1714 ـ جوان 1715 م) وفى غيره من المؤتمرات التى اعقبته .

او لم تكن هذه المبادىء قد تفاعلت معها الشعوب الاوروبية . دون ملوكها وأباطرتها . فتحول الصراع بين الملوك وشعوبهم . أو لم تتبلور هذه الشعارات لتأخذ أبعادا اخرى فتخلق مفاهيم جديدة . تجعل الشعوب تعى كنه ذاتيتها وتتعرف على نفسها تدريجيا . طوال القرن التاسع عشر ، فاذا بالتيار القومى يطغى على غيره من التيارات ، فيسمى القرن بقرن القوميات . كما سمى الذى قبله بقرن الفلسفة ، وما قبل هذا الاخير بقرن العلم واستعمال العقل . فتهب الشعوب فى ثورات عارمة . فى كامل مناطق أوروبا بقصد التحرر على « شكل قوة تجمع » أو على شكل « قوة تفتت »(3) وما ساير ذلك من حركات فكرية وفنية أخرى . معبرة عن روح العصر . كالرومانطيقية ، التى عبرت عن خيبة أملها وعدم قدرتها على تفهم روح العصر العقلانى . فتركت مكانها لحركة أخرى واجهت الواقع بواقعيتها ، بعد أن سادت نصف قرن تقريبا . وتركت آثارها فى مختلف أوجه الحياة : الادبية منها والفنية .

أما تأثير الثورة الصناعية فقد كان عاما كذلك . محدثا مشاكل اجتماعية وسياسية . نتجت عنها مذاهب اقتصادية . هى فى تناحر منذ أن ظهرت الى يومنا هذا .

كما تولدت عن الازدهار الصناعى نتائج سياسية كضرورة البحث عن مناطق النفوذ خارج أوروبا لغمرها بالمصنوعات التى عجزت الاسواق المحلية عن استيعابها وجلب المواد الاولية منها ، لضمان استمرارية هذا الازدهار . وتعميرها . بمعمرين ضاقت بهم بلادهم .

تم كل هذا عمليا بتردد وبطء كبيرين ، فى النصف الاول من القرن ـ 19 ـ أما خلال النصف الثانى منه فقد انطلقت الحركة الاستعمارية المباشرة بأقصى سرعة لها . لتكون لنفسها امبراطوريات جديدة من نوع جديد . تغاير امبراطوريات ما بعيد الاكتشافات الجغرافية .

انني اهدف من وراء هذا الاستعراض السريع لاهم الاحداث خلال الفترة التى عاشها حمدان خوجه . وما بعدها بقليل . أن أجعل القارىء يتصور الاطار الكبير ، الذى وضعت فيه هذه الشخصية . كسياسى مدرك للتطورات السياسية والاقتصادية ، وكمؤرخ عارف لمعظم مؤثرات العصر واتجاهات تياراته .

كما وليس فى امكان أى شخص . خاصة فى عصر مثل عصر حمدان خوجه أن يكون فى مستوى هذا الفهم . الا اذا أعد اعدادا خاصا . وتهيأت له ظروف اجتماعية ومادية .

المستوى الاجتماعي لحمدان خوجه

ولد حمدان خوجه بالجزائر سنة 1775 م ، من عائلة ذات مكانة اجتماعية عالية (4) . في مجتمع يتأثر بكثير من الاعتبارات والمقاييس تبعا للعناصر المكونة له ، كالعرب والكراغلة واليهود والاتراك والقبائل ، تتجلى هذه المكانة العالية سواء في الوظائف ، التي تولاها ، كل من أبيه وعمه ، ثم هو ، من بعدهما أو فيما كانت تملكه هذه العائلة من أملاك بالجزائر العاصمة وضواحيها (5) ، وأي مقياس غير هذين المقياسين ، يصلح لقياس المستوى الاجتماعي لدى فرد من الافراد .

كان أبوه كاتبا أول للدولة ورئيسا للكتبة ، شغل منصب « المكتوبجي » وهو « ... من أخطر المناصب في الدولة ، اذ هو في مستوى شيخ الاسلام ، أهمية واعتبارا ، يستشار في كل الظروف والمناسبات ، من جانب الداي ، وبذلك كان اتساع معارفه التشريعية مطلوبا ... ونظرا لاهميته ينعم عليه بلقب « افندي » الذي يختص به عادة ، الداي والمفتي . » (5) .

كما كان عمه موظفا ساميا في الدولة شغل منصب أمين السكة « أي أمين بيت المال ، وكلف بسفارة سنة 1784 م الى الباب العالي ، لتسليمه الهدية التقليدية ، وليس هذا التكليف بالامر الهين لان تسليم الهدية ، يتبعه احتمال تسليم مقابل للفرمان ، أو وعود بتقديم مساعدات مختلفة للنيابة ، لذلك كانت الدقة في الاختيار ، لتولى أمر هذه السفارة ، تتناسب مع الكفاءة والمكانة ، التي تجلت في أكثر من مناسبة ، كالتي كان حمدان خوجه وعمه موضع حفاوة واكرام ، عند توقفهما بتونس ، سنة 1801 م ، عائدين الى الجزائر من قبل حموده باشا (1782 ـ 1814 م) ورئيس وزرائه ، وتشكى هذا الاخير لهما من بعض تصرفات الجزائريين (7) وتكليف حمدان خوجه باعباء أخرى أثناء عملية الاحتلال ، وبعدها ، هذا من ناحية .

أما فيما هو من شأن الاملاك فحمدان خوجه يذكر ذلك بنفسه فيقول : « على أن أصرح بملكيتي لقطعة كبيرة من الارض كافية ، من هذا السهل توارثناها أبا عن جد » (8) ثم يقول : « فأنا ملاك لاملاك بسهل متيجة يقدر ما أبذره بهذا السهل سنويا 160 حمولة ابل من قمح وما بين 100 و 120 حمولة من شعير » (9) ، يتضح لنا اذن بمقارنة مقدار الحبوب التي تبذر سنويا بمدى اتساع الاراضي التي توارثها أفراد هذه العائلة التي تغلب الظن أنها من أصل العنصر العربي ، ومن طبقة اجتماعية حضرية (10) ، وان كان يخالف في ذلك البعض من الكتاب الذين اهتموا بهذه الشخصية .

ولربما كان هذا الرأي الاول صحيحا ، لما يذهب اليه حمدان خوجه من أن الكراغلة قد ابعدوا عن الحكم ، وتولية المناصب الهامة في الدولة ، بعد ثورتهم سنة 1830 م ، ثم يضعف هذا الرأي عندما يذكر ، بأن تسامح الدايات المتأخرين ، والداي حسين منهم بصفة خاصة ، قد فتح المناصب العليا في وجه هذه الطبقة ، وقد تولى منهم الحاج أحمد باي قسنطينة (11) .

وعلى أي حال فسواء أكان حمدان خوجه من طبقة الكراغلة ، أو من طبقة العرب ، فهو مدين لهذا الوسط ، مدين له بالتكوين الذي أحرز عليه ، والمكانة التي تبوأها ، ومكنته من القيام بالدور الذي لعبه في فترة ما قبل وما بعد الاحتلال . اذ لولا هذه الامكانيات الاجتماعية والمادية لما استطاع أن يطوف بكثير من بلدان الغرب والشرق .

كانت سفرته الاولى الى (اسلام بول) مع عمه أمين السكة ، ولما يتجاوز التاسعة من عمره ، ويبدو أنه لبث طويلا خارج الجزائر ، ولم يعد اليها الا في سنة 1801 م مارا بتونس كما سبقت الاشارة الى ذلك (12) وزار خلال هذه المدة ، الشرق الادنى ، والبلقان . وفي حدود سنة 1820 زار فرنسا حيث تعلم اللغة الفرنسية ، ورأى لويس فيليب (ملك الفرنسيين فيما بعد) مع عائلته (13) . « ولم يكن حمدان خوجه متغافلا في اسفاره ... بل كان يزور المصانع والمتاجر ... ويتجسس على المعسكرات ويتحسس على الادارات » (14) .

فمثل هذه الاحتكاكات والاسفار ، لمختلف الدول الاوروبية ، كاليونان وبلجيكا وفرنسا وسويسرا وانجلترا (15) ، وغيرها ... قد مكنته من المشاهدة العينية ، ودراسة الحالات الاجتماعية

لهذه الشعوب ، والوقوف على سر الاحداث التى كانت تمر بها اوروبا فى هذه الفترة .

امـــا مقومات شخصيته الاولى فهى ثقافتـــه التشريعية ، التى اخذها عن أبيه الذى كان استاذا لهذه المادة ، كما يتممها من مواد أخرى ، كالاصول والمنطق والفلسفة والتاريخ والطب (16) ، ونظمه القليل للشعر (17) . وعلى العموم فان ثقافـــة حمدان خوجه هى ثقافة كلاسيكية بحيث أنه آخذ بطرف كل المواد المذكورة ، ولعل الشىء الذى ميزه عن الكلاسيكيين هو حذقه لاكثر من لغة واحدة ، كمعرفته للغة الفرنسية ، وان كان لا يستعملها فى المواقف الدقيقة التى تتطلب السيطرة الكاملة على جزئياتها وأسرار أساليبها ، فكان يفضل فى مثل هذه الظروف الاستعانة بمترجم ليترجـــم أفكاره ويوضح آراءه ، كما فعل عندما مثل أمـام اللجنة الافريقية (18) ، أما اتقانه للغة التركية فلا جدال فيه ، وترجمته لكتابـه « اتحـــاف المنصفين » لدليل على ذلك ، ولو كان الامر كذلك بالنسبة للغة الفرنسية ، لتكلف هو نفسه بكتابة المرآة ، أو ترجمتها الى اللغـــة الفرنسية بدون مساعدة شخص آخر ، ثم هو يقول فى مكان آخر بأنه كان يعرف هذه اللغة كمعرفة دوفال للغة التركية . فمعرفته بهاتـين اللغتين المنتشرتين ، بانتشار السيطرة العثمانيـــة الواسعة بالشرق والنفوذ الفرنسى الواسع فى الغرب ، قد مكنتاه ، من الاطلاع على ما يجرى فى هاتين الامبراطوريتين .

انتاج حمدان خوجه ومحتوى كتبه

لحمــــدان خوجـــه كتب مختلفة المواضيع ، كالسياسية والتاريخية والفقهية والعلمية ، وأشهر كتبه على الاطلاق كتابه :

(1) لمحة تاريخية واحصائية عن نيابة الجزائر المعروف (بالمرآة) لسيدى / حمدان بن عثمان خوجـــه ابن كاتب الدولة السابق (المكالاجى) لنيابة الجزائر ترجمه عن الفرنسية ج ... د ... الشرقى .

وفى الصفحة الاولى هذه العبارات (لبن جمال كونستان) الفيلسوف الفرنسى « عندما تتمكن الانانية من الاطاحة بالطغيان ، فهى لا تهتم الا باقتسام غنيمة الطاغى » (19) الجزء الاول — مطبعة ابناء كوتشى وشركاؤه — نهج لوى لوجران — رقم 35 — 1833 م .

أى أن كتاب المرآة قد طبـع فى باريس فى أكتوبر سنة 1833 م بعد ان أتمه صاحبه فى شهر جويليه (20) .

كما يظهر من الصفحة الاولى للكتـــاب ، فـان النسخة المتداولـة الآن ترجمت من العربيـــة الى الفرنسية ، بقلم حسونة دغيز الطرابلسى ، كما رمز الى ذلك . أمـــا النسخة الاصلية فما زالت مفقودة (21) وعلى أى حال فمن المؤكد أن النسخة الاصلية العربية تغاير النسخة الفرنسية ، ولو شكليا ، فعبارة « بن جمان » قد لا تكون موجودة فى النسخة العربية ، كما يمكن جدا أن تكـــون الاشكال الممثلة للخيام ، التى أعلن عنهـــا فى النسخة الفرنسية بأنها ستنشر فى آخر الكتاب ، ثم اعتذر صاحبها عن نشرها فى الاخير ، مثبتة فى الاصل ، الى غير ذلك من اختــلاف فى الاساليب ومدلولات بعض الكلمات ، كترجمة كلمة « سبع » وهى عربية تعنى كل حيـــوان مفترس ، بعبارة « أسد » وكلمة سلطان بـ « الامبراطور » واطلاق كلمة « الجزائريين » على سكان مدينة الجـــزائر العاصمة .

ويظهر على اخراج الكتاب بدون صور ، طابع العجالة ، حتى يكون فى حوزة القراء الفرنسيين للاطلاع على الحقيقة فى الوقت الذى تكون فيـــه اللجنة بصدد التحقيق ، فى أوضاع الجزائر .

والنسخة المتداولة تنقسم الى كتابين . الكتاب الاول يتضمن فصولا عددها ثلاثة عشر ، مسبوقة بمقدمة (22) . وفيها يذكر الاسباب التى دفعته الى إخراج هذا الكتاب وذلك حسب قوله للحالة الشاذة التى يعانى منها هذا الشعب ، كما دفعه الى ذلك اظهار الحقيقة التى تغافل عنها سابقوه فى الكتابة ، فى هذا الموضوع ، ويذكر بأن لسكان الجزائر ، مثــل ما للشعوب الاخـرى عـادات ، وتقاليد ...

أما مضمون الفصل الاول من الكتاب الاول فعن أصل بدو الجـزائر ، ويصنفهم الى صنفـين ،

يختلفان عن بعضهما . وهما بدو السهول من أصل عربي وبدو الجبال . وهم من أصل بربري . والفرق بينهما واضح في اللسان المستعمل لدى كل صنف . كما يتعرض لاصول نشأة فكرة « تقديس الاولياء » عند البربر . فيضرب مثالا بسيدي علي بن عيسى تلميذ محمد بن عبدالرحمن المتوفى بالقرن الثامن عشر . ويستحسن حمدان خوجه مثل وجود هذا المعتقد في الاولياء من طرف السكان ، وخاصة في مجتمع تقوم أسسه على النظام القبلي(23).

وفي الفصل الثاني ، المعنون « بطبائع وعرف البربر » يصف بعض الالبسة التي اعتاد البربري أن يرتديها . مثل : « القندوره » وهو يصف هذا الثوب وصفا دقيقا ليصوره للقارىء . فيقول : « ان هذا الثوب عبارة على قماش من صوف اشبه ما يكون بكيس مثقوب من الوسط . ليتمكن الانسان من ادخال رأسه عند ارتيداد الثوب . وبه فتحتان جانبيتان . لاخراج اليدين أما طوله فحتى الركبتين ... فاذا قدر وأصابه بلل . فان الثوب يطلق رائحة كريهة ، من كون الصوف لم تنظف تنظيفا كاملا ، قبل أن يصنع منها الثوب . فيكون وزنه ثقيلا . أما أغنياء القوم فلهم برانس هي بمثابة معاطف . ولم يصف الثوب الاخير . لكونه معروفا باوروبا ... ويبقى البربري مرتديا لهذا الثوب الوحيد طوال حياته . فاذا ما أصابه خرق رقعه لانه لباس العمر الوحيد . يلبس شتاء وصيفا . وفي يوم الصحو والمطر . » .

ثم يصف الحائك عند المرأة وهو كذلك مصنوع من الصوف ، لكن حواشيه مطرزة بألوان زاهية . والمترفات من النساء يربطن رؤوسهن بمناديل أو بقطع قماشية ... أما الاولاد فيبقون عراة ، ماداموا لم يصلوا سن البلوغ .

والانقاء من الرجال يضعون على رؤوسهم « شواشي » لان ذلك من باب الاناقة . وبحكم أن الشاشية لا تنزع من مكانها الا بعد مدة طويلة . فان لونها الابيض يتحول الى لون أسود من كثرة الغبار والعرق . أما نعالهم فهي خفاف من جلد الماعز يشبه الخفاف التي كان ينتعلها الرومان . وثيابهم تستعمل للباس . وتؤدي دور الوسادة عند النوم . أما أغلبيتهم فينامون على الارض كما تنام أقليتهم على الاحصرة . بعيدين عن بعضهم صيفا ومجتمعين حول موقد نار شتاء . ومآكلهم الشعير وزيت الزيتون والتين والبلوط ، أما لحوم الطير والحيوانات فأكلهم لها قليل ، اللهم الا في مناسبات . كمناسبة نزول ضيف عندهم . فتكون تلك مناسبة لدعوة الجيران . لهذه الوليمة . أما الاولاد فما أعظم فرحتهم في مثل هذه المناسبة .

الفصل الثالث . تابع لطبائع وعرف البربر . وفيه يصف مساكن السكان والمواد التي أقيمت منها ، وطريقة حياتهم بها ، فهي مساكن لا أثر فيها لأي أثاث الا من الضروريات . كقربة الماء . والتين اليابس . والحبوب . والاسلحة النارية للدفاع . يذكر في هذا الفصل الاهتمام بصناعة الاسلحة النارية لوجود بعض مناجم الرصاص في مناطق مختلفة (24) . وسك العملة ... وينتهي الى القول بأن ما يورده ليس تاريخا مفصلا ، وانما مجرد محاولة لاعطاء فكرة فقط ، عن البلاد وسكانها ثم ينتهي من الفصل ليحكم في الاخير بأن هؤلاء عبارة عن أناس رحل لا يختلفون عن الوحوش . وبذلك يعتقد أنه من الصعب على فرنسا . وليس في مقدورها . ولا في مقدور غيرها من القوى الاخرى أن تخضعهم . وهذا الاستيلاء غير جدير بعظمة فرنسا لانها تملك من الامكانيات البشرية والمالية ما يغنيها عن كل ذلك ... ويتساءل عن الفائدة التي ترمي اليها فرنسا من وراء اتلاف أموالها . واراقة دماء جنودها والتعرض للمهالك التي يسببها جو البلاد ومناخها . أفمن أجل ابادة السكان أم بنية امتلاك صحاري جدباء ؟ .

الفصل الرابع سكان السهل . طباعهم وعرفهم ، يتعرض فيه لطبائع سكان التل ، ولطريقتهم الاجتماعية في الحياة من حيث الالبسة . وتملك الحيوانات . ونوع المساكن . ثم ينتقل الى الحديث عن حياة سكان الصحراء كما سمعها من غيره لانه لم يشاهدها . ثم يروي النزعات المختلفة . لبعض المشيخات الصحراوية ، في الفترة الاولى للاحتلال . التي برزت في الصراع بين أحمد باي المتغلب في الاخير ، على ابراهيم باي وقريبه الشيخ فرحات . ويذكر في هذا الفصل . فروسية أهل الصحراء . والمخاطر الطبيعية لهذه المنطقة وهي في نظره من أهم المناطق بالنسبة للايالة .

خلافا لما يدعيه غيره من الكتاب الذين هم من أهل السيف لا من أهل القلم .

الفصل الخامس عن منطقة متيجة ، وعادات أهلها وتقاليدهم .

يرد على القائلين بصلاحية هذه المنطقة ، بذكر مساوئها الصحية ، والانتاجية ، والاجتماعية ، ويشير الى مصلح القليعة ، وما أعقب سجنه من فقر ونقصان في المواد ، وسخط شعبي وثورة نفسية ... وبالرغم من ذلك فان روفيقو يطالب السكان بدفع الضرائب ، كما كان هؤلاء يدفعونها في عهد الاتراك ، بينما كان السكان يفعلون ذلك في عهد الاتراك بمحض ارادتهم ، لانه كان عهد ازدهار تجاري وأمن ، أما العهد الحالي فهو عهد فتن وقلاقل ، واذا ما دفع السكان الضرائب فذلك خوفا من بطش روفيقو .

الفصل السادس ، سكان القسم الغربي حول تلمسان ، وسكانها ومكانتها التاريخية ، والاحداث التي حدثت بين العرب والاتراك ، وحسم الخلافات في الاخير ، بعد جلاء النفوذ المغربي وتشكيل هيأة حكومية حاكمة . وهذه الصور يعرضها مأخوذة عن غيره — من الجزائريين القاطنين بتطوان ، ومدن أخرى بالمغرب الاقصى — ويذكر اهمية تلمسان كمركز تجاري نشيط ، لا بالمنطقة الغربية فحسب بل حتى بالنسبة للمغرب واواسط افريقيا ، اذا ما اعتنى بها ، ويشير باختصار الى مناخ وعرف سكان المدية ، ومليانة ، ووهران ، مدينة الرخاء والتجارة التي حلت محل مدينة معسكر (27) . ثم يرجع الى ذكر المدية ، وبعض الحوادث التي وقعت فيها كخيبة «بارتوزان» في حملته على المدية ، واسر صهره ، وينهي الفصل برسم حدود الولاية الغربية فيقول : بانها تمتد من مليانة حتى وجدة .

الفصل السابع ، حول الجزائر .

سكان مدينة الجزائر ، خليط من الاندلسيين والاتراك ، والعرب ، والقبائل ، والصنفان الاخيران أقلية ، تكون على مر الايام ، من امتزاج هذه العناصر ، سكان الجزائر العاصمة الذين يمتازون بالمسالمة والوفاء بالوعد ، وبروح التعامل الجماعي ، والنشاط للكسب ، ودفع الاحتياج ، لان الاسلام يدعو للقيام بالمعروف ، والمعروف لا يأتي من المعوز ، لذلك ترى نشاطهم يزداد في طلب الرزق ، وهم الى جانب ما يتحلون به من الاخلاق الفاضلة ، كاحترام الجار وتقديم المساعدة له . يمتازون بحذقهم لكثير من الصناعات ، كصناعة مختلف الالبسة . وحظهم من الذكاء والثقافة وافر ، فكان منهم الشعراء ، والعلماء ، والادباء ، والاساتذة وان امتزاج العنصر التركي والاندلسي ، في نظره ، قد تولد عنه جنس متفوق ، سليم ، من شتى الامراض .

الفصل الثامن ، في أصول الحكم التركي ، ومختلف تنظيماته ، ثم تأتي الفصول الاخرى حتى ينتهي الكتاب ، وكلها فصول تتناول تنظيمات مختلفة لأجهزة الدولة ، كالتنظيم العسكري والديوان ، وعن الحكم التركي ، منذ دخولهم الى الجزائر ، حتى بداية الانحطاط ، الذى حدد بدايته بسنة 1791 م ، ويستمر حتى ولاية حسين داي ، ويتعرض لاسباب هذا الانحطاط وعن بعض الثورات ، والحملات ضد تونس .

أما الكتاب الثاني ، فيتناول فترة الاحتلال الفرنسي في عهد دوبورمان ، و كلوزيل ، و روفيقو (28) .

أما مكملات كتاب المرآة فهي :

1 — الرسالة التي ارفقها بالمذكرة ، وبعث بها الى اللجنة الافريقية التي كلفت بدراسة أوضاع الجزائر عن قرب ، وتقديم تقرير الى الحكومة الفرنسية تتخذ على ضوئه قرارا بالانسحاب من الجزائر ، أو البقاء بها ، فدام مكوث اللجنة حوالي ثلاثة أشهر بالجزائر ، من 2 سبتمبر 1833 الى 9 نوفمبر 1833 م (29) .

والرسالة » يناشد فيها حمدان خوجة اللجنة الافريقية باسم المحبة الانسانية ويستعطفها باسم العدالة ، أن تكون غير منحازة في أحكامها ، عادلة في تقاريرها ، ناظرة الى الجزائريين بمنظار العاطفة نظرا لما يعانونه من ألم القهر والضغط ، وان ترق لحالهم وتعاستهم . فبهذه النظرة — على حد آمال حمدان خوجة — يحظى الجزائريون ، كما حظى من قبلهم اليونان والبلجيكيون بمساعدة وعطف فرنسا ، فيرون (أي أعضاء اللجنة) ما كان يراه

حمدان خوجة من كون « ليس هناك أي حل سوى تغيير الوضع لاستعادة النظام ، وميلاد ثقة جديدة » (30)

اما المذكرة ، فهي مختصر لكتاب المرآة بعث بها حمدان خوجة مع الرسالة الى اللجنة الافريقية (31) وهي موجودة بباريس بالمحفوظات الوطنية تحت رقم ف 9.80 (32) .

3 — تم لحمدان خوجة نشرة أخرى تحت عنوان « الرد على تفنيد كتاب حمدان خوجة » . والمقال نشرته مجلة
Extrait de l'Observateur des Tribunaux

صدر هذا المقال في 25 جويلية 1834 بالفرنسية وممضى بالعربية كرد على من دحض كتاب المرآة بمقال ، في نفس المجلة ، وبنفس السنة ، والمرجح أنه كلوزبل .

4 — كتابه « رسالة اتحاف المنصفين ، والادباء بمباحث الاحتراز عن الوباء » (33) من تحقيق الاستاذ ابن عبد الكريم ، وفيه ينصح حمدان خوجة بالاخذ ببعض مظاهر التقدم الاوروبي ، كنظام « الكرنتينة » (العزلة الاربعينية) ، والكتاب مترجم عن الاصل العربي ، الى التركية ، بقلم الكاتب نفسه ، ومن هذا الكتاب نسخة تحت رقم 56 24 بالمكتبة الوطنية بباريس (34) .

5 — وله رسالة أخرى شخصية بعث بها من لندن ، الى أستاذه محمد بن علي في الجزائر (35).

6 — حكمة العارف بوجه ينفع ، المسألة ليس في الامكان أبدع مخطوط بالقسطنطينية 1836 م (36) .

المصادر التي اعتمد عليها حمدان خوجة واهميتها بالنسبة للكتابة التاريخية .

ان مؤلفات حمدان خوجة ، مختلفة المواضيع التاريخية (المرآة) والسياسة (المراسلات، والرسالة والمذكرة) والعلمية (اتحاف النصفين) لتعد مصادر أولى للمؤرخ الباحث وللمتتبع لمؤثرات العصر ، في روح الكتابة والاتجاهات المختلفة ، التي سادت الفترة التي عاصرها أو سبقته ، وتناولها بالكتابة وذلك لكونه استند هو نفسه ، على مصادر ، من الدرجة الاولى وهي :

ا — المشاهدة المباشرة وهي الاساس الذي اعتمده حمدان خوجة في كتابته «للمرآة» وكذلك لكتابته «اتحاف المنصفين» ، ويصفها هو نفسه بالوثائق لانه في الوقت الذي تكونت لديه فكرة الكتابة عن الجزائر ، زار مناطق داخلية ، لهذه الاخيرة ، لم يكن قد زارها قبل الاحتلال ، ليتأكد من صحة ما سيكتبه ، فيقول بالنص : «لو لم أكن متخوفا ، ومتألما من وضعية بلدي البئيس بالاضافة الى المتاعب التي سببتها لي شيخوختي ، لجمعت مزيدا من عجيب الوثائق (ويقصد المعلومات) ، حول هذه المنطقة من افريقيا ، (37) ، اذن يدرك بنفسه أهمية المشاهدة المباشرة في الكتابة التاريخية ، ويعتبرها من باب الوثائق ، وحتى في كتابه اتحاف المنصفين ، عند ما ينصح بتطبيق نظام «الكرنتينة» يصف ما شاهده خلال أسفاره ، وخضوعه لمثل هذه الانظمة المعمول بها في أوروبا .

ب — الاخذ عن الثقاة (38) ومن ذوي المكانة المباشرين لاعمالهم كالبايات مثلا ، فكثيرا ما يصرح بأنه لم يشاهد ما رواه بنفسه وانما أخذه عن غيره من الثقاة ، كما هو الحال بالنسبة لسكان الصحراء فيقول : «أما بالنسبة لسكان الصحراء فاني لم أقم بزيارة هذه المنطقة بنفسي وانما تحصلت عن أخبارهم واحوال المنطقة ، من أشخاص ذوي ثقة » (39) .

ويقول في موضع آخر عند ما يتعرض لرسم حدود ولاية الغرب « ان هذه الجزئيات قد أخذتها عن باي تولى ادارة ولاية وهران ثم قسنطينة » ، وكذلك في شأن مؤسسة بوشناق، وبكري ، اللذين كانا أصل مشكل النزاع الفرنسي الجزائري ، فيقول : « لقد أخذت عن هذا الشريك نفسه هذه المعلومات » (40) ، ويقصد النزاع الذي تحول بين الشركاء الثلاثة عند ما تضخم ربحهم ، والامثلة على اسناد الاحداث الى رواتها كثيرة ، في كتاب المرآة .

أما قيمة محتوى كتبه تاريخيا فتتضح بعد استعراض الاعتبارات التالية :

أ — ان وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد الجزائرية في مختلف مناطقها ، والاحداث التي عاصرها ، تظهر واضحة للقارىء منفصلة عن الاحكام التي يوردها في نهاية كل فصل تقريبا ، وهذه الاخيرة تدخل في نطاق الاستنتاج والتنبىء

بما سيقع من أحداث ، وبالتالى تدخل فى نطاق الاغراض التى كتب من اجلها كتاب المرآة .

ب ـ بناء على ما ذكر آنفا من ان الاغراض غير الحقائق التاريخية ، فليس من المنطق فى شىء أن لا نصدق أو أن لا نعتقد بصحة ما كتبه شخص شاهد الاحداث عن قرب ، وشارك فى تسيير اتجاهاتها نظرا لمكانته فى الدولة والمجتمع معا .

ج ـ توافق ما كتبه حمدان خوجة فى فترة الاحتلال عن تصرفات الجيش الفرنسى ، بما كتبه غيره من الكتاب الفرنسيين المعاصرين للاحداث من امثال : بيشون ، وبروسارد ، حول كثير من الاشياء . أما ما يرويه عن الفترة التى لم يشاهدها كنظام الدولة فى القرن السابع عشر ، ونظام الميليشيا ، وثورة الكورغلان ، وخضوع الحكام لرجال الميليشيا ، فيذكرها مشاهدو هذه الاحداث ، فى كتبهم بنفس الدقة التى رواها حمدان خوجة (41) .

د ـ دام وصف حمدان خوجة للعادات والتقاليد المختلفة لسكان الجزائر من بدو وحضر وصفا دقيقا (42) ، وما دمنا لانزال نشاهد نفس هذه التقاليد والعادات ، فلماذا لا نقيس صحة هذه الاشياء على غيرها من الحوادث الاخرى ؟

هـ ـ وحتى ما كان من باب الاستنتاج بالنسبة لحمدان خوجة ، من ان هؤلاء السكان ، هم أشبه ما يكونون بالوحوش ، ويصعب على فرنسا وعلى غيرها أن تخضعهم ، فقد برهنت الايام بصحة هذه النظرية التى تجسمت فى مقاومة الامير عبد القادر وبوبغلة ، وغيرهما ...

و ـ كما يمكننا أن نحكم بصحة أخباره من صراحته التى يقسو فيها على بعض العسكريين لما ارتكبوه من وحشية، والاشادة بأخلاق الآخرين كالجنرال (لويردو) رجل الشرف والعقلية المثيرة للاعجاب ، والجدير بالانتساب الى الامة العظمى» .

ز ـ كما ان ذكره لجميع التصرفات اللاانسانية قد صاغها فى شكل وثائق ، ومذكرات ، للحكومة الفرنسية على مستوى عال ، وليس من المعقول أن تخلو هذه الاشياء من أساس ، يستند هو عليه (43) .

ح ـ تأجيل اخراج كتابه «المرآة» على أمل وقوع اصلاحات ، أو تغيير لصالح الجزائريين ، حتى على حد قوله : يرصع كتابه بها .

ط ـ اعتراف اللجنة الافريقية ، ذاتها ، بخرق الحكام العسكريين للمعاهدات واقرارها كثيرا من تصرفاتهم ، التى ندد بها ، حمدان خوجة (44) .

الغرض من كتابة كتبه والطريقة التى سلكها :

لقد كتب حمدان خوجة المرآة الى قراء فرنسيين من الشعب الفرنسى ، ولم يكتبها ليقرأها بنو وطنه كما كتب ذلك الى الرسميين فى الحكومة الفرنسية مختصره « المذكرة » التى بعث بنسخة منها الى اللجنة الافريقية (45) لأسباب أشار هو اليها من بينها أن «كثيرا من الكتاب ولو أنهم نشروا كتبا حول الجزائر ، فمعظمهم لم يتناول الموضوع بكتابته ، الا من زاويته المادية (46) ، كما دفعه الى ذلك «الرغبة فى القيام بأعباء مهمة المؤرخ الحقيقى بمنتهى الصراحة ، هذه المهمة التى لم تجد جرأة لدى أى واحد من كتاب تاريخ نيابة الجزائر لاظهارها » (47) .

وليس من المستبعد أن تكون أغراض أخرى لدى حمدان خوجة من وراء كتابته المرآة الذى نشره بباريس ، كالتأثير على الشعب الفرنسى والحكومة معا .

أما التأثير على الشعب فكان بطريقة سرد صور للتصرفات الوحشية ، التى كان يتعرض لها الشعب الجزائرى من طرف العسكريين كالقتل الجماعى والابادة والتشريد والمطاردة ، فهو بذلك يشبه ، حالة الشعب اليونانى الذى ، عانى من مذابح العثمانيين ، وذلك لاثارة عواطف الفرنسيين والهاب مشاعرهم ، وجعلهم يستنكرون مثل هذه الاعمال ، فيضغطون على حكومتهم بطريقة المظاهرات أو الاحتجاجات ، ويشير الى أن « قضية الجزائر قضية خطيرة ، ما دامت تتعلق بحياة أمة » (48) هذه الامة التى لها مقومات شخصيتها ، كالدين والعادات واللغة والتقاليد (49) ، اذن فهى أمة يحق لها ، أن تتمتع بسيادتها لما لها من عناصر ، تميزها عن غيرها كما كان الامر بالنسبة لليونان الذين حظوا بالتأييد للانفصال عن الدولة العثمانية، وبالنسبة للبلجيكيين الذين لعبت مبادىء دينية ، وسياسية دورها فى فصمهم عن الهولنديين ، وأن الشعوب المتشبعة بالحرية لتتطلع الى اليوم الذى

ترى فيه بولندا قـد استرجعت سيادتها (50) وبالطريقة العاطفية الرومنطقية التى يعبر بهـا حمدان خوجه عن مآسيه نتيجة ، ما تعانيه بلاده من آلام الاحتلال ، كقوله : « ان ما يرسف فيه وطنى كان يقلقنى باستمرار ، وكثيرا ما كنت خلال تسجيلى لهذه التعاسة ، أضع القلم ، لاترك دموعى تنهمر » (51) ، يعكس تيار العصر الذى ساد خلال هذه الفترة والذى كان مزيجا من الحركتين الرومنطقية والقومية ، هاتان الحركتان اللتان سادتا مختلف الدول الاوروبية ، والتى كانت بهما شعوب هذه الدول شديدة الحساسية ، فهو بذلك يريد أن يدخل الجزائر ، فى هذا الاطار لعلها ، تحظى بشىء من حساسية الشعوب الاوروبية .

اما محاولة تأثيره على الحكومة فهـو الى جانب الاسلوب النفسى الذى استعمله فى مخاطبـة مسؤولى الحكومة الفرنسية ، على مختلف مستوياتهم كالتماسه من الملك « لوى فيليب » بفعل شىء حتى لا يعانى (أى لوى فيليب) من قساوة التاريخ ، لان هذه الاعمال التعسفية قد حدثت فى عهده(52). وكذلك مخاطبته لاعضاء اللجنة الافريقية بكونهم ممثلى شعب فرنسا ، المتشبع بافكار الحـرية ، وبكونهم ينتمون الى دولة لها عظمتها ودورها فى مناصرة قضايا القومية ، والحرية (53) وعلاوة على هذا فهو يستعمل أسلوب التخويف ، باظهـاره شتى المصاعب التى ستتعرض لها فرنسا ، كاحتمال مواجهتها ، مقاومة الاهالى ، أو بدو الجبال الذين لا تقدر فرنسا ولا غيرها على اخضاعهم (54) وأن لهؤلاء من امكانيات الفروسية ، والقدرة على تجييش عدد لا يستهان به عند الحاجة (55) ، بالاضافة الى مخاطر الصحراء ، التى يعجز عن السير فيها كل غريب عنها ، مع ما فيها من حيات متنوعة قاتلة لا يعرف سر تجنبها ، الا من ألف حياة الصحراء(56). ومع ذلك فهى من أهم مناطق الايـالة أهمية ، بالنسبة للبـلاد اقتصاديا ، فى نظـر حمـدان خوجه (57) .

ويصر على أن يقلع من ذهن قارئه فكرة صلاحية الجزائر للاستعمار نظرا ، لسهولها ، الساحليـة الواسعة ، فينفى ذلك حمدان ويؤكد بأنها أشد مناطق البلاد خطرا ، وأردأها انتاجا ، فهى مصدر للامراض المختلفة ، نظرا لانتشار المستنقعات فيها، وانتاجها من الحبوب رديء الطعم (58) . وتتضح فكرة حمدان خوجه هذه فى قوله : « ان احتلال البلاد عديم الجدوى لفرنسا ، بالنسبة لامكانياتها الطبيعية والبشرية » (59) .

يكون حمدان خوجه اذن قد قصد ببعض ما أورده تزهيد فرنسا فى الجزائر ، واضعاف لديها نسبة احتمال بقائها فيها ، ما دامت محفوفة باخطارها الطبيعية ، ومكتظة بسكانها البالغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة ، الغير القابلين للخضوع بالمرة . وان كانوا قد رضوا بالحكم التركى فذلك راجـع الى سياسة اللين التى سلكها الاتراك ، معهم ، مستغلا الفكرة السائدة فى هذه الفترة ، ومفادها ، أن الاستعمار المباشر ، عديم الجدوى وخاصة بالنسبة لفرنسا التى كانت ، فى تردد ، وحـيرة بشأن الجزائر ، وخير لها أن تدخل فى مفاوضات وعقد اتفاقيات لصالح البلدين ، على غرار ، ما هو قائـم بمصر ، ويتحدى حمدان خوجه (وهو العـارف بمجريات الامور) من يرى غير حله هذا بالنسبة لقضية الجزائر بعد أن ذكـر حلين أخريين ، من الصعب تطبيقهما (60) .

أما كتابه اتحاف المنصفين والادباء الذى أظهر فيـه حمـدان خوجه ثقافتـه الواسعة ومقدرته العلمية (61) ومدى تشبعه بأوجـه الحضـارة الاوروبية المختلفة ، فقد كان يرمى من اصداره وتقديمه ، هدية للسلطان العثمانى محمود الثانى، عملية الاصلاح التى خطت خطوتها الاولى فى عهد هذا السلطان ، الى الاخذ بأسباب العلم والدعوة الى تطبيق نظام الكارنتينه الذى شاع تطبيقه فى أوروبا .

وكما فهم حمدان خوجه محور الاتجاهات الفكرية فى أوروبا اذ خاطب قـراءه الفرنسيين بأسلوب معين وبطريقة خاصة فانه متفهم ، كذلك للعقلية الشرقية ، فسلك طريقة خاصة لاقناعهم بضرورة مسايرة الموكب الحضارى . فلم تظهر فى كتابتـه رومنطيقية ، ولم يحاول أن يقنع قراءه بتصديق ما يقول ، بالنظر الى مكانته ، بل استعمل لغـة القرآن والسنة (62) فى تحامل كبير على بعض المتزمتين والمتعصبين . يكون بذلك قد ساهم فى حركة الاصلاح العامة التى كانت الدولة العثمانية لها مجالا ، وبخاصة فى عهد السلطان المذكور .

طريقته فى الكتابة

يلاحظ القارىء أن حمدان خوجه يربط الحوادث التى يريد ذكرها بالزمان والمكان ، كحديثه عن منطقة المدية فهو يشير الى الحادث الذى وقع بها ، كحملة « بارتوزان » الفاشلة (63) . وفى حديثه عن قسنطينة يورد النزاع الذى تم بين أحمد باى وابراهيم باى (64) الى غير ذلك . كما يستعمل طريقة المقارنة لتقريب صورة الشىء أو الفكرة الى ذهن القارىء كتشبيهه نظام الاوقاف الدينية بدار (الانفاليد) بفرنسا ، وأشياء أخرى كثيرة ... وكوصفه « للقندورة » بدل تسميتها ، وذلك لتقريب الصورة الى ذهن القارىء (65) . وما عدا ذلك فأفكاره مرتبة مسلسلة وكتابه اتحاف المنصفين والادباء فى الاحتراز عن الوباء ، فقد صاغه بأسلوب معقد ، وسيقت فيها مختلف الادلة للتأثير على قارئيه . وان كان هذا الكتاب الاخير ثمرة تجارب طويلة ، ودعوة الى الاخذ بمظاهر الحضارة الاوروبية فان الكتاب الاول مرجع له قيمته السياسية والتاريخية ، يكتسى قيمته الاولى فى عكسه لنا الصراع السياسى الذى خاضه حمدان خوجه ورفاقه فى غمرة الاحداث العالمية فى تلك الفترة ، ومرجع له قيمته التاريخية لمكانة المؤلف الاجتماعية والثقافية ، ومعاصرته لفترة ما قبل وبعد الاحتلال ، والدور الذى ساهم به فى توجيه سير الاحداث ، وصراحته المتناهية فى تناوله لها .

وان كانت الفترة التى سبقته ، وكان قد أرخ لها ، لا يتسرب اليها أدنى شك لصحتها بالمقارنة كما سبق ذكره ، فالفترة الاخيرة ، التى عاصرها وما كتبه عنها ، فان أقل ما يقال فى أحداثها انها كتبت ، من وجهة نظر جزائرية ، معاصرة متمكنة من الكتابة ، لمعرفتها بخطورة التأريخ ، ومقدرة للامانة التاريخية ، وعارف بأسرارها ، وبمصاعبها معا (66) .

ولعل ما يؤخذ على حمدان خوجه وأضر به هو كتابته للقدمة وللرسالة ، بأسلوب رومنطقى وبعاطفة فياضة ، جعلت القارىء المتسرع الذى لا يربط تأثير تيارات العصر فى الكتابة التاريخية يحكم على انحياز الكتاب (67) . كما أن البعض الآخر قد اتخذ من مطالبة حمدان خوجه ببعض حقوقه ، والدفاع عن بعض مصالحه ، منفذا لجعل حركة حمدان خوجه حركة ذاتية مصلحية(68) ، واعتبارها ثغرات يستدلون بها على ما يذهبون اليه كنفى بعض تصرفاتهم والتهم التى الصقت بهم .

ومن خلال بعض الفقرات من كتاب حمدان خوجه نستشف عجزه فى فهم بعض حركات العصر ، كعدم فهمه ، للحركة الاستعمارية المعبر عنها بالاستعمار الحديث والتى ترمى الى الاحتلال المباشر للاسباب المذكورة فى التمهيد . فهو يتساءل تساؤلات تنم وتؤكد عدم فهمه لهذا الاتجاه الجديد ، كقوله « بأن فرض الغلبة كان دائما يتم على مستوى الحكومات بفرض شروط ، معينة على الحكومة المغلوبة على أمرها ، أما الاحتلال المباشر فلم يسبق أن مارسه متغلب » (69) هذا الاتجاه الذى سيندفع وراءه الشعب الفرنسى بعد سنوات قليلة يدفعه الحنين الى الامجاد القديمة ، والانتصارات السابقة ، ناسيا ما جلبه عليه نابليون بونابرت من آلام (70) لان وطنية شعب حر مستقل ليست الحرية ولكن عليها فهى تطمع فى مزيد من التوسع والاستعمار » (71) .

وبذلك يكون قد فاته شىء لم يضعه فى اطاره العام ، وان كان قد ربطه بالاحداث المحلية (72) ومهما كانت نظرة المؤرخين الى حمدان خوجه (73) ومهاجمة الكتاب المعاصرين له لاغراض مختلفة ، فالكتاب العسكريون قد استفادوا من كتابه « المرآة » فوائد جلى من حيث الاطلاع على أحوال الاجتماعية والنفسية لشعب الجزائر ، ومن حيث خصائص كل منطقة ، من مناطق الجزائر ، وعن تاريخ البلاد ، وبالاخص فى العهد العثمانى »

أما ما وعد به حمدان خوجه من اخراج الكتاب الثانى فقد حال دون ذلك قرار الحكومة الفرنسية القاضى بالحاق الجزائر بفرنسا ، كما أن مثوله أمام المحكمة لتبرير التهم التى اتهم بها غيره ، جعله يشعر بخيبة أمل على حد تعبير ايفان ، وان استمر فى العمل بالصحافة وساهم فى التيار الاصلاحى ، بتأليف من نوع جديد .

الهـــــوامش :

1) قدر تاريخ ميلاده د/سعد الله في كتابه « الحركة الوطنية الجزائرية » بسنة 1773 م ص 37 - كما قدره ايفار بسنة 1967 - م
2) نور الدين حاطوم - تاريخ الحركات القومية ج 1 ط 1775 م بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م
3) نور الدين حاطوم : المرجع السابق
4) خلافا للدكتور سعد الله في كتابه الحركة الوطنية الجزائرية الذى يقول : بانه من عائلة جزائرية متوسطة الحال ص37
5) المرآة صفحة 103 - 104
6) نفس المرجع
7) المرآة ص 150
8) المـرآة ص 49
9) المـرآة ص 49
10) سعد الله - تاريخ الجزائر الحديث (بدايت الاحتـــلال)
11) المرآة - الفصل 13
12) يستبعد أن يبقى حمدان خوجة كل هذه المدة خارج الجزائر اذ من الممكن أن يكون قد عاد اليها مرات خلال نفس الفترة يفترض ذلك ايفار في مقاله بالمجلة الافريقية لسنـــة 1913
13) د سعد الله - الحركة الوطنية الجزائرية - ص 37
14) ابن عبد الكريم - حمدان خوجة - «اتحاف المنصفين والادباء في الاحتراس عن الوباء» ص 13 طبعة أولى - الجزائر 1968
15) المرآة في مقدمتها
16) ابن عبد الكريم نفس المرجع ص 15
17) من قصيدته التي مدح بها محمود الثاني وكالتي بعث بها الى أحد اساتذته بالجزائر
18) د سعد الله - تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال - ص 121
19) ترجمة بتصرف
20) ايفار المجلة الافريقية
21) يبدو أن هناك من ترجم النسخة الفرنسية الى العربية
22) أوردت الافكار دون النص
23) بتصرف كبـــير
24) انظر المرآة ص 19 - 20 - 21 - 22
25) المرآة صفحة 24
26) ان الفصول السابقة لهذا الفصل وبعده ليست ترجمتها حرفية بل ذكرت المعاني والافكار التي بها فقط
27) كانت مقر بايلك الغرب قبل استرداد مدينة وهران من الاسبان حوالى سنة 1792 م
28) لقد سقت ملخص هذه الفصول للاستدلال بالنص على بعض الافكار الواردة في البحث
29) د سعد الله - تاريخ الجزائر الحديث - بداية الاحتلال - ص 94 و 98
30) د سعد الله - الحركة الوطنية الجزائرية ص 482
31) تكون اللجنة قد تسلمت كلا من الرسالة والمذكرة وهي بالجزائر يظهر ذلك من تاريخ الرسالة 26 أكتوبر 1833 م بينما اللجنة وصلت الى الجزائر في 2 سبتمبر من نفس السنة
32) عن ايفار بالمجلة الافريقية لسنة 1913 م ص 122
33) ايفار في الهامش ص 122

34) ابن عبد الكريم ـ اتحاف المنصفين والادباء ص 37
35) فى حوزة ابن عبد الكريم ولا اعرف بالضبط مضمونها عدا انها تنتهى بقصيدة شعرية
36) انظر اتحاف المنصفين ص 32
37) حمدان خوجة ـ المرآة ـ
38) اشار الى ذلك تيسير فى بحثه عن قيمة المرآة التاريخية
39) المـرآة ص 35
40) المـرآة ص 67
41) كتاب بيردان عن مجلة كلية الآداب عدد 2 لابى العيـد دودو
42) انظر الفصل الثانى فى المرآة وملخصه كما سبق فى هذا البحث
43) انظر نسخ المراسلات بآخر كتاب المرآة
44) سعد الله ـ تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتلال ـ ص 108
45) سعد الله المصدر السابق
46) المرآة فى المقدمة ص 11
47) نفس المصدر السابق ص 11
48) المرآة ص 11
49) المرآة ص 42
50) المرآة الصفحة الاولى من مقدمتها
51) أشار الى ذلك ابن عبد الكريم فى كتابه ـ اتحاف المنصفين والادباء ـ ص 9
52) المرآة ص 363
53) الرسالة التى بعث بها الى اللجنة
54) المـرآة ص 24
55) المرآة الفصل الرابع
56) نفس المصدر نفس الفصل
57) نفس المصدر نفس الفصل
58) المـرآة ص 24
59) المرآة الفصل الرابع
60) المرآة ص 324
61) سعد الله تاريخ الجزائر الحديث ـ بداية الاحتـلال ـ ص 79
62) انظر اتحاف المنصفين والادباء من تحقيق ابن عبـد الكريم
63) المرآة الفصل السادس ص 25
64) نفس المصدر الفصل الرابع 37 و 38
65) انظر الفصل الثانى من المرآة
66) المـرآة ص 11
67) انظر المقدمة والرسالة
68) ايفار المجلة الافريقية ص 98
69) المـرآة ص 83 و 84
70) تامبرلى وجرانيت ـ تاريخ اوروبا فى القرنين 19 و 20
71) نشرة حزب الشعب الجزائرى
72) انظر بحث تيسير السابق ذكره
73) سألحق بالبحث فصلا عن نظرة المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين الى حمدان خوجة

المراجع المعتمدة فى هذا البحث

(1) حمدان خوجة :
لمحة تاريخية واحصائية عن الجزائر المحمية (المرآة) الاصل بالعربية مفقود ، ترجم الى الفرنسية من طرف . . . . د . . . الشرقى (حسونة دغيز) باريس 1833 .

(2) حمدان خوجة :
رسالة اتحاف المنصفين والادباء فى الاحتراس عن الوباء ، تحقيق : محمد بن عبد الكريم ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الاولى ، أكتوبر 1968 .

(3) ايفــار :
سى حمدان بن عثمان خوجة ، المجلة الافريقية لسنة 1913 من ص 93 الى 138 .

(4) د أبو القاسم سعد الله :
تاريخ الجزائر الحديث (بداية الاحتلال) قسم البحوث والدراسات التاريخية والجغرافية ـ 1970 .

(5) د أبوالقاسم سعد الله :
الحركة الوطنية الجزائرية ـ منشورات دار الآداب ببيروت ط أولى ـ مارس 1969 .

(6) التمــيمى :
ثلاث رسائل من الحاج أحمد باى قسنطينة الى الباب العالى ـ مجلة المغرب العربى ـ عدد 3 .

(7) شارل اندرية جوليان :
تاريخ الجزائر المعاصر (1827 ـ 1871 م) باريس 1964 .

(8) بيشــون :
الجزائر وضعيتها الراهنة وماضيها ـ باريس 1833 م .

(9) بيليسييه دى رينو :
الحوليات الجزائرية ـ الكتاب السادس ـ ج 1 باريس 1836 م .

(10) تيســر :
بحث عن قيمة المرآة التاريخية .

(11) د أبوالعيد دودو :
مقاله بعنوان «الجزائر من خلال تاريخ بيردان» عدد 2 من مجلة كلية من كلية الآداب .

(12) هارولد تمبرلى ، وجرانيت :
ترجمة بهاء فهمى ـ أوروبا فى القرن 19 و 20 ـ 1950 م القاهرة ـ الطبعة السادسة .

(13) جيفرى براون :
ترجمة عبلة حجاب ـ الحضارة الاوروبية فى القرن 19 (1815 ـ 1914) بيروت 1963 .

(14) محمد قاسم واحمد نجيب هاشم :
التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة دون ذكر تاريخ الطبع .

(15) نشرة حزب الشعب الجزائرى 1951 .

(16) نور الدين حاطورة :
تاريخ الحركات القومية ج 1 ط دار الفكر الحديث ـ لبنان ـ طبعة أولى 1967 .

مع المؤرخ الفرنسي أجرون

زار الجزائر الاستاذ آجـرون بدعوة من قسم التاريخ بالجامعة لالقـاء سلسلة من المحـاضرات على طلبة قسم التاريخ . واغتنمنا هذه الفرصـة فوجهنا له هذه الاسئلة ، واجوبته توضح وجهـة نظر تستحق الاطلاع والبحث .

وهذه نبذة عن نشاطه وبحوثه :

الاستاذ **آجرون** مبرز فى الجامعة ، مارس التعليم باحدى ثانوية باريس ثم بثانوية الجزائر ، ومن 1947 ، الى 1957 ، ادرس بمعهـد الـدراسـات السياسية بالجزائر . ثم عين مساعدا فأستـاذا مساعدا بالسوربون . وفى سنة 1968 حصل عـلى دكتورة الدولة فعين أستاذا بكلية أورليـانس ثم أستاذا صاحب كرسى التاريخ المعاصر بكلية تورس .

بحوثـه :

يقول الاستاذ : « بمجرد قدومى الى الجزائـر سنة 1947 أبـديت اهتماما خاصـا وقررت أن اخصـص لهم أطروحة الدكتـوراة ـ ولكن الموضوع ضخم وصعب لا سيما بالنسبـة لفرنسى قدم للجزائر للمرة الاولى ، فاستغـرق البحث مدة طويلة . ولهذا شرعت فى نشر عـدة مقالات بعد 1956 .

1) فى المجلة الاشتراكية

1 ـ ملخص لتاريخ سياسة الاندماج .

2 ـ الحركة الوطنية الجزائرية : من الاسلام الى الثورة (جوليت 1956) .

2) فى مجلة التاريخ الحديث والمعاصر

1 ـ سياسة لبرالية نحو الجزائر فى أيـام الجمهورية الثالثة (أفريل ـ جوان 1959) .

2 ـ جول فيرى والقضية الجزائرية (أفريـل ـ جوان 1963) .

3) فى مجـلات مختلفـة

1 ـ جوريس والاشتراكيون الفرنسيون أمـام القضية الجزائرية (مجلة الحركة الاشتراكيـة جانفى 1963) .

2 ـ الجزائر الجزائرية أيام نابليون الثالث ، (مجلة بروف 1961) .

ـ المفـاوضات الاولى بين الجزائر وفرنسا : معاهدة التافنة (مجلة بروف) .

ـ السياسة القبائلية للامبراطورية الثـانية : (مجلة تاريخ فرنسا لما وراء البحار) .

ـ تخطيط سياسة بعد احتلال قسنطينة (..)

ـ التطور السياسى للجزائر فى عهد الامبراطورية الثانية (مجلة الاخبار الجزائرية) .

ـ هل كان الامير خالد أول وطنى جزائرى ؟

ـ حركة الشبيبة الجزائرية (مجموعة مقالات تكريما لأندرى جوليان) .

وهناك مـوجز لتـاريخ الجزائر المعـاصـر (سلسلة كوسيج ؟)

على أن البحث الاساسى والعمل العمدة هـو أطروحتى فى مجلدين (1200 ص) وعنوانهـا : «الجزائريون المسلمـون وفرنسا» (من 1871 الى 1919) .

س : لمـاذا اهتممت بهذه الموضوعات ولمـاذا اشتغلت بتاريخ الجزائر ؟

ج : درست فى بداية الامر ـ علاقات الجزائريين المسلمين مع فرنسا لاننى لاحظت ـ وأنا أستاذ شاب آنذاك ـ الجهل السائد المتعلق بتطـور الجزائريين خلال الفترة الاستعمـارية ، وحاولت عبثا أن أطلع فلم أجد شيئا يرضينى .

ومن جهة أخـرى كان الاروبيون يقولـون ان « الفرنكاوى » لا يستطيع أن يفهم شيئا .

وكانت صداقتى للجزائريين الدافع على محاولة الاطلاع والفهم . فهل بلغت الغاية ؟ لا أستطيـع الاجابة على ذلك .

على كل فان فرنسيى الجزائر لامونى بشدة وعنف على أبحاثى لاسيما وان النتائج التى وصلت اليها ضايقتهم . فقد بينت انه كان بفرنسا تقـاليد ليبرالية اصبحت معدومة التأثير فى الجـزائر بسبب معارضة المعمرين . ويريد هؤلاء أن يحملوا

فرنسا وحدها مسؤولية سياستهم القصيرة النظر.

ولكن المـؤرخ الذى طالـع – مدة 15 سنة – الصحافة الفرنسية بالجزائر التى صدرت ما بين 1870 و 1919 يعرف جيدا مشاعرهم الحقيقية فى الفترة الاستعمـارية .

س : يزعم بعض المؤرخين الاجانب ان الجزائر لم تكن يوما من الايام دولة ذات سيادة ، فمـا هو موقفـكم ؟

ج : كيفما كان جوابى فلا يستطيع أن يـكون له قيمة علمية ، لانى ما استعملت أبدا وثـائق يعود تاريخها قبل القرن التاسع عشر .

ومن المعلوم انى لاحظت ان الاتراك قبل 1830 كونوا دولة بالجزائر وقد قدرت – حدة الشعور الوطنى المناهض للاتراك فى سنوات 1831–1834.

ولكن فيما يتعلق بالعهد الذى سبق القرن 19 فليس لى أخبار من الدرجة الاولى تسمح لى بتقديم جواب موضوعى .

س : هل تعتقد أن المؤرخين الفرنسيين الذين تصدوا لكتابة تاريخ الجزائر كانوا موضوعيين ؟

ج : نعم ، ان بعض المؤرخين الفرنسيين كتبوا تاريخ الجزائر بنظرة استعمارية مثل اقستين برنار الجزائر ، ومثل فكتور ديماتيس وغيره .

ولكن لا ينبغى أن نعمـم ونقول ان جميـع المؤرخين كانوا فى خدمة الاستعماريين .

فقد ترك بيليسى دى رينو فى حوليـاتـه 1847 وقد سمى أحد ابنائه «حجوط» . واظهـر الجزائرية أحسن كتاب تاريخ لسنـوات 1830– – فى كتابه استقلالا كبيرا فى الرأى والحكم –

ومن جهة أخرى فان كتاب «تاريخ ثورة 1871 بالجزائر» الذى ألفه الكومندان رينى قيم من حيث المعلومات ومن حيث عدم التبعية والمشاكلة .

وبلغت به الجراة – سنة 1874 – الى أن تغنى بشجاعة المسبلين وتضحياتهم بينما لم ير عدد من الكتاب الفرنسيين – فى حرب 1871 – سوى « مذابح باليستـرو » .

وتجاسر المؤرخ الفريد رينبو – سنة 1891 – على كتابة ما يلى : « ان هذا القتال فى الحقيقـة كان قتال شوارع ، ولم يؤذ نساء الفرنسيـس وأطفالهم وشيوخهم . ثم يضيف قائلا : انـه لو قمنا باحصاء الفضـائح التى ارتكبها الغـيـر النظاميين والتى مست بشرف الجنسين فـان الحساب الختامى ربما لا يكون لفائدتنا» .

وفى استطاعتنا أن نذكر مؤرخين آخـرين وبعضهم لازال على قيد الحياة .

وان المؤرخين الذين قالوا كل الحقيقة انمـا أدوا مهمتهم لا أكثـر .

وأول واجب يفرض نفسه على المؤرخ هو أن لا يقول خطأ وان يقول كل ما هو صحيح .

وهناك آخرون كتبوا التاريخ بتوصية من أناس والتاريخ لا يكتب بتوصية من أجل **بيـان هـذا القـول** أو ذاك او اشهار مفاخر الغالب .

س : ألقيتم محـاضرة حول : « الجـزائر فى وثائق الجنرال برتوزين » فما هى أهمية هـذه الوثائق فى نظركم ؟

ج : ان الوثائق التى تركها برتوزين تسمح باعادة كتابة التاريخ لسنة 1831 وتبين السياسة التى اختطها هذا القائد حتى راسله يوما سي‌حمدان خوجة قائلا : « ترك اشرافك القصير على الادارة بالجزائر أسفا شديدا فى نفوس جميع الجزائريين ... وان كنت لم أتحدث عنك ولا عن ادارتك المعتدلة المستحقة للشكر فى كتابى – المرآة – وذلك من الواجب – فلان الحوادث التى أوردتها تتبع التسلسل الزمنى – ولن يفوتنى الكلام عنها فى الجزء الثانى الذى سيصدر بعد قليل » .

وكانت سياسة برتوزين نحو الجزائريين سياسة نزيهة . فكان يكره المعمرين ويبذل كل ما فى وسعه لكسب ثقة الحضر والبدو . والتفت الى شيخ من القليعة ليكون على رأس القبائل المجاورة للجزائر العاصمة ، وأخذ على نفسه أن يوقف العمليات العسكرية ، وقد أنجز وعده .

وتسمح لنا هذه الوثائق – من جهة أخرى – بالاطلاع عن النشاط السياسى لحضر الجزائر وذلك بصورة أدق .

وهؤلاء الحضر هم اما من الاعيان القدماء فى العهد التركى مثل سى حمدان واما من «حديثى النعمة» فى ظل الفرنسيين مثل بوضربة . وسبب العرائض التى صدرت من « **اللجنة العربية** » فى 1832 وفى 1833 ، هو ان الحضر كانوا يتوقعون تخلى فرنسا عن مدينة الجزائر أو تسليمها للانكليز .

وكان قنصل انكليترا جوهن يغرى حكومته على التدخل زاعما ان خزينة القصبة لازالت لم يعثر عليها أحد .

وأقام الانكليز – وخاصة بانيستر ساكس – ضجة كبيرة الغاية منها المطالبة بانسحاب الفرنسيين . واتصلوا بحسونة داغر – الطرابلسى زعيم الحزب المؤيد للانكليز بتونس كما اتصلوا بسى حمدان .

وكان القنصل جوهن يطلع على جميع الاخبار السرية من طرف سى حمدان ثم أوصى به سفير انكليتيرا بباريس .

ومع ذلك يظهر سى حمدان لمواطنيه كعميل لفرنسا ، مع أن الفرنسيين حاولوا قتله .

وعند ما قدم حمدان الى فرنسا ظن جوهن وظن الفرنسيون انه جاء طامعا فى خلف لحسين داى .

وكان سى حمدان يميل الى حكومة متوارثة تكون فى يد اسرة من الكرغلان ، مثل باشاوية تونس المتوارثة . وفى باريس حاول حمدان خوجة انشاء لجنة جزائرية يرأسها الجنرال لافايت الذى عرف بليبراليته ، وكان يؤيد حمدان.

وفى نفس الوقت كان الجزائريون فى المنفى يسعون لارجاع الجنرال برتوزين الى الجزائر ليخلف الجنرال السفاح والطاغية سافارى دوك دى روفيقو .

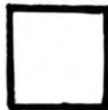
وبعد 1834 يتصالح الجانبان ويراسل سي‌حمدان المنفيين الذين عادوا الى الجزائر .

هذا هو ملخص العمل الذى لم ينشر والذى قدمته لنيل الدكتوراة الاضافية سنة 1968 .



دراسات اسلامية



الروح الإسلامي ومشاكل النهضة والتطور

د. الحبيب ابن الخوجة

عميد الكلية الزيتونية
للشريعة واصول الدين بتونس

في القرآن الكريم آيتان جليلتان يتجه الرحمان سبحانه وتعالى بهما في الخطاب الى المسلمين كافة ، نمر بهما ونرددهما ، ولا نقف عندها لشدة ما ألفنا ذكرهما ، ولا تستوقفاننا او نلقي لهما السمع لنفيد من الدعوة وندرك الاسرار التي تضمنتاها ، فنحاول قدر الطاقة ان نحمل شعارهما في قلوبنا وفي الاعماق من نفوسنا ولا نتظاهر ابدا بحمله لبوسا ونخلعه حينا بعد حين او مرة بعد اخرى .

يخاطب الرحمان الرحيم عباده المؤمنين وقد جاءهم الهدى والحق مقررا وممتنا :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فاذا هو سبحانه كاشف لدعائم تكوين هذه الامة ، مصور لها ، منبه على خطر هذه الركائز الثلاث بما لم ينبه على مثله عند الحديث عن اية امة من الامم الاخرى السابقة المتقدمة .

وهذه الدعائم التي تقوم روح المسلم وتبرز في وضوح حقيقة الاسلام صنفان :

الاول منهما يتعلق بالفرد مرتبطا بالجماعة من الامـر بالمعروف كل معـروف امرا ينتهى بالفرد الى توفير الخير واقامة العدل ونشر الامن وتحقيق السعادة المطلقة فيمن حوله . ومن النهى عن المنكر كل منكر نهيا يقضى قضا تاما على الشر . فينفى الجور والظلم . ويقضى على الابئة والامراض النفسية والاجتماعية قضاء يخلص به المجتمع الانسانى من ويلات الشرك والمروق والتفسخ والشهوة والمكائد والحروب .

والصنف الثانى ذاتى هو الايمان بالله يعطى المسلم يقينا ويرزقه سندا ويخلصه من كل تبعية ويسمو به سموا كاملا فيكون به قوام رشاده وحريته وتمحضه للصلاح . واذا هو مخلص لله فى عبادته لا يستعين بغيره ، غير شاعر بالحاجة الى احد سواه ولا يزيده ذلك مع الشعور وعند اليقين الا تمجيدا وحمدا لخالقه . ورفعة وسموا وكرامة وعلوا بين نظرائه من الناس .

ومتى توفرت هذه الصفات فى العلم كان النجاح حليفه وقرينه . وكان الحاضر والغيب له . تلك هى سمات عباد الله المخلصين واوليائه المقربين من المحسنين والصالحين والصديقين والمجاهدين .

ونقف عند الآية الثانية فنستجلى عظم المنـــة وكبر النعمة بما مكن الله المجيد لهذا الدين واورث اهله من سلطان يظهرون به على غيرهم . اذ جعلهم دعاة له تعالى ، متولين لدينه الحنيف . قوامين على الناس وذلك قوله جل وعلا :

« اليـوم يئس الذين كفـروا من دينـــكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم اكملت لكم دينـــكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا» .

فهو يعلن تعـــالى بما أكتمل عندهم وفيهم من دعائم الايمان المستوجبة لتفوقهم والتى اشارت اليها الآية الاولى . أنهم اصبحوا فى منعة من عدوهم لا يقـدر عليهم . فحرضهم على تقـــديم خشيته ومراقبته على خشية العدو ومراقبته . اذ فى خشية الله كفاء وجنة ، وفى خشية العدو مروق وخذلان . ثم بشرهم بان دينهم هو الدين الكامل لا تعطيل لشرائعه ولا نسخ لاحكامه فهو الباقى السرمدى الى يوم القيامة . « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » . وامتن عليهم بعد ذلك بنعمته العظمى نعمة الاسلام التى اختارهم لها ورضيها لهم . ليرى بعد ذلك ــ وقد هداهم سبيله ــ ما هم صانعون .

بهذه العناصر الايمانية مجتمعة وهـذا الروح الاسلامى مكتملا انطلق المسلمون من الرعيل الاول ينشرون عقيدة ويفتحون عوالما . ويملؤون الدنيـا هدى ونورا . مؤسسين مجدا ومبتنين حضارة .

وقد كانت دعوتهم السمحة البسيطة المستندة الى الفطرة ملغية بين كل الافراد فوارق الجنس ، مبطلة للعنصرية وللعصبية الجاهلية . مناديـــة بتوحيد الخالق البارى والمصور الذى فطر السماوات والارض . وباعثه لاكتشاف الاكوان وادراك العوالم الحسية والغيبية على الاغتراف من فيوض العـلم الحاصـــل من استخدام الوسائل والآلات . ومن الاستناد الى الاشراق السماوى فيما يتلقاه عباد الله المخلصون والانبياء المرسلون من وحى يهدى الناس من بعد الضلالة ويطهرهم ويزكيهم من ادران الشرك وارجاس الوثنية .

نلمس هذه الحقائق فى تعاليم الاسلام ونجدها فيما أخذ به معتنقيه الاولين من تربية وتهذيب ، حتى اذا عدنا الى تلك الاصـــول التوجيهية التى اعتمدها فى تنشئتهم . والى القوانين التربوية التى التزمها فى تخريجهم . وجدناه يعنى باثارة المدركات الغريزية التى هى من فطرة الانسان وكيانه . ثم يحمل الفرد المسلم على طلب المدركات الحسية بما أوتى من وسائل لذلك . حتى اذا تجاوب ما بـين غريزته وحسه ارتقى بـه الى المدركات العقليـة المفضية بطبيعتها الى المدركات الغيبية . وعلى هذا الاساس من التوجيه فى طلب المعارف ما اتصل منها بالعالمين العلوى والسفلى ، تكون المدركات

بسائر انواعها لديه متماسكة متساندة متعاونة مكونة للفرد المسلم المثالى الذى عرفته الاجيال الاولى من الدعوة ، وكانت له قدم الصدق عند ربه بما مكن لدينه ، ونشر واقام بين الناس من ثقافة باهرة وحضارة زاهرة .

وهو فى تلك الظروف ومع هذه الاحوال الملابسة لتكوينه قد وجد من الروح الاسلامى ما ملأ قلبه هدى ونورا ، وصدره أملا وانشراحا ، وفكره قوة وعزما . فلم يكن بالحائر الفاتر ولا الحائر المضطرب ولا المتردد الخائف . ولكنه وجد من مدد تكوينه وأصول تخريجه استقرارا للذات . وأمنا داخليا ، جعلاه يمتطى الصعاب ويركب الاخطار فى سبيل اكتشاف القدرة الالهية والوقوف على النواميس الكونية ليزداد ايمانا وايقانا وينشر بين العالمين هداية وسلاما .

وقد ظل كذلك واستمر عليه قرنين كاملين أو ما يزيد عليهما قليلا ، يستمد من روحه الدينى ما يكون له ارادته ، ويشحذ به عزمه ، ويقوم به الحياة حتى امتدت آثاره وفتوحاته وكلمته ودعوته الى جزر الفيليبين وبلاد الهند شرقا ، والى المحيط الاطلسى من وراء العدوتين الافريقية والاندلسية غربا ، وامتد شمالا الى بامير سقف الدنيا عند التقاء جبال سليمان والهملايا ، كما بلغ جنوبا الى جزر القمور ومدغشقر . وهو بعد أن جمع الاجناس كلها من عربية وايرانية وطورانية وهندية نشر فيها حضارته وانطلق الى البحوث التجريبية والكونية والعلوم الرياضية والطبيعية ينقلها عن الامم الحالية والحضارات القديمة ، مضيفا اليها كل ما ابتدعته من نظريات وسبق اليه من ابتكارات علمية ، وهو فى ذلك كله مستجيب لروحه الدينى ومستمد منه ما يقوى عزمه ويؤكد مضاءه ، غير غافل فى الوقت نفسه عن العلوم الانسانية والدراسات الاسلامية الشرعية التى كان السابق اليها ، والواضع لها ، والموجه فيها ، والدال عليها ، شهدت بذلك الرسائل والكتب والمعالم والآثار ، واعترف به مؤرخو الحضارة الانسانية من مسلمين وغير مسلمين فيما سبق أوجد من بحوثهم ودراساتهم .

ووقفنا نحن فى عصرنا الحاضر وفيما سبقنا من عصور التدنى والتدهور ننظر الى ماضى الاسلام المشرق ومجده التالد وعهده الذهبى الزاهر الذى كنا نصف . فاذا فيهم وفينا انماط مختلفة من الناس متباينة المشارب والافكار والمواقف . لو اردنا رسم خط بيانى للتعريف بها وتصوير احوالها وما يجول فى نفوسها وضمائرها لرسمنا مثلثا ذا ثلاثة اضلاع ، لقاعدته زاويتان متقابلتان وفى اعلاه زاوية ، تبعد هذه عن الزاوية الاولى من القاعدة مقدار ما تبعد به عن الزاوية الثانية منها . وتمثل هذه الزوايا الثلاث – على الانفراد لا على الجمع – فئة ندعوها بالمنتسبة ، واخرى ندعوها بالهدامة وثالثة ندعوها بالوسطى أو المتفجعة المتنكرة .

اما الفئة المنتسبة فهى المتغنية بذلك الماضى ، المفاخرة المباهية به بالرغم مما نال روحها الدينى من شلل يمنعها من النهوض بعد الكبوة ، ومن الانطلاق بعد الانحباس ، ومن تجديد تلك الايام والعهود التى تحن اليها وتحلم بها بعد ما نالها من عسف ومسها من ضر وباعد بينها وبين المثل الاسلامى لديها من سلوك ووضع وتخلف وتأخر ، هى مقيمة عليه راضية به ، لا تحرك ساكنا ولا تأتى جهدا لتغييره والخلاص منه .

واما الهدامة وهى الفئة المقابلة للفئة المنتسبة فى القاعدة من المثلث ، فهى كالاولى أو شر منها ، لكونها نظرت الى المادة دون الروح ، وظنت الاسلام مملكة ودولة ولم تعتبره عقيدة وتشريعا ، وارادت من اجل ذلك أن تجعله مثل غيره فيما قام به من ادوار فى تاريخ الحضارة الانسانية ، اتى بما عليه

وولى من غير رجعة ، فمثله مثل غيره من الحضارات ينسى فيها وينسخها بما يبنى للمجتمعات الانسانية من نظم وأوضاع مبتكرة مستحدثة يقيمها عليها ، كما هو ملاحظ اليوم فى أطراف المعمورة ، من آثار قيام الحضارة الاوربية الجديدة ، وهى حضارة علمية تقنية ليست بالمادية ولا الروحية .

ونترك القاعدة بعد التنقل بين طرفيها المتقابلين لنتجه نحو القمة حيث نلتقى بالزاوية الثالثة او بالزاوية الوسطى عندما نقابلها بخط القاعدة المنتشر والممتد بين طرفيها . فاذا نحن مع نمط مغاير للنمطين الاولين ، وفئة مختلفة ومقابلة للفئة الاولى بقدر اختلافها عن الفئة الثانية . وهـــذا النمط الثالث الذى تتكون منه الفئة الوسطى أو الفئة المتفجعة المتفكرة هو فى الواقع فئة الذين لم يحنوا الى الماضى ويرضوا مع ذلك ان يكونوا من القعديين كالفئة الاولى ، ولم يعتدوا بامجاد الاسلام ذكرا وتاريخا ، ولكنهم انصرفوا عنها وظلوا من الهدامين المقوضين لها ، يريدون استبدال اوضاع جديدة بما فيها ، باوضاع قدسية قديمة وان اودى ذلك بمقـومات جماعتهـم واتلف مابينهم وبـــين ماضيهم من صلات وروابط كالفئة الثانية ، ولكنه الصنف الثالث من النـــاس الذى آمن بماضيه واعتد به وانتسب له وهاله وساءه ما مس الاسلام فى عصوره الاخيرة وفى عصره الحاضر ، ثم رآه ورأى المجتمعات الاسلامية خامدة خافتة بعـــد حيوية واشراق، مضطربة حائرة بعد أمن واستقرار، فراح يبحث عن الداء يتعرف اليه ويصفه ، متطلبا من اجل ذلك العلاج ، مريدا من سعيه المجهد وعمله الشاق المضنى ان يضطلع برسالته فى الرجـوع بالاسلام والمسلمين الى عزتهم وما سلف من ايامهم الزاهرة . فهو لذلك داع مصلح ومكافح مجاهد .

ولا اقف عند الفئة الاولى فانها تمثل شنشنة قديمة ووضعا ولى وانقضى بما فيه . وهى بمـــا عليه أو بالاحرى بما كانت عليه من سلبية لا تعنينا كثيرا فى هذا الحديث الا من حيث التسجيل لوجودها تسجيلا تشهد به كثير من الاقطـــار الاسلامية فى الفترات الزمانية الممتدة خاصة فيما بين انتصاب الانظمة والاوضاع الاستعمارية جاثمة على صـــدر الاسلام وبـــين الانتفاضات المباركة والتحركات المقدسة التحريرية التى اعادت للبلاد العربية والاسلامية عزتها وارجعت لها سيادتها ، فخرجت من محنـــة الاستعمار وذل الاحتلال الى نعمة الكرامة وشرف الحرية تنشد الغد الافضل والمستقبل الاكرم الذى يقيها الاخطار ويمنعهـــا ان تعود الى ما كانت عليه من قسر واسر .

ولا اقف عند الفئة الثانية الا بمقدار تصحيح اوضاع واسداء نصيحة ، وهى فى نظرنا خير من الفئة السابقة وشر منها .

هى خير من الفئة السابقة لانها لم تكن قعدية ، أسهمت فى النضـــال التحريرى ، وشاركت فى تخليص العالم الاسلامى مما كان عليه وفيه من ويلات ومصائب ، وآمنت بعزها البعيد المـاضى واسفت على فراقه ، ثم انطلقت فى حاضرها تنشد مجدا وتطلب عزا . فهم فئة متحركة يقظة ، تكد وتعمل من اجل تحويل الوضع بما فيه وتغيــير الواقع بكل ما لديها من وسائل .

وهى شر من الفئـــة الاولى لكونهـــا خضعت للتوجيهات المغرضة الهدامة التى قام بها الحكـم الاجنبى فى ديار الاسلام ، فانطلى عليها ما كانت تسمع اليه وتشاهده من اوضاع كلها كيد للدين وتغيير لحقيقته ونيل من جوهره وابطال لاثره .

كانت تستمع الى مقـــالات المبشرين وثلة من المستشرقين وزعماء وطغاة المستعمرين يقولون : ان الدين الاسلامى هو الذى قضى على اهله بالتأخر والتخلف ، فهو يأخذ المسلمين بالامتثال والخضوع لاوامره ونواهيه التى لم تعد مواكبة للمجتمعات الانسانية فى عصرنا الحاضر ، فاذا بذلك الدين

يصرفها الى العبادة ، ويحملها على الاتصاف بالقناعة والرضا بالمكتوب ، ويحذرها من المغامرة ، ويقعد بها عن الاخذ بوسائل التقدم التى اصبحت ضربة لازب فى المجتمعات الحضرية اليوم .

وانطلت هذه المزاعم على فئتنا المحفزة المتحركة الحائرة الضالة لا سيما وقد رأت من واقع الاشياء فى الحياة العملية ما لا يستقيم الامر معه الا باحد ثلاثة : بنبذ الدين الذى لم يعد صالحا فى نظرها لحكم الحياة العملية وتوجيهها والهيمنة عليها ، أو بفهمه فهما آخر غير الفهم الذى عكفت عليه القرون السابقة فتقدم على تغييره وتبديله ، أو بالاصداع بما لا حيدة عنه من وجـود التفريق بين الدين والدنيا . وهذا كما قال شيخنا المرحوم محمد الفاضل ابن عاشور يصف هذه الجماعة :

« بقى المسلم وفيا لعقيدته الدينية ، غيـورا عليها من جهة ، متقبلا لحياته العملية مطمئنا الى واقعها من جهة أخرى ، حتى اصبح المبدأ النظرى والواقع العملى عنده متباينين . فسقطت فى نفسه منزلة الحياة العملية التى يحياها باعتبار أنهـا مباينة لدينه الكريم ، فتلقاها تلقى المستهتر يعرف الشر ويعيش به ، فهانت نفسه ايضا فى نظـره لانها تعيش اسيرة لحياة الشر لا تستطيع أن تغيره ولا ان تتنحى عنـه ، وتولدت عن ذلك العقيدة النفسية الخطيرة عقيدة الشعور بالنقص الذاتى ، وعقيدة اليأس من استقامة الحياة الدينية ، وعقيدة الالف لحياة الشر مع موت الوازع الذى يصد عنها . وتولدت من ذلك نظرية تفكيك الدين عن الدنيا باعتبار ان الدين خير واقع ، والدنيا شر واقع ، وان العبد المسلم يحمل بين جنبيه دينا لا يؤثر فيه الا لماما ، ويعيش فى دنيا لا يعرف فيها الاكل ما يبعد به عن الدين . فاصبح الذى كان يصدر عن أرادته القوية ، صـادرا عن يأسه من الدين الذى اضعفه وافناه . ثم هجمت عليه فى حياتـه العملية مدنيات اجنبية عنه ، فيها العلم وفيها الصناعة ، وفيها القوة وفيها الحكمة . فلم يجد من ارادته الدينية ما يتناول " هذه المدنية كما تناول المدنيات التى احتك بها من قبل يوم كانت ارادته الدينية قوية سليمة . فوقف امامها جامدا واعتبرها من جمـلة صـور الحيـاة التى كان من قبل آمن بانفكاكها عن الدين » .

تلك هى الفئة الثانيـة التى احببنا ان نقف عندها وهى بانواعها ومواقفها الثلاثة ، تلك التى تندرج فى معظم مجتمعاتنا الحاضرة . وهى التى بحكم هذه الملابسات المختلفة تدفع الناس من حين لآخر وفى كل صقع من اصقاع البلاد الاسلامية بدافع الحيرة والقلق وارادة الوصول الى الحل الناجع الى التساؤل أو وضـع اسئلة متعـددة مختلفة متقاربة تريد الاستفسار من ورائها عن الاسلام ومقتضيات النهضة الحديثة ، وعن مفهـوم الدين الاسلامى ، وعن مفهوم النهضة الحديثة وعما يوفره الاسلام من سلاح أو طرق للانتصار فى طريق النهضة والتقدم .

وهى مشاكل لعمرى لا يمكن ان تعالج أو تجد الحل الا عن طريق الفئة الثالثة المتألفة من ذلك النمط الوسط المتفجج المتفكر لانه لم يكن قعـديا كالفئـة الاولى وان اشبهها فى تعلقـه بالدين وبالحضارة الاسلامية ، ولم يكن متمزقا ولا نابذا أو هداما احيانا كالفئة الثانية وان ماثلها فى الحيرة والتساؤل والجد والحماس . وهو بحـكم جمعه بـين الخيرين : التمسك بالقيم الروحيـة الدينية والحضرية الاسلامية ، والعمل على استرجاع العزة وتحقيق النهضة والتطور ، وبحكم مباعدته ونبذه للشرين القعدية والثورة على الماضى بما فيه ، والتنكر لاصول المدنية الاسلامية ، يقدر بدون شك على بعث الامجاد القومية فى العالم الاسلامى وجعله فى هذا الظرف العصيب مواكبا للنهضة ، قادرا عليها ، متطورا معها تطورا يكتب له التقـدم ، ويعيد به وله من بهجة الاسلام ما سلب .

صدر عن هذا الفريق الثالث من الناس أو كما سميناه النمط والفئة الثالثة التى تحتل من المثلث قمته فى الزاوية العليا الوسطى ـ عن اصل لامراء فيه ولا جدال ، لا يقبل الطعن ، يستخف ويزأر بالمقالات المغرضة والدعاوى والافتراءات الباطلة الفاتنة ، حسبما أكدت ذلك الدراسات والانظار والبحوث القديمة والحديثة الاسلامية والغربية على السواء . وذلك الاصل هو سلامة الدين وبراءته مما الصق به ، واحتفاظه دائما بالطاقات والقوى التى يمكن أن تاتى بكل عجيب ويتفجر منها من الحياة ومظاهر الرقى والتقدم ما قامت عليه الدلائل فى الماضى . وليس بمستبعد أن يحصل مثله فى الحاضر أو الآتى القريب .

وهذا النمط من الناس ظهر فى كل فترة من فترات التاريخ الاسلامى ، ابتداء مع الصحابة واستمر مضطلعا بالامانة ، متحملا لرسالته الى هذا العصر . وهو من النمط الثانى واقف موقف الرقيب والموجه فى كل طور . فكلما حلت بالمسلمين كارثة أو ظهرت فى جماعتهم فتنة تصرفهم عن الجادة وتعرضهم للاخطاء الفادحة والاخطار الماحقة ارتفع صوته مدويا بالاصلاح ، مناديا بالعلاج على اساس ما يدركه فى كل مرة من اوضاع دوله انها سبب الداء واصل الانحراف وموجب الخطر والعذاب .

واتسمت الحركة الاصلاحية الاولى بالفردية المطلقة حين استشعر الفرد ما يحيط به من مغريات الدنيا ومباهج الحياة التى قطعت لدى الكثيرين الصلات فيما بين العبد وخالقه ، والانسان وربه . فكانت المتصوفة المحاربة لمسالك الغواية وسبل الضلال . وكان حرصها على اصلاح الفرد دافعا بها الى توضيح المناهج الربانية ولفت الانظار الى ما اصطلح عليه عدد كبير منها بالمعرفة والطريق الى الله .

وتلاشت العلوم الاسلامية حين نظر الناس الى اشكالها القائمة مسرفين فى ذلك غير منتفعين بما تدعو اليه من حقائق وما وضعت من اجله من معارف . فكانت صيحة الامام حجة الاسلام ابى حامد الغزالى الذى اسرع الى وضع كتابه احياء العلوم مريدا بذلك احياء الفكر وبعث الحقائق العلمية الدينية بالتنبيه على المنجيات والتحذير من المهلكات .

ثم جاء العالمان الجليلان والمصلحان الشهيران ابو بكر الطرطوشى وابو اسحاق الشاطبى ، فخالفا الاتجاهين الاول والثانى . واعتبرا ان الادواء المهددة للجماعة الاسلامية مستقرة فى السلوك الجماعى لا فى الوضع الفردى . ومن ثم اتسعت دعوتهما ولم تقصر على الفرد تصلحه أو تنبهه وتحذره ، ولكنها تولت السلوك الجماعى للامة الاسلامية بالنقد منددة بما اقبلت عليه هذه من بدع ، وفرطت فيه من احكام . فدعوا الى مقاومة البدع والاعتصام بالشريعة وتطبيق احكامها وأخذ الناس كافة بالقسطاس العدل وما تستوجبه النصوص .

وفى نهاية القرن السابع وفجر القرن الثامن ظهر بالمشرق علم فذ ورائد اصلاح مبرز هو شيخ الاسلام تقى الدين ابو العباس احمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحرانى . فاذا هو يتجه فى دعوته الاصلاحية كالاخيرين ايضا الى السلوك الجماعى ، ولكن من حيث اتصاله بالعقيدة وارتباطه بها . فنعى على الناس البدع ايضا ، ودعاهم دعوة صريحة حازمة الى اتباع مناهج السلفية والاقبال على ما جاءت به التعاليم الاسلامية البسيطة السمحة المشرقة . وقد كان لاثر دعوة هذا الامام صدى بعيد فى النفوس عرفنا من آثاره الثورة الوهابية التى تزعمها فى العصر الحديث رائدها محمد بن عبدالوهاب .

وفترت فيما بين هذا وذاك الحركة الاصلاحية تمثل الاجيال المتلاحقة فيها ارجاع نداءات العاملين

الاولين وآراء الدعاة المتقدمين السابقين الى ان كان العصر الحـــاضر بمـا يتطلبه من قوى وطاقـات للخروج بالعالم الاسلامى مما هيمن عليه بل غرق فيه من فتن واحن وتأخر وانقسام وجهل وجمود .

وتكونت جمعية العروة الوثقى وجـــاء السيد جمال الدين الافغانى الذى صدع بما يناسب عصره هو ايضا من آراء فاتجه بدعوته لا الى اصلاح الفرد ولا الى محاربة البدع ولكن الى تدارك الكيـــان السياسى للامـــة والبحث عن وسائل تطبيقية ، والخروج به من محنته والبلوغ به الى ساحل النجاة كى يبل من مرضه وتعود الى الجماعة الاسلاميـة عزتها المفقودة وسيادتها المصلوبة . وقد جعل شعار دعوته الصدوف أولا عما تميزت به الفئة الاولى التى اشرنا اليها فى طالع حديثنا من الاعتداد بمـاضى الاسلام والمفاخرة بامجـاده مـع الرضى بالدون والقعود عن العمل . ولوح اليه ثانيا فى الاشارات البيانية ونداءات الفزع التى استصرخ بها ضمير الامة كى تهب من سباتها مرددا من آجل توكيد ذلك قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بانفسهم » .

وتلقى من يده باليمين مشعل الاصلاح ولــواء الدعوة اخص تلاميذه واقربهم اليه الاستاذ الامام محمد عبده . فكان ــ رحمه الله ــ فى دروسه ومحاضراته وخطبه ومقالاته ومواقفه ومجادلاتـــه يركز العقيدة الدينية ويذود عن الاسلام بقدر ما يشرح للناس واجباتهم ويهيب بهم للاخذ بقسطهم فى الكفاح التحريرى جاعلا من الفوارق القائمـة بينهم وبين غيرهم من الامم الحجة للدين على الجماعة الاسلامية بسبب جمودها لا للجماعات الاسلامية على الدين لكمال قدرته وصفاء روحه .

وتلا هذين الامامين والمصلحين الشهيرين زعيم سياسى اشتهر بدفاعـــه عن الاسلام وذوده عن انظمته وقوانينه ، حاول هو ايضا ان يتعرف على الداء الذى نخر كيان الامة واتلف قواها فلم يرده الى ظهور البدع ، ولا الى تغير الاوضاع مجمـلا غامضا ، ولا الى الجمود الذى تحدث عنه الشيخ محمد عبده فى رسائله ، ولكنه اراد ان ينفذ الى الاعماق يشخصه ويتولى بعد ذلك وصف علاجه فوضع من اجل ذلك كتابه « لم تاخر المسلمون وتقدم غيرهم » .

وهـذا الرجـل هو فقيد العروبة والاســـلام المغفور له شكيب ارسلان امـــير البيان ، تشهد مقالاته وكتبه وندواته وتعاليقه الثرة القيمة على حاضر العالم الاسلامى للكاتب الامريكى ستـوارد بما كان له من فضل وما بذل من جهود فى سبيل الاصلاح ، وتخليص المجتمع الاسلامى مما يتخبط فيه ويعانيه ، غير ان هذا الزعيم المصلح فكك بين الدين والمدنية وهو ينظر الى المجتمعات اليونانية والرومانية وأحوالها قبل التنصر وبعده حتى اذا عاد يتحدث عن الامـة الاسلامية نقض الاصــل الذى بنى عليه من التفكك بين الجانبين ورجع الى الربط بين الدين والمدنية . فلم يصل بذلك الى محـل الداء ورجـع الى العموميات والى مـا ردده المصلحون من قبل من « ان سقوط المسلمين كان بسبب ما صنعه المسلمون بايديهم وما حادوا به عن النهج السوى الذى اوضحه له دينهم وقرآنهم ».

وتنتهى هذه المرحلة التى كافحت فيها الشعوب الاسلامية وتظهر ثمرات الاصـلاح المختلفة التى اجتمع عليها رجال العروة الوثقى ومن لاذ باصولها واعتمد مناهجها فى الدعوة كالامير شكيب ، فيخرج العالم الاسلامى دولة دولة واقليما اقليما من وضع الاحتلال والتبعية الى حال الاستقلال والحرية . ويعود المسلمون جميعا بعد ذلك فى سائر الانحاء والاقطار الى الاسئلة التى تعودناها يبحثون عن طريق النهضة وسبيل التطور راجعـين بانفسهم الى موقف الاسلام من ذلك كله ورأيه فيه .

وفى الرجوع الى القاء هذه الاسئلة على انفسنا لا نكون فى حاجة الى التذكير بما قلناه اولا ووصفنا

به العالم الاسلامى فى ايام عزته وشبابه ، ولكننا ننطلق منه الى بحث ما يمكن ان تذلل به الصعاب لبحث الامجاد الاسلامية ودفع هذه الامة التى تعتز وتتشرف بالانتساب اليهـــا الى تحقيق اليقظـة الشاملة بمواكبة العصر أولا ، ثم بالسير على منوال اسلافنا الاماجد فى نشر اصول الحضارة الاسلامية الانسانية بما يكفل للمجتمعات فى هذه المعمورة أمنا واستقرارا ، ورخاء وسلما .

وهاتان الغايتان الجليلتان ابعدهما وأيسرهما ، وادناهما واخصهما لا يردنا عن بلوغها راد ، ولا يحول دون الوصول اليها مانع ، مهما كان نوعه أو شكله ، اذ الاسلام عزم وقوة ومدد للخيرات ومتفجر للقوى الغريبة والطاقات العجيبة .

وهذان الهدفان يتعلق احدهما بالامة الاسلامية خاصة لتحقيق النهضة وسبل الرقى والتطور ، فتخرج مجتمعاتنـا من التخلف وتواكب الامـــم الناهضة المتقدمة فى مجالات السيادة ومظـــاهر التمدن والحضارة . ويتعلق ثانيهما بما على هذه الامـــة من واجبات ازاء الانسانية كلهـــا حيث استخلفها الله فى الارض واصطفاها وجعلها خير امة اخرجت للناس ، ونسخ بشريعتها ودينها كل الشرائع والاديان من قبل اذ لم تقف مفاهيم الدين فيها عند العبادات والطقوس الدينية كمـا كانت الاديان سابقا ولكنها تجاوزت ذلك عندها الى ما دعا له الاسلام من أنظمة وأوضاع ، واقامه من اصول وقواعد لبناء المجتمعات السليمة وتحقيق التكافل الاجتماعى والنهوض بالانســان والحفاظ على كرامته وتنظيم ثرواته وتنمية مكاسبه بمـــا لم نلمس له مثيلا فى أى دعوة من الدعوات الاخرى دينية كانت أو غير دينية .

وهى متى توصلت الى الاضطلاع بهذه الامانة وحققت للعالمين هذه الغاية قضت على المنافسات ، وأطاحت بكثير من المبادىء الهدامة ، وخلصت الدنيا من ويـلات الانتهازية ومظـاهر التحـكم والاستبداد ، ونشرت فى الكون معانى الفضيلة والخير بما يكون قد ساد العالم بظهور دعوتهـــا من هيمنة الخير على الشر وسلطان الحق على الباطل وقيام العدل على الجور والظلم . وليس هذا بدعا من الامر وقد « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض » .

تلك هى الاهداف التى عمل من أجلها الاسلام ، حققها واضحة رائعة بارزة ملموسة ، واذا تخلفت اليوم وعادت الحال بالمسلمين الى نقيض ما كانوا يسعون الى تحقيقه داخل مجتمعاتهم وخارجهـــا فذلك سببه ذهاب الروح الاسلامى منهم ، وفقدان العامل التربوى الاسلامى الذى نبتهج بمثل هذه اللقاءات العاملة على احيائه واذكائه والذى نحرص فى هذا البلد وفى غيره من البلاد الاسلامية على العناية به وتقويته للاستفادة منه والاعتماد عليه فى بناء المجتمع الافضل .

قال الاستاذ الامام الراحل شيخنا محمد الفاضل ابن عاشور ، قدس الله روحه ، فى الدراسة التى عنون لها بروح الحضـــارة الاسلامية متحدثا عن الروح الاسلامى الدينى وعن هذا العامل التربوى وأثره :

« فاذا كان الناس اليوم يحنون الى عهـــود ذهبية ازدهرت بها العواصم الاسلامية مثل دمشق وبغداد والقيروان وقرطبة وسمرقند ، ويتحرقون على احيائها وتجديدها ، فاجدر بهم ان يعودوا الى العامل الاصلى الذى ولد تلك العصور الذهبية ، والذى بدونه لن تعود زهرة تلك العصور وينعها الا وهو العامل التربوى الاسلامى .... فهو الذى كون الفرد عقلا ونفسا،وخلقا وسلوكا،وهو العامل الاصلى الذى ولد الحضارة وكون المجتمع الامثل ، ومهد للثقافة طريقها الى ان تتناول عناصر المعرفة وتؤلف كيانها ، فقامت الحضارة الاسلامية على ذلك المجتمع المتلائم ، وبرزت الثقافة بازهارها اليانعة من بلور تلك العناصر المتلاحقة » .

فتـــاوى :

فتـــوى فى أوجـه خاصـة بالحـالـة العـائليـة للمهـاجـرين الجـزائريـين

بمناسبة الاجتماع الذى عقد بسفارتنا بباريس يوم 12 ذى القعدة 1390 هـ الموافق 9 جانفى 1971م تحت رئاسة السيد أحمد قائد عضو مجلس الثورة ومسؤول جهاز الحزب ، وبحضور السادة : مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ومحمد بجاوى سفير الجزائر فى باريس ، وعبد الكريم غريب رئيس ودادية الجزائريين بأوروبا ، طرح مندوبو الودادية والقناصل الجزائريون فى أوروبا مشكل الحالة العائلية للمهاجرين الجزائريين

وعبروا بالحاح عن رغبتهم فى ايجاد حل شرعى لمشكلة الانكحة التى وقعت خارج القطر الجزائرى والاولاد الناتجين عنها . فقد ولد العدد العديد من الاولاد فى الهجرة ، من آباء جزائريين وأمهات جزائريات وغيرهن من المسلمات والكتابيات ، فى حالات خاصة ، نظرا للظروف الصعبة التى كان يعانيها مواطنونا فى الخارج ، بأنكحة لم تستوف بعض الشروط اللازمة شرعا .

وعند نهاية الاجتماع كلفت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بدراسة الجانب الدينى لهذه المشكلة وايجاد حل شامل ونهائى لها ، بمشاركة وزارة العدل .

فتكونت لجنة ترأسها وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، لدراسة مختلف جوانب هذه القضية ، واقتراح الحلول المناسبة .

وكانت اللجنة مؤلفة من موظفين بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وأعضاء من المجلس الاسلامى الاعلى ، ومحامين ، وفقهاء ، وأساتذة ذوى الاختصاص فى الشريعة الاسلامية . ومن بينهم موظف بوزارة العدل ، كان يشغل سابقا منصب نيابة ادارة الشؤون الدينية .

وبعد دراسة الموضوع من كل نواحيه ، فى جلسات عديدة ، وبعد الرجوع الى مصادر التشريع الاسلامى ، وحفاظا على مصلحة الامة خاصة ، بما فيها أبناؤنا المغتربون ، وهم جزء منها لا يتجزأ ، واعتبارا للخطر الذى يهدد الاطفال الناتجين عن هذه الانكحة فى حالة ما لم يلحق نسبهم بآبائهم شرعا ، رأت اللجنة اصدار الفتوى الآتية :

من المعروف أن الرأى الراجح عند أغلب المذاهب الاسلامية ، وفى المذهب المالكى بالخصوص ، وهو المذهب المعتمد فى الجزائر ، وفى المغرب ، وفى عدد من البلاد الاسلامية يقضى بألا نكاح الا بولى وصداق وشاهدى عدل .

الا ان اللجنة ، عملا بمبادىء التشريع فى الاسلام ، واعتبارا للواقع ، لجأت لحل هذه

المشكلة نهائيا ، الى آراء بعض الفقهاء الكبار ، وان كانت ضعيفة . فصنفت حالة المغتربين كما يلي :

1) **الانكحة التي فيها شبهة** ، كانعدام الشاهدين ، أو عدم تسمية المهر ، أو انعدام الولي ، تفتي اللجنة بصحة هذه الانكحة ، وباثبات نسب الاولاد الذين نتجوا عنها ، عملا بما جاء في الفقه الاسلامي ، فقد روى عن أحمد ابن حنبل أحد الائمة الاربعة ، أن الزواج يصح من غير شهود ، وفعله ابن عمر ، والحسن بن علي، وابن الزبير ، وسالم وحمزة ابنا بن عمر ، وقد قال به كثير من الائمة ، منهم يزيد بن هارون ، والعنبري ، وأبو ثور ، وابن المنذر ، بل ان ابن المنذر لا يثبت في الشاهدين في النكاح خبرا . وكذلك فان النكاح بغير ولي فيه خلاف في الحد . لان الحد يدرأ بالشبهات . فاذا ثبت هذا فان من اعتقد صحة النكاح بدون ولي فليس عليه اثم . قال ابن المنذر : اجمع كل من نحفظ عنه من علماء الامصار على ان الرجل اذا وطيء امرأة بنكاح فاسد ، انها تحرم على ابيه وابنه واجداده وولد ولده ، وهذا مذهب مالك والاوزاعي والثوري والشافعي واحمد واسحاق وابي ثور واصحاب الرأي ، ولانه وطء يلحق به النسب : «عن كتاب المغني لابن قدامة الحنبلي » (كتاب النكاح) .

2) **المعاشرة :**

أ ـ بدون اولاد : في هذه الحالة تفتي اللجنة بوجوب الاستبراء بحيضة واحدة ثم يجدد عقد الزواج على أصول الشرع الاسلامي .

ب ـ المعاشرة مع وجود أولاد : بعد الرجوع الى المصادر الفقهية المعتمدة **رأت** اللجنة استنادا الى آراء كثير من العلماء ، منهم أبو حنيفة أحد الائمة الاربعة ، واسحاق بن رهويه ، وعروة بن الزبير ، وهو من التابعين ، وسليمان بن يسار وهو كذلك من التابعين ، **الحاق هؤلاء الاطفال بآبائهم وتصحيح عقد الزواج** .

قال ابن قدامة (في كتاب المغني ، كتاب الفرائض) في فصل وحكم ميراث ولد الزنا في جميع ما ذكرنا كحكم ولد الملاعنة ، والجمهور على التسوية بينهما لانقطاع نسب كل واحد منهما بأبيه ، الا أن ولد الملاعنة يلحق الملاعن ، اذا استلحقه . وخلاف قول الجمهور فان ولد الزنا يلحق بأبيه ، قال الحسن وابن سيرين من مشائخ التابعين : يلحق الواطيء اذا أقيم عليه الحد ويرثه ، وقال ابراهيم : يلحقه اذا جلد الحد ، وقال اسحاق بن رهويه يلحقه ، أي ولو لم يقم عليه الحد .

وذكر عن عروة وسليمان بن يسار مثل ذلك ، وروى علي بن عاصم عن أبي حنيفة أنه قال لا أرى بأسا اذا زنا الرجل بالمرأة فحملت منه أن يتزوجها مع حملها ويستر عليها والولد ولد له .

ملاحظات عامة

1) ان النص المعتمد لهذه الفتوى هو النص الاصلي العربي .

2) ان هذه الفتوى لا يمكن **بحال من الاحوال** ان تجعل ذريعة للتمسك بهذه الاوضاع والتمادي فيها . وانما هي فتوى أعدت لظروف خاصة ، ولحل مشكلة معينة ، ولفترة زمانية محدودة ، اذ استند فيها على آراء ضعيفة في الفقه الاسلامي .

3) يجب القيام بحملة توعية في أوساط مهاجرينا ، وخاصة في أوروبا ، تهدف الى افهامهم قواعد الشرع الاسلامي في مثل هذه العقود .

4) يتعين التاكيد على ضرورة اصدار تعليمات دقيقة ومشددة لكي لا تعقد الانكحة في المستقبل الا وفقا للشريعة الاسلامية ، ولدى هيئاتنا الديبلوماسية والقنصلية ، مثلما تفعل أغلب البلاد الاسلامية ـ ومنها المغرب ـ بالنسبة لمواطنيها .



الثورة العالمية ومستقبل الغرب

تأليف: فريد مان

تقديم: د. محمد العربي ولد خليفة

يعتبر هذا الكتاب على صغر حجمه من اهم الدراسات ـ فى الفلسفة السياسية ـ التى ظهرت فى أوائل الستينات من هذا القرن يكشف مؤلفه ـ و. فريد مان ـ عن علم غزير بالمذاهب الفلسفية والتيارات السياسية ، التى لاحت بوادرها فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، وهو يستهدف من وراء هذا البحث القيام بعملية فحص للذات وتقويم لما تعطى وتتلقى ، وهو يرى أنه لكى تتم هذه العملية ينبغى ان يتحلى الدارس بالصدق والشجاعة على مواجهة معطيات الحضارة الغربية وتحليلها بدقة بدون خوف أو تردد . وتنبنى خطة التحليل والمناقشة التى انتهجها المؤلف على ثلاثة مبادىء اساسية :

١ ـ تناول الموضوع بطرق ومناهج متعددة لا تركن الى التحليل المادى ولا ترى فى المثالية منفذا وحيدا للتفسير . « فان الآراء والمعتقدات والبيئة الاجتماعية والظروف الاقتصادية تبحث كلها على أعتبار أنها ناشئة فى تفاعلها بعضها مع البعض الآخر فى فترة معينة بدون ان يكون لاى من هذه العناصر أسبقية زمنية أو منطقية » .

٢ ـ لا يمكن الحكم من الناحية العلمية على أن أسلوبا من أساليب الحياة السياسية أو الاجتماعية صحيح تماما .

3 ـ ان التقدم ليس عملية آلية أو محتومة فبين التقدم والتدهور خيط رفيع يمكن أن ينفصم ، ولا يضمن أتصال هذا الخيط سوى ارادة التقدم وحدها .

لا يحدد المؤلف معالم الازمة التى تهدد المدنية الغربية فى صورتين تتمثل أولاهما فى الاضطراب المستمر فى العلاقات والقيم وهو اضطراب بلغ قمته فى فترة ما بين الحربين وما تلاها .

وتظهر ثانيتهما فى انتشار المذهب العدمى وتغلغله فى تلافيف الحياة الشخصية والاجتماعية للافراد والجماعات .

ثم ينتقل المؤلف الى تحديد ماهية المدنية الغربية متتبعا مسيرتها منذ العصور الهلينية باحثا عن بذورها « العالمية » فى الرواقية والتشريع الرومانى والنظام المسيحى والفردية فى عصر النهضة والمذهب العقلى فى القرنين ـ ١٧ ، ١٨ ـ وفى فكرة القومية والنزعة الرومانتيكية فى القرن ـ ١٩ ـ ، فعلى الرغم من التغيرات العنيفة التى طرأت على هذه الحضارة فانها تميزت بالقدرة على الاستمرار والتوازن لسببين : أولهما الاعتقاد بأن فى الانسان جوهر روحى يسمو به عن المادة الخاملة . وثانيهما ايمانها بأن الانسان جزء من الطبيعة ولا يختلف عنها ، الا بقدرته على التحكم فيها بالفكر والسيطرة عليها بالعمل .

وقد تحددت هذه العوامل أكثر فى مطلع هذا القرن وأصبح مدلول المدنية الغربية يعنى على الخصوص المبادىء الستة التالية :

١ ـ الاعتقاد بأن الكون يسوده نظام موضوعى ، لا تتدخل فيه الغريزة ولا تؤثر فيه الرغبات والاهواء ويرى و . فريدمان أن هذه الفكرة تمثل اتجاها عريقا فى المدنية الغربية فهى تنسب الى السفسطائيين اليونان وقد تجلت بدقة ووضوح فى الفكر الرواقى الذى يرى أن العقل جزء من الطبيعة ، ثم اندمجت على يد « توما الاكوينى » فى النظام الالهى للكون وعادت الى الانفصال من جديد على يد كل من جرينوس ، ولوك ، وباين وروسو .

٢ ـ الاعتقاد بمثل أنسانية وعالمية ، وهو أعتقاد لم ير النور فى سياسة الدولة اليونانية التى قسمت البشر الى طبقتين : سادة متفوقون بحكم الجنس وعبيد منحطون لانهم « برابرة » أو أجانب .

الا أن هذه المثل وجدت منفذا فى الفكر الرواقى المبنى على مبادىء القانون الطبيعى ، وقد تم تطبيق هذا الفكر على يد الاسكندر المقدونى ، ولكن هذا الفكر ما لبث أن أصطبغ فى العصور التالية بصبغة دينية لازمته طوال القرون الوسطى . وفى العصر الحديث سقطت الفكرة الدينية لتفسح المجال لنظريات متصارعة . حاول بنها رجال القانون وفلاسفة السياسة وضع مبادىء للقانون الوطنى والدولى تبرر تصرفات الجانب الذى ينتمون اليه ، فقد وجدت كل الحروب التى دارت رحاها فى القرون القليلة الماضية من يدافع عنها على أساس القانون الدولى !

3 ـ تبلور فكرة القومية : يرتبط نمو المدينة الغربية الحديثة بنمو مجموعات كبيرة ومنظمة من الناس يوحدها ولاء مشترك لحكومة مركزية ويعزز هذا الولاء عدة عوامل تأتى فى مقدمتها اللغة والثقافة والجنس والجغرافيا والاحداث التاريخية التى عاشتها تلك المجموعات السكانية .

4 ـ الفردية : وهى من أهم خصائص المدنية الغربية وقد مهد لها رجال الاصلاح ودعمتها النهضة العلمية وقد اتخذت الفردية شكلين رئيسيين أحدهما أنغلو سكسونى عبر عنه كل من لوك وباين بوجه خاص وثانيهما فرنسى أوحى به ج . ج . روسو .

5 ـ الايمان بالتقدم : من أهم سمات المدنية الغربية ايمانها الجازم بالترقى فى مظاهره العلمية والمادية (الثروة) والاخلاقية . فقد سجل العلم انتصارات باهرة فى ميادين العلوم الطبيعية والاجتماعية ضاعفت من ثقة الانسان فى التحكم فى العالم الخارجى . وقد عبر بنتام عن ذلك فى تعريفه للمثل الاعلى فهو فى رأيه « تحقيق أعظم قسط من السعادة لاكبر عدد من الناس عن طريق حرية الفرد فى الابتكار والنشاط وخاصة فى المجال الاقتصادى . كما جعل « كونت » العالم يتقدم فى صورة مراحل يتولد بعضها من بعض . واستخدم « سبنسر » نظرية البقاء للاصلح الداروينية ليبرهن على ان النظام الاجتماعى يتقدم بسرعة تستدعى من الانسان تلاؤما وتكيفا يحفظ حياته ويقيه من الهلاك .

وبعد أن يقرر المؤلف أسس المدنية الغربية متتبعا جذورها منذ أن تجلت فى « الفتنة » اليونانية ، يلاحظ أن تلك الاسس تحمل بين جنبيها عوامل التوتر والتصارع وهى عوامل تجعل المفكر فى حيرة وتوقف . ذلك لان القرن الحالى لا يشارك القرن التاسع عشر اعتقاده الراسخ بضرورة الترقى ، فاننا نعلم بدون حاجة الى تقديم الدليل المتوفر على مصير المدنيات الاخرى أنه لا السعادة العظمى ولا المقاييس الاخلاقية قادرة على أن تخلص الناس أو الامم أو المدنيات من الدمار ، فالقوة فى الواقع لا تستطيع وحدها أن تقيم المدنيات ولكنها تستطيع بكل تأكيد أن تمحوها .

ويحدد فريدما ثلاثة مشاكل رئيسية تواجه المدنية الغربية ويتوقف عليها مصيرها :

1 ـ العلاقة بين المانيا والغرب فان أحداث التاريخ ووقائعه برهنت دائما على أن الالمان كانوا يتحدون المدنية الغربية فى مذاهبها وأساليب حياتها وقد بلغ هذا التحدى ذروته فى حربين عالميتين وضعتا المدنية الغربية قاب قوسين أو أدنى من الهلاك .

ويفسر الفيلسوف « سانتيانا » فى كتابه الذائع الصيت (الاثرة فى الفلسفة الالمانية ـ طبع سنة 1916 واعيد طبعه سنة 1936) ، هذه الظاهرة بأن تاريخ الفلسفة الالمانية يتركز فى تمجيد الذات ويبدو ذلك فى درجات متفاوتة فى فلسفات كل من ليبنتز وعوالمه الصغيرة التى لا تحصى وكانط فى اتجاهه الكوبيرنيكى الذى يربط فهم العالم بملكات العقل النافذة ونيتشه فى فلسفته المثالية ثم هيغل فى عمليته المنطقية التى يوجد فيها بين الفرد والكون . وكذلك نيتشه الذى جعل ارادة القوة محور كل تفكير وتعقل . وحتى « غوته » الرجل العالمى المؤمن بوحدة الوجود يجعل « فاوست » هو مثله الاعلى وهو مثل يتركز فيه القلق الديناميكى الذى يحصر فيه الفرد تفكيره فى ذاته فحسب .

كما تميز الفكر الالمانى بخاصية أخرى تبدو

معارضة للاولى وهى الاسراف فى الرومانتيكية الذى تولدت عنه نزعة قومية غامضة وعنيفة ، تتخذ صورة نظريات قضائية وسياسية لشكل الدولة ونظامها . بحيث يكون الفرد فيها مجرد ذرة صغيرة لا قيمة لها خارج الكل .

ومن خلال الاسراف فى المثالية والرومانتيكية يستخلص فريدمان مجموعة من الاتجاهات التى اتسم بها الفكر الالمانى :

أ ـ تكشف المقارنة بين فلسفات كل من كانط وفيشته وهيغل أن الفلسفة المثالية الالمانية ترى أن عقل الفرد وحده هو الذى يخلع على العالـم معناه .

ب ـ تنزع الفلسفة الالمانية نزعة صوفية تمثلت بوجه خاص فى تعاليم لوثر وفى موسيقى فاغنر التى تجمـع بين الغموض الرومانتيكي والعنف الذى يمجد الحرب .

ج ـ يعتبر التفكير الالمانى الامة والدولة نظامان عضويان لهما شخصية معنوية قائمة بذاتها وحياة متصلة ويتضح ذلك بوجه خاص عنـد الشعراء أمثال شيللر ، ونوفاليس وشبيغل ، والفلاسفة امثال فيشته وشيلنغ وهيغل والمشرعين أمثـال سافينى وجيرك والمؤرخين أمثال تريتشكه ورانكه.

د ـ فكرة الرسالة البروسية فى العالم وتعنى هذه الفكرة أن الامة الالمانية تحمل على عاتقهـا رسالة فهى الامـة الوحيدة التى تتمثل فيهـا الظواهر الكونية للبشرية قاطبة وقد عبر نيتشه عن ذلك بقوة اذ يقول : « ان الالمانى هو الشخص الوحيد الذى له أمة ، وهو الذى يمكن أن يتوقع أن تكون له امة وهو وحده الجدير بأن يحب أمته حبا حقيقيا معقولا . »

هـ ـ دأب الفكر الالمانى على احتقار الاتجاهات الانسانية والقانون الدولى نظريا وعمليا ويبدو ذلك واضحا فى آراء فريدريك البروسى وتلاوزويتز وهيغل الذى ارتأى أن الحرب هى الحكم والقـول الفصل فيما نأتى ونذر ، هـذا فضلا عن آراء شبنغلر وتلاميذ المدرسة الهيغلية أمثال كوفمان وشميدت وبندر ولارنو وبوكهوف ... الخ .

و ـ عبادة القـوة وتمجيد الحرب واحتقـار التوسط والتعلق بالبطولة وقد أكد شبنغلر هذه الاتجاهات فى كتابه عن تدهور الغرب .

وبالاضافة الى هذه الاتجاهات التى تعتبر فى نظر الكثيرين انحرافات أو مظاهر سبلية للمدنية الغربية فان الفكر الالمانى والاتجاه الرومانتيكى فيه ـ بوجه خاص ـ قد ساهم الى حد كبير فى تطور المدنية الغربية .

ولكى تنجو المدنية الغربيـة من تدمير نفسها بنفسها تدميرا لا تقوم لها قائمة بعده ينبغى فى رأى المؤلف أن تستعد لثورة جديدة تقوم على نسق جديد من القيم وأسلوب جديد من الحياة بدأت بعض بوادره تلوح فى الافق البعيد ، ويعتمد هذا النسق الجديد على خمسة دعائـم متماسكة ومتماثلة :

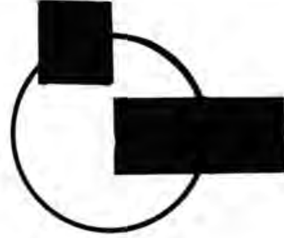
1 ـ توكيد حرية الانسان وحاجته الى النمـو باعتباره فردا قائما بذاته .

2 ـ ضرورة ترجمة هذه الحرية بلغة العـدالة الاجتماعية والاقتصـادية أى استبدال نظـام اقتصادى فردى لا ضابط له توجهه حوافز الكسب بنظام اقتصادى موجه .

3 ـ التوفيق بين السيادة القوميـة ووحـدة الانسانية .

4 ـ اعادة التوازن بين التقدم المادى (فى العلم والثروة) وبين التقدم الروحى والادبى .

5 ـ التعـاون بين فئات تتفق فى الوسائل والاهداف على الرغم من اختلافها عقائديا .



بعض الإنطباعات عن الملتقى الخامس

للتعرف على الفكر الإسلامي بوهران

كان للملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى صدى كبير فى صحافة العالم العربى والاسلامى ، فبالاضافة الى التعاليق الضافية التى نوهت بالمواضيع التى درسها الملتقى وجرى فى اطارها حوار ايجابى مثمر ، وبالجو الحار المتفتح ، وبالحماس المتعقل الهادىء الذى تميزت به المناقشات . بالاضافة الى كل ذلك ، نشرت أغلب صحف ومجلات العالم العربى والاسلامى ـ وخاصة صحف حزب الاستقلال بالمغرب الشقيق ـ نصوص التوصيات التى صادق عليها الملتقى .

وهذه عينة عن بعض هذه الانطباعات :

كان الملتقى عربيا وساده جو من الحرية الكاملة

ساد الملتقى جو مفعم بالمودة والحيوية وهـذا ليس بالغريب فهو ملتقى اسلامي يتعلق بالمبادىء والسلوك .

وبالفعل فقد منعت ولاية وهران المقاهى طـول مدة انعقاد المؤتمر من بيع الكحول , وبعد نجاح هذا المنع فان الحكومة تفكر فى تمديد مدة المنـع شيئا فشيئا حتى يصبح دائما معمولا به وقـد اوردت الحكومة عند تقديم هذه المشاريع , النصوص الدينية المتعلقـة بذلك , وذكرت انهـا سوف تستشير مجلس الافتـاء التـابع لوزارة التعليم الاصـلى والشؤون الدينيـة فى الاجـراءات التى تتخذها .

وكان هذا هو ما فعلته بالنسبة لقضية تحديد النسل عندما صرح العلماء انها محرمة من الناحية المبدئية غير ان هناك حالات شخصية يجب مراعاتها وشروطا يجب توفرها وخاصة فى قضية العـزل (عملية منـع الحيوان المنوى من الوصـول الى الرحم) حيث يجب اتفـاق الزوجين على ذلك وعدم استعمال بعض المواد .... الخ .

اذ نظرا لهذه الفتوى ولاعتبارات اجتماعيـة أخرى قررت الحكومة التريث فى اصـدار قانون تنظيم الاسرة بشكله النهائى .

وكذلك عندما صرح الوزراء بانـه سيتم قلع اشجار الكروم قالوا ان الجزائر بلد اسلامى يجب ان لا ينتج الخمر ويصدره .

واكثر من ذلك فان وزير العدل عندما تكلم على مبدأ التبنى قال : انه بعد استشارة العلمـاء تبين انه مبدأ مخالف للقرآن لهذا تركت عمليـة التبنى جانبا واعتمد ما جاء فى « المدونة » المغربية بخصوص احلال طفل محل الابن فى حدود الاشهاد الشرعى .

وبخصوص الاصلاح الزراعى وقيام التعاونيات هناك اشارة دائما للمبادىء الدينية واختيار مذهب من المذاهب الاربعة غير ان المهم فى كل هذا ليس اختيارا أو عدمـه بل اعتماد مبدأ الرجـوع الى النصوص الدينية ومصادر القانون الاسلامى وهو ما يؤكد العزم على تطبيق الاشتراكية الجزائرية فى نطاق الدين وبموافقة الشعب الجزائرى باكمله .

لقد كان هذا الملتقى ملتقى عربيا ايضا فالجميع تكلم عن مبدأ العروبة والوحدة العربية والمحاضرات والمناقشات جرت بالعربية ، ولئن القيت فى بعض الاحيان كلمات بالفرنسية فان ذلك اثار احتجاج الطلبة العنيف والمطـالب بالتـكلم بالعربية لان الجزائر بلد عربى مما اضطر المحاضرين الى التكلم بالدارجة أو بالعربية المبسطة .

ولعمرى انها لفرحة كبرى ان ترى الاشخاص الذين منعهم الاستعمار اثناء دراستهم من تعلم العربية يبذلون مجهودا جبارا لادراك ما فاتهم ، ويتحدثون للامة العربية بلغتها .

ولا ابالغ اذا قلت ان هذه العربية البسيطة التى تحترم قواعد النحو كان التعبير بها أحسن . لانها جاءت ثمرة لمجهـود داخلى يستقى من العربيـة الاصيلة الصافية .

والمشكلة كما قال قائد أحمد : ليست امكانية لغة ما من مواجهة التطور أو عدم امكانياتها بل مشكلة قدرة الانسان على التعبير عما يفكر بلغته .

وهناك ظاهرة أخرى هى ان الجزائر التى تطبق الاشتراكية لا تخرج عن نطاق مفاهيمها العربية الاسلامية ، فلم اسمع أى محـاضر أو منـاقش يستعمل المفاهيم الماركسية بل العبارات كانت ذات مفهوم عربى ولو عند الكلام عن الاشتراكية أو الاصطلاحات المختلفـة ، لان الجزائريين يريـدون الاستفادة من مدنية الغرب باخذ الاشتراكيـة ولكنهم يدركون فى نفس الوقت ان المهم هـو المحتوى وليست المظاهر . فنعم للاشتراكية ولكن على اساس المبادىء الاسلامية وبالعبارات القرآنيه وبهذا تندمج الاشتراكية فى حياة الشعب الجزائرى وتكون اشتراكيته اسلامية عربية مغربية .

والمظهر الثالث للملتقى هو الحرية الكاملة التى تركت للمشاركين فى التعبير عن افكارهم ، كما كان المحاضرون صرحاء عند الادلاء بآرائهمولو عند الحديث عن النظام الرسمى للجزائر أو الاشتراكية وتطبيقها .

علال الفاسي

مترجم عن جريدة « لوبينيون » المغربية .

يبدو لى أن هذا الملتقى قد أحرز تقدما حقيقيا بالقياس الى الملتقى الرابع الذى انعقد فى العام الماضى بمدينة قسنطينة . وقد تجلى هذا التقـدم فى عدة أمـور :

الاول ، هو الاهتمام الكبير من جانب المسؤولين فى الجمهورية الجزائرية ومن جانب الهيئـــات والافراد : فقد افتتح الملتقى بخطابين هامـين ، أحدهما خطاب السيـد وزير التعليم الاصـلى والشؤون الدينية ، بين فيه المبادىء والاهـداف والحاجة الى العمل على تحقيقها وتطبيقهـا فـى مجتمع اليوم ، وثانيها خطاب وزير الاعـــلام والثقافة,وفيه دعا الشبيبة الصاعدة الى الاستمساك بعرى الاسلام فى مواجهة تحديات العصر . كما أن ثلاثة من الوزراء قد حرصوا على أن يتحـدثوا الى أعضاء الملتقى عن نتائج تجاربهم فى وجـــوه الاصلاح فى مختلف المرافق العامة للبلاد من تعليم وتشريع وصناعة وزراعة واقتصاد .

والثانى ، هو التركيز على القضايا الثلاث الكبرى التى تشغل بال الشعوب الاسلامية الناهضـــة فى العالم الحاضر ، واستبعاد قضايا أخــرى فرعية قد يكون من شأنها اثارة الخلاف بـــين الاشقاء ، وهم أحوج ما يكونون الى الائتلاف .

والثالث ، هو المكان المرموق الذى ظفـــرت به اللغة العربية فيما ألقى من محاضرات وما أثير من مناقشات عن اللغة والثورة الثقافية . وممـا يلفت النظـر فى هذا الملتـقى حرص جميـــع المسؤولين على أن تكون العربية لغة المحاضـرات والتعقيبات والمناقشات . وأحسب انهم قد أصابوا فى هذه المحاولة نجاحا موفورا ، هو ثمـــرة للجهود الدائبة المحمودة التى بذلت فى هـــذا السبيل . وقد أثبتت هذه التجربة الواعية أن الوحدة اللغوية القائمة فى المجتمع العـــربى هى وحدة حقيقية حية لا نظير لها فى العالم المعاصر . وما على أبناء العربية الا أن ينموها وأن يزكـوها على مستوى الافراد والجماعات ، وذلك باستغلال جميع الطاقات والامكانيات المتاحة اليوم ، مـن طباعة ونشر واعلام ، لكى يحققوا من أهداف الثورة الثقافية فى سنوات ما كان يعجز عنه أسـلافنا فى قـــرون .

والرابع ، هو المحاولة الجادة للانتقـال مـن مرحلة النظر الى مرحلة العمل : فقد كانت الفكرة الغالبة لدى المنظمين لهذا الملتقى هى فـكـــرة التغيير والثورة ، لا مجرد «التعرف» والوصف ، كما كان الشأن الغالب فى الملتقيات السابقـة . وقد كانت توصيات الملتقى ومقرراته معبرة عـن صدق العزيمة على مجاوزة الآراء والتـأملات ، والقصد مباشرة الى التحقيق والتنفيـذ ، مـــع الحرص الدائب على الجمع بين المحافظة على التراث الاسلامى والتفتح الواعى على منجـزات العلـــم ومسايرة ركب التقدم .

وبعد فلا أستطيع أن أتحدث عن انطباعاتى عن ملتقى الفكر الاسلامى فى وهران ، دون أن أنوه بأمر كان موضع الاعجاب والتقدير لدى جميـــع المشتركين فى هذا الملتقى : ذلك هو الجهد الفائق الذى نهض به وزير التعليم الاصلى طوال أيـــام الملتقى وبعد انتهائه ، بهمة لاتعرف الكلل ، وايمان راسخ بنبل الرسالة ، وأمل كبير فى مستقبـــل الاسلام والعروبـة .

د . عثمان أمين

استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

حضارة الاسلام انسانية شمولية

هذه اول مرة اشهد فيها اجتماعا تشرف عليه حكومة عربية اسلامية من اجل التخطيط لقضايا خطيرة في حياة امتنا في اطار الاسلام
لم يكن الامر امر احاديث عامة عن الاسلام والثقافة الاسلامية بل امر بحث جاد يرتكز على قواعد علمية يقصد فيه ان لا تنفلت وجوه التطور في حياتنا من قواعد الاسلام وضوابطه

ولكن الحديث لم يقتصر على الضوابط التي تضبط وتربط ، وتحدد وتقيد ، اذ أن ضبط ما هو وافد من الخارج ، لا يعدو أن يكون عملية تصفية وتنسيق وتوفيق لامور وافدة من الخارج ، غير منبثقة من الداخل . وهذه العملية على أهميتها لا تكون الا جزءا واحدا من عملية التطور التي تمر بها الامة . في اطار متطلبات الحياة الحديثة ...

لذا ، كان لا بد من عملية أخرى أعمق وأوسع وأبعد خطرا في حياة الامة . تلك هي الالتفات الى الاسلام في شكله الصادق الصافي لكي نشتق منه وسائل الارتقاء والتقدم حتى لانتاخر عن الركب الحضاري من جهة ، وحتى يكون التقدم الذي نحرزه محفوزا بدوافع الاسلام وتعاليمه ، وهي الدوافع والتعاليم التي صنعت للبشرية حضارة متميزة ...

وفكرة صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ، تصبح خالية من المحتوى اذا ما تحولت الى عبارة ترددها الافواه ، دون أن يوجد الانسان المسلم الذكي النقال ، الذي ينفذ الى أعماق العقيدة ومعطياتها ، فيخرج منها دائما بالجديد الذي يساير الزمن ، بل ويسبق الزمن دائما ...

والحضارة المنبثقة عن الاسلام ، كانت انسانية شمولية ، لا تنحصر في حدود الاقليم والعرق ، وهذا النوع من الحضارة ، هو الذي تحتاجه الانسانية في وقتنا الراهن ، لتكون الحضارة عامل توفيق وتجميع ما بين بني البشر، بدلا من ان تكون عامل تفرقة وتمزيق ...

وحين اختارت وزارة التعليم الاصلي في الجزائر الشقيقة موضوعات تتصل اتصالا مباشرا بحياتها كأمة مسلمة ورثت عبئا ثقيلا من مخلفات الاستعمار ، وحين تكون هذه الموضوعات مرتبطة كذلك الى حد كبير بمشاكل المسلمين الحالية ، وبتساؤلات تدور على السنة الشباب المسلم بصورة خاصة ، فانها اضفت الصبغة الواقعية العملية على موضوعات البحث ، وخلصتها من الطابع القطري الاكاديمي الذي اصطبغت به بحوث الكثير من المؤتمرات في العالم الاسلامي.

ثم ان تجمع عدد من رجال الفكر الاسلامي في مكان من بلاد الاسلام بصورة منتظمة كل عام، مع ما يترتب على ذلك من لقاءات شخصية فيما بينهم ، يؤدي بصورة تلقائية الى تعميق الشعور بالانتماء الى الامة الواحدة ... وما اجمل أن يشعر المسلم أينما كان ، بأن همومه وتطلعاته ، غير منحصرة في اطار البقعة الجغرافية الصغيرة التي ينتمي اليها ، بل هي هموم الانسان المسلم، المرتبطة بحياة أمة الاسلام ، حيثما كان هناك مسلمون . وغني عن البيان ، ان امتداد هذا الانتماء في دنيا الاسلام ليصبح شاملا جامعا ، له من الآثار العملية الشيء الكثير ، ولو بعد حين، في عصر تقاربت فيه الشعوب من أجل مصالح آنية تجمع فيما بينها ، فكيف بمجموعة من البشر ، تجمع فيما بينها وشائج العقيدة والحضارة والتاريخ ، وتهددها أخطار مشتركة الا يمكن دفعها الا بالتضامن والتكاتف وتوحيد الجهد ؟ !

وفي ختام هذه الكلمة القصيرة ، أرى انه لا بد أن تتوافر في الانسان المسلم الذي يسهم فكريا في هذه الملتقيات صفتان : اولاهما أن يكون الاسلام بالنسبة اليه دعوى يحملها ، ورسالة يبلغها ، لا مجرد ثقافة يدرسها ، وثانيتهما أن يكون حظه من المعرفة أصيلا عميقا ، لكي يجمع في اي اسهام له ما بين حرارة الدعوة وعمق المعرفة ، ولن يغني أحد الامرين عن الآخر . ولا ريب أن وزارة التعليم الاصلي مدركة لذلك واعية له ، أخذ الله بيدها لما فيه خير الاسلام ، وجزاها عمن يخلصون للاسلام خير جزاء .

د. محمود ابراهيم
استاذ بالجامعة الاردنية

توصيـــات :

الاســلام ومشاكل الاسـرة وتربيـة الجيـل فى عالـم اليـوم

بما أن الشريعة الاسلامية تعتبر الاسرة الخلية الاساسية للحياة الاجتماعية وتربية النشء .

وبما أن نظام الاسرة فى البلـدان العربيـة والاسلامية يواجه أخطار التفكك والانحلال الذى يظهر بصفة خاصة فى سلوك الشباب . وذلـك بسبب أزمات ناشئة عن تطوره السريع من جهة وتسرب تيارات ثقافية وحضارية أجنبية لايتماشى بعضها مع الاسس الاصيلة لهذا النظام .

وبما أن وجود نظام متماسك للاسرة يمثـل القاعدة الاساسية والشرط الاول للانطـلاق فى بناء شخصيتنا الوطنية والحضارية المتميـزة والمتفتحة فى نفس الـوقت وبما ان الثقـافة والتوعية يجب أن تصل الى داخل هذه الاسـرة لقيامها بتربية اسلامية بناءة سوية فان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقـد بمدينة وهران من 27 جمادى الاولى الى 9 جمادى الثانية 1391 هـ الموافق لـ 20 ـ 31 يوليو 1971 م يوصى بما يلى :

1 ـ وجوب تعليم المرأة حتى تتمـكن من القيام بمسؤولياتها فى تربية النشء والمشاركة الفعالة فى تطوير مجتمعاتنا النامية وذلك بايصال الثقافة الى داخل الاسرة بالوسائل الاعلاميـة المختلفة ومشاركة المرأة فى الحياة الثقافيـة داخل المساجد والمعاهد والندوات مع تشجيع المنشورات المتخصصة فى مشاكل التربيـة والاسرة .

2 ـ التأكيد على ضرورة توحيـد القوانـين الخاصة بالاسرة فى جميع البلاد الاسلامية لضبط أنظمتنا وتشريعاتنا فى هذا الميدان طبقـا لمبادىء الاســلام .

3 ـ تشجيع الدراسات الاجتماعية والعلميـة الخاصة بالاسرة فى بلادنا العربية والاسلاميـة لأحصاء مشاكلها وفهم ظروفها واقتراح الحلول اللازمة لها .

4 ـ مقاومة كل التاثيرات والحركات الـتى تهدد كيان الاسرة الاسلامية سواء كانت ثقافية أو مادية أو اعلامية وتعبئة جميع الوسـائل والامكانيات لتوعية المواطنين بهذه الاخطار .

5 ـ ابعاد النشء وخاصة البنت عن المدارس التبشيرية المنتشرة فى جميع البلاد العربيـة والاسلاميـة .

6 ـ العناية بالاسرة المسلمة خارج العـالم الاسلامى وخاصة فى اوروبا وامريكا بشمالهـا وجنوبها حيث تتعرض هذه الاسرة للذوبـان والامحـاء .

7 ـ لا نعارض تحديد النسل على مستـوى الافراد فى الحالات الضرورية وانما نعارضـه على مستوى الامة لان ظروف البلدان تختلـف ولاننا نرى أن هذه الحلول سلبية ويجب ايجاد المدارس ورياض الاطفال لا منع ايجاد الاطفال .

الاسـلام ومتطلبـات التنميـة
فى الاقتصـاد الحـديث

ان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد فى وهران من 27 جمادى الاولى الى 10 جمادى الثانيـة 1391 هـ الموافق 20 – 31 يوليو 1971 م .

استجابة لدعوة السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالجزائر والذى شارك فيه عدد من العلماء والاساتذة لمختلف الجامعات الاسلامية .

وبعد الاستماع الى المحاضرات التى القاها كل من السادة :

عبدالسلام بلعيد
علال الفاسى
محمد المبارك
محمد بن البشير
محمد بن عبدالعزيز
عبدالمجيد مزيان

عن موضوع الاسلام ومتطلبات التنميـة فى العصر الحديث . وبعد الاستماع الى التدخـلات والمناقشات التى وقعت فى الموضوع كون لجنة من السادة المحاضرين التى اجتمعت وتدارست هـذا الموضوع فاستخلصت مشروع توصية نظر فيهـا المجلس وأقرها على الصيغة الآتية :

أولا : ان الاسلام فرض على معتنقيه العمـل وجعله عنوان الكرامة الانسانية وبذلك استطاع المسلمون فى عصورهم الزاهرة أن يبنوا حضارة روحية ومادية ومجتمعا ناميا قوامه العدالـة الاجتماعية .

ثانيا : ان الاسلام مذهبا اقتصـاديا متميزا وصالحا لكل زمان ومكان أساسه العدل والاحسان والتعادل فى الحقوق والواجبات وعلى المسلمين فى كل عصر أن يستمدوا من تعاليمه ومذهبه مـا يساعدهم على مواصلة سير التنمية الاقتصاديـة طبقا لمقتضيات التقنيات الحديثة وعلم الاقتصاد .

ثالثا : وفى حدود الاسلام يمكن للمسلمين أن يستفيدوا من كل ما استجد من وسائل تقـدم الانسان والتجـارب التى تقـوم بهـا مختلف الشعوب والحضارات .

رابعا : ويعتقد رجـال الملتقى أن الهـدف الاساسى لعملهم هو تحقيق تعادلية اقتصادية وأن واجب الدولة هو رفع مستويات المعيشة للمواطنين وأحداث تقارب بينها بتوزيع عادل للدخل القومى وتمكين المواطنين من الفرص المتكافاة وتحرير الفرد من جميع أنواع الاستغلال فى الظلم وبالاخص من سيطرة رأس المال وان كل عمل يجب أن يكون فى خدمة الجماهير الشعبية ومصلحة الامة .

خامسا : يعتبر الملتقى أن الشغل هـو رأس الامة الاساسى وأنه واجب على جميع المواطنين وحق

من حقوقهم الاساسية أن للعامل الحق فى أجرة تتفق ومستوى المعيشة والانتاج وحاجة البــلاد الى توظيف الاموال .

سادسا : يرى وجوب الاهتمام بسكان القرى والمزارع باصلاح شؤونهم وحياتهم وأمتـاعهم . بجميع الحقوق التى يتمتع بها السكان الحضريون مع تحقيـق اصــلاح زراعى يهتم بتنظيم الملكية العقارية على أساس عادل كما يهتم بتجديد وسائل الانتاج واعطاء كل ناحية ما يناسبها .

سابعا : ويرى الملتقى أن من واجبات الدولـة التدخل فى الميدان الاقتصادى فى اطار التخطيطات العامة التى تؤمم أو تراقب بحسب المصلحـــة القطاعات الاقتصادية الحيوية كالقروض والتأمين والطاقة والنقل والمنـاجم والصناعـات الاساسية واحترام الملكية الخاصة والابتكار الفردى ما لـم يؤديا الى تجميد الاموال أو عرقلة نمو الانتاج أو تكونا سببا فى البطالة والكسل .

توسيع وتنمية نظـام التعاونيات الذى ييسر أسباب المبادلات ويخفض من الاثمان وذلك برفع الدخل القومى والقوة الشرائية للمواطنين كمـــا يمكن من تنظيم الامة داخل وحـدات اقتصــادية واجتماعية تنمى روح التضامن بين المواطنين »

ثامنا : يوصى الملتقى قـادة المسلمين وشعوبهم بالتعاون على اقامة نظام اقتصادى متفق مع مبادىء الاسلام وقواعد العدالة الاجتماعية .

بوضع أسس التعاون الاقتصادى بين الـــدول الاسلامية ليكون هذا التعاون عاملا فعالا عـــلى التنمية الاقتصادية التى هى أهم معركتنا ضــد الصهيونية والاستعمار ولتحقيق الرخاء ورفـــع المستوى العام للشعوب الاسلامية .

وأهم الخطوات لذلك :

1 – انشاء مجلس اقتصادى اسلامى مشترك تمثل فيه جميع الدول الاسلامية لتنسيق العلاقات الاقتصادية على أساس التكامل والتعاون .

2 – وضع مخطط مشترك يهدف الى تبـــادل الخبرات والمعونات وتشجيع التجارة والمبـــادلات الاقتصادية .

3 – يقوم هذا المجلس باعـــداد المعـــاهدات والاتفاقيات والتوصيات اللازمة للسير نحو وحدة اقتصادية اسلامية .

أ – باقامة سوق مشتركة .

ب – بازالة الحواجز الجمركية تدريجيا .

جـ – بتسهيل استقبال الاشخاص والبضائع

د – بتشجيع المشروعات المشتركة بـــين الـــدول الاسلامية واستخدام رؤوس الامـــوال الاسلامية فى داخل العالم الاسلامى لفائدة الشعوب الصغيرة والبـــلدان المزدحمـــة بالسكان وانشاء مصارف مشتركة تقوم بذلك على أساس لا ربوى .

4 – انشاء بنك دولى اسلامى للانشاء والتنمية على أساس لا ربوى .

5 – تشجيع تبـــادل الخبرات الفنية ورؤوس الاموال الاسلامية .

6 – انشاء غرفة تجارية وصناعية مشتركـــة والتعاون فى الدراسات الاقتصادية ونشر المعلومات، والعناية بصفة خاصة بمباحث المذهب الاقتصادى فى الجامعات الاسلامية .

7 – تشجيع سياحة المسلمين للبلدان الاسلامية وتنظيم وسائلها والتعاون فى صناعتها .

8 – عقد مؤتمر دورى لوزراء الاقتصـــاد فى الدول الاسلامية والعمل على تأسيس جامعة علمية اسلامية كبرى لبعث الثقافة والفـــكر الاسلامى والعمل على توحيد الاتجاه العام للمسلمين .

وان الملتقى الاسلامى الذى لمس أعضاؤه الجهود التى تبذلها الحكومة والشعب الجـزائرى لاقامـــة مجتمع متعادل مبنى على أساس الشريعة الاسلامية وقواعد اشتراكية مؤمنة بناءة يحيى هذا الشعب النبيل وقادته الكرام وعلى رأسهم السيد هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة الجزائرية .

ويعرب عن أمله الكبير فى أن تتبنى الحكومـة الجزائرية هذه المبادىء وتدعو اليها ليتحقق بذلك معنى هـــذا الملتقى الاسلامى وما يرمـز اليه من تضامن اسلامى متين .

اللغـــة والثـورة الثقـافيـة

بما أن هدف الثورة الثقافية تصحيح الوضع الثقافي الراهن في الوطن العربي والاســـلامي ، وصيانة التراث القومي واقامة حضارة أصلية .

وبما أن اللغة العربية من حيث كونها لغة القرآن الكريم تقوم بدور هـــام في الثورة الثقافية على مستوى الوطن العربي من جهة ، وعلى مستوى العالم الاسلامي من جهة أخرى .

وبمـا أن اللغـــة مكون أساسي من مكونات الشخصية والحضارة ، من حيث انها تجمع بـين الحفـــاظ على التراث الاسلامي والاســتفادة من منجزات العصر .

وبما أن ضرورات التنمية والبحث العلمي في الاقطار النامية تستلزم التفتح على العالم الخارجي بمداومة الاطلاع على التراث العالمي .

وبما انه قد كان واضحا من البحوث التي القيت في الملتقى الخامس عن اللغة والثورة الثقافية أن اللغة العربية ، رغم الجهود التي بذلت حتى الان لتنميتها في البلاد العربية لا تزال دون ما يرجى لها أن تبلغه ، وأنها معرضة في بعض البـــلاد الاسلامية لتخطيطات استعمار ثقافي هدفه ابعاد المسلمين عن مصادر ثقافتهم الاصيلة .

فان الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بمدينة وهران من 27 جمادى الاولى الى 9 جمادى الثانية 1391 هـ الموافق لـ 20 ـ 31 يوليو 1971 م :

اذ ينوه بالجهود المثمرة التي تبذلها الجزائـر الناهضة في ميدان التعريب ، واذ يحمد لوزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية مساعيها المتواصلة في تأكيد هذه المعاني في جميع المجالات ، يوصي بما يلي :

1 ـ تعبئة جميع الطاقات والامكانيات لمحـو الامية في أوساط الجماهير الشعبية .

2 ـ اتخاذ ما يلزم الاجراءات الكفيلة بجعـل اللغة العربية لغة الادارة في جميع المرافق الحكومية وغير الحكومية .

3 ـ القيام بتربية لغويـة منظمة على مستوى الفرد والاسرة والمجتمع وخلق جو يمكن العربية من أن تحتل المكانة اللائقة بها ، وذلك عن طريق وسائل النشر والاعلام المختلفة .

4 ـ جعل اللغة العربية لغة التعليم في جميع مراحله ، ودراسة تجربة جامعة دمشق في تدريس العلوم الطبيعية والطبية بالعربية والاستفادة منها في امكان تعميمها في سائر الجامعات العربية .

5 ـ بذل الجهود لتيسير نشر الكتب والصحف والمجلات العربية على أوسع نطاق ، والقضاء على جميع المعوقات التي تحول دون تداولها في جميع الاقطار العربية والاسلامية .

6 ـ الحرص على كتابة الرسائل الجامعية عموما باللغة العربية والتوصية بأن يكون لجامعاتنا الاشراف الفعلي على الرسائل المتصلة بالدراســـات ذات الطابع العربي والاسلامي والعدول فورا عن الخطة المتبعة حتى الان من ترك الهيمنة على تاريخنـــا وثقافتنا للجامعات الاجنبية بدعـوى انها أكثـر تخصصا وموضوعية .

7 ـ التعاون مع الجامعات العربية والمجامـع العلمية لوضع معاجم تفي بالمصطلحات الحديثة في جميع فروع المعرفة الانسانية لتكون مراجـــع معتمدة موحدة ، والعمل على اعادة طبع ما نفـــد من المعاجم الموجودة وجعلها في متناول الباحثين .

8 ـ منع جميع انواع النشاط البشري الذي تقوم به المؤسسات الاجنبية تحت ستـــــار الاعمال الخيـرية .

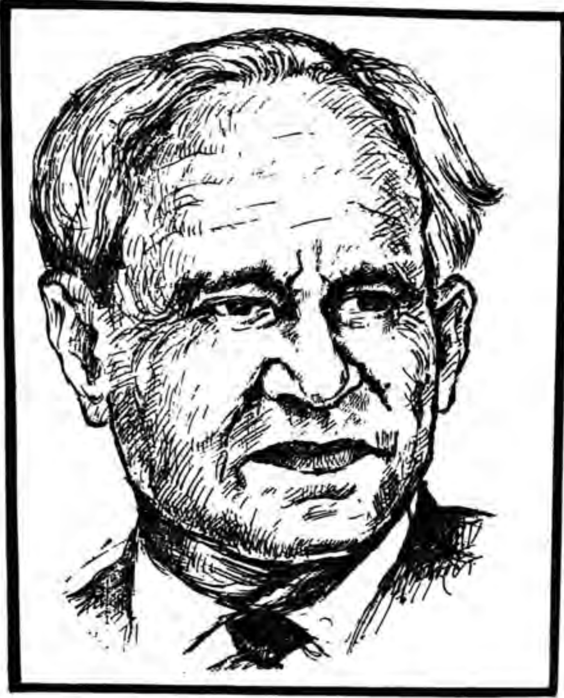
9 ـ تنظيم دورات لغوية ثقافية في البـــلاد العربية من أجل التمكـن من اللسان العـربي والتعرف على الحضارة الاسلامية ، مع استخدام أحدث الوسائل في تعلم اللغات .

مع

التيارات

الفكرية

العالمية



آخر حديث للفيلسوف

ماركيوز

اجرى هاريمان شيلر ، مدير مجلة دويتشه شبيجل الالمانية حديثا مع الفيلسوف هربرت ماركيوز ، كان هو آخر حديث أدلى به الفيلسوف قبل وفاته مباشرة ، ومجلة «الاصالة» تقدم نص هذا الحديث :

ـ هل مازلت عند الرأى القائل بوجود بروليتاريا جديدة فى المجتمعات المتقدمة مخالفة (لبروليتارية) كارل ماركس ؟

ليس هناك شك فى ان الدول المتخلفة تعانى مشكلتين رئيسيتين هما :

1 ـ التربص او الهجوم الاستعمارى بواسطة الاستعمار المباشر او الانقلابات التى تؤدى الى استبدال النظم الوطنية بنظم تتيح للاستعمار القديم او الجديد ان يستمرا فى حرمان الدول المتخلفة من ثرواتها وان يوقف تقدمها .

2 ـ قضية التخلف الراهن علميا واقتصاديا واجتماعيا وحضاريا . بل قضية استمرار هذا التخلف (بسرعة المتوالية الهندسية لا بسرعة حسابية) اذا ما قورن هذا التخلف بالتقدم العلمى والحضارى فى الدول المتقدمة

– أعتقد أنك تستند الى بعض المصطلحات التى كنت استخدمها فى كتاباتى القديمة عن البروليتاريا الجديدة . واعترف أن هذا التعبير لم يكن موفقا ولكن قصدت منه تأكيد أن البروليتاريا الماركسية اهتز مكانها اليوم بعد ان تغيرت طبقة العمال مع تغير ظروف المجتمع الرأسمالى المتخلف . فالاحصائيات تؤكد اليوم ارتفاع أعداد المهندسين والفنيين والعلماء نتيجة للتقدم التكنولوجى وأصبح التساؤل اليوم عن تكوين الطبقة العاملة . . ولا بد من تغيير موقف العامل «بأنه من يملك فقط قوة عمله» . . . فالمهندس يملك قوة عمله مثل العامل اليدوى تماما . . ومع ذلك فمصلحته مع صاحب العمل ورأس المال أكبر من مصلحته مع العامل بالمعنى التقليدى . . لذلك فاختلاف ظروف المجتمع الرأسمالى نتيجة للتقدم التكنولوجى لابد وان يصاحبه تغاير فى التعريفات وتقسيمات الطبقات الاجتماعية .

– هل يعنى هذا ان الطبقة العاملة يمكن ان تدخل فى اطار برجوازى ؟

– أعتقد من الافضل ان يكون السؤال : هل يمكن أن تصبح الطبقة العاملة «برجوازية» ؟ ! والاجابة « بنعم » خصوصا فى الولايات المتحدة وكذلك فى ألمانيا الغربية .. ثم تكون بدرجة احتمال أقل فى فرنسا .. وأقل بكثير فى ايطاليا .. فالتحول الكلى .. العميق .. الذى أصاب الطبقة العاملة نفسها يبدو واضحا وخاصة فى الاتجاه المضاد للاتجاه البروليتارى وذلك لان العامل الصناعى فى أمريكا – مثلا – يحصل الآن على امكانيات تفوق حاجاته الضرورية (فيما عدا الزنوج بالطبع) .. وهذا هو الاتجاه السلبى فى الحركة العمالية . أما الاتجاه الايجابى فيتمثل فى الوعى بتناقضات الراسمالية وشروروها .. وهو أمر يمكن استثماره لصالح الثورة .. وهذا الاتجاه الايجابى يسفر عن قوة متطرفة ضد النظام البرجوازى بأكمله .

– لو عدنا لحركة الشباب وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية .. فهل ترى فى هذه الحركة .. وهذه الاحتياجات الجديدة فى الحركة التى يتزعمها اليسار من الطلبة بدايات للانسان الجديد ؟ !

– نعم .. أرى البداية فيها .. لقد حاولنا وضعها فى كتابى « دراسة عن التحرير » ولكننى أحب أن أشير الى شىء يؤكد ظهور قيم جديدة فى الحركة الاجتماعية وانا على علم تام بأنى بذلك سأعرض نفسى بحماس للسخرية .

ينبغى لنا أن نتعود على مناقشة فكرة لا يمكن تصورها بالفعل من اليسار القديم وهى أن الثورة فى الدول المتقدمة صناعيا وان أتت على الاطلاق فانها على الارجح لن تأتى نتيجة للفقر والبؤس.. لان هذه البلاد غنية بتقدمها ومن الصعب الآن التعبير عن احتمالات المستقبل .

– هل ترى ان تشكيلات اليسار الجديد وتنظيماته قادرة على تغيير المجتمع البرجوازى ؟

– هذا السؤال لا يمكن الجواب عليه الا على أساس الارتباط التام بالتطبيق الفعلى .. وعلى العموم لا يمكن القول بانه يجب على اليسار الجديد أن يجد أنظمة تناسب أشكال التنظيم والتركيب الرأسمالى الجديد .. وتناقضه .. وعلى كل حال لقد اتضح ان الاشكال التقليدية للنقابات والاحزاب الشعبية والتى تتصف بالمركزية

المطلقة الى حد كبير أو قليل قد أصبحت عتيقة بالنسبة للعالم الرأسمالى .

ـ لقد قيل عنك ـ استاذ ماركيوز ـ انك تفصل بين الحركة الطلابية والحـــركة العمالية ، فما مدى صحة هذا الكلام ؟

ـ هراء .. لان هذا يعنى اننى أستطيـع أن أفصل كل ما هو متصل فى الواقع الاجتماعى .. ولا أعتقد بأى حال ان التأكيد على دور الحركـة الطلابية يمثل الاستهانة بقوة النظام الرأسمالى . بالعكس وأكرر ان النظام ليس فى وضع ثورى فالمهمة تتمثل فى هذه الحالة فى الاستعـداد . . أى فى الانطلاق الواعى .. لا مما يحدث للطبقة العاملة فقط .. بل ما يحدث لجميع الطبقـــات الشعبية باستثناء الحكام .

أما بالنسبة لانفصال الحركة الطلابية عـــن الحركة العمالية فهناك السؤال المضاد : **أيـة حركـة عمالية ؟** فى أمريكا لا توجد على الاطلاق حركة عمالية سياسية بالمعنى الثورى .

ـ اخيرا .. ما هو موقع حركة الزنوج فى امريكا من خريطة اليسار الجديد هناك ؟

ـ السود والملونون مازالوا حتى هذه الساعة يتعرضون للاضطهاد اليومى .. فالسخرة مازالت مستمرة فى امريكا والحركة السوداء هناك والتى يطلقون عليها (الفهود السوداء) هى جزء من حركة اليسار الجـديد والتى يأخذ الاتجاه التقـــدمى بالرغم من كل المحـاولات المضـادة لتخـريبها وتشويه صورتها .

ولن آكون قد قلت لك سرا يا صديقى من ان المراة الامريكية البيضاء مازالت تابعة للرجال.. ومازالت هناك فروق شاسعة بينها وبين الرجل.. وتعامل كمخلوق زنجى اعلى مرتبة من الزنـجى العادى .. زنجى من الدرجة الاولى يعنى .. لذلك فانا أعتبرها احدى القوى الثورية الهامة بعـد الطلاب للتخلص من هذا المجتمع البغيض .

N°04

في هذا العدد

ماذا في الجامعة ؟

إصلاح
وتصالح
ومبادئ

تتواصل معركة التحرر الاقتصادى ببلادنا كماتتواصل عملية تصفية بقايا عهد التبعية فى جميع الميادين . والقلاع الباقية للاستعمار ليست اليوم الا قلاع مقاومة ضئيلة يحتضر فيها اصحابها احتضار المعاندين .

سياسة واقتصاد لا تبعية فيهما ولا مراودة ولاطمع للمستعمر . هذه هى الاوضاع السليمة التى ارادها الشعب والتى ارادتها ثورته الطاحنة .ولكن الاستعمار يراود ويعاند ويطمع كلما بدا له الضعف والتردد فى ميدان ما .

اما الثقافة فيجب ان تلتفت اليها ثورتنا اليوم.لان آخر محاولات الاستعمار تتمثل فى لغتنا المسلوبة . وفى الاجيال التى تجرى عليها تجارب التعاون ، وفى بث الخوف والتردد فى قلوب الساهرين على الثقافة والتكوين .

لقد وقع الشروع فى الاصلاح الجامعى تحت شعار التخلص من قيود الاستعمار وتحت شعار التعريب ـ وتحت شعار مسايرة الثقافة للتحرير الاقتصادى والخروج من التخلف ـ وحددت المبادىء تحديدا واضحا لم يبق معها شك ولا تردد . ولكن تطبيق المبادىء لا يمكن الا أن يثير الصعوبات .

لقد تجولنا فى اروقة الجامعة واقسامها واستمعنا للطلاب والاساتذة والموظفين . وحصلت لنا انطباعات كان لا بد من الادلاء بها للمسؤولين وللرأى العام الجزائرى فى هذه السطور .

ان أول انطباع حصل لنا كان شبه دهشة من تباين المواقف أمام هذا الاصلاح الجامعى فمن محبذ ، ومن ساخط ، ومن متردد ، ومن محايد . ولا يمكن الا أن يقال عن هذا التباين بانه حالة مرضية ترجع الى التشتيت الثقافى الموجود فى بلادنا . فالاقليات الثقافية لازالت متنافرة أشد التنافر ، ويظهر أن آمال الانصهار قد فقدت فى المستقبل القريب .

يبدو أن المواقف الشخصية سواء عند الاساتذة أو رجال الادارة قد تغلبت على المبادىء نفسها حينما وقع الشروع فى التطبيقات فكل يفهم هذه المبادى حسب مشاربه وهواه ومصالحه الخاصة .

لقد توجه بحثنا فى هذا المضمار الى مشاكل التعريب على الخصوص لان التعريب هو المبدأ الاساسى الذى ينطوى على كل المبادىء الاخرى فبالتعريب نسترجع شخصيتنا وبالتعريب نتخلص من آثار الاستعمار والتبعية . **وبالتعريب ننفى عنا كل مسخ وانحلال وانحراف ثقافى . ولا نعرف فى هذا القرن العشرين امة تحررت من الاستعمار بطرق ثورية وبقيت متمسكة بلغة مستعمريها**

سمعنا فى أروقة الجامعة كلاما يروج حول التعريب وعلمنا بعد التحقيق انه مجرد ايحاءات لا علاقة لها بالواقع ، ايحاءات تأتى من الفرنسيين المدافعين عن ثقافتهم أو من الجزائريين الفاقدين ثقتهم فى بلادهم وأنفسهم .

ففيما يخص الطلبة يقولون : قبل كل شىء ان الطلبة لا يقبلون التعريب ولقد اتصلنا بالطلبة فبحثنا وكررنا البحث فلم نجد من الطلبة من يناوىء التعريب الا الجماعات القليلة التى أوحى اليها بأن تتقول هذه الاقاويل . أما أغلبية الطلبة فيعرفون مصالحهم ويعرفون انهم سيصبحون مسخا بين أبناء شعبهم حينما تتعرب الادارة وكل مصالح الامة فى القريب العاجل .

وهناك طلبة تخرجوا من الثانويات المعربة فما مصير هؤلاء اليوم ؟ يظهر أن جميع الابواب مسدودة فى وجوههم وذنبهم الوحيد انهم يعرفون العربية . لقد سمعنا بفتح قسم معرب فى كلية العلوم ولكن المناورات التى حيكت حول هذا القرار زيادة على التخوفات والترددات لا ينبىء عن حسن نية كل الموظفين. قيل عن عدد المسجلين لهذا القسم لا يتجاوز بعض الافراد . ثم ظهر بعد البحث ان الاعلانات لم تقع ، وان الاساتذة لم يستعدوا فى الوقت المناسب ، وان الطلبة المترشحين طردوا من ابواب الادارة بدعوى تأجيل التعريب فى العلوم . فمن المسؤول عن كل هذه المناورات ؟ .

اما فيما يخص مزاعم ذوى الاغراض : حــول اللغة العربية نفسها فكثــيرة .

يدعون ان العربية لا تستطيع ولن تستطيــع أن تكون لغة العلم ، ومن أجل هذا يجب أن لاتفتح أقسام عربية فى الكليات العلمية والفنية .ونحن نأسف لهذه الدعاية المغرضة التى تكشف عــن روح استعمــارية سواء عن وعى أو غيــر وعى ، فليست الجزائر هى الامة الوحيدة التى تــريد الشروع فى عملية تعريب للعلوم بل سبقتنــــا تجارب أخرى فى بلاد شقيقة ، ويبدو ان العربية ليست دون العبرانية والفيتنامية فى تحملهــــا للتفكير العلــمى ، ولقد أخبــرنا بعض الطلبـــة المعربين بأنهم اخرجوا من أقسام فى كلية الآداب لان بعض البرامج أصبحت علمية هناك وانه فرض فيها التدريس بالفرنسية لان الفرنسية هى اللغة العلمية الوحيدة ببلادنا ، فيما يزعم المشرفــون على هذه الاقسام المفرنسة . يظهر أن هنــــاك محاولة لاقناع الطلبة بأن اللغة العربيــة لغــــة الادب ولغة الادب فقط . وهذا أكبر تدليس على كيان لغتنا وثقافتنا ومستقبلها التحررى .

اما فيما يخص المشاكل التربوية : فيظهر أنها موجودة حقا ، فهناك طلبة ضعاف المستوى فى العربية ، ولكن يظهر أن السياسة التى اختــيرت حتى اليوم ، مسايرة هؤلاء الضعاف عوضــا عــن العزم على تقويتهم ، أما الاقوياء فى العربيــة فلا يحسب لهم حساب بل يبدو أن جميع الابــواب تسد فى وجوه الطلبة المعربين باستثناء الآداب فى أقسامها المؤدية الى التعليم الثانوى ، ويبدو ان هذا التماطل والتباطؤ فى اتخاذ تدابير صارمــة لتعريب الطلبة الضعاف ، نوع من التدليس حتى تستمر هيمنة اللغة الفرنسية أبد الآبدين .

وهناك اشاعة رائجة يدعى اصحابها ان التعريب يؤدى حتما الى انخفاض المستوى الثقافى ، على وجه العموم ، وقد أعطيت لنا بعض الامثلة بهذا الصدد . ولكن يظهر بعد البحث ان المستـــــوى الثقافى قد عرف بعض الانخفاض فى كل مــن الاقسام الفرنسية والاقسام المعربة وليس لهذه الظاهرة أى اتصال بالتعريب .

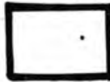
التخــوفات : أما الجو العام الذى يــلاحظه الملاحظ فى الجامعة اثناء معركة الاصلاح فهــو التخوف والتردد فيما يخص تطبيق المبادىء ، وقد رأينا « ان المطبقين يخطون خطوة الى الامــام وخطوتين الى الوراء فيتصالحون مع المناوئــين ، ويسايرون الظروف ، ويذعنون للصعوبات . ولا يستبعد ان تكون هناك قوى خفية منظمة تحــرك الخيوط وتبنى الجبهات ضد التعريب ، فالتصالح مع أعداء المبادىء على حساب المبادىء خطر على مستقبل ثقافتنا ، واذا اردناه اصلاحا صحيحــا فيجب قبل كل شىء أن نوضح المواقف وان نقول بأن الاصلاح يكون بالتطبيق المخلص للمبادىء لا بالتصالح مع الظروف والرجال .

عثمان شبوب

دراسات
ثقافية
وأدبية







التعريب

شرط للثورة

فالتعريب هو اذن تصحيح للوضع اللغوى المفتعل الذى خلفه النظام الاستعمارى وبالتالى فهو جزء لا يتجزأ من معركة التحرير الوطنى الكبرى ، كما انه تصميم لوضع لغوى سليم يجب أن يستجيب لرغبات الشعب العميقة .

يمكن ان نعرف التعريب بأنه اقامة علاقة جديدة بين اللغة العربية ، وهى اللغة الوطنية للبلاد ، وبين اللغة الفرنسية التى احتلت فى ظل النظام الاستعمارى ، وعلى حساب اللغة العربية ، مكانة ممتازة وغير طبيعية فى مجالات الحياة المختلفة ، الادارية والاقتصادية والثقافية .

وهذا التعريف على بساطته قد يساعد على وضع قضية التعريب وضعا صحيحا ويبعد بعض المفاهيم الخاطئة التى قد تلتصق بلفظ التعريب .

وبهذا الاعتبار فهو مطلب أساسى من متطلبات الثورة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

ولم تنل قضية التعريب ـ بالنظر للاهمية التى تكتسيها ـ ما تستحق من دراسة وبحث ، فالنصوص الاساسية التى صدرت حتى الآن عن القيادات الثورية فى الجزائر سواء فى ذلك مشروع طرابلس أو ميثاق الجزائر تكتفى فى هذا الموضوع بالعموميات وقد يكون هذا الامر مقبولا فى مثل هذه النصوص بالنظر الى الظروف

عبد الحميد مهرى
الأمين العام لوزارة
التعليم الابتدائى والثانوى

الاقتصادية والثقافية والاجتماعية

التى حررت فيها . ولكن المناقشات التى دارت بعد ذلك حول هذا الموضوع لم تتعد هذه الحدود الا نادرا بل كانت فى بعض الاحيان تنـزلق نحو الجـدال اللفظى العقيم الذى لا يشجع على الدرس والبحث .

ولم يكن حظ التعريب فى ميدان التطبيق أوفر منه فى ميدان الدراسة النظرية . فقد اتخـذت ـ منذ الاستقلال ـ مبـادرات عديدة لاخـراج التعريب الى ميدان التطبيق ولكن هذه المحاولات لم يكن يربط بينها منطق واضح . وهذا طبيعى مادامت الاسس النظرية لم تتضح ومادامت الجهود المبذولة لا تندرج ضمن خطة عملية موحـدة . وهذا ما جعل التعريب فى نظر البعض قضية معقدة لا يعرف من أين يبدأ درسها ولا الى أين يـؤدى تطبيقها وقد ساعد على انتشار هذه النظرية أن أبرز مبادرات التعريب تمت فى ميدان التربيـة والتعليم وهو الميدان الذى تكتسى فيه هـذه القضية صبغة من التعقيد لا جدال فيها وفيـه تبرز كل جوانبها السياسية والاجتمـاعيـة والتربوية . ولذا كان الانطلاق فى درس قضيـة التعريب من ميدان التربية الوطنية يساعد عـلى ايجاد خطة للتعريب تشمل سائر الميـاديـن الاخرى . وهذا ما يبرز أهمية المناقشات الـتى تدور الآن فى اطار لجنة اصلاح التعليم والتى يجب أن تستمر وتتعمق وتستهدف أولا القضـاء على الرهبة من مناقشة هذه القضية مناقشة موضوعية هادئـة .

وأعتقد ان عناصر هذه المناقشة البناءة يمكن أن تتلخص فى النقاط التالية :

1 ـ الى اى مدى يمكن ان تضطلع اللغة العربية بدور اكبر فى نظام التعليم وفى مجالات الحياة الاخرى ؟

2 ـ هل تخدم اللغة الفرنسية كما نعلمها اليوم فى مدارسنا الاهداف المحددة لها نظريا ؟

3 ـ ما هى العلاقة الجديدة التى يجب ان تقام بين اللغتين على ضوء نتيجة بحث النقطتين السابقتين ؟ وبعبارة اخرى ما هو نوع ودرجة الازدواجية اللغوية التى يمكن ان تطبق فى نظامنا التعليمى ؟

4 ـ ما هى الطريقة التى نسلكها للتدرج فى تطبيق النظام الجديد ؟

5 ـ ما هى الاطارات التى نعتمد عليها لانجاح التعريب ؟

وانى أبادر باعطاء رأيى الخاص فى النقاط السالفة بايجاز وأرجو أن تستمر المناقشة حولها حتى تبرز النتائج واضحة يطمئن لها الجميع .

أولا ـ اعتقادى ان اللغة العربية يمكن أن تضطلع بدور أكبر فى نظام التعليم كلغة وحيدة لتدريس جميع المواد فى جميع المستويات ، ولا أبنى رأيى هذا على ما ادته اللغة فى الماضى من خدمة للحضارة الانسانية بل ان حضارة اللغة العربية نفسها والتقدم التى أحرزت عليه كأداة لنقل العلوم والمعارف الحديثة والتجربة التى مرت بها كلغة تدرس لجميع المواد وفى جميع المستويات فى بعض البلاد العربية يجعلنا نطمئن الى هذا الحكم . صحيح ان اللغة العربية لم تتغلب على مشاكلها بعد ، سواء منها ما يتصل ببنيتها كلغة او ما يمس علاقتها بالمجتمعات العربية او اللغات العالمية الاخرى . ولكن هذه المشاكل لا يمكن ان تقوم حجة لحصر مجال اللغة العربية لان حل هذه المشاكل يتوقف ـ بقسط كبير ـ على استعمال اللغة العربية فى جميع مجالات الحياة .

ثانيا ـ ان الهدف الذى يظهر اننا نرمى اليه من تدريس اللغة الفرنسية فى مدارسنا هو مساعدتنا على الاتصال بالحضارة العلمية والتقنية الحديثة . ولكن مناهج اللغة الفرنسية وطرق تدريسها لم تتطور كثيرا عما كانت عليه قبل الاستقلال ما عدا بعض الاتجاهات التى ظهرت فى المرحلة الابتدائية نتيجة التغيرات الناجمة عن التعريب . **فتدريس اللغة الفرنسية مازال يعتمد على الوصف الادبى والمناهج مازالت مكثفة بالدراسات الادبية ، ونتيجة ذلك كله ضعف الطلاب فى التعبير بلغة سليمة ودقيقة فى جميع مستويات التعليم وفى جميع المواد وفى مقدمتها المواد العلمية** بحيث نستطيع أن نقول بأن اللغة الفرنسية كما تدرس الآن فى مدارسنا لا تساعد على الانفتاح على العلوم والتقنيات الا لكونها تنفرد بتدريس هذه المواد .

ولهذا ينبغى ان نجدد نظرتنا لتعليم اللغة الفرنسية بحيث ندرس لغة وظيفية تمكن التلميذ

من القدرة على التعبير الصحيح ومن التمكن من الاداة اللغوية مباشرة لا عن طريق الدراسات الادبية الموسوعية .

ثالثا — ان العلاقة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية قائمة الآن على تخصيص كل من اللغتين بتدريس مجموعة معينة من المواد . فاللغة العربية هي الاداة لتدريس المواد الادبية ،واللغة الفرنسية هي الاداة لتدريس العلوم والتقنيات . **وهذا التخصيص في رايي خطأ كبير من الناحية القومية والتربوية واللغوية ولا يبرز الاعتقاد بعجز اللغة العربية عن تدريس المواد العلمية او الميل لسلوك الطريق الايسر .**

والعلاقة الجديدة بين اللغتين يجب أن تقوم على أساس وحدة لغة التدريس التي يجب أن تكون هي اللغة العربية . وابقاء اللغة الفرنسية كلغة أجنبية اولى يمكن البدء في تدريسها من السنوات الاخيرة للتعليم الابتدائي .

رابعا — اما كيفية التدرج في اقامة هذا النظام الجديد فهي مسألة هامة تحتاج الى دراسة مفصلة ولكن الطريقة المثلى هي التي تسمح بالبدء في تطبيق سياسة التعريب في الحين على أن يتدرج هذا التطبيق على مراحل مدروسة ووفق مخطط واضح . وأعتقد ان الطريقة التي تتوفر فيها هذه الشروط والتي تضمن لاجيال الانتقال تعليما منسجما وحظوظا متساوية في متابعة التعليم الى أبعد مدى ممكن هي تعريب مجموعات من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية في كل مرحلة . وتوسيع هذه المجموعات حتى يتم تعريب النظام التعليمي كله . والذي يؤخذ على هذه الطريقة هو فصم وحدة النظام التعليمي في مرحلة الانتقال وتجاوز مدرستين مختلفتين طيلة هذه المدة.ولكنني أعتقد انه مادامت المناهج واحدة والمواد الادبية تدرس كلها باللغة العربية في المدرستين فان الفرق بينهما يبقى ضئيلا وهو ينحصر في تدريس المواد العلمية باللغة العربية في المدارس الجديدة وباللغة الفرنسية في المدارس الانتقالية .

خامسا — أما الجواب على السؤال الذي أصبح يتردد كثيرا وهو : من يقوم بالتعريب ؟ فهو في رأيي جميع الاطارات الجزائرية **لان قضية التعريب قضية وطنية لا تستغني عن جهود جميع الجزائريين وكفاءاتهم مهما كانت لغة ثقافتهم الاولى .**

وقد يختلف نوع المشاركة في معركة التعريب من مثقف لآخر وقد تختلف نقطة البدء في هذه المشاركة ولكن الذي يجب أن يجمع الجميع هو الشعور بخوض معركة واحدة لمصلحة الشعب الجزائري كله .

واعتقادي ان هذا الامر ميسور ولازم في ميدان التعليم على الاخص . فالاتهامات التي توجه للبعض بأن ما يهمهم من قضية التعريب هو التطلع لمراكز اجتماعية معينة أو التي توجه للبعض الآخر من تشبثهم بنفس هذه المراكز هو الذي يملي عليهم موقفهم من قضية التعريب لا تأخذ بعين الاعتبار واقعا اساسيا وهو أن المعركة التي تخوضها الجزائر ضد التخلف تتطلب جهودا مضاعفة من جميع أبنائها .

هذا أصل المقال الذي نشر بالفرنسية في مجلة «الثورة الافريقية » عدد 19 جوان 1970 .

مشاكلنا التربوية

وكيف يعالجها

ابن خلدون

عبد الله شريط
استاذ بكلية الآداب ـ جامعة الجزائر

ليس من السهل أن نبحث قضية التربية والتعليم عند ابن خلدون، او أى موضوع آخر ، اذا لم نفحص بدقة وانتباه ، كل صفحة من المقدمة ، لان غزارة الافكار التى ازدحمت عند الرجل ساعة كتابتها . وقد كتبها كلها فى مدة خمسة أشهر ، ومن ناحية أخرى فأن عدم تقدم مناهج البحث تقدما كافيا فى عصره . جعله يدون الافكار أكثر ممايتظمها . وهذه الصعوبة هى التى جعلت كثيرا من الباحثين يكتفون بدراسة المواضيع عند ابن خلدون لا حسب ما سجله عن هذه المواضيع فى كل المقدمة . بل حسب عناوين الفصول التى لا تحوى فى الواقع الا جزءا من تلك المواضيع . وهذا سواء كان الامر يتعلق بالتعليم أو غيره ، فأنت تجد مثلا الطبعة الثانية من

كتاب « آداب المتعلمين ورسائل أخرى فى التربية الاسلامية » وهى رسائل لاخوان الصفا وابن جماعة والغزالى وابن خلدون ونصيرالدين الطوسى وابن حجر الهيثمى . هذه الطبعة التى تعد من آخر ما برز فى الموضوع ، اذ طبعت سنة 1967 ، يعطى فيها جامعها أكثر من تسعين صفحة لابن جماعة نقلها عن كتابه « تذكرة السامع » ويخصص لابن (خ) عشر ورقات . فى حين أن افكار ابن جماعة مثل افكار نصيرالدين الطوسى أو ابن حجر لا نسبة لها من المستوى الذى تبلغه أفكار ابن خلدون فى هذه المادة ، كذلك نجد ما نقله الاستاذ شلبى فى كتاب « **تاريخ التربية الاسلامية** » من المقدمة لا يتجاوز تسع فقرات صغيرة فى كتاب لا يقل عن 450 صفحة . وأكبر من أولى اهتماما لابن خلدون فى هذا الموضوع حسبما نعلم هو الاستاذ المرحوم ساطع الحصرى فى كتابه « **دراسات عن مقدمة ابن خلدون** » اذ يخصص فيه ما لا يقل عن أربعين صفحة لموضوع التعليم من مجمـوع حـوالى 650 صفحة . ولكن المؤلف مع ذلك اكتفى بنقل الفقرات نقـلا على حساب التحليل واستخراج النتائج وابراز المبادىء التى أقـام عليها ابن خلدون فلسفته التعليمية . **ونقول فلسفته التعليمية لان له مذهبا خاصا لم يشاركه فيه غيره ، وهو وحده الذى نستطيع ان نقول عنه بأن له مذهبا حقيقيا تتوفر فيه أغلب ، ان لم تكن ، كل عناصر المذهب من قاعـدة عامة فى التفكير وانسجام مطـرد فى الهيكل المذهبى ، ودقة فى التحليل وتجرد خلقى وعلمى نادر المثال . ومذهبه هذا ليس بالمذهب المادى ولا بالمذهب العقلى ولا بالمذهب الروحى الى غير هذا من المذاهب التى تعودنا تعدادها فى التفكير الغربى الحديث او اليونانى القديم ، ولا هو بالمذهب**



ابن خلدون

الدينى المتزمت ولا بالمذهب التجريدى كما نجدها عند اهل السنة والمعتزلة . وليس هو بالوصايا والحكم وجمع الاقوال وتوزيعها يمينا وشمالا كما فعل الجماعون من اهل عصره . بل اقرب وصف يمكن ان نطلقه على مذهبه بشىء كثير من الصدق هو وصف الواقعية الذى أطلقه عليـه الاستاذ ناصف ناصر فى كتابه « التفكير الواقعى عنـد ابن خلدون » ولكن من الاسف أن الاستاذ ناصف أيضا لم يتعرض لموضوع التربية عند ابن خلدون، بالرغم من أن كتابه يعد من أهـم ما كتب عن الفيلسوف المغربى الشهير .

ولكن ليس معنى هذا أن مذهب ابن خلدون بلغ من الكمال حدا لا يضاهى وانما نحن واجدون فيه ما نحن واجـدوه فى غـيره من النقائص والتناقضات وعدم استيفاء كثير من المسائل حقها من البحث ، أو الافراط فى العناية بمسائل أخرى

لا تستحق كل تلك العناية . ولكن هذه النقائص لا نعثر عليها الا فى مجال المقارنة مع أشباهه من المذاهب الكبرى التى سيطرت على الفكر الانسانى منذ العصر اليونانى الى اليوم والتى لا يخلو واحد منها من تلك النقائص نفسها .

اننا اذا اردنا ان نتحدث عن خصائص مذهب ابن خلدون هذه فان ذلك سيتطلب منا محاضرة خاصة او كتابا كاملا . ونحن اليوم ناخذ قطرة من هذا البحر او قطعة واحدة من هذا المنجم الكبير، معتذرا سلفا عما يمكن ان يكون فى هذا البحث من تقصير فاننى لم اجد امامى ما استعين به على ايفاء الموضوع حقه ، ولان أغلب الذين كتبوا عن ابن خلدون ، استهوتهم منه المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، اما الناحية الفكرية والثقافية فما تزال فيما اعلم لم تبحث بعد .

بل حتى موضوع التربية والتعليم في فلسفة ابن خلدون سنضطر الى الاكتفاء منه بعنصرين فقط ، لان بحثه كاملا يستحق وحده مؤلفا خاصا .

ان ابن خلدون قد بحث هذا الموضوع من عدة زوايا : الزاوية الاجتماعية ، والنفسية ، والفلسفية الماورائية ، والدينية وحتى السياسية ، وهذه هى أهمية الموضوع فى نظرى عنده . لان التربية هى هذه الميادين كلها ، أو أن كل ميدان منها يلعب دوره فى التعليم ، والتعليم لابد أن ينتهى الى كل منها .

ولكن هنا نجد صعوبة جديدة ، لان ابن خلدون لم يعقد فصولا معينة يتحدث فى كل منها عن ناحية محددة من هذه النواحى ، وعن كيفية ارتباط التعليم والتربية بها ، وانما هى تحليلات غاية فى الدقة وآراء فى منتهى الصحة موزعة هنا وهناك تتطلب تنظيما جديدا وعرضا خاصا وطريقة معينة واضاءة مستحدثة تكشف لنا تلك الكنوز فنجدها ما تزال محتفظة بروعتها ، بل نجدها لا تأخذ قيمتها العظمى الا على ضوء تجاربنا الانسانية الكبرى اليوم .

فنحن اذن لن نبحث كل هذه النواحى ، وانما انتهز هذه الفرصة لاقول لطلبتنا الذين يبحثون عن مواضيع لرسائلهم أو أطروحاتهم : ان هذا الموضوع ـ موضوع التعليم ـ يمكن أن يتوزعه عدد كبير منهم لبحثه . فمشكلة المعرفة التى هى الناحية الفلسفية للتعليم جديرة بدراسة خاصة عند ابن خلدون ، والناحية الدينية فى التعليم عنده تستحق وحدها رسالة . والعناصر النفسية فى مشكلة التربية عنده قابلة للدراسة ، والناحية الاجتماعية مع مشكلة اللغة لارتباطهما الوثيق عنده ، يمكن أن نتوسع فيها أكثر ونحتلب من معينها أرزاقا فكرية لا تقدر بثمن ، فضلا عن الناحية الفنية للمبادىء البيداغوجية ، ونظرية ابن خلدون فى مشكلة الفصحى والعامية تستحق كل العناية وكذلك موضوع التعليم والاخلاق ... الخ .

اما أنا اليوم فقد أخذت فى الواقع جزءا معينا من الناحية الاجتماعية واللغوية من التعليم ، وركزت بالخصوص على انعكاس الوضع الاجتماعى عن التعليم فى بلاد المغرب التى ما تزال هذه المشكلة فيها تعد مشكلة اليوم ومشكلة الجيل الصاعد والاجيال اللاحقة . وأعتقد أن كل محاولاتنا لمعالجة موضوع التربية فى بلادنا المغربية

ستبقى معلجة ناقصة تعوقنا فيها كثير من الصعاب المفتعلة اذا لم نتخذ ابن خلدون نقطة البداية فى بحثها . لان علاج المرض فى كل جسم ، سواء كان جسم فرد أو مجتمع جسما ماديا أو معنويا ان صـــح التعبير ، يتطلب قبل كل شيء الفهـم والاحاطـة والوضوح ثـــم التحليل والتركيب ، فقاعدة البحث الديكارتى ما تزال صحيحة . ورأيى هو أن الحظ ، والحظ وحده ، قد أسعفنا بالقاعدة السليمة التى نبنى عليهـــا ملاحظاتنا لشؤون مجتمعنا المغربى هذا ، ومن بينها شؤون التعليم ، وهذه القاعدة هى دراسات ابن خلدون ، وهـو حظ لا تتمتع به كثير من الامم ، ولكن الحظ لـم يحالفنا الى النهاية لانه لم يفتح أبصارنا على هذا الكنز العظيم الى اليوم ، حتى ان حظه من العناية من أجيال اليقظة فى عهدنا اليوم ليست أسعد من حظ الاجيال التى خلفت ابن خلدون مباشرة فى عهد الانحطاط ، وكان أمنية الرجل التى قال فيها : ولعل آخرين يأتون من بعدى يستكملون النقص الذى أكون قد وقعت فيه ، هذه الامنية ما تزال تنتظر ليس فقط أن نكمل بها نقصه هو ، بـل تنتظر أن نستعمل آثاره لفهم مشاكلنا نحن أولا . ان الثروة الاولى التى نستخرجها من دراسة ابن خلدون هى هذا الفهم بالذات ، الفهم الواضـح الذى نبنى عليه الحكم الصحيح .

هذا وقبل البدء فى الموضـوع أود أن ألفت الانتباه لنقطة أخيرة هى من مستلزمات الفهـم الواضح والحكم الصحيح ، وهى ضرورة التجـرد الفكرى والارتفاع العقلى فوق مستوى عواطفنـا الوطنية والدينية ان لم يكن الى المستوى الذى نشارك فيـه آراء ابن خلدون ، فعلى الاقـل الى



المستوى الذى يسمح لنا بأن نستمع الى آرائـه بهدوء وبدون انفعال . فقد آن لنا أن ندرك مبلغ الضرر الذى ألحقناه بتراثنا الفكرى وبعباقرتنا فى التاريخ من جراء أحكامنا العاطفية على أفكارهم التحررية . لان هذه الاحكام ليست خطأ علميـا فقط بل هى خطيئة أخلاقية . فنحن ما نزال الى اليوم – كما قال الدكتور محمد مندور : « كثيرا ما تنشر مشاعر الحب والكره عن تفكيرنا ضبابة يعمى معالم الحق » !

اذن سنحاول أن نحصر بحث اليوم فى عنصرين :

المجتمع والتعليم ، ومشكلة اللغة .

المجتمع والتعليم :

ان النظـرة الى مشكلة التعـليم من الزاويـة الاجتماعية ، أو على ان هذا المشكل هو مشكل اجتماعى قبل ان يكون مشكلا فنيا ، هذه النظرة لا أعلم أننا بحثناها قبل اليوم ، أو أننا تفطنا

فى عصر نهضتنا الحديثة الى بحثها من كل الزوايا التى بحثها **منها ابن خلدون . ان نظرتنــا الى مشكلة التعليم ماتزال جزئية ضيقة ، هى نظرة محصورة فى جدران المدرسة لا تتعداها ، هى نظرة الى العلاقة بين التلميذ والكتاب وبين المتعلم والمعلم. وان خرجت الى أوسع من ذلك فالى البيت . وهذا القصور من أخطر العوائق التى تقف بيننا وبــين الاهتداء الى حل صحيح لمشكلة التعليم ، فى حين ان النظرة الاجتماعية التى تعد من مستحدثات التفكير الحديث ، هى التى ركز عليها ابن خلدون بحثه لهذه المشكلة . فهو يرى أن مستوى التعليم فنيا مرتبط بمستوى المجتمع حضاريا ، أى أننا لا نستطيع أن نرقى بالتعليم ونحن منحطون فى الميادين الحضارية الاخرى .**

1 ــ « ان تعليم العــــلم من جملة الصنائع ، والصنائع انمــا تكثر فى الامصــار وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة » (991) فالكثرة نفسها فى الصنائع تؤثر على الجودة ، والكم على الكيف . ان هناك تلازما يكاد يكون حتميا بين كثرة الصنائع وانتشار الفنون وبين جودتها وارتفاع مستواها ، وبين قلتها وندرتها من ناحية الكم وبين انحطاطها وانكماشها من ناحية النوع .

فالمجتمعات التى يكثر عمرانها « تنصرف الى ما وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان وهى العلوم والصنائع » أما من نشأ فى مجتمعات فاقدة للصنائع فانه حتى ولو كانت له مواهب فردية عالية ولا يجد فى المجتمع ما يشبع هــذه المواهب فان مواهبه تبقى مقبورة . وبحرمانه من التعليم الذى يقدمه له المجتمع يحرم المجتمع بدوره من مواهب الفرد ، وهكذا تكون العلاقة بين الفرد والمجتمع فى مادة التعليم كما فى غيرها ، علاقة تأثير متبادل ، ولكن كفة المجتمع لابد أن ترجح على كفة الفرد **لقوة المجتمع العددية والمعنوية أيضا فيما يرى دوركايم . يقول ن . خ : « واعتبر ذلك فى بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها فى صدر الاسلام واستوت فيهــا الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا فى اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانهــا انطـــوى ذلك البساط بما عليه جملة وفقد العلم بها والتعلم وانتقل الى غيرها من بلاد الاسلام »** (991) ثم أن هناك تفاعلا حيويا بـين حيـاة المجتمع المـادية وحياته العقلية هذه تنطبع بتلك وينطبع معهــا التعليم وأساليبه ونتائجه ومصيره . نعم ان المعرفة « تحصل بالفكر الذى يهتدى به الانسان لتحصيل معاشه » ، ولكن الى جانب هذا الفكر لابد من **العنصر الاجتمــاعى الذى يتمثل فى « التعــاون والاجتماع المهيء لذلك التعاون » (984) ويظهر هذا فى مستوى الحياة الاجتماعية الذى لا يؤثر على مستوى التعليم فقط بل يؤثر أيضا عـــلى الاستعدادات العقلية عند الفرد : « ألا ترى الى أهل الحضر مع أهل البــدو كيف تجـد الحضرى متحليا بالذكاء ممتلئا من الكيس (المهارة) حتى أن البدوى يظنه قد فاتــه فى حقيقة انسانيته وعقله ، وليس كذلك فما ذلك الا لاجادتــه فى ملكات الصنائع والآداب من العادات والاحـــوال الحضرية ما لا يعرفه البدوى ، فلما امتلأ الحضرى**

من الصنائع وملكاتها وحسن تعليلها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها لكمال فى عقله وأن نفوس اهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته . وليس كذلك . فانا نجد من اهل البدو من هو اعلى مرتبة من الفهم والكمال فى عقله وفطرته . انما الذى ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم ، فان لها آثارا ترجع الى النفس (990) ويوضح ذلك بدقة أكثر فى تحليله لما نسميه اليوم بالمحيط أو البيئة وتأثيرها على الحياة العقلية فيقول : « ان الحضر لهم آداب فى أحوالهم فى المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم ، فلهم فى ذلك كله آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه ويتلبسون به **من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى .. ذلك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا » (979) .**

وان هذه الحقيقة عند ابن خلدون تظهر أكثر ما تظهر فى مرحلتين من تاريخنا العربى والمغربى: او ان شئتم فى منطقتين من البلاد العربية ، الاولى هى الجزيرة العربية فى صدر الاسلام ، والثانية هى منطقة المغرب العربى فى كل عصوره تقريبا . فالتعليم فى الجزيرة العربية فى أول الاسلام لم يكن له شأن يذكر لان « الصحابة لم يكونوا كلهم أهل فتيا ، والعرب كانوا امة أمية ، فاختص من كان منهم قارئا لكتاب بهذا الاسم (القراء) لغرابته يومئذ وبقى الامر كذلك صدر الملة » (1012) ، « وكان العلم فى مبدأ هذا الامر نقلا صرفا ، لانظرا ولا رأيا ولا تعمقا » (1004) كذلك « كان الخط العربى لاول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط ، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع . . . حتى أن المصحف لما رسمه الصحابة بخطوطهم كانت غير مستحكمة فى الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . . . ثم اقتفى التابعون ذلك تبركا كما يقتفى لهذا العهد خط ولى تبركا . ويتبع رسمه خطأ كان أو صوابا » (955) وابن خلدون يعرف فى عصره ونحن نعرف أيضا فى عصرنا ان مثل هذا الكلام لا يحتمله الناس بارتياح لانهم يتصورون ان الصحابة كانوا يحسنون الخط والقراءة والكتابة ولو لم يكن فى مجتمعهم ومحيطهم ما يسمح لهم بتعلم هذه الصنعة . ولكن الرجل لا يجاملنا فى هذا التفكير فيسمينا « بالمغفلين » لاننا « نتوهم النقص فى قلة اجادة الخط ، فى حين ان الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية. والكمال فى الصنائع اضافى وليس بكمال مطلق اذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الحلال ، وانما يعود على أسباب المعاش ، وكان النبى (ص) أميا وكان ذلك كمالا فى حقه،وليست الامية كمالا فى حقنا نحن ، اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة » (955) فليس لنا اذن ان نعيب على الصحابة اميتهم من ناحية ولكن ليس لنا من ناحية أخرى أن نعتبر فقدان الكتابة فى مجتمع من المجتمعات علامة على التقدم ؟ بل العكس هو الصحيح .

أما ظهور هذه الحقيقة فى منطقة المغرب ، فهى التى سنتوسع فيها أكثر ، أو بالاحرى هى التى توسع فيها ابن خلدون أكثر من غيرها ، وهى من ثم تحتل مكانة خاصة فى التربية ، وقلا عمد

ابن خلدون فى بحثها الى منهج المقارنة مع المشرق ، مع المنطقة التى تحتل مكانة ارقى فى سلم الحضارة أو تعقد الحياة الاجتماعية ، وتأثير ذلك على مستوى التعليم: وهناك اصطلاح يستعمله ابن خلدون فى مجال الحضارة بصفة عامة وفى المجال الثقافى بصفة أخص وهو اصطلاح تواصل البناء الحضارى من جيل الى جيل وازدهار **« انقطاع السند او اتصاله »** وهو يقصد به الحياة العقلية من مرحلة لاخرى ، أو بالعكس بحيث لا أحد يجد أمامه بناء يزيد فى اعلائه ، وانما كل جيل لا بد ان يبدأ من الصفر بالنسبة لمن تقدمه ولمن لحقه على السواء ، ان هناك فى هذه الحالة انقطاعا فى حبل الاتصال بين الاجيال كانها امم مختلفة بعضها عن بعض تتوالى على أرض واحدة فى أزمنة مختلفة ، فاذا فقد هذا الترابط من حيث الزمن فان الترابط من حيث التراب يفقد معناه ، فاذا كنا لا نستطيع أن نكون لانفسنا فكرة عن الزمان الا اذا ربطناها بفكرة المكان فى المجال الميتافيزيقى ، فان هذه القاعدة تحتفظ بكل قيمتها العملية فى المجال الاجتماعى عند ابن خلدون ، فنحن نجد بين خراب العاصمة العربية الاولى من بلاد المغرب وهى **القيروان** ، والعاصمة الاخيرة منها وهى **قرطبة ، نجد انقطاعا فى المجال الحيوى بين فئات المجتمع واجياله المتعاقبة انعكس فى مجال التعليم بالذات ، يقول ابن خلدون « فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا كان فى دولة الموحدين بمراكش مستفادا منها ، ولم ترسخ الحضارة بمراكش لبداوة الدولة الموحدية فى اولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها،** ان هذا ما حدث فى المشرق ايضا ، والمقارنة هنا من ابن خلدون ولكن مع الفارق الهام وهو ان المجال المكانى للحضارة فى المشرق كان أوسع ، **وكانت هناك ملاجىء متعددة للثقافة تنتقل اليها عند ما يصيبها التدهور ويتعفن عنها الاقليم ، ولم يكن الامر كذلك بالنسبة للمغرب الذى كانت فيه عاصمتان فقط القيروان وقرطبة كانت الاولى بداية متواضعة القيروان ، والثانية نهاية فاجعة هى قرطبة . « واهل الاندلس قد ذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عناياتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين بها منذ مئين من السنين ، الا فى العربية والادب ، فالفقه بقي أثرا بعد عين ، واما العلوم العقلية فلا أثر ولا عين ، وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقض العمران . . . وشغلهم بمعايشهم أكثر من شغلهم بما بعدها » واما فى المشرق فانهم « لما خربت بغداد والكوفة والبصرة انتقل العلم الى عراق العجم ثم الى القاهرة فكانوا على الجملة ارسخ فى صناعة تعليم العلم وفى سائر الصنائع » (ص986) ومن صنائع التعليم التى برزت فيها هذه** الحقبة العمرانية الكبرى عندنا مسألة الكتابة :

« فلما تراجع أمر الحضارة بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران فصارت الخطوط بافريقيا والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحها الا العناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية **فلم تتصل احوال الحضارة فيها الا فى الاقل » .** عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع فى سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول » (958) .

ولنلاحظ بصورة عابرة أن العناية بالخط أى بالكتابة لا نقيم لها الا وزنا ثانويا عندنا فى التعليم الى اليوم ، فى حين ان اخواننا فى المشرق يعتنون بالكتابة عناية لا تقل عن عنايتهم بدراسة العلوم ذاتها . وهذا الفارق قد لاحظه تلامذتنا الصغار اليوم بين معلميهم الجزائريين ومعلميهم المتعاونين من المشرق الشقيق . فهل هذا المشكل جديد ؟ يقول (ابن خ) فى مسالة الكتابة هذه التى يوليها هو أيضا اهمية كبيرة أنها « كانت بالمشرق والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ، على غاية من الاتقان والاحكام والصحة فى حين نجدها قد ذهبت جملة ببلاد المغرب لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه ، بانتقاص عمرانه وبداوة أهله . وصارت الامهات والدواوين ينسخها طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف ، فتستغلق على متصفحها ولا تحصل منها فائدة الا فى الاقل النادر ، وايضا فقد دخل الخلل من ذلك فى غالب الاقوال غير المروية عن أئمة المذهب . وانما تتلقى من تلك الدواوين على ما هى عليه . وتبع ذلك ما يتصدى له بعض أئمتهم من التاليف لقلة بصرهم بصناعته، وعدم الصنائع الوافية بمقاصده » . ان الكتابة اذن ليست مجرد خط فى نظر (خ) بل هى تكاد تكون اهم محور تدور حوله حياة المجتمع العقلية « فالحنكة فى التجربة تفيد عقلا . والحضارة الكاملة تفيد عقلا . والملكات الصناعية تفيد عقلا ، لانها كلها مجتمعة من صنائع فى شان تدبير المنزل ومعاشرة أبناء الجنس وتحصيل الآداب فى مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرائعها . وهذه كلها قوانين تنتظم علوما . فيحصل منها زيادة العقل ، والكتابة « من بين الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تشتمل على العلوم والانظار » (972) وهناك ظاهرة أخرى يسجلها (خ) كنتيجة حتمية لهذه الامية الحضارية وكيف تنعكس فى فهم العلوم ودراستها وفى التكوين العقلى نفسه كما انعكست فى الكتابة سواء بسواء وهى مسالة فهم الدين : فهو يعلل اختيارنا فى المغرب لمذهب الامام مالك دون المذاهب الاخرى بعلتين أولهما ذات اتصال جغرافى وهى كثرة اختلافنا الى الحجاز أكثر من الاقطار العربية الاخرى بسبب الحج . وهذه الصلة لا يلح عليها (ن خ) كثيرا وانما يذكرها بشكل يكاد يكون عرضيا . أما الصلة الاخرى فتتعلق أكثر بالمستوى الاجتماعى ، فهو يقسم دراسة هذه المادة الى مذهبين مذهب أهل الحجاز وهو مذهب القياس ، أو ان شئتم هو مذهب أهل المجتمع البدوى . أهل الحجاز واهل المغرب . ومذهب أهل الرأى ، وهم أهل العراق أو أهل الحضر . « فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب الذين لم يكونوا يعانون الحضارة التى لاهل العراق . فكانوا أى المغاربة ، الى اهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة . ولهذا لم يزل المذهب المالكى غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع فى غيره من المذاهب » (1021) وهنا نجد الاستاذ ابو زهرة فى كتاب « مالك حياته وعصره » يفتح مناقشة مع (ن خ) فى هذه القضية ويتهمه بالحط من قيمة المذهب المالكى اذ جعله « مذهب اهل البدو ولا اهل الحضر » ويعتقد الاستاذ أبو زهرة « ان قواعد هذا المذهب كانت من المرونة والاتساع والقوة والنفاذ الى اصلاح الجماعات وتنظيم شؤونها ما يجعلها تصلح لتنظيم الحضارات المختلفة » ويرد عليه الاستاذ

عبدالواحد وافى فى دفاع عن (ن خ) حاول فيه ان يرفع عنه هذه التهمة ويصرح بان هذا الاتهام لا يمكن أن يوجه الى مسلم . وما أجده غريبا فى هذه المناقشة ـ من اتهام ودفاع معا ـ هو اننا اليوم نعيش عصر النقد العلمى والبحث عن اسباب الظواهر الاجتماعية والعقلية بعيدا عن كل عقد أو مخاوف دينية وهمية ، ولكننا مع ذلك لم نبلغ بعد مكانة ابن (خ) الذى عاش فى عصر التقديس وكم الافواه . فيكتب هو اشياء كانت طبيعية بالنسبة لعقله العلمى المتجرد . ونقرأ نحن آراءه بعد سبعة قرون وفى مطلع نهضة علمية مليئة بالافكار والمدارس والجامعات والتآليف ، ولكننا ما زلنا محتفظين بعقد ابن عرفة فى عصر (ن خ) وتبقى آراء الرجل كما كانت فى عصره ميدانا للاتهام والدفاع باسم الدين وباسم ما نتوهمه مقدسات . وهو أبعد ما يكون عن روح الدين التى يعرفها ابن (خ) أكثر من غيره ويحترمها احتراما صادقا أكثر من أى احترام يحترمه السذج فى عصرنا . ان كل ذنب الرجل أنه يميز جيدا بين ما هو دين والهى . وبين ما يرجع الى عجز الانسان وفقره . فابن خلدون لم يتردد فى مهاجمة الفلسفة ذاتها لانها عاجزة عن فهم الدين وعن القيام مقامه فى سد حاجة الانسان الروحية والاخلاقية . ولكنه لا يتردد ايضا فى تحليل ما يرجع لمسؤولية الانسان بكل تجرد وبدون أى تحيز دينى أو عنصرى أو مذهبى ، فلا ننسى ان الرجل كان يعتنق المذهب المالكى . وكان من أبرز قضاته . بل لا يخطر بباله حتى اذا كان تحليله لظاهرة من الظواهر هو انتقاص أو تقريض . لقد كان أرفع من مستوى المدح والذم ، ان التعليل الذى أتى به (ن خ) لمذهبنا المالكى يبدو متسعا تماما مع منهجه العام فى بحث الظواهر العقلية وارجاعها الى عللها الاجتماعية والحضارية العامة . ان المستوى الحضارى الذى كان يربط بيننا وبين أهل الحجاز كان أقرب من ذلك الذى كان بيننا وبين مصر أو العراق . وهذا المستوى المتدهور كان ناتجا عندنا جميعا عن ظاهرة البداوة التى انعكست فى قلة استعمال الرأى وضمور الشخصية الفكرية وما ينشأ عن ذلك من الميل الى التبعية وقلة الاقبال على مخاطر التحرر . ان كل ذلك لابد فيه من حد أدنى من المستوى الحضارى الذى كان شبه مفقود فى المناطق العربية التى احتفظت ببداوتها مثل المنطقة الحجازية والمغربية . ومادة الفقه لا تقل التصاقا بمستوى المجتمع عن مادة الكتابة أو اللغة أو العلوم العقلية . ان الفقه هو الذى ينظم حياة المجتمع من الوجهة القانونية والاخلاقية . فاذا كانت الحياة الاجتماعية بسيطة ساذجة فانها لابد أن تنعكس لسذاجتها وبساطتها على مادة القانون كما تنعكس على أى مجال آخر من مجالات الحياة العقلية والثقافية . ان التقليد الذى يطبع المذهب المالكى هو منع مستلزمات الحياة الاجتماعية الساذجة كما ان الشعور بالشخصية الفكرية لا يمكن أن يكون الا نتيجة لمستوى رفيع من الحضارة وكل هذا ينبغى أن نقوله دون أن نشعر بانتقاص لاهل المغرب أو الحجاز كما كان الامر عند اجدادنا الذين لم يكونوا يشعرون بانتقاص فقط فى هذه الناحية ازاء المشرق المتحضر ، بل بلغ بهم الامر الى تعليلها ايضا تعليلا ساذجا تولى (ن خ) محاربته فيهم . فقد كانوا يعتقدون أن هذا التفاوت العلمى بيننا وبين المشرق مرجعه الى تفاوت فى البيئة



ديكارت

العقلية والاستعداد الفطرى . نعم لقد كان هناك تفاوت بارز فى مستوى التعليم بين المغرب والمشرق ولكن الذين لا يربطون قضية ازدهار التعليم بالظواهر الاجتماعية الاخرى والذين تعودوا على التعليل الميتافيزيكى لكل ما لا يفهمونه . لم يستطيعوا الاهتداء الى التعليل الصحيح لهذا التفاوت ، فراحوا يعتقدون أن سببه هو من الهبات الالهية التى خص بها الله تعالى أهل المشرق فى بنياتهم العقلية وحرم منها أهل المغرب . انهم لم يفطنوا الى التأثيرات الاجتماعية التى تفطن لها (ن خ) حين يقول : « انهم يعتقدون التفاوت بيننا وبين المشرق هو فى حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم فى العلوم والصنائع وليس كذلك . ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذى هو تفاوت فى الحقيقة الواحدة . وانما الذى فضل به اهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل فى النفوس عن آثار الحضارة من العقل المزيد – أى المتطور – .. اذ أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس اثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة اخرى ، فاهل مصر يعلمون الحمر الانسية والحيوانات العجم من الماشى والطائر مفردات من الكلام والافعال ما يعجز اهل المغرب عن فعله ، وحسن الملكات فى التعليم والصنائع يزيد الانسان ذكاء فى عقله واضاءة فى فكره لما يرجع الى النفس من الآثار العلمية فيظنه العامى تفاوتا فى الحقيقة الانسانية وليس كذلك ، فاهل المشرق لما كانوا فى التعليم والصنائع أرسخ رتبة واعلى قدما ، وكان اهل المغرب اقرب الى البداوة ظن المغفلون فى بادىء الراى انه لكمال فى حقيقة الانسانية اختصوا بها عن اهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه » (990) ومن هذا القبيل فى قصورنا الحضارى وبداوتنا الاجتماعية وانعكاسها على التعليم مشكلة **تعليم القرآن** والفروق فيها بيننا وبين أهل الاندلس والمشرق . « أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة .. فصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات .. لان تعليم الصغر أشد رسوخا » ولكن « **اهل المغرب** اقتصروا على **تعليم القرآن فقط** لا يخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس تعليمهم ، لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب فكان انقطاع الطالب عن القرآن فى الغالب انقطاعا عن العلم جملة . وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب من قرى البربر فى ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة » أما أهل الاندلس فمذهبهم فى تعليم القرآن والكتاب أن لا يقتصروا عليه بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل واخذهم بقوانين العربية وتجديد الخط .. الى ان يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدا

بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرز في الخط والكتابة وتعلق بإذيال العلم على الجملة » ثم يقول : « ان أهل أفريقيا والمغرب قد أفادهم الاقتصار على القرآن قعودا عن ملكة اللسان جملة . وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة ، لان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ، فهم مصروفون لذلك عن استعمال أساليبه والاحتذاء به . فلا يتصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي . وحظه الجمود في العبارة وقلة التصرف في الكلام .. أما اهل الاندلس فأفادهم التفنن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي .. وكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا .. » ثم يروى (ن خ) كلمة **للقاضي ابي بكر بن العربي** عن حالة تعليم القرآن هذه في بلاد المغرب يقول فيها : « ويا غفلة اهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه » . وهذه مجرد نظرية لا يكتفي بها (ن خ) بل يبحث لها عن تعليل اجتماعي فيقول : « هذا لعمري مذهب حسن الا ان العوائد لا تساعد عليه وهي املك بالاحوال ، ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثارا للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه ما دام في الحجر فهو منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فألقته بساحل البطالة . فيغتنمون في زمان الحجر وربقة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه » (1243) **فالعنصر الديني الآن أو** العاطفة الدينية والحرص عليها بفهم غير مستقيم عنصر بارز في التعليم عندنا وقد بلغ استحكام العاطفة الدينية فينا من ناحية . واميتنا الثقافية والحضارية من ناحية اخرى أو أن شئتم هذه الامية المالكية المكتفية بالنقل والحفظ وعدم الرأي والتصرف جعلتنا نقلب فوائد تعلم القرآن الى مضار كما ذكرها (ن خ) في حين استطاعت المجتمعات غير الامية أن تستفيد منه لغة وأدبا وبلاغة كما ظهرت عند الزمخشري في التفسير . فهذا الفن « عند اهل المشرق يعتنون به شرحا وتعليما فكانوا فيه أقول من المغاربة وسببه أنه كمالي في العلوم اللسانية . والصنائع الكمالية توجد في العمران ، والمشرق أوفر عمرانا من المغرب . وكذلك لعناية العجم وهم معظم اهل المشرق .. أما اهل المغرب فلم يعتنوا من اصناف العلوم اللسانية الا **بعلم البديع** الذي فرعوا له ألقابا وعددوا ابوابا ونوعوا انواعا . وزعموا أنهم أحصوها من لسان العرب ، وانما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ وأن علم البديع سهل . وصعبت عليهم مآخذ البلاغة والبيان لدقة انظارهما وغموض معانيهما فتجافوا عنهما » (1266) . فالعقلية الدينية واستعمالها في غير محلها قد عاقتنا عن تعلم البلاغة الحقيقية وصارت بنا الى تعلم اشكالها البديعية التافهة فإن (خ) يذكر هنا أن « أحوج العلماء لهذا الفن أي البلاغة هم المفسرون ــ ولكن أكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن باحكام هذا الفن ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد اهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة ، ولاجل هذا يتحاماه كثير من أهل السنة مع وفور بضاعته من البلاغة » (انظر 1287) وعقائد اهل البدع التي يشير اليها (ن خ) هنا هي عقائد

المعتزلة فهو لا يشارك الزمخشري المعتزلي عقيدته الاعتزالية ولكن هذا لم يمنعه من الاعتراف لـــه بتفوقه على جميع المفسرين في توسيع الاستفادة من دراسة القــرآن من مجـــال الاحكام الشرعية وحدها الى ميدان الاستفادة منه في جمال الكلمة وفن التعبير . ولكن ذلك **يتطلب مستوى اجتماعيا معينا من الرقي لم يحصل عليه المشرق الا بفضل قرون من الحضارة المتصلة . ولــم يحصل عليه المغرب يوما لانه في كل جيل يبدأ محـاولاته في الرقي من الصفر** . فكان تاريخه بدايات متكررة يقطعها عدم الاستقرار وانقطاع السند . فينعكس على الحياة العقلية والعلمية والتعليمية ويتأثر بها ، لانها جميعا نشاطات اجتماعية يؤثر بعضها في بعضها الآخر . ويكون بعضها سببا في بعضها ونتيجة له في وقت واحد . ويكاد (ابن خ) في كل صفحة في كتابه يكرر لنا هذه الحقيقة بشكل أو بآخر **في محاولة يائسة لايقاظ الفكر العلمي عندنا . ولكن بدون جدوى** . وهذا الاختلاف بين المشرق والمغرب **في ميدان التعليم** والحياة الثقافية لا ينفصل عند (ن خ) عن **الاختلاف** الذي لاحظه بعد ذلك فيما رآه بنفسه **في الحياة المادية في المشرق** : البناءات والاسواق والتجـارة والحيـاة العـائلية والانسجام الاجتماعي والصناعات المادية ، ونحن لا نريد أن نحمل ابن (خ) ما لا يتحمل ولكننا لا نملك انفسنا هنا عن تذكر **القاعـدة المـاركسية** التي تجعل الحيـــاة العقلية والنفسية والخلقية انعكاسا للحياة المادية . بالرغم من أن الحيـــاة العقلية ايضا لها نصيبها من التأثير على الحيـــاة المادية . وكل ما اجراه (ن خ) من مقارنات بـين المشرق والمغرب وبين الحضري والبدوي في المجال العقلي انما كان الحاحا منه على الجانب الاجتماعي وتأثيره في حياة الفرد العقلية . والحاحا على الجانب الخارجي وتأثيره على الذات ، ان أي تفوق عند هذا المجتمع أو ذاك **في الحياة العقلية والتعليمية سواء** كانت لغة أو كتابة أو دينا أو فقها أو فلسفة أو بلاغة . لا يمكن الا أن يكون نتيجة تسلسل متصل من كد الاجيال المتلاحقة . حتى اذا جاء الفرد الى الحياة فسيكون نصيبه من الثقافة والمعرفة ومن الفن والاخلاق ومن النظم والتقاليد ومن العقائـد والافكار . هو ما يكون المجتمع قد هيأه له من قبل كما يعبر دوركايم ، فيكون الانسان ابن عوائده ومالوفه لا ابن طبيعته ومزاجه كمـــا يعبر ابن خلدون . أي هو ابنُ ما يقدمه اليه المجتمـــع والمحيط والبيئة .

هذه هي القاعدة العامة عند (ن خ) في مسألة التعليم . أو هذا هو المبدأ الذي أقام عليه كـل ملاحظاته وافكاره في مادة التعليم وهي أن الفرد يستمد ثقافته وتكوينه من المجتمع ، ولا مناص له من أن يكون نصيبه منها مرتبطا بما يقدمه له هذا المجتمع . ولا نستطيع أن نبحث النــواحي الاخرى من مشكلة التعليم الا في هذا الاطـــار الاجتماعي . والا فاننا سنطلب المعجزات والخوارق وسنرى الآن كيف يبرز هذا المبدأ أكثر وضوحا في تعليم اللغة : ففي اللغة أيضا . بل في اللغة أكثر من أي مادة أخرى علمية ، نجد (ن خ) لا يعتمد على القواعد في تعليمها ولا على طريقة تعليمها من معلم الى آخر بقدر ما يعتمد على المحيط : المحيط أولا . ثم طريقة التعليم ثانيا .

فيما يتعلق بالمحيط يرى (ن خ) أن « اللغات كلهـــا ملكات شبيهة بالصناعة .. فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله كما يسمع الصبي استعمال المفـردات في معانيهـــا فيلقنها أولا . ثم يسمع التراكيب بعـــدها فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال

سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة وعن كل متكلم . واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة » (1269) وهـــذه الملكة « اذا استقرت ورسخت ظهرت كانها طبيعية . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب فى لغتهم اعرابا وبلاغة أمر طبيعى . وليس كذلك ، وانما هى ملكة تمكنت ورسخت فظهرت فى بادىء الرأى جبلة وطبعا . هذه الملكة انمـا تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه » (1281) وبتعبير فخته نقول ان هذه الملكة انما تأتى من خارج الذات الى الذات وليس العكس . تأتى من المحيط الخارجى الى الذات الفردية ، وان شئنا ايضا بتعبير ارسطو نقول ان اللغة تكون استعداداتها موجـــودة فى النفس بالقوة ولكنها لا تصبح لغة بالفعل عنـد الفرد الا بعد أن ينفخ فيها المجتمع من روحه . أى ان اللغة تبدأ عند الفرد عندما يبدأ هذا الفرد فى الحياة مع جماعة . هكذا كانت اللغة العربية فى المجتمع العربى الخالص . يقـــوم المجتمع نفسه بتعليمها مباشرة لافراده الذين يتعلمونهـــا منه بفضل التكرار والممارسة لا بالقوانين والقواعد ، وهنا أود أن أثير مشكلة لمجرد اثارتها لا لان ابحث لها عن حل الآن لان (ن خ) لم يتعرض لها . وهى هل هذه اللغـــة العربية التى هى أثر اجتماعى كانت ارقى من مجتمعها العربى أم ان المجتمـع العربى كان من الرقى بحيث أنتج هذه اللغة التى بقيت خالدة فى حين اندثرت حضارة مجتمعها ؟ اعترف هنا باننى لم اعثر بعد على جواب لهـــذا السؤال ولم أعثر كذلك على احد اثاره . وقد رجعت للدكتور عبدالواحد الوافى فى كتابه « اللغـــة والمجتمع » وتعتبر هذه المشكلة منصميم موضوعه فلم أعثر عليها ، واعتقادى هو ان اللغة العربية تعـــد أرقى من مجتمعها لان المجتمع العربى فى حضارته العامة كما نعرفها لـم يخرج عن طـور البداوة والسذاجة والتوحش كما يعبر (ن خ) فى حين أن لغته تمتاز بمزايا من الدقة فى التعبير والمرونـة فى الاستعمال والخصوبة فى الصـورة والثروة الموسيقية فى النطق ، بحيث لا نكاد نعثر على نسبة طبيعية لها مع انحباس المجتمع الذى يتكلمها . وباحث اللغة من الوجهة الاجتماعية لا يتمالك عن اثارة هذه المشكلة . وانا اوردها هنا لالفت اليها انتباه من لهم طموح علمى الى محاولة البحث عن جواب صحيح لهذه الظاهرة التى لا تخلو من طرافة فى نظرى .

ولكننا اذا لم نجد بعد تفسيرا . فان هذا لا يمنعنا من السير مع (ن خ) فى قاعدته المذهبية الكبرى فى هذا الميدان وهى ان الوضع الاجتماعى هو الذى يتحكم فى الوضع اللغوى . واليكم دليل آخر على صحة هذا المذهب : ان اللغة العربية عندما خرجت من موطنها الاصلى غازية اقطارا أخرى فى ركاب الـــدين الاسلامى ، واصبحت تعيش فى مجتمعات أخرى غـــير المجتمع العربى الخالص ، تلوثت بهذا الطابع الاختلاطى الذى طبع به المجتمع الاسلامى الجديد . وهنا تحول تعليم اللغة العربية من كونه وظيفة يؤديها المجتمع بصورة عقـــوية مباشرة الى الفرد . وأصبح يعتمد على الجهد العلمى أى أصبح « صنعة » من الصنائع يقوم بها الافراد لتصحيح الانحراف الاجتماعى الطـارىء . ولكن هذه الصنعة مثل غيرها من الصنائع لم يقم بهـا العرب اصحاب اللغة لانهم ليسوا فى حاجة لهذه

الضنعة من ناحية ، ولانهم من ناحية ثانية « ابعد الناس عنها بحكم البداوة » كما يقول (ن خ) ولانهم من ناحية ثالثة واخيرة كانوا مشغولين بالحكم لا بالعلوم (1248) .

وهنا يذكر صاحب كتاب « العربية » يوهان فوك الذى ترجمه الدكتور عبدالحليم النجار « أن السياسة الواسعة الافق التى امتاز بها الخليفة عمر العبقرى قامت بقسط لا يستهان به فى سبيل توحيد اللغة وانشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعا كما حفظت العربية من الاضمحلال ، فلكى يحفظ العربية من التلاشى فى جماهير الشعوب المغلوبة التى تنوفهم بكثرة العدد حرم العرب ان يمتلكوا الضياع فى الاقاليم الجديدة أو ان يتخذوها لهم وطنا ومقاما ، كما جعلهم بمعزل عن المدن الكبيرة فى البلدان المفتوحة ، ما عدا سوريا التى كانت قد استعربت الى حد كبير قبل الاسلام بوساطة القبائل العربية التى هاجرت اليها ، فاسكنهم فى معسكرات من الخيام كانت نواة للمدن العظمى فى العالم الاسلامى التى نشأت فى بضع عشرات من السنين كالبصرة والكوفة والفسطاط وغيرها .. وبينما كانت تقيم هنا مختلف القبائل والعشائر فى جوار قريب ، نشأت لغة بدوية مشتركة ، وضعت الاساس لعربية القرون المتأخرة » .

اذن فعمر قام هنا بعملية مزدوجة ، من ناحية جمع القبائل ذات اللهجات المختلفة فنشأ من اجتماعهم توحيد اللهجات فى لغة عربية واحدة ومن ناحية أخرى حفظ المجتمع العربى بهذه العزلة عن المجتمع المختلط من ان تفسد لغته



فخته

بالاختلاط ، ولكن اذا كانت هذه العملية الحكيمة قد انقذت لغة المجتمع العربى ولو الى حين فانها لم تحل مشكلة المجتمع الاسلامى غير العربى الذى كان لابد له من أن يتعلم اللغة الجديدة حتى يفهم الدين الجديد وهكذا كان غير العرب هم أول الذين وضعوا قوانين اللغة العربية كوسيلة لتعلم اللغة الجديدة لغة الدولة ولغة العقيدة ، فكانت قوانين النحو كما يسميها (ن خ) أو القواعد النحوية كما يسميها غيره . والذى يهمنا من كل ذلك ، هو ان تعلم هذه القوانين ليس هو تعلم اللغة ذاتها ، هذه القضية يلح عليها (ن خ) كثيرا ، ويقسم العلوم ليس فقط كما يفعل المصنفون الى علوم شرعية ولغوية وعقلية وطبيعية وفلسفية .. الخ ، وانما يصنفها قبل ذلك الى علوم آلية وعلوم مقصودة ، العلوم الآلية هى التى تكون آلة لتعلم

غيرها مثل قواعد النحو لتعلم اللغة والمنطق لتمام التفكير الصحيح ، والعلوم المقصودة مثل العلوم الشرعية ، وهي المقصودة لذاتها . يقول (ن خ) في هذا التصنيف هناك « علوم مقصودة بالذات وعلوم هي آلة ووسيلة لهذه العلوم ... فاما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفريع المسائل واستكشاف الادلة والانظار . فان ذلك يزيد طالبها تمكنا في ملكته وايضاحا لمعانيها المقصودة . واما العلوم التي هي آلة لغيرها كالمنطق والعربية وامثالها فلا ينبغي ان ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك فقط . ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل لان ذلك مخرج لها عن المقصود . اذ المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكلما خرجت عن ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها لغوا مع ما فيه من صعوبة الحصول على ملكتها بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا في تحصيل العلوم المقصودة بالذات لطول وسائلها مع ان شانها اهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه الصورة فيكون الاستغلال بهذه العلوم الآلية تضييعا للوقت وللعمر وشغلا بما لا يعني وهذا كما فعل المتاخرون في صناعة النحو والمنطق والفقه لانهم أوسعوا دائرة الكلام فيها واكثروا من التفاريع والاستدلالات بما اخرجها عن كونها آلة وصيرها من المقاصد .. فهي من نوع اللغو . وهي مضرة بالمتعلمين على الاطلاق لانهم اذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد . فلهذا يجب على المعلمين لهذه العلوم الآلية ان لا يستبحروا في شانها وينبهوا المتعلم على الغرض منها ويبقوا به عنده .. على ان من نزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليرق له ما شاء من المراقي صعبا او سهلا ، فكل ميسر لما خلق له » (1239) .

الى جانب هذا العيب عندنا هناك عيب آخر مرتبط به ويلح عليه (ن خ) كثيرا ، وهو عيب الحفظ الذي لا يعزوه مباشرة الى الامية ولكن من السهل أن نستنتج من تحليله شيئا من هذا القبيل . ان هذه الامية هي التي نجدها سببا في أن المقارنة الى جانب قصرهم في التصرف في العلوم وعدم التمييز بين العلوم الآلية والعلوم المقصودة ، يقتصرون على الاعتماد على الحفظ . فالعلوم الآلية كاللغة لا يتعلمونها للاستيلاء عليها والتصرف فيها ، بل يحفظون قواعدها ويكتفون بهذا الحفظ . نعم ان العرب منذ القديم عندما كانوا امة امية كانوا يعتمدون على الحفظ لا على الكتابة ولكن هناك فرق كبير بين الحفظين : العرب كانوا يحفظون ما يفهمون . اما المغاربة فيحفظون ما لا يفهمون : أي اننا جمعنا السوآتين عدم فهم العربية من ناحية وحفظ قواعدها واهمالها هي من ناحية اخرى . وقد بدا المغاربة عملية الحفظ هذه بحفظ القرآن والاحكام الشرعية ولكنهم مدوها الى بقية العلوم . وأصبح تلقي العلم معناه الحفظ . يقول (ن خ) « ان الملة في اولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السذاجة والبداوة ، وانما احكام الشريعة كان الرجال ينقلونها في صدورهم .. والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم والتاليف . (1247) ولكن عندما احتيج الى وضع التفاسير ومعرفة الاسانيد وكثر استخراج احكام القوانين . فسد اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية ، (1248) .. ثم استمر ذلك الفساد

بملابسة العجم ومخالطتهم حتى تعدى الفساد الى موضوعات الالفاظ . فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه ميلا مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية » .

بعبارة أخرى لما انقطعت اللغة عن المجتمع وعن التفاعل الحي الذي يتم بالاستعمال اليومي لجأ متعلموها الى الحفظ . والحفظ يقره ابن (خ) بل يعتبره في اللغة اساسيا اذ يقول : « السمع ابو الملكات اللسانية » ولكن اي حفظ يعني ؟ هذا هو صميم القضية . في كتاب منهج البحث في الادب واللغة الذي ترجمه الدكتور محمد مندور نجد « بايين » يقول : « ان علم اللسان موضوعه الاصل دراسة اللغة لا كظاهرة صوتية او حسية تخضع للحركات او للادراك الحسي او لفهم الاصوات الصادرة . ولكن كوسيلة للاتصال بين كائنات تجتمع في جماعات ، اعني كظاهرة اجتماعية ، ان علم اللسان جزء من علم الاجتماع » (ص 62) ، ومفهوم السمع عند ابن (خ) هو هذا المحيط الاجتماعي الذي يتم فيه الاتصال بين كائنات تجتمع في جماعات . فاذا فقد هذا المجتمع او طرأ انحراف على عضويته فيجب استعادته بطريقة اصطناعية تحقق الغرض الذي كان يؤديه المجتمع الفطري . وهذا يكون فيما يتعلق بمجتمعنا العربي بحفظ البليغ من الاقوال ومخالطة هذه الاقوال وممارستها والاحتكاك بها كما لو كنا نعيش فيها حياة يومية متواصلة . وكل ذلك يكون طبعا قائما على الحفظ ولكن لا على الحفظ وحده ، بل على الحفظ والفهم والاستعمال .

أما الخطأ الذي وقعنا فيه في المغرب فهومزدوج : قصرنا دراسة اللغة على الحفظ ، حفظ المتون والقواعد ، وحده دون فهم من ناحية ، وقصرنا هذا الحفظ لا على اللغة ذاتها ممثلة في أقوالها بل على القواعد التي وضعت لها . وتعلم اللغة في رأي (ن خ) بعيد كل البعد عن ذلك بل هو مندمج مع الادب ، لان الادب في نظره « علم لا موضوع له ينظر في اثبات عوارضه أو نفيها ، وانما المقصود منه عند اهل اللسان ثمرته ، وهي الاجادة في فني النظم والنثر على أساليب العرب ومناحيهم . فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساو في الاجادة **ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوانين العربية** مع ذكر بعض من ايام العرب يفهم به ما يقع من اشعارهم منها .. ولا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهم فيحتاج الى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه » (1267) فتعلم اللغة عن طريق الادب كما ترون هو القصد ، اما تعلم قواعدها فيكون بصورة عرضية نلتقي فيها من حين لآخر بمسائل نحوية مبثوثة هنا وهناك . وحفظ الاشعار المجيدة والكلام البليغ من النثر هو الذي نعوض به ما فقدناه من مجتمع عربي سليم اللغة ، وهذا الحفظ مع الفهم هو الذي يكون فينا الملكة العربية لان « اللغات كلها شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان .. وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب .. ومراعاة التاليف الذي يطبق به الكلام على مقتضى الحال » ومجموع هذا « الجو » الذي يجب أن يعيش فيه الفرد هو الذي يمكنه من **الاستيلاء على زمام اللغة والتصرف فيها** ، بحيث لا تكون اللغة الفصيحة البليغة عنده « **حالة** » من الحالات المتقطعة

كما هو الشأن عندنا اليوم بل تكون **ملكة تتصف بالرسوخ والثبات** . (هذا التمييز بين الحالة والملكة لابن خ) . واذن ماذا نفعل بالنحو ؟ وماذا فعل النحو والنحاة بالعربية وبتعليمها ؟ قبل كل شيء يجب أن نلاحظ أن العرب قد فسدت لغتهم بالاختلاط مع الفرس والترك والروم في المشرق ومع الافرنج والبربر في الاندلس والمغرب . ولكن ذلك لا يعني أن العرب لم يعودوا عربا . بل بقوا عربا . والفرق الذى طرأ عليهم بهذا الاختلاط لا يتناول كل نواحي اللغة وعناصرها من تراكيب ومفردات ومميزات في الصورة والتعبير ، بل نجد الفرق الاساسي في لغتهم اليوم ، أو بعد الاختلاط هو التخلي عن اعراب أواخر الكلم . يقول « **يوهان فوك** » الذى اشرت اليه سابقا في كتاب « **العربية** » « لما كانت علامات الاعراب قد تلاشت منذ أجيال تفوق الحصر في جميع العالم العربي سواء على لسان عامة الشعب في القرى والمدن أم في شتى أساليب الكلام الجارى على ألسنة الطبقات المثقفة . بل في لهجات البدو انفسهم . فقد صار التصرف بالاعراب هو الفارق الذى يميز اللهجات الدارجة واللهجات العامية . بيد أن هذا الاعراب . أى الطريقة الخاصة التى كان ينطق عرب البادية على مقتضاها هي في ذاتها سطحية بحيث لا تكفي وحدها لتكون ميسما مميزا للغة الفصحى وليس من النادر أن نجد الاعراب مجرد حلية فارغة يقصد منها الى اعارة نوع من التعبير في قالب مخالف للفصحى في جوهره ، انه مجرد مسحة مزيفة من الفصحى .. لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف الاعرابي بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية — باستثناء البابلية القديمة — وذلك قبل عصر نموها وازدهارها الادبي .. لقد كان يعد فصيحا من سلم من الخطأ في مراعاة الاعراب والتصريف ، ولاحظ قواعد العربية في صوغ الافعال والاسماء .. وصارت الفصاحة ضربا من الحذق الفني يحسنه المرأ على تفاوت في المراتب والدرجات .. وفي المرحلة الحالية نجد بواطن القوالب العربية معرضة لتأثير القوالب الاوروبية . ونجد الجمل تصاغ على نموذج أوربي من أسماء عربية » .

اذن فموقف النحاة منذ القديم من العربية هو العناية بحركات الاعراب . وموقف المحدثين في العصر الحديث هو افراغ كلمات عربية في قوالب أوربية مع الاحتفاظ بالاعراب وحده . وفي كلا الحالين اعتنينا بقشورالعربية واهملنا لبها الصميم. ولكن ما هو رأى (ن خ) في هذه القضية . قارنوا بين كلام « يوهان كوف » عن الاعراب وبين كلام (ن خ) يقول هذا الاخير : « لا تلفتن الى خرفشة (خلط) النحاة . اهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي فسد ، اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الاعراب الذى يتدارسون قوانينه . وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاها القصور في افئدتهم والا فنحن نجد اليوم الكثير من الفاظ العرب لم تزل في موضوعاتها الاولى . والتعبير عن المقاصد موجودا في كلامهم .. ونجد الخطيب المصقع في مجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم . والذوق والطبع السليم شاهدان على ذلك . ولم يفقد من احوال اللسان المدون الا حركات الاعراب في أواخر الكلم

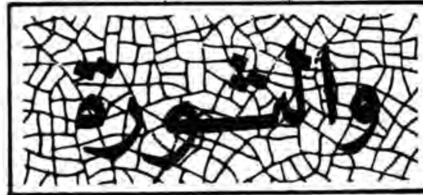
فقط ، وهو الاعراب وهو بعض من احكام اللسان .. واللغات لما كانت ملكات كان تعلمها ممكنا شأن سائر اللغات ، **ووجه التعليم أن ياخذ نفسه بحفظ** كلامهم القديم وكلام المولدين أيضا **حتى ينزل منزلة من نشا فيهم حفظا واستعمالا ووعيا وتفهما حسنا وذوقا** ، فعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المصنوع ، وهكذا ينبغي ان يكون تعلمها .. فبذلك تحصل ملكة اللسان التى هى غير صناعة العربية ، بل هى مستغنية عنها فى التعليم . لان صناعة العربية انما هى معرفة قوانين هذه الملكة أو مقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس الكيفية ، وليست نفس الملكة ، وانما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا » (ص 1271 وما بعدها) .. وأهل المغرب وافريقيا لما كانوا أعرق فى العجمة من ناحية ولم يسلكوا الطريق الصحيح لاكتساب الملكة اللسانية من ناحية أخرى عندما اكتفوا بدراسة القواعد واهملوا مخالطة اللغة نفسها ممثلة فى المنظوم والمنثور — كان أدبهم بعيدا عن الملكة نازلا عن الطبقة ، اما « أهل الاندلس فأقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظما ونثرا » (1283) ان **العربية عندنا اصبحت ، ومنذ عهد قديم ، مرادفة للاعراب** حتى انا فى عصرنا الحالى نلاحظ أن من يريد أن يتكلم بالعربية فما عليه الا ان يستعمل لغته العلمية ويزيد عليها حركات الاعراب فى أواخر الكلم ، (لاحظوا مسرحيات قريقش مثلا) . واذكر ان احد شبابنا تخاصم يوما مع أحد المتخرجين حديثا من جامع الزيتونة فقال له : اتتجبر علينا لانك قرأت « بقرة تحلب » بكسر الباء . وفى هذا الصدد يقول (ن خ) « ان الاعراب لا دخل له فى اللغة التى هى أعم من ذلك واوسع اذ تشمل مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال سواء كان الرفع دالا على الفاعل والنصب على المفعول أو العكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو فى لغتهم هذه ، ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك . لان تمييز الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر يكون بقرائن الكلام لا بحركات الاعراب » (1317) ونحن لا نذهب مع (ن خ) فى ثورته على الاعراب وتعليم العربية الى هذا الحد ، ولكننا نكتفى بموقفه المعتدل الذى يدعو فيه الى ان لا نظن أن تدريس قواعد اللغة هو تعليم اللغة ، والى ان نميز بين العلوم الآلية كما يسميها والعلوم المقصودة وندرك ان فقرنا فى الآدباء والكتاب والشعراء والفلاسفة مرده الى هذا الخلط وعدم التمييز ، والى عبادة القواعد التى قال عنها الشيخ باديس يوما لعلماء الزيتونة « اتبعتم القواعد حتى بقيتم كالقواعد » يقصد القواعد من النساء ! واذكر اننى عندما كنت ادرس فى الزيتونة كنت أجلس وراء السارية لاطالع كتب جبران خليل وطه حسين والشنفرى بينما كان المدرس يتعب نفسه فى قواعد اللغة ، واقرأ اليوم (ن خ) وهو يقول :

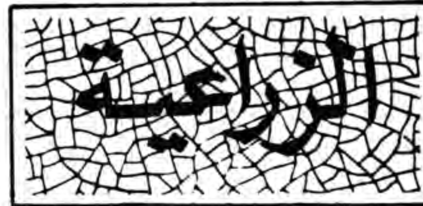
« **نجد طلاب العلم بعد ذهاب الكثير من اعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون** ، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة . فلا يحصلون على طائل من **ملكة التصرف** فى العلم والتعليم ، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل ، تجد ملكته قاصرة فى علمه ، ان فاوض أو ناظر أو علم ، وما أتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، والا فحفظهم أبلغ من

حفظ سواهم لشدة عنايتهم به . وظنهم أنـه المقصود من الملكة العلمية وليس كذلك ، ومما يشهد بذلك فى المغرب أن المدة المعينة لسكن طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة . وذلك لعسرها ولقلة الجودة فى التعليم لا مما سوى ذلك » (987) **واقرا مقدمة « الدكتور مندور » لترجمة كتاب « منهج البحث فى الادب واللغة » للانسون وبای فاجده يقول ، « فى كثير من البلاد العربية ان لم يكن فى كافتها ، لم تستقم بعـد نظم التعليم بحيث تسفر عن عقل مكون » لان التحصيل ما يزال طاغيا فيها على الفهم ، ولاننا ما زلنا الى اليوم فى دراستنا وبحثنا ننسخ طائفة من المعلومات المتناقضة التى جمعها الرواة بين دفتى الكتب القديمة نعيد كتابتها او نقلها كما هى ثم نقدمها للطلاب والدارسين فلا يجدون فيهـا غذاء ولا لذة .. بحيث لا نزال نعيش على ما خلفه علماء النحو والصرف والبلاغة الاقدمون .. وعندما نجدد فاننا لا نعدو التطريز على ثوب خلق متهرىء .. حتى اصبحنا فى بحوثنا اللغوية اشبه بفقير يصرف قرشا الى مليمات ليقرقع بها .. ان مسالة الصحة والخطا ماتزال هىمحورمجادلاتنا اللغوية » عندما نقرا اليوم هذا الكلام الحديث ، ونقرا لابن (خ) ذلك الكلام القديم نتصور قيمة الوقت الذى اضعناه .. سبعة قرون من تاريخنا ظل فيها هذا الكتاب مطويا فى طبقات كثيفة من غبار النسيان والغفلة والامية البالغة ، سبعة قرون ظل فيهـا هذا الكتاب وسادة تحت رؤوسنا الفارغة ، سبعة قرون ظلت فيها لغتنا ممزقـة بتمزق المجتمع ، ظلت فيها لغتنا ، هذه اللغة الجميلة القوية ، لاجئة فى البوادى ، ولكنها لا تتعدى حدود الحياة البدوية الامية .**

واليوم ندخل مرحلة جديدة من هذا التمزق . فضرورة الحياة الآلية والعلمية فى الداخل وضبط الاوضاع الدولية فى الخـارج تدفعنا بسرعة الى استعمال أى لغة أجنبية نتغلب بها على تخلفنا الاجتماعى والسياسى والاقتصـادى والعسكرى أيضا لندافع عن وجودنا المهـدد ذاته . ولكن شعورنا بأن هذه اللغة العزيزة علينا هى أمنـا العاطفية والفنية ، وهى وطننا العقلى والدينى ، وهى ماضينا الممتد فى حاضرنا ، وهى مستودع تراثنا ، وهى تربة جذورنا ، وهى التعبير الامين عن ذاتنا ، كل ذلك يجعلنا نقف عاجزين مشلولين **مستسلمين لهذا التمزق ، ونعتقد أن هذا الوضع المزدوج المتناقض فى حياتنا هو وضع مؤقت ، ولعله يكون كذلك ، ولكن على شرط ان لا نتعود بهذا الوضـع الشاذ فينقلب فى اعيننا وضعا طبيعيا . وان نشعر اولا بان هذا الوضع غير طبيعى وثانيا أن الانسجام يجب ان يتم لفائدة لغتنا لا على حسابها ، ولو ادى بنا ذلك الى زعزعة هذه اللغة من جذورها المتهرئة وغرسها فى تربة جديدة وفى مناخ جديد ، وان ندرك ثالثا واخيرا كما يقول احد اصدقائى من السورين وهو الاستاذ صدقى اسماعيل فى مجلة المعلم العربى عدد حزيران 1967 « أن نقطة البداية فى كل ذلك تتناول المربـين انفسهم ، لا لانهم جزء من الواقع فحسب ، بل لان الشروط القاسية التى رضخوا لهـا فى مراحل نموهم جعلت منهم استمرارا للماضى .. واعـادة النظر فى اخطاء الماضى تقتضى من التحرر والشجاعة اضعاف ما تقتضيه عملية التكوين من جديد .. ان التردى الذى تعانيه اللغة العربية فى حياتنا الراهنة هو جـزء من العبودية المتوارثة ، وان الخروج من الارتباك الذى تتعثر به اللغة العربية فى مشكلة التعبير عن تجـارب الانسان المعاصر وشؤون الحياة الحـديثة .. هو مهمة جيل من الموهوبـين الذين ليس من الصعب أن توفـر الشروط التربوية الملائمة ظهورهم يوما الى الحياة ».**

الإسلام





محمد عبد العزيز

نص محاضرة الاستاذ محمد عبدالعزيز مدير الاصلاح الزراعي بوزارة الفلاحة والاصلاح الزراعي التى القاها بالمؤتمر الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي بوهران .

لعل من الاسباب التى دعت الى انعقاد هذا الملتقى هو احساس بواجب احياء النهضة الفكرية الاسلامية .

هذه النهضة التى كانت فى وقتماشعاعا ومنارا للحضارات الاخرى التى كانت ابان القرون الوسطى تعيش تحت سيطرة التخلف الفكرى والاجتماعى .

ولم تلبث اوربا وقتا كبيرا على هذه الحالة حتى بدات تفيق من هذا السبات العميق وشرعت فى تحطيم القيود ، سباقة الى بناء نهضتها الحديثة فى الوقت الذى بدأ فيه العالم الاسلامى التخلى عن مواصلة الاجتهاد الفكرى .

هذا التخلى ، ورث التخلف الفكرى الذى خيم على العالم الاسلامى طيلة قرون عديدة . كان من الاسباب الموضوعية التى أدت بالعالم الاسلامى الى التاخر وسمحت فى نفس الوقت للحضارة الاوروبية ان تتقدم بفضل اجتهادها فى جميع الميادين .

فاحياء النهضة الفكرية يتضمن استرجاع مكانتها ، اى اعادتها الى ما كانت عليه بوصفها المنار المضىء لجميع الحضارات . ولا غرابة فى ذلك حيث ان التاريخ يعيد نفسه .

اذا كان هذا هو المبدأ الذى من اجله قامت الجزائر بدعوة مختلف الدول الاسلامية لان تلتقى وتتجمع على ارضها التى ارتوت بدم شهداء الحرية، بدم شهداء المعركة التحريرية المصيرية فهذا ايمان منها به وايمان نابع من عقيدتها الاسلامية التى كانت اولى اسباب يقظتها فى تحرير ارضها .

هذه العقيدة التى تجلت بوضوح منذ اللحظة الاولى عند مقاومة الاحتلال 1830 ، وعند مقاومة سياسة الاندماج ، وكذلك حرب التحرير ، وايضا عند استرجاع الشخصية الجزائرية العربية الاسلامية . وانى لاقول ان العالم الاسلامى والعربى اصبح الآن مسؤولا عن هذا التخلف ، مطالبا بازالة الآثار التى نتجت عنه والتى اصابت جميع فروع الحضارة من فكرية وثقافية واجتماعية واقتصادية.

واليوم بعد أن استقلت معظم البلاد العربية والاسلامية سياسيا ، اصبح من الضرورى أن نسعى جميعا الى النهوض بالشعوب الاسلامية والارتقاء والوصول بها الى ما كانت عليه من مكانة مرموقة فى جميع الميادين .

على ان هذا الاستقلال السياسى يصبح عديم الفعالية اذا لم يكن مرتكزا على اقتصاد وطنى قوى مزدهر .

فالجزائر منذ استقلالها لم تأل جهدا للسير فى هذه الطريق ، ولم تدخر وسعا لبناء اقتصادها ، وفى سبيل ذلك لم تتوان عن السعى والبحث عن الوسائل والسبل الناجعة لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتجنيد جميع طاقاتها المادية والبشرية .

وهذا الجهد الذى التزمت به الجزائر وتسعى الى تحقيقه يعكس صورته فى نطاق المخطط الرباعى الذى شرع التنفيذ فيه ابتداء من عام 1970 والذى تضمن 28 مليارا من الدينارات خصصت للاستثمارات . ومن هذا المقدار مبلغ 4ر140 مليون دينارا أى ما يجاوز 15٪ من مبلغ الاستثمارات خصص للتنمية الزراعية ، وان هذه الاموال كلها اموال وطنية خالصة .

وتظهر صورة هذا المجهود ايضا باشراك الشبيبة الجزائرية المجندة للخدمة الوطنية فى البناء والتشييد حتى أصبحت عبارة عن جيش فى سبيل التنمية .

وانما التنمية الاقتصادية والاجتماعية تتطلب ارادة سياسية قوية ووضع استراتيجية وتخطيط وتجنيد الطاقات المادية وتعبئة مختلف الاطارات والجماهير الكادحة .

وهذه التنمية ترتكزفى الجزائر على الاستراتيجية التالية وهى كما عبر عنها الاخ هوارى بومدين رئيس مجلس الثورة والحكومة فى خطابه الذى القاه بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة لانتفاضة 19 جوان 1965 اذ قال :

« ان الاستراتيجية العامة للتنمية ترتكز على ثلاثة دعائم اساسية وهى الثورة الصناعية والثورة الزراعية والثورة الثقافية . وهذه الركائز الثلاثة المتكاملة تكون فى نفس الوقت الاسس التى يقوم عليها البناء الاشتراكى الحقيقى »

ولا يفوتنى فى هذا المقام ، ان اتوجه بالشكر الى السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الذى اتاح لنا اغتنام هذه الفرصة القيمة للاشتراك فى هذا الملتقى الاسلامى الخامس حتى نبين بشئ من الايجاز ، وفى نطاق هذا المؤتمر ، ضرورة

الثـورة الزراعيـة ، فلسفتها ، مضمونها ومدى ارتباطها بالواقع الدينى وتجاوبها واحكام الشريعة.

ضرورة الثورة الزراعية

تقـوم ضرورة الثورة الزراعيـة على اسباب تاريخية واقتصادية واجتماعية .

فالسبب الاول هو ان المستعمر فى الجـزائر قد خلق نوعين من القطاعات الفلاحية ، قطـاع عصرى وقطاع تقليدى .

الضرورة التاريخية :

فالاول كان يضـم اجـود الاراضى الزراعيـة واخصبها وكانت تبـلغ مساحتها (000 800 2) هكتارا موزعة بين (000 22) معمرا وكانت هـذه الاراضى مجهزة باحدث الآلات ومزودة بجميـــع الامكانيات الفلاحيـة وكان انتاجهـا موجهـا الى فرنسا ويعادل 60٪ من الدخل الزراعى القومى .

وعقب طرد المستعمر فى ربيع 1962 واستقلال البلاد قد شرع فى استرجاع الثروات الوطنيـة بتأميم اراضى المعمرين واستغلالها من قبل العمال الذين وجدوا انفسهم امام وضعية طارئة تحكمها عدة ظروف قد اوجدها المستعمر قبل خروجـه مثل تخريب المزارع ، وتحويل الاموال ، وتمزيق الوثائق ، ونقل بعض العتاد الى فرنسا واتلاف البعض الآخر ، بالاضافة الى قرب موعد الحصاد .

فبدافع من الغيرة الوطنية قام عمال الارض متكاتفين لتكوين لجان لتسيير مزارعهم من تلقـاء انفسهم ، طبعا تحت رعاية جيش التحرير الوطنى .

وذلك لانقاذ المحاصيل الصيفية والقيام بموسم الحرث 1962/1963 . وبفضل هذه المبادرة كانت محاصيل 1963 من احسن المحاصيل التى عرفتها الجزائر .

وهذه التحديات التى واجهها الفلاح الجزائرى بكل صبر وجـــلد تدل على النضـــوج السياسى والاحساس بالمسؤولية والاستعداد الشخصى للقيام بواجبه الوطنى .

ولم يتوقف الامر عند هذه التحـــديات التى واجهها الفلاحـون الجزائريون وتقديمهم الادلـة والبراهين القوية على الادوار الهامة التى قامـوا بها فى مقاومـة المستعمر والوقـوف امامه دون تحقيق اهدافه وفى مشاركتهم الفعالة فى حرب التحرير .

وها هم اليوم ما زالوا يقدمون هذه البراهين والادلة وذلك بتجنيدهم الواعى فى معركة البناء والتشييد .

وطبقا لمنطق الاحداث والثورة الاشتراكية التى كان ينشدها المجاهدون والشعب الجزائرى قـد صدرت فى شهر مارس 1963 قرارات اعطيت هذا النظـــام الصبغة القانونيـة والشرعيـة ونظمت استغلال المزارع الشاغرة عـــلى اساس التسيير الذاتى .

ولم ينته عام 1963 حتى أممت بمقتضى مرسوم أول اكتوبر 1963 جميع الاراضى الزراعية التى كانت وما زالت بأيـــدى المعمرين من الاشخاص الطبيعيين أو الاعتباريين الذين لا يحملون الجنسية الجزائرية واولئك الذين لم يتخـــذوا الاجراءات اللازمة للحصول عليها . وقـــد ترتب على ذلك سقوط حق الاجانب المقيمين بالجزائر فى تـلك الاراضى الزراعية .

وهكذا قد تم نهائيا استرجاع اراضى المعمرين واصبح القطاع المسير ذاتيا يشمل (000 800 2) هكتارا . ومن سوء الحظ ، لم تستكمل قرارات

مارس 1963 بأية نصوص تطبيقية لوجود بعض المشاكل الناتجة عن التطبيق فاضطرت الدولة الى تكليف الديوان الوطنى للاصلاح الزراعى للاشراف على هذا القطاع .

وبطبيعة الحال ، تحول شيئا فشيئا الى نظام مركزى ، مما ترتب عليه أن أصبح التسيير الذاتى شعارا سياسيا أجوفا ، بعيدا كل البعد عن معناه الحقيقى .

واستمر الوضع على ذلك حتى انتفاضة 19 جوان 1965 حيث قررت السلطة الثورية اعادة تنظيم هذا القطاع الحيوى بالنسبة للاقتصاد الجزائرى على اساس اللامركزية حتى تتمكن 2 000 مزرعة من ان تباشر استغلالها بطريق التسيير الذاتى وكذلك بتنظيم المحيط الاقتصادى لتلك المزارع مما ادى الى انشاء دواوين مختصة فى التسويق والمحاسبة . والعتاد . وتخصيص مصرف لتمويل هذا القطاع .

وبصدور أمر 30 ديسمبر 1968 ومراسيم فيفرى 1969 الخاصة بتطبيق احكامه قد اكتمل الشكل القانونى بصفة نهائية وكاملة للاطار الذى سينمو فيه التسيير الذاتى .

هذا وتمثل الاراضى المسيرة ذاتيا حوالى ثلث المساحة القابلة للزراعة أى مايقرب من (000 000 3) هكتارا وهى مجمعة فى 000 2 مؤسسة زراعية مزودة بمعدات عصرية كما انها تنتج القسم الاكبر من الصادرات الفلاحية وتزود بقسم معتبر من السوق الداخلية ويطلق على هذا القطاع اسم القطاع الاشتراكى الزراعى .

والجدير بالذكر ان هناك مساحة من هذا القطاع تقدر الآن بـ (000 285) هكتارا بعد ان كانت تبلغ (000 356) هكتارا فى عام 1962 وهذه المساحة تمثل 90٪ من الكروم أى ما يعادل 8 ملايين هكتوليترا من الخمر مما يساوى 60٪ من صادرات مجموع القطاع الزراعى .

وقد قررت السلطة الثورية طبقا لاختيارها الذى يتفق مع اهداف الدين الحنيف اقتلاع الكروم بالجزائر رغم اهميته الاقتصادية . وكخطوة أولى فقد قرر مجلس الثورة والحكومة اقتلاع مساحة 000 25 هكتارا خلال الموسم الزراعى 1971/1972 وتحويلها الى محاصيل أخرى .

ويقوم بالعمل فى هذا القطاع (000 150) عامل دائم وحوالى (000 100) عامل موسمى وفى المجموع فانها مصدر دخل لـ (000 250) عائلة ريفية أى ما يجاوز مليون من السكان القرويين .

وينتفع هؤلاء العمال وعائلاتهم بمقتضى الامر المشار اليه اعلاه والمتعلق بالتسيير الذاتى فى الفلاحة بالاحكام المنصوص عليها فى التشريعات الاجتماعية وتشريع العمل .

وهذه النظم الاجتماعية قد تم تعديلها بمقتضى الامر الصادر فى 5-4-1971 والمراسيم الخاصة بتطبيق احكامه بحيث تتساوى والنظم المعمول بها فى القطاعات الاقتصادية الاخرى .

ومما هو جدير بالذكر فى هذا الخصوص ان اصبح عمال القطاع الاشتراكى الزراعى يتمتعون، ولاول مرة فى تاريخ الجزائر ، بالمنح العائلية .

وبعد ان كان العامل الفلاحى فى هذا القطاع مسخرا بين ايدى المعمر ، مسلوب الارادة ، مهضوم الحقوق ، مسيرا كالآلة قد تحول الى منتج حر ، مسؤول عن انتاجه ، ومعترف له بحقوقه وحقوق أولاده ، يسير شؤونه بنفسه .

وهذا ما عبر عنه سيادة رئيس مجلس الثورة والحكومة بعبارة بليغة ، اذ قال :

« انّ الثورة الاشتراكية قد اعادت لعمــــال الارض كرامتهم ومكانتهم بالمجتمع » .

وما افصح دليل على ذلك حيث ان العــــامل الفلاحى ، فى اطار سياسة الاتصالات الدائمة بين القمة والقاعدة ، اصبح يجتمع فى ندوات سنوية ليطرح ويناقش المشاكل التى يعانيها هذا القطاع ، ويقترح على الحكومة الحلول المناسبة لها .

وبالرغم من اهمية هــــذا القطاع من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الا انه قــد اصبح قاعدة انطلاق للثورة الزراعية حيث يكون المرحلة الاولى لتحقيقها ، والمحرك للتنمية الزراعية فى القطاع التقليدى .

أما الاسباب الاقتصادية والاجتماعية التى تقوم عليها ضرورة الثورة الزراعية فانها تظهر بوضوح تام ، خاصة عند تحليل وضعية القطاع التقليدى الذى تمركزت فيه مظاهر هذا التخلف .

الضرورة الاقتصادية والاجتماعية :

ولهذا فالمرحلة الثانية للثورة الزراعية تخص القطاع التقليدى الذى تجمع فيه 70٪ من الجزائريين نتيجة طرد المستعمر لهم والاستيلاء على اراضيهم وهو يمثل ثلثى الاراضى المزروعة وينتج 40٪ من الدخل الزراعى القومى .

ويوجد به (600 000) مستغلا معظمهم يعملون فى اراضى فقيرة مجردة من أية وسيلة للتنمية ومن بين هذا العدد (423 000) يفلح الواحد اقــل من عشرة 10 هكتارات ، وان (150 000) يفلحون ما بين 10 الى 50 هكتارا ، وان (17 000) تقريبا ما يزيد عن 50 هكتارا من الاراضى الصالحة للزراعة . وهذا القطاع يتميز بانتاج المواد الخاصة بالاستهلاك المحلى ولا يصدر منه للخارج الا القليل .

صغر المساحات وتجزئتها وعدم توافرالامكانيات المالية لشراء الآلات والاسمدة والبذور من المــواد الاساسية اللازمة للزراعة لتسمح بزيادة الانتاج بحيث اصبح أكثر من ثلثى الفلاحين يلتجؤون الى البحث عن مواد اضافية اخرى لسد الاحتياجات الغذائية الضرورية .

اذا كان هذا النوع من الفلاحة يوافق بـــين تربية الحيوان وزراعة الحبوب والخضروات الجافــة واشجار الفاكهة فى التل الجزائرى ويوافق ارتياد الكلأ فى المراعى ، فالزراعة وتربية الحيوان ما هما فى الواقع الا حركات توسعية .

لان هذا القطاع الثانى كان بعيدا عن التنظيم قبل استقلال البلاد باعتباره عديم الفعالية بالنسبة للمعمر ولذلك قد اهمله .

وزيادة على ذلك ، فان هذا القطاع تحمل اثــر تعبئته الــكاملة فى الثورة ، أثقل عبء خلال حرب التحرير ، مما يدل ذلك على ما تحمله من تخريب، وتحطيم ، وحرق ، وقتل .

ومما يجدر التنويه به فى هذا الخصوص ، ان المستعمر قد حشد مليونين من الفلاحين الجزائريين لكى يفصل بين الشعب وجيش التحرير ، ولكن هيهات ، فقد حال دون ذلك ، بان كانت الثورة تنبعث من روح هذا الشعب وتنبع من ايمانه بالله وايمانه بالتحرر .

فالثورة الجزائرية طيلة حرب التحرير وعــدت

هؤلاء الفلاحين بترقيتهم والنهوض بهم للوصول الى مستوى معيشة باقى الشعب الجزائرى .

وعقب الاستقلال ، قد قامت السلطة الثورية بمجهودات كبيرة من ضمنها التنازل عن ديون صغار الفلاحين فى هذا القطاع وتزويدهم بقروض سنوية مقدارها (150) مليون دينار واتخاذ الاجراءات اللازمة لانعاش هذا القطاع .

وبالرغم من هذه البادرة الطيبة التى قامت بها الحكومة الا انها لصبحت بعيدة عن تحقيق الهدف المقصود ، نظرا لعدم تجاوبها مع الاحتياجات المتزايدة التى يتطلبها هذا القطاع لتنظيمه وترقيته .

وهذا مما يدل على ضخامة المجهود الذى يشترط للنهوض بهذا القطاع وانضمامه فى النشاط الاقتصادى الوطنى .

وبالتالى اصبح هذا المجهود لا يمكن ان يتم فى نطاق الاصلاح الزراعى العادى ولكن لابد ان يتم فى نطاق ثورة زراعية شاملة تتضمن وتتجاوز ليس فقط معنى الاصلاح الزراعى العادى ، بل حتى الاساليب الزراعية التقنية الحديثة التى تعرف باسم الثورة الخضراء ، لتتصل وتدفع بالفلاح الجزائرى الى الرقى .

فلسفة الثورة الزراعية

وذلك طبقا لاختيار السلطة الثورية بان التنمية يجب ان تكون دائما فى خدمة الانسان وبالتالى لم تصبح الثورة الزراعية ضرورة تاريخية فقط ، ولكنها ايضا ضرورة اقتصادية واجتماعية مما جعل منها شرطا اساسيا للتنمية الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد .

وتفريعا على ذلك ، فالثورة الزراعية ما هى الا اداة لخلق الشروط اللازمة لتحويل ظروف العمل ووسائل المعيشة فى الارياف ، تحويلا جذريا ، لكى تمنح للمجتمع الريفى انطلاقة جديدة تسمح بتنظيمه وازالة العراقيل التى تحول دون تقدمه وان تفتح امامه آفاقا حقيقية للتنمية .

وفى هذا المعنى قد اشاد الاخ الطيبى العربى عضو مجلس الثورة ووزير الفلاحة والاصلاح الزراعى بعبارته المأثورة :

« ان الثورة الزراعية قد أتت لتمحى بصفة نهائية تلك الافكار الرجعية وتعمل للقضاء على الهياكل المتجمدة التى تصبح عقبة فى طريق الازدهار والتقدم الاجتماعى والاقتصادى » .

فاذا كانت هذه فلسفة الثورة الزراعية واذا كانت تهدف الى الاستثمار المنطقى لوسائل الانتاج ورفع الانتاجية وزيادة الدخل الوطنى وتوزيعه توزيعا عادلا فانها لا تصبح وسيلة أو غاية يقصد بها القضاء على حق الملكية وعلى وجه الخصوص الملكية الصغيرة ولكنها ترمى الى تحقيق اهداف الثورة الاشتراكية القائمة على اساس العداله الاجتماعية وتكافؤ الفرص ، والغاء الفوارق الجهوية والاجتماعية والقضاء على استغلال الانسان لاخيه الانسان وبالاحرى والاولى المسلم لاخيه المسلم ، لكى تلتحق الجزائر بركب الدول المتصنعة الراقية ، وتتمكن بفضل تنميتها ، ان تساهم فى تدعيم الحضارة العالمية مقيمة بالحجة ، بان الدين الحنيف هو دين العلم النافع والتقدم الحقيقى والثورة الصالحة .

وبذلك يتحقق قوله سبحانه وتعالى :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »

مضمون الثورة الزراعية

بعد ان تعرفنا على فلسفة الثورة الزراعية بقى ان نبين الاحكام الدينية التى تؤيدها والتى تفسر الاجراءات اللازمة لتحقيق اهدافها .

فالثورة الزراعية تقوم على اساس المصلحة العامة للشعب وتفضيلها على المصلحة الخاصة كما هى قائمة على اساس القاعدة العامة التالية :

« الارض لمن يخدمها »

ومن ثم يجب ان نبين مضمون الثورة الزراعية والاساليب الشرعية التى تجيز وتسمح به .

وقد سبق القول لنا بان الثورة الزراعية لا تهدف الى الغاء حق الملكية ولكنها ترمى الى تحديد الملكيات الكبيرة وتاميم اراضى الملاك المتغيبين دون المساس بالملكية الصغيرة .

وبما أن الثورة تهدف الى الابقاء على الملكيات المسموحة بها شرعا ، فانها فى ذات الوقت تحافظ عليها وتمدها بالوسائل اللازمة لاستثمارها .

هذا مع العلم بان الثورة الزراعية تتضمن عدة عمليات متسلسلة متعاقبة لتحقيق اهدافها .

هذه العمليات تكاد تتلخص فى الاستيلاء على الاراضى وتوزيعها ثم كيفية استغلالها .

الاستيلاء على الاراضى :

تكوين صندوق اراضى الثورة الزراعية :

يتم الاستيلاء على الاراضى بتاميمها وتحديد ملكيتها وتنظيم الاحباس واراضى العرش وكذلك اراضى الدولة والجماعات المحلية التى تتنازل عنها .

ومن مجموع هذه الاراضى يتكون الصندوق الوطنى للثورة الزراعية .

1 ـ **التنازل :** وفى سبيل تحقيق اهداف الثورة الزراعية قررت السلطة الثورية تنازلها عن اراضى الدولة والجماعات المحلية ، وهذا التنازل يشكل العنصر الاول الذى يتكون منه صندوق أراضى الثورة الزراعية .

وهذا يعكس المثل الاعلى الذى تعطيه لنا الحكومة وفاء منها للشعب ودليلا لسهرها على المصلحة العامة ، وفقا لشعار البلاد :

الثورة من الشعب والى الشعب

ومن الاسباب التى يقوم عليها هذا التصرف هو عدم كفاية الاراضى الفلاحية بالنسبة الى عدد الفلاحين وعدم استغلالها بطريقة حديثة ومثمرة وتحقيق الاهداف التى نص عليها المخطط الرباعى .

2 ـ تاميم اراضى المتغيبين :

كما يشكل تاميم أراضى المتغيبين العنصر الثانى لهذا الصندوق والمتغيب هو مالك الاراضى الزراعية التى لا يفلحها مباشرة وبنفسه . ومن الاسباب التى أدت الى تأميم الاراضى هى عدم استغلالها كما ينبغى ، وتحويل الموارد الفلاحية من الريف الى المدن بدون الانتفاع بها ، والالتجاء الى انواع التأجير والاشتراك مع الغير ، على أسس غير سليمة تمس فى بعض الاحيان كرامة الفلاح ، (كالخماس) مثلا فى الجزائر .

والتاميم قانونا هو نقل الملكية الخاصة الى الملكية العامة فى مقابل تعويض نقدى .

واول من مارس صور التأميم سيدنا محمــــد صلى اللـه عليه وسلم حـين ما اراد أن يبـــنى مسجده في المدينة بعد هجرته اليها فقـد كان مكان هذا المسجد مربدا لغلامين يتيمين من بـنى النجار فطلب شراءه واشتـراه ودفع ثمنه . ثـم بنى مسجده عليه وجعل من طرف منه مساكنه .

ويلاحظ ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلـم رغم انه كان يعلم ان هذا المربد لغلامين يتيمين . الا انه قد فضل المصلحة العامة على المصلحــة الخاصة .

كما فعل عثمان بن عفان رضى الله عنه حين اراد توسيع المسجد الحرام فقد ابتاع من قـوم ارضا فى جـواره وابى آخـرون بيع أراضيهم . فهدم عليهم ووضع ثمن الارض ببيت المـــال . فضجوا ، فأمر بحبسهم حتى ارتضوا أخــــذ الثمـــن .

والجدير بالذكر ان عثمان بن عفان رضى الله عنه تحقيقا لمبدأ العدالة وضع تعويضا نقــديا لهذه الارض من بيت المال حقا لهؤلاء الاشخاص .

كما ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قال :

« الناس شركاء فى ثلاث : الماء , والكلأ , والنار »

وهذا يفسر ثبوت حق الناس فى الاستفـادة من هذه الموارد الطبيعية لحاجتهم اليها .

فاذا كانت الملكية الشخصية تعتبر السبيـل المؤدى الى احتكار الاشياء عن كافة الناس بحيث يصبح المالك هو المتحكم والمحتكر لها ، فقـد أحاز الدين للدولة أن تتخذ من الوسائل ما يكفل اشراك الناس جميعا فى الاستفادة منها تحقيقا لمعنى الشركة الواردة فى الحديث باستيــــلاء الدولة عليها ووضعها فى متناول جميع الناس .

والحديث الشريف السالف الذكر لم يرد على سبيل الحصر بل على سبيل المثال ، ومن ثـم ، اصبح حكمه ومدلوله ينصرف الى كافة الاشيــاء التى تتضمن عنصر الضرورة للشعب .

ومن مرتكزات تسويغ فكرة التأميم ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من حماية أرض النقيع بالمدينة وجعلها لعـامة المسلمـين ترعى فيها خيولهم فلا يمتلكها ولا يستقل بها أحد .

وبذلك قد جعلها ملكا للدولة . فالتـــأميم اذا مستمد من فكرة المصلحة العامة التى تبتغيها الدولة وتشتد حاجة الشعب اليها .

فالتأميم بالاضافة الى استناده الى الشريعــة الاسلامية فهو تفسير للاصول وللمبادىء الفقهية المقررة كرفع الضرر ومنع الحرج وسد ذرائـع الفساد وان دفع الفساد مقدم على جلب المصالح , والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصـــة والضرورات تبيح المحضورات .

ومن جهة أخرى يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« ان الله يحب العبـد المحتـرف »

ويدل هذا الحديث على ان رسول الله صـلى الله عليه وسلم ينهى عن كسل وبلادة العبــد ويعتبر العبد المحترف الذى يعمل بنفسه وبيده هو حبيب الله سبحانه وتعالى .

ويقول ايضا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

« من كانت له ارض فليزرعها او يمنحها اخاه »

وهذا الحديث يدل على انه اذا كان العبد يمتلك

أرضا لا يفلحها بنفسه فان أخاه أحق بزراعتهـا وفلاحتها منه متى اقتضت ذلك المصلحة العامة كما ان الحديث الثانى يحمل معنى ساميا ، معنى عظيما يقـوم على ان عدم فلاحـة الارض يصيبها بالتلف مما تصبح بورا أو أقل انتاجا مما يجـر معه فى نهاية المطاف ، الاضرار باقتصاد البلاد .

واذا كان التأميم هو القاعدة العامة التى تنطبق فى حالة الملاك المتغيبين ورغم ان هذا التـأميم يستمـد أسسه من الدين الحنيف الا أن هنـاك بعض حالات استثنائية ترد على هذه القاعـدة توجبها عدة شروط اقتصادية واجتماعية .

واذكر على سبيل المثـال :

- **ملاك المساحات الصغيرة جدا الذين تركوها بحثا عن موارد اضافية اخرى فى داخـل البلاد او خارجها .**
- **الملاكين الذين اضطروا الى ترك أراضيهـم بسبب الحرب .**
- **الملاكـين :**
  - **ا - العاجزين**
  - **ب - الشيوخ**
  - **جـ - ارامل الشهداء**
  - **د - ابناء الشهداء**
  - **هـ - القصر وعديمى الاهلية القانونية**
  - **و - المعطوبون الخ . . .**

3 - تحديد الملكية الكبيرة :

ان الاسلام يشترط ان تكون حيازة المال أو ملكيته بقصد مصلحة عامة أى مصلحة المجتمع ، وكذلك يوجب رعاية هذه المصلحة والمحافظـة عليها لان المال لله ويد الانسان عليه عارضـة امينة .

يقول سبحانه وتعالى :

« وانفقوا مما جعلكم مستخلفـين فيه »
(سورة الحديد 7)

فالمالك اذن مستخلف والمال بهذا الـوصف وسيلة لفعل البر ، بمعنى ان الاستعمال الـذى يهدف الى تحقيق مصلحة عامـة شرط أسـاسى للتملـك .

ونتيجة لما تقدم فان الاسلام يكره تجميـع وتكديس الثروات فى يد فئة قليلة من النـاس مما يجنح بهم الى الترف والملـذات والاسـراف والاستغلال . ويكون المـال وسيلة للطغيـان والاستبداد والتحكم فى الناس .

ويقول سبحانه وتعالى :

« كلـوا واشـربوا ولا تسـرفوا انه لا يحب المسرفـين » .

وتدل هذه الآية الكريمة على ان الله ينـهىٰ عن الاسراف فى الملذات والاسراف فى التـرف فى حين ان هناك أناسا طواهم الجوع وأنهكهـم المرض واحتواهم الجهل وهم يعيشون فى سجون الحرمان والالم .

ويقول سبحانه وتعالى :

« كيلا يـكون دولة بـين الاغنياء منـكم »
(سورة الحشر 7)

واذا كان الاسلام قد أباح التأميم لمصلحـة المجتمع فمن باب أحرى انه يجيز تحديد الملكيـة بحد معين متى اقتضت ذلك المصلحة العامة .

هذا ولا يغيب عن أعيننا ، ما للملكيات الزراعية الكبيرة من آثار تضر بالمجتمع نتيجة اهمالهـــا من قبل اصحابها وعدم الانتفاع بانتاجها بدرجة تتساوى ومساحتها . بالاضافة الى مستوى معيشة الفلاحين المنحط . الفلاحين الذين يخدمونهـــا بجهدهم وعرقهم ، محرومين من نتاج عملهم وثمرة مجهودهم نتيجة استغلالهم مما يؤدى الى افقارهم المزمن . ونحن نعلم بانه قد قيل :

« كـاد الفقــر ان يكــون كفــرا »

وكما قال الامام على كرم الله وجهه :

« لو كان الفقـــر رجـلا لقتلتـه »

ومن جهة أخرى ان النبى صلى الله عليه وسلم حماية لهؤلاء الكادحين من المستغلين قد أمـرنا ان نعطى العامل حقه حيث يقول :

« اعطوا العامل اجره قبل ان يجف عرقه »

وذلك أن المحضور الوحيد الذى يرفضـــه ولا يجيزه الدين هو استغلال الانسان لاخيـــه الانسان . ذلك الاستغلال الذىاوجدته الرأسمالية التى تستهدف تجميع الثروات الضخمة فى يـــد فئة قليلة تسخر فئة أخرى لا تملك ولكن تمتلك.

وبالتالى يقوم تحديد الملكية على القضـاء على استغلال العمال وحفظ حقوقهم كاملة مع العمـل على احالة دون تضخم الثروات تضخما متـــزايدا يعدم كل أثر لتقريب الفوارق الاجتماعية كما أن يقاوم انحرافات الرأسمالية والاسراف فى الملذات والخلـود الى الكسـل .

[illegible]ذا المعنى يقول سيدنا محمد صلى الله [illegible]م :

« اللهم انى اعوذ بك من العجز والكسـل »
« والجبن والبخل واعوذ بك من الكـــر »

وهذه الاسباب مجتمعة او احداها تنهض دليلا على وجوب تحديد الملكية الزراعية بحيث يحصـد الفلاحون على ما يزرعونه ويجعل من هذا التحديد عملا اصلاحيا كبيرا وضرورة اجتماعية لازمة .

وتحديد الملكية الكبيرة هو العنصر الثـالث فى تكوين صندوق اراضى الثورة الزراعيـــة

4 ـ الاراضى المحبسـة :

كما تكون الاراضى المحبسة العنصر الرابع فى تكوين هذا الصندوق .

فالوقف شرعا معاملة من المعاملات بين العبد وربه يتقرب بها اليه وبين العباد .

وهو يتضمن منع التصرف فى رقبة العين التى يمكن الانتفاع بها ورصد منفعتها لجهة مـــن جهات البر والاحسان . والوقف الاهلى هو ما قصد به حبس الرقبة على الذرية واعقابها مع الحرمـان من التصرف فيها .

والوقف لا يستمد اصله من القرآن الـكريم حيث لم يستدل عليه من بين آياته الكريمة ولكن الحبس « الوقف » قد استمد شرعيته من السنة المحمدية حيث يقول سيد المرسلين :

« اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية او علم ينتفـع به او ولد صالـــح يدعـو له »

فالصدقة الجارية بهذا الحديث هى المقصود بها الوقف باعتباره نوعا من الصدقات .

وايضا ما روى الامام البخارى رضى الله عنـه ان عمر بن الخطاب قد أصاب ارضا بخيبر فاتى النبى صلى الله عليه وسلم يستامره فيها فقال :

يارسول الله انى اصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط انفس عندى منه فما تامر به . قال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« ان شئت حبست اصلها وتصدقت بها »

ويتبنى على ما تقدم ان الاصل فى الوقف هو الصدقة وانها تصدر عن الانسان طواعية واختيارا خالصة فى مصارف الزكاة .

وقد استمر هذا المعنى متداولا حتى أواخر عهد الصحابة رضى الله عنهم حتى اتخذ بعض الواقفين من هذا المعنى وسيلة للخروج عن مقصده والانحراف به عن هدفه وشرعوا يتخذون منه سبيلا وطريقا مستترا لحرمان بعض الورثة من الميراث الذى هو حق شرع لهم فى كتاب الله العزيز .

هذا وان أول قرار اتخذ من طرف المستعمر فى الجزائر كان بقصد الاستيلاء على أراضى الاحباس الخيرية التى كانت موجودة على نطاق واسع .

وامعانا من المستعمر فى سياسته نحو الاستيلاء على الاراضى الزراعية الاخرى ، قد التجأ بعض الافراد الى حبس اراضيهم على ذريتهم .

والمشاهد فى هذا الخصوص ان ما بقى من الاراضى المحبسة للخير قليلة جدا والاحباس الاهلية لا تزيد عنها بنسبة كثيرة . ذلك ان هذين النوعين من الاحباس فى مجموعهما لا يمثلان جزءا كبيرا من الاراضى الزراعية .

وبالتالى لا تصبح الاراضى المحبسة مشكلا فى تطبيق الثورة الزراعية ولكنها تستخدمها بالكيفية التى تتفق وطبيعتها فى سبيل التنمية الاقتصادية .

واحتراما لصبغتها الدينية فقد اهتمت الثورة الزراعية بتنظيم الاحباس الخيرية . وردها الى اصلها الشرعى .

5 ـ اراضى العرش :

اما العنصر الخامس والاخير فى تكوين الصندوق هى اراضى العرش الصالحة للرعى التى هاجر اليها واستوطن فيها اولئك الذين طردهم المستعمر الذين كانوا يملكون اراض فى الجزائر الشمال وكذلك غيرهم من القبائل التى كانت موجودة فى هذه المناطق .

وقد قام المستعمر بتقسيمها وتوزيعها على القبائل فى اطار سياسة الاستيطان ووضعت لها حدود .

فالوضعية القانونية لهذه الاراضى تظهر فى صورة حيازة او فى صورة وضع يد فالحائز او واضع اليد ما هو الا مالك فقط للمنفعة دون ملك الرقبة التى هى فى الاصل ملك للدولة .

بعد أن تعرفنا على عناصر تكوين الصندوق الوطنى للثورة الزراعية . وقبل بيان مبدأ توزيع تلك الاراضى وشروط الانتفاع بها ، يجب أن أشير الى ان هذه الاراضى لكونها ملكا للدولة فانه لا يجوز التصرف فيها او الحجر عليها او التنازل عنها

توزيع الاراضى

مبدا التوزيع :

فتوزيع الاراضي يقوم أساسا على مبدأ تقرير انتفاع على هذه الاراضي للفلاحين المنتفعين دون ملكيتها . وهم يستغلونها وينتفعون بثمرتها بصفة مستديمة كما يستفيد ذريتهم بعد وفاتهم .

واذا كان هدف الثورة الزراعية هو تنمية الاستثمار الفلاحي وانه في ذاته لا يؤدي الى تفتيت الملكية وتجزئتها بحيث تصبح غير صالحة لانتاج متزايد اصبح من المحتم تجميع المساحات المؤممة في اطار وحدات انتاجية قابلة للتطور الاقتصادي والتي تخضع لاساليب عمل وطرق انتاج كفيلة بتحقيق الغرض المقصود .

وهذه الوحدات تسير جماعيا لتتمكن الدولة من مدها بالمتطلبات الفلاحية وتزويدها بالاطارات التقنية وتنشيطها اقتصاديا وثقافيا .

هذه الوحدات تكون على شكل تعاونيات الانتاج مدعمة على مستوى البلديات بتعاونيات خدمات متنوعة تقوم بدور توزيع اعانات الدولة المالية والتقنية والادارية . وتشكل التعاونيات احدى طرق تنظيم الفلاحين بينما اتحادات الفلاحين تكون لهم اطارا لتعبئتهم سياسيا ومشاركتهم في تنفيذ الثورة الزراعية .

على أنه في حالة عدم توافر الشروط الفنية والاقتصادية اللازمة لاحداث هذه التعاونيات أصبح من الجائز توزيعها على الافراد .

وبجانب هذا النوع من التعاونيات ، تشجع الحكومة تكوين تعاونيات يمكن أن ينخرط فيها طواعية اصحاب ملاك الاراضي وعلى الاخص الملاك الصغار وذلك لوضع حد لتفتيت وتجزئة الملكية بحيث لا تصبح غير صالحة لانتاج متزايد وتكون عقبة في تطور الاقتصاد القومي .

واذا كان هذا اختيارنا باعتباره عاملا فعالا للتنمية وضمانا لرفع مستوى معيشة المستفيدين فما هو أصله في الدين ؟

يقول سبحانه وتعالى :

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان ».

ويتبين من هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى يأمرنا بالتعاون على البر أي فعل الخير الذي يتفق مع اهداف الثورة الزراعية وذلك في اطار المصلحة العامة والنفع الذي يعود على سائر أفراد الامة متبعين في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

« والله في عون العبد مادام العبد في عون اخيه »

وهذا مما يدعم العمل الجماعي الذي يقوم على اساس تظافر الجهود وعلى أساس انتشار الاخاء بين الناس لان من يعين أخاه فقد أعانه الله.

الهدف الاساسي من التعاون في المجال الفلاحي هو حشد القوة العاملة وتجميع وسائل الانتاج وتسخيرها من قبل الفلاحين مجتمعين للوصول الى رفع مستوى معيشتهم .

وهذا ما ينطبق عليه قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم :

« خير الناس انفعهم للناس »

2 ـ المنتفعون :

من هم اذن المنتفعون من الثورة الزراعية ؟

يجب أن يتوافر في المنتفع من الثورة الزراعية شروط سينص عليها قانون الثورة الزراعية ولكن بصفة مبدئية يمكن القول بانها هي :

- صفة الفلاح

- عدم حصوله على ارض أو تصرفه فى مساحة غير كافية

- الاهلية البدنية للعمل الفلاحى .

ولكن قد يتقدم بعض الافراد على غيرهم بالرغم من توافر الشروط السابقة اذا كانوا من بين العمال الموجودين فعلا بالمكان . أو كانوا من بين قدماء المجاهدين ولولاد الشهداء .

وفى أى حال من الاحوال فان الاولوية تمنح لارباب العائلات الكبيرة العدد .

ويستفيد المنتفع من الثورة الزراعية بالحقوق الاجتماعية التى تتمثل فى نفقات التعليم ومحو الامية والصحة والاسكان وانشاء القرى الفلاحية الحديثة ووسائل الترقية كما يتمتع بحقوق اقتصادية فى نطاق الاحكام التشريعية الجارى بها العمل .

اما واجباته تتلخص فى وجوب انضمامه الى التعاونيات الفلاحية للانتاج والتزامه باستثمار الاراضى فى نطاق مخطط التنمية الفلاحية مع احترامه للالتزامات الاخرى التى سينص عليها قانون الثورة الزراعية .

هذه الطريقة التى انتهجتها السلطة الثورية فى تنظيم الفلاحين تساعدهم على القيام بواجباتهم نحو المجموعة الوطنية كما قامت هذه المجموعة بواجبها نحوهم مما يفسح المجال لاظهار فكرة التوافق الضمنى واتحاد ارادة افراد الشعب واجماع كلمته للوصول الى الغاية المنشودة التى ترتكز على الاستثمار .

استثمار الاراضى

وبعد ان حصل المنتفع على حقه من الثورة الزراعية . فما هى اهم الادوار التى يجب ان يقوم بها لتحقيق اهدافها ؟

يعد الاستثمار من العوامل الجوهرية لتحقيق اهداف الثورة الزراعية والالتزامات المترتبة عليه باعتباره شرطا اساسيا فى التنمية الاقتصادية .

فالغاء مزارعة الغائبين عن الارض وتحديد الملكية الكبيرة هما من جملة وسائل الوصول الى احداث وحدات ممكنة البقاء بواسطة التعاون وتقوية الانتاج . فمضاعفة الانتاج وحماية التربة يترتبان على تطبيق قواعد الاستثمار .

وواجبات الاستثمار الزراعى هذه تكون على نوعين تطبق اولا على المنتفعين حسب نوع التربة والنواحى . ويجوز ان تختص بتنمية الرى وحماية التربة والتشجير وغيرها من الانجازات الاخرى .

وتطبق هذه الواجبات ثانيا بصفة دقيقة ومشددة فى المناطق التى تسمى مناطق الاستثمار أى فى المناطق التى تقوم باعدادها وتجهيزها الدولة واحداث هيئات خاصة بها نظرا لاهمية المنطقة من الناحية الانتاجية وحجم المصروفات . وهذه الواجبات سوف تكون محلا لنصوص تنظيمية دقيقة تضبط كافة الحالات التى يمكن ان تعرض ويتعلق الامر بصيانة تراثنا الوطنى والوصول الى استعمال تام لعواملنا الانتاجية .

وفى هذا الاطار فان عدم كفاءة الاستثمار تعتبر اساءة فى الاستعمال تستوجب المعاقبة عليها .

والاستثمار لا يقتصر عند الاراضى ذات الامكانيات القوية بل يتعداها الى استصلاح

الاراضي الفقيرة والاخرى الجرداء مثل المراعي واراضي الحلفاء والاراضي الصحراوية .

وهذا يتطلب ايضا استعمال المواد الزراعية الحديثة مثل الاسمدة والبذور المنتقاة والآلات الحديثة واتباع وسائل الري والصرف واتباع احسن الطرق لوقاية النباتات وحمايتها من الآفات الزراعية .

وينبني على ذلك وجوب الاستعمال الحسن لهذه الوسائل والامكانيات ، الاستعمال المؤسس على عدم التفريط والافراط ، وتحسين جودة الانتاج ومضاعفته ، وزيادة الطاقة الانتاجية بمضاعفة العمل والمثابرة عليه .

وهذا يقتضي منا استغلال جميع عوامل الانتاج وتشغيلها بطريقة فعالة والاستفادة منها بقدر المستطاع استفادة قصوى ، وبذلك يثرى المجتمع ماديا وجتماعيا في سبيل الوصول به الى الرقي والرفاهية .

ويجب الاخذ في الاعتبار ان الاستثمار لا يمكن ان يحقق الهدف المقصود منه اذا لم يكن معتمدا على دراسة وتخطيط فني لجميع طرق الانتاج من ري ، وصرف ، وانشاء خزانات لحجز المياه وتوزيعها عند الحاجة .

ولهذا ، وبسبب قلة المياه المطرية في الجزائر ، فقد رصد مبلغ 1٫100 مليون دينارا أي ما يعادل 27٪ من الاستثمارات المخصصة للتنمية الزراعية .

كما يقتضي ذلك ايضا تكوين اطارات يعهد اليها بتنفيذ هذه المخططات والدراسات لانه لا يمكن القول بوجود استثمار حسن اذا لم يكن القائمون على تنفيذه اناسا يكتسون بالصبغة العلمية والتقنية .

ويقوم المعهد الفلاحي التكنولوجي بمدينة مستغانم دليلا قويا على هذا النهج حيث ان الدراسات تصل الى الطلبة عن طريق استعمال احدث الوسائل (السمعية ، والبصرية) حتى اصبح يضاهي ارقى المعاهد العالمية .

وطبقا لمخطط الدراسة في هذا المعهد فانه سيعمل على تخريج الف مهندس تطبيقي ابتداء من عام 1973 .

ومما هو جدير بالاشارة اليه ان وزارة الفلاحة والاصلاح الزراعي قد بدأت فعلا منذ عامين في تعريب المدارس الجهوية الفلاحية لتكوين الاطارات تقنية باللغة الوطنية .

هذه صورة موجزة لثورتنا الزراعية التي تبنتها السلطة الثورية هادفة الى خلق مجتمع افضل تسوده العدالة الاجتماعية والاخاء والرفاهية ، متمسكا بقيمه الروحية ، خاليا من استغلال الانسان لاخيه الانسان .

وها نحن قادمون على معركة بناء وتشييد ليست باقل اهمية من معركة التحرير بل اشد صعوبة واكثر خطورة حيث لا يقف الامر عند استرداد حرية البلاد واستقلالها ، بل يعتبر نقطة انطلاق في طريق استرداد واسترجاع الثروات الوطنية واستخدامها بكل فعالية لصالح الشعب .

ولذلك يجب أن يساهم ابناء البلد ، كل في ميدانه ، في هذه المعركة البناءة ، بأن يساهم عن ايمان وعقيدة بابعاد واهداف هذه المعركة .

ان الشعب الذي آمن بمعركته التحريرية ، الذي آمن بمستقبله ، هو شعب حر ، قوي العزيمة ، مجند لاخذ مصيره بيده .

ولا شك في ذلك من ان الشعب الذي يواصل تحدي اول نوفمبر 1954 سيظهر عبقريته الخلاقة لرفع تحدي تاريخي آخر ، بالقضاء على التخلف الاقتصادي والفكري بكل جد وثبات .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »

« وان الله لا يضيع اجر من احسن عملا » .

علال الفاسى



الاستاذ علال الفاسى يلقى نص التوصية الثالثة فى الملتقى الخامس الخاصة بالاسلام ومشاكل التنمية فى الاقتصاد الحديث بصفته رئيسا لها ·



الجزائر العربي

بعد أن عاد الاستاذ علال الفاسى الى المغرب حيث حضر وشارك مشاركة فعالة فى الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران ، كتب فى جريدة « العلم » سلسلة من المقالات ضمنها انطباعاته عن الجزائر .

وننشر فيما يلى اولى هذه المقالات :

شعب الجزائر مسلم
والى العروبة ينتسب

بهذا البيت البسيط فى لفظه الواسع فى معناه رد المصلح الكبير عبد الحميد بن باديس على السيد فرحات عباس حين كان يبحث عن الجزائر فلا يجدها ويطالب بتجنيس الجزائريين مع المحافظة لهم على الاحوال الشخصية الاسلامية ·

لقد تطور عباس وعاد الى حظيرة المجاهدين من اجل الاستقلال وكان من فضله على تحرير الجزائر ما يعترف له به الكل ، اما كلمة ابن باديس البسيطة فقد عملت عملها فى تذكير الجزائريين ومنهم عباس بحقيقة ذواتهم وردتهم الى الاستماع للانسان العربى المسلم المستوطن فى قرارة انفسهم ، فباسم الاسلام ماتوا لتحيا الجزائر وباسم العروبة رفضوا كل هيمنة استعمارية فرنسية ٠

واليوم وقد استقلت الجزائر بفضل المليون من الشهداء العرب المسلمين فان قادتها ورجال ثورتها يعربون عن اخلاصهم الكامل ووفائهم لهذه الروح التى حركت شعبهم ودفعت بابنائه للاستماتة فى سبيل الوطن العربى المسلم ٠

ان الثورة الثقافية التى هى احدى دعائم الثورات الثلاث فى الجزائر تقوم قبل كل شىء على اساس بعث الروح العربية واحلالها المركز الاول والاخير فى الجزائر باعتبارها لغة الدين والدولة والشعب والحضارة والثقافة التى تنتمى اليها الجزائر وشقيقاتها العربيات المسلمات ٠

فالتعريب اليوم هو الشعار الذى تنادى به الدولة ويبشر به كل مواطن ومواطنة ٠ والجميع يتعلم العربية ليظل فى الصف الامامى للامة ٠ لئلا ينفصل عن الكيان الوطنى ليكون فى صميم الشعب الجزائرى المسلم ٠

قال لى السيد هوارى بومدين : لقد قلت للذين يعتبرون اللغة العربية مجرد أداة ولا يرون فى التعجيل بالتعريب الضرورة التى نراها ، من أراد الفرنسية فعليه أن ينتقل لفرنسا ، أما هنا فالعربية لغة الجزائر ، والعربية وحدها ٠

وقال لى : لقد أرسلت شعارا يقول : قضاء الشعب يجب أن يكون بلغة الشعب ، وهكذا فقد تقرر تعريب القضاء بجميع اقسامه ومراحله ابتداء من فجر السنة القضائية المقبلة ، والمحامون والقضاة يتهيأون بدراسة العربية للموسم التاريخى المقبل ، واللجان منكبة على تعريب مدونات القانون الجزائرى ، واعادة النظر فى ما لا يتفق مع الروح الجديدة فى الجزائر ٠ والاحوال الشخصية توضع لها مدونتها ٠ وفى وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية لجنة من المفتيين يراجعون أحكام الشريعة فى بعض المواد القانونية الموروثة من الاستعمار ٠ ثم يجتمعون مع لجان التشريع للبت فى المسائل المختلف عليها ، نشاط تشريعى ومهنى وقانونى ،

ولغوى ، اسئلة توجه اليك فى شتى الموضوعات اثناء المذاكرة والطعام ، كيف نترجم للعـــربيــة هذه الكلمة ؟ ما هى عربية ذلك الاصلاح ؟

وقد قرر مجلس الثورة والحكومة ، عـــدم قبول اى موظف فى اية وظيفة عمومية اذا لم يكن عارفا باللغة العربية ابتداء من الآن ، امـــــا الموظفون القدماء فقد وقع تجميد ترقيتهم الا اذا اجتازوا امتحانا ، معينا ، وفى سبيل ذلك نظمت لهم دروس خاصة اجبارية طبقا لمنهج خاص ·

لم يعد من الممكن الحديث فى مجلس الوزراء أو كتابة الاوراق الرسمية فى الادارة الا بالعربية باستثناء بعض التقارير التقنية مؤقتا ، اى أبيح كتابتها بالفرنسية اذا كان الموظف لا يستطيـــع كتابتها بالعربية ·

اما التعليم فقد تقرر تعريبه نهائيا فى كـــل اقسامه ، الابتدائى والثانوى والعالى ، امـــا الابتدائى والثانوى فيعربان على ثلاثة اعـوام ، كل عام عام منذ سنة ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ يعرب ثلث المدارس الموجودة أو التى توجد فى القطــــر الجزائرى برمتها ، وفى نهاية سنة ١٩٧٤ يكــون التعريب قد تم فى كل المدارس ، وتتغلب الجزائر على صعوبة الاطر المعربة باستقدام الاساتـذة من اية جهة عربية كانت · وستستقدم فى هـــذه الايام ٧٥٠ استاذا ثانويا من سوريا وحــدها · والتعريب عام لجميع مواد الدراسة ، للعلـــوم والحساب وللمــواد الادبيــة ·

اما التعليم العالى ، فقد بينت سابقا عــــزم الدولة على الغاء كلية الحقوق الفرنسية وكليـة الآداب الفرنسية واحلال الكليتين العربيتين محلهما وفى انتظار تعريب كليات الطب والعلوم تعلــم العربية اجباريا لكل الطلبة المتخرطين فى الكليات الطبية والعلميـــة ·

قلت للرئيس بومدين : هذا شىء حسن جدا ، ولكن يجب عليكم أن تثبتوا ، فقد قطعنا أشــواطا فى التعريب ثم انتكسنا · فاجابنى فورا : الا اذا لم ابق فى هذا المكان ، اما مادمت رئيسا للدولة فاطمئن ياسيد علال اننى لن اتراجع قيد انملة عن تنفيذ البرامج التى اعلنتها فى التعريب وبعـث الثقافة الاسلامية · فقلت اذن أبقاك الله فى مكانك لخير العربية وثقافة الاســـلام ·

يتعمق الجزائريون فى البحث عن ضــــرورة التعريب ، ويقولون : لقد اختار أسلافنا العربية

كما اختاروا الاسلام ، فلماذا نقبل التفرنس من جديد ؟ وعلى فرض انه ليست لنا لغة قومية هى العربية ، فلماذا سنختار الفرنسية بالذات لغة لنا؟

ان الانكليزية والروسية اليوم اولى بالاختيار من جهة القيمة الدولية والعلمية ، فاختيار الفرنسية لن يكون الا لسبب استيلاء الفرنسيين علينا واحتلالهم لبلادنا ، وهو سبب يجب أن يكون مرجحا لنبذ الفرنسية وايثار العربية لغتنا القومية والدينية ·

ويذكر الجزائريون فى احاديثهم رفض دوجول دخول انكلترا للسوق الاوربية المشتركة مرددين قول بومبيدو اننا نخاف على اللغة الفرنسية من أن تتغلب عليها الانكليزية لو دخلت انكلترا السوق ·

ولا يتأخر الجزائريون عن الاعراب عن اعجابهم بالبلاد العربية التى استطاعت ان تتغلب على التأثير الفرنسى والانكليزى فى الشرق وتعرب ادارتها ومدارسها وجامعاتها،فهل سيكون المغرب العربى اقل حيوية ومقدرة من هذه الشقيقات على تدارك ما فات ؟

اللغة العربية فى الجزائر مظهر التمهيد للثورة الثقافية ، فهى كلمة الامر التى على كل مواطن ومواطنة ان ينفذها ·

يجب وضع كتب عربية جديدة للتعليم تناسب الروح العربية الجزائرية ·

يجب تعريب المعاجم العلمية والاستعانة بالخبراء فى الترجمة من البلاد العربية ·

يجب اصلاح الطباعة وتنظيم النشر للكتاب العربى · كل هذا وغيره من برامج العمل على التعريب يدرس ويبت فيه بطريقة علمية وتقنية ·

الصحافة الجزائرية باللغة العربية يجب ان تعرب يجب أن تصدر المجاهد بالعربية مثل الشعب ، فى الشهر المقبل تقرر اصدار الصحيفة الفرنسية اليومية التى تطبع فى قسنطينة باللغتين العربية والفرنسية فى انتظار اصدارها بالعربية فقط ، والجمهورية فى وهران سيشملها التعريب كذلك بعد صحيفة قسنطينة ، وهكذا يقول الوزير تصبح صحفنا كلها عربيه ، واسماء الشوارع يجب ان تعرب ، وقد بدأ ذلك بالفعل ، هناك مئات الشوارع وعشرات القرى اعيد لها اسمها العربى القديم او اعطي لها اسم عربى جديد ، واسماء الاعلام لماذا نقدم الصفة على الموصوف العزاوى محمد ، هذا تلاعب فرنسى لنقل محمد العزاوى · شغلت هذه القضية التلفزة والمذياع مدة ، وشغلت الرأي العام كذلك ، وهى لما يجرى

فى حديث التحية ، كمظهر من مظاهر العبث الاستعمارى بالرجل الجزائرى ·

زرنا معامل كيماوية بترولية ، المدير درس اولا فى مدارس جمعية العلماء ، ثم اتم دروسه فى يوغوسلافيا ، يقول له السيد الوزير : اشرح للاخوان مهمة المعمل واخباره بالعربية ، ومعمل الغاز ، نفس الامر ، اشرح سيدى المدير لزوارنا (بالعربية) قصة الغاز وطريقة تمييعه الجديدة · وفى النهاية يتنفس السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية الصعداء ويقول وهو يبتسم : الحمد لله ، نجح اخواننا فى تعريب انفسهم ، هذا المعمل ، معمل ارزو يديره شخص من مازونة لم يدرس الا العربية واصبح مهندسا كيماويا من يوغوسلافيا ، كان فيه مائة وعشرون خبيرا فرنسيا وبعد عملية التاميم للصناعة البترولية ذهبوا واليوم يقوم عشرون فقط من الجزائريين الدارسين بالعربية بعملية المائة والعشرين فرنسى·أنهم ابطال ، انهم يعملون اثني عشرة ساعة فى اليوم ، لمقاومة التحدى،ويشتغلون بالعربية ، ويشرحون المسائل الفنية بالعربية ، الحمد لله ·

قلت له : ان هؤلاء ابطال التحرير الاقتصادى والثقافى ، يجب أن توشح صدورهم بأوسمة الشعب ·

مدارس جمعية العلماء أعطت الجزائر العديد من الرجال المجاهدين والذين يشغلون وظائف مهمة فى كل الميادين ، فلا غرابة ان نرى الجزائر اليوم تمجد ابن باديس وتنشط التعليم الاصلى القائم على العربية وحدها ·

ذلك وجه الجزائر العربى مشرقا وضاحا ، ذلك الوجه الذى حاول الفرنسى أن يغطى عليه زهاء قرن ونصف القرن ، معتقدا انه أصبح فرنسيا لفظا ومعنى ، يثبت اليوم ان الروح العربية الاصيلة لا تنطفى ·

فهل يقرأ المسؤولون فى الغرب هذه الاخبار ويتعظوا ؟ هل يدركون من تجربة الجزائر ان كل محاولة لاضعاف العربية والعلوم الاسلامية مجرد تضييع للوقت وسير معاكس للتاريخ ومقاومة مضادة لرغبة الشعب ، شعب المغرب المسلم العربى ؟ ·

الثورة الجزائرية

لم يكن أحد يصدق قبل غـرة نوفمبر سنة 1954 ـ ان هذا الوطن الوادع يمكن أن تندلـع فيـه شرارة ثورة ، ولـم يكن الشعب الجزائرى الذى كان الآخرون يقدرون انه شعب اندمج فى الشعب الفرنسى ، واندمجت حضارته فى حضارة الغرب ، ليعول عليه فى انتفاضة تلقائية ، او تتوقع منه ، لانه ـ كما يعتقدون ـ لم يعد شعبا ، وانما صار قطيعا من البشر ، يسام الهوان والذلة ، ويسخر تسخير العبيد تحت سياط الاسياد الطغاة ، وقال بعض الكتاب : « ان الجزائـر خسرتها العروبة والاسلام ، كمـا خسرت صقلية ، والاندلس ، وغيرهما ، وان البقية البـاقية من عروبتهـا واسلامها مقضى عليها ـ ان عاجلا أو آجلا ـ » .

أحمد بن ذياب

ولعل برهانهم المبـين ان الساسة الفرنسيين يذهبون ـ فى غطرستهم وادعاءاتهم ـ الى حـــد القول «بأن الجزائر قطعة من فرنسا «الام» ويدعون ـ فوق ذلك ـ ان الشعب الجزائرى نفسه قـد اختار ان يكون فرنسيا قلبا وقالبا ، الى آخر ما كان يروج فى الصحف ، ويردد فى الاذاعات ، ويعلن من مختلف المنابر السياسية فى المناسبات.

اما الشعب الجزائرى الغيـــور فكان يسمع ويبصر ، ويعى فيرد أحيانا رداً هينا بالقول ، ويتطاير الشرر من عينه نذير غضب مكتـوم ، وسخط كامن ، احيانا أخرى ، ويتغابى ـ فى بعض تصرفاته ـ حين يشاء كأنه اصبح حقا كما يزعمون، لكنه فى قرارة نفسه ، وطوايا ضلوعه ما يزال وفيا كل الوفاء لاسلامه محافظا كل المحافظة على

في الشعر المعاصر


محمد العيد


المرحوم الحفناوي هالي

عروبته ، فخورا كل الفخر بمقوماته من لغة ودين الى عادات وتقاليد ، الى موقع جغرافي بين جيرانه ، وسجل تاريخي حافل بالجهاد والامجاد .

وكان كل شيء ، في واقع امره ، ينشد مع الشاعر القديم :

ارى خلل الرماد وميض جمر

ويوشك أن يكون له اضطرام

وكانت هناك ارهاصات تلوح معالمها من حين الى حين ، وتثير حولها استفهامات وتساؤلات ، غير أنها لا تلبث ان تختفي بين حوادث العالم الكبرى ، فتنسى — وكم من نعمة في النسيان لا تقدر حق قدرها — حتى اذا جاء فجر نوفمبر سنة 1954 أحس العالم أنه فجر غير عادي ، وانه قد يغدو حافلا بالمفاجآت ، جياشا بالحركة الثورية غاصا بالمعجزات ، وقد تكون هناك ثورة عارمة لن تخمد لها نار ، ولن ينطفىء لها أوار ، حتى تحقق الاهداف المنشودة ، وتبلغ المقاصد المتوخاة ، ولكن ما هذه المقاصد ؟ وما تلك الاهداف ؟ أهي الاستقلال ؟ أم هي التعبير القوى عن الوجود

الحي ؟ أم هي ثورة اجتماعية على الظلم والطغيان ليس غير ؟

اما الجزائر فلم تشأ أن تقول ، بل شاءت ان تفعل . ولم ترد ان تصرخ أو تستغيث بل أرادت أن تعول على سواعد بنيها ، وكفاءة رجولتهم ، وان تدع الناس يقولون – جادين أو هازلين ، متكهنين متخرصين ، أو دارسين متثبتين – وكانت ترى وتسمع وتعى غير عابئة الا بما تصنع ، ولا مبالية الا بالتحرك بحكمة وتؤدة وثبات في الخطة المسطورة ، والمراحل المبيتة ، معتمدة على نفسها ، واثقة بجهودها ، آملة في غـــدها ، ماضية في عزيمتها ، وسارت اشواطا في الطريق المرسوم ، فانطلقت العفاريت من قماقمها ، وصار الشعب الخانع الذليل – كما يقـــال عنه – شعبا متمردا عملاقا يكسر القيود ، ويهدم الحدود ، ويقهر كل ما يعترض مسيرته الثورية من عقبات وعراقيل .

فحـرك الشاعرية الخـــامدة ، وأنطق الالسن الخرساء ، وفجر ينابيع للقول البليغ ، والبيان الرائع ، فاهتزت أريحيات الاكبار والاعجاب ، وعصفت بالاحاسيس زوابع الشعر ثائرة فائرة ، فكانت الثورة الجزائرية مستوحى خصبا عنـــد بعض ، ومصدر الهام عند آخرين ، ومجالا للاخيلة الخلاقة ، والاساليب الرشيقة والآيات الباهرات هنا وهناك .

فهذا شاعر جبار يقف في مطلع السنة الخامسة للثورة يحييها تحية خالدة ، ويشيد بها هـــذه الاشادة التي يحس القارىء من خلالها لعلعـــة صيحات الجهاد ، وقعقعة ضربات السلاح ، وجعجعة أصداء البارود ، فيتخيل أن الجزائر كلها تحولت الى بركان يتلظى لهيبا ودخانا ، ويسعر نـــارا وغبارا ، وكأن جبالها الشم ركبت ظهر عفريت مارد جبار ، فهي كلها زلازل مهولة ، ودور منهارة وقصور تتحول الى سراب وخراب ورؤوس الطغاة المستعمرين تتطاير هنا وهناك هباء منثورا .

وتكون اللوحة العبقرية التي يقدمها مفـــدي زكرياء بهذه الروعة :

هذا « نفمبر » قم وحي المدفعـا
واذكر جهـــادك والسنين الاربعا
واقرأ كتـابك للانـــام مفصـلا
تقرأ بــه الدنيا الحديث الاروعـا
وقل «الجزائر» واصغ ان ذكراسمها
تجـد الجبابر ساجـدين وركعـــا
ان الجـزائر في الوجود رسالة :
الشعب حـررها ، وربـك وقعـا
وقصيدة أزليـــة أبياتهـــــا
حمـراء كان لهـا نفمبر مطلعـا

ويمضي الشاعر المقتدر كانه ثورة جزائريـة أخرى في ميدان القصيد والقـــريض ، وتكون ابيات القصيد كلها – أو اغلبها – مجالي للروعة والاثارة والقوة والابداع ، لا يكاد يستضعف منها بيت ، أو ينحرف فيها تركيب ، فاذا تعرض لموقف الشعب منها صوره التصوير الواقعي فقال :

شعب دعاه الى الخـــلاص بنـاته
فانصب مذ سمع النـــدا وتطوعا
نادى بــه جبريل في سوق الفدا
فشرى وباع – بنقـدها – وتبرعا
فلكم تصارع والزمان فـلم يجد
فيه الزمان – وقد توحد – مطمعا
واستقبل الاحـداث منهـا ساخرا
كالشامخات تمنعـــا وترفعـــا
واراده المستعمـرون مصدعـــا
فأبى – مع الايمان – أن يتصدعا

وليكن « هذا الشاعر » من واقع الجزائر الآن أنى شاء ، ولكن الذى لا يرتاب فيه احد ان الشعر

للجزائر لانها الموحية له ، ولان ثورتها الجبارة هي صاحبة الالهام ، ومبدعة الروعة . بل على الشاعر أن يشكر الجزائر ، وثورتها لانها فجرت فيـه ينابيع للشعر لم تكن لولاها لتتفجر بهذه الغزارة ، وهذا التدفق ، وتلك الروعة .

اما الشاعر المرحوم الحفناوي هالي ، وهو شاعر حينا وغير شاعر احيانا اخرى ، ومع ذلك فقد خص عيد نوفمبر سنة 1963 بقصيد محترم جاء منه :

الله اكبر ـ والعقبى لمن صبروا ـ
ياشعب ـ حييت ـ هذا المجدوالغار
الله أكبر هـذا يوم ثورتنـا
يا يوم ثورتنا كـم أنت جبار
نفمبر في شهور العـام درتهـا
وحربنا ـ فيحروب الدهر ـ معيار

ويعرج ، اثناء انسيابه في قصيده ، على ما قيل حول الجزائر فيعطي الحق نصابه ، ويعيد الامر الى مجراه فيقول :

قالوا الجـزائر فـردوس كاندلس
اضاعـه الشرق ، والايـام أطـوار
لا ، والذي خلق الاحرار ما ذهبت
منا الجزائر ، أو ضلت بنا الدار
انـا هنـا وسنبقى ذادة ابـدا
عن أرضنا ، ولوجه الطامع القـار
شعارنا : جبهة التحرير ، رائدنا :
الاسلام ، والعرب اخـوان وانصار

ثم يتجه للشعب فيقول :

يا شعب هـا أنت سيد بطـل
ومن يقـودك ابطـال وأحـرار
هذي الجزائر دار العرب أحرسها
ماعشت : «دومي بحفظ الله يادار»

وكم كنت أود أن أعقب بشيء من النقد الخفيف لكن النقد ليس هنا مجاله ولذلك نودع المرحوم الحفناوي هالي لنقف قليلا مع الشاب المتحفز لتبوء مكانه بين الشعراء الاخ ابي القاسم خمار ، الذي يتعرض لشهر نوفمبر وهو يناغيه بلسان



د. صالح خرفي

الجزائر ـ أو نيابة عنها ـ فيقول من قصيد تحت عنوان « هتاف الجزائر » :

ان أصـداء ثـورتي يانفمبر
لم تـزل أسـدها بارضي تـزأر
أبـدى صوت الجهـاد وان تـ
ـم له النصر ، في النضـال المظفر
والابى الطمـوح من كانت الآ
مـال في نفسه هـوى يتفجـر
أمتي أبشري لقـد فـارق الجد
ب ، وولى مـع الـردى يتعثـر
نحن في لحظـة الشروق فتيهي
يا روابي بـه ، ويا ليـل أدبر
ان شعبي روض الربيـع الذي آ
من بالفجـر بالنـدي ثـم ازهر
كل شبر بـه دمـاء شـهيد
وبـذور تفتحت للتحـرر

ولسنا نستطيع أن نتابع الاخ خمار في أشواط ملحمته حتى النهاية ، ولكنا نحيل القـراء الى العودة اليها في مظانها .

اما الشاعر الاستاذ صالح خرفي فنعود معه الى الذكرى السادسة للثـورة لنصاحبه في بعض مقاطع من قصيدة تحت عنوان « نفمبر » وهـي مطبوعة في « اطلس معجزاته » ويستهلها هـذا الاستهلال الخاص :

« بايعت من بين الشهور نفمبرا
ورفعت منه لصوت شعبي منبرا
شهر المواقف والبطولة قف بنا
في مسمع الدنيا وسجل للورى
فلأنت مطلع فجرنا وزناد بر
كان أثرت كمينه فتفجرا
دوت بمطلعك الخضيب رصاصة
فاهتزت «البيضاء» وانتشت الذرى
وانداح فجرك عن مصب من دم
الاحرار فانتعش الجديب وازهرا
خبأت معجزة تمخض ليله الدا
جي بها ، والارض في سنة الكرى
الى ان يقول :
يا روضة الشهداء لولا كعبة
هي قبلتي سميتها « أم القرى »
أقسمت أن الاطلس الدامي يخبيء
للبرية هاديا ومبشرا
الله اكبر جل من خلق الجبا
ل . وشق فيها من دمانا أنهرا
الله اكبر سوف تبقى حرة
عربية حكم الاله وقدرا

ونغادر صالح خرفي في صلواته للثورة والثوار ، لندعه غارقا في ابتهالاته للامجاد الخالدة ، والبطولات الصامدة ، ولنرافق الشاعر الشيخ الذي واكب النهضة الجزائرية خطوة فخطوة ، والذي عرفته الجزائر شاعرا صادقا ، ومعلما قديرا ، وصوفيا زاهدا فأكبرت فيه الشعر والعلم والتصوف فأحلته مكانته من القلوب والارواح ، ذلك الشاعر هو محمد العيد آل خليفة

ولمحمد العيد شعر كثير حول الثورة غير انا لا نستطيع ان نمكث معه الا لحظات خاطفة ، في جانب من القصيدة التي قالها تحية لنفمبر سنة 1964 والتي يفتتح مطلعها بقوله :

نفمبر قد وافى على اليمن والبشرى
بعاشرة الذكرى لثورتنا الكبرى
نفمبر قد وافى فأهلا ومرحبا
بشهر ركبنا فيه مركبنا الوعرا
نفمبر أذكى من فؤادي شعوره
والهب احساسي والهمني الشعرا
نفمبر جلى عن بلادي ظلامها
نفمبر في آفاقها أطلع الفجرا

ومن روائعه فيها قوله :

وفي النار والبارود أعظم حجة
نرد بها الدعوى على من طغى كبرا
اذا جيشنا لاقى الفرنسيس ساقهم
فلولا الى قفر يكون لهم قبرا
الى جبهة التحرير ذلت جباههم
ومن جيشنا ترتاع أبطالهم ذعرا

ثم يتجه الى الشعب يخاطبه بهذا الاسلوب :

الا أيها الشعب الذي بجهاده
أعاد جهاد الصحب يقفوهم اثرا
لقد ثرت في التاريخ أعظم ثورة
تسجل تبرا في الصحائف لا حبرا

واحسب أن هذه الالمامة كافية مع الشاعر محمد العيد ، فلنودعه شاكرين لنفتح نافذة نطل منها على أحد الشعراء العرب الذين اهتموا بالثورة في الجزائر وأعطوها من قلوبهم ومشاعرهم ، وأمدوها بكل ما استطاعوا من وقود معنوي ، ورفعوا لها منارا هاديا للايمان بها ، والتقدير لها ، والاشادة بأبطالها ، والميادين التي تجري فيها .

وهؤلاء الشعراء كثيرون ، ولكن الذي يمتاز بأنه وهب لها القسط الاوفر من نشاطه ، ووجد فيها مادة خصبة لبيانه ، وتتبع خطواتها خطوة خطوة في معاركها الشهيرة ، وجبالها الحصينة ، وشعابها الخفية كأنه شاهد عيان رغم ـ البعد عنها ـ يدفعه الى كل ذلك ايمان عميق بالعروبة وحرص دائم على خدمتها ، والاخلاص لقضاياها : ذلكم الشاعر العظيم ـ في هذا العصر ـ هو سليمان العيسى فقد خص الجزائر بقصائد رائعات ، وملاحم خالدات من الشعر العبقري الممتاز ، لكنا في هذه العجالة نكتفي بالاشارة الى احداها ، ولتكن هذه الفريدة التي أخرجها في ديوانه «قصائد عربية » والتي جاءت تحت عنوان

« من ملحمة الجزائر » فيكون المطلع البارع في هذه الترنيمة النشوى :

روعة الجرح فوق ما يحمل اللفظ
ويقــوى عليــه اعصــار شاعر
أأغنى هــديرهــا ؟ ، والسماوا
ت صــلاة لجرحهــا ومجــامر
أأناجي ثــوارهــا ؟ ، ودوى النــا
ر أبياتهــم ، وعصف المخــــاطر
بــين جنبى نفحــة من ثــراهــا
ونـــــداه ، أنى تلفت ، صـــاهر
ما عساني أقــول ؟ ، والشاعر الر
شاش والمدفــع الخطيب الهــادر
والضحايــا المزقــون وشــعب
صـــامد كالالـــه يلوى المقـادر
فوق شعرى وفوق معجزة الالحان
هــذا الذى تخــط الجــــزائر

اما حين يبدئ الله لبعده عن معركة المصير في الجزائر فان حسرته تتجسم على النحو التالي :

ما عساى اقول ، والنــار لم تلفح
جبيني ، هناك ، والثــأر دائر ؟
ودوى الرشاش لم يخترق سمعي
ويسكب في جــانحــى المشاعــر
لم اذق لــذة الكمـــين يــدوى
فاذا السفح للصــوص مقـــابر
الف عــذر يا ساحة المجــد يا
ارضى التي لــم اضمها يا جزائر
بيديــك المصــير فاقتلعي الليـــل
وصوغيه دافــق النــور باهــر

وشعر الشاعر المبدع سليمان العيسى جـــله أو اكثره جميل جليل ، ومن ثم يعسر علينا ان ننفصل عنه مودعين شاكرين قبل ان نختم ، هذه الاستعراضة العجلى ببعض آياته ، أو بعيونه فيها من مثل قوله : متسائلا مجيبا في هذه الصرخة ..

من سقى الرمل في الجزائر رعشا
وحيــاة تمــور مــور العبــاب ؟
من احــال الجبـــال زار براكــ
ــين وجـــدران معقــل غــلاب ؟



ابو القاسم خمار

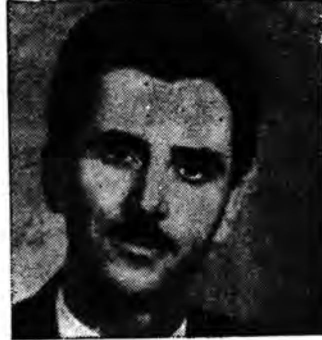
يتحـــدى قوى الجريمة في الارض
فتبـــدو كسيحــة الانيـــــاب ؟
انهـــا أمتى تشـــد جناحيهـــا
فوجــه التــاريخ وجــه انقـــلاب
حادث الجيل عودة الفارس الاسمر
حـــل الميـــدان بعـــد الغيــاب
لا تسلنى عنه ! تلفت تر الانجـم
وشيــــا على جنــــاح عقـــــاب
لا تسلنى ، « طلائعى تملأ الافق
كان السماء بعض الرحـــــاب »
لا تسلنى : « جزائرى تخضب التا
ريخ عطـرا بحفنــة من تــراب »
انهــــا أمتى تعـــود الى السا
ح نبيــا ، وآيـــة من كتـــاب

هذه استعراضة سريعة نحيي بها عيد نوفمبر في الذكرى السابعة عشرة لاندلاع الثورة المجيدة وليعلم الجيل الصاعد اثر معركة الجزائر في الادب العربي المعاصر ، لم نتوخ فيها الاختيار كما توخينا التنويع والتلميح الى كثرة ما قيل ـ ويقال ـ حول الثورة الجزائرية العتيدة .

وهؤلاء الشعراء الذين رافقناهم في هذه الجولة ليسوا الا قلة من عشرات الشعراء ، والمئات من الذين اكبروا في الثورة صمودها ، وروح التصميم فيها . وما حفلت به من مفاجئات معجزة .

والله اسال ان يوفقنا للبناء والاعلاء ، وان تكون الاعياد القومية اعيادا تحيي للاشادة بما انجز ، والتخطيط ، دائما ، للمستقبل المنشود .

ندوة الأصالة


د. عمار الطالبي*


د. على عيسى


د. بديع الكسم

علاقة الجامعة بالمجتمع

نظمت اللجنة الثقافية بكلية الآداب ندوة في ماي الماضى ، حول علاقة الجامعة بالمجتمع ادارها الدكتور محمد العربى ولد خليفة وحضرها عدد هام من الاساتذة والطلبة . وفيما يلى ننشر على التوالى نصوص الكلمات التى القيت في هذه الندوة :

■ تطبيق العلم على العمل عامل أساسي لتقدم العلم ذاته

د. علي عيسى

■ فلسفتان في تحديد دور الجامعة

د. عمار الطالبي

■ العلاقة بين الجامعة والمجتمع علاقة انفصال واتصال

د. بديع الكسم

اود أولا أن أتقدم بأخلص الشكر للزملاء الافاضل القائمين على تنظيم هذه الندوات الجامعية على تفضلهم بدعوتي للاشتراك فيها . وانّ هذا التقدير الذي لقيته وأنا في مستهل اقامتي لاول مرة في الجزائر لدليل على رغبتهم الصادقة في ادارة دفة اعمالهم ادارة ناجحة باذن الله . ولعله من المستحسن في هذه المناسبة ان اذكر أن القاعدة الذهبية الاولى في علم الادارة تتلخص في ضرورة تقدير العاملين . هذا التقدير الذي يساعدهم على مضاعفة الانتاج . وتطبق هذه القاعدة في دور الحكومة والمؤسسات على السواء .

د . علي عيسى :

وقبل أن أطرق موضوع هذه الندوة أرجو أن يسمح لي بملاحظة عابرة ولكن لابد منها فالمفروض ان هذه الندوة تتناول علاقة الجامعة بالمجتمع أي تحتم أن تنزل الجامعة الى المجتمع ولكن الذي حدث أن المشرفين على هذه الندوة اختاروا مكانا لها في الطابق الرابع من مبنى كلية الآداب وكان الواجب أن ينزلوا الى المجتمع لا أن يطلبوا منه أن يصعد اليهم . ان الطبقات العليا أيها السادة لا تناسب هذه الندوة الجماهيرية .

تدلنا العلوم الاجتماعية على أن في كل مجتمع توجد بقايا عادات وتقاليد تستمر الى قرون طويلة وأن تغييرها ليس سهلا . وفي مجتمعات العلم والعلماء توجد مثل هذه العادات والتقاليد القديمة الباقية والتي نعاني منها في الوقت الحاضر والمتمثلة في كون بعض الفلاسفة والعلماء المحدثين يعتبرون انفسهم طبقة ممتازة . تفكر تفكيرا حرا ذاتيا ولا يهمها شؤون المجتمع أو الشؤون العملية الواقعية حتى أن بعض الفلاسفة والعلماء يرفضون

خدمة المجتمع ويعتبرون هذه الخدمة خارجة عن نطاق واجباتهم . مع أن هذه الخدمة أو تطبيق العلم على العمل عامل أساسى لتقدم العلم ذاته . ونذكر فى هذا المقام الفيلسوف العالم البريطانى فرانسيس بيكون الذى قال : **ما قيمة النظريات فى ذاتها اذا درست الدجاجة من أجل الدراسة فحسب** ؟ والاجدر أن أدرس الدجاجة من أجل أكلها والاستمتاع بقيمتها الغذائية . هذه النظرة العملية للاشياء تعتبر ثورة على الاوضاع الفلسفية القديمة الممتدة جذورها الى الوراء حتى الفلاسفة الاغريق . وحينما استعان الاستعمار بالعلماء فى اعقاب غزواته كما فعل نابليون فى غزو مصر فى أواخر القرن الثامن عشر عند ما استصحب معه جيشا من العلماء بمعاملهم وأجهزتهم ومطابعهم . كان يقصد الاستفادة العملية من جهود هؤلاء العلماء لزيادة ضغطه وسيطرته على الشعوب المستعمرة — وهذه المصلحة العملية هى التى أتاحت للاستعمار أن يدرس بلادا كثيرة وأن يجوب آفاقا بعيدة — ويعتبر الربح فى الصناعة والتجارة العامل الاول لتقدم الصناعة والتجارة علميا بدرجة أن المصانع فى الوقت الحاضر فيها مكاتب وهيئات للبحوث العلمية تفوق فى عددها وعدتها هيئات البحوث فى الجامعات . وهى لا تتوانى فى جذب العلماء والباحثين اليها لتحقيق الربح الطائل من وراء كشوفهم وبحوثهم العلمية . وفى بريطانيا مجلة اسمها أخبار العلم أو SCIENCE NEWS

هى نشرة دورية ترعاها مؤسسة بنجوين PENGUIN'S تعنى بأخبار العلم (الكيمياء والطبيعة والطب وعلم الاجتماع) . وفى أحد أعداد هذه النشرة اشارة الى أن البحوث **العلمية تتقدم فى الشركات والمصانع أكثر مما تتقدم فى جامعات الولايات المتحدة وبريطانيا وأوربا معا — ان الرأسماليين فى هذه البلاد يعملون للربح وسبيلهم اليه هو العلم .**

« والدولة الحديثة فى الوقت الحاضر يهمها رخاء المواطنين وسعادتهم وأنا أنظر للدولة الحديثة العصرية نفس النظرة الى الشركات والمصانع واذن فكل ما تنفقه الدولة على العلم لابد أن يخطط له بحيث يخدم مصالح المواطنين : هذا هو ربح الدولة الحديثة » .

والدولة تكون خاسرة اذا لم يكن العلم فيها وسيلة لتحقيق رخاء المواطنين . واذا كان فى وزارات الحكومة مكاتب للبحوث فهى لتحقيق هذا الرخاء وليس لتحقيق الربح المادى . هذا هو الفرق بين الدولة خصوصا فى النظام الاشتراكى وبين الشركات والمصانع فى النظام الرأسمالى . ولا يجوز فى الدولة العصرية المتطورة أن يعمل العالم أو الباحث بعيدا عن الدولة . لابد أن يخدم الدولة . وأنا لا أنادى بأيديولوجية معينة وانما بكل وضوح أقرر أن العالم الذى تنفق عليه الدولة وتؤمن عيشه هو وأسرته . من واجبه ان يخلص لمبادئها وفلسفتها ولا يخرج عن هذا الاطار . وليس من حق أستاذ الجامعة ولا طالب البحث فيها أن يخدم آيديولوجية خاصة خارجة عن نظام الدولة . عليهما أن يعرفا ماذا تريد الدولة وأن يعملا داخل هذا الاطار .

ان الجامعات — أيها السادة — مهددة بضعف المستوى العلمى اذا كانت لا تهتم بالبحوث التى تجرى داخلها أو خارجها وعليها أن تقلل من كبريائها وان تتصل بالباحثين الممتازين فى الشركات والمؤسسات وأن تتعاون معهم لخدمة العلم والصالح العام فى وقت واحد . ويجب أن نذكر أن البحوث التطبيقية تساعدنا فى اختيار صحة النظريات العلمية .

وتهتم الدولة الحديثة بدراسة مشاكل المجتمع مثل التسول والاجرام والبطالة والبغاء دراسة علمية . الا أن بعض الدول تتحرج من الاشارة الى هذه المشاكل فى مطبوعاتها ونشراتها وهذا خطأ فادح لان السبيل الى الافضل لا يكون الا بدراسة ما هو كائن بالفعل دراسة جريئة وصحيحة — وامامنا امثلة للمشاكل التى تواجهها بعض الدول بدون اخفاء ، نذكر منها الجنسية المثلية فى

بريطانيا حيث درست دراسة مستفيضة وصدرت القوانين الملائمة لها .. من وجهة نظر المشرعين وعلماء الاجتماع البريطانيين ، وقد درست مصر ظاهرة تعاطى الحشيش والمخدرات والبغاء دراسة وافية شملت كل الجوانب المتعلقة بها ، ومما توصل اليه الباحثون فى مصر وكنا نجهله تماما ان من اهم أسباب انتشار البغاء كحرفة أن اولاد الطبقة البرجوازية او الغنية الذين فى بيوتهم خادمات يعتدون عليهن ويمهدون لهن سبيل الفساد . ويلى أبناء هذه الطبقة عمال كى الملابس وتنظيفها وبعض تجار البقالة الذين يتعاملون يوميا مع هؤلاء الخادمات .

هذه المسائل وغيرها مثل نجاح وفشل الجمعيات التعاونية والبطالة والاجرام تستحق أن تهتم بها الجامعة لخدمة الدولة . وعلى الجامعة أن تبحثها بشجاعة وأن تتخلى عن نمط التفكير القديم اذا أرادت أن تقوم بدورها الكامل فى العصر الحديث .



د . عمار الطالبى :

ايها السادة انه لمن الصعب الحديث عن دور الجامعة فى المجتمع فى ندوة قصيرة كهذه ، وانما اود ان اشير الى بعض المشكلات ، وأن اطرحها امامكم للمناقشة .

نستطيع القول بأن الجامعات عامة أخذت تتجه فى جميع انحاء العالم الى ربط برامجها ومناهجها بحياة المجتمع ومعنى ذلك أن الجامعة لم تعد كما كانت من قبل موطنا للعقل المحض او مجالا للحقائق المجردة التى لا صلة لها بالوقائع الاجتماعية . وأصبح التصور الراهن للجامعة قائما على أساس أنها مؤسسة اجتماعية . وأضحى مقياس نجاح الجامعة فى أداء رسالتها متوقفا على مدى عمق اتصالها بالمجتمع وبمظاهر نشاطه ، ولا يمكن ان يكون التعليم ، أو البحث جامعيا الا اذا تضمن معنى اجتماعيا ، وكان وثيق الصلة بحاجات المجتمع ، ومقياس الجامعى الحقيقى انما هو الذى يمثل أقوى العناصر الاجتماعية فعالية وتأثيرا فى بناء المجتمع .

ويمكن القول بأن هنالك فلسفتين فيما يتعلق بدور الجامعات فلسفة تجعـــل الدراسة والبحث غايتين فى حد ذاتهما . وفلسفة أخرى تذهب الى أن الدراسة ينبغى أن تكون فى خدمة المجتمـــع مباشرة . وأصبح التصور الثانى هو المسيطر الآن على الجامعات . فلم يبق محور اهتمام الجامعــة البحث فى حد ذاته . ولم تعد الدراسة غاية فى ذاتها . وانما أصبح اهتمام الجامعة منصبا على المواطن أى على تكوين الشخصية تكوينا يتيح لها أن تقدم خدمات للمجتمع ، وأن تكون ذات فعالية فى توجيه مصير الامة الحضارى ، واذا كان تاريخ التربية . وتطورها يعكسان لنا تطور الحياة العقلية الجمعية ويصور ان الاتجاه الفكرى العام . ويبينان لنا ايضا النظريات التربوية التى قامت عـــلى أساس القيم والعلاقـات الاجتماعية . التى تسود مجتمعا ما من المجتمعات . فان النظم التعليمية والتربوية نفسها تؤثر بدورها فى تطور المجتمع وفى تقدم المعرفة أيضا تأثيرا قويا .

ومن جهة أخرى فان المجتمع يتوقع ويرجو أن يجد فى قادة المستقبل من المثقفين من يؤيد ما ينزع اليه من مثل عليا ، وآمال قومية بالاضافة الى الفعالية التى تؤدى الى حل مشاكله الاجتماعية والاقتصادية ، والصناعية والمهنية . أى أن المجتمع يقوم فلسفته على معنى ذى حدين : الحفاظ عـلى أصول قيمه وتصوراته ثم الاضافة الى ذلك التراث الثقافى واغناؤه واختراع ما يحتاجه المجتمع لحـل مشاكله التى تستجد .

ولا يمكن خلق مجتمع واع الا اذا نقل العلماء الى جمهور الشعب العناصر الرئيسية لخبراتهـم بعد تفهمها الافراد العاديون . والواقع أن دور الجامعة بالغ درجة عالية من الاهمية فى هذا العصر نظرا لكثرة الاقبال عليها . ولانها لم تعد خاصة بأبناء الاثرياء . أو أبناء المعمرين . كما كان عندنا فى الجزائر ، كما أنها لم تعد خاصة بالذكور . بل أصبح الفقراء والاناث ، وأبناء مختلف الطبقات يتزاحمون على الجامعات ، أى أن الجامعة اصبحت تمثل مختلف الطبقات .

كما أن الحاجة الى المعارف العلمية والفنية ، والى مواجهة التغيرات الحضارية السريعة اضحت ملحة بالاضافة الى تضخم المعـــارف . وضرورة نشرها .

ويبدو أنه قد اشتد هجوم الاشياء الجديدة على الاشياء القديمة بدرجـــة ساحقة بحيث أصبح المتهن لمهنة معينة اليوم لا يستطيع أبدا أن ينقطع عن متابعة الدراسة سواء بالتدريب على التقنيات الجديدة أو بالقراءة المتواصلة لما يستحدث . فاذا مر على مهندس من المهندسين مثلا بضعة أعوام فانه لا يكون خبيرا بما جد فى اختصاصه الا اذا بذل مجهودا دراسيا آخر لاستكمال ما ينقصه من معلومات . وكذلك القول فى كل مختص انقطع عن الدراسة وعن متابعة سير مجال اختصاصه ، واذا ظن الجامعى أن وجوده فى الجامعة لا يعدو أن يكون مجرد تشريف أو ميزة اجتماعية دون أن ينظر الى أعماق المجتمع ، ويشارك فى دراســة مشاكله وفى حلها فهو خادع أو مخدوع .

ان الجامعى الذى ينقطع عن بيئته الاجتماعية ويعيش خارجها لن يكتب له أن يؤدى دورا حاسما فى تقدم المجتمع . ولا يمكن له أن يبدع أفكارا أو نظريات جديدة اذا انقطع عن الواقع . ان الجامعة بمثابــة ضــمير للمجتمع تراقب مختلف مظاهر

نشاطه وتستجيب لمختلف حاجاته . وتعمل على تغييره وتقدم له ما يساعده على التقدم وعلى حل مشاكله .

ولكن كيف تستطيع الجامعة أن تستجيب لاحتياجات المجتمع ؟ الواقع انه يصعب حصر هذه الحاجات لانها سريعة التغير . ولكن يمكن القول ان التخطيط يعبر عن حاجات محددة يعتبرها ذلك التخطيط أولى من غيرها .

ونجد أن جامعات الاتحاد السوفياتي معتنية بالتخطيط ومعتمدة على المركزية وعلى تنسيق وثيق مع سلطات الدولة . أما جامعات بريطانيا فهي تجمع بين التخطيط المركزي والقرارات المستقلة ، في حين أن جامعات الولايات المتحدة الامريكية لا مركزية ولا تعتمد على التنسيق . ولكن ظروفنا نحن باعتبارنا جزء من العالم الثالث ، تهيمن على أوضاعنا ظاهرة التخلف ، تحتم علينا فكرة التخطيط والتنسيق نظرا لقلة الامكانيات من جهة ولكثرة الحاجيات من جهة أخرى . مما يضطرنا الى انتخاب أولى لهذه الحاجات . واذا كنا نحن في الجزائر نقوم بثورة صناعية وزراعية وثقافية فانه يتحتم علينا ان نخطط التعليم الجامعي على أساس الاستجابة لاهم الاحتياجات وأكثرها الحاحا بالاضافة الى ضرورة تخريج المختصين في العلوم الزراعية والهندسية . والطب وعلم الأجتماع وعلم النفس . وما الى ذلك من المعارف التي تخدم هذه الحاجة الملحة .

ويمكن للجامعة أن تؤسس مكاتب في شتى أنحاء البلاد لنشر الثقافة بين الجمهور وتقوم بنشاط يجعل المعارف الجامعية قريبة من حياة الناس كما يمكن لهذه المكاتب أن تقدممواد دراسية للدارسين بالمراسلة ، ويعد هذه المواد أساتذة الجامعة ، بحيث يستطيع الطالب الذي يواصل هذا النوع من الدراسة أن ينال شهادة جامعية واذا كان لا يرغب في الحصول على درجة جامعية فانه يمكن أن يعمق معارفه . ويستفيد خبرات جديدة .

وبهذا يصبح ساعي البريد من العوامل التي تقرب بين الجامعة وبين المجتمع . كما يمكن اقامة مراكز ثقافية في المدن تكون تابعة للجامعات يلقي فيها أساتذة الجامعات من حين لآخر برنامجا معينا مما يتعلق بحاجات تلك المدينة . ويمكن استخدام أفلام تطبق فيها بعض المعارف وتعرض فيها المشاكل الاجتماعية وبذلك يمكن لكل كلية من الكليات أو معهد من المعاهد العليا أن يقدم خدمات عن طريق مكتب من تلك المكاتب . ونقدم في تلك المكاتب ايضا وسائل الترفيه والنشاط الرياضي والاختبارات النفسية والاجتماعية والاستشارات العائلية . وهكذا فان كلية الزراعة يمكن لها مثلا أن تنشيء مكاتب في عدة جهات يكون بها مختصون في فلاحة البساتين ، والاقتصاد الحيواني ، والاقتصاد الزراعي . كما يمكن أن تنظم أسبوعا في كل سنة لارشاد الفلاحين في ناحيه معينة من نواحي الزراعة يستمعون فيها الى محاضرات ويشاهدون افلاما . وبصفة عامة فانه يمكن لكل كلية أن تقوم بتعيين برنامج دراسي معين قصير الامد بصفة دورية . وتهييء برامج قصيرة للمنظمات والائمة الذين يعملون في الارياف . وتستطيع هذه المكاتب المنظمة ان تقوم بتحديد امكانيات البحث في كل ولاية من ولايات الجزائر والمشاكل التي يمكن معالجتها . وتقدم نتائج البحث الى الفلاحين ليستفيدوا منها ليغيروا

من طرقهم على أساس ما أدت اليه نتائج تلك الابحاث .

وينبغي للمختص باعتباره باحثا ومغيرا للمجتمع أن يراعى التغير الاجتماعي وأن يقدم له الفنيات فى اطار رموزه وتقاليده التى تسهل ادخال هذه التقنيات فى العمل ونستطيع أن نضرب لذلك أمثلة فاذا قدم للمجتمع الاسلامى نموذج لتحسين الناحية الغذائية عن طريق لحم الخنزير فهذا لا يقبل ولا ينجح . وكذلك اذا قدم نموذج آخر لتحسين الغذاء بين البوذيين فى الهند مشتملا على لحم البقرة . ومعنى هذا أن الباحث لابد أن يعرف المجتمع وأن يقدم له ما يساعده على تحسين حالته بطريقة مقبولة ، وكذلك الامر فى المملكة العربية السعودية فى وقت مضى حيث عزم الملك على ادخال المخابرات التليفونية فى الجهاز الادارى . انكر الناس ذلك واعتبروه بدعة شيطانية ولكن الملك كان ذكيا فأمر أحد القراء أن يتلو آيات قرآنية فى التلفون فلما تلا وكانت التلاوة صحيحة اقتنع المنكرون بأن هذه الآلة مفيدة وأنها غير شيطانية ، وبذلك استطاع ان ينجح فى ادخال أشياء جديدة وأن يغير من الاوضاع الاجتماعية العقلية .

ولا تستطيع الجامعة أن ترتبط بالمجتمع ارتباطا وثيقا الا اذا جعلت البحث جزءا أساسيا من رسالتها بحيث لا يقل أهمية عن التدريس .

ويجب أن نعترف بأن مهمة الاستاذ الجامعى صعبة جدا لان له واجبات كثيرة فهو مدرس وباحث وادارى وناشر للمعرفة ، وقد يهتم ببعض الواجبات ويقلل من شأن واجبات أخرى . اذ لا يمكنه أن يجمع بين عدة مهمات ولكن يمكن له أن يركز جهوده فى ناحية معينة ويقوم بالمساعدة فى نواح أخرى ، وأهم شىء ينبغى أن يتفطن اليه الجامعى هو الجمع بين النظر والتطبيق مما يؤدى الى وضع علاقة وثيقة بين المجتمع وبين البحث العلمى المتخصص .

ويمكن تنظيم دراسة مسائية للعمال تحسن من أوضاعهم الثقافية .

وأريد أن أبين شيئا آخر وهو علاقة الجامعة بالخارج ، اذ الجامعة لا تلعب دورا داخل المجتمع فقط وانما لها دور آخر خارج المجتمع كأن تطبع ابحاثها فى صورة علمية منظمة وتبادل بها الجامعات الاجنبية وما وصلت اليه من أبحاث ، وتشارك فى مؤتمرات دولية وفى زيارات قصيرة الى الجامعات الاخرى كما أنها تدعو بعض أعضاء الجامعات الاخرى لزيارتها ، ولا يجوز أن تبقى الجامعة منغلقة على ذاتها .

أما اصلاح التعليم العالى والتخطيط له فلايمكن أن يقوم على أساس واقعى وعلمى الا اذا قام به مواطنون يعانون مشاكل الجامعة ، ويتصلون بها صباح مساء ، هذا فى الاساس ، ولكن يمكن الاستفادة من خبرات الآخرين بدرجة ثانوية .

كما أنه لا يمكن تطوير الابحاث ولا الابداع العلمى فى البحث الا اذا كانت لغة البحث والدراسة لغة قومية ، والا بقينا عالة على الآخرين دائما أبدا ، وقد أثبتت التجارب الحديثة هذه القضية ، كما نرى فى الصين وفى غيرها . بل لا يمكن أن تلعب الجامعة دورها الحقيقى فى المجتمع الا اذا كان اساتذتها وخريجوها يتكلمون لغة الشعب ويتصلون به عن طريقها وينشرون أبحاثهم بها .

د • بديع الكسم :

بعد أن تحدث الزملاء الاساتذة عنجوانب متعددة من موضوع الندوة ، احب ان اقف قليلا عند بعض الالفاظ

الموضوع هو علاقة الجامعة بالمجتمعوابدا بلفظة « علاقة » . فهناك من يفهمها على اساس ان الجامعة يجب انتكون صورة امينة عن المجتمع ، تمثله او تعكسه . واعتقد ان هذه النظرة الىمعنى العلاقة يعيبها انها سكونيـــة وجامدة . ذلـــك ان بنى المجتمـــعومؤسساته ــ مهمـا تكن قريبة من نموذجها السليم ــ تحتاج دائما الىتطوير وتصحيح . يصدق هذا عـلى المجتمعات التى يقال عنها انها ناميةاو متقدمة ، وعلى المجتمعات السائرة فى طريق النمو .

فالمجتمعات الناميـة اقتصـاديا أو صناعيا أو ثقافيا ما تزال عاجزة عن تحقيق التوازن السوى بين عناصرها المقومة ، وعاجزة بصورة خاصة عن تحقيـق جميـــع القيم الروحية الكبرى كالحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الفردية . ولا يصح فى هذه الحال أن تكون الجامعة « **محافظة** » عـلى الانظمة السائدة والمفاهيم المستقرة . أما المجتمعات السائرة فى طريق النمو فهى بالتعريف متخلفـة على هذا المستوى أو ذاك من مستويات الحيـــاة السياسية والاقتصادية والثقافية . فماذا يعنى فى هذه الحال ان نطلب من الجامعة أن تعكس المجتمع فى واقعه ؟ أليست **وظيفتها الاولى ان « تثور » على هذا الواقع وان تسهم فى صياغة الحياة الاجتماعية صياغة جديدة ؟**

أصل هنا الى نظرة لمعنى العلاقة بين الجامعـة والمجتمع معارضة للنظرة السابقة . وهى ترى أنه بدلا من أن تكون العلاقة بينهما علاقـة اتصال واندماج ، يجب ان تكون ــ ان صـح التعبير ــ علاقة انسلاخ وانفصال ، أى أن تكون الجامعـة صورة مناقضة للمجتمع ، وخاصة اذا كان هـذا المجتمع متخلفا . وهى ترى أن هـذا الانعـزال يحفظها من « التلوث » بعيوب المجتمع ويسمح لها أن تتحرر من قيوده وأوهامه . وعند ذلك تستطيع أن تهيىء المفاهيم والاطارات والوسائل المختلفـة للقضاء على جملة المفاسد الاجتماعية . وأعتقد هنا أيضا ان هذه النظرة يعيبها أنها خيالية مجردة ، وأنها تقصر عن فهم المنطق الحى للتقدم الاجتماعى . **فالمجتمع لا ينمو الا بقواه الذاتية مجتمعة . وهو**

لا يتحرر من قيوده الا اذا حطمها واحدا بعد آخر .

فتاثير الافكار لا يتم بصورة « فوقية » ، وانما يتم عن طريق المعاناة الفعلية والممارسة الدائمة بحيث ينبع تيار الاصلاح تحت خطى التحرك الجماهيرى الواسع وهذا يعنى أن الجامعة التى تقيم اسوارا تعزلها عن المجتمع الذى تعمل فيه ، مهددة اما بالاختناق أو بالعجز عن أن تقفز من فوق هـذه الاسوار .

لهذا كله اعتقد ان **العلاقة** بين الجامعة والمجتمع يجب أن تكون علاقة اتصال وانفصال فى وقت واحد ، أى علاقة جدلية تأخذ من المجتمع وتعطيه تتأثر به وتؤثر فيه باستمرار . فمهمة الجامعـة أن تعكس تطلعات المجتمع وأن تبلورها ، أن تنمى البذور الخصبة التى تعيش على أرضه . وهى بذلك تساعد المجتمع نفسه على أن يثور ثورة أصيلة على جميع الحواجز التى تعوق تقدمه .

انتقل بعد هذا الى لفظتى الجامعة والمجتمع : وأول ما نلاحظه ان موضوع الندوة لا يعنى ان الجامعة تمثل طرفا من جهة وأن المجتمع يمثـل طرفا من جهة ثانية كما لو كانت العلاقة بينهما علاقة كل بكل آخر . فالجامعة مؤسسة اجتماعية أى جزء من المجتمع . فالعلاقة اذن هى علاقة جزء بكل . والاصح أن نقول انها علاقة جزء بأجزاء أخرى داخل المجتمع الواحد ، أو علاقة جانب بعدد من جوانب الحياة الاجتماعية . واكتفى بأن أشير الآن الى بعض النقـاط المتصـــلة بدور النشاط الجامعى فى تنمية النشاط الاقتصادى والنشاط الثقافى .

لا شك ان للجامعة ، بمعناها الواسع ، دورها فى التنمية الاقتصادية.فهى تجرى البحوث العلمية، وتعد الاطارات الفنية ملبية بذلك مطالب التطور الاقتصادى ومهيئة وسائل الرخاء المشترك بـين الناس . ولا أظن أن هذا الدور بحاجة الى ابراز وتفصيل . ولكن ينبغى أن نشير الى أن المدارس الفنية العليا التى يعهد اليها احيانا بهذه المهمة ، يجب ألا ينفصل فيها الجانب النظرى عن الجـانب التطبيقى . ويجب بصورة أخص ألا تبقى هـذه المدارس بعيدة عن الروح الجامعى بكل ما يتضمنه من اهتمامات اجتماعية وحضارية ، أى الا تبقى بعيدة عن رسالة الجامعة .

اما النشاط الثقافى فواضح أن الجامعة تكون احدى ينابيعه الاصيلة . فمن مهام الجامعة – الى جانب اعدادها لاطارات التعليموالتثقيفوالادارة – الاسهام فى التقدم العلمى والفكرى الذى يقـوم على تاصيل الثقافة القومية والانفتاح الايجابى على ثقافات الشعوب . ولا شك فى ان الجامعة تسعى الى ذلك متآزرة مع مؤسسات اجتماعية وثقافية اخرى تعمل بدورها على نشر التعليم وتوعيـــة المواطنين واغناء حياتهم الوجدانيـة والروحيـة . ولكن اهم ما يطبع رسالة الجامعة هو ربـــط الثقافة بالحياة ، فلا تعيش الافكار فى ابراج من عاج ، وانما يعيش المثقفون مشاكل مجتمعهم ، ويتفاعلون مع الناس لكى تصبح قيم الحياة الجديدة محركا يدفع المجتمع كله الى أن يتخطى نفسه فى طريق الارتقاء المتصل .

فكرة الخير والشر عند ليبنتس

في ضوء الفكر الاسلامي


ليبنتس

د . محمود قاسم

عميد كلية دار العلوم
جامعة القاهرة

ربما كان « ليبنتس » اقرب الفلاسفة المحدثين الى مفكرى الاسلام فى معالجته لمشكلة الخير والشر ، اذ نجد فى كتاباته ومناقشاته للآخرين أصداء عديدة لآراء المعتزلة والاشعرية وابن رشد ومحى الدين بن عربى . وقد كان من الممكن أن نقارن بينه وبين هؤلاء مقارنة تفصيلية . لكننا اثرنا ان نوضح فكرته الخاصة ، مع اشارات سريعة الى نقط الاتفاق والاختلاف بينه وبينهم على ان نترك لغيرنا مهمة المقارنة بينه وبين مفكرى الاسلام . وانما ارتضينا هذا المسلك حتى لا نثقل على من يريد أن يعرف فكرة « ليبنتس » عن الخير والشر كوحدة قائمة بذاتها . لكننا قد نضطر أحيانا الى تفسير بعض آرائه الغامضة على ضوء ما نجده لدى بعض مفكرى الاسلام وبخاصة لدى محى الدين بن عربى .

ان « ليبنتس » يسلم بوجود الخير والشر فى العالم . وهذا أمر يسلم به كل أحد . لكنه يفسر وجود الخير والشر تفسيرا يمكن أن يعد امتدادا لرأى المعتزلة وهم أصحاب التفكير العقلى عندنا . فقد حكم هؤلاء بان الله يريد الخير لعباده وأنه يخلق افضل عالم ممكن . لانه يريد صلاح العالم . وتلك فكرة تتسق لديهم مع العدالة الالهية . ومع ما تقرره العدالة الانسانية . لذلك سموا أنفسهم أهل العدل .

غير أن « ليبنتس » عمق هذه الفكرة . فاقترب من محيى الدين بن عربى على نحو يدعو الى التأمل . لانه ارتقى الى مستوى فلسفى أكثر نضجا وعمقا . لقد قال المعتزلة ان الله لا يريد الشر لعباده . فاتهمهم خصومهم بأنهم مجوس هذه الامة . بحجة أنهم يقولون ان الله لا يخلق الشر . فكأن هناك الها للخير وآخر للشر . أما « ليبنتس » فقد قال ان الله لا يريد الشر . ولكنه يسمح بوجوده . ثم حرص على توضيح أن هذا الرأى هو الرأى الذى يتسق أتم اتساق مع القيم الدينية التى تصف الله بالعدل والحكمة . فالله يخلق أفضل عالم ممكن . لان الخير فى العالم هو خير ذاتى . اما الشر فهو شىء قليل وعارض . بل يمكن القول بأنه خير . فى حقيقة الامر . لانه يستخدم من أجل الخير . وهذا هو ما سبق أن قرره ابن رشد لكى يوفق بين المعتزلة وخصومهم من الاشعرية(1) .

وانما كان الخير ذاتيا فى العالم لان الله هو أحكم الحاكمين وأفعاله كلها تتجه الى الخير . واذا كان الحاكم البشرى قد يخطىء أحيانا لالتزامه بحرفية القانون « فالامر مختلف بالنسبة الى الله . لانه عندما يختار افضل عالم ممكن فليس فى استطاعة أحد أن يعترض بأن كمالاته محدودة . فليس الخير أكثر من الشر فى الكون فحسب . بل يستخدم الشر فى زيادة الخير »(2) حقا يستطيع المرء أن يتخيل عوالم أخرى خالية من الشر . لكن من المؤكد . فى نظر « ليبنتس » . أنها ستكون أقل كمالا من عالمنا الذى يعد أفضل العوالم الممكنة لان الله أوجده وفقا لاحكم خطة اقتضاها علمه وخيريته وحكمته « وانى لا أستطيع أن أبين لكم ذلك الامر تفصيلا . اذ هل أستطيع أن أعرف اللامتناهيات ؟ وهل أستطيع أن أصور لكم اللامتناهيات . وأن اقارن بينها ؟ هذا الى أننا نعلم أن شرا ما يكون فى كثير من الاحيان سببا فى خير لا يمكن الوصول اليه دون هذا الشر . بل يحدث فى كثير من الاحيان أن شرين يصنعان خيرا كبيرا ... كما ينتج كحولان أحيانا جسما صلبا ... وكما ينتج جسمان باردان نارا كبيرة ... وأحيانا قد يخطىء جيش كبير خطأ سعيدا . فيكون ذلك سببا فى كسب معركة كبيرة »(3)

فالخير اذن هو الاصل . والشر أمر عارض يراد به الخير . ان الله يوصف بالخيرية المطلقة . أو هو الخير المحض الذى لا يصدر منه سوى الخير . كما قال ابن عربى من قبل . ومع ذلك فانه . وان لم يرد الشر لذاته . فانه يسمح به لتحقيق خير أعظم . « فهناك أسباب كثيرة(4) تمنعه من أن

---

1) انظر تفصيل هذه المسالة فى كتابنا : ابن رشد وفلسفته الدينية ـ مكتبة الانجلو المصرية 1969
2) العدل الالهى ج 2 فقرة 216
3) نفس المصدر ج 1 فقرة 10

يشعرنا بشكل خيريته بالنسبة الينا . ان الله يختار أفضل خطة للعالم . وهى التى تحتوى على السماح بالشر والمعصية ، لكن ينبغى أن نعلم دائما أنه لا يخلق الشر من أجل الشر . وكان ينبغى « لليبنتس » أن يصرح أن الشر من أجل الشر هو العدم المحض ، وأن هذا الشر المحض لا وجود له ـ نقول انه كان ينبغى له ذلك حتى يلحق بمحيى الدين بن عربى . وذلك حتى يؤكد خيرية الله على نحو لا يحتمل أى لبس . ذلك أنه يخبرنا أن الشر لا يبدو شيئا الى جانب الخير اذا تمثلنا العظمة الحقيقية لمدينة الله . فالارض تشبه نقطة فى خضم الكون ، وهى تكاد تتلاشى فى العدم بالنسبة الى الاجرام السماوية التى لانعرفها. وجميع الشرور التى يمكن أن نسلم بها لا توجد الا فى هذه النقطة التى تشبه العدم . اذن يمكن القول بأن جميع الشرور التى يمكن أن نسلم بها لا توجد الا فى هذه النقطة التى تشبه العدم . واذا قورنت جميع الشرور ، التى نراها فى عالمنا ، بضروب الخير التى توجد فى الكون بدت شبيهة بالعدم » ، أى أن هناك شرا قليلا جدا بالنسبة الى الخيرالكثير .

واذا كان بعض الاشاعرة قد هاجم فكرة المعتزلة القائلة بأن الله يريد الخير لعباده وأنه يفعل ما فيه صلاح العالم ، واحتج عليهم بأن العالم ملىء بالشرور والاوبئة ، وأن الله ولى على المسلمين أمثال الحجاج وزياد بن ابيه ، فأى خير فى هذا ؟ فان « بيل » BAYLE قد هاجم « ليبنتس » بمثل هذه الحجة فقال : وأى مجد يمكن أن ينسب الى الله مع وجود كثير من الشرور وكثير من السجون والحروب والاوبئة ؟ ان المجد الحقيقى المتين هو الذى ينحصر فى أن يحقق الله للبشر النظام والسلام والطمأنينة . أما المجد الذى يستمده من شقائهم فليس الا مجدا زائفا . وقد أجاب « ليبنتس » على هذا الاعتراض بأن « مملكة الله هى أفضل مملكة ممكنة ، اذ تهيمن عليها الفضيلة والسعادة على أكمل وجه وفقا لما تقتضيه قوانين الافضل . وليست المعاصى وضروب البؤس ، التى يسمح الله بها ولاسباب عليا ، شيئا يذكر ، اذا قورنت بضروب الخير ، بل انها تؤدى الى ضروب أكثر من الخير . ولما كان من الواجب أن توجد هذه الشرور فقد وجب أن يوجد أشخاص يكونون موضوعا لها . ونحن هؤلاء الاشخاص . فليس هذا مجدا زائفا كمجد الملك الذى يهدم نظام مملكته لكى يبنيه من جديد » ان « بيل » يقول بوجود كثير من الشرور وكثير من السجون والحروب والاوبئة وبأن التاريخ ليس الا سجلا حافلا بالجرائم . لكنه يغلو كثيرا فيما يقول . فان الخير فى حياة الانسان أكثر من الشر . والمساكن أكثر عددا من السجون . ولا خطر لميكيافيلى الا على قلة من الاشخاص المبرزين فى الشر . وكثيرا ما يؤدى امتيازهم فى الشر الى فشل مشروعاتهم . كذلك يميل المؤرخون عادة الى ذكر ضروب الشر دون الخير ، لانهم يتخذون ذلك وسيلة الى الوعظ والارشاد(5) .

ومهما يكن من أمر . فان « ليبنتس » يصارحنا بأن الله لا يريد الشر لذاته ، وأنه اذا كان يسمح

---

4) هذه الاسباب الكثيرة عند ابن عربى هى الخاصة بسر القضاء والقدر

5) العدل الالهى فقرة 123

بوجوده فذلك باعتبار أنه شرط ، لا غاية في ذاته . وقد غابت هذه الحقيقة عن أذهان كثير من الناس ، فظنوا أن تمجيدهم لله يوجب عليهم أن ينسبوا الشر اليه . فهناك « كثير من الظلمات في عقائد المسيحيين . لقد اعتقدوا أنهم يحبون جارهم دون أن يخدموه ، وأنهم يحبون الله دون أن يعرفوه . وأحيانا نرى قوما يتحدثون بقوة عن التقوى والورع وعن الدين ، بل يشتغلون بتدريسه ، ولا نجد أنهم على علم بكمالات الله . فهم يسيئون تصوير خيرية مليك الكون وعدله ، ويتصورون الها ليس جديرا بأن يتخذ قدوة أو يكون موضوعا لحبنا ، ذلك أنهم يصورونه بصورة الملك المستبد الذى لا تخضع ارادته لمعيارى الخير والشر . ويخبرنا « ليبنتس » أن مسلك هؤلاء الذين يصفون ربهم بالاستبداد هو الذى دعاه الى التفكير فى تأليف كتابه « العدل الالهى » فأمثال هؤلاء يحتجون لرأيهم بأن الله هو السيد المطلق لجميع الاشياء ، وفى استطاعته أن يعذب الابرياء ، دون أن يكون فى ذلك خروج على شريعة العدل(6) وهذه فى نظر ليبنتس ، تعبيرات متهورة وخطيرة انساق اليها بعضهم ، لكى يقرروا المشيئة المطلقة لله . وعندئذ لن يكون هناك ما يبرر الثناء على خيرية الله وعدله . ولو كان الامر كما يصورونه لكان أكثر الارواح شرا ، أو أمير الشياطين ، أو مبدأ الشر لدى المانوية ، هو السيد الوحيد للكون ، اذ كيف يمكن التفرقة بين الاله الحقيقى وبين الاله المزيف عند « زرادشت » اذا كانت جميع الاشياء رهنا بهوى سلطة تعسفية ، دون أن تكون هناك قاعدة أو اعتبار لاى شىء . ان من يقول ان الله يريد الشر لذاته يشبه رجلا يتهم انسانا خيرا يجود بأموال طائلة لتحسين حال الفقراء ، بأنه سرق شيئا تافها ، مع أننا نعلم أنه لو وجد أحد يوجه اليه هذا الاتهام لكان جديرا بسخرية أهل الدنيا جميعا منه . ان الله أسمى بما لا نهاية له من حيث الخير والقدرة ، من مثل هذا الرجل الخير . واذن فمهما بدا من وجود شرور عارضة فى هذا العالم ، فلن يكون ذلك شيئا يتعارض مع الايمان أو الثقة بالله ، بل يجب القول بأن الله قد فعل كل شىء على الوجه الاصلح ، أو على النحو الذى ينبغى(7) .

واذن فلمن ننسب هذه الشرور العارضة مادمنا لا نستطيع أن ننسبها الى الله(8) ؟ سنرى أن ليبنتس يرتضى فكرة تبدو مبتكرة ، وهى أن الكائنات التى توجد حاليا فى العالم كانت توجد من قبل فى منطقة الحقائق الازلية أى فى العالم الالهى ، وأنها كانت توجد على هيئة معان محدودة ومقيدة ، وكانت تحتوى على جميع خصائصها التى تظهر شيئا فشيئا عندما تخرج من عالم الامكان الى عالم الوجود الفعلى(9) . وعندئذ تتآلف فيما بينها ، ويبدو الشر أو النقص الذى كانت تنطوى عليه بحسب طبيعتها الازلية . لقد قال بعضهم ان المادة هى السبب فى الشر . لكن المادة صماء وهى لا تكترث بما يوضع فيها من أشكال أو صور . فالاولى أن نقول ان الشر يأتى من الصور

6) تلك هى حجة الاشعرية ضد المعتزلة ـ انظر كتابنا دراسات فى الفلسفة الاسلامية ط 3 دار المعارف سنة 1970
7) مقدمة العدل الالهى فقرة 37
8) يضيف ابن عربى اننا لا نستطيع ايضا ان ننسبها الى العالم لانه خير فى ذاته نظرا لانه صدر من الخير المحض
9) يطلق ابن عربى على منطقة الحقائق الازلية اسم «خزائن الجود الالهى »

المجردة من المادة ، أى من المعانى التى كانت توجد، فى المنقطة المثالية،ويعنى بها منطقة الحقائق الازلية. ولما كان أفضل العوالم الممكنة لا يمكن ان يتحقق الا بخروج معـــانى الممكنات من منطقة الحقـائق الازلية ، فمن الضرورى أن تحتوى أفضل خطة لهذا العالم على الشر . وهذا هو معنى أن الله يسمح بالشر ، وما كان لهذا الشر العارض أن يحول دون ايجاد الله للعالم الافضل(10) فالله هو خير الحاكمين . وأحكامه لا استثناء فيها ولا مرد لقوله . ولما كانت الحقائق الازلية موضوعا لعمله وحكمته فانها ليست قوانين تجبر الخلق على افعالهم . بل افعالهم تنبع من صميم طبيعتهم . والقوانين الالهية أكثر قوة لانها تقنع « والحكمة لا تقبل سوى أن تكشف أفضـــل تنفيذ ممكن لخيريته . ثم ان الشر الذى يحدث يكون نتيجـة لازمة لما هو أفضل . وساضيف شيئا أكثر قوة . فأقول ان السماح بالشر على النحو الذى يفعله الله ، هو أكبر خيرية . وذلك لان كل شيء كان مسطورا فى المعنى العام لكل كائن قبل ان تخرجه القدرة الالهية الى حيز الوجود عن علم وحكمة(11) .

ويفسر لنا ليبنتس كيف يسمح الله بوجـود الشر على أساس أنه يوجد فى المعانى التى تحتوى عليها منطقة الحقائق الازلية فيقول : « اذا وجد رجل شرير فمن الواجب أن يكون الله قد رأى المعنى العام لهذا الرجل فى منطقة الممكنات ، وعـــلم أنـه سيدخل فى سلسلة الاشياء التى اقتضت الحكمة دخولها لتكوين أفضل عالم ممكن وعندئذ يسمح الله بايجاد هـــذا الرجل ، لان الشرور هنا تساعد على تحقيق الخير »(12) ثم نراه يؤكد لنا ، مرة أخرى ، أن المادة ليست مصـدر الشر ، بل مصدره معانى الممكنات ، وهى المعانى الازلية وانما كانت أزلية لان الله لا يخلقها ، لانها موضوعات لعلمه والله ليس خالقا لعلمه(13). وهنا يقترب ليبنتس اقترابا شديدا من محيي الدين بن عربى الذى يقول ان الله لم يخلق العالم من عدم ، بل اظهره من عالم الجود وهو عالم المعانى الالهية .

فليس لاحد أن يعترض فيقـول ان السماح بالشر ، الذى كان يمكن منعه ، يعد نوعا من عدم الاكتراث بوقوع هذا الشر أو عدم وقوعه ، بل يعد رجاء فى وقوعه(14) . فان هذا الاعتراض يدل على عدم الفطنة عند ليبنتس . فكم يسمح عقلاء البشر بشرور كانوا يستطيعون أن يمنعوا وقوعها ، لكنهم سمحوا بوقوعها نظرا لاعتبارات أخرى أكثر اهمية . فمثلا قد يمتنع الحاكم عن التدخل لعلاج تدهور النقد أثناء الحرب لكى يحول دون شر أكبر . ولئن أمكن أن يخطىء الحاكم فى تقديره للامـور فليس الامر كذلك بالنسبة الى الله ، اذ « ليس هناك شيء يمكن ان يكون موضع شك ، وليس ثمة تعـــارض مع قاعـدة الافضـــل التى لا تحتمـل الاستثناء » وبهذا المعنى يسمح الله بالشر أو بالمعصية ، ولو لم يفعل ، أى لو لم يختر العالم الافضل مع ما ينطوى عليه من الشر العـــارض الذى كان يوجد فى الضرورة السابقة للحقائق

10) العدل الالهى فقرة 225
11) المصدر السابق ج 2 فقرة 121
12) العدل الالهى ج 3 فقرة 350
13) نفس المصدر ج 2 فقرة 121 ـ وانظر ج 3 فقرة 335
14) نفس المصدر السابق ج 2 فقرة 127

الازلية ، لكان ذلك ضربا من النقص في خيريته وحكمته(15) هذا الى أن الشر الذى يسمح الله بوجوده من أجل صلاح العالم وانتظامه ، لا يكاد يذكر الى جانب الخير الكثير الذى لا يراه هؤلاء الذين يعدون السماح بالشر القليل انتقاصا من عدل الله وخيريته . الا يعلم هؤلاء أن قليلا من الحموضة أو المرارة قد تكون فى كثير من الاحيان افضل من السكر ، وان الظلال ترفع من قيمة الالوان ، وأن وضع النشاز فى الموضع الملائم يبرز جمال المقطوعة الموسيقية ؟ » انا نريد ان نفزع للراقصين على الحبال الذين يوشكون ان يسقطوا فى الفضاء ، ونريد من المسرحيات التراجيدية أن تثير دموعنا . وهل يتذوق المرء الصحة ، وهل يتجه المرء الى الله بالشكر اذا لم يصب قط بمرض ؟ الا يجب فى أكثر الاحيان ان يوجد قليل من الشر حتى نصبح أكثر حساسية بالخير ، أى شعورا بالخير الاكثر »(16) وقد يقال ان شرور هذا العالم أكثر من ضروب الخير فيه . لكن ليس ذلك حقا . وذلك لاننا أكثر حساسية تجاه الشر منا تجاه الخير . وان غفلتنا هى التى تحول دوننا ودون التعرف على كثير من الخير . وكثيرا ما ننتبه فجأة اذا بدا لنا الشر مختلطا بالخير . فاذا كنا مرضى شعرنا فجأة بأن الصحة خير عظيم . ومما يدل على وجود الخير الذى لا نفطن اليه عادة ، انه لو لم يكن كثير من الناس يعلمون بوجود حياة أخرى لما أحسوا بالرضا ساعة الموت ، ولفضلوا العودة الى الحياة والى ما رأوه فيها من خير وشر . ان هؤلاء الذين يقولون بوجود كثير من الشر فى العالم يقنعون بان يستانفوا حياتهم ، دون أن يطالبوا بحياة أفضل من تلك التى قالوا انها مليئة بالشرور(17) فالانسان دائما بخير متى لم ير شرا ، ومن الخير جميع عواطفنا التى لا تسوؤنا ، وتدريبات قوانا التى لا تشعرنا بالالم ، وان لم تحقق لنا لذة . وقد كان ديكارت محقا عندما قال ان العقل الطبيعى يرشدنا الى أن فى هذه الحياة من الخبرات قدرا أكبر مما فيها من شرور(18) .

كذلك الامر فيما يتصل بالمعصية أو الخطيئة التى تترتب على وجود بعض البشر فمن الواجب الا ننظر الى سماح الله بوجودها فى الكون على أنه شر كبير فى حد ذاته . ان السماح بهذا الشر الاخلاقى لم يقلق بعض النفوس الا لانه يمكن ان يكون منبعا لشرور فيزيقية (جسمية) » توجد فى مخلوق من اقوى المخلوقات ومن اقدرها على فعل الشر . لان ارادة انسانية سيئة تشبه فى مملكتها مبدأ الشر فى العالم عند المانوية ، والعقل الذى هو صورة الهية يزود الارواح الشريرة بالوسائل الكبيرة لايجاد كثير من الشرور »(19) ان رجلا مثل نيرون صنع من الشر أكثر مما تفعله الزلازل . ولا نعدم أن نجد أناسا أشرارا ينعمون بتعذيب الآخرين وتحطيمهم ، ولا تعوزهم المناسبات العديدة للتنكيل بالآخرين . » لكن لما كان الله يتجه الى ايجاد أكبر قدر ممكن من الخير ، ولما كان له من العلم والقدرة ما يكفى لذلك ، فمن

---

15) نفس المصدر ج 1 فقرة 25
16) نفس المصدر السابق ج 1 فقرة 12
17) نفس المصدر ج 1 فقرة 13
18) نفس المصدر ج 3 فقرة 25
19) نفس المصدر ج 1 فقرة 26

المستحيل أن يوصف بالخطأ أو الذنب ... وعندما يسمح بالشر فذلك السماح حكمة وفضيلة »(20) فالانسان هو المنبع الذى تصدر منه شروره ، لانه يوجد الآن على نحو ما كان موجودا فى منطقة المعانى الازلية . قد يقال ان الشيطان هو مصدر الشر ، لكن الشر يأتى من مكان أبعد من ذلك . ان منبعه هو النقص الاصلى فى المخلوقات العاقلة ، وهذا النقص هو الذى يمكنهم من القدرة على المعصية » وهناك ظروف فى سلسلة الاشياء فيما بعد ، تخرج هذه القدرة من القوة الى الفعل » فأصل الشر هو حرية المخلوقات »(21) .

كذلك يمكن القول ، تبعا لوجهة نظر ليبنتس ، بأن الشر العارض الذى يسمح الله بوجوده ، فى الكون لا يوجد عفوا ، بل لحكمة الهية ، ولا يضير هذه الحكمة أن نجهلها ، حقا قد يقول بعضهم انه من الممكن أن يخلق الله العالم دون أن تكون هناك آلام أو شرور أو معاصى » لكنى أنكر ، فى هذه الحال ، أن يكون هذا العالم أفضل عالم ممكن ، اذ من الواجب أن نعلم أن كل شىء مرتبط فى كل عالم من العوالم الممكنة (التى يختار الله أفضل عالم منها) ومهما يكن من أمر الكون فانه قطعة واحدة ، انه شبيه بالمحيط ، فان أقل حركة يمتد أثرها فيه : مهما يكن من أمر المسافة ، وعلى الرغم من أن هذا الاثر تقل درجة ادراكه اذا زادت المسافة ، وذلك على نحو أن الله قد حدد كل شىء فيه سلفا وللابد ، فعلم مسبقا الدعوات والافعال الحسنة والسيئة ... وساهم فى كل شىء على نحو مثالى قبل وجوده فى القرار الذى اتخذه بالنسبة الى وجود جميع الاشياء»(22) ، بحيث لا يمكن تغيير أى شىء فى العالم(23) ... ولذا فلو لم يوجد الشر الاقل الذى يحدث فى العالم ، لما كان هذا العالم أفضل عالم اختاره الله بعد أن قلب كل شىء ، وحدد كل شىء »(24) فانه لم يسمح بوجود الشر ، الذى تتضمنه معانى الممكنات، الا بعد أن حسب كل شىء وقارن بين عدد لا نهاية له من العوالم الممكنة ; وهذا هو ما كتب به ليبنتس الى الاب « أرنو » فى مراسلة له معه فى عام 1672 » ان هناك أسبابا جعلت الحكمة الالهية تسمح بوجود الشر . حقا ان هذا السماح يثير عجبنا . لكن ليس لنا أن نفرط فى العجب . فانه « ما من شىء يأتى من الله الا اذا كان مطابقا تماما لخيريته ولعدله وقداسته . اننا نحكم بصفة « بعدية » à postriori على أن هذا السماح كان ضروريا ، مع أنه يمكننا أن نبرهن على ذلك بصفة قبلية à priori عن طريق تفصيل الاسباب التى يمكن أن تكون عند الله »(25) .

ويستشهد ليبنتس هنا لعدل الله وحكمته وخيريته ، بما وجده عند كبار رجال الدين من المسيحيين من أمثال كالفن الذين يقولون أن قرارات الله مطابقة للعدل والحكمة ، رغم أن

---

20) نفس المصدر ونفس الفقرة

21) .نفس المصدر ج 3 فقرة 273 ـ وتوجد نفس هذه الفكرة عند محيى الدين بن عربى وهى ان الانسان يتبع الشيطان مختارا

22) يمكن توضيح هذه الفكرة على أساس ما يقوله ابن عربى من ان طبيعة كل كائن حى هى التى تحكم عليه وتحدد مصيره فما حكم الله على الاشياء الا بها ـ وقد عرضنا هذه الفكرة فى مقال لنا عن فكرة القضاء والقدر عند ليبنتس وابن عربى انظر كلية الفكر المعاصر

23) توجد نفس الفكرة عند ابن عربى الذى يستشهد بقوله تعالى : « ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد »

24) العدل الالهى ج I فقرة 9

25) مقدمة العدل الالهى فقرة 35

الاسباب التى يمكن أن تبين لنا هذه المطابقة ليست معروفة لدينا . ثم يخبرنا بأن هذا هو رأى معظم البروتستانت . وان توماس الاكوينى ، وهو كاثوليكى ، يرى هذا الرأى أيضا . أما عن نفسه فيخبرنا « باننا لا نستطيع أن ننفذ الى سر أحكام الله . فهى عادلة . وان كانت مجهولة لدينا . وتلك هوة عميقة لا يستطيع أحد أن يصل الى قرارها ، دون أن يكون عرضة للسقوط فى هوة أخرى أكثر عمقا . فمن التهور أن يحاول المرء تفسير شىء أراد الله له أن يظل من أمور الغيب . فارادة الله لا يمكن الا أن تكون عادلة . وكثير من هؤلاء الذين حاولوا تفسير هذه الحكمة العميقة التى لا يمكن النفاذ اليها . سقطوا فى تخيلات عابثة وآراء مليئة بالخطأ والضلال »(26) .

لقد اعترض على ليبنتس أحد معاصريه وهو بيل BAYLE فقال : اذا كان الله قد نظم كل شىء ، فمعنى ذلك أنه ما من شىء يحدث فى العالم دون ارادته ، وكان فى استطاعته أن يمنع كل شىء لا يحبه . وأن يحول دون المعاصى تبعا لذلك لانه يكرهها . وكان من الممكن أن يخلق فى كل نفس جميع الافكار التى يرضى عنها . ويجيب ليبنتس بأن هذا الاعتراض وليد نظرية فلسفية تعرف بنظرية النور الطبيعى للعقل ، وأن مثل هذه الشرور التى وقعت أو تقع فى العالم لم يكن من الممكن رفعها بارادته اللاحقة . حقا ان ارادته السابقة تريد كل خير . وهى القضاء السابق ، لكن ارادته اللاحقة ــ وهى القدر الذى يفصل القضاء السابق ــ فيحدد ظهور الكائنات وأزمنتها وأمكنتها ــ لا يقف فى سبيل الخطة الالهية التى اختارت أفضل عالم ممكن .

ويجب أن نعترف بأن تفسيرنا لكل من الارادة السابقة والارادة اللاحقة لا يعتمد على ما قاله ليبنتس ، بل أخذناه من محيى الدين بن عربى الذى عرض لهذا الموضوع نفسه ووضحه على نحو لم نجده عند ليبنتس(27) . أما هذا الأخير فيتابع رده على بيل قائلا : « عندما يقال ان المعصية هى التى تغضب الله الى أكبر حد , وأنه يكرهها . فهذا أسلوب من التعبير الانسانى . وذلك لان الله لا يمكن ، على وجه الدقة أن يسىء اليه أحد ، أى لا يمكن أن يلحقه ضرر أو ضيق أو قلق أو غضب . فهو لا يكره شيئا من الموجودات ... » (28) ان مثل هذا الاعتراض يقوم على فكرة تشبيه الله بالانسان، مع أن الله لا يعانى ألما ولا حزنا ولا ضيقا . فهو راض دائما « ان الخيرية المطلقة لله تجعل ارادته السابقة تدفع الشر , والشر الاخلاقى (المعصية) أكثر من أى شىء آخر , وهو لا يسمح به الا لاسباب أساسية خفية , وبتعويضات كبيرة تصحح النتائج السيئة بما فيه المصلحة . ومن الحق أيضا أن الله يستطيع أن يخلق فى النفس جميع الافكار التى يرضى بها ، لكن هذا معناه أنه سيفعل ذلك بمعجزات , لا تبعا لافضل خطة مقصودة » ويكاد هذا الرد أن يكون صورة من قصة اعتراض الملائكة على خلق آدم بحجة أنه سوف يفسد فى الارض ويسفك فيها الدماء , وهى نفس القصة

---

26) مقدمة العدل الالهى فقرة 47

27) عالجنا هذا الموضوع فى مقال خاص بفكرة القضاء والقدر عند ليبنتس ومحيى الدين بن عربى ـ مجلة الفكر المعاصر ـ تحت الطبع

28) العدل الالهى ج 2 فقرة 164

التي اعتمد عليها معظم مفكري المسلمين لبيان ان الله لا يريد الشر من أجل الشر ، بل لاجل ما يترتب عليه من الخير .

وقد يتشكل هذا الاعتراض في صورة أخرى اذ يقول بعضهم ان الله كان يستطيع ان يحقق السعادة لجميع البشر ، وهو يستطيع ذلك مباشرة وبيسر ، دون أن يضار بذلك شيء ، فهو قادر على كل شيء . لكن هؤلاء نسوا أن يسألوا أنفسهم : هل يجب على الله ان يحقق السعادة للجميع ؟ فطالما أنه لم يفعل فذلك دليل على أنه كان من الواجب أن يفعل شيئا مختلفا تماما . وليست المسألة خاصة بأنه لا يستطيع أو بأنه لا يريد سعادة البشر ، بل هي خاصة بأنه يريد ايجاد افضل عالم ممكن(29) .

ان الخطأ الذي يكمن وراء الاعتراض السابق في مختلف صوره يرجع الى أننا نتخذ أنفسنا ومصالحنا الخاصة مقياسا للحكم على الاشياء بالخير أو الشر . فما وافق أهواءنا سميناه خيرا ، وما تعارض مع مصالحنا أو رغباتنا ، قلنا أنه شر ، وان كان فيه كثير من الخير . فالخير ذاتي في العالم ، وحكمة الله في خلق هذا العالم وترتيبه لا تقف عند حد . كما أن عنايته تشمل الكون بأسره . وليس ما نعلمه من هذا العالم بشيء يذكر الى جانب ما نجهله منه . ومع ذلك فانا نريد أن نقيس حكمة الله وخيريته بناء على معرفتنا المحدودة « فأي تهوز بل أي شناعة في التفكير »(30) أكثر من ذلك .

وهنا نجد اشارة عابرة تكشف لنا عن بعض المصادر الاسلامية التي اطلع عليها ليبنتس فانه يستشهد بنص قرأه في كتاب « دلالة الحائرين » لموسى بن ميمون ، وهو الكتاب الذي ملأه مؤلفه بالافكار الاسلامية الاصيلة التي مكنته من تجديد التفكير الديني اليهودي ، ابتداء من القرن الثالث عشر ، على نحو ما فعل توماس الاكويني من تجديد الفكر المسيحي أيضا في ذلك القرن نفسه ، بعد أن اطلع على آراء ابن رشد الدينية(31) اما فيما يخص ليبنتس فانه عندما كان بصدد الحديث عن أن الخير في العالم أكثر من الشر ، رأى أن يستشهد بابن ميمون ، فقال ان الناس لم يعترفوا لهذا المفكر اليهودي بما ينبغي ان يعترف له به من جدارة . فانه أول حبر يهودي كف عن قول الحماقات . وقد بينا نحن منذ قليل السبب الحقيقي الذي من أجله بدا رجلا متزن التفكير في نظر ليبنتس ، ذلك لانه كان متأثرا بالمعتزلة ، وبابن رشد خاصة ، عندما رأى هو الآخر أن الخير أكثر بكثير من الشر في العالم . فهو يقول في كتابه دلالة الحائرين : ان بعض أفكار الجاهلين تدعوهم الى اعتقاد أن الشر في العالم أكثر من الخير ، واننا كثيرا ما نجد في اشعار الوثنيين أن حدوث شيء من الخير يشبه أن يكون معجزة ، في حين أن الشرور أمور عادية ودائمة . وان هذا الخطأ لم يستحوذ على عقول العامة فحسب ، بل على هؤلاء الذين يريدون أن يظهروا بمظهر الحكماء لانهم مالوا الى هذا الرأي . لقد ذكر الرازي عددا كبيرا من هذه الشناعات

---

(29) المصدر السابق ج 1 فقرة 122 (30) المصدر السابق ج 2 فقرة 134

(31) انظر كتابنا : نظرية المعرفة عند ابن رشد وتاويلها عند توماس الاكويني ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الانجلو المصرية 1969

عندما صرح بأن الشر أكثر من الخير ، وأن المرء متى قارن بين لذاته التى ينعم بهـا فى أوقات الراحة وبـين الآلام والمنغصات وضروب النقص والهموم والاحزان التى تبهظ كاهله ، وجـد أن حياته ليست الا شرا ، وانها تشبـه ان تـكون عقابا حل به . ثم يضيف ابن ميمون أن السبب فى هذا الخطأ العجيب هـو أن امثال الرازى لا يحسبون حسابا الا لما يتصل باشخاصهم وأهوائهم، ومن ثم فانهم يستنبطون من حدوث شىء لا يوافق طبائعهم دليلا على أن الكون يسير دائما فى الاتجاه الاسوء (32) .

وفى راى ليبنتس ان مما يدعو الى السخرية ان يحكم المرء على الاشياء ، تبعا لوجهة نظره الخاصة ، أو تبعـا للمبادىء التى يضعها دون رجـوع الى الواقع . وأفضل من ذلك مسلكا أن يرجع الى الواقع ، وأن يمعن النظر فى الكون حتى يـرى الاشياء فى مجموعها وبالنسبة الى جميع الكائنات، لا كما تبدو له هو وحده . فلربما وجد أن مـا يعده شرا ليس الا خيرا فى حقيقة الامر ، وأنـه يدخل فى النظام التام للكون . « ان رؤية الاجزاء منفصلة لا تعطينا فكرة صادقة عن الكل » . بل يؤكد ليبنتس أننا لا نرى من مملكة الله الا جزءا يسيرا . فلا نستطيع أن نعلم نظام الكل وجماله . ان المملكة الالهية موضع ايمان وأمل . واذا كان هناك آخرون يرون رأيا آخر فتعسا لهم ! انهم هم الساخطون فى أعظم مملكة ، وافضل مملكة . وهم يخطئون عندما لا يفيدون من تلك النماذج التى تقدم اليهم ، والتى تدل على الحكمة والخيرية . ان هذه النماذج ليست جديرة بالاعجاب فحسب ، بل هى جديرة بالحب أيضا» (33) .ومن قبل قـال محيى الدين بن عربى ذلك على نحو أكثر تفصيـلا فوصف العالم بالجمال(34) ،وبين ان من حقر « اى جزء من العالم فانما حقر خالقه واستهان به،وكل ما فى الوجود فانه حكمة أوجدها الله لانها صنعة حكيم فلا يظهر الا ما ينبغى كما ينبغى » .

وهذه هى نفس الفكرة التى سيرتضيها ليبنتس فيما بعد اذ يقول : « ما من مرة نرى فيها أحد مصنوعات الله الا وجدناه غاية فى الكمال . ويجب أن نبدى اعجابنا بجماله ودقة صنعه . وليس من العجيب الا يظهر لنا هذا الاتساق العظيم عندما لا نرى الطبيعة باكملها فنحن لم نر الا أجـزاء ضئيلة منها . ان كل نبات وكل حيوان وكـل انسان **تتجلى** فيه درجة من الكمال الى حد ما(35) . وفيه نتعرف على دقـة الصانع . وليس الجنس البشرى الذى نعرفه الا جزءا ضئيلا من مدينة الله أو جمهورية الارواح . لكن هـذه المدينة أكثر امتدادا مما نعلم ، بحيث نعجز عن أن ندرك تماما النظام الذى يهيمن عليها والذى يثير الاعجاب »(36) ثم يرى ليبنتس أن جميع هذه المحـاولات التى يقوم بها العقل تجعلنا قادرين على تصـور الف وسيلة ووسيلة تكشف لنا عن وجه الخير فى أفعال الله . وأن الاشياء المواتية التى نجدها فى هذه

---

32) العدل الالهى ج 3 فقرة 262 ــ 263   33) نفس المصدر ج 2 فقرة 134

34) انظر كتابنا : الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى فصـل «الخيال والحب» بمعهد الدراسات العربية

35) يقول ابن عربى : ان كل شىء فى العالم له مستند الهى   36) العدل الالهى ج 1 فقرة 199

الافعال . وجميع الصعوبات التى يستطيع المرء ان يصطنعها لنفسه ، لا تمنع من أنه ليس هناك ما يفوق أحكام الله عدلا أو قداسة وخيرية(37) .

* * *

ومع ذلك ، فان هناك من يعترض قائلا : اذا كان الله يحب عبـــاده فلماذا يتركهم يخطئون ، ثم يعاقبهم على هذا الخطأ ؟ ويرد ليبنتس فيقول ان هذا الاعتراض ليس جـديدا ، وانه يرمى الى نسبة الشر الى الله ، مع أننا نعلم أن عناية الله تشمل الكون بأسره ، وأن الله لم يهمل فيه شيئا. أما الشقاء الذى يعانيه الانسان فى هذا العـالم فانه يرجع الى طبيعته . واذا كان هناك سعداء وأشقياء ، أى اذا لم يكن الله قـــد فعل الاصلح للجميع ، فذلك لانه ليس واجبا عليه أن يفعله ، بل لان نظام الكون لا يحتمله(38) واذا لم يكن هناك ما يوجب على الله أن يريد الشر لذاته كذلك ليس هناك ما يجبره على فعله . واذا اختار الله افضل عالم ممكن فليس من المستحيل أن يختار عالما أقل فضلا ، فارادة الله اذن مجردة من القهر ومن الضرورة الميتافيزيقية المطلقـة ، وان كانت تتسق مـــع الضروزة الاخلاقية التى تميل بكل حكيم الى اختيار الافضل » أما فيما يتصل بالشر الاخلاقى (المعصية) فقد بينا فيما مضى أنـــه ليس موضوعا لامر الهى باعتبار أنه وسيلة ، بل باعتبار أنه شرط . وأكثر من هذا فلا يحق لنـا القول بأنها هى الوسيلة الوحيدة . فقصارى مـا هنالك أنها احدى الوسائل، ولكنها أخف الوسائل من بين عدد لا نهاية له من الوسائل الاخرى(39)

لكن لئن سمح الله بوجـــود المعصية فانه لا يخلقها ـ حقا ان الله يساهم فى جميع أفعـال المخلوقات ، بل يخلقها خلقا مستمرا اذا شئت . ومع ذلك فانه لا يخلق المعصية . فليست ارادة الله هى مصدر الشر . « لهذا قلنا ان الله لا يريد الشر ، بل يسمح به فقط ، بل يمكن القول بأن الله قـد سمح بالشر وبالمعصية ، وانـه يساهم فيهما دون أن يكون فى ذلك ما يخدش عدلـــه وخيريته »(40) ذلك أنه لا يسمح بالمعصية بنـاء على ارادة شريرة . حقا ان السماح بالشر من وجهة نظر القانون الوضعى أو الانسانى يعـــد شرا ، ودليلا على سوء النية ، وهو مما يعاقب عليـــه صاحبه . أمـــا بالنسبة الى الله فهناك أسباب أقوى هى التى دعته الى أن يسمح بالشر ، وأن يخلق أشياء تساعد على وجوده ، وذلك لان أفضل عالم ممكن لابد من أن يحتوى على هذه الضروب العارضة من الشر(41) ، واذا ساهم الله على نحو ما فى وقوع الشر الاخلاقى ، أى المعصية فانـــه يوجهها بحكمته نحو الخير(42) .

اذن ، فليس من الحق ما قاله بعض المفكرين من أن أرادة الله لا تكترث بما يقع للمخلوقات من

---

37) نفس المصدر ج 2 فقرة 106 ـ هذا هو ماقرره الامام الغـزالى من قبل فقد قال : مو كان فعل الاصلاح واجبا عليه لفعلـه لكنه لم يفعله ـ اذن فليس فعله واجبا عليه ـ انظر كتابنا «دراسات فى الفلسفة الاسلامية» الطبعة الثالثة ـ دار المعـارف سنة 1970 ص 74

38) نفس المصدر ج 2 فقرة 162

39) نفس المصدر ج 2 فقرة 230

40) مقدمة العدل الالهى ج 14 ـ فكرة المساهمه الالهية فى افعال العباد توجد عند محيى الدين بن عربى وهى ترتبط أيضـا بفكرة الخلق الجديد ـ ومعنى المساهمة هى التدخل الالهى الذى لا يستطيع المخلوق دونه أن يفعل شيئا

41) نفس المصدر ج 2 فقرة 108

42) العدل الالهى ـ موافقة العدل للايمان ـ فقرة 39

خير وشر . فان فى هذا القول انتقاما من حكمة الله وخيريته . هذا الى أن فكرة عدم الاكتراث التى يقولون بها ، والتى تحتفظ بالارادة فى حال توازن تام بحيث لا تميل لا الى الخير ولا الى الشر ، وهم من الاوهام . فقد قضت ارادة الله السابقة بأن يكون فضل الله أو عطاؤه عاما ، بحيث يجد كل مخلوق ما يمكنه من النجاة . لكن ليس من المحتوم أن يكون هذا الفضل الالهى سببا فى نجاة الجميع ، وذلك لانه ليس مستقلا عن الظروف التى توجد فيها الكائنات العاقلة ، وليس فعالا لذاته . فالله يجود بفضله على الجميع ولكن هذا الفضل يرتبط بأسباب عديدة منها طبائع الاشياء حتى يكون مؤثرا » وانى مقتنع بأن الله يتجه فى توزيع فضله ، بأسباب تدخل فيها طبيعة الاشياء ، والا لما كان يفعل وفقا للحكمة(43) وليس هذا الفضل خاصا بأصحاب الصفات الطيبة وحدهم ، ومع ذلك فمن الحق أن هذه الصفات لها وزنها ، وذلك باعتبار أنها احد الظروف التى تساعده على قبول الفضل الالهى . فليس ثمة أى اعتبار يمكن اهماله بالنسبة الى الحكمة الالهية ، وحتى هؤلاء الذين تدفعهم طبيعتهم الرديئة الى الانغماس فى المعاصى ليسوا محرومين من هذا الفضل الضرورى الذى يقف بهم عند حد الهاوية ، أو يخرجهم من الهاوية التى ترددوا فيها » وذلك لانه يبدو من القسوة أن يؤبد عليهم العذاب(44) ، لانهم فعلوا ما لم يكونوا قادرين على الامتناع عن فعله ، فهؤلاء الذين يقولون بتعذيب الاطفال الذين لم يدركوا سن العقل أقل اهتماما بالبالغين . ولنا أن نقول انهم أصبحوا أكثر قسوة بسبب تفكيرهم فى رؤية عذاب البشر . لكن يوجد آخرون ـ وأنا أميل اليهم ـ وهم الذين يسلمون بأن هناك فضلا كافيا لجميع الناس حتى ينجوا من الشر ، ولكن بشرط أن يكون لديهم الاستعداد لكى يفيدوا من هذا العون الالهى ولكيلا يرفضوه مختارين »(45)

ولقد قال بعض علماء اللاهوت ان الله لا يهب فضله الا لمن لديه استعداد لقبوله ، لكنه يهمل الاخرين لعنادهم . وقد يبدو أن الامر كذلك . لكن ما من أحد يجرؤ على القول بأن هذه هى القاعدة العامة . ومن الواجب الا نزكى أنفسنا على الناس » فانا نجهل أسباب الاصطفاء الالهى . ولما كانت هذه الاسباب كثيرة جدا فاننا لا نعرفها . ومن الممكن ان يظهر الله أحيانا قوة فضله عندما يتغلب على أقوى ضروب العناد والمقاومة ، وذلك لكيلا ييأس أحد ، وحتى لا يزهو بنفسه أحد » » فالله وحده هو الذى يعلم متى سيكون العاصى قاسى القلب . وأنه لا يوجد ثمة شىء يمكن فعله من اجله . وليس معنى ذلك أنه من المستحيل أن يتوب ، أو أن الله سوف يحرمه من فضله بعد فترة ما . فان ذلك الفضل لا ينقطع أبدا . لكن لابد من أن يأتى وقت يبتعد المرء بعده من طريق النجاة . وليس لدينا أى علامة أكيدة لنعرف مثل هذا الرجل . وليس لنا الحق مطلقا فى أن نقول ان انسانا ما سوف يهمل الله أمره الى الابد . فمثل هذا القول حكم تعسفى . بل الافضل أن نأمل .. وفى مثل هذا الظرف وألف ظرف آخر يكون جهلنا مفيدا »(46)

44) يذهب محيى الدين بن عربى الى هذا الرأى

45) العدل الالهى ج 1 فقرة 95 ج 2 فقرة 177

46) نفس المصدر ج 2 فقرة 104

لكن هذا لا يحول دون أن يكون هناك صنف من البشر يصرون كل الاصرار على رفض قبول الفضل الالهى ، وهؤلاء هم العتاة من أصحاب الارادة الشريرة الذين لا يقهر الفضل الالهى عنادهم وأصرارهم ، اذ ليس من شأن الله أن يقهر كل ارادة شريرة على قبول فضله الذى يمنحه لكل مخلوق دون تفرقة ، واذا كان الله يجتبى بعض الناس ويهمل بعض أهل العناد الذين يرفضون فضله ، فانما يفعل ذلك لحكمة ، وهى ايجاد أفضل عالم ممكن . ان هذا الفضل الالهى يفيد الاكثر من الناس ، لكنه قد يلحق الضرر ببعض ذوى الطبائع الرديئة ، كالمطر الذى تعم منافعه ، لكنه قد يفسد الاراضى المنخفضة ، وكالشمس التى لا حصر لمنافعها ، لكنها قد تجفف بعض بقاع الارض أكثر مما ينبغى لكن هذا لا يمنع من أن يمنح الله فضله لقوم يعلم أنهم لن يقبلوه . وعندئذ يصبح هؤلاء القوم أكثر اجراما بسبب رفضهم مما لو لم يمنحوا من هذا الفضل شيئا . فمن الافضل اذن أن يسمح باجرامهم بدلا من أن ينسب اجرامهم الى حرمان الله لهم من فضله ، اذ لو حرموا منه لقال هؤلاء انهم لهم حق فى الشكوى بأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا أفضل مما فعلوا « فالله يريد أن ينالوا ضروب فضله التى يطيقونها ، وأن يقبلوها »(47) لقد قضت ارادة الله السابقة أن فى استطاعتهم قبول هذا الفضل ، وان كانت ارادته اللاحقة قضت بأن تنفيذ ارادته السابقة لا تتم وفقا للخطة العامة التى تحقق أفضل عالم ممكن . ويخبرنا ليبنتس بعد ذلك كله أن وجهة نظره هذه أمر تقرره الفلسفة والوحى معا .

* * *

تلك هى الآراء الرئيسية لليبنتس فى مشكلة الخير والشر . لكن يبقى علينا أن نبين وجهة نظره فى بعض النقاط الفرعية التى يقترب فيها من آراء المفكرين الاسلاميين أو يبتعد عنهم . فهو قريب كل القرب من محيى الدين بن عربى مثلا عندما يذهب الى أن الانسان كثيرا ما يعانى من شرور الآخرين . لكن طالما لم يشارك فى مثل هذه الشرور فله أن يأمل فى أن ما يكابده فى هذه السبيل يعده لسعادة أعظم ، اذ سوف يعوضه الله عما قاساه ، ولا سيما أن وجود هذه الآلام التى قاساها كانت شيئا يتطلبه النظام العام الذى يخضع له العالم (48) ويساعد الشر فى كثير من الاحيان على تذوق الخير ، وعلى تحقيق كمال أكبر لمن يتألم ، وهذا شبيه بالبذرة التى نضعها فى الارض ، فانها تتعرض لنوع من الفساد حتى تنبت على حد ما قال السيد المسيح(49) والحق ان الحياة الانسانية من صميم الخير تعسة كانت أم سعيدة ، بدليل حرص الناس على البقاء فيها . كذلك يدعو هو الآخر الى الرضا بالله والكون ، فلا يضيق بما يلقاه فى حياته من شرور وآلام . فانه ليس بالشىء القليل أن يرضى المرء ولا يخشى ما قدره له ولا يشكو مما يقع له . وليس فى ذلك دعوة الى الاخلاق الرواقية التى تبرر الصبر بالجبرية

---

47) المصدر السابق ج 2 فقرة 112 — 48) نفس المصدر ج 3 فقرة 141

49) نفس المصدر ج 1 فقرة 23 ـ اما ابن عربى فيقول : وبهذا المعنى يمكن أن يقال ان مصائب الدهر وبلاياه نوع من التطهير وربما ترك العبد هذه الدنيا وما عليه خطيئة لكثرة ما يبتليه الله به ـ انظر مقالنا : منهج ابن عربى فى تفسير القرآن بمجلة الهلال عدد ديسمبر 1970

المطلقة فى الكون . حين أن مبعث الرضا فى رأى ليبنتس هو الايمـــان بالكمـــال الالهى وبجمال الاشياء . وهذا هو نفس الرأى الذى يرتضيه ابن عربى ، وان كان يعتقد أن الرضا بالواقع المؤلم ليس معناه ألا يضرع المرء الى الله أن يزيح عنــه البلاء ، والا كان هذا النوع من الصبر السلبى نوعا من مقاومة القهر الالهى . هذا الى أن الرضا بالبلاء وعدم الشكوى منه الى الله يعد غاية فى الجهل بالله .

أما الرأى الذى قد يبتعد به عن الفكر الاسلامى، وعن ابن عربى بصفة خاصة فهو الخاص بتلوث الانسانية بسبب الخطيئــة الاولى وهى عقيــدة مسيحية اساسية . لقد حاول ليبنتس المجانسة بين آرائه الدينية فى الخير والشر وبين هذه العقيدة. لكن لا نعدم أن نجد لديه ثورة على رجال اللاهوت الذين يطبقون تلك العقيدة حرفيا . اذ يشير أولا الى رأى أورجين الذى يقول بأن الغلبــة ستكون للخير . وأن جميع المخلوقات العاقلة ستصير الى القداسة والسعادة (50) ثم يورد رأى أحد الفلكيين الذى يأمل فى ان يذبح الموت ، وفى أن يسيطر العقل والسلام على الارواح . لكنه سرعان ما يقول اننا لسنا فى حاجة الى هذه الاسطورة(51) ثـم يعترف بأن فكرة الخطيئة الاولى تثـير صعوبات بالنسبة الى الفكرة التى يجب أن تكون عندنا عن العدل الالهى(52) لقد قال بعض اللاهوتيين . فى تبرير تأييد العذاب . ان المطرودين من رحمة الله كانوا ذوى ارادة سيئة . وقد افتقدوا الفضـــل الالهى الذى كان يمكن أن يجعلهم من ذوى الارادة الطيبة . ولذا فسيعذبون دائما . لان الله يعـلم سلفا أنهم سيرتكبون المعـــاصى لو اشتمروا فى الحياة الدنيا دائما »(53) .

وأكثر من هذا فان القديس اغسطين قال ان الخطيئة الاولى تكفى فى العذاب المؤبد . وهنـــا يكشف ليبنتس الستار قليلا عن الراى الذى يميل اليه . فيقول : ان هذا الحكم قاس جدا حتى لا نقول شيئا آخر. لكنه لايلبث أن يقول ان بعض اللاهوتيين الفرنسيين من رأى أغسطين فى أن الاطفال الذين لم يعمدوا سيذهبون الى جهنم رأسا . فى حين أن بعض المدرسيين وضعوا هؤلاء الاطفال فى الاعراف. فلا يعذبون الا بحرمانهم من رؤية الله . وذلك بدلا من أن يرسلوهم الى جهنـــم(54). ولا يستطيع ليبنتس الا ان يصرح . آخر الامر ، برأيه فيقول : « لا أستطيع أن أتذوق . فى عقائد اتباع اغسطين. عذاب الاطفال الذين لم يعمدوا . ولا أتذوق خاصة العذاب الناجم عن الخطيئة الاولى . ولا أستطيع أن اعتقد أن الله يحكم بعـــذاب من ينتقدون الانوار الضرورية . ويمكن أن نعتقـد ، مـع كثير من اللاهوتيين . أن الناس يتلقون عونا أكثر ممـــا تعلم . وان لم يكن ذلك الا فى ساعة الاحتضار»(55)

ومع ذلك . فانه لم يتحرر تماما من تأثير عقيدة الخطيئة الاولى . لانه يرى أن النفس رديئة بحسب الاصل . وأن الشر يغلب فيها على الخير ، وذلك رأى لا يرضاه المفكرون المسلمون الذين يرون أن

---

50) المصدر السابق ج I فقره I7
51) نفس المصدر ج I فقرة I8
52) نفس المصدر ج I فقرة 85
53) نفس المصدر ج 3 فقرة 266
54) نفس المصدر ج I فقرة 92 – 93
55) نفس المصدر ج 3 فقرة 284

النفس طاهرة بحسب الاصل(56) أما عند ليبنتس فالامـر يختلف ، لان الشر أغلب على النفـوس الانسانية ، بسبب الخطيئة الاولى . وفى رأيه أن البشر ربما كانوا فى أعماقهم أشرارا وعلى حـد سواء . فلا يتميزون فيما بينهم بحسب الواقـع تبعا لصفاتهم الحسنة ، أو تبعا لصفاتهم الطبيعية السيئة . ومـع ذلك فانهم ليسوا من الشر أو السوء فى مرتبة واحدة ، فان هناك فروقا فردية أصيلة بين الارواح .

لان خطة الكون أو مبـدأ التجانس الازلى ، توجب أن توجد هذه الفروق . فهـم متفاوتون اذن فى نزعاتهم نحو الخير والشر ، وللظروف التى يوجدون فيها تأثير ما فى هذا التفاوت . ولذا فان هؤلاء الذين يوجدون فى ظروف مواتية يصبحون أقل شرا وأكثر فضيلة وأكثر سعادة . غير أن ذلك لا يتحقق لهم عن طريق نفوسهم وانما بعون من الانطبـاعات الداخلية للفضـل الالهى التى يضفيها على نفوسهم . كذلك يتفق لبعض النفوس ان تزيد شرا على شرها الخاص بها ، على الرغم من ان طبيعتها ربما كانت أكثر سموا أو أقل سوءا من غيرها ، ويرجع ذلك الى الظروف التى توجد فيها ويذهب ليبنتس فى تصوير فكرته هذه الى حـد يتعارض مع كثير من آرائه الاخرى ، اذ يقول : « ويمكننا القول بأن الناس قد اختيروا ، ورتبوا ، لا حسب امتيازهم ، لكن حسب موافقتهم للخطة الالهية ، كما قد يتفق أن تستخدم حجرا أقـل جودة فى بناء ما ... وذلك لانه يتفق أنه هو الذى يسد ثغرة معينة فى هذا البناء »

لكن من الانصاف ان نشير آخر الامر الى انه كان يحاول دائما السمو على النظرة التقليديـة بدليل انه ، فى هذه المسالة بالذات ، اضطر الى التصريح فى احد ردوده على بيل بان جانب الخير فى الكائنات العاقلة يغلب على جانب الشر فيها(57) وبذا نجده يقترب مرة أخرى من محيى الدين بن عربى الذى يقول ان الشر ليس أصلا فى النفس ، بل تكاد لا تقبله الا مكرهة ، ولذا قال الرسول « الخير عادة والشر لجـاجة » « فالنفس بالذات ما زالت خيرة لان أباها الروح القدسى الطاهـر وطبعها الخير » اما الجسم الذى تحل فيه فقد خلقه الله وسواه فعدله . ولقد قبل الجسم هذه التسوية وهذا العدل . وقبوله للعدل من الخـير . وليس الظلم من شيم النفـوس حقيقة ، لان « للانسان فيه مدافعة يجدها من نفسه »(58) .

---

56) انظر مقال منهج محيى الدين بن عربى فى تفسير القرآن بمجلة الهلال ديسمبر 1970
57) العدل الالهى ج 2 فقرة 219
58) انظر منهج ابن عربى فى تفسير القرآن بمجلة الهلال عـدد ديسمبر 1970

اليونسكو..

وآفـــاق التفــاعل بـــين الثقافــات الإنســانيــة

مصطفى عبادة

ظلت شعوب الانسانية طـوال تاريخها القديم وحتى أمد ليس ببعيد تعيش وتحيا منغلقة على ذاتها فلكل أمة وكل شعب اطار ثقافي وحضارى وآيديولوجى تعيش فى نطاقه وتتشرب من وعائه وتستمد عاداتها وتقاليدها من معينه ، فهى تحـافظ عليـه محافظتها على كيانها .

وعلى هذا الاساس كانت الصلات الفكرية بين الشعوب محصورة في نطاق محدود جدا لا تتجاوز نخبة من الباحثين وأهل الفكر وقد أدى هـــذا الانغلاق الى فلسفة أنانية ثقافية وحضارية كانت نتيجتها المنطقية الحروب والتطاحن بين مختلف الثقافات والحضارات التى تمثلها شعوب متعددة المشارب فهذا شعب استشعر قوة فى نفسه حاول عن طريق العنف والحرب وحب التسلط أن يخضع شعبا آخر محاولا دمجـه فى حضارته وثقافتـه وبذلك ازداد التفاوت بين الاقوياء والضعفاء من الشعوب وظهرت روح التسلط والاستعمار بشكل صريح واضح وما حملت معهما من ويلات الحروب وتهديد بفناء البشرية ، لقد ظهرت هذه الروح فى اتساع مستمر فى مجالى الشمول والعمق الى أن رزحت البشرية فى مدى أقل من خمسين سنة تحت أهوال حربين عالميتين جلبتا من الآلام والشقاء الى بنى الانسان ما جعله يخشى أن تكـون ارادة التسلط ، والقتل ، والتدمير هى القوى الغريزية الفعلية الوحيدة التى تتحكم فى مصائر الشعوب .

انطلاقا من هذه المرحلة الحرجة والخطيرة لاح فى الافق اهتمام من قبل اهل الفـــكر وأولى الرأى ملاحظين أن مجرد عقد صلح بين دولة وأخرى لا يعنى أنه قد تحقق الامل المرجو فى اشاعة السلام بين الناس كما ان ازالة النزعات العدوانية بـين الافراد والشعوب على حد سواء لا تكون باستعمال القوة بل بتنمية الشعور بالحق والكرامة وبتثقيف الافراد وتفتح عقولهم على حضارات الامم للتعرف عليها وبالتالى لاحترامها لانها خلاصة فكر وعصارته تطورت عبر التاريخ . أزدادت رقيا هنا وتدهورت هناك . أعطت من عندها وأخذت من غيرها انها قدر مشترك بين كل الانام ، كل شعب وكل أمة ساهمت وتساهم فى بناء حضارة انسانية شاملة لها أبعادها السامية فى صيانة العدل والخير لكل

الانام ، ان العدالة الاجتماعية لا تتحقق بالظلم ولا بالقوة ولا بالجهل ، بل بتنمية الشعور بالحق والعدل والكرامة عند الفرد وبالتالى عند المجتمع ولن يتحقق هذا الا بتربية النشء على مبادىء الاخاء والتضامن « ان اقرار السلام يبدأ بتكوين نفوس البشر تكوينا جديدا » .

ولاول مرة فى تاريخ البشرية ومنذ ربع قرن برزت فكرة جديدة تستهدف الحفاظ على السلام العالمى لا باتباع طرق المفاوضات السياسية وباساليب الحوار الديبلوماسى بل باتباع أسلوب انفتاح الثقافات الانسانية على بعضها وانفتاح عقول البشر لتتمكن من أن تتعايش مع بعضها وتتبادل حصيلة ابداعها ويتمكن شعب بالتالى من تقدير ثقافة الشعوب الاخرى ودورها فى الاسهام فى البنيان الحضارى .

ان انشاء منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة هو تأكيد لهذه الفكرة العملاقة التى تطرح لاول مرة فى تاريخ الانسانية مفهوما جديدا لما يجب ان تكون عليه العلاقات بين الشعوب فى سبيل مساعدتها على أن تنطور وتتقدم . لقد جاء فى نص ميثاق أنشائها « ان عدم تفهم الشعوب بعضها مع بعض كان باستمرار منذ فجر التاريخ باعثا على الريب وسوء الظن بين الامم فادت اختلافاتها فى كثير من الاحيان الى حروب . وان الحرب الكبرى الاخيرة وقعت من جراء انكار المثل العليا للكرامة والمساواة واحترام الانسان ومن جراء الرغبة فى أن يحل محلها بواسطة استغلال الجهل والمزاعم . مبدأ عدم المساواة فى الاجناس والناس .

وان كرامة الانسان تستلزم نشر الثقافة والتربية لجميع الناس بقصد تحقيق العدالة والحرية والسلام ، ففى ذلك واجبات مقدسة لجميع الشعوب يلزم تاديتها بروح من التعاون المتبادل وان سلاما يقوم على اتفاق الحكومات اقتصاديا كان أو سياسيا لا يؤدى الى رضى اجماعى دائم صادق بين الشعوب . وانه يجب تبعا لذلك ان يقوم هذا السلام على اساس من التضامن الفكرى والادبى للانسانية .

فلهذه الاسباب ، تقرر الدول الموقعة على هذا الاتفاق . وهى عازمة على تامين حرية التربية لجميع الناس ومساواتها بينهم . حرية تتبع الحقيقة الموضوعية وتبادل الآراء والمعلومات . وتنمية العلاقات بين الشعوب . بقصد أزدياد التفاهم بينها والحصول على أصدق وأدق ما يمكن من المعلومات عن عاداتها .

والخلاصة : ان الدول المذكورة تنشىء بهذا الاتفاق منظمة هيئة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، لتصل تدريجيا بفضل تعاون الامم فى ميدان

التربية والعلم والثقافة . الى اغـراض السلام الدولى والرخـاء المشترك للانسانية ، أغراض انشئت من أجلها هيئة الامم المتحدة وأعلنهـا ميثاقها » .

اذن فالهدف السامي الذى استهدفته اليونسكو ليس بالهين بل له بعدان أساسيان . البعد الاول هو القضاء على الانانية الثقافية بحيث نجد شعبا ما يجهل أو يتجاهل بل فى بعض الاحيان ينكر ثقافة وحضارة الاخرين وعلى هذا فليس من الغريب فى شىء أن تسود نزعة الخصومة على نزعة التعاون وأن يكون التعصب أقوى من التسامح والانغلاق أكثر من التفتح وفى هذا البعد نجد اليونسكو ان لم تحقق الكل فقد حققت الجزء .

والبعد الثانى يتمثل فى نشر الثقافات بين الشعوب وتفاعلها لتكون فى خدمة الرقى والتقدم فى ظل السلام والاخاء . وهذا البعد الثانى يكاد يكون تحقيقه طبيعيا نظرا لتوفر وانتشار التقنية فى العالم وما استتبع من سهولة أتصال النـاس بعضهم ببعض ونمو المواصلات واستمرار تشابك الروابط الاقتصادية والتجارية ونموها . كل هذا جعل مختلف الثقافات تتفاعل وتتقارب . وتبادل الخبرات والتجارب فى جميع الميادين .

ولكن هذا لا يعنى أن اليونسكو تهدف فى ان تتوصل فى يوم ما الى اقناع الامم بالتخلى عن حضاراتها وثقافتها وأسلوبها الخاص فى الحيـاة لتبنى حضارة مشتركة واحدة لان هذا الدمج لا يمكن أن يتحقق نظرا لعوامل اقتصادية وسياسية وطبيعية وآيديولوجية ، وان الذى تعنيه اليونسكو هو تعدد الثقافات وتنوعها والاستفادة من بعضها البعض وهـذا التنوع يجب الحـرص على بقائـه واثرائه . ان تعايش الثقافات هو المطلب الذى يجب أن تعمل من اجله وعلى تحقيقه اليـونسكو . وخطأ كبير أن نميز ثقافة معينة ونتصورها ذات قيمة مطلقة دون سواها .

وان من النتائج التى توصلت اليها هذه المنظمة من خلال اسهام المفكرين والباحثين فى المناقشات واللقاءات التى نظمتها لهم هذه المؤسسة الدولية « ان الكائن البشرى حصيلة التربية والتربيـة وسيلة مثلى للتقريب بين الشعوب فعصرنا الذى يتصف بحضارة عالمية مؤلفة من ثقافات أصيلة مميزة لكل أمة . يحتاج الى مذهب تربوى قومى لا يرتكز على ثقافة وحيدة بعينها بل على ثقافـة انسانية أوسع نطـاقا قائمة على فهـم متبـادل لثقافات البشرية . وان كل أمة بوصفها عضـوا مستقلا فى هذه الحضارة العالمية تأتى بشخصيتها ومفهومها الخاص للحياة الى مجتمع الامم هذا » .

ان انعزال الثقافات يؤدى الى بعض الحـالات المتطرفة نمو مفرط عند بعضها أو توقف فى النمو

عند بعضها الآخر لعدم تكامل هذه الثقافات والاستفادة بالتجارب والخبرات لكل ثقافة على حدة . ان تفاعل الثقافات وتعاونها مطلب من مطالب عصرنا ، وضرورة تحتمها وسائل التكنولوجية الحديثة ، وعليه الا يحق لنا ان نتساءل هنا هل حققت المنظمة الاممية للتربية والعلم والثقافة كل الشعارات التى أنشئت من اجلها ؟ هل طبقت بحق وبصدق كل ما جاء فى ميثاق انشائها ؟ ان الجواب عن هذين السؤالين ليتطلب البحث الطويل والتتبع لمسيرة هذه المؤسسة منذ تأسيسها حتى يومنا هذا غير اننا نستطيع ان نقول بايجاز ان الاهداف المعينة لهذه المنظمة الدولية سامية بحق الا أن الخطط المرسومة لها تجعلها تابعة لهيئة سياسية هى منظمة الامم المتحدة ، وهذه التبعية تبعدها عن تلك الاهداف السامية بصورة طبيعية . لان رجال السياسة بارعون فى ستر الحقائق بل وفى تزييفها وليس من المستبعد أن يجعلوا هذه المؤسسة وسيلة لستر مطامع الدول الكبرى بالتعبيرات الانسانية الخلابة وما دامت هذه المنظمة خاضعة فى روحها لسلطة سياسية فستظل بعيدة عن مناحى الاتجاهات العلمية الحقيقية والنزعات السلمية الفعلية اذ لا يعقل ونحن فى النصف الاخير من القرن العشرين ان تظل الثقافة والعلم والتربية تابعة للمناحى السياسية لا رائدة ، اليس من الاجدر فى عالمنا اليوم أن تكون الكلمة الاولى للعلم والثقافة والاخلاق وأن تكون السياسة أصل الخداع والمناورات ، تابعة للعلم خادمة له . ان عالم اليوم لاحوج أكثر مما مضى الى عدالة وأخلاق ، لا الى سياسة لا أخلاق لها ولا الى اسلوب الغاية تبرر الوسيلة .

ورغم هذا ينبغى أن لا نكون متشائمين أكثر من اللازم بل يجب على الامم والشعوب أن تعمل من أجل تحقيق الاهداف التى رسمتها مؤسسة التربية والعلم والثقافة لفائدة السلام بين الانام ولفائدة العدل والكرامة الانسانية ، اننا نعلم أن اليونيسكو ما تزال رغم ربع قرن من تأسيسها تتصدى لمشكلات هى من السعة والخطورة والصعوبة لا تكفى لمواجهتها جهود هذه المنظمة وحدها بل تتطلب عونا صادقا وجهودا متواصلة متظافرة من جميع الامم والشعوب وخاصة من العلماء والمفكرين فى العالم . ان عالم اليوم رغم تفوقه فى ميادين كثيرة وهامة الا أنه ما يزال ينوء بثقل الامية وثقل التمييز الثقافى واحتكار العلم والمعرفة ، ان عالم اليوم ما يزال يمارس تربية الاجيال فى نطاق مختلف أنواع التمييز العنصرى والفكرى ، ولكن هناك دائما أمل يحفز كل المؤمنين بالحق والعدل والحرية والسلام الى مزيد من الجهد لتحقيق انجازات أكبر وأجدى ، فالانسان الذى صنع الحرب والعنف والخراب قادر على أن يصنع المحبة والاخاء والسلام .

مافائدة الأنثولوجيا

اذا صح ان جودة الارواح تعفي من جودة الافكار حسب بعض الآراء — لتحقيق انقاذ العالم منذ زمن ولسيادة « السلام الابيض » المشؤوم . غير أن هذا السلام الهندي الذي يقول عنه « روبير جولان »(1) أنه : لايؤمن بفقده الى الابد لانه يأمل في عهد « الهندية البيضاء » وهو يعرف بالتأكيد ان النيات الحسنة وحدها لا تكفي ... انه صاحب افكار ايضا . فهل هي صائبة ؟

بقلم : جان بيون

تعريب : بن عمار الصغير

اننا لا نعتقد ذلك ويمكن أن نتسائل : لماذا ؟ — على فرض أنها صائبة فلا يجب أن نقع في تفاؤل يجاري التفاؤل السابق . ان الافكار السليمة ليست أكثر فعالية من العواطف الحسنة بكل أسف وبعبارة أخرى يتعلق الامر بالدفاع الحقيقي عن الهنود ضد أمبريالية الحضارة البيضاء العرقية عن طريق هدمها لبناء عالم يحل فيه الحوار محل النفي. ولا يمكن أن يتمسك كما قال « جولان » بنقد الآيديولوجيات في معظم الاحيان . فهذا النقد ضروري ولكن لاي شيء ومن تفيد ان انتهت الى تغطية المسالة السياسية ؟

فلكل مشكلة بعد ثقافي يجب الاعتراف به — **ولكن الاكتفاء بالاخذ بالنزعة الثقافية دون سواها يحتوي على نوع من التزوير .**

ومهما كان الامر فان المفكر يخادع نفسه بالآيديولوجية عندما يطالب بأعادة تقييم ووضع الثقة في الثقافة — ولو من أجل أعادة النظر فيها —

1) روبير جولان «السلام الابيض» مدخل الى الابادة — باريس — دار النشر لوسوي 1970

بحيث تصبح غير معبرة عن النظام المجتمعى الذى يتعين عليها فحصها أكثر من تبريرها .

« بكل تأكيد يجب أن لا ننسى سرقة الاراضى وممارسة العبودية والتعذيب . وهام جدا أيضا أن نحـدد موقـع كل ذلك ضمن أطـار ديناميكيتنا الثقافية » (2) .

أجل .. لكن بعد أن نغلق الكتاب تحدثنا نفسنا بوجـوب عـكس هذه الصيغـة ومن الملائم بكل تأكيد أن نأخـذ بعـين **الاعتبـار ديناميكيتنا الثقافية** ولكن بالمقابل يجب **أن لا ننسى السرقـة والعبودية والتعذيب .**

فالهنود لا يعيشون محاطين بعلماء الاجنـاس والمبشرين فقط أن تسلل المستعمرين أخطر عليهم من تسلل نظريات الاولين ولو كانت مغلوطة ومن أعمـال الفئة الثانية المستجدة : اذ انهم **مهددون بخسران اراضيهم أكثر من أن يساء فهمهم** . ان التعرف عليهم كما هو او كمـا يجب أن تكون دلالتهم فى نظرنا سيكون بدون شك افضل ولكن هل هذا سيعينهم كثيرا على مقاومة الاستعمار ؟

وفى الحقيقة فان المخطط الاستعمارى يرتكز فعلا على شىء آخر يختلف على تجاهله البسيط لضحاياه ـ والواقـع أن المخطط الاستعمارى يسخر من الانتقادات الموجهة اليه. بقدر ما يسخر من كل التبريرات التى ربمـا يطرحهـا والتى يمكن ان نرفضها بدون أن نسبب له حرجا حقيقيا .

ان أطراء الثقافة الغربية كانتقادها يمران بدون ان يثيرا انتباه الرأسمالى من امريكا اللاتينية أو فى غيرها من المناطق ولكن بمثل ما هو يقوم به فانه لا يحتاج بتاتا الى الاقتناع بالمسألة الاولى وأمـا المسألة الثانية فانها لا تزعجه بل على العكس . ان غياب المسؤوليات يحقق له غرضـه فالذى يستطيع ان ينال الرأسمالى (الكولمبى) مثلا هى بالذات تحليل العملية التى تم بموجبها استيلاؤه على الاراضى (اذ أن جـولان يتحـدث عن قبائل « البـارى » التى تعيش فى كولومبيـا ..) وبالخصوص البحث عن الوسائل التى تمكن الهنود انفسهم فى محل اقامتهم من عرقلة هذه العمليـة وعن كل هذا فان جولان لم يتكلم وذلك من دون شك لا لانه يراه ثانويا أكثر من كونه راجع الى اسباب حقيقية بديهية ولكن يستعمله باستمرار وبشكل مزور . وقد كتب « انه لمن الزعم المخزى ان ندعى ان المستعمرين الصغار جناة وانهـم مسؤولون على تحطيم الحضارات الهندية أو بأنهم اقترفوا مذابح متعاقبة ومارسوا العبودية فى حق الهنود فلم يكن تصرف هـؤلاء المعمرين الصغار ينـاسب انتمـاءهم الى حضـارتنا الغـربيـة فحسب بل أن هذه « الاعمال الاجرامية » المتفرقة كانت تتم تحت مسؤوليات السلطات « الوطنية » التى ينتمون اليها هذا فى حالة عـدم تمجيدهم والقضاء على حياة الهنود أو تسخيرهم كعبيد تقوم مختلف المصالح الممثلة لهـذه القرائن الوطنية بالنشاط على مستويات اخرى متميزة ولكنهـا متكافئة فعـلى الصعيد نفسه وتقربهم تنصب نفسها كضامنة لهم وتهىء لهم أماكن أيواء لكى يسلم هؤلاء المعمرون .. وبما أن المعمر أو أى رجل أبيض آخر يعمل عـلى نفس الصعيد بالمؤازرة الرمزية أو الفعلية وتحت ضمانة البلاد وسلطاتها

2) المرجع السابق ص 248

المباشرة فــأن هــؤلاء الاخرين يهيؤون كذلك نشاطاتهم حسب رؤية أكثر شمولا أى وفقـــا لانتمائهم لهذه الحضارة الغربية(3) .

فهذا الانتماء عند « جولان » يسوى بين كـــل الدوافع وكل شكلياته « ان توسع عالمنا أو مـــا يسمى بـ « التحضيرانية » ان تم بوسائل منهـــا الخناجر والمدافع أو كلمة السلطة أو العلم ما هو فى واقع الامر الا نفى للطرف الآخر »(4) فرق اذن بين عالم الاجناس « الانتولوجى » أو المجرم : لانهما من عالم واحد .. ليكن ذلك . كيف نحكم على « جولان » نفسه . فعلا هناك نقاط غموض فيما نسترده وفى تعقيباته :

ماذا كان يعتبره « هنود بارى » فى حضرتهم ؟ يظهر أن ضميره من هذه الناحية مرتاح على خلاف « جان مونود » الذى عند سرده لتجربته هنـــا بالذات ما انفك بينهم .. وقـــد كتب بكل وعى ـ سيرة ذاتية مونودية ـ اكتشف بأن هنود بياروا يعتبرونه « غنى من آكلى لحوم البشر » وهذا يعطى لاول وهلة الحق لجولان . ولكن « مونود » يظهـر بصفة خاصة أن هذه العلاقة الصعبة والمعقدة مع هؤلاء الهنود ـ هذه العلاقة التى لا يغالى عندما يحولها الى **رفض ذاتى ثقافى بوسيلة سحرية** ـ اذ أنه اتهم علم الاجناس وكـــذا الوسيلة التى يبنى بها ورغما عن هذا العلم وبفضله استطاع أن يتصل ويتعرف عليهم .

يستطيع جولان أن يقول بالمثل انه توصـــل الى معرفة هنود بارى ، وهذا صحيح ولكن لوجود تأكيدات « جولان » فمن حقنا أن نتساءل أى فداء يمكن أن ينجيه من المصير المحزن الذى وقع فيه علماء الاجناس الآخرون . فباعتبـــاره ينتمى الى تحديدات ثقافية معينة مثلهم . ترى هل هو ملاك ؟ بدأ بوضع علاقـة ميكانيكية تامة بين الاستعمار وعلم الاجناس وقد لعبت هذه العلاقة فى وضعه من خلال هذا لان نيته كانت بقصد الجدل وبأنـه كان لا يرمى الى اتهـام نفسه فانه حقق لنفسه اختيار علم الاجناس « الطيب » هذا الذى سيكون بفضل معجزة لا يحتوى على أية رائحة استعمارية، وكأنه يرشدنا الى أتباع جولان وان تطلق بالثلاث هؤلاء الاساتذة الرئيسيين وحقيقة الامر هنا أن أكثر زملائه ممن هم موجودون . هم من القتلة . وهؤلاء يوفرون له فقط المراجع التى يحتاج اليها ليتمكن بها من أتهام الاولين ، وانطلاقا من هـذا فان له كامل الحق أن يتسلم لادماجاته الاستعمارية فهو حين يقارن ينفى وحين يعلل يمسخ وهكـــذا دواليك ـ فالحجج عنده تتوقف على مقـــادير من التنقلات يتناول جولان أبادة عرق للاعراق الاخرى كمشكل ثقافى حاد وسياسى أيضا غير أنه فيما بعد يعالج هذا المشكل الثقافى مثل معالجته لمسالة تهم السياسة داخل العالم الصغير لعلماء الاجناس . وهكذا تبدو الفصول الاخيرة من الكتاب بالنسبة للقارىء كأنها خصومات بيتية أو تصفيات حسابات غامضة .

ولكن الا يكمن هنا احد عناصر نجاح الكتاب . لقد أحسن الينا اذ أنه لقراءة خاتمة الكتاب لابد من البداية من أوله حيث يعنى بأى حال من الاحوال بقضية الهنود .

* * *

ان ما يضجر فى طريقة « جولان » هو تبسيطه وتزييفه لمشكل العلاقات الحقيقية بين الاستعمار

3) المرجع السابق ص 406

4) المرجع السابق ص 405

والامبريالية والاتنولوجيا . ان الزعم بانها علاقات بنوة أو تعبير متبادل هو من باب البساطة التى لا تزعج أحدا . ومن جهة أخرى فان الجميع راضخون لانتقاد المنوغرافية الصالحة لكل شيء وللتقسيمات الاصطناعية وتصنيفات تنطلق من رؤية من خلال جنس مركز تقيم على نموذجه الاجناس الاخرى . كما نجد أنه بتقيد بـ « الشكلية المقنعة » فهو لا يعد العيوب غير متاصلة ويفترض وجود مسلك مستقيم .

وأخيرا لقد اصبح من المؤكد ـ تأكيد لا ينبني على كتاب « السلام الابيض » وانما على مقالات موجودة فى هذا العدد بأن هناك علماء أجناس انقادوا بنسب متزايدة من الشعور لخدمة اغراض حكوماتهم عسكريا وسياسيا ولكن ما نعيبه عليهم بالضبط هو أنهم كانوا فى سلوكهم رجال شرطة حقيقيين وعلماء أجناس مزيفين .

.« الا يكون عالم الاجناس الحقيقى هو الابيض الطيب ؟ ! »

مع الاسف أن الامور ليست فى مثل هذا الوضوح . يقع كل بحث اتنولوجى فى نطاق استعمارى أن الشروع فيه يفترض الاستعمار وكما تشكل كيفية أجرائه تطفلا وأما نتائجه فانها دائما ممكنة الاستعمال من طرف المستعمرين . ومع ذلك يمكن أن يكون المشروع مشروعا علميا ويكون من المربح جدا أن نتخيل الاتنولوجيا الرديئة متصلة بالاستعمار بينما تكون الاتنولوجيا الموضوعية قد قطعت معه كل الروابط . انه فى امكان عالم الاجناس أن يحترم الاوضاع القائمة من دون أن يشوه الواقع . وعلى النقيض من ذلك يمكن أن تكون نظرية ما تافهة فى حين أنها تمكن من رفض المجتمع الاستعمارى . ان أتنولوجيا « المتوحش الطيب » ذات مغزى وأن الراجعين اليها وهو اخطا أن يفعل ذلك لينتقد ـ وأصاب مجتمعهم الخاص مجتمع المستعمرين وهنا توجد تقاليد قديمة فى الاتنولوجيا كما توجد فى نفس الوقت دوافع متكررة الا وهى تقديم معرفة الآخرين « صحيحة أو باطلة فهذا ليس بمهم » الى رفض ذويه .

ويخلص « جولان » فى بقائه وفيا لهذا الموقف الذى يجد فيه صحبة مريحة على ما يبدو لى وقد اقلقه ان دخلت فى التفاصيل غير أن هذه العادة فى الاتنولوجيا قد بقيت بدون نتائج ـ لقد استمر التوسع « الابيض » وتم أستعباد « المتوحشين » سواء كانوا طيبين أم لا . هذا فى حالة عدم القضاء عليه كما اندثرت ثقافات ومجتمعات وهذه عملية مستمرة .

ان الرفض عن طريق المعرفة من قبيل الاوهام الا تكون المعرفة فى تواطىء دائم ؟ وتبدو آثار هذا التساؤل فى ثنايا تأملات «جولان» و « منوط » بالخصوص . ومن البديهى أنها لا تستلم كل بعدها الا اذا ناقشت لتراجع معرفة حقيقية وعندما تكون الاتنولوجيا نفسها هى موضوع الانتقاد دون ما يشوهها محاكاة . فهو يرى فى المعرفة مشروعا فعليا للاحتواء والادماج أى أن أجعل الآخر على مقياسى . ويتخيلون عالما سيتكلم فيه كل شخص عن نفسه وحدها . فبقولنا للآخر ـ بدون أن نفهمه ـ حقيقيا الا فى حالة ميلنا اليه كليا أن نكون « هو » وليس بأن نعرفه . وبأجمال : عالم

من العلاقات الوجودية انني أعرف جيدا أن جولان يتكلم عن الحوار ولكنني اخشى ان يكون حوارا بين اصم اذ لـم يعترف بأن أمكانيته تتوقف عـلى أكتشاف الاختلافات التي تجعل الاتصال ممكنا ومن ثم نكتشف المعرفة .

وعلى أى حال ، فرفض المعرفة فى علم الاجناس لا تزيد عن الثقة الساذجة فى فضيلتها فهى لا تزعج الامبريالية ، وفى مواجهة هذا فان عـلم الاجناس ليس خادما للاستعمار ، فهو يقف عاجزا ومن المحتمل أن يكون لهذا السبب لم يعر أهتماما وأنتباهـا للمشروعات الاستعمارية أو لمشروعات الاستعمار الجديد واكتفى فقط بفضحها من آن لآخر فيما يتعلق بشططها فهو لم يغير **ولن يغير من مجرى الامور شيئا** ، وفى هذا المجـال لا داعى **للاستغراب أو للوم هذا العلم .. وهنا نجد صعيدا مشتركا وعمليا يمكننا من التفاهم مـع جولان عليه .. فهو يستطيع أن يغير عـلم الاجنـاس بمعنى أن يرفع من وعيه بالدور الذى يقوم بـه ولا سيما وعى الناس الذين يعمل ضمنهم ، يدفعه لمساعدتهم فى كفاحهم التحررى فى كولومبيا ، وهـذا ما يفعله جولان اذ انى اعتقد انـه يلقى المعمرين والهنود فينسى مجادلاته الباريسية .**

ولكنه لا يظن بأن عملا من هذا القبيل سهل ولو فى حالة اتخاذ موقف فقط كما قال «كوبانز» فعالم الاجناس « موقفه سيء » لانه يعتبر من الخارج بالنسبة للاهالى فدوره لن يكون بمثابة المرشـد أو المستشار فكل علماء الاجناس متفقون حـول هذه النقطة من عالم الاجناس الاكثر كلاسيكية الى العالم الثورى .

ومن جهة جولان فانه قال بأن « انتفاضة » ما لا يمكن « اختراعها » الا من طرف الذين يهمهم الامر و « كوبانز » يميز فى الأخير عالم الاجناس الذى يعتبر نفسه ثوريـا « كعامل ذى طاقـة للمساندة » فى البلدان المستعمرة حيث نجـد الكفاح التحررى يبدأ بصعوبة أو هو لم يبـدأ بعد ، وزيادة على ذلك بل الاخطر من ذلك فان الكفاح التحررى ليس سليما من الملابسات ونجد أختياراته غير واضحة ، ولنأخذ مثلا (التشاد) بما أن « كوبانز » يورده ويطلب من علماء الاجناس الفرنسيين الذين عملوا فيه أو ما زالوا يعملون برأيهم ، وهذا السؤال بالذات موجه الى بمثل ما هو موجه الى جولان ، وهو كما قال : « هـذه مناسبة تجعـل السياسة الفرنسية العسكرية والثقافية محل أتهام فى أفريقيا » . وهذا بالتأكيد ليس الا لائحة أخرى مضادة للامبريالية على اكثر تقدير ، ومن جهة أخرى يلزم الا ننسى أن فى هذه القضية يحتل العالم الاسلامى رتبة « ابن العم » فى حضارتنا ، كما قال جولان ليس هذا مدحـا بل هو على علاته ، اذا كانت فـكرة تأييد سلطة بومبالباى مضحكة ، فانني لا أرى كيف أستطيع أن آمل فى انتصار الزنـوج المسلمين ، فاقتراح جبهة التحرير الوطنى التشادية المتمثل فى مشروع قيام « جمهورية اسلامية » مع برنامج همه الوحيد التأثير على اليسار الفرنسى القليل المعرفة بمـا يجرى ، فقد لا يدل هـذا المشروع على أى شيء بالنسبة لنصف البلاد التى لا تذكر الا بعودة عهد الغارات القبلية واقتناص العبيد .

فلو كانت جبهة التحرير التشادية تطـالب فقط بتقسيم البلاد ، اذ أن الحـدود السياسية للتشاد رسمت بكيفية مصطنعة لكان من الجـائز

مساندتها . ولكن نجد أنه يمكن اتهام الحكم كذلك على ما هى عليه الحال فى الجنوب كذلك . ولكن عكس هذه الحالة الحاضرة سيحول التشاد الى أن يعيش وضعية السودان وبالتالى سيضطرنا الى مساندة هؤلاء الذين لا نفكر فيهم اليوم . نقول هذا وطبعا فاننا لا نساند مسالة التدخل العسكرى الفرنسى .

اننا نجد جولان على صواب حينما يطالب « باعادة تعديل خريطة (البلدان المستعمرة سابقا) حيث ان الحدود الموجودة بها فرضها العالم الاستعمارى دون تناسب مجال ثقافى وبيئى متناسق » ، ان اعادة تعديل الحدود السياسية لا يمكن ان يكون كافيا ، اذ يجب اعادة خلقها من جديد ، من يستطيع ذلك ؟ المسالة هنا سياسية بالدرجة الاولى ولو كره من كره . ومن جهة اخرى، كيف يمكن تحديد ذلك التناسق النسبى بدون الرجوع الى علم الاجناس المقارن التحليل والتعميمى الذى يتمنى له الانقراض ؟ وعلى اى حال فان علماء الاجناس يصلحون شيئا ما على الاقل ؟.

المجلس الاسلامى الاعلى واللجنة الدائمة لملتقى الفكر الاسلامى يندوون بحرب الابادة التى يتعرض لها المسلمون فى الفيلبين

منذ مدة طويلة والمسلمون فى الفيلبين يتعرضون لحرب ابادة تزداد اتساعا يوما بعد يوم بدافع الحقد والعنصرية . وقد اتخذت هذه الحرب الاجرامية فى المدة الاخيرة طابعا خطيرا بعد ان اصبحت جموع المسلمين من رجال واطفال وشيوخ يبادون بسلاح قوات حكومة الفيليبين بحجة تمرد المسلمين فى هذا البلد على السلطة وقيامهم بمناوشات ضد المسيحيين والجيش.وامام هذا الوضع الخطير وجه المجلس الاسلامى الاعلى واللجنة الدائمة لملتقى التعرف على الفكر الاسلامى النداء التالى :

« منذ ما يقرب من سنة ومسلمو الفيلبين يتعرضون يوميا لمجازر رهيبة ولحرب ابادة دبرتها بعض المنظمات فى الخفاء ثم اعطتها الصبغة العلانية.

ان مسلمى هذا البلد يعانون الاضطهاد والتقتيل فى بيوتهم ومزارعهم وفى الطرقات والاماكن العامة دون تمييز بين طفل صغير او شيخ كبير أو بين رجل وامراة من طرف العصابات المسلحة التى تدعى انها مسيحية والتى نظمت للوصول الى هدف واحد . هو افناء الطائفة الاسلامية فى الفيليبين .

ان هذا الصراع الدينى لم يتسبب فيه المسلمون كما تدعى حكومة الفليبين اذ ان تاريخ المسلمين فى هذا البلد ملىء بالتسامح الدينى والتعاون مع جميع الفئات . ولكن العناصر المسيحية المتعصبة لم ترض ان يعيش معها المسلمون واستعملت ضدهم طرق تعذيب واساليب الاضطهاد تذكرنا بطرق محاكم التفتيش المشؤومة !

لقد اخذ الصراع طابع الوحشية والقسوة واصبح يهدد كيان المسلمين ووجودهم فى هذا البلد من اساسه . انها عنصرية افضع من كل انواع التمييز العنصرى الذى نشاهده فى انحاء اخرى من العالم .

ولهذا نتوجه بندائنا الى جميع المسلمين لان نقف موقفا حازما وجادا فى وجه هذا الاجرام الذى يتنافى مع كل المبادىء والمثل الانسانية . لا بالاستنكار والتنديد فقط وانما بمزيد المعونة والمساعدة لاخواننا فى الفيلبين ، حتى يعود اليهم الامن والطمانينة فى بلادهم . كما نلفت نظر الرأى العام العالمى الى هذا الاجرام الذى يهين الانسانية كلها » .

يقول المؤرخ شاربونو ، معلقا على كتابة منقوشة فوق ضريح ، وكان قد عثر عليها فى الجامع الكبير بقسنطينه ، وتحمل تاريخ ٦١٨ هـ ٢ ـ ١٢٢١ م :

« ان وجود هذا القبر الاثرى فى هذا المكان يدعونا الى الاعتقاد بان الجامع الكبير تم فى نهاية القرن الثالث عشر على اقل تقدير » (١)



محراب جامع قسنطينة ـ الجزء الاعلى

وصف الجامع الكبير

ويقول المؤرخ ميريسى بصدد الحديث عن نفس تلك الكتابة : « ان القسم الذى توجد فيه تلك الكتابة بالجامع الكبير قد هدم وحلت محله عمارات فرنسية ، ولذلك لم نعثر على تلك الكتابة المنقوشة » . وكان الجامع فى القديم يحتل مساحة اكبر من التى يحتلها اليوم ، فلم يبق منه سوى قاعة للصلاة ، واسعة بعض الشىء ، وهى موجودة فى الدور الارضى ، وبها عدة صفوف من السوارى العديمة الجمال ، المطلية بالجير .

اما الواجهة ، فقد اعيد بناؤها تماما على حسب الهندسة المعمارية الفرنسية ، وهى بالتالى عديمة الاهمية من الناحية التاريخية ... على أن بقية البناء يبدو عليه القدم . ويقول علماء البلاد ان بناء هذا الجامع يرجع الى عام ٦٥٣ هـ /١٢٣٦ م » . (٢)

عند ما كنت أقوم بتحضير دكتوراه الدور الثالث عن « الكتابات التذكارية فى مساجد الجزائر » ، أتيح لى فى عامي ٦١ ـ ١٩٦٠ ان

1 - Société Archéologique de Construction - année 1856 - 1857, pages 55 et 78.
2 - MERCIER "Corpus des Instructions Arabes et Turques d'Algérie" T. 2, Département de Constantine, pages 5 et 6.



الباب العربى لجامع قسنطينة



محراب جامع قسنطينة ـ الجزء الاسفل

بقسنطينة

■ بقلم: د. رشيد بوروبية
■ ترجمة: د. حنفي بن عيسى

ازور الجامع الكبير بقسنطينة وان ادرس ما فيه من المعالم الاثرية ، وكانت دهشتى عظيمة عند ما عثرت على ثلاث كتابات تذكارية غير منشورة الى حد اليوم · والاولى منها موجودة داخل المحراب ، وهى بالخط الكوفى وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم · صلى الله على سيدنا محمد وعلى ءاله وسلم تسليما · هذا عمل محمد ابن بوعلى سنة ثلاثين وخمسمئة »· وقد نقشت الكتابتان على صفيحتين من الجص · اما الكتابة السفلى ، فقد وضعت بالخط الكوفى ، وكتب تاريخها بالحروف لا بالارقام ، وهو ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ·

اما الكتابة العليا فقد وضعت بالخط النسخى ، وبها تاريخ يتالف من اربعة ارقام ، احدها ، وهو رقم المئات ، مكسر · اما بقية الارقام ، فهى ـ ١ للالوف و ـ ٨ ـ للعشرات و ـ · للآحاد · ويستنتج من ذلك ان التاريخ المذكور يمكن أن يكون اما ١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩ م ، او ١١٨٠ هـ /١٧٦٦ م ، او ١٢٨٠ هـ / ١٨٥٣ م ·

والشىء المؤكد ان الكتابة الموجودة داخل المحراب هى وحدها الكتابة المنسوبة الى الجامع

الكبير بقسنطينة · ونحن اذن سنعتمد عليها لكي نقيم الدليل على ان هذا البناء ، او على الاقل محرابه ، هو من صنع بني حماد ·

بقي علينا بعد هذا ان نجيب على السؤال الآتي : ما هو القسم الذي يرجع الى القرن الثاني عشر في الجامع الكبير ؟ ونحن نرى ان الجدار الجنوبي يعود الى العهد الحمادي ، لان المحراب الذي انشيء فيه يحمل تاريخ ٥٣٠ هـ ١١٣٦ م · ومن المؤكد ايضا ان الجدار الشمالي يعود الى نفس العهد لان الابواب الخشبية التي فتحت فيه ، توجد بها زخرفة شبيهة بالزخرفة التي تزين نقش الجدار الشرقي ، ويرجع تاريخها الى ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م · على ان الجدار الشرقي ليس من العهد الحمادي،وذلك ان الجامع تهدم من ناحيته الشرقية بلاط واحد على الاقل(٣)، ومن الملحوظ اليوم انه توجد ثلاثة بلاطات في الجانب الغربي للمحراب ، وبلاطان في الجانب الشرقي · اما الجدار الغربي فلا نعرف على وجه التحقيق الى أي عهد من عهود التاريخ يعود · واما الصحن LA COUR فقد حدثت فيه تبدلات الى درجة انه يصعب على الانسان معرفة ما كان عليه في الاصل ·

بعد هذه التوضيحات سندرس على التوالي : مخطط المصلى ، ووسائل التدعيم والمحراب والمئذنة وأساليب الزخرفة ·

١ ـ مخطط المصلى

شكل المصلى يشبه المنحرف المستطيل ، ويبلغ طوله في الداخل ٢٤ م ، وعرضه ٢٢٫١ م ، أي انه يكاد يكون مربعا · وبه ستة بلاطات عمودية على المحراب ، وثمانية بلاطات موازية للمحراب · وهناك جدار يفصل الصحن عن المصلى ، كما هو الأمر في جامع القلعة وفي جامع سيدي أبي مروان بعنابة · وتوجد بهذا الجدار أربعة أبواب عرضها ١٫٦٠ م ·

٢ ـ وسائل التدعيم

أولا : السواري والتيجان

ان الجامع الكبير بقسنطينة لا يقل روعة عن أي أثر معماري آخر ، لما يوجد به من السواري القديمة · ومن هذه السواري ما هي اسطوانية الشكل ومدورة ومخروطية ، ومنها ما هي ملساء ومنقوشة بتخاريم CANNELURES يقدر عددها ، بحسب السواري ، اما بعشرين او اربعة وعشرين او ثمانية واربعين · ومنها ما ليس أملس ولا بمنقوش نقشا بديعا · وقطر الواحدة منها يتراوح ما بين ٣٠ و ٦٠ سم ، وسواري المحراب هي وحدها التي تعد من العهود الاسلامية · ولم تصنع لهذه السواري قاعدة ترتكز عليها · وستة منها مجمعة مثنى مثنى ·

أما التيجان ، فليس منها ما هو من العهود الاسلامية سوى التي يرتكز عليها قوس المحراب· وهذه التيجان ذات دوائر جانبية شبيهة بالتي عثر على بعض آثارها المؤرخ جورج مارسي في الباب الامامي لمئذنة القلعة · ولسنا على يقين من كونها من العهد الحمادي ، لانه عثر على تيجان مماثلة لها تماما ، وهي من العهد التركي·

ثانيا الاقواس

نجد في الجامع الكبير بقسنطينة أنواعا كثيرة من الاقواس ، ومنها القوس نصف الدائري الكامل ، وهو ما سماه جورج مارسي بالقوس المحرف في القمة ، او ما سماه «لوزور» بالقوس نصف الدائري المضغوط في العرض ، ومنها ايضا القوس المتعدي الحاد ، والقوس الايراني ·

(٣) وردت كلمة « بلاط » بهذا المعنى في «وصف الجامع بقرطبة» لشريف الادريسي (المترجم)

وفى جامع الست كلثوم ، والسيدة رقية ، وفى المحراب القريب من ضريح « الشبيه » . اما فى مونستير فان القوس حاد قليلا ، بينما نلاحظ ان الحدة اقوى واوضح فى المسجد الكبير بقسنطينة . اما فى المحاريب الاخرى ، فالقوس من النوع الايرانى .

والتخاريم المنقوشة فى جوامع بغداد ومونستير وقسنطينة ، عبارة عن انصاف دوائر ، وعددها فى المدينة الاولى السالفة الذكر سبعة عشر ، وفى الثانية احد عشر ، وفى الثالثة خمسة عشر . وفى جامع الست كلثوم تتناوب خمسة محاريب مثلثة الشكل مع اربعة تخاريم على شكل انصاف دوائر . اما فى المحراب القريب من ضريح «الشبيه» فهى من النوع المثلث ، وعددها احد عشر . وشكلها فى المحاريب الاخرى شبيه بشكل المخمس الاضلاع .

واخيرا ، فان الزخرفة الرئيسية الموجودة على القبة النصفية عبارة عن قوس اهليجى الشكل ، وسعف النخل (١١) ودائرة مرسوم فى داخلها نجمة سداسية الاطراف (١٢) ، وقفل لولبى (١٣) وحلية بيضوية الشكل (١٤) .

ان الكتابة الكوفية التى أوردنا نصها فى بداية هذا المقال موجودة أسفل القبة النصفية للجامع الكبير بقسنطينة .

ب) اطار المحراب

اولا : قوس الانفتاح .

هذا القوس عبارة عن قوس حاد ذى فصوص غير متساوية ومتراكبة على بعضها ومتشابكة . وهذه ــ فيما نعلم ــ اول مرة يصنع فيها مثل هذا القوس .

ثانيا : الحنية

تقع الحنية بين قوس الانفتاح والقوس الحاد المتحد معه فى المركز . وعرضها ١٣ سم ، وهى مزخرفة بكتابة مرسومة بالخط الكوفى ، وهذه الكتابة متداخلة مع الكتابة الموجودة على الحافة المستطيلة ، على الصورة التالية : ان الكتابة التى تزين النصف الايمن من الحنية ممتدة كذلك الى القسم الايسر من الحافة المستطيلة ، بينما نجد ان الكتابة التى تشغل النصف الايسر هى تتمة الكتابة المزينة للقسم الايمن من الحافة المستطيلة . وسنتعرض لهما بالدراسة .

ولهذه الحنية خاصية أخرى ، وهى انها متصلة بالحافة المستطيلة بواسطة حلقة .

ثالثا : الركنيات

هناك ركنيتان عليهما زخرفة تمثل الازهار ، وهذه الزخرفة تكاد تختفى عن الانظار بسبب ما تراكم فوقها من طبقات الطلاء .

رابعا : الحافة المستطيلة

وهى مزينة بكتابات مرسومة بالخط الكوفى . وقد رأينا ان هذه الكتابات انما هى تتمة لكتابات الحنية . وهذا نص الكتابات الموجودة فى الحافة وفى الحنية وفى الحلقة التى تربط بينهما :

١ ــ الافريز الافقى الايمن :

تبتدىء منه الكتابة المنقوشة على المحراب ، وقد سبق عنها الحديث .

ب ــ الافريز العمودى الايمن :

---

(١) كما هو الامر فى جامع الخصاكى
(٤) المحراب القريب من ضريح « الشبيه »
(٥) جامع الست كلثوم
(١) ضريح يحيى الشبيه وجامع السيدة رقية وضريح الحصوانى

ثالثا : العناصر الاثرية المتوسطة بين التيجان والاقـــواس

من الملاحظ فى الجامع الكبير بقسنطينة ، وفى جامع سيدى مروان بعنابة ، ان المهنـدسيـــن عمدوا الى استحداث اشكـال من البناء ، بيـن التيجان والاقواس لكى يزيدوا من ارتفاع سقف المصلى · وهذه الاشكال ثلاثة ، وهى : الساكف SURABAQUE والكوة IMPOSTE والطنف CORNICHE ، وقد ظهرت هذه الاشكـال مـن الهندســة الاســلامية المغربية اول ما ظهرت فى المسجـد الكبير بالقيـروان ·

والســاكف هنا يشبه الهرم المقطوع ، بحيـث ان القاعدة الصغرى منه تعلو على الاسكوفـــة ABAQUE ، والقاعدة الكبرى متصلة بالكوة·

والكوة تشبه المتوازى السطوح ، وقاعـــدتها لها نفس المقايس التى للساكف ·

اما فى قسنطينة ، فنجد ان العناصر الاثريــة المتوسطة بين التيجان والاقواس مقصـــورة فى الغالب على كوة شبيهة بالمتوازى السطوح ·وكنا نعتقد ان هذه الكوة مبنية من حجر ، ولكن تبيــن لنا انها من خشب عند ما سقطت الطبقة من الجص التى كانت تغطيها · وبعض التيجان لا يعلوهـــا الا ساكف من الخشب المنقـوش ·

٣ ـ المحــــراب

ا) داخل المحـراب ·

ان الجامع الكبير بقسنطينة ، كاغلب جوامـع المشرق والمغرب التى بنيت قبله ، له محراب عــلى شـــكل قوس معــلى · وبــداخل المحــــراب ساريتان يعلوهما تاجان سبق وصفهما · وارتفاع السارية ١٫٨٤ ، بما فى ذلك التاج ، وقطرهـــا ١٥ سم ·

ومحراب جامع قسنطينة ، ككل محراب مقعـر ، تعلوه قبة نصفية · ولكن الشىء الذى استــرعى انتبــاهنا هو ان هذه القبــة النصفيــة منقوشة بتخاريم تزينها فى وسط الافريز ·

ونجد نظير هذه القبة النصفية فى الشرق ، فى جامع الخصاكى · ويرى المؤرخ كريسويل بانهـا منقولة عن الجامع الذى بناه المنصور فى بغـداد عام ٧٦٦ (٤)

كما نجد لها نظيـرًا فى :

ـ محراب قديم قريب من ضريح « الشبيــه » ، ويرجع تاريخه الى سنة ٩٥٠ (٥)

ـ ضريح الست كلثوم الذى بنى عام ١١٢٢(٦)

ـ مسجد السيدة رقية الذىبنى عام ١١٥٣(٧)

ـ ضريح الحصواتى (١١٢٥ ـ ١١٥٠) (٨)·

ـ ضريح يحيى الشبيــه (١١٥٠) (٩) ·

وهذه القبـــة النصفيــة موجـــودة أيضا فى مونستير بجامع الدز الذى قال عنه المؤرخ زبيس (١٠) بانه يعود الى القرن الخامس الهجـــــرى (١٠٠٩ ـ ١١٠٦ م) ·

والفروق الملحوظة بين هذه القباب النصفيـــة تتعلق بالقوس وبالخطوط المنقوشة ، وبشكل تلك الخطوط وعددها وبالزخرفة · فالقوس فى جامع الخصاكى من نوع القوس نصف الدائرى المتعدى

4 - CRUSWEL : Early Muslin Architecture T. 2 pages 37 et 120 (d).
5 - Id The Muslim Architecture Of Egipt P. 103 (c) et 144 (c).
6 - P. 82 (b) et 118 (b)
7 - id P. 87 (b) 119 et 120 (a).
8 - id P. 188 (b) et 120 (b).
9 - id P. 121 (b) et (c).
10 - M. Zbiss : A Travers les Monuments de Tunisie. P. 29.

كتب عليه ما يلى :

« **الذين امنوا وتطمئن قلوبهم بذكـر اللـه ، الا بذكر اللـه » (١٦) ·**

جـ ـ الافريز الافقى الايمن ، كتب عليه :

« **تطمئن القلوب · (١٧) الذين امنوا ·» (١٨)**

د ـ القسم العلوى من الحلقة ، كتب عليه :

« **وعملـوا الصـالحات » · (١٩)**

هـ ـ القسم السفلى من الحلقة ، والناحية اليسرى من الحنية ، كتب عليهما :

« **طوبى لهم وحسن مآب (٢٠) ، ان الله مـع الذين اتقـوا ، والذين (٢١) هم محسنون » ·**

و ـ الناحية اليمنى من الحنية ، كتب عليها :

« **يا ايها الذين امنوا اذكـروا اللـــه ذكـرا كثيرا » · (٢٢)**

ي ـ الافريز الافقى الايسر ، كتب عليه :

«**وسبحوه بكرة واصيلا(٢٣) هو الذى يصلى**»

ك ـ الافريز العمودى الايسر ، كتب عليه :

«**عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمـــات الى النـور ، وكان » (٢٤)**

ل ـ الافريز الافقى الايمن كتب عليه :

« **اللـــــه** »

خامسا : القسم العلوى من الاطار

توجد فى هذا القسم زخرفة معمارية تتالف من ثلاثة اقواس معلاة ومتحدة المركز ومستندة عـلى الأفريز الافقى من الحافة المستطيلة ، وهى تحـد حنيتين ونافذة نصف دائرية ·

والحنية الخارجية مزينة باقواس صغـيرة ، ثلاثية الفصوص مصنوعة من الجص ومرتبـــة أخماسا ، مما يذكرنا بالزخرفة الملحوظة فى مآذن الموحدين ، وهى على شكل المعين

اما الحنية الداخلية فهى مزينة بزخرفـــــة هندسية على أرض من زجاج · والاشكـــــال الهندسية هنا هى المربع ، والمربع ذو الاسنـان الثمـــانى ·

وأخيرا فان النافذة نصف الدائرية متالفة من زخارف زجاجية ويوجـد فوقهـا تنميـق يمثـل بعض النباتات ، وسنتحدث عنه فيما بعد·

ويعلو الاقواس الثلاثة المعلاة ، قوس يرتكـز على ساريتين كبيرتين قائمتين على جـــانبي المحراب · وهذا القوس يبدو نافـرا بالنسبة الى المحراب ، تزين الباطن منه اشكال هنـدسية مـن نوع المعين ، الا ان هذه الزخرفة لا تكاد تـــرى بسبب ما يغطيها من الجير · ومما يستـــرعى الانتباه فيه ، كتابة مرسومة فى وسطه ، ومتصلة بكتابة أخرى مرسومة على افريز افقى ·

٤ ـ المئـــذنـة

هذه المئذنة ذات سطح مربع ، وبها طابقان ، الثانى منهما اقل بروزا من الاول · ولها ايضـا مصطبة تحيط بها شرفة مخرمة ، وفانوس صغير اسطوانى الشكل ينتهى بقبة شبيهة بالبصلة · واذا نظرنا الى داخل المئذنة ، فاننا نجد ما يلى :

أولا : السلم · وهو فى قاعدته مستـــدير ، والدرجات متصاعدة حول هيكل أسطوانى · وهذا الهيكل يتالف من أخشاب كروية قطرها ٢٠ سم ·

16) قرآن كريم السورة 13 الآية 28
17) نفس السورة نهاية الآية 28
18) نفس السورة نهاية الآية 29
19) السورة 13 تتمة الآية 29
20) نهاية الآية 29
21) السورة 16 الآية 128
22) السورة 33 الآية 41
23) السورة 33 الآية 42
24) بداية الآية 43

ثانيا : بعد صعود خمسة وثلاثين درجة يصل الانسان الى سطح يؤدى الى مئذنة أخرى ، مربعة الشكل ، وهى قائمة على هيكل أسطوانى يشبه السابق ، وله نفس المقاييس ، الا ان مركزه يقع على بعد ١٠ر٢ م شرقي الاول ·

ثالثا : واذا صعدنا بعد ذلك ست عشرة درجة نجد انفسنا أمام باب يؤدى الى سطح مستطيل يقع شمالي المئذنة ويبلغ طوله ٢٥ر٦ م وعرضه ٥٦ر١ م ·

رابعا : لا بد بعد ذلك من صعود ثمانين درجة للوصول الى السطح العلوى ، ولكن المئذنة التى كانت مربعة ، تتخذ شكلا دائريا قبيل الوصول الى ذلك السطح بثلاثين سم · فالمئذنة بهذا الاعتبار غريبة الصنع ، وهى ، فى معظمها ان لم تكن بكاملها ، مبنية بعد العهد الحمادى ·

ولا شك ان القسم الواقع فوق السطح الاول المستطيل لا يرجع الى القرن الثانى عشر · وفيما يتصل بالقسم السفلى لا بد ان نلاحظ ان المآذن التى كانت فى القرن الثانى عشر دائرة الشكل ، تعتبر نادرة ، وقل منها ما له درجات متصاعدة فى هيكل دائرى ، ولا يوجد لها مثيل فى افريقيا · واما فى الشرق ، فلا نعثر على مثل هذا الشكل الا فى جامع الحكيم (٢٥) · وهنا نتساءل عما اذا كان المعماريون من عهد بنى الحماد قد استوحوا شكل المئذنة من الفن المعمارى الفاطمى فى مصر ··· قد يكون الامر كذلك ، لاننا سنرى ان التنميق فى العهد الحمادى له نقاط تشابه مع التنميق الملحوظ فى مساجد القاهرة ·

ولكننا لسنا على يقين تام من ذلك ·

٥) التنميـــق :

اولا : اللوازم المستعملة ·

نقش بنو حماد أشكالهم المنمقة فى الجامع الكبير بقسنطينة على الخشب والجص والزجاج والمعادن ·

ثانيا : الاشكال المنمقة :

أ) الاقــواس :

توجد فى الجامع الكبير بقسنطينة اقواس متنوعة من حيث التنميق ، وهى : القوس المزين بكسوة من خشب ، والقوس ذو الفصوص الثلاثة عشر ، والاقواس ذات الفصوص المزخرفة بالنفل TREFLE والاقواس ذات الفصوص المتشابكة ، والاقواس المتراكب بعضها فوق بعض ·

ب) المشــاكى : (جمع مشكاة)

لا يوجد بالجامع الكبير بقسنطينة الا مشكاة واحدة ذات قاع مسطح · وهى محفورة فى قسم من الجدار الجنوبى المقابل للبلاط الثانى على يمين المحراب · وقوسه القائم عبارة عن قوس نصف دائرى الصق به قوس ذو فصوص عددها ثلاثة عشر ·

ثالثــا : المتكــآت :

وجدنا منها تسعة ، ولكن لا نعرف ما اذا كانت ترجع الى العهد الحمــادى ·

أ) متكـآت الجدار الجنوبى :

يوجد منها اثنان ، احدهما فى قسم الحائط المقابل للبلاط الاول ، على يسار المحراب · وهو محاط بأربعة حنيات متحدة المركز · والحنية الخارجية مزينة بكتابة مرسومة بالخط الكوفى المخرم ، وهذا نصها :

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين · اللهم صل وسلم

25 - CRESWELL : Early Muslim Architecture T. 1. fig. 32

على سيدنا محمد » ٠

والحنية الثانية مزينة بافريز هندسي ذى أشكال سداسية الاضلاع ، وممطولة ، ولها نتوء مثلث فى وسط اضلاعها الكبرى ٠ والحنية الثالثة توجد بها كتابة لا يمكن فرز حروفها اليوم ٠ والحنية الرابعة مزينة بالعبارات التالية :

« العاقبة لله »

« الباقية لله»

اما بالنسبة الى المتكا ، فانه من صنع بديع ٠ ففى القسم السفلى منه يوجد افريز هندسي تتناوب فيه مربعات لها ثمانية اسنان ، وانجم لها فروع اربعة ٠ ونرى من بعد ذلك خطين متوازيين يمثلان لوحة ترتكز عليها مزهرية مفلطحة تقوم على رجلين ، وهى مزخرفة بعروتين ، ومن هذه المزهرية يخرج ساق يتفرع الى اربعة اغصان ٠ اما غصنا الوسط فانهما ينتهيان بزهرة لها اوراق ستة ٠ واما الغصنان الجانبيان فهما معقوفان ، وينتهيان بعنقود من العنب شبيه بالمضلع السداسى

ولاحظنا ايضا وجود تاج يقوم على مزهرية تتوسط ساقين عموديين ، يرتقى فوقهما عنقود من عنب مثلث الشكل ، بحيث ان نهايته تلامس القسم الاسفل من العنقود الشبيه بالمضلع السداسى ٠ والتاج السابق الذكر متحد المركز مع الاغصان فى قسمها الاسفل ، ومرتبط بقمة القوس الراسى للمتكا بواسطة ضفيرة تزيينية ٠

اما المتكا الثانى ، فانه يزين المشكاة التى سبق عنها الحديث ٠وشكله شكل القوس المعلى المصنوع فى اطار مستطيل ٠ ويحده افريز من الدوائر والمستطيلات التى توجد بداخلها دوائر اخرى تشكل بتشابكها مربعات مقوسة الاضلاع ٠ وهذه المربعات يوجد فى وسط كل منها مربع له ثمانية أطراف ، وورود لها اربعة فروع ، وكل فرع منها مقسم الى طرفين بواسطة خيطية ٠ وركنيات هذا المتكا ليست مخرمة وزخرفتها غير واضحة تماما للعيان ٠ ففى الركنية الموجودة على اليسار نلاحظ زخرفة على شكل سعفتي نخيل مثلثتين ومتناظرتين بالنسبة الى الخط المنصف للزاوية القائمة التى احد BISSECTRICE خطوطهام ستقيم والآخران مقوسان ٠ ولعله كانت توجد هناك زخرفة زهرية ، الا انه لم يبق منها الا الشىء القليل ٠ واما فى الركنية الموجودة على اليمين ، فنلاحظ سعفتين مثلثتين ، الا انهما اصغر ، وتقوم بينهما ساقان متناظران يتصالبان عند الخط المنصف من الزاوية القائمة وينتهيان بشكل لولبى ٠

ب) متكات الجدار الشرقى

احدها يزين قسما من الجدار يقابل الرواق الكائن بين العارضتين ٠ وهذا المتكا عبارة عن مستطيل ارتفاعه ١٫٦١ م وعرضه ١٫١٩ م ، ويحيط به اطار مستطيل سمكه ١٥ سم ٠ وزخرفته منقسمة بحسب ثلاث طبقات افقية :

الاولى منها ، ابتداء من الاسفل ، عبارة عن مجموعة من سبعة اقواس متعدية مرتبطة فيما بينها فى الظاهر بواسطة خيطة ، وهى مرتكزة على دعائم صغيرة أسطوانية مفرغة فى الداخل ٠

والثانية مزينة بافريز من الاشكال الهندسية (المعين) ٠

والثالثة ، وهى أهمها ، تشتمل على حافة مخرمة على شكل قوس معلى ، وبداخلها تشبيك زهرى ذى خطوط مستقيمة ومقوسة بديعة الصنع، وهذا التشبيك عبارة عن أشكال هندسية تشتمل على زاويتين قائمتين وزاويتين منفرجتين وزاوية حادة ٠ والزوايا الحادة فى المضلعات المخمسة الاربعة متقابلة فى القمة وممتزجة فى اضلاعها ٠

اما الركنيات فقد زخرفت بوردة ذات اغصـــــان اربعة منقوشة فى قوس دائرة مماس للقــــوس المعـــلى ٠

ان هذا النوع من المتكهات كان موجـودا فى العهد التركى ٠

والمتكا الثانى يزين قسما من الجدار يقـابـل الرواق الاخير من المصلى ؛ وهو على شكل قوس معلى ارتفاعه ١٫٣٦ م ، وعرضه ٦٧ سم ، كمـا انه محاط باطار سمكه ١٥ سم ٠ وهو مزخـــرف بتنميق على غاية من الجمال ، بحيث ان الـدوائر المتشابكة ترسم اشكالا متنوعة ٠

ج) متكـــات الجدار الشمــالى ٠

عددها اربعة ، ولها نفس المقاييس ونفــــس الزخرفة ٠ وهى على شكل قوس معلى ارتفاعـه ١٫١٠ م وعرضه ٧١ سم ٠ وهذا القوس محــاط باطار مستطيل سمكه ١٥ سم ٠ هذه المتكــــات مزينة بمربعات نقشت بداخلها مضلعات سداسية ممطولة تتناوب مع مربعات ذات ثمانية اسنان ٠ اما الفراغات فيوجد بداخلها مضلعات سداسيـة ممطولة ومقعرة ٠ ويبدو ان هذه المتكآت وقـــع ترميمهــــا ٠

د) متكــا الجــدار الغربى

هذا المتكا يزين قسما من الجدار يقابل الرواق الثانى للمصـــلى ٠ وهو عبارة عن قوس معلى محاط باطار مماثل له فى الشكل ، سمكه ٥ سم ٠ ويبلغ ارتفاع هذا المتكا ٨٠ سم وعرضه ٤٠ سم ٠ وزخرفته تتالف من سعف النخل واهلة (جمـــع هلال) وسوق نباتات متشابكة على صورة اشكال هندسية معينة وجيبية ٠

رابعا : مجموعات الحنايا المنمقـــة

عددها اثنتان : احداها موجودة فى الجــــدار الجنوبى ، والاخرى فى الجدار الغــربى ٠ وهي شبيهة باقواس الجامع الازهر والحكيم ٠

ا) الحنايا المنمقة فى الجدار الجنوبى

مكانها فوق المنبر ٠ وهى عبارة عن قوس معلى محاط باطار مماثل له فى الشكل ، سمكه ٣٨ سم ٠ ويبلغ ارتفاعها ١٫٠٣ م وعرضها ٩٣ سم ٠ وهى شبيهة فى زخرفتها بالمتكا الذى درسناه سابقـا ، الموجود على يمين المحراب ٠ كما انها شبيهـــة الى حد بعيد بزخرفة جامع سدراتة (٢٦) ٠

ب) الحنايا المنمقة فى الجدار الغربى

مكانها فى قسم الجدار المقابل للفناء الاخير ، على يسار المتكا الذى سبق وصفه ٠ وهى عبارة عن قوس معلى ، ارتفاعه ٤٥ سم وعرضه ٥٠ سم ، وهذا القوس محاط باطار مماثل له فى الشكــــل سمكه ٥ سم ٠ وزخرفته غير واضحة تماما بسبب طبقات الجير الكثيرة التى تغطيه ٠

ومن الملاحظ فى هذه الحنايا وجود زخرفة زهرية بثلاثة فصوص ودوائر صغيرة ٠ ومن الجــــدير بالذكر ان الحنايا ذات التنميق الزهرى موجودة ايضا فى الجامع الازهر (٢٧) ٠

خامسا :الحنايا المكفـــوفة

عددها اثنتان ، وهما يزينان الجدار الجنوبى، على مستوى البلاطات القصوى ٠ وهذه الحنايا عبارة عن اقواس معلاة محاطة باطار ممــــاثل لها فى الشكـــل ٠

٣ ــ التنميـــــق النبــــاتى

اولا : الســــاق

الساق الملحوظة على ابواب الجامع مشقوقة فى

26 - cf. G. MARÇAIS, Architecture, fig. 33, P. 59.

27 - cf. CRESWEL, "The Muslim Architecture In Egypt T. I pl. 9, a feuille d'acanthe.

وسطها بواسطة تلم · ويتصل بها غصين ذو التواءات · ونجدها أحيانا قد فقدت كل طابع نباتى ، اذ تتحول الى معينات متداخلة بعضها فى بعض ·

ثانيا : الورقة ·

توجد على أبواب الجامع زخرفة تمثل أوراق الاقنثة feuilles dacanthe بطريقة منمنمة ·

ثالثا : الزخرفة الزهرية

هذا النوع من الزخرفة على أنواع : منها الزهرة ذات الفصوص الجانبية الحلزونية ، والزهرة ذات الفصوص الاربعة المليئة او المفرعة، والزهرة ذات الفصوص الخمسة ·

رابعا : الفاكهة

لم نشاهد هذا النوع من الزخرفة الا فى زجاج المحراب ، وهو عبارة عن عنقود من العنب، مسدس او مثلث الاضلاع ·

٤ ــ التنميق الهندسى

أهم الاشكال المرسومة على زجاج المحراب هى: المربع ، والمربع ذو الاسنان الثمانى ، والمثلث والمستطيل والمربع المنحرف الذى رأيناه أيضا فى متكات الجدار الشمالى·وبالاضافة الى الاشكال السابقة رأينا فى المتكأ الموجود على يسار المحراب أنجما ذات أربعة فروع ودوائر · اما فى باقى المتكآت وفى حنايا الجدار الجنوبى وفى الكتف الذى يعلو السارية الموجودة امام المحراب فان أهم الاشكال الملحوظة هى الدوائر والزخارف الزهرية · وأخيرا ، فان باطن القوس الذى يعلو المحراب مزين بمجموعة من المعينات ·

٥ ــ التنميق فى الكتابة ·

يوجد فى الجامع الكبير بقسنطينة عدد كبير من الكتابات التى سندرس على التوالى فحواها ، والخطوط التى رسمت بها ·

أولا : فحوى الكتابات :

تحتوى الكتابات على عبارات التقى وآيات قرآنية ونقوش تذكارية ·

أ ــ عبارات التقى · رأينا منها العبارات التمهيدية :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم تسليما »

كما وجدنا منها العبارات من نوع :

« العاقبة لله » و « الباقية لله »

ب ــ الآيات القرآنية :

الآيتان ١٩٠ و ١٩١ من السورة ٣
الآيتان ٢٨ و ٢٩ من السورة ١٣
الآية ١٢٨ من السورة ١٦
الآيتان ٤١ و ٤٥ من السورة ٢٣

ج ــ النقوش التذكارية

اثنتان منها يرجعان الى العهد الحمادى · والقديمة منهما منقوشة على صفيحة من الجص مسجونة فى الجدار الشرقى · والثانية تزين الحلية المعمارية الموجودة على المحراب ·

ثانيا : الخطوط المستعملة

ان الكتابات العادية التى تزين المتكأ ، على يسار المحراب ، وكذلك الصفائح المسجونة فى الجدارين الشرقى والغربى ، لا يبدو عليها ما يدل على كونها ترجع الى العهد الحمادى · وعلى العكس من ذلك ، فان الكتابات الكوفية هى من العهد الحمادى ، كما ان الحروف التى تتألف منها تتخذ أشكالا عديدة تذكرنا بالخط الكوفى الملحوظ فى المبانى وفى القبور الموجودة فى القلعة (٢٨) · وعلى سبيل المثال ، فان حرف الالف كتب بطرق كثيرة لا يقل عددها عن أربعة عشر مرة

٦) الاقسام المعمارية المزخرفة

سبق لنا ان درسنا اطار المحراب ، وبقى علينا

ان نقول كلمة عن الابواب الخشبية المفتوحة فى الجدار الفاصل بين المصلى والصحن · فهـــذه الابواب عددها اربعة ، وهى محاطة باطار ·

اولا : الباب المقابل للبلاط الاول ، على يميــن المحـــراب ·

أ ـ الاطار :

اطار هذا الباب يتالف من قائمتين ارتفاعهمـا ٣٣ر٣ سم وعرضهما ٢٧ سم ، ومن خشبة عارضة عرضها ١٨١ر١ سم ، وارتفاعها ٢٧ سم · وقد زينت كل قائمة بما يــلى :

- خيطية FILET عرضها سنتمتر واحد ·
- ربعية CAVET عرضها ٢ سم ·
- لوحة ماطورة منقوشة ، عرضها ٢ سم ، وهى مزينة بغصنية RINCEAU محمولة على ســاق نبات ، ومشقـوقـة فى الوسط بواسطة تلم ينتهى بورقة من الاقنثـــة ، وهذه الورقة مطوية عند حد التعريقـــة الوسطى ، ولها فص علوى يشبه الــرمح ، وفص اسفل على شكل حلزونى ·
- خيطية اخرى عرضها سنتمتر واحد ·
- لوحة ماطورة أخرى ، منقوشة ، عرضهـا ١٣ سم · وهى مزخرفة فى قلوب ، ومرتبة على شكل مضلع مخمس · اما الخشبـــة العارضة فهى مزينة بتشبيك زهرى ·

ب ـ الباب فى حد ذاته

اولا : المصراع الايمن : عرضه ٧٨ سم ، وهو مزين بحلية منقوشة عصوية BAGUETTE وغطاء للوصلات عرضهما ٧٥ سم ، وسمكهما ٥ سم ·ولا تشغل الحلية العصوية ارتفاع الباب كله،كما انها غير منقوشة فى وسط المصراع · وهى تنتـــهى بشىء اشبه ما يكون بشبيكة

ذات فرضتين · وهى مزينة بثلاثة عشر مـــن المسامير ذات الراس المدور ، وقطر الراس الواحد ٥ر٦ سم وارتفاعه ٨ر١ سم ·

اما غطاء الوصلات ، فيشغل ارتفاع البـــاب كله·والقسم الاعلى منه مزين بشىء اشبه ما يكون بنخلة · والباقى منه منقسم الى لوحات ماطـورة صغيرة تتناوب فيها الاشكال المربعة والمستطيلـة· والاولى منها مسطحة ومزينة بمسمار ، والاخرى محفورة فى الجزء الاكبر من ارتفاعها ، وليست مسطحة الا فى اطرافها · ويوجد بوسط كل منها مسمـــار ·

وغطاء الوصلات هذا يرجـع تاريخه الى العهد الحمادى ، وذلك ان غطاء الوصلات الموجود على الباب الذى ينفتح على البلاط الثانى عـــلى يمين المحراب ، ذلك الغطاء ، به زخارف تشبـــه كثيرا الزخارف المنقوشة على الحلية العصوية ·

وتوجد بين الحلية العصوية وبين غطـــاء الوصلات ، لوحتان مزينتان بسبعة صفوف مـن المسامير المماثلة للمسامير السابقة الذكر ·

وعدد هذه المسامير فى كل لوحة ماطـــورة ثلاثة · وقد وضعت على نفس الخط الذى توجد فيه مسامير الحلية العصوية وغطاء الوصـــلات ، غير ان المســافة الفاصلة بيــن صف وآخر ، هى ضعف ما هى عليه فى الحلية العصوية وفى غطاء الوصـــلات ·

واللوحة الماطورة اليسرى مزينة فى قسمهـــا الاعلى بتلوين يمثل شكلا له ثلاثة اسنان · وتوجد سبعة مسامير مرتبة بطريقة نصف دائرية ، وهذه المسامير تربط بين راسي السنين الواقعيـن فى اقصى اليمين واليسار · كما توجد أربعة مسامير اخرى ، احدها تابع لنصف الدائرة ، وقد رتبت

على نفس الخط الذى تقع عليه السن الوسطى ·
سنتمتر واحد ، وهما موضوعتان داخل صفيحة شكل جلقة قطرها الخارجى ٩ سم ، وسمكها مماثلة لهما فى الشكل ، محفوفة بمسامير صغيرة يقطرها ١٩ سم · وتقع المطرقة العليا بين الصف الثانى والثالث من المسامير ، والمطرقة الاخرى بين الصف الرابع والخامس ·

ب ـ المصراع الايسر ·

هذا المصراع له زخرفة مماثلة للمصراع السابق ، ولكنه أقل منه فى العرض ، اذ ليس له لوحة مأطورة ·

ثانيا : الباب المقابل للبلاط الثانى ، على يمين المحراب ·

حالة هذا الباب أحسن من الباب السابق ، وذلك ان لوحته المأطورة التى ترجع الى العهد الحمادى ، لا تزال ، كما سبق القول ، محتفظة بزخرفتها ·وزيادة على هذا ، فان تنميق المصراعين

واللوحة المأطورة اليسرى مزينة بمطرقتين على يصل الى اسفل الباب ، بينما نجد ان القسم الاسفل من الباب السابق ، وشكله شكل المربع المنحرف الذى تبلغ قاعداه ٩٣ سم و ٥١ سم ، هذا القسم من الباب غير منقوش · كما ان هذا التنميق أغنى من حيث الاشكال ، اذ نجد ان العناصر الزهرية مرسومة فى أشرطة عرضها ٢ سم ، تتناوب فيها المربعات ذات الاطراف الثمانى ، والضلعات السداسية المطولة · وأخيرا فان هذا الباب مزين بحديدتين احداهما تقع فى الزاوية اليسرى من المصراع الايسر ، والاخرى فى الزاوية اليمنى من المصراع الايمن ·
وبالمقابل ، فان هذا الباب لم يبق فيه الا ثلاثة مطارق ، اثنتان منهما فى الاعلى ، وواحد فقط فى الاسفل ·

ثالثا : الباب المقابل للبلاط الثانى على يسار المحراب ·

هذا الباب ليست له أهمية كبرى ؛ واطاره الذى لم يزين بالنقوش ، يرجع الى عهد قريب ·

رابعا : الباب المقابل للبلاط الثانى على يسار المحراب ·

هذا الباب يشبه فى زخرفة مصراعيه الباب الثانى الذى سبق عنه الحديث · فهذه الزخرفة ، كتلك ، موضوعة فى مربعات ذات اسنان ثمانية ، تتناوب مع مضلعات سداسية ·

ان الجامع الكبير بقسنطينة ، بقبة محرابه المضلعة التى لها طابع أصيل رغم تأثرها بالفن المعمارى الفاطمى بمصر ·

وباطار محرابه المزين بآيات من القرآن ، منقوشة ومتداخلة على شكل قرط ،

وبزجاج نوافذه المحفوفة بأقواس ذات فصوص مزينة بالحلية النفلية ،

وبمتكآته التى بلغت فى دقة صنعها الغاية القصوى ،

وبأبوابه التى تذكرنا بزخرفتها ، بباب جامع سيدى عقبة ،

ان الجامع الكبير بقسنطينة لهو من أهم المنجزات الباقية من الفن المعمارى الحمادى ·

ابو اليقظان

« ان حرية العقل ، وحرية العقيدة ، وحرية الضمير ، هى أثمن ما يملكه البشر » .

أحد رواد الاصلاح في الجزائر

عبد الرزاق قسوم

سمو الانسان عن الالم ، فى صراعه الدائب من أجل الوجود . موهبة لا تتاح الا لذوى النفوس الكبيرة ؛ ذلك ان الكائن البشرى فى معاناته ، وتطلعه نحو الكمال ، ترتسم امامه علامات إستفهام عديدة وتجابهه شناخب صخور وعقبات زرعت فى طريقه . فغدت لقساوتها بمثابة الكمين الذى يتردى فيه اكثر الناس ضعفا وخوارا،ولا يتخطاها الا اولو العزم من البشر . الذين سخروا من محن الحياة . وعقباتها . ومختلف عراقيلها .

ولكم خسرت الانسانية من مواهب تفتتت متلاشية امام جبروت الطبيعة . وكم ابيدت طاقات لم تستطع الصمود امام امتحان الحياة . ولكن فئة قليلة من بنى الانسان صمدت بفضل سلاحها الاقوى . فخرجت من غربال الطبيعة الدقيق منتصرة . وعلى جبينها إبتسامة النصر ، تتحدى قوة الحياة وتملى على بنى جنسها درسا فى الصمود والمقاومة واختيار الاسلحة مؤكدة

بذلك حقيقة ازلية وهي ان الانسان أقوى من كل شيء متى عرف كيف يعي انسانيته ، ومتى أحسن استغلال ما لديه من وسائل .

والامثلة على ذلك عديدة . فما مبدأ التعويض المعروف في علم النفس الا دليلا حيا على صحة هذه النظرية . فالقدرة الالهية العليا رحيمة بالكائن البشرى ، لذلك منحته هذا السلاح الذى به يعوض نقصه في ميدان ما من ميادين وجوده . وهذا الكفيف يكتسب ما يعبر عنه الفلاسفة « بالحاسة السادسة » ليستعيض بها عن محنة فقد البصر .

والمرأة الدميمة تلهث وراء المجد الذى قد يساق اليها في نبوغ او ذكاء ، فيعطى جانب النقص في الكمال الجسماني . . . وهكذا تتدرج هذه الحقيقة في التطور متنقلة من المحسوسات الى مجال المدركات البعيدة المدى . واصدق تعبير على ذلك . الاب الذى يحرم نعمة العلم فتسوق اليه الطبيعة الرحيمة ابنا نابغا في العلم والمعرفة كتعويض على نقصه . . . غير ان مثل التعويض هذا يبدو أكثر وضوحا لدى العظماء من كبار النفوس الذين اذا اصابتهم مصيبة ضاعفت من نبوغهم . واخصبت موهبتهم . وفتحت أكثر فأكثر مداركهم وعقولهم . . . وانطلاقا من هذه الحقيقة خرج بعض النقاد ذات يوم على الناس بفكرة في منتهى الغرابة . وهي تمنى الشقاء لذوى المواهب الفكرية ، حتى يكون ذلك الشقاء مدعاة لخصوبة الانتاج . فتستفيد الانسانية من ذلك ــ وكان الانسانية ــ طبقا لوجهة نظر النقاد هؤلاء ــ ستتضاعف استفادتها متى وجد الحافز المتمثل في الالم لدى المفكرين والادباء . ومن هذه الفئة القليلة المتمردة على هذه المحن . يبرز انسان جزائرى . تعددت جوانب العظمة في شخصيته ذلك هو الشاعر . والصحفي . والمصلح الجزائرى أبو اليقظان . (3)

وابو اليقظان وان تشابكت ألوان رسم خريطته فهو يتجلى في ميدان فسيح ذلك هو الاصلاح . . . ولكنى قبل أن أخلص الى تقديمه للناس من هذا الباب الكبير ، أود أن أشير الى سر العظمة فيه . فأبين بأنه ــ أطال الله عمره ــ يعيش منذ سنوات عديدة حبيس بيته بالقرارة . ولاية الواحات في أقصى الجنوب الجزائرى . لقد أقعده مرض خبيث عن النشاط فشل حتى بعض جوانب الحركة فيه ولكن هذا الالم المرير لم يكن ليحد من معالم نشاطه بل انه على العكس من ذلك ضاعف منها . وحسبك من رجل يقضى جل يومه بين الكتب صحبة قارئه وكاتبه الوفي . يقرأ له ما تلذ له قراءته ويكتب عنه أماليه في التأليف . ليتحف بها بني مجتمعه المتعطشين الى المعرفة .

لقد زرت الشيخ منذ سنتين . فوجدته ــ رغم الالم المزمن ــ يتمتع بأقوى ما يتمتع به انسان في العلم . وسعة الادراك ، وعمق الذاكرة .

فهو اذا تطرقت معه الى التاريخ حدثك بالماضي وكأنه وقع أمامك منذ لحظات . وحتى الجزئيات الدقيقة في السرد القصصي لا يهملها وكل ذلك يتم بتحد لبحة الصوت . التى أثقلتها السنون . وللبطء في مجاهدة القاء الكلمات تحت وطأة الداء الخبيث . لذلك بات لزاما ان يحظى هذا الرجل ــ أمانة ــ لما قام به من جهاد في سبيل الوطن ان يحظى منا بهذه البطاقة العلمية

(3) هو ابو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى سليل أرومة كريمة الحسب والنسب يتصل نسبها بدوحة الامام على كرم الله وجهه

التي — هي بالتأكيد — لن تفيه حقه ولكنها على كل حال محاولة لتخليص الضمير من بعض ما يشعر به من وخز الاخلال ازاءه وازاء امثاله من المصلحين الجزائريين الاوائل .

من هو أبو اليقظـــان ؟

ليلة الاثنـين 29 من شهر صفر سنة 1306 هـ موافقه 5 من نوفمبر سنة 1888 م (4) . ولـــد ابراهيم أبو اليقظان بالقرارة ، الواحة الجميلة في الجنوب الجزائري الحديثة البناء (5) وما ان امتلات رئتاه بهواء بلاده ، واخذ يستقبل الحيـاة بوجهه في عامه الثاني ، حتى نكب بفقد والده .

ويعلق الاستاذ الهادي السنوسي على هـــذه الحادثة فيقول : « سنة الله في العظماء ان لايدعهم منذ الطفولة الا يتامى ، وفي الاكثر معدمين أيضا ليألفوا المعارك ، ويتدربوا في ميدانها على منازلة الاهوال منذ الصغر ليكونوا القادة ، واولي السيادة وليتعودوا الاعتماد على النفس » (6) .

لقد وجد أبو اليقظان طريقه الى الكتـاب او المدرسة القرآنية ففتح عينيه على معلمها ، الذي أخذ يطعمه من حلاوة كتاب الله ، ما فتح بـــه لسانه ، ووسع به مداركه ، وهكذا حفظ القرآن الكريم ليبني بعد ذلك على قاعدته المتينة ، مـــا اوتيه من علم ومعرفة . ولم تكن مهمة تلقي العلم باليســير على شاب يتيـم ، محدود الامكانيـات في بلد ضرب المستعمر حوله بسور من الجهالة حصين أفقر بسببه من المدارس ، وقل عـــدد العلماء المعلمين ، الى جانب شبح الحرب العالمية الذي كان يلوح في الافق . لذلك كانت رحلته العلمية طويـــلة ، وذات مراحل متعددة ابتدأت بالقرارة ، وبني يزقن ، وامتدت الى مكة والقاهرة ، قبل ان تستقر في النهاية بتونس . ولقد كانت تونس الخضراء بالنسبة للجـزائر هي القبـــلة الثقافية الاولى ، وهكذا كانت بالنسبة لابي اليقظان ورفاقه هي منطلقهم الاولى لاعداد الاسلحة لخوض ميدان الحركة الاصلاحية .

ان هذا ولا شك سيبين بعض العـــوامل التي اسهمت في مولد الدعوة الاصلاحية لدى هـــذا المصلح الجزائري كما سنرى ذلك فيما بعد ، كما يؤكد حقيقة غدت ثابتة وهي أن مختلف جوانب النشاط الفكري التي تعاطاها ، انما كانت بدافع التزامي هدفه الوحيد خدمة الدعوة الاسلامية . وهكذا يتجلى أن الشعر أو الصحافـــة ، لم يكن القصد البعيد منها سوى خدمة هذا الهدف الاسمى لنستعرض اذا هـــذه الجوانب ببعض التفاصيل ولنسلك لذلك لكل جانب طريقه ، كي تكتمل لنا الصورة التي نود رسمها للعالم الجزائري ابي اليقظان .

ابو اليقظان الشاعر :

لفظـة الشعر ، عميقة في مدلولهـا ، معقـدة المعاني كخلجات النفس الملتصقة بها ، لذلك ليس من السهل وصم انسان بانه شاعر حقا ، ما لم يسم الى هذه الدرجة من الشعور ، ان مدلول كلمة الشعر نفسها يجب أن تحـدد بوضوح حيث لن تمنح الا لمن يستحقها . واذا كان يحق لكل باحث ان يختار المفهوم الذي يتلاءم وشعوره في اختيار معنى الشعر ، فاني احب من معاني الشاعر اعمق مما يقصد اليه معظم الناس عندنا وهو الاحاطـة أو الالمام بالقوافي الشعرية ورونقتها ببعض معاني

4) اتفق على هذا التاريخ كل من الاستاذ الهادي السنوسي في كتابه « شعراء الجزائر في العصر الحاضر » ج 1 ص 109 ط تونس 1926 م والاستاذ انور الجندي في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا» طبعة القاهرة 1965 م

5) بنيت سنة 1940

6) شعراء الجزائر ص 110

البيان والبديع . ثم افتتاحها وختمها بحكمة او مأثورة ليغدو الرجل بعد ذلك شاعرا يتيه على الناس عجبا وغرورا .

لقد غرق الشعراء والنقاد في بحر من الكلمات والمصطلحات بحثا عن مفهوم كلمة الشعروما يزالون يختلفون الى اليوم . ولكنى بعيدا عن الجدل . والنقاش . أختار لنفسي ابسط هذه المعاني ، فأسلم بان الشاعر هو من اتحد شعوره بقضايا الانسان في كل مجتمع بشرى بدء بوطنه . من حيث المضمون . بقوالب الشعر الموسيقية التي تألفها الاذن . ويطرب لها القلب . ويسلم بها العقل من حيث الاداء . وهكذا تكون مهمة الشاعر بسيطة . ولكنها صعبة المنال . أى انها من سهل الممتنع . الصعب ركوبه

ولئن كان ابو اليقظان من خلال نافذته الشعرية هذه على شخصيته لم يمنح جانب الاداء كبير عناية . فهو قد صب كل اهتمامه بالمضمون فغدا شاعرا ملتزما بحق بقضايا مجتمعه . ومن خلال ذلك بقضايا المجتمعات البشرية الاخرى .. وحسبنا أن نقدم عينات من هذه اللمحات الشعرية التي تغنى بها ، لنرى درجة التزامه بقضايا وطنه .

ان اغنية الخلاص والتحرر . هي انشودة كل المخلصين من ابناء الجزائر في ليل الاستعمار الطويل لذلك راح ابو اليقظان يرسم للانسان الجزائري طريق الخلاص والتحرر في قصيدة طويلة مطلعها :

ابن صرح المجد عن اس الضحايا
وأشد عرش العلا برغم البلايا
خض غمار الهول غوصا انها
لؤلؤ التيجان في بحر المنايا

ان في الموت لطلاب العلا
لحياة . لا حياة اهل الدنايا
انما الدنيا جهاد . من ينم
يومه داسته اقدام الرزايا .

بهذه الحكم يدخل شاعرنا محراب الشعر ليغني جراح امته . فيسوق لذلك حكما بالغة غدت مضرب الامثال .. وما اشبهه في هذه الحكم بقول شوقي في قصيدته الطويلة المعروفة :

وما نيل المطالب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا .

فاذا انتقل شاعرنا الى تحليل اسباب مأساتنا تطرق بواسطتها الى تقديم صورة ما اصدقها عن نفس واقعنا اليوم . عندما يتحدث عن صراع الشرق ضد الغرب . تعتبر دروسا لمن لا يزالون يثقون في صدق نوايا اهل الغرب ، يقول ابو اليقظان :

ان أهل الغرب خطوا خطة
لبني الشرق بدت منها خفايا
بدت البغضاء من افواههم
وهي عنوان على ما في الطوايا
خصصوا قاتل فرد بالقصاص
ولهم في أمم تلك الجنايا
حرروا الزنج ولكن سخروا
أمم الشرق عبيدا وسبايا .

وينتقل شاعرنا انطلاقا من نفس المبادىء . راميا الى نفس الغايات فتجده في قصيدة طويلة أخرى تحمل عنوان : العلم يحيي كل شعب ميت . يقرر احكاما منطقية . في عالمنا اليوم . ويقول :

تحيا بلادي في النعيم سعيده
واموت قربانا لها وهياما

والعيش فى الدنيـــا جهــاد دائم
ظبى يصارع فى الوغى ضرغـاما
تلك الشريعة فى الحيـاة فلا ترى
الا نزاعـــا دائمـــا وصـــداما
يا راقـــدين عـلى المـذلة والخنـا
حتى متى هـــذا الخنـوع الى ما
قـــد نمتم دهـرا طويلا فانشزوا
لا تتركوا للائمـــين ملامـــا
ودعوا التفرق فالتفـرق ان يسد
يجعل من الشرر الصغـير ضراما
العـــلم يحى كل شـعب ميت
فذروا الجهالة ، واقتـلوا الاوهاما

أرأيت يا قارئى العزيز ، كيف ان ابا اليقظان فى كل خلجة من خلجات شعره ، نزاع الى قضية الوطن ، فهو ينفث شررا من الحماس ، والوطنية مهيبا بأبناء مجتمعه الى ضرورة اشعال الثورة ، والاتحاد ، والتخلص من الاوهام ، وكل ضمن وحدة قوية متينة ، يرهبها العدو المتربص . ولقد تحقق أمل الشاعر ، وصدقت نبوءة شعره ، بما حققته بلاده من معجزة فى القرن العشرين .

والان وقد بدت لنا من خلال هـذه العينات جوانب من شخصية ابى اليقظان الشعرية ، ومن الروح الشاعرية التى يحملها بين جوانحه والتى أملت عليه تلك التى سقناها ، يجـــدر بنا ان نتساءل الآن ، ما هو موقف ابى اليقظان ـ وهو الشاعر ـ من قضايا الشعر السائدة ؟ ثم هـل كان لابى اليقظان مدرسة فى الشعر خاصة على غرار ما للشعراء من مدارس ينضوون تحت لوائها ، ويلتزمون بمبادئها واهدافها ؟

لنطرح السؤال على الشاعر نفسه ، ونطلب منه الاجابة عليه ..

يقول ابو اليقظان بكل تواضع وهو يقـــدم ديوانه للقارىء « اننى اعلل النفس ، بأن مـــا كتبته من الشعر لم يبلغ درجة ينبغى معها حفظه وعرضه كباقة زهر الى اولئك الفحول من الكتاب ، سيما فى عصر اتسعت فيه الملكات ، وقويت فيه المدارك ، واصبح فيـــه للنقد الادبى ، مجهـــر يشخص للاعشى من مواقف الضعف الخفية ما لم يكن ليراه البصير النقاد فى الازمنة السالفة »(7) .

ثم يخلص ابو اليقظان بعد ذلك الى معالجـة قضية الشعر ككل ، فيطرح لذلك اسئلة كبرى محاولا الاجابة عليها .

والاسئلة هى :

ما هو الشعر ، ما مذاهب الناس فى الشعر ، وما أقسام الشعراء ، واغراضهم ، وماذا يجب أن يكون عليه الشاعر ؟ ثم ماذا ينبغى للشاعر من مسالة فرض الشعر ، الى غير ذلك من القضايا ذات الاتصال الوثيق بحياة الشاعر ؟

ويجيب الشاعر على هذه الاسئلة كلها مبينا وجهة نظره فيها ، ويقدم لاحكام بحكم عام وهو قوله : « تلك هى فكرتى فى الشعر من حيث انه شعر ونغمة معا ، والفكرة وان اغضبت البعض يجب أن تحترم »(8) .

فما هو الشعر فى نظره اذا ؟ ان ابا اليقظان كما قلت فى مقدمة هذا المقال ينطلق دائما من

7) ديوان ابى اليقظان ـ المقدمة ـ ج 1 ص 4 ط 1 ـ الجزائر 1350 هـ
8) نفس المصدر السابق ص 8

قاعدة اسلامية ، وما هذا الشعر ، وباقى الالوان الثقافية الاخرى التى تعاطاها الا لهدف واحد كبير، خدمة الدعوة الاسلامية ، لذلك نجده فى جوابه عن سؤال ما هو الشعر ، يجسم هذه الحقيقة عندما يقول بان « الشعر وحى يوحيه الخيال على النفس ، فينطلق به اللسان فينشده الدهر قرونا . وهو أى الشعر فى نفس الشاعر نـــور « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة » يرسل، اشعته من نافذتها فيضىء بها بطون الليالى المقبلة مدى العصور(9) .

وابو اليقظان فى هذا التحليل لا يكتفى بعرض مبدئه الخاص ، بل انه يغرف من منهل عـــذب أوسع ذلك هو منهل الشاعر الباكستانى الداعية الكبير محمد اقبال .. لقد ضرب هـذا الانسان الكبير بسهم وافر فى هذا المجال مجال الشعر . واطنب فى تحليل هذه الآية بالذات ولا سيما منها قوله تعالى : « نور على نور » وهذا ما يؤكد صحة ما ذهبنا اليه ، ويضيف اليها حجة أخرى وهى أن ابا اليقظان لم يكن بالداعية المتزمت الجامـد المنغلق وانما كان المتفتح ، المتبصر ، الشمولى فى دعوته .

على أن ابا اليقظان يذهب فى تحديد لمفهوم الشعر معنى أعم ، فيمنح الكلمة مدلولا أوســـع واعمق مما هو متعارف عليه لذلك تجده يقول : « ان الشعر هو تلك الروح التى يودعها الشاعر من خلال بيته بقوة بيانه الساحر ، فيدخل بدون اذن فى آذان السامعين ، فينفذ الى قرارة نفوسهم فيكون فيها احساسا رقيقا وشعورا حيا ، فتتدارك ما فاتها من عز وسؤدد ، ويضرب على أوتار قلوبهم فتهتز لنبراتها أعصابهم ، وتشتعل بنيران الحماس ادمغتهم ، فتتسابق الى الامتثال جوارحهم .

ذلك هو الشعر ، وهذه ثمراته ، وكل ما كانت هذه آثاره فهو شعر ، سواء أكان نظما أم نثرا»(10)

ان الشعر عنده اذا لا يقف عند حد القوالب المتعارف عليه ، الموزون بالموازين المعروفة بـل أنه اعظم من ذلك لانه يشمل النثر والنظم متى استوفى لمقومات الشعر وشروطه .

ويتناول أبو اليقظان ايضا مذاهب الناس فى الشعر ، غير انه فى نظرته لمذاهبهم لا يحددها بما هو متعارف عليه من حيث الاداء والمضمون ، أو الحر والتقليدى وانما يتناول الموضوع من زاوية اعتبار الناس للشعر على صلاحه أو فساده وهو يرد على الطائفة الثانية التى تقول بفساد الشعر لما يحتويه من مجون ، وسخف ، ولهو ، وغثاء ، معتمدين فى ذلك على الآية « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، فيرد عليه بنفس الحجة من القرآن مبينا انه ان جاز لنا أن نسوق هذه كمثل عـلى فساد الشعر فيمكننا ايضا ان نعتمد على الآيــة « فآمنوا بالله ورسوله النبى الامى » لتدلل على

9) نفس المصدر السابق ص 4

10) نفس المصدر السابق ص 5

الا انه موزون مقفى ، ولا يعطى هذا القسم من حظ الشعر الا مقدار ما يزن ويقفي ، ولا يسمى صاحبه شاعرا الا تجوزا .

وابو اليقظان ينصح هذا الصنف من الشعراء ان يتركوا هذه الصناعة لاربابها ، وان يفسحوا الميـــدان لفرسانه ، وان لا يكلفوا طبعهم ما لا يطيقون :

فللميادين ابطـال لهـــا خلقـوا
وللـــدواوين كتـــاب وحساب

أما المطبوع فهو المفطور على هذه الصناعة اذ يجد من طبعه ميــلا غريزيا للشعر ، واستعدادا فطريا للقريض ، فهو رجـــل يسيل الشعر من مخيلته منحدرا على الصفحات كما تسيل المياه من رؤوس الجبال الى الرياض والزهرات ويستعمل مبدأ الثنائية في تحليله حتى مع هــذا الصنف الموهوب فيقول بان مواهب الشعراء في هـــذا الصنف متفاوتة فمنهم من ينبغ في المدح ، أو في الرثاء ، أو في الوصف أو في الحماس في الحكم ، أو في ابواب اخرى من ابواب الشعر المعروفة .

ولكن النصيحة التي يسديها الى هؤلاء جميعا هو ان يسموا عن الابتذال وان يصونوا الموهبة مما لا فائدة منه ترجى فهو بهذا يمكن أن تنطبق عليه الاية : « لئن شكرتم لازيدنكم » .

ثم ان الموهوبـين في الشعر انفسهم تختلف

فساد الكتابة ، وبذلك نرجع العالم الى عهد الامية، وتوقف دولاب حركته .. كما ينبرى شاعرنا ايضا لمن زعموا ان الشعر لا يعدو أن يكون مظهرا من مظاهر الفضول والاشتغال بما لا يعنى به ، ومدعاة للرياء والفخفخة ، ولذلك يكون الزهد فيه اجد والتنزه عنه أولى .

غير ان صاحبنا يميل الى حكم وسط الى اولئك الذين يستحسنونه ويرون فيه فنا من الفنــون الجميلة التي لا تكمل حياة الامة الا بها مادام القصد منــه ايقـــاظ الاحساس وتنبيه الشعور وتنمية العاطفة ، وتربية الوجدان ، وتنوير العقـــل ، وتهذيب النفس ، وكبح جماحها وحملها عـــلى اغراض شريفة بأخصر طريق والطف اشارة .

اقسام الشعراء :

يحلل ابو اليقظان اولا مواهب الناس الفطرية وما منحوه من استعدادات طبيعية ، قبـــل ان يصل الى نتيجة في تقسيم الشعراء ، اذ يصنفهم الى صنفين : محروم ، ومحظوظ ، واعتمادا عـلى هذا التصنيف يقرر بان المحروم في نظره لا كلام عليه ، أما المحظوظ فعـــلى قسمين ايضا متكلف ومطبوع .

فالمتكلف هو الذى لا يساعده طبعه على قول الشعر الا بجهد جهيد ، ومشقة وعناء ، فيبرز شعره في الغالب خاليا من روح الشاعرية كمـا يبرز الجنين ميتا ناقصا ولا فرق بينه وبين النثر

اغراضهم من تعاطيه . ويرى ابو اليقظان ان منهم من يتخذه غرضا لنيل الدينار والدرهم ، فيصبح عنده كل وسيلة مباحة مادامت توصله الى غرضه الدنيء وان يكن ذلك على حساب المبادىء والقيم الشريفة .

وهناك طائفة أخرى يستعملون الشعر لوسيلة لنيل جاه أو منزلة عند الكبراء وهم كسابقيهم لا يتورعون عن ركوب كل سفينة ، واستعمال كل الطرق لتحقيق اغراضهم هذه .

وصنف ثالث يتخذ الشعر شباكا لقنص الظباء واصطياد الغزلان ، وراجح هنا أن صاحبنا يعني شعراء الغزل ، والحب والغرام . فما موقفه من هذه الطوائف الثلاثة من الشعراء ؟

يجيب على هذا السؤال بقوله : « ولعمري أن هؤلاء الاصناف الثلاثة، هم الذين شوهوا وجـه هذه الصناعة الشريفة وفتحوا فيها ثلمة لنقـد الناقدين وطعن الطاعنين ، وصاروا حجة عليها لا لها في نظر بعض الناقدين » .

هذه هي آراء ابي اليقظان في الشعر والشعراء، واغراضهم ، وتلك هي مواقفه منهم ، وانها لمواقف تنم عن الالتزام بمدرسة فريدة من نوعها ، هي مدرسة المبادىء ، والقيم ، والدعوة الى الاصلاح والتشبث بالقوانين السماوية ، وكل من خالف هذه المدرسة ، لا يعدو ان يكون في نظره خارجا عن الصراط السوي بعيدا عن الاهداف الانسانية السماوية . وان لنا مع ابي اليقظان لقــاء في مجالات اخرى مع العدد القادم .



الصراع بين العربية و الفرنسية في الجزائر قبل الثورة

اذا كان الفرنسيون ظلوا مشفقين من أن يقتبسوا شيئا هاما من العادات والتقاليد الفرنسية عن طيب نفس ، فانهم كانوا أكثر اشفاقا ، واشد حذرا من أن يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الفرنسية لانها كانت تلقن الاطفال الجزائريين ، الذين يسمح لهم بولوج هذه المدارس ، لغة ليست منهم وليسوا منها في شيء . ولانها كانت تقدم اليهم معارف غربية بعيدة عن الروح الجزائري .

تلكم بعض الاسباب الرئيسية التى حظرت اللغة الفرنسية وثقافتها من ان تتمكن من عقول عامة الشعب الجزائرى .

2

د. عبدالمالك مرتاض

ومن الظلم أن يعتقد معتقد بأن الشعب الجزائرى كان يأتى شيئا مما ذكرنا من عزوف عن الفرنسية تلقائيا ، دون أن يوجهه فى ذلك موجه ، أو يقوده قائد ، فان مثل هذا الاعتقاد لا يستقيم .

فماذا اذن ؟ ان الذين يلمون بتاريخ الفكر الجزائرى المعاصر لا يمترون فى أن الرجل الاول الذى أيقظ الامة الجزائرية خلال المرحلة الزمنية التى نعالجها فى هذا البحث (1925—1954) وبعثها من مرقدها ، وذكرها بعروبتها ، وجدد لها مفهوم الاسلام فى عمقه وشموله وسماحته ، انما هو عبدالحميد بن باديس .

واذا كان كثير من مثقفى الجزائر — ثقافة تقليدية — قبل ابن باديس ، كانوا يعتنقون مثل ما كان يعتنق من آراء ، فان أولئك المثقفين لم يصدعوا بالدعوة ، ولم ينهضوا لنشرها بين المواطنين ، ولم يغامروا فى تحدى الاستعمار على ضراوته وشراسته وحقده على العربية وأهلها ، والاسلام الصحيح ومعتنقيه .

فابن باديس هو أول من صدع بالدعوة جهارا ، وانبرى لاذاعتها بين الشعب الجزائرى على اختلاف طبقاته . هذا هو الفرق بين ابن باديس وبين أولئك المصلحين الآخرين المنزوين وما قيمة آرائى اذا ظلت متوارية فى أعماق نفسى !؟ وما شأن ثورة أنتوى القيام بها ولا أفعل ؟

ومن أعظم مظاهر ثورة ابن باديس فى رأينا ، تأسيسه مدارس عربية ، تدافع عن الشخصية الجزائرية ، وتنافح عن اصالة عروبتها من أن تطغى عليها العجمة والرطانة .

حقا ، ان الفرنسيين اسسوا آخر الامر مدارس ثلاثا : فى تلمسان ، والجزائر ، وقسنطينة ، ولكن ماذا ؟ أليس أن الذين كانوا يدرسون بها ، أساتذة فرنسيون ؟ بلى . ودعنى من أساتذة الفرنسية وآدابها ، فلست عنهم أتحدث ، وانما اتحدث عن أساتذة العربية . وانت ان كنت تجد فى هذه المدارس بعض المدرسين الجزائريين ، فان كثيرا

منهم ممن تتلمذوا على المستشرق «هنرى بريس» ، وأى خير يرجى ممن يتلقى علوم العربية على المسيو بريس ، أو تلامذة المسيو بريس ؟ انه من السفه والضلال ، ان يظن ظان أن تلامذة المسيو بريس يحسنون العربية ويعرفون مقدارا صالحا صحيحا عميقا من آدابها .

ودعنى ممن عمل منهم عملا عصاميا ، وجاهد نفسه جهادا شديدا حتى انسلخ من اطار روح المسيو بريس وأصحابه ، ثم ذاب فى الروح العربى القح فى صفائه ونضرته، فدرس العربية فى مصادرها الصحيحة الاولى ، وحاول أن يتلقاها عن أهلها ، فاتقنها ونال منها أطرافا صالحات ، فلست عن مثل هذا أتحدث ، ولست اليه أسوق هذا القيل العنيف . فليطمئن بالا وليظن خيرا .

ويخيل الينا أن خريجى هذه المدارس الثلاث ، مع احترامنا لكثير منهم أحياء وامواتا ، لم يقدموا للجزائر فى مجال المحافظة على اللغة العربية خيرا كثيرا ، ولم يضيفوا الى مجدها شيئا ، فهم فيما بينهم يتحدثون أكثر ما يتحدثون بالفرنسية ، وهم فيما بينهم وبين أنفسهم لا يؤمنون بالعربية ايمانا ثابتا ، ولا بالحضارة العربية ايضا . ولست انطق الا بما أعلم ، فقد خالطت كثيرا منهم فوجدت فيهم بعض هذه الصفات التى أذابتها الثورة فلم نعد نراها اليوم فيهم الا لماما . وانما نحن نتحدث عن الفترة التى تقع قبيل الثورة الكبرى .

فقد كان هؤلاء الخريجون موظفين لدى الدولة قد أمنوا الجوع وشره ، والبؤس وخزيه ، فغدوا يحيون فى النعيم ، ويرفلون فى البذخ وادعين مطمئنين ، لا تحاربهم الشرطة الفرنسية فيمن تحارب ، ولا تزدريهم فيمن تزدرى . فى حين كان زملاؤهم خريجو المعاهد العربية مهانين ، فزعين ، غير آمنين على أنفسهم من الاستعمار وسطوته ، وغير مطمئنين على أهليهم من أن يلم عليهم الجوع . والجوع فى لغتى هو الفقر الشديد ، أو البؤس الذى يبلغ حد المخزى . فكانوا يباشرون أعمالهم فى المدارس التى كانت تسمى حرة ، وهم خائفون فزعون : لا يفرخ لهم روع ، ولا يسكن لهم جنان . وكيف لا يفزعون ، وقد كانوا يعلمون لغة ما أشد بغض الاستعمار لها ، وأخوفه منها ؟

فلم تكن هذه المدارس الا ثورة ثقافية فى الجزائر ، ولم تكن الا نذيرا أو بشيرا ، بقرب نهاية وجود الاستعمار ونظامه القذر . فكان الطفل الجزائرى الذى يختلف الى هذه المدارس العربية ، كأنما يدرس فى دمشق أو القاهرة أو بغداد : كل شىء عربى ، وكل مادة تعليمية تقدم اليه بالعربية ، فى لهجة فصيحة سليمة : تحث على الخير ، وتهدى الى الفضيلة ، وتذكر بجلال الوطن ، وعظمة الاجداد ، وتبعة المستقبل .

كانت هذه المدارس بمثابة حرب شعواء على وجود المدارس الفرنسية ، والضعضعة من قيمتها ، والحط من سمعتها . فبعد ان كان الاطفال فى الجزائر يزاولون ضربين اثنين من التعليم لا ثالث لهما وهما :

اما أن يترددوا على المدارس الفرنسية الرسمية، وهم اذن انما يدرسون فى « ليكول » . واما أن يختلفوا الى الكتاتيب القرآنية فى القرى والمدن ليحفظوا القرآن الكريم وشيئا من المرشد المعين

لابن عاشر ، أو طرفا من آجرومية ابن آجروم ، واذن فهم انما يدرسون على « فقيه » ، وهــم « محضرة » (بفتح الميم وفتح الحاء المشددة وسكون الضاد) .

بعد هذه المرحلة ، أصبح الاطفال فى الجزائر يزاولون لونا ثالثا من التعليم ، وهو الاقبال على مدارس عربية ، معلموها جزائريون عرب ، وهذه المدارس مدارس ، وليست « مساجد » أو «جوامع» أو « خرابيش »(1) .

وهكذا أصبح الطفل الجــزائرى الذى يختلف الى هذه المدارس العربية العصرية يختــال عــلى التلميذ الجزائرى الذى يتردد على مدارس فرنسية رسمية ، لانه لم يعد ذلك الطفل المهمل الجاهــل الذى يردد آيا من القرآن الكريم ويحفظها دون ان يعرف عن الحياة شيئا اكثر من ذلك .

والشىء الذى يزيد من اعجابنا بهذه النهضة المباركة انها لم تنشأ فى أرض سيدة تحكم نفسها بنفسها ، كما أنها لم تنشأ فى شعب كان من الوعى الثقافى بحيث يستمع الى الحق فيتبعه ، ويسترشد بالرشاد فلا يزوغ عنه . وكيف ترجو من شعب خيم عليه الاستعمار دهرا متطاولا ، ان يكون واعيا كل الوعى ؟ فلولا بقية من ذكاء هذا الشعب ، وقبس من نور الاسلام ، وطرف من تاريخه الاصيل ، لامسى معدودا فى المتلاشيات ! اذ لم تكن مهمة الاستعمار الفرنسى تستهدف الحكم والسيطرة السياسية وحدها ، بل كانت ايضــا ترمى الى التفرقة والفساد ، والى تشجيع الشعبذة والضلال ، مما جعل الشعب الجزائرى ، وكــل شعب استعمر ، يجتر هذا الشر الى اليوم ، ومما جعل المصلحين والمفكرين والثوريين الجزائريين ، يلاقون أعنف المعارضة .

ولسنا نريد أن نقول : ان الشعب الجزائرى غير ناضج ولا ذكى ، فهو لا يميز بين الخير والشر ، ولا بين الحق والباطل ، ولا بين الحسن والقبيح ، وانما نريد ان آثار الفساد التى بثها فيه الاستعمار، كادت تزيحه عن مصام الحق فغدا يصطرع مــع نفسه : بين البقاء على شىء عرفه فى الماضى ، وبين التطلع الى شىء جديد يغير له كل المفاهيم للامور التى كان يعتقد انها صحيحة سليمة ، أو كان يرى فيها المثل الكامل للحياة .

فهو اذن صراع ذاتى ، ولكنه قوى عارم : بين ان يخلص من ماض مفعــم بالعنف والبــؤس والاضطراب ، وبين ان يتبنى مذهبا جديدا فى الحــاضر يكفل لــه السعادة والعيش الكريم فى مستقبل الايام .

وهذا الصراع الذاتى دليل على حيوية الشعب الجزائرى ووعيه ، كما كان الصراع اللغوى مظهرا من مظاهر الصراع السياسى الذى عنف بل انفجر فى فاتح نوفمبر وأدى الى السيادة والحرية .

ولكن ذلك الصراع بأنواعه لم يك الا استجابة طبيعية لنفسية هذا الشعب الذى حارب الرومان حربا شديدة ، وقاوم المحتلين الاقدمين مقــاومة رائعة ، فلما جاء العرب فاتحين باسم الاسلام ، لم يستقبلهم استقبالا حسنا ، بل حاربهــم اعنف

1) كان يطلق الخربيش على غرفة اقراء القرآن ـ وهو غير المسجد ـ لان المسجد كان خاصا بالصلوات والاحتفالات الدينيــة والمقامات العامة أما الخربيش فكان بمثابة القسم الدراسى اليــوم

حرب ، وأسلم ثم لم يلبث ان ارتد مرارا تترى . ولم يدن بالاسلام حتى اطمأن بأن نية العــــرب المسلمين طيبة ، وطويتهم سليمة ، فانضم اليهم ، ولم يلبث ان غدا يفتح معهم بلدانا اخرى .

وكل ذلك يدل على صلابة عود هذا الشعب ، وقوة عزيمته .

ثم ماذا ترى من آية ، بعد ذلك ، تستدل بها على عناد هذا الشعب وصلابته ؟

ان الاستعمار الفرنسي مع ما يملك من مال وعدد ، وعدة ، واجهزة ، وشعبذة ، وتضليل وتسخيف ، وتخدير .. لم يستطع ان يصنع له شيئا حين ازمع على أن ينبذ عنه سربال المهانة ، ويلقى عنه لباس الذلة . وأى ذلة أخرى من أن يظل شعب عربى يحمل الجنسية الفرنسية ، على ما قدمت الحضارة العربية للانسانية من معطيات لا تبرح كثير من آثارها ماثلة للعيان الى اليوم فى أوربا وغير أوربا من الارض ؟

فلا عجب اذا رأيت هذا الصراع يحتد ويمتد حتى يشمل الجــــزائر كلهـــا ، والجزائريين فى معظمهم ، فــاذا الجزائريون المثقفون بالعربيـــة ينهضون لصراع الاستعمار وكأنه صراع طبيعى لتأصل جذوره فى انفسهم ، مع ما كان يجشمهم ذلك الصراع من عذاب ونكال .

وان أدرى أتستطيع ـ والخطاب ليس للجزائريين المعاصرين ، وانما هو للاجيال الصاعدة وللامم التى تريد أن تعرف شيئا من تاريخنا ـ ان تتصـــور الحنـــق الذى كان المستعمرون يحملونه لكل من يتحدث العربية بالجزائر ، بله أن يعلمها ، بله أن ينادى بان تكون لغة وطنية تعـــلم فى المدارس الثانوية الى جانب الفرنسية(1) ، أم لا تستطيع ؟

ثم ان أدرى أتستطيع أن تتصور الحقد الاسود الذى كان المستعمرون يحملونه لكل ما هو عربى ، ولكم ما فيه طرف من عروبة ، أم لا تستطيع ؟

فان كنت لا تستطيع ذلك ، فما انا بقادر على أن اصنع لك شيئا ذا بال . لان مثل هذا التصوير ، ان اردنا أن يكون دقيقا أو قريبا من الدقـــة ، ينبغى أن يملأ المجـــلدات الضخام ، والاسفار الكبار ، واحسب ان هنـــاك أشياء ، لا سبيل للاقلام عليها ، ولا للالسنة عليها ايضا ، لانهـــا فوق قدرة الالسنة ، ووراء طاقة الاقلام .

فقد كانت العربيـــة ، بالقياس الى فرنسية المستعمرين فى الجزائر ، بمثابة الضرة الغيور ، والعدو الحقود اللدود .

أرأيت لولا هذى العربية التى شاء القدر ان يكون مؤثلا مجدها ، عريقا تاريخها ، طويـــلا ماضيها ، ساحرة الفاظها ، جميلة انغامها ، دقيقة تعابيرها ، واسعة موادهـــا ، غنية مجازاتهـــا ، واسعة استعمالاتها ، لما شق عـــلى الفرنسية أن تتبوأ من قلوب الجزائريين المنزلة التى كانت تريد !

وقد سقط فى أيدى المستعمرين بالجزائر فلم يدروا ما يصنعون ازاء هذه الظاهرة اللغويـــة القوية ، فلم تك هذه العربية لغـــة الجزائريين وحدهم ، ولا لغة الحياة اليومية وحدها ، اذن لمـــا عسر عليهم ان يمحوها من قلوبهم والسنتهم مهما

(1) عيون البصائر للابراهيمى 17

تجشموا فى ذلك من متاعب ومصاعب ، ولكنها كانت لغة العرب جميعا ، ولغة الاسلام فى شعائره وصلواته . ومـا يصنع المستعمرون الفرنسيون وراء كل هذا ، والعرب عن أيمان الجزائريين وعن شمائلهم !؟

فلم يجدهم ما جنسوا به العرب الجزائريين من جنسية فرنسية ، ولم تنفعهم جميع الشكليات الادارية والسياسية والقانونية التى قيدوا بهـا ارجل الجزائريين وايديهم تقييدا شديدا . فلا هذه الفرنسية تمكنت من قلوب هؤلاء العرب المغلوبين على أمرهم كل متمكن ، ولا هـذه العربية امحت وعزفت عن نفوس هذا الشعب الشديد العناد ، الصعب القياد ، ولا الفرنسيون المستعمرون خففوا من وطأة هـذه التضييقات ، وهـذه الاكبـال فيستريحوا ويريحوا .

ولكن شيئا من ذلك لم يكن . فاشتد احتدام الصراع بين العربية والفرنسية فى الجزائر ، خلال الفترة التى نتحدث عنها ، اشتدادا لا نظير له . لقى فيه أهل العربية كثيرا من العنت ، واحتملوا كثيرا من التعسف والهوان : فسجن الابراهيمى وهو احد معلمى العربية يومئذ ، وسجن غيره كثير ممن لا يحصون عددا :

والذى يدل ايضا على مقت الفرنسيين الحاكمين يومئذ ، للعربية ، ما كانوا يبدونه من معارضة وتلكؤ ، حين كان أهل مدينة من المدن الجزائرية يريدون بناء مدرسة عربية . فقد كان أهون وأيسر على الجزائريين من أن يصنعوا كل شئ ، الا انّ يفعلوا ذلك . ولم يكن أحد من الجزائريين العقلاء يطمع من الاستعمار ان يعين بمال مثل هـذه المشاريع التعليمية ، أو يشجعها ببعض التسهيلات. فقد كان ذلك لونا من المحال .

ومن مظاهر هذا الصراع ايضا ، ما كان يعانيه مقرىء القرآن من أهوال قبل ان « يشارط »(1) فى قرية من القرى النائية ، فان الاستعمار كان لا يرضى أن يفعل شيئا من ذلك حتى يتقدم بطلب رخصة . واضحك ان أردت الضحك من هـذه الرخصة . لان معناها المعارضة الشديدة فى الاذن له باقراء القرآن ، أى معنى كل ذلك ان السلطة كانت ترفض ، أو تتلكأ تلكؤا شديدا ، فى منح هذه الرخصة لذلك « الفقيه » المحروم .

وان تعجب فانما عجب من شعب يربأ بأبنائه ، ان يبعث بهم الى مدارس فرنسية ، على ما فيهـا من مغريات ، وعلى ما تقدم لتلاميذها من تشجيعات. وعلى ما تهبهم من صلات ، وينشط فى جمـع الامـوال ، ويحض الناس على تقـديم التبرعات والزكوات الشرعية ، حتى يتم له بنـاء مدارس عربية بحتة ، وهنالك يرسل اليها أبناءه وهـو راض سعيد .

فما أروع هذه الظاهرة فى تاريخ هذه الامـة العظيمة ، ولكن اكثر الناس لا يعلمون .

لم كان هؤلاء الجزائريون يرسلون ابناءهم الى المدارس العربية الحرة ، ويقاطعون فى كثـير من الاحوال ــ المدارس الرسمية الفرنسية ؟ وكيف آثروا الاولى على الثانية ؟ وماذا كان يدفعهم الى ذلك الصنيع ؟

(1) كانت تطلق هذه الكلمة على الاتفاق الذى يقع بين مقرىء القرآن الصبيان وبين اهل القرية الذين كانوا يسمون الجمـاعة من حيث هو كان يسمى بـ الفقيه ــ ولو لم يكن فقيها وهم شارطوه وهو شارطهم وبينهم الشرط وهذا شعير الشرط

والجواب على هذه الاسئلة واضح معروف عند من ألم بتاريخ الجزائر المعاصر : فهم انما جاءوا ذلك لانهـــم كانوا يؤثرون أن يكونوا عربـــا لا فرنسيين ، وسادة لا عبيدا ، وكراما لا لئاما .

فلم ينظروا الى الفرنسية الا على انها لغة اجنبية، يتكلمها قوم أجانب عنهم ، وهم لابد عنهم يوما من المنجلين أو المطرودين .

وكان الاستعمار يدرك هذا ادراكا تاما ، ولذلك كان ينصب على مدرسى هـذه العربية بالحرب ، ويصب عليهم أشواط العذاب ، ويقذفهم بالتهم ، ويلحق بهم كل أذاة ومكروه .

قد تبدو هذه الآراء لاهل العلم ، انها تعـول على العاطفة ، وتستند الى الهوى ، لانى لم أدلل عليها بالدلائل ، ولم ابرهن عليها بالبرهانات . وانما انا اتحدث بعيدا عن الاستشهاد بالنصوص، واسوق دراسة خالية من آراء سواى من الناس .

وان أكاد لاقرر أن هذه تهمة لا تستقيم ، ووجه لا ينتظم ، اذ كنت اتحدث عما شاهدت ورأيت ، ولمست وجربت ، وبلوت وسمعت ، وما بعـــد المشاهدة من دليل ، وما فوق العيان من بيان .

ولاهل العلم أن يعدو هذا الفصل بمثابة تقرير رجل معاصر يسجل فيه ما كان يرى ويسمع .

وكذلك ظل أمر هذه العربية ، وهذا الاستعمار ولغته يصطرعان ، ولكن العربية كانت تصرعـه ولغته ، وكان يغالبهـا ، ولكنها كانت فى معظم الاحوال تغلبه ، فيزيد حقده عليها ، ونقمه منها ، وبغضه لها ، ويضاعف غيظه عليها اضعافا لا تبرح بعض آثاره مائلة لكل متتبع لمظاهر النهضة الادبية فى الجزائر .

ومن اكبر الدلائل على ذلك ، أن طلاب معهـد ابن باديس بقسنطينة ، وطلاب جامعة القرويين بفاس ، وطلبة جامعة الزيتونة بتونس ، كانوا يستنطقون من قبل أعوان الاستعمار حين كانوا يؤوبون الى اهلهم بالقرى النائية أثناء العطـــل الصيفية ، وكان هؤلاء الاعوان متكالبين على هؤلاء الطلبة تكالبا شريرا خسيسا ضاريا يجعل هؤلاء الطلاب المساكين يقضون عطلهم فى جحيم ، بحيث لا يكادون يظهرون فى الاماكن العامة والاسواق علنا ، اذ كانوا مطمئنين الى أن هؤلاء الاعـــوان كانوا يتربصون بهم الدوائر ، ويرقبونهم فى كل مكان .

وقد اشتد هذا وازداد ابان قيام الثورة الكبرى فى سنة اربع وخمسين .

تلك بعض مظاهر هذا الصراع العنيف الذى ظل مضطرما قائما بين العربية والفرنسية خلال المرحلة التى نحاول ان نلقى عليها شيئا من الضياء بهذه الدراسة ، فكان المستعمرون يزدرون شيوخ العربية ويهينونهم فى نفوسهم ، ويؤذونهم فى جسومهم ، فلا يزيد ذلك هؤلاء الا تمسكا بهـذه اللغة ، وايلاعا بنشرها بين التلامذة فى هـــذه الارض .

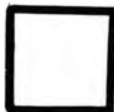
فظلت العربية والفرنسية تصطرعان ، وتظاهرت العربية بالضعف والخور ، الى أن امكنتها الفرصة العظمى : فرصـة الثورة العقائدية بعـد الثورة السياسية ، فانقضت عليهـا انقضاضة عاتيـة فصرعتها .

وها هى ذى اليوم تصبح ، اللغة الوطنية الاولى : يتكلمها الاطفال أفضل من آبائهم ، ويلقنونها فى مدارسهم فيقبلون عليها اقبالة الظماء على المـاء البارد الزلال .



دراسات
تاريخية



الجزائر في تاريخ الحضارة

4

تلك هى الصورة العامة التى بقيت مدة قرون تشكل ظاهرة حضارية من أبرز الظواهر . وهذه الصورة ينبغى أن ننظر اليها بكل تجرد . وان نعتبرها مجموعـــة من الشروط التاريخية التى توفرت فى حين من الدهر فتشكلت عنها دولـــة موحدة على شواطىء البحر الابيض المتوسط وفى قسم من الشرق الاوسط وآسيا الوسطى . وحلت محل دولتى فارس وبيزنطة ، حتى أصبح دينها ولسانها من مقومات إمة كبرى . الى ان أضحى ذلك الدين وذلك اللسان . على مر الايام . وبحكم الحاجة والتطور . هما الاساس للتشريع . والاطار القانونى للاجتماع والاقتصاد والثقافة .

كل هذا قد ساعد فى تكوين أمة جديدة ، ثم فى نشوء كيانات وطنية ليس بينها من صلة فى اغلب الاحيان الا العقيدة واللغة اللتان دخلتا الى الاقطار الاسلامية منذ القرن السابع ... وهـــذه الكيانات التى أصبحت فيما بعـــد مستقلة ذات

مصطفى الأشرف

ترجمة د. حنفي بن عيسى

ان الاسلام قد اتى بمفهوم جديد للمواطنية citoyenneté (1) ومما يدل على وجود هذا المفهوم الجديد فى المغرب ، امران سبق ان اشرت اليهما . ان المواطنية اصبحت ، منذ ان نشا المجتمع الاسلامى فى القرون الوسطى، قائمة على اساس الايمان بالقلب او الاقتناع بالعقل ، بالمبادىء التى بشر بها الاسلام .. وبينما نجد ان حضارة الرومان محصورة فى النخبة المختارة ، فان الاسلام على العكس ، يهدف الى افق اوسع ، اى الى افق متفتح من جهتين : على البشرية جمعاء من جهة ، وعلى العالم الاسلامى من جهة اخرى . ان الاسلام يشترط فى المواطن شروطا لا علاقة لها بجنسه ، لان الشىء المهم فى المسلم هو الايمان بعقيدة واحدة ، والولاء لسلطةالخليفة الروحية والزمنية، والمساهمة فى الحياة الاقتصادية، والعمل على ازدهار الثقافة . ومن المعلوم ان الثقافة فى الاسلام معتمدة بالدرجة الاولى على اللغة ، لان العربية هى لغة الدين والدنيا . وقد ساهم فى تطويرها الفقهاء والادباء والشعراء ورجال القضاء والفلاسفة والعلماء ورجال الفن ، فكنت تجد بينهم العرب والفرس والبربر والاسبان والاكراد والاتراك والمغول والافارقة والهنود ، كما تجد بينهم احيانا اليونانيين والارمن وكذلك من كانوا سابقا من رعايا الدولة البيزنطية ثم اسلموا ، او ظلوا على الدين اليهودى او الدين المسيحى .

سيادة بعد انقسام الدولة الاسلامية ، لم تكن اصولها عربية ، لان نسبة العناصر العربية بين الفاتحين كانت قليلة جدا ، وسرعان ما امتزجت تلك العناصر العربية بغيرها . الا ان اللغة العربية بقيت لدى الشعوب المسلمة الموالية للخليفة ، والتى ليس لها لغة أخرى مكتوبة . أما الشعوب التى كان لها قبل الفتح الاسلامى لغات حضارة عريقة ، كالفرس والهنود واليونانيين ، أو لغة مكتوبة متفرعة عن اللاتينية ، كالاسبان ، فقد عادت الى استعمال لغاتها ، بعد أن ساهمت مساهمة فعالة فى ازدهار الثقافة والعلوم العربية . أما الشعوب التى كانت لها لغات غنية ، ولكنها محصورة فى منطقة معينة وليس لها أدب مكتوب (كالبربر) ، وكذلك اللغات القديمة التى تشترك مع العربية فى الاصل السامى الاول أو للتأخر ، مثل الآراميين من سوريا ولبنان وفلسطين

1) راجع العدد الثانى والثالث والرابع من هذه المجلة

ومثل المصريين والآشوريين الكلدانيين من العراق، فان هذه الشعوب لم تمكنها لغاتها من تحقيق أى نوع من الازدهـــار فى منطقة البحـــر الابيض المتوسط ، لذلك فقد تعرب أغلبها من حيث اللسان. واحتفظت تلك الشعوب فى نفس الوقت من أجل التفاهم بلغة الاجداد ، لاسباب سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، ولا أقول لاسباب دينية .

ان اللغة الاجنبية لا يمكن أن تعرض نفسها مدة طويلة من الزمان ، على لغة أخرى لا تقل عنهـــا أصالة ، ولا يمكن أن تحل محلها ، خاصة من حيث التعبير الشفوى . ولئن كانت هناك شعوب كثيرة تتحدث اليوم باللغة العربية ، مع كونها اعجمية . ولئن كانت هذه اللغة هى لغة العبادة بالنسبة الى الطوائف المسيحية غير العربية ، فـلا ينبغى أن ننساق وراء العنصرية العميـــاء ، بـل يجب أن نلتمس الاسباب الحقيقية لهذه الظاهرة من التاريخ، ومن الظروف والتجـارب التى مرت بهـــا تلك الشعوب ، ومن الضرورات الملحة التى واجهتها .

ولكن ، لنعد الى الجزائر ، لكى نتوقف قليـــلا لدى حادثتين تكشفان عن عقلية جديدة سبق لى أن أشرت اليها ، وهى العقلية التى كانت تتحكم فى سلوك المواطن وسلوك الخليفة ، مما لم يـــر الناس له مثيلا فيما مضى من الازمان . والحادثة الاولى أن الوالى العـــربى على افريقية ، يزيد بن مسلم ، سولت له نفسه ، فى حوالى سنة 720 م ، أن يهين أحد رجال حرسه الخاص . ويقول جورج مارسى بهذا الصدد : « أخبر الوالى حرسه أن كل واحد منهم سيكون اسمه موشوما على يده اليمنى، مع كتابة العبارات : « حارس يزيد » على اليد اليسرى ، جريا على العادة المتبعة من طرف ملوك العجم مع من يقوم على خدمتهم . الا أن هذا الامر كان به من الاهانة والاحتقار ما جعل جنود البربر يغتالون يزيد فى المسجد . ولا شك أن هذا الاغتيال حادث خطير . ولكنه فى الحقيقة يعبر عن الغضب الذى تسبب فيه أحد الولاة الطغاة الذين لايحسنون التصرف مع الرعية . ويقول النويرى ، نقلا عن ابن خلدون فى كتابه « تاريخ العرب والعجـم والبربر » ، يقول ما معناه : « كتبوا الى الخليفة الاموى ليخبروه بأنهم لا يزالون على عهد الولاء وأن يزيد عاملهم بطريقة مهينة أمام الله وأمـام الناس ، وأنهم بايعوا واليهم السابق ... وقـد أجابهم الخليفة ، فاستنكر تصرف يزيد معهـــم ووافقهم على ما فعلوه . »

والحادثة الثانية لا تقل دلالة على تعلق شعب البربر فى القرن الحادى عشر بالقيم التى نادى بها الاسلام ، فيما يتصل بمفهوم الامة والاخـــلاق والتقاليد ، وخاصة فيما يتصل بنصرة الدين ... ومن ذلك أن الامير المعز بن باديس ، أمير الدولة البربرية الزيرية (وكان قد بسط نفـوذه فى القرن الحادى عشر عـلى نصف شمال افريقيا) . كان هذا الامير مهتما جدا بمسجد القيروان الكبير الذى أسسه الفاتح والداعية الى الاسلام ، عقبة بن نافع فى القرن السابع ميـلادى . بل كان مهتما أيضا بضريح هذا الصحابى الجليل الذى دفن فى نفس المكان الذى استشهد فيه بالجنوب الشرقى من ارض الجزائر الحالية ، وبالقـرب من جبال أوراس . وقد كتب المؤرخ جورج مارسى بعد أن تحدث بعبارات مؤثرة عن الهدية التى قدمها الامـير الامازيغى الى أول مسجد بنى فى أرض

المغرب . وهى عبارة عن مخطوط من القرآن الكريم يحمل توقيع الامير فى الصفحة الاولى : « ان كون الامير قد وقف للمسجد الكبير بالقيروان أموالا ، يدل دلالة واضحة على نواياه الحسنة . وهذا العمل ان هو فى الواقع الا واحد من الاعمال الكثيرة التى تعبر عن احترام الامير لروح الشهيد عقبة بن نافع ... ومن الجدير بالذكر أن الفاطميين ، (وهم قوم عرب ، الا أنهم منشقون مذهبيا) ، كانوا قد اهملوا الضريح ... بل ان أحدهم أراد ان يهدم محرابه . وبعد أن تخلى عن مشروعه ، أراد أن ينتهك حرمة ضريح هذا الصحابى ، حتى لا يبقى له أثر به يذكر ... ولا شك أن الأموال التى خصصها المعز للمسجد الكبير ، والاشغال التى قام بها فيه ، وكذلك الاشغال التى يغلب على الظن أنه هو الذى أمر بها لاصلاح ضريح البطل عقبة بن نافع ، كل هذا يدل على أن المعز انما أراد أن يصلح ما فات ، وان يعود الى تقاليد بلاده الاصيلة .»

ويضيف نفس هذا المؤرخ الفرنسى فى نص له ، حديث نسبيا (1957) ومقتبس من كتابه « متنوعات Mélanges »

« ان الامير الشاب ، بزخرفته للضريح الذى حوى جثمان هذا الصحابى ، واصلاحه لقبر هذا البطل الذى أدخل بلاد البربر فى الاسلام وأسس مدينة القيروان ، انما أراد بذلك أن يعبر عن ورعه وأريحيته . »

بطبيعة الحال ، لم يكن الامر يخلو من نزاع بين العرب والبربر ، سواء فى تلك الفترة ، أو فيما بعد . ولكن النزاع لم يحصل فى هذا المجال بالذات ، ولا فى مجال اللغة . وذلك أن القضايا



والافكار العرقية لم تنشأ الا فى العصور الحديثة ، ونشأت فى بلاد الغرب أكثر من أى مكان آخر . ولم يهتم بها رجال العصر الوسيط الاسلامى ، وخاصة المغاربة منهم ، الا قليلا .

ومهما يكن من أمر ، فان الجزائر وافريقية – وتعد الجزائر جزءا منها – بلغتا فى تلك الفترة من تاريخ الحضارة الانسانية المحصور بين بداية القرن التاسع ونهاية القرن الحادى عشر ميلادى ، بلغتا الغاية القصوى فى الازدهار الاقتصادى والثقافى . وهذا الازدهار يتميز – وخاصة فى مجال الاقتصاد – بجوانب عدة جعلته يتفوق على الازدهار القديم الذى عرفته افريقية فى عهد الرومان . وقد كتب أحد المؤرخين متحدثا عما قام به الولاة الامويون منذ القرن الثامن ، فى مجال استخلاص المعادن كالفضة والاثمد والحديد والرصاص ، فقال : « لا يشك أحد أن هذا دليل واضح على وجود نهضة اقتصادية ، بل ربما

ليس من الصواب أن نسميها نهضة ، اذ أن الشيء الذي حدث هو استثمار ثروات كانت الى حد ذلك ألوقت مهملة . وليس هناك ما يدل على أن الرومان استثمروا تلك المناجم الغنية . وقد ذكر المؤرخ استيفان جزال عدة أماكن للمعادن توجد في شمال افريقيا . ويبدو أن العرب كانوا من الرواد بالنسبة الى استثمارها ، ويقول في أحد كتبه الاخيرة : « أنا ميال للاعتقاد بأن الفترة التي ازدهرت فيها صناعة المعادن هي العصور الوسطى وليست هي العصور القديمة . فبعد أن تحطمت دولة الرومان . وأخذ العالم الاسلامي والعالم المسيحي يتصارعان وأصبحت العلاقات التجارية بينهما قليلة نتيجة لانحطاط الصناعة في أوربا ، فان القيمة الاقتصادية لتلك المناجم ازدادت لا بالنسبة الى بلاد البربر فحسب ، بل بالنسبة الى العالم الاسلامي أجمع . » وينتهي نفس هذا المؤرخ الى القول بأن « خوض الافارقة للميادين التي أهملتها الشعوب الاخرى ، واشاعة جو من الرخاء ، والفضل في ذلك يعود فيما نرى ، الى أمراء القيروان ، كل ذلك قد حصل نتيجة للظروف الحضارية الجديدة التي لم يعهدها العالم القديم . »

وعندما تأسست دولة بني زيري ، فان الرخاء الذي تحدث عنه جورج مارسي وربطه بالميدان الصناعي ، هذا الرخاء اقترن برخاء آخر كبير في الميدان الزراعي ، من حيث محاصيل القمح وأشجار الزيتون ، ومن حيث البساتين والكروم وقصب السكر والزعفران والقطن . وزيادة على ذلك ، فان « افريقية كانت بالنسبة الى القرون الوسطى بلدا صناعيا » حتى أن المعامل في مختلف الصنائع أصبحت لا تعد ولا تحصى . وكثر انتاجها للانسجة الصوفية والقطنية والزرابي والاقمشة الحريرية والاجواخ والاقمشة الرفيعة المطرزة بخيوط الذهب ، والنحاس والاواني الخزفية والزجاجية ... الخ . أما بالنسبة الى التجارة الخارجية ، فان البضائع المصدرة الى مصر وصقلية وأوربا وبقية أقطار المغرب ، هي ، على وجه الخصوص ، المنسوجات والمصنوعات والملح والقمح وزيت الزيتون . ومما ساعد على ذلك وجود ورشات كبرى لصنع السفن ، وتوفر عدد كبير من الموانيء ، وأهمها على الشاطيء التونسي ، صفاقس وبنزرت ، وعلى الشاطيء الجزائري ، عنابة وبجاية .

وهكذا تمضي القرون على الجزائر التي يتناوب عليها الدهر ما بين رخاء وازدهار ، وفقر وانحطاط ، وخاصة في المدن الواقعة على البحر . فهذه المدن سرعان ما تناقص نشاطها التجاري ، بعد اكتشاف أميركا وتطور الاسطول التجاري الاوربي قبيل بداية العصور الحديثة ، في حين أن العالم العربي كان لا يزال ضعيفا يعاني من آثار التخريب والتقتيل والسلب والنهب ، من جراء اكتساح التتر ، ومن أتى قبلهم من الصليبيين والبرابرة المغول . ومع ذلك فقد أنجبت أرض افريقية علماء ومؤرخين كبارا في هذه الفترة الانتقالية التي تعتبر نسبيا فترة انحطاط ، بل فترة تحول . ان ابن خلدون الذي يعتبر بدون منازع مؤسس فلسفة التاريخ ، حتى ان أرنولد توينبي قال بصدد الحديث عن كتابه الرئيسي « المقدمة » بأنه « أكبر عمل أنتجه عقل بشري ، في أي عصر ، وفي أي مكان ... ان ابن خلدون يقدم لنا من سيرته ، ومن مجرى حياته المضطربة ومن سمات ثقافته الاصيلة

مثالا عن محاولة مستمرة للتوفيق بين الفكر والعمل ، وعن ثنائية بارزة وعن حركة دائبة يتميز بها المصير المغربي وسكان منطقة البحر الابيض المتوسط ... فهو مولود فى تونس فى 1332م ، وينحدر من اسرة عريقة اصلها من حضرموت (الجزيرة العربية) ، وهذه الاسرة استقرت فى اشبيلية حيث قام بعض افرادها بدور سياسى وعسكرى كبير فى خدمة الاندلس العربية . وقد كرس ابن خلدون حياته كلها لملاحظة الاحداث الاجتماعية الجديدة التى كانت تتوالى على المغرب آنذاك بسبب التحولات التى حصلت فيه . ولكن أهم الاحداث والتجارب والافكار التى لاحظها أو توصل اليها ، انما درسها وقام بها فى الجزائر . وبالرغم من أنه تنقل من مكان الى مكان فى شمال افريقيا ، وخدم ملوك المغرب وتونس ، فانه كتب تاريخه الشهير فى الجزائر حيث تولى الحجابة (وهو منصب يعادل رئاسة الوزراء) . وكان يعيش طورا مع القبائل الرحل الموجودة بنواحى بسكرة ، وطورا آخر مع فلاحى جبال التيطرى أو فى البلاط الملكى بتلمسان ، أو مع العلماء فى بجاية . ثم اعتزل فى قلعة بنى سلامة ، وهى كذلك موجودة فى الجزائر ، واخذ يفكر فى أحداث التاريخ العظمى وأسبابها وآثارها ، وفى الجوانب الخفية من الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة . وعاد مرة أخرى الى الاندلس فى مهمة ، فأعجب به بيير لوكروال Pierre Locruel وأراد أن يستبقيه عنده ليكون فى خدمته . وظل دائما يبحث عن الحقيقة ويستفسر ، فعاش فى القاهرة بعض الوقت وتولى فيها منصب القضاء الذى عرض عليه . وأخيرا ، وكأنه مدفوع بفكره المتعطش للمعرفة ، ومقدر عليه أن يشاهد الاحداث الجسام فى عصره ، أتيحت له فرصة ملاقاة تيمورلنك خارج أسوار دمشق . وكان قد ارسل على راس وفد لاستعطاف ملك التتر المشهور بقسوته ، لكيلا يخرب هذه المدينة المحاصرة . وقد أعجب تيمورلنك ، مثلما أعجب ملك قشتالة Castille بثقافة ابن خلدون الواسعة وبداهة خاطره ، وشجاعته ، فعرض عليه الوزارة ، ولكن بدون جدوى . ان حياته الغنية بالتجارب ، وبحثه المستمر عن الحقيقة ، وتنقله فى كثير من اقطار البحر الابيض المتوسط ، والمشاق والصعوبات التى واجهها والنضال المتواصل الذى خاضه ، كل هذا يذكرنا برجل آخر أنجبته الجزائر ، وهو رجل لا يقل عنه شجاعة فى أطوار حياته ، وصلابة فى الدفاع عن مبادئه ، ونعنى به القديس أوغسطينوس . فهو كذلك قد مات عندما كانت جحافل أخرى من البرابرة تحاصر عنابة — وهى المدينة التى زاول فيها نشاطه الدينى — وتطوقها من جميع الجوانب لتخربها . على أن الفارق الاساسى بينهما — بالاضافة الى القرون العشرة التى تفصل بينهما زمنيا — لم يكن بالدرجة الاولى هو الدين ، لان الدين عند كل منهما قائم على

الوحدانية ، وان كان مختلفا من حيث المحتوى العقائدى أو الصوفى لدى ابن خلدون كمؤرخ والقديس أوغسطينوس ، كرجل من رجال الدين .. بل ان الفارق الاساسى بينهما قائم فى تصورهما للعالم ، فى مستقبله أو فى حاضره : فالقديس أوغسطينوس قد تصور مدينة الله ، وهى المدينة المثالية المنتصرة رغم المحن والكوارث التى كانت تتوالى على شمال افريقيا وعلى العالم .. أما ابن خلدون ، فقد حاول أن يحلل بطريقة منهجية مدينة البشر ، أى المدينة كما هى فى واقعها الدنيوى اليومى ، مع جميع ما تستلزمه من حاجيات اقتصادية واحتكارات وصراعات اجتماعية وأنماط من الحياة ، وعصبية وتشيع للآراء وأهمية كل ذلك فى تاليف الدول ، وحقيقة السلطة وشروطها وحالة الانحطاط وحالة العمران ... الخ.

ما من شك أن الانحطاط الحضارى لم يشمل العالم أجمع فى الفترة الواقعة ما بين 430 م. وهو تاريخ وفاة القديس أوغسطينوس ، و 1406 م ، وهو العام الذى توفى فيه ابن خلدون . وذلك أن العرب حاولوا ، طوال العصور الوسطى وخاصة ما بين القرن الثامن والقرن الرابع عشر ، أن يسدوا الفراغ الثقافى . وهذا ما ذهب اليه ايضا الكاتب ريشار لوميى ، Richard Lemay فى مقال قيم له ، نشرته مجلة « آنال « ANNALES ، بتاريخ جويلية (يوليو) 1963 ، حيث يقول ، متحدثا عن الاثر الثقافى الذى خلفه العرب المشارقة والمغاربة فى الاندلس ، بعد أن استرجعتها دولة اسبانيا المسيحية :

« ان الشىء المهم فى عملية نقل علوم العرب الى الشعوب اللاتينية ، عن طريق اسبانيا ، فى القرن الثانى عشر ، هو أن تلك العملية ـ فيما يبدو لنا ـ تعتبر نهاية لمرحلة بدائية فى أنماط الحياة ، كما تعتبر بداية لنمو الفكر نموا مطردا ، الى أن أصبحت العلوم على ما هى عليه اليوم . ويمكن القول بأن تطور العلوم فى أوربا من قديم الزمان الى عصرنا هذا ، قد مر بفترة طويلة من التقطع ، بل من التدهور : وذلك انه سادت فى العالم الغربى اللاتينى ، وفى الفترة الواقعة ما بين وفاة القديس أوغسطينوس وقيام الحروب الصليبية ، سادت مبادىء تدعو ، على مستوى الفرد والجماعة ، الى التهيؤ للعالم الآخر ، حيث يكون الناس « مواطنى السماء » . وزيادة على ذلك لم يجد الناس ، طوال تلك العصور المظلمة ، ما يهديهم الى نور الحقيقة ، ولم يكن لهم أى اتصال بالخارج ، خلافا للاسلام ، فى القرون الاولى من تاريخ تطوره .. وهذا الامر جعل من الصعب على الناس أن يفهموا مغزى الحياة فى هذا العالم الارضى الذى نعيش فيه .. ان الاتصال بالاسلام الذى حصل منذ أن بدأت الحروب مع العرب لاستعادة الاندلس ، قد وضع حدا لعزلة الفكر

الغربي اللاتيني ، وانحطاطه . »

مما لا شك فيه اذن أن اسهام المغرب العربي ، أى شمال افريقيـــا والاندلس ، كان حاسما من الناحية العلمية فى قيام النهضـــة الاوربية فى القرن الخامس عشر والسادس عشر ، بحيث لا يقل عن تأثير الثقافة اليونانية ـ اللاتينية التي تـم احياؤها بعد سقوط القسطنطينية وهنا تجـدر الاشارة الى أنه كان يوجد بين الكتاب والفلاسفة والفقهاء والاطباء وعلماء الرياضيات والجغرافيـــا والتاريخ ، ممن أغنوا التراث الثقافي العربي ، كان يوجد بين هؤلاء عدد كبير من العلماء الكبار الذين أصلهم من المغرب العربي ، أى من الجزائر ومراكش وتونس .

واذا كان لابد من التوصل الى نتيجة فى هــذا العرض الطويل الذى يصعب عـــلى الانسان أن يلخص فيه ثلاثين قرنا من التاريخ فى ثلاثـــين صفحة ، فاننا نقـــول بأن مساهمة الجزائر فى الحضارة العالمية قديما ، بل حديثا أيضا ، تتمثل بالدرجة الاولى فى صراع الانسان الجزائرى مع القوى المعاكسة له ، أى مع الارض المجدبة أو مع السيطرة الاجنبية الباغيـــة . انه ذلك الانسان الذى يطـور ظروف حياته مستمسكا بالصبر ، ويخسر فى لحظة ما جمعه فى قرون ، ولكنه لايكاد يخسر حتى يستأنف العمل الشاق الجماعى الذى يعلمه الاخلاص والتضحية والتضامن والتعاون مع الغير ، حتى ولو كان عدوه بالامس .

أما جزائر اليوم ، فاذا كنا لم نطل عنها الكلام، فلانها تتمثل فى الانسان الجزائرى الذى وصـــل اليوم الى مرحلة لابد فيها من الانطلاق من نقطـة الصفر بالنسبة الى أغلب الامور . ان احتكاكـــه بالثورة الصناعية الممثلة فى فرنسا ، طليعة الدول الاوربية فى القرن التاسع عشر ، هذا الاحتكاك قد هزه فى بداية الامر ، وأخذه على حين غرة ، الا أنه لم يتنكر لاصله ولم يستسلم .. ولم تمنعه المقاومة المتواصلة والكفاح الشاق ، والنضال الشديد فى سبيل الاستقلال المفقود ، لم يمنعه هذا كله ـ وهو الانسان المتعطش دائما للثقافة ، المستميت فى سبيل الحياة الحرة الكريمة ـ من أن يستفيد ، رغم العراقيل المقصودة ، من تقنيات الحضارة وأساليبها التى لا يعلمها المستعمر الا لمن يشاء ، واراد ان يحرم منها الانسان الجزائرى . وما الادب الجزائرى المكتوب بالفرنسية الا مثال من أمثلة عديدة . ففى الخمسينات* من هذا القرن ، برزت فى الادب الفرنسى جماعة من الكتاب الذين يتميزون بالموهبة الاصيلة والعبقرية الفـــذة فى الانتـــاج الادبى والمسرحى ، والذوق الحسن ، والمقدرة على الرواية والكتابة ، والعنف فى التعبير والتجاوب العميق مع الارض التى ولدوا فيها والمجتمع الذى نشأوا فيه .. هذه الجماعة ، ونعنى بها كاتب ياسين ، ومولود فرعون ، وجان عمروش ومولود معمرى ، ومحمد ديب ، ومالك حداد ، وآيت جعفر ، برزت على المسرح الوطنى لتخلف جماعة الكتاب الفرنسيين الذين سحرتهم الجزائر بجمالها وخيراتها التى لا تنفد . الا أن انتـــاج الفرنسيين كان ذا طـــابع غنائى ، فعبروا عن أحاسيسهم الذاتية ، ولـــم يهتموا بالمجتمع ولا بالانسان . وقـــد استطاع جبرائيل أوديسيو Gabriel Audisio ، وهو من الكتاب الفرنسيين الذين تبنتهم الجزائر قلبا وقالبا استطاع هذا الكاتب أن يبـين بعض الخطـــوط العريضة لهذا الادب الجديد الذى نشأ رغم الظروف الشديدة غير الملائمة فى العهد الاستعمارى ، مما جعله مدة طويلة لا يزدهر الا على يد فئة قليلة من

ذوى الامتيازات ، فكتب يقول :

« مأساة الكاتب » روبلس « Roblès التى عنوانها « مونسيراط » Montserrat نمـــوذج فى الادب الكلاسيكى ، وكذلك قصة الكاتب كامو CAMUS « الغريب » L'ETRANGER ، من حيث المحتـــوى والاسلوب والمغزى .

الكلاسيكى وهما أسلوب باسكال Pascal ، وكذلك

ومن السهل جدا أن نبرهن بالامثلة كيف ان أسلوب كامو متأثر بنمطين من أساليب التعبيـر أسلوب أوغسطينوس الافريقى ، ذلك الكاتب الذى جمع بين الاسلوب الغنـــائى والاسلوب الحسى ، والتخصص فى اللاهـــوت والاسلوب الـــواقعى ويضيف أوديسيو الى هذه الثنائية التى تعتبر من خصائص الروح الجزائرية الاصيلة ، يضيف اليها أمرا آخر ، وهو أن « الفكر المغربى يلازم دائما جانب الحذر من التيارات الجارفة ، فيحاول اخضاعها تلقائيا .. الا أن السدود لا يمكن أن تقف أمـــام طغيان الماء ، كما أن الارغام المقصود لا يمكن أن يحرم الانسان من لذة الحياة .. مما جعل البعض يقولون بأن الروح الجزائرية تستبد بها دائمـــا موجة من الفرحة العارمة . » . ونجد أثرا لهذه الفرحة فى الادب المعاصر لدى الكاتب كامو الذى تتميز قصته « الاعراس » NOCES بالطابــــع الشهوانى ، وقصته الاخرى « الطاعون » la Peste بالانسية المتشائمة .

ولكن لابد من أن نقول بأن كل هذه الاعتبارات لا علاقة لها بالجزائر الحاليـة التى لا تستهجن أو بالاحرى تقبل بتسامح فلسفة من ينظر الى منطقة البحر الابيض المتوسط متأثرا بالمذاهب الادبية الداعية الى الراحـة والايمـــان بالغيب والعبث l'Absurde . ان انتفاضة فاتح نوفمبر 1954 ، وما تبعها من ثورة طويلة وعميقة ليست مجرد نزعة انسية نحو الرغـد من العيش والحيـــاة الهنيئة المطمئنة . ان الجزائر أفرادا ومجتمعا ، أصبحت اليوم تساهم من جديد ، بفضل التجارب المريرة التى عرفتها ، وبفضل قوتها التى لا تقهر ، وشبابها الناهض وامكانياتها الواسعة فى الخلق والابداع ، وكذلك ــ وهذا شيء نعترف به ــ بفضل غلطاتها وسذاجتها وهزائمها والدروس التى استفادت أو لم تستفد منها ، والنجاح الذى حققته بعد المشقة ، والانتصارات المؤقتة أو الدائمة ، وبفضل الاسراف فى البذل أحيـــانا ، والتقشف الشديد أحيانا أخرى .. ان الجزائر أصبحت اليوم تساهم بطريقتها الخاصة فى ازدهار الحضارة المعاصرة . وقد رأينا بالفعل أثناء حرب التحرير ، بعض القساوسة الكاثوليك والمسؤولين عن نقابات العمال والمثقفين الفرنسيين ، يذهبون الى سجون فرنسا التى كانت مليئة بالمعتقلين السياسيين الجزائريين ، ليعبروا عن تأثرهم الشديد لاولئك الوطنيين من الشبان الصغار الذين ذاقوا العذاب الاليم . وليقدموا لهم شكرهم على المثل الرائع الذى ضربوه ، بتضحياتهم وأعمالهم المجردة من البغضاء ، للشبيبة الفرنسية جمعاء ، فبرهنوا لها أن هناك سبلا أخـــرى فى الحياة غير التنعم الرخيص والعنصرية البغيضة . وقـــد شهدنا ذلك بأنفسنا ، **ونستطيع الآن أن نتتهى الى القول بأن الحضارة الانسانية ، اذا ما صرفنا النظر عن الحـــدود الجغرافية والحواجز ، تتمثل بالدرجة الاولى فى الانسان الذى يعترف لاخيه الانسان بقدره وكرامته وحقه فى الحيـــاة الحرة الكريمة .. انـه ذلك الانسان الذى يحس أمام آلام غيره وتضحياته ، بعاطفة تسمو بـــه الى أعلى المثل الانسانية .**



الصراعات

الثقافية في الجزائر في عهد الاستعمار

■ المدارس ■ الطب ■ الدين

1830-1880





تأليف الدكتورة تورين

تقديم: مولاي بلحميسي

هـذا عنـوان كتـاب صدر اخيرا بباريس باللغة الفرنسية للدكتورة تورين استاذة التاريخ المعاصر بجامعة الجزائر حاليا ٠

والكتـــاب هـذا دراسـة اجتماعية للحضارات و دراسة نفسية للتاريخ ومحاولـــة فى تاريخ العقـل كل هذا فى آن واحد من خلال فترة حاسمـة من تاريخ الجزائر الخمسـون سنـة الاولى من الاحتـــلال الفرنسى ٠

وتعتمد دراسة هذا الموضوع الهام على أمـرين ضـروريين كانا السبب فى رواج الكتاب : التجارب الشخصية للمـؤلفة ، وقد اقامت مـدة فى المغـرب الاقصى ثم الجزائر بيـــن البحث والتـدريس ، والعـامل الثـــانى هـو اطـلاعها عدد لا يحصى من الوثائق الفرنسية و وثائق المكاتب العربيـــة ، واستخدامها بكل موضوعية ٠

ولقد يعاب على الدكتـورة انها تجاهلت المصادر العربيـة الجزائرية لكنها نبهت فى آخر المقدمة انه تعذر عليها ذلك ٠

يتناول الكتـاب موضـوعا صعبـا أذ أراد دراسـة اهـم الجوانب للصراع الثقـافى فى الجزائر غداة الاحتلال بيـــن الحضارة الاروبية والحضـارة العربية او ما يسمونـــــه الحضارة العصرية والحضارة التقليدية ، وبدأ الصراع يوم بدأ المحتل يفرض لسانـــــه وتفكيره واسلوبه فى الحيـاة مستعملا المدرسة والمستشفى المعلم والطبيب ليحطم آخـــر قلعة التجأ اليها المسلمـــون وهو الـدين ٠

وقد يتساءل القـارىء لماذا اقتصرت الدراسة على نصـف قرنفقط او لم يتواصل الصراع بعد ١٨٨٠ ؟

فان هذه الفترة فى نظـــر الكاتبة هى التى اصطدم فيهـا المستعمرون بالرفض الجماعى والامتناع التام والمقـــاومـة الصادقة من طرف المسلميـــن دفـــاعا عن حضــــارتهم وشخصيتهـم ٠

وكان الفرنسيون يظنون كل الظن انهم يكفيهم ان يقترحوا على المسلمين ثقافتهم ولغتهـم لكى يرضى بها هـؤلاءلانـــه المنطق والحكمة ٠

وانهم اذا قدموا للشعـــب المغلوب « النور » استسلـــم شاكرا فاندفعوا فى المشاريـع المستحيلة التحقيـق وذلك قبل نهـاية الحرب غير عابئيـــن بعقلية الجزائريين ولابعوائدهم وميـولهم ، ورد المسلمـــون الهدية المسمومة لصاحبهـــا الذى قضى حوالى عشـــرين سنـــة (١٨٣٠ ـ ١٨٥٠) يحدث المدارس فلا تجد لهـــا تلاميذ وينشىء المستشفيـــات فلا يتردد اليها المرضى ويريـد ان يدرس الحالة الاجتماعيـة فلا يجد من يطلعه ، وتعـددت فى وجه المحتل الصعـوبـات وكثرت واصبح الدين الحنيف كالاسمنت المسلح يحمى مـــن التفكك والاندماج ، وعـــاش المستعمرون فى هذه الفتـــرة باحلامهم واوهامهم متيقنيـــن ان ما يقترحونه هو السعـادة عينها وانهم جاءوا لتنـويـر العقول باسم العقـل الفرنسى وباسم الرسالة التى اعتقـــد فرنسيو القرن التاسع عشـــر

انهم يحملونها الى العالم ٠

فكيف اسرع هؤلاء « المبشرون » الذين تظاهروا – اول الامر – باحترام قوانين البلاد وتقاليدها فى مسخ الشخصية ٠

وتنتهى الفترة الاولى ويعترف الفرنسيون ان ما قاموا به مغامرات لا طائل تحتها واعترفوا بالفشل وفكروا فى اسلوب جديد ومناهج اقرب الى الواقع وأعادوا الكرة بعد التحقيقات المدققة واختطوا لتعليم اللغة العربية خططا فى اطار القضاء على القوة المعنوية ٠

فظهرت مراسم ١٨٥٠ التى أنشات فى المدن والقرى التعليم المزدوج و المدارس الفرنسية العربية فلم يتغير موقف المواطنين وبقيت المؤسسات خالية ٠

اما فى الميدان الصحى فان المعارضة كانت اقل حدة على حد قول الكاتبة وان كانت الجماهير ترتاب من الطبيب « الرومى » ومن أدويته ونصائحه ٠

وتفسر الكاتبة هذه المواقف الصلبة للدور الذى كانت تلعبه الزوايا آنذاك فى البلاد هى مراكز دينية وثقافية ومدارس للكبار والصغار ودور للمعالجة والتداوى واسعاف الفقراء وملتقى ذوى الرأي ونقاط ينطلق منها الجهاد ، ولا يعرف لها مثيل فى اوربا ولم ينتبه المستعمر لنفوذها فى القطر الا بعد زمان طويل ٠

وللكتاب قيمة اخبارية لا تنكر اذ هو نتيجة اطلاع الآلاف من الوثائق التى قد يصعب على المواطن استخدامها وقيمة ادبية لا تقل عن الاولى٠ فالاستشهادات و الاقتباسات كثيرة ، وهناك طرف وملح تبرز غباوة المسؤولين آنذاك وجنونهم ونياتهم السيئةواخبار متنوعة مفيدة حول فترة من تاريخنا لازالت غامضة ٠

فهو حساب ختامى لما بذله المستعمر من جهود لتحطيم الوحدة ووصف لفشله فى محاولته هذه بسبب الاعتداد بالنفس واحتقار المغلوب ٠

وهذا لا يعنى اننا نوافق الدكتورة تورين فى كل ما ذكرت واولت ، وانما اكتفينا هذه المرة بتقديم الكتاب الى قراء « الاصالة » على امل نقل الفصل الاول منه الى العربية فى العدد المقبل ان شاء الله ٠

التعريف
بتراثنا
المخطوط

إعداد: رابح بونار

أزهار الأحجار

لأحمد بن يوسف التيفاشي

التيفاشي هو أحمد بن يوسف بن أبي بكر بن حمدون بن حجاج القيسي شرف الدين ينتسب اوائله الى بلدة تيفاش الكائنة بشمال مدينة قسنطينة من القطر الجزائري وقد ولد بقفصة من القطر التونسي سنة 580 هـ وقرأ بمسقط رأسه على أفراد أسرته وكانت مشهورة بالعلم والادب وكان منهم عم أبيه الذي مدح عبدالمؤمن بن علي خليفة الموحدين حين فتح افريقية سنة 555 هـ بقصيدة يقول في مطلعها :

ما هز عطفيه بين البيض والاسل
مثل الخليفة عبدالمؤمن بن علي

وقد أورد المترجم ضمن مؤلفاته لاقاربه كثيرا من قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية .

وكان والده يوسف قاضيا بمسكيانة وانتقل احمد في صغره الى تونس ، وقرأ بجامع الزيتونة واشتغل بالادب والعلوم الرياضية ، وبرع في ذلك كله ثم سافر الى الديار المصرية ودرس بها ، وأخذ بها عن موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الطائر الصيت ، ثم ارتحل الى دمشق وقرأ بها على تاج الدين الكندي ، وعاد بعدها الى بلده مملوء الوطاب علما . فولاه أبو زكرياء الإكبر أول ملوك بني حفص خطة القضاء ببلده قفصة ، وبعد حين ترك الوظيفة وقصد الى المشرق واصابته في هذه السفرة كارثة مفجعة أورد خبرها في أحد تصانيفه المخطوطة ، وخلاصتها أنه ماتت زوجته وركب هو وأولاده الثلاثة البحر ومعهم مال طائل . فعطبت السفينة في البحر ومات البنون الثلاثة والمال جميعه نجا هو على لوح مسلوبا من أهله وماله .

والتحق التيفاشي بالمشرق وتجول بأنحائه فدخل العراق وبلاد فارس ، ثم عاد الى مصر واستقر نهائيا بالقاهرة عاصمتها حوالي سنة 630 هـ واختلط بالطبقة المستنيرة من الرؤساء والاعيان والادباء ومنهم الصاحب محي الدين محمد بن ندى القرشي وقدم اليه بعض كتبه ، وابو الحسن علي بن سعيد الغرناطي المؤرخ اديب الاندلس المشهور قال المقري : « وجد بخط ابن سعيد في آخر جزء من كتاب المغرب ما نصه : أجزت الشيخ القاضي الاجل ابا الفضل احمد بن الشيخ القاضي ابي يعقوب يوسف التيفاشي ان يروي عني مصنفي هذا وهو « المعرب في محاسن المغرب » ويرويه من يشاء ثقة بفهمه واستنادا لعلمه كتبه مصنفه علي بن موسى بن سعيد في تاريخ الفراغ من هذا الشعر »

ومن اصدقائه بمصر جلال الدين مكرم بن منظور الافريقي والد مصنف لسان العرب ، وقد عرف هذا الاخير بالتيفاشي فقال « كنت في ايام الوالد رحمه الله ارى تردد الفضلاء عليه .. ورأيت شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي في جملتهم وانا في سن الطفولة لا أدري ما يقولون .. غير أني اسمعه يذكر للوالد كتابا صنفه افنى فيه عمره واستغرق دهره ، وانه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب .. وتوفي الوالد ـ رحمه الله ـ في سنة 654 هـ وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدة ... »

علمه وادبه :

اشتهر احمد بن يوسف التيفاشي الجزائري بسعة العلم والرواية ووفرة الادب والاطلاع الواسع على الكتب قديمها وحديثها ويذكر ابن فرحون(2) انه كانت له عناية بعلوم الاوائل فقال : اشتغل بالادب وعلوم الاوائل (الفلسفة) وبرع في ذلك كله . »

وقال عن أدبه وتأليفه انه كان فاضلا بارعا له شعر حسن ، ونثر جيد ومصنفات عديدة وشعره لايخرج عن مستوى شعر عصره في اطاره الفني . فكان يعنى بالصناعة اللفظية كمعاصريه من الشعراء ، فيبالغ في التورية والجناس والتشبيه وغيرها .

ومن نماذج شعره موضوعات مختلفة قوله :

ويوم سرقناه من الدهر خلسة
بل الدهر اهداه لنا متفضلا
اشبهه بين الظلامين غـرة
لحسناء لاحت بين فرعين ارسلا

ومنه قوله في ظهور الفجروزوالالليل :

نبه نديمك ان الديك قد صخبا
والليل قوض من تخييمه الطنبا
والفجرفي كبد الليل السقيم حكى
سر المتيم عن أجفانه غلبا
كأنه بظلام الليل ممتزجا
سمراء تفتر ابدت منسما شنبا
كأنما الفجر زند قادح شررا
فيفحمة الليل لاقى الفجروالتهبا
كان أول فجر فارس حملت
راياته البيض في اثرالدجى فكبا
كان ثاني فجر غرة وضحت
تسيل وجه طرف أدهم ولبا

ومنه قوله في وصف الزلزال :

أما ترى الارض في زلزالها عجبا
تدعو الى طاعة الرحمن كل تقي
اضحت كوالدة خرقاء مرضعة
اولادها در ثدي حافل غدق
قد مهدتهم مهادا غير مضطرب
وافرشتهم فراشا غير ما قلق
حتى ابصرت بعض الذي كرهت
مما يشق من الاولاد من خلق
هزت بهم مهدهم تشاتنهم
ثم استشاطت وآل الطبع للخرق
فصكت المهد غضبى فهي لافظة
بعضا على بعضهم من شدة البرق

ومنه قوله في بقية نار :

كأنما نارنا وقد خمدت
و جمرها بالرماد مستور
دم جرى من فواخت ذبحت
من فوقه ريشهن منثور

ومن نماذجه النثرية الطيبة قوله من فصل عقده للحديث عن تطور الموسيقى في الاندلس وانتقال الحانها من عصر الفتح العربي الى زمانه بالقرن السادس الهجري فقال(3) كان غناء اهل الاندلس في القديم أما بطريقة النصارى واما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه الى أن قامت الدولة الاموية وكانت مدة الحكم

(1) ورقات عن الحضارة العربية بافريقية للاستاذ حسن حسني عبدالوهاب القسم الثاني ط تونس سنة 1966 ص 448 . ـ الاعلان بالتوبيخ للسخاوي ص 162 . ـ الديباج المذهب لابن فرحون ط مصر ، 1351 هـ ص 75 . ـ حلبة الكميت للنواجي نقل عنه فصلا من التراب ص 20 . ـ كشف الظنون في مواضع مختلفة المجلة الآسيوية الفرنسية 1828 م ص 5 . ـ بروكلمان ج 1 ص 495 معجم سركيس ص 651 .

(2) الديباج المذهب ص 75 .

(3) ورقات للاستاذ حسن حسني عبدالوهاب القسم الثاني ص 453 .

الربضى ، فوفد عليه من المشرق ومن افريقية التونسية من يحسن صنعة التلاحين المدنية وأخذ الناس عنهم ، الى أن وقد الامام المقدم فى هذا الشأن « يعنى به على بن نافع الملقب بزرياب » غلام اسحاق الموصلى على الامير عبدالرحمن الاوسط فاعتكف مدة سنين مع جوار محسنات فهذب « الاستهلال والعمل » ومزج غناء النصارى بغناء المشرق ، واخترع طريقة « الاجدالا » بالاندلس ، وقد مال اليها طبع اهلها ، ورفضوا ما سواها ثم جاء بعده ابن جودى ، وابن الحمارة ، وغيرهما فزادوا الحانه تهذيبا ، واخترعوا ما قدروا عليه من الالحان المطربة ، وكان خاتمة هذه الصناعة ابو الحسن بن الحاسر المرسى ، فانه ادرك فيها علما وعملا ما لم يدركه احد وله فى الموسيقى كتاب كبير فى جملة أسفار ، وكل تلحين سمع بالاندلس والمغرب فى شعر متأخر فهو من صنعته ... »

ونثر المترجم فى هذا النص نثر فصيح سهل لم يتكلف فيه السجع الممل شأن غيره من المعاصرين .

مؤلفاته :

للتيفاشى مؤلفات كثيرة فى فنون شتى ، ومن هذه المؤلفات القيمة :

1 – كتابه « فصل الخطاب فى مدارك الحواس لاولى الالباب » وهو موسوعة كبيرة فى مختلف العلوم والتاريخ والآداب قدمها فى القاهرة الى الصاحب محى الدين بن ندى الجزرى القرشى وقد جزأه الى اكثر من اربعين جزءا وجعل لكل جزء موضوعا خاصا كالشفاء لجزء مخصص بالطب .

ومتعة الاسماع فى علم السماع للموسيقى والرقص عند الشعوب المعروفة فى وقته ، وازهار الافكار فى جواهر الاحجار(4) لانواع الحجارة ومعادنها وقد حرره سنة 640 هـ وقال فى مقدمته « ومعظم الخواص المذكورة فى هذا الكتاب مما جربته بنفسى أوثقت بصحة النقل فيه عن غيرى من المعتبرين فأحلت عليه « مسند ذلك اليه » والتيفاشى بهذا الكتاب الضخم فى فنون مختلفة هو أول سابق الى وضع معلمة تاريخية قبل على بن سعيد الغرناطى (622هـ) والنويرى (732هـ) وابن فضل الله العمرى (748 هـ) وصلاح الدين الصفدى (764هـ) والقلشندى (821هـ) وغيرهم ولخص كتاب التيفاشى السابق وهو فصل الخطاب معاصره جمال الدين محمد منظور صاحب لسان العرب وسمى الجزء الاول منه نثار الازهار فى الليل والنهار وعثر عليه أحمد فارس الشدياق وطبعه بمفرده فى مطبعة الجوائب سنة 1298 .

ومن مؤلفات التيفاشى الاخرى :

2 – الدرة الفائقة فى محاسن الافارقة

2 – وسجع الهديل فى اخبار النيل

4 – والديباج الخسروانى فى شعر ابن هانى وهو شرح على ديوان ابن هانىء التونسى الاندلسى .

5 – ودرة اللآلى فى عيون الاخبار ومستحسن الاشعار

6 – ونزهة الالباب فيما لا يوجد فى كتاب فى المحاضرة والحكايات

7 – وقادمة الجناح فى معاشرة النساء الملاح .

هذه بعض مؤلفات هذا الاديب الجليل والعالم الكبير الذى ازدان به القرن السابع الهجرى بالجزائر وتونس ، وقد ترك بمؤلفاته ذخائر عظيمة جليلة .

كتاب
ازهار الاحجار

لما كان كتاب ازهار الاحجار للتيفاشى كتابا غريبا فى موضوعه بالنسبة للعصر الذى ألف فيه ، وقد استغله الاوروبيون بعد ذلك رأينا أن نذكر خلاصة وافية عنه للتعريف به فيما يلى : يقول المؤلف فى مطلع كتابه : (ص 1) هذا كتاب غريب الوضع عجيب الجمع ، عظيم النفع ، ضمنته ذكر الاحجار التى يكون اكثرها فى خزائن الملوك وذخائر الرؤساء مما لا يستغنى عن اقتنائه ملك كبير ، ولا رئيس خطير . لما يشتمل عليه من عظائم المنافع ، وعجائب الخواص ، ولم أشرك بها ذكر شىء من الاحجار المتداولة القديمة المنافع ، ولا ذكر شىء من الاحجار الشاذة لا سيما المعدومة او النادرة الوجود كان ذلك هما لا طائل فى ذكره ، وانما ينتفع بذكر الحاصل فى الوجود لا الداخل فى حيز المعدوم والمفقود .

وجملة عدد الاحجار المثبتة فيه خمسة وعشرون حجرا وهى الياقوت والزبرجد والماس والبادزهر ، والفيروزج والعقيق والجزع وغيرها ويقول فى شرح منهجه الذى سلكه فى دراسة الاحجار الكريمة وتحليل خصائصها : ان سبيلنا أن نتحدث عن كل حجر من الاحجار المعدودة بعد أن نلم بذكر ما له من أسماء فى لغة العرب ، ونذكر فى دراستها لكل حجر :

1 – علة تكونه فى معدنه

2 – ودراسة معدنه وتحليل خصائصه

3 – والتمييز بين انواع جيدة ورديئة وخصائص كل منهما حتى يستطيع الانسان أن يبين الخالص والمغشوش فيه

4 – وذكر خواص كل حجر ومنافعه الطبية وغيرها

5 – واخيرا يذكر قيمته الغالبة فى الاسواق ، ومدى اقبال الناس عليه .

وقد ادرك التيفاشى قيمة كتابه ، وابتكاره فى موضوعه فقال : ان كتابه يمتاز عن غيره من الكتب التى تشاركه فى الموضوع بجمع ما تفرق فيها من خصائص . اذ أن بعض هذه الكتب يعنى بدراسة علة تكون الاحجار ، وبعضها يعنى بذكر منافع الاحجار ، وأما كتابنا فانه جمع الخاصتين وزاد عليهما فكان هذا الكتاب « اعم » فائدة ، وأجدى عناية من سائر الكتب الموضوعة فى هذا الفن . كما يقول التيفاشى .

وهكذا كان كتاب التيفاشى بدراسة الجواهر الكريمة فريدا فى بابه ، وتحفة علمية للدراسات العلمية الطبيعية . ينبغى أن نوليه ما يستحق من عناية واهتمام . وان ننشره عند الامكان – لان فى نشره احياء لتراثنا الفكرى الاصيل ، ودعما لمقومات شخصيتنا الجليلة .

---

(4) اعتنى الاوروبيون بهذا الجزء من قديم فترجمه الى اللاتينية ونشره الهولاندى سنة 1818 م وله ترجمة فى مكتبته لبسيج بالمانيا (الورقات ق 2 ص 456) .

(5) ازهار الاحجار مخطوط المكتبة الوطنية تحت رقم 1503

مع التيارات الفكرية العالمية

« فمن اجل اوربا ، ومن اجل انفسنا ، ومن اجل الانسانية ، يجب علينا يا رفاق ان نلبس جلدا جديدا ، وان ننشىء فكرا جديدا ، وان نحاول خلق انسان جديد .. »

« انها الجملة الاخيرة التى دونها « فرانتزا فانون » فى كتابه الاخير « معذبو الارض » وهى فى نفس الوقت الصرخة الاخيرة ونهاية المطاف فى حياته ..

تطالعنا مجلة « اسبرى ESPRIT » فى عددها 406 من شهر سبتمبر 1971 بمقال لـ « البير ميمى Albert Memmi » عن الحياة التائهة للثائر فانون ، هذه الحياة التى قضى العمر كله فى « البحث » عنها .. انها حياة مستحيلة .

● عرض المجلات الفرنسية

لقد عرف فانون فى حياته القصيرة ثلاث نكسات خطيرة على الاقل

لقد ولد فى ولاية فرنسية وكان يعتقد بأنه فرنسى وابيض . وهذا الاعتقاد جعله يلبى نداء « ديغول » لحماية الوطن الام .. لقد تطوع فانون مثل رفاقه فى الثانويه فى جيش فرنسا الحرة ، ودافع عن « وطنه » و « ثقافته » و « حضارته » .. انه فرنسى ولكن بشرته سوداء فقط !!!! وكان رده عنيفا فى كتابه « بشرة سوداء وأقنعة بيضاء » اذ ان بعض المثقفين من مواطنيه بدأوا يشعرون بالفارق الموجود بين الفرنسى الابيض و«الفرنسى» الزنجى ، فيرد عليهم قائلا : ما هى هذه الحكاية حكاية الشعب الاسود ، حكاية الوطنية الزنجية ؟ اننى فرنسى واهتم بالحضارة الفرنسية وبالشعب الفرنسى

غير ان هذا الوهم لم يدم طـويلا فما ان حل « بالعاصمة » لمتابعة دروسه حتى اكتشف بألـم بانـه - انتى - واسود في الوطن الام . وما أن تب السلام ، وما أن رجعت الطمأنينة الى فرنسا حتى بدأ الفرنسيون يتناسون رفاق الامس في الكفاح الذين جاءوا من بلد بعيد ، ورجعت الحياة الى مجراها الطبيعي واستأنفت العنصرية طريقهـا اليومي الى صفوف المجتمع .. هـذا الاكتشاف المباشر كان وليد الصدمات العديدة والمعاملات السيئة التي يتلقاها يوميا على رصيف شارع باريس أو ليون .. لقد ولى العهد الذي كان يشعر فيه ويقاتل فيه من أجل الشعار الثلاثي الخلاب : حرية عدالة واخوة !

فبعد ان انسلخ من الزنوجة انسلخ من الفرنسة ، ان الانسلاخ الاخير كالانسلاخ الاول حاد وعنيف - اننا نجده يرفض الزنوجة في كتابه « بشرة سوداء واقنعة بيضاء » وهو متأثر في ذلك بآراء جان بول سارتر اذ يقول : لا يمكن لي ابدا ان آخذ من ماهي الشعوب الملونة موهبتي المتميزة ، وفي أية حال لا يمكن لي احياء حضـــارة زنجية غير معروفة .. انني لا اريد أن اكون ضحية خداع عالم اسود ، انني لا اريد ان اقضي حياتي كلها في تعداد القيم الزنجية ..

ان هذا الرفض هو وليد الشعور بالخيانة وبعبارة أخرى فان « الانتي » (وطن فانون الاصلي) هو الذي خان فانون ان بلده عاجز عن تقديم **الدواء النفسي والتاريخي لمأساته** ..

ان فانون لم يجد من يساعـــده ويسانده في تمـــرده ، انـــه يشعر بالضياع ...

ويقول امي « سزار A. Cesaire في هذا الصدد : ان المأساة الحقيقية هي ان هذا الانتيي (فانون) لم يجد بلاده حسب تطلعاته وآماله ، ولو بقي في بلاده لعاش وحيدا وغريبا بـــين أهله ...

فبعد هذا الانسلاخ جاء اللقاء (لقاء صدفة) مع الثورة الجزائرية .. ففي هذا الدرب الطويل الذي قطعه فانون بحثا عن ذاته يمر بمرحلة جزائرية ولكن هل تكون الأخيرة ؟ .. لقد تكلمت على النكسات الثلاثة التي عرفها فانون اثناء حياته واستطيع أن اضيف نكسة رابعة :

موتـــه ...

لقـد مات وعمره لم يتجاوز 36 سنة لقد مات بدون أن يتحصل لا على تأييد الماركسيين ولا تأييد الوطنيين ولا تأييد البورجوازية الوطنية . اما الطبقة التي ايدها والتي يمكن أن تكون حليفته كما كان هو حليفا لها هي طبقـــة - الفلاحين - هذه الطبقة التي يعتبرها الطبقة الثورية الوحيدة في البـــلاد المستعمرة ، لانها المعدمة التي لـــم تستفيد من « مزايا » الاستعمار ، غير أن هذه الطبقة لم تبـــدأ بعـــد في التفلسف « والمناقشة » .. ويـــرى البر ميمي Albert Memmi بان حياة فانون كانت كحياة « غيفارا » من بعض الوجوه .. انها حياة تمرد حيـــاة رومانسي يبحث عن المثل الاعلى في هذه الحياة ... هكذا ينتهي فانون بدون أن يحقق حلمه : تحرير العالم الثالث ووحدته ...

* * *

● مؤتمر حول الزنوجـة ●

انعقد مؤتمر ما بين 12 و 18 افريل 1971 حول الزنوجـة بمدينـــة دكار (السنغال) . وضم هذا المؤتمر 22 دولة ، وجمعت كل المحاضرات والمناقشات في عدد خاص لمجـــلة « صـــولاي » (الشمس) السنغالية . ومن بـين المشاكل التي طرحت في هذا المؤتمر الهام الذي جمع كثيرا من المثقفـــين الافارقة والغربيين المهتمـــين بالمسائل الافريقية . ومن بـــين الاسئلة التي اثيرت في هذا المؤتمر السؤال الهام : هل الزنوجة تمثل مدرسة او اتجاها لم يبق لها مكانا الا في سجل التاريخ ام بالعكس فهي آيديولوجية معاصرة تمكن الزنوج الافارقة والامريكان الناطقين بالفرنسية او الانجليزية من بنـــاء مجتمع عصري اصيل يستطيع المساهمة في بناء الحضارة الانسانية ...

وافتتح الرئيس الشاعر « ليبولد سنغور » اعمال المؤتمر ، وهو أحد زعماء هذا التيار (الزنوجة) بمحاضرة تحمل عنوان ـ مشكـــلات الزنوجة ـ ويطرح سؤالين : هل توجد مشاكل خاصة بالزنوج وذلك من لون بشرتهم أو لانهم ينتسبون الى جنس يختلف عن الجنس الابيض أو الاصفر ... وما هي هذه المشاكل وبأى طريقة تطرح ؟

ان كلمة الزنوجة طرحت مشاكـل عديدة من الناحية اللغوية قبل أن تصبح مفهوما Concept . والزنوجـة Négritude كما يقول سنغور مفهوم « اكتشفه » « امى سزار » بناء على قواعد اللغة الفرنسية وهى آخر الامر تعنى : طريقة عمل واتجاه زنجى ، عالم الزنوجة والحضارة الزنجية »

ويورد سنغور تعريفا آخر للزنوجة : هى الاعتراف البسيط بكونى زنجى ، والقبول بذلك وبمصير الاسود ضمن تاريخه وثقافته ... » .

فموضوعيا الزنوجة : ثقافة ، أى هى مجمـوع القـيم الاقتصادية والسياسية والثقافية والاخلاقية والفنية ... ان هذه القيم ليست قيم شعوب افريقيا السوداء وحدها بل اقليات امريكا وآسيا ، هذه القيم التى جعلت علماء الاجتماع من اتنوغرافيـين واتنولوجيـين وكذلـك المؤرخون يهتمون بالحضارة الزنجية ، ومكنتهم من القيام بمقارنات بـــين مختلف الاقليات الملونة

ان هذه العملية ليست جديدة اذ نجد اليونان فى العصور الغابرة تتكلم عن هذه القيم المشتركة والعلاقة التى تجمع هذه الاقليات الملونة ..

وذاتيا هى قبول هذه الحالة والعمل على أحيائها وتطويرها ان هـــذه النظرة التاريخية هى فى الحقيقة العودة الى الاصل والارتكاز على قاعدة صحيحة تمكن الزنجى من الانطلاق بخطى ثابتة . وأما التطوير فهو عائد الى النظـــرة الشمولية أى النظرة الى الحضـــارة الانسانية وهى مهمّة مناضلى الزنوجة » .

ابن عمار الصغـير

■ عرض المجـلات الانجليزيـة ■

في جنوب افريقيا :

كنيسة بيضاء كالحكومة

كتب الاب جون ديغز الذى طردته حكومة جنوب افريقيا لآرائه الدينية فى المشكلة العنصرية كتب فى جريدة الاوبزيرفر اللندنية يقول :

« لقد اعلنت حكومة جنوب افريقيا الحرب

على الكنيسة أيضا . غير ان الكنيسة ليست قوية ولا متحدة فى معارضتها لايديولوجية وعنف نظام جنوب افريقيا . وهناك كثير من اعضاء الكنيسة الذين يتقمصون شخصية الارهابيين أكثر من دفاعهم عن الضحايا ووقوفهم ضد النفى والغارات ومختلف أنواع الاستفزاز . وقد إتلفت الكنيسة الى حد كبير . وستجد صعوبات متزايدة فى أداء دورها كناصح وواعظ انسانى اذا حرمت عليها النزعة الأنسانية فى وعظها .

غير أن الامر يتطلب قبل كل شىء ادخال تغيير فى بنية الكنيسة نفسها . فان أغلب الذين تعرضوا للهجومات اخيرا هم من البيض الذين يحتلون مراكز متوسطة فى سلم الكنيسة . واننا لم نعلم اننا لم نكن نصبح حتى رجال دين يحتلون تلك المناصب لو لم نكن من البيض ، أما السود فما عليهم الا ان يتلقوا الوعظ . وقد كان التكوين الابيض للكنيسة مساهمة فى اتمام المساعى العنصرية لجعل كل اشكال السيادة بيضاء . فالسياسة فى جنوب افريقيا ليست سوى حديث البيض فيما بينهم عن السود . وعند ما نتخطى هذه المرحلة ويصبح السود اعضاء فى كنيسة لله وليست للحكومة ، عندها يمكن أن يكون للكنيسة احترام ، فهل يصح أن تبقى الكنيسة بيضاء كالحكومة وممثلة لجميع السكان فى آن واحد ؟ .

متاعب البابا

وكتبت جريدة الايكونومست البريطانية تقول تحت هذا العنوان :

« ان ما يجرى فى اولستير يقلق البابا كما يقلق كثيرين من غيره . وفى هذا العالم الذى تميزه الاعتبارات السياسية أكثر من غيرها ، لا يستطيع البابا بول أن يتجاهل أن المشكلة القائمة فيها شحنات دينية قد تكون وراء كل اسباب الصدام الاخرى بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد اطلع البابا بعض محدثيه من الحجاج على افكار اعتبرها عدد من البريطانيين مساهمة فى زيادة خطورة الحالة ، اذ قوت معنويات الكاثوليكيين الارلنديين وأثارت السخط لدى غيرهم . فلماذا يصر البابا على التدخل فى الشؤون البريطانية ؟ ان البابوات يعتبرون الفاتيكان غير ذات حدود جغرافية وقد تعودوا ان يكون لهم موقف فى الشؤون السياسية . وبالتالى لايستطيع بول أن يشذ عن القاعدة .

والبابا بول باعترافاته نفسه رجل تؤرقـــه المتاعب وهو يتابع تطورات منطقة نفـــوذه الدينية قبل انعقاد الملتقى 212 للقساوسة الذى يشبه الى حد كبير برلمانا رومانيا كاثوليكيـــا والذى ينعقد فى 30 سبتمبر .

وليست العلاقات الخارجية وحدها هى الــتى تقلق ليالى البابا . ولم يكن سابقوه يتمتعـــون بسمعته فى مناطق كثيرة من العالم ، وحتى عدد من القادة الشيوعيين أنفسهم مضوا الى حد الاشادة بمساعى البابا من أجل السلام . ولكن المباركـة التى تنالها سياسته الخارجية من أطراف عـديدة لا تقارن بما تثيره الازمة الداخلية للكنيســة من متاعب . فقد أصبحت التحولات وعدم التأكد من سمات الكنيسة الكاثوليكية . ويفـرح عـدد من الكاثوليكيين ويرون فى ذلك دليلا على اصـــلاح جديد داخل الكنيســة التى تطـالب الآخـــرين بالاصـــلاح » .

ســلام العقــل

وتحت عنوان « سلام العقل » سئلت العـالمة الاجتماعية من طرف مجلة لوك عن الطريقـة التى تحقق بها السلام لعقلها والطريقة التى تعتبرهـا مفضلة فى نظرها لمنح العقل هدوءا ضروريـــا وسط مشاغل الحياة . فقالت الكاتبة التى تقـوم الآن ببحث جديد فى غينيا الجديدة .

«اننى أخطط لحياتى بحيث أتجنب الاضطرابات والمفاجآت . وادرك اننى خلال وقت معين . ثلاثة أشهر أو عام سأكون مشغولة بانجاز عمل مـــا . وان هذا العمل يتطلب بالضرورة ادخال تغيـــير فى الزمان والمكان . وبحيث أتجنب الوقــوع فى وتيرة واحدة . وربما يكون هذا العمل عبارة عن عشرة أيام هادئة للغاية أتفرغ فيها للكتـــابة عند ما أكون أستاذا زائرا فى أحد مدارس الطب النفسانى ، وربما تكون خمسة أيام أقضيهـــا محاضرات فى ندوة عائمة على شواطىء اليونان تتخللها زيارة آثار الحضارات التى سبقتنـــا بآلاف السنين . وربما تكون عطلة اسبوع أقضيها مع العائلة والاطفال الذين تابعت نموهم . وربما تكون زيارة لايران أو دراسة للمرسوم على جدران برج بابل بالعراق . واننى لا أجد الحياة مرهقـة بحيث احتاج للراحة من أجل الراحة . وانمـــا أريد أن أتأكد اننى أقوم بانجاز عمل معـــين فى وقت معين . ان احصل على التغيير . ذلك انـــنى لا انتمى الى جيل اللحظة كالطفل ، ولقد تعلمـت أن أنتظر . وقد دعم السفر بالسفن عبر المحيط عادة الانتظار المفيد فى نفسى » .

الامريكيون يعطون للشيطان حقه

قال الفيلسوف السويسرى دوشى دو رجمون فى دراسته الكلاسيكية عن « الشيطانيــة » فى المجتمع المعاصر قبل ربع قرن : « ان ما ينقص النظم الديمقراطية حقا والولايات المتحدة خاصة هو الايمان بالشيطان » . واذا كان قليـــل من الامريكيين خارج عروة الانجيل مستعدون لاعطاء

الشيطان حقه فان عشرات الالاف اليـــوم فى الولايات المتحدة بعضهم ممن ينتمون للطبقـــة المتوسطة وحملة الشهادات الجامعية غارقـــون فى الشيطانية والاشكال الاخرى للسحر الأبيض والاســود .

ويعزى هذا الاهتمام بالمذهب الشيطاني من جهة الى طفو الافكار والسلوكات التى كانت تمارس فى الكتمان ومن جهة أخرى للنشوة التى يبرها الادمان على المخـــدرات . ولكن هذا المـــذهب انتزع اكثر انصاره من الايمان الاعمى بالقـــوة الشيطانية فى هذا العالم الذى نادرا ما تنتصـر فيه ارادة الخـــير .

وأتباع الشيطان الجدد شأنهم فى ذلك شـأن أول الاتباع لمذهب جديد يحاولون أن يكـــونوا عمليين . وقد أدى بهم ذلك الى ارتكاب أعمال عنف جنسية وجسدية ربما كانت تؤدى فى ظـــروف اخرى بالولايات المتحدة الى عقوبة وقف الحيـاة فى مرتكبيهـــا .

وفى الشهر الماضى فقط ارتكبت كيم براون وهى من اتباع الشيطان وتقسم به انها رأتـه فى حفلة سوداء , جريمة قتل فى شخص عجوز يبلغ من العمر 62 عاماً اذ طعنته حتى الموت وقالـت للمحكمة : « لقد تمتعت بذلك » وهى ما تـزال تؤدى الطقوس للشيطان فى زنزانتها بسجـــن ميامى . وقد قضت محكمة ميامى للقاتلة الشقراء بسبع سنوات سجنا فقط . وهو حكم ضعيـــف أكدت عند ماسمعته انه جاء بفضل تدخل الشيطان لدى المحكمة .

وجريمة الآنسة براون هى الاولى التى ترتكب فى هذا الصيف باسم الشيطان وتحاول الشرطة وعلماء النفس الذين درسوا جميع الجرائم التى ارتكبت أن يرفضوا العناصر الشيطانية فيهـــا ، ويلحوا على أنها ناجمة عن خلل عقـلى » .





نص الكلمة التي ارتجلها وزير العدل الدكتور بوعلام بن حمودة

بمناسبة الذكرى المئوية لثورة بني مناصر

بسم الله الرحمن الرحيم ،

والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ،

اما بعد ، ايها الاخوان ، اننا جئنا لهذه القرية تلبية للدعوة التى وجهت الينا من طرف بلدية شرشال وبلدية امناصر لمشاركتكم فى الاحتفالات بعيد الثورة ـ ثورة ١٨٧١ ـ كما شاركنا سكان الشرق الجزائرى فى الاحتفالات بنفس الثورة التى قامت بقيادة البطل الشيخ محمد المقرانى ·

فيجدر بنا فى هذا المقام ان نترحم على أرواح جميع الشهداء الذين سقطوا فى ميدان الشرف لتحرير الوطن ولاعادة العزة والكرامة للشعب الجزائرى ، فبفضل تضحياتهم نحن هنا نحتفل بالحرية وتحت ظل الراية الجزائرية بكل مجد وعز · وقبل ان ندخل فى صميم الموضوع يجدر بنا ان نوجه الشكر الخالص للسلطات المحلية التى نظمت هذا الاحتفال وبذلت مجهودات كبيرة ، كما نخص بالشكر سكان هذه الناحية الذين تجمعوا فى هذا المكان ، وربما كثير منهم قد مشوا مسافات شاسعة فى الجبال ليصلوا الى هذه القرية ·

أقيم هذا الاحتفال ببلدية بنى مناصر يوم 17 جوان 1971

فثورة ١٨٧١ لم تكن ثورة مقصورة على عائلة المقرانى كما ادعى بعض المؤرخين ، والدليل على ذاك وجودنا هنا ، فالثورة لم تكن مقصورة على بلد ، على ناحية من نواحى القطر الجزائرى ، بل انتشرت الى باتنة وانتشرت الى سوق هراس وانتشرت الى الاغواط وانتشرت كذلك الى ناحية مزاب الخ ··· الثورة اذن كانت ثورة وطنية لا ثورة عائلية تهدف الى اهداف مادية او الى اهداف دنيوية ، انما المقصود منها هو تحرير الوطن ، والظروف آن ذ ك واضحة ، فرنسا كانت قد خسرت فى حربها مع الالمان فى المعركة الشهيرة تسمى (سدان) والشعب الجزائرى الذى لم يضع السلاح أبدا ولم يتوقف تماما عن المقاومة اخذها فرصة سانحة لتحرير الوطن نهائيا من الاستعمار الفرنسى ، وهذا دليل يفسر لنا لماذا رفع الشعب الجزائرى السلاح فى السنة بالذات آي سنة ١٨٧١ وذلك بعد أشهر قليلة بعد انهزام فرنسا ازاء الالمان ·

نبذه من تاريخ الجزائر :

اذن ثورة ١٨٧١ ثورة وطنية ربما بعض الكتب لم تذكر انه وقع اتص ال بين النواحى المختلفة ولكن من جهتنا لانستبعد ذلك ، لانستبعد ذلك لان بعض الاقوال الشعبية تذكر بان كثيرا من الاخوان فى الشرق الجزائرى التجأوا الى هذه الناحية بعد ان هزموا بالشرق الجزائرى والتجأوا إلى هذه الجبال واستقروا فى هذه الناحية ، ولكن المطلوب من المؤرخين الشبان ـ الشبان الجزائريين ـ ان يعيدوا النظر فى هذا التاريخ ويعيدوه الى الحقيقة الموضوعية · ان الشعب الجزائرى لم يضع السلاح ويكفينا دليلا على ذلك ان النظام المدنى لم يحدث الا سنة ١٨٨٠ كان النظام السائد فى الجزائر نظاما عسكريا ، معناه ان فرنسا كانت محتاجة الى الشدة والى العنف للاستقرار فى الجزائر · والمعارك التى خاضها الشعب الجزائرى قبل سنة ١٨٧٠ معارك عديدة ، وحتى فى هذه الميادين ، فالامير عبد القادر نفسه قاد معارك عديدة ولقن دروسا قيمة بفضل الحرب التى شنها على المستعمرين وقد كافح ١٧ سنة قبل ان يتوقف عن الكفاح لان بعض الدول الشقيقة خانته فى ذلك الوقت هذا هو السبب ، ولكن الشعب والامير عبد القادر قد أدوا واجبهم نحو الوطن ، ولم يضع السلاح الا امام القهر والاضطهاد الفرنسى ، وهذا لايعنى ان الثورة انتهت بتسليم الامير عبد القادر ، فالتاريخ معروف هناك ثورة البابور ، وثورة بوعمامة ، وثورة اولاد سيدى الشيخ ، وثورة الاوراس ، وثورة الجنوب فى (الصحراء) سنة ١٩١٦ ، والمجزرة الرهيبة التى قام بها الاستعمار فى ١٩٤٥ ، وبعد ١٩٤٥ هناك النهضة الكبرى وهى ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ ·

الشواهد التاريخية اذن كبيرة تبرهن كلها على ان الشعب الجزائرى معروف بهذه السمة

والسمة التى اتسم بها وتبين ان الشعب الجزائرى له روح الكفاح وروح المقاومة ، لان الشعب الجزائرى حتى قبل الدخول الفرنسى لم يخضع ولم يرض بالدخول الاجنبى بما فيه الدخول الرومانى والدخول الاسبانى ، لم يرض بالدخول الاجنبى فى ارضه ، اذن هذه الروح – روح المقاومة – برزت فى سوابق عديدة وخاصة فى ١٨٧١ ، وفى هذه المناسبة من اللائق ان نعطى بعض التوضيحات وبعض التفاصيل والحقائق فنزيل الغموض فى هذا الميدان اي ميدان سنة ١٨٧١ ، وكذلك لننير الاذهان ·

الذاكرة الشعبية واثرها فى الثورات العديدة :

ومن الجدير بالذكر ان الذاكرة الشعبية لم تنس هذه الثورة ، وقد اخبرنا الشعب ان ١٨٧١ كانت وقعت ثورة فى هذه الناحية ، وكانوا يعرفون كل اسماء الشهداء ، ويعرفون كذلك كل اسماء الخونة وهذا معروف ، واتيحت لنا الفرصة حين اتصلنا بالشعب فى هذه الناحية ان نرى مقبرة الشهداء فى ناحية بوحرب ، العظام اي عظام الشهداء رايناها باعيننا فى ناحية بوحرب وقد اكد لنا الشعب آنذاك ان هذه الرفات وهذه العظام هى عظام المجاهدين لسنة ١٨٧١ ، وكذلك حينما قامت البلدية فى امناصر بتسجيل بعض الاقوال ، اقوال الشهود ولا سيما الشيوخ الذين تجاوز عمرهم ١٠٠ سنة (منهم شيخ فى عمره ١١١ سنة) استمعت بنفسى الى التسجيل الذى قام به هذا الشيخ ورأيت ان الاقوال التى فاه بها هى اقوال توافق ما قرأناه فى بعض الكتب ، اذن ذاكرة الشعب ذاكرة قوية ، وتدل على ان الشعب الجزائرى لم ينس تلك الايام ، ايام ثورة ١٨٧١ ، لان كل سكان الناحية فى تلك السنة فروا الى الغابات التجأوا نساء واطفالا وشيوخا مدة شهور فى هذه الغابات المجاورة ، هذه الثورة كان لها صدى وكل السكان سمعوا بان هناك ثورة قام بها المقرانى والشيخ الحداد رحمهم الله ، قالوا يجب علينا كذلك ان نتحرك وفرنسا قد خسرت الحرب مع الالمان يجب ان نرفع السلاح لاخراجها نهائيا من هذه الارض الطيبة · اجتمع سكان هذه الناحية فى سوق الاحد واعلنوا الجهاد ، أعلنوه بصفة رسمية ، وقالوا نحن نرفع السلاح لنجاهد فى سبيل الله ، ولنحرر الوطن من هذه القوات الاستعمارية المحتلة ، وبما ان كل حركة ثورية تحتاج الى رئيس ، فكروا فى تعيين شيخ من الشيوخ ومناضل من المناضلين وهو الشيخ مالك البركانى رحمه الله ·

زيارة الامير عبد القادر الى ناحية شرشال :

وقد شاع فى الناس كذلك فى هذه الناحية بان الامير عبد القادر رحمه الله جاء الى شرشال وصلى بالمسجد الذى أصبح مستشفى والذى اصبح منذ هذه الصبيحة يحمل اسم الشهيد

مالك البركاني ، واتصل بسكان الناحية وطلب منهم ان يعينوا له مناضلا ورجلا في هذه القرية ليسميه خليفة له ينوب عنه في ناحية المدية وعينوا له سيدي محمد بن عيسى البركاني وعاش عشرة سنين وهو في المدية ، وحينما احتلت فرنسا مدينة المدية لم يضع السلاح هو كذلك ، بل خاض المعارك بضواحي المدية مع الامير نفسه ، ومعركة كبيرة وعنيفة فقد فيها الجيش الفرنسي المئات ، وفقد فيها كذلك الجيش الجزائري تحت قيادة الامير عبد القادر وسيدي محمد بن عيسى البركاني المئات ، وكان يخوض المعارك بنفسه .

وصف المعارك الطاحنة :

وحينما دخل الفرنسيون الى ناحية المدية فر الى ناحية امناصر ويوم احتلت فرنسا مدينة شرشال رجع سيدي محمد بن عيسى البركاني واتصل بسكان امناصر وكون جيشا وهجم على مدينة شرشال هجوما جديدا كان ذلك في سنة ١٨٤٨ ، هذا اذن يبين بان الشعب الجزائري لم يضع السلاح أبدا ، وفي ١٨٧١ حينما وقعت المعركة ـ المعركة الرهيبة ـ فوج توجه الى الجبل وفوج توجه الى مدينة شرشال وفوج آخر الى سيدي اعمر ، وهاجموا الناحية هذه وهاجموا كذلك حجوط ، والمعركة امتدت الى حمام ريغة وحتى الى شعبة « القطاع » اذن الهجوم وقع على حجوط ، على سيدي اعمر وكل الناحية واتجهت كذلك المعركة الى حمام ريغة بكل شدة حتى اصبحت المواصلة بين شرشال وقورايا مقطوعة وبين شرشال وحجوط مقطوعة ، وكل الطرق المؤدية الى شرشال مقطوعة ، وهذا دليل على شدة المعارك .

رد فعل فرنسا :

انقسم المجاهدون الى أفواج فمنهم من اتجه الى شرشال ، ومنهم من اتجه الى امناصر ، وهاجموا كل هذه النواحي ، ووقعت معارك عديدة ألقي القبض على عدة أسرى ، واستشهد من استشهد وبادروا الفرنسيين بالهجوم ، واخذوا كل احتياطاتهم ، وربما كان يمكن في ذلك الوقت ان يحتلوا مدينة شرشال وغيرها من المدن وكان رد فعل فرنسا قويا وشديدا ، فأحرقت الديار وقطعت الاشجار مثلما فعلت في الحرب التحريرية وفضل المجاهدون ان تقع المعركة الحاسمة في العناصر ، وكلكم تعرفون ما وقع في معركة العناصر عند ما التقى الجيشان حيث تغلب فيها الفرنسيون ، والعناصر له تاريخ حافل في الحرب التحريرية ويعترف شاهد فرنسي بان ـحية الزاوية كانت مغروسة بأشجار وكانت غنية ، وفي صورة أنيقة وجميلة ، وكل هذه الخيرات أحرقت وأتلفت باعتراف الكولونيل الفرنسي واضطر الشعب الى الفرار ، والى الالتجاء بالغابات ، ولكن يجب ان نقول بان الشعب كان يعتبر هذه الثورة ثورة وطنية وانها خلفت بذورا للثورة

الكبـــرى ٠

مساهمة الناحية فى الثورة التحريرية الكبرى :

وحين اتصلنا بالشعب فى هذه الناحية لـم ينس ثورة ١٨٧١ وارتكزنا فى الدعاية السياسية التى قمنا بها فى اطار جبهة التحرير الـــوطنى وجيش التحرير الوطنى فى هذه النقطة بالـــذات لنذكره بالتضحيات التى قام بها اجداده وبهـذه المناسبة يجب ان نعلن ان هذه الناحية بصفة عامة بقطع النظر عن بعض الافراد الخونة ولكن بصفة عامة بان الناحية كلها كانت تساند الثـــورة الكبرى ، وكانت مع جيش التحـــرير الوطنى ، وقد قبلت كذلك التضحيات ، فهذه الناحية كانت لها مساهمة كبيرة فى تحرير الوطن وكذلـــك تضامنا مع النواحى الاخرى ومع الشعـــب الجزائرى باكمله ، هذا المجهود الذى بـــذله أجدادنا قد اتى بالثمـــار ٠

انجـــازات الثـــورة :

وهذه الثمار قد ظهرت سنة ١٩٦٢ حينما انتزع الشعب الجزائرى بالقوة وبقوة السلاح الاستقلال الوطنى ، والحرية والكرامة ، هذه الثورات كلها تبلورت فى سنة ١٩٦٢ واستطاعت الجـــزائر بفضلها ان تحقق النصر وان تحقق الاستقلال ، وبعد الاستقلال لم نكتف بالـــراية ولم نكتف بالاستقلال الصورى بل تجاوزناه الى الاستقلال الاقتصادى واعطينا محتوى لهذه الثورة حيـن استرجعنا الخيرات كلها ، وحين استرجعنـــا المصانع وقررنا ان نستغل المواد الخام بانفسنا حتى لا نكون فى تبعية بالنسبة للخارج وقـررنا كذلك ان نحول هنا فى الجزائر كل هذه المـواد وذلك بفضل الاطارات التى نكونها يوميــــا ، والدليل على ذلك العدد الضخم من التلاميـــذ بالمدارس الابتدائية والثانوية والمدارس العليـا ، والمدارس الفنية التى تشيد الآن فى الجزائـــر المستقلة ، والمحتوى الآخر الذى اعطيناه لهـذه الثورة المجيدة هو محتوى اجتماعى ، فعزمنـا كل العزم على تحقيق العدالة الاجتماعية بيـن الافراد وعلى تحقيق العدالة الاجتماعية بيـــن الجهات ، ويمكن لنا ان نقول : ان سيـــاسة العدالة الاجتماعية بين الجهات قد اعطت الثمار لاننا زرنا الولايات التى منحت لها برامج خاصة واستطعنا ان نطلع على التقدم السريع الـــذى احرزته هذه النواحى ، وعلى الوجه الجـــديد الذى اكتسى هذه النواحى بفضل البرامج الخاصة التى حظيت بهـــا ٠

ويسرنا بهذه المناسبة ان نعلن ان الاخ هوارى بومدين قد اكد لنا امس ان ولاية الاصنام ستتمتع ببرنامج خاص فى السنة القادمة ٠ وهكـــذا تستجيب السلطة الثورية للامـال التى كان سكان هذه الناحية يعقدونها عليها وهم متعلقون دائمـا بمبادىء هذه الثورة ، ومتعلقون كذلك بسلطتها الثورية ويؤمنون بان السلطة الثورية لم تنسهم وان السلطة الثورية ستحقق الاهداف التى سقط من اجلها اكثر من مليون شهيـــد ٠

والسلام عليكم ورحمة الله ٠

نص الكلمة التى ألقاها الأخ مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

بمناسبة الذكرى المئوية لثورة بني مناصر

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أمام المرسلين ،
حضرات الاخوة :

أود ان أسجل دعوة الاخوان بأحر الشكر لجميع السلطات المحلية هنا ، وكذلك للجماهير التى اقبلت على هذا الاجتماع ، أقول الشكر على هذه الفرصة التى هيأت لنا لزيارة هذه الجهة أولا ، وكذلك للمشاركة فى هذه المناسبة التاريخية العظمى .

ولقد سبق لنا أن شاركنا فى بعض هذه المناسبات بالاحتفال بهذه الحلقة من الحلقات الكبرى للكفاح التحريرى لشعبنا على مر العصور وهو حلقة 1871 . اقول شاركنا فى الحلقات الاولى فى الشرق الجزائرى فى صدوق مسقط رأس الشيخ الحداد . والمكان الذى أعلن فيه الكفاح من طرف الشيخ

الحـــداد فى سوق صدوق ، وكذلك مجانـــة فى المـكان الذى اعلن فيـه المقرانى الكفاح يوم 14 مارس 1871 ، وفى القلعة كذلك حيث دفن المقرانى .

أقول لقد سبق لنا ان شاركنا فى هذه المناسبات التى يرجع الفضـــل فيها كله الى السلطات المحلية هناك ، والى جماهير المواطنين ، كما هو الحال ايضا فى هذه المناسبة حيث يرجـع كل الفضل الى السلطات المحلية هنا على مستـوى الولايـة ، وكـذلك الى جماهير الشعب التى شاركت المشاركة المباشرة فى انجاح هذا الاحتفـــال العظيـم .

فكفاح 1871 كما قال الدكتور ابن حمودة لـم يكن مقتصرا على جهة من جهات الوطن ، كمـــا أكد وظل يؤكد الاستعمار ليبين أن هذا الشعب كان غير منظم ، وبأن هذا الشعب مجموع أشتات من شعوب وقبائل متنافرة وفوضوية غير منظمة .

الحقيقة غير ذلك ، الحقيقة كما أكدته مصـــادر تاريخية فرنسية أيضا ، لانه اذا كان هناك من المصادر الفرنسية ما كان أغلبها مزورا ، ومحرفا للتاريخ ، فهناك بعض المصادر القليلة حقيقة التى أثبتت الحقيقة ربما لا اخلاصا للحقيقة ولا نزاهـة علمية منها ، ولكن نظرا للمعارضة الشديدة ، نظرا للخصومات بين الاحزاب السياسية اذ ذاك ، بين الاتجاهات المختلفة ، بين السلطات الفرنسية اذ ذاك ، ولهـذا اضطر البعض من المؤرخـــين الفرنسيين ليفضحوا بعضهم بعضا الى قول الحقيقة فى الجزائر .

اذن فبفضل المعارضات والخصومات التى كانت بينهم اذ ذاك فى فرنسا ، فى البرلمان الفرنسى وفى الصحافة وفى غيرها ، وفى الجيش الفرنسى أيضا ، فبفضـل تلك المعارضـــات والخصـومات والتنازعات بينهم استطعنا ان نتمتع بشىء من الحقيقة التى نجدها فى بعض مصادرهم ، فبعض هذه المصادر نزيهة للواقع ، لا اخلاصا للحقيقة ولكن بحكم الواقع الذى ذكرناه ، بفضل هـذه المصادر استطعنا أن نعرف جزءا كبيرا من حقيقتنا وهى أن هذا الشعب الذى كان دائما رمزا للكفاح أثناء التاريخ الطويل كان أيضا فى ثورة 1871 كما كان قبلها منظما ومنسقا للثورة ، وموحدا ومجمعا على الكفاح ، ومجمعا على الجهاد ، لانه كما قال الاخوان من قبلى أيضا ، وفى الواقع لم يبق لى كلام كثير أقوله فى هذا المجال لان الاخوان من قبلى قالوا كل ما يمكن أن يقال ، ولكنه تأكيـــد فقط ، وذكر بعض التفاصيل فقط للجوهر الذى كانوا قالوه ، أقول أن هذه المناسبة أيضا التى

أتاحها لنا بنو مناصر ، وهي مناسبة تدشين مسجد وربط تدشين المسجد بالاحتفال بذكرى ثورة 1871 اقول في هذا الربط ، في هذا الجمع بين الشيئين وهما في الواقع شيء واحد ، أقول في هذا الجمع أكثر من مغزى وأكثر من معنى وأكثر من رمز ، لان ثوراتنا المتعددة كلها قامت باسم الجهاد ، باسم الاسلام .

هذا هو الواقع ، فالمجاهدون منذ الامير عبدالقادر كانوا ينظمون جهادهم باسم الاسلام ، وكانوا ينظمون مقاومتهم وتحريرهم للبلاد باسم الاسلام . فبيعة الامير عبدالقادر نفسها ، وبيعة أبيه محي‌الدين ، كانت في مسجد البيعة في مدينة معسكر الآن ، ولا يزال المسجد قائما .

تقرر ذلك في المسجد ، في الجامع قرروا بيعة الامير عبدالقادر ، ما معنى البيعة ؟ أي تكليفه بالدفاع عن شؤون المسلمين ، ولهذا كان الامير عبدالقادر يعتبر نفسه دائما أميرا للمؤمنين للجهاد ، لا أميرا للمؤمنين كما يفعل البعض لاستغلال النفوذ ... الخ . ولكن للدفاع عن الامة للدفاع عن الاسلام .

وكان المجاهدون خلال التاريخ الطويل ينظمون جهادهم باسم الاسلام أيضا ، فثوار 1871 في مختلف جهات البلاد ، حتى تلك الثورات التي قامت تحت قيادة بعض النساء الفاضلات ، مثل مقاومة جبال جرجرة في سنة 1857 وفي 1871 ، كانوا يسمون أنفسهم بالمسبلين ، ما معنى المسبلين ؟ وهو اسم بقي لنا أيضا في ثورتنا الاخيرة : المسبل معناه الذي ضحى وقدم نفسه في سبيل الله ، في سبيل الدين ، في سبيل الدفاع عن البلاد في سبيل الدفاع عن الامة .

اذن ففي هذا الربط الذي رمزت اليه اليوم وهو تحقق منذ زمن طويل وأعطى مغزاه اليوم بنو مناصر ، بفضل هذا الجمع بين تدشين المسجد والاحتفال باستشهاد البطل مالك البركاني اقول أكثر من مغزى ، فالكفاح في الواقع لم يقف عند نقطة معينة من البلاد ، فقد كان دائما ممتدا وشاملا كما قال الاخوان من قبلي وأكد عليه الدكتور ابن حمودة .

فثورة الامير عبدالقادر كما تعلمون شملت البلاد كلها من الحدود الى الحدود ، فقد كان له خلفاء ، كان يسميهم خلفاء منهم محمد بن عيسى البركاني القريب لمالك البركاني ، فكان يسمي خلفاء في جميع جهات البلاد ، أي ولاة ، كانوا ولاة في جميع انحاء البلاد ، وكان ذلك الكفاح قد نظم تنظيما محكما ، وكانت له مصانعه التي صنعت حتى المدافع .

فعندما قضت القوة الجبارة ، ألقوى المادية الغاشمة على كفاح الامير عبدالقادر ، هل وقف

الكفاح عند ذلك الحد ؟ لم يقف بل استمر على حلقات محكمة . حلقات منتظمة متواصلة مستمرة . فقد كانت ثورة بومعــزة ، ثورة بوبغلة ، ثــورة بوعمامة . ثورة أولاد سيــدى الشيخ ، ثـــورة لالا فاطمة نسومر . ثورة المقرانى والحداد ومالك البركانى ، وابراهيم البركانى ، وناصر بن شهرة فى الصحراء.وبومزراق فى الصحراء أخى المقرانى، وبوشوشة وغيرهم .. وغيرهم .. فقد استمر ذلك الكفاح على حلقات متواصلة .

ولنرجع الى ثورة 1871 . لقد انطلقت ــ كمـــا تعلمون ــ فى الشرق الجزائرى ، انطلقت فى سوق اهراس بالمناوشات كمـــا يقـــول الاستعمار ، بمناوشات وطلقات نارية . وفى نفس اليـــوم استمرت الى ميلة . والميلية . وعين البيضة . واستمرت الى النمامشة والحنانشة فى الاوراس واستمرت الى الجنوب . وفى آخر سنة 1870 قبل أن تبتدىء ثورة 1871 كان ناصر بن شهرة فى الصحراء ينظم الكفاح ، كان بدأ بالكفاح فعلا . وكان معه مصطفى بوشوشة كذلك فى الصحراء أيضا . وقد انضم اليهما محيى الدين بن الامير عبدالقادر وهو الابن الثانى للامير عبدالقادر . جاء من سوريا لينضم الى هذا الكفاح .,واستمر ذلك الكفاح فى أماكن محددة فى الواقع . ولم ينظم على مستوى البلاد كلها . كان منظما هناك فى مناطق محدودة ولكن كان يهيىء لتنظيم أشمل وأعظم ،

وهذا التنظيم الاشمل والاعظم فى الواقع انطلقت شرارته الاولى فى 14 مارس . وكما قال الاخوان من قبلى لقد بدأ التنظيم لها باتصالات على مختلف البلاد . اذ لم يشمل الجهاد فى اليوم الاول مختلف انحاء البلاد . لقد كان التنظيم والاستعداد يشمل مختلف انحاء البلاد كمـــا تدل على ذلك الكتب الفرنسية نفسها . لا أذكر منهـا الا مصدرين أو ثلاثة . مثلا كتاب « ثورة 1871 » للكولونيـــل روبين ، وكتاب « ثورة 1871 » كذلك للكولونيل رين . تجدون هناك التفاصيل الكثيرة مع ارادة التزوير والتشويه والمسخ للحقيقة .

ولكن هناك تفاصيل تبدو من حيث يريدون أو لا يريدون تفاصيل حقيقيــة . وفى 14 مـارس ، وقبــل 14 مـارس فى ينــاير (جانفى) اتصــل المقرانى وكان باشاغا اذ ذاك . كان باشـــاغـا معناه كان يخدم الاستعمار . كان باشاغا فى مجانة وكان حكمه يصل حتى الصحراء . ووصل الى درجة باشاغا طبعا ولكن لا ينبغى كما قال الدكتور ابن حمودة قبلى ، لا ينبغى أن ننجر وراء الذين يريدون أن يمسخوا تاريخنا فى الخارج . ولا وراء أولئك الاخـــوان المـــواطنـــين الذين اغتـــروا ببعـض المصادر الفرنسية . ويقولون ان فلانا ثار لانه رأى نفوذه الشخصى قد مس,ورأى سلطته بدأت تتحدد . ورأى نفوذه بدأ بالافول . ليس صحيحا ذلك ، يقولون ان المقرانى ثار وكان باشاغا لدى

فرنسا وكانت فرنسا تريد أن تنتزع منه ارضه . يقولون أن مالك البركانى ثار لان فرنسا لم ترد ان تعينه تعييناً رسميا كقائد فى بنى مناصر ، ويقولون أن بوشوشة وناصر بن شهرة ـ وكانا قائدين ايضــــا فى النظام الفرنسى ـ ثارا فى الصحراء لان فرنسا كانت تريد أن تنتزع منهما هذا المنصب . وثار بومزراق أخـو المقرانى لان فرنسا كانت تريد أن تنتزع منه منصبه كآغا فى ناحية المنصورة . وثار أبناء الشيخ الحداد عزيز ومحمد لان عزيز كان قائدا فى العين الكبيرة وكانت فرنسا تريد أن تنتزع منه منصبه . وثار أخوه محمد لان فرنسا كانت تريد أن تنتزع منه منصبه كقاض بالمنصورة . وثار الشيخ الحداد نفسه وهو الذى تجاوز عمره الثمانين سنة لان فرنسا كانت تريد أن تنتزع منه نفوذه . وثار آخرون فى فاتح نوفمبر 1954 لانهم كانوا يريدون مناصب . منهم من يريد منصب خوجة ، ومنهم من يريد منصب قائد . ومنهم من يريد منصب آغا . ومنهم من يريد منصب شامبيط ... الخ .

هذه هى الدعاية الفرنسية . ليس هذا حقيقة أبدا . التاريخ يثبت أن كثيرا من هؤلاء استشهدوا فى سبيل القضية التى كانوا يريدون أن يناصروها . واذا قبلوا بتلك الوظائف لمـــدة معينة محدودة ، فقد كانوا ينتظرون الفرصة وأكبـر دليل عـلى ذلك بعض الرسائل التى أرســلها بعض هـؤلاء الابطال ولا أذكر منهم الا اثنين . مثـلا المقرانى والشيخ عزيز لقـــد أرسلا الرسائل فى يناير (جانفى) 1871 قبل أن تبتدىء الثورة بأشهر الى مختلف جهات البلاد يقولون أن فرنسا الآن ـ كما قال الدكتور ابن حمودة من قبل ـ فى وحلة ـ كما نقول ـ فى حصلة . فى حضيض . فى الوحل . وهذه هى الفرصة لاستئناف الكفاح . هـــذه الرسائل موجودة فى مصادر تاريخية . وكذلك كانوا يقولون أن مالك البركانى ثار لان فرنسا لم تعينه رسميا ، ولكنه عندما وجد فرصة أولى . أولا كان رفض فى الاول . رفض أن يقبل أى وظيف مؤقت أو دائم ولكن عندما فرض عليه الوظيف المؤقت كان ينظم الثورة . والكتب الفرنسية نفسها تشهد . قبل الوظيف المفروض عليـه وفى نفس الوقت كان ينظم الثورة . كان يهيىء وينظم ويسير . هذه هى الحقيقة.وكثير من اخواننا يتأثرون ببعض المصادر الفرنسية ويقولون ان فلانا وفـلانا ثار لاغراض شخصية ليس هذا صحيحا .

أعود اذن الى الشيخ الحـداد . أقول بعد أن أعلنهـــا المقــرانى فى 14 مارس 1871 فى داره بمجانة . فى دائرة برج بوعريريج . جاء بنفسه مع الشيخ عزيز ولد الشيخ الحـــداد الى صدوق . والشيخ عزيز اذاك كان ـ كما قلت من قبـل ـ آغا فى عين الكبيرة فجـاء ليقنـع الشيخ الحداد ، والشيــخ الحداد كان فى خلـوته . فى غـــرفة صغيرة جدا لا يكـاد يقف فيها أربعة أو خمسة

أشخاص . جاء الى تلك الغرفة المظلمة وهو فى خلوة يتدين فيهـا . وقد جاوز الثمـانين سنة . وكان مشلولا . عند ما دخل اليه فى تلك الغرفة المقرانى وابن الشيخ الحداد نفسه الشيخ عزيز وجدا لديه اناء مغطى لم يكونا يعلمان ما فيه ، ولكن كان واضحا ان فيه طعاما . فقال له المقرانى : لا بد أن نشعل الثورة اليوم.لابد أن نبدأ الثورة اليوم على الاستعمار . فقال له الشيخ الحـداد الكبير فى السن - كما قلت - المتجاوز الثمانين سنة : اجلسا نتكلـم ونفكر ونتشـاور . فقال لـه الشيخ المقرانى متسرعا : أعجبك البيض الذى يأتيك بواسطة العجائز . وأشار بيده الى الاناء الصغير المغطى الذى لايعلم ما فيه . فغضب الشيخ الحداد وقال له : كنت أود أن ننظم الثورة . أن نبدأ بالتنسيق ونتصل بجميع الاخوان فى جميع انحاء البلاد بالرسائل ليبدأوا فى التنظيم ، الثورة لا يمكن أن تكون هكذا ارتجالية لابد أن ننظم قبل . هذا ما كنت أقصده . ولكن بما أنك صرت تتكلم عن البيض الذى يأتينى بواسطة العجائز انظر ماذا يأكل الشيخ الحداد . فرفع الغطاء عن الاناء فوجد فيه زيتا وخبزا من الشعير فقـال : هذا ما يأكله الشيخ الحداد . بما أنكم تريدون أن نعلنها اليوم فلنعلنها اليوم . فأعلنوها فى ذلك اليوم فى سوق صدوق ، بعد صلاة الجمعة وبعد الذكر أعلنوها فى السوق . ورمى بعصاه وقال لهم : سنرمى بفرنسا فى البحر كما رميت بهذه العصا . وتقول المصادر الفرنسية انه فى اليوم الثانى امتد الجهاد الى باتنة الى الاوراس . وامتد كذلك الى العاصمة فى نفس اليوم - أى فى اليوم الثانى بعد اعلان الجهاد - وتركز الكفاح فى هذه الجهات كلها فى شرق الجزائر من باتنـة حتى العاصمة . وبدأ يتسلل ويشمل جهات أخرى من البلاد . ولم يستمر الحال كثيرا بالشيخ الحـداد فاستشهد فى 13 يوليو بعد ان استشهد المقرانى يوم 5 مايو 1871 .

وماذا فعل أخوه بومزراق ؟ انـه انضم الى الصحراء من هناك بدأ يضيق الاستعمار عليـه الخناق هناك . انضم الى ناصر بن شهرة ومصطفى بوشوشة اللذين كانـا ينظمان ويجاهدان فى الصحراء . انضم اليهما واستمر الكفاح هناك فى الصحراء . وفى اليوم الذى استشهد فيه الشيخ الحداد بعينه أعلن الجهاد الشهيد مالك البركانى واخوه ابراهيـم البـركانى فى سوق الحد بنفس الطريقة فى السوق.جمعوا جميع سكان الجهة وأعلنوا الجهاد بهذه الصورة أيضا وبنفس الطريقـة ، أعلنوا الجهاد باسم الاسلام . باسم الدفاع عـن الوطن . باسم الدفاع عن الامة والوطن فى نظرهما وفى نظر كل انسان يفكر تفكيرا سليما . لا يمكن ان يفصل عن الاسلام لان الوطن بدون اسلام لا

وطن . أقول استمر ذلك الكفاح حتى استشهد ما لك البركاني . امتد الكفاح من بنى مناصر الى الصحراء الى غرب البلاد . وفى اليوم الذى استشهد أخذ أخوه ابراهيم البركانى الراية واستمر فى قيادة الكفاح . ولما استشهد أخذ ابن أخيه ـ ابن مالك ـ راية الكفاح واستمر فى الدفاع .

وحتى عندما وقف الكفاح هنا كما وقف فى الشمال الجزائرى تحت القوة الغاشمة . القوة التى لا يمكنها أن تقارن ولا ينبغى لكم أن تنسوا أبدا . ولا ينبغى لنا أن ننسى أن اولئك الابطال الذين حاربوا اذ ذاك حاربوا أكبر جيش فى الارض اذ ذاك . لان الجيش الفرنسى كان أكبر جيش فى العالم اذ ذاك . لا جيش الصين ولا جيش روسيا ولا جيش امريكا ولا أى جيش ، الجيش الفرنسى كان أعظم جيوش العالم اذ ذاك . جيش نابليون . الجيش الذى دوخ أوربا كلها ووصل الى أبواب موسكو واحتل أوربا كلها من شرقها الى غربها . هذا هو الجيش . هؤلاء الجنرالات روندون RANDON وكلوزال CLAUZEL وسوسيى ، وشون قارنيى GUIDON وبليسى PELLISSIER والاميرال قيدون Guidon وبيجو BUGEAUD الخ . هؤلاء كلهم كانوا المريشالات الذين حاربوا فى جميع ميادين الحرب فى أوربا ، حاربوا جيوش روسيا وألمانيا وايطاليا والسويد .. وغيرها ..

هذه الجيوش التى حاربها أبطالنا . هذه الجيوش التى حاربها اجدادنا . حاربوا اكبر جيش فى الارض اذ ذاك . اذن أقول لما غلبوا هنا كما غلبوا فى شمال شرق البلاد استمر الكفاح فى الجنوب . واذا استشهد المقرانى فى 5 مايو 1871 . واذا اعتقل الشيخ الحداد فى 13 يوليو 1871 ، واذا استشهد مالك البركانى فى 2 اغسطس 1871 ، واستشهد أخوه ابراهيم بأسابيع . واذا أسر ابن اخيه ـ ابن مالك ـ بأسابيع . فان الجهاد استمر أربع سنوات كاملة . لانه بعد أن ألقى القبض على بومزراق أخو المقرانى فى الصحراء تحت ورقلة استمر ناصر بن شهرة حتى التجأ مع عائلة المقرانى الى تونس ، ثم التجأ الى سوريا . ولكن بوشوشة استمر فى كفاحه حتى سنة 1874 ولم يلق القبض عليه أسيرا وجريحا الا فى سنة 1874

اذن فثورة 1871 لم تدم أياما قليلة أو أسابيع قليلة كما يدعى الاستعمار ولم تكن قاصرة على صدوق أو على مجانة ، أو على عين مليلة . أو على عين البيضة . أو على بنى مناصر . ولكنها كانت شاملة للبلاد كلها من اقصى شمالها الى أقصى جنوبها . الى قرب تمنراست ودامت أربع سنوات كاملة . هذه هى ثورة 1871 .

فثورة 1871 لحقتها ثورات أخرى ، فثورة بوعمامة وثورة أولاد سيدى الشيخ فى الجنوب الوهرانى دامت كذلك من سنة 1866 الى بعد 1888

هذه ثـــورة أولاد سيدى الشيخ دامت أكثر من عشرين سنة . فبوعمامة وصل الى أبواب المدية وكاد يصل الى العاصمة . تحت قيادة بوعمامـة وصل الابطال أولاد سيدى الشيخ من الجنـــوب الوهرانى حتى قرب العاصمة .

وحتى عندما غلب أولاد سيدى الشيخ فيمـــا بعد استمر الكفاح فى جهات اخرى . استمـــر الكفـاح فى أقصى الجنـوب فى تمنـــراست وفى جنـــت تحت قيادة الشيـخ أمـود حـتى القى القبـض عليه فى سنة 1912 . وفى سنـــة 1916 قام كفاح جديد فى عين توتة بولاية الاوراس وأثناء هذه الثورات المتعددة المختلفة كانت تقوم مناوشات أخرى ــ كما يسميها الاستعمار ــ هنا وهناك . أصغر من هذه بالحجم ولم تعرف كثيرا ولا نذكرها لان الحديث يطول بنا . ولكنها كانت تقوم . وهذه السلسلة فقط المحكمة الحلقات التى تبتدىء من 1830 وتستمر حتى سنة 1916 كفيلة بأن تبرهن عـــلى صحه ما قالتـــه الاكاديميه الاستعماريه الفرنسية فى جزئها الخاص بالجزائر تقول بأن الكفاح الجزائرى المسلح دام ثمانين سنة من 1830 الى 1910 ، فقـــد رأينا ان هناك ثورة مسلحة قامت بعد 1910 وهى ثورة عين توتة فى الاوراس فى سنة 1916 . وقامت ثورات أخرى فى مجال آخر لا ينبغى لنا أن ننساها . ثورات روحية . ثورات كبرى . ثورات تنظيمية سياسية وروحية . هى التى هيأت لاكبر الثورات لانها هى التى توجت وحققت نصر جميع هذه الثورات وهى ثورة فاتح نوفمبر 1954 ، قام الكفاح الذى نظمه الامام ابن باديس فى جميع أنحاء البلاد فى شمالها وجنوبها . فى مدنها وقراها وصحاريها . وجبالها وهضابها . ابن باديس ما كان مكان فى البلاد الا زاره ونظم فيه نظاما تربـويا حقيقيـا روحيا ونظم فيه مدارس حرة . ونظم فيه لجانا ونفخ فيه روحا من روح الاسلام الحية الدائمة ، وقام بجنبه كفاح سياسى ثورى كذلك لا ينبغى أن ننساه لانه استشهد فيه أبطال كثيرون جدا لا ينبغى لنا أن ننساهم . استشهد أبطـــال كثيرون لا يكادون يحصون . ويكفينا أن نذكر منهم فقط غرافـــة ابراهيم وكحال ارزقى وحسين عسلة وسماتى فى قالمة وكثيرون .. وكثـــيرون .. لا يكادون يحصـــون الذين استشهدوا فى السجون تحت التعذيب . كالعيمش على .. الخ . لا يمكن لنا أن نحصيهم الآن لابـــد لتاريخنا أن يذكرهم اسما اسما . فأثناء هذا الكفاح الطويل الذى هيـــأ للثورة تربت أجيال وتهيأت أجيـــال ، واستعد الشعب الجزائرى ، وعندما أعلن الابطال فى فاتح نوفمبر 1954 الذين تربوا ونشأوا وتغذوا بالغذاء الروحى الذى زرعه ابن باديس وزرعه أبطـــال آخرون فى التنظيم السرى السياسى الثـــورى . فأعلنوها واستجاب الشعب الجزائرى لانه كان

مهيأ . كان مستعدا . وهذا هو ما ضمن الى حد كبير نجاح الثورة . لانه كان هناك استعداد وتنظيم ثوري روحي .

اخوانى الاعزاء : هذا هو التراث الذى ينبغى لنا أن نحافظ عليه . هذه التركة التى ينبغى لنا ان نحرص عليها كل الحرص . لانها هى التى تضمن حصانتنا . وهى التى تضمن ديمومتنا فى التاريخ ، ديمومة القضايا المقدسة التى نداقع عنها . هى التى تضمننا وتحصننا من جميع مؤامرات المسخ والتجنيس والادماج التى ركزها الاستعمار علينا فى الماضى . والتى يحاول ان يركزها علينا اليوم بطرق غير مباشرة . بطرق تدعونا دائما الى التسامح فى كثير من الامور . الى التحرر من كثير من المبادىء ، الى التفتح كما يقولون . ولكن التفتح الحقيقى وهو ضروري وهو التفتح على الحضارات العالمية اليوم . التفتح او التقدم البشرى اليوم على مختلف لغات وحضارات العالم . كل هذا يقوم اساسا ـ اذا اردنا ان ينجح ـ على اساس أصالتنا ، أى على اساسنا المتين . على اساس تراثنا . على اساس شخصيتنا . على أساس مقومات ذاتياتنا . على ذلك الاساس الخالد ، ذلك الاساس الذى لخصه ابن باديس فى ثلاث جمل : الجزائر وطنى . والاسلام دينى . والعربية لغتى . هذا هو الاساس الذى ينبغى ان يقوم عليه تفتحنا وهو ضرورى لنساهم فى حضارة البشر اليوم . ولنقدم قسطنا من الحضارة كما قدم اسلافنا القسط الاكبر فى الحضارات الانسانية . على هذا الاساس فقط وهذا لا يتحقق الا بفضل رجوعنا الى الاصل ، الا بفضل ثورتنا الثقافية التى قال عنها الرئيس: انها تاج ثوراتنا . تاج الثورتين الاخريين . وتاج ثورتنا الشاملة . وتاج جميع كفاحنا والتى هى بالنسبة للثورة الاقتصادية فى الميدان الصناعى وفى الميدان الزراعى وفى الميدان الاجتماعى وفى الميادين الاخرى . اقول ان هذه الثورة الثقافية برجوعها الى الاصل وباعتمادها على مقوماتنا العربية الاسلامية هى تمثل الروح بالنسبة للثورات الاخرى كما هى الروح بالنسبة للجسد فاذا كانت الروح بالنسبة للجسد هى الجزء الاكبر . فكذلك الثورة الثقافية هى التى تضمن نجاح الثورتين الاخريين . وهى التى تضمن دوام الثورتين الاخريين . وهى التى تضمن قاعدة الثورتين الاخريين لاننا اذا ازدهرنا فقط فى الناحية الاقتصادية والصناعية والزراعية والاجتماعية وبدون روح فسنبقى معرضين ومفتوحين امام جميع التيارات المخربة ، وسنبقى فى كل وقت معرضين للفناء . لان الامم بروحها اولا وبجسدها وبمادياتها ثانيا . الروح هى اولا وفى الدرجة الاولى . هذه هى النقطة الاساسية الجوهرية التى ينبغى ان نركز عليها دائما

واظن اننا متفقون جميعا وان البلاد كلها قد فهمت كل الفهم هذه الضرورة القصوى وتأخذ المثل كذلك على دول اخرى وعلى شعوب اخرى التى تحرص كل الحرص على هذه المقومات .

وبفضل حرصنا على نشئنا ، وبفضل تحصيننا لشبابنا ، وبفضل هذا السهر الدائم على هذه المقومات سنضمن نجاح ثورتنا الشاملة ، وسنضمن الازدهار لاقتصادنا ولبلادنا التى تتمتع بجميع الامكانيات ، بكنوزها تحت الارض وفوق الارض ، بامكانياتها بطاقاتها التى لا تكاد تحصى، الراهنة منها والكامنة . هذه هى الحقيقة التى ينبغى ان نحرص عليها كل الحرص . لان هناك جانبين متطرفين فى اتجاهين مختلفين - كما قلت - فى جانب نجد اولئك الذين يدعون الى التزمت والجمود والبقاء على نواميس الماضى البعيد التى لا يمكن أن تضمن لنا النجاح والتى لا يمكن ان تنهض بنا فى عالم اليوم ، لان الاسلام صالح لكل زمان ومكان . الاسلام فيه الاجتهاد ومن أكبر عناصر مصادر التشريع الاسلامى ، من أكبر الاسس الصحيحة السليمة التى هى دائما ثابتة . الاسلام حى وهو صالح لكل زمان ومكان . فالذين يدعون الى التزمت ويقولون مثلا ان ذلك حرام وذلك حرام من الاشياء التى يضطر الاسلام اليها ليدافع عن الاسلام . اذكر مثلا واحدا . هناك بعض الناس الذين انتقدوا التعليم فى المساجد وقالوا انه حرام لان هناك اناسا لا يصلون ويدخلون الى المسجد غير اطهار . ويحضرون دروس محو الامية ، هذا غير صحيح . الامام ابن باديس رحمه الله كان يقف امام الجامع الاخضر ويدعو الناس . يقول لهم ادخلوا الى الجامع ، ادخلوا ، حتى اذا كنتم لا تصلون فى اليوم الاول واليوم الثانى ، واليوم العاشر واليوم الثلاثين ، سينتهون فيما بعد بالصلاة ، انما المهم أن يأتوا ليتعلموا القرآن . فلا ينبغى ان نتجمد هكذا . ويغلقون امام تطور الامة الاسلامية جميع الابواب ، ويغلقون امام الامة الاسلامية جميع النوافذ . فيقولون هذا حرام . وهذا حرام . كل شىء حرام .

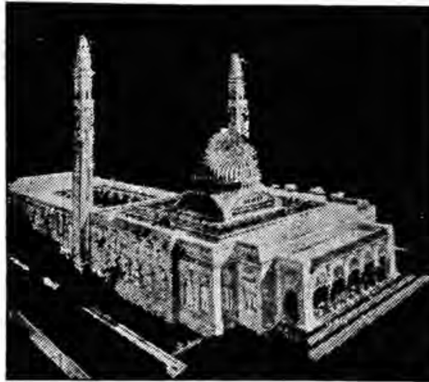
اقول ان هؤلاء يريدون ان يغلقوا جميع الابواب وجميع النوافذ . وهناك جانب آخر هم الذين يريدون ان ينزعوا حتى السقف ، يقولون ان التفتح هو فتح الابواب والنوافذ ونزع السقف ، نفتح كل شىء ونبقى معرضين للهواء والامطار والزوابع . هؤلاء كذلك متأثرون . هذا تطرف آخر . تطرف اسوأ لانهم يدفعون بنا الى الانسلاخ عن أصالتنا وعن ديننا وعن مقوماتنا وعن عاداتنا وعن أخلاقنا التى كونت شخصيتنا وحصانتنا ، التى كونت دفاعنا الروحى اثناء الاستعمار الطويل الذى يرمى دائما الى الادماج والمسخ للشعب الجزائرى . فهؤلاء الذين يدعون

الى فتح الابواب والنوافذ وحتى السقف ننزعه . هؤلاء يخدمون الاستعمار من حيث يــدرون او لا يدرون . هؤلاء اعداء لبلادنا . وهؤلاء أعــداء للاسلام من حيث يدرون او لا يدرون ، ولا بد لنا دائما من السهر على اقناعهم بالحسنى بالحجــة والدليل حتى يعودوا الى الطريق . فهؤلاء كذلك أقول فى تطرف أسوأ .

اردت ان اقول هذه الكلمات ربطا بمبدئها . بما قلته فى الاول ، وهو انكم انتم الذين ربطتم هذا فى الاول بالجمع بين تدشين المسجــد والاحتفال بالشهيد مالك البركانى .

واشكركم ، والى فرصة اخرى .

والســلام عليــكم .



N006

فهـرس العـدد

تصحيح مفاهيم

اننا فى هذه المرحلة من تطورنا الثقافى والاجتماعى فى حاجة الى أن نفكر فى ذاتنا وفى الاخرين تفكيرا صحيحا ، وأن نستعد وسط هذا الخضم من الشعارات المختلفة ، بعض المسافة ... بعض الابتعاد لكى نتخلص من طغيانها الاسر ، ولكى نعبر دون خوف من العواقب التكتيكية عن رؤية للمعركة ذاتها فى شموليتها .

ينبغى أن نتسلح بالموضوعية الصارمة لكشف المظاهر السلبية فى تفكيرنا وموقفنا ، دون أن تسيطر علينا المخططات المبسطة للمعركة الحضارية الشاملة التى نقوم بها ودون أن نخشى اللعنة من أى كان .

منذ صدمتنا الاولى .. صدمة اللقاء بحضارة الغرب وثقافته ، ونحن نتساءل عن سبب تأخرنا وتخلفنا . كان هناك سؤال واحد ، ولكن الاجابات كانت متعددة .

وأيا كان مضمون هذه الاجابات ، فالثابت فى رأيى ، أنها ما تزال حتى اليوم تلون الواقع الاديولوجى والثقافى العربى عامة ، وتفسر الكثير من الصراعات الفكرية التى تدور رحاها اليوم فى البلاد العربية ، وتلون حتى الابنية الاجتماعية نفسها ، وتلعب دورا لا يستهان به أحيانا فى اعاقة تطورها .

ولعل أحد هذه المفاهيم التى تمثل أحد الاجوبة عن السؤال التقليدى : من « نحن » ومن هو : « الآخر » يأتى هذا المفهوم الذى يدعو الى « الاكتفاء الذاتى » فى ميدان الثقافة أو ما يمكن أن نعبر عنه بالعزلة الثقافية أو « الريفية الفكرية » — ان صح التعبير — : فهناك رضا عام بالنفس ، وبالعادات والسلوك .. رضا يتراوح بين مجرد القناعة البريئة بما نملكه من هذه العادات وأنماط السلوك والتفكير ، وبين الزهد

عثمان شبوب

الفكرى والنفسى الذى تأصل فينا عبر قرون من الفقر الثقافى والعزلة الثقافية عن ثقافات الامم الاخرى .

ورغم الآفاق التى فتحت لنقلنا الى الحياة المعاصرة : من حركات ترجمة وتأليف وتعليم ، فلم تهب علينا ريح من رياح الثقافة المعاصرة الغنية ، ولم يزل فكرنا باستثناءات قليلة هنا وهناك يجتر زاده القديم دون أن يتمثل أثمن ما فيه ليمده بحياة جديدة . لماذا ؟ ، لاننا فى استجاباتنا للثقافة والحضارة الانسانية المعاصرة ، لم نستقبلها بفكر مفتوح ، وانما استقبلناها بعقل رافض ، وبقلب متوجس ! .

كان البعض منا — انطلاقا من هذه الحالة الفكرية والنفسية — يجزء الحضارة الانسانية المعاصرة الى علم وتكنولوجيا من جهة ، وقيم انسانية واجتماعية واخلاقية من جهة أخرى .

ويقول أن تقدم « الآخرين » تكنولوجى فحسب ، واننا نستطيع أن نتفوق عليه فى ميدان الثقافة بل واننا فى وضع أكمل يمكننا من أن ننقذه من شرور مدنيته وينسى أن النهضة التكنولوجية ترتبط بنهضة ثقافية متنوعة متخصصة وعميقة وأن لكل حضارة ثقافة معينة تتبادل وأياها التأثير فى جميع المجالات .

فهو يريد التكنولوجيا المعاصرة دون قيمها ، ولكن هل يمكن استعارة « تكنيك » ما ، دون ايجاد أول الامر « قيمه » تتصل بهذا التكنيك أو فى الاقل ، تنمية هذه القيمة فيما بعد ، لكى تتحقق فوائد التكنيك بطريقة موثوق بها فاذا أردنا التصنيع علينا أن نقبل بنتائجه التى منها : قيم جديدة .

صحيح أن للحضارة الصناعية مساوئى متعددة ولكن للحضارة الزراعية أيضا مساوئها العديدة ، والموقف السليم يتطلب انتخاب القيم الايجابية فى كلتا الحضارتين مما يفيد تماسك المجتمع ويرضى تطلعاته فى نفس الوقت لاحتلال مكانته فى المجتمع المعاصر .

وهذه النظرة القاصرة للثقافة ، تكمن وراء ذلك الانفصام الذى نلاحظه بين الفكر والسلوك سواء بالنسبة للمثقفين

أو العمال فى المصانع ، أو الفلاحين فى الارياف والمزارع •

فالمثقفون عندنا يدرسون علم الاجتماع بمختلف نظرياته ومدارسه ، والتاريخ والفلسفة والقانون ومختلف العلوم الاخرى دون أن تختلج فى اكثريتهم خلجة من يقظة الشعور ، أو تنقدح فى عقولهم شرارة تغير شيئا من نظرتهم للحياة ، فهم ينطوون على طاقتين : طاقة يختزنون فيها العلوم والمعارف المختلفة ، وطاقة يختزنون فيها قيم الحياة واخلاقياتها المتوارثة عن الاباء والاجداد دون تجديد •

والفلاح عندنا ، رغم أن الاجراءات المختلفة التى اتخذتها السلطة قد زعزعت العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وبذرت بذور التطلع فى نفوس كثير من الفلاحين • ولكن الثورة رغم هذا ، لم تمس معتقدات الفلاح الاساسية ، أو تكوينه النفسى أو عاداته الشخصية والاجتماعية ، فهو باستثناء التطلع الاقتصادى الجديد يحتفظ بأكثر مقومات ثقافته ، ولا يزال يعيش بفكر ثابت وباخلاقيات ثابتة فى عالم متغير العلاقات •

وأما المظهر الآخر لهذا المفهوم الساذج المكتفى بنفسه المعجب بذاته ، فيتجلى فى حكمنا على الآخر — لاننا فى اطار هذه النظرة نحصر كل مشاكلنا الثقافية والفكرية فى المجابهة بين « النحن » و « الآخر » لا فى التفاعل المنفتح الذى تمليه طبيعة الحياة — انه يرى بأن الحضارة الانسانية المعاصرة ، التى يسميها غربية ، هى الآن سائرة الى الانهيار لتحل حضارات أخر ىمحلها • وبقطع النظر عن صحة هذا القول أو عدم صحته ، فهو فى رأيى عزاء واهم وخاصة اذا صدر عن أناس لم يبذلوا أى جهد حقيقى لتصحيح أوضاعهم ونظرتهم اليها ، ولن يكون له ما يبرره الا عند الشعوب التى أثبتت بالفعل قدرتها على الكفاح فى ميادين التنظيم الاجتماعى كما فى ميادين التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى •

وهناك مظهر آخر لهذا التفكير يتمثل فى الالحاح المفرط على الفوارق النوعية بين الثقافات وتجاهل الطابع العالمى والانسانى للثقافة • فنحن عندما نؤكد على هذه الفوارق ، فاننا سننتهى الى نتيجة ، وهى استبعاد امكانية المقارنة، وتترتب على هذا نتيجة أخرى واضحة وهى أننا نقول لانفسنا : ليست ثقافتنا بأقل من غيرها ، وانما هى من نوع مغاير فحسب • وليس الغرب أكثر

تقدما منا ، بل ان له ثقافة مختلفة فحسب .

صحيح أن أحدا لا يستطيع أن ينكر اصطباغ الثقافات بلون محلى مستمد من الظروف الخاصة للمجتمع الذى تظهر فيه ، ولكن هذه النواتج الثقافية المحلية ذاتها تنطوى فى كل الاحوال ، على جانب انسانى واضح .

وهكذا فان النزعة الكونية التجريدية قد وقعت فى خطا ، لانها أهملت العوالم الثقافية الخاصة وقوة تكيفها باوضاعها الخاصة ، ولكن النزعة التعددية التى تقف نقيضة لها ، ليست أقل خطا منها لانها وضعت الثقافات الانسانية فى خاصيات نوعية منغلقة .

ان الخصائص المميزة لكل ثقافة من الثقافات موجودة ، لكنها ليست أبدية لا فى الماضى ولا فى المستقبل ، وهى لا تخرج عن قوانين العالم الاجتماعى ، انها تنتسب حسب التعبير الارسطى الى عالم الكون والفساد ، وليس الى عالم الافلاك السماوية فيما وراء القمر.

ان تصحيح هذه المفاهيم يمثل جزءا من الثورة الثقافية التى نردد شعارها فى كل مناسبة ، ومسؤولية المثقفين فيها ذات أهمية خاصة . فهم لهم دورهم فى تفجير الفكر الخلاق وفى رفع الوعى الى مستوى الواقع الاجتماعى وتجاوزه لان فى ذلك فهما للذات ، واجابة عن مشاكل المجتمع ، وانبعاثا للانسان الجديد ، المنفصل عن انسان عصر الانحطاط والجمود .

واذا قيل بأن كل هذا أو غيره لا يمكن تحقيقه الا فى مناخ من الحرية الفكرية وهذا غير متوفر فى أغلب اقطارنا العربية ، أقول : ان أوضاعنا ستكون دائما غير ملائمة لانها لو كانت ملائمة لما احتجنا الى ثورة على مثل هذه الاوضاع .

ونحن فى هذه المجلة نفهم ديننا الاسلامى فهمه الاصيل الفهم الذى يقوم على مبدأ تغيير الوضع الفاسد ، بالاعتماد على تغيير المعتقد الفاسد وما نسميه بتصحيح المفاهيم انما يبدأ **من تغيير واقع المعتقدات الفاسدة او المتحجرة او المنحرفة ، وكلها معتقدات جاء الاسلام ليقومها او يصححها او يستبدل بها غيرها حتى تتلاءم مع رسالة التطور الدائم.**

ان من بين مفاهيمنا الخاطئة التى يجب ان نصححها دينيا ، هو المقياس نفسه الذى نستعمله فى الصاق هذا الموضوع او ذلك بالدين ، او فصله عنه . وديننا الاسلامى ــ دين الثورة والقوة والتفتح على قيم الانسان الخالدة ــ يتوجه بثوريته وقوته وتفتحه الى المعتقدات المنحطة كلها فيقتلعها او يبعث فيها الحياة . اما ما لا يقبل الحياة فانه لا مكان له فى الاسلام .

دراسات
ثقافية
وأدبية







طوفان الاستلابات

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر



جمال الدين الافغاني



ماو تسى تونغ

اختار الاستاذ عبد المجيد مزيان هذا الاسلوب : اسلوب الحوار لعرض أفكاره عن مشاكل عويصة تتعلق بحياتنا الاجتماعية المتشعبة ورأى أن هذا النوع سيكون اوسع تبليغا وأكثر اثارة لانتباه القراء .

« الاصالة »

كانوا شرذمة من المثقفين ، قد تقـدمبهم السن ، وعلمتهم تجارب الحياة ما لم تمكنهم به الثقافات المختلفة التى احتكوابها ، فاتفقوا بعد تردد طويـل على ان ينعزلوا جماعة لتصحيح معارفهم علهـمبفيدون بها اهل ملتهـم وصادف أن وجـد فى قريتهم الصغيرة رباط مهجور ، كـانقد انشىء فى القديم للخلـوة والاعتكـاف والتدريس ، فسمـح لهـم باستعمالـهلباحثاتهم . ورأى بعض من يثق بهم من طلبتهم القدماء ان يشاركوهم تجربة الحياةالثقافية الجماعية ، لانهم كانوا يؤمنون مثلهم بتفوق الحكمة المشتركة على الحكمةالفرديـة .

وكانت طريقة عملهم أن يقضوا يومهم فى المطالعة والتفكير فى انعزال وصمت ، ثم ينتشرون بعد صلاة العصر فى البساتين والغابات المجاورة لرباطهم ، لينغمسوا فى مصب الطبيعة فيرشفوا من منهل جمالها ، وفيض كينونتها مشربا منشطا ، يمحـو عنهم زغل العناء ، ويجدد فيهـم طاقـة الحيوية والانتاج ، ويبعث السرور العميق المتزن فى نفوسهم . ثم يلتقون بعد صـلاة المغرب للحديث الحر الهادىء . وكان مـن بينهم من ينقل تلك الاحاديث بعد تصحيحها من لدن جميع الحاضرين .

وكان من بين المرابطين فى بداية امرهم فيلسوف ، ومصلح دينى ، وعالم اجتماع ومؤرخ وعدد قليل من الطلبة . ويظهر ان كل فرد من الجماعة قد تاثر بثقافة رفاقـه حتى ان اساليبهم فى التفكير والتعبير قـد انسجمت الى درجة الاتحاد .

الفيلسوف : ما دمنا فى رباطنا هذا بعيدين عن ضوضاء الحضارة المزيفة وحمى التنافس ، نود أن نتحدث اليوم عن تجاربنا المختلفة فى الاستلابات التى عاشها كل واحد منا ، زمن جاهليته ، لنستخلص منها العبـر الفكرية للشباب الذين ربطوا انفسهم معنا طلبا للثقافة اللامنفعية .

طالب : تتكلمون عن الاستلاب كأنه تجربة محتومة لابد أن يعيشها المرء ، وتذكرون الثقافـة اللامنفعية كهدف لمباحثاتنا . انـه كـلام يستحق التوضيح .


ابن خلدون

الفيلسوف : أما الاستلابات فلا يخلو منهـا اى مجتمع فى العالم . وبحكم حياتك مع الآخرين فأنت خاضـع لانـواع لا تحصى مـن الاستلابات . وليس فى طاقة اى ضميـر بشرى مهما بلغ تفوقه الفكرى ومهما بلغت قوة انتباهه أن يتخلص مـن هجومـات الاستلابات العارمة .

المصلح الدينى : فى ديننا الاسلامى ان هذا الذى نسميه استلابا بالمصطلح المعاصر وهو انواع الضلالات على وجه التقريب ، انما يأتى من النفس كما يأتى من المجتمـع . والمسلم فى مجاهدات مستمرة ليرفع عنه هذه الضغوط . ان العبادة من بعـض جوانبها تنبيه شعورنا لهذا الخطر الطاغى الذى يهاجمنا من محيطنا الاجتماعى كمـا يهاجمنا من اعماق انفسنا. فليست الاحقاد

والغرائز العدوانية مثــلا الا مركــزات نفسانية تلخص حقــولا واسعـــة مـــن الاستلابات الاجتماعية . كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى بعض دعواتـــه « اللهم لا تكلنى الى نفسى ولو طرفـــة عـــين » .

الفيلسوف : اما الثقافة اللامنفعية فهى مثل هذه الاحاديث التى تجرى بيننا ، بطريقـــة حرة لا نتفاضل فيها ، ولا يستعلى احـــدنا على الآخر ، ولا يخرج بعضنا مجازا والاخر عاطلا ، ولا نلتمس بها كسبا اوجاها . ولا عناد فيها ولا تحيز . ولكننا نفاتح فيها اخواننا مودة فى القربـــى والانسانيـــة ، ونتفتح لآرائهم علنا نعرف من الحقيقة نبذا .

عالم الاجتماع : الاستلاب الاكبر ، فى نظـــرى يتلخص فى بناءاتنا الاجتماعية ذاتها . فالبناء الاجتماعى عملية انسانية لابد منها ولكن الانسان يخلق مجتمعه ثم تفلت من يده القدرات على مراقبة مصنوعه . بل ربما بهره هذا البناء الذى رفعـــه بيـــده فخضع له وجعله معبوده الاسمى . وهذا طبعا من الوثنيات .

المصلح الدينى : الوثنيات انواع وفنون . ومـــن اخطرها على النفس ما نسميه الشرك الخفى « الذى يدب كدبيب النمل » وهـــو بلسان عصرنا هذا التعلق بالمقدســـات المصطنعة ، والخضـــوع اللاشعـــورى لمعبودات بينة او غير بينة تستعبد النفوس استعبادا لا رحمة فيه .

طالب : لقد بثت فينا ، قبل دخولنا الرباط ، قيم مختلفة كنا كشباب نعتقد انهـــا مـــن المقدسات ، فلكل جانب من حياتنا الثقافية تصورات تقديسيـــة . فللقيـــم العلميـــة قداستها ، وللقيم السياسية قداستها .

ولا ندرى الآن مماذا يجب ان نتحـــرر ، ولماذا نتحرر وكيف نتحرر ، لاننا ننـــوى مغادرة الرباط . بعد اجل . وهدفنا العاجل هو الرجوع الى المجتمع . لقد كان شيوخنا يؤكدون بمحضرنا ان المعرفة للمعرفـــة تخريف ، وان المعرفة من اجل العمل هى المعرفة الحقة ، بل لا تصحيح للمعرفة الا بالعمـــل .



المصلح الدينى : ان التعلق العبودى بصور ثقافية او سياسية او اقتصادية يعـــد مـــن الضلالات التى تعوق الانسان فى طريـــق استكمال انسانيته . ويجب ان يتحرر منها المرء ليسترجع تفكيره السليم الذى فقده فى هرج الحضارة المزيفة . وبعد هذا التحرير وبعد استرجاع الذوق السليم تكون قـــد توفرت فى المثقف شروط الفطرة ليصبـــح عالما عاملا .

طالب : كنا نعتقد ان الفطرة بمثابة الصفحـــة البيضاء او بمثابة الخلاء الثقافى الضامن لحسن الانطلاق ، وهى موجودة طبيعيا عند كل انسان .

المصلح الدينى : لا يمكن استرجاع الفطرة الا بعد مجاهدات جبارة ، لان فطرة ذلكم الانسان الذى مرعن طريق ملىء بالضلالات ثم تخلص من ضلالاته ، انما هى فطـــرة

ملاء لا فطرة خلاء ثقافى . وشتان ما بين فطرة الرضيع وفطرة استرجاع الصفاء بالوعى والجهاد . فالفطرة الصبيانية والفطرة البدائية محكوم عليهما حتما بالزوال ، لان المجتمع يغزوهما غزوا لا هوادة فيه ، بينما فطرة الوعى تعد قمة الاستكمال الثقافى وفطرة الانتصار على كل ضلال .

الفيلسوف : بدانا منهجيا من حيث يجب البدء : لا يمكن أن نتخيل الاستلاب على حقيقته الا اذا تخيلنا هذا الصفاء المثالى الذى تتحدثون فيه . أن التخلص من الاستلابات اما أن يكون هدفا مثاليا يقذف به الى المستقبل فى بناء اجتماعى نتصوره تصورا عقليا ، واما أن يكون نتيجة مجهودات شخصية فى حالات استثنائية يتوصل فيها الانسان الى وعى نفسه ووعى الانحرافات التى يتعرض لها .

عالم الاجتماع : البناء الاجتماعى حينما يبنى ، انما يتقلد من لدن بناته بمهام ووظائف معينة محدودة . ولكن الانحرافات تظهر حالا بعد اتمام البناء ، فتتشعب الوظائف ، ويقع الزيغ عن الطريق المرسوم ، بكيفية ابعد فأبعد ، حتى يظهر التناقض المفرط بين البنيان وهدفه . وفى هذه الحال من التأزم يفكر المضغوط عليهم فى استدراك الغلط ، اى فى الثورة ، لانها السبيل الوحيد للرجوع الى نقطة الانطلاق . فكل ثورة حقيقية انما هى رفع الاستلابات عن الناس بالرجوع الى « الفطرة » ، اى التفكير السليم مع السلوك السليم ولكن رفع الاستلابات لا يمكن أن يحصل الا بتحطيم مصادرها التى هى البناءات الاجتماعية اللاسوية بكل وظائفها الانحرافية المفسدة لانسانية كل انسان .

طالب : نريد امثلة حية عن هذا

المصلح الدينى : حينما نقول « ان الاسلام دين الفطرة » ، فليس معنى هذا انه الدين الصالح للسذج وضعاف العقول ، او البدائيين . ولكنه ثورة اصلاحية بعد وعى، لاسترجاع التوحيد المفقود الذى دنسته الانحرافات عبر العصور. فالثورة هنا انما هى رجوع الى التوحيد الصافى الذى يتمثل فى الحنفية الصامدة الحرة .

الفيلسوف : الثورة الفلسفية الديكارتية هى الاخرى عودة الى الوضوح الفكرى والمنهجى بعد البلبلة التى كان قد خلقها الفلاسفة المسرفون فى التصورات الفارغة.

عالم الاجتماع : كانت الاجهزة الاجتماعية المستوردة فى الصين الوطنية تدعى انها تمثل رغبة الامة فى تحطيم الاجهزة العتيقة المتعفنة ، ولكن سرعان ما ظهر للعيان أن هناك انحرافا لابد من استدراكه ، اذ ان استيراد اجهزة وتلفيقها مع اجهزة اخرى على شعب لم يرد بعد الى فطرته ، انما هى عملية عشوائية ومحض تضليل . فجاءت الثورة الحقة معلنة رفع الاستلابات بتحطيم البناءات المستوردة مع بقايا البناءات العتيقة ، وكانت بهذا مصممة على خلق فطرتين : فطرة تحطيم وتصفية ، للبدء من الاساس . وفطرة العقل البكر المطهر الذى يبنى مشاريعه المثالية والواقعية فى نفس الان ، فيجعلها اهدافا فى نهاية الطريق ترمى الىالتحرير الكامل للانسان.

طالب : هل يمكن أن يخلو البناء الاجتماعى من الانحرافات والاستلابات بدعوى أنه ثورى وانه عودة الى الاصل الانسانى الاصيل من اجل الانطلاق الصحيح ؟

الفيلسوف : يثبت الواقع أن الانطلاق الجديد له هو الآخر استلاباته وانحرافاته . فزمن الثورات زمن انتباه فائق ووعي فوق المعتاد ، ثم تأتي فورا من بعده فترة الغفلة ، التي تبدأ فيها التساهلات ، وتتغير الاهداف بكيفية غير محسوسة . انظروا الى الاجهزة البروقراطية والتقنية المعذبة للشعوب الاشتراكية ، مع أن الشعوب هي التي خلقتها كوسيلة لخدمتها وتحريرها كذلكم كانت جيوش القرون الغابرة تدعي في البداية انها حامية الامم فاصبحت بعد قليل جحيما على كل الامم .

طالب : انتم فيما تذكرون ، تجعلون المصادر الاولى والاخيرة للاستلاب في البناءات الاجتماعية وحدها . او ليس هناك منطلق لبعض الاستلابات يأتينا من طبيعتنا الانسانية ، من غرائزنا البيولوجية مثلا ، ومن الطبيعة العامة الضنينة بأرزاقها .

الفيلسوف : فكرة الاستلاب منطوية على مواقف معيارية خلقية ، ذات ابعاد اصلاحية ، وهي فكرة توجه النقد والتهم وتحدد المسؤوليات . ويظهر لي أنه لا يمكن اتهام الطبيعة بأي غلط لانها كما هي لا ينطبق عليها اي معيار . فمعياريتها قوانينها ، وهي هي لا تبديل فيها . والكائن العاقل الذي يعيش فيها مكلف طبيعيا باكتشاف هذه القوانين وتسخيرها الا اذا انحرف واخمد جذوة عقله . فاما ان اكون الكائن صاحب الحاجيات البيولوجية الفزيولوجية المتحتم عليه السعي لسد هذه الحاجيات فأمر طبيعي لا احاسب عليه احدا ، والا ساكون بمثابة الكائن الحي الذي يتمنى ان ترجع به الطلقة الحيوية الى الوراء فيعود الى الحياة النباتية حتى لا يتحرك ولا يقلد مسؤولية نفسه . فتألم الوجوديين من الوجود في حد ذاته غير معقول لانه ثورة على هذا الناموس الحيوي الذي يعطي الكائنات الاكثر تطورا مسؤولية أكبر على كينونتها . وليست الحياة عبثا في حد ذاتها كما يدعون ، ولكنها تثير « الغثيان » حقا اذا جاء طور التوغل في ادغال الاستلابات.
علينا بالامثلة :
فانت ايها الطالب ، بماذا تسد حاجياتك الحيوية وانت في هذا الرباط ؟

الطالب : كل زادي بينكم تمر رخيص ، وتين مجفف وزيت زيتون وسويق .

الفيلسوف : كم قضيت من الايام في العمل لاكتساب هذه الاقوات ؟

الطالب : خمسة ايام

الفيلسوف : وعلى فرض انك تأكل وحدك من زادك فمتى سيفرغ هذا الزاد ؟

الطالب : بعد خمسين يوما

الفيلسوف : لقد وفرت اذا معاش خمسة واربعين يوما ، اذا حييت حياة زهد وتقشف رباطي . وعلى فرض انك توفر لحاجيات عيالك ، ثم للحاجيات الحضارية الحقيقية كاقتناء الكتب والآلات الضرورية لتسهيل الحياة لا لتعقيدها ، فانك ستوفر مقابل كل يوم من العمل ، على الاقل يوما من التفرغ والتفكير ومراجعة نفسك .

الطالب : لم اجرب هذا ، ولكنه تقدير مقبول نظريا

عالم الاجتماع : وعلى فرض انك توجد في مجتمع مثالي يسمح لك بالعمل المعاشي يوما والحياة يوما آخر في الرباط ، او شهرا بشهر او نصف سنة بنصف سنة ، تتردد بين المعمل والرباط او انواع الرباطات العلمية التي ينشئها هذا المجتمع المثالي

فهل ستشكو من الاستلابات الطاغية بقدر ما تشتكى منها اليوم ، اعنى فى مجتمعك الحاضر ؟

الطالب : طبعا ، سترفع عنى جل الاستلابات وسوف لا تبقى كابوسا مستمر الضغوط كما هو شانها اليوم .

عالم الاجتماع : وعلى فرض ان هذا المجتمع مبنى على اساس المساواة المطلقة بين الناس ، وانهم رغم تخصصهم المهنى يعملون كلهم يوما للكسب ويوما للثقافة والفكر ، فهل سيكون هناك تفاوت كبير بين المتعايشين فى هذا المجتمع سواء فى الميدان الاقتصادى أو فى الميدان الثقافى ؟

وعلى فرض وجود هذا المجتمع المثالى فهل ستبقى هناك حمى عدوانية وتنافس على المناصب ، وتخصص عازل يجعل البعض مشتغلا بالسياسة منعزلا ، والبعض الاخر مشتغلا بالثقافة منعزلا ؟
وهل سيبقى هذا التشتيت والتنافر المهدد لكياننا الانسانى ؟

الطالب : طبعا ، فى هذا المجتمع الخيالى لا وجود لكل هذه الضغوط الجارية علينا اليوم والمالئة قلوبنا بالخوف والاحقاد ، بسبب عدوان بعضنا على البعض .

عالم الاجتماع : تلك هى الاستلابات ، تمتد الى أعماق النفس ، ومكانها الاول المجتمع ، وليس مصدرها الا المجتمع ولا نتحرر منها الا باصلاح المجتمع . وأما الطبيعة فلا مسؤولية لها ابدا . ومن الجنون ان نقذف بمسؤوليات الانسان الى ما وراء الانسان .

المصلح الدينى : الوجود الطبيعى والوجود الانسانى فى فطرته الخالية من الاستلابات ذو استعداد خيرى ، وقد يسترجع الانسان هذا الاستعداد بمجاهداته . أما الشر المغروس فى النفوس فمن بذور اجتماعية . هذا معنى الآية الكريمة « **ما اصابك من حسنة فمن الله ، وما اصابك من سيئة فمن نفسك** » . لان الله هو الذى طبع الطبيعة على الفطرة السليمة الخيرية ، والمجتمع هو الذى يزج بها الى الانحراف.

الفيلسوف : تذكرون يوم كنا فى جاهليتنا مثقفين دواجن ، يتهدد علينا بنزع لقمة العيش من افواهنا فنخضع للتهديد ، ويبث فى صدورنا حب الرفاهية والجاه فنبتسم للرفه والجاه . وأشربنا اذ ذاك فى قلوبنا التقرب من سادة الدنيا وكبرائها . فتحالفنا على الحقيقة وعلى ابناء ملتنا . فهل يمكننا تذكر الاستلابات التى كنا نعيشها فى ميدان الثقافة ؟

طالب : كنا نشتكى كطلبة من الجهاز الثقافى نفسه ، بما فيه من ضغوط وطقوس وهالات كاذبة واجازات مزيفة .

طالب آخر : وكنا نحس بتضييع مدهش للوقت فى لى السنتنا بالحكمة ليظن أنها حكمة وكنا نمطط العبارات ونلوكها ثم لا يبقى من كل هذا الكلام الا القليل من الثقافة الحقة .

طالب آخر : وكنا نحس بوحشة مفزعة ورعدة داخلية عميقة من عجزنا فى الاستيلاء الحقيقى على الواقع الحى ، وكنا نبحث عن تعويض لهذا العجز ، فى شبه استيلاء لفظى على ذلكم الواقع

طالب آخر : وكنا نشعر بخيانة ضمائرنا لان أجهزتنا الثقافية الضخمة ، كانت فى اكثر

من ثلثى نشاطاتها تبذيرا للجهد فى الفراغ، وكانت فى ذلك عالة على المنتجين الحقيقيين من ابناء امتنا .

طالب آخر : وكنا ندعى لدى ابناء امتنا اننا وحدنا المتخصصون فى التفكير ولا يجوز لاى كائن كان ان يفكر معنا او ضدنا . وكنا نحتمى فى هذا الادعاء ببروقراطية الدولة فنتبادل معها الاستلاب لانها مقيدة بوجودنا ونحن مقيدون بوجودها لنبقى واياهــا سنــدى سيطرة لابد ان يتعاونا لانهما يسترقــان معاشهما الرفيه من المنتجين الحقيقيين .

الفيلسوف : هذه استلابات ترجع بالذات الــى طبيعة الثقافة الرسمية .

عالم الاجتماع : ابرز مظاهر الاستلاب فى كل ثقافة رسمية يرجع الى انها تعرف نفسها تعريفا مربوطا بسياسة الوقت . وهو تعريــف محدود فى الزمن ، محدود فى افق التأثير ، محدود بالاقتصار على خدمة طبقة معينة . والوجه الثانى من الاستلاب يرجع الــى صنفتها القهرية بتقنينها فى مسبقات خاطئة .

اما التعريف الاصح لكل ثقافة اصيلة فمربوط بدورها فى التوعية . والتوعية ابداع مستمر ، وتجاوز مستمر للاحوال الثقافية الماضية والحاضرة ، بحكم التطور الدائم الذى لولاه لما حصل اى اكتســاب علمى على الاطلاق .

وتناقض الثقافة الرسمية مع نفسها ، راجع الى خنق كل روح ثقافية فى بيضتها ، وذلك لانها رسمت ووقع برمجتها وتحجير عقائدها من قبل ان يخلق الواقع الــذى ستنطبق عليه او ستغيره .

ثم ان التوعية تحرير : انها تحرير المثقف نفسه من الصور التى فاتها الوقت بحكــم الحركية الجبارة للواقع الحى وهى ايضا تحرير للاخرين ، بان ترفع عنهم استلابات التحجر والتعلق الوثنى بالصور البالية .

الفيلسوف : ان بين التوعية والتعمية حدودا فى خطوط ادق واوهن من نسيج العنكبوت . وذلك ان صاحب الثقافة الوثوقية يدعى انه حامل لواء التوعية ، وكثيرا ما يتهــم الطاعن فى هذه الوثوقية بأنه المسؤول عن التعمية . وليس من المؤكد ان ابناء الامة ، الذين تجرى تحت اعينهم هذه الصراعات سيعرفون بكل تدقيق اين توجد التوعية الحقة والالتزام الاصيل .

المصلح الدينى : يبدو ان احصاء الضلالات الثقافية هو نفسه عملية تستحق كثيرا من الوعى. ولكن هناك ضلال يعد بمثابة كبيرة الكبائر او بمنزلة الكفر فى الموبقات . ويتجلى هذا الضلال للعيان حينما نذكر الثقافة الرسمية المتحجرة بما فيها من انواع الوثوقيــات والشكليات والسفسطات . انه ضــلال الارتزاق البارد مع السيطرة الاستبدادية على كل تفكير . فجفاف هــذه الثقافــة الرسمية راجع الى فقدان المحرك العميق لكل معرفة ذات فعالية الا وهو حــرارة الايمان . فالايمان عدو الكسل المؤدى الى التحجر والايمان باعث كل اجتهاد وتجديد. فلا يمكن ان نقول لاى وثوقى بأنه مؤمن بكل ما فى معنى الايمان من عمق فمفكرو البلاط فى ملتنا ، او دواجن الثقافة كمــا سميناهم . هم بالضبط مفكرو الانحطاط . وشجعان الفكر عندنا هم بالضبط المؤمنون المعذبون من لدن الوثوقيين ومواليهم اهل الجاه والسلطان .

ان الاحتكار الثقافى بترسيم المعرفــة خيانة خلقية للنوع الانسانى باكمله لانــه احتكار يثبت التعالى على الناس ويحصر

الثقافة فى جماعة يدعون انهم اعيان الفكر. وما دام المجتمع المثالى الذى تتحدثون عنه لم يوجد بعد ليضمن شبه مساواة ثقافية ، فانا اعطيكم مثالا لهذه المساواة من المجتمع الحى الواقعى الذى وجد فى فترة تاريخية ممتازة ، فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، حيث كان المحرك الثقافى هو الايمان وحيث كانت الدعوة الاسلامية تنادى ان هذه الرسالة موجهة الى بنى الانسانية جمعاء .

عالم الاجتماع : نقول عن الثقافات التى تساهم فى تحويل الشعوب تحويلا حضاريا انها ثقافات ثورية سواء كانت دينية او علمية . نعم انها ثورية فى ابان ذى امتياز ولاجل قصير ريثما تنطلق البناءات الاقتصادية والمجتمعة الجديدة . ثم ما يكاد يمر عليها جيل او نصف جيل حتى تتصلب فى نرجسية تجعلها تتأخر عن سيل الواقع الحى ، ولا تواجه المعضلات الحيوية الا بالتأكيد الفارغ للمبادىء المجردة الغامضة . هذا ما اكده التاريخ حتى اليوم . ولكن هذه الظاهرة التاريخية لا تتصف بالحتمية المطلقة ، لان عنصر نفى هذه الحتمية فى عصر يمتاز بالتقدم والوعى ، هو ادراكنا لهذا التفاوت بين الواقع والفكر ، وادراكنا لتطور الظواهر الاجتماعية حسب قوانين بدانا نقوم اليوم بضبطها .

لكن بقى هناك استلاب اكبر ، وهو مسؤولية نشر التوعية وطريقة تطبيقها ، وآفاق هذا التطبيق ، لانها فى مجتمعنا الحاضر اللامثالى موكولة بالصدف اكثر مما هى موكولة بالمعقول .

الفيلسوف : ذلك راجع الى الاستلابات السياسية وكل هذه المسائل المتشابكة تقذف بنا مباشرة فى ادغال من الاستلابات . ولا نكاد نرى بصيصا من الامل فى رفع بعضها حتى تظهر لنا انواع اخرى لم تكن بالحسبان .

من المحقق اننا غرقى فى طوفان من الاستلابات .

يتبع

نيتشه والأخلاق الدولية المعاصرة

عبد الله شريط

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

هل نعتبر مظاهر القوة التى ما زالت تسود العالم هنا وهناك من بقايا الامراض وعلائم النقص التى تعانيها الانسانية ولم تستطع التخلص منها بعد ؟

يبرز من حين لآخر على الانسانية رجل اورجال ينادون بان الحرب والعنف هى سنة الحياة وان القوة خير ينبغى ان نحرص عليه ولا نقاومه.واليوم نرى الدول القوية ما تزال تعامل الدول الصغيرة والمتخلفة بميزان القوة والضعف حتى بعد التجربة الفاجعة التى لاقتها الانسانية فى الحرب العالمية الثانية وما تلاها من حروب فى افريقيا وما لا يزال يجرى الى اليوم فى الفيانتام وامريكا اللاتينية المعذبة ، واخيرا بين الهند والباكستان .

والضمير البشرى لا يستطيع ان يظل صامتا أمام هذا الخطر الاجرامى الذى تتعرض له الشعوب من طرف من تملكهم جنون القوة لمجرد كونهم تحصلوا على قوة مادية عارضة فلم يعرفوا ماذا يصنعون بها الا أن يرضوا بها غرائز التوحش المتأصلة فى نفوسهم والتى لم تستطع حضارتهم الفجة المبتسرة وقلة تجاربهم الدولية أن تروضها فيهم .

واذا كانت الشعوب تقاوم هذا الخطر بقوتها الروحية التى لا تنفد وامكانياتها المادية البسيطة فان من واجب الطليعة المفكرة فى هذه الشعوب أن تقاوم الاصول الفكرية التى نبع منها هذا الجنون الخطر : جنون القوة وفلسفتها السلبية الهدامة .

ومن المؤكد أن فلسفة القوة هذه نبعت أول ما نبعت فى الغرب قبل ميلاد المسيح بعدة قرون : فى الفلسفة اليونانية أو على الاصح عند بعض فلاسفتها ثم انتقلت الى روما القيصرية ثم تواصلت فى القرون الوسطى فى مذهب الفروسية ولقيت ازدهارها اذ ذاك فى الحروب الصليبية المعززة بسلطة الكنيسة وبعد هزيمة الصليبيين همدت بعض الشىء ثم ظهرت الى الوجود من جديد فى الحروب الاستعمارية طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ولكن الاستعمار نفسه كان عاجزا عن ارضاء شهوات التوسع والقوة لدى الدول القوية نفسها بل ادى الى تنافس سرعان ما تحول الى حروب فيما بينها افترس فيها بعضهم بعضا افتراسا شرسا فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ولا يبعد أن يقودهم الى الثالثة . وخلال هذه القرون الطويلة لم يخل الغرب الذى نبعت عنده هذه الفلسفة من دعاة ومفكرين يحكمون قواعدها ويفلسفون « فوائدها » بوقاحة لاطلاء عليها من القرن الثالث قبل الميلاد فى اثينا الى القرن العشرين فى أوربا .

ومن المؤكد أيضا ان هذه الفلسفة قد استطاعت خلال هذه القرون الطويلة ان تتزود فى كل رحلة بزاد جديد من الاتقان والعمق واللمعان وكان آخر دعاتها واقربها الى عصرنا ــ أعنى أقربها تأثيرا فى حياة الدول القوية اليوم ــ هو الفيلسوف النمساوى الالمانى الكبير « فريديريك نيتشة » الذى توفى سنة ١٩٠٠ ولكنه ترك أروع واخطر اثر عرفه تاريخ البشرية فى سلوك الدول وتصرفاتها . وكان هو المنبع الذى استقى منه



ف . نيتشه

هتلر نظريته فى الاجناس والذى اقام عليه سياسته النازية ومغامراته الجنونية الصريحة وهو أيضا الذى ما يزال يغذى شباب أمريكا اليوم ضد السود وسياسة أمريكا فى كثير من انحاء العالم التى يكنها الضعفاء أو من هم اقل قوة منها .

هذه الفلسفة الخطرة جديرة بأن ندرسها نحن « الضعفاء » حتى نعرف مبلغ تغلغلها فى اذهان اصحابها وحتى نعرف أنها ليست ــ مجرد هوى يتملك هذا السياسى أو ذاك وانما هى قواعد فلسفية عميقة الجذور بعيدة الغور ، وان الانسانية يجب أن تحترس من ثمارها المسمومة التى ما تزال تغذى ادمغة بعض الساسة فى العالم « المتحضر » وحتى فى العالم المتخلف ، وان البشرية فى المستقبل معرضة لهذا الطيش المتفلسف الخطر .

ونحن في هذه الدراسة لن نتحامل على نيتشة لانه قبل كل شيء رجل مريض أنهى حياته مصابا بالجنون . انه بالرغم من خطره يثير الاشفاق اكثر مما يثير فينا القسوة عليه . اننا سننظر اليه على انه فيلسوف نناقش افكاره كأفكار جديرة بأن نناقش ، ولاننا بعد كل شيء نعتقد ان فلسفته مهما بقي من رواسبها في اذهان بعض الساسة فانه سيأتي يوم تزول فيه وتنقرض بفضل يقظة الشعوب ووعيها لقوتها الروحية العتيدة .

١ — نيتشة وعصره

فكرة الخير والشر — أو الاخلاق بصفة عامة — ليست عند نيتشة كما هي عند غيره من الفلاسفة عنصرا او ميدانا مع بقية عناصر اخرى مثل الميتافزيقا ومشكلة الآله وقضية المعرفة ونظرية المادة والروح — تتشكل منها جميعا فلسفتهم العامة بانسجام يقومها جميعا ويضفي عليها وحدة متناسقة ترجع اليها كل جزئياتها وتتجمع حولها . وانما قضية الاخلاق عنده هي عنصر فلسفة الاول والاخير . هي كل ما سيطر على قلبه وعقله وقلمه واخلاقه في حياته كلها. واذا ما تعرض الى مواضيع اخرى كمشكلة الاديان واصولها ومشكلة الحرية واطوارها او الاله ومفاهيم الناس فيه فانما كان في كل ذلك يسعى وراء هدف واحد لا يهمه غيره ، وهو تدعيم نظريته في الاخلاق . وانت تستطيع ان تتتبع كتبه وابحاثه — وخاصة « ارادة القوة » « وهكذا تكلم زراديتشت » فلا تكاد تجدها الا ظلا لبعضها البعض تسيطر عليها جميعا فكرة الاخلاق . وقد يكرر لك هنا ما كنت قراته له هناك الا انك مع ذلك لا تشعر بهذا التكرار او تسأم هذه الظلال لان بلاغة نيتشة وقوة تعبيره وطرافة صوره وصدق شعوره الفني كفيلة كلها بأن تبعد عنك السأم والشعور بالتكرار . بل انك تجده ينقض افكاره بنفسه في الكتاب الواحد ولكن البلاغة الساحرة التي يغمرك بها والقوة العجيبة التي يسيل بها قلمه الحار الجريء تجعلك تبتسم في نشوة وحمية لهذا التناقض المرضي البريء . وفي امكانك ان تنتقد نيتشة من جراء ذلك وأن ترميه بالتهافت والاسراف في الاعتداد بنفسه ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع ان تتمالك عن الاعجاب به والشفقة عليه أحيانا .

وقد يخيل اليك ان نيتشة غير اناني — وهو كذلك طبعا — وقد تجده يصرح لك هو نفسه بذلك وانت تتجول معه في مملكته الواسعة — ، ولكنك لا تلبث بعد معاشرة طويلة ان تتبين — وهذه هي مأساة نيتشة ومأساة الانسانية معه — انه اناني مفرط في أنانيته ، ولكن حبه للانسانية أقرب الى البغض لان صاحبه سلك اليه مسلكا فظيعا محفوفا بالاهوال والاشواك والكوارث . وهو يريد أن يصل بالبشرية الى الكمال ولكنه كمال ضره أبلغ من نفعه وثمنه أفدح من فائدته .

تساءل نيتشة عن الخير والشر فقال :

« في غروب يوم من أيام الشتاء لا اريد أن أصرح به لان له صلة بالاخلاق غروب قد انطبع في حياتي فجأة وبقوة قاهرة وانا مازلت شابا — وقفت تخيلاتي وافكاري امام هذا الاستفهام : ما هو الاصل النهائي الذي يجب ان نرجع اليه فكرة الخير والشر ؟ ومن حسن الحظ انني سرعان ما وقفت على الاحكام الاخلاقية السابقة فلم افتش عن اصل الخير والشر وراء هذا العالم (واضح انه يقصد كانط) ثم لم البث ان تساءلت ثانية : وهل للخير والشر قيمة في ذاتها ؟ هل حققا شيئا للانسانية في تطورها لبلوغ اهدافها ؟ ام انهما بالعكس قد خانا قوة الحياة وامتلاءها كما خانا الشجاعة والثقة بمستقبلهما ؟ على ان اجوبة هذه الاسئلة نفسها بعد بحوث طويلة استقرت بي الاقدام على أرض خاصة بي وحدي لانها عالم مجهول وجنة خفية لم يسبق لاحد ان فكر في وجودها » .

ولنترك نيتشة هنا يركز قدميه على هذه الارض المجهولة التى اكتشفها لنعود اليه بعد حين نلقى اثناءه نظرة سريعة على ذلك العصر الذى جعل بطلنا يزور عنه وعن أرضه ليبحث لنفسه عن أرض اخلاقية اخرى « جديدة » فى نظره لعلنا نستشف بعضا من تلك العوامل التى جعلته ينفر هذا النفور الغريب من مفاهيم عصره العامة للاخلاق ، وأى رائحة كانت تفوح من تلك المفاهيم لم يستطع نيتشة ان يفتح لها صدره ويستنشقها مثل غيره من الناس .

كان القرن الثامن عشر قد زحف فيه العقل على أوربا بعد أن تحرر من بقايا تأثيرات الكنيسة عليه فشمل كل مفاهيم الحياة ومختلف ميادينها وقيمها ، ووضع الانسان الاوربى امامه وجها لوجه فلم يترك له اى منفذ منه الى الحياة والكون من خلال قضبانه الحديدية واصبح الانسان الاوربى لا يعتمد على شىء فى حياته المعنوية والمادية الا مستخدما فيه هذا العقل كما اكتسب شجاعة كافية لاخضاع كل المذاهب والآراء فى تشكيل الدولة والاقتصاد والقانون والدين والتربية لامتحان العقل ثم جاء القرن التاسع عشر فارتاع لهذه القفزة او هذه المغامرة وشعر بالدوار والهلع فولى مسرعا الى اقرب نقطة انطلق منها القرن الذى قبله فولدت الحركة الرمانطيقية ولم تكد تبرز الى الوجود حتى اخذت فى رفع عقيرتها بالتغنى بالماضى وخصاله . وكان ذلك بصورة خاصة فى المانيا التى كانت آنذاك مشتتة مبددة فى ولايات واقاليم هزيلة متنافرة مما آثار فى شعرائها ومفكريها حنينا الى الماضى المجيد ، واصبح الرجل فى نظر هذه الحركة عبارة عن كتلة من الماضى مرتبطة بمكان معين وزمان محدد واصبح معين الادب والفن ليس هو الحياة الواقعية وما فيها من جديد وطريف بل خيال العصور الوسطى وابخرة الكنائس تتصاعد تحت اضواء الشموع .

الا ان روح القرن الثامن عشر العقلية لم تخمد مع ذلك امام هذه النكسة الرومانطيقية بل قفزت من جديد قفزة ثابتة ظهرت بها فى ثوب المذهب الوضعى الواقعى الذى اخذ يخضع كل شىء للتجربة والواقع والمادة ، ضاربا صفحا عن كل ما وراءها من معميات وتخمينات ورموز . وكان فى النهاية ان استبدت الحركة الوضعية بالحركة الرومانطيقية وابتلعتها فاختلت الموازين بين المادة والروح وارتبكت المفاهيم واصبح الفكر الاوربى مقبلا على ازمة مخيفة اقفر معها ينبوع — الروح — وتعطلت كل قدرة عن الانتاج والابداع الروحى ، وتحولت المفاهيم ومقاييس الاشياء من الكيف الى الكم وهو ما يزعج رجلا مثل نيتشة . « واصبح الناس يتحدثون عن الاغلبية والجموع واكبر عدد ممكن الى آخر هذه الصيغ التى علمهم اياها الكتاب والمفكرون فى القرن التاسع عشر » — وانصرف العقل الاوربى الى العالم الخارجى نهائيا ونسى نفسه وعواطفه واهدافه الانسانية العليا نسيانا يكاد يكون تاما حتى قال « ماكس بيكار » : « ان الحياة عند الناس وفرارهم من انفسهم اصبح شيئا واحدا . ولم يعد للانسان مفر من أن يفر من نفسه . لقد اصبح الفرار حالة دائمة وشيئا طبيعيا كالهواء » .

اما الاخلاق فقد تحجرت على قواعد مرتبة معينة يعيش عليها المجتمع حياته اليومية دون أن يفكر فى ان تكون لها اهداف تطورية خالقة أم لا .

وما كاد القرن التاسع عشر ينتصف حتى كان الفكر فى أوربا قد انتهى الى مرحلة من الشك والتعب فقد معها سيطرته على توجيه نفسه نحو ما كان يحلم به من سعادة وراحة .

ذلك هو طابع الحياة النفسية فى القرن التاسع عشر . أما الحياة الاجتماعية فقد سيطرت عليها الاوساط الشعبية بمبادئها الديموقراطية وهو ايضا ما يفقد صواب نيتشة — ولم تعد تبالى بما كان يحرص عليه الاستقراطيون من مظاهر

الحضارة والرفاهية وقيمها البورجوازية . واصبح « الاقبال على التوسط من كل شيء » هو الطابع الغالب على الحياة فى مختلف ميادينها ونواحيها . لقد كان كل شيء يسقط فى الماء ولكن لا شيء يغوص الى اعماق الينبوع كما يقول نيتشة . وهكذا لم يعد يجد هؤلاء التوامون على قيم الحضارة الاستقراطية عزاء امام هذا « الانحطاط » الا ان ينكر القيم الاجتماعية السائدة انكارا» ويحكموا على العالم كما هو موجود امامهم بأنه كان من الواجب ان لا يكون كذلك ، وعلى العالم الذى يحلمون به بأنه غير موجود . فكانت النتيجة عندهم ان العالم لا معنى له (نيتشة) .

هذه هى الحالة التى كانت عليها اوربا عندما شاءت الاقدار ان تأتى اليها بنيتشة . ونكاد نجزم ان هذا هو غروب ذلك اليوم من أيام الشتاء الذى وقف فيه نيتشة يتساءل عن الخير والشر .. لقد اعتقد الرجل ان هذا الوضع الاجتماعى (المنحط) هو نتيجة لتفسخ فى مفاهيم الاخلاق فى ذلك العصر . وان من أراد ان يعتنى بأوربا ويعيد اليها حياة التقدم او يعيدها الى الطريق المستقيم ينبغى ان ينصرف الى معالجة هذه الناحية قبل كل شيء وأن يهب لها كل ما فى قلبه وعواطفه وعقله من مواهب وقدرة حتى ينتشلها من الهوة . وكان نيتشة يعتقد انه ذلك الرجل .

نقد الفلاسفة والاديان وعلماء الاخلاق

كان نيتشة يعتقد فى بعض الاحيان انه لن يستطيع البناء ، وذلك لفرط ما وجد امامه من بناءات اخلاقية ينبغى تهديمها قبل كل شيء . انها بناءات اقيمت على الرمل وخرائب من الاخلاق انقرض سكانها واهلوها وبقيت مأوى للعجز والضعفاء ، فيقول : اننا لا نريد ان نبنى قبل الاوان . بل لسنا نعرف ان كان قد قدر لنا أن نبنى يوما ، او انه من الاحسن ان لا نبنى اطلاقا »

ان كل ما بنى فى ميدان الاخلاق منذ كونفوسيوس الى ستراط ومن المسيح الى كانط ليس فيه حتى ما يستحق أن يرمم ويعدل .

وقد بدأ أول ما بدأ بسقراط وافلاطون وابيقور الذى قضى على الغرائز العميقة فى الانسان بما كان يدعو اليه من فلسفة اللذة كما لو كانت الحياة قد خلقتنا فيها لنلتذ وننعم وليس لنناضل « ونعيش فى خطر » وعلى السفسطائيين وسلبيتهم الهدامة ازاء الطبيعة . والى هؤلاء جميعا ينبغى أن نضيف شوبنهاور وكانط وكل الذين وضعوا انفسهم فى خدمة الضعفاء وتمجيد المسكنة ومحاربة الحياة وغرائزها « النبيلة » .

ولكن ثورة نيتشة على كل هؤلاء لا تعد شيئا اذا قيست بثورته المستعرة وحقده العجيب على المسيحية : تلك الديانة التى جاءت لتقضى نهائيا على أعمق ما فى الفرد من غرائز ضرورية للحياة ، والتى اصبحت الحياة فى نظر معتنقيها لا تعنى غير « تثقيف » الاساقفة والاباطرة وتوفير السعادة لهم . أما غيرهم فليست هذه الارض بالنسبة اليهم غير دار امتحان اخلاقى يترأس ــ جلساتها الاله وهو ممسك بيده دفاتر للسيئات واخرى للحسنات يسجل عليهم فيها ما يأتونه منها حتى اذا زادت سيئاتهم على حسناتهم عاقبهم بانتقامه الى الابد . الا ان المسيحية ليست الا ميتافيزيكا الاشقياء . والوسيلة الوحيدة للتخلص منها هو « نفى الاله وخلع نير الكنيسة عن الاعناق » . ان اصحابها هم « المنذرون بالموت » وقد تفشى داؤهم حتى اصبح « العالم مليئا بمن تجب دعوتهم الى الاعراض عن الحياة . والارض اصبحت مكتضة بالدخلاء ، وقد افسدوا الحياة فما اجدرهم بأن تستهويهم الابدية ليخرجوا من هذه الدنيا . ان هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الانسانية بعد . فليبشروا بكره الحياة وليتلعوا عن مرابعها . انهم المصابون بسل الروح ، انهم لا يكادون يولدون حتى يبدأ موتهم وقد شاقهم الزهد والملال . انهم يتلفعون برداء وسيع من الاسى ، ويتشوفون الى الحوادث التى تجر وراءها الموت ، ولكنهم

يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك هلعا وذعرا . وهم فى الوقت نفسه يمدون ايديهم الى ما نـذ وطاب . ان الحياة عندهم قشة يزدرونها ولكنهم يحرصون عليها . ان حكمة هؤلاء تهتف قائلة : الحياة جنون وافظع منه التمسك بالحياة وقد بلغ الجنون بنا الى هذا الحد الفظيع » .

هذه فقرة قصيرة من ثورات نيتشة على المسيحية والكنيسة دون أن يفرق بينهما فى شىء. ان المسيحية التى ظل التاريخ ينظر اليها على أنها تمثل روح الانسانية المتسامحة التى تاخذ الاشياء اخذا رفيقا لا عنف فيه ولا عبوس وتنزع بالانسان الى الارتفاع عن غرائزه الحيوانية الشرسة وابداله مكانها عواطف ملائكية تطفح بالمحبة والاحسان ليست فى نظر نيتشة الا معولا هداما يقوض اعمق ما فينا من الميول البشرية الطبيعية التى تنزع الى السيطرة والحرب والقوة .

والاغرب من ذلك ان ما اشتهرت به المسيحية من روح انسانية هو بالذات ما يؤاخذه عليها نيتشة باسم الانسانية نفسها . ان رجالها فى نظره قد سنوا وشرعوا كل قوانينهم وطقوسهم الملة لغرضٍ واحد وهو السيطرة على الجماهير والصعاليك . انهم يعلمون ان الد عدو لهم يستطيع ان يهدم سيطرتهم المكذوبة هو العلم وتفتح العقل للبحث بعمق عن الاصول الدفينة لفكرة الخير والشر فجاؤا ووضعوا ايديهم على هذا الميدان واحتكروا البحث فيه لانفسهم لانهم يعلمون ان هذا الميدان هو الذى تسطر فيه مصاير البشر، وقالوا للناس ان هذه الثمرة — ثمرة المعرفة والاخلاق — محرمة عليهم فى هذه الارض ، وانه لا يجوز لغيرهم هم رجال الكنيسة — ان يبحث فيها أو يدنسها بيديه ، وقد عرفوا الطريق الذى يوصلهم الى تلافى هذا الخطر : فالعلم وتفتح الفكر يتطلب الهدوء والتامل العقلى ، او بعبارة اخرى يتطلب ارضاء جميع الحاجات التى يمكن ان تشغلنا عن هذا التامل الهادىء العميق المنظم.

واذن ليصبح كل الناس بؤساء مشغولين بالتفكير فى أمعائهم الخالية حتى لا يتفرغوا فى هدوء الى اكتشاف اكاذيب الكنيسة . لقد اخترعوا مسألة الاثم الذى اقترفه آدم منذبدئى الخليقة على ما يزعمون حتى يجعلوا ابناءه يقضون الحياة وهم يتخبطون فى الندم والشعور بالذنب ويبحثون عن المغفرة فى ظلام حالك ، وهكذا حصروا جهود المخلوقات فى التفتيش عن حل لمشكلة خيالية لا يعرفونها بوضوح . وعندما تكل ارجلهم تعبا يهرعون الى رجال الكنيسة ويرتمون على مسوحهم يطلبون المغفرة والعفو ويسلمون اليهم مقاليد امورهم ويمكنونهم من التحكم فى رقابهم ، وذلك بالضبط هو ما يبحث عنه رجال الدين ، حتى

تبقى بقية الناس تعفر جباهها فى التراب وتبكى شقاء الانسان وتتضرع ليلا نهارا طالبة المغفرة على اقتراف ذنب لم يقترفه احد فى يوم من الايام .

ولا تحاول أن تقنع نيتشة بأنه اذا كان رجال الكنيسة كما يقول فان المسيحية كدين مبرأة من هذه الجرائم . انه سيجيبك بأن المسيحة نفسها لست الا اكذوبة كبيرة من اكاذيب اليهود اختلقوها فى عهود عبوديتهم وذلهم ليقلبوا بها الحقائق ويسبغوا على انفسهم وعلى من كان فى مثل حالهم من العبيد المضطهدين نعوتا طبعوها بطابع الانسانية وما هى فى الحقيقة غير تمويه على التاريخ ، فرضه عليهم وضعهم الذى كانوا فيه من الاضطهاد والتشرد فلم يجدوا ملجأ يبقى عليهم الحياة غير هذا الخداع الذى يحبذون به حياة البؤس والبؤساء حتى يستطيعوا تحمل الحياة . والا فهل من بلاء على الانسانية اشد من ان تعيش معذبة بائسة وهى فى ذلك مختارة بملىء ارادتها او مخدوعة بهذا العذاب الذى تظنه فى خيرها وصالحها وهل من اجرام أفدح ممن

جعلها تفعل ذلك بنفسها وهى تحسب انها تحسن صنعـــا ؟

وهل مـ نالطبيعى ان تكون غايتنا من الحياة هى ان نعيش فيها معذبين نحاول استمراء هذا العذاب واستساغته وتغطية مرارته بالعســل المكذوب ؟ كلا ان المسيحية هى التى ضاعفت من شقاء البشر وهى من اجل ذلك اكبر مجرم عرفه التاريـــخ . »

وبعد . هل نقف مع نيتشة عند هذا الحد فى تحطيم الماضى ؟ كلا ! ان حمية الرجـل عــلى الاخلاق وغيرته على الانسانية اشد واقوى من ان تعرف الحدود او الاعتدال والتوسط . ان قلبه الجبار الذى طوح بالمسيحية من اعمق جذورها لايهدا الا اذا قضى على كل من شم رائحةالمسيحية من قريب او بعيد وكل من تاثر بها تفكيره عـــن شعور او لا شعور . ان هؤلاء ايضا يجب ان يلحقوا بأمهم التى ارضعتهم مفاهيمها التعسة المسمومة فى الاخلاق وبناء مستقبل الانسانية . وليس فى وسع هذا البحث الموجز ان يستوفى نقد نيتشة لكل فيلسوف نادى فى مذهبه الاخلاقى بما نادت به المسيحية ــ سواء كان متاثرا بها ام لا ــ من الشفقة والغيرية والمحبة والمساواة امام الله او امام القانون او الواجب الى آخره .. بل ان نيتشة نفسه لا تسمح له كبرياؤه بأن يتتبع هؤلاء الفلاسفة فردا فردا ليناقشهم الحســـاب على آرائهم الاخلاقية بل يجمعهم دفعة واحـــدة ويفتح عليهم جام غضبه وحنقه ويضرب رقابهم جميعا بسيف واحد ما داموا كلهم يستندون اما على المبادىء المسيحية او مبادىء المســاواة والضمير والمصلحة العامة والسعادة المشتركة الى بقية هذه الكلمات التى ليس لها فى عقــل نيتشة اى معنى انسانى حقيقى كما ليس لها فى نفسه اى احترام او تقدير .

واول ما يؤاخذ به نيتشة هؤلاء الفلاسفة فى معالجتهم لمشكلة الاخلاق هو بالضبط ذلك الشىء الذى يتباهون به ويتفاخرون وهو « التجـــرد والنزاهة العلمية » وبحث الامور باعصاب باردة لا اثر فيها للحرارة او الغيرة كما لو كانت قضية الاخلاق سلعة تافهة لا تمس صميم انسانياتهم ولا تجول فى عروقهم . ان هذا التجرد عند نيتشة ليس له من قيمة على الاطلاق لا فى السماء ولا فى الارض .

فكل المشاكل الضخمة تتطلب « الحب الاعظم » والحب الاعظم عند نيتشة هو ذلك الحب الذى يدفعه الى القسوة على الانسانية وتحميلها فوق ما تطيق لتتاهب لحمل رسالتها العظمى وتصل الى هدفها الاعلى وهو انجاب الانسان الاعلى او « السبرمان » .

ان هذا الحب الاعظم لا يستطيع ان يحمله نحو الانسانية اولئك الفلاسفة الباردو الاعصاب . ان هذه المهمة الثقيلة لا يستطيع ان يضطلع بها الا ذوو العقول القوية الواضحة ، لانها تأخذ تلك القضايا العظمى كما لو كانت قضايا خاصة بها تجد فيهامصيرها وقدرها واحزانها وكل سعادتها . انه لا يؤلم نيتشة شيئا كما يؤلمه برود هـــؤلاء الفلاسفة الذين « يتجهون الى المسائل الانسانية التى يتوقف عليها مصير الوجود البشرى وعظمته وازدهاره بروح « شخصية »وبفكر بارد ثقيل . ان فكرا كهذا لا يمكن للمشاكل الضخمة حتى ولو كانت فى متناول العقل ان تدخل تحت حوزته لانه مكون من دم الضفادع . وهؤلاء الفلاسفة كانوا دائما ومنذ القديم لا يتحلون الا بنزوات وأمزجة هى امزجة أبطال النساء التافهات . فمن ثم لا اصادق قط ولو فى الكتب فيلسوفا او عـــالما او مفكرا اخلاقيا يضع نفسه امام الاخلاق كما لو كانت امرا يهمه شخصيا ويثير همه وألمه الحار او تشوقه وهواه الجارف الصادق ومن اجل كل ذلك لم تكن الاخلاق فى يوم من الايـــام مشكلـــة وضعت على بساط المعالجة الصحيحة . بل على العكس كانت عندهم ساحة حيادية انتهت بعد

كل ما عانته من المتناقضات والاخذ والرد ان اتفق المفكرون على انها هى الظل الظليل الذى يستريحون تحته من عبء انفسهم ويستأنفون فيها عيشهم من جديد . اننى لم ار واحدا منهم تجرا على هذا الانحراف الشنيع الذى تسير فيه الاخلاق . واننى لازداد الا اقتناعا بأن ما بذله بعض المؤرخين وعلماء النفس من جهود فى ميدان الاخلاق هومنتهى السخافة لانهم سمحوا لمخيلاتهم المغامرة ان تتلقف هذه القضية النبيلة تلقفا خاطفا لم يتبينوا معه شيئا من أهميتها . ولانهم علاوة عن ذلك ما يزالون هم انفسهم يرسفون تحت عبء الاخلاق المعتادة التى يرسف فيها الفكر الشعبى فى أوربا المسيحية التى ما تزال حتى اليوم تفهم الاخلاق على انها الشفقة والتضحية وما الى ذلك من مظاهر السلبية القاتلة » .

ويرجع نيتشة الخطأ الذى درج عليه الفلاسفة من فهمهم لقضية الاخلاق والذى اعدى به بعضهم بعضا — الى نظرتهم للاخلاق على انهـا شىء مشترك يتساوى فيه جميع الافـراد وجميع الشعوب ، او على الاصح بين الشعوب المتمدنة والتى يسميها نيتشة « الشعوب المروضة » والى بعض المفاهيم الاخلاقية المبتذلة التى حاولوا ان يستنتجوا منها حتمية مطلقة قائمة فى علاقات الافراد والشعوب بعضهم ببعض . ثم عندما تبينوا خطأهم فى هذا الاطلاق بحكم اختلاف الشعو بواختلاف مفاهيمها وعاداتها — عادوا فقرروا ان « كل » نوع من الاخـلاق حتمى أو قسرى . وكل من الفكرتين عند نيتشة لا تقل صبيانية عن الاخرى . ثم زادوا الطين بلة عندما راحوا ينتقدون بعض النظريات فى الاخلاق لـدى الافراد والشعوب فتوهموا انهم ينقدهم لتلك النظريات قد نقدوا الاخلاق نفسها . انهم « فى الواقع مازالوا الى اليوم يعتقدون انهم اعطـوا لقضية الاخلاق ما هى جديرة به من الاهتمام والروح العلمية المتعمقة ، فى حين انهم اكتفوا بإيجاد أسس جامدة مريضة لانهم يعتقدون ان الاخلاق ليست شيئا يتكون باستمرار وانما هى « معطيات » . وهكذا بقيت مشكلة الاخلاق مادة مهملة ينسج عليها النسيان خيوطه بعد ان طرحتها تلك الكبرياء الثقيلة التى تعصف بعقول المفكرين .

على ان هناك سببا آخر فى نظر نيتشة جعل الفلاسفة يهملون الاخلاق هذا الاهمال المشين وهو أن مشكلة الاخلاق تتطلب ايدى فى غاية المهارة والضبط . وبما ان علماء الاخلاق ليس لهم من ذلك غير الغلظة والسماكة والرعونة تلك العاهات التى اعدتهم بها عقلية الكنيسة وبقية ما يحيط بها من ظروف ، وبما انهم ايضا قد استقوا كل معلوماتهم عن الاخلاق من عادات الشعوب وتواريخها بشكل ناقص مغلوط، فقد كان من البديهى ان يكونوا ابعد الناس جدارة عن بحث قضية الاخلاق وايجاد ما تتطلبه من الحل . « الا ان كل ما يسميه الفلاسفة (أسس علم الاخلاق) ليس امام ضوء الحقيقة غير شكل متحايل للاخلاق السائدة حولهم . اى هى عبارة عن سلبية مطلقة — وضعت فى قالب اخلاق . وهكذا اذن ينتهى بنا المطاف مع نيتشة الى هذه الصحراء القفر التى عاشت الانسانية على سرابها وخداعها كل ما عاشته من القرون : اديان فاشلة خلقها الدجالون من اليهود ليقتلوا بها الحياة ، وافكار فلسفية سطحية تطفو على سطح الاخلاق كالفقاقيع وهى تحسب نفسها تغوص الى اعمق ينابيعها « عندما أتيت الى العالم وجدته جالسا على افتراضات قديمة واثقا أنه عرف كل شىء عن الخير والشر . ووجدت الناس يعتقدون ان كل بحث فى الفضيلة قد انتهى أمره . وبالرغم من عقيدتهم هذه فقد كان كل واحد يأتى على ذكر الخير والشر وهو متوجه الى سريره طلبا للنوم »

ان نيتشة يعتقد مخلصا انه هو الحد الفاصل فى تاريخ الانسانية وانه بدأ جديد لتاريخ جديد

ستدخله البشرية يتغير به اتجاهها وتتبدل خطواتها وتتضح اهدافها فى الحياة بعد أن ضلت السبيل فى كل ما مر عليها من عهود . وهو فوق ذلك مؤمن انه بعث لتخليص البشرية من الضلال والحطة والتفاهة وينفك على رقبتها القيود الثقيلة التى رزحت تحتها آلاف السنين . وهو لا يهمه اذا كانت هذه الانسانية تنظر الى عمله وجهده الذى يبذله نظرة ملؤها الحقد عليه ، على انه يعلم ذلك ويشعر باننا ساخطون عليه وهو يهدم أوثاننا الاخلاقية المقدسة ويقول : « لست بالصوت الذى تتطلبه هذه الاسماع . اننى اخاطبهم وكأننى اخاطب رعاة الماعز » .

ولكننا رغم سوء ظن نيتشة فينا فاننا لن نتسرع فى الحكم عليه قبل أن نرى نهاية المطاف الذى يريد الرجل أن يقودنا اليه اننا ما نزال معه فى منتصف الطريق فلعل ما سياتينا به هو الحق وان ما كنا فيه هو الباطل . اننا كثيرا ما جنينا على المجددين فى التاريخ ورميناهم باوسخ التهم لمجرد كونهم ارادوا ان يغيروا قديمنا ويستبدلوا به جديديهم .

(يتبع)

الاديب العربى يشكو من الرقابة ومن الارهاب

ان معركة المصير التى تخوضها الامة العربية اليوم لا يمكن أن تتجزأ . فهى معركة ضد قوى الشر والاستعمار والصهيونية ، وهى معركة على الحدود ، وهى معركة لبناء الاشتراكية ، وهى معركة للحفاظ على عروبة الاراضى التى تغتصبها قوى البغى والعدوان ، ولكنها كذلك معركة لبناء الانسان العربى من الداخل . ولا ريب فى أن هذا الانسان مصاب بآفات كثيرة تنخر كيانه وضميره ، هذه الافات هى التى كانت مصدرا اساسيا للهزيمة التى لحقت بالامة العربية عام ١٩٦٧ ، وهى التى نحتاج أول ما نحتاج ، الى حرية فى التعبير تمكن الاديب من ان يجعل قلمه مبضعا يشق به كل دمامل الفساد ، لا مروحة يدغدغ بها العواطف والنزوات ، ويجامل بنسيمها السلطات . . . وقلم الاديب فى معركة بناء الانسان المتهدم ليس اقل أهمية من بندقية الجندى فى معركة استرداد الارض : كلاهما يعمل من اجل استعادة الكرامة العربية المفقودة . فاذا لم يوفر للجندى السلاح ، ولم يوفر للاديب القلم الحر خسرا المعركة التى يخوضانها .

ينبغى الا يكون همنا الاول ان نسعى فى هذا المؤتمر لاقرار توصيات جديدة تصطدم بعقبات فى التنفيذ تذهب بكل حسن النية الكامن وراء اصدارها ، بل لعلنا نحسن صنعا اذ نعالج هذا الموضوع الرئيسى : كيف نمكن للاديب العربى أن يتمتع بحرية التعبير ليقوم بقسطه فى المعركة ؟ صحيح انه لابد من أن يكون ملتزما بالقضايا العربية ، ولكن لنترك له الحرية فى هذا الالتزام حتى لا ينقلب الى الزام وهو العدو القاتل لكل ابداع فنى .

لنتدارس قضية الرقابة ، ولننظر فى أمر الغائها وتقليصها أو نقلها الى اتحادات الكتاب ، ولنتح للافكار أن تتصارع وتتحاور ، ولنرفع عن فكر الكاتب كابوس الخوف ليجد الطمأنينة التى تتيح له الانطلاق فى سماء الابداع والخلق .

ولكن لابد لنا ، ونحن نطالب بذلك السلطات ، من ان نتعهد بأن نناضل من اجل امتنا ، ونكافح من اجل شرف الكلمة .

من كلمات الدكتور سهيل ادريس فى مؤتمر ادباء العرب بدمشق .

وجه الجزائر المسلم

● علال الفاسى ●

كنا أعلنا فى المقدمة التى وضعناها لمقال الاستاذ علال الفاسى المنشور فى العدد السابق من « الاصالة » انه أول هذه المقالات ، والواقع انه ثالث المقالات التى خصصها الاستاذ علال لانطباعاته عن الجزائر ونهضتها .

وذلك أن المقالين الاولين مركزان على برنامج الملتقى وسيره وتتابع المحاضرات ومحتواها والمناقشات التى تلتها ، وهى معلومة بالنسبة للقارىء عندنا لانه تتبعها بواسطة أجهزة الاعلام .

ولهذا راينا ان نقتصر على المقالات الثلاثة الاخيرة .

اعتبر الشعب الجزائرى استقلال بلاده منطلقا لكل الحريات الدينية والثقافية التى كانت محبوسة من طرف الاستعمار ، اعتبر استقلال الوطن استقلالا للمسجد وللمدرسة الدينية القرآنية وتحريرا من كل هيمنة تبشيرية او اجنبية .

لقد تحررت المساجد التى كان الاستعمار الصليبى اخذها كنيسة ، وفى مقدمتها مسجد « كيتشاوة » المسجد الكبير بالجزائر العاصمة الذى كان مركزا للانطلاق التبشيرى المسيحى فى افريقيا ، لقد عاد مسجدا كما كان منذ الاسبوع الاول من الاستقلال واقيمت فيه صلاة اول جمعة بامامة وخطبة الشيخ البشير الابراهيمى رحمه الله وبمحضر وفود البلاد الاسلامية المدعوة للاحتفال بالجزائر .

ومنذ ذلك الوقت والشعب يستولى على المساجد التى حولت كنائس ليردها مساجد ، ولم يكتف بذلك بل اخذ يستولى على عدة كنائس بقيت فارغة بعد سفر المستعمرين عن البلاد ، وقد تم الاتفاق بين هيئة اتحاد الكنائس العالمى وبين وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية على انه يحق للمسلمين ان يستولوا على كل كنيسة وجدت فى محل لم يعد فيه سكان مسيحيون ، ولهم ان يحولوها اذا شاءوا الى مسجد او الى ناد او مدرسة ، وفعلا فان الدولة والشعب لم يتقاعس عن تنفيذ هذا الحق فهم يحولون الكنائس غالبا الى مساجد بعد اصلاحها وتغيير ما لابد من تغييره ، وقد زرت عددا من هذه المساجد ذات الاصل الكنسى وصليت بها شكرا لله على ما منحه لمسلمى الجزائر جزاء صبرهم وتضحيتهم فى سبيل حريتهم الدينية والمدنية .

ويقبل الشعب واغنياؤه افرادا وجماعات على بناء المساجد الجديدة فى كل انحاء الجمهورية مشجعين من قبل الولاة ووزارة الشؤون الدينية وهى مساجد عصرية فى هندستها وفى اضافة مرافق جديدة لما كانت عليه المساجد من قبل ولا تألو الوزارة نفسها جهدا فى بناء المساجد ايضا وقد زرت بعضها كمسجد الامام مالك فى وهران الذى هوتحفة رائعة زانه الحفر على الجبص الذى استقدم له صناع مغاربة من فاس .

وتتضمن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ادارة خاصة بالشؤون الدينية تشرف على مختلف اوجه النشاط الدينى فى البلاد (بما فى ذلك الاشراف على رجال السلك الدينى المسيحى واليهودى) بوساطة مصالح ثلاث :

اولا ــ المفتشية المركزية .

ثانيا ــ نيابة الادارة للشؤون الدينية .

ثالثا ــ نيابة الادارة للاوقاف .

وحسب البيان الذى امدتنا به الوزارة يمكن حصر نشاطها فيما يلى :

أ ــ المفتشية المركزية (تتبعها خمس عشرة مفتشية واحدة فى كل ولاية) ، وتشرف على المساجد فى البلاد كلها . كما تسير رجال السلك الدينى من ائمة ومؤذنين وحزابين وقيمين وتنظيم شؤونهم ، وتنظم دورات تدريبية للائمة بانتظام لرفع مستواهم باستمرار كما تشرف على حملة محو الامية فى المساجد .

ب ــ نيابة الادارة للشؤون الدينية تقوم باعداد :

ــ الاحاديث الدينية المذاعة يوميا بالاذاعة الوطنية بنسبة ثلاثة احاديث فى اليوم .

ــ النشرة التوجيهية الاسبوعية الخاصة بالائمة لتوحيد التوجيه الدينى ورفع مستوى الائمة ومحاربة الشعوذة والتدجيل والخرافات والبدع .

ــ النشرة التوجيهية الخاصة بوعاظ المساجين مختارة بأسلوب مبسط لتربية وتهذيب المساجين

ــ كما تقوم باصدار الفتاوى من قبل لجنة الافتاء ، وتنظيم الحج كل سنة .

ج ــ نيابة الادارة للاوقاف ، ونشاطها المهم فى :

ــ رعاية تسيير الاملاك الحبسية ،

ــ ترميم واصلاح المساجد القديمة .

ــ الاشراف على هندسة المساجد الجديدة حتى توافق المقاييس الاسلامية من جهة ، والفن المعمارى الاصيل من جهة ثانية .

ــ تجهيز المساجد بالافرشة ومكبرات الصوت (وكل مصروفات المسجد على نفقة الوزارة) .

ومما يلفت النظر فى الجزائر ان المساجد كلها مفروشة بالزرابى التى تشتريها الوزارة او يتبرع بها المومنون .

الموظفون الدينيون فى اطارهم الجديد

يجب الانتباه الى ان الامام اصبح منذ سنة ١٩٦٩ يتمتع بكامل حقوق الموظف فى الدولة ، من منح عائلية وضمان اجتماعى وترقية وعطل وتقاعد الخ . . وبعد أن كان يتقاضى منحة مؤقتة فهو الآن يتقاضى راتبا معتبرا وثيق الصلة بشهادته ومستواه العلمى يتراوح بين ستين الف فرنك ومائة وخمسين الف فرنك .

وقد نظم امتحان مهنى خاص ، لمستوى الائمة والمؤذنين يرسم بمقتضاه كل الناجحين فيه فى درجات تناسب نتائجهم فى هذا الامتحان ، اما الراسبون فيبقون فى مساجدهم ويستعدون للدورة الثانية (وتنظم لهم دروس خاصة فى مدرسة خاصة)

واما الائمة الذين يحملون شهادات علمية كافية فيرسمون بمقتضى شهاداتهم ولا امتحان عليهم .

وتقول الوزارة فى بيانها المعطى لنا انها تريد بهذه الطريقة ان تبعد الامام المتكاسل وتفتح المجال للامام النشيط الذى يقبل على العلم بارادة وعزم .

واما عدد رجال السلك الدينى الذين تجرى عليهم الوزارة رواتب شهرية حاليا فقد تضاعف اربع مرات من الاستقلال الى اليوم ، فقد كان عددهم اربعمائة واربعين وهم اليوم الف وتسعمائة .

ولا يزال عدد مثل هذا تقريبا يقوم بالصلوات الخمس وصلاة الجمعة تطوعا او على نفقة البلدة او القرية التى يوجد بها المسجد ، وذلك الى ان يرسموا جميعا فى مدة سنتين او ثلاث ان شاء الله .

وهذه الزيادة المستمرة راجعة الى ما اومانا اليه من اقبال المومنين بحماس على بناء المساجد وعلى تحويل الكنائس الى مساجد .

ووظيفة الامام لم تعد قاصرة على اداء الصلوات ، بل هو مكلف ايضا بالقاء دروس الوعظ والارشاد .

وبتحفيظ القرآن للاولاد مدة معينة وبالقاء دروس فقهية منتظمة .

وبدروس محو الامية يوميا داخل المساجد .

وقد بدات حملة محو الامية بمساجد البلاد كلها فى ١٥ اكتوبر ١٩٧٠ ، وافتتح الحملة رئيس مجلس الثورة والحكومة بنفسه فى الجزائر كما قام بتفقد سيرها فى مساجد العاصمة وبعض عواصم الولايات كمدينة سطيف ، وقد ادخلت السبورة الى قاعة خاصة فى المسجد واصبحت كالمنبر ملازمة له ، رجوعا الى الاصل الاول ،

ووزعت الوزارت مجانا على المساجد عددا ضخما من الكتب ، كتاب لتعليم القراءة فى جزأين ، كتاب الخط ، كتاب الحساب ، كتاب المعلم .

وقد افتتحت الوزارة مدرسة خاصة ببلدة مفتاح سمتها المدرسة الوطنية للاطارات الدينية وذلك لتوسيع افق الائمة الحاليين فى شؤون الدين واساليب التربية .

لقد زرت مساجد كثيرة واديت بها بعض الصلوات فكان اعجابى كبيرا بعدد المصلين الحاضرين من الشيوخ والشباب ، والقيت فى مسجد يوسف بن تاشفين بتلمسان درسا فى تفسير سورة لم يكن الذين كفروا ، حضره جم غفير من الناس ، كما القيت درسا بمسجد سيدنا على بمدينة وهران وهو من المساجد التى بناها الشعب ، كان موضوعه تفسير قوله تعالى : (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلف الوانها) وقد خرجت لهذا الدرس من النزل الذى كنت فيه ، فى موكب فخم مع رتل من السيارات المقلة لوفود البلاد الاسلامية ، وكان المسجد غاصا بالمصلين الذين لم يسعهم

فابتاحوا فى الشارع القريب ، وفى العاصمة القيت كذلك درسا فى تفسير قوله تعالى : ان قارون كان من قوم موسى الآيات) وقد حضره وزير الشؤون الدينية ومفتى العاصمة الذى اطلعنى فى خزانة المسجد على نسخة من صحيح البخارى بخط سيدى عبد القادر الفاسى وقال لى : انها هنا كالشيخة لتصحيح نسخ الصحيح عليها .

للائمة فى المساجد بنيقة او مقصورة خاصة بها بعض الكتب وطاولة والتلفون ومحل الوضوء .. ويظل الامام فى المسجد لمقابلة السائلين او القيام بالشؤون المنوطة به واداء الصلوات والقاء الدروس .

ارجو ان يكون المسؤولون فى بلادنا من القارئين لهذه الاخبار التى جئت بها عن عيان ومن مصادرها الاصيلة ليدركوا مقدار الخطيئة التى يرتكبها من يهمل فى بلادنا تطوير احوال السلك الدينى ويعوق عن مواصلة تخريج العلماء والمثقفين فى المعاهد الدينية المختصة لذلك . انها لخطيئة عظمى أن نرى ما يفعل اخواننا وجيراننا ونسير نحن فى هدم ما خلف اسلافنا ولكن : (ان ربك لبالمرصاد) .

الطبقية الثقافية

« ... قد تكون ظاهرة التخلف المتولد عن قرون من الجمود الفكرى والسياسى والاضطهاد الاستعمارى اكثر ظواهرنا المعاصرة خطورة على مستقبلنا ومصيرنا . والتخلف الذى نعنيه يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكرى لدى المثقفين والحكم المطلق فى السياسة . ان هذه امية متفشية الى اقصى حدود التفشى لدى جماهيرنا العربية . واذا استثنينا القليل من الجهود التى تذبلها بعض المصالح العربية ، فان الامية فى مجتمعنا قد بلغت حدا مخيفا يجعل اى نوع من انواع المشاركة الفعالة لهذه الجماهير فى معركة المصير غير مأمونة العواقب ، وغير ذات اهمية . ومن الجناية على هذه الجماهير أن ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الاساسية تصرف فى شتى انواع البذخ والترفيه على اقلية محظوظة وطبقة ممتازة فى عصر نحن فى اشد الحاجة الى الثقافة الشعبية ونشر الوعى وازالة الحواجز الطبقية وتكوين مجتمع « الصالح العام » .

ولابد من الالحاح على هذه الطبقية الثقافية التى تميز واقعنا العربى . وليس يخاف أن قرون الجمود وسنوات الاستعمار المظلمة قد مكنت لطائفة من الشعب العربى أن تسمن فكريا كما سمنت اقتصاديا . وبذلك تكونت « نخبة » ممتازة فى ميدان الفكر والثقافة كما تكونت « اقطاعيات » ممتازة فى ميدان الاقتصاد والاجتماع . واذا كانت هذه الاقطاعيات قد بدات تتساقط كأوراق الخريف فى الوطن العربى ، فان النخبة الثقافية ماتزال تمد جذورها وتبسط نفوذها ... »

من بحث عنوانه « من حضارة الشعر الى حضارة العلم » للدكتور ابو القاسم سعد الله ..

د . محمد العربي ولد خليفة

استاذ بكلية الآداب

جامعة الجزائر

الإلتزام الايديولوجي

في البحث العلمي الاجتماعي

على الرغم من ان قضية الالتزام الايديولوجي وعلاقته بالبحث العلمي الاجتماعي لم تكن الى عهد قريب من بين الموضوعات التي تؤرقنا في الجزائر ، فانها تعتبر في الواقع اساس البحث في هذا الميدان ومحور الجدل فيه .

وليس بدعا ان تكون الايديولوجية هى منبع البحث فى العلوم الاجتماعية ومصبه ومركز الاهتمام ومداره ، وليس غريبا ان تتنوع التجربة الانسانية وان تتعدد بالتالى الواجهات التى تعرضها فان الناس كما يقول (هوايت هيد) يطلبون من جيرانهم قرابة تكفى للفهم واختلافا يثير الانتباه وجلالا يبعث على الاعجاب ، غير ان الذى يعد بحق ردة وبدعة هو اعتبار المجتمع مجرد مادة خاملة يمكن وضعها فى انبوبة اختبار فتنصهر باللهب وتتفاعل بالاحتراق ، او النظر اليه وكانه لوحة مطرزة يحوم حولها الفكر من بعيد ليتامل وبمنطق وبجرد وينسق دون ان يقتحم الميدان ويتمرس بالواقع الاجتماعى ويشاهده عيانا .

ان الايديولوجية جزء من الواقع الاجتماعى تمتزج به ولا تنفصل عنه فهى مجموعة الافكار والمعتقدات واتجاهات التصور والتصديق التى تشخص جمعا معينا من الناس سواء اكان هذا الجمع امة ام طبقة ام مذهبا ، ويعرفها ماركس فى الموسوعة السويدية وفى مواضع اخرى — مع انغلز — فى المانفستو بانها المذهب السياسى الشرعى الذى يمثل الغطاء الفنى والفلسفى للانتاجية الاقتصادية كاساس للبناء الاجتماعى .

ويذهب كل من كارل مانهايم وفرو من وبيكر الى اقامة علاقة وثيقة بين الايديولوجية والتغير الاجتماعى فى مختلف صوره وانساقه وبالعلوم باعتبارها اداة التكنولوجية الاجتماعية ، فباستثناء الدين — الذى يبدا من اسس مطلقة ليتراجع منها الى جزئيات يفرغ عليها قوة المسلمات اليقينية — فان كل علم فى حاجة الى اطار نظرى يكون مرجعا للتبرير .

٢ — وليس القصد سرد تعاريف الايديولوجية او مناقشة تطور مدلولها خلال المذاهب وعبر تاريخ الفكر (١) فان الذى يعنينا هنا هو تعرف الصلة بين العلم — والعلم الاجتماعى بوجه خاص — وبين الايديولوجية ولكى تتضح هذه الصلة ينبغى ان نضع فى حسابنا جملة قضايا اولية :

اولا : اذا كانت العلوم الاجتماعية قد تعددت

واو غلت فى التخصص فان الواقع الاجتماعى واحد لايتعدد فهى اشبه بالروافد التى تخرج من نبع واحد لتعود اليه بعد مطاف طويل اكثر غزارة وجدة وثراء ، غير أن هذه العلوم تعانى فى جميع دوائرها من التعقد فى الموضوع والقصور فى التعميم والاتساع فى التضمن والنقص فى الشمول وهذا ليس بنقص فيها اذا اخذنا بعين الاعتبار سلم تطور المعرفة من المستوى اللاعضوى الى العضوى الى مافوق العضوى . أن العلوم اللاعضوية استطاعت أن تصل الى درجة عالية من الضبط واليقين والتعميم والقابلية المرنة للتطبيق فقد برهن مثلا قانون الجاذبية لينوتن على وضوحه وصدقه فى مراحل التجريب والتفسير والتطبيق ولعل هذا ما جعل الفزيائى البريطانى تومسون يقول : « ان النظرية سياسة اكثر منها عقيدة فموضوعها هو الربط بين الظواهر او التنسيق بينها بغية الايحاء بالتجربة او استثارتها فوق اى اعتبار آخر »

ولذلك ينبغى التسليم بادئى ذى بدء بأن هناك عددا محدودا من الظواهر يمكن فهمها بعدد قليل من المفاهيم والفروض وبدون هذا التسليم يتوقف كل مجهود علمى ونتراجع الى الفكرة العتيقة التى تزعم بان الطبيعة خواء وان الجهد الفكرى هباء .

ان المفاهيم والفروض التى تفهم ظواهر الطبيعية فى ضوئها هى فى الواقع من ابتكار الانسان فليس للعلم وقوانينه وجودا مستقلا يجعله جزءا من الطبيعة فالعلم وقوانينه بهذا المعنى جهد يبذله الانسان ليبسط الظواهر ويفهم سننها ويتحكم فى سيرها .

وهذا يعنى ان هذه المنطقة ليست بمنجاة من الاحتكاك بالايديولوجية فقد واجهت النظرية النسبية ردود فعل عنيفة فى الاتحا السوفياتى واطلق عليها البعض اسم النظرية الرجعية الاينشتانية لانها تشك فى احد مبادىء الماركسية وهو موضوعية الحقيقة وذلك حتى سنة ١٩٥٥ عندما اكد الكسندروف أنه لاتعارض بين النظرية النسبية والماركسية لان الاولى جزء من الحقيقة الموضوعية غير المشروطة ومن هنا اتضح ان ما هو نسبى يختلف عما هو غير موضوعى .

ويأتى فى المستوى الثانى العلوم العضوية المتمثلة فى الفزيولوجية والبيولوجية وفروعهما التى حققت فى القرن الماضى تقدما باهرا على يد دارون ولامارك وكلود بيرنار الذين استخدموا مناهج المستوى السابق « اللاعضوى » فى دراسة الظاهرة الحيوية .

أما العلوم فوق العضوية وهى العلوم الاجتماعية فهى تختلف عن المستويين السابقين وان كانت تنتمى اليهما — لان الانسان كائن عضوى يعيش فى محيط بعضه فيزيقى — اقول ان هذه العلوم تقع فى اكثر المناطق تنوعا وتعقدا وتغيرا ، فلا مراء فى ان الانسان هو اعقد الكائنات طراكما أنه منشىء المعرفة وجانى ثمارها وهو فى هذه المنطقة يجد نفسه دارسا ومدروسا عارفا ومعروفا وهذا هو سر تأخر العلوم وحاجتها المتزايدة للاستعانة بمناهج ونتائج العلوم الرياضية والطبيعية والبيولوجية ، ففى علم الاجتماع نجد أن هناك علم اجتماع رياضى وآخر فزيائى وثالث عضوى ورابع ميكانيكى وتكشف المقارنة التالية التى يعقدها كارى بين القوانين الفزيائية والاجتماعية عن مطامح واحد من اكثر العلوم الاجتماعية تقدما :

القوانين الفزيائية

١ — تنجذب جميع اجزاء المادة بعضها ببعض ، ويكون الجذب اطراديا بالنسبة للكتلة وعكسيا بالنسبة للمسافة .

٢ — تخضع المادة لعوامل مركزية ولا مركزية فتعمل الاولى على خلق مراكز محلية بينما تعمل الثانية على هدمها وخلق كتلة مركزية واحدة تخضع لقانون واحد .

٣ — كلما كانت هذه العوامل تامة كلما كانت حركة الاجسام اكثر وحدة واقرب الى الثبات .

٤ — كلما اشتد فعل هذه القوى او العوامل كلما كانت الحركة اسرع والقوة اكبر .

٥ — كلما كانت القوة والحركة الناتجة كبيرة كلما اسرعت فى حركتها واتجهت الى تفكيك الكتل وافراد الاجزاء المكونة لها وكلما كان الاتجاه نحو الاجزاء اكبر كلما كان جمعها أسهل واسرع والقوة الناجمة اعظم .

القوانين الاجتماعية المشابهة

١ — يخضع الانسان لنفس القوانين فينجذب الافراد بعضهم لبعض ، ويكون الجذب طرديا بالنسبة لعدد السكان وعكسيا بالنسبة للابعاد والمسافات .

٢ — وبالمثل تنجذب المراكز المحلية الانسان فى اتجاه واحد بينما تجذبه المدن الكبيرة — التى هى بمثابة مراكز للعالم — فى اتجاه آخر .

٣ ـ وبالمثل كلما كانت هذه العوامل تامة التوازن كلما كان الاتجاه أكبر نحو الشخصيات الفردية واتساع مدى الارتباط والتضامن داخل المجتمعات المحلية وكلما زادت الثورة والحرية زاد الاتجاه نحو الانسجام والسلام .

٤ ـ يصبح الانسان نتيجة لاتساع نطاق الحركة واشتداد القوة اكثر خضوعا لقوانين

الاجتماع الانسانى .

٥ ـ تنمو الفردية بسبب اختلاف ظروف العمل التى تستتبع اختلافا فى طلب الانتاج ، وكلما كان الاختلاف اكبر كلما كانت قدرة الانسان على توجيه قوى الطبيعة اعظم .

ثانيا على الرغم مما يبدو من تباعد العلوم

الانسانية من ناحية الموضوع والمناهج والادوات وتشتت نتائجها عند التفسير فانها بلاريب تلتقى فى قطر الدائرة المعرفية ومحورها الا وهو الانسان ، فان الظواهر سواء اكانت اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية هى فى النهاية من صنع الانسان ، منه تبدأ واليه تعود فهو الذى يعطيها مدلولها وهو الذى يتلقى آثارها باعتباره فردا وعضوا فى جماعة ، وهذا الانسان ـ كما يقول مود سلى

اعظم من أن تفسر مظاهر نشاطه طريقة واحدة من البحث سواء اكانت ماكروسكوبية (تتبع العالم الاكبر أو ميكروسكوبيه (تتبع العالم الاصغر) .

ثالثا أن العلم قد أصبح وثيق الصلة بالمجتمع والذين لايزالون يقيمون الحواجز والفواصل بين العلم والحياة الاجتماعية بين النظرية وامكانيات تطبيقها هم فى الواقع ضحايا لاوهام (التيوريزم) أو التنظير .

ان العلماء يشعرون اليوم بأن على كاهلهم مسؤوليات لابد من مواجهتها بثقة ورباطة جاش ويمكن اجمال أهم هذه المسؤوليات فيما يلى :

١ ـ ابراز ما فى العلم من أخطاء مثل نظرية الاجناس البشرية وابراز الاخطاء العلمية فى الآراء المتعلقة بالحركات الاجتماعية الهدامة .

٢ ـ تنظيم النقد العلمى عن طريق الجهود التعاونية حتى لايطغى الضجيج والعناد على الحقائق المتزنة .

٣ ـ تقديم الادلة المادية على ما بين العلم والشؤون الاجتماعية من صلات قوية حتى يقتنع العلماء بضرورة اسهامهم جميعا فى الشؤون الاجتماعية لخير العلم نفسه .

٤ ـ وصف التحسينات الاجتماعية المرغوب فيها للتقدم العلمى وايضاح ان النظم الاجتماعية السيئة تعوق تقدم العلوم وأن هذا التعويق نفسه قد يؤدى الى نظم اجتماعية اسوأ .

٣ ـ ولتوضيح ذلك يمكن أن نضرب مثلا من ايديولوجتين متباينتين :

ففى الايديولوجية الفاشية تخمد أنفاس الحرية العلمية وتطمس كل الحقائق التى لاتلائم أهداف الجماعة الحاكمة ، وسرعان ما يجد العالم نفسه مسخرا لخدمة اغراض ونزوات عابرة وهكذا تنطفىء كل ومضات الخلق والابداع ولا تنقدح جذوة الاصالة والابتكار .

وتجد هذه الايديولوجية تربة خصبة فى النظام الراسمالى فهو الذى يفرزها وفى ظله تنمو وتترعرع ، وقد اوجز آدم سميث فى كتابه المعروف عن « حب الثات : مبدا التعامل السائد فى المجتمع الانسانى » الخصائص التى تجعل

النظام الرأسمالى يحمل دائما بين جنبيه خطر الفاشية يقول : اننا لا نتوقع غذاءنا من الجزار او الخباز صانع الجعه على أساس حبهم للخير ولكن على اساس حبهم لانفسهم ولا نتحدث « اليهم البتة عن ضرورياتنا نحن بل عن استفادتهم فما من أحد غير المتسول يقبل الاعتماد اساسا على حب مواطنيه للخير . »

ويبدو اثر الايديولوجية الاشتراكية فى صورة مخالفة تماما فمهمة العلماء فيها هى التدعيم العلمى والعلمى لابناء الاشتراكى ودراسة القوانين التى تحكم عملية الانتقال الى الاشتراكية الحقيقية والكاملة وذلك باقامة علاقات اجتماعية وثقافية واسلوب حياة مطابق لاسس النظرية الاشتراكية وهى اسس تربط بين الحرية والتقدم من خلال التطور التاريخى وتأخذ بعين الاعتبار العناصر المادية وان كانت لاتقف عند حد تجمع السلع فالتقدم يعنى نمو الحرية وهو يتكون بالتالى بتزايد السيطرة العاقلة على البيئة المادية وعلى ظروف الحياة الانسانية وتتضمن هذه السيطرة ثلاث عناصر متميزة :

ا — نمو الصناعة والتكنولوجيا وبالتالى نمو الانتاج .

ب — سيطرة الانسان الجماعية على علاقته الاقتصادية وكافة شروط الانتاج والتوزيع .

جـ — مقدرة الانسان من خلال هذه السيطرة على تنمية خصائصه الانسانية المميزة .

ه — اقتناع العلماء الذين لايذيعون آراءهم السياسية والعلمية بتعضيد الحركات الانشائية التى تقوم على اسس سياسية عادلة وتعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية .

ويوضح المثالان التاليان اثر الصراع العقائدى فى صياغة النظريات العلمية وتوجيه مناهج البحث .

١ — واجه علم النفس فى الثلث الاول من هذا القرن مأزقا حرجا عندما انكر متطرفو اليسار نواحى النقص الوراثية فى الانسان واعلنوا ان القياس النفسى —

بدعة برجوازية تكرس الفروق الفردية وتبرر الاستغلال الذى تمارسه الطبقات الكادحة بينما الناس فى الحقيقة سواسية كأسنان المشط وان المسؤول عما بينهم من فروق هو النظام الاجتماعى الذى يتيح فرص النمو العقلى والسواء النفسى للمحضوضين ويحرم غيرهم من الذين ينشأون فى بيئات فقيرة . وانتهى هؤلاء المتطرفون الى رفض علم النفس الفارق منهجا وموضوعا لانه علم

يناقض تعاليم العدالة الاجتماعية المطلقة وينطلق من مسلمة مؤداها ان المواهب فطرية وان وجود الطبقات المسيطرة امر طبيعى ومشروع .

اما متطرفو اليمين فقد وجدوا فى القياس النفسى التهم المنشودة ، ولذلك ازدهرت كثير من الابحاث فى شمال امريكا وفرنسا وبريطانيا والمانيا وايطاليا تزعم ان الانحرافات النفسية والاجتماعية تورث مثلما يورث لون الشعر وطول القامة واستخلصوا من ذلك تعميمات مضللة مثل تلك التى انتهى اليها ديفنبورت والقائلة بان بيض امريكا اذكى من زنوجها وان الاجرام سلوك موروث فى قبائل الجوك والكاليكاس وان الآريين اقدر على الابداع من اى جنس آخر ، وهذا ما يفسر ازدهار اساليب القياس النفسى واوجه تطبيقه فى تلك البلاد لان العمال يمكن ان يسرحوا بوسائل فنية لاخفاقهم فى اختيارات الانتقاء والتوجيه المهنى والتلاميذ يصنفون فى فئات حسب نسبة الذكاء ويحرمون باسم العلم من دخول باب الجامعة الخ ..

ب ــ لقد لعبت الايديولوجية الراسمالية فى المجتمعات الغربية (فرنسا وبريطانيا بوجه خاص) دورا حاسما فى توجيه الدراسات الانثربولوجية نحو الاتجاه التطورى فقد اعتبرت الثقافة (٢) الغربية أرقى ما وصلت اليه الانسانية عبر تاريخها الطويل بينما كان ينظر الى بعض الثقافات السائدة فى افريقيا وآسيا واستراليا بأعتبارها تمثل نقطة البداية ولمعرفة الاشواط الوسطى التى قطعتها الثقافات ينبغى القيام بدراسات تراجعية يكون المعيار فيها هو النقطة الحضارية التى يقف فيها الغرب اليوم ، وفضلا عما فى هذا الافتراض من تجنى يقوم الثقافة من جانبها التكنولوجى فحسب ويغفل عن اسس التنظيم الاجتماعى الاخرى مثل النسق الاخلاقى والدينى الخ .. فضلا عن ذلك فان الهدف الحقيقى لهذه الدراسات هو الوصول الى فهم اعمق لهذه الشعوب المسماة بدائية تمهيدا لاستغلالها واستعمار اراضيها ولم يكن عجبا ان يقوم الانتربولوجيون بعمليات الاستكشاف الاولية قبل كل حملة استعمارية ، وهكذا سخرت الايديولوجية علما من احدث العلوم ووجهته وجهة خاطئة تتخفى وراء مسوح العلم .

٤ ــ ان العالم لايلبث أن يقتنع خلال الشوط أو وهو على مشارف النهاية بأن هناك قضية وحيدة جديرة بأن يكافح من اجلها هى قضية الانسان فى آلامه وتطلعاته فى سعادته وشقائه . لقد قضى راسل زهاء نصف قرن وهو يشيد صرح الرياضة لبنة لبنة بنصل « أوكام » الصارم حتى اصبح ، امامها والداعى لها والذى وطاها للجميع ولكنه وجد نفسه فى نهاية الشوط أمام سلسلة لاتنتهى من الطوطولجيات (تحصيلات حاصل) لم تغنه شيئا ولم تشف غليله التواق الى الحقيقة المتمثلة فى الواقع الانسانى كما هو فى الهنا والآن ولعل هذا ما جعله يختم سيرته الذاتية بهذه الكلمات المؤثرة :

« لقد كان من نتائج الحرب انها جعلت من المحال بالنسبة لى ان أواصل حياتى فى عالم من التجريد اذ تعودت ان ارقب الفتيان وهم يرحلون فى قطارات نقل القوات المسلحة لكى يذبحوا على ضفاف نهر السوم ، لان القواد كانوا اغبياء وكنت اشعر بحنو موجع على اولئك الفتيان ، وكنت اجد نفسى وقد اتحدث مع العالم الواقعى فى قران من الانم وكل ما كان لدى من افكار محلقة عن عالم الافكار المجرد بدا لى هزيلا واقرب الى التفاهة بازاء ما كان يحيط بى من العذاب الشامل وبقى العالم غير الانسانى ملاذا الجالية من وقت لاخر وليس وطنا يبنى فيه الانسان مسكنه الدائم . »

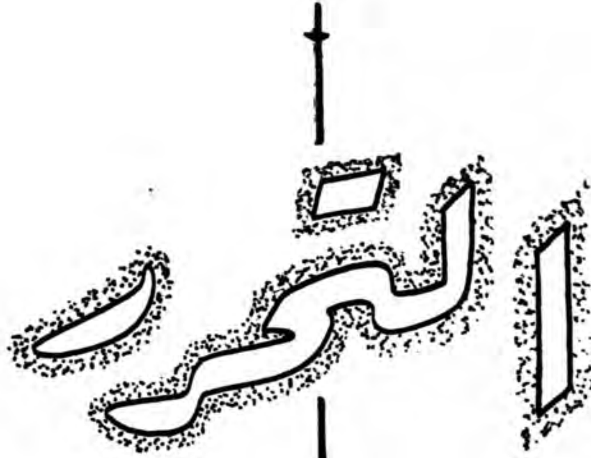
محمد العربى

(للمقالة صلة)

---

(١) بدأ استخدام كلمة ايديولوجية بمعناها الحديث فىمستهل القرن التاسع عشر ويقال ان الفيلسوف تراسى Tracy قد اقترح على المجلس الوطنى الفرنسى سنة١٧٩٦ اطلاق هذه الكلمة على الفلسفة العقلية

(٢) يقصد بالثقافة فى هذا المجال ذلك الكل المركب الذى يشمل المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الاخرى التى يكتسبها الانسان منحيث هو عضو فى المجتمع .



والعندية

محمد عزيز الحبابي

سنبحث عن الفعاليات التي يتحقق بها التحرر ، وعن الطرق التي تؤدى الى هذا التحقيق :

— ما هى مفاهيم الملكية ؟

— ما هى الانفعالات الوجدانية التى تنشأ عن التملك ؟

على هذا المستوى ، سنجد ان الفعاليات المحررة تتصل بالتزام : بالصراعات المجتمعية ، وبما يعترى البيئات البشرية من انسجام او اختلال .

فكرة الملكية وفكـرة العمل

منذ العصور القديمة ومشكل التملك يشغل الفكر الانسانى . ولكى نظهر ارتباطه بمشكـل التحرر ، قد يكفينا أن ننظر اليه فى شكله الممتاز، اى كعلاقة بين الشغل ونتائجـه . لكـن هذه النتائج ان هى الا افعال تثبت الوجود الفعلى لمن يقوم بها ، وتتيح له أن « يتموضع » ويتحقق (١) اما التملك،فحتى حينما يظهر امتدادا للشخصية، فى عالم الاشياء ، او فى شكـل « مشاركة » ، يبقى مرتبطا ارتباطا لا ينفصل بفكرة الحرية . اليس الرق والاسترقاقية الا صورا ناطقة لذلك؟

لقد كان الاقدمون يميزون ، مثلما نفعل نحن اليوم ، بين نوعين من الملكية ، ملكية المتـاع وملكية العقارات ، ومن الممكن ان يعد العبد من هذا الصنف أو الاخر ، على السواء . كـان العبد الملحق بشخص المالك او المـواطن الحر ينتقل من سيد الى آخر ، ومن يد الى يد،كقطعة من المتاع . وهناك أيضا العبد الذى من صـنف العقارات ، نعنى أنه يشبه الارض التى كـان ملحقا بها . وهذا ما سمى فى عصور سالفـة بالاسترقاق الارضى (٢) .

فمشكلة التملك لا تتعلق بالنظام الاقتصادى فحسب ، بل ان معنـى الانسـان ومصيره ، وتحرره ، كل ذلك يوجد ، ضمنيا فى مشـكل التملك . كما يحتـوى هـذا المشكل عـلى كل العلاقات التى تربط الناس فيما بينهم . ولذلك عكف المفكرون ، باختلاف اختصاصاتهم ، على دراسة علاقة الانسان بالملكية ، سـواء منهم المؤرخون ، أو السوسيولوجيون ، أو الفلاسفة ، أو الايثنوغرافيون ، أو رجـال القـانـون ، أو المشتغلون بالاقتصاد . انها مشكلة اساسية ، لا بالنسبة لفهم حضارة ما وقيمة الحريات التى ترتكز عليها فحسب ، بل كذلك لمعـرفة الكائن الانسانى من الناحية السيكولوجية . فـ « ما هو ملك لنا » يظهر انه يدخل فى اعماق ذاتنا ، ويوسع افقها : فكونى « مالكا لشىء » معناه انى اكون واياه وحدة ، اى ان ما املكه يصير ، ماديا ومعنويا ، جزءا منى . وهذا ما يذكـرنا بمثل مغربى « المال من الاكباد » .

* * *

توجد عند « أفلاطون » احدى الانتقـادات الاولى التى وجهت للملكية . لقد دعا ، بطريقة مطردة ، الى نظام فلسـفى ــ اقتصـادى ــ سياسى تصبح الملكية فيه ملكا مشتركا (٣) : « اريد ، **اولا** ، أن لا يملك احد شيئا يكون خاصا به الا اذا كان ذلك ضروريا » . ولكن هذا النظام لن يكون مطبقا الا على حراس المدينةالافلاطونية وحدهم ، اما الطبقات المنتجة فانها،على العكس من ذلـك ، تعيـش تحت نظـام الملكيـة الشخصية .

ثم جاء ارسطو فدافع عن الملكية الشخصية ، دون أى حصر ، وعلـى الاخـص منهـا الملكية العقارية ، بل انه برر الاسترقاق (٥) . فالارقاء من الملكيات الشخصية ، بلـه مجـرد « آلات حية » ،وسيظلون كذلك ما لم يتحقق « الحـلم الاكبر » : لو استطعنا « أن نعطـى امرا ، او نقوم باشارة لكى تؤدى كل آلة عملها (...) لما احتاج المهندسون الى عملة ، ولا الاسيـاد الى عبيد » (٦) . حين ذاك ستحتل الآلات مكان العبيد ، فى جميع الاعمال على اختلافها ، دون

---

(١) موضـع Objectiver

(٢) انظـر : F. de boulange, la cité antique :

(٣) الجمهورية ، الكتاب الثالث A. Koyré « Introduction à la lecture de Platon »

(٥) ان المدينة ، كما يراها افلاطون « ليست مطلقا مدينـة شيوعية » ص ١٤٥

(٦) امتلك ارسطو نفسه خمسة عشر رقيقا !

ان تنتزع من المواطن الحر حريته،ودون ان يحرم من التفرغ للتفكير المجرد والتأمل . انـه حلم عظيم ، غير ان تحقيقـه ليـس الا افتراضات ومتمنيات ارسطية ... فالطابع الانتفـاعى والنسبى لنظام جائر ، كالاسترقاق ، قد غاب عن ارسطو ، مع ان السفسطائيين قد لاحظوا ذلك قبله . فـ (هيبياس Hippias) يؤكد انه ليس للاسترقاق اى اساس فى الطبيعة البشرية. وكذلك الشأن ، حسب « أنتيفون Antiphon » بالنسبة لاعتقاد الاغريق ، انهم مخالفون ، تمام المخالفة ، للاجانب (بربار Barbarus) .

الرواقيون ، هم ايضا ، يودون ان تـؤسس مدينة ذات ابعاد شاسعة يشترك جميع الناس فى تسيير شؤونها العامة . فكر (زينون) فى «شيوعية» تامة تتعدى الاشتراكية الاوليغارشية التى امتدحها افلاطون فى جمهوريته ، فمـؤسس المذهب الرواقى لم يميز مطلقا بين يونانواجانب، بين مواطنين احرار وارقاء ، وبذلك ابرز خطوطا لفكرولوجيا (٧) نبيلة ترمى الى « النزعة العالمية » التى ستتضح جليا ، فيما بعد ، عنـد رواقـى الامبراطورية ، مثل (سنيكا) و (مارك اوريل) .

* * *

يجدر بنا ان نذكر ، كذلك ، بموقف ابـى ذر الغفارى ، فى القرن الاول للهجرة (القرن السابع بعد الميلاد) . لقد دعا هذا الصحابى الى الغاء مطلق للملكية الشخصية ، بل وحض على «ثورة الفقراء» من اجل اقامة مجتمع يسوده التساوى التام. لم يكف ، طول حياته ، عن ترديد هذه العبـارة النارية : « ويل للاغنياء من الفقراء ! » ولكن ابا ذر لم يترك اتباعا وانصارا لنظريته ، بل ان الاتجاه المعاكس هو الـذى استاثر بالعقـول والانظمة ، فى كل الامّة الاسلامية .

ويتسع نطاق مشكل الملكية ، مع ابن خلدون، فلم يعد يهم الميدان الشرعى فحسب ، ولا ميدان الفلسفة وحده . فنظرية ابن خلدون ترتكز على الواقع المجتمعى والاقتصادى ، اكثر منهـا على اى شىء آخر . فمن ذلـك الحـين ، اصبحت فكرة الملكية مرتبطة بتوزيع الخيرات ، وبالسلطة السياسية ، وباختلاف الطبقات . وشروح ابن خلدون ، فى هذا الموضوع ، تثير قضايا مهمة صارت فيما بعد ، قضايا المصلحين الاقتصاديين



ارسطو

والمجتمعيين ، وقضايا الموسوعيين ، مـثل « برودون Proudhon » « وكونسيديران Considérant » و « انجلز Engels » و « ماركس Marx » (٨)

يرى ابن خلدون انه يجب ، قبل كل شىء ، ان نعتبر مختلف اصناف الخيرات من حيث فائدتها

(٧) فكرولوجيا Idéologie

(٨) ارسطو ، كتاب السياسة ، ج ١ ، ص ٤ . ان افلاطون ، بالرغم عن كونه من اسرة ارستقـراطية ، تشجع فصرح بان للارقاء عقلا . يمكن اعتبار هذه النظرية جد ثوريـة اذ ذاك .

العلمية . فالشيء لا يمتلك حقا الا اذا استعمل. فالاولية هنا قد اعطيت لاستعمال الشيء الفعلي، مما يخالف تماما المفهوم القانوني للملكية في الفقه الروماني .

هكذا يقترب ابن خلدون من ابي ذر الغفاري، لكنه لا يذهب بعيدا فيلح في الطلب بالحذف التام للملكية،يرى ابن خلدون ان الملكية شيء معنوي ضروري . ولكن بما انه مفكر ذو نزعة انسية (٩) واقعية ، دعانا الى ان نهتم بالحاجيات الضرورية قبل ان نفكر في الكماليات والبذخ ،



افلاطون

حتى يتسنى للجميع ان يحصل على ضمانات بمقتضاها يرضى حاجياته الحيوية .

* * *

تطرح الملكية ، في العصر الحديث ، مشاكل اكثر تعقيدا مما رأينا . فالعلاقات البشرية تتركز ، باستمرار ، في وسائل الانتاج المختلفة ، وطرق تغيير المادة ، وقابلية التملك والسيطرة على هذه المادة ، وكسب المنتجات التي تصنع منها بالعمل . من هنا اصبح الشغل جزءا صميميا من وعي الـ « انا » لذاته ، بصفة الـ « انا » فردا ، وبصفته ملتزما بروابط مع الـ « نحن » .

في دياليكتيك المبادلات ، وفي علاقة المالك بالممتلكات ، يظهر العمل ، (رغم التعارض بين الطبقات) ، كمنبع للقيم ، ومكون شامل ، واساس للوحدة داخل التعدد .

هناك مستويات يجب التمييز بينهما :

اولا : مستوى العمل الذي يحررنا بارضاء الحاجات البيولوجية .

ثانيا : مستوى العمل (بعد ان اصبح فنا) . انه يحررنا من ربقة حاجات تضغط علينا جدا . فبمساعدة العمل نتجاوز الحياة النباتية المحض، ونعي انفسنا بأننا لسنا مطلق جهاز هضمي .

فالفكرة الحديثة عن تحرر الانسان (١٠) تطرح متصلة اتصالا وثيقا بالقدرة على التملك ، والعمل ، والربح ... وبما ان الحريات تتداخل في سياق المحيط التاريخي والاقتصادي للبيئة ، كان من النادر ان نصادف فلسفة انسية كبرى ، وخاصة في عصرنا ، لا تعطى تلك المشاكل مكانا خاصا .

مثلا : لا يمكن ابدا شرح مذهب (هيجل) دون ان ناخذ بعين الاعتبار ما في هذا المذهب من اتجاهات سياسية ومجتمعية . ان فلسفة (هيجل) تعكس ، من بعض الوجوه ، مطامح الطبقة الوسطى بالمانيا ، في القرن التاسع عشر،

(٩) انظر : ابن خلدون ، المقدمة ، الباب الخامس ، الفصل الثاني ، وكذلك كتابنا Ibn Khaldûn, Paris, Seghers, 1969.
(١٠) انسن : HUMANISTE

تلك الطبقة التي تريد التحرر من النظام الاقطاعى . بيد انها لم تتوافر بعد على قوة تخولها قلب الاوضاع ، فكانت مضطرة ان تذعن، دون رضى ، لمخلفات الماضى .

ان (هيجل) يهتم بعلاقات كل طبقة بالشغل، كما يهتم بما بين الطبقات من ترابط ، وهذا معنى من المعانى الممكنة بالنسبة للجدل الهيجلى حول « دياليكتيك السيد والعبد » . فالدور الاساسى للرقيق هو ان يصنع اشياء تصبح ملكا للاخرين. وبما أن وجود الرقيق مقيد بوجود الاشياء التى يصنعها ، فان الذى يملك تلك الاشياء يسلب الرقيق حريته ويجعل كينونته الحقيقية تنسج من استرقاق ذاته وتنحصر فيه . ولكن ، بما أن (هيجل) محافظ بالرغم عن رفضه للعبودية التى يتضمنها النظام الصناعى الذى يخضع فيه الفرد لعمله ، يعتبر نظام عدم مساواة الملكية الفردية نظاما ضروريا . ولكى يتخلص (هيجل) من هذا التناقض ، يحول المشكل الاقتصادى والمجتمعى ، الذى تطرحه ظاهرة استلاب الحرية ، الى مشكل فكرولوجى للعلاقات بين الوعى وموضوعه . فدياليكتيك « السيد والعبد » تبقى ، اذن ، فى مستوى العلاقات بين وجدان ووجدان آخر .

* * *

اما « كارل ماركس » ، تلميذ ، هيجل ، فيطرح من جديد مشكل استلاب الحرية ، حرية العامل فى النظام الراسمالى ، ويحاول ان يجد لهذا المشكل ، على الصعيد الاقتصادى والمجتمعى ، حلا اقتصاديا ومجتمعيا . يرى ماركس أن لا وسيلة مرضية لازالة سبب استلاب الحرية الا بالغاء نظام الملكية الخاصة .

ربما اعترض على ماركس بما يلى :

نشاهد اليوم ان الامم السكندنافية قد حافظت على الملكية الشخصية ومع ذلك حققت رقما عاليا من الرقى المادى والرفاهية ، لصالح مجموع السكان ، على السواء ، دون فروق طبقية ، مما وفر لكل مواطن الشروط الخارجية للتحرر. اما فى الاتحاد السوفييتى والديمقراطيات الشعبية ، فبالرغم عن تقرير مبدا حذف الملكية الفردية لم تتهيأ بعد الاسباب الاقتصادية ، والمادية على العموم ، للتحرر الكامل .

فما يلتزمه مفكرو الجبهة الشرقية الماركسية من تعلق بالواقعية ومن نقد ذاتى هو ما جعلهم يبدون تخوفات من تضخم شروط الرفاهية المادية ، فقد يعوق ذلك ، فى نظرهم ، السير الحثيث نحو التحرر الحق ، بسبب تعود الشعوب على الراحة ، وبالتالى على المواقف السلبية . اليست الحياة البورجوازية السهلة هى ايضا عنصرا رئيسيا فى وجو د الاستلاب ؟

اذا لاحقنا تخوفات المفكرين الماركسيين السابقة حتى نتائجها البعيدة ، امكننا ان نستخلص أن حذف الملكية الشخصية وتأميم وسائل الانتاج لا يكفيان لتحرير الانسانية . فلربما تولد عن التصميم ، وعن سيطرة الحزب والنقابة ، واجهزة الدولة ، اسباب جديدة للاستلاب . هذا ما جعل الماركسيين يهتمون بالبحث عن وسائل اخرى لمقاومة الشعور بالحرمان والقلق ، مثل توفير مناطق جديدة للاعمال المجانية والمنافسات ، وتكثير كتائب الشغل ، الى غير ذلك مما يتيح للشخصية الانسانية مزيدا من التفتح . فحذف الملكية الخاصة وتأميم وسائل الانتاج ، ربما يقضيان على جوانب من الاستلاب الاقتصادى المتجسد فى سيطرة راس — المال على العمل . لكن هذا لا يزيح من طريق التحرر حرما آخر ، هو استلاب عالم التصنيع . ان قضية الحرية مرتبطة بارضاء حاجات المواطنين ، الا ان الرغبات والنزعات من صميم الحاجات الملحة الاصيلة .

وفى فرنسا، خلافا لرجال الاقتصاد الكلاسيكيين الذين غضوا الطرف عن العواقب المجتمعية



هيجـل

للتصنيع ، كانت لـ « سان سيمون Saint Simon و (بردون Proudhon و (فـورى Fourier نظرية عقلية ، أو عقلانية ، عن أزمات وشقاء هذا العصر ، الا انهم لم يصلوا الى تشاؤم يشمـل الحاضر والمستقبل (كما هو الحال عند رجال الاقتصاد الكلاسيكيين) بل يعتبرون الشر غير محتم ولا خالد : ان اقتصـادا محكـم التنظيم سيقضى على هذا الشر .

للعامل الاقتصادى قدرة على التاثير فى سـير التاريخ العام ، بحيث ان العلوم والفنون والعقائد لما جرياته ، كما ان السلوك الاخلاقى والحالات النفسانية، لدى الفرد والجماعات، ما هى ايضا الا رد فعل للبنيات الاقتصادية . فنحن ، وان كنا نحيا بالعنديات ، لا نستغنى ، مطلقـا ، عن « أشياء » أخرى هى ايضا اصلية ومتجذرة فى الاعماق البشرية ، تؤثر فى سير تاريخنا الفردى وتاريخنا الجماعى ، نصارع من اجلها ونتقبل جسيم التضحيات لتحقيقهـا ، لانها من كيـان كينونتنا ، وقد ترغمنا احيانا على أن نزهد فى العنديات دفاعا عنها ، وتضحية للحفاظ عليها : ان سلوك المحب الحق وسلوك المؤمن الصادق ، مثلا ، يعكسان الصراع بين الكينونة والعندية ، كما يعكسان غلبة الاولى على الثانية ، فى الكثير من الحالات .

لم تكتسب فكرة « الملكيـة » الا خـلال تطور المجتمع البشرى . فالملكية تتصل بفكرة «الثروة»، فى المعنى الذى يعطيه لها النظريون : كل ما يشبع حاجة بشرية . ففى اليوم الـذى تصـل فيـه « العلوم الانسانية » الى درجة من التقدم بحيث يصبح الشخص اكثر تعرفـا على حاجـاته فى مجموعها، ويستطيع ارضاءها بقدر كبير،يتحقق التحام تلك الحلول مع « علوم الطبيعة » ويغدو مجموع ثروات العالم ملكا مشتركا بين جميع البشر .

ليس هناك اى مـانع ، نظرى أو مادى ، يتعارض مع هذا الاتجاه . ان تخوفنا مما يخبئه الغد ، وتصورنا عن معرفة تامة للكون ، كل ذلك جعلنا عديمى الثقـة بالمستقبل ، كثيرى التكالب على الثروة ، شرهين . هذا ما توصل اليه ابن خلدون ، منذ ستة قرون ، اذ يقول :

« ... السبب فى ذلك انه قد عرف وثبت ان الواحد من البشر غير مستقـل بتحصـيل حاجاته فى معاشه ، وانهم متعاونون جميعا فى عمرانهم على ذلك . فالقوت من الحنطة ، مثلا ، لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه . واذا انتدب لتحصيله الستة او العشرة ، من حـداد ونجار للآلات ، وقائم على البقر ، واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر شؤون الفلاح ، وتوزعوا على تلك الاعمال ، او اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقـدار من القـوت ، فانه حينئذ ، قوت لاضعافهم مرات . فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم ، اكتفى منها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف فى حالات الترف وعوائده وما يحتـاج غـيرهم من اهل الامصـار ، ويستجلبونه منهم باعواضه وقيمه ، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى » (١١) .

(١١) ابن خلدون ، المقدمة ، الفصل الحادى عشر .

قد سبق لابن خلدون فى باب « الكسب والرزق » (من الفصل الخامس) ان بين أن الكسب انما هى قيم الاعمال ، فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمتها بين المنتجين وارتفع مستوى الاستهلاك ، فتكثر مكاسب المنتجين حتما ، وتدعوهم احوال الرفه والغنى الى الترف .

اذا جاز لابن خلدون أن يتفاءل ، الى هذا الحد ، فيرى امكانية وجود اقتصاد يقوم على توزيع عادل للمواد الاساسية للحياة ، بين جميع الناس عل ىالسواء ، وذلك منذ ستة قرون تقريبا ، الا يكون تطبيق النظرية اكثر الحاحا فى عصرنا الحاضر وقد كثرت وتنوعت الوسائل التقنية ، فى ميدان الانتاج ، وفى ميدان المواصلات والتوزيع ، كما توفرت امكانيات ترقية تلك الوسائل ؟

لكن ، بالاسف ، الاحداث لا تسير طبقا لتلك النظرية . فحتى الامس القريب ، كان لراس المال الاولية بالنسبة للجهود المنتجة ، وان اضافة « راس » لكافية فى حد ذاتها لابراز ما للمال من تقدير واجلال فى النفوس ، واسبقية على العمل. حقا ، العمل ، بوصفه فكرة ونشاطا مجتمعيا والمحرك الاول للحضارة ، اصبح يزداد دلالة ويفرض كواقع اساسى . لذلك برزت معارضة شديدة الحدة بين « عالم راس المال » و « عالم الشغل » . فالحضارة ، حاليا ، تعيش مشاكل المزاحمة والازمات التى احدثتها تلك المعارضة.

ان الحياة الاقتصادية التى تنظم الثروات ، وتخصص الملكية الفردية ، تشمل الانتاج ، والمواصلات ، والتوزيع ، واستهلاك الثروات . فاذا تقدمت اصناف العلوم التى تعمل لمصلحة الانتاج ، نما الانتاج هو كذلك ، بل يمكنه أن ينقلب راسا على عقب . فبوسع الطاقة الذرية ان تحول الجبال الى سهول ، وان تجعل البحيرات مراعى . يتعلق الاستهلاك بالانتاج وبالمفهوم الذى لدينا عن التوزيع ، ويعنى ذلك ، فى نهاية المطاف ، أن الاستهلاك يتعلق بالكرامة الانسانية وبالتضامن بين الاشخاص .

نجد فى بعض البيئات ، أن نظام التوزيع يتيح لبعض الافراد حظوظا على حساب الاخرين . فالملكية تعفى اشخاصا من الاشتراك ، مباشرة ، فى الجهود التى يستفيدون منها ، وهذا يفترض استلاب حرية للبعض لصالح الاخرين . ان الانتاج لا ينمو حسب حاجات المجتمع بل حسب ما حصل لراس — المال من فائدة . هكذا ، عندما ينسلخ العمل عما يشخصه ، يفقد قيمته المحررة . فما دام نظام الانتاج لا يرتكز على مبادىء اخلاقية ، مثل العدالة والتضامن ، وما دامت العلاقات الاقتصادية تفضل الاشياء المكتسبة (والتى يمكن اكتسابها) على الاشخاص فان الحضارة ستستمر تعاكس انسنة العالم وانسنة اجهزته . الا تعنى كلمة « عزيز » : من جهة ، نادر وقليل (وبالتالى ثمين) ، وفى نفس الوقت ، حبيب الى نفوسنا ؟ ذلك أن « ثمن » الشىء أو قيمة الكائن تعكس الحب الذى نكنه لذلك الشىء أو الكائن .

يتميز توقف الكائن البشرى عن التشخيص بحالات غير سوية ، اهمها شعور المرء بالعجز عن تملك اى شىء ، وهو شعور بخيبة الاستلاب لان العندية ، عند البدائيين ، مساهمة وجدانية « صوفية » ، اذ امتلاك الاشياء عبارة عن علاقة تربط المالك بما يملكه . فمثلا ، للاراضى قداسة لانها أرض الاجداد ، اى استرسال تاريخى ، فهى بذلك ملك للجماعات ، ومن لا « يملك » لا ينتسب الى الجماعة . فللملكية الوراثية طابع مقدس ، لان الاموات يعيشون فيها وبها الى جانب الاحياء ، رغم الموت .

هذا المثال يظهر لنا أن الملكية تزيل عن المتلكات شيئيتها وتذوثها (١٢) الى حد بعيد ،

---

(١٢) ذوث « صيره ذاتا » فى مقابل Subjectiver

لان عناصر ، كانت فى الاصـل خـارجة عن الاقتصاد ، احاطت مفهـوم التملك بهـالة من القدسية الى حد انها صارت من مكونات الملكية. وفى الحقيقة ان هذا المظهر الدينى ، بالنسبـة للبدائيين ، خير ضمان للتملك .

بعد المرحلة المتقدمة بكثير ، أصبحت الملكية تتمتع بقانون شرعى ، واخذ مفهومها يتطور . فالانسانية ليست مدفوعة بحتمية طبيعة الى التملك ، كما ادعاه (برجسون) ، بل على العكس ، ان الحرب التى تشن بين الغنى والفقر هى التى تحدد الملكية فى كل عصر . ولكى يدافع المـرء عن ثروته ، يلجـأ احيانـا الى الدين (الطوطم) ، واحيانا الى المشاركة الجماعية بالعمل فى الارض ، والى المشاركة فى الربح (لكى تكون جماعة منسجمة تركز كل اهتمامها فى الدفاع عن الارض المشتركة ، اكثر مما تندفع بحب للحياة المعشرية) .

المجتمات واقامة العدالة الشـاملة لجميع الاشخـاص ، نعنى فرض « احتـرام كرامة الانسانية احتراما عفويا مضمونا بصورة متبادلة، مهما كان الخطر الذى نتعرض له فى الدفـاع عنهـا » (١٣) .

كل القوانين الوضعية تضمن حقوقا مكتسبة وتدافع عن مصالح معينة . وبقدر ما يتسع المدى الشخص لحق مكتسب ، بقدر ما يصبح هذا الحق ذا صبغة اخلاقية ويسهم فى التحرر . وعلـى النقيض من ذلك ، بقدر مـا تخضـع المصالـح الضرورية لشخص وتعوق التضامن بين البشر ، بقدر ما تعاكس الاخلاق (لانها تعاكـس مـبدأ العدالة) وتنافى الفلسفة (لانها تحرم الشخـص من الانبثاق والتحرر) . ان المصالـح ترتبـط بالعلاقات المجتمعية ، وبالقوى المنتجة ، وبالطبيعة الانسانية . فهى لاتنعكس فى وعينا ، بكيفية أو باخرى ، الا بعد ان تنشأ وتتكون . فمن البديهى اننا لا ندافع عن اية مصلحة الا بعد ان يكون قد اتصل وجودها بوعينا .

لكن ، يجدر بنا ان نحدد ان المصالح التى يدافع عنها القانون ليست وليدة الوعى الانسانى . ان مستوى الوعى المجتمعى هو الذى يحدد محتوى القانون ويحدد الشكل الذى يجب ان يتـخذه انعكاس اية مصلحة فى وعينا . وباختلاف العصور، تختلف اشكال ذلك الانعكاس . فالقانون ليـس من القوى الفيزيائية ، او « الطبيعية » ، نعنـى انه ليس شيئا يوجد مستقلا عن فعاليات الانسان. بل على العكس ، ان القانون نظـام يصـدر عن الناس ولصالحهم . فلا يهم مطلقا ان يكـون الانسان ، عندما يقوم باى نشاط ، خاضعا لقانون السببية او ان يعمل اعتباطيا . فبطريقة او باخرى، سواء بالنسبة لقانون السببية او بالنسبة للحرية، القانون لا يتكون خارجا عن فعالية الانسـان ، ولكن بفضلها ، يتكون .

اذا تولد عن الشغل (او عن كل فعاليـة ، بصفة عامة) مقدر متساو من الحزن والفرح ، فهذا لايمنع العمل من ان يكون تاكيدا اصيـلا

١٣ Proudhon, de la justice dans la révolution et dans l'Eglise, Paris, 1923.

لكينونتنا البشرية : العمل يثبت لن وجودنا ارأدة مستقلة ، وقدرة على الحركة والتغير . بفضل هذه الإرادة وتلك القدرة ، نفرض وجودنا على الطبيعة وفى الطبيعة ، اذ نعطيها دلالة ونجعل منا مجتمعا متضامنا يرمى الى التعالى . فالعمل فى مفهومه هذا ، اى بوصفه اداة فعالة للتحرير ، غالبا ما كان مجهولا من لدن القدماء ، كما يشهد بذلك ما يحمله سقراط من احتقار للاعمال اليدوية والتقنية ، طبقا لما رواه عنه تلميذه افلاطون : « كيفما كانت الخدمات التى يمكن ان يؤديها مهندس ما ، فانك تحتقره ، ولن ترضى ، ابدا ، انيتزوج ابنك بابنته » (١٤) . اماارسطو (١٥) فقد ارتاى أنه لامكان فى المدينة الفاضلة النموذجية للصناع والحرفيين .

(١٥) أرسطو ، كتاب السياسة ، ١٧ ، ٣ .

14) Platon, gorgias, 512 b, ch. premier.

الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الاقطار النامية وشعوب العالم الثالث هو الازدهار والتقدم ، الا ان هذه الاقطار والشعوب ليس لها الا سهم قليل فى الابتكار والاكتشاف ، ولذلك فان هذه الرغبة الملحة فى الازدهار والتقدم كثيرا ماتنقلب الى نزعة شيئية واعنى بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميع « الشياء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الى ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يغيب عن اذهان البعض بان الرفاهية ليست كل شىء فى الحياة ، وأن لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافق الحديثة لا يكفى لكى يرقى بالانسان من وضعية المتخلف الى وضعية المتقدم حضاريا ، فنحن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ، فنحن ننتمى الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحال ، نستورد السلع الجاهزة ولا نكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكر الذى انتج تلك السلع .

من محاضرة الاستاذ / حنفى بن عيسى
الاديب العربى بين التراث والمعاصرة .

نص المحاضرة التى القاها الدكتور عثمان أمين بالملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران

محاضرات الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الإسلامي بوهران

د. عثمان أمين

استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

تصحيح المفاهيم عن اللغة العربية

يطيب لى ان استهل محاضرات هذا « الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، فاشكر للقائمين عليه ما بذلوا من جهود لتدبيره وتنسيقه وتحديده . ولا شك ان نظرة الى البرنامج الموضوع له تقنعنا بان ها هنا تقدما حقيقيا ملموسا بالقياس الى برنامج الملتقى الرابع الذى تم فى العام الماضى .

واول مظاهر هذا التقدم ، فى نظرى ، هو التركيز على القضايا الثلاث الكبرى التى تشغل بال المسلمين فى العالم المعاصر ، واستبعاد قضايا اخرى فرعية قد يكون من شأنها اثارة الخلاف والشقاق بين الاخوة والاشقاء ، وهم احوج ما يكونون الى التواصل والوئام فى عالم البغى والعدوان . والمظهر الثانى من مظاهر هذا التقدم هو المكان المرموق الذي من حق اللغة العربية ان تستمسك به وأن تحافظ عليه، فى امة انزل عليها دستورها بلسان عربى مبين .



د. عثمان أمين

والمظهر الثالث للتقدم الذى احرزه هذا الملتقى هو الانتقال من النظر الى العمل ، ففى حين كانت الفكرة الغالبة على ملتقى العام الماضى هى فكرة « التعرف » ، نجد الفكرة الكامنة فى اذهان المشرفين على ملتقى اليوم هى فكرة الثورة والتغيير . ربما كان تفسيرى هذا متأثرا الى حد ما بمنهجى فى « الجوانية » . ولكن مظاهر البرانية نفسها تؤيدنى فيما ذهبت إليه ، وآية ذلك هى الصيغة الفرنسية التى وضعت لبرنامج هذا الملتقى قد اسقطت او حذفت كلمة «التعرف» ويستوى عندنا ان يكون حذف الكلمة قد جاء عفوا او عمدا ، والمهم ا نيكون الحذف فى « العقل الباطن » الذى يتحدث عنه علماء التحليل النفسى منذ النصف الاول من هذا القرن .

وبعد فيطيب لى ايضا ان اسلك معكم هذا الطريق الجوانى لحظات ، فأتمثل حصيلة هذا « الملتقى الخامس للفكر الاسلامى » فى صورة كتاب قيم حافل نقرؤه من عنوانه ، ونتلقاه فى اوانه . اما عنوانه فهو فى نظرى اقرب ما يكون الى العنوان الذى اختاره الفيلسوف الشاعر « محمد اقبال » : وهو **« تجديد بناء الفكر الدينى فى الاسلام »** وتجديد البناء فى ذلك الفكر يقتضى من المفكرين أن تتجه ارادتهم الى العمل والتغيير ، كما أشرت من قبل . اما اوان الكتاب فهو هذا العصر المفتون المهزوز المكدود « المحروم من الله » كما وصفه كارل ياسبرز . هذا العصر الذى ما كاد يفيق من فتنة التكنولوجيا والفرويدية والماركسية والوجودية ، حتى رايناه يقع فريسة للوضعية والذرية والفضائية والالكترونية ! واى عصر هو احوج الى الدعوة الاسلامية من هذا العصر الذى يحق لنا ان نصفه مع كثير من مفكرى الغرب ، بأنه « عصر الجاهلية » ، والعنصرية والغربة ، والعدمية ؟ واعود الى كتابكم كما اتمثله قبل ان يعد وقبل أن يطبع وينشر ، فأقول ان من الواضح انه يشتمل على مقدمة وثلاثة ابواب وخاتمة . اما المقدمة فقد سمعناها هذا الصباح من وزير الاسلام ، فى جلسة الافتتاح . واما ابواب الكتاب الثلاثة فهى على الترتيب : اللغة ودورها فى الثورة الثقافية ، والاسلام ومشاكل الاسرة وتربية الجيل ، والاسلام ومتطلبات التنمية الاقتصادية . واما الخاتمة فهى القرارت او التوصيات التى يرى اعضاء المؤتمر ان يتخذوها او يقترحوها بعد مناقشتهم للقضايا المعروضة .

اما الموضوع الذى اود ان اتحدث فيه هذا المساء فهو عندى اشبه بتمهيد للباب الاول عن دور اللغة فى الثورة الثقافية وهو تمهيد بالضرورة لاننا لا نستطيع ان نناقش اثر اللغة فى الثورة الثقافية الا اذا اثبتنا اولا لانفسنا ولغيرنا — كما يقول فيلسوفنا الفارابى — ان لدينا لغة متميزة ، وان لدينا ثقافة اصيلة. واذن فعلينا ان نثبت لانفسنا وللعالم ان لغتنا هى العربية ، وان هذه اللغة هى « اقدس ما نملك فى هذه الدنيا » كما يقول الشاعر «هينرش هاينة » ، وعلينا ان نثبت اخيرا — لانفسنا ولغيرنا — ان لغتنا ليست على الاطلاق لغة « متخلفة » ، وانها ليست لغة جامدة ولا عاجزة عن الوفاء بمطالب المجتمعات « المتقدمة » ، بل

هى على الاصالة لغة حية ديناميكية حـــركية وفلسفية .

وهذا الامر الاخير والمتعلق باللغة هـــو ما اردت ان احدثكم فيه ، مكتفيا فى مسألة الثقافة بما نبه اليه السيد جمال الدين الافغانى منذ اكثر من ثمانين عاما حين قال : « يتخذ الغربيـــون فى الشرق اساليب عجيبـــة للقضـــاء على الروح القومى ، وقتل التربية الوطنية ، وتقـــويض الثقافة الشرقية : فتراهم يزينون للشرقيين ان ان ينكروا على قومهم كل مأثرة وكل فضيلة ، ويلقون فى روعهم انه ليس فى لغاتهم العربيـــة او الفارسية او الهندية آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر ، ويوهمونهم بأن قصـــارى المجـــد للشرقى النابه ان ينفر من سماع لغتـــه ، وان يتباهى بأنه لا يحسن التعبير بها ، وان ما تعلمه من الرطانة الغربية هو غاية ما يستطاع بلوغه من الثقافة الانسانية . الا ليت الشرقيين يدركون انه لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم منهـــم اساطين يحمون ذخائر بلادهم ويحيون مـــآثر رجالهم »

ولست أستطيع ان ابدا حديثى عن **«التصحيح المفاهيم عن اللغة العربية »** دون ان اشـــير الى حادثة وقعت لى شخصيا منذ نيف وخمس عشرة سنة ، اذ كنت القى محاضرة عن « اصـــالة الفلسفة العربية ورسالتها » فى جامعة هارفارد اكبر جامعات امريكا ، وشاء نفوذ الصهيونية فى الجامعات الامريكية أن يكون المشرف على ذلك الملتقى الدولى للانسانيات هو « مستـــر هنرى كسنجر » مستشار الرئيس نيكســـون الان ، ومفجر القنبلة الدبلوماسية الاخيرة التى لا ندرى اكانت من صنع امريكا ام من صنـــع الصين . المهم هو اننى كنت اعرف ان « كسنجر » هـــذا يهودى اكاديمى ، اى صهيونى على الطـــريقة العلمية ، وانه من اجل ذلك قد عبا الشبــــان اليهود بعدد من الاسئلة لاحراجى امام الامريكان


فشتــه

باعتبارى العربى الوحيد الممثل لهذه المنطقة من العالم فى « **ندوة الانسانيات** » هذه . وكان محور الاسئلة جميعها ان العرب لم يصنعوا شيئـــا فى مجال الفكر عامة وفى مجال الفلسفة خاصـــة ، وكان ما استطاعوا ان يصنعوه انهم نقلوا بعض التراث اليونانى ، فشوهوه ومسخوه ، لانهم لم يفهموه .... كنت اعلم هذا ، او بعبارة ادق ، حين علمت هذا،اتخذت فى محاضرتى استراتيجية جدبدة : احتفظت بالهدوء النفسى طوال المعركة الى ان اشرفت على الخاتمة ، فألقيت القنبلـــة التى كنت اعددتها واحتفظت بها فى حقيبة أوراقى وهى امامى اراها من حيث لا يرونها ، فقلت فى عبارة مركزة ومكثفة : **« اذا كان للفلسفة العربية على الفلسفة المسيحية فضل واحد ، فللفلسفة العربية على الفلسفة اليهودية فضلان » !**

وتستطيعون أن تتخيلوا مبلغ ما احدثته هذه الكلمة من ارتباك للمستر كسنجر نفســه ، ومن ذعر فى نفوس الشباب الصهيونى فى الجـــامعة الامريكية . ولما افـــاق « كسنجـــر » من هـــذه الصدمة ، وقف ليستحث صبيانه على التعـــليق

على محاضرتى ، واختار منهم واحدا كان جالسا فى ركن قصى من القاعة . فكان سؤاله طبعا هو ما كنت اريده ان يسالنى ، وكان الجواب الحاسم عليه معدا جاهزا ، وما على الان اخرجه من حقيبة أوراقى الموضوعة على المنصة امامى — كان السؤال خشنا — « كيف تسمح لنفسك وانت فيما يقال استاذ بالجامعة — أن تردد هذا الكلام الفارغ عن فضل الفكر العربى على الفكر اليهودى ؟ » . ولا اكتمكم انى كنت اكاد اطير فرحا عند سماعى هذا السؤال ، وكنت اقول فى نفسى — « والله لقد وقعت فى الفخ يا كوهين » وحمدت الله اذ هدانى الى التكتيك الصحيح فى مواجهة هؤلاء الاعداء ، وهم عصبة — وانا وحدى — واستغفر الله ، واستغفر الله ، لانى لم اكن وحدى ، بل كان الله معى ، وما توفيقى الا بالله .

ولا اطيل عليكم ، فاقول لكم انى طلبت من « المستر كسنجر » أن ياذن لى باستدعاء السائل ليقف على المنصة بجوارى ليوجه السؤال امام المستمعين حتى اتولى الاجابة عليه امام الجمهور فتردد « كسنجر » قليلا،فملت اليه واسررت اليه بانى انما اريده أن يقرأ لى شيئا باللغة العبرية التى لا اعرفها ، لاستعين بما يقرأ لى على الرد على سؤاله الوجيه .. وصعد الشاب على المنصة . فأخرجت من الحقيبة كتاب موسى بن ميمون ، شيخ الفلسفة اليهودية ، ومؤلف كتاب مشهور عنوانه بالعبرية « مورى نبوخيم » أو « دلالة الحائرين » وطلبت اليه ان يقرأ كلام بن ميمون . فأخذ يقرأ قراءة متعثرة ، وكنت احاول امام الجمهور ان اصحح له القراءة . وعندئذ اعلن عجزه عن قراءة موسى بن ميمون. فتدخل « مستر كسنجر » ليقول لى ان هذا الاسلوب فى الرد غريب علينا بعض الشىء ، وفى الامر يسر اذ كيف تستطيع انت أن تفهم ما يقوله ابن ميمون مع انك لا تعرف العبرية فيما تقول ؟ فقلت له — كلا يا « مستر كسنجر » — ليس فى الامر سر عند العارفين . وضجت القاعة بالتصفيق والضحك . وبعد ان هدأت العاصفة ، وقف أحد المستمعين — وظاهر انه لم يكن يهوديا وطلب الى أن أفسر لهم هذا اللغز عن الفلسفة العربية والفلسفة العبرية اللتين لا يعرفون عنهما شيئا. فكان جوابى واضحا قاطعا اذ قلت بكل بساطة ان اليهود هنا وفى كل مكان يحاولون أن يخفوا عن العالم هذه الحقيقة الدامغة وهى ان معظم فلاسفتهم فى العصر الوسيط ، وعلى راسهم شيخهم موسى بن ميمون ، انما كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، لانها كانت لغة الفكر والثقافة طوال تلك القرون. ولكن المتعصبين اليهود فى محاولتهم طمس المعالم العربية المشرقة زوروا هذه النصوص ، — اذ جعلوا رسمها بحروف عبرية ، بدلا من الحروف العربية ، وموهوا على الناس فى اوروبا وامريكا بل فى البلاد العربية والاسلامية ، ايهاما بأن الفكر اليهودى لا صلة له باللغة العربية .

وبعد فأول تصحيح ينبغى علينا ان نقوم به هو أن نكشف عن هذا التزوير ، فنعيد الى مؤلفات اليهود رسمها العربى الاصيل . ولا اكتمكم انى قد نبهت الى ضرورة الاهتمام بهذه المسألة ، والقيام بهذا العمل فى غير ابطاء ، منذ اكثر من ثلاثين سنة . ابان اقامتى فى باريس مبعوثا للجامعة المصرية ، واعدت الكلام فى هذه المهمة بعد عودتى من هارفارد سنة ١٩٥٥ ، وفى مناسبات اخرى كثيرة فى السنين الاخيرة ، حين كتبت الصحافة العربية عن الطبعات الاسرائيلية المزورة للقرآن الكريم . ولكن ما حيلتى ، ونحن نتحمس للاشياء فى حينها ، أو بعبارة أدق حين تصدر الاوامر بالكلام فيها ، وسرعان ما ننساها اذا تغيرت الظروف ؟

واعذرونى اذا قلت لكم انى كدت أن افقد الامل فى أن يظهر هذا العمل فى حياتى وانا قد

نيفت على الستين . وقصارى أن انتهز فرصة هذا الملتقى ، سائلا المولى ان يقوى عزائمنا على النهوض بهذا العمل العلمى الخالص ، وهو عمل يسير ايجابى يرد للعربية اعتبارها ، فى وقت نرى فيه ان الشعوبية المتزمة — شعوبية دويلة اسرائيل الجديدة ، لا تؤمن بشىء قدر ايمانها بلغتها العبرية .



واحب ان ابدا كلامى بالتذكير ، فى هذه المناسبة وفى كل مناسبة ، بعبارات من شهادة ابن جنى ، الواردة فى كتابه «فقه اللغة العربية»

« من احب الله تعالى احب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم . ومن احب الرسول العربى احب العرب ومن احب العرب احب العربية ومن احب العربية عنى بها وثابر عليها وصرف همته اليها . ومن هداه الله الاسلام وشرح صدره للايمان ، واتاه حسن سريره فيه، اعتقد ان محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والعرب خير الامم ، والعربية خير اللغات والالسنة ، والاقبال على تفهمها من الديانة ، اذ هى اداة العلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب اصلاح المعاش والمعاد .

ولو لم يكن فى الاحاطة بخصائصها ، والوقوف عند مجاريها ومصارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، الا قوة اليقين فى معرفة اعجاز القرآن وزيادة البصيرة فى اثبات النبوة التى هى عمدة الايمان ، لكفى بها فضلا يحسن فيها أثره ويطيب فى الدارين ثمرة .

ان شهادة ابى جنى هى عندى برنامج عمل كامل لهذا الملتقى ، وللرجال المؤمنين الذين لا يحبون من الكلام الا « ما تحته عمل » . وطريق هذا العمل واضح العناية بالعربية ، والمثابرة عليها ، وصرف المهمة اليها ، دون التفات الى تخرصات المغرضين .

على ان القضية الاساسية التى يواجهها المجتمع العربى ليست هى ما يثيره بعض كتابنا من المفاضلة بين الفصحى والعامية ، ولا هى ايجاد لغة وسط بين الفصحى واللهجات الاقليمية ، بل هى ان يبين العرب مكانة لغتهم بين اللغات ، وما تفردت به من خصائص فكرية تجعل لها فلسفة أصيلة متميزة ، وان يوقنوا بأن الملكات الحاصلة للعرب من هذه اللغة الكريمة هى « احسن الملكات واوضحها ابانة عن المقاصد » كما قال ابن خلدون ، وان يذكروا ان القرآن هو الذى حفظ هذه اللغة من الضياع ، فأصبحت بفضله لغة الدين والعلم والفلسفة والاجتماع ، وأن العرب اصبحوا بفضله امة واحدة كيفا وكما . ولا نزاع فى ان اللغة ، اية لغة ، « تجعل من الامة الناطقة بها كلا متراصا خاضعا لقوانين » كما قال الفيلسوف الالمانى « فيشته » .

وبعد فان الامر بالغ الخطر ، لانه متصل اتصالا جوهريا بشخصيتنا كلها وكياننا كله ، ويحتاج الى تصميم لا يتزعزع ، وعزيمة لا تلين، لانقاذ لساننا وفكرنا وضميرنا . لان زوال اللغة في اكثر الامم يبقيها بجميع مقوماتها غير الفاظها ولكن زوال اللغة العربية ، كما قال المرحوم العقاد ، « لا يبقى للعربي أو المسلم قوما بميزه عن سائر الاقوام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الامم ، فلا يبقى له باقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا ايمان » . واذا كنا بحاجة الى اجنبي لتنبيهنا الى هذا الخطر ، فلنستمع الى المستشرق « ماسنيون » اذ يقول : « ان من حق العرب علينا نحن ضيوفهم الوافدين عليهم، أن نرفع الصوت عاليا ، طالبين اليهم الصمود والمقاومة : فليصمدوا وليقاوموا هذه الدعاية المثلة التى تسول لهم التنازل عن شرفهم وتراث آبائهم ، والاستسلام أمام القوى الاستعمارية ورؤوس الاموال المصرفية التى تطلب اليهم الانسجام في طريقة تفكيرهم وعملهم مع هذه الحضارة الكاذبة ، حضارة الانسان الالى ، التى لم تعد تؤمن بنفسها او بالذات الالهية ، وتصبو الى اخضاع العالم لثقافة امريكية بلهاء . ان هذا الانتاج الصناعى المغشوش يوشك أن يسقط ويتردى في الهاوية . وعلى ابناء العربية ان يصمدوا ، فالعالم في حاجة اليهم . وواجبنا ان نحثهم على احترام عربيتهم ، هذا النظام اللغوى الصافى ، الصالح لنقل اكتشافات الفكر عبر القرون ، فلا يحيلوها مسخا مقلدا للغاتنا الارية ... لقد كانت العربية وما تزال لغة الحرية العليا ، لغة وضوح الذهن ووحى القلب ، لغة المناجاة ولغة المعجزة .. هـ

الا فليتذكر العرب أمرهم . وليتبينوا أن من العار عليهم أن يرددوا مزاعم تقليدية مغرضة عن قصور لغة وسعت كتاب الله لفظا وغاية ، ولا تزال الدرر كامنة في احشائها . فليسالوا الغواص عن صدفاتها .

ومن هذه المزاعم القديمة المغرضة عن اللغة العربية ما لا نزال نسمعه مترددا على السنة قوم ليس لهم « انس بتلك اللغة » كما كان يقول ابن جنى . وهى المزاعم التى فندها جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ومدرسته ، أوائل هذا القرن ، ردا على « ارنست رنان »و « هانتو » و « جوتييه » ومن اليهم . وحسبنا هنا أن نورد دفعا لهذه المزاعم ، شهادة من « لوى ماسنيون» مؤداها ان اللغة العربية قد امتازت بخصائص قل ان نجد لها مثيلا فى اللغات الاخرى : ففى تركيبها الداخلى وفى طراز الحلوة الذى توحى به قدرة خاصة على التجويد والنزوع الى الكلية والشمول . وهى قد تفردت بالقدرة على التعبير بجمل قصيرة مركزة عما لا تستطيع اللغات الاخرى أن تعبر عنه الا بالجمل الطويلة المسطحة الفضفاضة .

وشهادة اخرى لمستشرق فرنسى ، « هنرى لوسل » ، توجه نظر الغربيين الى ان : «اللغة العربية والحضارة العربية الاسلامية تزودان الدارس لهما بنظرة جديدة الى العالم » . فهذه اللغة ، فى نظر لوسل ، تقدم لمن يتعلمها معانى لغوية تختلف اختلافا كبيرا عن معانى الفرنسية او اللاتينية او اى لغة اوروبية اخرى . وتتيح للدارس ثروة من الاشتقاق من الاصل الواحد ، تغنينا عن الالتجاء الى المقاطع او الكلمات الاجنبية او اى اضافة أخرى خارجية . وتلك خصيصة أساسية من خصائص العربية ، فلم النزول عنها ، جريا وراء المستعار والدخيل ، واغفالا لما هو عندنا أصيل ؟ ويمضى « لوسل » فيقول : « ان صعوبة الكتابة أو القراءة العربية تضطر المتعلم لها ، اكثر مما تضطره اللاتينية أو الروسية ، الى ان يكون على حظ من الانتباه اعظم »

ومسالة الصعوبة هذه التى كثر الكلام عنها فى أيامنا ، هى فى الحقيقة مسالة قديمة قد بنيت على مغالطة . ونود الان أن نصحح وجهة النظر

فيها : فمنذ زمان بعيد تنبه العرب انفسهم الى ما يتطلبه النطق بالعربية الفصحى ، مع كمال اعرابها ، من جهد وحضور ذهن . وكان اخوف ما يخافونه اللحن فيها حتى قد قيل لعبد الملك بن مروان : لقد عجل اليك الشيب يا امير المؤمنين : فقال شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . « ومنذ اكثر من قرن وربع قرن كتب رفاعة الطهطاوى مذكراته البارسية « تلخيص الابريز الى تلخيص باريز » ، فعقد فيها مقارنة بين اللغة الفرنسية واللغة العربية، مشيرا الى سهولة تعلم الاولى وصعوبة تعلم الثانية ، فقال : « من جملة ما يعين الفرنساوية على التقدم فى العلوم والفنون بسهولة لغتهم وسائر ما يكملها:فان لغتهم لا تحتاج الى معالجة كثيرة فى تعلمها : فأى انسان له قابلية وملكة صحيحة يمكنه بعد تعلمها أن يطالع اى كتاب كان ، حيث انه لا التباس فيها اصلا ، فهى غير متشابهة . واذا اراد المعلم أن يدرس كتابا لا يجب عليه ان يحل الفاظه فان الالفاظ مبينة بنفسها . وبالجملة فلا يحتاج قارىء كتاب ان يطبق الفاظه على قواعد اخرى برانية من علم آخر ، بخلاف العربية ... »

وتصحيحنا للمفهوم القائم على المغالطة هنا أن « توقع اللحن » الذى يذكره عبد الملك بن مروان ليس عيبا ذاتيا فى اللغة ، بل فى بعض الناطقين بها . والأوائل كانوا يقراون القرآن ويستمعون للحديث دون لحن ، لانهم كانوا يقراون ويسمعون ، فى وعى ويقظة ذهن . اما ما عمد اليه المتأخرون من وضع « الشروح والحواشى والتقارير ، فلم يكن سببه أن اللغة غير مبينة فى ذاتها ، بل لان ملكتها قد ضعفت عند المسلمين كما ضعف شأنهم فى غير اللغة. اما الزعم بأن اللغة العربية لا تعين على «التقدم فى العلوم والفنون » بصعوبتها — وهو ما يشتم من كلام رفاعة الطهطاوى — فزعم غير صحيح، وحسبنا أن نفندهم بما لاحظه « كارادوفو » فيما يتصل بتفوق العربية فى علم النفس وعلم الاخلاق من « أن الفروق المعنوية الدقيقة التى تحملها الفاظ اللغة العربية ليس من الميسور نقلها فى لفظ واحد الى اللغات الاخرى،وان اللغة العربية تنطوى على قدرة ذاتية على التحليل الفلسفى العميق » واما اسهام العربية فى مجال العلوم الاخرى فحسبنا أن نذكر شهادة « ماسنيون » فيه اذ يقول : « لقد استطاعت اللغة العربية أن تنمى — من خلال نحوها — القدرة السامية



رينان

على التعبير عن الفكر المجرد : خفى هذا التركيب العربى الموجز الذى اعان على تركيز نتائج الباحثين التجريبية وضبطها ، الى جانب بحوث الاطباء العياديين ، وبحوث الرياضيين ، ومكتشفى الارض وأسرار النفس والرأى والاحلام ، فى مقالات مختصرة حاسمة رصينة . يضاف الى ذلك ملاحظات فى الجبر والمعادلات الكيمائية والزيجات الفلكية ، والسلاسل الحسابية ، ومراحل رحلة النفس الى المجهول. ولا شك أن المنهج العلمى فى الحضارة الغربية قد استطاع ، بواسطة العربية ومن خلالها ، أن يتخلص من الطراز الهندسى الوثنى لاشكال

مغلقة عقلانية ، قد عوقت العلم اليونانى ردحا طويلا من الزمن ، كما استطاع ان يتخلص من الخطوط التى تضاف الى حل المعادلات الرياضية » . ويمضى « ماسنيون » فيقول : « أما فيما يتعلق بالمعجمية الجدلية النفسية والصوفية فان قيمة العربية لا تنحصر فى خلوها من كل نقص ، بل انها على التحقيق قادرة على ان تبعث الحياة والشباب فى الفكر الغربى ، كما استطاعت قصة « الف ليلة وليلة » ان تؤثر فى عقلية السابع عشر التى كانت مليئة بالاقاصيص الماليزية الموروثة من الرومان واليونان » . « ولا مشاحة فى ان كبار رجال الحضارة العربية ، ونوابغ الفكر العربى لم يكونوا ذوى دم عربى خالص ، بل كانوا من الموالى المستعربين . ولكن هذا فى نظرنا ليس ظاهرة ضعف ، بل قوة فريدة ، جعلت من الضيوف ابدالا توافدوا من كل أمة ، وهم عارفون لهذه اللغة ايجازا فريدا وقوة فى التعبير نادرة . وهو فوق هذا معجزة لغوية للدراسة العلمية. وقد صرح بذلك البيرونى فى اللغة العربية نفسها ، وهو الغريب عنها والضيف الطارىء عليها » .

واما الراى المشهور عن صعوبة النطق باللغة العربية خالية من الشكل ، مما يحول دون تعلمها والتمكن منها خلافا للغات الحية الاخرى ، فهو الراى الذى اورده « قاسم امين » احد قادة الفكر الاجتماعى فى مصر المعاصرة ، حين قال فى بعض كلماته : « فى اللغات الاخرى يقرأ الانسان ليفهم ، اما فى اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ : فاذا اراد ان يقرأ الكلمة المركبة من هذه الاحرف الثلاثة (ع ل م) امكنه ان يقراها (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) او (علم) . ولا يستطيع ان يختار واحدة من هذه القراءات الا بعد ان يفهم معنى الجملة ، فهى التى تعين النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من اصعب الفنون » .

وقد رددنا على هذا الاعتراض منذ سنين ، فقلنا ونكرر ما قلناه حينذاك بأن ما لوحظ على العربية من صعوبة قراءتها ابتداء ليس بعيب فى تلك اللغة ، بل الاولى ان ينظر اليه على انه ميزة تفردت بها لغتنا عن سائر اللغات ، وهى اعداد قارئها لاستجماع قوى الفكر ، ودعوته الى حسن التأهب لقطع اشواط الفهم: ذلك ان العربية فى ماهيتها لغة تتطلب من كل قارىء أو مستمع لها أن يكون واعيا فاهما ، قبل ان ينطق وقبل ان يسمع . وبعبارة اخرى تتطلب منه أن يمارس وظيفة « النطق » على الحقيقة ، وهى خاصية الانسان التى تميز بها عن سائر الحيوان : اعنى الوعى والفهم . وما من شك ان المران على صحة الاعراب هو فى الوقت نفسه مران على يقظة الوعى وجودة الفهم . وجملة القول انه اذا كانت العربية بطبيعة تركيبها وبنائها تتطلب من المرء يقظة واعية وجهدا موصولا وبعدا عن « الالية » فهى قبل كل شىء فن ولا ضير عليها بعد ذلك أن تكون « فنا من اصعب الفنون » .

افنحن بحاجة بعد هذا كله الى ان نذكر ابناء المسلمين فى هذا العصر بما قاله علماؤناالمحققون منذ مئات السنين من ان اللغة العربية ضرورية لحفظ الدين ، فانه لا سبيل الى ادراك معانى الفاظ القرآن والسنة الا بالتبحر فى علم هذه اللغة ؟ واذا كانوا فى ريب من شهادة علمائنا الاقدمين ، فلينصتوا الى شهادة للمستشرق « فان ديك » ، سجلها منذ نحو ٧٥ سنة ، جاء فيها قوله : « ان اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا . وهذا الامتياز من وجهين : الاول من حيث ثروة معجمها والثانى من حيث استيعاب آدابها » .

وان لغات انتجت « حضارة الانسان الالى » لا يصح ان تكون بأى وجه من الوجوه بديلا من « اللغة الشاعرة » — كما يراها عباس العقاد — « لغة الحرية العليا » و « لغة وحى القلب

وحديث الروح » ، كما يصفها « لوى ماسنيون » تلك اللغة التى تملك ديالكتيقا المعجزة » وترنو الى الابدى ولا يستغرقها الحاضر ، وتصبو الى الوصول الى الفعل الالهى .

واذا عرف المثقفون قدر لغتهم العربية استطاعوا أن يصونوها من عبث الالسنة والاقلام ، السنة من يجهلونها والاقلام من لا يحسنونها ، أو من « ليس لهم انس بها » . وان نظرة الى « العقد الفريد » و « البخلاء » و « الامتاع والمؤانسة » و « طوق الحمامة » و « حديث عيسى بن هشام » و « فى المرآة » — وغيرها من الروائع الادبية التى تزخر بها المكتبة العربية — تكفى لاقناع ابناء هذا الجيل بأن اللغة العربية الفصحى ، حتى فى مجال الطرفة والنكتة ، تستطيع ان تقول ، فى ايجاز وتركيز وحصافة ولطافة ، ما لا تستطيعه غيرها مع الاطناب والتحليل والاحصاء والتسجيل .

نسأل الله أن يهدى شبابنا الى تذوق لغتنا ، والانس بها ، حتى يقولوا فيها قولا سديدا .

الدكتور عثمان أمين
استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة



إبن ناصر بن شهرة

أحد أبطال ثورة 1871 م



أحمد بوزيد قصيبه

في آخر ١٩٧١ وقع احتفال بالذكرى المئوية لثورة ١٨٧١ في مدينة الاغـواط حضرته السلطات المدنية والعسكرية . والقى فيه الاستاذ احمد بوزيد قصيبة مدير ثانوية التعليم الاصـلى بهـذه المدينة هذا الخطاب .

هذا ونذكر بانه كان سبق ان احتفل بالذكرى المئوية لهذه الثورة في كـل من صدوق ، ومجانة ، وقلعة بني عباس بولاية سطيف ، وفي بني مناصر بولاية الاصنام ، وهذه هي المرحلة الثالثة .

احتفل الشعب الجزائرى فى عدة جهات من الوطن بذكرى مرور قرن على ثورة ١٨٧١ م . الخالدة وقد جاء فى خطاب الاخ السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى ٥ مايو ١٩٧١ م . فى قلعة بنى عباس ما يلى (... ولابد للصحراء من الاغواط الى ورقة وحتى عين صالح من احياء امتداد هذه الثورة الى هناك) ، ثم لما زار مدينة الاغواط فى اعياد الربيع الماضى جدد التذكير بوجوب احياء هاته الذكرى ، وكلفنى باعداد محاضرة عن حياة البطل ابن ناصر بن شهرة احد زعماء هاته الثورة الجبارة فشكرا للسيد الوزير على نشاطه المتواصل فى احياء التراث الوطنى ، وبفضل ذلك كله ها نحن نحتفل اليوم باحياء ذكرى هاته الثورة التى كانت حلقة هامة فى سلسلة الثورات المتتالية فى تاريخ كفاح شعبنا الطويل من اجل التخلص من المستعمرين الظالمين .

وجوب تصفية تاريخنا من الاستعماريات

قبل الشروع فى الموضوع احببت ان اقدم له بالتمهيد التالى ، فقد اشرت فى ذكرى يوم المجاهد فى ٢٠ غشت ١٩٧١ م . الى وجوب الاعتناء بتدوين وتسجيل تاريخ الثورة الجزائرية الكبرى ثورة اول نفمبر ١٩٥٤ م . وما تخللها من بطولات وتنافس فى الجهاد والاستشهاد والتضحية والفداء ، وذلك من طرف مثقفى هذا الجيل الذى عاش الثورة او واكبها واصطلى بنارها واهتدى بنورها ، ليكون ذلك مرجعا صحيحا للاجيال القادمة تستمد منه الفخر والاعتزاز . وخصوصا ان تاريخ الثورة قد اسرع للكتابة عنه اجانب مغرضون يحرفون الحقائق ، او اخوان شرقيون استمدوا اغلب معلوماتهم عن الثورة من هاته المصادر الاجنبية .

وأريد اليوم ان انتهز هاته الفرصة السعيدة لالفت الانظار الى وجوب تصفية تاريخنا من رواسب الاستعمار ودسائسه التى تهدف بصفة عامة الى الحط من قيم الحضارة العربية الاسلامية ، وتمجيد الحضارة اليونانية الرومانية الغابرة وبنتها الحضارة الغربية الحاضرة ، وتصفية تاريخ الجزائر بالخصوص من النزعة الاستعمارية التى تقلل من شان الماضى الجزائرى بل تحتقره وتنكره بالكلية ، وذلك لتبرير احتلال بلادنا واستعمارها واستغلال خيراتها .

وهذا التشويه والدس شنشنة قديمة ابتلى بها الاسلام والمسلمون من اعداء هذا الدين والكائدين له ، حملهم على ذلك الحقد الصليبى الدفين ، والعداوة اليهودية الحاقدة على انتصار الاسلام وسرعة انتشاره فى العالم .

ولم يسلم من هذا الدس حتى كتاب الله العزيز ولاسيما فى قصص الانبياء واخبار الامم السابقة ، وقد تفطن فحول علمائنا من كبار المفسرين لهاته الخزعبلات وسموها (الاسرائيليات) وتصدوا لها بالحرب وطهروا تفسير كتاب الله من اوهامهم ومكائدهم التى تتنافى تماما مع مقاصد القرآن وتوجيهاته الهادية الى سواء السبيل .

فاطلقت على دسائس المستعمرين فى تاريخنا (الاستعماريات) لان افكار المستعمرين متشعبة متنوعة منها الظاهر البين ومنها الخفى كالسم فى العسل ، وكلها ترجع الى اساس واحد هو تبرير الاستعمار وجعله كانه ضرورة حتمية يجب على من ابتلى به التسليم به كواقع اجتماعى لابد منه .

والحمد لله قد تفطن كتابنا الشباب الى هاته الظاهرة وقرات للكثير منهم ما يدل على اهتمامهم بذلك ، كالاستاذ محمد الشريف ساحلى فى كتابه القيم (ازالة النزعة الاستعمارية من التاريخ) (1)

Décoloniser l'histoire (1)

والاستاذ محمد الميلى ، والاستاذ عبد الله شريط ، والاستاذ عمار الطالبى ، والاستاذ تركى رابح وغيرهم ...

ثم جاءت البشرى السعيدة التى انهت حيرة الحائرين وقلق المثقفين على تاريخ الثورة وتاريخ الجزائر ، فتبنت السلطة الثورية الاشراف على احياء هذا التراث وتصفيته وتطهيره وابرازه للناس تاريخا نقيا صافيا نابعا من اعماق ضمير هذا الشعب المجاهد الكريم ، وهذا العمل عمل ثورى لا يقدر عليه الا الثوار الذين يجعلون مصلحة الوطن العليا فى الدرجة الاولى من اهتماماتهم . فكانت السلطة الثورية عند حسن الظن بها اذ نشرت فى الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية عدد ٦٥ من السنة الثامنة بتاريخ ١٩ جمادى الثانية ١٣٩١ هـ . الموافق ١٠ غشت سنة ١٩٧١ م . امرا رقم ٧١ / ٥٦ مؤرخ فى ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٩١ هـ . الموافق ٥ غشت ١٩٧١ م . يتضمن تأسيس (المركز الوطنى للدراسات التاريخية) الذى سيكون تابعا لرئاسة الحكومة . ونشر كذلك فى نفس العدد بنفس التاريخ مرسوم ، يتضمن تعيين الاستاذ الكبير مصطفى الاشرف (المستشار بالرئاسة) مديرا عاما لهذا المركز . فتأسيس هذا المركز وتعيين هذا الاستاذ الكفء مديرا عاما له ، هو الحد الفاصل بين عهد التخوفات والتساؤلات وعهد بناء صرح التاريخ الجزائرى الصحيح .

ترجمة البطل ابن ناصر بن شهرة

اثناء اعداد هاته المحاضرة والبحث عن مراجعها ومصادر المعلومات عنها ، وجدت الناس قد جهلوا كل شىء عن هذا الرجل العظيم والقليل منهم لايعرف عنه الا الاسم مع أن الاعداء كتبوا عنه الدراسات واعطوه حقه من التبجيل والاعتراف به والشهادة له (والفضل ما شهدت به الاعداء) بالبطولة والشجاعة النادرة والشهامة . وبحثت عن سبب جهل الناس لتاريخ هذا المجاهد فعلمت ان الاستعماريين كانوا يعاقبون كل من تحدث عن الثورات او الثوار ، وذلك لقتل كل روح وطنية ونضالية فى النفوس . ولنفس الغرض كانت قد جمعت السلطة المحلية هنا بالاغواط جميع نسخ كتاب (تحفة الزائر فى تاريخ الجزائر والامير عبد القادر) بالشراء ، والاستعارة من طرف الحكام العسكريين .

واول مرة سمعت فيها ذكر اسم ابن ناصر ابن شهرة فى تونس ايام الدراسة بالزيتونة ، فقد قدم اليها المؤرخ السيد دهينة بن الحاج عيسى لتفقد احوال ولده الذى كان معنا فى البعثة التعليمية التى اوفدها الى تونس استاذنا الشيخ مبارك الميلى رحمه الله قبل انتقاله من الاغواط سنة ١٩٣٣ م . وحكى لنا قصة السيد ابن ناصر بن شهرة ، ولعله لم يكن يحكيها فى الاغواط .

واسم هذا البطل هو ابن ناصر كما ذكره كثير من الكتاب ويعرفه الناس بالتواتر ، وليس اسمه (ناصر) فقط كما ذكره لوى رين المؤرخ لثورة ١٨٧١ م . وتبعه فى ذلك الاستاذ ساحلى وكل من كتب عن ثورة ١٨٧١ م .

فهو ابن ناصر واسم ابيه ابن شهرة وحذفت لفظة ابن الدالة على البنوة للتخفيف ، فهو ابن ناصر بن شهرة بن فرحات . وقد اشتهر جده فرحات بالشجاعة والكرم حتىجعلته قبائل الارباع شيخا ورئيسا لهم . ثم تولى ذلك ولده ابن شهرة الذى كان هو ايضا شجاعا وبطلا وكريما ، وكانت الارباع ترحل الى التل فى الشمال فى الصيف لجلب الحبوب لها ولخيولها . وكان الامن مفقودا ولم يقدر على التنقل الا من كانت له الشجاعة والاقدام على الدفاع عن الاهل والحريم والاموال

والماشية ، فتربى مترجمنا ابن ناصر فى هذا الجو المملوء بالبارود والفروسية والكر والفر ، فكان هو ايضا من رؤساء قبائل الارباع قبل الاحتلال ، وقد ولد سنة ١٨٠٤ م وتزوج اول مرة بنت السيد احمد بن سالم سلطان مدينة الاغواط قبل الاحتلال وولدت له بنتا ولما جاء الاحتلال الفرنسى ، رفض الخضوع له وتوجه الى اعماق الصحراء فلم توافق زوجته هاته على الذهاب معه الى الصحراء ، فطلقها ، وتوفيت بنته منها ، واثناء جهاده فى الصحراء ضد الاحتلال الفرنسى منذ سنة ١٨٥١ م . توجه الى مدينة ورقلة واتفق مع سلطانها على الكفاح وتزوج بنته المسماة الياقوت من فرقة المخادمة بورقلة ، وقد انجبت له ولدين هما : محمد رجع من الشام ووعدته فرنسا بمنصب قائد وشاع انه قتل مسموما فى ناحية قرية زنينة (الادريسية الآن) وضع له السم فى الشاى . وثانيهما ابن شهرة الذى لما رجع من الشام وسمع بالثورة السنوسية فى طرابلس الغرب ضد الاحتلال الايطالى ، ذهب للجهاد هناك واستشهد رحمه الله فى طرابلس سنة ١٩١٢ م . وبعد وفاة الياقوت الخدمية تزوج ابن ناصر بالمرابطة نوة اخت السيد مولاى عبد القادر ادريسى التى انجبت له ولدين ايضا هما ــ فرحات الذى توفى بالاغواط بعد رجوعه من الشام وخلف ولدا اسمه احمد بن فرحات لازال حيا يرزق ، وبنتا اسمها الزهرة ارملة الحاج قد بن الحبيب التى توفيت فى السنة الماضية ١٩٧٠ رحمها الله . والثانى يحيى الذى توفى بالاغواط بعد ان رجع من الشام ، وخلف اربعة ابناء ذكور واربع بنات ، مازال على قيد الحياة منهم ، ثلاثة ابناء وثلاث بنات .

وابن ناصر بن شهرة كما وصفه لى بعض كبار من سألتهم عنه ، كان ربعة ، اشقر اللون احمر الشعر كثيف شعر الحاجبين ، سريع الخطا ، كان يلبس (الحائك) من الصوف ، ويعتم مثل الامير عبد القادر ، ويحتذى الحذاء الطويل . وكان ماهرا فى الرماية يضرب بالرصاص من الامام ومن الخلف ولا يخطىء ابدا ، وكان اذا حمى الوطيس فى الحرب (يتنقب) اى يتلثم . وكان عالما بدقائق الارض الصحراوية ، يقول لوى رين فى ذلك (كان ابن ناصر بن شهرة الملاح الحقيقى للصحراء) . ومهما حاول المستعمرون حصاره للقبض عليه انفلت منهم باعجوبة وتسلل من الحصار بسبب معرفته التامة بخفايا الصحراء .

وكان رحمه الله بطلا شجاعا ودام كفاحه اكثر من ٢٤ سنة ضد الاستعمار الفرنسى من سنة ١٨٥١ الى سنة ١٨٧٥ م . وقد وجد التأييد فى الجنوب التونسى بصحراء الجريد وخصوصا لدى الزاوية الرحمانية بنفطة . التى كانت ملجا وملاذا للثوار الجزائريين والفارين بدينهم من الاستعمار . يقول رين فى ذلك ــ (صفحة ٨٨) ــ (فى نفطة ، كان ابن ناصر بن شهرة الذى خلف اباه كآغا على الارباع سنة ١٨٤٦ م يقوم منذ سنة ١٨٥١ م . بحرب مستمرة ضدنا فى الصحراء الشرقية ، ولم يترك سنة واحدة لم يهاجمنا فيها او قبائلنا التى رضخت لنا) . وكان من انصار ابن ناصر بن شهرة اقاربه من قبيلة المعامرة وقبيلة الحجاج واكثرهم من قبيلة الحرازلية يقول الشهيد بوديسة احد الثوار (من قبيلة اولاد المختار من قصر البخارى الذى سجن بفرنسا وبالاغواط) ، والذى استشهد سنة ١٨٦٤ ، فى بطولة ابن ناصر بن شهرة ــ ولا يعرف البطل الا البطل ، اذ لا يعرف الفضل لاهل الفضل الا ذووه ــ وذلك عند الحديث عن الخيل التى كانت الآداة الهامة فى جهاد الثوار ، وعن الشجعان : (فى الخيل عودى وفى الرجال ابن ناصر بن شهرة) . ولما وقعت الحرب (حرب السبعين) بين فرنسا والالمان فرح المجاهدون

والابطال وعزموا على استئناف الجهاد والكفاح، ومن بينهم ابن ناصر بن شهرة فكان بطلا بارزا من ابطال ثورة ١٨٧١ م . ونازل الاحتلال وصاوله الى ان انتهت الثورة فسافر الى بيروت الشام حيث امضى بقية حياته بها مجاورا لصديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر ، وبها توفى رحمه الله سنة ١٨٨٤ م . فيكون قد عاش ٨٠ سنة .

واثناء اقامته بالارض العرشية للاربـاع فى ناحية المخرق ، كان اذا قدم الى الاغواط لقضاء مآربه او فى مروره بها فى رحلة الصيف الى التل كان ينزل بمكان (الجدر) مركز القاعدة الجوية الآن ، وينزل ايضا فى الضاية القبلية قرب مقبرة اسلافه (اولاد عيسى بن على) ، وكذلك فى مكان (قنيفيد) بين السريجة وبرج السنوسى ، وكان صديقه بالمدينة واحد اقاربه هو المرحوم السيد الحاج احمد الشاوى مقدم الطريقة القادرية ، التى كان ينتمى اليها ايضا ابن ناصر بن شهرة .

جهاد ابن ناصر بن شهرة منذ سنة ١٨٥١ م .

بدا المجاهد البطل ابن ناصر بن شهرة جهاده سنة ١٨٥١ م . وساعرض عليكم باختصار مواقف بطولية فى الجهاد فى ربوع صحرائنا الجزائرية —

فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٥١ م . كان ابن ناصر ابن شهرة وقبائل الارباع تحت الاقامة الجبرية قرب المعسكر بوغار ، ولكنه رفض هذا التصرف من الفرنسيين وتوجه الى الشهبونية حيث لحقه الملازم اليهودى (كروس) مع فرقة من ٣٠ من فرسان الصبائحية ، لان كروس ادعى انه صديق ابن ناصر بن شهرة ، وهو سياسى ديبلوماسى ، يعرف نفسية العرب وكيف يؤثر فيهم ، فلما اتصل به للمفاوضة ، لم ينجح ، فجردهم ابن ناصر بن شهرة واخوه ابوبكر من اسلحتهم والبستهم العسكرية وقال للملازم الفاشل — انى اجردك من اسلحتك وخيولك واطلق سراحك ، وارجع الى من ارسلك فى المدينة وقل له — (ان ابن ناصر بن شهرة قد فارق خدمة الفرنسيين التى كلها مذلة واهانة ، ويلتحق بمن يمثل الدين والاستقلال) يعنى بذلك المجاهد البطل شريف ورقلة السيد محمد بن عبد الله ، فرجع الملازم كروس وفرقته الى بوغار مشيا على الاقدام . ثم اتصل بطلنا ابن ناصر باخيه فى الجهاد محمد بن عبد الله فى ورقلة ، ثم رجع الى الشمال الشرقى واستولى على قرية قصر الحيران وحصنها ، وذلك فى ٣١ جويلية ١٨٥٢ م. ولما عزم سكان مدينة الاغواط على الثورة فى وجه الفرنسيين اتصلوا بالبطل ابن ناصر بن شهرة فى وفد عظيم وكان من بينهم احد شيوخ بنى الاغواط السيد يحيى بن معمر الذى كان متفقا معه فى السياسة النضالية ، وبعد مفاوضات التمسوا منه ان يتصل بسلطان ورقلة ليكون قائدا للثورة، فذهب اليه ووافق على ذلك لكنه كان مريضا فرجع ابن ناصر بن شهرة الى قصر الحيران ثم التحق بـه السيد محمد بن عبد الله ومنها ذهبا معا الى مدينة القرارة للتسليح والتموين . وقبل ذلك كان قد حاول الاتصال به السيد الشريف بن الاحرش الذى كان خليفة الامير عبد القادر ثم صار باش آغا على اعراش اولاد نائل ، والتقيا فى مكان اللقحات فى الشبكة قرب بريان فلم تنجح هاته المفاوضات ، وهناك وقع الفرنسيون فى رهب شديد باتصال ابن ناصر بن شهرة بثوار الصحراء .

وبعد احتلال مدينة الاغواط ، وتمركز الجيش الفرنسى بها ، لجا ابن ناصر بن شهرة الى الجنوب التونسى ينتظر تطور الاحداث والفرص لاستئناف الجهاد ضد المستعمرين ، وكون فى الجنوب التونسى انصارا واعوانا من ابطال تلك الجهات ، ولما سمع بثورة اولاد سيدى الشيخ فى صيف سنة ١٩٦٤ م جاء بطلنا الى ورقلة واتصل

فيها بالسيد سى العلاء من اولاد سيدى الشيخ وفى ٦ اوت ١٨٦٤ كانا معا على راس جيش عظيم ١٥٠٠ فارس فى عين طاقين ووقعت فيها معركة عظيمة بينهم وبين القوم وعملاء المستعمر. وفى ٢١ اكتوبر ١٨٦٤ م . وصل ابن ناصر بن شهرة الى واد النساء جنوب بريزينة ، ووصل مع اولاد سيدى الشيخ ومرافقيه من الارباع الى سيدى الحاج الدين فى صحراء الساورة ، مارين بواد زرقون ومحيقن والقيمن وتاجرونة والماية ، وقد كانت ملاقاة هؤلاء الابطال فى وادى ميزاب قرب بنى يسقن وفى متليلى ونومرات مما ادى بالسلطة الاستعمارية الى ان يقرر الوالى العام فى نوفمبر ١٨٦٤ حجز جميع قوافل بنى ميزاب وحرمانهم من الحبوب التى تاتيهم من الشمال وذلك عقابا لهم ولئلا يساعدوا الثوار فى الصحراء .

وفى سنة ١٨٦٥ م . رجع ابن ناصر بن شهرة وسى العلاء الى مدينة ورقلة ، وفى ربيع سنة ١٨٦٦ م . توجه ابن ناصر بن شهرة وسى الزبير وابن اخيه سى أحمد بن حمزة من زعماء ثورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة المنيعة ومنها انتقل الى عين صالح لتجنيد المجاهدين من توات ومن اشعابنة ومن التوارق ، وقد دخلت ثورة اولاد سيدى الشيخ الى مدينة عين ماضى التى دخلها سى العلاء فى شهر جانفى سنة ١٨٦٩ م . ومعه سى قدور ابن اخيه واعلنت عين ماضى الثورة فتوجه اليها جيش فرنسى عظيم من مدينة الاغواط بقيادة الكولونيل دى سونى لمعاقبة شيخ الزاوية وسكان عين ماضى ، ولما سمع بذلك المجاهدون جمعوا فى اقرب وقت وبسرعة فائقة ٣٠٠٠ من الفرسان والف من المشاة واستعمل الجيش الفرنسى لاول مرة فى الجزائر أحدث الاسلحة فكانت الغلبة للتفوق فى التسلح ، وفى ١٠ فيفرى ١٨٦٩ اعتقلت السلطة الاستعمارية شيخ الزاوية ونفته الى بولوغين بالجزائر ومعه ١٨ من أعيان عين ماضى ، ثم نقلت شيخ الزاوية الى مدينة بوردو . وفى نفس هذه المدينة ظهر فى شهر مارس ١٨٦٩ م . ظهر فى صحراء توات ثائر وزعيم للجهاد جديد هو السيد شريف محمد بن التومى بن ابراهيم الغيثاوى المشهور بأسم بوشوشة واعلن انه سيجاهد ضد الكفار المسيحيين حتى يطهر منهم البلاد الاسلامية وتجند تحت لوائه كثير من ابطال الصحراء من التواتيين وشعانبة متليلى وشعانبة المواضى بالمنيعة ، واستولى على المنيعة وسجن قائدها من طرف الفرنسيين ، ولما سمع بذلك ابن ناصر ابن شهرة التحق به وشرعا فى اعداد الناس للجهاد والكفاح حتى اندلعت ثورة الحاج محمد المقرانى فكان من ابرز زعمائها وأبطالها ومن المنظمين لها كما سياتى بيانه .

ولذلك نقترح على السلطات المحلية أن يسمى حى (قصر البزائم) (حى ابن ناصر بن شهرة) ، وبناء نصب تذكارى تخليدا لهذا البطل فى مكان (تنيفيد) ، على الضفة اليسرى لوادى مزى . وتسمية قرية « المخرق » (ابن ناصر بن شهرة).

دور ابن ناصر بن شهرة فى ثورة ١٨٧١ م .

شوه الكتاب الفرنسيون تاريخ ثورة ١٨٧١ م . التى اشتهرت بثورة المقرانى ابرز زعمائها وقادتها وابطالها الميامين . ولاسيما عند تحليل احداثها والتكلم عن اسبابها ونتائجها. وكل ذلك نضرب عنه صفحا ولا نحكى زورهم وبهتانهم ، ويرجع السبب الرئيسى لثورة ١٨٧١ م . الى عزم الشعب الجزائرى على محاولة التخلى مرة اخرى من المستعمرين الظالمين ، واراد اغتنام فرصة انكسار الجيوش الفرنسية امام الالمان ووقع ملكها الامبراطور نابوليون الثالث فى الاسر ، والانقلاب الذى وقع

من طرف اليساريين فاعلنوا الجمهورية الفرنسية الثالثة ، وانتقال الحكومة الى مدينة (تور) ثم الى مدينة (بوردو) . وقد صدرت من بعض هؤلاء الكتاب بعض الحقائق والعبارات التى تشير الى الاسباب الوطنية الشريفة فى اعلان الجزائريين لثورة ١٨٧١ م .

وقد وقعت السلطة الاستعمارية فى فوضى لا نظير لها وتطاحن الحكام المدنيون والعسكريون تطاحنا علينا ، راى فيه قادة الشعب الجزائرى الفرصة السانحة للخلاص ولطرد المستعمر الى البحر .

ولم يكن قرار منح الجنسية الفرنسية بصفة جماعية للاسرائليين الجزائريين الا جزئية من جزئيات آثار السياسة الاستعمارية ، بل راى فيه السكان تطورا جديدا فى هاته السياسة الرامية الى محاولة مسخكل ما كان قبل الاحتلال من مظاهر ، (وعكس ما ادعاه مؤرخو هاته الثورة الفرنسيون) راى الناس فى هذا القرار اعتداء على حرية الاديان فى الجزائر ، وخشى اهل النظر البعيد أن يكون ذلك خطوة نحو منح المسلمين هاته الجنسية بصفة جماعية واشار الى ذلك الكاتب لوى رين فى كتابه المذكور صفحة (٩٢)

(... ولكن البعض وهم المرابطون رؤساء الزوايا راوا فى ذلك دليلا على تسامحنا الدينى الذى حملنا على فرض قانوننا المدنى على الاسرائليين بدلا من قانونهم الدينى ، وكانوا يظنون بدون شك اننا يوما ما سنتصرف مثل هذا التصرف بالنسبة للقانون الدينى للمسلمين) ، ويعلق الكاتب مستغربا هذا الفهم قائلا — (وهذا دليل على التفسير الغريب من طرف الاهالى فى بعض الاحيان لبعض اجراءاتنا) . ويقول فىصفحة (٨٥) — (.. فى ذلك الوقت ومدة كامل شهر سبتمبر ١٨٧٠ م . انتشرت انباء مؤلمة عن اندحار جيوشنا النظامية وخصوصا من طرف بعض الجرحى فى معركة (ريشهوفن) من الجنود الجزائريين الذين نقلوا الى الجزائر وبالغوا فى تصوير انكسارنا وضعفنا واضمحلال دولتنا) .

وقال الاستاذ اوقيستان برنار Augustin Bernard فى الجزء الثانى المتعلق بتاريخ الجزائر من كتاب (تاريخ المستعمرات الفرنسية والتوسع الفرنسى فى العالم) صفحة (٣٨١) — (... خلاص الحكومة Khelass El Houkouma انتهت كلسلطة وشرعت القبائل والاعراش فى التسلح ، وصعب قبض الضرائب ، ووضعت المواشى فى مامن فى الجبال) . ولقد كون الشعب تلقائيا مجالس شعبية تتكون من ١٠ الى ١٢ عضوا لها جميع الصلاحيات وسميت الشرطية ، تراقب القياد وتفرض التغريم ، وتحجز املاك المخالفين والخونة للقضية العامة ، وتشترى الاسلحة ، والبارود ، والعتاد ، والخيل ، وتعيد النظر وتنقض احكام القضاة ومجالس التأديب الاستعمارية ، وكانت اول شرطية تاسست هى شرطية السحارى قرب بسكرة وشرعت فى اعمالها فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٠ م . يقول لوى رين فى ذلك (... وقد بلغ ببعض هاته المجالس الشعبية وذلك فى الوادى بسوف ان حكمت بالاعدام على السراق) .

واعتقد الناس فى كامل البلاد ان فرنسا امالنها ستخرج من الجزائر أو تنسحب الى مدن الساحل

واثناء هاته الاستعدادات النشيطة فى الشمال وخصوصا بعد اعلان الجمهورية الفرنسية الثالثة فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ م . كان الامير عبد القادر فى دمشق الشام الواقعة تحت حكمدولة الخلافة العثمانية حليفة الالمان ، يعلم جيدا حقائق الامور ، وراى انالفرصة سانحة لاستئناف الجهاد لتحرير البلاد ، فارسل ابنه الثانى الامير محيى الدين ليلتحق باخوانه الثوار فى داخل الوطن ، وعزم الجميع على اعلان الثورة بمجرد انتهاء شهر رمضان المعظم سنة ١٢٨٧ هـ . الذى بدا فى ٢٤ نوفمبر وانتهى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٠م

يقول فى ذلك الاستاذ سعد الله فى ندوة ثورة ١٨٧١ م . العدد الثانى من مجلة (الاصالة) شهرمايو ١٨٧١ م . صفحة (٥٨) مايلي ـ (.. ففى احد الاصياف كنت فى سوريا والتقيت مع جماعة من احفاد الامير ومنهم حفيد كان كبير السن وجدته على الفراش ... وقد توفى الان ، ومما قال لى وانا اسجل هذا فى مذكراتى الخاصة بأن الامير عبد القادر هو الذى ارسل ابنه محيى الدين عن طريق طرابلس التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، جنوب تونس ، ودخل محيى الدين الى الجزائر عن طريق الجنوب الشرقى) .

جاء الامير محيى الدين الى تونس ولكن احتجاج القنصل الفرنسى بها لدى الباى حمله على الامتناع عن اى اتصال ، وادعى المرض ، واعلن انه ينوى الرجوع الى سوريا عن طريق مالطة وابحر من تونس فى ٢١ نوفمبر سنة ١٨٧٠ ولكنه بعد ايام قلائل نزل بمدينة طرابلس ومنها توجه برا الى توزر ثم الى مدينة نفطة . وفى نفطة التى كانت مركزا ومأوى للثوار الجزائريين وملجأ لكل الذين قد هاجروا اليها لالسبب كما يقول لوى رين نفسه (سوى الرغبة فى العيش فى ارض اسلامية ورفض ان يكونوا رعايا للمسيحيين) . صفحة (٨٨) . وقد التقى الامير محيى الدين فى نفطة باخوانه فى الجهاد الثوار ابن ناصر بن شهرة ، ومحمد بوعلاق التونسى ، واولاد البطل الشعانبى السوفى بوطيب بن عمران وكانوا جميعهم فى ضيافة واكرام ومساعدة رئيس زاويتها الرحمانية الشيخ مصطفى بن عزوز الجزائرى .

بدا الامير باعداد الاعراش والقبائل وتسليحهم وتكوين القوم وشراء الاسلحة والعتاد ثم ارسل هو وابن ناصر بن شهرة اول رسالتيهما الى القبائل والاعراش ، وكانت رسائلهما ترسل اثنتين اثنتين ، الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة يعرف بها بحضور الامير محى الدين ابن الامير عبدالقادر والثانية من الامير محى الدين نفسه يدعو الناس فيها الى الاستعداد للجهاد واتخاذ كل الوسائل من اجل الكفاح . وهذه ترجمة الرسالة الاولى من ابن ناصر بن شهرة عن الفرنسية التى كانت مترجمة عن العربية والتى لم نعثر عليها : فى راس الرسالة ختم مربع قطع جانب منه ، معروف فى كامل الصحراء ، (ان مولانا الامير محيى الدين ابن الامير الحاج عبد القادر قد جاء بأمر من السلطان نصره الله ، انه يريد نصر الدين ، وان شاء الله سيذهب من هنا الى الجزائر ليلتحق بابيه الذى سيكون فى حاجة اليه . وان الجيش المرسل من طرف السلطان قد وصل الى طرابلس . فاذا عزمتم على القدوم نحونا (اذا كنتم تحبونه حقا) ، فأرسلوا له وفدا من طرنكم . والا فلا تلومن الا انفسكم لما سيحدث (وحامل هذا اليكم سيكمل لكم بصوت رفيع جميع المعلومات كتبه الامير ابن ناصر بن شهرة والسلام . ٦ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . (٣٠ ديسمبر ١٨٧٠ م)

اما رسائل الامير محيى الدين فكانت تحمل من فوقها ختما كبير مستديرا (قطره ٣٥ ملمتر) وهو حجم اميرى . وهذا نص الرسالة الاولى : (وما النصر الا من عند الله . من طالب العون من القوى القاهر ، الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر فى سنة ١٢٨٧ هـ . جئنا الى هنا قصد الدفاع عن الدين وحماية الوطن . اننا نعلم انكم ترغبون فى الجهاد (وباسم الدين نجد فيكم الاخ الحميم والمؤيد) . ان الله قد سحق اعداءنا ولم يبق لهم لا وطن ولا جيش . كونوا مستعدين ليوم قدومنا نحوكم . وانكم تعلمون ان الدين لا يسمح الا للعاجزين عن القيام بالقتال . كل رجل صحيح يجب ان يشارك فى الجهاد ، سواء بنفسه اوبماله استعدوا اذن لرفع شأن الدين وانى اعرف ان ذلك دائما هو املكم وانكم كرماء ، ان وقت الذهاب قد حان ، وقت تحريركم قد قرب . فاستعدوا والسلام) .

ارسلت هاته الرسالة الاولى وكثير فى معناها الى جميع رؤساء القبائل والى جميع السكان . والتحق الارباع بقائدهم لما جاءتهم رسالته وكان برفقة الامير محيى الدين السيد ابن هلال احد كتاب والده القدماء والسيد سى محمد زروق ابن سيدى صالح احد الاشراف من ناحية بسكرة واحد أبطال معركة الزعاطشة والذى كان لاجئا فى طرابلس الغرب ، والسيد ابراهيم بن عبد الله مقدم الطريقة القادرية واحد ابطال ثورة ١٨٦٤ والسيد محمد بن الحشانى من قرية بوعزيز فى بسكرة والسيد سليمان سلطان تقرت سابقا .

وشاع فى الجنوب فى تلك الايام قدوم الجيوش التركية والمصرية لنصرة المسلمين فقد كتب السيد سىمحمد زروق بن سيدى صالح من نفطة الى قائد بسكرة محمد الصغير بن قانة الذى احالها الى الادارة الفرنسية ، جاء فيها ما يلى ـ (ان مولانا الامير محى الدين ابن الامير عبد القادر قد جاء الى ابن ناصر بن شهرة ليقوم بالجهاد المقدس . ان سلطان اسطنبول قد ارسل جيشا الى طرابلس ، وجعل الايالة التونسية والجزائرية تحت امارة اسماعيل باشا نائب الملك فى مصر . عدة دولوافقت على التقسيم وبعضها لم توافق . والسلطان يريد ان يتخلص عرب الجزائر من عدوهم قبل أن يكثروا . وعندما اتفق مع سى محيى الدين ساعطيك اخبارا هامة فى هذا لشأن .) يقول لوى رين ـ (ارسل الينا الرؤساء الموالون لنا عددا كثيرا من هاته الرسائل وقد تجمع لدى القائد العسكرى لناحية بسكرة نحو (٤٤) رسالة كلها محفوظة فى وثائق الولاية العامة وكان على بعضها ختم الامير محيى الدين وعلى بعضها ختم ابن ناصر بن شهرة ، وقد كانت مرسلة الى رئيس زاوية تماسين ، والى السيد على باى آغا تقرت وورقلة والى رؤساء واعيان الطرود بسوف ، والى الاغواط ، ومتليلى ، ومزاب ، والى الشريف بوشوشة ، والى المخادمة والشعانبة ، وسعيد عتبة بورقلة وغيرهم ..) ويقول رين أيضا : (وكل هاته الرسائل متشابهة فى القول والاسلوب ويظهر انها امليت على كتاب عديدين) .

وكانتالسلطات الفرنسية تجهل اولا وجود الامير محيى الدين بجنوب الجزائر ثم كذبت الخبر واشاعت انه شخص آخر منتحل لاسم الامير ، ثم روجت اشاعة براءة الامير عبد القادر منه ونشرت عدة رسائل فى الجريدة الرسمية المبشر وفى الاسواق على انها من الامير يحذر فيها الناس من اتباع ابنه العاق ، وأنه غير راض عنه ولا موافق على تصرفاته . والصحيح ما قدمناه من ارسال الامير لابنه للجهاد وقدارسل رسالة واحدة فقط الى حكومة بوردو بواسطة قنصلها العام فى دمشق يخفف من وقع الحادث ، وقال فيها انه أرسل ابنه المريض للمعالجة بمدينة الاسكندرية ولتبديل الهواء هناك .

وكان اثناء هاته الاستعدادات قد قام البطل المجاهد محمد بن التومى الشهير باسم بوشوشة الغيشاوى باعلان الجهاد فى الصحراء واستولى على مدينة المنيعة وطرد قائدها جعفر ، ثم استقر بمدينة عين صالح فى شهر مايو ١٨٧٠ م وكون جيشا عظيما من قبائل الشعانبة المواضى ، وشعانبة متليلى وشعانبة طرود سوف ، واجتمع فى الصحراء ثوار اولاد سيدى الشيخ بزعامة سى الزبير وثوار الشعانبة بقيادة بوشوشة ، وثوار الصحراء الشرقية بقيادة ابن ناصر بن شهرة والامير محيى الدين وفى نفس الوقت كانت الثورة مشتعلة فى الشمال بقيادة المجاهد الحاج محمد بن الحاج احمد المقرانى ، والشيخ ابن الحداد رئيس الزاوية الرحمانية فى صدوق ، ثم تحت قيادة بومزراق المقرانى والسيد عزيز بن الشيخ الحداد وقد استولى الثوار على برج بوعريرج ومجانة ووصلت الثورة الى ناحية الاخضرية (باليسترو)

والى بنى مناصر قرب شرشال ، واستولى الامير محيى الدين على نقرين وتبسة وانتشرت الثورة من الساحل وفى الجبال الى اعماق الصحراءحيث استولى ابن ناصر بن شهرة على تقرت وورقلة وتحمس الناس للجهاد والدفاع عن العقيدة والوطن وكان المرحوم المقرانى قد استشهد فى ٥ ماى ١٨٧١ م فى مكان سوفلات قرب عين بسام ، وفى ١٣يوليو ، جويلية سنة ١٨٧١ م القى القبض على الشيخ الحداد ، وتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة واضطرو الى خوض اكثر من ٣٤٠ معركة اشتبكت فيها ثوارنا الابطال وجنودهم ضد الجيوش الفرنسية والعملاء الجزائريين الذين كانوا فى خدمة ركابهم ولعل وجود هؤلاء العملاء فى الشمال والجنوب هو السبب الرئيسى فى فشل ثورة ١٨٧١ م وعدم نجاحها رغم الاستعدادات زيادة على عدم وجود التنظيم العسكرى والقيادة الموحدة ، والتكوين السياسى للقيادة والشعب ، وكذلك مجىء الامدادات من العتاد والسلاح والجيوش من فرنسا بعد تفرغ جيوشها من حرب السبعين .

ولما انقلبت الحال فى الشمال قرر آل المقرانى الاعتصام بالصحراء فتوجه ركبهم نحو الجنوب على طريق المسيلة ثم واصلوا السير ووصلوا الى عقلة البيضاء على شط زاغز بعد ان مشوا ليلا اكثر من ٨٠ كلمترا وهناك اجتمعوا فى ١٠ اكتوبر ١٨٧١ م . ليقرروا مصيرهم ، وكان اغلبهم قد اشار بالاتجاه الى الايالة التونسية الشقيقة ومنهم الزعيم بومزراق وكان عددهم بين ١٥٠ و ١٦٠ من بينهم ١٧ رجلا من اعيانهم وكبرائهم وهم ، السيد احمد بومزراق ، السيد السعيد بن بوداود ، السيد على بوزيد ، السيد ابن عبد الله بن الحاج احمد ، السيد الشريف بن عبد الرحمن ، السيد دحمان بن القندوز ، السيد الحاج بن عبد الرحمن ، السيد الاخضر بن عبد الرحمن ، السيد محمد بن قويدر ، السيد الصغير بن بورنان ، السيد احمد بن بورنان ، السيد احمد بن عبد الله ، السيد احمد بن محمد بن عبد الله ، السيد عبد الرحمن بن القندوز ، السيد محمد بن عبد السلام ، السيد احمد بن الشلالى . وقرروا الدخول الى تونس عن طريق تقرت ، وسوف ، ونفطة ثم توزر ، ولكن جاءتهم الاخبار بأنه لايمكنهم الذهاب الى سوف لعدم الامن هناك ، فعدولوا عن ذلك وقرروا الالتحاق بابن ناصر بن شهرة فى ورقلة ، فمروا بقرية العلية قرب تقرت فأبوا ان يضيفوهم وامتنعوا حتى من بيعهم اللحم والتمر خوفا من انتقام بوعكاز ، بل تابلوهم ببرودة ، خلافا لعادات العرب فى الكرم والضيافة مما جعل لوى رين يتعجب من هذا التصرف ازاء ابطال وعظماء ، امثال المقرانى واقرابه وانصاره . ولما سمع بهم ابن ناصر بن شهرة ، والبطل بوشوشة ، والبطل سى الزبير من اولاد سيدى الشيخ ، وكان ذلك اليوم (٢٠ اكتوبر ١٨٧١ م .) يوما مشهودا بالغ الابطال فى الحفارة واكرام اخوانهم حتى انسوهم همومهم وقرروا البقاء فى الصحراء، بل وضعوا أنفسهم تحت رئاسة السيد بومزراق . وهذا الموقف الرائع الدال على الاخوة فى الاسلام وفى الجهاد يبرهن بكل وضوح على ان الشعب الجزائرى كان شعبا واحدا متآخيا متضامنا فى السراء والضراء لا فرق بين سكان شماله ولا بين سكان جنوبه ولا فرق بين العرب والامازيغ ووحدت الدماء بينهم،وهوبرهان على ان الاستعمار هو الذى احدث فى صوفنا العداوة والبغضاء والعقلية الجهوية ، وكانت مدينة بنى يسقن فى وادى ميزاب المستودع الحصين الذى وجد فيه الثوار السلاح والتموين والعتاد والسلاح والبارود (يقول الاستاذ اوقستن برنار) المذكور ، (فى سنة ١٨٨٢ م . باستلائنا على

المزاب قضينا على عش الثورة الدائم ، والمستودع الذى كان يجد فيه الثوار ضدنا الاسلحة والعتاد والتموين) . فبفضل مركز نقطة الهام ومركز وادى مزاب الممتاز تمكن الثوار من مصاولة الاستعمار والمحافظة على روح النضال والمقاومة فى نفوس شعبنا ، كما ان ذلك برهان على روح الاخاء بين اقطار المغرب العربى الكبير .

وبفضل ابن ناصر بن شهرة تمكن آل المقرانى من الدخول الى تونس ، ومنها اتصلوا بالباى الذى اشترط عليهم تحت ضغط فرنسا ان يتفرقوا فى البلاد وان لايسكنوا فى جهات الحدود الجزائرية وقد بلغ عددهم من بعد نحو ٥٠٠ لاجىء سياسى وبقوا بها الى ايام الاستقلال فمنهم من رجع الى الوطن العزيز ، ومنهم من بقى هناك . ولكن زعيمهم السيد بومزراق كان قد اتجه الى ناحية للبحث عن طريق اللحاق بتونس ، وكان يرافقه خادمه فقط ، فلم يهتد للرجوع الى الركب وبقى يمشى مدة ستة ايام بدون ماء ولا زاد الا الاعشاب حتى وصل الى ماء فى ناحية الرويسات قرب ورقلة وهناك عثر عليه الجيش الفرنسى مغميا عليهما هو وخادمه ، وذلك فى ٢٠ جانفى سنة ١٨٧٢ م . فنقله الجنرال لاكروا الى قسنطينة وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام ثم نقل الى جزيرة كليدونى الجديدة التى كانت معتقلا لدى فرنسا . وفى ١١ جانفى كان قد حاول احد الخونة قتل السيد بوشوشة وتركه قريبا من الميت فعثرت عليه جنود الفرنسيين جريحا فى ناحية الميلق قرب عين صالح ونقلوه الى سجن قسنطينة وحوكم بها كمجرم لا كثائر حربى ، وحكمت عليه المحكمة الاستعمارية بالاعدام ونفذته فيه صباح يوم **٢٩ جوان ١٨٧٥** م . على الساعة الخامسة صباحا فى معسكر الزيتون قرب قسنطينة . ومما قال للمحكمة ما اكثر ثرثرتكم وركاكتكم انكم قاتلى لا محالة فاسرعوا بقتلى وأريحونى من سخافاتكم ، اننا ثرنا وها انا بين أيديكم . وواجه الرصاص والموت بكل شجاعة رحمه الله .

وبلقاء القبض على قائد الثورة بومزراق ، والقاء القبض على زعيم الثورة فى الصحراء الغربية والشرقية ، بوشوشة وباستلاء الجيش الفرنسى على مدينة تقرت ثم ورقلة ، يئس الناس من نجاح الثورة ، وتفرق المجاهدون ، منهم من لجا الى طرابلس ومنهم من لجا الى تونس ، وبقى ابن ناصر بن شهرة وحده يقوم ببعض المناوشات يشنها من الجريد ونفزاوة . وفى شهر جوان لجا الى باى تونس الذى اذن له بالركوب من مرسى حلق الوادى الى بيروت وذلك فى يوم ٢ جوان ١٨٧٥م. وكان برفقته رفيقه فى الجهاد الشيخ الكبلوتى ، وفى بيروت استقر بجوار صديقه الامير محيى الدين بن الامير عبد القادر الى سنة ١٨٨٣ م . هو والكبلوتى ، ثم توفى رحمه الله رحمة واسعة وجازاه هو وجميع اخوانه ممن ضحوا قبله ، او معه ، او بعده ، احسن الجزاء ..

احمد بن ابى زيد قصيبة .

القاضي

سعيد العقباني التلمساني

رابح بونار

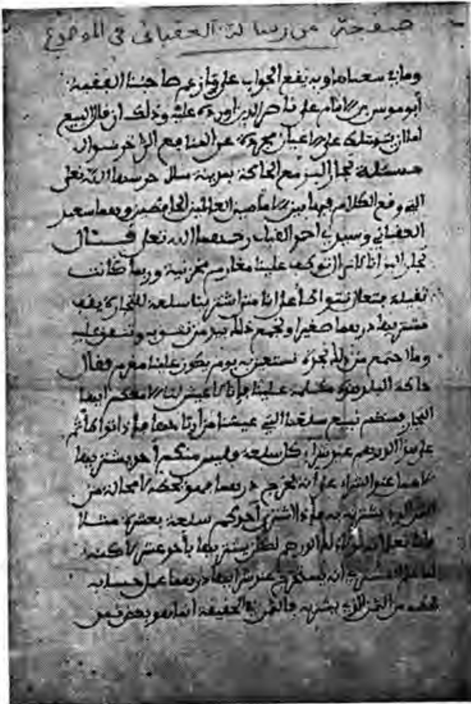
تمهيد : لقد سجل القرن الثامن الهجرى بتلمسان وغيرها من مدن الجزائر ازدهارا كبيرا فى الدراسات الفقهية القانونية كما سجل نشاطا كبيرا فى مختلف العلوم كالتاريخ وعلوم اللغة والادب ومباحث الكلام والرياضيات وغيرها وقد كان لكتاب الدراسات القانونية والفقهية المقام الاول فى هذا العصر ، وكانت لهم الاسبقية والايثار على رجال الثقافة الذين يعاصرونهم واهم ما تنبغى ملاحظته هنا ان اعلام القانون فى هذا العصر لم يكونوا من النقلة الحفاظ لا غير ، وانما كانوا يميلون الى اعمال الراى الى الاجتهاد فى دائرة المذهب المالكى ومنهم المترجم سعيد العقبانى واذا رجعنا الى كتب التراجم وتصفحنا تراجم بعض الشخصيات الفقهية اللامعة وجدنا من بينهم ابنى الامام ابى موسى عيسى المتوفى سنة ٧٤٩ ﻫ وابا زيد عبد الرحمن (١) المتوفى سنة ٧٤٣ﻫ ومحمد ابراهيم الآبلى (٢) المتوفى سنة ٧٥٧ﻫ وابا عبد الله محمد بن احمد العوينى الشريف التلمسانى (٣) المتوفى سنة ٧٧١ﻫ .

وأبا عبد الله محمد بن احمد بن مرزوق بن مرزوق التلمساني الشهير بالخطيب (٤) المتوفى سنة ٧٨٦ هـ ونجد الى جانب هؤلاء الفقهاء الاعلام شخصيات اخرى لا تقل عنهم شأنا فى الابحاث الفقهية والدراسات القانونية الواعية منهم عمران بن موسى المشذالى البجائى (٥) الذى هاجرها الى تلمسان وانتصب فيها للتدريس الى ان توفى سنة ٧٤٥ هـ ومنصور ابى على الزواوى المتوفى بعد سنة ٧٧٠ هـ (٦) وغير هؤلاء ممن كانوا بتلمسان او ببجاية وقد نبغ مترجمنا سعيد العقبانى فى تلمسان فى هذا العصر وكان فى طليعة اعلامه ممن يفتخر بهم عصره ، وتزدان بهم حاضرته تلمسان ، وقد حفزنى باعث التعريف به وبنشاطه العلمى على ان اخصه بهذه الترجمة وبدراسة مقتضبة حول بعض انتاجه العلمى .

ترجمته : سعيد بن محمد العقبانى التلمسانى ولد سنة ٧٢٠هـ وتوفى سنة ٨١١هـ (٧) والعقبانى نسبة لعقبان وهى قرية من قرى الاندلس التى يعود اليها اصله وقد هاجرت أسرته الى تلمسان واستقرت بها . يقول فيه معاصره يحيى بن خلدون : (٨) انه اول نجباء بيته وهو ذو نبل ونباهة ودراية وتفنن فى العلوم ومهارة فى الحساب والهندسة وأما صاحب الديباج فانه يذكر لنا شيوخه ومؤلفاته فيقول فيه انه أمام فاضل فقيه فى مذهب مالك متفنن فى العلوم .

شيوخه : اخذ عن ابنى الامام ابى زيد وابى موسى وتفقه عليهما واخذ الاصول عن الامام الابلى . ويذكر انه ولى القضاء ببجاية والعلماء يؤمئذ متوافرون كما ولى قضاء تلمسان وله فى القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة .

ويزيد صاحب نيل الابتهاج قائلا (٩) : ان اصله من الاندلس تجيبى النسب وهاجر الى


صفحة من رسالة العقباني في الموضوع

تلمسان ومن شيوخه الحافظ السطى الذى اخذ عنه الفرائض وكان يقال له رئيس العقلاء ونقل عن ابن صعد انه كان فقيها علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان .

تآليفه : ذكر مترجموه له جملة مؤلفات فى موضوعات مختلفة :

١) ففى الفقه له شرح جليل على ابن الحاجب الاصلى .

٢) وفى الفرائض له شرح على الحوفى لم يؤلف عليه مثله

٣) وفى التفسير له تفسير سورة الفتح او الفاتحة أتى فيه بفوائد وزاد عليه صاحب نيل الابتهاج تفسير سورة الانعام (١٠)

٤) وفى الكلام له العقيدة البرهانية فى اصول الديـــن

٥) وفى اللغة له شرح بردة البوصيرى فىمدح النبى ص

٦) وفى الرياضيات له شرح التلخيــص فى الجبر والمقابلة لابن البناء وشرح قصيدة ابـــن الياسمين فى الجبر والمقابلة ايضا .

٧) وفى المنطق له شرح جمل الخونجى .

تلاميذه : اخذ عنه طائفة من الاعلام كولــده قاسم العقبانى ، والامام ابى الفضل ابن الامام، والامام الحجة ابـــن مرزوق الحفيــد والـــولى العارف سيدى ابراهيم المصمودى والامــــام العارف ابى يحيى الشريــف والشيـــخ ابى العباس بن زاغو ، واخذ عنه بالاجازة الامـــام المحقق النظار محمد بن عقاب الجذامى .

قضاؤه : اشتهر الامام سعيـــد العقبانـــى بمهارته القضائية وبتفوقه فى المباحث القضائية وكان اول نجباء بيته كما يقول يحيى بن خلدون وقد شغل القضاء مدة تزيد على ٤٠ سنة كمـــا قدمنا . فتولى القضاء ببجاية ومراكش وســـلا ووهران وتلمسان وحمدت سيرته وكان فى عهد يحيى بن خلدون حوالى (٧٦٠ ــ ٧٨٠) يتولى قضاء الجماعة بتلمسان وامامة الجامع الاعظم فيها . وقد اكسبه القضاء ومهارته فىالرياضيات قوة على الجدل والمناظرات وصل فيـــها الى درجة الشريف التلمســـانى وكـــان كلاهمـــا يستشرف الى درجة الاجتهاد المذهبى .

ونريد ان نذكر هنا صورة عن مناظر طريفة وقعت بين المترجم وبين الامام احمـــد القبـــاب الفاسى (١١) وكان علامة جليلا وهى تعطينا صورة جلية عن النشاط الفقهى والتعمـــق فى مباحثه ومحاولة الاجتهاد فيما لا نص فيه للايمة السابقين وكان اعلام القانون فى هذه الفتـــرة يستشرفون الى الاجتهاد المذهبى ومناقشة آراء الفقهاء السابقين كما نجد ذلك عند المترجم وعند الشريف التلمسانى وابن عرفة بتونس وابن لب والشاطبى بالاندلس وغيرهم وهذه المناظـــــرة التى دارت بين هذين العلمين من اعلام المذهب المالكى بعد منتصف القرن الثامن الهجرى تبدو فيها محاولة الاجتهاد واضحة جلية، لان موضوع المساجلة لم يتعرض له الفقهاء قبل ذلك ولـــم تكن هناك احكام سابقة تتضمن البت فيها هذا ما دعا الفقيهين سعيد العقبانى واحمد القباب ان يجتهدا فى استنباط الحكم الشرعى المناسب وان يستعمل كلاهما مختلف الادلـــة النقليـــة والعقلية لابراز الحقيقة وافحام الخصم .

ومن الطريف ان نذكر ان موضوع هذه المناظرة يتصل بضرب من ضروب **التامـــين الاجتماعى** وصلت اليه بعض النقابات الحرفية فى هذا العهد الاسلامى كما ورد فى مسألة المناظرة ولا يبعد ان يكون هذا النمط شائعا فى جميع حواضـــر المغرب الاقصى والادنى وتونس ولعل فى هذا النموذج ما قد يطلعنا على تنظيم محكم للتجارة والصناعة التقليدية وينمى معلوماتنا عن النشاط التجارى وانظمته الاجتماعية الدقيقة فى عصر ما بعد الموحدين .

وقد كان الباعث على احداث هذا النوع من التامين الاجتماعى للتجار هو ما كان ينصـــب عليهم احيانا من ضرائب تفرضها الدولة عليهم فكان هذا التنظيم موسيلة لتخفيف هذه الضرائب وتحمل اعبائها اما المنتجون من الحاكة وغيرهم فقد كانوا كما تبدو لنا حالتهم الاقتصادية مـــن خلال المناظرة قليلى الارباح ، عديمى الثروة ، واثمان منتجاتهم كانت لا تزيد على لوازم نفقاتهم ومعاشهم بخلاف التجار فانهم كانوا احسن منهم حالا ، واكثر اموالا .

موضوع المناظرة : جاء فى الدرر المكنونة فى نوازل مازونة (١٢) : ان جماعة من التجار بمدينة سلا بالمغرب الاقصى اتفقوا على اخراج درهم عن كل بضاعة يشتريها واحد منهم لتوضع عند **امير التجار** ، وعند الحاجة اليها فى دفع الضرائب يستعان بها ، واشتكى الحاكة البائعون من ذلك واستفتوا سعيد العقبانى وكان قاضيا بسلا فأجابهم بالجواز ثم استفتوا الفقيه أحمد القباب بالرباط فأجابهم بالمنع ووقعت مناظرة كتابية بينهما وعقبتها مناظرات اخرى جمعها القاضى العقبانى فى كتاب دعاه (الباب اللباب فى مناظرة القباب) ووجهة نظر العقبانى تتلخص فى ان هؤلاء التجار قد اتفقوا فيما بينهم عن تراض على ان يجمعوا هذه الدراهم لوقت الحاجة وهى مملوكة لهم ملكية مشتركة فى صندوق اشبه ما يكون بصندوق تضامن لهؤلاء التجار فهى لذلك جائزة ومشروعة

اما القباب فانه راى فى هذا الاتفاق تواطؤا على الحاكة البائعين ولذلك افتى بأن الدراهم المجموعة هى ملك لاولئك البائعين لا للتجار .

ولاعطاء صورة واضحة عن هذه المناظرة الطويلة وبسط حجج الفقهيين معا بايجاز نوردها فى صورة حوار فيما يلى :

سعيد العقبانى : ان هذا الدرهم المخرج من ثمن السلعة المشتراة هل يستوجب نقصا لاثمان الحاكة أم لا وهل يتعلق للبائعين بذلك حق ؟ مع علمهم بما اقدم عليه التجار اثناء التعاقد ، وأن البائع منهم لا يبيع الا بعد أن يستوفى حقه من السلعة ، والمشترى اذا اشتدت رغبته فقد يشترى بأكثر من الثمن الذى يدفعه فى حال فتور رغبته ، وعلى العكس من ذلك اذا كان البائع أحرص على البيع فقد يتساهل فى الثمن ، فما الذى يشوب بيعا وقع مستوفيا شروطه وأركانه ولو كان ثمن البضاعة غاليا او رخيصا ؟

على اننا نفرض ان المشترى لو تقاعس عن الزيادة فى السلعة لزهده فيها فان شراءه من البائع المضطر يكون صحيحا لانتفاء عيوبه المبطلة ؟ (١٣)

وايضا فان فقه المسألة يظهر فى ان البائعين لا حق لهم فى ذلك الدرهم المخرج ولا فى منع التجار المشترين من توظيفه على انفسهم لان البيع وقع صريحا بثمن مسمى وعليه سلم البائع منهم بضاعته ورضى بذلك فلا حجة له بعد ذلك !

القباب : لا يجوز للتجار ان يتواطؤوا على ان لا يزيدوا على ثمن معين لان فى ذلك ضررا لهؤلاء الحاكة ؟ وكل اضرار بالمسلم حرام . وقد قال الاما ممالك : لا **ينبغى للنفر** ان يجتمعوا فيقولوا لا نزيد فى الثمن على كذا .

العقبانى : انه لا دليل على ان التجار تواطؤوا على أن لا يزيدوا فى السلع وذلك غير مسلم وانما اتفقوا على اخراج درهم من كل سلعة يشتريها أحدهم (١٤)

القباب : لا يمكن التسليم بعدم التواطؤ بل ان كل تاجر يضع حسابا للدرهم المدفوع عند شرائه فيحاول أن ينقصه من ثمن السلعة وفى هذه مضرة واضحة للبائع (١٥) .

العقبانى : اذا سلمنا بمضرة البائعين فليتواطأ هؤلاء البائعون ايضا ليدفعوا هذا النقص عن انفسهم على أن لا يبيعوا الا بزيادة هذا الدرهم ما دام المشترون قد اتفقوا وكل من الطرفين حر مختار فى تعاقده واتفاقه .

القباب : لو سالنا أهل المعرفة فى هذه المسألة لقالوا أن التحامل يقع على الباعة دون التجار .

العقبانى : لا نسلم ذلك فقد نجد التاجر الشديد الحرص من هؤلاء قد يتحامل على نفسه فى شراء سلعة ويقدم على شرائها بثمن غال باهض فأين التحامل فى هذا ؟

القباب : ان التجار يعملون دائما على الحطيطة من ثمن البضائع المشتراة .

العقبانى : لاشك ان البائعين من الحاكة قد يعرضون سلعة بالسوق ويساومها غير التجار من المستهلكين ثم يتدخل التجار ويتزايدون فيها حتى يأخذوها بأكثر مما دفعه المشترى العادى فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك من أن التاجر قد اخذها بأقل من ثمنها وانه لجأ الى الحطيطة .

ولنا صورة توضح لنا هذا الايراد وهى أن رب السلعة لو باع سلعته بـ ١٠ دراهم لمن لا وظيف عليه ولم يلتزم باخراج الدرهم من كل سلعة يشتريها ، ثم ان وكيلا له باع نظيرها بـ ٢٠ درهما من احد هؤلاء التجار الملتزمين لهذا الوظيف فهل فى امكان المعترض ان يقول ان الواجب على التاجر أن يزيد درهما على ٢٠ درهما آخر مما يقدمه الى صندوق التضامن فان قال نعم فقد طلب ما لا يقبله عقل لان التاجر زاد على المشترى العادى نصف الثمن وان قال بأنه لا يزيد فقد نقض حجته من أساسها (١٦) .

القباب : ما قول المعترض فيما قاله مالك كما جاء فى كتاب ابن المواز لا بأس ان يقول الرجل للرجل كف عنى لا تزد على فى هذه السلعة ، وأما العامة اهل السوق فلا يجوز لهم ان يتفقوا جميعا على ذلك ، وفى عمل التجار ما يشبه هذا !

العقبانى : لا أسلم ان التجار يمتنعون من الزيادة والواقع انهم رغم التزامهم باخراج هذا الدرهم يتزايدون فيما بينهم واذن فأين الامتناع من الزيادة المزعومة ؟

اما مسألة الموازية فانما تشمل تمالؤ أهل السوق على ترك الزيادة ومسألة النزاع يوجد فيها هذا النوع من الاتفاق .

القباب : ان البائعين مضطرون للبيع وتواطؤ التجار ثابت فكيف نبيح لهم ذلك ؟

العقبانى : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ ! فان لم يكلفوا بشرائها وهذا ما تتطلبه عقود البيع والمعاملات ، فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما أوجب الله على الاغنياء أن يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها والبيع من شروطه الطوع والاختيار ، على اننا مع هذا نقول بانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان معطلا لامر البياعات لانها من لوازم الحياة الاجتماعية .

القباب : ان البائعين ضعفاء مضطرون للبيع بأى ثمن وجدوا والمشترين له مفضول أموال الا ما يوافق اغراضهم وبالاثمان التى يستيقنون منها جلب الارباح ، ومن بواعث المواساة التى دعا اليها الاسلام أن لا يجحفوا بحقوقهم فى البيع .

العقبانى : ان أمر المواساة شىء والبياعات شىء آخر الا ترى أن المسافرين قد يبيعون فى حالة الحاجة بأثمان رخيصة وتمضى عقودهم عند جميع الفقهاء ولا يقول واحد منهم ان المشترين قد ظلموهم وايضا لو تصورنا أن البائعين قد اتفقوا على اخراج درهم عن كل سلعة يبيعونها لتوظيفهم أفلا يكون المشترون ملزمين بشرائها بهذا الثمن الذى يريده

البائعون ؟ وهل يسلم المعترض فى هذه الصورة بأن الدرهم المخرج هو ملك المبتاع أم انه يزعم بأنه ملك للبائع ، فان قال لاحق للمبتاع فيه فقد نقض حجته فى مسالة النزاع وان قال انه حقه فقد وافقنا فى وجهة نظرنا وهذا هو المطلوب : واخيرا يختم العقبانى مناظرته قائلا بأن العلامة القباب قد اذعن لحجته ، وسكت عن اثارة اعتراضات اخرى حول فتياه ، وقد حاول العقبانى ان يعطينا حلا لهذه المشكلة التى استعصت علي الانظار الفقهية ان تجد لها حكما قاطعا فقال : ان سر هذه المسالة ان ما يفعله التجار من مثل هذا الاتفاق ان كان غرضهم منه هو الاضرار بالحاكة البائعين فانهم يمنعون منه عملا بالمبدأ العام لا ضرر ولا ضرار ، وان كان غرضهم نفع أنفسهم والضرر انما جاء تبعا غير مقصود فلا معنى لمنعهم منه .

تعليق : واذا تتبعنا هذه المناظرة بتأن وامعان استشففنا منها النشاط الذهنى لفقهاء القرن الثامن والتحرر الفكرى الذى كانوا يمتازون به فى خوض مباحث جديدة لم يطرقها من سبقهم من الفقهاء ، ومحاولة الاجتهاد فى ايجاد سند قانونى لاباحتها او حظرها وهذا ما تقدمه الينا هذه المناظرة الطويلة التى لخصناها فىالصفحات الماضية وهى تظهر لنا كلا الفقيهين المتناظرين واسعى الاطلاع ، معتمدين على اعمال العقل غير اننا نجد العقبانى طويل الباع فى جدله ، واسع التصرف فى ايراد مختلف الحجج لتبرير وجهة نظره القانونية المحضة ونجد القباب من جهة اخرى يحاول ان يدخل العنصر الانسانى فى التعاقد حتى لا يقع اجحاف على المتعاقدين وهو لا يكتفى بصورة العقد الشكلية وانما ينظر الى الغاية والنتيجة هل تسلم من نتائج الاستغلال التى يحاربها الاسلام .

ويبدو لنا ان القباب كان يتصور بأن كل اتفاق يصدر من جماعة ما تتعامل مع جماعة اخرى قد يشوبه التواطؤ وتشمله الحرمة بالتالى ، ولكن العقبانى قد اوضح لنا بأن كل اتفاق لم يكن ضد الاخرين وانما كان لمصلحة المتفقين فهو جائز رغم ما قد يلحق أولئك من بعض الضرر غير المتعمد.

والعقبانى نجده فى هذه النتيجة يقترب من نظرية التعسف فى استعمال الحق وهى موجودة فى الفقه الاسلامى ولكنها لم تنسق مباحثها كما فعله كتاب القانون فى العصر الحديث وهذه النظرية تنقسم الى معيار شخصى ومعيار مادى (١٧) والمعيار الاول يرى اصحابه أن التعسف لا يوجد الا اذا توافر قصد الاضرار بالغير لدى صاحب الحق ، والمعيار المادى واصحابه يرون انه يتجلى فى الخروج عن الهدف الاجتماعى ، وقد استند العقبانى — كما راينا فى اتفاق التجار الى انهم لم يريدوا الاضرار بالحاكة وانما ارادوا نفع انفسهم وتخفيف وطأة الضرائب عنهم .

ولو ذهبنا الى البحث عن صور الغبن فىهذا التعاقد لوجدنا ان هذا النوع من الغبن الذى ينصب على الباعة المنتجين ليس فيه غبن بمعناه الفقهى المعروف لان الغبن هو عبارة عن تفاوت كبير بين التزامات أحد العاقدين والتزامات العاقد الاخر ناشىء عن استغلال هذا العاقد الاخر طيشا بينا وهوى جامحا لدى العاقد ، وحد الغبن لا يكون الا اذا بلغ الخمس (١٨) وهو ما لم يصل اليه الغبن الواقع فى قضية النزاع السابقة ، كما أن الاستغلال لا يوجد له اثر فى هذا التعاقد .

واذا جارينا بعض الفقهاء حول موضوع الغبن فانهم يقولون : ان الغبن الفاحش وحده فى العقود لا يعيب الرضا ما لم يصاحبه شىء من الخلابة وعلى هذا استقرت معظم الاجتهادات ذلك لان الغبن المجرد عن كل خديعة لا يدل الا على تقصير العاقد المغبون فى تحرى الاسعار ومعرفة حد البدل العادل ، ولا يدل على مكر

من العاقد الاخر ، ولكل انسان ان يطلب المزيد من المنفعة بالطريق الحر المشروع دون غش واحتيال (١٩) .

ولكن على شرط ان لا يضر ذلك بالجماعة كما فى الاحتكار ، وقد انتبه العقبانى الى ان التجار لو تواطؤوا على ان يشتروا تلك السلعة المعينة لحكم على أتفاقهم بالحرمة ، ولكن انفاقهم انما انصب على اخراج نسبة مالية معينة كلما اشتريت وحدة سلعية لتوضع فى صندوق تعاونى احتياطى دفعا لمضرة متوقعة لهم لا ارادة الاضرار بالباعة رغم ما قد تنتج عنه مضرة تبعية غير مقصودة للباعة . وقد اهتدى القباب اخيرا الى ان جميع الاعتراضات التى اوردها على فتيا العقبانى لم تجد لها سندا قانونيا يدعمها ولذلك عدل عن متابعة الاعتراض كما اشار الى ذلك العقبانى فى آخر مناظرته .

على اننا رغم تقديرنا للعلاقة العقبانى فاننا نجد فى بعض حججه الطابع الجدلى الذى يستهدف افحام الخصم ، لا اظهار الحقيقة كما فى قوله : ليت شعرى لو قال التجار اننا لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة بقليل ولا بكثير ولو ماتوا جوعا فهل كان يحل لاحد ان يلزمهم شراء تلك السلع ؟ فان لم يكلفوا بشرائها — وهذا ما تقتضيه عقود البيع الرضائية فكيف يلزمون بثمن معين ؟ وانما اوجب الله على الاغنياء ان يواسوا الضعفاء واما شراء سلعهم فلا يعرف ايجاب شرائها ؟ وفى هذه الحجة طابع جدلى والا فكيف يتأتى لهؤلاء التجار ان يتفقوا على عدم الشراء وفى هذا اضرار صريح بالباعة ؟ وايضا يقول ان المواساة لهؤلاء الباعة لا تكون بطريق الشراء ؟ ولماذا لا تكون المواساة فى تعاقد يعتمد على التعويض والحديث « بع سمحا واشتر سمحا » يشير الى هذا النوع من المواساة ، وقد تكون المواساة مع منتج ضعيف ليست لديه قدرة على التسويق افضل من اللجوء الى مواساته عن طريق الصدقة والاحسان .

وايضا فقوله لا نشترى سلع هؤلاء الحاكة ولو ماتوا جوعا — هو التزام حرفى لشكلية عقود البيع واغفال للعامل الانسانى الذى يستهدف التعامل فى الشريعة الاسلامية مما قد تدعو الضرورة — تحت تاثيره الى اغفال حكم ما عن التنفيذ كاغفال حكم السرقة فى عام المجاعة وكتضمين دية من وجد ميتا جوعا فى عرصة قوم الذى اخذ به الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وكان سعيد العقبانى قد شعر بضعف ايراداته السابقة فاستدرك ان ذلك الافتراض لا يقع لانه لو تمالأ اهل الوجود من بائعين ومتبايعين على ترك التعامل لما كان ذلك معطلا لامر البياعات لانها من ضرورات الحياة ، واخيرا نلاحظ ان هذه الخصوبة الفكرية فى الابحاث الفقهية التى لمسنا لمحات منها عند العقبانى والقباب ونلمس نظائرها لدى معاصريهم من الفقهاء كالشريف التلمسانى وابن مرزوق الخطيب وعمران البجائى والمشذالى والشاطبى وابن عرفة وعند من خلفهم من علماء القرن التاسع الهجرى قد تراجعت فى القرن العاشر وما بعده حتى صار الامثال من الفقهاء فيه هو من يحفظ النصوص من المختصرات لا غير ، واما الغوص عند دراسة الاحكام فى امهات الكتب والرجوع الى اقوال الامام مالك بدون واسطة ومحاولة الاستنباط من القرآن والسنة واعمال الفكر كما فعله العقبانى ومعاصروه فلم يكن يفكر فيه احد .

وقد تبدو الان حاجة طلاب الفقه والقانون شديدة لربط دراستهم الفقهية الحديثة بدراسات اعلام الفقه فى القديم كما قد يجدون لديهم ابحاثا طريفة وعميقة قد لا تقل او تفوق عن بعض ابحاث فقهاء العصر الحديث .

هوامش :

(١) احمد بابا السوداني التنبكتي : نيل الابتهاج . مصر ١٣٥١ هـ — ص ١٦٦
ابن مخلوف : شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢٠ —
المقري احمد : نفح الطيب ج ٧ ص ٤٤٤
يحيى بن خلدون : بغية الرواد ج ١ ص ٧١ — ابن مريم البستان ص ١٢٢
البستاني فؤاد افرام : دائرة المعارف بيروت ١٩٥٨ م — مج ٢ ص ٣٤٩
الحفناوي : تعريف الخلف برجال السلف الجزائر ١٩٠٦ م ج ١ ص ٢٠١ — ٢١٣

(٢) نيل الابتهاج ص ٢٤٥ — شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٢١ — ابن خلدون عبد الرحمن : التعريف تحقيق ابن تاويت ص ٣٣ — نفح الطيب ج ٧ ص ١٦٧ — جذوة الاقتباس لابن القاضي ج ٢ ص ٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٧

(٣) نيل الابتهاج ص ٢٥٥ — البستان ص ١٦٤ — ١٨٤ والتعريف لابن خلدون — تحقيق ابن تاويت القاهرة ص ٦٢ — وبغية الرواد ج ١ ص ٥٧

(٤) السيوطي : بغية الوعاة مصر ١٣٢٦ هـ ص ١٨ — ابن فرحون الديباج المذهب مصر ١٣٥١ هـ ص ٣٠٥ — نيل الابتهاج على هامش الديباج ص ٢٦٧ — نفح الطيب ج ٣ ص ٣١١— ٣١٩ — البستان ص ٣٠٥ — ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٣ ص ٣٦٠ — ٣٦١ — كحالة عمر رضا : معجم المؤلفين ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧ . (٥) نيل الابتهاج ص ٢١٥ — ٢١٧ — بغية الرواد ج ١ ص ٧٢ — نفح نفح الطيب ج ٧ ص ١٤٨

(٦) نيل الابتهاج ص ٣٤٥ — ج ١ ص ٧٤ — ابن خلدون شجرة النور الزكية ج ٢ ص ٢٣٤

(٧) ابن مريم — البستان ص ١٠٦ — الديباج المذهب ص ١٢٤ — نيل الابتهاج ص ١٢٥ — بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — معجم المؤلفين لكحالة ج ٤ ص ٢٣٠

(٨) بغية الرواد ج ١ ص ٦٠ — (٩) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١٠) نيل الابتهاج ص ١٢٥

(١١) احمد القباب كان فقيها حافظا علامة تولى قضاء جبل الفتح ودخل غرناطة سنة ٧٦٢ هـ ومن تآليفه اختصار أحكام النظر لابن القطان اسقط فيه الدلائل والاحتجاج وشرحه على القواعد في غاية الاتقان وله مباحث مشهورة مع الامام الشاطبي في مسألة مراعاة الخلاف في المذهب احسن فيه غاية ، ويذكر عنه انه لما حج واجتمع في تونس بابن عرفة واوقفه ابن عرفة على ما كتب من مختصره الفقهي فقال له صاحب الترجمة ما صنعت شيئا فقال له ابن عرفة : ولم ؟ فقال لانه لا يفهمه المبتدىء ولا يحتاج اليه المنتهي ، متغير وجه الشيخ ابن عرفة والقى عليه اسئلة اجابه عنها ، وهذا ما حمل ابن عرفة على بسط العبارة في اواخر مختصره .

واشار صاحب نيل الابتهاج الى هذه المناظرة التي وقعت بينه وبين العقباني وهناك مناظرات اخرى وقعت بينهما وقد جمعها العقباني في كتاب سماه بباب اللباب في مناظرة القباب (راجع نيل الابتهاج ص ٧٣)

(١٢) المازوني : الدرر المكنونة في نوازل مازونة مخطوط المكتبة الوطنية .
نسخ محمد بن الصديق المشرفي ١٢٤٥ هـ ج ١ الورقات ٤٧٣ — ٤٩٠

(١٣) الدرر المكنونة الورقة ٤٧٤

(١٤) المصدر السابق الورقة ٤٨٧

(١٥) المصدر السابق الورقة ٤٧٩

(١٦) المصدر السابق الورقة ٤٨٢

(١٧) هشام القاسم : المدخل الى علم الحقوق ، دمشق ١٩٦٥ ص ٢٧١

(١٨) هشام القاسم : محاضرات في القانون المدني : دمشق المطبعة الجديدة ١٩٦٨ م ١٩٦٩ م ص ١٤١

(١٩) مصطفى احمد الزرقاء : المدخل الفقهي العام بيروت . دار الفكر ١٩٥٢ م ج ١ ص ٤١٧

(٢٠) الدرر المكنونة في نوازل مازونة المصدر السابق ج ١ الورقة ٤٨٢



الصّدق والكذب في الأدب

تعرض القدماء لهذه المشكلة فانقسموا الى ثلاث فرق احداهما تستحسن الكذب او الغلو والاغراق والثانية ترده وتميل الى الحقائق والثالثة تتوسط بينهما فتقبل الافراط بشرط .

د : رشيد مصطفاى

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

من الفريق الاول قدامة بن جعفر الذى يقول فى نقد الشعر : « وهو انى رايت الناس مختلفين فى مذهبين من مذاهب الشعر وهما الغلو فى المعنى اذا شرع فيه والاقتصار على الحد الاوسط فيما يقال منه . »

ثم يقول بعد ذلك : « ان الغلو عندى اجود المذهبين وهو ما ذهب اليه اهل الفهم بالشعر والشعراء قديما وقد بلغنى عن بعضهم انه قال : أحسن الشعر اكذبه وكذا يرى فلاسفة اليونانيين فى الشعر على مذهب لغتهم ومن انكر على مهلهل والنمر وابى نواس قولهم المقدم ذكره فهو مخطىء لانهم وغيرهم ممن ذهب الى الغلو انما ارادوا به المبالغة وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم **فانما يريد به المثل وبلوغ النهاية فى النعت** وهذا أحسن من المذهب الآخر » .

لا شك ان قدامة وامثاله ممن يستحسنون الغلو نظروا فى شعر المحدثين فوجدوه كله يذهب مذهب الاغراق فى المعانى يقول الجرجانى صاحب الوساطة وهو من الفريق الذى يرفض الافراط ما يلى : « فأما الافراط فمذهب عام فى المحدثين وموجود كثير فى الاوائل والناس فيه مختلفون فمستحسن قابل ومستقبح راد وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء فاذا تجاوزها اتسعت له الغاية وأدته

الحال الى الاحالة وانما الاحالة نتيجة الافـــراط وشعبه من الاغراق والباب واحد ولكن له درج ومراتب . » ولذلك يذكر قول ابى نواس :

واخفت اهـــل الشرك حتى انـــه

لتخافك النطف التى لـــــم تخلق

ويراه « من المحال الفاسد وله باب غير هذا وكل هذا عند اهل العلم معيب مردود ومنفى مرذول وان كان اهل الاغراب واصحاب البديـــع مـــن المحدثين قد لهجوا به واستحسنوه وتنافسوا فيه وبارى بعضهم بعضا به ولسنا نذهب بما نذكره فى هذا الباب مذهب الاحتجاج والتحسين »

ويرد المعرى فى لزوميته هذا المذهب قائـــلا : « كان من سوالف الاقضية انى انشات ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكـــذب والميط » ويقول بعد ذلك : « فان جاوزت المشترط الى سواه فان الذى جاوزت اليه قول عرى من المين » .

اما الخفاجى صاحب سر الفصاحة فيتخذ موقفا وسطا فيقول بعد ما ذكر اختلاف الناس فى مذهب الغلو والافراط : « والذى اذهب اليه المذهب الاول فى حمد المبالغة والغلو لان الشعر مبنى على الجواز والتسمح لكن ارى ان يستعمل فى ذلك **كاد** وما جرى فى معناها ليكون الكلام اقرب الى حيز الصحة كما قال ابو عبادة :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كـــاد ان يتكلما

ويذهب ابن رشيق فى العمده مذهبه فيقول : « واحسن الاغراق ما نطق فيه الشاعر او المتكلم **بكاد** او ما شاكلها نحو كان ولو ولولا وما اشبه ذلك مما لم يناسب ابيات ابى الطيـــب المتقـــدم ذكرها فى البشاعة الا ترى ما اعجب قول زهير :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم باحسابهم او مجـــدهم قعدوا

فبلغ ما اراد من الافراط وبنى كلامه عـــلى صحـــة . »

ويلخص المرزوقى هذه المذاهب الثلاثة بقوله : « فمنهم من قال « احسن الشعر اصدقه » قال لان تجويد قائله فيه مع كونه فى اسار الصدق يـــدل على الاقتدار والحذق ومنهم من اختار الغلو حتى قيل « احسن الشعر اكذبه « لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف امتد فيمـــا يأتيه الى اعلى الرتبة وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الصناعة واتسعت مخارجه وموالجه فتصرف فى الوصف كيف شاء لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل لا المصادقة والتحقيق وعـــلى هذا اكثر العلماء بالشعر والقائلين له وبعضهم قال : « احسن الشعر اقصده » لان على الشاعر ان يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقـــط فمـــا استوفى اقسام البراعة والتجويد او جلها من غير غلو فى القول ولا احالة فى المعنى ولم يخـــــرج الموصوف الى ان لا يؤمن لشىء من اوصافه لظهور

السرف فى آياته وشمول التزيد لاقـــواله كان بالايثار والانتخاب اولى »

نلاحظ ان المحدثين لما اختاروا الغلو والاغراق انما كانوا ينحون نحوا مثاليا فى وصفهم معرضين عن الوصف الواقعى الموضوعى الذى يحملهم على بناء شعرهم على الصـــدق ولا سيمـــا فى مدحهم للملوك وقد تعرضنا له فى محله من هذه الدراسة ورأينا اتفاق النقاد على استحسان الغلو والاغراق فى وصف الملوك .

ولذلك قال قدامة بن جعفر : « وكل فريق اذا اتى من المبالغة والغلو بما يخرج عن الموجـــود ويدخل فى باب المعدوم **فانما يريد به المثل وبلوغ النهـــاية** فى النعت وهـــذا احســـن من المذهب الآخر . »

ويرى رأيه المرزوقى فيقول : « ... حتى قيل احسن الشعر اكذبه لان قائله اذا اسقط عن نفسه تقابل الوصف والموصوف **امتد فيما يأتيه الى اعلى الرتبة** وظهرت قوته فى الصياغة وتمهره فى الوصف كيف شاء **لان العمل عنده على المبالغة والتمثيل** . » ويوافقهما على ذلك ابن رشيق فيقول ناسبـــا قوله الى الحاتمى الذى يكون قد نقل ما يلى عن قدامة بن جعفر : « وقالوا : اذا اتى الشاعـــر من الغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل فى باب المعدوم فانما يريد به المثل وبلـــوغ الغـــاية فى النعت . »

تأخذ هذه المثالية عند البحترى شكلا خاصا اذ تحتوى عنده على حقائق ثابتة شبيهة بحقائـــق افلاطون او مثله العليا وعلى هذا تكون موصوفاته مظاهر تلمح الى هذه الحقائق وهكذا قوله بهـــا واعتقاده لها يحملان كلامه على الصدق كما حمل كذبه » اذ صار ما يراه غيره غلوا واغراقا حقيقة هى فى نظره ، احق من الحقيقة الواقعية لان الاولى جوهر والثانية عرض والاعراض متغيرة زائلـــة فوظيفتها عند الرمزيين والمثاليين ان تشير الـــى الحقائق الجوهرية الخالدة .

ثم يرى ان النفوذ الى هذه الحقائق المثلـــى لا يكون عن طريق التعقل والمنطق لانها لم تكن طريق امرىء القيس اليها وانما تكون عن سبيل الطبع او الوجدان والتلقى .

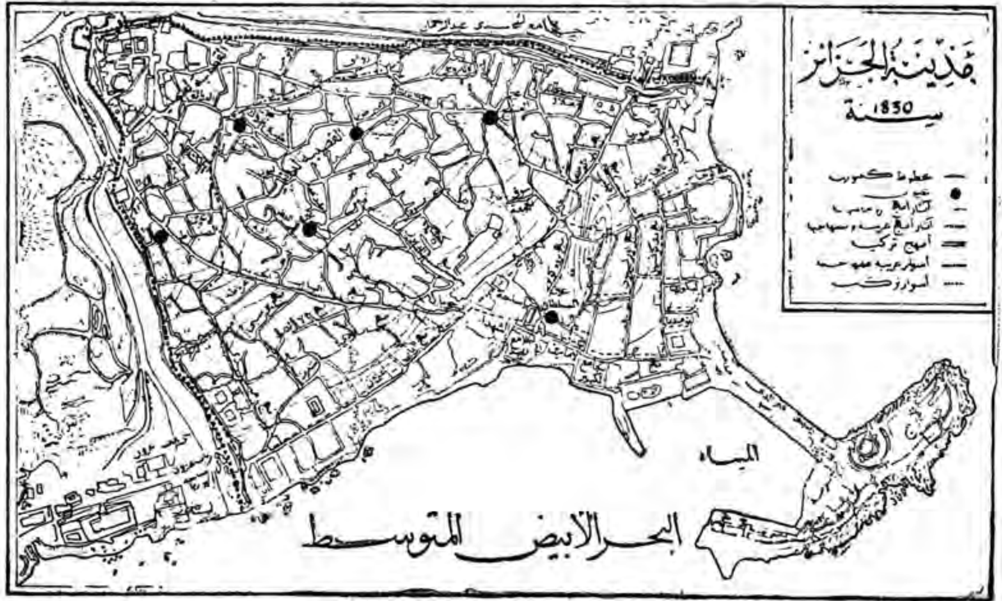
أثر التضاريس في

تخطيط مدينة الجزائر

عبدالقادر حليمي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ان الموضع الذى بنيت عليه مدينة الجــزائر القديمة قبل الاحتلال الفرنسى ينقسم علـــى اساس التضاريس الى منبسط ضيق على نحر البحر ، والى ربوة يزيد ارتفاعها عن المائــــة متر تشرف على البحر . أما المنبســط فهــو الموضوع الاول الذى خطط فيه الفينقيون الاولون المدينة العتيقة او ايكوسيم التى اندثرت وعفـا رسمها الى الأبد . وربما كانت تمتد ايكوسيم الفينيقية حتى الجزر القديمة،ولا ندرى عن انهجها وتخطيطاتها الا الشىء القليل الذى يزداد غموضا كلما تعمقنا فى التاريخ . اما الربوة فهى التــى



بنى فوقها الاتراك ومن قبلهم العرب حي القصبة.
وتتالف الربوة من تكوينات الشيست اللاماع كانت تنحدر منها مسيلات وجداويل وشعاب عديدة نحو شارع باب عزون ـ باب الوادي او المنبسط، اهمها شعبة تنطلق من قمة ربوة القصبة وتمر بالقرب من نهج ميدى Medée لتخرج فى باب عزون وبذلك تمثل هذه الشعبة الحد الطبيعى الغربى والجنوبى للمدينة ، ثم شعبة تنطلق من قمة القصبة ايضا لكنها تنحرف الى الشمال لتمر بالقرب من نهج القصبة لتخرج فى باب الواد وبذلك تمثل الحد الطبيعى الشمالى للمدينة .
والشعبتان المذكورتان اعطتا لمدينة للجزائر القديمة شكل المثلث المتساوى الاضلاع ، قاعدته تسير وخط الشاطىء ، وقمته تنطبق على قمة القصبة ، او تنطبق على النقطة التى كانت تنطق منها الشعبتان .

وكانت مياه الامطار تتبع فى جريانها تلك الشعاب وكذلك المسيلات على أن نسبة من الامطار كانت تتسرب خلال الشقوق والفوالق لصخور الشست على الربوة قبل وصولها الى البحر فتتحول بذلك الى مجارى باطنية والى عروق مائية باطنية لا تلبث ان تظهر من جديد فى شكل عيون عند مجارى البطون الدنيا للشعاب ، او عند ساحة الشهداء بالخصوص ، مثل عين السلطان قرب الجامع الكبير وعين العطش ، وعين السباط فى منخفض نهج البحر الاحمر ، وعين الشيخ حسين فى منخفض نهج الزرافة ، والعين الجديدة فى منخفض نهج ريقار ، وعين العلج فى نهج حيدرة . وهى عيون قد استفاد منها السكان القدماء من اهالى وفينيقيين قبل نشأة السواقى .
وقد مرت مدينة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى بانواع مختلفة من التخطيطات منها التخطيط

الشطرنجي الذى يرجع الى العهد الرومانى ، ويتميز بشوارعه وانهجه المستقيمة والمتبعة فى اتجاهاتها لخطوط التسوية مثل شارع الكاردو، وشارع الديكيمانوس . ويظهر ان الشارع الاول او الشارع الرئيسى (كاردو) كان ينطبق فى امتداده من الشمال الى الجنوب على شارع باب عزون . اما الشارع الثانى (ديكيمانوس) فكان يمتد من الشرق الى الغرب وينطبق تماما على نهج لامارين الحالى . وتتصل بالشارع الاول والشارع الثانى انهج مستقيمة فى كل الاتجاهات تنتهى عند الاسوار .

ولقد سن الرومان لهذه الانهج والشوارع قوانين صارمة منها معاقبة الذين يرمون الاوساخ بها ، وكلفوا موظفين لاصلاحها وترميمها ومنع السكان من نشر الملابس فوق الشبابيك المقابلة لها .

والتخطيط الثانى هو التخطيط الاختباطى الذى حدث للمدينة فيما بعد العهد الرومانى فوق الربوة الى الاعلى من خط كنتور باب عزون ــ باب الوادى ، فيه تسلقت المبانى وتدخلت الانحدارات فى امتداد الانهج وتصنيف المنازل ، واتبعت الانهج فى امتدادها بطون الشعاب مرة ، والاذرع مرة اخرى ، ذلك ان هذا التخطيط الاختباطى لم يكن خاضعا لبرنامج معين او لتسطير مسبق ، بل ان العشوائية والحاجات الفردية كانت لها اليد العليا فى بناء المنازل ومد الانهج ، دون مراعاة للمستقبل وما يفرضه النمو العمرانى ، لذلك ساد التشابه فى التخطيط لهذه الفترة بين القرى الجبلية فى جبال الأطلس وبين حى القصبة فى مدينة الجزائر اى ان التخطيط كان قرويا بريا او جبليا معقدا اكثر منه مدنيا وحضاريا منظما . فالانهج اتبعت فى سيرها ، للمرحلة الاولى ، لما بعد العهد الرومانى ، خطوط ، الارداف اولا اى اصبحت تتقاطع وخطوط الكنتور بدلا من سيرها مع خطوط الكنتور . وفى المرحلة الثانية او فى العهد التركى عندما اشتد نمو السكان وعاقت الاسوار اتساع وانتشار المبانى التى زحزحت الانهج من الارداف الى بطون المسيلات واصبحت اسرة المسيلات والشعاب تصرف مياه الامطار الى جانب فضلات المنازل ، فهى قنوات طبيعية مزدوجة الصرف ، ثم خزنت قنوات لصرف اوساخ المنازل لتنتهى دائما فى الشعبات . ولما زاد عدد سكان المدينة ظهرت مشكلة السكن ، فرفعت لذلك المنازل حتى فى بطون الشعاب والمسيلات ، وعندئذ اضطر السكان على اطالة وتمديد قنوات الاوساخ المخزونة ، وانشاء مجارى باطنية للفظلات تسير والانحدار العام للمنطقة وتتبع فى اتجاهاتها انحناءات الشعاب لتصب فى البحر ، وكذلك الانهج اخذت تلتوى بالتواء الشعاب وهذا ما يفسر لنا كثرة الدروب والانهج الملتوية لمدينة الجزائر فى العهد التركى ، وحى القصبة فى الوقت الحالى ، وكذلك حى باب الجزيرة قبل الحرب العالمية الثانية ، وهى حرب خربت هذا الحى ثم اعيد بناؤه من جديد لكن على الطراز الحديث من شوار مستقيمة وواسعة ولم يبق من حى باب الجزيرة القديم فى الوقت الحالى الا خرقة صغيرة محصورة ومنعزلة على الشاطىء . ويلاحظ على دروب القصبة ان الكثير منها واقع فوق قنوات قديمة لصرف الاوساخ وانها كانت مرصوفة بالحجارة الجيرية الزرقاء حتى مطلع الاحتلال الفرنسى ثم اعيد ترصيفها بالحجارة وبناء الادراج بها ، فيما بعد ١٨٣٤،وهى الادراج التى تكثر فى دروب القصبة فى الوقت الحالى حتى يمكن ان نطلق عليها حى الادراج والسلاليم .

وعلى اساس التخطيطات المختلفة التى مرت بها مدينة الجزائر من العهد الفينيقى الى سنة ١٨٣٠ يمكن تحديد اتساعها فى العصور المختلفة. ومن المسلم به ان المدينة اعيد ترميمها وتجديدها

وتوسيعها عدة مرات . فاعاد العرب بناءها اولا فى الموضع الذى اختاره لها الفينيقيون والرومان من قبلهم لاسباب : منها ان الموضع توجد به شوارع وانهج قديمة لا تحتاج الى تخطيط جديد بل يكفى استصلاحها وترميمها لتؤدى وظيفتها على اكمل وجه ، ثم ان الموضع تتوفر به مواد البناء من حجارة كانت لاسوار ومنازل رومانية ، فاستعملها العرب فى بناء منازلهم ورفع أسوار المدينة من جديد . ومنها أن الموضع جيد للتجارة وقريب من البحر وهو النقطة الاولى للمواصلات بين البر والبحر ، تتوفر به مياه الشرب ، والخضر من بساتين وحدائق القصبة . ولقد ادى ازدهار تجارة جزائر بنى مزغنة الى زيادة عدد سكانها وحينئذ اخذ الشعور يزداد نحو توسيعها ، وكانت الاسوار العتيقة المحيطة بها تحول دون ذلك فاتجه السكان أولا ، نحو اعلى الربوة الواقعة الى الجنوب الغربى من خط كنتور شارع باب عزون — باب الوادى — واخذت المبانى والديار تحل محل الحدائق والبساتين ، ويظهر أن أول موضع اتجه نحو العمران فى العهد الاسلامى الاول هو الموضع الذى يوجد به جامع سيدى رمضان ، حيث توجد به عين السباط وتقل به الانحدارات وهو موضع ملائم تماما لامتداد العمران ويساعد عليه .

وفى اواخر القرن الخامس عشر للميلاد زادت هجرة الاندلسيين من اسبانيا نحو جزائر بنى مزغنة وبذلك زادت ضرورة التوسع العمرانى مرة اخرى وزادت حاجة الحضر الى المساكن . واختار الاندلسيون المواضع العالية من القصبة التى يظهر منها البحر جيدا . وبذلك اشتد ازدحام المبانى فوق الارداف ومتون الروابى وبطون المسيلات،ورفعت المنازل فوق السفوح وفى مواضع الحدائق . ولا شك ان منازل متون الروابى ظلت تحتل الميزة المطلوبة ، والقيمة المرتفعة لدى السكان نظرا لموقعها المشمس والجميل ، اذ من شبابيكها المطلة على البحر يمكن الاشراف على مساحة واسعة من البحر والبر ورؤية القادمين من بعيد .

وبعد سنة ١٥١٦ بدات الجزائر تستقبل افواجا من المهاجرين زيادة عن افواج الاندلسيين اذ جاءها هذه المرة عروج ومعه عدد من الاتراك وعدد آخر من سكان شرق الجزائر الذين آزروه وناصروه فى شرق البلاد ومنهم سكان قبيلة تكسانا Texana من جيجل الذين اوكل اليهم الاتراك تموين الانكشارية طيلة العهد التركى بالجزائر أما الاندلسيون فقد بلغ عدد منازلهم سنة ١٦٠٩ حوالى ٣٠٠ منزل . ونتج عن هذه الهجرات الضغط السكانى مرة اخرى على المبانى الواقعة داخل أسوار المدينة ، وهى اسور كانت ضرورية لحماية المدينة من حقد العدو المسيحى الذى هاجت عصبيته فى هذه الفترة بالذات . وحينئذ تعارضت مصلحة الحماية ومصلحة التوسع لمدينة الجزائر التى انتقل عدد سكانها من ٢٠ الف نسمة سنة ١٤٥٠ الى ٣٠ الف نسمه سنة ١٥١٨ ثم ٦٠ الف سنة ١٥٨٠ ثم ١٠٠ الف سنة ١٦٣٤ ثم الى اكثر من مائة الف نسمة سنة ١٧٥٥ . وبدا عروج سنة ١٥١٦ مشروع توسيع المدينة الذى استمر طيلة ٨٥ سنة فيها مدت المبانى نحو الجهات العليا من القصبة وهى الجهات التى ما زالت تحمل اسماء اثرية للاتراك مثل نهج المماليك ونهج الانكشارية . وراى المخططون الاتراك ضرورة تشييد أسوار المدينة مرة اخرى واطالتها نحو الجهات الجنوبية الغربية بالخصوص بدلا من الجهات الشرقية التى يحميها البحر وبدلا من الجهات الشمالية التى تحميها الانحدارات الشديدة ، ثم ان الجهات الجنوبية الغربية بحكم شدة ارتفاعها تساعد اكثر من الجهات الاخرى على مراقبة سفن العدو ورغم هذا التوسع فان مشكلة السكن ظلت قائمة

لتكاثر السكان وتعقيد المنطقة اذ ليس من السهل ايواء عدد كبير من البشر فى منطقة محصورة وحمايتها من العدو الذى يتربص بهم الدوائر . ولذلك بدات المساكن تتزاحم واخذت الديار ترتفع فى كل شبر ممكن من المدينة ، فعمرت الحدائق والشعاب واسرة المجارى المائية. ثم تسلقت المبانى فوق بعضها البعض مثل حبات عنقود العنب بعد أن غزت حتى الانهج القديمة منها والحديثة ، ببناء طابق ثانى أوسع فوق الطابق القديم وركز الطابق الثانى على أضلاع مائلة مركزة على الطابق الواقع فى الاسفل بحيث تحولت معظم الانهج فى الاخير الى انفاق ودروب لا تظهر منها الشمس بمجرد قلب النظر الى السما الا بمشقة بل منها ما لاترى الشمس طوال اليوم . فعامل الحماية وتوفير المساكن دفعا بالاتراك الى بناء حى شديد التسلق والتركيب فوق القصبة العليا بدلا من القصبة الدنيا التى بناها بلكين سنة ٩٥٠ م . وبذلك نلاحظ قصبتين فى مدينة الجزائر قصبة بلكين وقصبة عروج .

أما قصبة بلكين فكانت تمتد فيما بين خط يتبع شارع باب الوادى — باب عزون ، وخط نهج بالى وانبال ، أى بين خطى كنتور ٢٠ و ٨٠ مترا تقريبا وكان السور المحيط بمدينة بلكين ينطلق من باب عزون مارا بالانهج التالية : Medée Centaure Palmiers Anibal - Ramadan des Dattes ثم ينحنى جنوبا ليخرج فى باب الوادى بالقرب من حديقة سيدى عبد الرحمان الحالية . والمتتبع لخط هذا السور يلاحظ انه كان لايسير فى استقامة واحدة بل كان عبارة عن خط منكسر يشبه اضلاع مثلث رأسه عند نقطة التقاء نهج بالى ونهج انيبال وهما النهجان اللذان حلا محل السور الصنهاجي بعد ان هدم الاتراك سور بلكين لتوسيع المدينة الى هذه الجهات العلوية . ويظهر أن أهم انهج نشأت فى العهد الصنهاجي هى انهج المتون و الاذر المتقطعة مثل نهج الباب الجديد ونهج القصبة حاليا اللذين تولدا عن سبل بسيطة كانتا تمثلان المدخلين الرئيسيين للمدينة من الجهات العلوية. ويظهر ايضا أن المنازل كانت فى أول الامر متباعدة عن بعضها تتخللها او تفصل بينها مزارع وحدائق لتموين سكان المدينة بالخضر والفواكه، وتضمن لهم الارزاق اثناء الحصار. ولقد اختار بلكين لبناء قصبته موضعا يتشابه الى حد بعيد والموضع الذى انتقاه أبوه الامير الصنهاجي زيرى بن مناد فى القرن ١٠ للميلاد لبناء مدينة آشير ، ذلك ان البربر فى بنائهم للمدن كانوا ينتقون الروابى التى تتوفر بها مياه الشرب وتكثر بها العيون الجارية ، وتشرف على منطقة واسعة لاكتشاف العدو من بعيد والاستعداد له قبل الوصول وكانوا يراعون فى تخطيطاتهم للمدن أن تكون العيون داخل أسوار المدينة حتى اذا دهمهم العدو أو حاصرهم لا يمكنه أن يقطع عنهم مياه الشرب ، ويستحسن أن تكون العيون فى الجهات العلوية من المدينة حتى يسهل عن طريق الجاذبية بناء السواقى لتموين السكان وادخال المياه الى المنازل ولهذا اختار زيرى لبناء مدينة آشير فى جبل تنبجس من اعاليه عيون غزيرة المياه مثل عين سليمان وعين تلة تيراخ . وكذلك فعل بلكين فى تجديده وتوسيعه لجزائر بنى مزغنة فاختار موضعا تتوفر به مواد البناء ومياه الشرب، قريبا من البحر ، على ربوة مشمسة ، يمكن الاشراف منها على مساحة واسعة من البر والبحر . ومن خريطة العيون القديمة لمدينة الجزائر نلاحظ أن الصنهاجيين اختاروا عين النزاوقة عند التقاء نهج بالى وهانبال والغزالة حدا غربيا لمد أسوار القصبة ، ولاداء تلك الوظائف السابقة ، اذ تنبجس هذه العين على خط ارتفاع ٨٠ م تقريبا وبالتالى يمكن ادخال المياه منها عن طريق الجاذبية الى المنازل الواقعة فى أسفل العين . ولا شك ان عين النزاوقة كانت تقع داخل أسوار المدنة مثلها فى ذلك مثل

بقية العيون التى كانت تمون سكان القصبة وحى البحرية مثل عين العطش وعين العلج وعين السلطان والعين الجديدة ، وكانت مياه هذه العيون تكفى لسد حاجات السكان قبل اكتظاظهم ثم حفرت الابار فى ساحات المنازل عندما زاد عدد السكان . وهذا يظهر ان الاختيارات الصنهاجية كانت موفقة فى توسيع مدينة الجزائر .

اما قصبة الاتراك فقد بنيت الى اعلى من القصبة الصنهاجية وفى موضع اكثر ارتفاعا من الموضع الذى اختاره الصنهاجيون من قبل اى فوق القمة الحقيقية لربوة القصبة . والذى دفع عروج الى ذلك هو ان الموضع الذى اختاره بلكين لتوسيع جزائر بنى مزغنة فى القرن العاشر للميلاد اصبح لا يؤدى وظيفته الكاملة فى القرن السادس عشر للميلاد عندما اشتد طمع الاسبان لاحتلال جزائر بنى مزغنة التى تحولت الى عاصمة البلاد ، وتدفقت نحوها موجات من الهجرة الداخلية والخارجية ، فالظروف التاريخية وعامل الحماية ، والنمو الدموغرافى املت على عروج ان يصعد بالمدينة نحو القلة اى القمة الاكثر ارتفاعا ، فاتسعت المدينة نحو الجبل بدلا من الشريط السهلى الشاطىء الضيق واتجهت المبانى نحو الروابى اكثر من اتجاهها نحو بقية الجهات ، وانشئت انهج اخرى ، زيادة على الانهج القديمة ، وينبغى أن نلاحظ ان اغلب الانهج لقصبة العهد التركى كانت تتبع فى سيرها بطون الشعاب على عكس اغلب الانهج فى العهد الصنهاجى التى كانت تتبع خطوط الذرى . وقد ادت زيادة المساكن وانحصارها بين اسوار القصبة للحماية ، الى التسابق نحو الجو واقتراب الديار من بعضها البعض وبالخصوص السطوح التى كثيرا ما تعانقت فى الهواء وغطت الانهج التى تحولت بطول الزمن الى انفاق مظلمة وضيقة مفروشة بالحجر الجيرى ، لا يزيد عرضها عن المترين الا نادرا ، بل ان بعض الانهج تحولت الى أزقة لا يمكن العبور منها الا الى أبواب المنازل وهى ابواب ضيقة ومتينة رصعت بالمسامير وشدت بالالواح السميكة ولا يمكن فتحها الا بمشقة ، وربطت اغلبها بحبال يتدلى منها ثقل يساعد على فتح الباب او غلقها آليا . وقد تبلغ عدد الازقة فىاواخر العهد التركى حوالى ١٥١ زقاقا ، لا يتسع الزقاق الواحد لمرور حملين فى اتجاهين معاكسين ، بل منها مالا تتسع لمرور جمل واحد نظرا للطوابق التى بنيت فوق النهج وبهذا كان لا ينطبق عليها القانون العربى القديم للعمران الذى ينص على ان النهج يجب ان يكون اتساعه يكفى لمرور جملين محملين على الاقل . ولم يسن الاتراك قانونا تخطيطيا يمنع السكان من البناء فوق الانهج بل تركوا الامر للسكان الذين رأوا فى ذلك حلا لمشكلة السكن من جهة ودرءا لخطر ضربة الشمس واشتداد الحرارة من جهة اخرى فى فصل الصيف .

فالازقة الضيقة والانهج الملتوية والدروب المغطاة تقى المارة من حمارة قيض الصيف وتجلب لهم الدفء ، ثم ان حاجة سكان القصبة فى العهد التركى لم تدع الى توسيع الانهج لان التنقلات كانت تقع اكثر ما تقع على الارجل ، ولا تدخل دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال دخلت اقتصرت على الحمير لنقل الاوساخ وهى دواب تكفيها الانهج الضيقة ، اما الجمال والبغال والخيل التى كانت تمثل اهم وسائل النقل فكانت تترك فى اسطبلات بالقرب من اسوار المدينة .

والى جانب تلك الانهج الضيقة بالقصبة كانت توجد بمدينة الجزائر فى العهد التركى انهج واسعة فى الجهات السفلى من المدينة واخرى تمتد بالقرب من لاسوار منها نهج باب عزون ، ونهج القصبة ونهج الباب الجديد ونهج باب الوادى ونهج باب البحر وكان اتساعها يزيد عن المترين ومنها

ما كان يصل الى اكثر من اربعة امتار مثل نهج الاسواق التى كا يزدحم فيها المارة كنهج باب عزون ونهج الجامع الكبير الذى كانت تتركز فيه عدة حرف مثل الصياغة والحدادة والرصاصة والنحاسة ، والنحاة والنجارة .

ومما تجدر الاشارة اليه ان اسماء الانهج والازقة الحالية لمدينة الجزائر العتيقة بما فيها حى البحرية وحى القصبة من وضع الاستعمار الفرنسى الذى جمعها واختارها لضبط الانهج لذلك نلاحظ عليها انها غريبة عن العربية ، لان الادارة الفرنسية انتقتها من بين اسماء لعظماء فرنسيين أو أوروبيين بصفة عامة ، أو هى أسماء ترجع الى مدن أوروبية مثل نهج تولون . وقليلا ما ضبطت الادارة الفرنسية النهج باسم الحرفة التى كانت سائدة فيه قبل الاحتلال . وفى العهد التركى ومن قبله فى العهد العربى ، كانت الانهج تعرف باسم الحرفة السائدة فيها أو باسم الطائفة التى كانت تسكنها أو يطلق على النهج باب السور المجاور لها ، ومثال لذلك نهج السوق الكبير الذى كان يمتد من الجنوب الى الشمال على طول شارع باب عزون — باب الوادى الحالى ، وكانت المحلات التجارية والدكاكين المختلفة تصطف عن يمينه وشماله . وبالقرب من باب عزون كان يمتد نهج السمارين فى الموضع الذى يقع فيه المسرح الوطنى حاليا . وموقع نهج السمارين بالقرب من مدخل باب عزون يساعد كثيرا اصحاب الدواب والقادمين من الريف على ترك حيواناتهم لدى السمارين لاصلاح حدواتها بينما اصحاب الدواب يذهبون راجلين نحو داخل المدينة لقضاء مصالحهم . والمتنقل من باب عزون نحو ساحة الشهداء تعترضه أسماء لنهج سوق الرابعة ، ونهج خدم الخيل ، ونهج سوق الخراطين ، والمتنقل من نهج السوق الكبير نحو قمة القصبة تعترضه عدة انهج يطول ذكرها منها نهج ينطلق من الباب الجديد ، ويعرف هنا بنهج الباب الجديد ثم يمر بمسجد ابن شمون ويعرف هنا بنهج جامع ابن شمون ، ثم يخرج فى سوق السمن فيعرف بنهج السمن ثم ينتهى بسوق الكتان . ويلاحظ على هذه الاسماء أنها كانت كثيرة التغير ، لتغير عامل اشتقاقاتها ، فنهج بالمير فى عهد الاحتلال الفرنسى عرف بنهج القبائل سنة ١٥٦٣ ثم نهج سوق الملح سنة ١٦٥٠ ثم بنهج السوق الكبير فى مطلع القرن التاسع عشر وقبل الاحتلال الفرنسى .

أما اطوال الانهج الضيقة والشوارع فقد قدرت سنة ١٨٣٠ بحوالى ١٥ كيلو مترا واغلبها كانت لا تصلح لمرور العربات ولا زالت حتى الوقت الحالى تتقاطع وخطوط الكنتور وتكثر بها السلاليم .

المنعكس الشرطي في ضوء النظرية والتطبيق

مصطفى عباده

قبل ان نتطرق الى الحديث عن موضوع المنعكس الشرطى كنظرية وكتطبيق لابد من تعريف المنعكس وكيف يحدث ؟

المنعكس هو ردود افعال بسيطة فى شكل سلوك آلى ويوجد بشكل فردى او بشكل مجموعات معقدة فى الافعال وفى مظاهر السلوك البشرى المختلفة وهذا التعريف يؤدى الى الكلام عن سلوك الكائن الحى،ويكون هذا السلوك عادة على نوعين سلوك ثابت موروث وآخر متغير مكتسب وعليه فالانسان مثل الحيوان يكون سلوكه مكتسبا وموروثا الا ان السلوك المكتسب اكثر بكثير من السلوك الموروث .

وتزايد المكتسب يتماشى طرديا مع التقدم فى سلم التطور وكذلك فى زيادة التعقد والتخصص فى الجملة العصبية ، ويتبع هذا المدة المتزايدة فى مدة الطفولة فطفولة الحيوان قصيرة جدا حيث ان بعض الحيوانات تستطيع مواجهة الحياة منذ اللحظة الاولى لانها مجهزة بوسائل تعمل بشكل آلى فى حين ان الانسان والحيوانات الراقية وخاصة الانسان تحتاج لبعض الوقت لكى تتهيأ للحياة وتستعد للاعتماد على النفس .

كيف يحدث هذا المنعكس ؟ ان القابلية للتهيج هى مقدرة الكائن الحى للرد او للاستجابة على التنبيهات بطرق مختلفة من الحركات وبالوان متعددة من الانفعالات والسلوك اذ لا توجد حركة تلقائية على الاطلاق تحدث دون ان تكون مسبوقة بتنبيه وهذا التنبيه اما ان يكون داخليا او خارجيا والتنبه الداخلى سواء اكان فسيولوجيا عضويا ام معنويا شعوريا كالجوع والعطش ، وكالحاجة الى البحث والتنقيب يكون مصحوبا بحركة وهذه الحركة مستمرة ودائمة دوام المنبه واستمرارها يجعلها تستهلك الطاقة المخزونة فى الجسم وخاصة فى العضلات ، والحركات العضوية نفسها تؤدى الى تعويض هذه الطاقة المستنفذة ولا تنقطع هذه العملية الدورية عمليه الأيض « البناء والتهديم » الا بموت الكائن الحى .

اما التنبيه الخارجى فمصدره البيئة الخارجية والكائن الحى لا يكون ابدا مستقلا لاتمام الاستقلال عن البيئة الخارجية وعما يصدر عنها من تنبيهات شتى ونظرا لتمايز اعضاء الاستقبال الحسى وتعدد المراكز العصبية والمسالك تستتبع تلك التنبيهات حركات متميزة موجهة ولكن الجهاز العصبى ليس من الشروط الاساسية لاحداث ارجاع الحركية اى اعزاء الحركة الى مسالك عصبية ومراكز بدليل ان الاحياء التى يخلو بناؤها العضوى من كل عنصر عصبى مميز ترد على التنبيهات الخارجية من تماس او حرارة او تنبيه كيميائى بحركات معينة يترتب عليها انتقال الحيوان فى محيطه الطبيعى ، فالاميبا مثلا تتوقف قابليتها للتهيج على التفاعلات الكيماوية التى لا تنفك تحدث فى جزئياتها « البروتوبلازمية » وعلى ما ينجم من هذه التفاعلات من تغير فى درجة التوتر الفسيولوجى وخاصة توتر سطح الغشاء الخارجى ، وتتخذ الحركة فى الاميبا شكلين متعارضين اما بسط واقدام او انقباض واحجام اما فى الحيوانات المتعددة الخلايا والتى يتركب جسمها من انسجة مختلفة وغير متجانسة فنشاهد تركز قابلية التهيج فى نسيج معين وهذا النسيج الذى يتصف بقابليته للتقلص او الانقباض يكون العضلات والغدد ويحدث الانقباض وبالتالى الحركة ردا على تنبيه خارجى استقبله النسيج العصبى الحاس ثم ينتقل التنبيه عن طريق العصب الحاس او المورد الى مراكز عصبية ومنها الى عضلة او الى غدة عن طريق العصب المحرك او المصدر وهذا الطريق المعين الذى يسلكه التنبيه حتى يتحول الى حركة يسمى بالقوس المنعكس والحركة الناتجة عن التنبيه تسمى بالفعل المنعكس والفعل المنعكس فى حد ذاته ينقسم الى قسمين اما فعل منعكس محض واما فعل ارادى ، ذلك اننا كلما ارتقينا سلم الحيوانات متدرجين من اللافقريات الى الفقريات ومن ابسطها تركيبا الى اعقدها تركيبا نلاحظ تعدد طرق التوريد والتصدير وكذلك تعدد المراكز العصبية وينتج عن هذا التعدد نماذج مختلفة من الاقواس المنعكسة ومن الافعال المنعكسة .

والجدير بالذكر انه كلما ارتقى الجهاز العصبى وتمايزت مراكزه وتفاضلت بحيث تخضع بعض المراكز لبعضها الاخر اخذت خاصية جديدة تظهر وهى مقدرة بعض المراكز كاللحاء على منح الحركة وكفها علاوة عن مقدرتها على تنظيم الحركة وتعديلها من اسراع وابطاء ، وتكون عملية

التعديل لا ارادية او ارادية ، ويمكن أن تكون الحركة نفسها فى شكلها الظاهر منعكسة أو ارادية مثلا اذا وضعت اصبعى على سطح ساخن جدا ارتدت يدى بسرعة وتراجعت وتكون الحركة فى هذه الحالة منعكسة ولكنى استطيع ان احاكى هذه الحركة وان اسحب يدى بمجرد لمس سطح معتدل الحرارة وفى هذه الحالة تكون الحركة ارادية فمن حيث الشكل الظاهر للحركة فلا فرق بين هذين الحركتين ولكن الفرق بينهما يرجع الى اختلاف المراكز العصبية المحركة التى تنبهت ومراكز الافعال المنعكسة مرتبة ترتيبا تصاعديا فى النخاع الشوكى والنخاع المستطيل وبعض النوى الدماغية الموجودة مباشرة تحت اللحاء من اهم هذه النوى التلاموس والجسم المخطط الذى هو مركز الافعال المنعكسة كحركات المشى الالى .

اما الحركة الارادية فلا تتم الا بتنشيط المراكز الموجودة فى القشرة الدماغية او اللحاء وهذه المراكز تسيطر الى حد كبير على المراكز السفلى وهذا ما يفسر لنا عملية الكف والمنع ، فمن المثل الاول الذى ضربناه يكون فى امكانى ان اتجلد ولا اسحب يدى مباشرة بعد الاحساس بالحرارة على الرغم من الالم الذى اشعر به وليس جميع الافعال المنعكسة مصحوبة بالشعور مثل الحركات التى تعترى حدقات العين عندما تتغير شدة الضوء .

وبعد الكلام على المنعكس كمنعكس وكيف يحدث هذا الاخير نأتى الى الحديث عن المنعكس الشرطى ، والمنعكس الشرطى كثيرا مايقترن باسم العالم الفسيولوجى الروسى بافلوف ١٨٤٩ ــ ١٩٣٦ ــ لانه اول من استخدمه بتوسع ، والمنعكس الشرطى هو الفعل الذى ينوب فيه المنبه الغير الطبيعى عن المنبه الطبيعى بعد اقتران الاول بالثانى لعدة مرات ، وقد انطلق بافلوف من دراسته للسلوك الحيوانى أو ما اسماه بالاجزاء العليا للجهاز العصبى المركزى وكانت له نظرية خاصه فى دراسته هذه والتى اسماها « بالنيوريزم » ويعنى بها التنظيم العصبى للسلوك ، او هيمنة الجهاز العصبى على كل مظاهر السلوك ، ومن دراسته للتنظيم العصبى للسلوك انطلق الى الفعل المنعكس بنوعيه الشرطى وغير الشرطى وهذا الفعل فى رايه يمثل اللبنة الاساسية للسلوك الحيوانى والبشرى وكرس قرابة خمسة وثلاثين سنة من حياته العلمية لدراسة السلوك او نشاط الاجزاء العليا للجهاز العصبى على هدى منهجه الجديد منهج الفعل المنعكس الشرطى وقام بتجاربه العلمية على العديد من الحيوانات واساسا الكلب ومن خلال تجاربه هذه نما فكره وتطور فهمه للجهاز العصبى .

ان الاستجابات الشرطية لوحظت منذ قرون لكن لم يفهم علماء النفس دلالتها النظرية والعلمية اى التطبيقية الا فى القرن العشرين ، والفضل كما ذكرنا سالفا يرجع الى بافلوف اذ هو اول من قام بدراسة منظمة لردود الفعل هذه واثناء دراسته للافرازات الهضمية لاحظ ان هناك افرازا يتم عندما يقترن منبه ما بتقديم الطعام ، ورأى ان اللعاب والعصارات الهضمية تفرز لرؤية الطعام بل وحتى لسماع خطوات مساعده الذى كان يعنى بالكلاب التى يجرى عليها دراسته ، وفى البداية سمى بافلوف هذه الافرازات « افرازات سيكولوجية » تمييزا لها عن الافرازات العادية التى كانت تحدث فى الاصل فى حالة وضع الطعام فى الفم،وبعد هذه الملاحظة قام بدراسة عمليةعلى ظاهرة التكيف نفسه فبعملية جراحية بسيطة فى خد كلب تنقل فتحة قناة الغدة اللعابية من داخل وجه الكلب الى خارجه حتى يمكن ان يرى سيل اللعاب ويقاس بدقة والمنبه الاصلى او غير المشروط الذى يحدث سيلان اللعاب هو فى معظم

الاحوال الطعام فتقديم منبه محايد « الجرس مثلا » مع تقديم الطعام لبضعة محاولات يصل الجرس او المنبه المشروط في النهاية الى ان يقوم بدور البديل للطعام وينشأ عنه سيل اللعاب حتى ولو لم يقدم الطعام لانه يكون قد نشأ اتصال او ارتباط او اقتران بين المنبه المشروط ونشاط الغدة اللعابية فسيل اللعاب الذى يثيره الجرس فى هذه الحالة هو استجابة جديدة تماما لهذا المنبه ، هذه الاستجابة هى الاستجابة اللعابية الشرطية أو المنعكس الشرطى اللعابى ، وقد وجد « بافلوف » وغيره « كبختريف » أثناء تجارب مختلفة ان اشياء كثيرة يمكن ان تستخدم كمنبهات شرطية كالصفارات ، والاضواء ، ولمس جانب الكلب والصدمات الكهربائية الخفيفة كما هو الشأن لدى « بختريف » .

كان بافلوف يضع الحيوان فى غرفة منعزلة ويقدم له الطعام بواسطة كوة صغيرة لكى يسجل العلاقة بين تكرار الصوت وتقديم الطعام من جهة وحجم افراز اللعاب من جهة أخرى ، عند تقديم الطعام للكلب يحدث منبهات صوتية او ضوئية يتحصل خلالها على اللعاب بواسطة فتحة فى خد الكلب بحيث يسيل اللعاب منها ويقيس كميته المفروزة ، وقد لوحظ انه عندما كان الصوت يدق لاول مرة كان الكلب لا يفرز ومع تكرار هذا الى تسع مرات مع اقتران هذا التكرار بتقديم الطعام يؤدى الى سيلان ١٨ قطرة من اللعاب وبعد ١٥ مرة يقدم فيها الطعام كان المجتنى من اللعاب ٣٠ قطرة وبعد ٣١ مرة كان المحصول ٦٥ قطرة من اللعاب تسيل بمجرد رنين الجرس .

والجدول الاتى يوضح هذه العلاقة :

« تقديم الصوت والطعام »	« عدد قطرات اللعاب فى ٣٠ ثانية »
١	٠
٩	١٨
١٥	٣٠
٣١	٦٥
٥١	٦٩

ولقد حاول بافلوف أن يفسر عملية الاستجابة اللعابية لمنبه شرطى بقوله « ان هناك مسالك عصبية جديدة كانت تشق بين الاذن او الانف أو الجلد بحسب المنبه الذى كان يستخدمه أو الفم من جهة اخرى وكانت هذه المسالك فى رايه تشترك اللحاء وللحاء دور اشرافى على قيام هذه المسائل العصبية المرتبطة بظهور المنعكسات الشرطية .

لذلك فقد وصف بافلوف ابحاثه بأنها تحريات عن الفاعلية الفزيولوجية للحاء ويمكن تعطيل الفاعلية الدماغية عند حيوان ما واحداث منعكسات شرطية عنده بمنبهات وقد أجريت هذه العملية التجريبية على حيوانات عطل فيها الدماغ وبقيت تكسب منعكسات شرطية .

لم يكتف العلماء بالناحية النظرية فقط للمنعكس الشرطى بل أخضعوه لبعض التطبيقات العملية من ذلك ان علماء الطب النفسى استخدموا ظاهرة المنعكس الشرطى لتفسير بعض الامراض النفسية وكثير من أنواع الشذوذ وهذه الامراض تتمثل فى الانحرافات وانواع الخوف كالهلع والنفور من بعض الاطعمة وانواع أخرى من السلوك العصابى هذا ولقد كتب بافلوف كتابه عن المنعكسات الشرطية والطب النفسى أو الفعلى ناوضح كثيرا اسباب الشذوذ النفسى وانواع العصابات والذهانات .

ثم ان الاشراط كثيرا ما يستعمل وسيلة للقضاء على السلوك الغير المرغوب فيه ولنضرب مثلا على ذلك فالتبول اللا ارادى له دلالة نفسية فهو نتيجة الشعور بالحرمان او الغيرة مثلا ، ويفسره علماء الفيسيولوجية بعدم تحكم الطفل فى مثانته ، ان الطفل الذى يبلل فراشه فى عمر يتجاوز العمر السوى لأمثاله بالنسبة لهذا الامر انما يبلل فراشه لان المثيرات الصادرة عن ضغط المثانة وهو نائم ليست من القوة بحيث توقظه فى الوقت المناسب « قبل التبول » ويمكن القول بأنه لا يملك حساسية كافية للاثارات الواردة من مثانته فهو لم يكيف للاستجابة لهذه الاثارات ان هذه الاثارات غير قادرة على ان تصبح ناجعة فعالة بواسطة المنعكس الشرطى ، ويتم ذلك بانامة الطفل على فراش فيه اسلاك رفيعة وما يكاد الفراش يبتل حتى ينطلق تيار كهربائى يقرع جرسا وتعطى التعليمات للطفل بأنه يتوجب عليه عند سماع الجرس أن ينهض من فراشه ويذهب الى المستراح سواء اكان بحاجة الى التبول ام لا وقبل الذهاب الى المستراح يقطع التيار بادارة زر كهربائى يوقف صوت الجرس وبعد مضى عدة ليال على هذا النحو يصبح ضغطالمثانة قادرا على ايقاظ الطفل قبل قرع الجرس ،

وهكذا فانه على الرغم من ضعف المثيرات الاتية من المثانة فان التكييف ساعده على التقاط هذه المثيرات والاستجابة لها .

وهناك تطبيق آخر للمنعكسات الشرطية يستعمل فى القضاء على المخاوف مثلا الاشخاص الذين يخافون من الامكنة المظلمة أو المصاعد او القطط او ما شابهها يمكن القضاء على امثال هذه المواقف التى تخيفهم بيد أنه لا بد من الملاحظة بأن هذه الطريقة يجب أن تستعمل بحذر شديد وذلك على اعتبار ان بعض الاشخاص تزيد مخاوفهم اذا قسروا او اجبروا على ممارسة المواقف التى تخيفهم بدلا من محوها .

وهناك طريقة ثالثة طبقها علماء النفس على بعض الطلاب اكتسبوا عادة قضم الاظافر — وهى ناتجة عن توتر عصبى — وغيرها من العادات غير المستحسنة عن طريق مبدأ المحو التجريبى ولقد تم العلاج بالفعل بواسطة الفصل بين التوتر العصبى وقضم الاظافر ، وذلك باجبارهم على قضم اظافرهم عندما تصدر لهم أوامر بقضمها ولما كانوا مجبرين على قضمها حتى عندما يكونون لا يشعرون بحاجة الى قضمها اذ ان هذه الحاجة هى نتيجة توتر عصبى ، ونتج عن هذه التجربة الفصل بين التوتر العصبى والعادة غير المتحسنة

كما يمكن استخدام المنعكس الشرطى للكشف عن وجود القدرات الحسية عند الطفل الوليد او الحيوان او المصابين بالتخلف الفكرى أو العقلى .

مثلا طفل يعتقد انه اصم فهو لسبب ما لا يستجيب لاى صوت اطلاقا اما حين يدغدغ اخمص قدميه فانه يسحبها ولذلك يعمد المجرب الى قرع الجرس عدة مرات قبل ان يدغدغ القدم فاذا صار الطفل يسحب قدمه ساعةقرع الجرس كان معنى ذلك ان جهاز السمع عند الطفل سليما وأن ثمة سببا نفسيا لعدم استجابته للمؤثرات الصوتية غير الصمم .

الثورة الزراعية

وبعض مشاكل الفلاحين

جمال مصباح

ان مجرد زيارة الى اريافنا وقرانا يظهر لنا مدى تخلي الشبان عنها . وبالفعل يبدو ان المدينة تستقطب معظمهم بحثا هناك عن عمل قار يوفر لهم الاطمئنان والوقاية من الاحتمالات التي جرتهم الى هجرة البادية .

وفي الواقع ان هذه الظاهرة لم تكن حديثة العهد بل انها ترجع الى مايزيد عن ستين او سبعين سنة على الاقل . ان النظام الاستعماري لم تكن له آثار سياسية وثقافية فحسب بل انه احدث ايضا آثارا مختنقة على مستوى الانتاج . ان المستعمر الى جانب الوسائل التقنية التي ادخلها على خدمة الارض التي اغتصبها قد حول الاقتصاد تحويلا آخر فوجه محاوره نحو المدن ثم جعله تابعا للعاصمة الفرنسية اضف الى ذلك انه ادخل اساليب جديدة راسمالية في التعامل الاقصادي وفي طريقة الانتاج لانه اولا هو المشرع الذي يسن القوانين التي يجب ان تتمشى بمقتضاها المعاملات الاقتصادية والتجارية على مستوى القطر وثانيا ان الرغبة في تحقيق اغراضه تجعله مضطرا الى البحث عن اليد العاملة الزهيدة الامر الذي يدفعه الى تحويل انظاره نحو البوادي ويجعله يقضي على الهياكل التقليدية لكي لا يصبح في وسع الفلاح الاستغناء عنه .

ان التوازن الذى كان موجودا قد انقطع اذ ان المساحات الشاسعة التى كانت تؤدى دورا معينا مثل التموين فى الحبوب قد غيرت وظيفتها واصبحت تؤدى اغراضا اخرى لا يستفيد منها الا الاستعمار ، ان هذا من شأنه ان يحدث تغييرا فى العلاقات التقليدية وان يدفع الفلاحين الى تغيير انماط معيشتهم وايجاد وسائل اخرى لتنظيم اقتصادهم . الا ان المنطق الاستعمارى لم يسمح لهم بالابتكار وانما يفرض عليهم حلين لا ثالث لهما اما الرضا بتدهور معيشتهم والاستسلام الى القضاء والقدر ، واما الهجرة من الريف الى المدينة او نحو مزرعة المعمر .

وبالفعل فان الفلاح سيتخذ السلوك الاول احيانا وتارة السلوك الثانى ولكن وان كان قد نجح فى الاحتفاظ ببعض من قيمه فان مقاومته فى المجال الاقتصادى ستكون اقل توفيقا . وتراه ينجر تدريجيا الى خدمة الاقتصاد الاستعمارى وتوابعه والتخلى عن اوضاعه التقليدية . واذا عاد الى الريف فانما يعود للاستراحة ، او الزيادة او بعد ان يستنفد منه الاقتصاد الراسمالى طاقته الانتاجية .

ان اندلاع الحرب التحريرية قد عمق الوضع ولا سيما ان مدار الثورة المسلحة قد كان فى البوادى والجبال . ان اصحاب الاراضى الفقيرة سوف يهملونها لمساندة الثورة او عندما يطردهم المستعمر منها ويفرض عليهم اماكن للاقامة ظنا منه ان ذلك سوف يعزل الشعب عن الثورة .

وعندما يأتى الاستقلال تكون الاراضى قد اهملت وتكون المزارع قد اتلفت وتعرضت للحرق والفساد . فلم يبق فى وسع الذين ليس لهم امكانية احياء اراضيهم سوى البحث عن العمل فى المدن او فى الاراضى المسيرة ذاتيا ، او عند كبار الملاك الذين لهم القدرة على استخدام وسائل جديدة واحيانا عصرية لخدمة الارض .

ان الامر الذى يدفع الشبان الى تجنب العمل فى الريف هو عدم الاطمئنان الى المستقبل . لان الضمانات التى كان آباؤهم يجدونها اصبحت اليوم مفقودة . ان عدم الارتياح ينبع اولا من العوارض الطبيعية التى احيانا تكون مواتية واحيانا اخرى غير مواتية . ومن الصعب ان يشاهد المرا عمل سنة كاملة ، لا يعول صاحبه ولو شهرا واحدا . ومن الصعب ان ينتج المنتج وهو يعرف انه لايجد فى السوق من يأخذ عنه بضاعته ، التى سوف تقدم له الثمن الذى سوف يمكنه من سد المصاريف الاخرى ما عدا الاكل . ثم ان الامكانيات قليلة وزهيدة بالقياس للعمل الذى يجب القيام به من اجل احياء الاراضى وذلك على الرغم من المساعدات التى تقدمها الدولة لبعضهم . واخيرا ان كبار الملاك اصبحوا يسيطرون اكثر من السابق على الميدان الفلاحى فانهم يعرضون عليه العمل عندهم ولكن بدون الضمانات الاجتماعية التى يجدونها فى المدينة .

وهكذا سيصبح العمل فى المدينة هو المصدر الاساسى للرزق بينما يبقى العمل فى الريف مجرد ملء للفراغ ثم ان العمل فى المدينة يضيع طاقة العامل مدة معينة من الوقت ويتركه حرا يهتم باشغال اخرى خارج ذلك الوقت فليس له ان يهتم بمصير انتاجه فما عليه الا انتظار آخر الشهر لاخذ راتبه .

ولكن ما كل متوجه الى المدينة يجد فيها عملا . اذ ان سوق العمل ضيق ومع ذلك يعود الفلاح الى ارضه ويستمر الكد فيها ونادرا ما يفعل ذلك ان انقطاعه الطويل عن خدمة الارض يجعله يفضل اى عمل آخر على عمل الارض . بل انه كثيرا ما يتوهم بانه قادر على النجاح فى التجارة ، وبعد ان يحصل على راس مال زهيد يشترى بضاعة معينة ويجول فى الطرقات لبيعها . وهكذا يصبح

ماشيا لا يعمل فعلا لافى التجارة ولا فى الفلاحة ولا فى الصناعة ، فهو نصف بطال مقنع بشبه‌عمل

واذا حاول الاندماج من جديد فى الريف يجد صعوبات مختلفة تجعله غير مطمئن الى مستقبله وعلى فرض انه وجد عملا هناك يبدو او يتصور له ان ذلك العمل لن يدوم الا بمقدار دوام صحته وان حاول الاندماج فى المدينة افتقر الى عمل منتظم قار يوفر له الاطمئنان .

فمن الناحية الفكرية يصبح قلقا مذبذبا سريع التغير والانقلاب . فلا يستقر على راى اوعلى حال فاحيانا يظهر فى ثوب المتدين القانت واخرى يكون فى طريق الجحود والقنوط .

ان علاقات جديدة اخذت تظهر فى الريف تزيد من وضعية الفلاحين سوءا وذلك على الرغم من القروض التى قدمتها لهم الحكومة فى فترات مختلفة ولكن تلك القروض كانت موجهة بالخصوص الى اولئك الذين مازالت لهم القدرة على المواجهة والصمود . واما الذين يئسوا فانهم لازالوا ينتظرون حلا لمشاكلهم ولعل ذلك الحل سوف ياتى حالما يتم تنفيذ مقررات الثورة الزراعية الذى سوف يحدد من مساحة الملكية الكبيرة .

وفى الواقع ان الثورة الزراعية ضرورة اقتصادية تقنية واجتماعية فى نفس الوقت . ان ضرورتها الاقتصادة ترتبط بانجاز متطلبات المخطط الرباعى ، وضرورتها الاجتماعية تتعلق بتحسين وتنظيم احوال واوضاع الفلاحين وتخفيف الضغط الملحوظ على المدن .

واما جوانبها التقنية فانها ترجع الى تسهيلها ادخال الوسائل التقنية الحديثة على الريف . بحيث ان نظام التعاونيات والتعاضديات من شانه ان يدخل الالة الى الريف لتنمية الانتاج وفقا لاساليب عصرية وعقلية . ان المهندسين الشبان الذين تكونوا بعد الاستقلال فى مختلف جامعات العالم متفقون على ذلك ان رايهم يخالف راى الذين يتذرعون بتجربتهم للتخويف من تطبيق الثورة الزراعية والواقع أن هؤلاء قد اكتسبوا تجربتهم ضمن اطار معين هو الاطار الاستعمارى انهم تعودوا العمل والتفكير ضمن ذلك الاطار فلاغرابة ان تخوفهم بالدرجة الاولى كل محاولة لاحداث علاقات جديدة . واما الثورة الزراعية فانها عامل مساعد على استغلال المياه‌وعلى تحسين الاراضى وعلى تمكين الفلاحين فى التعاضديات والتعاونيات من استصلاح مساحات اخرى اوسع الامر الذى يعجز عنه الفرد الواحد .

ان الثورةالجزائرية تواجه فى نفس الوقت مشاكل مختلفة ولكنها لن تنسى الاهتمام باولئك الذين كانوا قاعدتها الاساسية .

التربية والشخصية الجزائرية

كانت مرحلة التعليم الابتدائى فى جميع دول العالم يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها لان هذه المرحلة هى مرحلة تكوين الـــذات اوالشخصية لدى الاطفال الصغار . واللغـــة القومية هى الاداة الصالحة لبنـــاء شخصياتهم‌بناء متكاملاً وسليما من جميع النواحى . هذا كله فيما يخص العامل الاول فى بناء الشخصيـــةالقومية للافراد وللامم على السواء وهو اللغة وقد اطلنا الحديث فيه لانه العامل الرئيسى الذى‌تقوم عليه سائر العوامل الاخرى او تستند اليه كل العوامل الاخرى فى بناء الشخصية القومية .

2

تركي رابح

ثانيا — التاريخ المشتـــرك :

والعامل الثانى : فى بناء الشخصية القومية هو التاريخ المشترك فالذكريات التاريخية التى يشترك فيها ابناء الامة الواحدة تحملهم علــى الشعور بأن اجدادهم واسلافهم قد قاموا بدور عظيم فى التاريخ الانسانى وادوا رسالة عظيمة للحضارة البشرية نستحثهم على أن يبذلـــوا اقصى الجهود لتكملة ما قام به هؤلاء الاجداد والاسلاف .

فالتاريخ المشترك هو الوسيلة الفعالة التى تجعل من ماضى الحيـــاة حافـــزا لحاضرهـــا ومستقبلـــها .

هذه الذكريات التاريخية بما فيها من انتصارات وهزائم . وبما فيها من عزة ومذلة ، وبما فيها من نجاح أو اخفاق ، كلها تغذى افراد الامـــة بالوعى الاجتماعى ، وتدعم شعورهم بالوحدة والتماسك وتشحذ عزائمهم بالقوة والصلابة .

وتحفزهم على الوقوف صفا واحدا فى ساعة الخطر المحدق بهم وبوطنهم غير أن الاعتزاز بالتاريخ المشترك ينبغى أن ينظر اليه بحـــذر واحتراس فكما يستطيع التاريخ المشترك مثلا ان يدفع الحاضر ، ويتطلع للمستقبل ويحمل ابناء الامة على مزيد من التقدم والتطور ، فهـــو يستطيع ايضا ان يكبل الحاضر بأغلال ثقيلـــة ويجعله دائم الالتفات الى الماضى ، فحيث تفخر الامة بحاضرها وتتخذ من ماضيها دافعا لها فقط فى الحياة ، ودافعا فقط لها الى التقدم فى سلـــم الحضارة والرقى، فهى فى صعود وتطور، وحيث يتراكم هذا الماضى حتى يثقل كاهلهـــا فانهـــا تبدأ فى الهبوط والتدهور والانحلال بـــدون أن تشعر بذلك .

ومن هنا فان علينا أن نجعل دائمـــا ماضينـــا يعيش فى حاضرنا لا أن نجعل حاضرنا يعيش فى ماضينا فان هذا يعتبر هروبا من مواجهة الواقع الى العيش فى احلام الماضى الوردية . كما يهرب الفاشل فى الحياة ، ومن خابت آماله فى حاضره الى ذكريات الماضى الجميلة يعيش فيها ويجترها فى شبه غيبوبة ، مستعيضا بها عن تعاسة وشقاء حاضره وهو ما يعبر عنه علماء النفس بأحـــلام اليقظة لذلك فالتاريخ عامل هام مـــن عوامـــل المحافظة على الشخصية القومية لكل شعب ولكن بشرط أن يبقى دائما كعامل يدفع الى الامام ، ولا يتحول الى عامل يجذب الى الوراء او الى الماضى الذاهب فقط .

ومن هنا تجب العناية بالتاريـــخ القومى فى مختلف مراحل التعليم وبالخصوص فى المرحلة الابتدائية والثانوية حتى يشب ابناؤنا وبناتنا على الاعتزاز بتاريخ أمتهم ووطنهم اعتزازا ايجابيـــا يحفزهم الى مواصلة رسالة الشهداء الامجاد فى الدفاع عن الوطن والعمل على بنائه وازدهاره فى سائر المجالات الحيوية .

ثالثا — الثقافة المشتركة :

أما العامل الثالث فى بناء الشخصية القومية فهو الثقافة المشتركة بين ابناء الامة الواحـــدة والوطن الواحد ، وقد سبق أن ذكرنا تعريف الثقافة لغة واصطلاحا فى بداية هذه المحاضرة اما الآن فاننى سأتحدث عن خصائص الثقافة العربية التى هى ثقافتنا القومية فما هى هذه الخصائص ؟ هناك مجموعة من الخصائص المميزة لثقافتنـــا العربية الاسلامية التى حفظت كياننا وشخصيتنا من الذوبان فى غيرنا ، وجعلتنا أمة متميزة بـــين الامم الاخرى يمكن تلخيصها فى الخصائص الاربعة التاليـــة :

اولا : ان هناك ثقافة عربية تشكـــل اللغـــة العربية اطارها العام، وهى لغة ذات تاريخ عريق متصل الحلقات . وقد سايرت الحضارة ونظمها ،

وكانت اداة طيعة فى الزيادة من انتاجها الثقافى فى ميادين الادب ، والعلم والفلسفة ، والموسيقى، والفن ، فى عصور الازدهار الثقافى للامة العربية

ثانيا : ان التراث الفكرى لهذه الثقافة تراث خصب غنى اتسعت آفاقه لثمار الثقافات القديمة التى احتك بها العرب فى ايام نهضتهم الفكرية ما بين ثقافة اغريقية ورومانية وفارسية ، وهندية وآشورية وفرعونية ، وقد دام العصر الذهبى للثقافة العربية حوالى خمسة قرون منذ بزغ فجره فى اوائل القرن التاسع الميلادى حتى أفل نجمه فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد أضاء نور هذا العصر الذهبى جميع الممالك التى فتحها العرب المسلمون فى شرق الوطن الاسلامى وفى مغربــــه .

ثالثا : لم تكن حواضر البلاد العربية مراكــز لحركة النقل والترجمات عن الآثار والثقافـــات المختلفة للحضارات القديمة فحسب ، وانمـــا اصبحت تلك الحواضر ينابيع للفكر والنبـــوغ العربى وموردا خصبا للثقافة العربية بكـــافـــة مظاهرها فتاريخ الحضارات الانسانية لم يعـــرف حركة للانتاج الثقافى والفكرى اشـــد واعظـــم واخصب من تلك التى نشأت فى الاقطار العربية ، والديار الاسلامية فى عصرها الذهبى مثل بغداد ، والكوفة والبصرة ودمشق ، والقاهرة ، وقرطبة ، والقيروان ، وبجاية ، وتلمسان ، وفاس والرباط.

ففى المساجد الاسلامية وهى جامعات المسلمين وكلياتهم الكبرى كان يجتمع عدد عظيم ممن سحر عقولهم التعليم وجذبهم التثقيف فجاءوا ليستمعوا الى محاضرات الاساتذة الكبار كالامام الاسفرانى، والغزالى ، وابن رشد ، والكندى، والامام مالك ، وابى حنيفة ، والشافعى ، وابن الهيثم ، وجابر بن حيان ، والكسائى ، وسيبويه وغيرهم من عباقرة الفكر والدين والادب والفلسفة والعلوم .

رابعا : ان لهذه الثقافة العربية آدابها وفنونها وآثارها التى انطبعت بطابعها الخاص وتأثـــرت بظروفها ومزاجها وترجمت عن اطوار حياتهـــا وتاريخها وهذا واضح لدينا فى عدة اصول ومظاهر لهذه الثقافة . فالفكر العربى كما هو معروف قد تأثر اولا اشد التأثر بالقرآن الكريم الذى يعتبر اساسا لجميع العلوم الاسلامية كما كان أساسا لجميع ما كان يعلم فى حلقات التعليم فى المساجد والمدارس سواء اكان نحوا اوصرفا ومنطقا وعروضا او لغة وبلاغة او فقها واصل تشريع او فلسفة وحكمة او فلكا وطبا الى آخر العلوم والفنون فهذه الثقافة العربية ـــ كانت ولازالت من اقوى العوامل فى المحافظة على الشخصية القومية لاقطار الامـــة العربية ومنها الجزائر . ولذلك تجب العنايـــة بالثقافة العربية فى مناهجنا الدراسية والعمـــل على بعث هذه الثقافة بعثا جديـــدا بواسطـــة الدراسات الجامعية الحديثة والمناهج العلميـــة الحديثـــة .

فالتراث الثقافى العربى فى الجزائر هو التراث الوحيد الذى لا يزال يعيش فى المخطوطات تحت اكوام من التراب والعنكبوت ولذلك نرجو مـــن شبابنا الجامعى ان يتجه الى تراث بلاده فيعمل على التنقيب عنه اولا ثم جمعه ثانيا ثم دراسته دراسة علمية منهجية فى المرحلة الاخيرة وبذلك نقوم بواجبنا نحو ثقافتنا القومية ونعمل فى نفس الوقت على ازدهار واثراء شخصيتنا القوميـــة ازدهارا واثراءا يتناسب مع دورنا العظيم فى اثراء وازدهار هذه الثقافة فى العصور الماضية . ان العناية بتراثنا القومى عملية ضرورية لبقاء كياننا وشخصيتنا بين الامم وهو عملية تربوية بالدرجة الاولى ثم هومن ناحية ثانية عملية ضرورية باعتبار اننا لا يمكن ان ننجح فى معركة التحرر من التبعية الفكرية للثقافة الفرنسة اللاتينية التى نخوضها اليوم بدون ان يكون هذا التراث القومى او الثقافة القومية موضع اهتمامنا وعنايتنا وحرصنا عـــلى

سيادتنا الفكرية تجنبا للتبعية للثقافات الاخرى التى تعنى فيما تعنيه طمس هذا التراث والاندماج او الذوبان فى الغير كما اشرنا الى ذلك من قبل . ان مدارسنا العليا وجامعاتنا الثلاث مدعوة للقيام بهذا الدور التاريخى العظيم دور جمع التراث ودراسته دراسة علمية منهجية تمهيدا لبعثه من جديد فى ثوب عصرى يتمشى مع التطور الفكرى والحضارى للتراث العالمى .

رابعا : الوطن المشترك :

والعامل الرابع والاخير فى تكوين الشخصية القومية هو العامل الجغرافى او الوطن المشترك الذى نسكنه ونعيش تحت سمائه وننعم بمناظره ونأكل منخيراته ونتغذى بحبه منذ الصغر فاصبحنا نحبه حبا فائقا ونحن اليه اذا نحن تغربنا عنه ونغار عليه ان مس احد كرامته بسوء ونعيش من اجل خدمته ونموت فى سبيل الدفاع عنه وحمايته ضد كل عدوان من اى مصدر كان .

ولذلك فان العامل الوطنى او الجغرافى لا يقل اهمية عن العامل اللغوى والعامل التاريخى ، والعامل الثقافى ، فى تغذية الروح القومية بين الاطفال ومن هنا فلابد للناشئين من ان يعرفوا جغرافية وطنهم معرفة جيدة لانه من العبث او السذاجة ان ننتظر منهم أن يحبوا وطنهم والحال انهم لا يعرفونه ويرون بعيونهم ما يدره عليهم من منافع وخيرات ونظرا لمكانة هذا العامل فى بناء شخصية الفرد بناء سليما كان الاستعمار يحرم على ابنائنا تعلم جغرافية بلادهم ويعلمهم بدلا منها جغرافية فرنسا بتوسع كبير كى يضعف فيهم الروح الوطنية ، هذه بصفة اجمالية هى العوامل الرئيسية التى ينبنى عليها الكيان القومى او الشخصة القومية لشعبنا كما يتفق على ذلك رجال التربية واغلب الباحثين الاجتماعيين .

اما الامام عبد الحميد بن باديس رحمه الله فهو يرى أن العوامل التى تقوم عليها الشخصية القومية للشعب الجزائرى هى ثلاثة عوامل رئيسية فقط يلخصها لنا فى الشعار المنسوب اليه وهو « الاسلام ديننا — والعربية لغتنا — والجزائر وطننا » فهو يرى الاسلام عاملا جوهريا من عوامل بناء الشخصية الجزائرية وحفظها من كل عوامل المسخ والتشويه التى قد توجه اليها — وانا شخصيا من انصار ابن باديس فى هذا الاتجاه بالنسبة للجزائر لظروفها الخاصة . فالدين الاسلامى فى الجزائر يعتبر احد المقومات الاساسية لشخصيتنا القومية لانه لولا الاسلام لكانت الجزائر اليوم غير الجزائر بالامس ، فالاسلام هو الذى جعل الجزائريين يصمدون هذا الصمود الرائع العظيم فى وجه سائر محاولات الابادة والمسخ التى سلطها الاستعمار الفرنسى على الشخصية الجزائرية طوال ١٣٢ عام .

دور التربية فى المحافظة على الشخصية القومية :

اذا تساءلنا بعد هذا كله عن دور التربية فى المحافظة على مقومات الشخصية القومية التى ذكرناها ؟ فان الاجابة عن هذا السؤال هى ان التربية تلعب دورا بالغ الاهمية فى المحافظة على الكيان القومى ، والشخصية القومية لكل شعب . فالمدرسة كما ذكرنا منذ قليل هى قبل كل شىء مؤسسة اجتماعية انشاها المجتمع لكى تقوم نيابة عنه بتربية ابنائه وفق فلسفته الخاصة ، او بعبارة اوضح وفق عقيدته او ايديولوجيته الخاصة .

وقد كانت رسالة المدرسة فى بلادنا فى عهد الاحتلال مثلا هى العمل على تنفيذ خطة واسعة النطاق لنشر الفرنسية بين ابناء الجزائر، وتحريف التاريخ الجزائرى ، وطعن الثقافة العربية ، والعمل على تحطيم كيان الشخصية الجزائرية ، اما اليوم فقد تغيرت رسالة هذه المدرسة تغييرا جوهريا فاصبحت رسالتها هى العمل على بناء الشخصية القومية او هكذا يجب عليها ان تكون وبناء على ما ذكرنا تجب العناية بالامور التالية :

اولا : العناية الكافية بتعليم اللغة القومية لابنائنا فى مختلف مراحل التعليم حتى يتقنوها اتقانا جيدا قراءة وكتابة وتذوقا ادبيا ، ومن هنا ينبغى العمل بكل سرعة على تعريب التعليم وخاصة فى المرحلة الاولى تعريبا شاملا وذلك بترجمة تقرير لجنة اصلاح التعليم الخاص بتعريب التعليم الذى نشر فى الصحافة الوطنية فى هذه الايام الى خطط وقوانين رسمية . لان هذه المرحلة هى اخطر مراحل التعليم على الاطلاق لانها مرحلة تكوين الذات او الشخصية لدى الاطفال ، ولذلك فان هذه المرحلة يجرى التعليم فيها باللغة القومية وحدها فى سائر دول العالم كما سبق ان ذكرنا .

ثانيا : ضرورة العناية بتدريس التاريخ الجزائرى والتاريخ العربى لابنائنا فى سائر مراحل التعليم خاصة حتى يشب هؤلاء الابناء على محبة وطنهم وقوميتهم . والاعتزاز بدور امتهم الحضارى ومساهمتها الفعالة فى ترقية العلوم والآداب والفنون وازدهار الحضارة الانسانية طيلة قرون عديدة .

ثالثا : العناية بدراسة المجتمع الجزائرى بصفة خاصة والمجتمع العربى بصفة عامة وكذلك العناية بتدريس مادة التربية الوطنية فى مختلف مراحل التعليم حتى يعرف ابناؤنا مجتمعهم الجزائرى معرفة جيدة فى مشاكله الاجتماعية ، وفى عاداته وتقاليده وفى طموحه وتطلعاته الى التقدم والرخاء والسعادة والازدهار .

رابعا واخيرا : العناية بتدريس جغرافية الجزائر بصفة خاصة ، وجغرافية الوطن العربى بصفة عامة حتى يتمكن ابناؤنا من معرفة وطنهم الذى يعيشون فوق اديمه معرفة جيدة ، ثم معرفة الوطن العربى الكبير الذى يعتبر وطنهم الصغير جزءا لا يتجزأ منه ، معرفة جيدة كذلك سياسيا ، واقتصاديا ، وطبيعيا ، وبشريا . وليس معنى هذا اننى ادعو الى عدم الاهتمام باللغات الاجنبية فى التعليم او عدم الاهتمام بالتاريخ العالمى او بالثقافات الانسانية ، او بجغرافية العالم كلا والف كلا . فنحن جزء من العالم الكبير الذى نعيش فيه. كما ان تراثنا الثقافى والحضارى يعتبر هو الآخر جزءا لا يتجزأ من التراث الثقافى والحضارى للانسانية قاطبة ولكننى انبه فقط الى ضرورة العناية بالامور الجوهرية فى بناء الشخصية القومية لابنائنا وبناتنا ولكافة المواطنين فى هذا الوطن المناضل حتى لا نستمر فى هذا الاندفاع الجارف فى العناية بكل ما هو اجنبى عنا لغة وثقافة وحضارة وموضة الى آخره دون الاهتمام الكافى بتراثنا الثقافى والحضارى لاننى اخشى ان يجرفنا هذا التيار اذا لم نعمل على التحكم فى مجراه بكل سرعة ومهارة وحذق وتبصر . ولعل تفسير بعض مظاهر القلق والحيرة وتفسير بعض مظاهر البلبلة التى تبدو فى تصرفات البعض من شبابنا وفى شخصياتهم وسلوكهم العام انما يعود معظمها الى ان هؤلاء الشباب قد تكونوا عندما كانوا صغارا تكوينا اجنبيا غريبا عن بيئتهم الاجتماعية — وغريبا عن ثقافتهم القومية ، وبعيدا عن جذور شخصية امتهم العربية المسلمة . لذلك نراهم اليوم فريسة سهلة لكل التيارات الفكرية والعقائدية الوافدة علينا من الخارج ، حيث لا يجدون لديهم الحصانة الكافية من ثقافة قومية ، ولغة وطنية وعقائد او آيديولوجية وطنية تقهم من مخاطر تلك التيارات الهدامة وتجعلهم فى مناعة كافية ضدها .

وفى ختام هذه الكلمة .. اريد ان ابدى ملاحظة تتصل باعمال ونشاط اللجنة الوطنية لاصلاح التعليم .

(يجب وضع حد للتعليم التبشيرى فى الجزائر) :

لقد قامت هذه اللجنة الموقرة فى وقت قصير نسبيا بعمل جليل وهام للغاية من اجل تقييم نظامنا التربوى ونشرت تقارير ضافية بخلاصة عملها فى صحافتنا الوطنية فى هذه الايام وقد

قرأت ــ تلك التقارير بكل امعان وبالخصوص تقرير اللجنة الفرعية للتوجيه ، وتقرير اللجنة الفرعية لديموقراطية التعليم ــ ولم اجد اشارة واحدة فى التقريرين المذكورين الى مسألة « التعليم التبشيرى » الذى لاتزال تباشره الهيئات التبشيرية فى الجزائر بكل حرية ، واصبح الكثيرون من موظفى الدولة يرسلون ابناءهم وبناتهم الى التعليم فيه بدل ارسالهم الى مدارس الدولة الجزائرية كى يدلقوا فيها تعليما وطنيا كبقية ابناء الشعب الآخرين .

ان التعليم التبشيرى الذى يجرى فى المدارس التبشيرية المختلفة ليس تعليما خالصا لوجه الله وليس تعليما خالصا لوجه العلم للعلم كما يظن بعض الناس الطيبين ، ولكنه بكل تأكيد وسيلة سيطرة ونفوذ ومحاولة خبيثة من الاستعمار الجديد للعودة الى البلاد مرة اخرى عن طريق النافذة بعد أن طرد من الباب . انه نوع من الاستعمار الفكرى والثقافى يحاول أن ينفذ الى اعماق وجدان اطفالنا الصغار كى يبسط عليهم سيطرته ونفوذه الفكرى والتوجيهى .

لقد جرت عملية فرنسة مدارس التعليم العربى الحر وثانويات التعليم المزدوجة اللغة منذ عام ١٩٦٤ بدعوى توحيد المدرسة الجزائرية ، وكانت هذه العملية غلطة لا تغتفر فى حق اللغة العربية والثقافة القومية وقد تنبهنا الى هذه الغلطة فى المدة الاخيرة كما اشار الى ذلك تقرير اللجنة الفرعية لتعريب التعليم لاننا قضينا بهذا القرار على المنبع الوحيد الذى كانت تستقى منه مدارس المعلمين وبعض الاقسام المعربة تلامذتها والمتعلمين فيها .

والغريب اننا بعد أن فرنسنا المدارس الحرة والثانويات المزدوجة رجعنا الآن الى محاولة تعريبها من جديد والاغرب من كل ذلك هو اننا قمنا بفرنسة مدارس التعليم العربى الحر التى انشاها الشعب فى أيام الاحتلال والتى ادت دورا كبيرا فى المحافظة على اللغة العربية والثقافة العربية من عام ١٩٣٠ ، وفى نفس الوقت تركنا المدارس التبشيرية تواصل عملها فى بث سمومها فى عقول ووجدان اطفالنا الصغار .

لقد تعجبت كثيرا بعد قراءتى لتقارير لجنة اصلاح التعليم الوطنية من عدم الاشارة الى ذكر هذه المدارس مع انها اشارت فى اكثر من موضع الى وجوب توحيد المدرسة الجزائرية ــ ووجوب اشراف الدولة على التعليم اشرافا كاملا .

لذلك نرجو أن يتدارك اعضاء اللجنة الوطنية الموقرة هذه المسألة الخطيرة فى اقرب وقت كما نرجو مخلصين أن يوضع حد للمدارس التبشيرية أو على الاقل تشدد الرقابة عليها وعلى كل ما يدرس فيها ومايجرى بداخلها من اعمال ونشاطات مما لا يخفى علينا جميعا الهدف من ورائها .

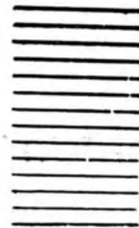
وهكذا . . لاحظتم من خلال هذا الحديث مدى العلاقة الوثيقة بين التربية من ناحية وبين الشخصية القومية سواء على المستوى الفردى أو على المستوى الاجتماعى من ناحية اخرى . مما دعا أحد المربين فى القرن السادس عشر الى القول « سلمنى ادارة التعليم فترة من الزمن وأنا اتعهد اليك بقلب وجه العالم بأسره » كما دعا الزعيم الالمانى المعروف « بسمارك » الى القول كذلك « ان الذى يدير مدرسة يدير مستقبل العالم » .

ومما لاشك فيه ان للتربية شأنا عظيما فى تغذية النهضات القومية وبناء شخصيات الامم والمحافظة على ثقافتها وتراثها القومى ولذلك فان البلاد التى يغتصب استقلالها ولكن يترك بيدها أمر تعليم ابنائها لا تلبث أن تستعيد ذلك الاستقلال اما البلاد التى تنال استقلالها ولا يكون بيدها زمام أمر تعليم ابنائها فانها لا تلبث أن تفقد هذا الاستقلال ويؤول امرها الى السقوط مرة اخرى تحت سيطرة الاحتلال الاجنبى ماديا بعد أن سقطت تحت سيطرته ثقافيا وفكريا .



دراسات تاريخية






العلاقات بين الجزائر وإيطاليا

خلال العهد التركي

سلفاتور بونو

ترجمة : ابو القاسم بن التومى

القى الدكتور سالفتورى بونو استاذ بجامعة فلورانس محاضرة بالجزائر عنوانها « العلاقات بين الجزائر وايطاليا خلال العهد التركى » .

والاستاذ بونو متخصص فى تاريخ المغرب له فى ذلك عدة كتب منها « قراصنة المغرب Corsari Barbareschi

ونظرا لقيمة المحاضرة من حيث المصادر الايطالية والمعلومات والتفاصيل والموضوعية عربنا القسم الاول منها على امل تعريب القسم الثانى ونشره .

ان الموضوع الذى ساطرقـه اليـوم هـو « العلاقات بين ايطاليا والجزائر ، من القرن السادس عشر الى أوائل القرن التاسع عشر » والحديث عن هذه العلاقات يستلزم الحديث عن جملة من الاحداث التاريخية التى تمتد على ثلاثة قرون ، اى من ١٥١٦ الى ١٨٣٠ ... واطـار هذه الاحداث هو البحر الابيض المتوسط الذى طالما كان مسرحا للمآسى والصراعات والمعارك البحرية والقتال والغزو ، وما ينتج ذلك من الاسر والفـديـة والتجـارة .

ولكن على اى اساس ، ومن اية زاوية تاريخية سوف نتناول هذه الفترة ؟ وكما هو شأن كـل مؤرخ ، ، فان موقفنا سيكون مستمدا مـن الواقع الملموس ، ومن مثلنا ومعتقداتنا . وقـد ادى بنا استعراض الاحداث التاريخية الى أن نضرب صفحا عن العداوة المتأصلة والصـراع المستمر بين نمطين من الثقافة ازدهرا فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، وهما الاسلام والمسيحية وتلك العداوة هى التى سيطرت على الاذهان طيلة قرون ، واثرت المؤرخين مـن حيث الاراء والاحكام وهاهو ذا الواقع يكشف لنا اليوم ، بعد عدة قرون من الكفاح ، وبعد سنوات من سوء التفاهم والخلاف والصراع والبغضاء ... هاهو ذا الوقع يكشف لنا بجلاء أن الشعوب والافراد على قدم المساواة فى الكرامة والاباء ، ويدعـونا الى ان نتجرد من العجب والاعتقـاد الباطـل بالتفوق على الغير ، وأن نتخلى عن كـل فكـرة سخيفة فى استعباد الشعوب .

وكذلك الامر فيما يتعلق بالاحداث الغابرة للبحر الابيض المتوسط من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى يدور حولها موضوعنا ، فالمسألة فى نظرنا ليست عبارة عن صفين متصارعين : الصف المتمسك بمبادىء الشرف من جهة ، والصف المتوحش من جهـة اخرى ... صف الحق ، وصف الباطـل ... الواحد منهما صاحب الايمان بالعقيدة الصحيحة والاخر صاحب الخرافات والاباطيل . اننا على العكس من هذا نرى بأنه يوجد من كلا الطرفين رجال كانوا ، علـى حسب صروف الدهـر ، يتعاونون فى الكفاح أحيانا ، ويحاربون بعضهم بعضا أحيانا أخرى ، فكانوا بذلك رجالا اكفـاء بـأتم معنـى الكلمة .

سوف يكون اهتمامنا فى ثنايا هذا الحديث بالرجال ، أى بالجزائريين والايطاليين ، اكثـر من الاهتمام بدولتى الجزائر وايطاليا وحكومتيهما خاصة أن هذين البلدين لم يكن كل منهما فى ذلك الحين يشكل وحدة سياسية حقيقية على الصورة التى نعرفها اليوم .

ان هذه التجارب الانسانية الغنية التـى سوف اتعرض لها ، لا يمكن أن تفهم على حقيقتها ــ كما اشرت الى ذلك آنفا ــ الا اذا درست فى اطار تاريخ البحر الابيض المتوسط الشامل . فهذا البحر اصبح ، منذ ان آل الامر الى الاتراك فى المغرب أى منذ القرن السادس عشر الـى السبعينات منه ، أصبح هذا البحر مسـرحا لصراع كبير بين المسيحية والاسلام اللذين تولت الدفاع عن كل منهما دولة هابزبورج Habsbourg ودولة الاتـراك .

وفى بداية القرن السـادس عشر جاء القرصان التركى عروج لحماية مدينة الجزائر بعد أن هددها الاسبان الذين احتلوا مدينة تقع مواجهة لهـا وهى بينون Penon فاستطاع أن يستولى على الجزائر وان يطورها بسرعة وبكيفيـة عجيبة حتى انه جعل منها مركزا من اكثر المراكز تنظيما وثراء بالنسبة الى نشاط القـرصنـة الذى كان سائدا فى البحر الابيض المتـوسط كله وقد وضعت الجزائر ، مع بقية الحـواضر المغربيـة امكانيات أسطولها النشيط القـوى

الى جانب الاتراك ، فى العقد لاول من القرن السادس عشر ، وفى سنة ١٥٤١ نظمت حملة كبرى اشترك فيها اكثر من ٥٠٠ سفينة ، ضد الجزائر التى كانت محور القوة التركية المتحالفة مع البربر فى المنطقة الغربية من البحر الابيض المتوسط ، وقاد الحملة الامبراطور شارل كان (الخامس) بنفسه واشترك فيها كذلك الجنود والسفن التابعة للامارات الايطالية المتحالفة مع الامبراطور .

وهكذا تجابه الايطاليون والجزائريون . وقد تولى الدفاع عن الجزائر حسن آغا الذى كان يحكم المدينة من قبل خير الدين حكما — كما يقول المؤرخ « هايدرو » — بعيداً عن كل شغب وفى ظل الامن الشامل والعدالة الحقة .

وكان حسن هذا من مسيحيى (سردانية) اعتنق الاسلام ، وهو ينتمى الى تلك الفئة من الاوروبيين الذين ارتضوا لهم الاسلام دينا ، فأطلق عليهم العالم المسيحى لقب مرتدين Renégats وقد وقع وهو فى سن الشباب مع كثير من امثاله من الشباب أسيرا فى يد خير الدين اثناء غارة شنها على قرية ساحلية من جزيرة (سردانية) ، فأبدى — على حد تعبير المؤرخ الانف الذكر — ذكاء مفرطا فى كامل الشؤون التى كلفه بها سيده ، حتى وان هذا الاخير ، عندما صار حاكما على الجزائر ، عينه كاهية له وولاه ادارة جميع أملاكه .

ونزل الى البر عدد كبير من القوات المسيحية يقدر بأكثر من عشرين الف جندى احتلوا هضاب الجزائر ، واصبحت المدينة مهددة من طرف العدو الذى اقترب من أبوابها . وفى هذه الساعات الرهيبة ، كان حسن آغا — بعد أن رفض فى اباء محاولات « شارلكان » الذى اغراه بخيانة وطنه الجديد — يجوب المدينة التى انهارت معنوياتها ممتطيا جواده ، وهو يشجع الناس ويطمئنهم وبعد الانتصار ، ولما اخذت السفن الباقية للعدو تبتعد عن الجزائر عفا حسن آغا عن عدد غير قليل من الاسرى المسيحيين فبقوا ينعمون بالحياة .

لم تكن هذه الحادثة فريدة فى نوعها ، ولا هى حالة طارئة ، ففى ذلك العهد وخلال القرون التى تلت ، وجد كثير من الايطاليين والمسيحيين بصفة عامة الذين وقعوا فى الاسر من جراء حروب القرصنة ، فسيقوا الى الجزائر ، وهناك اعتنقوا الاسلام واندمجو فى المجتمع الجزائرى . وآخرون من الاوروبيين — وهم كثيرون — غادروا بلادهم الاطلية عن طيب خاطر وقصدوا الاراضى الجزائرية واصبحوا مسلمين ، ذلك ان العالم الافريقى ومدينة الجزائر الغنية القوية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانا يقدمان لهؤلاء كل الامكانيات للحصول على الثروة بسرعة والارتقاء فى السلم الاجتماعى واحتلال اعلى المناصب السياسية والعسكرية هناك .

والجدير بالملاحظة أن النازحين الى الجزائر فى ذلك العهد قدموا من بلاد مثل ايطاليا حيث كان أصل الفرد هو الذى يكيف الحياة الاجتماعية وحيث كان النبلاء والاغنياء وذووا السلطان يتمتعون بامتيازات ترفعهم عن باقى طبقات المجتمع التى لم تكن تصلح الا للطاعة والخضوع لهؤلاء الاسياد . وقد انضم الى هذا الاضطهاد الاجتماعى السيطرة الاجنبية التى كانت تخنق البلاد ، فلا عجب ان يرى هؤلاء الجزائر الارض الذى يسود فيها التسامح والمساواة والحرية .

وبعد اندماجهم فىصميم الحياة الاجتماعية الجزائرية ، يفكرون فى اتخاذ مهنة تفتح امامهم آفاقا مغرية ، فيختارون غالبا القرصنة فى البحر حيث يجدون المجال فسيحا لاستثمار مواهبهم فهم يجيدون ترتيب الخطط للهجومات وشن

الغارات والنزول فى السواحل الاوروبية التى يعرفون مواقعها .

ان لدينا بعض المعلومات عن عدد المسيحيين المعتنقين للاسلام الذين استوطنوا الجزائر فى مختلف العصور ، وكان اكثرهم من البلاد الاوروبية ، وخاصة ايطاليا واسبانيا وفرنسا والذى يهمنا على الاخص هو ماذكرته بعض المصادر التى تعرضت لبيان الدور الذى لعبوه فبناء على ما ذكره المؤرخ الاسبانى Diégo Haedo الذى الف كتابا عن « طبوغرافية » الجزائر وتاريخها العام وهو تأليف اساسى لمعرفة الجزائر فى العهد التركى ، فان هؤلاء المعتنقين للاسلام من المسيحيين هم الذين كانت بأيديهم السلطة والنفوذ الادبى والحكم والثراء ، وكانوا يشغلون هم وعائلاتهم ٦٠٠٠ منزل او اكثر ويروى الاب الثالوثى Dan فى تاريخه النفيس عن البلاد الجزائرية ان فى غضون سنة ١٦٣٠ كان بالجزائر ٨ آلاف من المسيحيين المسلمين بالاضافة الى ١٢٠٠ امراة اغلبهن اسبانيات وبرتغاليات وايطاليات ويونانيات وانكليزيات ، ويؤكد صاحب الكتاب ان هؤلاء قد وصلوا الى درجة من القوة عظيمة ، وكانوا احسن رجال الحرب فى البر والبحر واكثرهم عددا . وقد حفظ التاريخ اسماء عدد ضئيل منهم ولم يستطع اثبات موطنهم الاصلى ، فلا يمكننا فى المرحلة الراهنة من بحوثنا ان نحدد بدقة عدد المسلمين الذين هم من اصل ايطالى ، ولنكتف على سبيل الاستشهاد بايراد بعض اسمائهم .

فمن بين ملوك الجزائر (وهو الاسم الذى اطلقه « هايدو » على الباشوات الذين تولوا حكم هذه المدينة) نجد حسن آغا الانف الذكر ثم رمضان باشا وهو من سردانية ايضا تولى الحكم سنة ١٥٧٤ . اسر وهو شاب فى سردانية فعنى سيده — وكان تاجرا تركيا — بتعليمه لما آنس فيه من مواهب وذكاء . ونظرا لخصاله عين « قائدا » فى عدة مدن ، وخلال السنوات الطويلة التى تولى فيها المناصب الادارية ، اكتسب ثروات طائلة وحصل على الجاه والسمعة الطيبة واشتهر عند الناس بالعدل والاستقامة ودماثة الاخلاق والحلم . وكان عهد ولايته على الجزائر عهد سعادة وازدهار .

وكان حسن باشا الحاكم الثانى والعشرون من مسحيى البندقية ، وكان وهو فى سن الطفولة كما يروى « هايدو » يتنقل على ظهر سفينة تدعى Esclavon أو Ragnsain يعمل بها كاتبا للمؤرخ ، وفى احدى المعارك استولى على تلك السفينة Dragnt Rais ملك طرابلس ، وبعد وفاة هذا صار ملكا لعلج على الذى عينه عندما صار باشا على الجزائر امينا عاما للخزينة واسند اليه فى سنة ١٥٧٧ ادارة المدينة ، وشغل هذا المنصب حتى سنة ١٥٨٠ . وقد اشتهر بالدهاء والحزم والقساوة والطموح .

اما علج على فقد كان كلبريا من اسرة تحترف صيد السمك ، ومغامراته العجيبة الخلابة تستحق أن نشير اليها باختصار ، وكأنها تشكل رمزا لمصير اولئك المسيحيين الذين استوطنوا الجزائر واعتنقوا الاسلام . فى شهر افريل من سنة ١٥٣٦ اثناء غارة على شاطىء خليج Squillace قام خير الدين بمهاجمة قرية صغيرة تدعى Le Castella واسر اهاليها ومن بينهم شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره اسمه Giovani Dionigi Galeni أو Jean-Denis Galeni باعه فى سوق العبيد بالقسطنطينية سيده جيافر ثم حمل كقداف على متن بارجة كانت تجوس خلال البحار الشرقية .

اننا لا ندرى على وجه التحقيق السبب الذى دفع هذا الرجل الى اعتناق الاسلام واتخاذ لقب علج على ولا الظروف التى صيرته من قرصان

البحر الذائعى الصيت . وعلى اثر وفاة Dragnt فى الهجوم على جزيرة مالطة سنة ١٥٦٥ عين علج على باشا على طرابلس ثم فى سنة ١٥٦٨ باشا على مدينة الجزائر التى كانت حينذاك تجتاز فترة من تاريخها مفعمة بالنشاط والازدهار واستغل علج على ضعف اسبانيا التى كانت فى وقت ما مضطرة لمواجهة ثورة عنيفة قام بها Les Moricas لتحقيق هدف عظيم هو غزو كامل بلاد المغرب ، وفى سنة ١٥٦٩ احتل فعلا مدينة تونس ، وشارك على راس الاسطول الجزائرى فى معركة Lapante التى خرجت منها القوات البحرية الجزائرية سالمة رغم الهزيمة الشاملة التى لحقت المسلمين ، واعترافا بجميل صنعه عينه السلطان قائدا اعلى للاسطول التركى ، فأعاد علج على تشكيله بأقصى سرعة وانطلق الاسطول العثمانى سنة ١٥٧٤ تحت قيادته لاسترجاع تونس لحضيرة الامبراطورية العثمانية ، وكان الاسبان وحلفاؤهم قد استولوا عليها منذ سنة مضت . وبفضل احتلال الاتراك لتونس تأكدت هيبة الامبراطورية العثمانية من جديد ، وكانت قد تزعزعت على اثر هزيمة Lapante وعاود القلق والهلع قلوب

المسيحيين الا انه لم يحصل تصادم مباشر وعظيم بين الاسلام والمسيحية ، فان انتباه وجهود الباب العالى كانت متجهة نحو الشرق بسبب الحرب القائمة ضد الفرس ودولة اسبانيا التى اتحدت مع البرتغال منذ عام ١٥٨٠ كانت بدورها قد حولت انظارها نحو الغرب ، نحو المحيط الاطلسى والعالم الجديد ، فحدث نوع من التوازن فى البحر الابيض المتوسط الذى اصبح — على حد تعبير Fernand Brandel — خارج نطاق الاحداث التاريخية الكبرى ، ومن ذلك الحين وفى ظرف قرنين ونصف اخذت القرصنة البحرية تهيمن على الحياة اليومية للمحيط الكبير يقول المثل « من تصدى للقرصنة لقى قرصانا ونصفا » وهو مثل يجد مصداقه من صميم الحياة داخل البحر المتوسط. فقد تعرض للقراصنة الجزائريين اول الامر قراصنة اوروبيون لا يقلون عنهم جراة ومهارة ، وهم لم يكونوا على اعمال دفاعية ضد المسلمين فحسب ، بل كانوا يبدون نشاطا قويا اذ ينهبون سفن وسواحل البلاد الاسلامية . ونحن لا نعرف شيئا كثيرا عن الاعمال التى كان يقوم بها قراصنة اوروبا فمؤرخونا لم يكن لهم متسع من الوقت للبحث عن نشاطاتهم وكادوا لا يذكرون عنها شيئا ، ولم يكن الشأن كذلك بالنسبة للاعمال البطولية التى حققها اشخاص آخرون تواترت اخبارهم فى أوروبا زمنا طويلا حتى لقبوا بحماة العقيدة والحضارة ضد الوحشية الاسلامية ، وما هم فى نظرنا — ونحن نسعى لمحو الاساطير والخرافات وطرح الكلام المنمق — الا قراصنة ماهرون وجريئون ، وأعنى بهم « فرسان مالطة وسانتتيين Saint Etienne » . فلنستعرض هنا بعض وقائعهم :

فى سنة ١٥٧٩ هاجمت اربع سفن حربية بقيادة نائب قائد الاسطول Vice-Amiral Marc Antonio السواحل الجزائرية قرب مدينة القل واختطفت ٣٦ شخصا .

وفى شهر افريل من سنة ١٦٠٤ كلفت حكومة طوسكان Toscane ضابط البحرية الانكليزى Robert Giffort (روبير جيفور) بتنفيذ مخطط مجازف ، وهو اضرام النيران فى سفن « مراد رئيس » وغيره من القراصنة الراصية بميناء الجزائر . وقد كان لنجاح هذه العملية صدى بعيد فى الآفاق كما تشهد بذلك الاخبار الكثيرة التى نشرت عن هذا الحادث ، وقد شهدت العقود الاولى من القرن السابع عشر عمليات مختلفة قام بها القرصان الطوسكانيون Toscans وقطع من اسطول البلاد الايطالية ضد مدن

ساحلية من ارض الجزائر ، وكان ضحايا هذه القرصنة الرجال والنساء ، والاطفال الذين يتخذون عبيدا فى البلاد المسيحية ، وهكذا كان الشأن على السواحل الاطالية من جراء القراصنة الجزائريين .

وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٦٠٧ اخذ فرسان Saint Etienne من مدينة عنابة ١٥٠٠ شخص زيادة على عدد وافر من الغنائم . ونجد هذا العمل الحربى مرويا فى عدة تقارير حررت فى ذلك العهد ، وقد اشيد فيما بعد فى قصيدة عنوانها Bona Espugnata . وفى قرية على بعد ٩٠ ميلا غربى الجزائر اختطف الفرسان الطوسكانيون فى صيف ١٦١٠ ، ٥٠٠ شخص .

وفى سنة ١٦١٣ انزلت ثمان بوارج صقلية بقيادة Ottavio d'Aragona جالها على الشواطىء الجزائرية ، وفى شهر جوان من تلك السنة نهبت سفن غراندوق طوسكان قلعة ارزيو وحررت ٢٠٠ رقيق من المسيحيين واسرت عددا مماثلا من الجزائريين .

وكانت المعارك بين الجزائريين والايطاليين تدور احيانا فى مناطق بعيدة عن بلادهم . ففى افريل سنة ١٦١٦ هاجمت سفن فرسان Saint Etienne فى مياه Negropont عمارة بحرية للقائد الجزائرى مراد رئيس كانت ــ فيما يبدو ــ تقل باشا الجزائر الجديد القادم من الاستانة ، ووقع بين الفريقين قتال عنيف طويل ومريب انتهى بالاستلاء على سفنتين مسلمتين هما اكبر وحدات الاسطول العثمانى . وفى سنة ١٦١٩ اسر القائد الجديد لجمعية رهبان Saint Etienne الكونت Giulio Barbolani سفينة القيادة الجزائرية فى بحر الشرق ... وفى سنة ١٦٢٤ احرز القائد المذكور على انتصارات جديدة ضد الجزائريين ففى شهر ماى من هذه السنة فاجأ قرب جزيرة سان بيار Saint Pierre فى بحر سردانية غليونا (وهو سفينة حربية تجارية) للقرصان « حميتو » من ازمير كانت قاعدته فى الجزائر وفى اكتوبر من تلك السنة وفى ذلك البحر نفسه بمساعدة سفن Saint Etienne تمكنت سفن اخرى للبابا وحكومة نابولى من الاستيلاء على عمارة بحرية كاملة تضم ست سفن للرئيس الجزائرى « حسن خليفة » .

والجزائريون ــ ونحن نعرف اى دم كان يجرى فى عروق من يرفعون على سفنهم العلم الجزائرى ــ كانوا من جهتهم اكثر نشاطا وجراة واسعد حضا فى ممارسة القرصنة البحرية فكانوا يهاجمون السفن من كل حجم وينزلون فى شواطىء ايطاليا وغيرها وياخذون المئات والالاف من الاسرى المسيحيين يحملونهم الى الجزائر . ولا زالت صوامع الحرسة التى شيدت لدفع غارات القراصنة قائمة على سواحل ايطاليا بعضها سالم والبعض الاخر فى حالة انهيار . وتوجد كثير من الوثائق المتضمنة للوقائع التى جرت بالمدن الايطالية والاوراق القديمة التى وردت فيها عدة انباء عن تحرشات ومهاجمات القراصنة الذين ينسبون غالبا الى الاتراك او البربر ، الامر الذى يجعلنا لا نستطيع أن نجزم هل هم جزائريون أم تونسيون او غيرهم ، وسواء احصلت الهجومات والاستلاء على السفن من هذا الجانب او ذاك فقد كانت النتيجة المؤلمة تزايد عدد العبيد المسيحيين أو المسلمين على ضفتى البحر المتوسط .

يتبع

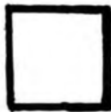


دراسات اسلامية









عالميّة الإسلام وخلوده

محمد الصالح الصديق

من الحقائق الاولية ، ان الاسلام لا يمثل حضارة خاصة بعهد من العهود ، تتجلى فى عمران ذلك العهد ، وفى آثاره ومختلف صوره ومعالمه ولما مضى ذلك العهد مضى معه الاسلام ولم يبق الا على لسان التاريخ ، يردده كما يردد الحضارات البشرية المختلفة التى مرت بهذا الوجود كاليونانية والرومانية وغيرهما ، وهذا اعتقاد كثير من المستشرقين المتعصبين و (انصاف) المسلمين الذين اخذوا من العلم وهما وظنوه حقيقة ، وقشورا حسبوها لبابا .

ان الاسلام دين حى ، ورسالة خالدة ، سيظل يمد بطاقته الحية كل عهد من عهود التاريخ وكل مجتمع من مجتمعات الانسان ، وكل طور من اطوار البشرية مايفى بالحاجة فى الاوان دون تأخر أو قصور ، لانه دين الله الحق ، الذى يساير الحياة فى نموها ، وتطورها ، يراقبها فى تقلباتها ، ويعيدها الى الجادة عند انحرافها وزيغها ، ويرشدها فى مشاكلها ، ويعارضها فى اتجاهاتها الفاسدة .

واذا كان الاسلام قد انتشر فى مختلف أرجاء العالم انتشارا مدهشا لم يعرف التاريخ مثله لدين من الاديان ، وكتب له هذا الخلود بفضل نظمه وأسسه وتشريعاته التى سادت بها البشرية قرونا طويلة فانه سيبقى كذلك ما بقيت الحياة لانه الدين الذى تلتقى تعاليمه مع الفطرة وتأخذ طريقها الطبيعى الى النفوس . **اليس دينا لا** يفرق بين عنصر وعنصر ، ودينا يؤدى بالمجتمع الى مستوى أفضل ، ويأمر بالايمان بسائر الكتب المنزلة ، وبجميع الانبياء والرسل ويأمر بالسلوك الحسن مع أهل الديانات الاخرى ؟

اليس فى حقائقه الباقية الخالدة ، وفى نظرته الى الكون ، وفى تقديره لمصالح الناس وحقوقهم وطلبه الايمان عن طريق التأمل والعقل ، وفى رفعه الحرج وتوخيه اليسر ... اليس فى كل هذا ما يدل دلالة قطعية على ان الاسلام دين عالمى ، دين الانسانية جمعاء ؟

ودين هذا طبعه ، وهذا زاده فلا بد ان يتعلق به الناس اذا هم نظروا فيه بعقول سليمة وفطر هادية ، وتجردوا من الاهواء والنزعات..

ولعل من الدلائل الواضحة ايضا على بقاء الاسلام ، يواكب الانسانية فى مختلف تطوراتها انه الدين الوحيد الذى استطاع ان يصمد اربعة عشرة قرنا أمام غارت هوجاء ، وهجمات قاسية متتالية ، ومؤثرات وتدليسات وثورات داخلية وخارجية ، فردية وجماعية لا تستطيع ان تواجهها الاديان الاخرى . فكم من ديانات تلاشت وتبخرت امام هجمات أقل اضعافا ، من تلك الهجمات وبقى الاسلام كما هو ، وكم من حضارات سادت ثم بادت كأن لم تغن بالامس وظل الاسلام بروحه وشخصيته كما كان ، وفى هذا يقول الاستاذ أبو الحسن الندوى فى احدى محاضراته بكلية الشريعة السورية حول حركة الاصلاح فى تاريخ الاسلام سنة ١٩٥٦ :

(لقد كانت الباطنية بفروعها ومذاهبها المتنوعة خطرا على روح الاسلام النقية وعقائده الصافية الواضحة ، تتهدد وضع الاسلام الحقيقى وكذلك كانت الغارة الصليبية ثم هجوم التتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ صاعقة نزلت على الاسلام والامة الاسلامية وكانت جديرة بأن تقضى على الاسلام وتقصيه من ميدان الحياة ومصاف الامم ، فلو كان غير الاسلام من الديانات للفظ نفسه الاخير واصبح اسطورة من الاساطير)

ولكن الاسلام تحمل كل هذه الصدمات ، وكل هذه الصواعق ، واستطاع ان يعيش رغم كل ذلك ، ولم يكف أنه عاش وبقى يلعب دوره بل انه شق طريقه الى الامام وفتح فتوحا جديدة فى ميدان العلم والعقل والسياسة .

وما ذلك الا لانه دين الله الحق ، الذى اعلن عن شكله النهائى وطوره الكامل يوم عرفة بقوله **« اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا »** .

والدارس للقرآن ، والمتبع لنصوصه بتفهم تتجلى له خصائص الاسلام التى اهلته لان يكون عالميا ، ، وبالتالى ليبقى ما بقى الانسان . وتلك الخصائص يمكن ايجازها فيما يلى :

« ١ ـ وفاؤه بحاجة الانسانية جمعاء فيما يصون وحدتها ويرعى انسانيتها ، ويحمى افرادها فى العاجل او الاجل .

٢ ـ تشريعاته التى تضمن قيام الانسانية كلها فى محيط واحد لا تنزع معه الى عصبية دم او اختلاف لون او فرقة جنس ..

٣ ـ اتساقه مع حقائق الكون وخصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع مايثبت من حقائق العلم او يختلف مع منطق الفكر .. »

بالاضافة الى ان معجزة الاسلام الباقية لم تعتمد على خوارق العادات شأن الاديان

الاخرى ، كاحياء ميت او تحرك عصا ، بل اعتمدت على النظر ، والتأمل ، والعلم ، والمعرفة ، وشتان بين معجزة لا يتاثر بها الا من رآها او عاش فى عصرها ، ومعجزة باقية بقاء الحياة تفد عليها اجيال واجيال ، فتقف ناظرة متأملة ، متأثرة ، ثم تمضى لتفد اجيال واجيال اخرى وهى ثابتة خالدة مع الزمان والمكان يستضىء بها الوجود الانسانى فى طريق الحياة ..

ماذا تنشد الانسانية فى هذا الوجود ؟

اذا كان الامن والطمأنينة وحماية العقل والعرض والمال والنسل ، ففى الاسلام ضالتها واذا كان التعاون والوحدة والعدل والايثار ففى الاسلام مطلبها ، واذا كان الكرامة والحرية والمساوات وحل مشاكل العيش والاقتصاد ، ففى الاسلام بغيتها ، واذا كان التكافل والتضامن وانس الفكر بالكون وتسخير الطبيعة لمصلحة الانسان والسفر الى القمر والكواكب ففى الاسلام ما يشجع على ذلك ويدعو اليه ... اليس هذا الكون الهائل كله بمن فيه وبما فيه مسخر للانسان ؟

(الله الذى خلق السماوات والارض وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره وسخر لكم الانهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سالتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار) .

اوليس اول آية نزلت من القرآن : **(اقرا باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرا وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ..) ؟**

ثم اليست نقطة انطلاق الدين رحلة النبى محمد طى الله عليه وسم الى الملا الاعلى ؟

ان دينا يفى بحاجة الانسان مهما تطور ، ومهما تنوعت هذه الحاجات لهو — لعمرى — دين الانسانية جمعاء ودين باق بقاء هذه الانسانية..

وايضا فى شخصية رائد هذا الدين ما يدل على عالمية الاسلام فان فيها ماتفرق من الخصائص والميزات والسجايا فى رواد الاديان الاخرى السماوية ، ففيه ما كان فى نوح من الشدة والغيظ على الكفار والمشركين ، وما كان فى ابراهيم من الثورة والجهاد فى تحطيم الاوثان والاصنام وما كان فى موسى من العمل على سن السنن الصالحة والشرائع الحكيمة ، وما كان فى عيسى من خفض الجناح والحدب والمحبة ، وما كان يمتاز به ايوب من الصبر على المكاره والشدائد ، والشكر على النعمة والعافية بعد الابتلاء وما امتاز به يوسف من الصبر على الاغواء والدعوة الى الحق وما اشتهر به يعقوب من الثقة بالله وطرد اليأس وقد استحكمت حلقاته .

وفى هذا اوضح الدلائل على ان محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء وانه رسول الانسانية جمعاء (**وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) .**

اما مايتشدق به بعض المستشرقين ، والمغرضين من ان الاسلام ليس دينا عالميا حيث بدات رسالته فى الجزيرة العربية وفى امة ابعد ما تكون عن الحضارة والتمدن بالنسبة الى الامم المتحضرة كالفرس والرومان فزعم باطل اوحاه ضيق العقل والافق ، وأملاه التعصب الدينى ، الذى يتجنى على العلم والعقل والتاريخ ، فى حين ان البحث العلمى يجب ان يكون منطقيا بريئا من كل تاثر ومن كل نزعة ولعل الحقائق التالية التى دحض بها هذه الشبهة من عنى بهذا البحث من المفكرين والتى يؤيدها الواقع والبحث العلمى التجريبى كافية فى الرد على اولئك ...

١ — طبيعى ان القوم الذين يضطلعون بالدعوة العالمية يجب ان تتوفر فيهم صفات تناسب عبء مهمتهم وخطورة رسالتهم من صبر وتحمل للمشاق ومخاطرة ، وشجاعة ووفاء وحرص على الشرف والسؤدد وتمرن على الهجرات والتنقلات وعدم التبرم بحياة التقشف الى غير ذلك من الصفات النبيلة . وقد اثبت التاريخ أن العربى مضرب المثل فى هذا المجال وانه ايضا يمتاز بتوقد القريحة وصفاء الذهن ورجاحة العقل ، وقوة الحجة والفصاحة والبيان ، وهى امور ضرورية لمن يقوم بنشر الرسالة العالمية .

٢ — اللغة العربية التى كانت اللغة الرسمية لهذه الدعوة ، فهى فى غزارة ماديتها وضروب بيانها وملاءمتها لكل مطالب الحياة وتمشيها مع التطور ما يرشحها لتكون لسان الرسالة العالمية .

٣ — عهدت الجزيرة العربية فى تاريخها الطويل انواعا من الرسالات ، فهود فى الاحقاب جنوب الجزيرة وصالح فى ثمود شمالى البلاد وشعيب فى مدين عند خليج العقبة ، وموسى الذى ناداه ربه بجانبى الطور على حدود الجزيرة ، وابراهيم الذى بنى البيت العتيق ...

٤ — كانت الاديان الموجودة فى العالم ممثلة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت فكان فيها اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والوثنيون وعبدة الجن وعبدة الملائكة الخ وجاء الاسلام الحنيف ليظهر عليها كلها ويكتسحها ، وكان انتصاره على الذين يدينون بها فى الجزيرة العربية انتصارا على كل من يدين بها خارجها .

٥ — للجزيرة العربية التى انبثق منها الاسلام صلاحية كبيرة لانطلاق الدعوة الى العالم اجمع لانها فىمكان وسط يتصل بأسيا وافريقيا واوروبا ، وهى القارات التى اخذت اذ ذاك حظا من النضج يؤهلها لتلقى الرسالة ..

٦ — فى الجزيرة العربية اول بيت وضع للناس وبناه ابراهيم ابو الانبياء ، وهو البيت العتيق التى تدين له جميع الديانات .. وبديهى أن هذه العوامل وهذه الامكانيات تساعد الجزيرة العربية على النهوض بالدعوة الاسلامية فى اطارها العالمى .. كما قدمنا ...

واذا كانت الثورة من اجل التحرر وتغيير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع ، والانطلاق نحو حياة افضل — من أبرز مميزات هذا العصر الذى نعيش فيه الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، والثورات الهادفة بالنسبة الى الامم والشعوب التى تقع فيها ، بمثابة عملية تلقيح وبعث وانطلاق من جديد فى طريق الحياة — قلنا اذا كانت الثورة من مميزات هذا العصر فان من ابرز مميزات الاسلام عن الاديان السماوية الاخرى هو طابع الثورة ... فبينما نرى رسالات الاديان كلها تهدف الى اظهار المعبود الحقيقى وهو الخالق ونشدان الخير للانسان ، نرى الاسلام دينا ثوريا منذ بدايته وسيبقى ثوريا الى الابد ، وهذه الخاصة — الفعالة — فيه من اهم العناصر التى تجعله دينا عالميا وبالتالى تضمن له مواكبة البشرية فى مختلف مراحلها وتطوراتها ايضا .. وبنظرة عجلى من الباحث المنصف الى (العمل الجازم) الذى غير به الاسلام مجرى التاريخ فى امد وجيز تتجلى ثورية الاسلام التى جعلته ينتشر فى مختلف اصقاع الارض انتشارا مدهشا لا عهد للتاريخ به ...

وليست (ثورية) الاسلام مازعمه ومايزعمه اولئك الذين يتحدثون عن الاسلام بدافع من التعصب الدينى أو التاثر بالاهواء الخارجية مما لا يقوله العاقل فى دين شعاره (لا اكراه فى الدين) بل ثورية الاسلام تتجلى وتتمثل فى تلك الاساليب القرآنية العجيبة التى واجه بها الاسلام حالة العالم السوأى ...

لقد كان العالم وقت ميلاد الاسلام تتوزعـــه دولتان كبيرتان ، ظالمتان ، دولتا الفرس والرومان وامتد نفوذهما على العالم اجمع وكان شغلهمـا الشاغل، وهمهما الاوكد الوحيد، امتلاك الشعوب والسيطرة على مقدراتها واستغلال امكانياتهـا لصالح الامبراطور وطائفة من قواده وانصـاره واتباعه فأصبحت ترزح تحت كابوس ثقيـل من الذل والهــوان ... وفى الجـزيرة العربية يعيش العرب فى حالة اجتماعية وسياسيـة وعقائدية تفوق كل تصوير : حروب لا تنقطـع بين القبائل لاتفه الاسباب ، وعادات مستحكمـة فى النفوس لا اقبح منهـا ولا اشنع كواد البنـات ولعب الميسر ، والانصاب ، والازلام وزجر الطير للنحس والسعد ... **وسطوة القوى علـى** الضعيف وعنجهية التكبر والتجبر .. فحـدث عن البحر ولا حرج .. كل هذا الى اصنـام تعبد ، واوثان تقدس .... ولما جاء الاسلام ووجد هذه المفاسد النكــراء التـى تتخبط فى حمأتها البشرية والتى لا يصلح معها مجتمـع ــ واجهها بأساليب ثائرة لا لين فيها ولاهوادة ونلاحظ هذه الثورة التى لابد منها لبعث الحياة فى الوجود فى الاساليب التى استعملها القرآن فى تغيير الوضع الذى اصابه الانهيار ، وفى طريقتــه للدفـع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار ، فهو يهدد **(ذرنى ومن خلقت وحيدا)** (١) وينذر **(سارهقه صعودا)** (٢) ويدعو بقطع اليدين **(تبت يدا ابى لهب وتب)** (٣) ويزجر **(كلا انه كان لاياتنـا عنيدا)** (٤) ويستفهم للسخرية وينبه للقـوة **(واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسـودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه فى التراب الا ساء ما حكمون)** (٥) و يستهجن عقيدتهم الجـائرة فى جعل الملائكة اناثا **(وجعلو الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسالون)** (٦) ويعرض بأخلاق المراة الجاهلة عنطريق التنويه بفضائل المراة المسلمة ومحاسنها **(محصنات غير مسافحات ولا متخذات اخدان)** (٧) وسفه أحلام عبدة الاصنام ويؤكد عجزهـا المطلق الدائم فى تهكم وسخرية **(ان الذين تدعون من دن الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذونه منه ضعف الطالب والمطلوب)** (٨) ويشبه الكافرين بالانعام **(والذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم)** (٩)

وبهذه الاساليب الثورية واجه الاسلام عناد الكفار وتعصبهم فى الضلالة والغواية واستطاعت دعوة الاسلام فى امد وجيز ان تنشل الانسانيـة من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى وتنقـل الاجلاف العرب من هوة الصغار والضياع الى خير **امة اخرجت للنــاس)**

وتهدأ ثورة الاسلام عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية .. فيجمع لهم بيـن الشدة واللين والتأدب والتهذيب حتى **يألفوا** حياة الاســلام الجديدة ويطبعوا بطابعها ، فتراه يلفت نظرهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تاليف القلوب وراب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب فى جاهليتهم وحدة وعداوتهـم فى الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه فى متاهـات الشهوات والعداوات والحزازت ، **(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة اللـه عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتـم بنعمته اخوانا وكنتم على شفى حفرة من النـار فانقذكم منهـا** ٠٠) وينصحهم بالتخلى عـن بقايا عاهات الجاهلية ومساويها **(يا ايها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكـونـوا**

---

(١) المدثر (١٩ ــ ٢)

جيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ..) (ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) ويهديهم وفق ما تتطلب الحياة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار المفاضلة الطاعة والتقوى **(ياأيها الناس انا خلقنكم من ذكر وانثى وجعلنكم شعوبا وقبائل لتعارفو اناكرمكم عند الله اتقاكم)**

ونلمس هذهالثورة القرءانيةنفسهافى رائدالاسلام محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمه أبو طالب بينه وبين المشركين فاندفع فى صدق وايمان وفى لهجة قوية صارمة وقال قولته (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر او اهلك دونه) ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبة **يوم فتح مكة هدأت ثورته ولان اسلوبه ...**

من تلك المدرسة القرآنية الكبرى ، التى كان يعلم فيها محمد صلى الله عليه وسلم تخرجت افواج من الرجال الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها وكانوا فيها سادة العالم تدين لهم رقاب الجبابرة وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين..

وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة : ثورة وسلم ، وشدة ولين انتصرت دعوة الاسلام ، ولو لم يحمل الاسلام هذا السلاح لما انتصر .. وسيظل ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشرية وتوجهها خير توجيه الى معالم الحياة المثلى

والنتيجة التى يمكن الانتهاء اليها بعد هذه الملاحظات السريعة العامة انه لابد للبشرية من دين يحفظ التوازن الانسانى لكى تواصل البشرية سيرها بنظام فى طريق الحياة .. وان الدين الوحيد الذى يكفل هذه المهمة هو الاسلام لانه الوحيد – كما قدمنا – الذى يفتح ابوابه للبشرية على قدم المساوات الكاملة ، وعلى اساس الشعور الخاص ، ويساير الحياة فى تجددها وتطورها فى حين ان الاديان الاخرى لم تعد لها وظيفة ايجابية فى حياة المجتمع الانسانى لان النظم التى قامت على اساسها قد ترنحت وتداخلها تبديل وتغيير ... والواقع يشهد بأن المجتمع (قد انعزل عن روح المسيحية فى البلاد المسيحية نفسها وقامت اسسه على افكار مادية محضة بعضها مستمد من التقاليد الرومانية القديمة وبعضها مستمد من المذاهب الفكريةالمادية الحديثة) بالاضافة الى ان المسيحية مثلانحلة محلية جاءت تكملة لليهودية الاولى وليس هذا مجرد زعم منا يفنده الواقع بل هو حقيقة نص عليها المسيح نفسه ولقد قال (لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة) (١)

والحقيقة التى لا يمارى فيها الجاهل والمتعصب هى انه : ما من فكرة ، أو نظام ، أو مذهب عرفتها البشرية حتى اليوم فى تنظيم العالم كوحدة انسانية وفى تنظيم المجتمع كوحدة بشرية الا وفكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان اكبر منها واعظم قابلية للنمو والتجديد واقدر على التوفيق والتنسيق بين قوى الحياة وطاقات الانسان وحاجات البشرية .

وتجارب البشرية الطويلة الدائمة لطبيعة الاسلام ، وتجاربها لطبائع الاديان الاخرى ولكل مذهب او نظام او فكرة تؤدى دورا فى عالم الحضارة – هذه التجارب كفيلة بأن تؤكد يوما بعد يوم صلاحية الاسلام لكل زمان ومكان وعدم صلاحية تلك لقصور اهدافها عن شمول مطالب الانسانية المادية والروحية معا . وحاجة البشريية المتارجحة اليوم – الى

---

(١) انجيل متى : الاصحاح ١٥ – آية ٢٤ .

الاسلام — لينقذها من الهلاك ، لا تقل عن حاجتها اليه منذ اربعة عشر قرنا ...

ان الحالة التى تعيشها البشرية اليوم لا تقل سوءا وتدهورا وخطرا عن تلك الحالة التى كانت تتخبط فيها الانسانية قبل مجيء الاسلام مع اختلاف الاسباب فقط ...

بديهى ان العصر الذى نحن فيه قد فاق جميع العصور السابقة فى الرقى المادى والاكتشافات العلمية ، والاختراعات الباهرة ، حسبك أن الانسان اصبح يحقق من حين لاخر ما كان خيالا بالامس ... وجد كل شيء فى متناول يده ... يفعل ما يشاء ويختار ... كهرباء ، بخار ، غازات سامة ، غواصات ، طائرات ، صواريخ مراكب فضائية ... وجد انسان اليوم كل هذا واكثر ... ولكن فقد شيئا هو كل شيء .. فقد الشعور بالحياة ، فقد هدوء القلب ، وطمأنينة النفس وراحة الضمير ، وانفلت من الدين الصحيح لذى يشعره انه ليس ذرة تافهة تائهة فى هذا الوجود لا اصل لها ولا قرار ، وانحرف عن النظام الانسانى الذى يميزه عن الالة والحيوان فأين تلك المشاعر الانسانية الدافئة التى يستروح فى ظلها من هجير حياته الدائبة الصاخبة من أجل حياته المادية البحتة ... ؟

ولقد زار كاتب عربى امريكا منذ سنوات وشاهد الناس هناك كيف ياكلهم القلق العصبى الشامل ، القلق الفردى والعائلى والاجتماعى بالرغم من الانتاج الضخم والثراء الفاحش واللذئذ المتنوعة والمباحة ، وبالرغم من مظاهر النعمة والترف ووسائل الراحة ، وبالرغم من المرح الكثير والضحكات المتعالية فى الهواء هنا وهناك وبالرغم من الوثبات فى الطريق ... فكتب يصف حالهم تلك فى دهشة مما راى وسمع وقال عنهم بالخصوص :

(.. انهم آلات تتحرك فى جنون وسرعة وهياج لا يقر لها قرار وكثيرا ما كان يخيل الى ان الناس هناك فى طاحونة دائرة لاتنى ليل نهار .. تطن بهم ويطنون ، لا يهداون لحظة ولا يطمئنون الى انفسهم ولا الى الحياة من حولهم — ان كاكنوا يحسون ما حولهم — ليست هناك لحظة للتأمل ولا حتى للشعور بالحياة ذاتها وهى تدور ...)

اما راحة الضمير وهدوء البال ، والتجاوب النفسى ، والاهتمام بالوشائج الوثقى فى الاسرة فشيء لا وجود له فى قاموس حياة الامريكى ...

ولقد ادرك علماء النفس والطب والاجتماع خطورةهذهالحال ، التىتقود البشرية (المتحضرة) الى الضياع ، ولاحظوا فى دهشة ازدياد المصابين بالعقد النفسية والامراض العصبية ، وكثرة الانتحار ، وتفشى القلق والاضطراب سيما فى الشعوب المتحضرة ، ولقد كان فى امريكا وحدها تسعة ملايين شخص مصابين بأمراض عقلية اى بنسبة واحد فى كل ١٦ (وهذا فى احصاء سنة ١٩٥٣) والانحراف الخلقى الذى بلغ درجة مريعة لا يفتأ يزحف بالمسخ والتشويه على الانسان هناك ...

ولقد وقف المفكرون تجاه هذه الحضارة التى كانوا يتوقعون انها ستغمر الناس بالسعادة نتيجة الاكتشافات العلمية الباهرة .

اذن فالحضارة الغربية التى تمثل اليوم أرقى حضارة فى العالم ، لم تستطع ان تكفل السعادة للانسان — بدليل الواقع التجريبى — ولذا فلا بد من حضارة اخرى تأخذ بالانسان الى حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية لكى تحفظ التوازن بين الحايتين المادية والروحبة ، وفى ذلك سعادة الانسان ، واذاطغتاحداهما علىالاخرى تكدر صفوه وعجز عن القيام بالدور الحضارى الذى تتطلبه الانسانية فى هذا الوجود ، والحضارة المتكاملة هى الحضارة الاسلامية لانها حضارة جسد وروح ..

وفى هذا المعنى يقول السيد قطب فى مقال تحت هذا العنوان (المستقبل للاسلام) نشرته (المسلمون) سنة ١٩٥٢

(... فاذا انتهت الشيوعية — ولا بد أن تنتهى لانها الخطوة الاخيرة فى خط سير الحضارة المادية — فان البشرية ستعود الى نوع من الاعتدال والتوازن لا تجده فى روحانية المسيحية الخالية ولا فى مادية الشيوعية الجامدة ، ولكن فى فكرة وسط عن الحياة فكرة تحتضن الروحية الصافية الصادقة ، وتحتضن الواقعية المادية المعتدلة ، وتصوغ منها عقيدة للضمير ، ونظاما للحياة واحلاما دائمة للبشرية كلما حققت منها حلما ارتفعت فى الافق الى حلم جديد ، والفكرة الوحيدة التى عرفتها البشرية وتتحقق فيها هذه السمات هى فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان) .

ويقول المؤرخ الانكليزى الشهير (ارنولد توينبى) فى فصل (الاسلام والغرب والمستقبل) من كتابه (الحضارة فى الامتحان)

(نستطيع ان نستخلص من الاسلام مبادىء معينة قد يكون لها اذا ما طبقت فى الحياة الاجتماعية عند البروليتارية العالمية الجديدة آثارا مستحبة هامة على المجتمع الكبير فى مستقبل قريب . هناك مصدران واضحان من مصادر الخطر احداهما نفسى والاخر مادى فى العلاقات الحالية بين هذه البروليتارية العالمية والعنصر المسيطر فى المجتمع الغربى المعاصر ، هما . الشعور العنصرى والمشروبات الكحولية وان لروح الاسلام فى كفاح هذين الشرين فضلا كبيرا تؤديه ، وقد يبرهن اذا ما طبق انه يشتمل على قيم خلقية واجتماعية سامية . ان من ابرز ما حققه الاسلام انعدام الشعور العنصرى بين المسلمين وان واقع العالم اليوم فى حاجة صارخة الى الدعوة للفضيلة الاسلامية ، ويحق لنا ان نرى فى روح الاسلام مددا ياتى فى ابانه فيفصل فى هذه القضية لصالح التسامح والسلام)

على ان هذه الفكرة ، فكرة قيام الاسلام بدور حضارى جديد قد تقابل بالاستخفاف او على الاقل بالاستبعاد ، سيما من اولئك الذين سلبتهم الحضارة الغربية ثقتهم بأنفسهم وبأمتهم وبدينهم فأصبحوا يعدون حتى حماقاتها وسفاسفها تقدما و (مودة) .

ونحن نقول ما قاله المفكرون الاجتماعيون (من ان انهيار الحضارة الغربية وانتقال الدور الحضارى الى الاسلام لا يتم فى عشرين سنة او نصف قرن مثلا فلقيام الحضارات وانهيارها سنن طبيعية لا تتخلف واذا بدا الخلل فى قاعدة قلعة حصينة فقد يبدوا للعيان امدا طويلا انها فى ذروة قوتها وهى مع هذا آخذة فى الانهيار)

بيد ان الاسلام بالرغم من عالميته وبالرغم من قدرته على البقاء — يلبى الفطرة البشرية تلبية كاملة — تواجهه خلال حياته الطويلة محاولات متنوعة فى الداخل والخارج لتشويهه

ان الاسلام وان كان كالحياة كلاهما دائم الشباب دائب الحركة مستمر النمو لا يعرف الركود ولا يصيبه هرم او تعطل لما فيه من حيوية لا تنفد ومادة لا تفنى ومن ثم فهو لا يتخلف عن ركب الحياة ولا يعجز عن مسايرتها مهما انتقلت من طور الى طور — تواجهه خلال حياته الطويلة محاولات متنوعة من الداخل والخارج لتشويهه والخروج به عن مفاهمه والانحراف بهعن طريقه ، والبعدبه عن روحه والتاريخيشهد بأن الاسلام كان عرضة لانتحال المبطلين ، وتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وداخلته بدع وخرافات وتسربت اليه الوثنية عن طريق التقليد والجهل وفشت فيه — وما تزال — مفاهيم منحرفة مضطربة ومنكرات جاهلية ومن ثم كان التجديد وكان المجددون فى كل عصر للتذكير بقيمه الاساسية والكشف عن جوهره الحقيقى وايقاظ القلوب حوله ، وتخليصه من البدع

والخرافات والشوائب التى الحقت به وهو منها برئى حتىيعودالى منبعه الاصلى . وبذلك يتجدد الاسلام وتعود اليه قدرته فاذا به روح جديـــد قوية تنطلق من جديد فى طريق فسيح تعطى الحياة البشرية غذاءها وتدفع بها الى الحركة واليقظة والبناء مثله فىذلك مثل (المجرى الطويل مـــــن النهر حين يترك مندفعا لاتحوطه وسائل الدماية من شواطىء عالية أو سدود تحول بينه وبيـــن ان يفقد مجراه الاطلى) ومن هنا كان ظهـــور المجددين للفكر الاسلامى امرا ضروريا للحيلـــولة بينه وبين التوقف او ترك مجراة الاصلـــى .

وكانت فكرة التجديد انشودة كثير من رجـــال الفكر الاسلامى ، فى مختلف عصوره ، وبلغت العناية بها الى حد ان افردت بالتأليف والمقالات والابحاث المستفيضة ، فهذا الامام السيـــوطى الذى توفى فى أوائل القرن العاشر الف منظومة فى بيان اسماء المجددين الى عصره سماهـــــا (تحفة المهتدين فى بيان أسماء المجددين (ووضع كتابا فى التجديد والمجددين سماه (التنبئة بمن يبعثه اللـــه على راس كل مائة) وهذا المراغى الجرجاوى من علماء القرن الرابع عشر يكمـــل منظومة السيوطى باسماء المجددين بعد عصـــر السيوطى ، ويشرحها كما شرح منظومته المكملة الى الان وسماها (بغية المقتدين ومنحة المجددين على تحفة المهتدين) وجاء الاستاذ امين الخـــولى فوضع كتابه (المجددون فى الاسلام) الذى طبعه سنة ١٩٦٥ على اساس الكتابين المذكوريـــن (التنبئة للسيوطى ، والبغية للجرجاوى)

وليس من قصدنا ان نستقرئى اسماء من كتبوا قديما وحديثا فى التجديد وانما نريد فقط ان نسجل اهمية هذا الموضوع ومـــدى عنايـــة الباحثـــين به كما نريد ضمن ذلك ان نلفت النظر الى اننا لا نطمع ان نفى الموضوع حقه فى هذه العجالـــة فذلك مالا نطمح اليه لانه يتطلب وقتا متسعـــا وجهودا خاصة وانما هى لمحة خاطفة قد تنير جانبا من جوانب الموضـوع ..

وما زال الحديث يؤكد ناموس التجديد للاسلام فقد قال طى الله عليه وسلم (ان الله يبعث لهذه الامة على راس كل مائة سنة من يجـــدد لهـــا دينهـــا)

وقد اتفق الحفاظ على أنه حديث صحيح وممن نص على صحته من المتأخرين الحافظ ابو الفضل العراقى والحافظ ابو الفضل ابن حجر فى مناقب الشافعى . اما المتقدمون فقد ذكر السيوطـــى فى كتابه (التنبئة ...) انهمجميعا لجهوا بذكرهذا الحديث .

وسواء اكانت فكرة التجديد مبكرة أم متأخرة فانها قضية معروفة خاضتها أفكار الباحثـــين واقلامهم مما يجعل المتحدث عنها اليوم فى أمـــن مـــن الحـــرج ...

ومن الحقائق البديهية التى قد يعرفها كل مـــن لـــه المـــام بتـــاريخ الاســـلام ان سلسلـــة الاصلاح والتجديد متصلة الحلقات بحيث لا توجد فترة من الزمن لم ترتفع فيها صيحة الحق تعارض التيار المنحرف ، وتكافح الفساد الشامل ، وتدعو الى تصحيح المفاهيم وتصون المجتمع من الانتكاس وتفتح نوافذ جديدة فى التفكير ، وهذه الثـــورة الضخمة وهذا الرصيد الشامخ الهائل ، الـــذى نعتز به ونفاخر الامم والاديان ، والذى يتمـــثل فى العلم الواسع ، والعقيدة المحفوظة ، والايمان القوى ، والسنة الخالصة ، والاخلاق القويمـــة والفقه والتشريع كل ذلك واكثر ندين به لاولئك المصلحين المجددين الذيـــن ظهـــروا فى مختلف العصور الاسلامية ، فوقفوا انفسهم لخـــدمة الاسلام على انه اصلاح للحياة ، واحكام للصلة بينه وبين قافلة الحياة حتى يشرف على سيرها .. قال صلى الله عيه وسلم (لا تزال طائفة مـــــن امتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتـــى تقـــوم الساعة)

ولا يتسع الا مجلد لذكر كل من ساهم بجهود مخلصة فى سبيل بقاء الاسلام حيا خالدا دائم التطور ، دائم الشباب ، فاذا علمنا ان الصحابة المجتهدين بلغ عددهم — كما نص على ذلك الامام السيوطى — مائة الف واربعة عشر الف مجتهد وان كل واحد منهم قد وضع لبنة فى هذا الصرح الشامخ ، ادركنا ان استقراء المجددين فى مختلف العصور الاسلامية شىء لا يطمع فيه .

وحسبنا ان نستعرض اسماء طائفة قليلة منهم دون التعرض لتحديد عصورهم ، ودون التدخل فى مناقشة العلماء فيما اختلفوا فيه من تعدد المجددين فى كل مائة سنة ، وفى تقديم هذا على ذاك واعتبار هذا دون ذاك ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون على الاسلام جدته وشبابه عمر بن عبد العزيز — الامام محمد بن ادريس الشافعى — ابوا العباس ابن سريج — ابو سهل الصعلوكى — ابو الحسن الاشعرى — القاضى الباقلانى — ابو نصر الماتريدى — ابن حزم — الغزالى — ابن تيمية — وغيرهم كثير ...

وقد ظهر المصلحون المجددون فى القرون الاخيرة عبر العالم الاسلامى من امثال محمد عبد الوهاب (نجد) الشوكانى (اليمن) شبلى النعمانى (الهند) البيطار (سوريا) القاسمى (دمشق) محمد بن العربى (المغرب) جمال الدين الافغانى ومحمد عبده (مصر) الطاهر بن عاشور (تونس) وعبد الحميد بن باديس (الجزائر)

وكان دعاة الاصلاح والتجديد فى هذه الفترة احد رجلين : (مفكر) يحمل القلم يصحح المفاهيم ويكشف عن جوهر الاسلام و (مصلح) يحمل لواءالاصلاح بالتوجيه ، وحفز الهمم لرد العوادى عن الاسلام وكيان المجتمع عن طريق الاقناع والمواجهة فى النوادى والمعاهد والمساجد وفى مختلف المناسبات ...

والملحوظ ان المصلحين المجددين يواجهون فى كل عصر مقاومات وخصومات ، ويبدوا ان ما واجهه المصلحون فى الفترات الاخيرة من التاريخ اعنف واخطر ذلك لانهم بالاضافة الى خصومات العامة الذين يفضلون ابقاء الحال على ما كان عليه من ركود وجمود ، قد واجهوا مقاومات اشد واعنف من قوى الاحتلال والاستبداد التى كانت تعمل من اجل ان يظل المسلمون على مفاهيم جامدة اتصلت بدينهم من اسرائيليات ووثنيات وشبهات فلسفية وبدع وخرافات ، ... زيادة على الافكار السامة التى يبثها الفلاسفة الماديون امثال نيتشة ولوريس ، وديوى ، وفرويد وليم سميث ودارون ، وماركس ودر كايم ... اولئك الذين لا يسلمون بوجود الروح ولا القوى الغيبية ولا يرون أن (القيم الاجتماعية العقلية والتعاليم الروحية باقية) .

ولكن بالرغم مما يلاقيه المصلحون المجددون فى طريق دعوتهم من عقبات كاداء ، وعراقيل متنوعة ، فهم المنتصرون لانهم يملكون ايمانا قويا جديدا وسموا روحيا وتفانيا فى المبادىء والعقائد ، ومستوى عقليا وعلميا بعيد الحدود ولانهم قبل كل شىء يمشون بنور الله فى الناس فكانوا اجلاء بجلال الحق اقوياء بقوة الايمان عظماء بعظمة الاسلام ...

ذلك هو الاسلام فى عالميته وتجديده، وخلوده وسيبقى عالميا ومتجددا وخالدا يحمل الشعلة للضالين فى متاهاة الحياة ، ويمد الانسان ثراء لا يغيض ، ويراقب سيره فى الحياة حتى لا ينفصل عن السماء فيتردى فى حضيض المادية المطلقة

فيصاب بالجفاف والخواء وهو فى عالميتـــه وتجدده ينتظر دوره لقيـادة الحضارة الانسانية مـــن جـــديـــد ...

واننا حين نمسك بزمام الحضارة المرتقبـــة ـ كما قال يوما الدكتور مصطفى السبـاعى ـ لن نتخذ من الوصول الى (القمر) دليلا علـــى انكار وجود الله ، وان نتخذ من الصـــواريـــخ عابرة القارات ذريعة الـــى تهديـــد الامـــم ، والشعوب لتظل تحت دائرة نفوذنا ، ولن نتخذ من الاذاعة وسيلة للتضليل ولا من السينمــا آلة للاغـــراء ولا من المراة متعة للجسم ولا من التقدم الحضارى اداة لاستغلال الشعوب المتخلفة واستثمار خيراتها واذلال كرامتها ...

بل لنحقق للانسان قسطا كبيرا من الامــن والطمانينة والحياة الانسانية المستقرة

محمد الصالح الصديق

مـــراجع البحث

الطبقات الكبـــرى لمحمد بن سعد

الامـــم والـــرسالة للشافعى

المحلـــى لابن حـــزم

تاريـــخ الخلفـــاء للسيوطى

اعـــلام المـــوقعـــين ابن القيم

القيم الاســـاسيـــة انور الجندى

المجددون فى الاسلام امين الخولـــى

التنبئية بمن بعثه الله على راس كل مائة السيوطى

مجلة (المسلمون) العدد ـ ١٠ ١٩٥٣

عددان من (منبر الاسلام) ١ ١٩٦٦/٥ ١٩٦٤

المنتقـــى فى التـــربية ج السادس (م) محمـــد الصـــالـــح الصـــديـــق





المجابهات الثقافية

فى الجزائر المستعمرة

من 1830 إلى 1880

تأليف : د. تورين

تقديم : بوعمران الشيخ

استاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر

كان الاستاذ مولاى بلحسين قد تولى تقديم هذا الكتاب فى العدد السابق وصادف أن تناول نفس هذا الكتاب الاستاذ الشيخ بوعمران ، ونحن ننشر تقديم الاستاذ بوعمران لنفس الكتاب لانه تناوله من زاوية مختلفة .

موضوع هذا الكتاب هو المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة وخاصة فى المدارس والطب والدين ويشمل فترة خمسين سنة من ١٨٣٠ الى ١٨٨٠ ألفته الاستاذة « ايفون تورين » التى تدرس التاريخ فى جامعة الجزائر وكانت تدرس سابقا فى جامعة الرباط وجامعة باريس وقد اهتمت كثيرا بالمغرب العربى فى عهد الاحتلال ولها مؤلفات كثيرة — ويمتاز البحث باعتماده على وثائق هامة كانت سرية قبل اليوم واصبحت الان فى متناول الدارسين ، قسم منها بباريس وقسم آخر بمدينة ايكس .
غير ان هذه الوثائق كلها من مصادر فرنسية وينبغى ان تقارن بمصادر جزائرية واجنبية لنختبرها اختبارا علميا موضوعيا ومهما كان من الامر فان هذا الكتاب اتى بمعلومات مفيدة جمعتها الاستاذة ورتبتها بعد جهد كبير وصبر طويل والقى بحثها اضواء جديدة على وقائع كنا نعرفها جملة وعلى احداث يقصر المامنا بها على جوانب هامشية ، وحاولت ان تشرح مواقف كل من المستعمرين ومن الوطنيين ووضعت صراعهم الطويل فى ظروفه التاريخية ، ونعرض هنا باختصار وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال ثم استعمال الطب لاغراض سياسية واخيرا المجابهات التى قامت فى هذه المجالات .

١ — وضعية التعليم والثقافة فى بداية الاحتلال

بين الكتاب ان المدارس والمؤسسات الثقافية كانت منتشرة فى كافة انحاء الوطن وان مستوى التعليم العام فى بلادنا لم يختلف عما كان عليه فى المدارس الفرنسية . وذلك باعتراف « دوماس » (ص ١٢٧) ووردت فى البحث ارقام واشارات مبعثرة هنا وهناك نرتبها حسب المدن والمناطق فيما يلى :

* **عنابة** — المدارس : ٣٩ ، المساجد : ٣٧ ، الزوايا : زاوية سيدى بن عبد الرحمن وزاوية سيدى عبد القادر ، بعد الاحتلال لم يبق الا ٣ مدارس و ١٥ مسجدا (ص ١٣٤) .
* **قسنطينة** — المدارس ٨٠ المعاهد ٧ المساجد : ٣٥ ، فى المنطقة : ٣٠٠ مدرسة وزاوية شطابة ، وبعد الاحتلال بقيت ٣٠ مدرسة (ص ١٣٥) .
* **تيزى وزو** — عدد غير محدد من المدارس والزوايا يتردد عليها تلاميذ وطلبة كثيرون (ص١٣١)
* **العاصمة** — المدارس : ٢٤ ، فى المنطقة : ٢٩٩ مدرسة و ٥٥٨٣ تلميذا (ص ٢٤٣)
* **مازونة** — معهد للدراسات الفقهية مشهور يأتيه الطلبة من عدة جهات (ص ٢٤٨)
* **وهران** — مدرسة الشريعة (ص ٢٢٠)
* **تلمسان** — المدارس : ٥٠ ، المعاهد : ٣ ، الزوايا : ٣٠ ، فى المدينة ٢٠٠٠ تلميذ و ٦٠٠ طالب ونظام داخلى فى المعاهد يحتوى التدريس فى المرحلة الاولى على الكتابة والقراءة والنحو والحساب والقرآن ، وفى المعاهد والمساجد يدرس الادب والتاريخ والفقه والتوحيد .

والجدير بالذكر ان الدولة لم تنفق على المؤسسات ولم تخصص لها ميزانية وانما كانت الاوقاف تتولى ذلك ، وكان رجال التعليم والثقافة يتمتعون بمكانة ممتازة فى المجتمع (ص ٨٣) وتذكر المصادر ان العلاقات بينهم وبين البلاد العربية كانت متواصلة ، وكان الطلبة يذهبون الى تونس والمغرب الاقصى والى المشرق ليستكملوا تعليمهم (ص ١٢٢ — ١٢٩) وبعد التحصيل فى المدارس والمعاهد كانوا يشتغلون فى الوظائف المختلفة ، الامر الذى لم يتحقق فى عهد الاحتلال .

٢ ــ سياسة الاستعمار الثقافية :

تتلخص اهداف هذه السياسة فى القضاء على الثقافة الوطنية ونشر التعليم الفرنسى مكانها ، وكان الغرض من هذا التعليم ان يتحول المجتمع الجزائرى تحويلا كليا يجعله يخدم مصالح المستعمر (ص ٧٣) ، ولهذا انتهجت السلطة الفرنسية سياسة ــ الاندماج ــ

وارتأت ان التعليم هو احسن وسيلة لتحقيق تلك السياسة ، وارادت أن تزيل « الافكار المتخلفة » المتفشية بين الاهالى ومعنى هذا القضاء على ثقافتهم ولغتهم وشخصيتهم ــ وهكذا تتمكن الدولة المحتلة من السيطرة على الوضع ويتركز نفوذها فى البلاد ، وفى النهاية ــ يتقبل السكان النظام الجديد ويرضون به ولا سيما فى المدن (ص١٦٤) وجاء فى تقرير احد المسؤولين « ان بناء مدرسة افضل من فيلقين لاقرار الامن » (ص ١٦٥) .

وتخيل للمستعمرين ان التعليم يستطيع مزج العناصر البشرية المختلفة بفضل اختلاط الاطفال فى المدارس وبهذه الصورة تتكون وحدة شاملة من شعبين متضادين (ص ٢١٣) وبدا العمل على تطبيق هذه السياسة فى مراحل تضمن لها النجاح وتجعل الاهالى لايتفطنون الى ابعادها وتنحصر المرحلة الاولى فى مراقبة التعليم الاصلى ومؤسساته ورجاله مع محاولة « توجيهية » نحو اغراض المستعمر ، والتدريج ضرورى حتى لايثار « التعصب » والمفهوم من هذه الكلمة ان السلطة الاجنبية كانت تخشى معارضة الشعب لخطتها (ص ٧٢) ، وبعدما تبين لها انه لايمكن اقناع الكبار بنزاهتها صرفت جهودها نحو الاطفال الصغار ليتلقنوا التعليم الفرنسى ويتقربوا من الذين حملوا اليهم « الحضارة » (ص ٧١) وهكذا شرعت المدارس الرسمية فى بث الدعاية الاستعمارية ، وعلى سبيل المثال ننقل هنا «حكمة» وردت فى كتاب مدرسى للاخلاق يقول : « ان الرجل الحر من بين كافة الناس هو الذى يستطيع ان يبقى حرا حتى فى حالة الرق » (ص ٦٤) وهكذا أصبح التعليم يحاول عبثاتبرير الاحتلال والاستبداد

أما المرحلة الثانية فتتلخص فى الاستيلاء على التعليم الوطنى وانشاء تعليم رسمى يقوم مكانه ويحقق للمستعمر تنفيذ سياسته مباشرة ، وبرزت هذه السياسة فى مصادرة « الاوقاف » التى كانت تمول المدارس والمساجد والزوايا وتنفق على المعلمين والطلبة . وقد تم ذلك سنة ١٨٤٣ وكانت النتيجة الحتمية اغلاق الكثير من المدارس والمعاهد وتفقير رجال التربية والثقافة وتشريدهم واهمال التعليم العربى (ص ٢٢٣) ، ولم تكتف السلطة الاستعمارية بذلك فضايقت المعلمين واضطهدتهم لانهم كانوا يحرضون على محاربتها فقررت وزارة الحرب الفرنسية مراجعة المؤهلات العلمية ونظمت « اختبارات » جديدة فرضتها على رجال التعليم لتمنع الكثير منهم من التدريس بدعوى انهم «مشبوهون» (ص ٢٠٨) وطردت «الاجانب» منهم وخاصة المغاربة والتونسيين (ص ١٩٢)ــ وادى الاضطهاد بالكثير من أهل العلم والثقافة الى مغادرة الوطن فتفرقوا على البلاد العربية (ص ١٢٩) واغلقت جل المدارس والمساجد والزوايا او حولت الى اغراض اخرى وقد اعترف « الدوك دومال » ــ الوالى العام ــ بذلك فى تقرير له قائلا : « قد تركزنا فى الجزائر واستولينا على المعاهد وحولناها الى دكاكين او ثكنات او مرابط للخيل واستحوذنا على اوقاف المساجد والمعاهد » (ص ١١٩)

وعندما اتضح أن استخدام التعليم الوطنى لصالح المستعمر اصبح غير ممكن عولت السلطة على احداث مدارس خاصة بها وشرعت فى بناء «المدارس العربية ــ الفرنسية » (ص ٢١٣) هادفة الى تنفيذ سياستها الاستبدادية مستعملة المدرسة والدين كوسيلة لذلك وقد وردت هذه الفكرة فى تقرير رسمى الذى قال : « ان المدارس والدين يستنموان تحت حمايتنا فى صالح حكمنا »

(ص ٢١٨) ، وكان المنتظر من بناء المدارس « تدعيم السلم » بفضل التعليم باللغتين العربية والفرنسية (ص ٢٥١) غير أن الاولوية كانت للفرنسية كما يظهر ذلك من خلال البرامج (ص ٧٦)التى ركزت على نشر الفرنسية على نطاق واسع ذلك على حساب العربية التى رات السلطة انها ليست صالحة لكسب العيش ونيل الوظائف ، الامر الذى قلل من شأنها فى نظر الناس ووضعة السلطة كتبا مدرسية بالعربية لتوجيه « التعليم العربى توجيها يناسب اغراض المستعمر وقام بتأليف هذه الكتب عدد من المستشرقين (ص ١٠٢) الذين نقلوا ايضا بعض الاثار العربية الى الفرنسية قصد التفاهم والحوار بين الثقافيين ونذكر منهم « سولفى » «وبروسلار»
و « شربونو » «وبرسنية»
و « بوسية » واهتمت السلطة

بأبناء « الاعيان » من الاهالى ففتحت لهم معهدا خاصا بمدينة باريس ليقوم بتعليمهم واعدادهم لمهام سياسية ولكن المقصود من ذلك كان الضغط على « الاعيان » اذا فكروا فى التمرد على الحكم الاجنبى ، غير أن الغرض لم يتحقق لان « الاعيان» لم يثقوا بنية المستعمر ، ففشل المشروع واغلق المعهد البارسى (ص ٦٩) .

ومن ناحية اخرى قررت السلطة حصر التعليم فى نطاق ضيق لانها كانت تخشى انتشار الثقافة وتعميم التعليم وما قد ينجم عن ذلك من نتائج سياسية ، فمنعت الجزائريين من الالتحاق بالمعاهد الجامعية حين تذكرت أن يوغورطة نشأ فى المعاهد الرومانية ولم ترض السلطة المحتلة ان يتخرج ثوار مثل يوغورطة من معاهدها (ص ٧٥) واكتفت باحداث ثلاث « مدارس » رسمية فى قسنطينة والجزائر وتلمسان يتعلم فيها عدد قليل من الطلبة الجزائريين اللغتين العربية والفرنسية ويعدون لبعض الوظائف الاهلية التى تحتاج اليها الادارة الاستعمارية ــ ولهذه المدارس

الثلاث غرض آخر وهو منافسة الزوايا التى كانت تقاوم السياسة الاجنبية (ص ١٨٥) اما المدارس الابتدائية فكانت تعمل على نشر تعاليم لاتتفق طبعا مع التقاليد الوطنية ، مثلا فى تعليم الاخلاق اعتمد الكتاب المدرسى على الانجيل ! (ص ٢٦٠) ومع ذلك كله حاول رجال التعليم « فى المدارس العربية ــ الفرنسية » أن يقربوا بين الاطفال الجزائريين والاوربيين ولكن الاباء لم يوافقوا ، فطالب المعمرون بمدارس خاصة بهم وعارضوا تعليم الاهالى (ص ٢٩٥) ورفض الجزائريون سياسة « التقرب » ففشلت المحاولة وضعفت المدارس العربية الفرنسية ثم اغلقت حوالى ١٨٨٠ وخلفها نظام جديد مبنى على التمييز العنصرى وفصل تعليم الاهالى على التعليم الاوربى .

٣ ــ الطب وسيلة سياسة

ومن ناحية اخرى حاول المستعمر ان يستعمل الطب كوسيلة سياسية ، انه تفهم أن ليس له تفوق اخلاقى على الاهالى الدين كانت لهم حضارتهم فأراد أن يثبت تفوقه فى المجال العلمى (ص ٥٨)، فركز جهوده على نشر الطب مستهدفا كسب الراى العام والتقرب من السكان (ص ٣٢١) تلك الخطة التى فمثل فيها فى المجال الثقافى والتعليمى (ص ٣٠٧) وكانت الظروف مناسبة لان الشعب كان لا يعرف الطب الحديث وكان يعتمد على التقاليد فقط وعلى التوكل (ص ٨٦ و ١٤٦) ، ولم يدرك المستعمر ان الاهالى لم يثقوا بعمله وتقدمه وفضلوا تحمل الامراض والمشاق على استعمال الطب الاجنبى الذى كان يرمى الى اغراض سياسية واضحة .

فلجات السلطة الى العنف وفرضت العلاج بالقوة ، الامر الذى جعل صاحبة الكتاب تتساءل فى نجاعة تلك الطريقة ــ اما السكان فحاربوا الطب الاستعمارى كما حاربوا التعليم الاجنبى ، فوقع صراع كبير بين الاطباء والحكام الفرنسيين من ناحية وبين الاهالى وقادة المقاومة الوطنية من

ناحية اخرى واتخذ هذا الصراع شكل « الحرب النفسية » التى اشتهرت فى عصرنا وخاصة اثناء حرب التحرير (ص ٣٥١) .

٤ ــ المجابهات والمقاومة الوطنية

قد ادعى المستعمر بانه جاء « ليمدن » البلاد وزعم انه صاحب « رسالة حضارية » ولكن الاهالى لم يغتروا بهذا الستار المزيف وادركوا اغراض المحتل الذى كان يريد السلطة من اجل استغلال ثروات الوطن وتسخير السكان الى تحقيق مصالحه ، فكانت المجابهات والمقاومة حتمية وطبيعية ، وفى رأى الاستعمار لم يكن الشعب الجزائرى الا شعبا « همجيا » لايستحق السيادة والاحترام يجب « تمدينه » (ص ٨٣) ، وبطبيعة الحال لم يرض شعبنا بفلسفة الاستبداد ورفضها رفضا باتا وقاومها بكل مالديه من قوة وقد اكتسبت المقاومة الوطنية اشكالا متنوعة لم يذكر الكتاب منها سوى « المجابهات الثقافية » واشار فقط الى الثورات المسلحة وخاصة الى ثورة ١٨٦٤ وثورة ١٨٧١ ، ولم يدرس كافة اسباب الفشل الاستعمارى وانما لاحظ عابرا التناقض القائم بين سياسة « التقرب » من المواطنين والاستيلاء على اراضيهم (ص ٢٠٠)

بدات المقاومة بمحاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية ولعب رجال التعليم والعلم والثقافة دورا كبيرا فى ذلك وقد اعترف العدو بنفوذهم ، فحرضوا الشعب على رفض سياسة « الاندماج » وبينوا للمواطنين اهدافها وخطورتها وجعلوا من كل مدرسة جزائرية وكل مسجد وكل زاوية مركزا محصنا لمحاربة العدو ، وعملوا على توحيد الصفوف ونسقوا الجهود والاراء حتىاصبح المستعمر يتساءل فىسر الوحدة الشعبية القوية بدون ان يلتمس اسبابها الحقيقية واستشهد الكتاب بتقارير ومراسلات ومؤلفات كثيرة تدل على تلك الروح الوطنية ــ فذكر الضابط « دونوفو » فى كتابه « الاخوان » فعالية الحركة القومية فقال « وبسبب سذاجة المواطنين قد اثر فيهم رجال جاءوهم باسم دينهم وباسم الله وباسم محمد يحرضونهم على الثورة والتخلى عن المحراث ــ فى حين اننا اصبحنا مضطرين الى استعمال القوة لحمل الاهالى على الامتثال لارائنا ولاقناعهم باننا نريد مصلحتهم » (ص ١١٥)ــ وشبت « حرب المدارس » بين العدو والسكان وتنافست الثقافتان ــ فاضحى الحوار مستحيلا بينهما ــ وهنا نختلف مع المؤلفة التى تقول بأن السلطة احترمتثقافة الشعب المحتل وتقاليده ، فان من طبيعة الاستعمار ان يحتقر الامة المغلوبة وأن يتنكر لحضارتها وشخصيتها ، ولا يعتمد الا على قوة السلاح ، اما الشعب المسيطر عليه فانه لا يقبل الدعاية الاجنبية ولا يرضى باحتلال وطنه واستغلال خيراته ــ وانتهى البحث باعترافخفق السياسة الاستعمارية التىلم تنجحفى ايجاد «طريقة للشروع فى الحوار وقد ذكر « ماك ماهون » ان « البلاد قدتم احتلالها ولكنها غير خاضعة » ويلاحظ كذلك ان الكتاب لم يعترض للمجابهات الثقافية الاخرى منها حركة الكنيسة التبشيريةالتى ساندت الاحتلال ، ومنها حركة الكتاب والمؤرخين المستعمرين الذين كان لهم شأن فى تدعيمالاستعمار مثل « لويس فويو » وغيره .

ونعتقد أن هذين الموضوعين يستحقان البحث ونامل ان يقوم به الدارسون ، وعلى الرغم من ملاحظاتنا على الكتاب فاننا نعتبره منأهم ما صدر اثناء سنة ١٩٧١ ، فبين الصراع الثقافى والايدولوجى المرير الذى لم ينته الا بتحقيق استقلال الوطن بعد ثورات عديدة متواصلة الحلقات ، ولذا عرفنا القراء به ليستفيدوا منه ويتاملوه .

ابو عمران الشيخ

كلية الاداب الجزائر

التعريف بتراثنا المخطوط

إعداد : رابح بونار

على بن أبى الرجال التاهرتي القيرواني

حياته : ابن ابى الرجال هو على بن ابى الرجال الشيبانى يكنى ابا الحسن وينسب الى القيروان وان لم يكن منها بل هو من مدينة تاهرت بالقطر الجزائرى كان عالما رياضيا فلكيا منجما واديبا شاعرا نشا فى قرطبة على ما يرجح ، وعاش مدة فى بلاط المعز بن باديس بتونس ومات بها بعد سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) كما جاء فى الدائرة والارجح انه مات حوالى سنة ٤٢٥ هـ .

كان ابو الحسن هذا كافلا للمعز قبل ولايتــه الملك ثم وزيرا له بعد ان تولى ملك بنى زيرى ، وكانت منزلته لديه سامية ، ونفوذه فى البلاط عظيما فتقرب اليه الادباء والعلماء وقد اهدى اليه ابــن رشيق كتابه العمدة كما اهدى اليه ابــن شرف كتابه ((رسائل الانتقاد)) وقال فيــه الاول فى عمدته : اما بعد فان احق من جنى ثمر الالباب ، واقتطف زهر الآداب ، منتزها فى عقول الحكماء متفكها فى اقاويل العلماء كالسيد الامجد ، والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا ، وبانى المكارم ، وآبى المظالم ، رجل الخطب ، وفارس الكتب ابى الحسن على بن ابى الرجال الكاتب ، زعيم الكرم وواحد الفهم الذى نال الرياسة وانفرد بالبسط والقبض واتحد فى الابرام والنقض ، عن سعى مشكور ، وفضل مشهور وعلم بالموارد والمصادر ، ونظر فى الاوائل والاواخر وتشبع لآثار من سلف من اهل القدر والشرف ، وتقلب فى مجالس الحكم ، بين ذوى الاقدار والهمم ، الى ان صار نسيــج وحده ، وقريع دهره غير مدافع عن ذلك ، ولا منازع فيــه .

وذكر ابن رشيق عنه انه : ((اقام سوق العلم والادب ، وجعل ذكره باقيا وجده ساميا ، وايده من النصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ...)) علمــــه .

عرف الاوربيون المترجم بآثاره كما تقول الدائرة ولا سيما كتابه « البارع فى احكام النجوم » وقد



نقله الى الاسبانية ، يهوذا بن موسى سنة ١٢٥٦ م ثم نقله من الاسبانية الى اللاتينية بطرس الرجوى وايجيديوس التبالدى فطبعت ترجمته عدة مرات منذ طبعتها الاولى بالبندقية سنة ١٣٨٥ م ، ومن هنا جاء تصحيف ابن ابى الرجال هكذا : وتصحيف كنيته ابى الحسن هكذا :

ومن آثاره العلمية على ما جاء فى دائرة المعارف

١) أرجوزة فى الاحكام الفلكية ، طبعت فى آخر كتاب كفاية الطالب فى الاحكام الفلكية لغزال الموسى وشرحها احمد بن الحسن بن القنفذ القسنطينى سنة ١٣٧٣ هـ ، ولعل ابا الحسن هذا هو الذى اعان ابا سهل الكوفى فى الارصاد الفلكية التى أجريت فى بغداد سنة ٩٨٨ م .

وهذه هى الصورة العلمية لابى الحسن ، واما صورته الادبية فقد تكفل بتشخيصها ابن رشيق فى عمدته وقد روى لنا عنه مقطوعات شعرية يمكن دراسة شخصيته من خلال أبياتها .

كان ابو الحسن شاعرا لطيف الوجدان ، جيد الاسلوب صادق العاطفة انشأ وهو بتاهرت سنة ٤٠٥ هـ مقطوعة فى تصوير شوقه ، والتعبير عن حنينه لاهله يقول فيها :

ولى كبد مكلومة من فراقكم
اطامنها صبرا على ما اجنت
تمنتكم شوقا اليكم وصبوة
عسى الله ان يدنى لها ما تمنت
وعينى جفاها النوم واعتادها البكا
اذا عن ذكر القيروان استهلت

وعلق ابن رشيق عليها بقوله : لو ان اعرابيا تذكر نجدا فحن به الى الوطن ، أو تشوق فيه الى بعض السكن ما حسبته يزيد على ما اتى به هذا الحضرى المتاخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز ، ولا اتنفق بهذا القول عند مولاى ولا الخديعة مما تظن به ولا فيه ، ولكن رايت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم . .

فى الوصف :

ويقول ابو الحسن فى وصف بلاغة احد الكتاب وجودة خطه :

١) فضل الانام بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضل المنطق
٢) وحكى لناوشى الرياض وقد وشت
اقلامه بالنقش بطن المهرق

وقال ايضا فى آخر :

١) اذا نقشت يمناك فى الطرس اسطرا
حكيت بها وشى الملاء المنضد
٢) يروق مجيد الخط حسن حروفها

ويعجب منهـــا بالمقـال المســـد

وقال ايضا فى الاصطباح بالخمرة وتعاطى لذات الحياة قبل هجوم المنية (١) :

باكر الراح ودع عنــك العــذل
واسع فى الصحة من قبل العلــل
واغتنــم لــذة يــوم عاجــل
فالمنايــا ضاحكــات بالامــل
ما تــرى الساقى كشمس طلعت
تحمل المريخ فى بــرج الحمــل
مائسا كالغصن فى دعــص نقــا
فاتــن المقلــة زينت بالكحــل

فى الغـــزل :

وانشا ابو الحسن فى الغزل مقطوعات جيدة وهى رغم ماديتها نجد فيها نفسا روحيا رقيقــا ومعانى لطيفة ومنها قوله :

خليلى ان لم تساعدانى فاقصرا
فليس يداوى بالعتــاب المتيـــم
تريدان منى النسك فى غير حينــه
وغصنى ريــان وراسى اسحـــم

وقال من مقطوعة يتغزل فيها بفتاة حضريــة وهى كما يقول ابن رشيق ذات طبع رقيق ومعانى رقيقة مؤثرة فى النفس والقلب :

١) غراء واضحة ينوس بقرطهــا
جيد حكى جيد الغــزال الاعنـــق
٢) صدت فاغرت بالسجوم مدامعى
والعين تذرف بالدمــوع السبــق
٣) تشكو البعاد اذا بعدت تصبــرا
وان ارتجعت الى الزيــارة تفــرق
٤) ولقد يبيت اخو المــودة لائمــى
فى حبهــا لــوم الشفيــق المشفــق
٥) حتى اذا طلعت فابصر شخصها
اخزى جهالــة لائمــى المستحمــق
٦) كم قطعت بوصلهــا مــن ليلــة
وبشرب صـــافية كلــون الزئبــق
٧) يسعى بها كالبدر ليلــة تمــه
سحار الحــاظ رخيــم المنطـــق
٨) آليت اترك ذا وتلك وهـــذه
حتى يفــارقنى ســواد المنطـــق

فى الشكوى من الدهر واهله :

وحينما تنكر الدهر له تضجر وتالم وسخط على معاصريه وعصره فقال شاكيا داعيا الــى الزهد والمثاب :

١) امس الزمان زمانــة العقــل
فاخش الالــه وحــل عن الجهــل
٢) واعلم بان فى الحســاب غــدا
تجزى بما قــدمت مــن فعـــل

وقال ايضـــا :

١) ايارب ان الناس لا ينصفوننى
ولم يحسنــوا قرضى عــلى حسناتى
٢) اذا ما راونى فى رخــاء ترددوا
الى واعــدائى لــدى الازمـــات
٣) ومهما اكن فى نعمة حزنوا لهــا
ذوو انفــس فى شــدة جــذلات
٤) ثقاتى ما دامت صلاتى لديهــم
وان عنهـــم اخرتهـــا فعداتـــى
٥) سامنع قلبى ان يحــن اليهــم
واصرف عنهــم قاليـــا لحظاتـــى
٦) والزم نفسى الصبر ابـــا لعلنى
اعايــش ما املت قبـــل مماتـــى
٧) الا انما الدنيا كفــاف وصحــة
وامن ثــلاث هــن طيب حياتـــى

فى الفخر بقبيلته : وقال بفخر بقبيلته شيبان ، ويشيد بامجادها منذ القديم :

١) يا آل شيبان لا نحارث نجومكم

ولا خبت ناركم من بعـــد توقيـــــد

٢) انتم دعائم هذا الملك مذ ركضت

قبل الخيـــول لابـــرام وتوكيـــــد

٣) سيوفكم افقدت كسرى مرازبـــه

فى يوم ذى قار اذ جـــاؤوا لموعـــود

فى العتاب والهجاء : ويعتب على بعض اصدقائه فيلومه لوما خفيفا وقديهجوه ولكن هجوه لا يتعدى النقد البرىء فيقول :

١) وابنى لاطرى كل خل صحبتـــه

وانت ترى شتمى بغـــير حيـــاء ؟

٢) ستعلم يوما ما اسات لصاحب

بكـــرم اخـــلاقى وحســـن وفـــائى

هذه نبذة عن ترجمة ابن ابى الرجال تقدم الينا صورة موجزة عن حياته الادبية اللامعة ، وهناك وجه آخر لابن ابى الرجال قد امتاز به فى بـــلاط القيروان عن معاصريه وهو جانبه العلمى الذى تفوق به على معاصريه هناك ، وقد اشرنا فى مطلع هذه الترجمة الى ان المترجم كان عالما باحثا فى النجوم ، وقد ترك لنا فى الموضوع كتابا جليلا هو كتاب البارع فى احكام النجوم الذى ترجم الى عدة لغات ، واعتبر تراثا جليلا انتجته عبقرية مغربية فى العصر الوسيط .

والكتاب توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية تحت رقم ١٥١٦ خطها شرقى جميل ، ومسطرتها ٢٩ سطرا ، وحجمها ١٩٠ / ٢٦٠ ملم .

ونجد فى الصفحة الاولى من النسخـــة نـــص تحبيس محمد بن حسن خوجة لها عـــلى اولاده ثم على جامع كيتشاوة بتاريخ اواسط جمـــادى الثانية لعام ١٢٣٩ هـ . والمؤلف يقول فى مقدمة كتابه : هذا كتاب جمعت فيه من معانى فى علـــم النجوم ، وغرائب اسوارها ، واخترته من علوم علمائها ، واضفت اليه تجربتـــى ، وان كـــانت النجوم اكثر واعظم من أن يحاط بها ، او يقدر العالم على ايضاح جميعها . ثم اخذ يذكر اقسام الكتاب وابوابه فى ترتيب منطقى ، وبأسلـــوب أدبى خفيف .

والكتاب يعتبر من ذخائر تراثنا الفكرى تزدان به مكتبتنا ، وتسمو به أصالتنا فى مجال الابداع العلمى والحضارى .

ولاشك ان هذا سيحفزنا على أن نولى هـــذا الكتاب ما يستحقه من عناية واهتمام ونحن فى فترة احياء تراثنا الوطنى والعمل عـــلى اعـــادة المقومات الاساسية لشخصيتنا واصالتنا .

---

(١) دائرة المعارف لفؤاد افرام البستانى ج ٣ ص ٣١٠ ـــ العمدة لابن رشيق ط ٢ مصر سنة ١٩٥٥ ج ١ ص ١٥

(٢) المنتخبات لحسن حسنى عبد الوهاب ص ٧٦ . (٢) العمدة ج ١ ص ٤٤ .

(٣) العمدة ج ٢ ص ١١٠ .

• النشاط الثقافي •

من نشاط وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

شهدت مساجد البلاد كلها الانطلاقة الثانية لمكافحة الامية ومحاربة الجهل في بداية السنة الدراسية الجارية ، كما شهدت مؤسسات التعليم الاصلي نشاطا كبيرا يتناسب ومسؤلية هذه المؤسسات في نشر الثقافة القومية والوعي الديني الصحيح ، وحتى تاتي هذه المجهودات بثمارها المرجوة منها والتي ينتظرها كل مواطن مخلص لدينه ووطنه وعملا بسياسة المتابعة والاتصال المباشر نظمت الوزارة سلسلة من الجولات حسب المخطط الاتي :

١) القطاع الغربي :

قام السيد مدير التعليم الاصلي ونائب مدير الشؤون الدينية بزيارة لهذا القطاع دامت اسبوعا كاملا اطلعا خلالها على سير عملية محو الامية في المساجد وعلى الرغم من أن هذه العملية تسير سيرا حسنا الا انهما قدما بعض الملاحظات التي من شأنها أن تضمن فاعلية اكبر حتى تأتي هذه الحملة بالنتائج الايجابية المرجوة منها .

كما زارا مؤسسات التعليم الاصلي العامة والتي في طور البناء في كل من وهران وسيدي بلعباس ومستغانم ، ومعسكر ، وتلمسان والاصنام ، وقد عقدت جلسات عمل مع السادة مديري هذه المؤسسات درست خلالها مختلف اوجه النشاط الاداري والتربوي كما قدمت لهم التوجيهات في كيفية سير الدروس ونشاط التلامذة حسب الاساليب التربوية الحديثة ، كما ابرز الدور الهام الملقى على المدير من الجانبين الاداري والتربوي ،

القطاع الصحراوي :

وفي هذا النطاق قام السيد مدير التعليم الاصلي ونائبه بزيارة ولاية الساورة اتصلا خلالها بالسيد مفتش التعليم الاصلي والشؤون الدينية بالولاية في بشار فتدارسا معه الحالة الدينية بالجهة ونشاط الائمة في حملة محو الامية واوجه النشاط الديني الاخرى ، وقاما بزيارة الى مقر الولاية فعقدا خلالها جلسة عمل مع السيدين رئيس الديوان ، ورئيس دائرة ادرار ، كما زارا خلالها ثانويتي التعليم الاصلي بادرار العاملة منها والتي هي في طريق البناء ، وقد عقدا اجتماعا مع السيد مدير الثانوية استعرضا خلاله مختلف اوجه نشاط هذه الثانوية والصعوبات التي تواجهها وتحد من نشاطها ، ووضع الحلول التي يمكن ان تقضي على هذه الصعوبات .

٢) القطاع الشرقي :

ولاية القبائل الكبرى : بناء على ما تقرر في الاجتماع الاخير لمفتشي وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية من احصاء الزوايا لتي تعلم وتطويرها وادخال التحسينات على برامجها وعلى سيرها حتى تتماشى مع العصر قام وفد من الوزارة بزيارة ولاية تيزي وزو طاف خلالها على جميع الزوايا التي تضم عددا كبيرا من طلبة القرآن الكريم ، وقد لاحظ هذا الوفد كثرة الاقبال على هذه الزوايا من مختلف نواحي البلاد لما عرف عنها من تحفيظ كتاب الله الكريم وحلقات الدروس في العلوم الشرعية واللغوية ومما يأسف له أن اغلب هذه الزوايا ما تزال تتبع

الطرق العتيقة فى التعليم ولهذا فهى فى اشد الحاجة الى تجديدها وبعث الحياة فيها واعطائها حقنة من الدماء التى تمنها من مواصلة السير لانها المنبع الاول والاصيل لامدد الحياة الدينية بالاطار الكفء وقد اغتنم الوفد هذه الفرصة فزار مؤسسات التعليم الاصلى فى هذه الولاية ، كما عقد جلسة عمل مع السيد الوالى ومحافظ الحزب ورئيس مجلس الولاية نوقشت فيها مختلف القضايا التى تهم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى المنطقة .

الدورة التدريبية الخاصة لمكافحة الامية :

نظرا للاهمية القصوى التى تعقد على دور المسجد فى مكافحة الامية فقد نظمت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالتعاون مع المركز الوطنى لمحو الامية دورة تدريبية خاصة دامت ١٥ يوما لاربعين اماما ينتمون الى ولايات : الجزائر الاصنام ، المدية ، القبائل الكبرى لاطلاعهم على افضل الطرق واحدث الاساليب لتعليم الكبار .

وتعتبر هذه الدورة الثانية بعد الدورة الاولى التى وقعت فى السنة الماضية بوهران كما ستتلوها دورة ثالثة فى السنة القادمة بمدينة قسنطينة .

وقد اشرف على افتتاح هذه الدورة كل من السادة مدير التكوين فى وزارة التعليم الابتدائى والثانوى والسيد مدير المكز الوطنى لمكافحة الامية والسيد نائب مدير الشؤون الدينية ، وقد القى الاخوة الثاثة كلمات اكدوا فيها على دور الامام فى الحملة الوطنية لمحو الامية خاصة وأن المسجد موجود فى كل مدينة وكل قرية .

ـــ قام السيد مدير الشؤون الدينية ، والسيد المفتش المركزى بالنيابة بتنصيب السيد بلقاسم كحلة ، الاستاذ سابقا بوزارة التعليم الابتدائى والثانوى ، مفتشا لولاية قسنطينة .

وقد تم هذا التنصيب يوم الاثنين ١٢ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م بدار الولاية بمحضر السلطات المحلية ، المدنية منها والعسكرية .

كما جمع السلك الدينى العامل بالولاية بمناسبة تقديم المفتش الجديد لهم ، وقد اغتنم مدير الشؤون الدينية هذه الفرصة فأكد على اهمية دورى المسجد والامام فى الاسلام ، والذين تنتظر منهما البلاد انتفاضة ونهضة المسجد كما كان فى الاصل دار عبادة وعلم فى آن واحد ، ويصبح الامام لا يؤم الناس فى صلواتهم فحسب بل يقوم بتحفيظ كتاب الله لاولادهم وبتعليم العلوم الدينية لهم من فقه وحديث واحكام شرعية وذلك بنظام كامل يضمن نجاح هذه الدروس .

الجولة التفتيشية عبر ولايات قسنطينة ، عنابة ، سطيف ، وتيزى وزو .

قام السيدان مدير الشؤون الدينية والمفتش المركزى بالنيابة بجولة تفتيشية دامت اسبوعا من ٩ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١١/٢٩ م الى ١٦ شوال ١٣٩١ هـ ١٩٧١/١٢/٤ م ، عبر ولايات قسنطينة ، عنابة ، سطيف وتيزى وزو، اطلعا خلالها عن كثب على الوضع الدينى العام ، وعن النشاط الذى يقوم بل كل من السادة المفتشين والائمة بهذه الولايات .

وقد زارا الاماكن الاتية بصفة خاصة : عزابة قالمة ، عنابة ، سكيكدة ، الميلية ، طاهير ، جيجل خراطة ، سطيف ، برج بوعريريج ، مجانة ، ثنية النصر ، القصر ، سيدى عيش بجاية ، تيزى وزو .

اثناء هذه الجولة عقدت جلسات عمل فى كل مفتشية ودرس فيها نظام سير المفتشية بالذات ونشاطها فى مختلف الميادين **وتركز الاهتمام على النقاط الاتية :**

ا ـــ اعادة توزيع مرظفى السلك الدينى توزيعا عادلا على جميع مساجد الولاية

ب ـــ تطبيق المنشور الوزارى ذى الرقم :

٧١/٩١/٨٤ الصادر بتاريخ ٣٠ ربيع الثانى ١٣٩١ هـ الموافق ٧١/٦/٢٣ والقاضى بتجديد اعمال موظف السلك الدينى (امام ، مؤذن ، قيم) من تحفيظ القرآن للصبيان والقيام بدروس الوعظ والارشاد ، والفقه ، ومحو الامية .

ج ـ مراقبة سير عملية محو الامية .

د ـ متابعة عملية حصر الاوقاف ، ومراقبة حسن استغلالها .

هـ ـ الكناس المهجورة .

د ـ اللجان الدينية التى تشرف على بناء المساجد : تشجيعها ومراقبة حساباتها .

و ـ تجهيز المساجد وتفريشها .

ـ اعانات الوزارة الرمزية لبناء المساجد .

الثقافة ونهاية العام

علاء الدين مكى

اذا كان رمضان المبارك يقترن فى كل عام بثبوت رؤية الهلال . فقد امسى الهلال من كل عام علامة بدىء ، واستهلال محمود لشهر ثقافى يرتفع فيه نبض الحركة الثقافية ، ويسرى الحماس فى جميع انحاء ترابنا الوطنى ، وتتحول الليالى من خلاله الى نهارات تضيؤها المآذن البيضاء المنتصبة بجلال قدسى تحاكى اهلتها المضيئة هلال السماء ، وتزينها قباب المساجد . ويعطر اجواءها تلاوة القرآن وتهجد المؤمنين

ان الحديث فى الواقع عن النشاط الثقافى خلال الشهرين المنصرمين من العام الفارط ، يدفعنا للتوقف عند هذا الشهر المبارك ، لا باعتباره مدخلا للحديث فحسب ، بل على اساس من اقتناع اكيد بأن النشاط الثقافى يصادف فى هذا الشهر ازدهارا وحيوية ملموسين لقد استطاع المسرح الوطنى ولاول مرة فى تاريخه خلال الشهرين الاخيرين من العام الفارط ، أن يقيم مهرجانا مسرحيا امتاز عن المهرجانات الاخرى بطول نفسه وتنوعه ، وظاهرة الاقبال التى حظيت بها العروض المسرحية . فقد ظلت مقاعد المسرح الوطنى تمتلأ كل ليلة بجمهور غفير اثبت بحماسه وتشجيعه ومتابعته للعروض المسرحية بأن ظاهرة الاعراض التى يتحدث عنها البعض ، انما هى دعوى مبالغ فيها . وان الشعب بجميع فئاته يشعر بضماء حقيقى نحو هذا النوع من النشاط الثقافى القادر على طرح اهم وأخطر المشاكل الاجتماعية .

ربما يكون صحيحا بأن طبيعة رمضان المبارك ورغبة الصائم فى السهر قد ساعدا كثيرا فى انجاح هذا المهرجان وغيره من النشاطات الثقافية التى شهدتها البلاد .

لكنه قد بات من المؤكد ان مثل هذا النوع من المهرجانات ، قادر على المدى البعيد أن يبعث ويحيى تقاليد مسرحية وثقافية ، ويكون بالتالى جمهور المسرح الذى به ومن خلاله تتحقق رسالة المسرح الثقافية .

وبعدها لن نفسر الاقبال بأنه مؤقت او انه مقترن بطقوس ثقافية مؤقتة .

وعلى اية حال فان ازدهار الثقافة فى شهر رمضان انما يمثل فى الواقع صورة مصغرة لمثال كبير نريد بكل قوانا أن نحققه . فنشاطاتنا الثقافية عندما يحتضنها شهر مبارك ، انما

يعنى هذا وعلى مستوى الرمز بأن نزعتنا نحو التجديد ، أو نحو بناء ثقافة معاصرة ، انما تسير وتتقدم بوحى من ثقافتنا الاسلامية العريقة . اذ يبدو شهر رمضان الكريم فى هذه الحالة كما لو كان خلفية فكرية وحضارية تتحرك من أمامها جميع الانشطة الثقافية التى تشكل وجه حياتنا المعاصرة فى هذا الشهر المبارك . قلت بأن

المسرح الوطنى استطاع فى العام الفارط ان يجذب اليه جمهورا جديدا تجاوز فئة المثقفين او المهتمين بتتبع الحركة المسرحية .

كما نجح المسرح الوطنى ان يقيم مهرجانه الاول على أكتاف الهواة الذين تالقوا هذا العام فى مهرجان مستغانم . ونجح هؤلاء بدورهم وبكل الحماس والطهر والعشق الذى يكنوه للمسرح أن يقدموا رغم كل شىء عروضا مسرحية وقف البعض منها شامخا الى جانب عروض المحترفين سواء فرقة المسرح الوطنى او الفرق المسرحية الزائرة .

واستطاع الشرق الجزائرى (قسنطينة) رغم انه لم يفز بالجائزة الاولى ان يقدم خلال ذلك المهرجان عرضين شيقين نالا استحسان جمهور العاصمة .

غير الجائزة الاولى كانت من نصيب فرقة مسرح العمل من مدينة « وهران » عن مسرحيتها المسماة « ارقدتم قاع » اى « رقدتم جميعا » والحقيقة انها لم تكن اعمق ولا اكثر تطورا من المسرحتين اللتين تفوقت عليهما . فالنص محلى كتبه هاوى شاب لم يتجاوز لكنها جمعت من عناصر النجاح ما كفل لها الفوز السابعة والعشرين يدعى « ميسوم سعيد » . والممثلون هواة ما زال اغلبهم فى المدارس . أما القضية التى طرحها فنابعة من صميم مجتمعنا مختصة بفئة اليافعين المرفوضين من المدارس، مصورة المخاطر التى يمكن ان ينزلق اليها هؤلاء الشباب .

وعلى العموم فقد أتيح لاكثر من ثمان فرق هاوية بما فيهم الفرق الثلاثة الاولى ان تصل الى خشبة المسرح الوطنى بالعاصمة وتقدم عروضها الى جانب الفرق المحترفة المحلية والزائرة .

أما بالنسبة للفرق المسرحية المحترفة فقد قدمت الفرقة القومية الليبية مسرحية « دوائر الرفض والسقوط » التى كتبها الشاب « عبد الكريم الدناع » وقامت فرقة المسرح البلدى لمدينة الدار البيضاء ــ المغرب بتقديم المقامات فى مسرحية سمتها « مقامات بديع الزمان الهمذانى » وكانت فى الحقيقة من أبرز واخطر الاعمال المسرحية التى قدمتها الفرق المحترفة فى هذا المهرجان . كما شهد المسرح الوطنى خلال هذا المهرجان مسرحيتين مترجمتين قدمتهما فرقة بلدية تونس . الاولى للشاعر الاسبانى غارسيا لوركا ، والثانية مقتبسة عن

مسرحية للكاتب الانجليزى (الغاضب) جـون اوزبون .

* * *

والواقع أن الشهرين الاخيرين من هذا العام شهدا بالاضافة الى المهرجان الـوطنى الاول للمسر ح، اسبوعا ثقافيا ربما هو الاول مـن نوعه ، اذ اقيم فى مطلع شهر ديسمبر من العام الفارط اسبوع ثقافى احيته فى بلادنا البلـد الشقيق **تونس** فشهدت الجزائر أوجها متعددة من نشاطات ثقافية اشتملت على معـارض للرسوم الزيتيـة والصـور الفوتغرافيـة . ومحاضرات والوان متنوعة من الغناء والموسيقى والباليه الوطنى . فأقيم فى مكتبة العربى بـن مهيدى والجامعة معرضين للكتاب التونسى كما حل بالجزائر نفر من الادباء ورجـال الفكـر التونسى . وقدم الاستاذ **الطاهـر بن قيقـة** محاضرة « حول القصة والاقصوصة فى الادب العربى المعاصر » تناول من خلالـها بالتعريف جيلين من الكتاب ، جيل الشبان وجيل ما بعد الاربعين ، واهم المواضيع التى تطرقوا اليها فى انتاجهم . هذا فى الوقت الذى قدمت فيه فرقة الكاف المسرحية على خشبة المسـرح الوطنى مسرحيتين الاولى بعنوان « حوكى وحرايرى » والتى اقتبسها المخرج منصف السويسى عـن الكاتب الايطالى « كورناى » .

وكانت المسرحية الثانية للكاتـب الفرنسى الطلائعى « جان جينيه » حيث أخرج له الشـاب التونسى « عبد الرزاق الزعزاع » مسرحيتـه المشهورة « الخادمات » .

والواقع أن شهر ديسمبر من العام الفارط كان حافلا بالنشاط الادبى ، ليس على مستوى الجزائر فقط ، بل وعلى مستوى البلدان العربية الشقيقة التى شهدت بدورها نشاطا ثقافيـا ملحوظا . فقد انعقد فى الاسبوع الثانى من شهر ديسمبر « مؤتمر الادباء العرب الثامن » الذى انعقد فى « دمشق » تحت شعار « الاديـب العربى بعد معركة المصير » . وقد انتهى هذا المؤتمر بجملة من التوصيات الهامـة يتعلـق بعضها بحرية التعرف على الفكـر العـالى ، واشراك الجماهير فى تقييـم أدب المعركـة المصيرية مع الالتزام بخط الثـورة العربيـة . وتناول بعضها الاخـر قضيـة محـو الاميـة والتعجيل ببحثها . كما طالـب المؤتمـر فى توصياته بسن تشريعات تمكن الاديب العربى من التفرغ ، وايضا طالب المؤتمر بالاهتمـام ببرامج الاذاعة وتقديم جميع التسهيلات التى تكفل لادب الارض المحتلة الوصول الى سائر انحاء الوطن العربى . وقد شاركت الجزائر فى هذا المؤتمر فمثلها فيه كل من الدكتور صالـح الخرفى والدكتور حنفى بن عيسى والدكتور ابو القاسم سعد الله الذى ترأس الوفد وألقى هناك كلمة حول موضوع الأمية حيث أوضح جانبا من التناقضات التى تعيشها كثيرا من الدول العربية فانتقد تلك الاقلية التى تستأثر بثروة الجماهير وتسخرها لاغراض لا تمت بصلة الى حاجات المجتمع الحقيقية .

كما انعقد فى العاشر من شهر ديسمبر ١٩٧١ فى (العراق) مهرجان للشاعر العربى المعروف « ابى تمام الطائى » حيث التقى فيه لفيف مـن ابرز الشعراء المعاصرين العـرب ، والقيـت خلاله قصائد من الشعر العمودى والحر .

والواقع ان تكريم « ابى تمام » انما هو مسح وتجديد للجوانب الناصعة والمشرفة فى تراثنا وادبنا العربى ، وتكريم لشاعر عملاق اتفق معظم النقاد على أنه من أوائل الذين عملوا على تجديد روح الشعر شكلا ومضمونا . وقد توفى ابو تمام فى مدينة **الموصل** — حيث انعقد المهرجان — واقيم له فيها ضريح زاره « ابن خلكان » وكتب عنه .

* * *

اما فى **مصر** فقد افتتح فى منتصف شهر ديسمبر بمدينة **الاسكندرية** « المؤتمر الاقليمى العربى الثانى لمحو الامية فى الدول العربية . » وقد شارك فيه ممثلون عن ثلاثة عشر دولة عربية كما اشترك فيه ممثلون عن **اليونسكو** والاتحاد العام لنقابات العمال ومنظمة تحرير فلسطين . وانتهى فى ٢٠ ديسمبر ، واجمع فيه كل المتحدثون وبما فيهم ممثل **الجزائر** على ان الامية خطر يعيق ويشل تقدم الدول العربية ، ولذا فلا بد من العمل الجاد للحد من انتشارها والعمل على اختفائها من المجتمع العربى .

* * *

هذا بالاضافة الى انعقاد مؤتمر آخر فى مدينة القاهرة هو مؤتمر « الاصالة والتجديد فى الثقافة العربية المعاصرة » والذى افتتح فى الرابع من شهر أكتوبر الماضى واتخذ من المركز الرئيسى للجامعة العربية مقرا له .

ومثل الجزائر فيه الاخ عبد القادر قريصات . ويهدف هذا المؤتمر الى الكشف عن تلك العناصر الباقية فى الثقافة العربية التى يحس العربى خلالها أنه ينتمى الى امة لها شخصيتها وروحها المتميزين ، وان هناك صلات فكرية ووجدانية تربطه بتاريخ الثقافة العربية ، كما يهدف هذا المؤتمر الى توضيح ودرس التقاء الحضارة المعاصرة بتلك الاصول . وما ينجم عن ذلك من تفاعل وما خلفه ذلك اللقاء من آثار على مسيرة الحياة الادبية والثقافية شكلا ومضمونا وتعبيرا .

* * *

صـــدر حديثـا

ولم تكن دور الطباعة والنشر باقل نشاطا فى المؤتمرات والمهرجانات الادبية ، فقد صدرت جملة من الكتب الهامة .

فقد صدر حديثا المجلد الثانى من كتاب « التاريخ العام لافريقيا السوداء » واعتبره النقاد احسن تاريخ للقارة السوداء .

كما أصدرت الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر كتاب « تاريخ البشرية » وهو كتاب يؤرخ للتطور العلمى والثقافى فى العالم .

وصدر عن نفس الدار كتاب هام فى « الشعر الجاهلى » والذى يعد محاولة جديدة لدراسة الشعر الجاهلى . الفه د . سيد حينفى حسنين .

وفى بيروت صدر حديثا « قصائد ليست محددة الاقامة » وهو احدث ديوان لشاعر المقاومة « سالم جبران » .

وصدر فى القاهرة الجزء الاول من كتاب « فلسطين اليكم الحقيقة » الفه الصحفى البريطانى ج.م.ن حفريز وترجمه الى العربية احمد خليل الحاج ويعد هذا الكتاب وثيقة نادرة كتبها احد الصحفيين البريطانيين ، اتاح له عمله ان يحصل على الادلة الدامغة لابشع جريمة ارتكبت فى العصر الحديث .

مع التيارات الفكرية العالمية

قراءات فى المجلات الفرنسية

اعداد : بقطاش مرزاق

مشكلة « عزوبة قساوسة الكنيسة اللاتينية » من اخطر القضايا التى طرحت على بساط البحث فى المجتمع الكاثوليكى الثالث بحاضرة الفاتيكان . وقد صدر فيها الحكم الصريح : « الابقاء على حالة العزوبة » .

وقد اثارت هذه القضية بين رجال الدين عددا من التساؤلات التى بلغت حد النقد للوضع الكنيسى اللاتينى .

اما الزوبعة التى اقضت مضجع الفاتيكان فهى حديث القسيس جان كلود بارو الى صحيفة الاكسبريس الذى اعلن فيه بانه قرر الزواج وبان عزوبة القساوسة بالرغم من كونها مشكلة ثانوية الا انها تكشف عن الازمة التى تعانيها الكنيسة اليوم .

والقسيس بارو يناهز الثامنة والثلاثين ، وهو مدير هيئة التعميد فى ابرشية باريس ومؤلف عدة كتب حول الايمان ، والشر ، والله . وقد استهل حديثه بشرح سبب تحوله الى الدين وهو الشخص الذى نشأ فى وسط بورجوازى تحررى لا يمت الى الدين بصلة .

« كنت من الشبان الذين أغرتهم السياسة وأقوال غى موليه وكان من آثار ذلك اننى وجدت نفسى ضابطا فى الجزائر ما يتجاوز السنتين . أما تحولى الى الدين فقد جاء وليد لقاء مع استاذ لى فى التاريخ والجغرافية : كان هو الاخر يبحث عن نفسه وقد صار فيما بعد ارثونكسيا تحت تأثير اللاهوتيين الروس الذين التقى بهم . وقد خضت معه مختلف الحديث مما حفزنى على البحث الشخصى فضلا عن أننى كنت اشعر باستمرار بأن العالم أشد تعقيدا وغرابة من الوسط الوضعى الذى كان يحوطنى آنذاك . ناهيك بمآسى الحرب التى جعلتنى أعرف كنه الشر . وقد أدركت حينئذ أن الانسان الطيب قد يتحول الى شرير . ان جذور الشر فى رايى هى الاحتقار . فبمجرد ما تشعر بأن الاخر من صنف مختلف عنك يصير كل شىء ممكنا .

وانى اعتقد ان تجربة الشر التى عرفتها فى حرب الجزائر وفى بؤس البروليتاريا قد طبعت تفكيرى كله » .

الاكسبريس : هل تعتقدون أن مشكلة الشر هى التى حفزتكم على الايمان ؟

جان كلود بارو : ليست مشكلة الشر وحدها . فهناك أيضا جانب ايجابى فى تحولى الى الدين . هو اكتشاف وجه المسيح فى الناصرة . والاهتمام الذى أبداه المسيح بمشكلتى الشر والعذاب

فضلا عن اعجابى بشخصيته الجذابة .

ثم ينتقل القسيس بارو الى مسألة التعارض بين الايمان والدين فيقول : ان الانسان ، ملحدا كان أم لا ذو ابعاد مختلفة. فهو يتضمن بعدا سياسيا وبعدا جنسيا وبعدا دينيا . والدين ليست له بالضرورة علاقة بالله . الدين هو ما يسمح للانسان بأن يتعمق العالم ويرتبط بالكون . وهكذا ليست له علاقة بالله . فنحن لا نستطيع ان نحرم الانسان من بعده الدينى ونبقى فى نفس الوقت على بعديه السياسى والجنسى . الدين أمر مشترك مثل السياسة او الجنس . وهو قد يؤدى الى الشر أو الى الخير .
اما الايمان فهو شىء آخر طبعا . انه الثقة فى شخص ما ، فى شخصية انسانية ، فبمجرد ما يثق الانسان بشخص آخر على التمام يعتبر مؤمنا ويدخل دنيا الايمان لانه يتجاوز التجربة . ان الايمان بالله أو الايمان بشخص مسألة واحدة .

الاكسبريس : لقد مارستم وظيفتكم فى عدة احياء باريسية وتعرفتم خلال ذلك على المرأة التى سوف تبنون بها فكيف حدث ذلك ؟

جان كلود بارو : لقد بدات العلاقة بيننا على شكل صداقة كبيرة ثم تطورت الامور .

الاكسبريس : وهل تسبب ذلك فى مشاكل لها ؟

جان كلود بارو : انها مسيحية ولكنها متحررة جدا . اما بالنسبة لى فاننى قلت لنفسى بعد تفكير طويل انه لا يوجد سبب قاهر يجعلنى ارفض معيشة الحياة الزوجية . وانه لا يمكننى أن أستمر فى قبول قانون العزوبة وهكذا طلبت من روما الاذن لى بالزواج .

الاكسبريس : لقد كنتم تعلمون أن ذلك غير ممكن ؟

جان كلود بارو : ان القساوسة ليسوا رهبانا وواجب البقاء على البقاء على العزوبة لا يهم الا رجال الاكليروس . والكنيسة الغربية لم تبدأ بفرض العزوبة على القساوسة ورجال الاكليروس الا منذ قرون قلائل . ذلك لان الامر ها هنا لا يتعدى كونه مسألة طاعة . أو بتعبير آخر هو عقد بين الكنيسة والقسيس . واننى لست أقوى اليوم على الاضطلاع بواجبات هذا العقد ولذلك طلبت من روما أن تحررنى منه .

اما الاهم فى كل ما سبق فهو ان مشكل عزوبة القساوسة هى فى صلب ازمة الكنيسة اليوم . وهذه الازمة لا علاقة لها بالتنظيم بل هى أزمة ايمان . والسؤال الرئيسى الذى يجب ان يطرح اليوم هو هل المسيحيون اسعد حالا من الاخرين ؟ .

لقد كان المسيحيون الاوائل يقولون أن المسيحية نبأ سار — بالمعنى الصحفى الكلمة — وعلينا اليوم أن نعود الى مثل ذلك المفهوم لاننا نسيناه . وذلك ما ينقص الكنيسة اليوم فهى لا تعلن عن النبأ السار بل تقدم النصائح الطبية وهو أمر ليس من اختصاصها .

الاكسبريس : ولكن الناس فى حاجة الى اجوبة اخلاقية فمن يعطيهم اياها ؟

جان كلود بارو : اننى لا اقول بأنه لا ينبغى تقديم النصائح الطبية بل على العكس ينبغى تقديمها وتقديم الاجوبة السياسية ايضا . ولكن الكنيسة ليست هى التى تضطلع بذلك بل على الناس أن يقوموا بذلك . يجب على كل مجموعة انسانية وكل فرد اكتشاف ما يتعين عليه أن يقوم به تبعا للنبأ الذى سمعه . وباختصار فان أكبر ازمة فى مسيحية اليوم هى انه لم يبق لها ما تقوله للناس ، وليس من شأنها ان تقدم نصائح طبية لم تسأل عنها .

الاكسبريس : وهل تعتقدون أن ازمة الكنيسة هذه تفسر ارادة القساوسة فى ان يكتشفوا من جديد جانبا عفويا فى الوجود الانسانى ؟ وان يتزوجوا ايضا ؟

جان كلود بارو : ان ذلك يفضى الى الحديث عن مشكلة عزوبة القساوسة التى هى فى واقع الامر مشكلة صغيرة وثانوية . ولقد اعلنت عن ذلك مرارا وعشت حياة العزوبة طوال عشر سنوات بكل اخلاص . الا أن هذه المشكلة الثانوية تبدو لى بالرغم من ذلك ذات معنى كبير . وذلك لسببين نفسانيين : فأهم بعدين فى الانسان هما البعد الدينى والبعد الجنسى. وزواج القساوسة يتراوح بينهما. ومشكلة العزوبة تحث على اعادة النظر فى هيئة الاكليروس التى لم تكن موجودة فى الكنيسة القديمة .

الاكسبريس : وكيف صارت العزوبة قانونا معمولا به ؟

جان كلود بارو : حدث فى العصور الوسطى أن الناس المثقفين الذين يحسنون القراءة والكتابة كانوا من الرهبان . ودفعت الضرورة الى اختيار رجال الكهنوت وخاصة الاساقفة من بين هؤلاء الرهبان . من هنا نشأت فكرة عزوبة القساوسة . ولكن

اذا كانت الكنائس قد نصحت بأخذ هذه الفكرة فانها لم تعرف ميدان التطبيق الا ابتداء من القرن السابع عشر . وفضلا عن ذلك فان واجب العزوبة لم يؤخذ به الا فى الكنيسة اللاتينية أما فى الكنائس الشرقية فانه لم يطبق ابدا بل وحتى فى الكنائس الشرقية الكاثوليكية .

الاكسبريس : هل ترون ان نمط الحياة الحديث يزيد من صعوبة بقاء القساوسة على حالة العزوبة ؟

جان كلود بارو : طبعا ان اغلبية القساوسة قبلوا قانون العزوبة عن سبيل الطاعة . فقبل عشرين سنة كانت ممارسة الحياة مسألة يسيرة نسبيا . فالراهب كان فى هيئة تحميه . أما اليوم فانه لا يوجد مثل تلك الظروف فكيف نحمى انفسنا ؟ انهم يطلبون منا بأن نقوم بأدوار بطولية . وهكذا ترون أن قانون العزوبة الذى يفرض على القساوسة لم يعد محتملا . ان البطولة واجب على كل مسيحى ولكننى أعتقد ان قانونا ما لا يمكن مطلقا أن يقوم على البطولة . والفاتيكان يعلم ذلك ولكنه يتجاوزه ولا يخضع له.

الاكسبريس : اذا كنتم تطرحون مشكلة زواج القساوسة فعليكم ايضا أن تطرحوا مشكلة الطلاق ؟

جان كلود بارو : اننى لا أرى الزواج تقديسا . فمشكلتى تتلخص فى اننى احب امراة واريد ان اعيش معها وانجب اطفالا . ونظام الزواج نسبى مثل الانظمة الاخرى كلها . والمسيح نفسه يرى هذا الرأى فهو لم ينشر تشريعا حول لا انفساخية الزواج . وهناك اشياء اخرى أهم من الزواج فبامكان الرجل والمرأة الفراق . والاطفال انفسهم ليسوا أمرا مطلقا بالنسبة للمسيح نفسه . فبالامكان الانسان أن يفارق والديه وأبناءه وزوجته من اجل ما هو أهم .

الاكسبريس : وما هو رأى الكنيسة فى هذه المشكلة ؟

جان كلود بارو : اذا كان فشل الحياة الزوجية ظاهرا فاننى لا أرى لماذا لا تقوم الكنيسة بفسخها . فلديها السلطة على ذلك ، **ثم ان القانون وضع للانسان ولم يوضع الانسان للقانون** . ان التعهد بالحياة الزوجية مسألة جدية ، وعلينا أن نقوم بذلك بعد معرفة دقيقة اى بعد علاقة طويلة يمكن أن تبلغ حد العلاقة الجنسية . **اننى باختصار لا اكافح من اجل الزواج بل أصارع حتى يستطيع القساوسة أن يكونوا رجالا مثل الاخرين وأن يكونوا فى الوقت نفسه خدمة للكنيسة .**

واننى أحب البابا واخضع له ولكننى اقول بأنه يخطىء . وانه يفضل قانونا عرضيا يؤكد هو نفسه بأنه عرضى . والبابا ليست له كلمات الحياة الخالدة . فكفانا من هذه المشكلة اذن ولندع القساوسة يتزوجون وننتقل الى البحث فى مشكلات جدية .

هنرى لبوريت : علم الحياة نقطة التقاء العلوم

تبدو اليوم ضرورة احتكاك العلوم الانسانية بالعلوم المختلفة ذلك لانها تتطلب فى بعض الاحيان معلومات طبيعية ورياضية معمقة ويتعين على العالم الاجتماعى مثلا ان يكون فى الوقت ذاته عالما بالاقتصاد ، وان يكون العالم النفسانى عالم حياة وكاتبا فى آن معا .

ويبدو أن هناك طريقتين للبحث ترتسمان فى ميدان الاحتكاك بين العلوم . الاولى حدسية فلسفية تهتم بالمصير الانسانى ولكنها لا تتعامل مع العلوم الا عن طريق القياس وتأمل ان يتحقق ذلك بواسطة التجربة . وطريقة البحث هذه من اختصاص علماء السلالات البشرية (المختصين فى عقد المقارنات بين اوجه السلوك الانسانى والحيوانى) مثل كونراد لورنز ، وفلاسفة العلوم مثل روبرت اردى . أما طريقة البحث الثانية فتكاد تكون معاكسة للاولى فهى اكثر علمية واشد تواضعا اذ انها تمتنع عن الافاضة فى التنبؤات ، بل تتناول مواضيع البحث على شكل مستويات تنظيمية . ولعل تعبير / مستويات التنظيم / هو ما يبين لنا بكل وضوح آراء الاستاذ هنرى لابوريت وأفكاره .

فقد شغل هذا العالم منصب طبيب عسكرى خلال الحرب العالمية الثانية واكتشف سنة ١٩٥١ مادة كلور برومازين التى

كانت أول مهدىء يستخـــدم فى الطب العقلى . وقام عام ١٩٦٩ تحت الحاح طلبته بانشاء هيئـة / علم الحياة والتمدن / التى مكنته من وضع كتابه الاخيـر / الانسان والمدينة / . وفيما يلى الحديث الذى ادلى به الى مجلة الانباء الادبية .

هل تكون تجربتكم كطبيـــب عسكرى هى التى ادت بكم الى اكتشاف المهدئات ؟

— ليس ذلك ما حـدث على وجه التحديد . فقد كنت اهتـم ببحث الصدمات التى تحدث من جراء العمليات الجراحية .وكانت هذه الصدمات تعتبر فيما مضى نفادا لوسائل الدفاع فى الجسم . ثم اننى ادركت انه بقدر ما نزيد من تقوية وسائل الدفاع فىالجسم بالكافيين والكافور والمخــدرات الاخرى بقدر ما ترتفع نسبـــة الاموات بين المرضى . ووســائل الدفاع هذه حين تقويتها تخـــدم الحيوانات العليا ولا شك وقـد كان الانسان البدائى يستخدمها للاعتداء أو للهروب ولكنها بقيت عاجزة تجاه اعتـداء العمليـــة الجراحية . وبما اننا لا نستطيع ان نهرب من الجراح او نقاومه، فانه من العبث أن نحرم مـــن الدورة الدموية بعض الاعضــاء التى لا تستخدم لا فى المقــاومة ولا فى الفرار ، ذلك لانــه قـد تحدث بعض الرضوض الخطيرة. ولقد اكتشفت المهدئات الاولـى بغية الحجر على عمليات الدفاع هذه بدلا من حفزها .

— كيف انتقلتم من هذا البحث الطبى الصرف الى نشاط يشمل عدة علوم ؟ وهل كان تفكيركم فى تمييز التفاعلات لدى الحيـــوان الاعلى هو الـــذى ادى بكـــم الى اهتماماتكم الحالية ؟

— لقد كنت أول من اقتـــرح استخدام المهدئات فى ميــــدان الطب العقلى . فقد بدا لى ان المرض النفسى هو رد فعل غير منتظم تجاه اعتداء اجتماعى مـــا وانه مشابه لردود الفعل التــى تلاحظها فى الجسم الانسانى أمام اعتداءات العمليـــة الجراحية . ولقد وجدت نفسى فى البحـــث البيولوجى انتقل من مستـــوى تنظيم الـــى مستوى آخـــــر ، فقبـل عـشريـــن سنـــة لم تكن التركيبات الكيمائيـــة الحيـــوية معروفة . وقد تناول كتابى الاول موضوع الجهاز العصبى النباتى. وعندما اكتشـــفت عـــن طريـــق البيولوجيا بأن هذا الجهاز ليس نظاما للشبكات الكهربية وادركت انه يفرز عناصر كيمائية اضطررت الى ان ابحث فى الكيمياء وعــلم الصيدلة والكيمياء الحيوية وعلم الحياة العام . وفضلا عن ذلك فقد انتقلت من البحث فى تنظيـم الجهازين العصبى والدموى الى البحث فى الخلايا ومنها الى علم الطبيعة وكيمياء الجزيئات .ذلك لاننى لم اكن لاستطيع فهم وظيفة عضو ما بدراسته من زاوية واحدة بل كان على ان احصل على خلاصة مستمرة فى شتى العلوم .

— ان علم الحياة يميل اليوم نحو علوم الطبيعية ، وكنتم فى السابق قد جعلتموه يميل اكثـر فاكثر نحو العلوم الانسانيـــة . فكيف تشرحون ذلك ؟

— ان الجهاز الانسانى كـل يكتمل . وليس مـــن المغالاة فى شىء أن ننظر الى النظـــام الاجتماعى بنفس المفاهيم الـتى ننظر بها الى الجهاز الفردى . ولكن علينا أن نميز مستويـــات للتنظيم وذلك انطلاقا من الجزىء الى السلوك الانسانى بأكمله .

انكم تعرفـــون تلك الدمـــى الروسية ذات الشكل الـــواحد والاحجام المختلفة . ان الواحدة منها تتركب فى الاخرى باتصالها فى الخاصرة . واظن أن عــــالم الحياة جاكوب هو أول من بـــين اوجه الشبه بينها وبين الجهاز الانسانى بيد أن الصورة ليست صحيحة تماما . ذلك لان عملية التراكب هذه لا تكفى لتحقيــــق الارتباط . فكل مستوى يجب أن يخضع للمستوى الذى سبقـــه . وهذه ولا شك اجهزة ذات تنظيم داخلى تحقق مبدئيا نفسهــــــ بنفسها . ولعل الكابت الحرارى أن يكون أصدق دليل على ذلك . فهو حمام تقوم فيه الطـــاقة الكهربية بالابقاء عـــلى درجـــة معينة من الحـــرارة بواسطـــة جهاز للتفاعل . ولو أن الجهاز الانسانى كان علـــى شكل كابت حرارى لما حدث تطور او تكيف على الاطلاق .

ينبغـــى اذن علـــى الكـــابت الحى أن يخضع لاوامر خارجية تطلعه على درجة الحرارة التى يتعين الابقاء عليها . فالمنظـــم الداخلى لا يكفى بل ينبغى على مستوى التنظيم الاعلى أن يزوده بالمعلومات . ونظام الخلية على سبيل المثال لا يمكن شرحه دون الاطلاع على القيادة الخارجيـــة للانظمة الاخرى . وهكذا فعندما نتوصل الى معرفة شاملة بالجهاز الحى يصعب علينا أن نتوقـــف عن البحث بل انـــه من المغرى ان نبحث فى مسألة ما اذا كانت الانظمة الجديدة المكتشفة تطبـــق ايضا على المجموعات الاجتماعية والنوع الانســـانى بأكمله . ان معرفتنا بكل خصـــائص جـزىء الكلور وجـزىء الهيدروجـــين لا يجب أن تجعلنا ننصرف عـــن دراسة حامض الكلوردريك . وان الذين يجهلون كل شىء عن الكلور والهيدروجين لا اهلية لهم للتحدث عن حامض الكلوردريك . وكذلك فانه ينبغـــى لعـــالم الاجتماع ان يكتسب معاوف فى علم الحياة حتى يستطيع ممارسة عمله .

— لعل النزوح الى الاعتـداء هو أبرز خاصية اجتماعية يضطلع علم الحياة بدراستها . ولقـــد تحدثتم كثيرا عن شرح هــــذه الظاهرة العمرانية وخاصـــة فى كتابكم الاخيـر ...

— ان الاعتداء الانســـــانى مسألة خاصة . فبواسطته امكن لنا فيما مضى أن نناضل ضـــد

طبيعة العصر الحجرى القديم ، ثم انه فقد خاصيته البدائية ابتداء من العصر الحجرى الجديد . وقد ولد مفهوم الملكية بمجرد ان عزف الانسان عن ممارسة الصيد الذى يقوم بأوده ، واستقر فى ارض ما واشتغل بتربيةالحيوانات وجمع الغلال . ومفهوم الملكية هذا يعنى أن الانسان عندما حقق ضمانا غذائنا حول اعتداءه نحو أخيه الانسان . وكان قد ورث هذا الاعتداء من طبيعة مخه الذى تعود على المكر والحيلة .

ومن البديهى أن المدينة اداة مثالية لسيطرة الانسان علىأخيه الانسان ، فالاعلام يأخذ فيها اتجاها واحدا والثياب والانماط الثقافية تتخذ هى الاخرى شكلا موحدا . والنشاط الانسانى الخلاق فى ميادين الفن والعلم والتقنية يتحول الى نشاط لتحضير السلع . نعم اننى أعترف بالعوامل الاقتصادية التى تؤدى الى نشوء المدن والحواضر ، بيد أن الامر ها هنا مماثل لظاهرات السيطرة الاخرى ، فنحن نعثر فى هذا الاطار على نفس المخ البدائى الماكر العجوز . وفى الوقت الذى تقدمت فيه علوم الطبيعة بشكل يثير الاعجاب بقينا نحبو فى ميدان معرفتنا بالانسان.

ان العلم الذى لا ضمير ولا وازع له هو خراب للروح دون شك ولكن العلم الذى لا وعى له بالعقل الباطن هو خراب للانسان ان **النوع الانسانى مهددبالانقراض** اذا ما أبقينا على غريزة السيطرة أو لم نلبسها شكلا آخر لا يمت بصلة الى حب التملك .

ــ ولكن كيف يمكن لغريزة السيطرة ان تندثر ؟ انك نفسك تمارس هذه السيطرة على السيطرة على طلابك فى جامعة فانسان ؟

ــ اننى اشعر على العموم بنوع من الضيق عندما اجد نفسى فى قاعة الدرس . اننى اسمع الى العروض والابحاث كسائر الطلبة الاخرين واتفادى القيام بدور المسيطر بينهم. واننى اذكر لكم ها هنا تجربة العالم دلغادو على مجموعة من الشمبانزى . فقد لاحظ ان السيطرة منها هى التى توجد اذنابها فى حالة احتياج ، وقد استطاع دلغادو بواسطة قضيب حديدى استخدمه عن بعد أن يغير كيفما شاء من نظامها الجماعى .

بيد ان قرود الشمبانزى تعلمت طريقة استخدام هذا القضيب واستطاعت ان تستعمله لابعاد رئيسها كلما صار مزاحما مقلقا . فلنطبق مثل ذلك على بنى الانسان .

(من اجل عالمية ثقافية)

ذلكم هو عنوان المحاضرة التى القاها الشاعر الاكاديمى الفرنسى بيير ايمانويل فى مؤتمر ادبى انعقد اخيرا بمدينة دبلن الارلندية . وقد حاول الشاعر فى هذه المحاضرة تقييم الانسان والثقافة تجاه اخطار التقدم التقنى فى العالم الغربى .

ان التغيرات التى شهدها الربع الاخير من هذا القرن قد قلبت مجموع الموازين الانسانية راسا على عقب . فالتقدم ، اذ زود الانسان بامكانيات التاثير على العالم وعلى نفسه بطريقة تتجاوز قدرة العدد الكبير على الفهم وتضع فترة ما قبل الحرب فى مرحلة ما قبل تاريخ التكنولوجيا ، فانه قد أحدث بالمقابل تحويرات لم تكن متوقعة فى التوازن بين الانسان ومحيطه وبين الانسان وروحه . وان التضخم الديموغرافى،والازدحام، والتلوث ، وتبذير الثروات الطبيعية ، ان هى فى واقع الامر الا الدية المباشرة التى دفعتها الانسانية لتغطية الانتاج والاستهلاك المتزايدين اللذين لم يكن لهما من قانون آخر فى البلاد الثرية سوى الاطراد الى ما لا نهاية ، واغراق بلدان العالم الثالث فى الفقر اكثر من ذى قبل ، هذه البلدان التى انتقل الكثير منها فى ظرف سنوات معدودات من أوضاع اجتماعية عتيقة مستقرة الى مرحلة الاكتشاف المفاجىء لتقنيات الاستثمار العالمى التى تهددها اليوم بدفع ما قد يترتب عنها .

وكان أن انهمكت وسائل الاعلام اكثر مما مضى فى نشر وعى شامل متغطرس وقلق فى آن واحد ، وانطلقت تمجد تطلعاته وانتصاراته وتردد فى ذات الوقت تناقضاته وثوراته فى ارجاء الدنيا . وتسببت أزمة التقدم الشاملة التى أحس بها الجميع، كل فى نطاقه المحلى ، فى ظهور مفاهيم جديدة قد تؤدى الى انفصام الاواصر بين بنى الانسان أو الى التضامن فيما بينهم . ولو عدنا الى وسائل الاعلام هذه لقلنا أن توسيعها وانتشارها سوف يطرح مشاكل لانواع الحملات الدعائية المختلفة وانظمة المراقبة كلها ، ذلك لان تطور شبكة الاقمار الصناعية أو خطوط التلفزة التى تلف كوكبنا بنسيجها العصبى سوف تجعله يتأرجح بين التذبذب والتجانس، وبذلك يصعب على المرء التخمين حول أثر هذا الوضع على كل فرد . هل تراه سيكون وعيا شاملا أو رعبا تاما ؟ . ولعل تلك الجماعية الموجهة التى تستطيع التقنية ان تحدثها وتحورها على هواها هى أشد ما يلفت الانتباه فى الوقت الحالى عندما نتأمل تصرفات الجماهير، فالكل يعلم أن الدعاية قد صارت هى الاخرى علما تطبيقيا مثل الاشهار تماما . وفى امكاننا ان نقول مثل هذا القول عن نظام العقوبات التى تطبق اليوم على الناس المتهمين بأعمال الفكر . واننى لا اعنى هاهنا سوى فكرة القمع المجردة ولست اقصد

تطبيقها المحدد ذلك لان جريمة امتلاك راى ما هى ذات جوهر متغير تبعا للانظمة ، بل انها تتغير فى النظام الواحد بين الحين والاخر ، ناهيك بالتطور الهائل لوسائل التعذيب التى سجل فيها الانسان اكبر انجازاته بتعبئة الطب العقلى هذا الانسان الذى لا يريد الا أن يحطم نفسه بنفسه. وليس لى من غاية وراء هذا الحديث سوى أن احذركم من دور الشرطى الذى سوف تلعبه السبرنطيقا فى المستقبل .فشرطة مزودة بعقول آلية هى نظام تكاد تكون مناهجه ونتائجه معصومة من الخطأ .

لم هذا العرض المتشائم عن التقدم يا ترى ! ان كل انسان يستطيع أن يضيف ما يحلو له قائمة التشاؤم هذه . ولكننا نحن لا نصدر ابدا عن حقد تجاه العلم مثلما يروق ذلك لبعض المتأدبين ، بل عن رغبة فى القاء الاضواء على وضعيتنا نحن الذين نشتغل بالادب والثقافة . ان هـ.ج . ولز والدوس هكسلى لم يكونا متهمين بعدائهما للعلم ، وفرانز كافكا وجورج اورول لم يوصما بالرجعية بل على العكس استطاع هؤلاء الاربعة ان يأتوا بتنبؤات مدهشة عن مستقبل الانسانية . واذا كان الاديب المثقف قد استطاع فى الزمن الماضى أن يضطلع عن ايمان راسخ بدور الناقد للقيم الحضارية وأن يبشر بالتطلعات الانسانية البعيدة ، فانما حدث ذلك لان البشرية كانت تسمع صوته ولانه كان يوقظ فى النفوس مشاعر واحدث أصداء يختنط فيها الجدل بالموافقة وهو الامر الذى كان يعزز من قيمته . أما اليوم فان الارض تعير اذنا صماء للمتأدبين ولا تكاد أصواتهم تتجاوز نطاق الجماعة الضئيلة التى يتألفون منها . ان الادب بتعبير آخر لم يعد المحيط الذى تنشأ الافكار فيه وتتبلور ، بل هو نتاج للاستهلاك يشبه اى انتاج آخر،واهميته تقاس فى الاسواق. ومصداق القول فيما سبق هو أن البلاد التى يسجن فيها الادباء وينفون من اجل فكرة تعتبر خطيرة بدعوى أنها قد تؤدى الى نشوء وضع فكرى جديد — ان هذه البلاد — ربما كانت تحترم الفكر اكثر من البلاد التى يولد فيها الفكر فى اطار اللا مبالاة العامة . فالانسان فى بلادنا التى تزعم بانها تحررية قد اضطرب عقله نتيجة لطائفة من الخرافات المستفيضة خرافة التقنية القادرة على كل شىء وخرافة العلم الذى لا يعرف الانسان من ورائه شيئا عن نفسه

وخرافة سمو النظريات الاجتماعية على حكمة الماضى وروحانيته الخ . والغرض من هذه الخرافات كلها هو النمو المطرد للاقتصاد والاستخفاف بالكائن البشرى . وهذا الاقتصاد تخضع فيه معايير النشر لنفس معايير الصناعات الاخرى ، وهو يحط بذلك من المكانة التى يحتلها الادب ويعلى من مكانه الاعلامية الرخيصة التى تعكس صورة الانسان الحديث ، هذا النرجس السوسيولوجى ، وتجعله يجترع نفسه من جديد . وبما أن دور الكتب تتبع نفس قوانين دور النشر ، وبما أن المجلات والصحف الادبية فى طريقها الى الزوال ، فان الكتب الرائجة التى تملا جيوب رجال الاشهار وهى التى توجد اليوم على رفوف هذه التجارة التى يلعب فيها الناشرون دور البائعين بالجملة ، وتقوم فيها محلات بيع الكتب بدور الحوانيت .

بيد أن الانتاج الحقيقى فى هذا النظام الكونى الجديد ، اذا ما اخذ فى مجموعه ، انما هو الانسان نفسه حسب ما يضعه رجال التقنية والمكاتب والدعايات والاشهار . انه انسان الانتاج الصناعى المتزايد ، سواء تعلق الامر بالاسلحة الثقيلة ام بالرؤوس الذرية . انه الانسان الذى لم يعد يقوى على التفكير فى نفسه ، وانتزعت منه الارادة والرغبة فى التفكير . انه الانسان الذى يفكر عنه مسؤولوه ويعيدون التفكير فيه دونما قانون وحسب ارادتهم ونواياهم . اية مكانة يستطيع التفكير الفلسفى او التشوف الشعرى احتلالها فى الحياة المكتلة لهذا الانسان ؟ هل نحن آثار انسان غابر يحاول عصرنا اليوم أن يتقصى ثقافاته وحكمه المختلطة المجتمعة فى المعرض الضخم لبقايا الحضارات والفنون والاديان ؟ ام هل نحن بواكير الانسان العالمى الذى يبدو ان هذه الاثار الرائعة الحية تنبىء عن وحدته وتحث على استكناه سره ومكانه فى الكون ؟ واذا كنا المبشرين بهذه العالمية الحقيقية والشهود عليها ، فما الذى نستطيع فعله — لانه يتعين علينا ان نقوم بشىء — أمام العقبة الكاداء التى نصبتها الانسانية المصنعة أمام هذه العالمية ؟ ان امكانياتنا ليست قوية ولعل ازدحام ادمغتنا بالافكاروالنظريات هو ما يحول دون استخلاص البسيط والجوهرى منها ، ولنفترض أننا توصلنا الى ذلك فكيف نعلن عن هذه الافكار لكى تصير شعارا للمعرفة ورمزا للذين يبحثون عن الانسان داخل الانسان ، ويريدون أن يبدعوا الانسان من جديد انطلاقا مما هو عليه الان ؟ . لقد قلت فيما مضى أن الانسان الحديث كونى ولا شىء فى وقت واحد ، وان هناك علاقة وثيقة بين هذين البعدين . وليس هذان البعدان الا الصورة السلبية المرعبة لطبيعته الحقيقية ، هذه الطبيعة العالمية والفردية فى الوقت الواحد . أين هو يا ترى مقياس الانسان بالنسبة لنفسه

ولعالمه ! ان القضاء على الكائن الشخصى فى سبيل قياس الواقع الكونى انما هو جريمة جنونية قد ادت الى خسران عدد من الحضارات.واننى لا ازال اعتقد بالرغم من الحضيض المسف الذى آلت اليه الثقافة اليوم ، بأنه لم يبق على الناس الذين اختزنوا الكلمة الانسانية ، هذا القياس المقدس ، الا ان يجابهوا تحديات نظام اصطناعى جائر ارعن لا يكاد يثق فى نفسه عكسا لما قد يوحى به جهازه الهائل الذى لا يهدف فى حقيقته الا الى مسخ القيم وتشويهها . واننى اعير اهتماما بالغا لوجود ممثلين عن آداب العالم الثالث ضمن منظمتنا هؤلاء الممثلون البعيدون عن هذا الجزء الغربى من العالم حيث ولدت فكرة الجماعية السياسية بمجتمعات ما بعد العهد الصناعى .

وهذا لا يعنى اننى فقدت الثقة فى العمل على تنشيط الضمير الاوربى بل احجمت عن الاعتقاد بالعظمة الروحية للبلدان المتقدمة.

اننى أعتقد على العكس بأن تقسيم العالم تبعا لمصالح السلطات الكبرى يتضمن فى ذاته تهديدا بالفناء ضد كل ثقافة حرة . بيد أن قوة الضعفاء فى مقاومتهم الضرورية ضد الخنق التدريجى ليست جانبا يستهان به . فكائنا ما كانت وضعيتهم التاريخية الحالية ، احرارا كانوا ام مضطهدين ، **فان شكل العالم المقبل يتوقف على الوعى الذى لديهم باصالتهم الثقافية والجهود التى يبذلونها للحفاظ عليها .** ان للامبراطوريات الكبيرة حدودا، وكثيرا ما تكون هذه الحدود فى ذاتها . وهكذا فان اخطار حضارة تقنية موحدة الشكل ليست محسوسة اليوم بصفة تلقائية مثلما كانت عليه قبل عشر سنوات . وان فكرة تنوع الرجال والثقافات قد تحتمل بعض النقد ولكنها لا ترضى الا بنسبة ضئيلة وليس اكثر . فلنطلب اذن من كتاب البلدان التى لم تقطع بعد شوطا بعيدا فى التقنية ان يضعوا نصب اعيننا باستمرار بأن **العالمية الثقافية الحقيقية تكمن فى تنوع الثقافات ، وان التركيز على التقدم التقنى واهمال الجوانب الاخرى يدفع الانسان الى ان يغترب عن نفسه الى ما لا رجعة. انه من الوبال على النوع الانسانى ان يحرم من تجربة التمعن فى ذاته ، هذه التجربة التى تمنحها كل ثقافة كبيرة ، والتى يظن الفضوليون العابثون ان لهم القدرة على توجيهها على غرار ما يفعلونه اليوم بالتقنية .**

وانى آمل بالرغم من المخاطر التى قد تواجهنا ان نقوم حراسا وشهودا على هذا الجانب من الواقع الذى يمكن ان نسميه الاعماق والرمز والسر .

صدور العدد الاول من مجلة : « اللسانيات »

اصدر معهد العلوم اللسانية والصوتية التابع لجامعة الجزائر مجلة جديدة بعنوان : « اللسانيات » متخصصة فى علم اللسان البشرى ، ويديرها الاستاذ عبد الرحمان حاج صالح .

ومجلة « الاصالة » ترحب بالزميلة « اللسانيات » التى ستساهم فى ابراز وتقديم الابحاث والنتائج التى حققتها العلوم اللسانية والصوتية ، سواء على المستوى الوطنى او على المستوى العالمى وتمكين اللغة العربية من اكتساب وسائل حديثة للتطور واستعياب علم العصر .

قراءات فى المجلات الانجليزية

اعداد حكمت ياسين

تناولت الصحف الانجليزية والامريكية فى المدة القصيرة الماضية عددا من القضايا والمشاكل العالمية الهامة ، التى طالماكانت مدار الحديث بين رجال السياسة فى مختلف الدول العالمية . وكان بعض هذه القضايا غالبا مايخص بلدان العالم الثالث، ومشاكل تطورها ، وبناء كيانها واقتصادها ، وبعضها يدور حول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض فى امريكا للمواطنين السود ، والنظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء .

وكان من بين المواضيع التى تناولتها الصحافة الانجليزية ، موضوع « المخطط الرباعى » بالجزائر ، فمعلوم ان الجزائر شهدت فى بداية سنة ١٩٧١ حدثا تاريخيا هاما ، ونقطة تحول حاسمة فى طريق البناء والتشييد ، ذلك هو « المخطط الرباعى » الذى رسمته الحكومة الثورية فى الجزائر لرفع اقتصاديات البلاد ، والنهوض بها من حالة التخلف والارتقاء بها الى مصاف الدول المتقدمة ، وهذا ما عبر عنه الرئيس بومدين فى احدى خطبه ان اللحاق بالدول الصناعية ليس شيئا مستحيلا .

ويهدف هذا المخطط الى تصنيع البلاد ، وجعل الصناعة تحتل المرتبة الاولى فى الاقتصاد الوطنى ثم تحسين الزراعة وزيادة الانتاج الزراعى بالاعتماد على الصناعة المتطورة ، وكان لهذا المخطط ردود فعل وطنية ايجابية قوية ، اذ جندت له جميع الطاقات والوسائل للعمل على انجاحه ، وبذل المزيد من الجهود المادية والمعنوية من اجل تحقيقه فى الوقت المحدد ، كما انه احدث ردود فعل عالمية مختلفة ، فنظرت اليه بعض الدول الصديقة والشقيقة على انه خطوة جبارة اختطتها الجزائر لنفسها ، ومن الممكن أن تكون قدوة لغيرها من دول العالم الثالث ، بينما راحت بعض الاوساط الاستعمارية والامبريالية تقلل من اهميته، وتتشاءم من امكانية تحقيقه ، وفى هذه الاثناء قام الصحفى الانجليزى (شارل هارغروف Charles Hargrove

باجراء مقابلة صحفية مع الرئيس هوارى بومدين، دار الحديث فيها حول هذا المشروع وغيره من القضايا الوطنية والقومية . فكتب شارل هارغروف هذه المقابلة فى احدى الصحف الانجليزية فقال :

عندما دخل الرئيس بومدين الغرفة كان يضع على جسمه الطويل النحيل برنسا اسود ، وكانت ملامحه الصارمة وطريقة تصرفه الدالة على التروى تكشفان عن كرامة وتحفظ اصيلان ، تخفف من حدتهما ابتسامة او ضحكة خفيفة ، ووميض عينين حادين سوداوين .

فسالته : الى اى مدى يعتقد ان المخطط الرباعى للتنمية الاقتصادية الذى بدىء العمل به فى مارس الماضى ، سينجز ؟ .

فأجاب الرئيس بومدين: اذا كنا قررنا وضع المخطط فذلك لاننا نؤمن به . وان اقتناعنا بذلك قد تدعم بأن المخطط سينجز ، ليس مئة بالمئة او تسعة وتسعين بالمئة ، ولكنه سينجز ! . ان المشكل الحقيقى يكمن فى نقص الفنيين والاطارات اكثر من المشاكل المالية ، وقد عوضنا هذا النقص فى الوقت الحاضر بخبراء اجانب (المتعاونين) .

وتعانى الفلاحة الجزائرية كذلك نقصا كبيرا فى المسيرين والمدربين، ويستطيع المرء ان يعد عدد المهندسين الزراعيين على اصابع اليد الواحدة غداة الاستقلال ، لكن القدرة الانتاجية قد ازدادت بدرجة ملحوظة تحت المخطط الرباعى ، وفكرت الحكومة فى العمل على رفع الاهداف العظيمة للزراعة ابتداء من العام المقبل .

واننى اعتقد اننا سنكون بعد عشرة سنوات فى وضع يسمح لنا بالقضاء على ظاهرة البطالة ، وامتصاص اكبر عدد ممكن من العمال، لاننا سنقوم ببرنامج بنائى واسع . واننى ارى ان التطور الاقتصادى هو الحل الوحيد للبطالة ، واى حل آخر يعتبر حلا مؤقتا .

وسالته عن مسالة التعريب التى اولتها الحكومة اهتمامات زائدة .

فاجاب : يتكلم بعض الناس عن ثورة ثقافية ، ان هذا يعنى بالنسبة لنا اكتشاف تراثنا الثقافى واللغوى، ان الدولة التى كانت تستعمر بلادنا عملت بكل امكانياتها لتحرمنا لغتنا ، ولهذا فانه يجب علينا ان نعيد الى هذه اللغة مكانتها الشرعية ، ونعمل على اغنائها بالتراث الثقافى العالمى .

ثم سالته عن رايه فى مشكلة فلسطين .

فاجاب : ان الحل الحقيقى هو أن نأخذ فلسطين بجدودها الطبيعية، ويعيش داخلها العرب المسلمون والمسيحيون واليهود ، تعايشا سلميا ، حتى ولو اقتضى ذلك تجريد الجميع من السلاح ، ان التعايش السلمى قد يكون صعبا ولكنه اقل شرا .

ويقول الصحفى الانجليزى اننى انهيت المحادثة مع الرئيس بومدين بالكلام حول العلاقات الانجلو ـ جزائرية فاجاب الرئيس بومدين بانه ليس هناك مشاكل ، اذ ان التجارة الانجليزية تطورت فى الجزائر بقوة .

وحول مشكلة التمييز العنصرى واضطهاد البيض للسود ، واعتبارهم اقل منهم قيمة حتى فى مستوى الذكاء ، الى درجة أن بعض العلماء العنصريين يقولون

بأن الاختلاف والفروق بين البيض والسود ترجع الى عوامل « عرقية » اكثر منها عوامل « بيئية » .

وقد اهتمت المجلات الامريكية والصحف الانجليزية بهذه المشكلة ، وكتبت عدة مقالات تتناول الموضوع من جوانب مختلفة . فقد ظهر فى مجلة « نو امريكان سوسيولوجيكال رفيو » فى العدد الرابع الصادر فى شهر أوت سنة ١٩٧١ مقالا اجتماعيا بقلم الاستاذ روبرت جيبو الاستاذ بجامعة « وسكونسن » بأمريكا ، تحت عنوان :

« التركيب الحضارى والفرق بين السود والبيض » فكتب هذا الاستاذ يقول بانه اجرى هذه التجربة على عدد كبير من السود الذين تم ادماجهم فى مدن الولايات المتحدة الامريكية ، وقبل ان يبين الاستاذ روبرت العوامل التى تؤثر فى عملية « التماثل » او الادماج هذه اوضح المعنى الذى يقصده من كلمة « تماثل » ، فهى تعنى مدى استعداد افراد الجنس الاسود لتقبل نفس الجزء من العمل الذى يقوم به افراد الجنس الابيض ، وتعتبر جميع ابعاده المختلفة آفاقا للتنظيم الاجتماعى والحضارى .

ويرى الاستاذ روبرت ان هناك عوامل كثيرة تؤثر فى « تماثل السود مع البيض » ، وان هذه العوامل يؤثر بعضها ببعض بدرجات مختلفة، واهم هذه العوامل هى :

١ ــ الاقامة المحدودة : فهو يرى انه نظرا لاعتبارات كثيرة فان الاقامة المحدودة لها تاثير هام على جميع اشكال التمييز المختلفة ، وان القاعدة المنطقية تقول بأن البقعة المسكونة ذات نتائج على الابعاد المختلفة للتنظيم الحضارى ، ويستشهد براى الاستاذ « هاولى Hawley » الذى يقول بأن اقامة مجموعة من الناس وحدها فى منطقة منعزلة عن غيرها تشجع تمايز واختلاف الخصائص الثقافية وتزيد من ظهورها، بحيث تصبح هذه المجموعة هدفا سهلا للتفرقة التى من شأنها ان تنتج تمييزا كبيرا. وقد اثبتت بهر Bahr وجيبس Gibbs اثر الاقامة المحدودة فى زيادة التفرقة بين السود والبيض فى نواحى الدخل والتعليم والعمل .

٢ ــ نسبة عدد السكان السود : ولتوضيح العلاقة بين نسبة عدد السود والتمييز ثم اللجوء الى استعمال وسيلتين هما المنافسة والاستغلال . فيرى البيض ان تزايد السكان السود يشكل تهديدا منافسا لهم فى الوظيفة والدخل ، ولهذا فان ازدياد حجم السكان السود يزيد من امكانية استغلال البيض لهم ، وذلك لانه عندما يكون عددهم كبيرا فانهم يضطرون للعمل بأجور منخفضة فى وظائف لا يرغبها البيض .

وهناك أيضا النشاط الصناعى ، والمنطقة ، ومعدل زيادة السكان تعتبر عوامل مؤثرة فى التمييز بين البيض والسود .

وحول نفس الموضوع نشرت جريدة ديلى تلغراف « Daily Telegraph. » اللندنية فى اول نوفمبر ١٩٧١ مقالا للاستاذ « جون ازبيكى John Izbicki » تحت عنوان **« السود افضل من البيض فى التعلم بالطريقة الببغاوية »** . وقد كان هذا المقال قد نشر فى مجلة الابحاث التربوية ، للمعهد

الوطنى للابحاث التربوية ، بقلم الاستاذ آرثر جنسس عالم النفس الامريكى بجامعة كالفورنيا . وقد كتب هذا العالم يقول : ان الزنوج ذوى الذكاء المنخفض افضل من البيض من نفس الذكاء فى التعلم الببغاوى اى التكرارى . وان هذا العالم المشهور بعنصريته لم يتراجع عن نظريته القديمة التى تقول بان فروق الذكاء بين السود والبيض هى فى الاصل فروق « عرقية » اكثر منها «بيئية» وهو يرى ان المدارس التى تريد المساواة فى فرص التعليم انما تخدع اطفال المجموعات الاقلية . وقد علق احدمدراء مدارس لندن الذى ربع تلاميذ مدرسته من المهاجرين على هذا المقال بقوله بأنه يمكن ان يخلق نظرية مزيفة وجد مخزية فى الاحترام العلمى ، ويمكن أن تخلق النتيجة نوع من مدارس « عفريتة التبطان » لجميع الملونين كما هو الحال فى الولايات المتحدة الامريكية .

وحول مشكلة دخول الصين الى هيئة الامم المتحدة : فقد احدث دخول الصين الشعبية الى هيئة الامم المتحدة ردود فعل عالمية مختلفة ، وكانت مدار الحديث بين رجال السياسة ومحور الكتابات فى المجلات والصحف العالمية ، وقد تناولت الصحافة الانجليزية هى الاخرى هذه المشكلة ، وهكذا فقد نشرت « جريدة الغاردن The Gardian اللندنية فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٧١ مقالا للسيد جون الكسندر John Alexander نائب رئيس جمعية الامم المتحدة ، تحت عنوان « الصين ، الدولة اللعبة » قال فيه : لقد ترددت اقوال انفعالية عاطفية حول مسالة تغيير تمثيل الصين ، فى الامم المتحدة ، وتستند جميعها على ادعاءات غير صحيحة مرتبطة احيانا بالخوف من احتمال ظهور مشكلة مسبقة ، غير ان هذا تقويم خاطىء للنتائج السليمة .

ان المشكلة موجودة قبل انتوجد الامم المتحدة نفسها فمنذ الانتصار الشيوعى على ارض الصين الام ، من هو الذى سيمثل شرعيا دولة الصين (ليس تايوان وحدها ، او الصين الام وحدها ، ولكن الامة الصينية الواحدة) فى اسرة الامم المتحدة .

ان من الانصاف القول بأن هذا العمل هو المخرج الوحيد الذى اتفقت عليه الحكومتان المتنافستان (جمهورية الصين فى تايوان وجمهورية الصين الشعبية فى بكين) التى تطالب كل منهما بحق حكم امة الصين الواحدة . لقد حلت المشكلة لصالح جمهورية الصين الشعبية بعد عشرين سنة من سوء التمثيل ، ورغم الاجراءاتالهزلية والضغوط التى كانت تمارسها بعض الدول لا سيما الولايات المتحدة الامريكية وراء الكواليس لتثبيت وضع تايوان . ان حضور وفد بكين قد يسبب بعض المشاكل فى مجلس الامن وهيئات الامم المتحدةالاخرى خاصة بالنسبة لدول الغرب . ولكن بالنسبة لشديدى الشغف لهذا المارد المجهول (الصين الشعبية) والذين يشعرون ان الامم المتحدة يمكنها الآن ، والان فقط ان تبدا لتجعل من نفسها «أداة فعلية للسلام» على اساس العضوية العالمية ــ فان هذا العمل

خطوة ايجابية مرضية فى الاتجاه الصحيح ، ومن المؤكد انها جعلت الامم المتحدة مرآة حقيقية للعالم الحديث بتمثيلها ربع البشرية فى الامم المتحدة من قبل حكومتهم الفعلية مهما كانت ايديولوجيتها .

وعلى كل حال فقد ظهر بسبب هذا القرار مشكلتان لا تزالان بدون حل وهما : مستقبل تايوان ، والازمة المالية للامم المتحدة .

اما بالنسبة لمشكلة تايوان فاننى اعتقد انها ستحل نفسها بنفسها عند موت تشنغكاى شيك ، او باجراء استفتاء يقرر فيه شعب تايوان بحرية مصيره ، فاما أن يجدد علاقاته مع الصين الشعبية واما ان يبقى دولة منفصلة عنها .

اما مشكلة ضمان مالية الامم المتحدة فانها اكثر الحاحا . وبالرغم من التهديداتالامريكية بتخفيض مساهمتها فى ميزانية الامم المتحدة (شىء محزن) ، وخاصة انها تنبعث منفشل السياسة الامريكية ، فان هذه المساهمات القليلة فى هذه المسيرة الطويلة لايمكن اعتبارها غير مرغوب فيها، ذلك انهمن الصعب جدا ان تعتمد الامم المتحدة الى درجة كبيرة فى الناحيةالمالية على عضو واحد (٣٣ ٪ من ميزانية الامم المتحدة ، و ٤٤ ٪ من ميزانية الوكالات المتخصصة) .

ولهذا فانه يجب على جميع اعضاء الامم المتحدة ، ان لا يولوا اهتمامهم فيما اذا كانت الامم المتحدة تنفق ميزانيتها بطريقة مفيدة فحسب ، بل ايضا (وهذا اكثر اهمية فى رايى) فيما اذا كانت هذه الميزانية كافية تماما لدفع اجور الوظائف المتعددة التى تطلب الدول الاعضاء ايجادها فى الامم المتحدة .

وفى مجال الطب والاختراعات الطبية ، كتبتمجلة نيوزويكالامريكية فى عددها الصادر يوم ٦ ديسمبر ١٩٧١ مقالا حول آخر الاختراعات التى تعمل على ازالة غموض مهنة الطب ، وجعلها فى متناول جميع الافراد . وكان المقال بعنوان « افحص نفسك بنفسك » .

اعتاد الناس أن يعتبروا الطب فنا غامضا ، لا يعلم اسراره الا الاشخاص الذين يحملون الحرفين السحريين د . ط (M.D.) بعد اسمائهم . غير أن هذا الخوف بدا يتلاشى شيئا فشيئا ، وبدأ الالاف من ابناء الولايات المتحدة الامريكية يشترون (الصندوق ـ العداد) الذىيجعلهم قادرين على ان يجروا فى منازلهم الخاصة بعض الفحوص الطبية البسيطة مثل : تشخيص حالات الحمل ، وقياس ضغط الدم .

وفى الحقيقة فان جهاز « افحص نفسك بنفسك » يعتبر حاليا عملا ثوريا فى ميدان الطب ، حيث انه يستطيع على سبيل المثال قياس مستوى الجلوكوز بعد وجبات الاكل عند المصابين بمرض السكر .

ان كثيرا من الاطباء يوصون مرضاهم ذوى التاثر السريع باستعمال قربة بسيطة لقياس ضغط الدم ، غير ان الدكتور وليام باركلى رئيس الجمعية الطبية الامريكية يقول بأن الطبيب والمريض كانا يشتركان فى هذه العملية معا ، اما الان فان المريض يفحص نفسه بدون مساعدة الطبيب ، وليس هناك ما يوحى بوجود ضرر من جراء ذلك .

وافضل ما فىالامر هو ان المئات من اجهزة الفحص الذاتى هى الآن اما فى عداد

البيع ، واما فى طريقها الى المستودعات . ومن بين هذه الاجهزة :

١ — اوفا OVA III :
وهو جهاز اولى لفحص حالة الحمل ، وبناء على تعليمات مختبر فردى فى مدينة هلسايد، المتكفل بصناعته، فان الفحص يشتمل على : اضافة البول الى قارورتين فيهما مادتان كيماويتان ، ثم يقارن لونى القارورتين ، ومنه يمكن معرفة ما اذا كانت المراة حاملا ام لا . وقد اثبتت الفحوص التى اجريت على ١٠٠٠ امراة ان جهاز اوفا ٢ مضبوط بنسبة ٩٦٫٥ بالمائة . وعلى اى حال فقد اوصى مختبر فردى زبائنه بعدم اجراء الفحص الا بعد اخذ نصائح الطبيب .

٢ — سيرز Sears :
وهو جهاز لقياس ضغط الدم . وتجرى العملية بأن يضع المريض قربة (وعاء مطاطى) حول ذراعه ويكينها جيدا ثم ينتظر ، وفى هذه الاثناء يلتقط جهاز مكرفون صغيرموجود داخل القربة ضربات ضغط الدم ويسجلها الكترونيا . غير ان هذه الاجهزة ليست سهلة الاستعمال ، اذ انه لا يستطيع معرفة النتائج الا طبيب ماهر متخصص .

٣ — جهاز فحص الاخصاب Fertility Testor
وهو جهاز من انتاج مخابر وستون بمدينة اوتاوا ، وهو يبين فيما اذا كانت المراة فى حالة الاخصاب . ويعتمد فى عمله على كون الجلوكوز يظهر فى المهبل اما قبل عملية الاخصاب (التبويض) مباشرة ، او اثناءها . ويتألف من شريط يتغير لونه بفعل الجلوكوز . ولاجراء الفحص تدخل المراة هذا الشريط فى مهبلها فاذا ظهر فيه اى اثر للون الازرق ، فان ذلك يعنى ان المراة فى عادتها الشهرية حيث يمكنها ان تحمل .

٤ — اجهزة بابت — بيبت Panette Pipette » :
وهو جهاز يساعد على تشخيص واكتشاف اضطراب الرحم . ويتألف من « واضع » يضع محلولا كيماويا فىمهبل المراة ، ومن « شفاط » يمتص المحلول بعد ان يكون قد غسل جميع خلايا المهبل ، ويرسل المحلول بعد ذلك الىالمختبر للفحص . ان المزية الرئيسية لمثل هذه الفحوص والاجهزة انها سهلة جدا للفهم والعمل ، وهذا ما يسمح باستعمالها حتى من طرف الناس غير المتدربين . ولكن هذه البساطة نفسها هى التى اوجدت الخوف عند كثير من الاطباء . فقد قال الدكتور دافيد فوركوش مدير مستشفى فوركوشى فى شيكاغو : « ان اجهزة باب سميرز رائعة ، ولكنها لا تخبرك ما فيه الكفاية عن بعض الاشياء التى يبحث عنها الطبيب عندما يجرى فحصا داخليا على امراة . ومن الممكن ان توجد بعض الامراض التى لا يمكن تشخيصها الا بفحوص ادق . »

ونفس هذا الانتقاد وجه الى جهاز قياسى الضغط ، فرغم ان ادوات سيرز تقيس كلا من ضغط انقباض القلب ، وضغط تمدد القلب الا ان هناك اجهزة لا تقيس الا ضغط انقباض القلب . غير ان اخطر ما قد يواجه المريض هو امكانية اجراء تشخيص خاطىء للمرض معتمدا بذلك على المعلومات التى حصل عليها من جهاز افحص نفسك بنفسك . فمثلا فان نتيجة خاطئة لعملية « فحص الحمل » المنزلى، من الممكن ان تؤدى الى صدمة عاطفية ، ووقوع عملية اجهاض غير ضرورية

وحول هذه الاضرار المحتملة قال الدكتور باركلى : فى الايام التى سيصبح فيها الاطباء ، والفحوص الطبية غير مضرين ، فلن تكون هناك نتائج غير النصب والخداع . ولكن لسوء الحظ فان اخطاءنا فى التشخيص والعلاج قوية وخطيرة . وفى حالة الحصول على نتائج غير صحيحة فسيواجه المريض ازمة مالية وصحية .

ويقوم مكتب ادارة التغذية والتموين (FDA) باعداد مشروع لتطوير بعض الاجراءات الجديدة لتنظيم عملية تدفق اجهزة الفحص الطبى الذاتى الى السوق . وقد قال الدكتور هنرى سيمونس مدير مكاتب ادارة التغذية والتموين : انه من المهم جدا ان نؤكد دقة وتعقيد هذه المخترعات البسيطة ، لانها تؤثر على الفحص وتوصل الى العلاج الصحيح .

ثم كتبت المجلة نفسها بعد هذا المقال مباشرة مقالا صغيرا بعنوان « فيتامين « س » موضوع حوار » .

واجه عالم الكيمياء الحيوية المستر لينوس بولنغ ، هجومات كثيرة من طرف الاطباء من جميع الانحاء عندما نادى فى الشتاء الماضى بوجوب استعمال كميات كبيرة من فيتامين « س » كوسيلة فعالة ضد البرد العام . واثبتت الانتقادات الموجه اليه بان الدراسات التى اعتمد عليها فى تصريحاته حول فيتامين « س » تمت بدون مراقبته الشخصية ، ولم تكن كافية للاقناع . غير انه رغم انتقادات معظم الاطباء فان الملايين من سكان الولايات المتحدة الامريكية اخذوا بنصيحة بولنغ وبدأوا فى الحال يشترون فيتامين « س » .

والآن مع عودة البرد ، والانفلونزا ، اخذ الناس يستهلكون كميات كبيرة من فيتامين « س » حتى ان الصيادلة اعلنوا فى كثير من المناطق ان الطلب لفيتامين « س » مرتفع جدا الى درجة انهم اصبحوا يواجهون اضطرابات فى تخزينه .

وعلى كل حال ، فقد اجريت فى جامعة مارى لاندى دراسات حديثة على فيتامين « س » فاظهرت بعض الايضاحات الاكلينيكية المخالفة للنتائج التى توصل اليها بولنغ . ولكى يختبروا فعالية فيتامين « س » قام الدكتور شوارتز والدكتور ريتشارد هورنيك باجراء تجربة على مجموعتين من الاشخاص ، فقدموا لكل فرد من افراد المجموعة الاولى (احد عشر طالبا) مقدار ٣ غم فيتامين (س) يوميا ولمدة اسبوعين ، وقدموا لافراد المجموعة الثانية (عشر طلاب) اقراص بليسبوس

ثم بعد ذلك اعطى الاطباء جميع هؤلاء الاشخاص (٢١ طالبا) جرعات تحتوى على مائة جرثومة من الجراثيم التى تسبب البرد العام، وتابعوا تناول فيتامين « سى » واقراص بليسبوس لمدة اسبوع اخر . ولكن بعد يوم او يومين من التطعيم بجرعات الجراثيم ظهرت علامات البرد على الاحدى والعشرين (٢١) شخصا ، منها سيلان المخاط من الانف وبحة الحنجرة ، والسعال. وصرح اطباء مارى لاند بانه لم يظهر اى فرق فى شدة او مدة المرض بين الاشخاص الذين تناولوا فيتامين «س» والذين تناولوا اقراص بليسبوس .

وخلص الدكتور شوارتز والدكتور هورنيك من هذه التجربة بان فيتامين « س » ليس له فعالية ابدا ضد البرد . واضاف الدكتور

شوارتز بانه رغم هذا فان الناس الذين يعتقدون بأن فيتامين « س » يشفى ويزيل البرد ، سيتابعون استعماله دون الالتفات الى النتائج العلمية ، وخاصة ابناء الولايات المتحدة الذين تدوس متطلباتهم العاطفية جميع الحقائق العلمية .

وفى هذه الاثناء قام مكتب ادارة التغذية والتموين بتطبيق مراقبة صارمة على هوس (ولع) الناس بفيتامين وقد رفض فى الشهر الماضى مقدار تسعة ملايين قرص من اقراص فيتامين س .

واعلنت الوكالة باندهاش ان هذه هى المرة الرابعة عشرة التى يقدم فيها المكتب على مثل هذا العمل ، منذ شهر ماى الاخير وقد بلغ عدد الاقراص التى شملها الرفض ١٠٥ ملايين قرص . وقد كانت الاقراص التى شملها الرفض الاخير نوع من فيتامين « س » يدعى « اسكوربيت الصوديوم » . حيث انه رغم ان وجود الصوديوم مفيد لكثير من الناس ، الا انه مضر بالاشخاص المصابين بمرض القلب او بارتفاع ضغط الدم . وقد اثبت الدكتور رالف موما ان نبضات ضغط الدم عند الفئران تزداد بشكل ملحوظ عند اعطائها ويعتبر هذا الارتفاع فى نبضات الضغط احدى العوامل الرئيسية لمرض القلب وهذا اشد خطورة من البرد العام .

باري ماتش تشبه وباء الكوليرا الذى يجتاح العالم بجنود محمد الفاتحين

كتب ريمون كارتيى فى عدد باري ماتش الـ ١١٦١ بتاريخ ٧ غشت الحالى مقالا (ص ٢٦)تحت عنوان وباء الكوليرا يغزو افريقياويهدد العالم منطلقا من اندونيسيا . فساءنى ما قراته لهذا الكاتب الفرنسى . قال : ان الكوليرا اكتشفت بمحض الصدفة سنة ١٩٠٥ اصيب بها حاج من مكة المكرمة . ولقد ترعرع داء الكوليرا فى اندونيسيا المسلمة ومن ثم انطلق سنة ١٩٦١ كانطلاقة جنود محمد (صلعم) الفاتحين . وبدا يغزو العالم دائما مثل جنود محمد الخ ..

حاول كارتين بهذا الطعن فينا تشبيه الفتح الاسلامى الذى وقف عند حدود جبال البرانس بداء الكوليرا الذى وصل الى عين المكان .

وانه لمن الحيف نترك مثل هذه المقالات الشنعاء تدخل بلادنا وتسمم عقول شبابنا ولانبالى بها البتة .

احمد والشانى عناية



حوار مع كلود ليفي ستراوس

نقله الى العربية : ابن عمار الصغير
اجرى الحديث : ريجون بلور
« لوموند دي ليفر » ٧١-١١-٥
الملحق الثقافي لجريدة لوموند

يعتبر كتاب « الانسان العارى» لمؤلفه المعروف « كلود ليفي ستراوس » تتويجا لمجموعة من مؤلفات استغرقت سبعة اعوام دشنها بمؤلف تحت عنوان « الفج والناضج » . ولقد حاول ان يستخدم منهجا جديدا للتحليل الاسطورى من خلال الاساطير « الامبراندية » كما حاول في نفس الوقت تطوير نظرية الفنون ، ونظرية الانسان مواصلا بذلك ما كان قد بداه في مؤلفاته السابقة ، ومؤكدا فكرة اخلاقية انطلق فيها من وجهة نظر انتولوجية . هذه الفكرة الاخلاقية التي برزت الى الوجود موضحا الاسباب التي ادت الى ظهور هذا المنطق (المجهول) الا وهو التفكير المتوحش .

ان مجموعة الاساطير تشتمل على اربعة اجزاء هي :

الفج والناضج (١٩٦٤) ومن العسل الى الرماد (١٩٦٦) واصل عادات الاكل (١٩٦٨) واخيرا وفي هذا الخريف ظهر كتاب : الانسان العارى .

وتقييم هذا الانتاج لم يبدا الا مؤخرا . وهذا التقييم يخدم المؤرخين والانتولوجيين وعلماء اللسانيات والمناطقة كما يخدم في نفس الوقت زيادة على تصنيف مجالات البحث عديدا من طرق المعرفة في جميع ابعادها والتي يكون محورها الرئيسي : الاساطير ..

س — الفج والناضج عنوان اول كتاب من مجموعة الاساطير يبين كيفية انتقال الانسان من المرحلة الطبيعية الى المرحلة المدنية . وفي نفس الوقت وبواسطة تعارض قائم على ظاهرة وجود أو عدم وجود عملية الطبخ .

واما الجزء الثاني من مجموعة الاساطير الذى يحمل عنوان « العسل الى الرماد » فهو تسجيل لتوابع ومتعلقات عملية الطبخ . والجزء الثالث من مجموعة الاساطير هو اصل عادات الاكل وهو في الحقيقة « ميلاد اخلاق » .

فاين نضع الجزء الرابع والاخير من مجموعة الاساطير وهو الانسان العارى ؟ وهل يندرج في سياق هذه المجموعة مع ان عنوانه يبدو لنا لاول وهلة غريبا ؟

ج – اعلم بأنه كان واضحا منذ البدء فى ذهنى بأنه ما دامت الكلمة الاولى هى «الفج» فالكلمة الاخيرة لابد أن تكون هى «العارى» فى الحقيقة هذا الاختيار كان وليد « مصاحبتى » للاساطير وتتبعها سواء فى أمريكا الاستوائية او فى أعماق أمريكا الجنوبية . لقد وجدت نفسى أمام مفارقة حيث ان نفس الاساطير تواجهنى حيثما حللت بل هى الاسطورة الوحيدة التى اجدها فى مناطق مختلفة من العالم الجديد . غير ان الاسطورة تأخذ اشكالا مختلفة وذلك من منطقة الى اخرى، بل من أسرة ليسانية الى اخرى ومن معشر ثقافى الى آخر . واذا كان هذا التحول الذى يحدث مثلا لهنود أمريكا الاستوائية فان الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة الثقافية (المدنية) يرمز بالانتقال من الفج الى الناضج (من عدم الطهى الى الطهى) فالرمز يختلف بالنسبة الى هنود أمريكا الشمالية اذ هو اكتشاف للملابس والزينة والازياء .. ويبلغ التبادل التجارى ...

س – فى كتابكم الثالث تقولون بانكم طورتم منطق العادات الحسية فى الفج والناضج اما فى كتابكم من العسل الى الرماد فقد كان اهتمامكم بالمنطق الشكلى لعادات الاكل والجلوس حول المائدة ... وسؤالى هو : كيف حدث الانتقال فى جميع المستويات والطريقة المتبعة والنتيجة التى وصلتم اليها فى الجزء الرابع ؟

ج – لنقل منذ البدء بأن منطق المستويات الثلاثة يظل ابدا قائما بالنسبة للاجزاء الاربعة ، وهذا الذى نلاحظه انما هو تطور ضمنى نلمسه فى سياق هذه المؤلفات جميعها ، وليس مجرد مراحل منفصلة بعضها عن بعض تبعا لهذه الاجزاء .

فى كتابى « الفج والناضج » حاولت ابراز الخصائص المادية الاولية التى كانت مهملة (التعارض بين الفج والناضج ، الطازج الطرى واليابس العالى والاسفل) والتى استخدمت فى التفكير الاسطورى كقطع للتوزيع ولكل قطعة منها دلالة منطقية خاصة بها

ومع تطور هذه الظواهر وتعقدها حاولت ادخال عناصر أسطورية جديدة حتى اتمكن من تحليل وفهم مستوى الاسطورة : موضوع البحث .

فالتعارض البسيط يرتفع ليترك المجال لتعارض قائم بين العلاقات الموجودة بين المفاهيم لا بين المفاهيم نفسها ، وهذا ما قمت به فعلا فى الجزء الثانى والثالث مؤكدا بأن المنطق فى هذه المرحلة اكثر مرونة وهو فى الوقت ذاته اشد تعقيدا .

اما فى الجزء الرابع فاننا نجد نفس الصور المنطقية الثلاثة تتطور ، والعنصر الذى افردت له اهتمامى الكبير هى العلاقة الانشائية المنطقية والتى لها حتميتها الخاصة وبنيتها الاساسية التقنية – الاقتصادية لهؤلاء السكان . فالتحول من الفجاجة، ...... حتى العرى قد اهمل أصل المطبخ ولكنه يلح على انشاء التبادلات التجارية (مواد الاستهلاك ، الملابس ، الحلى وتبادل الزوجات) هذا الانشاء الذى يرمز الى الانتقال من الحالة الطبيعية الى الحالة المدنية . وهذا الانتقال يكون مستحيلا اذا لم يكن السكان مشتغلين بالفلاحة، على العكس من ذلك سكان امريكا الجنوبية (وقد تناولتهم بالدرس) الذين يشتغلون بصيد الاسماك والصيد البرى والالتقاط ويعوضون الاشغال الاخرى بممارسة النشاط التجارى . فلهؤلاء السكان الذين يقيمون اسواقا رئيسية واخرى ثانوية بين القبائل تارة وفى اطار قبيلة واحدة تارة اخرى ، حيث يلاقى السكان المتجاورون أصدقاء واعداء ميزة حضارية هامة : هذه الميزة لا تكمن فى التعارض الموجود بين الانسان والحيوان (الانسان يأكل الناضج والحيوان يأكل غير الناضج) ولكن فى علاقة التعارض الموجودة بين الشعوب المختلفة من حيث وضعيتهم وقدراتهم التجارية التى تمكنهم من تنويع دليلهم الاقتصادى والذين يقتصرون فى معيشتهم على ما ينتجونه .

س – هل تعتقدون بان هذا المجال المغلق – نسبيا – الذى حددتموه للامريكيين شىء ضرورى لمتابعة نوع التحليل الذى

اخترتموه ؟ وهل تستطيعون فى هذا المجال اجراء بحث محدد ودقيق حول كل واحدة منهما ؟

ج — بديهى أنه ليس الطريق الوحيد الممكن بالنسبة الى . غير انى لا اعتقد بأننى سأصل الى نتيجة مماثلة اذا قمت بفصل البحث واستعمال طرق مختلفة بالنسبة للمنطقتين . لقد واجهت عراقيل أثناء البحث لتاليف كتاب « أصل عادات الاكل » وذلك لان الاساطير الموجودة فى أمريكا الجنوبية هى أقل غنى من الاساطير الموجودة بأمريكا الشمالية (ان هذا الفارق ليس فارقا جوهريا بل راجع الى ان الاهتمام كان اكثر بالمنطقة الاولى) لقد لاحظت ان المنطقة مفتقرة الى بعض « العوامل » الموجودة بالمنطقة الشمالية ومن ذلك فقد اضطررت الى هذا النوع من الدراسة (مزج الاساطير لمتابعة البحث) .

ان الطريقة التى اتبعتها مكنتنى من بلوغ غايتى وذلك باستعمال كل الاساطير من أى منطقة لمتابعة التحليل وهو الشرط الوحيد الذى يدخل فى ميدان البحث العامل البشرى . ان هذه تمكننى من استخلاص العامل المشترك بينها وهذا ما حاولت ابرازه فى الجزء الرابع والطريقة المميزة للطهى لكل شعب — وقد مكننى هذا من ناحية أخرى التعرف اكثر على هوية الاسطورة سواء فى الشمال الغربى لامريكا الشمالية أو وسط أمريكا الجنوبية .... وباختصار اقول بأن اكتشافى للاختلافات الموجودة من منطقة الى اخرى راجع الى توسيع ميدان المقارنة

بيوغرافية

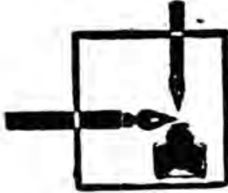
- ١٩٠٨ — ميلاد كلود ليفى ستروس بمدينةبروكسال (بلجيكا) من ابوين فرنسيين
- ١٩٣١ — نجاحه فى شهادة التبريز فى الفلسفة بعد دراسة فى ثانوية جانسون دى سالى وجامعة السربون .
- ١٩٣٥ — استاذ بالبرازيل وساوباولو ويشرف على البعثات الى ماتوفروسوبالامزون .
- ١٩٣٩ — يعود الى فرنسا — يجند —
- ١٩٤٠ — تعزله حكومة فيشى
- ١٩٤١ — يهاجر الى الولايات المتحدة ،يدرس بجامعة نيوشكول فورسوسيال وسارش ثم بالمدرسة الحرة للدراسات العليا بنيورك،
- ١٩٤٦ — مستشارا ثقافيا بالسفارة
- ١٩٤٧ — يعين نائب مدير متحف الانسان
- ١٩٥٠ — مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقيةللدراسات العليا
- ١٩٥٩ — ينتخب بالكوليج دى فرانس حيثيشرف على مخبر الانتربولوجيا الاجتماعية

بيليوغرافية

- ١٩٤٩ — البنيات الاولية للاسرة (المطبعةالجامعية الفرنسية)
- ١٩٥٢ — عرق وتاريخ (اليونسكو)
- ١٩٥٨ — الانتربولوجية البنياوية (بلون)
- ١٩٦٣ — أ) الطوطمية اليوم (المطبعةالجامعية الفرنسية)
  ب) التفكير المتوحش (بلون)
- ١٩٦٤ — من العسل الى الرماد (بلون)
- ١٩٦٦ — الفج والناضج (بلون)
- ١٩٦٧ — البنيات الاولية للاسرة (طبعةمنقحة موتون وشركاه باريس)
- ١٩٦٨ — أصل عادات الاكل (بلون)
- ١٩٧١ — الانسان العارى (بلون)

(ان هذه البيليوغرافية لا تشتمل على المقالات العديدة)

ندوة القراء



اعداد : بهيــة عمرانى

نوجه « الندوة » عناية السادة القراء الى ان انتظامظهورها فى الصفحات الاخيرة من المجلة يبدو امرا قريب الاحتمال ، اذ ان هناك عددا من الرسائل التى ترد الى المجلة والتى يتعدى مضمونها مجرد التحية وعلى هـذا فالمرجو من كتاب « الندوة » مراعــاة ارســال الاراءوالتعليقات فى موعد يناسب صدور العدد الذى يتـوقع او يطلب صاحب الرسالة نشرها فيه .

تلقينا هذه الرسالة من الاستاذدنس ووتر المحاضر فى دائـرة : دراســات الـشرق الاوسط ـجامعة ملبورن باستراليا
ونحن اذ نشكره على الكلماتالودية التى ضمنها فى رسالته ، وننوه بالجهود العلمية التى يبذلهاللتعـريف بالجـزائر وبالتــراث الاسلامى عامة ، نرحب بكل مقالبيعثه الينا، وسننشره فى المجلة.
المحــرر

السيد رئيس تحرير مجلـــة الاصالة

سيدى المحترم

تحية اسلامية طيبة وبعد
فى هذا اليــوم استلمت اول عدد من مجلتكم الغراء ، فشكرا على ذلك .

انى قد نظرت فيها نظـــــرا متسرعا فوجدتها جيدة ، عاليــة المستوى والمضمون ، وانها تلقى انوارا ثاقبة على الجزائر المستقلة ـ تلك البلاد العزيزة على كــل مسلم وكل من يناضل فى العــالم الثالث فى سبيل التحرر والمساواة

« انى محـــــاضر فى دائـــرة دراسات الشرق الاوسط جامعة ملبورن استراليا . محاضرتى فى مادتين ـ « **الاسلام اليوم** » و « **انظمة الاسلام الاجتماعية** » . ففى مــادة « الاســلام اليــوم » أحاول عــرض تاريخ البلــدان الاسلامية الحديث على تلامذتى الاستــراليــين واعطاءهم صورة مباشرة اى وجدانية عن مقــاومة المسلمين للاستعـــمار الغربى ، ونضــالهم فى سبيــل التحــرر ، وآمالهم ومشاكلهم فى عهد ما بعد الاستقلال ، فمنذ اسبوع فقـط القيت محاضرة مستفيضـــة تحت عنوان « **ولادة القومية العربية فى الجزائر بعد الحرب العــالمية الاولى** » التى تناولت فيها أعمال عبد الحميد بن باديس فى بعـث العربية وقيم العروبــة والاسلام مرة أخرى فى أبناء الوطن مقاومة لمشاريع الادماج الاثمة واضطهاد واستغلال المستعمرينوالمستوطنين « انى الان انشر مقالتى هــذه فى صحيفة طلابية استراليــة ، وسأرســل نسخة اليكم ان شاء الله .

اسألكم ان تتكرموا بطبـــع رسالتى هذه فى مجلتكم كى يعرف القراء الجزائريون مستـــوى الدراســات حــول بــلادهم فى استرالية . وارجوكم ان تمضوا فى ارسال مجلتكم الى ، وان شاء الله سأبعث بمقالات عربية لعلكم تنشرونها .

كلمتــى الى مجلة « الاصـــالـة »

....وهذه رسالة من الاستــاذ محمد ولد باباه الذى عين اخــيرا وزيرا للتعليم العالى لجمهــورية مــوريطـــانيــا والـــذى شــارك فى المـؤتمـر الخامس للتعرف على الفكـر الاسـلامى بوهران بصفته ممثلا لموريطـانيا

اننى ، عندما أراجع نفـسى وأحاول استحضار ما رأيتــه وسمعته فى « الملتقى الخــامس للتعرف على الفكر الاسلامى » ، ارانى عاجزا كل العجز عــن ترتيب أفكارى وتسديد انطباعاتى ذلك اننى مــا زلت فى نشـــوة الغبطة والاعتزاز والاعجاب .

والحقيقة ان حشدا فكريــا كالذى شاهدته فى « وهـران » لا يمكن لانسان أن يستوعبه ولا يستطيع أن يحكم عليه الا بعد المراجعــة الدقيقــة والتــأمــل الطويل .

غير أن هناك أشياء استرعت انتباهى ، قد تكون بديهية لدى البعض ، وقد تكون سطحيـــة بالنسبــة للـــذين سبـق لهم أن شاركوا فى الملتقيات الماضيـــة، بينما أنا اراها بالغة الاهميــة :

منها دقة التنظيم وحسن ترتيب العمل والتحكم فى الزمن ، بغض النظر عن حسن الضيافة وتوفير وسائل الراحة للجميع ، ومنها أيضا حرية المناقشة وصراحتها وموضوعيتها ، فى اتجاه نتدى وأسلوب علمى ، كل ذلك فى جو ودى يهيمن عليه الجد والوقار .

وملاحظة اخرى ارى من واجبى ان اسجلها فى حق الطلبة والطالبات المشاركين فى الملتقى، ان قوة انتباههم وانضباطهم ومحافظتهم على النظام وسلوكهم القيم لا يتأتى لكثير من شباب اليوم . ودهشت لما رايت فيهم من تعطش للمعرفة ، ودقة فى الملاحظة ، ونضج فى التفكير وتكامل فى الشخصية واقدام على الخوض الواعى فى دقائق العلوم وتفهم لاوضاع امتهم ، واستطيع ان اقول ، بحكم التجربة والممارسة ، ان هذه الخصائص يتميزون بها عن زملائهم الذين لم يتشبعوا بالثقافة الاسلامية وهذا استنتاج خطير يلفت الانظار

أما أبعاد الملتقى فهى بالغة الاهمية بالنسبة للجزائر والعالم الاسلامى بأسره ، ان اقتراحات الملتقى وتوصياته ستكون لها نتائج محمودة واصداء بعيدة المدى .

لكن الملتقى فى ذاته هو تحدى لتحديات عديدة كنا وما زلنا هدفا لها نحن المسلمين، تغزونا فى عقر دارنا وتهتك حرمنا . وكان لابد من التصدى لها والرد عليها بحجج العقل وادلة المنطق ، وجاء الملتقى شافيا كافيا فى هذا المضمار . واستهدف الملتقى شيئا آخر اهم فى نظرى من الرد على التحديات الموجهة الينا ، الا وهو ابراز حقيقة اكيدة لابد من الايمان بها والعمل على اساسها، وهى ان بناء مجتمع عربى اسلامى جديد منوط بربط ماضيه بحاضره والاعتماد على مقوماته الجوهرية : دين الاسلام والثقافة العربية .

واكد الملتقى علميا ان فى الاسلام الصحيح ، دينا وشريعة ، من المبادىء السامية والقواعد التشريعية المرنة ، ما يبرر اى اجراء ، سياسى كان أو اجتماعى او اقتصادى ، اذا كان هذا الاجراء يهدف الى بناء مجتمع متكامل تسوده المساواة والتعاضد وينعم بالحرية والكرامة ، يكفى دليلا على ذلك نظام الاسرة الجزائرى والاصلاح الزراعى . وبهذا يكون الملتقى ابرز حقيقة جليلة طال ما طغت عليها الشبهات الباطلة والاراء المغرضة القائلة بأن الاسلام جامد وعاجز عن مسايرة متطلبات العصر . والبحوث العلمية التى استمعنا اليها وناقشناها بحرية، تناولت جميع مشاكل العصر ، اخطرها وادقها ، واستعرضت جميع الحلول المحتملة لها ، فكان الاسلام اقوم مسلك وانجع طريق لاثارة تلك المشاكل والبت فيها على الصواب الاقوم . وبرهنت البحوث كذلك على ان اللغة العربية تستجيب بكل طواعية وسلاسة ومرونة لمتطلبات العصر فى ادق مفاهيمها ، سواء كانت علمية او فلسفية او وجدانية

فالملتقى اذن كان ملتقى الاصالة الصميمة وملتقى الثورة باكمل واسمى معانيها . ان العودة الى منبع الاسلام الصحيح والانطلاق منه الى نور العلم والاخذ بأسباب الحضارة هو المنهج الذى شرعه ملتقى « وهران » للامة العربية الاسلامية ، عساها أن تسلك هذا الطريق بخطى ثابتة وقلب مؤمن وعزم صارم .

محمد ولد باباه

ذكرى كارثة المسجد الاقصى وفلسطين

من شعر .. « ابى الحسن على »استاذ بتكميلية ابن عمر ـ القبة

على المسجد الاقصى اعتدى اليوم غادر … واضرم فيه النار باغ وماكر
حريق ويا للهول شب أواره … فخرت على جمر الغضاة منابر
تداعت له الاركان والسقف قد هوى … فشقت لهول الاعتداء المرائر
حريق أباد اليوم وجه حضارة … يباهى بها تاريخنا ويفاخر
فيا لك من حسناء راحت ضحية … على شلوها قامت تنوح المنائر
بغى وطغى صهيون طغيانه الذى … تعوده من قبل وهو مفاخر
على مسمع الدنيا ومرأى شعوبها اسـ … تباح حمى الاسلام والسلم فاجر
وراحت عصابات اليهود تهين ما … تقدسه الاديان باد وحاضر
االسنة النيران تمتد فى القضا … وموشى قرير العين بالعرب ساخر!
فبات على جمر الغضا كل مسلم … ونامت بأحلام المسرات ماير
سلوا سنوات الاحتلال التى مضت … بأرزائها ، والجد بالعرب عاثر
سلو دير ياسين الذى شهد البلا … وقد عملت فيه المدى والخناجر
أما ذبحت أطفاله ونساؤه … وشبابه حتى الشيوخ الاكابر
سلو فى خيام اللاجئين طوائفا … من التعسا ، اين الصديق المناصر!
فكم من شكاوى سجلت بدموعهم … وكم نشرت للاحتجاج دفاتر
فكلت بسجيل الشكاوى مطابع … وبحت برفع الاحتجاج حناجر
سلو خامسا من شهر يونيو وما جرى … اليس لديه للجواب مصادر !
أما ملئت بالابرياء سجونهم … وضاقت بأشلاء الضحايا مقابر !
ففى كل يوم نكبة ورزية … وفى كل شبر بالدماء مزاجر
وصهيون وسينا وجولان عابث … وفى القدس مختال وناه وآمر
فلا عجب أن أحرقوا اليوم مسجدا … اليس لديهم تستباح المناكر !
الم يقتلوا رسلا كراما وما ارعووا … وهل ترعوى عن غيهن الفواجر !

NO 07

فى هــذا العـــدد

معركة التنمية والأصالة

وجهان لمعركة واحدة في مغربنا العربي الكبير

نص كلمة الرئيس هوارى بومدين فى القروان ليلة المولدالنبوى الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، فخامة الاخ الرئيس .. اخوانى معشر المسلمين .. مناسبة من أجل المناسبات ، واحتفال باعزاعيادنا الدينية ،ذكرى المولد النبوى الشريف ، وبالذات فى هذا المسجد العتيق الذى هو أول مسجد بنى على تقوى من الله فى ربوعنا وفى هذه المدينة العريقة عراقة العروبة والاسلام لدينا والتى كانت أول عاصمة للاسلام فى مغربنا .. أقول : انفى هذا كله لاكثر من مغزى عميق ، لاوسع من تذكير بأوثق رابطة بيننا وهى الصلة الروحية المقدسة التى تفرض التضامن المطلق ووحدة المصير .. اننا ونحن نطأ هذه التربة الطاهرة من قيروان عقبة لتغمرنا الذكريات الخالدات للعهود الزاهرة للاسلام الذى اشع نوره على هذا المغرب الكبير فحرر العباد من الاغلال والاستغلال ، وطهر البلاد من فلول الغزو والاحتلال وزكى العقول والارواح بقيم جديدة عليا وكان منطلقا لحضارة من أغنى الحضارات وأمجدها ولقد كان عقبة بطولة من تلك البطولات التى اضاءت للمقتدين سبل السير وأمدت الحائرين بنور الهدى واستاصلت من افكار المترددين نزعة الشك وعملت على غرس قيم كانت حصننا الحصين وملاذنا الاخير فى كفاحنا التحريرى الطويل الذى كان فى هذا الرابط الروحى اقوى دافع على جمع الشتات وتوحيد الصفوف وشحذ العزائم ومواصلة السير بارادة وتصميم حتى تحقيق الهدف واسترجاع أرضنا المنهوبة وحريتنا المسلوبة ..

أخى العزيز .. اخوانى

ان فى احتفالنا جميعا فى سائر أصقاع البلاد الاسلامية بذكرى المولد النبوى الشريف لتمجيدا لتلك القيم الشريفة وتعزيزا لها فى نفوس أجيالنا فى جميع العصور وخاصة فى هذا العصر الذى اصبحت تتعرض فيه لاصناف الهزات وترد اليها مختلف التيارات وتشتبه عليها عديد الاتجاهات ..وان فى زيارتكم سنويا للقيروان بهذه المناسبة .. مناسبة بزوغ فجر الاسلام علينا لسنة حميدة تدل فيما تدل عليه على مدى تشبثكم بمبادىء ديننا الحنيف وعلى حرصكم على التفكير بما كان لهذه المدينة من دور فى حضارتنا الاسلامية المجيدة التى كانت أساس نهضة أوربا

كان عقبة رضى الله عنه ببنائه مدينة القيروان ومسجدها الذى مازال يحتفظ بمحرابه الذى خططه بنفسه يرمى الى أن يجعل منها حصنا للاسلام حصينا ومن مسجدها منابر للعلم . وكانت فعلا كما قال عنها عقبة حين تخطيطها : « انى أرى أن اتخذ بها مدينة تجعلها معسكرا وقيروانا تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » . وكم من شجرة مباركة امتدت من عاصمة الاغالبة جذورها وتعددت فروعها وكم من عالم مشرع وضح السنن واضاء للاجيال السبل ؟ وكم من قائد اعطى المثل باستشهاده وكم من نطاسى حكيم درج فوق ثرى مدينتنا هذه رجال وصلوا سواد ليلهم ببياض نهارهم فى تكوين أجيال من بناة الحضارة ورواد الفضيلة وشهداء الحق فهذا اسد بن الفرات قاضى القيروان وفقيهها يترك مجلس القضاء ويخوض عباب البحر حتى يقضى نحبه ويقاتل فى سبيل الله حتى وقع شهيدا ؟

وهذا أبو جعفر أحمد بن ابراهيم الجراد

يخط بعرق الجهد والتجريب من أمهات الكتاب ما ظل قرونا وقرونا من المراجع الاولى لاطباء العالم .. وهذا احسن بن رشيد يغادر مسيلته وافدا الى القيروان ليدرس ويدرس ويكتب فيها عمدته بل ويصبح عمدتها كما فعل بعد ذلك ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون الذى ترك تونس ليدرس ويدرس فى تلمسان ويكتب مقدمته فى بنى سلامة ويصبح رئيس حكومة بجاية . . تلك عصور ذهبية زاهرة لمغربنا الموحد وأولئك رجال هم وغيرهم قوة هذه الامة وعزتها ، ولا يزالون بآثارهم يرسمون لنا طريق اعادة وحدتها واسترجاع مجدها وسؤددها .

الاخ الرئيس .. اخوانى

اذا كنا الليلة نحتفل ونبتهج فى هذا الحرم العريق والجديد فى نفس الوقت بما اصبغ عليه من حلة قشيبة استرجعت له بهاءه ورونقه واذا كنا لا تزال لنا والحمد لله معاهد الزيتونة والقرويين والازهر ، واذا كنا لا نفتا نزهو بمجرد تقوى الجامع الاموى وغيره من المعاقل الروحية فى انحاء العالم الاسلامى ولئن كنا قد استرجعنا جامع كتشاوة وغيره من حصون الاسلام فى الجزائر ، واعدنا لها قوتها وازدهارها بل وجددنا نشاطها وعززناها بمعاهد جديدة اصيلة حديثة نحن بصدد تتويجها بنواة جامعة اسلامية تامة تتكامل والجامعات الثلاثة الاخرى التى هى نفسها بصدد التعريب الشامل وتجمع من جديد ما انتثر ، وتحيى من تراثنا ما اندثر فى تيهرت وبجاية وتلمسان وقسنطينة والقلعة ووهران واخيرا وليس آخرا فاذا كنا لا نزال نشعر بدفء روحى لا يقدر ومتعة معنوية لا حدود لها بمجرد ذكر الحرمين الشريفين فلا ينبغى بحال أن نغفل وسوف لا ترتاح ضمائرنا الى الابد وسيحاسب التاريخ اجيالا فى مشارق الارض ومغاربها ، اذا لم تعمل كل ما فى وسعها لاسترجاع أولى القبلتين وثانى الحرمين القدس الشريف كما نسميه بحق .

الاخ الرئيس .. اخوانى

هذه لحظات لا تنسى مدى الحياة تبارك ما نسقناه من خطى ووحدناه من جهود لنخرج من معركة التنمية واسترجاع الاصالة منتصرين ، مرفوعى الرأس موفورى الكرامة ، وبذلك نكون قد حققنا ازدهار بلداننا وسعادة شعوبنا والتحقنا بالركب المتقدم وأعدنا لمغربنا ما كان له من مكانة وقوة وساهمنا المساهمة الفعالة فى استرجاع ما لامتنا من مجد وهيبة وعزة جانب ومناعة وسرنا على درب صلاح الدين وكنا على موعد مع التاريخ .

فخامة الرئيس .. أخى العزيز

لقد كانت مبادرة ممتازة دعوتكم الكريمة هذه التى جعلتنا نتلاقى ونرى تونس بعد عشر سنوات قد قامت بعمل دائب متنوع وحقق شبعها الشقيق تحت قيادتكم الرشيدة تقدما ملحوظا فى سائر قطاعات النشاط وأتم انجازات ضخمة فى مختلف مجالات البناء والانتاج . . وانى اذ اشكركم من جديد على بادرتكم وأعبر عن تاثرى بصالح أخوتكم وما أحطمونا به رفاقى واياى بصادق الاخوة .. أرجو من فخامتكم أن تبلغوا الاخوة اعضادكم وسائر مساعديكم على مختلف المستويات والشعب التونسى الشقيق باكمله شكرنا الصادق على تدفق عواطفه الاخوية النافذة من القلب الى القلب والمعبرة عن عمق المشاعر وتلقائيها وحفائها ..

وختاما اتمنى لفخامتكم دوام الصحة والسعادة وللشعب التونسى الشقيق اطراد الرفاهية والعزة والازدهار .. والى اللقاء قريبا فى الجزائر التى تنتظركم كلها بتشوق وتشوق واكبار . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كلمـــــات

غرائب الطــــلاق

حينما طلبت النجمة السينمائية الطلاق من زوجها لامتناعه عن الضحك على النكات التى تقولهـــا .

علق القاضى على طلب الطلاق بما يلى : « من المحال ان تسعى الزوجة للانفصال عن الزوج بمجرد انــــه لا يـــرى فى تعليقاتها ما يثير الضحك واننى شخصيا أجد هذه النكـــــات أبعد ما تكون عن اشارة الضحك » واستطرد القاضى قائلا : « اننا نعيش فى زمن عجيب حقا ، واذا ما قدرنا لمثل هـــــذه القضايا ان تنجح . فانه سيطلب عمــا قريب من القضاة ان يمنحوا الطلاق لان الشريك يشخر فى نومه او يتلعثم او يتهته فى كلامه ، او لانه يسرح شعره على الجانب الذى لا ينـــال استحسان الزوجـــة »

ومن المحتمل ان لايكون ذاك القاضى على علم بأن طلبـــا للطلاق قد قدم فعلا للمحاكم على أساس أن الزوجة كـــانت تتهته . وقد حصل هذا فى مدينة شيكاغو اذ طلب شـــــاب هولندى الطلاق من زوجته كانت تتهته حينما تنطق اسمـــه وشكا الزوج من ان اسمه يبدو غريبا شاذا حينما تنطـــق به زوجتـــه .

وقدم رجل اعمال فى ميامى طلبا للطلاق لان احدى عينـــى زوجته كانت تؤلمها ، وكان الالم يجعلها تغمز بعينها ممـــــا أوقعها فى مشاكل اثارت غيظ الزوج ، اذ ادعى انه كــــان يتورط مرة فى الاسبوع على الاقل فى شجار مع الرجال الذين كانوا يخطئـــون ويفسرون غمز الزوجـــة على انـــه دعـــوة للمعاكسة والغزل .

وورد فى بعض التقارير التى نشرت مؤخرا عن الطلاق أن زوجة طلبت الطلاق من زوجها لانه كان يرمى ملابسه كيفمـــا اتفق على الارض دون نظام أو ترتيب ولا يعلقها على المشجب



مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر
عبـــر التـــاريخ

نشـــأتهـــا

تطـورهـــا

آثـــارهـــا

المهـــدي البوعبدلي

عضو المجلس
الاسلامي الاعلى

تنقسم هذه الدراسة الى قسمين :

ـ القسم الاول يشمل الثقافـــة ومراكزها في طورها الاول وساتعرض فيه لنبذة موجزة من تاريخ البلاد مع تحليلها وذكر بعض نتائجها .

ـ أما القسم الثاني فسأتحدث فيه عن المدارس وتطور الثقافة في عهدها ثم خزائن الكتب.

مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبر التاريخ نشاتها ، تطورها ، آثارها .

كانت الثقافة الاسلامية فى اول عهدها كما هو معلوم بسيطة ، تقوم على اساس تعلم القرآن الكريم : حفظه وتفسيره ، وكان المركز الاول لهذا النوع من التعليم المسجد ، اقتداء بما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، حيث اتخذ مسجده المبارك مركزا يجتمع فيه بأصحابـــه ، يعلمهم دينهم عملا بقوله تعالى **« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم »** .

ثم سار الخلفـــاء الراشـــدون والصحابـــة والتابعون على هذا المنهج ، فكانوا يجلسون فى المسجد النبوى يعظون الناس ويعلمونهم اصول دينهم ويفتون لهم فيما اشكل عليهم ، ثم عـــزز المسجد فى بلاد المغرب العربى عامة، وفى الجزائر بصفة خاصة ، بالرباط ، وذلك ابتداء من منتصف القرن الثانى ، ثم بالمدرسة بعد اربعة قرون كما سنتحدث عنها بتفصيل فى موضعها .

كانت الجزائر بعد ما مهدها الفاتحون اى فى القرن الثانى تتقاسمها ثـــلاث دول : الدولـــة الاغلبية ممثلة الخلافة الاسلامية وكانت قاعدتها بالجزائر مدينة طبنة (١) ، وقد انجبت طبنة فى عهدها علماء أجلة ، اكثرهم تخرجوا من القيروان على سحنون وابنسعيد التنوخى تلميذابن القاسم واشهب (تلميذى مالك) كانت مهمـــة تلامـــذة مدرسة مالك ، نشر الدين فى اطار مذهب الامام مالك بأمهات المدن الرئيسية ، ظهر من علمـــاء هذه الفترة بالجزائر النعمان ابن المنذر بمجانة وكان من الزهاد ، قيل ان استاذه سحنون عرض عليه القضاء فامتنع ، وظهر على ابن الصبـــار قاضى ميلة ، تلميذ سعيد ابن الحداد المتخرج من مدرسة سحنون والذى اشتهر بنشر مذهب مالك حيث انه كان اعلم وافقه اهل زمانه — الف فى عدة فنون وينسب اليه تأليف رد فيـــه علـــى الشافعى — ظهرت الدولتان الرستمية بتاهرت والادريسية بتلمسان ، وكان لكل منهما مذهب سياسى ودينى . وبطبيعة الحال اتخذ كل داع لهاتين الدولتين المسجد مقرا لنشر تعاليم مذهبه: وطبيعى أن يتبع تعليم المذهب تلقين علوم اللغة، وهذا ما سارت عليه دولة الرستمية ، التى كان أئمتها يعقدون مجالس التذكير ، وتدريس الفنون العلمية ، وكونوا مجالس علمية استشاريـــة فكانوا كثيرا ما يتناظـــرون فى المساجـــد مـــع معاصريهم فى الخلافات المذهبية اذ كان فى المملكة الرستمية كثير من الفقهاء المالكية .

كانت الدولة الرستمية بحكم تعاليم مذهبهـــا مهتمة بالتعليم الدينى فنبغ فيها علماء ومؤلفون اشتهرت آثارهم الى زماننا هذا ، وكان الائمـــة الرستميون يمتازون بعلـــو المكانـــة فى العلـــم والاستقامة ، ومن هؤلاء افلح ابن عبد الوهاب الذى كان يدرس فى المسجد الجامع بتاهرت فى شبابه ولما تولى الامامة استمر على مواصلـــة التدريس وقد حفظ لنا التاريخ من عهده تفسير القرآن لهود بـــن محكم الاوراسى الهـــوارى وقصيدة رائعة فى الاشادة بالعلم للامام افلح ، (٢) نفسه يحرض مواطنيه على التعلم وقد تبارى كثير من الشعراء فى تشطيرها الى عهد قريب وهذه بعض أبياتها :

العلـــم بنى لاهل العلـــم آثـــارا
وليلهـــم بشموس العلم قد نارا
حى وان مات ذو علـــم وذو ورع
ان كان فى منهج الابرار ما مـــارا
وذو حياة على جهـــل ومنتصـــة
ولا يبالى اخيرا نـــال أم عـــارا

لله عصبة أهل العلم ان لهم
فى كل أفق من الآفاق أنوارا
العلم علم كفى بالعلم مكرمة
ومن يرد غير خير العلم ما اختارا

* * *

العلم در له فضل ولا احد
محصله له كل عقل دونه جارا
للعلم فضل على الاعمال قاطبة
كان ذووه لدين الله انصارا

* * *

أشدد الى العلم رحلا فوق راحلة
وكن الى طالب التعليم سيارا

ثم يسترسل فى منظومته (التى تربو ابياتها على الاربعين) فيوصى طالب العلم بطريقة سلوكه وقد ظهرت واشتهرت هذه الوصايا فيما بعد ، يوجهها أصحابها الى الابناء والتلاميذ كوصية لسان الدين بن الخطيب السلمانى لاولاده ووصية محمد بن حواء المستغانمى لاولاده ايضا .

ان ما ذكرناه فى حق الدولة الرستمية هو ما ينطبق على الدولة الادريسية المعاصرة لها ، فعندما فتح ادريس تلمسان سنة ١٧٢ هـ . اول عمل حضارى قام به هو تأسيسه للمسجد الجامع بتلمسان — أقادير القديمة وهى الان من ارباض تلمسان وما زالت بقايا المسجد هناك — ثم اسسوا عدة مساجد بأرشقول وتنس وسوق ابراهيم وحمزة — البويرة — التى كان حكم الادارسة يصل اليها شرقا ويكفينا دليلا على اهتمام الدولة الادرسية بالعلم ان جامعة القرويين انشئت وازدهرت فى عهدهم .

كانت بالجزائر علاوة على هذين الدولتين ، امارات تتمتع بشبه استقلال داخلى ، كامارة مغراوة التى يمتد مركزها من مليانة شرقا ، الى تلمسان غربا وقد كان لها التصرف فى موطنها قبل الاسلام ، ثم أقرها المسلمون عليه اذ قيل ان رئيس القبيلة اذ ذاك صولات ابن وزمار اسلم على يدى الخليفة عثمان ، فمن عليه واقره على حكم امارة آبائه فاعترفت قبيلته بالولاء لعثمان ثم لبنى امية من بعده ، ولم يكن لهم مذهب عقائدى رغم انهم لعبوا ادوارا هامة فى تاريخ البلاد فقد احتفظوا بامارتهم قرونا واسسوا دولا بالمغرب وبالاندلس وليبيا ، وكانوا يرجعون المرة بعد المرة الى مركزهم الاصلى بوادى شلف الى ان بادت دولتهم فى اواخر عهد ملوك بنى زيان ، وامارة بنى يفرن كانت هى الاخرى امارة بربرية اصيلة موطنها بين تلمسان وجبل بنى راشد — جبل عمور قرب مدينة افلو ولاية تيارت — ادركها الاسلام تحكم تلمسان اذ هى التى اسستها ، ولم يعرف بالضبط تاريخ اسلامهم ، وكل ما يعرف عنهم ان زعيمهم ابو قرة كان على راس الخوارج عندما حاصروا مدينة طبنة سنة ١٥١ هـ وكان بها عمر بن حفص عامل الخليفة العباسى . هذه فى الجملة حالة البلاد السياسية والثقافية قبل ظهور الدولة الشيعية بالشرق الجزائرى ، ذلك الظهور الذى غير مجرى التاريخ ، كانت الثقافة كما ذكرنا فى هذه الفترة ، اتخذت المساجد وبعض الرباطات مراكز لها ، وكان الفقهاء يعدون تلامذتهم فكريا وروحيا ثم يوجهونهم لنصر المذهب المالكى .

لما ظهرت الدولة العبيدية الشيعية وهى كسابقتيها الرستمية والادريسية قامت دعوتها على نشر المذهب الشيعى واختارت لمركزها بايكجان اسم « دار الهجرة » ولزعيمهم « داعى الدعاة » ولمذهبهم « مذهب أهل البيت » .

امكن لهذه الدولة الناشئة فى مدة وجيزة ان تقضى على دولة بنى رستم ، ثم الحقت بها امارتى « بنى يفرن » و « مغراوة » ثم ختمت انتفاضتها

ــ على حد تعبير المعاصرين ــ بمركز الخلافة العباسية القيروان التى كانت تحت حكم الاغالبة . واتخذوا المهدية عاصمة بدل القيروان ، الا انهم رغم تبديل العاصمة فان القيروان بقيت تحتفظ بمركزها الثقافى حيث لعبت دورا خطيرا فى نشر الفقه المالكى وجندت له الدعاة حتى من الاندلس ثم ختمت انفاسها عند غزوة بنى هلال وكان لخرابها وسقوطها دوى ردد صداه العالم ورثاها الكتاب والشعراء ومن هؤلاء ابن رشيق (٣) المسيلى الذى التحق بمعاهدها كبقية مواطنيه اذ ذاك ، اخترنا فقرات من هذه القصيدة لانها تشتمل على وصف حياتها الثقافية ولها علاقة بموضوع دراستنا قال :

.. كم كان فيها من كرام سادة
بيض الوجوه شوامخ الايمان
متعاونين على الديانة والتقى
لله فى الاسرار والاعلان
ومهذب جم الفضائل باذل
لنواله وعرضه صوان
وائمة جمعوا العلوم وهذبوا
سنة الحديث ومشكل القرآن
علماء ان سالتهم كشفوا العمى
بفقاهة وفصاحة وبيان

****

كانت تعد القيروان بهم اذا
عد المنابر زهرة البلدان
وزهت على مصر وحق لها لما
تزهو بهم وغدت على بغداد

ظهر المذهب الشيعى وكان لقضائه على دولة بنى رستم وامارتى بنى يفرن ومغراوة اثره السيىء عند ملوك الاندلس الذين كانت للامارتين المذكورتين التبعية الروحية لهم ، كما كانت علائقهم مع الرستمية علائق ود ، ارتاع لهذا الظهور ملوك الاندلس والخلافة العباسية ، والحديث عن دولة العبيدية الشيعية فى الميدان الثقافى شائك ، اذا ما زال البحث فيه لم ينضب معينه وقد خصص عشرات التآليف ، والذى يهمنا منه ويتفق مع موضوع دراستنا هو نتائجه ، اذ لم يقدر لهذا المذهب ان يحتفظ بوجوده ويبقى له اثر ببلاد المغرب العربى الا مدة قليلة عند ما كان سيف الدولة فوق رقاب السكان ، وذلك انه ارتطم بموقف الفقهاء المالكيين الذين كانوا يشخصون ويمثلون المذهب السنى واتماما لفائدة هذا البحث ننقل فقرات اخترناها من البحث القيم الذى كتبه الدكتور حسين مؤنس فى مقدمته لكتاب « رياض النفوس » لان المالكى ، ذلك الكتاب الذى تعرض فيه مؤلفه بتفصيل لمعركة الفقهاء المالكيين مع العبيديين وهو تتمة لكتابى « طبقات علماء افريقية » لابى العرب التميمى ، وما لحقه لتلميذه محمد بن الحارث الخشنى الذى كان الفضل فى تحقيقهما وطبعهما للعلامة محمد بن ابى شنب الجزائرى ، اذ هذه التآليف الثلاثة تلقى اضواء على تطور الدراسة الدينية والسياسية فى القرون الخمسة الاولى ، وموقف الفقهاء المالكيين الذى اخترناه من مقدمة الدكتور حسين مؤنس هو ما ذكره فى معرض حديثه على امام العبيديين : عبيد الله المهدى قال « جاهره شيوخ افريقية بانكار مذهبه وازوروا عنه ، وتبعهم فى ذلك عامة الناس، ووقفت افريقية كلها موقف معارضة سلبية ... واحس عبيد الله الشيعى ، انه بين رعية لا تطيقه ، ولا تقبل عليه ، فحاول ارغامها على السير معه بحد السيف ، واراق من الدماء شيئا عظيما ، فلم يتحول الناس عما كانوا عليه ... وحسب انه اذا ندب بعض الظاهرين من فقهاء مذهبه الشيعى، ودعاته لمساجلة شيوخ افريقية ، لاستطاع الزامهم الحجة ، وتسفيه آرائهم ، ومن

ثم بدات هذه « المجالس » الفريدة التـــى دارت المناقشات فيها بين دعاة الشيعة وفقهاء افريقية ... وقد انجلت هذه المجالس والمساجلات عن هزيمة لدعاة الشيعة ، اذ ثبت لهم فقهاء المالكية وافحموهم بالحجة بعد الحجة ... وهذا هــو السبب الحقيقى فى تفكير العبيديين فى الانتقال من افريقية » ا هـ كلام مؤنس .

وبالفعل انتقلوا، وترك المعز لدين الله الفاطمى بعد انتقاله الى القاهرة ، قائده بلقين ابن زيرى ابن مناد الصنهاجى ، الذى تربى هو واخوته فى قصره ، وكانت مواقفه فى الحروب وانتصاره على امراء مغراوة ثم فتحه لبلاد المغرب مما زاد فى مكانته عند العبيديين كانت امارة صنهاجة قريبة عهد بالتكوين حيث انه لما ثار ابو يزيد مخلد ابــن كداد المشهور عند المؤرخين بصاحب الحمار على العبيديين وحاصرهم بالجبل المطل على مدينــة القلعة . اغاثته صنهاجة القبيلة البربرية العتيدة التى كان موطنها يمتد من مدينة المسيلة الى حمزة ــ البويرة ــ فنواحى الجزائر ، وسهول وادى بجاية ، واعترافا بهذه النجدة ، اقطع المنصــور العبيدى لزعيم القبيلة اذ ذاك زيرى ابن منــاد (والد بلقين) الامارة التى اشتهرت بامارة بنــى زيرى ، توسعت الامارة واستحالت الى مملكــة كما هو معروف ولم تمض الا مدة ــ لا تجــاوز الاربعين سنة ــ حتى تبرأ بنو زيرى من المذهب الشيعى وقام المعز ابن باديس الذى رفض هذه التبعية وخطب من اعلى منبر جامــع القرويين خطبته المشهورة التى صرخ فيها بقوله : **« اللهم العن الفسقة الكفار ، والمارقين الفجار ، اعداء الدين وانصار الشيطــان ... »** ودعــا بالنصر للخليفة العباسى كما هو معروف كذلك قيل ان من جملة الاسباب التى الجأت المعز ابن باديس الى هذا الموقف هو عندما احس بالخطر يهدده اذ بلغه ان المصلين انفسهم قاطعوا صلاة الجمعة التى كان ائمتها يدعون فيها للملوك العبيديين انتصر الفقهاء المالكيون وتوحدت ثقافة البلاد وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن الدولة العبيدية كانت من اعظم الدول لا فى الميدان السياسى فحسب ، بل حتى فى الميدان الدينى والحضارى فانها ساهمت فى نشر العلوم والفنون ، وظهر فى عهدها بالجزائر علماء اجلة ومؤلفون ، اما الكتب فلا اظن ان هناك دولة بلغت ما وصلت اليه من الاهتمام بالكتب وتأسيس الخزانة ووفرة نوادر الكتب اختلف كثير من الكتاب والباحثين فى الاسباب الداعية الى فشل التيارات الفكرية التى اجتاحت الجزائر وبلاد المغرب العربى طيلة اربعة قرون ، رغم التأييد المادى والادبى الذى كانت تتمتع به عند الملوك والسلاطين ، ومن هؤلاء الباحثين بعض المستشرقين الذين اطلقوا العنان لاقلامهم وذهبوا الى الادعاء بأن السكان البرابرة كانوا يثورون على العرب « المستعمرين » والبربر لا يفرقون بين الوان واجناس المستعمرين وقد بلبلوا افكار كثير من ضعفاء العقول واتخذوا من هذه المزاعم مواد دراسية للنشأ وغذوا بكثير من الوسائل هذه السموم الصليبية ، والحقيقة ان سكان البلاد (بربر وعرب) كانوا يثورون المرة بعد المرة فى ذلك العهد على الملوك والسلاطين ضد طغيانهم واستبدادهم وانحرافهم عن الــدين وتعاليمه وقد ثاروا بالفعل حتى على بقايا ملوك الدولة الادريسية لما انحرفوا عن تعاليم الديــن وتجاهروا بالمعاصى .. ولنرجع الى الحديث عن الشيعة ذكر البحاثة الحجوى فى تاليفه « الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى » اثناء حديثه عن تاريخ تطور الفقه المالكى بالمغرب العربى فقال :

« .. ثم فى آخر القرن الرابع ، دهم الفقه المالكى فى المغرب والقيروان داعية دهماء ، ادهى وامر، من كل ما مر ، وهى ظهور الشيعة الذين قتلــوا

أعيان العلماء الحاملين لواء العلم والدين وحملوهم على الرجوع عن مذهب مالك ، وعن السنـــة ، والتمسك بالرفض ، فأبوا فقتلوهم شر تقتيل .. وقد قتلوا في واقعة ابي يزيد مخلد ابن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان ... ومع هذا الضغط لم يقضوا على المذهب المالكي بل بقـى منتشرا سرا » ا هـ كلام الحجوى .

كان منهج التعليم الذى تبعه مالك وتلامذة مدرسته يقوم على اساس محكم : طلب المعرفة من اجل المعرفة، بعيدا عن الغايات الدنيويـــة والحظوظ النفسية والمقياس الذى يقيسون به الداعية الدينى أن تكون اقواله تنم عن افعاله ، اذ لم ينتشر الاسـلام فى ربوع المعمورة اول ما انتشر ، ولم يتأثر السكان المعتنقون للدين الا بسير الفقهاء من الصحابة والتابعين ، ثم ان مدرسة مالـــك صادفت الاهتمام فى صفوف رواة الحديث بأحداث باب التعديل والتجريـــح الـــذى كـــان أشبـــه بالاستعلامات فى عصرنا هذا ، ثم ان مالكا نفسه كان محافظا أشد المحافظة على تتبع سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة خلفائه من بعـــده وعاش فى المدينة وجعل من تلك التعاليم بعـــض الاسس التى بنى عليها مذهبه ، فلهذه الاسباب كان تلامذته يقدسونه ويرون فى شخصيتـــه وفى تعاليم مذهبه المثل الاعلى لمن يمثل الدين فى نظرهم .

وهذه الصفات والتعاليم هى التى توارثهـــا الفقهاء وكانت السلام الوحيد الذى انتصروا به فى مختلف اللحظات الحرجة التى لاقوها فى تاريخ حياتهـــم .

هذه الاسس الخلقية وهى التوفيق بين الاقوال والافعال ووسائل الاقناع ، هى التى كانت توافق فى نظرهم ما قاله الله سبحانه وتعالى معرضا بمن كانت افعالهم تخالف اقوالهم **« يا ايها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون »** وكقوله صلى الله عليـــه وسلم **« اصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »**

فلنرجع الى الحديث عن بنى زيرى الحمـــاديين فاننا نجدهم اسسوا مدينة القلعة المعروفة بهم ، وقد اشتهرت بأنها أعظم عاصمة علمية واقتصادية واهتم بها وبآثارها كثير من العلماء وما زالت محل اهتمام بحوثهم ، وقد استفادت كما علمنا مـــن سقوط القيروان والتجاء كثير من علمائها اليها ، الا ان هذه الاستفادة لم تدم طويلا ، فقد تسرب لها داء الانحلال بدورها وفكر ملوك القلعـــة فى الخطر الذى كان يهدد القلعة فنقلوا عاصمتهم الى بجاية ، فأمكنهم ان ينقذوا كثيرا من مآثرهـــا ، واستفادت بجاية من علماء القلعـــة وصقليـــة والاندلس فصارت اعظم عاصمة عرفها العالـــم الاسلامى تضاهى عواصم الدنيا .

انهال على بجاية علماء القلعـــة وصقليـــة والاندلس ، وكانت اقوى جالية بها من العلماء ، جالية الاندلس الذين هاجروا بلادهم اثر انحلال الخلافة الاموية وظهور ملوك الطوائف .

استفادت بجاية من هذه الهجرة ، وازدهرت بالعلوم من كثرة الواردين عليها مـــن الفقهـــاء والمحدثين والادباء والفنانين والفلاسفة ، وقابـــل ملوك بجاية سيل هذه الهجـــرة بالعطف علـــى العلماء ، فولوهم اسمى المراتب ، وامدوهم بكل ما يحتاجون اليه من الضروريات اذ كانت ثروة البلاد تساعدهم على ذلك ، تكونت فى بجاية بفضل هؤلاء المهاجرين ، نهضة علمية ، امتزجت فيها العلوم والآداب الاندلسيـــة بالعلـــوم والآداب الافريقية ، وكان الجامع الاعظم الذى بناه المنصور قرب قصر اللؤلؤة هو ينبوع هذه المعارف ، كانت الرياسة اذ ذاك فى الميادين الثقافية والدينية للفقهاء وكثير من المؤرخين يرجعون ذلك الى المرابطين ، فاتهموهم بأنهم الذين ايدوا الفقهاء ، واطلقوا لهم حرية التصرف ، ويستدلون على ذلك بأن الملـــك

على بن يوسف بن تاشفين كان لا يقطع امــرا فى جميع مملكته بدون استشارة الفقهاء بل عــين لجميع قضاة مملكته مستشارين لا يحكمون حكما الا بموافقتهم ، والحقيقة ان المرابطــين اقــروا وضعية الفقهاء التى وجدوهم عليها فى قرطبة وقد تعرض لها بتفصيل الامام ابوا بكر بن العربى فى كتابه « العواصم من القواصم » حيث وصــف الفقهاء المذكورين بقوله : **« صار التقليــد دينهم والاقتداء بغيتهم ، فكلما جاء احدهم بعلم حقروا امره ، ودفعوا فى صدره الا ان يستتــر عنهــم بالمالكية ، ويجعل ما عندهم منعلوم على وســم التبعية ، فان جاءهم بفائدة فى الدين وطريقة من اسلوب الصالحين ، وسرد لهم البراهين عرفوا جوانبه ، ونتجوا عجائبه وعيبوا حقه استكبارا وعتوا .. »** وكان الحاجب المنصور ابن ابى عامر لما استبد فى الاندلس على الملك هشام بعد موت الخليفة المستنصر الاموى اخرج من خزائنه جميع الكتب المشبوهة عند الفقهاء والتى افتى فقهــاء قرطبة باحراقها فأمر باحراقها وقد وصف صورة ذلك القاضى صاعد الاندلس فى تاليفه الشهير « طبقات الامم » (٤) وذكر ان الداعى الى هــذا التصرف الحقير للمنصور ابن عامر هو تحببه الى عوام الاندلس من جهة والى تقبيحه لمذهب الخليفة الحكم عندهم (وكانت خزانة الحكم التى جمعها فى عهده من اعظم خزائن الدنيا) .

ولم يكن مفكروا الاندلس كأبى بكر بن العربى او عوامهم الذين تقرب اليهم المنصور باحراقــه خزانة الخلافة منفردين بالانكار على الفقهاء بل كانت طبقة اخرى فيهم الادباء والمستهترون الذين كان يشخصهم الشاعر الزجال أبو بكر ابن قزمان الاندلسى ، ذكــر الــدكتور عبــد العــزيــز الاهوانى فى تاليفه القيم « الزجل فى الاندلس » الذى ترجم فيه لابن قزمان صورا من معركــة وحملة ابن قزمان على فقهاء قرطبة ومن ذلك قوله: **« ان الصورة الغالية للفقيه عند ابن قزمان انه منافق »** ويذكر زجلا طويلا لا يسع المقام لذكره ثم يقول : **« ان ابن قزمان كان يشبه الفقيه فى النفاق بنوع من الازهار « الخيرى » : ينكمش فى النهار ويتفتح فى الليل فسماه « فقيه النوار »** وفى ذلك يقــول :

وفقيه النوار انما هــو الخيـرى
بالنهار يورى وقار وترى بيع مرى (٥)
واذا كان الليل يمضى للكاس جرى
ويصيح يا خلاع بارك الله فيكــم

« وللفقيه بعد هذا صفة اخرى عند ابن قزمان لمح اليها فى ديوانه وقد عرفناها ايضا فى بعــض الامثال العامية الاندلسية بعد اكثر من قرنين هى الجشع واستغلال النفوذ فى الحصول على ما ليس له حق فيه ، فابن قزمان فى زجل له يناجى فيــه القمح الجديد مطلعه :

القمح الجديد انــا حبيبــك
ليس يهن لى عيش حتى نصيبــك

يقول فيه « او عمه الفقى (٦) يمر فى شانك » اما المثل الذى يفسر هذا النص ففى كتاب الحدائق لابن عاصم (٧) « شرى فقيه طيــب ورخيــص وموصل للدار » .

ثم يذكر الاهوانى ما يثبت نفور ابن قزمــان وكراهيته للفقهاء ، انه كان يسكن فى دار بضواحى قرطبة وقد زيد عليه فى قيمة الكراء فتحمل هــذه الزيادة رغم فقره ، لان الحى الذى يسكن فيــه ليس فه فقهاء ولا حجاج .

وكان اكريت دويرة من انســان
برباعــى سكنت فيــه زمــان
ثم قال لى نريد ثــلاث اثمــان
ونريد (٨) ولو طلــب مثقــال
بان فيه حنــى امــام السريـر

وعقابا مليح بجنب البير
وقصيبة علية بابا كبير
يكشف الفحص من ثلاث اميال
والربض لا شيوخ ولا حجاج
وارامل ملاح بلا ازواج الخ

وقد قال ايضا فى الموضوع فى عيد العصير كان يحتفل فيه الاسبان زمن الخريف وخرج ابن قزمان فى رجال ونساء ومعهم آلات موسيقية يغنون ويرقصون .. قال (٩) :

فى عصير عمول مفكرانا
الرقاع ثم والشان والغنا

ثم يقول :

عهدى بالقرى اذ كنا خلاف
لا فقيه ولا حاج لمن كان نخاف
ونروح ونغدو فجوها نظاف
كل يوم تراه وفرح جديد

الا ان ابن قزمان ختم حياته اماما ومؤذنا ولعله كان يجمع بين الخطتين وفى ذلك يقول ابن قزمان بعد توبته وفى نهاية حياته قد تاب ابن قزمان طوبال ان دام (١٠) :

قد كانت ايام اعياد بالايام
بعد الطبل والدف وفتل الاكمام (١١)
امام فى مسجد صار يسجد ويركع
من صمعة الاذان يهبط ويطلع

وهذا نعده انتصارا للفقهاء حيث انهم لم يضق بوجودهم قادة الفكر فحسب بل حتى المغنيين والسكارى والاباحيين فانهم كانوا يجدونهم عرضة فى طريقهم ويخشون بأسهم ... ولنرجع الى الحديث عن بجاية وحياتها الثقافية فنراها انها هى التى آوت المهدى ابن تومرت عند رجوعه من المشرق فى طريقه الى المغرب وبها اجتمع بتلميذه وولى عهده عبد المؤمن بن على وبرباط ملالة كان يبث أفكاره وفيه رسم خطته التى هزت العالم هزة شبيهة بالهزة التى احدثها العبيديون ؛ ومن الصدف ان بجاية ايضا هى التى كانت مسرحا لهذه المعركة فى الميدانين الحربى والعقائدى حيث ان فقهاء بجاية هم الذين انتصروا لاول فكرة ثورية وبسبب تأييدهم لبقايا المرابطة — بنى غانية اصحاب جزيرة ميورقة — — لما هاجموا بجاية والذى يهمنا فى بحثنا واردنا تسجيله هو ان هذا العهد لم يكن امتداد للمعركة والثورة الفكرية التى احدثها الموحدون ورميهم فقهاء المرابطين بالفكر والتجسيم فقط بل كان مبدأ معركة فى صفوف الفقهاء المرابطين انفسهم فقد انقسموا الى مجددين ومحافظين أو الى متقدمين ومتأخرين والمراد بالمتقدمين هم اتباع طريقة الفارابى والمتأخرين أو المجددين هم اتباع طريقة الفخر الرازى وبفضل هذه المعركة التى أحدثها الفقهاء المالكيون فى صفوفهم وانقسموا هذا الانقسام استفاد الفقه المالكى وانتصر المجددون أو المتأخرون — كما كان يسميهم الغبرينى صاحب « عنوان الدراية » فتطور الفقه المالكى تطورا أمكنه ان يساير الركب الحضارى ، وكان لفقهاء بجاية وتلمسان فضل كبير فى ربح هذه المعركة ، وهذا باعتراف جل العلماء الاختصاصيين فى بحوث هذه المواضيع كعبد الرحمن ابن خلدون واحمد المقرى مما سنبينه بمزيد من التفصيل فى القسم الثانى من هذه الدراسة .

الى هنا ينتهى القسم الاول من حديثنا عن مراكز الثقافة بالجزائر فى عهدها الاول عندما كان التعليم مسجديا ثم ظهرت المدرسة ابتداء من القرن الخامس الهجرى وتطورت الثقافة فى عهدها .

• من أحاديث الرباط •

طوفان الاستلابات

الحديث الثانى

الاستلاب الحضارى

عبدالمجيد مزيان

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

الفيلسوف : ان محادثتنا المختصرة فى الملتقى السابق جعلتنا نعزل الظاهرة الثقافية عن باقى الظواهر الاجتماعية لنلمس فيها بعض وجوه الاستلاب الذى نتخبط فيه . ولقد كان من الممكن أن نرد أصل الاستلابات كلها الى اللامساواة الاقتصادية بين المجموعات المتعايشة فى احضان الامة الواحدة . ونقول متخيلين : لو اتيح لجميع المتعايشين ان يرجعوا الى المساواة لبنيت الحضارة الانسانية بناء يختلف كل الاختلاف عما نشاهده اليوم من بناءات حضارية .

فالحضارة نتاج مجتمعى معقد تتشابك فيه الثقافة بالسياسة والاقتصاد ، ولكن تفكيرنا التجريدى والعاطفى يوحدها فى مثل مختصرة قد تكون فى غالب الاحيان مثل تزيين وتمويه . لنفرض اننا نقول لانسان ما يجب عليك أن تتحضر ، فاننا فى هذه الحال نغريه ، حتى يتعلق بنماذج من الحياة ، لم نحللها بعد تحليلا كافيا لنعرف افضليتها ، بل هى نماذج فرضت علينا فرضا ، وسنفرضها على الجيل الآتى بعدنا فرضا . ونحن نخلط هنا بين العملية فى حد ذاتها وبين محتواها . فالعملية الاجتماعية التى هى توريث مكتسبات جماعية عملية حضارية محايدة ، وهى السبيل الوحيد لرفع المستوى الانسانى ماديا ومعنويا ، اما المحتوى ، فلابد من صب معايير خلقية عليه ، فهو اما محرر للانسان واما سبب للاستلاب . فالحضارة كما نراها اليوم ، فى العملية وفى المحتوى ، انما هو محض تقليد وتوارث . ولو دققنا فى هذا الميدان ما هو محرر وما هو مقيد للانسان لراينا وجوه التقييد والاستلاب أكثر بكثير من وجوه التحرير . أليس التزييف فى مفهوم الحضارة راجعا الى انه يحتوى احتواء غامضا على فكرة التقدم وتحرير الانسان من الطبيعة بعزله عنها ؟ ولكن الحضارة تنشىء فى عالمها اللاطبيعى ضغوطا اشد من ضغوط الطبيعة اذ انها ضغوط الانسان على الانسان . ومن أشد مصائب الحضارة على الاجيال اتجاهاتها شطر اهداف غامضة ، اذ ان خط السير قد جاء صدفا منذ القديم . ولقد توارثنا مكتسبات اعتبرناها راسمال حضارى ، وقلما نجرؤ على التخلص منها لخلق مكتسبات اصح واقوى .

طالب : تعنون بهذا أن تقدم الانسانية ، عبر الاجيال ، ونحو مكتسات حضارية اهم فأهم ، ليس بالامر المسلم به .

الفيلسوف : المكتسبات موجودة ، وهى مهمة الى اقصى حد ، ولكنها لا تضمن تحرر الانسان فى كل مرة . اما مآل الانسان ، فى هذا الطريق الغنى بالاكتشافات فمآل مجهول . وهنا نقف بالضبط على بؤس الانسانية .

المؤرخ : صحيح اننا ننسى آلامنا الماضية بسرعة ، واننا حينما نؤرخ للانسانية نتعمد التفاؤل ، ونبرز فى عمليتنا الاحصائية ، المكتسبات الفنية والعلمية ، بينما نتناسى الكوارث التى جاءتنا من أنفسنا فى ممر العصور . ان اعظم بناة الحضارات التقليدية هم الفاتحون ، ولا احتاج الى تذكيركم ان كل فتح يعنى ابادة شطر من البشرية ، فى جزء من العالم ، لتمتيع الشطر الباقى . ولقد علمنا التاريخ أن حضارة لا تقوم الا على انقاض حضارة اخرى . وليست القضية قضية تحدى وتعايش كما يدعى بعض فلاسفة التاريخ ، بقدر ما هى قضية قتال مبيد . ثم ان

الحضارة المنتصرة لا تقوم ولا يستمر قيامهـا الا على استبداد وقهـر لا حدود لهما . فاذا اخذنا ظاهرة حضارية مجسمة مثل بنـاء معبـد وثنى ، والوثنيات موجودة حتى اليوم ، كما قلتـم ، فان المـؤرخ التقليدى يحسب حسابـا مختصرا ويقول بأن هذا المعبد نتاج لعبقرية فكرية وفنية وكفى ، ولكننا نعلم حق العلم ، أن هذا النتاج قد بنى على استعباد وابادة الآلاف من البشر . وانا أرى أن بذخ روما ، مثلا ، كان يخفى من ورائـه ابـادة الشعوب الاوربية والافريقية . وغنى بعض اكابر روما ، انما هو بالضبط فقـر الملايين من البشر وعذابهم .

الفيلسوف : ان المكتسب الحضـارى الحقيقى يتلخص فى تكوين انسـان افضـل وتحريره من اخيه الانسـان ، اما الحضارة الحالية فانها تحاول تحريرنا من الطبيعـة بواسطة المكتسبـات العلميـة والفنيـة . غير أن هذه المكتسبات الاخيرة ذات وجهـين . فلها وجه محرر من الطبيعة ووجـه مشوه للانسـان . وهى فى غالب الاحيان مغريـات اكثر ممـا هى مكتسبات . هنا الحدود بين الحضارة المزيفة والحضارة الحقة .

طـالب : يبدو ، حسب ما تقولون انه لا وجود للحضارة الحقة اليوم .

الفيلسوف : نعم انها اليوم حـالة مثالية بعيدة المنال . لانها تشترط وعى الاهداف وعيا كاملا ، وتشترط تحرير الانسان فى كل مكتسب مهما كان . بينمـا نـرى اليوم فى كـل مكتسب من مكتسباتنـا شويـا بين التحـرير والاستلاب . فالمكتسب الحضارى المتجسد فى الطائرة مثلا ذو وجهين ، فهو محرر للانسان ، حينما ينقـل المسافرين ويسهل المواصلات ، وهو ماسخ للانسان حينما يشثر الموت والعـذاب اثنـاء الحـروب . والمستشفيات بنـاءات حضـارية محررة ، ولكن الحانات والمراقص بناءات حضارية مشوهة للانسان .

طـالب : ولكن كل حضـارة لها اثمانهـا ، نؤديها مجهودات ومآسى فى تجربة كل مكتسب قبل أن يصبح مكتسبا محررا .

الفيلسوف : نعم . ولكن الاثمان التى هى الموت وتعذيب بعض الناس لتمتيع بعضهم الآخر ، لا يمكن أن توجد الا فى عالم غير واع لذاته . والحضارة الحقـة هى حضـارة الوعـى لا حضارة الصدف .

عالم الاجتماع : الا ترون أن مفهوم الحضارة انما هو مفهوم نسبى فى كثير من وجوهه. ولقد تعودنا حينما نتكلم عن الحضارة أن ندعى بأنها حضارة انسانيةشاملة ونحن ، فى هذا الادعاء ، نزين الواقع المتشتت المتناقض بأفكارنا المثالية . فاذا قلنا مؤكدين ان انسان القرن العشرين متحضر ، فاننا نتناسى أن هناك أناسى ومجتمعات متفاوتة . فالتواجد الزمنى لا يكفى للتعميم . ثم اننا نتناسى ان هذه الحضـارة

الحالية انما هى حضارة مجتمع ما ، يسعى هذا الاخير لفرضها ، ويسعى الآخرون لأخذ فتات منها .

طـــالب : نعتقد ان للحضارة مهما كان المجتمع الذى يخلقها ، عدوى على المجتمعات الاخرى . ولا يعجز اى مجتمع اليوم عن الحصول على قاعدة دنيـــا من الحضارة . فالسيارة ، والطائرة ، والادوية موجودة فى جميع بقـــاع الدنيـــا .. وهى فى متنـــاول كل المجتمعات .

المـــؤرخ : صحيح ما تقول ، على شرط الا ننسى ان هذه العدوى الحضارية لم تحصل تلقائيا . بل كان هناك عصر يسمى « عصر الاستعمار » ، وأن تقتيل وتعذيب الملايين من البشر مدة قرنين كاملين حتى يحصل ابناؤهم على مرافق حضـــارية ، مأساة تفـــوق بكثير مقدار المكتسب . ثم انى أرى الناس قليلا ما يدركون العـــدوى الماسخة كالمتعة السطحية ، والتبذير واتراف طائفة على حساب طائفة اخرى .

عالم الاجتماع : اما العدوى فمفروضة فرضا من مجتمـــع منشــىء للحضـــارة على مجتمعات دون مستواه . وهنـــاك وجوه كثيرة من الاستلاب نشأت عن هذه الوضعية . فالشعوب الضعيفة تتصور انه لا يوجد الا نموذج واحـــد للحضارة ، هو هذا الذى تشاهده عند الامم الصانعة ، فتريد ان تتحول هى الاخرى الى مجتمعات صانعة دون قدرة على ذلك ، وبمجرد ما تدخل فى هذا الاتجاه تصبح فى حالة تبعية مستمـــرة ، لأنهـــا تستورد ولا تنشـىء .

طـــالب : لكنه ، فى متناول هذه المجتمعات الضعيفة ان تتحول بطرق ثورية ، الى مجتمعات صانعة .

عالم الاجتماع : اذن ، فالنمـــوذج الحضـــارى مفروض عليها كما قلنـــا . وفى هذا الطريق بالذات تدخل هذه المجتمعات الضعيفة فى استلاب سياسى لأنه يتحتم عليها الاختيار بين أمـــرين : اما ان تناضل فى سبيل التحرر من التبعية بالطرق الثورية التى تقتضى تعبئة كل الجهود ، بما فى ذلك من تعبئة عسكرية وتضحية بجيل أو جيلـــين تضحية كـــاملة ، واما أن تدعى التحرر تدريجيـــا ، فتنشأ فى احضانها طبقة متعاملة مع المجتمع الصانع ، كأنه جزء منه مقذوف به على قمـــة المجتمـــع الضعيف . والاستلاب هنا فى التقاطع الطبقى ثم النوعى الموجود فى احضان الامـــة الواحدة التى تدعى التحرر . أرى ان فى كل من هذين الطريقين مشاكل عظمى يخلقها العالم المتحضر الذى يدرك ان تحضره سينهار اذا زالت التبعيات لان حضارته لا تختلف بكثير عن حضارة روما : انها مبنية على حساب الشعوب .

طـــالب : اما النماذج الحضارية ، فلا يمكن للبشرية المتخلفة ان تخلقها من عدم. بل النماذج هى هذه التى نشاهدها بالعيان ، بقطع النظر عن انها مزيفة

او محررة . هذا ما تقتضيه النظرة الواقعية ، واما عن طرق الوصول الى الحضارة فيبدو ان تحتم الاختيار بين طريقين لا ثالث لهما ، افتراض مبنى على المبالغة فى قوة الاستعمار كأنه لايزال المتصرف الوحـــيد حتى الآن .

الفيلسوف : ان النقل عن النماذج الحضـــارية الموجودة ، كان السبيل الوحيد لحد اليوم . اذ كانت جل عمليات التحضر محـــافظة على تقـــاليد موروثـــة . والاجيـــال لا تزيد مكتسبات جديدة على ارثها هذا الا بالبطء الكبير . ولقد كانت العمليـــة الحضـــارية محاكاة : يحاكى فيها الضعيف القوى فيتسلح بسلاحه وينتقل الى مستواه. وعملية المحاكاة ، هو ما نعتقد فيه خطأ ، أنه التوارث الانسانى الطبيعى لحضارة واحدة شمولية . فالجدلية التى يحكى عنها فلاسفتنا المعاصرون ليست جدلية طبقية فقط ، ولكنهـــا جدلية صراع حضارى عالمى متسع الحقول . فكل حضارة تسعى الى التغلب والشمولية لتنصب نفسها فى قمة الهرم الانسانى ، ولكن موقفها هذا يستجلب ردودا من حضارات اخرى . وليس هناك انسانية اقدر من انسانية على التحضر ، بل هناك انسانية اقوى من انسانية ، الى اجل معين . وفترة تغلب حضارة هـــى بالذات فتـــرة شموليتهـــا . ثم ان الحضارة الصاعدة تحاكى سابقتها فى المكتسبـــات والاستعـــلاء وهكذا توارثنا مكتسبات اعتبرناها انسانية شمولية ، بدون تقويمها ، لأننا كنا سجناء جدلية التصارع الحضارى . وهكذا ورثنـــا فى الواقع ، اتجاهـــا حضاريا واحـــدا ، هو الاتجـــــاه الاستلابى ، لا الاتجاه التحررى .

عالم الاجتماع : من هذه الوجهة نعتبـــر الحضارة الانسانية مجرد خيال ، ونقول ان كل حضارة مسيطرة قاهرة ترتقى حتما الى مستوى الشمولية الانسانية . وعلى فرض أن المجتمعات الانسانية كانت متعايشة ومســـالم بعضهـــا للبعض لحصل ان بقيت فى عصرنـــا هذا نماذج حضارية متنوعة .

الفيلسوف : ان تخيل نماذج حضارية متنوعة ، ممكنة الوجـــود ، ليس من قبيل التحريف . ولهذا يجوز تخيـــل بناء حضارى مثالى محرر ، عـــلى شرط ان يكون هذا التخيل منطلقا مما هو كائن الان ، ومبنيا على دراســـــة الخطة التحريريـــة خطوة خطوة ، حتى لا يبقى من بقايا النماذج البالية اى اثر : اعنى ان رفع الاستلابات يجب أن ينطلـــق من معرفـــة هذه الاستلابات معرفة دقيقة ، لا من لدن المفكرين فحسب ، بل من لدن رجال العمل مع توعية مستمرة للجماهير . اما الجواب الذى سيوجه الى كـــل من يعتقد انه تخلص من ضغـــوط الاستعمار بدعـــوى انـــه اكتسب حريته ، فأراه يتخلص فى ابراز كل الهجومات الثقافية الـــتى ترمى الى التوحيد الحضارى . ومن المؤكد ان التوحيد الحضارى معناه ذوبان كل

الحضارات فى حضارة واحدة بمـــا اكتسبت فيهـــا من عيوب وصدف وغموض اهداف. أما ان يعتقد الهاجم والمهجوم عليه بكمال هذه الحضارة، بدعوى انه لا وجود لحضارة حـــية تفوقهـــا فمن قبيـــل قصر النظـــر ، وتضـــييق الخيـــال الاجتمـــاعى والسياسى .

طالب : تعودنا ، حسب قوالب التفكير العلمى التى تشبعنا بها أن نؤمن بالقوانين، حتى فيما يخص معرفتنا للمصـــير الانسانى . ويبـــدو لنا ان ما كان عبر التاريخ ، من نشوء حضارات ، وتصادمها ، وانقراض انواع منهـــا وسيطرة نوع واحد لانه الاقوى ، كـــان من قبيـــل الحتميـــة ، ونحن مجبرون على ضبط القوانين العلمية، بناء على ما كان . اما ، ما هـــو فى الامكان فمجرد خيال .

عالم الاجتماع : القوانين لا تطفو على الانسان ، فى عالم الانسـان . وليســـت هناك « طبيعة » اجتماعية محتومة تصب على المجتمعات من اعلى . ان عالم الحياة المجتمعية عالم مستقل بذاته، ولا يمكن قياسه بعـــالم البيولوجيا كما تفعلون الآن ، الا اذا انطلقتم من مسلمات فلسفية . فالبتيوى مثلا يعتقد أن قوانين البنيـــة البيولوجية قد توجد فى المجتمع او فى البناءات اللغوية . ولكنه هنا يتفلسف ما دام يضم بين عوالم مختلفة ويبنى عنها قوانين مشـتركـــة . اما العـــالم الحقيقى فـــلا اراه الا كثـــير التحفظ والتواضع ، ولا اراه فى علم الاجتماع الا مؤكدا نسبية القانون ما دامت « الاشياء » الاجتماعية كما يقولون ، فى حركية مستمرة ، وما دمنا نرى أن اتجاه البناءات موكول بالصدف بسبب اللاوعى الانسانى ، وما دمنا نرى أن فترات الوعى ، تغـــير من الاتجاهات الاجتماعية ، فى كثير من الظروف .

فادعـــاء الثبـــوت للقـــانـــين الاجتماعية يجعلك تقول مثلا ، بأن الحضارة الصحراوية لابد أن تكون كما هى عليه ، حضارة تربية ابل ، وزراعة محدودة مع قليل من التجارة، وحضارة المناطق الجبلية لابـــد ان تكون حضارة تربية بقر وزراعـــة اشجار . وبالتـــالى فان المعتقدات لابد ان تكـــون كمـــا هى عليـــه . والاسراف فى هذا الاثبات القـــانونى يؤدى الى اعتقادك أن التـــاريخ يجرى حسب صـــيرورة محتومة ، والبشر الاعيب فوق أمواجه الطاغية وهذا تجريد مشوه للحقيقة لانـــه يفصل بين الانسان وتاريخه وبين الانسان ومجتمعه .

الفيلسوف : يبدو أن الاستلاب الـــذى يجعـــلنا نخضع للصدف من قصور وعينا وقلة تحكمنا فى الاحداث ، هو الذى ادى الى استلاب التفكير الذى يجعلنـــا نؤمن بحتمية القانون الاجتماعى ، كأنه قانون يصب من خارج الحيـــاة الانسانية .

ومهما يكن الامر فاننا نلمـــــس

الافلاس الحضارى فى كل النمـــاذج المعروضة علينا . وليس لنـــا الا التفكير الثورى كوسيلة لخلق نموذج مثالى ، وليس التخـيل كما قلنا ، عبارة عن جنون، فى هذا الميدان. بل انه منبـثق عن وعينـا للاستـــلاب الحضارى الحالى ، مع تفكـــير فى نموذج أمثل للحضارة .

المؤرخ : لم تقم فى هذه الارض حضارة انسانية منذ القديم البعيد ، الا وثبت افلاسها وتفككها . ولكنى لا أعتقد رغم هذا أن قانون الفساد والتفكك الحضارى قانون ابدى ، لان تبـدل النـــوع الحضـــارى الــذى أشرتـم اليــه فى تصـــوراتكم المثـــاليــة ، ممكن الوجود . كما ان الماضى كـــان فى امكانه أن يعطينا بناءات واتجاهات حضارية غير التى وجدت فى مجرى التاريخ .

طالب : يظهر انكم تتصـــورون الحضارات كما يتصور المهندس ذو الخيال الخصب مخططاته الخيالية لبنايـــات متنوعة

الفيلسوف : المقارنة فى محلها ، اذا تصورنا ان البشرية ستصبح فى يوم من الايام ، فى درجة من الوعى ، والتمكـــن من مصنوعها ، واتقان خطة التنفيذ ، بمثابة جماعة موحدة من المهندسين والبناءين تسعى لاقامة بناء واحد .

المصلح الدينى : الافلاس الحضارى أمر مسلم به ، ولا نستثنى من ذلك اية حضارة غير ان هذا لا ينفى المواظبـــة على التجربة الحضارية فى كل مرة . وكل ثورة ، او كل عملية اصلاحية ، تعد محاولة فى تغيـــير الاتجـــاه . ولا يستبعد اننا سنصل الى التقليل من اسبـــاب الفشل الحضـــارى ، اذا امكننا ضبط تصرفاتنا الحضارية على اسس فكرية واخلاقية تجدد نظرتنا للوجود . وانى لارى الافـــلاس الحضارى فى التقاطع بين التعـــاليم الخلقية والحياة المادية لكل حضارة. وهذا ما نسميه بتغلب المغريات على الفكر . ان لب الانسان مجــذوب اليوم الى ما يخدره اكثر مما هو مدفوع الى التفكير واذا استثنينـــا اقلــية قليــلة من الافــراد ، فاننا نشاهد الانسان يقضى طول حياته فى السعى وراء رفاهية مكذوبة . فانفاق جهود العمر كله فى اقتنـــاء البيت الرفيع والسيارة مثلا ، لا يعد تسهيلا للحياة ، ولكنه استعبـــاد الآلة للانسـان او استعباد الانسان للانسان بواسطة الآلة . ونحـــن نحس « بغثيان » الاجيال الصاعدة من الحياة فى مجتمع « استهلاكى » متكالب .

واذا اخذنا حكم الدين على هذه الوضعية ، فاننا نجده ، فى ثورتـــه على الحضارات البائدة التى تمقت التفكير وتسعـــى وراء المـــذات . فالمدن الفاجرة كقوم فرعون وثمود ، انما هى مدن اغراء حضارى مـــع تلخيص الحضارة فى جانبها المادى ، ولا يمكن لهذا النوع من الحضارات التفكـــير وتسعى وراء اللـــذات . لنفسه بنفسه ، ذلك ان تمتع طبقة

من الناس ، واسرافها فى المتعة ، لابد أن يكون مبنيا على استعبادها لطبقة أخرى . هذه هى احدى معانى الاية الكريمة « واذا اردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . انظروا الى حضارتنا الحالية بمدنها الفاجرة، ترون أن الاقلية من سكان القصور والمترددين على المراقص مثلا ، تقابلهم الاقلية من الوجوه الكالحة الذين يجرون وراء لقمة العيش .

والاخلاق الدينية حينما تنبه الى الزهد لاترمى الى مقت الحياة كحياة او مقت الجوانب الايجابية من الحضارة ، مثل تسهيل العمل بواسطة الآلة الراقية ، والمعرفة العلمية ، والفن الايجابى ، بل الزهد هو الاعراض عن المغريات المضيقة لافاق العالم الانسانى ، بحصره فى الكسب المادى . ولست ارى فرقا بين موقف الزهاد من رجال الدين والزهاد من الحكماء والعلماء ، الا أن زهاد الاديان اشد الحاحا من غيرهم ، ويكونون من انفسهم امثلة حية يشاهدها الناس .

طالب : وهل يمكن اعتبار هذه الامثلة الحية ، وهذه البناءات الاخلاقية ناجحة لحد الآن ؟ نرى أن الافلاس الحضارى كان دائما أمرا محتوما . والاخلاق كانت ولازالت تدعى انقاذ البشرية ، ولكنها لم تتوصل لتحقيق اى هدف من أهدافها . فالافلاس الحضارى كان ايضا افلاسا للاخلاق .

طالب آخر : طرق التوعية الخلقية محدودة وغير ملائمة ، أما طرق الاغراء المادى فكثيرة وقوية المفعول فى حضارتنا .

الفيلسوف : من المسلم به ان نضال رجال الاخلاق كان لحد الآن نضالا فكريا ولفظيا محدود الفعالية ، وان تغلب الفكر على السلوك التمتعى كان نادرا فى حياة الحضارات ، ولكنى لا استبعد تصور حضارة انسانية يصبح فيها الفكر ، اى الوعى والتوعية ، هو الشغل الشاغل لجميع الناس . وهذا لا ينفى العمل المادى بل يسهله ، ولا ينفى المعاش بل يبسطه ، ولكنه ينفى المتعة الماسخة .

المصلح الدينى : حينما جاءت الدعوة الاسلامية تقول ان الاسلام دين ومعاملة فمعنى هذا انها كانت ترمى الى اخضاع المجتمع فى معاشه اليومى الى السلوك الاخلاقى ، وكانت ترمى الى فرض اسبقية الفكر على السعى التمتعى . وقد حاولت هذه الدعوة أن تحطم بكل ما أوتيت من قوة جميع مظاهر الحضارة التمتعية ، وقد نجحت فعلا لمدة جيل واحد ، وكأنى اراها فى هذه الفترة تغرس فى نفوس الناس قدرا ادنى من الطاقة الفكرية ، وتعلمهم مقت النماذج الحضارية المفلسة . وأراها قد وصلت بهم فعلا الى التحصيل على الشروط الاساسية

لانطلاق حضارى تحررى : منهــا فرض عقيدة المساواة المطلقة بين الناس ، وتقديس الانسان لانـــه الكائن المفكر ، والزهد الكامل فى كل المغريــات .

المــؤرخ : ولكن هذه الدعوة فشلت حضاريــا مثلما فشلت الحضارات السابقة ، لان النماذج الحضارية التمتعيـــة تغلبت بسرعة على المجهود الفكرى، فواقعة صفين ليست فتنة داخلية ، كما يبدولنا ، ولكنها واقعة انتصـــار الحضارات السابقة على الدعـــوة الفكريـــة الاسلاميـــة . فالمسلمون الذين خضـــعوا لاغــراء النمـــوذج الرومى أو الفارسى بمثابة المستعمر بالذات فى عصرنا الحاضر .

الفيلسوف : ان الـــصراع لا يتلخص فى تقـــابل قوتـــين متضادتـــين اقتصاديـــا وعسكريا ، فقط ، ولكن جدليـــة الصراع فى حد ذاتها تقتضى الدخول فى جدلية أهم وهى قبـــول نوعـــية الستراتيجية العامة التى يفرضهـــا الخصم بحكم وجـــوده كمجابـــه . فالمسلمون كانوا يواجهون الروم ، فاغراهم هؤلاء بقوتهم ، والـــروم كانوا يجابهون اليونان فاغروهـــــم بحضارتهم ، ويظـــن خصومنــــا الاستعماريون اننا نجابههم فيبادروننا بالهجوم . وهذا هـــو الاستـــلاب الحضارى الذى يفرض علينا دفـــع العدوان بالعدوان فى عالم اليـــوم ، انه أسلوب حضارى ، مريـــض ، متناقض ، مقيد ، يقيدنا بسلاســـل جدلية . فنحن مجبرون على اكتساب نفـــس السلاح وعلى صـــرف كل طاقتنا فى الالتزام بالصراع الخارجى عوض أن نصرف جهودنا فى التحرير الداخلى ، فكل استلاب مبنى عـــلى استـــلاب آخـــر فى هـــذا الكيـــان الحضارى المريض .

يتبـــع



كلـمـــات

عندى كلمة الى شباب العالم .. فأنا مازلت شابـا .. الخطأ أن تعتقد انك تعرف كل شيء احسن من غيرك وهـذا يقودك دائما الى الخطأ .. الشباب لا يقبل النصح ويعتقـد أن الكبار قد انتهوا وانهم فئة قضى عليها بالفناء .. ولكـن الحقيقة ان الكبار فى السن قد مروا بنفس الظروف التى يمـر بها الشباب الان والتى سيمرون بها فى المستقبل ومنهـا اكتسبوا خبرة واصبح لهـمنظرة واقعية لمشاكل الحيـاة .. انـا أتحدث من خبرتى .

نصيحة الى الشباب .. الخمر والسجاير رذيلة تقضى على الشباب بسرعة والحمد لله فأنا لا أتعاطى المشروبات الكحولية ولم اعرف التدخين .. انا لا امانع فى ان ينتمى الشباب الـى فكرة او مجموعة لكن الخطأ كل الخطأان يفقد الشباب شخصيته ويسمح لغيره ان يقوده .. ان هناك من يستهوى الشبـاب الى الفساد والرذيلة ووسائلهم الخمر والنساء والمخدرات .. وكم من شاب انقاد الى هذه المغريات وانتهى الى الكهولة المبكرة .. المهم أن تبعد عن هؤلاء وعن هذه الرذائل ... الفضيلة تاج على رؤوس الشباب .. الرياضة هامة لبناء الشباب ... اذا وجدت الرياضة فى نمو فى دولة فستجـد شبابها قوة تخيف .. الرياضة تقوى الشباب جسامنيا ونفسيا الرياضة تعلم الشباب كيـفيفوز وكيفيخسر . اذاكانأمام الانسان عشر سنوات باقية من حياته فسيعيشها احسن وهو يزاول الرياضة .. هذه هى نصيحتى الى الشباب ...

من مذكرات بيلـى

احتجاج « ثورى »

* كان جاستون ايسكنز رئيس وزراء بلجيكا يقدم للبرلمان برنامج حكومته فى المجال الزراعى ، عندما قوطع خطابـه بضجة هائلة : فقد اقتحم ساحة البرلمان ثور ضخم : ولم يدخل الثور الى البرلمان بالصدفة طبعا ، ولكن احضره الفلاحون ليدخل على رئيس الوزراء ويقاطعه احتجاجا على السياسة الزراعية للحكومة ! ...

دور اللغــة فى الثــورة الثقــافيــة

عبد العـزيز بن عبد الله

استاذ بجامعة القرويين
ومدير عام المكتب الدائـــم
لتنسيق التعـريب

من الثابت الذى لاشك فيه ان وحدة اللغة من اهم العوامل فى تمكين وحدة الشعب وتقوية اواصره وشد عزمـــه عـــلى التآخى والتعاون ودفعه للسير قدما فى مضمار التطور ومعارج التقدم . وكثيرا ما وقع بسبب اختلاف اللغات بين الشعـــوب وسوء التفاهـــم على المعانى تشنجات اجتماعية وسياسية ادى بعضها الى قيام حـــروب وثارات ســـالت فيهـــا دمـــاء غزيرة وتبددت ثروات ضخمة .

دعى الاستـــاذ عبد العـــزيـــز بن عبد الله الى الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى بوهران ولكنـــه لم يتمكن من الحضور لاسباب خاصة، فبعث الى الملتقى بهذه الـــدراسة القيمة التى ننشرها فى هذا العدد .

ولقد كان لنا فى الجاهلية لهجات متباعدة تغالى بعض العلماء فسماها لغات كأبى عمرو بن العلاء القائل : ما لغة حمير بلغتنا ولا لسانهم بلساننا ، ولولا اسواق العرب الدورية لما تقاربت هذه اللهجات فزالت الفوارق وتروقت الالفاظ وتهذبت المعانى وتوضحت المصطلحات وسهل التفاهم وقامت اشباه اتحادات سياسية قبلية كانت ارهاصا للوحدة العربية التامة الشاملة التى انبثقت مع الاسلام ودعمها كتاب الله الكريم وانضجت لنا هذه الحضارة التى مازلنا نفاخر بها حتى اليوم . فمنذ ذلك الوقت والعرب كلما مزقتهم الاحداث او فرقتهم المصائب وجدوا فى الاسلام الذى وحدهم داعيا الى الصلح ، وفى القرآن الكريم الذى انضبطت لغتهم عليه اساسا للاتحاد والتفاهم . لقد جمعهم القرآن الكريم فألف بين قلوبهم ووحد صفوفهم وخلق منهم قوة يخشى بأسها ودفعهم فى سلم الحضارة صعدا ، فنحن حينما ندعو الى لغة القرآن المجيد ونسعى الى تفصيح العامية ، انما ندعو الى تحاب وتفاهم بين العرب . والتقاؤنا على الفصحى فى جميع اعمالنا العلمية والادبية والفلسفية هو اول الطريق نحو وحدتنا المنشودة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا . وحدة الفكر والتفاهم اولا ، فهى التى تحدد شخصيتنا وتثبت أقدامنا فى التطور الحضرى ضمن المجتمع الدولى المتقدم .

كل شعوبنا ترنو الى الوحدة العربية الكبرى بعيون ظمأى وقلوب متلهفة وكل شعرائنا وكتابنا وارباب الفنون منا يتحدثون عنها ، وكل زعمائنا يتخذونها تكأة سياسية ... وكلما حزبنا امر او دهمتنا مصيبة او اعتدى علينا مستعمر قلنا : لو كنا متحدين لكان لنا موقف آخر يرهب العدو ويرضى الصديق لكن كيف يتم لنا تحقيق هذه الوحدة او الاتحاد او ما شئتم له من تسمية . اذا كنا لا نستطيع التفاهم بدقة على ما نريد ؟ ونتحدث بلهجات متباينة نكاد ندعى بأنها لغات لعظم التفاوت فيما بينها . فنحن لا نختلف على المسميات والتراكيب وحسب ، بل ان نطقنا فيما اتفقنا عليه مختلف احيانا اختلافا يظن معه انه لغة اخرى .

ومع هذا نجد بيننا من يدعو الى تعميق هذا التفاوت باستخدام اللهجات العامية مكان العربية الفصحى ويسميها لغات . فهناك من يدعو الى العامية اللبنانية بحماسة ، وقد وضعت فيها كتب تطبع اليوم فى بيروت بعشرات الالوف وتوزع بالمجان تقريبا أو بثمن رمزى . وتكتب بحروف لاتينية ويكافأ المبرزون فيها بجائزة مقدارها نحو أربع مائة دولار وهى جائزة مستمرة تدفع فى مطلع كل شهر للفائز الاول فى تخريب الفصحى ، فيتهافت كثير من الشبان عليها طامعين بها وفى يد كل منهم معوله يضرب فى أساس اللغة فيخرب ناحية ويهدم ركنا حتى بلغ عدد الكتب المؤلفة باللغة العامية اللبنانية العشرات ، وهم يسمونها اللغة الفنيقية أحيانا ويدعون بأنهم ورثة فنيقيا التى كانت قائمة فى لبنان قبل نحو ثلاثة آلاف عام والناس العقلاء الطيبون يتساءلون : من اين يأتى هذا الداعية الفقير بالمال لينفقه فى هذا السبيل ؟

ونجد بيننا من يدعو الى كتابة الاغانى والحوار القصصى والمسرحى والسيناريو السينمائى باللهجات العامية، وتقام لدعوة الى ذلك مناظرات صحفية وندوات وتؤلف الكتب وتنشأ المقالات وتفتح المجلات المصورة لها صدورها وترحب بها .

ونجد بيننا من يدعى بأن اللغة العربية ضعيفة قاصرة لا تستطيع مجاراةالتطور الحضرى والعلمى المعاصر ، ويرون الخير فى تركها واهمالها وتدريس العلوم بأى لغة أجنبية سواها .

وليت الامر اقتصر على الضجيج فى الصحف والندوات وحدها ليته وقف عند هذا الحداذنلهان

الامر وقلنا : حسبنا الله فى بعض شواذ الناس ومتنطعيهم اما ان يحمل هذه الدعـــوى عضـــو مجمعى فيدعو فيه الى نبذ الحروف العربية نبذا قاطعا واستخدام الحروف اللاتينية مكانها توطئــة لتقريبنا من الحضارة الاوروبية على حد زعمه فأمر يدعو الى اكثر من التعجب .

ونجد بيننا من يدعو الى تحطيم قواعد الفصحى وتكسير اساليبها وتدمير بلاغتها وتمزيق شعرها ونثرها وهجر اوزانها الموسيقية العذبة ، ويتغالون فى استخدام المجازات والاستعارات والكنايات البعيدة ويسمونها رمزية . ويستخدمون من الالفاظ فى غير ما وضعت له ويسمونها سريالية حتى عمى على قارىء العربية فهم ما يقصدون فكأنهم يكتبون لغة اخرى لا صلة بيننا وبينها الا صور الحروف وحسب .

ولو رجعنا الى اصل المعارك ودرسنا اسبابها الحقيقية لوجدناها سالكة سبلا مفترقة لكنها كلها ترمى الى هدف واحد . فالحركة الالحادية تبعدنا عن عماد هذه اللغة وقطب رحاها ، تبعدنا عن كتاب الله الذى كان سبب وحدتنا وتقدمنا . فمتى تحللنا منه ونبذناه ضعفت لغتنا وضعفنا معهـــا وتمزقنا وسهل على المستعمر ازدرادنا لقمـــة سائغة .

والحركات الداعية الى لاتينية الحرف ، تهدف الى قطع صلتنا بماضينا الحضارى والفكرى ، وتفريغ مجتمعنا من الداخل تفريغا يجعله قابلا لان يملأ بما يريدونه لنا ، فنعود الى وهدة التبعيـــة التى لم نتخلص منها الا بشق الانفـــس وتقديـــم ملايين الضحايـــا .

والحركة الداعية الى العامية تهدف الى تمزيقنا تمزيقا يباعد بين اقاليمنا فنغدو شعوبا صغيرة متخاذلة لا تفاهم بينها ويتركنا صغارا ضعفـــاء متهالكين نتهاوى امام اى صيحة ونتهافت تحت كل ضربـــة .

ان معركتنا معركة شرسة طحون غـــير ان سلاحنا فيها ماض قوى لو عرفنا كيف نستخدمه ان ايماننا بسمو لغتنـــا وقدرتها عـــلى التطـــور ومساوقة اى لغة عالمية فى اى علم من العلوم ، هذا الايمان لا يكفى وحده لا يكفى أن نتغنى بهـــذا الجمال وبهذه القـــدرة ، ونقف عند كتابة المقالات الضافية فى تمجيدها ونظم القصائد الطوال فى الثناء عليها وتقديرها .

ان اللغة الآن فى محنة من اشد المحن ، تقاتل على جبهات متعددة بعضها خـــارجى وبعضهـــا داخلى ، وتجتاز مآزق حاسمة فى اعنف لحظاتها التاريخية ، فان لم تقف فى وجه هذا التحدى بتحد اشد واصلب ، سقطت فى هاوية لا مخرج لها منها ان خصومها يخططون لتخريبها تخطيطا علميـــا بارعا ويدرسون ثم يصممون ويعملـــون ضمـــن برنامج معروف المبدأ معروف الاسلوب معـــروف النهاية ، ولا مناص لنا من خوض هـــذه المعـــركة بمثل سلاحهم اما التفاخر بالمـــاضى والادعـــاء العاطفى والارتجال فأمور لا تجدى فى معركتنا هذه فتيـــلا .

يجب ان نثور ثـــورة عاقلة وان تكـــون أول ثوراتنا على انفسنا فنغير

مناهجنا وسلوكنا وتكتيكنا ثم نحدد خطتنا ونعــين هدفنا وننطلق بايمان لا نلتوى بعده مهما تعاورنا من محن او تاكدنا مــن عقبات . ان اهم معاركنا تدور فى حومات ثلاث هى:

ا ـــ معركة الحــرف واصول الكتابة للطباعة

ب ـــ معركة العامية

ب ـــ معركة التعريب

وما عدا ذك فتبع لها او مشتق منها او متعاون معها . وسنعرضها بشىء من الايجاز لتركيز البحث عليها اذا شئتم وما امرها بخاف عليكم .

ا ـــ الحرف العربى : يقيسون الحرف العربى فى الطباعة على الحرف الافرنجى فيقولون .

ان رصف صفحة بالخط الفرنجى يعــادل فى الزمن رصف نصف صفحة بالخط العربى .

ومعنى ذك انه بينما يرصف عامل المطبعــة الافرنجى حروف صفحتين لا يستطيع زميله العربى أن يرصف أكثر من صفحة واحدة، وعيون الحروف الفرنجية فى لوحة الرصف لا تزيد على التسعين لان كل حرف منها وحدة قائمة بذاتها يمكن رصفه فى اول الكلمة او وسطها او آخرها ونقله مــن مكان الى آخر بمنتهى السهولة اما الحرف العربى فتختلف صوره باختلاف موقعه من الكلمة فالعين مثلا فى كلمة « عدل » الواقعة فى أول الكلمة لا تشبه العين الواقعة فى وسطها مثل « يعود » أو فى آخرها موصولة مثل « سميع » او فى آخرها مفصولة مثل « سماع » وهناك حــروف تتصــل بسابقها وبلاحقها وحروف تتصل بسابقها ولا تتصل بلاحقها مثل « الواو » وهناك الهمزة فى اول الكلمة وفى وسطها وفى آخرها فقد تعتلى متن الالف او تركب ظهر الواو او تجلس على كرسى او تنفرد وحدها .. وهناك المدة والشدة والتنوين ... وهناك الحركات من ضمة وفتحة وكسرة وهكذا تتزايد العيون اللازمة للحرف العربى حتى تبلــغ سبع مائة عين او اكثر . فاذا احتــاج العامــل الافرنجى الى شهرين ليتقن صناعة رسم الحرف، فلن يقل الزمن اللازم لزميله العامل العربى عن ستة اشهر ولهذا اختصروا فدعوا الى اتخاذ الحرف الاتينى وراوا فيما ابتدعه مصطفى كمال أتاتورك للغة التركية مثالا يحتذى . ونسوا ان :

١ ـــ اللغة التركية لغة حديثة غير ذات امجاد حضارية وما فيها من نفائس الكتب مترجم اكثره عن العربية وأن اللغة التركية وليدة جديدة مازالت فى دور الحضانة والنمو وانها تستعير نحو ثلثها من اللغة العربية والثلث الثانى مــن الفارسيــة والطورانية والثلث الاخير مستعار من اللغــات الاوروبية الحديثة .

٢ ـــ وانا لو بدلنا حرفنا هذا واتخذنا الحرف اللاتينى مكانه لاحتجنا الى اعادة طبع عشرات الالوف من كتبنا القيمة وفيها ارث حضارتنا وثقافتنا وحضارتنا وامجادنا ، والتبديل يحوجنا الى زمن طويل جدا وجهد جبار وبذل مليارات من الدنانير الذهبية ، وهو امر تعجز عنه ميزانيات البــلاد العربية مجتمعة .

٣ ـــ وعجزنا عن اعادة طبعها كلها يدعونا الى اهمال كثير منها والى الانقطاع انقطاعا تاما عن مخطوطتنا النفيسة وهى لا تقل عن مليونين وفيها من النفائس ما لا تقابله مخطوطات اى لغة اخرى فى العالم . أليس فى مغامرتنا هذه ضــياع كنــوز فكرية لا تقدر بمال الدنيا ؟ !

٤ ــ وقد ثبت الآن أن الحرف العربى حــرف مثالى فى جمال تكوينه وشكله وتنوعه والتوائه واستوائه وتعريجاته واختصاره ، وأن الصــفحة الواحدة من الكتاب العربى لو كتبت بالحرف اللاتينى لاحتاجت صفحتين عى الاقل ، فالكتــاب المؤلف من مئة صفحة بهذا الخط الجميل لا يمكن رصفه بأقل من مئتى صفحة بالحرف اللاتينى وما جدوى كل هذا التبذير ؟ !

٥ ــ ان تطور الطباعة اليوم يتجه اتجاهــا سريعا نحو اللينوتيب والمونوتيب ومعنى ذلك هو العدول بالتدريج عن اسلــوب الرصف الحــرفى واختصار القوالب الى نحو ١٦٠ فقط ، وقــد توصل بعض العلماء الى ابتكار رسم حديث للحرف العربى لا يخرجه عن شكله ولا يبعده عن اصلهولا تزيد قوالبه على المائة ، واهتمت جامعة الدول العربية بهذه المشكلة وتبنت بحثها ومناقشتهاودعت الى ندوة خاصة بذلك تعقد وشيكا واستدرجت لها كل المعنيين بها وقدم المغرب مشروعا ممتازا لا تزيد فيه قوالب الحروف عن التسعين مــع جميــع محلقاتها من همزات وشدات ومدات وحــروف اجنبية لا ينطقها العرب . والامل قريب بتوفيــق الجامعة الى حل مشكلة الحرف حــلا سريعــا وموضوعيا تسهل به الكتابة على الراقنة « الالة الكاتبة » وفى المطابع بحيث يسقط دعوى الداعين الى الحروف اللاتينية ويفقد خصومنا معركة .

ب ــ معركة العامية : يحتج الداعون الى العامية بعجز الفصحى عن التعبير بدقة وعمق عن خلجات النفوس وتصوير اللمحات العاطفيــة والامثــال الدارجة فى كل قطر . وبأن الطفل العربى يعانى فى دراسة الفصحى ما يعانيه فى تعلم اى لغــة اجنبية سواها ، فخير له ان يدرس لغة اجنبيــة يتابع فيها دروسه العالية من بعد فى مواطن العلم، ويقتصد بذلك اقتصادا كبيرا فى الزمن والجهــد والمصروف !! .

١ ــ ونسى هؤلاء الداعون أو تناسوا ان فى تقوية اللغة العامية اضعافا للغة الفصحى وتوهينا لعزمها وخلقا لعدد من الشعوب تبدأ عربية اقليمية ثم ما تزال تتباعد مع الزمن وتوالى الاجيــال حتى تنتهى الى شعوب نبطية ضعيفة متهالكة لصغرها أمام القوى الكبرى فتهون على الاعداد وما اكثرهم ويلحق العرب بالشعوب البائدة التى أهملت نفسها واحتقرت لغتها ولم تخدمها واستعارت لغة سواها لثقافتها وتعاملها فذابت فيها ولم يبق لها ذكر يذكر . اين البابليون والآشيوريون والسومريون والفنيقيون والقحطانيون السريان ؟ ! . . اتظنون انهم قد بادوا باشخاصهم ، وأن أصولهم قد اجتثت من الحياة اجتثاثا باتا ؟ كلا . . ان بقاياهم ما زالت تعيش بيننا ولكن من يعرفها ومن يحترمها ومن يقيم لها وزنا وما قيمتها فى الحضارة .

٢ ــ والغريب أن يتجه العالم كله نحو التكتل ليصون نفسه بقوة اعظم وهؤلاء يدعون الــى التمزق والتصاغر والضعف والتهالك فأى جناية اعظم منها ؟

٣ ــ ونحن لا نرى ضيرا فى بقاء العامية لغة للتعامل اليومى على شرطين هما :

أ ــ أن يباعد بينها وبين الادب شعره ونثره فتجلو عن الصحف والمجلات المصورة والقصص والمسرحيات وما شاكلها .

ب ــ أن يسعى السعى الحثيــث لتفصــيحها وتقريبها من اللغة القومية بحيث تصبح الشــقة بينهما أقرب ما يمكن حتى يسهل التفاهم بين العالم ورجل الشارع بغير كبير عناء . وعلى اى حال فان

امر ذلك كله بين ايدى قادة الفكر العربى والمعلمين والمدرسين فى جميع مراحل التعليم .

جـ ـ التعريب : قالوا بأن اللغة العربية لغـــة قديمة اصبحت عاجزة عن مجاراة التطور العصرى قاصرة عن مباراة اللغات الحيـــة فى العلـــوم ، وقالوا : ان فى حروفها نقصا فنحن لا نستطيـــع النطق ببعض الحروف الضرورية فى المسميـــات العلمية أمثال : EU V.U.G. ... وما شاكلها . وقالوا : ان الفكر العلمى المعاصر يخلق فى كل يوم نحو مئة مصطلح جديد فكيف تلحقـــه اللغة العربية ؟ وقالوا غير ذلك كثيرا . والجواب على هذا :

١ ـــ ان نقصان اللغة العربية بعض الحروف لا يعيبها ، ولها اسوة بأقدر اللغات الحية المعاصرة فهل فى لغة من لغات العالم الحى حرف (ح) أو (ع) مثلا ، وهل فى الفرنسية حرف (ق) ماذا فعل الغربيون للتوصل الى النطق بالخاء والطاء والصاد وما شابهها ؟ اصطلحوا على رسوم معينة واشارات تضاف الى حروفهم ليلفظوها كما نلفظها نحن فى العربية ، وكتب المستشرقين والمستعربين وشراح مخطوطاتنا ومترجميها مليئة بأمثال ذلك ، فهل نكون اقل منهم دراية ؟ ! ومتى تمت الموافقة على الحرف العربى الجديد والمصطلحات الجديدة فى ندوة جامعة الدول العربية العتيدة فلن يبقى هناك عذر لمعتذر .

٢ ـــ ان التجربة العملية الناجحة التى قامت بها سوريا عام ١٩١٩ واستمرت سائرة عـــلى نهجها الى اليوم تنفى دعواهم نفيا باتا فقد عربت سوريا التعليم فى جميع مراحله من دور الحضانة حتى نهاية الجامعة وخريجوا جميع الفروع مـــــن علمية ورياضية وطبيةوصيدلية وهندسية وزراعية لا يقلون عن زملائهم فى اى دولة راقية ..

والخطوة الجبارة الشجاعة التـــى خطتهـــا الجمهورية الجزائرية هذا العام نحو التعريـــب ، لم تقدم عليها الا بعد بحث وتمحيص واستقصاء وستؤتى اكلها وتصبح نموذجا آخر حيا فى العالم العربى يرد به على دعاة التخريب ، على ان هذا لا يتعارض ووجوب التضلع من اللغات الاجنبية تدعيما للتعمق العلمى والفكرى على الصعيـــد العالمـــى .

٣ ـــ ان الكرامة القومية تقتضى بأن ندرس فى جامعاتنا بلغتنا ، نفعل كما تفعل جميع الامم التى تحترم نفسها وتقدر قيمة لوجودها وتثبت عزمها على فرض شخصيتها والمساهمة فى حقل الحضارة والانسانية ، فالامم حتى الصغيرة الصغيرة منها كألبانيا وبلغاريا تأبى أن تدرس فى جامعاتها بغير لغتها القومية بل هذه اسرائيل سارقة فلسطينمن العـــــرب تـــدرس فى جـــامعـــاتهـــا جمـــيع العلوم والفنون باللغة العبرية مع ان لغتها لـــم تتجدد الا فى مطلع هذا القرن ، افنعجز نحن عن وضع لغتنا فى مكانها المرموق ؟ هذه اللغة التى حملت امانة الحضارة طوال القرون الوسطـــى ومنحتها جميع المصطلحات الانسانية والعلميـــة والتقنية كالطب والهندسة والموسيقى والفلـــك والرياضيات والفلسفة ... لم تعجز عنهـــا فى عصور كانت وسائل التواصل الفكرى بين البلاد شبه بدائية . افتعجز عنها اليوم ونرميها بالعقم ونحن فى عصر النور والكهرباء والذرة واللاسلكى والفضاء ؟ ان اجدادنا لم يجبنوا امام تيار الحضارة بل اخذواواعطوا وترجمواونحتوا واشتقواوعربوا وطاوعتهم اللغة مطاوعة عجيبة ، وكانـــت لهـــم جامعاتهم فى بغداد وفاس وقرطبة ومصر ودمشق وتونس . وسيطرت لغتنا على ثقافة تلك القرون حتى لقد تشكى بعض الكرادلة والبابوات من اهمال المسيحيين المثقفين اللغة اللاتينية واتخاذهم اللغة العربية مكانها !!

لكن كيف ندرس نحن

فى جامعاتنا بلغتنا القومية اذا لم نقم على قاعدة من العربيــة الصحيحــة فى المــدارس الابتدائيــة والثانوية ؟ ! من هنا نبدأ يجب أن نهىء لتلاميذنا كتبا فى العلوم والفنــون بحيث لا ينقصهــم مــن المدركات العلمية والفنية شىء . يجب أن نعد لهم كتبا موحدة المصطلحات لينشأ الجيل الصاعــد موحد التفكير موحد النظر الى الامور العامة، موحد الاتجاه فى لب الحضارة المعاصرة . وكيف نوحد هذه المصطحات ؟ ومــن يعمل على هذا التوحيد ؟ لقد كانت تجربة سوريا درسا سويا ناجحا لــو اقتصر الامر على سوريا وحدها . أما وقد درجت بعض الدول العربيــة فى بعض كلياتها الجامعيــة على سبيلهــا كالعــراق والاردن ومصر والمجامع اللغوية فيها تعمل بجهد واخلاص ولكن كل واحد منها يعــرب ويصحــح منعزلا عن الآخر وفى كل بلد علماؤه واساتيذه ، ولكل منهم وجهة نظــر وجيهة ، فكيــف نربــط بينها جميعا ؟ !!

هنا يبرز دور مكتب تنسيق التعريب فى الوطن العربى ، دعا اليه المرحوم محمد الخامس فاجتمع مندوبو الدول العربية فى الرباط عام ١٩٦١ واقروه ومنحوه ثقتهم ، ثم تبنته الجامعة العربية وضــمته اليها فأصبح جزءا منها اعتبارا من عام ١٩٦٨ .

كيف يعمل مكتب التعريب : ؟ ان ايجاد هــذا المكتب عمل ثورى فى حد ذاته انه ثورة هادئــة عميقة معقولة ، انه ثورة مدروسة مخطط لهــا انطلقت من مبدأ ثابت رصين وسلكت سبيلا نيرا ورمت الى هدف واضح معروف .. ولاحظ المكتب هــذه الفوضى فى التعريب ورأى كيف يوضــع للمصطلح الواحد اكثر من مرادف معرب احيانــا وعرف أن من اهم الاسباب فى ذلك اختلاف اثر الثقافات الغربية فى العلماء العرب فبعضهم تأثر الثقافة اللاتينية كسوريا ولبنان والمغرب العربى، وبعضهم تأثر بالثقافة السكسونيــة كالعــراق والاردن ومصر . وأن بعض العلماء على حظ كبير جدا من العربية ومن الثقافة الاسلامية كخريجى الازهر والنجف ودمشق والزيتونــة والقرويين وبعضهم على حظ ضئيل منها كخريجى المعاهــد الاجنبيــة .

ولاحظ المكتب كذلك ان مستــوى المــدارس الابتدائية فى معظم الوطن العربى دون مثيلاتها فى البلاد الراقية ، وقام باحصاء دقيق للمصطلحات والمدركات الواردة فى جميــع الكتب المدرسيــة وجردها فاكتشف أمرا عجيبا ، أن مجموع مدركاتنا لا يتجاوز ثمان مئة مدرك ، بينما يتجمع فى ذهــن التلميذ الاجنبى الف وخمس مئة مصطلح . ومعنى ذلك ان مستوى ادراك الطفل العربى يقل عــن مستوى زميله الاجنبى بمقدار النصف ولذلك يعانى تلميذنا فى ملاحقة المدركات العلميــة فى المــدارس الثانوية ، والجامعة معناة مؤلمــة جــدا هى التى جعلت نسبة الناجحــين بالامتحانــات العامــة الانتقالية فى مستوى منخفض .

عرض المكتب هذا الواقع على الدول العربية ودعاها الى اعادة النظر فى الكتب والمناهج معا وقدم لها نموذجا هو معجم رياضى شامل وسيلحقه قريبا بمعجم لدروس الاشياء استكمالا للمفاهيم الانسانية فى الاطفال اى دعا الى ثورة عميقة فى اول درجة من درجات الثقافة لان الكتب المدرسية ما هى الا صدى للمناهج ، وكان ذلك اول اعماله ، ثم التفت الى المصطلح المعرب فوجد ان حاجــة البلاد العربية اليه متفاوتة تفاوتا بعيدا كذلك ، فبينما تغلغل الاستعمار فى بعض البلاد الى اعماق مجتمعنا وحاول اجتثاث ثقافتنا العــربية مــن اصولها ونشر لغته بكل وسيلة حتى اصبحت لغة المدرسة والمعمل والشـــارع والبيت ، توقف فى مواطن سواها على السطح فحفظت لغتها وثقافتها نوعا ما ، ورأى المكتب أن حاجة القسم الاخير الى تفصيح عاميته اشد من محاربة الدخيل فيه ، أما القسم الاول فهو فى اشد الحاجة الى تفصيــح عاميته ومحاربة الدخيل على لغته فى وقت معا ، ولذلك اصدر سلسلة كتيبات منذ عـــام ١٩٦٣ عنوانها « قل ولا تقل » بلغ تعداد الفاظها اكثر من الف وجعل من عام ١٩٧١ عام محاربة الدخيــل واتصل بجميع الدول العربية بما تحتـــاج الـــى تفصيحه او تصحيحه وهو مستعد لتقديم خدماته بكل سرعة ودقة ، وكانت اول الدول العربيــة اهتماما بهذا المشروع هى الجمهورية الجزائرية ، واول الهيئات العلمية التى بداته هى الجمهورية الجزائرية ، واول الهيئات العلمية التى ايدته هى اليونسكـــو .

ان النخبة المثقفة فى البلاد العربية على العموم وفى المغرب على الخصوص ، متأثـــرة بقـــدرة المصطلحات الاجنبية العلمية على الدقة فى التعبير والتصوير للمدرك العلمى والتقنى فلا يرضيهـــا التعريب الارتجالى ولا الفوضى المتنافر ولا المتعدد المتكرر او الناقص فى دقته واحكامه ، وهى على حق فى هذا . لانها ترى الفكر العربى على مفترق الطرق وتريد له أن يسلك السبيل السوى ، وترى لغتها وقد قبلت فى المجامع الدولية لغة خامسة الى جانب اللغات الحية العظمى فتزيد لها دوام التقدم واطراد النجاح ، ولقد لاحظ مكتب التعريب هذا الامر فاتخذ لذلك خطة علمية دقيقة يحمــل مسؤوليتها علماء العرب مجتمعين فهو يضـــع المصطلح بلغتين اجنبيتين معا هما الانكليزيـــة والفرنسية ويضع أمامه جميع المصطلحات التى عرب بها منسوبا كل منها الى صاحبه ان كان مجمعا علميا او استاذا لغويا مشهودا له بالتفوق، او معجميا معروفا . . وينشر ذلك على شكل معجم الفبائى الترتيب ويضعه تحت انظـــار العلمـــاء العرب لمدة لا تقل عن ستة أشهر ثـــم يدعـــو الى مؤتمر للعلماء المتخصصين يعقد فى ظل الجامعـــة العربية بالمواصم العربية على التوالى فيتدارسون المعجم وينقدونه ويختارون المصطلح الذى يريدون فيصبح شبه الزامى ، واختيار مصطلح واحد من بين مجموعة مصطلحات يوحد التعريـــب حتمـــا ويسهل السبل على الدارسين والمدرسين والمؤلفين والكتـــاب . . .

ان الحضارة العلمية تقذف فى كل يوم بمئـــة مصطلح جديد الى ساحة التداول العلمى ، فكيف نلاحق هذا التراكض ؟ المكتب ايها السادة يتراكض معها ويلاحق تطورها ويجمع المصطلحات فيعربها على هيئة ملاحق معجمية ويختار للمصطلح مـــا يقابله ويعرضه مع المعاجم الاولى على العلمـــاء العرب للمداولة والنقد الصحيح .

وتنبه المكتب الى ان جميع معاجم اللغة لم تجمع مفرداتها ، فهناك مفردات متناثرة فى كتب العلوم والادب والتاريخ والجغرافيا القديمة لم تدخـــل المعاجم ، وجمعها يحتاج الى وقت طويل جدا فماذا

فعل ؟ جرد أكبر المعاجم العربية المعروفة (لسان العرب) ونسقه فى جزازات وجعله منطلقا يضيف اليه كل يوم ما يتجمع لديه من جزازات ويراكمها مصنفة تصنيفا ابجديا حتى بلغت مئات الالوف هى التى ستكون اساسا لمعجم المعـانى الجديـد واستخلص منها عددا من المعجمـات فى بعـض الفنون كمعجم الفه المالكى ومعجم الاطعمة ومعجم الالوان ومعجم الطحانة والخبازة والفرانة ومعجم الرياضة واللعب ومعجم الآلات والادوات والاجهزة ومعجم أسماء العلوم والفنون والمذاهب والنظم ومعجم الحرف والمهن ومعجم البنـاء والمعجـم المنزلى ومعجم الاطعمة وسواها ...

وها نحن نضع أمامكم العدد الثامن من مجلتنا (اللسان العربى) فى ثلاثة مجلدات كل ملجد منها بأكثر من سبع مئة صفحة وكلها معاجم علميـة وتقنية باللغات الثلاث الانكليزيـة والفرنسيـة والعربية معروضة لمن يرغب من العلماء الحصول عليها بالمجان نقدمها ولا نتطلب اكثر من تقويمنا وتصحيحنا وموازرتنا فى البحث ، وستصدر هذه المعاجم وملحقاتها منفردة على حدة مشكولـة موضحة مفهرسة عـلى الابجديتـين العربيـة والفرنجية ، ونحن ساعون الى اصدارها بأكثر من هذه اللغات واتخذنا الاجـراءات اللازمـة لتنفيذها قريبا وهى كما ترون على نوعين :

١ ــ تقنية : كمعجـم البترول والميكانوغرافى
٢ ــ علمية : كالكمياء والفيزياء والجيولوجيا

وبذلك نساهم مجتمعين فى الثورة الثقافيـة المنشودة ، ان ثورتنا ثورة معقولـة مدروسـة منتجة ، ثورة الاصالة والعمل المجدى .

نحن فى معركة لا هوادة فيها تتعرض فيها لغتنا لمحن عنيفة جدا ، تنتاشها من كل جانب ، والشعب العربى فى حال تحفز يريد منا ان نعمل شيئا مـا لحفظ كيانه ، واللغة عامل مهم جدا فى تثبيت هذا الكيان وابراز شخصيته وفى دفع الثورة الثقافية قدما الى الامام ، ولابد من اتخـاذ الخطـوات الجريئة الحاسمة فى تبسيط قواعد اللغة وتسهيل دراستها وتزويدها بمفاهيم علمية كاملة وتوحيد مصطلحاتها واعادة النظر أولا وقبل كل شـىء بمناهج التعليم وبالكتب والمؤلفات التى توضع بين ايدى التلاميذ والطلاب ومراقبة الدعوات الهدامة كالدعوة الى العامية أو الى الحروف اللاتينية .

ان اللغة كائن حـى تعيش وتنمو بالتغذيـة المستمرة والعمل الجدى الدائب ، ونحن فى مكتب تنسيق التعريب الدائـم نضع انفسنا وخبراءنـا وخبرتنا كلها تحت تصرف العاملين لخدمـة لغـة القرآن الكريم فى اى دولة عربية ، نخـدم لغتنـا متحدين متآزرين لتخدمنا فى ثورتنا الثقافية وتحررنا العقلى وتثبيت كياننـا الفكرى .

نعطيها فتعطينا ، وما خاب من اتكل على اللـه وسعـى .

كلمـــــات

بعد ان كثرت حوادث السطو والسرقات علـــى البنـــوك والمؤسسات المالية ودوائر البريد عكفت الشركات الالكترونية على دراسة انتاج جهاز التكرونى يتولى مهمة حراسة الخزائن المالية والرئيسية والقاء القبض على اللصوص بسرعة فائقة . يتلخص عمل الجهاز المذكور فى مراقبة خطوات الذين يتجهون نحو خزائن البنك . والذى لا يعرف الطريق اليها ويســـير بخطوات غريبة غير معروفة لدى الجهاز فى الحال يبث موجات كهربائية الى الباب الحديدى الخلفى لغلقه خلال نصف ثانية وبالتالـــى حصـــر اللص اوالسارق فى قاعة الخزائن .

ولهذا ستقوم بعض البنوك بتحديد عدد موظفيها الذيـــن لهم علاقة بالخزائن المالية فى دهاليـــز البنـــك تحت الارض لتدريبهم على كيفية الذهاب من والى الخزائن المذكورة وضبط خطواتهم لدى الجهاز الالكترونى لكى يعرفها فى المستقبل .

وعلى الرغم من عدم الانتهاء من انتاج الجهاز المذكـــور بشكله النهائى الا ان الشركة المختصة تعتقد انها ستقـــوم بعرضه فى الاسواق العامة خلال وقت قريب بعد اجراء المزيد من التجارب العملية عليه .

وحسب راى لعلماء المختصين ان كل انسان له طريقتـــه الخاصة فى المشى على الاقدام اشبه ببصمات الاصابع ، وأن تشابه او تطابق خطوات شخصين مختلفين لا يتكرر الا بنسبة واحد من مائـــة الف .

ومن هنا يفهم المرء ان نسبة احتمال فشل الجهاز لا تبلـــغ سوى واحد من مائة الف وهذه اقل نسبة احتمـــال فشـــل فى تاريـــخ كافة الاجهزة الالكترونية فى العالـــم .

الحقــيقة عنـد نيــتشَة 2

عبد الله شريط
استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

اذن لا الـــروح ولا العقــل ، لا النبــى ولا الفيلسوف قد وصل واحد منهــم الى محجـــة الصواب أو الى تلك الارض المجهولـــة التـــى بقيت تنتظر نيتشة ليكتشفها . فما ذا سنجـد عنده ؟ يجيبنا فيلسوف القوة بان ما سيلجا اليه لاكتشاف الحقيقة ليس شيئا جديدا فقد لجا اليه الفلاسفة وعلماء الاخلاق من قبلـه ولكنهـم اساؤوا فيه التصرف فانحرفوا ، وهو الطبيعة .

فالطبيعة هى التى يجب أن نسالها ماذا تريـد والى اى شىء تطمح ؟ ولئن كانت هذه المعظلة قد عولجت كثيرا الا انها كانت معالجة بعيدةعن التوفيق ، لان من تصدوا لها فى السابق كانـوا يتناولونها على ضوء ما كانوا يعتقدونه مـن أن الانسان يطمح بطبيعته الى السعادة . ومن هنا كان خطا الفلاسفة شنيعا . فالانسان لايهدف الى السعادة بل « الى الشعور بالقوة » والامتلاك. وحتى « سبينوزا » الذى خيل اليه انه اهتدى الى الحقيقة قد وقع هو الاخر فى خطا فاضح اذ أعتقد أن كل فرد انما يطمح الى الاحتفاظ بنفسه فى حين تجد عند الكائن الحى وحده خاصيــة لايشاركه فيها غيره وهى النمو والتوسع وليس هو الحفاظ على الذات والركود . اما شوبنهاور فقد ظن انه قد وضع اصبعه على ما خفى عـن غيره وهو ما سماه « ارادة الحياة » ولم يتبين أن هذا اللفظ وحده لا يدل على شىء بل هو افساد للحياة وتشويه . فالارادة اما أن تكون متجهة الى هدف واما أن لا تكون شيئا على الاطلاق .

ثم ان ما يتطلبه الانسان ليس هو الحياة بل « كيفية » الحياة ، ولا يمكن أن تكون كيفيــة الحياة هذه هى السعادة لان لا احد يستطيع فى رأى نيتشة ان يقبل بنظريته أو يعتنقها لمجـرد كونها تصيره فاضلا أوسعيدا . الا اذا كان من أولئك الفضلاء الذين يسمون انفسهم المثاليـين والذين يتحمسون للحقيقة والخـير والجمـال ، أولئك الذين لا يتقنون شيئا فى حياتهـم مثـل اتقانهم الهروب من كل ما هو مرتفع الثمـن او بعيد المنال ان السعادة والفضيلة لا يمكـن ان تكونا حجتين على وجود الحقيقة لان هناك مـا يكون حقيقة بالرغم من انه فى اقصى درجـات الخطورة والتعاسة ان مقياس الحقيقة تابـع دائما الفكر الذى يدركها ويلاحظها أو بالاحـرى هو تابع لمدى ما يطبعه به العقل من متانة وقوة ووضوح .

ان نيتشة بالرغم من كونه لم يعرف لفظـة « الذرائعية » فى ايامه الى ان اهتدى الى كثير من آرائها المعروفة لا يامنا فقد كانت للحياة عنـد نيتشه قيمة أكثر من تلك التي للمعرفة وكـان يعلم طلابه فى الجامعة ان التاريخ بحث اجنبـى عن حياتنا الحاضرة لا يمت لها بصلة لانه يلوى الفكر الى الوراء عوض ان يهيئه الى المستقبل كما يضعف فينا طاقة الحياة والقدرة على الخلق وكان يقول أن مفكرى (هبليس) القدامى كانوا يعتبرون المعرفة اعلى منزلة من الحياة ، وكانوا يهمون الغرائز الحيوية . بل يعطون للمعرفـة قيمة ذاتية مسيطرة وكان هذا الانتصار الـذى تغلبت به المعرفة على الحياة هو الذى قـاد المدينة اليونانية الى الاضمحلال والانهيار .

كذلك يثور نيتشة على ما نسميه الحقيقـة الموضوعية التى يخضع لهـا الفرد مخيلتـه واحلامه ، والتى حلت فى عصرنا الحاضر محل الاديان فى العصور البائدة ، فانعدمت فيهـا شخصية الفرد واصبحت بذلك شيئا غير بشرى فى حين ان هذه الحقيقة الموضوعيـة وجـدت لمصلحتنا ومنافعنا فقط . ويذهب نيتشة مذاهب مختلفة ليقنعنا ان هذه الحقيقة الموضوعية التى نأخذها عـن طريق المعرفـة العلميـة ليست لذاتها هى لذاتنا نحن . ويضرب لنا المثل التالى: نحن نرى شجرة قائمة فنظنها هى لا تتغير . فى حين انها فى تغير مستمر اما نحو النمو واما نحو الانحلال . فليس هناك من شجرة **موجودة** بـل شجرة **توجد** وتتكون ، ولكن حواسنا تراهـا موجودة كما هى قائمة لضرورة حيوية حتـى يتسنى لنا تمييزها عن غيرها والانتفاع بها . ان

هذا الشكل الذى نرى عليه الشجرة اذن ليس هو حقيقة الشجرة . وما تزعمه الحقيقة الخالدة ليس الا وسيلة تسهل السيطرة على ظواهر الطبيعة والاعمال التى تقوم بها فى محيطنا . فالحقائق السابقة للتجربة والتى كثيرا ما اعتقدها الناس برسوخ وعزيمة ليست عندى غير نوع من الايمان طال زمن التعود به عند الناس حتى رسخت جذوره فى طباعهم بفعل التكرار والعادة دون أن يصيرها ذلك حقيقة . ياللعجب كأن الحقيقة هى ما تعود الناس على ممارسته . ان المعرفة ليست لها من قيمه « غير ما نلخصه لنا بصورة خاطئة عن مجموعة متنوعة من الظواهر لا اكثر ولا اقل ، والحياة لايمكن أن تكون حياة الا بهذه الالة المزيفة التى نستعملها فيها » . والعلم نفسه ليس اذن الا وسيلة تمقودنا الى الحياة . وتلك هى الحقيقة فى العلم ولا حقيقة سواها . ان « العلم الذى نعيش فيه خاطىء بل هو خطأ لانه صيرورة . وهو خطأ يتحرك على الدوام نحو الحقيقة ولكن دون أن يقترب منها لانه لا وجود للحقيقة . هذه هى الحقيقة العلمية أما الحقية الفلسفية فهى عبارة عن ظل لصاحبها . اننا نستطيع أن نفتش فى كل فلسفة عن الفيلسوف . وما يسميه الفلاسفة بالحقيقة ماهى الاصورة لمافىنفوسهم او وسطهم الاجتماعى من الغرائز الحيوية » اننى لا اعتقد أن هناك ميولا نحو المعرفة تكون هى أم الفلسفة .

وانما الذى اعتقده هو انها هى ايضا ميول كبقية الميول استخدمت المعرفة آلة لها ليس الا فالفيلسوف لا يمكن أن يوجد فيه شىء لاشخص « البتة » وقد انفق نيشه جهودا كبيرة لكشف هذه الظاهرة عند الفلاسفة — تماما كما يفعل النقد الادبى فى شعراء المآسى .

النتجة ليس هناك من حقيقة على الاطلاق : لا علمية ولا فلسفية وانما هناك انعكاسات او صور لنفسيات الفلاسفة او لمجتمعاتهم يحاولون ان يطلقوا عليها اسم الحقيقة الثابتة المطلقة ، فما الذى دعاهم الى ذلك ؟ يجيبنا نيتشه بأن مادعا كل تلكالفلسفات التى من نوع الفلسفات الهندية والمثل الافلاطونية «وجوهرية» سبينوزا «ونومينية » كانط — ذلك « المسيحى الخبيث » هو ما كان عليها اصحابها من الفرار الى « نرفان » تحلم بعالم خيالى ومملكة ثابتة ينعمون فيها بهدوء الراحة الابدية التى لم يجدوها فى هذه الحركة الدائمة المتجددة التى تزخر بها الحياة على الدوام . ان كل الفلسفات مثلها المسيحية لا تعرف الا الفرار من واقع الحياة القياسى الذى نعيش فيه الى عالم الهى لا وجود له الا فى أوهامهم وان كان على جانب كبير من الروعة والانسجام لانه عالم خيالى ، ولكونه عالما جميلا رائعا فانه كاف لان يكون حقيقة ، وان يكون كل ما عداه باطلا واوهاما .

وبعد . هل ننتهى من كل هذا الى ان نيتشة ينكر كل حقيقة وانه جدد لنا فكرة السفسطائين القديمة ؟ ان الجواب يمكن أن يكون نعم كما يصح انه يكون لا . فالحقيقة لا وجود لها اذا فهمنا منها المقياس الثابت للأشياء الذى نقبل به مطمئنين على كل شىء نريد معرفة مقداره وقيمته وصوابه وخطاه سواء فى الميدان الفلسفى او العلمى او الخلقى . ولكن الحقيقة موجودة لا ينكرها نيتشة ولا غبارة عليها فى نظره اذا فهمناها كما تسلمها هنا الحياة بكل ما تزخر به من تنوع وتحول وتغير وحركة وبكل ما نشاهده فى الواقع الذى فى ارضنا لا الاحلام التى نتخليها فى السماء ومن غير أن نحاول تأويله باتأويلات الفارغة والرموز الميتافيزيكية التى وراء عالمنا والتى هى بالتالى لا وجود لها . ان « الحقيقة عند نيتشة صيرورة دائمة مستمرة كالحياة اذ

ليست الحقيقة شيئا آخر غير الحياة نفسها » — (١٥) والحياة قد افضت بسرها لزرادبشت حين قالت له : اني ما يجب عليه ان يتجاوز نفســـه باستمرار . وانت يا من تبحث عن المعرفة انك لست الا طريقا تمر عليه الارادة : الحــق ان ارادتى فى السيطرة لتمشى حتى علـــى آثـــار الحقيقة نفسها . وبعد ان يفصل نيتشة الحقيقة عن ميدانها العقلى والميتافيزيكى الذى كانـــت « سجينة » فيه قديما يضعها فى ميدانها الـــذى خلقت له هى والحياة سواء الا وهى الغرائز ... « ان كل هذه الهياكل من المفاهيم التى تدفـــع الحاجة الانسان الى الاحتماء بها مـــن الحيـــاة ليست بالنسبة للمفكر الحر الا مجالا لنعرف قواه المقهورة الجريئة ، فحين يحطمها ويرمى بها هنا وهناك ، يعود الى تلمسها من جديد ثم يحشـــر الاشياء الغريبة عن بعضها البعض كما يباعـــد بين التشابهات والتماثلات واذا هو يجد نفسه امام هذا العمل الجبار انه لم يعد منقادا للمفاهيم بل للغرائز . وفى ميدان التجريدات لان الالفـــاظ لم تخلق لها بل ان الانسان يصيمـــه الصمـــم والدوار عندما يتحدث عنها باستعارات محرمة .

وهكذا نجد ان الاعتقاد بوجود حقيقة ثابتة قد نقد البرهان على صحته عند نيتشة ولن يظفر بها يوما ، كما يقول — وان اعتقادنا ذلك ليس غير عادة خلقتها فينا حاجات الحياة وضروراتها وكذلك طرائف العالم ونظريـــات الفيلســـوف وحدسية الفنان لا نجد فيها شيئا يقال له حقيقة ثابتة او مطلقة اذ ليست الحقيقة الا وسيلة — فقط تمكننا من « تملك » الحياة فى تجددهـــا المستمر . واخيرا اذا كان هناك من حقيقة ثابتة عند نيتشة فهى تلك الحقيقة السعيدة التـــى تؤثر ان ترقص على رجلى الحظ والمصادفة .

ايه أيتها السماء الصافية العالية انك لملعب رحب تتراقص فيه الحظوظ الالهية . بل انـــك منضدة ميسير كبيرة للابهمة المقامرين » الخلاصة ان « الحقيقة الحقيقية » ليست عند الفلاسفـــة ولا العلماء ولا الانبياء وانما هى فى الحياة النازلة الصاعدة المضمحلة النامية انهـــا ليســـت الا شروطا او آلة توجدهما الحياة لتصنع بهمـــا تطورها وهذا ما يمكن ان نعبر عنه بذرائعيـــة نيتشة فى فهم الحقيقة ان الحقيقة توجد فى هذه الارض ولست وراء السماد وهـــى الغريـــزة وليست فى العقل . « ويمكننا بنظرة عامة حول فلسفة — نيتشة العملية هذه أن نلمح فيهـــا طابعا عاما يسيطر عليها هو ما يوافق منهـــا الحياة وما لا يوافقها . ومفهوم الحقيقة العامة والحقيقة الاخلاقية خاصة يظهر لنا فى صورة مزدوجة : (١) حينما يتبين الفكر هدفا نهائيـــا ومثلا اعلى يريد الوصول اليه فهل يجب عليـــه فى هذه الحالة ان يبحث عن نظرية يميز بها الخطأ من الصواب لكى يصل الى ذلك الهدف . (٢) حينما نضع هذا المثل الاعلى امامنا ونبحث عن الوسيلة الموصلة اليه فهل يجب علينا فى هـــذه الرابطة التى أوجدناها بين الوسيلة والغاية — ان نتحدث عن الحقيقة بمعناها الذى نتحدث به عنها فى المسائل النظرية بين بعضها ؟ يقرر نيتشة هنا بدون تردد ان ما نلحظه من التضاد بـــين الخطأ والصواب فى ميدان النظريات لا وجـــود له فى الميدان العملى الذى نسعى فيه الى اهداف نهائية .

فنحن حين نلحظ التضاد القائم بين الوسيلة والغاية يجب ان لا نطبق ملاحظتنا تلك عـــلى الحقيقة بمعناها العام لانه لكى يمكـــننا ان — نبحث الحقيقة بهذا المعنى يجـــب ان يكـــون باستطاعتنا بناء جهاز منسجم متناســـق مـــن

الاحكام لا ينطوى على تناقض داخلى وهـذا ما ينفيه نيتشة نفيا باتا لان الموجود الحقيقى الذى هو الحياة هو عبارة عن فاعلية متجددة لاتقف وهى دائما وابدا فى تضاد وتعاكس مع نفسها . وعلى هذا فان ذلك التضاد الذى كان قائما بين الخطا والصواب فى الحقيقة بمعناها العام يضمه ويتلاشى فى مفهوم الحقيقة بمعنى كونها الحياة (١٦) وبهذا يدفع نيتشة كل ما يمكن أن يوجه اليه من نقد فى مسألة تبرم القوة التى تضل بها الحياة مليئة بالاخطار اذا كانت هذه هى الطريق او الوسيلة التى تحقق لنا ذلك النوع فى الحياة .

وهنا ينبغى ان نشرح معنى الحياة عند نيتشة : ان الحياة ليست هى السعادة او المحافظة على البقاء بل هى على العكس من ذلك المبدا الذى يدفع الكائن الحى الى ان يتخطى نفسه فى سبيله ، والذى من اجله يجب على الفرد ان ينصرف عن ملذاته الانية وانانيته الصغيرة ويتجاوز كل حالة من حالاته المؤقتة ويرقى فوق فرديته الخاصة ويركز فى دفعته الفردية نحو المستقبل البعيد كل ما يتجمع فيه من قوى وامكانيات بل يجب عليه ان يحطم نفسه تحطيما فى سبيل هذه الغاية .

وبهذا نجد انفسنا نقترب من نظرية نيتشة المشهورة فى الاخلاق وهى نظرية القوة ، فبعد أن عرفنا نظريته فى الحقيقة والحياة سنرى الآن كيف نطبق هذه النظرية فى ميدان الاخلاق . وهنا ايضا نجد ان لا وجود للخير والشر فى ذاتهما ، كمانه ليس هناك من حقيقة فى ذاتها . بل يجب ان نخضع معنى الخير والشر لما تقتضيه منا الحياة فى تقدمها ونموها ،ولما كانت الحياة حربا وطعانا فيجب ان يكون ذلك هو الخير ،

ولما كانت المسكنة والخضوع تؤدى الى القضاء على الحياة فيجب أن يكون ذلك هو الشر .

وليس هناك من خير وشر ثابتين كانما نزلا عن السماء . بل يجب ان يتحولا باستمرار ويتغيرا تبعا لقانون الصيرورة هذا . فليس القول بخير ثابت وشر ثابت الا من قبيل القول بالحقيقة الثابتة اى هو وليد التعود لا اكثر . يقول نيتشة « ان كثيرا من الشرور انتهت فى مجال تبدل الفضائل الى أن صارت حسنات ، وليس الفرق بين الانسانية مثلا والغيرية هو الذى قاد الناس الى التمييز بين الاخلاقى وبين الحسن والقبيح ، بل قادهم الى ذلك ما اتصل بتقليد من التقاليد او قانون من القوانين وبين الانفكاك عنهما ومناهضتهما . فكل تقليد يكتسب احتراما اكثر كلما تقادم عليه الزمن وغرق اصله فى خضم النسيان . وكلما انتقل هذا التقليد من جيل الى جيل ازداد احترامه حتى ينتهى الى التقديس ومن ثم الى الثبات حتى لايجرؤ احد على جس نبضه هل هو حى أم ميت فى حين ان اقل نفخة كفيلة بأن تطرحه ارضا .

ثم كما انه ليس من خير وشر فى ذاتهما وليس من خير وشر ثابتين دائمين كذلك ليس هناك من خير وشر عامين مطلقين لكل الشعوب والافراد ، بل هما يختلفان باختلاف الشعوب والافراد لانهم هم الذين يعطون للخير والشر فيهما ومعانيهما حسب نزعاتهم وظروف حياتهم ولقد وضع الانسان للامة اقدارا ليحافظ على نفسه فهو الذى أوجد للاشياء معانيها الانسانية. وما التقدير الا الايجاد بعينه . ما الكنوز والجواهر الا اشياء ارادها تقديركم كنوزا ، وما القيمة الا اعتبار ولولا التقدير لما كان

الوجود الا قشور لا نواة فيها . اسمعوا ايها الموجودون :

ان قيمة الاشياء تتغير تبعا لتحول اعتبار الموجود ولابد لهذا الموجود ان يهدم فى كل حين » . (١٧)

ان مسألة الاخلاق عند نيتشة مسألة تقييم يسيطر عليها اصحابها فيوجدونها ايجادا حسب حظهم من الحياة بعد ان كانت الاخلاق هى التى تسيطر على الناس وتوجههم ومنها يستمدون قيم الخير والشر وصفاتهما . والحياة التى تخضع الاخلاق لزمامها هى الحرب والطعان والهدم فى المجتمع وهى فى الحياة النفسية ولالم وكل ما يشبع النفس بالتحسس بذاتها احساسا مليئا فائضا يكون هو هدف الحياة وبالتالى هدف الاخلاق .

٤ ــ اخلاق السادة واخلاق العبيد

الاخلاق التى سادت العالم منذ القديم ولاتزال تسيطر عليه حتى الآن فى راى نيتشة ترجع الى ضربين اخلاق السادة واخلاق العبيد . اخلاق السادة تتميز باحتقار اصحابها للرجل الجبان الخائف المتمسكن المتردد الذى لا يفكر الا فى مصلحته الصغيرة الباكرة . ويسميه نيتشة بالانسان الكلب « الذى يسمح بأن يعامل معاملة سيئة غير شريفة والذى يفتخر بأنه متسول يثير عطف الناس عليه . وهناك فى مقابل هذا من تظهر لهم اخلاق السادة غريبة منفردة وهم من يسميهم نيتشة « اصحاب الخير العام » او العبيد . وابرز صفاتهم عنده هى التشاؤم من الاوضاع العامة للانسان ونظرتهم الى القوة نظرة المزور منها . وذلك لان العبد بطبعه زاهد لا يرتاح الى شىء مما يحرص عليه الاقوياء . بل هو يحاول ان يقنع نفسه بأن هؤلاء الاقوياء لايعرفون طعم السعادة الحقيقية ولذلك يلجأ الى محاولة ابراز الخصائص الخلقية التى يصير بها حياة البؤساء عذبة مستساغة ، ولكن الشر المستطير الذى يهمن على هؤلاء العبيد هو انهم مع كل ذلك نفعيون .

ولنيتشه فعل فى غاية الروعة يشرع فيه مفاهيم هذه الاخلاق عند العبيد ، هؤلاء الذين يظلون فى معملهم عاكفين على صناعة اصول ذلك الطباق المشهور الذى هو الخير والشر ، فيدخلون فى مفهومهم للشر كل ما هو قوى وخطر، فالرجل الشرير عندهم هو ذلك الذى يوحى بالرهبة والفزع . والرجل الخير هو ذلك الوديع الحيى الذى لايجرؤ ان يقول نعم او لا يملا فيه . فى حين ان هذا الرجل عند السادة حقير مهان . وتنتهى مفاهيم العبيد الى رجال الاخلاق فيجعلون عن شروحهم اليه هو تنويهم بما يسمونه « **الحرية** » **فى الاخلاق** . كان الانسان حر فى ان يكون خيرا او شريرا ، مع ذلك فان هؤلاء الفلاسفة لا يستحقون فى نظر نيتشة من ان يرجوا للانسانية كمالا وازدهارا بمثل هذه التعاليم ... التى استمدوها من العبيد وطبعوها فى قالب تعاليم اخلاقية بحيث سلكوا سبيلا هى نفسها منافية للاخلاق . ان نيتشة لا يعترف بشيىء اسمه الحرية فى هذا الموضوع . فليس فى امكان نابليون الا ان يكون ذلك لان القوة وحب السيطرة والتوسع والخروج عن الذات والاندفاع الى التدمير ، وكل ما تزخر به نفسه وتأخذ من غرائز القوة والعمق والانتشار يجب ان تفيض على نفسها وتاخذ مكانها فى الوجود كما انه ليس بامكان طاهية واحد خدمه ان يكون مثله سيطرة وقوة ونبلا .

ان هذه هى اخلاق الطبيعة التى تقتضيها الحياة : اخلاق القوة عند النبــلاء واخــلاق الضعــف والمسكنة عند القطيع والرعاع العبيد الصعاليك. ولكى نضع الامور فى نصابها والاشياء فى موازينها يجب ان نفرض على هؤلاء الطاعـــة والـــذل والاهانة وان يكون لاولئك الحق فى الامر والنهى والهيمنة والسيادة . فالسادة لهم كامـــل الحق فى العنف والقسوة والبطش ، والذى تكـــون له القوة يجب ان لا يحرم من فضائل الغزو والنصر والانتفاع ، ان كل شىء مباح لـــلاقوياء ، ويجب على هؤلاء السادة النبلاء الاقوياء أن لا يهتموا لتلك القيم التقليدية الهرمـــة ، وان يشعـــروا بحقهم فيما يجب ان نسميه بالحقوق المقفومـــة لعلائهم وسموهم وليضربوا عرض الحائط كـــل ما يدخل الى نفوسهم التشكك والتهيب وكـــل ما يتصل بأثر الاخلاق المسيحية من مبـــادىء الشفقة والمساواة والخيـــر السلبى الـــذميـــم الذى يتساوون فيه مع العبيد امام الله ان عليهم ان يؤمنوا بأن العدالة الحقة تفقد حيث توجـــد المساواة بين المجتمع ، ان هناك اقوياء وضعفاء ، قادرين وعجزة ، صفـــوة ورعاعا ، والجميـــع يسودهم شىء واحد هو عـــدم المســـاواة . من غير العدالة أن نطالب المصاب بعـــاهة ان يحمل عبئـــا ثقيلا أو نطلب الى الاعمـــى ان يرينا الكواكب المتالقة فى السماء ، كذلـــك ان طالبنا ــ تحت ستار العدالة بأن تكون للجموع الضعيفة الجاهلة نفس الحقوق التى تكـــون لذوى الشـــدة والبأس والقـــوة والكفـــاءات العالية والمعارف الواسعـــة . انه لمـــا يدعو للسخرية بالانسانية ان تكون الحقـــوق الـــتى « يأخذها » نابليون هى نفسها التى تتصدق بها على اول معتوه وسكران يصادفنـــا فى الطريق وانه من الخيانة للانسانية فى أن نستر سل فى هذا التحسس الانثوى الذى نمتنع بـــه عن أن نسبب الالام للضعفاء الحيوانات والاقزام . بل لماذا نتحدث عن الظلم والسلب وعدم شرعيـــة هذا العمل او ذاك بالنسبة للسادة العظماء از'ء الضعفاء المهزومين . هل نخشى عليهم ان يبيدوا وينقرضوا ؟ « ان الرجل الحقير وسلالته لاتباد فهى اشبه بالبراغيث وهـــى اطـــول البشـــر اعمارا » . اما الذين نخشى عليهم الموت فهم العظماء والسادة لانهم يعرضون انفسهم للموت تعريضا حتى يتجاوزوا انفسهم ويحققوا قوتهم ، انهم يحبون الحياة الواسعة القصيرة كما يسميها ابن سينا ، فلا يعيشون الا مغمورين بالدمـــاء مثخنين بالجراح ولا تحلولهم الحياة الا تحـــت صواعق الاقدار وملائكة الموت تنقض عليهم من كل جانب .

ان هذين النوعين من المخلوقات ينبغـــى أن نفصل بينهم بهوة سحيقة حتى لا يجسر العبيد الضعفاء ان يحدقوا من ورائها فى اسيادهم ، وأن تحتفظ كل طبقة بخصائصها واخلاقها ومفاهيمها فى الحياة وفى الخير والشر . وذلك بأن نحطـــم فكرة « الخير العام » تحطيما . ان ما هو عام فى متناول القطيع يصبح مبتذلا حقيرا عند الاسياد الشرفاء الا أن كلمة خير وكلمـــة عـــام تنفـــر احداهما من الاخرى وتنقضها لان الخير يمكـــن ان يكون عاما . وكل ما هو عام لابد ان يكـــون شرا مستطيرا . ان القاعدة الاخلاقيـــة التـــى يجب ان تخلد هى أن تكون الاشياء العظيمـــة للعظماء والاشياء النادرة تبقـــى للافذاذ دون سواهم . فاذا كانت الاشياء التافهة تعظم فى عين صغار الناس و « تصغر فى عين العظيـــم العظائم » فكيف نسوى نحن بينهم فيما لم تسوى بينهم فيه الحياة وطبيعة الاشياء ، فاذا خضعناه

للحياة وطبيعتها فهذا هو قانونها ، وهو يسرى على حيواناتها ونيتشة يرى سببا معقولا لكونه ينبغى ان لا يرى على اناسيها . بل ان التاريخ البشرى نفسه يسير حسب هذا القانون منذ اقدم عصوره . فمن الذى أوجد المدنيات وحقق المعجزات الكبرى ـــ والتحويلات الحاسمة فى الحضارات الانسانية ؟ هل هم عظماء التاريـــخ والسادةالمغامرون ام العبيد المستضعفون الذين‌لم يحتفظ لهم بأى اسم او مكرمة قاموا بها لترفع من شأن الانسان وتقدمه . لقد عاشوا عبـــر التاريخ كما عاشت الضفادع فى البرك الآسنة وكالدجاج يفـــر الى أوكاره كلما راى سحـــابة دكناء تهدده بالصاعقة ، نحن الذين ننظر الـــى الاشياء من خلال زاوية خاصة ، نحن الذيـــن فتحنا لعقلنا مجالان نبحث كيف ومتـــى نمـــت وتطورت بذرة (الانسان) فاننا نرى أن القسوة والعنف والعبودية والاستبداد وكل ما فى الانسان من صفات الحيوانية هى كلها فى صالح تطور نوعه كما هى كذلك عند الحيوان . « وبما ان الذين يحققون تطور نوع الانسان هم الاسياد وليسوا هم العبيد فاننا سننتظر ميلا الانسان الاعلـــى من أولئك الاسياد لا من هؤلاء الانجاس والمناكيد الذين ينبغى ان لا نشتريهم الا والعصا معهم » كما يقول المتنبىء ايضـــا .

الإلتـزام الإديـولوجي في البـحث العـلمي الإجتماعي - ٢

المناخ الاجتماعى والموجهات الاديولوجية
فى البحث العلمى الاجتماعى

د. محمد العربي ولد خليفة

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر .

ان الموازنة التى عقدناها بين العلـــوم الطبيعية والاجتماعية قد او ضحت لنا ان كلا الميدانين فى حاجة الى اطار فلسفى يكـون مرجعا للتبرير وقد اختلفت طبيعة هذا الاطار الفلسفى أو الايديولوجى حسب الخلفيــة الاجتماعية التى نمت فىظلها هذه النظريــة أو تلـك .

ففى العلوم الاجتماعية بالذات نـلاحظ ان النظرة الى الطبيعة الانسانية قد شهدت عـدة تغيرات وفق النظام الاجتماعى السائـد فهـى فى جمهورية افلاطون طبيعة استاتيكية محـددة من قبل ، كما أن هناك جماعة مـن النـاس فى « سياسة » ارسطو يولون عبيدا بالفطـرة .. وفى نظريتى شيخى الفلسفـة فـان الطبيعـة الانسانية تتحرك فى مجال مقفل يطابق النظـام العبودى فى المجتمع الهلينى الذى لاحت عليه بوادر التفكك والانحلال .

اما عند فرويد العصور الوسطى القديس اغسطين فان الطبيعة الانسانية ملوثة بالخطيئة وهى فى صراع لا ينتهى مع مركب الاثم الذى يتابعها اينما حلت وطريقها الوحيد الى التوبى هو التخلص مـن « الجسد الفانى » .. وفى زحمة النحل والملـل والمذاهب التى اكتض بها مسرح الفكر الاسلامى فى عصوره الاولى لم يكن بد من ان يلجأ البعض الى البحث عن اداة تسمح بالتكثر فى البسيـط وبالتعدد فى الواحد وبالتنوع فى الكل فكان العقل هو هذه الادارة التى كان المنطق الارسطبـى احدى وسائطها لان الناس كما يقول ابن رشيد « قد اضطربوا كل الاضطراب فى معنى هـذه الشريعة ، حتى حدثت فرق ضالـة واصنـاف مختلفة ، كل واحد منهم يرى أنه على الشريعة الاولى وان من خالفه امـا مبتدع وامـا كافـر مستباح دمه » . .

وهذا الغطاء الايديولوجى نجـده فى مختلف الاراء حول الطبيعة الانسانية فى مبدا اللذة والالم عند هوبز والنفعة عند بنثام والغرائـز عنـد ماكدوغل والفائدة عند جيميس ، وقس على ذلك مجموع الانساق الفكرية فى صورها الاقتصاديـة والسسيولوجية والسيكولوجية والتاريخيـة فالمذاهب الوجودية والعلوم السلوكية والمناهـج التربوية تنبع كلها من منطلقات أيديولوجيـة يحددها النظام الاجتماعى السائـد ، غـير ان النظريات التى اشرنا اليها حول الطبيعة الانسانية هى فى الواقع كما يقول ديوى قد خلطت بيـن العربة والحصان فتوهمت ان الاولى هى الثانى « الم تجمع تلك النظريات الافكار الخاصـة بالعناصر المتحكمة فى الطبيعة الانسانية بنزعات خاصـة تميـز الحيـاة الجمعيـة للعـصر العناصر معا فى صورة قوة نفسية مزعومـة واعتبرت تلك القوة مسببة لتلك النزعات » .

ويتبين لنا ذلك بتحليل نقدى للاطار الثقافى الاجتماعى للنظرية الفرويدية فى الطبيعة الانسانية وبمناقشته لفكرة العدالة فى ضوء الاعتبـارات الايديولوجية والنفسية الاجتماعية .

— فكرة العدالة :

يضع الاستاذ بيرلمان (Ch. Perlemen) فى كتابه عن العدالة de la justice ستة احتمالات ممكنة لمعنى العدل وهى :

* للشخص ما لغيره
* لكل شخص حسب احقيته
* لكل شخص حسب أعمـاله
* لكل شخص حسب احتياجاته
* لكل شخص حسب مكانته
* لكل شخص ما يخوله له القانون

غير أن هذه الاحتمـالات وان كانت تتصف بالوضوح والمنطقية فانها فى مجموعها غير قابلة للتطبيق على الواقع الانسانى المشخص فهـى اذن تضع اسس عدل صورية
ينتهى بنا فى بعض الاحيان الى اللا عدل فى المستوى الانسانى فقد اتضح من الدراسات السيكولوجية أن ٨٠٪ من الجماعات السوية تصدر احكامـا تلفيقية ترضى جميع الاطراف (المدعى والمدعى

عليه على حساب الدعوى فى حد ذاتها) وتتحاشى ابقاء افراد او جماعات ضحية لاحكامها ، وهذه التلفيقية تتطلب تكاملا فى البناء العقلى ونموا عاديا فى المستوى الوجدانى والانفعالى « لان الفرد الذى لا قلب له لا يمكن أن يكون عادلا مهما اوتى من الذكاء » كما يقول روغ دى فورسا روغ دى فورساك . Rogue de Fursac

ولا غرابة فى ذلك فان من خصائص الفصاميين Schizophreses ضمور الوجدانية وضحالتها مع بقاء قدراتهم العقلية فى صورة عادية تساعدهم على التفنن فى استنباط الاحكام غير العادلة وممارستها بصورة مرعبة وهذه هى الظاهرة التى يسميها مينكوفيسكى Minkowski بالعقلانية المريضة Rationalisme morbide

وخلال القرنين الاخيرين لا يكاد يتفق اثنان من المفكرين على الاخذ بواحد من الاحتمالات الستة السابقة فهى عند أوين وهود جيسكن فى انكلترا غيرها عند بابيف وسان سيمون وفورييه فى فرنسا ولاسال وهيس فى المانيا وباكونين وكرو بتكين فى روسيا ونجد لدى كل واحد من هؤلاء اهتمام بجانب من هذه الاحتمالات يوحى به النظام الاجتماعى ويبرره الغطاء الايديولوجى .

ويظهر مفهوم العدالة فى اساسها الايديولوجى وشحنتها الوجدانية فى التحليل الدقيق الذى يقدمه ثابت بن قرة الحرانى للعدل من خلال شخصية عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو تحليل يتجاوز مفهوم العدل الواقعى الى ايديولوجية الحكم وممارسة السلطة . يقول الحرانى واصفا شخصية الخطاب : « قلم اظفار العجم ولطف فى ايالة العرب والبس الدين جلبابا وفتح له ابوابا وهيأ له شرائط وأسبابا ، ثم لم يرزأ من جميع الغنائم والفتوح شيئا ، وصحب عمره بالقناعة التى لا تجيب اليها نفس مع التمكن والقدرة والسلطان والسطوة والدولة والهيبة والطاعة والاجابة .

مزج الدنيا بالدين وأعان الدين بالدنيا ، ودارى فى موضع المداراة ومارى فى موضع المماراة ، واظهر الرأفة مع التقصى فدانت له القلوب وذلت له الرقاب ، وتناجت بمحبته وتناضرت الالسنة بالثناء عليه . نومه لليقظة وراحته للداب وقسوته للرحمة ومنعه للعطاء ، وصمته للعبرة وقوله للفائدةومشيه للاغاثة، ينفض الليل بنفسه، ويعترف فى كل امر بتقصيره ، ولا يرضى ببذل مجهوده ، يحدث بالغائب ، ان ارتأى لم يقل ، وان قال لم يخل وان تواضع لم يذل .

احواله تتناسب ، وأموره تتشابه ليله كنهاره وسره كجهاره ، وابطانه كاظهاره وعلانيته كسراره » .

ـ النظرية الفرويدية والطبيعة الانسانية :

لن نمن فى هذا المقام بعرض البناء المذهبى لهذه النظرية التى تعتبر فى الواقع نظرية فى الطب النفسى اساسا تمت صياغتها فى اطار ثقافى اجتماعى يستمد عناصره الاولى من قرية فريبورغ (مورافيا وهى تابعة لتشيكوسلوفاكيا حاليا) وفيينا وباريس ، ونحن نستهدف من تحليلنا النقدى للنظرية الفرويدية ابراز الاصول الثقافية الاجتماعية التى ينبغى وضعها فى الاعتبار عند تناول النظريات والمناهج فى العلوم الاجتماعية بوجه عام .

ومما يبرر اختيارنا لهذه النظرية والالحاح على نقد أصولها انها كانت الى وقت قريب جدا تلقن من فوق منابر الجامعة باعتبارها النسق الاكمل والتفسير الاشمل والادق للطبيعة الانسانية . وقد وجد فيها زبانية « الايروس » مطية لبث الانحلال والهرطقة بين طلاب الجامعة

فاصبحت ممارسة الانحراف شعارا للتقـدم ، واشباع اللبيدو تعبيرا عن العصرية والافصـاح عن المركبات المزعومة عملا طبيعيا ومشروعـا فهكذا تكلم فرويد وتلك هى حكمته وتعاليمـه ، التى لا تفهم الا اذا مارسها الطلاب فى أروقـة الجامعة ومدرجاتها واشرف علـى التجربـة « متعاونون » ينشرون رسالة « باخوس » بين قوم لـم تبلغهم الـدعوة .

هذه هى اسباب الاختيار ومبرراته .. ولنعود الان الى النظرية :

ـ استخدمت نظرية التحليل النفسى فكـرة التطور والنشوء النفسى فجعلت الطاقة الغريزية تسير فى مراتب معلومة ومحددة تبدأ بالمرحلـة الفمية وتنتهى بمرحلة البلوغ وفق حتمية بيولوجية جامدة تحدث خارج نطاق البيئة ولا حيلة للانسان فيها وتشمل جميع الافراد وهذا تفسير لـلاعلى بالادنى يفترض عاملا واحدا ويخضع الشخصية بما فيها من تعقيد وثراء لمستوى ابسط هـو المستوى البيولوجى ان العضوية الحية لا توجد خارج الموقف لان هناك علاقة لا تنفصم بين ظروف الفرد الداخلية والخارجية ينتج عنها تنظيـم دينامى يقع على الحدود بين المستويين البيولوجى والاجتماعى ويعطى للظاهرة النفسية خصائصها المباشرة والفردية وبهذا المعنى ينبغى أن يفهمها السيكولوجى وهو معنى لا يلتفت اليه البيولوجى والمؤرخ والاقتصادى الا اذا وضع الظاهرة فى سياق حيوى أو اجتماعى او تاريخى .

ان كل محاولة لتأسيس سيكولوجية علـى دعائم بيولوجية بحتة مثلما هو الشأن فى « الهو » الفرويدى و « غرائز » ماكدوغل والحاجة الـى النشاط والفعالية عند (كينس) Keynes ستنتهى حتما الى فشل لا مناص منه فهل يمكن التسليم كما يقول سارتر :

« بأن واقعة شعورية يمكن أن تكون كالشىء الجامد بالنسبة لمعناها اى انها تتقبله من خارج ... يبدو باديء ذى بدء ان اولى نتائج هـذا التفسير هى جعل الشعور شيئا جامدا بالنسبة الى المدلول والاعتراف بأن الشعور يؤلف من نفسه معنى دون أن يكون شاعرا بالمعنى الذى يؤلفه وهذا تناقض صارخ . اللهم الا اذا اعتبرنا الشعور موجودا من نفس النمط الذى ينتمـى اليـه الحجر أو الغطاء . »

ـ ومن ناحية المنهج فان فرويد قد استخدم مفاهيـم خرافيـة لا تستطيـع التجربـة اباتها أو دحضها فهو لكى يفسر لنا ظواهـر الشخصية الغامضة والمعقدة التجأ الى افتراض مفهومات أكثر تعقيدا وغموضا فما هو اللبيدو والايروس والهو والانا الاعلى التى تقود الحياة النفسية وتتنازع السلطة فيها ؟!

لقد افترض فرويد وجود غريزة تناقض غريزة المحافظة على الذات هى غريزة العدوان والتدمير والواقع أن الغريزة الاخيرة مجرد آلية فزيولوجية يمكن عند اثارتها أن يشعر الكائن الحى ببعض التحولات الفزيقية النمطية ويبدو ذلك فى انفعال الغضب بوجه خاص الذى يعد الكائن الحـى للدفـاع أو الهجوم .

غير أن المنظومة الفرويدية التى تجعل العضوية الحية متجهة تلقائيا الى التخلص من التوتر بدون حاجة الى مثيرات اعتبرت العدوانية غريزة هدامة وسلبية مع انها فى الواقع جزء من التجهيز البنائى الغريزى للكائن الحى يضمن له ولنوعه البقاء .

ويرى فرويد ان الزمت والتثبيت هما مصدر الاحباط والمركبات العديدة التى يعانى منهـا

الافراد وفى مقدمتها المركب الاوديبى ومركب البتر اللذان يجعلان الشخص يتراجع الى احدى مراحل الطفولة ويبحث عن اساليب غير سوية للتوافق الا ان هذا الوصف والتعليل اذا جاز تطبيقه على بعض المجتمعات فانه غير قابل للتعميم فقد لوحظت اختلافات شاسعة بين الاطفال من نفس السن وبين المجتمعات وخاصة البدائية منها مما يدلل على ان للموقف الخارجى وللنمط الحضارى السائد تأثيرا لا يمكن التغافل عنه .

وتوضح لنا الصور التخطيطية التالية وجه العلاقة بين الانا ومثاله « وسائط التطبيع المختلفة » وموضوعه « الثقافة والتنظيم

موضوع الانا

الانا

مثال الانا

الموضوع الخارجى

الاجتماعى السائد » فان الموضوع الخارجى الذى يصبح موضوعا للانا بواسطة المحاكاة هو الذى يعمل على تكوين مثال الانا ويهيى الفرد للتوافق مع الانساق الثقافية السائدة .

— واذا صح تفسير مجموع الاعراض العصابية والنفسية بالرجوع الى خبرات الطفولة والجنسية منها بوجه خاص فان ذلك لا يسمح لنا على الاطلاق بعميم مثل هذا التفسير على الاصحاء والمرضى على السواء وبالتالى هل يمكن التسليم بأن جميع الناس مرضى من حيث لا يشعرون تعج نفوسهم بالمركبات والانحرافات ؟

الا يحق لنا أن نتساءل اذن من هم الاسوياء ؟ او على الاصح ما هو معيار السواء والشذوذ ؟!

لقد برهنت الدراسات الانتروبولوجية على وجود مجتمعات « بدائية » لا يعرف فيها الاطفال مراحل النشاط اللبيدى التى وصفها فرويد ولا يعانون أصلا من المركب الادوليى بل يجتازون مرحلة المراهقة فى أمن وسلام .

كما لاحظ كل من (غاردنر) Gardner وميرفى Murphy بحق ضرورة التمييز بين نوعين من العمل العلمى فى اى نظرية دقيقة :

ا — ترتيب وقائع الملاحظة وتصنيفها .

ب — الترجمة الفلسفية لوقائع الملاحظة .

ويعنى التفسير الفلسفى فيما يعنى وضع الوقائع فى سياق دينامية الحياة الاجتماعية ودراسة العلاقات الاجتماعية الناجمة عن ذلك والصور التخطيطية للسلوك فى اتجاهها الافقى والعمودى .

لقد حاولنا الى حد الان تشخيص المناخ الاجتماعى والموجهات الايديولوجية فى البحث الاجتماعى واعتمدنا فى هذا التشخيص على امثلة متنوعة فى مادتها وموزعة فى تاريخها وهناك عدد لا يحصى من الامثلة يغطى كل مجالات البحث فى علوم الانسان ، غير أن الذى يهمنا هنا هو كيف يتخلص مجتمعنا من بعض هذه الموجهات السلبية الدخيلة على تراثنا . الغريبة عن شخصيتنا والتى لا تتطابق مع واقعنا ولا يسندها العلم ، ومن بين هذه الموجهات .

دعوى الاستعداد الفطرى والوسع العقلى :

وهى دعوى عنصرية ذات جذور عريقة فى القدم تزعم بأن الباحثين المحليين غير قادرين على البحث العلمى . جملة وتفصيلا ، ولكى يستطيع البعض منهم « الحبو » فى هذا الميدان فلا مفر من تجريعهم من دواء اسمه العقل الديكارتى

ليتمتعوا بميزة الوضوح والتنظيم ودليلهم على ذلك ان الفئة التى بقيت سجينة الثقافة التقليدية لم تزد على اجترار القديم وافرازه اكثر قدما ان التقدم الذى حدث كان عن طريق الاتصال بالفكر الاروبى وكأن القدرة على البحث العلمى غريزة تتمتع بها شعوب دون اخرى ! وكان من نتائج هذه الدعوى تهرب باحثينا من دراسة تراثهم والمشاكل الراهنة لمجتمعاتهم ، والانكباب على الاكل من موائد الغير والرضاء بوضع المتهم الذى يحاول اثبات عجزه عن ارتكاب الجرم ، وكان من نتيجة ذلك أن تكفل الغير بدراسة تراثنا وصياغة عقولنا واتجاهاتنا نحو انفسنا دون ان يؤثر المتهالكون على موائد الغرب قيد انملة على تراث المجتمعات التى درسوها وعلى نظام حياتها . لقد وجد المستشرقون والاسلامولوجيون والاثنولوجيون (الذين كان البعض منهم يشرف الى وقت قريب على مراكز للبحث العلمى) وجدوا مادة جاهزة وعقولا مطاوعة تتبنى منهجهم الديكارتى الواضح وتستخدم وسائلهم الحكيمة ولكن أين هم المستغربون الذين اثروا ببحوثهم فى نمط التفكير واسلوب الحياة الغربى ؟

اننا فى ميدان البحث العلمى الاجتماعى فى حاجة الى نمو ذاتى والى تصحيح مفهومنا عن التفتح الثقافى الذى لا يكون تفتحا حقا الا اذا اعطى بقدر ما يأخذ . لان الاكتفاء بالاخذ مما هو جاهز عند غيرنا وصبغه بطلاء محلى سيجعلنا نكتشف بعد حين اننا اكثر تخلفا فى ميدان البحث العلمى مما كنا عليه فى بداية هذا القرن لسبب بسيط هو ان الاستمرار فى القول بأن الثقافة الحديثة (شرقية او غربية) قد ولدت فى احضان ثقافتنا التى سادت فى العصور الوسطى المسيحية وأن نظريات العلم الحديث توجد اصولها عند الفارابى والخوارزمى وابن الهيثم والغزالى وابن خلدون والاكتفاء بذلك هو فى الواقع اساءة الى ماضينا وحاضرنا اذ ان أولئك الرواد الاوائل لم يقتنعوا بما لديهم من فنون اليونان والرومان والفرس بل جهدوا فى تنمية فكرية شملت كل جوانب الفكر والمجتمع .

ان الرد على دعوى الاستعلاء الغربى لا يكون بتجاهل التحدى الذى يواجهنا والانغماس فى الماضى لا يكون بتجاهل التحدى الذى يواجهنا والانغماس فى الماضى فنكون اشبه بالطفل الذى يهزمه قرينه فيتوعده بأستعداء ابيه عليه ويتوهم المنهزم انه بذلك قد انتقم لنفسه ، ما دام قد احال المشكلة على غيره .

واذا كان الرد على دعوى الاستعلاء لا يتم بواسطة حلول هروبية فانه كذلك لا يكون بالانبهار ببهرج الثقافة الغربية

ان العديد من شبابنا فى كل البلاد العربية قد توافقوا على مراكز البحث العلمى فى الجامعات والمعاهد العليا الاروبية والامريكية والسوفياتية ثم عادوا الى بلادهم صرعى الاستلاب الفكرى يتنابزون بالالقاب ويتباهون بالاشياخ الذين درسوا عليهم ويفاضلون بين جامعات هذا البلد او ذاك زادهم نزر هزيل وشرههم الى المال داء وبيل ، واصبحت اغلبيتهم الساحقة اما من النساخ الوراقين الذين يروجون بضائع الغير مثلما تروج اى دار لبيع سيارات فيات أو بيجو مع التباهى بأن « التركيب » كان محليا . واما من الذين يكتفون بتعليق الدبلومات باعتبارها احجبة وتعويذات تؤمن لهم تطلعاتهم الطبقية ويستغلون ريعها مثلما يستغل الاقطاعى ضيعته ومن فيها من العباد والعتاد .

لقد مضى اكثر من عقدين من السنين او تزيد ورجال منا يعقدون الرحال الى « الخارج » من اجل البحث العلمى فى الفنون والعلوم والاداب ولكننا ما زلنا مثلا فى علوم التربية والنفس نتبارى فى المفاضلة والدفاع عن طرق دالتون وماسون ومنتسورى فى التعليم ونطبع اختبارات سانفورد بينيه وغيلفورد لنطبقها على ابنائنا بتعديل ونحن فى ذلك اشبه بالصبى الذى يلبس بدلة كهل ليكبر بسرعة .

ان الباحثين الذين يشدون الرحال الى ماوراء البحر لا يتلقون علما صرفا ومنهجا محايدا ابدا بل هم يتلقون قبل ذلك تكييفا ذهنيا واستلابا عقليا وتعميدا أيديولوجيا بالمعنى الواسع للكلمة فيعود البعض منهم مسخا تغلى اعماقه بعقد النقص والانبهار وخاصة اذا عرفنا انه لم يحصن فى مجتمعه المحلى من مثل هذه الاوبئة الفتاكة ولم يشبع بخصائص ثقافته الوطنية والقومية .

ولعمرى لسنا فى هذا بدعا بين الامم قديما وحديثا فقد اثبتت تجربة اسلافنا الميامين فى عصورهم الزاهرة كما اكدت تجربة قوم معاصرين لنا فى بلاد الصين ان التقدم والعصرية لا بد ان يمر بالثقة فى النفس وباستخدام ما يتوفر عليه الميدان بلا يأس او استخذاء ولو كانت الامكانيات محدودة والطريق طويلا ، ولو أدى الامر الى انغلاق علاجى وتفتح استراتيجى يتمخض فى النهاية عن منطلقات جديدة فى الفكر والحياة ، فان اسطورة سور الصين العظيم ينبغى ان يصبح بالنسبة لنا واقعا مجسدا ليس فى شكل سلسلة من الحصون والقلاع المشيدة بالحديد والصلب بل فى شكل حزام واق من الحزم ومضاء والعزم واحترام الذات فى ماضيها وحاضرها بدون نرجسية ، ورفض للبهرج الغربى المستورد بدون تعصب او تواكل .

ان البحث العلمى الجاد والاصيل لا يمكن أن يتم خارج المجتمع المحلى وبدون توجيه وطنى وقومى صحيح وهذا ما ينتهى بنا الى التساؤل عن واقع الثقافة الوطنية وصلتها بالبحث العلمى الاجتماعى فى وجهيه النظرى والتطبيقى او بالاحرى هل يمكن التوفيق بين الكم والكيف والسرعة مع ضمان سلامة المنطلق الايديولوجى وتحقيق الهدف الوطنى فى مختلف ابعاده . ؟؟

المقالة صلة

آراء

* اليس من الغريب ان نحرص علىحماية حدودنا خيفة تسرب العملة الصعبة وتهريب المخدرات التى تفتك باجسامنا وخزينتنا ونغفل عما يفتــك بتراثنا وعقولنا وأرواحنا فنلقى بفلذات أكبادنـــا وصفوة شبابنا وسط تيـــارات وأديولوجيـــات متصارعة متناحرة على اقتسام مناطق النفـــوذ الثقافى والاقتصادى بواسطـــة تجنيـــد باحثين محليين يقومون لا شعوريا بمهام كانت توكل فى السابق لمكاتب الشؤون الاهلية ؟ !!

* أن البعض من شبابنا قد توافدوا على مراكز البحث العلمى فى الجامعات والمعاهـــد العليـــا الاوربية والامريكية والسوفياتية ثم عادوا الـــى بلادهم صرعى الاستلاب الفكرى يتنابؤون بالالقاب ويتباهون بالاشياخ ويفاضلون بين جامعات هذا البلد او ذاك ، زادهم نزر هزيل وشرههم الـــى المال داء وبيـــل .

* لقد آن الاوان لتنمية اولو الامر فينا الـــى أن لابحث العلمى لن يزدهر ولن يتاصل الا اذا كان المجتمع المحلى هو مخبره الحقيقـــى والثقافـــة الوطنية فى امتدادها القومى هى مادته الاساسية واللغة العربية هى موصله الاول ودرعه المتين .

* ..اتخذ زبانية لاايروس من النظرية الفرويدية مطية لنشر الانحلال والهرطقة بين طلاب الجامعة فاصبحت ممارسة الانحراف شعارا للتقدم واشباع اللبيدو تعبيرا عن العصرية والافصاح عن المركبات المزعومة عملا طبيعيا ومشروعا ؟ !

* اننا لا نستطيع الرد على التحدى الا اذا قمنـــا بتنمية فكرية ذاتية على مستوى الفرد والامة ولن يتحقق ذلك الا اذا خلع المثقفون منا قفازهـــم الحريرى وخرجوا الى الريف ليعلموا الاميين حرفا وسمح اطباؤنا فى آرائكم الوثيرة وأرشدوا المواطن الى كيفية استخدام وسائله المحدودة فى الوقايـــة والعلاج وكلف المهندسون انفسهم عناء التطـــوع شق طريق فى قرية مهجورة بدون أن تصحبهـــم أجهزة التكييف والسيارات الفاخرة .

* اننا اليوم فى حاجة الى انغلاق علاجى فى صورة حزام واق وتفتح استراتيجى فنتمسك بالايجابى من تراثنا بدون نرجسية أو تواكل ونرفض بهرج الغرب بدون تعصب أو استلاب .

د. محمد العربى ولد خليفـــة

الزعة الإنسانية والجمالية
عند ابن باديس

قد يبدو عنوان هذا المقال مفتعلا اذا نسبناه الى شخصية مثل شخصية ابن باديس ، اذ يتصور الذين لم يدرسوا الجوانب المختلفة لفكره انه لم يعالج مثل هذه المشكـلات التى تعتبر فى نظرهم غريبة عنه وعن آفاقه الثقافية وخاصة بعض زملائنا الذين تكونوا تكوينـا غربيا ، وانبتوا عن اصول مجتمعهم الثقافية ، وانقطعت قلوبهم وعقولهم عن جذور أمتهم ، فاصبحوا غرباء فى ديارهم ، منفصلين عن انفسهم ، لا يمكنهم ان يقتنعوا بان مسلمـا عربيا يفكر فى المشكلات الكبرى التى تمس الانسان من حيث هو انسان ، لانهم اقتنعوا بالانفصال ، وارتسمت فى عقولهم صورة قاتمة عن أصولهم ، وعمن ارتبط بها ، فلم يعودوا قادرين نفسيا ان ينسبوا اى شىء ذى قيمـة اليها ، وانغلقت صدورهم على افكار سوداء ، داكنة لم تكن لتسمح لصورة او لفكرة اخرى مضيئة لان تنفذ اليها ، فمن لنا بان يدروا انهم لا يدرون ؟ وانى لهم ان يقتنعوا انهم منبتون لا يفهمون ؟

د . عـمار طـالبى

أستاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

لقد ادرك ابن باديس نفسه هذه الظاهرة الغريبة فى عهده ، وفكر فيها وكتب عنها فبين لنا ان النخبة المثقفة فى عهده قسمان متصارعان فطائفة كانت تقتصر على اخـذ علـوم الدين واللسان واخرى كانت تدرس العلوم الطبيعية وغيرها باللسان الاجنبـى ، وصور لنا نظرة الطائفتين احداهما للاخرى فقال : « فهؤلاء يعتبرون الآخرين احجارا .. واولئك يعتبرون هؤلاء كفارا .. » (١) ويبدو ان هذه التعبير احسن بيان يصور لنا النخبة المثقفة لذلك العهد، ومازال آثـار هذه الظاهرة قائمة الى يـوم الناس هذا .

واذا كان ابن باديس ينزع نزعة انسانية فانه لم يمنعه ذلك من ان يعتبر خدمة وطنـه وخدمة امته سبيلا طبيعية لخدمة الانسـانية قاطبة ، لانه لا يمكن فى نظره ان نخدم الانسانية ما لم نخدم اوطاننا وشعوبنا قال ابن باديس : **« ان خدمة الانسانية فى جميع شعوبها والحدب عليها فى جميع اوطانها واحترامها فى جميـع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصده ونرمى اليه ، ونعمل على تربيتنا وتربية من الينا عليه ، ولكن هذه الدائرة الانسانية الواسعة ليس من السهل التوصل الى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة فوجدت التفكير فى الوسـائل الموصلة الى تحقيق هذه الخدمة وايصال هذا النفع » (٢)**
وقد استمد ابن باديس هذه النزعة الانسانية من التصور القرآنى للحقيقة الانسانية ، تلـك الحقيقة التى احترمت الكائن البشرى ، واولته الدرجة الاولى من الكرامة ، واوضحت للناس اجمع أن بنى الانسان من طينة واحدة ، وان هذه الطينة او تلك الطبيعة تتساوى فيها جميع الاجناس ان القرآن قد صرح بالكرامة الانسانية تصريحا لا تشوبه شائبة من شك او تحـوم حوله حائمة من ظن : (ولقد كرمنا بنى آدم) «٧٠/١٨» كما عبر لنا القرآن عن أصل الطبيعة الانسانية الواحد وعن أرومتها المتحدة التى استند اليها فى دعـوته الى التعاطف والتراحم والمحبة ، والاخوة ، فخاطب بنى آدم كافة بهذا النداء العميق الذى يتوجه الى فطرة كل كائن من الكائنات الناطقة : (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام) «١/٤» . بل ان القرآن اعتبر الاعتداء على الموجود البشرى اعتداء على البشرية قاطبة ، كما أن احياء فرد واحد احياء للحقيقة الانسانية كلها : (من قتـل نفس بغير نفس او فساد فى الارض فكأنما قتل الناس جميعا ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا) «٣٥/٥» واحترم الاسـلام اديان الآخـرين وافكـارهم وعقائدهم : (لكم دينكم ولى دين) «٦/١٠٩» .
ودعا الى التعايش السلمى بين مناهج الناس فى الحياة وتصوراتهم لها ، وهون عليهم امـر الاختلاف فيها : (لكل جعلنا شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم فيمـا آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) «١٥/٥» وشرع للانسان مبدأ العـدل العام حتى مع العدو : (ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا) «٩/٥» وقرر مبدأ أخلاقيا اجتماعيا حضاريا فى مخاطبة الانسان لاخيه الانسـان فأمر بأن يكون خطابا لطيفا لينا جميلا : (وقولوا للنـاس حسنـا) «١٨٣/٢» . وهكذا فهم ابن باديس أصـول المذهب الانسانى الاسلامى وحللها فيما كتب (٣) وفيما شانه به امته ، وانتهى فى تصوره للحقيقة الاسلامية الى القول بانها حقيقة دينية انسانية فقال : **(علمنا انه دين الانسانية ... فاذا عشت له فانى اعيش للانسانية لخيرها وسعادتها فى جميع اجناسها واوطانها ، وفى جميـع مظاهر**

عاطفتها وتفكيرها) (٤) وآمن ابن باديس بوطن الانسانية العام كما آمن باوطان اخرى خاصة تبـدأ من الجزائر ثم المغرب ثم الوطن العربى فالوطن الاسلامى وتنتهى بوطن الانسان من حيث هو انســان (٥) .

احب ابن باديس الانسانية وبغض من يبغضها او يظلمها او سولت له نفسه ان ينال من كرامتها وعبر لنا عن هذه النزعة الانسانية القائمة على الحب فى صورة واضحة جميلة واقعية فيها تأكيد لهذا المعنى ، والحــاح فى الابــانة عنه فقال : (اننا نحب الانسانية ونعتبرها كلا ، ونحب وطننا ونعتبره منها جزءاونحب من يحب الانسانيةويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها) (٦) فليس هناك فى نظره اى تناقض بين حب الوطن وحب الانسانية بل انه رد على اولئك الذين ينكــرون الاوطان الخاصة لانها بزعمهم ضـد انســانيتهم (٧) ، فالانسان فيما يرى ابن باديس اذا احب وطنــه وغذى عقله بالمعرفة السليمة فانه يشعر بالحب العميق لكل من يجد فيهم صورته الانسانية وكانت الارض كلها وطنا له ، وهذا هو وطنه الاكبر ، هذا ترتيب طبيعى لا طفرة فيه ولا معدل عنه ، فلايعرف ولايحب الوطنالاكبر الامــن عرفوأحب الوطنالاصغر) (٨) . وأنكرابن باديس علىاولئك الذين يسمهم بالانانية لانهم لا يعترفون الا بالوطن الضيق ، كما أنكر على الذين يضرون بالاوطان الاخرى فى سبيل وطنهم الكبير ، وهؤلاء عنــده شر وبلاء على البشرية جمعاء ، ونعى أيضا على الذين لا يعترفون الا بالوطن الاكبر وضربوا صفحا عن الوطنيات والاديــان ، وكأنه يقصــد بذلك الشيوعيــين الذين وصفــهم بأنهم عاكســوا الطبيعة (٩) .

اما الوطنية الاسلامية فى نظره فهى الوطنية التى تعترف بالوطنيات كلها وتنزلها منزلتها غير عادية ولا معدو عليها ، وترتبها ترتيبها الطبيعى حيث تنبنى كل واحدة منها على ما قبلها ، وتعتبر دعامة لما بعدها ، والانسان هو الذى يجد صورته وسعادته فى وطنه الصغير ، كما يجدها فى أمته ووطنه الكبير ، واخيرا يجدها فى الانسانية كلها، فالوطنية الاسلامية (تحافظ على الاسرة بجميع مكوناتها وعلى الامة بجميع مقوماتها وتحتــرم الانسانية فى جميع اجناسها واديانها) (١٠) ، واوضح لنا ابن باديس انه يهدف الى التقريب بين جميع عناصر الانسانية ويجاهد من اجل ذلك ويحترمها رغم اختلاف الاديان والاجناس ، وربط ذلك كله بصفته انسانا مسلما : (انا كمسلم ادين بالاخو ةالانسانية واحترمها فى جميع اجناسهــا واديانها واسعى للتقريب بين جميع عناصرهــا واجاهد فيها هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلــك وهو العدل والتناصف والاحترام) (١١) ، وبما ان ابن باديس يعتبر من المربين المتــازين فانه بنى عمله التربوى على المحبة وعلى زرعها فى القلــوب التى اراد ان يثبت فى اعماقهــا حب الانسانية بجميع اجناسها واديانها ، وان يعلمها الاخوة الانسانية ووصف نفسه بأنه زارع محبة فقال : **(انا زارع محبة ولكن على اساس من العدل والانصاف والاحترام مع كل احد من اى جنس كان ومن اى دين كان ، من كل جنس من كل دين ، فاعملوا للاخوة ولكن مع من يعمل للاخوة فبذلك تكون الاخوة صــادقة) (١٢) .**
ويشعر القارىء بالحاح ابن باديس على التحفظ فى هذه النزعة وعلى تقييدها بقيــود العــدل والانصاف والاحترام المتبادل ، والواقع ان هذا يعود الى ظروفه الاجتماعية والسياسية اذ ان المستعمرين لا يحتــرمون انســانية الانســان الجزائرى .

وقد ابان ابن باديس عن ذلك فى قصيدتــه المشهورة :

من كان يبغى ودنـــا فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغى ذلنـــا فله المهـــانة والحرب
هذا نظام حيـــاتنـــا بالنور خط وباللهب (١٣)

وانشأ قصيدة اخرى عنوانها : « القـــومية الانسانية » جاء فيها قوله :

قـــومـــى هم وبنـــو الانســـــان كلـــهم
عشـــيرتى وهـــدى الاســـلام مطلبى (١٤)

رايه فى الفن والجمـــال :

لم يكن ابن باديس من أولئك الفقهاء الذين لا يفكرون الا فى القيم الاخلاقية والمنطقية بل انه أهتم بالقيم الجمالية ايضا فكتب مقالا عنوانه : **« الفن الادبى فى الحديث النبوى »** (١٥) فتحدث عن جمال الصوت ، وعن الصورة الرائعة التى صور بها النبى صلى الله عليه وسلم النساء ، فى قوله مما رواه البخارى فى صحيحه عن ابى قلابة عن ثابت البنانى عن قتادة عن انس انه كان للنبىء حاد يقال له : انجشة وكان حسن الصوت ، وكان النبىء فى مسير له ، فحـــــدا الحادى وكان يحدو بهن فقال له النبىء : (ويحك انجشة رويدا بالقوارير) (١٦) وذلك أنه لما غنى انجشة للابل وكان على ظهورها النساء اخذت فى السير ونشطت واندفعت فأتعبهن ذلك السير واشفق النبىء عليـــهن فأمر الغـــلام الفارسى الحادى وهو انجشة ان يرفق بهن لشدة ما يجدن من الاضطراب على ظهور الابل ، ، وهى تسرع فى سيرها فعبر عن ذلك بصورة جذابة فشبـــه النساء بالقوارير أو الزجاجات لما فيها من بياض ولمعان ورقة ولما فى النساء ايضا من رقة العواطف ولطفها وسرعة انكسار قلوبهن وتأثيرها وعســـر انجبارها . وقد حاول ابن باديس أن يعرف لنا مفهوم الفن فبين لنا انه : (ادراك صفات الشىء على ما هى عليه من حسن وقبح ادراكا صحيحا والشعور بها كذلك شعورا صادقا والتصوير لها تصويرا مطابقا بالتعبير عنها بعبارات بليغة فى الابانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الادبى) (١٧) فالفن الادبى عنده يتكـــون من عناصر ادراكية شعورية وتعبيرية ومن مطابقة ، والفنان هو ذلك الانسان الذى يدرك صفات الشىء الحسنـــة والقبيحة ادراكا صحيحا ، وهو الذى يشعر بتلك الصفات وينفعل بها بصدق ، ثم يعبر عن ادراكه وتجربته الشعورية تعبيرا مبينا بليغا ، على ان يكون ذلك مطابقا للحال ، ويلاحظ القارىء ان ابن باديس جرى على راى رجال البلاغة فى اصل من اصول البلاغة والنقد الا وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، كما انه اشترط فى التصوير ان يكون مطابقا ، فكان المطابقة هنا تشبه لحد ما ما يسميه ارسطو بالمحاكاة ، والواقع ان الفنان يبدع الصور ويضفى على الاشياء اخيلة وظلالا ذاتية ما كان لها ان تعتبر مطابقة للواقع الخارجى او محاكية له ، ويمكن القول بأن ابن باديس ذهب فى الفن مذهبا منطقيا يتصل بالحق اكثر من اتصاله بالابداع الفنى لانه اعتبر الفن ادراكـــا لصفـــات الشىء على ما هى عليه فى الواقـــع الخارجى فكأن الصورة الفنية نسخة مما هو واقع فى العالم الخارجى على نحو ما يتصور الفلاسفة الحقيقة التى يرون انهـــا مطابقة ما فى عـــالم الاذهـــان لما فى عالم الاعيـــان . ولم يكن بهذا الاعتبار مثل شىء جديد ابدعه الفنان سوى التعبير الذى يمتاز بالابانة والبلاغة ولكننا نجد ابن باديس يضيف الى عناصر الصورة الادبية الفنية عنصرا آخر يتوجها وهو اللـــذة التى تحصل للمتذوق لان هذه اللـــذة فى نظر ابن باديس تدفـــع عن الانسان ما يجده من متاعب الحياة واوصابهـــا وآلامها لا الاثار الفنية تدخـــل على النفـــوس انشراحا وبهجة وصفاء . وادرك ابن باديس ايضا ما يسمى فى الفن بالتواصل او المشاركة الوجدانية فقال : (لذا كان اكثر الفن الادبـــى فى تصوير الحسن وعرضه على الناس ليشاركوا

الفنان فى ادراك ذلك الحســن والشعــورية والتذوق للذة ذلك الادراك والشعور) (١٨) . وبين لنا باعتباره مربيا ومعلما دور تربية الذوق الجمالى ، وغرسه فى النفوس لتتمكن من الشعور بما فى هذا الكون من آيات الجمال ، وذكر أن القرآن الكريم مفعم بصور ومشاهد تعرض علينا آفاق الكون فى صورها الجذابة الجميلة ، واشار ايضا الى ان الحديث النبوى يشتمل على روائع من الفن الادبى وخوالد من الآثار الرفيعة ، كما انه استشهد بقصيدة كعب بن زهير الذائعــة التى القاها أمام النبى صلى اللــه عليه وسلم (فوصف المراة والماء الذى مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويرا فنيا ، ولم ينكر عليه لانه لم يكن يصف شخصا معينا يؤدى وصفه الى اثارة الشهوة البهيمية نحوه ، وانما للنفــوس البشرية صورها الجمالية ، وتنمى فيها قــوة الشعور والذوق) (١٩) . ولم يخف على ابن باديس أن ينبهنا الى ما فى الحديث من فقه نفسى فحلل الحديث تحليلا فقهيا نفسيا واوضح أن فيه تنبيها على نبذ التشديد والتنطع فيما لا عيب فيه ولا قبح فى معناه ، ولا فحش فى لفظه من جهة ، وفيه أيضا : (التنبيه على المحافظة على قلوبهن « النساء » وعواطفهن ليدوم ودهن وسلامتهن ويدوم الهنــاء معهن والاستمتــاع بهــن لانهن ضعيفات القلوب ، رقيقات العواطف ، شديدات الاحساس ، يصبرن على كل شىء من الــرجل الا على كسر قلوبهن ومس عواطفهن) (٢٠) ومن جهة أخرى نجد ابن باديس يتصور الاسلام على انه حقيقة قائمة على عناصر ثلاثة : الحياة والعلم والفن فقال : (الاسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وايمان وجمال ، والعلم يمثل القوة ، والفن يمثل الجمال) (٢١)

بيد أن ابن باديس ربط بين القيمة الجمالية والقيمة الخلقيــة فذهب الى أن الدعــوة الى الجمال والتحبيب فيه فى جميع مظاهر الحياة يجب أن تكون فى اطار العفــاف والفضيــلة ، وساق عدة آيات قرآنية فى هذا المعنى منها قوله تعالى : (لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم) « ٩٥ / ٤ » وقوله : (وصوركم فأحسن صوركم) « ٦٤/٤٠ » وقولــه : (حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت) « ٢٤/١٠ » وقوله : (فانبتنا به حدائق ذات بهجــة) « ٦٠/٢٧ » وقوله : (قل من حرم زينــة اللــه التى أخــرج لعباده والطيبات من الرزق) « ٣١/٧ » وقوله : قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبــير بمــا يصنعون) « ٣٠/٢٤ » ويرى أن القرآن نفسه استخــدم الصور الجمالية فى الدعوة الى الهدايــة والى التأمل فى الطبيعة : (يعرض علينا القرآن صورا من العالم العلوى والسفلى فى بيان بديع جذاب يشوقنا الى التأمل فيها والتعمق فى اسرارها (٢٢) ان الجمال فى نظره يصبح احيانا فتنة ان لم يحط بسياج من الاخلاق ، واذا كان العالم ينطوى على جمال فانه قد يصير شرا وبلاء على من اتبع هواه واستعبد عقله : (هــذا العــالم بمائه وارضه وأزواجه هو فتنة للانسان بما فيه من لذائذ ومن جمال ...) (٢٣) ان ابن باديس زارع محبة ، وداع **الى المعانى الحقيقية للمذهب الانسانى ، والى رحابة الافق ، وعلم الناس أن الجمال مقوم من مقومات الحضارة ، وأن التربية الجمالية وتنمية الذوق من اسس التربية الخلاقة للشخصية الحرة الشــاعرة بذاتيتها وحريتهــا وقوتها المتذوقة لما فى العالم من جمال ، المتعاطفة مع ما فى الانسان من محبة وما فى جوهره من كرامة متاصلة .**

عمار طالبى
استاذ بقسم الفلسفة ــ جامعة الجزائر

كلمـــــات

– بيلى ونصيحته للشباب

هناك معنى عام لحياتى : انا رجل بسيط جدا . فقير . ماسح احذية .. كان املى ان العب فى احد الاندية المعروفة .. انتهى املى .ولكن حبى للرياضة ، وتفكيرى الدائم فيها ، وحرصى المستمر على التدريب ، وايمانى باننى لا اعــرف الكثير ، واريد ان اعرف وان اتعلم، وايمانى بالله، واستقامتى التامة ، وحبى لامى وابى ووطنى .. كل هذا جعلنى لاعبــا متوفقا . لم يخطر على بالى ان اكون احسن لاعب فى الدنيا .. ولكن التفوق يغرى بالتفوق اكثر ، والنجاح يغرى بالانتصار لا فى اندية البرازيل ، ولكن من اجل البرازيل ، فى كل مكان فى العالــم ...

اننى لم اعد لاعبا برازيليــا ، اننى الآن لاعب عالمــى . استطعت ان احطم فوارق الطبقة ، وسجن اللون ، واصبحت بفضل الله وجدى وتواضعى وصبرى، ملكا على عرش الكرة!

من مذكرات بيلى

سكان امريكا لا يخرجون ليلا !

* ٨٨ ٪ من سكان المدن الامريكية لا يخرجون ليــلا ، و ٧٧ ٪ لا يشعرون بالامان حتى وهم فى منازلهم ، جاءت هذه الاحصائية فى استفتاء اجرته مجلة « لايف » الامريكية منذ شهر مضى . وهناك اسباب منطقية لهذا الخوف الغريب . فثلاثة من كل خمسة اشخاص فى المدن التى يزيد تعدادها على مليون نسمة كانوا ضحية جميع انواع الجرائم فى عام ١٩٧١ . وتقدم الاحصائية تفصيلا لانواع الجرائم فى كل انحاء الولايات المتحدة فى نفس العام ٩٥٠٠ جريمة قتل و ٧٣ الف هجوم مسلــح و ١٢٧ الف جريمة سرقة بالسلاح ...

من تراثنا

المسيلة وإمارة بني حمدون

وأميرها جعفر بن علي

أحمد بن ذياب

استاذ بثانوية الفتح البليدة

اذا عدنا الى ديوان ابن هانىء الاندلسي وجدنا الكثير منه قيل في جعفر بن علي بن حمدون ووجدنا الشطر الضائع من الديوان يشتمل على روائع لعلها اجل واسنى في باب المدح الصادق ، وتصوير الحضارة الراقية ، والحياة الرفيهة ، والفروسية الاصيلة ، وما يحفل به كل ذلك من روعة وجمال وجلال .

وحسب جعفر بن على الامير الحمدوني الجزائرى أن يكون هو المعنى بقول ابن هانىء فى قصيدة قافية عصماء جاءت فيها هذه الابيات :

ألا ايها الوادى المقدس بالندى
واهل الندى ، قلبى اليك مشوق
ويا ايها القصر المنيف قبابه
على ((الزاب)) لا يسدد اليك طريق
ويا ملك ((الزاب)) الرفيع عماده
بقيت لجمع المجد وهو فريق
على ملك ((الزاب)) السلام مرددا
وريحان مسك بالسلام فتيق

وهى مقطوعة من قصيدة بديعة لم تعد موجودة فى الديوان المطبوع ، وقد يكون للجزائريين خاصة وللعرب عامة حظ مخبوء بين طيات الايام ، فتظهر نسخة أخرى ـ للديوان ـ كاملة فنقرا فيها ـ فى جملة ما نقرا القصيدة التى منها هذه الابيات .

أما من هو جعفر بن على فى امراء المسيلة ؟ وما قصته معها ؟ فهو احد الامراء النبلاء الذين عرفتهم الجزائر خلال القرن الرابع الهجرى ، وعرفوا بها ، اذ تولى امارة الزاب ، يوم انتقلت عاصمته من « طبنة » جنوب بريكة الى المسيلة « المحمدية » ابتداء من سنة ٣١٧ للهجرة بعد تأسيسها بعامين وكان الذى اسس مدينة « المحمدية » ـ أو المسيلة ـ هو أبوه على ابن حمدون : أحد القادة العظام للشيعة العبيدية.

أما أصل الاسرة فعربى اندلسى «يحدثنا عنه ابن حيان فى المقتبس » فيقول « جعفر بن على بن حمدون بن سماك بن سعيد بن ابراهيم بن احمد ابن عبد الحميد الجذامى » (١) .

ويقال عن الجد الاعلى عبد الحميد بانه الداخل الاول الى الاندلس ، وان مستقره الاول كان بقرية من قرى قلعة « يحصب » بكورة « البيرة » .

أما الحفيد حمدون فقد انتقل الى بجاية الجزائرية فسكن احدى قراها ، فاستقر بها ونسله ، وتشاء الظروف أن يتصل على بن حمدون وهو فى طريقه الى الحج ببعض ابناء قبيلة « كتامة » ويتزوج منهم ، وكتامة يومئذ قد سارعت ـ اول من سارع ـ الى الاستجابة للدعوة العبيدية ، واتبعت أبا عبد الله الشيعى فنبتت نابتة الشيعة العبيدية ـ هنا فى المغرب الاوسط ـ

ومن هذا الباب باب الزواج من كتامة والاقامة بينها كان الاتصال الاول بين الفكرة الشيعية والشاب على بن حمدون ، فيستجيب لها ، وينخرط فى سلكها وتمضى الايام بعلى بن حمدون فتعلو منزلته بين قادة الشيعة ، ويجدون فيه خير شاب اخلاصا وذكاء ، وعلو همة .

ويحدثنا ابن حيان بأن الاسم الاول له كان « ثعلبة » لكن أباعبد الله الشيعى سماه « عليا » فأصبح هذا الاسم محببا اليه ، وهو الذى عاش به بعد ذلك بين الناس ، حتى تنوسى اسمه الاصلى .

وقدكان «ثعلبة الامس ـ وعلى اليوم» يجمع بين دهاء الثعالب وسعتها فى الحيلة وبين سمو الروح العالية ـ من على ـ أو العلوية ـ الى جانب الصدق فى العقيدة ، والاخلاص فى الطاعة والحزم فى العمل ، وكانت هذه الخصال هى التى رشحته لاداء مهة ثقيلة بعد الانتصار على الاغالبة ـ فيقوم بادائها على خير وجه مما برهن على مقدرته فى التستر ، وحسن تأتيه لما يريد ، ومهارته فى النوء بالمهات .

وفى أثناء المراسلات أو « المخابرات » التى كانت تتواصل بين الشيعة ودعاتها ، وقادتها فى الجزائر وتونس وبين عبيد الله المهدى ظهر على بن حمدون بمظهر من يحسن الاداء ، ويحسن

١) من المقتبس

التلقى مما جعله موضع ثقة عبيد الله المهدى صاحب الامر ، فكان ان ارسل به الى المشرق ـ فى بعض ما ترسل الملوك فيه ـ حسب تعبير « ابن حيان » ـ فأحكم له شأنه ، وقدم فازداد حظوة لديه » .

اما ابن خلدون فيحدثنا ان عليا لزم آل عبيد الله المهدى أيام اعتقالهم « بسجلماسة » فلما استفحل ملكهم جذبوا بضبعيه ، ورقوه الى الرتب ولما رجع ابو القاسم من حركته الى المغرب سنة خمس عشرة وثلاثمائة ، واختط مدينة المسيلة استعمل ـ على بنائها « علي بن حمدون » وسماها « المحمدية » ولما تم له بناؤها عقد لـه على الزاب ، وانزله بها «٢ »

فمن هذه العبارات من ابن خلدون نعرف « اجمالا » مدى مكانة على بن حمدون من الاسرة العبيدية ، وكيف كان اول تأسيس مدينة المحمدية ـ او المسيلة ـ سنة ٣١٥ للهجرة ، وكيف اتخذت عاصمة للزاب ، وكيف ولى الامر فيها على بن حمدون .

اما ابن حيان فيعطينا اضاحات اخرى حول هذا الموضوع يهمنا منها خاصة قوله : « وولاه عليها عند كمالها فاستقر بها واحسن عمارتها » .

ولن نفارق على بن حمدون حتى نجمل القول ـ او نختصره ـ فنقول بأنه بقى اميرا وقائدا على المسيلة عاصمة الزاب الكبير حتى سنة ٣٣٤ حيث توفى وهو يحارب فى فتنة ابى يزيد بن كيداد الخارجى المعروف بصاحب الحمار »

اما ابنه جعفر فهو احد نجباء رجالات الجزائر ومشاهير قادتها فى الثلث الوسط من القرن الرابع الهجرى .

وكانت نشأته أولا فى بيت العبيديين نظرا لمكانة أبيه بينهم ، وربى بين حجورهم الى جانب أخيه يحى .

وكانت امهما معهما بالمهدية ـ فى دار عبد الله المهدى ، فلما تم امر تأسيس المسيلة ، واستقامت الامور فى المغرب الاوسط ارسل بها عبد الله المهدى مع ابنائها الى زوجها على بن حمدون معززة مكرمة .

ويسمى ابن حيان هذه المراة « ميمونة بنت علاهم » وهى كتامية ـ كما سبق ـ وكان شمل الاسرة قد اجتمع من جديد خلال سنة ٣١٧ للهجرة

ولسنا ندرى ـ فى الكتب التى بين ايدينا ـ كم كان عمر جعفر يومئذ ، وانما الذى نعلمه أن اباه على بن حمدون « خلفه نائبا عنه حين سافر الى المهدية ليعزى ابا القاسم محمد بن المهدى فى ابيه ، وليهنئه ـ فى الوقت نفسه ـ بالخلافة التى انتقلت اليه او تقلد مسؤوليتها سنة ٣٢٢ .

واذا اخذنا فى الاعتبار ـ تاريخ تزوج على بن حمدون بميمونة أم جعفر فى اخريات العقد التاسع من القرن الثالث امكن ان نطمئن الى أن عمر جعفر يومئذ يتجاوز العشرين سنة ، وقد يكون حوالى الثلاثين مع ملاحظة ان التوضيحات التى يقدمها « المقتبس » تقول عن جعفر يومئذ « وقد ظهر منه استقلال وضلاعة ، ومهارة بخصال الادب وبراعة ، طار له بها فى الناس حديث « أمال » اليه الافئدة » .

والمتوقع أن الشهرة التى تجمع للمرء قلوب الناس ، وتضمن له محبتهم ـ مهما تكن مبكرة ـ لا تستلفت نظر الشعب ، وتصبح محل ثقته الا بعد النضج الجسمى ، واقامة البرهان على النضج العقلى ، وما يزدان به المرء من

(٢) ١٧٥ من ج ٤ من تاريخ ابن خلدون طبع دار الكتاب اللبنانى

حصافة وكياسة ولباقة ، ويتمتع به من ذكـاء عملـي تطبيقـي .

اما حين نريد ان نعلم مدى سعة « ولايـة المسيلة » واماراتها في ذلك العهد فلعلنا نستطيع أن نتصور لها حدودا تقريبية حين ندرك أن كلمة « الزاب الكبير » الذى كانت عاصمته يشمـل المساحة التى تقع بين حدود « باغاية » شرقا « وموقع باغاية بين خنشلة والعين البيضـاء الحاليتين » ويقابلها الحد الغربى « حمـزة » وضواحيها أو « لبويرة » الحالية والظـاهـر أن « الزاب » يتسع في الصحراء جنوب الجـزائر وتونس ، ويضيق في الشمال فلا يتجاوز هـذه المسافة التى تجمع ما بين عنابة وبجاية ،

ونحن نقدم هذه الحدود التقريبية معتمديـن على ياقوت الحموى في معجم البلدان حين يتحدث على الزاب الكبير فيجعل من مدنه : « بسكـرة وقسنطينة ، وتقصة ، ونفزاوة ونفطة وبادس[3] »

ولانا نرى ابن خلدون ــ وهو يقدم تعـداد « امارات » العبيديين يومئذ او « ولاياتهـم » فيقـول :

« واستقام امر المعز في بلاد افريقية المغرب ، واتسعت ايالته ، وكانت أعماله من « ايفكان » خلف « تاهرت » بثلاث مراحل ، الى زناتة التى دون « مصـر » .

١ ــ وعلى تاهرت وايفكان يعلـى بن محمد ايفـرنـي .

٢ ــ وعلى آشير واعمالها زيرى بن منـاد الصنهـاجـي .

٣ ــ وعلى المسيلة واعمالها جعفر بـن على الاندلسى :

٤ ــ وعلى باغاية واعمالها قيصر الصقلى

٥ ــ وكان على فاس أحمد بن بكر بن أبـي سهل الجـذامـي

٦ ــ وعلى سجلماسة محمد بن ولسـول المكناسى « ٤ »

ومن هذا التقسيم نرى ان العمالات ــ او الولايات الشرقية واسعة لان الامن فيها مستتب اما الولايتان الغربيتان ولاية سجلماسة وولاية فاس فضيقتان لان الامويين في الاندلس يضايقون العبيديين من ناحية الشمال ، وقد يتوغلـون فيفتكون منهم بعض النواحى ، ويتوسعون على حسابهـم كلما سنحت لهم الفرصة .

وقد بلغت المسيلة ــ او المحمديـة ــ أوج عظمتها في عهد جعفر بن على ، وقد اشاد بعهده كثير من المؤرخين لكنا نكتفى هنا بما جاء في ابن خلـدون حين تعرض لتصوير عمرانها فقال :

« ولما انقضت فتنة « ابى يزيد » عقد المنصور على المسيلة والزاب لجعفر بن على بن حمدون ، وانزله بها واخاه يحى ، واستجدوا بها **سلطانا ودولة ، وبنوا القصور والمتنزهات ، واستفحل فيها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء ، وكان فيمن قصدهم ابن هانىء الاندلسى شاعر الاندلس وامداحه فيهم معروفة مذكورة »** .

ووصفها البكرى حسبما نقل عنه استاذنـا المرحوم مبارك الميلى فقال :

« هى مدينة جليلة في بساط من الارض ، عليها سوران بينهما جدول ماء يستدير بالمدينة ، وله منافذ تسقى منها عند الحاجة ، ولها اسـواق وحمامات ، وحولها بساتين كثيرة ، ويجود عندهم القطن ، وهى كثيرة اللحم ، رخيصة السعر »

(٣) ص ١٢٤ من معجم البلدان ج ٢
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٦
(٥) ابن خلدون ٤٢ ص ١٧٦

وقد تكون هذه العبارات من البكرى كافية للتدليل على الوضع الاقتصادى العام من جهة أخرى .

فكثرة البساتين وجودة المحصول من زراعة القطن قد تدل على النجاح فى الميدان الفلاحى اما كثرة اللحم فتدل على وفرة الماشية ، وعناية الشعب بتربيتها ، أما الاسواق والحمامات وكثرتها فتدل على الحركة الاقتصادية النشيطة من جهة وعلى الاستقرار الحضارى من جهة اخرى .

اما ابن خلكان فيتعرض لطبيعة جعفر بن على نفسه فيقول عنه بأنه « كان سمحا كثير العطاء ، **مؤثر لاهل العلم ،** ولابن هانىء فيه من المدائح الفائقة ما يجوز حسنها حد الوصف »

والحق ان المسيلة ، أو « عاصمة الزاب » قد بلغت شاوا بعيدا فى خدمة العلم ، وتثبيت قواعد الامن والاستقرار ، ولولا أن العبيديين كانوا قد وجهوا عنايتهم للمشرق من جهة ، وأن الصنهاجيين لم يكونوا على وفاق مع جعفر ابن على بل كانوا يتربصون به الدوائر ، وكانوا يكيدون له ما استطاعوا لامكن أن نقارن امارة المسيلة ببعض الامارات الاخرى من امارات المشرق او امارات المغرب التى ازدهرت ازدهارا عظيما .

وقد لاحظ القدامى الاشواط التى سارتها ، أو المراحل التى قطعتها فى مسيرة الحضارة حين لقبوا شاعرها الفحل ابن هانىء بمتنبى المغرب يريدون غزارة الشاعرية وقوتها ، وطول النفس فى القصائد العصماء التى انطقته بهابيئة المسيلة ، واميرها جعفر بن على ، وحاشيته ، وأسرته ومن اتصل باهلها من ابناء وقادة وامراء .

وحسب جعفر بن على ان يكون قد قيل فيه وافراد اسرته نحو من ثلث الديوان المطبوع من شعر ابن هانىء مع ملاحظة ان هناك قصائد اخرى ـ قيلت فى المسيلة واميرها ـ ولكنا لا نجدها فى الديوان : **اما لان الذين تولوا الطبع حذفوها ، واما لان النسخة التى اعتمدوها بتراء غير كاملة .**

اما خاصية ابن هانىء فى هذه القصائد الجعفرية ، أو « المسيلية » فهى الصدق فى العاطفة ، والبراعة فى التصوير ، والاعتدال فى المبالغة .

ومن الامثلة التى يمكن أن تساق هذه الميمية التى تنيف على السبعين بيتا والتى قال فيها :

يمينا لانت مليك الملوك
فمن شاء خص ومن شاء عم
فمن اين ساروا فانت السبيل
ومن اين ضلوا فانت العلم
وياتى لك الذم طيب التجار
وطيب الخلال وطيب الشيم

حتى يقول :

الى جعفر يتناهى المديح
وفيه تثير القوافى الحكم
فما همت المزن حتى همى
ولا ابتسم البرق حتى ابتسم
فاقسم لو ان عصر الشباب
كايامه لامنا الهرم
قواف لسؤددكم تنتقى
وتحت سرادقكم تزدحم
قصرن عليكم كان الشام
وارض العراق عليها حرم

اما عن مكانة الشاعر بين ممدوحيه فيصوروه كما يلى :

تكنفتمونى فلم اضطهد
فاعززتمونى فلم اهتضم
ففى ناظرى عن سواكم عمى
وفى اذنى عن سواكم صمم

فشملــي بشملكــم جــامـــع
وشعبــي بشعبكــم ملتئــــم
فــلا انفصمت عــروة بيننـــا
اذا ما العــرى جعلت تنفصــم
« ابــا احمــد » دعــوة حــرة
لحــر المواثيــق حــر الــذمــم
حمدت لقاءك حمــــد الــربيــع
وشمت نــوالك شيــم الديــــم
وانت ملــي بـــــدر الفعــــال
وانــي ملء بــدر الكلــــــم
ولم ار مثــل جزيــل الثنـــــاء
مكــافــاة لجــزيــل النعـــم

والذى لاريب فيه أن شعــرا كهــذا ــ وفى الديوان مثله واحسن منه ــ يعطى البدليل علـى صدقه من جودته ، ويقيم البرهان على اخلاص صاحبه من سلاسته ، ويسر تناوله .

وتمر الايام وامارة المسيلة امارة تطـــاول الأحــداث ، وتقــاوم الخطــوب وتبنــى الامجاد ، وتؤسس المفاخر ، حتــى تجىء سنة ٣٦٠ حيث تسوء العلاقة بين المعز لدين اللــه الفاطمي وبين جعفر بن على ، وقد مضت على هذا ست وعشرون سنة ــ وهو يعمل فيصلــح ويبنى فيرفــع ، ويصنع فتكون صنائعه مدعــاة لتربص الحساد ، وتألب الاعــداء ...

اما عاقبة هذه العلاقة السيئة بينه وبين المعز فكانت الباعث على انحياشه الى بنى اميـــة فى الاندلس ، مما جعل الامارة تنتهى ، وتنضم كل العمالــة الى بلقين بن زيــرى .

اما جعفر بن على فانه انتقــل الى الاندلس فعاش منعما مكــرما حينــا ، واميرا وقائــدا احيانا ، حتى اغتاله المنصور بن أبى عامر خلال سنــة ٣٧٢ للهجــرة .

ومهما يكن الخطب ثقيلا ، والمصيبة جلى فلن العودة الى جعفر بن على اثناء دراسة شاعرية « متنبى المغرب ابن هانىء » قد تزيد اضــاءة لبعض الجوانب فالى اللقاء مع شاعر الــزاب العبقرى ، أو شاعر شعراء المغرب العربـــى فى العدد القادم ــ ان شاء اللــه ــ

الملكيــة والمزاحمــة

محمد عزيز الحبابي

استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

اشرنا ، فى العدد السابق الــى بعض المذاهب التى حللت العلاقــة بين الملكية والحريات ، ونــود ان نظهر الان ان الفلسفة البرغسونية لم تترك مجالا لمشكلة التملك ، لان الحريات فيها ، بالاساس ، فردية ، ومباشرة ، ومجردة •

ان وساطة العمل ، والملكية بصفة عامة ، تخالف مفهوم الحرية الداخلية ، او « مطابقة الذات مع الذات » التى خصص لها « برغسون » كتابه (رسالة فى معطيات الوجدان المباشرة) .

وقدكان من المتوقع ان نرى (المنبعان) ، بصفته كتابا يعالج مشكلتى الاخلاق والدين ، اى مؤسستين مجتمعتين ، يدرس مشكل الملكية . بيد انه لم يفعل .

الا يعد هذا ثغرة كبرى فى البرغسونية ؟

لكن ، بالرغم من ان مشكلة التملك لم توضع فى (المنبعان) ، بطريقة منظومية ، فانها قد اثيرت بصفة غير مباشرة، فى اكثر من صفحة من صفحات الفصل الاخير . فبعد ان جعل « برغسون » من « الاخلاق المفتوحة » اخلاقا تشمل مجموع الانسانية ، اضطر الى ان يتعرض الى مشكلتى الحرب والسلم ، لانهما تقلقان ، اكثر من اى مشكل آخر ، المجتمعات المعاصرة : علينا ان نجد وسائل تخولنا ان نجعل المصالح الخاصة تخضع للمصالح العامة ، لمصالح النوع البشرى ، توضع اذن « الاخلاق المفتوحة » فى سياق تاريخى وتعض على الاحداث المعاصرة . فمن هذا الجانب نعود الى مشكل الملكية ومعارضة مصالح الافراد لمصالح الشعوب .

من الجائز ان فكرة « الاخلاق المفتوحة » اختمرت فى فكر « برغسون » عندما تكونت « جمعية الامم » بـ « (جنيف) ، كما يجوز اعتبارها مستوحاة من امنية طالما خالجت فكر (اوغست كونت A. Comte الذى ود ان يؤسس «دين الانسانية» ، دينا يوحد معتقدات الشعوب. وعندماتحدث مؤلف (منبعا الاخلاق والدين) عن « جمعية الامم » ، قال انها مؤسسة فى صالح السلم ، وان الذين اسسوها قاموا بعمل جليل ، فهم بحق « المحسنون الي الانسانية » (١) . وفى عام ١٩٣٢ تنبأ (برغسون) بعمل سيقع بعد سبع سنوات ، تنبؤا دقيقا ، فندد فى قلق وحسرة بالازمة العالمية المتوقع حدوثها من جراء الاسلحة الرهيبة المدمرة : « اذا استمر العلم فى سيره الحالى ، فاننا نقترب جدا من اليوم الذى يصبح فيه البلد يملك سرا مدخرا ، الوسيلة لسحق خصومه سحقا تاما . فلن يبقى ابدا اثر لمغلوب على وجه البسيطة » . (٢) هكذا قبيل حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ شعر « برغسون » شعورا قلقا بخطر الحرب ، وهكذا قد كان يحيا اذ ذاك سنواته الاخيرة . نلمس ، بانفعال كبير ، ذاك القلق وتلك الحسرة ، فى محاضرة القاها من راديو باريس ، تحت عنوان « كلمات عن الفلسفة الفرنسية » نقتطف منها هاته الجمل : « بوسعنا ان نستعيد ذكرى ما نحن ، ويجب ان نفعل ذلك فى وقت تتعرض ثقتنا بأنفسنا للوهن والضعف . اننا نجتاز مع العالم اجمع ، ازمة خطيرة . يلزمنا ان نقوم ببذل مجهود كبير ، ويجب ان نقوم ، به ، كيفما كان الحال . . . » (٣) ، لقد تقدم لـ « برغسون » فى بداية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) ، ان صاح ، كذلك ، صيحة مفجعة للاستغاثة من الخطر المحدق بالانسانية ، وكانت صيحته عنيفة وحزينة مؤثرة (٤) .

* * *

لن يتحقق تحرر الانسان الا فى جو من الثقة بالانسان ، وفى الامل بالمستقبل . لقد سبق « كانط » ان كانت له نفس الاهتمامات ، ففكر فى اقامة نظام دولى ، وهذا كثير الشبه بجمعية الامم التى تحدث عنها « برغسون » . الواقع ان لـ « كانط » ، بالاضافة الى فلسفته النظرية وفلسفته العملية ، فلسفة للتاريخ . ولفلسفة التاريخ هذه مسلمات ، كما للعقل الاخلاقى

مسلمات . يؤكد « كانط » انه من الضرورى أن تتكون فكرة عن شكل سام للمعشر البشرى ، يعنى لبيئة تنضوى تحتها جميع الامم متآخية . ان وجود هذه البيئة شرط ضرورى لسلام عالمى دائم . وهذا المعشر البشرى العالمى ضرورة ملحة عملية، بدونها يفقد التاريخ اتجاهه ومعناه .

ان اتجاه « برغسون » كاتجاه « كانط » ، كلاهما نبيل وهام . فماذا يقرحه « برغسون » لتحقيق مطلبه ؟

١ ـ القضاء على الحرب .

لنتفحص تطور تفكيره كى تتضح لنا الاتجاهات التى ينبغى اتباعها حتى نصل الى هذا الهدف . يقول فى (المنبعان) : علينا ان نعمل على ازالة اسباب الحرب ، وهذه مهمةيجب ان تتكفل بها منظمة عالمية ، انها واجب تفرضه الاخلاق على كل بيئة متفتحة . وللقضاء على اسباب الحرب ، من الضرورى ان نعرف بالتدقيق هذه الاسباب . اخطرها (فى نظر برغسون) هو التزايد المفرط لعدد سكان الارض . اذن ، يجب ان نحكم التناسل بتحديده تحديدا معقولا : « ان الاستسلام لغريزة التناسل لاكثر خطرا منه فى اى ميدان آخر . لقد فهمت ذلك الميثولوجيا القديمة جيدا لانها كانت تقرن الهة الحب باله الحرب : فكلما تركت « فينوس » حرة تبعها « مارس » (٥) .

هذه فكرة ، رغم انها منبثقة عن نبل وحسن نية ، تثير بعض الانتقادات ، لتأثرها ، بكيفية مباشرة أو غير مباشرة بنظرية (مالتوس Malthus » .

لقد اثبت « مالتوس » سنة ١٨٠٢ ، ان الحيوانات ، فى اقليم ما ، تتكاثر حسب متوالية هندسية ، فى حين ان النباتات التى تستخدم فى تغذيتها تزداد طبقا لمتوالية حسابية . فسيأتى يوم يختل فيه الاتزان بين التزايد المفرط فى السكان ، من جهة ، وبين كمية التغذية اللازمة ، من جهة اخرى . عن هذا الوضع الحتمى سينتج صراع الحيوانات من اجل الحياة .

وقد شيد « داروين » نظريته حول الانتقاء الطبيعى على أساس فكرة (مالتوس) : ان المزاحمة الحيوية تضمن البقاء لمن هم اكثر كفاءة جسمية على الخصوص. فهذا المذهب يبرر، بكيفية غير مباشرة،وجود الحرب بين الشعوب : الطبيعة الا مجتمعات صغيرة ، ولكنها « رغم ذلك فتحت الباب أمام نمو وتوسع تلك المجتمعات ، لانها أرادت ايضا الحرب ، أو على الاقل هيأت للانسان شروطا حياتية تجعل الحرب امرا لا مفر منه » (٦) .

ونجد نغمة مشابهة ، فى صفحات اخرى من (المنبعان) ، يؤكد فيها « برغسون » نوعا من حتمية الحرب : « ان منشأ الحرب هو الملكية الفردية والجماعية ، وبما ان الانسانية مجبولة مسبقا على الملكية ، من حيث بنيتها ، فالحرب امر طبيعى » .

يبدو ان « برغسون » يؤيد النظرية المالتوسية ـ الداروينية ، مع انه ظهر خطؤها ظهورا جليا الى الحد الذى لم يعد أحد يؤيدها فى أيامنا هذه . اثبت علم الاقتصاد السياسى ، من جهته ، معتمدا على الاحصائيات ، أن النظام الحالى كثيرا ما يعانى ازمة اختناق تحت وطأة تضخم الانتاج ، أو بسبب قلة الاستهلاك الناتجة عن توزيع غير عادل للثروات ، وعن نقص ذريع فى القوة الشرائية ، اكثر مما يعانى زيادة مفرطة فى عدد السكان . تتلف كميات ضخمة من الانتاج الزراعى للمحافظة على استقرار الاثمان (٧) .

نجد ، فى الصفحة ٣٢٦ من (المنبعان) ، ان « برغسون »يعترف بوجود ازمات تنتج عن تضخم الانتاج ، وانها تشمل المنتوجات الزراعية . بيد

انه ، ويا للاسف ، لم يستخلص من ذلك النتائج اللازمة، مع انه مفكر يهتم بالاخلاق ، لان فلسفته، كما يقول « البيرتيبوديه A. Thibandet » : ليس لها طابع عملى ، ولم تصل الى اى نتيجة اخلاقية. يهتم برجسون بالسيكولوجيا والميتافيزيقا، ولا يزال اهتمامه موجها ، على الخصوص ، بالاصلاح النظرى الميتافيزيقى » (٨) .

صرح « برودون Proudhon » فى سنة ١٨٤٦ ، بعد ان حلل العلاقة بين البطالة وقلة الاستهلاك ، ان سبب الازمة هو « فائض الانتاج، الذى يدل على نقصان فى ترويج البضائع ، او شقاء الشعب » . خلافا لما يراه « برغسون » ان الطبيعة لا تهىء للانساء شروط الحياة التى تجعل الحرب امرا لامفر منه بل على العكس ، ان الكائنات البشرة هى التى ترفض كل تقسيم عادل ومعقول لثروات الطبيعية ومنتجات العمل . الجميع يعمل على تباعد بعض عن بعض مع الاحتقار والطمع ، انقطاع : انهم ، عن بعض مع الاحتقار والطمع ، دون انقطاع : انهم، فكرة « هوبز » التى لخصها فى عبارته الشهيرة : « الانسان ذئب بالنسبة للانسان » .

الطبيعة البشرية لا تجعل من الحرب ضرورة ، ولكن البنية المجتمعية فى نظام المزاحمة الحرة ، هى التى تؤدى الى الحرب (والمزاحمة الاقتصادية هى المرحلة الاولى : انها الحرب الباردة) . وهذه الحرب تنعكس على النفس البشرية وتنتزع منها ما يؤنسونها .

عندما تبحث الكائنات البشرية عن وسائل اشباع الحياة ، تصنع تاريخها بنفسها وتغير طبيعتها الخاصة . ان السوسيولوجيا والتاريخ يشرحان كيف ان مختلف الوسائل لارضاء الحاجيات تؤثر على العلاقات المجتمعية ، وحتى على مختلف نشاطاتنا المعنوية . قد تبرر استرقاقية العصور القديمة (تاريخيا) بالنسبة لمن مارسوها ، لانها كانت القاعدة التى تنبنى عليها الاجهزة المجتمعية (٩) . فلا غرابة اذن اذا وجدت الحرب مبررات وكانت الوسيلة الوحيدة لكى تتزود الشعوب بالرقيق وهو ضرورة اقتصادية حيوية .

بيد ان الاخلاق والفلسفة ، منذ عهد بعيد الى ايا مناهذه ، ما فتئتا تظهران قيمة الشخص وتفسران الفعاليات البشرية ، فلم يعد العمل يعتبر نظاما خسيسا ، بل على العكس ، فبفضل الشغل اخذت فكرة « شخص » تبرز وتتبلور وتفرض نفسها كقوة تبدل باستمرار ، فظاظة الطبيعة ومقاومتها للبشر ، الى عالم من القيم ينمو ويتأنسن دون انقطاع . واتاح العلم ، من جهته ، للمجتمعات ان تتطور وتجعل التحرر المادى ممكنا ، وذلك منذ ان اعقبت الانظمة الاسترقاقية والاقطاعية ، انظمة تقوم على انتشار الآلة ، فحقق العلم بهذا احلام « ارسطو » .

يستنتج مما سبق ، انه ليس هناك ما يبرر ، مطلقا ، الحرب فى عصرنا الراهن ، لا من حيث الاخلاق ولا من حيث وجهة نظر العلم . ولكن ، يمكن ان نتساءل :

كيف يفسر النزاع المسلح بين الشعوب ، رغم التقدم الذى حقق فى جميع الميادين ؟

هل يجوز لنا ان نقول : ان الحرب امر مقدر لا له ؟

* * *

يرى « برغسون » ان منشأ الملكية هو الحرب، وهذا راى من الصعب علينا انكاره كليا . ففى الواقع نلاحظ ان الملكية الفردية، لكى تحمى نفسها ولكى تنمو ، تحرض على المزاحمة الاقتصادية ، اى على « النزاع الحر » بين المصالح ، فيزيح القوى الضعيف . فاذا ما ظهرت المزاحمة المفرطة ك « حرية » فذلك لا يقع الا بقدر ما نستطيع ان نتعامى عن الصراعات الصامتة الخداعة : الحرب الاقتصادية . ايمكن ان نعيش فى سلم والحال أننا

منضوون فى اشتباكات جهنمية ، حيث تسودمعايير المنفعة وحدها كهدف موجه لسلوك الانسانية ؟

نعم حرب المصالح حرب مقنعة لا تعرف هوادة، وتمر بعدة مراحل : من الصراع البارد الخداع ، الى الصراع الحار حيث لا يتورع عن اى اجرام ، ولربما اثار ذلك حروبا عالمية.حقا ، غالبا ما تقع اصطدامات ،حتى بين الاقارب فى الاسرة الواحدة من جراء المزاحمة الاقتصادية ، وهذه الصراعات ، فى بعض المستويات ، تتحول الى صراعات قوية .

كل ذلك شىء حقيقى اليوم ، كما كان حقيقيا فى الماضى . فـ « الياذة » (هوميروس) تمثل فصلا من المشكلة الدائمة ، مشكلة المضايق والطرق الرئيسية للمبادلات الاقتصادية (١٠) . انهـــا انعكاسات للصراعات الداخلية ، فى القرن السابع قبل الميلاد ، بين المدن الاغريقية التى كانت تتزاحم من اجل احتلال القواعد العسكرية ، والاسواق الاقتصادية ، فى آسيا الصغرى ، والسيطرة على ممرات (البسفور) . تظهر (الالياذة) العواصم الافريقية الصغيرة وقد اصبحت امبريالية ، تحت تاثير المزاحمة الاقتصادية ، حتى اضطـــرت لان تندفع فى سياسة توسعية فى « ما وراء البحار » : فالاله (زيوس) قد قرر حرب (طراودة) للتخفيف عن الارض مما يثقلها من السكان . من الممكن أن نقول نفس الشىء عن (الاوديسا) : انهاتاريخ حملة للسيطرة على التصدير . هذا ما يفسر غزو الطرق البحرية والممرات والموانىء التى تصل الى المناجم ، فى (ايطاليا) من جهة ، ومن جهة ثانية فى (القوقاز) حيث توجد المعـــادن الضرورية لصناعة الاسلحة . لقد اعتمد (هوميروس) على هذا الاساس الواقعى المتصل مباشرة بالحيـــاة الإقتصادية عند الاغريق ، ليطلق خياله ينمـــق نصوصا شعرية واسطورية .

من الجائز أن نتفق ، مع « برغسون » ، على أن الملكية الخاصة قد تؤدى الى الحرب ، على شرط أن نميز بين الملكية الخاصة التى تزكيهـــا اخلاق المنافسة السليمة والتضامن ، وبين الملكية التى لا تعترف الا بقانون المزاحمة . ان التملك لا ينمى الكائن البشرى ويغنيه الا بقدر ما يدخل عليه من ثروات مشخصة تجعل منا كائنات متآخية فى نطاق الحريـــة (١١) .

لنا تحفظ آخر على راى برجســـون : مـــن الصعوبة بمكان أن نضع الملكية الفردية والملكية الجماعية على صعيد واحد ، كما فى (المنبعان) . ان الحروب « الحتمية » و « الطبيعية » التـــى يتحدث عنها برغسون توجد فى الواقع ، ولكن لا تفهم الا فى ترابط مع مصالح متعارضة ، داخـــل بيئة تسود فيها الانانية ، فتتفكك الاخلاق . فكما قال (سان سيمون) : « لم يعد الانسان ينفعـــل وجدانيا اذا خوطب قلبه ، بل ينفعل كلما راى أن ثروته فى خطر » (١٢) . وعلى العكس من ذلك ، بانقراض حرب المصالح المتعارضة يصير كـــل الناس شركاء ، ولن تعود مزاحمة ولا معاداة . اظن أن « الزكاة » ، فى الاسلام ، قـــد شـــرعت لهذه الغاية : تاكيدا وتاييدا للمشاركة والمنافسة لا للمزاحمة . نجد فى (المنبعان) نقطة اخـــرى تستوجب المناقشـــة .

عندما اثبت (برغسون) انـــه مقـــدر عـــلى الانسانية ، بمقتضى طبيعتها ، أن تمتلك ، استنتج أن « الحرب امر طبيعى » ما دام التملك منبعا للحروب . لا نرى على اى مبدأ يعتمد ليقرر وجود هذه الحتمية القدرية التى تسير عليها الطبيعـــة الإنسانية . فعلى العكس ، ان ارضاء حاجياتنا هو الذى يمكنه ان يتصف بالاولية والضرورة ، كما اشرنا الى ذلك سابقا . فليس من قبيـــل المستحيل أن تكون لنا انماط خارجية ، فى آن واحد

عن نظام الاقتصاد الموجه وعن نظام الاقتصاد الحر ، يتوافر فيها ارضاء حاجاتنا ، وتصان فيها كرامة الانسان . من الممكن أن يقوم نظام ثالث لا يرفض الملكية الخاصة ، ومع ذلك يتجاوز مبدأ المزاحمة أو يرفضه . هذا النظام لن يقضى على كل المبادرات الفردية ، ولن يمنع من التوفير لصالح اقتصاديات الاسرة ، بل يفتح المجال لاجهزة اقتصادية تعيد الى المجتمع الثروات التى تستغلها الاقلية على حساب جهود الاغلبية ، ولن يتحقق ذلك الا فى نظام لا يحصر مطامح الفلسفة الاقتصادية فى مجرد احصائيات ، كما يفعل بعضهم اليوم .
ان الاحصائيات ضرورية ، ولكنها غير كافية ، حتى من جانب المنهج . انهم يحملون الاحصائيات اكثر من الواقع ويقولونها اكثر مما تعنى : يدخلون عليها تعديلات ، ويعرضون عن العناصر غير المواتية لتأملاتهم فى المعطيات التى لا تقبل التعداد، نظرا لاهتمامهم المفرط بالتنسيق الاختيارى والاختيار المنسق . علم الاقتصاد الحقيقى يجب الا يسرف فى الخضوع للاتجاه العلمى الذى يرد كل شىء الى الرياضيات والظاهرات الطبيعية ، حيث تستعمل الارقام للتظاهر بالموضوعية ، فتمسى وكأنها انعكاس باهت لخطاطات باردة ، جامدة لواقع جاف . فى هذه الحالة ينحصر دور الاقتصاد فى تجميع الارقام وكأنه مجرد آلة حاسبة. يستنجد دائما علم الاقتصاد التقليدى بالبراهين المجردة وبالاستنتاجات ، فلا تبنى الحقائق الاقتصادية الا نظريا وعلى فرضيات تتعلق بطبيعة بشرية مقتبسة من سيكولوجيا الاستبطان . اما بعض الاقتصاديين المعاصرين ، باعتمادهم على الاحصائيات فحسب ، فانهم يقيمون ، الى جانب الاقتصاد التقليدى ، اقتصادا يعتمد على الرياضيات ، يعنى أنهم فى حالة ما اذا تجاوزوا ، فى ميدانهم ، مرحلة التقدير بالكلمات انتقلوا الى التقرير بالارقام . ان ذلك تغيير فى التصميم أو الشكل ، وليس تغييرا فى البنية والتوتر ، اذ الحدس والاعتبارات الرومنطيقية والاستبطان تركيبات فرضية لا تقل فى ذلك عن الاستنتاجات الرياضية ــ المنطقية . فلكى يؤدى علم الاقتصاد السياسى المهمة الملقاة عليه ، يجب أن يعيد النظر فى اهدافه ومنهاجه ، وان يبذل جهده ايضا ليصبح فلسفة علمية ، ويتشرب ، حتى أعماقه ، بنزعة انسانية منفتحة واقعية .

هكذا اذا ما تأنسن علم الاقتصاد لن يعود تبريرا للوضع الراهن ، أو لفكرولوجيا نظام قيم خاصة بفترة من التاريخ ، ولكنه سيصبح علما حقيقيا . ولكى يكون علما موضوعيا همه أن يعكس ، بأمانة، الواقع فى كل تغيراته وفى نسبيته، عليه أن يخضع لصالح مجموع الانسانية .

٢ ــ المزاحمة هى منبع الشر

بدا لنا أن تفكير (برغسون) مستوحى من نظرية (مالتوس) ، وان كان تفكيرا يمتاز بدقة اكثر ، بالرغم عن كون أدلته ضعيفة بالنسبة للادلة المالتوسية . يكتفى (برغسون) بأن يلاحظ أن عدد سكان العالم قد تضخم تضخما مفرطا ، وأن الحروب ، فى العصر الحاضر ، مرتبطة بالطابع الصناعى الذى تتسم به حضارتنا (١٣) .

ثم يتساءل بشىء من التشاؤم : « ما اذا نفعل؟ أننساق مع الخوف ، أم نتعلق بالآمال ؟ فلطالما سمعنا ان التصنيع والآلية قد تحققان سعادة الجنس البشرى . اما الآن ، فمن الممكن أن ننسب اليهما كل ما نعانيه من شرور » (١٤) .

مثل هذا الاتهام الذى يوجهه (برجسون) للجهود الصناعية ، وبالتالى الى قدرة العم المساندة

لها ، يلقى بنا فى حيرة مقلقة . اليس النمو الالى هو الذى يجعلنا نسيطر ، اكثر فاكثر ، عـلى الطبيعة ؟ انه اتهام من شانه ان يشككنا فى قيمة تقدم العلم الذى نعلق عليه كل الآمال فى التحرر الفعلى . فالجهد الصناعى لامحالة وسيلة مـن انجع الوسائل للتخلص من نير الطبيعة والضرورة، كلما احسن استعماله : الآلة تقوم مقامنـا فى الاشغال التى تتطلب جهدا كبيرا ، وتنمى قدرتنا الانتاجية ، وتسهل المواصلات والالتقاء بين مختلف انحاء العالم ، كما تساعد على توزيـع عـادل للثروات . وبمجرد ما تصبح الاجهزة الآلية رهن تصرف الجميع ، يمكنها ان تساعدنا على التحرر وتجعل من الاخلاق المتفتحة واقعا حيا . ينبغى الا ينحصر دور المشتغل بالاخلاق فى صب اللعنات على التقدم التقنى الذى يعتبر اساسا للتقدم فى الميادين الاخرى . على الاخلاقيين ان يقومـوا باستنكار الوسائل المستعملة لاستثمار خيرات هذا التقدم . فعوضا من ان نبدى تخوفات مـن الحرب ومن الاعتقاد بانها شىء مقدر حتمـا ، وعوضا من ان نعيش فى جزع دائم ، معتقدين ان الحرب غريزة عميقة فى الحضارة الحالية ، يجب علينا ان نبحث عن الوسائل التى تمكننا من اجتثاث هـذا الشر .

حقا ان المزاحمة الاقتصادية جذر من الجـذور المضرة التى اشرنا اليها من قبل : تدفع المزاحمة الى العدوان ، لان كل واحد منا يشعرو كانه ملقى به فى هذا العالم ، دون اعانة خارجة عن قـواه الذاتية ، ومحتم عليه ، لكى يضمن نصيبه مـن هذه الحياة ، ان يكافح ضد الآخرين . لكن ، الا يتحتم علينا ، اخلاقيا ومنطقيا ، ان نصارع مع الآخرين فى سبيل تراث واحد ، ولتحقيق مصير مشترك ؟

يقول (جوليان هكسلى) : « من الاهمية بمكان ان نتذكر ان تاريخ الانسانية هو، فى جزء كبير منه ، تاريخ الصراع بين الوحدات الجماعية . وعندما استطاعت اقلية من تلك المعاشر ان تنفلت من التسابق نحو المزاحمة ، وعندما تخصـص طاقتها وثرواتها فى تنظيم المعشر وتحسين حيـاة افراده ، عندئذ ، كما هى الحالة فى (الدانمارك) انصبت الطاقات والثروات فى مجـرى التقـدم الحقيقى » (١٥) .

اذا كانت الحرب ، كما اوضحنا ، تتولد عن المزاحمة ، اليس من المستحسن أن نقيم ، بدلا من ذلك النظام نظـاما يمتاز بتضـامـن جماعى ، حيث تنعدم اسباب الصراعات والحروب بانعدام المزاحمة ؟

جواب الشخصانية ، طبعا ، ايجابى دون أى تردد . فـ (امانويل مونييه) كرس حياته ، كمكافح شخصانى ، على حل هذا المشكل . لقد التزم بكامل العزم على : « أن يحرر الفكرة الحديثـة للملكية من النفاق وسوء التفاهم اللذين اضفتهما الليبرالية والراسمالية ، محاولا أن يبرز المفهوم المسيحى للملكية الانسانية » (١٦) . وبالاضافة الى توازن القوى والمصالح الذى يسعى اليـه رجال الاقتصاد ، تبذل الشخصانية جهدهـا ، بالدرجة الاولى ، لايجاد حـل للمشاكـل التـى تطرحها ، حاليا امام الوعى الانسانى ، العلاقات الناجمة عن ذلك القوى والمصالح . ومن جهـة اخرى تحاول الشخصانية ان تقضى على مخلفات نظام المزاحمة الاقتصادية ، من اضطراب معنوى وعدم اتزان نفسانى . يخيل الينا ، خلافا لما رآه معظم رجال الاقتصاد ان جانب المأساة، فى مشكل الملكية اخلاقى ، بقدر ما هو اقتصادى، بل قديكون

جانب الاخلاق فيه اكثر . لقد وجدت نظريـــات تشريعية واقتصادية للملكية ، ومازالت هـــذه النظريات تتزايد وتتضخم ، الا ان الذى نفتقر اليه هوعلمجديد يعتمدعلى مبادىء لاخلاقية جديدة .

تهتم بعض الديانات ، كما يهتم بعض الاخلاقيين، بمشكل الملكية ، ولكنهم ، عندما يحاولـــون ان يتجاوزوا الميدان القانونى ، يقتربون من الزهد والصوفية ، بدلا من ان يلتصقوا بالجانب الواقعى للمشكل . وهكذا يلتقون ، عن طريق عكسى ، بمواقف رجال الاقتصاد المتطرفين ، فيما يتعلـــق بالنتيجة المتوخاة .

ان الاضطراب لا ينجم عن العندية ، عن الملكية بوصفها تملكا ، اى مجرد حيازة او تمتع بشىء ما ، بل ينجم عن المزاحمة التى تشمل مختلف اشكال التملك . فالكائن البشرى ، عندما يكتسب شيئا ، يتسع افقه ، وتمتد شخصيته فى عالـــم الاشياء ، على مدى العندية . هنا يلزم ان تتدخل فكرة عزيزة على المفكرين اليونان ، وهـــى : « الحد الاوسط » او « الاعتدال » (١٧) . يجب ان نعرف كيف نتملـــك الشىء دون ان نتركـــه يستعبدنا ، وان ندمجه فى افقنا بحيث يبقى بعيدا عن الجوانب الذاتية العميقـــة منـــا . فالشىء المتملك ، كثيرا ما يعمل على تحطيم الحركـــة المشخصنة فى سيرها وعلى تقليص الشخص الى مجرد انسان ــ اقتصادى Homo œ conmicus لا تحركه سوى مصالحه المباشرة

فالشىء المتملك يحاول تجزئة الشخص ، من جهة الى عالم الاشياء المتملكة او القابلة للتملك ، ومن جهة اخرى الى عالم النشاطات الفكريـــة والانسانية بوجه عام ، مع تغليب كفـــة عالـــم المتلكات . فكل شىء يظهر كعالم منغلق عـــلى ان الالغاز لا توجد فى الاشياء الا لان كائنا بشريا

ما قد جعلها هناك . فالسياق المعكوس للتقييم الذى يجعل الاشياء فوق الشغل ، ويخضع الانسان لمصنوعاته ، سيتوقف عندما تنتقـــل المبـــادلات الاقتصادية من وضع المزاحمة العمياء والصراع الدائم الى نظام تعاونى بين الافراد وبين البيئات . اذ ذاك سينتهى تاليه الاشياء المصنوعة ، ونعود الى تقييم وتقديس الفكر الانسانى الذى يصنع تلك الاشياء . وحينئذ ، عوضا من ان يتخلى الشغل عن الفعاليات المشخصنة ، يصير وظيفة ومنبعـــا لسرور ، فيخرجنا من الشعور المشيىء التعس ، ويرفعنا الى مستوى الشعور المنسجم مع ذاتـــه ومع العالـــم .

هكذا ستبقى الاشياء ، سواء منها ما كـــان ممتلكا او غير ممتلك ، ضمن مجموع الخبـــرات المشتركة المسخرة (والتى لم تسخر بعد) لارضاء حاجيات الكائنات البشرية .

من الحاجيات الاكثر اهمية ، تلك التى تتجلى عن رغبتنا الملحة فى التملك . فالشىء الخاص الذى هو ملك « لى » يتخذ قيمة بقدر ما يمكن «نى» من قدرة بفضلها اصبح مالكا للاشياء ، ومتحدا ، مع الآخرين ، ضد الاشياء ، للاستيلاء على اشياء اخرى . هذه السيطرة تؤنسن الطبيعة ، وبذلك تحررنى .

هناك حاجة اخرى ملحة ، قد توسع فى تحليلها (هيجل) ، وهى انيعترف لىمنطرف الغير . (١٨) فبالنسبة لى ، ان الملكية تكتسب قيمتها بوصفها ملكا لى ، وكون الآخرين يعترفون بذلـــك دون مشاركة منهم فى تملكى .

الواقع ان الاعتراف بى من لدن الآخرين يثبت ، فى نفس الوقت ، مساواتى بهم جميعا ، وهذا بالطبع مخالف ، كل المخالفة ، لاتصالى وانفصالى

منهم . ان هذه المساواة بين الاشخاص المعترف بها مـــن الجميـــع للجميع لن توجـــد فى بيئـــة لا تبقى فيها الحرية ضئيلة وموقوفة على اقليات محظوظـــة .

ان (برجسون) اكتشف الشر ، الا انه لـــم يكشف النقاب عنه الاجزئيا . قد اتضح له جيدا أن العندية المعاصرة مهددة بالحروب الا انه جعل الملكية هى العلة الاولى للحرب . فلماذا يعتبـــر الملكية سببا للحرب ؟ فى هذا السؤال عقـــدة المشكـــــل .

يجيب (برجسون) باننا ، وان لم نكن مهددين بالموت جوعا نميل الى اعتبار الحياة عديمـــة الفائدة « اذا خلت من الرفاهية والتسلية والترف ونعتبر الصناعة الوطنية مقصرة اذا كفلت لنـــا اسباب الحياة فقط ، دون وسائل الغنى . كل أمة لا تتوفر على موانىء ضخمة ، ومستعمرات تشعر بنقصان فى قيمتها ... (١٩) » .

كل هذا صحيح ولكنه لا يفسر لماذا «الموانىء» ولماذا « المستعمرات » . فديجيب (برجسن) ان السبب هو حب الترف والكماليات الذى ينمو باستمرار ، فى مجتمعاتنا الصناعية (٢٠)

ذكرنا من قبل أن العصور القديمة عـــرفت هى أيضا، الحرب من أجل الموانىء والمستعمرات مما يثبت أن الحرب ليست شيئا يتميز بـــــه المجتمع الصناعى . فمسؤولية تلك الظاهـــرة تقع بالاحرى على نظام المزاحمة . عندما تمتلىء السوق الداخلية مشبعة ببضاعة ما ، يجبتصدير الفائض . فالسيطرة على الموانىء تساعد علـــى التعامل التجارى وتضعف من قوة المزاحمين . اما المستعمرات فتزود المستعمرين بالمـــــواد الاولية ، والايدى العاملة بثمن بخس . هـــكذا يصبح سعر التكلفة منخفضا بالنسبة لجميـــع المنتوجات ، فتؤدى المزاحمة ثمارها على حساب اولئك الذين لا يتملكون موانىء ولا يستغلـــون مستعمرات . صرح (جول فيرى Jules Ferry فى خطاب القاه ، فى ٢٨ يوليو عام ١٨٨٥ بمجلس النواب ، أن السياســـة الاستعمارية تقـــوم على ثلاثة اسس اقتصـــادى ، وسيـــاســـى ، وانسانى . « من الناحية الاقتصادية ، لمـــاذا المستعمرات ؟ لان التغلب على الازمة التى تمر بهاالصناعة الاوروبية يتطلب تاسيس مستعمرات لتصبح سوقا للتصديـــر (٢١) » .

اجملوا ، حدا للمزاحمة ، على الصعيد القبلى اولا ، فالوطنى ثانيا ، ثـــم على الصعيد العالمى اخيرا ، تتوقف الاداة التى تبـــذر الصراعـــات والحروب ! هنا ، على مايبدو ، يوجد ميدان خصب لرجل الاخلاق ، اذا ما أراد أن يركـــز اخلاقيـــة التملك على عمل ينسجم مع أوضـــاع المجتمـــع المعاصر .

غالبا ما تعتبر المزاحمة من الانظمة التى تمتاز، اكثر من غيرها، بالحرية . أليست شعراتهاهى : « الاقتصاد الحر » ، و « التبـــادل الحـــر » ، و « المشاريع الحرة » ، .. ؟ لكل واحد « الحق » فى أن يستعمل كيف يشاء ، ما يملكه ، وأن يتصرف فيه الى أبعد حد . فحسب التعريف الذى كـــان الرومانيون يعطونه للتملك : للمالك الحق فى أن يستعمل ، أو ان يبذر ، أو أن يدمر ما يملكه من اشياء وكائنات ، دون أية معارضة اطلاقا .

قد يبدو ، لاول وهلة ، أن هناك حرية ما دام القانون يجيز للمنلك حق تبذير ثرواته .

لكن ، قبل أن يقوم المرء باستعمال أو تبذيـــر الثروات ، يجب أن تكون له ثروات ، وفى هذا اول تحديد بالنسبة للاغلبية الساحقة من الناس . فنظام المزاحمة سيبقى غير انسانى مادام لا يسمح

لجميع بتحقيق الحد الادنى اللازم مـــن الملكيـــة الخاصة . يقول (برجسون) : اننا نلاحظ ، تمام الملاحظة « أن (الميكانيكا) وجهت عقاربها المحركة توجيها غير سوى ، فاندفعت فى طريق لا يوصل ، اخيرا الا الى رغد العيش المبالغ فيه ، والى الترف لفائدة أقلية من الناس ، عوضا عـــن تحريـــر الجميع (٣٢) . »

ان المحرومين من الملكية مدفوعون ، دائما ، الى الصراع للتغلب على العوائق التى يصادفونها فى كل مكان ، والتى ليست الا حواجـــز يقيمهـــا الملاكون ، اكثر فاكثر ، لحماية ممتلكاتهم ، وللقضاء على كل مضايقة ممكنة . فان كانت المزاحمـــة تبدو حرية بالنسبة للبعض ، فهى فى الواقع تعوق تحرر الاغلبية . وعوضا عن ان يكـــون العمـــل امتدادا للعامل ، نرى أن العامل غريب عما يعمله، وأن نتائج العمل تخص فردا آخر ، ذاك الذى يملك وسائل الانتاج .

ربما كان (هيجل) هو من اعطى احسن وصف لهذا « الشعور الممزق » ولتمرد الشخص الذى يجـــد نفسه خاضعا لسيطرة الاشياء والمال .

لقد بذل الماركسيون جهودا كبـــيرة فى هـــذا السبيل ، بفكر اكثر موضوعية وواقعية مـــن (هيجل) . غير انه ، اذا كان الاتجاه الاقتصادى الكلاسيكى قد وقع فى هاوية من « الوثوقيـــة » الضيقة العقيمة ، واذا كان الاقتصاد السياسى الحديث يعانى ، منذ مدة أزمة خطيرة ، فان وجهات نظر الماركسيين قد تجمدت ، هى ايضا ، ، بالرغم عن انطلاقاتها . من بين ما حققته الماركسية ، كما يلاحظ (مارشـــال) : (٢٣) « انهـــا حثت خصومها على البحث ، واحيت التاريخ ، ووضعت اسسا لتفسير دينامى عام » . ولكنها قد آلت اليوم الى تجميد للفكر الانسانى . يمكننا ان نقول ان الماركسيين ، فيما يخص نظريتهم فى الاقتصـــاد السياسى ، لم ينسوا ، منذ قرن ، شيئا مـــن اتجاهات متقدميهم ، ولم يضيفوا اليهـــا شيئـــا جديدا . هذا ما يميز ازمة الاقتصاد : التحجـــر والتجمد . فمن طبيعة اى علم (والاقتصاد لا يستثنى من هذه القاعدة) أن يعيد النظر دائما فى مكوناته ، وأن يراجع مناهجه ويناقش نتائجه .

ان المفكرين (الذين تعثروا فى هذه النقطة من التفكير السياسى) قد وجدوا فى نظام المزاحمـــة الاقتصادية ازدهارا للحرية الشخصية ، باعتباره معارضا للاقتصاد الموجه الخاضع للدولة . ويحلو لهم ، كذلك ، ان يقابلوا بين نظـــام المزاحمـــة والنظام الاشتراكى الذى يتميز ، فى نظرهـــم ، بالغاء الملكية . الواقع أن النظام الاشتراكى ، منذ جمهورية (افلاطون) حتى حملات (برودون) على الملكية ومن (برودون) الى اليوم ، قد تطور تطورا كبيرا ، فليس هنـــاك « اشتراكيـــة » ، بـــل « اشتراكيات » (٢٤) .

الاشياء القابلة للامتلاك على نوعين : من جهة، وسائل الانتاج (المصانع والآلات) ، والثروات الطبيعية (كالفحم والبترول والمعادن ومساقـــط الماء ..) ، ومن جهة اخرى ، مواد الاستهلاك (تغذية ، ملابس ، مساكن ، ...) ان المزاحمة تشمل جميع هذه الاشياء : نتصارع لامتلاك اكبر متسع من الاراضى الزراعية واكبر عدد من الدور، ونصارع لنجعل مبالغ دخلها اكثر ما يمكن . وكما انه لا تحديد للملكية ، مطلقا ، فالمزاحمة لا تقف عند اى حد ، مطلقا . فبمستطاع فرد واحد ، أو جماعة ، ان يملكوا المعمل ، ووسائل نقل البضائع ومناجم الفحم الحجرى ، والمواد الغذائيـــة ، والملابس . فالاشتراكيـــة مـــن (آدم سميث) و (برودون) ، وعلى الخصوص منذ (ماركس)

و (انجلز) تنزع الى اعادة تقييم الشغل وتحديد الملكية الخاصة ، فى مواد الاستهلاك (٢٥) أمـا وسائل الانتاج فتبقى ملكا للدولة .

يرى الاشتراكيون انه ، بهذه الطريقة ، يمكنهم أن يجدوا حلا لما سماه (هيجل) بمشكلة « الشعور البائس » لدى العامل المنفصل عما يصنعه . ان العمل يستعبد العامل ، فى حين انه من اللازم ان يجد العامل نفسه فى عمله ، فتعكس الآثـار صانعها ، وتحرره . لكن ، يؤكد (ماركـس) و (انجلز) بانه لا داعى لازالة الملكية الشخصية التى هى ثمرة قيمة الشخص وعمله ، « لان التقدم الصناعى سيقضى عليها ، أو هو فى طريق القضاء عليها » (٢٦) .

من البديهى ان الملكية الفردية (فى شكلهـا العتيق) سائرة نحو الضعف ، ولربمـا نحـو الاضمحلال . بيد ان هذا الوضع ، خلافا لما قاله (ماركس) و (انجلز) ، لا ينجم عن « التقدم الصناعى » ، بل عن نظام المزاحمة . حقا ، ان الصناعة الكبرى الثقيلة اعطت حدة لشوكـة المزاحمة ، وجعلتها اكثر ضغطا واكثر تنظيما . لقد فتح التقدم الصناعى آفاقا ، جد شاسعة ، أمام المزاحمة بتوجيهها اكثر فاكثر عمقا .

ومن جهة اخرى ، تحاول الماركسية أن تبرز « البنية التحتية » (infrastructure) ولكنها ، على ما يظهر ، قد انخدعت بمظهر يتصـل بـ البنيات الفوقية » (superstructure) لان المزاحمة هى ، فى نفس الوقت ، الجهاز المتحرك ومنبـع الاختلال الذى يعوق الحركة المحررة للانسان . ففى هذا النظام بالضبط ، يكون العمال غرباء عن اعمالهم لانهم « مرغمون على أن يبيعوا انفسهم كل يوم : انهم بضاعة ، مادة تجارية كغيرها من الاشياء المعروضة للبيع أو الاستئجار ، فهم ، تبعا لذلك ، يعانون كل تقلبات المزاحمة وكـل تحولات السوق (٢٧) » .

المزاحمة قديمة ، ولكنها لم تبلغ أبدا مثل هذا الانتشار الذى بلغته اليوم ، ولم تصبح قوة مخلة بالحياة العامة الا منذ ظهور التصنيع الكبير . بدأ (آدم سميث) فى أواسط القرن الثامن عشر ، بدراسة العلاقة بين الثروة والعمل . فمن الواضح أن الارض لا تعطى الا لمن يحرثها ، وان الصناعة والتجارة ترجع كلها ، فى الواقع ، الـى نفـس المصدر : الشغل . ان الثروة ، هـى الانتاج .

وقد استوحى من نظرية (سميث) كل مـن (هيجل) و (برودون) . اذا كان الشغل هو مصدر الثروة ، الا يجب عليه أن يضمن للعامـل حريته الاقتصادية ؟

يجيب (برودون) : بشرط ان يجد العامل فى انتاجه معاشه الحاضر ، ويضمن له هذا المعاش ، فى المستقبل مع الاستقلال وامن للغد . ما دامت تلك المتطلبات الثلاثة لم تتحقق ، فان العامل لن يتحرر بعمله (٢٨) . لقد وفق ابن خلدون حينما عرف ، فى (المقدمة) ، العمل بأنه أولا معاش ، يعنى جهودا بواسطتها يحصل المرء على قوته ، وبعد ، فعندما يضمن القوت ، تصير وظيفـة الشغل عاملا مجتمعيا ، اى وسيلة لازدهـار الاقتصاد الوطنى . فتحديد ابن خلدون لمعنـى الشغل ، على هذا الشكل ، يمكننا من ان نعتبر أن العمل يحرر العمال ، ويسمح لهم ، فى مرحلة ثانية ، من تحرير المجتمع .

يؤدى رب العمل اجرا محدودا للمستخدمين ، مقابل عمل يؤدونه ، ثم يبيع ذلك العمل بثمن يفوق ثمن التكلفة . هكذا يحرم العمال من حقوقهـم فى الاستفادة من الارباح التى يحصل عليها رب العمل بفضل جهودهم . وهناك ، بالاضافة الى هذا الربح ، ربح آخر لا يقل اهمية عن الاول : فائض ــ العمل الذى يتولد عنه فائض ــ القيمة ، وهو فائض لا ينتفع به سوى رب العمل . لاحظ (برودون) ، عندما حلل مشكلـة فائـض ــ

القيمة (٢٩) : « ان قوة الف انسان يعملون ، لمدة عشرين يوما ، تعوض بما يعادل اجرة عامل واحد اشتغل خمس سنوات . فهل هذا الوضع عادل ؟ نجيب مرة اخرى بلا . عندما تدفع اجرة ، فى مقابل الجهود الفردية ، فانك لا تدفع مقابل القوة الجماعية ... » (٣٠) .

ولكى يحصل كل عامل على اجره كاملا ، لقاء عمله ، يجب أن تكون وسائل الانتاج ملكا مشتركا للمجتمع ، بذلك يتسنى استخدام فائض ــ القيمة لصالح المجموع (وبطرق غير مباشرة ، لصالح كل عامل) . بهذا لن تنتصب وسائل الانتاج حاجزا فى طريق المنتجين ولن يحصل استلاب .

(١) ص ٣٠ .
(٢) المنبعان ص ٣٠٥ .
(٣) نشر راديو باريس هذه المحاضرة فى مجموعة تحت‌عنوان :
Entretiens Philosophiques, Paris, Imprimerie Mont-Cenis
(٤) انظر محاضر اكاديمية العلوم الاخلاقية والمجتمعيةالفرنسية ج ٧١ ص ١٢٢ .
(٥) (انظر المنبعان) ص ٣٠٩ .
(٦) المنبعان ص ٢٩٢ .
(٧) فحتى أيامنا هذه مازال اكثر من مليارين ونصف من‌البشر يعيشون على تغذية اقل ما تستلزمه الحياة ، بينما تؤكد التقارير الرسمية أن بعض الدول تعانى اختلالا فى نظامها لاقتصادى والسياسى من جراء تفخم الانتاج الفلاحى ، انظر دراستنا : L'ère de la détraumatisation (le cénacle libanais, Beyrouth 1965).
(٨) ان حكم (تيبودى) على (برغسون) بالرغم من انهى عام ١٩٢٢ ينطبق على كتاب (المنبعان) الذى صدر فى عام ١٩٣٢ . (Thibaudet, le bergsonisme, p. 27)
(٩) انظر (ارسطو) ، السياسة ، الكتاب الاول الفصل الثانى .
١٠. Emile Mireau, les poèmes homériques et l'histoire grecque, (Paris, Albin Michel ..
(١١) انظر كتابنا دراسات فى الشخصانية الواقعية ،الجزء ٢ الفصل ٣ .
(١٢) المصدر السابق .
(١٣) المنبعان ص ٣٠٧ .
(١٤) نفس المصدر ٣١٠ .
١٥ Julien Huxeley, Essai d'un biologiste, p. 66 (tra. J Costiers, Stok, Paris, 1946)
١٦ Corval, le personalisme de Mounier, l'homme nouveau (n° 31, Paris, 1936).
(١٧) يعطى العالم الفيتاغورى (ارختياس) للسياسةهذا التعريف الذى يبدو انه يميز هذا الحد الاوسط فى جميع الميادين « ان السياسية هى مراعاة النسب فى حل المشاكل ».
١٨ La phénominologie de l'Esprit, T 1, p. 351.
٢٣ André Marchal, Un demi siècle de pensée économique, R. Philosophique, nos 10-12, Paris 1954, p. 544.

(٩) المنبعان ص ٣٠٨ .
(٢٠) ان روح الاختراع قد فكرت كثيرا من الكماليات
(٢١) الجريدة الرسمية الفرنسية ص ١٠٢٦ .
(٢٢) المنبعان ص ٣٢٩ .
(٢٤) كثير هم الذين يؤيدون تلك المعارضة المغلطة ، نجدهامثلا ، نقطة تركيز فى كتاب « الشيوعية والمسيحية » للاب (دوكاتيون) Paris, Plon, Ducatillon فغالبا ما يبدءون بتقليص‌الاشتراكيات وردها لصنف واحد ، الشيوعية .
(٢٥) يجب التاكد بان المقصود هو «التحديد» لا «الحدف» .
(٢٦) (ماركس) و (انجلز) بيان الحزب الشيوعى ، ص٢٢ طبعة باريز ١٩٥٥ .
(٢٧) نفس المصدر ص ١٦ .
٢٨ Proud'hon, qu'est-ce la propriété ?
(٢٩) نفس المصدر .
(٣٠) ان ما يعادل ٣٦٥×٥=١٨٢٥ يوما . اما الفرق ،وهو ١٨١٧٥ يوما،يتقاضاه رب العمل دون مشاركة العمال فى هذا الربح .

القروض والنقود في مَدينة الجزائر
أثناء العهد التركي

عبدالقادر علي حليمي

استاذ بكلية الاداب
ـ جامعة الجزائر ـ

ان النظام القرضى والجهاز النقدى للمجتمع يتوقف على ما لهذا المجتمع من ثروات اقتصادية ونشاط تجارى . فاذا استغلت الثروة الاقتصادية استغلالا منظما زاد الانتاج الذى يدفع الى التبادل التجارى ، فتكثر المعاملات ، ويطمئن التجار وتزداد ثقة الدائن فى المدين ، وبالتالى تكثر المعاملات القرضية . والمتتبع لثروات بلاد الجزائر فى العهد التركى يجدها كثيرة الا انها كانت مستغلة استغلالا فوضويا ، او مهملة فى اكثر الاحيان مما ادى الى ضعف الانتاج ثم ضعف التجارة سواء منها الداخلية او الخارجية .

فجل السكان كانت حرفتهم الرئيسية الزراعة التى يغلب عليها الطابع المعاشى ، او تربية الماشية المتروكة ليد الطبيعة ، وجل السكان كانوا يسكنون الريف ومبعثرين هنا وهناك تحت الخيام أو الاكواخ والديار البسيطة ، اما سكان المدن فعددهم قليل للغاية ، واهم وظائف المدن فى هذه الفترة هى الوظيفة التجارية ، وكذلك القرى الريفية التى كان يتجمع فيها السكان فى يوم موعود من الاسبوع لتبادل المنتوجات المحلية : الزراعية والحيوانية بالخصوص ، وهى قرى أو مراكز عمرانية كانت تتلاءم وحرفة عدم الاستقرار اذ الجماعة التى كانت تقوم بالتجارة وتتجمع فى هذه الاسواق هم من الرعاة المتنقلين بين الشمال والجنوب ، أو بين المدن والضواحى ، او بين التل والصحراء ، وقد حاول النظام التركى ان يشل هذه الحركة بفرض ضرائب معينة تعرف بالحصة على الرعاة ان تنقلوا من اقليم الى آخر . ولقد كان لاختلاف الحرف بين الرعاة والزراع ضرورة التبادل وكان الراعى يفضل فى معاملته مع المزارع المقايضة اى استبدال سلعة بسلعة يدا بيد ، مثل استبدال الصوف بالقمح ، وقليلا ما كانت تدخل النقود فى المبادلات التجارية ، ولم تكن هناك بنوك للقرض ولا صناديق للادخار . وكانت مدينة الجزائر من اهم المراكز التجارية الا انها اقل حيوية ونشاطا تجاريا من مدينة قسنطينة مثلا ، أو تلمسان ، أو المدية ، أو عنابة ، أو وهران ، ذلك ان التجارة الداخية كانت تتهرب قدر الامكان من المكوس وكذلك التجارة الخارجية كانت تقصد بالخصوص المراكز التجارية التى لا تشتد فيها المراقبة الادارية والضرائب الجمركية .

ولقد ظلت مدينة الجزائر مدة طويلة من الحكم التركى تعتمد فى تجارتها على ما يرد اليها من القرصنة ، ولهذا ضعفت تجارتها فى أواخر العهد التركى عندما ضعفت القرصنة ، وقل عددالاسطول الى حوالى ٣١ قطعة سنة ١٨٣٠ منها ١١ قطعة كبيرة و ٢٠ مركبا صغيرا حسب ما احصتها الحملة الفرنسية وتذكر نفس الحملة ان الاسطول الجزائرى المشلول منذ اربع سنوات قد اصاب بعض وحداته عطب يصعب استصلاحه ولذلك سمح للجنود باستعمال اخشاب بارجة ومركبة صغيرة للوقود والتدفئة . وان الصناعة بمدينة الجزائر ضعيفة للغاية اذ تقتصر على نسج الكتان والصوف والحرير ، والصباغة والدباغة بالكروش والتطريز ، وصناعة الزرابى وحصر السمار ، وصناعة الجلود كالاحذية ، والقلائد ، والحزم والنقش عليها وصناعة الاقفال والاسرة من الحديد ، واذابة البرونز والرصاص فى ورش صغيرة ، والنجارة ، وصناعة الغلايين والاوانى الفخارية بالقرب من باب عزون ، وصناعة الاجر والجير بالقرب من باب الوادى . وان بمدينة الجزائر مطاحنللحبوب تديرها البغال داخلالمدينة واخرى بحى الطاقارا كانت تديرها الرياح قبل الاحتلال الفرنسى ، وكل هذه الصناعات كانت لا تسد الا حاجات السكان الاستهلاكية المحلية ، ولا تصدر منها مدينة الجزائر الى الداخل او الى الخارج . ولاشك ان هذه الحالة الاقتصادية لمدينة الجزائر فى أواخر العهد التركى كانت نتيجة لركود الاسطول ، وان ثروة المدينة فى أيام ازدهار القرصنة او فى سنوات القرن ١٧ كانت تختلف كثيرا عن سنوات مطلع القرن ١٩ اذ كانت مخازن الدولة فى الفترة الذهبية للقرصنة تزدحم ببضائع الغنيمة من زيوت وخمور ، وتوابل ، وسكر واخشاب وحبال ، وحديد ، واقمشة الى جانب

بضائع اخرى جمعتها الدولة من الداخل عن طريق الضرائب والاحتكارات ، مثل الاصواف ، والشمع والحبوب ، والجلود . وقد وجدت الحملة

الفرنسية فى مخازن الدولة بالميناء قبلا من الحبوب والملح والاقمشة وحوالى ٦٩١٨ قنطارا من الصوف فى دار الداى بالقصبة ، معدة للتصدير.

والمتبع للتيارات التجارية الداخلية ببلاد الجزائر طيلة العهد التركى يلاحظ فى المقارنة التجارية الاقليمية ان التجارة الداخلية كانت نشطة بين مدن الشمال والجنوب اكثر منها بين مدن الشرق والغرب . وهذا يعود الى اختلاف المنتوج بين الشمال والجنوب ، وتشابه المنتوج بين الشرق والغرب ولهذا كانت العلاقات التجارية بين مدينة الجزائر ومدينة قسنطينة مثلا اضعف من العلاقات التجارية بين الجزائر وغرداية ، اما اذا قارنا العلاقات التجارية الداخلية لمدينة الجزائر خاصة ببقية الاقاليم الجزائر فنلاحظ انها كانت ضعيفة للغاية ، وقد نتج عن هذا انضعف التجارى والانتاجى انخفاض الضمانات التجارية والاحتياطات المالية والقوة الادخارية ، وقلت القروض وارتبت الثقة النقدية لدى المجتمع ، رغم محاولة بعض التجار من اليهود وبعض الكبراء من القبائل والاثرياء من رجال الادارة فى بعض الاحيان ضمان القروض فى البلاد وتسهيل عمليات الدفع .

ولم يكن فى هذه الفترة التى ركد فيها النشاط الاقتصادى بصفة عامة توجيه اجتماعى نحو حل مشكلة الربا ، ولم يكن المجتمع فى حالة تقدمية تمكنه من التمييز بين الربا والاستثمار ، حيث ان الربا فى شكلها المعروف حرمها الاسلام (واحل الله البيع وحرم الربا) كما حرمتها بقية الديانات السموية لان فيها قرض مقابل فوائد مجحفة على عكس الاستثمار وهو القرض للتنمية مقابل فوائد ناتجة عن تنمية راس المال المقروض .

ولعل اهم انظمة القروض التى كانت سائدةبين افراد المجتمع هو نظام الرهنية الناتج عن عدم الادخارات . والرهنية كما اكدها بعض الباحثين كانت سائدة لدى الفلاحين بالخصوص . ولم يكن للفلاح ادخار يستعين به وقت الحاجة وبالخصوص الفلاح الذى تعتمد مزروعاته على الامطار الكثيرة الذبذبة والعديمة الانتظام ، فرزقه معلق فى السماء ان جادت هذه او نزل الغيث اطمانت القلوب وجاء الخير ، والا ساد الخوف ، وراح الفلاح يبحث عن من يقرضه لضمان حياته وحياة عائلته وهنا لابد ان يقبل القرض بأى فائدة ، وكثيرا ما رهن جزءا من عقاره لحصول على مال واضطر الى امضاء عقد الرهن تحت وطأة الجوع او شدة الحاجة الى شراء ثورين لحرث ارضه ، وشراء بذوره ، وهى عقود مجحفة ، وقروض قاسية لان العقار المرهون يخرج من حيز المالك الاول الى حيز المقترض او المرهون له وهذا الاخير يستغل الرهينة حتى يعود اليه المال الذى اقترضه ، وحينئذ فقط يعود العقار المرهون الى صاحبه الاول ، وكثيرا ما عجز المدين عن سد دينه ان توالت عليه الاحداث وحينئذ تباع املاكه او يستولى عليها المرهون له بدعوى عجز المدين عن دفع دينه . ولاثبات هذه الرهينة وعدم التهرب من الوفاء بالعهد ، ولتأكيد ما نص عليه القرآن **(واذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه)** فان عقود الرهن كانت تدون لدى القاضى الذى تزدحم ادراج خزائنه بعقود الرهن العقارى (٢) .

والى جانب هذا النوع من القروض دفعت الحياة الاقتصادية العملية ايضا السكان الى نظام الشركات والمساهمة، فيه كان يقرض صاحب المال نقودا الى صاحب راس المال فى اجل مسمى . كما ان بعض التجار من مدينة الجزائر وبالخصوص اليهود منهم كانوا يساهمون فى تجهيز سفن القرصنة مقابل نسبة معينة من الربح .

ونتيجة لهذا الضعف الاقتصادى بصفة عامة والتجارى بصفة خاصة فان وسائل المبادلات كانت ضعيفة ايضا ، اذ كانت تجرى فى بعض الاحيان على شكل المقابضة او مبادلة سلعة بسلعة اخرى كما سبق كذلك لقلة ثقة المجتمع فى فعالية الاوراق المالية . وفى بعض الاحيان كانت تسدد الديون التجارية بواسطة النقود المعدنية وهى اهم طرق المعاملات واكثرها انتشارا بين افراد المجتمع وبالخصوص المجتمع المدنى ، واستعمل تجار سكان مدينة الجزائر الاوراق المالية من سفاتج وكمبيالات وحوالات لتسديد الديون منذ القرن العاشر للميلاد اى قبل ان يستعملها الاوربيون بمدة طويلة الا أن عدم الضمانات الكافية للتسديدات جعلت السكان يفقدون ثقتهم فى العهد التركى فى هذه الاوراق المالية . ونتج عن ذلك ندرتها والامثلة على ذلك كثيرة نجدها فى مراسلات الشركة الفرنسية Compagnie Royale d'Afrique

التى كانت لا تتعامل مع المواطنين الا بعد أن تجمع ما يكفيها من النقود المعدنية . وكثيرا ما كان مدير الشركة المذكورة يلجأ الى الداى او لرؤساء القبائل أو لرجال الادارة لاجبار التجار على قبول السندات والاوراق المالية ، اذ التجار الجزائريون كانوا يفضلون النقود المعدنية وبالخصوص الفضية أو الذهبية على الاوراق المالية ، بل رفضوا الاوراق المالية الاجنبية التى فقدوا فيها ثقتهم بسبب عجز حامل هذه الاوراق عن استيفاء دينه أو الحصول على نقوده المعدنية فى اغلب الاحيان. وبالتالى فان التسديدات المعدنية عنطريقالاوراق المالية فى التجارة الداخلية والخارجية بالخصوص كانت محدودة للغاية.واليك احدى السنداتالمالية لسنة ١٨٢٠ فيه احالت شركة الباستيون الفرنسية ما عليها من لوازم لباى قسنطينة على احد تجار مدينة الجزائر يعرف بابن المرابط الذى تعهد بخطه ، على ورقة ، أن يسدد ما على الشركة للباى مقابل ان تسدد الشركة ما عليه من دين فى مرسيليا ناتج عن استيراده لسلع فرنسية ، وهذا نص الورقة المالية بتصرف : الحمد لله ، اشهد على نفسى باستلام ثلاث كمبيالات مجموع قيمتها ٤٠ ... فرنك من كنشليارية (ديوان) فرنسا مسحوبة على مرسيليا بفائدة ١٣ صوردى ونصف للريال الدرهم الواحد مما يحمل الى مجموع ٥٩٣٦٠ ريال درهم . فى ٢٧ جوماد الثانى سنة ١٢٣٧ . على اننى سادفع هذه القيمة المذكورة الى باى الشرق فى شهر رمضان . كتبه عبد ربه (الامضاء) انتهى . هذا نوع من الاوراق المالية القليلة فى تسديد ديون التجار بالجزائر . اما الانظمة السائدة فكانت للنقود المعدنية . وقد حازت النقود المعدنية ثقة سكان مدينة الجزائر منذ القديم كما تؤكده الاثار الفينيقية. وفى العهد الاسلامى كانت النقود المعدنية لمدينة الجزائر تتبع الدولة الحاكمة وعواصم اقطار المغرب العربى التى تداولت الحكم لهذه المدينة التى لم تكن لها سكة خاصة بها الا بعد أن استقلت ادارتها عن ادارة المغرب الاقصى والادنى . وبعد ان دخل الاتراك الى الجزائر واستقلوا بالبلاد ، جعلوا من مدينة الجزائر عاصمة الدولة وضربوا بها السكة التى كانت تحمل فى احد وجهيها : ضرب فى جزائر وتاريخ الضرب ، وفى الوجه الثانى اسم السلطان العثمانى مثل عبارة سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان محمود خان عز نصره . واوكل الاتراك مراقبة النقود الى موظف سامى عرف بامين السكة الذى يشرف على اليهود الذين يقومون بصك النقود فى دار اسمها دار النقود بالقرب من قصر السلطان أى بالقرب من جامع كتشاوة حاليا . وكان الديات يصكون النقود من الذهب والفضة أو المعادن النفيسة التى يجمعونها

من السكان او البايات او من السبائك والمجوهرات التى تحصلوا عليها عن طريق القرصنة او جاءتهم من الدول الاوربية فى شكل هدايا او اتاوات او جزية وغرامات . كما كان الدايات يصكون النقود ايضا من معدن البرونز والنحاس .

والى جانب النقود المعدنية الجزائرية اى النقود التى صكت بمدينة الجزائر فكان السكان الجزائريون يتعاملون بنقود اخرى اجنبية اى ضربت فى بلدان اوربا او فى بلدان عربية ، ومن بينها نقود ذهبية مصرية واخرى فضية مصرية واخرى تونسية تكثر فى الاقليم الشرقى القريب من تونس ، واخرى مغربية تكثر فى بايلك الغرب القريب من الحدود المغربية اما فى الجهات الجنوبية فكان التبر المجلوب من بلاد السودان يحل محل النقود فى اغلب الاحيان .

واهم النقود المعدنية الاجنبية التى كانت سائدة فى البلاد هى النقود الفضية الاسبانية ، اما اهم الطرق التى كانت تدخل بها هذه النقود الاجنبية فهى طرق الشركات التجارية الاوربية وعلى راسها الشركة الملكية لافريقيا التى ادخلت الى البلاد انواعا مختلفة من النقود الاجنبية ، وبالخصوص القرش الميكسيكى المحبوب والمالوف لدى الناس والمعروف بقرش بومدفع ، الى ان غيرت اسبانيا صك قروشها فى مطلع القرن ١٨ حينئذ واجه قرش بومدفع فى قبوله لدى سكان الجزائر صعوبات . ولقد حاولت الشركات الاوربية استرجاع ثقة السكان فى قبول تلك العملة الاسبانية الجديدة مدة من الزمن ، وهى فترة زاد فيها شك الناس فى قيمة النقود الاجنبية وكثرت فيها النقود المزيفة فى القيمة والوزن حتى قيل ان جل النقود المتداولة فى الجزائر كانت مزيفة ، وان ٣٠ ٪ من البتقات المتداولة كانت مزيفة ، وان ٤ ٪ من الريالات الجزائرية كانت مزيفة ، وان النقود المغشوشة طردت النقود الجيدة . والذين كانوا يقومون بتزوير هذه النقود يوجدن فى الخارج والداخل ، منهم فى اسبانيا وايطاليا وفرنسا ، اما فى الجزائر فاهم منطقة اشتهرت بتزوير النقود فى العهد التركى هى منطقة جبال جرجرة ، وكانت قبيلتان اشتهرتا بصناعة النقود هى قبيلة آيت الاربعاء وقبيلة على خروبة . وسكان القبيلتين كانوا على دراية كبيرة ومهارة فنية فى الصناعات الحديدية،فهم لم يشتهروا فى صناعة النقود فقط بل اشتهروا فى صناعة الاسلحة النارية ايضا ، وقد ساعدهم على ذلك توفر المادة الاولية من حديد ورصاص وفضة فى مناجم عديدة مجاورة لهم، منها منجم جبل مسيبا الذى كان يزخر بالخامات الغنية فى معادنها . وحتى لا يكتشف امرهم فى تزوير النقود فان الصناع من قبيلتى آيت الاربعاء وعلى خروبة كانوا يوكلون صرف منتوجاتهم فى الاسواق الداخلية الى تجار قبائل اخرى مجاورة لهم مثل بنى ينى ، وبنى مغيلة ، وبنى بودرار ، وبنى وصيف ، ولم يكف هؤلاء عن التزوير الا بعد دخول الفرنسيين الى الجزائر واقتفاء آثارهم ومعاقبتهم معاقبة شديدة .

واهم أنواع النقود المعدنية التى كانت متداولة بين سكان الجزائر هى النقود الفضية اما النقود الذهبية فهى نادرة ولا يملكها الا الاثرياء ، وخصصت فى اقل الاحيان للتعامل مع الخارج فى نطاق ضيق للغاية اذ ان الديات بالجزائر اعتبروا تسديد الديون مع الخارج بالنقود او السبائك الذهبية معناه افتار للبلاد وتخريب لخزينتها . ولهذا اتخذت جميع الاحتياطات والمراقبات لمنع تسرب الذهب الى الخارج . وقد ادت هذه السياسة النقدية الى اكتظاظ الخزينة الجزائرية بالنقود والسبائك النفيسة من ذهب وفضة قدرها البعض (Giery فى مذكراته سنة ١٧٩١)

بحوالى ١٠٠ مليون تورنوه وكانت الخزينة شىء مقدس لدى الجزائريين فلا يجوز فتحها الاخــذ منها بأى حال من الاحوال ، ومحروسة حراسة شديدة ، ولا تفتح الا بحضور الخوجة ولجنــة خاصة . وكانت كنوز الجزائر فى مبنى صغــير بالقرب من قصر الجنينة عند مدخل نهج الديوان ، وقد كتب على بابه : نصر من الله وفتح قريب . يا فاتح الابواب افتح لنا احسنها باب الجنة . وفى اواخر العهد التركى نقلت كنوز الجزائر من الجنينة الى القصبة العليا ، وقيل ان الذى امر بنقلها هو الداى على الذى اشرف بنفسه سنة ١٨١٧ على عملية النقل ليلا وذلك بعد ان امر سكان المدينة بقفل ابوابهم ، ومنع تحرك الانكشرية وشــدد الحراسة ثم احضر عددا من البغال لنقل الذهب والفضة ، واستلزم هذا النقل ٧٦ حملا من الذهب و ١٤٠٠ حملا من الفضة وعلى اساس ان حمل البغل يساوى ثلاث قناطر فى المتوسط فيمكــن تقدير كنوز الجزائر فى عهد الداى على بنحو ٢٢٨ قنطار من الذهب و ٤٢٠٠ قنطار من الفضة . اما سفير الولايات المتحدة تشالير فيقدر كنوز القصبة سنة ١٨٢٢ بحوالى ٢٥٠ مليون دولار ، والسفير الفرنسى ديفال قدر كنوز القصبة بحوالى ١٥٠ مليون فرنك وذهب القنصل البريطانى الى ٥٠٠ مليون فرنك . ورغم تشدد الدايات فى منع خروج الذهب من البلاد فان خزينة الجزائر ظل ما بها من اموال يختلف من فترة لاخرى . ففى السنوات التى نشطت فيها القرصنة زاد احجام اكداس الذهب والفضة ، وفى السنوات التى ركدت فيها القرصنة رجع الدايات وهم مضطرون الى سحب النقــود النفيسة من الخزينة لدفع مصاريف الدولة ودفع مرتبات الانكشارية وبذلك الخفضحجمهابالخزينة من ذهب وفضة . وتذكر لجنة الحملة الفرنسيــة التى كلفت بعد وبتقدير كنوز القصبة سنة ١٨٣٠ انها وجدت بخزينة الجزائر ٧٢ قنطــارا و ١٢ كيلو غراما من الذهب و١٠٨٧ قنطارا و ٤ كلــغ من الفضــــة الخالصـــــة . وقــومت هـــــذه المعادن النفيسة بحوالى ٦٨٣٠٠٠ ٤٨ فرنــك فرنسى ، منها نقود مختلفة الاصل ومنها السبائك ويلاحظ على هذا التقويم انه يختلف تماما عــن التقويم السابق والذى ذكره شالر وديفال وربما هذا يرجع الى النهب من طرف جيش الحملة فى الايام الاولى للاحتلال ، وبالخصوص الضباط منهم الذين كانوا ينتظرون بفارغ صبر وصولهم الى كنوز القصبة وهى كنوز كانت تدور حولها القصــــص والاساطير لدى الاوربيين تفوق فى شهرتها قصص الف ليلة وليلة ولاشك انها كانت تحوى قناطير مقنطرة من الذهب والفضة. وكانت الوحدة النقدية الحسابية للعملة الجزائرية هى البدقــة شيــك

او ريال درهم صغير الذى كان ينقسم الى ثمانية اجزاء كل جزء يعرف بالموزونة ، (والموزونة وحدة نقدية حسابية فقط) والبدقة شيك تساوى ٦٢ر٠ دينار . والوحدة النقدية للفضة هى ريال بوجو الذى يساوى ثلاث بدقات شيك او ٢٤ موزونة ، او ٣ × ٦٦ر٠ = ١٨٢ر١ دينار والوحدة النقديــة او ٠٢٦.ر٠ دينار . اما الموزونة وهى وحــدة الفعلية الذهبية هى السكين الذى يساوى ٥ر١٣ بدقة شيك اى حوالى ٨ر٣٧ دينار . والوحــدة النقدية الفعلية للنحاس هى الخروبة التى تساوى ١/١٦ من البدقة شيــك او ٠٣٨٧.ر٠ دينــار . والفلس شيك يساوى ١/٢٣٢ من البدقة شيك نقدية حسابية فقط اذ لا توجد فى السوق فتساوى ٠٧٧٥.ر٠ دينار . ويلاحظ على هذه التقويمات للعملة الجزائرية فى العهد التركى انها تقويمات تقديرية ذلك ان النقود الجزائرية فى العهد التركى ظل يعتريها التغيير فى الــوزن والقيمـــة . وان الوحدات النقدية كانت ضعيفة القيمة نسبيا .

ومثال لذلك ان السكين الذهبى الجديد كان يزن ٦٠ أو ١٨٧ر٣ غ من الذهب الخالص بينما السكين الذهبى القديم فكان يزن ٦٤ حبة أو ٤٠٠ر٣ غ من الذهب الخالص . والبوجو الفضى كان يزن ١٠ غرامات فى بعض الاحيان ويقل عن هذا الوزن احيانا اخرى . وكان صك النقود الذهبية حرا ، اما صك النقود النحاسية والفضية فقد احتكرتهما الحكومة التى اوكلت خواتمها اى خواتم الضرب الى أمين تركى بيده مفاتيح دار السكة . ولما كان الداى هو سيد الصك وضرب النقود غير الذهبية فكان بامكانه ان يغير وزن هذه النقود كلما دعت الحاجة الى ذلك ، وهذا ما كان يقع بالفعل ، وبالتالى زادت هذه العملية من تقليل قيمة النقود الجزائرية فى العهد التركى .

ورغم هذا فان النقود التركية ظل السكان ثم جيش الحملة يتعاملون بها فى السنوات الاولى للاحتلال حتى ١١ أغسطس سنة ١٨٥١ عندما اصدرت السلطات الاستعمارية قرار الغاء التعامل بالنقود الجزائرية التركية وانشاء بنك فرنسى لصك النقود الجزائرية الجديدة على اساس الفرنك الفرنسى . وبذلك ربطت عملة الجزائر بعملة فرنسا الى عهد الاستقلال والخروج من السيطرة الاجنبية .

بــــــلاغ

حول الملتقى السادس

للتعرف على الفكر الاسلامي

تعلن وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ان الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي سينعقد في الجزائر العاصمة من ١٣ الى ٢٥ جمادى الثانية ١٣٩٢ والموافق ل ٢٤ يوليو ــ ٥ اغسطس ١٩٧٢ م

وسيحضره طلاب وطالبات من جامعة الجزائر وقسنطينة ووهران وتلاميذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقا) وأي طالب مسلم حيثما كان ومن اي بلد كان .

وستدعى الى الملتقى شخصيات بارزة من الجزائر وغيرها من انحاء العالم الاسلامي وبلدان اخرى لالقاء المحاضرات والمناقشة مع الطلبة .

ونظام الملتقى هو النظام الداخلي ، ويمكن السماح بالنظام الخارجي لمن يطلبه وسيسمح لاطارات الادارة الجزائرية ــ بقدر الامكان ــ بالمشاركة في الملتقى .

هذا ، وتتحمل الوزارة ، في اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطني ، الا انه سيطلب من المشاركين اسهام رمزي قدره خمسون دينارا جزائريا .

وترسل طلبات المشاركة الى وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، ٤ نهج تيمقاد ، حيدرة ــ الجزائر مع ذكر كلمة « الملتقى » على زاوية الغلاف .

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية .

وآخر اجل لقبول الطلبات المشاركة هو ٢ ربيع الثاني ١٣٩٢ هـ الموافق ١٥ مايو ١٩٧٢ م .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالاتي :

١) العيد العاشر لاسترجاع استقلال الجزائر ودور الاسلام في كفاحنا التحرري طيلة مقاومتنا وفي مقاومة مختلف البلدان الاسلامية للعدوان والاحتلال .

٢) الذكرى الالفية لتاسيس الجزائر العاصمة ومدينتي مليانة والمدية ودور الاسلام في حضارة الامس في الجزائر وغيرها .

٣) يقظة العالم الاسلامي اليوم ونهضته غدا ودور الاسلام الفعال فيهما امام تحديات العصر ومختلف انواع الغزو .

٤) نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية وضرورة كتابة تاريخنا من جديد .

دور الأديب العربي في
بناء المجتمع العربي المعاصر

دكتور: احمد عروة

اننا كلنا متفقون حينما نقول ان الفكر والادب في العالم العربي الحديث يعكسان فترة حاسمة في تطور المجتمع العربي وان مسؤولية الادب في تكوين وتوجيه النهضة الفكرية لا يقل اهمية من التسيير السياسي والكفاح المسلح لا لتحفظ كيان الامة العربية فحسب بل ولتبعث نهضة شاملة تذهب به الى الالتحاق بالحضارة العلمية والفنية المعاصرة لتقوم هي بدورها برسالتها الانسانية العالمية .

ولكن الافكار والعقليات كثيرا ما تختلــف فى تحليل وتصوير هاته النهضة مما يجعلنا ناسف لتشتيت الطاقات الفكرية كما نتالم تالما مــــرا على بعثرة القوات المادية والسياسية والبشرية التى جعلت العالم العربى عرضـــة للمطامـــع التوسعية والاستغلالية . وهنا تظهر مسؤولية المفكرين العرب فى تحليل حقيقتهم القومية ثم فى تمهيـــد الطريـــق التـــى يجـــب عـــلى المجتمع العربى ان يتبعه فى سيره الى القـــوة والرفاهية والرقى ثم فى توحيد الجهود الفكرية والبشرية التى لولاها لا يمكن للعـــام العربـــى ان يحرز على مكانته فى الحضارة العالمية .

ان النهار يطلع على العالم العربى بعد سيـــر طويل فى ظلمات الانحطاط وفى قيود الاستعمار فيستيقظ ويجد نفسه يتخبط تحت ضغط مزدوج ضغط الرجعية التى تزيف حقيقـــة رسالتـــه التاريخيـــة فيجعلهـــا تنتمـــى الى تيـــارات سياسية تستخدمها لاغراض استعمارية جديدة وضغط الدوافع التقدمية التى تفرض عليـــــه تغيير المجتمع وتطوره نحو الحضارة والرفاهيـــة ولكنها فى نفس الوقت تغريه بالتخلى عن الحقائق الانسانية والتاريخية والفكرية التى كانت سببا فىوجود الامةالعربية وفىتكوين وانتشار الحضارية العالمية الراقية التى تنتمى اليها يستيقظ العالـــم العربى ويرى نفسه متخلفا فى جميع المرافـــق الحيوية المادية منها والمعنوية بينما تقدم العالـــم الغربى فى حضارة علمية واقتصادية وفكريـــة رائعة تجعله يسيطر على العالم حتى فى الوقت الذى تتقهقـــرت فيـــه سلطتـــه السياسيـــة والعسكرية المباشرة . ونرى العالم العـــربـــى والاسلامى عامة يواجه فى جميع حدوده الاقليمية والفكرية صدمات جبارة متوالية متعددة الاساليب لا تريد الا القضاء عليه كقوة فكرية قادرة علـــى التاثير من جديد فى مصير الانسانية مما يجعلـــه يتساءل عن مستقبله العاجل ويكافح عن كيانه المهـــدد .

وللمسؤولين على مستقبل هاتـــه الامـــة السياسيين منهم والمفكرين انظار متباعدة وآراء متضاربة يزيدها تعقدا اختلاف الاوضاع السياسية والاجتماعية والتفاوت فى اكتساب العلوم والفنون وذلك لان الاحتلال الاجنبى والتاثر الفكرى اعطى لكل قطر من الاقطار العربية صبغة قومية ووضعا سياسيا يختلف بهما عن الاقطار المجاورة مما

واضافـــة لتلـــك الصعوبات الوضعيـــة والاقتصادية يواجه العالم العربى مشاكل اخرى شتت الوحدة التاريخية وقسمهـــا امعـــا ودولا تتجاهل بل وربما تتعارض تعارضا حادا وداميا

ومع ذلك فاننا اذا أمعنا النظر ودققنا البحث نجد بـــان الفـــوارق كثيرا ما تكـــون سطحيـــة اصطناعية لان الوسائل التى تؤلف بين الشعوب العربية اكثر وامتن من اسباب النزاع والتصادم وان التباعد السياسى والوضعى الذى هو وليد عصور الاستعمار والانحطاط لا ينفى وحـــدة الشعور والطموح فى اعماق الشعوب العـــربية وهذا ما يسال عنه السياسيون والادباء والمفكرون وما تلح وتطلب به الجماهير العربية فى كل مكان . ناتجة عن اختلاف التاثيرات الخارجية فى عقول المواطنين العرب فنرى فيهم نوعا من القلـــق والتردد بين تعلقهم بحضارة عريقة وتراث فكرى اصيل وبين متطلبات الحضارة العصرية . فمن المفكرين والمناضلين من يعتقد ان لا سبيل للعالم العربـــى ان يلتحق بالعالم الغربى الا بتقليـــد الوسائل التى جعلت الغرب يتقـــوى ويترقـــى ويغير الاوضاع الاجتماعية وبالتخلى عن الماضى باكمله حيث يعتبرونه سببا فى التخلف والانحطاط وذلك الموقف السلبى تجاه التراث العربـــى

يجعلهم ينخرطون باستسلام مطلق فى تيـارات فلسفية غريبة التى تتراوح ما بـين الفلسفــات التشاؤمية او الفوضوية التى انتجها الغـرب الراسمالى والفلسفات المادية الثوريـة التـى استقرت فى العالم الاشتركى .

ومنهم من ينظر الى كل ما يأتـى به الغـرب بمزيد من التحفظ والاجحاد خوفا على أن يوقـع الغرب بمقدسات الامة العربية التى طالما كافحت واستماتت فى سبيلهـا .

والحقيقة أنه مهما كانت التحفظات من جهة والجحود من جهة اخرى فان مستقبل الامـة العربية يتكون فى التقاء الحقائق وتشابك الافكار وتصادم التيارات المختلفة وان من يريد نكـران الواقع الانسانى او تعسف الارادة الشعبية او تجاهل القوانين الكونية سيجد نفسه منعـزلا عن الركب البشرى فى صحراء خالية ويقتنـع بلوامع السراب الكاذبة . انه لا سبيل على من يتقلد المسؤولية ويتحمل الامانة التى يبتعد عن حقيقة شعبه الواضحة وحاجاته المادية المستعجلة ومطامحه المعنوية السامية ، امـا اذا اراد أن يطبق فى بلاده نظريات كانت منتهى تطور طويل فى مجتمع بدون واقعية فطنة وتحرز سليـم فانه يصل الى حلول مزيفة تنكر مصالح الشعب الحقيقية وينكرها الشعب بدوره اذا لـم يرهـا تعبر على مطامحه وشخصيته . أن على الذيـن يريدون تغيير المجتمع العربى وتنميته ونهضتـه أن يبحثوا على الحقائق التى يرتكز عليها مصيره والتى تختلف على وضعيات الامم الاخرى مهمـا كان تجاحهم المادى والفنى ومهما كانت سيطرتهم الفكرية ومهما كان تسلطهم وتقلبهم فى البـلاد . وتلك الحقائق ترجع الى ملتقى أطوار تاريخية ثلاث تندمج فى بعضها فتتمخض عن رجل الغـد ذلك الرجل الذى نتصوره عـلى حسب بيئتنـا وافكارنا واطلاعنا وتحليلنا للاوضاع الانسانية وربما نخطىء وربما نجيد انما المهـم أن نباشر مسؤوليتنا القومية بالتبصر العميق لمصالـح المجتمع وبالاخلاص لمطامحه العادلة السـامية وبالابتعاد عن التأثر السهل بالواقع النفسانـى والعصبيات الفكرية والاقليمية . وان ذلك يتطلب مجهودات كبيرة متواصلة فى الزمـان ممتـدة فى المكان يشترك فيها جميع أفراد الامة العربيـة ومن حظ الادباء أن لهم فى التعبير عن ذلك حـق وقدرة وكما يتأثرون بحقائق شعبهم فـانهـم يؤثرون بدورهم فى توعيته وترقيته وتوجيـه نهضته بأحسن طريق . ولنباشر باختصار عرض هاته الميادين الثـلاثة التـى تجتمع انفعالاتهـا فى بعث النهضة العربية وهى :

ــ الامة العربية فى حقيقتها التاريخيـة

ــ الامة العربية فى حاضرها وكفاحها

ــ الامة العربية فى تطورها وانطلاقها

ان للامة العربية حقيقة تاريخية ذات وجهين متناقضين .

وجه ايجابى ثورى حقق رسالـة بشريـة سامية وخلق حضارة وضاءة طالما انارت العـالم فى ميادين الفكر والعلم والاخلاق والاداب ممـا جعل الحضارة العربية الاسلامية تسيطر ماديا او معنويا على اكبر ربوع العالم القديم فأخرجته تارة حتى سئم ومما سكت عليه تارة اخرى كاد من ظلمات الجاهلية والفوضى والاستعباد الى عصر النظام والفكر والتقدم وهذا مما كـرر ينسى ومن حق المفكرين المسؤولين على تطـور الامة العربية أن يخرجوه مـن تحت اكـداس الخرافات والادعاءات وان يغسلوه من لطخات الاكاذيب والتحريفات . لا ليجعلوه مرآة تعجب متقنع وتأمل رهبانى سالب وانما لتنبعث فيـه

من جديد تلك الطاقة الكامنة الخالدة وتلك القوة المحركة الدافعة التى « تنشط الاجسام وتنـور الافكار وتقوى الارادة » وتجعل الانسان مؤمنـا بمستقبله وبرسالته الكـونيـة .

اما الوجه السلبى فيتمثل فى عهد الانحطـاط انحطاط الفكر وانحطاط المجتمع وانحطاط الفضائل مما جعل الحضارة تتجمد وتتدهور وجعل الدولة تتمزق وتتبعثر وجعل الانسان ينكمش ويتخاذل وجعل الاجنبى يطمع فيه ويوقع به فكان عرضة لتكالب الاستعمار وميدانا لتسابق الدول الغربية للاستيلاء عليه والتوسع فيه واستغلال خيراته وتدنيس مقدساته . لكنما الامور كما شاهدتهـا دول والليل يسلخ منه النهار . وها هى الامـة العربية تفتح اعينها وتجس اطرافها وتشعـر بدواعى الحياة تنبض فى عروقها ولكنها تـرى الاعداء محلقين بها مستهترين كرامتها يمتصون دماءها وينهبون ذخائرها فكان اول رد على ذلك هو الكفاح المسلح لتكسير الاغلال السياسيـة ولطرد السلطة الاستعمارية وهذا ما قـامت به الشعوب التى تمردت بنزع الاستقلال واستماتت فى سبيل الكرامة فتتحرر دول هى اليوم تبنـى لتشييد مستقبلها « على اثر الناهب المنهـزم » ولتؤسس مجتمعا راقيا مزدهرا قويا ولكن للطامة سبعة رؤوس منها ما قطع ومنها ما زال يلهث طمعا ويزيد غضبا ويدس خديعة لان نهضة العرب تعرقل نهمها وتهدد مصالحها وتضيـق معيشتهـا .

ان الامة العربية تواجه اليوم فترة حاسمة من تاريخها وحيث انها فى حين واحـد تقـاوم صدمات الاستعمـار .

وتشيـد مجتمعا متقدما

وتبنى نهضـة فكريـة راقيـة

فاننا سنتعرض الى هاته المظاهر التى ما هى الا فروع من حقيقة الكفاح الواحد الذى يرمى الى ضمان سيادتها وبناء مستقبلها .

ان الامة العربية اليوم تكاد تقتصر على مقاومة الاستعمار الجديد فى جميع مظاهره السياسية والاقتصادية العسكرية والفكرية وماملحمة فلسطين الا فترة حادة دامية تواجه فيها اكبر معركة وابشع مؤامرة يقوم بها الاستعمار العالمى ليسيطـر على العالم العربى . وكلنا على يقين مهما كانت التصريحات المزيفة والدموع الكاذبة انه يقصد من خلق دولة اسرائيل تنفيذ حكم عادل وتعويض اليهود عما اصابهم فى حجر الغرب من خـزى وتعذيب وافناء وانما هدفه الاول هو نصب قلعة استعمارية فى قلب العالم العربى تقوم له بالمرصاد فتراقب تطوراته وتهدد كيانه وتعرقـل نهضتـه وتلهيه عن مهامه المستعجلة للتشييد والتنميـة وتشتيت قوته وتمزق وحدته وتهين كـرامتـه واخيرا لتسيطر وتخمد جذوته من قبل ان تكون لهيبا ونورا . ولكن متطلبات الكفاح لتحـريـر فلسطين التى تفرض الجهود الجبارة والتضحيات الكبيرة والتناسـق الدقيـق ان وراء الـزحف العسكرى نوايا شريرة متنكرة بملابـس النفـاق والتقارب والتعاون ولها اهداف عالمية شاملـة لا يسمح للمسؤولين وللمفكرين ان يتجاهلوها او يحتقروها فان الهدف الاساسى الذى ترنو اليـه الشعوب العربية هو ان يكون المصير مصيرها لا مذابا منتسقا فى اى تيار فكـرى او سياسى يدعوها الى الانـدماج فيه والذى مهمـا كانت فضائله ومزاياه سيؤدى الى نـوع جديـد مـن الاستيلاء السياسى والانسلاخ الذاتى والسلب الفكرى ، مما هو يتنافى مع حقيقة الامة العربية ومطامحها الخاصة ، وهنا يتضح ويتاكد دور المفكرين والادباء فى تادية رسالتهم لانهم يخطون طريق المستقبل وينيرونها لشعوب تتاهب للزحف الجديد الشامل والتى هى فى حين واحد متمسكة

بحقيقتها التاريخية ومؤمنة بمستقبلهـــا الثـــورى المنطلـــــق .
ولكن لا يمكن لذلك المستقبل ان يبنى فى معزل مادى او فكرى بمعزل عن الحضارة العالمية المعاصرة فاننا طوعا او كرها نتأثر منه كما يتأثر الضعيف من القوى . فما هو اذن موقف الضعيف مـــــن القوى ؟ ان فى القوة ضعف وفى الضعف قـــوة فاذا كانت الامة العربية مع ضعفها تشعر بقوة ارادتها وبالايمان بنفسها فانها تقتبس من العلوم والفنون والنظم العالمية ما تنمو به وتزدهر بقوة وفعالية لا تفشل ولا تقهر واذا كان مـــوقفهـــا موقف الاعجاب المستسلم والتبعية (الباهتـــة) فانها تستعبد من جديد ولو حلقت بالصواريـــخ المستوردة ولو تدفقت فيها أوديـــة مـــن النفط والتعدين .

ان موقف الضعيف هو ان يعمل ليكون قويـــا بنفسه وبارادته وبساعده وبعقله . ان مـــوقف الامة العربية هو أن تفهم الحقيقة التى مرت فيها لا حقيقتها الداخلية فحسب ولكن الحقيقة العالمية التى نعيش فى وسطها ، وان تحلل الاوضـــاع الراهنة بمنطق وسداد لا متعصبة لما لديهـــا ولا جامدة لما تستعيره من غيرها . لا تعظم النفوذ الاجنبى حتى تستسلم اليه طوعا ولا تتجاهلـــه حتى تنقاد اليها كـــرهـــا .

واننا اقتفاء لهاته الحقيقـــة وامتثالا بهاته الحكمة سنحاول الان عرضا بسيطا وتحليلا مختصرا لاهم التيارات الفكرية التى يتألف منها ، وفيها مصير هاته الامة . ومهما اختلفت وتناقضت تلك التيارات فانها راجعة الى تطـــور الحضـــارة الغربية من النواحى العلمية الاجتماعية والفلسفية فكان المجتمع العربى يتأثر بالغرب ويقلده فى كثير من مظاهره السياسيـــة والفكريـــة والمعاشيـــة فيتبعــــه ، وبقـــى فى اضطـــــراب دائـــــم يحاول فى حين واحد المحافظـــة علـــى كيانــــه ومعنوياته والالتحاق بموكب الحضارة الغربية .

ولربما يظهر لنا ان نميز بين مرحلتين مرحلة كفاح ضد الاحتلال الاجنبى التى كانت سياسية وعلمية أكثر مما كانت فكرية اجتماعية كما كان ذلـــك فى مرحلة الاستقلال واعنى بذلك انه فى المرحلـــة الاولى كان الهدف الرئيسى للامة العربية هـــو التخلص من قبضة الاستعمار بالنضال السياسى والمقاومة المسلحة . واذا كان لتلك المرحلـــــة جانب فكرى فقد كان يتمثل فى الحركات التجديدية والاصلاحية التى قام بها أمثال الافغانى ومحمد عبده وابن باديس وغيرهم ، واذا أردنا الاختصار فيمكن لنا أن نقول ان المرحلة الاولى كان لهـــا هدفان الاستقلال فى طابعه السياسى والقومى من جهة واحياء التراث الفكرى وتجديده حسب متطلبات العصر الحديث من جهة أخـــرى .

اما المرحلة الثانية فكانت أحرج مشاكل واشد تعقدا من الناحية الفكرية لانهـــا تأثـــرت كثيرا بالتيارات الجديدة التى ظهرت فى العالم فى النصف الاول من القرن العشرين حيث طرحت المشاكـــل الاقتصادية والاجتماعية بحدة لم تعرف من قبـــل وصار هدف المسؤولين العرب بعد الاستقلال هو تجديد الاقتصاد وتنمية الانتاج وتنظيم المجتمـــع وذلك مهما كانت المناهج المتناقضة التى اختيرت لها هناك وادت الى سياسـات متباعدة واساليب متنافرة كثيرا ما تتأثر بالضغوط والمصالح الاجنبية وكثيرا ما تبعد عن حقيقة ومطامح الشعـــوب العـــربيـــة .

وفى هذا الصراع الشديد وفى ملتقى الزوابـــع الفكرية العاتية ماذا كان موقف الادباء والمفكرين ؟ اننا نقول بصراحة لم يكونوا فى مستوى النضال الفكرى الجبار الذى يصادمه مجتمعهم فى بنـــاء مصيره . واذا وجدنا فى النصف الاول من هـــذا القرن مفكرين ومجددين قاموا بدور زمنى بارز فى توجيه الكفاح السياسى الفكرى فاننا نكاد لا نجد

فى يومنا هذا من يعطى لمجتمعنا فكرة فلسفية واجتماعية تعبر عن حقائقه بصدق وواقعية وتثير مطامحه السامية ، لتنبعث منها امة طلائعية قادرة على تحمل رسالتها الخالدة ـ بل كثيرا ما نجد فى الكتب والصحف والمجلات والافلام التى تصدر بالعربية ترجمات حرفية أو معنوية للانتاج الادبى الاجنبى الذى يتدفق علينا باسهاب ذات اليمين وذات الشمال .

نعم . انه يوجد كثير من الادباء العرب من يحاولون احياء التراث وانبعاث الفكر العربى ولكن يباشرونه غالبا باساليب تقليدية متخلفة لا يمكن لها أن تؤثر تاثيرا حقيقيا فى عقول تطورت مع العلم والمنطق الحديث واذا كانت تخاطب القسم المتخلف من طبقات الشعب فانها لا تقنع عقول النخبة العلمية والشباب المتطلع الذى استنار بالعلوم الحديثة والذى يلفت انظاره للابداع والانجاز والرقى والرفاهية التى احرز عليها العالم الغربى فى جميع الميادين الفكرية والحيوية .

وبالعكس نجد أدباء ليسوا باقل عددا تشبعوا بفلسفات الغرب الحديثة ولم يروا للفكر العربى آفاقا سواها وضربوا صفحا محتقرا على ما انتجه الفكر العربى فى تجربته المثمرة وفى تصاعده البشرى وفى تفوقه الفكرى والروحى تشبثوا بالجديد وأغراهم ما فى الجديد من بدائى قديم فانقلبت المعانى وانعكست الصور ، وضمن الانسان انه سيسيطر على الارض اذا تخلص من جبروت السماء . فاستوى عن صرح كبريائه وصاح : « لا اله الا انا والارض ملكى والكون تحت سيطرتى وعلمى » ظن انه تحرر وانه كان من قبل سلبيا ومن ياترى سلبه ؟ فكرة الاله الخالق التى نشأت فى مجتمع الجهل والخوف والغرور) .

وهكذا بقى الاديب العربى متشبثا بدخان الماضى او تائها فى اسراب ينضر الى حقيقة امته من نافذة طمسها نسيج العنكبوت او من مرصد متباعد متعالى وصار يحكم عليها بمقاييس استعارها فى دنيا غير التى تعيش وتكافح فيها ويجهل حقيقة الشعب والشعب بدوره يجهله ويتوناه وليس فى هاته الطريقة ولا فى تلك ذلك الموقف الواقعى الحكيم التى توحى به الامة العربية من أعماق شعورها ومطامحها لقادتها ولمفكريها .

ان مستقبل الامة العربية مستقبل شامل . والانسان العربى الذى يترجاه الغد ليس انسانا اكتسى ببدلة استوردها من الشرق أو الغرب وانما هو انسان متجدد منطلق يتغذى من تربة وطنه ومن تراث امته فى حـ ينما يقتبس من محتويات الحضارة الحديثة . رجل يصل بين الماضى والمستقبل المرتجى رجل يجمع بين متطلبات المادة ودوافع الروح . يتصل بالتيارات الفكرية التى انبثقت بالعالم ويتفتح بنفسه لاستنباط فلسفة واقعية انسانية شاملة يكون بها شاهدا على الناس وشاهدا على نفسه وكما أنه لايجوز على الاستقلال الاقتصادى باستيراد المصنوعات والمنتوجات الاجنبية وانما باستعمال امكانياته وبتنمية انتاجه ، فانه لا يتمكن من بناء مجتمع عربى عادل راقى متفتح الا اذا اخذ من نفسه معنوياته وخط من حقيقته مناهجه التى تضمن للمواطن كرامة ورفاهية وعدلا وانطلاقا ماديا وثقافيا وفنيا وادبيا . وان هذا التمسك بالقومية العربية فى جميع محتوياتها ومميزاتها لا يمنع بل يؤكد الدور الذى تلعبه فى مساندة وتدبير الحركات العالمية العادلة التى تسعى لتحرير الشعوب وضمان العدالة والرفاهية والحرية لجميع الشعوب وانها لقوية فى ذلك برسالتها الاخلاقية السامية التى جعلت من أصالتها انها

تقدس كرامة الانسان وتحارب أساليب الاستعباد والاستغلال والاحتقار التى هى من مظاهر السلبية البشعة التى لم تستطع الحضارة الغربيــة أن تتخلص منها . ولكن الامة العربية لــن تلعب دورها العالمى ولن تقوم برسالتها الانسانية الا اذا احترمت مقوماتها واعتزت بشخصيتهـــا وانطلقت فى تتشييد وتجديد وتوحيد قوتها المادية والمعنوية . كما انها لن تقوم بواجبها نحو مجتمعنا الا بتغيير النظم الاجتماعية لتكون مستخدمــة لترقية الانسان وتحريره من الاستغلال ومن الفقر ومن الجهل ومن الخوف .

ان الثورة الشاملة التى تدعو اليها الامــة العربية ليست تقليدا للوضع القديم ولا تقليــدا للحاضر الاجنبى ولكنها تجمع بين الوفاء لنفسها وبين الانطلاق التقدمى ، تقتبس من الحضـــارة المعاصرة لاانتداب فيها ولكن لتتمون من العلوم والفنون والنظم حتى تلتحق بموكب الرقى مــن دون أن تنكر خصاصيتها بل ولتؤكد معنوياتهــا مع تجديد اساليب الابداع والتعبير تتاثر بالحضارة العالمية فى محتوياتها الراقية وتؤثر فيها بما تحمله هى من رسالة فكرية وروحية واخلاقية التى لا يستغنى عنها عالم اليوم مهما عظمت انجازاته واختــراعــاتــه .

اننا نتأكد أن الحضارة المعاصرة الغــربيــة ضعيفة فى قوتها معرقلة فى سيرها مستعبــــدة فى حريتها سلبية فى رفاهيتها المادية والثقافيــة وان من شأن الحضـــارة العربيـــة أن تعطيهـــا الانطلاقة الخلقية والفكرية السامية التى تتركز على التوازن الواقعى فتعطى لحياة الانسان ووجوده الكونى معنى متكاملا يجمع بين المتطلبات الحيوية والدوافع الروحية بين زمنية الانسان وأبديــة الاهداف الكونية .

ان للامة العربية طاقات جبارة مادية وبشرية ومعنوية تكاد لا تشعر بها وان للامة العــربية رسالة عالمية ترمى لترقية الانسان فى احسن مــا تملكه وأسمى ما يهدف اليه . وان للامة العربيــة أعداء كثيرون فى داخلها وفى خارجها يريدون أن ينزعوا منها خيراتها المادية وفضائلها الاخلاقيــة طاقاتها الروحية فى صراع قديم تتجدد اساليبــه واغراضه وما غرس دولة اسرائيل المــزيفــة فى التراب العربى المقدس الا فترة حاسمة مــن معارك متوالية . ولن تنتصر فيها الامة العربية الا بتوحيد الجهود وتعزيز المعنويات القوميــة والايمان بعدالة قضيتها والتغلب على التناقضات السياسية والاجتماعية التى تبعثر طاقــاتهــا وتبث العداوة فيما بينها وان نفسا مؤمنة بحقها صامدة فى ارادتها أقوى من فيلق يكسب الصواريخ والطائرات ولا يثق بنفسه . وان الفا من المقاومين الفلسطينيين يهددون حياة اسرائيل اكثر من مائة مليون من العرب متشائمين ومتخاذلين . تلك هى الحقيقة التى يعبر عنها منطق الكفاح وتلك هى الاساليب التى تسمح للمستضعفين فى الارض أن يتغلبوا أو ينتصروا على العمالقة الظالمين . وتلك هى الرسالة المقدسة التى يشترك فيها الادبــاء والمفكرون والسياسيون والتى تهدف الى بعث هاته الامة بعدما استكانت وتجمدت ونست رسالتها فى ليل طويل من التخلف والاستعبـــاد .

وتلك هى الحقيقة الاساسية التى من حــق الاديب العربى أن يشعر بها وينطلق بها ويغذيها بعبقريته وفنه واسلوبه ليخلق لها جوا مــلائمــا خصبا يوحى ويعمل بانبعاث النهضة العربيــة لا التى يعيرها فى آذان صاغية مسلوبة اساتذة متنكرون متعلقون يسعون لاخمادها وانما النهضة التى ينطق بها واقع الامة العربية والتى تندفــع من صميم السرائر الشعبية ومن اعماق حقيقتنا التــاريخيــة .

د . أحمد عروه

كلمـــــات

٢٠ فى المائة من الارباح فى مداخيل البنــوك السويسرية تذهب الى اسرائيل .

قال أحد كبار صيارفة اليهود بعد أن رفض الادلاء باسمه خوفا من انتقام المنظمات الصهيونية قال ان وجود اسرائيل يكلف الجالية اليهودية السويسرية غاليا جدا ان الذيـــن يجمعون التبرعات لصالح اسرائيل يتمتعون بمعلوماتدقيقة عن دخل كل فرد من الجالية اليهودية انهم يلاحقون حتـــى اليهود الذين لايتبنون الافكار الصهيونية لكى يدفعوا نصيبهم ومن أمتنع منهم عن الدفع فان الانزعاج والاعتداءات والضرب فى انتظاره .

وقد صرح جيش دروكمـــان وهـــو محـــرر فى صحيفـــة (رفيوجويف) بأن سويسرا تحتل احـــد الامكنـــة الاولى فى أوربا من حيث جمع الامكانيات المالية لاسرائيل وفى الحساب النهائى فان هذا يعنى مساعدة ضخمة ومتوالية من اجـــل عسكرة الاقتصاد الاسرائيلى ولا ننسى أن حوالى ٢٠٪ من أرباح خزائـــن البنـــوك السويسريـــة تذهب الى خـــزانة اسرائيل .. !

ان ضغوط المساعدات تعتبر فى جوهرها تشجيعا للعدوان ومكافأة على غزو البلدان العربية وهذا النفوذ الصهيونى فى بنوك سويسرا يتعارض مع الحياد الرسمى لهذه الدولة .

ولا ينسى السويسريون ذكـــر العمليـــة القضائية ذات الضجيج الواسع ضد الجاسوس « الفريد فراو نكنينحت » هذا المواطن السويسرى الذى سرق حوالى ٢٠ الف مخطط لتكنولوجيا انتاج محرك الطائرة المقاتلة ميراج على اتفاق مع فرنسا وكان من نتيجة خدمات هذا الجاسوس أن حصل من تل أبيب على مبلغ ٢٢٠ الف دولار ومن المحكمة السويسرية السجن لمدة أربع سنوات ونصف .

نهضة التعليم الأصلي

في الجزائر

● علال الفاسي ●

كان المغرب اول من اسس وزارة الشؤون الاسلامية واقتفت اثره مصر والكويت ثم الجزائر. وكان كذلك اول من اسس وزارة للتعليم الاصلي. ومنذ سنة اصبحت وزارة الاوقاف فى الجزائر تحمل اسم وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية. وقد تكلمت قبل عن الشؤون الدينية واليوم اتناول الجانب المتعلق بالتعليم الاصلى.

وكلمة اصلى واصيل واصالة اصبحت اليوم شعارا يلوح به فى القطر الشقيق كرمز للعودة الى النبع، واحياء للتراث الحقيقى وبناء الجديد الارقى على اساس اصيل اقوى. فالاصالة يبحث عنها فى الفكر وتؤسس لها مجلة خاصة من احسن ما اخرجت المطابع العربية. يكتب فيها ذوو

وانطلاقا من كون الجزائر حافظت طيلة القرون السابقة على ثقافة عربية اسلامية ودافعت عنها بصلابة فأغنت التراث بكثير من الشروح والتعليقات والمؤلفات الهامة . وانتفعت بالتيارات العربيــة التى وفدت اليها من الشرق والمغرب والاندلس فقد وجب عليها وقد استعادت استقلالها أن تسهم فى بعث الثقافة العربية الاصيلة . وترفع فى ميدان البحوث مشعلها من جديد .

والواقع ان التاريخ الجزائرى ملىء بالامجاد المتجلية فى المعاهد والزوايا والرباطات حتــى ان بولارد المؤرخ الفرنسى قال فى كتابه عن التعليم فى الجزائر **(كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده . مراكز ثقافية باهرة وكان فيها أستاذة متمكنون فى علوم الفلسفة واللغة والادب والطب والنحو والفلك وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد والتعليم فيها شرعى ودينى ومدنى) .**

ولم تقف الجزائر مكتوفة الايدى زمن الاستعمار الطويل فقد بذلت جهودا للابقاء على ثقافتها بفضل الزوايا والمساجد وبفضل البعوث التى كــانت تنتقل للدراسة فى القرويين والزيتونة والازهــر وغيرها من المعاهد العربية الاسلامية .

ويرجع الفضل الاكبر فى بعث التعليم العربى الاسلامى الى جمعية العلماء برئاسة الزعيــم الاسلامى الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى بذل كل ما يستطيعه **من جهد وأناة فى سبيل تأسيس** المدارس وارسال الطلبة للخارج للمحافظة على العلوم الاسلامية والعربية .

ولهذه الاعتبارات قررت الثورة الجزائرية أن تجعل من واجبها احياء التعليم الاصلى فأسست لذلك وزارة التعليم الاصلى والشــؤون الدينيــة تعبيرا منها عن الدور الحقيقى الذى يجب ان تقوم به وعلى الاتجاه الثورى الذى اختارت أن تسلكه من أجل نهضة دينية حقيقية .



الاقلام المتحررة والابحاث الدقيقة المثمرة كمــا يبحــث عنهــا فى الهندســة المعمــاريــة لبعــث فنونهــا الاسلاميــة والمحافظــة عليها فى بنــاء المساجــد والمعاهــد مــع القياس الجديد من مقاييس العمارة الحديثـة والطافها . ويبحث عن الاصالة فى الدين لاحياء السنة ومقاومة الخرافة كما يبحث عنها فى الادب والاجتماع وكل ما يعيد للوطن مظهره العــربى الاسلامى الاصيل وبناءه القــومى الاشتراكــى الحــديث .

جوانب من

علم الاجتماع الثقافى ببلاد المجر

د. يوسف نسيب
ترجمة: د. حنفى بن عيسى

اتيح لى ، بمناسبة سفرى الى مدينة بودابيست وبلاد الدانوب ، فى اطار التبادل الثقافى والعلمى بين المجر والجزائر ، اتيح لى ان ازور خمسة متاحف متخصصة فى علم الاجتماع الثقافى ، وأن اتبادل الحديث مع بعض الباحثين التابعين للمجمع العلمى المجرى ، ومع جماعة من اساتذة كلية الاداب بمدينة بودابيست . وقد مكنتنى هذه الاتصالات المفيدة من تسجيل بعض الملاحظات حول تدريس مادة علم الاجتماع الثقافى ببلاد المجر ، على ضوء ما احرز هذا العلم من تطور فى ١٩٧٠ . وسوف يجد القارىء فى الصفحات التالية جملة من الانطباعات عن تدريس تلك المادة التى لا تزال فئة من الجامعيين المجريين تسميها « الفولكلور » ، كما سوف يجد خلاصة وافية عن البحث العلمى فى تلك البلاد ، وعن ميدان خاص منه هو التراث الشفوى المتناقل بالتواتر

١ ـــ تدريس علم الاجتماع الثقافى

ان الفرنسين يميزون بـــين مـــا يسمونـــه « اثنولوجيا » و « اثنوغرافيا » . فالعلـــم الاول يهتم بدراسة وتحليل الظواهر الثقافية والاجتماعية لشعب من الشعوب ... والعلم الثانى يتناول تلك الظواهر من الناحية الوصفية . اما الاساتذة المجريون فلديهم مصطلح واحد للدلالة على هاتين المرحلتين من مراحل البحث ، وهذا المصطلح هو « نبراجز (1) Neprajz

وعلى سبيل المثال فان متحف الآثار الثقافيـــة يؤدى مهمتين اساسيتين وهما : جمع كل ما له علاقة بنشاط الانسان الثقافى، وفسح المجال امام العلماء والباحثين للعمل فيه . وقد شرح الاستاذ كاتونا المقصود بالعبارة « اثنولوجيا » فقـــال : « ان المصطلح المجرى « نيبراجز » لا يعدو أن يكون ترجمة حرفية للكلمة « اثنوغرافيا » ، الا انه يطلق عندنا كذلك على ما يقصد مـــن كلمـــة « اثنولوجيا » » .

وتستغرق الدراسة فى كلية الآداب بمدينـــة بودابيست خمس سنوات ، الا أن هناك اتجاها الى جعلها اربع سنوات فقط . ويتلقى الطلبة دراستهم الاساسية فى السنة الاولى ، وتتعلق بعلم الاجتماع الثقافى . وبعد هذه السنة المشتركة يتخصص طلبة الكلية اما فى فرع « الفولكلور » ، أو فى فرع «الثقافة المادية». واذا كان الفرع الاول يدرس بالتفصيل البنية الاجتماعية التقليدية ، فان الفرع الثانى يهتم بالمشاكـــل الاقتصاديـــة وبالتقنولوجيا . والتخصص فى الحالتين مزدوج : فالطالب يدرس مادة اخرى لها علاقـــة بمهمـــة التعليم ، كالادب واللغة والجغرافية ، زيادة على تخصصه الاول وهو علم الاجتمـــاع الثقافى . والغاية من ذلك هى أن تتسع مجالات العمل أمامه.

ولا يقتصر فى التدريس على المحاضرات ، بل كثيرا ما تستكمل الدراسة بتحقيقات ميدانيـــة يتدرب فيها الطالب على طرق البحث . وهكـــذا نجد أن الطلبة يذهبون الى المدن والقرى مـــع اساتذتهم الذين يرشدونهـــم فى مختلف مراحـــل البحث ، ويقضون هناك مدة من الوقت لكتابـــة رسائلهم الجامعية ، واذا كانت الرسالة ممتازة تنشر . ويقدم الطالب رسالته للمناقشة بعد قضاء خمس سنوات فى الدراسة والبحث ، وبعد اجتيازه لامتحانين لنيل الاجازة (احدهما فى السنة الثانية والاخر فى السنة الرابعة) . وهذه الرســـالة ضرورية لنيل شهادة الدولة التى يتخرج بعدها الطالب المتخصص فى علم الاجتماع الثقافى .

٢ ـــ البرامج

ان منهاج الدراسة فى علم الاجتماع الثقافـــى الذى اطلعنا عليه اساتذة فرع « الفولكلور » بكلية الآداب التابعة لمدينة بودابيست ، يتضمن ثلاثـــة اقسام رئيسية . وقد لخص السيد كاتونـــا (٢) المسائل التى يتعرض لها الاساتذة فوضع لذلك جدولا تفصيليا . وفى السنة الاولى من الاجازة يأخذ الطلبة فكرة عن المنهاج من خلال كتـــاب « تمهيد فى علم الاجتماع الثقافى » . ويستكملون معلوماتهم من خلال مطالعتهم لكتاب « مدخل الى علم الاجتماع الثقافى لشعوب العالم » ، كمـــا يتلقون محاضرات فى الثقافة المادية للشعب المجرى (صيد السمك ، والصيد بالمعنى الاوسع والقطف) ومحاضرات اخرى الثقافة الروحية (الاعتقادات

(١) راجع موضوع « تدريس علم الاجتماع الثقافى بالجامعات المجرية » ، فى مجلة:
Ethnologia Europea, n° 4, 1967, p. 280.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٨١ .

والتقاليد والعوائد المجرية) . وهذا كله علـى سبيل المقدمة . وأما بالنسبة الى الامتحان الثانى فى الاجازة ، فالدراسة فى هذه المرحلة أعمق مما كانت فى السنتين الاوليين . فهنـاك محاضرات واعمال تطبيقية فى الثقافة الماديـة ، وتتنـاول الزراعة والتقنولوجيا والصناعة التقليدية والنقل والتجارة واللباس والتغذية والمسكن .. كما أن هناك محاضرات معمقة وأعمالا تطبيقية فى الثقافة الروحية وتتناول مختلف انواع الفنون الجماليـة كالموسيقى الشعبية والشعر العفوى (الملحون) والرقص ، والالعاب ، وفن الزخرفة التقليدية .. وهناك مواضيع أخرى تدرس فى هـذه المرحلـة الثانية ، وهى « شعوب أوروبا والبنية الاجتماعية لكل شعب » . واخيرا فان المنهاج المؤدى الـى شهادة الدولة يتضمن المواد الآتية : « الاجناس المجرية ، اللهجات المجرية ، تاريخ علم الاجتماع الثقافى ، وعلم المتاحف العام ، وعلم المتـاحف الثقافى » (٣) .

٣ — البحث العالمى : لقد رأينا كيف ان الطالب يتلقى دروسا تطبيقية فى مناهج البحث . وهـذا التكوين يؤهله لانجاز أبحاثه الخاصة . وبعـد حصول الطالب على الاجازة يستطيع ان يسجل نفسه لتحضير دكتوراه الجامعة فى علم الاجتماع الثقافى . وعند مناقشة الرسالة لابد من تادية امتحان شفوى . وهناك شهادة أعلى من دكتوراه الجامعـة ، وتسمـى شهـادة « الترشيـح candidature » . ويمنحها مجمع العلوم التابع لمدينة بوادبيست . فبعد ثلاث سنوات من « التربص aspiranture » — وهى فترة يتضيها المترشح فى التعمق فى علـم الاجتمـاع الثقافى والفلسفة واللغة الاجنبية — بعد تلـك السنوات الثلاث يقدم أطروحة للمناقشة . أمـا الدكتوراه فى علوم الاجتماع الثقافى ، فلا تشترط فيها سنوات التربص الثلاث ، الا انها تستلـزم تقديم أطروحة متعمقة . (٤)

وبعد التخرج من كلية الآداب فان الباحثين يجدون مجال العمل مفتوحا أمامهم فى اطار المجمع المجرى للعلوم ، أو فى متحف الآثار الثقافية . ويوجد بالمجمع قسم خاص لعلم الاجتماع الثقافى ولهذا القسم مهام متعددة ، نذكر منها ما يلى :

— دراسة نقدية للابحاث المنجزة .
— تحديد مناهج البحث وجمع التراث الثقافى .
— اعداد المادة التى يشتمل عليها الفولكلور ، ودراستها .
— دراسة مقارنة بين المجر وبـين البلـدان الاوربية الاخرى بوجه خاص .
— دراسة مسائل التوعية الثقافية وبقـاء التراث .
— تحليل انماط التصور فى العادات والتقاليد والمعتقدات .

دراسة النواحى الجمالية البديعية .

وعلى سبيل المثال ، فان الاستاذ مانجا يدرس الطقوس الخاصة بالاعياد المسيحية الكاثوليكية ، والآنسة كيسبان تهتم بأنواع التغذية التقليدية ، والاستاذ بالانت ساروزى يهتم بالاغانى الشعبية الـخ ... (٥)

اما متحف الآثار الثقافية التابع لمدينة بودابيست فجميع المرافق اللازمة للعمل المثمر متوفرة فيه . ويوجد به حوالى أربعين باحثا . وقد وضعت تحت تصرفهم مختلف الآثار الثمينة والوثائق والمخطوطات

(٣) نفس المصدر السابق ص ٢٧١ .
(٤) نفس المصدر السابق ص ٢٨٣ .
(٥) من جملة ما قامت الآنسة كيسبان بنشره ، دراسة عن الطرق التقليدية فى استحضار مشتقات الحليب .

النادرة . وبهذا المتحف فروع كثيرة منها الفرع رقم ٢٦ ، ويختص بالادب الشفوى ، وبه نصوص اصلية لم ينشر ٨٥ ٪ منها . ويحتوى المتحف على اكثر من ١٦٠,٠٠٠ من الآثار الثقافية ومعظمها غير معروض للجمهور . وقد شرع فى انجاز متحف للآثار الثقافية ، فى الهواء الطلق ، فتم انتقاء عدة آثار اصلية لكى تعرض فيه ، منها قبة للاجراس يرجع عهدها الى القرن الثامن عشر ، وطاحونة من القرن التاسع عشر الخ .. وعندما يتم انجازه فانه سينافس ، على المستوى الوطنى ، المتحف الجهوى الموجود فى زالاجرزك .

وقد تطورت طرق العرض كثيرا ، وعلمت من المسؤولين ان عددا كبيرا من القاعات الصغيرة ، كانت قبل ١٩٥٥ ، مشحونة بالمعروضات « من الارضية حتى السقف » . اما اليوم فان الجانب التعلمى فى المتحف هو الاهم ، ولذلك فليس المقصود هو تكديس المعروضات بعضها على بعض ، بل هو ترتيبها بحيث يستفيد منها الزائر فائدة . ولم يعد يكفى أن يتفرج الزائر ، بل لابد من تعليمه وارشاده . ومن اجل ذلك فان الطرق السمعية البصرية تعتبر من انسب الطرق فى العرض . وهذا يصدق ايضا على النماذج التصميمية (ماكيت) وعلى الصور ، خاصة عندما يتعذر استحضار الآثار ذاتها . والمهم فى الامر هو وصف انماط الحياة التقليدية وتمثيلها فى تطوراتها : وما الآثار التى خلفتها الشعوب الا شواهد باقية من تلك الآثار : فاذا اردنا ان نفسر نمطا من انماط الحياة ، فلابد من وضع الاثر فى اطاره الطبيعى ، وبعث الحركة والحياة فيه . وهكذا تم تنظيم معارض عديدة فى مدينة بودابيست ، وجرت حسب الطريقة السابقة ، فصادفت نجاحا كبيرا لدى الجمهور ، ومن جملتها معارض الرعاة ، واللباس التقليدى ، والاثاث ، والحرائة . ان متحف الآثار الثقافية لمدينة بودابيست الذى احتفل بمرور قرن عليه ، لابد من أن يتطور وأن يلعب دورا كبيرا فى احياء التراث الشعبى ، وخاصة فى ميدان التراث الشفوى الذى خطى باهتمام كبير من طرف الباحثين .

٤ ــ دراسة اللهجات والادب الشفوى :

ان التراث الثقافى المجرى غنى جدا ، ولذلك فليس من المستغرب ان تكثر الدراسات حول التراث الشفوى . وبخصوص هذا الامر ، نشير الى ان الاستاذ ايميرى يشرف منذ عدة سنوات على عمل جماعى من اجل وضع دليل عام الهجات . والطريقة المتبعة هى جمع العبارات المختلفة المستعملة للمعنى الواحد ، فى المقاطعات المجرية . وبعد هذا ، تجرى المقارنة ، ان امكن ، بين تلك العبارات وبين العبارات المستعملة فى اللغات غير المجرية . وقد نشر الاستاذ ايميرى دراسة فى هذا الاطار (٦) .

وقد استرعت الحكايات والاساطير الشعبية انتباه الباحثين ، ومن بينهم السيدة دوبوس ، الباحثة التابعة لمتحف الآثار الثقافية لمدينة بودابيست . فهذه السيدة قامت بنشر كتاب مهم باللغة المجرية عن الحكاية ، ولا تزال تتابع ابحاثها فى نفس الموضوع (٧) . وهى متخصصة فى دراسة الحكايات الريفية ، فاعتنت بتطورها على اساس العلاقات القائمة بين المدن والارياف . وقد توصلت الى ملاحظة كثير من الظواهر المهمة ، وادركت اسبابها ودوافعها . ودرست السيدة دوبوس ايضا شخصية القصاص الشعبى ، واستخلصت من ذلك نتائج مهمة .

6 — « The English and the Hungarian dialectsurveys in progress », in Acta linguistica Hung XV, 1965, pp 151-161.

أما السيد ساندور فودور ، أستاذ اللغة العربية ، فانه يهتم بالاساطير فى اقطار الشرق الاوسط المسلمة (٨) . والآنسة بورساى تبحث فى الاغانى الدينية القبطية والموسيقى الشعبية فى مصر . وقد نشرت عددا من الدراسات فى اطار منشورات مجمع العلوم (٩) .

ومن هنا ندرك أن ميدان البحث غير محصور على المجر ، بل يتجاوز االحدود الوطنية . الا ان احسن النتائج التى حصل عليها الباحثون ، كانت فى الارياف المجرية ، وفى ميدا التراث الشفوى . فالسيدة دوموتور ، الاستاذة بكلية الآداب بمدينة بودابيست ، قامت بدراسة الاغانى الشعبية الريفية ، ولها بحث فى هذا الموضوع (١٠) .

وللسيد ايمولا كذلك دراسات فى نفس هذا الموضوع .. على أن صاحب التخصص الحقيقى فى الادب العفوى هو الاستاذ اورتوتاى ، عضو مجمع العلوم . ومن الرواد فى هذا الميدان بيلابارتوك (١١) . والطريقة المتبعة هى الطريقة البنيوية structuralisme وغيرها . وهكذا تمكن الباحثون من استخلاص السمات البارزة فى النصوص (الاغانى المتركبة من مقطع شعرى واحد او من مقطعين الخ ...) . واستعملوا كذلك الطريقة المقارنة . وقد توصلوا الى معرفة تطور الاغنية الشعبية ، وابرزوا الدور الذى لعبته الاذاعة فى هذا المضمار . واخيرا ، فقد تم وضع « مجموعة الاغانى الشعبية » ، من اعداد علماء الموسيقى الشعبية التابعين لمجمع العلوم .

وفى الجملة ، يمكن القول بان الباحثين الاجريين فى علم الاجتماع الثقافى يقومون اليوم بعملية واسعة النطاق من اجل تحليل التراث القومى واحصاء كنوزه والاستفادة منه عن طريق بعثه من غياهب الماضى الدفين وترك الجوانب السلبية العقيمة فى العادات والتقاليد .

انظر فى هذا الباب 7 — « A » tortenati mondat rendszevezérésrol »in : « Ethnographia » « Dramaturgy of tale-telling'in » Acta Ethnogra-phica 16, 1967 — M. Istvan San or.

8 — The origins of the Arabic Surid legend, inAkademie-Verlag, Berlin 1970

9 — Melody types of Egyptian Wedding songs(1970) Melodies trad des Egyptiens et leur importance dans la recherche de l'ancienne musique pharaonienne
Variations ornementales dans l'interpretationd'un hymne copte (1969)

10 — Mythical elements in Hungarian midwin-ter quete songs, in : Acta Ethnographica, t-19, 1970, pp 116-146.

(١١) للاطلاع على منشورات بارتوك حول الموسيقىالشعبية ، راجع الكتاب المنشور تحت اشراف بانس ترابوكسى :

« Bartok, sa vie et son œuvre, ed. corniva, Buda-pest 1968, pp. 139-192.

كلمـــــات

* معرض كنوز توت عنخ آمون ، المقـــام الان فى المتحف البريطانى فى لندن ، ليس مجرد مناسبة فريدة يشاهد فيهـــا البريطانيون هذه المعروضات الثمينة فحسب ، وانما هـــــو مناسبة هامة لالقاء مزيد من الضـــوء على الحضارة المصرية وعلى تاريخ ذلك العهد بالذات .

وفى رسالة نشرتها « التايمز » هذا الاسبوع يطرح كاتبها سؤالا هـــو :

هل لعب توت عنخ آمون دورا فى حيـــاة سيدنـــا يوسف الصديــــق ؟

ويستشهد الكاتب بما قاله البروفيسور راولى عن ترجيح أن يكون اخناتون هو الفرعون الذى جعـــل سيدنا يـــوسف وزيره . وهي نفس النتيجة التى وصل اليها البروفيســـور رالف أوجدت فى كتابه « سلم الوقت » حيث يقول انه نتيجـــة لدراسة سفر التكوين فقد وصل الى الاعتقاد بأن توت عنخ آمون ، الذى يرجح أنه ابن أخناتون ، كان هو الفرعـــــون الذى دعا سيدنا يوسف الى احضار أبيه يعقوب واخوانـــه الى مصـــــر .

تاريخان ومجتمعان

عبد الرحمن بوزيدة

لن اتخلى ولو عن ذرة من حسك او حبة من حصـــى القمم من اجل قموح كـــل السهول « اجابت القنبرة » (مقتطف من قصة قبائلية).

ان الحشد الذى ذهب الى حد محاولة فرض نموذج واحد للسكن على كل الجزائريين حتـــى فى النواحى الصعبة المنال (اى الاكثر قابليـــة لتسيير حرب ثورية) قد ساهم الى حدما فى صهر المجتمع الجزائرى فى قالب واحد ولكن تغييـــر النظام الاقتصادى والاجتماعى تابعة للخاصيات السكنية ، والاقتصادية والاجتماعية والثقافيـــة للمجتمعات التى يقع عليها التغييـــر — بقـــدر تبعيتها — للشكل والشدة للعملية المغيرة .

فلفهم المغزى والاهمية الكاملة لهذه العملية يجب ان نعرف ان الخلافات الناجمة عن السلالات وعن التقاليد الثقافية قد تضاعفت خلال التاريخ الاستعمارى .

التلقيح الثقافى والمسخ الثقافى

ان تحليلا بسيطا للاحصاء الفلاحى لسنة ١٩٥١ يجعلنا نميز النواحى المكثفة بالمعمرين ، اين تحتل الضيعات الاروبية اكثر من ٥٠٪ من المساحة ، والنواحى ذات الاحتلال الخفيف ، اين لا يملك المعمرون الا قسما ضعيفا من الاراضى فبينما تسيطر الملكية الجزائرية الصغيرة (والصغيرة جدا) فى الجهات الجبلية: القبائل الصغرى والكبرى ، الاوراس والنمامشا والبيبان والحضنة والاطلس المتيجى ، وسلسلة التيطرى وجبال سوق اهراس والونشريس والظهرى (٧٥ الى ١٠٪) الملكيات الجزائرية الاقل من ١٠ هكتارات ــ لاتبقى منها الا نسبة ضعيفة فى المناطق الغنية اين تظهر الملكية الاستعمارية الكبيرة والمتوسطة ، اى فى الساحل الجزائرى ، والشاطئى الشرشالى المستعمر منذ عام ١٨٥٨ ، وشاطىء مستغانم ووهران وسهل يسر وشاطىء بجاية وعنابة وسكيكدة المزروعة بالعنب والبرتقال والمناطق الفلاحية للمدية ومليانة ولاتبدو الا على هامش الملكيات الاروبية ، فى المناطق الاقل خصوبة فى كل المناطق التى تمركز فيها المعمرون اى اساسا فى السهول والهضاب العليا والشلف .

ونتج عن ذلك ان الاختلافات التى فرقت دائما بين المناطق الجبلية (التى هى فى اغلب الاحيان بربرية النطق) وسكان مناطق السهول والهضاب ذو اللسان العربى فى اغلب الاحيان، قد تفاقمت نتيجة لنجاعة اعمال الاحتلال المتنوعة جدا ، ففى بعض الحالات تم التأثير الاستعمارى بطريقة غير مباشرة ، وفى حالات اخرى خرب الاستعمار المجتمع المستعمروضربه فى حجر الزواية بازالته للملكية العشائرية التى من اجلها وبواسطتها كان يتم تنظيم الجماعة وقد خلق التدخل الاستعمارى ــ فجوة حاسمة بمنعه علاوة على ردود الفعل الموازنة والتكيفية التى تقوم بها كل مجموعة من اجل الصياغة الشخصية للخطوط المقتبسة .

ففى حالة ــ كان النظام المجتمعى القديم والعادات والقيم المنسجمة معه قد استطاعت الاستمرار بفضل التكيفات : فنستطيع اذا ان نتكلم هنا عن التلقيح الثقافى لولا ان الاتصال بين المجتمعين والمبادلات الثقافية التى يسمح بها تدور فى اطار المنظومة الاستعمارية مما يكفى لاعطائها طابعا خاصا .

وفى حالة اخرى ، ادى التحطيم العنيف لقواعد المجتمع القديم الاقتصادى الى هلهلة المجموعات المجتمعية وانطفاء التقاليد الثقافية فعمل القوة المسيطرة المنظم والموجه بتدبير قد انتج محوا ثقافيا بارادته تحطيم اسس النظام المجتمعى القديم التقليدى .

مجتمعان نموذجيان : جبال القل ووادى الشلف.

من بين هذين النوعين من المجتمعات ، الواضحة بتاريخها الحديث ، وبنفس القدر ان لم يكن اكثر بتقاليدهما الثقافية فوادى الشلف وجبل القل (حيث توجد اهم المراكز المدروسة) تعطى امثلة خاصة الدلالة . فجبل القل بتضاريسه ، وانعزاله عن المنشآت الاستعمارية قد كان بعيدا عن تأثيرها كجبال القبائل والاوراس .

من دون شك لقد اقيم بهذه الاماكن غـــداة تمرد ١٨٧٥ مركزان للاعتمار اقتطعا احسن الاراضى فى الشريعة وبسنبورغ ــ الزيتونة ــ ومن غير شك فقد حرم الفلاحون من جزء هام من الغابات التى استثمرتها ــ شركة ــ الخفاف للدماندة والقبائل الصغرى (١٢ ب ش) ــ وشركة ــ استغلال خفاف العلوج ، غير انه بسبب القلة والتوزع للاراضى الطيبة ، لم يستطع الاعتمار الفلاحى الكبير أن يتمركز واستطاعت بذلك الزريباب الجبلية ان تحافظ بصعوبة على توازن اقتصادى غير مستقر وأن تحافظ على تقاليدها الثقافية ، التىبقيت لم تتغير نسبيا كل هذا بفضل مساعدة المهاجرين من أهالى هذه النواحى .

وكانت الهجرة الى سكيكدة اولا (منذ ١٩٠٥) ثم الى فرنسا (منذ ١٩١٨) خاضعة خضوعا وثيقا الى المتطلبات التقليدية ، اذن انوظيفتها الاساسية هى السماح باستمرارية النظام الاقتصادى والاجتماعى فى نفس الوقت الذى كانت تدخل فيه رغم المراقبة ، عواملالتغيير .

اما فى الشلف ، فبالعكس ، لقد حطم الاستعمار القواعد الاقتصادية للقبيلة مجبرا السكان القدامى لهذا السهل الخصب على الانتقال الى التلول الاقل خصوبة . فقد بدات العلاقات الاجتماعية تفتر ، وكنست التقاليد مع الجماعات التى كانت تساندها والتى كانت هى سند لهـا .

فالعمال الزراعيون للمعمر ، المفصولون عادة عن قبيلتهم وعوائدها ، كانت لهم مفاهيم تقليدية متصلبة وشكليات سحرية للدين واصبح مجرد طقوس ــ يحققون تماما حركة المسخ الثقافى ــ الذى يعانى منه ايضا الفلاحون المرتبطون بفلاحة محدودة لا ينتظر منها ، الا العيش الضرورى ، وسد الرمق تفطرهم الى ابقاء نظام اجتماعى لا تخفى عليهم تماما عتاقته .

وتشكل الهجرة الى ضيعات وادى الشلف او المتيجة ، على الرغم من عدم اتساعها ، تغيرا حاسما فى المجتمع اكثر من الهجرة الى فرنسا ــ لانها لا تعد مهمة تكلف بها الجماعة الفرد ، بل انها مغامرة افراد معزولين مجبورين على مجابهة نظام مضاد .

وباختصار فان التقليد الاول ، الخاص بارتباط مجتمع بالقواعد التى تؤسس وجوده قد عوض بتقليد متقهقر ، يسمح بالحفاظ على توازن غير مضمون فى اسفل مستوى ، انها تقليدية اليأس يفرضه زوال المقاومة والضمانات الخاصة بمجتمع ملتحم .

التبادلات الثقافية والتدخل الاستعمارى

هذه التفرقة بين مجتمعين ، يفصلهما الماضى القريب تبقى « النمط المثالى » اى انها لاتصح بعبارة اخرى الا فى حدود ، ففى الحقيقة أن التدخل الثقافى لاينفى تماما المبادلات الثقافية (بالاتصال) والتلقيح الثقافى ليس دائما مجرد اتصال بين حضارتين فليس ممكنا اعتبار كل التغييرات التى تعرض لها المجتمع الجزائرى تلقيحا ثقافيا الا اذا اغفلنا الوضعية الاستعمارية السائدة ، من دون شك ، فان مجتمعا كالاوراس لم يعرف قط لا المعمر ، ولا الموظف ولا الطبيب بحيث يمكن ان نعتبر الهلهلة التى اصابتهنتيجة اصطدام بين اقتصاد عتيق واقتصاد عصرى ، متخصص مكتسح .

ولكن ، زيادة على اننا نبالغ اذا عممنا الاستنتاجات التى تصدق الى حدما ، على

الاوراس ، الجزيرة المغلقة نسبيا على نفسها اذ ليس هناك شك بأن المجتمع الاوراسى ككل المجتمعات الجزائرية الاخرى توجد داخل منطق الجهاز الاستعمارى — وعلاوة على عوامل التغيير المعتبرة عادة ، كالانفجار الديموغرافى وانهيار التربة المحروثة والانتقال من اقتصاد تبادل — الى اقتصاد سوقى ، يجب اضافة اعتبارات اخرى آتية مباشرة من الاستعمار ، فالقرار الامبراطورى وهو احد الامثلة ،قسم (سنة ١٨٨٩) ارض « الطوابى » (اولاد الابيض) الى ثلاث دواوير (تغنمين ، الابيض ، اشمول) واسس الملكية الفردية فى السهول العليا وسبب تنقل الاهالى الى « مدينة » « وأم الطوب » حيث استقروا وبنو المنازل وعلاوة على هذا بدأت الملكية الجماعية تنحو للانقسام بفضل التسهلات التى اتى بها القرار الامبراطورى ، وقد حدث تفقير مدقع عند الانتقال من الملكيه العشائرية الى الملكية الفردية لعدم توفر التقنيات ولعدم توسع الاراضى المحروثة . وزيادة على هذا ، فان التمدن والتفرد بالملكية اضعفا من العلاقات الجماعية وشجعا الفردية الاقتصادية التى ادخلها تعميم التبادل النقدى ،

ومن دون شك فانه يعصب علينا ان ننفى بان التدخل الاستعمارى والعدوى الثقافية يسيران فى نفس الاتجاه ، فاذا كان تعميم المبادلات النقدية والتأثير الذى احدثه تقليد الاوروبيين بالنزوع الى ادخال منطق المحاسبات فى الاقتصاد العائلى والى ضعضعت قواعد المجموعة العائلية فان كل الجهاز القضائى وخاصة القوانين العقارية يسعيان الى نفس الغرض . ولكن احدى الخاصيات الاساسية للظرف الاستعمارى تمكن فى ان ممارسة سلطة الانتقاء ، التى تسمح بصورة مثالية للمجتمعات المتقلبة بان تعرف

الادارية الخاصة مستهينة بالواقع رغم المقاومات العنيفة اسرعت القوة الاستعمارية بالعملية ووسعت نجاعة قوانين التبادل الثقافى ونحن نعرف انه فى السرعة ، اولا وفى اتساع وتحدد طبيعة واتساع التسليف تكون ممنوعة الثقافى : فبوضعها بدون انقطاع للمجتمع على المجتمع المغلوب بفرضها لقواعدها القضائية توجد بالضبط فى هذه السرعة المرضية للتغيير التغيير الثقافى ثانيا توجد الاختلافات الاساسية بين التلقيح الثقافى والمحو الثقافى .

والنتيجة المخصوصة بالتدخل الاستعمارى المغلوب امام الامر الواقع ، والقيام مكانه بالاختيارات الاساسية منعت السياسة الاستعمارية (التى تمثل منها سياسة الحشد المظهر اللا منطقى لشدة ادعائه للمنطق) منعت المناقشة بين الاستمرار والمحو والادماج والتعود هذه المناقشة التى تكون حياة المجتمعات لذلك فان الذين يقولون بأن هذه السياسة لم تزد على ان اسرعت بعملية كانت ستتم على اى حال من الاحوال ، وبكل استقلال عن اى تدخل خارجى تكون معهم كل المظاهر : فبالفعل فان بث اقتصاد راس مالى فى الجزائر ، وتعميم المبادلات النقدية ، والعدوى الثقافية المهيأة بالهجرة والمدرسة — كانت ستؤدى حتما فى النواحى التى لم تعرف الاستعمار الفلاحى الى تغييرات شاملة فى السلوكات والمواقف والتصرفات .

وفى الواقع ، فان مجرد السرعة التى تحمل اياها هذه السياسة تكفى لتغيير التحول الثقافى فى طبيعته ذاتها .

نماذج من السلطة ونماذج من التدخل :

وأمام هذه التجربة المجتمعية الواسعة يجد الملاحظ نفسه مساقا للتساؤل عما اذا كان

التدخل الثقافى يثير ردود فعل متماثلة ونتائج متشابهة فى نواحى غيرها التاريخ الاستعمارى بتفاوت وتنوع اى « الشليف » و « جبال القل » وعلى وجه الدقة اذا كان مجتمعا ما محتفظ بكل تنظيماته وعاداته الثقافية قد استقبل وتعود على انماط للسلوك مستعارين عن المجتمع الاروبى ، سيقابل التدخل الخارجى بنفس ردود الفعل التى يبديها مجتمع قد أصيب فى قواعده الاقتصادية ولو انه استمر جهد الامكان على اقتصاد وطريقة فى العيش تقليديين

ان ملاحظة منهجية لتجربة التشريح الاجتماعى التى كانت تتم تلزم بأن نأخذ بعين الاعتبار ، زيادة على الاختلافات المماسكة للتاريخ والعادات الثقافية الناجمة عن اختلاف المجتمعات الى الاختلافات الناجمة عن نوع التدخل المغير ، ففى الحقيقة وعلى الرغم من ان نشاطات المسؤولين تخضع دائما لنفس الذهنية ولنفس الانماط اللاشعورية ، فان المجال المتروك للمبادرة كان كافيا لظهور فروق هامة دائما فى تنظيم الحشود . ونظرا لصلابة مواقف اغلبية المسؤولين ، المقتنعين اكثر مما يلزم بشرعية عملهم لكى يهتموا بالموافقة بين نشاطهم والظروف الخاصة وتطلعات الاهالى فان الاختلاف بينهم لا يتعدى الطريقة ونستطيع لكى نختصر أن نفرق بين نوعين من الضباط حسب مظهر السلطة التى يمارسونها وطبيعة العلاقة التى يحافظون عليها مع الاهالى وايضا حسب الفكرة التى يحملونها على مهمتهم الاديولوجية التى تكيف كل نشاطهم . فالضابط — المتحرر — أو الابوى النادر نسبيا ، يحاول ان يأخذ بعين الاعتبار تطلعات الاهالى المكلف بهم بدون ان يستطيع ابدا الذهاب الى نهاية مقصده باستشارة مجموع الاهالى اذ ان عمله ينسف للارادة الشعبية اساسا وباختصار فان تحرره لا يستطيع الظهور الا بخفوت ولين الوهمى كانت تحضى باحساس وتقدير الاهالى دون ان تكون المملية التى تخدمها هذه المهارات قد حضيت بأى قبول من طرف الاهالى .

ولانه كان متقمصا اكثر لشخصيته ، وانه كان ملتزما اكثر بفكرة الصفحة البيضاء ، او على لسانه لانه يحطم ليبنى كان الضابط المتسلط اكثر وضوحا وبشاعة ففى أم الطوب القل مثلا كانت كل حياة الاهالى المحشوديين خاضعة للنظام العسكرى : افاقة على صوت المزمار العسكرى وذهاب فى ساعات محددة الى الحقول ، واطفاء للانوار يعلن عنه ناقوس وتقارير اسبوعية كركتور لتشاور الديموقراطى وللجمعية التقليدية — تعلم الاهالى بواسطته بالقرارات التى اتخذت . ان الضابط الذى يسير العاصى بكركرة مصاب الى ابعد درجة بمايسميه (ملنفسيكى) الهندسية المريضية والتى تعبر عن نفسها بميل — جنونى — للتقابل الهندسى والتصميمات والمنطق الصورى فى التصورات والسلوكات .

يقول هذا الضابط : أنا من اللورين واحب الخطوط المستقيمة والناس هنا فى خصام مع الخط المستقيم — ويظهر تسلطه فى كل الميادين فلم يكفه ان صفف المنازل فانه أمر بأن تقطع الاشجار التى تحف الطريق معطيا منظرا لا انسانى للمحتشدات كما أمر أن تكون الطريق الوسطى عريضة بدرجة كافية لكى يستطيع المرور بسيارته وعندما يسال لماذا وجب ان تقام زريبة كركرة التى كانت على سفح الهضبة فى منطقة تغطيها المياه عادة ؟ يجيب — يجب أن يحشد هؤلاء القوم والا فانهم سيحصلون عن جلدى فى يوم من الايام فالى حد الان كل

مصائبى قد اتت منهم فلن اكون مرتاحا الا اذا كانوا هنا امامى . — وفى موضع يقول : هؤلاء القوم يجب جمعهم يوم ١٥ اوت لانى ساذهب فى عطلة يوم ١٦ — وان عثيان الحكم المطلق بعد كل اهتمام بمصالح وتطلعات الاهالى : — ان اقامة محتشد امر سهل ، يجب البدأ بعمليــــة غزو وبعد ذلك تقسم المنطقة ونقوم بتسطيرهـــا وتوزيع الاماكن وتحديد الوقت لكل واحد ابناء — قربيى — وكيف لايعم فى مثل هذه الظـــروف عدم الفهم الذى تلاقيه مثل هذه القـــرارات ؟ — نجمعهم فلا يفرحون ونفرقهم فلا يفرون — — كان ذلك هكتار فى الجبال قبل الحشد فهاك هكتارا فى السهل واتركنى استريح — .

فليس شيىء اغرب على هذا الضابط مثل التخوف من مقاصد ووسائل الحشد التـــى يجدها لدى الاهالى .

ونفس اليقين الا مناقش والذى لا يخضع الى المناقشة يسود تصدق الضابط المتحرر رغـــم المظهـــر الابوى فمثلا لقد كان ضابط محتشـــد — الشريعة — وعين اقبال — يستظهـــر بآلاف الحجج المعقولة لتبرير مشروع غير معقول فى اساسه مشروع جمع اهالى الزيبات المتفرقة ضدارادتهم فىمناطق مجاورة للصاص ، واحسن من هذا ، جمعهم ثم طلب منهم ان يبنوا منازل بمصاريف باهضة ، ليطلب منهم تهديمها فيما بعد عندما يعثر على موقع احسن يختار لصلاحيته الجغرافية والاقتصادية ... ولكن كيف التملص من تناقضات تفرزها حالة متناقضة اساسا ؟ ان لم يكن هذا الضابط مقتنعا بأنه يقوم باسعاد الاهالى رغم انفهم فان معنى مشروعه نفســـه هو الذى سينسف .

تناقضات الاديولوجية الاستعمارية وتناقض الاستعمـــار

— وحتى عندما يصطبغ بالليبرالية الانسانية يبقى التدخل الاستعمارى منطبق على تناقض لايمكن تداركه ، فليس انهم يجهلون ويريـــدون تجاهل المجتمع الذى يؤثرون عليه بل لان هذا الجهل هو الشرط نفسه لعمليتهم هذه ، يبقى المسؤولون عن هذه السياسة غير قادرين علـــى تقدير العواقب الوخيمة لها والتدخلات اللازمة لجعل هذه السياسة تسير بصورة حسنة ، اى لاقامة المنظومة الجديدة الاقتصادية والاجتماعية القادرة على لحم وتجاوز التناقضات التى سببها التدخل الســابق .



نقـــد

حَول كتاب نقد الفكر الديــنى

للدكتور جلال العظـم

عَبـدالله شـريط

استاذ بكلية الاداب بجامعة الجزائر

ظهر أخيرا فى لبنان كتاب جديد بعنوان : نقد الفكر الدينى للدكتور العظم . تناول فيه صاحبه نقد الفكر الدينى . واثار الكتاب ضجة كبيرة فى المشرق وخاصة فى الاوساط الدينية ، وحتى هنا فى الجزائر ، بالرغم من أن الكتاب لم تتسرب منه الا نسخ قليلة . فقد اتصل بنا أكثر من واحد من المدعين الغيرة على الاسلام ، معتبرا الكتاب وكأنه كارثة جديدة حلت بالاسلام والمسلمين .

وطلبنا منهم نقد هذا الكتاب والتعليق عليه . وابدينا حماسنا لنشر نقدهم وتعليقهم .

ولكن لم يصلنا منهم حتى الان شىء وربما يكون لهم عذرهم فى هذا الصمت .

وقد صادف أن جرى لنا حديث مع الاستاذ شريط فى هذا الموضوع ، فوجدناه قد قرأ الكتاب وعلق عليه ، وهذا نص تعليقه كما سجله مباشرة عند قراءة الكتاب .

نلاحظ عند الكاتب كثرة الجدل مع علمـــاء الدين من الجهال والمشعوذين على حســـاب التحليل العلمى البناء لمشـــاكل الفكر الدينى الحقيقية فى مجتمعنا . مثلا :

١) آية خلق الله لنطفة الانسان وتطورها (ص ٤٠) مؤاخذة المؤلف للآية على فكرة تدخل العناية الالهية فى كل طور من اطوار الخلية ، فى حين يتم ذلك التطور حسب قانون طبيعى . وافتعال المعركة هو ان الخصومة قديمة منذ اهل السنة والمعتزلة ومؤداها هل ان الله يتدخل فى خلق جزئيات الكون أم انه يخلق فقط القوانين التى تسير عليها الطبيعة . ثم ان هذه المعركة اليوم قد تجاوزها الزمن ، واثارة النقاش فيها من جديد اقرب الى مضيعة الوقت .

٢) مناقشة حديث طلب العلم والآيـــات الداعية الى استعمـــال العقل (ص ٤١) :

يؤاخذ المؤلف رجال الدين الذين يزعمـــون أن الحديث يدعو الى العلم عامة فى حين أن الحديث يدعو فقط الى العلوم الدينية باعتبار العلوم الدينية هى اسمى أنواع العلوم فى ذلك العصر. وافتعال المعركة هو : ما يضير أن يكـــون هـــذا الحديث عاما لكل العلوم حسب اهمية كل علم بالنسبة لعصره ؟! .

٣) فى الصفحة ٣٦ يؤاخذ المؤلف رجال الدين عندنا ممن يزعمون ان الاسلام متوافق مع العلم الحديث : بأنهم يزعمون هذه المزاعم فى عبارات اجمالية فضفاضة ويتهربون من ضرب الامثلـــة المحددة على ادعاءاتهم مثلا : فكرة خلق آدم من الطين ، ودعوة ابليس للسجود ، وفكرة الجن الخ ... فهل موافقـــة للفكر العلمى الحديث الذى لا يؤمن بالجن ونحوه من الكائنات الغيبية. وافتعال المعركة هو ان المؤلف نفسه يريد أن يثبت بطريقة اعتباطية عن طريق رجال الجهال عندنا بأن كل ما لم يقره العلم الحديث يجب انكاره ، فى حين ان العلم الحديث نفسه لم يصل الى هذا الادعاء المتطرف ، بل يكتفى بالقول بأن كل ما هو من الماورئيات ــ سواء كانت فلسفية أو دينية ــ يقف منها العلم موقف التوقف ، ويتابع الجهود فى بحثها .. كما توجد اليـــوم مدارس علمية فى امريكا تدرس مشاكل الروح واستحضارها والبحث فيما اذا كانت قابلة لان تخضع للمنهج العلمى ام لا . والكلمة الاخيرة فى هذا الموضوع لم يقلها العلم بعد .

ثم ان العلمـــاء المسلمين السابقين عند ما كانوا مثقفين كانوا يصرحون بأنه من المستحيل اقامة الادلة العلمية والمنطقية البرهانية اليقينية على وجود الله مثلا ، او ماشابهها من القضايا الماورائية ، ويحسن ان تترك للعقيدة العاطفية لا الاديولوجية الغيبية كما يسميها المؤلف فى مكان آخر .

كذلك فى الصفحة ٣١ وما بعدها يريد أن يثبت المؤلف اننا اذا لم نستطع ان نوافق بين معتقداتنا الدينية والحقائق العلميـــة فيجب ان نتخلى عن احداهما لفائدة الاخرى . وهو اختيار لا يخلو من سذاجة لان القضية ليست جديدة ، فالعقل لم تغمض عليه المسائل الدينية وحدها ، بل غمضت عليه المسائل العاطفية الاخرى .

المؤسف ان المؤلف لم يحطم من الدين الا العناصر الميتافزيقية التى لم يعد لها اثر يذكر اليوم ، واهمل المسائل الاجتماعية والسياسية فى المآسى التى يقاسيهـــا العرب والمسلمون ــ طبعا ــ التى ورثها العـــرب عن عهـــود الانحطاط . وبذلك اقام الدليل على ضعف فكره السياسى مثل بقية اخوانه المثقفـــين العرب وسواء كانوا دينيين أو غير دينيين ، قديمـــا

وحديثا ، وكنت تمنيت أن لو تناول المسـائل الدينية ذات الصبغـة الاجتماعية والسياسية مثـل مسـائل الحج ، أو رمضان بالنسبة للاقتصاد . لقد اهمل كل ذلك ، وراح ينطح صخرة العقيدة العاطفية التى يرى او لم ير انها هى الرابط الوحيد الذى جمع قوة اليهود حتى كونوا دولة تقوم على اسـاس العقيـدة الدينية وحدها ، بل هى مفرقة فى هذا الاساس الى حد جعلت عنه عنصرية دينية متطرفـة لا تقـل عن عنصرية هتلـر السيـاسية .

لقد ركز هجومه على الدين الاسلامى ومن بعده الديـن المسيحـى ، وسكت عـن الدين اليهودى لماذا ؟ فاذا كان فعـل ذلك من اجل الماركسية ، فان الماركسية لم تحتـرم اى دين بما فى ذلك اليهودية ، واذن فعلـه من اجل اسرائيل ؟ لا ادرى ..

على انه يجب أن نعترف بأن سذاجة رجال الدين قد مدته بالسلاح الكافى ليحطم الاسلام كعقيدة . ونحن لا ندافع عن الاسلام بوصفـه دينـا لشعبنا ، بل لانـه مازال فى ظروفنـا الحضارية الراهنة يمكن أن يشكل قـوة حربية وسياسية قاهرة اذا عرف هؤلاء المثقفون كيف يستغلونه فى الشعب استغلالا ذكيا كما فعل قـادة الثورة الجزائرية على بدائية ثقـافتهم الدينيـة . ولكن قـوة تكوينهم السياسى ، وحماستهم الوطنية هداهما الى أن يجعلوا من الدين سلاحا ضد الاستعمار ، وسلاحا الان ضـد التجزئة والتفرقة . اضف الى كل هذا أن صاحب الكتاب الذى يدعـى انه يبحث بحثا علميا مجردا لم يتناول المزايا الايجابية فى الدين الى جانب المعضلات السلبية حتى يثبت حياده وموضوعيته التى يزعمها باطلا ..

●

كلمات

نشرت صحيفة (رابونتى تشسكوديلو) البلغارية رسالة للصحفيين الاشتراكيين فلاديمير كاتين ، وادوارد روزنتال جاء فيها :

اكثر بقليل من ٢٠ الفا من اليهود يعيشون فى سويسرا ، وقد انشأت الحركة الصهيونية هنا شبكة من المنظمات المتخصصة نشطت فى النطاق الاوربى كثيرا .. وعمل هذه الشبكات يتركز اصلا على وجود وكالات اعلامية للنشر من كل نوع ،كجمعيات ولجان تتعاطى اعمال الدعاية للافكار الصهيونية وتحول جميع اموال هذه الشبكات الى اسرائيل وبالرغم من أن بعض قادة هذه المنظمات يميزون أنفسهم كلاميا من الصهيونية ، فان هذا التميز يكون موجها من قبل الصهاينة ويخضع لمصالحهم عمليا .

وفى حديث مع الصحفى السويسرى ميشال ليمان أعترف صراحة انه من الصعب جدا ، بل من المستحيل ايجاد فرق بين عمل المنظمات الصهيونية وعمل المنظمات اليهودية الاخرى التى لا تحسب كمنظمات صهيونية شكليا لقد تأكدنا بانفسنا من ذلك بعد لقاءات واحاديث قمنا بها مع الكثير من ممثلى الجمعيات اليهودية . وفيما عدا جمع المساعدات المالية للاحتياجات العسكرية لاسرائيل فان المنظمات اليهودية فى سويسرا تقوم بالحملات الاعلامية المؤيدة للمخططات الصهيونية وتتفق معها .

وأبدينا اهتماما بالسؤال عما اذا كان يوجد الكثير من اليهود السويسرين الذين سافروا الى « وطنهم التاريخى » فاتضح لنا أن المنظمات الصهيونية لم تجد فى سويسرا حتى الان متطوعين للعمل فى اليبوتسات الاسرائيلية من اجل استصلاح صحراء سيناء ـ بل أكثر من ذلك ـ فان كل شخص وصل اسرائيل كسائح ولو لمرة واحدة تحدث بتحفظ شديدعن « أرض الميعاد » !! .. واثناء وجودهما فى سويسرا قابل المراسلان الصحفيان عددا من اليهود العاملين هناك ، وخرجا بانطباعات لهذه اللقاءات تدور فى مجملها حول المضايقات التى يلقاها اليهود فى سويسرا من المنظمات الصهيونية العاملة هناك . فقد قال الساعاتى يعقوب اورباخ: اذا ما قرر ابنائى السفر الى اسرائيل وسافروا فانى سالعنهم



معركة زاما

محمد الميلي

مدير الاخبار بوزارة الثقافة والاعلام .

١ ـ بدايات الصراع فى الحوض الغربى للمتوسط .

تعتبر معركة زاما من اكبر معارك التاريخ القديم فى شمال أفريقيا ، ومن اشدها حسما وتأثيرا فى توجيه مجرى الاحداث الدولية .

فهى تستحق الدرس والتحليل لاكثر منسبب : فقد شهدت أساليب فى التنظيم الحربى والتخطيط للمعركة ، لم يسبق ان شهدها العالم حتى ذلك الوقت . وهى من جهة ثانية قد حسمت الموقف فى الصراع الدائر بين قرطاجنة وروما ، وهى من ناحية ثالثة فتحت المجال لاستقرار روما فى الشمال الافريقى .

وليس من المبالغة فى شىء القول بأن ماصينيصا كان احد الابطال البارزين فى هذه المعركة .
كان بطلا فيها بمساهمته الشخصية فى التخطيط للمعركة وبمشاركة قواته العسكرية فى خوضها .
وكان بطلا فيها بما ضبطه من حسابات سياسية كان يهدف من ورائها الى الحفاظ على استقـــلال بلده . وتدعيم سلطان دولته الناشئة .
ولكى نقدر هذه المعركة حق قدرها ، يحسن ان نمهد لذلك بمعركة الظروف التـــى ادت اليهـــا ، والالمام بالاطراف التى كانت تمسها .
على أن الالمام بأطراف معركة زاما ، ليس فقط يكشف عن قيمتها واهميتها ، ولكنه يكشف فى نفس الوقت عن ضخامة المهمة التى اضطلـــع بهـــا ماصينيصا فى محاولة بناء دولة قوية مستقلة وسط أطماع عملاقين هما أقوى دولتين فى كامل حـــوض البحر الابيض المتوسط آنذاك .

قرطاجنة : الاصول الاولـــى

اذا كان الانسان هو العامل الاساسى فى نشأة الثقافة وفى كل تطور حضارى فان كلا من البيئة والوضع الجغرافى يلعب دورا هاما . فنحن مثلا لا نستطيع أن نفهم الحضارة المصرية او الحضارة الرافدية اذا اغفلنا الوضع الجغرافى هنا وهناك .
والوضع الجغرافى للمنطقة التى تعرف اليوم باسم سوريا وفلسطين ولبنان، هو الذى يساعدنا الى حد كبير على تفهم الاحداث التى دارت فوق هذا المسرح حتى اتصلت ببلادنا ، فمحاذات البحر الابيض المتوسط من جهة ، وسلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية من جهة ثانية ، والاتصـــــال بالصحراء من جهة ثالثة ، كل ذلك جعل هـــذه المنطقة خاضعة لمجموعة من العوامل السياسية والبشرية وصياغة تاريخها القديم صياغة خاصة .
فهى من ناحية منطقة جذب لسكان الصحراء الذين يعتبرونها جنه نظرا لخضرتها ورغد عيشها بفضل أمطارها الغزيرة ، وينابيعهـــا الثـــرة ، واوديتها الجارية . وهى من ناحية ثانية بمنطقة عبور واتصال بين قارات ثلاث أروبا وافريقيـــا وآسيا . فكانت بهذا الموقع الممتاز ملتقى العديد من المسالك التجارية ، والتيارات الثقافيـــة ، والصراعات السياسية .
ونظرا لطبيعة الارض التى ساعدت على قيام دويلات متعددة ، بدل دولة موحدة قوية ، فقـــد كانت هذه الدويلات ، لضعفها ، تضطر الى أن تناور وسط ضغوط الدول القوية ، حتى تضمـــن استمرار وجودها . وقد كان أفادها هذا الوضع فى اكتساب خاصية تتمثل فى الجمع بين الثقافات المصرية والرافدية والاناضولية ، ومزجها بالثقافات المحلية ، والخروج من كل ذلك بثقافة خصبـــة ومتنوعـــة .

من اوغاريت الى قرطاجة :

فى المنطقة الساحلية الشمالية من سوريـــا ، قرب اللاذقية اليوم ، اكتشفت آثار على غايـــة كبرى من الاهمية ، القت اضواء مشعة على تاريخ المنطقة . وقد تمكن المؤرخون ، بواسطة الاعتماد على هذه الآثار ، وعلى مخلفات هامة اخـــرى اكتشفت فى تل العمارنة بمصرتعتبر ارشيفا حقيقيا لحقبة من أهم الحقب فى تاريخ مصر والشرق الادنى القديم ، تمكن المؤرخون بواسطة ذلكمن تحديد الخطوات الاولى لتطور دويلات بلاد الشام نحو قوة أضحت بعد قليل ذات وزن عالمى .
فقد استغلت هذه الدويلات بـــوادر الضعف التى بدت على الامبراطورية المصرية فى القـــرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وحصنت استقلالها . ونظرا لوقوع عدد غير قليل من هذه الدويلات على ساحل البحر ، فقد تعرضت لهجرات شعـــوب البحر — ومن بينهم الفلسطينيون الذين اعطـــوا اسمهم لفلسطين — كما اقامت علاقات متعددة مع

ابرز حضارات الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وهى الحضارة المينوسية التى ازدهرت فى جزيرة كريت ، والحضارة الميكينية التى خلفتها .

وقد عرفت دويلات سوريا كيف تستفيد من هذه الاتصالات والاحتكاكات ، فاستغلتها اقتصاديا فى تطوير تجارتها . وقد انعكس هــذا التطــور الاقتصادى على الوضع الثقافى ، فظهــرت فى أوغاريت أول كتابة أبجدية ظهرت فى التاريخ .

الفنيقيون : الفنيقيون هم شعب سام استقر على الساحل . فنحن نلحظ وجودهم منذ نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، بأوغاريت (التى تسمى حاليا رأس شمرا) فى مواجهة الضفة الشرقية من قبرص . وقد كان نفوذهم يمتد جنوبا . لكن سلطتهم فى اتجاه الداخل لم تصل الى جبال لبنان الشرقية الا فى نقط قليلة .

هذا الشريط الساحلى الضيق الذى يمتد على أكثر من ثلاثمائة كيلو ميتر ، والــذى لا تصلــه بالداخل الا مسالك متقطعة ، لم يكن يساعد على قيام دولة قوية ، ولذلك كانت عرضة لضغــوط الدول الكبرى فى المنطقة ، مثل الدولة المصرية ، والدولة الرافدية والدولة الحتية . واذا كــانت دويلات الساحل السورى قد استعادت استقلالها بفضل انهيار الامبراطورية المصرية والامبراطورية الحتية ، فانها لم تلبث ان وقعت تحت رحمــة الاشوريين ثم البابليين ثم الفرس ، ثم اليونــان والرومـــان .

وزاد من ضعف هذه الدويلات أنها لم تكــن متحدة فيما بينها ، بل لقد كانت تتنازع وتتحارب وتتنافس . فقد قامت نزاعات كبرى بين صـــور وصيدون . أما عن التنظيم السياسى لدويــلات الساحل السورى ، فيبدو انه كان تنظيما خاصا يختلف عن تنظيم المدينة ــ الدولة فى بلاد الاغريق .

فعلى رأس الدويلة السورية يوجد ملك وراثى . وتارة يمتلك سلطة مطلقة كما هو شأن حيرام ملك صور فى عهد سليمان . لكن الملك كان مجبرا فى اغلب الاحيان على أن يقرا حساب قوى اخرى ،



فالكاهن الذى يمثل الاله الرئيسى للمدينــة ــ الدولة ، يمتلك نفوذا واسعا . كما أن القاضيين اللذين يختاران فى صور مثلا بين العائلات الغنية يمتلكان نفوذا مؤكدا ، بالاضافة الى نفوذ «مجلس القدامى» الذى يمثل كبار الاقطاعيين وكبار التجار البحارة .

وعلى الرغم من وقوع هذه المدن ــ الدول على البحر ، فقد كانت الزراعة تمثل فيها مكانة هامة . فالحبوب تفى بحاجة السكان الغذائية ، كما كانت الاغنام تمدهم بما يحتاجونه من لباس ، وقد كان صيد المرجان يحتل مكانــة هامــة فى الحيــاة الاقتصادية للمــدن الفنيقيــة ، ومنــه كانــوا

يستخرجون اللون الارجوانى الذى كانوا يحتكرون صناعته . وقد اخترع الفنيقيون بعض الاساليب الفنية فى صناعة أدوات الترف ، كما طوروا بعض الاساليب الاخرى ، حتى اصبح لهم الباع الاعلى فى صناعة الحلى والزجاج والعطور والاثاث المطعم بالعاج .

ونظرا الى غنى غابات لبنان بالخشب . فقد اتجهوا الى صناعة السفن حتى اصبح لهم اسطول تجارى هام يعتبر مكملا طبيعيا لهويتهم التجارية التى عززها وقوعهم فى منطقة عبور تتماس فيها قارات ثلاث .

الاتصال مع شواطىء افريقيا الشماليـــة :

عرفت المدن ــ الدول الفنيقية تطورا كبيرا تطابق مع فترات انكماش الاشوريين (من ١٢٠٧ الى ١١١٢ ق . م . من ١٠٧٤ الى ٩٠٩ ق . م . ومن ٧٨٢ الى ٧٤٥ ق . م .) وهذه الفترات تتطابق ايضا مع فترات التدهور فى مصر .

وقد اتجه الفنيقيون فى تجارتهم وبحثهم عمـــا يحتاجونه من مواد اولية ، الى شواطىء شمال افريقيا ، وسردينيا . ويبدو ان اختيار هـــــذه الخطوط البحرية الواقعة جنوب البحر الابيض كـــان انسب لتطـــور الاقتصــــاد الفنيقى مـــن الخطوط البحرية الشمالية للمتوسط ، نظرا الى انهم شمالا معرضون للاحتكاك بالاغريق الذيـــن كانوا يسيطرون على سواحل الاناضول واوربا .

انطلق الفنيقيون اذن يجوبون سواحل الشمال الافريقى من ليبيا الى تونس الى الجزائر الـــى المغرب الى سردانيا وجزر الباليار الى سواحل اسبانيا الواقعة فى البحر الابيض المتوسط حيث كشفوا عن ثروة معدنية هامة . وهكذا قامت علاقات قوية بين صيدا وصور وبيبلوس (جيل) من ناحية ، وعوتيقة وقرطاجة وهيبون رجيوس (بونة) وروسيقاد وايول ولكسوس (جنوب طنجة) وطارطسوس من ناحية اخرى .

ويبدو ان الفنيقيين كانوا يفضلـــون اساليب التسرب السلمى على استعمال قوة الحرب . ولذلك كانوا يتجنبون الاصطدام مع الاغريق من جهة ، ويحرصون من جهة اخرى على ربطعلاقات ودية مع سكان السواحل الاغريقية الشمالية .

والواقع ان الاتصال بالساحل السورى وبين شواطىء شمال افريقيا كان قد ضعف منذ القرن السابع قبل الميلاد ، بفعل سيطرة الاغريق على الساحل الليبى فخرموا بذلك سلسلة المواصلات البحرية الفنيقية .

ظهور قرطاجة : على الرغم من وجود عـــدة احتمالات حول التاريخ الحقيقى لبناء قرطاجة . فان التاريخ الذى يحدده القدامى وهو ٨١٤ ــ ٨١٣ ق . م . يبدو هو اقرب التواريـــخ الـــى الصحة ، وقد كانت قرطاجة من بداية نشأتها ، واحدة من المدن الفنيقية العديدة التى انشئت على الساحل الشمالى لافريقيا . ويبدو ان المعمرين الفنيقيين الذين اسسوها سموهـــا « كـــارت هدشت » اى المدينة الجديدة تمييزا عن عوتيقة . ثم عدل اليونان هذا الاسم الى كارتون والرومان الى كرتاجو . وقد يبدو غريبا أن تحتل قرطاجة مكانة هامة بعد ضعف العلاقات مع الدول الام ، دون بقية المدن التى اسسها الفنيقيون عـــلى سواحل الشمال الافريقى . حتى أن الاستـــاذ اندرى ايمار تساءل فى الجزء الثانى من كتاب « التاريخ العام للحضارات » عن سر ذلـــك . وقال فى هذا الصدد ما تعريبه :

« ليست هناك اية حتمية تفسر لماذا لم تحتل « عوتيقة » هذه المكانة فى حين انها اقدم تأسيسا واسهل دفاعا واقرب الى المدينة ــ الام ــ اننا نجهل العوامل الانسانية التى ادت الى غير ذلك »

لعل الاجابة عن هذا السؤال تكمن بالضبط فى بعد قرطاجة ــ اكثر من عوتيقة عن المدينـــة ــ

الدولة الام . فقد لاحظنا فيما سبق أن العلاقات بين المراكز التجارية التى اسسها الفنيقيون وبين الدولة الام ، قد ضعفت بفعل السيطرة الاجنبية التى تعرضت لها تلك الدولة الام على العهـد الاشـورى ، قبل ان تصاب بضربة قاضية فى العهد الاكـــادى .

ولاشك ان فترة ضعف العلاقـــات — قبـل انقطاعها كلية — من شأنها أن تدفع المدن الا بعد الى التفكير فى الاستقلال اكثر من المدن الاشـــد قربا من الدولة الام . يضاف الى ذلك أن عوتيقة كانت اقرب الى المستعمرات الاغريقية على ساحل ليبيا ، وبالتالى اشد احساسا بالمنافسة ، واكثر شعورا بضرورة الاستناد الى ظهير قوى يتمثل بالضبط فى الدولة الام .

اما قرطاجة فانها زيادة على بعدها عن المراكز الاغريقية فى افريقيا الشمالية ، لم تكن تجد خلال القرن السابع قبل الميلاد وحتى خلال القـــرن السادس فى مواجهتها دولة قوية تخشاها ، فروما لم تكن قد برزت آنذاك بعد ، ومن ثم لم تكـــن تشعر بالحاجة الى الاحتفاظ بالعلاقات مع الدولة — الام .

ومهما يكن من شىء فقد افادت قرطاجة من التدهور الذى اصاب صــــور ، وراحت تطـــور اقتصادها ونفوذها السياسى تدريجيا حتـــى اصبحت هى المؤهلة لميراث صور عندما تحطمت هذه نائيا على يد الاسكندر الاكبر الذى لم يغفر لها انها رفضت ان تفتح لـــه ابوابهـــا ، عـــام ٣٣٢ ق.م.

ومنذ ذلك الحين اعتبرت قرطاجة نفسهـــا مسؤولة عن الدفاع عن التراث الشرقى ، وراحت تناوىء الغرب . وتفرض وصايتها على كل المدن الفنيقية . وبذلك توصلت الى جمع المستعمرات الفنيقية فى افريقيا تحت هيمنتها .

وفرضت عليها الجزية ، ولم يأت القرن الثالث قبل الميلاد حتى أضحت قرطاجة هى أكثر مـــدن المتوسط ثراء كان يدخل خزائنها كل عام مـــن الضرائب الجمركية ومن الخارج « نحو ١٢٠٠٠ تالنت اى قدر ما كان يدخل خزائن اثينا أيام مجدها عشرين مرة » ، حسب تعبير ديورانت .

وهكذا تطورت قرطاجة ، تحت ضغط هـــذه الظروف ، من مركز تجارى بحرى مسالم ، الى قوة امبريالية بدات تفكر فى تمديد نفوذها داخل بر الشمال الافريقى من جهة ، وعلى جزر البحر الابيض المتوسط من جهة ثانية ويؤكد شرابون أن سكان مدينة قرطاجة كانوا يعدون ٧٠٠ الف نسمة ، قبيل تخريبها .

وقد دفعتها هذه الهوية الجديدة الى انشاء اسطول حربى يعد ما لا يقل عن خمسمائة سفينة ذات خمسة صفوف من المجدفين والدخـــول فى الصراع .

كما انشأت جيشا بريا قويا عماده المرتزقة . وقد استطاعت قرطاجة بسبب هذا الاسطول ان تغلق الحوض الغربى من البحـــر الابيـــض المتوسط فى وجه التجارة الرومانية ، كمـــا ان جيشها القوى دفعها الى التخلى عما كانت تدفعه من جزية لامراء البربر ، بل والى التفكير فى توسيع رقعتها على حسابهم ، وكانت تلك هى بـــذور الصراع المعقد ذى الاطراف الثلاثة : قرطاجة — روما — نوميديا ، ذلك الصراع الذى عرف باسم الحروب البونيقية ، التى امتدت نحو من مائـــة عام ، وافضت فى النهاية الى معركة زاما .

ونستطيع ان نأخذ صورة عن قوة قرطاجة ، اذا نحن عرفنا انها تمكنت خلال الحرب البونيقية الاولى من جمع ٣٥٠ سفينة كبيرة، عام ٢٥٦ ق.م وانها خسرت فى هذه الحرب التى دامت اربعـــا وعشرين سنة خمسمائة سفينة . ويقـــال ان

كل سفينة كانت تعد ما لا يقل عن اربعمائة بين جندى ومجدف ، اى ان الاسطول البحرى كان يعد نحوا من مائة واربعين الف رجل .

اما الجيش البرى ، فتحدثنا المصادر عن مائة وعشرين الف جندى كانت تحت قيادة حنبعل فى اسبانيا خلال الحرب البونيقية الثانية ، ويقال ان حنبعل عبر جبال البرينى على رأس تسع وخمسين الف جندى .

دخول الحوض الغربى للمتوسط فى الصراع العالمى

ما فتىء الشرق الادنى يمثل فى العصور التاريخية القديمة مركز الدنيا منذ بدايات التاريخ. وكل ما كان يتغير فيه هو مركز الثقل . فتارة كان يوجد بمصر ، وتارة فى بلاد الرافدين واحيانا فى بحر ايجه . **اما عدا الشرق الادنى فلم يحظ** باهتمام الفاتحين ، خلال التاريخ القديم ، الا فى عهود متأخرة نسبيا .

وفعلا فيبدو ان كبار الفاتحين فى العصور القديمة ، لم يفكر احد منهم فى تمديد سيطرته الى لحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط ، قبل الاسكندر الاكبر . ولعل الاسكندر الاكبر نفسه لم يفكر فى تمديد نفوذه الى اعمدة هرقل الا لان هذه المنطقة كانت قد دخلت فى اطار التاريخ الحضارى بعد ان نقل لها الفنيقيون فنون التجارة والبحرية والابجدية . على ان الفنيقيين عندما تسربوا الى الحوض الغربى من المتوسط ، كانوا حريصين على تجنب اى صراع، لانهم فى بداية تسربهم ذلك ، لم تكن وراءهم قوة امبراطورية مثل التى انشأها الاسكندر ، أو مثل التى عرفتها روما بعد ذلك ، او حتى مثل تطور ما فى ظل قرطاجنة .

اذن فقد ظل الحوض الغربى من المتوسط ، بمعزل عن الصراعات السياسية التى كان مسرحها هو المشرق الادنى .

لكن نشأة روما ، وظروف تطورها محتكة بالحضارة الاغريقية وثقافات الحوض الشرقى من المتوسط ، ما انفك ان كسر هذه العزلة .

لان روما نظرا للمسرح الذى نشأت فيه ، ذات اهتمامات غربية مؤكدة .. ونظرا الى ان الحضارات التى احتكت بها سلميا او بالقوة ، كانت امتدادا لحضارات الشرق الادنى ، وجدت نفسها مضطرة الى ان تسعى لتكوين عالم جديد تحت سيطرتها يشمل هذه المرة كلا من حوضى المتوسط الشرقى والغربى .

وهكذا امتد الصراع العالمى الى شمال افريقيا، وتهيأت الظروف لاحتكاك واصطدام حربى من اعنف ما عرف العالم القديم من اصطدامات .

(يتبـــع)

العلاقات بين الجزائر وإيطاليا

خلال العهد التركي

2

سلفاتور بونو

ترجمة : ابو القاسم بن تومي

ان استرقاق المسيحيين فى المدن المغربية (الجزائر — وتونس — وطرابلس) حقيقة تاريخية مشهورة — وقد كانت الهيئات والمنظمات الدينة بأوروبا التى عنيت بافتداء الاسرى وتشجيع عمل الاحسان لفائدتهم ، اذ كان جميع مبالغ من المال هو القاعدة الاساسية لتحريرهم .

واستنادا الى مؤلفات الاباء الثالوثيين وآبــاء الرحمة les peres de la merci وغيرهم مــن رجال الكنيسة ، والقصص التى كتبها بعض العبيد بعد عودتهم الى بلادهم ، والوثائق العديــدة المطبوع منها وغير المطبوع ، فقد عالج كثير مــن الاخصائيين موضوع الاستعباد بالاراضى المغربية الذى يعتبر فى الساعة الراهنة الجانب المعروف على الوجه الاحسن فى تاريخ المغرب من القــرن السادس عشر الى اوائل القرن التاسع عشر .

انى لن اطيل الكلام حول هذا الموضوع ، انما أريد أن أشير باختصار الى شاعر صقلى له شهرة فى ادبنا ، هو « انطونيو فينيزيانو » Antonio فقد ركب على سفينة حربية صحبة « دون كارلو درافونا » Doncarlo d'aragona دوق Terranova فاحتجزت فى شهر ابريل سنة ١٥٧٨ ، وسيــق صاحبنا اسيرا الى الجزائر . وهناك لقى احــد « زملائه » الاسير ذا الصيت الذائع فى تاريــخ المغــرب ، اعنــى « ميشال دى سارفانتيس » Miguel de cervantes فاتخذه صديقا ، وكــانا يتبادلان رسائل الشعر . ونحن نأسف كثــيرا اذ أن الشاعر الصقلى الذى اقام بالجزائرى نحــو سنتين لم يعط فيما كتب اى تفصيل عن الحياة فى تلك المدينة . واحدى قصائده التى عنــوانها la celia المهداة للمراة التى احبها نظمت من دون شك بالجزائر ، كما تشهد بذلك الابيات التى يقول فيها ما معناه : « ان ارادة الالهــة قضت أن تكونى فى صقلية وانا فى الجزائر مستعبد عند المسلمين » .

ولئن وجد فى الارض المغربية عبيد مسيحيون فلقد كان أيضا عبيد مسلمون يقيمون داخل البلاد المسيحية ـــ ان المعلومات عن هؤلاء قليلة فى كتب مؤرخى القرون الماضية . وقــد لاحظ ذلـــك Guglio مؤرخ البحرية البابويــة اذ يقول : « .... اما فيما يخص العبيد المسلمين الذين عندنا ، فلا يوجد مؤرخ واحد يلجا اليــه لاخذ معلومات او اقامة مقارنات ، فكلهم قــد تحفظوا وسكتوا عن اشياء يعرفونها . وهكــذا اصبحت هذه الاشياء ، على ممر الايام ، غامضــة ومجهولة » (الفصل ٩ ص ٩٤) .

لقد مضى على هذا القول مائة سنة والى اليوم لم نر عالما آخر تعرض لهذا الموضوع فى جملتــه وها انا، استنادا الى بعض المراجع لمؤلفين قدماء ومعلومات التقطتها هنا وهناك من مصادر مختلفة غير مطبوعة ، احاول الحديث عن وجود المسلمين المغاربة ببلاد ايطاليا ، وعن طرق معيشتهم . لقد كان هؤلاء يدخلون ايطاليا اثر الاستيلاء على سفنهم ، او بعد معارك بحريــة او منــاورات دفاعية ، او هجومات معاكسة ضد القراصنــة الافريقيين ، او غزو سواحل افريقيا من جانب الايطاليين ـــ وكانت المدن الايطالية الموجودة على ساحل البحر مثل « ليفورن ونابولى وجنــوة » وغيرها تستقبل اوفر عدد من الاسرى المسلمين الذين كانوا اقوياء السواعد يصلحون للتجديف على السفن . وكانت فى هذه الموانىء سجــون bagne يعيش فيها العبيد ، شبيهة بتلك التى يقيم بها الاسرى المسيحيون فى المدن المغربية . وبهذه السجون حانات يستطيع العبيد أن يشتروا منها المأكولات والمشروبات ويجتمعون فيهــا . وبها أيضا أماكن للصلاة . وفى مدينة Civita Vechch كما يروى Guigliolmotti كان للعبيــد المسلمين مستشفى يعالجهم فيه الاطباء الملحقون بالسفن الحربية ، وكان الحراس المكلفون بهــم يقدمون لهم الغذاء والادوية اللازمة بناء علــى وصفة الطبيب المعالج . وفى هذه المدينة نفسهــا مقبرة قرب البحر خاصة بالمسلمين ، وكانت الى ما قبل القرن الاخير تدعى « مــرج التركــى »

ان لدينا قليلا من التفاصيل عن حياة العبيد المسلمين بايطاليا . ونحن لا ندرى هل توجد اخبار فى هذا الصدد مثل التى كان يكتبها بعد عودتهم الى وطنهم الاسرى المسيحيون ولقد عثرنا فى دار المحفوظات بايطاليا على بعض الوثائق تثبت وجود ارتباط تفاعلى بين حالة العبيد المسلمين فى ايطاليا وحالة العبيد المسيحيين بالجزائر . فقد كان الاسرى المسلمون كلما اسيئت معاملتهم ، أو تعرضوا لبعض أعمال العنف أو التعصب يشعرون بذلك سلطات بلادهم ففى سنة ١٦٩٨ كتب خوجة سجن « ليفورن » الذى كان يمثل العبيد المغاربة لدى السلطات المسيحية الى داى الجزائر يطلب منه ان يقوم بأعمال انتقامية ضد العبيد المسيحيين الموجودين بتلك المدينة .

ولدينا كثير من الشواهد على الانعكاسات السلبية فى معاملة الاسرى المسيحيين سببها الانباء الواردة الى الجزائر عن سوء معاملة الاسرى المسلمين .

وفى سنة ١٦٣٨ كتب العبيد المسلمون الذين كانوا يعملون كجدافين فى السفن البابوية الى الاسقف المسيحى المقيم بالجزائر الذى كان رئيس البعثات الكاثوليكية هناك ، يتذمرون من حرمانهم من بعض الاشياء التى كان لهم الحق فيها بترخيص من البابا . وقد أسرع هذا الاسقف بتبليغ شكواهم الى سلطات روما ، طالبا منهم تلافى الامر لدفع ما عسى ان يحدث من ردود فعل فى الجزائر .

ومن المفيد ان نبين مظهرا آخر لحياة العبيد المسلمين بايطاليا . فقد كان فى استطاعتهم أن يحصلوا على رخصة تسمح لهم بممارسة بعض الاعمال الصناعية والتجارية . فمنهم من تعاطوا صناعة الجلود والمرصعات ومنهم من فتحوا دكاكين لبيع المشروبات أو القصابة ، وآخرون منهم عملوا خداما فى المنازل الخاصة وتمكنوا بفضل الاجور التى يتقضونها من جمع مبالغ من المال استردوا بها حريتهم . وقد عثرنا فى بعض الوثائق ان استخدام الاسرى المسلمين فى المنازل لم يكن منحصرا فى المدن لايطالية الانفة الذكر ، بل عاما فى كامل الانحاء الايطالية تقريبا وخلف أحد الامراء من أسرة Massinio بروما بعد وفاته سبعة عشر رقيقا كلهم نساء ، فأوصى فى رسم محرر فى يوم ٤ ديسمبر ١٥٧٠ بتنصيرهن وتزويجهن داخل ممتلكاته . وفى شهر يونيو ١٦٦٢ توقفت سفينتان جزائريتان عن السير قرب رأس leuca فأوى أمير Ericase ملاحى احدى السفينتين الذين لاذوا بالفرار فى قصره وأمنهم على حياتهم واستبقاهم لخدمته . وفى بليرما أجرى سنة ١٥٦٥ احصاء للعبيد الذكور الموجودين فى المدينة والصالحين للعمل فى الجيش ، فكانوا يبلغون ٦٤٥ اكثرهم ولدوا فى صقلية من آباء وامهات من طبقة العبيد ، وباقيهم من أفريقيا السوداء أو من بلاد المغرب — ومن بين الارقاء المسلمين الذين اندمجوا فى الحياة المنزلية فى المدن والارياف الايطالية من انسلخوا عن الاسلام واعتنقوا النصرانة لكن عددهم قليل بالنسبة للمسيحيين الذين اسلموا فى الجزائر . وكثير منهم تزوجوا هنالك وذابوا فى المجتمع المسيحى . ومما يجدر التنبيه اليه أن وجود الاسرى الذين أعتنقو الاسلام أو النصرانية فى هذا الجانب أو ذاك من البحر المتوسط قد خلق رابطة بين سكان الجزائر وايطاليا ، هى رابطة الدم . واهمية هذه الرابطة يمكن أن تظهر بصورة اوضح بعد الدراسة العميقة لبعض المصادر لا سيما سجلات الكنائس التى اثبتت فيها عقود المواليد والزواج .

ويبدوا أن سلطات الجزائر والهيئات المعنية بالامر لم تهتم كثيرا بقضية عودة الجزائريين المستعبدين عند المسيحيين الى أوطانهم . هذا الى أن مصالح البحرية الاوروبية التى كانت فى حاجة اليهم للتجديف على السفن والعمل فى الموانىء لم تكن لترغب هى الاخرى فى تحريرهم . والاشخاص الذين كانوا يملكون العبيد ويستعملونهم لاغراضهم الخاصة — وجلهم من الطبقات الارسطوقراطية — كانوا بدورهم حريصين على ابقائهم تحت تصرفهم . وهذا خلافا لما كان يجرى فى الجزائر حيث كانت الحكومة والاهالى يتساهلون فى اطلاق الاسرى الذين بأيديهم مقابل أخذ ثمن الفداء .

وكان الطرفان يلجآن احيانا الى تبادل الاسرى وبهذه الطريقة توصل بعض العبيد الى التحرر من الرق . ففى سنة ١٧٥٥ اطلق سراح ١٠٧ من الجزائريين كانوا على متن سفينة حجزتها عمارة بحرية للبابا مقابل تحرير عدد مماثل من العبيد المسيحيين كانوا فى الجزائر . ونجد فى بعض المصادر التاريخية والوثائق التى لم تطبع بعد أخبارا مختلفة عن مبادلات وقعت بين أفراد أو جماعات . وكان بعض التجار الايطاليين يشترون احيانا عبيدا طاعنين فى السن أو ممن ليست لهم قدرة على العمل ليبادلوهم مع عبيد مسيحيين فى الجزائر بعد أن يتقاضوا من ذويهم أو من بعض المنظمات الخيرية ثمن الفداء ، ويحصلون بهذه العملية على أرباح يستخلصونها لانفسهم . وفى سنة ١٧٨٨ اشترى التاجر Dominico lavazzi وهو من جنوة ٢٤ عبدا شيوخا وعجزة من عبيد البابا بمدينة Civitta ave بثمن قدره ثلاثون أو أربعون ريالا للواحد . وكان أحدهم يدعى شابا السعيد عمره ٨٠ سنة من بجاية وآخر يقال له مصطفى عجزه مصاب بمرض العينين وثالث أعرج اسمه محمد عبد القادر أصله من تلمسان ورابع عرد رمان على من نفس البلدة قيل أنه مجنون واثنان آخران من الجزائر وبجاية .

وقد تمنح الحرية لبعض العبيد مجاملة لبعض رجال الدولة أو لممثلين لحكومة الجزائر من ذوى النفوذ تدخلوا لدى ملوك وسلطات الحكومات الايطالية . وكن تدخل هؤلاء غالبا لفائدة أشخاص عظماء مثل الانكشرية وضباط المليشية التركية و « الرياس » وبعض التجار .

وفى شهر يوليو من سنة ١٥٧٠ كتب قائد الاسطول الجزائرى لغراندوق طوسكان يلتمس منه اطلاق سراح شخص يدعى « مامى » كان أسيرا بفلورنسا . وقد حصلت هذه المبررات التى هى من قبيل اللياقة عدة مرات ، وكان الدايات والسلطات الجزائرية يقابلونها بالمثل على أنماط واشكال مختلفة . وكان الامراء طوستان علاقات ودية متواصلة مع حكام البلاد ورؤساء البحرية الكبار بالجزائر كما تدل على ذلك الرسائل الكثيرة المحفوظة بدار الوثائق التاريخية بمدينة فلورنسا . وفى سنة ١٦٩٥ توسط الداى الحاج أحمد لدى أحد هؤلاء الامراء لفائدة جماعة تتألف من ١٥ جزائريا اخذهم قراصنة هولانديون واسروهم فى نابولى . وفى الرسائل التى تبودلت بينهما طيلة السنة التالية أوصى حاكم الجزائر الامير خيرا بالاسرى الجزائريين المقيمين بليفورن (حيث كان لهم ثلاثة مساجد وأربعة دكاكين للتجارة) فطمأنه هذا الاخير ووعده بحسن معاملتهم فى اراضيه ، ورجا منه أن يطلق سراح رجل أرمينى كان مستعبدا فى الجزائر .

وكان من بين العبيد المسلمين والمسيحيين من يحاولون الفرار والتمرد احيانا . ففى أحد الايام دبر العبيد المسلمون الذين يعملون جدافين فى سفينتين لمملكة نابولى مؤامرة بالاتفاق مع

بعض الاسرى المسيحيين المحكوم عليهم بالاعمال الشاقة . وبينما كانت السفينتان راسيتان فى ميناء Trapani نفذوا خطتهم واتجهوا بالسفينتين نحو الجزائر . ولما وصلوا اسر جميع المسيحيين حتى الذين شاركوا فى العصيان وكان ذلك سنة ١٧٥٥ . ونظرا لكثرة عددهم انشىء لهم سجن خاص اطلق عليه سجن السفينتين

وقد دفع ملك نابولى فدية الضباط وترك الباقين فى الاسر عقابا لهم . وبعد مضى ثلاثين سنة على هذه الحادثة كان عدد هؤلاء ثلاثين اسيرا حسبما روى ذلك بعض من عاينهم .

لقد تحدثنا طويلا عن الجزائريين فى ايطاليا ونريد الان ان نقول كلمة عن الايطاليين فى البلاد الجزائرية ، لا سيما الذين خلفوا لنا شهادات عن الحياة فى مدينة الجزائر وعن الحوادث السياسية والتجارية وحالة السكان الاجتماعية. وتلك الشهادات عبارة عن رسئل ومذكرات وكتب الفها رجال مبعوثون من طرف الحكومات الايطالية للتفاوض فى بعض الشؤون ، وقناصل كانوا مقيمين بالجزائر ، او مبشرون او عبيد كتبوها اثناء اقامتهم بالمدينة واثر عودتهم الى اوطانهم

ولنبدا بذكر ما حرره المترجم Giovani baticta sa الموفد الى الجزائر فى سنة ١٦٢٥ ليفاوض فى شأن فداء جماعة من رعايا البندقية اسروا اثناء غارة على قرية (Perasto)فى دلماسية . فوصف (Salvago) المفاوضات ، ثم كتب تقريرا اضافيا عنانظمة القراصنة الجزائريين وطرق نشاطهم وعن التجارة بتلك المدنية ، ملاحظا ان معظم المبادلات التجارية مع بلدان اوربا كان يقوم على القرصنة البحرية نفسها ذلك ان غنائم السفن المسيحية كانت تباع لتجار مسيحيين فترسل الى ليقورن (Livourne) لاعفائها من رسوم الجمارك ، ومن هناك توزع على كافة المدن الايطالية . ثم ذكر باعجاب مدينة الجزائر ، مثنيا على روابيها الجميلة الخضراء المحفوفة بالمنازل والغابات مثلما فى طوسكانيا .

وبالرغم من اهمية كتاب (سلفاتو) فقد ظل زمنا طويلا غير مطبوع . ومؤلفات Civitta ave Standardi الذى كان قنصل امبراطور النمسا فى الجزائر ، وان طبعت سنة ١٧٦٥ غير انها بقيت بعيدة عن انظار المتخصصين فى تاريخ المغرب ، ولم تعرف الا منذ عهد قريب . وقد جاءStandardi الى الجزائر سنة ١٧٤٩ حينما انشئت علاقات دبلوماسية بين حكومة الجزائر وامبراطور آل هبسبور عقب الصلح المبرم فى السنة السابقة . وكانت له خبرة شخصية بالعالم الاسلامى اذ قام برحلة دامت سنتين فى البلاد الشرقية . وفى سنة ١٧٤٨ قام بمهمة موفقة فى القسطنطينية لصالح حكومته . وقبل نهاية سنة ١٧٤٩ كتب تقريرا عن حكومة الجزائر ، وكان الداى اذ ذاك محمد بن بكير الذى كان سابقا مراقب جباية الضرائب الواردة من داخل البلاد . وقد عين دايا سنة ١٧٤٨ بعد وفاة ابراهيم كيسوك ( ) وكان ذكيا مثقفا عادلا ذا مهارة ، محبا للسلم ، حريصا على اقرار الامن فى البلاد . ويصف Standardi النظام السياسى للجزائر فيقول : « ان سلطة الديوان قد تحولت ، فأصبح ملزما بقبول القرارات التى يتخذها الداى بالاشتراك مع مجلس الموظفين السامين وافراد حاشيته . ولاحباط المحاولات التى قد يقوم بها بعض الطامعين عند موت الداى للاستيلاء على الحكم بالقوة ، جرت العادة بتعيين الداى الجديد من بين المساعدين الاكثر اتصالا بالداى الراحل ، ثم يعلن فى آن واحد عن وفاة الداى السابق وعن اسم خليفته » . اما عن قيادة الجيش ، فيذكر أنها متكونة من ثلاثين ياباشى (رتبة عقيد) و ٨٠٠ بلوكباشى (رتبة رئيس او قبطان) و ٤٠٠ اودباشى (ضباط صف) وكان عدد الجنود

۷٫۰۰۰ منهم الفان شيوخ أو مرضى أو معفون من الخدمة ، والف جندى كانوا موزعين على مختلف الحاميات ، والباقون يعملون فى سفن القرصنة أو يرسلون لجباية الضرائب وحفظ الامن فى داخل البلاد . ويبدى القنصل المذكور ملاحظات دقيقة عن علاقات مدينة الجزائر مع نواحى البلاد، ويقدم بيانات عن موارد الدولة وعن البحرية تمكن الباحث من اجراء مقابلات مفيدة مع ما ورد فى مصادر اخرى .

ويظهر ان Standardi درس بعناية خاصة اثناء اقامته بالجزائر مظاهر الحياة الاقتصادية بالمدينة التى خصص لها تقريرا تحت عنوان : « تجارة الجزائر » وهو يتعجب كثيرا من ضعف النشاط التجارى وتدهوره فى بلاد غنية ذات ارض خصبة ، كثيرة السكان ، ويرى ان ذلك ناتج عن فقدان الصناعة ، اى عدم وجود نشاطات منتجة ، والحواجز التى تقيمها حكومة تريد ان تشرف على كل مظاهر الاقتصاد . وخصص Standardi تقارير تعرض فيها لذكر بعض الحوادث التى جرت فى البلاد اثناء اقامته بالجزائر ، وهو يعطينا عناصر جديدة لم يسبقه اليها احد . فمثلا تحدث عن الوباء الذى اجتاح الجزائر فى سنتى ١٧٥٣ — ١٧٥٢ . فأورد بيانات مفصلة عن طرق العلاج المستعملة وتحدث عن آثار هذا الوباء بالنسبة الى السكان على اختلاف عناصرهم وطبقاتهم الاجتماعية . وفى تقرير آخر يقدم لنا معلومات عن حالة الطقس من سبتمبر ١٧٥٢ الى سبتمبر ١٧٥٣ . ويروى اخيرا حادثا مثيرا جرى وهو بالجزائر ، ذلك هو مقتل الداى محمد بن بكير وتعيين بابا على خلفا له . (وقد حللت فى بعض مؤلفاتى هذا التقرير باسهاب)

ولنذكر فى الختام « الرحلة » الشيقة التى كتبها بعد رجوعه الى ايطاليا الشاعر الاديب Philippo Fanauti الذى ساقه سوء الحظ الى الجزائر سنة ١٨١٣ ، فأسر بها يوما واحدا ثم اطلق بفضل تدخل القنصل البيرطانى ، واقام بها زمنا . وكتابه الذى يحتوى على مذكرات ادبية واخبار نقلها عن مصادر اخرى فيه ملاحظات عديدة على مظاهر مختلفة للحالة المحلية ، وخاصة الحياة اليومية بمدينة الجزائر . وقد طرق مواضيع شتى ، فوصف سكان البلاد على اختلاف اجناسهم ، وذكر مميزاتهم الخاصة وعوائدهم ، وتحدث عن النشاط الصناعى الذى كان مزدهرا اذ ذاك وعن اللهجات وكيفية تعيين الداى وطرق مباشرة الحكم وكيفية تعيين الداى وطرق مباشرة الحكم وصلاحيات ووظائف اجهزة الدولة . وقد ترجم كتابه الى عدة لغات ، لكنه رغم انتشاره لم يستعمل كمصدر تاريخى مع كل استحقاقه لذلك .

— لقد تعرضنا فى هذه المحاضرة لذكر بعض المؤلفين والاحداث التى كونت صلة بين مدن وسكان الجزائر من جهة ومدن وسكان ايطاليا من جهة اخرى ووحدت بينهم . وكان فى وسعنا ان نذكر اشخاصا آخرين ، وهم كثيرون نظرا لوفرة العلاقات بين البلدين وتواصلها خلال القرون التى المحنا اليها والتى تلت . وفى اطار حروب القرصنة الطويلة القاسية فى غالب الاحيان التى استمرت من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر فى البحر المتوسط ، راينا كيف نشأت وتمكنت رغم كل هذا علائق تجارية واتفاقيات دبلوماسية ، وروابط تقدير وتعاون وصداقة بين الافراد . ومهمتنا ، نحن المؤرخين ، هى سرد وقائع الماضى وتفسيرها . وهذا يفرض علينا ان ننظر بضمير نير الى الحاضر . واتمنى فى ختام هذا العرض أن تتسع العلاقات الموجودة بين بلدينا وتزداد توثقا ، وخاصة فى الميدان الذى يهمنا ، اعنى التعاون العلمى والثقافى . وارجو فيما يتعلق بالبحث التاريخى أن نتمكن فى مستقبل الايام من اتخاذ مبادرات مشتركة بين الباحثين الجزائريين والباحثين الايطاليين .

النهاية



دور الاسلام فى تاريخ الانسانية

د . عبد الكريم جرمانوس
استاذ التاريخ الحديث
بجامعة بودابيست

انفتح عصر جديد فى التاريخ الانسانى حينما قام محمد صلى الله عليه وسلم ، بوحى النبوة وبالهبة الالهية ، بتوحيد القبائل العربية المتطاحنة برباط روحى شيق ، واحيا بذلك الهامات قدسية كادت أن تضيع فى غياهب النسيان . فقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم الى دين السلام .. الى العقيدة المؤسسة للمجتمع الانسانى .. دعا الى الاسلام . والاسلام كمعنى حرفى وكمفهوم فلسفى يعنى أن يسلم المؤمن نفسه الى تلك القوة الاخلاقية المهيمنة على الكون كله .. والتى يرمز اليها بكلمة « اللــه » .

ففى العقيدة يرسخ الاقتناع بأن ارادة الكون الموحدة هى التى تسير ملايين الاجرام السماوية وتوجه القـوى الخفية المهيمنة علـى مجريـات الامور فى الارض ، بل وتتحكم فى نواميس الفكر ايضا . وتسير كل هذه الامور فى توافق بديع مع القوة المهيمنة على الكون . والاسلام بالتحديد دعوة اخلاقية ، من خلاله تنبعث قوى الطبيعة المؤثرة ، والتى تتجسد فى الحياة نفسهـا .. بدءا من ادق المخلوقات الـى ارقاها .. الـى الجنس البشرى وتمتد هذه الوحدة الى تعاليم علم الالهيات والمنطق الاسلامى . ولم تتوصـل العلوم الطبيعية فى مختلف العصور الى حقيقة هذه الوحدة الا بعد تجارب طويلة .. وهى تلك الحقيقة التى يجسدها الاسـلام فى حد ذاته ، والتى قام بتحقيقها منذ ان وجـد .

وتحتل معجزة محمـد صلى الله عليه وسلم اعلى مكانة بين المعجزات العلمية العديدة .. تلك المعجزة المتمثلة فى القـرآن الكريم النابع الوحى الالهى . فبدون الوحى الالهى لما استطاع شخص امـى ان يخـرج عملا فى روعة هذا الكتاب المقدس الذى لايزال .. وبعد قـرابة الف واربعمائة عـام ـ يهـز بآيـاته الكريمة كل سامعيه ، وحتى من لا يفهمون العربية بهتـز وجدانهم لسماعه . نعم فلـم ولـن يوجد هذا الكاتب ولا ذلك الفنان الذى يستطيع ان يخلق عملا يضارع ـ او حتى يشـابه بأى صورة من الصور ـ القـرآن الكريم او اثـره على سامعيه . ومنذ الف واربعمائة من الاعوام وقد اصبحت هذه الكلمات المقدسة هى العبـادة ، والابتهال ، والسلوى فى الاحزان ، والرفيق المخلص فى المسرات ، ومصدر الانتاج الادبى ، وعماد العلوم للملايين مـن البشر . لقد ميز الله سبحانه وتعالى العرب عن غيرهم من الشعوب بأن اهدى البشرية جمعـاء بالقـرآن الكريم بلغتهم العربية ، ولازال تأثير القـرآن الكريم على كل الشعوب ، من ايرانيـين وافغـان واتـراك وتتـار وهنـود ، بل وصينيـين ايضا ، وعلى كل من هجع الى قـانون اللـه واختار الاسلام دينـا ودليلا فى طريق الحيـاة الوعر .

ولقد كانت لغة القـرآن الكريم عميقة التأثير لدرجة ان الشعوب المسلمـة اثرت لغـاتهـا الاصلية العديد من الكلمات العربية ، وبهذا تمكنوا من التعبير بطريقة افضل عن كل المفاهيم الممكن تصورهـا . ويحق للشعـوب الناطقة بالعربية .. لشعوب شبه الجزيرة العربية .. للسوريـين واللبنانيـين وللمصريـين ولليبيين وللتونسيين وللجزائريين وللمغاربة ان يفتخروا بأن لغتهم العربية تحتل هذا المكان البـارز بين لغات العالم الاخـرى .

لقد انزل اللـه سبحانه وتعالى كلمـاته الاخيرة على محمـد سـيد المرسلين وخاتمهم باللغة العربية . وفى لحظات ضعف الامبراطورية الرومانية ، فقد تردت شعوبهـا المتلقلة فى هـاوية البربريـة ، واعتمدت علـومهم على معتقدات التطير والخرافات ، وحاولوا التخفيف من جوعهم وعطشهم ، من فقـرهم وبؤسـهم الجسـدى بالهجـوم علـى جيرانهم وسلبهـم ونهبهم وقتلهم ، وسادت العداوة بين الجميع وامست القوة الوحشية هى عقيدتهم وهاديهم ، وقادتهم الى الصدام والاقتتال . وفى ذلك العصر لم تكن الكنيسة متحـدة لأن الرهبان اعطوا لنفسهم الكثير من الامتيازات التى تمكنهم من حكم شعوبهم الجاهلة . وقد قامت طبقة الرهبان المتميزة هذه بوضع علوم مستقاة من المصادر

الوثنية القديمة وتجمع عناصر اليهودية واليونانية والمسيحية ، والتى تحتوى كل منها بذاتها على متناقضات ، فضلا عن تناقضاتها مع بعضها البعض . وفى الوقت نفسه كانت الغالبية العظمى من افراد الشعب محرومة من العلم والمعرفة ووقعت فريسة لطبقة من الرهبان التى لم تكن قادرة على ايجاد الطريق الصحيح ، والقت بأفراد الشعب فى المناقشات العقيمة وتصيد الهفوات والانقسام الى مجموعات متنافرة . وقد تحكمت طبقة الرهبان المتميزة هذه فى الشعوب الغربية لقرون طويلة مستمدة سيطرتها الاجتماعية من المميزات الممنوحة لها ، مبقية على الشعوب فى ظلام الجهل والخوف من تهديداتهم وتمائمهم . وهكذا افتقدت شعوب اوربا لمئات السنين ذلك التراث العلمى لاسلافهم الاغريق والرومان ، وتاهت هذه الشعوب وسط غياهب التطير ومعتقداتها العقيمة ، وظلت اسيرة لهذه المعتقدات قرابة الالف عام .. الى ان بدات تتحرر منها .

ولذا فلكل عربى ان يتذكر بفخر واعتزاز اجداده العلماء الامجاد .

والاسلام كما انزله الله سبحانه وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم لا يعترف بوجود طبقة رهبان ذات امتيازات خاصة ترتفع بها فوق مستوى البشر لما تدعيه من علم . وكما اعلنها الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الاسلام » ..

فالاسلام هو دين كل مسلم ومسلمة ، وجوهر هذا الدين هو العلم والمعرفة التى يجب على كل مسلم بالغ ان ينهل منها بقدر ما يستطيع فالانسان الذى يفتقر الى المعرفة ، لا يستطيع تأدية واجبه نحو ربه ولا نحو اخوانه فى الانسانية .. وهى الامور التى بدونها لا تستقيم حياة المجتمع .

والمجتمع الوثنى فى الجزيرة العربية لم يعرف الصلاة قط ، وانما كانوا فى تلك العصور يحترمون ذكرى الاسلاف ويقدرون الاشخاص الذين ذاع صيتهم نتيجة لميزات جسدية أو عقلية فكانوا يطوفون حولهم سبعة مرات ، وفى ايام الوثنية ايضا كانوا يطوفون بالحجر الاسود فى الكعبة الشريفة فى مكة سبعة مرات فى الشهر الحرام تعبيرا عن احترامهم ، وفى حالة انقطاع المطر كانوا يبتهلون الى نجوم السماء أن تبارك اراضيهم الجافة بهطول الامطار . وباستثناء هذه الشعائر فان العرب فى الجاهلية لم يمارسوا أى نوع من انواع الصلاة المنتظمة قط . وقد فرضت الصلاة كأحد أهم اركان الاسلام . ولازالت حتى يومنا هذا واحدة من اهم مظاهر الايمان بالعقيدة . واذا كانت الصلاة تقوم على التلفظ بكلمات ابتهال معينة ، فان لب الصلاة ليس فى الالقاء الآلى للنصوص بدون ادراك لمعانى الكلمات ، وليست الصلاة مجرد تحريك للفم واللسان ، وانما جوهر الصلاة هو فى التفهم التام والكامل لكل كلمة ، ففى الادراك الكامل للكلمات والاحساس بمعانيها تكمن القوى التى توحى للمؤمن بواجباته الدنيوية التى جاء من اجلها ، والتى بأدائها يتمتع بحقوقه الانسانية التى وفرها له الاسلام .

والصلاة فى الاسلام تشتمل على كافة الضمانات المطلوبة لأسس المجتمع الانسانى وطوائفه . والمظهر الخارجى للصلاة يمثل بوضوح هذا الطابع الطائفى والاجتماعى ، فالطائفة تختار من بين أفرادها اماما يقف

المؤمنون خلفه فى صفوف متراصة ، يركعــون ويسجدون ويقومون طبقا لما يقوم به امامهم ، كما لو كانوا جنودا خلف قائدهم ، ولكن مع الفـــارق بأن كل حركة من حركـــات الصـــلاة كالركوع أو القيام أو السجود لها مضمونهـــا العقلى ومفهومها الروحى .

ان المسلمين اثناء اداء صلاة الجماعة يتغلغل فى داخلهم الاحساس بأنهم اخــوة .. بأنــهم يعيشون سويا مع كــل اخــوانهم فى النظـــام الاخلاقى العالمى ، يحســون نفس احاسيس هؤلاء الذين يعملون ويتمتعون بنعمة العمل فى خدمة العدالة الالهية . الكل يعلن متجها بقلبه وروحه وعقله الى الله سبحانه وتعالى .. لا فرق فى ذلك بين غنى وفقير ، بين مسلم أبيض أو ملون ، بين عــربى أو عجمى ، فقد خلق سبحانه وتعالى الناس كلهم سواسية لا يميز بينهم الا مقدار علمهم باللــه وعلى الجاهل أن يبذل جهده للارتفاع بنفسه من ظلمات الجهالة، والسمو بروحه الى رحاب العلم الواسعة .

ولا يوجد فى العالم كله اى عقيدة تقدر العلم وتحترمه كما تفعل العقيدة الاسلامية ، ويشهد بهذا التاريخ الاسلامى كله .

ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لم يعلن عقيدة جديدة وانما ارتفع بالمخــدوعين والجهلة ، بأن اعلن عليهم دين اللــه .. ديــن ابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام .

حينما هاجر رسول الله صلوات الله عليه من مكة الى يثرب تجنبا لاضطهاد اعدائه جعل من يثرب — التى اصبح اسمها فيما بعد مدينة النبى المنورة — مقرا ومستقرا له ، وجعل من احد ضواحيها مقرا للعبادة .. وقبل ذلك كانت القدس هى قبلة المسلمين . ولكن بعد ان دعم الانصار مجتمع المهاجرين الصغير ، فقد اعلن رسول الله قراره الحكيم المستمد من الــوحى الالهى بتغيير القبلة من القدس الى مكة المكرمة فكانت هذه الخطوة خطوة حاسمة ، نابعة من تفكير عميق وتوجيه ربانى . ففى ذلك الوقت كان المسلمون فى مكة يحاربون مجموعة عفنة متخلفة من عبدة الاوثـــان ممن يستندون الى امتيازات اقتصادية خاصة . وهكذا قاد محمد صلى الله عليه وسلم حربا لا تعرف الهوادة بعقيدة لا يمكن فلها ، من اجل تحرير الفقراء والعبيد والرجال والنساء المستغلين من براثن الجاهلية والوثنية . وباعـــلان الـــدعوة الى التوحيد الالهى فقد أراد صلى الله عليه وسلم توفير الحقوق المتكافئة لكل العاملين الشرفاء ، عربا أم عجما ، من الرجال والنساء والاطفال ، وفى الوقت نفسه هدف الى توزيع المسؤوليات المتساوية عليهم جميعا داخــل اطـــار عقيدة اشتراكية انسانية .

والديمقراطية ، اى تكافؤ الحقوق لكل من يحترم قوانين المجتمع ، اشتملت عليها تعاليم الاسلام . فالزكاة مثلا ، التى هى فريضة على كل مسلم قادر ، أصبحت هى الاساس الذى قام عليه مؤخــرا النظـــام الاشتراكى . وكون رسول الله صلى اللــه عليه وسلم قد اعطى حقوق المواطن لكل مؤمن أيا كانت ديانته . . سواء كان يهوديا أم مسيحيا ، فقد تخطى بذلك النظريات العنصريـــة لبعض شعـــوب أوروبا ومنع حدوث أى اضطهـــاد أو مذابـــح لبعض فئات الشعب ولو كان قادة اوروبا وزعماؤها قد اخذوا بمبدأ التسامح الدينى هذا لما تلوث تاريخ شعوبهم بمظـــاهر الاضطهـــاد الدينى أو العنصرى .

لقد كانت تعاليم الاسلام الاجتماعية التحررية والمنادية بالتكافؤ هى مصدر الخطر الاول الذى احست به الطبقة الحاكمة فى مكة فى ذلك الحين ، واضطهودا محمدا صلى الله عليه وسلم ، بل وهددوه فى حياته . ولم يكن لمحمد اليتيم من ملجأ له فى اضطهاده سوى اقربائه .. ولكن حتى الكثير من هؤلاء تخلوا عنه . وكان خير سند له هى السيدة خديجة رضى الله عنها التى احبته بل وآمنت به منذ البداية وساندته حينما تكاثر عليه اعداؤه ، ان هذا التمسك والاصرار الذى قامت به السيدة خديجة رضى الله عنها ليبعث على الاعجاب وسيظل مثلا حيا امام كل مسلم ومسلمة ، وتغير وضع رسول الله (صلعم) فى المدينة المنورة بعد ان احرز نصرا مبينا على اعدائه ، واذا بصاحب الدعوة المضطهد يصبح زعيما وقائدا حربيا يقوده توفيق الله والهامه فى كل خطاه ، وانضجت الرؤيا والتجارب المتصلة والتفكير العميق محمد صلى الله عليه وسلم وجعلت منه اعظم رجال الدولة فى تاريخ العالم ، فقد اذكى صلى الله عليه وسلم الشعور القومى لدى العرب فدين الاسلام دين اجدادهم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، مكة العربية هى مركز الديانة الاسلامية واحتفظ صلى الله عليه وسلم للعرب بالكثير من قدسياتهم فاعترف بالحجرالاسود رمزا ، وبالكعبة الشريفة قبلة وبالسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ولكنه صلى الله عليه وسلم امر فى نفس الوقت بهدم كل الاصنام الوثنية واقام مجتمعا يطبق قواعد الاسلام وقوانينه . وحينما دخل صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين الى مكة على اثر المباحثات السلمية التى اجراها مع اعدائه ، فقد ارسى صرح الدولة والديانة الاسلامية .

وشعار الاسلام نفسه ، بأن لا اله الا الله الواحد الحق ، يعبر فى ايجاز معجز عن تلك الحقيقة الرائعة التى جاهد العقل الانسانى ، وحاولت تعاليم الفلاسفة المتعاقبين طوال السنين ان تعبر عنها وتعترف بها . فالكون بأجمعه قد خلقته قوة اخلاقية شاملة تتحكم فى الشكل الخارجى المتغير للمادة .

وعلى الرغم من ان الشعوب العربية فى ذلك الوقت كانت تعانى من العداوات القبائلية العتيقة التى ورثوها عن ايام الجاهلية والوثنية، فقد كانت البساطة المتناهية لشعار الاسلام فى حد ذاته وتلك القوة القاهرة الكامنة فيه ، هى التى قادت الشعوب العربية المسلمة بعد وفاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الوقوف امام شعوب ذات حضارة مرتفعة كالبيزنطيين والفرس . فجيوش الامبراطورية البيزنطية ودولة الفرس كانت على اعلى درجات التنظيم وكانت مجهزة خير تجهيز ، فى الوقت الذى كانت فيه الجيوش العربية لا تملك سوى وسائل القتال البدائية:النبال والرماح والسيوف والحراب . ولكن ، على الرغم من هذا ، فقد توالت انتصارات المسلمين العرب فى سرعة تخلب اللب ، انتصروا على جيوش بيزنطية وفارس واحتلوا ديارها ، وخضع اهالى هذه الاقاليم طواعية للمسلمين العرب .. رافعين راية الاسلام .. دين البساطة والحق .. دين السماحة والمعايشة السلمية . انها حقا ظاهرة فريدة لم يعرف التاريخ لها مثيلا .. أن ينتصر قوم بسطاء لا يملكون الا ادوات القتال البدائية على امم ذات حضارة مرتفعة وتسليح جيوشها يكاد يبلغ حد الكمال .

ان القوه الاخلاقيه العظيمه هى التى حققت انتصار الاسلام وليس نوع سلاح المسلمين أو كميته .. سر النصر يكمن فى نفس عقيدة الاسلام .. فى ذلك الانضباط الروحى الفريد الذى تفرضه شعائر الصلاة ، خالقة بذلك قوة

شجاعة لا يمكن قهرها ، واردة متينة لا تهاب الموت .

واليوم ، وبعد مرور اكثر من الف عام ، فلعل العرب يأخذون العبرة الوافية من تلك الانتصارات الحربية التى حققها أسلافهم العظام فى القرن السابع الميلادى .

اخرجت الانتصارات الحربية العرب من براريهم المقفرة الى الاراضى الخصيبة المجاورة، الى سوريا والعراق ومصر .. وقادتهم فتوحاتهم غربا حتى المحيط الاطلسى ، وشرقا الى بلاد الفرس وشواطىء بحر قزوين ، وظلت الجيوش العربية المسلمة تتقدم بلا توقف فى كل الاتجاهات ... وعلى الرغم من أن قبائل البربر فى افريقيا قاومتهم قليلا ، الا انها اعتنقت الاسلام وان احتفظت بلغتها الاصلية ، وفى الشرق حاول الخزر اعاقة الزحف الاسلامى .. ولكن لم يمض الكثير من الزمن حتى اعترف هؤلاء ايضا بسمو الاسلام . وهكذا اصبح الاسلام الديانة الغالبة فى العصور الوسطى .

وبذلك الاتساع الهائل فى رقعة الدولة الاسلامية ، نما دخلها وتضاعف الى درجة لم يعد من الممكن معها تقسيم هذا الدخل على أفراد المجتمع بنفس الطريقة العائلية التى كانت متبعة فى النظام القبلى سابقا .

وكان سيدنا أبو بكر الصديق ، رفيق محمد صلى الله عليه وسلم واول الخلفاء الراشدين ، والداعية الى حياة البساطة والزهد ، كان كالاب العادل وسط عائلة المسلمين المتنامية . وكانت تصرفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وحفاظه على اموال المسلمين هو النبراس المضىء لصحابته وخلفائه والمثل الدائم الذى يدعم نقاءهم الاخلاقى ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ما زاره الصديق أبو بكر للتباحث معه فى أمور دنيوية شخصية ، اطفأ صلوات الله عليه قناديل الزيت المضاءة من بيت مال المسلمين ، وكانت هذه التصرفات وستبقى دليلا وهاديا لكل مسلم وكل حاكم .

وبدأ الخليفة عمر بن الخطاب ، الذى كان اول من لقب بأمير المؤمنين ، بدأ فى قيادة الدولة الاسلامية المتعاظمة طبقا لتعاليم الاسلام الحازمة . وفى بداية هذه المرحلة ، لم يكن العرب على دراية كافية بوسائل الادارة ، ولذا فقد اضطروا للاستعانة بالمسيحيين والفرس فى هذه المجالات وكانت حسابات الدولة الاسلامية تتم فى البداية باللغات الفارسية واليونانية ، كما تداولوا عملاتهم فيما بينهم . وقام الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه بتقسيم الدولة الاسلامية الى ولايات وجعل على كل منها عاملا يحكم بين الناس بالعدل ويجبى الضرائب ، وتولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بنفسه حكم المدينة المنورة مقر الدولة الاسلامية فى ذلك الحين ، وكانت عدالة عمر بن الخطاب مثار اعجاب كل الكتاب العرب فيما بعد واشادوا بها دائما .

ولقد كا نعمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا ذو همة ، وبعد تفكير ملى بدأ فى تنظيم تلك المبادرات التى بداها ابو بكر الصديق رضى الله عنه والتى تتشابه فى نواح معينة مع تجارب اشراف الدولة الاخرى التى برزت فيما بعد فى تاريخ الاسلام . وقد حكم ابن خلدون — احد اكبر المفكرين العرب — حكم على تلك المحاولات فى «مقدمته» التى صدرت بعد ذلك بزمان طويل بأنها ضارة وغير اقتصادية ولا تؤدى الى الهدف المقصود منها .

ولقد خشى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان تثمل نشوة النصر المحاربين العرب فيعتبروا الارض المحررة ملكا خاصا لهم ويتصرفون تصرفات الاقطاعيين ، أو ان ينسلخوا

باقطاعياتهم الجديدة عن الدولة الاسلامية ، .. بل وقد يتحدون سلطة الدولة المركزية نفسها فيما بعد . ولذا فقد أمر الخليفة عمر رضى الله عنه بمنع وجود ملكية خاصة للاراضى ، واهتم بتحصيل الضرائب المقررة لبيت مال المسلمين ، وكان المتبقى من دخل بيت المال بعد اقتطاع نسبة الخمس ، يتم توزيعه توزيعا عادلا على صورة هبات وعطاءات على المقاتلين وعائلاتهم، وبهذا فقد تمتع كل مسلم من الرضيع الى العجوز بخدمات الدولة وانفاقها عليه ، وكانت الدولة تتحرى بدقة عن الحاصلين على هبات من الدولة بدون وجه حق . ولفترة من الزمان بدا نظام اشراف الدولة هذا كما لو كان نظاما مثاليا ، ولكن قصور الجهاز الادارى وبدائيته فى ذلك الحين ، بالاضافة الى طبيعة دخل الدولة المتمثل فى المنتجات الخام ، اوقع هذا النظام فى الكثير من المشاكل وبالتالى لم يعمر طويلا .

ومنذ منتصف القرن السابع الميلادى ، فقد انقسم العالم دينيا الى قسمين رئيسيين . . مسلمين ومسيحيين . وايا كان قدر تباين الاديان .. سواء كانت مسيحية ام زاردوشتية ، فانها مادة تدمغ الثقافة بطابعها . ولكن الاساس الحيوى للثقافة .. وهو الوضع الاقتصادى لم يتغير ، وان ارتبط مع مرحلة التطور التكنولوجى للعصر بعلاقات متبادلة .

وفى نهاية القرن السادس الميلادى ومطلع القرن السابع الميلادى ، ادت عمليات اشراف الدولة التى ادخلها الامبراطور يوستينيان فى الامبراطورية البيزنطية ، ادت الى عمليات مشابهة فى بلاد الفرس ، حيث بدات الصناعة والتجارة فى الدخول تحت سيطرة الدولة تدريجيا واصبح الجنود والموظفون يتقاضون نسبا متزايدة من مرتباتهم على صورة مواد عينية بدلا من النقود . ونتج من الاشراف الكامل للدولة وسيطرتها على جميع المرافق المختلفة الفقدان التام لحرية الحياة الاقتصادية واصبح التعامل بالنقود محدودا للغاية ، بل ولم يقتصر الامر على العاملين فى قطاعات التجارة والصناعة فحسب ، وانما وصل الحال الى ان المحامين والاطباء والكتبة اصبحوا تدريجيا موظفين حكوميين . وادت القيود المفروضة على الحرية الاقتصادية للافراد الى اندلاع حركات التمرد مما ارغم حكومة بيزنطة على ادخال انظمة اقتصادية جديدة للتخفيف من التوتر القائم فى الحياة الاقتصادية . وقد طبق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده معاوية بن أبى سفيان فى سوريا ذلك النظام الاقتصادى القديم للحكومة البيزنطية من سيطرة الحكومة على مختلف المرافق وهو ذلك النظام الذى استبعد فيما بعد كنتيجة للتطور الاقتصادى العالمى .

ولكن ، وكنتيجة حتمية لانتصار العرب على الشعوب الاجنبية ذات الثقافة العالمية العتيدة ، ومن خلال الزيجات المشتركة والاتصالات الفكرية المتعددة ، فقد تحول العرب من قبائل رحل ، ساكنى خيام ورعاة ، اغنام ، الى سكان مدن ، وصناع ، واهل فكر ، وعلماء ، ورجال دولة ناضجين لتولى مهام الحكم .

وبدخول العديد من الاجناس فى دين الله افواجا ، اشتد عود الفكر العربى المتوقد دائما ، اذ بدا العرب يتعرفون فى همة على العلوم الاجنبية وعلى الفكر العالمى . وخلال فترة الحكم الاموى ، كان المسلمون والمسيحيون اثناء مسامراتهم يناقشون سويا أوجه الاختلاف بين الديانتين .. فاخذ المسلمون يتخذون من كلمات الله عز جلاله حججا مقنعة وبراهين ساطعة لآرائهم ، مما قوى من عقيدة علماء المسلمين انفسهم واوسع من مداركهم ، وبداوا فى تفسير العديد من آيات القرآن الكريم المعجزة من

وجهات نظر مختلفة . وادت هذه العملية بدورها الى البدء فى تفسير تراكيب اللغة نفسها ، وشرعوا فى وضع اسس عملية لقواعد الحديث والمخاطبة .

ولما كانت لهجات القبائل العربية قد انتشرت فى مناطق الفتوح الاسلامية ، كل منطقة حسب اللهجة الغالبة للقبيلة الفاتحة والمستوطنة ، فقد قاموا بخطوة صحية هامة الا وهى ارسال مندوبين عنهم الى المصادر الاصلية للغة فى شبه الجزيرة العربية نفسها ، للبحث عن اللغة الاصلية الاصيلة التى لم تفسدها اللهجات بعد ، وجمعوا موادها من افواه العجائز . وبذا تمكنوا من انقاذ التراث الشعرى الهائل لعصر الجاهلية وقاموا بتسجيله كتابة بعد قرابة القرن على صدوره .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة ، مر العرب بتحول حاسم وهام فى تراثهم المادى والفكرى ، وذلك بحلول المجتمع الاسلامى بتركيباته المستحدثة محل مجتمع الوثنية والجاهلية القديم ولذا فليس بالمستغرب ان يكون هذا التغيير فى المجتمع قد ترك طابعه وآثاره على لغة ومفاهيم ادب الجاهلية التى تم انقاذها من الضياع .

ومما يثير الاعجاب فى هذا المجال ، بروز روح النقد وقيام العلماء العرب كابن سلام ، والاصمعى ، وعمرو بن العلاء باظهار اخطاء جامعى التراث الادبى .

وفى خلال فترة الخلافة العباسية تميز المجتمع بتعقيده .. فتركيبه الاجتماعى يقوم على العرب القبائليين والمسلمين من العجم ، والموالى من اتباع عرب القبائل ، ومن العبيد ومن المعتقين. وتميز بتجارة واسعة الى مشارق الارض ومغاربها بقاراتها المختلفة ، وبالزراعة ورعاية الماشية . واصبحت المشاكل التى يجب على القضاة الفصل فيها اكثر تعقيدا عن ذى قبل ..

بل ا نمعظم المشاكل كانت جديدة على القضاة الذين تعودوا على حل مشاكل البدو البسطاء التى تتميز بدورها ببساطتها ، وكانت تلك المشاكل عادة تعرض فى القديم على شيخ القبيلة الذى يقضى فيها حسبما يقتضيه العرف . وكما ينمو اللبلاب على شجرة البلاط ، فقد تطورت عادة تطبيق العرف واصبحت تقاليد حية واكبت تطور الامبراطورية الاسلامية ونموها . وازدادت خبرة قضاة الولايات المختلفة نتيجة للمزيد والعديد من التطبيقات المختلفة ، وادخل على العرف والتقاليد العديد من العناصر المستحدثة. وفى سوريا فقد ازدهر القانون الرومانى المعروف باسم Responsa Prudentium

والذى طبق فى عصر الامويين ، اذ أجاب على تساؤلات العلماء ، واستمر فى التطور القانونى مثله فى ذلك مثل الفتاوى الاسلامية . ولكن القانون الرومانى ، وما انبثق عنه فيما بعد من من انظمة قانونية اخرى فى اوروبا لم يتلاءم مع مبادىء روح الاسلام . فروح الاسلام ترفض الخضوع للعقل البشرى المحدود او لأى تعاليم من تلك التعاليم التى تتغير بتغير الزمان او بتطور المجتمع .. والتى عادة ما تكون متناقضة وعلى الرغم من ان هذا القانون تغير وتطور فانه قانون واقع تحت تأثير الاحداث الدنيوية ولذا يفتقر الى تلك القوة الاخلاقية المهيمنة على الكون كله .. الى تلك الارادة العليا .. الى تجسد العقيدة .. الى ذلك القانون الالهى الصالح ابدا لكل زمان وكل عصر .

وقد يبدو هذا المفهوم اليوم مفهوما دوجماتيكيا جازما ، ولكنه كان العنصر المنعش للحياة فى العصور الوسطى ، بل قد يبدو غريبا أن نقول بانه لو توفر اليوم مثل هذا المفهوم للمجتمعات الغربية التى لا تستطيع ان تحمى امن وشرف

وحياة مواطنيها ، لأمكن لهذه المجتمعات أن تتغلب على التمزق والاهتزاز الذى تعانيه .

والاسلام ، مثله فى ذلك مثل الديانة المسيحية الحقة ، لم يقم بتوضيح ظواهر الحياة المختلفة من خلال العديد من التفسيرات المتناقضة ، ولكنه تصورها وتفهمها من خلال الوحى الالهى وواءم نفسه بداخل اطار الحقيقة الاخلاقية المطلقة . وكان من الضرورى خلق وحدة ومفهوم مشترك بين الآلاف من شواهد الحياة العديدة وبين العدالة المطلقة التى يتضمنها القرآن الكريم الصالح لكل زمان وكل عصر . لذا أصبح ضروريا تفسير كلمات الله سبحانه وتعالت قدرته فى قرآنه الكريم لكى يمكن للادراك الانسانى والفهم البشرى أن يعرف طريقه بين طواياه المعجزة . وقد استخدم ابو جعفر ، والطبرى ، والزمخشرى ، والبيضاوى ، وفخر الدين الرازى ، واحمد النوبى ، والسيوطى ، وابو سعود .. وغيرهم ، استخدموا التفسيرات القديمة للقرآن .

ولكن باتساع الدولة الاسلامية وانتشارها ، نمت الحياة الاقتصادية وتعددت مطالب الحكم والادارة ، وتنوعت المشاكل بحيث أمست الحاجة ضرورية للبحث عن مصادر أخرى للتقنين والاحكام الى جانب الاحكام القانونية الموجودة فى القرآن الكريم . وأى مصدر للتقنين والاحكام خير من سيرة وسنة محمد مبعوث السماء ورسول الله صلى الله عليه وسلم . ولذا فقد بدأ المسلمون فى جمع كل ما يمكن من البيانات المتعلقة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، واستمرت الجهود التى لا تعرف الكلل فى جميع انحاء البلاد الداخلية ضمن الدولة الاسلامية ، وجاب جامعوا السيرة الشريفة أقاصى الارض ودانيها بحثا عن كل من يستطيع أن يضيف الى ثروة التشريع الاسلامى جديدا .. سواء كان راوية الحديث قد سمع الحديث الشريف بنفسه أم توارثه عن ابيه او جده . ولكن الكثير مما نسب الى الحديث والسنة الشريفة كان يفتقر الى الصحة لأسباب عديدة ، فقد اختلقت الاحزاب السياسية والمذاهب الدينية ، والحركات الاقليمية .. بل ولأسباب شخصية ايضا اختلق الكثير من الاحاديث نسبت زورا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختلق العديد من الافعال ودست السيرة الشريفة . وبذلك زادت صعوبة الامر على قضاة المسلمين الذين كان يجب عليهم الحكم فى القضايا المعروضة عليهم بروح القرآن الكريم وحده .

ويرجع الفضل فى حسم هذه القضية البالغة الاهمية الى رجاحة عقل عدد كبير من العلماء العرب الذين تصدوا لنقد كومة الاحاديث والسنة ونقضها سواء من ناحية الاسلوب او اللغة او قدر الثقة فى راوى الحديث نفسه ، بل وقاموا بمناقشة ونقد مضمون الاحاديث نفسها اذا ما احسوا بزيفها . وقد ساعدهم الى حد كبير ظهور العديد من التراجيم وسير الحياة فى القرن التاسع الميلادى ، فقد أمكن بذلك التحقق تاريخيا وموضوعيا من صحة الروايات المختلفة . فعلى سبيل المثال ــ اذا اتضح تاريخيا أن راوية ما ولنسميه « أ » كان قد مات حينما كان الراوى « ب » لازال فى المهد رضيعا ، أمكن الحكم بأن رواية « ب » نقلا عن « أ » رواية مزيفة . أو اذا اثبت المؤرخون ان الراوى « أ » عاش فى الاطراف الشرقية للدولة الاسلامية بينما الراوى « ب » عاش فى التخوم الغربية ، أعلن العلماء المسلمون

المحققون تشككهم وريبتهم فى صحـــة الحـــديث المنقول عنهما . . الى أن يتم ثبوت المكان والزمان الذى التقى فيه « أ » فيه « ب » وبذلك أمكـــن للعلماء اثبات زيف العديد من الاحاديث والسنة المنسوبة زورا الى رسول الله صلى الله عيه عليه وسلم . بل أن حـــدة ذهن العلماء وتوقد فكرهم مكنهم من تميز زيف عـــدد كبـــير مـــن الاحاديث المختلقة نظرا لاختلاف لغتها عن لغـــة العصر الذى ترجع اليه ، او لان لهجة الحـــديث تختلف عن لهجة قبيلة راوية الحديث .

ان علماء تلك العصور بتوقد ذهنهم الذى تجلى كخير ما يكون فى نقدهم ونقضهم للاحـــاديث المدسوسة والسنة المنسوبة زورا الى رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم ، قد سبقوا بذلك قرناءهم فى أوروبا بقرون طويلة ، حيث بدأت حركة نقد النصوص فى أوروبا بعد ذلك بزمن طويل ، وهذا هو احد دواعى فخر العـــرب بعبقرية أســـلافهم العظام .

من روح الاسلام انبثق الشعور بأن الحقوق تنبع من أصل الهـــى ، وبأنه على الانســـان أن يبحث عن الارادة الالهية وأن يقوم بتحقيقها فى حيـــاة المجتمع . وتوافقت هذه الروح مع المنطق الذى ساد تلك العصور .. منطق الـــ Civitas Dei أو المجتمع الالهى ، وبذلك جاهد الانسان من أجل بناء مجتمع مثالى وظهرت علوم الفقـــه التى توضح كيفية تطبيق الارادة الالهية فى حياة الانســـان القانونية والشريعة التى تبين طريق العدالـــة .

واذا نظرنا الى مدارس التشريع الاسلامية الاربعة .. أو المذاهب الاسلامية الاربعة من وجهة نظر اوروبية بحته ، لاعتقدنا بأن نظام الحقوق الاسلامية هذا نظام مغلق لانه يحـــدد للفكر الانسانى الحر حدودا معينة . ولكن ، اذا نظرنا اليه من زاوية التطبيق العلمى ، لأمكننا الحكم بأنه نظام معجز يشهد بتفوق ذهن علماء المسلمين وسمـــو تفكـــيرهم .. فهذا النظام يتعرض لكل الظروف المختلفة فى حياة اى انسان منذ ولادته الى يوم وفاته وما بعدها ، يدرس النظافة البدنية والبناء الروحى ، يقنن ارادة الانسان وتصرفاته بكل ضوابطها وروابطها ويحدد لها حدودها المناسبة ، ويطبق القوانين لحماية الفرد والمجتمع .

واذا كان المجتمع الاوروبى يعجب لكون النظام الاسلامـــى يعطى لمسائل العبادة نفس مستوى اهمية المناقشة لمسائل النظافة او الذنوب مثلا فلابد أن نمجـــد نحن هذه الحقيقة ونشـــيد بها لأن من يهمل فى أداء أيا من واجباته تجـــاه مجتمعه ، لا يقـــل ذنبـــا عن مرتكب ايـــا من الافعال التى تعاقب عادة بمزيد من القســـوة .

ومن العوامل الهامة للغاية فى نظام الحقوق الاسلامى أنه فصـــل ما بين النيـــة لارتكاب فعل ما ، وبين نتائج هذا الفعل .. لان النية فى حد ذاتها هى منبع الافعـــال ومصدرهـــا .

وعلى تعاقب السنين والاعوام ، فقد تحول نظام الحقوق الاوروبى الى ميادين السياســـة واهمل جانب الادانة الاخلاقية فى حد ذاتهـــا للتصرفات الآدمية . وساهم انعدام الايمـــان واعطاء المزيد من الحريات ، فى تفســـخ ارتباط الفرد الاوروبى بمجتمعه وتراخيه فى اداء واجباته تجاه رفقائه فى المجتمع ، وبذلك تردى الاوروبيون فى هاوية الذنوب الجسميـــة .

بينما نجـد ان نظام الحقوق الاسـلامى يقيم الافعال من وجهة النظر الاخلاقية البحتة ، ويمـيز بين الذنوب البسيطة والجسيمة عن طريق زيادة العقوبة المفروضة فقط .

وبهذا يتميز المفهوم العقلى الاسلامى ويسمو على المفهوم الاوروبى المبنى على منطق الحق العقلى البحت .

ولذا فليس من عجب ان يقف نظام الحقوق الاوروبى اليوم امام دوامـة الذنوب والتدهور الاخلاقى عاجزا لا حـول له ولا قـوة ..

وهناك الكثير من الامثلة التى توضح هذا الفـارق : فالعـدالة الاسلامية تدين متعاطى المغيبـات بأشد العقوبات .. ايا كانت صورة مغيب الذهن .. مشروبا روحيا أم جوهرات مخـدرة .. فالمغيب ايا كانت صورته يرتكب جريمة فى حق **مفهـوم** الانسـان نفسه . السكـر يفقـد الانسـان تلك المزايـا التى وهبهـا اه اللـه سبحانه وتعالت قدرته .. يفقد الانسان قـدره واتـزانه واحترامـه ، ويؤدى به الى ارتكاب الذنوب والمعاصى .. ولذا فلا يمكن ان يعامل بصورة مخففـة لأن السكر فى حـد ذاته معصية وذنب . ونفس الامر ينطبق على مغيبات الذهن الاخرى ايضا .

واذا كانت المجتمعات الاوروبية تقف عاجزة عن تطبيق قوانينها امام مثل هذه الذنوب وما قد ينتج عنها ويتبعها من معصيات اخرى ، فما اجـدرهم فى اوروبا بأن يطبقوا قوانين الشريعة الاسـلامية .

وشريعة الاسـلام تجـيز تعـدد الزوجات ولكنها لا تشترطها .. بل هى على العكس من ذلك تقيد الزوج بأن لا يستخـدم هـذا الحـق الا بعد توفر الكثير من الشروط . وتـاريخ الاسـلام كله يشهد بعدم حدوث اى انحـلال اخلاقى على مستوى كبير .. لأن الاسـلام عن طريق هذه الحقوق احتفظ دائما بصحـة الانسـاب والاصـول . وفى نفس الوقت فان الاسـلام يعاقب الخيانات الزوجية بأقصـى قدر من الصرامة . كما نجد أن الديانة الاسلامية وشريعته السماوية تحدد تحديدا دقيقا علاقات التعايش والمجاورة بين الانسان ورفقـائه فى المجتمع وتوجهها داخل حدود اللياقة الواجبة . اما ما نص عليه الدين الاسلامى من وجوب احترام المسنيين والنساء والعلماء وتقديرهـم ، فقد سبق بذلك اوروبا بعدة قرون . ومؤسسات الصحة والنظافة البدنية التى أوجدتها الانظمة الاسـلامية تقف فى المقدمـة دائما مقـارنة بمثيلاتهـا فى المجتمعات الغربية .

وقوانين العقوبات فى المجتمعات الاسلامية تخلص البلاد من المجرمـين بفرض اقصـى العقوبات عليهم بل واعدامهم ولذلك نجـد ان الجرائم المنتشرة فى المجتمعات الاخرى كالسرقة والنهب والقتل وقطع الطريق يندر حدوثها فى الدول الاسـلامية .

ان التحديد القاطع الذى قامت به مذاهب التشريع الاسـلامى الاربعـة لكل التفاصيل الصغيرة فى حيـاة الفـرد والمجتمع تستدعى الاعجاب وتخلب اللب كعمـل فنـى رائـع يمثل القمـة فى التفكير المنطقى وسمـو العقل الانسـانى ، ولا غـرو ان تظل حتى يومنـا هذا صرحـا للثقـافة شامخـا يقـاوم كل عوامل الزمن والعصر ، ويشهـد بعبقريـة العـرب ونبـوغهم .

كلمـــات

التفكير والتطور العلمى عبر السنين

١٨٤٧ وضع هـ . ل . ف فون هلهمولتز لاول مرة نظرية المحافظة على الطاقـــة .

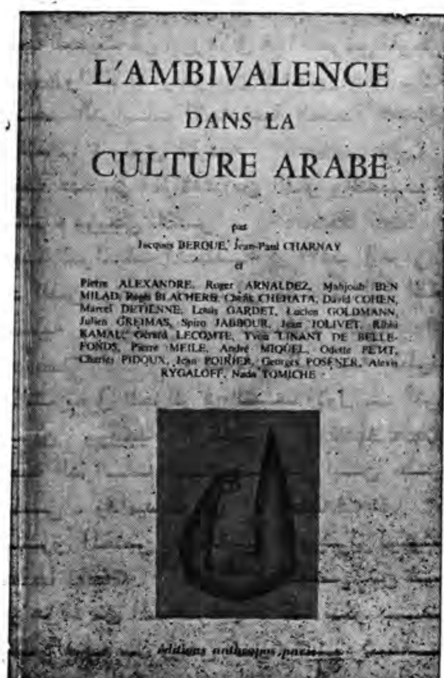
١٨٥٢ حدد بول بروكا مراكز الكلام فى المخ لاول مرة .
١٨٥٢ وضع كونت جوزيف ارثر دى جوبينو فى بحثه عدم تساوى الاجناس البشرية اسس ما كتبه بعد ذلك عن تفوق بعض الاجناس .

١٨٥٩ ظهور كتاب « اصل الانواع » لتشارلز دارون .
١٨٦٥ اجرى جريجورى مندل تجارب على تجهين السبلة.
١٨٦٥ وضع جوزيف لستر اصول ممارسة الجراحـــة المعتمدة على استخدام المطهرات الطبية .
١٨٧١ أثار تشارلز دارون فى كتابه « أصل الانســـان » والتعبير عن العواطف عند الانسان والحيوان مسألة تطور القوى العقليـــة .

١٨٧٢ الف فلهلم فنت كتابـــه « اســـس علـــم النفـــس الفسيولوجى » الذى قام عليه علم النفس التجريبى .
١٨٧٣ وضع وولتر باجهوت كتابه « علـــا الطبيعـــة والسياســـة . »

١٨٧٦ وضع شيزارى لمبروزو اسس علم النفس الجريمة
١٨٨٠ اكتشف تشارلز لاثران ميكروب الملاريا
١٨٨١ طبق لويس باستير مبدأ المناعة باستعمال التطعيم .
١٨٨٢ اكتشف كوخ ميكروب السل .
١٨٨٣ اكتشف ادون كليز ميكروب الدفتريا وعزل فردرش لوفر الميكروب واكتشف اميل فون بهرنج مصلا له .





اشراف :
جاك بيرك ، جان بول
شارنيه

ازدواج الدلالة في الثقافة العربية

تقديم
د . محمد بديع الكسم
استاذ بكلية الاداب
جامعة الجزائر

يتالف هذا الكتاب من مجموعة من الابحـــاث يصعب الحديث عن ابرزها فى هذا العرض الموجز. ولكننا نذكر من بين الباحثين جاك برك Jacques Berque، صاحب الدراسات الاجتماعية العديدة من العرب، ولوى غارديه Louis Gardet صاحب عدد من المؤلفات عن الفكر والتصوف فى الاسلام، وريجى بلاشير Régis Blachère صاحب الدراسات المختلفـــة فى الادب العربى، واحد الذين ترجموا القـــرآن الكـــريم الى اللغة الفرنسية، وجـــان بول شـــارنيه Jean Paul Charnay، صاحب الدراسة المطولة عن التشريع فى الجزائر فى النصف الاول من القرن العشرين، وروجيه، ارنلديز Roger Arnaldez صاحب الدراسات المستفيضة عن ابـــن حـــزم الاندلسى، ودافيد كوهن David Cohen، المستشرق المختص باللسانيات، وجيرار لوكونت Gérard Lecomte، المختص بابن قتيبة وغير هؤلاء من المستشرقين. كما نذكر بعـــض الكتاب العرب مثل ربحى كمال وشفيق شحاتـــة ومحجوب بن ميلاد.

وقد اشار شارنيه فى مقدمة الكتاب الـــى أن الابحاث المندرجة فيه قد وجهتها فكرة كان لوى ماسينيون Louis Massignon قد عبر بها عن اعتقاده بان « الاضداد فى اللغة العربية مثال يدل عى ان الحدود الاساسية فى الثقافة العربية ذات مدلول مزدوج ». وسنقتصر الكـــلام على موضوعات ثلاثة هى « الاضداد » فى اللغة العربية و « الاختلاف » فى الفقه الاسلامى و « الجدل » فى افكر العربى.

١ ــ تضم اللغة العربية عددا من الكلمـــات تسمى بالاضداد، وتدل كل واحدة منها عـــلى معنيين متضادين. ومثال ذلـــك : المولى وتعنى السيد والعبد، والجون وتعنى الابيض والاسود، والمأتم وتعنى اجتماع النساء عند الفرح او عنـــد الحزن، وباع وتعنى باع واشترى، وأسر وتعنى أخفى وأعلن، وبان وتعنى ظهر واختفى، وغير ذلك من الكلمات التى اختلف اللغويون القدامى فى حصرها، والتى بلغت عند بعضهم نحو أربعمائة كمة. ومن اشهر الذين عالجوا هذه الظاهـــرة اللغوية منذ اواخر القرن الثانى للهجرة الاصمعى وابو زيد الانصارى، وقطرب تلميذ سيبويه، وابو بكر الانبارى المشهور بكتاب « الاضداد »، وابن درستويه فى القرن الرابع للهجرة.

والملاحظ أن من بين هؤلاء كالانبارى مثلا، من اشار الى ان اهل الاستهزاء، اى الذين يحبون أن يسخروا من اللغة العربية، قد اتخذوا مـــن ظاهرة الاضداد حجة على ضعف هـــذه اللغـــة وعجزها عن التعبير الواضح. وهو يذهب فى رده على الشعوبية، الى ان وجود الاضداد فى اللغة العربية من فرائد هذه اللغة، وانها دليل عـــلى الغنى لا على الغموض والابهام. ذلك ان الكلمة الواحدة من هذه الاضداد ليس لها الا معنى واحد فى سياق معين. كما نجد ان ابن درستويـــه، الفارسى الاصل، ينفى وجود الاضداد نفيا كاملا، الامر الذى دفع بلاشير الى ان يشير الى الحماسة الكبيرة للغة العربية عند غير العرب من المسلمين.

ولا مجال للحديث هنا عن ظاهرة الاضداد فى اللغة العربية من حيث نشأتها، او مـــن حيث تفسيرها بتعدد اللهجات العربية، وبما طرا على بعض الكلمات من تطور. ولكننا نشير الى محاولة طريفة وعجيبة حقا، للكشف عن نشوء بعـــض الاضداد الجديدة فى ايامنا هذه. فقد ورد فى احد الابحاث التى يضمها الكتاب ان الفعل « ركد » وهو فى اللغة الدارجة مخفف من « ركض »، يدل فى سورية ولبنان على الجرى السريع، بينما

يدل عند القاهرى على السكون ، كما هو الحال فى اللغة الفصحى ، وان كلمة « قومى » تدل فى دمشق على ما يتصل بالوطن العربى الكبير ، بينما تدل فى القاهرة على ما يتصل بالقطر وحده . ولا نحسب ان مثل هذه المحاولة بحاجة الى اى تعليق .

كما اننا لا نحب ان نعلق على ما ورد فى بحث لدافيد كوهن عن كلمة « بعد » التى يرى انها لا يمكن أن تعنى الا « قبل » حين وردت فى آيتين كريمتين هما : **« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر »** ثم **« والارض بعد ذلك دحاها »** . وذلك لان صاحب البحث يرى ان الزبور كان قبل الذكر ، اى القرآن الكريم ، وأن الارض قد خلقت ، وفقا لآية اخرى ، قبل السماء لا بعدها . كما لا نعلق اخيرا على قول بلاشير ان كلمة « اسر » تعنى اخفى واعلن لان عبارة **« اسروا الندامة »** فى القرآن الكريم تعنى عقلا ، عند المترجم ، انهم اعلنوها .

وانما نريد أن نقف عند سؤال تردد على استحياء فى بعض الابحاث المذكورة يتصل بمبدا الذاتية او الهوية . فجان بول شارنيه يشير الى ان ابحاث الكتاب ستبين الى اى حد يظل مبدأ الذاتية قاعدة للتفكير العربى . وجاك برك الذى ادهشته ظاهرة الاضداد فى اللغة العربية وأثارت فضوله كله ، وجعلته يصر على ان عددا منها على الاقل يبقى عصيا على الذوبان ، يقول فى بحث له : « ان مبدأ الذاتية هو ، كما نعرف ، الخصم الاكبر للاضداد » . (ص ١٣٤) بل ان محجوبا بن ميلاد نفسه يذكر ان الذين ينكرون وجود الاضداد هم الذين يرون انها لا تضع مبدأ الذاتية موضع الخطر ، وان الذين يؤكدون وجودها لا يرون كيف يمكن ، عند ذلك ، انقاذ مبدا الذاتية (ص ٣٧٦) . وهذا على الرغم من أن الكاتب التونسى يحاول ان يميز ، ولكن بصورة غامضة ، بين « التناقض المنطقى » الذى يهدم كل تفكير وبين « التناقض الجدلى » بوصفه مبدا اعلى للمعقولية يسمح لنا بأن نفهم ضروب تحول واقع ينمو باستمرار .

الحق اننا لا نفهم اطلاقا كيف يقذف الكتاب بين صفحاته مثل هذا السؤال الخافت عن مدى احترام الفكر العربى لمبدأ الذاتية . ان فى ابحاث الكتاب نفسه ما يبين ان ظاهرة الاضداد تكاد تكون عامة فى جميع اللغات . اما ان يحاول أحد أن يقفز من ذلك الى تمييز عقل انسانى عن عقل انسانى آخر فمغامرة خطرة . لقد حدثنا ليفى برول فى كتاباته الاولى عن عقلية سابقة للمنطق ، ينعدم فيها مبدأ الذاتية وتخضع لمبدا المشاركة ، عقلية ظن أنه اكتشفها لدى القبائل البدائية . ولكنه تراجع عن هذا الاكتشاف فى ايامه الاخيرة . واما أن تقام فكرة الجدل على أنقاض مبدا الذاتية فى العقل ، فهذا ما كف عنه منذ وقت طويل هؤلاء الذين اغرتهم المحاولة فى بادىء الامر . ولا يتسع المجال لتفصيل ذلك كله . وانما نكتفى بالقول ان اللبس لا يقع فى اللغة العربية ولا فى العقل العربى، ولكنه يقع فى اكتشافات وتساؤلات ساذجة .

يبدو اننا لم نخرج من قصة الاضداد الا بنتيجة سالبة . ولكنها قد تكون مفيدة من بعض الوجوه . ولعلنا ان نخطو خطوة اخرى اذا عدنا الى بعض النقاط فى بحث لمحجوب بن ميلاد عن النظرية العامة لما يسميه بالقطبية فى الثقافة العربية . فهو يرى ان الروح التاملية للغة العربية ، تملك الاضداد من بين ما تملك من وسائل ، للتعبير عن سيولة الواقع فى نقائضه الاساسية . فالتضاد بين الظهور والاختفاء ، المتضمن فى الفعل « بان » انما يفسر بأننا ، من جهة أولى ، كثيرا ما لا نرى الشىء الموجود امام ابصارنا ، واننا من جهة

ثانية ، لا نحس بحضور شخص عزيز علينا الا حين غيابه . وكذلك الامر فى صور اخرى للتضاد .

ونحن فى الواقع لا نرى فى هذه الامثلة ما يوضح لنا فى التطبيق ، التمييز الذى يقيمه صاحب البحث بين التناقض المنطقى والتناقض الجدلى . ولكـن محجوبا بن ميلاد يرى ايضا أن هناك نوعا مـن التناسق الازلى بين الروح التأملية للغة العربيـة وبين الوحى . ودليله عى ذلك ان « المثـانى » الواردة فى الآية الكريمة : **« ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم »** ، والتى تـدل على الآيات المتشابهات ، تتصل بنظرية الاضداد كمـا تتصل بالتناقض الجدلى نفسه . وتدل بعض هذه المثانى على التناقض بين الحرية والجبر ، وبـين العقل والايمان ، وبين الحياة الدنيـا والحيـاة لاخرى . ففى المثنى الاخير مثلا يجد بن ميـلاد اتصالا وانقطاعا بين الحياتين . فهناك اتصال لان فى الحياة الاخرى جزاء الحياة الدنيا ، وهنـاك انقطاع لان الحياة الدنيا لا قيمة لها بالنسبة الـى الحياة الاخرى . واستنادا الى ذلك يتضح عنده معنى لحديث الشريف او القول المأثور **« اعمـل لدنياك كانك تعيش ابدا ، واعمل لآخريك كانك** تموت غدا » .

اذا تركنا النظرية العامة للاضداد وللقطبية فى الثقافة العربية كما يتصورها محجوب بن ميلاد ، وتأملنا معه معنى القول المذكور ، وجدنا أن لا يقوم على تناقض مهما يكن نوعه ، وانما يقوم عـلى تكامل يستوعب الابعاد الثابتة للوجود الانسانى الواحد . فأن نعمل للدنيا كأننا نعيش ابـدا لا ينفصل عن عملنا للآخرة كأننا نموت غدا . ولعل من الخير ، بدلا من أن نتحدث عن «تناقض جدلى» يربط مصيره بمصير نظرية الاضـداد ونظريـات اخرى كثيرة ، أن نتحدث عن وحدة جوهرية قائمة على تعميق كل من العملين بالعمل الآخر .

٢ ــ ننتقل الآن الى ظاهرة « الاختـلاف » فى التشريع الاسلامى . وكل ما يهمنا منها فى هـذا الحديث انها ربطت ايضا عند بعض المستشرقين الذين اشرنا اليهم ، بظاهرة الاضداد فى اللغة . انها تبدو فى اعينهم مظهرا آخر لازدواج الدلالـة فى الثقافة العربية . فهم يشيرون الـى المذاهب الفقهية المعروفة ، والى مسألة الاعتراف بأنها صحيحة كلها حتى حين تطلق احكاما متعارضة فى مسألة وحدة معينة . فجاك برك مثلا ، يقص علينا أن قاضيا فى المغـرب العربى و « فى قلب القرن العشرين » ، قد فسخ زواجا لان الزوج قد غير اقامته وانتقل مـن مدينـة الـى مدينـة اخرى (ص ٢٣٣) ، وأن قاضى الاستئناف قـد نقض هذا الحكم مطبقا مبدأ معارضا كل المعارضة لمبدأ القاضى الاول . وواضح هنا أن جاك برك لم يقف الا عند المظهر السطحى والخارجى لهـذه القصـة . ثم هو يحدثنا عن الشيخ المـالكى محمد عليش الذى يذكر القول المأثور « اثبـات الضدين معا بحال اقبح ما يأتى من المحال» (هذا القول الذى يرى جاك برك انه مطابق لما يـراه القاضى الغربى المدافع عن مبدأ الذاتية) ، والذى ينتهى على عكس ذلك ، الى اقرار الصحة لرايين متعارضين . وهذا المثال ، فى نظر جاك برك ، تطبيق واضح لنظرية الاضداد .

لن نعود مع برك الى الاضداد . ومن حسن الحظ ان بحثا آخر فى الكتاب لصاحبه ايفون ليمان دى بلفون Yvon Lemant de Bellefonde ، يتحدث عن الحالات المزعومة لازدواج الدلالة فى الفقه، وعن وجود « الاختلاف » تحت اسماء اخرى فى جميع المذاهب القضائية . وكل ما نريـد ان ننتهى اليه هو ان الفقه الاسلامى يكشف عـن

مرونة خصبة حين يقرر مثلا أن اختلاف الائمة رحمة ، وأن الضرورات تبيح المحظورات . ففى هذين المبدئين وحدهما ما يشهد بقدرته على استيعاب الظروف المختلفة ، وعلى التلاؤم مع مقتضيات الحياة الواقعية . وهذه القدرة هى التى تطبعه بطابع الانفتاح .

٣ — نصل اخيرا الى القسم المتعلق بجدلية الفكر العربى ، كما يحاول لوى غارديه ان يعين خصائصه . فهو يبدأ بتعريف الجدل بمعناه الواسع على أنه ايقاع الفكر الذى ينتقل من الشبيه الى الشبيه أو من الشبيه الى ضده، فيقع بدوره على ظاهرة الاضداد ويضيف اليها ظاهرة التضمين . وهو يعترف بأن اللغة العربية يمكن أن تكون أداة ممتازة للتجريد الصورى ، وتشهد على ذلك فلسفة ابن سينا وفلسفة ابن رشد . ولكن الفكر التلقائى عند العرب يدرس المعانى فى ترابطها . فهو يثبت معنى ثم ينفيه باثبات نقيضه . فمعنى الفناء عند الصوفية لا ينفصل عن معنى البقاء . ففى خطوة اولى نجد الفناء عن ... أى الفاء كاملا للمخلوق . وفى خطوة ثانة نجد الفناء ب ... اى الفاء للمخلوق فى الوحدة الالهية . وفى خطوة ثالثة نجد البقاء الى ينفى الفناءين ويختلف الجدل هنا عن الجدل الهيجلى فى أن عمليات النفى والاثبات لا يتولد بعضها عن بعض . فالبقاء لا يتعين بالفناء بل يمكن أن يتخلف عنه .

ويذهب غارديه الى ان فنومنولوجيا الوجود الحسى التى يقدمها التحليل الماركسى للظواهر التاريخية والاقتصادية والاجتماعية يمكن أن تبدو للوهلة الاولى موافقة للذهنية العربية ، ويمكن أن تغريها . ولكن هذه الذهنية، اذا ظلت وفية لذاتها، وللجدل الكبير ، جدل الحق والخلق ، فلابد أن تصطدم بالمصادرة الاعتباطية التى تؤكد ان الوجود هو الوجود الحسى وحده . ان الجدل الخاص بالعبقرية العربية ينتقل من توكيدات الى توكيدات معارضة بحيث ينفى كل منها الآخر ويستدعيه فى الوقت نفسه . وطابع الانفصال فى هذا الجدل يتيح له أن يدرك تشابها عميقا يتفرع الى متعارضات ، يقف كل منها شاهدا على الآخر .

ونعتذر هنا عن عدم عرض الجانب المنطقى المحض لنظرية الاستدلال فى الجدل العربى كما يراها غارديه . والفكرة التى يمكن أن نستخلصها من هذا البحث كله هى ان الفكر العربى ، يملك الى جانب الاسلوب المتصل فى الربط بين المعانى ، والمتمثل بالبحث عن الحد الاوسط كما هو الحال فى المنطق الارسطى ، اسلوبا جدليا يجعله لا يكتفى بالوقوف عند المضمون المباشر للمعنى الواحد ، وانما يحدده وينفيه بواسطة المعنى المقابل له ، كما هو الحال فى معنيى الفناء والبقاء أو معنيى الحق والخلق .

لاشك أن فى هذه النظرة محاولة جادة لتحليل منهج فى رؤية الواقع يناسب مستوى خاصا من المستويات التى يعمل فيها التفكير . ولكننا نحب ان نسجل على هذه النظرة بعض الملاحظات ، منها ان اسلوب المقابلة ، أو « الجدل الانفصالى » ليس الاسلوب الوحيد او الاسلوب السائد فى الثقافة العربية . ومنها أن هذا الاسلوب ليس خاصا بالتفكير العربى بحيث يميزه ويفصله عن صور اخرى للتفكير الانسانى . لذلك ، بدلا من أن نقول مع غارديه انه يعين خصائص الجدل العربى يحسن أن نقول انه وجه من أوجه التفكير الجدلى العام الذى عرفه الفكر العربى خلال تفتحه .

ومثل هذه الملاحظة تنطبق على محاولة جاك برك لدراسة الاضداد منزاوية ازدواج الدلالة.

فهو يقول فى احد بحوثه ان جورج جرفتش قد ذكر فى كتابه « علـــم الاجتماع والجـــدل » أن جيلنا الحالى يتمثل فكرة الجدل من خلال جدل النقائض كما يعرضه الفكر الماركسى ، بينما هو لا يمثل الا ضربا واحدا من ضروب الجـــدل . فهناك مثلا جدل التكامل الذى يناسب دراسة الظواهر الطبيعية ، وجدل التضمن المتبادل ، وجدل ازدواج الدلالة . ويضيف برك أن هذا الجدل الاخير لا يتجلى فى علم الاجتماع فقط ، حث تتخذ العلاقة مع الآخرين صور الجـــذب والنبذ ، ولكنها تتجلى ايضا على مستوى الحياة الاخلاقية ومستوى الحياة النفسية ، عندمـــا يشير فرويد مثلا الى ازدواج الدلالة فى السلوك الانسانى . ان قول برك هذا يدل بوضوح على انه اقتصر على مظهر واحد من مظاهر الفكـــر الجدلى ثم اراد أن يتصور الثقافة العربيـــة مطبوعة كلها بطابعه .

هذا ونعتقد ان مناقشة مفصلة لاهم ما ورد فى الكتاب ، تحتاج الى دراسات مطولة .

د . محمد بديع الكسم

الاخ الوزير يقوم بجـولة تفقدية الى كل مـن ولايتـى الواحات والتيطـرى .

فى اطار الجولات التفقديـة للمساجد والمؤسسات التعليمية التابعة لوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، قـام الاخ مولـود قاسـم وزيـر التعليم الاصلـى والشـؤون الدينية صحبة وفد هام مـن موظفى الوزارة بزيارة الـى كل مـن ولايتـى الواحـات والتيطرى دامت سبعة أيام من يوم الخميس ٢٥ من ذى الحجة ١٣٩١ هـ الموافق لـ ١٠ / ٢ / ١٩٧٢ م الى يوم الاربعاء ١ محـرم ١٣٩٢ هـ المـوافق لـ ١٦ / ٢ / ١٩٧٢ م .

ففى صبيحة يوم الخميس غادر السيد الوزير العاصمة الى مدينـة الاغـواط التـى وصلها على الساعة ١٢ ظهرا وكان فى استقباله كل من السيد محمد الامين غريـب والـى الواحات ورئيس دائرة الاغواط ورئيـس المجلـس البلـدى الشعـبى وممثـلوا الحـزب والجيش الوطنى الشعبـى ، وبعد تناول طعام الغداء توجه السيد الوزير والوفد المرافـق له الى مدينة بريـان ، ثـم غرداية ، وكان فى استقبـال السيد الوزير عند مدخل مدينة بريان السيد رئيس دائـرة غرداية ، وقد توجه السيـد الوزير فورا الى المسجـد المالكى الجديد فدشنـه ثـم زار بعد ذلك المسجد الاباضى العتيق لنفس البلدة ، وقـد القى فى كل منهما كلمة ابـرز فيها دورالمسجد الاصيل مؤكدا بان المسجدكان فى عهودالحضارة الاسلامية الزاهـرة منـارة اشعاع للامة جمعاء ثم قال ان الجزائر اليوم وهى تخطـو خطوات عملاقة نحو مستقبل زاهر تعتمد على الاسلام الذى هو الحصن المنيع لمكاسبنـا الثورية ، ومن هنا يتضح مـا على المسجد أن يقوم به اليوم استعـادة لدوره الاصلـى فى تكوين الفرد المسلم القـوى القدير على النهوض بامتـه ، مذكرا بما قالـه الاخ الرئيس هوارى بومدين من ان الاسلام بمثابة الروح للبناء الشامـل الذى تشيده جزائر اليـوم ، وبعد ذلك توجه الوفد الوزارى الى مدينة غرداية .

أما اليوم الثانى لهذه الجولة فقد تميز بالزيارة التى قام بها الاخ الوزير والوفد المرافق له صحبة السيد والى الواحات والسلطات المحلية المدنيـة والعسكرية والدينية للقـرى المحيطة بمدينة غرداية وهـى كـالاتـى :

بنـى يزقـن ، والعطف ، وبونوره ، ومليكة ، وفى كـل من هـذه القرى اطلـع الاخ الوزير على حالة المسـاجد ، والمـدارس ، والمعـاهـد ، والمكتبات التابعة لها ، ومـن بينها مكتبـة الشيـخ طفيش المتوفى فى سنة ١٩١٤ فى بنى يزقن والتى تضم عددا مـن المخطوطات النادرة منهـا قاموس الشريعة فى ٩٠ جزءا وقـد سجل الاخ الوزيـر فى السجل الذهبى لهذه المكتبـة الكلمة الاتية : « فرصة طيبـة هذه التى زرنا فيهـا هـذه القطعة العزيزة من الوطـن وهذا التراث العظيم لاحـد ائمة الاسلام ، وفقنا اللـه جميعا للمحافظة عليه لعالـم الاسلام والمسلمين وعـزة الوطن » ثم ادى صلاة الجمعة فى مسجد بابا ساعد الاباضى الجديد الذى أقيمت فيه صلاة الجمعة لاول مرة فى غرداية ، وبعد الغداء توجه الاخ الوزير الى بلدة القرارة حيث تفقـد مساجدها ومعهـد الحيـاة الابتدائى والثانوى الذى يضم حوالى ٣٠٠٠ تلميذ وتلميـذة من بينهم ٣٠٠ داخلى ، وبهذه المناسبة القى الاخ الوزيـر كلمة توجيهية على طلبة المعهد،

والاساتذة والمواطنين تعرض فيها بالخصوص الى مفهوم التعليم الاصلى ، ونظرة الاسلام للعالم على أنه ربط الدين بالدنيا ، وهذه النظرة هى التى انتجت الحضارة الاسلامية الزاهرة واخرجت امثال ابن سيناء والفرابى ، وابن رشد ، والخوارزمى ، واحمد بن جابر ، وغيرهم الذين تتلمذت عليهم اوروبا الى غاية اوائل القرن الحالى اذ أن كتاب القانون فى الطب لابن سيناء ظل يدرس فى جامعة لوقان الكاتوليكية فى بلجيكا الى سنة ١٩٠٩ ، وهذه النظرة للعلم هى التى تتبناها الان مؤسسات التعليم الاصلى فى بلادنا والسلطة الثورية تؤيد كل التأييد هذا التعليم وقد شيدت هذه السنة عدة تكميليات وثانويات للتعليم الاصلى ، وفى هذا الاسبوع بالذات اعطى السيد الرئيس التعليمات اللازمة بالاسراع فى انجاز كلية الدراسات الاسلامية فى نطاق انجاز مشروع المسجد الكبير فى قسنطينة ، وقبل مغادرته لبلدة القرارة ادى زيارة للعالم الصحفى الشاعر الكبير الشيخ ابراهيم ابى اليقضان الذى يوجد فى سريره مشلولا منذ ١٥ سنة ، وفى صبيحة يوم السبت توجه الاخ الوزير الى بلدة متليلى حيث زار مقبرة الشهداء ودار ابناء الشهداء والمؤسسات الدينية والتعليمية ، ثم تابع سيره الى مدينة المنيعة التى بلغها فى منتصف النهار وقد كان فى استقبال الاخ الوزير ، السيد رئيس الدائرة وبقية السلطات العسكرية والمدنية وبعد استراحة قصيرة فى مقر الدائرة توجه الاخ الوزير صحبة السلطات المحلية الى المكان الذى تجرى فيه الاعمال لتعبيد الطريق الصحراوى طريق الوحدة الافريقية الذى تقوم به ثلة من شباب الخدمة الوطنية ، وقد تفقد الاخ الوزير الاعمال الجارية بمختلف انواعها ثم توجه الى القاعدة الرئيسية صحبة الاخ الرائد بوزادة حيث تناول الغداء هناك وقد القى الاخ الوزير على شبان الخدمة الوطنية الذين يشقون هذا الطريق كلمة جاء فيها : (ان هذا العمل الجبار الذى تقومون به يفيدكم ويفيد الوطن ويكون منكم اطارات فنية ورجالا ذوى عزيمة وارادة) ثم شجعهم على مواصلة العمل وختم كلمته بقوله : (يكفيكم فخرا انكم تحققون هذا المشروع الهام الذى اطلق عليه اسم طريق الوحدة الافريقية والذى يذكركم بقوافل اجدادكم الذين شقوا هذه الصحارى لتبليغ كلمة الله وتعاليم دينه الحنيف والحضارة الاسلامية) ثم اردف قائلا : (ان ضريبة العرق التى تدفعونها اليوم تجعلكم فى مصاف من دفع ضريبة الدم بالامس) ثم اعلمهم بانه قرر مشاركة وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية عمليا باطاراتها فى هذا العمل الجليل .

كما كان الاخ الرائد بوزادة مسؤول القاعدة قد القى كلمة ترحيبية بالسيد الوزير جاء فيها على الخصوص ما يلى :

سيادة الوزير ، ان شعارنا هو : (الاعتماد على انفسنا) كما نادى بذلك السيد رئيس مجلس الوزراء ، ورئيس مجلس الثورة الهوارى بومدين ، اننا ملتزمون بهذا الشعار الثورى معتمدين على انفسنا ، وعلى سواعدنا ، وعرقنا ، لاتمام هذا المشروع العظيم وبهذا نكون قد اسهمنا مساهمة ايجابية فى بناء صرح وطننا متفاعلين متجاوبين مع المرحلة الحاسمة التى تمر بها ثورتنا،لتحقيق الثورةالصناعية والثقافية والزراعية ، وبذلك

نقضى نهائيا على مظاهر الجهل ، والفقر ، والمرض ، وكل انوع التخلف ، ومحو جميع الفوارق الاجتماعية بين أفراد شعبنا .

وبعد ذلك عاد الاخ الوزير الى مدينة المنيعة وتدادى صلاة المغرب فى المسجد الكبير ثم زار مسجد حاسى قارة ، وفى صبيحة اليوم التالى تفقد الارض التى اختيرت لبناء ثانوية التعليم الاصلى المزمع انشاؤها فى هذه المدينة ثم غادر الوفد مدينة المنيعة فى طريقه الى ورقلة عاصمة ولاية الواحات التى وصل اليها عند منتصف النهار فتفقد حالة بعض المساجد بها ، ثم توجه الى تعاونية حسن بن عبد الله التى لم تكن شيئا قبل ٣ سنوات والتى اصبحت اليوم تتدفق فيها المياه وسط الرمال تنتج الخضر والفواكه وتروى النخيل ، وبعد زيارة مقر الولاية الجديد عقد جلسة عمل ادارية بالولاية حضرها السيد الوالى ومساعدوه لدراسة مختلف مشاريع وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بالولاية نخص بالذكر منها ثانوية التعليم الاصلى بتامنراست التى تتسع لالف طالب كلهم داخلى ومسجدها الكبير ، وكذلك مشروع تكبير ثانوية التعليم الاصلى بالوادى، ثم عقدت جلسة عمل اخرى مع رجال الدين بالناحية لدراسة سير عملية محو الامية فى المساجد والتعليم القرآنى والتعليم المسجدى وقد القى الاخ الوزير فى هذه الجلسة كلمة جاء فيها بالخصوص : (ان رمز هذه الامة وأساس حضارتها وحصانتها من الاذابة والمسخ هو الاسلام ، وعليكم معشر الائمة ان تقصدوا الشباب فى المقاهى والنوادى والمعامل اذا اردتم ان تكونوا دعاة حقا وتتحملوا الرسالة بنشاط وحزم وعزم ، وعليكم ان تضاعفوا الجهود بالنسبة لعملية محو الامية حتى تنجح نجاحا كليا وفى جميع المناطق .

وفى صبيحة يوم الاثنين ٢٩ / ١٢ / ١٣٩١ هـ ١٤ / ٢ / ١٩٧٢ م غادر الاخ الوزير والوفد المرافق له مدينة ورقلة قاصدا الوادى مارا بتوقرت ، وقد كان فى استقباله عند مشارف توقرت السيد رئيس الدائرة والسلطات المحلية المدنية والعسكرية ورجال السلك الدينى ، وبعد استراحة قصيرة فى مقر الدائرة ، واصل طريقه الى الوادى التى وصلها عند منتصف النهار ، وقد استقبلت الوادى السيد الوزير استقبالا حارا سواء من طرف السلطات المحلية أو من طرف الشعب وقد قام السيد الوزير بعد الغداء بزيارة تفقدية لتكميلية التعليم الاصلى فى الوادى والقى كلمة توجيهية على طلبة التكميلية فى روح الكلمات التى كان قد القاها من قبل ، ثم زار بعد ذلك مصنع تصبير وتعليب التمور بنفس المدينة ، وبعد ان ادى صلاة المغرب بالمسجد الكبير طاف بأحياء المدينة ، وقد غادر السيد الوزير الوادى فى اليوم التالى قاصدا بوسعادة ، وقد كان فى استقباله عند حدود ولاية التيطرى السيد احمد العيدى والى التيطرى والمحافظ الوطنى للحزب ورئيس دائرة بوسعادة وقائد القطاع العسكرى ، ومدير ثانوية التعليم الاصلى ببوسعادة ، ولقد توجه الركب الوزارى الى مقر الدائرة وبعد الغداء زار السيد الوزير ثانوية التعليم الاصلى بالمدينة وطاف باقسامها وتحادث مع طلابها وأساتذتها ثم زار مدرسة الفنادق ، وبعدها توجه الى المعهد القاسمى بالهامل حيث تفقد مختلف

اقسامه ، والمكتبة التى يضمها هذا المعهد ، وقد القى الاخ الوزير كلمة جاء فيها :

(على جميع الزوايا والمعاهد الدينية القديمة التى قامت بدور فعلى فى الماضى من اجل المحافظة على الثقافة والشخصية العربية الاسلامية للجزائر عليها اليوم أن تبذل كل الجهود لتطور اساليب تعليمها تطويرا جذريا لتواكب عصر نهضتنا الحاضرة وذلك بامكانياتها المادية الخاصة ، وأما التى لاتستطيع أن تقوم بهذا التطوير فسوف تشملها جهود الدولة تدريجيا فى اطار الجهود التى تبذلها الدولة وتوزعها بعدالة وانسجام على مختلف جهات الوطن ومختلف قطاعات النشاط القومى) .

وقد كان ختام هذه الجولة هى مدينة المدية التى وصلها السيد الوزير صبيحة يوم الاربعاء ١ محرم ١٣٩٢ هـ ١٦ / ٢ / ١٩٧٢ م قادما اليها من بوسعادة صحبة كافة المسؤولين المحليين ، وقد كان اول عمل قام به السيد الوزير فى هذه المدينة هو زيارة مسجد النور الذى يعد مفخرة للجزائر كلها ، وتفقد المكتبة التابعة للمسجد وقد أكد السيد الوزير بهذه المناسبة بأن وزارة التلعيم الاصلى تضع برنامجا لتطوير مكتبات المساجد والمعاهد الاسلامية وتوسيعها حتى تكون قادرة على مسايرة ركب الثقافة الحديثة وتلبية المطالب العلمية فى مختلف مجالاتها ، وبعد ذلك توجه الاخ الوزير الى المعهد الاسلامى الكائن بجانب المسجد حيث تفقد مختلف الاقسام والتجهيزات الحديثة التى زود بها هذا المعهد كما اطلع على مختلف نشاطات الطلاب ومن هناك قصد الوفد القسم الداخلى للمعهد الكائن بذراع الصمار على بعد حوالى ٥ كم من المدينة وقد كان فى استقبال الوفد الوزارى مدير المعهد واساتذته وطلبته ، وبعد ان القى احد الطلبة كلمة ترحيب بالسيد الوزير ، وكذلك مدير المعهد رد عليهما السيد الوزير بكلمة قصيرة جاء فيها بالخصوص بعد أن أشاد بجهود الهيئة المشرفة على المعهد والطلاب « ان رسالة مؤسسات التعليم الاصلى بالجزائر لم تعد مقتصرة على الجزائر فقط وانما شملت كثيرا من الشعوب الاسلامية اذ أن مؤسساتنا تضم مجموعة من الطلبة المسلمين الذين جاءوا اليها من افريقيا ومن آسيا مثل : السينغال ، غامبيا ، فولتا العليا ، النيجر ، اريتريا ، الصومال ، السودان ، سيراليون ، غانا ، غينيا ، تشاد ، مالى ، موريطانيا ، نيجيريا ، المغرب ، تايلاندا ، وفى السنة الدراسية المقبلة سينظم الى هؤلاء جمع من تلاميذ البلدان الآتية : ساحل العاج ، زايير ، الكونغو ، ثم حث الطلاب على مواصلة بذل المجهود حتى يجنوا اثمار التى يرجونها ، وبعد تناول الغداء فى مقر الولاية ، توجه السيد الوزير الى مدينة الجزائر ايذانا بانتهاء هذه الجولة الاستطلاعية التى تدخل ضمن سلسلة من الجولات التى قام وسيقوم بها الاخ الوزير فى مختلف جهات الوطن للاطلاع على سير مؤسسات التعليم الاصلى والشؤون الدينية .

ويلاحظ أن اغلبية المدن التى زارها السيد الوزير كانت تطلب بالحاح انشاء تكميليات وثانويات للتعليم الاصلى فيها ، مثل غرداية ، وبلدة متليلى التى يوجد فيها مركز لابناء الشهداء وهو مجهز تجهيزا حديثا كاملا وسيفرغ عما قريب لان الاطفال الذين بأويهم قد كبروا ولهذا فان سكان هذه البلدة يلحون على

ان تبناه وزارة التعليم الاصلى وتحوله الى تكميلية ، وكذلك المنيعة التى سارعت السلطات المحلية فيها ــ نظرا لرغبة السكان والحاحهم فى انشاء تكميلية فيها للتعليم الاصلى ــ الى اختيار الارض التى ستبنى فيها هذه التكميلية ، وكذلك الشأن بالنسبة لمدينة توقرت التى طلب سكانها من الوزارة بالحاح انشاء تكميلية للتعليم الاصلى فيها نظرا لمواقعها ولكثافة سكانها .

اما بخصوص اهل المدية بالضبط فقد الحوا فى الجلسة التى عقدها السيد الوزير معهم فى قاعة مكتبة مسجد النور ، على ضرورة انشاء ثانوية للتعليم الاصلى تخصص للبنات ، وقد وعدهم السيد الوزير بالعمل على تحقيق هذه الرغبة التى عبر عنها مواطنونا فى المدية بالحاح كبير ، ونود هنا أن نفتح قوسين لنقول (انه فى اطار البرنامج الخاص لكل من تلمسان وسطيف ، قد تقرر انشاء ثانويتين داخليتين للتعليم الاصلى فى كل من تلمسان وآقبو ، تخصصان للبنات ، وقد بدئى فعلا فى انجازهما ، وننوى ان شاء الله بعزم ان ننشىء كمرحلة ثانية ثانويتين للبنات فى كل من العاصمة والمدية .

وفد من وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية يقوم بزيارة لولاية سعيدة

فى اطار القرار الذى اتخذته وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بتطوير جميع الزوايا وتجديدها وبعث الحياة فيها حتى تتمكن من اداء رسالتها التعليمية كاملة ، قام كل من السادة : احمد درار نائب مدير التعليم الاصلى ، ومحمد الصغير ابن الاعلام نائب مدير الشؤون الدينية ، وعمر مقرانى المفتش المركزى بالنيابة ، بزيارة لولاية سعيدة يوم الاثنين ٢٠ محرم ١٣٩٢ هـ الموافق لـ ٦ مارس ١٩٧٢ م، على غرار الزيارة التى نظمت من قبل الى ولاية تيزى وزو والزيارات التى ستنظم قريبا الى باقى الولايات التى توجد فيها مثل هذه الزوايا .

وبعد جلسة عمل عقدت فى نفس اليوم بمقر الولاية مع السيد الوالى ، والمحافظ الوطنى للحزب ، ورئيس دائرة البيض ، والمفتش الجهوى للتعليم الاصلى والشؤون الدينية ، توجه أعضاء الوفد فى صبيحة اليوم التالى صحبة المحافظ الوطنى للحزب ، وممثل السيد الوالى ، ورئيس دائرة البيض ، والمفتش الجهوى للتعليم الاصلى والشؤون الدينية الى بلدية الابيض سيد الشيخ للاطلاع على حالة الزاوية الموجودة بها فى عين المكان ودراسة كيفية تطويرها ، وقد اتخذت التدابير اللازمة فى الموضوع حسب القرار المشار اليه اعلاه .

نشاط المركز الثقافى الاسلامى

نظم المركز الثقافى الاسلامى سلسلة من المحاضرات الثقافية عالج فيهـا المحاضرون عـدة قضايـا فكريـة وثقافيـة ، وغيرها .

ومن المحاضرات التى القيت بالمركز الثقـافى الاسـلامى محاضرة بعنوان .

الهجرة عهد جديد فى حياة الاسلام ، تعـرض فيهـا ــ الاستاذ احمد حمانى استـاذ بكلية الاداب جامعة الجزائـر ورئيس المجلـس الاسلامـى الاعلى ــ الـى الظـروف التاريخيـة التـى ادت الـى الهجرة ، والى الافاق الجديدة التى لاحت للمسلمين بعد هذا الحدث التاريخى العظيم الذى يعتبر نقطة تحول بين عهدين .

اما المحاضرة الثانية فقـد القاها الدكتور عبـد المنعـم النمر مديـر ادارة البعـوث الاسلامية بالازهر ، بعنوان :

الحق والقوة فى الاسلام :

ــ والملاحظ ان الدكتور عبـد المنعم النمر كان قد استدعـى من طرف وزارة التعليم الاصلى والشـؤون الدينية ــ ولقـد ابدع الدكتور النمر فى تحليلـه الموضوعى لفلسفة الحق والقوة فى الاسلام ، ولقـد الـح فى محاضرته هذه بصفة خاصـة على ضرورة تواجد قوة بالمعنى الحقيقى للقـوة فى عصرنـا الحاضر ، لحماية الحق ــ روح الاسلام ــ لان الحق لابد لـه من قوة تدعمه وتعززه وتحمى جانبـه وترهـب اعـداءه ، واستشهـد بقولـه تعالـى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عـدو اللـه وعدوكـم ، الاية » .

اما المحاضرة الثالثة فكانت تحت عنوان :

مراكز الثقافة بالجزائـر ، وخزائن الكتب عبر التاريخ ، نشاتها ، تطورها ، آثارها .

ولقـد تعـرض فى هـذه المحاضرة الاستاذ ، المهـدى البوعبدلى عضـو المجلـس الاسلامى الاعلى الى ذكر مراكز الثقافة بالجزائر هذه المراكـز التى كانت منبثة هنا وهناك ، من بجاية الى تلمسان وفى نفس الوقت تعرض الى المكتبـات التى كانـت موجـودة قبـل ١٨٣٠ م . امـا المحاضـرة الاخيرة فقد القاها الدكتـور محمد عزيز الحبابى استـاذ الفلسفة بجامعة الجزائر تحت عنوان .

الى اين نسير ؟ : طـرح المحاضر فى هـذه المحـاضرة اسئلة حول سيرنا واتجاهه ، فى الوقت الراهن ولقد كانـت المحاضرة مفعمـة بالحـوار والمناقشة .

مفهوم وابعاد الثورة الثقافية في الجزائر

عالج الاخ احمد طالب الابراهيمى ، وزير الاعلام والثقافة فى مقر المعهد الثقافى ببوزريعة ، موضوع «الثورة الثقافية » اثناء محاضرة القيت امام الاطارات النقابية للولايات المكلفة بالمسائل الثقافية .

حدد الاخ احمد طالب الابراهيمى ، فى البداية ، مفهوم الثورة الثقافية التى ليس لها معنى واحدا بالنسبة للجميع ، فقال : « ان الثورة الثقافية فى الواقع ، لا يمكن فصلها عن الجهود التى تبذل لتشييد مجتمع اشتراكى بكل ما يتضمنه من كفاح ضد التبعية من اجل الديمقراطية والتجديد . وهو لن يقوم بدون ثورة ، اى بدون تحوير للانسان والمجتمع . » ثم لاحظ انه بالرغم من ذلك ، ليس من الضرورى الاتفاق على شكل ومحتوى الثورة الثقافية ، حتى بين البلدان الاشتراكية نفسها ، وعندما ضرب مثلا بالاتحاد السوفياتى من جهة والصين الشعبية من جهة اخرى ، اشار الاخ الوزير الى ان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ركز ، منذ ٥٠ سنة خلت ، على تطوير المعرفة والتقنية ، فى الوقت الذى ترمى فيه جمهورية الصين الشعبية الحالية ، من بين اهدافها ، الى استبدال الافكار ، والثقافة ، والاخلاق ، والعادات « القديمة » بافكار وثقافة واخلاق ، وعادات «جديدة» .

وبعد ذلك ، انكب الدكتور احمد طالب الابراهيمى على حصر الاوجه الرئيسية للثورة الثقافية ، فذكر فى البداية ضرورة محاربة الجهل للحصول على المعرفة والمهارة ، والتطور الثقافى بمختلف وجوهه (الاداب ، والمسرح ، والسينما ، والمتاحف ، والفنون التشكيلية . الخ ....) ، وضرورة تبنى اسلوب جديد فى الحياة بواسطة حذف العوامل السلبية (ولا سيما « الوصولية ») والتحمس للعوامل الايجابية (الطهارة النفسية) .

ثم رجع وزير الاعلام والثقافة الى التاريخ ، فاشار الى ان اية ثورة لا يسعها ان تنطلق من صفحة بيضاء . لذلك يجب على كل ثورة ثقافية ان تجد حلا ، من بين العديد ، لمشكل هام : الا وهو موقفها ازاء مخلفات الماضى .

وعندما حاول تعريف وجود الثورة الثقافية الجزائرية فى ثلاث نقاط ، اوضح الاخ طالب الابراهيمى ، المضمون الذى تجرى فيه جهود التدريس الذى يهدف الى التحرير ، وفى نفس الوقت ، تلافى محاولة العدمية والتقليد الاستعبادى للماضى ، فقال بان التحرير يجرى بالنسبة لمخلفات الاستعمار .

اما بالنسبة للميراث العربى الاسلامى قال انه لا يعتبر ، فى هذه الحالة ، تلافيا بل استردادا وعودة للاصل مع كل المشاكل الناجمة عن اللغة العامية والتقاليد ، والاجتهاد والتقليد وفى نقطة ثانية ، تعرض الاخ احمد طالب الابراهيمى الى الاجراءات المتخذة اوالمحتمل اتخاذها لضمان التطور الثقافى ، ثم اضاف بان الجهود التى تبذل فى ميدان التطور الثقافى مكنت من :

— مواصلة عمل استصلاح وحماية التراث الثقافى .

— تشجيع الانتاج الفكرى

الجديد بتشريع قانون لحمايته

ــ ضمان نشر هذه الاعمال فى كل الاوساط وكل المناطق .

اخيرا فى نقطة ثالثة ، اشار من جديد ، الى ضرورة تبنى أسلوب جديد فى الحياة ، ثم صرح وزير الاعلام والثقافة قائلا: «من اجل هذا الغرض ، فان الثورة الثقافية ، هى فى آن واحد ، وسيلة (المحرك لتحوير المجتمع) وغاية (التطور الاقتصادى والاجتماعى ، والتصنيع ، والثورة الزراعية ، كل ذلك يهدف من خلال المنجزات المادية الى خلق الظروف الثقافية التى تتميز الملائمة لتطوير الثورة بظهور انسان جديد فى مجتمع افضل .)

واشار الاخ طالب الابراهيمى الى انه يتحتم علينا بذل جهد متتابع للحصول على مشاركة جدية ومتواصلة من طرف الجميع فى اسلوب الحياة الجديدة ، هذا ، قبل ان يختتم حديثه بهذه العبارات : « ليست الثورة الثقافية عبارة عن حشد للمعلومات اوالاحتجاج من اجل التدمير ، بل هى نتجة نحو تكوين انسان جديد لمجتمع يرتكز على علاقات اكثر عدلا واكثر اخوة .

« ان الثورات ومعارك التحرير الكبرى لا تكتسب بالاسلحة المادية فحسب ، بل كذلك بالقوى الفكرية (المعنوية والنفسانية والايديولوجية) ان الثورة الثقافية (التى هى ثورة مستمرة) وسيلة لتحرير الطاقات الكامنة فى الجماهير ، وعندما تحرر هذه الطاقات ، تستعملها الثورة الثقافية لتغيير الانسان وطرق تفكيره ، والمجتمع واسسه . »

مصر

* أوشك الاستاذ مصطفى حجازى مراقب المعجمات واحياء التراث بمجمع اللغة العربية بالقاهرة على الانتهاء من تحقيق كتاب « ما تفرد به بعض ائمة اللغة » للحسن بن محمد بن الحسن الصاغانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ ، ويتضمن اربعة اقسام ، الاول فى القراءات الشاذة معزوة الى اصحابها ، والثانى ما تفرد به يونس بن حبيب ، والثالث ما تفرد به ابو حاتم السجستانى، والرابع ما تفرد بعض الائمة ووجد فى شروحهم لدواوين بعض الشعراء .

* كتاب تاريخ التراث العربى الذى الفه بالالمانية العالم التركى د . فؤاد سزكين وبذل فى تاليفه عشرين عاما متواصلة ، صدر بالقاهرة بعد ان ترجمه الى العربية الدكتور فهمى ابو الفضل استاذ بكلية الاداب بجامعة عين شمس .

* وضع مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى خطته لتحقيق التراث اللغوى اخراج كتاب التكملة للحسن بن محمد ابن الحسن الصاغانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ فى ستة اجزاء اصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٠ بتحقيق الاستاذ عبد العليم الطحاوى ، ومراجعة الاستاذ عبد الحميد حسن ، وسيصدر الجزء الثانى قريبا بتحقيق الاستاذ ابراهيم الابيارى ومراجعة الاستاذ محمد خلف الله احمد مدير معهد البحوث والدراسات العربية .

العراق :

* عثر مؤخرا على مخطوطة قديمة لديوان الشاعر صفى الدين الحلى الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى وتحتوى المخطوطة زهاء الالف بيت لم تطبع فى الطبعات الاربع للديوان ، كما تحتوى على مجموعات ابيات موال

وابى ذبة وزجل ورسائل شعبية ، وهذا يعنى ان عمر الابوذية اصبح يمتد الى اكثر من خمسمائة سنة . ومن المؤمل ان يقوم أحد المعنيين بالفلكلور والادب الشعبى بطبع هذه الابيات مشفوعة ببحث تاريخى عن هذا النوع من الادب والفن العراقى القديم .

* تمت الموافقة على مشاركة الجمهورية العراقية فى اعتبار سنة ١٩٧٢ العام الدولى للكتاب الذى أقرته دوائر الامم المختصة ، والاحتفال بذلك بصورة واسعة .

وان لجنة تالفت فى وزارة الاعلام برئاسة السيد حميد سعيد مدير التاليف فى الوزارة وعضوية لفيف من ذوى الاختصاص تدارست الموضوع وبعثت بمقترحاتها وتوصياتها الى مديرية الثقافة العامة فى الوزارة بهذا الصدد .

* اعلن فى بغداد أن المجلس الاعلى العراقى للتعليم قد اتخذ قرارا بتعريب التعليم العلمى العالى فى العراق وكان هذا التعليم يتابع حتى الان باللغة الانجليزية .

وقد طلب الكاتب العام للمجلس الاعلى العراقى للتعليم من جميع الجامعات العراقية ومراكز الابحاث العلمية فى لجنة الطاقة الذرية تعريب التعليم وترجمة البرامج على انه اوضح أن التعريب لا ينبغى أن يمنع الطلبة من الاستفادة من الوثائق والابحاث المحررة باللغة الاجنبية .

افريقيا :

* واصلت اللجنة الدولية لتدوين تاريخ افريقيا اجتماعاتها يوم ٢٥ نوفمبر ١٩٧١ بالقاهرة وناقشت اللجنة بعض النواحى الادارية المتعلقة باصدار موسوعة عن تاريخ افريقيا العام تضم ثمانية مجلدات ، وقد تقرر أن يشرف الدكتور جمال مختار وكيل وزارة الثقافة والاعلام على المجلد الثانى الذى يعالج الفترة التى بدات من نهاية عمر ما قبل التاريخ فى افريقية حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى .

ويشمل هذا المجلد خمسة أجزاء رئيسية تضم ٣٠ فصلا يشترك فى كتابتها ٣٠ مؤلفا وسيوضح هذا الجزء تاثير مصر وتأثرها ببقية اجزاء افريقيا ، وتأثيرها فى الحضارة العالمية باعتبارها جزءا من القارة الافريقية .

وكانت اللجنة الدولية قد بدات اجتماعاتها مساء ٢٤ نوفمبر واشترك فيها ممثلون عن كل من كينيا ونجيريا ، والسينغال ، وغانا ، وفولتا العليا ، وفرنسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، واثيوبيا ، ومصر ، وهيئة اليونسكو .

باريس :

* **انعقد فى باريس «تحت** اشراف منظمة اليونسكو » مؤتمر على مستوى الحكومات لاقرار نظام خاص برواج الاخبار ذات الصبغة العلمية.

واتفق المؤتمرون الذين يمثلون ٢٤ دولة بعد دراسة وافية للموضوع على وجوب انشاء جهاز خاص يتعاون تلقائيا مع كل بلدان العالم فى نشر المعلومات العلمية .

ويستفاد من التقارير الصادرة عن المؤتمر أن الانباء العلمية لا تروج على الوجه المطلوب بين جميع الدول . واقر التقرير حق الدول النامية فى تداول هذه الاخبار على اساس أن العلم فى حد ذاته له

جذور فى كل انحاء العالم ومن حق الجميع الاستفادة من الاخبار العلمية والتقنية التى تنشر فى العالم بمعدل مليونى مقال كل عام .

وبعبارة اخرى لا يمكن للعلم ان يتقدم على الوجه الاكمل الا اذا كان ذلك عن طريق تبادل المعلومات العلمية التى تخرج بها مختلف المناظرات والمحاضرات والايام الدراسية .

واذا كان هناك مركز لجمع المعلومات العلمية فانه لحد الان يقتصر على الدول المتقدمة وبفتحة فى وجه الدول النامية ستستفيد هذه الاخيرة من كل الاخبار التى قد تهمها فى الميدان .

* احتفل عالم الفنون التشكيلية ، بمرور تسعين عاما على ميلاد بيكاسو . وقد جرى بهذه المناسبة احتفال كبير فى باريس وآخر فى برشلونة حيث يوجد متحف بيكاسو . العظيم ، وهو المتحف الذى يضم معظم اعماله منذ بدايته ، وكان قد اهداها للمتحف . وترجع كل هذه الاعمال الفنية التيءيضمها المتحف الى سنة ١٩٠٠ ، ففى هذه السنة غادر بيكاسو اسبانيا .

وقد صدرت معظم المجلات والصحف العالمية تحمل صورا كبيرة لبيكاسو ، الان فى حالة اعتزال كاملة ، ولذلك فانه لم يحضر الحفل الذى دشن خلاله الرئيس الفرنسى ومبيدو معرض التكريم الخاص بيكاسو .

* انعقد مؤخرا فى مدينة اكس اندير وفانس المؤتمر الشرون للادب المقارن وقد تراس المؤتمر الكاتب الفرنسى ينيبه اياكمل وكان موضوع المؤتمر : « اثر الشرق والغرب فى الشعر الحديث » .

اكد المؤتمر على ان اشكال الشعر جاءت من الشرق والشرق وحده صاحب الفضل الاول فى هذا الشأن ، تضمن المؤتمر ثمانين بحثا سيضمه كتاب ضخم سيصدر فى نهاية هذا العام .

انجلترا :

* سوف تخرج دار النشر البريطانية «كونتون بريس» فى الربيع المقبل ترجمة كاملة لتأليف نابليون الرومانسية . وقد كتبت صحيفة التايمز البريطانية حول هذا الموضوع تقول :

« لقد استطاع كريستوفر فرايلنغ استاذ التاريخ فى جامعة اكستر فك رموز خط نابليون غير المقروء ولغته الفرنسية الرديئة » .

ويرجع هذا المؤلف لنابليون فى الفترة الواقعة بين ١٧٨٥ و ١٧٩٥ عندما كان نابليون يكتب من أجل تحسين لغته على سبيل التدريب ومن اجل التعبير عن حنينه لكورسيكا مسقط راسه . ويقول فرايلنغ ان اسلوب نابليون هو اسلوب الاجانب الذين يكتبون بالفرنسية ولا يحسنونها «اسلوب صغار الزنج» أو هو من نوع الفرنسية العادية حسب نقله عن الكتاب الاخرين او عدم ذلك » . وقد كان نابليون كثير الفخر لمعرفته بكتابات جان جاك روسو الذى كانت لافكاره تأثيرات هامةعلى نابليون فى شبابه . بل ان فرايلنغ نفسه قد استفاد كثيرا من تحليل مؤلف نابليون هذا من خلال روسو . ذلك انه اكتشف هذه القصص لنابليون خلال بحثه فى باريس حول اطروحة عن روسو .

* تقوم الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بالقاهرة باتمام ترجمة كتاب تاريخ الادب العربى للمستشرق بروكلمان بعناية الدكتور رمضان عبد التواب ، وسبق أن ترجم منه ثلاثة اجزاء ثم توقف لوفاة مترجمه الدكتور

عبد الحليم النجار .

باشرت مطبعة دار الكتب المصرية ــ قسم التـراث ــ بطبع كتاب تاريخ الاســلام الكبير للامام المؤرخ احمـد بن تايماز الذهبى بتحقيق الدكتور عبـد الهـادى شعيـرة ومن الجدير بالذكر ان هـذا الكتاب كان قد باشر بطبعه منذ ٢٥ سنة حسام الدين القدسى ونشر منه ٦ مجلدات ولم يتمه ويقع الكتـاب فى حوالى ٣٠ مجلدا علما بأن دار الكتب قد حصلت على نسخ متنوعة من بينها اجـزاء بخط الحـافظ الذهبى نفسه .

* تراس سفيرا الجزائـر ومصر فى اسبانيا وسلطـات مدنية اشبيلية فى كلية الفلسفة والادابجامعة «هيسبالنسى» حفل تدشين دار الثقـافـة العربية ــ الاسبانية باشبيلية

وحضر حفل التدشين كذلك سفراء المغرب والاردن وليبيا وممثل لسفارة العراق وكذلك رئيس دار الثقافة العربية ــ الاسبانية فى مدريد .

وبهـذه المناسبـة قدمت محاضرتان احداهما قدمهـا استاذ اللغة العربية فى كلـية الفلسفة والاداب باشبيليـة الاستاذ جمال عبد الكريم حول « تطور ادب الرحلات عبـر الاندلس والمشرق » والثـانية قدمها الملحق الصحفى لسفارة مصر الاستاذ محمد كمـال يوسف حول «الرجل الجـديد لمصر»

* صدر مؤخرا تحقـيق جديد لكتاب المقتبس من كتاب الانساب فى معرفة الاصحاب ــ وهو من تاليف السيد ابى بكر بن على الصنهاجى المكـنى بالبيدق احد تلاميذ المهدى بن تومرت واحد رفقـاء الخليفة الموحدى عبد المومن بن على .

وهو اول كتاب تاريخـى معروف قام بتحقيقه السـيد عبد الوهاب بنمنصور مـؤرخ المملكة ومحافظ ضريح محمـد الخامس واصدرته دارالمنصور للطباعة والوراقة بالرباط .

* صدر عام ١٩٦٩ كتاب « الشامل فى اصول الدين » لامام الحرمين الجوينى المتوفى عام ٤٦٨ هـ وقام بتحقيقـه الدكتور على سامى النشـار والاستاذة سهير محمد مختار والاستاذ فيصل بدير فرعون وجاء فى ٧٣١ صفحة وهو يضم ثلاة كتب هى : كتـاب النظر وكتاب التوحيد وكتاب العلل ونشرتـه منشـاة المعـارف بالاسكندرية .

* يجرى الان طبع كتـاب « نهايـة المعقـول فى دراية الاصول » لفخر الدين الرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ وقد قـام بتحقيقه الدكتـور على سامى النشـار الاستاذ فى جامعـة الاسكندرية والاستاذة سهـير محمد مختار المعيدة بكلـية البنات الاسلامية ، فى جامعة الازهر وسيصدر فى اربعـة مجلدات كل مجلد فى حـوالى ٤٠٠ صفحة .

* انعقد فى لندن مهرجـان اسلامى كبير فريد من نوعه فى العالم الغربى تحت شعار ــ العالم الاسلامى ــ أو ــ عالم الاسلام ــ يبرز مظاهر الحياة والثقافة الاسلامية ، روحيات وادبيات ، فقها وادبا ، نثرا وشعرا . واستغرق المهرجان شهرا كاملا . قام بتنظيمـه المعهد الشرقى للفنون الحديثة. وسيتضمن معارض الرسـوم وحفلات موسيقية ونـدوات ادبيـة وجلسـات شعريـة ومحاضرات ثقافية ، وبهـذه المناسبةوفد على لندن كثير من الشخصيات المهتمة بالشؤون الاسلاميـة ومستشرقـين واساتذة .

ويقول المهتمون ان الغرض من هذا المهرجان هو ابـراز جهود بريطانيا فى ميدان الثقافة الاسلامية .. ويشترك فى هذا المهرجان الكبير عدد من الكتاب والفنانين المسلمين والعرب من مختلف الدول الاسـلاميـة والعربية ، من بينها لبنـان

وسوريا ، وفلسطين ، والسودان ، والعراق ، ومن بين المواضيع التي نوقشت موضوع فن الرسم العربي ، والعرب والحضارة الاسلامية، والشعر العربي الحديث ، وتضمن المهرجان ايضا مواضيع دراسية اخرى تتناول بحث الاسلام على ضوءالسيرة المحمدية .

ايطاليا :

ظهر في ايطاليا في اوائل هذا العام جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق للادريسي الذي يعنى بنشره المعهد الايطالي لتاريخ الاداب الشرقية الادنى والاقصى .

الاتحاد السوفياتي :

عثر عالم فقه اللغة العربية قاسم جانوف من جمهورية كازاخستان السوفياتية على مخطوط الفيلسوف العربي أبو نصر الفارابي يرجع تاريخه الى الف عام .

ويتضمن المخوط ١٢ رسالة منطقية كما يتناول بالتعليق كتاب (الادرجاتون) للفيلسوف اليوناني ارسطو .. ويتناول المخطوط بالاضافة الى القضايا المنطقية طبيعة المعرفة الانسانية والخصائص المميزة للجنس البشري .

وذكرت وكالة طاس انه عثر على هذا المخطوط ضمن سلسلة الابحاث الواسعة التي تقوم بها حاليا مجموعة من علماء وطلاب جمهورية كازاخستان السوفياتية من تراث الفيلسوف العربي الفارابي الذي ولد منذ الف ومائة عام في مدينة اوترا التي سميت بمدينة فارابي فيأراضي كازاخستان .

* انجز العلماء الداغستانيون فهرسا للمخطوطات الشرقية وداغستان جمهورية ذات استقلال ذاتي تقع في القوقاز . ويضم الفهرس وصفا للمخطوطات القديمة التييرجع عهدها الى القرون الوسطى المحفوظة في معهد التاريخ واللغة والاداب الداغستانية .

وهناك حوالي ٤٠٠٠(أربعة آلاف) مخطوط كتبت اساسا بالعربية ومنها ايضا ما هو مكتوب بالتركية والفارسية . ومن بين هذه المخطوطات ما هو نادر جدا . ومنها قاموس عربي يرجع تاريخه الى سنة ١١١٣ وهو يقع في ٤ مجلدات . وكتب لابن سينا ، وعلماء عرب معروفون مثل الغزالي والقزويني .

وكان بعض هذه الكتب قد أعيد نسخه في القرنين ١٥ و ١٧ على يد الداغستانيين وكانت متداولة في القوقاز .

ويتضمن الفهرس اصول عدد من مؤلفات العلماء الداغستانيين في الفلسفة والرياضيات والتنجيم واللغة . وقد انجز فهرس المخطوطات بعد عمل دائب وطويل . وستظهر الطبعة الاولى في دار نشر الاداب الشرقية بموسكو .



قراءات فى المجلات الفرنسية

* من أجل ثورة ثقافية فى خدمة المجتمع ..

* الدول الكبرى لا تزال تمارس سيطرتها الثقافية على العالم الثالث

اعداد
ـ بقطاش مرزاق

من أجل ثورة ثقافية فى خدمة المجتمع

بير ايمانويل شاعر واديب فرنسى معـروف بدواوينـه الشعرية المتعددة وكتاباتـه فى المواضيع الثقافية . وهـو عضو فى الاكادمية الفرنسيـة ورئيس لجنة الشؤون الثقافية للمخطط السداسى . وقد اصدر اخيرا كتابا تحت عنوان (مـن اجل سياسة ثقافية) ضمنه جملة تأملاته الشخصية ونصح فيه بالقيام بثورة ثقافية تخدم الانسان . وفيما يلى الحديث الذى أدلى به الى صحيفـة الانباء الادبية الاسبوعية .

س — قبل أن نسالكم عن نوع التنشيط الثقافى الذى تقترحونه ، هـل لكم أن تحدثونا عمـا ينطوى عليه مفهـوم الثقافة فى نظركم ؟ ولاى سبب نراه فى كتاباتكم وثيـق الاتصال بكلمـة السيـاسـة ؟

ج — ان فكـرة تخطيط سياسة للثقافة فى الاطار العام للحياة الفرنسية ليست صادرة عن لجنة المخطط السداسى . فقد كانت لجنة الشـؤون الثقافية قد قدمت اقتراحـا بشأنها فى المخطط الخماسى . وهذه الفكرة تعنى أن البعض كان يريد تجاوز مفهوم الكلمة ذاتها ويذهب ما وراء النشاط الذى تقوم به وزارة الشؤون الثقافية ، هذا النشاط الـذى يتلخص فى الحفاظ على التراث الثقافى الوطنى من متـاحف وتماثيل تاريخيـة ومسـارح وطنية . وهكذا ، فقد انتقلنا من مفهوم تقليدى للثقافة يشـاع عنه بأنـه جمالـى محض فى حوزة نخبة ما ، نحو مفهـوم اوسع يجعل مـن الفرنسـى العادى مستهلكا لا للتـراث الثقافى الموجود فحسب بـل للثقافة الحالية التى هـى فى طور النشوء والتكون ، وذلك من خـلال دور الثقافة التى انشأها السيد أندرى مالـرو لهذا الغرض .

س — ولكـن ، الا تضعون الثقافة اليوم فى اطار أوسع من ذلـك بكثيـر ؟

ج — بلى اننا نرى فعلا بأن الثقافـة ليست فقط مـرآة لمختلف النشاط الذى يمارسه العقل بل هى وسيلة لانسان اليوم لكى يحقق التفتح الكامل لوجوده ويجد بالتالى فى هـذا التفتح معنى لوجوده .

وهكذا ترون أن الثقافة هى مجموع النشاطات التى تسمح للانسان بتحسين حياته . و حياته هذه لا يجب أن تكـون ثرية بالاحاسيس فقط بل يجب أن تكون غنية بالمعانى ايضا . وفى استطاعتنا حينئذ القـول بأن هذا المجهود يهم وجود كل فرنسى ، لانه يبرز بكل بساطة طموحه الجبار الذى لا يجب أن يبقى رغبة دفينة يعبـر عنها بصورة غير جدية وبذلك يغمط حقه فى العالـم الـذى يعيش فيه . وهذا الطمـوح يجب أن يتلاءم مع الوعـى بمسؤوليته الخاصة فى الاطار العام للمجتمع الذى ينتمـى اليه . ومن هنا جاء التصاق كلمة « السياسة » بفكـرة الثقافة . ما الـذى يجب ان تكونه السياسة اليوم اللهـم

سوى التفكير وبذل الجهود من اجل خلق مجتمع حى يجد فيه كل واحد وسائل تفتحه فى علاقة تضامن مع الاخرين ؟

س ـ اذن ما هى السياسة الثقافية التى يجب تطبيقها ومن يضطلع بها ؟

ج ـ ان اكبر خطر يهدد أمة ما لا يكمن مطلقا فى التقتيل العسكرى بل فى مبالاة افرادها بشكل المستقبل . ويبدوا لى من الرئيسى بأن حياة الثقافة لا لا يحددها الوسط السياسى وحده ، فلقد تعودنا القول بأن الوسط السياسى هو الدولة ومن لهم القيادة فيها ولكننا لا نفطن الى ان السياسة من اختصاص المواطن . وأن واجب المواطن لا يقتصر على اختيار منتخبيه ، واننى اقول للذين يطالبون باللامركزية وبالجهوية ولا يريدون ان تؤدى هذه المفاهيم فى آخر المطاف الى اغترابات روحية جديدة أو اوهام لا طائل من ورائها ـ اقول لهم ـ ا نانسان اليوم . . فى الوضعية التى يوجد عليها ، يجب ان يأخذ بعين الاعتبار بأن شكل حياته وقف به وانه باختصار (يخلق عالمه بنفسه) . فالثقافة فى آخر الامر هى اسمى تعبير لهذا الخلق .

اننى أرى بأن الثقافة هى خلق نظام دراسى افضل ، والقيام بتنشيطات تلبى متطلبات الحياة المدنية ، وابداع طرق تعبير ثقافى تجذب انتباه الجماهير التى كانت الى حد الان لا مبالية . ان التطور الثقافى الحقيقى لمجتمع ما يقاس بنوعية علاقته بأعضاء المجتمع وبالعلاقات القائمة بين افراده . ومعايير هذا التطور هى : نسبة استقلالية الشخص وقدرته على ان يجد مكانا لنفسه فى العالم ويتصل بالاخرين ومشاركته بطريقة افضل فى المجتمع الذى ينتمى اليه مع امكانية الاستقلال عنه عند الحاجة . الامر يتعلق اذن بالقيام بهذهالثورة على مستوى السكن والمحيط والحياة المدرسية والحياة العقلية والروحية .

س ـ الا تتماثل جذرية هذا التغير بالمفهوم الصينى (للثورة الثقافية) ؟

ج ـ ان الثورة الثقافية الصينية هى من اكبر الثورات فى تاريخ الانسانية . وقد اقتضى الامر دون شك انطلاقة شاملة جبارة وايمانا شديدا حتى لا تنقلب هذه الثورة الى حرب اهلية طاحنة وهو ما لا يقوى وعينا الغربى على تخيله . لاننانعيش فى مجتمعات ذات انظمة متحجرة وهياكل ثابتة . وقد تكون هذه الثورة قد ادت الى وقوع اضطرابات مرعبة لعدد كبير من الناس بيد انها وقعت فى مجتمع فقد قمته لان عددا من الانظمة الاجتماعية المتحجرة كان قد استؤصل قبيل تطبيق الثورة الثقافية . ففى هذا المجتمع المكتل الذى يختلف كثيرا عن مجتمعنا البورجوازى الحديث لعب الفلاحون الصينيون دورا متكافئا فى اعادة الحياة الاجتماعية الى مجراها وشكلها الاول . وقد ساعدت طبقة الفلاحين هذه على جذب الطبقات الاجتماعية الاخرى .

س ـ ان السياق الفرنسى يختلف عن السياق الصينى طبعا ولكن اذا انطلقنا من اعادة الاعتبار الشامل للثقافة ، فاننا سنصل الى اقتراحات سياسية حقيقية تفضى بنا الى تعميم المساهمة فى البناء الثقافى ؟

ج ـ حقا ان التفكير فى الثقافة يفضى بنا الى اقتراح اصلاح جذرى . فلقد تلتم عن صواب بأن تعميم المساهمة هذه قد بدأ يتبلور مفهومه

ولكننى اتساءل الان اذا كانت كلمة (المساهمة) فى حد ذاتها لا تتضمن مفهوما اشتراكيا نوعا ما .

س ـ ما الذى تقصدونه بالاشتراكية ؟

ج ـ اعنى بأنه جوهر تضامن لا تكون فيه الدولة الا التعبير عن أشكال التضامن التى يجب أن تبرز فى مستويات المجتمع كلها . فبدلا من أن يكون المنظم للحياة الاجتماعية فانه سيكون المرآة التى تنعكس عليها هذه الحياة الاجتماعية . وهذه الاشتراكية تكون حينئذ التعبير الطبيعى للتنوع الاجتماعى الذى يبحث عن وحدته فى اطار تجمعات متآلفة . يجب أن تكون السياسة الثقافية تعددية فى مبدئها ، ولا مركزية طبعا وما أبشع المطالب الثقافية المفرطة التى تفرضها الدولة التيقنوقراطية على رعاياها ! ان فرض ثقافة ما يؤدى الى وضع بناء اساسى قصد الوصول الى معارف تخدم الاهداف التى ينشدها الجهاز الحاكم . وهذا هو ما كانت عليه الجدانوفية فى البلدان الشرقية عندما فرضت الواقعية الاجتماعية . ان المشروع الثقافى الحقيقى يرمى الى انتزاع الجماهير من الانحطاط العقلى الذى يجعلها تحت رحمة السلطة ، انه مجهود محمود من اجل ان يكتشف الانسان أخاه الانسان.

س ـ اذن ماهى المكانة التى تبقى للمفهوم التقليدى للثقافة من حيث هى نشاط عقلى وتكوين للذوق ، وتربية للخيال والفن والابداع ؟

ج ـ اننى لا اظن بأن مفهوم الثقافة الجديدة يهدد المفهوم التقليدى بالزوال . فهناك أناس يعملون بمواهبهم (علماء وفلاسفة وفنانون) على استمرار هذه الثقافة التقليدية واثرائها ، لانها تضرب بجذورها فى الماضى وتجعله حاضرا بيننا . فهم يبرهنون بأن تاريخ جماعة انسانية ما هو فى واقع الامر الفكرة التى تكونها هذه الجماعة عن نفسها بيد أن هذا الصنف قليل وغير وغير معروف جيدا ثم انه لن يتأثر من مفهوم الثقافة التى تقترح للجماهير الكبيرة من الناس بأن تهتم بأنفسها من غير ربح مادى . ولو كان لى أن اضع تحديدا للانسان لقلت انه المخلوق الذى يعطى لنفسه شكلا وهو على علم بذلك ، ثم ان حياته اذ ترتبط بمحيطه تكون لها قيمة جمالية وروحية .

س ـ ما الذى يكون عليه دور الفنان الذى يخلق التعابير الثقافية لحضارة ما هو فى نفس الوقت الشاهد عليها فى الحاضر وفى المستقبل ؟

ج ـ ان الفنان والفيلسوف والعالم هم من يشقون دون جدال الطريق أمام الانسان لكى يقوى على فهم الكون . والمدد الذى يقدمونه الى المجتمع معروف ولكننى لا اظن بأن الفنان يستطيع فى عالم اليوم أن يعطى شكلا للمجتمع اذا هو لم يصبر على التأمل والتفكير ومثل هذه التأملات يجب أن تصدر عن اناس ليسوا بالضرورة فنانين ولكن شوقهم الى كل ما هو جميل وعميق يجعلهم يحسون بأنهم جزء لا يتجزأ من الواقع الاجتماعى الذى يشكل الفن مظهرا من مظاهره . ان مثل هذا الواقع الروحى هو الذى يجب أن يهدف الى تشكيل سياسة ثقافية جديدة . أما المسألة التى تبقى عالقة فى الاذهان فهى معرفة كيفية نقل الثقافة من النخبة المحدودة الى مجموع السكان .

س ـ انكم تقترحون فى كتابكم طريقتين لبلوغ

ذلك : وسائل الاعلام والتعليم . ونحن اليوم نتحدث عن ديموقراطية التعليم كاصلاح يجب القيام به مع العلم بان نظام الدراسة التقليدى ابتدائى وثانوى وعالى الذى وضعه مؤسسوا الجمهورية الثالثة كان طوال قرن كامل وسيلة كبيرة للترقية الثقافية . وها انتم اليوم تجادلون هذا النظام بلوتقترحون وضع حد له من اجل رفع مستوى الفرد فى اطار بعض القيم التربوية .

ج — اننى اعتقد ان هذا النظام يجادل نفسه اكثر مما اجادله انا . من الصحيح ان المدرسة قد كانت فيما مضى وسيلة الترقية الفردية ، وهى تستمر فى القيام بذلك فى أيامنا هذه نوعا ما بيد أنها تخلق نخبا من جهة واناسا لا يتسلحون بما فيه الكفاية لمواجهة الحياة من جهة أخرى. ان العلاقة بين المدرسة والمجتمع واهية . واننى — كرئيس للجنة اصلاح تعليم اللغة الفرنسية — دهشت لكون تمديد فترة الدراسة الى سن السادسة عشرة لم يكن ابدا فى صالح الترقية الاجتماعية والثقافية التى كنا ننتظرها والخطأ لا يعود الى المدرسة بل هو ناتج عن تغير شكل الحياة الذى بدانا نشعر به فقط . ان الذين يزاولون دراستهم اليوم يبلغ عددهم اليوم حوالى ١٢ مليونا ما بين تلميذ وطالب . والمدرسة لا تلعب الا دورا محدودا فى التكوين العام لهؤلاء الاطفال . ووسائل الاعلام لها دور معتبر فى ذلك ، وكذلك التأثير الاجتماعى باكمله . ان اخطر ما فى مدرسة اليوم هو انها كانت وسطا ومكانا للتثقف والتعلم قبل ربع قرن من الزمان بيد انها لم تعد لا هذا ولا ذاك . وان الحى فى المدينة الصغيرة او الضاحية المتوسطة قد كانا فيما مضى امكنة تتبلور فيها عقلية الطفل بفضل العلاقات المتناسقة فيها بيد أن العكس هو الذى يحدث فى ايامنا هذه .

بيد أن المدرسة ليست اليوم مكانا يمكن أن تنشأ فيه ابعاد حية جديدة . فلبلوغ مثل هذا الهدف يجب ان نصلح التعليم بأكمله ومما يجدر القيام به قبل كل شىء هو أن نجعل الاطفال فى المدرسة يجدون وسطا متساوقا يستطيعون ان يشعروا فيه بنظام العلاقات الاجتماعية فى حقيقتها ، وهو الامر الذى يدفعهم الى ان يقوموا بشبه تدريبات استعدادا لمواجهة المجتمع الذى سيعيشون فيه . يجب اذن تخيل مدرسة جديدة تكون لها ارتباطات باشكال اخرى من التربية : مصانع ومعامل ومكاتب واستديوهات سنمائية اما على مستوى المعارف يجب أن تكف الثقافة عن كونها متحفا للروائع الفكرية والادبية ان الدراسة المنتظمة للكلاسيكيات من اجل تعلم اللغة والادب قد ادت الى العقم الدائم لذوق الملايين من الفرنسيين . وعلى النقيض من ذلك يبقى التسلسل الادبى فى العائلات البورجوازية الوسيلة الوحيدةللثقافة العامة مع العلم بأنه لا يؤدى الا الى الجمود .

س — بأى ثقافة تقترحون استبدال المفاهيم القديمة ؟

ج — يجب ان نعلم الطفل كيفية التحدث والتبليغ وان نعلمه الجهد الخلاق عن طريق الخيال ، وان نعطيه ذوق التأمل (أن يرى نفسه يعيش اين وكيف يعش) ، وان نعلمه قيمة الصمت ، لانه كلما احجم الناس عن الثرثرة ازدادت الانسانية نضجا .

السنة الدولية للكتاب
الدول الكبرى لاتزال تمارس سيطرتها الثقافية على العالم الثالث

فيما يلى مقالة عن السنة الدولية للكتاب نشرها الاستاذ روبرت اسكاربيت فى مجلة «العالم الديبلوماسى» الاسبوعية .

ان بلدان أوربا الغربية والشرقية والاتحاد السوفياتى والولايات المتحدة وكندا واستراليا وزيلندا الجديدة واليابان تمثل اقل من ثلث سكان العالم ، وهى تنتج اكثر من ٨٠٪ من الكتب التى تظهر سنويا فى العالم : ٤١٠٠٠٠ من المؤلفات الجديدة وما يتجاوز سبعة مليارات من النسخ .

والبلدان الاخرى كلها مجتمعة لايتجاوز انتاجها السنوى ٩٠٠٠٠ من المؤلفات الجديدة ، اما عدد النسخ التى تطبعها فلا يكاد يصل سبعمائة مليون ، مع العلم بأن هذه البلدان تمثل ٧٠٪ من سكان العالم ويوجد فيها ٥٠٪ من الكبار الذين يحسنون القراءة و ٥٥٪ من الاطفال فى المدارس .

ففى الجانب الاول هناك نسبة ٥ر٥ نسخ سنويا لكل قارىء وفى الجانب الثانى لاتتجاوز هذه النسبة ٥ر. كما ان هناك ٣٣٠ كتابا جديدا سنويا لكل مليون من القراء فى الدول المتقدمة المذكورة اما فى العالم الثالث فلا يكاد يتجاوز هذا العدد ٨٠ كتابا .

وهذا الوضع لم يفتأ عن التفاقم والتدهور خلال العشرين سنة التى تلت الحرب العالمية الثانية . فتصفية الاستعمار اذ رفعت دون سابق انذار الحاجة الى الكتب لم تزد الا فى تفاقم الوضع ، وخلال هذه السنوات زادت الهوة اتساعا عندما تفتحت المناطق المحرومة على القراء .

ولقد نجحت جهود اليونيسكو منذ سنة ١٩٦٤ فى اطار برنامج تطوير الكتاب فى شحذ الحركة ودفعها الى الامام فى بعض المناطق من العالم بل استطاعت ان تقلب الوضع فى بعض الاحيان . فقد كانت آسيا سنة ١٩٦٦ وافريقيا السوداء سنة ١٩٦٨ وأمريكا اللاتينية سنة ١٩٦٩ والبلدان العربية سنة ١٩٧٢ موضوع تحريات معمقة واجتماعات للخبراء قدمت توصيات على اثرها ونصبت مراكز لتطوير الكتاب فى كل منطقة حتى تساعد على تنسيق العمل . ان السنة الدولية للكتاب ١٩٧٢ يجب ان تكون مناسبة لوضع الجدول الاحصائى الاول .

ان الموضوعات الثلاثة التى يمكن ان نعطيها الاولوية هى : كتاب التعليم الذى هو اداة ضرورية لكل مدرسة وكتاب الاطفال الذى تكتسب بفضله عادات المطالعة وترسخ ، وكتاب المطالعة للكبار الذى لولاه لكان مآل حملات محو الامية الفشل الذريع . ولدينا معايير محددة نوعا ما لتقدير الحاجات الاولية لشعب ما فى كل مرتبة . ففى سنة ١٩٦٦ ،

لوحظ أن مجموع البلدان السائرة فى طريق النمو كانت قادرة على ارضاء حاجاتها الخاصة بها وذلك بنسبة ٥٠٪ وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك فروق واسعة بينها ، فأمريكا اللاتينية ترضى حاجاتها بنسبة ٦٣٪ فيما يخص التأليف وبنسبة ٥٩٪ فيما يتعلق بالنسخ أما افريقيا السوداء فلها نسبة ١٤٪ للتأليف و ١٠٪ للنسخ . ونشير الى ان أوربا كانت لها فى نفس الوقت نسبة ٤٧٠٪ للتأليف و ٤٠٠٪ للنسخ .

وهكذا ، نرى أنه فى مثل هذه الظروف يجب أن تكون المساعدة الدولية ضرورية ودامغة فى نفس الوقت . ففى سنة ١٩٦٥ كانت هناك احصئيات تقول بأنه من جملة اربعة كتب تباع فى افريقيا هناك واحد من بينها من الانتاج المحلى ، أما الثلاثة الاخرى فهى مستوردة . وقد بلغت التكاليف الكاملة لهذه الواردات ٦٤ مليون دولار . وعلى الرغم من ضخامة هذه المساعدة فانها لا تسمح حتى بارضاء نصف الحاجات الاولية . انه لايمكن ان يتضاعف الى ما لانهاية حجم المساعدة الخارجية لا بالنسبة لافريقيا فحسب بل للبلدان التى تساعدها أيضا . والامر واضح فيما يتعلق بوضعية آسيا ذات المطالب الهائلة . فأكبر المنتجين فى العالم يلقون بكل انتاجهم هناك ولا يستطيعون ارضاء تلك المطالب . وفضلا عن ذلك فان كتب تلك الشعوب يجب أن توضع باللغات الاسيوية . وهو أمر فوق الطاقة . ان اسبانيا مؤهلة لغويا لكى تساعد أمريكا اللاتينية ولكن يجب أن تصدر جميع كتبها لكى تصل الى ارضاء الحاجات الاولية لهذه البلدان .

ان المساعدة الاجنبية لا يمكن ان تكون الا سدا للنقص لا علاجا . ان العلاج يكون اخطر من الالم فى حالة ماذا حال دون نمو وتطور الانتاج المحلى ، الذى هو المخرج الوحيد ولكن هيهات فهو كثيرا ما يكون بعيدا .

ان المشكلة الاولى هى الموضوع الذى يجب نشره . فالكاتب المحلى لايكاد يحصل على مدخول جيد ولا يكاد يكون معتبرا لانه ذو طابع متغير . بل أنه كثيرا ما يكون رديئا . فاذا كانت له الموهبة — وهناك بعض المناطق التى تحفل بالمواهب — فان له ميلا الى ان ينشر ما يكتبه فى بلد يضمن له احسن النشر والتوزيع . والامر هين اذا كان هذا البلد ينتمى الى نفس المنطقة ونفس المجموعة اللغوية مثلما هو الامر بالنسبة لبلدان أمريكا اللاتينية والمكسيك التى ترى أن اسبانيا والارجنتين هما القبلتان . بيد ان الخسارة تكاد تكون شاملة للبلد المصدر عندما يبادر كاتب افريقى الى ان ينشر باللغة الفرنسية أو بالانجليزية فى باريس أو فى لندن . وان هذه الظاهرة واضحة على الخصوص فى افريقيا الشمالية حيث تقوم الفرنسية بمنافسة العربية كلغة حياة . وبعض البلدان مثل الجزائر تحاول أن تقوم برد فعل ولكن التدابير القانونية لن تحل المشكل . فمستقبل الادب الجزائرى رهين بتطوير الكتاب العربى فى مجموعه .

ففى ميدان المواضيع الجديرة بالنشر نلاحظ ان الترجمة هى من النقاط التى تستقطب الاهتمامات الثقافية . فـ ٧٢٪ من الترجمات فى العالم تأتى من الانجليزية والفرنسية والروسية والالمانية بينما ٣٪ فقط تأتى من لغات البلدان السائرة فى طريق النمو

وتستثنى من ذلك الاسبانية في امريكا اللاتينية .

انه من الصحيح ان بلدا متقدما ومنتجا للكتاب مثل اليابان يوجد هو الاخر في مرتبة المستوردين . ففي سنة ١٩٦٨ احصيت ٢١٤٧ ترجمة الى اللغة اليابانية و٧٧ ترجمة فقط من اليابانية الى لغات العالم . وهذا ميدان لاتزال السيادة الامريكية الاوربية محافظة فيه على مواقعها المعهودة .

ومع ذلك فان فتح السوق العالمية للترجمة أمام الكتب التي تصدرها البلدان السائرة في طريق النمو هو ضرورة حيوية اذا ما اقتصر الامر على تمكين احسن مدخول لهذه الكتب وعقد اتفاقيات للتعويض الجزئي من اجل تسوية حقوق المؤلف . ثم ان هذه الحقوق التي تسوى دائما بالعملة الصعبة تثقل كاهل دور النشر في البلدان الفقيرة لان الاتفاقيات الدولية الموجودة وضعت خصيصا لعالم تسوده أقلية من المنتجين الكبار الاثرياء والاقوياء. وكثير من البلدان السائرة في طريق النمو لاتنضم الى هذه الاتفاقيات أولا تراعيها . وهو امر يجد له تبريرا ازاء هذه الوضعية على الرغم من انه مؤسف للغاية لانه يحول دون تطهير السوق .

ان مراجعة الاتفاقيات — وهي محاولة لم تجد نفعا في استوكهولم — هي عملية شاقة كثيرة العثرات .
ومع ذلك يجب ايجاد حلول واقعية وانسانية طال الزمان أم قصر . وهو موضوع سيجرى عنه الحديث طويلا خلال السنة الدولية للكتاب ، ان مركز الاعلام حول حقوق المؤلف الذي انشىء اخيرا من طرف اليونيسكو هو خطوة على الاقل نحو الانسجام والتخطيط .

اما المواضيع التي يمكن نشرها ، فهي الاخرى ميدان من الميادين التي تحتكرها البلدان الثرية وتمارس سطوتها عليها . ويجب الا ننسى مشاكل التجهيز وتكوين المستخدمين الفنيين وخاصة مشاكل صناعة الورق .

ان العالم السائر في طريق النمو في جوع الى الورق والبلدان التي تحتل اعلى مرتبة في انتاجه اي الولايات المتحدة وكندا والسويد وفنلندة واليابان كلها بلدان فاحشة الثراء . ففي سنة ١٩٦٩ كان استهلاك الولايات المتحدة لورق الطباعة والكتابة بنسبة ٤٧ر٣ كلغ للشخص الواحد و١٩ر٣ كلغ للشخص الواحد في اوربا بينما لم تكن افريقيا تستهلك سوى ٩ر. كلغ وآسيا الجنوبية ٦ر. كلغ . وهذا الرقم الاخير لم يتغير منذ سنة ١٩٦٩ بينما كاد الاستهلاك العالمي يتضاعف . وبعض البلدان مثل البرازيل والشيلي والمغرب تنتج الورق بيد أن لحاء الاشجار التي يصنع منها الورق في افريقيا ليس جيدا للتحويل . أما النباتات التي تستعمل مكانه من مثل قصب السكر وحشيش الفيل والبردى فانها لاتأتي بانتاج كبير . وانواع الورق المستعملة كثيرا ما تكون رديئة وهي اذا كانت جيدة فانها لاتستطيع مقاومة المناخ.

ان منظمة التغذية والفلاحة الدولية تهتم بهذا الشكل وتشارك في اجتماعات الخبراء حول الكتاب التي تنظمها اليونيسكو . ففي سنة ١٩٦٦ في طوكيو كانت هناك احصائية تقضي بوجوب تخصيص اعتمادات مالية سنوية قدرها ١٨٥ مليون دولار من اجل توسيع صناعة الورق في آسيا وفي سنة ١٩٦٨ في اكرا وضعت احصائية اخرى تنص على انه

يجب تخصيص اعتمادات مالية قدرها ٤٧٣ مليون دولار من اجل انتاج الورق المسمى (بالثقافى) فى افريقيا ما بين ١٩٧٠ و ١٩٨٠ .

ونرى من خلال هذا المثال البسيط ان تحرير البلدان السائرة فى طريق النمو من السيطرة الثقافية التى تمارسها عليها البلدان النامية هو ايضا مشكل اقتصادى . وقد كان المجلس الاقتصادى والاجتماعى للأمم المتحدة الذى اخطر بهذه القضية سنة ١٩٧١ قد قرر ان يقدم مساعدة جوهرية .

بيد ان الاموال وحدها لا تكفى . بل يجب خلق وضعية عقلية جديدة وحفز الارادة العامة من اجل تحرير الكتاب من الهياكل الاستعمارية القديمة او من تبعية السيادة الثقافية . ففى عالم تطورت شبكة اتصالاته بشكل هائل خلال الربع الاخير من هذا القرن بفضل الوسائل السمعية البصرية تحتل فيه اليوم وسيلة الاتصال المكتوبة مكانة لايستهان بها من اجل ترسيخ المعارف وتثبيتها وحفز التأمل الفردى والعمل الجماعى على حد سواء .

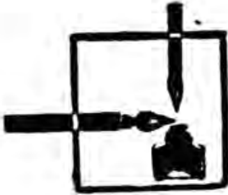
فبفضل الكتاب اذن تكتمل الثقافات ويزداد حاملوها وعيا بشخصيتهم الجديدة ويطالبون باستقلالهم وتشكيل عالمهم بأنفسهم .

ان السنة الدولية للكتاب لن تسمح بحل المشاكل كلها ، ولكنها سوف تمكن على الاقل من معالجة البعض منها . وهى ستكون قد حققت الهدف المنشود منها ان هى مكنت من جعل الاراء والحكومات تعى خطورة المشكل . وهذه السنة ، اذا كانت فى البلدان الثرية مظاهرة من جملة المظاهرات الاخرى فانها الوعد الموعود بالنسبة للانسانية المحرومة التى هى فى جوع مستديم الى الكتاب .

مرزاق بقطاش



ندوة القراء



روبنســــون والاســـــلام

ان هذا الكاتب ليس مجهولا من طرف القراء الجزائريين الذين اطلعوا من قبل على عدد مؤلفاته مثل « محمـــد » وكتاب « الاسلام والراسمالية » وكذلك المحاضرات التى القاها بالجزائر العاصمة خلال شهر مارس سنة ١٩٦٥ تحت عنوان « الثورة الاقتصادية وتاريخ الاسلام » وحثنا فيها على ان نكون اكثر تقبلا للجديد واكثر تفتحا على العالم (لاننا فى ذلك الوقت لم نكن متفتحين فى نظره) واتمنى على الاقل ان نكون قد استجبنا لتلك النصيحة .

ان هذا المــؤلف كما قلت ليس مجهـــولا من طرف الجزائريين وشهـــرة كونه احد الاخصـــائيين فى البحـــوث الاســـلامية لها بعض الصدى فى الجزائر ، وهو يعرف نفسه كذلك بكونه من علماء الاجتماع الاخصائيين فى البحـــوث الاسلامية وهدفه الوحيد ان يرى مجهوداته تساعد المفكرين المسلمين وتعينهم على فهم مصيرهم من كتاب (الاســـــلام والراسمالية) ..

اما فى كتابه « محمـــد » صلى الله عليه وسلم فيقـــول بشىء من التواضع المصطنع انه « لم يات باى عنصر جديد باستثناء ان على كل جيل ان يكتب تاريخه » (ص ١١ من الكتاب) .

اما قارىء الكتاب فيجد انه اتى باشياء جديدة ... لكنها غريبـــة ..!!

ان الانطباع الذى يحصل لنا عند ما نقرا كتابا من مؤلفات رودنسون ، ان هذا الكاتب الاجتماعى لا يكتب عن الاسلام ولكن عن « الـــلا اســـلام » بهذا يحق لنا ان نتساءل عن الدور الذى يريد ان يقوم به ؟ ..

والتناقض الواضح فى كتاباته يجعلنا لا ندرك ما يريد من وراء ما يكتبه رغم ان كل مؤلفاته موجهة الينا ...

من الممكن اننا لم نتعمق فى ادراك بعض الجوانب من تاريخ حضارتنا ، لكن هذا لا يدفعنا لان نقبل منه ان يعتبرنا نجهل كل شىء عن حضارتنـــا ، او يدفعنـــا لان نتصـــور « الثـــرى ثريـــا » .

ولكى نكون واقعيين يمكننا ان نحكم عليه من خلال مقتطعات مما كتب ..

يقول رودنسون بعد ان يصف العصر والوسط الاجتماعى بالجزيرة العربية ايام بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم « ان محمدا الذى لم يعش راضيا فى طفولته وشبابه اصبح فى احد الايام نبيا ... وفى المدينة وجد نفسه فى وضعية فرضت عليه القيام بدور فعال فى التطاحن من اجل الحكم فى الواحة .. » (ص ٢٤٩ من كتاب « محمد ») .

ان هاته الصيغ والعبارات المستعملة عادة فى افلام رعاة البقر يستعملها رودنسون فى الكلام على رســـول جدير بالاحترام ، ويتكلم عليه وكانه (دجانغو) فى احدى قرى كاليفورنيا يريد فرض ارادته على الناس .

ويضيف الكاتب الى ذلك قائلا : « وهذا المرشد للحقيقة الابدية تبين فيما بعد انه سياسى حكيم وباستطاعته الاختيار وبحكمة خطة لغزوة أو معركة .. » (ص ٢٥٠) .

وبصفة عامة فان الرسول صلى الله عليه وسلم يقدم صراحة أو بين السطور ، على انه شاعر محروم وانه وصل الــى الحكــم بفضــل الصــدفة والحــظ أو بفضـــل الافكار المستقاة من التوراة والانجيل والتى اخرجها فى قالب عربى (ص ١٢٥) .

هذا هو الاسلام من وجهة نظر رودنسون مجرد سرقة من هنا وهناك لأفكار « خلابة قبلها العربى لكونها قدمت له بلغته » (ص ١٢٦) .

وبمثل هذا الكلام يريد رودنسون اعانتنا على فهم مصيرنا.

وهذا الاسلوب المفعــم بالسخرية والاحتقار والكراهية نجده فى كل جرة يخطها قلم هذا المستشرق الشهير ، غير أنه اعندما يشعر — ومن حين لآخر — بانه بالغ فى ادعاءاته يحاول تسويغ ما يكتبه بمثل هذه العبارة : « معذرة لدى المسلم المؤمن على هذه الصراحة » (ص ٥٥٢) ، اى ان ليس له بــد فيما يكتب ، وانما هى الحقيقة تبرز بمفردها !..

ولئن بقيت التعليلات التى ادلى بها غامضة أو قاتمة ، فان ما يتذرع به واضح كل الوضوح ، « فالموضوعية » يتخذها كالترس يتمكن بواسطتها من رمى السهام والاحتماء فى نفس الوقت « والاهتمام العلمى » يلوح به فى كل مرة .

نلاحظ أنه يقول بعض الاحيان انه يكتب للمسلمين الذين يجب عليهم فهم تاريخهم بينما يقول مرة اخرى انه يكتب ويبحث لنفسه ويقول : « مما لا شك فيه اننى لا أومن بكون القرآن هو كتاب الله ، والا كنت مسلما وبما ان القرآن موجود علــى أن أعلل ذلك » ص ٢٥٢ .

اننى لا أفهم بوضوح قصده من هذا الكلام ، اليس كذلك ؟ ..

ويقول بعد ذلك انه « يجداخطاء فى أسلوب القرآن » (ص ٢٥٣) ويريد أن يقنع نفسه بأن الاسلام مجرد دعاية ، لهذا يحق لنا أن نتساءل لما ذا يريد ان يجعل مصيرنا مشكلة حيــاته ؟ ..

لقد اعتدنا مثل هذه الادعاءات اذ قال فولتير فى الماضى : « انى ابغض القرآن ذلك الكتاب المبين الذى تهز كل صفحة منه الاحساس والشعور » (من تراجيدية محمد) .

اننى عندما اقرأ مثل هاته الكتب (وكتب رودنسون ليست الوحيدة من نوعها) اجد نفسى افكر فى موقف الدنيا باكملها لو ان مفكرا عربيا كتب عن حياة موسى او عيسى عليهمـــا الصلاة والسلام او ماركس بمثل هذا الاستخفاف ، او بماذا يصفنى الغربيون لو أصابنى فى يوم من الايام مس وكتبت عن احد مفكريهم بطريقة رودنسون ؟ ..

أعزائى القــراء لقد قلت لكم كثيرا لكنى لم أتكلم عن الكتاب الذى اشرت اليه فى البداية ولكن اصارحكم بالحقيقة اقول اننى لا اعلم اكثر مما كتبت وبهذا فنحن فيما نعلم سواء ، غير اننى اطلب منكم الغفران لهذا المفكر النزيه (!).

ومهما يكن فان أمر الاطلاع على هذا الكتاب يتعلق الان بالشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، فهل ستجلبه ؟ ..

قد يكون الجواب بالسلب كما قد يكون بالايجاب ..

« نور الدين بوكروة »

السياسة عند الشبــاب مسؤولية ثوريــة

« كل فكرة ثورية فى زمن ، رجعية فى الزمن الذى يليه » هذه الكلمة تظهر لنا بوضوح قيمة الجديد بالنسبة لمسيرة الحياة البشرية وحضارتها ، فكل جديد فى الحياة أو فى الكائنات يعد اخصابا للحضــارة البشرية ، واسهامــا فى مسيرتها الصاعدة ، الى رفاهية الانسان وسلامه واطمئنانه .

والشباب ككل شىء جديد يجب أن نهتم به ، ونرعاه ، ونحاول توجيهه الى ما نراه صالحا له ، ومسددا لخطاه ، أى نلزمه بتجاربنا ، لانه سيستلم زمام القيادة والتوجيه . والتقلقل الذى يهز هذا الراى هو الفرض ، فرض تجربة مأمونة ، عاشها الشيوخ ، على الشباب ، ان الشيوخ يرون أنفسهم أكثر حكمة ، وأبعد نظرا وأقل تطرفا ، ولذلك يتحتم فرض تجاربهم الخاصة على الشباب الغير المتطرف ! لكن الشباب بدأ يرفض ، وبدأ يسلك حياته كما يريدها هو ، أن تسلك وأن تعاش . فان التغيير الذى يطالب به يجب ان يكون جذريا ، يتناول كل الجوانب الحياتية والفكرية ، فالسياسة ، والادب ، وبرامج التعليم والتقاليد ، والدين ، والفن ، وغيرها من جوانب الحياة المعاشة ، كلها يجب أن تنــزل الى ميدان البحث والتمحيص وهذه الاداة ، والاصرار هما الوقود للثورة التى يحملها اليوم هذا الجيل الجديد ، ضــد المفاهيم القديمــة ، الفكـرية والسياسية والعقائدية . وهو سينتصر حتما ، لان سلاحه فيها ، الوضوح ، والصدق والحرية .

كان الفكر الى عهد قريب يتناول بالبحث مشاكل بعيدة كل البعد عن الانسان ، بل لم يكن مهتما بمشاكله اطلاقا . فالادب العربي مثلا ، بقي الى عهد غير بعيد ، يغازل القمر ويتمرغ على اعتاب السلاطين مادحا مستجديا ، ويقف ذليلا بائسا ، أمام محنطات اجدادنا القدماء ، يتطلع ببلاهه الى قممهم ، وشوامخهم ، دون أن يجرؤ على التطاول عليها ، أو ابداع غيرها ، لانها مقدسة بل حاول تقليدها ليأكد حفاظه عليها ، فولد قمما وشوامخ من ورق سرعان ما انهارت أمام أول هبة ريح . حتى اقتحم ميدان الفكر شباب ثائرون حملوا بأيديهم مشاعل للثورة والتزموا بشعارات الجماهير الكادحة وعرفوا أن الفكر لم يعد تأملات تستشرف السماء ، بل اصبح ضربة معول توجه الى الارض . فبدأنا نشتم من أدبهم رائحة التراب ، وعرق الفلاحين ، ونرى دموع الجياع واللاجئين ، وظلم الاقطاعيين ، والسارقين والمغتصبين ، وسرعان ما تفاعل هذا البعث الجديد ، مع روح الشعب ، فعصفت فيه ريح التمرد والحرية . فانطلقت الثورات تطرد الاجانب المحتلين ، وتدك عروش السلاطين ورثة الالهــة المزيفين ، شعر هذا الجيل المتمرد ما يقاسيه الفرد العربي من كبت سياسي واجتماعي ، فأخذ على عاتقه الالتزام بقضية الدفاع عن الحرية ، وافهام الجماهير حقوقها من جهة ، ومن جهة أخرى انصب على الحكام العرب يكيل لهم التهم بالجمود والتأخر ، وعرقلة التقدم العربي ، لانهم حاولوا قتل النزوع التحريري في صميم الفرد ، مستندين على دعاوى باطلة ، واسباب واهية ، مثل ان الشعب جاهل ، ولا يستطيع التمييز بين الصالح والفاسد من الاهداف ونخشى عليه من الضياع والفوضى . والحقيقة أن الشعب المكبل لا يستطيع أن يدافع حتى على الاهداف التي يخلقها حكامه ، ولا يستطيع أن يعتز بانتصاراته ، ولا أن يفاخر بحريته ، لانه لم يعرف بعد قيمة الاهداف والانتصـــارات والحرية . وهكذا تتضح مضاعفات قتل الحرية في نفسية الفرد ، بأن تصبح ذلا ، وعبودية ، ويأسا ، وسرعان ما يتسلط في هذا المجـــال طغـــاة أو مستبدون ، يشوهـــون الانتصارات والاهداف ، ويدوسون الحرية ان كانت .

من هنا نفهم لماذا يناضل الشباب من أجل أهدافه الثورية التي هي أهداف الشعب أو انزالها الى مستوى الجماهير لتتحمل مسؤوليتها بنفسها ، وتدافع عن هذه المســـؤولية بكامل الوعي ، والقوة ، وبَرّوح من التمرد والثورة ، ولماذا رفض الشباب فكرة العمل السياسي بمفهومه القديم ، ومظاهره الانتهازية الحقيرة ، لان السياسة عند الشباب الطليعي هي أسمى من ذلك ، انها مسؤولية ثورية ، وانقلابية اجتماعية .

العيد عيدان

عاشر

وألفى

والذكرى ذكريات !

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

تحتفل الجزائر هذه الأيام بالعيد العاشر لاسترجاع حريتها واستقلالها ، واستعادة مكانتها بين الدول والأمم.

ويصادف هذا العيد الوطنى الكبير الذكرى الألفية لتأسيس مدينة الجزائر، وكذلك مليانة والمدية ، هذه المدن الأثيلة التى كان لها دورها المجيد فى تاريخنا العريق ، منذ أن أسسها حسب ابن

خلـدون ، بلـكين بن زيرى (I) ، الذى يقول عنه أحد المـؤرخيـن الجزائريين المعاصرين (2) : « انه وحـده استطـاع أن يحقـــــق تدريجيا وحـدة الشمـال الإفريقى على نحـو لم يوفـق اليه حكـام المغـرب العـربى قبلـــه » .

وذكرى ثالثة يشملها هذا العـدد بمقـالتين ، هى تحية مجهـــود بعض علمـائنـا الأعـلام فى العصـر الحـــديث ، الذين قضـــوا حيـاتهم كلها ، وبعضهم ضحـوا بها ، فى الإصـلاح والكفـاح ، واحيـاء تاريـخ هذا البلـد الأمـين ، الغاضب عنـــد الضـــرورة ، الثـائر المجاهد ، المنتصر دائما فى النهاية !

فمشاركة فى الاحتفال بهذين العيدين ، واحيـاء لهذه الذكريات، وتذكيرا لأنفسنا وللأجيال الصاعدة بشهداء كفاحنا التحـــريـرى فى مختلف مراحلـه ، وعلى مر العصـور ، واشـادة ببنـاة هـــذه البـلاد وحماتهـا ، تقـدم وزارة التعليم الأصـلى والشؤون الدينية هذا العـدد الخـاص مساهمـة متواضعـة منها ، ستـــردفها قريبا ، أى بعـد أيـام ، بالعـودة الى هذه المـواضيع ، ذات الأهميـــــة القصوى ، فى الملتـقى السـادس للتعـرف على الفكـر الإسـلامى بشمـــوليـة وتفصيـل .

I) البعض يكتبه بلغين ، بحرف الغين ، والاغلب أنه بالكاف كما يكتبه ابن خلدون .
2) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام، ج I ص 324 .

كلمـــــات

. . ويذكر دوما DAUMAS ان التعليم الابتدائي كان منتشرا في الجزائر أكثر مما كنا نتصور . اذ كانت تساوى في معدلها العام ما كانت عليه في فرنسا ، اى نحو 40٪ فقد كان لكل قبيلة في البادية ولكل حى في المدينـة معلمها قبل الغـزو الفرنسى ، وكان عدد المتعلمـين في الثانـوى يتراوح بين الفين وثلاثة آلاف ، لكل مقاطعة . كما يتراوح عدد الذين يمارسون دراساتهم العالية الدينية بين ستة وثماني مائة .

فماذا كان تاثـير الغزو العسـكرى على هذا التنظيم ؟ نوعان : تناقص هام في عدد المدارس بكل أنواعهـا . وتزايد روح العـداء ضد المحتل المسيحى . ويمكن ان نتصـور بسهولة مبلغ القـوة التى تصبح لهذه المؤسسة مهما بلغ ضعفهـا . لتزيـد من حـدة العداء الصليبى ـ لقد عم البؤس كل ما يسمى مؤسسة تعليمية ، في مستغانم ، في تنس والجزائر . وقسنطينة ولم نعد نرى وجـودا للتعليم الثـانوى على الاطـلاق في كل انحاء القطر الجزائرى . والافـــراد القلائل الذين يستطيعـون ان يفعلـوا ذلك كانـــوا يذهبـون الى تونـس ، او المغـرب ، او القـــاهرة .

يقول DAUMAS ان الاحتلال أضاف مصاعب مادية قاهـرة صيـرت التعليـم امرا مستحيلا . وموارد التعليم ضاعت ، « ان تخريبنا للمدارس في الحرب لم نعوضه ببناء مدارس أخـــرى . وكذلك القضاة أنفسهم كلما انقرض منهم الجيل السابق لا يخلفهم احد » . ولا يتحدث أحـــد الا بكلمة الكـارثة التعليمية وانهيار مؤسساته في المدارس والزوايا . . حتى ما كان موجـودا بالقرب من مراكزنا هاجـره اهله وفر المعلمـون الى المناطق التى لم يشملها بعد احتلالنـــا ، ففى ظرف ست سنوات تناقص عدد التلاميذ في المدارس الابتدائية في الجزائر العاصمة مـن 24 مدرسة الى 14 . وهذا العدد الذى تبقى هو صورة للبؤس بسبب الاستلاء على الاوقـاف . وفي تلمسان وحدها كان يوجد 3 ثانويات وخمســـون ابتدائية بحيث كان التعليم يتمتع به الجميع ، وفي كل مدرسة مكتبة وكانت العائلات هي التى تتولى الاشراف على التعليم . كما ان البوادى نفسها لا يوجد فيها دوار بدون مدرسة وذلك اثر التعليمات التى أصدرها الامـير عبد القادر بهـذا الشـان .

من كتاب المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ـ للدكتورة تورين



أصول النشأة لمدينة الجزائر

● عبد القادر حليمي

المدينة ظاهرة جغرافية لانها تشغل حيزا من سطح الارض ، وتتأثر بالطبقة السفلى من الغلاف الغازى . كما ان المدينة حادثة تاريخية لها بداية ، وقد تكون لها نهاية . وكذلك المدينة مركب اجتماعي وحضارى لانها مستعمرة بشرية كان ليد الانسان دخل فى نشأتها وتطورها او ذبولها فى بعض الاحيان ، ولا يمكن ان تدرس نشأة المدينة الا بالتعرض لهذه العناصر الثلاثة المتكاملة وهى الضوابط الجغرافية والتاريخية والبشرية .

وترجع نشأة مدينة الجزائر الى فترة ظهـــور الفينيقيين فى حوض البحر الابيض المتوسط الذين خرجوا من فينيقية باحثين عن المعادن والبضائـــع ومنشئين للمستعمرات التجارية على الشـــواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط ، وحيث استقـر بهم التجوال أسسوا مدنا كثيرة اختلفت فى تمثيلها للاهداف التى أسست لها ، فمنها المراكز التجارية ومنها المدن العمرانية ، ومنها العواصم السياسية . واختلفت هذه المدن العتيقة بشمال افريقية وبجزر البحر الابيض المتوسط فى مدى ثباتها أمام الاحداث التاريخية ، فكانت منها العظيمة الذائعة الصيت ، مثل قرطاجنة بتونس ، وسيراقوسة بصقليـــة اللتين استمرتا فى دورهما الحضارى مدة طويلة من الزمن . ومنها المدن المتواضعة التى كانت عبارة عن مراكز تجارية بسيطة اضمحلت وزالت بزوال الهدف التى أسست من أجلـه ، مثل رسيقينا أى تامنفوست حاليا ، ومنها المدن القيمة التى تناوبتها



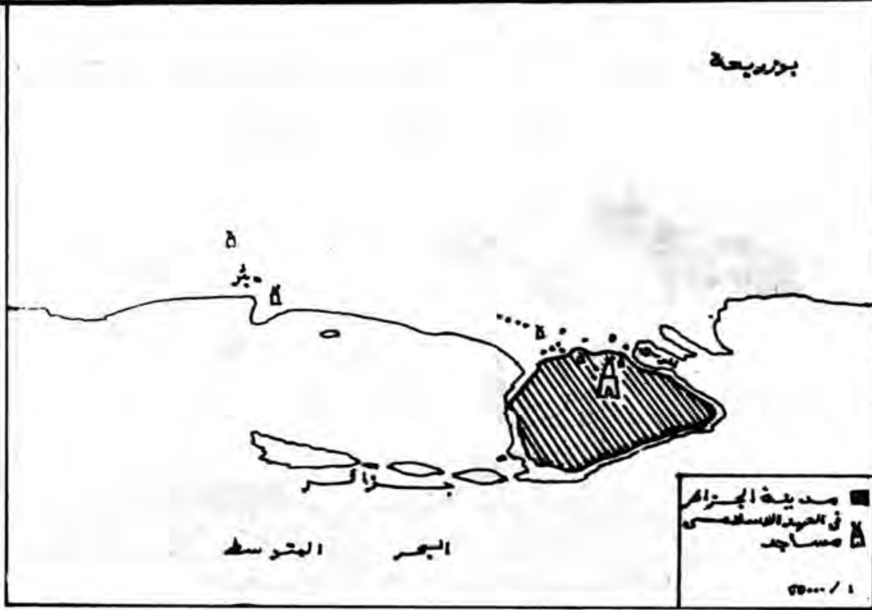
مدينة الجزائر القديمة
فى مطلع العهد التركى

فترات الازدهار والركود حسب القيمة الاستراتيجية التى أضفاها عليها التاريخ السياسى للبلاد ، مثـل مدينة الجـزائر .

ومن أهم ما يلاحظ على هذه المدن الفينيقيـــة العتيقة ، خارج فينيقية ، انها كانت مطبوعة حضاريا بطابع شرقى واضح ، ذلك ان الوافدين ، الـذين كان لهم الفضل الاول فى نشأة المدن العتيقة عـلى شواطىء الحوض الغربى للبحر الابيض المتـوسط. لم يغفلوا عن طبع مدنهم فى شمال افريقية بالطابع التقليدى المنقول من الشواطىء الشرقية لنفـس البحر ، حيث نقلوا اليها عاداتهم ، وتقاليـــدهم ، ومعاملاتهم ، وحتى معتقداتهم وقصصهم ، وأساطيرهم التى تدور حول نشأة هذه المدن ، مما يـــؤدى بالباحث فى بعض الاحيان الى أخذ الحقائق التاريخية وتصفيتها أو تنخيلها بتحفظ وحذر . ومن ناحيـة أخرى فان هذا التاريخ الحضارى العمرانى رغـم ما يحمله فى أحد جوانبه من تصورات خيـاليـة ، وأساطير بالية ، وقصص زاعمة ، يساهم الى حـد كبير فى احياء التراث القديم ، وجعله المادة المتكلمة عن الماضى البعيد . وبذلك يمكن الرجوع بالآثار الى أصـــل النشأة .

وفى البحث عن أصول نشأة مدينة الجزائر لابد ان نعتمد على هذه الآثار ، مهما كانت قيمتهـــا وقيمها دون أن نهمل العرض ، فالتحليل ، ثـم التعليل ، ثم الاخذ بالواقع أو بالاقرب للصواب .

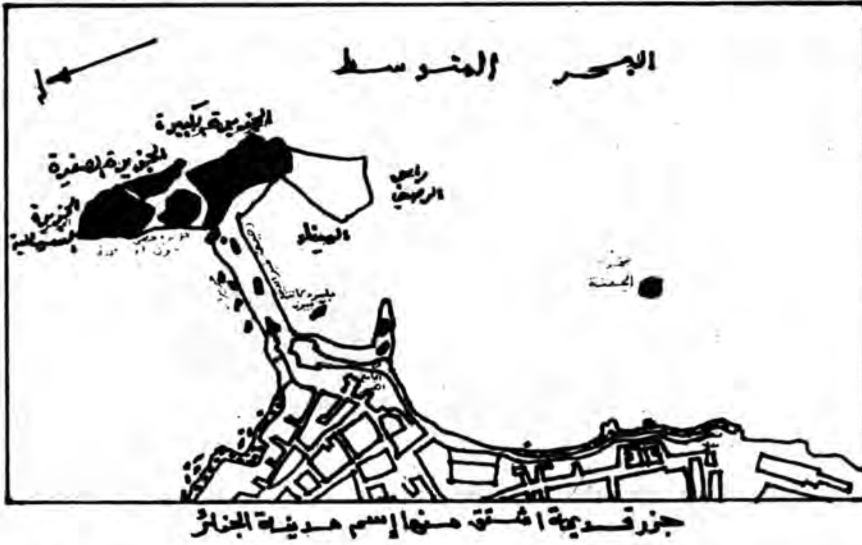
وأول ما يعترضنا فى البحث عن الاصول الاولى لنشأة مدينة الجزائر هو الضبط بالارقام الـــتى لا تقبل جدالا أو شكا لتاريخ تأسيسها الاول ، أو



للسنة التى وضعت فيها أول لبنة لبناء المدينة ، ذلك لشدة قدم تاريخها ولان الفترة التى أسست فيها مدينة الجزائر لاول مرة كانت فترة لا تساعد على الضبط بالارقام المدققة . يضاف الى ذلك أن البانى لاول منزل ، ما كان يفكر انه سيكون له شأن عظيم ، بل كثيرا ما سطرت الاقدار ما لم يتوقعه الانسان ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الابحاث الاثرية حول أول لبنة لمدينة الجزائر مازالت جارية الى يومنا هذا ، على أن المدينة لم تكن شيئا مذكورا قبل ظهور الفينيقيين فى عرض البحر الابيض المتوسط ، أى قبل نهاية الالف الثانى قبل الميلاد، وانها كانت موجودة فى الالف الاول لما قبل الميلاد، لكن بقى أن نحدد السنة من فترة الالف الاولى لما قبل الميلاد اذ هى فترة طويلة وتشمل ألف سنة كاملة ، وهنا تتشعب الآراء ويزداد الاختلاف اذ من الباحثين من يرد أصل النشأة الى القرن الخامس قبل الميلاد ، ومنهم من يذهب الى القرن السادس ، ومنهم من يكتفى بالقرن الاول . والمرجح أن مدينة الجزائر أسست لاول مرة فى القرن السادس قبل الميلاد كما سيظهر لنا من هذا البحث .

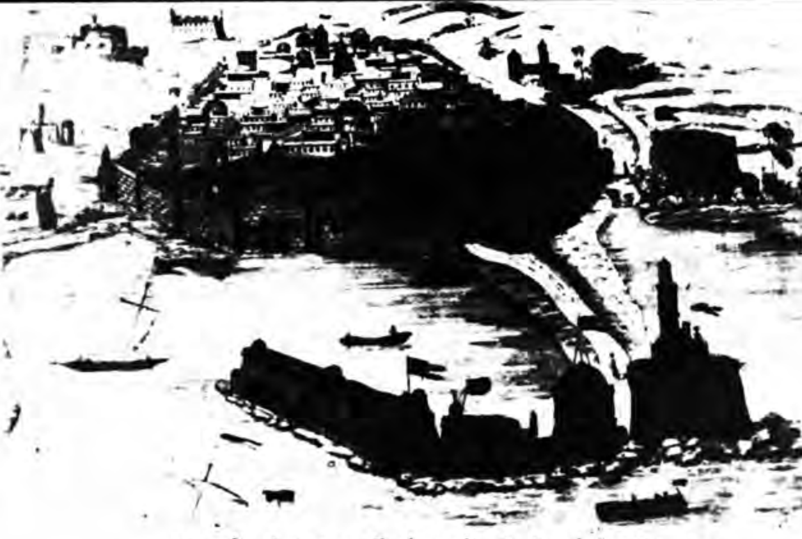
والسؤال الذى مازال يثير اهتمام الاثريين هو : من الجماعة التى كان لها الفضل الاول فى نشأة مدينة الجزائر ؟ هل السكان القدماء من شمال افريقية ؟ أم اليونانيون ؟ أم الفينيقيون ؟

فالذين يردون أصل النشأة الى السكان القدماء من شمال افريقيا أى البربر يعتمدون فى حكمهم على الروايات التاريخية والقصص المنقولة دون دراسة للآثار ، ومنهم مورقان فى كتابه تاريخ



جزر قديمة اشتق منها اسم مدينة الجزائر

الجزائر الذى يزعم « أن أغلب المؤرخين يذكرون أن مدينة الجزائر أسسها يوبا الثانى ، وهو ملك من البربر كان يحكم بلاد الجزائر فى مطلع عهد الاستعمار الرومانى . الذى أطلق عليها اسم ايول أو يوليوس قيصر . تخليدا لذكرى سيده الامبراطور الرومانى يوليوس قيصر الذى عاش فيما بين 101 و 44 ق م . وان العرب الذين دخلوا هذا الاقليم فى القرن السابع للميلاد غيروا المعالم الرومانية ، وأسماء المدن . ومن بينها اسم مدينة ايول التى أطلقوا عليها اسم الجزائر . نظرا لما كان أمام هذه المدينة الاهلية البربرية من جزر فى البحر . ثم نزلت بها قبيلة بنى مزغنة ، فيما بعد . فاضيف اليها حينذاك جزائر بنى مزغنة » . وهذه الرواية لمورقان لا تخلو من الشك أو قل . ولا حرج . انها بعيدة عن الصواب ، اذ المرجع والمعروف لدى المؤرخين ان مدينة ايول هى مدينة شرشال . وليست مدينة الجزائر . وان اسم جزائر بنى مزغنة لم يرد الا فى كتب الرحالة العرب . أمثال محمد بن حوقل . وأبى عبد الله البكرى . وكانوا يقصدون بها مدينة الجزائر الحالية . التى يعود أصل نشأتها الى فترة أقدم مما ذكرها مورقان . اذ يوبا الثانى تولى الحكم فى هذا الاقليم فيما بين سنة 25 و 23 ميلادية . وكانت مدينة الجزائر موجودة قبل ذلك للادلة الاثرية والتاريخية . اذ كانت مستعمرة رومانية مزدهرة لها مشيختها الخاصة وادارتها المعروفة قبل يوبا الثانى ، وربما قام هذا الملك البربرى أو الاهلى بتجديد المدينة . ورفع البعض من معالمها وبذلك اختلط على مورقان أصل النشأة بتجديدها .



صورة لمدينة الجزائر فى العهد التركى ويتجلى فى الصورة
الجزر التى أوصلها خير الدين بباب الجزيرة

ومن أنصار فكرة : مدينة الجزائر بناها الاهالى القدماء ، نجد أيضا فانتيردى بارادى الذى يذكر « ان مدينة الجزائر حديثة النشأة بناها المور ، (ويقصد بهم الاهالى أو البربر) بعد أن هدموا مدينة تامنفوست فى احدى ثوراتهم ضد الرومان ، واستعملوا صخور المدينة المهدمة فى بناء مدينة الجزائر الحديثة التى لا توجد بها آثار عتيقة ». ويتجلى ضعف فكرة فانتيردى بارادى فى قوله ان مدينة الجزائر ليس بها آثار عتيقة والواقع أن مدينة الجزائر بها آثار للاول ولم ينتبه لها فانتير ، وربما هذا يرجع الى قصر المدة التى قضاها فى مدينة الجزائر فيما بين 1788 – 1790 م وهو من رجال السلك الديبلوماسى الذين لم تسمح لهم الظروف بالبحث عن هذه الآثار ، أو ان هذه الآثار لم تكن منتشرة بالدرجة التى تجلب الانتباه ، ثم ان فانتير يذكر ان الجزائر بنيت فى العهد الرومانى وهذا يتناقض مع الابحاث الاثرية التى دلت على أن مدينة الجزائر هى أقدم من الاحتلال الرومانى .

أما صولين المؤرخ الرومانى والنحوى اللتينى الذى كان يعيش فى القرن الثالث للميلاد فيذكر أن مدينة الجزائر يونانية الاصل بدليل اسمها العتيق ايكوسيوم ، وهى كلمة مزجية يونانية مركبة من ايكوسى ومعناها باليونانية عشرون ، ذلك ان الذين أسسوها كانوا عشرين نفرا من اليونانيين ، أما قصة تأسيسهم للمدينة فيرويها صولين فى : « ان هؤلاء العشرين كانوا من ركاب البحر ، ومصاحبين لهرقل اليونانى الجبار ابن الاله جيبيتر فى احدى رحلاته البحرية لتحقيق عجائبه الكثيرة ،

منها الفصل بين جبال كالبى . وجبال ابيك (أى بين جبال سيرانيفاد بشبه جزيرة ايبيريا وجبال الريف بالمغرب الاقصى) . وعند ما وصل هرقل وأصحابه العشرون الى الموضع الذى تقوم عليه مدينة الجزائر الحالية توقفوا للاستراحة ، فأعجبتهم المنطقة . ومل أصحاب هرقل العشرون من طول الطريق . فمالوا الى الراحة والاستقرار . فانفصلوا عنه ، ولبثوا فى المكان . أما هرقل فتابع رحلته البحرية الى أن بلغ البرزخ الذى كان يفصل بين شبه جزيرة ايبيريا والمغرب الاقصى . فشقه ، وبذلك حقق احدى معجزاته السبعة . وأوصل بين البحرين (البحر الابيض المتوسط والمحيط الاطلسى) بمضيق ، ظل يحمل اسم عمود هرقل مدة طويلة من الزمن . وهو ما يعرف بمضيق جبل طارق حاليا فى كل اللغات . نسبة الى طارق بن زياد فاتح بلاد الاندلس سنة 711 أثناء الفتوحات الاسلامية . أما العشرون نفرا من اليونانيين الذين انفصلوا عن هرقل فقد نزلوا البر . وأسسوا مدينة العشرين ، حتى لا يستأثر بها أحدهم دون الآخر . وأحاطوها بسور ظل قائما مدة طويلة من الزمن الى عهد الاحتلال الرومانى للجزائر ، حينذاك غير الرومان اسم مدينة الجزائر من ايكوسى اليونانية الى ايكوسيوم الرومانية التى منحها الامبراطور الرومانى فيسبا سيان حقوق الاحياء اللاتينية فى النصف الثانى من القرن الاول للميلاد .

وتلاحظ منهذه الاسطورة للنحوى الرومانى انها لاتختلف كثيرا علىأساطير القدماء التىكانوا ينسجونها حولتأسيس المدنوربطها بقصة منالقصصالميثولوجية ولا تلبث هذه القصص كثيرا بل سرعان ما تسقط غبارا أمام الحقائق العلمية أو الاثرية . اذ ليست بمدينة الجزائر آثار يونانية، ولا ما يدل على وجودها ولم يتحدث عنها المؤرخون اليونانيون ، ثم ان هذا الاقليم لم يخضع للنفوذ اليونانى بل كان خاضعا للنفوذ الفينيقى فى القديم . وان أهم ما يستفاد من قصة صولين ان مدينة الجزائر أقدم من الاحتلال الرومانى لشمال افريقية . وانها ظهرت فى الفترة الاولى لازدهار حضارة حوض البحر الابيض المتوسط . وهى فترة كان لليونانيين أغلب مستعمرات الشواطىء الشمالية من بحر ايجى الى بلاد الغال ، وللفينيقيين أغلب مستعمرات الشواطىء الجنوبية للبحر الابيض المتوسط . وبهذا يمكن اضافة قصة صولين فى بناء مدينة الجزائر الى القصص التى تحاك حول بناء مدينة روما وأثينا وقرطاجنة ...

ولم يغفل بعض الرحالة العرب فى التعرض الى أصل نشأة مدينة الجزائر . منهم أبو عبيد الله البكرى الاندلسى (توفى سنة 487 هـ) الذى ذكر فى كتابه المسالك والممالك ما يلى : « جزائر بنى مزغنى هى مدينة جليلة . قديمة البنيان . فيها آثار للاول وازاج محكمة تدل على انها كانت دار مملكة لسالف الامم ، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء . فيها صور للحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمن . ولا تعاقب القرون . ولها أسواق ومسجد جامع ، وكانت بمدينة بنى مزغنى كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدور من الشرق الى الغرب .

وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش والصور . ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد اليها أهل السفن من أهل افريقية والاندلس وغيرهما . وهو مرسى مأمون ، مشتى بين جزيرة سطفلة من الشرق الى الغرب وبين البر » . ومن حديث البكرى هذا يظهر أن مدينة الجزائر عريقة فى القدم . وان آثارها كثيرة حتى يظن انها كانت عاصمة للبلاد فى وقت من الاوقات . وان عظمة كنيستها التى حولت الى مسجد تدل على مدى قيمتها التاريخية ، وانه كان لها شأن عظيم فى العهد الرومانى حيث كانت تتركز بها الديانة المسيحية وتقوم بها المدرسة الوهبية . لكن البكرى لم يتعرض الى الذين أنشؤوها لاول مرة .

— 2 —

ويظهر لنا ، كما ذهب اليه الكثير من الكتاب ، ان مدينة الجزائر فينيقية الاصل للادلة الجغرافية والتاريخية والاثرية :

1 ـ الادلة الجغرافية :

ان انتقاء الموقع الجغرافى يدل على انه انتقاء فينيقى ، ذلك ان الفينيقيين هم الذين كانوا يحتلون هذه الشواطىء ، وقد تعودوا على انشاء المحطات التجارية على الضفاف الجنوبية للبحر الابيض المتوسط مثل قرطاجنة وعتيقة بشواطىء تونس وروزيكاد ـ سكيكدة حاليا ـ وهيبون ـ عنابة حاليا ـ بشواطىء الجزائر . وروزادير ـ مليلة حاليا ـ وتانجس ـ طانجة حاليا ـ بشواطىء المغرب ومحطات أخرى يطول ذكرها على هذا الساحل الافريقى . وكانت هذه المحطات تساعدهم على



احد الاثرياء فى مدينة الجزائر القديمة

استراحة فى أسفارهم البحرية . ورحلاتهم التجارية للبحث عن ذهب السودان ، وفضة اسبانيا،وبضائع واصداف البربر . وفى هذه المحطات كان التجار الفينيقيون يتزودون بما يحتاجونه فى أسفارهم من مياه عذبة ومواد غذائية زيادة عن تبادل تجارى مع سكان الاقليم . ومما يلاحظ على هذه المحطات ، التى أسس البعض منها فى مطلع الالف الاولى لما قبل الميلاد ، وربما كانت منها مدينة الجزائر ، انها كانت تقع فى اماكن معينة ومقصودة للغاية ، حيث تقع على مسافات تتلاءم والمسافة التى تقطعها السفينة الفينيقية فى اليوم الواحد مثل 25 الى 45 كيلو مترا بين المحطة والتى تليها . وزيادة عن اعتبار

المسافة كان الفينيقيون ينتقون لتأسيس مراكزهم التجارية . المواضع التي تساعدهم طبيعيا على ارساء سفنهم ، مثل الجزر ، والرؤوس ، أو الخلجان أو مصبات الاودية ، والاماكن التي تتوفر فيها المياه العذبة ، ويوجد بجانبها الظهير الغنى مثل سهل متيجة . واعتمادا على هذه المعطيات الجغرافيـــة المتوفرة في اقليم الجزائر يبدو أن مدينة الجزائر ترجع في أصول نشأتها الى الفينيقيين ، حيث أنها تقع على نقطة الوسط للمسافة البحرية الفاصلـــة بين تامنفوست وهي ، مما لاشك فيه ، محطة فينيقية وبين تيبازة وهي محطة فينيقية أيضا باتفـــاق الاثريين ، يفصل بين المدينتين أي تيبازة وتامنفوست نحو الثمانين كيلومترا ، وهي مسافة طويلة لاتقطعها السفينة في اليوم الواحد ، لذلك اختار الفينيقيون موضعا مسطحا ، يقع بين المحطتين السابقتين ، تتوفر فيه الشروط الطبيعية لتأسيس محطة تجـــارية ملائمة تماما لارساء مراكبهم البحرية ، وهو موضع توجد به أربع جزر في شكل حرف ألف ممدودة ، وجزيرات عدة يمكن التنقل عليها بسهولة الى البر ، تحمي السفن من حركات الامواج ، والميناء يلائـم الرسو ، كما ان الموقع يساعد على الدفاع ، والاتصال بالداخل وبالسهل المتيجي ، وتتوفر به الميـــاه العذبة التي كانت تفور من احدى جزيرات الميناء القديمة ، ثم ازيلت هذه الجزيرة بما فيها من عيون عذبة في مطلع عهد الاتراك لاستصلاح المينـــاء وتوسيعهـــا .

— 3 —

2 ـ الادلـة الاثريـــة :

لقد أجريت أبحاث كثيرة عن آثار مدينة الجزائر القديمة التي بنيت على أساسها المدينة الجديدة ، وهي أبحاث أثرية نشطت في فترة الاحتلال الفرنسي بحكم التخصص العلمي والتطور الحضاري في هذه الفترة ، والذين قاموا بهذه الابحاث الاثرية هم من الفرنسيين مثل كانتينو وليش وصنطاس وجزال ، وخرج هؤلاء الباحثون بنتائج تؤكد أن مدينة الجزائر بنيت في العهد الفينيقي وان بها آثارا فينيقية ، ومن هذه الآثار التمـــاثيل و **الاضـــرحة** ، **والاواني الفخارية** و **النقود** ، فقد عثر على تمثال في نهـج القصر القديم يتكون من صخرة واحدة نقش عليها ما يرمز للعالم العلوي والآلهة القرطاجنية ، كالاله بعل الذي كان يعبده الفينيقيون ، ويتقربون اليـــه فوق الروابي أو الاماكن العالية ظنا منهم أن هذه المواقع قريبة من العالم العلوي حيث تقيم الارواح الطيبة ، وهذا الاله يشبه الى حد بعيد الاله المصري القديم آمون الذي كان له معبد في الكرنك على وادي النيل ، ولا شك أن المصريين القدماء والفنيقييـن كانت لهم اتصالات قوية واحتكاكات حضارية أثرت حتى على معتقداتهم الدينية .

ولقد اكتشف الاثريون أيضا في مدينة الجزائر ضريحا صخريا سنة 1848 في حديقة سيـــــدي عبد الرحمن ، وهو قبر فينيقي الاصل ، طـــولـه 2,39م وعمقه 0,82 م . وجدت به تميمة مصريـــــة الصنع نقشت عليها صورة للاله المصري انوبيس له جسم انسان ورأس ذئب كان يعتقـــد انه الاه الموتى . والتميمة من طين ، ارتفاعها نحو الست سنتميترات ، كما وجد بالقبر قطع أخرى من الزجاج

الاخضر والاحمر والاصفر كان يتحلى بها صاحب الرفاة ، وآنية من طين . ارتفاعها I7 سم وقطرها I2 سم . ولاشك أن هذه الآثار فينيقية الاصل لما يغلب عليها من الطابع الشرقى . وكما تؤكده عادات الفينيقيين الذين تعودوا على دفن الميت مع حليه وتمائمه وادواته المنزلية التى كان يستعملها فى حياته الدنيا . وقد عثر أيضا سنة I952 على بئر اثرية فى حى باب البحرية ـ باب الجزيرة ـ اثناء اعادة بناء ما خربته الحرب العالمية الثانية بشارع أول نوفمبر حاليا . وعثر على هذه البئر العمال وهم يحفرون أساس البنايات الجديدة . وكان عمقها يزيد I4،50 م وجدت فيها أوانى فخارية ترجع الى عصور تاريخية مختلفة وأقوام متعددة تداولت النفوذ فى هذه المنطقة . وبالطبع فان أقدمها هى الواقعة فى أسفل الطبقات . وترجع الى الآثار الفينيقية فوقها الآثار الرومانية تليها الآثار العربية كما عثر الاثريون أيضا سنة I940 فى حى باب الجزيرة على قطع نقدية فينيقية . وهى عبارة عن I58 قطعة نقدية معدنية ، جلها من الرصاص وأقلها من البرونز . صكت فيما بين القرن الثانى والاول قبل الميلاد ، تحمل فى احدى جوانبها صورة لامرأة على رأسها تاج . وأمامها رمز النصر ، وربما كانت هذه الصورة للآلهة المصرية ايزيس زوجة اوزريس وأم حورس . لأنها تشبهها الى حد بعيد . وعلى الوجه الثانى من النقود نقشت صورة لرجل واقف على قاعدة صخرية . ومتوج بتاج له ثلاث أسنة تشبه الاشعة . وتوحى الى هيئة الاله الفينيقى بعل . يكسوه قميص. ويتدلى من كتفه الايسر خوج من جلد الحيوانات . وقد كتب على هذا الوجه العبارة التالية : ايكوسيم IKosim وبذلك عثر لاول مرة فى الابحاث الاثرية على الاسم القديم للمدينة . وهو اسم فينيقى حرفه الرومان فيما بعد الى ايكوسيوم حتى يتماشى ولغتهم اللتينية . وقد تصدى المختصون فى اللغات السامية للبحث عن أصل ومعنى الكلمة المنقوشة فى تلك النقود . وذكروا انها بونية الاصل ـ أى فينيقية ـ وتتالف من كلمتين هما : ـ I ـ ومعناها بالبونية : جزيرة . و Kosim ومعناها الشوك وقيل الطيور التى تعيش فى الاطلال مثل البوم وهذا التحليل يذكرنا بالجزر الاربعة القديمة التى ظلت مدة طويلة منفصلة عن بعضها امام مدينة الجزائر وكانت تسمى فى عهد الرحالة العرب بجزر سطفلة ، وتقع أمام باب الجزيرة الى أن أوصلها الاتراك باليابس وامتدت اليها المبانى التى رفعت فوقها فأصبحت جزءا من الرصيف .

— 4 —

كما يذكرنا هذا التحليل ايضا بالطيور البحرية التى كانت تعيش فى اطلالها . ويرى البعض ان كلمة كوس معناها دجاج البحر . وعلى هذا يكون معنى الكلمة الفينيقية ايكوسيم : جزيرة دجاج البحر . وهو الاقرب الى الصواب حيث يكثر دجاج البحر فى الشواطىء الجزائرية حتى الوقت الحالى ، وسميت عليها موانى كثيرة مثل مرسى الدجاج بالقرب من أرزيو ومرسى الدجاج أيضا على الشاطىء الغربى من مدينة الدلس . وهى موانى لازالت تقصدها طيور البحر . وبالخصوص الطيور المعروفة بدجاج البحر التى تطوف فى عرض البحر ثم تأوى للمبيت أو

للاستراحة على الحافة الشمالية للبنايات البحرية حاليا في ميناء الجزائر .

وخلاصة هذا العرض ان المتتبع للآثار الفينيقية على نطاق واسع في شواطىء شمال افريقية يظهر له ان الفينيقيين بدأوا في تأسيس مراكزهم التجارية من الشرق الى الغرب بادئين بقرطاجنة ومنتهين بالمدن العتيقة على شواطىء المغرب الاقصى ، وبذلك فان المدن أو المراكز التجارية الفينيقية الواقعة على الشواطىء الشرقية اقدم من المراكز الشاطئية الغربية . وان التركز على هذه الشواطىء سلك مرحلتين ، أولهما مرحلة الاستكشافات للمواضع والمواقع الملائمة للتركز ابتداء من أواخر الالف الثانى لما قبل الميلاد ، والمرحلة الثانية بناء المراكز التجارية ثم المدن الصغيرة في النصف الاول من الالف الاخير لما قبل الميلاد . ولما كانت مدينة قرطاجنة واقعة فى شرق المغرب العربى وبنيت سنة 814 ق م كما دلت عليها الآثار . فان مدينة الجزائر الواقعة الى الغرب منها بحوالى ثمانمائة كيلومتر فلا بد أن تكون قد أسست فيما بعد . ولقد دلت الابحاث الاثرية التى أجراها صنطاس بعد الحرب العالمية الثانية في مدينة تيبازة الواقعة على بعد حوالى الخمسين كيلومتر الى الغرب من مدينة الجزائر ان أقدم آثار فينيقية بتيبازة لا تتعدى القرن السادس قبل الميلاد،ويظهر من ذلك أن مدينة ايكوسيم الفينيقية أسست فى هذه الفترة أى حوالى القرن السادس قبل الميلاد فى حجر حى القصبة أو فى حى باب الجزيرة . وبالتالى يعد هذا الحى أقدم أحياء المدينة على الاطلاق واول نقطة اختارها الفينيقيون لبناء مركزهم التجارى اى مدينة الجزائر العتيقة .

ويظهر ان مدينة الجزائر عمرت فى الفترة الاولى لنشأتها بعناصر فينيقية مهاجرة وعناصر اهلية افريقية . وان كان الاساس الجنسى للفريقين واحدا، وجمعت بين العنصرين حرفة التجارة ، وتبادل البضائع المختلفة . لذلك كانت تزدهر المدينة وتنمو بازدهار التجارة وتركد بركودها . ولم تكن مدينة تامنفوست ولا مدينة ايول بالمدن الفينيقية الكبرى التى يمكنها أن تؤثر على عمران مدينة الجزائر . بل ان هذه المدن المجاورة كانت متممة لبعضها . بحيث تعتبر اساسا تاريخيا لما يمكن أن نسميه بالجزائر الكبرى ، ولم يكن للمهاجرين الفينيقيين أطماع استعمارية غير المسالمة والحياة التجارية مع البربر . لذلك لا يحدثنا التاريخ عن قلاقل اجتماعية لسكان مدينة الجزائر فى الفترة الاولى من النشأة . بل وطيلة العهد الفينيقى بها . ولم تظهر الحياة الطبقية وامتياز بعض الجماعات عن الاخرى . وعدم الامتزاج بالسكان الاصليين ، فى مدينة الجزائر . الا فى عهد الاستعمار الرومانى. عند ما هاجرت الجاليات الرومانية الى المدينة ، وكانت تحيى فى المستعمرات حياة ارستقراطية . تختلف تماما عن حياة السكان الاصليين ، ولم يتركز الرومان فى المدن فقط . بل حصنوها بأسوار قوية حتى كانوا فى مأمن موقت من غضب وثورات طبقة السكان الاصليين الذين كانوا معتبرين عبيدا فى عهد الرومان ، ثم رفع الرومان داخل هذه المدن الابراج والقصور التى زينوها بالرخام والتماثيل ونظموا بها العيون والصهاريج واتخذوا من المدن المحصنة مراكز لادارة البلاد .

ولما دخل العرب المسلمون الى شمال افريقية

غيروا الكثير من المعالم الاجتماعية المتناقضة والقوانين الانسانية . فالغوا الاسوار التى تفصل بين الحاكم والمحكوم وبنوا الاسوار التى تقيهم من خطر العصبية المسيحية وهذا شيء استمد من طبيعته الاسلام . وأطلقوا على مدينة ايكوسيوم جزائر بنى مزغنة نسبة الى قبيلة أهلية كانت تسكنها . ثم اشتدت الهجرات العربية الى شمال افريقيا فى القرن الحادى عشر للميلاد ، فعمروا النجود والسهول ثم المدن . التى أخذوا يطبعونها بالطابع العربى الاصيل ونقلوا اليها دينهم الجديد وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم . وربطوها ببقية المدن العربية فى المشرق العربى تارة . وفى المغرب العربى تارة . وبذلك ازدهرت جزائر بنى مزغنة ازدهار المدن العربية ثم أخذت تنحدر نحو الاضمحلال أثناء الاختلافات الاسلامية فى شمال افريقية وفى بلاد الاندلس ، وانتهزت قبيلة الثعالبة من المهاجرين العرب هذه الفرصة للانتقال من السهل المتيجى الى مدينة الجزائر وكونت دويلة كانت تمتد من الدلس شرقا الى مدينة شرشال غربا ، مركزها مدينة الجزائر وحينذاك وطد الثعالبة علاقاتهم بالاروبيين . وكانت القرصنة فى هذه الفترة التاريخية تسير جنبا الى جنب مع القرصنة بالنسبة لاغلب الدول الاروبية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط . وعدت مدينة الجزائر سنة 1300 من بين أهم أسواق النخاسة التى كان القسيس رايموند ألبيرت يقصدها لشراء المسيحيين ثم تحريرهم . وأثرت قبيلة الثعالبة ومدينة الجزائر من هذه التجارة حينا من الدهر وتكونت فيها طبقة من الاثرياء كان بيدها مقاليد الحكم .

— 5 —

وفى نفس الفترة بدأت تؤم مدينة الجزائر جماعات من المهاجرين الاندلسيين الذين جاءوا الى شمال افريقية بعد ضعف ، وسقوط دويلاتهم فى شبه جزيرة ايبيريا . وانقسامهم الى أحزاب وشيع ضعفت أمام العصبية المسيحية . التى أخذت تستولى شيئا فشيئا على دويلات ملوك الطوائف وتدفع بالمسلمين الى شمال افريقية . واشتدت هجرة الاندلسيين بعد سقوط مدينة غرناطة سنة 1492 م ثم بعد قرار 1609 الاسبانى الذى ينص على أن كل مسلم أو من كان مسلما بأى شكل من الاشكال وفى أى عهد من العهود يجب أن يغادر اسبانيا فى الحين ، والا كان مصيره الاعدام . وتركز البعض منهم فى مدينة الجزائر . وكانت لهجرتهم أثرها الواضح على عمران المدينة . حيث زادوا من عدد سكانها . ونقلوا اليها على أكتافهم ما وصلوا اليه من تطور حضارى فى العمارة والتنظيم العمرانى بصفة عامة ، من شبه جزيرة ايبيريا . ومن الهجرات التى جاءت الى مدينة الجزائر فى العصور الوسطى نلاحظ هجرة اليهود أيضا التى نتجت عن العصبية الدينية المسيحية . وكان لها أثر على سياسة واقتصاد المدينة فى عهد الاتراك بالخصوص . ثم كانت هجرات العناصر التركية بعد ان قضى عروج على مملكة الثعالبة سنة 1516 م . والى العنصر التركى يضاف عنصر اللفيف الاجنبى الذى تكاثر بمدينة الجزائر فى عهد الاتراك . ونقصد باللفيف الاجنبى . أولئك العبيد المسيحيين الذين جمعوا على طريق القرصنة ، وهى حرفة ضرب فيها الاتراك بسهم الاسد . حيث جمعوا من الاسبان والايطاليين والانجليز والبرتغاليين

والالمان وغيرهم من الدول الاروبية المسيحية اعدادا كبيرا من البشر بلغت نسبتهم في بعض الفترات التاريخية الى 30٪ من مجموع سكان المدينة وقد حولهم الاتراك الى عبيد . وما كانوا يطلقون سراحهم الا بعد الفداء من ذويهم أو من المؤسسات الدينية المسيحية التى انشأتها بعض الكنائس الاروبية لهذا الغرض مثل جمعية لازاريت التى أسسها فانسان دي بول سنة 1633 وكان الاب ليفاشي من أشهر رجالها الذى قذفه الاتراك بالمدفع سنة 1683 بسبب خبثه وجوسسته الدنيئة على عورات سكان مدينة الجزائر . وكان من مهام هذه الجمعيات الدينية المسيحية جمع النقود من أروبا للفداء ، واقامة الصلوات وتنظيم الحملات الصليبية ، وبناء المراكز الصحية للاسارى المسيحيين ، وتثبيت الايمان في قلوبهم.وكثيرا ما كان الاسارى المسيحيون في الجزائر يعتنقون الاسلام طواعية وبالتالى كان يمكنهم ان يرتقوا الى مناصب الاتراك . وربما أصبح منهم داى البلاد ، والامثلة على ذلك كثيرة . نذكر منها الباشا علج علي (1568 ـ 1587) الذى أخذ من سواحل كالابريا بايطاليا وعمره 18 سنة . فاعتنق الاسلام بالجزائر ثم أخذ يرتقي في مناصب الدولة الى أن حاز مرتبة بيرلرباى سنة 1568 . ومثال أيضا على رمضان باشا فهو ساردى الاصل . وحسين قبطان بندقي الاصل . وجعفر داى مجرى الاصل ، وحسين فيتزيانو بندقي الاصل ... ومعنى هذا أن سكان مدينة الجزائر كانوا خليطا في العهد التركي الذى ذاب فيه العنصر العربي كما ذاب في بقية السلطنة العثمانية . وفقد قيمته الاجتماعية . وانزلقت شخصيته .

ولقد مرت مدينة الجزائر في تاريخها العمراني بمراحل عدة شأنها في ذلك شأن المدن العتيقة ، فقد مرت بمرحلة الولادة التى كان فيها المنزل الواحد يمثل نواة المدينة ثم بدأت تتجمع منازل أخرى من غير نظام حول المسكن الاول . ثم جاءت مرحلة الطفولة التى تميزت بظهور شوارع تربط بين المنازل التى ليس لها تخصص وظيفي . فالدكان في أسفل المنزل وصاحبه يسكن في نفس الطابق أو فوقه كما ان صاحب الحركة كالحداد مثلا كان يباشر حرفته حيث يسكن.ومعنى هذا ان منازل مدينة الجزائر في مرحلة الطفولة كانت تجمع بين عدة وظائف فتمثل المأوى وهي في نفس الوقت ورشة للعمل . ثم جاءت مرحلة الشباب وهي الفترة التى ازدهرت فيها حضارة البحر الابيض المتوسط وزاد النفوذ الفينيقي في شمال افريقية ، وفيها أخذت الاحياء السكنية تتميز عن الاحياء التجارية . واخذ الساكن بالمدينة يقطع مسافة بين محل سكناه ومحل عمله . ثم كانت مرحلة النضج التى تتفق وما بعد القرن الاول للميلاد وتستمر الى اواسط القرن الرابع للميلاد . لتدخل مرحلة الشيخوخة . فيها نالها التخريب واثرت عليها ثورات الاهالى ضد الجور الروماني ، وظلت على هذه الحالة الى أن دخلها العرب المسلمون . لكن مدينة الجزائر لم تستعد شبابها الى ان أعاد تجديدها بلكين سنة 960 م ثم في القرن 16 للميلاد بعد أن دخلها الاتراك واتخذوها عاصمة للبلاد . حينئذ عادت من أمهات مدن شواطىء حوض البحر الابيض المتوسط وسيدة البلاد الجزائرية . وظلت محافظة على مركزها الى يومنا هذا .

بلقين بن زيري

د . رشيد بورويبة

ذكر ابن خلدون ان بلقين بن زيرى « اختـــط بامر ابيه وفى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبنى مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعـــــدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدية » .

فبودنا ونحن نحتفل بالذكرى الالفية لتأسيس الجزائر ان نخصص مقالنا هذا لمشيدها .

كان بلقـين بن زيرى من قبيلـة صنهاجـــة . وصنهاجة على قول ابن خلدون من ولد صنهـاج . وصنهاج هذا عند النسابة البربر من بطون البرانس وعند نسابة العرب من نسل حمير مؤسس الـدولة الحميرية فى اليمن .

وكانت قبيلة صنهاجة من اوفر قبائل المغرب حتى ـ على قول ابن خلدون ـ زعم كثير من الناس انها الثلث من امم البربر وحسب بعض النسابـة بلغ عدد بطونها سبعين من اعظمها تلكاتة بطن آل

زيرى وآل حماد ولمتونة ومسوقة من بطون المرابطين فكانت تلكاتة تسكن بالمسيلة وحمزة (البويرة الحالية) والجزائر ومليانة ولمدية .

وكان بلقين بن زيرى من عائلة كبيرة قوية لعبت دورا عظيما فى المغرب . ومن افراد هذه العائلة الذين اشتهروا قبل بلقين نذكر المثنى بن مسور ومناد بن منقوش وزيرى بن مناد .

1) المثنى بن مسور :

ذكر النويرى ان المثنى بن مسور الحميرى فر من اليمن بعد ما فتحه الحبشة سنة 525 م ورحل الى الشحر ، جنوبى جزيرة العرب . حيث تلقى بكاهن من عائلة حمير كهن له أن أبناءه يؤسسون دولة فى المغرب وأوصاه بالسفر الى هذا القطر . فسمع المثنى قول الناصح ورحل الى المغرب واستقر به .

2) مناد بن منقوش :

كان مناد ، على قول النويرى كثير المال والولد وكان يحسن الضيافة للمسافرين . فبنى مسجدا ليبيتوا فيه وكلما رأى غريبا ضيفه ثم عند ذهابه زوده بالعيش والملابس والمال . ثم يقص النويرى علينا الاسطورة الآتية : «فاتفق أن يوما من الايام رأى مناد غريبا فى المسجد فضيفه . فبعد ما فرغ الضيف من الاكل أخذ يتأمل عظم كتف الكبش الذى كان ذبحه مناد على شرفه ويلقى نظره على مناد متعجبا . فقال له مناد : لماذا تنظر الى ؟ فقال : هل لك زوجة حامل ؟ فقال نعم . فقال هل لك ابناء معها ؟ فقال لا ، ولكننى عندى أبناء مع زوجاتى الأخر . فقال أحضرهم بين يدى . فأحضرهم ، فأخذ الضيف يتأمل كل واحد منهم ثم قال لمناد : اعتن بزوجتك الحامل لانها تلد لك ابنا يملك المغرب وأبناءه بعده . فاعتنى مناد بزوجته كل الاعتناء وبعد مدة ولدت له طفلا سماه زيرى » .

3) زيرى بن مناد :

ا ـ طفولته :

يذكر النويرى أن زيرى كان أجمل أبناء مناد الذين كانوا مشهورين بجمالهم حتى كان الناس يضربون المثل بهم ويضيف الى ذلك أن زيرى كان قوى البنية حتى كان يظهر فى عمره عشرين سنة وهو فى العاشرة من سنه ، وكان أصحابه يطيعونه ويسمونه السلطان .

ب ـ محاربته لزناتة وتاسيس مدينة اشير :

فكبر زيرى وجمع جيشا غزا به زناتة . فغارت منه البطون الصنهاجية الاخرى وحاربته فتغلب عليها ثم غزا قبائل زناتة مرة ثانية ، فكثر عدد أتباعه ، فضاقت بهم أرضهم وطلبوا منه أن يؤسس لهم مدينة كبيرة يسكنونها ، فسار بهم الى موضع أشير فرأى ما فيه من العيون فاستحسنه وبنى فيه مدينة اشير التى مازالت آثارها قرب عين يوسف فى ولاية تيترى وسكنها مع أصحابه . وأعانه الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله فى تشييد اشير وبعث له مهندسا ماهرا وكما كبيرا من الحديد ومن المواد اللازمة للبناء . فما نسى زيرى خير الخليفة الفاطمى وأصبح من أحلافه المخلصين فاظهر وفاءه واخلاصه اثناء ثورة أبى يزيد وغزو مدينة فاس .



المغرب في عهد بلقين بن زيرى

ج ـ ثورة ابى يـزيد :

ان أبا يزيد مخلد بن كداد الملقب بصاحب الحمار كان من قبيلة بنى افرن وهى من أعظم بطون زناتة ، فكانت تملك المغرب الاوسط من تلمسان الى جبل عمور . فكان أبو يزيد نكارى المذهب ، فثـار على الفاطميين سنة 942/332 وفى مدة ستة أشهر فتح باجة وتونس والقيروان وسوسة وحاصر المهدية عاصمة العبيديين . فطلب الخليفة القائم مساعفة زيرى بن مناد . فلبى زيرى نداء القائم وبلغـه خمسمائة عبد ومائة حمل من القمح . هذا ما اضطر أبا زيد الى رفع الحصار عن المهدية سنة 945/334 وكذلك عند ما حاصر المنصور بن القائم أبا يزيد بقصر كيانة الواقع فى المكان الذى تتأسس فيـه قلعة بنى حماد ، سار زيرى فى جيش عظيم وساهم فى قتال أبى يزيد وقتله سنة 946/336 .

د ـ غزو مدينـة فاس :

وفى عهد الخليفة الفاطمى المعز بن المنصـور شارك زيرى فى غزو المغرب الاقصى مع جوهـر الكاتب قائد الجيش الفاطمى . فسار الجيـش الفاطمى الزيرى لمحاربة قبائل زناتة التى كـانت خلعت طاعة المعز وخضعت للخليفة الاموى . فتوجه الجيش نحو تاهرت ثم نحو فاس ، فحاصرها بدون نتيجة . فتوجه نحو سجلماسة وفتحها ثم رجع الى فاس وفتحها بفضل شجاعة زيرى وجسارته كما يذكره ابن الاثير فى السطور الآتية : « فقام زيرى ابن مناد فاختار من قومه رجالا لهم شجاعة وأمرهم أن يأخذوا السلاليم وقصدوا البلد ، فصعـدوا الى السور الادنى فى السلاليم وأهل فاس آمنون . فلما صعدوا على السور قتلوا من عليه ونزلوا الى السور الثانى وفتحوا الابواب وأشعلوا المشاعل وضربوا

الطبول ، وكانت الامارة بين زيرى وجوهر فلما سمعها جوهر ركب في العساكر فدخل فاسا » .

وبعد هذا الانتصار أهدى الخليفة الفاطمي المعز مدينة تاهرت لزيرى بن مناد وأذن هذا الاخير لابنه بلقين بتأسيس الجزائر ومليانة ولمدية .

هـ ـ انتصار بلقين على قبيلة مغراوة :

ان الخليفة الاموى الاندلسى الحكم الثانى الذى تولى الامر سنة 350/961 واصل سياسة ابيه فى المغرب وهى الاعتماد على القبائل الزناتية ولاسيما قبيلة مغراوة لتركيز سيطرته على المغرب الاوسط. فأمام هذا الخطر العظيم أمر زيرى ابنه بلقين بقتال زناتة ، فجمع بلقين جيشا عديدا وبفضل اعلام تاله من أحد أتباع محمد بن الخير قائد قبيلة مغراوة التى كانت استولت على جل المغرب الاوسط ، فهجم بلقين فجأة على أعدائه بناحية تلمسان وانتصر عليهم انتصارا تاما .

و ـ محاربة زيرى لبنى حمدون وقتله :

كان جعفر بن على بن حمدون صاحب المسيلة وحليفا للخليفة الفاطمى مثل زيرى بن مناد . فغار جعفر من زيرى ولم يعنه فى محاربته لزناتة بل ما أخذ أى تدبير لازالة دسائس أتباع الخليفة الاموى بالمسيلة . فحاول الخليفة الفاطمى أن يصلح بين حليفيه فاستدعاهما ، فحضرا بين يديه ولكن المقابلة انتهت بدون نتيجة . وبعد مدة استدعى المعز جعفرا وحده ، فلم يلب استدعاءه . فارسل له المعز رسولا ، فخاف جعفر وغادر عاصمته وسار الى بلد زناتة . فسروا به وعينوه قائدا على جيوشهم . فعند ما سمع زيرى بخيانة جعفر جمع جيشا لقتاله ، ولكن انتصر جعفر على الجيش الصنهاجي وسقط زيرى من فرسه فقتل .

هذه هى الظروف التى مات فيها زيرى بن مناد وبعد وفاته خلفه ابنه بلقين . قد رأينا أن بلقين بدأ يلعب دورا فى شؤون المغرب فى حياة ابيه : فكان أسس ثلاث مدن ، الجزائر ، ومليانة ، ولمدية ، وانتصر على قبيلة مغراوة . فلندرس الآن تاريخه بعد ما خلف أباه على رأس قبيلة صنهاجة فنقسم دراستنا الى ثلاث نقاط رئيسية : بلقين قبل تعيينه كخليفة للفاطميين على المغرب وتولية بلقين واخيرا بلقين بعد توليته .

1 ـ بلقين قبل تعيينه كخليفة للفاطميين على المغرب :

كان بلقين بأشير لما سمع بقتل أبيه ، فلم يلبث أن يأخذ بثاره فجمع جيشا عظيما ، فامده المعز بالاموال والجنود ، فخرج من أشير فى آخر سنة 360 أو أوائل سنة 361 الموافقين لسنة 971 م ، فحارب زناتة بباغاية والمسيلة وبسكرة وطاردهم من المغرب الاوسط واتبعهم فى المغرب الاقصى ، ووصل الى سجلماسة حيث ألقى القبض على الخير ابن محمد وقتله كما قتل عددا كبيرا من جنوده ثم رجع الى المغرب الاوسط ، فسر الخليفة الفاطمى بانتصار بلقين وزاد فى اقطاعه المسيلة واعمال بنى حمدون .

وفى محرم سنة 361 ـ نوفمبر 971 استدعى المعز بلقين وأمره بأن يزيل الحرب ويرفق على زناتة

ويطلق سراح نسائهم وأولادهم الاسرى . وقبل سيره الى افريقية اختار بلقين بين عبيده عمالا على تاهرت وأشير والمسيلة وبسكرة وطبنة وباغاية ومجانة . وعند ما وصل الى المنصورية استقبله المعز بأبهة فى ايوانه وألبسه خلعته وقلده سيفه واهدى له اربعين حزمة من الملابس الفاخرة واربعين فرسا عليها سروج نفيسة ، ومن جهته اهدى بلقين للمعز الفى جمل كان غنمها أثناء محاربته لزناتة .

2 ـ تولية بلقين كخليفة للفاطميين :

وعند ما ذهب المعز الى مصر خلف بلقين فى المغرب وحول هذا التعيين لنا أساطير موجودة فى كتاب الخطط للمقريزى وفى رحلة التيجانى وفى البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى فقال المقريزى :

« ولما عزم المعز على المسير الى مصر أجال فكره فيمن يخلفه فى بلاد المغرب فوقع اختياره على جعفر بن على الامير فاستدعاه وأسر اليه انه يريد استخلافه بالمغرب فقال : تترك معى أحد أولادك واخوانك يجلس فى القصر وأنا أدير ، ولا تسألنى عن شىء من الاموال لان ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه من الاموال ، واذا أردت أمرا فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره الى .

فغضب المعز وقال : يا جعفر عزلتنى من ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالاعمال والاموال دونى ، قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشدك ، فخرج عنه ، ثم انه استدعى يوسف بن زيرى الصنهاجى وقال له تاهب لخلافة المغرب ، فأكبر ذلك وقال : يا مولانا أنت وآباؤك الائمة من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما صفا لكم المغرب ، فكيف يصفو لى وانا صنهاجى بربرى ؟ قتلتنى يامولانا بغير سيف ولا رمح ، فمازال به المعز حتى أجاب بشريطة أن المعز يولى القضاء والخراج لمن يراه ويختاره ، ويجعل الخبر لمن يثق به ويجعله قائما بين أيدى هؤلاء ، فمن استعصى عليهم يأمره به حتى يعمل به ما يجب ويكون الامر لهم ويصير كالخادم بين أولئك ، فأعجب المعز ما قال وشكره ، فلما انصرف قال أبو طالب ابن القائم بأمر الله للمعز يامولانا وتثق بهذا القول من يوسف وانه يقوم بوفاء ما ذكر ، فقال المعز يا عمنا كم بين قول يوسف وقول جعفر ؟ فاعلم يا عم ان الامر الذى طلبه جعفر ابتداء هو آخر ما يصير اليه يوسف ، واذا تطاولت المدة سينفرد بالامر ، ولكن هذا أولا أحسن وأجود عند ذوى العقل وهو نهاية ما يفعله » .

وقال التيجانى فى رحلته :

« قال بسام : لما تغلب بنو عبيد الناجمون بافريقية على مصر فخلص لهم صميمها وتم لهم ملكها ونعيمها وأراد معد بن اسماعيل بن محمد بن عبيد الله الملقب بالمعز لدين الله اقتعاد صهوتها واثبات قدمه على ذروتها ، دعا زيرى بن مناد وهو يومئذ من صنهاجة بمكان السنام من الغارب وبمنزلة الوجدان من نفس الطالب وكان له عشرة من الولد آساد شرى وأقمار سرى ، فقال : ادع لى بنيك فقد

علمت رأيى فيهم وفيك ، وكان أصغرهم سنـــا واهونهم عليه شانا يوسف بن زيرى ، فدعا ولده ما عداه والمعز ما يريد سواه ، وكانت عند المعـز ـ زعموا ـ أثارة من الحدثان قد علم بها مصـائر أحواله ، واهل الغناء من أعيان رجاله ، وكانت عنده للخليفة على افريقية اذا صار اليه ملك مصر علامة يأنس بها أنس الكبير بذكر شبابه ، ويعرفها عرفان العاشق بديار أحبابه ، فنظر في وجوه بنى زيـرى فانكره ، حين تفقد تلك العلامة فلم يرها ، فقال لزيرى : هل غادرت من بنيك أحدا ؟ فلست أرى لمن هاهنا منهم أيدا ولا يدا ، فقال الا غلام وطفق يصغر شانه والمقدار قد عناه وأعانه ، ويطــوى أخباره والاختيار يدير عليه مداره . فقال المعـز لا أراك حتى أراه ، فلست أريد سواه ، فلما رآه عرفه وفوض اليه من حينه واستخلفه فاستولى من وقته على الامور » .

وأما رواية ابن عذارى فتشابه رواية التيجانى.

هذه هى الاساطير التى وصلت الينا عن تولية بلقين . فلنذكر الآن ما يقوله المؤرخون عن هذا الحدث المهـــم .

فوقعت تولية بلقين يوم الاربعاء 20 من شهـر ذى الحجة 360/2 أكتوبر 972 بسردانية ، وهـى قرية قرب القيروان ، فحضر بلقين بين يدى المعز فالبسه المعز خلعة الخلافة واهدى له اكسيـة فاخرة وفرسان عليها عدد نفيسة وولاه على افريقية والمغـرب ما عدا جزيـرة صقلية ومدينة طرابلس الغرب واجدابية وسرت وأمره فى الجيش وجعـل خاتمه فى يده وسماه يوسف وكناه أبا الفتــوح ولقبه سيف الدولة . وجعل المعز على جبايـــة أموال افريقية زيادة الله بن القديم وعلى الخراج عبد الجبار الخراسانى وحسين بن خلف المرصدى وأمرهم بان يطيعوا بلقين فاقام المعز أربعة أشهر بسردانية ثم رحل عنها ومعه يوسف بلقين فوصل الى سفاقص وفى نواحى هذه المدينة ، على حد قول ابن خلدون ، ودع الخليفة الفاطمى ورجـــع الى القيروان ، وعلى قول بعض المؤرخين ودع المعـز فى نواحى قابس ، وعند وصوله الى القيروان لقى بلقين استقبالا حارا من طرف أهل المدينة ونزل قصر المعز بالمنصورية حيث أقام أربعة أشهـر عين أثناءها الولاة وجباة الاموال .

3 ـ بلقين بعد توليته كخليفة للفاطميين :

ان أهم الاحداث وقعت فى هذه الفترة من حياة بلقين هى : ثورة أهل قابس ، وغزو المغرب الاوسط وتعيين عبد الله الكاتب كوالى افريقية ، وثورة خلف ابن خير ، ووفاة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وغزو المغرب الاقصى .

ا) ثورة أهل قابس :

فى أول دولة بلقين ثار الاباضيون فى ناحيـــة قابس ونهبوا أرباض المدينة وأحرقوها وحاصروها ولكن لم يفتحوها لان الجيش الذى سيره بلقـــين هزمهم هزيمة شنعـــاء .

ب) غزو المغرب الاوسط :

فى شعبان 362/ماى 973 خرج بلقين الى المغرب الاوسط فى جيش عظيم من كتامة وصنهاجة ، فمر بمدينة باغاية وعين عاملا للمدينة وأوصاه باللطفة

بسكانها ثم واصل طريقه نحو المغرب وبينما هو سائر فى طريقه سمع بأن أهل باغاية ثاروا على عامله وقاتلوه وهزموه ، فسير بلقين جيشا ليقضى على ثورتهم فلم يقدر عليهم فأرسل قائد الجيش الى بلقين يعرفه الحال . فتأهب بلقين للسير الى باغاية وبينما هو فى التجهيز أتاه خبر ثورة أهل تاهرت على عامله ، فرحل اليها وفتحها عنفا ثم تأهب للسير الى باغاية وبينما هو فى التجهيز أتاه خبر نزول زناتة بتلمسان ، فرحل اليها وحاصرها مدة ثم طلب أهلها الامان منه فعفا عنهم الا أنه على قول ابن الاثير نقلهم الى مدينة أشير .

ج) تعيين عبد الله الكاتب كوالى القيروان :

أثناء رحلة بلقين الى المغرب الاوسط توفى عامل القيروان والمنصورية جعفر بن تمرت فى جمادى الثانية 363/مارس 974 ، فكتب زيادة الله ابن القديم المسؤول على الجباية وطلب من بلقين تعيين عامل آخر يساعده فى تسيير الامور ، فعين بلقين عبد الله محمد الكاتب التميمى بن الامير الاغلبى محمد الذى كان هرب من القيروان عند وصول الفاطميين ، فكان عبد الله كاتبا فى ديوان الانشاء . فرفض اقتراح بلقين بقوة عدة مرات وما قبل هذه الوظيفة الا بعد ما استدعاه بلقين وهدده بالقتل ان استمر فى رفضه . فرجع عبد الله الى القيروان فاستقبله زيادة الله استقبالا وديا واتفق الرجلان مدة ثم تنازعا ودار القتال بينهما وانتهى بانتصار عبد الله الكاتب الذى سجن خصمه ثم قتله . ولم يتدخل بلكين فى هذا النزاع خوفا أن يتهمه المعز بخلع موظف كان سماه قبل مسيره الى مصر الا انه أعان عبد الله الكاتب سرا.

د) ثورة خلف بن خير وخضوع اهل باغاية:

وبعد قتل زيادة الله ثار خلف بن خير أحد مناصريه على بلقين وتحصن فى قلعة من قلع بلاده مع أتباعه ، فهجم بلقين على قلعة خلف وفتحها بعد حصار استغرق أربعة أيام ، فقتل بلقين عددا لا يحصى من الثوار ولكن خلف تمكن من الفرار الى بلاد كتامة ، فهدد بلقين بالقتل من يدافع عنه أو يأويه ، فالقى القبض عليه فقتل . ثم أرسل بلقين عشرة رجال من مدينة القيروان الى أهل باغاية يطلبون منهم أن يخضعوا لبلقين فقبلوا ، فأخرجهم بلقين من المدينة وخربها وما ترك الا ربضها .

هـ) وفاة الخليفة الفاطمى المعز لدين الله :

وفى شهر ربيع الثانى من سنة 365/نوفمبر 974 توفى المعز لدين الله وخلفه ابنه العزيز بالله فبعث بلقين هدايا الى الخليفة ومن جهته بعث العزيز بدنانير مضروبة باسمه وأقر بلقين على ولاية افريقية وأضاف اليه مدن طرابلس واحدابية

و) غزو المغرب الاقصى :

على قول ابن عذارى كان رحيل بلقين من افريقية الى المغرب يوم الاربعاء لخمس بقين من شعبان 27/368 مارس 979 وكان فى جيش يشتمل على ستة آلاف فارس ففتح بلقين مدينة فاس بدون صعوبة وأقام بها مدة ثم توجه نحو سجلماسة حيث كانت زناتة اجتمعت ، فتغلب عليهم ، فقتل أمير مغراوة ابن خزر وملك سلجماسة وبلاد

الهبط كلها وطرد من مدنها عمال بني امية . ثم رحل الى سبتة فى طلب من لجأ اليها من زناتة ، فاستغاثت زناتة بالمنصور ابن أبي عامر حاجب الخليفة الاموى الحكم فخرج بعساكره الى الجزيرة الخضراء وجمع جيشا عظيما وأمر عليه جعفر بن حمدون صاحب المسيلة سابقا . وأمده بمائة حمل من المال . فعبر الجيش البحر ووصل الى سبتة . واما بلقين فكان سيره صعبا لانه وجد فى طريقه غابات مشتبكة الاشجار . فمضى بنفسه حتى أشرف على سبتة من جبل مطل عليها . فلما رأى معسكر زناتة - المراكب المشحونة بالعدد تعبر الزقاق بدون انقطاع - فاستيقن أنه لن يقدر على فتح سبتة وقال : « هذه أفعى فغرت الينا فاها » وذهب الى مدينة البصرة وأميلة وحارب قبيلة برغواطة وانتصر عليها وتوجه نحو سجلماسة التى تولتها زناتة من جديد ، وبعد فتح سجلماسة سار بلقين نحو الشمال فاعتل فى الطريق بالقولنج وقيل خرج فى يده بثرة فمات منها .

هكذا توفى ابن زيرى مؤسس الدولة الزيرية التى تولت الامر فى افريقية الى منتصف القرن السادس الهجرى . الثانى عشر الميلادى . وأب حماد مؤسس الدولة الحمادية التى ملكت المغرب الاوسط حوالى قرن ونصف . فكان بلقين قائدا عظيما . قضى حياته فى الحروب فى سبيل توحيد المغرب من طرابلس الى المغرب الاقصى . وبجانب هذه الفضائل العسكرية ، أظهر بلقين فضائل ادارية واستراتيجية وسياسية عظيمة لانه رأى حسن موقع المدن الثلاثة التى أسسها : الجزائر ومليانة ولمدية .



مَدينة الجزائر في كتاب أنجليزي قديم

د . ابو القاسم سَعد الله

من الكتب القديمة عن الجزائر كتاب ضخم بالانكليزية طبع فى لندن سنة 1731 ، وعنوانه « الكامل فى تاريخ الجزائر » تاليف السيد جوزيف مورقان ، ويقع فى اكثر من 700 صفحة من الحجم الكبير . وهو فى مجلدين : مجلد فى تاريخ شمال افريقية عامة ((بربارية (BARBARY)) من اقدم العصور الى بداية القرن السادس عشر ، والمجلد الثانى وهو فى تاريخ الجزائر خاصة ، من بداية العهد العثمانى حتى زمن طبع الكتاب (1731) ويحتوى على جزئين : الاول من قدوم العثمانيين حتى تولى الحاج باشا (1545) والثانى منه الى بداية القرن الثامن عشر . وليس هذا اول كتاب بالانكليزية عن الجزائر ، ولكنى لا اعرف انه ترجم كاملا او ملخصا الى الفرنسية ، فما بالك بالعربية .

ومؤلف هذا الكتاب عاش سنوات طويلة فى الجزائر ، وتولى فيها بعض المهام فى قنصلية بلاده عندنا فى عهد القنصل البريطانى العام ، السيد روبير كول R. COLE الذى اقام فى مدينة الجزائر أكثر من أربعين سنة . وكان على اطلاع بأحوال البلاد عامة فى ذلك الحين ، فقد كان يحسن ، كما يظهر من الكتاب ، اللغة العربية ويعرف التقاليد الاسلامية وكان كثير التجوال فى مختلف أجزاء الجزائر يريد التعرف على أهلها وتقاليدهم ، وقد ذكر أنه زار الجزيرة المواجهة لمدينة الجزائر عدة مرات ، كما زار قسنطينة وغيرها.وكان يتصل بالمرابطين ويستمع الى أقوالهم ويتعرف على علاقاتهم بالشعب . وله كتاب عن الاسلام : أشار الى الجزء الثانى منه فى الكتاب الذى نتناوله (ص 487) وسماه « **التعريف بالاسلام** » MOHAMETISM EXPLAINED ، وانتقد دى تاسى الذى كتب أيضا عن الجزائر بأنه لا يعرف عادات المسلمين (239) . وقد نشر عملا آخر عن الجزائر فى لندن سنة 1680 . وكثيرا ما كان يصحح نطق واخطاء المؤرخين الآخرين عند ما يتعرض الى أسماء القبائل والاشخاص المحليين . ورغم اننا عدنا الى بعض المظان التى تحتوى على تراجم الانكليز فاننا لم نستطع ان نعرف عن حياته أكثر من هذا القدر ، فلم نعرف مثلا متى ولد أو توفى . وكل ما نستطيع الجزم به الآن هو انه قد عاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى .

وهناك عدة أسباب دفعته الى الكتابة عن الجزائر، أولها وجود لذة شخصية فى كتابة تاريخ بلاد وشعب قضى بينهم كثيرا من سنوات حياته . ويتضح من هذا انه كان يكتب عن تجربة ذاتية ، وانه كان يكتب نوعا من الذكريات والانطباعات . وسنرى أن هذا غير صحيح . وثانيها اقتناعه بانه فى استطاعته أن يكتب تاريخا عن الجزائر أكثر وضوحا وأوسع دائرة من أى تاريخ آخر كتب عن نفس الموضوع . فهو يعرف البلاد عن كثب ويعرف حياة المسلمين عامة ، ويريد أن تكون بلاده على علاقات طيبة مع هذه الجزائر القوية ذات الاسطول العظيم والسمعة الواسعة والامكانيات الكبيرة . وهو رأى نجده فى ثنايا الكتاب وسنتعرض اليه . وثالثها ، كثرة الاخطاء الفاحشة السائدة فى بلاده عمن يسمونهم «بالبرابرة» وعن أهمية الجالية التركية فى «بربارية» (شمال افريقية) ، وبالاخص عن قراصنة الجزائر واسطولها . وهو لذلك يريد أن يصحح الاخطاء وأن يساهم فى ازالة العراقيل وسوء التفاهم القائم بين مواطنيه وسكان شمال افريقية .

ومصادر مورقان كثيرة متنوعة . حقا انه اعتمد كثيرا على بعض المؤلفين الاسبانيين مثل ف .ديقو هايدو ، ولويس مرمول ، ولكنه كان دائما يحتفظ لنفسه بالرأى النهائى . كذلك اعتمد على لوجى دى تاسى الذى كان ممثل ملك انكلترا للشؤون البحرية فى هولانده . وأخذ عن الكاتب الدينى الاسبانى الدكتور بيرنادور آلدريتى صاحب « اسبانيا وافريقية فى القديم» ولم يأخذ كثيرا عن ليون الافريقى (الحسن الوزانى) لان مرمول استعار منه كثيرا ولان وجه بربارية قد تغير منذ عصره . وأخذ مورقان أيضا عن مؤلفين آخرين أمثال ب . دان ، قرامىي GRAMAYE ودافيتى DAVITY ودابر

DAPPER وهكليت HAKLYYT وكان ينقل أيضا عن ابن الرقيق القيرواني وغيره من كتاب المغرب الوسيط . ولكنه كان يأخذ بطريقة غير مباشرة . وقد رجع أيضا الى بعض الموسوعات التاريخية واللغوية . ولم يخل الكتاب من الاستفادة من كتب القدماء أمثال مؤلفات العهد الروماني (سالوست وسترابو . الخ) .

ولكن مورقان كان كثير النقد لمصادره . وكان يشعر أن الاروبيين الذين سبقوه بالتاليف كانوا مدفوعين بروح الجهل والحقد الدينى والاحكام المسبقة . لذلك انتقد يدو ، رغم انه يعترف له بالفضل وقد اسماه مرشده فى عمله . فقال ان كتابه يقوم على فكرة ثلاثية هى الاسر والشهداء والمرابطين (أسر المسيحيين من طرف الجزائريين وموتهم شهداء فى أيدى المسلمين ودور رجال الدين المسلمين فى الجهاد) . وهى فكرة حسب رأيه . تافهة ، واتهمه بضيق الافق والمحاباة الدينية والكتابة لهدف موجه . كذلك انتقد مرمول واتهمه بعدم التجرد من الهوى الدينى وبكثرة الاخطاء ولاسيما عند ما يتحدث عن السكان والبلاد . وانتقد ليون الافريقى بأنه . رغم أن كتابه قد طبع سنة 1525 وترجم الى عدة لغات (منها الانكليزية سنة 1600) فانه قد تجاوزه الزمن ، ومن جهة أخرى قال عنه أن شهرته قد جعلت الناس يعتقدون خطأ أنه المصدر الاساسى الوحيد عن تاريخ بربارية . واتهم لوجى دى تاسى بأنه كان يجهل أحول وعادات المسلمين . وقال عن الجميع بأن لهم أفكارا مسبقة خاطئة عن الاتراك والمسلمين . وانهم يستعملون ضد الجزائريين خاصة والمسلمين عامة عبارات جارحة قاسية متأثرين فى ذلك بأقوال ودعايات الكهنة الاسبان المغرضين الذين كانوا يشيعون آلاف الحكايات الخرافية لكى يحصلوا على المساعدات المالية والسياسية لتخليص الاسرى المسيحيين من أيدى المسلمين .

وحاول مورقان أن يصحح هذه الصورة الخاطئة عن الجزائر . فقال انه كان فى امكانه أن يأخذ عن تلك المصادر ويكتب تاليفا كالآخرين . ولكنه شعر أن له اشياء كثيرة خاصة يريد أن يقولها . ولذلك عزم على تاليف كتاب يحمل شخصيته وآراءه ويقدم تاريخ الجزائر . شاملا كاملا ، الى مواطنيه والى الاروبيين عامة لكى يعرفوا الحقيقة . وقد استجاب لرغبة بعض أصدقائه فكتب قسما مدخليا للكتاب تناول فيه التاريخ العام لبربارية (شمال افريقية) منذ القديم حتى بداية القرن السادس عشر . وقد افتتح كتابه بمحاولة تصحيح الصورة التى رسمها رجال الدين فى أروبا عن الجزائر ، فقال فى المقدمة ان الجزائر مشهورة بحكومتها القوية . وانها قد وقفت أكثر من قرنين ضد هجومات كثيرة وانه ليس هناك اليوم ما يجعلها فى خطر من تلك الهجومات . وقال انه من حق الجزائريين أن يكونوا شعبا بحريا قويا . أليس كل قادة أروبا ينشدون صداقتهم ويتوددون اليهم ؟ » فهم شعب يعقد السلام ويعلن الحرب مثل الامم الاخرى ، وهم دائما فى وضع يفرض على غيرهم احترامهم وتقديرهم » (ص 4) .

وعاب مورقان على من يقول ان الجزائريين عبارة عن عصابة من القراصنة الجبناء تكفى ست سفن

لتخريب مدينتهم عليهم . وقال ان أمثال هؤلاء لا يعرفون أن ارمادة (اسطول) فيليب الثاني الاسباني ضد بريطانيا (سنة 1588) لم تكن شيئا يذكر بالمقارنة الى ارمادة شارل الخامس التى تحطمت أمام مدينة الجزائر سنة 1541 أو الى الاساطيل الاخرى . الاسبانية والانكليزية التى تحطمت أمام هذه المدينة التى لا تقهر . وقد ضرب مثالا على ذلك بتغلب الجزائريين على الاسبان فى مستغانم حينما أسروا منهم 12,000 من أصل 16,000 من بينهم ابن حاكم وهران الاسباني ، وحملوهم الى مدينة الجزائر . وضرب مثلا آخر على قوة الجزائريين باخراجهم الاسبان من وهران سنة 1708 بعد أن ظلوا بها قرنا وبعد أن كانت محروسة بحوالى عشر قلاع ، وبحامية قوية .

وقد قسم المدخل (أو المجلد الاول) الى ستة اقسام ، نوجز عناوينها فيما يلى :

القسم الاول : عن أصل سكان البلاد (شمال افريقية)

القسم الثاني : عن قرطاجنة وامبراطوريتها

القسم الثالث : عن الاقاليم الرومانية فى شمال افريقية الى الهجوم الوندالى

القسم الرابع : تاريخ بربارية من الوندال الى الفتح الاسلامى

القسم الخامس : شهادات عن استبداد وظلم الرومان وشرور المسيحيين الافريقيين التى أدت الى سقوط تلك الاقاليم

القسم السادس : تاريخ بربارية الى القرن السادس عشر ، عند ما أصبحت الجزائر تحت النفوذ التركى .

ويحتوى هذا المدخل على 207 صفحات ، وتظهر فيه أيضا شخصية المؤلف بنقده للمصادر ودراسته لتاريخ الاسلام ومعرفته لتقاليد السكان .

ويأتى بعد ذلك المجلد الثانى ، وهو خاص بالجزائر ، وعنوانه : « **الكامل فى تاريخ الجزائر والاقاليم التابعة لها منذ استيلاء الاتراك عليها** » . ويقع فى جزءين كما سبق ان أشرنا ، الجزء الاول يضم ستة فصول نوجزها فيما يلى :

الفصل الاول : الجزائر فى القديم ، أسماؤها والثورات التى وقعت فيها وأوضاعها العامة.

الفصل الثانى : معلومات عن القرصان الشهير عروج باربروسة قبل استيلائه على الجزائر .

الفصل الثالث : تاريخ عروج باربروسة الى وفاته ، وكيف وقعت الجزائر فى يد الاتراك.

الفصل الرابع : خير الدين باشا ، والى الجزائر الاول باسم السلطان العثمانى .

الفصل الخامس : حسن آغا ، خليفة خير الدين باشا .

الفصل السادس : عهد الحاج باشا (يدعى كذلك واسمه الحاج بشر ـ أو بشير ـ بن عطيلة ـ أو عطاء الله) .

وهو جزء صغير الحجم اذا قيس بالجزء اللاحق أو حتى المدخل ، اذ تبلغ صفحاته حوالى 59 (ص 211 ـ 252) .

أما الجزء الثاني فضخم وفيه تفاصيل أكثر ، وهو يبتدىء بالفصل السابع :

الفصل السابع : حسن باشا بن خير الدين (العهد الاول)

الفصل الثامن : صالح رايس ، أول عربي يحكم الجزائر

الفصل التاسع : الباشوات : حسن قورصو و تاكارلي . و يوسف . والقائد يحيى .

الفصل العاشر : الباشوات : حسن بن خير الدين (العهد الثاني) وحسن آغا ، ومحمد خوجة . واحمد . والقائد يحيى (العهد الثاني)

الفصل الحادي عشر : حسن باشا بن خير الدين (العهد الثالث) الجزائريون وحصار مالطة .

الفصل الثاني عشر : محمد باشا بن صالح رايس . علي باشا الفرطاس .

الفصل الثالث عشر : عرب أحمد ، ورمضان باشا .

الفصل الرابع عشر : حسن باشا (العهد الاول) وجعفر آغا .

الفصل الخامس عشر : حسن باشا (العهد الثاني) . مامي باشا الارناووطي .

الفصل السادس عشر : احمد باشا . خضر باشا (العهد الاول) .

الفصل السابع عشر : شعبان باشا ومصطفى باشا (العهد الاول) وخضر باشا (العهدالثاني)

الفصل الثامن عشر : عن القراصنة الجزائريين وقوتهم البحرية .

الفصل التاسع عشر : عن شؤونهم البحرية الى فشل حملة السير روبير مانسيل الانكليزية

الفصل العشرون : مقتطفات من يوميات الحملة الانكليزية الفاشلة ضد الجزائر بقيادة السير روبير ما نسيل .

وينتهي الكتاب بملحق طويل (12 صفحة) يضم معاهدة الصلح والتجارة التي أبرمت بين الجزائر وانكليترا سنة 1682 وجددت سنوات 1686 ، 1700 . 1703 ، 1716 . وبملحق آخر في نفس الموضوع بين انكليترا وتونس من جهة وانكليترا وطرابلس من جهة أخرى . ويحتوى هذا الجزء على حوالى 340 صفحة . ولا يكتفي مورقان بذكر أسماء الباشوات ولكنه يتحدث عن أعمالهم خلال ولايتهم ومنشآتهم وعلاقاتهم الخارجية وصلاتهم بالسكان وبالوجق العثماني . كما يتتبعهم في مختلف مراحل حياتهم حتى بعد أن يتركوا الحكم ولا يهمل جانب السكان أثناء حديثه عن الولاة غير أن كتابه يظل كتابا سياسيا بالدرجة الاولى .

وهناك حادثتان هامتان ذكرهما مورقان تتعلقان بالتاريخ البحري للجزائريين : **اولاهما** حادثة غريبة تستحق الوقوف والدرس والبرهان وهي أن الجزائريين كانوا مزارعين في امريكا . لهم أملاك زراعية ضخمة ولهم خدم من الزنوج يعملون في مزارعهم (ص 517) وهو يستغرب من ذلك . رغم انه كثيرا ما سمع عنه لان الجزائريين لم يكونوا يملكون عندئذ السفن

القادرة على قطع المحيط . والحادثة الثانية أقل غرابة لانها ليست جديدة فى حد ذاتها ولكن المؤلف قد أعطاها كثيرا من الاهتمام وتتبع صاحبها بتفصيل خاص ، وهى دخول مراد رايس المحيط لاول مرة ووصوله الى جزر الكنارى سنة 1585 . يتحدث مورقان عن ذلك فيقول : انه أول جزائرى دخل المحيط وأغار على هذه الجزر وان رحلته قد استغرقت أكثر من اربعة أشهر . وانه غنم غنائم ضخمة وأسر فيها أكثر من 300 اسبانى بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر . وان الجزائريين قد احتفلوا احتفالا عظيما بعودة مراد رايس سالما غانما وانهم كانوا يلقبونه « بالكبير » لانه أول من دخل منهم المحيط هذا فى القرن السادس عشر . أما اليوم ، (زمن المؤلف) فان دخول الجزائريين المحيط أصبح أمرا عاديا (ص 589) ولا نظن أن مورقان أول من أشار الى هذه القصة . فقد يكون ناقلا لها عن هايدو، ولكنه يرويها بشيء من العطف والاعجاب ببطلها خلافا للمؤلفين الآخرين الذين أعماهم التعصب الدينى ، كما يقول . عن رؤية الحقيقة .

وتحتل مدينة الجزائر . كما يلاحظ المرء من الفصول . جزءا ضئيلا من هذا الكتاب الضخم . ولكن المؤلف يتحدث عنها حديثا جديرا بالوقوف عنده . ويبدأ بذكر الاقوال الشائعة عنها عندئذ لدى مواطنيه الانكليز خاصة والاروبيين عامة . فهى عندهم مدينة الرعب ، وملاذ قطاع الطرق وطلاب الغنائم الذين لا يكتفون بارهاب جيرانهم . بل هم الاعداء الالداء للمسيحيين وتجارتهم . انها حسب رأى البعض « عش العفاريت » ولكن المؤلف . الذى أخذ على عاتقه تصحيح الاخطاء الشائعة عن الجزائريين بحكم تجربته الطويلة معهم . يجيب هؤلاء بأنه من حق الجزائر أن تدعى القدم والشرف معا ، ومن حقها أن تحتل مكانة بارزة بين أنبل مدن العالم . أليست على انقاض (قيصرية) الرومانية ؟

ان هناك عدة آراء حول أصل مدينة الجزائر . فبعضهم يدعى انها مبنية على انقاض قيصرية الرومانية . وبعضهم يدعى أن قيصرية هذه تقع فى مكان آخر من الساحل غير مكان مدينة الجزائر الحالى . بل ان آخرين يذهبون . جهلا منهم حسب رأى المؤلف . الى أن قيصرية مدينة داخلية . ناسين انها كانت ساحلية غير أن الناظر المدقق فى موقع وشكل مدينة الجزائر الحالية يذهب الى ما ذهب اليه مورمول أن قيصرية القديمة تقع غرب مدينة الجزائر الآن وان اسمها الافريقى هو (تاكدامت) . وانها هى كل ما بقى من تلك المدينة الشهيرة التى اختارها الملك يوبا الثانى لتكون عاصمته رغم اتساع أطراف مملكته . وان الملك يوبا الثانى هو الذى أعاد بناءها ونبلها وأطلق عليها اسم ولى نعمته ، يوليس قيصر . أما ابن الرقيق فيؤكد أن اسمها القديم هو قيصرة (أو قيسرة ؟) ولكن المؤلف الانكليزى يقول انه لم يسمع بأن أحدا غير ابن الرقيق قد أخذ بهذا الرأى . وعلى أية حال فان آثار تلك المدينة (تاكدامت) تشهد على عظمتها . ويبلغ محيطها حوالى اثنى عشر ميلا .

ولكن ليس هناك ما يشير بالتأكيد الى أن مدينة الجزائر الحديثة قائمة على انقاض قيصرية العتيقة التى كانت ذات يوم مقرا لملك عظيم . وعاصمة

لاقاليمه الواسعة . والتى كانت خلال قرون مستعمرة رومانية تمثل رأس اقليم شاسع مزدهر . والواقع ان فى مدينة الجزائر الحالية (زمن المؤلف) بعض الآثار القديمة ، ولكنها ليست بشىء هام اذا ماقورنت بآثار المدن القديمة الاخرى فى العالم . واذا كانت مدينة قيصرية قائمة فيما هو الآن مدينة الجزائر ، فكيف نفعل مع كاتب آخر ، يعتبر عمدة فى آرائه ، وهو سترابو STRABO الذى يؤكد ان الملك يوبا الثانى قد أعاد بناء مدينة يول YOL وأطلق عليها اسم قيصرية ؟ ويؤكد استرابو كذلك انه كان أمام قيصرية جزيرة صغيرة . وقد لاحظ المؤلف ان مدينة الجزائر الحالية تقع أمامها هذه الجزيرة الصغيرة ، بينما لا يوجد مثلها أمام تاكدامت أو امام أى مكان آخر على الساحل تحدث عنه الجغرافيون .

ورغم شهرة مدينة الجزائر وعظمتها اليوم (القرن 18) عند الاروبيين ، فانه من الغريب حقا أن لا يعثر فيها الباحث على أى رسوم خطية أو تمثال ، أو حتى آثار باقية من قوس نصر ، أو شىء يشبهه . ذلك ان المؤلف كان كثير الاهتمام بهذا الموضوع والبحث عنه ولكنه لم يستطع خلال اقامته الطويلة بمدينة الجزائر أن يرى أو يسمع عن وجود آثار قديمة عثر عليها أثناء وضع أسس البنايات أو حفر الآبار، أو نحو ذلك من أعمال التنقيب . وقد استنتج من ذلك أن ما وقع لقيصرية القديمة لم يكن مجرد تخريب جزئى ، ولكنه كان تخريبا كاملا مع حقد شديد ! ويبدو أن مدينة الجزائر القديمة قد عانت من ظلم الحكام الطغاة مما أدى الى تخريبها وافراغها من سكانها وسلبها من ماضيها العظيم.ولكن مظهرها اليوم وهو مظهر حديث ، لا يدل على انها قد ظلت فارغة من السكان فترة طويلة . وعلى كل حال فان اعترافنا بشرف وقيمة الآثار القديمة التى كانت تحتويها يجعل من الظلم والاجحاف أن ننازع مدينة الجزائر اليوم (القرن 18) هذه العظمة الموروثة . ذلك اننى (المؤلف) أرى أن نحارب العدو بكرم ، وأن نعمل على هدى المثل القائل «اعط الشيطان حقه ! » ومادامت المصادر تثبت أن قيصرية قد بنيت على انقاض يول القديمة ، فان ذلك يكفى دليلا على شرف وقيمة وعظمة مدينة الجزائر الحالية.

أما اسم مدينة الجزائر فى التواريخ الافريقية (الاسلامية) فهو مزغنة . وهو الاسم الشائع اليوم لدى السكان . ولكنهم يستعملونه بشىء من المضض لانهم يعرفون انهم ينطقون اسما أقل أهمية من اسمها القديم (قيصرية) . وكل من ليون الافريقى ومرمول استعمل اسم مزغنة لمدينة الجزائر.ولكنهما لم يتفقا على شكل كتابته . وقد قلدهم الكتاب الآخرون . ويؤكد الافريقيون (المسلمون) ، ان المدينة كانت أصلا لبنى مزغنة (يكتبها مورقان هكذا : MUZGUNNA مزقنة ـ بضم الميم والقاف المعقوفة) ، وهم شعب ليبى قديم ، ولايعرف من أى قبيلة هم . وقد أنشأوا المدينة (لا يذكر تاريخ الانشاء) وسكنوها قبل أن يأتى الرومان هناك بعهد طويل وأطلق عليها العرب اسم جزيرة (هكذا بالمفرد) بنى مزغنة . أما اسمها الحالى فهو الجزيرة (بالمفرد أيضا) . وهو اسم محرف حتى عند الذين يعطونها هذا الاسم . فالعرب (البدو) واهل الحضر يسمونها (تزير) . والترك غيروا المفرد

العربى الى جمع . فهم يسمونها (الجزائر) . ولكن الافريقيين (أهل المغرب الاقصى) قلبوا الجيم الخفيفة (ج) الى جيم ثقيلة (ج G) على عادتهم فى ذلك فهم ينطقونها جزائر GEZEIR وللاوروبيين أسماء مختلفة يطلقونها على مدينة الجزائر ، فهى عندهم الجى ALGER والجيرى ALGIERI وأرجير ARGIER والاسبان خصيصا يطلقون عليها اسم ارخيل ARGEL (وأحيانا ARJEL) ، ولكن الانكليز والهولانديين فقط هم الذين يطلقون عليها اسم الجيرز ALGIERS .

ومن جهة أخرى يطلق الترك عبارةمغربلى (مغربى) على السكان الواقعين غرب الحدود المصرية ، وعبارة جزايرلى (جزائرى) على سكان الجزائر . بينما ينسب المغاربة الى الجزائر هكذا : جزيرى GEZEIRI. أما بقية الحضر والعرب الافريقيين فيقولون تزيرى TZEIRI أو زيرى ZEIRI وهو نفس الاسم الذى أطلق على أسرة بنى زيرى (الدولة الزيرية) . وقد أغامر (المؤلف) فأقول انه يبدو لى أن اسم المدينة المحرف اليوم قد استعير من اسم هذه الاسرة ، بدل أن يكون مأخوذا من اسم الصخرة (الجزيرة) المواجهة لها ، بل من الممكن أن يكون الاسم الشائع اليوم (القرن 18) محرفا عن (قيصرية) . أما الذين يزعمون أنها سميت (الجزائر) لانها تقع تقريبا فى مواجهة (جزر الباليار) ، فاننى (المؤلف) أرى أن رأيهم سخيفا ولا أساس له على الاطلاق .

وبعد هذا الحديث الطويل عن أصل اسم مدينة الجزائر ومشتقاته يتحدث المؤلف عن بعض الثورات والاضطرابات التى شهدتها المدينة منذ القديم حتى القرن السادس عشر . فقد ذكر أن الثائر فيرموس ، وهو من السكان الاصليين ، قد خرب قيصرية (215) . واستعرض الامراء والحكام الذين يسميهم «طغاة» والذين تداولوا على حكم الجزائر كالوندال والفاطميين والمرابطين والموحدين الخ . وتعجب كيف يخربون المدن بعد أن أوقعها السيف تحت سطيرتهم . ولكن المؤلف آكد انه لم يعثر على مصدر يقول بأن مدينة الجزائر ، منذ قيصرية ، قد خلت من سكانها فترة طويلة . غير انه يرى انها منذ العهد الرومانى ، لم تزدهر كعاصمة لأية مملكة أو حتى لأقليم كبير . وما غامر به من ان اسمها قد يكون مشتقا من اسم الزيريين مؤسسى بجاية ومن أنها ربما كانت عاصمة لهم ، هو مجرد تخمين قائم على التشابه فى الاسم وليس له مصادر على ذلك (ص 172) . وقد استنتج من ذلك أن مدينة الجزائر كانت مسرحا لعدة ثورات واضطرابات منذ العهد الرومانى حتى ثورة (هكذا يسميها) القرصان عروج باربروسة سنة 1516 (ص 216) .

ثم صور مورقان الصراع الثلاثى على مدينة الجزائر فى بداية القرن السادس عشر . فهؤلاء الجزائريون الذين يريدون الحفاظ على سيادتهم واستقلالهم فى مدينتهم بعد أن استولى الاسبان على بجاية وطردوا ملكها الذى كانت له السيادة على مدينة الجزائر ولم يتوانوا (الجزائريون) من أجل ذلك الهدف فى دعوة الشيخ سليم بن التومى (هكذا يذكره) زعيم قبيلة التاتيج TATIJE (هكذا أيضا) فى متيجة ليكون سيدا عليهم ، وعند ما قبل

استقبلوه فى فرح وغبطة وقرروا قطع الجزية التى فرضها عليهم الاسبان منذ 1509 . ومن جهة أخرى هناك الاسبان الذين ذهب بهم الطموح كل مـذهب وقادهم الحقد الدينى الى طرد المسلمين من بلادهم ، ثم احتلوا المدن والمراكز الساحلية فى بربارية ، بما فى ذلك بجاية ووهران والصخور (الجزر) التى كانت أمام مدينة الجزائر ، وفرضوا على أهل هذه المدينة جزية ثقيلة ، واقاموا أمامها حصنا قويـا يحميه مائتا جندى ، فكانت فى الحقيقة محاصـرة لا يدخلها الداخل أو يخرج منها الخارج الا برضى الاسبان . وأخيرا هناك القراصنة الاتراك بقيـادة الاخوان باربروسة يجوبون غرب البحر الابيض . وقد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى جزيرة جربـة وفى مدينة جيجل وغيرهما ، وان يكسبوا عـدة جولات ضد الاسبان . وبذلك جعلوا أنفسهم قـوة ثالثة يلتجىء اليها المغلوبون والضعفاء . ولم يتردد سليم بن التومى ان يستنجد باسم سكان مدينـة الجزائر ، بهؤلاء المسلمين الاتراك الذين جعلـوا همهم ملاحقة الكفار الاسبان ، فأنجدوه وتعـاون الطرفان ضد العدو المشترك ، ولكن الاتراك جعلوا من مدينة الجزائر مركزا لنشاطهم وعاصمـة لأقاليمهم وتخلصوا من كل وقف ضد هذا التيار . واستمر الامر كذلك الى زمن المؤلف .

وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن المؤلف) هو بالتقريب شكلها فى بداية القرن السادس عشر ، فأسوارها ظلت كما كانت ، ولكن أضيفت اليهـا تحصينات جديدة . غير أن ضواحيها القديمـة الكثيرة قد اختفت الآن . وكان ملوك تلمسان هـم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر لكى يقيم فيهـا ولاتهم وعند ما أصبح سليم بن التومى زعيم المدينة جعل قصره فى هذه القصبة ولكنه لم يمتع طويلا بزعامته . وتقع المدينة فى خليج واسع وقد بـنى جزء منها على أرض منبسطة تنتهى بالبحر عنـد سفح الجبل . أما الجزء الآخر فمبنى على منحـدر يبتدىء حيث ينتهى الاول ويمتد على 21 درجة و 20 دقيقة طولا ، و 36 درجة ، و 30 دقيقة عرضا . وهذا طبقا لآخر المعلومات لان بعض المؤرخين والجغرافيين يختلفون فى درجة أو أكثر أو أقل (ص 220) .

ويسير مورقان على منهجه الذى رسمـه لنفسه فيذكر لنا أهم الاعمال التى قام بها كل باشا فى مدينة الجزائر . فهذا حسن باشا بن خير الدين بنى سنة 1550 قلعة عظيمة فى المكان الذى نصب فيـه شارل الخامس (1541) خيمته ، وبنى ما يشبـه المستشفى لمداواة الجرحى والمرضى من الجيش، كما بنى حماما عاما فخما على غرار ما فعل والـده فى مدينة اسطانبول (ص 368) . كما ترك فى المدينة زوجته الجزائرية وابنها ، وترك لهما عددا كبـيرا من الارقاء والثروات (ص 475) . وهذا مثلا عرب أحمد باشا الذى بنى برجا وأصلح من شأن سور باب عزون ، واقام عينا جارية تجتمع فيها العيون القريبة كما بنى برج الفنار على الجزيرة (الحصن) الـتى كانت خارج المدينة وأنشأ عينا أخرى كبيرة أمام باب الواد . وكان يقف على هذه الاعمال بنفسـه . وهكذا ، الى أن يأتى المؤلف على ذكر الباشـوات الذين أشرنا اليهم فى الفصول . وبذلك أصبحت مدينة الجزائر لا تطاول ثروة وشهرة وعظمة . ويؤكد

مورقان (نقلا عن هايدو) انها قد أصبحت مطمح أنظار المشارقة الذين كانوا يقصدونها لثروتها وجمالها الطبيعي ، كما كانت أمريكا بثروتها وجمالها تحمل الاسبان على قطع المحيطات (ص 354) .

ولعله من الواضح ان هذا الكتاب ، بما فيه من معلومات سياسية واقتصادية ، وبما يحتويه من آراء غير متعصبة نحو البلاد وسكانها ، خلافا لما جرت به العادة عندئذ ، جدير بالترجمة كاملا رغم ضخامة حجمه وصعوبة لغته . وعسى ان يوفقنا الله الى ذلك . أما الآن فحسبنا هذه المعلومات عن محتواه العام وعن رأي المؤلف في مدينة الجزائر بالـذات .

اكتفينا بعرض آراء المؤلف دون التعليق عليها ، لان التعليق عليها يجعلنا في الواقع نعيد كتابة تاريخ الفترة كلها .



الحياة الاجتماعية فى مدينة الجزائر إبان الاحتلال

د . ابو العيد دودو

من الملاحظ ان الباحثين الجزائريين قد بدأوا يهتمون بدراسة ماضى الجزائر ، الا ان اهتمامهم لم يتعد ـ للاسف ـ الناحية السياسية . فاذا استثنينا بعض الاشارات العابرة ، فاننا لا نكاد نعثر على كتاب يقدم لنا صورة عن المجتمع الجزائرى فى عصوره المختلفة . ومن ثم بقيت جوانب أخرى من حياة الجزائر لاتزال تنتظر من يكشف عنها ويعنى بدراستها دراسة تفصيلية . فليس فى الامكان معرفة مجتمع ما دون معرفة تاريخه . فتاريخ المجتمع هو الذى يبين لنا مقدار نموه وتطوره خلال المراحل التى مر بها ، كما يوضح لنا مدى استجابته لانماط الحياة التى خبرها نتيجة احتكاكه بالغير واطلاعه على نظمه وتقاليده وثقافته .

والقيام بمثل هذه الدراسة يتطلب الاطلاع على ما كتبه الرحالون الاجانب عن المجتمع الجزائرى ، وجمع مادتها وتصنيفها . ثم تحليل نفسية هذا المجتمع على أسس علمية متينة للوصول الى نتائج تتعلق بالمرحلة التى وصل اليها . وقلة المراجع العربية ، أو بالاحرى انعدامها التام ، يبرر الاهتمام بما انطبع فى نفوس هؤلاء الاجانب عن الجزائر فى فترات تاريخية . طويلة أو قصيرة ، فحرصوا على تسجيله ليطلع عليه مواطنوهم فى حينه ، وتستفيد نحن منه فى المراحل التالية ، خاصة وانه لم يعد هناك ما يحول بيننا وبينه . ففى وسع مؤسساتنا أن تقوم بتصوير مختلف الكتب ، التى تتحدث عن ماضى الجزائر ، ووضعها تحت تصرف الباحثين والدارسين ليأخذ كل منهم ما يقع فى دائرة تخصصه .

وكاتب هذه السطور ليس باحثا اجتماعيا ولا مؤرخا . ولذلك يكتفى بتقديم الصورة التالية عن المجتمع الجزائرى وحياة أفراده ، وتوصيلها الى المتخصصين توصيلا أمينا . اعتمادا على ما كتبه « موريتس فاغنر » ، الرحالة الالمانى الذى عاش فى الجزائر حوالى سنتين (1836 ـ 1838) ، انضم خلالها الى أعضاء البعثة العلمية الفرنسية ، وشارك فى بعض الحملات ، منها حملة قسنطينة ، وزار مناطق مختلفة من البلاد الجزائرية ، منها المناطق التى لم تكن قد وطئتها آنذاك أقدام فرنسية ، حيث أتيح له أن يزور ولاية معسكر تحت حماية خليفة الامير عبد القادر . وقد تحدث عن هذا كله وغيره فى كتابه « رحلات فى ولاية الجزائر » الذى أصدره عام 1841 ، فقدم لنا فيه الصورة التالية عن الحياة الاجتماعية فى الجزائر .

القضــــاء :

بعد أن يتحدث «فاغنر» عن المحكمة العسكرية الفرنسية ، ينتقل الى الحديث عن المحكمة الشرعية الاسلامية التى كانت تقع فى أحد شوارع باب الواد الجانبية . ويصفها بأنها لم تكن تقل مكانة ومنزلة عن المحاكم الفرنسية . ثم يذكر أن القاضى المالكى يمثل الجانب الدنيوى بالنسبة للمسلمين فى حين أن المفتى الحنفى يمثل الجانب الدينى . ويقول ان هذا المنصب كان يتقلده أيام زيارته للجزائر واقامته بها الشيخ سيدى أحمد بن جعدون ، وهو رجل يبدو عليه الوقار . ويزيد من رفعة قدره ما يرتدى من ثياب فاخرة .

والقاضى المالكى يعقد جلسته فى قاعة بسيطة ، تغطى أرضها الزرابى ، ويتميز عن غيره من الحاضرين بعمامته الكبيرة ، التى تحتوى على ثنايا كثيرة ، غير أنه لا يختص بهذه العمامة ، اذ يشاركه فيها رجال الدين من أئمة وعلماء وقراء ومرابطين بالاضافة الى معاونيه من الكتاب والمحررين . ويتخذ القاضى مكانه فوق مقعد عال عند نهاية مائدة بيضوية الشكل . وأمامه نسخة من القرآن مذهبة الجلد ، وعن يمينه وشماله كتابه الذين يقومون بتسجيل محاضر الجلسات ، ويتولون اعداد الوثائق الخاصة بعقود البيع وغيرها من الملفات الرسمية . ويتوجهون بالنصيحة الى القاضى فى المسائل التى تشكل عليه ويوجد من هؤلاء فى الجزائر حوالى اثنى عشر كاتبا. يقومون بعملهم بالتناوب فى أيام معينة . ولأغلبهم



الزى الجزائرى فى العاصمة

لحى كبيرة ، وملامح لينة حينا ، ومرعبة حينا آخر ، حسب ما يوجد فى طبائعهم ومظاهرهم من فروق (ج I ص 62) .

وحين يدخل الشاوش أو خادم المحكمة المتخاصمين ليمثلا أمام القاضى ، يقفان فى النهاية الاخرى من المائدة . اما اذا كانا من النساء ، فانه لا يسمح لهن بالدخول الى قاعة المحكمة ، وانما يتحدثن الى القاضى من وراء قضبان نافذة الفناء . وكثيرا ما تكون هذه المرافعات شيقة حتى بالنسبة لاولئك الذين لهم المام قليل باللغة العربية أولا معرفة لهم بها على الاطلاق ، خاصة حين يكون النساء طرفا فى النزاع . ان براعتهن فى الحديث ، والحركات التى تصدر عنهن فى أثناء ذلك ، وهدوء القاضى الذى يترك المتخاصمين يتراشقان بالكلمات دون أن يبدى حركة تدل على سأم أو ملل ، كل هذا يكون مشهدا لا مثيل له . وليس هناك حادث يمكن أن أن يخرج القاضى عن هدوئه ، فهو يستمع الى الاصوات المتراشقة مطرقا وفى هدوء تام ، ويلقى على أحد المتخاصمين بين الحين والآخر سؤالا ، ويستنطق الشهود ان وجدوا ، ثم يصدر حكمه فى

القضية بكل رزانة ووقار . فيقبل حكمه دون أن يبدى أحد الطرفين رغبته فى استئناف الحكم ، وينحنى الخصوم لتقبيل يده قبل الحكم وبعده . وينفذ الحكم عادة فى الحين وفى المكان نفسه .

ويعاقب المذنبون فى الغالب بالضرب على الارجل وهم يفضلون الفلقة على السجن وقد حاولت الحكومة الفرنسية أن تبطل هذا النوع من العقاب ، الا انها لم تلق أى تأييد من طرف الاهالى . مما حملها على أن تتخلى عن محاولتها . فالاهالى لا ينظرون فيه الا الى الالم الجسمى ، لان المذنب تبقى كرامته محفوظة بعد أن ينال العقاب الذى يستحقه . وكان هذا النوع من العقاب مستعملا فى أيام الداى أيضا ضد أى موظف ، ولو كان وزيرا . فاذا ارتكب هذا الوزير ذنبا ، فانه ينال عقابه بالفلقة ، ثم يعود الى أهله وأحبابه ليجد مشاعرهم نحوه كما تركها ، فهذا العقاب لا يلصق به أى عار . أما دخول السجن فان الجزائرى كان يخافه كل الخوف ، لانه يبعده عن أسرته من جهة ، ويحول بينه وبين واجباته الاخرى من جهة ثانية ، وبالتالى فانه لم يتعود مثل هذا العقاب . وأقسى العقوبات بالنسبة له هى الغرامة المالية . ذلك أن حرصه على جمع المال لا يسمح له بدفع أية غرامة مهما كان مبلغها . فهناك من الجزئريين من يفضل أن تؤخذ قطعة من لحمه على أن يدفع شيئا من ماله . ومن أجل هذا رفضت الاصلاحات التى اقترحها السيد «لورانس» فى هذا المجال ، بشدة ، بحيث أن مشروعه لم ينل صوتا واحدا . فقررت الحكومة الفرنسية الابقاء على قوانين الاهالى القديمة (ص 62 ـ 6) .

الاســــواق :

وتوجد فى الجزائر بعض الاسواق ، يعرض فيها الغرباء بضائعهم ، وهى لا تشبه تلك الاسواق الضخمة ، التى كانت موجودة قديما فى بغداد أو فى طهران ، والتى تحدث عنها المؤرخون العرب . ان أسواق الجزائر لا يمكن أن تقارن حتى بأسواق ازمير أو القسطنطينية ، مع أن هذه ليست لها أيضا تلك الفخامة التى عرفتها الاسواق القديمة والتى تمثلت فى المنتوجات الشرْقية الرائعة ، أسواق الجزائر فقيرة بجانب تلك الاسواق ، وهى عبارة عن دور تشبه الدور العربية ، مع فارق واحد ، وهو أن جانبى الفناء يحتويان على حجرات ، الواحدة منها منفصلة عن الاخرى ، ولكل سوق طابقان أو ثلاثة وغرف كثيرة . والعادة المتبعة منذ القديم هى أن الاجنبى أو الجزائرى أو اليهودى يكترى فى السوق محلا أو عدة محلات بمجرد حصوله على رخصة بذلك ، ويعرض فى أبوابها بضاعته . ولم يكن يعدم من يزور محله ، الا ان زواره كانوا يكتفون بتقليب البضائع ، وقلما يشترون شيئا منها . فالتجارة لم تكن فى يوم ما بالجزائر مربحة، فكان الثراء فيها نادرا مثل ندرة الحكم بالاعدام تقريبا ، وذلك لقلة المبيع .

وكانت للجزائر أسواق تحتوى على أكثر من أربعين محلا ، الا أن القسم الاكبر منها ، بل أجملها وأجدرها بالاعتبار ، قد هدم ، وقامت فى مكانها محلات ودكاكين يملكها تجار أروبيون . أما دكاكين التجار من الاهالى ، التى تقع خارج هذه الاسواق ، فانها صغيرة وتافهة ، فليس فيها تنوع فى البضائع ،

ولا تلفت انظار المارة اليها الا بشكلها الغريب . هذه الدكاكين عبارة عن ثقوب مربعة ، تغلق فى الليل بباب خشبى مهترىء . ولا تستثنى منها الا الدكاكين الموجودة فى شارع الديوان ، لان بضائعها متنوعة ومنظمة بصورة تدل على ذوق أصحابها ، وهم فى الغالب من الكراغلة . وبضائعها على العموم من الصناعات المطرزة بالذهب ، مثل الخفاف والمحافظ وأدوات الزينة الخاصة بالاسلحة وغيرها ، وهى مصنوعة فى الغالب من القطيفة الخضراء والحمراء ويغطيها طلاء ذهبى كثيف ، تبهر العين بفخامتها أكثر مما تبهرها بجمالها .

أما بقية البضائع فتتكون فى أغلب الاحيان من الروائح والعطور المستخرجة من الورد والياسمين، ومن المصنوعات القطنية المحلية ، التى تدل على ما بذل فى نسجها من جهد ، وهى كمصنوعات يدوية لا تضاهى طبعا المنسوجات الاروبية الآلية لا فى جمالها ولا فى أسعارها . وكثير من الاشياء المصنوعة من خيوط الصبر ، مثل أكياس الصيد ، وزكائب السيدات ، وأحذية الاطفال وغيرها ، تهم الانسان لغرابة المادة التى صنعت منها . وأصحاب هذه الدكاكين من الكراغلة والحضر أثرياء فى أغلب الاحيان ، ويقومون بشراء هذه المصنوعات من الطرازين ومن بعض الحضريات . وتجد بضائعهم هذه أسواقا رائجة فى اوربا ، فلم يحدث أبدا ان سافر عسكرى فرنسى الى بلاده دون أن يأخذ لاصدقائه ومعارفه أشياء كثيرة من الصناعات الاهلية التى تروق العين بروعة اشكالها والوانها (ص67ـ68)

المقاهى :

وينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهى العربية ، التى يزيد عددها فى القسم الاعلى من المدينة فقط عن الستين . ويذكر أنه كان يقضى كل أمسية فى واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذى قضاه فيها أبدا . ويعتبر المقاهى من الاماكن التى تتيح للاجنبى أن يتعرف على الشعب ، ويتعلم لغته ، بل لا يوجد مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتم ذلك فى المقاهى . ويشير الى أن الاهالى لا يتحدثون كثيرا فيها ، الا أن الحضر أكثر استعدادا للحديث منهم فى أى مكان آخر ، وأى وقت آخر من أوقات النهار . ومن هنا يستطيع الانسان أن يدرس ملامح رواد المقاهى ، وهم جالسون فوق الارض ، فيرى الحضرى الهادىء جالسا قرب التركى فى لباسه الفخم ، ويليه زنجى أسود كالقار ، يرتدى نفس اللباس ، وبعد عربى من البادية ، طويل القامة ، جميل المظهر ، وقد لوحت الشمس بشرته ، يغطى عضلاته الفولاذية بردا طويل أبيض ، وفوق رأسه عمامة ، يلتف بها حبل من شعر الجمل . وغير بعيد منه قبائلى بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة ، ثم مزابى من الصحراء ، وبسكرى من بلاد الجريد . وبينهم فرنسى بلباسه العسكرى ، أو بأحدث طراز ظهر فى عاصمة بلاده . وتقع أجمل مقهى عربية فى شارع البحرية ، وبها قاعة مقسمة الى مقصورات ، تستند على أعمدة ، وتتسع لعدد كبير من الزوار . ويضيف فاغنر انه شاهد مقهى من هذا النوع فى أواخر سنة 1836 ، ولكنها أضيق ، وكانت تقع فى شارع لالاهم ، وقد أصبحت كلتاهما أثرا بعد عين . فقد اشتراهما الاروبيون وأقاموا فى مكانهما بنايات

على الطراز الفرنسي . وافقروا في مقابل ذلك من ملامح أصالتها الشرقية . فليس هناك اليوم مقهى واحدة تشبه المقاهي القديمة .

ان مقاهي اليوم مظلمة ومستطيلة الشكل . ولا تحتوي على عرصة واحدة ، وبها صفين من المقاعد الحجرية . تغطيها حصائر من سعف النخيل ، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية . ويقع المطبخ في مؤخرة القبو في منخفض ، وتقدم القهوة في فناجين صغيرة مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح ، ويوضع فيها مسحوق السكر، وهي قوية الطعم الى حد ما ، ولكنها لذيذة . وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان . ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو قصبة طويلة ، وتبغ من النوع الممتاز . وثمن ذلك كله سنتيم واحد . ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمنا من هذه .

ويجلس صاحب المقهى عند المدخل في وقار ، دون أن يهتم بمحله الكبير ، ويستقبل الزائر الاوروبي قائلا «مساء الخير ياسيدي» وأخاه في الدين «وعليكم السلام» ثم ينادي في اتجاه القبو «جب قهوة - جب سبسي» والطباخ من السود عادة. أما الندل فهم من أبناء الحضر . ووجوههم شديدة البياض موردة . وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حمر . وألبستهم في المقاهي التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الاحيان ، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة . وقد تركت الاعمال اليدوية آثارها على ملامح البعض منهم (ص 68 - 70)

ولا تخلو المقاهي الكبيرة من الموسيقى في أي يوم من أيام الاسبوع . ومكان الجوقة في العادة قرب المطبخ . مما يجعل أعضاءها ينظرون الى القدور التي يتصاعد منها البخار ويستمدون منها الحماس . وتتكون الآلات التي يستعملها الفنانون الجزائريون من الرباب والنايات والقيثارات المختلفة والطر ، غير أن هذا الاخير يستعمل في الحفلات التي تقام في الهواء الطلق أكثر مما يستعمل في المقاهي . وتخلو هذه كذلك من الطنبور والموسيقى الصاخبة الخاصة بالاعراس وحفلات شهر رمضان . فرواد المقاهي يفضلون الاستماع الى الموسيقى الرتيبة الهادئة التي تدغدغ حواسهم ، وتناسب الاحلام التي يستسلمون اليها في لذة . وينفرون من الانغام القوية التي تذكرهم بقعقعات السلاح وبطولات الاجداد (ص 70)

ويقع أكثر المقاهي العربية روادا في شارع الديوان قرب الكنيسة الكاثوليكية . ويتردد عليها كثير من الاوروبيين . فالقهوة فيها ممتازة ، والمجلس شيق . والجوقة كبيرة . وقائد الفرقة عربي عجوز ، وهو عازف بارع على الربابة . يشد الانظار اليه بغرابة تمثيله الصامت ، واهتزازات رأسه . وحركاته الرزينة الرتيبة . وكان في الماضي أحد أعضاء الفرقة الخاصة بالداي الاخير . ويمارس العزف في الاعراس الجزائرية منذ ستين سنة . ولذلك فهو يتمتع باحترام كبير لدى جميع الإسر الجزائرية التي تفتح له أبوابها باستمرار . فيسمعها أنغامه اللطيفة في كل الظروف والاحوال . يعزف في حفلات الختان ، ويمدهم بالانغام الراقصة في الاعراس ، معتصرا من ربابته ألحانا حزينة بهيجة في الوقت نفسه .

ويعثر المرء بين الحين والآخر فى مقهى شارع الديوان على عدد من الفتيات الخليعات أيضا ، وهن يرقصن على نغمات الموسيقى أو يغنين . أما صاحب المقهى فهو أخو ابراهيم شاوش ، جلاد الداى ، ويتمتع مثله بمكانة مرموقة عند الحضر ، وله شخصية قوية مثل أخيه الجلاد ، وذو ثروة كبيرة . والحفلات التى تقام فى مقاهى القسم الاعلى من المدينة أكثر أصالة وصخبا خاصة ما يقع منها قرب القصبة فهناك يقع المقهى اليونانية التى يحاول صاحبها ، ويدعى «سبيزيوطه» اغراء جمهوره بأحقر الوسائل فترى الاهالى ، وكثيرا ما يختلط بهم الاوروبيون ، يضجون فيها ويصرخون مع الموسيقى الصاخبة ، دون فارق دينى أو عنصرى ، ويمتزج ذلك كله بأصوات السكارى من النساء الخليعات اللواتى يتبادلن الاحاديث القذرة مع عدد من رواد المقهى (ص 70 — 72) .

التقاليد الدينية :

يتحدث «فاغنر» فى فصل تال عن بعض التقاليد المتبعة فى شهر رمضان وأيام العيد الصغير ، فيقول ان الاعلان عن بدء شهر الصيام يتم باطلاق مائة طلقة وطلقة من مدفع كبير أقيم فى الميناء ، وليست هذه الطلقات احسانا من جانب الحكومة الفرنسية ، ذلك أن السلطات المدنية تحتم على المسلمين دفع خمسة فرنكات لكل طلقة فى مقابل هذه التحية . وبعد هذه الطلقات توقد مصابيح كثيرة فوق منارات المساجد ، تضىء الهلال الذى يتوج رؤوسها . ويقف المؤذن بثيابه الجميلة وسط أضواء المصابيح ، ويرفع العلم الابيض ثم يدعو المؤمنين الى الصلاة .

وليس هناك مسلم راشد لا يسرع الى تلبية نداء المؤذن ، فلا الشيخوخة ولا الثروة تحول بينه وبين المضى الى بيت الله . وكانت المساجد ، وعددها أيام اقامة فاغنر بالجزائر تسعة وثلاثين ، دائما مكتضة بالمصلين . ويذكر الرحالة الالمانى أن صوت المؤذن كثيرا ما أغراه بالذهاب الى المسجد والمشاركة فى صلاة الجماعة على طريقته الخاصة . فالمسلمون لا يمنعون أحدا من الدخول الى مساجدهم ، الا أن على الزوار أن يخلعوا أحذيتهم حفاظا على طهارة المكان . وفى أيام رمضان تضاء عدة مصابيح بالجامع الكبير (ص 75 — 76) .

ويصف فاغنر الطريقة التى تتم بها اقامة الصلاة ويؤم الناس فيها شيخ الاسلام ، ثم يعلق على ذلك قائلا انه لمنظر جدير بالاعتبار أن ترى المسلم الفخور المعتز بنفسه ينحنى أمام ربه بخشوع العبد المذنب المرتعد . فالمصلون يصطفون خلف الامام دون أن يقيموا وزنا للمكانة أو الاصل والنسب ، فلكل ناحية فى الجزائر ممثلوها . والمسلمون يلفون مسبحة حول أيديهم فى أثناء الصلاة ، وقد أخذ عنهم المسيحيون ، كما هو معروف ، استعمال المسبحة . وتصنع المسبحة من ثمار الوقل الخاشع، وترى بأيدى الائمة والمرابطين وشيوخ البدو . وهناك عدد من أولياء هذه البلاد الجزائرية المشهورين ومنهم الامير عبد القادر ، لا يكادون يتركون المسبحة من أيديهم (ص 77 — 78)

احتفالات رمضان :

ويحرص المسلمون ، فيما يذكره فاغنر ، على سماع الموسيقى طيلة شهر الصيام . ومشاهدة

الرقصات والعروض المسرحية والهزليات المتنوعة، التى تذكر بأعياد الكرنفال فى أروبا ، مما يجعل المرء يتساءل عما اذا لم تكن فى أصلها عادة اسلامية انتقلت الى المسيحيين كما انتقل غيرها من التقاليد ويتشدد الجزائريون فى المحافظة على الصيام ، حسب ما أشار اليه العالم الطبيعى الالماني ، ويستشهد على ذلك بالمثال التالى : «استخدمت أحد الجزائريين لأستعين به خلال بعض الرحلات التى قمت بها فى داخل البلاد ، فوقعت لنا حادثة مؤلمة ، أضعنا فيها كل ما كان معنا من مؤونة ، فقضينا أربعا وعشرين ساعة فى المناطق الشرقية من سهل متيجة بدون طعام ، ووصلنا الى مدينة الجزائر مع الفجر ، فدفعت لمستخدمى البسكرى أجرته وأسرعت لتناول فطورى ، وبعد حوالى ساعة وجدته جالسا فى الميناء ، فسألته ما اذا كان قد تناول طعامه ، ولكنه أشار برأسه قائلا : «الله أمر بالصوم» وقضى يومه كله هكذا حتى المساء ، مع أن الجوع كان قد انهكه وظهرت آثاره فى ملامح وجهه النحيفة ، وما كان ليتناول شيئا ولو قدم له نظير ذلك ما قدم ، وما أن سمع طلقة المدفع حتى أخرج الخبز من قلنسوته وراح يلتهمه بجشع كالمجنون» (ص 79) .

وطعام الصائمين فى الليل ـ الكسكسى بالزبيب ـ أو مع اللحم المقلى ، وبعد أن يمتلئوا منه ينصرفون الى مشاهدة العروض الهزلية فى المقاهى العربية الكبيرة ، وتشارك فيها شخصيات من العباد والحيوانات ، وتحتوى على حركات واشارات مثيرة ، ومناظر فاحشة ، وسخرية مقذعة ، الى درجة أنه ليس من اللائق الحديث عنها ووصفها ها هنا .

وهناك محل آخر يحظى بعدد كبير من الزوار فى ليالى رمضان ، وهو المسرح الشعبى أو القرقوز ، ويقع فى أقذر زاوية بمدينة الجزائر ، فهو عبارة عن قبو مظلم ، يحتشد فيه عدد من الاهالى ، ويجلسون فوق الارض وأنظارهم متجهة الى الشاشة حيث تظهر الاشكال السوداء الناطقة ، التى تشبه خيال الظل الصينى فى اروبا ، على قطعة من الورق مشبعة بالزيت ، ومن بين الشخصيات الناطقة شخصية القرقوز ، ويمتاز بضخامة جسمه،ومنظره المضحك ، وسخريته المقذعة ، وما يحدث فى مسرح القرقوز يشبه الى حد كبير ما يحدث فى مسرح العرائس الالمانى أو فى مسرح جنوب أروبا ، فالشخصيات تتصارع وتتضارب من البداية الى النهاية، وقرقوز هو البطل ، وهو بدوى صرف ، يوزع أكثر الضربات ويتلقى مثلها ، والحوار بالعربية تارة ، وبالفرنسية تارة أخرى ، لان مدير المسرح ترجمان ، ولم ير مانعا من استعمال بعض التعابير الفرنسية ، واتاحة الفرصة للجنود الفرنسيين للمشاركة فى التمثيل ، ولا عمل للاشكال التى تمثل هؤلاء الجنود الا العراك مع القرقوز ، وهذا كله حتى لا يشعر المشاهدون من الاروبيين بالملل ، ويحرص مدير المسرح أيضا على أن تتخلل مشاهد العراك والنزال مناظر ساخرة ، الا أن هذه المناظر تبدو شنيعة وغير طبيعية ، بحيث أن كل انسان لا ينتمى الى طبقة الادنياء ، يغض نظره دون تلك المناظر الفظيعة ، والحقيقة ان الحضر لايجدون مكانا أحسن من هذا ، يتعلم فيه أطفالهم ضروب

السفالة وانواع الآثام . فهل يعجب الانسان بعد هذا أن يرى هذا الشعب غارقا فى الفساد والجبن والذلة والعبودية ، أو كان شبابه يمتص أحط أنواع السموم التى تقضى على طاقاته وحريته الفكرية . وتبدو الحكومة الفرنسية متسامحة فى مثل هذه الفضائح ، فلم تحاول حتى الآن اغلاق تلك الاماكن التى تنشر الفساد والانحلال . بالعكس ان أوضاعها قد تحسنت منذ دخول الفرنسيين ، اذ انها لم تعد تدفع الضرائب التى كانت تدفعها الى الداى ، ومن هنا فان عددها يزداد بسرعة ، وتهتم فرنسا بتزويدها بجيش من الفتيات يفوق عددهن عدد المعمرين بثلاثة أضعاف . (ص 80 — 81)

احتفـــالات العيـــد :

وبعد احتفالات رمضان يحتفل المسلمون بالعيد الصغير ، وهو عيد البهجة والمغفرة . يستسلم فيه المؤمن الى مسراته حتى فى أوقات النهار . فيستيقظ الناس فى الصباح على انغام الموسيقى الصاخبة ، التى يعزفها السود ، وهم يرتدون أجمل الثياب ، وبأيديهم الطنابير والصفائح الحديدية . وموسيقاهم ذات ايقاع جامح ، وتصاحبها حركات الفنانين السود وتمثيلهم الصامت واهتزازاتهم ، بحيث يبدو كل شيء فيهم يتحرك : الرأس والفم والاذن والعين والقدم والاصابع ، وهذا فى الوقت الذى يتهادى فيه الجسم ويؤدى حركاته على حدة . ومظهر هؤلاء الزنوج غريب يستعصى على الوصف ، ولا يستطيع الانسان أن ينظر اليهم دون أن يضحك . وتراهم يلتفون بالاجنبى ، طالبين منه ثمنا لهذه التسلية التى قدموها له ، ويضجون بآلاتهم حوله ، ويصورون وجوههم بصورة رهيبة ، فيضطر لشراء نفسه واخراجها من دائرتهم السوداء بعدد من القطع النحاسية . وهذه الموسيقى الزنجية من العادات القديمة المتبعة فى الاعياد ، وكانوا هؤلاء أنفسهم يوقظون الداى من نومه صبيحة العيد ، ويعزفون موسيقاهم فى قصر القصبة مثلما يفعلون ذلك فى الاماكن الاخرى ، ويتلقون عليها الهدايا . ولا يزالون يفعلون هذا اليوم أمام بيوت الاغنياء من الحضر والكراغلة .

ويرتدى الناس فى أيام العيد الثلاثة أجمل ما لديهم من ألبسة ، وخاصة الاطفال الذين يلبسون فى هذه الايام الثياب المطرزة بالذهب والفضة ، والسراويل المصنوعة من الصوف أو القطن ، مما يجعل منظرهم فى منتهى الروعة . والنساء والفتيات محجبات الا أن عددهن فى الشوارع والميادين لا يقل عن عدد الرجال وهن يكتفين بالنظر والتسلية وبينما يعانق الرجال فى الشوارع معارفهم ، يرش الاطفال الاوروبيين بماء الورد تحية لهم . وفى باب الواد ميدان فسيح ، يقوم فيه تركى عجوز بادارة عجلة كبيرة ، وفوقها عدد من الاطفال يمرحون ويضحكون . أما أبناء الاغنياء فيجلسون فى عربات يقودها الزنوج أو البسكريون ، وهؤلاء الاطفال يفضلون الركوب فى العربات الفرنسية ، فهى تسلية مجهولة بالنسبة لهم . وبما ان الجزائر لم تعرف الطرق المهدة قبل سنة 1870 ، فان أصحاب العربات الفرنسية يكسبون فى أيام العيد مبالغ كبيرة . فعرباتهم محملة بالاطفال الصغار على الدوام. وثمن مسافة 200 خطوة ، تقطعها العربة بسرعة .

هو سنتيم واحد . ويبدو أن التحولات السياسية وسيادة شعب غريب لم تنقص من أفراح هذا الشعب الا أن هذه الافراح والمسرات قد فقدت الكثير من صخبها وأصالتها (ص 82 – 83)

الحفـلات العـائلية :

والحفلات العائلية من ذلك النوع الصاخب أيضا فعند ما يرغب الشاب فى الزواج يبدأ فى تلقط اخبار الجميلات ، ويتزوج ، ان كان من أبناء الاثرياء ، فى سنه الثامنة عشرة ، وان كان من أبناء الفقراء ، فى الظروف التى تسمح له باعالة امرأة . فاذا سمع حديثا عن فتاة جميلة ، ورغب مصاهرة اهلها ، فانه يبحث عن خاطبة ، لها علاقة باسرتها ، ويتخذها وسيلة وواسطة لبلوغ ما يريد ، فيقدم لها الهدايا ويعدها باكثر من ذلك ، اذا هى زودته بمعلومات صادقة . وحين يكون الشاب غنيا أو ذا سمعة طيبة ، فانها تسرع فى الحال الى والدى الفتاة وتبوح لهما بالسر الذى عهد به اليها ذلك الشاب. فاذا ارتضياه صهرا ، فانهما حينئذ يقدمان لها بعض الهدايا لكى ينطلق لسانها فى الحديث عن جمال ابنتهما أمام الخطيب . وعند ما يتم الاتفاق بين الوالدين تبدأ الاستعدادات للزواج ، بعد قراءة الفاتحة وتحديد يوم الزفاف (ص 88 – 89)

ويذكر فاغنر انه حضر عرسين فى مدينة الجزائر، وان الزفاف يتم على الصورة التالية : بعد أن ينتهى الرجال من أقرباء العريس من جلستهم مع المفتى ، يذهبون بعد مغيب الشمس بالموسيقى والمصابيح الى دار العروس ، ويأتون بها ، وهى فى أحلى زينة ، ولكنها محجبة كالعادة ، الى بيت العريس . هذا اذا لم تكن من أبناء الطبقات الراقية ، اما اذا كانت منها فانها تحمل فوق بغل وفى محمل يشبه القفص يخفيها عن أنظار الرجال ، وحين تصل الى بيت زوجها تدخل فى غرفة مضاءة ، فتأكل مع النساء وترقص وتمرح . ويجتمع الرجال فى الفناء ، ليستمعوا الى أنغام الموسيقى والزغاريد المتكررة .

ومنزل العريس مجاط عادة بحشد من الناس من المدعوين وغير المدعوين ، ومن هؤلاء من يدخل الفناء ، فيصعب اخراجه بعد ذلك . ويجلس الرجال فوق الارض يدخنون أو يشربون القهوة ، ثم توضع قصعة كبيرة من «الكسكس» فى الوسط ، والبخار يتصاعد منها ، فيلتف الضيوف حولها ويطعمون منها بملاعق خشبية . واذا أراد الجزائرى أن يكرم ضيفه فانه يقدم له «الكسكسى» بالزبيب أو العنب، وتتوسط القصعة قطعة من الزبدة ، والاثرياء يقدمون فى أعراسهم «الكسكسى» باللحم ، لحم الدجاج المقلى عادة . وبعد ذلك يقدم خروف مشوى، يقسم أمام المدعوين ويوزع عليهم ، ثم تقدم الفواكه المختلفة من بطيخ أو تمر أو برتقال ، ويوجد البرتقال بالجزائر طوال السنة تقريبا . وبالتالى تقدم القهوة حتى الصباح ، فيشرب المدعوون وهم يتمتعون بمشاهدة الفنانين والموسيقيين ويستمعون الى أنغام آلاتهم وغنائهم .

ويقود الفرقة الفنية موسيقار الداى ، وهو العجوز على الخيارى ، بهدوء ووقار ، ويقوم بالدور الاول فى الحفلة ، فيحدث الحاضرين طورا ، ويغنى طورا آخر ، ويروى لهم قصص الحب . أما الراقصات فهن من بنات الشارع ، وغالبا ما يرتدين ثيابا

فاخرة . ولهن حظ من الجمال بالنسبة للاهالى على الاقل . ورقصهن هؤلاء البغايا رتيب لا جمال فيه أصلا . فهن يلوحن فى الهواء برداء كبير شفـــاف أو منديل ويحركنه حركات متنوعة دون أن يتركن مكانهن . واجسادهن تهتز بشكل مثير ، كل شىء فيهن يرتعد : الرأس والصدر والايدى والارجل . والظاهر أن الحضر يجدون لذة كبيرة فى مشاهـدة مثل هذه الحركات الخليعة ، مع انها خالية مـــن الفن تماما ، بل انها تثير الاشمئزاز . والرقـــص مهنة رابحة ، فبعد كل رقصة تقترب الراقصة من المشاهد الجالس ، وتحنى رأسها فوقه . واللبيـاقة تحتم عليه أن يلصق بماء الورد أو بلعابه قطعـــة نقدية فوق وجهها بالقطع تحرك رأسها فتتســاقط فى منديلها . وقد أكد لى أحد الجزائريين أنها تتقاسم ذلك مع صاحب العرس . وهو ما يشبه ضريبـــة العرس بالنسبة للمدعويـن .

ويتسلى الجنس اللطيف فى الطابق الاعلى عـلى الطريقة نفسها ، وكثيرا ما تسمع زغرداتهم وهذه الزغردة تسمع فى الاعراس وفى حفلات الختـــان وفى أيام الحرب . وفى النهاية تقدم لكل من العريس والعروس بعض التعليمات المتعلقة بحياتهمـــا الزوجية . وبعد دخولهما هذه الحياة ترتفع مـــن جديد الزغاريد وأصوات الموسيقى الصاخبـــة . (ص 84 ـ 88)

وحفـلات الختان شبيهـة بحفـــلات الـزواج . ويختن الطفل فى الرابعة من عمره من طرف رجـل يعرف باسم « البشار » ، ويتلـقى من الاغنيـاء ثمانية « بوجو » على الاغلب ، أما الفقراء فلا مـــال لديهم . ولذلك فهو يختن أطفالهم مجانا . ويحرص الحضر على اقامة احتفالات كبيرة بهذه المناسبة .



كلمـــــات

سياســة الاستعمار الثقافية :

تتلخص أهداف هذه السياسة فى القضاء على الثقافة الوطنية ونشــر التعليم الفرنسى مكانها ، وكان الغرض من هذا التعليم أن يتحول المجتمــع الجزائرى تحويلا كليا يجعله يخدم مصالح المستعمر (ص 73) ، ولهـــذا انتهجت السلطة الفرنسية سياسة ـ الاندمـــاج ـ

وارتأت أن التعليم هو احسن وسيلة لتحقيق تلك السياسة ، وارادت ان تزيل « الافكار المتخلفة » المتفشية بين الاهالى ومعنى هذا القضـــاء علـى ثقافتهم ولغتهم وشخصيتهم ـ وهكذا تتمكن الدولة المحتلة من السيطـرة على الوضع ويتركز نفوذها فى البـلاد ، وفى النهاية ـ يتقبل السكـــان النظام الجديد ويرضون به ولا سيما فى المدن (ص 164) ، وجاء فى تقـرير أحد المسؤولين « ان بناء مدرسة افضل من فلقـينَ لاقرار الامن » (ص 165).

من كتاب : المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة للدكتورة تورين

ثرفانتس
قمة الأدب الإسباني

كان أسيراً فى مدينة الجزائر

د. الطاهر احمد مكي

التاريخ يعيد نفسه ، ولا أدعى الى اليقظة ،واكثر تبصرة فى حياة الشعوب ، من نظرة الى الوراء ، نرد اليها نتائج الحاضر الذى نعيشه ،والمستقبل الذى نتطور اليه · وتفسير ما يقع اليوم ، فى ضوء أحداث الامس ، شىء مقرر فى مناهج البحث التاريخى ، منذ ان كتب ابن خلدون مقدمته ، الى الدراسة المستفيضة التى قام بها المؤرخ الانجليزى ارنولد توينبى عن الحضارة الانسانية عبر التاريخ ·

والحوادث الجسام قد تؤدى الى لقاء متعاون مثمر أو الى مواجهة حادة عنيدة ، وبيدنا دائما ـ اذا وعينا وقائع تاريخنا ـ ان نجنب انفسنا مواطن الزلل ، وان ندفع بها فى طريق الخير ، وان نجرد قوى الشر التى تواجهنا من أمضى اسلحتها ، وهو جهلنا بانفسنا ، ومعرفتها بنقاط الضعف فينا ، فيسهل عليها تطويقنا ، وافراغ ثوراتنا العظيمة من محتواها ٠

وثمة حقيقة مقررة ، ان هذا الجانب من البحر الابيض المتوسط ، سمه العالم العربى ، أو العالم الاسلامى ، أو جنوب البحر المتوسط ، أو ما شئت من اسماء ، فلن يغير ذلك من الحقيقة شيئا ، كان هدفا مستمرا ، لعدوان متصل من اوروبا ، أو الجانب الشمالى ، على امتداد كل العصور ، عدوان رده العالم الاسلامى بقوة ما كان متحدا ، وامسك بزمام المبادرة ، فكان الجانب الذى يخشى ٠ وتقهقر واستعمر ما توزعت منه الكلمة ، وتنازع الاخوة ، ودب بين شعوبه الشقاق ٠

مع نهاية القرن الحادى عشر الميلادى تحركت اوروبا لغزو العالم الاسلامى فى الجانب الشرقى منه ، تحت راية الصليب وباسمه ، القت بثقلها كله على سورية ، أعنى الشام وفلسطين ولبنان ،وضمت جيوشها ايطاليين وفرنسيين والمانا وانجليزا ، وآخرين من كل انحاء اوروبا ، ووجدت فى البابا أوجانيوس الثالث ، وجلس على عرش الفاتيكان من ١١٤٥ الى ١١٥٣ ، مبشرا ملهبا للمشاعر ، وداعية بليغا ومتحمسا للقتال ضد المسلمين ٠ وتمكن الصليبيون بدءا ، وكان هذا اسمهم الذى اختاروه لانفسهم وعرفوا به ، من احتلال انطاكية ، وعكا ، والقدس فى فلسطين ، وان يبسطوا سلطانهم على شمال سورية ، وان يبقوا فى طرابلس الشام مائة عام ٠ فلما جاء صلاح الدين فاحكم السياسة ، وأحسن القيادة ، ثار للمسلمين ، وانتصر على الصليبيين فى معركة حطين ، وأجلاهم عن كل ما استولوا عليه ٠ وكان صلاح الدين رمزا طيبا للحضارة الاسلامية فى كلا جانبيها ، ان حربا وان سلما ، فاعلن أن بيت المقدس ، وهو فى حوزة المسلمين ، مفتوح على مصراعيه ، لكل حاج أعزل من السلاح ، جاءه متعبدا لله ، وليس متعصبا يبيت على غدر وعدوان ٠

وبعد انتهاء الحروب الصليبية فى المشرق بما يقرب من قرنين ونصف من الزمان ، واجه الغرب الاسلامى زحفا صليبيا آخر من نوع جديد ٠ بدأ أولا فى الاندلس ، فكانت الجيوش التى تأهبت لاقتحام غرناطة ، عاصمة الاندلس الاسلامى ، تتكون من جنود قدموا من كل أوربا الكاثوليكية ، ايطاليين وفرنسيين ، والمانا وانجليزا وبرتغاليين ،وأشتاتا مغامرة من بقية دولها ، ومن ورائهم البابا ، يجمع الكلمة ، ويمنح القداسة ، ويعد المقاتلين بالجنة ، فلما كتب لجمعهم المنظم ، المتحمس ، المتوحد ،الغلبة على المسلمين المختلفين على انفسهم ، جلس الكاردينال خمينيت ثيسنروس JIMENET CISNEROS ، وكان الدولة ، فهو عراف الملكة ، تجلس بين يديه لتعترف له بخطاياها وذنوبها وهفواتها وزلاتها ، فيمنحها الغفران ان شاء ، وهو مستشارها ، وكبير وزرائها ، وهو رئيس الكنيسة الكاثوليكية ، ومطران طليطلة ، والقائم على شئون محاكم التفتيش المختصة بملاحقة المسلمين ، جلس نشوان بالنصر ، يخطط لحملة صليبية جديدة ، تجتاح شمال افريقية كله ، وتجعل منه مستعمرة ، يحكمها البابا ، ويكون الرجل الاول فيها قداسة الكاردينال ٠ وهكذا اندفع البرتغاليون والاسبان والايطاليون فى هجوم متواصل على المغرب،والجزائر وتونس ، وليبيا ، وليثير الحمية فى قلوب جنده ،

صحبهم فى هجومهم على مدينة وهران عام ١٥٠٨ ، وهى احداث بالغة الخطورة ، لم تدرس بعد علّى نحو علمى ، لتستخرج منها الاســباب والنتائج ، وقد احسن الاستاذ توفيق المدنى صــنعا ، حين خطا الخطوة الاولى ، فجمع وثائقها واحداثها فى كتابه القيم « حرب الثلاثمائة سنة مع الاسبان » ·

ولقد قاوم المغرب فى عنف هذا الزحف الصليبى، وتميزت الجزائر من بين دوله بانها تجاوزت مرحلة الدفاع الى الهجوم ، وكان البحر الابيض المتوسط ساحة لقائها مع كل دول اوروبا العادية ، تعتــدى باسم الكاثوليكية ، وتقاتل تحت راية الصــليب ، ويجمعها من وراء ذلك كله ، رغبة عارمة فىالتسلط على هذا الجانب من الارض ، وانتهاب خيراته ·

كانت حربا بأسلحة العصر ، ويســتخدمها كلا الفريقين ، الهجوم على سفن العدو وأسرها ، وأبدى البحارة الجزائريون شجاعة وحذقا وجسارة منقطعة النظير،ولكن اروبا فى غزوها الحديث الذى استهدف مع خيراتنا عقولنا وثقافتنا ، اقامت دون تاريخنــا الحقيقى حواجز مانعة ، والقت عليه استارا صفيقة، ولم تمكنا من العودة اليه او فهمه ، وسار فى طريقها بعض من علمتهم من ابنائنــا ، غفلة أو جهلا أو استنفاعا ، فشوهتالاحداث لكي يخجل منها ابناؤها وحتى كبارنا ، واصبحت هذه المعارك البحــرية ، تدرس على نحو مختلف تماما على جانبى البحــر الابيض المتوسط · يدرسها الطلاب فى فرنســا أو ايطاليا أو اسبانيا ، امجــادا حربيــة يزهون بهـا · ويدرسونها لابنائنا « قرصنة » بحرية ، فيها اعتداء على التجارة ، وحرية الملاحة ، وانها خــروج على القانون ، كانما الحروب فى اى عصر تعترف بشىء من هذا · وتمثل المسرحية بنفس فصولها الآن ، مع اختلاف الممثلين ، امام اعيننا ، يغدر الاسرائيليون



بالفدائيين ، ويقتلون الآمنين ، ويدمرون قــرى بأسرها ، فيحسبون لهم ذلك فى عداد الشــجاعة والذكاء وحسن التخطيط ، وانها الحرب !· وينجح الفدائيون الفلسطينيون فى عمليــة لهم ، فترميهم أوروبا ، ومعها أمريكا فى هذه المرة ، بالوحشــية والهمجية والانتحار !

فى واحدة من هذه الحروب الضــارية ، والتى شغلت امتداد القرن السادس عشــر كله ، خرجت سفينة جزائرية ، الى عرض البحر الابيضالمتوسط ، والتقطت سفينة للعدو ، وبعد معركة قصيرة انتصر فيها البحارة الجزائريون استولوا على السفينة ، وأسروا من فيها من الجنود ، واقتيدوا الى الجزائر وكان بين هؤلاء الجنود الاسرى شاب اســبانى لما

يتعد الثامنة والعشرين من عمره ، تبدو عليه مخايل الذكاء والفطنة ، والنظرة المتأملة ، وسوف يقدر له ، فيما بعد ، أن يدخل التاريخ من أوسع الابواب ، اديبا عملاقا ، فى مستوى قامة المتنبى ، وشكسبير ، وجوته ، وأبى العلاء ، وفيكتور هيجو ، ودانتى ، وجوركي ، وآخرين كثيرين ، استعصوا على النسيان ، واحتلوا من ذاكرة الانسانية مكانا خالدا كان ذلك الشاب هو : ميجيل ثرفانتس سافدرا MIGUEL CERVANTIS SAAVIDRA ، ولنبدأ معه رحلتنا من اولها .

فى يوم مجهول من شهر سبتمبر ، أو أوائل اكتوبر ١٥٤٧ في قرية يغلب على الظن انها قلعة هنارس ، بين مدريد ووادى الحجارة ، فى واد لم يشهر - اذ ذاك - باكثر من انه كان الحدود الفاصلة بين المملكتين الاسلامية والمسيحية ، قبل ان يتقلص ظل دولة المسلمين ، تتعاوره الجيوش فى تقدمها أو تقهقرها ، ولد ميجيل ثرفانتس ، فى أسرة جاء ترتيبه فيها الرابع بين اخوته ، ابنا لطبيب متجول ، استقر فى المدينة جراحا .

وكتابة تاريخه لا تخلو من صعوبة ، لان بعض جوانب حياته واضح موثق ، ليس موضع خلاف ، وجوانب أخرى منها تقع فى دائرة الظلام ، والخلاف حولها كبير للغاية . وأولى هذه المشاكل التاريخ الدقيق لمولده ، فهو مجهول لم يرد فى أية مدونة أو وثيقة ، فاعتمد بعضهم على المألوف الشائع من العادات ، وهى ان بعض المقاطعات كانت تطلق على الطفل الوليد ، اسم القديس الذى ينسب اليه ، ولكل يوم فى الكنيسة الكاثوليكية قديس ، ومن ثم فهو ولد فى يوم ٢٩ من شهر سبتمبر ، لانه يوم القديس ميجيل ، وبخاصة أن الاسم لا يرد فى أى من نسبه العائلى المعروف ، ويعود الى القرن الحادى عشر الميلادى ، غير ان هناك من يرفض هذا الرأى ، لان من الثابت فى وثائق كنيسة المدينة ، ان الطفل عمد فى يوم ٩ من اكتوبر ،وجرت العادة بالا يتأخر تعميد الاطفال عن اليوم الثالث لمولدهم ، وهي تقاليد دينية كانت تراعى بدقة ، وفى مدينة القلعة بخاصة ، فقد كانت مركزا هاما ، من مراكز رجال الدين ، وفيها أقامت الكنيسة جامعتها عام ١٤٩٨ ، اى بعد زوال دولة المسلمين رسميا فى الاندلس بست سنوات . وبعد أن دخل التاريخ ، وطوقت شهرته الآفاق ، بدأت أكثر من قرية ومن مدينة تزعمه ابنا لها ، ولكن ثرفانتس نفسه ، سوف يؤكد فيما بعد ، وبخط يده ، أنه من مواليد مدينة القلعة ، وبنشر هذه الوثيقة سقطت بقية الادعاءات .

وكما يحدث لمعظم العباقرة فى العالم ، لا نعرف لثرفانتس طفولة واضحة ، وليس لدينا اية صورة دقيقة عن دراسته المبكرة ، وكل ما نعرف عنه ، ان نبوغه تفجر مبكرا ، وان اهتمامه بما حوله كان كبيرا ، وان اقباله على الدرس كان ملحوظا ، وبلغ نهمه بالقراءة انه كان يلتقط الاوراق المكتوبة الممزقة المهملة ، التى تعبث بها الرياح فى شوارع القرية ، وقد أغرم منذ صباه بالمسرح الضاحك ، أو الساخر ، وبكتابه وممثليه على ايامه ، وانه أحب الشعر وتذوقه ، ومال اليه ، وبدأ يشدو به منذ اللحظة التى استطاع فيها ان يعبر عن مشاعره وأحاسيسه . غير انه وقد تجاوز مرحلة القراءة والكتابة ، مل متابعة الدراسة ، فقد كانت كلها بيد الرهبان ، وتدور حول موضوعات دينية او لاتينية ، عقيمة ومجدبة ، متعصبة ومقفلة فى وجه أى تيار انسانى ، وفوق اية محاولة تستهدف مناقشتها واخضاعها لمنطق العقل .

وجاءه الانقاذ وهو فى السادسة عشرة من عمره ، فقد بارح أبوه المدينة فى عام ١٥٦٣ ، أو العام

التالى له ، ليقيم مع أسرته فى مدينة اشـــبيلية ، عاصمة الاندلس على أيام المرابطين والموحدين ،ولها تقاليد عريقة ـ وما تزال ـ فى عالم الادب والطرب والفن ، وقد اتخذ منها سراة القوم الفاتحين ملاذا ومقاما ، ووراءهم جاء « الجزويت » فاقاموا مدرسة ارقى نسبيا ، يختلف اليها ابناء العلية ، ومن المؤكد ان ثرفانتس تردد على هذه المدرســة ، وتلقى فيها دروسا فى اللغة اللاتينية ، واعجب بطريقة اساتذتها فى التربية ، واثنى عليهم فيما بعد ، فى قصـــته « حوار الكلاب » !

وطبعا هناك من استكثر على ثرفانتس ان يكون عبقريا دون ان يدخل الجامعة ، وكما بدأت القـرى تتنازع بنوته ، اخذت الجامعات بدورها ، او رجالها على نحو أدق ، تزعمه واحدا من طلابها · قال رجال الدين الكاثوليك انهم وجدوا اسمه بين قوائم الطلاب فى جامعتهم بسلمنقة ، ولكنهم لم يقدموا هـــذه الوثائق ، ولم يدللوا على رأيهم ، ولم تثبته رواية أخرى · وقال آخرون ، اذا كـان لابد ان نجعـل منـه خريجا فى جامعة ، فاولى بهذا جامعة المدينة التى أمضى فيها صباه وجانبا من فتوته ، وهي مدينـــة القلعة ، ولكن اسمه لا يظهر فى سجلاتها ، وحفظت لنا كاملة ، ولم يشر هو الى شيء من هذا · وفى غمرة الحماسة نسب اليه بعضهم انه كان طالبا فى جامعـــة مدريد ، دون أن يعرف ان مدريد فى تلك الايام ، كانت بقايا قرية عربية متواضـــعة ، ليست عاصمة ، وليس فيها جامعة · وهناك من يرى انـه اتم دراسته العالية فى جامعة اشــــبيلية فى عامى ١٥٦٤ ـ ١٥٦٥ ، حيث كانت عائلته تقيم هنـــاك ، ولكن المرجح انه حاول ان يقترب من هذه الجامعة فعلا ، ولكنه وجد الدراســـة فيها جافة متخلفة ، متعصبة مظلمة ، على نحو ما وجد على يد رجـــال الدين فى جامعة القلعة ، فقنع بما يتعلم فى مدرسة الجـــزويت · لكنه استمتع حقا فى هذه المدينـــة بمشاهدة تمثيليات لوبى رويدا LOPE RUEDA

الهزلية الساخرة الشهيرة ، ولوبى هـــذا يعتبر مؤسس المسرح الاسبانى الحديث وأبا له ·

خلال ذلك كان ثرفانتس يقرض الشعر لنفســه ، أو ينشده لاصحابه ، ثم واتته الفرصة ليظهر مواهبه شاعرا على مستوى الدولة ، ففى عام ١٥٦٩ توفيت الملكة ايزابل ، زوجة فيليب الثانى ملك اسبانيا ، فرثاها بقصيدة شعرية ، غير انها لم تفتح له الطريق الى البلاط ، فقد كان الملك مشغولا بالتجارة ،وتكديس الذهب ، وملاحقة بقايا المســـلمين فى الاندلس ، ومحاربة دعاة الاصلاح عبر امبراطوريته الواســعة فى أوروبا وأمريكا ، غير انها لفتت انظار كاردينـــال ايطالى جاء الى اسبانيا ليقدم العزاء للملك فى وفاة زوجته ، وكان الكاردينال مغرما بالآداب والفنون ، ويبسط رعايته على الفنـانين والادباء ، وفى نفس الوقت كان ثرفانتس فقيرا ضائعا مهملا ، حريصـــا على الهروب من اسبانيا فى أسرع وقت · ولم يذكر لنا التاريخ سببا واضحا للحرص الشديد على هذه الهجرة ، فقيل انه اصطدم مع رجال البلاط الملـكى الى حد المبارزة ، وانه جرح أحدهم فى معركة ، وان القضاء كان يطلبه ، ويعللها بعضـــهم بخيبة الامل الكبيرة التى هزت أعماقه ، فقد كان يأمل أن تكون القصيدة بداية اقتحامه لعالم الادباء ، وان يصـبح معها موضع رعاية القصر ، واجلال رجال البلاط ، وقيل انها ذات جوانب عاطفية ، وان فشله فى حب ملك عليه شغاف قلبه ، دفعه الى اليأس والقنـوط ، وقد يكون فيها شيء من ذلك كله ·

وأيا ما كان الامر فقـــد ذهب للقاء الكاردينال ، وعرض عليه ان يكون فى خدمته ، وأن يصحبه معـه

الى ايطاليا ، فقبل رجل الدين الايطالى ، وهكذا رحل ثرفانتس فى نهاية عام ١٥٦٨ ، وقبل ان يغادر وطنه زار بلنسية ، مهد الاسر العربية العريقة فى الاندلس الاسلامى ، ثم عرج على مدينة برشلونة اكبر ثغر اسبانى على البحر الابيض المتوسط ، ورأى جنوب فرنسا ، وعبر جبال الالب ، وشهد مدينة ميلانو فى ايطاليا ، قبل ان يستقر به المقام أخيرا فى روما . غير انه مل العمل فى خدمة الكاردينال ، فلم يبق أمامه من طريق للعيش ، وحيدا فى بلد غريب ، الا ان يعمل جنديا اجيرا ، وهكذا نلقاه فى عام ١٥٦٩ يعمل فى فرقةيقودها قائد اسبانى من وادى الحجارة مدينة تجاور مسقط رأسه ، فعطف عليه ، ورق لحاله ، وبصحبته زار بقية مدن ايطاليا ، وتجول فى انحائها ، ولا نعرف فى البدء تحت أية راية كان يقاتل ، فقد كان فى ايطاليا ثلاثة جيوش مختلفة ، لها هدف واحد : الانقضاض على العالم الاسلامى فى الضفة الاخرى من البحر المتوسط ، كان ثمة الجيش الاسبانى ، والجيش الايطالى ، والجيش البابوى ، غير ان المؤكد انه بعد ذلك بعام ، أى فى سنة ١٥٧٠، انضم الى قوات البابابيو الخامس ، بقيادة الجنرال البابوى ماركو انتونيو كولونا . ولقد اكسبه طوافه بايطاليا جنديا ، معلومات وافرة ، وتجارب متنوعة ، وسعة افق ، واقترابا من ذخائر ايطاليا الفنية لوحاتها الرائعة في الكنائس وتماثيلها الباهرة فى الميادين ، وتعرف على آدابها القديمة والوسيطة ، وابداع عصر النهضة ، وعايش طبيعتها الفاتنة ، ووعى ذلك جيدا ، وساعدته عليه حافظة قوية ، وتمثله مستفيدا ، واعانه عليه ذكاء فطرى ، ولعله فى تلك الفترة بالذات بدأ يتهيأ داخليا ونفسيا لاعماله العظيمة ، التى سوف يدفع بها واحدة وراء الاخرى ، حتى يلقى الله .

ثم انضم الى أسطول الرابطة البابوية المرابط فى البحر الابيض وكان يتكون من قوات ايطالية ، واسبانية ، وثالثة تتبع الفاتيكان ، بقيادة دون خوان أخى الملك فيليب الثانى ، ويتالف من ٣٠٠ سفينة ، على ظهرها قرابة ٣٠ الف جندى ، وفى ٧ اكتوبر عام ١٥٧١ ، التقى اسطول الرابطة بالاسطول التركى ، فى مضيق ليبانت LEPANTE .

وشارك ثرفانتس فى المعركة رغم انه كان مريضا بالحمى ، وجرح أثناء القتال ، وارسل الى مستشفى مسينا فى ايطاليا للعلاج ، وأمر القائد برفع راتبه ، وفى العام التالى شارك فى الحملة على تونس ، فلما فشلت الحملة عاد الى ايطاليا ، وظل هناك حوالى عامين ، ومع راتب قليل ، وحياة عسكرية جافة ، عاوده السأم من جديد ، فقرر ان يجرب حظه من جديد فى اسبانيا ، فتقدم بطلب عام ١٥٧٥ يطلب السماح له بالعودة ، فسمح له قائد الاسطول ، واعطاه رسالة لاخيه الملك ، يوصى به خيرا ، ويطلب وضعه قائدا على رأس فرقة ، لانه « يستحق الكثير لشجاعته التى جربناها ، ولذكائه الخارق ، ومواقفه النبيلة .

فى ٢٠ من سبتمبر عام ١٥٧٥ ، أبحر ثرفانتس من ميناء نابلى فى ايطاليا ، رفقة أخيه رودر يجو RODRIGO ، وكان مثله يعمل فى ايطاليا جنديا أجيرا ، على ظهر السفينة « سول » ، ومعها سفينتان أخريتان فى طريقهما الى العودة أيضا ، وبينما هم فى الطريق التقوا ببعض السفن الجزائرية تمخر عباب البحر الابيض المتوسط ، بقيادة الارناؤط مامى فدارت بينهما معركة عنيفة ، أمام شاطىء مرسيليا ، انتهت بهزيمة السفينة الاسبانية ، وأسر بحارتها والجنود الذين عليها ، وكان بينهم ثرفانتس وأخوه رودريجو ، فى ٢٦ سبتمبر ، ونقل الاسرى الى مدينة الجزائر ، ليصبحوا فى قبضة حاكم المدينة .

كانت الرسـائل التى يحملها ثرفانتس الى الملك فيليب الثانى شؤما عليه ، فقد ظن الداى أن بين يديه شخصية خطيرة ، ذات مكانة مرموقة ، تنتمى الى قمة المجتمع الاسـبانى ، ويمكن ان يلعب بها فى الحرب الدائرة بين البلدين ، ان يطلب مقابل الافراج عنه فدية عالية ، أو ان يقايضه بجمع كبيـر من الاسرى المسلمين ، أو ان يستخدمه فى الضغط على الحكومة الاسبانية للتخفيف من مآسى الاندلسيين المسلمين · « ان الوثائق التى حملها ثرفانتس لكي تكون طريقه الى حياة افضل فى اسبانيا ، أصبحت سببا لتمتد به حياة اقسى فى الجزائر » ! · وسيق ثرفانتس الى السجن ، مع بقية الاسرى ، ليلتقى فيه بأسوى آخرين من مـواطنيه ، أو ينتمـون الى دول اوروبية أخرى · واستمر فى السجن خمسة أعوام كاملة ، ووعت ذاكرته كل السيئات التى يتعرض لها الاسرى والسجناء ، هنا فى الجزائر ، أو هناك فى وطنه ، وفكر فى أخيه قبل ان يفكر فى نفسه ، وأهمه مما يمكن ان يكون عليه حاله ، ولكنه رغم ذلك ، ظل مثلا عاليا للفضيلة والتماسك ، والفطنة والثبات ، وخصص وقته وجهده لمساعدة رفاقه ، وأحس منـذ اللحظة التى وقع فيها أسيرا ، أن مسـتقبلا حافلا بالمتاعب والمآسى ينتظره ، غير ان الحياة الجديدة جعلته يعيد النظر فى افكاره ، فلم يعد يحصر نفسه في مشاكل وطنه ، وانما تجاوزه ليفكر فى الانسانية ككل ، وجزع للقلق الذى يسـيطر على العالم ، وللتعاسة التى تساق اليها الشعوب ، وبدا أثر ذلك واضحا فى كل ما كتب فيما بعد ·

وبعد اشهر قليلة من سجنه حاول ان يهرب للمرة الاولى ، رفقة عدد من الاسرى الاسبان ، فى يـوم محدد ، واتفقوا مع واحد من السكان أن يصحبهم الى وهران ، مقابل مبلغ من المال ، غير انه تخلى عنهم بعد اليوم الاول ، فعادوا الى سـجنهم فى الجزائر مرة أخرى مكرهين ،وعوقبوا على محاولتهم هذه عقابا شديدا ، وأفلت ثرفانتس بحياته ، لاجابته اللماحة ، وحسن تصرفه من جانب ، ولان الفـدية المتوقعة له ، كانت كبيرة من جانب آخر ·

وبعد عام فى الاسر ، افرج عن عدد من السجناء الاسبان مقابل فدية دفعت لهم ، فحمل واحـد منهم رسائل منه لوالده ، لكي يبذل الجهد مضـاعفا فى افتكاكه من الاسر ، غير ان الفدية كانت أكبر من ثروة والده ، ولقـد رهن الاب كل ممتلكاته ، وممتلكات بناته ، ولكن المبلغ الذى جمع كان يكفى لافتداء أخيه فحسب ، وكانت الفدية بمقدار قيمة الاسير ، ولقـد أطلق سراح أخيه فعلا ،فحمله ثرفانتس رسائل لنائب الملك فى جزيرة ميورقة MALLORCA ، وفى بلنسية ، لكي يأمر بارسال سفينة يستطيع أن يهرب فيها الاسرى الاسبان ، واعطيت هذه الرسـائل لفرسان القديس يوحنا ، وكانوا الطرف الكاثوليكى المواجه للبحرية الجزائرية ، ولعدد من المسؤولين الاسبان ، وأخيرا ، فى ٢٨ سبتمبر ١٥٧٧ ، ظهرت أمام شواطىء الجزائر سفينة اسـبانية ، يقودها القبطان فيانا VIANA ، وكان أسيرا فى الجزائر مع ثرفانتس ، ثم أفرج عنه مع بقيـة من دفعت لهم الفدية ، ولكن حراس الشواطىء انتبهوا لها ، فولت هاربة الى عرض البحر ، ولكن البحـرية الجزائرية لحقتها ، وأمسكت بها ، ووقع الذين فيها أسرى من جديد ·

كانت الخطة التى وضعها ثرفانتس تقضى بـأن يلجأ الاسبان الذين سوف يهربون فى السـفينة الاسبانية المنتظرة الى كهف فى حديقة القائد حسن باشا ، وكانت على مقربة من البحر ، وخارج مدينة الجزائر بثلاثة أميال ، وفعلا خرج اليه خمسة عشر أسيرا ، واختبأوا داخله ، دون أن يعرف بذلك أحد

غير الجنـــــــاينى ، وأصله اندلسى من مدينة ملية MELILLA ، وثق حنينه الى وطنه صلته بهؤلاء القادمين منه ، فكان يعطف عليهم ، ويمدهم بين حين وآخر بالمزيد من الطعام ۰ وفى ۲۰ ســــبتمبر بارح ثرفانتس صحبة رفاقه مدينة الجزائر ، ليختبىء فى كهف الحديقة استعدادا للهروب ، لكن الجناينى لم يرد لعطفه أن يبلغ مرتبة الخيانة ، فأبلغ حسن باشا بالامـــــر ، ودله على المكان الذى اختبأ فيه هؤلاء الاسرى ، وقد سر الباى بالخبر ، وانتظر اللحظة التى يفاجئهم فيها ، فقـــد كانت القوانين تجعل من الاسرى ملكا له اذا حاولوا الفرار ۰ ثم أصدر أوامره للقائد المكلف بحراسة الاسرى أن يذهب الى الكهف، على رأس فرقة من الرجالة والفرسان ، وان يصحبوا معهم الجناينى دليلا ، وتمت المفاجأة فى سهولة ، وتقدم ثرفانتس فتحمل المســـؤولية عن الجميع ، واعترف بانه المسؤول عن الهروب ، وانه الـذى أعد الخطة ، فسيق الى مقابلة حسن باشـــا فاعاد القول أمامه ، فاستمع اليه الباى فى أناة وصــبر ، وأعجب بشجاعته ونبله ، وأمر بأن ينقل الى سـجن حمام الملك ، قريبا من باب عزون ۰ ولقد ظن الجميع أن ثرفانتس سيدفع حياته ثمن هذه المغامرة ، ولكن الباى اكتفى بأن يجعل منه تحت تصرفه الشخصى ۰ ولكن الداي مامي لم ينظر بعين الرضا الى تصـرف الباى ، لان ثرفانتس أسيره ، وهو سيده ، فدفع له حسن باشا ٥٠٠ دوكادو DUCADO من الذهب، مقابل أن يتخلى له عن هذا الاسير الممتاز ۰

وفى هذه الفترة كان ماتيو بسكوال MATEO PASCUAL ، رجل أعمال قطلونى ، يتردد كثيرا على الجزائر ، فلقى ثرفانتس ، وحمله هـذا رسالة الى الملك فيليب الثـــانى ، ما زالت محفوظة حتى يومنا هذا ، يرجوه فيها ان يبدأ فى غزو الجزائر من جديد ، وان يحرر الاسرى الاسبانيين ، غير ان الملك فيليب لم يعر رسالته اهتماما ، فقد كان آخر ما يفكر فيه مصير حفنة من الاسرى الاسبان ۰ وازاء صمت الملك واعراضه فكر ثرفانتس فى الهـــــرب للمرة الثالثة ، فكتب رسالة الى دون مرتين قرطبـة DON MARTIN DE CORDOBA قائد الحصن الاسبانى فى مدينة وهران ، يطلب منه ان يرســـل اليه بعض الجواسيس ليستطيع ان يهرب فى رفقتهم، ولكن حامل الرسالة فوجىء بمن يقبض عليه ، فلم تبلغ الرسالة غايتها ، وحكم على حاملها بالجلد ، وحكم على ثرفانتس نفسه بمائتى جلدة ، وهى عقوبة لم تتم ، لان عددا كبيرا من أعيان الجزائر تدخلوا لصالح ثرفانتس ، وأوقفوا التنفيذ ۰

ولم تتوقف محاولات الشاب الاسبانى للافلات من براثن الاسر ، ففى سبتمبر من عام ١٥٧٩ توثقت عرى الصداقة بينه وبين أندلسى غرناطى ، أكره على التكثلك ، فهرب من اسبانيا ، وما أن وطىء الجزائر حتى عاد الى اسلامه ، واتخذ لنفســـــه اسم عبد الرحمن ، فعطف على مواطنيه الاســــرى ، وان اختلفوا معه دينا ، وان لقى من شركائهم فى الدين كل ضروب الاذى والاضـــــطهاد ، وتوسط بين ثرفانتس وبين تاجرين من البندقية كانا يترددان على مدينة الجزائر ، ويدعى أحدهما اونوفر اكسارك ONOFRE EXARQUE ، ويدعى الآخـــــر بلتسار دى طريس BALTASAR DE TORRES ، ويقومان ببعض الصفقات التجارية ، ودفع لهمـا بمبلـــغ ١٥٠٠ دوبلا DOBLA من الذهب ، ليقوما بشراء « فرطاقة » مسلحة باسمه ، يستطيع أن يقودها ، ويبحر بها الى اسبانيا ، ومعه ثرفانتس وبقية الاسرى الآخرين من مواطنيه ، وقد اشـترى التاجران البندقيان السفينة فعلا ، وقبل يومين من تحقيق رغبة عبد الرحمن وثرفانتس ، تسرب الخبـر

الى اندلسى آخر ، من الموريسكوس ، وكان من قبل فى اسبانيا اماما رجل دين ، يدعى خوان بلانكو دى باث JUAN BLANCO DE PAT ، ثم هرب الى الجزائر وعاد الى الاسلام ، فقد اسر اليه بالامر اندلسى ثالث له مثل ظروفه تماما ، لكي يبلغ الامر الى حسن باشا الباى • وعند ما اكتشفت الخطة عمهم الرعب جميعا ، بما فيهم ثرفانتس نفسه ، خاف التاجران على حياتهماوعلى حريتهما ، وعرضا على ثرفانتس أن يدفعا له الفدية لكي يتفادى الجميع عواقب المؤامرة ، ولجأ ثرفانتس خوفا الى بيت اسبانى مثله ، ثم عاد واسترد شجاعته ، محاولا أن يدفع الضرر عن الجميع ، فتوجه الى الباى سريعا ، ليقول له : « على عاتقى وحدى تقع المسؤولية ، حتى ولو كان جزاؤها الموت » • غير أن حسن باشا أخذ بشجاعته من جانب ، ومن جانت آخر خشى ان أمر بقتله ان يذهب ومعه من الاسرار ما يمكن أن يفيد الدولة فى صراعها مع الاسبان •

وبينما هذه الاشياء تجرى فى الجزائر كانت والدة ثرفانتس واخته تطوفان بالجمعيات الدينية فى مدريد ، من أجل العمل على افتداء ابنها ، وأخيرا وصل الى الجزائر الراهبان خوان خيل JUAN GIL وأنتونيو دلا بيا ANTONIO DE LA BELLA فى ٢٩ مايو ١٥٨٠ ، وقابلا حسن باشا ، وتحدثا اليه فى افتداء ثرفانتس ، فطلب منهما الف اسكودو ESCUDO ذهبا ، لانه دفع الى مامى الدالى ٥٠٠ فى مقابل ان يصير امره اليه • ولم يكن الراهبان يملكان هذا القدر من الذهب ، فبدا لهما أن تحريره ان لم يكن مستحيلا فهو شىء شبيه به ، غير ان الحظ لعب دوره فى هذه المرة الى جانب ثرفانتس ، فقد استدعى حسن باشا الى القسطنطينية من قبل الخليفة العثمانى ، وقبل أن يرحل بقليل ، فى ١٩ سبتمبر ١٥٨٠ ، تراجع عن القدر الذى حدده ، وقبل أن يقبض ٥٠٠ اسكودو من الذهب ، نفس المبلغ الذى دفعه هو من قبل ، بما طلب فعلا ، وخرج ثرفانتس فى نفس اليوم من السجن •

لقد اسهمت أمه وأخته بجانب من الفدية ، دفعتا كل ما قدرتا عليه وما تملكان ، وهو ٣٠٠ دوكادو DE CADO ، وساهم صديق للاسرة بدفع ٥٠ ، وتعطف خلدم لها فدفع مثل هذا المبلغ ، ودفعت احدى الجمعيات الدينية المسيحية ٥٠ أخرى • وقام الراهبان بجمع الصدقات من تجار الجزائر فتحصلا على ٢٢٠ ، وكان من المالوف الشائع ان يجىء هؤلاء الراهبان الى المدينة ، وان يطوفوا بمتاجرها ، يطلبون العون من التجار المسلمين لمواجهة هذه الحالات ، فيدفع لهم التجار بعض الاموال عن رضى وطيبة نفس ، فهؤلاء الاسرى تعساء يستحقون انسانيا ان يعاونوا ، لون من التعاطف الجميل لم يعرفه العالم الغربى الا منذ قرن ، حين انشئت الجمعيات الدولية لتضطلع بمثل هذه المهمات •

لم يكن ثرفانتس خلال الاسر خاملا انطوى على نفسه يندب سوء حظه ، وانما حاول أن يعمل ، وأن يستغل مواهبه ، وكان ذلك أمرا مباحا للاسرى ، فاستطاع ان يكسب ، وان يرفع من مستوى معيشته، وان يعاون رفاقه فى الاسر ، فكان يعطى بعض الدروس فى اللغات ، والرياضيات ، وبعض العلوم الاخرى ، لعدد كبير من الاندلسيين المسلمين الهاربين من قسوة محاكم التفتيش فى اسبانيا ، وكانت مدينة الجزائر تموج بالالوف منهم ، يعملون فى مختلف الحرف والمهن ،ويقومون بنشاط اجتماعى ممتاز • كما كان يتسلى فى خلوته ، ووحدته ، بنظم الشعر او كتابة القصة ، ويظن انه كتب بعض مسرحياته القصيرة خلال اقامته فى الجزائر ، وبصفة خاصة مسرحيات : المعركة البحرية

، ومعاملة الجزائر LA BATALLA NAVAL
والتركية العظيمة EL TRATO DE ARGEL
والسلطانة العظيمة LA GRAN TURQUESA
ولا يستبعد LA GRAN SULTANA
كذلك ، ان تكون تلك الليالى المظلمة القاتمة ، العارية من كل أمل ، قد أوحت اليه بالخطوط الاولى لروايته الخالدة « دون كيخوته » ، وان سجن الجزائر ، فى باب عزون ، على مقربة من قصر الباى ، شهد مولد تلك الدرة الفريدة فى الادب العالمى ·

لقد رحل ثرفانتس من الجزائر ، فى نهاية عـام ١٥٨٠ ، بعد ان أمضى فيها خمس سنوات أسيرا ، وكان لايام اسره أثر بالغ فى أدبه ، واحتفظ لها دائما بذكريات ملهمة ، فى كل ما تبقى له من حيـــاته ، وتناثرت اشاراته اليها فى كل ما كتب من روايات أو قصص او مسرحيات · ولا يعـــرف على التأكيد التاريخ الذى أبحر فيه الىأسبانيا ، ولا فى أى ميناء هبط ، من الممكن ان يكون قد سافر الى برشلونة ، أو بلنسية ، او داينة ، ووصل الى وطنه ليواجه ظروفا لا تقل قسوة عنظروف الاسر ،وكان عليه ان يناضل فى ضراوة من أجل حياة افضل ، لقد انتهى الفصل الاول من مسرحية حياته فى مدينة الجزائر ، وكان داميا وآسرا ومثيرا ، وبدأ الفصل الثانى منها فى أسبانيا ، وسيكون أكثر دموية وأسرا واثارة ، ولكن هذه قصة أخرى !

الدكتور الطاهر أحمد مكى



مدينــة الجــزائر من خلال النصوص



العــربية



والأجنـبية

اختارها وأعدها وعلق عليها
مولاي بلحميسي

وصــف مدينــة الجــزائــر لابن حــوقــل (1)

وجزائر بنى مزغنان مدينة عليهــا سور فى نحر البحر وفيها اســواق كثيرة ولها عيون عل البحر طيبـــة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة واكثـــر اموالهم المواشى من البقر والغنـــم سائمة فى الجبال ـ ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الاسبابالجاهز الى القيروان وغيرها ـ ولهم جزيرة تحاذيها فى البحر اذا نزل بهم عدو لجاوا اليها فكانوا بها فى منعة وامن ممن يحذرونه ويخافونه .

(كتــاب المســالك والممــالك والمفاوز والمهــالك)

---

1) ابن حوقل ـ أبو القاسم محمد ـ صاحب كتاب «المسالك والممالك والمفاوز والمهالك» أو كتــاب «صورة الارض» ، دخل الجزائر أيام زيرى بن مناد سنة 337 هـ ، وتوفى ابن حوقـــل بعد 367 هـ ـ 977 م .

قال المقدسي (1)

اما افريقية فقصبتها القيروان ومن مدنها جزيرة بنى زغناية (2).. وجزيرة بنى زغناية على ساحل البحر مسورة يعبر منها الى الاندلس ولهم عيون ... « احسن التقاسيم »

1) المقدسي – شمس الدين أبو عبد الله محمد – من رجال القرن 4 هـ – 10 م ، توفي بعد 378 هـ 988 م ، وله كتاب مشهور في الجغرافية سماه : « أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم »

2) الصواب : جزيرة بنى مزغنة

وصف مدينة الجزائر للبكرى1

مدينة جزائر بنى مزغنى . . مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للاول وازاج محكمة تدل على انها كانت مملكة لسالف الامم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفاء فيها صور الحيوان باحكم عمل وابدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها اسواق ومسجد جامع . وكانت بمدينة بنى مزغنى كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق الى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مقصص كثير النقوش والصور . ومرساها مامون له عين عذبة يقصد اليه اهل السفن من افريقية والاندلس وغيرها .

كتاب المغرب

1) البكرى – أبو عبيد الله – من أشهر جغرافى القرن الخامس الهجرى وله كتاب : «المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب» وهو جزء من كتاب المسالك والممالك – طبعة دى سلان باريس 1965 ل

وصف مدينة الجزائر للادريسى1

مدينة الجزائر على ضفة البحر . وشرب اهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار . وهى عامرة آهلة . وتجارتها مربحة . واسواقها قائمة وصناعاتها نافقة . ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير واكثر اموالهم المواشى من البقر والغنم . ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن فى بلدهم كثير وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والاقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم . واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة .

الادريسى

1) الادريسى – أبو عبد الله محمد ابن محمد – المعروف بالشريف الادريسى ، ولد بسبتة حوالى 1100 وله كتاب مشهور وهو نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .
وتوفى حوالى 1180 م .

مدينة جزائر بنى مزغنة

« . . مدينة على ضفة البحر والبحر يضرب فى سورها وهى قديمة البناء ازلية فيها آثار عجيبة تدل على انها كانت دار مملكة لسابق الامم وفيها دار ملعب قد فرش صحنه بحجارة ملفقة مثل الفسيفساء فيها صور الخيل والحيوان باحكم صناعة وابدع عمل ويتصل بجزائر بنى مزغنة فحص كبير يسمى فحص متيجة وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الانهار وهو نحو مرحلتين مثلها قد احدقت به جبال مثل الاكليل وفى آخر هذا الفحص جبل عليه الطريق وهو وعر المجاز يسمى حلق واجر ويسميه اهل البلاد «باب المغرب» ، وليس يدخل الى بلاد الغرب الا منها .

وكانت بمدينة بنى مزغنة كنيسة عظيمة فيها عجائب من البنيان بقى اليوم منه جدار هو قبلة الشريعة فى العيدين وهو كثير النقوش والصور ومرساها مامون وفيه عين عذبة يقصد اليها اصحاب السفن وعلى هذا الولاء الاتفاق كثير . .

من كتاب الاستبصار ص 22 – 23 (1)

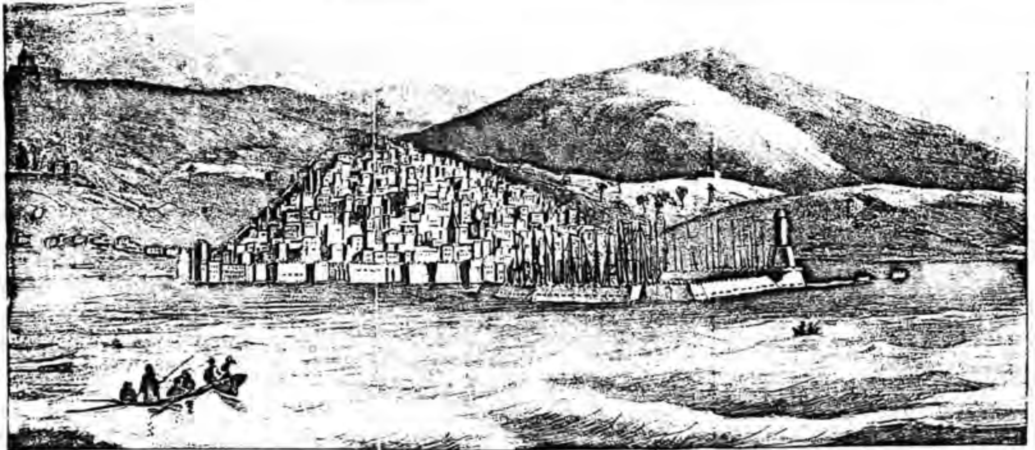
1) كتاب الاستبصار لمؤلف مجهول غالب الظن أنه عاش فى القرن 6 هـ – 12 م ، وقد اعتنى بنشر الكتاب المستشرق كريمر سنة 1852 ، ونقله الى الفرنسية فانيون سنة 1900

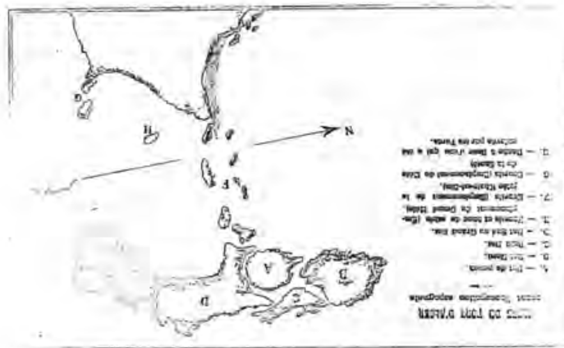
وصف مدينة الجزائر للعبدرى1

وهى مدينة تستوقف بحسنها ناظر الناظر ، ويقف على جمالها خاطر الخاطر قد حازت مزيتى البر والبحر، وفضيلتى السهل والوعر . لها منظر معجب انيق ، وسور معجز وثيق ، وابواب محكمة العمل ، يسرح الطرف فيها حتى يمل ، ولكنها قد اقفرت من المعنى المطلوب ، كما اقفر من اهله ملحوب(2)فلم يبق بها من هو من اهل العلم محسوب ، ولا شخص الى فن من فنون المعارف منسوب وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة، او اديب يونس غربة فكانى اسال عن الابلق العقوق (3) او احاول تحصيل بيض الانوق . .

العبدرى : الرحلة المغربية

1) العبدرى – محمد بن محمد بن على – القرشى المغربى من رجال القرن





السابع هـ ـ الثالث عشر م ، حج فصنف رحلة مسجوعة الى المشرق بدأها من اقصى جنوب المغرب مارا بتلمسان ومليانة والجزائر . . وذلك سنة 1289 م ـ 688 هـ

2) ملحوب : اسم مكان ورد فى قصيدة لعبيد بن الابرص

3) العقوق : قيل بيض العقاب فى الجبل الشاهق المنيع ، وقيل الابلق هو الذكر والعقوق هو الحامل وهذا مستحيل ـ يضرب المثل فيما لا سبيل اليه

4) يميل العبدرى الى النقد وفى كلامه مبالغة ـ لان مراحله كانت مستعجلة فانه يجهل الوضع الحقيقى ، وعابر السبيل المسرع يمر مر السحاب ولا يسمح له بالاطلاع

قال الشيخ البلوى 1 وقد ورد على الجزائر مع رفقائه :

. . فرايت محيا صبيحا ، وترتيبا مليحا ، ومسجدا عتيقا ، وبناء انيقا واناسا قد سلكوا الى الحسن والاحسان طريقا ، من مدينة قد احاط بها البحر احاطة السوار بالزند . .

تاج المفرق بتحلية علماء المشرق

1) البلوى ـ أبو البقاء خالد بن عيسى ـ من فضلاء الاندلس وعلماء القرن 8 هـ ـ 14 م ، حج فصنف فى رحلته « تاج المفرق » . قال المقرى : رحلة كثيرة الفوائد

قال عبد الرحمن الجامعى (1) :

« . . . واما مدينة الجزائر فاول بلد لقيت بها مثل من فارقته من ادباء بلدى ، وبها تذكرت بعض ما كان منية خلدى لاجتماعى فيها بالاديب الماهر الدال وجوده على صحة القول بوجود الجوهر الفرد فى سائر الجواهر اديب العلماء وعالم الادباء محيى طريقة لسان الدين الخطيب . . ابى عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن على . .

فهي – الجزائر – والحمد لله دار الجوهر الفرد في الادب وعلم العقل والنقل وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت السماء البقل . . وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء وعلماء ادباء واعلام خطباء مساجدهم بالتدريس معمورة ومكاتب اطفالهم بالقراءة مشحونة ومشهورة وقد ذكرت ما فيه غنيمة من علمائها الاخيار وكلهم متحلون باحسن الصفات متضلعون بعلم النحو والفقه والحديث واحياء ليلة المولد النبوي مثل ما في القديم والحديث . . وقد كان بهذه الحاضرة نحو مائة مكتب ملآى بالاولاد حيث ان المحل الذي لا يسع التلاميذ يجعلون فيه سدة يصعدون اليها الدرج يتعلمون القراءة والكتابة ويحفظون القرآن العظيم وحفاظه كانوا كثيرين . .

– من رحلة الجامعي –

1) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله الفاسي الشهير بالجامعي ، أديب وكاتب ، ولد بفاس سنة 1087 هـ ونشأ بها في طلب العلم فحصل على علوم شتى ، ثم قدم مدينة تونس وتعاطى للتدريس بالجامع الاعظم – الزيتونة – « صاحب قريحة جيدة في نظم الشعر البليغ لا يضاهى فريد عصره فيه في زماننا هذا ، له مهارة في جميع الفنون . . وله تآليف لطيف في فتح قلعة وهران بالغرب » (من كتاب الذيل لكتاب بشائر أهل الايمان) لحسين خوجة ص 167

وصف مدينة الجزائر

« . . . وانه لما من علي المولى الكريم ذو الفضل السابغ العظيم ، بدخول مدينة الجزائر ، ذات الجمال الباهر ، وحلول مغانيها النواضر ، التي تغص ببهجتها كل عدو كافر ، فلذلك يتربصون بها الدوائر ، في الموارد والمصادر ، ويرسلون عليها صواعق لم تعهد في الزمن الغابر ، أبراني من عليل ووجدي ، ما عاينته من روائها (1) العسجدي ، وبحرها اللازوردي ، اذ هي كما قيل :

بلد اعارته الحمامة طوقها

وكساه حلة ريشه الطاووس (2)

ما شئت من حدائق ، كالنمارق ، وقصور نوع المحاسن عليها مقصور ، والذي اعارها ذلك المرىء الجميل ، واصارها فضية الصباح عسجدية الاصيل ، والحقها بهجة واشراقا ، والبسها نضرة وايراقا ، وابداها للعيون آنق من جيرون (3) ، غرر اعلام ينجلي بهم الظلام وشموس ائمة تنفرج بهم كل غمة ، وتفتخر بهم احبار هذه الامة ، من رجال كالجبال، واحبار كالاقمار ، طلعوا في بروج سعودها بدورا ، البسوها رواء ونورا فاهتديت بانوارهم السنية ، الى قطف ما راق من انوارهم الجنية ، ورتعت في رياض آدابهم فتمتعت ، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت ، وكرعت في انهار بلاغتهم حتى رويت ، وهصرت من افنان براعتهم ما هويت ، ونسيت بشرهم وتانيسهم وما اقتبسته من المعارف في تدريسهم ، ما عاينته من رهج القفار وقاسيته في لجج البحار»

ابن زاكور : (4) نشر ازاهير البستان ص 3 – 4

1) الرواء : المنظر الحسن

2) ينسب هذا البيت للشاعر الاندلسي ابن اللبانة (المتوفى سنة 505 هـ – 1113 م) في وصفه جزيرة مايورقة الى أن يقول :

فكأنها الانهار فيه مدامة

وكأن ساحات الديار كؤوس

3) جيرون : قيل هو جيرون بن سعد ابن عاد نزل بدمشق فبناها فسميت المدينة جيرون وقيل هو اسم أحد أبوابها فقط وقيل هو اسم لأرم ذات العماد

4) ابن زاكور – أبو عبد الله محمد ابن بلقاسم بن محمد بن عبد الواحد . . – الفاسي ، رحالة وأديب مغربي ، ولد بفاس وتعلم بها في منتصف القرن 17 م ، ثم ارتحل الى تطوان واخذ عن علمائها ، وفي سنة 1683 قدم الى الجزائر واخذ عن الشيخ محمد بن سعيد قدورة – توفي 1687 – فأجازه في رجب 1094 هـ – جوان – جوليت 1684 – وتوفي ابن زاكور سنة 1120هـ

– والرحلة تسمى « نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان ونشرها مسجوع

طبعت بالجزائر سنة 1902 – 1319

مدينة الجزائر في أواخر القرن السادس عشر م :

الجزائر . . عامرة كثيرة الاسواق بعيدتها كثيرة الجند حصينة ، لها أبواب ثلاثة (1) وفيها المسجد الجامع واسع امامه مالكي المذهب وفيها ثلاثة خطب احدها للترك امامهم حنفي المذهب ، ومرساها عامر بالسفن ، ورياسها موصولون بالشجاعة وقوة الجاش ونفوذ البصيرة في البحر ، يقهرون النصارى في بلادهم ، فهم افضل من رياس القسطنطينية بكثير

واعظم هيئة واكثر رعبا فى قلـــوب العدو ، فبلادهم لذلك افضل من جميع بلاد افريقية واعمر تجارا وفضـــلا وانفذ اسواقا واوجد سلعة ومتاعـا حتى انهم يسمونها «اصطنبول الصغرى» وطلبة العلم فيها لا باس بهم الا ان حب الدنيا وايثار العاجلة والافتتـان بها غلب عليهم كثيرا . والكتب فيهـا اوجد من غيرها من بلاد افريقيـة . وتوجد فيها كتب الاندلس كثـــيرا ، وفى هذه المدينة قبر الولى الصـالح ابى زيد سيدى عبد الرحمن الثعالبى (2) وقبر الولى ابى العباس سيـدى احمد بن عبد الله الجزائرى (3) وقبر الولى الصالح ابى النور ، وكذا يقال له عند اهل البلاد ، وهو الذى قبره فى راس الجبل وكل هؤلاء خـارج باب الوادى وفيها غيرهم من الصالحين زرناهم وتبركنا بهم والحمد لله (4) .

ولقد سافرت السفينتان اللتـــان جئنا فيها (1) راجعتين من الجـزائر الى اصطنبول باموال كثيرة وجباية البلد وهدايا للسلطـان والـوزير والقبطان وغيرهم واموال التجار وذخائر الجنـد وغير ذلك وسافر فيهما كثير المسلمين وقاضى البلد المعرج بماله ونسائـه واولاده والتجار والحجاج وغيرهـم . فبعد ان انفصلوا عن البلد بليلـــة قام فيها العلوج ، مماليك رايسها ، مع من فيها من نصارى القذف ونصارى الهدية ، فقتلوا الرئيسين ومن حاربهم من المسلمين فرمى بعض المسلمـين انفسهم الى البحر فنجا بعضهم بالسباحة وغرق بعضهم . وذهب النصـــارى بالسفينتين الى بلادهم بما فيهـــا من الاموال والنساء والصبيان . .

فذكر لنا بعض من له خبرة بامور الباشا والى البلد ان الذى ذهب لـه فى السفينتين الف الف مثقال وذكـر آخر انه ثمانية عشر قنطارا ذهبا سوى الجـوهر والملف وسـاير السلـع والنصارى والفرش ، فوقع ماتم عظيم فى كل دار من ديار الجزائر حزنا على ما وقع للمسلمين من المصيبـــة فى الانفس والاموال . . ثم بعد ايام ورد الرايس ارناوط مامى (5) وكان غاليا فى «صاوا» فى مراسى بلاد النصـارى بثماني سفن واخذ ثمانية عشر نصرانيا من نصارى السفينتين ذهبوا فى مركب صغير لبلادهم ومعهم ثمانية عشر الف مثقال فذكروا انهم لما وصلوا بـلاد النصارى اقتسموا ما ذهبوا بـــه فاتاهم الف مثقال لكل انسان بعـد ان رفعوا عشرين الف مثقال صدقـة للكنيسة ، وذكروا لنا انهم عــزموا على هذا الغدر والفتك قبل وصولنـا الجزائر و[illegible] معهم . . وكان السبب فى ذلك فيما ذكر أن تشاوروا بينهم فقال ذو رايهـم : السفينتـــان الآن فارغتان ليس فيها الا الانفس اخروهما حتى ترجعا من الجزائر موسوقة بالاموال والذخائر فكان الامر كذلك . . ورياس اصطنبول معهم الغرة والغفلة وما وقع قط مثل هذا الواقع لرياس الجزائر .

) التمقروتى (6(: النفحة المسكيـة ص 139 ـ 141)

1» والصحيح انه كان للمدينــة خمسة أبواب باب عزون ـ بــاب الجديد ـ باب الوادى ـ باب البحر ـ باب الجزيرة

2) أبوزيد عبد الرحمن بن محمـد ابن مخلوف 778 ـ 1387/845 ـ 1471 (راجع حياته فى باب التراجم)

3) أبوالعباس سيدى أحمد بـن عبد الله الجزائرى توفى 874 / 1469 ودفن فى مقبرة باب الوادى ـ ولـه منظومة فى التوحيد سماها الجزائرية

4) اقام التمقروتى أكثر من شهرين فى الجزائر 8 ذى القعدة الى 17 محرم الموافق 28 أوت الى 5 نوفمبر 1589 وهو فى طريق العودة الى اصطنبـول وذلك بعد أن مر ببتـزرت وعنـابة وبجاية

5) قبطان بحر وكان من خدام قاراعلى

6) هو أبوالحسن على بن محمـد اديب وسفير السلطان السعدى مولاى أحمد المنصور الذهبى أرسل فى مهمة لدى السلطـان العثمـانى باصطنبول فصنف رحلة سماها « النفحة المسكية فى السفارة التركية » وذلك ما بـين 1589 و 1591

وتوفى التمقـرتنى سنـة 1003 ـ 1594 م

قال الجامعى فى مدح مدينة الجزائر (1)

بلاد براس الغرب تاج مكلل — و خلخال سوق الشرق غير ضوامر
بدت بمنصات الزمان كانها — عروس تجلت فى اعالى المنابر
وقد قلدت من بحرها بموشح — وصيغت لها الامواج خلخال حاسر
ولاح بها باب الجزيرة مثلما — تبسم ثغر فى وجوه البشائر
كان مجاز البحر معصم غادة — تحلى سوارا و اكتسى بجواهر
و لله ابراج بشاطئ بحرها — تحاكى النجوم الزهر فى عين خازر
كان الرياض الخضر محدقة بها — ذوائب اصداغ الوجوه النواظر
غصون و انهار و تلك لهذه — تحن فتحنو لاستلام الغزائر
فتبدو وقد حاك النسيم برودها — نصال رماح فى زرود مشاجر
و لله ما ضمته من كل منظر — حلاوته ، ما مر ، تلقى بخاطر
فدعنى من غرناطة و ربوعها — و شنيل فالحسن انتهى للجزائر
فما تفضل الحمراء بيضاء غادة — مقرطقة بالبدر ذات غدائر
و من لربوع بالجمال وقد غدت — كخط زبور فى قديم الدفاتر
و هذى ربوع حاطها باحاطة — مؤلفة من ستره خير ساتر

1) تقدمت الاشارة اليه فى باب الرحلات

الشعر الملحون : قال الشيخ بن مسايب (1)

زر مولى ساكة نوصيك — قم كى تنحل البيبان — ادخل مزغنه يا صاح
طر من ثم لبوفريك — للجزائر داخل فرحان — عندهم تمتع و ارتاح
اعمل الدرك عل جنحيك — زر سيدى عبد الرحمان — تنسقى من كيسان الراح
تبات بلد الجير نزاها — بركته ينفعنا بها — من خمور الود اسقها
بت زاهى واصبح مسرور — ليلة الجمعه اطلع للشيخ
بين ما ومنازه وقصور — نرسلك واذا كنت صريخ
خذ وعده سيدى منصور — تورخ منازلها توريخ
قبل الا تدخل هيها — واعرف الدار ارجع ليها

1) من شعراء القرن الثامن عشر بتلمسان

تاسيس الجزائر ومليانه والمدية

واختط (زيرى) مدينة « اشير » للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرى لهذا العهد ، حيث مواطن حصين ، وحصنها بامر المنصور ، وكانت من اعظم مدن المغرب .

واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمرانها ، ورحل اليها العلماء والتجار من القاصية . وحين نازل ابو اسماعيل المنصور ابا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيرى فى قومه ومن انظم اليه من حشود البربر ، وعظمت نكايته فى العدو ، وكان الفتح وصحبه المنصور الى ان انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية . وعقد له عل قومه واذن له فى اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بدون اشير . وعقدت له عل تاهرت واعمالها .

ثم اختط ابنه بلكين (1) ، بامره، وعل عهده ، مدينة الجزائر المنسوبة لبنى مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة (2) (وهم من بطون صنهاجة) وهذه المدن لهذا العهد من اعظم مدن المغرب الاوسط .

ابن خلدون «3» : كتاب العبر ج 6 ص 313 ـ 314 ط بيروت

1) بلكين بن زير بن مناد من أشهر أمراء صنهاجة فى خدمة الفاطميين ، قضى حياته كلها فى محاربة زناتة بالمغرب الاوسط حتى اقصاهم عن البلاد واستولى عل المسيلة والزاب كما استولى عل فاس وسجلماسة وهزم برغواتة حتى وفاه الاجل وهو فى طريق العودة 373 ـ 984

2) لعل ابن خلدون يقصد بالاختطاط التوسيع والتعديل حتى اصبحت من الامصار لان المدن الثلاث كانت موجودة وآهلة قبل بلكين

3) أبوزيد عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن خلدون ولى الدين ولد بتونس فى رمضان 732 ـ ماى 1332 وتوفى بالقاهرة فى رمضان 808 ـ مارس 1406

والجدير بالذكر انه اقام ما بين 776 و 780 / 1375 ـ 1378 بقلعة بنى سلامة وتاغزوت بقرب مدينة فرندة ـ ولاية تيارت) لتاليف المقدمة والنسخة الاولى من كتاب العبر

ذكرى ملوك صنهاجة بافريقية المغرب

وان كان هؤلاء المذكورين مندرجين فى دول الشيعة وملتزمين طاعتهم ولكنهم استبدوا وقد خفقت الدولة العبيدية فكانوا ملوكا جحاجح

وكان ابتداء امرهم ان معدا الملقب بالمعز لدين الله اباتميم جبار بيت الشيعة وفحل من دون اوليهم لما ازمع الرحيل الى المشرق وحرص عل استبقاء ما حازه من ملك المغرب بافريقية وما اليها الى احواز تلمسان الى صقلية ليكون له ردا ولملكه بالمشرق عدلا .

وكانت بين ملوك زناتة فى قديم الزمان وحديثه وبين امراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلية من مليانة والجزائر والحدود التاهرتية لها وراءها حروب عظيمة واضرار متصلة وحسائف ظاهرة وكامنة .

وكانت الرياسة فى صنهاجة الى زيرى بن مناد وكان زيرى اول من ظهر منهم بالمغرب الاوسط وهو الذى بنى مدينة اشير واليه تنسب

وبنى ابنه بلكين بامره مليانة ومدينة الجزائر والمدية .

لسان الدين بن الخطيب : كتاب اعمال الاعلام ص 61 ـ 63 ، ط الدار البيضاء 1964

التحاق الجزائر بالمملكة العثمانية

فرضى اهل المدينة وصوبوا رايه فى ذلك . فامرهم ان يكتبوا عل لسانهم كتابا الى حضرة السلطان يخبرونه بصرف طاعتهم اليه وانهم من جملة من تنفذ احكامه ويقع فيهم نقضه وابرامه ويكتب هو ايضا مثل هذا الكتاب ، فرضى اهل المدينة بذلك وكتبوا كتابا كما امرهم وكتب ايضا آخر . وعين اربعة اجفان برسم السفر الى حضرة السلطان وقدم عليهم رجلا من خواص اصحابه اسمه الحاج حسين ووجه صحبتهم هدية عظيمة من جملتها اربعة رؤساء من رؤساء النصارى العظام .

فوصلت الاجفان الى حضرة السلطان سليم . فلما ارسوا بمرسى القسطنطينية العظمى وقابلوا قصر السلطان رموا عل حسب ما جرت به العادة مدافع كثيرة ونزلوا بتلك الهدية الى الوزير الاعظم . فاعلم السلطان بقدومهم واوصل اليه الهدية التى قدموا بها فقبلها السلطان وامر بانزالهم واجراء النفقة عليهم ثم انهم لما ارادوا الرجوع وجه صحبتهم سنجقا الى الجزائر بقبول ما كتبوا اليه وانهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته . وقد كان القونص المستقر بالقسطنطينية من قبل البنادقة اعطاهم الذى يسميه اهل البحر الباسبوط يتضمن حمايتهم من كل ما يلقونه من اجفان العدو الحربية فحملوه معهم وسافروا راجعين الى الجزائر .

فلما كانوا فى اثناء السفر لقيهم ثمانية اجفان البنادقة فاورهم الكتاب الذى اعطاهم القونصى فقبلوه منهم فى الظاهر وكان ذلك منهم مكرا وخيانة وقالوا لهم لا بد لنا من الذهاب معكم الى ناحية انظول خشية عليكم من بعض الاجفان الحربية فيستولى عليكم فنعاقب نحن بكم ، فاغتر بذلك المسلمون وذهبوا معهم الى ناحية انظول هجموا عليهم وصدموهم صدمة واحدة ولم تكن للمسلمين بهم طاقة ففرقوا ثلاثة اجفان للمسلمين ولم ينج منهم الا ثلاثة انفس . واما الجفن الرابع الذى فيه مقدم الجيش فانه عطب على الساحل وخرج الكفار فى اثرهم فقتلوا كثيرا من المسلمين وفر الباقون بين ايديهم . اما مقدم الجيش فانه دخل انظول وكان بقربها كما ذكرناه ولقى قاضى المدينة واخبره بما جرى على اجفان المسلمين وكيف مكر بهم كفار البنادقة فكتب القاضى بذلك كتابا الى حضرة السلطان يعلمه بما جرى على اجفان الجزائر وعين لحامل الكتاب مركبا بما يحتاج اليه من آلة السفر وسافر فيه مقدم اجفان الجزائر فلما وصلوا الى الحضرة دخلوا الى الوزير الاعظم ووصلوا اليه كتاب قاضى انظول فلما قرا الكتاب استغاظ من ذلك استغاظا شديدا وبعث الى قونص البنادقة يتهدده ويعلمه ان اجفان اهل الجزائر ان وصل خبرها الى السلطان قبل ان تردوها يقع عليكم بلاء عظيم من قبله . فامتثلوا امر الوزير وردوا لهم جملة ما ضاع لهم من الأجفان والاسباب وغيرها . فرجع مقدم الجيش الى مدينة انظول فوجد بها ثلاثة رجال الدين نجوا من الاجفان التى استولى عليها العدو فذهب الجميع الى جزيرة بقرب انظول فوجدوا بها الاجفان التى غرقها لهم العدو فركبوا فيها ورجعوا الى الجزائر،فلما دخلوها ووقفوا بين يدى خير الدين واوصلوا اليه امر السلطان والسنجق الذى وجهه صحبتهم واعلموه انه قبل طاعة اهل الجزائر واذن لهم فى صرف الخطبة والسكة اليه كما تضمنه الكتاب الذى وجهه معهم ، ففرح بذلك خير الدين فرحا شديدا وسر به سرورا عظيما الا انه حصل له بعض الحزن على ما وقع لأجفانه من النكبة التى حصلت لهم من عدو الدين

واستقر خير الدين اميرا من قبل السلطان الاعظم سليم خان وصرف دعوتها اليه وامر بذكره على منابرها وضرب السكة عليه .

(من غزوات عروج وخير الدين)

ذكر اخبار الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر

اول ما ابتدا به قائد الجنود الفرنسوية فى الجزائر ، ان رتب مجلسا ، من رؤساء الجنود ، لضبط خزائنها من الاموال والجواهر والمهمات الحربية والذخائر فتحصل من ضبطها – على ما قيل – من الذهب والفضة ، وقيمة الجواهر : ثمانية واربعون مليونا وستمائة الف وثمانون الف وخمسمائة وسبعة وعشرون فرنكا . . وهى الصوف والحنطة والشعير وغيرها ، ما يبلغ قيمته ثلاثة ملايين من الفرنكات ومن المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل وغيرها من آلات الحرب ، مع ثمن الاملاك الاميرية داخل البلد وخارجها ما قيمته خمسون مليونا من الفرنك.

ثم حمل الباشا ، مع اهله واتباعه الى « الكورية » ثم الى الاسكندرية .

ولما وصلها ، احتفل به محمد على باشا ، واطلعه على المهمات الحربية وغيرها ، وصنع له مادبة حضرها الاعيان ، واكابر البلد . وفى اثناء الطعام ، اثنى حسين باشا على الخديوى ، ومدح اعماله وهمته ، فى اعمار مصر وترقيتها ، فاجابه الخديوى بقوله : ياحضرة الباشا .. ان جميع ما رايته واستحسنته كان منشؤه من اكل الفول وكان ذلك منه تذكارا له ، فيما سلف من الجواب ، عند قراءة الكتاب . . فتمغص حسين باشا ، وتوجه لمحله متالما . وبعد ايام قليلة ، توفى سنة اربع وخمسين ومائتين والف هجرية (1245) .

ولما كثر الهرج بين الانكشارية ، والجيش الجزائرى ، جمعهم القائد العمومى . وحمل اكثرهم الى نواحى ازمير . ورخص للاغنياء منهم ، فى الاقامة بالجزائر ، ريثما يبيعون عقاراتهم وامتعتهم . وبعد فراغهم من اشغالهم ، حملهم الى جهات مختلفة ودون الدواوين ، وجند من اهل المدينة جندا بلديا ، وبنى قواعد حكومتهم فى الجزائر ، على اظهار الهيبة ، ومراعات امور الشريعة الاسلامية ، واحترام المساجد وتعظيم العلماء ، وحرية العوائد وتلطف ما شاء فى امالة القلوب اليهم . وبذل الاموال ترغيبا ، حتى يلين اليهم القوى ، ويدخل فى طاعتهم الابى وظن ان سياسته هذه كافية فى الاستيلاء على سائر المغرب الاوسط . ولم يعلم ان دون ما اراد ، خرط القتاد . وقد ظهر لهم بعد حين ، ان فى عين اليقين حروبا ، يشيب لها الوليد ويضعف لها القوى الشديد . الى ان نالوا غاية مرغوبهم وذلك تقدير العزيز العليم .

تحفة الزائر تاليف الامير محمد ابن عبد القادر الجزائرى ص 137–138

هـذا تــاريــخ قــدوم لبــلادور الى الجــزائــر

وسبب قدومه انه عمر مركبا من مراكبه واوسقه بالمـال والسلعـة وبعثه الى وهران فاخذه رايس مـن رؤساء الجزائر واسمه كجك عـلى ودخل به الى الجزائر بعد ما وقـع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسـا عظيما مع جملة الرؤساء ودخل فـي شهرة عظيمة ثم ان كجك على احضـر هذا الرايس الى حسن اغه خليفـة خير الدين وقبل يده وكشف عن راسه وبقي داهشا من الهيبة فساله حسن اغه عن اخبار بلاد النصارى فقـال له الرايس ان سفينة تركتها تريـد القدوم الى بجاية فعند ذلك امر حسن اغه ان تجهز له اغربة فتجهـزوا في اسرع وقت فساروا الى طلبها الى نواحي بجاية وكمنوا في موضـع يقال له العش والمقار وكان من جملة رؤساء الجزائر كجك على المتقـدم الذكر فطلعت لهم تلك السفينـة ذاهبة الى بجاية فقربوا منها وشرعوا في قتالها وكانت هـذه السفينة في غاية الاستعداد للقتال فلم تزل مـع اجفان المسلمين في اخذ ورد الى ان وقعت فيها النار فالتهبت في اطراف السفينة فعجز الكفار عن اطفـائهـا فالقوا انفسهم في الماء فالتقطهـم المسلمون من البحر واطفوا النـار فعند ذلك رجع الروسا الى الجزائـر وهم فارحون بهذا الجفن ودخـل الجزائر في شهرة كبيرة وفرح بـه حسن اغه غاية الفرح وامرهم بانزال ما فيها من الغنيمة فانزلوا الكفـار واحضروا بين يديه ومعهم ريسهم

وكانوا في حال طلوعهم الى دار الامارة تصفف لهم النسا والصبيان واهـل البلد ليتفرجوا فلما وصلوا بهم الى حسن اغه امر بهم الى السجن المعد لذلك فلما سمع بهم صاحب اسبانية بما تم على هذين الجفنين وكان اهل طاعته قد ضجوا اليه بالشكوة ممـا يفعلون اهل الجزاير بهم خصـوصا اهل السواحل منهم بحيث انهم قالوا للطاغية اما ان تكفينا امر الجـزائر والا نعطوا الطاعة لما حبها فشرع في الحركة الى الجزائر واطلـق النـدا في ساير الطاره بذلك فانحاشت اليه جيوشه افواجا افواجا وزخرت اليـه جيوشه وعساكره امواجا امواجا فوصل خبر عمرته الى حسن اغه خليفة خير الدين فصدق بذلك ولم يكذب . . . ادار وجهـه الى تحصيـن المدينـة والاستعداد لمقابلة العدو فبنا اسوار المدينة واصلح ما انهدم منها ونصب عليها المدافع وعلى ساير الابـراج وعين اربعمائة اسير من الكفار لهذا البنا ثم انه بعث الى شيخ المـدينة وامره ان يرفع اليه حساب رجال كل حومة من الجزاير ففعل ذلك شيـخ المدينة ومع ذلك فاخبار العمـارة تتوارد في كل وقت على اهل الجزاير فامر حسن اغه بقطع اشجار البساتين كلها خوفا من النصارى ان يستتـروا بها عند القتال واول مما بدا هو في بستانه فلم يترك فيه شجرة فبينما هو في يوم من الايام جالس في دار الامارة اذ دخل عليه حارس البحر الذى يقال له صاحب الناظور واخبره بـان

عمارة النصارى قد اتت وهي عمـارة كبيرة اخذت وجه الماء كله وسترته وشرعت في عددها فلم اقدر فتشوش نظري من ذلك لكثرتها فعند ذالك عين حسن اغه جملة من الخيل فصعـدوا الى جبل ابي زريعة لياتوا بتحقيـق العمارة فرجعوا اليه وكل واحد منهم يقول لم اقدر على احصاء ما رايت العدد كثير لا يصل اليه الادراك فعند ذالك امر حسن اغه سيدي سعيـد الشريف وكان هو شيخ المدينة ان يوجه رجالا من اهل البلد الى الابراج والاسوار برسم حراستها في مقاتلـة العدو منها فنهض شيخ المدينـة المذكور وعين الرجال للابراج والاسوار ونصبوا رايات الاسلام عليها ووزع حسن اغه على ابواب المدينة بطوائف من العسكر فعين لباب عزون رجـلا من اعيان العسكر واسمه الحاج مامي وكان مذكورا في الشجـاعة فقـام بما عين له واما حسن اغه فاقام في حصن من حصون الجزاير تصـل مدافعه الى العدو برا وبحرا ومعه جماعة من العسكر وطبوله تصعد اصواتهـا الى الجو والويته المنصورة تخفـق على راسه وجعل على ابواب الوادى (هذا الحصن) مدفعا عظيمـا يدهـش الانسان عند صيحته وتزهق النفـس من دفعته وجعل من هذا الحصن الـى القصبة قايدا ومعه طايفة من العسكر واسمه القايد حسن وعين لحراسـة باب الوادى رجلا اسمه القايد يوسف ومعه جماعة من العسكر وعين معـه ثلاثة من القياد اسم احدهم سافـر

وجمله فى برج من الابراج وقايد اخر اسمه اصلان عينه لقاع السور والقايد الثالث اسمه رمضان فاقامه قريبا منه فى بعض النواحي واما كجك عل وحيدر فانه اقامهما فى باب الجزيرة ومعهما قبطان السفن واسمه خضر وجملة من روساء البحر واما اهل الجزائر من العسكر والاندلس والبلدية فانهم داروا باسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب واما عمارة النصارى وكان ظهور العمارة يوم الاربعاء فى آخر الشهر من جمادى الثانية بقى منه ثلاثة ايام سنة ثمانية واربعين وتسعمائة 27 جمادى الثانية سنة 948 وفى يوم الخميس وقت العصر رست فى جون تمانتفوس الموال للجزاير فيقال انهم لما رسا وسقط بعض من رايتهم فى البحر والمسلمون ينظرون اليهم فحصل لهم تفاؤل وعلموا انهم منصورون عليهم وكان نزول العدو الى البر يوم الاحد قبل الزوال بشىء قليل فنزل سلطان اسبانيه ودارت عليه عساكره ويقال ان عدتهم تسعون الفا فارادوا المسلمون ان يمنعوهم من النزول الى البر فرمت عليهم السفون بالمدافع من البحر فاوسع لهم المسلمون المجال حتى تمكنوا من النزول وبات العدو ليلة الاثنين بقرب البلد فى موضع يقال له الحامة وكان زعيم من زعماء الترك يقال له الحاج باشا فعزم ان يضرب عل العدو ليلا ففتح له ابواب المدينة واخذ الراية فى يده وخرج معه جماعة وافرة من المسلمين وكان خروجه من المدينة لما بقى الربع الاخير من الليل فلم يشعر العدو فى منزله الى نزل فيه وكان الفصل شاتيا لانهم وصلوا فى شهر اكتوبر فى ايام قاسم كون الا والسلمين قد خلطوهم ورموا عليهم بالمكاحل دفعة واحدة ورشقوهم بالسهام فحصلت فيهم ضجة عظيمة فانتبه مالكهم مرعوبا من نومه وصاح برجاله وخواص وزرائه وقال اهؤلاء الذين الخبرتمونى عنهم انهم لا يقومون بحربنا انظروا ما عملوا فينا هذه الليلة ثم ان المسلمين رجعوا الى البلد بعد ما قتلوا منهم خلقا كثيرا فلما كان يوم الاثنين تحركت النصارى الى المدينة ومعهم الطاغية حتى قربوا الاسوار وهم يزعمون فى انفرتهم والويتهم منصوبة عليهم فخيل لاهل الجزاير انهم نمل اسود قد ملا الفضاء وكان فيهم من الفرسان اربعة آلاف فارس فشرع فى قتالهم من الاسوار بالمدافع وبنادق الرصاص والسهام وكان فى ذالك اليوم تقدمت رجال من الاتراك الى القتال وظهرت منهم شجاعة عظيمة منهم رجل اسمه الحاج باشه واخر اسمه الحاج مامى واخر يقال له خضر وآخر يقال له الحاج بكير فقاتلوا قتالا شديدا الى الليل فرجعوا الى راس تفوره ونزلوا امحالهم فاخذت تلك الوعود كلها وشرعوا فى قتال المدينة وصبت عليهم مدافع المسلمين وخاب رجاوهم من المدينة فصعدوا الويتهم منشورة الى الكدية المعروفة بكدية الصابون وشرعوا فى قتال المدينة منها هذا واهل الجزاير يرمون عل العدو بالمدافع من كل ناحية باصوات الصواعق وربما وصلوا الرمى عل اجفانهم التى فى البحر هذا ما وقع لهم من الحرب فى يوم الاثنين وهو اليوم الاول الذى تحركوا فيه الى الجزاير فلما كان يوم الثلاثة ارسل الله تعالى فى آخر الليل عاصفا فقطعت حبال اجفانهم ونشروا صواريهم خوفا من الهلاك وتم هذا الريح فى الزيادة فتشوش الجنرال من ذالك واسمه اندريه وكذالك من كان معه فى الاجفان وسالت هذه الريح العظيمة التى ارسلها الله عليهم جملة من اجفانهم الى البر فعطبت عل المطاحن وخرجوا منهم اسارى المسلمون ومالت عرب الجزاير عل اهل الاجفان فاستاصلوهم قتلا فماتوا فلما ر١٠ الطاغية ما حصل لاجفانه من الغرق والعطب انكسرت شوكته واخمدت ناره وظهرت عليه مخايل الذل وخرج اهل المدينة صبيحة يوم الثلاثة باجتهاد وعزم قوى وعلموا ان الله تعالى نصرهم عل اعدائه ، فخالطوهم وقاتلهم فى تلك الاوعار فاتى وجوه العسكر الى الطاغية وقالوا له ايها الملك قم بنفسك الى الحرب فان المحلة عل اشراف الاخذ فعند ذلك خرج الطاغية والتفت عليه عساكره واخذوا فى القتال فتقهقر المسلمون عنهم نازلين الى راس تفوره وجدوا الكفار فى قتالهم وتكالبوا عليهم فتقهقروا ايضا الى موضع يقال له ملعب الكورة ثم الى قنطرة الافران فلما راوا الكفار ذالك منهم تراكمت جيوشهم عليهم كالبحر الزاخر وصاحوا عليهم من كل ناحية وطالبوهم من كل دانية فتقهقر المسلمون الى ناحية سيدى ابى التقى فعند ذالك صرخ المسلمون فى وجه الكفار وحملوا عليهم وضربوهم بالحجارة والنشاب وكان ذالك اليوم يسيل فيه

المطر كافواه القرب فراجع المسلمون حمايتهم وحملوا على الكفار من كل ناحية فردوهم على اعقابهم الى المحلة ورجع المسلمون الى المدينة ولما كان صباح يوم الاربعة ظهر الكفار انهم لا طمع لهم بالجزاير وان الغنيمة ان ينجوا بانفسهم فقربت اجفانه الى البر ونزل الجنرال اندريه منها حزين فوصل الى الطاغية فى محلته واعطاه حق المبايعة وقال له ايها الملك الم احذرك عن السفر الى الجزاير فانظر عاقبة الامر الذى كنت حذرتك عنه والآن قم اطلب النجاة لنفسك فان جل اجفاننا عطبوا على السواحل فكيف يكون رجوع هذا العسكر الى بلادنا فها انا ايها الملك اذهب الى تمانتفوس انتظرك هنالك فبادر انت ومن معك من العسكر بالرحيل لتركب فى الاجفان الباقية وتخلص الى بلادك فعند ذالك رجع الطاغية عن الجزائر ونزل على وادى الحراش وكان قد اجهدهم الجوع فاكلوا اربعماية من الخيل وباتوا تلك الليلة والمطر يتراكم عليهم والاعراب والقبايل يضربون فيهم بالمكاحل والاحجار ويلتقطون فى السعى فلما كان يوم الخميس نظر الطاغية الى الوادى فرءاه حاملا فهالته رويته فاستشار رجاله كيف يحتلوا على القطع الى الناحية الاخرى فعقدوا صوارى سفنهم المنعطبة على الساحل وقطعوا عليهم فلما قطعوا الى الناحية الاخرى هجمت عليهم فرسان العرب ايضا وصاحوا عليهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ولم يزل الطاغية وفرسان العرب تطاعنهم الى ان وصلوا الى تمانتفوس واقام فيها اياما الى ان خمد هيجان البحر فركب فيما بقى من الاجفان وسافر الى بلاده وهو لايصدق النجاة بنفسه وخلف كثيرا من الاغربة والاجفان الرقاق وكثيرا من الاجفان العظام والعشريات والفرقطات ومدافع عظام وخلف كثيرا من الرجال والنساء والصبيان التى اتى بها فانه لم يذهب واحد منهم وعدتها الفان وثلاثماية واما خيله لم يذهب منها واحد سوى الذى مات فى الحرب والذى اكلوه وحاصل ما خلفه لاهل الجزاير مال لا يحصى .

كمل تاريخ النبلادور حين اتى الجزاير فى المرة الاولى وكتبته من مجلد فيه تواريخ بخط عجمى) .

ـ مخطوط المحكمة ـ



قال ابن ذاكور الفاسي يمدح الشيخ عمر بن محمد المانجلاتي (1) بالجزائر عام 1094 هـ :

حي عل الانس ان طيف الهموم سرى
وسل نفسك وانهج نهج من صبرا
ولا تصغ لدواعي البث ان صدحت
ان دواعيه تستجلب الضررا
واذكر معاهد قد راقت نضارتها
فان في ذكرها انسا ومعتبرا
لله منها أصيلان جنيت بها
في روضة اللهو من نخل المنى ثمرا
اذ الاحبة يعدو عن وصالهم
بعد يؤجج في احشائنا سقرا
حيث وانتلفنا ولا واش ينم بما
نلنا عدا الاعطرين الورد والزهرا
ولا رقيب عل الافواح يحسدنا
دان خلا النيرين الشمس والقمرا
وزهونا بتلاقينا والفتنا
اغرى بنا الاعجمين الطير والوترا
فصاح ذلك عل افنان دوحته
حي عل الانس ان طيف الهموم سرى
وبث ذا ببنان اللذ يحركه
خذ ما صفالك وانبذ كل ما كدرا
والبحر مثل مذاب التبر حاك به
كف النسيم دروعا حسبتها سحرا
والورق تسقط في امواجه دررا
كما سقطت عل بحر العلا عمرا

* * *

حبر الجزائر و الدنيا برمتها
من عالج العلم حتى ذاع واستنشرا
بدر الجلال ومصباح الكمال ومقيا
س الجمال الذي كل الورى بهرا
شيخ احاط بانواع المديح فما
ابقى لمن بعده شيئا ولا وذرا
ان تنم اهل العلا الى محاسنه
تجد جميعهم من بحره نهرا
ذو همة شغفت بالمجد عالية
حسم بها احد النسرين فانكدرا
الى شمائل ازرت بالنسيم ضحى
وخلق كالخلوق قد هفا سحرا
من يبلغ الاهل اني بعد بينهم
جالست بدر هدى بالشمس معتجرا
وقد ظفرت بما قد كنت آمله
لما قضت منيتي من نوره وطرا
حتى لقد خلت آمالي قوائل لي :
فداك ابن زاكور هذا البحر فالتصرا
من ذا يطاولني والمجد صالحني
والبدر البسني والعلم لي سفرا
قد كنت قدما ارى خطب النوى ضررا
فاليوم حين اكتسبت المجد لا ضررا
ما احسن البين اذ كانت اساءته
تفضي الى مثل مصباح الدجا (عمرا)
بقية السلف الماضي ونخبته
لكن محاسنه ازرت بمن تبرا
قاضي القضاة الذي لا شيء يعدله
في عدله الذي شاقى الناس واشتهرا
بحر العلوم التي قد غاص منهلها
منذ زمان وسيل الجهل فيه جرى
بدر الجزائر صان الله بهجته
عن ان يرى بخسوف البدر مستترا
وبحرها العذب لا زالت جداوله
تروض العالمين البدو والحضرا

المنتخب من شعر ابن زاكور ـ تاليف عبد الله كنون ، الحسين المراشنتي (المغرب) 1341

1) عالم فقيه واستاذ ماهر توفي سنة 1693/1104 .

ترجمة عبد الرحمن الثعالبي :

نسبـــه :

هو ابوزيد عبد الرحمن بن محمد ابن مخلوف بن طلحة بن عمر ، بن نوفل بن عامر بن منصور بن محمد بن سباع بن مكي بن ثعلب بن موسى بن سعيـد بن مفضل بن عبد البـر بن قيس بن هلال بن عامر بن حسن بن محمد بن جعفر بن ابى طالب .

مولـده ونشأتـه :

ولد الثعالبي سنة 785 هـ 1384 م بواد «يسـر» على بعد 86 كلم بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر . ونشأ ـ هناك بين احضان ابويه ـ نشـأة علم وصلاح واخلاق مرضية ، وقـد تلقى مبادىء قراءته وتعلمه بالجزائر العاصمة وضواحيها . وقد كان حاضرا يوم غزا الاسبان ـ تدلس ـ «في دولة بني عبد الواد ، واخوتهم من بـني مرين ، ودخلها بعسكره ضحوة يوم الاثنين 12 من ذي الحجة سنة 800هـ 1398 م وكان عمره حوالي خمسة عشرة سنـــة .

رحلتـه لطلب العلم :

نزح الثعالبي من مسقط رأســـه صحبة والده محمـد بن مخلوف في اواخر القرن الثامن الهجري واواخر القرن الرابع عشر الميلادي ، طالبـا المزيد من العلوم والعرفان باحثـا عن مظانها في مناكب الارض وقصـد المغرب الاقصى ، حيث اجتمع ببعض علمائه الفطاحل واخذ عنهم ما تيسر له اخذه ، وقد سمع وروى هناك عن عالم الدنيا محمد بن احمـــد بن مرزوق العجيسي التلمساني ، المعروف بالحفيد . وكان الثعالبي ـ اذ ذاك ـ يناهز البلوغ ثم يمم شطر بجـاية فدخلها ـ صحبة والده ايضا ـ سنة 802 هـ ـ 1399 م ، فمكثا بها زهاء سنة ، ثم توفي والده ودفن هناك ،

وعلى اثر وفاة الوالد عاد الى الجزائر قصد الزيارة لاقاربه ثم رجـــع الى بجاية ـ ايضا ـ حيث قضى ما يقرب من سبع سنوات تلقى خلالها دروسا شتى في مختلف الفنون عن زمـــرة من فطاحل العلماء . وفي سنـــة 809 هـ ـ 1406 م ـ انتقل الى تونس حيث مكث حوالي ثمان سنوات انتفع خلالها بمعظم علمائها واجازوه فيمـا هو اهل ان يجاز فيه . وفي سنـــة 817 ـ 1414 م توجه الى مصـر ، حيث استقبل استقبالا كريما وقـــد اقيمت له زاوية هناك ، وما تزال تلك الزاوية وقفا محبسا على الثعالبي الى يومنا هذا ومن هناك توجه صـــوب الحرمين الشريفين حيث ادى فريضة الحج ، واغتنم الفرصة ، فاخذ عـــن بعض علماء الحجاز واجازوه في فنون شتى . ثم عاد الى مصر ، وفي سنـة 819 هـ ـ 1416 م رجع الى تونـس فوجد بعض شيوخه قد توفي ، ومكث هناك حوالي سنة ملازما خلالها حلقات جامع الزيتونة ، وفي اواخـر سنـة 820 هـ ـ 1417 م عاد ادراجه الى بلده المحبوب بعد ما غاب عنه حوالي عشرين سنة قضاها في اكتنـــاز المعارف واغتراف العلوم ، انى كانت وحيث بانـت .

وهكذا استقر بمدينة الجـــزائر ، حيث راح يشتغل بعبادة ربه وبـــث العلوم الشريفة بين ابناء ملتـــه ، وتحبير المؤلفات المفيدة ، والمصنفات العديدة في شتى الفنون الى ان ناداه اجله المحتوم صبيحة يـوم الجمعـة 23 من شهر رمضان المعظم سنـــة 875 هـ ـ 15 مارس 1479 م ـ بعد ان قضى تسعين خريفا كانت كلهـــا طوعا لمرضاة الله ، ووقفا على مصالح العبـــاد .

ثم نقلت جثته الكريمة من منزله الى مكان يقع على ربوة خارج « بـاب الواد » يعرف آنذاك ـ بـ « جبانـة الطلبة » ودفن هناك ، ومنذ ذلـــك الحين اصبح ضريحه مزارا يتبرك به ولم يزل الزائرون يقصدونه ذكرانا واناثا يوميا طوال السنة الى وقـت غير معلوم .

وقد رثاه تلميذه المخلص الاديب ، الشيخ احمد بن عبد الله الجزائري، ثم الزواوي بقصيدة من بحر الطويل فقال في مطلعها :

لقد بان اهـل العلم عنا واقفرت
منـازلهم انا الى اللـه نرجـــع
كما بـان عنا شهمنا العـالم الذى
سنـاه بانـوار الحقيقـة يسطع
ابوزيد المشهـور بالعلم والتـقى
له الفضـل فينـا والمقـام المرتفـع

مـؤلفـاتـه :

يعد الثعـالبي اخصب انتـاجا من علماء قطره ومتصوفيه . وذلك راجع ـ فيما نظن ـ الى اعتزاله عن سواد الناس ، وملازمته لمهنة التدريس في شتى الفنون المتداولة بين علمـــاء ذلك العصر . وقد نيفت مؤلفاته على التسعين ، اكثرها ماتزال مخطوطة ، وجلها يوجد بارض السـودان نذكر منها ما يـــلي :

1 ـ الجواهر الحسان ، في تفسير القرآن .
2 ـ تحفة الاخوان ، في اعراب أي القرآن .
3 ـ الذهب الابريز ، في غريب القرآن العزيز .
4 ـ العلوم الفاخرة ، في النظر في امور الآخرة .
5 ـ كتاب المراتي .
6 ـ روضة الانوار ، ونزهة الاخيار .
7 ـ رياض الصالحين .
8 ـ الانوار ، في معجزات المختار .
9 ـ الجامع الفرعي .
10 ـ شرح مختصر خليل بن اسحاق المالكي .
11 ـ شرح على ابن هارون .
12 ـ شرح على غراد ابن عرفة .
13 ـ شرح عيون مسائل المدونة .
14 ـ جامع الامهات ، في احكام العبادات .
15 ـ الجامع الكبير .
16 ـ ارشاد السالك .
17 ـ الاربعون حديثا في الوعظ والرقائق .
18 ـ الدر الفائق .
19 ـ شرح المختار من الجوامع في محاذات الدرر اللوامع .
20 ـ الفهرسة .
21 ـ مختصر الفهرسة .
22 ـ الرحلة .
23 ـ جامع الفوائد .
24 ـ كتاب النصائح .
25 ـ العقد النفيس .
16 ـ كتاب الارشاد ، في صالح العباد .
27 ـ جامع الخيرات .
28 ـ التقاط الدرر .
29 ـ المختار من الجوامع .
30 ـ جامع الهمم ، في اخبار الامم .
31 ـ نور الانوار ، ومصباح الظلام .
32 ـ الانوار المضيئة ، في الجمع بين الشريعة والحقيقة .
33 ـ كتاب النصائح . وغير ذلك.

الامام أبو عبد الله بن محمد بلخروبي (1)

الفقيه الصالح ابو عبد الله محمد ابن علي الخروبي الطرابلسي نزيل الجزائر ودفينها تعين للوفادة على مراكش سنة 961 وفي المرآة ان ابا عبد الله الخروبي قدم المغرب الاوسط والمغرب الاقصى مرتين في سبيل السفارة بين ملوك المغرب الاقصى واخذ هو عن الشيخ زروق رحمه الله وفي قدمة الخروبي هذه الى مراكش انكر على الشيخ ابي عمرو القسطلي دفين رياض العروس من مراكش حلق شعر التائب الذي يريد الدخول في طريق القوم وقال انه بدعة فقالوا ان الشيخ الجزولي كان يفعله فقال لهم لعله باذن والاذن له لا يعمكم فان الاذن للنبي يعم اتباعه والاذن للولي لا يعم اتباعه وانكر عليه مسائل كثيرة وبعث اليه رسالة اقذع له فيها وقد وقفت عليها ، رحم الله الجميع بمنه . وتوفي الخروبي هذا سنة 963 ودفن خارج الجزائر والله أعلم.

وفي «الجذوة» انه من اهل الحديث والفقه والتصوف واقف على اغراضهم جمع في فن التصوف والاذكار والاوراد كتبا منها : شرح الحكم لابن عطاء الله ، ورسالة رد فيها على ابي عمر القسطلي المراكشي ، وحدثني بعض الجزائريين انه راى تفسيرا له على القرآن العظيم بجزائر مزغنة وغير ذلك وكان جماعا للكتب وكان خطيبا بالجزائر وكان له وجاهة عند امراء بني عثمان استعملوه في السفارة بينهم وبين ابي عبد الله المهدي الشريف الحسني فورد المغرب ودخل مدينة فاس عاينت اجازته لشيخنا ابي عبد الله الخضري الوزوالي لما دخلها مؤرخا لها سنة تسع وخمسين وتسعمائة ـ 959 ـ وذهب الى مراكش وخلف خزانة من كتب العلم اخذ عن ابي عبد الله محمد ابن عبد الله الزيتوني وعن ابي العباس احمد بن احمد زروق وعن ابي حفص عمر العطاوي الراشدي عن عبد الجليل ابن محمد الراشدي وابي عبد الله ابن مرزوق وابن زكرياء المغراوي وابي زيد عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنهم واخذ ايضا الخروبي عن عمر بن زيان المديوني عن ابي عبد الله بن يوسف السنوسي عن ابي اسحاق ابراهيم التازي صاحب وهران عن محمد بن واضح الشبي اجاز لي عنه شخنا ابو عبد الله محمد ابن يوسف الترغي وابو عبد الله محمد بن احمد الخضري وعاينت اجازته الشيخين معا توفي بالجزائر بالوباء الذي كان بعد الستين وتسعمائة

لان الوباء كان فى مدينة فاس عام خمسة وستين وانظر هل سبق مـن الجزائر او من مدينة فاس .

« ابو العباس احمد الناصرى . كتاب «الاستقصاء لاخبـار دول المغـرب الاقـصى»)

1) ولد بكراكش (على 4 كم غربى طرابلس الغرب) وذلك حوالى سنـة 880 هـ/1475 وتتلمذ لابيه عـلى الخروبى وللشيخ حاج قاسم وللشيخ الصوفى احمـد زروق البرنـوسى الفاسى الذى علم ببجاية . ثم قـدم الخروبى الى الجزائر حوالى 1510/916 فعين للتدريس والافتاء بالجامع الكبير وكانت له علاقات متينة مع علمـاء العاصمة آنـذاك مثل الشيخ سيـدى احمد بن يوسف كما كانت علاقاتـه باتراك الجـزائر طيبة فارسله حسـن باشا بن خير الدين فى مهمة الى المغرب الاقصى لـدى السلطان السعـدى مولاى محمد الشيخ لابرام معاهـدة الهدنة وتسطير الحدود .

الا أن الشيخ الخروبى ـ عنـده وصوله الى المغرب أهمـل الوفـادة وافتى فى حلق الشارب مما أحـدث صراعا قلميـا بينـه وبـين أنصار الشيخ القسطـل .

وتوفى الخـروبى بالجزائر حـوالى 1556/963 ولا يعرف قبره وتـرك آثارا منها : كفاية المريد قامـة الناس لشهرته ـ يكتب الغزالى زمنها كتاب «عيون النفس» .

فى علمـاء الجزائر :

. . ومنهم الامام العلامة المفـتى ابوعبد الله سيدى محمد بن الامام الاكبر ذى الفضـائل المشهـورة ابى عثمان سيدى سعيد بن ابراهيم (1) عرف بقدورة . اتم الله نوره ، شيخ الفقه والحديث ، تفرع من شجـرة علم ، وتدرع برود وقـار وحلـم ، فمحله من الجزائر محل السواد من الناظر ، انتهت اليه خطابتها وفتياها، وجعلت فى يديه آخرتها ودنيـاها ، فاليه يهرع عند اشتباه النـوازل ، ويفزع عند اشتداد الزلازل ، وعليه يعتمد فى رواية الآثار ، وتصحيـح اسانيد الاخبار ، الى فصاحة والسن، جرى بهما فى ميدان الابداع طلـق الرسن ، وحلاوة وطـلاوة ، الان بهما قلب كل ذى قساوة ، وعبارة عليهـا رونق ونضارة ، ولسان خلوب ، يقود عصابـات القلوب ، هذا مع انـه لم يرتضع اخلاف الادب ، ولم يصطبح بسلافة المـزرى بالضرب . امـالو التبس بمور ذلك المور ، واقتبـس من نور ذلك الغور ، فلا يمتـرى فى انه يطاول اهل المشرق والمغرب، ويصير نظيره كعنقاء مغرب وامامـة والده ابى عثمان ، هى التى ارقتـه على غيره من الاعيان ، واولته المراتب الخطيرة ، والفضائل الشهيرة .

سعـى معشر كى يلحقوه فبرزت
به غـرر مشهـورة و عـلائم

سمعت من امـلائه فى مجلسـه الخطير ، جملة وافية من الجامـع الصغير ، وابوابا من صحيح البخارى يحمد مواردها المدلج والسارى، سماع دراية ، وتحقيق رواية ، فرأيت مـن ظرفه ولطفه ما سحر وبهـر ، وتنزهت من فهمه وحفظه فى جنة ونهر ، ولما ازف رحيل ، طلبت منه ان يجيزنى بما ينفع غليـل . .

(ابن زاكور (2) نشر ازاهير البستان ص 26 الى 29)

1) تونسى الاصل جزائرى المولد والمنشأ . درس على الشيخ محمـد ابن أبى قاسم بن اسماعيل المطمـاطى وعلى الشيخ أبى عثمان سعيد المقرى بتلمسان ثم عاد الى الجزائر وعلـم بالجامع الاعظم الى أن توفى 1066 هـ ـ 1656 م .

2) سبقت ترجمتـه فى بـاب الرحلات .

ابنـا عـلى

1 ـ محمد بن على 1128هـ1716م

محمد بن على بن محمد المهـدى ، الشهير بابن على : فقيه ـ فاضـل ـ نشا بمدينة الجزائر واخذ عـن مشائخها . وهو والد محمد العربى السابقة ترجمته . مات بالجـزائر العاصمة له « مجمع الانهر شـرح ملتقى الابحر » فى الفقه الحنفى .

محمد العربى بن على 1164 هـ 1751 م

محمد العربى بن محمد بن عـلى ابن محمد المهدى الشهير بابن على، ابو عبد الله ، شاعر ـ اديب ، نشا بالجزائر العاصمة . التى عليه عبد الرحمن الفاسى فى رحلتـه ووصفه « باديب العلماء وعالم الادباء» وهو ابن محمد بن على صاحب «مجمع الانهر» السابقة ترجمته . له « ديوان شعر » يشتمل على قصائد بليغة فى المدائح النبوية .

عـادل نويهض : معجم اعـلام الجزائر ص 161 ـ 168 .

اصل اللفظ الفرنسي تعجيم للفظ الجزائر .

نقلت – او بالاحرى – حرفت الشعوب الاروبية الاسم العربي « الجزائر » بطرق شتى عند ما اتصلت بسكان العاصمة . وقد يكون من المفيد ان نبحث ما هو اصل الصيغة التي تبناها الفرنسيس وهل هي حقيقة خاصة بهم كما قد يظن ذلك بسهولة؟ومعلوم ان عاصمتنا الافريقية سماها الاسبان «Argel» والايطاليون «Algieri» والانكليز والهولانديون «Algiers» والالمان «Algier» اذا اقتصرنا على هذه الشعوب ، وقد اتصل سكان الشمال منهم بالمصر الاسلامي بعد شعوب البحر الابيض المتوسط ، فقد تاجر هؤلاء فعلا مع مدينة الجزائر منذ القرن الثاني عشر بواسطة ملاحي اسبانيا وسكان بيزة وجنوة . ومما يظن قبل اجراء اى تحقيق ان الاسماء التي عجم بها الاسبان ، والفرنسيس ، والايطاليون اسم الجزائر وتبنوها منذ زمن طويل قد فرضت على سكان الشمال الذين لاءموا بينها وبين طرق النطق الخاصة بهم . اما ما يخص السكان المجاورين للبحر الابيض المتوسط فمن الطبيعي ان ان يبحث عن اقدم نقولهم في الوثائق الصادرة من تجارتهم يعني في الخرائط التي رسمت بواسطة البوصلة والتي تدعى «Portulans».

واقدم وثائق خرائطية معروفة عليها تعجيم اروبي لاسم «الجزائر» هي خريطة تنتمي الى القرن الثالث عشر حفظت في جنوة وهي اطلس لماركورو اولوكوروس وخريطة المكتبة الوطنية المعزوة الى بيزة والتي يتراوح تاريخها بين عام 1275 و 1300 ، ففي هاتين الخريطتين تسميتان مختلفتان : سميت الجزائر في الاولى Alguer وفي الثانية Algezira ومن الواضح ان الصيغة الاخيرة هي مجرد تقليد للاسم العربي الذي يعني الجزيرة والذي ينبغي ان ينطق به على الطريقة الايطالية (Aldjezira). والبكري الذي يذكر مع هذا الاسم جزائر بني مزغنة والذي يستعمل الجمع (الجزائر) يضيف مباشرة بعد ذلك « الجزيرة تدعى سطوفلا » (Stofla). ولا شك ان الملاحين تعودوا ان يعتبروا مجموعة الجزر الصغيرة في جملتها ولم تكن تعنيهم الا بصفتها ملجا طبيعيا تتحطم عليه امواج الشاطئ . هكذا يفسر لفظ خريطة بيزة اما صيغة Alguer فيظهر منها انها تنتمي الى كاتالونيا اما في القرن الرابع عشر فقد واصل الإيطاليون دعوة الجزائر باسماء تقترب من اسم Djezira. فاطلس جنوة المعزو الى بيتيروفسكونتي 1318 Pietro Vescontie

يطلق على موقع الجزائر اسم Zizera الذي نجده ايضا في اطلس بينلي (Pinelli) (القرن الرابع عشر) . وفي خريطة جنوة المنسوبة الى جيوفاني دى كارينيانو (1320) ، ونقرا على خريطة الاخوة بيزيقاني (1367) Ziziera وعلى الخريطة البندقية لالبوتيتو دافيرفا (1409) يقرا Zirara.

وواضح ان كل هذه الصيغ متشابهة . اما على الخرائط التي من اصل كاتالوني اوميورقي فالالفاظ تقترب بالعكس من الصيغة المذكورة من قبل : Alguer.

وقد كتب Angeline Dulcert على خريطته سنة 1339 : Aurger ولكن يخبرنا هو نفسه كتابة انها رسمت في ميورقة ولكن الصيغة التي تحملها وثائق هذا المصدر بصفة عامة هي Aldjère وهي اختزال لاسم Aldjezira.

واللفظ : Alger هو الموجود على الخريطة الكاتالونية المشهورة المدعوة خريطة شارل الخامس (1375) التي صنعها يهودي من ميورقة اسمه Abraham Gresques وكان ينتمي الى اسرة احترفت صنع الخرائط . وان طائفة من وثائق القرن الخامس عشر تستخدم هذا اللفظ ، منها خريطة Mécia de Viladeste (1413) التي صنعها يهودي ميورقي ايضا ، ومنها خريطة Gabriel Vallasecchha (1439) من نفس الاصل ، كتب لفظ Alger على خريطة متحف برلين (النصف الاول من القرن الخامس عشر) المنتمية الى كاتالونيا على حسب ما يظهر كما هو مكتوب على خريطة Andreas Benincasa Gratiosus (1435) وعلى خريطة Jayme Bertran الكاتالونية 1482 وعلى خريطة Juan de la Cosa (نهاية القرن الخامس عشر) وعلى خريطتين اخريين من نفس المصدر احداهما محفوظة في نابول والاخرى في مودان واللفظ Alger كتب ايضا على خريطة محفوظة في المكتبة الوطنية

والتى يظن M. de la Roncière انهارسمت بين 1488 و 1492 تحت ادارة كريستوف كولومب وخريطة Martin Behaïm من نفس المصدر عليها لفظ Algir صيغة مؤلمنة للفظ الجزائر ، والحاصل ان لفظ Alger ظهر من جديد على خريطة رسمها Sebastien Cabot وكان ربانا اول لشارلكان فى النصف الاول من القرن السادس عشر وليس بقريب ان تكون هذه الاخيرة وخريطة كولومبين اوحت بهما فى هذا الصدد وثائق من اصل اسبانى .

وينتج بوضوح من استعراض كل هذه النصوص ان لفظ Alger (Aldjère) كان استعماله جاريا فى القرن الخامس عشر بين جغرافى كاتالونيا وبصفة محققة بين الملاحين . فصناع الخرائط من يهود ميورقة او المتهودين منهم – على حسب ما يظهر – هم الذين ساهموا فى نشر هذا اللفظ واذاعته وفى اثباته .

وهكذا استدرجنا الى الظن ان صيغة Alger انتقلت منهم الى الفرنسيس الذين غيروا النطق به فقط تغييرا خفيفا .

الم تكن مدينتا Narbonne و Montpellier فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر على اتصال مستمر مع الموانىء الكاتالونية فى البر والجزر . وطبيعى ان يسبقنا الى هذا الامر الكاتالونيون الذين اتصلوا بمسلمى الاندلس اتصالا مباشرا اكثر .

وقد تغلبت الصيغة القشتالية Argel على الصيغة الكاتالونية فى القرن السادس عشر عند ما تحققت الوحدة الاسبانية ولنلاحظ زيادة على ما مر ان صيغة Argel تعادل من الناحية الصوتية صيغة Alger بفضل التبادل الكثير الوقوع بين الراء واللام .

اما ما يخص الصيغة الايطالية التى استخدمت Algieri عقب الصيغ Zizara - Ziziera Zizera فهى توجد على سبيل التقريب فى خريطة Guglielmo Soleri التى رسمها حوالى 1380 ميورقى متهود وسمى نفسه – كما هو شاهد – باسم ايطالى نصرانى وطلين اسمه الاصلى فلفظ Algier الذى نقرؤه على هذه الوثيقة والذى يجب بدون ما ريب ان ينطق به نطقا ايطاليا Algier هو يطابق مطابقة مجردة للفظ الكاتالونى Adjère.
ويوجد لفظ Algieri على خريطة ايطالية يرجع تاريخها الى القرن الخامس عشر فى مكتبة الفاتيكان . كما توجد على خريطة Maglia Becchi من نفس العصر
وفى الختام ينتج من فحص القدم الوثائق الخرائطية ان الطرق المختلفة لتعجيم لفظ الجزائر تقررت وثبتت – على حسب ما يظهر – فى القرن السادس عشر فقط لدى شتى الشعوب الاوروبية ، وقد كان للجغرافيين وصناع الخرائط خاصة الاثر الفعال حقا فى تبنى الصيغة النموذجية التى يظهر ان الصيغ الاخرى – وخصوصاالصيغةالفرنسية – اشتقت منها . رونى لسبس .

موقع مدينة الجزائر – 1 –

هل كان لقرية بنى مزغنة البربرية الصغيرة التى صارت فى القرن السادس عشر عاصمة قراصنة الجزائر حق يجعلها – بحكم موقعها الجغرافى – تستحق حظا مثل حظها ؟

1 – وان تاريخ اصل مملكة الشمال الافريقى لا يكشف لنا عن اى فكرة ولا عن اى تدبير يعتمد على اعتبارات من هذا النوع والقرصان عروج لم يات الى الجزائر من تلقاء نفسه ، بل جاء بدعوة من قبل سكان المدينة ، وقد استقر اخوة خير الدين فيها نهائيا لانه وجد فيها ملاذا كان قد استعمله قراصنة من قبل ، ولانه كان يامل ان يتخذ منها مرفا .

وعند النظرة الاولى لا يلحظ فى شكل هذا الجانب من المغرب ولا فى تركيبه ما يكون بلاد الجزائر المعاصرة ، فليس ثم اتجاه واحد من اتجاهات المسالك الطبيعية هذه التى توجه الناس نحو مكان ممتاز يصلح مبدا للمرور وملتقى طرق له . او تستطيع ان تحدوهم الى ان يتخذوا من ذلك موقع عاصمة قد قيل كل شىء عن عدم وجود مركز جغرافى فى بلاد البربر بوجه عام . وفى المغرب الاوسط بصفة خاصة وعن المصاعب التى يعترض بها اتجاه التضاريس المؤازية للشاطىء للتوغل العميق من الشمال الى الجنوب. وعن الانعزال النسبى للسهولوالاودية

2 – هل يجب ان نقتصر على هذه النتيجة ونستسلم للخوف من حتمية جغرافية جد دقيقة وجد واهية ؟

---

1) الموقع الجغرافى 36 درجة و 47 دقيقة و16 ثانية فى خط العرض الشمالى ، ٥ درجة و 44 دقيقة وثانية واحدة فى خط الطول الشرقى

وعندما تكون القضية قضية عاصمة يكون للانسان ـ حسب ما يظهر ـ الحق في الخروج من الاطار الشديد الضيق المتكون من ارباضها المباشرة وفي احتضان طائفة من البلاد هي هنا المغرب الاوسط القطر الجزائري الطبيعي الذي يحده من الشمال الى الجنوب البحر والصحراء، ومن الغرب الى الشرق ملوية ووادي شرف او تحده تخوم مجاورة، ولكن هذه المجموعة تنقسم الى شطرين غربي وشرقي يتعاقبان في المنطقة التلية تحت خط الزوال لمدينة الجزائر تقريبا.

يرى فوتيي (E. F. Gautier) ـ ليدقق ويبرز خطا من خطوط الصورة ـ عند اتصال شطري بلاد الجزائر ـ امتداد خط قمة كبير حتى البحر يشخصه الهوقار ومدينة الاغواط والمدية حسب اتجاه صحراوي يقطعه عند ممر القنصاص الاتجاه الشرقي الغربي للبحر الابيض المتوسط . ومن الصعب ان ننكر امكان وجود مدن وعواصم مهيمنة هنا . ويذكر التاريخ منها ثلاثا منها ذات اهمية متفاوتة .

القيصرية ومدينة الجزائر المعاصرة في مكان صالح للهيمنة ، ويشير اليه التاريخ والجغرافية .

3 ـ ولكن اذا كان حظ مدينة الجزائر اطول في الزمن من حظ العواصم الاخرى فذلك بفضل وجود دولة قوية قوة كافية لضمان احتلال عسكري متين استطاع عمل المهندس ان يحطم ـ في كنفه ـ الاطار الشديق الضيق الذي نظهر من الطبيعة انها حصرته فيه ، وبهذا الشرط فقط استطاع موقعها ـ الذي تلتقي فيه اقسام الجزائر الثلاثة الغربي والشرقي والصحراوي المقفر ـ ان يحظى بكل قيمته حظوة حقيقية .

وتنوع الاشكال هذا ـ الممتد على مساحات ضيقة نسبيا من حيث تضاريس الاراضي ومناخاتها ومواردها الطبيعة ـ الذي هو ميزة من الميزات الاساسية لبلاد الجزائر استطاع أن يساعد مساعدة كاملة تنمية عاصمتها . وفعلا لما أزيلت الحواجز الفاصلة بين جميع هذه الاجزاء وجدت مدينة الجزائر نفسها موضوعة وضعا كاملا يمكنها ـ علاوة على المحصولات الفلاحية في الساحل ومتيجة ـ من ان تصرف وتنقل غلال وادي شلف والسهول العالية في المدية وبرواقية وبويرة وسور الغزلان واخشاب وفلين غابات بلاد القبائل واصواف المنطقة الصحراوية وركاز مليانة وروينة

لنوجه نظرنا الآن نحو الخارج نحو البحر :

فمن المؤكد ان مؤسسي الجزائر كانوا ينظرون الى هذه الناحية . واستطاعت ظروف تاريخية ان تخول لموقع مدينة الجزائر معنى جديدا ، وزادت طائفة من التطورات في قيمته باقامة مرفا كبير مقام مرسى حقير .

الجزائر واقعة تقريبا في منتصف الطريق الكائن بين الرأس الطيب ومضيق جبل طارق بين مدخل البحر الابيض المتوسط الشرقي ومدخله الغربي .

لنلاحظ ايضا احداثا ثانوية اخرى ، خط الزوال لمدينة الجزائر يقطع جزيرة ميورقة احدى جزر البليار التي لا تبعد عنها الا بمسافة 300 كم ،تقريبا ، وثم خط يجمع بين راس الناو Le Cap de la Nao) وراس كاكسين ويبرز ابرازا لا باس به تخوم هذا الجزء من البحر الابيض المتوسط الغربي حيث يتقابل الشاطئان الاسباني والافريقي ويتزايد التقارب بينهما من الشرق الى الغرب .

وموقع مدينة الجزائر هذا بالقياس الى شبه الجزيرة الايبيرية والى الجزر التي تمد في طولها كان له مفعول معروف معرفة جيدة على تعمير المدينة بهجرة اليهود وسكان الاندلس المسلمين اولا وهجرة الاسبان اليها من ايكانت او من بور ماهون .

اما ما يخص الموقع الاوسط الذي بين قناة صقلية ومضيق جبل طارق فاذا كان له اهمية ما فمن الناحية العسكرية قبل كل شيء ، ومن المحقق ان اسطولا تكون مدينة الجزائر ميناء قيد له يكون في وضع جيد ليحرس ويقطع الطرق الاكثر مباشرة من جبل طارق نحو البحر الابيض المتوسط الشرقي ومن اسبانيا الجنوبية نحو ايطاليا الجنوبية او جزيرة صقلية . ونحن انفسنا لم نكد نستقر في مدينة الجزائر حتى خامرت ادمغة العسكريين ورجال البحرية والمهندسين منا فكرة انشاء مرفا افريقي على غرار تولون .

ولا يلاحظ ـ من ناحية اخرى ـ ماذا كان يستطيع موقع مدينة الجزائر في البحر الابيض المتوسط الغربي ان يخوله لها من فوائد اقتصادية من غير تنمية ما وراء البلاد الجزائرية .

وان حادثا اعطى لمدينة الجزائر معنى جديدا هو حفر برزخ السويس الذي تم انجازه سنة 1869 والذي جعل طريق الهند في البحر الابيض المتوسط، وجعل من مدينة الجزائر مرفا توفرت فيه احسن الشروط لرسو السفن والتزود من الوقود .

وهكذا تلاءمت تلاؤما مرضيا الظروف والملابسات التاريخية والجغرافية لانشاء مدينة الجزائر وتبرير هيمنتها على تراب الجزائر .

ر. لسبيس « مدينة الجزائر » باريس 1930 : ص 29 ـ 37

مدينة الجزائر

تاريخها
وحياتها
الثقافية

رابح بونار

تمهيد :

تعترض كل دارس للتاريخ ظاهرة غريبة وطريفة وهي ظاهرة التشابه بين نشأة المدينة وتايخ تطورها وعمرها الزمنى ، وبين نشأة الانسان وحياته واجتيازها بمراحل زمنية طبيعية محددة فى سجل الوجود .

وقد نجد هذا التشابه حتى فيما يتصل ببعض الخصائص النفسية من سعادة وشقاء ، وازدهار وانكماش ، وقوة وضعف ، وهذا ما نلاحظه عند دراستنا لبعض المدن التى برزت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بالقطر الجزائرى ثم تراجع أمرها ، وانحسر مدها ، أو انقرضت من الوجود تأسست فى منتصف القرن الثانى الهجرى،واستبحر عمرانها ، وخدمها السعد حينا ثم اعترتها الشيخوخة والانقراض فى منتصف القرن السابع الهجرى .

وكذلك مدينة طبنة التى مثلت دورا كبيرا فى عهد الولاة ثم تلاشى امرها بعد القرن الخامس الهجرى وكذلك مدينة « قلعة بنى حماد » التى تركز فيها مجد بنى حماد فى القرنين الخامس والسادس ثم اسدل الزمن عليها ستار العفا. والاندثار .

وعلى العكس من ذلك فقد كانت هناك مدن ثانوية فى العصر الاسلامى لم يكن لها ما تستحقه من عمران وازدهار حضارى ، ثم لم تلبث ان بزغ فجر سعادتها ، واشرقت شمس حضارتها وعمرانها، وخدمها السعد فى جميع مجالاتها الحيوية .

وهذا ما ينطبق على كثير من مدننا التاريخية التى كان لها جلال وصيت فى القديم ، ثم ازدادت جلالا ورقيا فى مسيرتها الزمنية الطويلة ، ونجد فى طليعة هذه المدن « الجزائر » العاصمة ، ثم تليها مدن تاريخية اخرى كوهران وقسنطينة وعنابة وتلمسان والمدية ومليانة وبسكرة وبجاية وغيرها .

وقد اخترنا فى هذه الكلمة ان نتناول مدينة الجزائر العامرة بالدرس والتحليل ، وان نتناولها من جانبها التاريخى والسياسى . ومن جانبها العمرانى والمعمارى واخيرا نتناولها من جانبها العلمى والثقافى .

(1)

روعة وجمال :

ان «الجزائر» عروس البحر الابيض المتوسط بحق . وهى منارة جلاله ، ومسرح آنسه وملتقى حضاراته .

واذا قدر لزائرها أن يصعد الى جبل بوزريعة الذى يحتضنها كما تحتضن الام الرؤوم ولدها ، ويلقى بصره الفاحص على مبانيها وعماراتها بدت له المدينة فى شكل مثلث هندسى بديع تنحدر مبانيها من أعلى القصبة الى أن تنبسط على حافة البحر الذى يداعبها بأمواجه فى كل آونة . وبدت له منارات مساجدها مرتفعة وضاءة ترسل بأشعتها الوهاجة ، وبنغمات مؤذنيها المدوية الى الآفاق فتخلب الالباب ، وتحسر العيون وتطرب الآذان .

واذا نظر اليها من الحراش خيل اليه أنه يرى نسرا طويل الجناحين يتحفز ليطير بعد أن كان جاثما بسفح جبل بوزريعة ، وقد استطال جناحاه حتى غطيا ما بين حى «سانت أوجين» وحى «سلام باى»

واذا رآها ليلا من بعيد فان مشاعره تستغرقها نشوة من الاعجاب والاجلال ، وان تفكيره تستهويه عظمتها وجلالتها التاريخى ، ومعالم حضارتها .

تاسيسها وتاريخها :

ان تاريخ المدينة يمثل مرحلتين منفصلتين فهناك تاريخ تأسيسها القديم الذى يعود الى العهد الفينيقى ، والى ما بعد تأسيس «قرطاجنة» سنة 814 ق م (1) حيث انتشر الفينيقيون بسواحل المغرب كله وأسسوا مراسيه ، ومنها مرسى الجزائر «ايكسيم» ، وهناك تاريخ حديث لها فى العهد الاسلامى وهو الذى أسبغ عليها طابعها الخاص ، وأبقى على معالم حضارتها التاريخية ، ويبتدىء ذلك بتاريخ تأسيسها الثانى على يد بلكين بن زيرى — سنة 339 هـ = 950 م وقد مر عليها منذ تأسيسها الى الآن 1053 سنة .

(1) دائرة المعارف الاسلامية ج 6 ص 407 — نور الدين عبد القادر صفحات من تاريخ الجزائر ص 14 — 15

ومن عوامل الاحتفاء بها أن تقام لها ذكرى مرور عشرة قرون ونصف ، وان ينوه ببعض معالمها التاريخية التي ماتزال تحتفظ بطابع العهد الزيرى الحمادى الذى أسست فيه كالجامع العتيق الذى يعود الى فترة التأسيس .

نظـرة تاريخيـة :

ان الجزائر لا يعرف عنها شيء كثير في العهد الفينيقي وانما يعرف عنها انها أسست في هذه الفترة بعد تأسيس قرطاجنة سنة 814 ق م .

وأطلق عليها الفينيقيون اسم «ايكسم» ثم جاء الرومان , وأطلقوا اسم ايكوزيوم أى مدينة العشرين لان الخرافة التاريخية تقول : ان هرقل الليبي قد مر بها مع أصحابه وكان عددهم عشرين فسميت المدينة باسمهم العددى , وهناك من ذهب الى أن اسم المدينة هو «ايكسم» استنادا الى العملة التي عثر عليها في حفريات سنة 1940 , ومعنى هذا الاسم انها جزيرة الشوك أو جزيرة الطير ، وهذا الاطلاق أقرب الى الصواب (2) .

في العهـد الرومـانى :

(146 ق م ـ 429 م) وتقدمت مدينة الجزائر وكانت لها في القرن الاول مشيخة تحكمها كما كانت فيها كنيسة , وأسقفة , وبقيت آثار هذه الكنيسة الى القرن الخامس على ما ذكره البكرى , ولما ثار الوطنى فيرموس على الرومان بالقبائل الكبرى احتل مدينة الجزائر سنة 373 م وبعد انهزامه أمامهم عادت المدينة الى حكم الرومان .

وشارك أسقفها فيكتور في المجمع الذى انعقد بقرطاجنة بأمر من الملك الوندالى هنريك عام 484 م ، ثم تضاءل أمرها في العهد البيزنطى .

في العهـد الاسـلامى :

ولما ظهرت الدعوة الاسلامية بمكة والمدينة واستقر أمر المسلمين فكر الخليفة الثالث في فتح شمال افريقيا , وبعث جيشا بقيادة عبد الله بن سعد ابن أبى سرح , وفتح افريقية , ثم عاد الى المشرق وترددت الجيوش الاسلامية بعد ذلك على شمال افريقية حتى فتحت أراضيه كلها ، ويرجح أن الجزائر فتحت ما بين سنتى 88 ـ 95 هـ على عهد ولاية موسى بن نصير , وحينما فتحها المسلمون لم يجدوا بها الا أطلالا ماثلة لما مر عليها من فتن وخراب في العهدين الوندالى والبيزنطى , وأهمل المسلمون الاوائل أمرها لعزوفهم عن سكنى المدن الساحلية .

في العهدين الفاطمى والزيرى ـ الحمادى :

ولما قامت الدولة الفاطمية أواخر القرن الثالث الهجرى (296 هـ) وهى دولة معمارية أخذ التفكير في تأسيس المدن أو تجديدها يزداد ويقوى , وكان عاملهم على الجهة الغربية وهو زيرى بن مناد متأثرا بهذا الاتجاه المعمارى فأسس مدينة أشير في أوائل القرن الرابع الهجرى .

ثم أذن لولده وولى عهده بلكين بن زيرى أن يؤسس المدن الثلاث : الجزائر والمدية ومليانة . وأسس «الجزائر» سنة 339 هـ كما أسس المدينتين

2) صفحات من تاريخ الجزائر لنور الدين عبد القادر ص 14 ـ 15

الاحريين حوالى هذا التاريخ .

وبعد تأسيس مدينة الجزائر نسبت الى قبيلة بربرية كانت تنزل بجوارها وهى قبيلة مزغنة الصنهاجية فقيل فى الجزائر جزائر بنى مزغنة .

وحكم الحماديون بعد ذلك مدينة الجزائر ـ حينما استقلوا بالجهة الغربية لامارة بنى زيرى ـ ودامت تحت حكمهم حتى سقطت دولتهم سنة 547 هـ .

وصارت الجزائر فى هذا العهد مدينة تجارية هامة وعاد مرساها مرفأ بحريا ممتازا ، وكان أسطول الحماديين يتردد عليه كثيرا ويؤثره على غيره من المراسى .

ويذكر أبو راس : ان يحيى بن عبد العزيز الحمادى قد استقبل الحسن الزيرى لما تغلب النورمان على عاصمة المهدية بتونس ولجأ اليه ، فأنزله مدينة الجزائر مع أخيه القائد واليها ، ولما هاجم عبد المومن مملكة الحماديين نازل الجزائر أولا واحتلها ، ونقل الحسن الزيرى منها الى المغرب، ثم زحف منها الى بجاية واحتلها أيضا سنة 547 هـ

فى العهد الموحدى :

(547 ـ 626 هـ) عادت الجزائر فى هذا العهد مدينة تابعة لولاية بجاية ، ونعمت بالرخاء والازدهار الاقتصادى حتى اندلعت ثورة بنى غانية سنة 581 هـ فتعرضت المدينة لاحتلالهم المتكرر حوالى سنة 623 هـ وما بعدها .

فى العهدين : الحفصى والزيانى (626 ـ 922 هـ) :

ولما تقلص نفوذ الموحدين عن المغرب المتوسط انتهز أبو زكريا الحفصى الفرصة حوالى سنة 626 هـ واحتل مدينة الجزائر كما احتل بجاية ، وصارت المدينة تابعة له وللحكم الحفصى بتونس وبجاية حينا ، ثم انتهز سكانها الفرصة فاستقلوا بحكم مدينتهم من عام 662 هـ الى عام 676 هـ .

وظهرت بها امارة صنهاجية ، وهى امارة مليكش التى مر بها العبدرى ، وهجا أميرها حوالى سنة 688 ثم عادت المدينة الى حكم الحفصيين ، واعترفت بالتبعية السياسية لهم ، ولكنها لم تلبث أن تنكرت لهم تحت زعامة ابن علان أميرها ، واستقل هذا بأمرها مدة 14 سنة .

وكانت الدولة الزيانية قد استفحل نفوذها تحت حكم ابى حمو الاول (707 ـ 718 هـ) فنازلها بجيوشه واحتلها ، والحقها بحكم تلمسان سنة 712 هـ ودامت تابعة لبنى زيان الى أن سقطت دولتهم على يدى ابى الحسن المرينى سنة 737 هـ ثم صارت تابعة له وللمرينيين بعده

وبعد قيام دولة أبى حمو الثانى سنة 760 هـ استرد هذا الامير «الجزائر» وحاول سالم التومى أن يتمرد عليه ، وان يستقل بالمدينة فكاده واعتقله ثم قتله واستراح من تلونه .

مدينة الجزائر تتحول الى جمهورية ارستوقراطية :

وظلت مدينة «الجزائر» تابعة للزيانيين مرة وللحفصيين أخرى الى ان استقلت بأمرها أواخر القرن التاسع الهجرى وعادت أشبه ما تكون بجمهورية اريستوقراطية يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة تحت حماية الثعالبة ، وكان العالم الجليل الشيخ عبد الرحمن الثعالبى أحد رجال حكمها وشوراها .

وبعد وفاة الشيخ عبد الرحمن سنة 875 هـ عاشت المدينة تحت نفوذ الثعالبة ، وتولى حكمها شيخهم سالم التومى ، وتعرضت المدينة فى أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان مما اضطر سالم التومى الى الاستنجاد بالتركيين المجاهدين : عروج وخير الدين ، وكانا قد استقرا بمدينة جيجل واستدعاهما للقدوم الى الجزائر لمحاربة الاسبان ومدافعتهم عن المدينة ، وبذلك تبدأ المدينة مرحلة جديدة هامة من حياتها .

وصف المدينة من خلال ماكتبه عنها الرحالون :

يذكر ابن حوقل فى القرن الرابع أن المدينة كانت مسورة ، وكان بها أسواق كثيرة ، ومزارع متعددة ، ومواش متعددة وكانت تنتج السمن والعسل بوفرة .

ويذكر البكرى فى القرن الخامس ان المدينة كان بها آثار قديمة ومنها بقايا كنيسة عتيقة كانت فيها .

ويذكر الادريسى فى منتصف القرن السادس ان التجارة فى المدينة كانت رابحة ، وان صناعاتها كانت مزدهرة كما ان انتاج العسل والسمن فيها كثيرا يتزود به منها الى البلدان .

ولاحظ صاحب الاستبصار فى القرن السادس ما لاحظه الادريسى قبله .

وتحدث أبو الفداء عن ازدهار تجارتها وتقدم اقتصادها فى القرن الثامن الهجرى (3) .

فى العهد التركى (922 ـ 1245 هـ) :

وهو عهد طويل يستغرق نحو 323 سنة ، وفيه عادت المدينة عاصمة للقطر الجزائرى كله ، يرسل منها الباشوات والدايات أوامرهم الى ولايات القطر كله ، وكانت تضم ادارات الحكومة ، وأجهزة السلطة المركزية ، واتسع حجم المدينة فى هذا العهد ، واستبحر عمرانها ، وبلغ عددها أحيانا 150 الف نسمة ، وصار شكلها أشبه ما يكون بمثلث هندسى (4) وكانت الجهة العليا منها مشحونة بالسكان من عامة الشعب .

أما الجهة السفلى المواجهة للبحر منها فقد كانت مركز سكنى الباشا أو الداى ، ورؤساء البحر وأصحاب الثروة ، وقناصل الدول الاجنبية .

وكان يحيط بالمدينة سور ينحدر من القصبة الى البحرما بين باب الواد حيث موقع ثانوية الامير عبد القادر الآن ، وما بين المسرح البلدى الذى يحاذى باب عزون (5) ، وكانت عناصر سكانها تتألف من بربر صنهاجة كبنى مزغنة أهلها الاصليين ، ومن العرب الثعالبة وغيرهم ، ومن الاتراك الذين جاء بهم عروج وخير الدين أو من الوافدين عليها بعد ذلك ، ومن مولديهم بعد تزوجهم بالاهليات .

وكان فيها الى جانب هؤلاء السكان طوائف من الزنوج واليهود والمسيحيين .

---

3) أبو الفداء اسماعيل : تقويم البلدان ص 125 ـ صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127

4) صفحات فى تاريخ الجزائر ص 127

5) المصدر السابق ص 127

6) المصدر السابق ص 138

حكـامها الاتــراك :

لما تعرضت المدينة أوائل القرن العاشر لهجومات الاسبان الذين احتلوا مدينة وهران ومرساها اضطر شيخها سالم التومى الى دفع أتاوة لهم ، ورأى بعد حين أن النجاة من غزوهم لا يتأتى الا بالاستعانـــة بالاخوين التركيين عروج وخير الدين ، واستقدمهما سالم التومى واهل المدينة وجاء الاخوان اليهـــا سنة 922 هـ ، وبدءا معا حياة كفاح وجهـاد مـرير ، وحاربا الاسبان بمعونة الجيش الوطنى فى مواقــع مختلفة ، واستشهد عروج فى مدافعتهم بتلمسان ، وبقى خير الدين أميرا على الجزائر ثم ألحق امارته بالدولة العثمانية وبذلك دخلت المدينة فى طــور جـــديد . واكتسبت طابع قوة حربية ، وصيتـــا حربيا وسياسيا واسعـا بحـوض البحر الابيـض المتوسط .وتعاقب على الحكم فيها خلفاء خير الدين كحسن آغا (1533 ـ 1544 م) الذى صد حملة بحرية كبيرة زحف بها الاسبان الى المدينة ليحتلوهـــا ، واندحروا أمام أسوارها ، وقوة دفاعها (7) وأصبحت المدينة بعد هذا الانتصار ـ كما يقول محمـــد ابن رقية « تختال فى حليها وحللها من رخـــاء الاسعار ، وأمـان الاقطار ، وشـاع انتصارها فى مشارق الارض ومغاربها » وكان اسطولها القــوى يمخر عباب البحر الابيض المتوسط .

وقد نبغ فى البحرية من القادة المشاهير عـــلى بتشينى وقلج على ، والرايس حميدو ، وغيرهم .

وقد اشتهر من داياتها السياسيين الحازمين :

1) خير الدين باشا
2) حسن آغـا (1544 ـ 1573 م)
3) حسن باشا بن خير الدين (1544 ـ 1568 م)
4) قلج على (1568 ـ 1571 م) وكان قائدا حربيا بحريا كبيرا .

واشتهر من داياتها :

- على بتشينى الذى اسس مسجـده الشهير بنهج باب الواد
- رمضان آغا الذى شرع فى تأسيس جامــــع الحواتين أو الجامع الجديد (1660 ـ 1661 م)
- محمد بكتـاش باشـا (1707 ـ 1710 م) الذى اشتهر بتشجيعه للحركة العلمية وبفتحـــه لمدينة وهران الفتح الاول
- محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791 م) وهـــو أعظم دايات الجزائر ، وقد صد حملات عديدة للاسبان على مدينة الجزائر ، واستطـاع أن يفتح مدينة وهران على يد واليه على المقاطعة الوهرانية محمد باى الكبـير
- وآخر هؤلاء الدايات هو حسين باشا (1818 ـ 1830 م) . وقد وقع احتلال الفرنسيين للمدينة على عهده فى 5 جوليت سنة 1830 م .

وخضعت المـدينة بعد ذلك لاحتـلال مرير دام من سنة 1830 الى سنة 1962 م .

المدينة تحت الاحتلال الفرنسى :

حكم الفرنسيون المدينة حكما عسكريا ثـــم

7) صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ص 55 ـ توفيق المدنى : محمد عثمان باشا ص 29 ـ محمد بن رقية التلمسانى : الزهـرة النيرة ، نشر سليم بابا عمرو ص 19

حوبوه الى حكم مدنى بعد حين وحاول الثائر المقرانى أن يسترد المدينة من يد الفرنسيين فى ثورته سنة 1871 م ولكنه لم ينجح فى ذلك لاسباب مختلفة (8)

ثم ظهرت فيها ضروب من المقاومات السياسية الشعبية كحركة الامير خالد عقب الحرب العالمية الاولى . ونشاط حزب الشعب منذ سنة 1936 م ، وجهود جمعية العلماء منذ سنة 1931 م وحركة أحباب البيان والحرية التى خلفت حركة النواب . وكان مركز هذه الحركات التحررية هو مدينة الجزائر .

كما كانت نواة جبهة التحرير الوطنى الاولى لتنظيم الثورة المباركة التى اندلعت فى غرة نوفمبر سنة 1954 م – منبعثة منها ، وشهدت المدينة بعد ذلك معارك عنيفة ضارية ، وضروبا من الفداء والاستبسال فى القصبة وبلكور وباب الواد وغيرها من أحيائها المختلفة ، الى أن جاد الله بالاستقلال المنشود سنة 1962 م وتحققت أمانى الشعب بعد ضروب من التضحية والجهاد التى دامت نحو ثمانى سنوات ، وبعد أن ضحى الشعب فيها بمليون ونصف مليون شهيد .

المدينة فى عهد الاستقلال :

وشهدت المدينة قيام الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، واستأنفت حياة جديدة كلها عزة وكرامة ورقى ، وازدهرت تجارتها واستبحر عمرانها ، وكثر سكانها حتى بلغ عددهم الآن مايربو على مليون ونصف مليون .

وهى الآن تسير بخطى فسيحة فى نشاطها المعمارى وتزهو باشتمالها على الادارات المركزية للحكومة وعلى المؤسسات الثقافية العالية لمختلف الدراسات العلمية وعلى المتاجر الواسعة والمعامل المتعددة والمؤسسات الرحبة كما تزهو بكثرة أحيائها واتساع رقعتها التى تكاد تبتلع ما جاورها من الضواحى لتحيلها الى أجزاء فرعية منها .

(2)

الحركة المعمارية فى المدينة :

تبتدىء الحركة المعمارية فى الجزائر بتاريخ تأسيس المدينة على يد بلكين بن زيرى سنة 339هـ ولكن آثار هذا العهد الزيرى والحمادى لم يبق منها الا الجامع الكبير الذى يعود تاريخ تأسيسه الى سنة 490 هـ – 1097 م ، وكذلك جامع سيدى رمضان الذى يعود تاريخ تأسيسه الى هذا العهد . وكلاهما يمثل الفن المعمارى البسيط ولكنه رغم بساطته يتسم بالروعة والابداع .

أما فى العصر التركى فقد لبست المدينة حلة معمارية قشيبة بمساجدها الزاهرة ، ومآذنها العالية وحصونها العاتية ، وقصورها الخلابة .

وقد لاحظ جورج مارسى : ان أول ما يلفت انتباه المسافر عند ما يحل بأرض الجزائر هو الوجود التركى الذى يتجلى فيما تركوه من آثار معمارية زاهية (9) . والفن المعمارى للجزائر على عهد الاتراك يمتاز بالنقش والزخرفة وضروب الابداع الفنى ، وتمثل المساجد والزوايا والمعابد جزءا كبيرا من هذا الفن المعمارى ، وقد بلغ عددها فى

8) توفيق المدنى : كتاب الجزائر ص 53 – محمد الميلى وعبد الله شريط : الجزائر فى مرآة التاريخ ص 207
9) وزارة الاخبار : المساجد فى الجزائر 1970 م ص 45

العصر التركى حسب ما جاء في وثيقة عثرنا عليها بقسم الوثائق تحت رقم 350 نحو 98 مسجدا وزاوية

ويذكر هايدى انه كان بالجزائر عقب الاحتلال الفرنسى 13 مسجدا كبيرا ، و 109 مسجدا صغيرا و 32 معبدا ، و 12 زاوية (10) ، وقد اندثر جل هذه المساجد والزوايا بعد مدة قليلة من الاحتلال الفرنسى تحت ستار توسيع الطرقات وتنظيمها وتحت ستار أسباب أخرى لا مبرر لها .

ويبدو الفن المعمارى فى المساجد الباقية كما فى الجامع الجديد الذى بنى سنة 1070 هـ ـ 1660م وهو يمتاز بمنارته التى كان يبلغ ارتفاعها 29,5 م ثم صار ارتفاعها بعد الردم 25 م ، وبالزخرفة البديعة التى تعلوها ، كما يمتاز بمحرابه المزخرف بضروب النقش الجميل . ويمتاز أيضا بمنبره المصنوع فى ايطاليا ، والحافل بضروب الاناقة والجمال .

وجامع القائد صفر وهو يعود تاريخ تأسيسها الاول الى سنة 940 هـ وأعيد بناؤه سنة 1242 هـ .

وجامع كيتشاوة الذى أسس سنة 1209 هـ ـ 1794 م وهو يشتمل على آيات الفن المعمارى البديع.

وجامع على بتشينى وقد أسس حوالى سنة 1031 هـ ـ 1622 م وهو يشتمل على شواهد الفن المعمارى الرائع وصحنه المربع الكبير وهو يمثل روعة فنية لا نظير لها ، ويزيده جمالا قبه المثمنة الاضلاع والمرتكزة على دعائم غليظة وما تشتمل عليه من آيات الفن المعمارى التى تسحر الابصار ، وتخلب الالباب (11) .

(3)

حياة « الجزائر » الثقافية :

حياة المدينة العلمية والثقافية منذ تأسيسها على يد بلكين الى الآن هى حياة خصبة متعددة الجوانب متنوعة الموضوعات ، ونحن فى هذه الكلمة نحاول أن نلقى أضواء خاطفة على لمحات من هذه الحياة الثقافة لان التوسع فيها يستوجب تاليف كتاب خاص بها . وقد نبغ فى هذه المدينة في مختلف عصورها أعلام فى الفقه والآداب والدراسات الدينية والتصوف والكلام والطب ، على أن الواقع يدعونا الى أن نؤكد أن جل من نبغ فيها كان من الفقهاء والمتصوفة أو من الادباء الكتاب والشعراء .

وكانت مراكز التعليم خلال هذه الفترة هى المساجد التى كانت تؤدى دورا تعليميا من جهة ، ودورا تعبديا من جهة أخرى ، وكانت الزوايا تقوم بهذا الدور أيضا ، والى جانبها نجد الكتاب القرآنى ويدعى فى الجزائر بالمسيد « تصغير المسجد » وهو عبارة عن مدرسة ابتدائية يتعلم فيها التلاميذ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن الكريم وقراءاته المروية أما نبغاء هذه المدينة فاننا سنذكرهم حسب ترتيبهم الزمنى ونذكر كلمة موجزة عن كل واحد منهم .

1 ـ أبو محمد بن أحمد بن فرج الجزائرى المتوفى سنة 368 هـ وكان راوية للحديث (12) .

10) المصدر السابق ص 46

11) المصدر السابق ص 50

12) ياقوت معجم البلدان مج 2 ص 132

ونبغ فيها في القرنين السادس والسابع :

2 ـ عبد الرحمن بن السطاح المتوفى سنة 629 هـ ببجاية وكان أديبا فقيها (13) .

3 ـ وعبد الله بن حجاج بن يوسف الجـزائرى وكان نحويا فقيها روى عن الجزولى وغيره وتـوفى ببجاية سنة 640 هـ (14) .

4 ـ وأبو محمد عبد المنعم الجزائرى وأخذ عن ابن منداس الجزائرى ، واشتهر بالشعر والترسل الديوانى وتوفى سنة 680 هـ (15) .

5 ـ وأبو عبد الله محمد بن العطار الجزائـــرى شاعر المدائح النبوية (16) ، ومن شعره قوله :

اهـدت لنا طيب الروائـح يثـــرب
فهبـوبهـا عنـد النسيـم يطـــرب
رقت فـرق من الصبـــابة و الأسى
قلب بنـــيران البعـــاد يعـــذب
شـــوقا الى اسـنى نـبى حبـــه
كنـــز النجـاة فنعـم هذا المطلـب

6 ـ ومحمد بن منداس المتوفى سنة 643 هـ وكان أديبا لغويا ومحـدثا .

7 ـ ومحمد بن أحمد الاريسى المعروف بالجزائرى وكان كاتبا بارعا شاعرا ، ومن شعره قوله :

ادرهـا فقـد هبت نسيمـة داريـــن
ونـم بســر الروض نشر الرياحين

وقوله من قصيدة أخرى :

لعلـك بعـد الهجـر تسمـح يا بدر
بوصل فقد أودى بمهجتى الهجر (17)

ونبغ فيها بالقرن الثامن :

8 ـ محمد بن حسن اليحصبى البرونى الذى حاز رياسة الفقـه فى القرن الثامن بمدينة الجـزائر ، وانتقل بدعوى من أبى حمو الثانى الى تلمسان ، ومات بها فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

ونبغ فى القرن التاسع أعلام فى الفقه والتصوف والكلام ، من أشهرهـم :

9 ـ عبد الرحمن الثعالبى صاحب المؤلفـــات الكثيرة الذى ولد سنة 785 هـ والمتوفى سنة 875 هـ وقد اشتهر بمؤلفاته الجليلة فى التفسير والوعظ والفقه والتراجم والتصوف ونحوها (18)

10 ـ وشيخه ابوجمعة وكان مشهورا بعلمـــه وتقـــواه (19) .

11 ـ وأحمد بن عبد الله الجـزائرى الزواوى ، وكان فقيها متكلما ، وأديبا شاعرا ، وقد اشتهـــر بلاميته فى التوحيد ، وكان صديقا للثعالبى ، وقد رثاه بعد وفاته بقصيدة مطلعها :

لقد جزعت نفـسى لفقـــد أحبـتى
وحق لها من مثـل ذلك تجـــزع

---

13) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 198 ـ الغبرينى : عنوان الدراية ص 156
14) المصدر السابق ج 2 ص 232 ـ عنوان الدراية 145
15) المصدر السابق ج 2 ص 247 ـ عنوان الدراية 145
16) المقرى نفح الطيب ج 10 ص 327
17) عنوان الدراية ص 202 ـ 211
18) تعريف الخلف ج 1 ص 63
19) صفحات من تاريخ الجزائر ص 240 ـ تعريف الخلف ج 2 ص 470

وتوفى سنة 884 هـ (20) .

في العصــــر التــــركي :

ونبغ في هذا العصر كثير من العلماء والادبـــاء في قرونه الثلاثة ، ومن أشهر من نبغ فيه :

12 ـ سيدى محمد الشريف الزهار دفين الجزائر المتوفى سنة 948 هـ وكان تلميذا لسيدى أحمـــد ابن يوسف المليانى الصوفى الكبير (21) .

13 ـ والشيخ محمد بن على الخروبى الطرابلسى نزيل الجزائر ودفينها وكان محدثا فقيها صوفيـا وتولى السفارة عن باشا الجزائر الى المغرب وتوفى سنة 963 هـ وله كتب فى التصوف (22) .

14 ـ والشيخ أبوالحسن على بن عبد الله الانصارى السلجلماسى الذى استقر بمدينة الجزائر وتـولى التدريس بمساجدها وتخرج عليه طلبة كثيرون ، منهم سعيد قدورة ، وترك مؤلفات متعددة وتوفـى سنة 1057 هـ .

15 ـ وأبو عثمان سعيد قدورة الذى أخـذ عـن شيوخ الجزائر وتلمسان وتولى الفتوى والتـدريس بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1066 هـ ودفن بزاوية الشيخ أحمد بن عبد الله الجزائرى الصوفى ، وله شرح على متن السلم للاخضرى ، وشرح على عقيـدة السنوسى ، وتوفى سنة 1080 هـ (23) .

16 ـ وأبو مهدى عيسى الثعالبى الجزائرى الذى ترجم له المحبى وأثنى عليه كثيرا والشيخ البابـلى كان يقول فيه ما وصل الينا من المغرب أحفظ من المقرى ولا أذكى منك ، وتوفى سنة 1080 هـ (24) .

17 ـ والشيخ محمد بن على وكان عالما جليلا ، وتوفى سنة 1093 هـ .

18 ـ والعلامة يحيى الشاوى الذى نشأ بالجزائر وأخذ بها عن سعيد قدورة وعلى بن عبد الواحـــد الانصارى السجلماسى ومحمد بن محمــد بهلـــول الزواوى السعدى وأجازه شيوخه وارتحل الى مصر سنة 1074 هـ واستجاز علماءها وأجازوه وظهـــر عليهم بحفظه . وله من المؤلفات فى بيان ما للبخارى من التصحيح وحواش على التسهيل والالفية لابنمالك وتوفى على ظهر البحر سنة 1096 هـ ونقل الى مصر ودفن بها (25) .

19 ـ والشيخ محمد بن عبد المومن وكان فقيها قاضيا للمالكية وتوفى بمدينة الجزائر سنة 1101هـ

20 ـ وأبو عبد الله بن الشيخ سعيد قدورة وكان عالما فقيها تولى الافتاء بالجامع الاعظم وتوفى سنة 1104 هـ .

21 ـ والشيخ عبد الرزاق بن حميدوش الجزائرى وعاش فى القرن الثانى عشر واشتهر بكتابه الطبى « كشف الرموز والاعشاب » .

22 ـ وعمر بن محمد المانجلاتى وكان فقيهـــا أصوليا أخذ عنه ابن زاكور وأثنى عليه كثــــيرا ، وختم عليه جمع الجوامع سنة 1044 هـ (26)

20) تعريف الخلف ج 1 ص 23
22) تعريف الخلف ج 2 ص 483
24) الكتانى : فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 190
16) تعريف الخلف ج 2 ص 295

21) تعريف الخلف ج 2 ص 469
23) تعريف الخلف ج 2 ص 282
25) فهرس الفهارس والاثبات ج 2 ص 446

23 . ـ ومحمد بن سيدى ابن على الاديب الشاعر المفتى وكان شاعراً كبيرا واماما فقيها وكان صديقا لابن عمار الذى روى له كثيرا من شعره ، وساجله فى كثير من قصائده (27)

24 ـ والعلامة أحمد بن عمار الجزائرى العالم الاديب الرحالة وكان من نوابغ عصره ، رحل الى المشرق فى أوائل سنة 1166 هـ واشتهر برحلته التى بقى منها نبذة قليلة ، وتوفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (28)

25 ـ وعلى بن محمد الجزائرى المتوفى سنة 1185 هـ وكان يعرف بابن الترجمان ، وانتقل الى المشرق ، وجال فى أنحائه ثم استقر أخيرا بالآستانة وشارك مع الجيش العثمانى وأسر ومات بالتراب الروسى (29) .

26 ـ وأحمد الغزال الجزائرى وكان تلميذا للعالم الاديب أحمد بن عمار وقد مدح شيخه بقصيدة جاء فيها :

فاكرم به من ماجد وابن ماجد
وأنعم به من سيد وابن سيد
له خضعت ارباب علم لعزه
فكيف وفيهم قام اعظم مرشد

وأجابه تلميذه ابن الشاهد بقوله :

عسى أن يلم الشمل بعد تبدد
عشية هذا اليوم أو ضحوة الغد (30)

27 ـ ومحمد بن الشاهد الجزائرى وكان أديبا شاعرا (31) وقد ترك قصائد كثيرة فى المدائح النبوية ، ومن شعره فى ذلك قوله :

محمد سر الوجود ★ وسر الاكوان
امام أصحاب السجود ★ فما له ثان
محمد خير الورى ★ نبينا الاواه
محمد بدر سرى ★ سبحانه من أنشاه
ومثله ليس يرى ★ أثنى عليه الله

28 ـ ومحمد بن رجب الجزائرى ، وقد اشتهر بكتابه فى الطب ومدافعة الوباء الوافد عام 1200 ، وجاء فى أول كتابه هذا :

«الحمد لله وحده . . لما جاء الطاعون فى شعبان سنة 1200 هـ ببلدنا الجزائر اشتغلت بمطالعة كتب عديدة فى الطب منها القانون لابن سينا ، والتذكرة للانطاكى ، والفت هذا الكتاب ، وسميته « بالدر المصون ، فى تدبير الوباء والطاعون » وادرك الشيخ العهد الاستعمارى ومات فى القرن التاسع عشر الميلادى (32) .

29 ـ وسيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى الزواوى دفين الجزائر وقد توفى بالجزائر أو ببلاد القبائل سنة 1208 ودفن بمقبرة الحامة التى سميت باسمه ، وهو ناشر الطريقة الرحمانية بالجزائر وبلاد السودان (33) .

فى عهد الاحتلال الفرنسى :

27) المصدر السابق ج 2 ص 406
28) تعريف الخلف ج 2 ص 83 ـ 87
29) المصدر السابق ج 2 ص 215
30) المصدر السابق ج 2 ص 215
31) المصدر السابق ج 2 ص 215
32) تعريف الخلف ج 2 ص 427
33) تعريف الخلف ج 2 ص 450

على الرغم من مضايقة الفرنسيين للحركة العلمية ودراسات اللغة العربية والدراسات الاسلامية والتفنن في سبل القضاء عليها فان السند العلمي لم ينقطع وان الدراسات الفقهية واللغوية قد واصلت نشاطها الفعال ، وتحدت العراقيل التي كانت تعترضها ، وكانت المساجد والزوايا هي المراكز الثقافية في هذا العصر ، وغزت اللغة العربية المدارس الرسمية الثلاث للحكومة ، واستقرت أقدامها في المدارس الحرة التي أنشأها الوطنيون بعد الحرب العالمية الاولى ونبغ في هذه الفترة جماعة من أعلام الفقه والادب والتاريخ في هذه المدينة ومن هؤلاء الاعلام في القرن التاسع عشر :

30 – حمودة المقايسي الجزائري المتوفى سنة 1245 هـ (34)

31 – والامام الجليل الكبابطي المتوفى بالاسكندرية بعد الاحتلال بقليل .

32 – والامام حميدة العمالي مفتي المالكية بالجزائر المتوفى سنة 1293 هـ وكان مدرسا ممتازا بالجامع الاعظم وتخرج عليه كثير من شيوخ ذلك العصر ، وقد ترك مؤلفات منها كتاب في القضاء ، درس فيه خصائص القضاء وحلية القاضي وشروطه (35) .

44 – والشيخ القزادري وكان تلميذا للعمالي ، واماما بالجامع الاعظم ، ومدرسا بالمدرسة الثعالبية

34 – وحسن بن بريهمات وكان عالما جليلا ، أديبا فاضلا نافس شيخه حميدة العمالي في الدراسات الدينية والفقهية وقد نبغ في الادب والشعر ، ويذكر الحفناوي أنه كانت له يد طولى في الآداب العربية والعلوم الدينية . وله قصيدة في مدح أقوم المسالك في أحوال الممالك لخير الدين باشا التونسي سنة 1284 هـ وقد ترك هذا الكتاب عقب صدوره صدى عميقا في نفوس المثقفين بالمغرب كله لطرافة موضوعه في ذلك العصر ، ولتعرضه للمباحث السياسية والاجتماعية بأسلوب عصري فلسفي ، ومن قصيدته في مدح الكتاب ومؤلفه قوله :

لله درك خير الدين من علم
أبدى منار الهدى للناس في القتن
نهجت نهجا قويما قل سالكه
الى السياسة كي ينجو من الفتن
حق على ملة الاسلام شكركم
ورعى تآليفكم بالقلب والأذن
عليك مني سلام الله ما طلعت
شمس وما غرد القمري في فنن

ونبغ في القرن العشرين أعلام كثيرون في الفقه والدراسات العلمية والادبية من أشهرهم :

35 – مصطفى بن الخوجة الذي ولد بالعاصمة سنة 1865 ودرس بها على شيوخ عصره كالمفتي علي بن الحفاف ، والشيخ سعيد بن زكري ، ومارس الصحافة بجريدة المبشر من سنة 1886 م الى سنة 1901 م ثم عين مدرسا بجامع سفير سنة 1895م وأقرأ فيه التفسير والفقه وتوفي سنة 1915 م وكان المترجم متضلعا في العلوم اللغوية والفقهية وترك من المؤلفات الجليلة رسالة الاكتراث في حقوق الاناث ، وهي رسالة غريبة في موضوعها ، وبادرة حسنة في التآليف الاجتماعية ، وكتابه اقامة

34) المصدر السابق 140

35) المصدر السابق ج 2 ص 149 – 150

البراهين العظام . على نفى التعصب فى الاسلام .

36 ـ والشيخ محمد سعيد بن زكرى الزواوى الذى استقر بالعاصمة ودرس بالجامع الاعظم ، وتولى امامة جامع سيدى رمضان والافتاء المالكى وتوفى سنة 1914 وله من المؤلفات رسالة أوضح الدلائل .

37 ـ والحفناوى أبو القاسم الذى انتقل الى الجزائر وشارك فى تحرير الجريدة الرسمية وتوفى عام 1940 وقد اشتهر بكتابه الجليل : تعريف الخلف برجال السلف .

38 ـ والدكتور محمد بن أبى شنب المتوفى بالجزائر سنة 1929 م وكان متخصصا فى الدراسات اللغوية والادبية ، وهو أول جزائرى نال شهادة الدكتوراه فى اللغة العربية من الجامعة الجزائرية واشتهر بدراساته الاستشراقية وبأبحاثه الكثيرة باللغة العربية والفرنسية وبمؤلفاته الكثيرة ومنشوراته المتعددة .

39 ـ ومن أعلام الجزائر الذين وضعوا أسس النهضة الحديثة فى المجالين العلمى والادبى ، وفى مجال الفكر الاصلاحى الحديث العلامة الجليل ، والاديب العبقرى الموهوب والخطيب المصقع،والكاتب المترسل المبدع ، جاحظ عصره ، وزمخشرى زمانه ، وحافظ وقته الشيخ محمد البشير الابراهيمى دفين مقبرة سيدى محمد بالحامة ، ويعد الشيخ البشير قائدا عبقريا فى الاصلاح الدينى مع صديقه الامام عبد الحميد بن باديس ، ومفكرا مجددا ، وناقدا موجها فى الدراسات النقدية والشعرية ، ومحاضرا ممتازا ، ولا يمكن لاى باحث أن يفى حق الشيخ وفضله على النهضة الحديثة فى صفحات فنية او كلمات عابرة يكتبها عنه . وقد توفى الشيخ بعد جهاد مرير ، وجهود بناءة متواصلة فى رئاسته لجمعية العلماء وادارته لعشرات مدارسها الحرة ـ فى شهر ماى سنة 1965 م وترك مؤلفات متعددة ومن اشهرها عيون البصائر الذى طبع منذ سنوات.

40 ـ والشيخ الطيب العقبى،وقد التحق بالعاصمة وقام فيها بنشاط فعال فى مجال الاصلاح الدينى والاجتماعى وكان له تأثير كبير على التمكين لهذه الحركة الدينية كما كان له فضل مشكور على النهوض بالصحافة الوطنية وتوفى قبل الاستقلال بقليل .

41 ـ والشيخ العربى التبسى الذى التحق بالعاصمة بعد ادارته لمعهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ، وتولى رئاسة جمعية العلماء بعد الشيخ البشير الابراهيمى ، وأشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة ، وأقام بالجزائر بعد اندلاع الثورة التحريرية وجاهد فيها جهاد الابطال حتى اختطفه المظليون من جيش الاحتلال ونقلوه الى معتقل مجهول وقتلوه شهيدا رحمه الله سنة 1958 م .

هكذا كانت مدينة الجزائر طيلة هذه القرون التى مرت بها فى العهد الاسلامى تزخر بنشاط سياسى فعال ، وبحركة عمرانية ومعمارية متواصلة وبحركة علمية مبدعة وتضم تحت كنفها طائفة من الافذاذ فى الفنون العلمية المتنوعة كانت تعتز بهم فى مسيرتها الزمنية المتواصلة ، وتباهى بعبقرياتهم غيرها من مدن القطر الجزائرى .

كما كانت تعتز بزعامتها السياسية التى تسلمت مقالدها منذ العصر التركى فى أول القرن العاشر الهجرى الى الآن . وهى لهذه الامجاد كلها تستحق أن تقام لها ذكريات ، وأن تشرف بالتنويه والاكبار وان يخص تاريخها الحافل بالدرس والتحليل والتعليق ليستوحى منه أبناؤها امجاد عزهم وكرامتهم وأصالتهم .

كلمـــات

بدأت المقاومة بمحاربة المدارس الرسمية وخطة الاستعمار الثقافية ولعب رجال التعليم والعلم والثقافة دورا كبيرا فى ذلك وقد اعترف العدو بنفوذهم ، فحرضوا الشعب على رفض سياسة « الاندماج » وبينوا للمواطنين اهدافها وخطورتها وجعلوا من كل مدرسة جزائرية وكل مسجد وكل زاوية مركزا محصنا لمحاربة العدو ، وعملوا على توحيد الصفوف ونسقوا الجهود والآراء حتى أصبح المستعمر يتساءل فى سر الوحدة الشعبية القوية بدون ان يتلمس اسبابها الحقيقية واستشهد الكتاب بتقارير ومراسلات ومؤلفات كثيرة تدل على تلك الروح الوطنية ـ فذكر الضابط « دونوفو » فى كتابه « الاخوان » فعالية الحركة القومية فقال : « وبسبب سذاجة المواطنين قد أثر فيهم رجال جاءوهم باسم دينهم وباسم الله وباسم محمد يحرضونهم على الثورة والتخلى عن المحراث ـ فى حين اننا اصبحنا مضطرين الى استعمال القوة لحمل الاهالى على الامتثال لارائنا ولاقناعهم باننا نريد مصلحتهم » (ص 115) ـ

من كتاب : المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة للدكتورة تورين

غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر

1541 م 948 هـ

• بين المصادر الإسلامية
• والمصادر الغربية

مولاي بلحميسي

سلوا شرلكان كم رأى من جنودنا
فليس له الاهم من زواجر
فجهز اسطولا وجيشا عرمرما
ولكنه قد آب اوبة خاسر

محمد السعيد الزاهرى

(شعراء الجزائر ج I ص 74 لمحمد الهادى السنوسى)

أغار الامبراطور شارلكان (I) صاحب اسبانيا على مدينة الجزائر (2) فى شهر أكتوبر I54I الموافق لجمادى الثانية من سنة 948 هـ ، وذلك فى ايام السلطان العثمانى سليمان الاول (3) .

I) شارل الخامس – تولى الحكم بعد الملك فرديناند الذى توفى سنة 1516 ، واصبح شارل هذا بعد 1519 على راس اكبر امبراطورية فى العالم . فقضى عهده فى محاربة اعدائه الى سنة 1556 ، ثم تخل عن المسؤولية العظمى فى 16 جانفى 1556 فاعتزل فى معبد يوست YUSLE وبقى به الى ان توفى فى 21 سبتمبر 1558 وخلفه ابنه فيليب الثانى

2) هى الغارة الاسبانية الثالثة فى القرن السادس عشر – وكانت الاولى فى عهد عروج سنة 922 هـ – 1516 م ، وقد قادهـا دياقودى فارا (DIEGO DE VARA) الا انه انهزم وعـاد الى بلاده . وكانت الثانية – فى عهد خير الدين – سنة 924 هـ – 1518 م وقد قادها هوقو دى مونكاد (HUGO DE MONCADE) وفيها انهزم النصارى ايضا

3) من اشهر سلاطين العثمانيين – امتد حكمه من 1520 الى 1566

مدينة الجزائر في القرن السادس عشر

حديقة الباي
حصن الانكليز
تكنة بوبرشة
القصبة
الجبل
الباب الجديد
اسوار المدينة
باب الوادى
قصر الشتاء
او دار حسين باشا
دار مصطفى
او المكتبة الوطنية
جامع كتشاوى
دار عزيزة
الجامع الجديد
حصن الاندلس
الجامع الكبير
مسيد
مزومورتو
حصن البحر
باب عزون (وهو اهم الابواب)
باب البحر
باب الجزيرة
البحر الأبيض

وكان على راس حكومة الجزائر – آنذاك – حسن آغا (4) خليفة خير الدين بعد ما عين هذا الاخير قبطان باشا والتحق بالقسطنطينية .

ولم يعط لهذا الحادث الخطير حقه من البحث فبقيت جوانب عديدة لهاته الغارة غامضة وظهر في الروايات المختلفة تباين وتباعد حتى عند من شاهدوا أو ساهموا في الحملة .

ولم يتخذ مؤرخو شارل الخامس موقفا مشرفا نزيها . فقد أطالوا الحديث في غارة أمبراطورهم على تونس سنة 1535 م . فوصفوا ومدحوا وأطنبوا لان العملية كللت بالنجاح (5) واهملوا الحديث في شان غارة (1541) الفاشلة او اكتفوا بالاشارة . « فكان تآمر السكوت » على هذه الحوادث التاريخية (6) ولو زعم هيدوا (HAEDO) أن اخبار شارلكان والجزائر معروفة عند العام والخاص (7) .

أما المصادر الاسلامية فهي – مع الاسف – قليلة ملخصة يعوز بعضها التدقيق والتفصيل واكثرها البحث التاريخي وتحليل الاسباب والعلل وذكر النتائج . وينقص جميعها تقريبا الاعتدال في الاحصاء والاعداد وضبط التواريخ (8) .

فأصبحت المقارنة بين جميع الوثائق والمصادر والاخبار ضرورية لما للموضوع من اهمية .

وسنحاول في هذه المقالة أن نتعرض للدوافع على هاته الغارة الفاشلة ثم للاستعدادات من الطرفين ثم لتحرك الاسطول الاسباني وكيف كانت مدينة الجزائر قبيل المعركة ثم لمراحل القتال وانسحاب الغزاة وأخيرا ندرس نتائج الحملة في الداخل والخارج .

الباعث على الغارة :

ان الاسباب التي دفعت صاحب اسبانيا الى المغامرة عديدة الا أن كل مؤرخ وقف عند ما ظهر له رئيسيا منها .

---

4) اصله من ساردانيا . وقع في قبضة قراصين الجزائر وهو صغير فنشا في حاشية خير الدين وبقي في خدمته فلاحظ فيه خير الدين خصالا حميدة فقربه الى ان عينه خليفة له وتوفي في السادسة والخمسين من العمر . واختلف في تاريخ وفاته فقال هيدو (HAEDO) كان ذلك في اواخر سبتمبر 1543 . وقال ديفولكس (DEVOULX) بل توفي في نوفمبر 1545

5) من بين الكتاب الغربيين الذين ارخوا الغارة على تونس :

M. DINAUX : Charles Quint, Relations de la conquête de Tunis. (Archi ves du Nord de la France... Vol. IV).
E. GACHET : Documents inédits relatifs à la conquête de Tunis par l'Empereur Charles Quint en 1535 (Bruxelles 1844).
A. MOREL FATIO : — Historiographie de Charles Quint - Paris 1913. — Etudes sur l'Espagne - Paris 1925 (4 V.)

6) دوقرامون – هنري –

H. DE GRAMMONT : Revue critique d'histoire et de littérature, 1890, p. 343.

ونذكر بعض الكتب الغربية تناولت الموضوع بالبحث

Docteur VON GUSTAV TURBA : Uber den Zug Kaiser Karls V. gegen Algier. (Wien 1890).
SANDER RANG et F. DENIS : Expédition de Charles-Quint contre Alger. (dans le 2e volume).

7) هيدو (HAEDO) Histoire des rois d'Alger, traduction de Grammont, page 63.

8) مخطوط المحكمة : نقل من التركية الى العربية – وهو بقلم احد المعاصرين لا نعرف اسمه توجد منه نسختان – مخطوط بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1100 ، ونسخة في ذيل الغزوات . – غزوات عروج وخير الدين لمؤلف مجهول – وهو اقدم مخطوط لدينا بالعربية في تاريخ دخول الاتراك الى المغرب الاوسط . – تحفة الكبار في اسفار البحار – لحاجي خليفة ، والكتاب بالتركية وهو في المعارك البحرية التي شارك فيها العثمانيون . – الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حين اغارت عليها جنود الكفرة – لمحمد بن عبد الرحمن التلمساني الجدري (من رجال الثالث عشر هـ الثامن عشر م)

١ – فهل السبب هو القضاء على نشاط المسلمين في البحر الابيض ؟ لقد شاهدت الجزائر نشاطا لا مثيل له بعد سقوط « البنيون » وطرد الحامية الاسبانية منه سنة 1529 ، فاكتسبت قوة بحرية فاقت قوى الدول المحيطة بالبحر الابيض وأصبحت مأوى لاسطول معزز مدرب وقاعدة لخير الدين وأتباعه أولئك الرياس الذين زرعوا الرعب والفزع في قلوب النصارى (9) .

وكانت العاصمة تراقب جميع الطرق الكبرى لهذا البحر (10) فغزا الجزائريون سواحل اسبانيا وايطاليا وجزر الحوض الغربي واستولوا على غلات البلاد وخربوا مدنا ساحلية انتقاما من النصارى ومعاملتهم للمسلمين في الاندلس أو في أثناء سفرهم على متن البحر .

وسلطوا أقسى الضربات على جزر « الباليار » حتى ضاق أهلها ، وضجوا الى ملكهم بالشكوى مما يفعل أهل الجزائر بهم » (11) .

ولم ينفع شارل الخامس استيلاؤه على تونس سنة 1535 أو بناؤه حصن حلق الوادي (LA GOULETTE) فالطريق بين اصطنبول والجزائر لم يقطع وجرأة خير الدين لم تقمع وكل ما حصل بعد حوادث تونس أن أصبح نفوذ الجزائر في تزايد (12) .

وخرج خير الدين متوجها الى حضرة السلطان في صيف 1535 فمر على سواحل الباليار مرة أخرى ونهب مدينة ماهون (12 مكرر) (MAHON) بجزيرة مينوركاوسبى

ثم جدد أعماله هاته بسواحل نابولي (NAPLES) وسواحل كالابر (CALABRE).

وكان حاكم الجزائر الجديد – حسن آغا – قد « أنشأ احدى وثلاثين غليوطة بعد ذهاب خير الدين فاشتدت بذلك وطأته على أهل اسبانيا فاحتوى على كثير من أجفانه وعاث في أطراف سواحلهم وفعل بهم ما كان يفعله خير الدين » (13) .

وعمر الامبراطور – ذات يوم – « مركبا من مراكبه وأوسقه بالمال والسلعة وبعثه الى وهران (14) فأخذه رايس من رياس الجزائر واسمه كجك علي ودخل به الى الجزائر بعد ما وقع الحرب بينهما فوجد فيه رئيسا عظيما من جملة الرؤساء . . . ثم قال (الرئيس الافرنجي) ان سفينة تريد القدوم الى بجاية فعند ذلك أمر حسن آغا أن تجهز له أغربة

9) فيوقينيون بليستروس D. VILLEGAIGNON : Relation de l'expédition de Charles-Quint... éd. de, Grammont, 1874, p. 55.

بليشتروس : A, BALLESTEROS : Historia de Espana, Vol. VI. p. 121.

10) بروديل BRAUDEL : La Méditerranée au temps de Philippe II.

11) مخطوط المحكمة

12) روف P. RUFF : La domination espagnole à Oran... (p. 68).

12 مكرر) كان الخبر قد جرى في المملكة الاسبانية ان خير الدين قتل سنة 1535 عند ما اغار شارلكان على تونس وبينما الناس يحتفلون ويرقصون ابتهاجا بهذا الخبر اذ ظهر خير الدين بماهون (بمينوركا)

13) غزوات . . ص 115 – الزهرة . . ص 15 – طبعة المجلة –

14) وهران احتلها الاسبان 1509

فتجهزوا فى أسرع وقت فساروا الى طلبها الى نواحى بجاية وكمنوا فى موضع يقال له «العش» و «المنقار» (15) . ورجع الرؤساء الى الجزائر وهم فرحـون بالغنيمـة » (16)

وتعددت غارات المسلمين على اسبانيا وايطاليـا وجزر البحر الابيض حتى أصبح شارلكان يصعـب عليه السفر من برشلون الى نابلى . . .

2 ـ هل سبب الغارة هو من مخطط اسبانيا لاجل السيطرة على البحر الابيض ؟

كانت ممالك شارل الخامس واسعة الاطراف ضمت جنوب ايطاليا وشمالها ، وصقلية والبليـار وأروبا الوسطى وجزءا من شمالها فاصبحت فرانسا محاصرة والمغرب مهددا لاسيما بعـد احتلال سـواحله (17) واتسعت المملكة العثمانية غربا فضمت اليها المغرب الاوسط سنة 1518 فاشتد الصراع بين الاسـلام الممثل فى الاتراك والمسيحية الممثلة فى اسبانيـا فعظم شأن البحر الابيض .

وكان الوضع فى سنة 1541 سانحا للامبراطور فلم يبق للاتراك آنذاك فى المغرب الا قاعدة واحـدة هى مدينة الجزائر التى تنطلق منها الضربات القاسية .. فكان الهدف من هجوم 1541 طرد الاتراك من آخـر قاعدة فى أيديهم . فاذا كتب النصر للامبراطور صفا له الجو فى الحوض الغربى من البحر وسهل عليه أيضا خنق فرنسا حليفة الدولة العثمانية (18) .

3 ـ هل كانت الغارة لفائدة النمسا والمانيا ؟

رأى بعض المؤرخين الغربيين ان الهدف من الحملة على الجزائر هو غير ما ذكرنا . وقال ان شارل الخامس عند ما قرر احتلال عاصمة المغـرب الاوسط راعى الوضع السياسى فى أروبا حيث يشتد الضغـط التركى يوما بعد يوم (18مكرر) فاذا نشبت حرب فى المغرب تحتم على السلطان سليمان القانونى أن يوجه قوته الى جبهة القتال الجديدة فيخف الخطر العثمانى أو يزول ولو لوقت على النمسا وألمانيا (19) .

4 ـ أم هل أراد شارلكان أن ينتقم للمسيحيـة وللامبراطورية ؟

وزعم بعضهم ان صاحب اسبانيا تأهب لضـرب الجزائر انتقاما بعد ما استولى سليمان على المجـر وعلى جزيرة رودس (RHODES) 1522 . وبعد ما حاصر فيانا 1529 وكورفور 1537 وبعد انتصارات خير الدين فى جـزر الارخبيل وانهـزام دوريـا ببريفيـزا (PREVEZA) 1538 (20) وكـاستيل نـوفـو (CASTEL NOVO) 1539 . وكان عدد قتلى النصارى 4000

15) لعله راس كربلين (CORBELIN) بقرب ازفون

16) مخطوط المحكمة

17) استولى الاسبان على المرسى الكبير سنة 1505 وعلى وهران سنة1509 وعلى بجاية وطرابلس الغرب 1510 ـ وعلى الصخـرة الوسطى بالجزائر العاصمة 1510 ـ وعلى جربة 1520 ـ وعلى تونس 1535

18) رافـونى E. RAVENET : Un épisode de l'Expédition de 1541 contre Alger. Revue Africaine 3°/4° trim. 1931.

18 مكرر) دوقرامون DE GRAMMONT : Relation de l'Expédition de Charles Quint contre Alger - p. 87.

19) هوباك P. HUBAC : Les Barbaresques, p. 136.

20) هوباك : نفس المرجع

وكان الامبراطور قام لمناصرة أخيه فريـدريك الثانى » فبلغه الكثير من أخبار خير الدين فاستحى أن يعود الى بلاده بدون قتال المسلمين فقرر عندئذ مهاجمة الجزائر » (21).

5 – أم هل سبب الغارة راجع الى فشل المفاوضات (المزعومة) بين خير الدين والامبراطور ؟

بينما لم تذكر المصادر الاسلامية قط وقوع هذه المفاوضات ، زعمت بعض المصادر الغربية أنـه أجريت مفاوضات ومراسلات بين خير الدين وشارل الخامس (22) ويقال ان هذا الاخير – بعد ما يئس من القضاء على الجزائر ونشاطها – لجأ الى الرشوة والى تشجيع الخيانة وتحريك طموح خير الدين . ويقال انه اقترح على حاكم الجزائر السابق أن يكون لـه مملكة الجزائر والقواعد الاسبانية آنذاك مثل بجاية وعنابة وتونس (23) على شرط أن يدخل بربروشة فى خدمة صاحب اسبانيا وان يجعل الاسطـول العثمانى تحت تصرفه .

وكان شارلكان – عند ما اتصل مبعوثوه بخـير الدين – يحلم بالقضاء على القوة العثمانية فى البحر الابيض وبضمان سلامة سواحل ممالكه . كما كـان يرجو أن تؤدى الخيانة الى قطع كل صلة بين السلطان سليمان وبين مساعده فيسهل فيما بعد على الامبراطور القضاء على » حليفه « بربروشة .

وزعموا أن المفاوضات السرية بدأت فى سبتمبر 1538 واستمرت الى 1540 بالقسطنطينية . وكـان يمثل الامبراطور ، المدعو روميرو (ROMERO) والقبطان فيرقارا (VERGARA) الا أن خير الدين الوفى المخلص كان يطلع سليمان القانونى على كل مـا يجرى بينه وبين مفوضى الاسبانى (24) .

وطالت المحادثة وآلت بالفشل . ويرجع بعـض المؤرخين الغربيين هذا الفشل الى الدور الذى لعبه فرنسى يدعى رينكو (RINCON) أفشى السر . والى عدم ثقة خير الدين بالامبراطور (25) .

وفات أصحاب الافتراضات انه يستحيل على خـير الدين الخيانة والغدر . فابنه وبنته يعيشـان بالقسطنطينية فلا بد أن يكون يخشى على حياتهما من سخط السلطان وكذلك أصحاب خير الدين الذين يعول عليهم.فانهم أرباب عائلات تعيش أيضا بعاصمة العثمانيين وكل يفكر فى مصير ذويه قبل أن تسوله

---

21) حاجى خليفة : تحفة الكبار

22) لم يذكر مؤرخ شارلكان – وهو سندفيل (SANDOVAL) وجود هذه المفاوضات ، وان اول من تحدث عنها هو لافـوينتى (LA FUENTE) فى كتابه – تاريخ اسبانيا ج 12

23) مرسيبى : تاريخ افريقية الشمالية ج 3 ص 50 E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 50.

وروف RUFF : Domination espagnole à Oran - 1900. (Sous de gouvernement du Comte d'Alcaudete 1534-1558) p. 69-89

24) المجلة الافريقية – مارس 1871 – E. WATBLED et MONNEREAU : Négociations entre Charles Quint et Kheirdine 1538-1540 - (R.A. mars 1871).

ودى قرامون : DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger, p. 87

25) مرسيى : تاريخ E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 50.

نفسه ! وزد على هذا كله فان خير الدين عرف بقوة الايمان وصحة الاسلام يتحاشى النقص ، ويترفع عما يضيم . وجهاده لا ينكر وانتصاراته لا تحصى واقتضى منه الدهاء السياسى أن يعد ويسوف وان يتظاهر بالقبول (26) ربحا للوقت وبحثا عن نوايا الخصم . وقد فطن المفاوض روميرو (ROMERO) الى الواقع وكاتب دوريا سنة 1540 يقول متأسفا «ان خير الدين أقوى ايمانا من محمد » .

6 ــ وهل كانت بين حسن آغا ووالى وهران المحتلة مفاوضات ؟

لم تذكر المصادر الاسلامية شيئا عن هذه المفاوضات بين خليفة خير الدين ووالى وهران الكونت دالكوديتيى (LE COMTE D'ALCAUDETE) (27) وادعى بعض الغربيين (28) ان المفاوضات كانت ترمى الى تسليم الجزائر الى الامبراطور وان حسن آغا كان موافقا على ذلك وان السفير الاسبانى يدعى (DON LORENZO MANUEL) وانها كادت تنجح لولا موقف القايد محمد (29) واحتجاجات الجماهير مما جعل حاكم الجزائر يخشى على نفسه . وتجاهلت هذه المصادر الدهاء السياسى الذى عرف به الاتراك .

وان زعما مثل هذا ينافى كل ما ذكرته المصادر الاسلامية حتى بعض المؤلفين الاسبانيين فى شخصية حسن آغا الذى « كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأى جيد التدبير وكان له حظ فى العلم والصلاح كريم النفس سخيا بالمال باذلا للمعروف . . ولذلك تفرس فيه خير الدين فجعله نائبا عنه » (30) وهو «خادم خير الدين . . صار يقوم بوصيته فى أهل الجزائر غاية ما يمكن ويشتغل بالجهاد على العدو ولا يفتر عنه لا ليلا ولا نهارا . . » (31) .

وأسهب هيدو ــ خلافا لعادته فى الحديث عن حكام الجزائر ــ فى وصف شجاعة حسن آغا وتجاوبه ومقدرته وحزمه وقيادته للجيش وتنظيمه للمقاومة وضربه للعدو (32) مما يحطم تهمة الخيانة تحطيما.

وفى الواقع فان العناد الذى أظهره الامبراطور فى شن هذه الغارة سيبقى من غرائب الامور ولهذا مع كل الاحتمالات التى قدمت فانه يصعب علينا أن نعرف الدافع الحقيقى لهذه الحملة . . (33) .

---

26) المجلة الافريقية مارس 1871 — R A. mars 1871.
ودوقرامون — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - p. 86.
27) من سادة اسبانيا ــ حكم وهران من 1534 الى 1558 ، وقتل بمستغانم اثناء غارته الثالثة على هذه المدينة
28) المجلة الافريقية 1865 — BERBRUGGER : Les négociations... (R.A. sept. 1865).
دوقرامون — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - p. 86.
29) يهودى الاصل ــ قدم من مالقة وكان من الاعلاج بالجزائر
30) غزوات . . ص 115
31) الزهرة النيرة ص 14 ــ نشر مجلة تاريخ المغرب عدد 3 ــ
32) هيدو ــ تاريخ ملوك الجزائر (ترجمة دى قرامون) ص 63 و 64 — Haëdo : Histoire ...
وهيدو هذا من رجال الكنيسة ــ ومن أصل اسبانى ــ اسر بالجزائر من 1578 الى 1581
33) سندار رانق وف ، دونيس اللذان نقلا الغزوات الى الفرنسية — SANDER-RANG et F. DENIS : Fondation de la Régence d'Alger, t. II, p. 348.

الاستعـــدادات

من الجانب الاسبانى :

فكر شارل الخامس فى الغارة على الجزائر غــداة احتلاله لتونس 1535 . (34) فبدأ الاستعــداد ودام أكثر من خمس سنوات . فأرسل الى المغرب عيونا وخبراء ليطلعوه على أليق الوسائل حتى يحقق مــا قرر . وأخفى النبأ «مكيدة منه وهى عادة باقيـــة عنهم» (35)

ودخلت الاستعدادات مرحلتها الاخيرة فى أواخر 1540 وقد طلب الامبراطور اعانة مالية فى سنة 1539 من البابا . فوافق هذا وكاتب فى الموضوع كردنال طليطلة ورئيس اساقفة اشبيلية وأسقف قرطبة (36) ثم « أطلق الطاغية النداء فى سائر أعماله واقطــاره فانحاشت اليه جيوشه أفواجا أفواجا وزخرت اليه جيوشه وعساكره أمواجا أمواجا » (37) كما بعث الى صاحب الجنويز يأمره بتجهيز ما عنده من الاجفان واعدادها للسفر (38) .

وجمع الامبراطور بمرسى « ماهون » (بجزيـــرة مينوركا) أكبر أسطول شق البحر الابيض ، يتألف من مراكب للنقل وأخرى للحرب . الا أن المؤرخــين اختلفوا فى عددها وانواعها وفى حمولتها .

فقال حاجى خليفة فى تحفة الكبار : اسطـــول يتالف من مائة مركب وقال صاحب الغزوات « وكان عدد ما فيها (اسطول اسبانيا واسطول الجنويز) من الاجفان اربعمائة وقيل أربعمائة وخمســين جفنا » (39) بينما يقول هيدو (HAEDO) « كان الاسطــول مؤلفا من أكثر من خمسمائة مركبا » (40) ولم يذكر الغربيون عددا أقل مما ذكره المسلمون (41) .

وعلى كل حال فان ما هيأه شارل الخامس كان من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة فى القرن السادس عشر وكان الاسطول مخيفا مريعا كما سنذكره .

وكان يقود «الارمادة» الامبراطور نفسه وقد لقبه المسلمون فى كتبهم بالبلادور والطاغية وملـــك النصارى وملك الاسبان وصاحب اسبانيا . وكـــان يصحبه أكبر قواد ممالكه وضباطها مثل أندرى دوريا

34) ذكرت المجلة الافريقية ـ لسنة 1876 ـ تقريرا موجودا بدار وثائق سيمانكاس (ARCHIVES DE SIMANCAS) لا يعرف مقرره ويبرز فيه صاحبه هذه الاستعدادات

35) الغزوات ص 115 ـ الزهرة النيرة ص 15 ـ مجلة تاريـــخ المغرب عدد 3 ـ

36) المجلة الافريقية 1871

37) مخطوط المحكمة

38) الزهرة النيرة ص 15

39) غزوات ص 116

40) هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63 .

41) يقول المؤرخ الاسبانى بالاستروس « 150 مركبا لنقل الجيوش و100 لنقل الامتعة »
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

ويقول دوقرامون : 516 سفينة من بينها 16 للنقل .
DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre A lger de Villegaignon - Note page 92.

(42) (ANDRE DORIA) وكورتيس (43) (CORTES) والكونت دالكوديتي (44) (LE COMTE D'ALCAUDETE) و قونزاق (45) (GONZAGUE) وبرنار دنو ذي ماندوزا (46) (BERNARDINO DE MANDEZA) والماركي ديل فاستو (47) (MARQUIS DEL VASTO) والبحري الشهير منكادا (48) (HUGO DE MONCADA) وجاء هؤلاء على رأس جنود محنكين مدربين قدموا من بلدان مختلفة فيهم ألمان وفيهم ايطاليون وفيهم اسبانيون وحتى فرسان مالطة (49) . وتبرعت الدول المسيحية بالنفوس والنفائس .

واختلفت المصادر في عدد الغزاة . فذكرت المصادر الاسلامية عددا يظهر ضخما وقدمت المصادر الاسبانية خاصة والغربية عامة عددا يظهر قليلا بالنسبة للاستعدادات وللاسطول ولمشروع الامبراطور (50) .

وكان للخيالة وللمشاة وللرماة وللاختصاصيين أمتعتهم وأسلحتهم .

من الجانب الجزائري :

اطلع الجزائريون على نوايا شارل الخامس الذي كان يهددهم منذ أن احتل تونس 1535 فاستعدوا كل الاستعداد لرد الهجوم الاسباني الثالث على العاصمة. « ووصل خبر عمرته على حسن آغا خليفة خير الدين فصدق بذلك ولم يكذب وأدار وجهه الى تحصين المدينة والاستعداد لمقابلة العدو . . . » (51) .

واستعان حاكم الجزائر بجماعة من زعمائها لرد الغزاة . من بينهم سيدي سعيد الشريف «شيخ المدينة» والحاج مامي وكان «رجلا من أعيان العسكر مذكورا في الشجاعة » . والقائد رمضان والقائد يوسف والقائد أرسلان والحاج باشا « زعيم من زعماء الترك » والقائد صفر (52) .

---

42) اصله من جنوا وهو أكبر اميرال بعد خير الدين في القرن السادس عشر ، ولد سنة 1466 وتوفي سنة 1560

43) مغامر كان متعطشا لجمع المال ، هو الذي فتح المكسيك بين 1519 و 1521

44) (1498 ـ 1558) . من سادة اسبانيا وضباطها الكبار ـ عين واليا على وهران ايام الاحتلال الاسباني ـ وتدخل مرار في شؤون بني زيان تلمسان وحاول احتلال مستغانم فقتل اثناء حملته الثالثة سنة 1558

45) خليفة ملك صقلية ـ عينه شارل الخامس قائدا عاما للجيوش اثناء الحملة

46) والي حلق الوادي بتونس آنذاك .

47) والي ميلانو بايطاليا .

48: صاحب الغارة الاسبانية الثانية على الجزائر سنة 1518 .

49) يقول المؤرخ الاسباني بلاستيروس : كان عدد الاسبانيين المحترفين 6000 وعدد الالمان 6000 وعدد الايطاليين 5000
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

50) الغزوات ص 116 : «50،000» رجل ـ مخطوط المحكمة : 90،000 رجل من بينهم 4،500 من الخيالة ـ مرسيي ج 3 ص 51
24،000 رجل و 12،000 ملاح
E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III. p. 51.
رافوني ـ المجلة الافريقية 1939 : 22،000 رجل
E. RAVENET : R.A. (1939).
سندير رانق وف دويس
SANDER-RANG et F. DENIS :
ـ 23،900 رجل و 12،330 بحري ـ

51) مخطوط المحكمة

52) هو صفر بن عل اعتنق الاسلام ايام خير الدين ولعب دورا سياسيا في الجزائر ، ثم بنى مسجدا سنة 941 هـ ـ 1534 م ، كان يوجد بنهج كليبير (KLEBER) سابقا . ناظر دفولكس (DEVOULX) ص 240

أما عدد العساكر فكان قليلا . وكانت الجوسسة الاسبانية قدرته ـ قبل الغارة ـ بنحو 800 تركي و 8000 اندلسي قدموا من بلنسية وغرناطة و 1400 من الاعلاج و 200 من الاعراب . والسبب في ذلك ان معظم الجيوش كان مرابطا ـ آنذاك ـ بغرب الجزائر (53) ، ويؤكد هيدو (HAEDO) هذا القول : « لم يبق تحت أمر حسن آغا الا 3000 رجل من أتراك واندلسيين وأعراب » (54) .

اقلاع اسطول الاسبان

وعند ما تم لهم الاستعداد أقلع الاسطول في 15 أو 16 أكتوبر 1541 . وذكرت بعض المصادر الاسلامية ان الامبراطور أبحر من قرطاجنة (CARTHEGENE) قاصدا وهران وهناك انظمت اليه قوى أخرى (55) وزعم بعض المؤرخين الافرنج انه انطلق من ماهون (بجزيرة مينوركا) والتحقت به قوى أخرى قرب الجزائر (56) .

وكانت أخبار العمارة تتوارد في كل حين وفي كل وقت على الجزائريين . وكان صاحب «الناظور» ـ حارس البحر ـ مكلفا بمراقبة قدوم العدو .

وظهرت العمارة في مياه الجزائر يوم الاربعاء 27 جمادى الثانية : 19 أكتوبر . وفي الغد وصل الاسطول الى جون تمانتفوس (CAP MATIFOU) (57) وبقي العدو يوم الجمعة 21 أكتوبر : 29 جمادى الثانية يترقب الفرص . .

وتأثر الجزائريون لذلك المنظر المخيف « وخيل لهم ان العمارة ـ حين بدت ـ جبل يسير في البحر وحين أرست جبل استقر هنالك » وحصلت بذلك صيحة في سكان المدينة لانه لم يسبق لهم عهد لمثل هذا الاسطول . وكان صاحب مخطوط المحكمة شاهد عيان لقدوم «الارمدا» فقال «عمارة أخذت وجه الماء كله وسترته وشرعت في عددها فلم أقدر فتشوش نظري من ذلك لكثرتها . . » وعين حسن آغا جملة من الخيل . . فصعدوا الى جبل أبي زريعة ليأتوا بتحقيق العمارة فرجعوا اليه وكل واحد منهم يقول لم أقدر على احصاء ما رأيت . . . العدد كثير لا يصل اليه الادراك » (58) .

قبل المعركة

لعب حسن آغا دورا رئيسيا في تنظيم المقاومة واتخاذ التدابير فاستدعى «أهل المدينة ونصب ديوانا عظيما جمع فيه علماء البلد وصلحاءهم ومشايخهم وجعل يسكنهم ويطيب نفوسهم ويهون عليهم أمر هذه العمارة وهو مع هذا يستشيرهم وينظر ما يتفقون

53) دي قرامون ص 89 — DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre A lger - p. 89.

54) هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63 ، والمجلة الافريقية 1880 ص 228

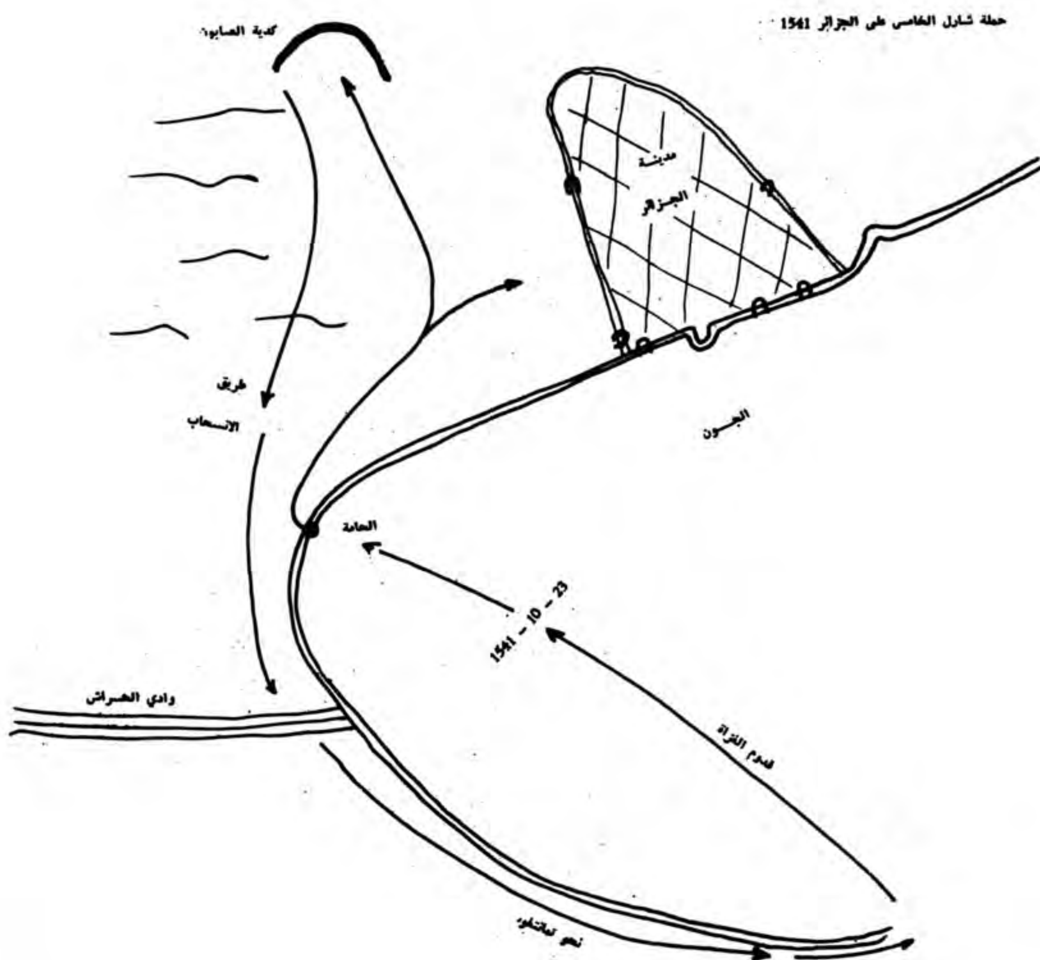
55) مخطوط المحكمة

56) P. AGUADO-BLEYE : Historia de Espana, t. II, pp. 454-455.
A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.
E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 51.

57) مخطوط المحكمة ـ غزوات ص 116 ـ الزهرة ص 15 ـ

58) مخطوط المحكمة

غارة شارل الخامس على مدينة الجزائر



عليه . . » (59)

ثم نهض لتعزيز المدينة وتحصين المراكز الاساسية «فاصلح ما انهدم منها ونصب عليه المدافع وعلى سائر الابراج . . وعين أربعمائة اسير من الكفار لهذا البناء ثم انه بعث الى شيخ المدينة وأمره أن يرفع اليه حساب رجال كل حومة من الجزائر . ثم أمر بقطع اشجار البساتين كلها خوفا من النصارى أن يستتروا بها عند القتال . . ثم فتح خزائن السلاح ووزعه فى اهل المدينة مع ما يحتاجون اليه من البارود والرصاص . . » (60)

وبعد أن تم التنظيم ، خاطب السكان وشجعهم وحثهم على الصمود والكفاح بينما كان يشرف — فى نفس الوقت — على عمليات المقاومة . (61)

«ثم أمر حسن آغا سيدى سعيد الشريف . . أن يوجه رجالا من أهل البلد الى الابراج والاسوار برسم حراستها فى مقاتلة العدو منها . . ثم نصبوا رايات الاسلام عليها ووزع حسن آغة رجاله على أبواب المدينة بطوائف من العسكر فعين لباب عزون الحاج مامى .. واقام حسن آغا فى حصن من حصون الجزائر تصل مدافعه الى العدو برا وبحرا ومعه جماعة من العسكر ، وجعل على باب الوادى مدفعا عظيما يدهش الانسان عند صيحته وتزهق النفس من دفعته . . كما عين لحراسة باب الوادى القائد يوسف وعين معه ثلاثة من القياد وهم سافر وأرسلان ورمضان(62) وأما كجك على وحيدر فعينا على باب الجزيرة ، ومعهما قبطان السفن وجماعة من رياس البحر .

وشارك فى الدفاع عن الجزائر جميع سكانها من بلدية ، وأندلسيين ، وبرانية فقد داروا على أسوار المدينة بالمكاحل والسيوف والرماح والنشاب ينتظرون الاوامر .

وفى يوم الاحد 23 أكتوبر : 2 رجب ، نزل العدو بالمكان المعروف بالحامة (63)

وتقدم المسلمون لمنع العدد من النزول الى البر فرماهم النصارى بالمدافع من البحر فأبعدوهم ثم نزلوا من أجفانهم كما أنزلوا سلاحهم وتركوا الزاد والذخائر فى المراكب وكانوا يعتقدون أن الاستيلاء على المدينة قضية ساعات . وبعد النزول صنعوا مترسا هائلا وقضوا به نهارهم وليلة الاثنين (64) . اما مكاتبة شارل الخامس لحسن آغا فقد نقلتها المصادر الغربية واثبتتها المصادر الاسلامية ، فبعث الامبراطور الى حاكم الجزائر « أيها الرجل أنت خديم من خدام بربرشة وأنا ملك صبانيا وجميع بلاد النصارى تحت طاعتى فكيف تحدث نفسك بمقابلتى أما تعرف الى استوليت على مدينة تونس وازعجت منها بربرشة » فأمر حسن آغا بجواب صارم يقول « يا كلب النصرانية كيف حدثتك نفسك انك ملك الملوك فى مقام السلاطين العظام الذين دنت لهم الدنيا وهل أنت الا كلب من كلاب النصارى أضعف ما فى بلاد البربرية من القلاع لاتقدر على أخذها»(65)

59) الزهرة ص 15

60) مخطوط المحكمة — غزوات ص 117

61) الا ان ابن ابى دينار القيروانى زعم — معتمدا على السيد الشريف بركات — ان : حسن آغة اراد ان يهرب فمنعه شيخ شريف والى امر الله — المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ط 1268 هـ ص 151 كما ادعى المؤرخ الاسبانى مرمول (MARMOL) — ويقول انه شارك فى الغارة هاته — ان حسن آغا مال لحظة الى الخيانة وتسليم المدينة ثم عدل عن ذلك بعد ما حذره القائد محمد — : وصف افريقية ، جزآن ط غرناطة 1573

62) مخطوط المحكمة

63) حيث توجد اليوم حديقة الجيوانات (JARDIN D'ESSAI) وكان هناك مكان يزوره المسلمون ويعرف فيما بعد — بقبر المجاهدين — لعله قبر اولئك الذين سقطوا برصاص العدو اثناء الغارة

64) مخطوط المحكمة

65) غزوات 117 — 118

المعـــــركة

وعندئذ عزم الحاج باشا ـ من زعماء التـــــرك بالجزائر ـ (66) على أن يضرب العدو ليلا (67) . ففتحت أبواب المدينة وخرج الحاج باشا على رأس جماعة وافرة من المسلمين قد انقضوا عليهـــــم يرمونهم ويرشقونهم حتى حصلت فى المخيم دهشة عظيمة .

ونجحت العملية وعاد المواطنون الى المدينة ، واخذ من بقى فى البحر من النصارى فى قصف الجزائريين حتى يكف هؤلاء من مهاجمة الصليبيين (68) وعـــد العدو قتلاه فوجدها «أكثر من ثلاثة آلاف» (69) ولما كان يوم الاثنين ـ 24 أكتوبر ـ تقدم النصارى نحو المدينة حتى «خيل لأهلها انهم نمل أسود قد مـلأ الفضاء» (70) وكان فى طليعة الغزاة ، الاسبانيون تحت قيادة فرناد دى قونزاف (FERNAND DE GONZAGUE) ثم جاء بعدهم الالمان يتقدمهم الامبراطور وتلتهـــم عساكر مالطة وصقلية وعدد من اسبانى عنابة (71) وأخيرا فرسان مالطة واغلبيتهم من الفرنسيين .

واقترب العدو من المدينة فأمر صاحب اسبانيا بنصب المدافع ثم بقصف المحاصرين فرد المسلمون من أعالى الاسوار على أعدائهم بالمدافع وبنـــادق الرصاص والسهام واشتد القتال زمانا طويلا (72) ثم رجع العدو الى «رأس تافورة» بقرب باب عـــزون واستأنف القصف وبادر المسلمون بالرد «فشعـر الامبراطور بخيبة الرجاء فى احتلال المدينة» . ثم ان جماعة من العرب هجمت على الجناح الايسر مـــن جيش العدو فقرر الامبراطور الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على العاصمة ، فعين لهذه العملية فريقا من الصقليين فصعدوا الى «كدية الصابون» ونزل بهـــا امبراطـورهم واتخـذها قاعدة له (73) وتضـاعفت المقاومة ووجه الجزائريون رميهم الى أجفان العـــدو الراسية بالجون كما وجهوا مدافعهم الى قواعـــده البرية الى أن خيم الليل على ميدان المعارك .

---

66) عين الحاج باشا واليا على الجزائر وذلك فى الفترة التى تغلى فيها حسن آغا عن الحكم الى ان عين حسن بن خير الدين ـ انظر مقالة ديفولكس فى المجلة الافريقية لسنة 1864 ـ الا آن الغزوات تنسب هذا الخروج ليلا لحسن آغا

67) وهى ليلة 24 اكتوبر اى ليلة 3 رجب

68) غزوات ص 119 ـ 120

69) الزهرة ـ الغزوات ـ الا ان المصادر الغربية تكتفى بالاشارة الى هذا الخروج الليل

70) مخطوط المحكمة :

71) كان خير الدين ـ بعد هزيمته بتونس 1535 التحق بعنابة حيث كان يوجد جزء من اسطوله . الا ان شارل الخامس امر قائده دى مندجـار(DE MONDEJAR) باحتلال عنابة .فاستولى على المدينة فى آب من نفس السنة بعد مقاومة شديدة من طرف الاهالى وقبل انسحاب القائد الاسبانى نهبت اموال المسلمين ودمرت المنـــازل والمساجد وبقيت حامية بالقصبة مدة طويلة

72) مخطوط المحكمة

73) اطلق الغربيون على هذا المكان اسم (FORT L'EMPEREUR) حصن الامبراطور ـ وتظن العامة ان صاحب اسبانية هو الذى بناه ـ وفاتها ان شارل الخامس لم يقم بالمكان الا ليلة واحدة ـ جاء فى الغزوات : «برج مولاى الحسن فى زماننا» والصحيح ان الحســـن ـ هل هو حسن قرصو ؟ هو الذى اختطه ـ ويقول هيدو (HAEDO) ان الحسن بن خير الدين بنى حصنا معززا بهذا المكان ثم قام حسين فينيزيانو بتوسيعه وتجميله وذلك بين 1579 و 1580 انظر هيـدو Histoire des rois d'Alger, p. 177 et Topographie d'Alger.

وفي يوم الثلاثاء 25 أكتوبر : 4 رجب «هاجت الريح وساقت السحاب أمثال الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهال البحر واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله . . » (74) فقطعت احبال السفن وساقت عددا منها الى البر فكسرتها او عطبتها – وكان يوجد في بعضها آسرى مسلمون «من ترك وعرب بعضهم من أهل الجزائر وبعضهم من أهل تونس» وكان عددهم نحو الف واربعمائة فخلصتهم هذه الزوبعة من عذابهم كما وقع كثير من البحريين النصارى في قبضة عرب النواحي «فاستأصلوهم قتلا» (75) . فتشوش «الجنرال اندرى دوريا» وينس المغيرون و «خيل لهم ان القيامة قد قامت من كثرة الرياح والامطار والصواعق والرعود فلم يقدروا على الرمي بمدفع واحد ولا بمكحلة» (76)

ورأى أهل المدينة – في هذه الزوبعة اعانة من الله على أعدائهم فتفاءلوا وخرجوا في ذلك اليوم يصحبهم الحزم فجدوا في القتال واجتهدوا كما خرج شارل الخامس في وسط جموعه واشتعلت الحرب براس تافورة «ودافع النصارى عن أنفسهم دفاعا قويا» وعاد المسلمون الى مكان يسمى «ملعب الكورة» ومنه الى مكان آخر يقال له قنطرة الافران (77) حتى وصلوا الى مكان بناحية سيدي أبي التقى (78) وعندئذ كر المسلمون على العدو وحملوا عليه وضربوا صفوفه ورموا أطرافه بينما كان المطر «يسيل كأفواه القرب» فتفرق الجمعان وعاد العدو الى محلته والمسلمون الى المدينة .

وقتل في هاته المعركة – أزيد من أربعة آلاف واستشهد من المؤمنين مائتان» (79) وارتفع عدد الجرحى من بينهم البرنس دي سلمون (PRINCE DE SALMONE) وسافينياك (SAVIGNAC) قائد فرسان مالطة .

وفي صباح الاربعاء 26 أكتوبر – 5 رجب تيقن العدو أنه لن يستطيع دخول المدينة ولا اخضاعها وفقد كل أمل وادرك «أن الغنيمة أن ينجو . . » (80)

---

74) غزوات 119 – وقال صاحب مخطوط المحكمة : – كان الفصل شاتيا لانهم وصلوا في شهر اكتوبر في ايام « قاسم كون » وقاسم كون هذا يوافق 26 اكتوبر (St DEMETRIUS) وهو الزمن الذي ينتهي فيه الغزو البحري فيعود الاسطول الى الموانى ويبقى بها شهورا الى الربيع حتى يهدا البحر – وفي 23 افريل (StGEORGES) يستانف الغزو البحري
R. BASSET : Documents musulmans sur le siège d'Alger, p. 28.
انظر هيدو : تاريخ ملوك الجزائر ص 63

75) غزوات ص 120 – وتحفة الكبار – ودى قرامون في التعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) 101

76) غزوات ص 120

77) مكان كان يوجد قبل الدراسة في القرن التاسع عشر – خارج باب عزون وبنهج قسنطينة – قرب ثكنة الجمارك اليوم –

78) مسجد كان يوجد خارج باب عزون في ملتقى نهج قسنطينة وساحة الجمهورية – انظر : دوفلوكس ص 204

79) غزوات ص 120 – ويقول دى قرامون : قتل من فرسان مالطة قرب النصف – (38 من 100) ويضيف فيقول : ان خسائر المسلمين كانت فادحة
Relations de l'expédition de Charles Quint... p. 99.

وقال هيدو وهو اسباني – مترهب – متعصب على المسلمين مانصه :
Hasan aga monta à cheval... força les chevaliers de Malte à reculer, les poursuivit jusqu'à un demi-mille du rempart, en tua plus de 150 et mit l'ennemi en un tel désordre que les Ducs d'Abbé et de Sessa furent contraints de se porter en personne au secours des chevaliers ainsi que l'Empereur lui-même qui dut descendre bien vite de la montagne sur laquelle il était campé si grand était le désartre causé par la bravoure de Hasan...
(Histoire des rois d'Alger, trad. DE GRAMMONT, p. 63).

80) مخطوط المحكمة

انسحـــاب العـــدو

1 ـ من الجزائر الى تمانتفوس :

أمر صاحب اسبانيا بالانسحاب . والتحق أندرى دوريا بتامنتفوس ليهيء هناك مجيء الامبراطور (81) وفى يوم الاربعاء 26 أكتوبر ـ 5 رجب ، زحف جيش الغزاة . فكان الايطاليون فى الجناح الايسر والمان فى الجناح الايمن وكان الجرحى والمرضى فى الوسط وفى الاخير الاسبان . وكلما اشتد سيل الامطـــار صعب السير فى الوحل . ونزل العدو بوادى خنيس (LE RUISSEAU) حيث قضى ليلته . وفى الغـــد ـ يوم الخميس ـ التحق بوادى الحراش ـ وقـــد أجهده الجوع والبرد ورمى العرب الذين حالوا بينه وبين كل زاد .

واضطر الغـزاة الى أكل أربعمائة من الخيـل . وتراكم عليهم المطر وباتوا بالمكان ، وفى الغد 28 أكتوبر ـ 7 رجب ، عقدوا صوارى سفنهم المعطـوبة على الساحل فاستطاعوا عبور الحراش «وقد كـــان حاملا» ، ثم أوقفتهم مياه الحميز زمانا ولم يصلـــوا الى تمانتفوس الا يوم السبت 29 أكتوبر ـ 8 رجب (82) وقضى الامبراطور وجيوشه يومى الاحد والاثنين بين الاستراحة وعقد مجالس الحرب منتظرا هــدوء العاصفة وهيجـان البحر .

2 ـ مغـــادرة تمانتفـوس :

أقلع أسطول الغزاة يوم الثلاثاء أول نوفمبـــر 11 رجب ، وقيل يوم الخميس لكن الى أين ؟

تذكر بعض المصادر الاسـلامية انه سافـر الى بلاده وتنهى بذلك حديثها عن هذه المغامرة (83) ، لكن صاحب تحفة الكفار ينبه الى أن زوبعة دفعت ما بقى من الاسطول الى بجاية (التى لازالت آنـذاك قاعدة اسبانية) .

أما المصادر الغربية فانها تصـرح بأن صاحب الغارة قصد عمدا بجاية للبحث عن الزاد وقد فعلت بهم المجاعة فعلها (84) . ويضيف هيدو أن ابـن القاضى صاحب كوكو وعد الاسبان بزاد يبعثـــه لهم الى بجاية . .

ووصل الاسبان الى بجاية يوم الجمعة 4 نوفمبر 14 رجب ، فوجدوها محاصرة تقاسى هى أيضـــا قساوة القحط وقنعـوا بأكل الكـلاب والقطـــط والاعشاب . وتكالب الجنود على الجالية اليهوديـة هناك واستولوا على أموالها ثم شردوا أفرادهـــا وجردوهم من جميع ما كانوا يملكون كما أحرقـــوا كتبهم المقدسة (85) .

وبعد أيام أبحر الامبراطور من جديد . ولـقى دوريا قبل مغادرة بجاية صعوبات عديدة فى جمـع شرذمة الغزاة (86) .

81) مخطوط المحكمة ـ دى قرامون : تعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) ص 104

82) دى قرامون : تعليق على كتاب (VILLEGAIGNON) 104

83) مخطوط المحكمة ـ غزوات ص 121

84) بلاستيروس A. BALLESTEROS : Historia de Espana, t. VI, p. 121.

85) كاهية اليهود فى شمال افريقية Ab. CAHEN : Les Juifs dans l'Afrique septentrionale, R.N.M.S.A.C. - 1867, pp. 167-168.

ووصل الاسطول الى ميوركة ومنها الى صقلية ، بقيادة قونزاف (GONZAGUE) والآخر الى قرطاجنة حيث نزل الامبراطور فى الثانى من شهر ديسمبر 1541 .

اسباب الهزيمة

1 ـ فى نظر الغربيين :

حاول أكثر من واحد (87) الوصول الى أسباب الكارثة ـ وذهب الناس فى هاته المسالة مذاهب ولعل ابرز ما ذكروه راجع الى :

1 ـ عناد الامبراطور الذى أبى الا أن يغير على الجزائر ولم يبال بتحفظات خبير مثل أندرى دوريا ولا بنصائح الملك فرناد . وكل منهما قد حذره من فصل الهجوم .

2 ـ ضعف القيادة والاخطاء المرتكبة فى العمليات البرية والبحرية .

3 ـ عدم التبصر وعدم المقدرة فى عمليات الارساء وقد أبدى المؤرخون الغربيون عجبهم وحيرتهم أمام التدابير التى اتخذها الامبراطور كابقاء مدفعية الحصار فى السفن وكذلك الزاد والذخائر » ظنا منه أنه لا يحول بينه وبين ما فى السفن حائل» .

4 ـ خطا أندرى دوريا ـ مع أنه أعرف الناس بالبحر الابيض ـ عند ما جمع المآت من المراكب والسفن بقرب سواحل لا يوجد فيها مأوى صالح ومن جهة أخرى فان الرياح الشمالية الشرقية تضاعف خطرها .

5 ـ كان شارل الخامس متيقنا انه يدخل الجزائر لا محالة وبدون مشقة ولهذا كان يأمل فى أن الاسطول يدخل بعد قليل الى مرسى المدينة فيصبح فى مأمن .

6 ـ كما كان شارل الخامس متاكدا من «خيانة» حسن آغا فلم يعط اهمية للتدابير وللعمليات الجدية اللائقة .

7 ـ كان الامبراطور قد وصل يوم الخميس 20 أكتوبر ولم يشرع فى العمليات ضد الجزائر الا يوم الاحد 23 . فكانت الايام الثلاثة ـ فى نظر بعض المؤرخين ـ ضياع فرص للنصارى وفرصة استعداد للمسلمين .

8 ـ الزوبعة التى هيجت البحر بعد نزول الغزاة الى البر ، فان الغربيين كادوا يجمعون على أن العواصف والامطار هى السبب الرئيسى لفشل الامبراطور . . ولولاها لكانت النتيجة كما توهموا

2 ـ فى نظر المسلمين :

حلت الهزيمة فى حزب الكفرة لان الله تعالى «عكس آماله «صاحب اسبانيا» ونكس احواله ولم يظفر من أهل الجزائر الا بهذا الهلاك الذى يشاهده» ولان الله سبحانه وتعالى «أرسل عليهم (النصارى) ريحا عاصفا . . . وهيأ لاهل الجزائر النصر» (88) ولانه نصرهم على أعدائه» (89) .

86) P. AGUADO-BLEYE : Manuel de Historia de Espana, t. II, pp. 454-455.
87) انظر دى قرامون ـ تعليق على كتاب فيلبجرليون DE GRAMMONT : Relation de l'expédition de Charles Quint contre Alger - pp. 84-85.
88) الزهرة النيرة ص 18
89) مخطوط المحكمة

ثم ان هناك سببا آخر وهو عناد الامبراطــور المغرور . قال صاحب مخطوط المحكمة « ونـزل الجنرال اندرية منها حزين (!) فوصل الى الطاغية في محلته واعطاه حق المبايعة وقال له أيها الملك الم أحذرك عن السفر الى الجزائر فانظر عاقبــة الامر الذى كنت حذرتك منه الآن قم اطلب النجاة لنفسك . . »

وأخيرا أبرز المؤرخون المسلمون جانبا ثانيـا لانتصار الجزائريين على عدوهم هو الجهاد فيسبيل الله ذلك الجهاد الذى يظهر في شجاعة حسن آغا وفي خطابه للناس والذى يظهر في صمود المسلمين واتحادهم أمام أعداء الاسلام ـ والذى يجعل الفئة القليلة تغلب الفئة الكثـيرة ـ .

نتــائـج هـذه الغــارة

كانت لحملة 1541 نتائج عديدة واصداء بعيدة لفتت أنظار المؤرخين المسلمين والإفرنج (90) .

1 ـ فاما الخسائر المادية فكانت جسيمة ، فقد وقع عدد كبير من الاسرى في يد المسلمين كما حصل هؤلاء على المآت من الخيل وكمية من ذخائر الحرب والاشياء النفيسة (91) ويعترف دي قرامون « بأن الخسائر كانت فادحة : 16 غليوطة كبيرة و 140 جفنا ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام الخ . . حتى أصبح ما غنمه المسلمون يضـرب به المثل » .

وان كورتيس (F. CORTES) فاتح المكسيك ـ شاهد النفائس التى أتى بها من هنالك ـ يبتلعها البحر . وان صهر الامبراطور فقد أكثر من مائـة الف دوكة (93) .

وأما المراكب فان جلها قد عطب على الســواحل وكان عدد ما غرق من الاجفان المعدة للحرب ولحمل الزاد مائة وثلاثون (94) وترك العدو عددا مــن الاغربة والاجفان الرقاق والاجفان العظام والعشريات والفرقطات (95) . «وما وصل اللعين الى بلاده الا باثنى عشرغرابا وكان عدد السفن عند قدومـه سبعمائة وخمسين جفنا والعسكر سبعين الفا» (96)

وذكر بوراس النصرى نفس الاعداد فيكتابـه عجائب الاسفــار .

الا أن بعض الغربيين استصغروا هاته الخسائر وقللوا من شأنها وذكروا ان الاسبان لم يفقـدوا أكثر من 14 غليوطة و 100 مركب صغير (97) .

وأرسل دون النزو دى قرطبة (DON ALONZO DE

---

(90) انظر : GOMARA : Cronica de los Barbarojas. VILLEGAIGNON : Relation de l'expédition de Charles Quint.

(91) هيدو ـ المجلة الافريقية سنة 1880 ص 230

(92) دى قرامون : تعليق على كتاب VILLEGAIGNON ص 101 ـ 102

(93) شاريير Charrière : Négociation de la France dans le Levant, t. I, p. 522.

(94) غزوات ص 121 ـ 122

(95) مخطوط المحكمة

(96) الزهرة النيرة ص 16

(97) انظر : P. AGUADO-BLEYE : Histoire de Espana, pp. 454-455.

CORDOBA) كتابا بتاريخ 25 ديسمبر 1541 الى أبيه والى وهران آنذاك – وقد كان هذا في اجـــازة باسبانيا – يخبره ان «الانباء الوثيقة الواردة من مدينة الجزائر تفيد ان الاتراك عوموا أربعة أجفان صحيحة وجفنا معطوبا قليلا . كما أخرجوا مـن الماء ستين مدفعا أربعة ذات المعيار الصغـــير والباقية ذات المعيار الكبير (98) . واختلف في عدد القتلى . فسكتت مصادر الافرنج عن هاته النقطة أو قدمت أعدادا تافهة (99) واشتطت المصـــادر الاسلامية حتى ذكرت بعضها «ان عدة القتـــلى بسيوف المسلمين – في هذا اليوم – اثنا عشر الفا . . ويقال ان فرائس الكفرة وفرائس خيلهـم ملأت ما بين الجزائر والدلس شرقا وشرشـــال غربا » (100) .

وجاء الغزاة بأربعة آلاف من الخيل فلم يعودوا الى بلادهم بفرس واحد «فقد مات بعضها برمـــاح المسلمين والبعض أكله النصارى وقتلوا بعضهـا بأيديهم لضيق سفنهم » (101)

واستولى الجزائريون على مال لا يحصى وعـــلى كثير «من الرجال والنساء والصبيان التي أتى بها وعدتهم الفان » (102) كما غنموا ما بين مائة ومائتين من المدافع وحملوها وزينوا بها الحصون الحربية وسائر أسوار المدينة .

2 – وكانت النتائج السياسية في الجـــزائر وخارجها لا تقل عن الاولى من حيث الاهمية فقـــد عظم شأن حسن آغا فوجه السلطان «بخلعة سنية وأمر كريم يتضمن نيابته بالجزائر من قبـــل السلطان وانه من جملة وزرائه» (103)

وانتصرت الجـــزائر للمرة الثـالثـة «وبقيت كالعروس تختال في حليها وحللها من رخـــاء الاسعار وأمان الاقطار» وأصبحت من بين الـدول التي لها سمعة ومنزلة .

واتسعت رقعة نفوذ الاتراك داخل البلاد . فكان أبو محمد الزياني صاحب تلمسان يميل للاتـراك حينا وللاسبان أحيانا لاسيما بعد 1535 عند مـا استولى هؤلاء على تونس . فانتصار الجزائر أجبره على اعادة النظر في سياسته (104) فبايع أتـــراك العاصمة ولم تمض الا مدة قصيرة حتى زالت دولة بني زيان – 1551 – ودخلت تلمسان تحت نفـوذ الجزائر .

98) المجلة الافريقية – سبتمبر 1865

99) يقول دى قرامون في تعليقه على كتاب (VILLEGAIGNON) ص 103 : ان خسائر الاسبانيين كانت ضئيلة جدا – الا انه في صفحة 105 يقول : بلغ عدد الضحايا النصارى ما بين 15،000 و 18،000

100) غزوات ص 121

101) غزوات ص 121 – ودى قرامون : تعليق ص 103

102) مخطوط المحكمة

103) غزوات ص 121 – 122

104) هيدو (HAEDO) – المجلة الافريقية 1880 ص 272

ثم التفت حسن آغا الى الجهات الشرقية ، وهب لاخضاع ابن القاضي صاحب «كوكو» الذي طالما عارض الاتراك وتحداهم وقيل انه عامل الاسبان ومد لهم يد المساعدة .

فنهض حسن آغا في الربيع من سنة 1542 وتوغل في بلاد القبائل على رأس 6000 رجل مستخدما 12 مدفعا ، فخضع صاحب كوكو والتزم بدفع غرامة سنوية وقدم ابنه احمد رهينة في يد حسن آغا (105) .

وشاعت اخبار ما وقع لشارل الخامس واخترقت الآفاق واهتزت لها النفوس في «مشارق الارض ومغاربها» لانها كانت أعظم كارثة سياسية عرفها الامبراطور . فأصبحت انتصارات الاتراك تتعدد في المغرب بعد 1541 ، فانسحب الاسبان قهرا من طرابلس – 1552 ومرسى افريقية بتونس 1553 ومن بجاية – 1555 – وحوصروا في وهران مرارا بعد – 1556 – وأخرجوا من تونس - 1570 – نهائيا

وفشل مخطط الاسبان الرامي الى احتلال سواحل هذا المغرب بصفة عامة واحتلال مدينة الجزائر بصفة خاصة (106) والرامي كذلك الى خنق فرنسا اذا ما صار الحوض الغربي من البحر الابيض اسبانيا تماما . وقد كاد الحوض هذا يكون لشارل الخامس وحده بعد ما اصبحت موانى ايطاليا واسبانيا ومالطة وسردانية ومناء وهران والمرسى الكبير ومليلة في يده .

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أروبا – وتطورت الاحداث هنالك بسرعة .

فلم يبق حليف للامبراطور سوى هنرى الثالث ملك انكليترا . وانظم الى ملك فرنسا الدوق دى كلاف (Le Duc Du Cleves) وملك الدانمارك وملك اسكاندنافيا .

وكان فرح الفرنسيين يكاد يساوى فرح الجزائريين لان سقوط الجزائر كان يؤدى – لا محالة – الى سقوط فرنسا . وبادر ملكها فرنسوا الاول لابرام معاهدات مع السلطان العثماني (107) .

3 – وكانت لهاته الغارة أيضا نتائج معنوية داخل القطر وخارجه .

ففي الجزائر أقيمت الافراح وتواصلت الاحتفالات بمناسبة هذا النصر المبين الذى كتبه الله للمرة الثالثة في ظرف ثلاثين سنة .

وكان أكثر الناس اغتباطا وفرحا هم يهود العاصمة لما كانوا يضمرونه من حقد وعداوة للاسبان الذين أذاقوهم كل أنواع العذاب والاضطهاد يوم كانوا بأروبا ، وقد وجد اليهود هنا من أمن واستقرار ونشاط ما جعلهم يخشون انتصار الاسبان على الجزائر .

105) هيدو (HAEDO) ص 230

106) انظر : P. MASSON : Histoire des établissements du commerce français dans l'Afrique barbaresque (1560-1793).

107) راجع : P. AGUADO-BLEYE : Manuel de Historia de Espana, t. II, pp. 454-455.

وبمجرد انسحاب شارل الخامس اطمأنت قلوبهم وصاروا يصومون اليوم الثالث من شهر ششوان ويحتفلون – في الرابع منه – ببورم الاول – (108) وكانوا ينشدون القصائد من نظم رباني العاصمة مثل مشيش وابراهيم بن يعقوب تواه . وابراهيم ابن سليمان صرفتي . وهي قصائد في مدح الجزائريين وفي تمجيد كفاحهم وبطولتهم وفي هزيمة الاعداء كلما تجاسروا على غزو العاصمة .

وبقي اليهود – الى القرن التاسع عشر يحتفلون كل عام بذكرى 1541 (109) . وفي الخارج « بقي رعب المسلمين في قلوب اهل أروبا مدة طويلة ».

ولم يفكر شارل الخامس قط في حملة أخرى على الجزائر . وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى اصبح النـــاس اذا رأوا جفنا عن بعد نسبوه الى خير الدين فيتصـــاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهـــم ومن حقولهم ومتاجرهم .

واذا حطمت الزوابع مركبا توهم الناس ان خير الدين بربروشة هو الذى أثار البحر وهيجـــه واغراه على اغراق سفنهم . وبلغ الخوف من قـادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل اسبانيـــا وايطاليا اذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقـــع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالـوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك !

وكانوا في عويلهم يرتلون :

بربوشة بربوشة ، انت صاحب كل شر ، ماكان ألم أو عمل مؤذ وجهنمي ، الا والسبب فيه هذا القرصـــان الذى لا نظـير له في العالم ! (110)

وساهمت حوادث 1541 في نسج أساطـــير انتشرت في العامة بسرعة فنسب البعض هزيمة المغيرين الى كرامة ولي دادا (111) وزعموا انه لما دهش السكان الاهالي وخافوا – أول الامر – من تقدم الطاغية وفكر الكثير في الفرار أو الاستسلام قام هذا الشيخ المتصوف وأخذ يجول في شوارع المدينة يشجع الناس على الثبات والصمود ثم نزل الى المرسى ودخل في البحر حتى الصدر وضرب بعصاه فقامت الزوبعة المشهورة وحطمت الاسطول الاسباني .

ورأى آخرون أن الدور الرئيسي كان لسيـــدى بو القدور (112) ، فقيل انه كان قد نزل الى المرسى

---

108) انظر :
E. EISENBETH : Les Juifs en Algérie et en Tunie à l'époque turque (1516-1830). Revue Africaine 1952 - ou tiré à part, p. 170.

109) مرسيي
E. MERCIER : Histoire de l'Afrique septentrionale, t. III, p. 55 et suivt.

110) بريبـــار
A.P. PRIEUR : Les Barberousses... p. 194.

111) ولي دادا : من اصل تركي – وهو متصوف توفي سنة 961 هـ – 1554 م ودفن – اول الامر بمسجد يعرف في الماضي بمسجد ولي دادا كان بنهج الديوان وفي ايام الاحتلال الفرنسي نقلت رفاتـه الى جوار سيدى عبد الرحمن الثعالبي – سنة 1864 لانهم احتاجوا الى المسجد وضموه الى بناء – دير الرحبة –
انظر :
DEVOULX : Les édifices religieux de l'ancien Alger - 1870.

112) كان له مسجد بنهج كليبير سابقا

فهاجت الامواج وتلاطمت وكان اذ ذاك بالمـرسى مركب مشحون بقدور من طين فأخذ يكسر الواحد بعد الاخرى وكلما تكسرت قدر تحطم مركب من مراكب الغزاة النصارى (113)

وزعمت جماعة ثالثة ان الفضل فى انقاذ الجزائر يرجع الى سيدى بو التقى (114)

فكان هذا الولى يعيش فى خلوة وعزلة بين صلاة وصوم ، وعند ما هاجم الاسبان الجزائر أمر سيدى بو التقى البحر بالهيجان حتى كان ما كان . .

ويذهب هيدو (HAEDO) الى أبعد من ذلك وينقل رواية من يقول ان سيدى بو التقى كان قد تـوفى قبل الغارة بسنوات . فعند قدوم النصارى سنة 1541 نهض الولى من قبره فأقام الصلاة وتضـرع الى الله سبحانه فكان الولى مسموع الدعـــاء وقضى الامـــر (115) . . .

113) انظر ديفولكس (DEVOULX) المرجع المذكور ص 240

114) كان مسجد ابى التقى يوجد فى الزاوية بين نهج قسنطينة والساحة قرب باب عزون ، وعند ما دخل الفرنسيون البلاد احتله رجال الهندسة العسكرية

115) المجلة الافريقية ـ سنة 1871



مع الشعب

قف حيثُ شعبُك مهما كان موقفُه

أوْلاَ فإنك عضوٌ منه منحسمُ

تقول أَضحَى شتِيتَ الرأيِ منقسِمًا

وأنتَ عنه شتيتُ الرأي مُنقَسِم

فكنْ مع الشعب في قولٍ وفي عملٍ

إن كنتَ بالرَّجل الشعبِيِّ تتَّسِم

ولايَرُقْك شَفيفُ الذَّات مائِعُها

كالماء فيه وجوهُ الناس ترتسم

أعدَى عِدَى القوم من يُعْزَى لهم نسَبًا

ويَسمَع القَدْحَ فيهم وهو يبتسم !

من ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

الجامع الكبير بمدينة الجزائر

معماريًّا وتاريخيا

عبدالرحمن الجيلالي

ان من روائع الفن الاسلامى الذى خلفته لنا الاجيال المسلمة السالفة وتركته للاعقاب كنموذج مشرق ناطق بتقدم الحضارة الاسلامية فى سالف عصورها الزاهرة وكدليل ساطع دال على انتشار المدنية الاسلامية فى الاقطار والامصار شرقا وغربا هذه المساجد الجامعة العظيمة متفرقة ومجتمعة على وجه المعمور هنا وهناك كنجوم السما. تلمع انوارها وتشع اضواؤها حتى لا يضل ركب الانسانية الزاحف نحو الرقى الروحى والتقدم الحيوى ، فمنها اشرق نور الايمان ، وتجلى العلم بجلاله لطالبه من غير احتكار ولا تضييق ولا تقتير ، وعليها وقد افرغت فى قالب الجمال يظهر رونق الفن وبديع الصنعة .

ولا غرو فان المسجد هو مهد الاسلام ورابطة الوحدة الاسلامية بين سائر الشعوب ومثوى العلماء ومنطلق الجنود الفاتحين والمركز الاساسى الاصيل الذى اتخذه المسلمون دار ندوتهم وشوراهم يتبادلون فيه الرأى لحل مشاكلهم والنظر فى مصالحهم ، ومنه تخرج على يد رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم خلفاؤه الراشدون وجم غفير من ابطال الاسلام وفطاحل العلماء وكبار الساسة والقادة . وفى رحابه يجتمع سائر المسلمين مرات فى اليوم لتوثيق روابط الالفة والمحبة بينهم يرفرف عليهم علم الحرية والاخاء والمساواة .

ولقد كانت الجزائر ولاسيما منها العاصمة من المراكز الاسلامية التى كتب لها فضل السبق فى ميدان تشييد هذه المراكز الاسلامية والثكنات الحصينة ، فالتاريخ يشهد لنا بانه كان يوجد بهذه العاصمة قبل استيلاء الاجنبى عليها ما يزيد على نيف وعشرين ومائة معهد اسلامى ، اى ما بين مسجد جامع ومصلى للصلوات الخمس وزاوية للدراسة والصلاة ، ومدرسة للتعليم الثانوى او العالى ، وكتاب للصبيان ، وقبة لضريح ، ومنهم من زاد على هذا العدد فبلغ 166 مؤسسة اسلامية وهى عنده على هذا التفصيل :

109 مساجد للصلوات الخمس
13 مسجدا جامعا
32 ضريحا
12 زاوية .

وفى طليعتها هذا المسجد الاعظم ـ الجامع الكبير ـ الذى كان ولايزال قائما ماثلا امامنا كالطود الشامخ يحمل مشعل المجد وآية الخلد كانه علم فى راسه نار .

هذا الجامع هو أحد المساجد الاثرية الثلاثة التى تنتمى فى تاريخها الى أزهى وأعز عصور الاسلام الذهبية الزاهرة فخورة بانتسابها الى دولة هى من كبريات دول المغرب العربى المسلم وأسعدها ؛ وتلك المساجد الثلاث هى ما بالجزائر وتلمسان وندرومة ، أما تلك الدولة فهى دولة المرابطين الفخمة التى نشأت عندنا فى القرن الخامس الهجرى ـ II م ونشرت أعلامها على معظم هذا الشمال الافريقى وعلى أرض الاندلس أيضا .

امتدت مملكتها من أرض السينيغال جنوبا الى نهر ايبريا ـ أو الايبر ـ شمالا ، ومن البحر الاطلانطى غربا الى اقليم بجاية من أرض الجزائر شرقا ، وكانت العاصمة هى ما أسسته يد هذه الدولة بنفسها من تلك المدينة الجميلة مراكش .

اشتهر ملوك هذه الدولة ـ أمراء المسلمين ـ بالاستقامة والعدل والاخذ بيد العلماء ، ولم يجر فى تراب مملكتهم رسم مكس ولا معونة ولا خراج لا فى بادية ولا فى حاضرة ، وكانت أيامهم كما حدثتنا مصادر التاريخ أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن فاحبهم الناس .

ولاسيما ذلك أيام عاهلهم الاكبر امير المسلمين يوسف بن تاشفين الذائع الصيت فقد أجمع المؤرخون على فضله وشجاعته وتقواه ، حتى أنهم قالوا : لم يكن فى عصره نفاق ولا ظلم وكانت المرأة فى زمنه

تسير وحدها حاملة الذهب فتجول اقطار افريقية والمغرب لا تجد من يعترض سبيلها أو من يمسها بسوء .

ومن اظهر خصائص هذا العاهل الكبير انه ما خاض قط حربا من حروبه ضد خصومه الا وخرج منها منتصرا ظاهرا ، حتى انه لم يعرف له فى ذلك نظير فى تاريخ المغرب . ويكفيك منه انتصاره فى تلك الحرب الضروس التى عرفت بموقعة الزلاقة الشهيرة التى وقعت بأرض الاندلس (479/1086 م) . وناهيك به فضلا وشرفا ان حجة الاسلام الامام أبا حامد الغزالى رحمه الله لما بلغته أخبار هذا الامير أزمع على الرحيل من المشرق ليغتنم صحبة هذا العاهل بالمغرب وفعلا شد عزمه وربط رحله واخذ فى السير من مقره حتى بلغ مدينة الاسكندرية وشرع فى التجهز استعدادا للانتقال نهائيا الى أرض المغرب ، فلم يرعه الا وخبر نعيه يعم الآفاق وكان ذلك سنة (500 هـ/1107 م) فعدل الامام عن الرحلة .

فالى هذا العاهل الكبير ـ يوسف بن تاشفين ـ يرجع الفضل فى تشييد هذه المؤسسة الكبرى فى الاسلام : الجامع الكبير بالجزائر ، بناه كما يقول الزيانى يوسف بن تاشفين اعوام الستين واربعمائة للهجرة الموافقة لاواسط القرن الحادى عشر الميلادى ، اى ان لهذا المسجد منذ انشائه الى اليوم ما يناهز الالف سنة ، كما نجد خبره ايضا فى مؤلفات القرن الخامس الهجرى مثل كتاب المسالك الذى صنفه صاحبه ـ البكرى ـ سنة 460 هـ/1068 م فتراه يقول عن مدينة الجزائر : ولها أسواق ومسجد جامع . . .



عبد الرحمن الجيلالى يدرس المزولة
الموجودة بأعلى منارة الجامع الاعظم

فالمساجد الثلاث التى أشرنا اليها هى التى نجدها اليوم وحدها حافظت لنا على نموذج فى المعمار المرابطى فى تاريخ العمارة الاسلامية بهذه الديار ، فتراها متشابهة فى شكلها وطرازها ولا تختلف عن بعضها الا من حيث السعة والمساحة فقط ، فاكبرها جامع تلمسان ويليه جامع الجزائر ، ثم جامع ندرومة . ورغم التغيير والزيادة التى زادها الموحدون وأحدثوها فى جامع ندرومة فتراه أقرب شبها بجامع الجزائر .

وللجزائر اليوم أن تفتخر على سواها من البلاد الاسلامية ولاسيما المغرب بكونها امتازت عنها بالحفاظ على هذه المجموعة الاثرية الثمينة الفريدة التى وصلتنا على حياتها الاصلية . والتى لم يبق لهذه الدولة فى غير ارض الجزائر اثر معتبر هام يمكن علماء الآثار من تصحيح دراساتهم المعمارية

واستكمال معلوماتهم وبحوثهم الاثرية مستوفاة، كاملة الا "هذه المعالم الثلاثة التى لا توجد الا فى أرض الجزائر . اللهم الا اذا استثنينا الجزء الشمالى الذى يشمل المحراب من جامع القرويين بمدينة فاس فانه تم على عهد الامير على بن يوسف ابن تاشفين سنة 531 هـ/1137 م ولكنه أثر ضئيل

ويكفينا فى الاستدلال على رقى فى الانشاء والتعمير بالجزائر فى ذلك العصر الغابر وجود مثل مسجد الجزائر هذا القائم فى غاية الاحكام والتمكين وقد أشرف على ألف سنة ، وهو لايزال على حاله غضا طريا كأن يد الصانع لم تفرغ من تشييده الا منذ الساعة ! . .

نعم ان المتأمل وعين الناقد البصير اذا رأى بها هذه المساجد تخضع بصفة عامة الى النمط المرابطى قال بأنها ليس عليها من الرشاقة والاناقة حظ عظيم ؛ فنقول بلى ! ان لذلك سببا وهذا السبب يعود الى الحالة الاولى التى كان عليها أمراء هذه الدولة من الميل الى البساطة فى حياتهم العامة والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وعدم التكلف ، ثم انه أيضا لم يكن لهذه الدولة فى أول أمرها اتصال مباشر بفنون الشرق ولا لها اطلاع على الهندسة المعمارية فيما قام به الامويون بالاندلس ، أو العباسيون بالمشرق . فاتسمت لذلك آثارها بفن جديد وطابع خاص يمتاز على غيره بالضخامة والفخامة ثم لما اتصلوا بالاندلس واطلعوا على آثار الحضارة الشرقية التى تركها هنالك الامويون أخذ فن المرابطين يتطور متأثرا بمظهر ما عليه جامع قرطبة مثلا ، فكان ما نشاهده اليوم من زخرفة محراب جامع تلمسان وقبته العجيبة وبعض تيجان أعمدته الحاملة لعقوده وأقواسه الفلوقة .

ولقد كان لاستحالة الحصول على أعمدة كبيرة لتشييد مآثر هذه الدولة بحسب ما يتجلى لنا من مساجدها اختير لذلك دعائم مبنية بالحجارة قاعدتها مطولة أو مصلبة تعلوها أقواس تشبه حدوة الفرس دون أن تربطها أوتار . تحمل سقفا مسنمة ، وهذا هو السبب فيما نشاهده من أثر الضخامة التى تقوم عليها عمارة المرابطين فى مساجدهم .

والجامع الكبير هذا هو فى جملته وتفصيله مربع الشكل ، يمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ومن الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وقبلته بالجنوب الشرقى . وهو قائم على شاطىء متصل بالبحر . ولقد أدركت جدتى لأم رحمها الله وقد عمرت طويلا تقص علينا حياتها فى صباها حينما كانت تصحب جدها الشيخ مصطفى القاديرى مفتى المالكية بالجزائر فيذهب به الى مقصورته بالجامع المذكور . قالت بأنها كانت تشرف بنفسها من نافذة هناك واقعة على البحر ، ولدينا صور أخذت لهذا المسجد سنة 1246 هـ/1830 م تصحح لنا ذلك .

ويحد هذا المسجد اليوم شمالا النهج المسمى بنهج البحرية ، وجنوبا الشارع المدربز المشرف على المرسى ، وغربا الطريق المتصل بالغرفة التجارية ، وشرقا الطريق الواصل ما بين نهج البحرية والشارع الموازى لقبلة المسجد ؛ وهو يشتمل على أحد بلاطا – صفا – معاكسا للقبلة ، باضافة الخمس رواقات التى تحيط به من غالب

جهاته ، ما عدا الجهة الشمالية الشرقية ؛ ومساحته تستغرق نحو الالفى ميترا مربعا ، وطوله يزيد قليلا على عرضه ، أو عمقه بثمان ميترات ، فالطول هو عبارة عن 48 ميترا ، أما العرض فهو لا يزيد عن 40 ميترا ، واذا قسنا الناحية الشمالية الغربية منه وجدنا بها 40 ميترا ، ومثلها كذلك كل من جهتيه الشرقية الشمالية وما يقابلها من الناحية الغربية الجنوبية .

وقد كان متصلا بجداره الجنوبى الغربى بحديقة فسيحة تسمى بالجنينة ، كما انه كان بشماله الشرقى مصلى للجنائز وهو منتقض اليوم ، وساحة اخرى كانت تستعمل كواجهة حربية للدفاع عن العاصمة وضع بها أربعة مدافع من أكبر عيار كان يستعمل يومئذ فى السلاح التركى ، ثم أزيلت هذه المدافع من هناك بعد الحملة الانكليزية التى قادها اللورد ايكسموث ضد الجزائر سنة 1231 هـ 1816 م ، وفى بقية اجزاء هذه الساحة أقيم ما نشاهده اليوم خارج جدار المسجد الغربى الشمالى من المقاصر ، ومنها مقصورة المفتى ، اما ما كان استعمل من تلك المقاصير كمحكمة شرعية للمالكية فانما هو من زيادات سنة 1266 هـ/1850م (ربيع الاول – فيفريى) وأول قاض جلس بهذه المحكمة للقضاء هو الشيخ حميدة العمالى المتوفى سنة 1220 هـ)1873 م ويوم أن بنيت هذه المحكمة



الجامع الكبير بالجزائر – الحرم الداخلي

نظم الشعراء فى مدحها أبياتا ومنها هذه الابيات للشيخ محمد بن عبد الرحمن الامين المتوفى سنة 07 : هـ / 1889 ـ 90 م قال :

احسن بمحكمة قد راق منظرها
ابدت محاسنها شكرا لباريها
يحق حسن الثنا للآمرين بها
مع الذين سعوا كذاك بانيها
للحكم قد نصبت اوكانها رفعت
لشرعة المصطفى الله يبقيها
لا تعجبن اما يكفيك نسبتها
لمالك شيدت له نواحيها
وحالها نطقت فى الحين مفصحة
بالبشر ضاحكة تزهو لرائيها
يا قاصدا ربعها لا تخش مضيعة
الله للحق يهدى كل من فيها

★ ★

ودعائم المسجد تقوم على الحجارة والآجر المملوه تغطيه طبقة من الجبس والجير ، ويبلغ عدد الدعائم 72 سارية كلها قائمة الزوايا ، وفيها المصلبة ، تبعد كل واحدة عن أختها بما قدره 3،40 م وهى مثل دعائم جامع تلمسان الكبير تحمل عقودا ـ أو قل اقواسا ـ اربعة متداخلة ومتقابلة اثنان منها مكسرة الاقواس فى شكل حدوة الفرس المدببة واثنان مسننة متعددة الفصوص بحيث تبلغ فصوصها الى اثنى عشر فصا ، واول من استعمل هذا النمط من الاقواس المفصصة المفلوقة بالمغرب هم المرابطون كما هو الحال بجامع تلمسان الذى يرجع تاريخه الى عصرهم .

ويدخل تحت هذه العقود أحد عشر بلاطا مديدا يمتد من الشمال الى الجنوب فى اتجاه معاكس لجدار القبلة كما هو عليه حال جامع قرطبة والقيروان وتلمسان ، ويخالفها فى ذلك جامع القرويين بفاس، فان بلاطاته تمتد موازية لجدار القبلة ، وهذه ميزة خاصة يمتاز بها ما بين سائر المساجد الاثرية الموجودة بهذا الشمال الافريقى ، ثم اننا اذا قسنا عرض ما بين سوارى البلاط الاوسط من الجامع الكبير هذا وجدناه يزيد على بقية البلاطات الاخرى بـ 1،60 كما هو الشان فى مديد الصف الاول منه ومثله جامع تسان .

ويذكر اهل الجغرافية والتاريخ من متقدمى علماء العرب وتبعهم فى ذلك المتاخرون من الافرنج ان بعض الاجزاء الشمالية من جدار المسجد الشمالى الغربى هى من بقايا أطلال هيكل أو معبد كان قائما هناك للرومان مستدلين على ذلك بما يوجد بهذا الجدار من الخارج من تلك القطعة الحجرية المنقوشة بحروف لاتينية RVFVSAGLIS تؤدى هذا اللفظ « روفوس أجيلوس » ولا تزال هذه القطعة موجودة ظاهرة جلية متماسكة ملتحمة باجزاء الحائط من الخارج ؛ يقول البكرى فى مسالكه : «وكانت بمدينة بنى مزغنة ـ يعني الجزائر ـ كنيسة عظيمة بقى منها جدار مدير من الشرق الى الغرب وهو اليوم قبلة الشريعة للعيدين مفصص كثير النقوش .

ويذكر المؤرخ الفرنسى (كلان) انهم ظفروا بأجزاء من الحجارة وقطع من الصوان هى بقايا متممة لنعش ما جاء فى حجر المسجد ، وجدت هذه الاجزاء بناحية جامع كتشاوة من العاصمة بالقرب من قصر

أحمد داى . ومضمونها ينص على أنه كان بهـــذا المكان معبد او هيكل شيده المسمى « لوسيـوس ابن اجيلوس » من ماله الخاص الذى تحصل عليـه مما ناله من التشريفات البلدية من وطنه ، وجعلـه وقفـــا .

ونعود الى المسجد فنقول : ان هذا الطراز الذى نشاهد عليه المسجد اليوم هو مرتكز على فـــن المعمار الاموى بالاندلس أو نقول هو فى هندستـه وتخطيطه هذا يرجع الى الطابع الاسبانى المغـربى كما تظهر عليه مسحة من جامع قرطبة فسماؤه مغطاة بسقف ـهى على عدد بلاطاته مـكونة من الخشب الرفيع ومغطاة بقرميد مسنم ذى أربع منحـــدرات وشكلها مثلث . ما عدا فناء المسجد وهو مربـــع وتبلغ مساحته نحو 200 ميترا فهو مكشوف غـــير مغطى يشبه فى وضعيته جامع القيروان بصفـــة مصغـــرة .

ولقد حصل هذا التشابه بين هذه المســـاجد المذكورة بسبب التمازج الذى وقع بين سكان المغرب والاندلس حينما اتحدت هذه الاقطار سياسيا وأدبيا واجتماعيا على عهد تينك الدولتين العظيمتين دولـة المرابطـين ودولة الموحديـن فى القـرن الخـامس والسادس على هذا الوطن .

ثم ان ما نرى عليه واجهة المحراب اليوم ما عدا الاسطوانتين القائمتين الى جانبى المحراب من الرخام الملولب فان كل ما نراه من الزليج الزائف وهـذه الطوابع المزخرفة من الجبس الفارغ كل ذلك حدث أخيرا واقحم فى هذه العمارة اقحاما من غير ما دعت الحاجة اليه بالمرة ، فانطمست علينا بذلك أهـــم معالم المحراب التاريخية وزال عنه جلاله وبهـاؤه وخسر بذلك المسجد فى نفسه جزءا عظيماً مـــن تاريخه ، كما خسر بذلـك فـن المعمـار الاسلامى خسارة علمية فنية ضخمة ! . . وان كان الذين فعلوا ذلك يرونه ـ فى نظرهم ـ حسناً فنحن لا نرى ذلك حسنا ، وما هو فى الحقيقة والواقع بحسن ، ولا هو فى نظر ورأى علماء التاريخ والآثار بالشىء المستحسن وحتى فيما ذهب اليه علماء الشريعة من فقهاء المالكية فانه عندهم عمل غير مرضى ، ولا ينبغى أن ننسى وان الجامع بنى على عهد دولة كانت تحترم مذهبهـــا المالكى وعليه تجرى جميع أعمالها ، ولاسيما وان هذه الناحية من المسجد لم تكن فى حاجة الى اصلاح أو ترميم او تحوير أو تغيير أو تبديل .

ولعمرك انه منذ وقع بهذا المحراب هذا التحوير وهو الى حد الآن لايزال رافعا عقيرته يصرخ قائلا بلسان حاله : يا قوم ما هذا الظلم ! . . انكم ظلمتمونى حيث البستمـونى لباسا يتنـافى وجلال وضعيـتى الاثرية التاريخية ، فكيف يكون شأنى أمام رواد العلم وطلاب المعرفة وعلماء التاريخ ؟ . . فكيف يتهيأ لى الوقوف منسجما الى جنب هذا المسجد العتيـق الموقر حينما يقف أمامى مستنطقو الآثار والاحجار الباحثون عن تراث الحضارة الاسلامية عبر التاريخ؟ وكيف يتسنى لى الاشهاد لأزكى دعوى هذا المسجد فى بلوغه سن مشارفة الالف سنة وأنا فى هـذا المظهر المزرى بقيمتى ومنزلتى التاريخية ـ مظهر الزازو ! . . ـ وكيف حتى أستطيع أن أتصدر هذا المسجد الجامع الدهرى ؟ أليس فى ذلك لى ولـكم فضيحة وسخافة ؟ ! أليس فى هذا الصنيع تلبيـس

للحقائق وتدليس وتشويه ؟ . . والحالة اننى لـم أكن من قبل عاريا حتى تكسونى ، ولا جائعـــا فتطعمــــونى ! . .

فان قيل ان لهذا المحراب تاريخا متأخرا ومتأخرا جدا عن تاريخ تشييد المسجد ، وانه هو وما حوله أو فوقه من القبة المثمنة الاضلاع يرجع تاريخــه الى العهد التركى ؟ قلنا نعم ذلك صحيح غير ان هذا العهد الذى عبرتم عنه بالمتأخر له من الزمن قرابـة ثلاثة قرون ، وهذا يكفى فى اصطلاح علماء الآثـار لان تشمله قوانين الآثار وتنطبق عليه شرائعهـا ، اذ من المتفق عليه فى القانون الدولى للآثار أن كل ما صنعته أو صورته أو شيدته أو أوجدته يـــد الانسان قبل مائتى سنة يعد أثرا تاريخيا يجـــب احترامه والحفاظ عليه ، بل هناك من الدول من اعتبر أن كل ما سبق القرن الثامن عشر هو مما يطلـــق اسم الاثر التاريخى وتجرى عليه أحكام الآثــــار وقوانينها المتفق عليها دوليا ، وبما أن ترميـــم هذا المحراب وقع فى أواخر القرن السابع عشر ، ونحن اليوم فى أواخر القرن العشرين فهو قطعـــا أثر تاريخى ولا ريب .

ولترميمه قصة تاريخية هى فى نفسها مفيـــدة تهم المؤرخ الجزائرى بالخصوص ، وذلك لمـــا نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فى نفسها هذه المدينة وكان يقودها (دوكيزن) فأرست تجـاه العاصمة ورمتها بقنابلها فسقط منها على عدة قنابل تسببت فى انهيار جدار القبلة بما حواه من المحراب وما اتصل به ، وحينئذ نقلت مكتبة الجامع الثريـة فحولت الى قلعة سلطان سى او قلعة سى المعروفة ببرج مولاى حسن ، وكان لوفرة عدد الكتب استغرق نقلها على الدواب مدة ثلاثة أيام بكمالها ، ومـــن المؤسف أن أكثر هذه النفائس من الكتب قد ضاع ولم يبق منها يوم نزول الفرنسيين بالجزائر سنة 1246 هـ / 1830 م سوى نحو الخمسمائة مجلـد ، وأما اليوم فلا تسأل ، فان هذه الاسفـار أصبحت أصفارا موصوفة عن الشمال ! .. ويومئذ تحتم وجوب القيام باصلاح المحراب وترميم المسجد وهذا أمـــر ضرورى وطبيعى ، واستمرت وضعية الجامع عـلى هذا الشكل طيلة ثلاثة قرون مضت لم يتغير فيه شىء ـ والحمد لله ـ الى هذه المدة المتأخرة فجـاء من حاول طمس معالمه بهذه القشور من طوابـــع الجبس المزيفة والزليج المتنافر الحديث الصنـــع فانمحى عنه المحراب رونقه واضمحلت بذلك قيمته الاثرية وتجافى عنه جلال التاريخ وهيبته ، وأصبح يحاكى ما استحدث من محاريب المساجد العصرية ، فأين المحافظة على التراث ياحماة الحى ؟ . . فان عملا كهذا ليعد طمسا للتاريخ وتلاعبا بالآثـــــار فواأسفـــاه ! . .

واذا التفتنا الى زاوية المسجد الشمالية وجدنـا بها امامنا بناية قائمة عظيمة تلك هى مئذنة المسجد. نراها باسقة فوق مثلث غير حقيقى ، وهى فى نفسها مربعة الشـــكل حسب الطراز الذىجـــرى عليـــه المهندسون من مشيدى المساجد بالمغرب والاندلس ويقرر علماء الآثار ان هذا الشكل من الطراز المربع الذى تقوم عليه المآذن بالمغرب انما هو مستعـار عن الابراج الاربعة التى كانت قائمة فى معبد دمشق قبل أن يبنى المسجد الاموى بداخله ، ولم يبق من هذه الابراج الآن الا واحد فى الزاوية الجنوبيـــة

الغربية وهو مستعمل للأذان .

هذا ولم يكن بمساجد المغرب العربى الكبير طيلة عبر القرون الاولى من الهجرة مآذن سوى مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان فهى أقدم صومعة فيما بقى من المآذن الاثرية ، لا فى المغرب فحسب، بل وحتى فى العالم الاسلامى اطلاقا . والمظنون أن مؤسسها هو حسان بن النعمان والى افريقية من قبل الامويين (73 ـ 86 هـ/692 ـ 705 م) ويقال انها بنيت على عهد هشام بن عبد الملك .

وتاريخ انشاء المآذن فى الاسلام يرجع الى عهد ولاية مسلمة بن مخلد الانصارى على مصر (47 هـ /667 م) حيث امر بابتناء منار المسجد العتيق جامع عمرو بن العاص ، فهو أول من أقام للاذان منارا وابتناه بالمسجد . . وأما المحراب فهو متأخر بعشرات السنين عن تأسيس المئذنة ؛ اذ يرجع تاريخ انشائه الى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز فهو أول من أحدث المحراب عند ما أعاد بناء المسجد النبوى بالمدينة المنورة سنة 88 هـ ـ706 م .

وترتفع صومعة الجامع الكبير عن مستوى الارض الى علو 15 ميترا وتنتهى بقبة صغيرة عليها تفافيح ثلاثة من نحاس معصبة شرفاتها العليا باحاطتها بأربع وعشرين كتفا مثل ما يحيط بأعالى أسوار المسجد ، ومزخرفة جهاتها الاربع من الخارج برسم اقواس ثلاثة على طريق النقش مضرسة مصنوعة باللبن ، تتوسطها نافذة للاضاءة من الجهتين احداهما بالشمال الغربى ، والاخرى بالجنوب الشمالى،وهناك فتح يتوسطها بالجنوب الغربى على شكل باب يؤدى الى سطح المسجد ، وهذه المئذنة متاخرة عن تاريخ تأسيس المسجد بقرنين ونصف ، اذ يرجع عهد بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجرى أيام الملوك الزيانيين من بنى عبد الواد بتلمسان ، وذلك ما يشهد به النقش المزبور على رخامة بيضاء مثبتة على الجدار القائم عن يمين الآخذ فى الصعود الى المئذنة متصلا ببابها ، واليك نص النقش المذكور وهو بخط اندلسى مغربى :

« بسم لله الرحمن الرحيم ، صلى الله على سيدنا محمد . لما تمم أمير المسلمين أبو تاشفين أيده الله ونصره منار الجزائر فى مدة أولها يوم الاحد السابع عشر من ذى القعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة وكان تمامها وكمالها فى غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة ، نادا المنار المذكور بلسان حاله الخالى : أى منار حاله فى الحسن كحالى

اقام امير المسلمين تفافحا
كساني بها حسنا وتمم بنياني
وقابلني بدر السما. وقال لى
عليك سلامى أيها القمر الثانى
فلا منظر يسبى النفوس كمنظرى
الا فانظروا حسنى وبهجة اركانى
فزاد الهى رفعة لمتممى
كما زاد فى شانى ورفع أركانى
ولا زال نصر الله حول لوائه
رفيقا له تال وحسنا له ثانى

وكثيرا ما نرى من يشتبه عليه لاول وهلة اسم مؤسس هذا المنار أبى تاشفين الزيانى بمؤسس المسجد أمير المرابطين يوسف بن تاشفين ، ومنهم العلامة الشيخ أبو راس فى كتابه الحلل السندسية

فانه جعل المسجد نفسه من مآثر أبى تاشفين الزيانى نفسه فقال فى سياق كلامه عن دولة بنى زيـــان « وأما الجـــزائر فـدخلت فى ملكهـــم أولا ، وان أبا تاشفين منهم لما أباد الثعالبة بنى الجـــامـع الاعظم بالجزائر ونقش اسمه فى صومعته » وهـذا خطأ بين ، فشتان ما بين أبى تاشفين وابن تاشفين فالاول وهو مؤسس المنار اسمه ابو تاشفين عبـد الرحمن بن أبى حمو موسى خامس سلاطين بنى عبد الواد الملوك الزيانيين بتلمسان ، نودى عليـــه سلطانا فى الثالث والعشرين من جمادى الاولى عام 718 هـ/23 جويلية 1318م وتوفى سنة 737 هـ/1337م وأما الثانى وهو مؤسس الجامع الكبير فاسمـــه يوسف بن تاشفين عاهل دولة المرابطين المتوفى سنة 500 هـ/1107 م ، وذاك عاصمته تلمسان وهذا عاصمته مراكش . وكان الباعث لهذا الاشتباه هو وجود اسم تاشفين فى كلا اسم الاميرين ، وكـلاهما كانت له يد فى اقامة هذه المؤسسة الجزائرية العظيمة

ولقد لفتت مساجد المرابطين اهتمام ملوك بنى عبد الواد الزيانيين واذكت مشاعرهم منها عـــلى الاخص المآذن فشاركوهم فى تشييدها والتنـويه بعمارتها . فنرى كلا من المئذنتين القائمتين الى اليوم بتلمسان او بالجزائر هما من صنع الزيانيين.فمئذنة جامع تلمسان هى من مآثر السلطان يغمراسن بن زيان أول ملوك بنى عبد الواد (633 ـ 681 هـ/1236 ـ 1283 م) ومئذنة الجزائر هى من عمل حفيـــده أبى تاشفين .

كما اننا نجد على سطح المنار مزولة ـ ساعـــة شمسية ـ من الرخام الابيض مربعة الشكل تعـرف بها الاوقات الزمنية وتضبط بها الاوقات الشرعيـة بطريق وقع ظل الخيط المرتبط بالقائم على حافـة المزولة المنحط ظله على الدرج المنقوشة على سطح المزولة ، ولا نشك فى أن هذه المزولة وضعـــت هناك مبنية ببناء الصومعة وذلك حسبما ترشد اليه تصميم البناء وتخطيط شكل المزولة ووضعيتهـــا فى مكانها المختص بها والمهيأ لها من أول يوم ، ورغم اهمال استعمال هذه المزولة اليوم فهـــى لاتزال صالحة للعمل بها والاستفادة منها لوضـوح رسومها وبروز نقوشها ولا ينقصها شىء سوى نصب العمود القائم الذى يربط فيه الخيط المتصـــل بارضية المزولة ، وهذا عمل بسيط لا يستلـــزم كبير عناء ، ويكفى فيه أن يصدر الاذن بالعمل بهـا ممن بيدهم الامر بوزارة التعليم الاصلى والشـؤون الدينية فتتم الفائدة .

ومن المؤسف أن يبقى أثر علمى نافع كهذا مهملا متروكا لا يؤبه به ولا يلتفت اليه ، فاين المحافظة على تراث الاجداد ، ولاسيما فى المجال العلـــمى والميدان الحضارى والتاريخى والدينى اولا وبالذات

وتحمل هذه المزولة كتابة منقوشة بالخط المغربى الاندلسى تشتمل على اسم واضعها وتاريخه ولكنها بسبب تعرضها الطويل لحوادث الطبيعة وتقلبـــات الجو وتداول تغير أحوال الطقس عليها من حـــر وقر محيت تلك النقوش وتعذر على القارىء قـــراءة ما فيها ، وهذا لا يمنع من امكان استعمالها فىضبط الاوقات الشرعية ومعرفة حصة الليل والنهـــار وتحديد حركة الشمس فى غاية ارتفاعها وشروقها

وغروبها وهي تعمل طيلة السنة على اختلاف الشهور والفصول فلا ينبغي أن تكون مهجورة .

ولقد عرف التاريخ العمل بهذه المزاول الشمسية منذ أحقاب وأحقاب فاثبت لنا وجود مثل هذه الآلة الزوالية منذ عهد الحضارة المصرية القديمة.واقدم مزولة عثر عليها بارض مصر يرجع تاريخها الى سنة 1500 ق م واصل المزولة هو أثر بابلي .

واما ما يحيط بالمنار من زخرفة الزليج الازرق والابيض كالعصابة فهو مما أدخل عليه حديثا أى منذ عهد أوائل الاحتلال فقط ؛ اذ يعود وضعه هناك الى جماعة من فرقة جيش (الجيني) من الجند الفرنسي الذي كان يحتل مخابىء ودهاليز الجامع الكبير فهؤلاء هم الذين اشتغلوا بتعصيب المنار بهذا الزليج سنة 1272 هـ/1856 م . كما انه يوجد بداخل المنار هذا حجرتان أولاهما بقرب مدخل المنار عن الشمال والثانية في آخر لوية من حلزون الدرج قبل الاخذ في الصعود لسطح المنار على السلم الاخير ، ولا شك ان لهذين الحجرتين وظيفة يقومان بها اقلها وقاية المؤذنين من أذى الحر والقر، واضرار الرياح والامطار الغزيرة كما انها في آن واحد يصلحان للانقطاع فيهما للعبادة والتبتل أو للدرس والتأمل .

واذا شئنا التعمق في استكمال دراسة فن المعمار عند المرابطين في تشييد الصوامع والمآذن أو المنارات فلننتقل الى أرض الاندلس لندرس ما تركته لنا نكبات الدهر وصروفه هناك من ذلك البرج الوحيد الذي بقي قائما بغرناطة وهو المعروف باسم (سان خوسية) وهو منار مسجد كان معروفا باسم جامع المرابطين ، والجامع هذا محطم اليوم وبنيت مكانه كنيسة ولم يبق منه الا هذا البرج المستعمل اليوم للاجراس ، فان صحت نسبته الى المرابطين فهو آخر منار بقي على وجه الارض منسوبا الى هذه الدولة ؟ . . وهو مربع الشكل طول ضلعه 3،85 ويدور درجه حول محور سمكه 41 م ونظام البناء فيه يقوم على نوع من القطع الحجرية المهذبة ملتصقة فيما بينها بالجص ، ونصفه الاعلى منسج بالآجر وينفذ من طاقات صغيرة ضوء خفيف، وتنفتح نحو الجنوب نافذة كبرى في صورة عقد على شكل حدوة الفرس مع امتداد يتجاوز نصف القطر . . . وهذا في الحقيقة وحده غير كاف لاعطاء فكرة في الموضوع .

ومن طريف التحف الفنية التي نجدها موضوعة على نشر مرتفع بسطح هذه المئذنة ذلك النبراس الفخم الجميل الصنع والوضع ، المستعمل للاعلام بدخول اوقات الصلواة الليلية وفي ليالي رمضان ليرى ضوءه مؤذنو مساجد العاصمة من أعلى الصوامع فيشرعوا في الأذان ، وذلك لان لهذا الجامع فضل وجود آلة المزولة به وعليها المعول في ضبط الاوقات الشرعية فيعتمد مؤذنو المساجد كعلامة أو اشارة تصدر من موقت الجامع أو باش موقت ليتحققوا من دخول الوقت .

لقد كان مكان هذا النبراس منذ العهد التركي القائم بميناء العاصمة القديم حيث مركزالاميرالية والادارة البحرية يستعمل لهداية السفن في ظلمات الليل والبحر الى موقع المدينة ومكان المرفأ ؛ ثم

استغنى عنه بصنع ما هو أضخم وأفخم ، وحينئذ جيء به الى مكانه هذا الموجود به الى الآن ؛ وهو مصنوع من نحاس أحمر وبرنز ولطول العهد تغير لونه الى ما يقرب من السواد .

وكيفما دخلنا الى هذا المسجد ومن أى باب أتيناه قابلنا فناؤه وهو مربع تقريبا تشتمل مساحته على نحو 200 ميترا وبه قبتان تظلان ميضاءتين للوضوء ، احداهماعن يمين باب الفوارة – النافورة – والثانية عن الشمال ، وهما وان كانتا متشابهتين فى شكلهما وظاهرهما ، فهما فى الحقيقة والواقع مختلفتان تماما من حيث التاريخ والصنع والمادة التى يقوم عليها حوض الوضوء . فالاصيلة القديمة هى التى عن يمين الباب ، وحوضها هو قطعة واحدة من خالص الرخام الابيض وقاعدته مزخرفة بنقوش منحوتة فيها ، ويرجع عهدها الى العهد التركى حسبما تهدى اليه قواعد الفن ؛ وأما الاخرى فهى مستحدثة أخيرا فقط قلد فيها وضعية الاولى وشكلها ، وتاريخها لا يزيد عن بضع سنوات مضت ، ومادة حوضها من الاسمنت ، زيدت للحاجة اليها كما زيدت فى هذه الايام الحنفيات الموجودة عند مدخل باب الجنينة .

وعلى ذكرنا لباب الفوارة الذى هو أحد أبواب الجامع نقول بانه كان لهذا المسجد يوم تأسيسه ستة أبواب رئيسية مصارعها من الخشب الرفيع ، أربعة منها بشماله الغربى واثنان بشماله الشرقى عليها طاق من الرخام الابيض ، ولكل منها اسم يعرف به ، فأولها بالنسبة للقادم من ساحة الشهداء وهى الناحية الجنوبية الغربية للمسجد يعرف (بباب الجنينة) وهو أشهر الابواب اليوم وأكثرها استعمالا ويليه (باب البواقل) ولفظة بواقل هى جمع (بوقال) مؤنثه (بوقالة) آنية تصنع من فخار للشرب وأصل الكلمة لاتينى استعمله العجم والاتراك وشاع استعماله فى اللغة العامية بالجزائر وسبب اضافة هذا الباب الى البواقل هو ما كان به مصطفا من أوانى الشرب العمومية ، ثم يلى هذا الباب (باب الفوارة) – النافورة – وهذا الباب يزيد على غيره من بقية أبواب المسجد بمصراعين كبيرين من الداخل ، وهما من الخشب المنقوش المزخرف بخطوط مشتبكة ، من نوع التشبيكات السداسية والثمانية والاشكال الهندسية المتعددة الاضلاع مما نجد مثله بمصراعى جامع العباد المرينى بتلمسان ولعله يكون من الزيادة التى زادها أبو الحسن المرينى بهذا المسجد ، كما أشار اليه ابن مرزوق الخطيب فى مسنده ومما يؤكد لنا هذا المعنى شدة الشبه بين هذين المصراعين ومصراعى النحاس اللذين هما موجودان بمسجد العباد الذى هو من مآثر هذا السلطان ؛ كما اننا نجد ما بين باب البواقل وباب الفوارة بابا مسدودا بمصراعية لا يحل ولا يفتح ، مكتوب على طاقة فى أعلاه بالخط النسخى المشتبك هذه الآية الكريمة : « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » س : الزمر ، آية 7 ؛ ثم يلى هذا الباب (باب الصومعة) وهو قريب من المئذنة . وبالناحية الشمالية الشرقية نجد (باب الطحطاحة) – أى البطحاء – وباب الجنائز وكلاهما مسدود اليوم واستعمل باب الفوارة مكان باب الجنائز ؛ وفى مكان باب الجنائز أقيمت مقصورة للباش حزاب – رئيس القراء – ويقابل هذين البابين من الناحية الجنوبية الغربية مدخلان يؤديان الى الصحن

المحيط بالمسجد من الجنوب الغربي الى الشرق ومثلهما مدخلان آخران في جدار القبلة ، احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال وقد زيد اليوم بينهما ثالث قرب مقصورة الخطيب ، وكلها تؤدي الى الصحن المذكور .

وهذا الصحن موضوع فوق اقبية كانت تستعمل في مصالح البحرية لحماية المدينة بحرا فحطمت من أثر ما تسلط على الجزائر وما واجهته من حروب بحرية ؛ فبهذا الاعتبار نستطيع أن نطلق على هذا المكان اسم الرباط ؛ فهو في آن واحد مسجد جامع ورباط .

ثم ان هذا الشباك الموجود اليوم من فوق السور الموازي لهذا الصحن الخارجي عن جدار القبلة ليس هو بالاصيل ، وانما اتخذ زينة لهذه الواجهة يوم زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية (لوبي) الجزائر في أفريل سنة 1903 م - 1321 هـ - ومثله في ذلك ما نجده بالواجهة الشمالية الغربية من هذا الرواق الجميل ذي الستة عشر قوسا مرفوعة فوق سواري غليظة من الرخام الابيض المزخرف فانه أيضا مستحدث في أواسط القرن الثالث عشر هـ (1252 هـ/1837 م) أي عند ما حطم جامع السيدة وهو بجواره جي، بهذه السواري وكذلك الحوض المرمري الاسود الذي يتوسطها فوضعت بهذا المكان وفرشت أرضيته بالفسيفساء وقد كان هذا الحوض كما ادركناه مشتملا على ثلاثة أحواض فسقط منها أعلاها وأهمل شأنه فاتلفت قطعه وذهبت أدراج الرياح حيث لم يكن هناك من يأبه له أو يعتني به .

دشن هذا الرواق بمحضر البرانس الفرنسي (دونومور) - ديسنبر 1837 م وجي، يوم تدشينه بمجموعة من مسكوكات متنوعة لهذه الدولة من ذهب وفضة وبرونز من ضرب سنة 1836 م وأضيف اليها صورة الملك (لويس فيليب الاول) وحرر في ذلك عرض حال مفصل وجعل الكل في جرة دفنت تحت سارية من هذه السواري بقيت مجهولة الى اليوم ؛ ونذكر من بين انقاض جامع السيدة هذا المنبر الرخامي الجميل القائم اليوم بالجامع الجديد ومنبره الاصلي هو المستعمل كسلم يصعد عليه الى سدة القراء بوسط المسجد .

على أن هناك من يذكر وانه قد سبق لهذه الواجهة الشمالية الغربية من الجامع الكبير قد سبق ان لحقتها ترميمات واصلاحات متعددة بسبب ما تسلط على المسجد من وقع قنابل الاعداء ولا سيما سنة 1682 و 1688 و 1732 م بحيث كثر غزو الاجانب واعتداؤهم على الجزائر .

ومما يشتمل عليه هذا المسجد من عناصر العمارة عنصر آخر مميز للفن الاسلامي ، ألا وهو بناية القبة ، فالقبة عرفها المسلمون منذ أن أقام عبد الملك بن مروان قبة الصخرة بالقدس الشريف (72 هـ/691 م) وكانت معروفة من قبل عند البيزنطيين والرومان ، وفي مسجدنا هذا نجد ستة قبب أربعة بداخله ، واثنان بخارجه ، أولها قبة المحراب المثمنة الاضلاع ومثلها قبة مقصورة المؤذنين ، وهما لاشك من العهد التركي ذلك أن قبة المرابطين الموجودة بجامع تلمسان تخالفهما تماما فلذلك أنا لا أتردد في نفيها عن الطراز المرابطي وكذلك قبة النافورة القديمة التي بفناء المسجد

فهى كذلك لا تعاصر المسجد . أما الاخرى التى بجانبها فقد قدمنا الكلام عنها وانها حدثت أخيرا فقط ؛ وأما ما بخارجه فقبة مقصورة المفتى وقبة المحكمة أقدمهما قبة المقصورة وهى تركية أيضا أما الاخرى فحديثة كما ذكرناه .

ولا يفوتنا ان نشير الى ما خلف جدار القبلة وراء المحراب من تلك الحجرة المستطيلة الشكل ذات البابين باب داخل المسجد عن شمال المحراب ومنه يخرج الخطيب يوم الجمعة وفى العيدين جعل تفاديا من تخطى الرقاب . وباب خارجى يؤدى الى الصحن المحيط بالجامع ؛ واذا نظرنا الى تصميم هذه الحجرة وجدناه أصيلا فى تشييد الجامع وبناية هيكله ، فسقف الحجرة منبسط من خشب يعلوه سطح من الجص على غرار سقف منازل دور حى القصبة بأعلى المدينة ، وكذلك جميع جوانب الحجرة

وبناء مثل هذه الحجر الملاصقة لجدار قبلة المسجد ليس بالامر الجديد فى تاريخ عمارة المساجد وبخاصة مساجد صدر الاسلام فهذه دار الامارة التى بناها سعد بن أبى وقاص بجامع الكوفة 17هـ بناها خلف جدار القبلة . ملاصقة للجدار وكذلك ما صنعه زياد بمسجد البصرة 53 هـ ومنه ما أمر به معاوية ابن أبى سفيان من اتخاذ المقاصر بالمساجد لما طعنه البرك بن عبد الله بسيفه . وهذا ما كان قد أمر به الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه خشية أن يقع له مثل ما وقع للخليفة قبله .

هذا واننا مع هذه البسطة التى قدمناها عن تاريخ المسجد الكبير من ناحية المعمار والتاريخ فاننا مع ذلك مدينون الى ما يحتوى عليه من الاثاث وأهم ما هنالك كله منبره ، فهو ياقوتته الوهاجة والزمردة اليتيمة فى هذا الجامع ذلك المنبر الضخم المسدول عليه حجاب حجرته الخاصة به عن يمين المحراب ؛ هذا المحراب اليوم يعد ذخيرة من أنفس الذخائر التى تركها لنا الاجداد فهو أقدم منابر الاسلام باستثناء منبر جامع القيروان ولا يعلم له نضير سوى ما بجامع القرويين بفاس وما أشبهه بجامع الكتبيين بمراكش . ولا يعاصره الا هذه الاجزاء المتفرقة من منبر جامع ندرومة الموجود بعضها بالمتحف الوطنى للآثار بالعاصمة ؛ ويرجع تاريخ منبر الجامع الكبير الى أوائل القرن الخامس الهجرى حسب ما هو مزبور بالنقش البارز وبالخط الكوفى المتشابك على خشبتى جانبى مدخله وبأعلاه أيضا ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة (سبع) واربعمائة عمل محمد ، وكان لطول العهد وتراكم الاصباغ عليه واختلاف مواد الصبغة وألوانها مع عدم الاعتناء التام وقلة المبالات بشأنه ان لحق بهذا النقش بعض الغموض، على كثير من علماء الآثار وغيرهم قراءة كلمة (سبع) الواردة فى النص ، فمنهم من قرأها سبع بالباء الموحدة بعد السين . ومنهم من قرأها بالتاء المثنات من فوق قبل السين،ومنهم من قرأها تسعين ؟ وكيفما كان الامر فلا يخرج تاريخ المنبر هذا عن القرن الخامس الهجرى . سواء أكان ذلك فى أوائل القرن أم فى آخره ، وجزم العلامة الاثرى (مانويل‌جوميث مورينو) بأنه سنة تسعين (1097 م) وانه من مآثر يوسف بن تاشفين حيث قال : «وأول عمل فنى قام

به يوسف بن تاشفين فيما نعلم منبر المسجد الجامع بالجزائر . . . » نرجو ممن بيدهم الامر أن يعتنوا بهذه الدرة اليتيمة حتى لا يلقها أذى أو يتسرع اليها البلى .

والمنبر هذا مصنوع من خشب الارز الصلب وأجزاؤه تناهز 120 قطعة وبسبب التآكل والفناء لم يبق منها الا نحو 48 قطعة أصيلة موضوعة في ايطار ما بين مربع ومثلث ومنحرف ، وكل ما عداها فهو مما استحدث في ترميمه ، وقوام زخرفته ترجع الى نوع (الارابيسك) أي حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة مزينة بخرص من الزهيرات واشجار منحوسة تمثل نبات أوراق الكرم والاقنثا وتزاويق ملونة في أسلوب مغربي أندلسي محظ لا شائبة فيه لفن أجنبي أو حضارة أجنبية أخرى عنه أبدا ، وهو ما يذكرنا بما عليه زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وما نجده أيضا في قصبة

ملقة من أرض الاندلس ، وكلها مغروزة في المنبر ومنقوشة بكيفية بنائية تخالها ركيزة للمنبر ، وهو في زخرفته هذه يمثل لنا الفترة الانتقالية التي تربط المشرق بالمغرب .

وتتميما للفائدة واستكمالا لتاريخ هذا المسجد نذكر على سبيل الاجمال ما كان به من السدنة والموظفين ، فقد كان يبلغ عددهم سبعة وستين موظفا وهم كما يلي : مفتي وامامان ، وتسعة عشر مدرسا،وثمانية عشر مؤذنا وثمانية حزابين ـ قراء ـ واربعة رجال الحضور ـ قراء صحيح البخاري ـ وثلاثة وكلاء لما كان له من الاوقاف والاحباس ، وثمانية منضفون ، وثلاثة موقدي المصابيح ، وواحد لحمل عصا الخطيب ، وبهذا المسجد كان ينعقد المجلس الشرعي الاعلى للنظر في النوازل والاحكام الشرعية التي تجري بين يدي القضاة ، واعضاء سبعة رئيس وهو المفتي الحنفي وكانت الرئاسة لهذا بحسب انه يمثل مذهب الحكومة التركية ، والمفتي المالكي ، والقاضيان حنفي ومالكي وباش عدل ، وعدل مكاتب وآخر يمثل السلطة الحاكمة .

ولقد حمل هذا المسجد رسالة الاسلام قرابة الف سنة فتخرج منه جمهور من العلماء والادباء وانصار دين الله وحماة الحق وذادته حملوا مشعل الثقافة الاسلامية بهذه الديار ، فكان بذلك خير سلف لهذا الخلف ، وما اجدر بهذا الخلف ان يعمل على ضوء قول القائل :

نبني كما كانت اوائلنا
تبني ونصنع فوق ما صنعوا

عبد الرحمن الجيلالي

مراجع البحث :

تاريخ الجزائر العام ج 1 عبد الرحمن الجيلالي ط الجزائر 1971 م

الترجمانة الكبرى للزياني ط المغرب الاقصى 1967 م

المسالك والممالك عبد الله البكري ط الجزائر 1911 م

الفن الاسلامي في اسبانيا (معرب) مانويل جوميث مورينو ط القاهرة

عز الاوطان

إذا ما رمت للأوطان عـــزا

فجد بالنفس واستبق الفداء

وان حمل الخصوم عليك يوما

فقم لنضالهم وخض الدماء

ألم تر (جعفر) قطعت يـداه

بحرب الروم فاحتضن اللـواء

وقدم نفسه للموت سمحـا

فنال بها الشهـادة والثنـاء

من ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

أبو راس المعسكري وتاريخ مدينة الجزائر

رابح بونار

لقد كان عصر ابى راس المعسكرى عصر تدهور وانحطاط فى الآداب والعلوم. كما كان عصر اضطراب سياسى واجتماعى ، وقد استطاع أبو راس بفضل موهبته وعبقريته أن يرتفع عن مستوى عصره الفكرى ، وأن يعيد للدراسات العلمية الفقهية واللغوية مجدها وجلالها ، كما تشهد بذلك مؤلفاته الكثيرة ، وتؤكده شهادات معاصريه من العلماء.

وقد حملنا هذا على ان نخصه بهذه الترجمة القصيرة وأن ننشر نبذته التاريخية حول مدينة الجزائر بمناسبة ذكراها الالفية .

ترجمتـــــه :

ابو راس هو محمد بن احمد بن ناصر الراشدى المعسكرى (1) وقد ولد فى اوائل النصف الثانى من القرن الثانى عشـر الهجرى ، ودرس فى صغره بمعسكر ومازونة على علماء عصره ، ومنهم العلامة المشرفى ، ثم ارتحل الى تونس ومصر واخذ فيهما عن علمائهما كالعالم الاديب الشاعر ابراهيم الرياحى ، والشيخ مرتضى الزبيدى والشرقاوى ، واجازوه ، ووصفوه باوصـــــاف علمية رفيعــــة .

ثم عاد من المشرق الى بلاده بعد ان استوعب دراســـــات عصره ، واحاط بالمذاهب الاربعة ثم تخصص فى المـــذهب المالكى ، وتعمق فى دراسة مختصــر خليل بن اسحاق الـذى اختصر مسائلــه واستوعبها ، ثم انتصب للتدريس وافـــادة الطلاب ، وقد بلـغ عدد طلابـه المئـــات .

ولم يشغله التدريس عن التاليف ، بل الف كتبا عــديدة تزيد على خمســـين كتابا (2) منها :

1 ـ لب افياخى فى ذكر اشياخى
2 ـ والسيف المنتضى فيما رويته باسانيد المرتضى
3 ـ وتخريج احاديث دلائل الخـيرات
4 ـ ودار السحابة ، فيمن دخل المغرب من الصحابة
5 ـ والزمردة الوردية فى الملوك السعدية
6 ـ ومروج الذهب فى نبـذة من النسب
7 ـ وتفسير القـرآن الكريم
8 ـ وحاشيــة الخــرشى
9 ـ وحاشية المــكودى
10 ـ وشـــرح العقيقــة
11 ـ والحاوى بين التصوف والتوحيد والفتاوى
12 ـ وحاشيـــة على السعــد
13 ـ وشـرح مقامات الحـــريرى
14 ـ ودر، الشقـــاوة فى حرب درقـــاوة
16 ـ وذيل القرطاس فى ملوك بنى وطـــاس

وغير ذلك من كتبه الكثــرة .

واهم هذه الكتب فى رايى كتبه التاريخية وهى ذات فائدة كبيرة قد لا يعدله فى ذلك الا الزيانى صاحب الترجمانة الكبرى مع تفوقه عليه فى الحفظ والتوفيق . ومن هذه الكتب كتابـــه

ذيل روض القرطاس وقد تناول فيه تاريخ المغرب من القـــرن الثامن الى اوائل القرن الثالث عشر الهجرى . وهو كتاب هـــام لا نعرف عنه الا اسمــــه .

وكذلك كتابه الزمردة الوردية فى الملوك السعديـة ، وهـــو كتاب يتناول تاريخ الملوك السعديين بالمغرب ، وموضوعـــه هام والفترة التى تناولها بالتدوين قليلة المصادر وهذا مـــا يسبغ على كتابه اهمية بالغة وهو مثل سابقه مخطوط لا نعـرف عنه الا اسمه .

واخيرا ياتى كتابه شرح نفسية الجمان فى فتح مدينة وهران ، وهذا الكتاب رغم تخصيصه بمدح محمد باى الكبير،وتسجيل مآتيه الحربية فى فتح وهران وافتكاكها من يد الاسبان ، اواخر القـرن الثامن عشر الميلادى فانه يتناول احداثا كثيرة بالشرح والتعليق ويؤرخ لوقائع مختلفة تتناول تاريخ القطر الجزائرى عامة .

ومن هذه الاسطرادات ما ذكره حول تاريخ الجزائر .

وقد عمد احد المعجبين به الى جمع هذه النبذة واخرجها من الكتاب المذكور لتكون خلاصـة تاريخية خاصة « بالجـــزائر » وجامع هذه النبذة غـير معروف ، وقد جمعها بعد وفاة مؤلفها ابى راس بسنة واحدة اعنى سنة 1823 م

واما ابو راس فقد توفى سنة 1238 هـ ت 1822 م وتضم هذه النبذة معلومات هامة عن مدينة الجزائر والدول التى تعاقبت عليها

وسيجد فيها القراء فوائد ومعلومات عن الجزائر والقطر كله لا يجدونها فى غيرها من المراجع المختلفة مع الايجاز ومن حســن الصدف ان تنشر هـذه النبـذة فى وقتها المناسب وهو الذكرى الالفية لمدينة الجزائر ليجمع الاحتفال بالمدينة بين شرف ما كتبه عنها مؤرخونا القدماء ، وما يكتبه عنها كتابنا المحدثون وفى ذلك ـ لاشك ـ تقدير كبير ، واحتفاء بالغ بهذه العاصمة التـاريخية الجليلة .

1) الحفناوى : تعريف الخلف ج 2 ص 332
2) الكتانى : فهرس الفهارس ج 1 ص 105

هذ نبذة اخرجت من تاليف الشيخ ابى راس سيدى محمد بن احمد بن عبد القادر الناصرى الغريسى نسبا رحمه الله فى تاريخ الجزائر 1238 هـ / 1823 م

مدينة الجزائر

الجزائر علم على مدينة عظيمة على شاطىء البحر بنتها ملوك صنهاجة ، ومر لنا تاريخ بنائها ، واسم بانيها وغير ذلك ، فانظر ان شئت فى شرح قولى متى ازالهم عنه يوسف الخ . ولم تزل فى طاعة بنى بلكين من صنهاجة ملوك اشير ، والقيروان ، الى ان تغلب ابن عمهم حماد (1) على جبل كتامة ، وبنى القلعة المارة الذكر ، وكثر جنوده وخفقت بنوده ، واستولى على باجة وبجاية ودلس ونحوهم ، وكانت الجزائر من جملة أعماله ، ثم زحف اليه باديس بن المنصور (2) بن بلكين بن زيرى بن مناد فهزمه من مجانة الى وادى شلف ، ونزع اليه عامة عسكره ، ثم رجع جادا السير الى قلعته ، وباديس فى اثره وحاصره الى أن هلك ، وبويع ابن باديس وهو المعز (3) ابن ثمان سنين ، فاتفق مع حماد ، وعاد ملك الجزائر له ولما هلك ولى ابنه القايد وزحف اليه ابن زيرى بن عطية المغراوى فصالحه القايد ايضا ، وبقى على ملكه بالقلعة والمدية والجزائر الى تخوم مغراوة ، وتحت حكمه وعلى امره الى ان هلك سنة ستة واربعين واربعمائة ، وولى مكانه ابنه محسن ثم قام فيهم الناصر بن علناس بن حماد فبنى جبل اللؤلؤة ببجاية من اعظم قصـــور الدنيـــا فى حدود **سبعين واربعمائة** قال ابن خلدون فى بعض كلامه على المغرب الاوسط : بجاية اختطها النـــاصر بن علناس ، ثم لما مات الناصر ولى ابنه المنصور .

بنو حماد والمرابطون

ولما استولى يوسف بن تاشفين على تلمســـان وغلب عليها اولاد يحيى الافرينى سنة اربع وسبعين (4) وانزلها محمد (5) بن تينعمر المسوفى ونازل بلاد صنهاجة كالجزائر ونحوها زحف اليه المنصور (6) وخرب ثغوره ، وحصون ماخوخ ، وضيق عليه فصالحه يوسف ، وانقبضت يد المرابطين عن بلاد صنهاجة ، والمنصور هذا هو الذى وقعت حروب بينه وبين ماخوخ انجلت عن قتل ماخوخ ، ولحق ابنه بتلمسان مستصرخا بابن تينعمر فزحفا الى الجزائر وحصروها يومين فمات ابن تينعمر ، وولى يوسف ابن تاشفين مكانه اخاه تاشفين بن تينعمر ففتح اشير والجزائر ورجع الى تلمسان .

ثم ان المنصور زحف من بجاية بأمم المشرق الى تلمسان ، ونزل وادى الصفصيف ، فلقيه تاشفين

---

(1) حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية ، اعلن استقلاله عن بني زيري سنة 405 هـ — 1014 م ودام في الملك الى سنة 419 هـ — 1028 م راجع تاريخ الجزائر للميلي ص 135

(2) باديس هو رابع ملوك بني زيرى ، وكان شجاعا جواد محسنا ثار عليه حماد فحاربه وحاصره بالقلعة ومات في اثناء حصاره له سنة 406 هـ — 1015 م

(3) هو المعز بن باديس تولى الملك بعد ابيه باديس سنة 406 وتوفي سنة 454 هـ — 1062 م وبلى بفتنة الهلاليين

(4) اي سنة 574 هـ — 1178 م ويوسف ابن تاشفين هو اشهر الملوك المرابطين توفى بمراكش سنة 500 هـ — 1106 م وقد فتح تلمسان سنة 572 هـ — 1176 م وفتح الاندلس وغيرها ووصل في فتوحاته الى مدينة الجزائر

(5) صوابة تينعمر كما جاء في مراجع مختلفة (6) المنصور هو الملك الحمادى السادس تولى الملك سنة 481 هـ — 1088 م وتوفى سنة 498 هـ — 1104 م

بجنوده ، فانهزم تاشفين ولجا الى جبل الصخرة ، وعاثت عساكر المنصور بتلمسان ، فخرجت اليه حواء زوجة تاشفين اميرهم متوسلة له بوسايل القرابة الصنهاجية التى بينهم ، فاكرم مثواها ، ورجع الى القلعة ، وتقدم على المنصور معز الدولة بن صمادح من المرية ، لما هلك الاندلس يوسف ابن تاشفين فاقطعه دلس ، وانزله بها ، ولما هلك سنة ثمان وتسعين واربعمائة ولى ابنه باديس ، وكان عظيم البطش ، شديد الباس ، ثم ولى أخوه العزيز 7 وتزوج بنت ماخوخ ، وطال أمد ملكه ، وكان العلماء يتناظرون فى مجلسه ، ونزلت جربة على حكمه ، وتونس ، وسكنت العرب فى ايامه القلعة ، وفى ايامه وصل المهدى بن تومرت الى بجاية قافلا من المشرق سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وغير المنكر بها ، فسعى به عند العزيز فخرج الى بنى ورباكل ، وقام فيهم يدرس العلم ، وطلبه العزيز فمنعوه ، وقاتلوا دونه الى ان رحل الى المغرب ، وهلك العزيز سنة خمسة عشر وخمسمائة ، فولى بعده ابنه يحيى وهو الذى اتخذ السكة من ملوكهم ، وكان ديناره مكتوبا فيه ثلاثة اسطر ودائرة فى كل وجه ، فدايرة الوجه الواحد : واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله الى لا يظلمون ، والسطور لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، يعتصم بحبل الله : يحيى بن العزيز بالله الامير المنصور ، ودايرة الوجه الاخر بعد البسملة ضرب هذا الدينار بالناصرية سنة ثلاث واربعين

وخمسمائة ، وفى سطوره الامام المقتفى لامر الله ابو عبد الله امير المومنين العباس وكان مشتغلا باللهو والصيد والنساء ، لما ادبرت الايام عن قبائل صنهاجة ، وكان عامله على الجزائر اخوه القايد بن العزيز بن المنصور ولما فشل ريح بنى عمه أولاد باديس بأفريقية وضايقهم جرجيس بن منخايل (8) احد رؤساء الكفرة (حكام صقلية) بعث يحيى بالاساطيل فى البحر ، واتى بالحسن آخر ملوك افريقية من بنى عمه ، وانزله بالجزائر مع اخيه القايد وسبب غزو الكفرة لثغره ان على بن يوسفبنتاشفين اغزى محمدبنميمون صقلية وفتحقريةمنها وسبا اهلها فلم يشك طاغيتهم روجار أن ذلك باملاء الحسن ، فجهز ثلاثمائة مركب وامر عليها جرجيس المذكور ، وفيهم عدد كثير من النصرانية فيهم الف فارس فملكوا قصر الدماس ثم رجعوا الى صقلية بعد ان استحر القتل فيهم ، ولما زحف **الموحدون للجزائر فر منها القايد** اخو يحيى فقدم اهل الجزائر الحسن المذكور على انفسهم ، ولقى عبد المومن فأمنهم ، وصبح ببجاية من الغد ، فزحف اليه يحيى ، فانهزم وملك عبد المؤمن بجاية ، وذهب يحيى الى اخيه الحارث ببونة لما لم يجد السبيل الى بغداد ، ثم ذهب الى قسنطينة ، فنزل على اخيه الحسن فخلى له الامر ، ثمبايع يحيىلعبد المؤمن سنة سبع واربعين 9 ، ونقله الى مراكش فسكنها ، ثم انتقل الى سلا فسكن قصر بنى عشر (10) وهو آخر ملوك صنهاجة بالقلعة

(7) الامير العزيز تولى الملك سنة 498 هـ — 1104 م توفى سنة 515 هـ — 1211 م
(8) يعنى به القايد النوماذدى بصقلية وقد استطاع ان يحتل شواطىء تونس ومنها مدينة المهدية
(9) يعنى سنة 527 هـ — 1152 م
10 هكذا ورد فى الاصل مطموسا

وبجاية والجزائر ، وانقطـــع ملكهم الى الان ، بل عفارسمهم ، وخمل ذكرهم ، وانغمروا فى الناس فلا يعرفون وكذا بنو عمهم ملوك افريقية .

غريبة :

غريبة ولم سمى هـــذا القصر بســـلا قصر بنى العشرة ان امراة وضعت عشرة أولاد ببطن واحد ، فجعلهم أبوهم على مائدة ، وذهب بهم الى الامير فأعطاهم الف دينار ، يبنى لهم ابوهم عشرة دورا . انظر بعض شروح الفرائض ولما كان زمن السلطان البانى لهم الدور فيه ، تناقض مع زمن سكنى يحيى بها لم نذكره ، والله اعلم .

الجزائر تحت حكم الموحدين

ثم انتظمت الجزائـــــر فى ملك الموحدين (11) كغيرهــــــا من المغربين بـــــل والمغـــــرب الادنى ايضا ، لانهم ملكوا طرابلس مرات وتونس اكثر ايامهم ، وأول خلفائهم ، ثم لما ركد ريحهم ، ودخل الهرم دولتهم سنة الله التى قد خلت من قبل أستقل ابو زكريـــاء الحفصى من الموحدين بولايتـــه افريقية لما بلغه ان المامون احد ملوك بنى عبد المؤمن غير معالم شيخهم المهدى ، وغير ضرب الدرهم المربع الذى يعرف عندنا بالدرهم المؤمنى الذى هو مكتوب فيه كما هو مشاهد الى الان : اللـــه ربنا ومحمد نبينا والمهدى امامنا ، وقطع اســـمهم من الخطبة واثبت ذكره بعد ذكر الامام المهدى بن تومرت مقتصرا على لفظ الامير فقط ، ورفع اليه بعض شعرائه بيتا وهو « صل امير المؤمنين فا : نت أحق بها فى العالمين » ، فابى عن ذلك الى آخر دولته ، ودخلت الجزائر فى ملكه ، وتلمسان والزاب وغيرهم ، وتداولها بنوه الى أن تضعضعوا وشردهم الداعـــى بن ابى عمـــارة وبسببه افترقت كلمتهم كما هو شان الدنيا .

الجزائر تحت حكم بنى عبد الواد

وطمـــع فى الجـــــزائر بنو عبد الـــــواد فغزاهـــــا السلطـــــان ابـــــو حمو موسى (12) بن عثمان بن يغمراسن من اعيان ملوكهم لما سمع بأبن علان تغلب عليها فى حدود سنة خمسة وسبعمائة ولما خلاله الجوبفتنة محمد ابن ابى عصيدة سلطان تونس ، وابى زكرياء الاوسط سلطان بجاية فاخذها منه فى سنة أحدى عشر وسبعمائة على يد قائد حروبه ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن وكان ذلك اى اخذها ايام السلطان ابى اللحيان من ملوك تونس ، ولما حضر يوسف بن يعقوب المرينى تلمسان فى القرن الثامن ، كان ابو زكرياء صاحب بجاية مظاهرا لعثمان بن يغمراسن والسلطان محمد بن أبى عصيدة سطان تونس وتلميذ ومحضـــــون الولى الصالح ابى محمد المرجانى فى حصار تلمسان (13) فبعث لهم كتائب بنى مرين ، فأوقع بهم وهزمهم ثم ان ابا عصيدة صاحب تونس ، بعث الى يوسف يغريه بغزو بجاية فسرح يوسف العساكر لنظر اخيه أبى يحيى . فضايقوا بجاية وعاثوا فى تلك الجهات ، ثم انقلبوا الى يوسف ، وهو معسكر على تلمسان وفى سنة ثلاث وسبعمائة ارسل محمد بن أبى عصيدة هدية ضخمة الى يوسف اغرب فيها بسرج وسيف

(11) قام لمك الموحدين سنة 515 وسقطت دولتهم 668 هـ ـ 1269م وخرجت عنهم الجزائر سنة 633 هـ ـ 1235 م

(12) تولى ابو حمو موسي الأول الملك سنة 707 هـ ـ وقتل سنة 718 هـ ـ 1318 م ومن اثاره بناء قصر على وادي نهل قرب مارونة وتاسيس مدينة اقبو (تاريخ الجزائر للميلى م ص 261)

(13) العبارة فيها غموض ويريد بها ابو رأس ان ابا زكرياء كان مواليا لتلمسان وان ابا عصيدة كان منابذا لها ومساعدا للمرنيين على فتحها

ومهامز مرصعة بالياقوت والجوهر ، مع رئيس الموحدين ابى عبد الله بن اكمازين ، ورجع بهدية ضخمة من عند يوسف بن يعقوب ، كان من جملتها ثلاثمائة بغل . وفى أيام ابن ابى عصيدة قتل علماء تونس هداج بن الكعوب بسبب اهانته المسجد ، فانه دخله بأخفافه فقيل له فى ذلك ، فقال هكذا والله دخلت بها على السلاطين ، فقتل فى بعض زقاق تونس بأمر أبى عصيدة ، وقد ذكره الونشريسى فى كتابه المعيار قلت وهداج هذا هو ابن عبيد بن احمد ابن كعب من بطون سليم ، وقومه يقال لهم الكعوب مشهورون بأرض افريقية ، وهو اذ ذاك سيدهم واستمرت الجزائر فى طاعة بنى عبد الواد ملوك تلمسان من سنة احدى عشر الى ان استولى ابو الحسن المرينى عليها ، وعلى افريقية وطرابلس سنة ثمان واربعين وسبعمائة ، وكان دوخ تلمسان قبل ذلك فكانت لدولته أذل ، ولامره أطوع . ولما جرت بأبى الحسن الوقعة المشهورة بالقيروان (739 هـ) ، واستقل ابنه ابو عثمان فارس بملك المغرب راجع بنو عبد الواد ملكهم ، واستقلت قد مهم بعد عثمان . وقد دخل ابو الحسن الجزائر ، وجمع جموعا وزحف لتلمسان ، وكان المصاف للقتال بتاسالة فكانت على أبى الحسن . وقتل ابنه الناصر ، وخلصه وانزمار السويدى الى جبل الصامدة بازاء مراكش . وتزاحف مع ابنه أبى عنسان حتى مرض ومات سنة اثنين وخمسين وسبعمائة (752 هـ — 1351 م) فى جبل عبد العزيز بن محمد الهنتاتى الذى أجاره وناصره وقاتل معه ولده ، وكان عنده فى غاية الرفعة ، وتحفظ به فى مرضه وقام بمرونته ، وجعله فوق اعواد نعشه ، وبعثه الى السطان ابى عنان ابنه ، فلقى النعش باكيا راجلا حافيا منكبا من مصيبته ، وهو يقبل الارض بين يدى جنازته ، وعفا عن عبد العزيز واحسن اليه فكان له بعد ذلك يد عليه . ثم ان ابا عنان لما استقام له المغرب زحف الى تلمسان ففتك بهم واستلحهم حتى كاد ان يستأصلهم وذلك فى سنة ثلاث وخمسين من القرن الثامن (753 هـ — 1352 م) واستولى على المغرب الاوسط ، فكانت الجزائر له طوع اليد وولى عليها عاملا ، وبعث الى ابى عبد الله الذى ملك بجاية من الحفصيين يقيم الرصد على بنى عبد الواد ، فبعث العيون ، فعثروا على محمد بن سلطانهم أبى سعيد بن عثمان بن عبد الرحمان ، وعلى ابى ثابت اخيه ، وعلى وزيرهم ابن داوود فأوثقهم ، ثم بعث بهم الى ابى عنان فسألوا عن أبى ثابت بعد قتل ابى سعيد ليميزوه من يحيى بن داوود ، لعدم معرفتهم له فقال الوزير انا ابو ثابت وهذا يحيى فقتلوا الوزير (14) وخلوا عن ابى ثابت فجاد يحيى بنفسه لنجاة الامير ، وهذا أمر غريب لم اطلع على مثله الا في قضية كعب بن امامة لما اثر بالماء غيره ، ومات عطشا وبقيت تلمسان خرابا مدة سنين ، وكان رجل يقال له موسى بن صالح مشهور بالكهانة عنده علم من الحدثان يقال ان تلمسان يحرثها غلام اسود على ثور اسود فحرثت على هذه الصفة بسبب هذه الواقعة سنة ستين او احدى وستين (15) وكانت هذه تلمسان الجديدة يقال لها تكرارت ومعناها المعسكر ، لان عسكر يوسف بن

(14) هذا خبر غريب مخالف لما هو معروف من ان ابا ثابت عرف واخذ وقتل ولم يقتل احد مكانه

(15) ان تخريب تلمسان على يد ابى عنان انما كان عقب احتلاله لها سنة 753 هـ ومات قبل سنة 760 هـ واما ما اثبته هنا ابو راس فهو منه

تاشفين نزل هناك ، وقد بنى لهم موضع مشور ابو حمو المشهور الى الان فصار اهل المدينة ينتقلون حتى دثرت القديمة بسبب انشاء الجديدة ، ولما مات ابو عنان عادت دولة بنى زيان بمجد ملكهم وواسطة عقدهم السلطان ابى ثابت المتقدم وراجع ملكـــه . ومن جملته الجزائر والحاصل أن الجزائر كان ملوك تلمسان ، وملوك افريقية يتداولون عليها ، فتكون لمن غلب عليها ومرة يتغلب عليها بعض مشايخها الى ان دخلها ملوك الاتـــراك سنة خمســـة عشر وتسعمائة (915 هـ)

داخل الفقيه الاعظم العلامة الاكرم سيدى احمد بن القاضى احد اباء المغارسة ملوك الزيانيين بتلمسان فى شأنه وأشار اليهم بحرمه ومناجزته وكان هذا العالم من اهل مجاجة (16) وقد ذكر صاحب الدرر المكنونة فى نوازل مازونة فى نوازل النكاح وما يتعلق به وبنوه واخوته وقومه وهم الذين آووا ـــ الشيخ على ابهلول الوطاسى واخذوا عنه العلم الظـــاهر والباطن ووقفوا عليه الاوقاف وبعد موته رضي الله عنه خلفه ابنه الشيخ محمد بن على والشيخ ابو على فكان الشيخ عبد الرحمان بن عبد القادر صاحب المغارسة احد تلامذتهما نفعنا الله بهم اجمعـــين ، فكان الشيخ من اكابر رؤســـاء تلك الارض واكثر اغراء (17) بنى زيان بخير الدين فلم ينجح له شيء لان أمر بنى زيان قد ولى الادبار وضعف ملكهم وتقلص ظلمهم لا سيما وقد اخذت من اعمالهم وهران يومئذ وكان بذلك العصر فى تلك الارض علماء اعلام وفقهاء عظام منهم من ذكرنا وغيرهم كالامام المغيلى المدفون بتلمسان والونشريس صاب المعيار المدفون بفاس وابى عبد الله المغراوى وقد بنى له بحافة شلف قبتان وقبلهم من اهل التاسع سيدى احمد المريض مستوطن احد مداشر وانشريس وكان معاصرا لابن عرفه وقبله من اهل السابع ابو العباس احمد المليانى كان صاحب فقه ورواية وقد ذكره فى المعيار وكذا ذكره صاحب الدرر وقد انتهت اليه فى عصره رياسة الشورى بالمغرب الاوسط وكان ابنه ابو على خلو من ذلك منهمكا فى الرياسة فلما راى فتن مغراوة مع يغمراسن استولى على مليانة وبويع له بها فجهز اليه المنتصر سلطان تونس جيشا لنظر اخيه الامير ففتح مليانـــة عنوة ، وفر ابو على للعطاف ، وعقد لبنى منديل على مليانة وقد كان قبلهم بنوورسيفن منهم مســـكنهم الباديـــة والامـــام المـــازونى المـــذكـــور هو الذى جعل كتابا فى نسائب (18) قبائل اهل المغرب الاوسط ، وقد ذكر فيه أن المحال اهل البطحاء من هلال ، كما قال ابن خلدون وأن الذين يقال لهم المضارب كبنى دقيش وبنى حميرة العبد ، وبنى هداج من بنى مخزوم ، من ذرية صعصعة بن حارثة ومن ذرية هشام بن اسماعيل المخزومى وقد اجمل ابن خلدون والمشاهد الان من اقرار المحـــال

(16) هناك من يذهب الى أن احمد بن القاضي المعز هو الذى ينتسب الى جرجرة وكانت له امارة بكوكو القريبة من عين الحمـــام اوميشلي
(17) هكذا بالاصل ولعل صوابه واكثر غزو لبنى زيان (17) بياض بالاصل
(18) هكذا بالاصل والاصوب انساب بدل نسائب

للمضارب بالسيادة والتعليم والتسليم لهم يشهد للمازونى ، وقد كان قبل تلاشى أمرهم وركود ريحهم لا يزوجون بناتهم للمحال مع ان المحال لا يتوهمون ذلك ، ولا يطمعون فيه ، تعظيما لهم وقد اخذ ذلك عن آبائهم ومن المضارب نفر قبيلة الشكالة ونفر باولاد فارس ونفر باولاد سلى وكلهم درس ذكرهم ، وعفت مراسمهم وقد يقال ان الولى الصالح سيدى الناصر بن عبد الرحمان المدفون بالصحراء بالواد المشهور من بنى مخزوم والله أعلم بذلك ، ولنرجع الى ما خرجنا عنه ، ثم ان خير الدين نافسه ايضا محمد بن على من رؤساء عرب أفريقية ، وسعى به الى ملوك بنى حفص بتونس ، وكانت بينهم حروب يقال ان محمد بن على هلك فيها ، ثم ان اهل المغرب الاوسط وفدوا على خير الدين واتوا به الى ارضهم فاستعمل فى طريقه على قلعة بنى راشد اخاه اسحاق ولما دخل تلمسان استعمل عليها اخاه عروج ، ثم بعد منصرفه تعصب المسعود من ملوك تلمسان بجيش عظيم وخطب على منبر الجامع الاعظم ، وذكر شان ملك الجزائر ، ورغب الناس فى ملك آل عبد الواد ، وهجموا على عروج فأخرجوه منهم ، ثم زحف اليهم بمن معه ، وكان شديد البأس فدخل تلمسان عنوة وقتل سبعة من المترشحين للملك من بنى زيان ، ونحو الستين من بنى عمهم أولاد عبد الواد ، واكثر من الف من اهل البلد ، وعاث فى تلمسان ، ثم سكنت الفتنة ، ولما راى المسعود أستقامة عروج بتلمسان ، دخل وهران فزحف بالنصارى الى اسحاق بالقلعة ، ورموا عليها من البراق ولما علم اهلها قوة العدو وضعفهم صالحوه على تسليم البلد ، ثم لما خرجوا غدروا بهم وقتل اسحاق وقال العلامة الصباغ وكان ابى ممن قتل يومئذ ، ثم زحف بالنصارى لتلمسان لحصار عروج ، فلما طال امر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة راضيا من الغنيمة بالسلامة ، فلحقوه بجبل بنى موسى ، وقتلوه ، ومن معه يوم عيد الفطر من سنة خمس وثلاثين وتسعمائة (935 هـ — 1528 م) بعد ما ملكها نحو السنة ، وقيل ان عروج لما دخل تلمسان وعاث بها ثاروا (19) عليه اهل البلد واخرجوه منها ، وخافوا من عودته ففزعوا الى ولى الله ابن ملوكة فدعا عليه ، فهلك بجبل بنى ورنيد والله أعلم ، ورايت فى بعض فتوحات الجزائر أن خير الدين دخل تلمسان مرتين مرة لما استعمل عليها اخاه ومرة بعد موته ، وقد عمل بها حامية من الاتراك فى المرة الثانية ، فهى باقية الى الان فأذهب فتنتها ، وحسم داءها فلم يعد ، ثم ان خير الدين شمر للمدافعة عن الجزائر فى البر والبحر ، وقد كانت المرسى اذ ذاك للاسبانيين من جزر الكفرة ، وكان لهم بها حصن هو الذى فيه الفنار الان ، وكانوا مدتهم مع المسلمين بين نفرة واستقامة ، وصلح وغدر ، وكان حصنهم يدور به الماء من البحر ، واما الطريق التى به الان فانها عملتها الاتراك ويذكر ان بنى مزغنة قبل بناء بلكين بن زيرى الجزائر كانوا يؤدون الخراج لاهل البرج (20) وكذا اكثر متيجة ، فلما بناها بلكين الصنهاجى وحصنها بالاسوار وانزل

(19) هكذا بالاصل على اللغة المرجوحة
(20) يبدو ان في هذا مبالغة لان هذا البرج انما بنى قبل مجىء الاتراك بسنوات قليلة

بها الجيوش انتصرت النصارى على عادتهم، ورضوا بدل الخراج بالبيع والشراء معهم ، ولم يزل خير الدين يحاصره ويقاتله ، ويعالجه ، الى ان فتحه سنة ثمان واربعين وتسعمائة (948 هـ — 1541 م) وقطع طمع بنى زيان من تلمسان سنة ستة وخمسين ، وقد رايت فى بعض فتوحات الجزائر فى سيرة خير الدين الاولى سنة خمس عشرة من العاشر ، وبنى لها السور سنة اربع وعشرين منه (924 هـ) وانظر قوله بنى السور مع ما مر لنا ان يحيى ابن غانية طلب منديل ابن عبد الرحمان على سور الجـزائر أول القرن السادس ، ولعله السور الثانى ، أو ان خير الدين رم الاول والله اعلم .

هذا وقد كان النصارى من كل جنس يغزونها قديما والحرب بيننا عليها مستديما ، واول غزو النصاري لها بعد استيلاء الاتراك عليها سنة خمس وعشرين وتسعمائة (925 هـ — 1519) فى ثلاثمائة وعشرين جفنا ، فهزمهم الله بعد ما قتل منهم خلق كثير يزيد على عشرة الاف وغزوها مرة اخرى أيام خير الدين ايضا فهزمهم الله ، واسر المسلمـون منهم نحو الثلاثة الاف ثم غزاها الطاغية بنفسه لما استولى المسلمون على برج المرسى وذلك سنة ثمان واربعين (948 هـ — 1541 م) كما مر فى زهاء سبعمائة سفينة فبعث الله ريحا كسرت مراكبهم ، ومن خـرج منهم للبر قتل ، حتى ان الطاغية رجع فى اثنى عشر مركبا وكل هذا ايام خير الدين رحمه الله ، وله لقبان الاول باشا كما هو المعروف فى نواب العثمانى على الاقطار والثانى دولاتلى ونظير هذه الغزوة غزوة قسطنطين ابن هرقل لما اخذت اسكندرية واستولى المسلمون على كنيستها العظمى ، وقد كان المسلمون اخذوها قبل ذلك فى خلافة عمر ، ثم رجع لها النصارى بعد ذلك اول خلافة عثمان ، فأخرجوا منها ايضا وحلف عمر بن العاص ليتركنها كبيت الزانية توتى من كل جهة فلما سمع قسطنطين بهدم حصونها غزاها فى الف مركب فى الشتاء فاغرقتهم الريح كلهم الا مركبة نجا الصقلية ، فادخلوه الحمام ووثبوا عليه ، فقتلـوه جزاء له على فعله وغزوه فى ذلك الفصل وغزا أيضا الانكليز فى ايام رمضان باشا فى ثلاث وعشرين مركبا عظاما فرموها بالبونبة فلم تفد شيئا وذلك سنة احدى وسبعين والف. وغزاها الفرنسيون سنة ثلاث وتسعين والف (1093 هـ — 1682 م) فى خمسة وعشرين مركبا فى ولاية حسن باشا ، ورموها بالبونبة فهدموا اكثر دورها ، وبعض مساجدها ، وكذا رموا على شرشال واقتنص المسلمون مركبا لهم فيه جملة من اكابرهم ففرحوا بذلك فرحا شديدا ورجع الكفرة بلا نائل ، ولم يحصلوا منها على طائل ، ثم غزاها ايضا الفرنسيون فى العام الذى بعده فى أيام الباشا المذكور فى زهاء ثمانين مركبا ورموا بالبومبة فى ثالث الايام من قدومهم ، فأتت قدرة بونبة بدار الامـارة فضاقت مذاهبه ، وصالحهم من ساعتـه على أن يسرح لهم الاسارى بلا مشورة احد من اهل دولته وعلى ان يبذل لهم ما صرفوه فى تلك الغزوة ، ورجع اعداء الله مسرورين ، وبعد ذلك بيسير قتله الاتراك وولوا حسن باشا ، وكان قبل الامارة يعرف حسن رايس فبعث للعين من ساعتـه ابعث اسـارى المسلمين ان شئت تمام الصلح ، على ان لا شىء لك فلما سمع اللعين غزاها من عامه فهدم منها نحو

الثلاثمائة دار ، واستشهد فيها نحو الاربعين ، ثم رجع عدو الله من غير طائل ، ثم غزاها الاسبانيون سنة تسع وثمانين ومائة والف (1189 هـ — 1778 م) فى ولاية محمد باشا ، وخرجوا ازاء الحراش فى البر وجعلوا ترسا من حطب ولوح وغير ذلك ، واوقدوا نار الحرب وباتوا ليلتهم فى موضعهم ، فلما كان قبيل الفجر صبيحة يوم الاحد هزمهم الله ومات منهم ما لا يحصى عددهم الا الله تعالى . ورجعوا خائبين ولم ينالوا خيرا واستشهد من المسلمين نحو اربعمائة حفرت لهم مقبرة بازاء عين الربط [21] وقد اتووا الغزوة فى خمسمائة مركب وبقيت عظامهم مائلة فى رمال الحراش أعصارا وقد حضر هذه الوقعة المنصور بالله ابو الفتوحات سيدى محمد بن عثمان باى معسكر فظهر من اقدامه واعتنائه مقامات تعد من مفاخر دولته ، وذكرا له آخر الايام . ثم غزاها الاسبانيون أيضا سنة سبع وتسعين (1199 هـ — 1784 م) فهدموا بالبونبة أزيد من مائتى دار ، وطلبوا الصلح فلم يجابوا ، ورجعوا خائبين ثم غزاها أيضا السنة التى بعدها ، فزحف لهم المسلمون فى البحر وردوهم على اعقابهم فرجعوا بلا طائل ، ثم جاؤوا سنة تسع وتسعين أى من هذا القرن طالبين للصلح فى الحال ، باذلين القناطير من الاموال راضين بدخولها للتجارة لما ايسوا من الظفر وقدموا فى ذلك علجة من بيوتاتهم على عادتهم الذميمة لعنهم الله فابرم الصلح بينهم وبين المسلمين وكل ذلك أيام محمد دولاتلى ومات رحمه الله سنة خمس ومائتين والف (1205 هـ — 1790 م) أيام السلطان سليم بن السلطان مصطفى العثمانى .

(21) عين الربط هي تقريبا ميدان المناورات وما يتصل بها





مدينة مليانة عبر العصور

• مولاي بلحميسي

القسم الاول الى نهاية القرن 18 م

ان موقع هذه المدينة الشهيرة فى قلب المغرب الاوسط وتأسيسها بين اهم عواصمه ووجودها من بين ثغور بعض الامارات ، بمكان تبرعت فيه الطبيعة بكل ما يحلم به القاطن والزائر من مياه وزرع وضرع وفواكه وخضر ... كل هذا جعل منذ فجر التاريخ ، مليانة تلعب دورا سياسيا وعلميا وتجاريا رغب الكثير من الملوك والامراء فى امتلاكها . فلا يخلو عصر من عصور بلادنا الا وتحدث فيه التاريخ عنها .

وننتهز فرصة الاحتفال السعيد بمرور الف سنة على تاسيس هذه المدينة لنقدم لقراء « الاصالة » مع كثير من الايجاز اهم الحوادث والاخبار فى مختلف العصور التى مرت على هذه البلدة .

1) ــ « مليانة » وحقيقة اسمها

اختلف المؤرخون والجغرافيون من مسلمين وغربيين فى تسمية المدينة .

فقد سماها المؤرخ الاسبانى مارمول Marmol « مليان » Miliane (1) وقال انها كانت تسمى قديما « منيانة » Magnana وأما الانكليزى شاو Shaw فانه يقول : منيانة Maniana ومليانة Maliana وذلك بناء على النطق المحلى (2) وجاء فى معجم البلدان لياقوت مايلى : « مليانة (بالكسر ثم السكون وياء تحتها نقطتان خفيفة وبعد الالف نون) هى مدينة فى آخر افريقية بينها وبين تنس (!) اربعة أيام » (3) .

ويدعى بعض العارفين من سكان الناحية ان « مليانة » مشتقة من « ملآنة » لما فى الناحية من خيرات .. ويقول ر . باسى R. Basset : اذا اعتبرنا أن أحد « القصور » بتوات يسمى بمليانة مثل فرقة المحالى فاننا لا نقبل الكلمة الاتينية « مليانة Maliana كتسمية أولى لهذه المدينة .

وبما أن بلكين بن زيرى ، مؤسس مليانة كان من صنهاجة فانه من المحتمل أن قبيلة مليانة من بنى هندل هى ايضا من صنهاجة استوطنت الونشرس أيام بلكين .. مثلما استمدت مدينة المدية اسماها من قبيلة صنهاجية تعرف بالمدية . (4)

الموقع الجغرفى

تقع مليانة عش العقاب فى منطقة مرتفعة بين خطى : طول 0 درجة 7 دقائق ، غربا وعرض : 36 درجة 18 دقيقة . وعلى ارتفاع يتراوح بين 726 و749 م .

تقع المدينة غرب الدائرة التى تسمى باسمها وهى دائرة مليانة ، التى تبعد عن الاصنام 99 كلم . وعن العاصمة 120 كلم بحيث تقع فى الجنوب الغربى منها . تبلغ مساحة المدينة 23773 هكتارا . ويحيط بها مجموعة من الجبال : كجبال زكار الشرقى والغربى اللذين يبلغ أعلى ارتفاع فيهما 1579 م ويطلان على المدينة . اما من الجنوب فيربطهما مضيق صغير . وتطل من الشرق والجنوب على وادى شلف . لها جو معتدل وتجرى فيها مياه كثيرة وعذبة تديم اخضرار الناحية وهىمحاطة بالحدائق الغناء .وتنبنى اهميتها اليوم على موقعها الاقتصادى والفلاحى حيث انها تحتوى على سوق كبير ومناجم وبها مزار الولى الصالح سدى أحمد بن يوسف .

وقال الكتاب القدماء انها تقع على بعد ميلا من مدينة سرجال (شرشال) فى داخل البلاد . وعلى بعد 14 ميل من الجزائر نحو الغرب . إما بتوليمى (Ptolémée) فقد وضعها فى خطى طول 15 درجة 50 دقيقة وعرض 28 درجة 50 دقيقة . (5)

اما الرحالة شاو فيقول أنها تقع على سفح هذه

---

1) مارمول : وصف افريقية ج 2 ص 396 ـ 397

2) الاسد الافريقى وصف افريقية ج 2 ص 345 ، وشاو : اسفار Travels ص 282 ـ 284

3) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج 7 ص 155

4) ر . باسى R. BASSET : étude sur la zénatia de l'Ouarsenis et du Maghreb Central. Paris 1895 P. 2.

5) مارمول : نفس المرجع



تنسب هذه الدار لبلكين بن زيرى مؤسس مدينة مليانة وقد أجريت عليها تعديلات



الصهاريج التى بناها فى بداية الامر بلكين لـ[illegible]جيات جيله وهى اليوم مسبح للاطفال



حى العناصر : تهاطل الامطار العذبة وقبر ابى العباس أحمد المليانى

الجبال وعلى ارتفاع 400 تواز (toises) فوق (1) السهل وتبعد بميلين من ناحية الشرق والشـمال الشرقى من مدينة الاربعاء .

مليانة عبر العصر

ما قبل الاسـلام

اجمع معظم المؤرخـين على ان المدينة قديمـة ازلية (2) « رومية فيها ابار وانهـار تطحن عليها الرحى » (3) وفيها آثار . وذكر كورتوا (Courtois) انها من اكبر مدن موريطانية القيصرية على هضبة تطل على وادى شلف وتحتل اخصب اراضى الناحية يسقيها واد بوتان (Butane) ويضيفون انها شيدت على انقاض المدينة الرومية المعروفة بزوكابار Zuchabar التى ظلت آثارها واقفة حتى عصر البكـرى .

وشاهد الرحالة الانكليزى شاو كثيرا من اطلالها فى القرنين 17 و18 ميلادى . « يوجد حاليا بمليانة بقايا من المعمـار الرومانى وشـاهدت على بعض اسوارها الحديثة نصـبا تذكاريا عليه كتابات تلقى اضواء جديدة ترجح ان حفيد هذا القـائد العظيم بومبى (Pompée) وابن حفيده مد فونان فى مليانة « وهذا ما جاء على اللوحة :

Q. POMPEIO
C.N.F. QUIRIT CLEMENTI LA...
DUUR EX TESTAMENTO
Q. POMPEO F. QUIA. ROGETI FATRIS SUI
(1) MABRA POSUIT
POMPEIO Q. P.

1) تواز ـ مقياس يساوى ستة اقدام مقياس الطول للانسان ـ
2) ابن حوقل : كتاب صورة الارض ج 1 ص 90
3) ياقوت : نفس المرجع ـ البكرى : المغرب
4) Julien, Histoire de l'Afrique du Nord - I, 172 Ptolémé et Mémoire d'Antonin



توفى سيدى أحمد بن يوسف بمليانة ودفن بها وذلك حوالى 931 هـ . وفى القرن الثامن عشر أمر الباى محمد الكبير باى وهران ببناء الضريح والزاوية كما تدل على ذلك مجموع الصور هاته

العهد الاسلامى

وان كانت مليانة مدينة قديمة فان اهميتها الحقيقية قد برزت فى العهد الاسلامى عند ما اختطها بولكين ابن زيرى بن مناد (1) وفى ذلك قال ابن خلدون : « واختط (زيرى) مدينة اشير للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرا لهذا العهد حيث مواطن حصين وحصنها بأمر المنصور ، وكانت من أعظم مدن المغرب . واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمر انها ، ورحل اليها العلماء والتجار من القاصية . وحين نازل أبا اسمعيل المنصور ابا يزيد لقلعة كتامة جاءه زيرى فى قومه ومن انضم اليه من حشود البربر ، وعظمت نكايته فى العدو وكان الفتح . وصحبه المنصور الى أن انصرف من المغرب ووصله بصلات سنية . وعقد له على قومه وأذن له فى اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة اشير . وعقد له على تاهرت واعمالها .

1) بلكين بن زيرى بن مناد من اشهر امراء صنهاجة فى خدمة الفاطميين قضى حياته كلها فى محاربة زناتة بالمغرب الاوسط حتى اقصاهم عن البلاد واستولى على المسيلة والزاب وكما استولى على فاس وسجلماسة وهزم برغواثة حتى وافاه الاجل وهو فى طريق العودة 373 ـ 984





مليانة : من بقايا مسجد البطحاء الذى أسس فى بداية العهد التركى ، والذى خربه الجنرال ليشار سنة 1844

ثم اختط ابنه بلكين بأمــره وعلى عهده مدينـــة الجزائر المنسوبة لبنى مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعودة الشرقية من شلف ومدينة لمدونة . وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من اعظم مدن المغرب الاوسط (1) . ولعل ابن خلدون يقصد التوسيع والتعديل والتجديد بحيث أصبحت المدينة من امصار المغرب . قال أبو عبيد البكرى « جددها زيرى بن مناد واسكنها ابنه بلجين وهى عامرة ومنها الى مدينة الخضراء .

وهى أولية شريفة .. وهى مشرفة على جميع ذلك الفحص الذى فيه بنوواريفن (2) وهى عامرة آهلة على نهر ولها آبار عذبة وسوق جامعة ومنها الى مدينة أشير . . » (3) .

وعرفت مليانة فى العهد الزيرى خاصة ازدهارا مرموقا فى الزراعة والتجــارة مما جعل الشــريف الادريسى يقول : « وهى مدينة صغيرة حصينة على نهر صـــغير عليه عمارات متصلة وكــروم وبها من السفرجل كل بديع ولها سوق وحمام وسوقها يجتمع اليه أهل الناحية » (4) . .

وتواصل ازدهارها وكثرت الثروة وتردد عليها الرحالون فأجمعوا على محاسن الموقع وكثرة المياه ورخاء العيش « ومن بين اخبارها فى ذلك العهد ما قاله صاحب كتاب الاستبصار وهى مدينة حصينة فى سفح جبل يسمى زكار وشعار هذا الجبل كله ريحان وينبعث من هذا الجبل عين خرارة عظيمة تطحن عليها الارحية لقوتها ولمدينة مليانة مياه سائحة وانهار وبساتين فيها جميع الفواكه وهى من اخصب بلاد افريقية وارخصها اسعارا . ومدينة مليانة مشرفة

1) ابن خلدون : كتاب العبر ج 6 ص 313 طبعة بيروث
2) فى ملتقى وادى الفضة ونهر شلف شرقى الاصنام
3) البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب طبعـة دوسلان ص 61 و 69 ـ مضيفا ان اليعقوبى وفورنال ان مليانة ومدكرى او متغرى Medkara ou Metghara شىء واحد
4. الشريف الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق

على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشق تلك الفحوص نهر شلف وهو نهر كبير مشهور (1) » .

الصراع بين الموحدين وبنى غانية فى القرن 12 م

عند ما سقطت دولة المرابطين قام على بن اسحاق بن على صاحب الجزر الشرقية لمناهضة الموحدين ونقل المعارك الى المغرب الاوسط ضد الدولة الجديدة مستعينا ببنى هلال وببعض القبائل البربرية وبعد ما استولى على بجاية فى شعبان 580 هـ / نوفمبر 1184 م زحف نحو وادى الساحل متجها نحو الغرب فدخل مدينة الجزائر وعين على راسها يحيى ابن اخيه طلحة ثم واصل الزحف نحو الغرب الى ان استولى على موزاية ومليانة . ثم توقف لاحد السببين : قيل لعدم انضمام قبائل مليانة فى صفوفه وقيل لان السلطان ابا يوسف يعقوب غادر الاندلس والتحق بالمغرب لمحاربة بنى غانية وترك على بن اسحاق بمليانة واليا يسمى : يدر بن عائشة من قبله ثم رجع الى النواحى الشرقية . 2

وأرسل الخليفة أبو يوسف يعقوب جيشا عرمرما لمطاردة بقايا المرابطين فثار اهل مليانة وخرجوا على طاعة ابن غانية وبايعوا من جديد الموحدين ولم يستطع ابن عائشة مواجهتهم فغادر مليانة فارا بين جبال الناحية الىأنهم القواعليه القبض وقتلوه وبقيت مليانة تحت امر بنى مندبل .

عهد دول المغرب

كانت مليانة طيلة قرنين كاملين موضوع نزاع وسبب حروب بين الحفصيين والزيانيين وبنى مرين وكانت الضغائن بين مرين وبنى عبد الواد قديمة ناشئة عن الجوار فى الموطن ثم الملك وعن المنافسة فى الاستقلال برياسة زناتة .

فلما احتضر يغمراسن اوصى خلفه بمسالمة مرين ... ولكن مرين لا يرضيها مقاسمة بنى عبد الواد رئاسة زناتة فكانت تتجنى عليهم وكانت ايام السلم بينهما هى ايام اشتغالهما بفتن داخلية .

ففى القرن الثالث عشر تولى ابو محمد عبد الله الحفصى قيادة الناحية الشرقية واستقر فى تونس ومنها واصل الحرب ضد يحيى بن غانية فى منتصف سنة 624 هـ / 1227 م ثم انتقل الى مليانة مقر بن غانية وطرده منها فاضطر يحيى الى الفرار بعيدا الى ان وصل الى سجلماسة غير انه عاد الى مليانة سنة 633 هـ / 1237 م فتوفى فى ضواحيها .

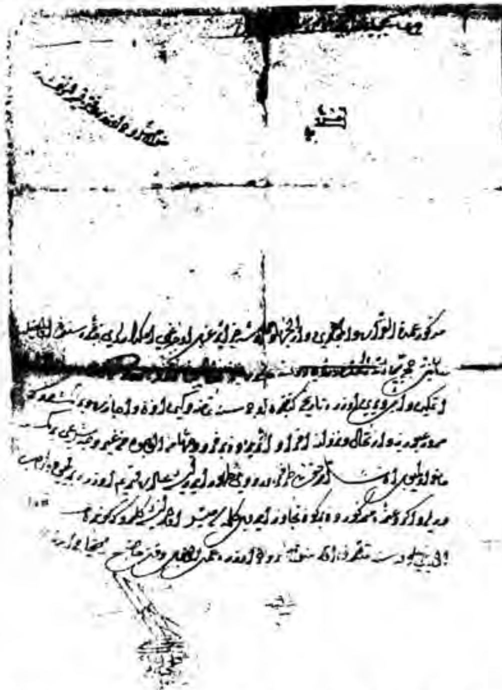
ولما استوثق الملك بتلمسان ليغمراسن بن زيان واستفحل سلطانه بها طمع فى التغلب على امصار المغرب الاوسط فزاحم بنى توجين وبنى منديل فاستغاثوا ببنى حفص . فنهض ابو زكرياء الحفصى وغزا تلمسان وتوقف بمليانة فعقد للعباس بن منديل على مغراوة . فعقد العباس السلم مع يغمراسن ولماتوفى العباس قامبالامر بعده أخوه محمد ابن منديل فصلحت الحال بينه وبين صاحب تلمسان ونفر معه بمغراوة الى غزو المغرب سنة كلدمان ،

1 مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار ص 59

2 تابع عبد المؤمن فتوحاته بالجزائر بعد ما امتلك منها جميع اعمالها الغربية فتقدم الى الشرق وغزا نواحى ونشريس واحتل مليانة سنة 544 هـ ـ 1149 م ، وانتهى حكم المرابطين بالمغرب الاوسط

وهى سنة سبع وأربعين وستمائة 647 وهزمهم فيها يعقوب ابن عبد الحق فرجعوا الى اوطانهم، وعاودوا شأنهم فى العداوة . وانتقض عليهم اهل مليانة وخلعوا الطاعة الحفصية وكان من خبر هذا الانتقاض ان ابا العباس أحمد الملياني (1) كان كبير وقته علما ودينا ورواية ، وكان عالى السند فى الحديث ، فرحل اليه الاعلام ، واخذ عنه الايمة ، واوفت به الشهرة على ثنايا السيادة فانتهت اليه رئاسة بلده على عهد يعقوب المنصور وبنيه . ونشأ ابنه ابو على فى جو هذه العناية ، وكان جموحا للرياسة طامعا الى الاستبداد ، وهو مع ذلك خلو من المغارم ، فلما هلك ابوه جرى فى شاو رئاسته طلقا ثم رأى ما بين مغراوة وبنى عبد الوادى من الفتنة ، فحدثته نفسه بالاستبداد ببلده فجمع لها جراميزه وقطع الدعاء للخليفة المستنصر الحفصى سنة تسع وخمسين . وبلغ الخبر الى تونس ، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص فى عسكر من الموحدين فيجملته «ذون الريك بنهراندة» .

من آل اذ فونش ملوك الجلالقة ، وكان نازعا اليه عن أبيه فى طائفة من قومه ، فنازلوا مليانة اياما وداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبى على الملياني ، فسرب اليهم جندا بالليل ، واقتحموها من بعض المداخل ، وفر ابو على الملياني تحت الليل ، وخرج من بعض قنوات البلد ، فلحق باحياء العرب ونزل على يعقوب بن موسى امير العطاف من بطون زغبة ، فأجاره الى ان لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق ، وانصرف عسكر الموحدين والامير ابو حفص الى الحضرة تونس وعقدوا لمحمد



عقد تعيين امير الحج وفى الخلف طابع محمد عثمان سنة 1179

بن منديل على مليانة . فأقام فيها الدعوة الحفصية على سنن قومه ، ثم هلك محمد بن منديل سنة اثنتين لخمس عشرة من ولايته ، قتله أخواه ثابت وعايد بمنزل ظواعنهم بالخميس من بسيط بلادهم ، وقتل معه عطية ابن اخيه منيف . وشاركه ثابت فى الامر واجتمع اليه قومه ، وتقطع بين أولاد منديل ، وخشنت صدورهم . واستغلظ يغمراسن ابن زيان عليهم ، وداخله عمر بن منديل اخوهم فى ان يمكنه من مليانة ويشد عضده على رياسة قومه ، فشارطه

1) انظر فيما بعد ترجمة هذه الشخصية البارزة

على ذلك وامكنه من ازمة البلد سنة ثمان وستين ، ونادى بعزل ثابت ومؤازرة عمر على الامر فتم لهما ما احكماه من امرهما فى مغراوة . واستمكن بها يغمراسن من قياد قومه . ثم تناغى أولاد منديل فى الازدلاف الى يغمراسن بمثلها نكاية لعمر فاتفق ثابت وعايد اولادمنديل على ان يحكماه فى تنس ، فامكناه منها سنة اثنتين وسبعين على اثنى عشر الفا من الذهب .

واستمرت ولاية عمر الى ان هلك سنة ست وسبعين ، فاستقل ثابت بن منديل برياسة مغراوة ، واجاز عايد اخوه الى الاندلس للرباط والجهاد مع صاحبيه زيان بن محمد بن عبد القوى ، وعبد الملك بن يغمراسن فحول زناتة واسترجع ثابت بلاد تنس ومليانة من يد يمغراسن ونبذ اليه العهد . ثم استغلظ يغمراسن عليهم واسترد تنس سنة احدى وثمانين بين يدى مهلكه . ولما هلك يغمراسن وقام بالامر ابنه عثمان انتقضت عليه تنس ، ثم ردد الغزو الى بلاد توجين ومغراوة حتى غلبهم آخرا على ما بايديهم وملك المدية بمداخلة .. بنى لمدية اهلها سنة سبع وثمانين .

ولم يزل عثمان مراغما الى ان زحف اليهم سنة ثلاث وتسعين ، فاستولى على امصارهم وضواحيهم واخرجهم عنها والجاهم الى الجبال . ودخل ثابت بن منديل الى برشك ممانعا دونها ، فزحف اليه عثمان وحاصره بها ، حتى استيقن انه احيط به ، ركب البحر الى المغرب ، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بنى مرين صريخا سنة أربع وتسعين ، فأكرمه ووعده بالنصرة من عدوه ، واقام بفاس .

وكان ثابت بن منديل قد اقام ابنه محمدا للامر فى قومه وولاه عليهم لعهده واستبد بملك مغراوة دونه ولما انصرف ابوه للمغرب اقام هو بامارته على مغراوة ثم مات بعد مدة من وفاة ابيه . فخلفه شقيقه على فقام عليه اخواه وحاربوه .

وعند ما نهض يوسف بن يعقوب الى تلمسان سنة 698 هـ وحاصرها عقد على مغراوة وشلف لعمربن ويغرن بن منديل وبعث معه جيشا فافتتح مليانة وتنس ومازونة سنة 699 هـ / 1299 — 1300م ، ووجد راشد فى نفسه اذ لم يوليه على قومه ، وكان يرى انه لاحق بنسبه وصهره ، فنزع عن السلطان ، ولحق بجبال متيجة ، ودس الى اوليائه فى مغراوة حتى وجد فيهم الدخلة فاغذ السير ولحق بهم ، فافترق امر مغراوة . وداخل اهل مازونة فانتقضوا على السلطان وبيت عمر بن ويغرن بازمور من ضواحى بلادهم فقتله ، واجتمع عليه قومه ، وسرح السلطان اليه الكتائب من بنى عسكر .

ولما هلك يوسف بن يعقوب بمناخة على تلمسان آخر سنة 706 هـ / 1307 م وانعقدت السلم بين حافده ابى ثابت ، وبين ابى زيان بن عثمان سلطان بنى عبد الواد على ان يخلى له بنو مرين عن جميع ما ملكوه من امصارهم واعمالهم وثغورهم ، وبعثوا فى حاميتهم وعمالهم واسلموها لعمال ابى زيان ، وكان راشد قد طمع فى استرجاع بلاده ، وزحف الى مليانة فاحاط بها ، فلما نزل عنها بنو مرين لابى

زيان وصارت مليانة وتنس له ، أخفق سعى راشد وافرج عن البلد .

ثم كان مهلك ابى زيان قريبا ، وولى اخوه ابو موسى بن عثمان . فاستولى على المغرب الاوسط فملك تافر كينت سنة 707 هـ / 1308 م وملك بعدها مليانة والمدية ، ثم ملك تنس وعقد عليها لمسامح مولاه .

مليانة فى العهد التركى

فى بداية القرن السادس عشر قدم الى الجزائر اخوان وهما عروج وخير الدين . وبعدما استوليا على مدينة الجزائر ، نهض عروج لبسط نفوذه نحو الجهات الغربية من البلاد .

فاحتل ما بين 1516 و 1517 مليانة وتنس رغم مقاومة صاحب الامارة : حميد العبد . وكانت مليانة فى هذا العهد التركى تابعة لبايلك الغرب وعاصمته مازونة ثم عند ما أعيد تنظيم الايالة اداريا اصبحت مليانة تابعة لدار السلطان وتحت حكم الباشا مباشرة .

وادرك الاتراك اهمية مليانة استراتيجية بما انها تشرف على الطريق الواصل بين الجزائر ومدن بايلك الغرب مثل تلمسان ، ومستغانم ، ووهران فاسكنوا بضواحيها قبائل المخزن وجعلوا منها «قناق » اى نهاية مرحلة (1) غير أن سكان الناحية وهم ريغة كثيرا ما خرجوا على الحكم الجديد ومن أشهر هذه الثورات ثورة « بوطريق » سنة 1544 قتل فيها حاكم الترك بمليانة فخرج اليهم صاحب الجزائر وهو الحاج بشير فهزمهم وبدد جموعهم .

وفى النصف من القرن السادس عشر مر بمليانة الحسن ابن محمد الوزان الفاسى المعروف بالاسد الافريقى فقال فى شأنها :

« مليانة تقع على قمة جبل وهو على اربعين ميلا (64 كلم) من البحر اى من شرشال . والجبل الذى بنيت فيه المدينة تتفجر منه عيون كثيرة وتكسوه غابات من شجر الجوز بحيث ان سكان الناحية لا يشترون هذه الفاكهة بل ولا يقطفونها .

وتحيط بالمدينة اسوار عتيقة . من جهة تطل صخرة على واد فى غاية العمق ومن جهة اخرى يوجد منحدر ينطلق من الهضبة الى وادى شلف يذكرنا بمدينة نارنى بقرب روما » (2) .

وحذا مارمول حذو الاسد الافريقى فى وصفه لمليانة وزاد :

ان ديار المدينة جميلة ونظيفة ولها كثير من العيون ويتعاطى كثير من سكانها الى النساجة وصنع السروج العربية والاكواب الخشبية الرائجة فى كل انحاء البلاد .

وتحيط بالمدينة بساتين واسعة حيث يوجد احسن ليمون فى المغرب كله . وكذلك البرتقال الذى ينقل الى تنس والى مدن اخرى ...(3)

تراجم مليانية فى القرن الثالث عشر

كانت مليانة فى ذلك العصر مركز اشعاع ثقافى وانتاج أدبى شهد بذلك أصحاب التراجم والرحلات ومن علمائها الذين كانت لهم المنزلة الأولى :

1) ارنست ميرسيي : تاريخ افريقية الشمالية ج 3 ص 137
2) الاسد الافريقى
3) مارمول : وصف افريقية ج 2 ص 396 ـ 397

1) على بن عمران بن موسى الملياني (644 هـ / 1246 م) ، ابو الحسن ، عرف بابن اساطير : فقيه ، اصولى كان له معرفة باصول الدين والتصوف وعلوم الحكمة ، من أهل مليانة ، سكن بجاية وبها كانت وفاته سنة السبعين وستمائة (670) . ذكره الغبريني وقال : « كان له علم بالوثيقة وكان من عدول بجاية وخيارها » .

2) احمد بن عثمان 675 هـ / 1276 م بن عبد الجبار المتوسى الملياني ابو العباس : فقيه ، مجتهد من اهل مليانة ، اخذ عن شيوخ بلده ثم رحل الى المشرق ولقى جماعة من الاعلام ، وعاد وسكن بجاية واقرا بها توفى بمليانة . له « تقييدات » على كتاب التلقين للامام محمد بن على بن عمر المازرى المتوفى سنة 536 هـ .

شهدت مليانة فى القرن الرابع عشر عدة غارات تجعلها تارة تحت حكم الزيانيين واحيانا تحت سلطة غيرهم . وقد نهض اليها ابو سعيد عثمان سنة 1348م واسس من جديد امارة تابعة للزيانيين منها مليانة التى كانت خاضعة للمرينيين طيلة اثنى عشر سنة

وفى سنة 1375 م طرد ابو حمو الثعالب من الجزائر وبسط نفوده عليها غير ان هذا الاخير تغلب عليه ابو العباس المرينى فطرده بدوره . واضطر الى الالتجاء الى جبال بنى بوسعيد فانجده ابنه ابو تشفين واحتل مليانة والتيطرى سنة 1387 م .

وفى اواخر هذا القرن سنة 1394 م حدث بين ابو تشفين الثانى وصاحب فاس نزاع فنشبت اضطرابات بين تلمسان وفاس وتوصل المرينى الى احتلال تلمسان ومنها واصل الزحف الى ان استولى على مليانة ودلس والجزائر .

وفى القرن الخامس عشر 15 اصبحت فيه مليانة والمدية وتنس تكون امارة مستقلة منفصلة عن تلمسان وبجاية لكن لمدة قصيرة اذ قام أبو عبد الله محمد المتوكل صاحب تنس فجمع سنة 1461 م جيشا عظيما وانطلق من مدينة مليانة فاستولى على بنى راشد ومستغانم ومزغران الى ان دخل تلمسان

غير ان اهل مليانة احتفضوا بشبه استقلال لبعدهم عن تلمسان وبقوا على هذه الحالة الى ان احتل عروج الناحية وذلك سنة 1517 .

ترجمة احمد بن على الملياني
(المتوفى 715 هـ / 1315 م)

أحمد بن على الملياني ، أبو العباس : شاعر ، كاتب ، من اهل مليانة ثار عمه ابو على بن احمد الملياني — وكان من اعيان مليانة — على الحفصيين فى أواخر المائة السابعة ثم فر الى المغرب والتجأ الى السلطان يعقوب المرينى فأقطعه السلطان بلدة أغمات اكراما له . وكان أحمد ممن رحل مع عمه الى المغرب بعد فراره ، فأكمل دراسته بمراكش واغمات وبعد وفاة السلطان يعقوب بويع لابنه يوسف ، فاستعمل ابا على على جباية الاموال ثم نكبه وقتله واتخذ ابن اخيه ابا العباس احمد صاحب علامته ، فسعى احمد الى الاخذ بثار عمه ودبر مؤامرة ضد الواشين به حتى قتلهم ثم فر الى تلمسان والسلطان يوسف المرينى محاصر لها . وفى نحو السنة 703 هـ غادر تلمسان ولحق بمدينة غرناطة بالاندلس واستقر بها الى حين وفاته سنة 715 هـ ذكره لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة ، وقال (صاحب العلامة)

بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأن في اقتضاء الثرة ، المثل المضروب في العفة ، وقوة الضريمة ، ونفاذ العزيمة . كان نبيه البيت ، شهير الاصالة رفيع المكانة على سجية غريبة كانت فيه من الوقار والانقباض والصمت ، أخذ بحظ من الطب حسن الخط مليح الكتابة قارضا للشعر، يذهب نفسه فيه كلمذهب فتك فتكة شنيعة اساءت الظن بحملة الاقلام على مر الدهر وانتقل الى الاندلس بعد مشقة . فلم يعدم برا ورعيا مستمرا حتى اتاه حمامه وانصرمت ايامه » (عن لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة) .

ترجمة أحمد بن يوسف المليانى

قال في « سلوة الانفاس » (1) هو الشيخ الولى الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم المحصل السالك الناسك المقرىء بالقرآت السبعة المحقق الحجة أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى نسبا ودارا المليانى . كان رحمه الله من اعيان مشائخ المغرب وعظماء العارفين احد أوتاد المغرب واركان هذا الشأن جمع الله له بين علم الحقيقة والشريعة وانتهت اليه رياسة السالكين وتربية المريدين بالبلاد الراشدية والمغرب بأسره واجتمع عند جماعة من كبار المشائخ من العلماء والصالحين من تلامذته واشتهر ذكره في الافاق شرقا وغربا .

وأوقع الله له القبول العظيم والعطف الجسيم في قلوب الخلق وقصده الزوار من كل حدب وتتابعت كرامته عليهم وظهرت انواره لديهم وكان متواضعا ورعا زاهدا يحبب الخلق في الطاعة ويحرضهم على الذكر ويرشدهم الى الصراط المستقيم حتى تاب على يده خلق كثير وهداهم الله تعالى بسببه وهو من تلاميذ الشيخ زروق . ولما حج شيخ شيخه المذكور وهو الشيخ الاوحد العلامة الصالح ابو عبد الله الزيتونى نزل بموضع قريب من قلعته فأتى اليه فقبل الزيتونى رجليه وقال له قد أعطاك الله من قاف الى قاف فقال له المليانى هذا قليل بل اعطانى اكثر . وحكى أن بعض اصحابه قال له ان سيدى عبد الرحمن الثعالبى قال لمن رأى من رأني لا تأكله النار الى سبعة فقال المليانى كذلك من رأى من رءانى لا تأكله النار الى عشرة وحلق له مرة حلاق راسه فقال له لو لا خفت عليك من الناس لقلت جميع من يجلس في حجرتك لا تعدو عليه النار . وقال رضى الله عنه دعوت اللـه في ثلاث فأعطا نيها في ليلة واحدة : طلبته ان يرزقنى العلم بلا مشقة فأعطانى على الظاهر والباطن وطلبته ان يبلغنى مبلغ الرجال فبلغنى فوقهم وطلبته ان يرينى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فرايته في اليقظة وفتح الله على في علوم ببركته لم يطلع عليها غيرى يعنى من اهل عصره وعنه ايضا قال علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين بابا من العلم لم يعلم ذلك لاحد غيرى اى في عصرى وقال ايضا جميع من اكل معى اوشرب او جالسنى أو نظر في لا اسلم فيه غدا يوم القيامة وسئل رضى الله عنه عن السبحة هل يجوز أخذها باليمين فقال نعم يجوز ذلك وهو كالمهماز للفرس ومن كلامه رضى الله عنه والله وثم والله من عرفنى حتى يندم ومن لم يعرفنى حتى يندم وقال

1) سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس ـ لمحمد بن جعفر الكتاني

ايضا : انما الح بعض اصحابى لحة فيبلغ بها مقام الاولياء . وكلامه رضى الله عنه واخباره ومناقبه كثيرة جدا وقد استوفى بعضها الشيخ الفقيه العلامة ابو عبد الله محمد بن محمد بن احمد بن على الصباغ القلعى (1) النسب فى تأليف له جمعه فيه بالخصوص سماه «بستان الازهار فىمناقب زمزم الاخيار ومعدن الانوار سيدى احمد بن يوسف الراشدى النسب والدار » وقد أكرمنى الله تعالى بالوقوف عليه وهو فى مجلد ضخم غاية اه٠ مناصحابه ابوحفص سيدى عمر الشريف الحسينى بالتصغير الشــريف الجليل الولى الصالح الحفيل وسيد احمد بن يوسف توفى سنة 927 (2) فيكون سيدى عمر الشريف من أهل القرن العــاشر وفى « نشر المثانى » (3) لسيدى عمر من صالحى فاس وروضته بها فى ربوة عدوة فاس الاندلس متصلة بروضة لسيدى غالب يفصل بينهما المحجة .

وفى « كتاب الاستقصاء لاخبــار دول المغــرب الاقصى » تأليف الشيخ احمد بن خــالد الناصرى السلاوى مانصه : قال فى « الدوحة » : كان الشيخ ابو العباس احمد بن يوسف الراشدى نزيل مليانة تظهر على يده الكرامات وأنواع الانفعلات فبعد صيته وكثرت اتباعه فغلوا فى محبته وافرطوا فيها حتى نسبه بعضهم الى النبوة قال وفشا ذلك الغلو على يد رجل ممن صحب اصحابه يقال له ابن عبد الله فانه تزندق وذهب مذهبا باطلا على ما حكى عنه واعتقد هذا المذهب الخسيس كثير من الغوغــاء واجلاف العرب واهل الهوامن الحواضر وتعرف هذه الطائفة باليوسفية قال ولم يكن اليوم بالمغرب من طوائف المبتدعة سوى هذه الطــائفة وسمعت بعض الفضلاء يقول انه قد ظهر فى حيـــاة الشيـــخ ابن العباس المذكور فلما بلغه ذلك قال من قال عنا ما لم نقله يبتليه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة . قال صاحب « الدوحة » : ولقد اشار الفقهاء على السلطان الغالب بالله بالاعتناء بحسم مادة فساد هذه الطائفة فسجن جماعة منهم وقتل آخرين وهؤلاء المبتدعة ليسوا من احوال الشيخ فى شىء وانما فعلوا كفعل الروافض والشيعة فى ائمتهم وانما اصحاب الشيخ كابى محمد الخيـــاط والشيخ الشيطى وأبى الحسن على بن عبد الله دفين تافلالت وانظارهم كلهم من أهل الفضل والدين والائمة المقتدى بهم كلهم يعظم الشيخ ويعترف له بالولاية والعلم والمعرفة اه ٠ وقال فى « المرآة » مانصه والشيخ أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدى المليانى من كبــار المشائخ أهل العلم والولاية وعموم البركات والهداية . وكان كثير التلقين فقال له الشيخ ابو عبد الله الخروبى اهنت الحكمة فى تلقينك الاسماء للعامة حتى النساء فقال له قد دعونا الخلق الى الله فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر قال الشيخ الخروبى فوجدته أوســع منى دائرة . قال صاحب « المرآة » (4) وانتسبت اليه طائفة المعروفة بالشراقة بتشديد الراء وهو برىء من بدعتهم فما كان الا امام سنة وهدى مقتدى به فى العلم والدين قد نزهه الا ه

1) ولد بقلعة بني راشد سنة 1517 وتولى القضاء بها
2) يقول بوراس الناصرى توفى أحمد بن يوسف سنة 931 هـ ـ عجائب الاسفار ـ
3) محمد القادرى ـ 12 هـ : 18 م ـ نشر المثاني لاهل القرن الحادى عشر والثـاني
4) مرآة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن ، لابن حميد محمد العربى الفاسى

وطهر جانبه وقد اظهروا شـيئا من ذلك فى حياته فتبرا منهم وقاتلهم وبلغ المجهود فى تشريدهم . قال وحدثنى شيخنا ابو عبد الله النيجى ان الشيخ ابا البقاء عبد الوارث الياصوتى لما ظهرت بدعة الشراقة وانتسابهم اليه وقع فى نفسه من ذلك شىء فقيل له ان الشيخ ابا محمد الخياط من اصحابه فقال انا تائب الى الله كفى فى طهارة جانبه ان يكون الخياط من اصحابه وكانت وفاة الشيخ المليـانى سنة سبـع وعشرين وتسع مائة (927) لكن ما كان عنفوان تلك البدعة المدسوسة عليه الا فى دولة السلطان الغالب بالله كما مر والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

الخلفاوى : تعريف الخلف برجال السلف ص : 97 ، 98 ، 99 ، 100 .

مليانة فى رحلة العبدرى

وزارها فى تلك المدة الرحالة المغربى العبدرى فقال : « (مليانة) وقد القى جمل الاعياء جرانه وغنى بلبل الغناء الوانه الى البلدة الخصيبة مليانة وهى مدينة مجموعة مختصرة . وليست مع ذلك عن امهات المدن مقصرة اشرفت من كثب على وادى شلـف . واستشرقت نسيم طرفها من شرق فى روضة جمة الازهار والطرف . برعت فى سفح جبل حماحماها ان يرام . وشرعت فى اصل شهر يشفى الهيم من الهيام . شاق منظرا وراق مخبـرا وشفى الظمـاء موردا ومصدر يشتهى الناظر اليه وهو ريان الشروع ويقول: لورش به لافاق المصروع كأن حصباءه جمان والماء من رقته دموع . وبها جامع مليح عجيب يدعو الشوق من رآه فيجيب . ولكن الزمان قد عوضه من حلى عطلا وادى له من حكمه خطلا ...

وفى مليانـة قد ذبـت شـوقـا

يلين المطـف والقلـب القسـى

كذا مليـانـة ابـدت عـويلا

لاهل ضمهم جـوف الاتى (1)

ولما تغلب السلطان ابو الحسن على المغـرب الاوسط ومحا دولة آل زيان ، وجمع كلمة زناتة وانتظم مع بلادهم بلاد افريقية وعمل الموحدين وضم الى مملكته مليانة وتنس ونواحيها .

وانتقضت العمالات والاطراف ، وانتزى اعياص الملك بمواطنهم الاولى توثب على بن محمد بن ثابت بن منديل على بلاد شلف ، وتملكهـا وتغلب على امصارها : مليانة وتنس وبرشك وشرشال ، واعاد ما كان لسلفه فيها من الملك على طريقتهم البدوية ؛ وارهفوا خدهم لمن طالبهم من القبائل .

وكانت مليانة فى ذلك العصر حدا فاصلا بين مملكة الزيانيين غربا وبين مملكة الحفصـيين شرقا ومن اشهر قبائل الناحية آنذاك بنو توجين من البربر ، ومالك ، والعطاف من العرب .

وقال عنها الرحالة الانكليزى شاو Shaw :

« من يرى المدينة من بعيد يظن ان بها منازل ضخمة وجميلة وآثارا قديمة عديدة حتى اذا طلع اليها الزائر خاب ظنه ... فهى قرية لا مدينة وديارها مغطاة بالقرمد خلافا للعادة الجارية فى البلاد والتى تفضل السطوح ... واحسن شىء هناك — زيادة على المياه المتدفقة — هو المنظر الرائع المطل على اراضى جندل ومطماطة وغيرها من القبائل الى المدية .. وفى فصل

1) العبدرى — محمد بن محمد بن علي — : الرحلة المغربية من المغرب الاقصى الى المشرق ، بداها سنة 688 هـ — 1289 م

الربيع يقدم اليها من الجزائر والبليدة والنــواحى جموع من الناس يزورون ويتبركون بوليهـــا سيدى أحمد بن يوسف ... » (1)

وهكذا احتفظت مليانة بمكانتها طيلة العهد التركى فى الجزائر ينزل بها المسافر عابر البلاد من المشرق الى المغرب أو العكس طلبـــا للراحة او متشـــوقا للاطلاع .

قال الشيخ ابن مسايب (2) التلمسانى فى رحلته الى مكة :

اقطع المشرع وتهدف
وبات من ثمة لا تلهف
زور سيدىاحمد بنيوسف
وبات مليانة داخلها
قوم قبل طلوع الفرار
وأوعد المدفون فى زكار
زورو وادخل عنده للدار
وعدته لا بد تعطيها

ويعطينا فانتوردى بارادى Venture de Paradis بعض المعلومات تتعلق بادارة دار السلطان فى ذلك العهد . « كان على رأس كل مدينة هامة مثل المهدية والبليدة وبوفاريك ومليانة وبنى جياب قائد تركى يعين فيدفع ـ فى مقابل التسمية ـ مبالغ من المال وكميات من المنتوجات والهدايا للداى » (3) .

ويتحدث هذا الفرنسى عن فلاحة الارز فى الجزائر فيقول : « يتعاطى ناحية مليانة الى فلاحـــة الارز وكذلك ناحية مينا (دائرة غيليزان) غير ان ارز مليانة أجود من الاخر . وتنتج الناحيتان ســـنويا ما بين 5000 و6000 قنطار تكفى المستهلكين واصبح الناس لا يستوردون الارز من مصر » (4) .

وفى أواخر الثامن عشر حررت وهران (1792) من الاحتلال الاسبانى فقام الباى محمد الكبـــير ببناء ماانهدم من الديار وباعادة السكان الى ديـــــارهم وتنشيط التجارة والصناعة فاستقدم من يقوم بذلك من تلمسان ومليانة خاصة .

ـ يتبـــع ـ

1) شـــاو SHAW نفس المرجع ص 282 ـ 284
2) من شعراء الملحون فى القرن الثامن عشر
3) المجلة الافريقية سنة 1895
4) نفس المرجع



المراجع العربية

1) — ابن حوقل (ابو القاسم محمد) كتاب صور الارض ج 1

2) — البكري (ابو عبيد عبد الله) القرن 11 م/5 هـ المسالك والممالك

3) — الادريسي (ابو عبد الله محمد المعروف بالشريف) 1099 — 1180
نزهة المشتاق في اختراق الافاق

4) : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

5) — العبدري (محمد بن محمد بن علي) 7 — 13 الرحلة المغربية 688 — 1289

6) — ابن خلدون (عبد الرحمن) كتاب العبر

7) — ياقوت الحموى : معجم البلدان ج 7 ص 155

8) — محمد عبد الجليل التنسي « نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان »

9) — عادل نويهض : معجم اعلام الجزائر

10) — الخلفاوى : تعريف الخلف برجال السلف

11) — محمد بن عبد القادر : تحفة الزائر

II — BIBLIOGRAPHIE OCCIDENTALE

G. Yver, Miliana	:	Encyclopédie de l'Islam - III, 565 G. Yver.
Léon l'Africain	:	Description de l'Afrique - II, éd. Epaulard.
Shaw	:	Travels, Oxford 1738.
L. Celvin	:	Le Maghreb Central à l'époque des Zirides (Paris 1957).
Trumelet	:	L'Algérie légendaire.
Ge Azan	:	Abdelkader.
A. Bel	:	Les Banou Ghania. (Paris 1903).
E. Mercier	:	Histoire de l'Afrique septentrionale 3. V.
Ch. A. Julien	:	Histoire de l'Algérie contemporaine 1. V. Histoire de l'Algérie du Nord 2. V.

ARTICLES DE REVUES

— Les Righa de la subdivision de Miliana - Julienne. R.A. 1856.

— Miliana - Le Brun - R.A. 1864.

كلمـــات

الطب وسيلـة وسيـاسة :

ومن ناحيـة أخـرى حاول المستعمـر أن يستعمل الطب كوسيلـة سياسية ، انه تفهـم ان ليس له تفـوق اخلاقى على الاهـالى الذين كـانت لهم حضارتهم فأراد ان يثبت تفوقه فى المجال العلمى (ص 58) ، فركـز جهوده على نشر الطب مستهدفا كسب الرأى العام والتقرب من السكـان (ص 86 و 146) ، ولم يدرك المستعمر ان الاهالى لم يثقوا بعمله وتقـدمـه وفضلوا تحمل الامراض والمشاق على استعمال الطب الاجنبى الذى كـان يرمى الى اغراض سياسية واضحة .

فلجأت السلطة الى العنف وفرضت العلاج بالقوة ، الامر الذى جعـل صاحبة الـكتاب تتسـاءل فى نجاعة تلك الطـريقة ـ أما السـكان فحاربوا الطب الاستعمارى كما حاربوا التعليم الاجنبى فوقع صراع كبـير بـين الاطباء والحكام الفرنسيين من ناحية وبين الاهالى وقادة المقاومة الوطنيـة من ناحية أخرى واتخذ هذا الصراع شكل (الحرب النفسية) التى اشتهرت فى عصرنا وخاصة أثنـاء حرب التحـرير (ص 351) .

من كتاب : المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة للدكتورة تورين



مظاهر المقاومة

في الثقافة الجزائرية

عبدالمجيد مزيان

متاهات الماضى الخام :

ان فى تعشق الماضى عيبين أساسيين على الاقل : أولهما اعتقاد الجيل الحاضر فى الاجيال الماضية انها نماذج للكمال يجب الاقتداء بها وثانيهما التقدير اللاعلمى الذى يقيس كل حاضر بما يماثله مماثلة ظاهرة فى التاريخ ، تناسيالسرعة التطور الانسانى . فاذا قست مجدك الماضى مثلا بحاضرك وادعيت انه مجد مطلق يمكن ان ينقل بالحرف الى الحاضر فانت مثبط لنفسك بنفسك ، ذلك ان مجدك فى الماضى كان مجدا بالنسبة لخمول الآخرين ، أما اليوم وقد أصبحت حضارتك تلك ، خمولا وأى خمول بالنسبة لقفزة الآخرين .

قد تبدو مثل هذه التأملات ساذجة الى حد ما ، ولكن من المعروف عندنا اننا نحتقر الاشياء السهلة البسيطة ونتعالى عنها بخيالنا العارم وعاطفتنا الجبارة نحو المطلق الغامض • وفى معاملاتنا للتاريخ مواقف مضطربة تجرنا الى اتهام بعضنا البعض بالرجعية أو التبعية أو الفوضوية • اننا تختصر العناوين ونقول لكل من يلتفت نحو الماضى أنك رجعي ونقول لكل من يعتقد فى الماضى انه مثبط للاجيال عن توقانها التقدمى •• انه فوضوى ان التاريخ سلاح ذو حدين •انه فى مجتمعنا الحالى مرجع لنا وعلينا • وأذكر على سبيل المثال تجربة كثير من المربين الذين عانوا منذ استقلال بلادنا اكبر المتاعب فى سبيل توضيح موقفهم تجاه هذا الشكل الذى يعامله كثير من المفكرين بكل احتقار • انهم يقضون اوقاتا لا تحصى مع جماعة لسرد البراهين التى تؤيد وجوب الرجوع الى التاريخ لربطه بالحاضر حتى ترتكز الامة على دعائم سياسية وروحية من ذاكرة الشعوب وآفاق حيويتها وديمومتها •وهم يتهمون فىدعوتهم هذه بالرجعية • والمحافظة العمياء • ثم انهم يقضون اوقاتا أخرى مع جماعة أخرى للبرهنة على وجوب التقليل من شأن الماضى والاعتناء بالمستقبل حتى تعرف أمة اليوم انها أكثر قدرة من الاجيال الغابرة على خوض معركة الحضارة الجديدة ،فيتهمون حينئذ بالانسلاخ عن الوطنية والاصالة ، ويرمون بالالحاد والتبعية • ولا أعجب من هذا المؤمن الملحد ، الوطنى الكافر بالوطنية ، الرجعى التقدمى ،الصريح المنافق ، الذى يصوره الرأى العام تصويرا مختصرا فى ثنائية متناقضة لانه حاول أن يعرف بعيوب الماضى ومحاسنه بالنسبة لحياة الامة الزاحفة فى معركة النمو •

وليس هذا بدعا فى عراك الاجيال والافكار ، فالحروب بين المحافظين والمجددين كثيرا ما أدت الى بروز حركات توضيحية تتهم كلتى الحركتين بالاطلاق الغامض والانطواء على الذات • وقد يؤدى هذا التوضيح الى نتائج ثقافية لها قيمتها • غير أن الجديد فى جيلنا ليس هو العراك بين محافظة وتجديد ، بل هو العراك بين تقليدين احدهما يرجع بنا الى ماضينا المطلق باسم الاصالةالمزيفة ، والثانى يرجع بنا الى ماضى الآخرين باسم التفتح المزيف •

من الاصالة المزيفة أن تختزن ماضيك كالكنز الصافى ولاترى مافيه من انقاض مثبطة ، وخروق بالية • ومن التزييف أن لا تصب أضواء النقد الذاتى على تراثك الفكرى لتعرف مافيه من ثغرات وعجز وانحراف وانحطاط •

ومن الاصالة المزيفة أن تغوص فى أعماق الماضى بخيالك وعاطفتك فتفتش عن الاصل الاصيل ، أبعد فأبعد ، حتى تصل الى ما قبل الحضارة وتدعى انك تكتشف فيه جذور القيم ، وجمال التقليد ، وليس لديك معيار لهذا الالتفاتالرجعىالا ادعاء استرجاع الماضى المفقود ، وليس أبشع من القبيلية كمثال لهذه الاصالة التى تدعى صلاحية القيم البدائية فى عصر العراك الحضارى الطاحن •

ومن التفتح المزيف أن تدعى الالتحاق بركب الحضارة بنقلك مبتكرات الآخرين بكيفية صورية تجعلك تنسلخ عن هويتك تدريجيا حتى الفناء •

وفى معركة التعريب أحسن مثال لنا لتقدير الموقفين • فالمنتمون الى الاصالة المزيفة يدعون معاملة التراث اللغوى والادبى معاملة تقديس لا معاملة فعالية ، ولا يهمهم تمرين اللغة العربية على خوض معركة العلم والتقنية بقدر ما يهمهم الاستماع الى عذوبة انغامها والتغنى بعبقرية تراثها • وهناك المنتمون الى اصالة مزيفة من نوع آخر وهم اولئك الذين يلفقون « الفرعونيات » والاقليميات فيدعون

احياء التراث فى اللهجات المحلية يعوضــــون بها العربية ، سعيا وراء الاصالة الاكثـــر أصالة فيما يزعمون • فدعاة التبدى تحت شعار التأصل الابعد ، فى بلادنا رجعيــون ، عمي فى رجعيتهم الى أقصى حدود العمى ، لانهم يضـــيعون الوقت والجهد فى الرجوع الى ما قبل الحضارة وما قبل الثقافة بدعوى التأصل المتين • والفريق الاسوء رجعية من هؤلاء وهؤلاء ،هم الذين يصرحون بالاستغناء عن لغتهم الوطنية لصـــعوبة تمرينها على العلم والتقنية ، فيدعون الى التمسك بلغة مستعمريهم تمسكا أبـديا لانها الصق بالعلم واكثر انتشارا ، ويتنـاسـون أن اللغة كنه الهوية وعنوان الشـــخصية بها يصمد المجتمع او يذوب وبواسطتها تسـتفحل التبعية أو يتحقق الاستقلال ، وان اللغة بالقوم ، يفعلون بهـا ما يشاؤون ، فهى ملتصقة بالعلم ان أرادوا أو هي متأخرة عنه ان تأخروا ، وان اقتراض لغة الآخرين اقرار بالتأخر وتقنع بقناع الند وذوبان فى هويتـه أبد الآبدين •

فاهل التأصل المزيف فى مثل هذه المعركةتقليديون ورجعيون يدعون التقدمية لانهم يزعمون التخلص من رواسب الاستعمار وبناء الشخصية بالرجوع الى الاصل الاصيل ، وأهل التفتح المزيف تقليـــديون رجعيون أيضـــا ، يدعون التقدمية لانهم يزعمون التمسك بالحضارة والعلم ، مع انهم منسلخون عن ماضيهم ومتمسكون بماضى الآخرين •

هذه أمثلة من ســـوء معاملتنا للماضى مع ان منهجية الرجوع اليه سهلة وبسيطة ولكننا نحتقـر هذا السهل البسيط •

لم يعد التاريخ نفسه فى يوم من الايام ولن يعيد ، واذا حاول مجتمع ما اعادته بالاسراف فى التقليدية فتلكم هي القهقرية والمسخ • ان التاريخ ذاكرة ،



وعبرة ، ورأسمال حضارى لما فيه من تجـــارب لن تعاد ، ومكتسبات لن تضيع وفشلا لن يتكرر •

الشعبية والانقياد للامية :

وفى التأصل بالانغماس فى الشعبية عيوب مثل عيوب تعشق الماضى الخام • هبنا نساير الثقافات الشعبية فى اقليمياتها المشـــتتة ، وفى تعويضها المعرفة بالخرافة ، وتفضيلها الفلكلور على التفكير ، والكلام المتناثر فى مهب الرياح على الثقافة المضبوطة فاننا ستصبح منجرين الى الاميــــة والانهيار • فالشعبية المسايرة اصالة مزيفة • وليس من المحبة لشعبك ان تداهنه فى عيــوبه وتتملق له فى بدائيته وشعوذته • ومثال هذه المداهنة ما نشاهده اليوم من التعلق الاعمى باللهجات المحلية والتعشق للتفاهات الفنية لانها ، فيما يزعمون من صميم الشــــعب • وكثيرا ما تختفى من وراء الشعبية أخس الرجعيات التى تتوق الى ابقاء الجماهير فى ظلام أميتها لتتأكد ثقافة الاعيان ومبادىء الطبقية بما ينجر معها من

تعالى الانسان على الانسان وابخاس المواطن للمواطن فى نفسه وأشيائه ·

أما الاقليمية التى تتستر من وراء الشعبية فعرقية صريحة محتقرة للشعوب او استعمار حقود لا يتوب عن تفرقته للامم · فسموم الاثنوغرافيا متسترة من وراء العلم والموضوعية وليس الاعتناء بالاعراق والاجناس فى خصوصياتها اللغوية والطقوسية الا اعتناق لعقيدة استعمارية ترمى من وراء المحافظة على الاجناس المشتتة ، الى القضاء على الشعب كشعب موحد يرتكز على وحدته للنهوض الحضارى والعلمى ·

ان التأصل بالشعبية يختلف عن كل هذه المواقف اختلافا جذريا · ان ينطلق من مبدأ محافظة المثقف على شعبيته فى سلوكه ، واتصالاته ، ومصادر وحيه ، وتوجيه مجهوداته ·

والشعبيةاشتراك مطلق بينابناء الامة دون تمييز جهوى أو طبقى أو مهنى فى عمليةالخروج منالتخلف الفكرى الى مستوى المعرفة العلمية ، حتى لا تتعدد التناقضات ولاتتأزم الفوارق ، وحتى لاينتقل جزء من المواطنين الى حضارة القرن العشرين ويبقى الجزء الآخر محصورا فى المحافظة على عتاقته التافهة ·

ولا أرى الشعبية الحقة الا فى تجنيد المثقف نفسه من أجل التوعية المستمرة ، وتبليغ المعرفة الى أكبر عدد ممكن من المواطنين ، سعيا وراء نقل شعب من أميته الى مستوى التأهل للثقافة العلمية ·

ان الداعى الى الشعبية العاطفية عندنا قد يرى الخير كل الخير والحكمة كل الحكمة فى البساطة الشعبية ، وسذاجة الحياة ، ويلتمس كل الغنىوالعمق فى الانتاج الثقافى المنحصر فى مستوى القبيلة أو مجموعة القبائل ، ويرى انه لا يجوز المس بهذه الثروات التى يمكن أن تصبح مصدر اصالة ، ان لم تصبح فى يوم من الايام مصدر سعادة بالنسبة لكل المتضايقين من حضارة العلم والتقنيات · ولكن موقف هؤلاء الدعاة لا يزيد على انه هواية للعتاقة ، وتملص من الواقع الحي ، لان السعادة والخير والحكمة صور عاطفية وذاتية محضة يتصورها هواة العتاقة من صميم انفسهم بينما الشعب يتخبط فى الفقر ، والجهل ، وكوارث التخلف التى تكاد ألا تحصى · وقد يجوز لابن الحضارة الغربية الذى ينتحل الاثنوغرافيا علما ان يتعشق البدائية ، بعد ان ضاق ذرعا بحضارتهالمعقدة ، ولكنابن الامة الجديدة التى لا زالت تتوق الى الخروج من التخلف لا يجوز له ان يتظاهر بالانغماس فى الاصول ، وامته لا تزال تشتكى من التباطؤ فى هذه الاصول ·

أما دعاة الشعبية الفعالة فهم مناضلو الفكر الذين يرون أن العدالة تقتضى اعطاء قدر أدنى من الثقافة لا يمكن النزول دونه لجميع ابناء الامة دون تمييز ، ودون اتكال على تطور الصدف ·

وليست القضية قضية انتظار الاجيال الصاعدة وانقراض الاجيال النازلة ليتحقق بكيفية تطورية هذا الهدف الاجتماعى بل ان دور مناضلى الفكر دور ثورى يتطلب تعبئة كل الوسائل فى الحال · وانه لمن السذاجة ان ندعى اننا رواد الامم فى هذا الميدان لان ماضينا مملوء بالنضال الثقافى ، ولكنه من الغباوة أيضا ان نقول اننا لا نستطيع القيام بمثل الحملات التى قام بها الفيتناميون ، والصينيون ، والكوبيون من أجل محو الامية ومظاهر التبدى والعتاقة فى بضع سنين · وما رأينا فى الوجود أمة تبكى على فقدان عتاقتها وتتضايق من الحضارة الا أن تتوق الى حضارة أسمى وتتهم حضارتها الحالية بالتخلف والقصور عن أهداف التقدم والرقى ·

بهذا تتضح حدود الشعبية كنضال ثقافى لصالح

الشعب ويظهر انها مخالفة تمام المخالفة لشعبية الانقياد الى الامية ومسايرة الاقليميات المشتتة ٠

من مظاهر المقاومة فى الثقافة الجزائرية :

اما الآن وقد حاولنا ان نرفع الالتباس عن معنى التأصل بالماضى والشعبية ، فاننا نتيح لانفسنا أن نرجع الى هذين المفهومين لنرى من خلالهما كيف كان دور الشعب الجزائرى دورا نضاليا فى فترات من تاريخه ٠ وليس معنى هذا اننا نؤمن بصلاحية الطرق التى استعملت فى ذلك الماضى القريب او البعيد ، بل يقتصر ايماننا على قدرة الشعب فى الكفاح واختراعه وسائل النضال والمقاومة ولو كانت ضعيفة فى بعض الاحيان ٠ وان دراسة مثل هذه التجارب الماضية لا ينفى انتقادها والتاكيد من انها أصبحت تجارب لا يمكن أن تعاد ، أو أغلاطا لابد أن تجتنب ٠

لقد كان استمرار الثقافة الجزائرية وضمان بقائها مربوطا أوثق الارتباط ببقاء الامة فى حيويتها وديمومتها رغم الظروف السياسية التى كانت تنتابها ٠ ولم تكن الامة فى حياتها الثقافة مقيدة بوجود سلطة مركزية تخطط لها معارفها أو نخبة من الاعيان تقودها الى عقيدتها ، بل كانت الامة تبرهن اكثر ما تبرهن عن قوة وجودها ، اذا فقدت هذه السلطة المركزية ، وانعدم هؤلاء الاعيان من المثقفين ٠ ذلك ان حيوية الامة كانت دائما مصحوبة بالتزام الجماهير بعقيدتها وصمودها امام العقائد المهاجمة ٠ وليس من المهم أن نبحث عن عمق هذه العقيدة الشعبية او بساطتها ، وانما المهم هو الحماس وقوة الالتزام الذى كانت تبديه الجماهير حين تتبناها وتنهض للدفاع عنها ٠ والبحث عن وحدة الثقافة الجزائرية لا يمكن أن يكون خارج هذا الاطار ٠ اننا نتكلم اليوم باعجاب عاطفى عن شخصيتنا المقاومة وقدرتها على الادماج وصمودها للاندماج ، وليست هذه الظاهرة الا وجها من وجوه



من معاقل الثقافة الوطنية
ونبع المقاومة الوطنية

حيوية الجماهير فى مواقفها الثقافية ــ الحضارية على الخصوص ٠ انه حقا لا يمكن اعتبار الطابع الجماهيرى للمقاومة حلا لكل لغز تفسر به ديمومة ثقافة تصدت لاشد الهجومات عنفا ، ولكنها الظاهرة الاساسية لتفهم هذا الاستمرار ٠ طبعا ، لقد أصبحت أمة اليوم غير أمة الماضى ، ولئن كانت أمة القديم مناخا روحيا وبشريا ذا حدود غامضة ، فقد أصبح اليوم متأطرا فى أوطان جغرافية ،ومخططات اقتصادية واجتماعية،

ورغبات واضحـــه فى كل ميـــدان ولمتبـــق الثقـــافـة الصالحـــة بالامس هى الثقـافـة الصالحة لعالم اليوم · ونحن نشـــاهد الآن تطلع الاجيال الى آفاق ثقافية اكثر فعالية تجاه مشـــاكل التنمية ومعاركها · وان سرعة التحـــول المجتمعى تجعلنا ندرك ان مطالب ثقافتنا التى كانت صحيحة منذ عشر سنين ، أصبحت قليلة الجدوى فى الوقت الحاضر · ولا ننكر للتراث القريب منا أو البعيد فى خزائن التاريخ مشاركته فى اقامة البنـــاء الثقافى المعاصر غير ان هذا التراث يجب ان يلتقط بسرعة البرق ، اذ نحن متسابقون مع غيـــرنا فى العراك الحضارى ، ولا يجوز لنا التباطؤ فى البكاء على الاطلال · ولكن هذا التسابق الذى يقتضى كثيرا من التحولات الجذرية يقتضى من جهة أخرى بقاء القدر الادنى من مكونات الشخصية الوطنية التى كانت فى القديم شخصية الامة بمعناها الروحى الاوســـع · وهذا القدر الحيوى الادنى الذى تنعدم الشخصية بانعدامه كان دائما هو النواة التى وقع المحافظة عليها فى ابان الازمات الكبرى ، وبه دخلت الامـــة اليوم فى معركة الانبعاث والنمو · وتتمثل هـــذه النواة فى اللغة القومية قبل كل شيء ، وفى الطاقة المكيفة للامة ، وهى تلك الطاقة التى لم تترك انحرافا الا وهضمته ولا انتاجا هامشيا الا وادمجته · فبهذه الطاقة استرجع الشعب ابناءه الناطقين بغير لغتهم ، وطوقهم تطويقا محكما بحيوية الروح الجماعية الى أن انصهر انتاجهم كامل الانصهار مع الاتجـــــاه النضالى لثقافتنا · ولو كنت مؤمنا بالضــــمير الجماعى لقلت ان هذا الضمير الحى هو الذى يسهر على التكييف المستمر لكل انتاج حتى تتحقق وحـدة الثقافة وديمومتها · وما هذا الضمير الا يقظـــة الجماهير ووعيها الذى تراقب به كل حركة ثقافيـة تمسها فى شخصيتها · ولقد عرفنا هذا فى فترات ثلاث من تاريخ أمتنا :

التشدد العقائدى فى عصور الانحطاط :

من المعروف ان المغرب العربى دخل فى « عصوره المظلمة » ابتداء من أواخر القرن الرابع عشر ، حيث ظهرت نكسته العسكرية بالاندلس ، وتناقص العمران « والحضارة كما يقول ابن خلدون » وكسدت أسواق العلم » والثقافة ، وتكاثرت الفتن ، وتدهور الاقتصاد والظاهرة الاكثر بروزا فى تشخيص هذا الانحطاط كانت لاشك هي تشتيت الامة ، والرجوع الى البداوة فى كثير من الجهات وانعدام الســـلطة المركزية أو ضعفها فى كثير من الاحيان ·

ولكن من العجيب أن نشاهد حيوية ثقافية من نوع خاص ابتداء منهذا العصر حتىمجيء الاستعمار · وذلك أن الشعب أخذ على عاتقه القيام بدور المحافظة على عقيدته وثقافته فى هذه الآونة مخترعا وسائله الخاصة للتليغ ومجندا كل طاقاته لنشر هذا القدر الادنى من العقيدة التى كانت قد انتقلت من الابداع الى الجمود منذ قرون · فلقد كانت العقيدة السنية بما تحمله من توحيد أشعرى وفقه مالكي مبسطين الى أقصى الحدود تكون القدر الادنى من المعرفه المشتركة التى لا يجوز لاى فرد من الامة أن يجهلها، ولا يجوز لاى مثقف أن يتحلى بها دون غيره منابناء أمته · وبرزت الى الوجود فى هـــذه الاونة شتى المؤسسات الثقافية التى كانت الجماعات تسهر على انشائها وبقائها: من مدارس ، وزوايا ، ورباطات ، ومساجد مسحت الاوطان مسحا حتى وصلت الى الجهات النائية المنعزلة وتعدت حدود الوطن الى ما وراء الصحراء والسوادين · وبعد ما غطت كثبان الرمال « طريق الذهب » ظهرت للوجود طرق الثقافة التى هى طرق الشعب الضعيف اقتصـــاديا الغنى بحماسه العقائدى · وانطلق آلاف « الطلبة » الفقراء الحاملينلبضاعة ثقافيةمتواضعة ، يجوبونالنواحى

القاصية وينشئون المدارس والزوايا ويبثون العقيدة فى تشاد ونيجر ونيجيريا ، وجهات أخـــرى من أواسط افريقيا · ولم يكن هؤلاء المثقفون من ابنـاء المدن الزاخرة بالعلم والحضارة ، بل كانوا من ابناء القرى الصغيرة مثل تمنطيط بالنسبة لفقهاء شمال نيجيريا ، وتوكورت ومتليلى بالنســبة « للطلبة » التجار المســـتوطنين فى النيجر ، وعين ماضى وتماسين بالنسبة لدعاة التيجانية فى مالى وغينيا ، ومازونة بالنسبة لمناضلى السنوسية فى تشاد ·

وكانت العقيدة شديدة التماسك اذ ذاك لانهـا انتقلت من طور التفنن الفكرى وتعميق المفاهيم ، الى البساطة الضامنة للانتشار بين الجماهير · وكانت « الكتب الحمراء » التى تحقق بقاء هـذه البضاعة الثقافة بين الشعوب صفحات قليلة يمكن حفظها حتى من طرف الاميين ،فالتقت بذلك وســـائل التبليغ الكتابى بوسائل التبليغ السمعى وتساندت التقنيتان ضمانا لاكبر ذيوع ممكن بين ابناء الامة · فمن هذه « الكتب الحمراء » أرجوزة ابن عاشر الاندلسي فى الفقه المالكي ، وصحف السنوسى التلمســـانى فى العقيدة السنية الاشعرية ، ومختصر ابن أجـــروم البربرى فى العربية · وكانت فى هذه الوســـائل المتواضعة استعدادات كافية للصمود أمام كل هجوم ثقافى · وقد رأينا زحف الاستعمار يكلل بالتفوق العسكرى ، ولكنه ما لبث أن ادرك بأن الحرب أهم وأعمق فى ميادين الثقافة لان منطلق كل صمود أو هجوم من طرف الجماهير المقاومة كان فى حيويةهذه العقيدة البسيطة التى أضحت موزعة بكيفية عادلـة على كل المواطنين · وكان تكالب الاستعمار اذ ذاك على الثقافة ودعاتها ومؤسســـاتها تكالبا لم يأت بمثله التاريخ ·

التفكيك الاستعمارى ومحافظة الانقاذ :

وخط الاستعمار خطته فى الابادة الجذرية لكل جماعة او مؤسسة لها ادنى دور ثقافى ، ولم تبق أية مدرسة الاونسفتهـا المدفعيـة نسفـا ولم تسطع أية زواية أن تنجو بنفسها الا باذعانها لســـلطات الاستعمار ، ولم يبق رجل دين يتردد على المساجد معلما ، الا اذا خضع لاوامر السلطات الفرنســية فى الاقتصـــار على تعليم الطقوس · وما لبث الاستعمار بعد هذه الخطة التفكيكية ان أخضع بعض « دواجن » الدين وكون منهم أعوانه على الشعب · ولكن الجماهيـر كانت اكثر شـعورا مما يظنه الاستعمار وأعوانه ، فقاطعت الثقافة الرســمية « المستدجنة » بكل ما أوتيت من عـــزيمة وأباء · ودامت هذه المقاطعة المصـاحبة للتفكيك الاجتماعى والاقتصادى اكثر من ستين سنة رأى فيها الشعب المشرد المطرود من أراضيه المحروم من مؤسساته ان يلجأ الى المحافظة على القليل الاقل من مكتســبات ثقافته الشعبية · وكانت هذه المحافظة على القـدر الادنى ، مصحوبة بحماس عارم عند أمة فقدت كل شىء الا أملها فىاسترجاع شخصيتها وتجديد بنائها الحضارى · ولم تمر مدة طويلة حتى تقلصت الثقافة الدينية التقليدية فى أقلية من أعيان المدن يداهنون الاستعمار فيعربون له عن التمسك بالنظام والامن ، ويتمتعون معه بالتعالى على الشعب المقذوف به فى ظلمات الجهل وعذاب التشريد · وكانت هذه الفترة الحالكة فى حيـــاة الجماهير متميزة بالمحافظة الشـــديدة على بعض انقاض الثقافة فى مظاهرها السمعية على الخصوص · فصارت النصوص تحفظ حفظا بدون فهم ، وأصبحت المعرفة وعاء شكليا كأنه يحمل بسرعة الى شاطىء النجاة · وكثيرا ما أفلت فى هذه المدة بعض الافراد من شبكة الاســـتعمار والتحقوا بجوامع تونس أو القرويين أو الازهـــر لطلب العلم ، ولكنهم حين عودتهم كانوا يراقبون

مراقبة تضييق واجتزار ليعدلوا عن الاتصال بالشعب وكثيرا ما كانوا ينفون من اوطانهم حتى ينقطع كل تاثير ثقافى ، وحولت الزوايا والمساجد فى هـذه المدة الى بيوت شعوذة وتخريف وموالاة للسلطات الفرنسية ، فرأى الشعب أن يعدل عنها الى ما لديه من وسائل ضعيفة فى المحافظة على القليل الباقى من شخصيته الثقافية ٠

وبرزت للوجود المدن الجديدة كمراكز للاستعمار، وكان سكانها من الجـزائريين هم ابناء القرى والبوادى المطرودون من أراضيهم المخلوعون عـن أطرهم الاجتماعية المفككة ، المشردون الى مجاهـل المكان والزمان ، المحافظون على قليل من الامل فى بناء الامة من جديد ، فجاء فى هذه الظروف وابتداء من سنة ١٨٥٠ الشعر الشعبى داعيا الى المقاومة بين هؤلاء السـكان المعذبين ٠ وانفجرت ثقافة « المداحين » يتظاهر شعراؤها بـ « مـدح » النبى والصحابة ولكن انفجار أدبهم الشعبى كان صرخة مزعجة فى وجه الاستعمار واثارة للحماس الشعبى بتذكير الجماهير بماضيها وسطواتها على أعدائها وقيمها الكبرى التى تتمثل فى الشجاعة والجهاد ٠ ولم يكن للمداح ، سواء أكان شاعرا أو راوية مدرسة ينتسب اليها أو حركة منظمة يتقيد بخطتها ، ولكنه كان المتجول الابدى الذى يعقد حلقات الانشاد فى كل مدينة وقرية ، وينتقل من مكان الى مكان بسرعة البرق ، كانه فى حرب عصـابات مع شـرطة الاستعمار ٠ وقد يبدو هذا النوع من الثقافةالشعبية تافها اذا قيس بميزان العقل لانه يتلخص فى الملاحم العابثة بالتاريخ المرتكزة على الاساطير ٠ ولكننا نعلم ان هذهالثقافة الجماهيرية كانتآخر ملجأ لانقاذ ما تبقى من قيم الامةوآخر مرحلة من مراحل المقاومة المستميتة ٠ وقد حفظ شعراء الشعب عزة الامـة بوسائلها الثقافية الضعيفة التى لا تتعدى السـمع والالقاء والتى لم يبق لها من ذكريات التاريخ الا بقايا يحيط بهاالضباب ويزحف عليها النسـيان ٠ وبطولة هؤلاء الشعراء الشعبيين كانت تتلخص فى صرختهم الثورية حينما انهـارت كل مقاومة وأيام سكتالفقهاء ورجال الدين ٠هذا وتعد نوعية الانتاج الملحمى غير قابلةلمقاييس النقد المنطقى أو التاريخى، لان غرضها لم يكن تثقيف الناس ثقافة دقيقة ،ولكنها كانت ترمى الى اثارة الحماس وبعث الامل فى الامة بكل الوسائل وبالاسـطورة على الخصوص لانها أثبت فى الخيال وأقوى ارتكازا فى عواطف شـعب رده الاستعمار الى أسفل درك من الامية ٠

الفشل الذريع لثقافة الاعيان :

اننا اذا استثنينا معلم القرآن الذى كان يحافظ على القدر الادنى أو دون الادنى من المظهرالصورى للثقافة ، واذا استثنينا الشاعر الشعبى الذى كان يحمل المشعل الخافق المضـطرب للمقاومة ، فاننا سنجد مخطط الاستعمار ناجحا بعض النجـاح فى محاولته تحويل الامة عن مبادئها الثقافية ٠ ذلك أن ثقافة الاعيان حلت ، بكيفية تدريجية محـل ثقافة الجماهير ٠ فكان أعيان المـدن يتحلون بالمعارف الشكلية التى لا تصلح الا للتظاهر والمفاخـر بالعلم وأصبحت الثقافة العربية قوقعة فارغة تستعمل للزينة والتفوق على « العوام » ٠ ولم يمر ربع قـرن حتى بدأت المدرسة الفرنسية تنشىء أجيالا جـديدة من النخبة المتحلية بالثقافة الغربيةوتكونت ثقافة الاعيان هذه فى مرحلتين ٠ أما المرحلة الاولى فقد ظهر فيها جيل لم يتخل عن تقاليد ثقافته الاسلامية رغم تمكنه من اللغة الفرنسية ، وبقى فى نفسه أمل للتخلص من القمع الاستعمارى رغم تفاهة الوسائل التى كان يلجأ اليها ٠ وهو جيل الامير خالد وابن رحـال ورفاقهما ممن كانوا يواجهون عنف الادارةالفرنسية

بالخطب العاطفية التىتحاول اقناع الخصمبالرجوع الى العدالة والانسانية . غيـــــر ان هؤلاء المثقفين الاعيان كانوا بعيدين كل البعد عن الجماهيرالمشردة وكانهم يلعبون دور الترجمان عن عواطفالامة صاروا منفصلين عنها بسبب مخالطتهم للاستعمار وقبولهم لمخطط تكوين النخب الاهلية كواسطة بين الشـعب وسلطات الاحتلال .

وتبع هذا الجيل جيل اخر من اعيـــــان الثقــافة الغربية تنكر كل التنكر للجماهير الشعبية ، وسـفه علانية احلام الامـــــة ، وطعن فى الثقافة العربية الاسلامية طعنا كان يمليه عليه الاستعمار بكيفية غير مباشرة ، لانه كان يلقن ذلك تلقينا فى كل مرحلة من مراحل التعليم الفرنسى . وتكاثرت الحركات المبشرة باللائكيـة والعــالميـــة التى يتستر من ورائهـــا الحقد على الثقافة الاسلامية كقوة للصمود ، وعلى اللغة العربية كمحور لوجود الامة . واعلن كثير من المثقفين الجزائريين انســـلاخهم الكلى عن العروبة والاسلام وانقادوا جهارا لحــــركة الادماج ، ولم يدركوا ان اعتناقهم هذا المذهبالسياسى كان تتويجا للمخطط الثقافى الذى اخضعوا له وكيفوا بواسطته فى مدارس الاستعمار . وكان الشعب يراقب بدهشة هذا المسخ الذى خلق من ضلعه فيحتار فى معاملته ولا يستطيع ان يبادله العداوة والاحتقار لانه منطينة الامة مهما كان مشوها لها . وتباعدت المســـافة الاجتماعية والثقافية بين الجماهير وهؤلاء الاعيان فكان شبه التقاطع يتبعه الصراع الطبقى بين النخب المتكتلة المنتفعة بامتيازات الاستعمار ، والشـــعب الذى لا يزداد الا فقرا وتشـــريدا وتوغلا فى ظلام الامية .

الانبعاث الثقافى وحيوية الامة والجماعة :

غير ان الامة كانت بالمرصاد لكل هذه الحركات الثقافية الهامشية التى تتجاهل الجماهير وتتحداها فى معتقداتها . ولم يكن التحلى بالحضارة والعلم سلاحا كافيا لتبرير موقف الاعيان المنحـــرفين عن شعبهم ، المعلنين اندماجهم فى المجتمع الفرنسى ، فاصبحوا بينخيبة امل وتانيبضمير ينتظرون مجرى الاحداث . وكانت صـــرخة الانبعاث التى اطلقتها الحركة الاصلاحية باسم الامة : ان لا اندماج ، ولا تبعية ، ولا ثقافةاعيان ، وان الحياة الثقافيةالطبيعية بالنسبة لهذا الشـــعب كانت ولن تكون الا ثقافة الجماهير .وسكت شعراءالشعب عن تبشيرهم بالجهاد سكتة واحدة حينما ادركوا انبعاث الامـــة على يد علمائها المناوئين للاستعمار . وتبنى الوطن كله هذه الحركة المجددة لانه شـــعر بابعادها النضـــالية واستعدادها لتجديد الكفاح وكانت الاسسالعقائدية التى جاءت بها تتلخص فى تحــــديد كيان الامة والشخصية الجزائرية حول محورين اساسيين هما اللغة العربية ، والاسلام كدين وحضـــارة . ولم تقتصر هذه النواة العقائدية على الجانب السياسى بل اعلنت عن اعتناقها للعلم والعقلانية كجسرين لابد منهما للوصول الىالتمدن والرقى . ثم اصبحت هذه العقيدة المبســـطة تلقن للجماهير على يد الدعاة المنتشرين فى انحاء الوطن . وكان الامة عادت الى عهود ثقافتها الاصيلة تتبناها بحماس وتنشـــرها بروح نضالية لانها ثقافة الشعب ، وثقافة مقاومة الاعداء . وظهرت المؤسسات الثقافية المفقودة منـذ ستين عاما فتكاثرت بسرعة البرق وحملها الشعب حملا على اكتافه رغم الفقر والجهل الذى كان يتخبط فيه . وكانت المدارس العربية الاســـلامية تصلح بالمساء ما تفسده بالنهار المدارسالفرنسية .واعلنت الحرب دفعة واحدة على الاستعمار وعلى الاعيان ، وعلى شبه الثقافات المشعوذة . اما الاعيان من دعاة العلم العصرى فقد وجدوا فى العقلانية الاصلاحية

احسن سلاح يواجههم ، وأما رجال الطرق ومن التف حولهم من ابناء الشعب المغرورين فقد وقعت مجابهتهم بالدين نفسه ، وأما الاستعمار فكان لابد من محاربته بخلقوحدة متينة بين الاحزابالسياسية الجماهيرية والاصلاح بصفته حركة ثقافية شعبية . وحققت الامة المشتتة بناء وحدتها من جديد كما حققت انبعاث عقيدتها واسترجاع شخصيتها باسترجاع لغتها . واذا اردنا ان نضرب مثلا في تحقيق هذه الوحدة فما علينا الا ان نرى كيف التف السنيون المالكيون وسنيو وادي مزاب حول عقيدة واحدة ، وهي العقيدة السلفية الاصلاحية بما فيها من تفتح للعلم والمدنية . ولولا حرص الامة على استرجاع وحدتها لمجابهة الاستعمار لما تحقق مثل هذا الاتفاق ، فكانتالروح الجماهيرية النضالية هنا ايضا هي المحرك الاساسي في كل هذه العمليات السياسية والثقافية ومهما كانت الانتقادات التي وجهها جيل ١٩٥٤ أو توجهها الاجيال الحاضرة للحركة الاصلاحية ، من اتهامها بالعقم المبكر ، أو ميلها احيانا الى سياسة المسالمة ، فانه لا يمكن لاي منتقد أن ينكر ان هذه الحركة الثقافية الكبرى ردت الى الامة كيانها وحيويتها ، وبعثت اللغة العربية من مرقدها ، وردت بالثقافة الى مجراها الطبيعي الذي يتمثل في صفاتها الجماهيرية . وكانت بكل هذا خير مهيء للثورة التي تبعتها ابتداء من ١٩٥٤ .

من مشاكل الحاضر :

اما الآن وقد علمنا ان الثقافة الجزائرية ما فتئت منذ اكثر من قرن ثقافة شعبية مقاومة تخترع الوسائل والاسلحة للقيام بدورها النضالي ، فلا يعني هذا اننا ننتظر من طاقة الشعب وحيويته أن تخترع أسلحة جديدة لمشاكل العصر . لقد كان المجتمع في الماضي يجيب عن المشاكل بوسائل قوية أحيانا وضعيفة أحيانا اخرى ، وكان يخطط بوعي في بعض الاطوار ويترك للصدف مشاكله أطوارا أخرى . ولقد عزمنا منذ بعيد على الانتقال من مجتمعالتطور بالصدف اليمجتمع الثورة والتخطيط الواعي . ولا يمكن أن يقال ان في التاريخ أجوبة للمشاكل الحالية . ان العبرة الوحيدة التي يجب أن نستخلصها من كل عروض التاريخ هي أن ثقافة الاعيان فاشلة مهما كان تفننها وان الثقافة الوحيدة التي يمكن أن تعد ثورية هي الثقافة الجماهيرية النضالية . ولا يمكن ان يقال ان عهد النضال قد فات لان معارك التنمية اشد وطأ من معارك التحرير السياسي اذا أحصينا الثقافة كسلاح في هذين الميدانين . والعبرة هي ان نقيس ايضا بثقافةالاعيان في القديم ثقافة البيروقراطية والتينقراطية المرتفعة على الشعب في أبراج مكاتبها . وسنرى اننا تقليديون نتخبط في التقليدية دون شعور . اننا نقلد الاستعمار في سلوكه الثقافي ، نتحلى بالمعرفةونتفنن فيها ولا نشاطر ابناء وطننا حتى القدر الادنى من المعرفة الذي يضمن الخروج من ظلمات الامية . لقد خلق هذا الشعب مناضلين للثقافة عبر القرون منهم الفقير والطالب ورجل الرباط المجاهد ، والمبشر من وراء الصحراء والمداح ، والمصلح الديني ، ولكن هذه الشخصيات كانت نتاجا لمجتمعات وظروف لن تعاد ، ولن يبرز للوجود أي واحد من هذه الشخصيات . غير ان الداعية الذي يجند نفسه من اجل ثقافة مناضلة تتفق مع مقتضياتالعصر ومعارك النمو والتوعية ، وتجعل الشعب منطلقها وهدفها ، يمكن أن يوجد اليوم . وذلك حتى لا تتقلص ثقافتنا التقنية في حلقات الاعيان التي لن يكون مآلها الا الفشل الذريع .

نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر

د. هشام الصفدي

« ينبغى على من يشترى ارضا زراعية ان يبيع بيته فى المدينة ، حتى لا تبقى لديه تلك الرغبة التى تدفعه الى عبادة (آلهة) منزله فى المدينة بدلا من عبادة (آلهة) الريف . والمرء الذى يجد متعة اكبر فى مقره فى المدينة ليس بحاجة لامتلاك اراضى فى الريف »

ماغون القرطاجى

من بين العوامل العديدة التى دفعتنى لكتابة هذا المقال محاضرة القاها مؤخرا استاذ اجنبى زائر فى كلية الاداب بعنوان : « اهمية المعرفة التاريخية لبلد كالجزائر » . وبما ان المحاضرة كانت نصف ارتجالية يمكن تلخيص النقاط الرئيسية فيها بما يلى :

— اشادة بماضى الحضارة العربية ، وبالتالى دعوة للاهتمام بهذا التراث فى منجزات دولتى المرابطين والموحدين !!

— والى جانب الاهتمام بالثورة الجزائرية ، وبدور المناضل الامير عبد القادر ، يوصى المحاضر مستمعيه بالعناية بماضى بلادهم فى الحقبة السابقة للاسلام مباشرة : وهى حقبة الاستعمار الرومانى .

— وبالمثل يوصى المحاضر بالعناية والتسامح فى تفهم أعمال قطب من اقطاب الفكر المسيحى فى شمال افريقيا الرومانية هو القديس اوغسطين .

وعلى العموم تركزت المحاضرة على المواضيع الخاصة بالعهد الرومانى ومنجزاته الكبيرة فى شمال افريقيا ، مثلما تركزت حول اوغسطين باعتباره ابا للكنيسة اللاتينية .

واذا عاد الانسان الى عنوان المحاضرة ، مال الى الاستنتاج بان المعرفة التاريخية الضرورية للمواطن الجزائرى تنحصر فى النقاط السالفة الذكر .

لما كان المقال لايستهدف فى هذا المجال نقد المحاضرة سواء من حيث استيعابها لعنوانها الضخم او من حيث تقيدها بالدقة والايجابية فى تحديد اطارى الزمان والمكان بالنسبة للمعرفة التاريخية التى يحتاجها اى بلد عموما — والجزائر التى لم تلتئم بعد جراحات ثوارها خصوصا — فاننا سننتقل مباشرة الى طرح بعض المشاكل المرتبطة بصميم تاريخ الجزائر ومعالجتها .

تاريخ الجزائر : بداياته وابعاده

اذا كان مدلول التاريخ فى اوسع معانيه قصة ماضى الانسان ، فان تاريخ الجزائر يبدا منذ ان بدا الانسان تفاعله الهادف مع البيئة فى منطقة شمال افريقيا . ولقد تميزت الجزائر بصفة خاصة فى ان بدايات هذا التفاعل تعود من جهة الى عهود باكرة موغلة فى اعماق الزمن ، ومن جهة اخرى تقدم بقايا الانسان الباكرة فى مواقع مثل : عين حانش وباليكاو ... الخ ، المفاتيح الاولى لمواضيع حساسة جدا فى تاريخ الجنس البشرى عامة .

وعلى الرغم من ان دخول انسان الجزائر الباكر الى التاريخ — او ما قبل التاريخ حسب التعبير العلمى — قد تم بهدوء وبدون ضجة ، نجد آثار هذا الحدث لا تبقى كذلك ، بل انها تزداد شمولا واتساعا سواء فى المكان او فى الزمان . ومن جديد اذا انطلقنا من الحقيقة التى تقول : فى انه لا يوجد شىء انسانى حقا دون ان يكون على قدر من الاهمية فانه يحق بشكل جدى ان نضع بداية تاريخ الجزائر جنبا الى جنب مع بدايات جهود انسان المنطقة فى التلائم مع البيئة . وهى جهود تصب سواقيها فى بحر الحضارة الانسانية . ولقد تركت الادوات والبقايا المادية التى خلفها ذلك الانسان سجلات بسيطة استخدمت فيما بعد لترجمة فعالياته الفكرية او جهوده عامة : الايجابية تارة والمتعثرة اخرى ، وما اكثر الصور الجدارية التى تملأ شعاب الصحراء فى الهقار

وتاسيلي ، والادوات الحربية في مرامل الوديان وفي كهوف مشتى العربي وسيدي عبد الرحمن . انها تكون المساهمات الاولى التي شارك فيها سكان المغرب القدماء في عمليتي التحضر والتطور الطويلتين وتعبر عن نفسها في ثقافات معينة كالثقافات الوهرانية ، والقفصية ... الخ .

منذ ان بدأ الانسان المغربي خطواته الاولى في طريق الحضارة قامت في وجهه مشكلتان اساسيتان : علاقته بالبيئة ، وعلاقته بالاخرين ، وهي علاقات لن تكف عن التفاعل الا اذا كف الجنس البشري عن الوجود ، هذه المشاكل طرحت نفسها بقوة على واقع الانسان المغربي القديم ، وشكلت له « تحديات » عديدة ، يفترض عنه وفقا لنظرية المؤرخ توينبي — ان يتقدم نحوها « باستجابات » مناسبة يكون مجموعها رصيده التاريخي : بماله وما عليه . ومع نهاية العصر الجري الحديث يلاحظ ان علاقة الانسان المغربي مع بيئة تكاد تكون معطياتها تصبح ثابتة . وهي تفرض نفسها حتى اليوم متمثلة في مجموعة « ثلاثية » الاطراف تتألف من : سهل ، وجبل ، وصحراء . لكل منها شروط خاصة بها تضمها جميعا جزيرة كبيرة يحيط بها بحران : واحد من الماء المالح ، وآخر من الرمال اللاهبة ، هي جزيرة المغرب .

لن نحاول هنا التفصيل في دور عامل المناخ والبيئة الحاسمين على استجابات الانسان في كل منطقة من المناطق الثلاثة ، بل نكتفي حاليا بالاشارة الى الموضوع الاول في هذا المضمار : وهو موضوع البداوة والترحل ، ونظام الحياة الاجتماعية الناشئة والماثلة باستمرار منذ آكثر من خمسة الاف سنة في تاريخ الجزائر وفي مناطق كانت خضراء مخصبة ، ثم تحولت تدريجيا وبسبب الجفاف والانجراف الى صحاري وسهوب . هذه الشروط البيئوية لن تتغير معطياتها وأثارها القوية على تاريخ المغرب الا عند ما يسيطر الانسان بشكل فعال وكاف على الطبيعة وبالدرجة الاولى على موارد المياه فيها او موارد الطاقة (1) . علاوة على ذلك شكلت هذه الوحدات الجغرافية الثلاثية ، والحواجز القائمة بينها عقبات في وجه الوحدة السياسية حتى لقد وجد من المؤرخين المعاصرين من يتحدث عن « لعنة جغرافية » كأميل فيليكس جوتيه وآخر يتحدث عن «ديمومة جغرافية » في المغرب — « شارل اندريه جوليان » تتحدى التغيرات السياسية نظرا للصراع الذي كان قائما بين سكانها ...

وهكذا يتضح لدارس تاريخ المغرب ان « ثلاثية » البيئة هذه نتج عنها وكان يقابلها بشكل مستمر عبر التاريخ « ثنائية » في التنظيم الاجتماعي تتألف بشكل رئيسي من بدو ومن حضر . ولقد تأرجحت حدود هذه الثنائية الاجتماعية وفقا لاعتبارات سياسية احيانا . ولا بد ان نذكر حقيقة راهنة تتلخص في ان الوافدين على المغرب من فنيقيين ، ورومان ، وبيزنطيين ، واسبان ، وايطاليين ، وفرنسيين مارسوا انماطا في المعيشة لم تستهدف الانسجام مع معطيات « ثلاثية » البيئة ، في حين انفرد العرب المسلمون الذين قدموا من بيئة جغرافية مشابهة للمغرب — سواء في التأقلم

1) سنقدم هذا الموضوع في بحث عنوانه : « دور الصحراء في تاريخ الجزائر » .

مع واقع البيئة الجديدة أو في مشاركة أهل المغرب ، ثنائيتهم الاجتماعية ولقد تم ذلكبسرعة لعوامل عديدة

العلاقة مع الاخرين : هنا نأتي الى الشق الثاني من الموضوع وهو علاقات السكان مع بعضهم ومع الاخرين . فانه يتأثر كما رأينا بالاعتبارات البيئوية الجغرافية التى رسمت الى حد كبير انماط حياتهم الاجتماعية . ولا يعنى ذلك اهمال العامل البشرى الذى رسخته طبيعة الحياة القبلية من جهة ، وحياة المدينة من جهة اخرى في انماط معينة .

واذا كان من السهل نوعا ما دراسة علاقةالانسان المغربى القديم (انسان ما قبل — وفجر التاريخ) ببيئته ، على ضوء المخلفات المادية التى تركها ، فاننا لن نجد نفس السهولة في بحث المعالم الباكرة لعلاقاته مع الاخرين . خاصة وانه لم يسجل اعماله انذاك بواسطة الكتابة لذلك سيكون من السابق لاوانه رسم صورة نهائية لما كان عليه التركيب البشرى في المراحل الباكرة وعلى الاخص طرح فرضيات يحلو للبعض ان يحولوها على الزمن الى مسلمات تاريخية حول الانسان والارومات العرقية . وفي هذا الميدان ما يزال أمام ابحاث ما قبل التاريخ والانتروبولوجيا المغربية عمل كبير لسد الثغرات القائمة في تاريخ السكان الاوائل .

ومع بدء الحقبة التاريخية تلوح في المغرب ظواهر خاصة في العلاقات البشرية ستبقى الخطوط الرئيسية فيها متشابهة حتى فترة قريبة . فهنا لك جماعات من البشر أطلق عليهم الاغريق والرومان اسم : ليبيين ونوميديين وموريين ، كانت تقطن منذ فجر التاريخ على الاقل منطقة المغرب وتمارس انماط معيشة تتراوح بين الترحل الكامل وبين الفلاحة والرى .

وهناك أدلة اثرية تسبق ادعاء المؤرخ ابيان « بان ماسينيسا علم النوميديين الزراعة » تشير الى ان النوميديين لم يكونوا رحلابالمعنى الانتروبولوجى لهذه الكلمة الاغريقية الاصل « نوماد » ، بل كانوا الى حد كبير فلاحين — رعاة للماعز . فينتقلون بقطعانهم من المراعى العالية في الصيف الى المراعى المنخفضة في السهول في الشتاء ، ويمارس جانب منهم زراعة الحبوب كالقمح والشعير بالاضافة الى معرفتهم للكرمة وشجرة الزيتون . واشتهروا بكونهم فرسانا محاربين مربين للخيول ينتظمون اجتماعيا في سلالات تستند على قبيلة أو على تحالف قبلى . وبما ان نظام الحكم اعتمد الى حد كبير على التكوين القبلى ، يلاحظ ان القبائل نفسها لا تتفق دائما بسبب وجود مبدأ الفريقين . وتتأرجح تحالفات الفرقاء وتسود بين انصار الحاكم واعدائه من القبائل . ويرى المؤرخ تولفل ان كلمات نوميديا وموريتانيا ليست الا أسماء ذات مدلول للاجانب اكثر منها لابناء المنطقة ، وحتى بالنسبة للاجانب يتأرجح المدى الارضى الذى يقابل هذه التسميات . فالقبائل تتجمع في المكان وتنمو فيه ، وتنحل فيه وهذا التأرجح يقدم صعوبة كبيرة لتشكيل مفاهيم ثابتة للحكم وللدولة ولعل هذه الظواهر يشترك فيها قدماء المغاربة مع سكان شبه الجزيرة العربية ، حيث تساهم البيئة الى حد كبير في دفع التنظيم الاجتماعى في هذا الاتجاه . ولا بد من الملاحظة اننا مازلنا نفتقد الى المعلومات الوافية بالنسبة لهذه المرحلة الهامة من تاريخ المغرب . ذلك ان النتائج التى توصل البعض اليها تعتمد على دراسات اتنوجرافية وسوسيولوجية للقبائل المعاصرة ، ومن ثم القياس على النتائج

بالنسبة للاوضاع في الماضي البعيد . وهذا عمل محفوف بالمخاطر .

بالنظر للعوامل الجغرافية والبشرية السابقة الذكر تشير الظواهر الى ان المغرب القديم كان يفتقر في العهود الباكرة من تاريخيه الى عنصرين اساسيين هما : « نظام المدينة » اى العاصمة ، و « الوحدة السياسية » اى الدولة الموحدة . وهي عناصر توفرت في وادى النيل من قبل ، ثم حققتها الفينقيون في موطنهم الجديد في المغرب .

مع احتكاك اهل المغرب بالشعوب الاخرى يبدا التاريخ بالحديث عنهم وعن مناطقهم . وكان المصريون ثم الفينيقيون والاغريف في طليعة هذه الشعوب . ولعل المشكلة الرئيسية في هذا المجال تكمن في ان ما نملكه من معلومات حول هذه العلاقات يعتبر وحيد الجانب : اى من كتابة الاخرين . فلا نجد حاليا في المغرب القديم مقابلا للاخبار والسجلات التى دونها الفراعية عن صلاتهم الوثيقة بالليبيين . كذلك تبقى الكتابة الفينقية الوسيلة الرئيسية لتسجيل الاحداث في المغرب حتى يحتك اصحابها بالاغريق وبالرومان . وبالنظر لضياع السجلات والوثائق الفينقية بفعل الدمار الذى لحق بقرطاجة نتيجة الحروب البونية ، وبالنظر للوضع الراهن المتعذر بالنسبة للكتابة الليبية يفتقر تاريخ المغرب القديم الى وثائق ومصادر على جانب كبير من الاهمية ، كان المفروض فيها ان تغطى حقبة الالف الاول قبل الميلاد ، ويبقى النصف الاول منه بصفة خاصة محفوفا بالغموض والظلام .

من بين المواضيع الهامة في هذه الفترة ، والجديرة ببحث خاص ، نشير الى العلاقات المغربية الفينقية التى قامت مبكرة منذ القرن الحادى عشر ق . م . على الاقل . فمنذ تأسيس مدينة اوتيكا وغيرها من المحطات الساحلية وحتى بعد قرون عديدة من تأسيس قرطاجة ، استمر النوميديون والليبيون يمارسون حياتهم وتطورهم وفق الانماط الخاصة بهم ، نظرا لان الفينيفيين لم ينتشروا الا على رقعة ضيقة من الساحل المغربى ، وبقى الجارامانت يشكلون جسرا بين افريقيا الاستوائية وساحل البحر المتوسط .

واذا قبلنا الطابع السليم والتعاونى الذى يوحى بهكل من قصة الملكة ديدون ، ورحلة حنون للعلاقات المغربية ــ الفينقية الباكرة ، يتوجب على المؤرخين وعلماء الآثار ان يفتشوا في هذه المرحلة بالذات عن جذور التبادلات الحضارية والمادية التى تمت بين افريقيا الشمالية واسيا الغربية . فبدون تحديد للعناصر التى كان الفينقيون واسطة لنقلها من المشرق الى المغرب وتلك التى جاءت حصيلة الابداع والتطور المغربى ، لا يمكن اعطاء صورة واضحة لما تم في هذه المرحلة الحاسمة وبواسطة دراسة ميدانية ومكتبية تعتمد اولا على علم الآثار سيتحقق للمؤرخين تصنيف مراحل التطور في العلاقات ضمن مراحل محددة نطلق عليها اصطلاحا اسم : مرحلة فينقية ، واخرى قرطاجة وثالثة بونية ــ ليبية ، مازلنا للأسف نفتقر الى تحديدات كرونولوجية دقيقة لها سواء بشكل مباشر او عن طريق الربط مع تقديم زمنى مجاور . ان دراسة موضوعية من هذا النوع كفيلة بتقديم اجوبة وفيرة على عدد من علامات الاستفهام المحيطة بتاريخ المغرب الباكر . وهى

ستضع نهاية لاستنتاجات واحكام بعض المـؤرخين كالمؤرخ جوليان (1) مثلا ، الذى يحتم بشىء من القدرية بان طبيعة المغرب مسؤولـة عن قصوره عن الاستقلال ، وان جمود سكانه يمنعهم من التطور حينما يقول :

« مهما رجعنا الى اوائل تاريخ افريقيا الشمالية لاحظنا ان الامور تجرى كما لو انه كتب على هذه البلاد ان تبقى قاصرة قصورا وراثيـا عن التمتع باستقلالها ... فالمدنيات المتتـابعة التى طرات من الخارج لم تكن بالنسبة الى البربرى الا ثيابا متنوعة تستر جسدا وروحا لا يتغيران ... » .

واذا رجعنا الى التاريخ البعيد والقريب لوجدنا انه فى تجربتين متماثلتين فى تاريخ المغرب ، الواحدة تمت فى عهد يوغرطا ، والثانية فى عهد عبد القادر لم تكن « الطبيعة ، ولا القصور الوراثى » ، بل قوى خارجية عن المغرب مسؤولة عن سـحق حريتـه وايقاف تطوره .

مصـادر تاريـخ المغـرب

ذكرنا بان التاريخ بدأ بالحديث عن المغرب القديم منذ ان احتكت به الشعوب الاخرى . وكان الفراعنة والفينقيون فى طليعتها . ثم اخذت المنابع بالازديـاد منذ احتكاك الاغريق والرومان به . ويعتبر المؤرخان الاغريقيان هرودوت وبـوليب في طليعـة من تناول المغرب بالرصف والدراسة .

ويتلو ذلك كتابـات المؤرخين اللاتـين امثـال سـالوست ، وتيت ــ ليف ، وبلينى وديوكاسـيوس وبروكوب ٠٠ الخ ، وبالاضافة الى كتب التاريخ هناك مجموعات هامة من الكتابات السـامية والاغريقية واللاتينية تتصل من قريب أو بعيد بتاريخ المغرب ، عثر عليها فى مناطق مختلفة من البحر المتوسـط وجمعت في مجلدات خاصة ٠ وعلى مر الزمن عدت هذه المؤلفات رغم ما فقدمنها مصـادر رئيسيـة ، واستخدمها المؤرخون الاروبيون التالون لانتـزاع المعلومات منها الى اقصى حد يتيح ازاحة بعض الظلام المخيم على المغرب وعلى علاقاته الدولية .

ولا يخفى على القارىء ان الكتاب الاغريق واللاتين ينتسبون الى شعوب تحيزت بعدائها للفينقيين ولأهل المغرب لذلـك لا تتصـف كتابـات الكثـيرين منهم بالموضوعية التامة ولا بالجهد للوصول الى الحقيقة التاريخية السليمـة ٠ وعلى الرغم من ان اعمـال المؤرخين الاغريق واللاتين تتناول احـداث الالف الاول قبل الميلاد ، نجد أن القرون الستة الاولى منه تكاد تكون مهملة . ولقد حظيت الكتب الاغريقية اللاتينية باهتمام المؤرخين الاروبيين التالين ، فاشتط الكثيرون فى اخذ ما جاء فيها من معلومات بشـكل حرفي وباعتبارها الحقيقة النهائية بالنسبة لاخبار أهل المشرق،بما فيذلك سكانالمغرب القديم، ومع قيامعلم الآثار وممارسة التنقيب فى مواقع المغرب التاريخية مثل قرطاجة وليكوس وسيرتا ، بدات معلومـات المصادر الكلاسيكية تقابل بمحك النقد والتمحيص ، فتوجب تصحيح أو رفض بعض المعلومات السابقة احيانا ، وفى بعض الحـالات جاءت نتائـج البحث الاخرى تؤكد صحة الاخبار السالفة ,خاصة عند ظهور وثائق كتابية اصيلة ومعاصرة .

1) جوليان تاريخ افريقيا الشمالية ، تونس 1969 ص 65

واذا حاولنا ان نقدم لمحة موجزة عن ما يمكن تقديمه من نقد لهذه المصادر ، فسيكون ذلك من قبيل ضرب الامثلة العملية ، وقد نكتفى بابسط جانب ونعنى نقد التسميات التى وردت فيها .

1) ــ فاسم الفينقين ليس من وضع اصحابه ، ولكنه من وضع الاغريق الذين اطلقوا على الساميين من سكان الساحل السورى اسم صباغة الارجوان « فونيكس » التى اشتهر الفينقيون بها . وفيما بعد حرف الكتاب اللاتين كلمة « فينقى » الاغريقية الى « بونى » اللاتينية .

2) ــ ونفس الشىء ينطبق على تسمية النوميديين الذين اشتق الاغريق اسمهم من طريقة معيشتهم . وفى ذلك يقول المؤرخ بلينيوس : « نسمى نرميديين اولئك الناس الذين يطلق عليهم الاغريق اسم « نوماداس » . أى رحل .

ثم استعير اسم الشعب ليطلق على البلاد التى يسكنها فغدا اسمها نوميديا ، علما بان شمال افريقيا كانت تعرف سواء من قبل المصريين او من قبل الاغريق باسم ليبيا .

3) اما الرومان فقد اطلقوا على جزء من سكان المغرب اسم « بربر » وهو اسم مشتق من الاغريقية « بار ــ بار » ويعنى الهمج . وكان الاغريق ينعتون به غيرهم من الشعوب ، وبصفة خاصة الاقوام الشرقية التى لا يفهمون لغتها . وبتأثير الفلسفة الرواقية زال المفهوم القومى لهذه الكلمة ، فاخذ الناس يرون فى البرابرة والعبيد بشرا ومع الزمن اتخذت تسمية « بربرى » مدلولا ثقافيا فشمل كل الذين لم يساهموا فى الثقافة الاغريقية الرومانية

وترد هذه التسمية عند المؤرخ سالوست : « كان اوائل سكان افريقيا الجتوليون والليبيون ، وهم اقوام خشنة وبرابرة يقتاتون بلحوم الحيوانات المتوحشة او من اعشاب المروج على طريقة المواشى » .

يتبين من الشواهد السابقة ان ما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون عن المغرب من تسميات مشوهة ومعلومات لا تلتزم بالدقة قد تم فرضه من جانب واحد .

ثم اخذ المؤرخون التالون هذه المعلومات واعتبروها شبه مسلمات فعلى الرغم مثلا من ان المؤرخ جوليان يعترف « بان البربر لم يطلقوا على انفسهم هذا الاسم ، ولم يروموا استعماله فانه يعتبره افضل تسمية لشمال ارفريقيا » !! ومن الغريب ان بعض كتاب التاريخ المعاصرين من ابناء المنطقة يعيدون اقتباس بعض هذه الاخطاء دون ان يطبقوا عليها مبادىء النقد التاريخى . ولو سأل احد « الفينقيين » عن اسمهم الحقيقى لاجابوه بانهم « صيداويون » نسبة الى مدينة صيدا ، او اجابوه بأسم شعبهم عامة ، كما اجاب القديس اوغسطين من بعد بانهم « كنعانيون » .

4) ــ ونفس مبادىء الشك والنقد يمكن تطبيقها على بعض المعلومات الواردة من كتب المؤرخ بوليت حول اعداد الجنود الذين اشتركوا فى الحرب اثناء غزوة القائد الرومانى ريغولوس على شمال افريقيا او فى ثورة الجنود الليبيين الملقبين « بالمرتزقة » على قرطاجة ... او فى تحليل المؤرخ سالوست لاسباب ثورة يوغاطا ، بله نزاهته كموال وكمؤرخ لشمال افريقيا .

5 — أما المؤرخون المعاصرون الذين عالجــوا تاريخ المغرب عامة ، فان بعضهم لا يتأخر عن توجيه كتابة التاريخ اتجاهات معينة سواء لضرب الوحدة الوطنية او لتبرير الاحتلال كلما كانت مصالح بلده المستعمر تتطلب ذلك . وما اكثر ما كتبه المؤرخون المعاصرون عن تمجيد الاستعمار الروماني في شمال افريقيا ، وما أشادوا بالازدهار الذي حقق للمنطقــة وما أبرع المقارنات التي كانت تعقد بين منجزات الرومان وأعمال الفرنسيين فيها ، وهناك مؤرخ عالم كالمؤرخ جزيل يرسم في كتابه « الجزائر في العهود القديمة ، عام 1900 » الطريق للاستعمار الجديد حينما يحلل الوضع الجديد مستفيــدا من اخطـــاء الاستعمار القديم : « ... فبينما كانت الجزائر عام 1830 منطقة بربرية ، وجد الرومـــان فيها مدنا مزدهرة وكثيرا من الاراضي المستثمرة . فكان عليهم انذاك ان يطوروا جسدا كان قويا من قبل ، ولم يكن عليهم ان يعيدوا الحياة الى جثة .

فلم يصطدموا لا باحقاد قومية ولا بأحقاد دينية ... ولم يكن ضروريـــا لهم لكي يثبتوا سيـــادتهم ولكي ينشروا لغتهم وعاداتهم ان يملأوا البلد بالمستعمرين . وهناك عدد كبير من الافريقيـــين قبلوا طواعيـــة الحضارة التي جاءهم بها الرومان . صحيح ان الكثير غير هؤلاء فضلوا الاحتفاظ بعادات ابائهم ، نجد ان روما ومن بعد بيزنطة وريثتها اخطاتـــا بأنهما لم تبذلا محاولات قوية لكي تحول من مشاعرهم . وهذا كان بالنسبة لروما وبيزنطة عربونا للسلامة . وقد اخطأتا قبل كل شيء بانهما لم تقيما في افريقيا مؤسسة عسكريـــة قويـــة الى درجة تخولها من طرد الناهبين البربر ومن ايقاف الغزوين الجرماني والعربي ... » .

اخيرا اليس الغاية من تقديم بعض الشواهد حول مجالات نقد المصادر الطعن في كل ما تتضمنه هذه من معلومات حول ماضي المغرب ، بل رغم ذلك تبقى مصادر على درجة من الاهمية . غير ان الهدف الحقيقي من طرح المشاكل **بدء حقبة جديدة من وعي سليم لتاريخ المغرب .**

صحيح أن الدراسات التاريخية باللغة العربية قد قصرت في هذا الحقل لاسباب عديدة ، كان التخلف الذي فرض من الخارج ومن الاستعمار بالذات في مقدمتها . فيضاف الى ذلك جهل باللغات القديمة الاغريقية — اللاتينيــة أو الســـامية ، وافتقار الى المكتبات الضخمة ، وحرمان من ممارســـة البحث الآثري . واليوم يحتم مستوى البحث العلمي المعاصر اسلوبا جديدا في معالجة ودراسة تاريخ المغرب القديم . فالمصادر الكلاسيكية وكتب التاريخ المعاصرة التي اعتمدت عليها تكاد تستنفذما لديها من امكانيات في تقديم صورة كاملة سليمة أي قريبة من الحقيقة التاريخية . والثغرات العديدة الواسعة التي ما تزال قائمة ضمن فصول هذا التاريخ لا يمكن رابها الا بالرجوع الى المصادر المادية : اى بالرجوع الى كل ما خلفه سكان المغرب من انتاج يدهم وفكرهم عبر القرون . هذا التراث الهام ما زال يكمن تحت التراب لا في مواقع المغرب التاريخية الوفيرة ، بل ينتشر في ارجاء حوض البحر المتوسط وجزء من سوريـــا ومصر الى ايتاليا واسبانيا . ان مسؤولية استعادته وتنقيح ما يشوبه من شوائب تقع بالدرجة الاولى على ابنائه وعلى المختصيـــن فيه . وبتضامن جهود

علماء الآثار مع علماء اللغات والمؤرخين والانتروبولوجيين يمكن التصدى بشكل جدى لهذا العمل ، اما الباحثون الناشوؤن فسيجدون انفسهم محتاجين للتسلح بعدد من اللغات الحية ، وآخرمن اللغات القديمة ، واخلاصا منهم للموضوعية سيكونون ملزمين بالتقيد باختصاص عميق فى حقبة معينة وحضارة خاصة . فالعصر الذى يتصدى شخص بمفرده لكتابة تاريخ الانسانية من عهد آدم الى اختراع البخار قدولى الى غير رجعة .

لماذا نهتم بتاريخ المغرب

قد يتساءل البعض : «لماذا يتوجب علينا ان نعرف تفاصيل الماضى اطلاقا ؟ » ، و « ما فائدتنا من دراسة مخلفات قرطاجة او من الكشف عن اطلال تمقاد وبنى حماد ؟ » اجابة على هذه التساؤلات نعيد الى الذاكرة ما سبق لنا التاكيد عليه سابقا . **فلا يوجد ثمة شىءانسانى حقا بدون اهمية .** فالماضى لا يشكل فقط جذور تلك الدراسات التى تلوح فى جوهرها مستقلة عن الزمن : كالرياضيات والعلوم . بل يمكن للماضى ايضا ان يقدم مفتاحا للمشاكل المطروحة فى حياتنا الحاضرة والتى لا تستطيع العلوم الطبيعية — على الاقل — فى مرحلتها الحاضرة من التطور ان تفسرها . هناك اشياء يمكن للشعوب ان تتعلمها من التاريخ ، ولا يمكن تعلمها من الفيزياء او من الرياضيات .

فى دراستنا لتاريخ المغرب يمكن ان نعثر على مقدمة مفيدة للمواضيع المعقدة التى يريد ابناء المغرب ان يتفهموها او يتصدوا لها . وسواء كانت المشاكل المطروحة هامة أم تافهة ، بعيدة أم قريبة فان بعض المعلومات الصحيحة عن ماضى هذه المشاكل يمكن ان تساعد على معرفة ما يجب عمله . وليس التاريخ بهام كأهميته فى التصدى لموضوع حيوى : كموضوع مستقبل المغرب والمشرق العربيين عامة ، او صياغة مستقبل الجزائر خاصة . ولكى نعرف **ما يجب عمله يجب ان نعرف اين نقف .** فالتاريخ تعبير عن كبرياء الشعوب . والشعوب كالاشجار الحية تزداد مقاومتها للاعاصير كلما رسخت جذورها فى أعماق الارض .

بين ماضى المغرب وحاضره

ا — الثورة الزراعية :

فى يومنا هذا ولم تمض عشر سنوات بعد على استقلال الجزائر ، يتردد فى ارجاء المجتمع الجزائرى اصداء عميقة لثورة زراعية . ثورة تعيد التوازن بين افراد الوطن الواحد ، وتحقق لهم فرصا متكافئة فى الحياة . الارض والعمل مصدران اساسيان للرزق « والارض لمن يعيش عليها ومن اجلها » .

ويلوح للبعض وكأن هذه الشعارات مستحدثة فى المغرب اومستوردة . ان نظرة فاحصة الى الماضى البعيد ترى أن شعارات مماثلة نادى بها على ارض المغرب عالم من علماء الزراعة الاوائل هو ماغون القرطاجى . ولقد الف ماغون كتابا هاما فى الزراعة . طبقت مبادئه فى ريف الدولة القرطاجية ومزارعها ، واعتبرت سببا هاما من اسباب ازدهار الاقتصاد الزراعى الذى اشتهرت به الدولة القرطاجية . بل ان مجلس الشيوخ الرومانى يأمر بترجمة كتاب ماغون الى اللاتينية بعد سقوط قرطاجة (1) .

1) سلم كتاب ماغون من الفناء بفضل ترجمته الى اللاتينية والى الاغريقيــة

خلد ماغون فى كتابه المؤلف باللغة الفينقية وجهة نظر القرطاجيين بالنسبة للملكية الزراعية ، وبالنسبة لعلاقة الانسان بالارض عند ما قال ناصحا مواطنيه : « ينبغى على من يشترى ارضا زراعية ان يبيع بيته فى المدينة ، حتى لا تبقى لديه تلك الرغبة التى تدفعه الى عبادة (آلهة) منزله فى المدينة بدلا من عبادة (آلهة) الريف . والمرء الذى يجد متعة اكبر فى مقره في المدينة ليس بحاجة لامتلاك اراضى فى الريف » .

وفى الحقيقة اعتبر القرطاجيون عمل الفرد فى مزرعته واشرافه بنفسه على العناية بممتلكاته الزراعية مدعاة للفخر . وكان الفلاحون يتجمعون ضمن قرى ولا يسمح لهم ان يعيشوا متفرقين .

وقد حرصت قرطاجة على عدم تفتيت الاراضى الزراعية نتيجة تناقلها بواسطة الارث ، وانتقلت هذه المبادىء الى ايتاليا وصقلية فعادت بفوائد جسيمة على الدولة الرومانية . ان اطلاع المواطن على نتائج تجربة زراعية مماثلة للتجربة التى يتصدى لها — قامت على نفس ارضه وبيد اسلافه — كفيل بأن يبث الطمانينة فى النفس ، وبان يزيد الثقة بالمستقبل ، والمشاكل التى تتصدى لها الشعوب متشابهة فى جوهرها طالما بقى الانسان المحور الرئيسى فى العلاقة مع البيئة والزمن .

ب — « افريقيا الرومانية » والقديس او غسطين

فى معرض الحديث عن العلاقات الاجتماعية فى تاريخ المغرب وحضارته الحاضر منها بالماضى، لابدلنا من عود على بدء . عود الى الذين يدعون للعناية بتاريخ « افريقيا الرومانية » والاهتمام بشخصية اوغسطين : اذ انه من باب المصادفة الغريبة ان تلقى هذه الدعوة صدى عاجلا لها فى مشروع أولى للبحث العلمى » اعد مؤخرا .

نعم لقد كان اوغسطين من ابناء المغرب واشتهر بالخدمات الكبيرة التى قدمها للكنيسة المسيحية . وكان علما من ادبائها بذل اوغسطين جهده لنشر الدين المسيحى فى « افريقيا الرومانية » بالفكر وبالعمل بين ابناء قومه . الا ان اوغسطين رغم ما يتمتع به من فصاحة البيان وتعدد الالسن يلقى المقاومة والاعراض من كثيرين منهم .

لذلك اذا استعرض المرء اعماله فلابد أن يعرضها كاملة اى ان يضعها فى اطارها الصحيح . وباعتبار اوغسطين من ابناء المغرب لا يكفى فقط ايضاح دوره الدينى بالنسبة للكنيسة بل لابد من تبيان طبيعة علاقته بمجتمعه المغربى ، لان هذه العلاقة قد تكون مرآة لعصر .

بعد انتصار الرومان على قرطاجة وبدء احتلالهم للمغرب ، نجد اهل المدن يبدأون فى استعمال اللغة اللاتينية وتتخذ الارستقراطية المحلية آلهة رومانية بينما يحافظ ابناء الشعب على عباداتهم ولغتهم السابقة ، وعلى دخول المسيحية الى شمال افريقيا يلاحظ ان عدد معتنقيها يكثر بالمثل فى المدن وبين افراد الطبقة الارستقراطية . وفى العهد الامبراطورى عند ما تتزعزع هيبة الحكم الرومانى فى شمال افريقيا فى عهد غورديانوس ، تسرع الارستقراطية المحلية للاتحاد مع الكنيسة الرسمية حامية النظام لمقاومة حركة ثائرة مناهضة للنظام الاجتماعى ضمت المعدمين من المواطنين الذين التفوا حول النحلة

« الدوناتوسية » المنشقة عن الكنيسة . واعتبارا من العام 253 للميلاد يتخذ النزاع الذى رافق الازمة الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية صورة صراع طبقى بين المعدمين والجائعين فى الريف والجبال من جهة وسكان المدن من جهة اخرى . ولابـد من الاشارة هنا ان طبيعة الاستعمار الرومانى عملت بحكم منطق الاستغلال ، على ابقاء الفوارق الكبيرة بين هذين العنصرين من ابناء المغرب ، وقد كرست السلطة الرومانية قواتها فى مناسبات عديدة لقهر الثائرين . الا ان المقاومة اتخذت لنفسـها صبغة اجتماعية اخرى تتمثل فى حركة « الدوارين » — (وهم من المعدمين الذين كانوا يدورون حول مخازن القمح لسرقة قوتهم) — يضـاف اليهم الفـلاحون البائسون فى الريف . وانتهز « الدوارون » فرصة الصراع الناشب بين نحلة الدوناتوسيين والكنيسة الكاثوليكية للثورة . وقد اعلنوا انهم « جاؤوا ليملأوا الارض عدلا » وينادوا « العبيد للتحرر » .

من جديد اشتركت الجيوش الرومانية مع الكنيسة فى قمع الثورة فبطشوا بالدواريين وبالدوناتوسيين بكل قوة .

وفى الحقيقة : يلخص راى المؤرخ رينـان موقف الكنيسة الافريقية بالنسبة للسلطة الرومانية من جهة وللمعدمين من ابناء الريف من جهة اخـرى بشكل بليغ : « ان السلطـة تميل الى السلطـة ، اذا كـان من الحتمى ان يحس رجـال محافظون كالاساقفة برغبة ملحة جبارة تدفعهم الى التراضى مع السلطة العمومية ، مقتنعين بان عملها يهدف فى اغلب الاحيان الى الخير العميم ... فحقد المسيحية على الامبراطورية الرومانية ، هو حقد من كتب لهم ان يتحابوا يوما ما » (1) . وبالفعل ساندت قوات الامن السلطة الكنيسية فى محاربتها لنحلة الدوناتوسيين المتمـردين . وهذا يضـطر الدوناتوسيين للاتحاد بالمثل مع حركة « الدوارين » والاستبسال فى المقاومة . وعند ما يتزعم المقاومة امير نوميدى اسمهفيرموس تتخذ الثورة على الحكم الرومانى فى موريطانيا وفى نوميديـا طابعا قوميـا بالاضافة الى الطابع الاجتماعى . الا ان الرومان يتمكنون من اخماد الثورة بالقوة وبالتآمر عام 375 .

فى هذه الظروف الاجتماعية الملتهبة نجد القديس اوغسطين على مسرح الاحداث . فهو اسقف منتخب لمدينة عنابة منذ عام 395 وصديق صميم لاسقف قرطاجة . يتميز بمواهب عديدة : شخصية فكرية ، سياسية ، خطابية وكتابية ... ويسخر مواهبه لخدمة الكنيسة المسيحية . « وكانت الدعوة الى المسيحية فى هذه البلاد — التى تكثر فيها الضيعات الكبيرة — يعين على نشرها بنجاعة الملاكون الكبار الذين كانوا يسعون هم بانفسهم الى تنصير معمريهم والى توطيد الوحدة الدينية فى اراضيهم بنوميديا » (٢) اذ كانت المسيحية بالنسبة للاسياد ضمـانا لحقد طبقـة المعدمين من الفلاحين .

ولقد تم النصر للكنيسة الكاثوليكية على خصومها عند ما اعلن الامبراطور — بناء على طلب من مجمع الكنيسة فى قرطاجة وبتحريض من اوغسطين —

1) انظر جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب مزالي-سلامة-الدار التونسية للنشر 1969 ، ص 296 ـ 301

2) انظر جوليان المرجع السابق ص 307

عام 405 ان النحلة الدوناتوسية منافية لقــوانين الدولة . فنتج عن ذلك قمع وبطش شديدين صمدت لهما حركة الثوار فى نوميديا ، وانفصل الدوارون عن الدوناتوسيين ، وعادوا لنهب المزارع الكبيرة .

تجاه المقاومة الضارية يتراجع الامبراطور على ما يبدو ويعلن فجاة عن حرية العقيدة . فجاء اعلانه ضربة شديدة لمساعى كنيسة قرطاجة عموما ولجهود اوغسطين خاصة . فيعود اوغســطين من جديد ليمارس براعته ومواهبــه فى الدعوة لعقد مجمع دينى بهدف « اعادة الوحدة الدينية » الى الكنيسة . وتجاه الضغط والشكاوى التى ارسلها المجمع الى الامبراطور تظفر الكنيسة من الاخير بسحب مرسوم حرية العقيدة المتســامح ويستجيب الامبــراطور هرنوريوس مرة اخرى لاساقفة قرطاجــة عند ما يصدر الحكم على المنشقين بالعودة الى الكنيســة تحت طائلة التعذيب والنفى ومصادرة الاموال .

بفضل جهود القديس أوغسطين ينتصر الكاثوليك فى شمال افريقيا على خصومهم وهذا ما يزيد فى اشعال حقد المواطنين على الامبراطورية الرومانية وعلى الكنيسة اداتها او على حلفائها الارستقراطية ملاكى الاراضى : لقد اعتمد اوغســطين فى نشــر المسيحية بين قومه مثلما اعتمد فى مقاومتهم على مبدأ من وضعه هو « مبدأ الارهاب المجدى » الذى تمارسه السلطة ضد الخارجين على الكنيســة . أما سياسة الكنيسة فكانت تقضى بمساعدة الضعفاء شريطة ان يقبلوا بالتفاوت الاجتماعى وبالخضوع . كما اعلنت شرعية الرق . ومن الطريف انه فى خلال ازمة الامبراطورية الرومانية وانحلالها لم يبق الى جانب الكنيسة فى شمال افريقيا الا ملاكو الاراضى يدعمونها . وهذا هو الوضع الاجتماعى الذى آل اليه المغرب فى اواخر ايام الاستعمار الرومانى من انفصال عميق وضع الحكام وكنيستهم والارستقراطية المحالفة من جهة والشعب من جهة اخرى . اذ ان الفريقين يختلفان فى اللغة وفى الثقافة وفى الدين وحينما تهوى الامبراطورية الرومانية فى شــمال افريقيا يبقى الاساقفة وحدهم . ويعلن المؤرخ ستيفان جزيل على ذلك : « بعد ان قبل اهل المغرب القرآن بقى الرهبان والاساقفة وحــدهم المدافعــون عن الحضارة اللاتينية ، وما لبثوا ان اختفــوا فى كل مكان تقريبا وبدأت اللغة العربية بالانتشار ومن المحتمل ان كثيرا من الافريقيين تبنوها بدون صعوبة لانهم مازلوا يعرفون اللغة البونية ذات الاصطلاحات السامية المتشابهة مع العربية .

ولم يبق فى لهجــات البربر الابعض كلمــات لاتينية » (١) .

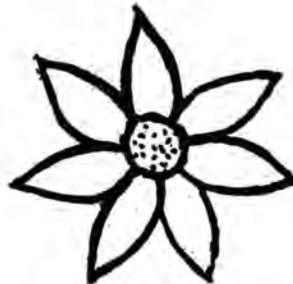
وفى الحقيقة لربما فات المؤرخ جزيل ان يقدم بفيء الاسباب التى دفعت أهل المغرب لاخذ اللغة العربية والدين الاسلامى . فالحضارة اللاتينية سواء بحلتها القديمة اللاتينية امبحلتها الجديدة المسيحية لمتنفذالى قلوب ابناء الشعب المغربى . ودين الامبراطورية الجديد لم يقدم لهم الحد الادنى من العدالة الاجتماعية فقد انحاز رجاله وفى طلعيتهم اوغسطين نفســه الى صف الحكام ، وتخلوا عن كتلة الشعب من الفلاحين الكادحين والمعدمين مما وسع الهوة بين الطبقات .

1 - St. GSELLE, l'Algérie dans l'antiquité, Alger 1900, p. 88 s.

خـــاتمة

فى ختام هذا المقال يتضح ان تاريخ المغرب يشكل وحدة متكاملة تكاد حلقاتها تكون متصلة . والماضى يتصل بقوة بالحاضر فى عنصرين اساسيين هما : البيئة والانسان . وكما قدمنا سابقا ، مازالت البيئة « بثلاثيتها » المؤلفة من سهل وجبل وصـــحراء ، تعرض مشاكل متشابهة وسواء اطلق البعض على هذه الثلاثيـــة اسم لعنـــة جغرافية او ديمومـــة جغرافية ، نجد الجواب عليها عند الانسان المغربى فهو مازال يجابهها ويتحداها « بثنائية » اجتماعية من بدو وحضر تدعمت منذ زوال الحكم الرومانى «بثنائية» جنسية متشابهة الاصول والمنشا . وفى الحقيقة يعتبر انتشار الاسلام فى المغرب الرد العملى الاجتماعى على الديمومة الجغرافية فالاســـلام جاء محققـــا لشرطين كانا عسيرين هما : الوحـــدة السياسيـــة والوحدة الحضارية . مطلبأن عزيزان افتقد المغرب الواحد حينا والاخر احيانا . هذه الحقيقة يتجاهلها المؤرخون الغربيون من انصار الديمومة ـ او اللعنة الجغرافية » . ويمكن القول ان الوحدة الروحية فى المغرب كانت فى الماضى ومازالت أساسا لصهر وتلاحم الثنائية الجنسية . والوحدة الروحيـــة فى الحاضرة قدمت الدرع الواقى الذى تجمعت وراءه ارادة التحرر الحديثة ـــ فانتصرت . ان نظرة الى الماضى توحى بان مستقبل المغرب العربى سيرسى على دعـــامتين اساسيتين : وحدة روحية ، ووحدة اقتصادية . وكما ان الاخيرة لا يمكن ان تكون بديلة للاولى ، فان المغرب العربى الكبير لا يمكن ان يكون بديلا لوحدة حقيقية مع المشرق العربى .

اذا كان للمواطن الجزائرى ان يعى تاريخ بلاده فلابد ان يهتم بكل فصل من فصوله ، فهى مدرسة ، وفيها كما يقول ابن خلدون عبرة ، اما الغموض والظلام الذى يرافق احيانا بعض هذه الفصول فانه لا يرجع الى شذوذ ولا الى نقص ، بقدر ما يعود الى قلة البحث الموضوعى المركز ، ونقص فى المصادر وندرة فى شمول الرؤيـــا .



تهنئة

أحرز الاستاذ عبد الله شريط على دكتورة الدولة فى الآداب برتبة جيد فى موضوع « الفكر الاخلاقى فى فلسفة ابن خلدون » وأسرة مجلة الاصالة تقدم للدكتور عبد الله شريط بهذه المناسبة أحر تهانيها بهذا النجاح العلمى الباهر.

الحقيقة والزيف في مجتمعنا العربي

د. عبدالله شريط

من احرج مشاكلنا الفكرية والنفسية التى نجتازها في مرحلتنا الحضارية الراهنة ، هي حيرة الكاتب عند بحثه اى موضوع · باى طريقة يتناوله : هل ينساق مع منهج الفخر الذى توارثناه عن اجدادنا في الجاهلية ، ونقلناه من الميدان القبلى الى الميدان القومى والدينى والحضارى ؟ وهو منهج ترتاح اليه نفوسنا · ولكنه لا يعطينا نتيجة ايجابية ولا يقدم عجلة تطورنا الى الامام ؟ ام هي طريقة النقد الذاتى الذى يساعدنا على كشف نقائصنا ومعالجتها بفكر مسؤول ، ولكنه منهج قد يحطم طموحنا الى المعالى ويشعرنا باننا اصغر ممانتصور حقيقتنا ، ومن ثم فلا يصبح هذا النقد الذاتى مثل الفخر تماما من حيث النتيجة المعطلة التى تؤدى اليها ·

ذلك ان هذين المنهجين هما الموجودان فيمجتمعنا العربى على اختلاف بين بعض مناطقه والبعض الآخر · فمثلا عندنا فى منطقة المغرب وفى الجزائر على وجه الخصوص نجد الاتجاه يلح اكثر وبدون قصد فى اغلب الاحيان ، على مايمكن ان نسميه بمنهج النقد الذاتى وهو اتجاه تلقائى مفرط فى هذا النقد حتى أن المستمع الى احاديث الناس عندنا،

سواء كانوا مثقفين أو من أوساط الشعب ، يلاحظ بسهولة ان هذه الأحاديث لا تتنـــاول الا النقائص وحتى عندما لا تكون هذه النقائص صارخة فاننـا نلتذ باخراجها من حفرها وابرازها والتشنيع بهـا فيما بيننا ، وحتى امام الاجانب احيانا · وكثيـــرا ما ينعكس هذا الاتجاه عندنا على كتابتنا وابحاثنا فى الميادين الاجتماعية والسياســـية والاقتصادية والثقافية وكل ما يمس حياة المجتمع من قريب أو من بعيد ،وكثيرا ما يأخذ هذا النقد طابع ضمير الغائب: فاذا كنا نسير فى طريق غير معبد كما ينبغى تنهال بالنقد على عمال الطرقات ومصـــالح الاشـــغال العامة · واذا ذهبنا الى المستشفى ولم نجد مكانا أو طبيبا أو ممرضا على الفور ، واذا دخلنا ادارة بريد أو بلدية تتضايق من الازدحام ويشتكى كل واحد منا من كثرة الناس ، وننسى اننا بعض هؤلاء الناس ولكن المسؤول دائما فى نظرنا هي السلطة !

وقد اتخذ هذا النقد المرير الذى لا ينقطع ، طابعا مأساويا عندنا وشعورا بعدم الرضى فى كل الاحوال واذكر ان أحد الاساتذة الشـــرقيين ، وهو رجل فاضل وصريح ، كان يعمل معنا فى الجامعة ، وكنا يوما نحدثه عن كثرة مشـــاكلنا من قلة الامكانيات المادية والبشرية لمجابهة كل الطلبات الملحـة ، وعن تأخرنا ، وعدم جدية اطاراتنا ، فكان ينصت الينـا بانتباه وتعجب ، ثم قال : يا اخوانى · بكل صراحة انا لا افهم معنى لقلقكم واستعجالكم · لقد قطعتم فى ثمانى سنوات من الاستقلال مراحل فى نشر التعليم وتعبيد الطرق وبناء المساجد والمستشفيات وتكوين الاطارات واقامة المصانع والجسور والسدود وو ·· ما لم تحققه لكم فرنسا فى ظرف قرن وثلث قرن · فماذا تريدون اكثر من هذه الغـــاية ؟ ان كل شيء عندكم على احسن مايتمنى المرء لبـــلاده ، الاشيء واحد : وهو هذا القلق والاستعجال الذى اصابكم بالعبوس وقنوط النفس ·

انكم فى حاجة الى شيء واحد · الى انفســاح الامل فى القلب وابتسامة مشرقة فى الوجـــه وفى بعض اقطارنا فى المشرق نلاحظ عكس هذه الظاهرة : فمهما كانت المشاكل من الحدة وعظم الخطب يقابلها الانسان العربى كما لو كانت شيئا طبيعيا لا يستدعى الانزعاج ولا يتطلب الاسراع فى تغيير الاوضـاع · واذكر انى زرت بلدا عربيا يعتبر فى طليعة اقطارنا الناهضة · وكتب لى ان حظيت بمقابلة رئيس هـذه الدولة ، فى مهمة تتعلق بالثورة فى الجزائر ، وكنت اذاك مديرا لمجلة « المجاهد » · وكان يصحبنى فى هذه المقابلة مدير جريدة من كبريات صحف المشـــرق العربى · وانطلقت بكل بساطة اتحدث عن المستوى الاجتماعى المتدهور الذى يلاحظه الزائر لهذا البلد ، شارحا رأيى باننا ما لم نهتم فى وطننا العـــربى بالتكوين الحزبى والثقافى والاجتماعى والسياسى فى شعبنا العربى ، فان مظاهـــر التمدن الغـــربى ستبقى قشرة مصطنعة تختفى تحتها بدائيتنا الحقيقية· وان الاجانب لن يقيسوا رقينا بما اســـتوردناه من عندهم من الآلات والمصانع والسيارات بل يقيسونه بما نحن عليه من المستوى الذهنى والمهارة الحضارية التى هي روح تلك المادة الآلية المتحركة ·

وعند خروجنا من المقابلة صارحنى رفيقى الذى كان يصحبنى باننى كنت قاسيا جدا ، مبديا تعجبـه مما كاد ان يسميه وقاحة · ومعربا عن رضاه الكامل بالاوضاع السائدة فى بلاده وفى جوابى اليه لم اخف عنه تعجبى من تعجبه · ثم سألته : اى فائدة فى ان اعتبر نفسى عربيا فى اى بلد عربى انزل فيه واتحدث مع ابنائه، مسؤولين أو غير مسؤولين ، كما اتحدث مع ابناء بلدى ؟ كما اعربت له عن دهشتى من عدم تنبيهه هو


ابن خلدون


ابن سينا


ماو تسى تونغ

للمسؤولين لهذا النقص فى أوضـــاع المجتمع · ثم استدعيته لزيارة من يشاء من مسـؤولينا ويتحدث اليهم عن النقائص الصارخة التى تتخبط فيها الثورة الجزائرية فان آراءه سنتقبلها لا بصدر رحب فقط بل اننا عندئذ فقط سنحس بأخوته الحقيقية ·

اذن فهناك حالة مرضية فى كلتا الظاهـــرتين : النقد المفرط الذى يخلق جوا ماساويا قلقا مثبطا · والرضى الابله الذى يخلق حالة من الاطمئنـــــان القدرى العاجز ·

اننا فى كلا الحالتين لم نهتد الى الموقف الموفق · كان أحكامنا عن انفسنا ما تزال سجينة التشــاؤم الابكم او التفاؤل المجنح ، وكل منهما يرتكز عـــلى عاطفة طفولية غير ناضجة ومزاج نفسى متهافت · وفى كلا الحالتين ما زلنا محرومين من الحـــــكم العقلى الهادئى المحلل ·

وأذا التفتنا الى تقاليدنا الفكرية القديمة فى هذا الصدد فاننا نعثر بسهولة على أصل هــــذا الموقف المزاجى ، وهو أصــــــل المدح والهجاء فى تراثنا الشعرى القديم · بحيث اذا استثنينا الجاحظ وابن خلدون ، ذاك فى مجاله الادبى المســــلح بالثقافة العلمية ، وهذا فى مجاله الاجتماعى المسلحبالتجربة فاننا لا نكاد نعثر فى هذا التراث على تقاليد للتحليل الفكرى الخالص من ضباب المزاج وغيــوم العاطفة والحكم المرتجل ·

اما اذا رجعنا الى وضعنا الراهن لنبحث فيه عما يمكن ان يزودنا به فى هذا المجال من سلاح ، فاننا نجد الضباب قد تضاعف بدلا من ان ينقشع ،والغيوم تراكمت حتى غشيت امامنا كل رؤية صحيحة ، وذلك بفعل تصادمنا مع الحياة العصرية تصادما اختلطت فيه الحقيقة بالزيف لاختلاط المادة عندنا بالفكر ،

فلم نعد نميز بينهما ولا نعرف ما هي حقيقتنا في هذا الاصطدام ·

وسنعود الى توضيح هذه النقطة بعد ان نوضحها بايجاز من الوجهة الفلسفية : ان هجل يعتبر الوجود الفكرى هو الوجود الحقيقى · فهل كان على خطأ ؟ ان السكة الحديدية قد وجدت فى ذهن المهندسين قبل ان ينجزها العامل · وهو يعنى ان كل وجود عملى لم يسبقه درس فكرى ، فهو صائر الى زوال · ولا يدخل باب الحضارة الخالدة · ووجود المجتمع عنده لا يقاس بوجود افراده ، بل هو يدخل التاريخ منذ اليوم الذى تشكل فيه لذلك المجتمع دولة · لان الدولة وذلك فى الحدود التى تكون فيها الدولة هي عقل المجتمع ، وهى الوجود الفكرى له ، اى الوجود الحقيقي · فالمجتمع لايدخل الوجود الانسانى قبل ان يمتلك العقل اى الدولة ·

واذن فالمجتمع الذى لم يقم على اسس عقلية فهو لا يعد مجتمعا حقيقيا · وابن خلدون من ناحيته يعتبر الوجود العملى هو آخر مرحلة فى الوجود النظرى· بحيث يكون الوجود الاجتماعى الذى لم يركب مطية الفكر الى الوجود العملى فلا امل له فى الوجود الحقيقى · ومن ثم كرس كل جهده الى فهم المجتمع العربى ذهنيا لانه لاحظ ان هذا المجتمع بقى محروما قبله من هذا الوجود الذهنى الذى هو الوجود الحقيقى · ولعل ما يسميه الاستاذ « ناصيف نصار » بواقعية ابن خلدون هو هذه الواقعية الفكرية التى افتقدها المجتمع العربى قبل ابن خلدون ، اى افتقد وجودا مدروسا ومحللا ، ينتقل به او يرتفع من الوجود العملى (Empirique) الى الوجود العلمى المعقلن · لقد الح الاستاذ ناصيف نصار على عنصر الفكر فى واقعية ابن خلدون · وهذا الالحاح ياخذ فى نظرى اهميته الكبرى من ادخال عنصر الفكر هذا فى الوجود الخام لكي يصبح وجودا حقيقيا · وابن خلدون فى هذا الصدد يلتقى مع هيجل فى غاية واحدة ذهب اليها كل منهما عن طريق خاص به ·

وهذا ما نريد من ناحيتنا ان نبنى عليه مشكلة الحقيقة والزيف فى مجتمعنا العربى · وليسهل علينا توضيح الطريق الى هذا الغرض سنقسمه الى ثلاثة ميادين رئيسية هي : الميدان الحضارى ، والميدان السياسي ، والميدان الثقافى ، محاولين ان ندعمها بامثلة ماخوذة من وقائع حياتنا الاجتماعية ·

الميدان الحضارى :

قلت قبل قليل ان وضعنا الراهن فى مجتمعنا العربى يتميز بالتصادم الذى اختلطت فيه حياتنا التقليدية فى كل الميادين بالحياة العصرية · وهذا الاختلاط طبيعى ولم يكن لنا منه مفر ، وليس لنا ان ناسف له فى حد ذاته · ولكن ما ناسف له فى هذا التصادم هو اننا تقبلناه عمليا وتعودناه كما لو كان شيئا طبيعيا ، ودخل حياتنا اليومية قبل ان نتلقاه فكريا وندرسه ونفهمه · فكان الجانب الحضارى فى حياتنا موجودا وجودا عمليا اى وجودا مستعارا . ولكنه غير موجود فكريا ، اى هو غير موجود وجودا حقيقيا · ان وجودنا الحضارى خليط من الحقيقة والزيف ، ولكن الى اىحد يمكن ان نميز بين الحقيقة والزيف بوضوح فى هذا المجال ؟

اننا فى محاولة التميز نفسها نوشك ان نقع فى الزيف اذا رحنا نستعير القوالب الذهنية الاوروبية ونصب فيها وقائعنا الحضارية · لذلك سنلجأ الى تراثنا الفكرى الوحيد فى هذا المجال لانه هو الذى ما تزال قوالبه صالحة لان نصب فيها وقائعنا الراهنة · وهو تراث ابنخلدون : والمشكل الحضارى فى المجتمع العربى فى هذا الصدد من جهة التحليل

الخلدونى يتمثل فى مشكل البداوة والحضـــارة ، وليس فى التقسيم الطبقى الاقتصـادى كما يقتضى ذلك ، المنهج الماركسى · فهل ما يزال هذا التقسيم صالحا لنا اليوم ؟ وأى نصيب من البداوة فى حياتنا العربية المعاصرة ، وأى نصيب من الروح الحضرية فيها ؟

منذ حوالى اســـبوعين فقط كان لى حديث مع ممرضة فى مصحة للتوليد فى مدينة الجـــزائر العاصمة فقالت لى : ان أكثر ما يضايقنا فى عملنا هو مجابهة الزوج الذى ينتظر فى قاعة الاستقبال ان نخبره بما ولدته زوجته ، فاذا كان ولدا ذكرا فان البشر والانشراح يصل به الى ان يغمرنا بالهـدايا والعطايا وبالشكر والامتنان كما لو كنا نحن الذين رزقناه بهذا الطفل المولود · واذا كانت بنتا ، فهو التجهم والعبوس وأحيانا يصل الى درجة شـــتمنا والتهجم علينا كما لو كنا نحن الذين تســـببنا له بصورة مباشرة فى حصول هذه الكارثة ·

هذه المصحة لا يقصدها الرجل المتوسط عندنا ولا رجل الريف أو البادية ، وانما تقصـــدها الاطارات العليا فى البلاد من كبار الموظفين والعائلات الموسرة ذات التقاليد الحضرية العريقة ·

ولنفحص هذه الظاهرة عن قرب : هذا الرجـــل يرتدى لباسا أوروبيا من آخر طراز ، وزوجته كذلك وقد أتى الى المصحة فى سيارة أنيقة ، وليس عـلى ظهر بعير · والآلات التى استعملت فى عملية التوليد من أحدث الآلات وأدقها ، والطبيب المولد نال درجة الاختصاص فى هذا الفن من المعاهد الاوروبية · والمصحة التى يجرى فيها التوليد ليس فيها ما يذكر بالخيمة ، أو الاعتماد على الاولياء الصالحين فى تسهيل عملية الولادة · والمحيط المادى الذى يغمـر



كاتب يسن : صوامع المسلمين لا تنفذ !

هذه العملية كلها هو محيط حضارى تســـتطيع ان تنافس به أرقى المصحات فى العالم المتحضر ·

ولكن الروح التى تختبىء خلف هذه المظاهر كلها هي تلك الروح التى وصفها القرآن فى الانســـان الجاهلى منذ اربعة عشر قرنا وهى ان أحدهم اذا بشر بالانثى ظل وجهه مسودا من سوء ما بشـر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب · هـــذا ولا حاجة بنا الى التوسع فى ظاهرة الدعوة الى تحرير المرأة وأعطائها حقوقها الكاملة فى المســاواة مع الرجل ، ولكننا نقصد دائما نساء الآخرين واخواتهم وزوجاتهم · أما الروح التى نتصرف بها مع نسائنا من عشيرتنا فهى لا تحمل من المساواة قليلا ولا كثيرا ولا حتى من الاحترام العادى الذى حاول الاسلام ان يغرسه فى نفوسنا منذ عشرات القرون نحو المـرأة ولكن بدون جدوى ·

ان التوسع فى هذه الوقائع من حياتنا الاجتماعية سهل جدا ويستطيع كل واحد ان يحشد منه عشرات الامثلة فى اليوم الواحد لانه هو الطابع العام فى



هيجل

حياتنا كلها واذن فاين هي الحقيقة الحضرية فى هذه الوقائع ، وأين هو الزيف ؟

ان اكثر ما يبرز الجواب على هذا السؤال هو اندفاعنا الشديد وحدة تحمسنا فى تقبل النقائص حتى قيل عن معدتنا الحضارية انها اقوى معدة حملتها الشعوب فى التاريخ : تتحمل الحار والبارد والمنبه والمخدر فى آن واحد ·

والنقائص التى نتحملها هنا هي اجتماع البداوة الفكرية والحضارة المادية ، والافراط فيهما معا : لا نرضى من مستوردات الحضارة الحديثة الا بما كان من آخر المنجزات التقنية الآلية · وفى نفس الوقت لا نتمسك من تقاليدنا الموروثة الا بما كان موغلاً فى التأخر الفكرى ولكننا بدون اى حرج أو شعور بالاثم نجمع النقيضين تحت سقف واحد وتشمله فى الشخص الواحد نفس البدلة ونفس الجسم والفكر · ولنحاول الآن ان نقلب الوضع قلبا فرضيا طبعا لكي نتصور وجودنا الحضارى وجودا حقيقيا لا مزيفا ·

ولنستعين على توضيح هذا القلب سنلجأ الى مثل من الصين ، بقطع النظر هنا عن الاديولوجية السياسية ، مفترضين ان هذا القلب فيها كان يمكن ان يتم بدون نظام شيوعى · فى الصين يتمتع المجتمع بتراث حضارى تقليدى فى النظم الاجتماعية وفى الصناعات اليدوية والانتاج الفكرى يعد ارقى من التراث العربى قليلا أو كثيرا · ولكنهم فى الاخذ من الحضارة المستوردة يكتفون بالضرورى من الآلات الانتاجية ووسائل الحياة العصرية أو ما يشبه الضرورى وما يسميه ابن خلدون بالحاجى من لوازم الوجود · وبذلك استطاعوا ان يلائموا بسهولة بين تراثهم التقليدى الرفيع نسبيا ومستورداتهم المتواضعة نسبيا ، وهم الآن لا يعانون ما نعانيه نحن من التناقض الصارخ بين الميراث الوطنى والمستورد الاجنبى فى حياتهم · لماذا ؟ هل لان الفرق بين العرب والصينيين هو فرق فى الانسانية كما يسميها ابن خلدون ؟ كلا ! الفرق يكمن فى دور العقل فى كل من الحالتين : فى الصين بذل مجهود فكرى على الجبهتين : جبهة التراث التقليدى بالتنقية والتقييم ودرس ما هو قابل للحياة وما هو غير قابل للحياة · وجبهة المستوردات الاجنبية بالدرس والتقييم ما يصلح منها للانتاج ، وما هو للمتعة المادية وحدها · نعم لقد ارتكبت اخطاء فى هذا المجهود الفكرى ، وربما ما تزال وستظل الاخطاء ترتكب · ولكن ما استوردوه من المستحدثات عن طريق التقييم الفكرى، وما ادخلت عليه الحياة من التراث التقليدى قد استطاع به الصينيون ليس فقط ان يتخلصوا مما بينهما من تناقض معطل ، بل وايضا ان يوجدوا بينهما تكاملا حركيا يزيد من سرعة التاريخ · (ابرز مثل معروف فى العالم هو الجمع بين الطب التقليدى والطب الحديث)هذا المجهود سواء سميناه ايديولوجية متكاملة يقوم بها رجال السياسة ،

او ثمرة ابحاث اجتماعيةجادة يقومبها رجال الفكر ، هو مالم يقم به ابناء المجتمع العربى فى الصدام الذى حصل بين تراثهم التقليدى ومستورداتهم الحديثة ، فكانت نتيجة الصدام بينهما فى مجتمعنا ليست فقط فقدان التكامل بينهما ، بل كانت النتيجة هي تعطيل سير التاريخ بالمجتمع العربى المعاصر والشلل الحقيقى الذى لم يختف وراء كثرة الحركة الظاهرة

فى الميدان السياسى :

فى هذا الميدان ايضا وعندما نلتفت الى تراثنا التقليدى المدروس نجده اقرب الى الفقر منه الى الغنى ٠ ويحسن ان نزيد هذا الزعم توضيحا : فى ميدان المبادىء السياسيةالقائمة على القيم الاخلاقية والعدالة والمساواة امام القانون ورفع قيمة الانسان وتكريمه ، نجد تراثنا السياسى المتمثل فى الاسلام مبادىء اقل ما يقال فيها انها ثورية على النطاق الانسانى العام فتساوىالناس كاسنان المشط ، وعدم افضلية العربى على الاعجمى الا بالتقوى ، والمجهود الذى بذل فى تحرير العبيد وترقية المراة ، ورفع العلاقات الاجتماعية من مجال القرابة الدموية الى مجال الايمان بالفكرة ، واعتبار الوطن الاسلامى كله وطنا لا لابنائه الاصليين فقط ، بل لكل من يحمل عقيدة الاسلام ، ونظام الضرائب والزكاة ، والتقريب بين الطبقات اقتصاديا واجتماعيا ،وافساح المجال وتوفير المناخ الضرورى للانتاج الثقافى ونشر جو الاخوة بين الشعوب ، والتوغل فى مجاهل الارض لاخراج الشعوب البدائية وتحويلها منوحوش

الى ادميين ، وابراز عنصر القوة ومقاومة الضعف النفسى والاقتصادى والحزبى ، والتحريض على العمل والبناء ومقاومة الظلم والفساد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الخ ٠٠٠ كل هذه القيم والمبادىء تعتبر ثورية ، لانها جاءت فوق ما يستطيع



محمد عبده

البشر ان يهضموه فى عصر كانت فيه البشرية ما تزال فى خطواتها الحضارية الاولى فى ميدان علاقة الانسان بالانسان ٠ وهي وان لم تعتبر اقرب ما تكون الى الايديولوجية المبسطة فقد كانت بقطع النظر عن ناحيتها الغيبية المتمثلة فى الوحى ، هي المجهود الفكرى الاول والاخير الذى جاء الى المجتمع العربى كفكرة ، قبل ان يبنى عليه الاساس العملى كتطبيق ٠ فكان به مجتمعاحقيقيا دخل الى الحضارة الانسانية من بابها الواسع ، وظل متمكنا فى النفوس وفى التاريخ ، وكان به المجتمع العربى فى العصور الوسطى هو الذى يمثل تقدم الانسانية فى مرحلة عصر الايمانفيما يرىاوغست كونت ٠ وكان الناحية الاخلاقية على وجه اخص مجتمعا حقيقيا لا زيف فيه

ومع ذلك فان هذا التراث العظيم من المبادىء لم يستغل احسن استغلال من الوجهة الفلسفية فى ميدان الفكر السياسى فلم نستخرج منه الدساتير والمؤسسات والنظم السياسية التى تجعله يرتفع على الاقل الى مستوى ما كان عليه التنظيم المحكم الذى كان عند اليونان او الرومان ، بالرغم مما كان فى النظم الرومانية واليونانية من الفقر فى المبادىء الاخلاقية ، ولكن ثروتهم السياسية والتنظيمية وحدها كانت تفوق بكثير ما كان عليه المجتمع العربى

فى هذا المجال السياسى ·

هذا التراث التنظيمى والدستورى هو الذى نقصد نعتهبالفقر · حتىاننا لا نكاد نجد جهدا فكريا حقيقيا جديرا بهذا الاسم بذل فى تراثنا كله الا عند رجل واحد هو ابن خلدون · ولكن مجهود ابن خلدون نفسه يكاد ينحصر فى التحليل الموضوعى والبحث العلمى المجرد ،بلغ فيه صاحبه من التجرد والواقعية والحياد حدا جعله يحرم على نفسه آن يتخيل او يقترح شيئا يعوض به ما حكم عليه بالفساد والقصور والعجز فى هذا الفكر السياسى ·

وابرز ما يميز قصورنا فى هذا المجال الى اليوم هو الحل السهل او ما سماه ابن خلدون عندنا بالميل الى البسائط من الامور · والحل السهل الذى نفكر فيه عند اصلاح المجتمع هو بصورة مباشرة اصلاح الحكومة ، ان معالجة وجع الرأس دون البحث عن الامراض التى تنهك الجسم الاجتماعى ، والتى ليست اوجاع الرأس الا بعض أعراضها ونتائجها · ومظهر التصور السهل فىهذا الحل هو اعتقادنا بان صلاح افراد الحكمهو الطريق المختصر المباشر الذى لا عناد فيه لصلاح المجتمع بحيث اذا كانت الحكومة افرادها صالحون فان المجتمع يكون مجتمعا صالحا راقيا متطورا ، بصورة الية واذا كان العكس فى افراد الدولة ، فالعكس أيضا يكون فى المجتمع وعلى هذا الاساس يذهب البعض منا الى تفسير القول المأثور : كما تكونون يولى عليكم ولا نتفطن الى اننا بهذا التفسير نعاكس المعنى تماما ·

فهذا الحديث لم يقل كما يتولى عليكم تكونون ، بل قال كما تكونون يولى عليكم · بمعنى ان الحكومة هي التى تكون انعكاسا للمجتمع ، وليس المجتمع هو الذى يكون انعكاسا للحكومة ، لان الحكومة فى الاسلام الفطرى كما هى فى المفهوم الحديث هي الفرع والمجتمع هو الاصل · ولا يمكن ان تستمد عروق الشجرة من الاغصان والفروع ، بل العكس هو الصحيح · ومع ذلك ففهمنا غير الطبيعى ، لانه هو الذى يتلاءم مع ميلنا الى الحل السهل ، جعلنا نتصور دائما انه يكفى ان يكون على رأس الحكومة عندنا رجل أو رجال صالحون لكي نطمئن على مصائرنا وننام على اذنينا الاثنين كما يقول التعبير الفرنسى · كما نتصور ان صلاح افراد الحكومة سيسرى مباشرة الى صلاح المجتمع ، ولا نتصور ان فساد المجتمع وتعفنه هو الذى يسرى الى الرأس ويقضى عليه · ان العمل على اصلاح المجتمع يتطلب جهدا فكريا متواصلا فى هذا المجال عبر أجيال واجيال ونحن لا قبل لنا بالعمل المتواصل ! ومن جانب الحكومة فاننا نجد نفس الظاهرة ، ظاهرة الميل الى الحل السهل ، يتمثل فى كونها عندما تكون حكومة وطنية صالحة تنصرف الى العناية بالبلاد وتهمل العناية بالعباد ، تزود البلاد بالاجهزة الآلية من مواصلات وتليفون وابنية وطرق وآلات دقيقة وخشنة ومن كل الاوزان والمعايير لان كل هذا المجهود لا ينتجه المجتمع ، بل تكتفى الحكومة باستيراده من حضارة أخرى جاهزة · فيجرى كل هذا فى المدن العربية حيث لا يستعمله الا عشرون فى المائة من السكان على أحسن تقدير · أما البشر الذين يسكنون بقية البلاد ، والذين يوجد أغلبهم فى الارياف والبوادى فهم يواصلون حياة البداوة والبدائية يسكنون الخيام فى الصحراء أو الغيران فى الجبال ويستضيئونبالقنديل او بقبس من الحطب وتتزين نساؤهم بوسائل الزينة التى كانت مثيلتها فى العصر العباسى ارقى مما هي الآن عندهن ·

فاين هي حقيقتنا فى هذا التناقض ؟ وأين هو موطن الزيف فيه بعبارة أدق أين هو وجودنا الحقيقى ؟

انه من الواضح هنا أيضا ان فقدان المجهود

الفكرى فى الميدان السياسى جعلنا نعانى هـــذه التناقضـــات ونتقبلها كما لو كانت طبيعية لا تثير الاستهجان ولا تبعث على القلق والبحث · نعم ان لنا كل مظاهر الفكر السياسى : الاحزاب والصحف والاذاعات والتليفـــزيون وحتى المجالس النيابية والانتخابات · ولكن كل هذا نستعمله فى السياسة اليومية لا فى تكوين الفكر السياسى ، وفيما يسمى بالمناورات السياســـية لا فى التربية السياسية للمواطن ليعرف واجباته نحو الدولة وحقوقه منها ·

لذلك فان هذا القاسم المشترك من التأخر السياسى فى البلاد العربية مشرقا ومغربا جعل من الافتعال ان نزعم بان هذا البلد أحسن من الآخر لان فيه مجلســا نيابيا والآخر لا يوجد فيه هذا المجلس أو ان هـــذا البلد افضل حالا لان نظامه تقدمى والآخـــر نظامه رجعى · انما يجمع بيننا جميعا وراء بطاقة التعريف هذه هو حقيقة التناحر عندنا جميعا بين البداوية السياسية فى المستوى الانسانى واجهزتنا العصرية فى مستوى الوسائل الآلية وهو هذه العناية السانجة من قبل الشعب باشخاص الحكام من حيث الصلاح والفساد ، والعناية التى لاتقل عنها سذاجة من قبل الحكام بالارض والشارع والجدار والآلة ، لابالانسان العربى الذى يتصارع مع هذه الوســـائل المادية بوسائل فكرية وحضارية قاصرة · وما يجمع بيننـا اخيرا ، وهنا الكارثة الحقيقية ، هو موقف الحياد الفكرى الذى يقفه المسؤول الاول فى هذا الصراع ، لانه صراع فكرى ، وهـــو المثقف العربى الذى سنخصص له فقرة بذاتها فى هذا الحديث ·

فى الميدان الثقافى :

اذا كان تراثنا الثقافى فى الفكر السياسى العلمى اقرب الى الفقر فانه ليس أغنى فى الميدان الاجتماعى العلمى كذلك · ونحن اليوم استطعنا ان نحافظ بكل امانة على هذا الفقر فى العنصر الاجتماعى فى أدبنا وثقافتنا · وكنت أود ان لو تمكنت من اجراء احصاء فيما تصدره مطابعنا فى المشرق والمغرب من الكتب ذات الصبغة الاجتماعية العلمية ، بالنسبة الى مـا تصدره من دواوين الشعر والنقد الادبى والبحوث الميتافيزيقية والفنون الجميلة وبحوث اللغة ومشتقاتها! وهى كلها بحوث قل ان يتوفر فيها هي ايضا الطابع العلمى · واذا كنا لا نستطيع ان ناتى بالامثلة من تراثنا الحديث تلافيا للحساسيات ، فان ابرز مثـال من تراثنا القديم يقدمه لنا اشهر فلاسفتنا واعظـم مفكرينا على الاطلاق وهو الشيخ الرئيس ابن سينا · ففى كتابه الشـــفاء يخصص (٤٥٠) صفحة فى شؤون ما بعد الطبيعة ، وفى آخر الكتاب يخصص اربع صفحات ونصف الصفحة يجمل فيها البحث فيما يسميه بالسياسات والمعاملات والاخلاق ·

وقد استمر عندنا هذا التقليد فى اهمال البحوث الاجتماعية فى تراثنا الحديث اهمالا وصفه صاحب كتاب « العلوم الانسانية » الذى ظهـــر اخيرا فى القاهرة ، « بان لدينـا قوالب وعادات ذهنية تعطل عقولنا عن التحليل الموضوعى للمواقف ·· والمطلوب هو بذل المحاولات الصادقة للتخلى عن هذه العادات وتنمية عادات اكثر ملاءمة لآفـاق الانسان · فنحن نبنى مجتمعنا فى عالم يعتمد على العلم كمنهج بلغ اليوم قدرا من التقدم لم ننتبه اليه بعد ·· »

واذا تركنا مسالة الكم وهزالها فى هذا الانتـاج الاجتماعى والثقافى الى ناحية الكيف ، فاننا نستطيع ان نجمل اكثرها فى اتجاهين : اتجاه يعتمد غيـــه صاحبه ما يسمى بالحياد العلمى الى درجة لا يؤمن فيها صاحبها بموقف ، ولا يعمل على نشر اتجاه ، ولا يحرك عاطفة عقائدية هادفة · فهو من النـــوع الذى وصف نيتشيه اصـــحابه بانهم يحملون فى عروقهم دم الضفادع وهذا الاتجاه نجـــده اكثر ما نجده فى الانتاج المدرسى الاكاديمى ، واتجاه مقابل له ومضاد ، وهو اتجاه من العاطفة الســـطحية المعتمدة على تقاليد الهجاء أو المدح ، والفخر الابله أو التحطيم الاعمى · ويؤلمنى جدا ان آتى هنا ببعض الامثلة المعينة على هذا الاتجاه الغالب على انتاجنا

الثقافى فى الميدان الاجتماعى · ولكن الصراحة والاخوة معا تلحان علي ان اذكر هنا كمثال صارخ على هذا الاتجاه كتابا ظهر مؤخرا فى لبنان الشقيق تناول فيه صاحبه نقد الفكر الدينى ، واظهر من الجرأة الفكرية والشجاعة ما يبشر بان المثقف العربى صمم على الخروج الى ساحة المعركة الحضارية التى تصارع فيها الآراء من أجل البقاء والغلبة · وأثار الكتاب ضجة اجتماعية هزت ، أو كانت جديرة بان تهز ركودنا الفكرى · وسمعنا بالكتاب فى المغرب وتلهفنا على الاطلاع عليه ، ورجونا من المسافرين ان ياتونا به · وكتب لى ان اطلعت على الكتاب ، ولكن كانت دهشتى مؤلمة عندما وجدت الكتاب يتناول نقد الفكرى الدينى فى السائل الغيبية الماورائية وحدها ، كتحطيم فكرة الجنة والنار والنفس والروح والجن والملائكة وابليس والظلوم الى آخر ·· فلم أصدق ما رأيت · لقد كنت اتوقع ان يكشف الكاتب عن فقر فقهائنا ورجال الدين عندنا وقصورهم فى اثراء الثقافة الدينية بفكر اجتماعى متطور ، فى حين يزعمون ان ديننا صالح لكل زمان ومكان ، وان احكامه تدور مع المصلحة الاجتماعية حيث دارت · وحتى اذا ظهر له ان ينقد الفكر الدينى نفسه لا رجاله فحسب فانه كان يستطيع ان يتناول بالنقد ، لا بالانتقاد ، ما جاء فى الدين من معالجات لشؤون المجتمع كفكرة الصوم وكيف يمكن أو لا يمكن ان نجعل هذه الشعيرة أو تلك من شعائر الدين الاجتماعية تؤدى وظيفتها التربوية والحضارية والحقيقية فى عصرنا الحاضر ·

ولكن المؤلف ترك هذه القضايا الاجتماعية الكبرى التى يعيشها المجتمع العربى فى حياته اليومية والسياسية والاجتماعية عموما ، وراح يحارب اشباح الميتافيزيقا الدينية التى لم تعد تعطل احدا ولا تلعب أى دور فى حياتنا الاجتماعية ·

ولست اقف هنا مدافعا على الدين وان كان الدين هو العنصر الوحيد الذى جمع شتات العلاقات الوطنية والسياسية والاجتماعية لبنى اسرائيل ·

ان هذا التحطيم الذى ضربت عليه مثلا من لبنان، نستطيع ان ندعمه بمثل آخر من الجزائر يزعم فيه كاتب ياسين عندنا بان المآذن هى مصانع المسلمين ناسيا ان الاستعمار الفرنسى لم يترك فى بلاده حتى المآذن ، وان المعابد فى اوروبا واسماء القديسين تملأ الشوارع فى باريس فى حين لا يوجد عندنا ، الا نادرا ، شوارع تحمل اسماء رجال الدين · ان الامثلة على هذا الزيف فى الروح العلمية فى ثقافتنا الاجتماعية بكل شعبها المختلفة ، لا تكاد تنحصر فى عدد · وما يعزز هذا النقص بصورة صارخة هو ما فى مقابله فى الطرف الآخر من النهر من انتاج فخرى يرى اصحابه انه هو الوسيلة الفعالة والمجدية فى احياء نخوتنا العربية واسلامنا الذى لن تعرف الانسانية الحديثة سلامها الا اذا اعتنقته دينا لها ·

وفى الفخر بلغتنا التى هي اكمل اللغات وأدقها ، ومن اطرف الادلة على كمال لغتنا مثلا فى راى محاضر عندنا فى الجزائر اننا نفهم اليوم اشعار امرىء القيس كما كان يفهمها اهل وسطه ، فى حين نجد الفرنسيين اليوم عاجزين عن فهم لغة راسين او كورنا · صحيح ان عندنا اليوم شعرا اجتماعيا وقصة اجتماعية واقلاما اجتماعية واخيرا برزت الاغانى الاجتماعية والسياسية وفن التصوير الملتزم الى آخره · وكل هذا حسن وان جاء فى وقت متاخر جدا ، وكان ينبغى ان يكون فى طليعة انتاجنا الثقافى منذ عشرات السنين · ولكن ما نطمح اليه اليوم ، وما اصبح هو ايضا متاخرا عن وقته لانه لم يولد بعد فى انتاجنا الثقافى ، فهو هذا الذى نحسد عليه الغربيين ، من الثروة الحقيقية من المؤلفات والبحوث المتنوعة فى فنون الاجتماع والاخلاق · حتى ان من يفتح منا قاموسا من قواميسهم العلمية فى هذه الفنون يندهش لوفرة الكتاب والفلاسفة والمفكرين والباحثين وما انتجوه من الدراسات العلمية المنظمة فى شؤون المجتمع والاخلاق والسياسة ، فيشعر

عندئذ بالتواضع والخجل أمام فقرنا القديم والحديث فى هذا الميدان · ويفهم عندئذ فقط ان ما يفوقوننا به من آلات ووفرة تيكنولوجية لا يعد شيئا ازاء ما يفوقوننا به من العناية والتنظيم الفكرى لشؤون المجتمع والعلوم الانسانية ، ويدرك عندئذ فقط ان ما هم عليه من النظام والتقدم والعمل والانتاج والعلاقات الانسانية الراقية لم يأتهم صدفة ولا هو بركة من بركات رهبانهم وكنائسهم ، ولا عطية الهية ، وانما ثمرة مجهود فكرى متواصل بذلوه اجيالا بعد اجيال ورفعوا صرحه لبنة فوق لبنة مع المحافظة على كل ما هو قديم مثمر ، واضافة الجديد المستمر فى الجدة والتطور ، فلا قطع مع الماضى ولا توقف عن المستقبل

ومن مظاهر الزيف الكثير التى لا نتفطن لها اننا فى السنين الاخيرة حسبنا اننا عثرنا على سر نهضتهم المستمرة وركودنا المستمر ، وظننا ان هذا السر هو تقدمهم العلمى فى الميادين الطبيعية والتكنولوجية وقد بلغ هذا الشعور الزائف عندنا فى بلاد المغرب ان جعل أحد الكتاب المحترمين يتقدم الى الشباب بهذه النصيحة : « أقلوا من العنايةبالفلسفة والادب ، واكثروا من العناية بالعلم والصناعة ، اهتموا كل الاهتمام بالعلوم العملية ، فالعصر عصر العلم ، والثقافة السائدة هي ثقافة علمية ··والادب والفلسفة من البضائع التى أصبحت قليلة القيمة فى وقتنا الحاضر وستكون اقل قيمة فى المستقبل » ·

وعندنا فى الجزائر على وجه اخص تكاد هذه النزعة الى العلوم الطبيعية والتكنولوجية تصبح تعبيرا عن عقدة نفسية اكثر منها اختيارا فكريا مدروسا ، فالرياضيات الحديثة والاليات الفنية ، والكميا ، البترولية ، تكاد تغمر كل انواع الدراسات الاخرى فى الثانويات والتعليم العالى بجملتهما ، بحيث تسربت الرياضيات حتى الى كلية الآداب واصبح دارس علم النفس لا يستطيع ان ينال شهادة الليسانس الا اذا كان بارعا فى الرياضيات · واذكر اننى شخصيا ظللت اشارك فى الاجتماعات التى لا تتوقف منذ فجر الاستقلال الى اليوم للنظر فى اصلاح التعليم وتخليص خيوطه الدقيقة من اشواك النظم الاستعمارية العتيقة ، وكانت كل جهودى فى هذه الاجتماعات مركزة على التحذير من خطر هذا الاندفاع الى العلوم التقنية على حساب العلوم الانسانية ، ولكن يجب ان اعترف باننى لم انجح فى الحد من هذا الاندفاع الذى يغمر زملائى الآخرين · وكان من نتيجة ذلك اننا فى الجزائر قد نعد اليوم فى طليعة البلدان النامية من حيث النهضة الصناعية الثقيلة والخفيفة على السواء ولكننا على التأكيد نعد فى آخر القافلة من حيث الانتاج الثقافى العام ، ويظهر فقرنا هذا فيما تنتجه مطابعنا من كتب وصحف وفى صحافتنا ، واكبر ازمة تعانيها فى هذا المجال تتمثل فى افلامنا السينمائية التى أصبحت بسرعة تزاحم الافلام العالمية فى تقنية الاخراج ، ولكنها ماتزال تعانى نقصا فادحا من حيث الحوار ومحتواه الادبى والثقافى · وليس ببعيد ان يزداد هذا الخلل عندنا استفحالا فى السنوات القادمة اذا بقينا مصرين على الولوع بالتقنيات · مهملين الجانب الانسانى من هذه التقنيات · ذلك ان كل شيء أصبح متلاحما مع كل شيء · ومن الخطأ الظن بان نجاح الامريكان مثلا فى الصناعة قد تم على حساب ثقافتهم الادبية والاجتماعية · ويكفى ان نلقى نظرة على بعض مؤلفاتهم فى الميادين الاجتماعية لكي ندرك زيف نظرتنا فى ان رقيهم قد تم بالعلوم الصناعية وحدها على حساب العلوم الانسانية والاجتماعية · ويذكر الاستاذ الخشاب فى كتابه « **علم الاجتماع ومدارسه** » انه نشأ عندهم نضج ورقى مستمران فى البحوث الاجتماعية ، واهتموا خصوصا بالابحاث الريفية والمدنية ، وقضية الهجرة من الارياف ، وتكاثر المدن الصناعية ، وتعقد العلاقات الاجتماعية ، وتغير مستويات المعيشة بتغير الظروف الاقتصادية وبمشكلة عدد السكان والمواصلات والجرائم وانحلال الروابط الاسرية

وانخفاض المعايير الاخلاقية ، ومستويات الذوق العام ، كما اهتموا ببحث أصول الثقافات وانتشارها بسبب ما عرفته أمريكا اكثر من غيرها من انواع الهجرة الخارجية • ودراسات العادات الشعبية واساليب التفكير المتنوعة ،وتاثير التقدم العلمى على السلوك الاجتماعى والفردى وتاثير الاحوال المادية والمعنوية على حياة المجتمع • كما اهتموا اخيرا بتحسين مناهج البحث نفسها فى الميادين الاجتماعية لتحل محل المناهج القديمة برموز لها خاصياتها الرياضية حتى يمكن دراسة الظواهر الاجتماعية بالدقة نفسها التى تدرس بها الرياضيات ويعرف هذا المنهج عندهم بمنهج قياس الظواهر الاجتماعية » •

ولا تقل عناية العلماء السوفيات عن زملائهم الامريكان فى هذه البحوث الاجتماعية • أما فى الصين التى تطمح ان لم تصبح بعد ، قوة عالمية عملاقة ، فاننا نعرف سلسلة الثورات الثقافية التى تكاد تحدث عندهم فى كل عشر سنوات ، وهم يطمحون اليوم الى تقديم طراز جديد من الدراسات الانسانية لم تعرفهاوروبا وامريكا ولا حتىالماركسية التقليدية • اذا يحاولون ان يجعلوا قيمة التقدم الآلى فيما تقدمه من تكامل للتقاليد الحضارية العريقة ، وقد اعتبرت الصحافة الاوروبية هذه المحاولة فى أول الامر ضربا من الجنون ، ولكنهم عادوا فعدلوا عن هذا الحكم •

ويمكن تلخيص الموقف الحديث عندهم من قضية العلاقة بين الانسان والتقنية فيما يلى : ان معيار الانسان المنتج ليس فيما يظهره من مهارة تقنية أو علمية ، بل فيما يقدمه للشعب من خدمة • ان هناك مراجعة كاملة فى سلم القيم ، تتمثل فى السؤال الآتى مثلا : هل قيمة السلاح تفوق قيمة الجندى ، أم العكس ؟ والجواب عندهم واضح ، وبناء عليه فان قيمة الانسان تفوق قيمة التقنية • ويعد هذا الجواب أساسا منالاسس الكبرى فىالثورة الثقافية الجارية الآن فى الصين ولكن هذا الحكم عندهم لا يقف هنا ، اذ هو قد يوحى بتفضيل الثقافة النظرية الادبية على الثقافة العلمية التقنية • لذلك يضيفون اليه اساسا آخر ، وهو الالحاح على الثقافة العلمية وافضليتها على الثقافة النظرية • بل يعتبرون من الخطر الاهتمام بالثقافة النظرية لذاتها ، والتى لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالمصلحة الاجتماعية ، وهو موقف يتعارض تعارضا مطلقا مع موقف ارسطو وما اورثه فى ثقافات البحر الابيض المتوسط من ولوع بالنظرى على حساب العملى • ولكنه ـ اى الموقف الصينى ـ يلتقى مع الموقف العملى فى البراغماتية ، الامريكية والحركة الماركسية • ويبدو ان الصينيين قد بالغوا ، كما تبالغ كل نزعة جديدة ، فى تفضيل الثقافة العملية علىالثقافة النظرية الى درجة تفضيل ثقافة العامل المحتك بالتجربة المادية على ثقافة المهندس الذى استمد ثقافته التقنية من الكتب • وهم اخيرا يتهمون فنييهم الذين نعتمد نحن على امثالهم فى رقينا الصناعى ،بانهماستمدوا تقنيتهم من الكتب الاجنبية وكانوا مقلدين وعالة ، فى حين يستمد العامل معرفته من التجربة المحلية المباشرة • وما يخشى على هذا الفكر الصينى الحديث هو ان يؤدى اذا نزل الى الطبقات الشعبية ، الى نزعة معادية لثقافة الكتاب ولكن المهم فى الامر هو انه اذا كان موقف المنطق الغربى المتوارث عن ارسطو ،كما يقول الكاتب اليابانى هو منطق المعرفة فان المنطق الصينى الحديث هو منطق العمل• واذا كان الاتجاه الغربى اتجاها علميا فان الاتجاه الصينى هو اتجاه تقنى فى النهاية • واذا كان الفكر الغربى يحلل ويبحث فى الاسباب والعلل ، فان الفكر الصينى هو فكر النشاط العملى • واذن فالعمال هم العلماء •

أما ما يهمنا نحن من هذا الموقف الصينى ، مثله مثل المنهج الامريكى والماركسى ، **فهو المجهود الفكرى الذى بذل ويبذل باستمرار وتزايد فى المجال**

الانسانى ، والذى لم تستطع التقنيات المتقدمة فى هذه البلدان معا ان تغطى عليه مهما نعتوا اعتباطا وزيفا ، بانهم امبصناعية ومهما بهرتنا نحن بالخصوص نتائج العلوم التقنية وحدها لانها تصدر الينا وتغزونا فى عقر دارنا ، ونغفل عن الرقى الانسانى الذى عليه هؤلاء القوم جميعا فى بلادهم والذى لا يسترعى انتباهنا فى الغالب والذى هو نتيجة عنايتهم التى لا تقل ـ كما راينا ، عن عنايتهم بالرقى الآلى والتكنولوجى · ان انبهارنا بعنايتهم بالعلوم التقنية وغفلتنا عن عنايتهم بتقدمهم الاجتماعى والانسانى بلغ من الزيف بل من السذاجة ان اصبح لا يقل عن سذاجة الاطفال : حدثنى والدى انه كان يسير يوما فى بعض الطريق ،وامامه طفلان صغيران خرجا من المدرسة الى بيتهما ، وكانا ، وهما يسيران امامه يتحدثان بالفرنسية ، فقال لهما : لماذا لا تتكلمان بالعربية · قال الوالد فسكت احدهما واجابنى الثانى بقوله : « روح يا شيخ فى حالك · اننا نتكلم باللغة التى نصعد بها الى القمر » ! أعتقد ان جواب هذا الطفل يعبر ببراءة عن سذاجتنا نحن الكبار فى كل انحاء الوطن العربى فيما يتعلق بوسائل الرقى التى يجب ان نستعملها · انه انصراف كلى ومطلق الى العناية بالتقنية وحدها ، واهمال للوسائل المعنوية فى تكوين الانسان سياسيا واجتماعيا وادبيا ·

ولكن فى مقابل هذا الزيف عندنا يوجد زيف آخر ، وهو انما عندنا من عناية بوسائل التكوين الاجتماعى للانسان العربى ماتزال فاقدة لعنصر العلم والثقافة العلمية والروح العلمية · وابرز ميدان يظهر فيه هذا النوع الآخر من الزيف ، بل الخطأ والسطحية ، يظهر اكثر ما يظهر فى التكوين الدينى ، اذ ما يزال رجال الدين عندنا يعتبرون ثقافتهم تتمتع باكتفاء ذاتى ليسوا فى حاجة معه الى التزود بالثقافة العلمية والاجتماعية الحديثة · وتحضرنى فى هذا الصدد قصة للمرحوم الشيخ محمد عبده مفادها انه كان يوما يتجول فى حديقة بالقاهرة مع صديق له ، وهما يتحدثان ، واذا بالشيخ عبده يتخلف عن صديقه برهة من الوقت ثم يلحق به وعيناه مبتلتان بالدموع · فساله صديقه عما اذا كان قد آذاه شخص · فقال عبده كنت استمع لامرأة انكليزية تنتهر طفلها الصغير عن قطف الازهار من الحديقة وتحدثه بمعانى لا تخطر ببال اجل شيوخيا علما وفضلا ! ويلتحق بهذا الصنف من مثقفينا الاجتماعيين ، الجمهور الاكبر من الادباء الذين يكتفون بثقافة لغوية فى الغالب · وقد كان فى امكان هذين الصنفين من المثقفين فى الوطن العربى، وهم الصق الناس بجمهور الشعب العربى ، ان يساهموا فى رفع مستواه الثقافى المتدهور ، لو تزودوا بثقافة علمية واجتماعية حديثة ، وحاولوا ان يحتكوا فكريا بواقع امتهم الاجتماعى الخام !

وقد راينا فى المؤتمرات العديدة التى تجرى فى انحاء الوطن العربى شرقا وغربا ، كلقاءات التعرف على الفكر الاسلامى عندنا فى الجزائر وكمؤتمرات رجال الفكر والادباء العرب هنا وهناك من المشرق فلا ترتقى فى أغلبها الى قمم فكرية تفحص منهما فحصا علميا ما يتخبط فيه المجتمع العربى من ضبابيات فكرية وحشو ثقافى وتاخر فى أسلوب التعامل يدعو الى الرثاء ، ومن خلط فى مفاهيمه الحياتية وتصادم فى أذواقه المتنافرة وفقدان لكل هدف او طموح ، وذبذبة فى القيم الاخلاقية والتربية المدنية وعقم فى التكوين السياسى والنضج الاجتماعى ·

ولكن المثقف العربى نفسه اذا كانت تتوفر فيه صفة الثقافة على نحو من الانحاء ، فان صفة العروبة فى ثقافته هي التى تعز فيه وتندر · اننا اذا توجهنا

اليهم فى مختلف انحاء الوطن العربى فاننا سنجد احدهم يحمل مفاهيم امريكية للثقافة الاجتماعية ، والآخر يحمل طابعا فرنسيا والثالث ماركسيا سوفياتيا والرابع ماويا ، والخامس سلفيا دينيا والسادس خرافيا مشعوذا والثامن لفضيا سفسطائيا الخ ·· يتكلمون كلهم بلغة الضاد ولكن هذا كل ما يجمعهم من عناصر الثقافة · وكل منهم قد يكون له عذره فى اتجاهه ومحتوى ثقافته لانه تلقاها تلقيا ولم يخلقها خلقا · ولكن هذا جدير بان يجعلنا نتساءل على الاقل : اين هي الحقيقة واين هو الزيف فى هذه الثقافة ؟

لعل هذا التساؤل هو الذى خلق اليوم عددا لا بأس به من جيلنا الجديد فى المشرق العربى وفى المغرب ، ممن بدؤوا يشعرون بالحاجة الى بذل مجهود فكرى نعول فيه على انفسنا لاننا تجاوزنا مرحلة الاعتماد على الآخرين والنقل الآلى لمفاهيمهم ومناهجهم ومحاولة الصاقها تعسفا واعتباطا بوقائعنا التى تاباها · ذلك اننا رغم تاخرنا ورغم ما قيل عنا لسنا شعبا بدائيا غفلا من كل علامة ، او مستعدا لان يقبل كل التناقضات المتناحرة ننتمى الى نمط من انماط الحضارة طبع جزءا هاما من تاريخ الانسانية بطابع خاص ، وتراثنا مهما تجاوزته الاحداث والثقافات المعاصرة ، مايزال يحتفظ بقوة على ان ينبعث الى الحياة من جديد · وفى تراثنا الثقافى سواء منه المكتوب فى عصور حضارتنا ، او الحى الماثل فى حياتنا الاجتماعية من عادات وقوانين وعقائد وتقاليد وفنون وآداب ــ ان فى كل ذلك لثروة زاخرة بالامكانيات ولكنها ظلت مخزونة كثروتنا البترولية بدون استغلال بحيث يستطيع ابناء الامة العربية اليوم اذا تفطنوا لكنوزهم الثقافية بانواعها ، ان يستخرجوا منها مناهج خاصة بهم وقادرة على خدمة مجتمعهم والنهوض به نهضة ثقافية فى الميادين الاجتماعية بانواعها لا تقل عن تراث غيرنا من وارثى الحضارات الكبرى ولكن هذا التراث المكتوب منه والحى على السواء يتطلب جهدا علميا هادفا وجراة على التحرير من عادات عصور الانحطاط الفكرية ، ومن عادات الاستلاب ((ALIENATION)) الحديثة معا · ويشرفنى ان يكون عدد من ابناء المشرق الفحول قد سبقوا ابناء المغرب الى الدعوة الى هذه المنهج المستقل المتمثل فى التتلمذ من جديد على العالم العربى الاصيل فى هذا المجال الاجتماعى ، وهو عبد الرحمن بن خلدون · وفى مقدمة هؤلاء الداعين الافاضل اذكر الاستاذ المحترم الدكتور على الوردى فى كتابه القيم « منطق ابن خلدون » · ولكننى اريد فقط ان اضيف الى دعوته التى اشاركه فيها معتبرا انها الشارة او الخطوة الاولى التى نخطوها فى سبيل تحررنا الثقافى ــ أريد ان اضيف أمرين : الاول ان منهج ابن خلدون فى الثقافة الاجتماعية هو المنهج العلمى الذى أرسى قواعده ومتن اصوله على مر العصور جميع عباقرة الانسانية من أرسطو الى جون ديوى او ماركس · وان ابن خلدون اذا تميز عن هؤلاء جميعا بشىء فهو بالنسبة الينا اقربهم اهتداء الى تحليل اوضاعنا ، واكثرهم جدوى لما نطمح اليه من عناية اصيلة مستقلة بدراسة شؤون مجتمعنا · واذن فما يدعونا الى التتلمذ عليه ليس هو انتساب الى جنسنا والتعصب له بل روحه العلمية الجريئة الواضحة ·

والامر الثانى هو ان ابن خلدون نفسه قد تحرر من تحكم العادات الفكرية ، التى سار عليها اسلافه فى الثقافة الاجتماعية ، وتحرر فى الوقت نفسه من التقليد اليونانى التجريدى الذى ولع به الكثير منهم وهو من ثم يعتبر ان شئنا سندنا الاكبر فيما ننزع اليه اليوم من التحرر من نفس العبوديتين الفكريتين اللتين نعانيهما فى عصرنا الحاضر أيضا : عبودية

اسلافنا بمناهجهم الخطابية السطحية ، وعبودية من بهرونا فى العصر الحاضر بتقنياتهم الآلية وبقوالبهم الفكرية التى لا تنطبـــق تماما على وقائع حياتنا الاجتماعية ٠

واخيرا لاننا بهذا المنهج العربى الاصيل والعلمى المستقيم ســتجد حقا معيار الحقيقة والزيف فى حياتنا الاجتماعية كلها وعلى وجه اخص فى ثقافتنا الاجتماعية ان ابن خلدون بالرغم من كل ما اتهمه به فريق من الجيل الماضى من مثقفينا ، وفى مقدمتهم طه حسينوعبد الله عنان ـ يبقىهو الابن البار لامته العربية التى لم يزيف لها حقيقتها ، وانما عمد الى تشريحها بامانة ، وجراة وشجاعة ، كان يجب ان تصبح هي المدرسة الفكرية الاولى عند مثقفينا فى العناية بشؤون امتهم ، بحيث لو كان هذا الرجـل عند أمة أخرى من الامم الاوروبية التى تحتـــرم تراثها وتبنى عليه الجديد المستمر ، لاتخذت منآثاره أول وثيقة تدرس فى جامعاتها فى شؤون الاجتماع ، ومع ذلك فابن خلدون ليس هو كل ما نملك كحقـل خصب للدراسة والبحث بليوجد الى جانبه شعبنـا العربى نفسه الذى لاتقل مادته الخام غزارة للدراسة والبحـث عن تـراث ابـن خلدون المكتـــوب وكلا المنبعين مترابطان عضويا ، اذ ليس تراث ابن خلدون المكتوب غير تراثالشعب العربىنفسه معقلنا ومدروسا ٠

ان نهضتنا الحديثة قد تجاوز عمرها نصف قرن من الزمن ، وهي مدة استطاع فيها الاتحـــاد السوفياتى ان يقفز من مجتمع متاخـــر الى دولة عظمى ، واستطاعت أمريكا فى ضعف هذه المدة ان تكون معجزة القرن العشرين ، واستطاعت الصـين فى أقل من نصف هذه المدة ان تحتل مكانتها بينهما ٠ والسبب الاساسى فى نظرى انه كان لهم فلاســفة اجتماعيون انكبوا على دراسة اوضاعهم وتشريحها علميـا ، الى جانب علمائهم الطبيعيين والتقنيين ، وانصرفنا نحن طيلة هذه المدة الى الثقافة اللفظيـة والفخر والهجاء الجاهلى ، والجدل الكلامى ، فبقينا حيث نحن فى حقيقتنا ، واذا تغير زيفنا تغيرا كبيرا ، وتزيفت نظرتنا الى واقعنا تزييفا أخطر !

ولئن وجدنا عند ابن خلدون شيئا يخلصنا منهذا الزيف المضاعف ، واقعا وفكرا ، فهو حكمه علينا باننا نميل الى البسائط من الامور ٠ وترك المجتمع ينبت ويتكاثر ويعيد امسه فى يومه ، هو أمر سهل ٠ اما تنظيمه واقامة هـذا التنظيم على اسس الفكر والدرس ، فهو الامر الصعب وقد تهربنا منه كثيرا ولكن لا مناص لنا من مجابهته اليوم أو غدا ٠

لقد عشنا طيلة فترتنا الحضارية الحديثة بعادات الاموات من اسلافنا ، الى جانب ثقافة الاطفال من محدثينا ٠ وهكذا كان زيفنا مضاعفا ٠

والخلاص من هذا الزيف المضاعف فى حياتنـا وفكرنا هو بذل المجهود الفكرى الذى تهربنا منه لحد الآن فى المجال الاجتماعى ، بذل مجهــود فى فهم واقعنا علميا قبل ان نعمد الى تغييره عمليا ٠

لقد حكم ابن خلدون على الفرابى فى الشرق بانه اضل السبيل لانه درس المجتمع كما يجب ان يكون قبل ان يفهمه كما هو كائن ٠ وحكم على ابن رشـد بنفس الضلال لانه درس المجتمع العــربى بقوالب ارسطو الفكرية ولكن كلا المنهجين الضالين الزائفين ما يزالان مسيطرين على عنايتنا الثقافية بالمجتمع الى اليوم باشكال اخرى وتهتم اسرائيل بدراســة المجتمع العربى كما حلله ابن خلدون لتفهم هــذا المجتمع كما هو ، وتبنى عليه سياستها معه ٠ حتى قيل انه تقدم فى جامعاتها فى عام واحـد اكثر من ستين أطروحة عن ابن خلدون ٠

اليست هذه واجهة اخرى من واجهات المعـركة العربية مع شرذمة اسرائيل ؟!

ويح الشباب

ولما رأى بعض الشباب استخف بالقيم ونبذ التقاليد السماوية ظهريا وعدها من اسباب التخلف وعلائم التعصب ساءه ذلك فقال :

جَارَ الشبابُ على القيَمْ ... وَرَمَى الشرائعَ بِالتُّهَمْ
وَأَبى النَّصِيحَةَ تَابِعًا ... لِهَوَاهُ يَخْبِطُ فِي الظُّلَمْ
وَيْحَ الشَّبَابِ مِنَ الْهَوى ... إنَّ الْهَوَى فيه احْتَكَمْ
هَجَرَ الْهُدَى وَسَبيلَهُ ... وَلَى الْغَوَايَاتِ ازْدَحَمْ
أيْنَ الشَّبَابُ وَوَعْيُهُ ... ونَشاطُهُ مَهْمَا عَزَمْ ؟
أَيْنَ الشَّبَابُ الْمُهْتَدى ... إنِّى هَتَفْتُ به فَلَمْ ...
تُبْ ياشَبَابُ إلى الْهُدَى ... إنَّ الضَّلالَ عَلَيْكَ عَمْ
الدِّينُ عَاصِمُكَ الَّذى ... يَنْفِي هوَاك بِمَا عَصَمْ
ملْ لِلْمَتَابِ مُسَارِعًا ... وَاجْنَحْ لَهُ قَبْلَ النَدَمْ
مَنْ ظَنَّ أنَّ الدِّينَ مِنْ ... خَوَرِ النُّفُوسِ فَقَدْ وَهَمْ
تَبْكِي السَّعَادَةَ آيِسًا ... وَتَظُنُّ مَعْنَاهَا انْعَدَمْ
إنَّ السَّعَادَةَ فِي حِمى الْـ ... ـإيمَانِ راسِخَةُ الْقَدَمْ
إنَّ السَّعَادَةَ نِعْمَةُ الْـ ... ـإسلامِ وهوَ أبو النِّعَمْ
أقْبِلْ عَلَيْهِ فإنه ... دِينٌ بِهِ سَعِدَ الأُمَمْ

من ديوان محمد العيد

أصالة الثقافة الجزائرية

فى القديم
والحاضر
والمستقبل
ومدى انتشارها وتأثيرها فى العالم الخارجي



عثمان الكعاك

ان الثقافة الجزائرية باصولها الدينية والتصوفية والعقائدية والعلمية والادبية والفنية والتقنية اصالة راسخة القدم فى الاصالة منذ كانت والى يوم الناس والى ان يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

ذلك لانها استمدت عناصـــر كيانها من صميم التربة الجزائرية ، اخذت من شمس الجزائر المنيرة الربيعية الدافئة المنعشة اشعاعها وبريقها وائتلافها وجمالها ، واخذت من قمر الجزائر المبـــدر لونه الفضى الذى يموه به الانهار والازهار والاشـجار واستمدت من قمم الاطلس العالية الشامخة الراسخة المليئة بأخبار البطولة وعناوين المجادة المتوجـــة الرؤوس بالثلوج اللموعة الصافيـة الرائعـة والتى شابت هامتها من قطع الهام واحداث الايام وكفاح الاسد الضرغام على طول الادهار والايام ، وفى غاباتها الكثيفة الظليـــلة مأوى للمثاغر والمغاور واشياء والثائر والزائر ولوحات جمال للرســـام وآيات جمال من موسيقى الاطيار ورنات الاوتـــار وخرير الانهار ونشيد الاشعار ، ومن عبير الازهار ، وشمم النوار ، ومن رائح الثمار وقد انتعشت عـلى صخورها اخبار الادهار وبطولات كل مغوار .

وهذا البحر الاسمانجونى الهادى كديباج ازرق قد طرزته اشعة الشمس بزركشة من ذهب او هائج مائج كصوفى فى حالة جذب وشطحات هائجة مائجة قوية التعبير جميلة الحركات بديعة الغمرات .

لو حول مدادا لروى أخبار الفتوحـات والغزوات والمغامرات والمثاغرات والمغاورات والبطولات .

ولوحولت اشعة الشمس الذهبية الى اقلام من عقيان لكتبت امجاد أمة على ذلك الرق الاسمانجونى الذى نسخت عليه المصاحف الاسلامية الرائعة فكانت اسفار فخار على وجه الادهار ، وهذه الانهار المنســـابة بين العشب والازهار والاشجار والاحجار تغنى عليها الاطيار انشودة الزمان بأروع الالحان كقيثارة فنان تروى آيات تاريخ صفحاته نقية صقيلـــة ، بديعـــة طويلة ، عربية أصيلة ، شريفة نبيلة ، ترويها للموج الزبرجدى المرصع بالزهور وللعصافر الراقصة على افنانها والطيور ، وللاحجار والصخور ، وللاســد الاطلسى الهصور وللبحر الصامت الوقور فمـا هى قصة هذه الثقافة ولماذا هي اصيلة ؟

الثقافة الاسلامية الجزائرية أصيلة لانهـا ثقافة مثاغرة أعنى تشعر بأنها طوال الدهر على الثغور مفتوحة على الشمال والجنوب والشـــرق والغـرب فتخشى ان تدنســـــها قدم الفاتح ولغته وثقافته واساليبه العقائدية فتمسكت بالديانة الاصيلة واللغة الاصيلة فكان لديها من كبار الصوفية الاصـــليين كابى مدين والهوارى والعكاليى وابن باديس والتبسى والابراهيمى وابى يعلى الـــزواوى وابن مرزوق والمشدالى ، وعبد البجواوى وعبد الحليم بن سماية

وتمسكت باللغة العربية ولم تشا بها بديلا غزتها الاسبانية والايطالية والفرنسية فتغلبت عليها بعد ما امتصت منها عصارتها النافعة وحـــولتها الى دم جزائرى نقى أصـــيل ، وكان علماء اللغة لديها والمترســـلون بالعربية وفحـول التراجمة وكبـار المدرسين والكتاب والخطباء والمؤلفين والشـــعراء وعلماء النحو والبلاغة فى المقام الاول من الجودة والاتقان ، فشعراؤها اكبر الشعراء فمن المســيلة محمد بن هانى ــ متنبى المغرب ــ والحســـن بـن رشيق ، ومن طبنة زيادة **السرالطبى** ومحمد الطبنى الذى كان شاعر البلاط الاموى بقرطبة ، ومن قسنطينة الفكون وعائشة الشريفة ومن تلمسان ، المقرى وابن خميس الذى تغنى بجمال مســـاقط الاوريط وبدائع ساتينة التلالسى وعفيف الدين التلمسانى والشـاب الظريف ومن ميلة ابن قاضى ميلة .

ومن قالمة عبد الرحمان القالى كبير كتاب المهدى بن تومرت ، وشعراء الوطنية منذ الاحتـــلال المقيت والى الاستقلال البطولى الرائع لا يدخلون تحت حصر سواء الذين ألفوا بالعربية أو الذين ألفوا الشـــعر الشعبى الوطنى الذى هو من أروع الشعر .

وعواصم العلم الجزائرى هي طبنة والمسيلة وتبسة وبسكرة النخيل على عهد بنى مزنى ومقرة وقسنطينة عاصمة الباديسيين وبونة مدينة مروان البونى شارح الموطأ وشمس الدين البونى الذى وصل فى الرياضيات الى أبعد غاية وأحمد البونى المؤرخ والجزائر العاصمة التى أخرجت العلامة المفسر والمتصوف الكبير عبد الرحمن الثعالبى ، وتنس التى أخرجت الامام التنسى الشاعر المؤرخ ٠ على ان المجد الثقافى الجزائرى الاصيل لايقتصر على عصر دون عصر ٠

ففيما قبل الاسلام نجد الملك يوبا الثانى الذى اسس جامعة شرشال أول جامعة وطنية جزائرية احدثت فى عصور جاهليةمتقادمة تدرس العلوم على اختلافها والفنون من موسيقى ونحت ورسم وتمثيل وانتخب لها منابناء البلاد الاشاوس ومن اليونانيين علية الاساتذة فبعثها نهضة علمية وادبية وفنية اشرقت أنوارها على ربوع البحر المتوسط طيلة اجيال ، وهو نفسه قد كانمؤلفا ، فالف دائرة معارف لعامة العلوم وألف كتابا فى جغرافية جزيرة العرب وكانه كان ينظر الى عروبة المغرب بعين الغيب ٠

ومنهم ابوليوس المداوروشى الذى كان روائيا مبدعا وحقوقيا ضليعا بليغا فى اللاتينية واليونانية علاوة عن البونيقية وطبيبا نطاسيا ممتازا له مخبر للتجارب عديم النظر وكان استاذا للحقوق والطب بجامعةقرطاجنة واذا ما تعقدت قضية بين أبناء رومة استدعوا لحلها المحامى المداوروشى النبيل ٠

على ان علماء الجزائر كانوا اساتذة العالم فى عصرهم منهم محمد الابلى التلمسانى ، شيخ ابن عرفة ، وابن خلدون ، علم بالجزائر وتونس وفاس ومحمد المغربى والد المؤرخ الذى علم بفاس وخرج عليه اعلام ، وآل الغبرينى البجائيين الفقهاء والمؤرخين الذين درسوا بتونس وتولوا الخطط العلمية والشرعية العالية بعاصمة الحفصيين ، وابن الخطيب نفسه أخذ فيمن أخذ على أعلام من تلمسان منهم ابن مرزوق التلمسانى الجد وعلى التلمسانى والقاضى محمد المقرى والد أحمد صاحب نفح الطيب ، ومنهم شاعر تلمسان محمد بن خميس حامل راية المنظوم والماثور له القصيدة المشهورة ٠

عجبا لها ايذوق طعم وصالها

من لا يؤمن ان يمر ببالها

وقد أثنى عليه ابن دقيق العيد حين وقف على ذلك القصيد وقد أخذ عنه أعلام منهم ابن الفخار الاندلسى ٠

ومن كبار علماء الجزائر الذائعى الصيت فى العالم الاسلامى الحسن بن باديس وابن قنفد القسنطينى وابن مرزوق وابو شريشى ؟

ومن كبار علمائها ومفسريها ومتصوفيها الشيخ عبد الرحمان الثعالبى ، ومن علمائها فى العهد التركى سعيد قدورة والخروبى وزروق وكلهم من العالميين الذين نشروا العلم بالجزائر وخارجها ، ومنهم العلماء السنوسيون الذين لعبوا دورا عظيما فى هذا المغرب العزيز فى عصور مختلفة ٠

ومن علماء أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن شعيب التلمسانى (١٨٤٣ ـ ١٩٢٨) قاضى تلمسان وصاحب كتابزهرة الاوطان فى علمالالحان والمعلومات الحسان فى مصنوعات تلمسان الى غير ذلك من الكتب الجليلة والشيخ عبد الحليم بن سماية وعلامة المغرب الكبير محمد بن أبى شنب الذى ألف امهات الكتب فى شتى المواضيع وتخرجت عليهأجيال من الاساتذة والعلماء بين تونسيين وجزائريين ومغاربة ٠

ومن مشاهير شعراء الحركة الوطنية والثورة محمد العيد وأحمد سحنون ، والطاهر بوشوشي وصالح الخرفي ومحمد الامين العمودي ومحمد السعيد الزاهري ومفدى زكرياء شاعر الاقطار المغربية وحتى الشرقية ومواكب الحركة منذ نشأتها ومحمد الهادى السنوسي وأبو اليقظان ورمضان حمود والسائحي عبد القادر والسائحي محمد الصغير وأول من كتب في أسباب انحطاط المسلمين وسر نهضتهم الامير عبد القادر بن محي الدين .

على أن الكثيرين من رجال النهضة في الاقطار المغربية الشقيقة من الجزائريين أمثال حسن قلاتي وعبد العزيز الثعالبي وحسين الجزيري والصحافي الكبير على بوشوشة صاحب جريدة الحاضر الذي اصله من جيجل ، على اننا لا ننسى ولن ننسى علامة العصر عبد الحميد بن باديس والعلامة الكبير بحر العلم والخطابة استاذنا البشير الابراهيمي رحمه الله تعالى .

وبذلك اجتازت الجزائر أزمة الاحتلال بسلامة ثقافية وخرجت منها بعروبتها وعربيتها سالمة العقل والبدن مرفوعة الرأس تجلس بين ابناء اعمامها في مكانة مرموقة من الشمس .

ولكن العالم العربي كله يعاني بسبب الاستعمار ازمة ثقافية نريد ان نستعرضها لفهم اسبابها واسباب علاجها مع العلم مسبقا بانها لا تزيد عن ازمة نشوء وكما يقول المثل التونسي « ما يتفرس الا ما يتهرش » مما هو ملاحظ معروف ، ومعقول الوقوع ان كل قطر من الاقطار مهما كان ، ووقع في مخالب الاستعمار ، الا وكانت لغة العلم والتعليم خلال محنته هي لغة المستعمر ، لا يسلم من ذلك احد ، حتى ان الدول التي بذلت مجهوداً مرموقاً في المحافظة على لغتها انما تحافظ على ذات اللغة وعلى انتاجها الادبي ويكون الانتاج الادبي محدودا بفقدان الطباعة أو لعسرها ولفقدان حرية القول وحرية النشر ووجود مراقبة شديدة على المطبوعات والانتاج العقلي لذلك فالتآليف التي تتعلق بدراستها من تاريخ وجيولوجيا وجغرافيا وفولكلور وزراعة وتجارة وحيوان ونبات ومعمار وموسيقى ، والكتب التعليمية من كيمياء وفيزياء وجبر ومثلثات ورياضيات وفلك انما تكون بلغة المستعمر ليس الا على ان مفهوم الكتاب نفسه في محتواه انما يكون مفهوما استعماريا كان يرسخ في الاذهان ان العربية ليست لغة علم وهي عاجزة عن القيام بهذا الدور وان المسلمين ليست لهم علوم ولا آداب ولا فنون وان الذي قضى عليهم بالتأخر هو جمودهم وتعصبهم وعجز دينهم عن مسايرة العصر الى غير هذا من الترهات المعلومة التي أصبحت كالاسطوانة الموسيقية ذات الكسر التي تعيد نبراتها على الدوام .

لذلك فان هناك مشكلا ثقافيا لابد من حله .

اما الآن وقد اقام الجزائريون الاشاوش ثورتهم على اساس : « الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا » فقد صح ايمانهم بالعربية أو بوجه أصح انهم ما فتؤوا حتى في أحلك العصور يؤمنون بلغتهم ، بل اقتضت الثاغرة جعل هذه اللغة في المقام الاول من ايمانهم الديني والوطني ، لكن الايمان يقتضي العمل الذي كان معطلا أومقيدا قبل الاستقلال وانعتق الآن من عقاله ، ونعني به الاصول الآتية :

الاصل اولا : ترجمة ما تركه المستعمر من الاف الكتب المتعلقة بعامة الدراسات الجزائرية في عامة المواضيع والذي لا يوجد منهم بالعربية الا النزر القليل ، فهذا الميراث المسلوب ولا شك بنزعات ونزعات يجب ان يضبط وان يرقم ترقيما من واحد

الى عشرة ، وان يخطط له تخطيط تعريب عشرين ، فتترجم فى السنة الاولى الكتب ذات الرقم الاول وفى الثانية ذات الرقم الثانى ، وهلم جرا ·

وهذا احتياج عام شامل لعامة الدول التى كانت تحت نير الاستعمار ولا خروج لها من الاستعمار الثقافى - احبت أم كرهت - الى الاستقلال الثقافى والفكرى الابهذه الوسيلة ·

وشانها فى ذلك شان الاستقلال الثقافى الاسلامى نفسه ، فان الاسلام وجد نفسه فى صدر الملة على رأس امبراطورية عظمى شملت امبراطوريته نفسه وامبراطوريتي العملاقين الكبيرين يومئذ العملاق الايرانى والعملاق الرومى والرومانى ولكن ليست له علوم ما عدا أوائل علومه الدينية واللغوية الآلية. فبدأ الترجمة على عهد الامويين وانتهى منها على عهد المأمون العباسى ، فترجم عامة كتب الاقدمين فى عامة العلوم والآداب والفنون والتقنيات من الهندية والايرانية والسريانية والقبطية والعبرانية واليونانية واللاطينية والبربرية والبونيقية ·

فالدولة الاسلامية التى كانت خالية من كل مصدر حتى مصادر نفسها صارت دولة المصادر لنفسها ولعامة الشعوب ممن أراد معرفة نفسه من الشعوب الاخرى ولكن وجب عليه أن يعرف العربية لان الكتب الاصلية التى كانت كتبت قد ضاع معظمها وبقيت ترجماتها العربية · على أن الترجمة العربية قد مرت بالاطوار الآتية :

أ - طور التهذيب

ب - طور الترجمة

ج - طور الشرح

د - طور التاليف المبتكر والزيادة على ما قاله الاقدمون ·

هـ - طور التجميع الموسوعى ، فالفت الموسوعات التى جمعت اشتات تلك العلوم وقدمت المقدمات لها لبيان اطوارها وشرح العلوم المتعلقة او ابتكارها ، كما فعل ابن خلدون فى مقدمته فى العلوم التاريخية والاجتماعية والاقتصادية وياقوت فى العلوم الادبية والقلقشندى فى العلوم الانشائية والديبلوماسية والادريسى وابن فضل الله العمرى فى العلوم الجغرافية وشرف الدين التيفاشىالقفصى فى العلوم الرياضية وهلم جرا ·

فيجب أن نمر نحن المغاربة بنفس السبيل ، مع اعتبار ان هنالك كتبا فى الشركة بيننا فيجب ان تترجم بالشركة مثل كتاب ستيفان قزال عن تاريخ المغرب فى القديم ، أو الكتب التابعة للمغرب المفقود الذى هو أسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا وصقلية وسردانيا ومالطة ، فهنالك تآليف عجيبة الفت عن تاريخنا وآثارنا هناك يجب ان تترجم حتى نفهم ما هى قيمة حضارتنا وهذه ترجمتها بالشركة بين عامة الاقطار المغربية مثل كتاب امادى عن تاريخ المسلمين فى صقلية أو كتاب يونس بوقس عن تاريخ مؤرخى العرب بالاندلس او كتاب خوليان دبيبرا عن تاثير الموسيقى العربية فى أسبانيا او كتاب توسان عن الفن المدجن العربى بعامة الجمهوريات الامريكية ومثل ذلك كبير ·

ثانيا : ان لنا تراثا من المخطوطات المفرقة فى بلادنا وفى مكتبات الشرق وأوروبا وآسيا وأمريكا وهي تآليف اجدادنا الاقربين بالاندلس وصقلية والمغرب ، وهي تنام هناك ، على أن الجزائر قد قامت عند غزوة الافرنج بعملية « تجديد » لمكتباتها بالزوايا والجوامع حفاظا على تراثها وحسنا ما فعلت فما وجد رونى باسىوهوداس وشربونو من الكتب الا ما

قل وتناثر ، والآن وقد خرجنا من المحنـــة فيجب ان نقوم بالعمليات التالية :

١) البحث عن المخطـــوطات وفق برنامج مدقق منهاجي ·

٢) تصويرها حيثما كانتوجمعها فى ديار الكتب الوطنية المغربية ·

٣) نشرها بالوسائل السريعة وفق احدث المناهج النقدية التى يقتضيها علم الخطاطة POLEAGRAPHIE (انظر : عثمان الكعاك : الوســاطة فى الخطاطة)

٤) البحث عن الكتب العربية المطموسة POLEMPSERTE

وهي الكتب التى كتبها اصحابها على الرق، فلماجاء غيرهم نسخوا الكتابة وكتبوا غيرها ، ولما خـــرج المسلمون من جهات من الاندلس وصقلية على التوالى من الاسبانيين والسيسيليين اخذوا كتبهم وكتبوا فيها بلغاتهم ونقلت الكتب مع الاندلســيين الى افريقيا السوداء فمنها ما بقى ومنها ما محى وكتب مكانه شيء آخر ، فهـــذه هي الطموس ومن المعلوم ان الطموس يمكن استظهارها واستجلاؤها بارســـال اشعة ما تحت الاحمر INFRA-ROUGE عليها فتظهر منها طبقة بعد طبقة الى الخامسة ان وجدت ، وبذلك يتيسر احياء عدد من الكتب العربية فى مخطوط واحد ولاجل هذا وجب اعداد فيالق من الشباب المتحمس للتراث لاحيائه وجمعه واستجلاء المطموس منه حتى يمكن ان نضع يوما الكتاب الجامع للكتب العربية أعنى ما يمكن ان يسمى CARPUS hierorum araborum _ على غرار Carpuscher lecinoringe وقد تظافرت جهود علماء اوروبا على ذلك مدةطويلة الامد · ولما كانت الطريق طويلة فيجب الابتداء من الآن ·

ثالثا : اننا نحتاج الى ضبط المصطلحات الفنية فى العلوم والآداب والفنون نضبطها لا بالابتكار من ادمغتنا كما اتفق وكما تيسر قبل ان نتروى فى الامر ولكن بالبحث أولا فى المعاجم المختصة كالمخصص لابن سيده وكشـــاف مصطلحات الفنون للتهانوى ومفردات ابن البيطـــار والغابعقى وابن الجـــزار وغيرهم ، وجمع المفردات الاصطلاحية الموجودة فى الصناعات التقليدية ان كانت فصيحة وســـليمة والرجوع الى معجم دوزى وملحقاته ومراجعة الكتب التقنية العربية ككتاب رضوان الساعاتى فى اسماء قطع الســـاعة ومصطلحاتها ، والرجـــوع الى المصطلحات الاوروبية ذات الاصل العربى مثل الجفر عوض الشفرة وشين (ش) عوض ايكس والخوارزمية عوض الغوريزم وهي منسوبة الى الخوارزمى الى غير ذلك ·

والذى نؤمن به هو ان العربية متسعة جدا فمـــا لدينا من المواد الاصطلاحية لايعرض علينا الا حسن الاختيار ·

والمهم فى الامر مهما كان ، هو ان نختـــار اللفظ الاليق للمكان الاليق ، وان نتفق على اصطلاح موحد بين كافة الاقطار العربية اذ من المصـــيبة الكبرى والكارثة الجلى ان تتكاثر المصطلحات

تكاثرت الظبــاء على سعيد
فما يدرى سعيد ما يصيد

والا تستعمل كلمات اجنبية الا عند الضرورة فلا نقول فى كلمة — FUGUE — فوج وانما نقـــول هروب وهو المصطلح المغربى الموسيقى القـــديم ولا نقول GAMME ولكن جمع وجمعوت لان GAMMUS او GAMMES ماخـــوذ من جمع وجمعوت وهلم جرًا ·

رابعا : المجلات التعليميـــة التقنية التى كانت فى عهد الاستعمار ·

ان الدول الاستعمارية كانت تنشر فى كل قطر من

الاقطار التى استحوذت عليها مجـلات فنية تقنية فى ارفع مستوى عالى كمجلات التاريخ والنحـــالة والغمور وزراعة الكـــروم وزراعة الحبوب وزراعة الاشجار المثمرة والقانون والتوازن JURISPRUDENCE والاغنام والدواجن الى غير ذلك ،

علاوة عن مجلات البحوث العليا المحلية مثل المجلة الافريقية بالجــــزائر ومجلة هيكسبريس بالمغرب والمجلة التونســـية بتونس ومجلة ليبيا بليبيا وهلم جرا ، فلما اضمحل الاســـتعمار اضمحلت هـــذه المجلات معه ، وذهابها خســـارة وتخلف عن المحيط الثقافى والتقنى العالميين فلابد من الرجوع اليهـــا بالعربية فىهذه المرة مع تلخيص المواضيع بالفرنسية أو الانكليزية ولا يمكن لدولة واحدة من دول المغرب أن تضطلع بهذا العمل ، لا من ناحية النفقات المالية ولا من ناحية عدد القراء ولا من ناحيـــة الكتاب التقنيين الاخصـــــائيين ولذلك فلابد من التعاون والتعاون هو بوقوع الاتفاق بين الشـقيقات على ان تختار كل واحدة عددا من هذه المجلات تنفق عليهـا من مالها وينفق عليها الجميع من اختصــــاصهم ويطالعها عامة القراء الاختصاصـــيون فى عامة الاقطار الشقيقة والمثل يقول : حمل الجماعة ريش ٠

المسح الثقافى :

المسح الثقافى هو تخطيط لاحصاء التراث الثقافى من رجـــــال علم وادب وفن ومن كتب مخطوطة أو مطبوعة أو مصورة ومن انتاج موسيقى ومن معالم اثرية كالمدن الاثرية والقصور والمعابد ومن نقـــود اثرية ومن قبريات ومنقوشــــاتها ومن تحف اثرية كالانسجة والثياب والســـلاح والاثاث والحلى ومن اغان ومن امثال واحاج واغاليط الى غير ذلك ٠

والمسح الثقافى CADASTRE CULTUREL هو تقسيم ترابى مدقق لا تفلت منه شاردة ولا واردة يطبق عليه القسم الثقافى الذى تريد احصاءه ، ثم ينشر ذلك القسم فى مجموع مفتوح الباب للزيادة كلما عثـــر على جديد ، ويسمى المجمـــوع ديوانا ولا شك ان المستعمرين اشتغلوا قليلا بهذه الشؤون كجمع النقود العربية فى دواوين أو جمع النقائش فى مجاميع ، ولكن ذلك غير مستوف واكثره قد نفد فلا تصله يـد الباحث الا بعناء شديد ، وفيه احيانا اغلاط يجب مراجعتها وهو فـــوق ذلك ليس بالعربية فبعضـــه بالفرنسية وبعضه بالايطالية وبعضه بالاسبانية ثم هو مدرج أحيانا فىمجالات نادرة ، فديوان النقائش العربية بسردانيا منشور فى مجلة تقنية ســـردانية تسمى ARCHIVICE STARICO SARDO صدرت منذ ١٣٠ سنة فمن ينتبه الى ذلك ، ثم عثـر بعد صدور تلك المجلة على نقائش اخرى لم تضف اليها ، ونشرت النقائش الصـــقلية العربية بمجلة ARCHINIO STARICO فى منتصف القرن الماضى ٠

ولذلك فلابد من جمع ما نشر فى مجموع واحـد واضافة ما لم ينشر عليه ٠

ونعنى بالديوان فىالمرحلة الاولى الديوان المغربى أى الجامع للتراث المراكشى والجزائرى والتونسى والليبى والاسبانى والبرتغالى والصقلى والسردانى والمالطى وما زاد عليه بجنوب فرنســـا ٠

وقد يضاف الى المغرب البـــلاد الصـــحراوية القريبة منا فانها صنهاجية اى مغربية اصالة ٠

وننجز الدواوين المغربية فى مرحلة اولى ريثما تتم الدواوين العربية المشرقية فىمرحلة ثانية وريثما تتم الدواوين الاسلامية فى مرحلة ثالثة وبها مسك الختام ، واول الغيث قطـــر ثم ينسكب واهم هـــذه الدواوين هي :

اولا ديوان النقود المغربية :

يشـــــمل النقود البربرية والبونيقية والرومانية والوندالية والبزنطية والعربية على اختلاف الدول المغربية والتركية والاسبانية وما اخرجه المستعمرون من نقود بالمغرب ·

ثانيا : ديوان الكتاب المغربي يشـمل كافة الكتب المغربية المخطوطة والمطبوعة والمصورة والوارد ذكره فى كشف الفنون للحـــاج خليفة وملحقاته ومعجم الكتب المخطوطةالعربية الموجودة لبرلين شــــلوارد

SHLWORDT بعنوان VERZEICHNIN

وفى كتاب بروكلمان « تاريخ اداب اللغة العربية وفى فهارس المكاتب العامة او الخاصـــــة وفى فهارس المطبوعات مثلاكتفاء القنوعلفنديك ومعجمالمطبوعات لسركيس وغير ذلك ·

ثالثا : ديوان الآثار المغربية واطالسها ·

رابعا : ديوان القصور

خامسا : تاج التراجم المغربى

سادسا : ديوان النقائش المغربية التى على المعالم والقبور

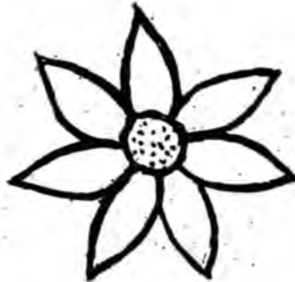
سابعا : ديوان المعالم الاســــلامية من جوامع ومدارس واسواق وابراج وقلاع واسوار وحمامات وفنـــادق ·

ثامنـــا : اعداد ديوان المصادر المغربية

تاســـعا : ديوان الفولكلور المغربى ·

عاشـــرا : ديوان الثياب وديوان الســــلاح وديوان الحلى وديوان المنقولات المغربية من اثـاث ورياش ·

من ذا الذى سيقوم بهذا العمل الجبـــار الطويل النفس ، لا تستطيع ان تقوم به الا مؤسسة مركزية مغربية مشتركة لها فروع مختصـــــة بكل قطاع من القطاعات وهذه المؤسسة لا يمكن ان تكون الا مجمعا علميا مغربيا له اتصــــال وثيق بالمجامع العلمية الموجودة وبالمجامع العلمية الخارجية ·



فلسطين

هل يعيد التاريخ نفسه؟

د . شكرى فيصل

فى تاريخنا الطويل وعلى مدى هذه القرون المتلاحقة ، ازمات كثيرة اكتوينا بنارها ، بعض هذه الازمات ياتى من الداخل . من اثر هذا التفاعل بين العناصر المختلفة التي صهرها الاسلام وبعض هذه الازمات كان ياتى من الخارج من هذه المطامع والاحقاد التى يثيرها المتسلطون والحكام غير ان هذه الازمات كلها تلك التى تاتى من الخارج ، من وراء الحدود اوتلك التى تنبع من الداخل من اعماق عناصر هذا الاشتات هذه الازمات كلها ما كان لها ولن يكون لمثلها ان تخرج الوطن العربى الاسلامى عن رسالته التى يحملها فى الوجود او عن عنايته التى يعمل لها فى الحياة وعن ايمانه بانه توجد فى تراث الانسانية ثروة يجب ان تظل دائما حية نشيطة تربو على الانفاق وتألق مع الزمن ويكون لها فى تاريخ الحياة على ظهر نصيب اى نصيب . والحق ان هذه الازمات الكثيرة على تلاحقها وقوتها وعنفها ومرارتها والحروب المنهكة التى كانت تعصف فى ظلالها والدماء التى تراق فيها ، والمدن التى تجتاح والثروات التى تبدد والتراث الذى يزال بالنار ــ وبالطوفان .

ظلت ابدا فى حياة الوطن الكبير منـارا للتجديد القوى بعد نوبة ضعف ، ومبعثا لتوحيد اطرافـه المتفرقة ومعبـرا الى الفترات الخالـدة فى تاريخنا الكبير ومن هنا ينطلق ايماننا بهذه القوى المختزنة فى ذواتنا التى تضحك للخطوب وتبتسم للاعاصير وتجد من اشد الساعات الحالكة متنفسا لفجـر جديد ، ايماننا بان الله سبحانه حين زرع فى قلوبنا الوحدانية زرع فى قلوبنا معها ان الله وحده هو الذى يخشى ويخاف ويهاب ويحب وانه ما من قوة اخرى قادرة فى الكون تستحق ان ترجف منالها فى اجسامنا فريصه او تهتزلها من رؤوسنا شعره او ان يخالطنـا من اجلها مهانة من اجل ذلك فنحن حين نعرض لنكبات ونكسات حين نتحدث عنها ونحاضر فيها ونديـر نقاشا حولها ، لانفعل ذلك فى ظلال صـفراء من الخوف ولا فى دنيا كاتمة من التشاؤم ، اننا نتحدث ونحاضر ونناقش بايمان عميق بحقنا وبذواتنا ، وبالرسـالة التى نحملها بين جنوبنا ، يتوارثها عنا جيل عن جيل ويورثها الوالد الولد ، وتدوب فيها كل فعـالياتنا واهتماماتنا ، فلنا فى هذا الحديث عن نكباتنا ونكساتنا فى فلسطين لنودع منا الاسى ونجفف الدمع الذى يندى خدود المذابح احيانا ، ونجانب الصواب الذى يتراءى هنا وهناك ، ولتعرض قصة هذا الجزء من الوطن الكبير ، قصة الامس فى الحروب الصليبية ، وقصة اليوم مع اسرائيل ، فى اوائل القرن الخامس الهجرى كان هذا الوطن الكبير يعانى ضعف الخلافة فى بغداد وتسلط الامراء الاتراك وثورات المتسلطين فى الولايات القريبة والبعيدة .

كان العهد العباسى الاول وهو العهد الذهبى قد انتهى حين غاب السفاح والمنصور والمهدى ومضى الرشيد والامين والمأمون واختفى الوجه الحـازم القوى الذى كان يطل من بغداد على اطراف الارض الشاسعة ثم تسلط الوزراء البويهيون على الخلفاء العباسيين واستبدوا بهم فكانت خصومات ومنازعات فى قلب الدولة ذهبت بهيبتها واضاعت مكانتها واتاحت للاطراف ان تقطع ما بينها وبين بغداد من صلة قلنا لنا مراكز كثيرة من هنا وهناك فى مصر وما وراء شمال افريقيا وفيما وراء بغداد فارس وخراسان وما بعدهما من الخليج .

هذا الوطن الكبير فى هذه الفترة من فترات الضعف كان يجاور قوتين اثنتين : الاولى هذه القوة المركزة المنظمة التى كان مركزها القسطنطنية والتى نسميها الامبراطورية البيزنطيـة او امبراطورية رومانيـا الشرقية والتى كانت آسيا الصغرى وطنها الفسيح . القوة الثانية هى هذه القوة التى تكونت فى اعقاب الدولة الرومانية الغربية بعد شـارل مارتل الذى تذكرون انتصاره على العرب فى سهل تورووبواتيه ، تعاقب عليها الملوك فكان ابرزهم شارلمـان الذى تذكـرون مـاكـان لـه من اتصـال مـع هرون الرشـيد واتصـال الـوطن العـربى ومركز الخلافة الاسلامية بهذه القوى لم يكن اتصال ود او صداقة كان اتصال خصومة وحرب كان الوطن العربى يمد ذراعيه ليستولى على القسطنطينية . ذراع اولى تمدها بغداد من آسيا الصغرى تريد أن تنال هذه المدينة الضخمة ، ذراع اخرى كانت تمدهـا الاندلس تريد ان تطبق البحر الابيض المتوسط لتبلغ القسطنطينية . اما ذراع بغداد فلم تمكن لها الحروب المتصلة بينها وبين الدولة البيزنطية على الثغور من

ان تحقق هذه الغاية . كانت الحرب سجالا بين بغداد وبين القسطنطينية ، كان الخليفة يقوى فى بغداد فيحاصر خصمه ويحاربه ويضرب عليه الجزية ويقوى الامبراطور فينقض الشروط ويجوز الثغور ، وفى كل مرة من مرات الضعف او القوة كانت تثور حروبلتهدا وتهدا لتثور اما الذراع الاخرى التىامتدت عبر البرينية والتى كانت لها هذه الغزوات الخاطفة والموفقة فى جنوب ايطاليا وفى جزر البحر فلم تفلح ان تكون عملا منظما ولا متصلا .

وواضــــح لنا ان هاتين القوتين قوة الافرنج والقوة القسطنطينية كانتا تتحينان الفرصة لتخنق الوحدة العربية الاسلامية التى تريد ان تلف العالم كله فى نظام جديد وواضح كذلك ان هذه الموجة قد بلغت اقصى ذروتها مع الرشيد فى بغداد وعبد الرحمــن الناصر فى الاندلس فلما كانتفترة الضعفهذهالتيجاءت فى نهاية حكم البويهيين فى منتصف القرن الخامس الهجرى كان الشعور حادا وقويا عند الاوروبيين وعند البيزنطيين فى ضرورة الحد من هذه الموجــة العربية الاســـلامية والتى نادت بالفكــر الواعى ، والحق ان هذا الطابع فى الحياة العربية الاسلامية بلغ حدا مخزيا ، فى الغرب كان الامويون والاندلسيون عرضة للهجمات المتصلة وفى الشرق كان البيزنطيون يثيرون حروبا طاحنة لا تنقطع ، واجه الحمدانيون هذه الحروب ولكنهم لم يستطيعوا ان يقفوا لها دائما بل ان كتائب الدولة الرومانية اخذتهم بما لا قبل لهم به فضمت سواحل الشام وعبرت نهر الفرات .

وكانتعلى طريق بغداد وذعر الخليفة والامير البويهى حتى لقد بعث اليه الامير البويهى اثاث قصره ليستعد لشن هذه الحرب ، واباطرة القسطنطينية لم يجدوا لحســـن الحظ القـــوة على الاستمـــرار فى هـــذه الهجمات فرجعوا عنها ، ولم يكن بينهم وبين قادة اوروبا ما يساعدهم على عمل مشترك . ان الخلافات الدينية بين القسطنطينية وروما كانت ولاتزال اعمق من ان تتحاشى او تهمل او ينشأ مكانها نوع من الالفة والوفاق . كان هذا فى اواخر القرن الخامس الهجرى اواخر حكم البويهيين . غير انه لم يكد ينتصف هذا القرن او يكاد حتى شهدنا موجة من القوة تتدفق فى وطننا الكبير ، كان ذلك حين ظهر السلاجقة فتولوا الحكم للخليفة فى بغداد ، انقذوه من البويهيين وتركوا له ماشاء من مظاهر السلطان والرئاســـة ولكنهم امسكوا بالسيادة الفعليـــة بأيديهم فجددوا للدولة العباسية شبابها ، اريد بالطبع الشباب المادى الذى اوشك ان يزول . وفى العهود الاولى لهؤلاء السلاجقة حدث هذا الحادث الخطير الذى كانت تتطلع اليه الدولة الاسلامية . كانت القسطنطينية من آســـيا الصغرى مثار كروفر ، بين البيزنطيين والعباسيين فى آسيا الصغرى ، فى اقصى طرفها الغربى كانت القسطنطينية بكل جـــلالها وعظمتها تتراءى لعين مسدودة . فلما قوى أمر السلاجقة اصلوا بيزنطة نارا حامية وصار فى ايديهم زمام المبادرة بعد ان كان للبيزنطيين ، وضربوا فى احشاء هذه الدولة وانثالت جيوشهم فى غزر وعنف تتقدم من مكان الى مكان وتربح معركة كبرى بعد معركة . كانت معركة ملاذ كرد من معارك التاريخ الفاصلة ، أسر السلطان الب ارسلان الامبراطور رومانيوس ، ثم تتابعت الوقائع والمعارك واستقر امر السلاجقة فى قلب الامبراطورية

البيزنطية فى آسيا الصغرى ؛ ولم يبق للبيزنطيين الا الجانب الغربى . ما معنى هذه الخطوة الجديدة الواسعة عند السلاجقة . معناها تهديد القسطنطينية وزعزعة الدولة التى تأبت على الفتوحات الاولى ، معناها ان يوصل التاريخ من جديد ما كان انقطع من غزوات معاوية والوليد وسليمان . حينذاك اخذت المسألة شكلا خطيرا وادرك الامبراطور البيزنطى كاسيوس حرج موقفه ورأى أن فى وسعه أمام هذه الخطوة العريضة التى تفتح فاها وتوشك ، أن تبتلعه ان فى وسعه ان يهادن الفرنجة فى اوروبا وان يتقرب من اوروبا وأن ينسى خصوماته الوثنية التى بلغت حد المهاترات والتنادف بالخرافة ، بل انها اصطنعت السلم احيانا ، فكان بينها فى بعض الفترات وأرسل كاسيوس نداءه الى أوروبا يستغيث بها والبس هذا النداء ثوبا دينيا ، وتجاوبت معه اوروبا فى اوروبا الصغرى يذكر منها التاريخ صوت البطرس الاول ، ونادى البابا البانوس الثانى نداءه التاريخى للعالم المسيحى لاسترداد بيت المقدس . ومضت الدعوة كما نراها فى القرن العشرين ، وحملت الى شرقنا العربى الى فلسطين هذه الغزوات التى البسوها اسم الحروب الصليبية . لست احب ان اتحدث عن هذه الحروب بشىء من التفصيل وليس من هدف هذه المحاضرة التعرض للاحداث وللحروب بالذات وذلك ان الاسماء التى اطلقت والاحداث التى كانت ليست هى التى تهمنا فى شىء ، ليكن اسم هذه الحروب ما يكون ، ليكن من احداثها ما يكون .

اننى لا اقصد هنا الحديث عن الاحداث التاريخية بنفسها ، وانما اقصد الى الروح التى تكمن وراءها والمطامح التى تسيرها ، والبواعث التى تحركها ، والسياسات التى تتلاعب بها ، واننا اليوم وبعد هذه القرون الثمانية لا نتحدث عن هذه الحروب القديمة فى مثل الافاق التى كان يتحدث فيها اصحابها او الذين ارخوها اننا نملك أن نفهم من هذه الحروب ونحن نستقطب التاريخ شيئا اخر غير الاسم الذى اطلق عليها ، فالدين وخشبة الصليب ، والسيد المسيح عليه السلام . وغير ذلك من الاشياء لم تكن وحدها ، كانت لبوسا من لبوس هذه الحروب وانما كان وراءها سلسلة من الدوافع والمحركات ، بعضها دين وبعضها دنيا ، بعضها سلطان وسيطرة ، وبعضها تجارة واستثمار واستعمار ، تجمعت كلها على هذا الاسم ، على نسب مختلفة وتفاعلت فى هذه الحركة التى يؤلف بينها طابع رئيسى وهى انها عدوان . ايا كانت صفة هذا العدوان او اسمه ، وتحركت مواكب هذا العدوان نحو المشرق العربى على نحو ما تحرك العدوان الذى نعيشه ، ان صح هذا التعبير نحو قلب هذا المشرق العربى ؛ نحو فلسطين ، الحق ان هذه الحروب الصليبية كانت فى معمل من معاملها شكلا من اشكال هذا الصراع الدائم المستمر بين الشرق والغرب على مدى التاريخ منذ حروب دارا والاسكندر ، والوقفة القصيرة والمتانية على نشأة هذه الحروب واحداثها وتطورها يضع هذه الحقيقة موضع التأكيد ان لم أقل موضع اليقين .

ان العالم فى نظره كلية يجرى فى كفتى ميزان مترجرج ، كل حركة فى احدى الكفتين تستدعى رد فعل فى الكفة الثانية ، هاتان الكفتان لا تستوعبان قوى العالم كله ، وكثيرا ما يتفرق العالم كتلا وجماعات عديدة ؛ لكن الافتراق بين القوى العالمية او التقاؤها لا بد ان ينتهى حين تبلغ هذه الخصومات ابعد غاياتها إلى أن تتجمع هذه القوى فى كتلتين كبيرتين متضادتين ، فى هذا التجمع عادة تذوب

الخلافات الجزئية الصغيرة فيما بين اجزاء الكتلتين لتستعد للخلافات الكبرى .

اى ان المجموعات الصغيرة تنسى ما بينها احيانا او تتناسى او تحمل على التناسى لتنتظم خلافاتها فى صور الصراع الكلى فلهذا العالم ينشطر لكتلتين ضخمتين ، ولذا ولاء القوى الصغرى يتوزع بينها ، وان الانسانية أمام خطر التصادم فى هذا الكوكب — الارض — بين هاتين القوتين او الكتلتين ، ابرز الاسماء او المصطلحات التى اطلقت عليهما ، انهما الشرق والغرب ، هذا دون أن يكون فى هذا الشرق والغرب على نحو مستمر وواضح معنى جوهرى بل انه ليوشك ان يكون مستحيلا احيانا ان نجد هذا التحديد الجغرافى فضلا عن ان نضبطه ، ان المدلول الضيق اولا لهاتين المنطقتين اى الشرق والغرب يضمر او يغيب لتأخذ الكلمتان معنى اصطلاحيا جديداً يرمز الى كل قوتين عالمتين متصارعتين تتكثف بينهما عوامل الافتراق وتختلف العقائد والفلسفات والمصالح القائمة على هذه الفلسفات وينتهى الخلاف الى صيغة نزاع او صراع او حرب على هذا الاساس ، احب أن انهمك وان نفهم معا هذه الصورة التى قلت فيها أن العالم يشبه كفتى ميزان مترجرج مع كل حركة فى احدى الكفتين نحو الغلبة تستدعى رد فعل فى الكفة الثانية .

لم تستطع كفتا الميزان هاتان ان تلتقيا على اتجاه واحداد على حركة متوازية دائمة ولذلك لن تستطيعا ان تكتسبا شيئا من الاستقرار او شيئا من السلام الطويل ، وتذكرون الجملة المشهورة : ان السلام فترة بين حربين — ان روح الانسان وحركة المجتمعات ابتا منذ كان الانسان والمجتمع شيئا من السكون الثابت ، ولهذا تظل الكفتان تتأرجحان وتتناقضان وكثيرا ما يؤدى ذلك الى رقصة الحرب الكبرى . من هنا فى شىء من الاستطراد — والاستطراد مما يسهل على — تتردد قيمة الفكرة المعاصرة الكبرى فكرة العالم الثالث التى نشأت فى اعقاب المغامرتين القاسيتين — الحرب العالمية الاولى والثانية — ان فكرة قيام حرب اخرى سقطت فلم يكن هناك حيرة .

وجاءت فكرة العالم الثالث تعويضا أكثر موضوعية عنها ومحاولة للحيلولة بين هذا العالم كله وبين أن يستقطب من جديد فى قوتين لعله لا بد ذات يوم من ان تتصارعا طبعا الا اذا اتفقتا على تقسيم هذا العالم الثالث .

ثم جاءت محاولات اخرى كثيرة بين هاتين القوتين فى سبيل اقامة التوازن وهو توازن أغلب الظن ان حياة الانسان وخيره لم تكن هى مصدره قدر ما كان المصدر : الروح التى اشاعها التقدم النووى واستخدامه فى اغراض الحرب فوق استخدامه فى اغراض السلم .

ومهما يكن من شىء فلسنا فى هذه الساعة مع الحاضر ، نحن مع التاريخ ، لنصل الى هذا الحاضر وانه لامر واضح ان الغرب لم يستطع فى مرة من المرات ان يتقبل المساواة مع الشرق ولا أن يجرى معه على مستوى واحد لا فى مستوى العقيدة ولا فى مستوى الاقتصاد ، لا فى الفكر ولا فى العمل ، ولذلك كان يدعى ان له حقا فى الاخرين ، ودعام هذا الحق كان يقوده الى السيطرة ، ولهذا كانت وجهته دائما رصد الفرص التى يستطيع معها القضاء على كل قوة ناشئة فى هذا الجزء من العالم يخافه أن يكون

مستقبل هذه القوة الناشئة حائلا بينه وبين سيطرته ومطامحه ، ولقد كان الوطن العربى منذ مبعث النبى (ص) هذه القوة العاتية وحد الشرق ، وامتص الاسلام القوى الناشبة فيه فادخلها فى حوزته وامتد جناحاه هنا وهناك . فكان الموقف الغربى ردة الفعل هذه لابد ان يبدأ بقص الجناحين ويحاول ان ينفذ بالقلب ، لندع قصة الجناحين فان لهما تاريخ هو مزيج من الهزيمة والنصر ، الجناح الذى انكمش فى الاندلس فارتد الى الوراء ، والجناح الذى اشتد فى اسيا الصغرى وتجاوزها حتى دخل قلب اوروبا ، لندع حديثنا اليوم فى منطقة بلاد الشام اى عن القلب الذى استهدفها الغرب فى الحروب الصليبية كما يستهدفها اليوم والتى اراد من عكا ويافا ان يسيطر اكثر فاكثر ، واعذرونى ان لم اسق الاحداث تتابع تتابعا تاريخيا متسلسلا سأوفر عليكم سرد الاحداث لانتقل بكم الى الحقائق التى وصلت اليها ، وهى التى تحدد وتساعد على تحديد وجهتنا وتقود خطوتنا ، انى لا ازعم انى ارسم طريق المستقبل ، ولكننى ازعم اننا فى حاجة دائما لان يكون التاريخ لنا بمثابة البوصلة التىتهدف الىتحديد وجهتك حين يظلم الجو من حولك ، ولك بعد ذلك ان تختار وجهتك وفق ظروفك وواقعك ، كذلك هنا نريد ان تكون الحقائق التى ننتهى اليها هى النور الذى نرى به من امر هذا الحاضر ابعد مما نرى فى جلبه الاحداث اليومية ، واخبارها المضللة والدعايات المغرضة ، لقد انتهيت الى جملة من هذه الحقائق الحقيقة الاولى ان احداث الشرق الحاضرة والماضية هى امتداد للصراع بين الشرق والغرب ، قد يكون فى هذا الصراع ابعاد من السيطرة اكثر . مما له من ابعاد الدين ، وابعاد التجارة اكثر من الابعاد الخلقية ، لا نخالفولا نناقش فى ذلك لاننا متفقون على كل حال انها ابعاد عدوانية تجافى الحق وتتنكر للعدل ، ان هذا الصراع السافر اتخذ من فلسطين مركزا له ومنطلقا ، وقد هدفوا من مقدسات معنية اليوم من الغرب ، ولكنها هى المعنية اليوم من الصهيونية ، انها ارض المأوى وارض الميعاد ، انها الوطن والعقيدة فى آن واحد ، ولهذا لم يأخذ الصهيونيون اى وطن آخر غيرها ، ونستطيع ان نحدد العامل الدينى الذى اعطته الصهيونية ، ان الغرب الذى حمل نفسه حملا الى فلسطين اثناء الحروب الصليبية لم يستقر له الامر حتى بعد مئتى سنة فخرج منها ، هذا الغرب عاد ففرض نفسه مرة أخرى فى فلسطين بعد الحرب العالمية وعلى بلاد الشام كلها ، ووقف اللنبى القائد البريطانى على قبر صلاح الدين ليقول قولته المشهورة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية يا صلاح الدين » . ومع ذلك فلم يستقر للغرب قرار طوال سنوات الاحتلال كلها التى امتلأت ثورات هذا الغرب نفسه آثر مرة ثالثة تجربة جديدة على يد الصهيونية هذه المرة انه دفع باسرائيل لتكون ركيزة ، وبرج مراقبة وبرج تجسس ، وكان بين اسرائيل وهذه القوى الغربية مثل هذا التواطؤ المشترك ، اسرائيل تسعى الىاثبات كيانها ، والقوى التى تساعدها تسعى الى الحياة الجديدة الناشئة النشطة فى الوطن العربى ، وفى ما وراء الوطن العربى من اقطار الشرق المستعرب وغير المستعرب تريد امتصاصها ، تعويق حركتها نحو المستقبل ، تريد ان تحول بين التربة التى خلدت الى الراحة مدى طويلا وبين ان تحيا وتزدهر . ذلك ، لان التراث الحضارى العريق الذى يتمتع به سكان هذه المنطقة من العرب المسلمين ، والموقع الجغرافى الرائع ،

والثروات التى تتفجر فى ارضه ، والعقيدة المثلى التى استطاعت ان تجابه احداث القرون ، والتى حفظت فى نفوس اصحابها ارادة الحياة الكريمة ، كل ذلك يروع هؤلاء الغزاة كما لا تروعه اية قوة اخرى ، اذ ليس هناك كيان مكتمل ، او يمكن ان يكتمل فى قلب العالم غير كيان هذه الشعوب العربية والاسلامية . ولهذه الاحقاد كانت عملية تمريض الدولة العثمانية وتشتيت الامة العربية وتقطيع اوصال الوطن العربى ، واثارة النزعات المختلفة باسماء مختلفة ، او من هنا ايضا كانت ابرز خطوط السياسة الغربية التى تتضح كالشمس ، اليس من المؤلم اننا احيانا لانرى الشمس واننا فى بعض الاحيان كهؤلاء الذين خرجوا من حانة مخمورين ، فلما خرجوا تساءلوا اهوضياء الشمس ام ضياء القمر ، ثم عادوا يغطون. الحقيقة الثانية التى تبدو فى احداث الحاضر كما كانت تبدو فى احداث الماضى ان هؤلاء الفرنجة الذين قصدوا قلب الوطن العربى قد قاموا مبناه فرقة ما كانوا يستهدون الملك وحده ولكنهم كانوا يهدفون قبل كل شىء الى فصل هذا الكيان العربى وتجزئته . كانوا يريدون شيئا اساسيا هاما يعتبروه ابرز الركائز فى سياسة الفرنجة جميعا ولعله اشد ما تلتقى عليه هذه السياسات جميعها ذلك هو فصل عرب آسيا عن عرب افريقيا ، ومن ينظر تاريخ هذه الفترة يظهر له بوضوح كيف حرصوا حتى حين بداوا يتراجعون ، ان يبقوا فى الكرك والشوبك من بلاد الاردن . اطول فترة لا لشىء اذ ليس للارض فاكهة . ولكن لكى يحولوا بين الاتصال البحرى بين جنوب سوريا وبين مصر ، ان خطة هذا التفتيت هى التى طبقت ايضاً فى اقطار اخرى من بلاد العرب والاسلام ، وانتم تذكرون ماذا حدث فى الحرب الاولى ، من كان يصدق ان الشام التى لا تتجاوز ثلاثة ملايين قد قسمت الى قسمين : شمالى وجنوبى ، وان القسم الجنوبى كذلك قسم الى قسمين فلسطين ، والاردن . وكانت الاردن تحت نظام غير النظام فى فلسطين . وان شمال سوريا اول الامر قسم الى اربع دويلات . حلب والشام واللاذقية ولبنان واقيمت حكومات منفصلة وانظمة مختلفة فى كل جزء ، الحق ان التاريخ كله كان يعرف ان بلاد الشام كانت وحدة واحدة . هل اخذكم العجب لولا صعوبة الادانة التى واجهت الانتداب الفرنسى ولو لا خطة اخرى قد تكون اكثر مكرا ، لما جمعوا بين حلب واللاذقية والشام فى دولة واحدة فى الجمهورية السورية .

وكان لبنان صغيرا جدا وفقيرا جدا ، فاغنوه ، فاقتطعوا له جزءا من سوريا ، اربع مدن صور وصيدا وطرابلس وبعلبك ، ولماذا ياخذكم العجب ، الم تقسم ليبيا اعقاب الحرب العالمية الثانية ثلاثة اقسام ، اذن عملية التفتيت هذه على اساس اعطاء هذا التفتيت صفات خاصة ، حتى ينتج كيان مستقلا عن البلاد الاخرى ، هذا الاسلوب الذى يمكن ان يدل عليه مصطلح الاقليمية هو الذى لجا اليه خصومنا ، انه نوع من التفتيت وايجاد مثل له واشكال بعضها بالحق وبعضها بالباطل ، ولكن الله منذ ان مكن الله للاسلام فى الوطن العربى الكبير اراد أن يكون لهاتين القيمتين الكبيرتين سلطانهما على كل حملة مضادة لها لهذا لن تتغلب عوامل هذا التفتيت والتجزئة المصطنعة على عوامل الوحدة الاصيلة . اقول لن تتغلب بل ان الصراع مازال قائما والمشكلة لم تغادر منطقة الخطر ، لقد تنبه الحس الاقليمى الى حد بعيد فى وطننا العربى ، ونشأت له جذور ، ووجدت له

تربة مصطنعة ، واعطيت له فلسفات ، وليس هناك على المدى البعيد والقريب خطر اكبر من الاقليمية ومن نمو الاحساس بها ، لقد نشأنا نحن الان المغرب ، اما تسمية اقطاره فدلالات ونشأ غيرنا لا يعرف الا بلاد الشام ، وعشنا في القاهرة في الاربعينات واوئل الخمسينات لم يكن الشاب المغربي يعرف كل هذه الاسماء المصطنعة ،سورى فلسطيني ولكن جيلنا ومؤسساتنا ودساتيرنا واعلامنا حثوا على المشاركة فى هذه التجزئة والله اعلم ما وراءها ، وانتشرت كلمات كان يجب ان لا تنتشر ، مثل الجزارة والمغربة او التمصر ، وما اشك ابدا فى ان بعض هذه الكلمات نقى صاف يقصد به الى مغزى نقى صاف هو محاربة الدخيل المتغلب واحلال الاصيل محله ، ولكننى كنت اتمنى ان تأخذ هذه الاصطلاحات صيغا اخرى بعيدة عن الايماء الاقليمى .

الحقيقة الثالثة التى تبدو من خلال الظروف القديمة والمعاصرة ، ان الغرب يستهدف دائما رد العرب الى الوراء ، ردا فى الزمان والمكان والتاريخ، العودة بهم الى البادية والابقاء على الذين يبقون فى الاطراف مستخدمين ، فى نظر الغرب يجب ان يظل العرب رعاة او شبه رعاة ، جماة قوافل ، ان الغربى يريدنا ان نكون هذا التابع الأمين الذى لا يجاوز الوبر الى المدر الا فى النطاق الضيق الذى ينسى فيه جوهره الاصيل ، وان لا ينتقل من الرمل الى الطين ، وعليه ان يقف على اطراف السواد ، ينظر اليه ويتمناه . ولكن ابلغ حظه منه ان ينال منه ما نال النابغة وحسان من بردى ، ومن مشاجر الفيحاء وعطر الريحان ، وان ينظم فى ذلك شعرا ، وكذلك عاش العرب فيما قبل الاسلام فى جزيرتهم او بعض جزيرتهم ، فلما كانت وثبة الايمان الكبرى التى خرجت بالعربى من المحطات الى المدن ، ومن الرمل الى الطين ، ومن ابواب المدن الى المدن نفسها ، ومن رؤية السواد الى الخوض فى السواد ، ومن بحار الرمل الى بحار الماء ، كما كانت هذه الوثبة الكبرى التى بثت هذه الروح فى منطقة البحر الابيض المتوسط ، كان لا بد للغرب ان يرصد الفرص التى يرد بها هذه القوة المنطلقة الى مداخلها الاولى .

الحروب الصليبية اذن كانت تستهدف هذه الابعاد ولذلك كان الشىء الاساسى عندها ان تستولى على الشيطان الشمالية المتوسط والبحر الاحمر ، واقول لكم ان الحروب الصليبية فى غزواتها لم تكد تترك شيئا من سواحل بلاد الشام من انطاكيا الى طرابلس الى بيروت الى صيدا وصور وعسقلان ، كما حاولت ان تستولى على البحر الاحمر وعلى العقبة وعلى عريجان وامتدت الى البحر المتوسط كذلك فجهزت حملة ارادت منها السيطرة على دمياط وحملات اخرى للسيطرة على اسكندرية وما يقابل ذلك فى احداثنا المعاصرة لا اشك ان بلاد العرب تمتد بين الشواطىء والصحراء صورة الخريطة العربية فى فتراة الاستعمار المظلمة من جبل طارق الى اسكندرونة الى الخليج كانت كلها قبائل ، ومرة اخرى ان الارث الروحى والحضارى والتاريخى ومكتسبات نفسية من خلال هذا الارث مكنت لنا ان نواجه هذا العدوان الشرس للمقاومة الفعلية ، فسلمت لنا شواطئنا من جبل طارق الى شمال سوريا ، وتأخذ شواطىء اخرى جنوب الجزيرة طريقها الى ان تساندنا ايضا . ولكن القوى المعادية لم ترض عن هذا فهى تحاول ان تسلبها على نحو آخر واقرار التجزئة اول الخطوط لذلك ، والمعاهدات المقيدة هى الخطوط الثانية فى هذا الموضوع ، لكن الخطر المفاجىء الاكبر مما يتضح

فى اسرائيل وفى مواضع أخرى فى وطننا العربى لا فى البحر المتوسط فحسب ، بل فى البحر الاحمر ، ان البحر الاحمر هو الذى يقودها الى عدن والى ما وراء عدن من بلاد الهند ، ان هذه المناطق تعتبر فى مكان القلب من الوطن العربى ، وماذا يبقى للاطراف اذا سكت القلب .

الحقيقة الخامسة لهذا الصراع انه صراع تاريخى جذوره بعيدة احداثه متشابكة وممتدة عبر التاريخ . ان علاقة الغرب بكل قواه ومراكزه وتراثه الحضارى وبكل ما يملك من ثقافة ، وعسير فى هذه الظروف التى نعيش فيها ان تتغلب على الغرب نزعة الذات الانسانية المسالمة، لذلك علينا ان نبنى مستقبلنا على ان هذا صراع طويل ومستمر . وان ما نراه اليوم فى فلسطين والوطن العربى ليس جديدا ، ولكنه قديم امتداد لماضى وامتداد عنيف له تريد ان تلف المستقبل كذلك وحياتنا يجب ان تبدأ بهذا الايمان وتقوم عليه . ولذلك فنحن نميل الى السلم لأنه فى صلب عقيدتنا لكن لا نفهم الدعوة الى السلم فى هذه الظروف القاسية التى نمر فيها فى هذا الواقع المرير الذى نحياه . نجد انه لا يتصل بنا لا فى الكثير ولا فى القليل ان سلمنا هو السلم الذى يكفل العدالة ويقوم عليها ، اما السلم الذى يقوم على اساس من الواقع وعلى اساس هدد كرامتنا واغتصب موردنا فشىء لا نستطيع ان نتقبله ان السلم يجب أن لا يعيش بيننا انه مما يجب أن يحمل اولا فى قلوب اولئك الاقوياء الذين يلعبون فى مصالح العالم ، وأن تصدر عن هذا السلم تصرفاتهم واعمالهم تجاه الضعفاء .

هذه هى الحقائق الخمسة التى نراها حين نلتفت الى الاحداث التى تحيط بنا والتى حدثت من قبل أن هذه الحقائق يجب أن تحيا فى اذهاننا ، وفى ضوء منها يجب أن نعالج المشكلة التى نعيشها فى فلسطين حتى تأتى المعالجة ناجحة وموفقة ، ولكن نظلم انفسنا ونظلم الفكرة حقا اذا نحن عالجنا المشكلة القائمة اليوم دون ان نعرف كيف عولجت من قبل لقد مر اجدادنا بمثل هذا الاحداث ، بل وباكثر منها ، لكنهم خرجوا منها بعد ان ظفرهم التاريخ ، ان الغارات السابقة كانت اعنف من هذه الغارات ولكنهم صمدوا لها فكيف كان ذلك ... ما الذى فعلوا حتى يكون لنا فى الذى فعلوه عبرة ، سأتحدث عن هذا الذى فعله العرب فى القسم الثانى من المحاضرة . ولكن أود أن امهد لذلك بملاحظات :

اولا : انى لا ازعم لكم ولا لنفسى ان التاريخ يعيد نفسه بكل ظروفه وشروطه ، ولكنى ازعم لكم ولنفسى أن التاريخ يعود بروحه واتخذ من الاحداث الجديدة اشكالا جديدة ، انه يتأقلم مع الاحداث . الا يستطيع التاريخ الا ان يعيد نفسه . اذا كانت النفس البشرية لاتزال تعيش فى هذا الجشع العجيب فى قسوتها ونعومتها فى جبروتها ووداعتها اذا كان انسان الذرة لايزال هو انسان الغاب ، رغم عقله الهائل ظل فى جوهره النفيس قريب من الانسان الاول ان لم يكن هو ذاته .

والملاحظة الثانية اننى سوف انظر الى الحروب الصليبية فى مدى قرنين نظرة كلية ، احاول استقطاب بعض الظروف والحركات والغايات وساحاول أن ابين السياسة التى سار عنها عماد الدين وصلاح الدين لانقاذ فلسطين . ايها الاخوة لقد كتب فى الحروب الصليبية مؤرخون كثيرون ، بعضهم كتب عليها وحدها ، بعضهم كتب عنها فى حوليات التاريخ بعضهم اقامها على اساس اثبات بعض الحوادث .

وبعضهم أقامها على اساس الاحداث السليمة ، كل هؤلاء ينظرون الى هذه الحرب كأنما كانوا يقدرون هذه الغزوة المتجددة . فاجتهدوا ان يذكروا لنا كل الذى كان حتى نتدبر نحن كل الذى يكون ، واوشك ان اعتقد من ناحية ثقافية اننا فى اشد الحاجة الى ان نحيط بتاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين فى طرفى العالم الغربى والشرقى يجب ان نستحضر دائما الاحداث بتفاصيلها وجزئياتها لنرى كل ما كان من تجزئة وتقسيم ، من عبود وذل العبودية من القوى الذاهبة والقوى الناشئــة ان شيئــا آخر لا يمكن أن يفجر فى نفوسنا روح العزيمة والتفاؤل فى المستقبل كما يفعل ذلك عند قراءة احداث هذه الفترة من تاريخنا ولو كان لى اقتراح على ذى سلطان لاقترحت ان يجدد كل هذه الكتب وان يعيد طبعها وان يجدد عرضها وان تفرض للتدريس فى كل مراحل التدريس . واقتضت عواملى انا ان اقرا تلك الكتب واستعرض أحداث سنة 1967 وخرجت بهذا الايمان القوى ان المعركة هى المعركة وان اختلفت الاسماء والاشخاص والاقوام ، والاهداف هى الاهداف بل توشك أن تكون الوسائل هى الوسائل ، تفصيلات دقيقة هى التى تنبئنا عن ذلك ، غــير اننا فى بلادنا لا نعرف التاريخ كله كما يجب ان نعرفه .

لقد انتهيت الى ان هناك جملة من القواعد سادت عملية تصف الصليبيين القاعدة الاولى ، هى ارادة الجهاد ، فما لم يولد الجهاد ما لم نعط هذه اللفظة الاهمية فى حياتنا العامة والخاصة ، وما لم نصمم على هذا ونؤمن انه طريق الحياة فان انقاذ فلسطين يبدو أمرا بعيدا ، اننــا فى حاجة الى تجــديد هذا المفهوم فى حياتنا وفى مؤسـسـاتنا ؛ فى مدارســنا واسرتنا ومصانعنا ، وكل الجوانب من اركان الحياة يجب ان تحيا عندنا ارادة الحياة وارادة الجهاد معا وتحيا فى نفوس الناس ونفوس ذوى السلطان ، وان تحيا فوق مستوى كل ارادة اخرى وان تكيف حتى الادارات الاخرى حتى تعيش فى اطار منها . ان ما فعله نور الدين وصلاح الدين لم يهدف الى تملك أو سيطرة ولم يفكر اى منهم باستثمار او مصلحة ، كان فى حياتهما امثلة رائعة من هذا النحو قائمة على هذا الاساس ، ان ارادة الجهــاد هى التى تجعل احتمال الاباء سهلا يسيرا ، وهى وحدها التى تقضى على شعور الفزع والرعب ، وتجعل من الاقــدام المرتجفة اقدام ثابتة او من الجماعات القلقة جماعات تحتمل مثلما احتمل اهل عكاحصارا من البر والبحر سنتين اثنتين فسد فيهما كل شىء حتى التراب مثل هذه الارادة هى التى تجعلنا نقول مثل قولــة نور الدين حين فقد اخوه عينه ، قال له : لو كشف لك عن الاجل الذى اعدلك لتمنيت ان تذهــب عينك الاخرى .

القاعدة الثانية التجميع والوحدة : لقد كان المجتمع العربى فى ابان الحروب الصليبية فى مثل هذا التفكك ، كان هناك خلافتان كل منهما ترى انها هى الخلافة الشرعية واحدة فى بغداد والثانية فى القاهرة ، وكان بينهما ذلك العداء الذى يكون عادة بين المتخاصمين ووراء الخلافة الفاطميين فى القاهرة امتدادها فى شمال افريقيا ووراء الخلافة العباسـية فى بغداد امارات فى شبه الجزيرة كان هنــاك هذه الفــوضى السيــاسيــة الكبيــرة .

د. شكرى فيصـــل

(القيت هذه المحـــاضرة فى شهر جوان فى قــاعة المــوقــار بالجزائر العــاصمة) .

أصالة الشخصية الجزائرية

د. عبد المالك مرتاض

ما الشخصية ؟

ان الشخصية كلمة جامعة لعدة معان وهي لا تقوم في الغالب الا اذا ائتلفت من عدة مبادىء ومقومات . ولكل فرد من الافراد شخصيته التي يتميز بها عن سواه ، كما ان لكل أمة من الامم شخصيتها التي تسمها بميسم خاص . بيد ان شخصية الامم تختلف باختلافها في اللغة والدين والعادات والتقاليد و الماضي التاريخي . وهلم جرا من هذه المقومات التي تتكتل مع بعضها فتشكل بنيانا متينا متماسكا ندعوه بالشخصية الوطنية .

فما هي الشخصية الجزائرية ؟ وما مقوماتها ؟

أما السؤال الاول ، فلا ينبغي أن نجيب عنه الا بما نجيب على السؤال الثاني . والاجابة على السؤال الثاني هي التي تستغرق هذا الحديث كله .

ولقد حاولنا ، جهدنا ، أن نحصر بعض العناصر القوية التي تتألف منها الشخصية الجزائرية ، والتي ظلت تحصنها وتحفظها من المسخ والذوبان.فرأيناها تتمثل ، بوجه خاص ، في العناصر التالية

1 – العادات والتقاليد ،

2 – التاريخ والحضارة ،

3 – اللغة والثقافة العربية

4 – القوميـــة ،

5 – الدين الاسـلامي ،

1) العـادات والتقاليد :

ان مدلول لفظ «العادة» يدل في أصل وضعـــه على الفعل المكرر ، فهو مشتق من مادة «عود» التي تدل على الرجوع والتكرار . فالذي يعتاد فعلا مـا ، يصبح له ديدنا يلازمه أي عادة ملحة لا تكاد تحيد عنه ولا تريم . وقد تطور مدلول هذا اللفظ الى أن أصبح يطلق لدى علماء الاجتماع على مجموعة مـن الظواهر الاجتماعية التي ألف الناس فعلها ورؤيتها داخل مجتمع ما . وكثيرا ما نقرن في أحاديثنـــــا الراقية ، وفي كتابـــاتنا ، لفظ العـــادات بلفظ التقاليد ، وانهما لمتقاربان في مدلولهما العام تقاربا واضحا الا أن أصل لفظ التقاليد في الوضع اللغوي اقتباس فعل ما ، أو عادة ما ، أو مظهر ما ، من طرف آخر . وهذا الطرف قد يكون الجد بالقياس الى الحفيد وقد يكون الاب بالقياس الى الابن ، كما قد يكــون المسود أو المحكوم ، بالنسبة للسيد أو الحاكم .

واذا ما اعتبرنا ان الانسان مقلدا قبل أن يكــون مبدعا ، فان التقليد قد يكون اعرق في حيــــاتــه ، من العادة . فكأن العادة تنشأ عن التقليد ، حتى اذا تبنى الناس في مجتمعهم ذلك التقليد ، أصبــــح شيئا مألوفا شائعا يرد في أفعال الناس ، فاذا هو عادة متبعة لا يسأل الناس العاديون عن أصولهــــا الاولى ، ولا يثيرون البحث حول جذورها الخفيــة ، لغاية البحث نفســه .

وواضح اننا نجد لكـــل شعب من الشعـوب ، عاداته وتقاليده التي تطبع حياته الاجتماعية ، بطابع خاص . وهذه العادات والتقاليد الاجتماعية من جملة العوامل التي تميز الشعوب بعضها عن بعض . وان هذه العادات يقوى سلطانها في أنفس الناس داخل المجتمعات حتى تصبح لها قوة القاعدة المتبعـة ، وحكم القانون الكلي ، فتراهم يحترمونها احترامهـم للمبادىء الدينية أو أشد من ذلك أحيانا ، فاكرام الضيف ، أو عدم اكرامه ، من العادات التي يتوارثها الناس خلفا عن سلف ، وابنا عن أب ، بالرغم من أن طبيعة النفوس البشرية تخضع ، في اتصافهـا بالبخل أو الكرم ، لعوامل نفسية أو مالية ، أو وراثية بعيدة . كذلك الاحتفالات بالاعراس والحفـلات ؛ من العادات التي يتوارثها الناس بعضهم عن بعض . ونحو ذلك يقال في التزيي بأزياء معينة دون سواها فترانا نقول : فلان يتزيى بالزى الوطني أو التقليدي وفلان بالزى العصري . حتى كان الشيوخ والعلماء وكثير من الآباء في بوادينا الجزائرية منذ زهـــاء عقدين من الزمن يرون العفو عن شعر الرأس وحسره

وحلق اللحية رجسا من أعمال الشياطين ، يجب على المؤمن الفاضل الصالح نبذه ورفضه . مع أن هذه القضية شكلية الى حد بعيد ، ومن التعسف والتزمت اخضاع كل شيء الى الدين ، اذ كان اللباس والطعام مما يخضع لطبيعة التصورات الحضارية والاجتماعية التى تعتور المجتمعات الانسانية . وتنشأ عـــن اتصالهم : بعضهم ببعض .

ومثل ذلك يقال أيضا فى ظاهرة الاحتفـــال بالاعراس ، فان الناس مضطرون ، بحكم انتمائهم الى هذا المجتمع أو ذاك ، الى الخضوع للطقـــوس الاجتماعية التى الف الناس أن يأتوها عند اقامـة مثل هذه الاحتفالات ، لهذه المناسبات .

واذا بحثنا عن مدى صلـــة عادات الغـازين أو المستعمرين ، بعادات الجزائريين المغزوين عبـــر التاريخ لطويل ، وجدنا الشقة بين أولئك وهـؤلاء بعيدة جـــــدا .

أرأيت ان الناس كانوا لدينا ، منذ نحو عشرين عاما فقط ، يرون حسر الرأس والابقاء على شعـره عملا من أعمال الكفار ، وتشبيها بهيئة المستعمرين، ومن تشبه بقوم فهو منهم . فانكار هذه الظاهـــرة من قبل شيوخنا ، فى تلك الفترة ، يقوم على تعليل اجتماعى أكثر مما يقوم على تعليل دينى ، اذ كـان كثير من الآباء الشيوخ يتغاضون تغاضيا تاما عـن ترك الصلاة من قبل أبنائهم ، فلا ينهرونهـم بـل لا يرشدونهم ، حتى اذا رأوا رؤوسهم حاسرة ، ولحاهم محلوقة ، أنكروا ذلك عليهم وأعظموه أشد الاعظام .

وان الحرص على اتباع العادات واحترام التقاليد القومية ، مما حصن الشخصية الجزائرية ، وحفظها من الاضمحلال أو الضعف ، فضل الجزائريون، نتيجة لذلك ، يحيون حياة اجتماعية تختلف عن الـــذين استعمـــروهم .

ونحن نصدر هذا الحكم حول أهل البدوى الذين ظلوا محافظين على شخصيتهم الجزائرية العربية الاصلية من حيث احتفالاتهم بالاعراس والمواسم ، وملابسهم فى المناسبات ، ومن حيث تصرفاتهم واخلاقهم داخل مجتمعاتهم التى ظلت بمعزل عن تيار الحضارة الغربية



المرحوم الامام عبدالحميد بن باديس

الطارئة التي لم تكد تغزو الا المدن والقرى التي لها بها اتصال وثيق لا غير .

فكانت هذه العادات والتقاليد بمثابت الحصانة الحصينة ضد اندثار شخصيتنا الوطنية ، اذ كان الاختلاف في العادات ، مما ينشأ عنه اختلاف ثار في النواحي الاخرى . وذلك مما ساعد على تعلق الجزائريين بعاداتهم وتقاليدهم التي حفظت الشخصية الجزائرية كاقوى واشد ما يكون الحفظ والحصانة . ونحن لسنا ننفي اثر العادات الفرنسية بوجه خاص ، في مجتمعنا ، وما كان لها من آثار على سلوكنا الاجتماعية ، بل على كيان الشخصية الفردية والجماعات معا ، غير ان ذلك لم يستفحل الا بعد الاستقلال حيث اغترفنا بنهم شديد من الثقافة الفرنسية . بالاضافة الى معطيات الإستقلال الكثيرة التي اتاحت للشعب الجزائري ان يطل على العالم الخارجي ، ويتأثر بما فيه من خير وشر ، وصلاح وفساد .

ولعلنا لا نعدم من يعترض علينا من حيث اننا

جعلنا تأثر الشعب الجزائري بمرحلة ما بعد الاستقلال ، بالمستعمر ، كان اكثر من تاثره به اثناء فترة الاستعمار نفسها . وانما ذهبنا هذا المذهب لاننا نحسب ان انطواء الشعب الجزائري على نفسه قبل الاستقلال ــ وقد كان مضطرا مرغما على هذا الانطواء ــ ثم تجهيلة منقبل الاستعمار ، وحصره في البوادي والمناطق النائية ، كان من العوامل التي عملت على خدمة مصلحة الشخصية الوطنية بحيث بقيت نقية طاهرة ، وبارزة قوية . فكانت النتيجة التي سعى الاستعمار الى تحقيقها سلبية بالقياس الى مسعاه الذي خاب .

فلو افترضنا أن التلفزة اخترعت في أوائل هذا القرن ، ثم عمم استعمالها في الجزائر كلها ، كما هو الشأن اليوم ، وكان ذلك بوحي من التوجيه الاستعماري البحت ، بالاضافة الى تعميم التعليم بالفرنسية واجباريته ، لحق لنا أن نذهب الى ان مثل هذا كان يقينا أن يعمل على هدم الشخصية الوطنية واضعافها ، ان لم نقل : اذابتها . فقد كان هذا التأثير بعد الاستقلال أكثر لهذه الاسباب التي اتينا عليها ، منذ حين ، ذكرا . ومنها تعميم التعليم، وتقوية الاعلام ، ونشر الثقافة بعد الاستقلال ، في حين أن وسائل التأثر ــ أثناء عهد الاستعمار ــ كانت منعدمة في البوادي لفشو ظاهرة الجهل ، وضعيفة في المدن لنفس العلة . فكانت شخصيتنا اثناء الاستعمار وفي ابان الثورة ، متحفظة ، محتاطة ، شديدة الحذر في الاندفاع وراء المعطيات الحضارية الطارئة ، ولاسيما تلك التي كانت تأتي من نحو الاستعمار.من أجل كل ذلك.استحال على المستعمرين قديما وحديثا ، اذابة هذه الشخصية وصهرها في بوتقة حياتهم السياسية والاخلاقية والاجتماعية معا.

2) الحضارة والتاريخ :

ان التاريخ الوطني سرد لاعمال الاجداد ، وتمجيد لبطولاتهم ، وتضحياتهم من أجل الوطن والمواطنين جميعا . ولم أرد بكلمتي هذه ، تعريفا دقيقا جامعا للتاريخ ، فان المؤرخين أنفسهم لايزالون يختلفون في هذا التعريف بالرغم من وضوحه ، كاختلاف

الفلاسفة حول تعريف الفلسفة ، وكاختلاف المتصوفة حول تعريف التصوف أيضا ، وانما أردت اعطاء صورة مصغرة بسيطة لمفهوم التاريخ الوطني وموضوعه . . . ولما كانت اهمية التاريخ عظيمة ذات شان ، فان الامم المتحضرة تفزع اليه فى تبين شخصيتها الوطنية عبر الازمان السحيقة ، والاحقاب البعيدة . والتاريخ ، فى الجزائر ، مما كان له أثر واضح فى حفظ الشخصية الجزائرية وتعميق اصالتها .

واذا كان عامة الشعب الجزائرى لم يكونوا يعرفون شيئا كثيرا عن يوغورطا ، وماسينيسا ، والكاهنة ، وهلم جرا من رجالاتنا الذين سيروا التاريخ وكان لهم شان مذكور مع الغزاة الاجانب عبر الازمنة الموغلة فى البعد ، فانهم يعرفون الشىء الكثير عن الامير وحروبه مع الغزاة الفرنسيين الى جانب الثوار الآخرين ، ينضاف الى كل ذلك التاريخ المعاصر وحوادثه العنيفة ، كالحادثة التى تتمثل فى مجازر سنة خمس وأربعين من هذا القرن ، فان ذلك مما كان له أثر بعيد فى قيام الثورة ، من أجل الحصول على الحرية التى هى اعتراف سياسى بسيادة الشخصية الوطنية . فكأن الشعب الجزائرى اتخذ من هذه المجازر الرهيبة وقودا يضرم به ثورته ، كلما ضعفت أو الم عليها الكلال والفتور .

ونحو ذلك يقال فى حروب الامير التى كان المواطنون المستنيرون يتخذون منها ملهمة لهم فى دفع الناس الى الثورة ، وفى توجيههم كيف يحافظون على شخصيتهم الوطنية الموروثة العريقة .



يوغـــرطة

اننا اليوم حين نبحث عن أنفسنا ، ونشرئب الى معرفة أصول شخصيتنا ، نفزع الى التاريخ الوطنى والى حوادثه الجسام بوجه خاص ، لنرى فى هذا التاريخ أنفسنا ماثلة ، وشخصيتنا الوطنية قائمة واضحة ، ولولا هذا التاريخ ، لما عرفنا ما ضيننا الذى نستمد منه القوة والعزم ، ونستلهم منه الابداع ، وننشد فيه العزة والفخار .

فكأن التاريخ الوطنى ، كان بمثابة المرآة المجلوة التى تنعكس عليها شخصية الشعب الجزائرى كأشد وأقوى وأنصع ما يكون الانعكاس .

فالتاريخ حلقات متواصلة من الحياة ، والحوادث ، والحروب . والشخصية الوطنية سلسلة طويلة تمتد مع هذه الحلقات التاريخية وترتبط بها ، وتذوب

فيها ، حتى تصبح جزءا من التاريخ ، كما يصبح التاريخ نفسه جزءا منها .

فالشخصية الوطنية اذن ، لا تتشكل فى حقبة زمانية قصيرة ، وانما تمتد أصول جذورها الى أعماق الزمان البعيد ، وتمضي مع الاطوار التاريخية لتنصقل وتقوى . واذا انصلقت الشخصية وثبتت اركانها ، وصلب عودها ، عسر على العدو اذابتها او تفتيتها ومحوها .

وذلك ما وقع للاستعمار الفرنسي بالذات ، فقد ظل حائرا فى أمره ، لا يدرى ما يصنع أمام قوة ماضي هذا الشعب الاصيل ، وامام عظمة تاريخ هذه الامة العريقة التى لم تستسلم قط الى الاستعمار ، وانما تظاهرت بالاستسلام لتثور ثورتها المعروفة التى سار بها الركبان ، ولهجت بها السنة السمار.

ومن الحق ان المستنيرين من الجزائريين لم يكونوا يجهلون أثر التاريخ فى حفظ الشخصية الوطنية ، من أجل ذلك الفينا مباركا الميلي يقدم على تأليف أول كتاب فى تاريخ الجزائر ، فقد كان ، لا ريب ، يعلم أن هذا الكتاب يشبه ثورة مسلحة بأكملها ، اذ يشهد بوجود الشخصية الجزائرية عبر التاريخ . ونحن نحسب أن مثل هذه الكتب لا تقل خطرا ، فى رأى الاستعمار - وذلك حق - عن قيام ثورة فعلا . ونحو ذلك يقال فى تاريخ الجيلالى ، وفى كتابات المدنى التاريخية ، فانها كلها كانت بمثابة قذى فى عين الاستعمار ، وشجى فى حلقه . فى حين أن هذه الكتب ، كانت بالقياس الى الجزائريين كالمصابيح المضيئة التى تهدى الضالين ، وترشد السارين .

هذا ، الشأن فى التاريخ .

أما الحضارة فهى عبارة عن مآثر الاجداد ومخلفاتهم المادية . ولا أريد بهذا القول أن أعطى تعريفا دقيقا جامعا للحضارة ، فانى لا أريد هنا ذلك ، قدر ما اريد اداء الفكرة وتقريبها الى الافهام . والحضارة لها طرفان : طرف مادى ، وطرف روحى .

أما الطرف الروحى ، فلا نبغى أن نثير حوله الكلام فى هذا الحديث ، وانما غايتنا اثارته حول الطرف المادى المتمثل فى بنايات المدن الضخمة ، وزخرفة القصور الفخمة ، وتنميق المساجد والاضرحة وسواها ؛ مما يملأ نفس المواطن اعجابا واعتزازا بماضيه ، فتقوى ذاتيته ، ويصلب عوده ، وتتميز شخصيته ، وكيف لا تطفح نفسه اعتزازا وفخارا ، وبعض ذلك دليل على أن أجداده الذين عاشوا قبله على هذا الوطن ، كانت لهم مآثر حضارية هذا جزء منها لا يبرح للعيان ماثلا :

تلك آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار

فعلام تدل هذه الآثار ؟

اننا لو أخذنا مثلا واحدا حضاريا لرجونا أن نقتنع بما للحضارة من أثر فى حفظ الشخصية الوطنية من الاندثار والدروس . فان المواطن مثلا حين يزور مدينة تلمسان ، ويرى فيها تلك المساجد والقصور الفخمة يتساءل عن بانيها ، وعن تاريخ بنائها ، وعن سيرة الملوك والرؤساء الذين بنوها . . . ثم انه لا ريب يلاحظ أن هذه البنايات وزخرفتها كانت كلها عربية ، بالاضافة الى المساجد والمآذن

والاضرحة التى تنبىء فى مجموعها بعراقة الامة الجزائرية فى العروبة والاسلام . ان المواطن العادى حين كان يشاهد تلك الزخارف العجيبة ، والحروف العربية المنقوشة نقشا منمقا على البنايات الباقية ، فى عهد الاستعمار بالامس القريب ؛ كان لا ريب يقتنع فى قرارة نفسه بأنه عربى حقا ، وأن العربية كان لها شأن عظيم فى هذا الوطن ، وان هذه الفرنسية

ان هى الا لغة دخيلة فرضت على الجزائريين فرضا، وانها زائلة بزوال الاستعمار . .

واذن ، فان التاريخ من حيث هو حوادث معنوية مجردة ، تدرك بالعقل ، وان الحضارة من حيث هى مآثر مادية قائمة محسوسة ترى بالعين ، لمما يحفظ شخصية الامة . وذلك ما حدث بالقياس الى الشخصية الجزائرية التى تعلقت بتاريخها ، وتشبثت بحضارتها ، واتخذت منهما مرآة تفزع اليها لترى فيها نفسها كلما دهمتها الخطوب ، وألمت عليها المكار .

فللتاريخ اذن فضل عظيم على استمرار شخصيتنا وذاتيتنا ، وبقائهما قويتين واضحتين فى أحلك الظروف ، وأصعب الفترات الزمنية .

كان ذلك ، العنصر الثانى من مقومات شخصيتنا الوطنية ، وأما العنصر الثالث فهو :

3) اللغة والثقافة العربية :

ان بالاسلام اكتملت الشخصية الجزائرية وتعمقت أصالتها ، فاذا اعتبرنا أن هذه الامة لم تك بلغت شأوا بعيدا فى مجال الحضارة ، فان الاسلام أبرز عناصر هذه الحضارة وشحذها . واذا زعم زاعم انها



المرحوم الشيخ مبارك الميلي الابراهيمي

لم تك متحضرة من قبل اطلاقا ، فانه لا يستطيع أن يزعم ان الاسلام لم يحضرها ويهذبها ، حتى اصبحت راقية واعية ، ومتمدنة ، اذا اعتبرنا التقدم الحضارى المتواضع قديما ، بالقياس الى الحضارة الناتجة عن استكشاف البخار ، ثم الكهرباء والذرة حديثا .

كانت الامة الجزائرية قبل الاسلام تتحدث لغتها العريقة وهى ، تامزيغت » ، ونحن نعلم أن هذه اللغة

عبارة عن لهجة بدائيةالى حد بعيد: لم تنشيء حضارات ولم ينطق بها كتاب دين من الأديان السماوية، فلم يتح لها ان تقدم منفعة حضارية ذات بالالى الانسانيـــة . فلا غرو أن نلفى الجزائريين يسارعون الى اعتنـــاق الاسلام بالرغم من ترددهم أول الامر . ومحاربتهـــم العرب الفاتحين حين وطئت أقدامهم هذه الارض . لانهم كانوا يحسبون انهم ليسوا بدعا من الغازين الاول . ومنهم الوندال والرومان . وان حرب الجـــزائريين الشديدة للفاتحين المسلمين لتدل بحق على أصالـــة الشخصية الجزائرية وقوتها ، وعدم اذعانها بسهولة. ولولا أنهم أدركوا ان الفاتحين المسلمين لم يكـونوا يريدون الا خيرا،وانهم لم يبغوا استعمارا ولا استعبادا ولا استغلالا . لظننا ان الحرب لم تكن قد انتهت عند ما انتهت اليه حينئذ . .

لكن الجزائريون حين أدركوا مدلول الاســـلام ، وتشبعوا بمبادئه العالية ، تعلموا العربية لانها لغـة القرآن والحديث : أى لغة الدين الاسلامى الجديد . وما لبثت هذه اللغة ان انتشرت فى الجزائر حـــتى اصبحت مع مرور أربعة عشر قرنا من حياة الاسلام ، اللغة الوطنية للامة الجزائرية . وبذلك أصبحـــت الشخصية الجزائرية فى بعض جوانبها . جزءا مـــن الشخصية العربية الشاملة . فالجزائرى عربى مـــن حيث انه يتكلم العربية،وهو عربى من حيث أن كثيرا من أصوله الاولى التى منها ما يعود الى الفتح الاسلامى حين ابتدأ الاختلاط بين الامازيغ الاصليين وبين العرب الوافدين ، ومنها ما يرتد الى الهجرة الجارفة الـــتى قامت بها قبائل بنى هلال . وبنى سليم فى المـائة السادسة . كما ذكر ابن خلدون فى المقدمة (1) ،

1) المقدمة : 265

بل منها ما يرجع الى الهجرة الاولى المعنة فى القدم ، والتى قام بها افريقيس اليمنى ، الى افريقيا الشمالية حتى أن هذه القارة فى تسميتها ، انما تنسب اليه (2)

فاللغة العربية حين اصبحت احد أصول مقومـات الشخصية الجزائرية ، لم تصبح كذلك طفرة ، أو عن طريق المصادفة العارضة ، وانما كانت نتيجة حتمية لعوامل تاريخية وبشرية متشابكة يشد بعضها بعضا.

ولو هم أحد ان ينتزع من هذه الامة لغتهـــا هذه العربية ، لفشل فشلا ذريعا ، ولو سخـــر فى ذلك أعظم القوى ، وأحدث الوسائل العلمية والنفسية والمثل على ذلك موجود . والدليل على هذا المذهب ثابت دامغ . فقد جاهد الاستعمار الفرنسى نفســـه جهادا شاقا جدا من أجل أن ينال من هذه اللغـــة فلم يستطع أن يصنع شيئا كثيرا . لان الجـــزائرى بطبعه عنود متصلب الارادة . وهو حتى فى حـــال اذعانه ، فان فعله ذلك انما يشبه السكون الـــذى تعقبه العاصفة الهوجاء .

الثقافة العربية وأثرها فى حفظ الشخصية الجزائرية

وبهذه اللغة العزيزة كتب الشعب الجزائـــرى ثقافته وتاريخه وأدبه ، فدل على عراقة عروبتـه ، وأصالة شخصيته ، فان الجزائريين حين غزوا من قبل الفرنسيين كانوا أحسن منهم ثقافة . وليـس شرطا أساسيا أن يكون الغازى أثقف من المغزو فى كل الاحوال . فالشواهد التاريخية تشهد بـأن الغزو لا يخضع لمبدأ التفوق فى العلم وحده . ونحن لم ندع ما ادعينـــا لمجرد حب الانسيـــاق وراء العاطفة الوطنية ، بل انما ادعيناه لحب تسجيـــل

2) معجم البلدان لياقوت : 300/1

الحقائق التاريخية التي شهد بها المؤرخون الفرنسيون أنفسهم . فقد ذهب أصحاب كتاب : «الجزائر ماضيا وحاضرا» ، الى أنه «كان يعتقد بأن الشعب الجزائري كان أميا ، وانما الاستعمار هو الذي جاءه بالثقافة والعلم . مع أن ذلك خطأ محض» (3)

كما أورد أصحاب هذا الكتاب نفسه نصا تاريخيا لروزي قد كتبه سنة ثلاثين وثمانمائة والف ، وأكد فيه بأن السكان الجزائريين في هذه الاثناء : «ربما كانوا أكثر ثقافة وتعلما من الشعب الفرنسي نفسه ذلك بأن جميع الرجال كانوا يحسنون القراءة والكتابة والحساب» (4)

وقد جاء في هذا الكتاب ايضا ان الامية كانت أقل فشوا في الجزائر من فرنسا ، حيث كانت تتجاوز الاربعين في المائة (5) . ومعنى ذلك أن نسبة الامية في الرجال كانت ابان الاحتلال الفرنسي في الجزائر اقل بكثير من اربعين في المائة باعتراف من هؤلاء المؤرخين الفرنسيين انفسهم . فلماذهب الاستعمار الفرنسي ترك نسبة الامية في الجزائر اكثر من ثمانين في المائة .

كانت ثقافة الشعب الجزائري ابان الاحتلال الفرنسي عربية أصيلة ، بالرغم من المحاولات الكثيرة التي قام بها المستعمرون من أجل محو هذه الشخصية ، بسلب ثقافتها العربية منها ، لكنهم فشلوا في معظم الاحوال .لان هذه الثقافة كانت تدافع عن نفسها بنفسها ، فكانت كالنور الفياض الذي لا يطمس من شعاعه الغامر ، الظلام الشاحب شيئا .

ذلك بأن الثقافة العربية التي كانت قائمة يومئذ



الأمير عبد القادر

في الجزائر ، وظلت كذلك طوال عهد الاستعمار الفرنسي ، كانت ثقافة مبنية على أصول من العلم والدين والاخلاق والقومية جميعا . وهذه عوامل يصعب مغالبتها والقضاء عليها في فترة تاريخية محدودة من الاستعمار ، مهما كانت طويلة الامد .

فثقافتنا القومية كانت أصيلة : فيها قوة الدهر، وعمق الحياة ، وطبيعة هذا الشعب نفسه . فقد كانت لنا مدارس كثيرة باعتراف المؤرخين الفرنسيين انفسهم أيضا . فكانت هذه المدارس ، التي يمكن أن نطلق عليها اليوم مدارس ابتدائية ، تفتح عقول الطلاب ، وتزودهم بالمعرفة الاولية التي لابد منها ، حتى اذا الموا بما فيها ، يمموا الزوايا

---

3) الجزائر ماضيا وحاضرا : ص 228

4) نفس المصدر ونفس الصفحة

المشهورة باحتضانها للعلم والعلماء . وكانت هذه الزوايا أشبه ما تكون وأقرب الى المراكز الثقافية النشيطة ، منها الى أى شيء آخر . اذ كانت تهيء الطلاب الى أن يتابعوا دراساتهم في احدى الجامعات الاسلامية الثلاث . ولاسيما الزيتونة بتونس ، والقرويين بفاس . وقد اعتبر مؤلفو كتاب «الجزائر ماضيا وحاضرا» خريجي هذه الجامعات دكاترة بالمفهوم العلمي لهذه اللفظة . (6) ومن هؤلاء المتخرجين . كان القضاة والاساتذة الاجلة ، والمؤلفون . والمشهود لهم بالعلم . وكل الذين كانوا يتولون المناصب السامية في الدولة (7)

فكانت الجزائر ذات كيان ثقافي مستقل عميق الاصالة ، قوى الشخصية . فلم يكن من اليسير على الاستعمار الفرنسي ان يمحو هذه الشخصية الثقافية بالرغم من تهديمه المدارس والمساجد . وتحويلها الى سجون طورا . والى مؤسسات أخرى لاصلة لها بالثقافة العربية طورا ثانيا .

فاذا اعتبرناالثقافة العربية بمثابة السلاح المعنوى القوى الذى ظل يحارب الاستعمار الفرنسى من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر ، لم نبالغ ولم نخطيء . ثم اذا اعتبرنا هذه الثقافة العربية بمثابة الحجاب الذى ظل يحصن الشعب الجزائرى من رطانة العجمة ، وهجنة الفرنسة . وطغيان الغزو الثقافي الاجنبى ؛ لم نك بعيدين عن الحق .

فقد هدم . هذا الاستعمار . المدارس والمساجد التى كانت قائمة في المدن الضخمة ، ولكنه عجز عجزا مبينا عن أن تمتد يداه الى ما كان في البوادى النائية . والقرى المنعزلة . من مؤسسات ثقافية

5) الجزائر ماضيا وحاضرا : 228

6) الجزائر ماضيا وحاضرا : 229

7) نفس المصدر ونفس الصفحة

ـ على ما قد توصف به من تواضع محدود ـ فانها كانت مخلصة في الرسالة . مؤمنة بالمبدأ : فكان الطلاب يحفظون القرآن ، والحديث . والمتون الفقهية والنحوية . ثم يتدارسونها في أعماق البوادى . وقمم الجبال . وظلال الغابات ، ولدى ساقات النخيل . وعلى ضفاف الانهار . أرأيت أن الناس في البوادى كانوا يعرفون معظم ما يجب أن يعرف عن الاسلام . وتاريخه ، ورجاله . من حيث لم يكونوا يعرفون شيئا قليلا أو كثيرا عن هذا الاستعمار وحضارته وتاريخه . لان الجزائريين بحكم انهم يختلفون عنه اختلافا في العقيدة واللغة والجنس والتاريخ . كانوا ينظرون اليه نظرة مليئة بالحذر والتحفظ والخوف جميعا . وكان هذا الحذر يغريهم بأن يزدادوا تعلقا بما لهم من ثقافة ، وحرصا على ما عرفوا من علم .

ان الاستعمار الفرنسى لم ينجح قط في غزو عقول الجزائريين بثقافته . وهذا النفى ينطبق انطباقا تاما على سكان البوادى بدون استثناء

في حين انه نجح نجاحا جزئيا آخر الامر بالقياس الى المدن . حيث نجم بعض من يحترفون الكتابة من الجزائريين . بيد أن هؤلاء استحالوا ابان الثورة خاصة الى أعداء الداء . يحاربونه بسلاحه وهو الثقافة الفرنسية . بيد أن دور هؤلاء الكتاب بالفرنسية لم يك قط في المستوى المنشود ، وظل المثقفون بالعربية . في معظم الاحوال . هم الذين يوجهون الشعب ويقودونه . معولين في توجيهم على هذه الثقافة العربية ذاتها .

ان من السفه انكار ما كان للثقافة العربية في حفظ الشخصية الجزائرية خلال عهد الاستعمار

الفرنسي ، وصيانتها من العجمة والفساد أو الذوبان

4) القـــوميـــة :

والقومية هي عبارة عن :

« الانتمـاء الى أمة معينـة ، والتعلق بها » (8)

وهذا التعريف لا ينبغي أن يعطينا صورة دقيقة عن مدلول هذا اللفظ الجديد المفهوم ، في جميـع اللغات العالمية . ذلك بأن القومية ، بمفهومهـــا السياسي الدقيق ، لم توجد في أروبا نفسها الا في القرن التاسع عشر ، ولم تجد سبيلها الى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ، الا في هذا القرن .

فماذاكان أثر القومية علىحفظ الشخصية الجزائرية وصونها عن عواصف الاحداث التي عصفت بهـــا خلال تاريخنا الطويل ، وخلال عهد الاستعمار بوجه خـــاص ؟

ان الذي يتأمل تاريخ الجزائر قديمه وحديثه ، لا يعدم عناصر وأصولا لهذه القومية ، وانما كانت تضعف أحيانا حتى كأن وجودها لم يكن ، وتقـوى أحيانا أخرى حتى كأنها هي التي كانت توجه سير التاريخ ، وتعمل على حفظ الشخصية الوطنية مـن الذوبان والذهاب . ونجد أصولا للقومية الجزائرية في التاريخ القديم ، وهي تتمثل في شخصيـــات مسينيسا ، وبعض أبنائه ، ويوغورطا بوجه خاص. وهو الذي رمى بالامازيغ في حرب الرومان ، وأذاق القائدين الرومانيين المحنكين : ميتلوس ، ومريوس وسواهما أمر الهزائم .

وتلك مواقف تاريخية ينبغي أن تكون القوميـة الجزائرية قد تجسمت فيها وتجلت ، وان لم يـكن الناس يومئذ يدركون القومية على النحو الذي يدركه اليوم المعـــاصرون .

فحروب يوغورطا مع الرومان ، أشبه ما تكـــون بحروب الامير عبد القادر مع الفرنسيين . فكـــلا هذين القائدين العظيمين استعمل حرب العصابات في مقاومة الغزاة.وكلاهما كانت له مملكة أو حكومة متنقلة ، مع وجود فوارق في طبيعة هذه المملكة ، طبعا. وكلاهما انما حارب من أجل سيادة الوطن ، وحرمة الشخصية الوطنية ، فطريقة الحرب كـادت تكون واحدة ، والعدو في طبيعتـه الاستعمـارية ، وأصله الجغرافي ، كاد يكون واحدا ، والهدف مـن الغزو والمقاومة كان واحدا أيضا .

ولعل المؤرخ الملم المولع ببحث الدقائـق من الامور ، يعثر على مواقف تاريخية كثيرة كانت تتجلى فيها القومية الجزائرية خلال عصور التاريخ . أمـا نحن في هذا الفصل ، فحسبنا ما أشرنا اليه . فقد ينبغي أن تكون القومية قد تجلت بصورة ضاريـة في حرب يوغورطا للغزاة الرومان . ان مثـل ذلك الموقف التاريخي الرهيب ، لا ينبغي أن يمثـــل شيئا أولى من تمثيله القومية السياسية بمدلـولها الدقيق . ونحو ذلك يقال في حرب الكاهنـة مـــع العرب المسلمين ، بالرغم من أن أهداف الحـــرب هنا تختلف اختلافا بعيدا ، فالرومان والفرنسيون وسواهم من الغزاة ، انما يمموا الجزائر مستعمرين مستغلين ، على حين أن المسلمين انما قصدوا هذه الارض ابتغاء نشر الدين الاسلامي فيها ، وانقـــاذ أهلها من طغيان الجهل وضلال الكفر . ونحـــن نحسب ان المؤرخين الغربيين يختلفون معنا اختلافا

8) الموسوعة العربية : 1408 ـ قومية ـ

عظيما ، لانهم يكادون يذهبون جملة غير هـــذا المذهب . بيد ان ذلك لا يغير من واقع الحق شيئا. فالعـرب نشـروا الاسـلام ولم يغـزوا بالمفهوم الاستعماري الحـديث . ولو كان سبيلهـم ذلك ، كالرومان من الاقدمين ، والفرنسيين والانجليز مـن المحدثين ، لآل أمر البلدان التي فتحوها الى ما آلت اليه البلدان التي استعمرت حديثا ونالت سيادتها اليوم ، ولكان مصير العرب الطرد والجلاء من افريقيا الشمالية ، كما كان مصير المستعمرين الفرنسيـين مثـــلا .

ولذلك ، بالرغم من محاربة الكاهنة للعـــرب ، وبالرغم من تجلي القومية التي تتمثل في التفـاف البرابر حولها من أجل الدفاع عن وطنهم ، فـــان نتيجة هذه الحرب ، ولا غايتها من الفاتحين المسلمين لم تكن مماثلة لغاية الغزاة الرومانيين والفرنسيـين والاسبان .

وحرب الكاهنة او مقاومتها ، تمثل آخر حلقة من الحلقات التاريخية الطويلة التي كانت تتمثـل فيها الشخصية الامازيغية الضيقة في التاريخ ، اذ بعـد

الفتح ، وحين اعتنق الجزائريون الاسلام دينـــا ، واصطنعوا العربية لسانا ، تحول مفهوم الشخصية الوطنية لديهم ، وأصبح يتألف من طائفة من المبادىء التي يكمل بعضها بعضا ، ولكن أبرزها جميعا اللغة والدين . فأصبحت شخصيتنا قوية متينة ، تستطيع أن تثبت لاعنف العواصف الهوجاء . ولـذلك لـم يستطع الاستعمار الفرنسي أن يذيبها ، بل افتضح أمره ، وظهر عجزه ، وانكشفت غايته الشريرة حـين أراد عزل الامازيغ عن اخوانهم العرب ، فقد كتب

رؤساء زواوة الكبرى سنة ثمان واربعين من هـــذا القرن ، عريضة طالبوا فيها الحكومة الاستعمارية بنسخ العوائد المعمول بها في تلك الناحية ، والقاضية بعدم توريث الزوجة والبنت ، وانما تلك عادة قديمة جدا ؛ فلما جاء الاسلام نقضها وانكرها ، فـــأراد الاستعمار احياءها ليفتت بها شخصية الرجـــل الجزائري ، ويجعل منه عربيا وبربريا ، ومسلمـا ومسيحيـــا (9)

ان القومية قد لعبت دورا عظيم الخطر في حفظ كيان الشخصية الجزائرية عبر التاريخ ، وصونها من الذوبان والامحـــاء .

واذا كنا لا نعدم من يعترض علينا بأننا نقيـم هنا اثبات الشخصية الجزائرية على أساس منهـار من بعض الجوانب ، لان القومية لم توجد الا في العصر الحديث ، فان حجتنا ان القومية وجد مفهومها منذ القديم . وهي تتجلى في كثير من المـــواقف التاريخية الهامة التي تمثل فيها اتحاد الامة اتحادا كليا او جزئيا حول شخصية جزائرية واحدة ، كما حدث ذلك مرارا في التاريخ الجزائري ، ولا سيما في عهد يوغورطا ، والكاهنة ، والامير عبد القادر .

وعلى أننا وجدنا القومية تتجلى كأشـد وأقـوى وأضرى ما تكون أمرا ، في مقاومتنا للاستعمـــار الفرنسي أثناء الثورة الكبرى ، فقد اتحد فيها الشعب الجزائري والتف التفافا عجيبا ، لا حول شخصيـة وطنية بعينها هذه المرة ، ولكن حول حزب جبهـة التحرير الذي كان بمثابة عصارة للاحزاب الوطنية الاخرى ، التي ذابت فيه طوعا لا كرها .

ولا أحسب من موضوعنا هنا ، ابراز تلك الاسباب والعناصر والرواسب التي تكتلت واجتمعـت حتى

9) نشرت هذه العريضة بمجلة ـ صوت المسجد عدد 3 ص 23 ـ 26 ـ 1948

هيات هذه الثورة ونجاحها . فذلك معروف عند من يلمون بالتاريخ السياسي المعاصر في الجزائر .

5) الـــديـــن :

عرفت الجزائر الاسلام أثناء النصف الثاني من القرن الاول الهجري . وبالرغم م نالردات الــتي حدثت بعد ذلك ، فان الاسلام تمكن من قلـــوب الجزائريين آخر الامر ، واصبحوا يشكلون قـــوة اسلامية عظيمة في الجهة الغربية من العالم الاسلامي القديم ، ومن ذلك أنهم شاركوا في فتح الاندلس مع طارق بن زيـــاد .

ومنذ ذلك التاريخ أصبح الاسلام يمثل جـــزءا أصيلا من مقومات الشخصية الجزائرية . بحيـــث أصبح من المستحيل تصور الشخصية الجـــزايرية مجردة عن الاسلام . وساعد على تأصل هذا العنصر في شخصيتنا الوطنيـــة ، قلة اليهـــود والنصـــارى بأرضنا ، فكانت الاغلبية المطلقة للجزائريـــين المسلمين عبر تاريخ الجزائر المسلمة . فتـــاصلت من أجل ذلك الشخصية الجزائرية حتى ذابت فـــي أشعة الاسلام ، وغدا مستحيلا على أي غاز أن ينجح في سلبها من هذا المقوم الكريم .

ويستطيع الباحث المتأمل أن يعتبر الدين الاسلامي من أقوى المقومات ، ان لم نقل : أقواها . التي ظلت تغذى الشخصية الجزائرية وتصونها من الذوبـــان والمســـخ .

ارأيت أن الفرنسيين حين تم لهم احتلال الجزائـــر بالقوة الجبارة الطاغية ، وجدوا الجزائر كلهـــا مساجد ومدارس ، فهالتهم هذه الظاهرة الرائعة ، واقضت مضاجعهم ، واقلقت نفوسهم ؛ فأجمعـــوا أمرهم على ابدال المساجد بالكنائس ، كما حـــدث لمسجد كشاوة بالعاصمة ، أو ابدالها مؤسســـات أخرى لا تمت للدين الاسلامي بصلة واضحة ، كما وقع لمسجد سيدي بلحسن بتلمسان ــ الذي تـــم بناؤه في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ــ فقد حول هذا المسجد التاريخي في عهد الاستعمار الى متحف ، وهو المتحف الذي لا يبرح قائما الى اليوم بتلمســـــان .

والغرض من هذه الكثلكة المفضوحة ، واضـــح يعرفه الغبي والذكي،والجاهل والعالم على السواء ، في الجزائر . فانما أراد المستعمرون محو طابـــع الشخصية الاسلامية ومعالمها من الجزائر،وتعويضها في ذات الحين بالمسيحية التي لايزال كثير من رجالها ونسائها قائمين بالتبشير في مراكز معروفـــة بالجزائر ، الى اليوم . بيد أن مسعى السلطـــات الاستعمارية خـــاب في الجزائر ، لبعض هـــذه الاسبـــاب :

1) ان رقعة الجزائر واسعة جدا ، بالقيـــاس الى سكانها ، فاستحال على المستعمرين مراقبة جميـــع النواحي ، ولاسيما المناطق الريفية البعيدة ، والبوادي الشاسعة النائية .

2) ان الاسلام كان قد تبوأ من قلوب الجزائريين تبوءا مكينا عميقا ، فكان من العسير جدا مسخهم ، وتجريدهم من عقائدهم الاسلامية على نحو او على آخر والدين اذا تمكن من القلوب ، لا تنزعه السياط، ولا تزيله النيران بله الوسائل النفسية والعنصريـــة المفضوخة .

3) ان الاستعمار ازدرى الشعب الجزائري ــ وهذا المذهب الذي نذهبه ليس ينبغي أن يكون قائما على الهوى والعاطفة ، بل ان من يتأمل أمر الجزائريين مع الاستعمار الفرنسي يقتنع اقتناعا شديدا بسداد هذا المذهب ، وليس من غرضنا الآن الاتيـــان

بالدلائل الدامغة على ذلك (10) فجهله ، بعد أن كان قد جوعه . فحال بينه وبين العلم بهذا التجهيل ، كما حال بينه وبين العيش الرغيد بالتجويع . اذ كان يعلم ان الجهل والجوع مما يفتك بشخصية الامم ويفتت تاريخها ، ويفصم وحدتها فصما شنيعا ويجعل من أملها يأسا ، ومن قوتها ضعفا ، ومن اعتزازها استكانة . من اجل ذلك ألفينا هذا الاستعمار لا يؤسس المدارس الا في المدن ، وهو انما أسسها في هذه المدن من أجل ابناء الفرنسيين والمعمرين . اذ لم يك للجزائريين الذين كانوا يقطنون المدن الا الاعتبار الاخير في التعليم .

أما في البوادى ، فلم يكن أحد من الجزائريين يعرف عن التعليم الفرنسي شيئا يجب ذكره ، بله أن يكون له تاثير مباشر على الحياة الاجتماعية للناس في هذه البودى . فظلت هذه البوادى على حالها ــ ولا تقل ان اهلها كانوا محرومين من هذا التعليم ، لانه مسموم ، ولكن قل : ظلوا ناجين من هذا الشر ــ يقبل فيها الصبيان والشبان على الكتاتيب القرآنية ، والمساجد والزوايا من أجل حفظ القرآن الكريم ، وتعلم المبادىء الاولى من علوم العربية والدين . فكانت هذه المساجد بالنسبة الى جامعة القرويين التى كان يقصدها طلبة الغرب الجزائرى ، أو الى جامعة الزيتونة التى كان ييممها طلبة الشرق الجزائرى ؛ بمثابة المدارس الابتدائية التى تهيىء للمعاهد الثانوية ، وذلك قبل أن تؤسس مدارس جمعية العلماء ، ومدارس حزب الشعب والهيئات الوطنية الاخرى .

وهنا يكمن سر احتفاظ الجزائر بشخصيتها الاسلامية القوية ، ولو كانت رقعة الجزائر ضيقة ، بحيث يغطيها الاستعمار تغطية معنوية ومادية شاملة برجاله ، ثم لو كان الاستعمار لم يجبل على حب التجهيل والتجويع ؛ فبنى المدارس في القرى والبوادى ، كما يراها في المدن ، وعمم التعليم فجعله اجباريا ــ ونحن نعرف هنا معنى التعليم أثناء عهد الاستعمار ، فانه كان يتمثل في كل ما هو متعارض مع تاريخنا وديننا ولغتنا وحضارتنا وشخصيتنا القومية ــ لأصيبت الجزائر في شخصيتها بمصيبة كبرى ، ولنكبت في أعز ما اكتسبته عبر الازمان البعيدة ، والحقب العريضة .

واذن ، فقد خسر الاستعمار من حيث أراد الربح. واذن ، فقد ربح الشعب الجزائرى ربحا تاريخيا عظيما بهذا التجهيل ، لان هذا الشعب نجا من طغيان الفرنسة والكثلكة والتغريب : أى انه نجا من المسخ والذوبان . وحكمنا هنا ينطبق على سكان البوادى والقرى بوجه خاص ، وهم الذين لا يبرحون يشكلون الاغلبية الضخمة من سكان الجزائر الى اليوم .

اما ما نرى اليوم من أثر الفرنسيين في مدننا ، فانه لم يك ناشئا عن التأثير الاستعمارى المباشر، قدر ما كان ناشئا عن :

1 ــ تعميم التعليم في المدن تعميما مطلقا . ونحن نعلم أن تعليمنا لايزال في معظمه بالفرنسية في مختلف مراحله الثلاث ، بالرغم من تعريب بعض الاقسام او المؤسسات هنا وهناك ، فلو كان الطفل الجزائرى يدرس جميع المواد التى يتلقاها بلغة الضاد لما كانت حاله هذه التى هو عليها الآن .

2 ــ اشتداد الاتصال بالاجانب ، عن طريق

---

(10) راجع تقريرا نشره ابن باديس لعمه السيد احمده ابن باديس ، فانه يشهد بازدراء الفرنسيين للمواطنين الجزائريين . آثار ابن باديس : 23/4 ــ 32 وقد حرر هذا التقرير سنة 1891

ما يقدم في التلفزة ، ودور السنيما ، وما يكتب في الصحف والكتب والمجلات . ينضاف الى كل ذلك المرافق الحضارية المستوردة من الغرب .

3 ـ هجرة الجزائريين الى أروبا ، من أجل العمل وامتزاجهم هناك بالعمال الغربيين ، وخصوصا في فرنسا .

4 ـ وجود جالية فرنسية هنا لدينا ، بالاضافة الى المتعاونين الذين لم يبرحوا يملأون الشعاب والرحاب ، والارض والسماء .

حقا ، ان العاملين الاخيرين كانا نتيجة حتمية للوجود الاستعماري الذى ابتلى به الشعب الجزائرى مرغما ، ولكنه لا أحد يزعم ان الجزائر لن تستطيع أن تتخلص من ذلك في وقت محدد . فمشاريع التصنيع التى تقام اليوم ـ ان صحبها الاخلاص في العمل والتفاني فيه ـ والتى ستقام مستقبلا أيضا ، من أهدافها ادماج كثير من عمالنا المهاجرين في أروبا ، في وطننا من جديد ، كما ان تعميم التعليم لدينا ، سينتج عنه حتما التخلص من المدرسين الاجانب .

ومن المظاهر الدينية التى كان لها اثر مباشر في حفظ الشخصية الوطنية من المسخ والفرنسة :

1 ـ الاعياد الدينية التى كانت تقام حسب الطقوس المعروفة بدون تغيير ، وخصوصا في البوادى التى كانت تتغير تغيرا كاملا في أيام الاعياد ، نظرا لوجود السكان الجزائريين المسلمين وحدهم . أما في المدن ، فكان وجود الاروبيين ينغص صفو هذه الاعياد ، ويقلل من بهائها وجلالها . فمناسبات الاعياد الدينية من عيدى فطر ونحر ، الى عاشوراء ومولد نبوى ؛ كانت بمثابة الذكريات المنبهة ، والايام المذكرة بحقيقة الامة الجزائرية ، واصلها ، وجنسها ، ودينها .

2 ـ تأسيس المساجد والاشتراك في بنائها في كل حين ، فان تلك المناسبات كانت تتيح للامة أن تأتلف وتجتمع على هدف واحد ، وتسمح لها بالاستمرار في وحدتها ، والحفاظ على كيانها .

3 ـ مدارسة العلم . ونحن نريد هنا بالعلم مفهومه التقليدى أو القديم ، لا مفهومه الحديث . اذ كان الشبان والشيوخ يتدارسون القرآن والحديث ،كما كانوا يتدارسون علوم اللغة من بلاغة ونحو وعروض. ولا يخفى ما في هذا العنصر من قوة الحفاظ على الشخصية ، وصونها من الذوبان . فكانت غاية معرفة النحو واللغة عند علمائنا وطلابنا التقليديين. تتفق ، أو تكاد تتفق ؛ مع غاية العلماء الاقدمين . فانما كانوا يدرسون ذلك لفهم القرآن والحديث ومدارستهما . فالغاية في جوهرها كانت دينية ، قبل أن تكون علمية ، أو مادية . وكان العالم الدينى، أو الفقيه ، (كما كان الجزائريون يطلقون عليه) شديد التزمت ظاهر المحافظة ، بحيث انك كنت تجد مقرى، القرآن في القرية يحافظ على هيئة خاصة في ملابسه وسلوكه داخل المجتمع ، فهو يعفو عن لحيته حتى تطول ، وهو يلتزم لباس عمامة وجلباب ، وبرنس ، وهلم جرا من هذه الاجزاء الاخرى التى تشكل الزى التقليدى الذى لايزال معظم الجزائريين يحتفظون به ، ويحرصون عليه .

فقد نشأ اذن عن مدارسة العلم ، والاحتفال بالاعياد الدينية ، هذا المظهر الذى بالرغم من انه شكلى فى حقيقته ، فان قيمته فى حفظ الشخصية الوطنية عظيمة جدا ، لان الجزائريين فى معظمهم ، ظلوا فى ملابسهم وسلوكهم وحياتهم الاجتماعية ، مستقلين بشخصيتهم ، محافظين على كيانهم . وكان الدين الاسلامى أحد العوامل الرئيسية التى أوحت اليهم بذلك ، بل دفعتهم اليه دفعا قويا ، وشجعتهم على التعلق الشديد بالشخصية الوطنية الاصيلة .

فما اعظم فضل هذا الدين على هذه الامة الكريمة العزيزة ، انقذها من ضلالها فى القديم ، ووحد صفوفها ، وحافظ على كيانها أثناء النكبات المدلهمة والخطوب السوداء ، عبر التاريخ الطويل . ثم كان لها بمثابة الركن الشديد الذى كانت تستند اليه حين ثورتها الكبرى : فكانت تنشد فيه الهامها وسعادتها وحياتها ، فالمقاوم مجاهد ، والذى يخر صريعا فى المعركة شهيد . وهذا المثال وحده كاف لأن يجعل من عنصر الدين الاسلامى ، العنصر الاهم الذى حفظ الشخصية الجزائرية من المسخ والتشويه ، وهيأ لها سبيل الحرية التى تنعم بها الآن فى ظل السيادة السياسية .

عبد الملك مرتاض ـ جامعة وهران



التعليم الأصلي فى الجزائر

خلال العشر سنوات من استرجاع الإستقلال

● أحمد درار

ان الجزائر عبر القرون التالية للفتح الاسلامى حافظت على الثقافة العربية الاسلامية بصلابة ليس لها مثيل ، وأغنت التراث العربى بكثير من الشروح والتعليقات ، والمؤلفات الهامة ، وإنتفعت بالتيارات الثقافية العربية التى قدمت اليها من الاندلس والاقطار العربية الاخرى .

وقد كثرت فيها الجامعات ، والمعاهد ، المشهورة التى درس فيها أعلام من أروبا والتى تحطمت كلها فيما بعد ،خاصة أثناء الغزو الصليبى الاسبانى

وفى عصور الانحطاط تلتها الزوايا و الرباطات التى ادت الى ثورات ثقافية قدر لها ان تستمر ردحا من الزمن ، وقد اشتهرت بعض هذه الرباطات بأسماء أصحابها ، وأصبحت مركزا للادب ، والامامة ، والارشاد .

ويقول «بولارد» المؤرخ الفرنسى فى كتابه «التعليم فى الجزائر» (كان فى الجزائر فى القرن الرابع عشر وما بعده مراكز ثقافية باهرة ، وكان فيها أساتذة متمكنون في علوم الفلسفة ، والفقه ، والادب والطب ، والنحو ، والفلك ، وكانت المدارس منتشرة فى ربوع البلاد ، والتعليم فيها دينى ومدنى) .

وحتى فى المدة الطويلة من أيام الاستعمار التى ابتليت بها ، ورغم الضغط والتنكيل برجال العلم، ورغم المصادرة والابادة والعمل على محو كل أثر يجعل من الفرد الجزائرى يشعر بمقوماته ودينه ، اذ أغلق المستعمر المدارس ، واغتصب أوقافها ، ومنع التعليم العربى ، وعاقب بالسجن والتشريد من يمارسه أو يطالب به ، حتى خبت منارات الاشعاع الثقافى ، فقد ظلت الجزائر تبعث بأبنائها لكل مكان تأنس فيه علماء طلبا للعلم واستزادة من المعرفة ، وبفضل الارادة الشعبية ووفاء هؤلاء الابناء البررة استطاعت الجزائر أن تحافظ بكل صلابة على دينها ولغتها ، رغم الحديد والنار ، وبطش المستعمر وجبروته ، ودهائه ومكره ، وتجنيد كل الطاقات لتشويه ماضيها التليد ، وطمس معالمه ، والعمل على فصله عنها ، وفصلها عنه .

وهكذا كانت الجامعات والمعاهد فى الاول ، ثم المساجد والرباطات (الزوايا) ، ثم المدارس الشعبية الحرة فى المرحلة الاخيرة ، مراكز اشعاع للثقافة العربية الاسلامية ، وقلاعا حصينة للحفاظ على الشخصية الجزائرية الاصيلة .

واليوم وقد استعادت الجزائر حريتها واستقلالها يحق لها أن تستعيد مجدها الثقافى الاصيل، وتتخلص من التبعية الفكرية البعيدة عن الواقع الجزائرى .

كما يحق لها أن تسهم فى بعث التراث الاسلامى وترفع فى ميدان البحوث مشعلها المجدد . وليس من حقل طبيعى لتحقيق هذا الهدف سوى مؤسسات التعليم الاصلى التى تبنت هذا النوع من التعليم ، وعملت على تطويره بما له من أهداف قريبة وبعيدة، ترمى من ورائها الى الرفع من مستوى الفرد الجزائرى روحيا وخلقيا ، وجعله عضوا نافعا بناء ، تكاملت فيه شروط المعرفة والاخلاق ، وتفاعلت فيه مثالية الروح وتفتح العقل .

وضعه بعد استرجاع الاستقلال

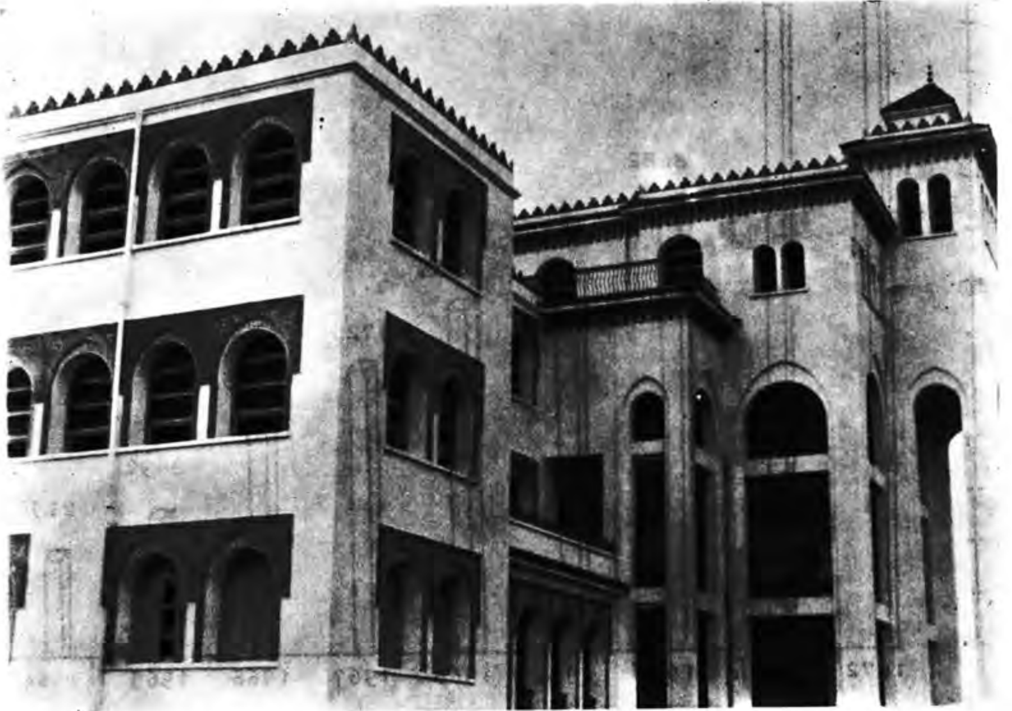
منذ انشاء تكميليات وثانويات التعليم الاصلى غداة الاستقلال ، وقد كانت تسمى الى سنة 1390 هـ ـ 1970 م بالمعاهد الاسلامية للتعليم الدينى ، وهذا التعليم يعمل كخلية حية صادقة النماء ، الا انه فى مراحله الاولى كان يسير ببطء ، بالنظر الى ضحالة الامكانيات وكثرة المتطلبات ، وظل فترة الطفولة يعيش على الامكانيات الخاصة الضعيفة للوزارة من جهة ، والتشجيع الشعبى من جهة أخرى

بيد ان انتفاضة 19 جوان 1965 م وضعت حدا لهذا الوضع الشاذ ، وأوجدت حلا حاسما للازمة التى كان يعيش فيها هذا التعليم ، الذى بذلك أعطى النفس الحقيقى ضمن المخططين الثلاثى والرباعى ، وأصبح قائم الذات كنظائره من المؤسسات العامة ، بفضل ما أولته السلطة الثورية من رعاية وتشجيع ، فخصصت لمؤسساته اعتمادات ضمن ميزانية الدولة ، وصدرت بشأنه

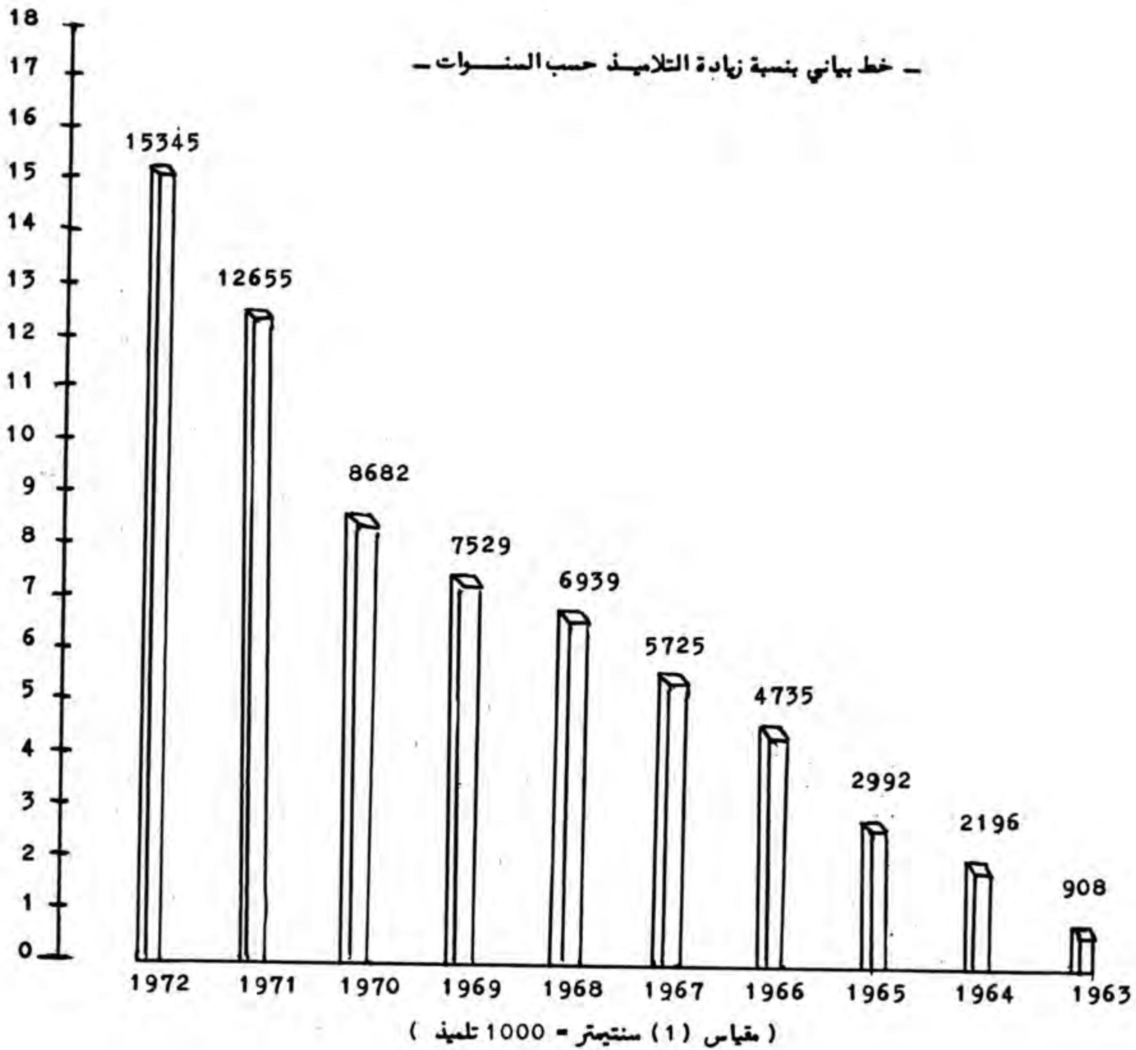
المراسيم الرئاسية للاعتراف بشهاداته ، وتوسيع نطاقه .

لقد كان عدد المؤسسات المخصصة للتعليم الاصلي في السنوات الاولى من استرجاع الاستقلال سبعا ، ثم تدرج تبعا للاقبال عليه من طرف الشعب فبلغت تكميلياته واحدة وعشرين ، تضم من التلاميذ الذكور (12478) ومن الاناث (2867) المجموع (15345) ، وفي سنة 1393/92 هـ – 1973 م سيكون عددهم حوالى العشرين ألفا .

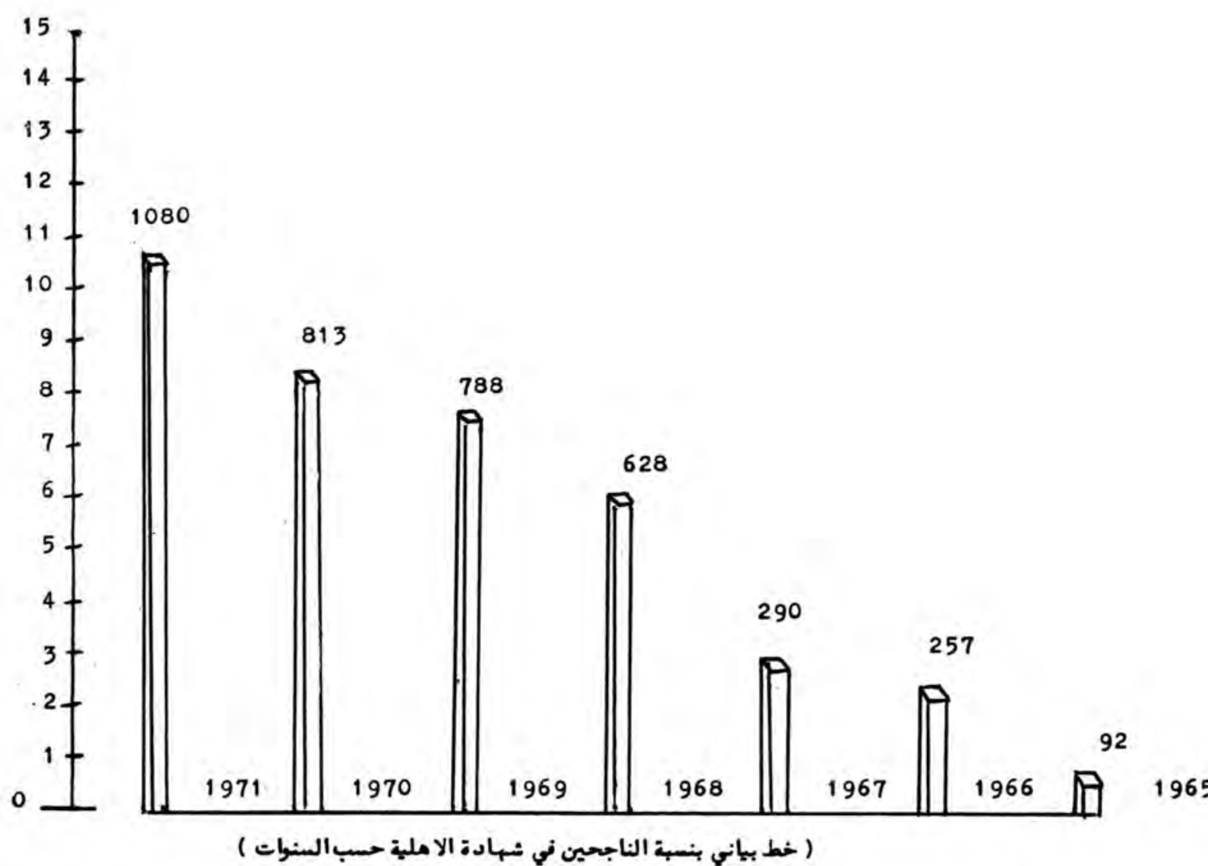
لقد تهيأت هذه المؤسسات منذ عام 1965 م لتخريج الفوج الاول من الطلبة المحصلين على شهادة الاهلية ، ثم أخذ عدد المتخرجين يزداد كل سنة باطراد الى أن أكمل بشهادة البكالوريا فى عام 1971/70 م ، حيث نجحت مجموعة من الطلبة كباكورة أولى لتلك الجهود ، أرسل منها عدد الى فرنسا وبلجيكا للتعليم والدراسة بناء على طلب من سفارتنا فى بلجيكا ، وودادية الجزائريين فى أوروبا والمركز الثقافى الاسلامى الدولى فى بروكسيل ،



منظر جانبى لثانوية التعليم الاصلى بمدينة معسكر



ـ خط بياني بنسبة زيادة التلاميذ حسب السنوات ـ
18
17
16
15
14
13
12
11
10
9
8
7
6
5
4
3
2
1
0
15345
12655
8682
7529
6939
5725
4735
2992
2196
908
1972
1971
1970
1969
1968
1967
1966
1965
1964
1963
(مقياس (1) سنتيمتر = 1000 تلميذ)



(خط بياني بنسبة الناجحين في شهادة الاهلية حسب السنوات)

والآخر التحق بالجامعات الجزائرية ، أو بالوظيف ، سوا، في الادارة أو التعليم لـدى وزارة التعليـــم الابتدائي والثانوى ، حيث يوجد لديها حاليا نحو ثلاثة آلاف معلم ومعلمة في المدارس ، ونحو الالف أيضا في المعاهد التكنولوجية لتكوين المعلمين .

وقد صدر مرسوم تحت رقم : 71 ـ 138 مـؤرخ في 18 ربيع الاول عام 1391 هـ الموافق لـ : 13 مايو سنة 1971 م يتضمن احداث شهادة البكالوريـــا للتعليم الاصلي ومعادلتها التامة بباكالوريا التعليم العـــام .

ذلك أن التعليم الاصلي أصبح له منهج دراسي كامل ، مستمد من أحدث الطرق التربوية المعمول بها حاليا لدى الدول الشقيقة والصديقة ، روعي في اعداده مبدأ الأصالة والتفتح ، حيث أن برنامجه ـ أي المحتوى ـ هو نفس برنامج وزارة التعليـــم الابتدائي والثانوي من حيث المواد الحديثة واللغتين الاجنبيتـــين الاجباريتـين ، مـع التوســـع في الادب العربي ، والتاريخ الوطني ، والاسلامي عامة وبرنامج اضافي يتمثل في تعمق أكبـر في علـــوم اللغة العربية ، وزيادة العلوم الشرعية من تفسير ، وحديث ، وفرائض ، وأصول ، وكلام ، والفلسفـة الاسلامية ، وتاريخ الفلسفة المقارن ، وتاريـــخ الاديان المقارن ، والاتجاهات السياسية ، والفكرية والاقتصادية المعاصرة .

وبذلك يكون المتخرج من هذه المؤسســـات مكتمل الشخصية ، متوفرة لديه كافة الامكانيــات الثقافية التي تفتح له آفاق المستقبل ، وتمكنــه من المتابعه في مختلف الكليات الجامعية ، مع البقاء على أساسه المتين ، الذي يضمن له جميع مكونات شخصيته وعناصر أصالتـــه .

الطلبة الوافدون من مختلف البلدان الاسلامية:

ان مؤسسات التعليم الاصلي عملت على أن تكون أبوابها مفتوحة للجميع طبقا للمبدأ والهدف من تأسيسها ، ومنذ الانطلاقة الاولى غداة استرجاع الاستقـــلال الوطني ، ومنذ أن ذاع عن هذه المؤسسات انها تعنى بالتثقيف الديني والدنيوى أخذت أفواج من الطلبة الافارقة وغيرهم تؤمها ، وهي الان تحتضن عددا من البلدان الاسلامية أو التي بها جالية اسلامية مثل : السنغال ، فولتا العليا ، غينيا ،ساحل العاج،الكونغو موريطانيا ، غينيا (بيساو) ، السودان ، سيراليون ، غامبيا ، أرتيريا ، تانزانيـا ، نيجـيريا ، النيجـر ، مالي ، الصومـال ، تشـاد ، تايلاندة ، وهم يحظون بالنظام الداخلي ، وبمنحة دراسية من طرف الوزارة تضمن كل الالتزامات الدراسية .

وقد تحصل الفوج الاول من هؤلاء على شهـادة الاهلية للتعليم الاصلي وهم الآن يتابعون المرحلـة الثانية من التعليم الثانوى .

وضعية المباني الخاصة بالتعليم الاصلي :

ان وضعية مباني التعليم الاصلي في مستهـــل حياتها كانت مهلهلة ، ينقصها الكثير من المـــرافق الضرورية للتدريس ، غير انها بمرور الايام لمستها يد الاصلاح فأعيد جل مبانيها ، وحول بعضهـا الى بنايات حديثة كتكميليات وثانويات جديدة مـــن الاساس ، وبنى العدد الاكبر منها أخيرا مما سمـــح

باحتضان أكبر عدد ممكن من التلاميذ وفق مراحل مـــدروســـة .

الثـانويـــات الجـديدة :

وهكذا بالاضافة الى العدد المشار اليه آنفا ، فقد تم بناء ثانويات جديدة طبقا للتصميم العصـــرى ، مجهزة بالمخابر ، وقاعات العرض ، مشتملـة على النظام الداخلى .

وهذه الثانويات ستشرع في العمل فى العـــام الدراسى 1973/72 م فى كل من :

- **قسنطينـة**
- **وهـــران**
- **تيزى وزو**
- **سطيـف**
- **بجـــاية**
- **معســـكر**

هذا وفى السنة التى تليها 1974/73 ستفتـــح ثانويات فى كل من :

- **بســـكرة**
- **تيـــارت**
- **سعـــيدة**
- **آ د ر ا ر**

وستخصص المؤسسة الحالية بآدرار لاستقبال من فاته السن الدراسى من حفظة القرآن الكريم من الجزائريين بصفة خاصة ، لتكوين الاطارات الدينية من جهة ، وللوافدين الافارقة الذين لا تسمح لهـم سنهم بمتابعة الدراسة النظامية فى الثـــانويـات الاخرى من جهة ثانيـــة .



ثانوية التعليم الاصلى بقسنطينة



منظر جانبى
لثانوية التعليم الاصلى
بقسنطينة

مؤسســــات بصـــدد البنــاء :

وهناك مؤسسات جديدة أخرى بصدد البناء وهي:

ـ ثانوية الذكـــور بتلمســـان

على أن تخصص المؤسسة الحالية (دار الحديث) للبنات . والعمل الآن جار بها لتحسينها . والقسم الداخلي بها على وشك الانجاز .

ـ ثانويــة العاصمة للذكور

على أن تخصص المؤسسة الحالية للبنات بعـد أن تحور وتوسع . وينشأ بها القسم الداخلي .

ـ ثانوية آقبـــو للبنـــات

وقد تقرر انشاء ثانوية داخلية للبنات بالمدية ، وبذلك ستكون لنا أربع ثانويات داخلية مخصصة للبنــــات .

- **ثانوية الاصنام**
- **ثانوية تمنراست**
- **تكميلية ندرومة**
- **تكميلية المسيلة**
- **تكميلية قنـزات**
- **تكميلية البيض**
- **تكميلية المشرية**

وعلى ضوء كل هذه الانجازات خلال عشر سنوات من استرجاع الاستقلال نرى أن التعليم الاصـــلى قد خطا خطوات عملاقة فى طريق البناء . ويعمل فى نفس الوقت على مواكبة الركب الحضارى بمعطيـات العصر . ليكون مهدا أمينا للحفاظ على الشخصيـة الجزائرية.وينبوعا غزير المدد يضمن للشباب حفاظه على أصالته ، وارتباطه بماضيه . وحظه الوفير الزاهر فى مستقبلـــه .

التعليـم الاصـل العـــال

ان انبثاق كلية للشريعة والقانون المقارن.واخرى فى أصول الدين وتاريخ الاديان المقارن،وثالثة فى اللغة العربية وآدابها وبعض اللغات القديمة.فى كل من **قسنطينة.والعاصمة.ووهران**،كنواة لجامعة اسلاميـة شاملة فى المستقبل القريب.تضم جميع الكيات الاخرى كالطب . والصيدلة . والاقتصـــاد . والـــزراعـة . والهندسة . والعلوم الانسانية الخ ، سوف تثـــرى الوطن بعناصر واعية . مشبعة بالروح الثقافيـــة الدينية متفهمـة لاسرار الاسلام الى جانب العلـوم العصرية . وهى مرحلة طبيعية يرتقى اليها ويتوج بها التعليم الاصلى بعد التكميلى والثانوى . كنتيجة حتمية وملحة ، على غرار جامعة الازهر بالقاهـــرة . التى تضم مختلف الكليات الموجودة فى أغلـــب الجامعات الاخرى . مع اضفاء الطابع الدينى الــذى يجعلها مميزة بمرونة خريجيها . واتساع أفقهــــم وتشبعهم بالروح الدينية والاخلاق الفاضلة . ممـا يزيد من كفاءتهم وقدرتهم على ممارسة الاختصاصات وتحمل المسؤوليـــات .

ان وجود مثل هذه الجامعة فى الجزائر المسلمة ، ليس وليد فكرة اعتباطية . بل هى حقيقة فرضتهـا حقائق المبادىء التى ندين بها . والاهداف العليـا للوطـــن .

كما ان لها من أصالة الشعب عبر التاريخ أكثـر من سبب . فلا غرو أن يعمل التعليم الاصلى عــلى

انبعاثها وتجسيدها ، لا من باب الاقتداء فحسب ، بل لاثراء الافكار والعقول ، وعن اقتناع بأن وجود جامعة اسلامية بالجزائر ، هو بمثابة الروح للجسم والسماد للتربة ، اذا أردنا أن نوفر لكل منها القوة والمناعة ، والخصب والنمـــاء .

وبذلك نسترجع أيضا ما كان لنا فى ماضينـــا المجيد من جامعات مشهورة ومعاهد زاهرة ساهمت فى اثراء التراث الاسلامى وفى الحضارة العالميـة ، فى قسنطينة ـ وقلعة بنى حماد ـ ومسيلة ـ وبجاية ـ والجزائر ـ ومازونة ـ وتيهرت (تيارت) ـ ووهران وتلمسان ـ وندرمة ـ وطبنة ـ وبسكرة ـ وورقلة وغـــيرها .

ان مثل هذه المؤسسات الجامعة بين الدين والدنيا يوجد اليوم حتى فى أروبا الشرقية ، فضلا عـــن الغـربية ، (فى بلجيكا وفرنسا مثلا) وليـس فى الشرق العربى فحسب ، كما يبدو ، وكمثل على ذلك ما جاء أخيرا فى المجلة الاسبوعية المسماة (الاخبار الكاثوليكية الدولية) التى تصدر فى باريس ، فقد جاءت فيها رسالة من طالب فى كلية من كليـــات اللاهوت (أصول الـدين والعلـوم الـدينية) فى يوغوسلافيا ينتقد فيها المجلة المذكورة لانها كتبت (أن فى يوغوسلافيا كلية واحدة للعلوم الدينيـــة ، والحقيقة أن فيها أربع كليات للاهوت من هـــذا النوع فى مدن مختلفة من البلاد) .

وقد عقبت المجلة المذكورة على رسالة القـارىء اليوغوسلافى بأنها اذ تعتذر عن خطئها ، تهـــنىء نفسها بهذه المعلومات السارة المشجعة ، وتشـكر القارىء على تزويدها بها .

ان الاهتمام بالقطاع الدينى فى البلاد الشيوعيـة لا يقتصر على يوغوسلافيا وبولونيـا ، فجمهـورية ألمانيا الديمقراطية هى الاخرى تعنى بهذا القطـــاع اذ يتمتع التعليم اللاهوتى لديها بالموارد التالية :

1 ـ الاوقـــاف

2 ـ ضريبة الكنيسة ، التى يدفعها كـــل موظف وكل عامل ، والتى تؤخذ رأسا من المورد .

3 ـ اعتمادات مخصصة من الدولة .

واذا كان هذا فى بلاد شيوعية ، فماذا نقول نحن عن بلادنا التى دينها الرسمى الاسلام ، وحافظت على نفسها بالاسلام طيلة محاولات المسخ ، والتشويه والادماج ، وكافحت واسترجعت استقلالها بالاسلام؟

ان الاقتصار على ثمرة التعليم الاصلى بمرحلتيـه التكميلية والثانوية سيبقى عملا ناقصا ، ان لــم يعزز بالتعليم الاصلى العالى ، الذى لا منطلق له الا من رحاب جامعة اسلامية ، تتلاءم ومتطلبات العصر الحديث ، وتستجيب لحاجيات البلاد الى ذوى الخبرة والاقتدار ، فى ميدان الدعوة والتوجيه ، ونشـــر التعاليم بما تدعو له من أخلاق وفضيلة ، ومثـــل اسلامية عليا ، تساعد على خلق جيل متكامل ومجتمع فاضـــل .

النشـــاطـات المدرسيـــة :

ان هذه المؤسسات على الرغم من حداثة سنها ، استطاعت أن تنجب فرقا عديدة فى مختلف النشاطات المدرسية ، وتسهم بقدر جزيل فى ميدان الفنـــون والآداب والتوجيه ، والتربية .

ان كل مؤسسة لديها نخبة من الاساتذة من ذوى الاختصاص تشرف على رعاية الفرق المختارة من مجموع الطلبة وفق الميول والرغبات تحت اشراف ادارة المؤسسة .

وهذه الفرق هى : الخطابة ـ المحاضرات ـ التوجيه والارشاد ـ الشعر ـ التمثيل والمسرح ـ الرسم والنحت ـ الخياطة والتطريز ـ الصحافة والنشر ـ الرياضة البدنية بألوانها .

وقد عكفت هذه الفرق على ممارسة اختصاصاتها وفق جدول زمنى ، محدد لا يضر بسير الدراسة ، ولا يضغط على ساعات المراجعة ، وتمخضت هذه الجهود عن بواكير فنية صادقة ، وكشفت عن طاقات لا تخلو من ابداع ، فى عدة مجالات منها :

فرق الثقافة التى تعنى بشؤون الخطابة والمحاضرات ، والتدرب على الكتابة فى شتى المواضيع الادبية ، وقد تمكنت من ابراز خامات دسمة ، وأقلام غزيرة ، استطاعت أن تقدم انتاجا حسنا صالحا للنشر ، وقد يتسع المجال فى هذه المجلة لتخصيص ركن لنماذج من هذا الانتاج .

أما فرق التوجيه ، والتربية ، والارشاد ، فانها تعمل على تنمية الجانب الروحى ، بحكم ايمانها برسالة التعليم الاصلى ودوره الكبير فى معركة التعريب ، والعودة بالامة الى الاصل الذى هو أساس شخصيتها ، والدعامة المتينة لمقوماتها ، وللتخلص من العادات النابية عن تقاليدنا ، فان هذه اللجان قامت ومازالت تقوم بحملة توعية شاملة ، انطلاقا من المسجد الى كل مكان يقام فيه نشاط ثقافى ، طبقا لما نادت به السلطة الثورية فى بلادنا ، كهدف يجب تحقيقه .

وهكذا فقد كان للدروس والمحاضرات التى ألقيت فى المساجد والاندية ، والمساهمة الفعالة فى حملة محو الامية ، والمواضيع الاخرى المقترنة بالمناسبات الدينية والوطنية ، عامل ايجابى فى الدلالة على الدور الذى تلعبه هذه اللجان فى معركة التعريب والتوعية .

كما ان الفرق الاخرى لا تقل شأنا فى ولوعها بما تقدمه من انتاج وفق اختصاصاتها ، ففرق الموسيقى والشعر عملت على تقديم أناشيد وطنية ودينية ، ومقطوعات شعرية فى شتى الاغراض بحسب المناسبات ، وفى مجلاتها الداخلية والتى تتبادلها فيما بينها وترسل منها الى الوزارة .

وكذلك بالنسبة للتمثيل والمسرح ، فأن فرقها قدمت مسرحيات تاريخية ، واجتماعية ، تعالج عدة قضايا ، عرض بعضها فى التلفزة الوطنية ، وبعضها فى الاحتفالات المدرسية وغيرها ، وأحرزت على اعجاب الملاحظين ، وحازت قصب السبق فى ميدان المسابقات بين الثانويات على مستوى الولايات .

أما فى ميدان الرسم والنحت ، والفنون الجميلة ، فقد أظهرت هذه الفرق امكانيات مبدعة ، بما قدمته من لوحات زاخرة بالحياة تنم عن مواهب كامنة ، ويصح القول فيها انها محاولات ناجحة تدل على ولوع أصيل وجهد وعرق أيضا ، اذ أن العبقرية ، كما يقول الالمان ، تتكون من عنصرين

اثنين : واحد في المائة موهبة ، وتسعة وتسعـين في المائة جهد وعرق !

ان هذه اللوحات تمثل صور الشخصيات العلمية والسياسية والوطنية عبر التاريخ ، ومواقف تاريخية* كما قامت برسم خرائط جغرافية مختلفة ، عالمية ، واقليمية وغيرها في شتى الاغراض ، ولم تهمـل هذه الفرق جانب التصوير المجسم ، والنحـت ، بالاضافة الى رسم اجمل المعالم والمناظر الطبيعية في البلاد ، على اختلافها ، واشكال التطريز الهندسي البديع ، وسنخصص قريبا معرضا لهذه الباكورات.

أما فرق الرياضة البدنية ، فقد كان لها حـظ وفير من العناية والاهتمام ، لما لها من أثر بالغ في الابدان والنفوس ، وهي تمارس مختلف الالعـاب الرياضية ، ككرة القدم ، وكرة السلة ، وكرة اليد والكرة الطائرة ، والعاب القوى ، وقد زودت بالمعدات العصرية اللازمة لمثل هذا النشاط .

شاركت هذه الفرق في مباريات رياضية ، ففاز بعضها في سباق العدو الذي أقيم على المستـوى المدرسي داخل التراب الوطني ، كما فاز بعضهـا الآخر في كرة القدم على نفس المستوى في جهـات أخـرى .

ان هذه البراعم والبواكر سواء في الرياضة ، أو الفن ، في الادب ، أو في التوعية ، ستنمـو ويشتـد عودها ، بما يؤهلها لاقتعاد المكانة اللائقة بها في المستقبل حسب اختصاصها .

الخـاتمـة

ان التعليم الاصلي بمؤسساته العاملة ، وانبعاث جامعة اسلامية منبثقة عنه في القريب ، سيـوفر ولاشك حاجياته من الاساتذة ، وتطعيم المجالات التربوية الاخرى بذوي الاختصاص منهم ، وبهي، عناصر صالحة في كثير من القطاعات .

ومن ناحية أخرى لا يخفى على الاذهان ما تتعرض له اليوم من تيارات دخيلة بعيدة عن طبيعتنا ، ومن غزو فكري يهدف الى ابقاء السيطرة الاجنبيـة والنفوذ الاستعماري ، ونحن الآن بحاجة ملحة الى دعاة مرشدين اسلاميـين واعـين بما يحيط بهم ، ومتفتحين على العالم دون تهيب أو انحراف .

ان الجزائر التي كافحت بصمود ، وكانت قدوة حسنة في كفاحها الوطني بالنسبة لشعوب افريقيا تشعر اليوم بان عليها واجبا أكبر وأبعد شـأوا في أن تظل تلك القدوة الرائدة في طريق المثـل العليا والاخلاق السامية لبعث جيل واع يقظ .

من أجل هذا وغيره من الاهداف المتعددة ، كان العزم معقودا على النهوض بهذه المؤسسات وجعلها في مستوى نموذجي يسمح باتاحة المنطلق الطبيعي كي تثمر بالنتيجة المرجوة منها في أقرب وقـت وايسـر سبيـل .

الخمر

الخمـــر شربة رجس أمٌّ ارجاسِ … الخمر صاعقة تهويَ على الـراسِ

الخمر محنة سوء من اصيب بها … أصيب فى كل وعيٍ منه حسـاس

الخمر فاس خراب هدمت أســرا … مصونة عاث فيها صاحب الفــاس

يا شارب الخمر ما ترجوه من درنٍ … للعرض غولِ عقول لص أكياس

ما الخمـر إلا ظـلام للنفـوس فلا … يغررك منها شعاع لاح فى الكاس

على الفـؤاد بهـا النيـران موقـدةٌ … وفي الدمـاغ لها دقَّات أجراس

وكيف تطفىءُ نبراساً حبــاك به … ربٌّ البرايا وتبقى دون نبـراس

فحطِّم الكأس واهجر كل رفقتها … تعشْ سعيدا وتأمنْ ألْسن الناس

السلك الدينى فى الجزائر خلال العشر سنوات

واجبات وحقوق

محمد الصغير بلعلام

دور المسجد والامام فى الاسلام عامة

كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الامام الاعظم لهذه الامة والمؤمنين فى كل نواحى الحياة الدينية والدنيوية، فهو امامهم فى المحراب، وقائدهم فى المعارك، ومعلمهم فى المسجد، ومربيهم ومرشدهم فى حلهم وترحالهم ، وعندما انتشر نور الدعوة الاسلامية ، وعم الافاق، وكثر عدد المعتنقين للدين الجديد من مختلف المناطق والشعوب ، واحتاجوا الى من يفقههم فى الدين كلف الرسول صلى الله عليه وسلم بعضا من صحابته للقيام بهذا الدور الجلل ، دور الامامة لاولئك المسلمين الجدد ، من ذلك ارساله لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ، الى اليمنيين، ليعلمهم دينهم ، ويبين لهم الاحكام ، ويؤمهم فى الصلاة ، كما ارسل قبل الهجرة الى المدينة مصعب بن عمير رضي الله عنه ليؤم المسلمين من اهلها فى صلواتهم، ويعلمهم شريعة الدين وشعائره ، وكان لهذا الامام الاثر البين فى نشر تعاليم الاسلام فى ربوع المدينة واجتذاب اهلها اليه ، اذ استطاع هذا الصحابى الجليل الذى اتخذ من دار اسعد بن زرارة مسجدا باسلوب الداعى، الواعى لمهمته ومنهج المرشد اليقظ ان يؤدى رسالته على الوجه الاكمل ·

وكما كان الرسول (ص) هو الامام الاعظم للامة كان كذلك الخلفاء الراشدون من بعده ، ثم من بعدهم من الخلفاء طوال العهود الاسلامية الزاهرة ، وفى هذا يقول الامام ابن تيمية : (وقد كان من السنة ان الذى يصلى بالمسلمين الجمعة والجماعة ويخطب بهم هم امراء الحرب ، الذين هم نواب ذى السلطان على الجند ، ولذا لما قدم النبى (ص) ابا بكر فى الصلاة قدمه المسلمون فى امارة الحرب وغيرها ، وكان النبى (ص) اذا بعث أميرا على حرب كان هو الذى يؤمره للصلاة وكذلك اذا استعمل نائبا على المدينة » .

وكان الخليفة او الامير يكلف بامامة الناس من يرى فيهم الصلاح والكفاءة والمقدرة على القيادة ، اذ ما الامام الا قائد للمجتمع الذى يعيش فيه ، كما كان هناك المتطوعون لاداء هذه المهمة الجليلة بدافع من ايمانهم وعقيدتهم .

ولقد انتشر هؤلاء واولئك فى كل البقاع الاسلامية واستطاعوا بما اوتوا من الايمان ان ينشروا تعاليم الاسلام بين ابناء كثير من الشعوب التى تختلف لغة وحضارة وتقاليد ، ولكن الاسلام جمعها كلها وصهرها فى بوتقته ، وجعل منها جميعها خير امة اخرجت للناس ، ومنذ ان بدأت الخلافة الاسلامية تتخذ لونا جديدا فى الحكم ، وتبتعد شيئا فشيئا عن المنهاج الاسلامى الصحيح فى الخلافة ، بدأ دور الخلفاء الدينى يضعف وتقل اهميته ليترك مجالا لدور الائمة العلماء الذين انتدبوا انفسهم لتعليم الناس ونشر المبادىء والمثل الاسلامية فى كل مجالات الحياة المادية منها والروحية ، فبدأ الائمة الاعلام أمثال مالك ، وابن حنيفة ، والاوزاعى ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصرى ، والبخارى ، ومسلم ، والشافعى ، واحمد بن حنبل ، وسفيان الثورى ، الى آخر تلك السلسلة الذهبية فى تاريخ الاسلام والمسلمين يقومون بهذا الواجب .

لقد قام الامام طوال العصور الاسلامية بالدور الايجابى الفعال ، وكان تاثيره الروحى والنفسى على المسلمين اكثر من اى كان ، كما كانت له قوته الذاتية وقوته الخارجية المنبعثة من صدى دعوته فى قلوب مأموميه ، كما كان محل الثقة والتقدير فى مختلف فئات المجتمع الذى كان يعتبر الامام مرجعا له فى كل ما يتصل بشؤون حياته .

واذا تكلمنا عن الامام ، والامامة فلابد من ان نتكلم عن المسجد الذى كان مهد الحضارة الاسلامية فيه ترعرعت ونمت ، ومنه سطع نورها الذى اكتسح ظلمات الجهل والطغيان والاستبداد والاستعباد ، « لقد كان المسجد فى الاسلام وخاصة فى عهوده الزاهرة هو كل شىء ، حيث كان مقرا للعبادة ، ومكانا للاجتماعات والشورى ، ومجلسا للحكم ، ومجلسا للحرب ، ودارا للقضاء ، ومعهدا لتعليم كل من الكبار والصغار ، وجامعة تخرج منها كبار العلماء والفلاسفة الذين سطروا مجد الحضارة العالمية الحديثة .

– وذلك ان الاسلام عبادات ومعاملات ، ودين ودولة ، ونظام واحكام ، وحضارة وحياة . »

– ولم يكن المجتمع الاسلامى غافلا عن ذلك بل كان يرى ان حياته كلها مقترنة بالمسجد ان فقده فقدها فهو فوق كل ما ذكرنا نقطة التقاء ابناء هذا المجتمع الاسلامى فى رحاب الله وفى ظلال العقيدة ، ولذا كان اول عمل قام به الرسول (ص) بعد الهجرة الى المدينة هو بناء المسجد النبوى الذى اصبح مركز الدائرة للمجتمع الجديد والذى صدرت عنه ورجعت اليه كل توجيهات المجتمع المسلم الناشىء .

ولقد اتبع المسلمون بعد الرسول (ص) هذه السنة

فكان أول عمل يقومون به بعـــد اي فتح هو تأسيس المسجد الذى هو المظهر الاساسى لشخصية الدولة الجديدة · ونجـــد ان عمر كان يأمر الولاة ببناء المساجد فى كل بلد يفتحونه ، كتب بهـــذا الى ابى موسى الاشعرى فى البصرة ، والى سعد ابن ابى وقاص فى الكوفة ،والى عمرو بن العاص فى مصر ، والى اجناد الشام ان يتخذوا فى كل مدينة مسجدا ، ومع اتساع رقعة الدولة تكاثرت المساجد حتى لم تبق قرية أومدينة خالية منهـا ، ولقد قامت هـــذه المساجد بدورها احسن قيام ، ووفت بمتطلبات الامة وحاجياتها فى الثقافة والعلم والقيادة والتوجيــه بفضل جهود المخلصين من الائمة والدعاة ·

ولم يقتصر دور المسجد على نشـــر نور العلم والعرفان والمحافظة على العقيدة ، بل كان للمسجد طوال التاريخ الاســـلامى الدور الفعال لجمع كلمة المسلمين ، وتحقيق الوحدة والتضـــامن لمواجهة الاخطار التى تعرضت لها الامة الاســــلامية فى مسيرتها ، ففى هذه المساجد كانت تعقد النـــدوات لوضع الخطط الحربية ، بل كانت تتخذ معســكرات للتدريب الحربى الى جانب التدريب النفسى ، وكان الامام هو القائد الذى تلتف حوله الجموع لتتزود منه بما يؤهلها للمقاومة ، وما يعـــدها للاستبسال ، ويحفزها الى التضحية فى سبيل الله عندما يدعو داعى الجهاد ، ولعلنا نتذكر ونعلم جيدا ان جيوش الفتح الاسلامى كلها من عهد الرســـول الى عهد الخلفاء الراشدين والدول الاسلامية التاليـة كانت تجهز فى المساجد ومنها تنطلق الى ساحات القتـال وكلمة الله اكبر تسبقها ·

دور المسجد ولامام فى الجزائر خلال التاريخ حتى الغزو الفرنسى :

ولقد كانت مساجدنا أصدق مثال على ذلك ، اذ كـــانت هي المراكـــز التى انطلق منهـــا مجاهدونا طوال تاريخنا الحافل بالصراع وبالمعارك الطاحنة ضد الغزوات الصليبية التى كانت شواطئنا مسرحا لها ومنذ الف ســنة كان الامام ابو مروان البونى اماما فى المسجد ، وقائدا للمعارك التى تدور رحاها على شواطىء عنابة (بونة) بل ان هـــذا الامام المجاهد ، حرصا منه على ان يكون فى اتون المعارك ولا يقودها من الخلف اتخذ مسجده رباطا وثكنة على البحر حتى يكون على بينة من كل شىء · وعندماتعرضت بلادناللغزو الفرنسى فى سنة ١٨٣٠ انتدبت له صفوة من ابناء المســاجد تقود جموع المواطنين للجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل الدفـاع عن كرامة هذا البلد ومقدساته ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الامير عبد القادر الذى أعلنالجهاد فىمسجد المبايعة بمدينة معســـكر ، ثم من جاء بعده من المجاهدين أمثال السيدة فاطمة نسومر ، والشـيخ الحداد واولاد سيدى الشيخ وغيرهم من ابطال هذا البلد المجاهد الذى ضرب أروع الامثلة فى الفـداء والتضحية والبطولة فى سبيل الوطن والعقيدة ·

دور الامـام اثناء الاحتلال الفرنسى :

وعندما استتب الامر للمستعمر فى بلادنا وتمكن من اخماد جذوة الكفاح الى حين ، ادرك هـــذه الحقيقة ، حقيقة المسجد وما يمثله بالنسبة للمسلمين فعمد الى الاستيلاء عليها جميعا ، ووضعها تحت تصرفه ليهدم منها عددا كثيرا ، ثم ليحول البـاقى الى كنائس ، وهذا هو الاغلب ، ارضاء للحقـــد الصليبى الاسود على الاسلام والمسلمين ، وحـول الباقى الى متاجر ومخازن ، ولم يترك الا القليـــل منها للمسلمين ، ليؤدوا فيها شعائرهم الدينية ، ثم عمد بعد ذلك الى مصادرة الاوقاف الاسلامية التى كانت تمول المؤسسات الدينية والتعليمية فى البلاد

بما تحتاج اليها لتقوم برسالتها ، وفى هذا المجال اصدر الجنرال كلوزيل غداة الاحتلال قرارا بتاريخ ٧ـ١٢ـ١٨٣٠ يقضيبالاستيلاء على أوقافالمسلمين فى الجزائر لفائدة المعمرين الاجانب الراغبين فى الاستيطان بالجزائر ، ولقد بلغت هذه الاوقاف قبل الاحتلال ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ من الهكتارات من احسن الاراضى و ٢٠٠٠ عمارة ٠

ولاضعاف جهاز الدعوة وتضليلابناء شعبنا عمد المستعمر الى توظيف عدد من عملائه فى المساجد واسندت هذه المهمة الجليلة الى هذه الجماعة التى لا تمت الى الدين بصلة فى اكثر الاحيان مكافاة لهم على خدمات ادوها له ٠

ولقد كان هؤلاء الائمة فى عهد الاحتلال يلقون بالحرف الواحد نص الخطبة الذى كان ياتيهم من اسيادهم أمثال (القوفير نور جنرال) وكان هذا النص موجها بالدرجة الاولى الى قتل روح المقاومة وتخدير ابناء الشعب وتضليلهم ، بل لقد كان فى بعض الاحيان دعوة صريحة الىالاستسلام والرضوخ للامر الواقع ٠

تقول جريدة البصائر عن اختيار رجال الدين فى ذلك العهد البغيض « وأما رجال الدين عندنا فقد اختارتهم حكومة لائكية متسلطة وما اختارتهم الا بعد ان ارتضتهمبميزانها لا بميزان الاسلام ، وراعت فيهم شروطها لا شروط الاسلام ، وما رأيناها تحفل فى هذه الوظائف بالعلم ولا بالكفاءة الدينبة ، وانما تحفل بشىء واحد هو ما يشهد به « الدوسي » ، وما عهدنا موظفا من هؤلاء جاءته الوظيفة وهو فى داره من غير ان يسعى لها سعيا ، بل ما وصلت الحكومة حبلهم بحبالها الا بعد ان اتخذوا لها الاسباب ، وطافوا بالابواب ، وما زلنا نقول : ان الحكومة تحتفظ بهذه الوظائف الدينية لاصحاب الخصائص



مسجد حسن باى فى قسنطينة ، نموذج للمساجد التى حولتها ارادة المستعمر الى كنائس ، وأعيدت الى ما أسست له بعد استرجاع الاستقلال



المدرسة الوطنية للاطارات الدينية ببلدة مفتاح ـ الواجهة الامامية

المطلوبة لها ، وانها في حقيقتها مصائد لا وظائف ، وانها لا تدفع لهم الاجور على الصلاة والاذان ، فسواء عليها أصلى المسلمون ام لم يصلوا وانما تدفعها لغايات ومقاصد يجمعها قولك « القيد والصيد » ، ومحال على الحكومة أن تطعم ثمرها ، من يعصي أمرها وقد قرأنا في محاضر المجلس المالي القديم اسماء عجيبة لاجور هذا النوع من الموظفين، أليس تسليم الحكومة المساجد الى هؤلاء الموظفين تسليما من الحكومة الى الحكومة ؟. وهل يستطيع واحد من هؤلاء ان يعصي لها أمرا ولو كان فيه خراب الكعبة » ؟ (١) .

واذا كان الائمة في المساجد الحرة وفي بعض الزوايا التي لم يسيطر عليها الاستعمار قد قاموا بنشر تعاليم الدين الصحيحة وبمهمة التوجيه والقيادة الفكرية بل والعسكرية للمواطنين وتعليم النشء القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة واللغة العربية وتاريخ الاسلام وحضارته ، فان ائمة المساجد التابعة للادارة في عهد الاحتلال كانوا أبواقا للاستعمار وصنائعه وكانوا في أغلب الاحيان يقومون بالجوسسة لحسابه ، وهذه حقيقة شهدبها المستعمر نفسه ، يقول « بيرك » ، أحد أقطاب ادارة الشؤون الاهلية في عهد الاحتلال ، وهي الادارة التي كانت تقوم بتنصيب وعزل رجال الدين ، يقول في مجلة « البحر المتوسط » جزء جويليت ـ أوت ١٩٥١ ـ ما ترجمته الحرفية : « ان خطأنا الفاحش في سياستنا الدينية منذ عشرين سنة، هو اننا تساهلنا في وجود موظفين دينيين في المساجد يسيطر عليهم الجهل المركب والطمع وعدم التهذيب ولا حد لرغباتهم في ان يحمدوا بما لم يفعلوا » .

فعدم الكفاءة والمبالغة في الخضوع والانقياد هي الشهادات الوحيدة التي يمكن لهم أن يعتزوا بها .

لقد رأينا مفتيا يستفتي الطيب العقبي في موضوع صبياني ، حكم فيه علماء الدين اكثر من مائة مرة ، لكن هذا المفتي كان جاسوسا مخبرا للبوليس ، كما سمعنا أحد الموظفين الدينيين في مؤتمر عام يظهر فكرة من الافكار البالية التي يمجها الذوق ، حتى انفجر زملاؤه التونسيون والمغاربة ضحكا لم يستطيعوا له دفعا ، لكن هذا الموظف الديني ممن لا يكادون يفارقون مكاتب البوليس ، ورأينا أحد الجزائريين لم تمكنه معلوماته القرآنية التافهة من اتقاء اغلاط في الحفظ والتجويد لاتصدر عن أقل المسلمين علما لكن هذا الحزاب كان عونا مأجورا للانتخابات (٢) .

ويعلق الشيخ محمد البشير الابراهيمي على هذه الشهادة فيقول « وباليته (بيرك) زاد في التمثيل للوقائع الشخصية سرقة اكفان الموتى يوم كانت الاكفان « مقسطة » ! فقد سرق امام قماش الاكفان فلما تحققت التهمة رفعته الحكومة من منصب امام الى منصب مفت » (٣) ولم تقتصر سيطرة المستعمر على المساجد الحكومية بل لقد امتدت الى بعض الزوايا فسارت في ركابه وعملت لحسابه كما قامت بعض الزوايا بنشر الشعوذة والخرافات بين ابناء الشعب لتجهيلهم واطفاء جذوة الحماس للدفاع عن تراثهم وترابهم .

لهذا كله لم تكن المهمة التي قامت بها وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية للاصلاح والنهوض برجال السلك الديني سهلة أو ميسرة ، وسوف نرى فيما يلي بعض ما قامت به الوزارة في هذا الميدان .

1) صفحة 67 من كتاب عيون البصائر للشيخ محمد البشير الابراهيمي .

2) عيون البصائر صفحة 202 ـ

3) المرجع السابق صفحة 203 .

المسجد والامام بعد استعادة الاستقلال :

لقد شهدت الجزائر بعد استعادة استقلالها نهضة دينية شاملة عمت مختلف ارجائه ساهمفيها المواطنون بمجهود كبير ومشكور فلم يبخلوا على هذا القطاع من النشاط الوطني باى شيء يمكن ان يقدموه له ، فاقيمت البيوت التى اذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه فى الاماكن التى كانتمحرومة منها من قبل بأموال وجهود المواطنين مع مشاركة رمزية فى كثير من الاحيان من الوزارة ، كما انشات الوزارة بعضا من هذه المساجد من ميزانية الدولة ، نذكر منها مساجد : الابيار ، وسعيدة ، وعين الحمام ، وذراع الميزان ، وعين طاية ، وكركار ، وبلولى ، وقم الطوب ، وسريانة وتفلفال ، وسطيف ، وبرج‌بوعريريج ، وتندوف ، والامام مالك فى وهران ، وغيرها ، وهى الآن بصدد بناء مسجدين فى الجزائر العاصمة ، احدهما فى حي حيدرة ، والآخر فى حي محي الدين ، كما سيشرع قريبا فى بناء مسجد تامنراست الكبير وقبل ان ننهى الكلام عن هذه النقطة نشير الى ان تجهيز المساجد كلها من فرش ، وكهرباء ، وماء ، ومصاحف ، وكتب ، الخ تقوم به الوزارة فى اطار البند الخاص بهذا فى الميزانية العامة .

والشيء الذى يجب ان نذكره هنا هو ما قامت به اللجان الدينية التى كونتها الوزارة فى مختلف انحاء الوطن للاشراف على بناء المساجد ، وترميمها ، وتصليحها ، من مجهود ضخم فى هذا الميدان ، ساهم فى دفع عملية النشاط فى هذا القطاع خطوات شاسعة الى الامام .

لقد أصبحت كل قرية وكل مدينة فى بلادنا ورشة لبناء المساجد التى حرمت منها من قبل المستعمر الغاصب الذي رأي فى المسجد العدو الاكبر الممكن ان يقذف به الى البحر اذا سمح لهبأداء دوره ، واصبحت كل قرية وكل حي فى المدينة يحرص على ان يكون له مسجده يتردد اليه المواطن ليؤدى فيه شعائره الدينية بكل حرية واطمئنان ، وليتزود منه بزاد المعرفة ، والعلم ، والثقافة التى تصلح له حاله فى الدنيا والآخرة .

ولقد كان من أروع مظاهر النهضة الدينية فى الجزائر فك أسر كثير من المساجد التى شاءت ارادة المستعمر ان تغتصبها لتحولهاالى كنائس وبيع ، وابت ارادة الله الا أن تعود الى ما كانت عليه من قبل يرتفع فيها صوت المؤذن ان « الله اكبر » ! ومن هذه المساجد جامع كتشاوة الذى كان كاتدرائية للقطر الجزائرى كله ، وعلى بتشيني ،وابن فارس فى الجزائر ،وجامع الباى فى قسنطينة .. الخ .

لقد تم تحويل الكنائس الكثيرة والبيع الى مساجد بعد ان هجرها أهلها فرارا من الحق ، وذلك باتفاق مع الكردينال دوفال الذى يعلمنا بشغور اية كنيسة وعدم الحاجة اليها ، ولقد جسد هذا العمل سيادة الاسلام فى ربوع وطننا وشخصيةالدولة المسلمةالمستقلة ، وقد بلغ عدد هذه الكنائس والبيع التى حولت الى مساجد ١٨٣ كلها تقام فيها الصلاة ، ويؤذن فيها المؤذن ، ويذكر فيها اسم الله ، وتكافح فيها الأمية وتلقى فيها الدروس !

وبهذه المناسبة ، نود ان نقول بأن هناك عددا من رجال الدين المسيحى يتقاضون رواتبهم من الوزارة ، اى من ميزانية الدولة ، وذلك تمشيا مع روح الاسلام الذى يدعو الى التسامح مع الاديان الاخرى وتوفير حرية الاعتقاد لكل فرد فى المجتمع اذ لا اكراه فى الدين ، عدا الردة طبعا .

أما عن رجال السلك الدينى من ائمة ، ومؤذنين ، وحزابين ، وقيمين ، فقد عمدت الوزارة الى تطهير هذا الاطار من المندسين فيه والمتطفلين عليه ، يستوى



صورة عن سير عملية محو الامية فى المسا...

فى ذلك من تسرب اليه عن طريق الاستعمار أو من فشل فى كل أوجه النشاطات الاخرى فاتخذ الدين تجارة يكتسب بها وياكل منها أموال الناس بالباطل ، وهذا كله محاولة من الوزارة لان تعيد لهذا الاطار الحيوى الهام فى حياة شعبنا مكانته التى كانت له والتى تبوأها بجدارة واستحقاق طوال عهود الاسلام الزاهرة ، واتخذ فى سبيل كل ذلك من الاجراءات ما يكفل للائمة الاستقرار والاطمئنان الى مستقبلهم ومستقبل اولادهم ، ممايؤدى بهم بالتالى الى القيام بمهمتهم على الوجه الاكمل ، ونذكر هنا بالخصوص بعض الحقوق التى منحت لهم والواجبات الملقاة على عاتقهم والتى قصد بها جعل المسجد مدرسة ومركز اشعاع علمى وحضارى الى جانب كونه مكانا للعبادة

حقوق الائمة :

بدىء فى تعيين الائمة ورجال السلك الدينى فى مناصبهم بعد استرجاع الاستقلال مباشرة ٠ وقد خصصت مناصب مالية لهذا الغرض ، غير ان كلذلك لم يكن الا كنوع من المساعدة تقدم للقائمين بهذا النشاط الحيوى والاساسى لمجتمعنا ٠ وفى سنة



صورة عن سير عملية محو الامية في المساجد

١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م صدر الامر الخاص الذى يتضمن قانون رجال السلك الدينى الاسلامى الذى لم يبدأ فى تطبيقه فعليا الا فى سنة ١٩٧١ ، هذا القانون الذى أصبح بموجبه هذا الاطار يتمتع بكامل حقوق الموظف فى الدولة من منح عائلية ، وضمان اجتماعى ، وترقية واجازات ، وعطل ، وتقاعد ، واستقرار فى الوظيف ، واطمئنان الى المستقبل ، وبعد ان كان يتقاضى من قبل مجرد منحة مؤقتة ، كما اسلفنا ، أصبح الآن يتقاضى راتبا شهريا معينا وثيق الصلة بمستواه العلمى ، وكفاءته ، ومقدرته ، ونشاطه ، وثقافته ، والتفانى فى القيام بواجبه ، فالامام الممتاز يتقاضى راتب الاستاذ الثانوى ، والامام الخطيب يتقاضى راتب الاستاذ التكميلى ، وامام الصلوات الخمس له راتب المعلم ، اما المؤذن والحزاب فانهما يتقاضيان راتب المساعد فى سلك التعليم . ثمبعد ذلك ياتى الائمة الذينيحملون شهادات علمية معترفا بها ويرسمون بمقتضى تلك الشهادات ويتقاضون راتبا حسب ما نص عليه قانون السلك الدينى وحسب المقاييس الاخيرة المذكورة .

عدد الموظفين فى السلك الدينى :

اما عدد رجال اللسلك الدينى الذين تجرى عليهم الوزارة رواتب شهرية حاليا فقد تضاعف خمس مرات منذ استعادة الاستقلال حتى اليوم ، وخاصة فى السنتين الماضيتين ، اذ كان عددهم غداة استرجاع الاستقلال اربعمائة واربعين ،وهم اليوم مئاتان والفان (٢٢٠٠) عدا معلمى القرآن الذين تمدهم الوزارة بمنحة شهرية وعددهم يزيد عن الالفين .

هذا لاو يزال مثل هذا العدد تقريبا يقوم بالصلوات الخمس وصلاة الجمعة والتعليم فىالمساجد أما تطوعا أو على نفقة المواطنين الذين يوجد فى حيهم أو قريتهم المسجد ، والوزارة جادة فى تعيين من يتوفر من هؤلاء على كفاءة تمكنه من القيام بواجباته أحسن قيام .

امتحان المستوى لرجال السلك الدينى :

وبما ان أغلب رجال السلك الدينى لم يكونوا يحملون شهادات علمية مدرسية أو جامعية تشهد لهم بمستواهم العلمى وبكفاءتهم المهنية ، اذ ان جلهم قد زاول تعليمه حسب النمط التقليدى فى المساجد والزوايا والمعاهد التقليدية ، وكل هذه المؤسسات لم تكن تعرف نظام الشهادات ، فقد عمدت الوزارة الى اجراء امتحان مهنى خاص للمستوى شمل كل الاطار الدينى من ائمة ، ومؤذنين ، وحزابين ، وقيميين ، وذلك حسب ما نص عليه الامر المشار اليه آنفا والخاص بقانون رجال السلك الدينى ، رسم بمقتضاه كل الناجحين فيه فى درجات تتناسب ونتائجهم فى هذا الامتحان · وهذا الامتحان اجبارى ولا يجوز لاى كان ان يتخلف عنه الا لعذر شرعى مقبول ، وقد وقعت الدورة الاولى فى السنة الماضية · أما الدورة الثانية فقد وقعت فى شهر ربيع الثانى (مايو) من هذه السنة ، والشىء الذى يجب ان يلفت اليه النظر ان الذى لم يسعفه حظه ولم تمكنه معلوماته من النجاح فى هاتين الدورتين لا يفصل من منصبه ، بل يبقى فى مكانه كما كان من قبل ويتقاضى راتبه كاملا على ان يستعد للدورة المقبلة ·

ولقد ارادت الوزارة بهذه الطريقة ان تبعد الامام المتكاسل الذى يتخذ من المسجد زاوية للنوم ، ومن مهنته الشريفة سببا للكسل والتواكل والتخاذل ، وتفتح المجال للامام النشيط العامل الذى يدرك ابعاد وظيفته الدينية والاجتماعية والثقافية ، ويقبل على العلم والعمل بارادة جادة وحازمة ·

وحتى تكون نتائج هذا الامتحان اكثر ايجابية واصدق دلالة على المستوى الثقافى العلمى لدى الائمة عملت الوزارة على تنظيم فترات تربصية لجميع رجال السلك الدينى الذين دعوا الى المشاركة فى هذا الامتحان على مستوى البلاد ، وبالفعل فقد دلت النتائج الاولية للدورة الثانية التى وقعت فى شهر ربيع الثانى (ماى) لهذه السنة كما اسلفنا على ان تلك الفترات قد اتت اكلها واعطت ثمارها حتى ان النجاح كان فوق كل ما كان متوقعا ·

واجبات الامام :

لم تعد مهمة الامام كما أراد لها الاستعمار والجهل ان تكون تقتصر على فتح أبواب المساجد فى أوقات معينة لاداء الصلاة والقاء بعض الدروس الصورية ثم يغلق باب المسجد بعد ذلك وينصرف الامام على اثرها الى القيام باعمال خاصة أما الى حقله أو مزرعته ان كان فى الريف ، أما الى تجارته او الى مجالس المؤانسة مع الاصدقاء هنا وهناك خارج المسجد ان كان فى المدينة ، بل ان مهمته اصبحت الآن تشمل الى جانب امامة الناس فى الصلاة والوعظ والارشاد ، تحفيظ القرآن الكريم وتعليم أبناء الشعب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالانتظام فى مدارس ومعاهد التعليم ، أى ان الامام أصبح مرشدا ومدرسا ولقد اصدرت الوزارة التعليمات المشددة لجميع الائمة ليقوموا ، زيادة على امامة الناس فى الصلوات ودروس الوعظ والارشاد ، بالواجبات الآتية :

١ ـ تحفيظ القرآن الكريم للصبيان ذكورا واناثا تمشيا مع سياسة الدولة فى بلادنا التى تولى هذه المهمة المقدسة ، مهمة تحفيظ كتاب الله للناشئة ونشره بينها ، اهتماما خاصا ، ويتوج هذا كله الحفل السنوى الذى يقام فى ليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم فى كل سنة تحت اشراف الاخ رئيس مجلس الثورة والحكومة فى الجامع الكبير بالعاصمة لتوزيع الجوائز على صغار حفاظ القرآن الكريم ·

٢ ـ دروس الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والسيرة والنحو ، والصرف الخ ، التى كانت تنظم فى المساجد الحرة والمعاهد التقليدية فى العهد الاستعمارى البائد

والتى بفضلها حافظت الجزائر على شخصيتها العربية الاسلامية رغم موجات المسخ والتشويه التى تعرضت لها .

٣ ـ دروس محو الامية فى المساجد ، ودخلت السبورة الى المسجد وأصبحت ملازمة له كالمنبر .

ولقد شرع فى حملة محو الامية فى مساجد البلاد كلها فى ١٥ شعبان ١٣٩٠ هـ الموافق لـ ١٥ اكتوبر ١٩٧٠ م ، وقد افتتح هذه الحملة الاخ الرئيس بنفسه كما تفقد سيرها فى بعض مساجد العاصمة وبعض عواصم الولايات ، نخص بالذكر منها مدينة سطيف ، وقد ورد على لسان الاخ مولود قاسم فى الكلمة التى القاها بمناسبة تدشين مسجد ابن باديس فى مدينة سطيف بحضور الاخ الرئيس وتدشين حملة محو الامية فى نفس الوقت : « ورمزا الى هذه الوظيفة المتعددة الجوانب للمسجد حرص الرئيس على ان يكون افتتاح هذا المسجد الكبير ببدء الدروس فيه لمكافحة الامية ولنشر النور والمعرفة ، ومساهمة فى ثورتنا الثقافية الشاملة التى تكمل ثورتينا الصناعية والزراعية ، وتتوجهما وتعطيهما روحهما ومغزاهما الكامل المتكامل » .

ولقد زودت المساجد بعدد ضخم من الكتب لتوزع مجانا على المترددين الى المسجد للتعلم ذكرانا واناثا اذ ان أبواب المساجد مفتوحة للجنسين بدون تفريق وتقام فى اوقات مناسبة دروس خاصة بالرجال ، ودروس خاصة بالنساء وهذه الاخيرة تقوم بها معلمات متطوعات ، ومن هذه الكتب كتاب لتعليم القراءة وفيه جزآن ، وكتاب الخط ، وكتاب الحساب ، وكتاب المعلم .

ان الدولة فى بلادنا المؤمنة بأصالتها والمتمسكة بدينها تولى اهتماما خاصا لحملة محو الامية فى المساجد ، لان المسجد موجود فى كل مدينة ، وفى كل حى ، وفى كل قرية ، مهما كانت نائية فى أقاصى الصحراء ، أو فى قمم الجبال ، ثم ان علاقة المواطن بالمسجد علاقة روحية تجعله ينجذب اليه بصفة خاصة وفى الدرجة الاولى منهم من كان فى سن الكهولة أو الشيخوخة ، ثم ان مكانة الامام الاجتماعية اكثر رسوخا واكثر عمقا من مكانة غيره ممن تقتصر علاقته بالمواطنين غالبا على مجال عمله فقط ، بينما نجد الامام هو محور الحياة فى القرية ، وهو كل شىء بالنسبة للمواطن ، فهو الامام ، وهو المفتى ، وهو القاضى ، وهو المعلم الخ .

وبالفعل فقد اعطت هذه الحملة ـ والحمد لله ـ ثمارها الطيبة ، فمن الاميين أمية كاملة من أصبح الآن يطالع الصحف ، ومنهم من تقدم الى الشهادة الابتدائية ونجح ولا يزال يواصل ، ومن الاميين من كانت له مبادىء أولية فى القراءة والكتابة واستطاع بمثابرته على دروس المسجد ان يتقدم الى امتحان الممرنين أو الى الشهادة الاهلية ونجح ـ وخاصة فى ولايات الواحات ، وباتنة ، وقسنطينة ، وتيارت ، الا اننا لاحظنا ان نجاح هذه الحملة نجاحا كاملا ، كما نرجو ، يتوقف على كفاءة الامام ومستواه العلمى ، والاسلوب الذى يتبعه فى تعليم الكبار ، ولذلك نظمت الوزارة دورات تدريبية للائمة خاصة بطرق مكافحة الامية فى كل من وهران والجزائر بالتعاون مع المركز الوطنى لمحو الامية ، ليستطيعوا بعدها النهوض بأعباء هذه المهمة النبيلة التى تعتبر مساهمة فعالة فى محو الامية باللغة القومية طبقا لما نص عليه برنامج المخطط الرباعى ، وفى تنفيذ مرسوم تعريب الادارة فى البلاد

وبما انه يوجد فى كل اطار ، مهما كانت وظيفته ، من يستهين بعمله ولا يقدره حق قدره فيتهاون فيه ويبخل عنه باخلاصه ! وتفاديا لذلك الحت الوزارة فى مناشرها المتعددة للائمة فى ان يكونوا عند حسن الظن

بهم ، وقد نص احد هذه المناشير على ان الامام الذى يثبت عليه انه تهاون فى اداء مهامه وخاصة مكافحة الامية يعاقب بانذار كتابى له مع خصم جزء من راتبه فى المرة الاولى ، وقد يعزل نهائيا ان تكرر منه ذلك ، وكذلك نص نفس المنشور انه على المفتشين ان يسهروا على تنفيــذ تعليمات الوزارة ، وكل مفتش تهاون فى ذلك يلحقه نفس العقاب ٠

المدرسة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية :

اسلفنا القول بأن الاطار الدينى الموجود حاليا فى غالبيته لم يتلق التعليم فى المدارس أو الجامعات بـل كان ذلك فى المعاهد التقليدية التى لا تخضع لبرامج مدروسة وموضوعة حسب أسس منهجيــة ، وتلافيا لذلك فى الاطار الدينى للمستقبل انشــات الوزارة مدرسة وطنية لتكوين الاطارات الدينية ببلدة مفتاح ، فى ضواحى العاصمة ، والهدف من هذه المدرسة كما قلنا هو تخريج اطارات دينية عصرية تكون على علم بما يجرى فى العالم من حولها، وتلم باشتات الثقافات المتعددة والمتباينة فى المنهج والتفكير والهدف ، حتى تتمكن من مجابهة مشاكل العصـــر اليومية ، وحتى تستطيع ان تؤدى رسالتها كما يجب ، وخاصـــة فى اوساط الشباب المثقف الذى تتجاذبه التيارات الفكرية والايديولوجية ، والسياسية المتضاربة والمتناقضة فى كثير من الاحيان ، وان كانت كلها تتلاقى عند هدف واحد هو محاولة ابعاد هؤلاء الشباب عن أصـــالتهم وقوميتهم وسلخهم عن شخصيتهم ، وبكلمــة قصيرة ابعادهم عن دينهم الذى عصـــم آباءهم من قبـــل من الذوبان ، والانحلال ، والمسخ ، والتشويه ٠

وستكون هذه المدرسة مفتوحة للائمة المرســمين والمعينين حاليا ليقضوا فيها فترات تدريبية دورية كي يعمقوا مداركهم منجهة وليطلعوا على أساليبالدعوة الحديثة واخطار الغزو الفكرىوطرقمقاومته من جهة اخرى ،وستكون مفتوحة كذلك امام الاطارات الجديدة التى ستعد لتحمل رسالة الدعوة الى دين الله ونشـر تعاليم الاسلام فى المســتقبل ، من خريجى ثانويات التعليم الاصلى وبعض المعاهد التقليدية التى ما تزال تقوم بأداء واجبها كما كانت من قبل ٠

اما اولئك الذين يرغبون فى التكوين والاتقان فى العلوم الاسلامية ، لكن ظروف حيــاتهم تمنعهم من المشاركة حضوريا فى هذه المدرسة ، فانه ستوجه لهم دروس تخصصية بالمراسلة ٠

تجديد المعاهد التقليدية :

وانطلاقا من هذه السياسة التى ســلكتها الوزارة فى كل ما يتعلق بالاطار الدينى اتخذت قرارا خاصــا بتطوير الزوايا والمعاهد التقليدية القــديمة ، وبعث الحياة فيها حتى تتمكن من اداء رســالتها التعليمية كاملة ، وسوف يعاد النظر فى حالات جميع هــــذه الزوايا فى كامل البلاد لتدرك حقيقة كل منها ودورها فى تحفيظ القرآن ونشر التعاليم الاسلامية ، وسيحافظ على الصالح منها بل يطور ويمد بالبرامج ، والاساتذة والمساعدات المادية ، اما تلك الــزوايا التى ليس من هدفها سوى نشر الشعوذة والخرافات وابتزاز أموال المواطنين بالباطل فستغلق نهائيا ، وستكون هـــذه المعاهد التقليدية مفتوحة لابناء المواطنين جميعا بغض النظر عن السن والمستوى الثقافى وســتوفر لهم كل الامكانيات التى تجعلهميتابعون تعلمهم بنفوس راضية وقلوب مطمئنة ، وبعد ذلك تفتح لهممعاهد خاصة التى انشئت وستنشأ لهـــذا الغرض فى كل من ادرار فى الساورة ، وسيدى عبد الرحمن اليلولى فى القبائل الكبرى ، والعثمانية فى قســـنطينة ، ليزاولوا فيها التعليم الثانوى الذى سيؤهلهم للدخول الى المدرســة الوطنية لتكوين الاطارات الدينية فى بلدة مفتاح ٠

كلمة اخيرة : **اننا نشاهد من خلال هـــذا العرض**



توزيع الجوائز على صغار حفاظ القرآن الكريم
ليلة 27 من رمضان 1390 هـ 1970 م تحت اشراف
الاخ الرئيس ـ فى الجامع الكبير بالعاصمة

القصير بوادر نهضة دينية ودلائل وثبة علمية ، واشعة انبعاث فكرى ، تتجمع كلها فى المسجد ، ويمثلها الامام الذى يجب ان يكون مرآة صادقة للمبادىء والمثل التى يدعو اليها ، حتى يستطيع أن يسهم بنصيبه الوافر فى الميادين الاجتماعية ، والعلمية ، والروحية، وان يسترد مكانته التى تبوأها يوم ان كان العلماء ورثة الانبياء ٠

ان شعبنا المسلم يعلق الآمال الكبار على ائمته ، ولذلك يجب عليهم ان يكونوا على مستوى آمال هذا الشعب ، وان يجعلوا من المسجد دار عبادة وريادة ، ومعهد تعليم وتقويم ، يتخرج فيه جيل مسلم قادر على تحقيق التقدم والازدهار لوطنه ولامته ، فانما العلماء من الامة بمثابة القلب اذا صلح صلح الجسد كله ٠

فتـــاة العَصـــر!

ما بـــال سيـرِ فتاةِ العصر منحرفا — يهوي بها في مهاوي الإفك والزور
ان الجزائر أمست بنتُهـــا غرضـــا — لكـــل رامٍ بسهم الغيِّ مأجـــور
ما بالهـــا هجـرت آداب ملتهـــا — مابالها أعرضت عن خيـــر دستـــور
إن الذى بـــرأ الجنسين خوّلهـــا — حقوقهـــا في كتـــاب منه مسطور
لوانهـا اقتبست من نوره وجنَـت — من روضه التحقت في الطهر بالحور
عافت تقاليدَها المثلى وقد سطعت — أنوارها وارتمت في كل ديجـور
ما جلّ آرائها المستحدثات ســوى — مستوردات مـداهـــا غيرُ مشكـور
فـي كل مرحلـــة تزداد ظلمتهـــا — في الرأي فاقرأ عليها سورة النور1

من ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

---

(١) سورة النور فى القرآن الكريم اشتملت على بيان بعض حقوق النساء وواجباتهن ، وقد ورد فى الحديث الشريف : (علموهن سورة النور .)



مسجد الامام مالك بن انس فى وهـــران
نموذج للـمساجد التى بنتها الدولة

لوحة احصائية لمساجد ومراكز محو الامية بالجزائر

	الجزائر	المدية	الاصنام	مستغانم	وهران	تلمسان	تيارت	سعيدة	بشار	تيزى وزو	سطيف	قسنطينة	عنابة	الاوراس	ورقلة	الجمع
عـــدد المســـاجد	250	88	73	116	125	338	39	69	446	490	806	165	109	447	539	4 100
عـدد المساجد فى طـور البنـاء	30	12	1	6	7	12	2	1	12	12	18	17	10	38	13	191
عدد الكنائس المحولة الى مساجد	25	4	17	19	22	6	5	5	2	15	13	15	31	3	1	183
عـــدد مراكز محـــو الامية	123	88	50	52	112	40	35	47	53	320	231	160	106	54	144	1 615
عدد المسجلين فى مراكز محو الامية	4 915	1 500	1 507	1 576	2 330	2 200	900	1 666	1 240	2 500	4 656	3 200	1 400	2 899	2 511	35 000
الناجحون فى الشهادتين الابتدائيه والاهلية							6					25		30	112	173

البشير الإبراهيمي في المشرق العربي

• تركي رابح



الشيخ البشير الابراهيمى فى الشرق العربى
(١٩٥٢ ـ ١٩٦٢)

« يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابى الذى يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية فى الارض ، قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدى ، وعطرا ينعش ، وهذا هو معنى العظمة ، وهذا هو معنى كون العظمة خلودا ، فان كل ما يخلف العظماء من ميراث هو اعمال يحتذيها من بعدهم ، وافكار يهتدون بها فى الحياة ، وآثار مشهودتينتفعون بها ٠ وامجاد يعتزونبها ويفخرون، والاعتزاز والفخر من الاغذية الروحية الحافظة لبقاء الجماعات (١) »

« محمد البشير الابراهيمى »

1) جريدة البصائر عدد 151 سنة 1951 ص 1

هناك جانب هام من حياة المرحوم الشيخ البشير الابراهيمي لم يتناوله الكتاب والباحثون بالبحث والدراسة حتى الآن ، واعنى به الفترة التى قضاها فى الشرق العربى سواء فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١١ ـ ١٩٢٠) أو فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٥٢ ـ ١٩٦٢) وساتحدث فى هذه الكلمة المختصرة عن هذا الجانب من حياة الفقيد العامرة بجلائل الاعمال ٠

واذا كانت دوافع واسباب الرحلة الاولى من الجزائر الى الشرق العربى هي ـ كما ذكرها الشيخ البشير بنفسه ـ من أجل الالتحاق بوالده (٢) الذى سبقه الىالهجرة الى المدينة المنورة فى عام ١٩٠٨ ٠ ثم من أجل الاستزادة منالدراسة والتحصيل العلمى على عادة علماء المسلمينفىتاريخ التربية الاسلامية من اعتبار الهجرة فى سبيل العلم والاتصال بكبار المشائخ والعلماء المبرزين ، والاخذ عنهم ، والتتلمذ عليهم ، من شروط الكمال فى العالم المتمكن من التقاليد العلمية الاسلاميةالصحيحة ـ اذا كانت هذه هى باختصار دوافع وأسباب الرحلة الاولى ـ فان دوافع وأسباب الرحلة الثانية تختلف اختلافا كليا عن ذلك ٠ فقد كانتالرحلة الاخيرة تهدف الى تحقيق أمور أخرى هى :

(١) العمل على ارسال بعثات علمية من الشباب الجزائرى الى الشرق العربى بغرض الدراسة فى مختلف مدارسه ، ومعاهده ، وجامعاته ٠

(٢) طلب المساعدة المادية لجمعية العلماء من الاشقاء العرب والمسلمين كي تستطيع مواصلة رسالتها فى ميدان نشر التعليم العربى والمحافظة على الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائرى التى تواجه محاولات كبيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسى ورجال التبشير المسيحى المتعاونين معه ، يقول الشيخ البشير الابراهيمى شارحا بواعثه على هذه الرحلة ٠

« ٠٠٠ وفى عام ١٩٥١ ميلادية رحلت الى الشرق بتكليف من جمعيتى (يقصد جمعية العلماء) وكان الباعث على هذه الرحلة أمرين :

الاول : السعى لدى الحكومات العربية لتقبل لنا بعثات من ابناء الجزائر ٠

الثانى : مخاطبة حكومات العرب والمسلمين فى اعانتنا ماليا حتى تستطيع الجمعية ان تواصل أعمالها بقوة لان الميدان اتسع امامها ، والشعب الجزائرى محدود القوة المالية ، فاذا لم يعنا اخواننا فربما تنتكس حركتنا ٠ وهذا ما ينتظره الاستعمار لنا (٣) هذه هي الاسباب التى ذكرها الشيخ البشير الابراهيمى ويمكننا نحن ان نضيف الى الامرين السابقين أمرا **ثالثا** لم يتناوله فى النص المذكور مع انه لا يقل أهمية عنهما الا وهو الدعاية للقضية الجزائرية ٠

وشرح ظروف الكفاح الجزائرى الى قادة الحكومات العربية والاسلامية التى زارها وتعريف الرأى العام العربىوالاسلامى بمختلف جوانب كفاح الشعب الجزائرى ضد الاستعمار الفرنسى وما يقاسيه من عدوان صارخ على مقدساته الاسلامية ولغته العربية وكرامته وسيادته الوطنية ٠

وقد نجح الشيخ البشير الابراهيمى نجاحا كبيرا فى هذه النقطة الاخيرة شاهدنا نحن كما شاهد

2) انظر نبذة عن دوافع واسباب هجرته من الجزائر ال المدينة المنورة 1911 بقلمه فى مجلة مجمع اللغة العربية عدد 21 القاهرة سنة 1966 ص 137 ـ 138

3) المرجع السابق ص 154

جميع الجزائريين الذين زاروا المشرق العـــربى او عاشوا فيه بعض الوقت قبل سفر الشيخ البشـــير وبعده آثار ونتائج هذا النجاح لدىالراى العامالعربى الذى أصـــــبح ملما الماما كافيا بجوانب الكفاح الجزائرى العادل فى مختلف مراحله ·

« قلة المام اخواننا الشرقيين باوضاع القضية الجزائرية »

ولكى يعرف القارىء جهود الشيخ البشـــير الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية خـــلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له حتى قيام ثورة الفاتح من نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات ينبغى ان نذكر لــه نبذة عن ضآلة المام اخواننا المشارقة بقضايا وكفاح ابناء المغرب العربى بصفة عامة والجزائريين منهم بصفة خاصة ·

فقد صدمت انا صدمة عنيفة عنـــدما وصلت الى القاهرة فى نوفمبر ١٩٥١ بقلة معلومات الناس عن الجزائر الى حد يكاد أن يكون شاملا لكل شىء فى الجزائر ، فقد كنا نسال مثلا هل الجزائر فى جنوب الجزيرة العربية ؟ أو فىاندونيسيا ؟ أو فى الحجاز ؟ الى غير ذلك من الاسئلة التى كانت تدل على قلة المام فادح بالمبادىء الاولية الجغرافية ـ مع اننا نحن كنا نعرف عن اخواننا فى البلاد العربية قبل ان نسافر اليها الشىء الكثير · عن شخصياتهم ، ومنظماتهم، وهياتهم العلمية ، والادبية والسياسية ، وقد دفعنى الفضول الى الاطلاع على كتب التاريخ والجغرافيا التى كانت تدرس حتى بداية الخمسينات فىالمدارس المصرية والبلدان العربية الاخـــرى التى أمكننى الاطلاع عليها ـ فى المرحلة الثانوية من التعليم حتى أعرف أسباب عدم الالمام البادى حتى على المتعلمين فى الجامعات فيما يتصل بقضايا وظروف اقطـــار المغرب العربى ، فوجدت الحديث مثلا عن اقطـــار المغرب العربى وخاصة الجزائر لا يتعدى بضـــعة أسطر فى كتب التاريخ ، واقـــل من ذلك فى كتب الجغرافيا التى تصف الجزائر بانها « مســـتعمرة فرنسية دينها الاسلام ، وقد الحقتها فرنسا بها » ولا تكاد تزيد عن ذلك شيئا آخر هذا بينما تتناول كتب التاريخ المذكورة « الثورة الفرنسية » بتفصيل واف وهى ـ الثورة الفرنسية ـ تحتـــل فى كتب التاريخ للمدارس العربية الثانوية مكان الصدارة كما تدرس جغرافية فرنسا السياسية واقاليمها دراسة وافيـــة فى كتب الجغرافيا · ولم يتغير هذا الوضع الا بعـد قيام الثورة المصرية فى ٢٣ يوليو (جويلية) ١٩٥٢ ببضع سنوات حيث أصبح التركيز فى مادة التاريخ فى المرحلة الثانوية على التاريخ العـــربى لجميع اقطار الامة العربية ، كما تحـــول التركيز فى كتب الجغرافيا على دراسة البـلدان العربيـــة ومن بينها اقطار المغرب العربى دراسة تفصيلية متعمقة ·

« نجاح الدعاية الفرنسية فى تضليل الراى العام العـــربى »

والواقع أن الدعاية الفرنسية فى المشرق العربى قبل الخمسينات قد نجحت فى تضليل الرأى العـــام العربى الى حد كبير فيما يتصل باقطار المغـــرب العربى وبالخصوص الجزائر التى حاولت اقنـــاع الناس بأنها قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من بلادها ، وقد كان بعض المثقفين ينخدع بهذا الزعم ببساطة ، ويبدو هذا فى مؤلفاتهم التى تتناول الجزائر ·

واذكر حادثة طريفة حصلت لي مع أحد الاساتذة الكبار الذين كنا ندرس عليهم فى الجامعة ـ وعلى فكرة هذا الاستاذ كان فى السنوات الاخيرة يدرس مادة الادب العربى الحديث فى احـــدى الجامعات الجـــزائرية ـ وكنا فى رحلة علمية لزيارة الآثار الفرعونية الموجودة فى الاقصر واسوان وكان هـــو

مشرفا على الرحلة وذلك خلال العام الدراسى ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ وكان يعقد لنا مناقشات علمية وأدبية فى أوقات فراغنا من الرحلة ، وقد جاء فى احدى المرات ذكر الجزائر ، فقال عنها ما معناه « ان الجزائر انتهت لقد أصبحت فرنسية وقد نجحت فرنسا فى فرنستها » ولما تدخلت فى المناقشة لمحاولة تصحيح معلوماته !!! رد على مستشهدا بواقعة حصلت له أثناء زياراته الى فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية حيث كان يدرس فى بريطانيا ملخصها : « انه التقى بأحد الجزائريين المجندين فى الجيش الفرنسى فى القطار ودارت بينهما مناقشة كان هو يتحدث فيها باللغة العربية وكان المجند الجزائرى يرد عليه باللغة الفرنسية ـ وقد قاده الاستنتاج من هذه الواقعة الفردية الى الحكم على الشعب الجزائرى برمته بأنه نسى لغته وعروبته وأصبح فرنسيا » ٠ وقد أجبته «بان الحكم على شعب كامل منخلالتصرفات أو سلوك فرد واحد أو حتى مجموعة افراد من ابنائه هو حكم بعيد عن الحقيقة والواقع بعد السماء عن الارض » ولكنه لم يقتنع بكلامى ، ولا شك انه قد غير حكمه عن الجزائر الآن خصوصا بعد زيارته لها واشتغاله بالتدريس فى أحدى جامعاتها التى انشاتها الثورة بعد الاستقلال ٠ فى موطن رائد النهضة الجزائرية الحديثة « الامام ابن باديس » ٠

« شوقى وعروبة الجزائر !!! »

وقد ذكرتنى هذه الواقعة من استاذنا الفاضل بواقعة اخرى تشبهها تمامالشبه سجلها امام النهضة الجزائرية الحديثة المرحوم الشيخ عبد الحميد بن باديس فى مجلة الشهاب ١٩٣٤ عن الشاعر أحمد شوقى الذى زار الجزائر العاصمة فى أواخر القرن الماضى عندما كانيدرس الحقوق فى احدىالجامعات الفرنسية للاستشفاء من المرض ، ومكث بها أربعين يوما ٠ وعندما غادرها قال عنها : « لا عيب فيها سوى أنها مسخت مسخا فقد عهدت مساح الاحذية يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » وقد تالم ابن باديس الما شديدا لزعم شوقى هذا حيث حكم من خلال تصرفات فرد واحد على عروبة وقومية شعب كامل حكما متسرعا بعيدا عن الحقيقة والواقع ٠

وقد سجل ابن باديس اله هذا فى خطبةله بمناسبة الاحتفال بتأبين الشاعرين : شوقى وحافظ فى نادى الترقى فى شهر فبراير ١٩٣٤ قال ابن باديس : « ٠٠٠ أما شوقى فقد قدر له ان يزور الجزائر فى شبابه ، وينزل بعاصمتنا أربعين يوما للاستشفاء ويقول عنها « ولا عيب فيها سوى انها قد مسخت مسخا ، فقد عهدت مساح الاحذية فيها يستنكف النطق بالعربية واذا خاطبته بها لا يجيبك الا بالفرنسية » ، يقول الشيخ باديس « فاعجبوا لاستدلال على حالة امة بمساح الاحذية منها ولا يجمل بى أن أزيد فى موقفى هنا على هذا الا ان فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له فى الجزائر رأى آخر ،ولعلم ان الامة التى صبغها الاسلام وهو صبغة الله ، وأنجبتها العرب وهى أمة التاريخ ، وأنبتتها الجزائر ، وهى العاتية على الرومان والفاندال ، ـ لا تستطيع ولن تستطيع ان تمسخها الايام ، ونوائب الايام (٤) » ٠

وكنا فوق هذا نسأل هل عندكم مدارس ؟ هل عندكم ترامواى ؟ هل عندكم طرق ؟ الى غير ذلك من الاسئلة الساذجة التى تدل على قلة الالمام بالمعارف الاولية عن الجزائر ٠ هذه هى حالة الجزائر فى

٤) مجلة الشهاب ج 4 م 10 ص 146 عدد مارس 1934

المشرق العربى قبل عام ١٩٥٢ فما هو حالها بعد ذلك ؟

« مكانة الجزائر فى المشرق العربى بعد رحلة الشيخ البشير الابراهيمى »

أما بعد قدوم الشيخ البشير الابراهيمى الى المشرق العربى فى عام ١٩٥٢ واتصاله بمختلف الهيئات والمنظمات والشخصيات العربية والاسلامية فى القاهرة · وبغداد ، ودمشق ، والكويت ، والحجاز ، فقد تبدل الوضع المذكور كثيرا ، وقد ساعد على ذلك قيام الثورة المصرية فى صيف عام ١٩٥٢ ـ وأنا هنا لا أريد أن أغمط من نشاط بعض الجزائريين الذين سبقوا الشيخ الى المشرق العربى وكانوا معتمدين من قبل بعض المنظمات الوطنية الجزائرية من أجل التعريف بالقضية الجزائرية فقد بذلوا جهودا مشكورة فى هذا الميدان ـ ولكننى أسجل ما شاهدته ولاحظته بنفسى فى الفترة الممتدة من عام ١٩٥١ حتى قيام ثورة الفاتح نوفمبر ١٩٥٤ بعدة سنوات · فقد نشط الشيخ البشير الابراهيمى بعد قدومه الى القاهرة فى مارس ١٩٥٢ مباشرة فى الاتصال بمختلف الهيآت والشخصيات وكان لبعضهم سابق معرفة به قبل قدومه الى الشرق كما نشط فى عقد المؤتمرات الصحفية ، والقاء المحاضرات العامة عن الجزائر وقضايا كفاحها الوطنى والقومى ، وتسجيل الاحاديث الاذاعية فى اذاعة صوت العرب بعد انشائها عقب قيام الثورة المصرية فى عام ١٩٥٢ ، وفى كتابة المقالات فى المجلات الفكرية المعتبرة كمجلة « الرسالة » للمرحوم الزيات ، ومجلة «المسلمون» التى كان يراس تحريرها الكاتب الاسلامى سعيد رمضان ، وغيرهما من المجلات الاخرى فى مصر وخارجها · ولم تمض سنوات قلائل حتى اصبحت الجزائر العربية المسلمة على كل لسان فى الاوساط الفكرية القيادية وصارت محل عنايتهم واهتماماتهم كمااصبحت من اهتمامات وسائل الاعلام المختلفة من صحافة واذاعة وسينما · وغيرها ·

« عوامل نجاح الابراهيمى فى التعريف بالقضية الجزائرية »

ولعل من العوامل الهامة التى ساعدت الشيخ على النجاح فى شرح القضية الجزائرية للراى العام العربى وللمسؤولين العرب فى كل من مصر ، والعراق ، وسوريا ، والكويت ، والحجاز وهى البلاد التى زارها قبل ان يستقر فى القاهرة يعود الى : غزارة علمه ، وبلاغة قلمه ، وقوة حجته ، وفصاحة لسانه ، ولباقته فى الحديث الى مستمعيه مهما كانت درجاتهم الثقافية والاجتماعية · ولعل العامل الاهم فى هذا النجاح هو موهبته الخطابية الفذة ، فقد كان خطيبا بارعا كما هو معروف عنه فى الجزائر ، يهز المنابر هزا ، ويستولى على عقول وعواطف مستمعيه ، ويقنعهم بسهولة بعدالة القضية التى يدافع عنها وهى هنا قضية الشعب الجزائرى السياسية ، وقضية الشخصية العربية الاسلامية لهذا الشعب العربى المسلم · وحقه فى النصرة على اخوانه العرب ، ومكانة الجزائر فى عالم العربية والاسلام ـ كما كان يردد الشيخ فى خطبه واحاديثه وقد أصبح المثقفون بعد فترة وجيزة من مكوث الشيخ فى المشرق يلقبونه بامام المغرب العربى تارة ، وبعلامة المغرب العربى تارة أخرى ، وكان هو لا يرتاح كثيرا لهذه الالقاب التى يولع بها اخواننا المشارقة ولعا كبيرا ·

واذكر انه كان ذات مرة مدعوا للخطابة فى مهرجان كبير اقيم فى مركز الشبان المسلمين بالقاهرة

عن القضية الجـــــــزائرية . وقد قام بتقديمه الى الحاضرين المرحوم الدكتـور منصور فهمى فقال من جملة ما قال عند تقديمه : اقدم اليـــــكم « علامة ـ بالشدة ـ المغرب العربى محمد البشير الابراهيمى » ولما شرع الشيخ فى القاء خطابه الذى اثار حماسا كبيرا فى القاعة وقابله الجمهور بالتصفيق والهتاف بحياة الجزائر العربية المسلمة . واصل الشــــيخ كلامه فقال « لست علامة المغرب العربى ولكننى علامة ـ بدون شدة ـ المغرب العربى وهنا اشار الى عمامته الجزائرية التى على راسه ، كما اشار الى القشابية التلمسانية التى كان يلبسها ثم اضاف : وانا علامة ـ بدون شدة ـ رفع لا علامة خفض » وهنـــا دوت القاعة من جديد بالتصفيق الحاد المتواصل .

ولم يمض وقت طويل حتى اصبح يحتـــل مكانة رفيعة فى المجتمع وصار لا يقام مؤتمر او مهرجـان او اجتماع ذو اهمية الا ويدعى اليه اما كمحاضـر او خطيب . واما للاسترشاد برايه فيما يعرض فيه من مسائل وموضوعات .

« تاسيس ندوة الاصفيـاء »

وقد اسس بعد قدومه الى الشرق بقليل مع جماعة من الادباء والمفكرين العرب امثال المرحوم احمـــد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة » وكامل كيلانى الاديب المعروف ، وعلى الحومانى الشاعر اللبنانى المقيم بالقاهرة ، ومفيد الشوباشى الكاتب والناقد ، والحاج امين الحسينى ، والشيخ عبد اللطيف دراز وكيل جامع الازهر ، والعقيـــد « عبد الله التل » والدكتور « على عبد الواحد وافى » وغيـــرهم من رجالات الفكر والقلم ممن لم نذكر اسماءهم « ندوة » ادبية اجتماعية ، فلسفية ، دينية ، اطلقوا عليها اسم « ندوة الاصفياء » على غرار «جمعية اخوان الصفاء» المشهورة فى تاريخ الفلسفةالاسلامية وكانوا يعقدون اجتماعهم مرة كل أسبوع فى منزل أحد اعضـــاء الندوة بالليل يطرحون فيه موضوعا من الموضوعات التى تهم الفكر الاسلامى او قضايا ومشاكل الوطن العربى ، والعالم الاسلامى ، فيلقى فيه احد اعضـاء النـــدوة بحثا مفصلا ثم بعد انتهائه منه يتناوله الاعضاء بالمناقشة والتعليق العميقين ، وقد تطول هذه المناقشات حتى منتصف الليل .

وقد تمكنت من حضور عدد من هذه النـــدوات صحبة الشيخ البشير الابراهيمى فوجـــدتها ملتقى فكريا رفيعا للغاية ، فى شتى مجـــالات الفكر ، ولا غرابة فى ذلك فاعضاؤها كلهم ممن لهم قدم راسخة فى مجال من مجالات الثقافة أو العلم أو الادب أو الفـــن .

وقد نشر المرحوم الشاعر على الحومانى عضو الندوة وسكرتيرها كتابا تحت عنوان «الاصفياء» (٥) جمع فيه عددا من موضوعات النـــدوة ومن بينها موضوع للشيخ البشير الابراهيمى بعنوان « مشكلة العروبة فى الجزائر » .

« الشيخ البشير والبعثات العلمية الجزائرية الى الشرق العربى » :

ولم يكن هذا النشاط السياسى ، والاجتماعى ، والثقافى ، الذى انغمس فيه الشيخ البشـــير منذ وصوله الى الشرق العـــربى بصارف له عن المهمة الاساسية التى غادر الجزائر من اجلها الا وهى العمل على فتح ابواب معاهد التعليم المختلفة فى وجـــه الشباب الجزائرى المحروم من العلم والمعرفة باللغة القومية فى بلاده وقد كانت أول بعثة ارسلتها جمعية العلماء الى معاهد الشرق العـــربى توجهت الى

٥) نشر دار مصر للطباعة القاهرة سنة 1955 في حوال 500 صفحة

القـــــاهرة فى نـوفمبر ١٩٥١ قبل أن يســاهر هو اليها فى شهر مارس ١٩٥٢ وضمت هذه البعثة ١٦ طالبا فى البداية ثم ازداد عدد افرادها بعـــد وصوله الى القاهرة الى ٢٥ طالبا وطالبة واحدة (٦)

وكانت بعثات جمعية العلماء فى البداية قاصرة علىمصر وحدها حيث تمكنت جمعية العلماء بواسطة مكتبها بالقاهرة من الحصول على عدد من المنـح من الازهر ووزارة المعارف المصرية لابناء الجـزائر خلال عام ١٩٥١ والاعوام التالية له · وبعد رحلة الشيخ البشير الى الشرق العربى تمكن من الحصول على منح أخرى للطلبة الجـــزائريين فى كل من العراق (٧) وسوريا (٨) ، والكويت (٩) ، ثم المملكة العربية السعودية ، بعد قيام الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٤ ·

وكان المركز الرئيسى الذى يشرف منه الشـــيخ البشير الابراهيمى علىهذه البعثاتويصرف شؤونها يوجد مقره فىالقاهرة حيث يقيم هو فى معظم اوقات العام ، ولكنه كان يعين نائبا عنه خارج مصـــر من ابناء البلدان التى توجد فيها البعثة للاشراف عـلى افرادها من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ·

وكان بين وقت وآخر يقوم بزيارات للعـــراق ، وسوريا ، والكويت ، كي يتفقد بنفسه أحوال أعضاء البعثات ويتصل بالمسؤولين عن التربية والتعليم فى البلدان التى يزورهابقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين الذينتوفدهم الجمعية الى الشرق العربى من أجلالدراسة ويغتنم زياراته لتفقدالبعثات فيلقى على أعضائها المحاضـــــرات التوجيهية ، والارشادات العلمية والتربوية ·

أما أعضاء بعثة الجمعية بالقاهرة فقد كان يجتمع بنا مرة كل أسبوع فى مركز الجمعية الموجود بشارع شريف بالقاهرة ·

« عناية الابراهيمى بتكوين الشـــباب الجزائرى خلقيا وعلميا » :

أمران كان المرحومالشيخ البشير الابراهيمىيركز عليهما كثيرا فى تربية الشباب وتكوينهم واعدادهم لمواجهة أعباء الحياة العامة بكل ابعادها ـ الفردية والاجتماعية ، والوطنية هذان الامران هما :

أولا ـ الاخلاق ·

ثانيا : العلم بمعناه الواسع ـ اي علم الدين ، وعلم الدنيا معا ، فقد كان رجلا متنورا متفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصــــره ، يعيش همومه ، وينفعل بأحـــداثه وتطوراته · ولذلك كان رحمه الله يحثنا كثيرا على القراءة والمطالعة فى كل علم وكل فن ، وعدم الاقتصار على فن واحد ، واختصاص واحـد فقط فطالب العلم فى رأيه مثل النحلة ـ ترتشف من رحيق جميع الازهار كي تنتج عسلا مصفى وكذلك طالب العلم يجب الا يكون أفقه محدودا بنوع واحد من القراءة حتىيكون ابن عصره فى الثقافة والمعرفة

---

6) اعضاء البعثة الاولى لجمعية العلماء بمعاهد مصر هم : حسب تاريخ وصولهم الى القاهرة ـ تركى رابح ـ سعدى عثمان ـ سعد الدين نويوات ـ البشير كمبيس ـ يحيى خليفة ـ حسن محفوف التارزى الشرفى ـ المدنى بورزق ـ ارزقى صالحى محمد شيوخ ـ المبروك بن سعد ـ عيسى بوضياف ـ المنور مروش ـ محمد كسورى ـ احمد الدخيل ـ محمد الطاهر زعرورى ـ عبد الحميد بوذن ـ المدنى حواس ـ محمد التواتى ـ رشيد نجار ـ محمد الهادى حمادو ـ محيى الدين عميمور ـ جمال الدين بغدادى ـ الخضر صالحى ـ زوجة الخضر صالحى . انظر البصائر عدد 242 ـ السنة السادسة 13 مارس 1954

7) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاولى فى العراق ضمت احد عشر طالبا هم : مسعود محمد العباسى ـ المولود شرحبيل ـ رابح منصر ـ دودو ابو العيد ـ زروق موساوى ـ بشير كاشا ـ عبد المجيد بوذراع ـ جمعى المشرى ـ الاخضر بوطمين ـ عبد العزيز خليفة ـ عبد القادر قريصات ـ انظر البصائر عدد 262 السنة السادسة 12 مارس 1954

والفكر · وهذا لا يناقض التخصص فى نوع معين من الدراسات العلمية ـ وقد كان هو يقرأ فى سائر فروع العلوم الانسانية · ولم تنحصر قراءاته كمعظم علماء الدين الاسلامى أمثاله على الفقهيات وما يتصل بها من حديث ،وتفسير ، وسير وأدب ، وشىء قليل من التاريخ الاسلامى العام ·

كنت معه فى عدة مرات عندما كانت تهدى اليه الكتب ـ وكثيرا ما كانت تهدى اليه ـ من معارفه الكثيرين فى القاهرة وانحاء العالم العربى الاخرى انه لا يقل سروره وفرحته بالكتاب الجديد يهدى اليه مهما كان الموضوع الذى يعالجه ، ويقرأه بنفس العناية التى يقرأ بها كتابا آخر فى السيرة النبوية ، أو التشريع الاسلامى ، أو الادب العربى ، أوالفلسفة والاجتماع ·

اذكر انه عندما كان يجتمع بنا صباح يوم الجمعة من كل أسبوع فى مركز جمعية العلماء بالقاهرة أن أحاديثه الينا كانت فى معظمها تدور حول شيئين اثنين :

أولا ـ الثقافة العربية المحاربة من طرف فرنسا فى الجزائر · وواجبنا نحو احيائها وبعثها للوجود بعد انتهاء دراستنا ·

ثانيا ـ الوطن الجزائرى وما يعانيه من الاستعمار الفرنسى ، فى لغته ، ودينه ، وسيادته الوطنية · وواجبنا نحن فى العمل على تحريره من الاستعمار والنهوض به فى شتى الميادين ·

وقد كان كثير التذكير لنا بالاعباء التى تنتظرنا فى الوطن بعد عودتنا اليه · وكان يقول لنا ما معناه « انكم لن تستطيعوا ان تنفعوا وطنكم وأمتكم الا اذا ملكتم سلاحين هامين بدونهما لن تفلحوا فى الحياة ، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما ·

١ ـ الاخلاق القوية المتينة ·

٢ ـ العلم القوى المتين أيضا ·

وكان يحذرنا كثيرا من اللفظية ، والسطحية ، فى الدراسة والتحصيل ، ويطلب الينا العمق فى الفهم ، لكل ما نقرأ ، والنقد الموضوعى لكل ما نطالع ، ووجوب عرض افكار وآراء مؤلف الكتاب الذى نقرأه على عقولنا لغربلتها قبل التسليم بها · كما كان يحثنا على ان تكون المكتبات هي مكاننا المفضل للقراءة ، والبحث ، والمطالعة ، والتحصيل · وزيادة المعارف ·

وقد لاحظت ان الشيخ البشير كان عندما يتحدث الينا عن الاخلاق والعلم تكون لغته حارة نابعة من أعماق وجدانه ، تفيض بالحب والايمان والقوة فى كل جملة ، وكل عبارة من كلامه ، مما يدل على ايمانه العميق بدور الاخلاق والعلم فى نهضة الشعب وتحريره وبنائه على اسس سليمة ، اسمع اليه وهو يتحدث فى التقرير الادبى فى مؤتمر جمعية العلماء فى اكتوبر ١٩٥١ عن دور المدرسة التى تقوم جمعية العلماء بتشييدها فى الجزائر فى النهضة القومية الوطنية يقول : « ··· فالمدرسة هى جنة الدنيا ، والسجن هو نارها ·· والامة التى لا تبنى المدارس، تبنى لها السجون ، والامة التى لا تصنع الحياة · يصنع لها الموت ، والامة التى لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها ، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها ··· والامة التى لا تغضب للعز الذاهب ،

8) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاول فى سوريا : ضمت هذه البعثة عشرة طلاب هم : بلقاسم النعيمى ـ عبد السلام العربى ـ على الرياحى ـ عبد الرحمن شطيطح ـ العربى طرقان ـ مرتقى يقاش ـ عبد الرحمن زناقى ـ حنفى بن عيسى ـ محمد خمار ـ بنعبد الله ولد عوالى ـ جريدة البصائر المرجع السابق

9) اعضاء بعثة جمعية العلماء الاول للكويت : ضمت هذه البعثة اربعة عشر طالبا هم : محمد شريف سيسبان ـ صديق قثى ـ الجيلانى حمانى ـ خربيط محمد ناصرى ـ عبد الرحمن الازعر ـ أيوب الربيعى ـ حسن ونوس ـ صالح تلايلية ـ الهاشمى قدورى ـ الاخضر ادريس ـ محمد الصالح باوية ـ محمد العمرى ـ محمد الشريف جواد ـ عبد العزيز سعد ـ / البصائر / المرجع السابق .

ترضى بالذل الجليب ، والامة التي تتخذ الخلاف مركبا ، يغرقها في اللجة ، والامة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف ، مضيعة لرأس مالها ، والامة التي لا تجعل الاخلاق ملاكها ، امة تتعجل هلاكها ، والامة التي تلد لغيرها ، امة تلد العبيد لا امة تلد الاحرار الصناديد ، والامة التي تعتمد في حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة ، حقيقة بالقهر والنهر ، وقصم الظهر ـ ثم يقول : وألحياة بلا علم متاع مستعار ، والوطن بلا علم عورة مكشوفة ، ونهب مقسم ، سنة من سنن الله ، وكسنته في تكوير الليل على النهار · ثم يضيف « وان المدرسة هي طريق الحياة ، وطريق النجاة ، وطريق السعادة ، وان الوطن أمانة الاسلام في اعناقنا ، ووديعة العرب في ذممنا ، فمن بعض حقه علينا ان نحفظ دينه من الضياع ، وان نحفظ لسانه من الانحراف ، وان لا سبيل الى ذلك الا بالمدرسة التي تبنيها الامة بمالها ، وتحوطها برعايتها ، وتجعلها حصونا تقي ابناءها الانحلال الديني ، والانهيار الخلقي ، وتحفظهم من ترف الغنى ، وذل الفقر ، وتربيهم على الرجولة والقوة ، وتوحيد النزعات ، وتصحيح الفطرة ،وتقويم الألسنة ، وتمتين الارادات والعزائم ، وتغرس الفضيلة في نفوسهم وتصلح فيهم ما افسده المنزل ، والشارع ، وتروضهم على حب الوطن ، وبنائه طبقا عن طبق » (١٠) ··

وقد كان كثيرا ما يكرر على مسامعنا ان حياة طالب العلم مقسمة الى قسمين : حياة علمية وحياة عملية ، وكلتا الحياتين تتصلان ببعضهما أوثق الاتصال ، فاذا كانت حياة الطالب العلمية قوية ومتينة ، ومبنية على أسس سليمة ، كانت حياته العملية في ميدان الخدمة الوطنية العامة كذلك والعكس صحيح · وقد عبر عن هذه الفكرة تعبيرا بليغا في احدى افتتاحيات البصائر التي كتبها في عام ١٩٤٧ تحت عنوان « الى ابنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم » نقتطف منها الفقرات التالية لانها توضح هذه الفكرة توضيحا دقيقا يقول :

« يا ابناءنا ان الحياة قسمان : حياة علمية ، وحياة عملية ، وان الثانية منهما تنبيء عن الاولى قوة وضعفا وانتاجا وعقما ، وانكم لاتكونون اقوياء في العمل ، الا اذا كنتم اقوياء في العلم ، ولا تكونون اقوياء في العلم ، الا اذا انقطعتم له ، ووقفتم عليه الوقت كله ··· ثم يضيف ··· » انتم اليوم جنود العلم ، فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل ، فان الوطن يرجو ان يبني بكم جيلا قوى الاسر ، شديد العزائم ، سديد الآراء ، متين العلم ، متماسك الاجزاء ، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الآراء ، وهذا الفتور البادي على الاعمال وهذا الخمول المخيم على الافكار (١١) » ·

« نجاح جهود الابراهيمي في تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء » !

وقد أثمرت جهود الشيخ البشير الابراهيمي التي بذلها في تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء التي عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم في وجهها في مختلف البلدان العربية ، ورعاها ووجهها اثناء دراستها توجيها وطنيا سديدا حيث نجح ما يقرب من ٩٠٪ من افرادها في دراساتهم الثانوية والجامعية ، وعندما نشبت ثورة الفاتح من نوفمبر سنة ١٩٥٤ كانوا من جنودها وساهم عدد كبير من افرادها بفكرهم وثقافتهم في مختلف أجهزة الثورة ، وهم اليوم بعد الاستقلال يساهمون بفكرهم وثقافتهم في معركة البناء والتشييد الوطني · ونشاطهم يغطي اهم المجالات الوطنية ، كالاعلام ،والثقافة ، والتربية والتعليم ، والعدل والدبلوماسية ، والتدريس في الجامعات الوطنية الى غير ذلك من الميادين ·

10) جريدة البصائر ـ عدد ـ 172 ـ السنة الرابعة 19 اكتوبر 1951 ص 3

11) جريدة البصائر ـ عدد 9 السنة الاول ـ سلسلة ثانية ـ 13 اكتوبر 1947 ص 1

ولا شك ان الفضل فى تكوين هذه النخبة الممتازة من الشباب الجزائرى تكوينا عربيا واسلاميا ووطنيا انما يعود الى الشيخ البشير الابراهيمى ورفاقه من رجال الحركة الاصلاحية فى الجزائر الذين اعدوا هذا الجيل الذى نتحدث عنه الآن واجيالا أخرى عديدة سابقة عليه فى ظروف كانت من أصعب وأشد الظروف التى مرت بها الجزائر فى عهد الاحتلال الفرنسى . اعدوه من المراحل الابتدائية وواصلوا جهودهم فى اعداده حتىحصل البعض منه على اعلى الشهادات الجامعية فى مختلف الفروع العلمية . وبذلك ادوا للوطنوالشخصية الجزائرية خدمات جلى

« انتخاب الشيخ البشير عضوا فى مجمع اللغة العربية » :

وما دمنا نتحدث عن نشاط الشيخ البشير الابراهيمى فى الشرق العربى فيحسن بنا ان نشير فى ختام هذه الكلمة الى انه قد عرضت عليه عدة مناصبهامة فى مصر منها علىسبيل المثال « مشيخة جامع الازهر الشريف » ولكنه رفضها جميعا لانها تتعارض مع اهداف رحلته من الجزائر الى الشرق العربى ، ولم يقبل منها الا منصبا واحدا فقط لانه منصب علمى يتفق مع مكانته العلميةواللغوية ، وهو منصب عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى كان يعتز به اعتزازا كبيرا ، والمجمع المذكور كما هو معلوم يجمع زبدة رجال الفكر والعلم والثقافة فى الوطن العربى .

وقد انتخبه اعضاء المجمع بالاجماع كعضو مراسل للمجمع فى عام ١٩٥٤ ، وقد قام بتقديم مذكرة ترشيحه عضوا مراسلا للمجمع السادة : دكتور منصور فهمى ، ودكتور عبد الوهاب عزام ودكتور احمد امين ، والاستاذ احمد حسنالزيات ، وذلك « اعترافا بغزارة علمه ، وسعة حفظه ودقة فهمه لآداب العرب ، بجميع فنونها من شعر ، ونثر ، وامثال ، وايام وانساب ، وتاريخ (١) » وقد استمر عضوا مراسلا حتى عام ١٩٦١ حيث تمتعيينه عضوا كامل العضوية فى مجمع اللغةالعربية ممثلا للجزائر بالمجمع المذكور ضمن احد عشر عضوا عينوا من مختلف الاقطار العربية فى مجمع اللغة العربية فى ذلك العام (١٩٦١) وقد ناب عن الاعضاء الجدد فى الكلمة التىالقاها فىجلسة افتتاح الدورة الثامنة والعشرين من نفس العام للمجمع وقد قابله اعضاء المجمع بالترحيب الكبير ، وصفقوا له طويلا عندما قام يلقى كلمته باسم هؤلاء الاعضاء .

« الحنين الى الوطن » :

أصبح الشيخ بعد ان طالت غربته عن الوطن ـ وفيه الاهل والاولاد والاصدقاء ـ شديد الحنين اليه، كثير الذكر له ، وكنا عندما نجتمع به احيانا يكثر علينا من القاء الشعر الذى يتحدث عن الحنين الى الوطن والاهل ، وقد يتذكر امامنا اصدقاءه ورفقاءه فى جمعية العلماء ، ورحلاته عبر انحاء الوطن ، ويفيض علينا فى الحديث عن خصائص وعادات كل ناحية ورجالها حديث العارف الخبير ، وكان كثيرا ما يتمنى ان تطول به الحياة حتى يعود الى أرض الوطن الذى أحبه كثيرا ، وافنى زهرة شبابه فى خدمته ، وخدمة اجياله ، وفى بعض الاحيان يتوجه الى الله امامنا ويطلب منه ان يلقاه اجله فى الجزائر لا فى غيرها من البلدان الاخرى ، وقد عبر عن هذه الامنية فى افتتاحيةهامة بعث بها الىجريدة البصائر من القاهرة فى عام ١٩٥٣ تحت عنوان « تحية غائب كالآيب » ختمها بقوله :

« خطت الاقدار فى صحيفتى ان افتح عينى عليك وأنت موثقة ، فهل فى غيب الاقدار أن أغمض عينى فيك وأنت مطلقة ؟ وكتبت الاقدار علي أن لا أملك من ارضك شبرا . فهل تكتب لي أن أحوز فى ثراك قبرا ؟» وقد استجاب الله لدعائه فامد فى اجله حتى رأى وطنه الغالى حرا طليقا وقد عاد اليه فى أواخر سنة ١٩٦٢ بعد انتصار الثورة ورحيل الاستعمار من الجزائر وعاش فيه ثلاث سنوات التقى فيها برفاق جهاده واجتمع فيها بالاهل والولد ، واتصل به تلامذته الكثيرون من جميع جهات الوطن قبل ان يتوفاه الله اليه فى ١٩ مايو ١٩٦٥ « وهكذا يموت العظماء فلا يندثر منهم الا العنصر الترابى الذى يرجع الى أصله ، وتبقى معانيهم الحية فى الارض قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدى ، وعطرا ينعش » رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والعروبة والوطن خيرا كثيرا . »

---

12) جريدة البصائر ـ عدد 262 ـ السنة السادسة ـ 12 مارس 1954 ص 1

العربي التبسي

والنهضة العلميّة بالجزائر

أحمد بن ذياب



لا اعرف ـ بعد ابن باديس والميلي ـ مدرسا اجاد وافاد اكثر مما اجاد وافاد الشهيد العظيم الاستاذ العربى التبسى .

ولا أعرف رجلا احب تلاميذه الحب كله ، واخلص لهم الاخلاص جميعه ، وخلطهم بنفسه كانهم منه ، وكانه منهم ، مثلما عرفت الاستاذ العربى التبسى .

ولا اعرف رجلا يحدثك فتحس فى حديثه كيانه العام يتحدث اليك ، ووجوده الشامل يخاطبك ، ووجدانه العاطفى ، واحساسه الشاعر ، وعقله الواعى متآلفة ، متكافلة تناجيك ، حتى لكان الرجل فرقة من جنود الله هبت مسرعة اليك لتهديك الصراط السوى ، او لتنجيك من ويلات العواصف الهوج ، او تاخذ بيدك كيلا تتخطفك شياطين الظلمات فى البحر اللجى مثلما عهدت وعرفت فى الشيخ العربى .

تلك هي الملامح الاولى التي يمكن ان نهتدي من خلالها الى روح ذلك الرجل الذي أمضى نحوا من ثلاثين سنة : ينشر العلم ، ويبث الاصلاح ، ويدعو الى النضال الجاد المستميت ؛ لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، واعلاء كلمته ، وخدمة العروبة والاسلام في الوطن الجزائري الحبيب .

عرف التعليم المدرسي كفاءة الشيخ العربي — اول ما عرفها — في مدينة « سيق » حيث استدعي الى تأدية واجبه هنالك — في أخريات العقد الثالث من هذا القرن — فقام بالمهمة خير قيام ، وخلت مساعيه هنالك آثارا حميدة مشكورة ، وكون له تلاميذ ما يزالون يعملون في الحقل العلمي أو الاجتماعي ، وهم يحملون له أطيب الذكريات ، ويقدرون فيه الرجل المعلم ، أو المعلم الرجل الذي عرف كيف يأخذ بأيديهم الى النور ، ويعترفون له بالفضل الجم ، والايادي البيضاء ، على انه الى جانب التعليم المدرسي صاحب رسالة ، وحامل أمانة في التعليم المسجدي مما أحيا العهد السلفي الاول ، وذكر بأولئك الفطاحل الصناديد من أمثال الابي شارح صحيح مسلم ، والقاضي عياض ، في تشقيق فن التحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيين سنته ، والعربي التبسي هو الجزائري الذي اشتهر — في هذا العصر — بانه يحفظ أكثر من عشرة آلاف حديث من خيار الاحاديث الصحيحة أو الحسنة أو المستحسنة من كلام سيد الاولين والآخرين صلى الله عليه وسلم .

كما انه في الدروس التي تتصل بالقرآن وتفسير محكم آياته ، وتأويل المتشابهات منه ، عالم فحل ، ومجتهد له آراؤه الساطعة ، وتخريجاته القيمة ، ونظرياته العبقرية .

أما الفقه في الحلال والحرام — وما اتصل بهما — فحدث عن البحر ولا حرج — كما يقول المثل العربي —

من سيق الى تبسة

ومن سيق الى تبسة حيث عمل ما استطاع مستعينا بمكانته من قومه في مطلع العقد الرابع ، وكانت شهرته قد طارت في الآفاق ، وخبرته بمجتمعه قد توسعت أرجاؤها ، وايمانه بمستقبله في وطنه — أو مستقبل وطنه به — قد ظهرت معالمه الاولى فاسس مدرسة ، وبنى الى جوارها مسجدا جامعا ، واصبح يعمل ليل نهار ؛ يربي الآباء في المسجد ، ويكون الابناء في المدرسة ، ويكون — بين ذاك — في كل منزل نقاش حول ما تلقاه الاب ، وما تعلمه الابن فيعطي الكبير للصغير — ويتلقى منه في الوقت نفسه — وظل العربي التبسي في تبسة وضواحيها أكثر من مرب حكيم ، وأكبر من عالم اجتماعي ينشد الاصلاح ، واعظم من زعيم روحي خلاق . ولم يكن النشاط الفائض في ذلك الرجل ليقصر جهوده على المسجد والمدرسة ؛ دون الاهتمام بالنادي ، وما تجيش به رحابه من نفوس شابة ، وعقول فتية ، ومدارك حية متطلعة الى تفهم حقائق القومية الجزائرية الخاصة ومنابع نهضة العروبة عامة ، فكان له في تبسة الاثر العظيم الخالد مما رفع تبسة وضواحيها الى مصاف معاقل العروبة والاسلام في هذه الديار

وطارت تبسة بفضل بنيها الميامين من خريجي

مدرسة الشيخ العربى موزعة فى الوطن الجزائرى كله اعمالا ناجحة ، وافكارا نيرة وعقولا واعيـــة وآمالا واسعة،ونبوغا خلاقا ، وعبقريات جريئة هنا وهناك.

ومن الانصاف ـ هنا ـ أن نقول : ان أهم ميزة للمدرسة التبسية هذا التشبع بالروح الوطنيةـ ، والاعتداد بالنفس ، والثقة بالكفاءة ، وهى صفـات قلما توجد متكاملة مثلما توجد فى تلاميذ ابن باديس وتلاميذ الشيخ مبارك ، وتلاميذ العربى التبسى دون ان نغمط خصائص المدارس الاخرى ، أو ننقصها حقها من التجلة والاحتـــرام .

جهود الشيخ العربى فى جمعية العلماء :

وتتصل الايام متلاحقة ، وتتواصل الجهـــــود متساندة ، وتؤسس جمعية العلماء ويكون المرحوم الشهيد الشيخ العربى من أركانها الشديدة ، أو من المؤسسين الاولين ، ويبقى وفيا لمبادئها الوفاء المثل الافضل ؛ يخرج فى وفودها العظيمة للوعظ والارشاد ، وتأسيس مدارس العلم ، ومساجد العبادة والاصـــلاح ، ونوادى الادب والفـــن ، ويكتب فى جرائدها ، ويشارك فى مخططاتها ، ويصدر فتاويه الصريحة الخطيرة فى الشؤون التى تتصل احيـانا بالحكومة الاستعمارية فلا يبالى العواقب ، ولا يخشى فى الله سيف ظلام غشوم ولا غضب سلطان جائر .

وتاتى الحرب العالمية ، ويجبر على الاقامة فى تبسة ، ويتعرض الكثير من أبنائه الروحيين واخوانه المخلصين ، وتلاميذه الاوفياء للسجن والنفـــى ، والحجز الاجبارى ، وتتوقف الحركة الجماعية لجمعية العلماء ، ثم يستشهد المرحوم ابن باديس فى حين ان الابراهيـــمى يعانى المنفى والمرض والمضايقات الوحشية فى الصحراء الباردة بمدينة «آفلو» ويخشى أن تتعطل اهم رسالة للشيـــخ ابن باديـــس ، وهى تفرغه لتعليم أبناء الوطن ، من شرقه الى غربــه ، ومن شماله الى جنوبه فى «الجامع الاخضر» و «سيدى قموش» وهى المخاولة التى كانت ترمى الى أن تكون الجزائر كشقيقتيها تونس والمغرب الاقصى ، ذات معهد علمى معمور ، مثل الزيتونة والقرويين ، وقـد سار ابن باديس فعلا ـ فى هذا الميدان ـ أشواطا بعيدة ، فاذا استشهد ابن باديس وهو يؤدى واجبه العلمى ، ورسالته الاصلاحية ، أو مات ميتة الرجال الابطال واقفين مع الحق ناصرين للمبادى السامية ، عاملين مخلصين غير وكلين ولا متخاذلين واحتاجت الامة الى من ينوب منابه فى تادية رسالة الجـامع الاخضر وسيدى قموش فان الاقرب والاشد اتصالا به هو تلميذه وصفيه المرحوم الشيخ مبــــارك الميلى ، ولكنه ماكاد ينتهى عام 1940 الدراسى حتى تبين أن المرض العضال الذى كان يعانى منه الشيخ مبارك يجعل قيامه بما كان يقوم به ابن باديـس مستحيلا ، أو فى حكم المستحيل فمن الذى ترشحه الامة للقيام مقام ابن باديس ؟

تبسة تتحـول الى قبلة للعلـــم :

تحولت الانظار الى الشيخ العربى وانصاره من تلاميذه ، ولم يكن فى الامكان ان يفر الشيخ العربى عن مشاريعه فى تبسة ، ولم يكن شعبها ليستطيـع الاستغناء عنه ، ولم تكن ظروف الحرب نفسهـــا لتساعد على انتقاله الى قسنطينة ـ رغم أن فرنســا قد غلبت على أمرها ، واصبحت خاضعة ، تحت حكم

«الماريشال بيتان» الى ضغط «المحور» وقطبه المانيا النـــازية ـ

وهكذا تحولت تبسة بفضل وجود الشيخ العربي فيها الى « قبلة ثانية » لطلاب العلم ، وعشاق الادب ورواد الاصلاح الديني الحنيف ، وأعلن في الجزائر أن تبسة ومدرستها ، وجامعها ، ورحابها ، هـــي قسنطينة أمس من حيث العلم ، وان الشيخ العربي هو خليفة ابن باديس في هذا الميدان .

وقام بالمهمة ، وبرهن على أنه خير خلف لخـير سلف ، فازدادت الجزائر به خبرة ، وازداد هـــو خبرة بأبنائها ، وخرج الشيخ العربي عن النطـــاق الخاص في تعليم أبناء تبسة وضواحيها الى النطاق العام ؛ لتقبل أبناء الجزائر من مختلف مدنه وقراه الذين أموه من كل حدب وصوب ؛ يفدون عليـــه عطاشا يريدون الرى العقلي والادبي والخلقي فيبل غلتهم ويشفى ظمأهم : يتعلمون منه العلم ، ويقتبسون من سيرته الخلق ، ويقلدونه في الوطنية الـــتي تستوعب القيم العالية ، والشيم الكريمة ، ويـأتي اليهم ذووهم للزيارة ، أو للاستطلاع ، أو للعيـادة فيستقبلهم الشيخ العربي ، فيزودهم بنصائحه ، ويحل مشاكلهم بآرائه ، ويصحح دينهم بفتاويه .

فاذا انتهت السنة الدراسية ، أو حان موعد عطلة موسمية زود تلاميذه بما شاءت له تجاربه في الحقل العملي لصالح الوطن ، واقنعهم بما يجب أن يبثـوه من عوامل التوعية في قراهم ومداشرهم ، وأرشدهم الى الطرائق المثلى التي يمكن ان تعود بالنفع العاجل والتمهيد للآجل ، من صالحات الاعمال ، وطيبـات الاقوال .

وتمضي الايام وهو يؤدي رسالته العلميـــــة والتعليمية والاصلاحية صلبا في الحق ، قويا في العزيمة ، عنـودا في مقاومة الطغيان الاستعماري ، لكنه شفوق على أبنائه وتلاميذه ، رؤوف باخوانـه ومعاونيه ، حدب على مصالح أمته ووطنه ، وثـــوق بدينه وربه ، وأن العاقبة للمتقـين .

مكيـدة الثامن مـاي 1945 :

وتاتي مكيدة الثامن من ماي 1945 فيكون نصيبه السجن المضيق ، والاستنطاق العنيف ، والنـكال الشديد ، ويحفظه الله من شر أعدائه وكيـــد الظالمين الماكرين مصداقا لقوله تعالى في الآيـــة الكريمة « ولا يحيق المكر السيىء الا بأهله » .

وتاتي سنة 1946 فيكون ما سماه الاستعمـــار «بالعفو العام» بالنسبة للابرياء الذين كان ظلمهـم فزج بهم في سجونه أو أبعدهم في معتقلاته ومنافيه وكان الواجب أن يحرق ـ أو يمزق ـ أولئك المجرمين الحقيقيين مدبري المكيدة من أمثال الظالم العنصري الحقود ـ كاربونال ـ عامل عمالة قسنطينة يومئذ وشريكه المجرم السفاح ـ لاشياري ـ رئيس دائرة قالمة ، ومن لف لفهما من الطغاة الجناة في سطيف وخراطة وعموشة ، أولئك الذين ستظـــل أرواح الشهداء الخمسة والاربعين الفا تطاردهم أحيـــاء وأمـــواتا .

اما الذي لا شك فيه أن تلك المجازر قـــد أثرت في الشيخ العربي وصحبه أيما تاثير ، ونالت من قلبه العطوف الشفوق ، ولكنها لم تنل من ايمانه ولم تقلل من حزمه ، ولم تفل من حدة لسانه في التنديد باعمال الاستعمار ، وطغيان أساطينـــه ،

وما يتجرءون عليه من اقتراف الفظائع ، ويرتكبونه من حماقات فى اختراع الفواجع .

وتتهيأ الفرصة لجمعية العلماء فتجدد نفسها فى خريف سنة 1946 فيكون الشيخ العربى هو الرئيس الثانى لها ، ويكون مؤتمر المعلمين على هامشها فيشرف عليه ويسيره ويساهم فى توجيهه بمناقشاته الهادفة دفاعا عن القرآن وحظه من الوقت فى المدرسة الحديثة ، وتخصيص رجال مقتدرين لتعليمه ، حتى تكون منه الخلق القويم للتلميذ ، ونوسع من تراثه اللغوى بمفرداته ، ونعوده محاكاة القوة فى أسلوبه، ونمكنه من فهم أسرار فصاحته وبلاغته ، وسلطان اعجازه فيكون له أثره ، وتتكون « النواة الاولى » للمدرسة الموحدة ، قوية من خلال ذلك المؤتمر ، وتنفتح أبواب الخير أمام الامة مبشرة بالمستقبل السعيد بفضل توحيد البرامج ، وتقريب المشارب ، وتلاقح الافكار ، وتعيين مفتشين ، وخلق ما يشبه أن يكون «أكاديمية» حرة للتعليم العربى القومى بهذه الربوع فتأخذ تؤدى رسالتها ، وتعطى ثمراتها اليانعة ، وتمهد للثورة المتوقعة ـ فى الفرصة المناسبة ـ .

الشيخ العربى وادارة المعهد :

وفى ربيع سنة 1947 تنهض الامة بتأسيس معهد ابن باديس تحت اشراف جمعية العلماء ، أو تؤسسه جمعية العلماء بمعونة الامة ويكون كل من اسم عبد الحميد بن باديس ، وموقعه بقسنطينة ، وانتخاب الشيخ العربى لادارته من بين المبشرات بنجاحه ، وفى هذه المرة يغلب الشيخ العربى على أمره ، أو يبلغ به ايمانه بالمصلحة العليا » أن يقبل فيغادر تبسة » وقد أصبح جنوده فيها قادة أكفاء ، ومربين نصحاء ، ومديرين مقتدرين ، وتكشف الايام منه فى المعهد عن رجل آخر فى سير النهضة العام ، ونشاط الامة الدائب ، وتسيير أكبر مؤسسة علمية ثانوية للامة الجزائرية .

وقد كان أبناء الامة ـ قبل المعهد ـ لا يستطيعون أن يستكملوا تعلمهم الثانوى الا بضروب من الاغتراب الشاق الى تونس ، أو العالم العربى شرقا ، أو الى القرويين بفاس غربا .

ونجح الاستاذ العربى التبسى فى ادارة المعهد نجاحا منقطع النظير يشهد له بذلك ما سجله الاستاذ العلامة محمد البشير الابراهيمى فى مقال قيم نشرته «البصائر» فى عددها الصادر فى 26 يولية 1948 ـ وهو عدد خاص بنشاطات المعهد ونظمه ـ جاء فيه ما يلى :

« والاستاذ التبسى ـ كما شهد الاختبار ، وصدقت التجربة ـ مدير بارع ومرب كامل خرجته الكليتان: الزيتونة والازهر فى العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية فى التدين الصحيح ، والاخلاق المتينة ، واعانه ذكاؤه والمعيته على فهم النفوس ، واعانته عفته ونزاهته على التزام الصدق ، والتصلب فى الحق ، وان اغضب جميع الناس ، والزمته وطنيته الصادقة بالذوبان فى الامة والانقطاع لخدمتها بانفع الاعمال ، واعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار فى جميع مظاهره **فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة برجل منه يملأ جوامع الدين ، ومجامع العلم ، ومحافل الادب ،**

ومجالس الجمعيات ونوادى السياسة ومكاتب الادارات ومعاهد التربية » .

تلك هى شهادة المرحوم **البشير الابراهيمى** فى صفيه وعضده الايمن ، وخليفته فى رئاسة جمعية العلماء من حيث المكانة العلمية والمنزلة الادبية الممتازة ، ومن حيث الرجولة العاملة ، والمؤهلات الموهوبة والمكتسبة ، أما حين يتحدث عنه فى الجانب العلمى فانه يقول :

« والاستاذ التبسى يتساهل فى حقوقه الادبية الى درجة التنازل والتضييع ولا يتنازل ـ أو يتساهل ـ فى فتيل من النظام ، أو الوقت ، أو الاخلاق ، أو الحدود المرسومة» . (نفس عدد البصائر المذكور) (1)

أيها القراء الكرام ، ان رجلا تكون هذه هى الصفات التى يتحلى بها ، وتلك هى المكانة العلمية التى يتبوؤها ، وذلك هو النشاط الدائب الذى لازمه طيلة ثلاثين سنة لا يستطيع أى احد أن يقدر مدى ما امكن ان يتخرج على يديه من رجال ويتفتح بفضل توجيهاته من عبقريات .

مسؤوليات جديدة :

ويغادر **محمد البشير الابراهيمى** هذه الديار فى الاشهر الاولى من سنة 1952 الى فرنسا أولا ، ثم الى الشرق ثانيا فتصبح رئاسة جمعية العلماء ملقاة كلها على كاهله بما فيها من مشاكل ، ويتبعها من مسؤوليات ، ويؤمل معها من خير للامة ، فينوء بكل ذلك فى سعة أفق ، وضلاعة تحمل ، ويقين ايمان ، وعزيمة صبر ، ويمضى قدما بمشاريعها كلها جياشة حية ، وعاملة مثمرة ، ونضالية دائبة .

وتأتى قضية تكوين الجبهة ـ جبهة التحرير الوطنى استعدادا للثورة فتكون له المواقف المشرفة والمساعى الحميدة ، ويعلن فى ربيع سنة 1954 فى مقال رنان « بأن كل مطالب جمعية العلماء حول حرية التعليم العربى ، وحرية المساجد بما لها من أوقاف ، وحول حرية القول وحرية الصحافة ، وحول القضاء الاسلامى وما ينبغى أن يكون عليه من علم ، وصلوحية ، وتوثيق ، وتعديل وجرح واصلاح قانون وغيرها من مشمولات الشخصية الاسلامية للجزائرى لم تعد مطالب جمعية العلماء ، وانما أصبحت جزءا من قضية الامة الجزائرية ، عامة ، ولم يعد للجمعية أى حق فى التفاهم مع فرنسا ، أو ممثليها فى الجزائر الا بالقدر الذى تتكلم فيه مع من يتكلم باسم الجزائر فيما تريد لها من حق فى الاستقلال والحرية وتقرير المصير » .

موقفه من الثورة المباركة :

وذهب فى خريف تلك السنة لاداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام.فقضاها ليعود من هناك فيخبرنا عما رأى وسمع وتناول من موضوعات الساعة سواء مع أبناء الجزائر فى الشرق العربى ، أو مع زعماء العرب ورؤسائه انفسهم ، ونقل الينا فى جملة ما نقل : «ان القوم يرون وجوب الخيار بين اثنين : اما الثورة والكفاح المسلح واما الاعلان ـ مع

1) البصائر عدد 26 يوليه سنة 1948 كما سبقت الاشارة اليه

الاستعمار ـ بان الجزائر «غربية» ليست عربية ولا اسلامية، لان العروبة يأبى لها شممها الخنوع ، ويستكنف بنوها من الخضوع . والحياة عندهم تقول «النار ولا العار» ولان الاسلام تنص آياته الكريمة بالبلاغة الصارخة فى سورة النساء « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**» وعليه فالثورة هى الحل الوحيد الذى لا اختيار للجزائر فى غيرها»

ثم يمضى فيقول «» وعما قريب ستتمخض الأيام عن مولود جديد »»

وما يكاد يطلع فجر غرة نوفمبر من سنة 1954 حتى ظهر المولود المبارك وهلل كل جزائرى صميم للثورة المندلعة . وتمضى الجزائر قدما فى نضالها البطولى المجيد ، والشيخ العربى لا يفتر عن الدعوة العلنية لحق الثوار على الشعب ، وما يجب أن يكون عليه من يقظة وحزم وتحمل .

ولعل من حق التاريخ ان أسجل هنا ان آخر لقاء لى به كان خلال عطلة يناير سنة 1957 ، وكان مدعوا وبعض اخوانه وتلاميذه الى تناول الغداء بحى الابيار فى الجزائر . وكان الداعى أسرة تنتسب «لاولاد رداج» ويومها تعرض لقضية الثورة فى جمهور الحاضرين فقال ما معناه :

« انقلوا عنى ، وبلغوا كل من لقيتم ممن تعرفون أن كل «هجرة» من الوطن الى خارجه تعتبر مروقا من الدين ، وخيانة للوطن ؛ ما لم تكن «فى مهمة كلفت بها «جبهة التحرير» .

وكل من خالف يعتبر من مشمولات الآية الكريمة التى جاء فيها « **ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله . ومأواه جهنم وبئس المصير** » .

وبكلمة موجزة أقول : ان حق المرحوم الشهيد العربى التبسى الذى اغتيل ليلة الرابع من شهر افريل سنة 1957 ، على المثقفين الجزائريين عامة وتلاميذه واخوانه خاصة حق عظيم ، وان مآثره لاكثر من ان يحيط بها قلم كاتب ـ مهما كانت مكانته ـ لذلك نسأل الله جميعا أن يقيض له أقلاما متينة سيالة تتناول حياته فى مختلف مراحلها ، ونشاطاته فى ميادين العلم والعمل ، وصراحته فى الحق ، وجرأته على مقاومة الاستعمار ، ثم ما كان منه من مواقف جليلة حازمة لصالح الثورة ، وصالح الجزائر ، وصالح العروبة ، وصالح الاسلام .

تغمده الله برحمته ورضوانه ، وشكر له مساعيه العظيمة ، وجازاه بها احسن الجزاء واكرمه واوفاه .

كلمـــــات

... وكتب Casette في قسنطينة يقول : « من العجب ان لم نتفطن حتى لهذا الوقت لأهمية تعليم الشباب . وفى نفس الوقت كتب Mercier Lacombe الكاتب العام للولاية العامة يقول : « فى الوقت الحاضر يجرى تعليم الشعب العربى الجزائرى خارج تأثيرنا ، والمعلمون الذين يمارسون هذا التعليم لـم يأخذوا منا شيئا من الافكار وهم خارجون عن رقابتنا ، فكيف نعول عليهم لكى يدخلوا الى عقول تلاميذهم أفكارا تحبذ حضورنا حتى يكون الجيـــل الناشىء أقل عداء لنا من الجيل الذى قبله » وفى الوقت نفسه كتب Lacombe يقول : «ان الجيل الناشىء يكبر اليوم امام ابصارنا ويتلقى منذ صباه دروسـا فى الحقد علينا . انه لا يجدر بنا أن نترك أكبر المتعصبين ينشرون أفكارهـم المعادية لنا فى هذه الاجيال الناشئة التى يجب أن نكسبها نحن.ذلك ان الجيل الذى يربونه لا يقبل سيطرتنا الا بألم ، فانه لا يجوز لنا أن نترك الجيل الجديد ينشأ على نفس الاحقاد ضدنا اننا لا نستطيع ان نبقى وجودنا فى هذه البلاد وجودا عدائيا الى الابد . ولكن لا يوجد أى شىء يدل على اننا نعطى لهـــذه القضية ما تستحق من اهتمام » اى ان التعليم هو الذى يحفظ استمرار هـــذا الوجود » ان المعلمين الذين شحنوا بحقد لا يتزحزح ضد المسيحيين سيبذلون دائما جهدهم ليبقوا الجيل الناشىء بعيدا عنا مع ان هذا الشباب هو وحـــده الذى نعول عليه فى بقـائنا ، (109) ولكن المشكلـة هى أن هؤلاء المعلمين يستمدون كل سلاحهم ضدنا من التعاليم الدينية .

من كتاب المجابهات الثقافية فى الجزائر المستعمرة ـ للدكتورة تورين

• أضواء على تاريخ الجزائر فى العهد التركى •

من خلال مخطوط

الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى



•

المهدى البوعبدلى

هذا التاليف الذى نقدمه اليوم للقراء هو من التآليف النادرة القيمة التى تميط اللثام عن جوانب كثيرة من **تاريخ الجزائر فى العهد التركى الذى مازال يكتنفه الغموض** .

اعتنى كثير من الباحثين بدراسة هذه الفترة من تاريخ الجزائر الا ان جلهم اعتمدوا على ما كتبه المستشرقون أو ترجموه من المصادر العربية .

ان أكثر المستشرقين اهتماما بتاريخ العهد التركى هم الاسبان اذ خصصوا مئات التآليف لهذا العهد ومازالت خزائن الوثائق فى اسبانيا مملوءة بها وقد نشر الكاتب الاسبانى رودريقيز ماران (I) RODRIGUEZ MARIN فهرسا لهذه الوثائق يحتوى على 900 تسعمائة صفحة .

(1)Rodriguez Marin : Guia historica y descriptiva de los (1) archives, bibliotéchas y muscos arqucologicos de Espana : archios historicos Madrid (surprenta de la Bovista de archios 1916 nº 827 p.

كما اعتنى كثير من المؤرخين والرحالين والتجار والقسيسين من مختلف الاجناس بتدوين مذكرات انطباعاتهم للمدة التى اقاموها بالجزائر ، ثم ظهرت بعد ذلك تآليف أخرى خصوصا بعد الاحتلال الفرنسى – 1830 – جل أصحابها من الفرنسيين اعتنوا بالمصادر العربية فترجموا معظمها أو لخصوه وساعدهم على مهمتهم استحواذهم على كثير من بقايا التراث فدرسوها فى المؤتمرات العلمية بعد أن حققوها ونشروا نتائج بحوثهم فى سجلات تلك المؤتمرات ، وفى المجلات الخاصة لهذ النوع من الدراسات ، كالمجلة الافريقية التى كانت تصدر بالجزائر ، والمجلة الاسيوية التى تصدر بباريز فأحيوا فيها كثيرا من الآثار التاريخية التى اكتشفوها فى بعض الخزائن العامة والخاصة وبعثوها من مرقدها .

هذا واننا وان كنا نعترف بالفضل لبعض هؤلاء الكتاب على ما بذلوه من جهود فى سبيل المحافظة على تراثنا وأحيائه ، وعلى ما استفدناه من بحوثهم ، فاننا نلاحظ ، انه ان كان الهدف للكثير منهم البحث العلمى النزيه ، فان الآخرين شوهوا الحقائق بعضهم جهلا والبعض الآخر عمدا ، جريا على ما كانت تتطلبه المصالح الاستعمارية ، او التعصب العقائدى ، وقد وصل الكثير منهم الى أهدافهم حيث بذروا الشك فى عقول كثير من المواطنين ، ولقنوا حقائق تاريخية، اقل ما يقال فيها انها مشوهة ، ولهذا فنحن فى أشد الحاجة الى اعادة النظر فى البحث عن ماضينا ، والى معرفتنا ، والى معرفتنا بقيمنا الحقيقية ، والاعتناء بدراسة هذا الماضى دراسة علمية دقيقة ، مجردة عن الاغراض والارتجال ، وهذا يتوقف قبل كل شىء على جمع الوثائق المختلفة لذلك العهد ، ودرسها من جديد ، وتقديمها للقراء حتى يتسنى للخلف أن يعرفوا حقائق ماضى البلاد بصورة واضحة وان يطلعوا على المشاكل التى واجهت السلف وتغلب عليها أو تغلبت عليه ، ولهذا يشترط فى الباحث أن يتحرى الصدق فى النقل ، وان لا يتسرع بالتصرف فى النصوص او بالحكم على الاحداث حسبما تمليه عليه الاهواء أو التيارات الفكرية ، فيؤول النصوص ، أو يلفق منها ما يؤيد به رأيه ، أو مذهبه فى الظروف التى فيها ، اذ لا تخلو من تيارات أو مذاهب تجتاح المرة بعد المرة البلاد ، فيندفع الرأى العام على غير هدى وروية ، ثم لا تلبث أن تهدأ فورتها ، فتخبو وتنطفى، ولهذا قيل ان المؤرخ ينبغى له أن يكون أمينا كالفنان المصور ، كما يشترط فى الباحث أن لا يحكم على احداث الماضى بمقاييس ومناظر العصر الحاضر ، فمثلا ان الوطنية الضيقة الحدود ، كانت مجهولة اذ ذاك فى كثير من بلاد الاسلام حيث كان المسلم أينما حل فهو فى بلاده ووطنه ، وبهذه النظرة يمكننا أن نتصور عهد الحروب التى كانت متواصلة بين ملوك بنى زيان، ملوك تلمسان ، وبين بنى مرين ، ملوك المغرب ، ثم بينهم وبين ملوك بنى حفص ملوك تونس ، وكان الجزائريون ، كثيرا ما ينتصرون للمرينيين ولبنى حفص على ملوك بلادهم بنى زيان .

ان أثر الاحتلال الاسبانى للجزائر الذى اعقبه الاحتلال التركى ، ومقاومة البلاد طيلة قرون ، شحذ قرائح الكتاب الجزائريين وجعلهم يهتمون بالاحداث التى اجتازتها البلاد ، فالفوا تآليف كثيرة لها أهمية خصوصا بعد انتصاراتهم على الاسبان ، وطردهم

من وهران ، التي دام احتلالهم لها ما يقرب من ثلاثة قرون ، اذ احتلها الاسبان سنة 914 هـ وأخرجوا منها سنة 1119 هـ ثم استرجعوها سنة 1144 هـ وبقوا بها ربع قرن ، الى أن أخرجوا منها نهائيا سنة 1206 هـ على يد الباى محمد بن عثمان الكبير الكردي – باى الولاية الوهرانية – فعندئذ تسابق الكتاب والشعراء الى تخصيص هذا الفتح بعدة تآليف ، كما سبق أن خصص سلفهم للفتح الاول الذى وقع سنة 1119 هـ في عهد محمد بكداش باشا الجزائر وخليفته مصطفى بوشلاغم باى الولاية الوهرانية اذ خصصوا الفتح الاول بعدة تآليف وملاحم وقصائد وصلنا منها ما جمعه العالم الاديب محمد بن ميمون الجزائرى وسماه : « التحفة المرضية فى الدولة البكداشية فى بلاد الجزائر المحمية » (1) والذى ترجم فيه للباشا الفاتح وكتاب « بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الاعراب كبنى عامر » للشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفى نصه للمتعاونين مع العدو وبعد أن بين أصول القبائل المتعاونة وفصولها تعرض لحكم الله فيها ثم شرح « أرجوزة الحلفاوى » للرحالة عبد الرحمن الجامعى الفاسى صاحب الرحلة المشهورة الذى ساهم المهنئين للباشا بكداش فى الفتح بقصيدة بليغة ذكرها صاحب « التحفة المرضية » أما الكتاب الذين خصصوا تآليفهم للفتح الثانى والاخير الذى وقع على يد محمد بن عثمان ، فهم المؤرخ محمد أبوراس الناصرى فى تأليفه « عجائب الاسفار ولطائف الاخبار » ، ومحمد المصطفى بن عبد الله بن زرقة الدحاوى فى «الرحلة القمرية فى السيرة المحمدية» وأحمد بن سحنون فى « الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى » موضوع مقدمتنا هذه وهو كما ذكرنا من اهم وانفس ما ألف فى ذلك العهد اذ هو عبارة عن مذكرات دونها مؤلفها الذى كان يعيش فى بلاط الباى وكان ملازما لولده ولى عهده وسنتعرض للحديث عن التآليف بتفصيل فى آخر هذا التقديم .

كانت هذه الحرب المشهورة بحرب الاسبان حربا صليبية تجددت فى شمال المغرب الاقصى حيث هاجم الاسبان والبرتغال شواطىء المغرب ، وسقطت بعض مدنه الساحلية كسبتة ، سنة 817 هـ والقصر الصغير سنة 862 هـ ثم تطوان وطنجة ومليلة وبعد سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين بالاندلس سنة 897هـ صفا الجو للاسبان وأدت بهم نشوة الانتصار الى تتبع المسلمين فى عقر دارهم ، فكان احتلال وهران سنة 914 هـ بعد احتلال المرسى الكبير ثم احتلال بجاية ، فتونس ، وطرابلس .

كان ملك اسبانيا اذ ذاك فردينان (FERDINAND) وقد استشاره الصليبيون على شن هذا الهجوم فوافقهم مبدئيا واعتذر لهم على تأخيره للعجز المالى ، فتقدم اذ ذاك الكاردينال كسيمنيز (XIMENEZ) أسقف طليطلة وتعهد بتحمل نفقات هذه الحرب بشرط أن يكون ذلك قرضا من الكنيسة ، كانت

1) حققها وقدمها الاستاذ محمد بن عبد الكريم الزموري لنيل شهادة الدراسات العليا بكلية الجزائر منذ سنة .

صلة الكاردينال كسيمنيز هذا وثيقة بالملكة ايزابيل المشهورة بالكاثوليكية زوج الملك فردينان والمتعصبة للحرب الصليبية اذ هي التي تداخلت في الصلح بين قومها والبرتغال فطلبت من البابا الكسندر (ALEXANDRE 6) السادس التدخل في هذا الصلح ليتقاسم فيه الاسبان والبرتغال مناطق النفوذ بينهما فكان الاجتماع المشهور باجتماع طرودزيلا (TRODESILLAS) سنة 1492 م . فخصص البابا للبرتغال مدن شواطئ المحيط الاطلنطي . والبقية أى شواطئ البحر الابيض للاسبان ، وبعد احتلال شواطئ الجزائر عزز البابا قرار 1492 م بقرار آخر . أعلن فيه الحرب الصليبية على بلاد المغرب العربي سنة 924 هـ الموافق لـ 1518 م . وأمر ملوك أوربا بعقد مهادنة لمدة خمس سنوات ,تتفرغ فيها اسبانيا لاحتلال ما تبقى من مدن المغرب العربي

كانت بلاد المغرب العربي أثناء هذه الاحداث سيئة جدا ، فعلاوة على عوامل الضعف والانحطاط التي عمت البلاد الاسلامية كلها ابتداء من منتصف القرن الثامن الهجري كما ذكر ذلك المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون وشاركه في رأيه أستاذه الجزائري محمد المقرى التلمساني وان اختلفا في الاسباب فالمقرى كان يرى أن النظام (1) الملكي هو من أسباب ذلك التدهور حيث أنه مناف للتعاليم الاسلامية المحبذة للشورى وابن خلدون يرى أسبابا أخرى بينها بتفصيل في تاريخه (ديوان العبر) .

نال المغرب العربي حظه من هذا التدهور ولم تتغير حالته طيلة القرن التاسع ويظهر ذلك جليا في ضعف الملوك وتنمر القبائل العربية التي كانت تتمتع بشبه استقلال في اقطاعاتها وكلما أحست بضعف الملوك الا وبالغت في تمردها وتحديها ومطالبها اذ كان لا يهمها الا مصالح القبيلة والعشيرة . فعندما فوجئت الجزائر بالاحتلال الاسباني كانت مجزاة الى نحو خمسة عشر جزءا الكل تهيمن عليه قبيلة عربية أو بربرية . فقبيلتا سويد وبني عامر الشهيرتان كانتا تسيطران على معظم سهول ولاية وهران . وكان آل المقراني يتصرفون في القبائل الصغرى (وادي بجاية) وكانت قاعدة امارتهم قلعة بني عباس ثم حولت الى مجانة والقبائل الكبرى تحت تصرف آل ابن القاضي ومقر امارتهم جبل كوكو ، ومدينة الجزائر وسهول متيجة تحت تصرف قبيلة الثعالبة ورئاستهم اذ ذاك في آل ابن التومي . كما كانت كل من قبائل الذواودة والاحرار وسد ويكش وبني تيقرين تهيمن على ناحية لا تنالها في تصرفاتها أحكام الملوك . وقد تعرض كثير من الفقهاء لحالة بعض هذه القبائل ، خصوصا صاحب « الدرر المكنونة في نوازل مازونة » بذكر كثير من الاسئلة الواردة في حق هذه القبائل وتمردها على الحكام فقال (وسئل الحفيد سيدي محمد العقباني عن هؤلاء الاعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونون خداما للسلطان وتارة يكونون مخالفين على السلطان كما يفعل عرب بلدنا مثل بني عامر وسويد يعمد أحدهم الى تولية قاض في وطنه (أي اقطاعه) بـ ...

1) بحث طريف في الموضوع نشره احمد المقرى في ترجمة جده ،نهج الطيب ج 3 ص 147، ـ المطبعة الازهرية 1302 ـ

أمر الامام فيقضى هل تصح توليته وتنفذ أحكامه؟الخ

وقال في موضع آخر (... مع أن أحكام السلطان أو نائبه لا تنالهم بل ضعف عن مقاومتهم فضلا عن ردعهم بل انما يداريهم بالاعطية والانعام ببعض بلاد رعيته ونصب عمالهم فيها وقطع نظر عمل السلطنة عن النظر في جبايتها الخ .

هذه في الجملة حالة بلاد الجزائر اذ ذاك نتجت عن انهيار دولة الموحدين وتفككها في أوائل القرن السابع اثر ثورة بني غانية, بقايا اللمتونيين المرابطين ثم دب الخلاف والنزاع في صفوف ولاة الموحدين أو مشائخهم ـ كما كانوا يدعون حينئذ الذين تسابقوا الى وراثة الدولة المركزية . فكان كل منهم يرى أنه الاحق بوراثة تعاليم الامام المعصوم . فاندلعت الحرب بينهم ، وبقيت طيلة قرون .

كانت دولة بني زيان في تلمسان بحكم موقعها الجغرافي بين نارين . تارة تحارب بني مرين ملوك المغرب . وتارة بني حفص ملوك تونس . وعلاوة على هذه العوامل كلها طرأ عامل آخر وهو كارثة الاندلس وسقوط مملكة غرناطة ، فلجأ الى الجزائر سيل عرمرم من المهاجرين الاندلسيين فحذروا السكان واطلعوهم على جرائم الاسبان وعلى نواياهم نحو البلاد الاسلامية اذ كانوا عازمين ـ لو حققت أمانيهم ـ أن يخلوا بلاد المغرب العربي من سكانها ويعمروها بالمسيحيين .

كان من جملة اللاجئين الى وهران من الاندلسيين الملك السابق لمملكة غرناطة (1) أبو عبد الله الزغل أمير مالقة عم آخر ملوكها المشهور عند الكتاب الاوربيين ببوعبدل وقد انتقل من وهران الى تلمسان حيث دفن بها سنة تسع وتسعين وثمانمائة . وقد عثر على شاهد قبره بتلمسان كتب عليه ما يلي :

قبر سلطان قد مات في حال انجلائه
بتلمسان غريبا مهملا بين نسائه
بعد ان جاهد في الله جهد اعتنائه
حكم الدهر عليه قهرا حكم قضائه
واتاه الله صبرا عند انزوال بلائه
فسقى الله قبره دائما غيث سمائه

اما ابن اخيه الملك المخلوع آخر ملوك غرناطة فانه لجأ الى المغرب وتوفى بمدينة فاس كما ذكر ذلك أحمد المقرى في « نفح الطيب » وغلط كثير من المؤرخين خصوصا المستشرقين ـ بعد اكتشاف (2) الشاهد المذكور بمدينة تلمسان اثر الاحتلال الفرنسي ـ فحسبوا ان آخر ملوك غرناطة هو دفين تلمسان صاحب الشاهد .

لم يلق الاسبان مقاومة تذكر عند احتلالهم للشواطيء الجزائرية بل الانكى أن بعض امراء تلمسان من بني زيان تسابقوا للاتصال بهم وعرضوا عليهم خدماتهم . كان كثير من العلماء يتوقعون هجوم

1) ابو عبد الله الزغل هذا هو المشهور بالمجاهد قال المقرى في نفح الطيب ـ ج 2 ص 614 اللطبعة الازهرية بمصر 1302 ـ يذكر حوادث غرناطة لسنة 895 « ولما راى ذلك السلطان ، الزغل وهو عبد الله محمد بن سعد عم سلطان غرناطة بادر بالجواز لبر العدوة فجاز لوهران ثم لتلمسان واستقر بها وبها نسله الى الآن يعرفون ببنى سلطان الاندلس »

2) اكتشفه بروصلار نائب والى بتلمسان ثم والى وهران اثر الاحتلال ، وقد نشر سلسلة مقالات عن الآثار العربية بتلمسان فى المجلة الافريقية

الاسبان على الجزائر بعد سقوط غرناطة واحتلالهم لبعض المدن المغربية فأنذروا السكان وحذروهم من الخطر الذى يهدد البلاد ومن هؤلاء العالم الاديب الشيخ محمد التواتي الذى خاطب سكان وهران بقصيدة طويلة نقتطف منها هذه الابيات : قال :

يا اهل وهران انظروا نظر شفقة
لبلدتكم من قبل ان تتردتي
وقبل مجيء المنشآت ببحرها
و اى قلوب عندها مستقرتي
ولا تكلوها غيركم وليت يكن
فما غابت مثل المقيم ببلدة

الى آن يقول :

فلا تهملوا امر الاعادى فانهم
بحال اجتماع واتفاق وشدة
وقد قطعوا قطعا فان ظفروا بكم
فقد ظفروا باهل الجزيرة
ولا يحمى مرساكم ضعاف رجالكم
ولا البدو بل تحميه اهل الجزيرة
فان لهم بالطعن والضرب خبرة
وكم قتلوا بالكفر اكبر فتكة

لما ظهر ضعف ملوك البلاد على المقاومة واتصال بعض الامراء بالعدو اجتمع علماء الدين ونادوا بالجهاد والاعتماد على النفس واحيا. الرباطات وكان عروج واخوته خير الدين والاسكندر يجوبون البحر الابيض المتوسط فينقلون اللاجئين الاندلسيين الى شواطىء البلاد الاسلامية وكانوا كثيرا ما ينزلون ببعض الشواطىء مختفين يتصلون ببعض الشخصيات الدينية فمن جملة من اتصل بعروج من هذه الشخصيات الشيخ احمد (1) بن يوسف الراشدى دفين مليانة الذى كان من الد أعداء الملوك الزيانيين وحكموا عليه بالاعدام فصادف انه كان بقرية كرشتل (على شواطىء البحر غربى وهران بينها وبين شاطىء أرزيو) وحوله مريدوه فلمحه عروج فقصده وحدثه بواسطة ترجمانه وقد ذكر هذه القصة الشيخ على (2) ابن الحاج موسى فى «ربح التجارة» الذى ذكر فيه ترجمة الشيخ أحمد بن يوسف وكراماته التى منها هذه : وهى أن عروج لما اجتمع بالشيخ قال له : (اننى أنوى أمرا ان سهله الله فلا ننساك» ، والذى يهمنا من هذه الرواية هو ان عروج كان يقصد بعض الشواطىء مختفيا وكان يتصل بمن يتوسم فيهم الفائدة وعلى كل حال فالاتراك لم ينسوا احمد ابن يوسف فكانوا يعينون على رأس ركب الحج سنويا أحد أولاده . وقد بنوا له ضريحه ومسجده الحاليين بمليانة كما عينوا أحد تلامذته نقيبا لأشراف الجزائر وبقى أولاده يتوارثون هذه الخطة فى عهد الاتراك وهو الشيخ محمد الشريف الزهار صاحب الضريح والمسجد بقصبة الجزائر .

كما اتصل بالاتراك من علماء الجزائر ورؤسائها

1) احمد بن يوسف الراشدى قرا ببجاية عن احمد زروق البرنسى وانتصب للوعظ والارشاد بالراشدية توفى سنة 927 هـ

2) على بن الحاج موسى الجزائرى ـ 1244 هـ 1330 ـ عالم محدث له تاليف سماه « ربح التجارة » فى مناقب الشيخ احمد بن يوسف الراشدى وتوجد منه نسخة فى مكتبة ضريحه بمليانة

الشيخ أحمد بن القاضي الزواوي صاحب جبل كوكو واختلف كثير من المؤرخين في شخصيته وكيفية اتصاله بالاتراك فمنهم من ذهب الى أن ابن القاضي لما راى خطر الصليبية كاتب الخلافة العثمانية وهي التي أمرت عروج واخوته باجابة رغبته ومنهم من قال بأنه اتصل بهم هو وسالم بن التومي وسهلا عليهم احتلال العاصمة ووقع ذلك بالفعل ولا يبعد أن اتصاله بهم كان من نوع اتصال الشيخ أحمد بن يوسف بهم . أما شخصيته فالحقيقة انه تولى قضاء بجاية - وقد عثرنا على وثيقة تثبت ذلك - وبعد تزعمه لحركة المقاومة اتخذ جبل كوكو مقرا لامارته كما ذهب المؤرخ أبوراس الناصري بأن أبناءه استوطنوا مجاجة - قرب الاصنام - ومنهم الشيخ عبد الرحمن ابن عبد القادر المجاجي صاحب التاليف الشهير في المغارسة ثم ترجم له أي لاحمد (1) بن القاضي الزواوي هذا كثير من المؤرخين وأصحاب السير وبالخصوص ابن عساكر في «دوحة الناشر» (قيل انه من بقايا الحفصيين ببجاية) لما خصه بالترجمة كثير من المستشرقين الا انهم لم يتوصلوا الى نتيجة مقنعة والحقيقة انه بعد احتلال الاتراك لبجاية والعاصمة اختلف معهم ثم صالحهم ثم حاربهم الى أن مات في واقعة بثنية بني عيشة لخبر يطول وخلفه أولاده وأقاربه ومنهم من سمي باسمه وكانوا في حالة حرب وسلم مع الاتراك ومع جيرانهم ومنافسيهم آل المقراني بمجانة والذي يتلخص لنا من هذا هو أن الاتراك لم ينزلوا بالجزائر تلقائيا بل جاءوها كمواطنين مسلمين ليشاركوا في الدفاع عنها وينقذوها من خطر الصليبيين ولهذا لقيهم جل السكان بالتجلة والترحيب اللهم الا بعض أمراء بني زيان وبعض رؤساء القبائل الذين كانوا يعتقدون أن الاتراك يقرونهم على التصرف المطلق في اقطاعاتهم كما كانوا زمن الملوك الضعفاء فتبين لهم أن عروج واخوته جنود جديون يقدرون الظروف الخطيرة التي كانت تجتازها البلاد فصاروا يعاقبون ويردعون كل من لم يتعظ بالاحداث كأمير الجزائر السابق سالم بن التومي الذي قتله عروج بيده وأمراء بني زيان ملوك تلمسان وأحمد بن القاضي الزواوي وقد استغل بعض الكتاب خصوصا الاوربيين قتل عروج لاولئك الامراء الذين رمى بعضهم في صهريج وشبهوه بملوك رومة الذين كانوا يقدمون ضحاياهم الى الوحوش فتفترسها على مراى من المتفرجين ولنترك هنا الكلمة للمؤرخ أبي رأس ليبين لنا الداعي لقتل عروج أولئك الامراء، وكذلك الظروف والمحل الذي قتل فيه عروج قال أبو رأس في « عجائب الاسفار يصف احتلال خير الدين لتلمسان (.. ولما دخل تلمسان استعمل عليها أخاه عروج ثم بعد

1) قال صاحب «دوحة الناشر» بعد ما عرفه ولم يزل رحمه الله متابدا على سيرته النبوية الى ان كان من امره مع خير الدين التركماني مما هو مشهور وهو كان السبب في دخول التركماني لمدينة الجزائر واستيلائهم عليها وعلى المغرب الاوسط الى الآن . . وقتلوه شهيدا رحمه الله في العشرة الثالثة والله اعلم » . قتل في معركة مع الاتراك بثنية بني عائشة سنة 933 هـ الموافق 1527 م

3) صاحب الجذوة هو احمد بن محمد بن علي بن أبي العافية المكناسي المعروف بابن القاضي الزناتي - 960 هـ 1025 م - فلم تكن له صلة بالجزائر ولا بالعهد التركي بل هو مغربي له عدة تاليف

...نشرته بعصب المسعود من ملوك بني زيان وهجموا على عروج فأخرجوه عنهم ثم زحف اليهم بمن معه وكان شديد البأس فدخل تلمسان وقتل سبعة من المترشحين للملك ونحو الستين من الامراء ولما رأى المسعود ما وقع ذهب الى وهران واستنجد بالملك الاسباني فأرسل معه جنده الى تلمسان يحاصر عروج فلما طال أمر الحصار عليه خرج بمن معه من الجيش والبطانة فلحقوه بجبل بني موسى (1) وقتلوه ومن معه يوم عيد الفطر سنة خمس وثلاثين وتسعمائة .

وقد ذهب كثير من الكتاب الى أن عروج استشهد في « شعبة اللحم » بالمالح - غربي مدينة عين تمشنت - وهو خلاف الواقع وقد أيد ما قاله المؤرخ الشهير بربقجير في بحثه القيم الذى نشره في « المجلة الافريقية » المؤرخة في أكتوبر 1859 تحت عدد الجزء 19 ترجم فيه بعض الوثائق الاسبانية تثبت ان عروج بعد حصار طويل في تلمسان التجأ مع عدد قليل من انصاره الى الانسحاب لبلاد المغرب فلحقته كوكبة من الجيش الاسباني التى كانت تحاصره فالتقى الجمعان ودافع عروج رغم قلة أصحابه دفاع الابطال الى أن توفي بالمكان المذكور في جبل بني يزناسن بالمغرب الشرقي .

هذه حالة بلاد الجزائر ذكرناها مجملة بعد نزول الاتراك بها . أما حالة المغرب فانها كانت لاتختلف عنها بكثير ولنكتب بما وصف به حالة المغرب اذ ذاك العلامة أحمد بن القاضى المشهور بأبي محلى السجلماسي الذى ثار من جهته على الملوك السعديين واحتل سجلماسة ومدينة مراكش ونادى هو الآخر بالجهاد وباحياء الرباطات التى كان دعا اليها قبله علماء آخرون مثل الشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد العياشي السلاوى ، قال ابن القاضى يصف حالة بلاد المغرب الاقصى وتزاحم الامراء على طلب الملك وتهاونهم في الدفاع عن حمى الوطن بل اتصل بعضهم بجيش الاحتلال واعترف لهم بالسيادة على بعض الجهات المحتلة كمدينة العرائش .. الخ ، قال : (.. وكل من تغلب على جهة قليلة منهم انما يبايعه من لا بال له ، أو مكره على بيعته خوفا من ظلمه . فسايت الامة ، وعمت البلية والغمة ، وفاض الكفر ، وغاض النصر ، حتى أخذت السواحل ، ولا مغيث لاهلها مع استغاثتهم لجميع القبائل ، وعطل فيها الاذان ، وضرب الناقوس في مساجدها وتصبت الصلبان ، وعبدت في محارب الله من دونه الاوثان ، وكل عالم بزعمه ، أو صالح بوهمه أو أمير بدعواه .

انتشرت الرباطات في شواطىء المغرب الاقصى والجزائر ووقع الاتصال بين رجال الرباطات خصوصا بعد اعلان ثورة أحمد بن القاضى ابى محلى فاتصل

1) كان قاتل عروج هو قارصيا فرنانديز دولابلازا - الفارس - وقد قلده الملك شارل الخامس لقب الاشراف بنفسه - المجلة الجزائرية 1873 العدد 17 -

2) عالم مؤلف تولى الفتوى بالجامع الاعظم بالجزائر وتخرج عليه كثيرون من فحول العلماء كيحيى الشاوى وابى مهدى عيسى الثعالبي وسليمان الروداني السنوسي صاحب الفهرس الشهير في العالم الاسلامي توفي سعيد قدورة بالجزائر حوالي 1066 هـ

به وفد من علماء ورؤساء القبائل بالجزائر كان على راسه العلامة الشهير الشيخ سعيد (2) قدورة .

حفظ لنا التاريخ بعض وثائق لهذه الرباطـــات منها رباط تنس ورباط شواطىء تلمسان فقد عثر على وثيقة مؤرخة سنة 954 هـ بخط الشيخ عبـــد الرحمن اليعقوبى صاحب المعهد الشهير باسمه الى الآن بنواحي ندرومة عقد هذا العالم مؤتمرا جمع فيه رؤساء قبائل انقاد وبني سنوس وترارة ومطغـره وبعض اعيان تلمسان لاحياء الرباطات وهذه الوثيقة عبارة عن عرض حال يتعهد فيه سكان القبائـــل المذكورة بامداد الرباط بالرجال والعتاد والمؤونة الخ وهذا المؤتمر شبيه بمؤتمر الشيخ أبى عبد اللـــه محمد بن أحمد العياشى الزعيم المغربى الذى نـادى بالجهاد وقاوم البرتغال وجمع هو الآخر أعيان المغرب وزعماءه فبايعوه وقد بين لنا المؤرخ الناصرى فى كتاب «الاستقصاء» بيانا ضافيا هذا المؤتمر حيـث قال : وقدموه – أى العياشى – على أنفسهم والتزموا طاعته وان أى قبيلة خرجت عن أمره كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها حتى تفىء الى أمر الله فاعطوا بذلك خطوطهم فى ظهير وانهم رضوه وقدموه على أنفسهم ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه من تامسنا الى تازى وكان الحامل له على طلب ذلك منهم انه بلغه عن بعض طلبة الوقت انه قال لا يحل الجهاد الا مـع الامـير ففعل ذلك خـروجا عن تلك الدعوى الواهيـــة .

كان خطر الحملة الصليبية فى كل من المغـرب والجزائر اللذين تقاعس ملوكهما عن الدفاع سببا فى توحيد صفوف السكان والتفاهم نحو زعمائهم المختارين ولم يكتفوا باختيار الزعماء ومبايعتهم بل صاروا دعاة لجمع كلمة الزعماء انفسهم منـــذرين لهم بالخطر الذى يهدد البلدين وان الجزائر والمغرب مرتبطان بالاحداث وانه اذا قدر للعدو احتـــلال احداهما فليتخذها مطية الى احتلال الاخرى والذى يثبت ما ذكرناه بصفة جلية هو كتاب وجهه علماء البلاد الى الزعيم الدينى محمد بن ابى بكر الدلاشى الذى كان حاضرا للمؤتمر الذى وقعت فيه مبايعـة العياشى الا أن العلائق السرية كانت بينهما غـير مرضية فكاتبه الجماعة بكتاب طويل هام فى الموضوع افتتحوه ببعض الابيات ومن جملة ما قالوه فيه من ارتباط البلدين المغرب والجزائر هذا : (والله الله سيدى فى جعل انقاذ هذا المغرب فى صحيفـــة أعمالكم والاعتناء بتطهيره من نجاسة الكفر من خيار أحوالكم ، وشمروا سيدى عن ساعد الاجتهـاد ، وأذنوا فى الناس بالجهاد ، واغتنموا الفرصة فى أوقاتها ، وبادروها قبل فواتها ، مادامت كلمتكمـا مسموعة ، – أى هو والعياشى – وآراء الاعيـان الى آرائكما مجموعة ، فلو غبتما عنا لعظم الامر وهال ، ووجبت الهجرة والترحال ، ولم يبق فى المغرب مسلم الا وقد دخل للكفر تحت الذمام ، وجعل فى عنقه زمام الدجن وبيس الزمام ، وسلك هذا العدو هـذا

القطر الى تلمسان ، وكيف لا وقد رأينا ذلك بالعيان) (1) .

كان لهذه الاتصالات بين نخبة سكان البلدين واحداث الرباطات والاعتماد على النفس بدلا من الاعتماد على الملوك والامراء المتقاعسين ، ثم اتصال خير الدين بالخلافة العثمانية ، وانظوائه تحت لوائها وتعيينه من طرف الخليفة العثماني باشا على الجزائر كان لهذا كله ، أثره الفعال ، فتوحدت البلاد لاول مرة في تاريخها ، ونظمت الادارة ، والجيش ، وأحس رؤساء القبائل بتغيير الاحوال ، وان المسيرين للجزائر رجال أكفاء ، أقوياء ، ذوو جد وحزم ، كما كان مصير سالم بن التومي بالعاصمة ، وأحمد بن القاضي وامراء تلمسان من بني زيان وغيرهم درسا عمليا قاسيا يقرأ له السكان الف حساب ، ومن جهة أخرى فان الهزائم التي تتابعت على الجيش الاسباني خففت من نشوة انتصاراته الاولى ، فتلاشت أحلامه، وصار رابضا في مراكزه ، محاصرا في مراسيه ، قطع عنه التموين برا في جميع مراسيه ، فصار يستوردها بحرا ، الا ان الاسطول الاسلامي كان بدوره يهيمن على البحر الابيض المتوسط ، وغاراته متواصلة على شواطئ اسبانيا ، وايطاليا ، وغنائمه من أساطيل العدو تعد بالآلاف ، حتى أصبح الملك شارلكان الذي كانت مملكته هو الآخر واسعة الاطراف بالبحر الابيض اذ كانت تضم قسما من ايطاليا وصقلية كان يصعب عليه الانتقال اليها

فتولى اذ ذاك تجهيز الاساطيل لغزو العاصمة فجهز أسطولا تحت قيادة « دييقو دوفيرا سنة 922 هـ فقاومه عروج وهزمه ثم أعاد الكرة مرة ثانية وجهز أسطولا تحت قيادة « هيقو دومنكاد » ، نائب ملك صقلية سنة 925 هـ فلم يفلح وكان سيف لهذا القائد المعجب بنفسه انه كاتب خير الدين قبل المعركة ، آمرا له بالاستسلام والا فسيكون مصيره مصير أخويه عروج والاسكندر المستشهدين بقلعة بني راشد فأجابه خير الدين بأنه يترك الحكم للسيف وكان السيف في صالح خير الدين ثم جهز الملك شارلكان أسطولا بنفسه بعد احتلاله لتونس واختار الظروف المناسبة فاغتنم فرصة غياب خير الدين الذي عينه الخليفة قائدا لاسطول الخلافة فهزم شر هزيمة وذلك سنة 948 هـ وقد خصص كثير من المؤلفين مسلمين وغيرهم لهذه الهزائم التآليف العديدة فلا حاجة الى اعادتها وانما لا يفوتنا أن نذكر ان شارلكان في انسحابه الى بجاية بعد أن أشرف على الهلاك فرأى كثيرا من الاهالي بلباسهم القومي داخل بجاية فامتعض لذلك وسأل عن السبب اذ كان الاسبانيون لا يسمحون للمسلمين حتى المتعاونين معهم بالدخول الى مدنهم المحتلة وان لزم الامر كأصحاب قوافل الحبوب فيغمضون عيونهم فأخبروه ان هؤلاء ليسوا بمسلمين وانما هم اليهود المطرودون من الاندلس وكان ملك بجاية آواهم وأسكنهم في البلاد ولما كانوا

1) من مخطوط للعالم احمد بن يحيى بن احمد بن سليمان الفشتالي يقول في عنوانه : (كتبه بعض اعيان المغرب الى الزعيم ابي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي

يحسنون اللغة العربية عرضوا خدماتهم على الاسبان ليتجسسوا لهم ويطلعوهم على أحوال البلاد فاستعملوهم لذلك فامرهم شارلكان بطردهم فورا وقال كلمته المشهورة فى وصفهم : «اننا لهذه الصفة الذميمة وهى الخديعة المتاصلة فيهم أطردناهم وقد آواهم هؤلاء الناس وبدلوا خوفهم أمنا فكان الجزاء الخداع . ولم يراعوا فيهم الا ولا ذمة فركنوا اليكم» اخرج شارلكان اليهود بعد أن جردهم من جميع أملاكهم وأمر باحراق كتبهم المقدسة زيادة فى النكاية (1) الا أن المعركة الحاسمة التى قلبت الاوضاع وقضت على أحلام اسبانيا هى معركة الكنت دالكادوت (LE CONTE D'ALCADAUTE) والى وهران من سنة 1534 م الى 1558 م فانه كان صديقا حميما للملك شارلكان ورفيقه عند احتلاله لتونس وهجومه على الجزائر وهو أول اسبانى بوهران جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية وقد ضاق ذرعا بمرسى مستغانم فحاول مرتين الاستيلاء عليها وذلك فى سنة 949 هـ ثم فى سنة 952 هـ وباء بالفشل وفى المرة الثالثة استعد لها أحسن استعداد فذهب بنفسه لقرطاجنة واختار الجيش الذى كان معظمه من نخبة الفرسان وخانه الحظ فى هذه المرة أيضا وكانت الهزيمة الشنعاء التى مازال الكتاب يخصونها بالتآليف ويتساءلون عن أسبابها وان من حظ التاريخ الجزائرى ان أحد قواد الجيش الجزائرى سجل هذه المعركة التى شارك فيها وخاض غمارها فى **ملحمة شعبية** خلدت الشاعر المجاهد الذى مازال أهل تلك الناحية يحيوا ذكراه سنويا وينشدون قصائده وفى هذه الاسابيع دشن مسجد بقرب ضريح هذا الشاعر ثم ان هذه الملحمة أو المنظومة تمتاز بخلوها من **مبالغات الشعراء** حيث أنها تتفق تماما مع أحدث الوثائق الاسبانية المترجمة .

دامت المعركة ثلاثة أيام خسر فيها الاسبان تسعة عشر الف قتيل وأسير من بينهم خمسون ضابطا ومات فى المعركة قائد الحملة الوالى الكنت دالكادوت واننا رأينا أن نقتطف بعض الابيات من هذه المنظومة وان كانت باللغة الدارجة وكان هذا النوع من التقديم لا يسمح بتتبع الاحداث وذكرها بتفصيل رأينا ذلك لنلفت نظر القراء الى الشعر الشعبى فى بلادنا الذى يمتاز بأنه سجل هام لتاريخ البلاد وجغرافيته وان سكان بلادنا رغم الهموم التى اجتازوها والمحاولات التى بذل فيها أصحابها الجهود لقطع صلته بماضيه يبقى محافظا على تراثه مشجعا لهذا النوع من الشعر الذى كان حفاظه ينشدونه فى الولائم والحفلات مبجلين محترمين ولو اندس فيهم بعد الحرب العالمية الاولى دخلاء لم يصونوا أعراضهم الا انهم مع هذا كله لم يعدموا أنصارا ومشجعين ماديا وأدبيا كان لهم الفضل فى هذه البقية تعرض شاعرنا الشيخ الاكحل بن خلوف الشهير بالاخضر وهو دفين مزيلة (شرقى مستغانم بنحو 60 كلم) للمعركة بتفصيل فأوفى لها حقها وبين الطريق التى سلكها باشا الجزائر الامير حسن عند خروجه من العاصمة فى طريقه الى مستغانم ثم

1) فيرو (FERAUD) تاريخ بجاية

وكاهن (CAHEN) اليهود فى افريقية

بين القبائل التى شاركت فى هذه المعركة وانضمت للباشا ومنها قبائل سويد التى انتصر بعض أفرادها الى الاسبان كما سنبين ذلك فى هذه المقدمة ، ثم بين شاعرنا الصبغة الدينية التى اكتستها هذه المعركة وبالتالى ان الانتصار فيها يعد أخذا لثأر غرناطة وانتقاما لها .

قال الشاعر :

يا سايلنى عن طراد الروم
قصة مزغران معلومة
يا سايلنى كيف ذا القصة
ما بين النصرانى وخير الدين

الى أن يقول :

اجتمعوا فى برهم الاقصى
قواوا الجيش وجاوا معتمدين
ترى سفون الروم محترصة
صبحوا فى المنا أعداء الدين
خرجوا لك للبر خرج الثوم
وانجلوا من فوق وجه الما

ويقول :

أرفع راسك ياعلى المفهوم
يا سيد الحسنين و فطيمة
شوف ابلادنا كيف راها اليوم
تسبيها الكفار الظالمة
قصة مزغران معلومة

وهنا يذكر الشاعر الطريق التى مر عليها الجيش الاسبانى بعد خروجه من وهران فى طريقه الى مستغانم فخالف الطريق المعتاد حتى لا يلفت النظر وقصد جبال تاشالة حيث تعود الجيش الاسبانى الخروج اليها للمناورات العسكرية وهذه المكيدة لم تفت عيون الجيش التركى من سكان البلاد الذين كانوا يتتبعون العدو فى حركاته وسكناته فارسلوا من يخبر الباشا حسن بالعاصمة . والى هذا أشار الشاعر بقوله :

اركب فارس اسبق ودنا
بالتعريف ايبشر السلطان
البارح يقول جات الروم
يا فرسانى غاولوا انتما

ثم يذكر كيف استجاب حسن باشا للانذار وجهز جيشه وبعد أن جال الباشا بجنوده فى العاصمة وزار معاعدها وأضرحتها على العادة المتبعة اذ ذاك خرج متوجها الى مستغانم :

ظل يسير بعساكره والقوم
فى وطن متيجة أولج الما
فى أمره جات العرب اطموم
سلطان عادل طاعته الامه
قصة مزغران معلومة
طبله عند الشفا نقر
و اعلامات النصر منشورة
جات اخيول افريقيا تنجر
و افراسين الحرب مذكورة

من لا ضـــره اللـه لا ينضـــر
لو طـاحت الارقـــاب منصـــورة

فى زكـار (1) امقيـم كم من يـــوم
ليـن جاتـه فيـادها ورمـــات

اخضا (2) الواد الشـايع المعلـــوم
فيـه اضـلان اسـويد ملمـــومة

جـاوا اشيـوخ سـويد للسلطـان
وفيهـم أبـو بكـــر و محمـــد

قالـوا للاميـــر لا تليســـان
لا ديـن الا ديـــن محمـــد

استشـــرح سلطـــاننا و ازيـــان
جاتـــوا القـــوم زاهيـة ترعـــد

ثم يذكر القبائل التى أرسلت جيشها للمشاركة فى هذه المعركة فيقول :

من بنى راشد (1) وآل سـويد(2)
وافراسـين النطـح عبد الـواد (3)

يا مغراوة (4) اتحـزموا للكيـــد
منـكم خلقت اسـلاطنـا واجـــواد

يا تيجـان الحـرب ليـس بعيـــد
من مـات سكن جنـة الميعـــاد

ثم يذكر الشاعر ذعر الجيش الاسبانى وقواده عند ما انبثوا بلحاق جيش الباشا وكيف بـــدأت المعركة وقواد جيش العدو الذين ماتوا فى المعركة واحدا واحدا وكثيرا مايذكر جملا ومفردات بالاسبانية على سبيل التهكم والاستهزاء .

قال فى عدد الاسرى والقتلى :

حـزناهم للســـور ذاك اليـــوم
تسمـه آلاف ابقـــات مغنـوســـة

من حيـط الدشـرة لحـوض الدوم
عشـره الاف امشـــات محطـــومة

ثم يذكر موت قائد الجيش الكونت دالكادوت فيقـــول :

طـل عـلى الفرطـاس يوم ان مـات
فى المغـرب أهل الخـزى ردمـوه

احلـف لهـم سلطـــاننا باثبـــات
شيب النـار من الشـرى جبـــدوه

احتفظـــوا بالفـــاس والمسحـات
لحقـوا بـه من الشـرى جبـــدوه

ثم يختم قصيدته بقوله :

الاميـر حســن يـــوم مزغـــران
اخلـف الثـار من العـدو تحقيـق

1) بنو راشد ويقال لهم اهل الراشدية نواحى معسكر وقلعة بنى راشد ويسمون اليوم بفريس
2) آل سويد هم اهل قبيلة سويد تحدثنا عنها فى هذا التقديم
3) عبد الواد قبيلة صغيرة قرب قلعة بنى راشد ولعلها من بقـايا بنى عبد الواد ملوك تلمسان
4) مغراوة قبيلة عتيدة كانت تحكم اول الفتح الاسلامى ما بين مليانة وتلمسان وكان مقرها شلف وقد حكم بعض امرائها المغـــرب وليبيا وقضى على امارتهم الاول بلكين اذ كانوا احلافا لبنى مروان

تـرى البهجــة روظـة البلـــدان

غـرنـاوط الى امســـات حـريـق

وهنا نلتف نظر القراء مرة ثانية الى ان الجزائريين لم يهملوا قضية الاندلس بل هذا شاعر له مكانتــه فى البلاد ويمثل بحق رأيها العام الذى لم ينــس مأساة الاندلس ويرى فى هذا الانتصار أخذا لثـارها ومحوا لآثـار عـدوان الاسبان وعلى ذكر مـوقف الجزائريين مع الاندلسيين خصوصا اللاجئين منهم الى شواطىء البلاد فقد وقعت لبعضهم حوادث مؤلمة استغلها كثير من الكتاب وعمموا تهمهم للبلاد كلها فذكروا انمصير اللاجئين الاندلسيين ببعض شواطىء الجزائر كان نصيبهم القتل والنهب وبالفعل وقــع ذلك لبعض اللاجئين سنة 1018 هـ أى بعد سقوط غرناطة بما يزيد على القرن وهو الجلاء الاخير . وقد ذكر ذلك المؤرخ أبوراس الناصرى فى « عجـائب الاسفار » فقال : (.. مات الشيخ محمد اقـــدار التوجينى دفين أرض ميتا (قرب البطحاء) سنـــة خمس وستين والف (1056) لكونه حرض الشـيخ احميدة العبدان يغزو بسويد على هبرة (بـــين المحمدية وسيق) لما فعلوه بالمسلمين الخارجـين من غرناطة الى مرسى ارزيو لما غلب عليهم قشتالة حتى انهم كانوا يبقرون بطونهم لما يظنون من ابتلاع نحو جوهر فأتاه احميدة المذكور من الرسو بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيـــح البخارى ثم ساروا ولقيتهم جموع هبرة فانهزمـوا وركبت سويد أكتافهم فقتلوهم كيف شاءوا وفى ذلك يقول شاعرهم (1) :

جينــا يا رب بـين النـار والنـــار

بين انصارت دوك وانصارت قدار(2)

ميتـين وعشـرين قعـدت فى مشوار

دوار من المـــلاح ما عـــزى دوار

المـوت من الالاه واسبـابه قـــدار

لا بـد للـحى يتفكـــر الاحـــرار

وفى هذه الرواية ما يكفى لرد جميع التهم التى الصقت بالجزائر منذ قرون ومازال المتأخـــرون يرددونها فى كل مناسبة تدعوهم الى الكتـــابة أو الحديث عن مصير المهاجرين الاندلسيين لشواطىء المغرب . وقد رأينا أن هذا العالم المرابط لنشــر العلم والدين لم يكتف بتغيير المنكر بلسانه وقلبه فقط بل غيره بيده واستعان على ذلك برئيس القبيلة العتيدة . وفى هذه الرواية أيضا ما نستدل به على أن صحيــح البخـارى كان يدرس فى الجزائر فى القرى النائية فضلا عن المدن ، اذ ذهب كثـير من المعاصرين ان طيلة قرون الاحتلال التــركى لم يكن يدرس بالجزائر الا مختصر خليل . .

ولنرجع الى الحـديث عن واقعة الكادوت فنجـد ان كثيرا من المؤرخين الفرنسيين والاسبانيين اعتنوا بها ومازال الكثير منهم الى زماننا هذا يبحث عـــن أسباب الهزيمة . ومعظم الوثائق الاسبانية المنشورة

1) يقصد بنصارة دوك اسبان وهران الدين كانوا يغزونهم المرة بعد المـرة

2) انصار قدار سويد

تتفق مع أرجوزة شاعرنا سواء في أيام المعركة وعدد الاسرى والقتلى وموت قائد الحملة ونبشه من التراب بأمر الباشا حسن ثم ارسال جثته الى وهران لولده ففدوها بفداء عظيم ودفنوها بكنيسة سانتدومنيك (Ste DOMINIQUE) ومن هؤلاء المؤرخين الاسبان هايدو (HAIDO) وديبقو سياريز (DIEGO SUAREZ) والمؤرخان الفرنسيان بول ريف (PAUL RUFF) والجنرال ديدى (DIDIER) وقعت هذه المعركة سنة 965 وقد أرخها بعض الادباء الجزائريين فقال :

فتح خير الدين مزغرانا
مرتجيا لفتحه وهرانا
في يه قعدة زوال الجمعة
سنة هر فصخ فاستمعه
وهذه القصة عند الناس
مشهورة بقصة الفرطاس

والفرطاس هو لقب الكنت الكادوت كما ذكر ذلك الجنرال ديداى (1) أيضا في تاريخه لوهران قال : « ان المسلمين كانوا يلقبون دالكادوت بالفرطاس » كما ذهب كثير من المؤرخين الاسبانيين منهم دييقو كريزداو (DIEGO CRUZADO) ودييقو سياريز (DIEGO SUAREZ) وبدمور اليس (B DE MORALES) على أن الباشا حسن لو تتبع هجومه بعد هزيمة دالكادوت لاحتل وهران بغاية السهولة (تاريخ الجنرال ديدى)

"La domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Conte d'Alcadaute" Paul Ruff 1534 - 1558 (Paris Leroux 1900)

لم نتعرض لكثير من المعارك التى سبقت هذه خصوصا التى قادها الملك شارلكان اذ تعرض لكثير منها بعض المؤرخين الجزائريين اجمالا وتفصيلا كصاحب « الزهرة (2) النائرة فيما جرى للجزائر حين اغارت عليها الجنود الكافرة » .

والخلاصة ان الاسبانيين ولو دام احتلالهم لوهران ما يقرب من ثلاثة قرون فان هذا الاحتلال وبال عليهم فقد كلفهم مصاريف باهضة وضحايا كما جر عليهم فساد السمعة وتشتيت الشمل وقد أيد هذه النظرية الكتاب الاسبانيون أنفسهم كالوالى فاليجو (VALLEJO) فقد ذكر في يومياته ان دعوة المحتلين الصليبية كانت تخفى الجشع والطمع وشبه غاراتهم على القرى الآمنة بغارات التتار على بولوندا أو غيرها اذ ذاك من الدويلات الشرقية وان أهم ما كانوا يحصلون عليه في هذه الغارات اختطاف السكان من رجال ونساء وصبيان ثم الحبوب والانعام فالصبيان كانوا يرسلونهم للتنصير ، وأما الرجال والنساء فكان لقائد الجيش الاعلى بوهران الحق في اختيار رجل وامراة والباقى يقسم بين الضباط

1) الزهرة النائرة هذه الفها محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الجيلانى بن رقية التلمسانى الفها سنة 1189 الموافق لـ 775 - سجل فيها الهجومات التى توالت على الجزائر بعد احتلال الاتراك لها وبالخصوص هجوم (DOREILLY) سنة 1189 وذكرها بتفصيل لانه كان شاهد عيان واتم تاليفه 1194 هـ

2) تاريخ الجنرال ديدى عن وهران الجزء السادس طبع بتى وهران 1929

والجنود والموظفين أو يباعون فى أسواق اسبانيا باثمان مرتفعة وكانوا فى أول الامر يحاولون تنصير الجميع الا انهم لم ينجحوا وقد أحصى فاليجو ان ثلاثين شخصا كانوا يتنصرون سنوياً الا انهم لم يخلص منهم فى التنصر الا الصبيان .

وقد ذكر الرحالة ابوزيد عبد الرحمن الجامعى الفاسى فى شرحه عى «ارجوزة الحلفاوى» انه لما زار الجزائر حوالى سنة 1119 هـ وشارك وفود المهنئين لفتح وهران على يد بكداش باشا قال : «كنت وفدت على العالم العلامة الراوية النقاد منهل العلم الاصفى ابن عبد الله سيدى محمد المصطفى (1) الرماصى بوجدة يسكن بيوت الشعر قرب غابة فى رأس جبل يأوى اليهم ليلا ويظل بالنهار فى داره ومسجده يطالع كتبه ويقرى. طلبته فسالته عن ذلك فقال : كنا على هذه الحالة على عهد الاسبانيين خوفا منهم فاننا كنا لا نامن فى الدور من أن يصكونا ليلا فخرجنا لبيوت الشعر ليسهل علينا الفرار لغابة الجبل » .

وكانوا يستعملون بعض المتعاونين معهم لاختطاف الصبيان فيرسلونهم للقرى فى زى التجار الدواسين وبعد الفتح الاول أثيرت هذه القضية وحوكم أصحابها فيمن حوكموا مع المتعاونين وقد أفردها العالم الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفى بتاليف خاص سماه « بهجة الناظر فى أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الاعراب كبنى عامر » .

ذكر فى هذا الكتاب موبقات هؤلاء المتعاونين ثم تعرض بتفصيل لاصولهم وفصولهم ومواطنهم وحكم الله فيهم ولخص موضوع التاليف فى هذه الجمل (.. ان هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد على والونازرة لما اجتمعوا عند الاسبانيين وصاروا على كلمة واحدة فى الدفع والجلب اشتد بهم عضد النصارى وقويت شوكتهم وكثر بأسهم على المسلمين الى أن صار وطن سيرات وملاته من جملة مسارح ومزارع العدو وليس للمسلمين فيه مطمع الا من لاج فى حزبهم وصار من رعيتهم ودخل فى حمايتهم وأدى لهم الجباية وكان معينا لهم على مرادهم وصاروا يتجسسون لهم الاخبار على المسلمين فى السهل والاوعار حتى اذا تعينوا له يصكهم بخيله ورجله وهم معه فيقتل ويأسر ويسبى ويفعل ما أراد الله بفضله واشتد غزوه بهؤلاء الفرق الضالة التى رغبت فى عرضه الفانى رفيق الدين منهم والجانى فانتهكوا حرمة الاسلام غاية الانتهاك ، وصاروا لنقص أهل الاسلام وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الابعدين ، وهذا فعل الاعداء المرتدين حيث جسروا العدو بخيلهم ورجلهم على اقتحام حلل المسلمين ودورهم بكلهم وانتهاك حريمهم وانتهاز

---

(1) محمد المصطفى فقيه حافظ له حاشية مشهورة على التتائى وهى التى اعتمدها الدردير شارح المختصر وقال ان صاحبها من المحققين فهى تغنينى عن غيرها روى ذلك محمد بن على السنوسى دفين ليبيا كما ذكر الفقيه الحجوى المغربى فى تاليفه - الفكر السامى - وقال ان كثيرا من علماء المغرب اعتمدوا هذه الحاشية كمحمد بن الحسن بنانى كان مهده فى مسقط راسه رماصة

الفرصة فيهم والعجب العظيم منهم انهم مع هذا التلاعب بالاديان وموالاة الكافرين لهم بالخدمة والنصيحة والمبايعة لهم على الطاعة والاذعان والاعانة لهم فى أمورهم وتقوية سوادهم والاستضاءة بنارهم وموادتهم لهم بالاحسان كانوا يعتقدون انهم على الاسلام وصحيح الايمان وانهم فى رحمة الله خالدون ولم يقرأوا قوله تعالى فى المائدة **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىء وما أنزل اليه ما اتخذوهم اولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون** ... الى أن يقول على هذه الفرق :

« انقسموا على ثلاثة فرق ففرقة منهم لجأت لحصن العدو وصارت معه وتدافع بجهدها عنه والحكم فى هذه الفرقة اباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظفر بهم من المسلمين لكونها ردءا . وأما الصغار من الاولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئاً للمسلمين . وقد ذهب بعض الونازرة مع الاسبانيين بعد الفتح لعدوتهم واستقر بسبتة فهو بها للآن ، وفرقة منهم لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو غير انها فى الخفية تعلمه بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده اذ وجدت السبيل . والحكم فيها انها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها والا فأمره الى الله سبحانه وتعالى . وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته وتركت الاعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما بدر منها سابقا والحكم فيها انها واحدة من جماعة المسلمين كثر الله عدد جيش الاسلام ان لم يتقدم منها ما يبيح الدم . وهذا التفصيل هو المعول عليه فى الشرع لانه عين النازلة ولا تلتفت لمن عمم وقال باباحة المال والدم فى الجميع وهو الفقيه أبو العباس سيدى أحمد الفلالى التلمسانى فى تاريخه » .

وقد تم هذا التأليف سنة ثمان وسبعين ومائة والف (1178 هـ) كان الشيخ عبد القادر (1) المشرفى هذا من ألمع شخصيات زمانه ومن كبار المجاهدين وكفاه فخرا ان الشيخ مصطفى بن المختار الراشدى جد الأمير عبد القادر لما أسس معهده بالقيطنة اختاره للتدريس وبهذا المعهد تعرف به المؤرخ أبوراس وأخذ عنه ، وقد شارك فى حرب الاسبان بوهران على عادة علماء البلاد ــ ان من تأمل وتتبع تراجم علماء ذلك العهد يجد الاكثرية منهم ماتوا استشهادا فى حرب وهران ــ وقد حكى تلميذه أبوراس فى معرض الحديث عن الظروف التى استرجع فيها الاسبان وهران سنة 1144 هـ بعد أن بقيت تحت يد المسلمين 45 سنة قال : « لقد أخبرنى شيخنا الاكمل واستاذنا الامثل خاتمة أهل التحقيق وعمدة أهل التوفيق الشيخ سيدى عبد القادر بن عبد الله المشرفى شرف الله فى الجنان مكانه وكان حاضرا لتلك الواقعة ان الكفرة لما تكامل عسكرهم فى البر وبقى جل مددهم فى البحر لم يعملوا صفا للقتال ولم يطلبوا مجالدة

1) عبد القادر بن عبد الله المشرفى كان يدعى بامام الراشدية توفى بمسقط راسه الكرط ـ قرب معسكر ـ سنة 1192 وهو والد العالم القاضى الطاهر المشرفى وجد ابن عبد الله المشرفى الحافظ الذى تولى الخلافة والقضاء فى عهد الامير عبد القادر

الرجال وانما زحفوا للبلد بجميع الرجالة والفرسان وهم كهيئة الرحى فى الدوران ، بارودهم كرعد متصل ورصاصهم كمطر منهطل لا يستطيع أحد قربهم ولا يكر شجاع نحوهم وان الباى مصطفى ـ مصطفى بوشلاغم باى وهران وفاتحها مع بكداش باشا سنة ١١١٩ هـ ـ سقط فى ذلك اليوم عن فرسه لشدة تحريضه على الجهاد وكثرة عدوه » الخ .

هذه فى الجملة حالة البلاد بعد ما استرد الاسبان وهران وهذا لم يمنع الاتراك من التمادى فى توحيد البلاد وحماية الحدود والقضاء على الاقطاع الا انهم ارتطموا بكثير من التمردات والثورات فتارة ينجحون فى القضاء عليها وكثيرا ما كانت تتغلب عليهم الاحداث لاختلاف المسيرين ومن هذه الثورات التى دامت ما يزيد على القرنين ثورة الذواودة شرق الجزائر وثورة سويد غربها المشهورة عند العامة بثورة المحال ، وقد كان من حظ التاريخ الجزائرى أن سجل بعض شعراء البلاد ثورة سويد هذه ، وكان الشاعر سويديا وهو ابن السويكت الشاعر الشعبى فقد سجل عدة معارك خاض غمارها قومه مع الاتراك ، ولما ضعفوا عن المقاومة اختار الكثير منهم الجلاء على الاستسلام ، كانت قبيلة سويد من القبائل العربية التى لعبت أدوارا عظيمة فى تاريخ البلاد ، وقد تحدثنا عن جوانب منها أول هذا التقديم ، ولما احتل الاتراك الجزائر كانت لهم امارة بتنس تمتد من قبر الرومية شرقا الى مصب نهر شلف غربا ـ قرب مستغانم ـ وكان موطنهم ابتداء من القرن السابع الهجرى ما بين العطاف شرقا الى مستغانم غربا وقد شاركوا فى حروب بنى مرين فتارة ينتصرون لهؤلاء وتارة لاولئك وقد ذكر ذلك بتفصيل المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون .

وفى أول عهد الاتراك انتصر بعض رؤسائهم الى الاسبان كما تدل على ذلك بعض الوثائق التاريخية التى عثر عليها الكاتب ايلى دولابريمودى (ELIE D ELA PRIMAUDIE) فى الخزانة الملكية الاسبانية بسمنكا ـ ضواحى مدريد ـ ونشرها الكاتب الفرنسى شارل فيرو (CHARLES FERAUD) بالمجلة الافريقية المؤرخة فى سنة 1873 الجزء 17 فمن جملة هذه الرسائل رسالة عربيتها مهلهلة أرسلها بعض رؤساء سويد الى ملك اسبانيا واخرى الى الكنت دالكادوت والى وهران يطلبون اجرتهم حيث حاربوا فى صفوفهم بأمر رئيسهم احميدة (1) العبد ، ويظهر من هذه الرسائل انهم كانوا متصلين بسالم بن التومى أمير العاصمة قتيل عروج حيث أظهروا تاسفهم على موته .

الا اننا بعد تتبع ودراسة أحداث تلك الفترة تبين لنا أن أصحاب هذه الرسالة لا يمثلون الا أقلية أو لم تطل موالاتهم للاسبان اذ كانت مشاركة افراد القبيلة ورؤسائها لحسن باشا فى حرب مستغانم مشاركة علانية ، ثم ان الكتاب الذين سجلوا الاحداث لم يغفلوا عن القبائل المتعاونة ولم نجد واحدا منهم ذكر هذه القبيلة فى قائمة القبائل المتعاونة كصاحب

1) احميدة العبد من رؤساء قبيلة سويد وهو يطلق على عدة افراد تداولوا رئاسة هذه القبيلة

بهجة الناظر وغيره وهذا لا يمنع أنهم ثاروا على الاتراك وحاربوهم ما يزيد على القرنين . ولما عجزوا اختاروا الجلاء بدلا من الاستسلام . اختلف المؤرخون فى سبب هذا التمرد ولاشك ان رؤساء هذه القبيلة الذين كان لهم التصرف المطلق فى اقطاعاتهم وكان الملوك كثيرا ما يخضعون لهم رفضوا الخضوع للاتراك وقد لخص أحد شعرائهم سبب هذا التمرد واختيارهم الاستماتة فى المقاومة فى بيتين فقال :

قالوا الترك ندو شلف لا وهمة
قلنا لهم اجدودنا فى الواد
ما نتركوش شلف حتى تطيب الصمة
وما نهدوش العقبة على الاولاد

كانت الحرب بينهم وبين الاتراك فى أول التمرد سجالا وأكثر المعارك كانت فى موطنهم الاصلى شلف . وقد سجل شاعرهم الشعبى ابن السويكت كثيرا من هذه المعارك فذكر منها واحدة قال :

على ارهيو (1) وعلى جديوية (2) كارسين
الترك جوف واسويد جاوا للقبلة
خيمة مع اخبا وبنود متقابلين
من الصبح للمسا كل يوم مقتلة
الترك جاروا واسويد اعقابهم طافحين
والترك شاربين الهبال فى سطلة
الباى قد شور ليهم
و اسويد ليه زادوا حملوا
ارفد اسناجقو و الحقهم
عمدوا للقتال او قتلوا
جا بالعراج بيده بالمستحين
احنا اسويد واهل النقار بالجملة
احنا أهل الشنا واحنا الى طايغين
احنا أهل الطبل والعلام والصولة
ربعين ياى قبلك قعدت امرشقين
ربعة و العشرين مشاو مقتلة
اداكم الطمع فى امطافل امتمقين
اسويد ما يطيعوا الترك قتالة
الترك للبلا ينزادوا
و اسويد ما اعطوا الصفحة
الباى جا لهم بجنوده
طيعوا يا سويد الوكحة
سور الحديد واش ايهدوا
هيهات ما تصيبوا راحة
محمود ليه لفت عوده
و الباى واجبه باقباحه

1) ارهيو هى مدينة وادى ارهيو منتصف الطريق بين غيلزان والاصنام
2) جديوة قرية شهيرة غربى وادى ارهيو بنحو 10 كيلم

السـانجـاق حـم رفـده
و اسـويـنـد لـلبـلاد لا حـا
ظهروا اشوايع اسـويد قعدت متورخـين
ملكـوا الشـرق والغرب تـل والقبلـه
مع الامـير عقبـة جـاوا امجـاهـدين
امنـين كانت النـاس كلهـا جهـالا
جازوا اوجـوزوا فى ايامهـم ساعـدين
واجميـع من اقصـد اذى بـلا قلـة
يهـدوا ايبلهـم والمـال للقـاصـديـن
غنيـات والحصـون ينقـادوا شـلا

ذكرنا هذه القصيدة على طولها فى هذا التقـديم الذى لم يتعود القراء التطويل فيه اذ على الاكثر يحال فيه القارىء الى المصادر الا اننا ـ خصوصا فى بلادنا التى ضاع جل تراثها ـ صرنا من الصعب أن نحصل على هذه المصادر ثم ان الشعر الشعبى كما هـو معروف سجل هام لهذه الاحداث وهو ممتاز حتى عن الكتب التاريخية لذلك العهد حيث أن معظـم المؤرخين الذين وصلتنا آثارهم وانتاجهم كانوا من الموالين للاتراك أو موظفين عندهم وهم بطبيعـة الحال لا يصورون القضايا الا بما يرضى الهيئـات الرسمية فنشر هذه القصائد يلقى أضواء عـلى الاحداث ويصورها تصويرا جليـا .



الـــدور الذى لعبـــته الجَـــزائر فى القرن السادس عشر بالبحر المتوسط

عَبد الحميد بن أشنهو

نطرق فى هذا المقال جانبا من تاريخ بلادنا الحافل الذى كثيرا ما بقى مجهــولا على عدد من اخواننا او معروفا على طريق الغير ومحرفا ومزورا الكثير متشبعون باخبار مزيفة بدون آن يشعروا .

فترة من الزمان فى القرن السادس عشر عاشتها بلادنا فى اضطراب وعنف وحروب ، ومع ذلك فى سيطرة وعزة وصيت بعيد وصـــادفت تلك الفترة دخول الاتراك العثمـــانيين لقطرنا فى ظروف غريبة فبسطوا حكمهم عليه وامروا ونهوا ٠

نعم لقد حكم الاتراك فى بلادنا لكنهم كانوا يطبقون على اسلافنا الشريعة الاسلامية ويستعملون اللغة العربية فى معاملاتهم واداراتهم مشجعين لها وكان حكامهم غالب الاحيان يتكلمون ويحررون وثائقهم بالعربية ويحمون بيضة الاسلام منتصرين له ومتشبثين بمبادئه الصحيحة ، كما كانوا يعتبرون انفسهم جزائريين يبرمون العهود والاتفاقات باسم الجزائر لا باسم الباب العالى وكانوا ينتصرون لبلدنا . اما مشاوراتهم مع السلاطين العثمانيين فكانت مجرد اجراءات سياسية واعانات عسكرية او علاقات دينية تدخل فى باب اللياقة والادب والطاعة الدينية للخليفة العثمانى والادعية فى الصلوات التى كان حكام الجزائر يؤدونها له مثل ما كانوا يؤدونها من قبلهم لخلفاء الاسلام من الراشدين والامويين والعباسيين والفاطميين والموحدين .

نصب الحكم التركى ابتداء من سنة 1500 اى فى القرن العاشر الهجرى بواسطة رجلين بحارين عاشا فى خمول فى صغر سنهما وخرجا من اسرة يونانية او تركية بسيطة واتيا الى الجزائر بفضل الظروف التى كانت تعيش فيها بلادنا واستقرا بها وحلا وعقدا وحاربا من كان يتعرض لهما فى طريقهما التصاعدى وفرضا انفسهما على اقطار شاسعة واقرا الامن فى افريقيا ووضعا حدا للشقاق وجلسا على كرسى الملك وضربا السكة وحاربا اعداء الاسلام ورفعا رايته عاليا وبسطا سيطرتهما على البحر الابيض المتوسط واجليا الاسبان منه بعد ما كان هؤلاء يرومون نشر المسيحية بالجزائر وتونس .

يزعم الكثير من المؤرخين الافرنج ان تاريخ المغرب العربى انما هو سلسلة حوادث دامية وان بلادنا كانت تعيش فى عزلة عن البلاد الاوروبية المجاورة لها وفى حالة فوضى بينما كانت تلك الاقطار تمتاز على قرلهم بالرقى والحضارة لا علاقة لها بالدول البربريسك ، كما كانوا يسمونها التى كانت تعيش من القرصنة وقطع الطرق .

فاننا نفند كل التفنيد تلك الاقاويل العنصرية التى لا اساس لها من الصحة ويوجد ولله الحمد مؤرخون هم الان بصدد تكذيب زعم هؤلاء المفترين على الله الكذب .

ان بلادنا كانت دائما وابدا باتصال مع البلاد الاوروبية الجنوبية والاسيوية المجاورة للبحر الابيض المتوسط التى يرتبط تاريخها بتاريخنا ، شاهدت الدور الذى لعبته الدول المسيحية فى سياستها والعكس بالعكس وتدخلات الخليفة العثمانى فى الشؤون الحربية لبلادنا لكى يوحدوا جهودهم ودور الجزائريين فى الحروب البحرية التركية بواسطة سفنهم المظفرة والمحاولات التى قام بها الملوك المسيحيون وفرنسوا الاول وشارل الخامس وملوك صقيلية والبندقية وغيرها فى بلادنا، وكذلك ما قام به اسلافنا من تدخلات فى امور الاقطار الاوروبية كل ذلك يجعلنا نقول القول الصحيح المبنى على الادلة القاطعة والتقارير والرسائل الرسمية ، ان البلاد المجاورة للبحر المتوسط سواء كانت اسلامية او مسيحية تداخلت فى ذلك القرن العجيب واثر بعضها فى بعض من حيث الحوادث التى راجت فيها ، الامر الذى جعل الجزائر تلعب فى ذلك الابان دورا هاما على مستوى العالم العربى والاوروبى معا وبعد صيتها واصبحت تقوم



الدور الذى لعبته الجزائر فى القرن 16 بالبحر المتوسط

بدور الحاكم بين الملوك وتخوض فى سياستهم وتفرض ارادتها وتحارب العصاة والمتمردين على الملوك انفسهم . لكن تلك الفترة الفريبة من تاريخنا قد حجبتها عمدا السلطات الاستعمارية لكى لا نعرفها نحن حتى نحتج بها ونفخر ونعتز فزورت تاريخنا وافسدته عمدا واظهرت وجها مشوها للجزائر .

حقا كانت الجزائر عند دخول الاتراك العثمانيين فى حالة فوضى ، مقسمة ومجزءة وكان يمارس السلطة فيها الزيانيون فى تلمسان فى آخر ايامهم وابناء عمهم فى تنس واولاد سالم المعاقل بجزائر بنى مزغنة والحفصيون ببجاية واولاد بن جلاب بتوقرت وبعض الاشياخ بالصحراء وفى ذلك التاريخ اخذ الاسبان المسيحيون يطردون المسلمين من ديارهم ويحرقون ويقتلون ويفتكون فى اهل الاندلس الى ان آل الامر الى احتلالهم غرناطة عاصمة بنى الاحمر وخروج اصحابها ولجوئهم الى الجزائر والمغرب وشاهد تاريخ 1492 المشؤوم طرد مآت الالاف من المسلمين. صادف هذا الطرد ظهور عروج وخير الدين اللذين حملا منهم عددا كبيرا فى سفنهما ووضعاهم فى السواحل المغربية من الرباط الى طرابلس بعد ما اخذا معهما فى سفنهما الحربية العدد الكبير كمحاربين هؤلاء الذين اصبحوا من المجاهدين الصناديد فشدوا عضد الاخوين فى السواحل الاوروبية ودوخوا البلاد الاسبانية التى كانوا يعرفونها حق المعرفة دربا دربا ودارا دارا .

واشتدت الحروب البحرية فى ايام الاخوين ، وهى

حروب يطلق عليها لفظ القرصنة . فكانت فى الحقيقة من اختراعات الافرنج لا العرب وحتى الكلمة لهم لا يوجد لها مرادف فى العربية انما استعربت فى القرن التاسع الهجرى وكان يسمى من يتعاطاها قرصانا وهم معروفون عند ابن خلدون بغزاة البحر . وقد مهر فيها الاتراك والجزائريون وخصوصا منهم اهل بجايا والجزائر وشرشال ووهران ، وبعد ما طرد الاسبان المسلمين من الاندلس اشتدت تلك الحروب لما كان فى قلب اهل الاندلس النازحين من كثرة العداوة للغاصبين الظلام والانتقام منهم واشهار الحروب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم واموالهم . وكان الاوروبيون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل اكثر . فكانوا يسبون ويقتلون ويفتكون ويسترقون ويبيعون الفىء والاسرى ويرغمون هؤلاء على الاعمال المرهقة وينصرون الرجال والنساء والاطفال اكراها .

وقد قويت شوكة الاسبان بفضل الخيرات التى كانت تتدفق على بلادهم وبفضل السلاح النارى الذى اخترع منذ زمان قليل وسيطرتهم على اميريكا التى اكتشفوها منذ بضع سنوات واخذوا يفكرون فى التوسع فى البلاد الاسلامية كلها ومحو الدين ونشر المسيحية . وكان الاتراك ذوى نفوذ وسطوة يقرا لهما حساب فى الشرق الاوسط واسيا الصغرى والبلقان واليونان واوروبا الوسطى . ومنذ صعود شوكتهم اخذت قواتهم تتصادم مع القوات المسيحية فى البر والبحر وخصوصا فى البحر المتوسط وكان التنافس العنيف بينهما وتجرى الحروب الشديدة سجالا بينهما .

لقد شاع خبر الاتراك فى البحر الابيض المتوسط ابتداء من سنة ١٥٠٣ اذ كانوا يغيرون على شواطىء جنوة وفرنسا واسبانيا وسردينيا ومايورقة ومينورقة واليابسة وفى شرق البحر فى فينيسة وصقلية وقبرص ورودس ونابل وكثيرا ما كانوا يتفوقون على اعدائهم وكونوا اسطولا عثمانيا هاما كانوا يغيرون بواسطته على تلك الاقطار بعد ما ظهر الاخوان باربروسة فعملا باسمهما الخاص او باسم بعض الباشوات الاتراك الذين كانوا يعمرون لهما السفن الحربية . وانفرد الاخوان واخذا يجوبان البحار بجنود جزائريين واهل الاندلس وزنوج ومغاربة وتونسيين وكانا يعملان باسم الجزائر التى اتخذاها عاصمة لهما الى ان استشهد عروج فى حرب قرب تلمسان ضد الاسبان فورثه اخوه خير الدين الذى استمر فى اعماله الحربية البحرية وفاق اخاه فى الشجاعة والعنف والبطش والبطولة و فى الفتك با عدائه الاسبان وعلى كل حال كان ذلك رد فعل من المسلمين على تلك الحركة الجديدة من الحروب . وعزم المسيحيون اثر غارات المسلمين البحرية على احتلال المواقع الحيوية والحساسة لافريقيا كى يضعوا حدا لوطاة المسلمين وخصوصا فى المراسى وامام المدن الكبرى المغربية . لكن استعد لهم الاخوان اللذان حاولا طردهم منها . فاخرجاهم فعلا من الجزائر وبجاية وعنابة وتونس وطرابلس الا وهران والمرسى الكبير . وتقوت شوكه الجزائر وذاع صيتها فى البحر المتوسط واصبحت خطرا على اسبانيا والسواحل الاوروبية فخشيت الكنيسة من سيطرة الاخوين على البحر والقطع على النصارى طرق السفن وامتداد طمعهما على الاندلس والبلاد الاوروبية .



الجزائر فى القرن 16 بالبحر المتوسط

وكان اذ ذاك الامبراطور شارل الخامس المدعو شارل كانت مسيطرا على جل اقطار اوروبا حتى قيل عن مماكه ان الشمس لم تغرب فى ارضه . ورغم قوتـه وكثرة جنوده كان يخـاف من بطش الجزائريين تحت قيادة عروج وخير الدين . فحارب الجزائر مرارا عديدة ونزل بساحلها بفضل الجيوش العرمرمة لاوروبا كلها لكنه كثيرا ما هزم وطرد بعدما كبده الجنود الجزائريون الخسائر الجسيمة وكانت تلك الوقعـات التاريخية فى سنـة 1516 و1518 و1525 والهزيمـة العظمى التى كانت فى الحقيقة مفخرة للجزائر هى تلك الفظيحة التى تكبدها سنة 1541 فى مرسى الجزائر حيث هلك لـه الالاف من الجنود والخيل وغرقت وسببت مات السفن ٠ وكانت الواقعة تحت قيادة حسن اغا واشتهرت بها الجزائر فى العالم كله وحاولت الدول الاوروبية والشرقية ربط العلاقات والتحالف مع الجـزائر . وقد كان نادى السلطان سليمان القانـونى خير الدين لينظم له الاسطول التركى لما نال من السمعة العظيمة فى الامور البحرية وصناعة السـفن حيث أن سليمان كان تحت تهديد شارل الخامس الذى حشد قواته المتحالفة من اوروبـا كلها فبـادر خير الديـن الى اسطنبول وقلد خطة وزارة البحر فنظمها وصنع العدد العديد من السفن الحربية بواسطة صنـاع جزائريين استعان بخبرتهم فى أمور الصناعة البحرية وخرج يغزو مع بحارة جزائريين واتراك . وكان يواجه الاميرال الجنوى الشـهير آندريا دوريا الذى كان

يحارب باسم شارل الخامس . وتلاقى الرجلان المرات العديدة فى البحر المتوسط وكانت الحـروب بينهما سجالا . لم يكن فى الحقيقة امير للبحر اقوى واشجع من اندريا دوريا من بين المسيحيين ، ولذلك اختاره شارل الخامس وحـده عن خدمـة فرنسـوا الاول ليحارب به سفن الجزائر وتركيا • وجرت مصادمات عنيفة بين الاسطولين اشهرها حرب ليبانت العظيمة حيث امتاز المجاهدون الجزائريون ببطولة لا مثيل لها . واذ لاقى الامبراطور قوة لم يستطع تكسيـرها اشهر الحرب الصليبية على الجزائر واقسم باليمين المغلظة انه سيدرس الجزائر درسا ويردها رميما مثلما صنع الرومان بقرطاج . والقى يوما بتاجه على الارض واعدا نفسه ان لا يرده على راسه حتى يحتل الجزائر ويدكها دكا ويخربها ويحولها ركاما من الحجارة والتراب لكن لم يجبه الله الى طلبه بل زاد الجزائريين شدة وعنفا ومدوا يد المساعدة لفرنسوا الاول الذى كان متحـالفا مع السلطـان العثمانى سليمان ضد شارل الخامس وشاركت الجزائر فى الحرب وحاصرت جنودها مرسى نيس التى كانت بيد شارل كانت بعد ما عسكر خير الدين بجيوشه فى طولون وبسـط حكمه على المرسى والمدينة واخذ يحل ويعقد وينهى ويامر الى حد ان منع من دق الاجراس وأمر بالاذان فى أعالى صومعات الكنائس وحاول أن يغير العوائـد الفرنسية ويبدلهـا بأعراف اسلامية . واذ هزمت جيوش الامبراطور توجهت السفن الجزائرية الى الشواطىء الايطالية والاسبانية والجزر الخضراء لمتابعة غزواتها .

ولنقل بهذا الصدد انهلولا الاسـطول التـركى والجزائرى اللذان كانا يستعين بهما فرنسوا الاول فى حروبه ضد شارل الخامس لاستولى هذا على فرنسا وحط فرنسوا الاول الى درجة ملك حقير ينحصر ملكه فى بعض الولايات الفرنسية ، وقد اسدى الاتراك والجزائريون معروفا لفرنسا فى ظرف من الزمان يفوق خمسين سنة تقوى خلاله فرنسوا الاول ونظم جيوشه رد بها جيوش عدوه اللدود حتى طعنت فيه الجماهير المسيحية لتحالفه مع اعداء دينه ضد ملك مسيحى .

ان الاسبان كانوا يشكلون خطرا على الجزائر اذ ذاك من الناحية الدينية والاقتصادية لحلولهم فى المراسى الهامة للجزائر وخصاصا منها المرسى الكبير ووهران ، ولو لا ذلك الاحتلال والقلع والحصون المنيعة التى شيدوها فى السواحل الجزائرية لا عاد الجزائريون الاندلس لاهلها وفرضوا فيها قوتهم . وكانت تلك القلع يكاد الاسبان يتوسعون منها الى القطر كله . والدليل هو انهم وصلوا اثناء غاراتهم الى جبال العمور ومن لطف الله الخفى كان شارل الخامس يحارب فى عدة جبهات بفرنسـا وايطاليا والفاتيكان وفينيزيا واوروبا الوسطى وضد الاتراك العثمانيين المناهضين الاقوياء الذين احتلوا بلاد المجر وحاصروا فيينة وكادوا يحتلون اوروبا كلها ، كما كان شارل الخامس يواجه الثورات باوروبا التى ظهرت فيها اذ ذاك الديانة الجديدة المنحـدرة من المسـيحية وهى البروتيستنيـة . كل ذلـك جعل الامبراطور لم يجب كما كان يريده قواد المرسى الكبير ووهران الى طلباتهم الملحة الاكيدة ليزودهم بالجنود والمؤن والعتاد الحربى ، الامر الذى ارغم الجزائريون

به الاسبان على الانكماش فى مـــراكزهم المحصنة ، لا يخرجون منها الا عند ما يتلقون النجدة والمدد من اسبانيا او ينهبوا من الاهالى المؤن والانعام . زد على ذلك عمليات التمرد التى كان يثيرها الجنود الاسبان المرابطون فى الحصون وكثـــيرا ما كانوا يهـــددون رؤســـاءهم بالفرار الى القبائل واعتناق الاســـلام وبقيت الحالة هكذا حتى طرد الاتراك الاسبان نهائيا من قواعدهم .

وقد منح الله تعالى الجزائر فى تلك الفترة رجالا صناديد بحريين وغزاة كرســـوا حيـــاتهم فى خدمة الجزائر والاسلام ضد الاعداء الذين كادوا يحتلون البلاد لو لا بطشهم وتجلدهم . وضـــحوا بالنفس والنفيس وكانوا يقيمون جل اوقاتهم فى البحر فى الحرب ضد العدو خصوصا منه الامبراطور شارل الخامس الذى تكالب على الجزائر اذ كان يعتبرها كقلعة الاسلام المنيعة فى غربى البحر المتوسط بعد قوة العثمانيين وكان لشارل الخامس عدة امراء للبحر من الرجال المشاهير ايضا الذين واجه بهم الابطال الجزائريين منهم بيدرو نفـــارو الذى احتل بجـــاية والجزائر والمرسى الكبير ووهران واندريا دوريا وولده وغيرهما ، ومن جملة الرؤساء الابطال الجزائريين الذين كانوا يجوبون البحر ، فضلا عن خير الدين وعروج ، نشير الى حسن آغا وطرغد وصالح رئيس وسنان رئيس وجلهم كـــانوا مقربين لدى السلطـــان العثمانى مثل طرغد وصـــالح رئيس اللذين كانـــا يقومان بمهمات خطيرة فى خدمة الخليفة العثمانى .

يعتبر طرغد من ابرع تلاميذ خـــير الدين جعله الطموح وعزة النفس والصرامة يبغى الســـلطة والرئاسة . واذ راى فيه خير الدين تلك الخصال اسند اليه رئاسة اســـطول هام وتركـــه يعثى فى سواحل البلاد المسيحية . فدوخ البلاد المجاورة للبحر المتوسط وخصوصا منها اسبانيا وصقلية وايطاليا متخذا جزيرة جربة قاعدة له واشهر حروبه على الاساطيل الاوروبية التى كان يراسها دوريا فتفرغ له هذا وعزم على وضع حد لهجوماته على الجزر الغربية للبحر المتوسط الذى كان يعتبر دوريا نفسه سيدا عليه . فجند كافة امكانياته ليقبض عليه فاسره قرب قرسيقة ، لكن فداه خير الدين بالمـــال ، الامر الذى ندم عليه الاسبان ، وقال هايدو عن سراحه : لقد سرح طرغد بفديه كلفت المسيحية ثمنا غاليا .

وكان طرغد من اعداء دوريا الذى حاصره سنة 1550 فى ميناء مهدية ففكـــر طرغد فى مكيدة لاتخطـــر بـــال المهندسين الماهرين وهى أن اخرج سفنه كلها على طريق البر بعد ما بسط لها الممر فى الرمل الذى غشاه بالخشب المطلى بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة ، ثم جرها بالحبال واخرجهـــا بسلامة الى البحر حتى ابحرت . وبينما كان دوريا ينتظر استسلام طرغد اذ راى نفسه محاصرا مطوقا من كل جهة باسطول عدوه فهزمت سفنه ورفع الحصـــار وفر هاربا خجلا مذموما فى اعين جنوده ولم يشاهد فى عمره خديعة فى الحرب مثل تلك .

ولايزال طرغد ينتصر على اعداء المسلمين ومن اشهر الحروب التى انهزم فيها العدو قرب جزيرة جربة ضد فيليب الثانى ولد شارل الخامس سنة 1560 ثم حاصر مالطة حيث جرح واستشهد .

ومن الرؤساء الجزائرين الصناديد اذكر ايضا صالح رئيس الذى رفع راية الجزائر عاليا وكان باى البايات بها اى اميرا سماه السلطان العثمانى الذى كان نوتيا فى يخته الخاص يقوده عند خروج الخليفة وحاشيته الى البحر .

وكان ايضا حسن اغا من الرؤساء الماهرين الذين حاربوا شارل الخامس وولده فيليب الثانى وكان الامبراطور يخشى دائما المصادمة مع السفن الجزائرية تحت قيادة حسن لما كان يعرف فيه من الشجاعة المفرطة والوطاة الشديدة والقوة العتيدة . كانت صلابته وعنفه يضرب بهما المثل ويعرف برباطة الجاش خصوصا فى المواقع الحرجة منها هجوم لماردة الامبراطور على الجزائر سنة 1541 بخمسمائة سفينة لاوروبا كلها ولم يفقد حسن شعوره فى تلك الحالة الخطيرة التى لا نقيسها حتى بهجوم الجيوش الفرنسية على الجزائر سنة 1830 .

كما نذكر بطلا جزائريا آخر وهو سينان باشا الذى اظهر الشجاعة المفرطة والاقدام الهائل فى حرب تونس سنة ١٥٣٥ التى استولى عليها شارل الخامس بجيوش أوروبا المتحالفة .

هؤلاء الرجال وعلى راسهم خير الدين قد اذاقوا الامبراطور وابنه سم الحروب العنيفة ولم يتركوا لهما راحة قط حتى اشتد غيظهما وغيظ قوادهما فاعتراهم الفتور بكثرة الانهزامات التى كبدهم الجزائريون برا وبحرا رغم تفوق قواتهم واحست المسيحية رغم انتصارها فى تونس انها عاجزة بتاتا على القضاء على خير الدين والجزائرين . ففكر الامبراطور عند هذا العجز فى فتح المفاوضات مع خير الدين . وذلك بايعاز من مستشريه ومجلس الكورطيس واراد مع عظامته وانانيته ابرام صلح معه ليريح ويستريح . فوجه فى اواخر سنة 1539 سفيرا من السياسيين الدهاة الى خير الدين الذى كان مرابطا فى كورفو بالجزر اليونانية . فاخذ يتردد طيلة شهور ، وكانت شروط خير الدين شديدة وهى استرجاع المرسى الكبير ووهران وغيرها من المراسى الجزائرية والتونسية على ان يكف عن محاربة الاسبان وحلفائهم ويكون صديقا لاصدقاء الامبراطور وعدوا لاعدائه وان يزيل كلاهما القرصنة من البحر المتوسط الذى يصبح بحر تجارة هادى وبحر سلم ، الاسفار التجارية فيه للمسلمين والمسيحين بامان وان يطلق سراح الاسرى المسلمين والمسيحيين وان يكف الامبراطور عن اضطهاد اهل الاندلس ووقع الاخذ والرد بين الملكين وكاد الصلح يبرم لو لم يتعرض له السلطان سليمان بايعاز من فرنسوا الاول الذى خشى ان يعقد على حسابه ويصبح منعزلا حتى يرجع عليه الامبراطور وخفقت المفاوضات واستمرت الحروب .

كانت الادارة المركزية للحكومة الجزائرية بمرسى الجزائر التى كانت قبل ظهور عروج وخير الدين عاصمة للشيخ سالم التومى الثعالبى لكنها توسعت فى عهد الاخوين التركيين ونالت شهرة وصيتا واصبحت عاصمة الولاة الاتراك بصفة رسمية لوقوعها عن شاطىء البحر فى وسط المغرب الاوسط ولحصانة المرفا والبلاد المجاورة لها التى تحجبها سلسلة من الجبال الاطلسية والذرى ذات الاراضى الخصبة . وبجوارها العربان والبرابر الشجعان .

وقال هايدو عن مدينة الجزائر :

« مدينة ذات اهمية وهى غنية وذات عمران وصالحة للقرصنة » .

واصبحت الجزائر تنافس تلمسان وبجاية وغيرهما من العواصم الجزائرية . اســس عروج بها دار السلاح وهيا مرفا هاما لارساء سفنه دون غيره واخذ يغير منه على السواحل الاسبانية واول من راى انها حصن منيع لايوجد مثله فى شواطىء البلاد هو عروج لوقوعها فى ارض مرتفعة يسيرة الحماية ومشرفة على البحر ومرفؤها منيع جـدا يعسر على العدو الاستيلاء عليه . وقد زادها خير الدين حصانة بتشييد الاسوار العالية ومواصلة الجزيرة التى كانت حصنا للاسبان باليابسة ، الامر الذى زادها مناعة . وكانت المدينة عاصمة لسالم التومى الذى كان اميرا على الجزائر قبل ظهور عروج . فقد وصفها عدة مؤرخين مثل ابن حرقل والبكرى والحسن الوزان والادريسى وكلهم متفقون على غزارة مياهها الغذبة وثروتها الواسعة وطيب الحياة بها وحسن مينائها ونفاد تجارتها مع الخارج واسواقها العامرة . كل ذلك قد اعان على انها لعبت دورا هاما فى وقت الاتراك لا لاجل اتخاذهم اياها كوكر للقرصان فحسب بل لخيراتها الطبيعية التى كانت تجعلها مركز تجارة رابحة . وكانت بها ايضا فى ذلك العهد الـزاهر صناعات نافقة تصدر المصنوعــات لداخل البلاد ولخارجها . فجعلتها تلك الخيرات المتدفقة تضاهى بها تلمسان وبجاية وشاعت سمعتها واخذت تعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الاندلسيين فى القرن الخامس عشر مع من كان فيها من السكان البربر ايمازيغن والعرب المعاقل الثعالبة وغيرهم واليهود البربر الاهالى الذين كان يسميهم اليهود الاجانب اليهود العرب .

اما المهاجرون من الاندلس فاتوا خصــوصا من الجزر الخضراء ميورقة ومينورقة واليابســة ومن الثغور المجاورة للممالك المسيحية لكاستين وليون وارغون .

وكانت التجارة بها بيد المسلمين واليهود وحتى النصارى وخصوصا منهم الفرنسيون .

وزيادة على عدد السكان المشار اليهم اعلاه كان عدد مرتفع من الاسرى المسيحيين يختلف على حسب الحروب البحرية التى كانت تشهر من طرف الرؤساء القراصنة وانتصاراتهم واخبر هاييدو بــاقصى عدد منهم وهو 25000 كانوا يشتغلون بجنــات الاعيان الجزائــريين . وكان يعيــش بالجزائر اوروبيــون يشتغلون فى القنصليات من قناصل وكتاب وسماسرة وتجار مقيمين فى المدينة او مشتغلــين فى الموانىء الاوروبية كانت لهم دكاكين وفنادق يضــعون فيها سلعهم ويتجرون فيها ويشترون الرقيق والســلع المأخوذة فى الحروب . وكانت الحيــاة فى الجزائر رغدة توجد البضائع بكثرة وبثمن زهيد حيث انها ترد من الخارج اما بصفة شرعيــة واما انها تاتى من السبى . وكانت الحركة التجارية فى المدينة مهمة ، كان كل صاحب مال يشارك فى تجهيز وتسليح السفن الحربية فيدرله ذلك نفعا له بالعند رجوع السفن مظفرة سالمة غانمة ملآنة سلعا ورقيقــا ويبــاع كل ذلك فى ســوق واقعة فى وسط المــدينة تســمى « بابيستان » وهى عبارة عن ميدان متسع مسقف مركب من اروقة يختص كل رواق بنوع من البضـاعه .

وجل السلع كان يشتريها اليهود وخصوصا منها الذهب والفضة والاحجار الكريمة وانواع الخمور والكحول واللحوم المقددة المحجوزة فى السفن الحربية المسيحية ، تلك البضائع التى كان المسلمون يحرمون على انفسهم الخوض فيها .

وكان اليهود ماهرين فى التجـارة محتكرين جلها فيصدرونها الى البلاد الاوروبية وخصوصا ايطاليا . وكانت لهم مدينة ليفورن تحت سيطرتهم مستحوذين فيها على التجارة والصناعة . فكانوا يسمون يهود قرانة اى اهالى ليفورن او يهود النصارى ، كما كانوا يكنونهم او يهود الافريج .

وكانت لهم فى المدينة المذكورة الفنادق والمخازن الهامة التى كانوا يضعون فيها السـلع الواردة من الجزائر والمقتنية باثمان زهيدة حيث انهم لا يجدون فى البابستان اى منافس من المسـلمين فيبيعـونها باسعار باهضة فى اسواق اوروبا منتهزين الفرص ومحصلين من تلك المعاملات على الارباح المضاعفة وكانت السفن العديدة تحت ملكهم الخاص يشحنونها ببضائعهم وبضائع المستاجرين وكانوا يعمرون ايضا السفن الحربية ويسلحونها لاجل تعاطى القرصنة بواسطة رؤساء جزائريين وكانوا محتكرين التجارة الخارجية مع بعض التجار المسلمين والمسيحيين .

كانت تجارة الجزائر مزدهرة فى القرن السادس عشر تدر لبيت المال الارباح الهـامة بحيث ملأت الخزينة بالنقود من الذهب والفضة وكانت الزكوات تدخل بدون صعوبة لبيت المال لكثرة الانعام من الظان والبقر والبعير ولنفوذ السلطة وكات الفلاحة مزدهرة تصدر المنتوجات الفـلاحية للخـارج من الحبوب والخضر والفـواكه والتمـور والزيت والعسـل والشمع وكانت السفن التجارية ترد على المرسى وتصدر منه الى تونس ومرسيلية ونـابل وجنوة وليفورن وحتى الى اسبانيا عند ما كانت الهـدنة سائدة بين تلك الدول والى طرابلس والاسكندرية وتركيا وفرنسا والمغرب .

وقد ادركت الجـزائر اذ ذاك الاهمية العظمى والسمعة البعيدة التى لم تدركها فى اى وقت من قبل وشاع صيتها فى البحر المتوسط بحيث كانت الدول تتنافس للتصالح ولربط العلاقات التجارية والاتفاقات الحربيـة معها . وتحولت تجارة تلمسـان والغرب الجزائرى الى مرسى الجزائر لخمول تلمسان بسبب استيلاء الاسبان على وهران والمرسى الكبيـر اللذين بفقدانهما اضمحلت تجارة البلاد الغربية وتحولت الى الشرق وانحطت سلطة الملوك الزيانيين .

واللغات التى كان يتكلم بها الناس بالعاصـمة الجديدة هى العربية والبربرية والتركية وبرطانة هى مزيج من الفرنسية والاسبانية والايطالية كمـا اخبر بذلك الراهب دان وكـانوا يسمونهـا اللغـة الافرنجية LINGA FRACA .

ان خروج الجزائريين الى الحروب فى البحر والبر تحت قيادة الاتـراك كان فى الحقيقـة ردود فعل المسلمين المغاربة على طرد النصارى اهل الاندلس وعزمهم على احتلال البلاد الافريقية ، وقد اوقفوا مع الاتراك والحق يقال الاسبان وحتى البرتغاليين من الانتشار فى افريقيا وارغموهم على المكوث فى الشواطىء الى حد انهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد وحتى انهم كانوا مسيطـرين على وهـران والمرسى الكبير وغيرهما كانت اقامتهم تقلقها غارات

الجزائريين . وكانت حصـــونهم محمية جدا يلزمهم الدفاع عنها مصاريف طائلة وتجنيد عدد عديد من الجيوش الاسبان والاهالي المدعوين عرب الســـلم

كان الجيش الاسباني دائما على حذر وبالمرصاد حتى ضاق بهم المقام واضطروا الى مغادرة البلاد الافريقية بفضل الضربات التي كانوا يتلقـــونها من جيوش الجزائر . ولو لا تلك الضربات القاســية لانتشرت المسيحية بافريقيا اذ اشهر الاسبان على افريقيا حربا صليبية من طراز جديد قليلا ما يذكرها المؤرخون الاجانب لانها كانت ذات صبغة دينية ضد الاســـلام .

اذا امعنا النظر في حالة الجزائر في ذلك العصر وجدنا ان تدخل بنيها والاتراك كـــان له تاثير عميق في توحيد بلادنا التي كانت تسودها الفوضى والتفرقة فوحدوها وجمعوا شملها وازالوا الممالك والطوائف العديدة التي كانت تزاول النفوذ بالجزائر وتفرض الغرائم الثقيلة على الشعب وقـد اعطــوا الجزائر الاستقرار اللازم النسبي لذلك العصر سمح في تضميد جروحها ووضعوا حدا للتقلبات التي كانت تثيرها الحروب المدنية والفتن . كما احبطوا اطماع الاسبان الذين كانوا على وشك السيطرة التامة على الجزائر والبلاد المغربية الاخرى .

وقد اعانوا الملوك السعديين المغاربة على طرد البرتغاليين من الساحل المغربي وكان لهم النصيب في الهزيمة التاريخية الشنعاء التي كبدتها الجيوش المغربية للقوات البرتغالية بوادي المخازن سنة ١٥٧٨ المدعوة بمعركة الملوك الثلاثة حيث هلك ثلاثـة ملوك لقد عرقلت والحق يقال الحروب المدينة التي كان شارل الخامس يواجهها باوروبا ، محاولات الاسبان في الاستيلاء على افريقيا ، كما اخر تعنت فرنسوا الاول ذلك الاحتلال وقد قال عنـــه حاكم وهران الاسباني في تقريره للامبراطور المؤرخ في غشت 1536 : « ان لم تستطع جلالتكم القيام كما ينبغي بالحرب الصليبية المقدسة التي كنت اشهرتهـــا على الكفار (يعني المسلمين) فكان السبب في ذلك ملك فرنسا . فاننا نتالم لذلك اذ نعلم اننا كنا نعمل هذه السنة امورا هائلة بافريقيا » .

فعلا كان من حسن حظ افريقيا وحتى تركيا الخلاف الخطير القائم بين الدول الاوروبية رغما عن محاولات الكنيسة في وضع التوازن بين الملوك . ومن لطف الله الخفي ان نشبت تلك العداوة التي جعلت الاتراك والجزائريين مستريحين نسبيا رغم الضربات التي كان يعطيها الاسبان لافريقيا ليشتت شملها ويفرق بين امرائها ويضرب الواحد بالاخـــر ويزرع الفتنة والتشويش .

نعم لقد امتاز الحكم العثماني بالجزائر بالشدة والقساوة ماديا وادبيا لكنه رغم ذلك ترك لنا تراثا لا يستهان به في هذين الميدانين فانه فوق كل شيء رفع عاليا راية الجزائر التي ابعدت الاســـتعمار الاسباني واحبطت مطامحه وحمت على الاســـلام وآزرت السلطان سليمان القانوني وقضـــت على اساطيل اوروبا المتحالفة لكنها هيات الجو باعمـــال القرصنة للاستعمـــار الثاني العصري الذي ذاقت بلادنا اكثر من غيرها مرارة سمه وذلك لانك رايت بلادنا قد غلت دون غيرها في الاعمال الحربية البحرية وجدها في الحقيقة الاتراك مستعدة لذلك النوع من الحروب لانه شاهد عند اسلافنا بعض الاخلاق المتشابهة باخلاق الاتراك .

الحــق

ماأجدرَ الحقَّ أن تُحنى الـــرؤس لـه
وأن يُشال عـلـى الأَعناق كالعلَــم
الحق ثـوبٌ تعالَى اللَّه نـاسِجُـــه
تبَّتْ يدَا كلِّ عاث فيـه بالجَلَـــم
فملْ الى الحق في الدنيا تُصب أمَــلا
يُنسيكَ ما قد يَشُوبُ الحقَّ من ألــم
وكن على البَغْيِ حرْبًا لا تكن سَلَمــا
فالنصر للحرْب ليس النَّصرُ للسَّلَـم
لاتخشَ سيفًا من الباغي ولا قلَمًــا
فغـارةُ اللّـه فـوق السيف والقلــم
الظُّلم فيِ الأَرض سارٍ كالظلام بهــا
وكاشفُ الظُّلْم فيها كاشف الظُّلَــم

من ديوان محمد العيد

الاحتلال الفرنسي للجزائر

ومقاومة الشعب فى الميدان الروحي

المهدي البوعبدلي

كان عهد الاحتلال الفرنسى طيلة مدته سلسلة احداث متتابعة ومجددة للحروب الصليبية ، فكانت غايته افقار البلاد وتجهيلها ، ثم تنصير السكان او ادماجهم فى العنصر الفرنسى .

واننى فى هذا المقال ساتحدث بايجاز عن تاريخ مراحل هذا الاحتفال ، كما اتناول بالدراسة المفصلة مواقف الامة ودفاعها على اهم ما كانت تعتز بـه ، وهو عقيدتها الاسلامية ، ذلك الدفاع الذى ارغم المحتل الغاصب نفسه ، الى الاعتراف بفشله الذريع فى هذا الميدان ، وساقسم حديثى هذا على ثلاثة فصول :

ـ الفصل الاول : الاحتلال الفرنسى فى اول عهده وما اعقبه من مظالم ، ثم ظهور المقاومة .

ـ الفصل الثانى : افتكاك الاراضى ومحاولة التنصير .

ـ الفصل الثالث : تنهيه الى قيام الحرب العالمية الثانية سنة 1939 م .

لا أحدثكم عن الاحتلال وأسبابه ، فمجال هذه المحاضرة الضيق ، لا يسمح لنا بذلك ، وانما نذكر بعض نتائج هذا الاحتلال مباشرة .

ان المعاهدة التى حررها الماريشال دوبورمون قائد الحملة الفرنسية ، ووقع قبولها من حسين داى ، كانت تشتمل على ستة بنود أهمها اثنان :

البند الذى يشمل احترام الداى وأسرته ، والتعهد له بحماية السلطات لشخصه وماله وافراد اسرته، والبند الذى ينص على احترام الدين الاسلامى والمحافظة على حريته ، كما تحترم حرية جميع طبقات السكان وديانتهم وأموالهم ، وقد تعهد دوبورمون بشرفه لهذا الالتزام .

لم يمر على احتلال البلاد الا أسابيع قليلة حتى نقضت هذه المعاهدة ، فأول شىء قام به الجيش الفرنسى هو اسكان الجيش المحتل المرابط بالعاصمة ، وكان عدده يربو على الخمسة عشر الف جندى ، أسكن هذا الجيش بمعظم الدور والمحلات التجارية بل حتى المساجد والقصور .

كان عدد المساجد التى أممت لهذه الغاية أربعين مسجدا ، وعدة معاهد ، معظمها بحومتى باب الوادى وباب عزون . لم يكتف الجيش المحتل بتسخير هذه المساجد والمساكن ، بل شرع فى تهديم البقية ، تحت ستار اصلاح البلدة ، وتوسيع شوارعها فكانت النتيجة الاولى من هذه التصرفات انه لم يمر عام واحد على الاحتلال حتى خربت جل المساكن ، اذ نرى أن الجنرال اعترف فى تقرير رسمى بعثه الى السلطات العليا بباريز ، اعترف بخراب تسع مائة دار فى هذه الفترة ، ومن جهة أخرى ذكر الحاكم المدنى فى بعض تقاريره ما يلى : «اننى لم أجد الا مسكنين عربيين نجيا من التخريب ، انهما كانا مسكنين لضابطين من درجة جنرال ، فلو سكنهما الجند لما بقى منهما شىء ، وللحق الخراب فيهما حتى خشب السقوف ، وكذلك أشجار الحدائق كالزيتون والبرتقال والتين، فان معظمها تلهبه نيران المطابخ .

انه لمنظر محزن هذا الذى نشاهده ، وان هذه الدور التى نشاهد آثارها الدالة على انها كانت جميلة جدا كثيرة ، فاننى حسبت فى مسافة تتراوح بين أربع وخمسمائة خطوة ، نحو العشرين دارا خربت ، ان مساكن بيرمندراس وبير خادم وغيرهما من مساكن الفن كلها لحقها الخراب ، اللهم الا دارين أو ثلاثة، لم يبق منها الا بعض السبائك من النحاس والحديد يحملها الجندى عند ما يذهب الى المدينة فيبيعها للتجار اليهود ، الذين يبيعونها بدورهم الى تجار الآثار ، وهم يصدرونها الى مرسيليا أو ليفورن ، (Livourne) اهـ كلام Pichon

كان معظم المساجد التى هدمت بدعوى تخطيط البلدة وتوسيع شوارعها الضيقة ، ما بين ساحة الشهداء الحالية ، وثانوية الامير عبد القادر (أى سفح ضريح الشيخ عبد الرحمن الثعالبى) .

واذا بقى الى الآن المسجدان الحاليان المالكى والحنفى ، فذلك يرجع الى معجزة ، اذ بذل المخربون



المقاومة الروحية والاحتلال

جهودا جبارة لالحاقهما ببقية المساجد المهدومة وهذا تقرير آخر للحاكم المدنى Pichon أرسلـه فى الموضوع الى رئيس الحكومة الفرنسية قال فيه : « اننى بمجرد وصولى وشروعى فى العمل سمعت بأن اللجنة المكلفة بالمحلات العسكرية لم تهتم بشىء مثل اهتمامها بالاستيلاء على بقية المساجد ، ان كثيرا من المسؤولين هنا لم يبالوا بنظر الحكومة فى الموضوع ، فهم يريدون القضاء على بقية المساجد وعلى الدين الاسلامى ، واننى عند ما أجتمع ببعضهم يقابلوننى بالسخرية والتهكم ، ويصارحنى بعضهم بأن محاولاتى فى الدفاع عن المساجد وعمارها ستبوء بالفشل ، واننى على كل حال لم أبال بحكم هـؤلاء الجهال ، بل هناك رؤساء ، هم الذين أهتم بأحكامهم على تصرفاتى ، كنت أنتظر الاتصال باللجنة المكلفة باسكان الجيش اذ أراها تؤمم المساكن ، وتسكن فيها الجيش وعند خرابها لم تحاول اصلاحها ، بل كل ما تفعله هو التفتيش من جديد على محلات أخرى صالحة للسكن ، وهذا ما لفت نظركم اليه مرارا ، وقلت لكم انه ينذر بسراع الخراب الى كامل المدينة ، ان لم يجعل لهذه التصرفات حد ، كما أخبركم بأن أعضاء اللجنة يريدون القضاء على المسجدين العظيمين المالكى والحنفى بدعوى انهما اذا تمرد السكان يجدون فيها ملجأين هامين,وتناسوا أن المسجدين يوجدان تحت أفواه ونيران مدافع القصبة ، والبواخر الراسية فى الميناء » الخ . . .

اهـ تقرير Pichon

وانـا اذا أحصينا المساجد التى هدمت أو حولت الى كنائس أو مخازن ، لما وسعنا مجال هـذه

المحاضرة ، وهي بحمد الله مسجلة واحدة واحدة ، ومعظمها كان لها ريع ممتاز ، اذ لم تكن المساجد اذذاك مقصورة على أداء العبادات فقط ، بل كانت معاهد علم فيها حلقات الدروس العلمية ، ثانوية وعالية ، ودروس الوعظ والارشاد والتوجيه للعوام ولم يخل مسجد من كتاتيب قرآنية وخزائن كتب فى مختلف الفنون ، وقد كانت مساجد الجزائر ومعاهدها تمتاز بوفرة الريع ، حيث كان الغزاة يسهمونها حصصا هامة من غنائمهم ، وقد حفظ لنا التاريخ بعض وثائق أحباس الجامع الاعظم بالعاصمة ، فكان ما صرف من الزائد على المصاريف اللازمة فقط ، يقدر بمآت الملايين فى العصر الحاضر، اذ لا يخفى على حضراتكم ان التعليم اذذاك بجميع مراحله ابتدائى ، وثانوى ، وعالى ، ودور الكتب ، والمستشفيات ، والتكايا ، التى يلتجىء اليها عابرو السبيل ، والفقراء والمساكين كانت مصاريفها من ريع الاحباس .

هذا فيما يخص المساجد والمعاهد العلمية ، اما القصور ، فكان عددها يربو على الستين ، وقد بقيت منها بقية الى يومنا هذا ، تدل على أن ما تبارى فيه كثير من كتاب الجزائر ، وأدبائها فى وصفها ، لا مبالغة فيه ، ومازال التاريخ يحتفظ لنا بقطعة رائعة نظما ونثرا للاديب الشهير الشيخ سيدى أحمد ابن عمار المستغانمى الاصل الجزائرى المنشأ والدار ، صاحب الرحلة المشهورة ، وصف بها قصر عبد اللطيف الذى مازال الى يومنا هذا ، كان هذا القصر فى عهد الاستقلال الفرنسى مقرا للفنانين الرسامين ولنكتف بما وصف به أحد الضباط الفرنسيين المشهورين قصرا آخر كان مصيفا لحسين داى ،

قال الجنرال لاموريسيير يصف هذا القصر الذى سكنه ما يلى :

Le pays où nous sommes est délicieux. L'air est embaûmé du parfun des jasmins, des géraniums et des roses. La maison que j'occupe est à 200 pas de la mer. C'est un lieu de plaisance du dernier Dey d'Alger.

Partout des bassins de marbre, des jets d'eau, des fontaines vives.

C'est là au milieu des merveilles de l'art, de la nature et de l'appareil militaire de mon camp que, matin et soir, je prends mon café et fume ma longue pipe.

ان الجزائر كما ذكرنا كانت لا تقل مكانتها فى العلم والحضارة عند احتلال الفرنسيين لها ، على بقية عواصم العالم الاسلامى اذذاك ، خلاف ما يتبجح به بعض المغرضين أو الجهال ، وان ما وصفها به كثير من العلماء والرحالين مسلمين وغير مسلمين الذين وردوا عليها فى مهمات دبلوماسية او سياحية لدليل على ما ذكرناه .

لم يقتصر نقض المعاهدة على هذا القدر ، بل عزز بتشجيع التنصير ، فعلاوة على تحويل بعض المساجد كنائس كجامع كتشاوة وجامع على بتشنينى وجامع على خوجة ، فان سلطات الاحتلال حكمت بالنفى والابعاد على أعظم شخصية دينية اسلامية ، اذ اتهم الماريشال دوبورمون العلامة الشيخ محمد ابن محمود المشهور بابن العنابى المفتى الحنفى، بالعاصمة ، اتهمه بمحاولة التمرد ، والدعوة الى الثورة فحكم عليه بالنفى ، فاختار الاسكندرية ، وأسندت اليه الحكومة المصرية نفس الخطة ، وبقى مفتيا

بها الى أن توفى ، وقد كان من كبار رواة الحديث، ومازالت آثاره وبقايا أسرته ، الى يومنا هذا بالقاهرة والاسكندرية .

ثم وقعت واقعة فى عهد الجنرال فوارول الذى خلف الماريشال دوبورمون اهتم لها السكان لاول مرة واظهروا سخطهم واستياءهم علانية . وتظاهروا وذلك عند ما حاولوا تنصير امرأة مسلمة ، ولما احتج القاضى على هذه التصرفات عزل وعينوا آخر خلفه ، وعند تنصيب الخلف اجتمع السكان بالمحكمة وتظاهروا ، ومنعوا التنصيب ، فكان هذا أول انفجار ضد تصرفات الاحتلال من طرف الشعب ، وابتداء من هذه الحادثة ظهرت مقاومة الشعب جلية ، وانقسمت هذه المقاومة الى قسمين : قسم النخبة ، وقسم العامة .

فمقاومة النخبة كان على راسها العالم الشهير السيد حمدان بن عثمان خوجة ، وكان ميدان عمله الاوساط البارزية ، أى أوساط الصحفيين ، والكتاب الاحرار ، والنواب الجمهوريين .

أما العامة فكانوا يقومون بالمظاهرات والاحتجاجات الصاخبة ، والشكاوى التى تؤيد رأى النخبة .

والحديث عن هذه المقاومة بتفصيل لا يسعه أيضا مجال هذه المحاضرة ، وانما لا يفوتنا أن نذكر ما سجله السيد عثمان خوجة فى تاليفه القيم « المرآة » LE MIROIRE الذى هو عرض حال قدمه للجنة البرلمانية التى أرسلت من فرنسا للبحث ، اثر احتجاجات ومساعى حمدان بن عثمان خوجة ورفقائه ، بعد صدور قرارى الجنرال CLAUZEL المؤرخين فى 10 جوان وفى 8 سيبتمبر 1831 .

هذان القراران هما اللذان صادر بهما الجنرال Clauzel املاك الدولة ، والاملاك الخاصة للاتراك المهاجرين ثم البقية الباقية من الاحباس .

كان لهذين القرارين صدى استياء فى كل الاوساط الاسلامية ، اذ هو نقض صريح للمعاهدة، وقد تأثر منه حتى بعض الاحرار الفرنسيين كالمؤرخ الشهير Pellissier de Reynaud صاحب تاريخ حوليات الجزائر (Les Annales Algériennes) قال المؤرخ المذكور : «ان شروط الاستسلام ديست بالاقدام ، وعار على دولة دخلها مائتان وألف مليون فرنك عار عليها ، أن تجرد عائلات فقيرة من مكاسبها ضد كل القوانين الالهية أو الانسانية ، وهذا نص ما ذكره المؤرخ :

«Depuis la prise de la ville d'Alger, beaucoup de maisons particulières étaient occupées militairement, d'autres étaient démolies pour l'élargissement des rues et l'établissement de quelques places publiques.

Par un arrêté du 26 octobre, le Général Clauzel promit des indemnités aux propriétaires dépossédés et y affecta les immeubles du domaine. Cette mesure juste et humaine ne fut pas mise en exécution, un odieux esprit de fiscalité prévalue sur les règles de la justice et de l'honneur.

Une nation dont les revenus s'élevaient à 1 200 millions fit banqueroute à des pauvres familles qu'elle avait dépouillées contre toutes les lois divines et humaines.
toutes les lois divines et humaines».

ذهب حمدان عثمان خوجة الى باريز فى أوائل ماى 1833 فالتحق ببعض مواطنيه الذين نفاهم Le Duc ROVIGO منهم بوضربة وأولاد ابن تركية وابراهيم بن مصطفى باشا وكانت الاوساط البارزية تطلق عليهم اسم L'inteligenta

وبالفعل اتصلت هذه النخبة بالشخصيات الباريزية وأطلعتها على مثالب الحكم العسكرى . وكانـــت الجريدتان اليوميتان بباريز(Le National) الوطـني. وبريد فرنسا (Courrier de France) تنشران سلسلة مقالات تبين فيها فضائح العسكريين بالجزائر وهتم لهذه الحملة الصحفية الرأى العام الباريـــزى الذى أيد مطالب النخبـة فى ارسال لجنـة بحث برلمانية . وعينت بالفعل هذه اللجنة فى 7 جوليت 1833 . كما أيد سكان عاصمة الجزائر مطالب النخبة ووقعوا عرائض وكلوا فيها السيد حمدان بن عثمان خوجة للدفاع عنهم ، والتكلم باسمهم . وهـذه هى الاسباب التى دعت السيد حمدان خوجة لتاليـف كتابه القيم «المرآة» ، حتى يستعين به أعضاء لجنة البحث البرلمانية . ذكر فيه بتفصيل حالة البـلاد الجزائرية ، قبل الاحتـلال الفرنسى ، ثم ظـروف الاحتلال ، والمعاهدة المتفق عليها من الجانبـين الجزائرى والفرنسى ، ثم تعرض للفضائح الـــتى ارتكبها الفرنسيون العسكريون فى مدة الثـلاث سنوات ، وختمه بقوله : « ان الجيش الفـرنسى صادر الدور والمنازل وحطمها ، كما أفسد الحدائق وجرد السكان من ممتلكاتهم وأثاث منازلهـم ، ان تصرفاته كانت سببا فى هجرة الاغنياء ، وارجـاع الفقراء الى التسول ، ان شروط المعاهدة نقضـت فالدين الاسلامى والعوائد الاسلامية لم تحتـرم ، استولوا على المساجد ، وأمموا الاحباس ، ونبشوا القبور ، ولم يحترموا حتى عظام الاموات . ان نهب الاموال وهدر دماء الرجال وارتكـاب الجنـايات فى الاموال والانفس ، هذه الاعمال هى التى تقع الآن فى الجزائر . ان النفيان ومصادرة الاموال هما كل حظنا من الدستور ، واننا نعد أنفسنا سعداء ان لم يلحق قرار آخر باستئصال الجزائريين ، ان ممثلى فرنسا مسؤولون عن هذه الاحداث ، فمنذ ثلاث سنـوات لم يظهر لنا حكام الجزائر الا الغطرسة والانانيـة والتعامى ، انهم ساعدوا المتملقين من الاهالى واليهود والمسيحـيـين .

ثم بين بتفصيل جميع ما لحق الجزائر طيلـة السنوات الثلاث التى أعقبت الاحتلال ، ومن جملة هذه الموبقات اجبار كثير من السكان المسلمين على تطليق زوجاتهم ، ثم ختم تأليفه بعرضه للحل الوحيد للقضية ، وهو الاقتداء بما فعله نابوليون الاول بمصر حيث كون حكومة محلية مصرية . وصرح حمـدان تصريحه المشهور وهو : «ان الجزائر للجزائريين»

نكتفى بهذا القدر الذى يبين لنا ان الجزائريـين لم يقابلوا الاحتلال الفرنسى كما اتهمهم كثـير من الكتاب من انهم تسابقوا بعد الاحتلال الى التعـاون مع المحتل ، بل قاوموا بكل امكانياتهم وطاقاتهم ، هذا بالنسبة لسكان العاصمة فقط أما خـــارج العاصمة فكانت المقاومة بالسلاح وكانت العاصمة فى شبه حصار والقائمون به هم الزعماء الابطـال، ابن زعمون والسعدى وسيدى على مبارك ، هـــذا علاوة على مقاومة الامير عبد القادر بعد ، وكـــانت مقاومة الشعب الغير المسلحة لها أثر عميق .

الفصـــل الثـــانى :

ان الحديث عن الامير عبد القادر ، ومقاومتـه طيلة سبعة عشر سنة معروف لدى الجميع ، وقـد قتل بحثا على حد تعبير المعاصرين ، وخصصـــه

الكتاب بالتآليف ولم يوجد فى الجزائر من لم يتصوره اجمالا أو تفصيلا . ولهذا لم نتعرض له فى هـذه المحاضرة التى خصصناها للمقاومة فى الميدان الروحى .

بمجرد ما أنهت فرنسا الحرب مع الامير عبد القادر ، أعلنت الحرب على القبائل الصغرى بما فيها جبال بابور ، فدامت من سنة 1849 الى 1852 . ثم أعلنت الحرب على القبائل الكبرى سنة 1853 فدامت الى سنة 1857 وكان أكثر الناس مقاومة أو تحريضا عليها أتباع الطريقة الرحمانية التى كان يتزعمها اذذاك الشيخ محمد المهدى السكلاوى البراتنى ، شيخ الزعيم الشهير محمد أمزيان ابن الحداد ، بطل ثـورة 1871 .

لما استولى الفرنسيون على بلاد القبائل هاجر الشيخ المهدى السكلاوى الى الشام على رأس وفد من تلامذته ، وخلف على رأس الطريقة الرحمانية الشيخ محمد أمزيان ابن الحداد . عند ما انتهت المقاومة فى بلاد القبائل صادرت الحكومة الفرنسية جميع أراضى المجاهدين وفرضت ضريبة حربية على نحو 45 قرية ، وكان مقدار هذه الضريبة ، يتراوح بين 15 ألف فرنك و 570 ألف فرنك للقرية الواحدة وألقى القبض على كثير من الرؤساء من جملتهم المجاهدة الشهيرة السيدة فاطمة ، فقد سجنت بتابلاط فى زاوية الشيخ الطاهر بن محيى الدين باشاغا بنى سلمان ، برفقة اخوتها : السادة الطاهر ابن أحمد أومزيان ، ومحمد ، والشريف ، وبقية افراد أسرتها ، البالغين ثلاثين نسمة . كان الفرنسيون يسمون هذه المجاهدة بنبية الجرجرة La Prophetesse de Djurdjura ورغم القاء القبض على المجاهدة وسجنها بقشلة عسكرية ، فان الشعب القبائلى بقى وفيا لها وفاء حير عقول قادة الجيش الفرنسى ، حيث أحصى بعضهم عدد زوارها فى يوم واحد بثلاث مائة بين رجل وامرأة . كانت هذه الزعيمة من تلامذة الشيخ المهدى السكلاوى السابق الذكر .

وعند ما فرضت فرنسا نفوذها على البلاد ، وشرعت فى تتبع خطة التوسع ، وتجريد السكان من أراضيهم ، وتغيير القوانين الدينية وفرنستها ، ارتطمت بثورات متكررة ، ففى سنة 1849 وقعت ثورة الشيخ أبى زيان المشهورة فى التاريخ بثورة الزعاطشة ثم ثورة بنى يمل سنة 1850 ومات أثناءها الجنرال Barral ، عند ما حاول تخطيط وتعبيد الطريق بين سطيف وبجاية ، وثورة ابناء سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى سنة 1864 ، وثـورة المقرانى وصهره الشيخ ابن الحداد سنة 1871 ، ثم ثـورة بوعمامة ، وثورة سيدى الازرق بفليتة ووانشريس ، وثورة مروانة بالاوراس ، وثورة بنى شقران ابان الحرب العالمية الاولى ، كل هـذه الثورات كانت تحت قيادة رجال الدين الاسلامى ، مما ترك أحد المؤرخين الفرنسيين يصرح بأن الفرنسيين لقوا المقاومة عند السكان العرب والقبائل ، أما الاتراك فان نفوذهم تقلص بمجرد احتلال الجزائر ، والسكان الاصليون من عرب وبربر الذين لم يخضعهم الاتراك ، هم الذين قاوموا الفرنسيين ، والعجب أن هؤلاء السكان ليست لهم وحدة ، وكانوا دائما يحاربون بعضهم بعضا ، فالرابطة الوحيدة التى تجمعهم هى الدين .

Les Français ont eu comme adversaires, non les Turcs, dont la puissance s'était effondrée avec la prise d'Alger, mais les Indigènes, Arabes et Kabyles que les Turcs eux-mêmes n'avaient qu'incomplétement soumis.

Ces populations ne formaient pas une masse homogène, mais se partagaient en une multittude de groupement sans cohésion et souvent en lutte les uns contre les autres. Le seul lien qu'il y eut entr'eux la religion.

كان الخلاف اذذاك قويا بين المدنيين والعسكريين الفرنسيين الذين وان كانوا متفقين على اخضاع المسلمين وقهرهم ، الا أنهم اختلفوا فى وجهات النظر ، فالمدنيون كانوا يميلون الى نشر الحكم المدنى ليستولوا على البقية الباقية من الاراضى التى بقيت تحت تصرف المسلمين . أما العسكريون فكانوا يرون أن بقاءهم حكاما ، يتصرفون كيف شاءوا ، يتمتعون بالجاه والمال ونشوة الحكم ، هو مرتبط ببقاء الاوساط الاسلامية والحكم العسكرى،فان دخلهم المعمر المدنى ضاع لهم الحكم،وكان غلاة المثقفين من رجال الكنيسة والتعليم ، والقانون يديرون خطط الاندماج والتنصير ، او اخلاء الارض الصالحة من سكانها وابعاد هؤلاء السكان الى الجبال والصحارى ، فعندئذ ظهرت مسغبة سنة 1867 المشهورة عند السكان بعام الشر . فاستغلها بصفة دنيئة الصليبى المشهور الكاردينال Lavigerie الذى عين اذذاك أسقفا على راس كنيسة الجزائر ، وكان يتمتع بنفوذ عظيم فى الاوساط العسكرية ، واليمينية، وكان من جملة أنصاره الماريشال Niel وزير الحرب بباريز ، و Baroche وزير الاديان .

كان الكاردينال Lavigerie بمجرد توليته على كنيسة الجزائر لم يخف نواياه ضد الاسلام والمسلمين ، فأول تقرير أرسله فى الموضوع قال فيه :

« ان ادخال الاهالى للديانة المسيحية واجب مقدس ينبغى أن نرقى هذا الشعب . ولنضرب صفحا على غلطات الماضى ، فاول ما يجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم وبين القرآن . بدلا من غلطات اخرى كاحياء مملكة عربية . ينبغى لنا على الاقل ان نهتم بالصبيان،فندخل فى عقولهم تعاليم جديدة ألا وهى تعاليم الانجيل . فبعد ذلك يمكننا الاختلاط بهم والا فلنبعدهم الى الصحراء . بعدين عن الشعب المتمدن » .

كان ضحايا هذه المجاعة اى مجاعة 1867 ما يزيد على موت ثلاث مائة الف جزائرى . بين الرجال والنساء والصبيان . ثم كان زلزال البليدة ، ووباء الكوليرا . فاستغل الكاردينال هذه الظروف القاسية والتقط نحو 1753 طفلا . تتراوح اعمارهم بين 8و15 سنة وجمع تبرعات من فرنسا ، والجزائر . بدعوى انقاذ هؤلاء الاطفال من المجاعة . فجمع ما يزيد على المليون فرنك فاسس مركز انطلاق التنصير بهذه البلاد . واختار لهذا المركز ناحية بعيدة عن المدن الاسلامية . ناحية اثرت فيها المجاعة كثيرا ، ومات جل سكانها أو جلوا ، اختار الكاردينال لافيجرى سهول شلف الشرقية بناحية العطاف . وأسس هناك ضريحا رمزيا لسيبريان (الذى كان يعيش فى قرطاجنة واعتنق المسيحية ومات ضحية عقيدته) فسمى ذلك الضريح بضريح Cyprien ثم أسس بقربه مستشفى سماه أيضا باسمه . ومازال الضريح والمستشفى الى يومنا هذا .

وبعد مرور خطر المجاعة ، منع لافيجرى الاتصال بين أولئك الاطفال وما بقى لهم من أسر وقرابة ، ولما تدخلت السلطات وطلبت منه أن لا يحرم هــؤلاء الاطفال من الاتصال بأسرهم ، أجابهم بوقاحة يتبرؤ منها كل دين سماوى . أجابهم بقوله : « انهــم لى اذ أنا الذى حافظت لهم على حياتهم » :

Ils m'appartiennent, parce que la vie qui les anime encore, c'est moi qui la leur ai conservée. C'est donc la force seule, qui les arrachera de leurs asiles".

اثارت هذه القضية خلافا حادا بين الماريشــال ماكمــاهو Mac Mahon والى الجـزائر اذذاك ، والكاردينال ، ورفعت الى الحكومة بفرنسا ، وكــان الامبراطور نابوليون الثالث على رأس الحكــومة الفرنسية ، فانتصر للوالى الا أن وزير الحــرب الماريشال NIEL شد عضد الكاردينال ، وفى الاخير وجد حل وسط يرضى الجانبين بالنسبة الى نشاط الكاردينال فى ميدان تنصير السكان ، فانهم سوغوا له تأسيس الملاجىء ، وأمروه بالاحتيــاط فى الدعوة الى التنصير ، أما من التقطهم فانه حيل بينهم وبين ذويهم ، وخسروا الجهتين ، فانهــم لم يندمجوا فى الفرنسيين السكان الاصليين اذ كانوا يحملون أسماء غريبة ، وألوانهم من جهة أخرى كانت تحمل الطابع الاهــلى ، بل الكثــير منهــم كانوا موشومين ، ولما سعى نفس الكاردينال وخلفــاؤه من بعده ، أن يمنحوهم أراضى استعمارية تعرض لهم المعمرون ولم يعترفوا بهم كمسيحيين ، وهكذا عاش كثير من هؤلاء التعساء فى تلك الناحية مذبذبــين ، يحملون أسماء Robert بن عبد القادر ، وجوزيف ابن عبد الله ، وقاطعهم السكان المسلمون ، وصاروا يسمونهم بالمطرنـين أى المتجنسين الى أن انقرضوا قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث لم تبق منهم الا بقية ضئيلة جلت مع المعمرين اثر استقلال البـلاد سنة 1962 .

اثر هذه المأساة ، عين نابليون لجنة بحث برلمانية وارسلها الى الجزائر لتبحث فى قضيتى المسغبـة والتنصير تحت رئاسة الماريشال وذلك فى ماى 1869 وكان من جملة من اجتمعت بهم مـن المسلمين الجزائريين ثلاثة أعضاء يمثلون المجالس العمالية لقسنطينة والجزائر ووهران ، وهم السادة محمد المكى بن باديس ممثل قسنطينة ، وحســن بريهمات ممثل الجزائر ، وأحمد ولد قادى ممثـل وهــران .

كان موقف هؤلاء النواب وبالخصوص العالم الخبير حسن بريهمات موقفا مشرفا ، ضد مطالب المعمرين اذ بينوا للجنة البحث المظالم التى كانت البــلاد مسرحا لها ، وبعد رجوع اللجنة ال باريز اتخـذت الحكومة قرارات وسنت قوانين متضاربة ومتناقضة وأعطت الاوامر لتطبيق القوانين السابقة كقانــون 14 جوليت 1865 المشهور Senatus Consult وقانون 13 ديصمبر 1866 .

كان القانون الاول أى Senatus Consult منــح للجزائريين حق الجنسية الفرنسية ، وفتح لهم باب التجنيس على مصراعيه وهو ينص بان لكل جزائرى الحق بمجرد تقديمه لطلب الجنسية أن ينال جميع حقوق الرعايا الفرنسيين ، وعندئذ تجرى عليــه الاحكام المدنية ، والسياسية الفرنسية .

Il peut sur sa demande être admis à jouir des droits de citoyen Français, dans ce cas, il est régit par les Lois Civiles et Politiques de la France.

لم ينجح هذا القانون حيث ان الاحصاءات الرسمية أثبتت ان المسلمين الجزائريين لم يتجنس منهم طوال مدة ما بين تاريخ صدور هذا القانون أى سنة 1865 الى 1881 لم يتجنس الا 783 متجنسا ، معظمهم من المجندين والمتفرنسين Jules Ferry

وكذلك لم ينجح قانون 13 ديسمبر 1866 الذى يبيح للجزائريين رفع أحكام القضاة الشرعيين الى المحاكم الفرنسية أو التحاكم لدى المحاكم الفرنسية مباشرة فكان موقف الشعب من جميع هذه القوانين موقف الحذر والرفض .

وفى سنة 1892 عينت لجنة بحث أخرى ، وأرسلت الىالجزائر ، وكان معظم أعضائها من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسى ، تحت قيادة الوزير الشهير فاتصل أعضاؤها بكثير من المسلمين ومنهم الحكيم الدكتور محمد بن العربى العضو بالمجلس البلدى بعاصمة الجزائر والشيخ محمد بن رحال الندرومى الشهير ، فقدما للجنة المطالب التى كانا يريانها مستعجلة ، وهى هامة جدا نسبيا ، حيث كانت تشمل التعليم وتعريبه ، واصلاح القضاء والضرائب ، ثم تكلما على اعانة الفقراء والمساكين، وبينا أن الملجأ الوحيد الذى بقى تحت تصرف المسلمين ، وكان معروفا بالتكية فى عاصمة الجزائر كان دخله السنوى من الاحباس يبلغ مائة وعشرة آلاف فرنك 110,000 وكانعدد الفقراء يبلغ سبعمائة فرد ، وفى سنة 1892 صار ذلك الدخل يبلغ اربعين ألف فرنك فقط ، يستغل نصفه موظفو التكية ، فكأنهم هم المحبس عليهم ، لا المساكين الذين كانوا يبلغون اذذاك خمسة عشر الف نسمة 15,000 تنوب كل واحد منهم 4 فرنكات فى الشهر ، وأظهرا ان الاوقاف بصفة عامة على المشاريع الخيرية قدرت فى العهد التركى بأربعين مليون فرنك ، وكان حظ عاصمة الجزائر منها سبعة ملايين فرنك ، تنفق على 150 مسجدا ، والآن أى فى سنة 1892 وصلت جميع ميزانية الوظائف الدينية والشرعية ستينألف فرنك ولو قدر ريع الاربعين مليون 2،50 فى المائة فقط لكان ذلك الريع مليون فرنك بدلا من ستين ألف فرنك ، ثم صرح النائبان المذكوران ان نواب الجزائر كانوا قدموا مطلبا سنة 1868 فى موضوع الاحباس ، وطلبوا محاسبة الدولة على ذلك ،فأجابتهم الدولة الفرنسية بأنها أحالت المسألة الى لجنة مخصصة لتبحث فى القضية ، الا أن هذه اللجنة المخصصة لم تظهر نتيجة أعمالها الى يومنا هذا أى الى سنة 1892 .

ثم أثارا قضية أخرى تتعلق بأحباس المرحوم القينعى التى كانت تقدر اذذاك بمليون فرنك ، وقد اشترط المحبس ان المراقبين على حبسه هما : المفتى والقاضى بالعاصمة ، فاستحوذت الحكومة على ذلك الحبس الخاص وعينت أوروبيين نظارا ومراقبين ، بدلا من المفتى والقاضى اللذين اشترطهما المحبس ، ثم تعرض النائبان لقوانين مصادرة الاملاك ، ومنع المسلين من شراء الاراضى الحكومية والقوانين الاستثنائية ، والخدمة العسكرية التى كانت الحكومة الفرنسية تحاول ان تفرض قانون

التجنيد الاجباري . ثم تعرضا للتجنيس وصرحا « بأن حرية التجنيس لا تلائم أصول الشريعة الاسلامية » . وهذا ما ترك Jules Ferry يصرح بعد رجوعه الى فرنسا تصريحه الشهير الذى قال فيه

"Ils ne veulent ni de nos droits politiques, ni de notre instruction, ni de notre service militaire. Ils demandent purement et simplement le maintien de leur statut personnel, avec conservation intacte des prescriptions coraniques".

انهم لم يريدوا أو لم يقبلوا حقوقنا السياسية ، ولا تعليمنا ، ولا خدمتنا العسكرية .

انهم يطلبون المحافظة على أحوالهم الشخصية وتعاليم الدين الاسلامى بتمامها .

وقال عضو آخر من اعضاء هذه اللجنة جوابا لتذمر السكان من منع التعليم بالمساجد والزوايا قال : « بعد توقف ومحاولات اصلاحية باءت بالفشل تأكد لدى السلطات العسكرية ، ان هذه المراكز (اى المساجد والزوايا) لا ترجى من تعليمها أية فائدة ، بل رات تلك السلطات انها مراكز تنبثق من تعاليمها العداوة والكراهية لفرنسا ، ولهذا حطمتها الواحدة بعد الاخرى ، ومنعت التعليم فيها :

L'autorité militaire fut convaincue qu'on ne tirerait jamais rien de ces foyers de fanatisme anti-Français, elle se mit catégoriquement à détruire l'une après l'autre les zaouias et les Médersas.

ولهذا لم يكن فى كامل التراب الجزائرى سنة 1890 الا المدارس الثلاث الرسمية بالجزائر وقسنطينة وتلمسان بها 82 تلميذا . وفى نفس سنة 1890 تخرج من هذ المدارس المذكورة 14 تلميذا .

وقال عضو آخر من أعضاء هذه اللجنة ان الطرق الدينية تكون هيكلا من رجال الدين ، يتطلب من أتباعها الطاعة التامة لشيخ الطريقة ، والمعارضة للقوانين الفرنسية ، ولهذا فان الحكومة فرضت فى الميزانية ابتداء من سنة 1892 مائة وعشرين الف فرنك ، لتتبع ومراقبة هذه الطرق ونشاطها .

كما وجدنا أثرا آخر فى ميزانية الجزائر لمحاربة هذه الطرق وذلك برفع مرتبات ، ورفع عدد الموظفين الدينيين ، الا أننا نعلم ان هذه الطريقة اى رفع مرتبات ورفع عدد الموظفين الدينيين لاترجى منها نتيجة ، فكل ما نجنيه هو ان ننال احتراما صوريا من الموظفين الدينيين ، الا ان التعصب الدينى فى جوهره يشملهم جميعا :

Aujourd'hui les confréries forment un véritable clergé, qui règlemente les pratiques religieuses exigeant de ses adeptes une obéissance passive dans le but inavoué de résister aux innovations importées par les Français.

Depuis l'année 1892, nous trouvons inscrit au budget un crédit de 120 000 francs, destinés spécialement à la surveillance des confréries. Il serait vraiment utile si les rapports des agents ont pour suite des mesures de rigueur individuelles, contre les Mokadems d'abord puis contre les Khouans que leur turbulence rendrait dangereux.

Un autre moyen de luttes contre les confréries dont nous trouvons également trace au budget, c'est une augmentation de crédits en faveur d'un clergé séculier musulman. Nous avouons n'en pas attendre grand résultat en Algérie. Nous y récolterons peut-être un peu plus de bienveillance apparente, mais aucune considération d'argent ne réussira à entamer le fanatisme de ce clergé qui, au fond, partage absolument la façon de voir des confréries.

يتبين لنا من هذه الصفحات ان مقاومة الشعب الجزائرى فى الميدان الروحى ، كانت لا تقل عن المقاومة المسلحة طيلة عهد الاحتلال ، خصوصا ان ذلك الزمان لم يكن المواطنون الفرنسيون أنفسهم يحلمون بحرية التفكير أو حرية القول ، وكانت فرنسا أقوى دولة فى العالم ، والقوانين الاستثنائية منتشرة ، حتى أن أقل شيخ بلدة فرنسى يمكنه ان يحكم بالنفى أو السجن على من شاء من المسلمين ، وعلى ذكر هذه المقاومة وشخصية الشيخ محمد ابن رحال الذى كان يمتاز بثقافة متينة اسلامية وفرنسية ، ولعب دورا عظيما فى تلك الفترة ، واستغل علائقه الشخصية مع الشخصيات العلمية الفرنسية الذين كانت تربطه بهم صداقة مثل العالم الشهير الدكتور Gustave Lebon صاحب التاليف الذى يشيد بالحضارة الاسلامية عبر التاريخ ، وغيره من الكتاب ، كان الشيخ ابن رحال لم يقصر دفاعه عن حقوق بلاده ، بل كان يشارك فى المؤتمرات العلمية العالمية ، ويرد على خصوم الاسلام ، وقد حافظ لنا التاريخ على محاضرة قيمة فى الموضوع ، ألقاها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى باريز 1897 تحت عنوان «مستقبل الاسلام» نلخص منها بعض الفقرات اذ هى تهم موضوع بحثنا ، وتضفى عليه فى هذه الليلة صبغة دينية ، تتفق مع احياء ليالى رمضان ، اذ لضيق الوقت نختم بهذه الفقرات سمرنا من دون أن نخرج من الموضوع .

استهل الشيخ ابن رحال محاظرته بقوله :

«ان الدين الاسلامى يمتاز عن بقية الاديان السماوية المعاصرة بانه غير معروف .

قليل من الناس اهتموا بالتقرب منه ، ودراسته دراسة عميقة ، وقليل جدا من يتصوره صورة ولو قريبة من الحقيقة ، ويحكمون عليه احكاما مستمدة من غير ما يمليه التعصب والمصالح الاستعمارية ، ولهذا فاننى مغتبط جدا حيث فتحتم بحثا ، لاشك انه يلفت أنظار الباحثين لزيادة الاهتمام به .

ثم ذكر انه حصر موضوع محاضرته فى أربعة مواضع :

– أولا : الاسلام وقيمته كوسيلة حضارية
– ثانيا : قيمة معتنقيه
– ثالثا : سياسة الدول الاسلامية
– رابعا : مواقف الشعوب المتمدنة ازاءه .

وبعد أن يذكر المحاضر بانه يعز عليه ان يطرح السؤال ويجيب عنه كمسلم ، يشعر ويعتز بتعاليم دينه ، التى يجد فيها الرضا والطمأنينة ، تلك الطمأنينة التى لا تترك منفذا للشك ، يستدل المحاضر بأن نفس التاريخ يؤيد نظريته ، فالقرون التى شاهدت منائر الاسلام مرتفعة ، وأنواره منتشرة ، كانت الحضارة الاسلامية بلغت درجة قل ان شاهدتها الامم فى عهود ديانات اخرى وبسببها ، تلك الحضارة التى مازالت آثارها قائمة الى يومنا هذا ، وهى وحدها كفيلة بأن تدفع جميع ما يبعث الشك بأن الاسلام لم يكن وسيلة حضارية فى المجتمع .

ثم يسترسل المحاضر فى حديثه ، فيقول : بان الدين الاسلامى متمم للديانات التى سبقته ، وهو صلة وصل ، ووسط بين الديانتين اللتين سبقته ، احداهما تشريعية ، والاخرى لاهوتية ، حيث ربطت

مملكة السماء بمملكة الارض ، وجعلت من حياة الفرد المثالية في هذه الدنيا ضمانا لحياة الجزاء في الآخرة .

ان جميع تعاليم الدين الاسلامي ، تهتم بحياة الانسان وتكلفه ما يطيقه ويقدر عليه ويرضى ميوله البشرية والروحية ، وتجعل توازنا بين الرخاء والشدة ، العفو ، والعدل ، الواجبات والحقوق :

De l'ensemble il est résulté un tout complet universel et simple, fait à la mesure de l'homme et proportionné à ses facultés, donnant également satisfaction à l'âme et à la raison, alliant dans un équilibre parfait la sévérité et le pardon, la clémence et la justice, le droit et le devoir.

ثم يقول : ان المسلم المتنور لا يشعر أبدا ولا يشك ، انه مكره على حياته الدينية ، ان ضميره وقلبه دائما مطمئنان أمام مشاكل الحياة الدينية :

Opressé ! Non jamais un musulman éclairé n'a ressenti les angoisses de l'incertitude ou du doute. Jamais sa raison, sa conscience ou son cœur ne s'en sont trouvés offusqués par une prescription injustifiée ou incompréhensible.

ثم تعرض للمرأة فقال :

انها تعيش في دنيا النساء ، فتبقى طاهرة وزوجة محترمة ، واما مقدسة ، وبمجرد تزوجها تنال حريتها فيمكنها أن تبيع وتشتري ، وتتصرف في مالها الخاص من دون توقف على موافقة والدها او زوجها ، واذا تأيمت او طلقت يمكنها ان تتزوج من دون توقف على موافقة اي احد ، وفي الطلاق فان حقوقها مساوية لحقوق الزوج ولهذا فاننا لانعجب من أن الاخلاق والعلائق العائلية التي انفكت عراها عند المتمدنين ، بقيت محفوظة في البلاد الإسلامية :

Quant à la femme Musulmane vivant dans l'unique société des êtres de son sexe, elle demeure une fille pure, une épouse respectable, une mère toujours vénérée. Au reste, une fois mariée, elle est émancipée. Elle peut vendre, acquérir, tester, administrer sa fortune personnelle, sans le secours ni l'autorisation du père ou du mari. Veuve ou divorcée, elle peut se remarier sans le consentement de personne et quand au divorce ses droits sont égaux à ceux du mari.

Dans ces conditions est-il étonnant que les mœurs et les liens de famille si recherchés chez les civilisés, se soient conservés intacts dans le monde musulman ? Faut-il pour le démontrer davantage, étaler la misère morale des non croyants et leurs vaines recherches d'un idéal jamais atteint le vide de leurs thèses philosophiques les milieux échafaudés et le néant de leurs conceptions rationnelles, les plus laborieusement conçues.

ثم تطرق المحاضر الى الحديث عن الصراع الطبقي ، واستغلال الانسان للانسان ، الذي يظن الكثير انه وليد العصر الحاضر فقال :

«ومن جهة أخرى هل نحن في حاجة الى بيان ان الصراع الطبقي الذي يمزق العالم المتمدن ، مجهول في بلاد الاسلام ، وقضية التعاون بين رؤوس الاموال واليد العاملة وجدت حلها منذ ثلاثة عشر قرنا ، حيث ان التعاليم الاسلامية حرمت الربا .

هل تتصورون التغير الذي يقع في اوربا عند ما تقع هذه الثورة ، وهي ان الرأسمالية يتحتم عليها أن لا تقرض المال للعامل ولكن تشترك معه على الربح والخسارة ولا تستغله لكن تعينه بالتوجيه :

Dans un autre ordre d'idées, est-il nécessaire de démontrer que la lutte de classes qui déchire le monde civilisé est inconnue en pays d'Islam et que la question de coopération du capital et du travail a été résolue

il y a treize siècles par cette seule disposition du législateur Musulman : Le Prêt à intérêt est interdit.

Conçoit-on le changement, la révolution féconde et bénie qui se produirait en Europe, le jour, où le capitaliste serait mis dans la nécessité, non de prêter l'argent au travailleur, mais de s'associer avec lui pour les bénéfices comme pour les pertes, non de l'exploiter, mais de le commanditer.

ثم تعرض الى الحديث عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم فى قضية الرق ، الذى اعترف له الدين الاسلامى بالاخوة ، وحرض على معاملته معاملة انسانية ، ورغب فى تحريره وغتقه ، كما ان الاسلام اعترف للمسكين والفقير بحقوقهما ، وجعل لهم نصيبا فى أموال الاغنياء ، بخلاف ما كان يجرى به العمل فى عهد الرومان :

Faut-il vanter la façon dont le Prophète arabe est arrivé à émanciper l'esclavage, à réaliser l'égalité parfaite de tous, et cette fraternité entre Musulmans et entre voisins, oui, entre voisins, qui pour l'Europe restera toujours un vain mot et cette charité qui donne au pauvre une part, un véritable droit sur le patrimoine du riche, et ce désintéressement absolu de la loi romaine laquelle ne pouvait être impartiale puisqu'elle a été faite par le riche contre le pauvre, pour le Patricien contre le Flébein.

ثم يذكر المحاضر انه لم يقصد من بحثه التعمق والتوسع فى البحث ، وكل ما يقوله فى الموضوع. ان الاسلام فى ميدانه السياسى والاجتماعى ، دين ساعد على نشر الحضارة .

ثم انتقل الى الحديث عن المسلم فقال :

اننا نجد ظاهرة الدين الاسلامى الذى انطلق من الصحراء بواسطة رجل أمى ، امكنه ان يكيف ويطور عدة أجناس انطووا تحته من مختلف الطبقات والجنسيات ، فمن الاسود البدائى الى الفارسى الآرى ، العريق فى التمدن ، ومن البربرى المقيم الى العربى الظاعن ، ومن الصينى الى الانكليزى والتركى ، أليس هذا بمعجزة ، وهذا كله رغم موقف المسلمين ورفضهم لتغيير أحوالهم واتباع التطور :

Si de l'Islam nous passons aux Musulmans, nous constatons ce phénomène étrange d'une religion qui née dans le désert est propagée par un prophète illéttré, s'adapte aisément à toutes les races, à tous les milieux, à tous les climats.

Le nègre primitif et obtus s'en trouve aussi bien que le Persan aryen et raffiné, le Berbère sédentaire et positif, autant que l'arabe nomade et poétique, le Javanais que le Chinois, l'Anglais, oui l'Anglais froid et correct que le Turc pensif et résolu.

N'est-ce point miracle ?

Et celà malgré l'indolence des Musulmans à l'égard de tout prosélytisme et leur refus scrupuleux de modifier en rien leur dogme et son objectif.

ان هذه الديانة المستقلة ، والغير المغرضة ، هذه الديانة صالحة للجنس البشرى كله ، لانها ليس لها كهنوت يمكنه تسخيرها ، بما تمليه عليه المصالح والاهواء ، فانها بقيت ، وستبقى ، محافظة على صفاتها ، ومحاسنها ، ولهذا فان كل قلب دخله الايمان ، الا وحافظ عليه ولم يرض به بديلا .

C'est que, indépendante et désintéressée, cette religion convient au genre humain tout entier ; c'est que n'ayant pas de clergé qui puisse la modifier à sa guise où l'interprêter à son profit, elle conserve et conservera toujours sa pureté originelle et ses vertus. Voilà pourquoi lorsqu'un cœur en est touché, il l'aime de toutes ses forces et ne s'en déprend plus.

ثم تعرض المحاضر الى مواطن الضعف فيالبلاد الاسلامية فقال :

انها توجد في كثرة الدول والخلاف بينها وذلك ان الخلفاء الراشدين ومن خلفهم من الملوك عنـد ما توسعوا في الفتوحات لم يجعلوا نصب أعينهـم اكتساب الامم أو البلدان ، وانما كانت غايتهم نشر الدين الاسلامي ، كما تتطلبه منهم تعاليم الدين ، فلم يكن للدبيلوماسية ، ولا للنظر في العواقب التي تترتب على علائق الجزيرة العربية ببقية البلـدان المحتلة أهمية ، وكانوا يرون أن العلائق التيتربط المسلم بأخيه ، اقوى من جميع العواطف الوطنية ، فعقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد لم يفكروا في العلائق بين الجزيرة العربية والبلدان النائية التي وصلوا اليها في فتوحاتهم ، فان المسلم كيفما كانت جنسيته ، وفي أي مكان وجد ، هـو مساو لبقية المسلمين في الحقوق والواجبات ، فلا تمكن معاملته معاملة استثنائية ، بالنسبة الى سكان جزيرة العرب ، وكذلك غير المسلم الذي رضي بان يدفع الجزية ، فهو حر في دينه ، ورؤساؤه الدينيون معترف لهم بالتصرف التام في رعاياهم ، وبهـذه المعاملة المرتكزة على الثقة ، عاشت جاليات مسيحية ويهودية ويونانية وارمينية في بلاد الاسلام ، واننا نرى الآن الدولة التركية تقاسي ما تقاسيه من الاهوال اذ استسلمت الى الثقة ، ولم تاخذ حذرها ، فممـا لاشك فيه ان هذه الاقليات لم تكن محترمة أومعتبرة كافراد الرعية المسلمين ، الا انهم كانوا يتمتعـون بالحرية التامة ، واذا استثنينا بعض المناصب الادارية خصوصا ما يتصل بالحربية ، كان أفراد هـذه الاقليات يرتقون الى أعلى المناصب الحكومية ، ففي المغرب ، حتى في عهد بني مرين ، كان اليهـود ينالون المناصب الوزارية ، وكانوا يستبـدون على المسلمين أنفسهم .

أما الاسرى الغير المعتقين ، والمحررين ، فكانوا يرتقون أيضا الى المناصب الشرفية الراقية .

وهل نجد نفس هذه المعاملة بالبلاد المسيحيـة بالنسبة الى الاجانب ، حتى في زماننا هذا ، اللهم الا اذا تجنسوا .

ثم يتعرض المحاضر الى الداء العضال الذي كان من أسباب تدهور الحالة بكثير من بلاد الاسلام فقال:

ان الثقة التي وصلت الى حد اللامبالاة بالنسبـة الى الرعايا والتشدد الذي وصل الى الاستبـداد بالنسبة للمواطنين ، ثم سياسة الملوك التي كانت تخضع للغيرة ، والتحاسد ، حتى كان ذلك التحاسد والغيرة أساسا لمعاملة بعضهم بعضا ، مثل ما نراه اليوم عند الحكومات المسيحية ، مع الفارق ان شعوب الدول الاسلامية في الغالب ، متآخية ، لم تتـأثر بالخلافات بين قادتها ، ان عاطفة الوطنية الضيقة لا وجود لها عند المسلمين اللهم الا في بعـض البلدان كتركيا وبلاد فارس .

ثم تعرض المحاضر للامراض الداخلية التي تنخر جسم العالم المتمدن ، ومواقف هذا العالم مـع المسلمين ، خصوصا ، الدول الاستعمارية كفرنسا وانكلترا وهولاندا ، فتحدث باسهاب عن الاستعمار الفرنسي ، وطرق حكمه ، والخطط التي رسمها غلاة

المعمرين لابادة السكان ، وافتكاك أراضيهم ، وتفقيرهم ، وتجهيلهم .

ثم ختم بحثه القيم بقوله : « ان القرن العشرين الذي سيشاهد التقدم العلمي والتقني ، وتقارب البلدان ، مثل الرجاء الصالح مع القاهرة ، سيشاهد سياسة فرنسية ـ اسلامية ، معتدلة ، أو يشاهد الكارثة .

ولهذا أختم حديثي عن الاسلام في افريقيا واقول انه ان لم يتمدن على طريق فرنسا ، فانه يتمدن رغم انفها وضدها :

Malheur est que le colon laisse faire intérieurement ravi, et c'est la France qui pâtit dans son objectif Africain. Quand on rêve de s'annexer la moitié d'un continent réduire l'indigène à la misère même par la voie légale,n'est pas une politique, le charger de tous les crimes, n'est ni une ju stification ni une solution.

Nous sommes de ceux qui croient qu'il n'est pas difficile de trouver mieux. Mais il

faut se hâter si l'on veut pas que toute reconciliation devienne impossible.

Le 20e siècle qui verra le cap au Caire et le Transaharien verra nécessairement une politique Franco-Musulmane mieux appropriée ou une catastrophe.

C'est pourquoi, modifiant légèrement ma conclusion pour l'Islam en général je dirai de l'Islam africain-occidental, s'il ne se civilise pas par la France et avec la France, il se civilisera malgré elle et contre elle.

الى هنا ينتهي سمرنا هذه الليلة ، والخلاصة هي انه بفضل مواقف شعبنا ، واعتزازه بدينه وقوميته ، تجنبنا الاندماج والتفسخ ، اذ لم تستهوه مظاهر الحضارة المزيفة ، ولا الاغراء المادي الذي كان بعض صغار الضباط العسكريين والمعلمين يتهافتون اليه ، أمكن للجزائر عشرات السنوات أن تقف صامدة ، مقاومة ، محافظة على دينها وعاداتها ، ولم يمكن للمعمرين الوصول الى اهدافهم وادخال البلبلة في صفوف شعبنا الا ابتداء من فرض التجنيد الاجباري ، اذ كان الشبان المجندون عند ما يبتعدون عن بيئاتهم ، يسقطون ضحايا للرذائل مثل شرب الخمر والفساد ، ثم لحق بهذه الضحايا عند ما فتح باب الهجرة للعمال بعد الحرب العالمية الاولى فالكثير منهم تخلقوا بأخلاق الوسط الذي أجبرتهم الظروف للاندماج فيه ، خصوصا من تزوج منهم بالاجنبيات الا اننا بحمد الله نجد في ديننا حصانة وفي صالح عاداتنا ما يغنينا عن الاندماج في أمم أخرى بلغت ما بلغت من الرقي ومازال الى الآن كثير من الكتاب الاجانب يعترفون ان الاسلام ماشى الحضارة جنبا لجنب ولم يضق عنها ، ومازال يحمل في طياته تعاليم ومبادىء تمكنه من الوقوف أمام التيارات الجارفة التي تجتاح العالم سواء في الميدان الروحي أو الاقتصادي والاجتماعي .

المهدي البوعبدلي

(ألقيت هذه المحاضرة بمركز المحافظة الوطنية لجبهة التحرير بمستغانم في 25 رمضان 1390 هـ)

النشـاط الثقـافى

اعداد
حكمت ياسين

تم تنظيم مهرجان فنى كبير في مدينة تيمقاد كما هى العادة في كل عام في الفترة ما بين 28 أفريل الى 2 ماى 1972 ، اشتركت فيه بعض الدول الشقيقة والاجنبية الواقعة في حوض البحر االمتوسط ، اذ انه مهرجان سنوى لدو ل البحر الابيض المتوسط وقدمت مختلف الفرق الفنية االمشتركة عدة تمثيليات ومسرحيات وحفــلات غنائية وموسيقية راقصة ، كانت فرقة « الكاف التونسية » اولى الفرق التى ظهرت على خشبة المسرح معلنة بذلك افتتاح الموسم الثقافي ، وفي اليوم الثانى للمهرجان تدمت فرقة المسرح الوطــنى للرقص الشعبى بمشــاركـــة المطربة رابحة عدة رقصات شعبية ناجحة نالت اعجاب الجمهور وتصفيقاته وهتافاته . وفى المساء قدمت الفرقة الموسيقية الموصيلية بالاشتراك مع الطاهر فرقانى والغفوى عدة مقاطع موسيقية شعبية متنوعة . وفي يــوم الاحد 30 أفريل عاش الجمهور مع فرقة « 71 » لبلدية بالاكوف الفرنسية التى قدمت مسرحية « انتيقون » وهى عبارة عن مسرحية مأساوية تاريخية قديمة ، امتازت بروعة الاداء والاخراج ووضعها في اطارها التاريخي . واشتركت فرقة « عيد الفجر » الاسبانية للرقص برقصات واغانى مطربة كان لها أثر كبير على الجمهور الذى ابدى انفعاله معها ، وتجاوبه لفنونها بشكل ملحوظ . وفى اليوم ما قبل الاخير أشتركت فرقة المسرح الوطنى الجــزائرى بعــرض مسرحية « ورود حمر لي » التي تم عرضها لاول مرة سنة 1964 واعيد عرضها مرة ثانية سنة 1966 ، وتعتبر من الاعمال الفنية العالمية الضخمة . .

فكان مهرجان تيمقاد كما يظهر من الفرق المشاركة فيه ، تجمعا فنيا وثقافيا عالميا وهو بالنسبة للجزائر الواجهة الثقافية المطلة على شواطئ البحر الابيض حيث تلتقي فيه فنون وثقافات هذه المنطقة ، وهو فرصة عالمية ثمينة للدعاية والتعريف ببلادنا وفرصة نادرة لاستغلال هذا التجمع الجماهيري من جميع انحاء التراب الوطني لطرح أهم قضايانا الثقافية والثورية ، ورغم أن الدعاية لهذا المهرجان لم تكن على المستوى الواجب ، اذ انها لم تتعد حدود مدينة تيمقاد ، الا أن اقبال الجماهير عليه كان شديدا ، وبشكل حماسي ، اذ ان المسرح الروماني الذي يتسع لحوالي ثلاثة آلاف متفرج كان يغص بالمتفرجين من كافة انحاء الوطن طوال مدة المهرجان ، كما ان الامطار الغزيرة التي تهاطلت على الممثلين والمتفرجين معا ، والتي كان من المتوقع ان تفشل المهرجان ، لم يكن لها اى تأثير على سير العروض والحفلات الفنية ، ولا على نفوس وحماس المتفرجين .

وتظهر اهمية مهرجان تيمقاد في جميع الميادين السياسية والثقافية والاقتصادية والسياحية ، فالمهرجان يدعو لاشتراك جميع بلدان البحر الابيض ابتداء من بلدان المغرب العربي والمشرق العربي الى الدول الاوروبية ، فهو بذلك احدى الوسائل الرامية لتعزيز فكرة وحدة المغرب العربي والعالم العربي ، ويعمل على دعم الفكرة الدولية القائلة بوجوب جعل البحر الابيض منطقة امن وسلام وذلك عن طريق التبادل الفني والثقافي ومشاهدة التراث الفني لدول المنطقة .

ومن وجهة النظر الثقافية فبالاضافة الى مشاهدة الجمهور الجزائرى لفنون وثقافات عدة دول عربية واجنبية ، وقضاء عدة أيام وليالى فنية ساهرة فان المهرجان في نفس الوقت يعتبر فرصة للتعريف بالانتاج الفني والثقافي الجزائرى للعالم ، والاطلاع كذلك على الانتاج الفنى العالمى ومحاولة الاستفادة من ذلك الانتاج .

اما ارباح المهرجان الاقتصادية فانها لا تخفى على أحد ، اذ أن كثرة عدد المشاركين فيه وما ينفقون من مصاريف ، تعود بالفائدة المادية على المنطقة . أما المهرجان نفسه فان أرباحه التى بدأت بمبلغ 3 ملايين تضاعفت لتصل 5 ، 1 مليون في العام الماضي مما يؤكد زيادة هذه الارباح في المهرجان الخامس لهذه السنة

واخيرا فانه يمكن أن يكون تمهيدا جيدا لتنشيط حركة السياحة في البلاد باستغلال المناطق الاثرية والطبيعية الخلابة ، وانشاء المركبات السياحية والفنادق والمطاعم السياحية لتسهيل اقامة السواح في الجزائر ، وبهذا يكون مهرجان تيمقاد قد قدم فوائدة جمة للجزائر .

الاسبوع الثقافي الخامس في قسنطينة

بمناسبة الذكرى 32 لوفاة رائد النهضة الجزائرية الحديثة ، وزعيم رجال الاصلاح وجمعية العلماء في الجزائر ، الشيخ عبد الحميد بن باديس نظمت وزارة الثقافة والاعلام — كالعادة — مهرجانا ثقافيا وفنيا لمدة اسبوع في مدينة قسنطينة ابتداء من يوم 16 افريل سنة 1972 ، وقد أشرف الاخ احمد طالب الابراهيمى وزير الثقافة والاعلام وعدد من المسؤولين المدنيين والعسكريين على افتتاح هذا المهرجان الثقافي .

وقامت المجموعات الفنية القسنطينية وفرقة الاذاعة والتلفزيون بتنظيم حفلة فنية ساهرة بقاعة سينما الكوليزى حضرها وزير الثقافة والاعلام تقدمت خلالها مجموعة من الفنون الشعبية كالرقصات الفلكلورية والاغانى الاندلسية ، والموسيقى التقليدية ومعارض للصور واللوحات الزيتية والصناعات التقليدية ، وتم القاء قصائد شعرية حماسية تخليدا لذكرى المصلح الكبير ابن باديس ، وقد بذلت بلدية قسنطينة جهودا حميدة لانجاح هذا المهرجان بكثرة الملصقات والاعلانات.

وقد كان قصر الباي الذي تم بناؤه سنة 1826 طوال فترة المهرجان مسرحا لجمع غفير من الزوار قدموا لمشاهدته نفسه ، ومشاهدة ما يجرى بداخله من عروض ومنتوجات وطنية خاصة للصناعات التقليدية كالالبسة والاوانى الطينية والنحاسية ، بالاضافة الى معرض الفنان بونورة ، المشهور بتماثيله المختلفة المنحوتة والمحفورة على الاخشاب ، وغيرها من الاعمال الفنية .

وقدمت فرقة المعهد البلدي للموسيقى مسرحية «الفقر والشرف» ، بينما كانت قاعة الكازينو معرضا للوحات الفنية التى انتجها طلاب المعهد البلدي للفنون الجميلة بمدينة قسنطينة والتى كشفت عن المستوى الممتاز للمشاركين.

أما قاعة الكوليزي فقد شهدت عدة حفلات فنية ورقصات متنوعة وعروض مسرحية ، حيث قدمت فرقة الاذاعة والتلفزيون حفلة غنائية بقيادة المطرب عيسى عقلة وبمشاركة مختلف انواع المطربين بأغانيهم الصحراوية والشعبية والبدوية ، كما اشتركت كل من ثانوية رضا حوحو بمسرحيته « ثمن الحرية » وثانوية ابن باديس بمسرحية « النصر او الاستشهاد » وثانوية حيحي المكي بمسرحية « أشواك السلام » .

ونشير في هذه المناسبة الى أنه قد القيت في المهرجان عدة محاضرات ثقافية هامة كانت أولها محاضرة قيمة حول « الثورة الزراعية » ألقاهـا رئيس اللجنة الوطنية للثورة الزراعية السيد محمد عبد العزيز ، برز فيها اساس الثورة الزراعية والتحولات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى ستنجم عنها وأكد على ضرورة العمل الجاد لانجاح هذه الثورة لما لها انعكاسات سعيدة على الطبقات الكادحة .

كما ألقى السيد محمد الميلي مدير الاخبار بوزارة الاعلام محاضرة قيمة حول « الشخصية الوطنية في التاريخ القديم والحديث » ، استعرض فيها تطور الشخصية الوطنية عبر التاريخ ومقاومتها لكل عمليات المسخ التى تعرضت لها في تاريخها الطويل ، ثم ذكر مختلف المراحل التى مرت بها الشخصية الوطنية وأهم سماتها ، ثم أشار الى الشخصية الوطنية من خلال ثورات الجزائر ، واشار في الاخير الى ان هذه الشخصية التى صمدت عبر تاريخها الطويل لا بد وان تصمد اليوم امام السمات المستوردة والتى لا تتماشى مع الواقع الجزائري .

وقد استغل وزير الاعلام والثقافة هذه المناسبة وعقد سلسلة من الاجتماعات الهادفة مع مسؤولي المنطقة ، تقرر فيها انجاز عدة مشاريع فنية وثقافية هامة ، اذ أنه سيتم انشاء « مركب ثقافي » بمدينة قسنطينة ، وبناء قاعة متعددة الفروع ومكتبتين للكتب ، وستبلغ تكاليف هذا المشروع الضخم 1,300,000 دينار جزائري ، وستقوم وزارة الاعلام والثقافة بتموين المشروع .

ويعتبر مهرجان قسنطينة فرصة ثمينة للمدينة اذ هو تعبير عن تقديرها الكبير لابنها البار الشيخ ابن باديس ، الى جانب كونه فرصة لنشر الثقافة الفنية بأنواعها في المنطقة ، واظهارها لبقية مناطق الوطن ، كما أنه فرصة تلتقي فيه مختلف الفرق الفنية والشخصيات السياسية والعلمية والادباء والشعراء والفنيون ، ويتم بينهم التعارف وتبادل الاراء والافكار التى من شأنها أن تخلق ثقافة وفن أصيلين .

وانتهى مهرجان قسنطينة الخامس بعد أن حقق نجاحا باهرا وادى واجبا وطنيا عظيما .

المهرجان الثقافي الجزائري في المشرق العربي

في اطار التعريف بالفن الجزائرى قامت وزارة الثقافة والاعلام ما بين 12 و 25 مارس بتنظيم مهرجان ثقافي في ثلاث بلدان من بلاد المشرق العربى في ، سوريا والعراق والكويت ، وكان المشاركون يمثلون مختلف الميادين الفنية الفلكلورية ، والمجالات الثقافية الفكرية ، اذ اشتركت في احيائه المجموعة الصوتية للموشحات والفرقة الصحراوية والفرقة العصرية ، كما تم عرض أفلام وبرامج تلفزيونية .

والى جانب هذه المجموعات الفنيه اشترك عدد من رجال الفكر والادب الذين اثروا المهرجان بمحاضرات متنوعة قيمة ، تناولت بالبحث والتحليل مواضيع الثقافة الشعبية بالجزائر ، والادب الجزائرى المعاصر ، وقد اشترك الرسامون الجزائريون هم الاخرون في هذا المهرجان ، وقاموا بعرض ما أنتجته مواهبهم وخطت ريشهم واقلامهم من رسومات فنية تعبر عن واقع الوطن وتاريخه النضالي التحرري .

ويكتسي هذا المهرجان اهمية عظيمة وأدى خدمة وطنية كبيرة ، فمن الناحية السياسية والقومية أكد هذا المهرجان على أواصر الاخوة التى تربط بين الشعب العربى الجزائري والشعب العربى في المشرق العربى ، فكان فرصة للقاء الاخوة الاشقاء من الارجاء المتباعدة للوطن العربى ، وكان تعبيرا صادقا عن حسن العلاقات وانسجام الروابط المتينة التى ترجع الى أقدم العصور ، لا سيما منذ الفتح الاسلامي وأكد هذا المهرجان عروبة الجزائر ، وتمسك الشعب الجزائري بعروبته واسلامه . ومن وجهة نظر وطنية ثقافية فان المهرجان أظهر للاخوة المشارقة مدى حرص الجزائر على استرجاع شخصيتها الفكرية والثقافية بعد أن استطاعت أن تسترجع شخصيتها السياسية والوطنية ، اذ أن العرب في المشرق الذين ينظرون للشعب الجزائرى نظرة اجلال واحترام ، ويعتبرونه مثلا رائعا للتضحيات والبطولات يتصورون ان هذا الشعب العربى قد سيطرت عليه الثقافه

الفرنسيه وانمحت شخصية العربية الاسلامية . ولا يتصورون ان هناك ثقافة وفنا عربيان اصيلان في الجزائر العربية التى رزحت تحت نير الاستعمار ما يزيد عن القرن من الزمن ، ذلك انهم لم يسبق لهم ان شاهدوا حفلات فنية جزائرية ، ولم يسمعــوا اراء وافكار جزائرية ، لانه لم يسبق عرض مثل هذه الانتاجات الفنية والفكريــة والادبية ، فجاء هذا المهرجان ليزيل ذلك الاعتقاد من المنطقــة ويظهــر للاخوان في المشــرق العــربى ، ان الجزائر العربيــة فيها من الطاقات والقدرات الفنية والثقافية ما يجعلها جديرة بأن تعد من بين الدول العريقة في الفكر والادب شأنها في ذلك شأن شقيقاتها الدول العربية .

وقد استطاع المشاركون في هذا المهرجان النجاح التام في اداء رسالتهم النبيلة ، فأظهروا وجود الفن والثقافة الجزائرية ، وأزالوا ذلك الاعتقــاد المبنى على التصور فقط ، وقد كان تفاعل الجماهير العربية في قاعــات الاحتفلات اكبر دليــل على نجــاح المهرجان ، اذ لم تكن جماهير المتفرجين تنقطع لحظة عن التعبير عن انفعالها للاعمال الفنية المختلفة التى قدمتهــا الفرق الفنية الجزائرية ، وقد لاحظ المشاركون انفسهم انفعال الجماهير ، وانسجامهم مع الاغاني والمسرحيــات الجزائرية بما كانوا يبدونه من ترحيب حار وتصفيق حاد ، وهتاف عــال . ان هذا المهرجان الثقافي الجزائري كان الخطوة الاولى في طريق اقامة مهرجانات ثقافية اخرى في الاعوام القادمة في عواصم البلاد العربية المختلفة ، وكان بداية الطريق لخروج الفن الجزائري بأنواعه من اطاره المحلي الضــيق لينتشر في وطنه العربي الواســع . ومما لا شك فيه ان نجاحه لاول مرة يبعث على التفاؤل ، ويشير الى امكانية نجاح المهرجانات اللاحقة لا سيما اذا ما تم تفادي الاخطاء والنواقص التى قد يكن شعربها الفنانون المشتركون ليستطيعوا أداء أعمالهم على خير وجه وأحسن صورة ، ولا ننسى بأن المهرجان كان فرصــة عزيــزة لالتقاء الفنانــين الجزائريين بالفنانين العرب في المشرق وكان لهذه اللقاءات آثارها القيمــة والمفيدة في ميدان الفن والثقافة !

الاسبوع الثقافي الجزائري في باريس

نظمت ودادية الجزائريين بأوروبا مهرجانا فنيا وثقافيا في مدينة باريس وقد أشرف على افتتاحه المسيو جاك دوهاميل وزير الثقافة الفرنسي، والسيد محمد بجاوي سفير الجزائر في فرنسا وذلك يوم 4 افريــل 1972 ، وقد تبادل الوزير الفرنسي والسفير الجزائري الكلمات المعبرة عن الترحاب والشكر ، والامل في أن يكون هذا المهرجان فاتحة عهد يسوده الصفاء وحســن الجوار بين الشعبين الفرنسيوالجزائري والتفاؤل في مستقبل الجزائر الثقــافي والفنى المستمد من ثرواتها الفنيــة والفلكلورية العريقة ، فقد قال الوزير الفرنسي على الخصــوص بان ماضي الجزائر حــافل بالتــاريخ والامــال والنجاحات الشيء الذى يسمـــح للجزائريين بالافتخــار بما حــدث في الجزائر قبل ثلاثة عشر قرنا ، والاهم من هذا هو عدم تمسكهم بالثقافــة التقليدية وانما يعدون لثقافة عصرية

وبعد الافتتاح شــاهد المســؤلان الفرنسي والجزائــري مع الجمهــور مسرحية « البوابون » للممثل والمخرج الجزائري رويشد ، وكان الممثلــون يتكلمون اللغة العربية الفصحى مما زاد فى انتباه الجهور ، ومتــابعة فصول المسرحية بكل اهتمام ، ورغم حدوث بعض عدم الانسجام اثناء ترجمة بعض العبارات الى اللغة الفرنسية فقد نالت اعجاب الحاضــرين الذين عبروا عن هذا الاعجاب بالتصفيق الحاد والهتاف المتواصل .

وفي الساعة 6،5 مساء يوم 6 افريل القى الاستاذ عبد المجيد مزيان استاذ علم الاجتماع بجامعة الجزائر محاضرة هامة بعنوان « الثقافة الجزائرية » ، قا ل فيها بأن ما قدم حتى الان حول الثقافة الجزائرية يمثل وجها غير حقيقى حو ل الشبيبة والمشاكل التى تعانيها وان هذه الصورة الخاطئة نتيجة لتناسى ماضى الثقافة الجزائرية،وكذلك الى عدم الاهتمام بالحيوية التى تطبع الثقافة في الوقت الحاضر ، وأشار الى أن مرحلة التحو ل العميق التى تجتازها البلاد حاليا ترتكز على هذا الماضي الذى يحتل مكانته في الثورة الثقافية .

وفي مساء 7 افريل القى السيــد بلحاج مسؤول في كتابةالدولة للتخطيط محاضرة حول التنميــة الاقتصــادية والاجتماعية والثقافة بالجزائر ، فأشار الى التطور الاقتصادي الكبــير الذى حدث في الجزائر خلال فترة قصيرة من من الاستقلال وبعد أن أشار الى أن مشكلة التعريب قد أصبحت حقيقيــة ملموسة تمنى بأن تكون جزائر 1980 — 1985 بلد 20 مليون نسمة في ذلك الوقت قد قضت على جميع المشاكل

والفقر والجهل ، وحققت عدالة اجتماعية بمعنى الكلمة .

والى جانب هذه المحاضرات الثقافية والاجتماعية قامت الفرق الفنية الجزائرية باحياء سهرات فنية راقصة من طرف فرقة « الباليه » للمسرح الوطني ، وفرقة الموصلية للاذاعة والتلفزيون عزفت فيها موسيقى كلاسيكية واندلسية عبرت عن اصالة هذا الشعب وارتباطه بالعادات والتقاليد التي اكتسبها من ماضيه الزاخر بالفن والثقافة والفلكلور الشعبي العريق .

واختتم المهرجان يوم 10 افريل بعرض الفيلم الجزائري « ريح الاوراس » وحفلة فنية ساهرة بمشاركه عدد من المطربين مثل الغازي،الشريف خدام ، نورة ، وخليفي احمد ، فكانت هذه الحفلة ايذانا باختتام الاسبوع الثقافي الجزائري في باريس ، بعد ان حقق نجاحا باهرا نظرا للعروض الفنية الرائعة التي قدمتها مختلف الفرق الفنية والتي حازت على اعجاب المتفرجين وتقديرهم من خلال التصفيق والهتاف .

وقد كان لهذا المهرجان صدى كبيرا في مختلف الاوساط الفرنسية ، حتى ان الاطراف اليمينية المعروفة بعدائها للجزائر وجدت نفسها مضطرة للثناء على هذا المهرجان ، لانها لم تستطع أن تجد الثغرات لتدخل اليه . وهكذا فقد كتبت جريدة « الفيغارو » مقالا بعنوان « مظاهرة تترتب عليها نتائج سياسية » فقالت : « أردنا ان نقدم الى شعب فرنسا الذي له مكانة خاصة في قلب كل جزائري ، بعض الصور من الجزائر الموحدة والمتعددة الوجوه وعن ثقافتها العريقة والفنية في آن واحد

وقد أشرف الوزير الفرنسي للثقافة على اختتامه متمنيا أن تسمح تظاهرات مسرح شائز اليزي بتدعيم الصداقة وتفاهم أفضل بين الشعبين المجاورين لنفس البحر الابيض المتوسط ، ويبدو أن المهرجان حقق هذا الهدف النبيل اذ أننا لاحظنا انتقادات نزيهة للعروض التي قدمت سواء مسرحيات أو باليه ، وقال الوزير الفرنسي بأن الجزائريين بعد عشرة سنوات من معاهدة ايفيان والنتائج الوخيمة التي تلتها والاحداث المؤلمة التي سبقتها ، اتوا الى قلب باريس يقدمون بطريق الغناء والرقص والموسيقى وجها وديا وسلميا .

وقد كان هذا المهرجان فرصة ثمينة سمحت للكثيرين بالتعرف على الخطوات العملاقة التي قطعتها الجزائر في ميدان الفن والثقافة ، كما انه خطوة أولى للنشاطات التي سيتم تنظيمها فيما بعد للمغتربين الجزائريين في ميدان الثقافة، كما انه سيعكس عدة أوجه للنشاط في الجزائر والمجهودات التي تبذل من اجل خلق مجتمع جديد تسوده الرفاهية والمساواة ومحاربة الاستغلال بجميع اشكاله وبناء جزائر عصرية وحديثة .

مهرجان دمشق الاول
لسينما الشباب

تم في الفترة ما بين 1 — 8 افريل في دمشق تنظيم مهرجان سينمائي للشباب كان الاول من نوعه ، وقد تميز باثارة العديد من قضايا السينما الحديثة ، ونظرة المخرجين العرب الشباب اليها ، وخضعت هذه القضايا في مجرى نقاشها الى القواعد النقدية التقليدية بأستثناء اراء بعض المخرجين الذين تخصصوا في أوروبا فكان يتمتع بعضهم بحس نقدي سليم . وقد

اشتملت ايام المهرجان السبعة على اربعة عروض لليوم الواحد في الصالة الواحدة ، علما بأنه قد خصصت ثلاث قاعات للعرض ، أي أن مجموع العروض المقدمة في اليوم الواحد كانت اثناعشر عرضا ، كان يتخللها في فترات الاستراحة مناقشات بين المخرجين والنقاد السينمائيين واسئلة للصحفيين ، وتم في هذا المهرجان عرض 30 فيلما وثائقيا تسجيليا و28 فيلما طويلا بينهما فيلمان كوبيان .

اما الدول المشتركة في المهرجان رسميا فهي ست دول عربية هي سوريا العراق ، مصر ، لبنان ، لكويت ، وتونس ، واشتركت ثلاث دول عربية بصفة غير رسمية وهي الجزائر والمغرب وفلسطين .

وكان الفيلم الجزائري مدار حديث متنوع للنقاد والمخرجين الذين اتفقوا على أنه يعد في طليعة الافلام العربية تمثيلا واخراجا ، وكانت الافلام التي تم عرضها هي « حسن الطيرو » ، « والخارجون على القانون » و« الجحيم في سن العاشرة » .

وكانت عملية توزيع الجوائز على النحو التالي :

— الجائزة الكبرى للمهرجان نالها الفيلم الروائي الطويل « اغنية على الممر » لعلي عبد الخالق المصري ، وكذلك فيلم « بس يابحر » لخالد صادق الكويتي .

— جائزة الفيلم الروائي المتوسط : « طائر القرية » لجان لطفي السوري .

— جائزة الفيلم الروائي القصير : «اللقاء » لمروان المؤذن السوري .

— جائزة الفيلم الوثائقي القصير :

« محاولة عن وادي الفرات » لعمر أمير الاي السوري ، وكذلك « حصان الطين » لعطيات الابنودى المصرى :

ـ جائزة الفيلم الوثائقي المتوسط : « بالروح .. بالدم » لمصطفى أبو علي الفلسطيني .

ـ جائزة اللجنة « الفهد » لنبيل المالح السوري ، و « شبة » لاحمد بناني المغربي .

ـ شهادة تقدير : « بعيــدا عن الوطن : لقيس الزبيدي السوري ، جائزة النقاد للفيلم الطويل : « مائة وجه ليوم واحد » لكريستيان غازي اللبناني . وللفيلم القصير : « الزيارة لقيس الزبيدي العراقي .

وعلى كل حال فرغــم العيــوب والنواقص التى ظهرت في المهرجان فانه يعد خطوة حميدة في طريق التقاء الافكار والآراء للمخرجين والنقاد السينمائيين العرب ، والعمل على تطويــر الفيلم العربي حتى يرتفع الى مستوى الافلام العالمية ، ونرجــو أن يتكــرر هــذا المهرجان في كل سنة حاملا معه تجديد السينمائيين الشباب العرب .

معرض للرسوم الفنية المصرية في المانيا الديمقراطية

أقامت الفنانة الرسامة المصريــة السيدة تحية حليم معرضــا للصــور واللوحات الفنية في غرف الاكاديميــة الفنية في برلــين عاصــمة المانيــا الديمقراطية . والفنانة حليم ولدت في الصعيد المصري سنة 1919 ، وتلقت تعليمها الفني في القاهرة ثم في باريس في اكاديمية جوليا . ورغم تأثرها بالفن الاوروبي في بداية حياتها وابداعاتها الفنية ، الا انها لم تخضع لها ، ولم تترك لها اثرا في اعمالها الفنية الرائعة التى تصور حياة الريف المصري . لقد عرضت عدة صور ولوحات فنية رائعة للبنات المصريات الريفيات التى تــدل ملامح وجوههن،وجمالهن الريفى الساحر على ترابط الفنانة الاصيل بالشعب ، واخلاصها لوطنها الصعيدى الذى ظل طابعه مسيطرا عليها ، وترابط وثيق بالتقاليد الفنية الوطنية . ويظهر من هذه الصور واللوحات بعــض التيــارات المصرية القديمة في الصور الجدارية والفن القبطي الشعبي ، وقد أسهمت الفنانة في تطوير اسلوبها الخــاص والاصيل جدا والمتحرر من كل الميول نحو التأثيرات الشكلية الدارجة ، وقد اشترت بعض المتــاحف الحديثة في القاهرة وغيرها من المدن الاجنبية ، وهواة جمع اللوحات الفنية ، عددا كبيرا من رسومها الفنية .

وقد سبق لتحية حليم ان نالت جائزة « جوجنهايم » سنة 1958 ، وميدالية ذهبية من صالون القاهرة سنة 1960 وجائزة الدولة من الطبقــة الاولى ، ووسام الطبقة الاولى للفن .

وقد كان هذا المعــرض تعبــيرا صادقا عن حسن العلاقات السياسية العربية الالمانية، ووسيلة هامة لاخراج الفن العربي من حيــزه الضيــق الى الافق العالمي الواسع .

بليغ حمدي وصلاح عرام في الجزائر

وصل الى الجزائر الملحن المشهور الموسيقار بليغ حمدي ، والاستــاذ صلاح عرام رئيس الفرقة الذهبية ، وذلك للاشتراك في احياء الذكــرى العاشرة للاستقلال ، وعيد الشــباب الجزائرى ، وينوي أثناء اقامته في الجزائر وضع ألحان مبة للمطــربه وردة الجزائريه التى ستشارك في احياء عيه الاستقلال بعد انقطاع عن الغناء دام عشرة سنوات وفي مقابلة تلفزيونية وصحفية عبــر الاستاذ بليغ حمدى عن تمنياته في أن يجــد الاصــوات الجميلة ليضع لها ألحانا جميلة ، وان يستطيع الفن الغنائى في الجزائر أن يخرج عن محليته لينفتح على العالم كله لان الفنان العربي في نظره مطالب بأن يثبت وجوده للعالم ويكون وجهة مشرفة للخارج . وقال في ختام حديثه ان الكلمة التى اقولها هى اننى اتمنى أن أسمع الغناء الجزائري من خلال الاذاعــات العربية ، وأن تقوم وزارة الثقافــة والاعلام بتسجيل شرائط للاغاني وتهديها للاذاعات العربية وأتمنى ان اشارك ولو في خطوة واحدة في الموســيقى الجزائرية .

الثورة الثقافية
للاخ محمد الشريف مساعدية مسؤول التوجيه والارشاد في الحزب

في اطار الاسبوع الثقافي لشبيبة الحزب يوم الجمعة 18 فيفري القى الأخ محمد الشريف مساعدية محاضرة قيمة تناول فيها موضوعا هاما يكثر حوله الجدل والنقاش في الاوســاط المثقفة على الخصوص ، وبالاضافــة الى شدة حساسية الموضــوع فانه يهدف الى تغيير العقلية التى لا تتلاءم ووضع الجزائر الحساس وهو موضوع « الثورة الثقافية » .

وقد قدم المحاضر تحديدا لمفهوم الثورة وحصر المعنى الثقافية فمكن المستمعين من معرفة محتوى الثورة الثقافية ومعانيها وابعادها الحقيقية .

مفهوم الثورة :

قال المحاضر بأن الثورة هي « تغيير جذري للظروف الاجتماعية البالية وهي كل عمل منظم يستهدف ازالة الاوضاع الفاسدة في المجتمع » . وهكذا نستطيع أن نفهم بأن الثورة هي قبل كل شيء وسيلة للوصول الى غاية معينة يطمح لبلوغها المجتمع ، وطموح المجتمع ينعكس بالضرورة في ثقافته على مختلف مستوياتها وأشكالها . ان مفهوم الثورة يرتبط بثلاثة عناصر رئيسية ارتباطا عضويا بحيث انه كلما ذكرت الثورة عبرت الى اذهاننا تلك العناصر التي هي « التغيير .. والمقاومة .. والنصر » . وعند ما تعرف الثورة بأنها تغيير فهذا يعني أنها لا يمكن أن تستورد ، بل لا بد أن تنبع من روح الشعب يخلقها ويحميها . وطبيعي أن هناك كثيرين يستفيدون من ابقاء الوضع الحالي ويعملون جاهدين على منع احداث اي تغيير وهذا هو عنصر **المقاومة** والصراع الذي لا يستمر حسب الديالكتيكية الهيغلية طويلا بين هذين العنصرين حيث يتم **النصر** للثورة التي قد تلبس ثوبا جديدا . ان الثورة كل لا يتجزأ فالثورة الحقيقية والاصيلة لا تتم في ميدان واحد بل تتعداه لتشمل كل الميادين ومن ثم نجد بلادنا تخوض عدة ثورات : الثورة الزراعية ، الثورة الثقافية ، الثورة الصناعية .

معنى الثقافة :

قدم المحاضر عددا من التعاريف لمعنى الثقافة منها أن الثقافة هي "مجموعة الافكار والمفاهيم والقيم التي تؤثر تأثيرا واضحا في السلوك الفردي والجماعي على السواء . ومن ثم فالثقافة كالكائن الحي تتأثر وتؤثر في البيئة المحيطة بها أي أنها تخضع للظروف التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فثقافة اي شعب لاتتشابه مع ثقافة شعب آخر ، بل ان ثقافة الشعب الواحد تتبدل حسب النظام الاجتماعي فمثلا تقتصر ثقافة النظام الاقطاعي على « الخاصة » بينما نجد ثقافة النظام الرأسمالي تمجد دور الفرد أو ترفعه الى القمة دون أن تنظر الى العلاقات الاجتماعية السائدة ، أما ثقافة المجتمع الاشتراكي فهي تنزع نحو الروح الجماعية ذات الطابع الجماعي .

الثورة الثقافية :

بعد توضيح معنى الثورة ومعنى الثقافة نعود الى الثورة الثقافية التي تعني « قلب وتغيير الاوضاع والعادات والتقاليد والهياكل البالية ، وهي تعني تحطيما وهدما وخلقا وابداعا » . وقد ابتدأت هذه الثورة بحركة الاسلام بما جاء به من احداث تغييرات في السلوك والمفاهيم والقيم وبذلك يكون الاسلام أول من حقق ثورة ثقافية معايشة لحياة الفرد وتطلعاته . والثورة الثقافية في بلادنا ابتدأت بالثورة المسلحة ضد الاستعمار ، وكل المنجزات التي حققتها الجزائر من صميم الثورة الثقافية كالاصلاح الزراعي والتسيير الذاتي .

وتعرض المحاضر الى العلاقة بين المثقف الثوري والجماهير فهو مرتبط بها ارتباطا عضويا ومحليا ولايوجد هناك أي حاجز يقف بين المثقف الثوري وجماهيره بل يعتبر هو المعبر الحقيقي عن مشاعر الشعب واحاسيسه بطريقة واضحة متلالئة ، وانهى الاخ مساعدية محاضرته القيمة يقول : « ان الثورة التي لا تنبع من احاسيس الجماهير مهما كانت سليمة من ناحية الفكر ومن ناحية التخطيط الا انها تبقى عاجزة أمام عدم التزام الجماهير بها أي أنها تفقد تربتها الطبيعية »

فيلم الفتح

تم في دار الاثار السينمائية الجزائرية عرض فيلم وثائقي متوسط حول الثورة الفلسطينية لمخرج ايطالي ، والفيلم فيه جوانب ايجابية وأخرى سلبية . فالفيلم كما يظهر من عنوانه يحمل فكرة ثورية تدور حول الثورة الفلسطينية . بدأ الفيلم بعرض المشكلة الفلسطينية منذ الاحتلال الصهيوني لفلسطين سنة 1948 ، وما نتج عنه من هجرة فلسطينية ، واضطر المهاجرون أن يعيشوا حياة قاسية في الخيام القماشية التي كانت كثيرا ما تعجز عن مقاومة الرياح الشديدة والنوم على الارض والاكتفاء بغطاء خفيف يقي اجسامهم شر البرد القارس في ايام الشتاء الباردة ، وأبرز حياة ابناء اللاجئين الذين تظهر على وجوههم علامات البؤس والشقاء ، ويعانون من آلام الجوع مثلما يعانون من اخطار الامراض ، ويعيشون في حياة الفقر والجهل والمرارة . وقد عرض هذه المناظر بطريقة مؤثرة جدا على عواطف المتفرجين واحاسيسهم حتى أن الاجسام كانت برجفات تهزها ، ورعشات تسري في عروقها ، لفظاعة تلك المناظر المؤلمة التي لا تستطيع نفس بشرية أن تتحمل رؤيتها دون التأثر الحزين ، وابداء العطف الشديد على هؤلاء المنكوبين ، والكره والحقد على

من كانوا سببا في هذه المآسي والآلام البشرية .

وبعد ذلك ينتقل الى حياة الشعب الفلسطيني بعد نكسة سنـــة 1967 وزيادة تشرده وتجدد حياته القاسية في الخيام ، وانتظار رحمة وكالة الغوث الاممية لتقدم لهم قليـــلا من الدقيـــق والسكر ، وكميـــة ضئيلة مـــن الارز والحبوب والزيت النباتي .

ثم ينتقل المخرج الى تصوير الشعب الفلسطيني بعد بروز الثورة الفلسطينية الى الوجود التي أعادت للشـــخص الفلسطيني كرامته ، وعملت على رفع الذل والعار عن جبينه ، وخلقت منه مواطنا جديدا يمسك المحراث باحدى يديه ، والسلاح باليد الاخرى . واصبح ابناء اللاجئين الذين كانوا يتخبطون في الفقر والجهل ، يتمتعون بحقوق التعلم في مدارس الثورة التي جعلت من هذا الكم الضائع أشبالا ثوريين ، ورجالا للمستقبل ، وجيلا لتحرير فلسطين ، وبعثت فيهم الثقة بالنفس ، وخلقت فيهم روح الثورة والوطنية ، حيث ان الاطفال الذين لم يبلغوا سن الاشبال يضعون لانفسهم الدمى على شـــكل أسلحة ، ويقومون بتنظيم الالعاب ذات الرو ح العسكرية التي تعتمـــد على التنظيم وتمثل دور الطاعة والقيادة . أما الكبار فأصبـــح كل منهم يفتخـــر بفلسطينيته ويثني على ثورته التي ردت اليه كرامته ، ويبدون استعدادهم لتقديم ابنائهم فدائيين في الثـــورة لتحـــرير فلسطين . ثم يصور معركة الكرامة التي كانت نقطة تحول حاســـمة في تاريخ الثورة الفلسطينية ، ثم ذهب المخرج في كبرة التصوير الى بعض قـــواعد الفدائيين في باطن الجبال وتحت الارض والتقى ببعض قادة الثورة العسكريين والسياسيين ، وأعطى لجمهور المتفرجين فرصة لرؤيتـــهم وسمـــاع ارائهم في التخطيط للثورة ، والاصرار على متابعة الكفاح المسلح حتى النصر النهائي .

وبهذا الصدد فانه لا بد لنا من القول بأن الفيلم لم ينجح النجاح الذى كان متوقعا له ، اذ كان تعوزه الدقة في التصوير والاخراج ، بالاضـــافة الى مشكلة الصوت التي كانت تسير بطريقة غير مرضية .

فالصور غير واضحة زيادة على أن معظمها صورا ثابتة ولم يظهر المصور براعة في تصوير مناظر الفدائيين اثناء تدريباتهم وعملياتهم العسكرية كالبراعة التي أظهرها اثناء تصوير مشاهد حياة اللاجئين ، اذ ان هذه العمليات مرت ببرودة واضحة لم تبعث الاحســـاس الشديد كالذى بعثه مشهد اللاجئين في خيامهم . بالاضافة الى أن ترجمـــة الصوت من العربية الى الايطالية لم يكن دقيقا اذ كان الكلام العربي يقاطع الكلام الايطالي مما كان يحدث ارتباكا في الصوت ، وزاد من المشكلة الترجمة الفورية من الايطالية الى الفرنسية مما احدث ازعاجا للمتفرجـــين ، وعـــدم انسجام الصوت والصورة .

غير ان هذه العيوب الفنية لا تقلل من قيمة الفيلم والصورة الحية التي قدمها عن مراحل تشـــرد الشـــعب الفلسطيني وتطور حـــركة المقاومـــة الفلسطينية ، ووعي الشعب الفلسطيني وتفاعله مع ثورته التي استطاعت ان تخلق في نفس كل صـــامد في أرضه ولاجيء في خيمته روح الثورة والتضحية في سبيل الوطن .

ويعتبر هذا الفيلم خطوة هامة في طريق النشاط الاعلامي الفلسطيني في أوروبا لمواجهة الاعلام الصهيوني الذى ظل طوال العشرين سنة الماضية يعمل في ميادين واســـعة يقدم للشـــعوب الاوروبية عن قضية الشعب الفلسطيني بينما كان الاعلام العربي غـــائبا عن المسرح كما انه دليل واضح على بداية تفهم التقدميين والثوريين في العـــالم للقضية الفلسطينية ، اذ ان القائمين عليه ايطاليون ، وهذا يشير الى وجود كثير من الاوروبيين المتعاطفين مع الشعب الفلسطيني وقضيته . ولا شك في أن هذا الفيلم وما سيتبعه من أفلام ونشاطات ثقافية أخرى ستكون لها آثار واضحة في تغيير الدعايات والاعتقادات الخاطئة السائدة في أوروبا عن قضية فلسطين ؛ لتصبح معروفة على حقيقتها فتكسب بذلك تأييد العالم وعطفه ووقوفه الى جانبها .

كتـــب :

٢ ـ هجرة الكفاءات تأليف ولترأدمز .

كتاب بالغ الاهمية يحتـــوى على عـــدد من مجموعـــة بحـــوث القيت ونوقشت في مؤتمر لوزان في شـــهر اوت 1967 تدور حـــول مشكلـــة هجرة الكفاءات وهي مشكلة تعـــاني منها ، خصوصا الدول النامية وتعتبر الولايات المتحدة الامريكية أكثر البلاد جذبا لهذه الكفـــاءات ، تنـــاول فيه تاريخ هجرة الشخصـــيات العلميـــة والمفكرين الى البلاد الاجنبية منـــذ العهد اليوناني حتى وقتنا الحاضر . فأظهر الباحث أن هجرة الكفاءات قديمة قدم العلم نفســه ، فقد كان العلماء يهاجرون من كافة انحاء العالم الى مدينة أثينا لانها كانت مركزا للعلم . ولما أصبحت الاسكندريـــة

مركز العلم سنة 300 ق م جاء اليها مئات الكفاءات فيمختلف المعارف الانسانية ، وقد كان بطليموس هو الذى جذبهم اليها بسبب الذهب الذى اغدقه عليهم ، وفرص الدراسة والبحث العلمى التى هيأها لهم .

وفي العصور الوسطى حيث بلغ عدد جامعات أوروبا حوالي ثمانين جامعة ، كان الحكام يتنافسون في اجتذاب خريجي هذه الجامعات وأساتذتها ، وأوضح مثال على هذا النوع من الهجرات ، ما حدث في باريس سنة 1228 وعرفت هذه السنة بسنة « التشرد الكبير » حيث هاجر طلبة وأساتذة جامعة باريس الى لندن وأسسوا جامعة اكسفورد ، والى غيرها من المدن .

وفىالوقت الحاضر فانالولايات المتحدة الامريكية هي أكثر دول العالم اجتذابا للكفاءات حيث أظهر العالم جيمس بركنز رئيس جامعة كورنيل بأنه قد هاجر الى امريكا 43 الف عالم ومهندس ما بين 1949 — 1961 ، وقالت احدى الجرائد الامريكية حول هذه الهجرة : « ان الولايات المتحدة الامريكية تقدم باحدى يديها الملايين لهذه البلاد النامية من اجل أن تطور نفسها ، ولكنها في الوقت نفسه تسلبها باليد الاخرى قادتها القادرين على تطويرها ، فهؤلاء القادة بالنسبة لهذه البلاد أنفع من الطعام والالات التي تقدمها لها » .

2 — 20 عاما من حربنا مع اسرائيل. عشرون عاما من حربنا مع اسرائيل تأليف العقيد الركن المتقاعد : صلاح الدين عبد القادر محمد غائر .

نشر مطبعة الشعب — بغداد العراق — يتناول تطور القضية الفلسطينية واحتمال قيام الجولة الرابعة بين العرب واسرائيل وحتمية قيام هذه الجولة .

3 — 3200 مجلة وجريدة عربية : تأليف عبد الغنى أحمد بيوض ، نشر المكتبة الوطنية بباريس .

يذكر الدوريات العربية المحفوظة حاليا في 20 مكتبة ، وقد صدرت ما بين 1800 — 1965 .

4 — العرب والطب : تأليف أحمد شوكت الشطي ، نشر وزارة الثقافة دمشق سوريا .

5 — معجم المصطلحات العلمية والهندسية والفنية : تأليف أحمد شفيق الخطيب ، نشر مكتبة لبنان ، معجم جامع لمصطلحات العلوم والتقنية حجم 750 صفحة ، ويحتوى على 60 الف مصطلح في الطيران ، والاحياء ، والهندسة ، والفلك ، والكيمياء ، والارصاد الجوية ، والالكترونات ، والراديو والفيزياء ، والكهرباء ، والجيولوجيا ، والعلوم العسكرية .

6 — « أرتيريا شعبا وكفاحا » تأليف عبد الباري عبد الرزاق نجم ، نشر مطبعة العاني — بغداد — العراق .

هو دراسة وافية عن الثورة الاتيرية وتعريف القارىء العربي بارتيريا وثورتها الشعبية المسلحة .

7 — الى الجنوب نحو الموئل القديم تأليف الكاتب الزنجي البرت موراي ، وهو لبنة جديدة في حركة الزنوج نحو الحرية ومقاومة جميع أشكال التميز العنصري .

8 — مايكوفسكي شاعر الثورة : تأليف تورشلكي ، لندن ، تناول حياة الشاعر الروسي مايكونسكي من خلال احاديث بعض اقاربه ، واصدقائه الذين لازالوا يتمتعون بالحياة .

9 — مملكة سنغاى فى عهد الآسقيين ، تأليف عبد القادر زبادية ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، وهو اصلا رسالة حصل بها المؤلف على شهادة « الدكتوراة من الدرجة الثالثة » وهو خطوة جديدة في طريق اهتمام الباحثين الافارقة بحضارات قارتهم ، ومبادرة قيمة لجامعة الجزائر ليكون لها فضل السبق في القيام بمثل هذه البحوث التاريخية .

10 — دور الشعر فى معركة الدعوة الاسلامية ، تأليف عبد الرحمن خليل ابراهيم ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر .

11 — نهضة الادب العربى المعاصر فى الجزائر 1925 — 1954 ، تأليف الدكتور عبد الملك مرتاض ، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر .

12 — الحسبة المذهبية فى المغرب العربي نشأتها وتطورها ، تحقيق الاستاذ موسى لقبال ، نشر ش . و . ن . ت . الجزائر .

13 — عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار ، نشر ش . و . ن . ت . الجزائر .

وكتبت مجلة تايم فى عددها الصادر فى 29 ديسامبر 1971 مقالا صغيرا بعنوان : ساعة الكربون .

يعتبر كثير من علماء الاثار أن شعوب أوروبا كانت فيما قبل التاريخ كانت شعوبا بدائية متأخرة . والحقيقة ان البقايا الاثرية مثل الاواني الفخارية

نشير الي أنه كان يوجد مستوى عالي من الثقافة ، ولكن مثل هذه التركيبات كانت عادة تعزى او ترد الي التأثير الذى جلبه للمنطقة المهاجرون المهرة القادمين من المناطق الاكثر تقدما وحضارة خاصة في منطق الشرق الادنى وقد اولى علماء الآثار هذا الادعاء اهتماما كبيرا ، وبدروا جادين في فحص واختبار مدى صحة هذا الاعتراض المتعلق بانخفاض مستوى الثقافة لدى الاوروبيين القدامى !

ويرجع الفضل في معرفة هذه الحقائق وتحقيق مثل هذا الاكتشاف الهام الي التطور الهام الذى طرأ لدى المؤرخين في طرق تأريخ مخلفات وبقايا الانسان القديم ، وكان هذا التطور هو استعمال وسيلة حديثة تعتمد علي مادة الكربون 14 بواسطة استعمال ساعة الكربون الذرية ، التي تم اكتشافها علي يد الكيميائى الامريكي الشهير الاستاذ ولارد لبي WILLARD LIBBY منذ عقدين من الزمن ، [illegible] في عملها علي أساس « فقدان » مادة الكربون 14 المشعة ، وهو احد نظائر الكربون 12 غير المشع والثابت ، ان كلا نوعى الكربون 14 و 12 توجد في جميع الكائنات الحية (نبات ، حيوان ... الخ) بنسب تبقى ثابتة طيلة حياة العضو أو الكائن الحى ، ويزداد فيه بصفة مستمرة من جراء عمليات التجدد والتأيض ، غير انه عند ما يموت الكائن ويتوقف ازدياد المواد المتجددة ، وهكذا فان نسبة الكربون 14 الي الكربون 12 تبدأ بالتغير ، اذ تبقى كمية الكربون 12 ثابة العضو ، بينما يبدأ الكربون 14 المشع بالتناقص ، ويجرى هذا التناقص الاشعاعي بانتظام كما يجرى تيار الرمل في الساعة الرملية .

ولكي يستطيع العلماء حساب عمر مادة قديمة كقطعة خشب أو عظمة من العظام ، أو بذرة عثر عليها في اناء صلصالي ، فانهم يلجأون الي قياس نسبة الكربون 14 الي الكربون 12 ، ان هذا الاختراع الفني الحديث أوجد ابتهاجا شديدا ، وفرحا كبيرا لدى علما الآثار ، كما ان صاحبه حصل على جائزة « نوبل » NOBEL ، مكافأة علي هذا الاختراع وقد استطاع علماء الاثار باستعمالهم هذه الوسيلة الحديثة أن يؤرخوا لبعض الحقائق الفنية العلمية المتعلقة ببعض الانتاجات التي لاتزال تدور حولها استفسارات كثيرة ، وتأكدوا من أنها قدمت دعما شديدا وركيزة قوية لاحدى نظرياتهم المألوفة التي مفادها أنه قد حصل انتشار ثقافي تدريجي من منطقة الشرق المتحضر الي منطقة اوروبا الشديدة التخلف ، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، وازداد اقتناع علماء الآثار – باستثناء القليل – بفكرة استطارة الحضارة ، ويرجع الفضل في حل هذا المشكل الي التأريخ بواسطة الكربون 14 الذى اخترعه لبي سنة 1950 ، حيث استخلص أن كمية الكربون الكلية الموجودة في العالم الان هي نفسها التي كانت موجودة في العصور السحيقة القدم،مجرى ذلك : ان عملية انتاج الكربون في الجو لا تتوقف ، ما دامت الاشعاعات لم تتوقف عن الاشعاع على سطح الارض تاركة وراءها الحطام الذري .

ولكن بسبب تزايد عدد تواريخ الكربون 14 المدهشة ، فقد بدأ العلماء في جامعات أريزونا ARIZONA ، وبنسلفانيا PENNSYLVANIA، وكاليفورنيا CALIFORNIA [illegible] ادعاء أو زعم [illegible] LIBBY ، وذلك بالرجوع الي بعض الكائنات الحية التي كانت موجودة في عصور ما قبل التاريخ مثل شجر صنوبر في كلفورنيا وشجر السكويا التي كانت قد ابتدأت في النمو منذ اربعة الاف سنة ، وبالتحليل الدقيق للكربون 14 الموجود في حلقات النمو السنوية في الشجرة ، وجدوا أنه يوجد بالفعل تغيير طفيف ولكنه هام في عملية انتاج النظائر على مر الزمن ، وذلك كنتيجة للتغيرات التى تطرأ على انطلاق اشعة كوسموس .

ولقد قام الاستاذ هانس سويس HANS SUESS ، [illegible] الكيمياء في جامعة كلفورنيا باعادة قياس الازمنة الاثرية الناتجة عن التاريخ بواسطة الكربون 14 في جميع انحاء العالم ، ولم تؤثر التقييمات التى قام بها علي التواريخ العامة المتفق عليها بالنسبة لحوادث الشرق الادنى ما عدا بعض الاستثناءات والاختلافات في بعض التواريخ فمثلا اظهرت تواريخ الكربون 14 التي تم اجراؤها بدقة أن النحاسين المهرة كانوا يمارسون اعمالهم في البلقان وربما في بلاد اسبانيا القديمة قبل أن يبدأ الاغريق بالسيطرة على الفنون التعدينية .

وكتبت مقالا بعنوان : **اساليب الطبيعة**

اذ كان هناك بالفعل كائنات حية اخرى تعيش فوق ارض غير هذه التي يعيش عليها الناس في العالم الادمي ، فما هي اشكالها المحتملة ! فبينما يظن بعض العلماء ان اشكال هذه الكائنات لن تشبه اى شكل فوق سطح ارضنا يرى الاستاذ جوزف كروت JOSEPH KRAUT استاذ الكيمياء الحيوية في جامعة

شنورنيا عكس هذا الراي ، فهو يرى أن الحياة السائدة فوق الكواكب في محيطات وبيئات مشابهة لما هو فوق الارض يجب أن تكون ذات أشكال ومشابهة تماما للاشكال التي تعيش فوق الارض ، وتقول كروت بأن تخميناته هذه ما هي الا مجرد أوهام ، غير أنه يدعمها ببعض البراهين والايضاحات التجريبية فقد ترأس قبل 15 سنة فريقا من العلماء للبحث حول الابعاد الثلاثة للانزيمات أي البروتينات التي تعمل كوسيط كيماوي في جميع العمليات الكيمياوية الضرورية للحياة وكان موضوع اهتمام هؤلاء العلماء أنزيم يعرف باسم « سوبتلزين » SUBTILISIN يوجد في البكتيريا الارضية العادية وقد قام العلماء بفحص تركيبه المعقد وأثبتوا أنه يشبه الى حد كبير أنزيما أخر يدعى كيموتربسين CHYMOTRYPSIN وهو أنزيم معروف ومألوف عند جميع الكائنات بما فيها الانسان ، ورغم الاختلاف الشديد بين هذين الانزيمين من حيث التركيب الجزيئي والشكل العام فان كلا منهما يحوي ثلاث مجموعات متشابهة تماما من حامض الامونياك ، وهي التي تشكل ما يسميه كروت « غايات العمل » وبواسطة هذه النقط يتم نقل المحتويات الكيماوية في العمليات الحيوية ، وقد أطلق كروت على هذه الاكتشافات منذ اللحظة الاولى « التطور المتقارب » في ميزان الجزيئات ، وبعبارة أخرى فان الطبيعة اخترعت نفس الاجزاء من العمل الالي الجزيئي لتؤدي وظيفة خاصة في كائنين متباعدين مستقلين ، ويرى كروت أن هذا التقارب في تطور الانزيمين ليس مجرد صدفة . لان النظام العضوي والبناء الرئيسي للحياة (حامض الامونياك والبروتينات) معروفة لدى الجميع على أنها محتويات عامة لدى جميع الكائنات ولهذا فان الاكتشاف الذي حققه كروت يمكن اعتباره أكثر من برهان لما يمكن قبوله على انه حقيقة علمية للحياة وعند عرض نفس المشكلة فان الطبيعة ستقدم نفس الحل .

وأخير كتبت موضوعا بعنوان :

الحيـاة بدون مـاء

هل يمكن أن تكون الحياة فوق الكواكب مختلفة عن الحياة فوق الارض أي أنها عالم خال من الماء تماما ؟ ان التجارب التي أجراها الاستاذان جوستاولن . GOSTAWALLIN ودافيد اركسو DAVID ERICSON من جامعة كولومبيا ترى أن ذلك يمكن أن يكون بالفعل ، بالرغم من أنه بدون الماء فان أي عضو يمكن ان يكون غير معروف كلية ، لقد قام ولن واركسون بخلط الغازات التي تم اكتشافها حديثا في المسافات العليا من الجو كحامض الامونياك ، والميتانول وحامض النمل ، بنسب مختلفة ، وبعد أن خلصا الغازات من الماء وجعلاها نقية تماما ، وعرضاها للأشعة فوق البنفسجية ، وجدا أنها تنتج كميات قليلة من حامض (الامونياك الضروري للحياة ، فقال ولن WALLIN . ان سائل الامونياك ذو الصفات الفيزيائية والكيماوية الشديدة الشبه بصفات وخصائص الماء ، يمكن أن يقوم كوسيط وبديل للماء في حياة لا يوجد فيها ماء .

الاصالة و التقدم

محاضرة الاستاذ جاك بيرك :

استهل الاستاذ محاضرته بالاشارة الى كلمة الاستشراق فقال: انني لست مستشرقا وانما رجل مهتم بالعلوم الانسانية والاجتماعية ، وأولي عناية خاصة بمشاكل العالم الشرقي ، واحاول أن أتكلم باللغة العربية التي لا اعتبرها كموضوع للتشبث بالعرب، بل كأداة للتبادل الفكري التلقائي الذي يعبر الى حد كبير عن الانسجام والتوافق الفكري والثقافي .

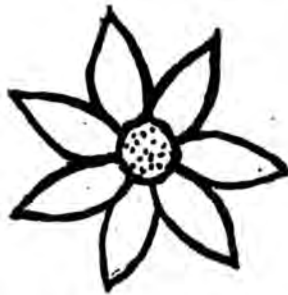
ما هو التقدم ؟

أشار جاك بيرك الى ان موضوع التقدم يهم كل من الفرد والمجتمع العالم وغير العالم ، ورغم أن بعض المستنيرين من علماء القرن الثامن عشر قد بحثوا فيه الا أنهم لم يخوضوا في أعماقه ، والتساؤل عن مضمونه الحقيقي .

منذ زمن طويل تساءل المفكرون عما سموه بالتناقضات الثلاثة : التناقض الاول هو الذي أثاره ماركس وهو التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانسان وهذا موضوع اهتمام الاشتراكية الماركسية . والثاني هو التناقض بين الدول الاستعمارية وغيرها من دول وشعوب العالم ، اذ تأخذ حضارة صناعية تسرع الخطى في سيرها العام لتؤمن الاستغلال .. ثم التناقض بين القوة الصناعية بالذات وكيفيات انتشارها ، وهذا تناقض تام :

ان جميع هذه التناقضات الثلاثة يرجع في نظرنا الى نوع من التناقض بين عاملين هما العامل التكنولوجي من جهة ، والعامل الانساني من جهة ثانية ، فمثلا نلاحظ في التناقض الذي أثاره الماركسيون تناقضا بين الطاقة الصناعية من جهة وبين العامل الاجتماعي من جهة ثانية ، والتناقض الثاني أي تناقض الامبريالية فهو

نفس التناقض بين تكاتفوالتقاء الطاقات الصناعية من جهة والمساواة بين الامم وحضارات العالم من جهة ثانية ، حتى أن فساد وتغيير الطبيعة يرجع الي نفس التناقض بين العاملين ، ولنتأكد من ذلك لنطبق هذا الراي على احدى القرى البدائية البدوية البعيدة عن كل تأثير خارجى ، فنجد أن الحياة الاجتماعية فيها حياة مجتمع متكامل خاليا من تعسف الاتجاهات ، والفعالية التاريخية ، وهذه الحياة البسيطة فيها خليط من الوظائف الاجتماعية كلها . ان هذه القريةالبسيطة سرعان ما تتطور وتتطور من أبعاد الي أبعاد متعددة ، ان هذه القرية تأثرت من الخارج ونمت من الداخل فأخذت كما تقول اللفظة العربية الحكيمة « تتطور » ، فكلمة تطور استعملت لاول مرة عند ابن خلدون ، فعند ما جاء الفرنسيون الي قرى الاطلس الصحراوي مثلا كانت القرية في أبعاد تكنولوجية وعقائدية وجمالية تتناسب بعضها البعض ، ثم حدث تناقض بين قوة اقليمية وقوة مركزية هي قوة السلطان ، فلا بد ان الشكل التنظيمى كان يناسب بعض الاشكال الاقتصادية والعقائدية وغيرها . ولما جاء الحكم الفرنسي أثر في القرية وظهر نضال أخر ونغيرات أخرى ، ولا شك أيضا أن هناك تغيرا تكنولوجيا كان يناسب النظم الاجتماعية وغيرها ، ولما جاء طور الاستقلال فلا شك أن هناك تغيرات كبيرة ، فالمجتمع يتفتح على العالمية وكذلك يتأثر بتأثيرات مركزية من القوة الوطنية ، ونستطيع أن نستنتج مشكلة نظرية كبيرة بالنسبة للبدان النامية فهيمشكلة «الخصوصية» فمشكلة الخصوصيةاترجع الي كيفية التركيب في المجتمع المغلق بين ابعاده ومراحله كما تقول المدرسة البنائية التى ترى ان البناء الاجتماعى هو أهم المظاهر الملموسةللمجتمع ، وامكانيات التطور والتركيب بين الابعاد المختلفة للمجتمع ، فالخاصية هي أن يحتفظ المجتمع بذاتيته مهما تغيرت أحواله وظروفه ، والخصوصية هي أن نحتفظ بشخصيتنا مع التطور الحضاري المفرط ولا يمكن أن تكون كلمة تطور رغما عن خصوصيتنا واصالتنا ، بل العكس هو الصحيح ، فاننا نتطور من اجل وجود خصوصيتنا واصالتنا ، وذلك حتى نكون من بين الدول المتقدمة ، لان التقدم لا يكون جزئيا ، فاما أن يكون أو لا يكون .



ALGER

RENDEZ-VOUS DE L'HISTOIRE...

INTRODUCTION

Dans ces textes empruntés aux ouvrages anciens et aux livres d'hier, le passé d'Alger, tout le passé s'y reflète. Chaque siècle apporte son témoignage, depuis al BAKRI jusqu'au XIX° siècle. Les écrivains européens se plaisaient à retrouver, à décrire et à chanter, en marge de l'Alger moderne, une ville à demi orientale.

Chaque auteur retouche l'effigie de la cité selon les variations de la réalité ou selon l'optique qui lui est personnelle.

Le nombre des livres sur Alger laissent deviner une galerie des visiteurs aux buts si variés et si différents : ceux chargés d'une mission officielle, ceux capturés en mer, commerçants, hommes d'église, voyageurs ou explorateurs... chacun a décrit à sa façon un des multiples aspects de la célèbre ville : maisons, costumes, population ou mœurs... ce qui fit dire à G. MARCAIS que la cité "est une des villes les plus étonnantes du monde".

Ces extraits, glanés parmi des écrits aujourd'hui rares dans l'ensemble, permettront au lecteur de mieux connaître le passé d'ALGER pour l'aimer davantage.

ALGER : LA POSITION

La petite bourgade berbère des Beni Mezranna qui est devenue au XVI[e] siècle la capitale des corsaires de la Régence... avait-elle, de part sa position géographique quelque titre à mériter une pareille fortune.

1) L'histoire des origines du royaume des Barbaresques ne nous revèle aucune pensée, aucun calcul fondé sur des considérations de cette nature... Le corsaire Arroudj n'y vint pas de lui même mais bien à l'appel des habitants de la ville et son frère Khaireddine s'y installa définitivement parcequ'il y trouvait un refuge déjà utilisé par des pirates et qu'il espérait en faire un véritable port.

Au premier examen, on n'aperçoit ni dans la configuration ni dans la structure de cette partie du Maghreb qui constitue l'Algérie actuelle, aucune de ces orientations des routes naturelles qui dirigent les hommes vers un lieu favorisé comme tête ou carrefour de la circulation et peuvent les inviter à en faire le site d'une capitale... Tout est dit sur l'absence d'un centre géographique dans la Berbérie en général, dans le Maghreb Central en particulier sur les difficultés que la direction des reliefs parallèles à la côte oppose à la pénétration profonde du Nord au Sud, sur l'isolement relatif des plaines et des vallées...

2) Faut-il s'en tenir à cette conclusion et se laisser intimider par la peur d'un déterminisme géographique trop subtil et trop fragile ? Quand il s'agit de la position d'une capitale on a, semble-t-il, le droit de sortir du cadre trop restreint de ses environs immédiats et d'embrasser un ensemble de pays, ici le Maghreb Central, l'Algérie naturelle définie du Nord au Sud par la mer et le Sahara, de l'Ouest à l'Est par la Moulouya et l'oued Cherf ou quelque limite toute voisine. Or cet ensemble se décompose en 2 parties occidentale et orientale qui se relayent dans la zone tellienne, approximativement sous le méridien d'Alger...

E. F Gautier, pour préciser pour accuser un des traits du dessin montre, au contact des 2 Algéries, le prolongement jusqu'à la mer d'une grande dorsale jalonnée par le Hoggar, Laghouat et Médéa suivant une direction "saharienne" que croise au seuil du Contas la direction E - O "méditerranéenne". Qu'il ait en là des possibilités de villes dominatrices, de capitales, il est difficile de le nier. L'histoire en cite 3, d'importance inégales d'ailleurs, la Caesarea, l'Alger moderne "en un point naturellement indiqué par l'histoire et la géographie pour dominer".

3) Mais si la fortune d'Alger a été moins éphémère que celle des autres capitales, c'est parce qu'il s'est trouvé une puissance assez forte pour assurer une occupation militaire

(1) Position géographique : 36° 47' 16" de lat. N.
0° 44' 1" de long. E.

solide à l'abri de laquelle le travail de l'ingénieur pouvait briser le cadre trop étroit dans lequel la nature paraîssait l'avoir enfermé : c'est à cette condition seulement que sa situation dans une région ou convergeaient trois Algéries, celle de l'Ouest, celle de l'Est et celle des Steppes et des déserts, pouvait réellement prendre toute sa valeur...

Cette variété, sur des étendues relativement restreintes, des formes de relief des sols, des climats et des ressources naturelles qui est un des traits essentiels de l'Algérie, a pu concourir complètement au développement de sa capitale. Et de fait une fois supprimées les cloisons de tous ces compartiments... Alger s'est trouvé parfaitement placé pour drainer outre les produits agricoles du Sahel et de la Mitidja ceux de la vallée du Chélif, des hautes plaines de Médéa de Berrouaghia de Bouira, d'Annale, les bois et les lièges des forêts de la Kabylie... les laines de la région steppienne, les minerais de Miliana et de Rouina...

- Regardons maintenant vers l'extérieur, vers la mer ; et c'est assurement de ce côté que les fondateurs de la Régence devaient surtout regarder...

Des circonstances historiques ont pu donner à la position d'Alger une signification nouvelle et des transformations qui en ont accru la valeur en substituant un grand port à un médiocre mouillage.

Alger est approximativement à moitié chemin entre le cap Bon et le détroit Gibraltar, entre l'entrée de la Méditerranée orientale et celle de la Méditerranée occidentale.

Notons aussi d'autres faits secondaires : le méridien d'Alger traverse l'île de Majorque l'une des Baléares qui n'en sont éloignées que de 300 km environ et une ligne réunissant le cap de la Nao et le cap Caxine délimite assez bien ce grand "channel" de la Méditerranée occidentale où les 2 côtes, espagnole et africaine se regardent de plus en plus près de l'Est à l'Ouest.

Cette situation d'Alger par rapport à la péninsule ibérique et aux îles qui la prolongent a exercé une influence bien connue sur le peuplement de la ville par l'immigration celle des Maures et des Juifs d'abord et plus tard celle des Espagnols d'Alicante ou de port Mahon.

Quant à la position centrale, entre le canal de Sicile et le détroit de Gibraltar si elle peut avoir quelque importance, c'est avant tout au point de vue militaire. Il est bien certain qu'une flotte... ayant Alger pour port d'attache était bien placée pour surveiller et intercepter les routes les plus directes de Gibraltar vers la Méditerranée orientale, de l'Espagne du Sud vers l'Italie méridionale ou la Sicile. Nous mêmes, nous n'étions pas plutôt installés à Alger que l'idée d'en faire un Toulon africain hantait le cerveau de nos militaires de nos marins et de nos ingénieurs.

On ne voit pas d'autre part ce que la position d'Alger dans la Méditerranée occidentale pouvait lui conférer d'avantages économiques sans la mise en valeur de l'arrière pays... Un autre évènement a donné à Alger une signification nouvelle : le percement de l'isthme de Suez terminé en 1869, en même temps qu'il replaçait la route des Indes dans la Méditerranée, a fait d'Alger un port remplissant les meilleures conditions pour la relâche et le ravitaillement en combustible...

Ainsi se sont heureusement combinées les circonstances historiques et géographiques pour fonder et légitimer la prédominance d'Alger sur le territoire...

R. Lespès, Alger, pp. 29-37
- Paris 1930 -

---

2) Alger est un des points du littoral les plus proches de la région des steppes.

L'ORIGINE DU NOM FRANÇAIS "D'ALGER" TRADUISANT "EL DJEZAIR"

Le nom arabe d' "El-Djezaïr" a été transcrit — ou plus exactement déformé — de manières diverses par les peuples européens qui se sont trouvés en rapport avec ses habitants Il peut être intéressant de rechercher quelle est l'origine de la forme adoptée par les Français, et si elle leur est vraiment particulière, comme on pourrait le croire facilement.

On sait que notre capitale africaine est aujourd'hui désignée sous les noms suivants: "Argel" par les Espagnols, "Algieri" par les Italiens, "Algiers" par les Anglais et les Hollandais, "Algier" par les Allemands, pour ne citer que ces peuples.

Ceux du Nord sont entrés en relation avec la ville musulmane plus tardivement que les populations méditerranéennes ; celles-ci commerçaient en effet avec elle dès le douzième siècle, par l'intermédiaire des navigateurs Catalans, Pisans et Génois. Il est à croire, à priori, que les traductions du nom d' "El Djezaïr" adoptées depuis longtemps par les Espagnols, les Français et les Italiens se sont imposées aux peuples septentrionaux qui les ont simplement accommodées à leurs modes particuliers de prononciation. Quant aux Méditerranéens, on est tout naturellement amené à rechercher leurs plus anciennes transcriptions dans les documents qui émanent de leurs marins, c'est-à-dire dans ces cartes dressées à la boussole que l'on nomme "portulans".

Les plus anciens documents cartographiques connus sur lesquels figure une transcription européenne d' "El-Djezaïr" sont : un portulan du 13ème siècle conservé à Gênes, l'Atlas de Tammar Luxoro (ou Luxoros) et une carte Pisane de la Bibliothèque Nationale que l'on date entre les années 1275 et 1300.

Or, ils portent deux dénominations bien différentes : Alguer pour la première, Algezira pour la seconde. Il est trop clair que cette dernière forme est la simple reproduction qu'il faut prononcer à l'italienne (Aldjezira) du terme arabe qui signifie "l'île".

El Bekri, qui cite cependant le nom de Djezaïr beni Mesguenna, c'est-à-dire le pluriel, "les îles", ajoute immédiatement après : L'île s'appelle Stofla".

Sans doute les navigateurs avaient-ils l'habitude de considérer le groupe des îlots dans leur ensemble : aussi bien ne les intéressaient-ils que par l'abri que leur fournissait ce brise-lames naturel. Ainsi s'explique la dénomination de la carte Pisane. Quant à la forme Alguer, elle paraît être proprement Catalane.

Au 14ème siècle, les Italiens continuent à désigner El Djezaïr par des noms qui se rapprochent de Djezira. L'Atlas gênois de Pietro Vesconte (1318) porte sur la position

d'Alger Zizera que l'on retrouve également dans celui de Pinelli (14ème siècle) et dans le Planisphère gênois de Giovanni di Carignano (1320). Sur la mappemonde des frères Pizzigani (1367) on lit Ziziera et sur la carte vénitienne de Albertino da Virga (1409), Zirara.

Toutes ces formes sont évidemment parentes. Sur les portulans d'origine catalane ou majorquine, les transcriptions se rapprochent au contraire de la forme mentionnée précédemment, Alguer. Angelino Dulcert écrit sur sa carte, en 1339, Aurger ; or, il nous apprend lui-même par une inscription qu'elle a été dressée à Majorque. Mais la forme que les documents de cette provenance portent généralement, et que l'on y trouve dès leurs Aldjère, contraction de Aldjezira.

C'est le nom d'Alger, qui figure sur la célèbre carte Catalane dite de Charles V (1375) dont l'auteur était un Juif de Majorque, Abraham Cresques, appartenant à une famille de cartographes.

Plusieurs documents du 15ème siècle reproduisent cette transcription : tel le portulan de Mecia de Viladeste (1413) dont l'auteur est d'ailleurs également un Juif majorquin ; telle aussi la carte de Gabriel de Vallseccha (1439), de même origine, Alger est écrit sur une carte du Musée de Berlin (1ère moitié du 15ème siècle) qui est apparemment catalane, comme sur celle de Gratiosus et Andreas Benincasa (1435), sur le Planisphère catalan de Jayme Bertran (1482), sur la mappemonde de Juan de la Cosa (fin du 15ème siècle), et sur deux autres, de même provenance, conservées l'une à Naples, l'autre à Modène.

Cette dénomination est aussi celle que porte une carte conservée à la Bibliothèque Nationale, et que M. de la Roncière croit avoir été exécutée, entre 1488 et 1492, sous la direction de Cristophe Colomb. La mappemonde de Martin Behaïm, de la même époque porte Algir, forme germanisée du même nom. On voit enfin reparaître Alger sur la mapemonde que dressa Sebastien Cabot, pilote-major de Charles-Quint, dans la première moitié du 16ème siècle, que la carte Colombine et celle-ci aient été sur ce point inspirées par des documents d'origine espagnole il n'y a à cela rien d'étonnant.

De l'énumération de tous ces textes, il ressort clairement que la transcription Alger (Aldjère) était d'un usage courant au 15ème siècle parmi les géographes catalans, et assurément parmi les navigateurs. Ce sont vraisemblablement les cartographes juifs ou juifs convertis de Majorque qui ont contribué à la vulgariser et à la fixer.

Nous sommes ainsi amenés à croire que c'est par eux que cette forme a été transmise aux Français qui en ont simplement modifié légèrement la prononciation : Montpellier, Narbonne n'étaient-ils pas au 14ème et au 15ème siècle en relations constantes avec les ports catalans du continent et des îles ? En contact plus direct avec les Maures, il est naturel que les Catalans aient été nos devanciers en cette circonstance.

C'est au 16ème siècle seulement, alors que l'unité espagnole fut définitivement réalisée, que la forme castillane Argel triompha de la forme catalane ; remarquons d'ailleurs que phonétiquement, elle équivaut, par la mutation fréquente de l'r et de l'l à celle d'Alger.

Quant à la transcription italienne Algieri qui a succédé à Zizera, Ziziera, Zizara, on la trouve déjà, à peu de chose près, dans le portulan de Guglielmo Soleri, dressé vers

1380 par un juif majorquin converti qui, comme on le voit, a pris un nom de baptême italien et a italianisé son nom d'origine. Algier qu'on lit sur ce document, et qu'il faut sans doute prononcer à l'italienne Aldjiér est une simple accommodation de l'Aldjère catalan. Algieri figure sur un planisphère italien du 15ème siècle de la Bibliothèque Vaticane, ainsi que sur le portulan de Magliabecchi, de la même époque.

Pour conclure, il semble résulter de cet examen des plus anciens documents cartographiques, que c'est au 16ème siècle seulement que se sont individualisées et fixées pour les différents peuples européens les transcriptions diverses du nom arabe d'El Djezaïr. Les géographes et cartographes catalans, les juifs majorquins tout particulièrement, ont eu certainement une influence considérable dans l'adoption de la forme-type dont les autres, et notamment la française, paraissent bien être dérivées.

René Lespes, Alger
- Paris 1930 -

ALGER
ESSAI DE TOPOLOGIE POETIQUE

A l'époque turque, il n'était pas de voyageur européen arrivant par mer qui ne fut enchanté par la vue "très belle" et "fort agréable". Chacun tentait alors d'analyser ce plaisir, ce contentement, et faisait appel à une imagination souvent féconde pour fixer soit le panorama, soit l'étagement, la couleur ou la forme de cette "cité d'Afrique".

Nous allons tenter de présenter la vision d'Alger telle qu'elle s'offrait aux principaux voyageurs.

A) La vue : "Est fort belle et agréable". *(Voyage de M. le baron de Saint-Amand)*

"La vue fort plaisante". *(D'Aranda)*

"Vue de la mer, de fort loin, la ville présente le plus beau panorama qu'on puisse imaginer". *(Toubarel, Guide Général de l'Algérie, 1885)*

"En face sur une colline, Alger la blanche, avec ses petites maisons d'un blanc mat qui descendent vers la mer, serrées les unes contre les autres... un étalage de blanchisseuse... Par là-dessus, un grand ciel de satin bleu, oh! mais si bleu..."
(A. Daudet)

B) L'étagement : Alger se présente "insensiblement à la vue comme par certains degrés et va toujours en montant à la façon d'un amphithéâtre ".
(P. Dan)

"Elle est bâtie sur le penchant d'une colline jusqu'au bord de la mer. Cela forme un parfait amphithéâtre".
(Laugier de Tassy)

Les maisons forment "les degrés d'un théâtre".
(D'Aranda)

"S'élevant en pente, elle couvre une colline étroite au sommet et large à la base".

(J.B. Salvago)

"La ville est bâtie sur le penchant d'une colline escarpée : les maisons, depuis la marine jusqu'au sommet, y sont rangées en amphithéâtre, de sorte qu'on découvre la mer de presque toutes les terrasses".

(Ventura de Paradis)

"La ville s'élève en amphithéâtre sur un coteau dont la pointe s'avance au nord, dans la mer, et forme le Cap Caxine".

(Voyage de la Condamine)

"Les maisons amassées, d'une couleur blanchâtre sont échelonnées vers l'orient, sur le versant d'une colline formant une espèce de grand triangle un peu incliné".

(Tombarel)

"Les Arabes saluaient en elle Alger un diamant enchassé dans l'émeraude et le saphir... Ils peignaient ainsi les reflets d'étincelante lumière sous un ciel bleu et limpide".

(Duval,
Tableau de l'Algérie, 1854)

<u>C) La blancheur :</u>

"Cette ville qui a toutes les maisons blanchies de chaux, dedans et dehors, paraît extrêmement belle quand on l'aborde par mer".

(P. Dan)

"Les terrasses sont toutes bien blanchies et l'on dirait - en la découvrant - que c'est une blanchisserie où l'on a étendu du linge".

(L. de Tassy)

"De loin, la ville ressemble à un linceul".

(Mercure Galant)

"La ville ressemble de loin à une carrière de pierres blanches".

(Voyage de La Condamine à Alger 1731)

"Bala al Jir, ville badigeonnée au lait de chaux".

(Ibn Msaïb, Diwan)

"La ville blanche les Algérois abrite à peu près comme le burnous les habille d'une enveloppe uniforme et grossière".

(E. Fromentin,
Une année dans le Sahel)

D) La forme : *(disposition) :*

"Bien qu'elle soit carrée, elle paraît bien moins large par le haut que par le bas".

(P. Dan)

"Sa forme est celle d'un voile de humier de vaisseau".

(L. de Tassy)

"En forme de voile carré de misaine".

(J.B. Salvago)

"La ville s'étend d'Est en Ouest et paraît de loin avoir la forme d'un humier de vaisseau".

(Voyage de la Condamine)

"Pomme de pin".

جوز الصنوبر

"Un triangle étendant sa base dans la mer et dont le sommet fuit sur le ciel outremer".

(A. de Chancel,
La première algérienne)

"Une tâche blanche dans la montagne".

(M. de Brèves)

"Ni tout à fait triangulaire ni tout à fait carrée".

(d'Avrieux)

"Une voile de navire".

(du Chastelet)

"Vue de la haute mer, Alger paraît dans sa forme et dans sa couleur comme une voile de perroquet étendue sur un champ de verdure".

(Esquisse de l'Etat d'Alger par W. Shaler,
1830 trad. M. X. Bianchi, p. 66)

E) Toits en terrasse : Ils forment un quatrième élément de tous les textes.

"Ils font que, du large on découvre toutes les maisons".

(Gazette)

"Les maisons d'Alger n'ont pour toit que des terrasses du haut desquelles on a le plaisir de regarder la mer".

(P. Dan)

"Le soir, les femmes y vont au frais visiter quelques pots de fleurs qu'elles y ont ; c'est là qu'elles se voient et se parlent".

(Manesson Malleet,
Description de l'Univers)

"C'est sur les terrasses que les femmes turques viennent respirer au soleil couchant".

GEZEIR, c'est-à-dire ALGER

Gezeir veut dire les Iles. Cette ville est ainsi nommée parce qu'elle est voisine des Iles Maiorca, Minorca et Leviza. Mais les Espagnols l'appellent Alger. La ville est ancienne et a été bâtie par une tribu africaine appelée Mezganna. C'est pourquoi chez les anciens elle s'appelait Mezganna.

Elle est très grande et fait dans les 4.000 feux. Ses murailles sont splendides et extrêmement fortes, construites en grosses pierres. Elle possède de belles maisons et des marchés bien ordonnés dans lesquels chaque profession a son emplacement particulier. On y trouve aussi bon nombre d'hôtelleries et d'étuves. Entre autres édifices, on y remarque un superbe temple très grand placé sur le bord de la mer et devant ce temple une très belle esplanade aménagée sur la muraille même de la ville, au pied de laquelle viennent frapper les vagues. On voit autour d'Alger de nombreux jardins et des terrains plantés d'arbres fruitiers.

Près de la ville, du côté Est, passe une rivière sur laquelle il y a des moulins et cette rivière sert aux besoins de la ville en eau de boisson et pour les autres usages.

Les plaines de la région sont très belles, surtout une que l'on appelle Mettegia qui a une longueur de près de 45 milles et une largeur de 36 milles et où pousse un blé extrêmement abondant et de première qualité.

Alger a été longtemps sous l'autorité de Tlemcen. Mais après qu'eut été créé un nouveau roi à Bougie, elle se donna à ce roi, parce qu'elle était plus proche du royaume de Bougie.

Les gens d'Alger voyant que le roi de Tlemcen ne pourrait pas leur porter secours et que le roi de Bougie pourrait leur faire beaucoup de mal envoyèrent à ce dernier leur soumission et leur tribut, mais ils demeurèrent à peu près libres. Par la suite ils armèrent en course quelques bateaux et devinrent corsaires. Ils infestèrent ainsi les îles d'Iebisa de Maiorca et de Minorca, de même que les côtes d'Espagne.

C'est pourquoi le roi Catholique Ferdinand envoya une flotte considérable pour assiéger Alger. Cette flotte construisit sur un îlot, juste en face de la ville, une belle et grande forteresse si proche que le tir des armes à feu atteignait la terre, et, qui mieux est, que le tir de l'artillerie passait par-dessus la ville, d'une muraille à l'autre.

Il en résulta que les gens d'Alger furent obligés d'envoyer une ambassade en Espagne pour proposer une trêve de dix ans moyennant un certain tribut, ce que le roi leur concéda. Ainsi demeurèrent-ils en paix quelques mois.

Alors Barberousse vint assiéger Bougie et, ayant pris une des forteresses construites

par les Espagnols, il mit le siège devant l'autre. Mais il n'aboutit à rien parce que toutes les tribus de la montagne qui étaient accourues à son aide partirent sans sa permission au moment des semailles et que beaucoup de soldats turcs en firent autant. Barberousse dut s'enfuir, mais, avant de partir, il mit le feu de sa propre main, à douze grosses fustes qui étaient dans le fleuve à 3 milles de Bougie. Il se réfugia avec quarante de ses familiers turcs au château de Gegel, qui est à 60 milles de Bougie et il y resta quelque temps.

A cette époque mourut le roi Catholique et la population d'Alger voulut rompre la trêve et se libérer du tribut qu'elle versait à l'Espagne. Considérant la grande valeur militaire de Barberousse et son aptitude à mener la guerre contre les Chrétiens, elle le fit appeler et le nomma son capitaine.

Barberousse vivait en mauvaise intelligence avec un personnage qui s'était fait seigneur d'Alger. Il le tua traîtreusement dans une étuve. Ce seigneur était le prince des Arabes qui habitent la plaine de Mettegia, il s'appelait Selim Etteumi, de la tribu des Tehaliba, branche des Arabes Machel. Quand Bougie fut occupée par les Espagnols, ce prince des Arabes avait été fait seigneur d'Alger et il conserva le pouvoir plusieurs années jusqu'à l'arrivée de Barberousse. Après le meurtre de Selim, Barberousse se fit proclamer roi et fit battre monnaie. Toutes les populations voisines lui promirent obéissance et lui envoyèrent le tribut. Telle fut l'origine de la puissance et de la grandeur de Barberousse.

Je me suis trouvé présent lors de la plupart de ces événements, car je faisais alors le voyage de Fez à Tunis. J'ai logé chez l'ambassadeur qui avait été envoyé en Espagne et qui avait rapporté à son retour environ trois mille manuscrits arabes qu'il avait achetés à Sativa, ville du royaume de Valence.

Je suis parti d'Alger pour aller à Bougie où j'ai trouvé Barberousse au siège de la forteresse et je suis resté avec lui pour voir la fin de son entreprise jusqu'au moment où il s'est enfui et où il est allé à Gegel. Je suis moi-même parti et me suis rendu à Constantine pour aller à Tunis.

C'est à cette époque que l'on m'a dit que Barberousse avait été tué à Tlemcen et qu'un de ses frères nommé Cairedin avait été nommé seigneur d'Alger. Il gouverne encore à l'heure actuelle.

On m'a dit que l'empereur Charles eut deux fois l'intention de s'emparer d'Alger et qu'il envoya deux années différentes une flotte contre cette ville. La première fut mise en déroute et naufragea pour la plus grande partie en rade d'Alger. La seconde put débarquer ses troupes qui livrèrent pendant trois jours un combat incessant. Les Chrétiens furent battus : les uns furent tués, les autres capturés et devinrent esclaves de Barberousse, si bien que peu en réchappèrent. Cela se passa en 922 de l'hégire.

J. L. l'Africain Description de l'Afrique T. II pp. 347-350 (ed. A. Epaulard).

IMPORTANCE DU MARCHE D'ALGER AU XVIème SIECLE

Tous les marchands, trafiquent des marchandises que les navires chrétiens apportent à Alger avec sauf-conduit, les achetant en gros pour les revendre au détail, aux gens de la ville, du dehors et de toute la Berbérie, car nulle part sur cette côte il ne vient autant de marchands chrétiens qu'à Alger.

Les bâtiments qui viennent d'Angleterre apportent quantité de fer, de plomb, d'étain, de cuivre, de la poudre et des draps de toute sorte.

Ceux venant d'Espagne, et spécialement de la Catalogne et de Valence, sont chargés de vin, de sel, d'essences odorantes, de cochenilles, de coiffures et de haïks teints en rouge, de perles et aussi d'or et d'argent monnayés dont ils tirent un grand bénéfice.

Les navires de Marseille et autres ports de la France, apportent toute espèce de merceries, de cotonnades, de fer, d'acier, des clous, de salpêtre, d'alun, de soufre, et même de l'huile lorsqu'il en manque en Berbérie ; ils apportent aussi de la coutellerie fine, de la gomme, du sel et du vin, et même des chargements de noisettes et de châtaignes. Ces bâtiments vont aussi chercher en Espagne des marchandises prohibées, qu'ils font pénétrer à Alger en contrebande.

De Gênes, de Naples et de la Sicile, il vient de la soie filée de toutes couleurs, des étoffes de Damas, du satin et du velours de toute sorte.

Venise fournit de la chaudronnerie, des draps, des coffres, des glaces et du savon blanc.

Des marchands Turcs apportent de Constantinople des rames de galères, des toiles et étoffes pour turbans, des poignards damasquinés, des ceintures, des tapis, des caftans fourrés de marte, des cuillers sculptées, de la porcelaine, et enfin des plats et vases bien travaillés provenant d'Alexandrie ou de Tripoli.

Des marchands Maures apportent de Djerba des épices, des mousselines, des camelots très fins pour manteaux de femmes, et des dattes ; de Tunis, de bonne huile d'olives et du savon blanc.

De Tabarque et du Bastion de France, beaucoup de corail, qui après avoir été travaillé sous différentes formes, se vend très bien par toute la Berbérie.

De Bône, du beurre salé, et de la viande de bœuf et de mouton préparée et conservée, qu'ils appellent chalea, (Kheli).

De Constantine et de Kollo, une grande quantité de peaux de chèvres préparées et teintes en couleurs variées, et des étoffes de laine grossières pour l'habillement des Arabes de condition inférieure.

De Cherchel, du miel, des raisins secs et des figues.

D'Oran des draps d'Espagne et des bonnets rouges, de Tlemcen, beaucoup de burnous très bien tissés, de Fez et de Sousse, du miel, du savon et certaine terre pour laver, aussi bonne que le savon dont on fait usage dans les bains.

F. D. de Haëdo, Topographie et Histoire générale d'Alger - trad. A. Berbrugger et Monnereau.

LES MONNAIES A L'EPOQUE TURQUE

Les écus d'Italie et particulièrement ceux d'Espagne, ont tous cours à Alger, et cela aussi bien que les metkal de Fez et les sequins de Turquie. Cependant la monnaie étrangère qu'ils estiment le plus, qu'ils accueillent avec le plus de faveur, et dont ils tirent le plus de profit, est celle d'Espagne de quatre et de huit réaux, que l'on envoie jusqu'au Caire, d'où elle va aux grandes Indes orientales, au Cathay, en Chine et en Tartarie, celui qui l'exporte gagnant toujours dessus. Aussi ne peut-on porter à Alger et en Berbérie une marchandise plus précieuse ni de plus de valeur que les réaux d'Espagne.

Quant à la monnaie particulière d'Alger, elle se compose de pièces de cuivre, d'argent et d'or. En cuivre on fabrique la monnaie la plus basse, que l'on appelle Bourbe; elle est ronde et de la grandeur d'une Blanca ou Centil du Portugal, mais du double plus épaisse et plus pesante, il en faut six pour faire une Aspre.

L'Aspre est d'argent, grand comme le quart d'une Blanca et de figure carrée ; dix font une réal d'Espagne, et quand ceux-ci manquent, il en faut quelquefois onze et douze. On fabrique les Aspres et les Bourbes à Alger seulement.

Ensuite vient la Rubia, monnaie d'or mêlée de beaucoup de cuivre, ce qui la met à un titre très bas ; elle vaut 25 Aspres, est de figure ronde, et de la grandeur d'un bien petit réal simple.

Après vient la demie Ziana, qui est aussi d'or avec alliage de cuivre, elle vaut deux Rubias ou 50 Aspres, et la Ziana qui en vaut 100, c'est-à-dire environ deux doblas. Les Rubia et Ziana se fabriquent uniquement à Tlemcen, et portent en caractères arabes, le nom du souverain qui les a fait frapper. Elles ont cours dans toutes les provinces, jusqu'à Biskari (Biskra), et la Zahara (le Sahara), contrée voisine du pays des nègres, et aussi dans la direction du Levant jusqu'à Tunis. Elles circulent encore dans les royaumes de Kouko et du Labès (Beni El Abbès).

Il y a aussi des Soltani d'or fin, dont chacun vaut 140 Aspres, et que l'on fabrique à Alger seulement.

L'écu d'Espagne valait ordinairement 125 Aspres, et Djafar Pacha, souverain d'Alger en 1580, l'a fait monter à 130. Quand on achète ces écus à des marchands, ils valent davantage, suivant leur abondance ou leur rareté sur la place. Les écus de France au soleil et ceux d'Italie ont à peu près la même valeur, cependant on préfère toujours ceux d'Espagne.

Le séquin ou Soltani de Constantinople vaut 150 Aspres, et Metkal de Fez 175 ; mais Djafar Pacha, en 1580, fit monter le Soltani à 175 Aspres, et le Metkal à 225, parce qu'il y avait alors très peu de cette monnaie.

En somme, toutes ces pièces, réaux, écus, soltani, etc..., ont une valeur incertaine, parce que les Pachas d'Alger la font monter ou descendre suivant les exigences du moment.

F. D. de Haëdo, topographie...
RA. 1871 p. 95-96.

ALGER AU DEBUT DU XVIIème SIECLE

Alger est cité d'Afrique fort animée. Au temps où les Romains dominaient en l'honneur de César, elle fut appelée Julie Césarée. Les Maures la nommaient Gezaïr, Elgezaïr qui en leur langue, signifie îles, à cause qu'elle est voisine des îles Majorque et Minorque.

La largeur qui est vers le bas du côté de la mer va en rétrécissant presque jusqu'au plus haut où il y a grand bastion pour commander à la ville et à l'entrée du port.

Il y a un grand nombre de bains et cabarets publics. J'ai vu bailler la perdrix pour quatre derniers. Les poules et les poulets y sont pareillement à grand marché...

Ils ont de beaux jardins peuplés et décorés de divers arbres... Ils ont un fruit nommé pastèque ; lequel fruit qu'ils mangent cru sans pain ni sel ; la chair est si délicate et douce qu'elle fond dans la bouche rendant une eau comme sucrée qui sert grandement pour rafraîchir et désaltérer.

Nicolas de Nicolay (1)

(1) Médecin de Henri II. et géographe, visita Alger probablement vers la fin du XVI° Siècle. Il est l'auteur d'un Livre intitulé : " les quatre livres de navigation" (Anvers 1585).

PARALLELE ENTRE ALGER ET TUNIS
"couronnées Métropoles de la Barbarie"
au XVIIème siècle

STATUT DES CORSAIRES.

A Alger, chaque turc qui arrive est porté aussitôt sur le rôle de la Milice et l'avancement est très rapide, étant donné la fréquence des mutations.

A Tunis, l'homme doit faire d'abord quelque voyage pour montrer ce qu'il vaut, puis une fois plié à la discipline, il est inscrit à la milice où les charges ne s'obtiennent que lentement. A Tunis on refuse beaucoup de gens, alors qu'à Alger on ne refuse jamais personne. Par suite qui ne peut rester à Tunis passe à Alger et est reçu et inscrit avec les autres.

La paie d'Alger est au début, par mois, d'une "ziana" (1) monnaie de ce royaume qui correspond à un ducat et quatre pains par jour. Elle augmente ensuite avec la venue de nouveaux vice-rois ou l'avènement de nouveaux rois...

A Tunis les salaires sont plus élevés et on inscrit les Turcs du Levant avec 4 aspres par jour. L'aspre est une grosse monnaie puisque 52 aspres font un réal. Si bien qu'un Turc du Levant avec 4 aspres par jour se fait plus de 4 réaux par mois mais il n'a pas le pain comme à Alger. Les Turcs du Levant à Tunis ont également des augmentations pour les nouveaux rois et vice-rois... Les fonctions à Tunis sont plus durables...

En somme, en matière de choses militaires on agit économiquement à Tunis et largement à Alger ; c'est pourquoi Alger est plus peuplé et plus riche.

FORME ET QUALITE DES GOUVERNEMENTS D'ALGER ET DE TUNIS.

Ces gouvernements ayant comme but le bénéfice c'est celui-ci qui prévaut chez eux sur ce qui est honnête et licite.

Le gouvernement d'Alger est une république populaire et une démocratie militaire.

Le gouvernement de Tunis était autrefois le même que celui d'Alger, mais il a changé depuis quelque temps du fait de l'action résolue d'un certain Cara Osman... Devenu chef de parti... il assassina plusieurs personnes et força les autres à céder et se fit appeler Dey.
TRESOR PUBLIC.

Le trésor public ou pécule d'Alger et de Tunis tire ses recettes des legs des corsaires et de biens propres avec cette condition qu'on ne peut les dépenser qu'en cas de calamités ou de malheurs du royaume. Il en-

(1) C'est la Saïme cité par Laugier de Tassy dans son hist.........50 aspres.

caisse environ 25.000 réaux par an. Tout a été prévu et grâce aux ordres, qui sont observés le trésor reste intact et augmente avec le malheur d'autrui.

RICHESSE DES DEUX CITES.

Il y a, à Alger et à Tunis des richards qui ne connaissent pas le compte de l'argent qu'ils ont encaissé ou plutôt emmagasiné parceque c'est dans des pièces souterraines dites matmourat (silos) qu'ils gardent les trésors. Il arrive annuellement beaucoup d'argent en Barbarie pour achats de marchandises et pour rachats d'esclaves ; jamais plus il n'en sort et il y reste caché. On peut dire que la Barbarie et l'Orient sont deux calamités qui attirent continuellement à elles l'or et l'argent.

Quant à ceux qui portent de l'argent en Barbarie ce sont des marchands chrétiens et juifs qui trafiquent avec les corsaires, la conscience libre avec l'autorisation du consulat (de la mer)... Il y a donc en résidence à Alger et à Tunis des marchands livournais corses, gênois, français flamands (hollandais) anglais, juifs, vénitiens et d'autres Etats.

PRODUITS ET PRIX.

A Alger le pain est plus petit et plus noir qu'à Tunis où il est blanc et grand. La viande de mouton et de bœuf est à un prix convenable dans l'un et l'autre de ces endroits ; la volaille est bon marché, le beurre et le miel sont en abondance...

Les animaux sauvages, les perdrix, lièvres, canards et oies sauvages ne manquent pas. Les fruits sont chers à l'exception des abricots, figues et grenades... Le vin est très cher parce qu'il vient du dehors... Tunis a de plus qu'Alger des salines et des forêts d'oliviers.

CLIMAT.

Quant à l'air c'est celui du climat chaud. A Alger il est léger et tempéré en raison de la proximité des montagnes et de la mer ; à Tunis il est lourd et poudreux. Tous les 3 ou 4 ans la peste fait d'horribles ravages.

DESCRIPTIONS DES DEUX CAPITALES.

Alger est située au bord de la mer. S'élevant en pente, elle couvre une colline étroite au sommet et large à la base, en forme de voile carré de misaine. Murailles simples avec fossés ; dans les angles et sur les flancs leurs boulevards...

Tunis est enseveli dans une vallé terminée par une colline d'oliviers. Au milieu de la ville, le terrain s'élève et sur la partie la plus haute se trouve le chateau en forme de triangle trouqué et à base convexe. Elle occupe un espace de sept milles et elle a sur les côtés deux très vastes faubourgs qui l'agrandissent.

Tunis est beaucoup plus vaste qu'Alger et on lui attribue 600.000 âmes ; le nombre des esclaves est inférieur à celui d'Alger et n'atteint pas 10.000...

L'ALIMENTATION EN EAU.

Les villes de Tunis et d'Alger sont privées d'eau de source à l'intérieur des murs. On y boit l'eau prise au dehors dans des puits voisins et apportées avec des ânes et mulets. Quelques maisons possèdent des citernes, pour l'usage particulier mais rares sont ceux qui n'achètent pas l'eau.

Alger, depuis quelques années a, grâce à l'habileté des grenadins des fontaines pour le public. Les dépenses des aqueducs sont payés par un legs d'un riche pacha nommé Soliman de Catane.

CONCLUSION.

En conclusion, Alger et Tunis n'ont pas leurs pareils pour la course, ce sont des royaumes puissants sur terre et sur mer, séparées par des frontières limitées...

— Jean Baptiste Salvago, Drogman Venitien.

— En 1624 : les corsaires algérois effectuèrent une razzia, à Perasto sur la côte dolmate et aux îles côniennes de Paxos et Antipaxos (possession venitienne).

— A Alger et à Tunis, pour une mission en 1625 envoyé par le sénat de Venise pour obtenir des divans des deux régences la mise en liberté des personnes et la restitution de leurs biens.

Il devait également et surtout se renseigner minutieusement sur l'état des régences, les esclaves vénitiens qui s'y trouvaient, sur les armements maritimes des barbaresques, les intelligences de ceux-ci dans certaines villes de la chrétienté...

Dès son retour à Venise (février 1626), il rédigea une relation conservée à l'Archivis di Stato de Venise (Relazioni degli Ambasciatori Veneti).

J. B. Salvago, Africa avero Barbaria, relazione al Doge di Venezia sulle Reggenze di Algeri di Tunisi. Revue Tunisienne 1937 pp. 487-495.



INDUSTRIE ET ACTIVITE ARTISANALES D'ALGER A LA FIN DU XVIIIème SIECLE

On y fabrique des toiles grossières... faites avec du lin du pays ; elles servent au peuple de la ville et de la campagne, mais il ne s'en fait pas d'exportation.

On y fait encore des rubans de soie de toutes couleurs et de toutes grandeurs... Les rubans couleur écarlate et violet ont même plus d'éclat et de solidité que ceux de la Chrétienté, et ils se vendent aussi plus cher.

Il se fait dans tout le royaume d'Alger une grande consommation de rubans pour l'ornement des meubles et des habits de femmes.

Il y a aussi diverses fabriques de bonnets ou calottes de laine qu'on nomme chachiet gézirié.

...Les chachiets d'Alger ne valent que la moitié du prix de ceux de Tunis, et ils sont par conséquent plus à la portée du peuple ; mais il ne s'en fait aucune exportation au Levant...

Les ceintures de soie simples ou en or et en argent, sont un article de plus grande conséquence : on en fait des envois considérables dans la Berbérie et dans le Levant où elles servent de turbans et parures aux gens de mer...

On fait à Alger des maroquins jaunes, noirs violets et rouges pour la consommation du pays simplement...

Il y a quantité de gens qui s'occupent à broder sur la maroquin ; ils font des souliers de femmes, des espèces de portefeuilles et de gibecières très riches en or et en argent. Ces sortes de portefeuilles qu'on nomme giresdan, servent de bourses pour l'argent. Les gibecières se nomment palasca et il en passe beaucoup au Levant. On fait dans diverses villes et bourgs du royaume d'Alger des tapis, mais plus grossiers que ceux de la Caramanie (Turquie).

Dans tout le royaume, on fait des couvertures de laine qu'on nomme haïks. Ces haïks servent d'habillement aux femmes de la campagne et aux Arabes.

De cette même étoffe, les hommes font des burnous qui sont des capes sans coutures.

VENTURE DE PARADIS. Alger au XVIIIème siècle.

ALGER VUE PAR FROMENTIN

Alger se montre, au couchant, déployé de profil et descendant par échelons les degrés escarpés de sa haute colline. Quelle ville, mon cher ami ! Les Arabes l'appelaient El Bahadja, la blanche, et comme elle est encore la bien nommée ! A vrai dire, elle est déshonorée, puisqu'elle est française. L'enceinte hautaine de ses remparts turcs, cette vieille ceinture ardente et brunie, est brisée partout, et déjà ne la contient plus tout entière ; la haute ville a perdu ses minarets, et peut-être y pourrait-on compter quelques toitures.

Toutes les nations de l'Europe et du monde viennent aujourd'hui, par tous les vents, amarrer leurs navires de guerre et de commerce au pied de la grande mosquée ; Bordj El Fannar n'effraye plus personne, et se pavoise du drapeau tricolore en signe de ralliement. N'importe, Alger demeure toujours la capitale et la vraie reine des Moghrébins.

Elle a toujours sa Casbah pour couronne, avec un cyprès, dernier vestige apparent des jardins intérieurs du dey Hussein ; un maigre cyprès, pointant dans le ciel comme un fil sombre, mais qui, de loin, ressemble à une aigrette sur un turban. Quoi qu'on fasse, elle est encore, et pour longtemps, j'espère, El Bahadja, c'est-à-dire la plus blanche ville peut-être de tout l'Orient. Et quand le soleil se lève pour l'éclairer, quand elle s'illumine et se colore à ce rayon vermeil qui tous les matins lui vient de la Mecque, on la croyait sortie de la veille d'un immense bloc de marbre blanc, veiné de rose.

Il y a deux villes dans Alger : la ville française, ou, pour mieux dire, européenne, qui occupe les bas quartiers et se prolonge aujourd'hui sans interruption jusqu'au faubourg de l'Agha, la ville arabe, qui n'a pas dépassé la limite des murailles turques, et se presse comme autrefois autour de la Kasbah.

Leur ville, dont la construction même est le plus significatif des emblèmes, leur ville blanche les abrite, à peu près comme le burnous national les habille, d'une enveloppe uniforme et grossière.

Entre ces deux villes si distinctes, il n'y a d'autres barrières, après tant d'années que ce qui subsiste entre les races de défiance et d'antipathies ; cela suffit pour les séparer. Elles se touchent, elles se tiennent dans le plus étroit voisinage, sans pour cela se confondre ni correspondre autrement que par ce qu'elles ont de pire, la boue de leurs ruisseaux et leurs vices.

En bas, le peuple algérien est chez nous ; en haut, nous pouvons croire encore, à l'heure qu'il est, que nous sommes chez les Algériens. Ici, on parle toutes les langues de l'Europe ; là on ne parle que la langue inso-

ciable de l'Orient. De l'une à l'autre, et comme à moitié chemin des deux villes, circule un idiome international et barbare, appelé de ce nom de sabir, qui lui même est figuratif et veut dire "comprendre".

Se comprend-on ? Se comprendra-t-on jamais ? Je ne le crois pas. Il y a des attractions impossibles en morale comme en chimie, et toute la politique des siècles ne changera pas en loi d'amour la loi des inimitiés humaines. La paix est faite en apparence, mais à quel prix ? Durera-t-elle ? et que produira-t-elle ? Grande question qui se débat en Algérie comme ailleurs, partout où l'Occident partage un pouce de territoire avec l'Orient, où le Nord se trouve, par des compétitions fortuites, face à face avec son éternel ennemi le Midi.

Nous n'empêcherons pas les fils ennemis de Jocaste de se haïr, de se combattre et de s'entretuer. Ils se sont battus dans le ventre de leur mère, et la flamme de leur bûcher se partagera par une antipathie qui survivra dans leur cendre.

E. Fromentin, une année dans le Sahel, pp. 197-201 - 207-203.

LA CASBAH

Le matin, à l'aube, la Casbah, habituellement voilée et silencieuse, a des éclats et comme des réveils de vie joyeuse. Çà et là, s'ouvrent des carrefours et des placettes où les marchands de fleurs et de légumes étalent leurs éventaires. Et comme des torrents qui dévalent entre des roches blanches, elle a deux ou trois longues rues toutes vibrantes de lumière, toutes fourmillantes de haillons multicolores, toutes pleines de cris et d'odeurs.

Mais à mon avis, la vraie Casbah n'est pas là, dans ce tumulte et ces couleurs. La vraie ne se livre point aux regards des passants. Elle est retirée, murée et comme ensevelie derrière une triple barrière d'ombre, de silence et de refus.

Les maisons, presque sans ouverture, ne reçoivent la lumière que du dedans. Les portes basses percées d'un guichet où s'encadre parfois une face méfiante, repoussent le visiteur par les clous et toutes les pointes de leurs ferrures.

Le soir surtout, après le couvre-feu, cette solitude et cette obscurité prennent quelque chose de menaçant. On monte dans le noir et dans un silence un peu oppressant ; on glisse sur les marches grasses et sur les détritus des ruisseaux.

Soudain, un frôlement presque imperceptible. On se retourne, non sans un petit mouvement de crainte. Un fantôme drapé de blanc vous suit. Il vous suit longtemps. Ses pas ne font point de bruit sur les dalles. Et puis, tout à coup, il disparaît derrière une de ces portes bardées de clous qui se referme sur lui sans plus de bruit que ses pieds nus.

Louis Bertrand, Alger 1938.

LA CASBAH

Alger, rue qui monte, couloir entre de hautes murailles.

La vie s'infiltre au milieu de ces escarpements. Aux fenêtres étroites, un grillage se hérisse d'un croissant de bronze. D'un jardin séquestré aussi, un figuier me fait signe de ses hautes branches crochues.

Et partout les portes, portes innombrables closes sur ces seuils fermés. Quel immense couvent, cette Kasbah impénétrable.

Les poutres millinaires se croisent sur ma tête, épaulant d'un élan fraternel les maisons confidentiellement embrassées. Soudain c'est comme une trouée d'infini. Une clarté presque lunaire filtre entre les murailles cendrées.

O Kasbah ! Divine et mystérieuse Kasbah.

Edmond Gojon.



ALGER A L'EPOQUE TURQUE

Les *FEMMES — LA TOILETTE*

Pendant ce temps les femmes lavent la maison à grande eau, font prendre l'air aux tapis, nattes et couvertures, et préparent le repas. Pour ce faire elles restent en costume négligé. Celui-ci comprend une chemise à manches courtes, très largement échancrée sur les seins pour pouvoir allaiter sans difficulté, car les bébés sont nourris par leurs mères jusqu'à trois ou quatre ans ; elle tombe jusqu'aux reins et se porte soit dessous soit dessus la petite culotte semi-collante serrée aux genoux. On attache à la taille une pièce de drap à rayures de couleurs, la fouta, que l'on noue sur le devant. Les pieds et les jambes restent nus. Un foulard enserre les cheveux. Mais cette tenue sommaire ne proscrit pas pour autant les bijoux : bracelets de cheville et de poignet, bagues, boucles d'oreilles, colliers, que la femme ne quitte guère.

Les femmes du peuple, les esclaves, les vieilles — et dans ce pays la femme est vieille à trente ans, — gardent cet accoutrement toute la journée. Mais les jeunes adoptent, pour recevoir les amies ou accueillir le mari, une tenue plus seyante.

La première pièce de leur habillement est alors une chemisette de soie, rayée ou unie, aux manches évasées et recouvertes de broderies de soie ou d'or. On la prend dans une espèce de gilet très serré, la frimla, se fermant sur le devant soit par des petits boutons de nacre ou de métal, soit par de multiples agrafes.

La fouta, qui dans le négligé du matin maintient la culotte contre les reins, est remplacé par un grand foulard ou un large châle de prix, noué sur le ventre et qui sert de jupe tout en découvrant partiellement les cuisses et les jambes. Sauf exception, cette tenue comporte un pantalon, pantalon d'intérieur, relativement collant et court, ou pantalon d'apparat, bouffant et descendant jusqu'aux chevilles.

Sur cet accoutrement on passe, les jours de réception, deux ou trois ghlila, sortes de camisoles très échancrées, à demi-manches, tombant jusqu'à mi-mollet. Elle sont boutonnées sous les seins et maintenues à la taille par une ceinture à franges dorées ou soyeuses. D'autres fois les ghlila sont remplacées par des jobba, amples robes sans manches à l'échancrure encadrée d'un plastron brodé.

Enfin, pour les cérémonies, on revêt un caftan descendant jusqu'aux pieds, généralement de velours surchargé de broderies d'or, dont le système d'attache est identique à celui des ghlila, mais qui comporte des manches courtes. Les pieds sont chaussés de babouches surchargées de broderies ou de cuir de couleur (belgha).

La chaussure de sortie est la chebrella noire, soulier à bout carré et à quartier montant derrière le talon. Mais ce dernier modèle est concurrencé par la sandale turque, découverte et pourvue d'un petit talon plat (çobbat).

Les coiffures sont de plusieurs sortes. La benîqa est une sorte de coiffe de toile très simple emprisonnant les cheveux ; on la porte pour les travaux de tous les jours. Un modèle spécial est d'usage au bain maure, qui facilite le séchage des cheveux. Mais, pour recevoir, l'élégante adopte la mharma, foulard de soie que l'on ceint d'une sorte de diadème, l'açaba.

Dans ce cas les cheveux sont rassemblés en une lourde tresse entourée de rubans multicolores. La chéchia hémisphérique, enrichie de pièces d'or, de perles, de pierrerie, qui fut longtemps d'usage courant à Alger, n'est plus portée sous cette forme que par les jeunes filles. Les femmes la recouvrent de la mharma.

Quelques Algéroises d'adoption, Constantinoises ou Tlemceniennes d'origine, conservent comme coiffure un petit cône de velours brodé d'or, dont l'inclinaison variable comporte de multiples significations. Mais la grande mode va au çarma.

Il en existe de deux sortes. L'un est une plaque semi-cylindrique de métal très ajouré, cuivre, argent, métal doré, voire d'or ; haute de 30 centimètres environ, elle va s'amincissant. On la fixe sur la tête par sa base élargie, au moyen de rubans noués sous le menton ou sur la nuque. Ce çarma évoque pour les Français de l'époque le bonnet des paysannes du pays de Caux.

L'autre çarma, qui peut atteindre un mètre de hauteur, comporte, pour une raison d'équilibre facile à comprendre, une calotte métallique qui emboîte le crâne. Un foulard de soie joue alors le rôle d'attache. Il rappelle le hennin médiéval. Ces çarma sont agrémentés d'un flot de larges rubans ou de voiles de mousseline, fixés à leur base et non au sommet, et qui descendent parfois jusqu'aux pieds.

Pour sortir, la musulmane se masque d'abord le bas du visage à la hauteur des yeux, à l'aide d'une sorte de mouchoir carré, ovale ou triangulaire, qu'elle noue sur la nuque. Puis elle pose sur ses épaules une pièce de drap que l'on agrafe sur le devant, destinée à renforcer l'opacité des vêtements, souvent fort légers. Elle s'enveloppe ensuite dans un immense voile de laine très fine, de soie ou de coton. Celui-ci , appelé fouta nta snânig, recouvre la tête jusqu'au ras des yeux, et descend à mi-cuisse.

C'est tout un art que de s'en draper et surtout d'en assurer le maintien car la partie supérieure qui cache le crâne a toujours tendance à glisser en arrière. Le grand haïk blanc n'est pas encore d'usage. Ainsi équipée, l'intéressée, de l'avis des observateurs européens du temps, ressemble plus à un gros sac de linge qu'à une créature humaine.

Le canon de la beauté féminine locale est d'ailleurs assez différent de celui qui a cours en Europe. Si la blancheur de la peau est également appréciée, la minceur de la taille n'est guère prisée.

Au contraire les adolescentes sont soumises à un régime qui leur fait perdre rapidement toute sveltesse. L'abus des bains chauds les maternités fréquentes, et surtout l'absence de tout exercice à partir d'un certain niveau social, achèvent de les déformer. Peu conservent en particulier une poitrine ferme, ce qui donne naissance à la fable répandue par les mêmes voyageurs selon laquelle rien n'est plus apprécié d'un Maure qu'un sein en forme de besace, au point que les mères allongent articiciellement dans ce but la poitrine de leurs filles.

Dans les familles riches, la toilette est la grande occupation de la jeune femme. Le temps passé devant le miroir ne compte pas.

Si des amies viennent en visite, on se coiffe et l'on se recoiffe, on se farde et l'on rit. Les produits de beauté les plus utilisés sont le henné et le koheul.

Le premier est d'application rituelle lors des fêtes religieuses ou familiales (naissance, circoncision, mariage, etc...). Il est préparé en partant des feuilles du même nom, que l'on sèche et réduit en une poudre très fine. Celle-ci est delayée dans l'eau où elle prend la consistance de la pâte à pain. Cette pâte est alors appliquée sur la plante des pieds ou la paume des mains jusqu'a ce que la peau en soit imprégnée ; c'est pourquoi l'opération a lieu de préférence le soir, afin que le produit puisse agir toute la nuit.

On s'enveloppe mains et pieds dans des chiffons pour ne tacher ni vêtements ni couvertures. Le lendemain on enlève le henné desséché et la chair apparaît, badigeonnée en marron rougeâtre. Une application d'huile chaude rend à la peau sa souplesse.

Le henné sert aussi à teindre les cheveux. Employé à l'état pur, il donne une couleur d'un roux criard assez réjouissante. Aussi, le mélange-t-on le plus souvent à la noix de galle qui l'assombrit. Les hommes dont le poil grisonne utilisent également le henné pour se teindre la barbe. Cette coutume remonte, dit-on, à l'époque où les plus vieux des combattants de l'Islam craignaient de voir leurs ennemis se moquer de leur décrépitude supposée. Elle est donc respectable.

Le koheul ; qui n'est autre chose que l'antimoine pilé très fin dans un petit mortier, associé éventuellement aux cendres de diverses substances grasses, sert à noircir les cils et agrandit l'œil. Il renforce aussi les sourcils et il est d'usage de dessiner à leur jonction une sorte de goutte ou de perle allongée.

Le koheul préparé lors de la fête de l'Achoura a la propriété de guérir des ophtalmies et affections de paupières, fort fréquentes dans le pays. On le conserve dans un flacon et l'application s'en fait à l'aide d'un bâtonnet.

Le maquillage n'est pas inconnu mais sa conception est différente de la nôtre.

On se plaît aux oppositions violentes. Le visage est souvent recouvert d'une crème blanche sur laquelle on applique, en grosses pastilles, le fard vermillon des joues. Les lèvres sont également rehaussées d'un trait de carmin tandis que la mastication du souaq écorce de noyer, blanchit et nettoie les dents tout en donnant aux gencives une teinte orangée.

L'élégante pose enfin sur son visage des mouches d'or en forme d'étoiles. Pareillement elle se teint les ongles des mains et des pieds en rouge minium, à moins qu'elle ne préfère le brun du henné.

Un autre élément de beauté est le tatouage. Des professionnelles, appartenant le plus souvent à la tribu assez hétérodoxe des Beni Adas, procèdent à l'opération. Leur matériel se compose d'une aiguille très fine et d'un assortiment de bleu d'indigo, de noir de fumée et de feuilles de morelle noire.

Les dessins géométriques sont reproduits sur le front, le menton, voire les joues. Les poignets, le dos des mains et des chevilles, le cou, reçoivent aussi ces ornements indélébiles qui revêtent parfois un caractère prophylactique. Cependant le tatouage est surtout en faveur chez les Berbères et les citadines n'en usent que discrètement.

Enfin les parfums les plus violents sont recherchés. L'eau de fleur d'oranger, de fabrication locale, abondamment utilisée en aspersions diverses, se marie au musc et aux lourdes essences importées d'Orient ou de Tunis.

Les Algéroises adorent les bijoux. Ils sont pour elles à la fois des ornements, des témoignages palpables de l'affection de leurs

époux, et, dans certains cas, des précautions contre le mauvais sort, la maladie etc...

Les oreilles reçoivent des anneaux d'or ou d'argent, des pendentifs faits d'un assemblage de diaments, de perles et de goutelettes d'or, qui tombent sur les épaules. D'autres anneaux, larges et lourds, enserrent les bras et les chevilles.

Souvent ils sont d'argent massif, ornés de cabochons ou de reliefs bizarres. Cette forme se retrouve dans les bracelets de poignets des campagnardes. Mais les citadines préfèrent de minces cercles d'or, en nombre variable. Les plus pauvres se contentent d'anneaux de corne, sommairement travaillés. Tous les doigts, pouce compris, portent des bagues, dont la monture est d'argent ou d'or.

Les chatons sont des perles précieuses, des diamants, des émaux. Les colliers permettent aux orfèvres de donner libre carrière à leur fantaisie. Il est d'usage d'en porter plusieurs à la fois. Dans ce domaine le goût n'est pas à l'harmonie mais à l'étalage.

Pierre BOYER. La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention française pp. 155-180 (Paris 1963).



LE COMMERCE

Le commerce actuel d'Alger est, dans son peu d'étendue conduit presque entièrement par des Juifs. Le grain se vend, pour l'ordinaire à bas prix. Aucune partie n'en peut être exportée sans une permission écrite et munie du sceau du Dey.

Une pareille licence est nécessaire pour pouvoir vendre hors du pays des huiles dont il y a abondance considérable. On les envoie principalement dans les ports Ottomans et surtout à Rosette ou à Damiette en Egypte. Il faut aussi obtenir une permission pour embarquer les bêtes à cornes, les moutons et les chèvres la volaille doit être tuée avant de quitter le rivage.

Les principaux articles fournis par Alger aux contrées étrangères sont des toiles grossières, des cotons, des raisins, des figues sèches, du miel, de la cire des dattes, des brocards, des taffetas, des mousselines du tabac... des plumes d'autruche, de l'essence de rose, de la poudre d'or qui est transportée par des caravanes et enfin du grain et du bétail.

Cette ville est encore un bon marché pour la vente des schalls de manufactures nationales ou étrangères.

Il y a à Alger des demandes considérables d'objets variés... La poudre à canon et les pierres à fusil se vendent très bien... Les sapins, le merrain, le fer travaillé, les canons, les armes à feu et les munitions navales de toute espèce trouvent un débit prompt à Alger.

PANANTI, (1). relation d'un séjour à Alger - trad. Française p. 360-362. Paris 1830.

(1) Un voyageur Italien et un Littérateur Toscan à la relation fut traduite en Anglais et de là en Français.

RICHESSES D'ALGER

Il n'y a peut être pas de ville au monde où la police soit plus active, où moins de crimes échappent à sa connaissance et enfin où soient plus en sûreté la vie et les propriétés des citoyens.

La conséquence de cet état de prospérité qui ne s'est jamais dementi pendant un si grand nombre d'années a été de concentrer des richesses immenses dans des familles de particuliers où des Turcs sont entrés par des mariages.

Ainsi, quoique le pouvoir soit exclusif, les mains des Turcs, leurs biens viennent insensiblement se déposer dans les familles des Algériens d'où il est rare qu'ils soient arrachés par la violence.

Alger est une des villes du monde la plus riche en numeraire. La veuve du Pacha Abac sous qui fut signée la première paix entre les Etats-Unis et la Régence, vient de mourir dans un âge très avancé et on prétend qu'elle a laissé une fortune de plusieurs millions de dollars.

Les héritiers du Pacha Moustafa, son successeur, auquels les Etats-Unis payent une rente pour la maison qu'occupe le consul ont à Alger ou dans les environs une fortune effective de 500.000 dollars cependant Abac et Moustafa furent tous deux exécutés.

W. Shaler, Esquisse de l'Etat d'Alger, trad. M. X. Bianchi p. 72

EDIFICES RELIGIEUX CONFISQUES AU DEBUT DE L'OCCUPATION FRANÇAISE

Les monuments religieux occupés par la troupe furent :

Dans la Caşbah :

L'ancien oratoire des Janissaires.

La jolie mosquée aux colonnes élégantes, que fit édifier Hussein, dont on fit en 1830, un dortoir pour les soldats et qui dans la suite, servit de magasin d'habillement. (Actuellement salle du Musée de l'Armée).

La mosquée à minaret octogonal, voisine de l'entrée de l'ancienne citadelle. La troupe y loga jusqu'en 1839, époque à laquelle elle fut remise aux Domaines. Elle devint alors église catholique sous le vocable, de Saint-Croix.

(Le petit édifice, à colonnes torses, bordant ce temple, était le tribunal de l'agha, duquel relevaient les tribus environnantes. Il est englobé maintenant dans l'église).

La chapelle de Sidi-Essid et la mosquée Feurn-ben-Chekour (rue de Toulon) qui furent en 1833, affectées au casernement de la gendarmerie et plus tard, en 1844, firent partie de l'école de broderie arabe, dirigée par Madame Luce Ben Aben, et dont l'emplacement est aujourd'hui occupé par une école publique.

La mosquée d'Ali-Pacha, enclavée dans la caserne Médée supérieure, qui fut bâtie en 1750, par le Pacha Ali, sur l'emplacement de la zaouïa de Sidi Akhal. (Théologien du XVIIème siècle).

Ce temple, désaffecté depuis 1830, fut en 1870, transformé en chapelle pour le séminaire que l'archevêque Lavigerie avait été autorisé d'installer en ce lieu.

En 1876, quand les casernes Médée furent transformées en académie militaire, la chapelle disparut et fut remplacée par la salle dite "des Maréchaux".

La Djamâ Souk el Kettan (mosquée du marché au lin), rue Porte-Neuve, restaurée en 1820 par le Sid Mustapha Saïdji — qui servit, en 1841, au logement des tambours de la milice.

La mosquée Sidi Heddi, que fonda le Raïs Mami, au quartier Tiber Routin (rue de la Lyre). Après avoir appartenu à l'armée, elle servit de local à une école arabe-française.

La chapelle de Sidi Betka, l'un des saints personnages à l'influence desquels les Musulmans attribuèrent la défaite de Charles-Quint devant Alger. Cette chapelle était située hors de la porte d'Azoun, sur la falaise (où fut créé le quartier Bresson). Les cor-

saires, en sortant du port, avaient coutume de la saluer de leur artillerie.

Dans cet établissement se tenaient les fossoyeurs du cimetière Bab Azoun. Là étaient déposés les corps des janissaires qui, sur l'ordre du Pacha, avaient subi le supplice de la strangulation.

Ce monument religieux fut, avec sa mosquée, occupé, après 1830, par le Génie et par les Ponts et Chaussées. De 1842 à 1854, il fut successivement transformé en marché aux huiles et en halle au blé. La chapelle Sidi Aïssa de 1682 (actuel îlot du cinéma Splendid), autrefois voisine de la caserne Didon que remplaça en 1875, le bâtiment des douaniers, relogés aujourd'hui, rue Berthezène. La chapelle de Sidi Abd-El-Kader El-Djelani (rue Waïsse), mort à Bagdad au XIe siècle, et au nom duquel tous les mendiants arabes demandent l'aumône.

Un puit voisin, dont l'eau passait pour miraculeuse, avait été creusé par celui-ci. Ce sanctuaire, très fréquenté des musulmans, disparut en 1866, sous les ouvrages du boulevard, passant en ce lieu. Est considéré comme arbre-marabout, le palmier Bugeaud dont les racines sont supposées s'étendre jusqu'à la nappe d'eau qui alimenta le puits du saint.

La mosquée Mezzo-Morto, situé rue Bab Azoun et rue de Chartres, qu'édifia vers 1685 le Pacha El Hadj Hossaïn, renégat italien. Cette mosquée était remarquable par sa coupole originale et son svelte minaret plaqué de faïences. Elle fut en 1830, transformée en hôpital. Le Génie la remit, en 1836, aux Domaines qui peu après, la firent démolir.

La Zaouïa Tchektoun (rue de l'Aigle), contiguë à la caserne Kherratine. Cet édifice existait au XVIème siècle. Il fut annexé à cette caserne en 1830, puis en 1838, à l'hôpital civil qu'on installa dans les locaux de celle-ci — et ensuite à la Poste et au Trésor qui furent transférés en cet endroit.

La mosquée Khédar-Pacha (rue Scipion et Bab-Azoun), construite dans le goût berbère (avec toits à tuiles), par le Pacha Khédar en 1596. Cette mosquée servit d'annexe à l'hôpital Kherratine, jusqu'en 1837. Elle fut démolie à cette époque.

La mosquée de Souk-el-Louh (du marché aux planches), rue Juba, que l'on donna à l'administration du Beït-el-Mâl (des Domaines), et qui fut détruite en 1836.

La Zaouïa Ketchaoua (rue du Lézard), édifiée en 1786 par El Hadj Mohammed Khodja Makatadji ; secrétaire du palais du Dey. Cet édifice fut occupé jusqu'en 1835, par la gendarmerie puis par le Beït-el-Mâl, et enfin démoli.

La Djamâ Ech-Chouach (des chaouchs du Palais), attenant à la Jénina, qu'occupa Kheir ed Din. Elle servit, après 1830, de corps de garde.

La mosquée Ech-Chemaïn (de la rue des marchands de bougies), à l'angle des rues Cléopâtre et Bab-el-Oued, dans le quartier dénommé, en 1740, Souk-El-Kheraçin (des savetiers). Cette mosquée, occupée en 1830 par l'Intendance, fut démolie en 1841.

La mosquée Ed-Djenaïz — des funérailles - (rue d'Orléans), qui fut rebâtie, en 1545, par El Hadj Pacha, lequel à cette époque, gouverna la Régence par intérim. Le nom de cette mosquée est celui que portait jadis la rue d'Orléans où passaient les convois funèbres sortant de la Grande Mosquée et se rendant au cimetière de Bab el Oued. Cette mosquée dépendit, en 1837, de l'hôpital Civil et fut utilisée en 1838 comme magasin central des Hôpitaux militaires.

Dans le quartier de la Darse :

Mesdjed el Marsa, la Mosquée du Port, attenant à la grande voûte de l'Amirauté près

de laquelle se trouvait le Bordj el Kébir (le grand fort). Cette mosquée fut englobée en des bâtiments nouveaux.

Le Marabout de Sidi el Roberini, également à l'Amirauté, que décore de façon pittoresque un palmier étalé sur sa façade, et dont une moitié fut occupée par des batteries.

La Mosquée de Bab el Djezira (de la porte de l'Ile), à l'angle des rues de la Marine et des Consuls, qui fut construite, en 1693, par le Dey El Hadj Chaban Khodja, mort étranglé, et qu'agrandit Hassan Pacha, en 1795. Cette mosquée formait voûte sur l'entrée de la rue des Consuls. Elle servit de caserne au Génie de 1830 à 1834.

La Zaouïa El-Kechach, ancien n° 28 de la rue des Consuls, qui fut annexée au Magasin Central des Hôpitaux Militaires.

La très ancienne mosquée El Kechach, — même rue que la précédente, — de style berbère, comme la Grande Mosquée de Sidi Ramdan. Ce temple, qui fut affecté, en 1831 au dépot des lits militaires, servit ensuite d'hôpital civil, puis de magasin central des hôpitaux de l'armée. Devenu Ecole des Beaux-Arts.

La mosquée Abdy-Pacha, rue Macaron, que le pacha Abdy fit construire, en 1725, près de la caserne des Lettrés (El-Mokryen). nom dont le peuple fit Makroun, et la population européenne Macaron.

Le Pacha Ben Bakir y ajouta en 1748, une école. Les deux édifices ont été affectés au casernement en 1830, ainsi que la caserne des Lettrés.

La mosquée Kâ-es-Sour (du pied du rempart), 13, Rue du Quatorze Juin, voie classée en 1910, au titre historique, par M. Jonnart

La mosquée d'Aïn el Hamra(de la fontaine rouge), rue Philippe, qui était située près de l'hôtel du colonel du Génie. Elle fut, en 1837, affectée au casernement militaire, et disparut plus tard, lors de la démolition de la voûte formant l'entrée de la rue Philippe.

La mosquée Sebath el Hout (voûte du poisson), au quartier Boteka (5, rue des Consuls), qui servit jusqu'en 1838, d'entrepôt de grains puis de caserne jusqu'en 1845. La voûte qui lui donna son nom présentait, sur l'une de ses pierres, un poisson sculpté.

La mosquée Sidi Amar-et-Tensi (15, rue Jean Bart), que bâtit, il y a plusieurs siècles, le célèbre marabout de ce nom. Une caserne y fut établie en 1830. La direction de l'artillerie y fut ensuite installée.

La mosquée d'Ali Khodja, 10, rue Bisson, dans l'ancien quartier Hammam el Malah (des bains d'eau salée). Il est fait mention de cet édifice en un acte de 1621. Cette mosquée, dont le minaret, curieusement aménagé en logements, porte aujourd'hui le numéro 10 de la rue Doria, a été après 1830, convertie en magasin pour les effets du campement. Elle a été aliénée en 1844.

La mosquée Ben Negro ou djama Setti Myriem (de madame Marie), à l'angle des rues Bab el Oued et Sidi Ferruch, qui fut affectée, en 1830, aux effets et lits militaires. Cette mosquée construite en 1660, fut démolie en 1837. Son minaret se dressait sur la rue Bab el Oued.

La mosquée Ali Bitchnin (devenue Notre Dame des Victoires), où fut installée la pharmacie centrale de l'armée.

Cette mosquée date de 1622. Le chœur de l'église actuelle était jadis à découvert. Il s'y trouvait un jardin et un jet d'eau.

La jolie porte sculptée qui décorait naguère, l'entrée de l'église dans la rue de la Casbah, est l'œuvre du maître Lablabtchi, amin des menuisiers. Elle a été sur les instances du comité du Vieil Alger, transférée pour sa conservation, au Musée des Antiquités. Chaque battant présente, ciselées, des rosaces, des arabesques et cette inscription, en caractère arabes : Que la volonté de Dieu soit faite.

Cette porte provenait de la mosquée Ketchaoua, devenue la Cathédrale. Elle fut donnée au temple chrétien de la rue de la Casbah, en 1843. Le minaret, haut de 15 mètres, mais dont la solidité semblait douteuse, fut réduit en 1860.

La mosquée de Sidi er Rahbi, du XVIème siècle, en face de la précédente, à l'angle nord des rues Bab el Oued et Tourville, qui demeura annexée, de 1832 à 1840, au magasin centrale de la pharmacie militaire.

Hors de la porte Bab el Oued, près du fossé, sur le côté gauche de la route : l'asile Bou-Touïl, petit édifice bas, servant, la nuit, de refuge aux indigents à qui des distributions de pain étaient faites, et le jour, de poste aux fossoyeurs des cimetières de Bab el Oued. Cette modeste construction qui, en 1830, fut affectée au casernement et plus tard, devint le quartier d'un détachement d'artillerie, abrita en 1860, sous le nom de : Pavillon des Cent Gardes, les cavaliers de l'escorte de Napoléon III. Cette édifice disparut lors de la construction du nouveau lycée.

Attenant à Bou-Touïl, au bas d'un sentier qui montait au marabout Sidi Abd Ar Rahman : la mosquée d'El Mocella, oratoire où s'arrêtaient les convois funèbres qui se dirigeaient vers le champ de repos de Bab el Oued. Cette mosquée dont le front se parait de géraniums, était surmontée de deux coupoles surbaissées et pourvue d'un minaret. Un bouquet de palmiers, de lauriers-roses et de bellombras l'encadrait très agréablement. Elle fut construite par Mahmoud, chef de la Milice, en 1675.

El Mocella servit au casernement en 1830, et fut démolie en 1862, quand furent commencés les travaux du lycée.

En face d'El Mocella, sur l'ancien sentier de Sidi Abd Er Rahman : la chapelle de Sidi Salem, qu'avoisinaient une fontaine et un haut palmier transporté, en 1862, au square de la Régence. Cette chapelle, où furent logées des troupes, en 1830, disparut aussi en 1862. Une pièce des archives militaires nous apprend qu'elle fut restitué au Sid Ben Salem sur ordre du Gouverneur, le 19 avril 1847.

Près du marabout Sidi Abd Er Rahman, dans le fossé des remparts : la zaouïa de Sidi Amar Et Tensi (le Ténesien), du XVI° siècle, qui fut occupée en 1831 par la gendarmerie. Elle appartint à l'armée jusqu'en 1861. La construction du lycée entraina sa destruction.

La mosquée de Sidi Saadi, au-dessus du jardin Marengo, contre le nouveau rempart — élevée, dit-on, par un pacha reconnaissant à qui le marabout Sidi Saadi aurait prédit son élévation au pouvoir. L'armée l'occupa en 1830. En 1847, elle dépendit du Génie. En 1850, elle servit de dépôt des poudres aux Contributions Diverses.

La mosquée de Sidi Djami, en face de l'entrée inférieure du jardin Marengo, qu'occupa longtemps la gendarmerie. Elle fut louée, en 1850, aux trappistes. On la dénomma ; Petit Staouëli. Auprès de cette mosquée avait été enterré le Sid Yahia, avant dernier agha.

La chapelle Sidi Yacoub, dans le voisinage de la Salpêtrière, bâtiment auquel elle fut annexée dès 1830.

Cet édifice, connu aussi sous le nom de Marabout de l'Olivier, a été remis par l'autorité militaire à la ville d'Alger, le 27 mars 1865, à la condition que celle-ci ferait à ses frais, le raccordement du chemin de ronde de la Salpêtrière qui passe là, — avec la route départementale de Saint-Eugène. Les arcades mauresques, vestiges de ce marabout, qui apportaient une jolie note d'originalité à ce coin, disparurent en 1910. Une maison nouvelle a été élevée en ce lieu.

Citons encore, parmi les édifices religieux des environs d'Alger :

La mosquée de Birmandreïs (bâtie par le Pacha Abdy, en 1724) que les soldats habitèrent, ainsi que la mosquée de Birkadem (du puits de la Négresse).

Le marabout de Kouba, annexé au camp établi, en 1833, sur des terrains appartenant aux Maures Abd el Tif et Souk Ali, et occupés dans la suite par le Grand Séminaire.

Ce marabout, sur leur demande, fut remis aux Arabes de la région en octobre 1846. La localité où se trouvait ce petit monument (Kouba), se nommait : quartier d'El Kouba, d'où le nom du village actuel. Cet édifice religieux fut construit en 1545, par Hassen Pacha.

A cette liste, il convient d'ajouter :

1° Les voûtes de la mosquée El Djedid (de la Pêcherie) qui servirent de magasins à l'armée et dont remise fut faite aux Domaines le 3 octobre 1864. Un sieur Cimato en devint locataire à cette époque ;

2° Les sous-sols de la Grande Mosquée qui, après avoir été utilisés, furent loués à des particuliers. Le sieur Picon les occupa de 1836 à 1838.

Un rapport militaire fit connaître que, dans la mosquée même, des soupentes furent établies le long des murs perpendiculaires à la grande façade, en vue d'une installation de lits (qui n'eut pas lieu).

H. Klein, feuillets d'El Djezaïr pp. 15-20.

LES EDIFICES RELIGIEUX DE L'ANCIEN ALGER

D'après l'historien espagnol Haedo, dont la topographie d'Alger a été publiée en 1612 cette ville comptait, à la fin du XVIe siècle une centaine de mosquées. Il n'est pas douteux que les chapelles et zaouïa ne soient comprises dans cette énumération. Je ne crois pas sans intérêt de donner la traduction du passage auquel je fais allusion.

"Il y a quelques édifices qui sont dignes d'être signalés ; et premièrement les mosquées, desquelles (entre grandes et petites) il peut exister dans tout Alger jusqu'à cent. Toutes ont des marabouts qui les administrent et viennent, eux et d'autres, y faire à leurs heures, la prière. Elles ont été édifiées par des Maures, Turcs et Rénégats et dotées, peu ou beaucoup, de revenus, tant pour nourrir les marabouts qui en ont la gestion que pour subvenir aux approvisionnements de nattes dont elles sont constamment pourvues, et à l'achat de l'huile des lampes, que toutes ont en nombre grand ou petit, et qui sont allumées lorsqu'ils font la prière. Beaucoup de ces mosquées sont fort jolies et fort bien construites, quant aux voûtes, arcades et colonnes, lesquelles, si elles ne sont pas en marbre, parce qu'il y en a peu dans la contrée qui soit bon, sont faites en briques et en plâtre ; mais les principales mosquées sont au nombre de sept (Topographie et histoire générale d'Alger, folio 41, verso)".

En 1830, Alger renfermait 13 grandes mosquées, 109 petites mosquées, 32 chapelles et 12 zaouïa ; en tout 176 édifices consacrés au culte.

En 1862, sont encore debout 9 grandes mosquées, 19 petites mosquées, 15 chapelles et 5 zaouïa ; en tout 47 édifices, sur lesquels sont affectés au culte musulman : 4 grandes mosquées, 8 petites mosquées, et 9 chapelles total 21.

Albert DEVOULX. Les édifices religieux de l'Ancien Alger.

LES FRANÇAIS ET LEURS AUXILIAIRES ASSOCIES DANS LES EXACTIONS DES PREMIERES ANNEES DE LA CONQUETE

Dans les faits, la violation de la capitulation d'Alger commença dès 1830. Après avoir mis la main sur les 51.700.000 francs-or inventoriés au trésor algérien, de Bourmont expulsa purement et simplement les célibataires membres de l'Odjaq, au nombre de 1.300, dont la protection était incluse dans la convention. Mieux : dès le 30 juillet, moins d'un mois plus tard, les 1.500 miliciens mariés étaient à leur tour expulsés avec leurs familles algériennes, sous le prétexte de prévenir une insurrection ; en réalité dans le vain espoir de séduire les Juifs et les H'ad'ar représentés dans une commission municipale en vue d'une pénétration plus profonde. Le 31 juillet, deux "conspirateurs" étaient même condamnés à mort par une procédure expéditive, et le 2 août déjà était prévue l'organisation de juridictions d'exception, dites "Cours prévôtales".

Ainsi était pratiqué le respect promis de "la liberté des habitants de toutes classes" !

Les biens et la religion ne furent pas mieux respectés ; dès le 8 septembre 1830, un arrêté de Bourmont séquestre la propriété des Algériens turcs expulsés, les biens des institutions islamiques d'assistance "La Mekke" et "Medine", les biens habbous destinés à l'entretien du culte et de l'enseignement coranique, en les assimilant abusivement à des domaniaux, qui, au reste, eux-mêmes, ne pouvaient, sans infraction au droit musulman, revenir à des infidèles. En 1832, Savary, ancien préfet de police napoléonien et Duc de Rovigo, n'allait même pas hésiter à s'emparer de la mosquée Qetchaoua pour en faire la cathédrale d'Alger, en brutalisant les fidèles.

Voilà comment "ne recevront aucune atteinte" la religion et les propriétés, dès cette époque et par la suite. Dès lors toute pénétration du corps d'occupation ne peut signifier pour les populations d'une menace d'expropriation, une violation des principes de l'Islam qui sont les leurs.

Ives LACOSTE, André NOUSCHI, André PRENANT, L'Algérie passé et présent, pp. 252-253.

N° 09-10

فهرس العدد

الملتقى السادس للتعرف على الفكر الإسلامي
وبعض المخربشين هنا وهناك ...

تتميز ـ لا أقول تمتاز ! ـ بعض بلدان مشرقنا العزيز فيما تمتاز به عن جميع انحاء المعمورة ببعض الصحف التي تجمع الى عمالتها ومأجوريتها لكل ذي فلس من الدول الكبرى ، والمتوسطة ، والصغيرة ، والدويلات ، بل والأفراد ، سطحية التفكير ، وسلبية المقصد ، وسخافة الطبع ، وركاكة الاسلوب ، وتحاشي الحقيقة ، فضلا عن جبن مخربشيها (من الخربشة : الكتابة الرديئة شكلا ومبنى) ، وهزالهم ، وبلادتهم ، والى كل ذلك غرورهم ودعواهم !

وهكذا طلعت علينا أخيرا وريقة من هذه ، تصف نفسها بأنها « جريدة اسلامية اسبوعية » ، بمقال عن الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي ، الذي انعقد أخيرا في الجزائر ، منسوب الى اسم لم يدع صاحبه الى الملتقى ، وربما اختفى تحته استاذ لم نتركه يلقي محاضرته لأنه لم يبرمج ، اذ أجاب على الدعوة بعد فوات الوقت وطبع البرنامج ، وهو من بلاد هذه الجريدة ، اللهم الا اذا كان اسما مستعارا لجبان لم يجرؤ على تحمل مسؤولية ما يخربش ، لعدم ثقته به وبنفسه ، والعيب كل العيب ، في الواقع ، على الوريقة التي تصف نفسها بما تصف وتفتح مجالها لهؤلاء المخربشين الذين يضرون بسمعة الاسلام والمسلمين ، وان كنت أعرف انه لدينا هنا في الجزائر أيضا بعض العينات من هذه النوعية ، « الاسلامية » منها و « التقدمية » جدا ، « المتفتحة » ، المفتوحة جدا ، من بين هؤلاء المخربشين ، صحافيين منهم واساتذة جامعيين ، ولقد اشرت في كلمة اختتام الملتقى الى نوعيتهم ، وسأعود اليهم ، وليعتبروا انفسهم مؤقتا معنيين ببعض ما أقوله هنا ، كل فيما يخصه .

1) كتبت أيها المخربش ان الابحاث التاريخية في الملتقى **تركزت** حول الكفاح ضد الاستعمار في شمال **افريقيا والجزائر على الخصوص** ودور الاسلام فيه .

والجواب: لا أيها المخربش الاسلامي الكبير ، لم تتركز الابحاث على شمال افريقيا والجزائر على الخصوص بل كانت شاملة للعالم الاسلامي الكبير كله ، وتكلم فيمن تكلم في الموضوع الجنرال الحاج ساليبادا ،رئيس جمعية مسلمي الفليبين ، والدكتور رشيد لقمان ، أمين عام نفس الجمعية ، عن كفاح اخواننا هناك .

واذا لم يتكلم كثيرون في الموضوع ، فهذا راجع الى الاساتذة الذين لم يطرقوا هذه النقطة الاولى من جدول اعمالنا ،وبعض الحكومات مثل الباكستان التي منعت استاذا باكستانيا في آخر لحظة من المجيء ،وكان مبرمجا في هذه النقطة ، وعوضته بآخر لم يكن في المستوى ولم يتهيأ للكلام في الموضوع .

وكان عنوان النقطة في جدول الاعمال هكذا بالذات : « العيد العاشر لاسترجاع استقلال الجزائر ودور الاسلام في كفاحنا التحرري وفي مقاومتنا ومقاومة البلدان الاسلامية الاخرى للعدوان والاحتلال » .

وكان يمكن أن يتكلم فيها جزائريون ، ومغاربة ، وليبيون ، ومصريون ، واندونيسيون ، وباكستانيون ، وفلسطينيون ، وغيرهم ، كما فعل الجنرال الفليبيني ، ولكنهم فضلوا ألا يطرقوا هذا الموضوع ،ومسؤولية هذا تلقى على الاساتذة المدعوين أو المندوبين لا على الجزائر المنظمة للملتقى والتي وضعت هذه النقطة الرئيسية في مقدمة جدول الاعمال ، لاعتقادها ان لولا الاسلام لما تحرر بلد من هذه البلدان ، وبدونه لن يتحرر أي بلد من بلاد الاسلام التي لا تزال مستعمرة في مختلف انحاء المعمورة .

2) كتبت ـ وكتب مخربش مثلك عندنا هنا ـ عن « اخطاء تتكرر في مثل هذه الملتقيات والمؤتمرات العربية والاسلامية عامة » .

فلتعلم ـ اذا كنت غائبا عن الملتقى ـ وليعلم ـ وقد كان حاضرا وملحا على الحضور ـ ان هذا الملتقى وان لم يكن منزها عن الاخطاء ومجردا من الهفوات فليس مثل الملتقيات والمؤتمرات « العربية والاسلامية الأخرى » .

وقد أشاد اغلب الاساتذة الكبار الذين جاءوا من بلدان اسلامية وأوروبية ، غربية منها وشرقية ، بأن مثل هذا النظام في دقته ، وصرامته ، ومنهجيته ، لم يروه

قبل ذلك فى أى بلد كان ، وممن أشاروا الى ذلك أيضا بوضوح فضيلة الدكتور محمد محمد الفحام ، شيخ الازهر ، فى تصريح له نشر ، وربما برز هذا النظام خاصة فى ذهنك « الاسلامى » « الرجعى » « المحافظ »، وذهن زميلك الجزائرى « المتفتح » ، « التقدمى » ، « العقلانى » ، « الثورى » ، اذا ما تذكرتما أن هذا الملتقى جمع الشباب والشيوخ ، وجمع اساتذة من العالم الاسلامى الواسع ، من المغرب أو شمال افريقيا كما تكتب ، ومن بلدان افريقية أخرى كثيرة ، ومن المشرق ، حتى ماليزيا والفيليبين ، ومن أوروبا ، الشرقية منها والغربية ، وأربعة على الاقل من هؤلاء الاخرين حاضروا وناقشوا بالعربية الفصحى .

3) تكلمت عن هؤلاء المفكرين الذين توافدوا من شتى بقاع الارض الاسلامية ، « عربية واعجمية » ، واظن ان كلمتى « عربية واعجمية » زائدتان ومن قاموس مختلف الوان الاستعماريين واعوانهم من عديد الفئات ، خاصة فى الظروف الاخيرة ، وكان فى امكانك ان تقف عند « الاسلامية » . فالاسلام يشمل كل شىء وهو الجامع المانع ، خاصة وانت تكتب عن ملتقى اسلامى وفى جريدة تقول انها اسلامية ، وتعلم أن كل عنصرية فى هذا السياق عبث وليس بعثا ، ومشرقنا العزيز بذلك أدرى !

4) تتكلم عن بعض « الموفدين المسيحيين » الى الملتقى .

صحيح انه كان هناك واحد ، وواحد فقط ، وبالحاح كبير من دولته ، ولم يكن محاضرا ، وسمع الجواب اللازم على كلامه الذى لم يكن له مكانه فى الملتقى ، وقاطع بعد ذلك جلسات الملتقى مثل مواطن له مسلم ، وبقيا ضيفين على الجزائر بمحض ارادتهما فى فندق الملتقى بدون حضور بقيته ، والسبب اننا ارجعناهما الى جدول اعمال الملتقى عندما خرجا عنه ، وقال المسيحى ـ وكانت مساهمته الوحيدة فى الملتقى ! « أن هذا الملتقى بين المسلمين وحدهم تقوقع الخ » ، وقال ـ مواطنه المسلم ـ : « ان خصومنا ليسوا المسيحيين ولا اليهود ، وانما الملحدون ، والافضل الا نتكلم عن الصليبيين فى التاريخ ، ولا عن اليهود اليوم ، وانما نتكلم عن خطر اعداء « الأديان » ، وقلنا له أننا نحن نتكلم عن الجميع عند الضرورة ، عن هؤلاء وأولئك ، والكفر ملة واحدة !

وكان ذلك أيضا تدخله الوحيد في الملتقى ، وكلا التدخلين كانا في المناقشة ، ولم يطلب من أحد منهما القاء محاضرة .

ولكن يسرنا أن نقول ان مواطنا لهما مسلما القى محاضرة قيمة وكانت مساهمة ممتازة .

5) اما بخصوص نقدكم لوجود المستشرقين وتلامذتهم في الملتقى ، وكلامهم « ليوضحوا طريق اليقظة الاسلامية » ،فأقول لحضرة المخربش أن أحدا منهم لم يتكلم في هذا الموضوع ، وكانوا من الذوق السليم ، والذكاء ، والفطنة ، والمجاملة ، والصدق عند الكثير منهم ، بحيث تجنبوا هذا الموضوع ، وتركوه للمسلمين ، الذين لم يوفوه حقه في الجملة مع الاسف ، اذارتجل أغلبهم محاضراتهم بغاية السطحية والضحالة ، وبعضهم خربشها هنا ، بعد أن وصل ، ولم يرسلوها كما فعل أغلبية الاساتذة الاوروبيين . وكما طلب منهم ذلك في نص الدعوة قبل انعقاد الملتقى بخمسة أشهر !

وقد أساء استاذان أوروبيان ، احدهما من غرب أوروبا ، والآخر من شرقها ، الثقة الموضوعة في استاذ جامعي ، ولم نكن دعوناهما باسميهما ، بل انتدبتهما حكومتاهما ، فأسمعناهما ما كان ينبغي ان يسمعاه في القاعة نفسها ، واستنكر موقفهما الاوروبيون الآخرون ، على الاقل حسبما أكدوه لنا ، ثم فضحناهما في صحافتنا ، وغادرا الملتقى والبلاد .

ولم يشر من الاوروبيين الى موضوع اليقظة الاسلامية كاستثناء واحد الا السيدة الدكتورة سيغريد هونكه ، صاحبة الكتاب المعروف : « شمس الله تسطع على الغرب » ، وكان ذلك باخلاص ، وصدق ، وموضوعية ، وربما كانت اشارتها أوفت الموضوع حقه اكثر مما فعلت بعض المحاضرات التى القاها اساتذة مسلمون بدون اعداد وتهيئة ، وانما عن ارتجال فظيع كعادة الكثير من مسلمي اليوم ، واكرر هذا مرة أخرى للعبرة ولتحاشيه في المستقبل .

والامانة ، بل والاعتزاز أيضا ، يفرضان على أن أقول ان بعض الاساتذة المسلمين كانوا في القمة من حيث كل شيء ، من حيث التحضير ، اذ ارسلوا الموضوع في

آجاله وفى صورتـين ، مطـولة للنشر ، وموجزة للالقاء فى القاعة فى حدود الخمس والاربعين دقيقة حسب نص الدعوة ، ومن حيث المحتوى أيضـا اذ كان فى غاية المنهجية ، والموضوعية ، والعمق، ومن حيث المساهمة فى المناقشات بتدخلاتهم العديدة فى الوقت المناسب ، خاصة للرد على بعض المستشرقين الذين لم يكونوا فى المستوى ، واذكر هنا كأحسن مثال الاستاذ الكبيـر عثمـان الكعـاك ، شيخ المؤرخـين ، لا التونسيين ، ولا المغاربة فقط ، بل المسلمين عموما ، وأحدهم على المستوى العالمى !

6) السيدة الدكتورة تورين ليست مستشرقة ، وانما مؤرخة ، واستاذة بجامعة الجـزائر ، وتكلمت بموضوعيـة ومنهجية يحتاج اليهما الكثير من مخربشينا ، وكان العنصر الثانى لموضوعها بالضبط : « ثغرات المصادر الفرنسية » ، وقالت انـه لا ينبغى الاكتفاء بها ، بل لابد من اتمامها بمصادر اسلاميـة ، وعـلى المسلمين ، من جزائريين فى الدرجة الاولى وغيرهم ، أن يكملوا هذا النقص المقصود فى المصـادر الفرنسية ، هذا النقص الذى نبهت اليـه المؤرخة الفرنسية التى لا تعرف العربية ، وعلينا ألا نبقى كسالى ، نائمين ، متهاونين ، وعندما يتحرك غيرنا لطرق موضوع ، ولو بنقص معذور ، نتحـرك ـ ... سلبيين ، سلبيين حتى فى حركتنا ! فى نومنـا وفى حركتنا ! وامثـالك يا حضرة المخـربش موجودون لدينا فى الجزائر أيضا ، ومن بين الذين يعتبرون انفسهم مهتمين بالتاريخ ، بل اخصائيين فيه ، كما لو كان ملكا لهم ، حكرا عليهم ، خاصا بهم ، محصورا فيهم ، غير مستغن عنهم ، ولا يجوز ان يطرقـه احد سواهـم ، وليتهم يطرقـون ! وليتهم يتحركون، وليتهم يكتبون ، وليتهم يردون ، ويبرهنون ، ويجادلون ، ويخرجـون من جحورهم ليروا النور ويراهم الناس !

وعندما يطلب منهم افادة غيرهم وتنوير الشباب ، والرد على المزورين ، المحرفين، يجيبون بمختلف التعللات والاعتـذارات ، لتغطية فراغ مذهل فى الواقع ، يضاف اليه كسل عجيب ، وروح نقد هدام ، وسلبية من أفظع ما هو موجود فى دنيا الموجود ، باضوا مرة وتوقفوا ، خربشوا بضعة أسطر وظنوا أنهم قالوا كل ما كان ينبغى قوله ، وعلى العالم كـله أن يتوقف معهم ، وألا يضيف اليه حرفا !

وقد دعوا وبالحاح الى المشاركة فى الملتقى ، أربعـة أشهر وعشرا قبل ذلك ، مثـل غيرهـم من المسلمين والاوروبيين ، ولكنهم حتى لو دعوا تسعة شهور قبل ذلك

لما تغير الأمر ، ولما تمخض ذلك عن وليد ، ولـمـا أثمر نتيجة ، لانهم هكذا ، سلبيون عقميون ، انعزاليون ، لا يتحركون ، وعندما يتحرك غيرهم يكتفون بالنقد الهدام ، الذى يغطى فى الواقع عجـزا ، ونقصا ، وكسلا ، وروح الاقطاع الذهنى ، والاحتكار الثقافى ، أقول هذا وبعضهم من اصدقائى ، ولكن الصداقة عندى تأتى فى الدرجـة الثانية ، بعد ما هـو أسمى منهـا وأكثر قدسية !

7) أما السيد الذى « زينت » بصورته مقالك وكان ، كمـا قلت ، من الذين عاصروا الزوايا والصراع مع الاصلاح الدينى ، فأقول لك أنه موظف فى وزارتنا ، وهو من الذين لا يزالون متعلقين بنوع من الماضى السلبى ، يثيره منظر زاوية ، ولا تسخطه رؤية الحانات والخانات ، والشباب المتسكع ، والجهل لدى العـامة ، التى لا يذهب اليها ، وانما ينتظر أن تأتى اليه ، دائما بروح الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، بل والرقدة ، التى اشرت اليها فى كلمتى فى اختتام الملتقى .

وكم أود ان اعرف ماذا فعل وفعل امثاله فى مقاومة الزوايا التى تنظم فيها مجالس الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، فلم يحاربها اطلاقا وهى فى مجال عمله !

وعلى كل فليس هنا مجال الحديث عن هذا الموضوع لو لم تثره يا حضرة المخربش ويثره معك هذا الشيخ الكسول ، على فرض انك حضرت معنا ، كما تدل على ذلك صورة الشيخ التى « زينت » بها خربشتك .

8) وقلت يا حضرة المخربش وقال لك احد الاساتذة العجز السلبيين ، الذين يقولون كما قال اليهود لموسى : « اذهب انت وربك ، » انـه أمـام اخطـاء الاساتـذة المستشرقين « تعب الاساتذة الاسلاميون فى الرد » واستسلموا فى النهاية ! كـم كان عدد المستشرقين ، وكم كان عدد « الاسلاميين » ؟ لقد كان عدد هؤلاء الاوروبيين ، ولم يكونوا جميعا من المستشرقين ، لا يتجـاوز تسعة فى الجملة ، والمسلمون اكثر من مائة اسـتاذ ، ومن الاوربيين التسعـة كانت مساهمـة الاغلبية ممتـازة ، واكـثر من ممتازة ، ان صح التعبير ، وتناولوا قضايا تاريخ الحضارة الاسلامية وعلاقتها بأوربا ، وتأثيرها فيها ، وعلاقة بلاد الاسلام بأوربا الخ ، باحسن ممـا تناولتها بـه اغلبية الاساتذة المسلمين مـع الاسف ، وشذ من الاوروبيين أستاذان اثنان ، وحتى لو كان

جميع الاوروبيين سلبيين يحتاجون الى الرد ، ألا يتعبون ، وهم اقل من العشرة ، ويتعب الاساتذة المسلمون وعددهم يقرب من مائة وخمسين ؟ ألا يعيد هذا الى اذهاننا ـ ان جاز لنا أن ننسى ـ مشاكل مؤلمة في واقعنا الاسلامي الحاضر ؟

ولقد قال لى فعلا احد الاساتذة (وهو أستاذ لى وأجله كثيرا) انه تعب فى الرد ، وكأن ينبغى التدخل لمنع خصمه من الكلام !وخصمه ـ بل خصمنا ـ كان مستعدا دائما للرد ، وقلت له ان عليه ان يرد عليه ، وألا يتعب ، ونحن نقول فى الجزائر انه من العار أن « تبيت الضربـــة » فى المسلم ، وكنت أفضل ان يرد على الذى يستحق الرد عليه ، عوض ان ننزله من المنصة ، وقد كنا قلناان المناقشة حرة مطلق الحرية ، وابوابهـا مفتوحـة عـلى جميع مصاريعها ، والطلبة يلاحظون أيضـــا ، ويستفيدون من ذلك النقاش ، ولا يحبون أن يستسلم المسلمون فى المناقشة ويغلبوا ، « ويتعبوا » !

أما فى مبدا دعوة الاساتذة الاوروبيين ، فيكفى اننا ادرجنا فى جدول أعمالنا النقطة الثالثة ، الخاصة بدورهم فى الماضى فى كتابة تاريخنا ، واضفنا الى ذلك ضرورة كتابة تاريخنا بأنفسنا ابتـداء من الآن ،ولهذا كان حضورهم واجبا ، والا تكلمنـا عنهم ونقدناهم فى غيبتهم ، ولم نعطهـم فرصة الرد والتصحيح ، والحق يقال ان من بينهم من انصفوا ، وان كانوا قلة ، والآخرون يحتاجون الى ان يسمعونا ونسمعهم فى ملتقى كهذا ، ولا نحكم عليهم فى الغياب ،والنتيجة كانت ايجابية فى الغالب ، بل فى الأغلب ، بما سمعناه منهم وسمعوه منـا ،وكانت الفائدة متبادلة ، وسوف ندعو منهم عددا كلما دعا جدول اعمالنا الى ذلك .

9) ذكرتم فى الاخير ، من بين ثمرات هذا الملتقى كمـــا قلتم ، زيارة بعض القرى الجزائرية ، وكانت القريتان اللتان زرناهما هما مليانة والمديـة ، وأود فقط أن اذكر لك انهما ليستا قريتين ، بل هما على الاقل بلدتان كبيرتان ، ان لم ترد ان تعدهما مدينتين ، وقد كانتا فى وقت من الاوقات عاصمتين ، ويكفى أن تتذكر ، ان حضرت الملتقى ، ان النقطة الثانيـة فى جـدول اعمـاله تتضمن الاحتفـال بالعيد الألفى لتاسيس مدن مليانة والمدية مـــع الجزائر العاصمة على يد بلكين بن زيرى ، وينبغى ان تعترف معى انهما حتى عـــلى وضعهما الحـالى أكبر واجمـــل من بعض العواصم العربية فى مشرقنا العزيز .

أطلت في هذه الكلمات ، وكنت أود ان تكون قصيرة ، ولكنها اطالة ضرورية ، وارجو أن تكون مفيدة .

١٥) بقى لى ان أقول لك أيها المخربش« الاسلامى » انه جاءت في احدى الكلمات القصيرة في نفس العدد من جريدتك « الاسلامية » كلمة ساخرة أشاركها فيها تماما عن « التقدمية النكساء » ، ولكن أود منها أيضاأن تقلع عن هذه الاسلامية القعساء(١) ، من نوع مقالك الذى استوجب منى هـذاالتوضيح .

فكم من ثورى ليس له الا بلادة الثور ، اذ لا يكفى لأناس ان يكونوا ثوريـــين ليكونوا ثوارا ، كما انه كـم من اسلامى مستسلم ، يجنى على الاسلام والمسلمين !

وبعد هذا كله ، السلام عليكم ورحمة الله ، ومرحبا بك في الملتقى القـادم ان رغبت وشاء الله ، واليه ترجع الأمور !

مولود قاسم

(١) القعساء من الأضداد ، والمقصود هنا طبعا هو المعنى السلبى

الإسلام.. ثورة شاملة

الرئيس هواري بومدين

بسم الله الرحمان الرحيم

حضرات الاساتذة الافاضل ،

أرحب بكم فى الجزائر التى تتشرف باحتضان هذا العدد الكبير من رجال الفكر والثقافة ، الذين ضحوا بجزء من راحتهم الصيفية لمواصلة النقاش الحر الخصب ، والبحث العلمى الدقيق . (٥)

(٥) ألقاها بالنيابة السيد مولود قاسم

وانى لأشكر بصفة خاصة الاساتذة الأفاضل الذين تجشموا أتعاب السفر من مختلف البلدان العربية والاسلامية ومن بلدان أوروبية ، لمشاركة زملائهم من الاساتذة الجزائريين فى افادة طلبتنا واخوانهم من بلدان شقيقة وصديقة من القارات الثلاث بالمحاضرة والنقاش ، فى جو علمى طابعه الحرية والصراحة ، يجمع بين حكمة الاساتذة وعلمهم ، ورزانتهم ، وحماس الشباب ، وطاقتهم الخلاقة ، وحيويتهم المتدفقة المقرونة بحب البحث والاستطلاع .

وانه ليسرنا بصفة خاصة أن يتم هذا الملتقى فى هذا الشهر الذى نحتفل فيه بأعز عيد من أعيادنا ألا وهو استرجاع حريتنا واستقلالنا بعد ليل استعمارى طويل .

ومما يزيد من أهمية هذا الملتقى بالنسبة للجزائر أنه يجمع هذه النخبة من علماء وأساتذة هنا على أديمها وهى بصدد البدء فى خوض ثورتها الثقافية التى قلت عنها بمناسبات عدة أنها تمثل فى ثورتنا الثلاثية الأعمدة ، الصناعية ، والزراعية ، والثقافية ، الروح بالنسبة للجسد .

حضرات الأساتذة الافاضل

اخوانى الطلبة ،

ان الجزائر التى ساهمت بقسطها فى اقامة حضارة من أخصب الحضارات وأغناها ، هى الحضارة العربية الاسلامية ، والتى كانت لها شخصيتها بين الدول والأمم ، اذ كانت من أولى الدول التى اعترفت باستقلال الولايات المتحدة ، كما كانت اول دولة اعترفت بالثورة الفرنسية ، ثم تعرضت لغزو استعمارى ، قاومته عشرات وعشرات السنين ، عانت أثناءه جميع محاولات المسخ ، والاذابة ، والادماج ، قد قررت بعد استرجاع سيادتها واستقلالها أن تستكملهما باستعادة جميع مقومات شخصيتها وعناصر ذاتيتها .

ولقد كان الاسلام دوما روح مقاومتها ومصارعتها لمحاولات الابتلاع ، كما كان بالأمس قوام حضارتها الزاهرة التى شملتها وبقية العالم الاسلامى ، وكانت المنطلق لعصر النهضة الأوروبية ، وبالتالى للحضارة الحديثة فى العالم .

وهل آتى بجديد وأنا أمام مؤرخين وعلماء أجلاء ، اذا قلت ان لكل حضارة أسسها ومبادءها ، وعهود نموها وارتقائها، ثم جمودها وربما انهيارها بحسب حرصها على تلك المبادىء والاسس وتمسكها بها ، أو التهاون فيها ، والتخلى عنها ؟

كلنا نعلم ما كانت عليه الجزيرة العربية فى الجاهلية ، وكلنا نعرف ما تطورت اليه وتطور اليه العالم الذى شمله نور الاسلام ، فى مدة أدهشت بقصرها مؤرخى الحضارات والاديان

وذلك ان الاسلام ثورة شاملة لمختلفى نواحى النشاط الانسانى ، بما يشتمل عليه من قيم ومعان ، ويحمله من روح لا تكتفى بالترقيع والتصليح ،وانما تتوق دوما الى التغيير الجذرى ، روح يتمثل فيها بكل معانى الكلمة ما نسميه اليوم بالثورة التى تقوض الهياكل القديمة المهلهلة ، وتقيم على أنقاضها صروحا جديدة شامخة تستعصى على الحدثان .

لقد كان العصر الذى سبق الاسلام يسمى الجاهلية بحق ، بالنسبة للعالم العربى ، وكان عصر جهل بحق ، وتأخر فظيع ، فجاء الاسلام ثورة على ذلك الجهل ، اذ هو دين العلم ، جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وسوى بين حبر العلماء ودماء الشهداء ، وبلغت ذروة تقدير العلم فى الآية الكريمة « انما يخشى الله من عباده العلماء ، » أى العلماء بأسرار الكون والطبيعة بفضل الدراية والبحث ، والتجريب ، على كلا القراءتين ، وبالتالى على كلا التفسيرين ، وهو ما يعبر عنه أيضا الحديث الشريف « العلماء ورثة الانبياء » ونجده عند علماء الاسلام فى عصوره الذهبية ، لدى ابن رشد وابن سينا من الجمع بين العلم وصحة العقيدة ، كما رأيناه فى العصر الحديث ، ولا أذكر هنا الا عالمين اثنين : باستور وآينشتاين ، اللذين يترك كل منهما مخبره ، أحدهما الى كنيسته ، والآخر الى بيعته .

وكان الاسلام ثورة على الجمود والركود ، وعلى التقليد والتبعية العمياء ، وكم نعى فى آيات متعددة على الذين كانوا يقولون « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون » . كما قالوا « بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وشبهوا فى القرآن بالذى « ينعق بما لا يسمع الا دعاء

ونداء ،صم بكم عمى فهم لا يعقلون ! » أى كالحيوانات التى تسمع نعيق الراعى ولا تعرف مغزاه ، ولا تفقه منه شيئا ، بل ومفضلا عليهم هذه الحيوانات العجماء اذ قال عنهم الله فى كتابه العزيز « أولئك كالانعام بل هم أضل » !

وذلك ان الاسلام دين النظر ، والروية،والفكر ، وان الآيات التى تدعو الى استعمال العقل تتجاوز الخمسين ، والتى تدعو الى السير فى الارض للنظر والى التذكر والتفكر لا تكاد تحصى !

والاسلام ثورة ضد الكسل ، والسلبية ، والتواكل ، والاعتماد على الغير ، وضد البطالة ، التى هى فى مفهومها الاصلى الحياة عالة على الناس ، والامساك عن العمل ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرى الا مشتغلا ، ويقول : «لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس ، اعطوه أو منعوه ، » وقال « ان الله يحب العبد المحترف » ويقول أيضا : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » .

وفى القرآن أكثر من ثلاثمائة آية تدعو الى العمل وتمجيده ، ويقول صلى الله عليه وسلم فى حق العامل ، متوعدا كل رجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره يقول فى الحديث القدسى : « أنا خصمه يوم القيامة » أى الله خصمه وفى حديث آخر : « اعطوا الاجير حقه قبل ان يجف عرقه » .

وذلك ان الاسلام ثورة أيضا على الطبقية والعصبية ، اذ الشرف شرف العمل فحسب ، وحرب على سائر أنواع التمييز سواء كان ذلك بسبب الدين ، أو العنصر ، او الحسب ، أو أى اعتبار طبقى آخر من الاعتبارات التى كانت سائدة اذاك فى قريش ، وباقى الجزيرة العربية ، وكثير من انحاء العالم ، وقاعدة التفاضل الواحدة هى العمل الصالح والسلوك الحسن ، واحاديث الرسول فى هذا الصدد بخصوص صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وغيرهما لا تكاد تحصى ، وتعنيفه للصحابى الجليل أبى ذر الغفارى فى هذا الشأن لمعروف جدا لدى كل من له المام بتاريخ الاسلام ، ونكتفى فى هذا الصدد بقوله صلى الله عليه وسلم « يامعشر قريش ، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، كلكم

من آدم وآدم من تراب » ثم تلا هذه الآية : « يا أيها النـاس انا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ،ان أكرمكم عند الله اتقاكم »

وكـان الاسلام منذ البـدء ثـورة على العادات المستحكمة اذاك ، والتى لا تزال فى كثير من أجـزاء عـالمنا اليـوم ، من غطرسة الأباطرة ، وعنجهية القياصرة ، وغيرهم من رجـال الحكم ، اذ حـارب منذ البدء الجور والطغيان ، وكـان حربا على التجبر ، والتكبر ، والاستبـداد ، ووضع العـدل والمسـاواة حيث كـان الجـور والمحابـاة ، وان الآيات الواردة فى ذلـك لعديدة متنوعة : « ولو كنت فظاً غليظ القلـب لانفضـوا من حـولـك » ، « وشاورهم فى الامـر » ، « وان احكـم بينهم بما أنـزل الله ولا تتبع اهـواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض مـا أنزل الله اليك » « وان حكمت فاحـكم بينهـم بالقسط ان الله يحب المقسطين » ، « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بـالعدل » ، « يا أيهـا الذين آمنوا كونـوا قـوامين بالقسط شهـداء لله ولو عـلى أنفسكم أو الوالـدين والاقربـين ، ان يـكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فـلا تتبعوا الهوىأن تعدلوا . . » وأحاديث الرسول فى ذلك والشواهد من حياة الصحابة وغيرهـم من رجـالات الـدولـة فى الاسلام لا تكـاد تحصى .

فهذا الـرسول صلى اللـه عليـه وسلم عندما وردت اليه حادثة امـرأة مخزومية سرقت وحكم عليها بتطبيق الحد ، فارتاعت قبيلتها المخزومية المعتدة بنفسها ، وخافت من فضيحة قطع يد احدى بناتها ، وذهبت الى أسامة بن زيد ، وكان حب رسول الله ، فكلمه فى ذلك ، فغضب الرسول وقال له : « أفى حـدود الله ؟ » ثم خطب المسلمين وقال : «انما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهـم الشريـف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقامـوا عليه الحـد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . »

بل وقـد أقـاد الـرسول من نفسه فى حادثة مشهورة أخـرى مع سواد بن غزية الذى اعتبر أن الرسول وهو بصدد تسوية الصفوف قـد آلمـه ، فطلب منه أن يمكنه من القصاص ، فمكنـه الرسول من نفسه ليقتص منه لو شاء .

وهذا عمر ، الذى سمى الفاروق بحق ، يقيم الحد على ابنه حتى يموت ، فلقد كان

ابنه عبد الرحمن الأوسط مقيما بالقاهرة ، وشرب الخمر مع صاحب له فسكرا ، ثـم ذهبا الى والى مصر عمرو بن العاص ليقيم عليهما الحد وقال له عبد الرحمن : اذا لـم تفعله اخبرت ابى اذا قدمت اليـه ، فأقام عليهما الحد بصحن داره وحلق رأسيهما .

فسمع الخليفـة عمر بن الخطـاب بذلك ويكتب الى واليه على مصر :

« من عبد اللـه عمر أميـر المؤمنين الى العاص بـن العاص ، عجبت لك يـا ابـن العاص ، وجرأتك على ، وخلافك عهدى ، فما أرانى الا عازلك ، تضرب عبد الرحمن فى بيتك ، وتحلق رأسه فى بيتك ، وقـد عرفت أن هذا يخالفنى ، انما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ، وقد قلت : هو ولد أميـر المؤمنين ! وقد عرفت ألا هـوادة لاحـــدمن الناس عندى فى حق يجب عليه ، فـاذا جاءك كتابى فابعث به فى عباءة على قتب يعرف سوء مـا صنع . »

فبعث به عمرو بن العـاص الى أبيـه الخليفة عمر فقال لـه : يا عبد الـرحمن فعلت وفعلت ... فقال يـا أمير المؤمنين « قد أقيم على الحـد » ، فلم يلتفت اليـه عمر بل أقام عليه الحد بنفسه وكـان ذلك تأديب الوالد .

وحادثة ابن الاكرمـين وقولـة عمـــر المشهورة « متى استعبدتم الناس وقـــد ولـدتهم أمهاتهم احرارا ؟ » هـل لها مـايماثلهـا فى تاريـخ العدل والمساواة فى تاريخ الانسانية ؟

سابق محمد بن عمرو بن العاص ، فاتح مصر وواليها المعروف ، فتى قبطيا ففـاز القبطى ، فغاظه ذلك فضربه بالسوط وهو يقول : خذها وأنـا ابن الاكرمين ! ثـم حبس القبطى خشية أن يشتكى الى الخليفة عمـر ، المعروف بصرامتـه وتشدده فى ضمان العدل للجميع ، ولكنـه استطاع أن يفلت ووصل الى عمـر ، واشتكى لــه ، فأرسل عمر يستقـدم واليه ابـن العاص وابنه ،فلما وصلا الى المدينة نـاول عمر الفتى القبطى درة وقال له : « اضرب ابن الأكرمين ! » فأخذ يضرب وعمر يـردد : اضرب ابن الأكرمين ثم قال له : « أجلهـا الآن على صلعة عمرو ، فوا لله ما ضربك ابنـه الا بفضل سلطانه » . فقـال الفتى القبطى : يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربـنى ، فقال عمـر : «انك والله لـو ضربته ما حلنا بينك واياه» والتفت الى عمرو مغضبا وقال لـه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » .

وحادثة على بن أبى طالب واليهودى ، فقد خاصم يهودى على بن أبى طالب الى عمر فقال عمر : « قم يا أبا الحسن واجلس أمام خصمك ، فقام على رضى الله عنه وساوى خصمه وقد بدا التأثر على وجهه ، فلما انتهت الخصومة قال عمر : كرهت يا على أن تجلس أمام خصمك ؟ فقال على : كلا ، ولكن كرهت أنك لم تسو بيننا حين قلت « يا أبا الحسن » ، حيث أن الكنية تعظيم .

وقد تخاصم الخليفة عمر مع شخص فى قضية أمام رجل اسمه شريح اختاره خصم عمر ، وحكم شريح على الخليفة عمر،فسماه عمر قاضيا على الكوفة وبقى كذلك ستين سنة .

وهكذا استمر الخلفاء ورجال الاسلام من بعد عمر ، وأختم هذه السلسلة بمثل واحد ، فقد تخاصم الامام على ، وهو أمير المؤمنين ، مع يهودى بشأن درع ، كل منهما يدعى أنها له ، فذهبا الى شريح المذكور وحكم أنها لليهودى ، بعد أن سأله البينة فعجز ووجه اليمين على الخصم فقال له القاضى « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » وهنا استغرب اليهودى وقال : قاضى أمير المؤمنين يحكم لى عليه ! ونطق بالشهادتين .

وجاء الاسلام ثورة على الرشوة واستعمال النفوذ للاثراء ؛ فقرر الخليفة عمر مبدأ وضع السؤال من أين لك هذا ؟ وطبقه على الصحابة الكبار مثل أبى هريرة ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وأمثالهم مع بعدهم عن الشبهة ولكن ليكونوا عبرة ولا نذكر هنا الا جملة من رسالة بعث بها الى واليه على مصر عمرو بن العاص ، اذ قال له « انه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان ولم يكن لك حين وليت مصر » ! ولما أجابه ابن العاص أنه يتعاطى التجارة والزراعة الى جانب وظيفته ، منع عمر ذلك منعا باتا ، وأنشأ منع ازدواج العمل لموظفى الدولة ، ثم أرسل عمر الى ابن العاص يقول له : « انى وجهت لك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك وارجاع النصف الى بيت المال » .

وفى عهد كان يسيطر فيه التعصب الدينى والطائفية كانت القاعدة الذهبية للاسلام هو التسامح المطلق ازاء الاديان والطوائف ، وذهب فى ذلك الى حدود لم

تبلغها أية حضارة أخرى ولـم يعمل بهـا أى دين آخـر ، فكان بذلك ثورة استغرب منها رجال الديانات الاخرى !

وقد كان أساس ذلك الآيـات القرآنية العـديدة التى تحث على ذلك ، وذكـرت المعابد غير الاسلامية مقرونة بالمساجد ، وحـادثة عمر مع صفر نيوس ، رئيـس النصرانية في القدس ، فى كنيسة القيامة، أشهر من أن أذكرها هنا بالتفصيل .

واين نحن مما صار ويصير بمقدساتنا ومنهـا المسجـد الأقصى ، وكلنـا نذكر الحريق الاجرامى الذى تعرض له والـذى تتعرض لـه يـوميا مقدسات أخـرى فى فلسطين المحتلة ؟

صور من الملتقى



الرئيس فى جلسة من جلسات الملتقى فى قصر الامم ويظهر على يساره الدكتور محمد محمد الفحام شيـخ الازهر ـ وعلى يمينه السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

والآيات الواردة في حرية العقيدة عديدة ، وقد ذهب المسلمون في العمل بالآيات الدالة على التسامح مثل : « لا اكراه في الدين » ، «ولكم دينكم ولي دين » ، و « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » الى حد أنهم قبلوا حتى بتغيير من كان قد غير من أبنائهم لعقيدتهم ، ومثل هذا في ذلك الوقت ، بل وحتى الآن في كثير من أنحاء العالم ، أقصى ما يتسامح فيه ، بل لا يقبل بحال !

وجاء الاسلام ثورة على الربا وجميع صور تكديس الثروة في أيد قليلة تفرض حكمها وجبروتها ، ففي سورة الحشر وزع المال على طوائف المسلمين وفي صالحهم « لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » ثم علل ذلك بقوله تعالى : « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » أي متداولا بينهم ، محتكرا عندهم دونكم ، كما نراه اليوم مكدسا في بنوك الدول الغنية ، وسلطة قاهرة على رؤوس الضعفاء من الدول والافراد .

فالاسلام لم يجعل كل المال لصاحبه ، بل جعل فيه حقا معلوما واجبا أن يؤخذ طوعا أو كرها . وواجب على المسلمين ، دولا وأفرادا ، اطعام الجوعان ، واكساء العريان ، وسد كل حاجة معقولة ، وهو واجب وليس منحة فقال : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقال تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها . » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » وقد فسر عمر هذا الحديث على أن الضرورة تجعل هذا الاقتسام فرضا وفرض عين .

وكان أبو ذر الغفاري يستنتج من الآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » أن كل مال مجموع يفضل عن القوت وسداد العيش فهو كنز ، وان آية الوعيد نزلت في ذلك .

وقال الرسول « ان الأشعريين اذا أرملوا في الغزو أو قل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم ثم اقتسموه بينهم في اناء واحد بالسوية . فأنا منهم » .

ويروى عن الرسول فى اشتراكية أصناف المال بين أفراد الأمة عن أبى سعيد الخدرى ما يلى : « بينما نحن فى سفر مع النبى اذ جاء رجل على راحلة له فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا (أى مختالا وهو ينظر الى المشاة) فقال له الرسول : « من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » ، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد فى فضل » .

وقال عمر : لو عشت لأخذت فضل أموال الاغنياء فرددتها على الفقراء ، ليس أحد أحق بهذا المال من أحد ، سالحق أو اخر الناس بأوائلها ، وليأتين المرأة فى صنعاء نصيبها من هذا المال ، ولأطوفن بالأمصار فأقيم بكل قطر شهرين ، فأنى أعلم أن للناس حوائج تقطع ، أما عمالهم فلا يرفعونها الى ، وأما الناس فلا يصلون الى » .

وهناك باب يسمى « الحق سوى الزكاة ، أى للدولة أن تأخذ من الاغنياء للفقراء اموالا زيادة عن الزكاة ، وروى الامام على عن الرسول أنه قال : «ان الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم » . وعلق ابن حزم على الحديث فى « باب الحق سوى الزكاة » بمايلى : «فرض على أغنياء كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ان لم تقم الزكوات بهم » . وأفتى هو وغيره من العلماء بدية من مات جوعا بين قوم واعتبره قتيلا لهم عليهم ديته .

ومن أقوال الرسول : « ان الله يبغض البذخين الفرحين » أى المترفين الذين يتباهون بغناهم وترفهم .

والحديث المشهور : « الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلا والنار » ، قد أنشأ الاشتراكية الأولى ، اشتراكية الاسلام ، لفظا ومعنى ، واذا كانت النار هى الطاقة اليوم ، وما فى حكمها من كنوز طبقات الأرض ، فان الكلأ والماء يشملان الأرض أيضا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه » ، وفى حديث آخر : كنا نخابر على عهد رسول الله فنصيب القصرى فقال النبى « من كان له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه أو فليدعها » والقصرى هو

نــوع من الخماسية عندنــا ، وهى بقايــا السنابــل بعد الحصاد ، فنهى الرسول عن ذلك وقال فليحرثها أخاه أى بدون مقابل ، أو « فليدعها » لبيت مــال المسلمين . أى الدولة ، وتعطيلهــا افساد للمال ، واللــه لا يحب الفســاد .

وحدث أن أقطع الرسول قطعــة أرض لأحد الناس ، ولما جاء عمر الى الخــلافــة علم أنه تركها بــورا ، دون أن يزرعهــا ، فاستدعاه عمر وأنــذره بالزرع أو الرد ، فلما لم يوف انتزعها منه وأقطعها لمستحق يفلحها ، ولمــا عارض الرجل ذاكرا بــأن الرسول أقطعها أياه ، عنفه عمر وضربــه بــدرتــه .

ومثل آخــر حى من أعمال عمر ، فقــد كان الرسول أقطع أرضا لأنــاس من بنى مزينة لا ليمتلكوها فحسب ، بل ليعمروها، فان لــم يعمروهــا اعطيت لغيرهــم كى يعمروها ، وحيث أن بنى مزينة لم يعمروا أرضهم هذه فجاء أناس آخرون فعمروها ، ولمــا اختكم الفريقان الى عمر بن الخطاب قال : « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قوم آخــرون فهم أحــق بها » .

حضرات السادة

وفى مجال آخر ، هو مجال حقوق المرأة التى يتكلم عنها اليــوم كثيرا وتنسب الى أوروبــا الحديثة ، فلــم يكن الاسلام أقــل ثورية ، فضلا عن مزية السبق .

فقد كانت المرأة بضاعة فى ذلك الوقت فى أنحــاء العالــم ، ومنهــا فى الجزيــرة العربيــة ، وحتى لــدى اليونــان لا تجــد فيلسوفة واحدة ، ولا مهندسة واحــدة ، ولا طبيبة واحدة مشهورة ، بل ولا حتى شاعرة واحدة معــروفة ، ماعدا صافو ، ربما !

ولمــا جاء الاسلام قــوض تلك العادات فى الجزيرة ، واعطى المــرأة حقوقهــا فى جميع البلــدان التى شملهــا ، فى مجــال التصرف فى مــالها ، وفى الاحتفــــاظ باسمها بعد الزواج ، وفى حرية التعاقد والتجارة وغيرها من المجالات الاقتصادية.

ولا تزال كثير من هذه الحقوق لا تتمتع بها فى أرقى البلدان الاوروبية،وبعضها، مثل الاحتفــاظ بالاسم بعد الــزواج ، لا تملكها المرأة فى أى منها !

وكانت ثورة الاسلام فى مجال الأخلاق وتطهير المجتمع من الأدران ، التى علقت

بـه من رواسب الـوثنية ، والجـاهليـة ، ومظاهـر الترف ، والبذخ ، والانحلال ، الموروثـة عن الامبـراطوريات المجـاورة والحضارات السابقة ، لا تقل عن ثورته فى المجالات الأخرى .

فقـد جعـل الاسلام الاخلاق فى قمـة الاهتمامات ، وقـال رسوله : «انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » ، وشهد له الخالق اذ قـال : « وانـك لعلى خلق عظيم » ، اذ لا مجتمـع يبقى بـدون أخلاق ، ولا حضارة تدوم اذا لم تتمسك بها ، والتاريخ يدلنا أن بداية التسامـح فى القيـم ، واختلال الموازين ، وانعكـاس الاوضاع ، وضعف الاخـلاق فى أى مجتمـع كـان وفى أيـة حضارة كـانت هى بـدايـة انهيارهما ، وفاتحة سقوطهما وامحائهما .

على أن الاخـلاق هنـا لا تعنى الامساك عن العمل ، والتنسك والتزهد ، وحرمان النفس من متـاع الحياة الـدنيا ، والظهور بـالمظهر السلبى الرخو ، والاعتمـاد على الغير ، بـل تلـك الاخـلاق الايجابيـة ، البنـاءة ، على أساس يجمـع بيـن الدين والدنيا ، وقد عرف عن عمر أنه ضرب مرة بدرته شابا كان يظهر النسك والزهد ، والتمـاوت فى مشيته وقال له : « مـالك تتمـاوت فى مشيتك ، أمتـم علينـا ديننا أماتكم الله » .

وقاعدة الاسـلام فى هذا تتلـخص فى القولـة المشهورة : « اعمـل لدنيـاك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غـدا » .

حضرات السادة الاساتذة ،

مرة أخرى أود أن أشكركم على استعدادكم لتحمل وعثاء السفر لاثراء هذا الملتقى ، وارضاء تطلعات هذا الشباب المتحمس الى الثقافـة والعرفان ، فمرحبـا بكم مـرة أخرى وشكـرا ، وأتمنى لكم مقاما طيبـا فى بلادنا ولقاءات أخرى فى ربوعها .

وأنتم يـا شباب الملتقى ، لكـم أود أن أؤكـد على ضرورة العمل على الاستفـادة الى أقصى الحـدود من هـذا المهـرجـان التـاريخى ، الفلسفى ، الحضـارى ، لا بالاستيعاب فقط ، ولكن أيضا بـالمناقشة واثـارة المـواضيع ، . وأخيـرا أتمنى لأعمالكم جميعا مطلق النجاح .

والسلام عليكم



الرئيس لدى استقباله للملتقين فى قصر الشعب ويرى على يساره السيد شريف بلقاسم عضو مجلس الثورة ووزير الدولة ـ وعلى يمينه د محمد محمد الفحام شيخ الازهر ـ والسيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية

الإسلام

صالح لكل زمان ومكان



د . محمد محمد الفحام
شيخ الأزهر

جاء الاسلام والمجتمع الانسانى فى فى اشد ازماته الحازبة ، التى احاطت به من جميع نواحيه من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية والاخلاقية .

والذى يستقرىء التاريخ يقف على اسوأ ما روى .

فالمانوية والمزدكية وغيرهما من ديانات واباحيات ، سادت الدولة الفارسية ، حتى لقد حقق بعض ملوكها اغراضهم بسمل عيون آبائهم وابنائهم واخوانهم .

وكذلك كانت المآثم والمخزيات ، وسيلة المدارج التى صعد عليها ملوك الرومان وملكاتها أمثال « نيرون » .

والرسوم الباهتة ، والطقوس البالية ،هى كل ما تبقى من اليهودية والنصرانية اللتين استحكم بينهما العداء .

حتى لقد بلغ من عداء اليهودية للنصرانية ، أن اشترى اليهود من الفرس ثمانين ألفا ممن أسروهم من الرومان، ثم عرضوا رقـابهم وبطونهم على الاسنة والحراب ، فى وحشية تخطت كل مقاييس الوحشية .

وكـان رد الرومان أن حقروا شعائـر اليهود ، وشرعـوا التشريعات لاذلالهـم وابادتهـم .

وكـأن موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ لم يأتيا بالخير والرحمة والسلام .

والحال فى المجتمع العربى ، لـم تكن بـأحسن منه فى غيـره ، فحياتهم خمـر وميسر ، وسلب ونهب ، وأنصاب وأزلام وقتل ووأد بنات وحرمانهن من الميراث ، وبلايا ، والبلية هى النوق التى تربط على قبر الميت من غير طعام ولا شراب يقدم اليها حتى تموت ، وكـانـوا يزعمون ان هذه النوق هى التى تكون مطايا لهم يوم القيامة والا حشر ماشيا .

وهـم بالاضافـة الى هذا وغيره كانوا يقـدسون الكعبـة ، وفى الـوقت نفسه يحيطونها بثلاثمائة وستين صنما أو أكثر يعبدون هذه الاصنام ، وفى الوقت نفسه لا يعترفون لها بالقوة الخالقة المبدعة .

ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ؟ ليقولن اللـه .

فلـم تعبدونها ؟ ليقربـونـا الى اللـه زلفى .

وسط هـذه المتنـاقضات والضلالات ، وقد ادركت كـل المجتمعـات تمزقهـا الأهـواء والأغراض وتطحنها النـزوات والأمراض .

وسط هذا المجتمع الكبير العليل الحائر وقد اشتدت عليه النوبـة تلـو النوبـة ، والأزمة اثـر الأمة .

انبعث من بطحاء مكة ذلك الصوت الرهيب العميق ، المزلزل المجلجل المنادى بـ (لا اله الا الله ، محمد رسول الله)

بهذه الكلمات المدوية صرخت الجموع الزاخرة ، وارتجفت الأرض ، وتصدعت لدويها الأسرة والتيجان .

وانطوت صفحة الأعوام فى يد الزمن ، وانطلق مجتمع الرعاة للغنم ، والعباد للصنم كما تنطلق الشهب لا يمسكها ممسك ولا يعوقها معوق ، الى المحيط الهادى شرقا ، الى الهند والصين ، الى اندونيسيا والباكستان ، الى جاوه والفليبين ، والى الأطلنطى غربا ، الى اسبانيا وايطاليا ، بقيادات قتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، وعقبة بن نافع الذين احتملوا ما احتملوه ، فما ردتهم بحار ، ولا صدتهم جبال ، ولا نال من عزائمهم وقوة ايمانهم سموم صيف ولا زمهرير شتاء .

انطلقوا بكلمة التوحيد ، وبموازين العدل والحق والامن والسلام ، يصنعون التاريخ ويخططون لعمارة الارض ، ينظمون المجتمعات فى أدق تنسيق ، وأكمل تماسك ، وأتم عمران .

أجل ، لقد استطاع الاسلام خلال القرن الأول أن يبلغ بدعوته ما بين الشرق والغرب وأن يضم تحت جناحيه أمما وشعوبا ، اختلفت لغاتها وألوانها ، وتباينت طبائعها وعاداتها وطرق تفكيرها وتلك حقيقة جديرة بالنظر والاعتبار، حقيقة لم يشهد التاريخ لها مثيلا فى حياة البشر على تلك الصورة من الشمول والقوة ، والتصحيح الحكيم لموازين الفضيلة وقيم الأخلاق .

عرف التاريخ الاسكندر ، والمغول ، والتتار ، ونابليون ، وهتلر ، ولكن حروب هؤلاء وفتوحاتهم وانتصاراتهم ، كانت محدودة ومطبوعة فى الوقت نفسه بطابع القهر والغلب والتشفى والانتقام والتخريب والتدمير .

أما زحوف الاسلام فكانت موازين عدل وأمن ، ورحمة وحق وسلام .

جاء الاسلام وقد سما بالانسانية عن ان يكون قيام مجتمعاتها على أساس من

العصبية الجنسية او الاقليمية، أو نحوهما مما يدفع الى الدمار والبـوار ، وطمس معالم السعادة والتعاون بل جعل الأسـاس الذى ترتكز عليه صروح المجتمعات هو : « الاعتصام بمبـدأ الخيـر العام والعدل المطلق والرحمة الشاملة » .
(ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم) .

ومما لا شك فيـه ، ان هـذا الاساس الذى أرسى الاسلام قواعده ، انمـا هو المحور الذي تدور حوله المجتمعات بألوانها وأجنـاسها ومعتقـداتها ، تسعد وتنعـم وتشعـر بالوحـدة كلما كانت قـريبة من منطقة الجاذبية من هذا المحـور : (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمـكم عند الله أتقـاكم) الحجرات 13 .

فـالاسلام اذ يشير الى أصل المساواة ، ينفى أن يكون اختلاف الناس الى شعوب وقبائل ومجموعات ، مبررا للمفاضلة بين الأفراد، كما قد ينادي به الفكر المعاصر ، بل ، ينظر الى هذا الاختلاف على أنه سبب للتعـارف وليس للتخـاصـم والتنـابـز والتصارع السائـد بين الأبيض والأسود والعامل الكادح ، وصاحب العمل الثرى ، كما يحكيه واقع المجتمع الانسانى اليوم

ان المـذاهب الفلسفيـة التى تتزاحـم لتبرير هذا الصراع أو ذاك ، على أساس من اللون الابيض والاسود، والذى لا يعدوفى واقعه أن يكون أثرا من آثـار الجـو والعوامـل الجغـرافيـة أو على اساس من الغنى ـ وهو عرضة للزوال ـ أو الفقـر وقـد يتغيـر الى ضده ، أو على اساس من الأمية التى قد تـزول ، أو الثقافـة التى قد لا يتصور صاحبها السلوك الحسن كما يتصوره الأمى .

فهذه المعايير ، وهذه المقاييس لا تصلح ألبتة أساسا للمفاضلة فى المجتمع الفاضل لأنها لا تنبثـق عن الطبيعة البشرية ، التى هى أصل المسـاواة .

ومن أجل هذا التحيـز ، أو من أجـل سطحية الفلسفات المعاصرة ، كـان رأي الاسلام هو الامثل والاحكم ، فى مساواته للطبيعة البشريـة ، بين جميع الأفـراد ، فهم أمام الله سواء هو ربهم وهـم عباده ، ولا مجال فى هذه المساواة التى أرادهـا

الاسلام لمثـل هذه الحـواجز أو الفوارق، الناس سواسية كأسنان المشط ، لا أبيض ولا أسود ، لا آرى ولا غير آرى ، لا غربى ولا شرقى (يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكـم من نفس واحـدة ، وخلق منهـا زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ، ان اللـه كـان عليكم رقيبـا) أول سورة النساء . لا فضـل لعـربى على عجمى ولا لأبيض على اسود الا بالتقوى ، ان اكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير .

وليس وراء هذه النصوص دعوة للأخوة البشريـة العالمية على أساس مـن الرحم والـدم .

الاسلام هو الذي يقدم للناس التفكير الثوري الـذي يـؤدى الى وحـدة الجنس البشرى والتقارب بين الاجناس والألوان وفى هذا يقول الرسول الكريـم صلوات الله وسلامه عليه «الخلق كلهم عيال اللـه فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله» رواه البزار عن أنس رضى الله عنه .

ويقـول : «اللهم ربنـا رب كـل شيء ومليكه ، أنا شهيد أنـك الله وحـدك لا شريك لك اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه، أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك، اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه ، وانا شهيد أن العباد كلهم أخوة » رواه أحمد وأبو داود.
فالاسلام هو دين العالم حقا وصدقـا ،دين في نظرته للامور وعلاجه لها لا يجيـز مطلقا قيام الحدود والحواجـز ، ولا يميز بين أفراد الطبقة البشرية ، الا على أساس من البلـوغ فى المستـوى الـرفيع منها ، والسمـــو الى المستـوى الفاضـل ، فى الانسانية التى كرمها اللـه (ولقد كـرمنا بني آدم) الاسراء 70 .

من أجـل هذا جعـل الاسـلام معيـارالافضلية (كثرة التقوى) ، (ان أكرمـكم عند الله أتقـاكم) .

وكثرة التقـوى ليست بحكم احـد من الناس ، وانما بعلم الله نفسه وخبرته ، ولذا كان التعقيب فى هذه الآية بقولـه (ان الله عليم خبير) .

ومعالم التقوى قـد حددهـا القـرآن الكريم فى قوله : (ليس البر أن تـولـوا

وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء ،والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) البقرة 177 .

فالاسلام الذي يهدف الى جمع البشر كافة تحت راية واحدة ، وفى ظل تلك الخصائص المميزة هو بالنسبة لهذا العالم الذى مزقته الاهواء وطحنته الاحقاد ، رسالة الحياة ، وأملها المرجى ومستقبلها المزدهر .

ذلك انه الدين العالمى الذى لم يقتصر على جنس بعينه كما اقتصرت الديانة الاسرائيلية على بني اسرائيل ، الذين يتحدثون عن الله كالاه لبنى اسرائيل من دون الناس خاصة ، وانه قد اختارهم لنفسه شعبا فوق كل الشعوب .

ولهذا فالديانة الاسرائيلية جنسية ، وقومية لفصيلة من الفصائل البشرية ، تخالف بين نفسها وبين سائر الاجناس الاخرى

والديانة المسيحية فى ذاتها ، اذا تصفحنا الانجيل نراها قد نشأت فى الاصل ديانة محلية بحتة،لا صلة لها ببقيةشعوب العالم ، فالمسيح يتحدث عن نفسه فى الأناجيل المختلفة باعتباره مصلحا لنصوص العهد القديم ، ومفسرا لها ، ومرشدا لبنى اسرائيل خاصة من دون الناس وفى المعنى الاول يقول « ما جئت لأهدم الناموس بل لأكمله » وهو يعنى بالناموس كتاب العهد القديم أو التوراة. وقد نبه على تلامذته وحظر عليهم ان يبشروا بتعاليمهم فى غير صفوف بنى اسرائيل وذلك بقوله « الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة للسامرى لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى الى خراف بنى اسرائيل الضالة « متى : الاصحاح العاشر » .

واذا كانت المسيحية قدر لها ان تنتشر فيما بعد ، فقد كان ذلك عمل تلامذة المسيح واجتهادهم .

وعلى الرغم من ذيوعها وانتشارها لم تستطع فى العمل والتطبيق ، أن تقضى

على الفوارق الجنسية ، وان توحد بين الشعوب على اساس الدين ، فما تزال أرقى الدول التى تدين بالمسيحية تنظر الى السود باعتبارهم جنسا منحطا لا يرقى الى مستوى البيض ، ويكفى أن يكون الانسان أسمر الوجه لكى يسقط اعتباره عند الانجليز ولو بلغ من العلم والمكانة أرقى الدرجات،والآرية وكيف تعصب لها الالمان والزنوج وكيف عاملهم ويعاملهم الامريكان .

ان هذه الروح الجنسية لا أثر لها فى ظل الاسلام ، وما خاطب مرة صاحب الرسالة عليه السلام بنى قومه ، وما هتف بعروبتهم ، وما اعتز بفصيلة ، بل جاء القرآن يخاطب الناس وكل من آمن فى هذه الدنيا « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » «وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » ، «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ان الاسلام كما آخى بين البشر جميعا على اختلاف الوانهم وأجناسهم ومر تبهم دعا كذلك الى المؤاخاة بين الاديان كلها ، ودعا الى احترام جميع الانبياء والمرسلين، وعلم أتباعه أن تعاليم الأديان كلها تنطوى على جوهر الحقيقة التى انتقلت الينا عبر القرون ، وتضافر على ابلاغها للبشرية الأنبياء والمرسلون ، الحقيقة التى تتلخص فى وحدانية الله ، ووجوب التقرب اليه بصالح الأعمال ، هذا هو الاسلام ، وهذا موقفه من سائر الأديان .

فأى تعاليم كهذه التعاليم ، تحمل من اعتنقها على احترام الديانات الاخرى واحترام كتبها ورسلها ، وأى مسلم يجرؤ بعد هذه الارشادات المحمدية ، والتعاليم الربانية ، الا يصلى ولا يسلم على عيسى اذا ما سمع اسمه ، ولا يصلى ويسلم على ابراهيم اذا ما سمع اسمه ، وموسى اذا ما سمع اسمه .

وأى ارتياح ؟ وأى ابتهاج يملأ نفس المسيحى واليهودى وهو يرى المسلم يثنى على أعلام دينه ، ويكرمهم مثل ما يكرم أعلامه .

ان الاسلام قد دل بذلك على أنه حقا آخر الاديان ، وان محمدا حقا هو خاتم النبيين فهذه المصالحة هى مهمة لا تنسب الا الى المتأخر (قولوا آمنا بالله وما أنزل

الينا ، وما انزل الى ابـراهيم واسماعيل واسحق ويعقـوب والاسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) البقرة 136

وهكـذا يفتح القرآن الباب على مصراعيه لاحترام كل اسم يقرع مسامع المسلم على انه نبى من الأنبياء ، كما يفتح بـاب التعاون والتفاهـم والتصادق بينه وبين صاحب أى عقيدة أخرى ، غير الاسلام اذا رغب في الاصلاح والبحث عن الحقيقة التى لا يشوبها التبديل والتغيير ، على ضـوء تعاليم الاسلام المهيمن على سائر الاديان .

وقد أمر الاسـلام أتباعه أمـرا ، ألا يجادلـوا أصحاب الديانات الأخـرى الا بالتى هى أحسن (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن) العنكبوت 46 .

والاسلام قد نجح فى هذه الغاية نجاحا بعيدا ، فقـد أسرع أصحاب الديـانـات الاخرى الى الدخول فى دين الاسلام أفواجا لاتباعه هـذا الأسلوب ، وتركه الحريـة التامة المطلقة لكل صاحب ديـن أن يبقى على دينه ، فـلا مصادرة ، ولا اضطهـاد ، لأن ذلـك من شأنـه ان يحمل الانسان على التعصب لوجهة نظره ، أما التسامح فهـو السبيل الـوحيد لتقريب وجهـات النظر (لا اكراه فى الدين قد تبين الـرشد من الـغي) .

فلـو ان الاسلام جـاء مسفها للأديـان الاخرى ، محقرا لكتبها وأعلامها ، لسدت الآذان عن سماع دعوته ، ولما وجد طريقه الى القلوب مثل ما وجد الموقف الذى يقفه الاسلام من سائـر الأديـان الاخـرى ومن أربابها ، فهو يقف موقف العليم الرحيم ، لا موقف المتغطرس المتكبر المستبد .

الاسلام يكفل حرية الفـرد فيما يعتقد فلا يكره انسانـا على أن يدخل فيه ، لأن ذلـك يصادم طبيعة الحيـاة التى يعيشهـا الانسان على الارض ، كما يصادم طبيعة الانسان الخاصة التى كرمها الله فى الخلق والتصوير، « وصوركم فأحسن صوركم » كما زودهـا بخصيصة الادراك والشعـور « انـا خلقنـا الانسان من نطفـة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » الانسان 2 .

وادراك الانسان فى حكمه على ما يرى أو يسمع أو يفكر انما يقوم على الترجيح

فيما يــراه من الصنواب فيستحسنه ، فلــو أكره الانسان على الايمان بشيء ما ، لكان في هذا الاكراه مصادرة لطبيعته وتصادم مع ميزة الادراك ، والترجيح التى حباه في خلقه وتصويره .

والقرآن الكريم يؤكد حرية الفرد في اعتقاده بايمانه على الصورة التى ارادها مبدع الكــون وخــالــق البشر ، فصاحب الرسالة ، صلوات الله وسلامه عليه ، وان دار بخلــده ايمان جميع الناس ، فــارادة الله نافذة وفوق كل ارادة ، « ولــو شاء ربــك لآمن من في الارض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » يونس 99 .

الاســلام أكد حرية الفرد في اعتقاده،ودعا الى الايمــان عن طــريق الاقنـــاع بالأسلوب الانساني المهذب الكريــم ، فلا مجادلــة الا بــالتى هي أحسن ، ولا الغاء لذاتية الفرد لمنفعــة شخص آخــــر ، ولا تــذويب لشخصيــة انسان في شخصيــة انسان آخــر ، فالزوجــة غير المسلمــة ، يحرص الاسلام على استقلالها في جميــع شؤونها المالية الخاصة بها ، ويحرص على حرية اعتقادها ، ويمنع زوجها المسلم من حملها على الاسلام دون نظر واقتناع ، مع حــرصه على أن تزدهر علائق الــود بين الزوج والزوجة ، فالاسلام بأحكامه هــو الدين الوحيد ، الذى يقبل البحث والنظر العقلي .

أمــا أحكام الديانات الاخــرى فيلـــزم قبولها بدون مناقشــة ، ولا رأي للعقـــل فيها ، لأنها ضرورة مذهبية ، بحيث يقول المؤمن بها (أومن بها لانها محال) اى بلا مناظــرة ، أى بالاكراه فكــل مــا يقرره البابــوات وآباء الدين تبريــر لأحكامــه المقدسة التى يجب اتباعها ، فلا منــاقشة ولا مناظرة فالطاعة على العامة والسلطــة للقسوس .

نحن لا ننكر ـ كما سبق ـ ديانة موسى وعيسى عليهمــا السلام ، ولكننا ننكــر صلاحيتهمــا في بنــاء المجتمعــات ، كمــا أوضحنا ، ولخصوصيتهما ، ولما طرأ على التوراة والانجيل من تحريف وتصحيف .

فالثابت أن التوراة التى كتبها عــزير كما يعترف اليهــود انفسهم قــد ضاعت

فى زمن بختنصر والتى كتبها أحبـــار اليهود ضاعت أيضا فى الأزمنة الاخرى . والثابت أيضا كما يعتــرف النصارى ان مئــات من الكتب كانت موجودة بدعــوى انها ذلك الكتاب المقدس ، ثم هبط عــدد الاناجيل فى القرون الوسطى الى أربعــة وخمسين ، ثم اختــاروا منها أربعة فقط هى الموجودة حــاليا فى الكنائس ، ونحن نعلم ان الحقيقة لا تتعــدد ، فــلا شك اذا ان مــا هو موجود من الانجيل والتــوراة مشكــوك فى متونها ، وليس هنــاك يقين بصحتهــا .

وهذا الاستدلال العقلى يؤكــده ما جاء فى القرآن والسنة، من النصوص القاطعة بتحريف وتبديل النصارى واليهود لكتبهم.

أما القرآن فان الدارس لتاريخه تتضح له الحقيقة الثابتة المذهلة ، حقيقة حفظه كمــا أوحى الى محمد ـ عليــه الصــلاةوالسلام ـ وكما لقنه لأتباعه ، وحقيقــة وصوله الى الأجيال المتعاقبة سليما من كل تحريف أو نقص أو زيادة ، مبرأ من كل الشكوك التى دبت الى غيره .

فالانسان مهما طــوف فى المعمورة من الأرض ، فلن يجد الا نصا واحدا للقرآن بل مهما رجع الانسان الى الوراء فى تاريخ المسلمين حيث لا تزال مصاحفهم محفوظة ومنشورة فلن يجــد الا النص نفســه والــكتاب عينــه .

ولهذا قطــع أحــد المستشرقين الذين تصدوا لدراسة الاسلام وهو (السير وليم موير) بــأن القرآن قد بين كل مــا يعرف العالــم من كتب مقــدسة من حيث صحــة نسبته الى قائله ، وسلامــة نصه على مــر الايام ، من كل زيف وتحريف ، حيث قال (والأرجح ان العالم كلــه ليس فيــه غير القرآن ظل هذه القرون الطــوال بآياته الدقيقة فى ضبطها كما تلاها محمد) .

وهكذا انفرد بشهــادة العلماء من غيرالمسلمــين ، بمحافظته على سلامة نصــه ، على اختلاف العصور وتعــاقب القرون ، وعلى تباعــد البيئات واختلاف الأحــزاب والقوميــات ، والجنسيــات التى تــديــن بالقرآن .

واذا كــانت نصوص القرآن المادية ، قد ثبتت على الزمن وسلمت من التحريف

والتعاليم ما تسعد بـه كـل المجتمعات لـو سارت على نهجه ، فليتأمل كل منفلت قوله تعـالى (وان ليس للانسـان الا ما سعى) (وهل يستوى الذين يعلمـون والذين لا يعلمون) (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ربـاط الخيل) (يـا أيهـا الذين آمنوا خذوا حذركم) (ولا تلقوا بأيديـكم الى التهلكة) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) .

وقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « طلـب العلم فـريضة على كـل مسلـم ومسلمة » .

ان أحكـام الاسـلام لا تعـوق الباحث والكاشف عن الغايـات التى تفتحها أمامه أشواط العلـم والحضارة ، بـل تدعو الى البحث والكشف وفتح المغاليق ، مع عـدم الارتـداد الى الحيوانية ، وفقد البشريـةلمستواها المهذب .

الاسلام يريد أن يجعـل العلم وسيلـة الايمان بالله والتعرف عليه .

وبذلك تتحقق الرقابة الذاتية المـانعةالتى تخلع عن المنـكر وتعصم النفس من شرهـا وهواها كما تتحقق القوة الـذاتية التى تدفع النفس الى فعل الخير فى معية الله الـذى تشعر بوجوده وتؤمن بلقائـه وحسابه ، فتسلم النفس من الشرك الذى ارداها وخسف بهـا (ومن يشرك باللـــه فكانما خر من السماء ، فتخطفه الطـير أو تهوى به الريح فى مكـان سحيق) الحج 210 .

ان الاسلام هـو النـور الـذى يهـدى التائهين الحائرين والمتخبطين فى الظلام ودنيا المادية البحتة ، التى تدفع من يسير فيها لا الى افكـار غير المـادى فى الوجود فحسب ، بل تدفع الى الجرائـم والاعتداء والكذب وكل منـكر ظهر أو خفي .

الاسلام لا يدعو الانسان لخدمة وجوده المادى الخاص ، وتأسيس حياته على المعدة والـرصيد وبسط نفـوذه وسلطانـه على الضعفاء ، فهـو لا يشكر ربـه على نعمه ، لان الهه فى نظره هو رصيده ، فهو يجرى ويجرى فى دروب الدنيا ويتـكالب فى تحصيلها ، دون مـا اشعاع روحى يكفكف من هـذا الجموح يأخذ لنفسـه كـل حظ أتيح له منها لأنه فى غفلة أو لانه لا يؤمن بما بعـدها ، وبهذه المـادية يقطع كـل

والتبديل فان معانيه ومراميه لم تكن أقل ثباتا على الزمن وصروفه من مبانيه ، وهى خاصية أخرى من خصائص القرآن التى ينفرد بها من بين الكتب ، وآية أخرى من آيات اعجازه .

فما أعجب ان يثبت القرآن بمعانيه بحيث لا يفقد جدته ، على الرغم من التطور المستمر فى دائرة المعارف البشرية وعلى الرغم من التحويلات والانقلابات التى شهدها العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وما هو واقع الآن من التطور المذهل الذى تضاءل أمامه انقلاب القرنين الماضيين .

ان العلم الجبار لم يستطع ، ولن يستطيع ، أن ينال من آيات القرآن ، أو يلقى ظلا على بعض معانيه ، بل على النقيض من ذلك كلما اتسعت آفاق العلم واكتشافاته ، كلما زادت آيات القرآن صلابة ووضوحا ، وكلما أزيح الستار عن أسراره وألغازه .

حقا ان القرآن ليس كتابا علميا بالمعنى الفنى ، فهو لا يتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ، ولا يبحث مسائله ومشكلاته ويعالج نظرياته ، ولكن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما فى الكون من ظواهر ومشاهد ، ونواميس طبيعية واجتماعية ، واشار الى الحياة والموت والى الكواكب والى النباتات والى السنن الكونية مستحثا العقل البشرى لاستكناه أسراره الطبيعية والجرى فى طلب الحقيقة ، والتفكر والغوص الى أعماق الاشياء بحيث لايكاد يوجد علم من علوم البشر لم يمسسه القرآن من قريب أو بعيد .

ومن الغريب ، ان يعتبر الغربيون اهل الشرق عامة والمسلمين خاصة من أتباع مذهب الجبرية الذى اختاره فريق ضال من المسلمين فيحملوا تخلفهم وخمولهم فى الازمنة المتأخرة على هذه العقيدة ، بل ان بعض المنفلتين من العقيدة ينكرون وجودهم التاريخى بذهابهم السقيم الى ان الاسلام مانع من الرقى والتقدم العلمى ، وان الدخول ضمن الأمم الراقية يقتضى الالحاد .

ولا نتصور عمى وجدانيا ، كحسبان الدين مانعا من الرقى ، الدين الذى يحرر العقل فينطلق فى آفاق الحياة حرا رشيدا ، الدين الذى يحوى من الحكم

صلاتــه بالناس فلا تعــاون ولا تراحم ولا منفعة بل طغيان وجبروت وتفاخر وتكاثر وتكذيب بيوم الدين .

(فمن الناس من يقــول ربنا آتنــا فى الدنيــا وما له فى الآخـــرة من خــلاق) « نصيب » البقرة 200 ، (من كان يريــد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئــك الذين ليس لهم فى الآخرة الا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل مــا كانوا يعملون) هــود 17 .

وكما لا يــدعــو الاسلام الى العنف فى طلب الــدنيــا ، والتكالب فى تحصيلهــا لخاصة النفس لا يدعو كذلك الى الروحية المطلقــة ، ولا يــدعــو الى تــرك الحياة الدنيوية والانقطــاع عنها والانعــزال من متعها وانكار زينتها وطيباتها .

ان هــذه الروحية البحتة لا وجــود لها فى القرآن الكريم الا فى مقــام الــلائمة لتلك الطوائف التى ابتدعتها ، وتصورت مكنــة تحقيقها (ورهبانية ابتدعوها مــا كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان اللــه فما رعوها حــق رعايتها) الحديد 75 . ذلــك لأنها لا تلائم بحال طبيعة الانسان ولا تلائم طبيعة الكون .

ان الاسلام هــو الدين العملى الــــذى ينظم بأحكامه واقع الانسان ، بما يجعله دائمــا فى الحد الوسط الذى لا افــراط فيه ولا تفريط ، وواقــع الانسان جسم وروح ، وللجسم حظــه ومتعته ، وللروح حظه ومتعته ، ولكى تكتمل سعــادة هذا الانسان لابــد أن يستــكمل حظي الروح والجسد معا فى تــوازن واعتدال (ربنــا آتنا فى الدنيا حسنــة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) البقرة 20 . .

ان صاحب هذا الدين ـ صلوات اللــه وسلامــه عليه ـ لم يقل (بــع مــا تملك واتبعنى) وانمــا قــال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله (انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتــكففــون الناس) ان الاسلام كما رسم للروح طريق السعادة رسم كذلك للمادة طريق السعادة وأمر بتحصيل هذه المادة بما فيه خيرها ونفعها ، أمر بتحصيل المال من طريق فيها كل الخير للمجتمع ، وفى هذا ما فيه من نشاط وعمل وعمارة ومبادلة الى غير ذلك أمــر بتحصيل المــال عن طريق التجارة ، وعن طــريــق الزراعة ، وعــن طــريــق الصناعة .

بل لقد بلغت عناية الاسلام بالمجتمع ، ان امر بتحصيل المال ، فور الفراغ من اداء الجمعة (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) الجمعة 10 (هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور) ، وكما حث الاسلام على تحصيل المال حث على تنظيم صرفه باعتدال ، وفى طرق الخير ، فلا اسراف ولا تقتير (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما) الفرقان 67 .

وكما حث على تحصيله وتنظيم صرفه نهى بشدة أن تكون مصادره من الطرق الملتوية وغير المشروعة من ربا وسرقة واغتصاب ورشوة .

وبهذا يمنع الاسلام من المجتمع المادى الشرور ، ويؤمن حقوق العباد ، اذ هو لا يحفز على زيادة الحرص والطمع المركوزين فى الفطرة البشرية ، بل يحفز على تعديلهما ويحث على تليينهما .

ان الاسلام فى كثير من الآيات يرفع الحجر عن الانسان فى التمتع بملاذ الجسم المعتدلة ويبيح له الطيبات فى مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه ، وفى خاصة نفسه من زوجة ومال وولد ، وينكر على من يحرم على نفسه شيئا من ذلك مع القدرة عليه ، وفى الوقت نفسه يدعوه فى الحاح أن يمتع روحه بالعلم النافع لخيرى الدنيا والآخرة ، عن طريق التلقى والقراءة ، وعن طريق التفكر والنظر ، عن أى طريق ، عن أى انسان ، ومن أى مكان

(يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون) الاعراف 31 ، 32 . (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ان كنتم اياه تعبدون) البقرة 172 . (يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بماتعملون عليم) المؤمنون 51 .

وبعد : فان منصب الهداية الذى تحول من بنى اسرائيل الى بنى اسماعيل منذ

أن جاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الاله الواحد ، لن يعود أبدا الى بنى اسرائيل لأن اليهود فى شغل عنه ، ولا شأن لهم بالعالم وما يعاينه ، من أزمة روحية ودينية وخلقية ، فهم أبعد الناس عن الدين وعن الروح ، وعن القيم والمثل ، فحياتهم قائمة على المادة والمعدة والتنظيم الصناعى ، ومجتمعاتهم ناهضة على وصايا ميكافيلى .

واليهود فى اسرائيل قد حملوا معهم الى وطنهم المزعوم ثمرة الحضارة المادية ، ومعتصر الشرور والآثام ، وخلاصة الخبائث والقبائح ، وأصبحوا خميرة الفساد فى البر والبحر ، وأتعبوا العالم وأنهكوا قواه كما أتعبوا من قبل أنبياءهم، الذين ينتسبون اليهم ويتبجحون بكثرتهم وقتلوا منهم زكرياء ويحيى عليهما السلام،

ولن ينتظر العالم الثورة على الفساد من المسيحية ، التى تعلم أتباعها نظريا بطريق غير مباشر وعمليا بممراسة تعاليمها ، أن يصلوا لله أيام الآحاد ، وان يفتكوا بمخلوقاته بقية أيام الأسبوع.

. والا فهل من رسالة موسى وعيسى عليهما السلام اغتصاب الشعوب وسرقة الأمم ، وسفك الدماء وسلب الأموال ، وتشريد المواطنين ، وازهاق الحقوق وارتكاب المظالم .

ان منصب الهداية هنا عندنا نحن المسلمين، ان الرسالة المحمدية حية خالدة وشاملة، كاملة سائرة مع الزمن .

ان نهوض المجتمع الأكبر سيكون باذن من الله تحت لواء الاسلام الذى لا يقر الخراقة ولا يقر المعتقدات التى تنافى العقول السليمة ، والذى ترتكز مبادئه أساسا وقبل كل شيء على الايمان بوحدانية الله ، وبرسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبالحياة الآخرة ، كتابه مفتوح يستطيع كل قارىء أن يصوغ حياته عمليا طبقا لما بين دفتيه غاية فى الوضوح والبساطة، لا يوجد فيه للسلطة الكهنوتية التى تحتكر الدين ، بطرح الأفكار المجردة والطقوس المعقدة .

هذا هو دين الحياة المستقيمة ، دين الحياة الكاملة ، التى تنفى عن الانسان الهوان وتضمن له الأمن والسلام .

هــذا هــو الدين الــذى مجــده أحــد الفلاسفة المعاصرين من غير المسلين :

قال برناردشو : « انى أكن كل تقديــر لدين محمد ، لحيويتــه العجيبــة ، فهــذا الدين هو دين الوجــود ، الذى يبــدو لى أن لــه طاقة هائلة لملاءمة أوجــه الحياة المتغــيرة والصــلاحة لكل العصور لقد درست حيــــاة صاحب هذا الــــدين ، وفى رأيى انــــه يجب أن يسمى منقذ البشريــة دون أن يكون فى ذلك عــداء للمسيــح ، وانى لأعتقد انه لو أتيح لرجل مثلــه أن يتولى منفردا حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق فى حــل جميع مشاكله بــأسلوب يــؤدى الى السعادة والسلام اللذين يفتقر العالــم اليهما كثيرا . وانى أستطيــع أن أتنبأ بــأن العقيدة التى جــاء بهــا محمد ستلقى قبولا حسنا فى أوروبــا فى الغد ، وقد بدأت تجد آذانا صاغية فى أوروبا اليــوم » .

نعم هذا هو ديــن الوجود ، والــرحمة المهــداة ، والنعمة المسداة ، تسعــد بــه الانسانية كلما اقتربت منــه وتشقى كلما ابتعدت عنه ، (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا،ونحشره يوم القيامة أعمى، قــال رب لــم حشرتنى أعمى وقــد كنت بصيرا ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنــسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بــآيــات ربــه ولعذاب الآخــرة أشد وأبقى) طه 123 ــ 127 .

والصلاة والسلام على من جاءنا بخــير ديــن سما وعز من اتبعــه قط ، وذل من خالفــه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



لقطة من جلسة الافتتاح : من اليمين الى اليسار : د بشير منتورى شيخ بلدية الجزائر ـ السيد محمـــــد ابن يحيى وزير التعليم العالى والبحث العلمى ـ السيد الطيبى العربى عضو مجلس الثورة ووزير الفلاحـة والاصــلاح الزراعى

إليـــاذة الجــزائر

نظمها خصيصا للملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى
ـ 13 جمادى الثانية الى 1 رجب 1392 هـ ـ



الاستاذ مفدى زكـريـاء

شاعـر النضال السياسى الثورى
والكفـاح التحريـرى المسلـح

نشيد الاناشيد أو اليـــاذة الجـــزائر

فى آخر الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامى فى السنة الماضية فى وهـران أعلنـا بـأن السادس سـينعقد بعاصمة الجـزائر بمناسبة العيـد العاشر لاسترجاع استقلالنا والذكـرى الألفيـة لتأسيسها مـع المديـة ومليانة على يدى بلكين بن زيرى .

ووفاء بوعدنا ، ركزنا جدول أعمال هـــذا الملتقى على التاريخ ، لمراجعته ، وكتابته من جديد ، وتصفيته من جميع ما علق به عن روية وسبق اصرار من شوائب وتزييفات ، لمعرفـــة ماضينا ، والاستفادة من تجاربه فى بناء حاضرنـا ومستقبلنا ، فى الجزائر ، والمغرب الكبير ، والعالم الاسلامى الأوسع .

ولهذا طلبنا من المناضل الكبير والشاعر الملهم ، شاعر الكفاح الثورى السياسى ، وشاعر الكفاح الثورى المسلح ، الأستاذ مفدى زكريا ، صاحب الأناشيد الوطنية « من جبالنا طلع صوت الأحـرار » سنة 1932 م ، و « فداء الجزائر روحى ومالى » سنة 1936 م ، و « قسما » سنة 1955 م . وأناشيد وطنية أخرى مثل « اعصفى يا رياح » ، ونشيد الجيش الوطنى ، ونشيد العمال ، ونشيد الطلبة واللهب المقدس ... الخ ، الخ ، وبعضها وضعها فى سجن بربروس ، أقول طلبنا أن يضع لنا نشيدا جديدا يجمع هذه الأناشيد كلها ، ويشمل فيه وبه تاريخ الجزائر من أقدم عصورها حتى اليوم ، مركزا على مقاومتنا لمختلف الاحتلالات الاجنبية وعلى العهود الحضارية الزاهرة المتعاقبة ، وحاضرنا ومستقبلنا فى كفاحنـا لاستعادة جميع ثرواتنـا ، ومقومات شخصيتنا وحصانتنا ، وبنـاء مجد جديد لامتنا .

وهذا ما فعله مفدى ، وسمينا نشيد الأناشيد هذا ملحمة الجزائر ، أو الياذة الجزائر .

وقد وصلت الملحمة حتى الآن الى ستمائة وعشرة أبيـات ، وستصل الألف قبل آخر السنة ان شاء الله ، وستستمر بعـــد ذلك استمرار الزحف البنـــاء ، وسنطبعها طبعة فنية جديرة بمحتواها وشكلها .

مولود قاسم

اليـاذة الجـزائر

أو

ملحمـة الجـزائر

أو

الفيـة الجـزائر

جـزائر ، يـا مطلع المعجـزات ويا حجـة الـله فى الكائنـات

ويـا بسمة الـرب فى أرضـه ويا وجهـه الضـاحك القسمات

ويـا لوحـة فى سـجل الخـلود تمـوج بهـا الصـور الحالمـات

ويا قصـة بث فيهـا الوجـود معـانى السمو بروع الحيـاة

ويا صفحـة خـط فيهـا البقـا بنـار ونـور جهـاد الأبـاة

ويا للبطـولات تغـزو الدنـا وتلهمهـا القـيم الخالـدات

وأسطورة رددتهـا القـرون فهـاجت بأعمـاقنا الذكريـات

ويا تربـة تـاه فيهـا الجـلال فتاهت بهـا القـمم الشامخـات

وألقى النهـايـة فيهـا الجمـال فهمنـا بأسرارهـا الفاتنـات

وأهـوى على قدميهـا الزمـان فأهـوى على قدميهـا الطغـاة

اللازمـة

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـلـه كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

جـزائر يـا بدعـة الفاطـر ... ويـا روعـة الصـانع القادر

ويا بابـل السحر ، من وحيهـا ... تلقب هـاروت بالساحـر

ويا جنـة غـار منهـا الجنـان ... وأشغـله الغيب بالحـاضر

ويا لجـة يستحم الجمـا ... ل ويسبح فى موجهـا الكافـر(1)

ويا ومضـة الحب فى خاطـرى ... واشراقـة الوحى للشاعـر

ويا ثـورة حـار فيهـا الزمـان ... وفى شعبهـا الهـادىء الثائـر

ويا وحـدة صهرتهـا الخطـوب ... فقـامت على دمهـا الفائـر

ويا همـة سـاد فيهـا الحجى ... فـلم تـك تقنـع بالظـاهـر

ويا مثـلا لصـفاء الضـمير ... يجـل عن المثـل السائـر

سـلام عـلى مهرجان الخـلود ... سـلام عـلى عيـدك العـاشر

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) الكافر هنا بمعنى الساتر ومنه قوله تعالى « يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ، وقول امام العاشقين عمـر ابن الفارض يخاطب الحبيب والليل :

لى فيك اجر مجـاهد ... ان صح ان الليل كافر

جـزائر . يا لحكايـــة حـــبى ويا من حملت السـلام لقلبى ..

ويا من سكبت الجمـــال بروحى ويا من أشعت الضـــياء بدربى

فلولا جمالك ما صـــح ديـــنى وما إن عرفت الطريق لربى ...!

ولـــولا العقيـــدة تغمر قلـــبى لمـــــا كنت أومن الا بشعبى !

اذا ما ذكرتـك شـــع كيـــانى وامـــا سمعت نـــداك ألـــبى

ومهما بعـدت ، ومهمـــا قربت غـرامك فـــوق ظنـــونى ولبى

ففى كل درب لنـــــا لحمـــة مقدســـــة من وشـــاج وصلب

وفى كل حـــى لنـــا صـــبوة مرنحـــة من غـــوايـــات صب

وفى كل شـــبر لنـــــا قصـــة مجنحـــة من ســـلام وحـــرب

تنبـــأت فيهـــا باليـــاذتى فـآمن بى ، وبهـا ، المتنبى !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

افى رؤيـة الله ، فـكرك حائـر وتذهل عن وجهه فى الجـزائر ؟

سـل البحـــر والـزورق المستها م كأن مجـاذيفه قلب شاعـــر !!

وسـل قبـة الـنـور نـم بهـــا منـــار على حـــورهـا يتثـامر

سـل الورد ، يحمـــل أنفاسـها ليـدر مثـل الحظوظ البـواكر

وأبيـــار تزهـــو بقـديسها رفائيـــل يخفى انسلال الجئـاذر

تباركـــه أم افريقيـــا (1) عـلى صلوات العـذارى السواحر

ويحتـــار بلكـوز فى أمرهـــا فتضحك منـــه العيـون الفواتر

وفى القصبة امتـد ليـل السهارى ونهـر المجـــرة نشوان ســـاهر

وفى ساحـة الشـهداء تعـالى (2) مـآذن تجـلو عيـون البصـــائر

وفى كـل حى ، غـوالى المـــنى وفى كل بيت : نشيد الجـزائر ..

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) ام افريقيـا

(2) بحذف احدى التاءين (اصله : تتعالى)

سـل الأطلس الفـرد عن جرجرا تعـالى ، يشد السما بالـثرى !

فيختـــال كــــبرا ، تنـــافسه ثقجـدا فـــلا يرجـــع القهقرى

تـــلون وجـــه السماء بـــــه فأصـــــبح أزرقهــــا أخضرا

وتجثـو الثــلوج عــــلى قدميــــــه ، خشوعـا ، فتسخر منهـا الذرى

هـــــو الاطلس الأزلى الـــذى قضى العمـر يصنع أسد الشرى !

وتسمـــو بأوراس أمجـــاده فتصـدع فى الكـون هـذا الورى

فيـا من تـــردد فى وحـــــدة بمغربنـا وادعـى ، وامـــترى

أمـا وحـد الأطلس المغـــــربـــــى معاقلنـــا ، بوثيق العـرى ؟؟

أمـا طوقتنـــا ســـلاسـلـه فطـــوق تاريخنــا الأعصرا ؟؟

وكـــم فوقـــه انتظمت قمـــم فهـل كان يعقـــد مؤتمـــرا ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

تسلق ايعكورن واغز السها وطاول به سدرة المنتهى !

فيخجل هامان من صرحه ويعجز أن يبلغ المشتهى (1)

وعانق بجاية في نخوة يعانق حناياك سر البها

وناج بزغواط سرب الظبا تناغك من حلق تيشى المها

عجائبها السبع (2) لا تأتلى (3) تتيه ، فيحتار فيها النهى

ووادى الهوى والهواء بسرتا يزكى مسيد (4) الهوى حفلها

تهدهده النسمات كأ م تهدهد ـ طوع الكرى ـ طفلها !

وفى جبل الوحش تاهت بلادى شموخا ، فأحنى الزمان لها

فلو شاء ربك وصف الجنا ن ، ليغرى الأنام ... بها شبها !!

أضاع بها ذو الحجى رشده ولو لم يخف ربه .. ألها (5) ..

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) المشتهى : اشارة الى الآية « وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى »

(2) عجائبها السبع : فى الطريق الساحلية الرابطة بين بجاية وجيجل

(3) لا تاتلى ، اى لا تنفك ، ومنه قول ابن دريد فى مقصورته «لا تاتلى تسفع اثناء الحشى »

(4) المراد به حوض سيدى مسيد بقسنطينة

(5) هذا تصوف وليس كفر ، وهو على مسؤوليتى الخاصة لانى اعتبره ايمانا كقولى فى بعض ملاحمى الثورية : « وتكلم الرشاش ، جل جلاله » .

أمانا ، ربوع الندى والحسب   أمانا تلمسان ، مغنى الأدب
تماوج وهران فى أصغريك (1) وفاس ، فأبدع فيك النسب
وتاه الوريط بشلاله   يلقن زرياب معنى الطرب
وأغرى الملوك بحب الملو   ك فأخلص فى حبها كل صب
ولولا عناصر مليانة   وعين النسور لكنت العجب
تلمسان ، أنت عروس الدنا   وحلم الليالى ، وسلوى المحب
بحسنك ، هام أبو مدين   وفى معبد الحب شاد القبب
وأجرى بك الروم ساقية (2)   بها أسكر الحسن بنت العنب
وفى مشور المجد (3) أذن موسى(4)   وخلد زيان (5) مجد العرب
ونافح فردوسك ابن خميس (6)   ويحى ابن خلدون (7) فيك التهب

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) المرء باصغريه قلبه ولسانه
(2) ساقية الرومى
(3) المشور
(4) ابو حمو موسى الثانى
(5) مؤسس دولة بنى زيان
(6) الشاعر المشهور ـ ونافح اشارة الى قوله :
وان أنس لا انس الوريط ووقفة
انافح فيها روضه واصافح
(7) المؤرخ التلمسانى المشهور ، اخو عبدالرحمن

وسبح لله ما في السما   وات،والأرض،ملء شفائف شفا(1)

كأنك تصغى بها للخليـ   ـل ، وموسى الكليم ، يرتل صحفا(2)

كأن مشارفها الحالما   ت ، الضواحك، الف يغازل الفا !

كأن البليدة للورد تفشى   حديث الغرام ، فيزداد لهفا

وتهفو المدية شوقا اليه (3)   تطارحه صفوة الكأس صرفا

ويهتز قصر البخارى هياما   ويصبو البخارى فتخجل جلفا

أبالغوطتين يباهى الشئام (4) واغواطنا بالشئام استخفا ؟

كأن حدائقه العابقا   ت؛ نوافح(5) مسك، تضوعن عرفا

وفي رحب تيلغمت تاه الغز   ال، على الشمس، يختال لطفا وظرفا

ويحفظ ميزاب لوح الجلا   ل، فيصبح ميزاب في اللوح(6) حرفا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) جبال (شفا) المعروفة (الشفائف) جمع شفة ، وهو مستعمل مثل (شفاه)

(2) اشارة الى قوله تعالى « ان هذا لفى الصحف الاولى ، صحف أبراهيم وموسى»

(3) الضمير فى (اليه) يعود عل الورد

(4) الشئام بالهمزة بعد الشين (الشام)

(5) نوافح : مباخر

(6) اللوح المحفوظ

تقـدس واديك ، منبت عــزى ومسقط رأسى ، والهـــام حسى

وربض أبى ... ومرابــع أمى ومغنى صباى ، وأحــلام عرسى

وفخر الجـزائر ، فيــك تناهت مكارم عرب ، وأمجـاد فــرس

وأحفـــاد أول من ركـــزوا ســيادة أرض الجــزائر أمس

دمـاء ابن رستم مـلء الحنــايا صــوارخ ، يلهبن عــزة نفسى

وعــرق الأصـالة طهــر طبعى ونـور الهـــداية أذهب رجسى

وكرمت ، باسم المفاخـر ، قومى وشرفت ، باسم الجـزائر ، جنسى

اذا للكريهـــة نـادى المنــادى بـذلت حيـاتى ، وودعت أنسى

وان للسخاء استجاب كـــريم ففى الجــود لقنت أروع درس

وان شيدوا للبقـــا والخـلود جعلت وفــائى دعامـــة أس

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) (كذلك لتذهب عنكم الرجس اهل البيت ونطهركم تطهـيرا)

الا ... فالهذا الحساب ... ومالي ؟ وصحراؤنا ... نبع هذا الجمال

هنا ... مهبط الوحي للكائنا ت حيال النخيل ... وبين الرمال

ومهد الرسالات للعالمين ، ونور الهدى ، ومصب الكمال

هنا العبقريات ، والمعجزا ت ، وصرح الشموخ ، وعرش الجلال

تبادلنا الشمس اشعاعها ويلهمنا الصفو . نور الهلال

ونعدو ، فنسبق أحلامنا ونهزأ من وثبات الغزال

وجنبنا الغدر ... ماء الغدير وحذرنا الظل نهج الضلال (1)

وعودنا الصدق .. راعي المواشي وعلمنا الصبر ... صبر الجمال

وأخرجت الأرض أثقالها (2) فطار بها العلم .. فوق الخيال ..!

توفر للشعب أقداره وتكفي الجزائر ... ذل السؤال !!!

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) (حذر) يتعدى بنفسه ، وفي القرآن إلكريم : « ويحذركم الله نفسه »

(2) النفط والغاز

فيا أيهـا الناس ... هذى بلادى ومعبـد حبى ، وحـلم فـؤادى
وايمـان قلبى ، وخالص دينى ومبنـاه ... فى ملتى ، واعتقادى
بلادى ، أحبك ، فـوق الظنـون ، وأشدو بحبك ، فى كل نـادى
عشقت لأجلـك كـل جميـل وهمت ، لأجلك ، فى كل وادى ...
ومن هـام فيك ، أحب الجمـال ، وان لامه الغشم .. قال : بلادى !
لأجـل بـلادى ، عصرت النجـوم ، وأترعت كأسى، وصغت الشوادى
وأرسلت شعرى ... يسوق الخطى بساح الفدا ... يوم نادى المنادى
وأوقفت ركب الزمـان طويـلا أسائله : عن ثمود .. وعـاد ..
وعن قصة المجد ... من عهد نوح وهل ارم ... هى ذات العمـاد ؟
فأقسم هـذا الزمـان يمينـا وقال : الجزائر ... دون عنـاد !

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا
بشعر نرتـله كالصـلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

وقفنا نحيى بها ألف عام ونقرىء زيرى العظيمْ السلام

فقام بولوغين (1) فى عيدنا يهز الدنا ، ويروع الأنام

وسيبوس (2) فاض فتاه دلالا يعانق زيرى المليك الهمام

بولوغين ان صانها فيرموس (3) وحازت اكوسيوم (4) أقصى المرام

وهب الأمازيغ من دوناطو س(5) تصول،وتزجي الخميس اللهام(6)

فأبناء مازيغ قادوا الفدآ وخاضوا المعامع ، يوم الصدام(7)

وساقوا المقادير ، طوع خطاهم وشادوا البنآ ... وأقروا النظام

رعى الله عشرا تنافس عشرا (8) وصان ذماما تراعى الذمام

وبورك يوليوز فى حالتيه !! فما الفجر الا وليد الظلام !!

وجلت بطولات أرض الجزا ئر ، مهد الأسود ، وربع الكرام

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) بولوغين بن زيرى بن مناد ، بنى عاصمة الجزائر سنة 392 هجرى

(2) سيبوس ، اسم قديم لعنابة ، بناها زيرى بن مناد، وواد سيبوس يدل على التسمية القديمة

(3) الضمير فى صانها يعود على الجزائر

(4 ـ 5) فيرموس بن نابال الملك المازيغى مقاوم كبير اثار جبال جرجرة واوراش وافريقيا باكملها وهب لنصرته اهل البوادى من شيعة دوناطوس وحتى الضباط الرومان ، وبويع ملكا على الديار المغربية ايكوسيوم التى ستصبح فيما بعد عاصمة الجزائر فاتخذها فيرموس عاصمة له آنذاك واستولى على شرشال وقاوم جحافل الكونت دوسونس وما غلب الا عند ما غدر به اخوه جلدون ، فسلمه للرومان من فراش نومه غنيمة باردة ، ثم ان اخاه جلدون هذا اثار بدوره على الرومان وجعلهم على قاب قوسين او ادنى من هلاكهم الاخير

(6) الخميس اللهام : الجيش الجرار

(7) تنظير ببولوغين مؤسس الجزائر وابناء باديس محررى الجزائر

(8) الاشارة الى عشرة قرون ، وعشر سنوات

دعـوا ماسينيسا [1] يردد صدانا ... ذروه ، يخـلد زكي دمانــــا

وخلوا سفاكس يحكي لرومـــا ... مدى الدهـر كيف كسبنا الرهانا

وكيف غـــدا ظافـرا ماسينيسا ... بزامة لم يرض فيهـا الهوانــا

وكـــم ساومـوه ، فثـار ابـاء ... وأقســـم أن لا يعيش جبــــانا

وألهمـه الحب نيـــل المعـــالى ... وقد كان ـ مثلى ـ يهوى الحسانا ..

ومن صنعت روحـــه سوفونيزبا ... جدير بأن يتحـــدى الزمانــــا

تغـــذيه حبــا وفنــا وعلمـا ... وتنبيه ما قـد يكون ، وكانــا

فجـاء يغورطـا [2] على هديـــه ... بحكم الجمـاهير يفشى الأمـانا !!

وقـال : « مدينـة رومـا تبـــا ... ع لمن يشتريها » !! فهز الكيانا !!

ووحـد سيرتـا بأعطـــاف كاف ... وأولى الأمـازيغ عـــزا وشانـا

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) ماسينيسا ابن غادا الملك المازيغى ولد سنة 238 قبل المسيح حينما كانت الحروب البونيقية على قدم وساق وكان الملك المازيغى سفاكس (صفاقص) مواليا للرومانيين، فنهض ماسينيسا يحارب الرومانيين وسفاكس معا وكان مصدر الهام ماسينيسا تزوجه بالعالمة الموسيقارة والفيلسوفة المؤرخة القرطاجنية القسيسة سوفونيزبا فاعانه ذلك على اقامة امبراطورية فى نوميديا وجزء كبير من التراب التونسى واجلى الرومان عن مملكته ، ثم ان الرومان تغلبوا على قرطاجنة البونيقية فى واقعة زامة وراودوا ماسينيسا على ان يكون حليفا لهم ، ولكنه استمر فى الدفاع عن وطنه وكون امبراطورية قوية ، وطور الزراعة ، مما جعل الرومان يكيدون له ، الى ان توفى وقد قرب من التسعين ، بعد ان انتصر فى زامة

(2) يوغورطا احد الملوك الامازيغ وحفيد ماسينيسا ولد سنة 145 قبل المسيح واغتنم فرصة الحرب بين روما وقرطاجنة البونيقية فثار على الاثنين واسس الامبراطورية الامازيغية اقامها على اصول امازيغية بحتة فى نظام الحكم الجمهورى وبعث الثقافة والقيم الامازيغية الاصيلة وجعل عاصمتها مدينة قرطا (سرتا) ـ قسنطينة اليوم ـ وامتد حكمه الى الغرب التونسى فكانت له عاصمتان «الكاف» ويسمى (شقب النارية) مدينة تاله وانضم اليه الامازيغ فوحد صفوفهم وقادهم من نصر الى نصر ، وكان يقول « مدينة رومه مبتاعة لمن يريد شراءها ، وكان يستهوى القواد بهذه الوسيلة

صمود الأمـــازيغ عبر القـــرو ن غزا النـيرات ، وراع النجوما

فكم أزعجوا نائبـات الليـــالى ! وكـم دوخوا المستبد الظـــلوما

سلوا طبـرية يذكـــر تبـريـــــوس تيكفرنـاس يوالى الهجوما [1]

ثمـان سنين يصـــارع رومـا فـدق المسامير فى نعش رومـا !

وأوحى لـه الأطلس الوحـــدو ي ، فوحـدناه فانطلقنا رجـــوما

سلـــوا بربروس يجبـــكم فـــراكسن من جرجرا كيف أجلى الغيوما [2]

وقالوا أراديـون بالكاف أودى ! هل الموت عيسى ؟ يداوى الكلوما [3]

وهـــذا .أغوستنس بالاعـــتر افات حيرـ عبر الزمان ـ الفهوما [4]

وأسقف بونـــة أصبح قـــد يس قرطاج مذ بث فيهـا العلوما

وكان أغوستنس فخـــر البـــــلاد ، وكان بها الفيلسوف العظيما

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) تكفرناس ، ثائر مازيغى جزائرى على عهد الامبراطور الرومانى تيبريوس بانى طبرية انتصر تيكفرناس على عديد من جيوشه ، فعزل من اجله عدة ولاة من الرومانيين . ودامت الحرب التى اثارها فى كامل القطر الجزائرى وتونس والمغرب ومن التل الى الصحراء 8 سنوات احتاجت الى عدة جيوش ارسلت كمدد من روما كلها ذابت امام صمود الاحرار الوطنيين من جبل الاطلس الرهيب

(2) فراكسن ثار بجبال جرجرة والبابور ، فصادمه الامبراطور الرومانى بربروس قادما من روما ، ودامت الحرب اعواما ، كلما قضى فراكسن على جيش جيء بجيش غيره حتى ضاقت روما بذلك ، وقتل اراديون العضد الايمن لفراكسن فى مدينة الكاف

(3) الكلوم : الجـراح

(4) اغوستنس ولد بتاقست (سوق اهراس الحالية)وتعلم بها ثم انتقل الى قرطاجنة فحذقاللاتينية واليونانية، ثم اقبل على دراسة النصرانية حتى صار رئيس الاساقفة بمدينة قرطاجنة بعد ان كان اسقف بونة ، وهو الى جانب ذلك فيلسوف مفكر اخلاقى ومرب عالمى ، ونعتبره مؤرخا فى كتابه « الاعترافات » الفهوم جمع فهم

أشرشال !.. هلا تذكرت يوبا ؟ ومن لقبوا عرشك القيصريه[1] ؟

ومن مصروك فنافست روما ؟ وشرفت أقطارنا المغربيه

لماذا يلقب يوبا بشان ؟ أما حقق السبق فى المدنيه ؟

وباهى بشرشال جنة عدن ؟ وزان حدائقها السندسيه ؟

أما كان أول من خط رسما لوجه جزيرتنا العربيه ؟

أما شاد يوبا بشرشال للعلم ، أول جامعة أثريه ؟

وهذا أبولوس كان طبيبا يدين له العلم بالعبقريه [2]

وأبدع فى قصص الحيوا ن ، فأثر فى القصص الأمويه

وكان الأفارق فى منتداهم بروما يخصونه بالتحيه

وكان أبولوس قاضى روما ليمناه ، ترفع كل قضيه

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) يوبا الثانى ولى عرش الامازيغ بشرشال التى كانت تسمى يومئذ قيصرية ، واستقل بولاية موريطانيا القيصرية الواقعة بين سرتا وموريطانيا الطنجية ، وكان عالما كبيرا علاوة على انه كان سياسيا ماهرا ، وعسكريا مظفرا ، وممصرا ممتازا ، اتخذ من شرشال ضرة لروما وزينها بالمعالم الفاخرة والقصور والمعابد والمسارح ، واسس بها جامعة كبرى للعلوم والآداب والفنون من فن وتمثيل وموسيقى ونحت وتصوير ، فكانت اول جامعة من نوعها فى الغرب وجلب لها كبار الاساتذة من اليونان ، والف دائرة معارف شاملة فى كافة العلوم ، وهو اول من وضع جغرافية لجزيرة العرب

(2) ابولوس ولد بمداوروش ، واجاد اللاتينية واليونانية ، ثم انتقل الى جامعة قرطاجنة فتخرج فى الحقوق والآداب ، والطب ، ودرس الحقوق ، وامتاز بمخبر للتجارب والتركيب والتشريح ، تقدم به على الطب لتحضير الادوية ومعرفة العلل ، واسرار النباتات الغذائية والاستشفائية ، كان شاعرا باللاتينية وخطيبا مصقعا وراوية ممتازا وعالما بالسحر وفنونه ، الف كتاب «التحولات» او المسخ ، وهو قصة طريفة ، وكتاب «الزهريات» وكتاب «تقليات الحمار» ونقل عنه الامويون بعض قصصه على السنة الحيوانات ، كان يدعى الى روما للمرافعات فى القضايا الكبرى ثم أصبح بها قاضيا ، ويدعى كذلك لعلاج المرضى ، وكان من ابرز اعضاء «النادى الافريقى» بروما الذى كان يجتمع فيه القياصرة الافارقة وكبار الكتاب والاطباء والمحامين والمشرعين

أولئك آباؤنـــا ، منـــذ عيسى   وكان محمـــد صهـــرا [1] لعيسى

ولاح الصباح ، فهـــز السكارى   وأجـلى الندامى . ورض الكؤوسا

وأيقـظ حـلم الليـــالى الجبـالى   وأسرج فى الكائنـــات الشموسا

وأهـوى على البغى ، يذرو الجذو   ع ، ويغرس فى الجبروت الفؤوسا

وحـــذر آدم ظـــلم أخيــــه   وسوى الحظوظ ، وأعـلى الرؤوسا

وأخـــرج حــــواء من رمسها   فألهمت الـروح هذى الرمـــوسا

لئن حارب الدين خبث النفـــــوس ، فلم يغمط الدين هذى النفوسـا

ولـم نـك ننـكر آبــاءنــــا   أكانوا نصارى!! أكانوا مجوسا !![2]

وهــــل كان بـربـر الا شقيقا   لجرهـم ؟ هـلا نسينا الدروسا ؟

اذا عـــرب [3] الدين أصلابنـا   فمـا زال أحمـد صهرا لعيسى !

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجــزائر

---

(1) وكان نسبا وصهـرا

(2) سواء كانوا ..

(3) عرب ، اى صيرها عربية من التعريب

وهبنا العروبة جنسا ودينا | وانا بما قد وهبنا رضينا
اذا كان هذا يوحد صفا | ويجمع شملا رفعنا جبينا
وان كان يعرب يرضى الهوا | ن ، ويلبس عارا ... أسأنا الظنونا
وقلنا : كسيلة كان مصيبا | وكاهنة الحي أعلم منا !
فأهلا وسهلا بأبناء عم | نزلتم جزائرنا فاتحينا
ومرحى لعقبة في أرضنا | ينير الحجى ، ويشيع اليقينا
ويعلي الصوامع ، في القيروا | ن ويرفعها للدفاع حصونا (1)
يبث المراحل (2) في كل فج | فراعت أساليبه العالمينا
وبادله العمر تبرا بملح | وما كان فزان عنه ضنينا (3)
وما كان جوهر الا مدينا | لعقبة .. يوم استقل السفينا (4)

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

(1 ـ 2 ـ 3 ـ 4) وضع عقبة خطة جديدة في زحف الجيش الفاتح في طريقه من مصر الى المغرب ، تعلم هذه الخطة الالمان ، وانتفع بها الانقليز في الحرب العالمية الثانية ، وصورته : ان الطريق من مصر الى القيروان ، اما بحرية وهي مخيفة لوجود الاسطول البزنطي وعدم وجود اسطول عربي ، واما جبلية والامازيغ في الجبال ومغاورها كثيرة وغاباتها كثيفة فلا يأمن الكمائن الصحراوية لكونها مجدبة وعديمة الزاد ، فاسس عقبة مراحل على طول الطريق مزودة بالماء والزاد والمخيمات فاذا وصلها الجيش استراح واغتسل واكل وشرب ، ونام وتزود وانتقل الى التي بعدها على اتم واوفر عدة ، الف عن هذا مللر الالماني وقال ان اساليب عقبة مبتكرة تدرس في اكاديمية المانيا ، وقد درسها مونتقمري وانتفع بها وطبقها في اجتياز ليبيا في الحرب العالمية الثانية ، ثم ان عقبة يعلم ان المال هو عصب الحرب وان الذهب يوجد في افريقيا السوداء ، فاخذ الملح من فزان وذهب به وابدله بمثله ذهبا توفر له به تموين الحملة ، فكانت هذه الطريقة التي اتبعها الفاطميون في اعداد الرحلة الى مصر فذهب جوهر الى افريقيا السوداء وبادل الافارقة بملح المكنين ذهبا ، ثم ان عقبة بنى جامع عقبة في شكل حصون وابراج وقلاع ومدخرات للماء عند الحاجة

وهال ابن رستم ان لا نسود ونبني كيانا لنا مستقلا

فقام بتاهرت يعلي اللوا ء ويرسي نظاما ، وينشر فضلا (1)

يوجه حكم البلاد الشرا ة بوحي الشريعة حقا وعدلا

ويجعل أمر الجماعة شورى وحق انتخاب الامامة فصلا

فلم يك للتبعيات ذيلا ولم يك بالعصبيات يبلى

فدوخ بغداد في أوجها فكانت لتاهرت بغداد ... ظلا !

وفاض بها العلم يجلو العقو ل ، ويغمر أرض الجزائر نبلا

وتاه الربيع بجناتها يهادي تلمسان ، وردا وفلا

فكان ابن حماد من وحيها كأوصافها ، عبقريا ، وفحلا

وأفلح خلد أمجادها فأفلح أفلح قولا وفعلا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) نقل الرستميون الى تاهرت نظام الدستور الايراني الجامع كاساس لنظام الحكم ويسمى هذا الدستور باللغة الايرانية (آمين نامه) وهو جامع يشمل الى جانب نظام الحكم آداب السلوك ، وآداب المجالس وآداب الاكل والشرب والكلام ، وشروط القضاء والشورى ، وانتخاب الامام ، والنظام العسكري ، وهيكل الجندرمة (جندار) بالايرانية وعسكر (السبايس) بالايرانية سيفاهي

ثم ان الدولة مراقبة من طرف منظمة شعبية حرة تسمى الشراة من قوله تعالى :« ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم الخ الآية » ومهمتهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتولية الحكام وعزلهم اذا حادوا عن الجادة ويتألف الشراة من العلماء والفدائيين

وان تسألوا عن بني الأغلب سلوا الزاب عن جاره الأقرب (1)

وطبنة (2) .. هل تذكر ابن الحسين التميمي وتاريخه القرطبي ؟

وعند مسيلة (3) علم اليقين ، بمن حققوا وحدة المغرب

برى الفاطميون ، شعر ابن هانى كما يخلق اللحن للمطرب

وأبدع ، حتى تنبأ مثلي ... ولم يتقول .. ولم أكذب !

علام يلقب أندلسيا فتى مغربي ، أصيل الأب ؟؟

فكم حسدونا (4) على مجدنا وجاروا على البلد الطيب !

وكم بالجزائر من معجزات وان جحدوها ، ولم تكتب !

وقالوا الرسالات من مشرق الشمس ، لكن يخالفهم مذهبي

ولو أرسل الله من مغرب نبيا ... اذن ـ كذبوا بالنبي !!

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) جاره الاقرب : المهدية بتونس

(2) طبنة : من مفاخر الاغالبة ، ومحمد بن الحسين الطبني من اعلام الفكر الذين أنبتتهم طبنة ، كاتب بليغ ومترسل بديع الانشاء ، ومؤرخ واسع الاطلاع ، ولد بطبنة وانتقل الى الاندلس في أيام المنصور الاموى ، وكان شاعر البلاط ومؤرخه ، واستوطن قرطبة الى ان توفى بها سنة 394 هـ 1004 مسيحى ، اورد المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة ، واورد ابن الابار في الحلة الكثير من شعره ، وكان يلقب بمؤرخ قرطبة وهو ممن تفتخر به الجزائر في ميدان التصدير

(3) مسيلة ، عاصمة المعز بن باديس الفاطمى ، وفي احضانها نبغ ابن هانى الجزائرى الملقب بالاندلسى تجنيا على التاريخ ، وكان يلقب بمتنبى المغرب

(4) اشارة الى ان المشارقة حين يؤرخون للادب العربى لا يذكرون مفاخر الجزائر وتونس والمغرب بل يقفزون من الشرق الى الاندلس مباشرة كأنما المغرب الكبير لا وجود له فى الخريطة وذلك بدافع الكبرياء والغرور ومركب الاستعلاء

وفي قدس جناتنا الناضرة وجوه ، الى ربها ناظرة ...

تمد المعز لدين الاله فيصنع (1) جوهر والقاهره !

ويستلهم النيل من أرضنا صفانا ، وأخلاقنا الطاهره ...

ويجرى رخاء على هدينا يواكب أفضالنا الزاخره ...

وتفهم رمسيس معنى انعتا (2) ق الشعوب ، جزائرنا الثائره !!

هو النيل ، (3) خلد عشر قرو ن وباركنا السنة العاشره ؟

وكم شابه النيل نهر دما نا ، تمور به المهج الفائره ؟؟

وكم ضارعت فى الفدآ كليو بترا جميلات ثورتنا الهادره !

ونحن الأمازيغ نرعى الذما م ، ولا نجحد الفضل والآصره !

ونكبر مصر وأحرارها ومن آزروا حربنا الظافره !!

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

(1) يصنع جوهر والقاهرة ـ المقارنة فى الصنع عميقة المفهوم

(2) اشارة الى العبودية التى فرضها الفراعنة على الشعوب ، وبناء القاهرة نهضت مصر تنفض عنها غبار القرون

(3) الفية القاهرة التى يعود فضلها مباشرة للجزائر

بولوغـــين يا من صنعت البقـــآ　　سنحفظ عهـــدك والموثقـــا

فيريموس (1) أم انت من شادها ؟　　فحـيرت الغـــرب والمشـــرقا ؟؟

بنيت الجـزائر فـوق السمـــا　　ك ، فكانت لمعـــراجنا المـــرتقى

غرست بهـــا ذوب أكبـــادنـــا　　ومن دمنـــا غصنهـــا المـــورقـــا

عـلا بالمـدية تـــاج الجــــلا　　ل ، فأعلى بمليانـــة المفرقـــا

ومن هـدهـد الصـدر « بالتوأمـــين » قضى للجــزائر أن تعشقـــا

دلال المـــديـــة أعيـــا المـــلو　　ك ، وكـم خاطب ودهـــا أخفقـــا

تنازعهـــا الروم ، والمسلمــــــــون ، وحاول زيـــان أن يسبقا

وكاد ابن توجين وابن مــــــــــرين بنار المـــديـــة أن يحـرقا (2)

ملائكـة الله (3) ... هل نقلوها ؟؟　　أجل .. من رأى حسنها صدقـــا

شغلنا الورى ، وملأنـــا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) القول الصحيح ان بولوغين هو مؤسس الجزائر

(2) ان يحرقا : الالف للتثنية اى ان يحرق ابن توجين وابن مرين

(3) زعم بعضهم ان المدية او المهدية معناه ان البلدة قديمة عتيقة ، وانها انما بنيت فى مكان آخر ثم نقلتها الملائكة الى مكانها هذا

أيـا ومضة من جـلال الشريعة ... ويا هبـة ، من هبـات الطبيعـه

أشاع ابن يوسف فيـك الصـلا ... ح ، ووشى الجمال رباك البديعه (1)

أزكـار أم أنت عش العقـا (2) ... ب ؟ أم الصقر منك استمد ضلوعه ؟؟

أم العاشق . المستهام ، المعـنى ... بنبـع العناصر أجرى دموعه ؟ (3)

أم الحب رق لمجنـون ليـلى ... فرش بعـين النسور صريعه ؟ (3)

أشادك بومبى مقوقس رومـا ؟ ... أم أن بولوغـين رب الصنيعه (4) ؟

فأغـرى بمليانـة الطامعيـن ، وما كنت للطامعين وديعه ! (5)

فمـا ارتاح فيـك بنو هندل (6) ... وولى ابن عائشة بالفجيعـه (7)

جرى ، مثل واديك ، ناديك ، علما ... فبوأ أحمـد فيـك الطليعـه (8)

وأقطـع يعقوب أحمـد أغمـا ... ت .. والنبل فى ابن مرين طبيعه (9)

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) وليها الصالح سيدى احمد بن يوسف

(2) تسمى مليانة عش العقاب كما ذكر السيد م بلحميسى فى مجلة الاصالة وزكار جبل يطل على مليانة

(3) يقول العبدرى فى رحلته عن مليانة « لو رش بمائها المصروع لافاق كان حصباءها جمان ، والماء من رقته دموع »

(4) اجمع معظم المؤرخين على ان المدينة ازلية رومية ، ويضيفون انها شيدت على انقاض المدينة الرومية المعروفة بزوكابار وان القائد العظيم بومبى Pompey) وحفيده مدفونان فى مليانة ، وشوهدت على بعض أسوارها الحديثة لوحة تذكارية عليها كتابات ترجح مدفن بومبى وحفيده فيها ، فهل شاركا فى بنائها ؟

(5) كانت هدفا للطامعين من الملوك ، وميدانا للصراع بين الموحدين وبنى غانية والزيانيين والصنهاجيين وبنى مرين ، وبنى هلال ، والمرابطين والحفصيين

(6) يقال ان بلدة مليانة من بنى هندل وهؤلاء من صنهاجة استوطنوا وارلنيس

(7) بدر بن عائشة كان واليا بمليانة من لدن على بن اسحاق صاحب ابى يوسف يعقوب ، لكن اهل مليانة طاردوا ابن عائشة والقوا عليه القبض وقتلوه بعد فراره

(8 – 9) ابـو العباس احمـد بن على من مفاخر مليانـة عالـم وفقيـه وشاعر عملاق اقطعـه السلطان يعقوب المرينى اغمات اكراما له

سل ابن علناس (1) عن ذكـــرنا   وقلعـــة حمـــاد عن مجـــدنا

يجبـك ابن حمديس في الخـالد   ين ، ويصنع قوافيه ، من وحينا (2)

وتنبئـــك عائشـــة كيف كانت   ترق وتقسـو عـلى بعضنـــا (3)

وتذكـــر بجـــاية أحـــلافنا   وأسطولنا الضخـم يغزو الدنا (4)

وفي القصر تختـــال بـــلارة   تشيع الضياء ، وتفشي السنا (5)

تصاهر فيها الـدهآ والجمــــا   ل ، فضم انصهارهما شملنــا (5)

وأعلت بجاية هـــام الجـــزائـــــــر ، علما ، وشادت صروح الهنـــا

وبارى ابن سبعين فيها النصـــــارى ، فأفحم من لاحقـــوا ظلنـــا (6)

وأرقامنا العربيـــــة مــــــا   لت أوروبا العجوز لها طوعنا (7)

وكان ابـو مدين والثعـبــــا   لبى هنـا ، يرفعـان البنـا (8)

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من خنـايا الجـزائر

---

(1) كان الملك الناصر بن علناس اعظم ملوك عصره شانا، واوفرهم قوة واكثرهم رعاية وتنشيطا للعلم والعلما.

(2) عبدالجبار بن حمديس شاعر بجاية الجبار عطر الاجوا، اشادة بعظمة بني حماد وخلد الناصر بن علناس بغرر من بدائع الشعر

(3) عائشة العمارية ، من اشهر الشاعرات النسا، . في دولة بني حماد ، لها شعر رقيق الى جانب احاجيها اللاذعة كقولها في رجل اصلع تقدم لخطبتها :

عـذيـرى من عـاشـق اصلـع   قبيـح الاشـارة والمنـــزع

بـراس حـويج الى صفعـة   ووجـه حويـج ال برقـع   الى آخر القصيدة

(4) في ايام بني حماد امتدت علاقات الجزائر باوروبا وتعاقدت بمعاهدات تجارية مع اغلب دول البحر المتوسط وكان اسطول الدولة الجزائرية في ايامهم ضخما يضرب بسهم وافر في التجارة العالمية

(5) بلارة : بنت الشاعر تميم ابن المعز بن باديس واليها ينسب قصر بلارة بالقلعة وقد ابدع في وصفه عبد الجبار بن حمديس الصقلي ، وكانت بلارة سببا لمصاهرة سياسية ناجحة لما توفر فيها من دهاء سياسي وجمال فجمعت بين الصنهاجيين بالمهدية وبين بني حماد ببجاية وكونوا نوع فيدرالية

(6) جادل عبدالحق بن تسعين النصارى فغلبهم

(7) انطلقت الارقام العربية من بجاية الى اوروبا

(8) الشيخ ابومدين شعيب بن الحسين دفين تلمسان من مواليد بجاية ، وكذلك الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر العاصمة

وتنجب ندرومة الخالدين فتعلى الجزائر منا الجبين
ويصنع وحدتنا ابن علي [1] فيرفع رايتها باليمين
وتحدو مراكش أقدارها فتنفض عنها غبار السنين
وينبض قلب بأرض الجزائر ، تمسك تونس منه الوتين
وتنصب أندلس عندنا وترتاح للعرب النازحين [2]
ويمضي ابن تومرت يغزو الضلال ، فيخلص لله عقل ودين
وتصفو أعز المطالب [3] فيه فتصفو المناهج للسالكين
وتزخر بالعلم أرجاؤنا فتسمو المدارك بالنابهين
ويهزج بالصادحات الشريف [4] ، ويلمع يوسف في اللامعين
متى سيتوب الألى لم يزالوا بوحدة مغربنا كافرين ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) سنة 524 هجرية اسس عبد المؤمن بن علي الندرومي دولة الموحدين بعد ان قضى على دولة المرابطين بالمغرب الاقصى وتقدم الى المشرق فتسلم زمام المغربين : الاوسط والادنى ووحد بين المغرب والجزائر وتونس تحت امرة المهدى بن تومرت وركز الهلاليين الذين لم تهضمهم الدول السابقة

(2) زخرت الجزائر وتونس والمغرب ، بجموع الاندلسيين المهاجرين اطمئنانا للاوضاع السائدة آنذاك

(3) اعز ما يطلب اسم للمدونة التى جمعها المهدى بن تومرت فى القانون وتشريع الاحكام

(4) الشريف بن عمارة الذى برز فى فن الموشحات يوسف بن ابراهيم الوارجلاني المحقق الضليع والمؤرخ الواسع الاطلاع

تلمسان ، بهما أطلنا الطوافا ... اليك تلمسان ننهى المطافا

يغمراسن الشهم ، ضاق اصطبارا ... وغالب خمسين عاما عجافا [1]

وأصلى بنى حفص حربا عوانا ... وما اسطاع بابن مرين اعترافا [2]

فكانت تلمسان دار سلام ... وأمر الجزائر فيها ائتلافا

فأكرم بمشورها الوطنى ، وزيان يحسم فيه الخلافا [3]

ويدفع خطو بنى عبد واد ... فتغزو الحياة ، ثقالا خفافا

ويسكر هذا الوريط الدنا ... فتعصر فيه النجوم سلافا

ويكتب يحى بن خلدون سفرا ... فيهتك فى النيرات السجافا [4]

وتنطق منجانة بالعذارى ... فيلتاع موسى ويأبى انصرافا [5]

أفى رفرف الخلد ؟ قد وجدوا ... تلمسان .. فاختطفوها اختطافا ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) يغمراسن : اعلن استقلال المملكة الزيانية سنة 733 هـ وانفصالها عن دولة الموحدين التى افل نجمها فى مراكش تحت عوامل الهرم ، اخذ يغمراسن طيلة خمسين عاما من ملكه يضع اسس الدولة الحديثة

(2) بعد فترة طويلة من حروب ضد بنى حفص شرقا ، وبنى مرين غربا تمكن رجال دولة بنى زيان من تدعيم الاستقلال المطلق وتاسيس دولة قوية

(3) المشور – دار الشورى – او البرلمان ولاتزال معاله بمدينة تلمسان لحد الآن

(4) كتاب يحيى بن خلدون «بغية الرواد فى تاريخ بنى عبد الواد»

(5) اقام ابن الفحام ساعة ناطقة «المنجانة» فى قصر ابى حمو موسى الثانى ، فكلما تقدمت ساعة من الوقت انفتح باب المنجانة وبرز من خلالها فاتنأت حسان يعلن الوقت بمقاطع شعرية بديعة

وأوغر قلب الصليب الحقود علانا . وأمعن فينا الحسود (1)

وطافت بوهران جيطان غدرا وزيان ما اسطاع حشد الجنود (2)

ولعلع في بربروس نداها فثار ... وأقسم أن لا يعود (3)

وللدين خير يصون حماه وأسطولنا في البحار يسود (4)

قراصنة البحر . عاثوا فسادا فأدب ليث البحار القرود

وخاض الأمازيغ ساح الفدآ تباركهم صلوات الجدود

وآزرنا الترك حتى انتصرنا ولم يخفر الترك ماضي العهود

وقمنا نسوس البلاد بعدل ونسدي الجميل ، ونرعى الحدود

ولم نك للترك بالتابعين . وان عززوا سعينا بالجهود

ونحن أناس نعد الجميل ، ونرعى ذمام الصديق الودود

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) كانت الحملات على المرسى الكبير ووهران حملات صليبية قذرة فقد تواطا على الجزائر كل من الاسبان والبرتغال والفرنسيين يقود هذه الحملة راهب اهوج هو خيمينيس (Ximenès)

(2) جيطان (او خيطانوا) كناية عن رعاع الاسبان

(3) كانت اللصوصية او القرصنة البحرية على اشدها آنذاك فالاسبان والبرتغاليون انشؤوا مع غيرهم من لصوص اوروبا سفن القرصنة وانهالوا على مهاجري الاندلس والبلدان الجزائرية المتاخمة للبحر نهبا وسلبا

(4) جاء الانقاذ والمعجزة على يد بطلين خالدين تركيين بابا عروج وشقيقه خير الدين كانا على راس عمارة بحرية رهيبة من الفرصان بعملان متطوعين في سبيل الله لانقاذ مهاجري الاندلس والاجتياز بهم الى ارض العرب اندلع لهيب الحماس في قلوب الجزائريين فدافعوا وانتصروا باعانة الاتراك واحتفظوا على ذاتيتهم واستقلالهم ولم يكن بيد الاتراك سوى الاشراف الروحي والباشوية التي تسند اليهم بانتخاب من الديوان الذي يتكون من اعيان الجزائريين

وجاءت فرنسا ... فكنا كراما — وكنا الألى يطعمون الطعاما !

فابطرهم قمحنا الذهبي (1) ، وكم تبطر الصدقات اللئاما

وباعت فرنسا ضمير اليهود ، فباع ضمير اليهود الذماما

وما كان بوشناق الا ابن آوى — وما كان بو خريص الا طغاما (2)

وخرب شارل المريض فرنسا — فثار بها الشعب يغلى انتقاما

وضاق الفرنسيس بالعاطلين ، وما ذاق شارل المريض المناما

وأوحى له قمحنا غزونا — فأطلق هذى القموح سهاما

وصب النفايات ، فى أرضنا — وخان المسيح ، وأغرى السواما (3)

ومروحة الداى لم تك الا — كما يستبيح اللصوص الحراما (4)

ابوتان (5) ... هل سيدى فرج — وان طال ليل ... أقر النظاما ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) قصة الديون المترتبة على فرنسا « ناجل تسديد ثمن القمح معروفة ، فضلا عن ديون اخرى نقدا

(2) اشتركت خزينة الدولة مع بعض التجار كاليهوديين بوشناق وبوخريص فى تموين تلك العملية الانقاذية وكان اليهوديان عميلين لفرنسا

(3) وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول فى خطاب العرش يوم 2 مارس 1830 م ما نصه : «ان العمل الذى ساقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون باعانة الله القدير لفائدة المسيحية جمعاء »

(4) حديث المروحة معروف

(5) بوتان الجاسوس الفرنسى الذى رسم خطة الهجوم من ثغر سيدى فرج بأمر من نابليون بونابارت فى يوليو 1808 وقد انتفع الجيش الفرنسى بتلك الرسوم عند حملته على الجزائر سنة 1830

بلى ... يا فرنسيس ، هذا الحمى صنعنـــا سيادتـــه بالدمـــا

بلونا السنين الطـــوال جهـــادا تباركنـــا معجـــزات السما

مضت مائـــة وثلاثـــون عـــاما نـذود ، ونأنف أن نهـــزمـــا

صعدنـــا ، نقاوم ، شرقا وغربا ونجعـــل أرواحنـــا سلمـــا

غـــزا لاموريسيير أحمـــد باشا فقمنا بسرتا نصـــون الحمـــى (1)

وثرنا ، نقـــاوم : بيتـــا فبيتـــا وشبرا فشبرا ، ونسبى الدمـــى

ولولا تخـــاذل بعض الكسالى الرعـــاديد ! ، لـــم نفلت المجـــرما !!

معسكر فجـــر عـــرم الشباب ، فطـــاول عمـــلاقهـــا الانجمـــا

وبويـــع ، شاعـــرها الهاشمـــــى فكان بهـــا القـــائد الملهما (2)

يصـــوغ النظـــام ، ويبرى الحســـام ، فيقطـــر ذاك . وهـــذا .. دمـــا

شغلنا الورى ، وملأنـــا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنـــايا الجـــزائر

---

(1) اتخذت المقاومة الجزائرية بعد الاحتلال شكلين ، سياسى رسمى ، وشعبى ، فاما السياسى فقد تولى زمام امره الحاج احمد ، باى قسنطينة (وكان من عائلة المقرانى الذى سيثور سنة 1871) فالتفت حوله الامة من جزائريين ومن بقايا آتراك ، وكان احتلال لاموريسيير لمدينة قسنطينة سنة 1838 م انذارا بنهاية المقاومـــة الحكومية المنظمة فانتهى ظاهرا وبقيت النار تحت الرماد وقد سجلت مدينة قسنطينة بدفاعها المجيد صفحـة خالدة من صفحات البطولة اذ اضطر الفرنسيون لاحتـلال المدينة حارة فحارة ودارا فدارا ، ودام حصارها سبع سنين كاملة

(2) المقاومة الشعبية فى سنة 1832 جمع وجوه القـوم ورؤساء القبائل امرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة معسكر وبايعوا بالامارة بطلا شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ، عرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة والرأى الحصين هو الامير عبدالقادر بن الشيخ محيى الدين الهاشمى على ان يؤسس دولة جزائرية اسلامية تصـون الامن وتوطد العدل وتتصدى للمعتدى ، والامير عبدالقادر الى جانب بطولته الحربية شاعر ملهم تفيض معانيه بالمشاعر النبيلة والحماس والتغنى بام البنين التى كانت مصدرا من مصادر الهـــامه

آيا عبد قادر ... كنت القديرا — وكان النضال طويلا عسيرا

شرعت الجهاد ، فلباك شعب — وناجاك رب ، فكان النصيرا

ونظمت جيشا ، وسست بلادا — فكنت الامير الخبير الخطيرا

وألهبت فى القابعين الحنايا — وأيقظت فى الخانعين الضميرا

وحملت ماريان [1] ما لا تطيق — وجرعت بيجو [2] العذاب المريرا

ثمان وعشرا [3] ... تخوض المنايا — وتزجى السرايا ، وتبنى المصيرا

وتدمغ بالعلم من جادلو — ك ، فكنت الضليع، وكانوا الحميرا [4]

وكم رام اغراءك العابثو — ن ، فلم تك غمرا صبيا غريرا [5]

وكم عاهدوك [6] ... وكم أخلفوا ، — وكنت بما يضمرون بصيرا ..

وعبدت للشعب ، درب الفدآ — وما خست ، مذ خطفوك أسيرا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) ماريان هى فرنسا

(2) وقائع الامير مع (بيجو) مشهورة (راجع تحفة الزائر)

(3) دامت مقاومة الامير 18 سنة من 1830 الى 1848 م

(4) المجادلات العلمية التعجيزية بين الامير وجنرالات فرنسا وخصوصا بيجو ، معروفة ويوجد لها تفصيل ضاف فى ـ تحفة الزائر ـ

(5) من جملة الاساليب المفضوحة الفرنسية محاولة شراء الضمائر وكم حاول الفرنسيون ذلك مع الامير فابى واستعصم بايمانه

(6) تخللت مدة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الامير واعترفت له فيها بالسيادة والاستقلال على البلاد لكنها كانت معاهدات غش وخداع لا تعقدها الا متى رات الخطر وارادت ان تستعد لضربة قاسية ، اما الامير فكان يعقد تلك المعاهدات مع علمه بما تنطوى عليه من خداع ، ليستريح قليلا ويستعد لتسديد الضربات وتلقيها

تلقف رايتـــك ابن الجـزائـر ... وعند ابن زيـان تبلى السرائر (1)

وهب الـــزعاطشة الثـائرو ... ن ، فهب لنصرتهـم كـل ثـائر

تحـدى ابن زيـان سخف اللئـــــام ، فمـات الشهيد ، فـداء الجزائر

وهل يخفض ابن الجـزائر هامـا ... ويحنى جبينا أمـام الصراصر ؟

لتشــهد بسـكرة اصرارنـا ... وصـدق ندانا أمام المجـازر ...

وترو النخيـل لعقبـة عنـا ... وتحك الرمـال صمود القساور

ويذكـر أبو معـزة للجبا (2) ... ل صراع أبى بغـلة فى المغـاور

وتحفـظ سطيف لأبطالهـا ... وابطـال سرتا جليـل المفـاخر

ودام الصراع ، ولم تخب يومـا ... شعاليله ، فى القـرى والحواضر

وكانوا البغـاة ، فكنـا المنـايـا ... وكانوا البغاث ، فكنا الكواسر (3)

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

1) قاد الثورة العارمة فى واحة الزعاطشة قرب بسكرة الزعيم الشهيد عبد الرحمن بن زيان سنة 1846 م وقد ذكرت تفصيلاتها باسهاب (مجلة العالمين) (La revue des deux Mondes) وصـورة الواقعـة هى الآتية : عقد الزعيم عبد الرحمن بن زيان معاهدة مع قيادة الجيش الفرنسى على ان لا يهاجموا الزعاطشة ويتولى امدادهم بما يحتاجونه . وكان ذلك منه حيلة جريئة لربح الوقت والاستعداد لحملة هجوم ، الا أن قبطانا فرنسيا تفطن للحيلة ومال للاستفزاز والتحدى قائلا : «هل يوجد جزائرى لا يسجد امام قدمى ؟؟» فقيل له : نعم ، عبدالرحمن بن زيان ، شيخ الزعاطشة . فأمر بجلبه فامتنع عن المجيء اليه وارسل اليه جيشا فأباده عبد الرحمن وجيشا ثانيا فأباده . وثالثا فحطمه فـدامت الحرب سنوات وكانت المقاومة فى كل شبر من الارض ، نخلة نخلة حتى استصفت مليون نخلة ومليون شهيد ثم وصل الفرنسيون السور فوقفوا امامه شهرا يموتون دونه بدون طائل الى ان فتحوا فيه ثغرة فكانت موتاهم التى من احجار السور ، ثم دخلوا المدينة فكانت الحرب شارعا بشارع وبيتا ببيت الى ان وصلوا بيت الزعيم عبدالرحمن فكان يدافع حتى خلعوا الباب فجلس يصلى واولاده واهل بيته يقاومون غرفة بغرفة وسقيفة بسقيفة وهو يصلى بصحن البيت فجاء القائد الفرنسى وسال : هل يوجد جزائرى لا يسجد امام قدمى ؟ فقال له عبد الرحمن : «انا عبد الرحمن بن زيان» فقال القائد : « ان خضعت عاملتك معاملة حسنة » فقال : كلا انى مجاهد فى سبيل الله وافضل ان اموت مجاهدا من ان اعش خائنا لوطنى » فقطع راسه فاخرجه الى جنوده بلحيته البيضاء المضرجة بدم الاستشهاد وقال لجنوده : «قد مضى عليكم زمن طويل لم تلعبوا كرة القدم وقد احضرت لكم اعظم كرة فالعبوا بها . ثم ادخل اجناده على الحريم وقام اهل البيت من الرجال والمقاومين يدافعون عن الشرف فاحتز رؤوسهم واخرجهـا لاعبين . فقال احد المجاهدين قولته الخالدة وهو يموت : «سوف تأتى احفادنا وتخرجكم من بلادنا» وصدقت معجزة فخرجوا بعد مائة واربع سنوات !!

2) ثورة ابى معزة وابى بغلة وما وقع فيها من معارك بطولية فى كل من سطيف وقسنطينة

3) بغاث الطير : الطيور المهيضة الجناح ـ والكواسر جمع كاسر : اى النسور الكاسرة

وتذكر ثورتنا العارمه بطولات ، سيدتي فاطمه [1]
يفجر بركانها جرجرا فترجف باريس والعاصمه !
وخلد باسم امها ذكره فزكى قداسته الدائمه [2]
وفارت دماء بني راتن تفدى قرارته الحاسمه
نسومر منذ نسبوك لتاكلا رفضت التواكل يا فاطمه !!
وألهبت نارا ، تذيب الثلو ج ، وتعصف بالفئة الظالمه
بجند ، يباع ويشرى كما تباع ، وتستأجر السائمه [3]
وأرعفت راندون في كبره ودست على أنفه الراغمه
وصعرت للجنرالات خدا فخابت نواياهم الآثمه
أتنسى الجزائر حواءها ؟ وأمجادها لم تزل قائمه ؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

(1-2-3) للافاطمة نسومر ابنة سيدىمحمد بنعيسىشيخ الطريقة الرحمانية والدتها للاخديجة التى تسمى باسمها قمة جرجرة ، وزوجها سيدى الحاج عمر من قرية تاكلا ، آيت ايراثن ، كانت تسير الثورة فى جبال جرجرة اولا مع زوجها ثم لمفردها وهى التى صرعت الباشاغا سى الجودى عميل فرنسا ، وصعدت فى مقاومتها من 1856 الى 1857 م على راس المجاهدين المسلمين ضد ستة جنرالات فرنسيين : قاستنى وبينولت ويوسف وماكماهون ومشيل ودبلمى كلهم تحت القيادة المباشرة للماريشال راندون الذى تراس العمليات فى نفس الحين الذى كان فيه واليا على الجزائر
للافاطمة كانت تسير جيشا يضم سبعة آلاف مجاهد ضد جيش الماريشال راندون الذى كان يضم خمسا واربعين الف مقاتل متوفر على جميع المعدات الحربية الحديثة ، وشملت ساحة العمليات كل جبال جرجرة الى قمة للاخديجة ، والموقعة الحاسمة كانت فى معمعة اشريضن فى 24 جوان 1857 م ، اعتقلت للافاطمة فى قرية تاكلا يوم 11 جويلية 1857 مع اتباعها اخوان الرحمانية

بنو سيدى الشيخ (1) قادوا النضالا   فهـــزوا الثرى ، واذابوا الجبالا

ســـليمان حمـــزة آلى يمينـــا   فبر ، وأصـــلى المغـــير الوبالا

سلـوا بو يــريت العقيـد المسجى   وحمـــزة يغرس فيـــه النبـــالا

ويستل من صـــدره روحـــــه   بيمنـــاه ، يبكى عليـه الثـكالى

ووهـــران تصرخ فيهـــا الدمـــاء   بساح الفـــدآ . تستفز الرجـالا

وصحراؤنا وابن شـهرة فيهـــــا   يهيـل عـلى الغاصبين الرمـالا

وجيش أبى شـوشة المستميـــــــت بصحرائنـــا ، ينسف الاحتـلالا

وصـوت ابن حـــداد دوى دويا   ينادى : البدار ، ويدعو : القتالا

ومن آل مقـــران فى الشاهقـــا   ت ، نسور بواشق ، تهوى النزالا

وقال بومزراق حـــان الجهـــــا   د ، فحقق بالمعجـــزات ، المحالا

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) اولاد سيد الشيخ بقيادة الباشاغا سليمان بن حمزة بن بوبكر سنة 1864 م والتفت حـوله قبـائل اولاد سيـ دىالشيخ وعزموا الفرنسيين شر هزيمة واعادوا الكرة تحت قيادة الكولونيل بوبريتر وكانت نهاية المعركة التى دامت طويلا موت سائر رجال فرق العدو ، بما فيهاالكولونيل قائدها ، وقد تمكن البطل سليمان بن حمزة من قتله بيده اثناء المعركة ، ثم استشهد بعد ذلك خلال المعركة وكان من بين الفرق المعتدية القوم اى الجنـــد الجزائرى المتطوع مع فرنسا وما كادت المعركة تلتهب حتى اخذت الحمية الاسلامية جماعة القوم فانقضوا عـلى الفرنسيين وانضموا للمجاهدين ، وقام بالصحراء ، جنوب الاغواط ، بوشوشة وفى نفس الصحراء ثار معـــه المجاهد ناصر بن شهرة وذلك فى نفس الوقت الذى كان فيه بومزراق والمقرانى ينظمان المقاومة فى الشمال ، والشيخ عزيز بن الشيخ الحداد يوجه النداءات الصارخة الى كل مناطق الجزائر يستنفر الناس للقتال ويقول ان الوقت حان وان فرنسا فريسة الضعف فيجب انتهاز الفرصة ، وذلك فى آخر سنة 1870 ، وكان الاتصـــال وثيقا آنذاك بين المقرانى والشيخ الحداد ، اذ زار المقرانى الشيخ الحـــداد يوم 8 يناير 1871 م ، سرا فى صدوق ، وتبادل معه النظر فى ضرورة اعلان الجهاد ، والتأمت عائلة المقرانى كلها فى مجانة ، وفى ليلة 14 مارس 1871 م اعلن المقرانى الجهاد رسميا بناء على سياسة الاسلام فى عدم مباغتة العدو ، وكذلك حسب مبادىء الامم المتحدة الآن ، وقد ارسل المقرانى الى الجنرال الفرنسى فى العاصمة يقول له : «اعلموا اننا فى هذا اليوم قد اعلنا الجهاد عليكم وضدكم وغدا نبتدىء الجهاد» . وبعث كذلك باستقالته من وظيفة باش آغا ، ورد المحاولة التى بعثتها له فرنسا ، يوم 15 هاجم برج بوعريريج واحتلها ، ومن هناك انطلقت الثورة عارمـــة لا تبقى ولا تـــذر

فيا آل مقران أسد الكفاح ونبع الندى . والهدى والصلاح
نهدتم ، تشقون درب الخلو د . فعبدتموا نهجه بالسلاح
وحداد فى السوق ألقى عصاه وأعلنها فى الذرى والبطاح (1)
« كمثل عصاى .. سألقى الفرنسيس فى البحر . أركلهم بالرماح »
سلام مقرانى يمضى شهيدا بسوفلات رمز الفدا والكفاح (2)
ولابن الثمانين ، يغدو أسيرا وما كبل القيد فيه الطماح (3)
ومرحى لمالك يطغى بشر شال بركانه بالأمانى الفساح
وعاشت مناصر راحت تنا جى بوذريس شيخا وريف الجناح (5)
فردد رجع صداه أبو عمامة يدنى حظوظ النجاح (6)
وهقار تزهو بآمودها يذود عن الشرف المستباح (7)

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) يوم 8 افريل 1872 م اعلن الشيخ الحداد الحرب وهو يتجاوز الثمانين من عمره ، وذلك فى سوق صدوق والقى عصاه بعد صلاة الجمعة فى السوق وسط الجمهور وقال : سنرمى الفرنسيين الى البحر كما رميت انا هذه العصا الى الارض

(2) استشهد محمد المقرانى يوم 5 مايو 1871 م بسوفلات ، قرب عين بسام

(3) بعد معارك عنيفة طاحنة شاملة القى القبض على الشيخ الحداد قرب بجاية وقد تجاوز الثمانين ، وكان مشلولا ومحمولا على نعش ، وذلك يوم 13 من يوليو 1871

(4) مالك البركانى ابن اخ عيسى البركانى احد خلفاء الامير عبدالقادر ، اعلن الحرب يوم 13 يوليو 1871 م فى سوق الاحد بنواحى شرشال وجبال مناصر فى ولاية الاصنام ، بنفس الطريقة التى اعلنها بها قبله الشيخ الحداد

(5) فى الحين الذى كان يدير فيه الحرب مالك البركانى فى جبال بنى مناصر والظهرة ، كانت هناك حروب يقودها فى الشمال امثال الشيخ الصدقاوى فى جبال جرجرة وكان شيخا فى زاوية وذريس

(6) كان اولاد سيدى الشيخ فى الصحراء الوهرانية يواصلون الكفاح الذى بداوه سنة 1860 م ، واستد وطيسه عام 1881 م تحت قيادة بوعمامة من اولاد سيدى الشيخ واصل الكفاح مدة طويلة ووصلت جيوشه حتى المدية وضواحى العاصمة

(7) لما خمدت ثورة اولاد سيدى الشيخ وثورة توات وعين صالح سنة 1900 م واصل الطوارق الكفاح فى الهقار وفى نواح اخرى من الجزائر تحت قيادة الشيخ آمود حتى سنة 1912 م ، وكلمة آمود باللغة الامازيغية معناها السارية او العرصة

جـــزائر ، أبـدعها ذو الجـــلال وصــور طينتهـــا من نضــــال
بـــلاد تمـــازح عشاقهـــــا وتمنـــع عنهـم لذيـذ الوصـــال
فما انكفأت ثـــورة فى السهـــو ل ، ولا انطفأت ثورة فى الجبال
ولــــم يحن أوراس هامتـــــه ولا هـدأت عاصفات الرمـــال [1]
ولا استسلمت جـرجـرا للمغير ، ولا اوهن العـــزم طـــول النـــكال
سلوا ساحـــة الشهـــداء أمـــا بهـــا قرر البدوى [2] المثـــال ؟؟
ودوى بشرشـــال صـــوت النفـــير ، وان كان يبـــدو بعيـــد المنـــال !
وراود صـــدق الضـــمير الأمـــــير [3] فقـــام يلاحق طيف الخيـــال
ويعـدو بفرســاى خلف الوعـــــود ، يناشـد ولسون فـرض المحـال !
تجـاريب خـالد مهمـا تكن ... فـــلم نك نغمط قدر الرجال !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا
بشعر نرتـــــله كالصــــلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1) لم تخضع اوراس ولا جرجرة ولو مرة واحدة للعدو طوال أيام المقاومة ٠

(2) فى مدينة الجزائر والجهات المتعددة غربها الى مدينة شرشال قامت الثورة كذلك فى تلك الاونة الا انها لم تكن عنيفة قاسية اذ اعلن احد رجال العاصمة الغيورين السيد محمد البدوى فى (ساحة الحكومة) آنذاك استقلال البلاد واخذ ومن معه محاولة تنظيم الادارة المستقلة الجديدة ، لكن الحركة اخفقت وارسل الفرنسيون السيد البدوى للسجن المضيق يقضى به سبعة اعوام ٠

(3) الامير خالد بن محى الدين ابن الامير عبدالقادر الجزائرى ، كان يطالب فرنسا بانجاز عهودها الكاذبة للجزائريين اثناء الحرب العظمى وكان يطالب بالغاء القوانين الاستثنائية « الاندجينا » وبوجوب تطبيق الاصلاح المتمثل فى تسوية الجزائريين بالفرنسيين فى الحقوق والواجبات ، ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسى ، وبمجرد ان وضعت الحرب اوزارها شكل وفدا أم ساحة فرساى حيث ان الامريكى (ولسون) يحاول عبثا فرض بنوده التى نادى بها أيام الحرب ، ومنها حرية سائر الشعوب فى تقرير مصيرها ٠

لئن بـــح صوت السيوف الصقال وأغفى صرير الرمـــاح العـوالى

فحـــرب الـيراع أعـــاد الصرا ع ، يقود سراياه نجم الشمال [1]

بأرض فرنسا ، يـــدك فرنسا وينـــذر ساستها بالوبـــال

معـاميد تـــزخر فيهـم حنـايا بروح الفـدآ ، والأمـانى الغوالى

تبـــاركهـم صرخات الضمـــير ، وتلهمهم ذكريـات النضـــال

وقال الرعـاديـد : قـوم رعـاع مجانين ، تجـرى وراء الخيـــال

وقـال المناجيـد : قـوم كـــرام صناديـد ، من عظمـــاء الرجال

وقـال الفرنسيس : بئس المصير ، اذا القـوم لـم يمحقـــوا بالنكـال

وقـــال الألى ناصروا حزبنـــا سنقضى عـلى لعنـة الاحتـــلال

وقـال الذى خـــلدوا شـعره فداء الجزائر ، روحى ومالى [2]

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) حزب نجمة الريقيا الشمالية ، وتعمدت عدم ذكر مؤسسيه لحكمة تقتضيها الظروف

(2) نشيد الانطلاقة الاولى لمفدى زكريا، ، وكان نشيد حزب الشعب الجزائرى ويسمى اذ ذالك النشيد الوطنى وبقى كذلك حتى خلفه فى المجال الرسمى نشيد: « قسما » لنفس المؤلف

وفى الـدار جمعيـة العلمــاء   تغـذى العقــول بوحى السماء

وتهـدى النفوس الصراط السو   ى وتغرس فيهـا معـانى الابـاء

تواكب نجــم الشمال اندفاعـا   وتغمــر أكوانــه بالسناء

ويعضــد باديس فيهــا البشــير فتزخــر بالخلص الأصفيــاء

وتغــزو الضــلالات فى التائهين ، مع الوهــم ، فى موكب الأغبيــاء

وترسى جـذور الأصــالة فى الشعب . تمحـو بهــا وصــمة الدخــلاء

وتبنى المـدارس عـرض البـلاد   فيعلى ابن باديس صرح البنــاء

ويرتــاع مستعمـر مستبد   وتخشى الخفافيش نبــع الضياء

ويرهب ظــل الأسـود ابن آوى   ويـوذى المنـافق صـدق النـداء

كـذا عبــد العلمـاء الثنــايا   بوحـى السماء ، ووحى الدمـاء

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنــا

بشعر نرتــله كالصــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

جزى الـله عنـا الشـدائد خيرا — وذكرى احتلال الجزائر (1) شكرا

وان ننس ... هلا نسينا الجـرا — ح ، وما ان تزال الجراحات حمرا ؟

وان آلمـونا بمـايـة عـام — حفلنا بعيـد الجـزائر دهـرا

وان رقصـوا فـوق أشلائنـا — واحيوا عـلى مذبح الشعب ذكرى

رقصنا عـلى نغمـات الرصـا — ص ، ورحنـا نبث المقادير سرا

وان خسفوا نجم هـذا الشما (2) — ل فللشعب حـزب مضى مستمرا

ضمائر أخلص فيهـا البقـا — ء على العهد .. ما ان تباع وتشرى

اذا ما فيوليت (3) ضـلل قومـا — وغـر ضعاف العقـول وأغرى !

وخـدر قومـا بمؤتمـرات (4) — فظنت سراب المتـاهات نهـرا !

فللشعب حـزب يصـون المبادىء — وشعب الجـزائر بالناس أدرى !

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـلـه كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) العيد المئوى المشؤوم .

(2) حل حزب نجمة افريقيا الشمالية .

(3) مشروع بلوم فيوليت .

(4) المؤتمر الاسلامى عام 1936 م .

أفاق من الوهم حزب البيان ... فاسلم للمخلصين العنان (1)

وزايله الشك فى أصله ... فمدت لحزب البيان اليدان

وأوحى اندماج فرنسا اندما ... جا لحزبين مرماهما توأمان (2)

فبارك باديس، جمع الصفوف، ... ودشن باديس عهد الأمان

ويوليوز والملعب البلد ... ى وأحمد يعلن فيه الأذان (3)

ويصعق فيه بصوت جديد ... فيصعق منه العتل الجبان

ولاذت فرنسا بأصنامها ... تحاول بالدس كسب الرهان

فتغتال كحول (4) تلقى دما ... ه على الطيب الواسع الصولجان (4)

لئن خاننا الدهر فى طيب ... وأصغى مصالى لغدر الزمان

فلن يجحد الفضل تاريخنا ... وهذى الدنا للرجال امتحان

شغلنا الورى، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) اشارة لاقلاع فرحات عباس عن تساؤلاته اعترافا بالحق والرجوع الى الحق فضيله

(2) اى ان المطالبة بالاندماج اوحت لحزب البيان بعد الاصطدام بالواقع بفكرة اندماج الحزبين، حزب البيان وحزب الشعب بعد اعتناق البيان لمبادئ حزب الشعب والتوبة من خرافة الوحدة الفرنسية.

(3) اشارة للمفاجاة المدهشة التى قام بها احمد مصالى الحاج جهارا لاول مرة بالجزائر فى المطالبة بالاستقلال خلال الخطاب التاريخى يوم 17 يوليوز 1936 م بالملعب البلدى بعاصمة الجزائر.

(4) الشيخ الطيب العقبى والشيخ كحول.

وان وزع الـراى حزبـا عتيـدا ففى القصد ، ماانفك حزباوحيدا[1]

وتأبى الزعـــامات كبـــح الطمـــوح ، فتصنع للخلف شـكلا جديـــدا

وتغرى الكراسى ضعاف العقـــــول ، كنار جهنم ، ترجـو المزيـــدا

وتغزو السياسة فـكر الزعـــــيم ، فيصبح فـكر الزعيم بليـــــدا

كأن الزعامـــة اعصار جـــان ولم ار للجـــان عقـلا رشـــيدا

وما الانتصـــار [2] دخـول انتخاب وضرب الموائد ، ضربا شديدا !!

ولا كلمـــات عـــلى جـــدران هل الحبر فى الحرب كان مفيدا ؟؟

ولا بالهتـــافات عاش ... ويحيى فمـا حـرر القول يوما عبيدا !!

ولا بالوفـود ... وسـمع فرنسا أهـال عليه الغرور الصديدا ...

ولن يغسل العــــار الا الدمـــا وعاش الحديد .. يفل الحديدا ..

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) انقسام حزب الشعب .

(2) الانتصار للحريات الديمقراطية

ولـم ننس فى أربعـــين وخمس ... ضحايا المذابح فى يوم نحس (1)

طربنا مـــع الحلفـــاء اغترارا ... وقمنـــا نصفق فى غـير عرس

فكانوا مـــع الغدر ، عونا علينـا ... ودرسـا لقادتنـــــا أى درس !

وكانت مجازرهـــــم بسطيف ... وقـالمـة للشعب ، دقـات جرس

وهــــز ايستراد شـــعبا توانى ... وايقظ فى العمــق ميت حس (2)

وعلمنـــا آشيارى الثنـــايـــا ... فبــدد لون الدمـا كـل لبس (3)

وكانت تلاحـــق أقلامنـــــا ... سراب الضـــياع فبـاءت ببخس

وكانت تكافـــح أحـزابنـــا ... مع الوهـم ، بين صراخ وهمس

فعطل صـــوت الرصـاص اللغى ... وأنطـــق ألسنة غــير خـــرس

فقـــامت تعبـــد أكبـــادنا ... طريـق التخلص من كـــل رجس

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) مجزرة سنة 1945 م فى سطيف ، وخراطة ، وعين الكبيرة ، وقالمة الخ

(2) الجلاد ايستراد كاربونيل طاغية قسنطينة .

(3) اشيارى جلاد قالمـة .

وطالت خرافـات حرب الكـــلام ... وما بلـغ الشعب فيـــه المــرام
فــآمن بالنـــار من عرفوهـــا ... ومن كاشفتهم بسر النظـــام (1)
الى أربعـــين وتسـع ســـلامى ... وقد بلغ الشعب فيهـــا الفطام
فكانت شرارة حـــرب الخـــلا ... ص ، وان أختفوها بلغـو الكلام
رعى الله عيمش (2) فى الخالـــد ... ين ، وكحال(3) فى السابقين الكرام
ورابـــح (4) تعبـــق أنفـــاسه ... وغرافـة (5) الوطنى الهمـــام
وعسلة (6) ينــــدبه طالب (7) ... فيلحقه ، بعــــد مـــر السقام
ودوار (8) يستقبل الشهـــــــــداء ، ومن أخلصـوا للوفـا والذمام
هـــم الثائـــرون الألى ولـــدوا ... نفمبر من صلبهم ، فاستقـــام !
متى نـــزلت ثـورة من ســـماء ... نزول المسيح ... عليه السلام ???

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا
بشعر نرتـــله كالصـــلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) اشارة الى المنظمة السرية (OS) عام (1949) التى افتضح امرها بتبسة ·
(2) على عميش ، مؤسس حزب نجمة افريقيا الشمالية ·
(3) ارزقى كحال ، من الابطال الذين خاضوا معركة النضال بحماس نادر فى صف نجمة افريقيا الشمالية ·
(4) رابح موساوى ، من مؤســى نجمة افريقيا الشمالية ومن ابرز مناضليها ·
(5) الشهيد ابراهيم غرافة من طلائع الرعيل الاول فى النضال الوطنى ومن الافذاذ القلائل الذين ذابوا فى حركة التحرير ·
(6) حسين عسلة من اشجع وانشط ابطال حزب لشعب ·
(7) محمد طالب من مفاخر حزب النجمة وحزب الشعب
(8) محمد دوار من ابطال حزب الشعب والانتصار كان نائبا واغتيل بيد الاستعمار الآثم ·
واغتيل بيد الاستعمار الآثم ·
ويضيق المقام عن ذكر سائر الابطال الميامين الاموات منهم والاحيا، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ·

تأذن ربـــك ليــــــلة قـــــدر وألقى الستار عـــلى ألف شــهر

وقال لــه الشعب : أمرك ربى ! وقال له الرب : أمرك أمــرى !!

ودان القصاص فرنسا العجــــــــــوز ، بما اجترحت من خداع ومكــر

ولعلع صوت الرصاص يــــدوى فعــاف اليراع خرافــات حــبر !!

وتأبى المــدافع صــــوغ الكـــلا م ، اذا لم يكن من شواظ وجمر !

وتأبى القنابل طبــــع الحـــرو ف ، اذا لم تكن من سبائك حمر !

وتأبى الصفائح نشر الصحـــــــــائف ، ما لم تكن بالقرارات تسرى !

ويأبى الحـديد استمــاع الحــــــديث ، اذا لم يكن من روائع شعرى !

نفمبر .. غيرت مجــرى الحيــــــاة ، وكنت ـ نفمبر ـ مطلع فجر !

وذكرتنا ـ في الجـزائر ـ بدرا فقمنا نضــــاهى صحـابة بـدر

شغلنا الورى ، وملأنــا الدنـــا

بشعر نرتبــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنــايا الجـزائر

نفمبر ـ جـــل جـلالك فينـــا ألست الذى بث فينـا اليقينا ؟

ســـبحنا على لجــج من دمانـــا وللنصر رحنـــا نســوق السفينا

وثرنـــا . نفجر نارا ونـــــورا ونصنع من صلبنا الثائرينـــا !!

ونلهـــم ثورتنـــا مبتغـــانا فتلهـــم ثورتنـــا العـــالمينا

وتسخر جبهتنـــا بالبـــــلايا فنسخـــر بالظـــلم والظالمينـا

وتعنـــو السياسة ، طوعا وكرها لشعب أراد .. فأعلى الجبينا ..!!

جمعنا لحرب الخلاص شـــتاتـــا سلكنـــا بـــه المنهــج المستبينـــا

ولولا التحـــام الصفوف وقانـــا لكنـــا سماسرة مجرمينــــــا !!!

فليت فلسطين ... تقفـــو خطانا وتطوى ـ كما قد طوينا ـ السنينا!!

وبالقـــدس تهتم .. لا بالكراسى تميـــل يسارا بهـــا ويمينا ..!!

شغلنا الورى ، وملأنـــا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـــايا الجـزائر

أتى أمرنـــا صارخـا فانطلقنـا — ولـذنـــا بوحـدتنا ، فانعتقنـا

وفاوضنا القـــوم فى أمـــرنـا — وأمـــر سيادتنا ....فرفضـــنا

وقالوا : سنجرى عليها اقتراعـا — بلا ، ونعم ـ خدعة ـ فاعترضنا(1)

فرنسا ... تناسيت ما ليس ينسى — أما فى نفمبر ... كنـا اقترعنـا

وأجرى علينا الرصاص انتخـابا — وخضب أوراقنا .. فانتخبنـا ؟؟

وقلنا ... وقالت لنـا الكائنـــا — ت : خذوا حذركم واثبتوا .. فثبتنا

فلم نك نرضى بنصف الحـــــلول ، ولا بالدومنيون نحن انخدعنا (2)

وديغـــول ألقـــى بيـــادقه — فطاولهـــا رخنـا فانتصرنا (3)

وخاف الحواجز تحمى الغـــــــلاة ، وتبكى فرنسا لها .. فضحكنا(4) ..

وفـــكر ديغـــول فى حمقهـــم — وفي صدقنا .. ثم قال .. فهمنا(5) !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) غى موليه وحكاية الاستفتاء السخيف

(2) خدعة الاستقلال الداخلى والتبعية لفرنسا

(3) البيادق ، والرخ من قطع الشطرنج

(4) الحواجز التى اقامها غلاة المعمرين بشوارع العاصمة سنة 1958م مع عصـابة لاقايارد وفى هذا اقول من قصيد منشور فى اللهب المقدس :

وترى الغـــلاة على السدود جوائمـــا — تحمى النساء عـلى السدود ـ رجالهـــا !!

(5) مفاوضات ايفيان التى انبثق عنها الاستقلال

فرضـــنا ارادتنـــا الفارعـــة ولم تخب ، نيراننـــا الدالعـــه

وصغنا مصائرنا ، بالرصـــــا ص ، وبالرأى ، والحجة القاطعه

وتمت بهـــا كلمـــات الالـــــه ، التى وقعت باسمها الواقعـــه

ولاح الخلاص ، بحـلم الليـــــالى ، ترفرف أعلامـه اللامعـــه

ودوى نشيد الجزائر يغـزو الـــــدنا قسما بالدمـــآ الناصـــعه (1)

وجلجـل صـوت نشيد اللـــــــواء ، فعنوا الرؤوس له خاشعه (2)

وجيش يردد : هـذى دمـــانا الـــغوالى دوافقهـــا دافعـــه (3)

ويصـــدح طلابنـــا بالنشيـــــد ، وعمالنـــا ، واليد الزارعـــه (4)

وبنت الجزائر تتلو نشيد الــــــــعذارى ، فتصغى الدنـا راكعـه (5)

وقمنـــا نشيد صرح البـــــلا د ، وتبنى سيادتنـــا الطالعـــه

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) نشيد الثورة : قسما بالنازلات ، لمفدى زكريا، منشور فى اللهب المقدس .
(2) نشيد العلم : علم الجزائر ، عشت يا علم ، لمفدى زكريا، منشور فى اللهب المقدس
(3) نشيد جيش التحرير : هذى دمانا الغالية دفاقة ، بلغة الشعب لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس .
(4) نشيد طلاب الجزائر : نحن طلاب الجزائر ، نحن للمجد بناة ، لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس ونشيد العمال الجزائريين لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس : نحن جند الاتحاد والعمل .
(5) نشيد لبنت الجزائر : انا بنت الجزائر ، لمفدى زكريا، منشور باللهب المقدس .
وكل هذه الاناشيد مع نشيد بربروس ونشيد الشهدا، وغيرها نظمت فى بربروس ايام الثورة الكبرى .

وقالت جزائرنــا الغـاليـــه هو الصـدق ، حقق آماليـــه

ومـــن دم شـــعبى ، وأكبـــاده الى النصر ، قـدمت قربانيـــه

وجنـدت من خالد بن الوليــــــــد وســـعد بن وقاص أبطـــاليه

وجـددت حطـين فى موطـــنى وخـــلدت أمجـــاد أنطاكيـــه

وجـــل الفـدآ بالمـــلايين شـــرفت ، الخلد ، فى رفرف العاليـه (1)

وفى كل شـبر لنـــا قصـــة مشاهدهـا المهــج القانيـــه

تلقــن وجـــدة أدوارهــــا فتحفـظ بنــزرت والساقيـــه

فيـا مغـرب مازجتــه الدمـــآ وأجمـع ، فى الصرصر العـاتيه

وزلـــاه أطلسنا فى القـــرو ن ، فرحنـا نديـن بوحدانيـــه

دعوا المغـرب الوحـدوى يقـرر ويفرض مصائرنـا الباقيـه !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) العالية : مقبرة الشهداء فى ضواحى عاصمة الجزائر .

وأقلت بعض زمــام التــأنى !! وحمى الكراسى ... كاعصــار جن

ودنيــا المطامع ، تبــدى الغفايا وتدفــع عشاقهـــا للتجـــنى

فهب رجــال لضــمد الجــرا ح ، وان قلب البعض ظهـر المجن

وتطــوى الحماقات ، طى الكتــا ب ، وعن كنه أسرارها .. لاتسلنى !!

وخــل غوامضهــا للـــز مان ، فان الزمان لأفصــح منى !

وطالعنـــا بالبشائر يونيـــو فأنعش ، كالعــارض المرجحــن

فقمنــا نشيد اقتصــاد البـــلا د ، ونعلى المصــانع فيهــا ونبنى

ورحنــا نوفــر للكادحــــــين ، الرغيف الشريف ، بعـلم وفن

ويزرع فلاحنـــا أرضـــه ... بـــذوب الشرايين ، لا بالتمنى !

ونصــنع من صلب واقعنـــا مذاهبنـــا .. رافضين التبنى !!

شغلنا الورى ، وملأنــا الدنــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنــايا الجــزائر

شربت العقيدة ، حتى الثمالة — فأسلمت وجهي لرب الجلالة

ولولا الوفاء لاسلامنا — لما قرر الشعب يوما منالة

ولولا استقامة أخلاقنا — لما أخلص الشعب يوما نضاله

ولولا تحالف شعب ، ورب — لما حقق الرب يوما سؤاله (1)

هو الدين ، يغمر أرواحنا — بنور اليقين ، ويرسى العداله

اذا الشعب أخلف عهد الاله ، وخان العقيدة ، فأرقب زواله !

اذا ما انتصرنا بحرب الخلاص ، فثورتنا اليوم حرب الأصاله (2)

نهدنا لمعركة المستوى — نربي النفوس ونغزو الجهاله

ويصنع ايماننا أمة — قواما ... فترجف منها الضلاله

وان ينصر الشعب حرب الضمير أقمنا بوحي الضمير ، احتفاله

شغلنا الورى ، وملانا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) حرب الاصالة ، ومعركة المستوى ، وحرب الضمير ، تفسيرات الثورة الثقافية . وربما كانت هذه التعابير اوضح واعمق وادل على مفهوم الثقافة المهمة بالشمول .

(2) الضمير في سؤاله يعود على الشعب اى سؤال الشعب يحققه الرب .

طباعنـا . صالحـات جليـله   تعـاف انحلال النفوس الذليـله
وتأبى رجولتنـا الابتـذا   ل وأحلامه . والشعور الطويله !
تخنث هـذا الزمـان ودبت   خنافيس هيبى . تشيع الرذيله !
ونـافس آدم حـواءه   دلالا . وغنجا . وذبح فضيله !
وجرت ذيـول الطـواويس هـذى السراويل . وهى القصار الطويله
ولولا النهود . لما كنت تفـرق . بين جميل وبين جميـله !!..
وشـاع الشـذوذ . وذاع الحشـيش . وأصبح للموبقـات وسيله
وتقـرف آنافنـا القـاذورات   فلم تجد فى صرفهـا أى حيـله
وأرض الجـزائر . أرض الفحـول ! . فاين الشهامة ؟؟ اين الرجوله ؟؟
ومن لم يصن حرمـات البـلاد . ويذر النفايات ... قد خانجيله !

شغلنا الورى . وملأنـا الدنـا
بشعر نرتـله كالصـلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

تسامت مصـــــادر اشعاعنـــا   تدعـــم خالص ايماننـــا ...

مساجـد للهـدى ، فى كل فـج   تنـــير السبيل لأجيـالنـــا

بسرتا ابن باديس لاح سناهـــا   ووهـــران تسمـو بالهامنـــا

وجـامـــع كتشاوة المستعـــا   د ، أما انفـك رمـزا لاجلالنا ؟

يناجيه فى النيـــل أزهـــرنـا   فيستنجـــدان بأسلافنـــا !!

دبورمون هل دام حقد الصليب(1) ؟   أنـال قريقـوار من بأسنا ؟ (2)

وهل فت فيليب (3) فى عزمنا ؟   وحـط القساوس من شأننـــا ؟

وهـــل نابليون (4) ومن وسمته   يـــداه ، استهان باصرارنـــا ؟

وهل لافيجرى (5) وطـــول الســــنين استطاع المـــروق بأطفالنـا ؟

ومهما يقيمون فيـــه احتفـــالا   فقـــد عـــاد يهفـو لأكبادنا (6)

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) تقرر تحويل جامع كتشاوه الى كنيسة فى الخامس من يوليو سنة 1830 ، اى يوم الاحتلال نفسه ففى اللحظة التى كان فيها الكونت دوبورمون يضع العلم الفرنسى على مبانى العاصمة ، وضع بنفسه صليبا كبيرا على [illegible] جامع كتشاوة كاعلى مبنى فى العاصمة .

(2) البابا غريقوار الذى بارك هذا التحويل بصفة رسمية .

(3) الملك لويس فيليب الذى عين القساوسة واهدى الكنيسة كل ما تحتاج اليه واصدر مرسوما بذلك .

(4-5) نابليون الثالث رئيس فرنسا الذى زارها مرتين واصدر بمناسبة توسيعها ميدالية استثنائية تشجيعا منه على توسيعها وعين بنفسه الكردينال لافيجرى كاسقفها الاول ، وهو من اشهر اساقفتها ، وهو المشهور بتنظيم حملات التبشير وبقى فيها 15 سنة وقد كان استغل مجاعة سنة 1866 م واستعان بها على تنصير اطفـــال المسلمين اليتامى فى الجزائر ولكن مساعيه ذهبت سدى حيث ان اغلبهم رجعوا الى الاسلام بعد ان بلغوا الرشد كما ذكر ذلك غوستاف لوبون فى كتابه : حضـــارة العرب .

(6) وقع فيه احتفال سنة 1930م بمرور قرن على استعمار الجزائر .

تماوج فى فاس رجع الصدى   من القرويين يغزو المدى
يساجل زيتونة للسلام   مباركة فتلبى الندآ
هو المغرب الأكبر المستمد رسالاته من رسول الهدى
ووحدة مغربنا اليوم خطو   الى وحدة المسلمين غدا
بتوحيد بعض ، نوحد كلا   وهل ينكر الخبر المبتدا ؟
فربتما كان مغربنا   مثالا قويما ، به يقتدى !
وان سلك العرب فى أمرهم   سواء السبيل ، مددنا اليدا
وقمنا بأرواحنا نفتد   يهم ، ونحن الألى أخلصوا للفدآ
ونحن الألى غسلوا العار بالنار ، يسترهبون الردى بالردى !
ويستبدلون بالشعارات الفعل ، فاستوجبوا العز والسؤددا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا
بشعر نرتله كالصلاة
تسابيحه من حنايا الجزائر

أمانـــا ، من الخطـر الداهـــم ومن معـــول قاصف هـــادم

غـــزا المذهبيـون عقـــل الشبا ب ، بمستورد آفـــن آثـــم

وزاغـوا بهـــم ، دون اسلامهم الى مـــذهب ليس بالسالـــم !

ودســـوا شـــيوعية كالوبـــــاء ، كمـا يصرف السـم للطاعـم

وقالوا : التقـدم شرع الحيـــا ة ! وكم ركض الحلم بالنائم ؟!

وقالوا : الرجوع الى الدين رجعى وان الحيـــاة مـــع القـــائم

فظـــل الشباب البرىء انخـــدا عا ، برقطـاء ، فى جلدها الناعم

ولـــج مـع الأرذلـين انحرافـا عن المبـــدأ الخالـد الدائـــم

وبث أساتـــذة فـى الشـــبا ب رواسب مستعمـــر غاشـــم

وقيـــل دكاتـرة عالمـــون فويـــل لمستهـــتر عـــالـم !

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

تفسخ هـــذا الشباب وماعا [1] وخـرب أخلاقـــه وتداعـــى

فويــل الجـــزائر والمسلميـــــن ، اذا دنس النشء هذى الطباعا

وكيف يسوس البـــلاد غـبى بليــد أضاع الضمير فضاعا !!؟؟

ومن يطمئــن لأقـــدار شـــعب اذا استخلف الشعب فيها الضباعا ؟؟

وكيف يقـــــوم بنيــــانه وتقويم أخلاقـه ، ما استطاعا ؟؟

وكيف يصـــون الأصـــالة نشء وقـــد ساومـوه عليهـا فباعا ؟

وكيف ينـير الطـــريق شـــباب وقد طمس الرجس فيه الشعاعا ؟

وكيف يـــداوى المريض صحيحا وفى قلبـــه مرض السل شاعا ؟

وكيف يصـــارع مـــوج الحيـــاة . وماسطاع في أصغريه [2] الصراعا ؟

هو الخطر الجـــارف المستطيـــــر ، فان تهملوه .. الوداع .. الوداعا !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

---

(1) ماع من الميوعه وهى التفكك والانحلال .

(2) المرء بأصغريه : قلبه ولسانه (حديث شريف

ومستهترون ، أضاعوا الثنايا — وشاع تنكرهم للسجايا

وقالوا : التقدم خلع العذا — ر ، وهتك العفاف ، ونشر الخطايا

وجدل الشعور ، ولبس الحلـى ، وحمل القلائد ، مثل الصبايا

ويفتخرون بشرب الخمو — ر ، وفي الكأس ترسب كل البلايا

فهم يرقصون كطير ذبيح — ولا يحفلون بركب المنايا

وقالوا : التقدم ، شعر لقيط — تطير الأصالة فيه شظايا

تفاعيله كضمير اليهو (1) — د يصوغ مبانيه خبث النوايا

وقد أصبح الشعر ، كالجيل ، خنثى — تذيب الميوعة فيه الخلايا

وصهين صهيون أخلاقنا (2) — فكيفنا أن نكون رعايا ...

وهل يحزن العتق مستعمرا — وأخلاقنا في يديه سبايا ؟؟

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

---

(1) تعبير للشاعر صالح جودت في قصيد طويل يقول في جملة ما يقول عن هذا النوع من الشعر :
تفاعيله كضمير اليهو — د ، يباع ويشرى ويستاجر

(2) صهين اشتقاق جديد من كلمة صهيونية على غرار عقلن من العقلانية

بنـاة الجزائر صونوا الشبابـــا ... ولا تأمنـوا فى الشباب الذئابـا

ولا تهمـــلوا أمـــر طلابنـــا ... فقـد أصبح العقـــل فيهم يبابا

فـكم شـوه المسخ فيهـم عقـولا ... وكـم أمعن المسخ فيهـم خرابـا

وحـــــرف من زاغ اسلامهـــم ... وأفقدهـم وعيهـــم والصـوابا

وأصـبح تفكيرهـم قرمزيـا (1) ... دخيلا ، وايمـــانهم مستر ابـــا

وتفشو حمـــاقات كوهين باندت ... فتحـدث فى الاغبياء اضطرابا (2)

وتنعق أبواق ... ماركس فيهـم ... فيتخـذون الدليل .. الغرابا (3)

فويـــل لطـــلابنا من شـــيوخ ... توافـه ، لا يعلمـون الكتابا (4)

ومرتزقـــــين بأفـــكارهـــم ... صنائع ... لا يقرؤون الحسابا !!

ولا زال فينـــا ... لمستعمرينـــا ... عيون ..! وان أسلمونا الترابا !!

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتــــله كالصـــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1) القرمزى ، اللون الاحمر الداكن ، اى الشيوعى .

(2) كوهين باندت الذى جاء فرنسا واحدث اضطرابا وتسبب فى سقوط ديغول وتعرف هذه الحماقة بثورة 22 ماى 1968 م .

(3) اذا كان الغراب دليل قوم يمر بهم عل جيف الكلاب

(4) لا يعلمون الكتاب الا امانى الآية .

ومستشرقون ، أحبوا الجلالا ومستشرقون ، أشاعوا الضلالا

فمن أنصفونا ، وقالوا صوابا وشدوا الى ملتقانا الرحالا

ولم ينقصوا قدر أمجادنا تخذناهمو قدوة ومثالا

وأكبر انصافهم شعبنا ولم ينكر العلم فيهم خصالا

ومن البسوا الحق حقدا دفينا وألقى الصليب عليهم ظلالا

وكانوا طوابير مستعمرينا وكانوا مخاض الليالى الحبالى

دعوناهمو للجدال النزيه وقلنا لهم لا نهاب الجدالا

فان أنصفوا العلم والحق قلنا : نفوس الرجال تجل الرجالا

وان طمس الحقد أبصارهم نبذناهمو ، وسحبنا السؤالا

وبالدم نكتب تاريخنا ونبلغ ـ بالعدل فيه ـ الكمالا

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

وأعيا المبشر عمق العقيدة   فلم تجد فينا المساعي الحميده

ولا عسل في طواياه سم   ولا البذل يخفي الشرور المبيده

ولا أن يطوف بأبوابنا   ومن خلفها ، عزمات وطيده

ولا أن يعالج فينا المريض . وتهتك في أصغريه العقيده

ولا بالأناجيل ، تنشر فينا   فتصبح بالوضع – غير مفيده

فحسب المبشر قرن ونصف   تجارب للزيغ . كانت بليده !!

فايماننا شامخ كعلانا   ونظرتنا فيه ظلت بعيده

ليغز المبشر أبناءه   فقد أصبحوا كالقرود الطريده

بهم تتدحرج هيبة   بخطوات الى الموت ، غير وئيده

وأحرى بنا أن نبشر فيكم   باسلامنا . والمبادى الرشيده

شغلنا الورى ، وملأنا الدنا

بشعر نرتله كالصلاة

تسابيحه من حنايا الجزائر

وبعض تـــزوج بالأجنبيـــه   وقـــال : مثقفـــة حضريـــه
تراقصنى وتراقص هــــــذا   وذاك ... وتعبث عن حسن نيـه
وتختـــال بالميـــنى جوب دلالا   وتستعرض المغـــريات الخفيه
وتتركنى ... لا جنـاح عليهـــا   وتذهب للسهـــرة النـــرجسيه
وتقضى الليـــالى خارج بيـــتى   وذلك من نعـــــم المدنيـــــه
وان ولدت ... لست أدرى لمن ؟؟   كفى أنه من بنى البشريـــه (1)
أنـــاديه صـــالح عنـد الصـــبا   ح ، وأدعوه موريس(2) عند العشيه
وان زل يومـــا ، تناديـــه بيكو   فأحسب بيـــكو من البكـــويه !
وتدعـو مساعدنـا مون اراب (3)   فأهوى العـروبة والعربيـه !
وأنحـــر فى نحـرها غـــيرتى   فتغـدو أنا ... ثم أصبح هيه !

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا
بشعر نرتـــــله كالصــــلاة
تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1) هذا يشمل اليوم مع الاسف الشديد كثيرات من المسلمات الجزائريات وغير الجزائريات ممن يسمين اليوم « بالمتقدمات » ، « المتطورات » ، « المتحضرات » ، « المتفتحات » على العالم الواسع !

(2) اشارة الى ابيات الاديب الكبير الشهيد محمد الامين العمودى ، فى تحية الدكتور سعدان المتزوج باجنبية :

حـــى الطبيب ولا تهمـــل قرينتـــه   فهـــو ســـليمان ، والمـــادام بلقيس
لـــه غـــلام ، اطـــال الله مدتـــه   تنـــازع العـــرب فيـــه والفرنسيس
لا تعـــذلوه اذا مـــا خـــان ملتـــه   فنصفه (صـــالح) والنصف (موريس)

(3) كان الفرنسيون لا ينادون مساعدهم فى البيت الا ب : مون آراب ، ومساعدتهم الا باسم فاطمة ، وهى بنت الرسول .

وتفاحـة ، أخـرجت آدمـا من الخـلد ، مـذ لعنته السما

ولـكن حواءنـا بلعتهـا وللعـلج تـركت المسلمـا

ولم ترض بالفحـل من قومهـا فهامت بمن .. (مارمى اذرمى) ..!

فسحقـا لبنت تزيف جيـلا وتلعن فيهـا الدمـاء الدمآ ...

وتغضب عيسى المسيح ، وتبـكى على جـذع نخلتهـا مريمـا

وتبـا لمجتمـع خائـر تعيش الرجـال به كالدمى !!!

يمـوت ويقبر فيـه الضـمير ، ويحمى البرىء بـه المجـرما !

تعـالى فرنسا.... ادخلى بسـلا م ، فأبناء صلبك ملء الحمى ..!

غـدا بالزغاريـد يستقبلـون ، نزولك فى أرضنا ... بعدما ..

ويا قادة الشعب ... ان دام هـذا ... أقيمـوا على شعبكم مأتما .!.

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـا

بشعر نرتـله كالصـلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

ويـــا ملتقى فـــكر اسلامنـــا ومجـــلى قداســـة ايماننـــا

ويا لوحـــة لسمو الجـــــلا ل ، ومغنى الجمـال بأوطاننـــا

ويا منبـــع النـــور من وحينـــــا ويرج أصــــالة اشعاعنـــــا

ويا حجـة لرسالات أرض الجـزا ئر للكـون تسمو بأمجـــــادنـا

وبرهان اخــــلاص أرض الجــزا ئـــر عبر القـــرون لقرءاننــــا

ويا وافدون على الرحب ، حـلوا كرامـا بتربـــة أجــــــدادنا

تحييـــكمو مهجـــات الملايـــــــين ، فى الخلد من عز أبطالنــــا

تناشـد فيـــكم صـــفاء الضمــــــــير ، وانصاف حرمــة اســـلامنا

وخدمـــة تاريخـــه من جـــــد يــد ، اذا ما صدقتم لأجيـــالنـا

وأن تغمروا منتداكم وضوحـــا ينـــــير الطـــريق لطـــلابنا

فأرض الجــزائر ، أرض الوضـــــــوح ، وتلك طهـــارة نياتنــــــا

شغلنا الورى ، وملأنـا الدنـــا

بشعر نرتـــــله كالصــــلاة

تسابيحه من حنـايا الجـزائر

(1) هذا المقطع يضم 11 بيتا عوض عشر أبيات ، والبيت الزائد بمثابة سجدة السهو للحفاظ على قداسة الملتقى

بــلادى ، بــلادى ، الأمان الأمان — أغنى عـــلاك ، بــأى لسان ؟

جــلالك ، تقصر عنــه اللغـــى — ويعجــزنى فيــك ســحر البيــان

وهــام بــك الناس ، حتى الطغاة — وما احترموا فيك حتى الزمــان

واغريت مستعمريك ، فراحـــوا — يهيمون فى الشرق بالصولجـــان

ولم يبرحوا الارض ، لما استقلت — شــعوب ، ولــم تستكن للهوان

وزلزلت الأرض زلزالهـــــا — وضــج لغـاصـبك النـــيران

وراهنــه الشعب يوم التنـــادى — ورج بــه الشعب يــوم الرهـــان

فتبيض صفحـــة افريقيـــا — ويسود وجــه المغـــير الجبـان

واشراقــة الــروح منــك تناهت — تشيع الجمــال ، وتفشى الحنــان

اليــك صــلاتى ، وازكى سلامى — بــلادى ، بلادى ، الأمان الأمان !

شغلنا الورى ، وملأنــا الدنـــا

بشعر نرتـــله كالصـــلاة

تسابيحه من حنــايا الجــزائر

قصر الامم ، الجزائر فى يوم 13 جمادى الثانية عام 1392 هـ
الموافق لـ 24 يوليـــــو سنة 1972 م

وهكذا ستستمر الالياذة الى أن تقف على ألف
بيت أى مئة مقطوعة فتصبح ألفيــة الجزائر

مفــدى زكريــاء

صور من الملتقى



لقطة من جلسة الافتتاح ويرى فى الصورة عل اليمين : د احمد طالب الابراهيمى وزير الاعــلام والثقــافة
ـ السيد الحاج احمد حاج عل امين علم الحكومة ـ السيد سليمان هوفمان والى ولاية العاصمة

الإسلام

دين
ودولة
ونظام اجتماعي كامل

مولود قاسم

بسم اللـه الرحمان الرحيم

فضيلة الامـام الاكبر .

اصحـاب المعالى

حضرات الأساتذة الأفاضل

حضرات السـادة

اخوتى الطلبة والطالبات ،

نختتم اليوم هـذا الملتقى السادس بعد ثمانية عشر يوما من عمل دائـم دائب ، بمعـدل ثـلاث محـاضرات فى اليـوم ، ومناقشات وتعقيبات لـم يكن مجموعهـا باقل مـدة من جملـة المحـاضرات ، وهل استطيع بعد كل ما قيل أن آتى بجديد فى الموضوع ؟

لذا فسأكون موجـزا بقدر الامـكان ؛ وسأقتصر على بضع نقـاط فحسب تتصل بلب الموضوع ، وان لم أوفه حقه كما كنت أود .

الاسلام دين ودولة ، ونظـام اجتماعي كامل ، صالح لكل زمان ومكان

قد يقول البعض : ما الفائدة في تكرار هاتين البديهيتين ؟ فالأمر عندنا لا يحتاج الى تأكيد واعادة !

ويجيب آخـــر : ليس هـذا بصحيـح اطلاقـا ، وحتى ان صح ذلـك وفي وقت من الأوقات قـد ولى الى غير رجعة ، فلـم يعد الأمر كذلك بحال !

وهذان الرأيان يتساويان في السلبية ، والعقم ، والبطلان !

وهكذا ففي عصر يجتـاح فيه العالـم صراع فكري عنيف ، أو ايديـولـوجي ، أو عقيدي ، كما يقال اليوم ، نجد المفكرين أو من يسمون كذلك في عالمنا الاسلامي يذهبون مذهبين :

فاذا كان البعض منهم يؤمن بالبديهيتين المذكورتين ، اللتين تتجسمان في حضارة وثقـافـة من أعـرق الحضارات وأخصب الثقافات ، وأكثرها تنوعـا ، وأشملها ، وأعمقها ، وأكثرهـا أبعادا ، اذ امتـدت أنوارها الى أغلب أنحـاء العالـم المسمى اليوم بالمتحضر ، وكانت المنطلق للنهضة الاوروبية ، فان ايمـانه بهما لا يعدو أن يكـون شكليـا سطحيا ، لـم يطبقهما في جـوهـرهمـا ، واكتفى منهمـا ببعض مظاهرهما ، وفي أحسن الأحـوال بالنزر القليل من محتويـاتهمـا ، وبذلك يعطي صورة مشوهـة عن الاسلام ، ويجعـل من نفسه غالبا ـ بقصد أو عن سذاجة ـ أداة طيعة لأنصار الـركـود والجمود ، وعونا للقائلين بأن ليس في الامكان أبـدع مما كان ، ويذهبون أحيانا في ذلك الى التصادق والتحالف مـع أكثـر رجـال اللاهـوت تعصبا ، بـدعـوى تعـاون الأديـان ضد الالحاد ، وينتهون بالسير في ركـاب من تعلمـون !

أما الفريق الآخـر فينكر هـاتين البديهيتين ، ويجحد كل مـا كـان للاسلام من دور رئيسي فاصل في تـاريـخ الحضارة الانسانية ، ويضرب صفحـا عن أربعـة عشر قرنا من الحضارة الاسلامية والفكـر الاسلامي ، ليمـلأ ذلـك الفراغ الهائـل

ببعض القشور البراقة ، والشعارات الرنانة ، من ايديولوجيات مستوردة ، أقل ما يقال فيها أنها لم تفد في الغالب حتى أهلها ، فضلا عن أنها متناقضة مع مجتمعنا ، متنافية مع أصالتنا .

وهذا الفريق اذ يجني على نفسه يجني على أمته ، ويعرضها لأن تبقى معلقة في الهواء ، مذبذبة ، تسعى الى فقدان ما لديها ، ولا تكتسب جديدا ، فهو من يتامى الثقافة والقوم التبع ، يلعب من حيث يدري أولا يدري دور العميل المخرب ، الجاهل بتاريخ أمته ، والباحث عن حتفه بأنفه ، كما يقول المثل العربي القديم !

وللرد على هؤلاء وأولئك ، ومساهمة منا في توضيح الأفكار ، وتصحيح المفاهيم ، ننظم هذه الملتقيات بين نخبة من المفكرين المسلمين ، وفي هذا الملتقى أيضا حتى من غير المسلمين ، والشباب الناهض من طلبة الجامعات والسنتين النهائيتين من التعليم الثانوي ، من الجزائر وغيرها من أنحاء العالم الاسلامي في القارات الثلاث .

ونظن أننا بفتح مجال المناقشة واسعا ، ونشر هذه المحاضرات بواسطة الاذاعة ، والتلفزة ، والصحافة ، وأيضا بجمعها مع المناقشات في مجلدين أو ثلاثة ، بلغتين أو ربما بثلاث ، نساعد شبابنا على معرفة الاسلام في حقيقته بين التيارات الفكرية والحضارية العالمية ، ونعمل على التفاهم والتعاون بين البشر .

اخواني الطلبة ،

يقولون لكم ان الدين ، أي دين ، ويقصدون خاصة الدين الاسلامي ، رجعي ، في صالح الاقطاع ، والاستغلال ، والاذلال ، والانغلاق على العالم !

لقد ضربت لكم أمثلة كثيرة في الكلمة التي كان لي شرف القائها نيابة عن الرئيس بومدين ، وفي المحاضرات والمناقشات الخصبة الهادفة ـ كما يقال اليوم ـ عن عدل الاسلام ، وعن حثه على العلم والعرفان ، وعن تسويته بين حبر العلماء ودم الشهداء ، وعن ثوريته في جميع المجالات الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، وغيرها من نواحي النشاط الانساني وحاجياته الروحية والمادية .

وذلك ان الاسلام دين ودولة ، ونظام اجتماعي كامل ، صالح لكل زمان ومكان ،

اذ يساير التطور المعقول ، حسب ضرورات العصر ، بروح تتمثل في الاجتهاد الذي نجده حتى في القياس والاجماع ، بل نجده حتى في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما رأينا ذلك في مثل عمر الفاروق مع بني مزنة ، وبالتالي فهو مصدر من مصادر التشريع الاسلامي ، خلافا لما يريده له أنصار الجمود والركود !

ولقد كان أيضا نظاما اجتماعيا كاملا بالمعنى الأصيل ، وبالمعنى المتداول اليوم ، خلافا لما تهذى به السنة الثرثارين ، وتخطه اقلام المخربشين !

فلقد تكلمنا عن توزيع الثروات بالعدل في الاسلام ، وأعطينا أمثلة رائعة عن ذلك لدى الرسول نفسه ولدى الفاروق عمر ، وتكلمنا عن اشتراكية الاسلام كما سماها الشهيد حسن البنا ، ووضحنا ووضح الكثير ذلك كله في السنة الماضية أيضا في كلمة افتتاح الملتقى ، وفي معرض الحديث عن الثورة الزراعية والاقتصاد الاسلامي .

وهنا أود أن اكتفي من هذا كله بعقد مقارنة بخصوص موضوع يعد في قمة الانجازات الثورية للنظام الاجتماعي لدى بعض الدول الاوروبية المتقدمة ، واعني به الضمان الاجتماعي .

لقد سبق الاسلام السويد أو أية دولة أخرى في العالم ، رأسمالية أو اشتراكية، الى ايجاد وتطبيق نظام الضمان الاجتماعي ، وحماية العجزة والمعوزين ، وهو ما يسمى بمنحة الشيخوخة .

فلقد أنشأ عمر بن الخطاب هذا النظام ، وجعله يشمل حتى الذميين ، فقد مر ذات يوم على باب قوم وعليه سائل ، شيخ كبير كفيف ، فربت على كتفه من خلفه وقال له : من أى اهل الكتاب أنت ؟ قال : يهودى ، قال فما ألجأك الى ما أرى ؟ فذهب به الى منزله واعطاه شيئا مما كان لديه ، ثم ارسل به الى خازن بيت المال ليجرى عليه ما يصلحه ، وتلى الآية : « انما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل » ، وقال : وهذا من مساكين أهل الكتاب .

ولقد بلـغ من الزكاة فى وقت عمر بن عبـد العزيز ان لـم يعد هنـاك فقيـر يستحقها ! هذه الزكاة التى قال فيها العالم الـدينى الألمانى مـاركس فيلهيلـم مـا يلى : « وكانت هذه الضريبة فرضا دينيا يتحتم على الجميع أداؤه ،وفضلا عن هذه الصفة الـدينية فالزكاة نظـام اجتماعى عام ، ومصدر تدخر به الدولة الاسلامية مـا تمد به الفقراء وتعينهم ، وذلـك على طريقة نظاميـة ، قويمة ، لا استبداديـة تحكمية ، ولا عرضية طارئة .

ويستمر فيقــول :

« وهذا النظـام البديع كـان الاسلام أول من وضع أساسه فى تاريخ البشرية عامة : فضريبة الزكاة التى كانت تجبـر طبقات الملاك والتجار والاغنياء على دفعها لتصرفهـا الدولة على المعوزين والعاجزين من أفرادهـا هدمت السياج الـذى كـان يفصل بين فئـات المجتمع الواحد والدولة الـواحـدة ، ووحدت الامـة فى دائـرة اجتماعية عـادلـة ، وبذلك برهن هـذا النظـام الاسلامى على أنـه لا يقـوم على أساس الأنانية البغيضة » .

ومن هنـا أيضا نقدر الموقف المعروف عن أبى بكر رضى الله عنه عندما حارب الذين عطلوا الزكاة وقال قولته المشهورة : « والله لـو منعـونى عقـال بعير كانوا يؤدونه لرسول اللـه صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه » .

ونستطيع أن نقارن قيمة تلـك الزكاة التى يقوم بها المسلم عن طواعية واختيار ، ليكـون مرتـاحا مـع ضميره والـوازع الـدينى ، بالضرائب التى يتحايـل معها الكثيـر فى أوروبـا ، وتوقع البعض فى احـرج المواقف ، كما جرى ذلك لـرئيس حكومة أوروبية أخـيرا ، اضطـر الى الاستقـالة من أجل حملة صحافية اتهمتـه بالتزوير فى المعلومـات التى قدمها لادارة الضرائب عن أملاكه الخاصة .

ومن بيت المال كان عمر الفاروق يأخذ المرتبات التى كان يجريها على الـزمنى ، أى العجزة ، ومنها أيضا كان يأخذ المنحةالتى عممهـا على الشيـوخ ، والعجـزة مسلمين كانوا أم غيرهم .

وقـد كان الاسلام أكـرم وأعـدل من النظريـات الحديثة فى تـوزيـع المنـح

العائليـة . فـأبوبكر عممهـا على سائـر الاطفال ، خلافا للنظم الاجتماعية الحديثة التى تقصرها على أبناء الموظفين والعمال فحسب .

وقـد بلغ من رحمـة ذلك النظـام فى العهـود الزاهرة للاسلام أن شملت تلـك المنحـة حتى اللقطـاء ، وعمر المتشدد فى المبـادىء ، الصـارم فى الحفـاظ عـلى الاخلاق ومعـانى الرجـولة ، هو الـذى أحدثها ، وكان يـرى ألا يعاقب الاطفال على أخطاء أمهاتهم .

وقل مثل ذلك فى الوليد بن عبد الملك الذى زاد من تعميم هذا النظام ، وكذلك فى عمـر بن عبد العزيز الـذى جعل هذه المنحة العائلية تتجاوز الاولاد من ذكـور وانـاث لتشمل الأم أيضـا ، بفضل هـذا النظام الاجتماعى الرائع الذى يتمثل فى الزكاة التى هى الركن الاجتمـاعى البارز من أركان الاسلام ، وهى ليست صدقـة ومنة ، وانما فريضة من الله ، وحق معلوم للسائـل والمحـروم ، وفى ذلـك يقـول شوقى :

والبـر عنـدك ذمـة وفريضـة	لا منـــة ممنـــونة وحبـــــاء
جاءت فوجـدت الزكـاة سبيلـه	حتى التـقى الـكرماء والبخلاء
انصفت أهل الفقر منأهل الغنى	فالـكل فى حق الحيـاة ســواء
فلو ان انسـانا تخيـــر ملـــة	ما اختـار الا دينك الفقـــــراء !

والى جانب الزكاة هناك الوقف أيضا .

وقل مثل ذلك فى صلاح الدين الايوبى، الـذى سبق بقرون منديس فـرانس الى ضمان نقطـة الحليب . فقـد انشأ وقفـا لامداد الامهات بالحليب اللازم لأطفالهن ، اذ جعل فى احـد أبـواب دمشق ميزابـا يسيل منه الحليب ، وميزابا آخـر يسيل منه الماء بالسكر ، فتأتى الامهات يـومين فى كـل أسبوع فيأخـذن لاطفالهن مـا يحتاجون اليه من الحليب والسكر .

وكانت هناك أوقاف مخصصة لتمويل العلاج النفسانى للمرضى بالموسيقى ومختلف وسائل الترفيه والتسلية ، وكانت فى مستشفى السلطان قلاوون بالقاهرة فرقة خاصة للتمثيل الشعبى المضحك ، كما كانت أوقاف لتزويج الفقراء من البنين والبنات ، وكان هناك وقف الزبادى ، وهو خاص باسعاف الخدم الذين يكسرون ما يحملونه من الأوانى فى الطريق ، فيذهب الصبى أو الخادم الى قيم الأوقاف فيعوضه عن الاناء المكسر بإناء جديد ، حتى لا يتعرض للضرب أو التنازل عن جزء من أجرته لمستخدمه مقابل الاناء المكسر .

بل وكانت هناك أوقاف خاصة بالحيوانات والطيور ، لحمايتها ، وجبر كسرها ، وعلاجها حتى شفائها ، كما كان ذلك فى دمشق وفاس مثلا حتى الى عهد قريب .

واذا كان هذا كله مع الأسف لم يعد موجودا فى العالم الاسلامى اليوم ، بعد أن عصفت به عصور الركود والجمود ، ثم كاد يجهز عليه الاستعمار ، فان أوروبا أو امريكا لم تعرفاه اطلاقا ، والى اليوم ، اذا ما ضربنا صفحا عن بعض جمعيات المحافظة على الكلاب فى بعض دولها ، وهى استثناءات ، فولكلورية اكثر منها جدية حقيقية !

هذا كله فضلا عن الاوقاف المخصصة للمؤسسات الخيرية ، مثل المعاهد العلمية ، والطرق ، والايتام ، والمقابر ، والمساجين ، والآبار ، والمستشفيات ، والمكتبات ، والمساجد ، الخ الخ .

اخوانى الطلبة ،

هذه أمثلة قد تبدو للبعض لاتكاد تصدق ، لجانبها التنظيمى الرائع ، التقدمى كما يقال اليوم ، ووجهها الانسانى حتى مع غير الانسان !

هذا شيء من كثير مما بلغه الاسلام ، وحققته حضارته ، وان بقى أثرا بعد عين ، وعزاؤنا ، بل وأملنا ، بل ويقيننا ، ان ما أمكن بالأمس يمكن اليوم ، اذا ما سرنا على نفس الدرب ، ورجعنا الى تلك الجادة ، ولن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح به أولها ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

ولن يتقدم المسلمون مالم يتساءلوا مثل شكيب أرسلان ، وما لم يعودوا الى القاعدة الذهبية التى تتمثل فى أصول الاسلام الذى كان ، ولا يزال ، ولن يزال ، دينا ودولة ، ونظاما اجتماعيا كاملا ، اذا ما استمسكنا بعروته الوثقى ، كما قال جمال الدين ، وهززنا نفوس الجامدين ، كما قال باديس ، وقلعنا جذور الخائنين ، والخائن فى نظر محمد عبده ليس الذى باع وطنه فقط ، وانما أيضا كل من كان فى استطاعته أن يفعل شيئا فى صالحه ولم يفعله ، وينطبق هذا على كل مسلم كان فى امكانه أن يفعل شيئا لايقاظ الامة الاسلامية ، والتعجيل بنهضتها ، وكان مقصرا كسولا !

سيروا الى الامام ، ولا تستمعوا للاصوات الناشزة الشاذة التى تتلعثم بألفاظ تلوكها لا عن اعتقاد ، وانما عن تعقد ، لاترقصوا على كل طبل يدق ، ولا تفتروا بسلوك تلك الفئة التى تسيء فهم التقدم ، والتقدمية ، وتظن أنه الخروج عن الأصل ، وترك العقيدة السمحاء ، والاخلال بالآداب والتقاليد ، وحاولوا ان تجادلوهم بالتى هى احسن ، والا فاهزأوا من كل تقدمية مزيفة ، عوجاء عرجاء !

لقد سمعت مرة فى مقهى معروف فى احدى العواصم العربية الشرقية كهلا يتكلم مع صاحبه ويقول له : فلان رجعى ؟ أبدا ، انه لا يصوم ، ولقد رأيته يرقص وشربت معه الخمر ، ولايؤمن بالطقوس الدينية !

واستغربت ، ومنذ أشهر سمعت نفس الشيء هنا من شاب جزائرى ، أليس هذا موضة لاتدل الا على فقر مدقع فى الطاقة الذهنية ، وفى العقل السليم الذى زعم ديكارت انه أعدل الأشياء توزعا بين الناس ؟

ويؤسفنا أن نقول هنا أن كثيرا من هؤلاء المساكين نجدهم فى أوساط الذين كانت دراستهم تقليدية كما يقال ، كما لو كانوا يودون ان يؤكدوا لنا أنهم متخاصمون مع ماضيهم ، زاهدون فيه ، منسلخون عنه ، ناقمون عليه ، منتقمون منه ، متنكرون له ، ويصفون كل من يدعو الى القيم ، أو على الأقل لا يشاركهم سطحية تفكيرهم وسخافته ، بأنه متزمت رجعى ، يعيش بعقلية القرون الوسطى ، جاهلين حتى معنى القرون الوسطى ونسبتها ، وغير آخذين من التقدم

والتقدمية الا ما لا يمت اليهما بصلة أو سبب ، ويظنون ان التقدم بالحانات والخانات ، والرقص والكأس ، جاهلين انه لا يكون الا بالمصانع والمزارع ، وبالمعاهد والمستشفيات ، وبالانتاج مع المحافظة على القيم والروح !

لا تنخدعوا بالشعارات الطنانة الجوفاء ، التى تطرب لها نفوس تلك الضحايا ، التى تريد أن تجعل من غيرها ضحايا ، ممن يسمون أنفسهم زعما وبهتانا عقلانيين ، وكل ثقافتهم ، ان كانت هناك ثقافة ، تتمثل فى النقد الهدام ، والسلبية ، والانكار !

كونوا مقبلين على العلم والثقافة ، واقرنوهما بالتمسك باهداب الاخلاق وقواعد التربية ، وبعد هذا كونوا متفتحين على العالم وعلى جميع ثقافاته . وأنتم أشد ما تكونون حرصا على مقومات شخصيتكم ، وعناصر أصالتكم ، التى هى حصانتكم .

فبالاسلام حمينا أنفسنا من المسخ والاندماج . وبالاسلام قاومنا بالامس منذ عبد القادر ، وبومعزة ، ولا لا فاطمة ، والشيخ الحداد ، والمقرانى ،وابن شهرة ، والبركانى ، وبوشوشى ، وبومزراق ، وأولاد سيدى الشيخ ، وابوعمامة ، وساموری توری ، والشيخ شامل الدا غستانى ، وعبد الكريم الخطابى ، وعمر المختار ، والشيخ آمود ، وغيرهم كثيرون ، وبالاسلام قام الكفاح السياسى الثورى والاصلاح الدينى فى الجزائر ، وبالاسلام استمر فاتح نفامبر وانبثق عن 5 يوليو ، وكان جنود جيش التحرير يسمون المجاهدين ، وجريدتهم تسمى المجاهد ، ولا تزال !

بهذا الاسلام الذى يتمثل فى البناء الروحى والمادى ، والجمع بين الدين والدنيا ، لا بذلك التصور السلبى عن الاسلام لدى الذين يريدون أن يجعلوا منه دمية جامدة ، راكدة ، يعلقون عليها تمائمهم وآمالهم ، التى تقتصر على الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، ممن يقفون عقبة فى وجه كل اجتهاد ، وكل تطور سليم ، بل حتى الرجوع الى الاصالة ، بدعوى المحافظة ، وقد رأينا كيف اجتهد عمر أكثر من مرة ، وهو الصارم المتشدد الحازم .

واذا كنا نفند اولئك الذين يدعوننا باسم التفتح المعوج الى نزع السقوف

والرفــوف ، فنحن نستنكــر ايضا موقف دعاة الجمود ، والركود ، والسلبية بــاسم المحافظــة ، الذين يدعوننا من جهتهــم الى اغلاق جميع النوافذ والأبواب !

فبهذا الاسلام سنحــافظ على حصانتنــا ومقومات شخصيتنا ، فبه صمدنــا ، وعلى أساسه قمنــا ، وبــالمحافظة عليه ستوفــق جميع الجهود ، وبذلك لانكون كما قــال ابــو الاعلى المودودى عن سائــر البلــدان الاسلاميــة التى تحررت أنهــا كــافحت بــالاسلام ، ولما انتصرت تنكــرت لــه ، وقلبت له ظهر المجن !

كونوا كالبلابل ، تنام بالليل ، لتقــوم مبكرة بالنهار ، لاستنشاق الهواء الطلق ، والتغريــد الجميــل ، وتحصيــل الــرزق الحــلال ، ولا تكونــوا كــالضفادع التى تقضى ليلها فى التخبط فى المــاء العكر ، والنقنقــة البشعــة المــزعجــة ، وتمضى نهارهــا فى المغاور المظلمة المتعفنة ، وفى الجحور والأوحــال .

لا تنخدعوا بــأولئك الذين يسعون الى أن يجروكم الى المغاور وعلب الليل ، فى جوهم الخانــق المتعفن ، ويظنــون أنهــم بذلك أدبــاء عباقرة ، وفنانــون ملهمون فى كهــوف الحى الــلاتينى عــلى الضفــة الشمالية لنهــر السين ، كأنهم سارتــر ، أو بيكاسو ، أو كأنهن سيمون دى بوفوار !

اخوانى الطلبــة ،

أود فى الأخير أن أشكر باسمكم جميعا حضرات الأساتذة الأفاضل من محاضرين ومعقبين ، الذين أفادونا جميعا بالكثير ، وبذلوا جهدا مشكورا فى ذلــك ، وأتمنى أن نراهم قريبا من جديد فى الجزائر .

وليسمــح لى الجميع أن أخص بالذكر منهم فضيلة الامام الأكبر ، الدكتور محمد الفحام ، شيخ الأزهر ، والسيد بوبوحامة ، رئيس المجلس الوطنى النيجرى ، ومعالى الحاج شريف النبهانى ، وزير التنمية بالجمهورية الغينيــة ، ومعالى السيد عبــد الله ولــد بويه ، وزيــر التعليم الأساسى والشؤون الدينية فى الجمهورية الاسلامية المــوريتانية ، ومعالى السيد محمد عبــده يمــانى ، وكيل وزارة المعارف بــالمملكة العربية السعودية ، على حرصهم على المجىء بأنفسهم ، ومساهمتهم مع بقية الأساتــذة الأفاضل ، الذين أتوا من البلاد الشقيقة ، والصديقة ، ومن الجزائــر ، فى انجــاح

هذا الملتقى فى عاصمة الجزائر ، وهى تحتفل أيضا بعيدها الألفى والذكرى العاشرة لاستعادة استقلال البلاد بعد ليل حالك طويل .

وباسمكم جميعا أيضا أشكر جميع السلطات التى أمدت لنا يد المساعدة ، وأخص بالذكر منها الرئاسة ، ووزارات الخارجية ، والداخلية ، والتعليم العالى والبحث العلمى ، والتعليم الابتدائى والثانوى ، والمواصلات ، والسياحة ، وقيادة الدرك الوطنى ، ووزارة الاعلام والثقافة التى بفضل جهودها تعمم فائدة هذا الملتقى ، وتتجاوز أرجاء هذه القاعة .

وباسم الجميع أيضا أشكر مدينتى مليانة والمدية شعبا ومسؤولين على ذينك اليومين الرائعين اللذين سيبقيان من أجمل أيام الملتقى ، ومن عوامل نجاحه بالقسط الوفير .

وهل أنسى جميع السيدات والسادة الفنيين هنا من الكتابة ، والترجمة ، وكل من ساهم من قريب أو بعيد فى هذا العمل المشترك ؟

وأنتم اخوانى الطلبة ، بعد أن استعملنا معكم شديد اللهجة ، وطبقنا عليكم صارم النظام ، أود أن أهنئكم فى الأخير بحسن انضباطكم ، وكبير اهتمامكم ، ودقيق انتباهكم ، وشديد تتبعكم أثناء المحاضرات ، وعظيم مساهمتكم فى المناقشات .

وحيث طفنا بالمدن الثلاث الكبرى ، قسنطينة ، ووهران ، والجزائر ، فقد قررنا أن ندلى بدلونا نحن أيضا فى اطار سياسة التنمية الشاملة المنسجمة ، وازالة الفروق الجهوية ، ونتوغل فى داخل البلاد ، ونعقد الملتقيات المقبلة فى المدن الداخلية ، ولنبدأ بالملتقى السابع فى تيزى وزو ان شاء الله .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صور من الملتقى



لقطة فى بهو قصر الامم للسادة : مولود قاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ـ رضا مالك سفير الجزائر فى موسكو ـ الدكتور مسعود آيت شعلال سفير الجزائر فى بلجيـــكا ـ العياشى ياكر وزير التجارة

صور من الملتقى



الرئيس يستقبل الاساتذة والطلبة الملتقين فى قصر الشعب

دور العـــروبة والاسـلام

في النهضة العلمية والأدبية والفنية والتقنية في أوروبا وأمريكا

عثمان الكعاك

ان الاسلام ـ الدين الحنيف ـ دين وحضارة ، وثقافة ، وعلم ، وفن ، وتقنية ، وأدب وتصوف . فهو مركب عقائدي حضاري . واذا نظرنا اليه فبهـــذا الاعتبار يجب أن تنظر للاسلام كدين ، فمن حيث انه دين فهو عبـادات أي ايمـــان بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح . والعبادات التي هي عمل أخروي اصالة قد ارتكزت أساسا على أصول دنياوية . فالصلاة نظافة بـــدن وثوب ومكان وقلب وعقل ، ورياضة بدنية كمـا أنهـا رياضـة عقلية ونفسية وتصوفية . وراحة من هموم الدنيا والنفس والقلب وهي نهاية ما تطلبه حضارة اليوم ، وهي خير وضع لعلاقات الناس بعضهم ببعض ولتنظيم اجتماعاتهم وخير مؤتمر أسبوعي للنظر في شؤونهم الدينيـــة والاخلاقية ، والثقافية والاقتصادية ، والجامع جامع أي مركب اسلامي شامل أكبر ، فيه أداء للعبـادة

نص المحاضرة التي القاها الاستاذ عثمان الكعاك بالملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي بقصر الامم بنادي الصنوبر .

وتطهر للنفس ومناجاة للرب ومحاسبة للضمير وحلقة للوعظ والارشاد ومنبر للخطابة الدينية والسياسية والعسكرية ودروس فى مستوى جامعى للعلوم الاسلامية والدخيلة . والجامع رباط لحراسة الثغور وفن معمارى أعلى انتشرت أصوله بآسيا من اليابان والفيليبين الى اسطمبول . وبأوربا من ادرنة الى قرطبة وبأمريكا من شمالها الى اقصى جنوبها سواء فى الجامع نفسه أو فى الكنيسة المبنية وفق أصول الفن المدجن المولد من الفن الاسلامى الصريح والذى قام به مهاجرة المسلمين مع خريستوف كولومب وبعده فى كامل الاقطار الامريكية الشمالية والوسطى والجنوبية . كما انتشر بأوروبا وافريقيا . وحتى بأستراليا .

والصوم هو صوم تعبدى للشعور بالجوع وللتسوية من أسفل فى الشعور بالجوع حتى يتساوى عامة المسلمين فى هذه التجربة . وهو عطلة سنوية صحية للجهاز الهضمى – صوموا تصحوا – والآن تداوى بألمانيا وغيرها من الامراض بالجوع اذ المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء . وهو ايضا صوم الاذن عن الكذب والفحشاء والثرثرة والنميمة والاختلاف فتتكون فيها مصفاة وحس سادس تلقائى للتمييز بيّن الحق والباطل والكلام الناجع والكلام الذى لا طائل من ورائه . وافطار للاذن عن سماع القرآن والحديث والمحاضرة والقول الحسن . وصوم اللسان عن آفات اللسان واطلاق له فى سبيل قول الخير ومطايبة النفوس والقاء المحاضرة والدرس والوعظ وكل قول ينفع الناس أو يعصمهم من زلة .

ولليد صومها فهى تقلع عن فعل الشر والبطش بالناس وكتابة ما لا يسرها فى القيام أن تراه فى سجل آثامها وتفطر عن البذل والسخاء ومصافحة الاخاء والوحدة والتكتل وحمل السلاح لتحرير الاوطان ورفع القلم لاعلان كلمة الله وبيان عظمة الاسلام وتاريخ الاوطان وبث العلم والآداب والفنون وللرجل صومها وافطارها أيضا فهى تصوم عن ذهاب الى أى محل لا يليق بالكرامة والاسلام ان تذهب اليه . وتفطر على الذهاب الى جامع لاداء فريضة واستماع الى درس وحضور ختم الاحاديث والاستماع الى خطاب توجيهى من امام رئيس دولة وحضور حفلات اسلامية كبرى . وانطلاق من الجامع الذى هو رباط الى جهاد لحماية الثغور .

والحج هو درس جغرافى عملى ورحلة علمية تنتقل بك على مهلك من عاصمة علم الى عاصمة علم . ومؤتمر اسلامى يلتقى فيه الاسود بالابيض والاصفر بالاحمر والشرقى بالغربى.والشمالى بالجنوبى فى أبسط ثوب وأسمى غاية وتجرد كلي من الاغراض الدنيوية الدينية وترفع سام الى أنبل الغايات ودراسات لاحوال المسلمين وتحرير للوضع الاسلامى ووصف للازمات والادواء والتماس للدواء عند قبر النبى الاعظم صلى الله عليه وسلم الذى انطلق منه الاسلام مستبشرا ومبشرا .

واما الزكاة فهى صندوق اسلامى يموله ذوى الاقتدار لتمويل التشريعات الاسلامية العامة والفردية من جهاد وسداد ثغر وبناء مساجد ومدارس ومعاهد وتعليم يتيم وتجهيز يتيمة ورفع الخصوصة عن ارملة وتبشير بالاسلام فى كل مكان .

فالعبادات نفسها هى مجموعة منافع تنفع المسلمين وحتى غير المسلمين .

واما قسم المعاملات فهو بيان للعلاقات بين الناس وتوضيح للسلوك العام والخاص وترتيب سليم للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، على أن عقيدة الأسلام هى المساواة بين المسلمين فلا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، وان اكرمكم عند الله اتقاكم وهى الحرية وقد قال عمر بن الخطاب : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا ؟ وهى التسامح فى الدين اذ الاصل الاسلامى هو أن لا اكراه فى الدين ، والاخوة فى الاسلام . فالاسلام كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، ولا يكون المسلم مسلما حتى يحب لاخيه ما يحبه لنفسه ويكره لاخيه ما يكرهه لنفسه . والاسلام يميل الى الحلول البسيطة التى تكاد ان تكون ساذجة لولا انها عظيمة . فلما أراد النبى (ص) فى علم حكمته ان يرفع عن الناس مركب اللون ، الذى هو ابشع مركب ، أمر أبا بكر ان يشترى بلالا وان يعتقه فجعله مؤذن الاسلام وهى أعلى خطة اسلامية بعد الامامة التى هى للرسول والتى هى لازمة للامامة لزوم الروح للجسم . فصار المسلمون لا ينظرون الى قضية اللون وتكونت فى البلاد السوداء امبراطوريات اسلامية كبرى وتكونت حكومات اسلامية بيضاء على رأسها مسلمون سود ككافور الاخشيدى ، ولاول مرة فى التاريخ وقعت وحدة حقيقية بين البيض والسود واذا قارنا بما هو جار اليوم من الميز اللونى فى قارتين على الاقل من قارات العالم علمنا ما هى عظمة الاسلام .

والعقيدة الاسلامية هى ان المسلم – أى مسلم – هو مواطن مسلم ذو نصيب كامل لان الاسلام يجب ما قبله . فلما أراد المسلمون فتح الاندلس اختاروا له طارق ابن زياد وهو فى الاصل يهودى بربرى من قبيلة ادربة ، ولم يروا فى ذلك أى غضاضة بل كان يترأس جيش قريش من الجعفريين وغيرهم ، وكان ابناء الكاهنة من أشد الفاتحين المسلمين . وكان محمود الفزنوى فاتح الهند ، وكان صلاح الدين الايوبى فاتح القدس وهو كردى وكان محمد الثانى فاتح اسطمبول وهو تركى وكان الكثير من علماء الاسلام من الايرانيين والاتراك والهنود والافغان والزنوج والبربر والروم والاسبان وغيرهم من الاجناس التى اعتنقت الاسلام أو اعتنقت لغته وكتبت بها .

فهذه كلمة عن الاسلام كعقيدة وهى موجزة بطبيعة الحال لكنها كالذرة قابلة للتفتيق .

الاسلام كحضارة : وما الاسلام كحضارة فهو جامع ووارث لخير ما يوجد فى الحضارات الكتابية السابقة له ، وهو جامع ووارث ومجمع للحضارات السابقة من صينية أخذ منها الفنون والكاغد والطباعة والغقار (الفخار المطلى) والعلوم وحذق اليد ، والحضارة الهندية أخذ منهاالفلسفة والحكمة والآداب : والحضارة الايرانية أخذ منها الادب ونظام الحكم والفنون والمعمار والزراعات والنظم الاقتصادية ، والحضارية الاشورية أخذ منهاالفلك والتنجيم واشغال الرى والعلوم الفولكلورية ، والحضارة الفينيقية أخذ منها النظام التجارى والملاحة والفلاحة والصناعات التقليدية ، والحضارة المصرية الفرعونية أخذ منها العلوم والآداب والفنون ، والحضارة اليونانية أخذ

منهـا الفلسفة والادب والمنطق والموسيقى والحساب والهندسة والرياضيات . والحضارة الرومانية أخـذ منها نظام المدن والبلديات والمعمار والزراعة والصناعة والفنون الحربية . والحضارة الزنجية أخذ منها حب العمل وتقديس الاشتغال والعناية بالفنون والاساليب الحربية . والحضارة البربرية أخذ منها الجد فى العمل ومواصلة الشغل وحب الدؤوب وقوة العزيمة وبلوغ الهدف واحياء الارض والعلوم الاقتصادية .

أخذ الاسلام كل هذا وجمعه وصهره وأوقع فيه تفاعلا فكانت الحضارة الاسلامية الكبرى الاولى ، كان فيه جامع القيروان الذى فيه العمـــود المصرى والعمود الفينيقى والعمود الرومانى والعمود البزنطى، ولكن فيه المحراب الاسلامى الاصيل والمنبر الاصيل النبيل الجميل والقبة المبتكرة والشمسيات vitraux التى لم يسبق اليها وفيه النقش العربى الذى لا نظير له . وفيه الجامع اذ الجامع جامعة ورباطا وقلعة ومكتبة ومؤتمر اسبوعى .

ومن جامع القيروان الذى هو مركب من عناصر غير اسلامية ضمت اليها عناصر اسلامية كما يضم الى صميم العجين الخميرة والسكر والعسل والفاكهة المهروشة فتصير البقـــلاوة التى ليست عجينا وان كانت من عجين . وهكذا شأن جامع القيروان الذى تولد عنه جامع قرطبة . وتولدت من جامع قرطبـة كنيسة القـــديس يعقـــوب القمبشتالى Saint Jacques de Compostelles التى هى معمـــار أســـلامى مطبق على حاجيات وملابسات اسلامية . ومن كنيسة يعقوب القمبشتالى تكـونت كنائس Le luy و Vezelay و Nuremberg وغيرها . وتكونت المرحلة الاولى من الفـــن المدجـــن Art-Mudjar الـذى سنتحدث عنه بعد حين والذى عم أوربا الغربيـــة وامريكا بشمالها وجنوبها .

وحضارة الاسلام مجموعة حضارات مجموعـة كل الحضـــارة ممتزجـة ببعضها ومكيفـة وملتحمة بالرباط وبالملاط الاسلاميين وباللبنات . الاسلاميـة والصخور الاسلامية الكبرى التى اضافها الاسلام كما سترى .

الاسلام كثقافة : والاسلام ثقافة فعماده كتاب وجملة كتب . فالكتاب هو القرآن الكريم الذى لـــم يفرط فيه الله تعالى من شىء والذى عنوانه برنامج فهو كتاب القراءة المفضل . والذى يبدىء بفعل الامر من مادة قرأ : اقرأ باسم ربك والكلام موجه من وراء النبى صلى الله عليه وسلم الى عامة المسلمين وبالتبعية الى غير المسلمين .

فالاسلام هو أولا وبالذات قراءة . هى ثقافة وأى ثقافة والقرآن الكريم الذى يحفظه المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها هو قراءة ولغة وجمل ونحو وبلاغة ووعظ وعلوم وآداب وفقه وتشريع وأخلاق وعلوم وتوجيه عام .

فهو هو عين الثقافة . والقرآن فن لان زخرفة الخـط القرآنى الكوفى مظلل ومزهـر enlacé fleur ومعـرق ومفصـــن Polybolée وبديـــــع Antithétique وتجليد القرآن الفنى الذى ابتدعه المغاربة وعـــم أوروبا والمشرق وحتى التصوير القرآنى فى المشرق والمغـرب والعنـــاية بالمقـــارى Pupître coranique الذهبية والفضية والعاجيـــة والمتخذة من الاخشاب

الثمينـــــــة كالســــاج Bois de teck والاهتمــــام بزخرفة كراسى القراءة القرآنية فى المساجـد كـل هذه فنون قرآنية علاوة عن الفن الصوتى الرائـــع الذى هو فن عديم النظير أو الفن اللفظى الذى هو الفن البلاغى الذى عم الامم أو فن تصوير المعلقات القرآنية الى غير ذلك .

والله يقسم فى كتابه العزيز بالقلم فيقول جل من قائل نون والقلم وما يسطرون والقسم من طرف الاله الاعظم بالقلم هو أكبر تعظيم للثقافة وقال تعالى : قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهو استفهام انكارى يفيد تفضيل الذين يعلمون عـــلى الذين لا يعلمون .

والاحاديث النبوية هى كنز الامم وذخـــيرة الشعوب فى الاخــــلاق والمسالك التربوية وتهذيب النفوس وشحذ الاذهان والثقافة العامة فايراد ثلاثة احاديث وان تكفينا مؤونة للرد ؟

أما الاول فهو : طلب العلم فريضة على كـــل مسلم وكل مسلمة . قال هذا النبى الاعظم ، فجعل التعليم اجباريا على المراة والرجل على السواء ، وما صار التعليم اجباريا بفرنسا الا اثر الانقلاب الفرنسى بعد هذا التاريخ بأحد عشر قرنا ، وقد جعل المـرأة استاذة فى نصف التعليم فقال : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

والحديث الثانى هو : « اطلبوا العلم ولـــو بالصين » وهذا معناه الابعاد فى طلب العلم والسفر اليه مكابرة المشتاق من أجله . فانبنى عنه نظام طلب العلم المقترن بالحج عند المسلمين فيخرج الحاج من الاندلس أو فاس او بجاية او قسنطينة أو تونس أو ليبيا طالبا للعلم فيحج ويواصل طلب العلم بدمشق وبغداد وسيران وخراسان ونيسابور ثم يرجع يعلم ويتعلم ويجمع أمهات الكتب ويعود الى بلاده بمكتبتين أهمهما التى برأسه ، وهكذا فالحج بصورتيه هـــو جامعة تلفزيه متنقلة بالاضافة الى تلك العصور وقد صارت الكتب تسافر يومئذ اكثر من مضيفات الهواء فى هذا العصر وبأكثر نجاعة عقلية .

ويفيد هذا الحديث من ناحية أخرى الحث على طلب الثقافات الاجنبية ولو الصينية منها ، وهـذه الظاهرة الثقافية الممتازة التى ترمى للجمع بـــين الثقافة الوطنية الاصلية والثقافات الاجنبية لـــم تبد فى أوربا الا فى القرن الماضى ، فهى متأخرة عن الحديث نظرا وعملا باثنى عشر قرنا .

وحديث ثالث يقول : اطلبوا العلم من المهـد الى اللحد . أى أبدءوا طلب العلم فى سن مبكرة وواصلوا ذلك الى آخر نفس من الحيـاة ومعناه أن العلم لا يقترن بسن ، فمن فاته ان يتعلم فى الصغر جاز أن يتعلم فى الكبر وهذا هو مفهوم رفع الامية وتبكير طلب العلم والاسترسال فيه الى آخر يوم ، وما ظهرت هذه المعانى كقاعدة بيداغوجية فى أوروبا الا فيما بين الحربين العالميتين ، وقد سبقها الحـديث الشريف بثلاثة عشر قرنا ، سبقها وعممها وطبقها .

وهنالك اثر أو رواية عن على كرم الله وجهه يقول : علموا أولادكم غير ما تعلمتم فانهم سيعيشون لعصر غير عصركم ، وهذه الحكمة البيداغوجية البالغة ما ظهرت الا بعد هذه الحرب العالمية ـ ولو طبقت هذه

القاعدة البيداغوجية الاسلامية العليا لاجتنبنا كثيرا من تعثرات برامج التعليم ومن خصـــومات الشيب والشباب ومن مشادات الجيل الحادر والجيل الصاعد ، فانظر الى حكمة الاسلام البالغة . والى مراميه الثقافية التربوية العجيبة وكان الاسلام حصيفا حيا حيويا حركيا متوثبا جامحا فنظر في وضعه الثقافي حين انطلاقته الاولى في صدر الاسلام Le premier Islam فوجد ثقافة جاهلية تعتمد على الشعر وبعض الخطب وبعض الحكم ، ووجد الثقافـــة الاسلامية التى هى الكتاب والسنة قبل الجمع والشرح وتدجين الفقـه والعلوم الاسلامية كما سنراه بعد ، فوجد نفسه ، وهو الدين ذو النزعة العالمية خلوا من ثقافة عالمية امية ، فقال عن بها وفى اقرب الآجال فامر منـــذ العهد الاموى بترجمة جميع كتب الامم من هندية وايرانية وآشوريـــة ونبطية وسريانيـــة وفينيقية ويونانية وروماتية وبربرية وعبرانية الى العربيـــة ، فما جاء عصر المامون العباسى الا وقد ترجم كل علم وادب وفن من طب ونبات وحيـوان وطبيعة وفلك وهندسة ورياضيات وموسيقى ومعمار وأدب وفلسفة وأخلاق وجغرافية وتاريخ وفلاحة وكيمياء وطبيعة ، فصارت اللغة العربية التى كانت خاليـــة حتى من مصادر نفسها Sa propre bibliographie هى لغة المصادر العالمية ولغة العـلوم والآداب والفنـون والتقنيـات الجامعة فهى لغة الثقافة العالمية ليست لغـــة أخرى غيرها أما هى والا فلا .

وصـــار اليونانى أو الرومانى أو الهندى أو الايرانى الذى لم يكن يعرف الا ثقافة لغته الوطنية يعرف ثقافات كل الامم عن طريق العربية ، فصارت هناك ثقافة عالمية اميـــة وضعها المسلمون بواسطة التراجمة من جميع الامم .

ومر العمل بالمراحل الآتية :

المرحلة الاولى : الترجمة كما تيسر

المرحلة الثانية : تهذيب الترجمة

المرحلة الثالثة : شرح الترجمة المهذبة

المرحلة الرابعة : تاليف الكتاب العربى الاصيل فى أى علم

المرحلة الخامسة : تاليف الكتـــاب العـــربى الاصيل فيما زيد على علوم الاقدمـــين وما ابتـكره واخترعه المسلمون .

المرحلة السادسة : وهى المرحلة الموسوعية Encyclopèque الاسلامية من القرن السادس الى الثامن فالف الادريسى المغربى وابن فضل الله العمرى دائرات معارف فـى اصول علم الجغرافيه وفى الجغرافيه المبسوطة ولتعرف اهمية ذلك فقسم جغرافية فرنسا من كتاب نزهـة المشتاق للشريف الادريسى المغربى يؤلف كتابا كاملا على حين لم يؤلف بالفرنسية التى كانت يومئذ فـى حالة تمخض فولكلورى ولا بالاجنبية كتـــاب عـن جغرافية فرنسا وكذلك الحال بالاضافة الى ايطاليـا واسبانيا ، وروسيا وفنلاندا والدانمارك وسكنديناوه Scandinawa وهولانـــدا .. الى غير ذلك .

فهذا المجهود الضخم الشامل الطريف الجليل الغنى الدسم المتواصل الذى هو ثقافة الاسلام الامية ومثله موسوعة ابن خلدون التاريخية ومقدمـــة ابن خلدون التى ابتكر لها فيلسوفنا المغـــربى العالمى فلسفة التاريخ وعلم النقد التاريخى وعلم نقـــد

النصوص La crétique verbale وعلم الاحصائيات والعلوم الاقتصادية والاجتماعية والاقتصادالسياسي والاقتصاد الاجتماعي économique sociale والفولكلور وعلم الادب الشعبي الى آخره، وكذلك موسوعة شرف الدين التيفاشي للقفص التي خصصت لكل علم أو فن مجلدا من نجوم وطبقات أرض وعلم معادن وجواهر ونبات وحيوان وكيمياء وطبيعة وموسيقى الى غير ذلك . وكذلك الموسوعة القانونية التي هي كتاب المعيار الونشريسي الجزائري أو دائرة المعارف الاندلسية التي هي نفح الطيب للمقري التلمساني أو دائرة المعارف والعلوم الغيبية التي هي شمس المعارف لاحمد البوني الجزائري ومنها اكتشف الاوروبيون علوم الرياضيات العليا .

ولم يقف المسلمون عند هذا الحد بل كانوا لطفاء للغاية فترجموا كتبهم العلمية والادبية والفنية المستجدة الى اللغة الاجنبية حتى ينتفع بها الاوربيون في جامعاتهم الجديدة التي أسسوها لهم مثل جامعة طليطله بالاندلس أو سالرم بايطاليا . فعل ذلك قسنطين الافريقي المغربي Constantin l'Africain الذي هو قسنطين بن محمد القيرواني . فمحمد اسمه العربي وبقي اسم أبيه وهو شيخ مدرسة سالرن ومدرسة جبل قاسيني (رباط قاسم) Mont-Cassin ومدرسة كريمونه التي منها جيراردو الكريموني Gérard de Crémoni الايطالي الذي انتقل لتنشيط مدرسة طليطله Tolède باسبانيا لنقل العلوم العربية الى اللغة الاجنبية ونستطيع أن نقول بوجه عام ان لغة الثقافة وكتب الثقافة في العلم من القرن السابع الميلادي الى القرن السابع عشر هي اللغة العربية والثقافة العربية سواء بلغة الاصل أو الترجمات الاجنبية أو العبرانية أو الاسبانية أو الفرنسية أو التركية أو الفارسية أو الالمانية أو الانكليزية أو الايطالية .

والاسلام هو لغة علم بالاضافة الى نفسه وبالاضافة الى العلوم العامة الامية ، فبالاضافة الى علوم نفسه فان الاسلام وضع :

أولا : العلوم الآلية Sciences Instrumentale

فلما كان القرآن الكريم والحديث الشريف يعتمدان على اللغة العربية فاحتاج المسلمون الى وضع علم اللغة أو علم متن اللغة Lexicologie وهو جمع المفردات في منفردات (Monographie) كل منفرد . بصنف مترابط من الالفاظ ككتاب الابل وكتاب الخيل وكتاب خلق الانسان وكتاب الرجل وكتاب السروج والدابة . ثم انتقلوا الى علم المعاجم (Lexicographie) فوضعوا معاجم جامعة لهذه المنفردات مثل فقه اللغة لابي منصور الثعالبي أو المخصص لابن سيده . ثم وضعوا المعاجم العامة التي اعظمها لسان العربي ومؤلفه مغربي جامع بين تونس وليبيا وهو ابن منضور . ثم وضعوا المعاجم المختصة كمعجم البلدان ومعجم النبات ومعجم الحيوان ومعجم الفلك . ثم وضعوا المعاجم التقنية ككشاف مصطلحات القانون للتهانوي ومعاجم الحديث ومعاجم القرآن ثم وضعوا معاجم التراجم وتسمى كتب الطبقات ككتب المفسرين والمحدثين والمدلسين والصحابة والتابعين والنحويين والاطباء والعلماء والفلكيين وغير ذلك .

فخدم العرب وفتحوا الباب للامم الاخرى بل سبقوها في وضع المعاجم للغاتها كالمعجم البربري

العربي والمعجم التركي العربي والعبراني العـــربي والزنجي العربي والايراني العربي واهل مجر ، وتعلم عنهم الامم وضع المعاجم بالاسلوب اللغي ذكرنا . ثم ان جمع اللغة افتقر ايضا الى وضع علم النحو فوضع المسلمون النحو بدون التجاء الى نحو يوناني أو لاتيني بل هو نحو مبتكر واسلوب طريف لكن نهج عـــلى منواله اليهود والبربر والترك والايرانيون والزنوج في وضع كتب نحو للغاتهم والغالب ان مؤلفاتها الاولى وضعت بالعربية مثل كتاب اللمع في نحو اللغـــة العبرانية لمروان بن جناح أو نحو اللغـة التركيـة للغرناطي . بل وضع المغـاربة لاول مـرة في تاريخ البشر النحو المقارن للغات السامية

Grammaire composée des langues Sénutiques وضعه على عهد الاغالبة Aghlabides في القرن التاسع الميــلادي دونش بن تميم قبـــل ان يكتب الالمـــــاني Gesnices كتابه في ذلك في القـرن السابع عشر . فالمغاربة سابقـون بثمانية قـــرون

ونقـــول من جهـــة أخـــرى أن المثاغـرة L'esprit de marche frontière ، وذلك أن المغاربة يسكنون اقطارا كلها ثغور marches frontières بحرية أو برية . فهم يعيشون على حدود دار ليست اسلامية ولا عربية وهم بعداء بطبيعة الحال عن ديار العروبة والاسلام الاصيلة فقـــد احتاجوا الى أن يضاعفـوا تمسكهم بالعربية وأصول الاسلام من أجل ذلك كانوا أحرص الامم الاسلامية على دراسة النحو واللغـــة والآداب العربية والنبوغ فيها وكثرة التاليف فيها حتى في أدق خصائصهم فكثر من كبار النحاة واللغويين منهم مثل ابن سيدة والسلوبين وابن حيـــان والقـزاز والقيرواني وابن منضور وابن القطار وابن الاجدابي وابن آجرم وابن مالك وابن القصاع السعدى وابن القوطية وغير هؤلاء .

واحتاج المسلمون كذلك لضبط لغتهم الى دراسة الشعر لان الشعر هو ديوان العرب وبه الشواهـد النحوية أو اللغوية فوضعوا كتب معاني الشعر ونقد الشعر والعروض والقوافي وعلوم النقد الادبي وكثير ممن اشتغل بذلك من المغاربة كعبدالكريم النهشلي والحسن بن رشيق وابن شرف القـــيرواني وحـازم القرطاجني وغيرهم .

واهتم المسلمون أيضا بوضع العلوم البلاغية لفهم البلاغة القرآنية وانتقلت هذه البلاغة الى أوروبا في أعالي القرون الوسطى وبقيت الى القرن السادس عشر حيث ظهر البلاغيون الكبار Les grands rethonqueurs مثل comme Ronsard - Joachin de Bellay وأضرابهما . وأخذت تتناقص في القرن السابع عشر حينما ألف Racine الفرنسي كتاب الفن الشعرى عـــلى أساس اليونان والرومان فانتقصت البلاغة العربية التي رجعت مع الابداعيين Les romantiques في أوائل القرن الماضي .

وهذه العلوم الآلية التي أبدعوها من العـدم وأحيانا من بعض الاقتباس الذكي من اليونانيـــة ككتاب فويطيقا وروطريقا La réthonque La poétique أفلاطون التي ترجمت وشرحت وفصلت وقورنت هذه العلوم الآلية أثرت في اللغات الشرقية والغربيـــة بنفسها انطلاقا من تاليف المسلمين وتعاسيهم اللغوية.

علوم القرآن : وابتداء من ذلك بدأ المسلمون بتفسير القرآن وأول المفسرين هو مغربي وهــــو عبدالله بن العباس رضى الله عنهما وأخوه معبـــد

صاحب مدفون بباجة ثم جاء يحي بن سلام القيرواني المتوفي سنة 200 ووضع تفسيرا على أصول العلوم القرآنية وتكاثرت التفاسير القرآنية الشرقية ولاسيما الغربية كتفسير ابن عرفة وابن يزيزة البسيل والعلامة الثعالبي واضرابهم . وكذلك علم القراءات وكثير من علمائه من المغاربة واشهرهم مكن أبو طالب القيرواني ومحمد بن خيرون القيرواني وابن عمرو الداني .

ووضع المسلمون علوم الفقه والحديث وكتب الطبقات لكنهم ابتدعوا ايضا علم النوازل La Jurisprudence وهو جمع الاحكام القديمة وترتيبها حسب حروف مواضيعها للرجوع اليها عند اعواز النص من كتاب وسنة وكتب الفقه . وهذا علم مغربي أصيل بدأ فيما نعلم بكتاب النوادر Les Tartares لابن أبي زيد القيرواني وبلغ قيمته بمعيار والمازونية وكلاهما من كتب الجزائريين .

وكذلك ابتدع المغاربة علم الحسبة كان مدمج في الفقه فاخرجوه منه وفصلوا مواضيعه كآدال المعلمين وهو البيداغوجيا وأول من ألف فيه محمد بن سحقوت ولم يكن اليونان ولا الرومان يعرفونه .

وآداب الوكيل لعيسى بن مسكين دفين مسجد عيسى بالساحل التونسي قرب سوسة وهو القانون الاساسي لمهنة المحاماة الفه سنة 290 هـ ولم يكن اليونان ولا الرومان يعرفونه . وأحكام السوق ليحي ابن عمر دفين سوسة وترتيب السماسرة : Statuts organiques des courtiers وهو من رجال القرن الرابع الهجرى ودفين مرناق قرب حمام الابق بالضاحية الجنوبية من تونس .

ووضع ابن الرامي كتاب أحكام البناء وهو كتاب جليل جدا هذا علاوة عن كتب الحسبة العامة مثل تاليف السقطي وابن عبدون وابن الاخوة أو كتب مقاومة البدع التى هي في الآن الواحد كتب حساب تربوية وكتب بيان للفلكلور .

فانظر الحسبة التى كانت في الاصل . بابا من أبواب الفقه في مدونة لسحنون ابن سعيد كيف صارت علما قائما بذاته . تفرعت عنه علوم قائمة بذاتها كآداب القاضي وآداب السلطان وآداب الوزير وآداب المعلمين وأحكام السوق وترتيب السماسرة وأحكام البناء وكل هذا تفتق وانتشار وتكامل قد وقع بالمغرب على الاكثر وكان معظم مؤلفيه وواضعيه من المغاربة .

ووضع المسلمون العلوم القرآنية من تفسير ومعاني القرآن واعراب القرآن وناسخ ومنسوخ وطبقات مفسرين .

ووضعوا علوم الحديث وهي علوم تعتمد على سياسة الاسناد من تابع التابعين Le suivant des suivants وترتفع الى التابع Le suivant ثم الى الصاحب Le compagnon ثم الى النبى صلى الله عليه وسلم الذى روى عنه الصاحب .

وتولدت من ذلك كتب الصحابة وطبقات التابعين وطبقات تابعي التابعين . ثم كتب الثقات وكتب الضعفاء وكتب المدلسين ثم كتب الاسماء والامكنة ثم كتب مصطلح الحديث ثم على الخصوص كتب تصحيح النصوص التى تسمى الآن كتب نقد النصوص La critique Verbale التى تولد منها عند المسلمين كتب تصحيح نصوص المخطوطات

وتحقيقها وعلم الخطاطة بوجه عام Paléographie كما تولد من علم اسناد الحديث فى سلسلة متماسكة الحلقات من تابع التابع الى الرسول الاعظم من اسناد المخطوطات من المخطوط الحاضر بين أيدينا الى المخطوط الام الذى كان يضعه مؤلفه فى جامع دار الخلافة كابداع شرعى اسلامى Dépot légal Islamique فيصحح عليه الناس كتبهم .

العلوم المتولدة عن العبادات :

أولا ـ الصلاة : تولد عن الصلاة علم بناء الجوامع ومعمارها وبناء الاسواق الوظيفية بالاضافة الى الصلاة ، فانت اذا نظرت الى الجامع وجدته محاطا بجملة أسواق له اتصال مباشر بوظيفته ، وتسرب هذا حتى الى كنائس النصارى . فلما كان الجامع مدرسة جامعية كانت أقرب الاسواق اليه سوق الكتبيين أو الوراقين ، ولما كان الجامع محل تحرير العقود ، عقود الزواج والبيع والشراء والايجار وغيرها فمن أقرب الاسواق اليه سوق الكتبيين ولما كان الجامع رياضا لحراسة الثغور فمن أقرب الاسواق اليه سوق السلاح ولما كانت الصلوات ليلية ونهارية فالمصلى يحتاج الى شمعة فى الطريق وفى الجامع يحفظها فى فنار فحول الجامع سوق الشماعين والفنايرية ولما كان الجامع يعج بالمصلين فمن السنة تعطيره وتبخيره فلذلك كانت سوق العطارين وسوق الطيبيين ملاصقتين للجامع ـ وهلم جرا .

ومن العلوم اللازمة للصلاة علم الميقات لتحرير الوقت وايجاد الآلات اللازمة لضبطه . وقد بلغ علم الميقات عند المسلمين درجة الاستقلال بنفسه ومبلغا عظيما من الحسابات الرياضية ومن العلوم الميكانيكية.

وتفرعت عن الصلاة مؤسسات كالميضات ولها فنها المعمارى الجميل والحمامات وأسواق القباقبية والفراملية وغيرها ، وأدوات دورة الحمام كالسطل والطاسة والمحكة والصابون الذى اخترعه المسلمون وفن المواسير والقنوات والحنايا وصناعة الفوط وبشاكير الحمام وغيرها ، علاوة عن فن العطارة الذى جعله المسلمون فنا قائما بذاته الفوا فيه ودرسوه واخترعوا واستنبطوا التحليل والتقطير والتصعيد وفن الزجاجات الجميلة المذهبة وفن أنواع الطيب والبخور الذى جلبوه من مدغشقر الى الهند الصينية (وهو القمارى) الذى هو من بلاد Khmer بكمبوديا التى بها الحرب الآن .

ثانيا ـ الحج : الفت من أجله كتب المسالك والممالك لمعرفة الطرق ومحطاتها ومنازلها وكتب الرحلات التى بلغت الغاية الوصفية والتدقيقية عند المسلمين وفن قيس المسافات وفن المسافرخانة Industrie Hôtelière وابتدعوا فنا موسيقيا دينيا خاصا يسمى فن التشويق تؤلف له الاشعار الفصحى والعامية وتلحن له الالحان الشجية .

ومن أجل الحج نظم المسلمون القوافل خصوصا قافلة الحج وعبدوا الطرق وبنوا القناطر والجسور واستنبطوا الفنادق وهى منازل فيها المسكن والمبيت والمسجد ومرابط الخيل ومستودعات البضائع وكل ما يلزم لراحة المسافر ـ ورحلة التجانى ورحلة ابن جبير مليئتان بوصف هذه الفنادق التى انتقلت الى الاوربيين حتى بأسمائها فبالاسبانية Fonda وبالايطالية Fondaco

صاحب مدفون بباجة ثم جاء يحي بن سلام القيرواني المتوفى سنة 200 ووضع تفسيرا على أصول العلوم القرآنية وتكاثرت التفاسير القرآنية الشرقية ولاسيما الغربيــة كتفسير ابن عرفــة وابن يزيزة البسيلي والعلامــة الثعــالبى واضرابهم . وكذلــك علم القراءات وكثير من علمائه من المغاربة واشهرهم مكن أبو طالب القيرواني ومحمد بن خيرون القيرواني وابن عمرو الداني .

ووضع المسلمون علوم الفقه والحديث وكتب الطبقات لكنهم ابتدعوا ايضا علم النوازل La Jurisprudence وهو جمع الاحكام القديمة وترتيبها حسب حروف مواضيعها للرجوع اليها عند اعواز النص من كتاب وسنة وكتب الفقه , وهذا علم مغربي أصيل بدأ فيما نعلم بكتاب النوادر Les Tartares لابن أبي زيـد القيرواني وبلغ قيمته بمعيار والمازونية وكلاهما من كتب الجزائريين .

وكذلك ابتدع المغاربة علم الحسبة كان مدمج في الفقه فاخرجوه منــه وفصلوا مواضيعه كآدال المعلمين وهو البيداغوجيا وأول من ألف فيه محمد بن سحقوت ولم يكن اليونان ولا الرومان يعرفونـه .

وآداب الوكيل لعيسى بن مسكين دفين مسجد عيسى بالساحل التونسي قرب سوسة وهو القانون الاساسي لمهنة المحاماة الفه سنة 290 هـ ولــم يكن اليونان ولا الرومان يعرفونه , وأحكام السوق ليحى ابن عمـر دفــين سوســة وتـرتيب السماسرة : Statuts organiques des courtiers وهو من رجال القرن الرابع الهجرى ودفين مرناق قــرب حمــام الابق بالضاحية الجنوبية من تونس .

ووضع ابن الرامى كتاب أحكام البناء وهــو كتاب جليل جدا هذا علاوة عن كتب الحسبة العامـة مثل تآليف السقطي وابن عبدون وابن الاخوة أو كتب مقاومة البدع التى هى فى الآن الواحد كتب حساب تربوية وكتب بيان للفلكلور .

فانظر الحسبة التى كانت فى الاصل , بابا من ابواب الفقه فى مدونــة لسحنون ابن سعيد كيف صارت علما قائما بذاته , تفرعت عنه علوم قائمـة بذاتها كآداب القاضى وآداب السلطان وآداب الوزير وآداب المعلمين وأحـكام السوق وترتيب السماسرة وأحكام البناء وكل هذا تفتق وانتشار وتكامل قــد وقع بالمغرب على الاكثر وكان معظم مؤلفيه وواضعيه من المغاربة .

ووضع المسلمون العلوم القرآنية من تفســير ومعانى القرآن واعــراب القرآن وناسخ ومنسوخ وطبقات مفسرين .

ووضعوا علوم الحديث وهى علوم تعتمد عــلى سياسة الاسناد من تابع التابعين Le suivant des suivants وترتفع الى التابــع Le suivant ثم الى الصاحب Le compagnon ثم الى النبى صلى الله عليه وسلم الذى روى عنه الصاحب .

وتولــدت من ذلك كتب الصحابــة وطبقات التابعين وطبقات تابعى التابعين , ثم كتب الثقـات وكتب الضعفاء وكتب المدلسين ثــم كتب الاسماء والامكنة ثم كتب مصطلح الحديث ثم على الخصوص كتب تصحيح النصوص التى تسمى الآن كتب نقـد النصوص La critique Verbale التى تولد منها عند المسلمين كتب تصحيح نصوص المخطوطات

واستنبطوا للاسطول الدبة Gouvernail التى تمكن من توسيع نطاق السفينة والبوصلة أو بيت الابرة Boussole التى توفر مشاق التنقل Cabotage فالسفينة تعرف سبيلها فلا تقف بالليل وتلازم عرض البحر ولا تحتاج الى ملازمة السواحل واستنبطوا الاسترلاب Lastrolabe الذى تضبط به نقط المواقع Faire le Point بواسطة خطوط الطول Méridiens وخطوط العرض Paralléles واستنبطوا الخرائط البحرية Portuants ووضعوا علم الملاحة وألفوا فيه وكانوا بفضل الحج من هذه الناحية أساتذة Magellan, Vasco de gama Christoph Colomb,

ثالثا ــ الجهاد : هو من ناحية تبشير بالاسلام ومن ناحية عمل حربى دفاعى ، استنبط له المسلمون الاربطة وثكنات Casernes للمرابطين Moînes Soldats Musulmans يرسون فيها الثغور البحرية يوم لم تكن للمسلمين أساطيل تقوى على الروم ، وهى ألف رباط على السواحل .

واستنبطوا فى أحمية الحصون فألف فيه يحى بن عمر دفين سوسة قبل Vauban الفرنسى بقرون واستنبطوا من الاسلحة البلطة وهى رمح وساطور وشاقور فى الآن الواحد فأخذها الاوربيون فسميت بالاسبانية Alabarda وبالفرنسية Hallebarde وبالانكليزية Halberd.

واستنبطوا قوس البندق Arbalète واستنبطوا الاسلحة النارية من البنادق الى المدافع وكان اختراع ذلك بدار الكيمياء بالمهرية سنة ١١١١ م قبل واقعة Crecy التى يزعم الاوربيون أن المدافع اخترعت بها ــ وكان ذلك قبل قرنين ونيف واستنبطوا القلاع الكبرى وجهزوها بالمساقط Machicoulis وبالحسك Herse واستنبطوا الاساطيل الحربية الراقية المجهزة بالنار الفارسية Feu Grégeois ثم بالمدافع والوسائل الميكانيكية الراقية مثل الدفة والبوصلة والاسطرلاب والخرائط البحرية ، فكل هذه الفنون الحربية متولدة من الجهاد والمرابطة والمثاغرة .

رابعا ــ الزكاة والخراج والتبالة والجزية : تولدت منها علوم وهى علم الخراج impôt foncier وعلم قيس الاراضى Lopographie وعلم المثلثات Trigonométrie وعلم الحسابات Comptabilité Fiscale ومن أنواع الزكاة الصدقة المستورة والاوقاف التى بلغ فيها المسلمون كل مبلغ حتى عجزوا عن استنباط المواضيع التى يمكن التحبيس من أجلها فحبسوا على الطيور القاطعة Oiseaux Migrateurs التى اقعدها المرض عن السفر وعلى الولد الذى يكسر زجاجة الزيت عند الشراء من البقال وعلى الولد اليتيم الذى ليس عنده دانق Obole لشراء خضروف أو كرة Foupri فبقى باكيا عند سرور اخوانه باللعب وحبسوا الزلابية والسمك على المؤذن فى الجامع علاوة عن التحابيس الكبرى .

خامسا ــ الصوم : يحتاج الصوم الى رؤية الهلال ، فاتجه المسلمون الى دراسة الفلك ومواقع النجوم والحسابات الكبرى لتحقيق معرفة الهلال لاربعة آلاف عام ، واستنبطوا وسائل الاعلام بالافطار والامساك وهى العلم والنور ، والأذان ، والنفير ، والمدفع وبوطبيلة وأسسوا له فنا ادبيا وموسيقيا خاصا يسمى (قوما) وهو فعل الامر من قام يقوم

أى استيقظ والخطاب بالمثنى موجـــه الى الرجـــل وزوجته باعتبار أن الاولاد لم يبلغوا سن الرشد ، وابتدعوا أدبيات رمضان وهى أشعار تصوفيــة أو فكاهية ترفيهية وكتب فضائل رمضـــان والاشهر الفاضلة والايام الفاضلة .

واما قسم المعاملات الاسلامية الذى ولد علوما خاصة به فاهمه علم الفرائض أو المواريث من أجله رقى المسلمون علم الحساب ، حساب الفرائض ووضعوا عـلم الجبـر والمقابلة وعـلم الخوارزمية Algocrisme

ثم ان المسلمين احتاجـوا لاعـــداد كل هـــذا الى ترقية العلوم التى وجدوها عند الاولين وترجموها الى العربية أو التى استنبطوها ، وهى :

اولا ـ علم الارقام : ان الارقام اليونانية أو الرومانية لا تساعد على الحسابيات العليا فاستنبط المسلمون ارقاما جديدة تعتمد فى قيمتها على ما لها منزوايا Angles فرقم 1 يمثلزاوية واحدة ورقم 2 يمثل زاويتين فقيمته اثنان وهلم جرا ، فأنت بمجرد النظر الى عدد الزوايا التى يمثلها الرقم تعرف قيمته .

دار الآحاد	ـ العشرات	ـ المئات	ـ الآلاف	ـ الى ما لا نهاية له
1 = 1	1 = 10	1 = 100	1 = 1000	
2 = 2	2 = 20	2 = 200	2 = 2000	
3 = 3	3 = 30	3 = 300	3 = 3000	

ثم استنبطوا لكل رقم قيمة ذاتية وهى التى ترمـــز اليهـــا زوايـــــــاه ، وقيمــــة مقامية Valeur des positions باعتبار الديار من اليسار الى اليمين صاعدا .

فاذا أعوزهم رقم وضعوا مكانه الصفر الاختراع العظيم الذى سماه Mielli الايطالى فى كتابه تاريـخ الرياضيات المترجم الى العربية ـ معجزة المسلمين .

قال شاعرهم :

وجعـــلوا الصفر علامــــة الخـــلا
مـــدورا كمثــــــل حلقـــة جـــلا

ونقلوا ذلك الى أوربا التى لم تكن تعرف شيئا من ذلك . وانتقلت الارقام الى أوربا من طريقين : طريق بجاية الى جنوه بايطالية (انظر دائرة المعارف الايطالية فى كلمة Cifra) ومن طريق الاندلس .

وعمليا انتقلت علوم المسلمين الى أوروبا بمسلك شرقى وهو الحروب الصليبية لكنه وان كان عظيمـا جدا الا انه متأخر بعض التأخر .

ثم من المسالك المغربية التى هى تونس والجزائر ومراكش والاندلس وليبيا ـ فمن تونس كان المسلك تونس (القيروان ـ المهدية) صقلية (بالرم) ساحل نابلى ، جبل قاسم Monte-cassino ولا سيما مدينة سالرت وجامعتها الطبية .

ومن الجزائر فالمسلك بجاية جنوه . ومن المغرب فالمسلك فاس سبتة قرطبة طليطله Tolède .

الاسلام والعلوم الرياضية اللازمة له :

كان الاسلام بالاضافة الى العلوم الدخيلة فى المقام الاول مترجما ثم شارحا ثم مؤلفا ثم مخترعا .

لكنه بالاضافة الى مساس بعض العلوم الدخيلة الملحة كانت مخترعا . فلقيس الاراضى ولحساب الفلك والميقات ولرياضيات الجبر والمقابلة كان محتاجا الى استنباط أرقام عملية واضحة سليمة فاخترعها أولا وبالذات وكانت من ذلك احدى معجزاته العلمية التى قدمها هدية للعالم على طبق من ذهب وبوجه مبتسم ليس فيه من .

ثم هو احتاج فى علم ميقات الصلاة الى حسابيات دقيقة فوضعها ووضع آلاتها العلمية الراقية . وأولها المزولة Cadran solaire ثم المرملة Sablière ثم الساعة l'horloge التى تولدت منها الساعة الجيبية Montre ومن اشهرها ساعات الجوامع بفاس وتلمسان وتستور ومالطة ودمشق علاوة عن ساعات الاندلس .

فالساعة اخترعها المسلمون من اجل معرفة أوقات الصلاة وأوقات السفر للحج وأوقات الافطار والامساك . فانتقلت من صومعة الجامع الى صومعة الكنيسة لا العكس . ومن ينظر الى ساعة صومعة شتور البلدة الاندلسية الموجودة يجد أرقامها تنطلق من اليمين الى اليسار فهناك 12 وعلى يمينه 2 وعلى يساره 1 ثم 2 ثم 3 الخ . وعلى يساره 11 ثم 10 الخ . وقد تتعجب من هذا الانحراف ولكنه عين الاستقامة فالمسلمون لما كانوا المخترعين للارقام وللساعة جعلوها تنصرف من اليمين الى اليسار وهذا هو منهاجهم حتى فى الحساب فهم لا يكتبون 1972 بل يقولون 2 و 70 و 900 وألف وهذا حتى من حقوقهم فلما انتقلت الساعة الى سويسرة بأوربا عن طريق فتوحات الفاطميين وصاروا يكتبون أرقامها « العربية دائما » من اليسار الى اليمين واشتريناها منهم وعدلنا عن صناعتها وتنازلنا حتى بالتمسك بحق الاختراع وأوليته وجب أن نسكت ووجب أن نكون ازاء هذا الاستعمار العلمى كما يقول المثل التونسى « اللى يفصلونا نلبسوا واللى يطبخولنا ناكلوا » فلما تخلصنا من الاستعمار يجب أن نخلص أيضا اختراعاتنا وأن نرجعها الى أصل عادتها الاسلامية وكان الكدس مجراها اليمين .

يجب أن يعلم ابن المجاهد المغربى أو المشرقى أن المدفع الذى اهتم به أبوه فحرر الوطن هو من اختراع أجداده أبناء المهدية لتخليص البلاد من المهاجمين النورمانديين Les Normands وهذا فعلا الذى حصل . فاذا سحر هذا الولد بأن البندقية والمدفع من اختراع أجداده زاد عزة وشعورا بالكرامة . واذا تصور أنها من اختراع غيرهم كانت فى نفسه بقية من مهانة .

واذا علم أن الاسلام اخترع الارقام والجبر والمقابلة والمثلثات والرياضيات العليا اعتصم بقول الشاعر :

نبنى كما كانت أوائلنا تبنى
ونفعل مثلما فعلوا

واذا علم ان كلمات Ogive و Algèbre, و chiffre, و Zéro, و × (ش) و Alambic, و Julape و Losange, واضرابها هى عربية أصيلة أخذ بها الاوربيون عنا كما أخذوا Amiral

و chaloupe و Fellonque, و Hallebarde,
و Astrolabe, و boussole, و Choland,
Azimuth, Petelgeuse علم أن العربية ليست قادرة على استنباط مصطلحها لنفسها بل هي قادرة أن تعطيه أيضا لغيرها ففي الموسيقى gamme من جمع و gammut من جمعـــون و luth من عـــود و rebeb من ربـــاب و zacaire من نقـــارات . والذى عجزنا عن ترجمته من الاوربيين فى هذه الايام مثل hautbois هـــو فى الحقيقـــة السرناى . أو اذا ترجمنا ترجمـــة حرفين مثـــل شفـــرة ل chiffre فان ذلك لحلها لان بمعنى كتاب السر هو نفسه عربى وهو الجفر . فلم لا نقول كتب بالجفر ونريح العباد من هذه الترجمة التى هى أثقل من رضوى واستشفى فلان بأشعة أيكس ؟ لماذا هذه العجمة الغير المرغوب فيها ؟ فأيكس من الاسبانية أخذها الاسبانيون من ابن بدر علامة الجبر وهى حرف ش العربى المختصر من شيء مجهول لكن الاسبانيين ينطقون × شيئا فيكتبو Xeres وينطقون شاطبة ويكتبون Xabloa وينطقون سريش وهلم جرا واذا كانت هى علـــوم الاسلام فقد ترجم الاسلام علوم الامم كافة وزاد عليها ودونها فى موسوعات كمـــا مر ونقلهـــا الى أوروبا فكانت أساس نهضتها العلمية .

الاسلام كفن : اهتم الاسلام بالفنون جميعهـــا ونقل معظمها الى العالم . فاهتم بعـــلم الموسيقى ، الدينية والوطنية وابتكر لها أساليب جديدة من النظم واللحن والآلات ووضع أصول ترقيمها . فأخذ عنه الاوربيون التوشيح والزجل والآلات الموسيقية مثل العـــود والربـــاب rebeb والنقـــارات nacaire والشرناى hautbois وأخـــذوا عن المسلمين الموسيقـــى المدجنـــــة musique mudjar وهى الموسيقى العربيـــة التى نقلهـــا الاندلسيون المدجنون المستبقون بجهات اسبانيا التى استرجعها الاسبانيون النصارى فكانوا يؤلفون الشعر والالحان الدينية لكنائس النصارى الى القرن السابع عشر . وقد انتقلت هـــذه الموسيقى بواســـطة المدجنـــين الموسيقيين الى أمريكا وانتشرت بها .

وهنالك المعمار الاسلامى الذى انتقل الى أوربا والى أمريكا وقد تحدثنا عن هذا . ومعظم هـــذا المعمار بالاندلس وايطاليا وفرنسا ولا سيما أمريكا من شمالها الى جنوبها .

وكذلك الرسم الاسلامى فانه انتقل الى أوربا فى الكانمز والجص والفخار والخشب والرخام والفضة والمعادن والنسج . وفى تزويق الجدران والسقوف ولاسيما سقف خلوة البلاط ببالرم Tapella palatina أو سقوف الحمراء بغرناطة .

فاوربا وغيرها مدينة بفنونها وعلومها الى هذا العالم الاسلامى ولا سيما المغربى منه .

ثم هى أرجعت بعض ديونها . فقد استفدنا من كتبها ومن جامعاتها ومن أساتذتها وخبرائها وقـد أخذنا نستفيد من تقنائها ونهضتها العلمية والادبية والتقنية والفنية .

الاسلام أدب : وهذا الادب نقل الى أوروبـا الغربية الموشح والزجل والغرام العذرى L'amour galant ونقل لهـا القصـــة والاساليب

البلاغية وأدب الاطفال والفلسفة وحتى التصوف .

والآن بعد هذا البيان المختصر يتضح أننا ليس لنا فى تاريخنا العقلى أو العلمى أو الادبى ما يخجل به بل لنا ما نفتخر به كل الافتخار . وليس لنا ما يجعلنا نشك فى مواهبنا أو فى اضطلاع لغتنا العربية باقتدارها على التعبير . فانها انتجت خلال الاستعمار وعاشت بعده سليمة وانتفضت من رقدتها الاليمـة واستأنفت رسالتها الالفية العالمية الابدية .

فعلينا أن نؤمن بهذه الحقائق أولا .

وبرسالتنا الثقافية السامية العالمية الابدية ثانيا .

وبأننا سنبنى مثلما بنى أجدادنا .

ولا يقنعنا ذلك حتى تبنى أفضل ممـــا بنوا وعلينا ان نتبـــوأ من جديد مقعدنا من الشمس فى العالم الجامعى فان هجرة ادمغتنا الى أوربا وامريكا دلت على أننا جامعيون من الطراز الاول وان هجرة فنانينا وكتابنـــا وعلمائنا ورسامينا وشعرائنا الى المهجر دلت على اننا حتى فى عصر المحنة كنا من ذوى المنازل الرفيعة فى هذا الشأن . وسنستأنف رسالتنا فى تصدير الادمغة والاساتذة والمحـامين والاطبـاء والعلماء والمترجمين على وجه الدهر .

وهذا الشباب المسلم العربى المغربى الذى يعد من أجداده ماغون وحنبعل وأبوليوس ويوبا الثانى وعقبة وطارق وأسد بن الفـــرات وابن خـــلدون والقالى والمقرى وابن منظور وابن رشيق وابن شرف والادريسى والوزانى وابن الجزار وقسطنطين الافريقى وعبدالحميد بن باديس والبشير الابراهيمى هو الذى سيخرج غدا مؤرخا أفضل من ابن خلدون ولغويا أفضل من ابن منظور وطبيبا أعلم من ابن جـزار وفقيها ابين من ابن فرناس وفيلسوفا أدق من ابن طفيل وابن باجة وابن سبعين . وما ذلك على همـة هذا الشباب بعزيز .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صور من الملتقى



السيد اسماعيل محروق وزير المالية فى جلسة من جلسات الملتقى

من الاستلاب إلى استرجاع الانية

انني اذ أتطرق ، أنا الالمانية ، للموضوع التالى : « نحو نهضة للعالم الاسلامى : من الاستــــلاب الى استرجاع الانية » فانني أقــوم بذلك لا بسبب الصداقة والعطف اللذين أكنهما لشعبكم فحسب ، ولا للاعجاب الذى أخلصه لتاريخ بلدكم الحافل ، ولا للاهتمام الذى أعيره لتطوره المقبل ، بل ولكن لانني أعرف أيضا وأدرك مشاكل الجزائر والعالم الاسلامى من خلال تجربتى فى بلدى . وعلى الرغم من أن مصير الجزائر لا يمكن مقارنته بمصير المانيا فانه توجد مع ذلك فى تاريخ البلدين كليهما نقاط جديدة بالمقارنة مع العلم بأن أصولهما شديدة الاختلاف .



د . سغريد هونكة (*)

(*) لها تاليف كثيرة فى التاريخ المقارن للاديان والحضارات ومؤلفة كتاب «شمس الله تسطع على الغرب»

فبعد الحرب العالمية الثانية كان على المانيا أن تعيد بناء هيكل اداري وسياسي واقتصادي . وفضلا عن ذلك . كان يتعين عليها ولا يزال أن تحافظ على نفسها من مخاطر الذوبان في الشرق والغرب نتيجة لنظام « اعادة التربية » الذي سنته القوات المنتصرة . ولقد صعب على المانيا كل ذلك ولا سيما وانها فقدت الشعور بالمثل العليا التي منحها اياها التاريخ نتيجة للدور الذي لعبته في الصراع العالمي الاخير والهزيمة التي منيت بها . وقد دفعها هذا الوضع الى أن تقطع الصلة بماضيها . وعلاوة على ذلك توجد المانيا مثل أي بلد آخر عرضة لازمات نفسانية تسببت فيها المادية التي هي الخليفة لكل واجب ديني مثالي.وهذه الازمة تبرز في فقدان الاحساس بالفراغ وفي عدم التأثر تجاه الحقائق الوجودية . وهي تبرز أيضا في ردود الفعل لدى الشباب الذي يبحث عن مهرب له باستعمال المخدرات والاغراق في الجنس واللجوء الى العنف . ونشير أيضا الى المشكل الذي يتلخص في إمتلاك التقنية . وهو مشكل يواجه عددا من البلدان وخاصة المجتمعات التي فقدت تراثها . والوعي بتاريخها ودينها بل وحتى شخصيتها الاصلية .

ان هذه الجروح التي يئن لها شعبي جسدا و روحا قد دفعتني الى أن أدرس عللها في عـــدد من الكتب التي وضعتها وأن أبحث لها عن الحـــلول الملائمة . وقد جعلتني هذه الدراسات أتجاوب في الوقت ذاته مع مشاكل الجزائر وسمحت لي بأن أطلع جيدا على تشابكها . ثم أنني لاحظت أنه لا يوجد حل شمولي يمكن أن يأخذ به كل بلد بل أنه يتعـــين تقدير الوضع الخاص بكل بلد .

ان العالم العربي الاسلامي الذي يعود الى ممارسة الحياة من جديد قد بـقي زمنا طويلا تحت وطـــأة الاستعمار . وهذا الاستعمار المستجيب لمنطقه الخاص فرض ثقافته . وقيمه الاخلاقية . ومصالحه وباختصار فرض قوته كلها على الشعوب العربية . ان الاستعمار أيضا هو الذي حول الناس الى أدوات لبلوغ مآربه . وذلك بأن مسخ العقـــول وطوعها . في طريقته في الاحساس وفي التفكير ولاخلاقه الخاصة .

لقد تسبب الاستعمار في خراب رهيب في صلب العالم الاسلامي وفي روح الانسان العـــربي نفسها . ولم يخلف وراءه سوى الجمود والانحطاط وأدى الى انهيار الحضارة العربية الاسلامية واضاعة الشخصية العربية والهـــوية العربية على الخصوص . ذلك هو العبء الثقيل الذي وضعه الاستعمـــار على عاتق العالم العربي .

بيد أنه لا يوجد هناك بلد عربي نال الاستعمار الاجنبي من صميمه مثل الجزائر .

ولا عاني أكثر مما عانته الجزائر أو أحس بحنين أشد وقعا واندفاعا نحو هويتها الاصلية التي اغتصبت منها عمدا وبانتظام خلال 130 ســـنة من السيطرة الفرنسية .

ان الاسطورة الفادحة التي تزعم بأن مهمـــة « البعثة الثقافية الفرنسية » كانت تهدف الى أن تفرنس العقول . وتجعل من الجزائريين فرنسيين . ومن الجزائر تربة فرنسية لم يكن لها من نتيجة الا استلاب حرية الشعب الجزائري . وتقاليده . ولغته ودينه وجعله شعبا تابعا علمه الاستعمار فـــكرة :

« أجدادنا هم الغال » وتلك عملية تحويل واسعة النطاق أدت الى اغتراب شعب كامل وهدمت أسسه الاخلاقية الدينية والثقافية .

لقد كان على البلدان العربية بعد ان تحررت من الهيمنة الاجنبية أن تواجه متطلبات العصور الحديثة ، والتصنيع الهائل ، فاتخذت طرقا مختلفة . ما الذى كان عليها أن تقوم به اللهم سوى أن تتكيف مع العصور الحديثة وأن تكون حيلتها فى المستقبل نسخة مطابقة لحياة المستعمرين السابقين حتى تصير أوربية كالاوربيين أو على الاصح أمريكية مثل الامريكيين أو روسية مثل الروس أنفسهم .

ولكن الجزائر لم تقع فرنسية لهذا الاغراء ، وهناك امر ذو دلالة واضحة اذا أخذنا بعين الاعتبار السببين اللذين لعبا دورا فى هذا الاتجاه وهما سببان مرتبطان بشخصيتها وتاريخها :

1 — ان شعبا عانى من الاستعمار فى أعمق أعماقه وكافح مثل ما لم يفعل بلد اسلامى آخر من أجل تحرره لن يكون بالطبع مستعدا للمتاجرة بالحرية التى نالها بتضحيات جسام ولا لاستبدال استقلاله الذى حصل عليه بشق النفس مقابل تبعية جديدة واغتراب جديدة . ومثل هذه النظرة تشمل الميادين الروحية الثقافية والسياسية والاقتصادية .

2 — ان شعبا يمتلك روابط طبيعية بماضيه ويعمد الى وضع المحافظة على القيم الاخلاقية لا على عاتق سكان المدن المتحررين نوعا ما ولكن ، مثلما أكد ذلك الاستاذ ادريس شابو على عاتق سكان الارياف المتمسكين بالافكار الاصلية والجماعية — ان مثل هذا الشعب — ليس له الخيار بين الأصالة والتقدم ، هذا التقدم الذى يجعله يبتعد عن نفسه ، وعن عالمه وأصوله ، وجذوره . ذلك لان هذين المبدأين مترابطان فى نظر هذا الشعب . فالجزائر ترى بالفعل أن التقدم لا يمكن أن يحدث الا على أساس الأصالة .

ولقد تفطن القادة الجزائريون منذ البداية الى هذه الضرورة ، وعملوا حسب مقتضاها . وهكذا ، صرح الرئيس بومدين : « ان تشييد مستقبلنا يتطلب منا الرجوع الى أصولنا وتأكيد شخصيتنا . وان الذى يبقى وفيا لذاته يستطيع مواجهة العالم الحديث دون أن يخشى أن يبتلعه هذا العالم أو أن يذوب فيه على وجه الاحتمال » .

ولقد كتب الوزير الجزائرى السيد أحمد طالب الابراهيمى : « الامر يتعلق اذا بتعزيز الاصول لتفادى الوقوع من تبعية الى أخرى . ان شبيبتنا لن تستطيع أن تتلقى بحق وتتمثل مكتسبات الغرب الكبيرة دون الانطلاق من نواة أصيلة تضرب بجذورها فى تراثنا الثقافى ، وبعبارة أخرى يجب على هذه الشبيبة أن تتغذى من منابعها قبل أن تغترف من المصادر الاجنبية وتتفتح على العلوم والافكار والتقنيات الحديثة » .

« والوفاء للذات » و « الرجوع الى الاصول والى المنبع » مبادىء بربرية تلائم الجزائر وبلدان المغرب الاخرى على التمام ، هذه البلدان التى تعتبر الاصالة ضمانا للنمو والتطور ، وان الجزائر واعية منذ وقت طويل بهذه الضرورة ، فهى تدرك أن الشجرة

لا يمكن أن ترتفع هامتها الا اذا ضربت بجذورهـا عميقا فى الارض .

ولكن ما هى هذه الارض . هذه التربة التى يجب على الجزائر أن تضرب فيها حتى تعثر على نفسها وتكتشف من جديد شخصيتها الاصيلة .

انها أولا . اللغة العربية . هذه اللغة التى هى بمثابة مفتاح لمملكة لم يدخلها فى الماضى الا عدد ضئيل من الجزائريين . وهى مفتاح ثقافتهم المتوارثة ودينهم وتقاليدهم الشعبية وأغانيهم . وحكاياتهم . وأمثالهم وأشعارهم الوطنية .

ان اللغة الام هى أكثر من نظام بسيط لتبادل الكلام . وبما أنها تجسد فكرة كل شعب فانهـا تطبع تفكير كل طفـل بصفة تمكنه من أن يندمج تدريجيا فى العالم . اذن انه ليس أمرا متماثلا اذا كان هناك أطفال عرب بل بعض الاجيال . قـد تشربت العقلية العربية الفرنسية ووجهة نظرهـا نحو العالم . انهم لن يستطيعوا أبدا بهذه العقلية الفرنسية أن يكونوا أصلا بأنفسهم ولا فرنسيين أصلاء . وبعبارة أخرى . لا يمكن لشعب تدرج منذ الطفولة فى اطار فكر أجنبى أن يتفتح بنفس الطريقة فى حالة ما اذا بقى متصلا بثقافته الاصلية . وهو الامر الذى يجعله على حقيقته فى عالمه . ان استرجاع اللغة العربية هو مفتاح لابواب مختلفة . فهو يمكن من الدخول الى العالم العربى الذى هو عالمهـا الحقيقى . ومن التشبع بالفكـر العربى واستعادة الوعى الفردى للعالم الاسلامى .

وهذه التربة التى يتعين على الجزائر أن تنبت فيها لكى تستعيد شخصيتها هى الاسلام ثانيا . هو الدين الذى ينظم أكثر من أى دين آخر سلوك شعب فى جميع الميادين . ان هذا الدين أو هذا القـانون له اليد الطولى فى كل ما يتعلق بالاخلاق وبالحيـاة الاجتماعية . وبالقانون الخاص بالتعليم وبالثقافة . ان هذا الدين يوجـد فى قلب الوجـود نفسه . فالاسلام من حيث أنه دين فهو حجر الزاوية فى الحضارة الاسلامية . فهو الذى سيمكن من نهضة العالم العربى . وهذه الاعتبارات صادرة عن التجربة التى قمت بها فى أوروبا . هذه القارة التى يتخـذ فيها الانمحاء التدريجى للدين أبعادا مخيفة حقا . وعملية الاستئصال الدينى هذه بدأت فى أوروبـا قبل قرنين من الزمان وهى اليوم قد بلغت سورتها . وكان « نيتشه » قد تنبأ بهذا التطور وبنتائجـه الحتمية . فقد كان يتحدث عن « موت الله » وهـو يعنى بذلك أن الانسان لم يعد يؤمن بالمفهوم المسيحى عن الله وعن الدين المسيحى .

وقد تنبأ بمثل هذا الافول الذى لم يسجل أبدا فى ملفات التاريخ وبالانقلابات الخطيرة التى تماثل بالتدقيق ما نعرفه اليوم فى الشرق والغرب على السواء . لقد ولدت العدمية والمادية فى الوقت الذى بدأ فيه الدين يرخى من قبضته وفى الوقت الذى بدأ الانسان يفقد فيه المثالية .

ان الوجود دون فكرة المثالية يفقد كل بعـد أصيل . وهو سطحى . فارغ ومخيف . فالانسان الذى يفصل نفسه عن جذوره الدينية لن يـرى بعد ذلك سببا مقنعا لوجوده . ويظل يعانى بالاحساس بالفراغ وبالقلق الوجودى وينتابه اليأس . وفضلا عن ذلك فانه يتنصل من مسؤوليات هذا العـالم

والبشر ويبحث عن طريق جديد فى اللامبالاة وفى العنف وفى عالم من الاحاسيس واللذائذ المادية . أما الاجيال الفتية فانها تسير نحو تدهور تام عن طريق المخدرات والارهاب والاغـــراق فى الجنس والقسوة . والمـــــرض والاضطراب العصبى . ان الانسان والانسانية يوجدان فى منعرج خطير من تطورهما .

ومن حيث أننى نائبة رئيس لحركة دينية غير مسيحية فى ألمانيا . أى الموحدين الالمان . فاننى ارى ان استرجاع الدين وفكرة المثــالية هى الامكانيــة الوحيدة لكى نعالج الازمة التى يتخبط فيها مجتمعنا المريض فى أيامنا هذه ولكى نجنب حضــــارتنا من تدهور الانسانية . انه لا يمكن بدون الدين الذى يشكل جزءا من الوجود الانسانى معالجة العالم من الآلام التى يعانيها . ونحن اذا لم نتجه من جديد نحو الدين . فان البؤس الانسانى سوف يتفاقم . وستكون هناك شطحات فارغة لا جدوى منها وسيحدث انحلال وتدهور وتبقى جهودنا كلهـا ولا طائل من ورائها . ان الناس فى حاجة الى دين يرشدهم الى الطريق الذى يتعين عليهم أن ينتهجوه فى العـالم لا خارج العالم . انهم فى حاجة الى دين يعلمهم كيف يضطلعون بمسؤولياتهم تجاه العالم والمسؤولية .

واننى أود هاهنا أن يستفيد العالم الاسلامى من هذه التجربة المريرة التى يمر بها العالم الغربى والعبر التى تستخلص منها . فالعالم الاسلامى لايزال سليما وان كان مهددا باللادينية . وان فقــدان المبادئ الدينية قد تؤدى الى قلب مجموع الحضارة العربية رأسا على عقب .

لقد لاحظت بارتياح أن العـالم العربى يتجـه . أكثر فأكثر نحو الدين ويعمل على ســد الثغرات ، وتقوية الاسس الدينية للاسلام دون أن يقع مع ذلك فى فورة التعصب والعقائدية وغيرها . وقد بدأت تظهر قوى جديدة حيوية فى الاسلام كفيـــلة بأن تتحكم فى تطور المجتمع العربى فى الوقت الحالى وفى ضمان نهضته .

وقد هز أعطافى أن أسجل أن الجزائر تبذل بدورها جهودا متعددة فى سبيل أن تعيد الى الاسلام حيويته كلها . لقد بادر الشعب الجزائرى بعد نيل استقلاله مباشرة الى اعادة بناء مساجده وزواياه فى اندفاع تلقائى . وفى استطاعتنا أن نلاحظ هـــذا البعث للقيم المتوارثة فيما نشاهد من تنشيط للقيم الاخلاقية . والثقافية والاجتماعية وفى تعزيز روح الاسرة . والتآصر . وفى الغيرة الوطنية والتعاون . وفى القدرة على تجاوز النفس والعمل للصالح العام حتى اذا اقتضى كل ذلك جهودا والتزامات يومية فضلا عن التضحية بالمصلحة الخاصة . وهذه القيم انبعثت وسط نار الرشاشات خلال حــرب قاسية دامت سبع سنوات واكتوت بنار الحرب . وهـــى تمثل اليوم « الاشتراكية » العربية المحضة . وهذه الاشتراكية أو الصورة التقدمية للاسلام العربى - البربرى - مثلما قال ادريس شابو - « طبقتهـــا وعاشتها » الاجيال الجزائرية السابقة قبل أن توجد نظريات وايديولوجيات ماركس ولينين وماوو عــن الاشتراكية .

وهذا الاسلام النقى من الشوائب والآراء غير الاسلامية . ومن الخرافة ومن تلك الصوفية القدرية

التى تعتقد ببطلان العالم ولا واقعيته وتعتزل الحياة . ان هذا الاسلام المتفتح على العالم وعلى الواقع لايسير فى معارضته التطور العقلى لان « المسلم مثلما يؤكد ذلك الاستاذ محمد عزيز الحبابى . ملتزم أمام الله اذا هو التزم لصالح البشر . فالايمان « شهادة » و « عمل » أى التزام كامل من قبل الانسان الذى يعتبر مسؤولا بأعلى درجة عن أفعاله ، وبصفة شخصية » .

3) ان العودة نحو الذات والى الشخصية الاصلية تتطلب دراسة استطلاعية للماضى.وبالفعل، فمعرفة طبيعة الاصول الذاتية ومعانيها تعنى اقرار حالة شعب يريد أن يضطلع بدور الابداع فى التاريخ وفى الحضارة . وبالطبع ، فكل طريق نحو الحرية يبدأ بالتعرف على الماضى الخاص .

لقد أدخل فى روع الاجيال من الجزائريين أن « الغال » هم أجدادهم وان التاريخ والثقافة برزا يوم أن وطئت أقدام المعمرين الفرنسيين التراب الجزائرى . ولكنهم كانوا يجهلون آنذاك أن ثقافتهم شعشع نورها طوال قرون عديدة فى الوقت الذى كانت فيه الثقافة الفرنسية تبحث عن طريقها ، وكانوا يجهلون مثلما أكد ذلك أحمد طالب الابراهيمى « انه وجد الغزالى قبل ديكارت وابن رشد قبل موليير ومونتسكيو وابن خلدون قبل فيكو وابن طفيل قبل ديفو وابن سيناء قبل برنارد والمعرى قبل دانتى وعمر ابن أبى ربيعة قبل لامارتين » . ففى الوقت الذى كان الفرنسيون يخفون عن العرب ثقافة أجدادهم الزاهرة ومساهمتها العظيمة فى تطور البلاد الغربية كانوا يصبون فى عقول التلاميذ الجزائريين هذا التزييف الفادح للتاريخ الذى يزعم بأن هزيمة العرب فى « بواتيى » سنة 732 كانت انتصارا لبلاد الغرب على البربرية .

وانه منالاهمية بمكان نفض الغبار عن التاريخ من أجل استعادة الوعى الاسلامى العربى والكشف من جديد على الصفات الحسنة التى ينطوى عليها العالم العربى . يجب أن يربى من جديد الوعى بالماضى الذى بقى مشلولا لمدة طويلة . ويجب احياء ماضى العالم العربى بكل عظمته حتى يتشربه الشعب الى أقصى حد . أجل ، انه من الضرورى حقا تحليل أسباب تطور الحضارة العربية ومجدها وتدهورها لاستخلاص درس من كل ذلك .

ذلك لان العرب وجدوا أنفسهم فى الماضى أمام مرحلة البداية فى الوقت الذى كانت فيه حضارات سامية سائدة حرمتهم – الصينيين والهنود – الاشياء التى بدت لهم أساسية ونافعة . ولكنهم لم يقلدوا أبدا التقليد الاعمى . بل على العكس من ذلك غربلوا جميع الافكار بعقليتهم الناقدة .

ان الاستنساخ الصرف لثقافة ما ليس سوى نسخة رديئة لن تؤدى الا الى مظهر حضارى عقيم جامد سرعان ما يذبل .

ان معظم المؤرخين الاوروبيين يأخذون عن الحضارة العربية أنها عقيمة وان دورها اقتصر فقط على نقل الحضارات القديمة دون مساهمة خلاقة منها . ولقد دحضت أنا هذه المزاعم ، لانها لا تعكس الحقيقة ، انه لا يجب علينا أن نكون مستشرقين فقط

حتى نقوى وأن نعيد الى العرب حقوقهم . بل علينا أن نعرف نفسية الشعوب العربية وثقافاتها . وان الادعاء بأن العالم العربى ينقصه الابداع انما هو راجع الى فقدان المعلومات النفسانية للخصائص الهيكلية الموجودة فى مختلف الثقافات العالمية وذلك بغض النظر عن النظرة المسيحية الاعتباطية .

وفضلا عن ذلك فردود الفعل هذه ، ناتجة عن التقدير المفرط للقيم المادية التى ينقلها شعب الى آخر وأعنى بذلك أيضا المواد النفعية أو منجزات الهندسية المعمارية والمقطوعات الشعرية والتقأبيد العلمية على حد سواء . ثم ان هناك نقصا فى التمييز بين مختلف الاتجاهات فى طريق التفكير اليونانى والهندى والعربى وباختصار ، فان الملاحظة ها هنا تجرى دون وجود الموضوع .

ان العرب شعروا بقدراتهم الابداعية وبأهليتهم فى تصور حضارة جديدة ذات بعد تاريخى عالمى باستثمار التراث اليونانى والهندى تبعا لقدراتهم الخاصة وبرعاية هذا التراث الثمين على طريقتهم ولقد درست بكل تفصيل هذا التطور فى كتابى المعنون : « شمس الله تشرق على الغرب » .

وهكذا أولدت ثقافة عالمية ذات أصالة لا جدال فيها تحمل طابع العقلية العربية الاسلامية . وهذه الحضارة التى ختمت بطابعها الموحد امبراطورية واسعة الارجاء بلغ من رقيها أن الغرب نفسه الذى كان معاديا آنذاك للثقافة الاسلامية ، اهتم فى سر بالتعاليم التى حملتها وكان لها الفضل فى شحذ همته . وليس هناك شك فى أن الثقافة الغربية قد ازدادت ثراء فى جميع الميادين بفضل ما توصل اليه العالم العربى .

أعجب به من مصدر للتعرف على الشخصية الاصلية والثقة بالنفس وفهم قدرات العقل ومهامه . وأعظم به من مصدر للتفاؤل والافتخار والالتزام أيضا امام الورثة الحاليين لهذه الحضارة . ويا له من مصدر للزفزف بكل تقدير أمام هذه الاعمال التى هى بمثابة معايير للحضارة ، فضلا عن كونه مصدرا لتوضيح مهمة العقل العربى فى المستقبل .

ان استعراض الماضى المجيد غير كاف أيها الاصدقاء الاعزاء . ان بعد الحضارة العربية لايجب أن يساعد على التنصل ونسيان الحقائق الحاضرة . ولا يجب أن يكون حجة للرضى عن النفس والاكتفاء الذى يستحث على الغرور دون ضرورة منا أن نكون جديرين بهذا الماضى التليد واستخلاص العبرة منه . ولا يجب ايضا الاقتصار على تحليل الاسباب التى عرفت الحضارة العربية بفضلها مثل هذا الازدهار بل يجب دراسة أسباب تدهور هذه الحضارة وجمودها وانحطاطها للحلول دون بروز مثل هذا الخطر من جديد . أى خطر التعصب والعقائدية اللذين يستبعدان الاحتفال وخطر الانعزال والانغلاق فضلا عن الاغتراب وفقدان الشخصية .

أيتها السيدات ، أيها السادة ، اننا نصل من خلال كل ذلك الى نقطة جوهرية . ألا وهى أن الخطر – مثلما أشرت اليه منذ قليل – لا يكمن فى الانعزال فحسب . بل فى التفتح المفرط أيضا على العالم الى حد الاغتراب . وانه لعبرة تركها لنا تاريخ اشراق الثقافة العربية وتدهورها . ان كل نظرة

انفرادية خاصة تعود بالضرر . وكل انفرادية هي معاداة للحياة بشكل ما .

ان مشكلة النهضة اذن لا تكمن – مثلما سبق أن أكدته – في الاصالة أو ولتفتح أي في استعادة الماضي أو التفتح على العالم الحديث وتقنياته . فعلا ، ان استعادة الشخصية الاصلية باحياء اللغة العربية والدين الاسلامي وبعث الماضي ، كل ذلك غير كاف للاندراج في العالم المعاصر .

الاصالة والتطور لا يتناقضان . فالحياة في حاجة الى الاثنين كليهما . والنهضة الاصيلة في حاجة اليهما معا : انها لا تكتفي بـ «فقط» بل تريد « أيضا » : أي أنها لا تكتفي بالاصالة بل تريد التقدم أيضا ولا تريد الماضي بل تريد التفتح على تطورات العالم الحديث . ثم ان السؤال التالي لا يجب أن يطرح على بساط البحث : هل نتكلم العربية أو الفرنسية . فها هنا ايضا ستكون النظرة الانفرادية خاطئة . لان اللغة العربية تفتح الطريق الجوهري نحو استعادة الشخصية الجزائرية وتفتح الباب من جديد على الاصالة ، والاسلام والتراث العربي وتفتح باب العقل أمام علمائها الكبار وفلاسفتها وشعرائها وتبقى دائما وأبدا أساس الثقافة الوطنية الاصلية . أما اللغة الفرنسية فهي تفتح الباب على الحضارة والعلوم الكونية ولا ينبغي تحقير مساهمة الحضارة الفرنسية بل يجب الاعتراف بها .

ثم انه من الخطأ الفادح الخلط بين القديم والمعاصر والوصل بين الحضارة العربية والحضارة الاجنبية ، والماضي والتقدم دون احداث اتفاق ونقل مزدوج . ثم انه لا ينبغي شراء الآلات التقنية المعاصرة ووضعها في عالم تقليدي أو الاهتمام بالرومانطيقية والانهماك في العالم المعاصر دون حصيلة في النفس سوى أمجاد الماضي الكبيرة . ان مثل هذه الثقافة « التي تستعير المساحيق من الحضارة المعاصرة » على حد تعبير السيد لحبابي سوف تبقى عقيمة مناقضة للواقع ، وتقليدا لا حياة له ولا قيمة .

ذلكم هو ما يستطيع التاريخ العربي الاسلامي أن يعلمه للعرب في أيامنا هذه : لقد كانت للانسان العربي في بدء تاريخه وحضارته الزاهرة القدرة على ادراج التراث الاجنبي في ثقافته الخاصة وتمثل الروافد الاجنبية وتحويل الافكار ، والانجازات العلمية والتقنية والفنية والقوالب الجديدة وذلك بطريقته في التفكير وقوته الخلاقة اللذين جعلاه يحول كل ذلك الى تعبير أصيل عن شخصيته .

ان عظمة هذه الثقافة وأسباب خصوبتها تكمن في أنها لم تقتصر على تقليد الاجنبي تقليدا أعمى ، بل في نفي روحها الخاصة في هذا الاجنبي وبعث الحياة فيه من جديد من تلقاء ذاتها .

ان لي اعتقادا راسخا بأن العالم العربي الاسلامي يسير في الطريق الصواب نحو نهضته الاصلية الواعية – مثلما هو الامر في الجزائر – بأن الانتصار على الاستعمار يكتمل ويتكامل بالحرية الداخلية أي حرية العقل والروح . ان العالم الاسلامي اذ ينأى عن أن يسلم نفسه الى تبعية جديدة ناتجة عن المؤثرات الاجنبية والى اغتراب جديد والسقوط من جديد تحت رحمة الاستعمار الجديد القادم من الشرق أو الغرب – ان هذا العالم – سوف يجاهد بالدرجة الاولى وبثبات في البحث الجاد عن أصالته بالغوص من جديد في منابعه وبالبحث عن « انيته » واغتراف قواه وطاقاته الابداعية التي ستمكنه من القيام بنهضة كاملة واستعادة المكانة التي يستحقها في العالم .

صور من الملتقى



السيد العياشي ياكر وزير التجارة في جلسة من جلسات الملتقى بقصر الامم بنادى الصنوبر

اناشيد سادت الملتقى

اناشيد جمعت بمناسبة الملتقى

فداء الجزائر

فداء الجزائر روحى ومالى ... الا فى سبيل الحريه
فليحى حزب الشعب الغالى ... ونجم شمال افريقيه
وليحى جند الاستقلال ... مثال الفدا والوطنيه (2)
ولتحى الجزائر مثل الهلال ... ولتحى فيها العربية

سلاما سلاما أرض الجدود ... سلاما مهد معالينا
فأنت فى الكون دار الخلود ... غرامك صار لنا دينا
فانا حولك مثل الجنود ... لسان هواك يناجينا (2)
سنرعى حقك مثل الأسود ... ولو قبضوا بتراقينا

سرى فى الروح دم الفاتحين ... فأذكى فيها معانى الفدا
نخوض الكون مع الخائضين ... ولا نرتد ولو بالردا
ونعلى الصرخة فى الصارخين ... ننادى العزة والسؤددا (2)
فلسنا نرضى مع العالمين ... حياة نبقى بها أعبدا

فلسنا نرضى الامتزاجا ... ولسنا نرضى التجنيسا
ولسنا نرضى الاندماجا ... ولا نرتد فرنسيسا
رضينا بالاسلام تاجا ... كفى الجهال تدنيسا (2)
فكل من يبغى اعوجاجا ... رجمناه كابليسا

خلقنـا بحـكم الهـوى اخـوة — فتبت يــدا كل من فرقـــا
نريـــد حيـــاة لنــا حــرة — كفــانا كفى من حيــاة الشقا
خلقنــا لهــذا الــورى ســادة — ونجـم الهـدى عنـدنا أشرقا (2)
بــلادى يمينــا مقدســة — سنرعى عهـدك طـول البقــا

ألا فى طريــق العــلا سـعينا — ألا فى سبيل الفــدا والجهــاد
وليسطع بأفــق السما نجمنــا — ونعــلى الصرخــة فى كل نــاد
فها هــو ذاك الــلوا معلنــا — حملناه ذا اليوم فــوق الفــؤاد (2)
وها هــو أحمــد يحـدو بنــا — وهــا هــو جبريــل فينــا يناد

ألا فى ســبيل الاســتقلال — ألا فى ســبيل الحريـــه (2)

مـــوطـنى

موطنى ، موطنى الجــلال والجمــال والســناء والبهــاء فى ربــاك
فى ربــاك
والحيــاة والنجــاة والهنــاء والرجــاء فى هـــواك
فى هـــواك
هــل أراك ، هــل أراك سالما منعمــا وغانمــا مكرمــا
سالما منعمــا وغانمــا مكرمــا
هــل اراك فى عــلاك ، تبــلغ السمــاك
تبــلغ السمــاك

موطــنى موطــنى

موطنى ، موطنى الشــباب لــن يــكل همــه ان يستقل أو يبيــد
أو يبيــد
نستقــى مــن الــردى ولن نكــون للعــدا كالعبيــد
كالعبيــد
لا نريد ، لا نريد ذلنا المؤبدا وعيشنــا المنكــدا
ذلنا المؤبدا وعيشنــا المنكــدا
لا نريــد بــل نعيــد مجــدنا التليــد
مجــدنا التليــد

موطــنى موطــنى

موطنى ، موطنى   الحسام والـيراع   لا الكلام والنزاع رمزنا

رمزنا

مجدنا وعهدنا   وواجب الى الوفا يهزنا

يهزنا

عزنا ، عزنا ، غاية تشرف   وراية ترفرف

غاية تشرف   وراية ترفرف

يا هناك فى علاك   قاهرا عداك

قاهرا عداك

موطنى   موطنى

شعب الجزائر

شعب الجزائر مسلم (2) والى العروبة ينتسب (2)
ينتسب
من قال حاد عن أصله (2) أو قال مات فقد كذب
أو رام ادماجا له (2) رام المحال من الطلب

شعب الجزائر مسلم

يا نشء أنت رجاؤنا (2) وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها (2) وخض الخطوب ولا تهب

شعب الجزائر مسلم

وارفع منار العدل (2) والاحسان واصدم من غصب
واقلع جذور الخائنين (2) فمنهم كل العطب

شعب الجزائر مسلم

وأذق نفوس الظالمين (2) السم يمزج بالرهب
واهزز نفوس الجامدين (2) فربما حيى الخشب

شعب الجزائر مسلم

من كـــان يبغـــى ودنـــا (2) فعـلى الكرامـــة والرحب
أو كان يبغـــى ذلنـــبا (2) فـــله المهـــانة والحـرب

شعب الجـــزائر مســـلم

هـــذا نظـــام حياتنـــا (2) بالنـــور خـــط وباللهب
حتى يعـــود لقومنـــا (2) من مجدهـــم ما قـــد ذهب

شعب الجـــزائر مســـلم

هـــذا لـكم عهـــدى بـــه (2) حتى أوســـد فى الـــترب
فـــاذا هلكت فصيحـــتى (2) تحيـــا الجزائر والعـــرب

شعب الجـــزائر مســـلم

نحن الشباب

نحن الشباب لنا الغد ومجده المخلد نحن الشباب
لنا الغد المخلد
شعارنا على الزمن عاش الوطن عاش الوطن
بعنا له يوم المحن ارواحنا بلا ثمن
يا وطني عداك ذم مثلك من يرعى الذمم
علمتنا كيف الشيم وكيف نغمر الانام

نحن الشباب

السفح والجداول والحقل والسنابل
وما بني الاوائل نحن له معاقل
الدين في قلوبنا والنور في عيوننا
والحق في يميننا والنصر في جبيننا

نحن الشباب

لنا العراق والشام ومصر والبيت الحرام
نمشي على الموت الزؤام الى الامام الى الامام
نبني ولا نتكل نفنى ولا نتخذل
لنا اليد والعمل لنا الغد والامل

نحن الشباب

من جبــــالنـــا

من جبــالنا طلع صــوت الأحرار ينـــادينـــا للاســـــتقلال (2)
ينـــــادينـــا للاســــتقلال لاســــتقلال وطننـــــا (2)
تضحيتنـــــــا للوطــــــن خـــير من الحيـــــاة (2)
أضحـــــــى بحيــــاتى وبمـــــالى عليـــــه (2)

من جبالنـــــا

يا بـــــلادى يا بـــــلادى أنـــا لا أهـــوى ســـواك
قـــد ســـلا الدنيـــا فـــؤادى وتفـــانى فى هـــواك (2)

من جبالنـــــا

كـــل شىء فيــــك ينمـــو حبــه مثـــل النبـــات
يـــا تـــرى يأتيـــك يـــوم تـزدهى فيـــه الحيـــاة (2)

من جبالنـــــا

نحـــن بالأنفس نفـــدى كـــل جـزء من ثـــراك
اننـــا أشـــبال أســـد فاصرفينـــا لعـــداك (2)

من جبالنـــــا

لـــك فى التـــاريخ ركـــن مشرق فـــوق السمـــاك
لـــــك فى المنظـــــر حسن ظـــل يغـــرى ببهـــاك (2)

من جبالنـــا

نحـن ســور بـــك دائـــر وجبـــال راســيات
نحـــن ابنـــاء الجـــزائر أهـــل عـــزم وثبـــات (2)

من جبالنـــا

من جبـالنا طـلع صـوت الأحرار ينـــادينا للاســـتقلال (2)
ينـــادينا للاســـتقلال لاســـتقلال وطننـــا (2)

قسما

قسما بالنازلات الماحقات   والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات   فى الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممات   وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا

نحن جند فى سبيل الحق ثرنا   والى استقلالنا بالحرب قمنا

لم يكن يصغى لنا لما نطقنا   فاتخذنا رنة البارود وزنا

وعزفنا نغمة الرشاش لحنا   وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا

نحن من أبطالنا ندفع جندا   وعلى اشلائنا نصنع مجدا

وعلى أرواحنا نصعد خلدا   وعلى هاماتنا نرفع بندا

جبهة التحرير أعطيناك عهدا   وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا

صرخة الأوطان من ساح الفدا   فاسمعوها واستجيبوا للندا

واكتبوها بدماء الشهدا   واقرأوها لبنى الجيل غدا

قد مددنا لك يا مجد يدا   وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا

نشيـــد الملتـقى

من تأليف وانشاد

المجموعة الصوتية لغرداية

لملتقـــــى الاســــلام	اهـــدى التحـــايا (2)
حيـــوه يـا كـــرام	حيـــوه معــــايـا (2)
الـــله الـــله الـــله الـله	لملتقـــانـا ملتقـانـا (2)
انعمـوا اخـواني واهنـوا	فى ظـــلال اسمى عيــد
ابشروا قـــد انعشتنـا	مـكرمـــات عبدالحميـد
ايهــا الجيــل السعيــد (2)	بالانيــــة والاصـــالة
الـــله الـــله الـــله الـله	لملتقـــانـا ملتقـــانـا

لملتقى الاســلام

هيـو هيـو يـا شبابنـــا	هـــذا ربنـا دعانـــا
لتحمـــل الامانــــة	والرجـــوع الى عليـــانا
فاخــرانـا ودنيــــانـا	بالانيـــة والاصبـــالة
الـــله الـــله الـــله الـله	لملتقـــانـا ملتقـــانـا

لملتقى الاســلام

من الجـــزائر الابيـــة	للشعـــوب الاسلاميـــة
بلغـــوا عنـــا الوصـــية	وانهضـــوا بالمسؤوليـــة

جـــددوا العـــزم والنيـــة بالانيـــــة والاصــــالة

الـــله الـــله الـــله الـله لملتقـــانـا ملتقـــانا

لملتقى الاســلام

عاهـــدوا الـله جميعـــا بالرجـــوع الى الكتـــاب

واقتفـوا الامـــين دومـــا ترتقـــوا اسـمى الـــرتب

ذلـــلوا كـــل الصـــعاب بالانيـــة والاصنـــالة

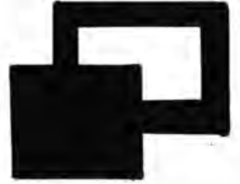
الـــله الـــله الـبله الـله لملتقـــانـا ملتقـــانا

لملتقى الاســلام

صور من الملتقى



الملتقون فى لحظة انشاد : فـداء الجزائر روحى ومـالى ـ ويـــرى فى الصف الاول على اليمين الاخ عـــدة بن قطاط والى ولاية الاوراس

 توصيات الملتقى

اللجنـــة الاولى

العيد العاشر لاسترجاع استقلال الجزائر
ودور الاسلام فى كفاحنا التحريرى
طيلة مقاومتنا وفي مقاومة مختلف
البلدان الاسلامية للعدوان

التـوصيـــات

حيث ان الاسلام زيـــادة عن كـونــه عامل حضارة من أرقى الحضارات وأغناها ، كان أيضا محركنــا فى مقاومتنا ومقاومـة مختلف البلــدان الاسلاميــة التى تعرضت للغــزو الاستعمــارى ، وكان أيضا حصانتنا من المسخ والادمـــاج بعد أن تغلب الاستعمـــــار ،

وحيث انه كان العامل الاساسى فى تـوحيد الكلمة أثنــا. كفاحنا التحريرى المسلح الاخيـر ، الذى قــام بـاسم الجهاد ، وكــان الجنود يسمون مجاهدين ، وجريدتهم المجاهد ، ولا تزال :

توصي اللجنـة ب :

1) ضرورة تطعيم جميع المؤسسات التربوية من الابتدائى حتى الجامعة وكذلك أجهزة الاعلام فى مختلف البلدان الاسلامية بالتربية الاسلامية ، لتدعيم جهود الاسرة التى ينبغى أيضا أن توجـه بمختلف الوسائــل .

2) التعــريف بــه ، وبقيمــه ، بمختلف الوســـائل ، وخــاصة منها الـكتاب والصحــــافة والاذاعـــة .

3) عقــد ملتقيات اسلامية منتظمة فى البدان الاسلامية بين العلمــاء والمفكرين والشباب ، مــع التنسيق بين هذه البلدان حتى لا توزع الجهود ، وتتناثر الطاقات ، وتتضارب مواعيد هذه الملتقيــات عوض أن تتتـــابع وتتـــكامل .

4) الاكثار من الاتصال بين مفكري وشباب العالم الاسلامي بمختلف المناسبات زيادة عن ملتقيات التعرف على الفكر الاسلامي .

5) التركيز على الدور الفعال الحاسم للاسلام في تحرير البلدان الاسلامية التي لا تزال تعاني من الاستعمار ، وفي التحرير الاقتصادي ، والاجتماعي ، والثقافي لعالم الاسلام ، وتحقيق تنميته ، وتطوير مجتمعاته ، وتوحيد المسلمين حتى يعود للامة الاسلامية كل مجدها ، وعزتها ، وسؤددها ، ويتسنى لها أن تلعب كالماضي دورها في كفالة التقدم والرقي ، والسلم في العالم .

اللجنة الثانية

الذكرى الالفية لتأسيس الجزائر العاصمة
ومدينتي مليانة والمدية ودور الاسلام في
حضارة الامس في الجزائر وغيرها .

التوصيات

هذه هي توصيات اللجنة الثانية بالنسبة لدور المدن الزيرية ، يعني الجزائر ومليانة والمدية في الحضارة الاسلامية ، وكذلك بالنسبة لاحياء الامجاد ، والاحتفال بالذكريات ، ونشر التراث ، وابراز الماضي ، والكشف عما طمس منه ، والتأثير على أوروبا والعالم ، نريد أن نثبت من جملة الآراء برنامجا كما يلي :

1) جمع كل ما قيل في العيد الالفي لتلك المدن .

2) تأليف كتاب فهرست يتضمن ذكر المصادر الأصلية قبل الاستعمار ، وهي المصادر العربية والتركية والاسبانية ، وأخيرا المصادر الفرنسية الموجودة في المكاتب الجامعية .

3) تأليف كتاب فهرست يتضمن ذكر المصادر الثانوية ، وأعني بذلك مؤلفات المستشرقين : أزان ، برنارد ، بيرتراند ، غوتيي ، مارسيي ، لاسي ، ايفرس ، الى آخرهم مع اشارة الى آرائهم الاستعمارية .

4) تأليف مختصر تاريخ المدن مثل تيهرت ، وبجاية ، وتلمسان ، والجزائر والمدية ، ومليانة ، وغيرها في الجزائر وبلاد الاسلام عامة .

5) تأليف تاريخ خطط تلك المدن ومبانيها .

6) تراجم مختصر تراجم المشاهير من رجال تلك المدن .

7) تأليف جغرافيا تلك المدن، يعبر عن تغير تركيب مجتمعنا في العصر الحاضر .

8) وصف علاقات تلك المـدن بأوروبا والعالـم .

9) التنبيه الى ما قاسته الجزائر من ويـــلات الاستعمار الفرنسي الذي حال بينها وأمجادها وطمس معالمها ومحا آثارها .

10) احياء أسماء المدن المندثرة واسماء الشخصيات التـاريخية وأسماء الاربـاض التي تـرتبط بالتاريخ . مثل طبنــة وغيرها في الجزائر والعـــالم الاســلامي .

11) العناية كل العناية بالاحتفال بالذكريـات المجيدة ، كتأسيس المدن والحوادث التاريخية الكبرى ، والشخصيات البارزة في الجزائر وغـيرها ، من أنحاء العالم الاسلامي .

اللجنــة الثـالثـة

نظرة المؤرخين غير المسلمين الى
الاســلام والحضــارة الإســلامية
وضرورة كتابة تاريخنا من جديد

التـــوصيـــــات

اولا : الحيثيـــات :

1) اعتمادا على ما ورد في النقطة الثـالثــــة ونصــــه :

« نظرة المؤرخين غير المسلمين الى الاسلام والحضارة الاسلامية وضرورة كتابة تاريخنا من جديد»

2) واعتمادا على ما ورد في محاضرات الاساتذة في خصوص هذا الموضوع .

3) واعتمادا على ما ورد في مجلة **الأصـالـة** : السنة الاولى ، العدد الرابع ص 99 من حديـث أجرى مع المؤرخ الفرنسي آجرون من حيث اعــادة النظر بروية فيما يكتبه بعض المؤرخين المستشرقين عن تاريخ الاسلام وحضارة المسلمـين .

4) وحيث تقرر ضرورة كتابة تاريخنا من جديد حسب محتوى النقطة الثالثة نفسها .

فان أعضاء اللجنة ورئيسها المجتمعين يـــوم الثلاثاء 29 جمـادى الثنية 1392 هـ الموافـــق لـ 8 اغسطس 1972 م ، قد اتفقوا على تقديم التـوصيات الآتيـــة :

ثانيـا : ذات التوصيـــات :

التوصية الاولى

تحرير الاطار الزمنى لتقسيم العصور التاريخية التى حررت وفق أحداث التاريخ الغربى ومواقع النصرانية الحاسمة فيصير معتمدا على الاحداث الشرقية ومواقع الاسلام الحاسمة .

التوصية الثانية

نظرا لعدم الوثوق بالمصادر الاجنبية فيجب جمع عدد ممكن من الكتب العربية أو التركية أو الهندية أو السوداء واعتمادها كمصادر .

التوصية الثالثة

طبع ما لم يطبع منها فى نشرة محققة نقدية .

التوصية الرابعة

اعادة طبع ما نفد منها .

التوصية الخامسة

ترجمة الكتب الطيبة التى ألفها المستشرقون فى تاريخ الاسلام ، أو ترجمة المؤرخين المسلمين أو دراسة علم التاريخ عند المسلمين .

التوصية السادسة

ترجمة أهم كتاب عن الاسلام فى أى قطر من الاقطار الاسلامية مع استيعاب جميع الاقطار فى سلسلة متناسقة كل حلقة منها تخص قطرا اسلاميا بحسبه.حتى يعرف العالم الاسلامى بعضه بعضا .

التوصية السابعة

احداث أكاديمية التاريخ الاسلامى التى تكون لها مكتبة جامعة وأرشيف جامع ومتحف جامع ومركز للبحوث الاسلامية جامع ، والتى تصدر عنها نشرة دورية تلخص ما ينشر لدى الاوروبيين عن المسلمين فى المجلات والكتب حتى يكون كل مسلم على بينة من الحركة العقلية الاسلامية وما يكتبه المستشرقون ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا وتكون هذه الاكاديمية مزودة بحق الابداع الشرعى وحماية الملكية الثقافية فى كل البلاد الاسلامية لكل ما يصدر من دراسات تاريخية تتعلق بالاسلام من قريب أو من بعيد .

التوصية الثامنة

تتولى لجنة اعداد الموسوعة التاريخية الاسلامية التى لابد منها لمراجعة الباحثين وتيسير مدهم بالوثائق الصحيحة والمصادر الشاملة .

التوصيــة التاسعة

تؤلف لجنة دائمة لتجريد ما يرد فى الصحف والمجـلات الاسلامية مهما كانت لغتها وتصنفهـــا تصنيفا عشريا وتقسمها حسب المواضيع والعصـور والاقطار حتى يمكن الرجوع الى هذه المصـــادر الهامة التى يعسر الوصول اليها بغير هذا الاسلوب ، وذلك نظير ما فعل الانكليزى فى تجريد مجلات المستشرقين على مد نصف قـرن واصدار مواضيعها فى كتاب

التوصيــة العاشرة

ان من أسباب الخلاف بين البلاد الاسلامية جهلهم بتاريخ بعضهم قديما وحديثا . ومن هنا تبدو أهمية الاعتناء بتاريخ الامم الاسلامية حديثا وقديما فى مناهج التعليم كخطوة أولى لتعارف الشعوب الاسلامية بعضها بعضا وكلبنة أولى فى سبيل الوحدة الاسلامية الشاملة .

ملحق توصيات اللجنة الثالثة

اعتبار التاريخ الشرقى ثم الاسلامى عند ظهوره أصلا ، والتاريخ الغربى الذى لا مندوحة عنــه فى مرتبة تليـــه .

وذلك على الاسلوب الآتى :

أ) العصر الحجـرى : لا يتغير اطاره الزمـانى لكن محتـواه يصـير :

1) المشرق العربى والاسلامى .

2) **الاندلس والمغرب وافريقيا .**

3) **مقارنة مع أحوال هذا العصر فى أوروبا ويعتبر انسان بين العاشر فى الجزائر ، أصـــلا لما يسمى انسان كرومانيون بفرنسا وهو الانسان المـــدرك .**

ب) العصر القديم : لا تغير لابتدائه ، لكن تغير نهايته فتنقل من عهد انقسام الامبراطوريـــة الرومانية الى قسمين غربى وعاصمته رومة ، وشرقى وعاصمته بيزنطة الى «الهجرة المحمدية» .

ويصير محتـــواه :

1) العرب فى جاهليتهم: جزيرة العـــرب، ســـوريـا، والعـــراق

2) الامازيغ (البربر) : أصل الامازيغ

- **الحضارة المازيغية اللوبية**
- حرب التحرير المازيغية

3) تركيا القديمـة
4) ايران القديمة
5) اشـــور
6) الفينقيـــون :
7) اليـونـــان : قرطاجنة ـ الحضارة البونيقية مع التركيز عـلى
الرومـــان : مشاركة الشعـوب المستـولى عليها فى هـذه
الحضـارة
8) اليهـــود
9) المتـــوحشة
10) الـونـــدال
11) البيـزنطيـــون

ج) **العصر الوسيط** : وتسميه عصر الازدهار الاسلامى اجتنابا لمـا ذهب اليه الافرنج من أن العصور الوسطى يراد بها الانحطاط ، وهو صحيح بالنسبة اليهم . وعلى العكس من القضيـة بالنسبة الينا .

1) ظهور الاسلام : الرسالة : ما قبل الهجـرة .
2) الخلفاء الراشدون : (الفتوحات والاحـداث)
3) الخلافة الامـوية
4) العبـاسيـون
5) ظهور الخلافة الاموية بالاندلس
) ظهور الدويلات المنبثقة عن الاسر (الطاهرية ـ الطـولونيون ـ الحمدانيـون ـ الاغالبة ـ ـ الرستميون ـ الادارسة ـ الحسينيون بصقلية) .
7) ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب + ظهـور الدولة الاخشيـدية بمصر .
8) انتقالها الى الشـرق
9) استخلاف الصنهاجيين بالمغرب
10) ظهور الدولة الحمادية بالجزائر
11) المرابطـون
12) الموحـــدون

13) الحفصيــون بتونس

14) الزيانيــون بالجزائر

15) المرينيــون بالمغرب

16) السلجــوقيــون

17) الغــزنويــون

18) الايلخــانيون بالعــراق

19) الامبراطوريــات بالســودان

المؤسســات الاسلاميــة :

اتصال الحضارة الاسلامية بأوروبا وتأثيرها فيهــا .

الحروب الصليبية

د) العصر الجــديث

– منْ فتح السلطان محمد لاسطنبول وسقوط غرناطة الى حملة نابليون على مصر .

– السلطة العثمانية – الدول العثمانية الجديدة : رومانيا – بلغاريا – اليونان – يوغسلافيا – البــــانيــا .

– تجلية الاسبان عن الجزائر وتونس وليبيــــا .

– القرصنة (فرسان مالطة) وصــد القـــرصنــة .

– اكتشاف امريكا ، عمل المؤرخين العرب في بناء امريكا ، المزروعات الجديدة والحيوانـــات الجــــديدة .

– حركة الاصلاح فى أوروبا

– النهضة : الادب الجديد الاوروبى ، الفنون الجديدة .

– القرن السادس عشر

– القرن السابع عشر

– القرن الثامن عشر

– تقدم العلوم : الاختراعات الجديدة – الاكتشافات الجديدة – أوستراليا – بدء الاستعمـــار فى اندونيسيا والهند والخليج العربى .

– ايران – افغانستان

– روسيا والعالم العثمانى

ـ الجلوة الاندونيسية ـ أسبابها ـ أطوارها

ـ أثر الاندونيسيين فى النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى البلدان التى انتقلوا اليها

ـ لمحة عن العالم الشرقى

هـ) عصر الاستعمار

ـ من حملة نابليون الى يوليو 1962

1) أسباب الاستعمار

2) حروبه

3) سياسته

ـ البلدان التى احتلها

ـ المقاومة الوطنية

ـ ظهور نهضة فى البلدان الاسلامية فى ميادين السياسة والادارة والطب وعامة العلوم والآداب والفنون والتقنيات ـ الترجمة الاندلسية ـ بالمغرب ـ بالجزائر ـ بتونس ـ بليبيا ـ بمصر ـ بالشام ـ بالعراق .

التنظيمات :

ـ تطورات السياسة الاستعمارية

ـ استعداد الحركات الوطنية

ـ الحرب العالمية الاولى

ـ ما بين الحربين والحركتين العالميتين ـ الحركات التحريرية فى عامة البلاد .

ـ الحرب العالمية الثانية

ـ انتهاء الاستعمار ـ الاستقلال الاول

و) عصر الدول الاسلامية

ـ الاستعمار الجديد

ـ آثار التخلف

ـ البناء ـ التكتلات ـ سياسة التخطيط ـ ـ المؤتمرات ـ التيارات السياسية ـ العملاقان ـ عدم الانحياز .

اللجنـة الرابعـة

يقظة العالم الاسلامى اليوم ونهضته غدا
ودور الاسلام الفعال فيهما أمام تحديات العصر
ومختلف أنواع الغزو والاستـــلاب

التـــوصيـــات

استجابة لدعوة السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية تألفت من أعضاء الملتقى لجنـة فرعية ، برئاسة الاستاذ الاكبر الدكتور محمد محمد الفحام شيخ الازهر ، لتقديم توصياتها فى اليقظة الاسلامية الحاضرة وفى النهضة الشاملة المقبلـة .

وبعد ان اجتمعت اللجنة عدة مرات ، وتـدارست الموضوع فى ضـوء ما ألقى فى الملتـقى من بحوث ومحاضرات ، وما دار فيه من تعقيبات ومناقشات ، رات أن تتقدم بعدة توصيات ، تقوم على المبـادىء والحقـائق التاليـة :

1) ان أعضاء الملتقى مؤمنون جميعا بأن الاسلام صالح لكل زمان ومكان ، وان القـرآن مبـرأ من كل ما طرأ على غيره من تحريف أو تبديل ، وانه لا يزال جديدا فى مقاصده ومعانيه ، معجزا فى تعبيره ومبانيه ، وكلما تقـدم العلم ازدادت آياته ثبوتا ووضوحا ، وقدمت للانسانية نورا على نور .

2) وهم يؤكدون ان الاسلام هو الدين الكامل ، لانه منزل من عند الله ، وان المسلمـين بشر ، يخطئون ويصيبون ، وهم يخطئون حين يأخذون الاسلام لفظا ورسمـا ، ويصيبـون حين ينفـذون الى مقاصده ومراميه . ومن أجل ذلك يرون أن واجب المستنيرين المؤمنين برسالة الاسلام أن ينبهـوا الحائرين الى أن منطق فكرنا وسلوكنا ، أمام تحديات العصر وكل عصر ، يجـب أن يكون هو نفـس المنطق الذى هدانا الله اليه وأتم به نعمته علينا ، ونعنى به التفقه فى ديننا والعناية بلسان قرآننا.

3) وهم يرون كذلك أن اصرار المجاهدين الصادقين على عقد هذا الملتقى ، وما سبقه من ملتقيـات للتعرف على الفكر الاسلامى ، فى مختلف وجهاته ونواحيه ، وان اقبال العلماء الباحثين والطـلاب الدارسين ، من شرق وغرب ، على شهود الملتقى والمشاركة فيه ، بالتحليل والتعقيب والاستفسـار ، لدليل جديد على أن هذا الدين قويم متين ، وانه متى أتيح للاجيال الاسلامية الصاعدة أن تنفذ الى روحه وان تدرك رسالته استطاعت أن تجد فيه زادا للعقل الصـريح .

وهو القلب المضىء الذى تفتقده فى غير بلاد الاسلام أجيال المغتربين والضائعين .

4) والمشتركون في الملتقي مجمعون على أن بلاد الاسـلام تواجه اليوم غـزوا فـكريا ضـاريا، وتتعرض لحملات جارفة هدفها التشكيك في صـلاحية الاسلام للوفاء بمطالب العصر . وهم لـذلك يرفضون رفضا باتا جميع الدعـاوى الفـكرية الدخيلة ، التي تحاول أن تتسلل من النوافذ بـلا استئذان ، بعد أن خرج الاستعمار من الابواب . وهم يهيبون بالمسلمين عموما وبالمفكرين خصوصا أن يطبقوا المبدأ الاخلاقي الاسلامي ، مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ليطرحوا السلبية التي درجوا عليها في عصور الوهن والتخاذل ، وان يؤمنوا حق الايمان بكتابهم ، وان يثقوا تمام الثقة بأنفسهم ، وعلى الجملة أن يصلحوا جوانيهم ليصلح الله برانيهم ، وأن يستمسكوا على الدوام بأصالتهم ، مـع الانفتـاح على العالم في عزم واقـدام .

أما التوصيات المنبثقة عما قدمنا من مبـادىء وحقـائق فنجملها فيما يـلي :

أولا : توصيات تتعلق بالعقيـدة :

1) ان الظروف الراهنة التي يعيش فيها العـالم الاسلامي تـوجب الخروج من موقف الدفـاع الضعيف المألوف ، الى موقف المبـادرة والعمـل والبنـاء .

2) ولما كانت العقيدة هي الايمان الذي تـرتكز عليه حياة الامة الاسلامية ، فان تعميم تعليـم العقيدة الاسلامية وادخالها في صلب المنـاهج الدراسية في جميع مراحل التعليم ، أمر يحتمـه مـا يتخبط فيه المجتمع الاسلامي من انهيار عقـائدي ، ويوجب ان يكون ذلك التعليم بالعرض الواضـح الذي يلائم العقلية الحديثة ، ويتمشى مع التفكير العلمي ، دون مساس بجوهر العقيدة وروحها المميزة لها . ولذلك يوصى الملتقى بالعمل على أن تقوم الى جانب الجامعات العلمانية العصرية ، جامعـات اسلامية تدرس فيها جميع العلوم الحديثة ، كما هو الحال في بعض البلاد الاسلامية ، وينتهز الملتقى هذه الفرصة لتوجيه التحية الى الجزائر وحكومتها الرشيدة ، اذ بدأت في وضع أسس جامعـة اسلامية نرجو لها التوفيق والسداد ، ولا يسع الملتقى الا أن يطالب بالحاح باحياء جامعات اسلاميـة مرموقة ، مثل جامعة الزيتونة في تونس ، والجامعة الاسلامية في ليبيا ، وجامعة أم درمان في السودان وجامعة عليكرة في الهند ، وذلك في الوقت الذي كان ينبغي أن يؤخـذ بيدها ويدفع بها للامام لـكي تؤدي رسالتها على الوجه الصحيح .

3) ويوصى الملتقى بانشاء معاهد في مختلف البلدان الاسلامية للدعوة الاسلامية ، هدفها تخريج الدعاة الاكفاء المزودين بحصيلة وافية من الثقـافة الاسلامية ، والمام واسع بلغات الشعوب الاسلامية غير العربية ، كالفارسية والتركية والاردية والاندونيسية والسواحلية ، مع التركيز على تعليم اللغات الاجنبيـة .

4) يوصى الملتقى بنشر اللغة العربية الفصحى بين أبناء المسلمين فى العالم الاسلامى ويدعــو الشعوب العربية وحكوماتها الى القيــام بدورها لتحقيق هذا المطلب ، سواء من حيث تأسيس معاهد لتعليم العربية فى البلاد الاسلامية غير العربية ، أو ايفاد الاساتذة العرب أو بتبادل الطلاب .

5) يوصى الملتقى بتوثيق أواصر الفكر الاسلامى بين البلاد العربية والاسلامية غير العربية.وذلك بالعمل على ترجمة أمهات الكتب التى ألفت عن الاسلام وثقافته وحضارته فى لغات تلك البـــلاد ، كما يوصى بمتابعة ما ألفه الاجانب من كتب عن الاسلام ، وفحصها وتقييمها وتصحيح ما قد يــكون فيها من أخطاء أو انحرافــات .

6) يحيى الملتقى البلاد الاسلامية التى حــرصت على الاحتفاظ بالحروف العربية لكتابة لغاتها ويهيب بالبلاد التى استعاضت عنها بالحروف الاجنبية ان تعيد النظر فى قرارها هذا . ابقاء عــلى العلاقة الثقافية التى تربطها بالقــرآن وتراث الاســـلام .

ثانيــا : توصيات تتصل بالناحية التطبيقية :

1) يوصى الملتقى بالاهتمام بتربية الشبيبة الاسلامية تربية اسلامية قائمة على العقيدة الصحيحة والسلوك القويم . فى الاسرة والاندية ومنظمات الشباب . تتميما لمهمة المدرسة . وذلك لتنشئة جيل اسلامى قوى الشكيمة راسخ الايمان صادق العــزيمة على قهر الصعاب ومجابهة التحديات .

2) يوصى الملتقى برعاية المؤسسات الاجتمــاعية والجمعيات الخيرية التى تمد يد العون للفقراء والمعوزين . وذلك عملا بالمبادىء الاسلامية الداعية الى التكافل والتضامن بين أفراد الامة ، ووقـــوفا أمام المؤسسات التبشيرية العامة فى هذا الميدان .

3) يوصى الملتقى بالاتصال بالمسلمين المهاجرين فى البلاد الاجنبية والمسلمين المواطنــين فيها ، لتعهد أحوالهم وكفاية حاجاتهم ونشر الــدعوة بينهـــم .

4) ويوصى الملتقى بتنسيق الصلات بين المــؤسسات الاسلامية فى مختلف البلاد ، والسعى الى تضافر جهودنا فى جميع الميادين التى تعمل فيهــالصالح الاسلام والمسلمين .

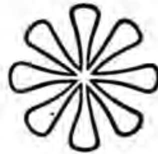
5) ولا يفوت الملتقى أن يطالب الامة الاســلامية ، على اختلاف مستوياتها الرسمية والشعبية بأن تنهض بحزم وايجابية لنصرة الشعب الفلسطينى ودعم ثورته المسلحة ، ماديا ومعنويا ، والتنبه الى ضرورة التصدى لمقاومة الاغتصاب الصهيــــونى الرامى الى تقــويض الاسلام وطمس حضــارته كلها ، ويذكر الملتقى مع شديد الاسى بما صنعته اسرائيل من حرق المسجد الاقصى ، وما دامت عليه من عمليات الهدم والتخريب لمقدسات المسلمين ، واقامة المستوطنات اليهودية على أنقاض تلـــك المقدسات ، وما يلاقيه المسلمون فى فلسطين المحتلة من تعذيب وتقتيل فى معتقلات اسرائيل . كمــا

يهيب الملتقى بالمسلمين بأن يدينوا مشروعات التصفية للقضية الفلسطينية . وأن يعملوا على احباطها قبل فوات الاوان . ويدعوهم الى اعتبار الثورة الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى كما أن الملتقى يستنكر الاعتداءات المتكررة من جانب المسيحيين على اخواننا المسلمين فى الفيليبين ويدعوهم الى التدخل الحاسم لوقف هذه المعاملات المجافية للانسانية .

6)ويهيب الملتقى بالمسلمين شعوبا وحكومات أن تداوم على اليقظة , للتحرر من جميع أنواع الاستغلال التى تمارسها الاحتكارات الاجنبية , ويدعوهم الى العمل بما فى وسعهم , لرفع المستوى الثقافى والاجتماعى والاقتصادى فى بلادهم . ويؤكد لهم بأن التخلف فى هذه المجالات مما يهىء للغزو الفكرى والاستعمارى . وقد وضح للعيان فى كل مكان , أن الاستعمار الثقافى والاقتصادى أخطر على المسلمين من الاستعمار السياسى أو العسكرى .

7) ويوصى الملتقى بتكوين لجان فى كل بلد مشارك لمتابعة تنفيذ توصيات الملتقى فى ربوعه .

8) يوصى الملتقى بأن يقف المسلمون جميعا وقفة رجل واحد أمام أعداء المسلمين , ممن يساندون الصهيونية فى تنفيذ مخططاتها الاستعمارية ويجب مقاطعتهم ماديا وعدم التعامل معهم .



صور من الملتقى



جلسة الاختتام وتلاوة التوصيات

من اليمين الى اليسار : الاستاذ الدكتور فيلهيلم هونرباخ رئيس اللجنة الثانية ـ الاستاذ الكعاك رئيس اللجنة الثالثة ـ الاستاذ مصطفى عبادة من الوزارة ـ الاستاذ مولود قاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ـ فضيلة الدكتور محمد محمد الفحام شيخ الازهر رئيس اللجنة الرابعة ـ الاستاذ محمد عبد الله عنان رئيس اللجنة الاولى



انطباعات عن الملتقى


الاستاذ ماتسكوفسكى
يوغسلافيا

لى الا ملاحظة واحدة فيما يخص التنظيم ، وهى اننا متضايقين من ناحيــة الخروج حيث لا نستطيع التجول فى العاصمة ولو عشرة دقائق فى كل يوم أى اننا منحصرين فى القاعة من التاسعة صباحا الى تقريبا الثامنة مساء ! وكنت أود أن الملتقى يجرى فى قلب العاصمة .


محمد المختار اسكندر
مستشار تربوى بالمدية

الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى حقا انه مفخــرة الجزائر ودليل على عروبتها واسلامها وحافزا قويا على المضى فى هــذا السبيل .

وما نشاط وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى اقامــة هذه الملتقيات . وبعث الفكر الاسلامى الواعى ، بكل الوسائل ، وعلى رأسه سيادة الوزير الناشط المحنك الحازم واعوانه المخلصين .. وكفى مثــالا على نشاط شبابنا الواعى المتحفـز للسير دوما الى الرقى والازدهـار : على الشاب سليم هالى نجل صديقنا المرحوم الاستاذ الحفناوى هالى رحمه الله وما هذا الا شبل لذلك الاسد .ان يخلفه فى جميع الميادين الثقافية والادارية , والنشاط والحزم . اتمنى له التوفيق والسداد .



السيد الشريف يوسف النبهانى
وزير التنمية المحلية فى غينيا

لقد اشتركنا فى الملتقى السادس هذا بفكرة عن الاسلام والمسلمين تختلف اختلافا جوهريا عن الفكرة التى خرجنا بها لاننا كنا نرى أن الاسلام بدأ يضعف فى قلوب المسلمين وان المسلمين بدأوا يتخلون عن عقيدتهم بالتدريج ولكن الآن تأكدنا أن الاسلام والمسلمين بخير وأن المسلمين سيستعيدون مجدهم التليد بدون شك فى المستقبل القريب . ان شاء الله .



الاستاذ عثمان الكعاك
مؤرخ تونسى

العجيب المدهش فى هذا الملتقى هو انه التقاء **بين المعلم** والمتعلم والطبقة الحادرة و الطبقة الصاعدة فى مكاشفة للقضايا الاسلامية الهامة يبسطها المحاضر أو الطالب ويجيب عنها الاستاذ ويناقش فيها الشباب الى أن تصحح الاوضاع وترسخ المبادىء وتصفى المفاهم وتزول الاوهام ولا يبقى فى نفس طالب نقطة استفهام لا يستطيع الاجابة عنها فيبقى فى نفسه شك وكدر . فبارك الله فى هذا الوزير الحركى الذى وضع هذا البرنامج العجيب وحققه بدقة . والسلام

★ ★   ✶ ✶   ✶ ✶



نبيه عاقل
وكيل كلية الآداب بجامعة دمشق

لقد اسعدنى من الصميم أن أشارك فى أعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى . كما امتعنى وزاد فى ايمانى بوحدة الفكر فى عالم الاسلام لقاء السادة الافاضل الذين شاركوا فى هذا المؤتمر . ان لقاء الباحثين فى الاسلام فكرا وعقيدةوحضارة وتاريخا ، خير كله وخير ما فيه أنه يفتح الآفاق الرحبة لتعميق المعرفة وتوسيع النظرة العلمية الدقيقة فيما يتعرض له ويعيشهعالمنا العربى المسلم من هجمة فكرية تتعرض لاصالته بالتهديم والتشويه .وقد كان لنظام الملتقى واشراف السيد وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية على اعماله وتعهده اياه بالرعاية والتوجيه أفضل النتائج ،فقد سار الملتقى فى نظام دقيق ونهج علمى سليم .

لحكومة الجزائر الرشيدة خالص الشكر وعميق التقدير على اقامتها هذه الملتقيات ودعاء الى الله جلت قدرته أن يكون ثوابها جيلا مؤمنا برسالته الروحية والقومية .



د منجي الكعبي
استاذ بكلية الآداب بجامعة تونس.

لقد شرفني جدا دعوة السيد وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية لحضور ملتقى الفكر الاسلامي السادس . ولقد كانت هذه مناسبة عزيزة على نفسي لمعرفة الجزائر عن كثب . ولقد لمست فعلا عظمة هذا الشعب الاخ الذى ادهش الدنيا بشجاعته وصراحته وكرامته . ان هذا البلد الجميل جدا يسحر بطبيعته المتنوعة الخلابة . هذا الملتقى جمعني بأخوان انا جد متشرف بمعرفتهم ومن بينهم الاخ سليم هالي الذى اسعدني بالتعرف عليه واني لارى فيه الشاب الذى يؤمل منه كل خير لخير الجزائر وتونس وغيرها من بلدان وطنه الاكبر .





د عمر فروخ
أستاذ بكلية الآداب جامعة بيروت

هذا الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي هو الملتقى الاول الذى أحضره . وقد أعجبني التنظيم الدقيق والحزم في تنفيذ التنظيم والدقة في المحافظة على المواعيد . مع أن الاعضاء الذين يشتركون في هذا الملتقى كثيرون .

وهذه أيضا أول مرة أزور فيها الجزائر وقد رأيت فيها أكثر مما كنت قد عرفته عنها من الكتب ومن الاخبار . فيها النشاط الذى لم يترك شبرا من الارض غير مغروس أو غير مزروع . وأما الروح الاسلامية فأقوى في الجزائر من كل ما قد عرفته في البلدان الاسلامية التي عرفتها . ولقد أقامت الجزائر الدليل على ذلك من جهادها الذى وصل بها الى استقلالها الحاضر . أرجو أن تكون الجزائر قدوة لجميع البلاد الاسلامية.



الاستاذ سيدى محمد يوسف جيرى
مدير الدراسات بوزارة
التربية والتعليم بجمهورية مالى

بالحقيقة لاحظت أن هذا الملتقى فريد من نوعه . ففي العادة هنالك نوعان من الملتقيات : ملتقى للاخصائيين والاكاديميين وهو يتميز بالفنية الدقيقة ، وملتقى للجمهور وهو يتميز بالحماس وعدم الغوص في اعماق المسائل . وهذا الملتقى الذى نحن فيه اليوم يتميز بأنه ملتقى أخذ من الاثنين : فليس ملتقى مقفولا ومحدودا على الاكاديميين فقط . وليس ملتقى للجمهور من الطلبة فقط . وانما هو ملتقى بين عمالقة الفكر وبين الجمهور من الطلبة وبعض المسؤولين .

والمعجزة ان يقظة المسؤولين في وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية الجزائرية زيادة على حرص الاخ مولود قاسم على النظام هما جعلا من الممكن ايجاد هذه الصورة الجديدة من الملتقيات التي لم تعرفها البشرية قبل هذا وليس في ذلك أى مبالغة .

وانني أرجو أن تأخذ كل الشعوب من هذه التجربة الناجحة درسا مفيدا في امكان التقاء المفكرين بالجماهير بدون فوضى وفي نظام مدقق وشكرا .



ابو خليـــل
ممثل منظمة فتح بالجزائر

اننا نحيي باسم الثورة الفلسطينية هذا الملتقى الاسلامي للتعرف على الفكر الاسلامى .. حيث كانت المناقشات التى دارت مفيدة وغنية للشباب المسلم .. ونحيي روح الوزير الشاب الذى كان يبدى اهتماما خاصا بالقضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية .. وما اضفاه معاليه من روح ثورية على هـذا الملتقى .. كما اننا نحيي هذا الملتقى على القرارات التى اتخذها بالنسبة لتأييد الثـورة الفلسطينية .. وان القرارات التى اتخـذت خاصـة بفلسطين من ناحية التأييـد ورفض الحلول السلمية تدل على نضـج مداولات هذا الملتقى .. كما نذكر البرقية التى ارسلها هـذا الملتقى للاخ ياسر عرفات . لقد كان ملتقى ناجحـا حيويا يفيد منـه النشء الاسلامى وافادت وتفيد منه فلسطين فتحيـة لروح الاخ الوزير الشاب مولود قاسم واركان وزارته .. ونأمل أن تنظم الملتقيات القادمة فى فلسطين والجزائر .

أرى ان التنظيم المادى كان فى منتهى الاتقـان . يشرف الجزائر ويشرف العرب . اشكر كل المكلفين فى الوزارة وعـلى رأسهم الاخ مولود قاسم عـلى هذا الانتصار .

ولو كان لى طلب ، لكان ان يتشدد المسؤولون اكثـر فى عدم قبول الاطالة فى الكلام . وذلك لكى لا يمـل الطلبة ، ويستفيدوا اكثر والسلام .



د عبد الله العروى
أستاذ بجامعة محمد الخامس المغرب



عمار صامب
استاذ بكلية الآداب
جامعة داكار السنيغال



ان ضيافتكم تنسى الغريب أهاليـه وأوطانه وأدام اللـه خيركم . آمين .

نظمت الجزائر ملتقاها السابع للتعرف علـى الفكر الاسلامى وفى اطار الذكرى العاشرة للاستقلال ولم يكن المقصود من كل الاحتفالات والملتقيات ، التى جاءت بهذه المناسبة اكتساب جاه أو المفاخرة بمنجزات ، وانما هو اعداد الصدف للتفتح الصادق والتعارف والتوادد بين الاخوة والاصدقاء . ولقـد جاء الملتقى للتعرف على الفكر الاسلامى تحت شعار التخلص من التبعيات الثقافية التى فرضها الاستعمار على أجيال عديدة من أمتنا الاسلامية . ومهما كانت هـذه التبعيات متعـددة ومتنوعة الجوانب ففى رأيى أنه لا بد للمفكرين المناضلين من أجل الحقيقة أن يشرعوا من الآن ، وبالطرق العلمية ، فى دحض التزييفات التاريخية ، واقتلاع جذور الاستعمار من البناء الثقافى الذى نريد اقامته فى بلادنا . ولقد كنـا شاعرين كل الشعور بخطورة هـذا الموضوع ، ومدركين كل الادراك لما سيحدثه من نقاش علمى قد يصل فى بعض الاحيان الى درجة الحدة . وان اختيارنا للمنهج الواضح الصريح لهو اختيار طريق النزاهة العلمية ، وما نظن أننا وضعنا فى قفص الاتهام الا التزييفات التى فرضها الاستعمار على تاريخنا .



الاستاذ عبد المجيد مزيان
أستاذ بكلية الآداب جامعة الجزائر

غير أن هناك آراء شاذة يدعى بعضها أن التفتح فى هذا الملتقى كان مبالغا فيه ، ويدعى البعض الآخر أن الهجومات على مواقف الثقافة الاستعمارية قـد وصلت الى مستوى العنف والحدة .

اننا لم نعتقد فى يوم من الايـام أن التفتح يكون أدنى خطر على الفكر الاسلامى . ذلك أن عقيدتنا وكياننا الثقافى فى حوار مستديم مع البشرية جمعاء لنفيد ونستفيد وندقق مواقفنا من المواقف الفكرية الاخرى . فوجود جماعات واسعة من غـير المسلمين فى ملتقى للتعرف عـلى الفكر الاسلامى ، لا يعنى مطلقا أننا نتتلمذ لغيرنا ، أو أن غيرنا يتدخل فى شؤوننا العقائدية ولكن الامر كله يرجع الى الاستفادة من آراء الآخرين وحملهم على الاستفادة من مواقفنا ، وفى هذه التجربة اثراء وأى اثراء للثقافة والعلم .

واما الهجـوم على التيـارات الاستعمارية فى الثقافة ، فحق لـه رغم الجـو العلمى الذى كان يسود الملتقى أن يكتسى أحيانا صبغة الحـدة لان دحض الآراء الفاسدة لا يمكن أن يأخذ بمنهاج آخر غير المنهج النقدى ، وفى كل نقد بعض العنف ، ان صدر العالم النزيه صدر رحب وآفاقـه الفكرية أوسع من أن تجد حرجا فى فضـح التيـارات الفاسدة ولو كان أصحابها ينتسبون الى جلدته أو ملته . واذا كنا قد استمعنا منذ قرنين الى نغمة واحدة من طرف أغلبية المؤرخين المنغمسين فى جو الاستعمار وهى نغمـة التحقـير من شأن المسلمين ، والتشنيع بالثقافـة العربية ، فيحق لابناء الجيل الحاضر من علماء الغرب الجديد وأبناء الوطن العربى أن يتعاونوا بصدق من أجل مراجعة المفاهيم الفاسدة ومحو آثار التزييفات دون خضوع للمركبات والحساسيات .

واننا لنظن أن ملتقى مثل الملتقى السابـع للتعرف على الفكر الاسلامى ، كان بسبب تفتحه ، وضبط مباحثه ، وتوسيع آفاقه ودقة تنظيماته ، ليعد فاتحة عهد جديد للتبادل الفكرى الغنى بالآمال .

لقد سعدنا بهذا الملتقى الذى تميز بجمع مجموعة كريمة من العلماء ورجال الفكر وسررنا بما ساده من نظام .. وما احاطتنا به وزارة التعليم الاصلى من كرم وحسن وفادة .. ونسأل الله تعالى ان يوفقنا للخروج منه بخطة عمل فى مصلحة الاسلام ان شاء الله والله الموفق لما فيه الخير .. واصدق تحية لمعالى الوزير الشاب الاستاذ مولود قاسم .



د محمد عبده يمانى
وكيل وزارة المعارف
المملكة العربية السعودية

أشعر بالفخر والاعتزاز وأنا أرى الملتقيات الفكرية ـ التعرف على لفكر الاسلامى ـ التى تعقدها وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى وقتها فى اطار من النظام والهمة والنشاط والانضباط .. من طرف جميع مسؤولى الوزارة من الوزير الشاب الى آخر مسؤول ومساعد فى الملتقى .

أشعر بجزائريتى وثوريتى وعروبتى ودينى مجسمة فى الفعل الخلاق والنظام والايجابية . فهنيئا للوزارة هذه المبادرة الاولى من نوعها فى العالم الثالث كله ـ وهنيئا لجزائرنا شبابها الواعى المسلم .



السيدة زهور ونيسى
أستاذة بثانوية عائشة بالجزائر

يعجبنى جدا ما لمست من الروح الدينى والعلاقة بالاسس الاسلامية فى اخواننا الجزائريين ,كما اننى اعجب خاصة بما ارى من الاخ الوزير مولود قاسم وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية من القيام لخدمة الاسلام والمسلمين عامة ولتوطيد دعائم الاسلام بين الشعب الجزائرى العزيز عامة وان أول شىء يجب ان أعرب عنه وقد شاهدته فى ملتقانا هذا , هو الحرية التى اتيحت للباحثين مسلمين وغير مسلمين ليعربوا عن فكرتهم , وسأتكلم عنه قبل ان القى محاضرتى .

وثانيا التوسع للمناقشة والتعقيب والبحث والاسئلة وخاصة بالنسبة الى الطلاب فهذا شىء ممتاز .

وثالثا , العناية الخاصة بالنسبة للضيوف وخاصة بالنسبة بالنائين . فبارك الله فى الشعب الجزائرى العزيز والحكومة الجزائرية الشقيقة , واخص بالثناء معالى الاخ الوزير مولود قاسم . لاننى تنشقت من انفاسه الروح الدينى الطيب .



د جعفر شهيدى
أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة طهران

★
★
★
★


د أبو العيد دودو
أستاذ بكلية الآداب – جامعة الجزائر



كان الملتقى فى اعتقادى فى غايــة التنظيم من جميــع النواحى . ولا أظن أن هنــاك أى ملتقى آخر أتيح له أن يتم بهذه الصورة التى تم بها فى جزائر الثورة . فشكرا لجميع المسؤولين على تنظيم الملتقى .

تشرفت بحضور الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى ، ويسعدنى أن أعرب عن أصدق الشكرلهذه الفرصة التى كان لها اكبر الاثر فى اثـــراء معلوماتى فى موضوعات كثيرة أفـدت منهـــا كل الافـــادة وشخصيات اسلامية تعرفت بهـــاوحوار ديمقراطى مثمر ومنفتح ارجو الله ان ينفعنى به وان يجزى السيدالوزير مولود قاسم عنى خير الجزاء .

ويطيب لى أن اسجل تقديرى لجانب آخر مهم هو التنظيم الدقيق للملتقى والانضباط التنظيمى الرائع ولجهود الاخوة الذين تولوا ادارة المؤتمر وللاخوة المرافقين والسائقين الذين يسروا لنـــا سبل الراحة فى اقامة ممتعة واثنى على وعى الطـلاب؛ثقافتهـــم وحـــرصهم على الاسلام والاستزادة من ثقافته واكرر الشكرلمعالى الوزير ولكـل الاجهـــزة التى ساهمت فى نجاحه ولا يفوتنى تقديرالجهد الممتاز للاخوة المترجمين مـــع أصدق التمنيات أن توفق الجزائـردائمـــا التى انتصرت بالاسلام الى نصرة الاسلام فى كل مكان .   مع الشكر والتقدير .



الاستاذ أحمد فـراج
مراقب عام للتخطيط
باتحاد الاذاعة والتلفزيون – القاهرة

أود ان نتعود اكثر ما يمكن على التحليل فى كل دراساتنا أكثر من الصرد والنقل .



محمد العزيز الحبابى
استاذ بكلية الآداب بجامعتى
الجزائر ومحمد الخامس بالمغرب

وحـدة الشعب فى الجـ ـــــــزائر ديـــــــنى



بســـوى ديـن وحـــ ـدتى أنـا كــافـــر

شاعـر الثـــورة
مفـــدى زكـــرياء





عبد القادر فضيـل
استاذ جزائرى

ان انطباعاتى عن الملتقى السادس للتعرف على الفـــكر الاسلامى كالآتى :

1) أعجبنى حرص السيد الوزير على الجـد والعمل المثمـــر وعلى النظام . فطيلة مدة الملتقى لم ينقص منه هذا العزم وهذا الجـد ، وهذه ظاهرة لا نجدها عادة عند المسؤولين الكبار وهذا ان دل على شيء فانمـا يدل على انه مثل رائع للاحتـــذاء،والقدوة فعلى شبابنا ان يتخلقـوا بمثل هذه الروح الدؤوب .

2) اعجبنى كذلك روح التفاهم الموجودة بين المسيرين . ان مــدة الملتقى الطويلة كفيلة بالبرهنة على هذه الروح .

4) مشاركة الجـزائريين تدل على روح الوعى والنضـال .

هى ضبط المواعيد . والمساواة بين جميع الوفود .

3) مشاركة الجزائريين تدل على روح الوعى والنضال .

صور من الملتقى



لقطة من جلسة الافتتاح ويبدو فى الصورة من اليمين الى اليسار : السيد عبد الرحمان شريط المـــــدير العام للاذاعة والتلفزيون ـ السيد عبد الحميد بن اشنهو مدير الجريدة الرسمية ـ السيد محمد الشريف مساعدية مسؤول التوجيه بالحزب ويبدو فى الصف التالى عن اليمين السيد محمود بوعياد مدير المكتبة الوطنية

فتـــوى

رأى لجنة الافتـاء

فى

العمل بالحساب الفلـكى

لتعيين مواقيت العبادات

ومنهـا :

الصـــوم

و

الصـــلاة

وفى

اخراج تقويم قمـرى

اسـلامى موحـد

ان لجنة الافتاء المركزيـــة المجتمعة مساء الخميس 29 صفر 1392 هـ الموافق ل 13 أبريل 1972 م استجابة لادارة الشؤون الدينية بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، درست – فى جملة ما درست – مسألة الاعتماد على الحساب القطعى فى تحديد مواقيت العبادات ، ومنهـــا الصيام فى ابتداء الشهر ، والافطار فى نهايته . وكان فيمـــا استعرضته مذاهب المجتهـــدين ، وأقوال العلماء المسلمين قديما وحديثا :

اثبات أول الشهر ونهايته : لقـد أوجب الله صيام شهر رمضان كاملا ، كما أوجب افطار أول يوم من شوال ، قـال سبحانـــه : (شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منـــكم الشهر فليصمه ...) (1) قال القرطبى : « فرض الله

1) من سورة البقرة من الآية 185

صيام شهر رمضان أى مدة هلاله ، ويسمى الهلال الشهر كما جاء فى الحديث : (فان غمى عليكم الشهر) أى الهلال . وقال الشاعر :

واخـــوان من نجـــد على ثقة
والشهر مثـــل قلامـة الظفر
حتى تـكامل فى استدارتـــه
فى أربـع زادت على عشر (2)

وقال ابن رشد : (ان العلماء اجمعوا على ان الشهر العربى يكون تسعا وعشرين ويكـون ثلاثين) (3) . والاصل فى هذا الاجماع قولـه (ص) فى الحديث المتفق عليه عن ابن عمر رضى الله عنهما : (انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا ـ وعقد الابهـام فى الثالثة ـ والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعنى تمام الثلاثين) وأشار (ص) بعقد الابهام الى أنه يكون تسعة وعشرين يوما .

ويثبت دخول الشهر برؤية الهلال ، كمـا يثبت طلوع الفجر وابتداء النهار برؤية الضوء للفجر المستطير من جهة المشرق ، وانما انـــاط الشارع دخول شهر الصوم وانتهاءه بما يسهل العلم به على البـدو والحضر تيسيرا على الامـة ودفعـــا للحرج خصوصا وقد كانت المواصلات عسيرة ، وانتقال الاخبار بطيئا ، وكل قريـــة تكاد تكون مستقلة فقال (ص) : (لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان أغمى عليكم فاقدروا له) (4) .

وقد أجمع الاولون من العلماء والمجتهـدين على ان العمدة فى اثبات الشهر ـ عنـــد امكان الرؤية وانتفاء المانع ـ هـــو الرؤية ان ثبتت بشروطها . والا أكملت العدة ثلاثين .

واختلفوا ان تعذرت الرؤية لمانع كوجـود سحاب أو قتر (غبار) أو اعتراض جبل الخ لاختلافهم فى تأويل النص فى الحديث : (فان أغمى عليكم فاقدروا له) فما معنى اقدروا له ؟

يقال عربية ـ كما فى اللسان ـ : (قدرت لامر كذا أقدر قدرا اذا نظرت فيـــه ودبرتـــه وقايسته ... وقدر القوم أمرهـم يقـــدرونه : دبروه . وقدر عليه الشيء يقدره قـــدرا وقدرا ضيقه ... (فظن ان لن نقدر عليه) ان لن نضيق عليه .. (فقدر عليه رزقه) ضيق ويقال : قدرت الشيء أقدره واقدره قدرا من التقدير وفى الحديث فى رؤية الهلال .. (فان غم عليكم فاقدروا له) . وفى حديث آخر (فان غم عليكم فاكملوا العدة) . قوله فاقدروا له : (أى قدروا له عـدد الشهر حتى تكملوه ثلاثين يوما) .

وقد أخذ جمهور العلمـاء والمجتهدين بأن معناه أكملوا العدة ثلاثين يوما . كما جاء مفسرا فى حديث أبى هريرة أن النبى (ص) قال : (صوموا لرؤيته ، فان غمى عليكم فاكملوا العدد)(5) وفى رواية (فعدوا ثلاثين)(5) . وعلل ابن رشـــد تأويل الجمهور بأن الحديث الاول فاقدروا لـــه « مجمل » والحديث الثانى فاكملوا العدة مفسر

2) الجامع لاحكام القرآن ج 2 ص 273
4) متفق عليه واللفظ لمسلم ولمالك فى الموطا عن ابن عمر

3) بداية المجتهد ج 1 ص 194
5) متفق عليه واللفظ لمسلم فى الروايتين

(فوجب ان يحمل المجمل على المفسر ، وهي طريقة لا خلاف فيها بين الاصوليين فانه ليس عندهم بين المجمل والمفسر ، تعارض اصلا)(6) .

وحمله بعضهم على التضييق (ضيقوا لـه وقدروه تحت السحاب . وممن قال بهذا احمد بن حنبل وغيره ممن يجوز صوم يوم ليلة الغيم من رمضان)(7) .وهذا مذهب ابن عمر راوى الحديث فقد ذهب الى تأويل (اقدروا له) « معنى ذلك ان يصبح المرء صائما ... وفيه بعد فى اللفظ »(8) .

الرجوع الى الحساب : وذهب جماعة من السلف الى ان معناه الرجوع الى السحاب بتقدير منازل القمر قال ابن رشـد : (روى عن بعض السلف انه اذا اغمى الهلال رجع الى الحساب بمسير القمر والشمس . وهذا مذهب مطرف بن عبدالله بن الشخير وهو من كبار التابعين . وحكى ابن شريح عن الشافعى أنه قـال : (من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر ثم تبين له من جهة الاستدلال أن الهلال مردى – وقد غم – فان له ان يعتقد الصوم ويجزيه)(8) .

وحكى النووى فى شرح مسلم هذا المذهب باختصار فقال : (وقال ابن سريج وجماعة منهم مطرف بن عبدالله وابن قتيبة وآخرون معنـاه قدروه بحساب المنازل) . وقد فصل القرطبى هذا النقل فى الجامع لاحكام القرآن فقال : (وقد ذهب مطرف بن عبدالله بن الشخير وهو من كبار التابعين ، وابن قتيبة من اللغويين فقالا : يعول على الحساب عند الغيم بتقدير منـازل القمـر واعتبار حسابها فى صوم رمضان حتى انه لو كان صحو لرؤى لقوله (ص) : (فان غم عليكم فاقدروا له .. أى استدلوا عليه بمنازله وقدروا اتمـام الشهر)(9) وروى عن ابن شريح بنقل ابن العربى – كما أشار اليه الشوكانى – التفرقة بين ذوى العلم بالحساب والعامة ونص كلامه حسبما نقله ابن منظور صاحب اللسان (روى عن ابن شريح انه فسر قوله فاقدروا له أى قدروا له منـازل القمر فانها تدلكم وتبين لكم ان الشهر تسـع وعشرون أو ثلاثون قال وهذا خطاب لمن خصه الله بهذا العلم قال وقوله : فاكملوا العدة... خطاب العامة التى لا تحسن تقدير المنازل . وهذا نظير النازلة تنزل بالعالم الذى أمر بالاجتهاد فيها ، وألا يقلد العلماء أشكال النازلة به ، حتى يتبين لـه الصواب كما بان لهم . واما العامة التى لا اجتهاد لها فلها تقليد أهل العلم)(10) وقـد رد ابن العـربى – كما نقـل الشوكانى – قـوله بأنه (يستلزم اختلاف وجوب رمضان فيجب عـلى قوم بحساب الشمس والقمر وعلى آخرين بحساب العدد ، وهذا بعيد عن النبلاء)(11) .

وقال الباجى فى شرح الموطأ (ذكر الداودى انه قيل فى معنى قوله (فاقدروا له) أى قدروا المنازل ، وهذا لا نعلم أحـدا قال به الا بعض

6) بداية المجتهد ج 1 ص 194
7) « « «
8) شرح النووى على مسلم ج 7 ص 189

9) الجامع لاحكام القرآن ج 2 ص 273
10) اللسان مادة «قدر»
11) نيل الاوطار ج 4 ص 213

أصحاب الشافعي انه يعتبر في ذلك بقول المنجمين، والاجماع حجة عليه (12) .

وقد تصدى الجمهور للرد على من خالف مذهبهم في تأويل الحديث . فردوا على الذين حملوه على التضييق وصاموا يوم الشك . ولهم أحاديث صحيحة تؤيد مذهبهم في النهى عن صوم يوم الشك . كما شنوا الغارة على القائلين باستعمال الحساب والتنجيم . فقد نقل الباجي في المنتقى . والقرطبي في الاحكام رواية عن مالك « روى ابن نافع عن مالك عن الامام لا يصوم لرؤية الهلال ولا يفطر لرؤيته . وانما يصوم ويفطر على الحساب أنه لا يقتدى به ولا يتبع » (13) . وقال النووي في شرح مسلم – نقلا عن المازري – حمل جمهور الفقهاء قوله (ص) فاقدروا له على أن المراد اكمال العدة ثلاثين كما فسره في حديث آخر قالوا ولا يجوز أن يكون المراد حساب المنجمين لان الناس لو كلفوا به ضاق عليهم لانه لا يعرفه الا أفراد والشرع انما يعرف الناس بما يعرفه جماهيرهم (14) .

ونقل الشوكاني عن أبي عبدالبر انه انكر صحة النقل عن مطرف اذ قال (لا يصح عن مطرف . وأما ابن قتيبة فليس ممن يعرج عليه في مثل هذا)(15) . ونقل صاحب المنار في مجلته عن ابن حجر في شرح الحديث المتفق عليه (انا أمة أمية ...) انه قال « المراد هنا حساب النجوم وتسييرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك ايضا الا النزر اليسير فعلق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لدفع الحرج عنهم في معاناة حساب اليسير واستمر الحكم في الصوم ولو حدث بعدهم من يعرف ذلك . بل ظاهر السياق يشعر بنفي تعليق الحكم بالحساب أصلا ويوضحه قوله (ص) في الحديث (فان غم عليكم فاكملوا العدة ثلاثين) ولم يقل فسلوا أهل الحساب ؟ ولم يسلم له هذا الظاهر علامة العصر الشيخ رشيد رضا . بل استظهر العكس . من منطوق الحديث : (انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ..) فالمفهوم منه أنه لو وجد الحاسبون لصح الرجوع اليهم فقوله (ص) انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب بيان لما كانت عليه الامة . وقد جاء (ص) مبعوثا لاخراجها من ظلمات الجهالة (هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي دعوة ابراهيم (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ...) .

وهكذا نرى جمهور القدماء من المجتهدين والعلماء يتمسكون باكمال العدة عند تعذر الرؤية تمسكا بتأويلهم للحديث وحملهم المجمل منه على المبين .

لماذا لم يعملوا بالحساب ؟ نقل العلامة محمد رشيد رضا في تفسير المنار (ان الذين لم يبيحوا العمل بالحساب عللوه بأنه ظن وتخمين .

12) المنتقى ج 2 ص 38
13) المنتقى ج 2 ص 38 والجامع ج 2 ص 273
14) شرح مسلم ج 7 ص 179
15) نيل الاوطار ج 4 ص 214

لا يفيد علما ولا ظنا)(16) وقد حملهم على ذلك سوء ظنهم بالمنجمين ، وانهم كاذبون ولو صدقوا ».

الحساب الفلكى يفيد القطع وهو غير التنجيم :

وليس الحساب المراد هنا حساب التنجيم المبنى على الرجم بالغيب ، ولكن المراد هنا الحساب الفلكى الدقيق ، حساب البروج ، بروج ومنازل القمر ، وقد ثبتت شرعيته بصريح آيات القرآن الكريم فى قوله تعالى : (الشمس والقمر بحسبان) قال القاضى البيضاوى – وهو سنى شافعى – : (يجريان بحساب معلوم مقدر فى بروجهما ومنازلهما وتنسق بذلك أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والاوقات ويعلم السنون والحساب) وفى قوله تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) قال البيضاوى (قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل ، أو للقمر وحده ، وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله واناطة أحكام الشرع به ولذلك علله بقوله : **(لتعلموا عدد السنين والحساب** ، حساب الاوقات من الاشهر والايام). وفى قوله سبحانه (وجعلنا الليل والنهار ، آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

فالقرآن صريح فى اثبات هذا النوع من الحساب وافادته **العلم** بضبط عدد السنين والشهور ، داع المسلمين لتحصيل هذا العلم والانتفاع به . ولهذا رأينا بعض علماء السلف من كبار التابعين والعلماء المتأولين يفسرون الحديث (فاقدروا له) بـ « قدروه بحساب المنازل للقمر والشمس » ونسب هذا القول للشافعى . ولبعض اصحابه .

ويقول محمد رشيد رضا : (والحساب المعروف فى عصرنا هذا يفيد العلم القطعى)(17) ويقول : (اذا وجد الحاسبون عمل بقولهم لانه علم يقينى قطعى وان لم يوجدوا أكملت عدة الشهر ثلاثين بشرطه) .

ولقد مات محمد رشيد رضا رحمه الله – وقد حكم بأن هذا الحساب قطعى – قبل ان تتم الرحلة البشرية الى القمر وينزل الانسان على سطحه ، ويسير فوق اديمه ، وقد تم الذهاب اليه والرجوع منه بحساب مضبوط بالدقائق والثوانى فكيف يسوغ لعاقل ان يجعل مثل هذا الحساب من باب التنجيم والرجم بالغيب !

كيفية اثبات الشهر بالحساب : يقول العلامة محمد رشيد رضا :

« يثبتون (الحاسبون) وقت ولادة الهلال أى مفارقته للشمس فى آخر الشهر بالساعات والدقائق – ومنه يعلم امكان رؤيته لمعتدلى البصر أو عدم امكانها ، فاذا كان من الدقة بحيث لايرى لا يثبتون الشهر بولادته واذا كان بحيث يرى قطعا عند انتفاء المانع من غيم أو نحو ذلك يثبتون الشهر ... ويقال : ان الشهر قد ثبت **برؤية**

16) تفسير المنار ج 2 ص 187 ط 2

17) تفسير المنار ج 2 ص 187 ط 2

الهلال حقيقة أو حكما فلا يكون اثبات ، وجوب الصيام بقول الفلكيين الحاسبين بل بوجود الهلال وانما يبينون للناس متى يرى » .

الصوم كالصلاة والحج : ولقد وضع الشيخ رشيد رضا رحمه الله مسألة تحـــديد مواقيت العبادات ببيان وحجج واضحة في مثال نشره في مجلة المنار بالجزء الاول من المجلد الثامن والعشرين ثم نقل خلاصته في الجزء الثاني من التفسير ، وذلك في خمس مسائل هذا فحواها :

1) أن اثبات أول رمضان واول شـوال كاثبات أوقات الصلوات الخمس ، وقد ناطهـــا الشارع كلها بما يسهل العلم به على البـــدو والحضر . وغرض الشارع العلم بهذه الاوقات لا التعبد برؤية الهلال ، ولا بتبين الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ، ولا برؤية ظل الزوال ، ورؤية ظل كل شيء مثله ، ولا برؤيـــة غـروب الشمس ، ولا برؤية مغيب الشفق . اذ غـرض الشارع معرفتها وحصول العلم بها .

وما ذكره صلى الله عليه وسلم من نـوط اثبات الشهر برؤية الهلال أو اكمال العدة بشرطه قد علله بكون الامة كانت أمية في عهده . ومن مقاصد بعثته اخراجها من الامية لا ابقاؤها فيها . قال تعالى : (هو الذى بعث فى الاميين رسـولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين) وفى معناه دعوة ابراهيم فى سورة البقرة . ويؤخذ من هذا **أن لعلم الكتاب والحكمة حكما غير حـــكم الامية .**

2) من مقاصد الشريعة اتفـاق الامة فى عبادتها ما أمكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، وهذا انما يكون :

أ ـ باتفاقها كلها ـ أو أهل قطر منها ـ على العمل بظواهر الشريعة ونصوصها وعمل النبى (ص) وأصحابه فى الصـــدر الاول من مواقيت الصلاة والصيام والحج ، من رؤية الفجر والظل ، والغروب والشفق والهـــلال عنـــد الامـكان ، وبالتقدير أو رؤية العلامات عند عدم الامكان .

وفى هذه الحالة لا يجوز لمؤذن الفجر ـ فى أى يوم من الايام ـ ان يؤذن الا اذا رأى ضوءه معترضا فى جهة المشرق ، وهو يختلف باختلاف الليالى ، وباختلاف الصحو والغيم ، وهكذا فى بقية الاوقات انما تعتمد الرؤية البصرية فقط .

ب ـ العمل بالحساب والمراصد عند ثبوت افادتها للعلم القطعى بهذه الاوقات التى جـرى عليها العمل فى جميع بلاد الحضارة الاسلامية فى الصلاة « ولو » مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهلال فى حال عدم المانع من رؤيته . للجمع بين ظاهر النص والمراد منه . ومن المعلوم من الدين بالضرورة ان الصلاة عماد الدين فهى افضل من الصوم وأعم . وفى غير حالة الصحو وعدم المانع من رؤية الهلال يكون اثبات الشهر باكمال العدة ثلاثين ظنيا أو دون الظنى ، ومن قواعد الشريعة المتفق عليها ان العلم مقدم على الظن ، فلا يعمل بالظن مع امكان العلم ، فمن امكنه رؤية الكعبة لا يجوز له ان يجتهد فى التوجه اليها ويعمـل

بظنه الذى يؤديه اليه اجتهاده بل يجب ان يتيقن انها أمامه .

3) اذا قيل : افادة الحساب للعلم القطعى بوجود الهلال وامكان رؤيته خاص بالفلكى الحاسب وقد اختلف العلماء فى العلم بما ذكرتم . ولا يكون علمهم حجة على غيرهم . قلنا ان الذين لم يبيحوا العمل بالحساب قد عللوه بأنه ظـــن وتخمين لا يفيد علمـــا ولا ظنـــا ... والحساب المعروف فى عصرنا هذا يفيد العلم القطعى كما تقدم . ويمكن لائمة المسلمين وأمرائهم ان يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور . وهذا أصح من الحكم باثبات الشهر باكمال عـــدة شعبان ثلاثين يوما مع عدم رؤية الهلال ليـــلة الثلاثين والسماء صحو ليس فيها قتر ولا سحاب يمنع الرؤية .

4) يؤيد هذا الوجه الاخير القول الثالث للامام أحمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤية الهلال وهو أن يرجعوا الى رأى الامام (أى السلطان ولى الامر الشرعى) فى الصوم والفطر .

5) اذا تقرر لدى أولى الامـــر العمـــل بالتقاويم الفلكية من مواقيت شهرى الصـــيام والحج كمواقيت الصـــلاة وصيام كل يوم من الفجر الى الليل امتنع التفرق والاختلاف بـــين المسلمين فى كل قطر أو فى البلاد التى تتفـق مطالعها . واما التى لا تتفق فيها المطالع فلا ضرر فى الاختلاف فى صيامها كما لا ضرر فى الاختلاف فى الصلوات .

وجملة القول أننا بين أمرين اما ان نعمل بالرؤية فى جميع مواقيت العبادات أخذا بظواهر النصوص وحسبيانها تعبدية وحينئذ يجب على كل مؤذن الا يؤذن لاى وقت الا اعتمادا على الرؤية البصرية . واما ان نعمل بالحساب المقطـوع بـه لانه اقرب الى مقاصد الشريعة : وهو العـــلم القطعى بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها ، وحينئذ يمكن وضع تقويم عام تبين فيه الاوقـــات التى يرى فيها هلال كل شهر فى كل قطر عند عـدم المانع من الرؤية . وتوزع على العالم . فاذا زاد عليها استهلال جماعة فى كل مكان . فان رأوه كان ذلك نورا على نور .

واما هذا الاختلاف وترك النصـــوص فى جميع المواقيت عملا بالحساب ما عدا مسألة الهلال فلا وجه له ولا دليل عليه . ولم يقل به امـــام مجتهد بل هو من قبيل (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)(18) .

مؤتمر علماء ماليزيا : ولقد أيد مؤتمـــر علماء المسلمين المنعقد فى ماليزيا – مبدئيا – الاعتماد على الحساب الفلكى . واثبت الشهر به عند تعذر الرؤيه اذ قال فى توصياته :

يوصى المؤتمر بما يلى :

أ – تتقرر بداية شهرى رمضان وشوال

---

18) انظر تفسير المنار ج 2 اثر تفسير آيات الصيام

اساسا بالرؤية العيانية الحقيقية للهلال .

ب - واذا تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب في بلد معين وجب ان يتخذ اساسا للتحديد تقريرات للرؤية العيانية الحقيقية في بلد آخر يشترك مع البلد الذى تعذرت فيه الرؤية في الليل نفسه أو في جزء منه .

ج - واذا تعذرت الرؤية للسببين السالفين وكان الحساب الفلكي يثبت امكان رؤية الهلال **يباح الاعتماد على الحساب الفلكي .**

د - على حكومات الاقطار الاسلامية المختلفة ان تقيم هيأة من الخبراء لتحديد بداية شهرى رمضان وشوال بما يتفق **والمبادىء السابقة .** ويوصى المؤتمر ايضا باقامة جهات خاصة تتألف من علماء الدين وعلماء الكون المختصين تعينهم الحكومات المشاركة في المؤتمر للعمل على اخراج تقويم قمرى اسلامى موحد .

وهكذا نرى أن هذا المؤتمر - مع كونه يقرر اساسا - اثبات الشهر اعتمادا على الرؤية العيانية - يبيح الاعتماد على الحساب الفلكي عند تعذرها .

- وهذا معناه اعتبار الحساب الفلكي مفيدا للعلم - ويدعو الى اقامة جهات خاصة تتألف من علماء الدين وعلماء الكون المختصين للعمل على **اخراج تقويم قمرى موحد .**

فهذه التوصيات - المؤكدة باقتراح اخراج تقويم موحد - ترجيح لمذهب القائلين باعتماد الحساب الفلكي واستعماله عند تعذر الرؤية .

وهكذا اتفق رأيهم ودعوتهم مع رأى ودعوة الشيخ محمد رشيد رضا التى سبقت مؤتمرهم بنحو نصف قرن .

التقويم القمرى الاسلامى وعلاقته بالقمر الفلكي : وقد استمعت لجنة الافتاء الى بيانات قيمة مقدمة من ممثل هيئة المرصد الفلكي ب « أبى زريعة » ثم درست بامعان ما قدمه من (دراسة حول التقويم القمرى الاسلامى وعلاقته بالقمر الفلكي) حررها السيد غزلون عبدالكريم .

وخلاصة هذه الدراسة القيمة :

- ان الشهر القمرى يساوى 29 . 530588 يوما .

- وان السنة القمرية تساوى 2/29.530588 = 354 . 367056 يوما . وان الفلكيين المسلمين وجدوا أن هذا الكسر يبلغ في مدة ثلاثين سنة 11 يوما تقريبا أى :

367056 . 0 ٪ 30 = 11168 . 11 يوما .

فاقترحوا أن تكون في كل ثلاثين سنة قمرية 11 سنة كبيسة - أى ذات 355 يوما - و 19 سنة بسيطة - أى ذات 354 يوما - وحددوا بداية للدورات الثلاثينية السنة الاولى من الهجرة وبداية لاول شهورها رؤية هلالها الاول في مكة أو المدينة .

والسنوات الكبيسة في كل دورة ثلاثينية هى السنوات :

2 ، 5 . 7 . 10 . 13 . 16 . 18 ، 21 . 24 . 26 . 29 ، والسنوات البسيطة هى ما عداها من السنوات .

ومنذ بداية التاريخ الهجرى تمت 46 دورة ثلاثينية ونحن الآن فى الدورة الـ 47 وبالتدقيق فى السنة 12 منها فسنتنا هذه 1392 سنة بسيطة ذات 354 يوما اما السنة المقبلة 1393 هـ فهى حسب هـذا التقـويم ـ سنة كبيسة أى ذات 355 يوما .

واما باقى الكسر وهو 01168 , 0 من اليوم فى كل ثلاثين سنة ، فانه سيكون يوما كاملا بعد مضى 2569 سنة هجرية قمرية ويكفى لعلاجـه اضافة سنة كبيسة ثانية عشرة كلما مضت 85 دورة ثلاثينية تقريبا .

وقد اقترح الفلكيون المسلمون لوضـع التقويم القمرى الاسلامى أن يقسموا شهور السنة القمرية بالتساوى الى قسمين : 6 شهور ذات 30 يوما و 6 شهور ذات 29 يوما بحيث تكـون الشهور الفردية الرتبة ذات 30 يوما ، والشهور الزوجية الرتبة ذات 29 يوما مما عدا شهر ذى الحجة فانه يكون فى السنة البسيطة ذات 29 يوما وفى الكبيسة ذا 30 يوما هكذا :

1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	
محرم	صفر	ربيع 1	ربيع 2	جمادى 1	جمادى 2	رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذى القعدة	ذى الحجة	
30	29	30	29	30	29	30	29	30	29	30	29	30
											فى البسيطة	فى الكبيسة

ولقد ارتاحت اللجنة الى هذا التقويم وتبينت براعة علماء المسلمين الاولين الذين توصلوا الى وضعه منذ قرون وبلغ من تدقيقه أنه لا يحتاج الى زيادة يوم الا بعد أكثر من الفين وخمسمائة قرن .

ولقد توقفت اللجنة عند قوله فى الدراسة :

(اما رؤية الهلال القمرى فانها تتوقف على الموقع الجغرافى الذى يحتله الملاحـظ وبالاخص موقعه العرضى) .

ان هذا الجزء من الدراسة هو ما يهمنا أن يبينه رجال الحساب الفلكى والمراصـد للامـة الاسلامية بحيث يدققون لها أن هذه الرؤيـة ممكنة فى الاحوال العادية فى هذا قطر من الاقطار الاسلامية لذوى الابصار العادية ، وفى ذاك أو غير ممكنة ، أو تمكن فى بعضها دون بعض .

فحيثما أمكنت الرؤية ـ عادة لو خلت من الموانع ـ يمكن الاعلان فيها عن ثبـوت الشهر بالحساب الفلكى وهى الرؤية **حكما** كما اشار الى ذلك العلامة رشيد رضا ، ويكون ثبوت الشهر

بوجود الهلال فعلا ، وقد ايده فى ذلك مؤتمـــر علماء ماليزيا .

أما اذا نص الحاسبون على استحالة ان يرى فى أى قطر من الاقطار فان الشهر لا يثبت لان من القواعد تكذيب خبر قامت البراهين عـــلى استحالة وقوعه .

واما العمل بالقاعدة التى اقترحها الفلكيون المسلمون لوضع التقويم القمرى - والتى تقدم بيانها - فلا يمكن العمل بها فى العبادات دون أى احتراز أو تحفظ ، بحيث تنفذ حسب الجدول السابق للشهور . فالذى تلاحظه اللجنـــة ان التقويم يجعل شهر شعبان دائما ذا 29 يومـــا وشهر رمضان دائما ذا 30 يومـا . وشهر ذى الحجة فى البسيطة ذا 29 يوما وفى الكبيسة ذا 30 يوما .

وهذا يخالف نص الحديث الصحيح الذى خرجه مسلم وغيره عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : (ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم رمضان فقال : (الشهر تسع وعشرون) وفى رواية (الشهر تسع وعشرون ليلة) .

وقد تقدم انه اخبرهم انه قـــد يكون ذا ثلاثين وقد يكون ذا تسع وعشرين ، بالقـــول والاشارة الحسية وهذا ما أجمع عليه المسلمون منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليوم . فقد كانوا يصومون تارة ثلاثين يوما ، وأخرى تسعة وعشرين ، بل ورد ان اغلب صيامهم على عهد رسول الله (ص) كان تسعة وعشرين يوما .

فلا يمكن لنا نسخ هذا بجعل شعبان دائما ذا تسعة وعشرين يوما ورمضان ذا ثلاثين يوما دائما . اذ ان هذا قد يجعل المسلمين يصومون يوم العيد . ويفطرون يوما من رمضان والنسخ لا يقع بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانما الناسخ هو الله سبحانه : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) فليكن التقويم مبنيا على الحساب لكل شهر ، فى كـل عام ، أو ليكن تقويم خاص تراعى فيه العبادات بجانبه .

وبناء على جميع ما تقدم فان لجنة الافتاء تعلن رأيها فى هذا الموضوع ، وتذيع ما يأتى :

ان لجنة الافتاء المجتمعة مساء 29 محـــرم 1392 هـ الموافق 13 ابريل 1972 م بعد دراستها للنصوص الشرعية ، واستعراضها لاقوال العلماء المسلمين ، المتقدمين منهم والمتأخرين ، القائلين باعتبار الحساب الفلكى واستعماله فى اثبـــات دخول الشهر القمرى عند تعذر الرؤية والمعارضين وخصوصا بحث العـــلامة مجتهد العصر السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ، وتوصيات مؤتمر العلماء المسلمين المنعقد بماليزيا فى 21-27 ابريل 1969 .

ترى ان العمل بالحساب الفلكى، والمراصد ، جائز يباح الاعتماد عليه فى كل عبادات المسلمين ومنها اثبات شهرى رمضان ، وشوال للصـــوم والفطر . ولاولى الامر من المسلمين ان يتخذوا فى ذلك ما يرونه من **اجراءات موافقة لمقاصد الشريعة ونصوصها** ، وذلك :

لان من مقاصد الشرع اتفـــاق الامة فى عبادتها ما امكن الاتفاق وسيلة ومقصدا . ولا يحصل هذا الاتفاق الا بالعمل بهذا الحساب .

ولان العمل به اقرب الى مقاصد الشريعة . وهو العلم القطعى بالمواقيت وعدم الاختلاف فيها فان غرض الشارع من اثبات اوقات العبـادات بالرؤية ـ تيسيرا على الامة الامية ـ العلم بهذه الاوقات ومعرفتها وليس التعبد برؤية الهـــلال ورؤية غيره من الامارات .

ولان الحساب الفلكى وحساب المراصد . المعروفة فى عصرنا يفيد العلم القطعى . وهـــذا العلم مطلوب لنا ، وغاية من غايات شريعتنا . دلنا على انه علم القرآن الكريم اذ قال : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقـدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب »(19) « قدر مسير كل واحد منهما منازل أو قدره ذا منازل . أو للقمر وحده وتخصيصه بالذكر لسرعة سيره ومعاينة منازله واناطة احكام الشرع به ولذلك علله بقوله ولتعلموا عدد السنين والحساب حساب الاوقات من الاشهر والايام »(20) .

وقال « الشمس والقمر بحسبان »(21) : « يجريان بحساب معلوم مقدر فى بروجهمـــا ومنازلهما وتنسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصـول والاوقـات ويعـــلم السنون والحساب »(20) وقال فى آية أخرى . فى آيـــة الليل والنهار : (... لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)(22) .

19) سورة يونس من الآية 5
20) تفسير البيضاوى

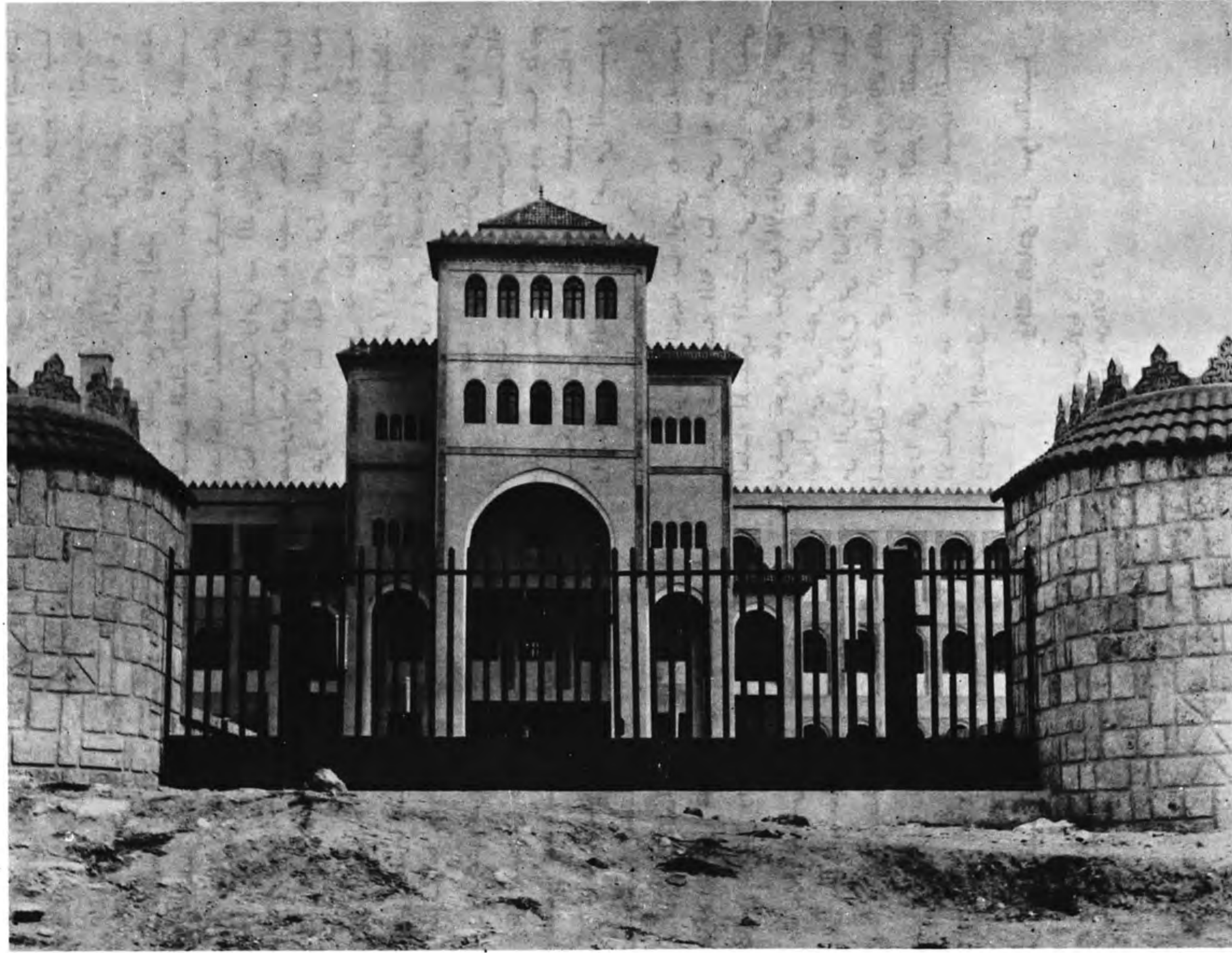
ففى حالة الغيم ـ مثلا ـ يحصل للفلكى الحاسب العلم بأن الهلال موجود وراء السحاب ـ تمكن رؤيته أو لا تمكن ـ أو غير موجود . بينما لا يحصل غيره الا على الظن . ومن قواعد الشريعة المتفق عليها ان العلم مقدم على الظن . وانه لا يعمل بالظن مع امكان العلم . فان قيل بان افادة الحساب العلم القطعى ... خاص بالفلكى الحاسب فقد أجاب السيد محمد رشيد رضا بأنه (يمكن لأئمة المسلمين وامرائهم الذين ثبت عندهم أن يصدروا حكما بالعمل به فيصير حجة على الجمهور) وعزز قوله بما نقله من قول ثالث للامام احمد فيما يجب العمل به اذا غم على الناس رؤيـــة الهلال « أن يرجعوا الى رأى الامام » (أى السلطان ولى الامر الشرعى) فى الصوم والفطر .

ولان هذا الحساب الفلكى معمـول به فى أوقات الصلوات . والمسلمين مجمعون على استعماله منذ قرون . ومعمول به فى الصوم نفسه فانهم يمسكون عليه صباحا ويفطرون عليــــه مساء ، والصلاة عماد الدين . وهى اعم من الصــــوم وافضل منه باجماعهم .

وتوصى اللجنة بما أوصى به السيد محمد رشيد رضا رحمه الله وبما أوصى به مؤتمـــر العلماء المسلمين المنعقـد فى ماليزيا من السعى لوضع تقويم عام تبين فيه الاوقات التى يرى فيها الهلال من كل شهر فى كل قطر عند عدم المانـع من الرؤية وتوزع فى العالم . فاذا زادوا عليها استهلال جماعة فى كل مكان فان رأوه كان ذلك نورا على نور . وبالعمل بهذا التقويم القمـرى الاسلامى الموحد يحصل الاتفاق بـــين المسلمين ويمتنع الاختلاف .

والله الهادى الى سواء السبيل .

21) سورة الرحمن الآية 5
22) سورة الاسراء من الآية 12



الثانوية الجديدة للتعليم الاصلي بقسنطينة

المفهوم المعكوس عن توحيد التعليم لدى بعض المخربشين

ان قيمة الكلمة تعرف بقدر ما تتركه في الذهن من اثر ، وما تفتحه من آفاق ، وهي في نفس الـــوقت يستشف بواسطتها ما تواريه النفوس من مقاصد وغايات ، بحسب الاهواء والامزجة .

وما ورد اخيرا في ملحق باحدى الصحف الوطنية حول وحدة المدرسة وتوحيد التعليم، لدليل على تضارب المفاهيم ، حول هذه الفكرة التي ينظر اليها من وجهات مختلفة باختلاف المقاييس لمبــدأ التوحيد المدرسي .

ان بعض الناس يرون التعليم من وجهة ضيقة ، لا تتعدى انضمامها تحت اسم واحد ، ويعتقدون أن هذا كاف ليكون التعليم موحدا ، دون مراعاة الى الوحدة الحقيقية التي نسعى لها جميعا .

وهذه الوحدة التي يتغنى بها هؤلاء ، ما هي في الواقع الا وحدة مظهرية لا تعالج اصل الموضوع ، في عمقه ، وهدفه ، وابعاده ، لان الوحــدة التي نرمي اليها ونطبقها بالنسبة للقطاع الذي ننتمي اليه ، وهو التعليم الاصلي ، هي وحدة في المنهاج ، والطريقة ، والهدف ، لا في المظهر والشكل .

وحدة في المنهاج تتمثل في قدر من الثقافة العامة يجمع بين الجميع ، وهــو الشأن بالنسبة لنا فالرياضيات ، والعلوم ، والفيزياء والكيمياء ، والتاريخ، والجغرافيا ، واللغات الاجنبية ، نسير فيه حسب برامج المدارس العامة حرفا بحرف ، وذلك حرصا منا على اتاحة الفرص للخريجين في جميع المجالات ، دون قصرهم أو جبرهم على اتجاه معين قد لا يناسب ميولهم ، وهوايتهم ، وكثيرا ما يؤدي باصحابه الى القعود في منتصف الطريق ، أو المتابعة الحتمية الخالية من كل حماس ، وكل منهما ينتج عنه قصور وذبذبة ، وعقد نفسية ، وبالتالي تعقيد في الشخصية ، واضطراب في الاتجاه ، وهو ما نلاحظه في بعض خريجي المدارس التقليدية قديما ، ففي نفوسهم ميول الى تطور لا يملكون قاعدته ، وفي أفكارهم نقمة على هذا النوع من التعليم الذي فرضته عنهم

الاوضاع الخاصة . وقعد بهم حسب اعتقادهم عن بلوغ المرام . وتحقيق ما يصبون اليه . يرفع بهم احيانا الى تطرف عشوائي في الاتجاهين .

وهذا ما أردنا تحاشيه بالنسبة لتلاميذنا ، وغايتنا أن يدخلوا مدرسة الحياة الكبرى ولهم من زاد خوضها ما يحميهم من الانكماش ، والخضوع والخنوع من جهة . والكراهية والنفور والاشمئزاز المترتبة عن الشعور بالدون من جهة أخرى فالتاريخ خير حكم على الجميع .

ووحدة في الطريقة نراها في عدد السنوات المطلوبة ، وفي كيفية المتابعة ، وتحديد التوقيت . وأسلوب التدريس . والنظام التربوي العام لكل مؤسسة . وهذا ما عملنا عليه أيضا بالنسبة لمؤسساتنا حتى نجعل من طريقة التبليغ . والايصال ، والجو العام السائد واحدا لدى الجميع .

ووحدة في الهدف تتمشى مع المخططات الثورية لبلادنا ، وتستجيب لرغبة الجميع في تحقيق ثقافة أصيلة ينعشها الماضي ، ويغذيها التطور العلمي الحديث . ويحفزها مستقبل زاهر . متمسك بالمقومات الذاتية دون وجل أو خجل ، متفتح على عالم اليوم دون تهيب أو انزلاق ، يتفاعل فيه التأثير والتأثر بما يفيد البناء والتشييد وتغيير المفاهيم المريضة . والقضاء نهائيا على الرواسب والتبعية ، وعندها فقط نحقق الثورة الثقافية المنشودة ، التي هي وسيلتنا الى ثورة اجتماعية شاملة نرتفع بها الى أعلى درجات التقدم ، مع الحفاظ على « نحن » وفي « نحن » تكمن كل المناعة .

ان مؤسسات التعليم الاصلي وقد طوت العقد الاول من مرحلة نموها ، مواكبة في ذلك استعادة الاستقلال الوطني ، تستقبل من جديد سنتها الاولى من عقدها الثاني في جو يملؤه الحماس والتفاؤل الواعي ، وقد انغمرت بالالوف من طلاب التسجيل من بنين وبنات للانخراط بها ، وقد بلغت الارقام حدا يفوق الثلاثين ألفا ممن توفرت فيهم شروط القبول للتسجيل ، بيد أن هذه المؤسسات في مجموعها على الرغم من الجهود المبذولة لتعدادها ، وزيادة الاقسام فيها ، والامكانيات المجندة للتخفيف من ضغط الراغبين في متابعة الدراسة بها ، فانها لم تتسع الا لقبول (4563) تلميذا وتلميذة من الجدد ، وبذلك يبلغ مجموع تلاميذ مؤسسات التعليم الاصلي للسنة الدراسية 72–1973 م : 19908 .

ان عدد هذه المؤسسات ، سوف يزداد وفق المخططات العامة للدولة ، والمشاريع الخاصة بالولايات التي أخذت هي الاخرى تطالب باقامة مثل هذه الثانويات ، وادراجها ضمن منشآتها ، كتلبية لرغبة الجماهير ، واستجابة للجموع المتعطشة لهذا اللون المتكامل من التعليم ، الذي سيتوج في امد قريب بافتتاح كلية للشريعة الاسلامية بقسنطينة كنواة لجامعة اسلامية تضمن لمن يواصل التعليم الاصلي العالي بها مختلف التخصصات .

ادارة التعليم الأصلي

النشـاط الثقـافى

اعـداد :
حكمت ياسين

اللغة العربية بين اللغات الكبرى

بدعوة من وزارة الثقافة والاعلام القي الاستـاذ ابراهيم مدكـور الامين العام لمجمـع اللغـة العربيـة محاضرة قيمـة حول اللغـة العربيـة فى مـاضيهـا وحاضرها·فاشار ، بل قرر بان اللغة العربية لغة دين ودنيا·وأنها حظيت بقداسة أهل الارض كما حظيـت بقداسة السماء· وقد خرجت اللغة العربية من شبـه الجزيرة العربية فى أواخر القرن الاول واوائل القرن الثانى للهجرة وانتشرت، فى المناطق مابيـن البحـر الاسود شمالا والمحيط الهندى جنوبـا ، وشرقا مـن اندونيسيا الى المحيط الاطلسى ، واتخذتها الاجنـاس المختلفة فى هذه المناطق لغة حضارة ولغة دين·

اتخذتها لغـة دين لان مصدر الدين الذى اعتنقـه أهلها وهو القرآن نزل باللغة العربيـة ، وأن هنـاك نصوصا لا يمكن فهمها أو المحافظة على بلاغتهـا الا اذا قرئت بالعربية.

وأسهم المسلمون من جميع الاجناس فى الحضارة الاسلامية ، وكانت لغة العلـم والحضـارة بالنسبـة اليهم جميعا اللغة العربية ، فقد كتبت فيهـا درسـات مختلفة دينية وأدبية ولغوية ، كما وضعت دراسـات فى علوم فلسفية ورياضية فـى الجيولوجيـا وعلـم الحيوان ، والفلك والهندسة ، والكيمياء والطبيعـة ، وكانت هناك لغة واحدة سباقة الى العلـم والفلسفـة فى القرن الثالث عشر فهى اللغة العربية ، حيث لـم تكن لغة علمية يعتد بها اللهم سوى اللغة السريـانية التى كانت أخذت عن اليونانية ، على انها وقفت عند الطوائف الدينية او لم تصبح شعبية.

كانت اللغة العربية عماد الثقافة فى العالم كلـه ، وعنها أخذت الثقافة اللاتينية ، ونستطيع أن نقرر أن الحركة الفكرية الاوروبية التى ازدهرت فـى القـرن الثالث عشر ، على يد بعض المفكريـن مثل تومـاس ، وجون بيكون ، كل هؤلاء انما دفعهم نحو الحركـة الفكرية ما أخذوه عن الثقافة العربية وهذا ما اعترف به بيكون نفسه.

ان اللغـة العـربيـة اضطلعـت بعبء حضـارى وثقافى كبير ، لو لم تضطلع به لما كان للفكر القديـم وجود ، ولا كـان اليوم علـم ، ويكفيهـا فخرا أنهـا حفظت العلوم اليونانية من الاندثار فى الوقـت الذى لـم تكن اى لغـة قادرة على حفظـه ، ولـم تكتـف بالمحافظة عليه ، بل أضافت اليه تجارب وعلوم جديدة متنوعة.

وبعد أن تكلم عن هذا الدور الـحضـارى الكبـير للغة العربية ، أوضح الاستاذ مدكور بانه يوجد فـى العالم لغات كبرى أخرى مثـل الفرنسيـة التى بقيت لغة عالمية مدة قرنين من الزمن ، والانجليزيـة التى تعتبر اليوم اكبر لغة عالمية ، اذ يتكلمها ملاييـن من الناس ، وأشار الى أن اللغة العربية ليست فى وضعها أقل من هذه اللغات الاوروبية ، اذ هي الاخرىتداولتها شعوب وحضارات وكـان لها أثر فى لغـات أخـرى اجنبية حتى الفرنسية والانجليزية ، على أن تـاثيـر اللغة العربية فى اللغة الاسبانيـة أوضح دليـل على تاثيرها اللغوى والحضارى فى تلك اللغات العالمية .

وبعد أن فرغ المحاضـر مـن الحديث عـن ماضى اللغة العربية انتقل للحديث عن حاضرها ، فقال : بان اللغة العربية اذا كانت قد نهضت عدة قرون ، فـان طبيعة التطور الاجتماعى تقضى بركود فى اليقظـه. فركدت اللغة العربية فى العالم العربى والاسلامـي ، ليس بسبب تقصير اهلها، فحسب بل بسبب المستعمر الدخيل والوسائل الجهنمية التى يستعملها فى محاولة القضاء على هذه اللغـة ، ولعـل الجميـع يذكرون الوسائل التى استعملهـا الاستعمـار الفرنسى فـى الجزائر ليقضي على لغتها وثقافتها. على أنه بالرغم من هذا كلـه فـان أهل العربيـة استيقظـوا وبدأوا يستعيدون مجدها ، واستطاعوا ان يطوروها ويجعلوا منها لغة جديدة فى مفرداتها سهولة وعذوبة او فـى تركيبها دقة واحكام. ونحن الان أمام فصحى عربيـة جديدة وحديثه.

ثم تطرق الاستـاذ المحـاضـر الـى الصراعات والصعوبات التى تعانى منها اللغـة العربيـة فذكـر الصراعات وأجملها فيما يلى :

١ ـ الصراع بين العامية والفصحى، ويرجع هذا الصراع الى اخريات القـرن الماضى ولازالت آثـاره حتى الان. وهذا الصراع ليس مقصورا على اللغـة العربية وحدها ، اذ لكل لغة فى العالم فصحى ودارجة

و أوضح الامثلة هى اللغة الفرنسية ، فقد امتنعت الاكاديمية الفرنسية عن قبول بعض الالفاظ المستعملة فى منطقة الارجون غير انها اضطرت أخيرا الى اقرارها وادخالها فى معجم اللغة «لاروس» ، ومثلها اللغة الانجليزية· ولكن الى أى مدى تبعد المسافة بين الفصحى والعامية ؟ ولاشك فى أنه اذا سادت الشعب كله ثقافة واحدة فان المسافة بين العامية والفصحى ستضيق وتصبح غير ذات اهمية·

٢ ـ الصراع بين القومية وطائفية : لا تخلو البلاد العربية من بعض الاقليات التى لها وسائل تعبيرها الخاصة مثل النوبية فى القاهرة، والكردية فى العراق ولكن كلما تمكنت القومية فى بلدما فىنفوس المواطنين كلما استطاعت القضاء على هذه الفوارق·

٣ ـ الصراع بين اللغة الوطنية واللغة الاجنبية . وليس هناك مانع فى أن يتعلم المواطن عدة لغات أجنبية ولكن الخطر عندما يستعمل المواطن اللغة الاجنبية بدل اللغة الوطنية ويقدمها عليها·

٤ ـ صراع اللاهجات : والفرقة فىاللهجات ليست مقصورة على سكان وطن أو بلد فهى موجودة داخل البلد الواحد ولكنها لا تؤدى الى فرقة اللغة·

أما الصعوبات التى تواجهها اللغة العربية فهي :

١ ـ لغة غنية غنى فاحشا فى المفردات فلا يمكن استيعابها كلها ، ولكن متكلم اى لغة غير مطالب بمعرفة كل مفردات تلك اللغة ، وانما هى ذخيرة وكنز نبحث عن حاجتنا منه·

٢ ـ اللغة العربية على حد زعم البعض لا تتماشى مع حاجات العصر والحضارة لانها لغة البداوة والصحراء ، وهذه دعوى ظالمة ، لاننا اذا رجعنا للتاريخ تبينا أن العربية استطاعت أنتؤدى رسالة العلم·

٣ ـ نحو اللغة وقواعدها يقال أنه واسع وصعب التعلم ، والواقع أنه اذا قورن باى نحو لغة ساد عليه، ونحن لا نريد النحو كعلم ولكن كوسيلة لتعلم اللغة واجادتها· .

٤ ـ صعوبة الكتابة العربية لان للحرف ألواحد عدة أوجه حسب موقعه فى الكلمة ، وتذلل هذه الصعوبة بجعل وجه واحد للحرف اينماوقع ، والاخذ بخط عربى واحد·

وختم محاضرته بعبارة قيمة ونصيحة ثمينة فقال ان حياتها بحياة أهلها وأن موتها لايمكن أن يكون على يدغيرهم

الفرقة المغربية (البدوى) و مسرحيات توفيق الحكيم

فى الاسبوع الاول من جوان ١٩٧٢

قامت فرقة التمثيل المغربية (البدوى) بتقديم ثلاث مسرحيات من تأليف توفيق الحكيم على خشبة قاعة الموقار بالجزائر العاصمة· وكانت هذه الفرقة نفسها قد قدمت مقامات بديع الزمان الهمذانى على خشبة المسرح الوطنى الجزائرى فى شهر رمضان الماضى· ولعل هذه المسرحيات توحى لنا بالامل والتفاؤل فى مستقبل فن التمثيل العربى ، ورفع الحواجز بين لقاء الافكار العربية فى جميع الاقطار العربية ، وفرقة التمثيل المغربى بأعمالها الفنية تريد أن تطبق عمليا الوحدة الثقافية، والايمان بالقومية العربية ولعلها لهذه الاهداف اختارت عملا فنيا مصريا لتخرجه فوق ارض الجزائر وهكذا تكون هذه المسرحيات القصيرة ذات الفصل الواحد، انتاج مصرى، واخراج مغربى

ومسرح جزائرى، كان الانسجام بينها بينا وواضحا يدل عليه انفعال الجمهور مع الممثلين، وتصفيقاتهم الحارة وهتافاتهم العالية التى تعبر عن الانسجام الثقافى والفكرى بل وحتى العاطفى، فهل ستقوم فرق فنية عربية أخرى غير فرقة البدوى بمثل هذه الاعمال الفنية القومية ، ليس فى الجزائر وحدها ، وانما فى كل قطر منالاقطار العربية ، هذا ما نامله ونتمناه.

والان ماهى هذهالمسرحيات : ثلاث مسرحيات الاولى بعنوان الشيطان ، والثانية بعنوان السعادة الزوجية ، والثالثة ليلة السرور ، وكلها مسرحيات قصيرة ذات فصل واحد ،وهى تعالج موضوعات اجتماعية عالية باسلوب هزلى فكاهى تبعث الراحة فى النفس ويجعلها قادرة على متابعة العمل الفنى ،

تمثيلية الشيطان : العالم كله حروب ، دمار قتل ابادة، ضاقت منها كل الكائنات حتى الشيطان نفسه أبو المشاكل ، ورمز المشاكل ، ضاق من كثرة الحروب المدمرة ، والحرب العالمية الثالثة على الابواب نظرا لتصارع مصالح الدول الكبرى ، وسيدفع ثمنها شعوب الدول الصغرى ، فجاء الشيطان الى أحد الفلاسفة المتزوجين يطلب منه أن يضع له الخطط لمنع الحرب النووية القادمة ، لانه خشى على موت جميع الناس ووجوده بوجودهم فاذا انتهوا انتهى أجله ، ولكن الفيلسوف يقف محتارا وعاجزا عن التفكير فى حل المشكلة مع زوجته ، وفى منع الحرب التى اعلنتها عليه فى منزله ، فطلب من الشيطان أن يساعده فى حل هذه المشكلة ، فسخر منه الشيطان وقال له أنا الذى جئت ألتمس الرأى عندك ، تسألنى عن رأيى ، أريد أن تفكرلى بمنع الحرب النووية وأنت عاجز عن منع الحرب مع زوجتك ! وبهذا المشهد انتهت المسرحية دون الوصول الى منع الحرب.

اما تمثيلية السعادة الزوجية : كان الزوجان يعيشان فى سعادة تامة ، يتبادلان الحب ، ويشعران بالالم والحزن عندما يبعد أحدهما عن الاخر ، كل منهما يبدى لقرينه أسمى عبارات الوفاء والاخلاص ، ويتمنى من الله أن يطيل عمر زوجه اكثر من عمره نفسه ، ويحدث أن يؤمن الزوج على حياته بمبلغ خمسة ملايين دينار تاخذها زوجته بعد وفاته. وفجاة يظهر لهما الموت حقيقة واقعة على يد أحد المجرمين ليختار أحدهما ، وهنا تظهر حقيقتهما ومدى تعلق كل منهما بالحياة وتشبث بحبالها، كل منهما نسي حبه للاخر ، نسي أمانيه فى أن يطيل الله عمر زوجه اكثر من عمره ، وبدأت علامات الخوف والاضطراب عليهما ، وبدأ كل منهما يشير على المجرم أن يقتل زوجه ، ويختلق لنفسه الاعذار لينجو من الموت ، ويتخلى عن زوجه للموت لياخذه ، واخيرا اطلق المجرم النار فشعر بالراحة النفسية التى كان يبحث عنها ، ولكن الرصاصة اخطاتهما كليهما ، وعبر لهما عن فرحه الشديد وشكره العميق لهما لتحملهما أعماله الحيوانية الاجرامية ، وحمد الله على انه لم يقتل ايا منهما ، غير أن الزوج فاجاه بقوله : لقد قتلتنا كلينا ، انك قتلت سعادتنا الزوجية !!.

ليلة السرور : اختان تعيشان مع زوجيهما حسب طباعهما المختلفة، الاولى شديدة الغيرة على زوجها والى درجة الشك والظن فبدأ يشكو عذاب الحياة معها لان غيرتها عليه من النساء تحولت الى شك فى سلوكه وتصرفاته ، مما سبب سوء التفاهم بينهما ، وتحول الى خصام شديد وصراع قوى ، بينما تعيش الاخرى مع زوجها بطبع بارد كالثلج ، تضع فيه ثقتها المطلقة ، فهى لا تبدى نحوه أى نوع من انواع عواطف الغيرة ، فان تأخر فى عمله تسأله عن السبب ، لانها واثقة أنه لا يذهب مع امراة غيرها، وان أشعرها أن له موعدا مع امرأة لاتبدى قلقا ولا

غيرة لانها واثقة من أنه لن يعمل معهـا شيئـا ، ولن يحبها بدلا منها٠٠ فبدأ زوجها يشكـو عذاب حياتـه معها ، ويشكو عدم غيرتها وعواطفها ، التقى الازواج الاربع، وبدأ زوج الاخت الغيورة يروى لاختها وزوجها غيرتها وأعمالها ، ويبدى عذابه وألمه ، بينما يقاطعه الزوج الثانى بأنك سعيد جدا ، وهذه هى السعـادة بعينها ، وفعلا هى سعادة بعينها٠

والمسرحيات الثلاثة كما يظهر اجتماعية تعالـج مشاكل واقعة فعلا ، أو محتملة الوقوع ، وهو يسعى من وراء ذلك الى تصوير السعادة الانسانية، ووجوب العمل على القضـاء علـى آلام الحيـاة ومشاكلهـا والعيش بطمأنينة وحريـة ، حيـاة مليئة بالتعـاون والسـعادة٠

وقد استطاع الممثلون أن يؤدوا هذه الاعمال الفنية الانسانيـة علـى أحسن وجـه ، فالديكـور ملائم ، والالبسة كانت تناسب كل موقـف ، أمـا الحركـات وطريقة الكـلام فكـانـت واقعـية للغايـة ، حتى أن الممثل كان ينسى أنه انمـا يقـوم بعمـل مسرحـي ، والمتفرج يرى نفسه وكأنه بـه فـى مشكلـة حقيـقية وليست عملا مسرحيا ، وهكذا نالت الفرقة المغربيـة اعجاب المتفرجين الذيـن عبروا عن هـذا الاعجـاب والتقدير بالتصفيق الحار والهتاف العالى٠

مـونجـو بالسـتين

تم فى أوائل شهر جـوان على احـدى المسـارح الباريسية تمثيل رواية مسرحية للكاتب الجـزائـرى نور الدين حابا ، تدور حـول القضية الفلسطينيـة٠ فـى هذه المسرحية تساءل الكاتب عن الدوافع الـتى دفعت طائفة من الناس الى ارتكاب جريمة انسانيـة نكراء ، كان ضحيتها الشعب الفلسطينى بأجمعه ، اذ جردوه من أرضه ،ولم يتورعوا عن انتزاع الحيـاة من نفسه ان أبدى المعارضة : فقال : «خرجت بـاكـرا لعلنى اداهم الفجر المتألق ببريق النابالم٠٠٠ خرجت باكراً لعلنى أداهم الفجر الطالع على الافواج الاولى مـن العرب المحترفيـن وقـد لفهم جلبـاب الصبـاح وكفنهم بخيوط النور٠٠٠وقعت فى القدس جريمة اذ جاءت الذئاب فافترست الفجر٠٠٠»٠

وبعد هذا التساؤل استنطق الكاتب الشهود ثـم القتلة المجرمين ، وأخيرا أصدر حكمه الى جانب ذلك الشعب الذى باتيئن ألما وحسرة، ولكنـه لم يـزل يرجوحين يبدو أن حبل الرجاء قد انقطع ! وهذا مـا جعل الكاتب يسمى روايتـه «مونجوا بالستيـن» أى «ياجبل الفرح يافلسطين» ولعـل هـذا الاسم يعبـر تعبيراً صادقا عن ايمان الشعب وتفاؤله فى المستقبل السعيد فى فلسطين والذى صوره الكاتب حينما رأى أن صوت هذا الشعب لم يخمد ، بل ظل يعلو حتى من بين القبور والخنادق ، ويبدى تفاؤله وأملـه فـى أن يعود الشعب الفلسطينى حيا فى أرضه ذات يوم٠٠٠

وما تجدر ملاحظته فى هذهالمسرحية : الاطـراف المتعاونه على تحقيقها ، والاهـداف التى تخدمهـا ، فالفكرة رغم أنها فكرة انسانيـة شاملـة ، الا أنهـا تتعلق أولا وقبل كل شيء فى فلسطين العربيـة التـى هزت نكـبتها جـوارح كل جزائـرى حر مناضـل ، وكاتبها جزائرى ، ومخرجها فرنسى وهو «جان لوك كامبا لوزيبه» الذى استطاع بتعاونـه مع المؤلـف أن يحول النظرة المثالية للوقائع فى المسرحية الى واقع حقيقى ، أما الممثلون فكانوا جزائريين وتونسييـن٠ وفرنسيين وكان جميع المشتركين فى المسرحية بارعين فى جمعهم بيـن المسرح الغنـائـى العاطفى والمسرح التعليمـى التهذيبى ، فاستطاعوا بهذا الاسلـوب أن

يصوروا الانسان الفلسطيني الجديد ، ويبرزوه للمتفرجين بطريقة فنية رائعة.

وهذه المسرحية بالاضافة الى قيمتها الفنية، تحمل فى طياتها معانى قومية وانسانية عظيمة ، اذ أثبتت انسجام وتفاعل الشعب الجزائرى بكافة طبقاته حتى المثقفين منه بالفرنسية مع اخوانهم ابناء الشعب الفلسطينى ، كما أن تمثيلها فى باريس يدل على أن المجتمع الفرنسى الذى لم يمض وقت طويل على مشاهدته للاسبوع الثقافى الجزائرى ، بدأ يتذوق الفن العربى ، ويحس بالاحساس العربى ، ويشعر بالآلام والماسى الظالمة التى ارتكبتها الصهيونية والاستعمار ضد الشعب العربى الفلسطينى ، فكانت هذه المسرحية فرصة ثمينة ، ووسيلة ناجحة لنشر الدعاية العربية فىالاوساط الاروبية لمقاومة النشاط الدعائى الصهيونى الذى بقي يمرح وحيداً فى ذلك المجال الواسع مدة طويلة من الزمن.

الامسيات الشعرية

شهدت قاعة الموقار هذه السنة نشاطا ثقافيا ملحوظا ، تناول مختلف الميادين الثقافية ، سينما مسرح ، معارض رسوم، محاضرات علمية، وامسيات شعرية. وقد قدم عدد لاباس به من الشعراء الناشئين والقدامى العرب انتاجاتهم الشعريةللجمهور الجزائرى ، وكان من بين الشعراء جزائريون ، وعراقيون ، وفلسطينيون وسوريون. وهذا يظهر أن هذه الامسيات تمتاز بالصبغة القومية ، والابتعاد كل البعد عن النزعة الاقليمية. وقد تناولت مجلة الثقافة كثيرا من هذه الامسيات بالتعليق والاشارة. ولكننى أود هنا أن أتناول بالكلام احدى الامسيات لم تظهر بعد فى المجلات ، وهى الامسية التى أحياها الشاعر الفلسطينى مصطفى أبو وردة فى ١٥ ماى، ولعل هذا الاختيار كان مدروسا من قبل المشرفين عن هذه الامسيات ، لان يوم ١٥ ماى يمثل ذكرى اليمة ، ومناسبة مفجعة للامة العربية ، وهى مناسبة ضياع فلسطين ، وموافقة هيئة الامم المتحدة على تقسيمها. فكان اختيار شاعر فلسطين فىهذه المناسبة مدروسا لكى يعبر لنا هذا الشاعر عن آلام الشعب الفلسطينى واحزانه التى لا يستطيع أن يعبر عنها غير المتالم بها، والذى يعانيها معاناة حقيقية. ودخل الحاضرون القاعة وهم يرسمون فى مخيلاتهم انهم سيلتقون بشاعر فذ وعبقرى نظرا لاهمية المناسبة ، يشهد بذلك الجد الذى خيم على عقولهم فى تلك الامسية، وكانوا يتوقعون ان يدخل الشاعر القاعة مرتديا ملابس الفدائى ليقول الشعر ، ولعل هذه التصورات ضاعفت من عقاب الاخطاء ، فكان الخطا فى تلك الليلة يعد بالف خطأ، وممازاد فى تحمس الحاضرين وانتظارهم المعجزات الشعرية الكلمة التى القاها الاخ الاخضر السائحى عند التعريف بالشاعر حين قال بأن مصطفى ابووردة شاعر فلسطين ، وهو الذى يمثل الشعر الفلسطينى أصدق تمثيل.

ولا بد لي أن أشير الى أن شاعرنا هذا مهندس فى الاصل ، ولكن ذوقه الادبى ، واحساسه المرهف وشعوره بالالم والحرة ، دفعت فيه روح الشعر ونمتها فكان شعره واقعيا من حيث المعنى ، سهلا من حيث التركيب ، لم يشأ ان يجرى وراء الصور ، ولا أن يبحث عن الكلمات فى المعاجم ، وقواميس اللغة، انما جاءت كلماته معبرة عن الجرح الفلسطينى الذى أحدثته «مباضع الايدى الغريبة فى القدس» الذى مازال ينزف دما حتى الان فقال فى احدى قصائده بعنوان «القدس والمباضع الغريبة».

هناك فى قدسى الحبيبية.
يعيش قلبى الجريح.
وتبعث الاشواك فى شريانه.
جروحها بعمق نكستى المريرة.
ووجه قدسى الذى قد سته.
عبدته
تكلل بالشوك والدماء...
تجول فى جماله مباضع عربية.

وكم كانت فرحته عندما انطلقت ثورتـه المظفـرة ترد اليه كرامته ، وتعيد اليه وطنه ، وترفض كل حلول الـذل والاستسلام : فيقـول فـى قصيـدة بعـنوان «شعلة الرفض»

خلقت ثورتى

ياأخوتى العرب
ياأخوانى الكرام
من بؤسى الذى لفظته بنيت صرحها

من قوة الايمان يحيا مجدها
محبة الاوطان نور دربها

ولن اعود للصلاة فى معابد الالم
فما أنا براهب يوذى

ليحترق
فى ساحة العدم

وما أنايا اخوتى بفرقد
انما شعلة رفض تتوقد

ثم يقول قصيدة بعنوان شوق وثورة وبطولة :

بـلدى احـبـك ثـورة دمـويـة
لاحـرف يهـذى دون أى معـانى

بلدى سأبقى فى الـدروب مناضلا
حـتى أراك عـروسـة الاوطـان

حنـاؤك الحـمراء يـا بـلدى دم
والطرحـة البيضـاء مـن أكفـان

فاذا سقطت على الطريق فمرحبـا
بـالموت فوق ثراك يـا أوطـانى

وتـظل فى افـق البطولـة ثورتى
فيـاضـة بـالبذل مـن شجعـان

ولعل الشاعر لا ينكر فضل اخوانه العرب الذين يقدمون اليه ولثورته المساعدة والعون ، ويقفون الى جانبها فى الصعوبات والشدائد ، فيقول فى قصـيدة بعنوان «الى الجزائر» :

أرض الجزائـر قـد عهدتك ثورة
تـمضى بكـل مـروءة الثـوار

أصبحت بعد النصر شمسا فى العلا
وبنيت صـرح المجـد بالاحـرار

فاذا بك الدعم الاصيـل لثورتـى
حيـث التقى الاحـرار بالاحـرار

فلثورتـى منـك الاخـوة دائمـا
لافـرق بيـن أوراسى والاغـوار

ولك التحيـة من جحـافل شعبنـا
منـسوجـة بـاشعـة الاكبـار

واود ان الاحظ بان المناقشة التى دارت حـول هذه الامسية لم تكن مناقشة علمية ولا موضوعية ، اذ أن اكثر المتكلمين أعطوا أهمية كبرى لا خطاء الشاعـر النحوية أثناء الالقاء ، ولم يشر أى منهم الى عيـوب فى شعـره مـن حيث الوزن والقافيـة أو مـن حيث المفردات والاسلوب ، وفى نظرى أن سبب ذلك يعـود الى أن هذا الشعر الذى عرضنا نموذجا منـه هو فى الحقيقة شعر ثورى صادق ، يعبر عن حقيقة النفـس المتالمة ، التى ولدت فى الالم وعاشت فيه ولازالـت تعانى منه الكثير ، هذا بالرغم من أنه كما اسلفنا ان

الشاعر هو فى الاصل مهندس يقول الشعر هواية لا حرفة ولاصنعة ، وأن بعض اسباب ذلك الانتقاد كان شخصيا يبد ومن طريقة الكلام والانتقاد ، فهو لم يكن يهدف الى تقويم لسان الشاعر بقدر ماكان يهدف الى تحطيم شاعرتية ، ورغبة المنتقد فى الظهور باستغلال الظروف ويجب أن لاتفوت الاذهان بان الناقد السليم هو من بين العيوب والمحاسن محاولا بذلك أن يأخذ بيد الشارع الى التقدم والكمال لاالى الهدم والتحطيم ولكن لى كلمة أخيرة أوجهها الى الشاعر فهى أنه مطالب بشدة أن يقوم لسانه النحوى أثناء الالقاء حتى لاتطغى الاخطاء النحوية البسيطة على عمله الفنى الرائع الذى هو حقيقة يمثل الشعر الفلسطينى الثورى.

معارض

اقام الرسام الجزائرى حكار الازهر معرضا للرسوم فى قاعة الفنون التشكيلية بالجزائر العاصمة عرض فيه مايقرب من الخمسين لوحة فنية رائعة. وقد زار المعرض جمهور غفير من المتفرجين وهواة الرسم والفن. وكان من بين اللوحات المعروضة : الاختان ، الصديقان ، الميتة ، الليلة الحزينة ، لاأذكر شيئا ، برد اوراس ، الحرية الاولى ، اقدام حافية ، وليل بلا نجوم. وهذه اللوحات كلها مستمدة من حياة الفنان التى قضاها فى منطقة خنشلة فى بؤس وظلام ، جاءت لتعبر عن هذه المآسي الانسانية الى جانب تصويرها بعض مظاهر الحياة المختلفة.

معرض الفكر الاسلامى

قررت منظمة اليونسكو الدولية اعتبار سنة ١٩٧٢ السنة الدولية للكتاب ، وطلبت من جميع دول هذه المنظمة أن تنظم عروضا للكتب والانتاج الفكرى كتعبير عن هذا القرار العالمى الذى يهدف الى تقدير الفكر واحترام الثقافة ، واظهار اهمية المفكرين والكتاب فى جميع انحاء العالم ، ووفاء من الجزائر لمنظمة اليونيسكو واخلاصا منها لمبادئها وقراراتها نظمت وزارة الثقافة والاعلام معرضا دوليا هاما للكتاب فى المكتبة الوطنية بالجزائر فى النصف الثانى من شهر ماى ، أشرف على افتتاحه الاخ الدكتور أحمد طالب الابراهيمى وزير الثقافة والاعلام وقد اقيم المعرض تحت شعار «الفكر الاسلامى من خلال كتب الشرق والغرب» وامتاز بكثرة عدد الكتب المعروضة والمكتوبة بمختلف اللغات من قبل كتاب ومفكرين من مختلف الجنسيات ، تدور كلها حول الفكر الاسلامى والتراث العربى الذى قدم للعالم والحضارة الحديثة اسسا علمية هامة ، ارتكزت عليها ، والتى لولاها لتاخرت هذه النهضة عدة قرون أخرى. ولعل هذا يعتبر أهم حدث ثقافى وفكرى فى تاريخ الجزائر المستقلة ، اذ أنه للمرة الاولى أتاح الفرصة لمختلف رجال العلم والثقافة من طلاب وأساتذة وباحثين للاطلاع على الانتاج الافكرى والثقافى الاسلامى ، ورأى مختلف الكتاب والمفكرين الاجانب بنزعاتهم المختلفة سواء كانوا منصفين ومناصرين للفكر الاسلامى ، أو محاضرين متحاملين عليه. وعلى كل حال فقد كان من بين هؤلاء الكتاب الاجانب من اعترف بالحقيقة وأنصف الاسلام وفكره وحضارته وثقافته ، فأعطى للحاضرة الاسلامية مكانتها اللائقة بين الحضارات، واوضح آثارها القيمة على النهضة الحديثة فى أوروبا ، والتى لولاها لتأخرت هذه النهضة عدة قرون أخرى ، اذ أن بعض المفكرين الاوروبيين الذين اسهموا كثيرا فى بعث الحضارة الاوروبية تعلموا فى البلاد الاسلامية وتزودوا بالفكر الاسلامى بالاضافة الى استفادتهم من الثقافة اليونانية القديمة عن طريق اللغة العربية التى

حفظت ذلك التراث القيم من الاندثار والزوال ، وكان من بين هؤلاء المفكرين العالم توماس ، وجون بيكون الذى أعترف بأن اللغة العربية اضطلعت بمهمة عالمية عظيمة لم تضطلع بها أى لغة أخرى بمحافظتها على التراث الفكرى الانسانى.

ولع من بين أهم الكتب التى تناولت الحضارة الاسلامية بالحديث العلمى التحليلى كتاب «حضارة العرب» لمؤلفة غوستاف لوبون وكتاب شمس العرب تسطع على الغرب» للكاتبة الامالية سيجريد هونكة وكتاب «تاريخ الشعوب الاسلامية» لكارل بروكلمان وغيرها من الكتب العادلة والمنصفة والتى تناولت الموضوع بتجرد ونزاهة.

والى جانب هذه المؤلفات الاجنبية والعربية الاسلامية الحديثة ، تم عرض الكثير من منابع هذه الثورة الفكرية والثقافية الاسلامية التى تركها فلاسفة الاسلام ومفكريه فى مختلف ميادين العلم والمعرفة مثل الغزالى رائد المنهج العلمى فى الفلسفة، وكذلك آراء المعتزلة واخوان الصفا ، والفارابى ، والرازى ، وابن سينا ، والكندى ، والخوارزمى، ثم ابن خلدون رائد علم الاجتماع الحديث ، وغيرهم من علماء الدين والتصوف ، والعلماء الرياضيون والفلكيون والاطباء المسلمين.

وكان مما يلفت الانتباه فى هذا المعرض ترتيب الكتب المعروضة بطريقة فنية رائعة ، حسب المجالات والتخصصات بما فيها المخطوطات والمطبوعات ، وذلك حتى يسهل لرواد المعرض الاطلاع بسهولة على المواضع المعروضة ، فيسهل عليهم البحث فى هذا التراث الفكرى العظيم.

ولعل هذا المعرض أدى رسالة قيمة للاسلام والمسلمين بعرض هذا التراث على مفكرى العالم ، ولفت انتباه الباحثين للارتواء من هذا المعين الذى لاينضب ، وليبحثوا فيه ويستخرجوا منه الحقائق العلمية التى عملت وستعمل على اثراء الفكر الانسانى ، وارست اسس الحضارة الاوروبية الحديثة ولعل المفكرين المسلمين يتنبهون الى هذه الحقائق ويبذلوا جميع الجهود لاعادة بناء حضارتهم التليدة.

كتب

١ ـ ميزانية منظمة الوحدة الافريقية تأليف الدكتور حسين الصفراوى ، المغرب

يتناول هذا الكتاب ميدان التعاون الثقافى بين دول المنظمةالافريقية وعلى وجه التحديد لجنة التربية والعلوم والثقافة والصحة التى انشئت أثناء الاجتماع الذى عقد فى ٢٢ ـ ٢٦ مارس ١٩٧١ بأديس أبابا ، وترمى هذه الدراسة الى تحديد مستويات القبول فى الجامعات ، وغيرها من القضايا الثقافية فى بلدان القارة الافريقية.

٢ ـ العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الاولى : تأليف الدكتور مكى شبيكة الكويت

يقدم هذا الكتاب قصة العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الاولى ، وهو يظهر لاول مرة تفاصيل هذه العلاقة وأسرارها لانه استند على الوثائق الاصلية فى دار المحفوظات البريطانية التى قام المؤلف بترتيبها ترتيبا زمنيا وجعلها تروى وحدها تلك القصة دون أن يدخل فيها رأيه.

وتبين هذه الوثائق أن للقصة بداية ونهاية. بدات فى اغسطس سنة ١٩١٤ عندما دون الكابتن (رسل) محادثاته مع عزيز على المصرى فى القاهرة.

وانتهت فى فبراير سنة ١٩١٦ فى القاهرة ايضا بخطابات تبودلت بين السيد هنرى مكماهون والشريف

حسين حيث اتفقا على بعض الامور واختلفا على البعض الاخر ، ثم دخل الفريقان مرحلة الاستعداد الى ان حانت الفرصة المناسبة لاعلان الثورة فى يونيو (حزيران) سنة ١٩١٦.

٣ ـ **وسائل العدل والتوحيد :** جزآن تاليف الامام الحسن البصرى وغيره من الائمة دار الهلال القاهرة

٤ ـ **نساء النبى :** تاليف الدكتورة بنت الشاطئ دار الهلال ، **القاهرة**.

٥ ـ **هتلر وايفا :** أحد أساتذة التاريخ الفرنسيين **يعتمد هذا الكتاب على مذكرات ، ايفابراون نفسها التى تقول بانها التقت بهتلر عام ١٩٢٨ فى محل** التصوير الذى كانت تعمل به ، **ثم بعد** تردد ورفض، وافقت على الذهاب معه الى الاوبرا ، وهكذا بدات علاقتهما التى انتهت نهاية مفجعة سنة ١٩٤٥ وكان اثناء هذه العلاقة كلما سأله الناس : هل تتزوجها ؟ أجاب قائلا : لكننى متزوج فعلا... المانيا» وكان فعلا متزوجا المنيا بمعنى أن مشالكه الكثيرة تبعده عن ايفا شهورا فى بعض الاحيان وظل يماطلها فى الزواج ، ولكنه لم يحقق لها هذا الحلم الا سنة ١٩٤٥ قبل أن تسمع طلقات نارية أطلقها هتلر على ايفا وعلى نفسه بعد أن اجتاحت جيوش الحلفاء المانيا.

٦ ـ **الموشحات الاندلسية وانتقالها الى البلاد العربية :** تاليف السيدة الفت محمد المنيرى **القاهرة**.
وهو رسالة علمية **حصلت بها المؤلفة على شهادة** الماجستير.

٧ ـ **عبد الرحمن الكواكبى :** تاليف الدكتور محمد عبد الرحمن برج. القاهرة سنة ١٩٧٢.

كتاب فى ستة فصول يتناول بالتفصيل حياة **أحد كبار رواد النهضة العربية الحديثة ، والمصلح الاجتماعى العربى الكبير الذى كان يعتمد على** التحليل والتعليل ، **اذ كان يصف الداء وسببه،** ويصف له العلاج الناجح ، **ويقول المؤلف بأن كلام الكواكبى لم يكن غثاء اذرت به الرياح أوكلمات طوتها الايام والسنون ، ولكنها صادرة عن مبادئ** عربية اصيلة ، ووعى كبير ، واحساس بمواطن الضعف فى هذه الامة. وماأحوج امتنا اليوم أن تأخذ من كلمات الكواكبى دليلا ونبراسا تستضىء بها فى مرحلتها الحاسمة. **وقد تناول المؤلف حالة الامة العربية فى الوقت الذى ولد فيه الكواكبى ، ثم موطن الكواكبى ونشاته الاولى والاخيرة ، ثم تطرق الى الدور الكبير الذى قام به الكواكبى فى مقاومة الظلم والاستبداد** وبعث روح النهضة والتقدم فى الامة العربية ، **وأخيرا درس المؤلف الاثار القيمة التى** تركها الكواكبى وهى كتابيه «أم القرى» و «طبائع الاستبداد» اللذين شرح فيهما **اسباب تخلف الامة** العربية وطرق معالجتها ، وخصائص الاستبداد وكيفية التخلص منه.

٨ ـ **معجم الرياضة واللعب : تاليف** : عبد العزيز **بنعبد الله** ، **الرباط**.

وهو كتاب فى تسعة فصول ، يوضح اهتمامات العرب **بالرياضة واللعب منذ ما قبل الاسلام ، ويعدد أنواع الرياضة التى اهتم بها العرب فهى الفروسية والسيف والقنا والصيد والقنص ، وسباق الخيل والجمال ثم الدبكات ، كما أنه اشار الى ممارسة** الفتاة العربية لبعض أنواع الرياضية.

٩ ـ **الصين الحقيقية :** روسى ترل ، براون

كتاب صدر باللغة الانجليزية ، اشبه بالرحلات لان صاحبه اعتمد فى مادته على **الزيارة التى قام بها للصين ، فدون ما شاهد وما سمع ، بالاضافة** الى ما قرأه باللغة الصينية التى يجيدها ، بين الكتاب أن التخصص قد اختفى فى الصين ، فيمكن للعمال

أن يعزفوا الموسيقى ، والطلاب يجب أن يعملوا اعمالا شاقة ، ورجال السياسة يتقنوا جميع الفنون ، لان الفكر الماوى «لبنة ضرورية لبناء دولة قوية ، ويقول المؤلف بأن الصينيين يكرهون الامريكيين الديمقراطيين لتعاونهم مع الروس.

١٠ ـ **اليوميات الفلسطينية** : تاليف : روبرت جون ، وسامى حداوى ، قدم له العلامة الانجليزى آرنولد توينبى كتاب صدر باللغة الانجليزية فى ثمانية عشر فصلا تناول القضية الفلسطينية منذ بداية الحركة الصهيونية حتى سنة ١٩٤٥ باسلوب علمى يعتمد على الموضوعية وعدم الانحياز ، أظهر فيه المؤلفان موقف بريطانيا السلبى والعدائى تجاه العرب ثم الدور الذى لعبته فى مساعدة اليهود للهجرة الى فلسطين ، وقطعها الوعود لزعماء الحركة الصهيونية بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، والخطوات الايجابية التى قدمها لهم فى ظل الانتداب البريطانى فى فلسطين. ثم موقف الشعب العربى الفلسطينى من مخططات بريطانيا الاستعمارية ، ومحاولة تهويد فلسطين. وتظهر قيمة هذا الكتاب العلمية من المقدمة التى وضعها المؤرخ العلامة الانجليزى آرنولد يوينبى الذى قال فيها : اننى كمواطن انجليزى شعر بالعار والخزى بسبب الوعد الذى قطعه بلفور وزير خارجية بريطانيا الى اللورد روتشيلد زعيم الحركة الصهيونية ، وسيبقى هذا الوعد نقطة عار فى جبين السياسة البريطانية.

١١ ـ **المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا**
تأليف : احمد توفيق المدنى : الشركة ، و.ن.ت. الجزائر.

كتابفريد من نوعه فى هذا المجال يتناول بالبحث جزيرة صقلية منذ عهد الفنيقيين حتى يومنا هذا ، وركز خاصة على الحقبة التى حكمها فيها المسلمون وأهم مظاهر المدنية الحضارية سواء كانت معمارية كالمدن والقصور والمساجد والقباب ، أو اقتصادية كالصناعة والزراعة والتجارة أو ثقافية كاللغة العربية والعلوم والاداب ، ثم ذكر أشهر علمائها وميادينها.



LE 6ème SEMINAIRE POUR LA CONNAISSANCE DE LA PENSEE ISLAMIQUE ET CERTAINS GRIFFONNEURS DE TOUS BORDS

Traduction d'un article de M. Mouloud KASSIM

C'est par leurs journaux que certains pays de notre cher Orient se singularisent - je ne dis pas se distinguent - des autres contrées du monde. Cette presse qui se caractérise par son obédience et sa servilité à l'argent (que ce soit celui de grandes ou moyennes puissances ou de certains petits Etats ou même de particuliers) porte comme signes distinctifs : une pensée superficielle, une finalité négative, une indigence d'esprit et une médiocrité dans la forme, un manque total de vérité, en plus de la couardise des griffonneurs qui la rédigent (le griffonnage étant la mauvaise écriture au sens propre et au figuré), sans parler de leur inconsistance, de leur stupidité, de leur aveuglement et de leur prétention ! Une de ces «feuilles» se disant «journal Islamique hébdomadaire» nous gratifie d'un article sur le 6ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique, tenu à Alger ces temps derniers.

Le libellé est signé par un nom qui ne figure pas sur la liste des invités. Peut-être s'agit-il de quelqu'un dont la conférence n'aurait pas été retenue par ce que non-programmée, ayant répondu à l'invitation après le délai-limite et l'impression du programme. Auquel cas il serait originaire du pays où parait le journal. Peut-être s'agit-il d'un peureux qui, sans confiance en soi ni en ses actes, ne se sent pas assez de courage pour signer ce qu'il a griffonné. La faute, alors, incomberait moralement au journal qui, se disant islamique, ouvre néanmoins ses colonnes à des plumitifs portant atteinte à la renommée de l'Islam et à la bonne réputation des musulmans.

En Algérie, nous possédons également quelques spécimens de cette catégorie «islamique» ou «progressiste», «ouverte», et même «très ouverte», parmi ces «griffonneurs», gazetiers ou professeurs d'université. J'ai déjà mentionné dans le discours de clôture du séminaire la spécificité de ces individus. J'y reviendrai : Mais en attendant, qu'ils considèrent que certains propos, dans ce que je vais dire, les concerne tous, chacun pour sa part.

1) Vous avez écrit, griffonneur, que les communications historiques étaient axées, lors de ce séminaire, sur la lutte contre le colonialisme en Afrique du Nord et plus particulièrement en Algérie, et sur le rôle de l'Islam dans ce combat.

Réponse : non, illustre plumitif islamique ! Les études ne visaient pas la lutte en Afrique du Nord et en Algérie tout spécialement. Elles embrassaient le vaste monde musulman dans sa totalité. Ce sujet a été traité, entre autres, par le général Hadj Salibada, Président de l'Association des Musulmans des Philippines et par le Docteur Rachid Lokmane, Secrétaire Général de cet organisme. Ces deux orateurs ont parlé de la lutte de nos frères dans leur pays.

Si le sujet n'a pas été plus amplement débattu, il faut en rechercher la cause chez les conférenciers qui, eux-mêmes, ont négligé ce premier point de notre ordre du jour ; et chez certains gouvernements, comme celui du Pakistan, qui a interdit à la dernière minute à un conférencier de venir se joindre à nous, et l'a remplacé par un autre, qui, d'un niveau différent, n'était pas préparé à cette intervention, contrairement à celui qu'il a remplacé «d'autorité», qui, lui, était déjà programmé.

De manière précise, le titre de cette rubrique dans l'ordre du jour était ainsi formulé :

«Le X° Anniversaire du recouvrement de l'Indépendance de l'Algérie et le rôle de l'Islam dans notre lutte de libération durant notre résistance et dans le combat des divers pays musulmans contre l'agression et l'occupation».

Tout participant, algérien, marocain, lybien, égyptien, indonésien, pakistanais, palestinien ou autre, pouvait choisir ce sujet tout comme l'a fait le général philippin. Mais les orateurs ont en décidé autrement. La responsabilité en incombe donc aux professeurs invités ou délégués, non à l'Algérie qui, en organisant le Séminaire, a placé ce point essentiel en tête de l'ordre du jour, sachant que sans l'Islam aucun de ces pays ne se serait émancipé, et que sans lui aucun des autres territoires musulmans encore colonisés ne pourra se libérer.

2) Vous avez parlé, et c'est ce qu'à écrit chez nous un de nos plumitifs tout au début du Séminaire, de certaines erreurs qui se renouvellent généralement au cours des rencontres et séminaires arabes et islamiques.

Sachez, si vous étiez absent, ou que votre collègue qui était présent sache - lui qui a beaucoup insisté pour y être convié - que ce séminaire, bien qu'il ne soit ni infaillible ni à l'abri de toute erreur - n'est pas un symposium comme les autres rencontres arabes et islamiques.

La plupart des éminents professeurs venus d'Europe ou de pays arabes pour participer à ce séminaire ont rendu hommage à son organisation minutieuse, stricte et méthodique, exemple sans précédent dans ces autres pays. Le grand Cheikh d'Al Azhar, son Excellence le Docteur Mohammed Mohammed El-Faham, en a témoigné dans une déclaration rendue publique. Ceci apparaitra plus clairement dans votre esprit «islamique», «réactionnaire», «conservateur» et dans l'esprit de votre collègue algérien «ouvert», «progressiste», «rationaliste» et «révolutionnaire» si vous vous représentez que cette assemblée a réuni des jeunes et des vieux, des professeurs du vaste monde islamique, du Maghrib ou de «l'Afrique du Nord», comme vous dites, ainsi que de nombreux autres pays africains, de Malaisie et des Philippines même, d'Europe (Orientale et Occidentale). Vous devez vous souvenir si vous y étiez présent, en outre que quatre orateurs au moins, originaires d'Europe, ont pris la parole en arabe littéraire.

3) Vous avez évoqué ces penseurs qui sont venus des différents pays musulmans «arabes et ajam», c'est-à-dire non-arabes. Je pense que cette expression est de trop, car elle fait partie du lexique des différentes écoles colonialistes et de leurs acolytes de tous ordres, surtout après les derniers évènements. Il aurait fallu dire «musulmans» et s'en tenir là. Car l'Islam englobe tout par son universalité. Ceci est d'autant plus nécessaire que vous écrivez à propos d'un Séminaire Islamique, dans un journal qui se veut «Islamique», sachant que toute discrimination raciale, bien loin de contribuer à notre renaissance, lui nuit au contraire. Notre cher Orient est payé pour le savoir !

4) Vous parlez ensuite de certains «délégués chrétiens» au Séminaire.

Il est bien vrai qu'il y en eut un, un seul. Il était là parceque son pays avait beaucoup insisté pour qu'il y fût. Il n'avait d'ailleurs pas le titre de conférencier. Il a entendu la réponse qu'appelaient les propos inopportuns qu'il a tenus. Il s'est abstenu ensuite d'assister

aux réunions, ainsi qu'un de ses compatriotes musulmans. Les deux personnages sont restés ensuite à l'hôtel réservé au Séminaire, en qualité d'invités de l'Algérie, par leur propre volonté, s'abstenant d'assister aux réunions.

Nous leur avions demandé de s'en tenir à l'ordre du jour, alors qu'ils cherchaient à l'enfreindre. Le Chrétien a déclaré - et ce fut sa seule intervention - : «Ce Séminaire entre seuls musulmans est une façon de se recroqueviller etc...».

Son compatriote musulman a déclaré : «Nos adversaires ne sont pas les Chrétiens ou les Juifs, mais les athées. Il est donc plus convenable de passer sous silence les croisades d'hier et les Juifs d'aujourd'hui et d'évoquer par contre les dangers que représentent les ennemis des religions». Nous lui avons répondu que nous parlerons de tous, aussi bien des uns que des autres, car les mécréants se valents tous.

Ce fut aussi sa seule intervention durant le Séminaire. Elle eut lieu pendant les débats, car ni l'un ni l'autre de ces deux participants n'avait le titre de conférencier. Par contre, il nous est agréable de dire qu'un de leurs compatriotes musulmans a donné une brillante conférence qui fut considérée comme une contribution de qualité.

5) En ce qui concerne les observations formulées sur la présence des Orientalistes et de leurs disciples ainsi que leurs propos destinés à «éclairer la voie de la renaissance islamique» je répondrai à Monsieur l'Ecrivassier, que nul parmi eux n'a abordé le sujet. Ils ont fait preuve de goût, d'intelligence, de finesse et de courtoisie, et pour la plupart, pourquoi le taire ? également par sincérité. Ils ont évité ce châpitre et ont laissé aux musulmans le soin de l'examiner. Mais, d'une façon générale, ces derniers, hélas, n'ont pas été à la hauteur. La plupart ont improvisé leurs conférences d'une manière superficielle et médiocre. D'autres ont bâclé leurs causeries après leur arrivée chez nous. Ils ont négligé de nous les faire parvenir auparavant comme l'ont fait la plupart des professeurs européens, conformément à ce qui leur était demandé dans le texte même de l'invitation à eux adressée, cinq mois auparavant.

Deux Orientalistes, l'un d'Europe Occidentale, l'autre de l'Europe Orientale, n'ont pas honoré la confiance que l'on peut avoir en un universitaire. Ils n'étaient pas invités personnellement mais délégués par leur gouvernement. Nous fûmes obligés de leur faire, en pleine séance, les observations qu'appelait leur attitude. Les autres Européens les ont désavoués, du moins à ce qu'ils nous ont dit; nous avons parlé d'eux dans notre presse. Ils ont abondonné le Séminaire et quitté le pays.

Parmi les Européens, et c'est l'unique exception, seule le docteur Sigrid Hunke, auteur du livre «Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident», a traité le sujet de la renaissance musulmane. Elle le fit avec sincérité, vérité et objectivité. Peut-être même, bien qu'abordant indirectement ce sujet, l'a-t-elle traité d'une manière plus exhaustive que certains de nos correligionnaires, dont les conférences manquaient de préparation et présentaient un fâcheux caractère d'improvisation.

Telle est, de nos jours, l'habitude d'un grand nombre de musulmans. Je répète ceci aujourd'hui pour qu'à l'avenir nous évitions de sombrer dans les mêmes erreurs.

Mais pour être juste et en même temps pour exprimer ma fierté, je dois dire que certains professeurs musulmans furent excellents, à tout point de vue. D'abord en ce qui

concerne la préparation : ils nous ont adressé leurs textes dans les délais voulus, en deux versions : l'une complète, pour être publiée, l'autre synoptique, pour être lue en séance, dans la limite des 45 minutes imparties dans le programme. Ensuite, en ce qui touche la teneur ces textes étaient à la fois objectifs, méthodiques et pénétrants. Notons enfin leur participations active dans les débats, marquée par des interventions pertinentes, notamment lorsqu'il s'est agi de répondre à certains Orientalistes dont le niveau laissait à désirer. Je citerai ici, comme meilleur exemple, l'éminent professeur Othmane El-Kaak, qui est non seulement le doyen des historiens tunisiens et maghrebins, mais celui des musulmans en général et l'un des plus grands dans le monde.

6) Madame le Professeur Yvonne Turin n'est pas une Orientaliste, c'est une historienne, professeur à l'Université d'Alger. Elle a fait preuve d'esprit objectif et méthodique, qualité qui ne serait pas de trop chez beaucoup de nos écrivassiers. Le second élément de son étude était précisément «les insuffisances des archives françaises». Celles-ci, a-t-elle dit, ne doivent pas être tenues pour suffisantes. Elles doivent être complétées par des sources islamiques. Ce sont les musulmans - en premier lieu les Algériens - qui doivent combler ces lacunes - - voulues - que nous constatons dans la documentation française. Telles sont les carences signalées par cette historienne française non arabisante. C'est donc à nous de ne plus nous complaire dans la paresse d'esprit, la léthargie et la négligence, ne bougeant que lorsque d'autres se mettent au travail pour traiter un sujet... alors même qu'ils le font avec un manque de perfection excusable.

C'est à nous à ne plus nous complaire dans la passivité, car passifs, nous le sommes aussi bien lorsque nous dormons que lorsque nous agissons !

Vos semblables, cher plumitif, nous en comptons chez nous aussi en Algérie, parmi ceux qui se disent préoccupés d'histoire, historiens même, comme si l'histoire était leur propriété, leur fief, leur domaine particulier, leur chasse-gardée, leur sujet consacré, que nul ne doit traiter, alors même que l'on souhaiterait tant qu'ils le traitassent ! Ah s'ils pouvaient se remuer, écrire, réfuter, argumenter, controverser ! Ah s'ils pouvaient sortir de leurs tanières pour voir la lumière et pour que les gens les voient !

Lorsqu'on leur demande de se rendre utiles aux autres, d'éclairer la jeunesse, de réfuter les prétentions des faussaires et des falsificateurs, ils se contentent de répondre par des justifications et des excuses, recouvrant une vacuité extraordinaire à laquelle s'ajoutent nonchalance surprenante, un esprit critique démolisseur, négatif, que l'on peut considérer dans son horreur comme un phénomène sans pareil !

Ils ont pondu une fois dans leur vie, puis..., plus rien. Ils ont griffonné quelques lignes... puis ont cru qu'ils ont dit tout ce qu'il fallait dire. Le monde doit s'arrêter avec eux... et ne plus ajouter une seule lettre à ce qu'ils ont tracé !

Avec une insistance particulière, ils ont été conviés quatre mois et dix jours avant l'ouverture du Séminaire, comme les autres invités musulmans et européens. Mais quand bien même ils auraient été conviés neuf mois auparavant cela n'eût rien changé à l'affaire, ni suscité la moindre contribution ou le moindre résultat. Car tels ils sont, tels ils resteront : stériles, isolationnistes, immobiles, cantonnés dans le refus.

Lorsque d'autres bougent, eux se contentent d'émettre des critiques destructives qui cachent en réalité leur insuffisance, leur imperfection, leur paresse et une espèce de féodalisme mental et de monopolisation intellectuelle. Je dis tout cela, nonobstant le fait que

certains d'entre eux sont mes amis. Mais, à mes yeux, l'amitié vient en second lieu, après certaines choses qui sont encore plus élevées et plus sacrées !

7) Quant au personnage dont la photographie illustre votre article et qui, selon vos propos, a vécu l'époque des Zaouias et la bataille du réformisme religieux, je vous dirai qu'il est fonctionnaire de notre Ministère. Il fait partie de ceux qui, vivant encore dans les souvenirs d'un passé négatif, sont excités par la vue d'une Zaouïa, mais demeurent insensibles devant le spectacle des lieux de beuverie et de débauche, et ne s'émeuvent guère de l'état d'une jeunesse oisive et d'un peuple ignorant; un tel personnage n'ira pas vers la masse mais attendra qu'elle vienne vers lui, imbu qu'il est de cet esprit de festivité maraboutique «Zarda» etc... auquel j'ai fait allusion dans l'allocution de clôture du Séminaire (Zarda, Wa'da, Qaâda et Raqda).

Je serais curieux de savoir ce qu'il a fait, lui et ses pareils, dans le domaine de la lutte contre les Zaouias où sont précisément organisées ces festivités «Zarda» «Wa'da» etc... Il n'a rien fait pour les combattre, alors que cela relève de son travail.

De toute façon, ce n'est pas là le lieu choisi pour traiter ce sujet. Je n'en aurais pas parlé si vous ne l'aviez pas vous-même évoqué, ô plumitif, et si ce vieillard paresseux n'avait pas contribué à le faire avec vous, (en supposant que vous ayez assisté avec nous au Séminaire, comme semble le prouver la photographie du Cheikh illustrant votre griffonnage).

8) Vous avez dit, vous ou quelqu'un parmi les vieux professeurs incapables et rétrogrades - un de ceux qui disent ce que les Juifs ont dit à Moïse : «Va, toi et ton Dieu, combattez et laissez nous ici en paix ! » - vous avez donc dit que «les professeurs musulmans, devant le nombre des erreurs des Orientalistes, n'ont pas été capables de réagir et ont finalement capitulé ! » Combien donc étaient-ils, ces Orientalistes ? et combien les musulmans ? Dans l'ensemble les Européens étaient neuf, et ils n'étaient pas tous Orientalistes. Les musulmans comptaient plus de cent professeurs. Si l'on considère la contribution des neuf Européens on constate que dans l'ensemble elle fut éminente. Je dirai, plus qu'éminente, si je puis ainsi m'exprimer. Ils ont traité les problèmes de la civilisation musulmane dans ses rapports avec l'Europe, ses influences sur cette dernière, les relations des pays musulmans avec l'Europe, etc... avec beaucoup plus de talent, hélas, que la plupart des conférenciers musulmans. Deux Européens seulement ont fait exception à cette règle. Mais, même si tous les Européens avaient été tous «négatifs», même si toutes leurs interventions avaient nécessité des critiques, comment excuser la passivité et la «fatigue» des conférenciers musulmans ? Les Européens sont-ils seuls infatiguables ? Sont-ils, eux, exempts de fatigue ? Comment les Musulmans, qui étaient plus de cent cinquante, pourraient-ils dès lors justifier la leur ? Ne sommes-nous pas ainsi amenés à évoquer - mais pouvons-nous oublier ? - les douloureux problèmes de notre réalité islamique actuelle ?

Un de nos savants (qui fut mon maître et que je respecte beaucoup) m'a dit qu'il avait ressenti cette lassitude alors qu'il aurait dû prendre la parole pour répondre à son adversaire, notre adversaire à tous, constamment prêt à réfuter les arguments des autres. J'ai répondu à ce professeur qu'il aurait dû répondre et ne pas être las. Car, en Algérie, nous disons qu'il est honteux pour un musulman de «passer la nuit avec un coup» auquel on n'a pas riposté. J'aurais préféré qu'il contrattaquât, et ce, à juste titre, plutôt que de demander de faire descendre l'orateur de la tribune. Car nous avions dit que les débats étaient entièrement libres, que les portes de la discussion étaient largement ouvertes. De plus, les étudiants, observant la polémique et tirant profit de cette confrontation, n'aiment pas beaucoup que des musul-

mans rendent les armes, soient battus et «fatigués».

Quant au principe même de la participation des professeurs européens, il suffit de rappeler que nous avons fait figurer dans le 3 point de l'ordre du jour de ce Séminaire leur rôle dans l'écriture de notre Histoire, et la nécessité de réécrire nous-même celle-ci, désormais. C'est pourquoi leur présence était indispensable. Nous ne pouvions parler ni condamner des absents, sans qu'il leur soit loisible de répondre ou de rectifier nos propos. Nous devons à la vérité de dire que certains d'entre eux - bien qu'ils fussent rares - se sont montrés impartiaux. Les autres avaient besoin de nous écouter, et nous mêmes avions besoin de les entendre, afin que nous ne les condamnions pas par contumace. Ces échanges de point de vue ont été généralement positifs et fructueux pour les deux parties.

Nous continuerons donc à les inviter à nos réunions chaque fois qu'il sera nécessaire.

9) Vous avez mentionné, parmi les avantages de ce Séminaire, la visite de certains «villages» algériens, c'est-à-dire Miliana et Médéa. Je voudrais vous faire observer simplement que ces deux localités ne sont pas des «villages», mais des villes, sinon de grandes cités. Il fut un temps où elles étaient des capitales. Il suffit que vous vous rappeliez - dans le cas où vous auriez assisté au Séminaire - que le deuxième point de l'ordre du jour était «le millénaire de la fondation d'Alger, de Miliana et de Médéa», par Bologhine Ibn Ziri. Vous devez reconnaître que, même dans leur état actuel, ces deux villes sont encore plus grandes et plus belles que certains capitales de notre cher Orient.

J'ai été un peu long mais cela était nécessaire. Je souhaite du moins que ce ne sera pas sans utilité.

10) Il me reste à vous dire, griffonneur «islamique», que dans le même numéro de votre journal «islamique», je lis des propos satiriques sur lesquels je suis entièrement d'accord. Il s'agit du «progressisme défaitiste». Mais je serais tellement heureux si votre publication pouvait se débarrasser de cet «islamisme passif et incompétent» du genre de celui que vous professez dans votre article, objet de cette mise-au-point.

Combien de révolutionnaires ne sont que des bovins, car il ne suffit pas d'être révolutionnaire pour être un révolté, de même combien de musulmans le criant sur les toits mais ne sont que des capitulards, portant préjudice à l'Islam et aux Musulmans.

Ceci dit, que le salut soit sur vous, ainsi que la bénédiction d'Allah; et bienvenue à notre prochain Séminaire, si vous le désirez et s'il plait à Dieu, car c'est vers Lui que toutes choses retournent !

Mouloud KASSIM

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

PALAIS DES NATIONS 24 JUILLET - 10 AOUT 1972

TRADUCTION DE L'ALLOCUTION
DE MONSIEUR LE PRESIDENT HOUARI BOUMEDIENE
PRONONCEE PAR MONSIEUR MOULOUD KASSIM
MINISTRE DE L'ENSEIGNEMENT ORIGINEL
ET DES AFFAIRES RELIGIEUSES
A L'OCCASION DE L'OUVERTURE DU 6ème SEMINAIRE
POUR LA CONNAISSANCE DE LA PENSEE ISLAMIQUE

"Au nom de Dieu, Clément et Miséricordieux"

Messieurs les distingués professeurs,

Permettez-moi de vous souhaiter la bienvenue en Algérie et de vous dire combien notre pays s'honore d'accueillir un aussi grand nombre d'éminents hommes de lettres et de savants illustres qui ont d'évidence sacrifié une partie précieuse de leurs loisirs pour reprendre un débat libre et enrichissant et approfondir une recherche scientifique rigoureuse.

Je remercie notamment Messieurs les Professeurs qui ont bravé les fatigues du voyage depuis les différents pays arabes et islamiques et des pays européens, dans le but de participer avec leurs collègues algériens à l'édification de nos étudiants et des étudiants des pays frères et amis des trois continents, par leurs conférences ou par l'animation qu'ils apporteront à des débats devant se dérouler dans une atmosphère, certes scientifique et sérieuse, mais également franche et libre, et où se réalisera une symbiose entre la sagesse et la pondération des maîtres, et l'enthousiasme de la jeunesse, ses capacités créatrices, son dynamisme et, par dessus tout, son amour et sa soif de recherches et de découvertes.

Je suis particulièrement heureux que ce séminaire se réunisse au cours de ce mois-ci où nous célébrons la plus glorieuse de nos fêtes nationales, celle du recouvrement de notre liberté et de notre indépendance, après une longue nuit coloniale.

L'importance de cette rencontre est aussi rehaussée par le fait qu'elle rassemble cette année une élite plus grande de chercheurs et de penseurs, dans ce pays qui s'apprête à entreprendre sa propre révolution culturelle, dont nous avons souligné à maintes reprises qu'elle représentait dans notre Révolution globale aux trois piliers (industriel, agraire et culturel), l'esprit par rapport au corps.

Messieurs les Professeurs,

Frères étudiants,

L'Algérie qui a contribué à l'établissement d'une civilisation parmi les plus riches et les plus fertiles, la civilisation arabo-islamique, et qui jouissait de sa propre personnalité parmi les Etats et les Nations puisqu'elle fut parmi les premiers pays à reconnaître l'indépendance des Etats Unis et le premier Etat à saluer le régime issu de la Révolution Française, avant de s'exposer à une conquête coloniale qu'elle n'a cessé de combattre durant de longues décennies et au cours de laquelle elle a enduré les tentatives les plus insidieuses de dépersonnalisation et d'intégration, l'Algérie a décidé, une fois reconquises sa souveraineté et son indépendance, de les compléter et de les consolider par la récupération de toutes les composantes de sa personnalité et de son entité.

L'Islam a été l'âme de la résistance et du combat de notre peuple contre les entreprises d'assimilation et d'aliénation de sa personnalité, comme il fut le ferment et la base de sa florissante civilisation, celle dont il participait avec le reste du monde arabe et qui fut le point de départ de la Renaissance de l'Europe et donc de la civilisation universelle moderne.

Je n'apprendrai certes rien d'inédit à des historiens et à des savants aussi avertis, en réaffirmant que chaque civilisation a ses

fondements spécifiques, ses principes propres, ses cycles de progrès et d'ascension, mais aussi, hélas, ses lois de décadence et parfois de disparition totale, selon la force de son attachement à ces fondements et à ces principes ou, au contraire, son laisser-aller, et à plus forte raison sa démission à leur égard.

Nous connaissons tous la situation qui prévalait dans la presqu'île arabique à l'époque anteislamique et la civilisation à laquelle elle a atteint, et, grâce à elle, la majeure partie du monde reconnu - une fois qu'elle fut touchée par la lumière de l'Islam, et nous en sommes encore à nous émerveiller - à la suite des historiens et des chercheurs - de la rapidité sans égale avec laquelle cette civilisation allait bientôt se propager, ou plutôt se propulser pour atteindre sa plénitude et son âge d'or.

Le fait est que l'Islam constitue, en lui-même, une révolution totale par rapport aux différentes activités humaines. Cela est vrai non seulement pour ce qui est des valeurs et des principes qu'il met en avant, mais aussi parce qu'il implique une âme qui ne s'accommode pas de replâtrage et de réforme, mais exige au contraire une transformation radicale, et représente très exactement ce que nous nommons aujourd'hui "révolution", autrement dit cette force dynamique et dynamisante qui abat les structures archaïques et dépassées pour élever à leur place des édifices nouveaux et fiers, à l'épreuve du temps.

Pour le monde arabe, la période qui a précédé l'avènement de l'Islam a été appelée à juste titre "djahilia" ou période de l'ignorance et de l'obscurantisme. L'Islam s'est voulu une révolution contre cet état de fait, étant la religion de la science par excellence, celle qui a fait de l'instruction et de la recherche du savoir une obligation sacrée tant pour l'homme que pour la femme et a placé sur un pied d'égalité "l'encre des savants et le sang des martyrs", celle enfin qui a élevé la science à un piédestal qu'illustre si bien le verset coranique : "Seuls les savants craignent (vraiment) Dieu". Il s'agit ici des savants au fait des mystères de la création et de la nature par l'effort de compréhension.

S'accordent sur ce point aussi bien l'interprétation qui explique le verset dans ce sens que celle qui lui confère une autre signification, à savoir : "Dieu n'estime considérablement que les savants".

Les deux lectures fondamentales du Coran et, par conséquent, les deux exégèses qui s'y rapportent, sont unanimes sur ce point. Ceci est exprimé également par la tradition suivante : "Les savants sont les héritiers des Prophètes", et trouve son illustration auprès des docteurs de l'Islam aux siècles de son apogée, tel Ibnou Rochd, "(Averroës)", et Ibnou Sina "(Avicenne)", lesquels conciliaient harmonieusement le savoir et la foi.

La même observation est valable pour notre siècle moderne, et nous n'en voulons pour preuve que deux des plus grands savants de notre temps, Pasteur et Einstein.

N'est-il pas établi, en effet, que l'un et l'autre quittaient volontiers le laboratoire pour l'église ou le temple, afin d'y prier et d'y méditer ?

L'Islam est aussi une révolution contre l'inertie et la stagnation, le mimétisme et le "suivisme" aveugle.

Combien de versets coraniques ont fustigé ceux qui disaient, par paresse d'esprit et absence totale d'initiative et de jugement, : "Nous avons trouvé nos pères dans cette voie et nous ne pouvons que suivre leurs traces". Ou bien : "Nous respecterons plutôt la pratique de nos pères, mais si leurs pères n'avaient point de discernement et ne suivaient pas le droit chemin ?".

Ces imitateurs serviles ont été comparés dans le Coran à celui qui ne sait répondre qu'à l'ordre ou à l'appel : "Sourds, muets et aveugles, ils ne sont pas capables de discernement". Tels les animaux non doués de raison qui distinguent bien le cri du berger mais n'en comprennent pas toute la portée.

Les animaux leur seraient même préférables si l'on se rapporte à cet autre verset du Coran : "Ceux-là sont comme des bêtes et même plus égarés encore".

L'Islam est en effet la religion de la réflexion, de l'étude et de l'emploi de la pensée et de la raison. Les versets coraniques qui invitent à utiliser la raison dépassent la cinquantaine, ceux qui appellent à voyager afin de voir et de comparer, de se souvenir et de méditer sont quasiment incalculables.

L'Islam est aussi une révolution contre la paresse, l'action stérile, la propension à compter sur autrui et non sur soi-même, contre le chômage dont le sens premier signifie "vivre sur le dos des autres et s'abstenir de travailler".

Le Prophète, que le salut et la bénédiction de Dieu soient sur lui, a toujours été vu occupé par un travail, et il disait : "Que l'un d'entre vous prenne sa corde et gagne la montagne pour en rapporter un fagot de bois qu'il vendra pour conserver la pudeur à son visage d'homme libre, vaut mieux que de solliciter l'aumône des autres, qu'elle lui soit accordée ou refusée". Il a dit encore : "Dieu aime celui qui exerce une profession". Ou encore : Nul n'a jamais goûté de meilleure nourriture que celle que lui rapporte son travail, et le Prophète de Dieu, David, lui même vivait du fruit de son labeur".

Le Coran contient plus de trois cents versets qui incitent au travail et le glorifient. Le Prophète a dit à propos des droits du travailleur : "Si un homme emploie un salarié et refuse de lui payer son dû, je serais son adversaire au jour du Jugement". Une autre tradition ordonne aux employeurs : "Donnez au salarié sa paie avant que ne sèche sa sueur".

L'Islam apparaît ainsi comme une révolution contre le fanatisme et l'esprit de caste, puisqu'aussi bien le seul honneur qu'il reconnaisse est celui du travail et de l'effort.

Il est aussi une guerre déclarée contre tous les genres de discrimination, que ce soit au nom de la religion, de la race, ou de la considération communément accordée à la puissance de l'argent ou du nom, ces mœurs qui avaient cours aussi bien dans la tribu koreichite que dans le reste de l'Arabie et un peu partout dans le monde.

Les seuls critères de supériorité reconnus et légitimés par l'Islam sont la vertu et la piété. Les hadiths rapportés dans ce sens, à propos de Souheib le Byzantin ou de Bilal l'Ethiopien et d'autres Compagnons sont très nombreux. Les sévères réprimandes que le Prophète a adressé dans ce cadre au grand Abou Dharr el Ghifâri constituent des points de repère classiques dans l'histoire de l'Islam.

Nous ne saurions mieux illustrer cette particularité de l'Islam qu'en nous référant à un autre hadith.

Le Prophète de Dieu a dit en effet : "O gens de Koreïche, Dieu vous a délivrés de l'orgueil de la "djahilia" et de la glorification des ancêtres. Vous descendez tous d'Adam et Adam provient de la terre", puis il récita le verset : "O gens, nous vous avons créés d'un mâle et d'une femelle et répartis en peuples et en tribus afin que vous vous connaissiez les uns les autres. Le plus estimé d'entre vous auprès de Dieu sera le plus vertueux".

L'Islam a été dès son apparition une révolution contre les coutumes qui prédominaient à l'époque et qui subsistent encore à l'heure actuelle dans de nombreuses parties du monde, telles que l'arrogance des Patriciens ou la morgue des Césars et des classes gouvernantes, puisqu'il a combattu, dès le début, l'injustice et la tyrannie, le despotisme et la dictature et qu'il a rétabli la justice et l'égalité aux lieu et place de l'iniquité et du favoritisme.

Les versets du Coran parus dans ce sens sont aussi abondants que variés. Nous citerons : "Si tu avais été rude au cœur dur, ils (les croyants) t'auraient fui". "Demande-leur (les croyants) conseil avant de prendre une décision", "Juge-les selon la loi de Dieu, ne suis pas leurs passions et crains qu'ils ne te détournent d'une partie de ce qui t'a été révélé". "Si tu es appelé à juger, juge avec équité, car Dieu aime les justes". "Et si vous jugez, rendez votre sentence en toute justice", "O croyants, jugez équitablement et témoignez en faveur de Dieu, même contre vous-mêmes, vos parents ou vos proches. Qu'importe si celui qui fait l'objet de votre jugement soit riche ou pauvre, puisque c'est à Dieu qu'ils appartiennent l'un et l'autre en priorité. Ne suivez pas vos passions qui risqueraient de vous détourner de la justice sereine".

Les hadiths et les témoignages des compagnons du Prophète et des détenteurs du pouvoir en Islam sont à ce titre très édifiants. Quel a été, dans ce contexte précis, le comportement de l'envoyé de Dieu lorsqu'il eut apprit le cas d'une femme de la tribu des Banou Makhzoum ayant commis un vol et qu'on venait de condamner à avoir la main coupée ? La puissante tribu de la délinquante en fut grandement émue et craignit le scandale qui rejaillirait immanquablement sur elle si l'une de ses filles subissait une peine aussi infâmante. C'est pourquoi elle s'adressa à Oussama Ibnou Zeid, qui était l'ami intime du Prophète, et lui demanda d'intervenir auprès de lui pour que la condamnation fût rapportée ou commuée.

Le Prophète en conçut un vif courroux et il s'adressa à Zeid en ces termes : "Devons-nous intervenir contre les peines édictées par Dieu ?" Puis il parla aux musulmans, disant notamment : "Ce qui a perdu les peuples qui vous ont précédés, c'est précisément qu'ils se montraient indulgents envers le voleur s'il était noble et lui appliquaient la peine s'il était faible et d'humble extraction. Par Dieu, si Fatima, fille de Mohamed elle-même, était convaincue de vol, j'ordonnerais qu'on lui tranche la main".

Le Prophète s'appliqua à lui-même une peine encourue dans un autre cas resté célèbre, lorsque Saouad Ibnou Ghouzei, considérant que le Prophète l'avait rudoyé en le poussant pour aligner les rangs avant la prière, demanda à exercer à son encontre la loi du talion, ce que le Prophète lui accorda sur le champ.

Voici maintenant Omar surnommé à juste titre "Al Farôuk", c'est-à-dire le Juste par excellence, appliquant la peine contre son propre fils jusqu'à ce que mort s'ensuive. Son fils Abderrahmane résidait alors au Caire lorsqu'il advint qu'il s'énivra avec un ami. Ils se rendirent au gouverneur de l'Egypte Amr Ibnou El'Ace et le requirent de leur faire appliquer la peine prévue en pareil cas.

Abderrahmane ajouta pour sa part : "Si tu ne le fais pas, j'en informerais mon père lorsque j'irai le voir". Amrou leur appliqua donc la peine, mais il le fit dans la cour de sa maison et ordonna qu'on leur rasât les cheveux.

Informé de la chose, Omar écrivit à son gouverneur en Egypte : "De l'esclave de Dieu, Omar Prince des Croyants, à El'Ace Ibnou El'Ace (1). Je suis surpris, ô Ibnou

(1) El'Ace, nom du père de Amr, signifie : impie - C'est à dessein que le que Omar ibn El-khettab apostrophe le gouverneur Amr, faisant signifier à son nom : «impie, fils d'impie », El'Ace signifiant étymologiquement : « impie ».

Al'Ace de ton audace à mon encontre et de ta désobeïssance. Force m'est donc de te limoger. Tu frappes mon fils Abderrahmane dans ta maison, tu lui fais raser la tête, également dans ta maison, au risque certain de me contrarier. Abderrahmane n'est pourtant qu'un membre ordinaire de la communauté sur laquelle tu es chargé de veiller et tu dois, par conséquent, agir envers lui comme tu le ferais de n'importe quel autre musulman. Tu t'es dit : "C'est le fils de l'Emir des Croyants" et pourtant tu sais parfaitement que je ne puis être magnanime envers quiconque, s'il a encouru une sanction. Aussi, lorsque tu recevras ma lettre, envoie-moi le contrevenant sans aucun apparât, afin qu'il se rende compte de la gravité de son acte".

Amrou envoya donc Abderrahmane à son père qui lui demanda lorsqu'il comparut devant lui : "As-tu fait ceci et cela, ô Abd-Errahmane ? "Oui,prince des croyants, répondit son fils, mais la peine m'a déjà été appliquée". Le Khalife n'eut pour lui aucun regard avant de lui avoir administré intégralement, de ses propres mains, la sanction prévue pour le cas d'ivresse.

Est-il par ailleurs possible de trouver un équivalent dans l'histoire de l'humanité qui illustre aussi parfaitement l'amour de la justice et de l'égalité, à l'incident dit d'Ibn El Akramein, ou "fils des plus dignes", qui inspira à Omar cette réflexion :

"Depuis quand possédez-vous le droit de réduire les gens à l'esclavage, alors que leurs mères les ont enfantés libres ?".

L'histoire témoigne en effet que Mohamed Ibn Amr Ibn El 'Ace, le conquérant de l'Egypte et son gouverneur, organisa une course avec un jeune copte, lequel le devança à l'arrivée. Cela déplut au fils d'Amr qui frappa de dépit son vainqueur en disant : "Reçois ceci du fils des Akramein". Il emprisonna ensuite le copte, de crainte qu'il ne se plaignât au redoutable Khalife Omar. Mais le prisonnier réussit à s'évader et à se rendre à Médine où il demanda justice à Omar.

Celui-ci enjoignit à son gouverneur de se présenter devant lui accompagné de son fils. Lorsqu'ils furent à Médine, Omar donna au garçon copte un fouet et lui dit : "Frappe le fils des "plus dignes". L'enfant se mit à frapper tandis qu'Omar répétait : "Frappe le fils des "plus dignes". "Frappe le fils des "plus dignes". Puis il lui dit : "Retourne maintenant ton fouet contre la tête chauve d'Amr, car par Dieu son fils ne t'a frappé que fort de l'autorité de son père". L'enfant lui répondit : "J'ai frappé qui m'a frappé, ô Prince des Croyants". "Si tu l'avais frappé, nous ne t'en aurions point empêché, ajouta Omar, qui se retourna en colère vers Amr : "Depuis quand, lui dit-il, reduisez-vous les gens à l'esclavage, alors que leurs mères les ont enfantés libres ? ".

Comment ne pas citer également l'incident d'Ali Ibn Abi Talib et du juif ? Celui-ci avait cité Ali en justice devant Omar qui ordonna au futur Khalife (quatrième) : "Lève-toi, ô Abou Al Hassan et assieds-toi devant ton adversaire". Ali, que Dieu l'agrée, s'éxécuta et se plaça sur un même niveau que son adversaire, tout en paraissant vexé par le procédé. Quand le procès prit fin, Omar lui demanda : "Il t'a répugné, ô Ali, de t'asseoir en face de ton adversaire ? " : "Certes pas, lui répond-il, mais je n'ai pas aimé que tu ne nous traites pas avec une égale justice, puisqu'en m'appelant "Abou Al Hassan" tu me témoignais plus d'égards qu'envers mon adversaire, étant donné que la "Kounia" est une marque de distinction".

Le Khalife Omar se trouva lui-même une fois en litige avec un homme et il accepta que leur différend soit porté devant un compagnon nommé Choureih, choisi comme juge par son adversaire. Choureih rendit son jugement contre le Khalife, ce qui ne l'empêcha pas d'être nommé par ce même Khalife Cadi à Koufa où il demeura pendant soixante ans.

Les Khalifes qui succédèrent à Omar et les grands noms de l'Islam suivirent après lui la même voie. Je citerai à ce propos un seul fait avant de clore cette série d'exemples historiques. L'Imam Ali, alors Khalife, fut en désaccord avec un juif à propos d'un bouclier que chacun d'eux prétendait sien. Ils s'adressèrent au même Choureih, lequel l'attribua au juif en rappelant cette règle juridique fondamentale : "La preuve incombe au demandeur et le serment à celui qui nie". Le juif fut ébahi que le juge de l'Emir des Croyants rendît un jugement contre lui. Il embrassa incontinent la religion islamique.

L'Islam a été également une révolution contre la corruption et le trafic d'influence. C'est ainsi que le Khalife Omar décréta la règle consistant à poser la question suivante à propos de l'acquisition des richesses : "D'où tiens-tu cela ? " Il l'appliqua à des compagnons notoires tels Ibn Houreira, Khalid Ibn El Oualid, Amr Ibn El 'Ace et d'autres encore.

Nous rappellerons ici un court extrait de la lettre de directives qu'il envoya à son gouverneur d'Egypte Amr Ibn El 'Ace : "Il est connu que tu possèdes des biens, des esclaves, une riche vaisselle, des troupeaux, tous biens que tu n'avais pas pourtant à ta nomination en qualité de gouverneur".

Amr lui ayant répondu qu'il s'adonnait au commerce et à l'agriculture, en plus de sa fonction officielle, Omar interdit formellement cette pratique, prohibant aussi pour la première fois le cumul des fonctions par les fonctionnaires de l'Etat. Il écrivit ensuite à Amr : "Je t'envoie Mohamed Ibn Maslama qui partagera avec toi tes biens dont tu remettras une moitié au Trésor".

Aux époques où sévissaient le fanatisme religieux et le sectarisme, la règle d'or de l'Islam consistait en la tolérance totale à l'égard des religions et des sectes. L'Islam atteignait dans ce cadre des limites jamais égalées par aucune autre religion ou civilisation et c'est pourquoi il fut une révolution qui suscita à ce titre l'étonnement des autorités religieuses des autres croyances.

Le fondement de cette tolérance résida dans les nombreux versets coraniques qui la soulignent et ne manquent pas de citer les lieux du culte non musulmans continuellement associés aux mosquées islamiques. A cet égard, l'incident qui eut pour théâtre l'église du jugement dernier à Jérusalem est si connu que je le rappelle ici uniquement pour mémoire.

Aussi, combien sommes-nous éloignés aujourd'hui de cet esprit de tolérance érigé en dogme, en constatant ce qu'il est advenu et ce qu'il advient quotidiennement à nos Lieux Saints et en premier lieu à la Mosquée Al Aksa dont nous n'avons pas oublié l'incendie criminel et les menaces qui continuent de peser sur elle et sans doute sur d'autres lieux sacrés en Palestine occupée !

Nombreux sont aussi les versets consacrés à la liberté de conscience. Les Musulmans, pour leur part, ont été très loin dans l'application des préceptes coraniques qui prêchent la tolérance religieuse tels les versets suivants : "Pas de contrainte en religion", "vous avez votre religion et j'ai la mienne", "est-ce toi qui pourra contraindre les gens, par la force à devenir croyants ?". C'est là un exemple suprême de la liberté de conscience dans l'Islam, exemple peu commun, même de nos jours.

Notre religion a également été une révolution contre la pratique de l'usure et l'accumulation des richesses entre les mains d'une ploutocratie imposant ses volontés et son arbitraire.

Dans la sourate (Al Hachr), Dieu prescrit la répartition de l'argent entre toutes les catégories de musulmans et à leur bénéfice :

"A Dieu, au Prophète, aux proches, aux orphelins, aux pauvres et aux voyageurs sans ressources". Ceci est confirmé par le verset suivant : "Afin qu'il (l'argent) ne circule pas uniquement entre les riches d'entre vous", autrement dit que ces derniers n'en détiennent pas le monopole, comme c'est le cas de nos jours où des fortunes s'entassent dans les banques, conférant aux milieux financiers un pouvoir de coercition sur les pauvres, aussi bien les Etats que les individus.

L'Islam n'a pas pour autant donné la totalité de la propriété d'une fortune à celui qui la détient. Il y a introduit un droit de prélèvement obligatoire, qui permet aux musulmans, Etats ou collectivités publiques, de subvenir aux besoins des personnes démunies. Mais il s'agit pour celles-ci d'un droit et non d'une aumône, ainsi qu'il est explicité dans le verset : "Et ceux dont une partie précise de leur fortune appartient au quémandeur et au déshérité".

Le Très Haut a ordonné d'autre part à son Prophète : "Prélève sur leurs biens une aumône avec laquelle tu les purifieras et les béniras". L'Envoyé de Dieu n'a-t'il pas affirmé de son côté : "La subsistance d'un seul suffit à deux, celle de quatre peut en satisfaire huit". Omar a interprété ce hadith comme faisant de ce partage - en cas de nécessité - une obligation incombant à chaque individu en particulier.

Abou Dharr Ghifâri déduisait du verset : "A ceux qui thésaurisent l'or et l'argent et ne le dépensent pas dans la voie de Dieu, annonce une grande souffrance, le jour où ceux-ci (l'or et l'argent) seront chauffés dans le feu de l'enfer et qu'il en seront marqués sur le front, les côtés et le dos, alors qu'ils s'entendront dire : "Voici ce que vous avez entassé au profit de vos seules personnes. Goûtez maintenant le fruit de votre thésaurisation". Abou Dharr déduisait que tout trésor superflu par rapport aux besoins vitaux en était justiciable.

Le Prophète a encore dit : "Quand les Ach'aristes subissent un revers au cours d'une bataille ou bien lorsque le ravitaillement vient à leur manquer, ils réunissent tout ce qui subsiste de provisions chez chaque soldat dans un récipient avant de le partager équitablement entre tous les combattants".

Abou Saïd El Khoudhari rapporte cette tradition du Prophète, à propos de la conception socialiste de la distribution des richesses entre les membres d'une même nation : "Alors que nous voyagions une fois en compagnie du Prophète, un homme juché sur une monture se mit à regarder d'un air hautain à droite et à gauche. (Il affichait en somme l'orgueil du cavalier devant l'homme à pied). Le Prophète lui dit alors : "Que celui qui dispose d'une monture en plus de la sienne la cède à celui qui en est privé et que celui qui possède des provisions dépassant ses besoins les donne à qui n'en a pas".

Abou Dharr ajoute : "Le Prophète cita un nombre tellement varié de biens entrant dans ce cas, que nous nous sommes rendu compte qu'il ne nous restait pratiquement aucun droit sur ce qui nous appartient sans nous être strictement indispensable".

Le Khalife Omar disait : "S'il m'est donné de vivre longtemps, je prendrais la fortune des riches pour la distribuer aux pauvres, car personne n'en est plus digne qu'un autre. Je ramènerais de la sorte les derniers au niveau des premiers et la femme de Sanaâ (Yémen) pourra recevoir sa part de ces richesses.

"Je visiterais également les régions éloignées et y séjournerais deux mois entiers, car je n'ignore pas que des gens y sont lésés de leurs droits, les faibles (victimes de cet état de fait) ne parvenant pas jusqu'à moi et les walis (gouvernants) ne me signalant pas les cas d'injustice".

Il existe un chapitre spécial du droit musulman consacré au "droit de prélèvement d'office autre que la zakat" et qui permet à

l'Etat de percevoir un impôt exceptionnel sur les fortunes pour en reverser le fruit aux pauvres.

L'Imam Ali cite à ce propos ce hadith : "Dieu fait une obligation aux riches de réserver une partie de leurs biens au profit des pauvres". Ibnou Hasm commente ainsi qu'il suit ce hadith, dans le chapitre du "droit de prélèvement d'office autre que la zakat" : "C'est une obligation sacrée pour les riches de chaque pays de prendre soin des pauvres. Le Roi (ou l'autorité qui en émane) peut les y obliger dans le cas où les rentrées de la zakat s'avèreraient insuffisantes, ajoutant que toute la communauté est responsable de quiconque meurt de faim ou de froid par besoin et qu'elle en doit des dédommagements à sa famille".

D'autres propos du Prophète abondent dans ce sens. Nous citerons : "Dieu exècre les riches vaniteux", (ceux qui affichent leur opulence).

Un hadith célèbre : "Les gens sont associés dans trois choses : l'eau, l'herbe et le feu", a institué le premier socialisme de l'histoire, celui de l'Islam. La signification profonde et même le terme qui sera consacré bien des siècles plus tard y sont réunis. En ce qui concerne le feu, on peut aisément l'interpréter aujourd'hui comme étant l'énergie en général et les ressources que renferme le sous-sol. L'eau et l'herbe appartiennent au même titre à la terre.

Le Prophète a dit dans un autre hadith : "Celui qui dispose d'une terre doit la cultiver ou la donner à cultiver à son frère". Dans un hadith se rapportant au même thème, un compagnon du Prophète déclare : "A l'époque du Prophète, nous cultivions la terre d'un propriétaire en recevant pour notre part les épis non moissonnées. Le Prophète a interdit ce genre de fermage en disant : "Que celui qui dispose d'une terre la cultive lui-même, sinon qu'il la donne à cultiver à son frère (sans contrepartie) ou qu'il l'abandonne". (au Beit el Mal, c'est-à-dire à l'Etat).

Ce mode de fermage ressemble par certains côtés à notre Khemassat. Il consistait à abondonner au Khammas, comme prix de son travail, les épis non moissonnées. Il n'est pas étonnant que le Prophète ait mis fin à cette exploitation éhontée et inhumaine.

Le Prophète concéda un jour une parcelle de terre à un compagnon. Quand Omar accéda au khalifat, il constata que la terre en question demeurait en friche.

Il convoqua alors le bénéficiaire et lui ordonna de la labourer dans les plus brefs délais ou de la rendre à l'Etat. Le concessionnaire n'ayant pas obtempéré à l'ordre du Khalife, celui-ci lui retira la concession et l'attribua à un autre fellah. Comme l'homme, s'estimant lesé, continuait à récriminer, Omar le tança vertement avant de lui infliger quelques coups de fouets pour le rappeler à une saine compréhension des choses.

Un autre exemple est significatif de la gestion exemplaire du Khalife Omar et de son génie administratif. Le Prophète avait octroyé à des gens de la tribu de Mouzaïna une terre, à l'effet de la peupler et de l'urbaniser faute de quoi elle leur serait reprise et confiée à d'autres. Les Beni Mouzaïna n'ayant pas occupé la dite terre, une autre tribu en prit possession. Les deux parties portèrent leur différent devant Omar, qui édicta cette sentence : "Lorsqu'un propriétaire délaisse sa terre pendant trois années consécutives et que des tiers s'y installent, ils en sont plus méritants".

Mesdames et Messieurs,

Dans un tout autre domaine, celui des droits de la femme dont on parle tellement aujourd'hui et dont on attribue le mérite à l'Europe moderne, l'Islam n'en est pas moins révolutionnaire ni précurseur.

Il est établi - en effet - que la femme était jadis et dans le monde entier, y compris l'Arabie, réduite à l'état de marchandise. Même en Grèce, patrie des philosophes et des savants, nous ne trouvons aucune fem-

me ayant atteint la notoriété en matière de médecine, de philosophie, de sciences, ni même de poésie, à une seule exception près : la fameuse SAPHO.

Quand vint l'Islam, il mit fin sans désemparer à un tel ostracisme, d'abord en Arabie, puis partout où il a rayonné. Les droits qu'il a accordés à la femme allaient de l'administration et de la libre disposition de ses biens, à la conservation de son nom de famille après le mariage et à la faculté de conclure des contrats, de signer des actes, de pratiquer tout commerce et toute activité économique. La majeure partie des droits dont jouit la femme musulmane est refusée de nos jours à la femme européenne. Certains de ces droits, tel celui de garder son nom de famille après avoir contracté mariage, n'appartiennent encore à aucune femme d'Europe.

La révolution de l'Islam sur le plan de la morale et de l'assainissement de la société des séquelles de l'idolâtrie et des coutumes rétrogrades de l'époque antéislamique, de l'habitude d'étaler son faste et ses richesses, des mœurs dissolues importées des empires voisins ou héritées des civilisations antérieures, cette révolution n'était pas moins radicale que dans les autres domaines.

L'Islam a placé le code moral au premier plan de ses préoccupations, comme en témoigne ce hadith : "Je n'ai été envoyé que pour compléter le code moral". Le Créateur lui en a porté témoignage dans ce verset : "Certes, ton caractère et tes vertus morales sont très grands".

On ne conçoit pas qu'une société puisse se maintenir, ni une civilisation se perpétuer, sans règles morales. L'histoire nous enseigne que le laisser-faire à l'égard des principes et des valeurs, la dévalorisation des critères, le renversement des situations et le recul des vertus morales au sein de n'importe quelle société ou civilisation, ont toujours constitué le signe annonciateur de leur disparition à plus ou moins brève échéance.

Il est par ailleurs évident que parler de morale ne signifie pas préconiser l'abstention de travailler, ni favoriser toute autre forme d'ascétisme et de renoncement.

Ce n'est pas non plus adopter une attitude négative devant la vie ou s'en remettre sur autrui du règlement de ses propres affaires. Ils s'agit au contraire d'une morale éminemment positive et constructive, fondée sur l'accord harmonieux entre la foi et les nécessités de l'existence.

On sait qu'Omar n'hésita pas un jour à punir sévèrement un homme qui affectait ostensiblement un dégoût des choses de la vie et marchait si tristement et si péniblement qu'on eût dit un moribond. "Qu'as-tu à marcher ainsi ? lui dit Omar. Par Dieu, vous nous avez tué (par votre comportement) notre religion. Que Dieu vous ôte la vie" et lui asséna un coup de sa canne célèbre.

La règle d'or de l'Islam en cette matière peut se résumer dans la maxime populaire : "Oeuvre pour ton salut éternel comme si tu mourais demain et pour la vie comme si tu devais vivre éternellement".

Messieurs les Professeurs,

Avant de conclure cette allocution, je voudrais vous remercier encore une fois d'avoir affronté les aléas du voyage pour enrichir cette rencontre de votre savoir inestimable et pour satisfaire les aspirations de cette jeunesse enthousiaste à la culture et à la connaissance. Bienvenue donc en Algérie et qu'il vous soit donné d'y accomplir un agréable séjour et de vous y réunir souvent.

A vous, jeunes séminaristes, je vous demanderais non seulement de tirer le maximum d'enseignements de cette rencontre historique autour des thèmes historiques et religieux, mais aussi d'y participer activement et de soulever des problèmes qui ne sauraient être mieux résolus qu'au cours de ces assises extraordinaires.

Je souhaite enfin le succès le plus complet à vos travaux.

L'ILIADE ALGERIENNE

Composée spécialement à l'occasion du 6ème Séminaire pour la connaissance de la Pensée Islamique.

(El-djazaïr 24 juillet au 10 août 1972)

Par

Moufdi ZAKARIA

Poète de la lutte révolutionnaire politique et de la lutte révolutionnaire armée

Traduction en langue française

Par

Tahar BOUCHOUCHI

L'HYMNE DES HYMNES
OU
L'ILIADE ALGERIENNE

Au terme du 5ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique, tenu l'an dernier à Oran, nous avions annoncé que notre Sixième Assemblée se tiendrait à Alger, à l'occasion du 10ème anniversaire du recouvrement de notre indépendance et du millénaire de la fondation d'Al-Djazaïr, de Médéa et de Miliana par Bologhine Ibn Ziri.

Fidèles à notre promesse, nous avons axé le programme de ce Séminaire sur la nécessité de réécrire nous-mêmes notre histoire, afin de la débarrasser de toutes les impuretés et falsifications conscientes et préméditées. Notre but était de connaître notre passé, de tirer profit de ses enseignements pour construire notre présent et notre avenir en Algérie, au Maghreb et dans le vaste monde de l'Islam.

C'est pourquoi nous avons souhaité le concours de Monsieur Moufdi ZAKARIA, grand militant, poète inspiré du combat politique révolutionnaire, chantre de la lutte armée, auteur des hymnes nationalistes "Min Djibalina" (composé en 1932) "Fidaou-l-Djazaïri" (composé en 1936) "Qassaman" (écrit en 1955) ainsi que d'autres chants tels que "Assifi ya riyah", "Nachid El-Djeïch", "Nachid Al Oummal", "Nachid Attalaba" etc... Certains de ces hymnes ont été écrits dans la prison de Barberousse.

Nous avons donc demandé à Moufdi ZAKARIA de nous composer un nouvel hymne qui réunisse tous ces chants et embrasse l'ensemble de l'Histoire d'Algérie depuis les temps les plus anciens jusqu'à nos jours, en soulignant le thème de notre résistance aux différentes invasions étrangères et l'essor des civilisations brillantes qu'a connues notre pays dans les périodes successives; en évoquant notre présent et notre avenir dans la lutte que nous menons pour recouvrer l'intégralité de nos richesses; et en mentionnant les composantes de notre personnalité, l'immunité et l'édification d'une gloire nouvelle pour notre nation.

C'est ce qu'a fait Moufdi. Nous avons donné à ce "cantique des cantiques" le nom "d'Epopée d'El-Djazaïr" ou "l'Iliade Algérienne".

Cette œuvre compte présentement 610 vers. Mais, par la grâce de Dieu, elle atteindra un millier de vers avant la fin de l'année. Puis elle poursuivra sa marche triomphale dans le domaine de la création positive. Nous la ferons paraître, ultérieurement, en une édition artistique digne de son contenu et de sa facture.

Mouloud KASSIM

Al Djazaïr, aurore miraculeuse, signe de Dieu en cet univers,

Oh ! sourire divin dans le monde terrestre,
visage rayonnant de bonheur et de joie !

Paysage tracé dans le livre éternel,
miroir où tant d'images plus belles que les songes, se succèdent

Epopée où la substance insuffle à l'âme de la vie, l'idéal sublime !

Page où le combat des héros est inscrit par la légende en lettres de feu et de lumière !

Oh ! combien de hauts faits y ont conquis le monde, et lui ont révélé des valeurs immortelles !

Légende que les siècles renouvellent sans cesse,
éveillant en son âme les souvenirs profonds !

Oh ! terre où tant de beauté majestueuse s'épanouie,
que les cimes elles-mêmes en tirent leur orgueil

Pays où la splendeur atteint un tel sommet, que nous sommes conquis par son charme profond !

Terrassés à ses pieds, les tyrans et les siècles, se sont écroulés !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Al-Djazaïr, merveille du Créateur, ô toi la plus admirable des choses produites par le Seigneur Tout-Puissant !

Babylone des sortilèges, par quoi Harout fut nommé Harout (1) l'enchanteur.

Paradis jalousé par l'Eden lui-même, qui ayant oublié le séjour invisible, s'est épris du terrestre univers.

Flots où baigne la beauté que soustrait aux regards la vague ténébreuse

Eclair qui inonde mon âme d'amour, illumination inspirant le poète.

Toi, Révolution d'un peuple à la fois calme et fougueux, qui étonna le monde !

Unité façonnée dans le creuset des deuils
et scellée dans le sang bouillonnant des martyrs !

Ambition basée sur la raison et qui ne se suffit guère des apparences,

Exemple, peu commun de la conscience pure !

Salut à la fête de ton immortalité ! Salut au dixième anniversaire du recouvrement de ton indépendance !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

1) *Voir les notes explicatives à la fin de la traduction française.*

Al-Djazaïr, ô toi idylle de mon âme, toi qui as apporté le salut à mon cœur
Toi qui as inondé mon être d'harmonie, et rempli ma route de lumière
Sans le secours de ta beauté, je n'eusse point connu la foi, ni le chemin qui mène à Dieu !
Sans la foi dont mon cœur déborde, je n'eusse cru en rien d'autre qu'en mon peuple !
Mon être s'illumine lorsque je t'évoque et dès que j'entends ta voix, je réponds à ton appel.
Proche ou éloigné, ton amour vit en moi plus fort que je ne puis le concevoir
En chaque endroit, les liens sacrés du sang ne me rattachent-ils pas à ton être ?
En chaque point, un bonheur capricieux ne nous rappella-t-il pas nos folles amours ?
Chaque coin, pour nous, n'est-il pas un souvenir qui plane sur nos instants de bonheur ou sur les jours de guerre ?
C'est là que m'arrogeant le titre de Prophète
J'ai écrit mon Iliade, et que «Mutanabbi» (2) lui-même a cru en moi et cru à mon poème !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Doutes-tu de l'espoir de contempler Allah
Alors que tu omets d'adorer son visage
que figure El-Djazaïr !
Interroge la mer, le bâteau ivre d'amour, lui dont les rames battent comme le cœur d'un poète,
Interroge Kouba dont le phare trahit la présence des houris (3)
Interroge les roses qui transportent ses effluves à Hydra (4),
comme des espérances vierges,
El-Biar, fier de Saint-Raphaël (4), cachant la fuite des jeunes gazelles,
Notre-Dame d'Afrique (4) le couvre de bénédictions et des jeunes filles ravissantes élèvent leurs prières
Belcourt (4), parait ravi d'un tel état de choses, et ses yeux au regard si tendre semblent rire
Pendant qu'à la Casbah (4) la veillée se prolonge, la voie lactée demeure ivre et vigilante
Sur la Place des Martyrs (4) s'élèvent les minarets qui guident vers le droit chemin,
Dans chaque quartier s'éveillent les espoirs les plus chers,
et dans chaque foyer le chant d'El-Djazaïr retentit.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Interroge l'Atlas, l'unique, à propos du Djurdjura
qui se dresse reliant fièrement la terre au firmament

Il semble s'enorgueillir, alors que Tikjda (5) rivalise avec lui; mais il ne renonce pas à sa superbe !

Le visage du ciel s'est imprégné de ses teintes. C'est ainsi que l'azur en est devenu vert.

Avec humilité, à ses pieds, s'étendent les pentes neigeuses
mais les sommets les considèrent avec dédain.

Et voici l'Atlas intemporel qui (6) depuis qu'il existe, a traversé les siècles en engendrant des lions.

L'Aurès, que ses destinées glorieuses ont hissé si haut qu'elles ont brisé les frontières du monde.

O toi que doutes de l'unité de notre Maghrib, toi qui émets certaines prétentions et demeures sceptique.

Cet Atlas Maghribin n'a-t-il pas uni nos cités par les liens les plus indéfectibles ?

Ses chaînes ne nous ont-elles pas attachés les uns aux autres si longtemps que notre histoire a embrassé les siècles ?

Oh ! combien de sommets compte ce grand Atlas
et combien lui importent peu les conférences !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Grimpe vers Yakouren et conquiers les étoiles. Hamane (7), à ce spectacle, a honte de son palais, qui bien peu l'aiderait à réaliser son rêve, d'atteindre le Seigneur.

Si tu étreins fièrement Bédjaïa, alors le mystère de la splendeur pénétrera ton être.

Invoque aux «Aiguades» le troupeau des gazelles
alors te répondront, du col de Tichi, les mahas (8) aux grands yeux.

L'esprit n'a pas cessé d'être ravi par les «sept merveilles» (8 bis)

A Cirta, vallée de l'amour et du grand air, ainsi qu'à Sidi-M'Sid, tu trouveras la justification de la passion.

La brise la berce sans cesse comme une mère berce l'enfant qui s'endort

mais c'est à Djebel Ouahch que mon pays atteint le sommet de la grandeur

et c'est là que le temps s'est incliné en hommage à sa beauté.

Car si Dieu eût voulu préfigurer l'Eden, pour tenter les humains, c'est à mon pays qu'il l'eût comparé

Contemplant cette splendeur, l'homme sage a perdu la raison.

N'eût été la crainte de Dieu, il l'aurait adorée !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nous te demandons grâce, ô Tlemcen, pays de la culture, demeure de la générosité et de la noblesse.

Dans ton cœur (9) et dans ton langage, (10) la civilisation, ainsi qu'à Fez, coulant à profusion, créa la plus admirable tradition.

En chantant, les cascades altières de l'Ourit apprirent à Ziryab le sens de la musique.

Après que tes cerises eurent tenté les rois, les cœurs amoureux leur sont demeurés fidèles.

N'étaient les «Anassers» de Miliana et d'Aïn N'Sour, tu serais, toi, seule merveille.

O Tlemcen, fiancée du monde, Rêve parmi les Rêves, tu es la consolation de l'amoureux.

Conquis par ta beauté, Abou Médiène (11) a édifié des dômes sur le Temple de la Passion.

Les Romains ont construit en toi une fontaine dont la beauté splendide a enivré le vin ! (12)

Du méchouar de la gloire, Abou Hamou Moussa fit retentir au loin l'appel à la prière, cependant que Ziane immortalisait la grandeur des Arabes.

Humant les senteurs de ton paradis, Ibn Khamis t'a chantée et Yahya Ibn Khaldoun s'est embrasé à ton contact.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Sur terre et dans les cieux, tout glorifie Dieu, par les lèvres de la Chiffa.

On croirait entendre Abraham ou Moïse, psalmodiant les versets des Ecritures.

Et l'on verrait, en ces hauteurs pleines de rêve et de joie, des amoureux causant avec leurs bien aimées.

Blida fait la cour aux roses qui ne peuvent plus contenir le feu de leur passion brûlante.

Médéa, languissant les roses, boit la coupe de leur amour.

Pendant que Ksar El Bokhari est secoué par l'émotion et que Djelfa rougit de pudeur.

Comment Damas peut-elle tirer vanité de ses deux oasis, alors que Laghouat (13) la surpasse de loin, en beauté ?

Ses jardins parfumés sont des encensoirs qui exhalent le musc.

Dans la plaine de Tilghamt, la gazelle rivalise en splendeur avec l'éclat du soleil. Son allure exquise est pleine de délicatesse.

Gardien de l'Enseigne de la Majesté, le Mzab apparait comme une lettre dans le Livre (14) des divins secrets.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Ah ! sacrée soit ta vallée, terre de mon honneur, ô mon pays natal, source d'inspiration !

Maison paternelle, demeure de ma mère, foyer de mon enfance, doux rêves de mes noces !

Fierté d'El-Djazaïr, c'est en toi qu'est la cime de la noblesse arabe et de celle des Perses ! (15)

C'est là qu'ont abouti les descendants de ceux qui ont construit jadis l'Algérie souveraine.

Le sang d'Ibn Rostom qui coule dans mes veines hurle en moi et réveille la fierté de mon âme.

La pureté de mon lignage a nettoyé mon cœur, la lumière de Dieu a lavé mes souillures !

Sur le plan des aspirations nobles, j'ai fait honneur à mon peuple, et j'ai participé, au nom de l'Algérie, à la grandeur de ma race.

J'ai offert ma vie et dit adieu au repos, (16) chaque fois que l'appel au combat a retenti.

Et lorsque les hommes généreux ont offert leur fortune, j'ai donné le plus bel exemple de générosité.

Chaque fois qu'ils ont construit une œuvre durable, j'ai placé ma fidélité à la base de l'édifice.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Mais pourquoi la pensée évoque-t-elle ces choses,

alors que notre Sahara est la source de leur beauté ?

C'est ici que la Révélation divine atterrit,

ici, à côté des palmiers, entre les dunes. (17)

Pour l'Univers entier, c'est ici le berceau des Prophéties, de la Voie Droite, ici l'aboutissement de la Perfection.

Le Génie, les Miracles, les Sommets de la grandeur, le Trône de la Majesté, c'est ici leur haut lieu.

Le soleil nous dispense la richesse de son rayonnement et la lumière du croissant lunaire nous inspire la pureté morale.

Lorsque nous courons, nous dépassons nos rêves; les bonds de la gazelle nous semblent dérisoires.

L'eau du ruisseau reflète notre horreur du parjure et l'ombre qui se projette nous détourne du chemin de l'erreur.

Le berger, qui garde les moutons, nous enseigne la sincérité et les chameaux si patients, l'endurance.

Et lorsque la terre révéla ses trésors, (18) la science porta notre pays plus haut que l'esprit n'eût osé l'imaginer,

procurant au peuple ce dont il a besoin et épargnant à l'Algérie la honte de mendier.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

O gens ! tel est mon pays, temple de mon amour, rêve de mon être !

Telle est ma foi profonde, telle est ma religion sincère, conforme à mon appartenance éthnique et à ma foi.

Je t'aime, mon pays, plus fort que ne crois et je m'en vais, partout, chantant ton amour.

Pour toi, je me suis épris de la beauté, et pour toi mon cantique a retenti dans la profondeur des vallées.

Car celui qui t'adore aime aussi la beauté; lorsque les injustes lui en font quelque grief, il soupire : «c'est mon pays !»

Pour mon pays, j'ai pressé les étoiles comme des raisins; j'ai rempli ma coupe et composé mes chants.

J'ai lancé mon poème, à travers les champs de bataille, pour répondre à l'appel,

arrêté le convoi du Temps, un long moment, lui demandant quel fut le sort de Ad et celui de Thamoud. (19)

et quelle fut l'épopée glorieuse depuis Noë,

si Iram (20) était bien la ville aux mille colonnes ?

Mais le Temps répondit : je jure que la gloire, c'est vraiment l'Algérie !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nous voici aujourd'hui célébrant ses mille ans, et rendant à Ziri le Grand, notre hommage (21).

Seybouse, (22) en crue, coule majestueusement, saluant Ziri, le roi majestueux.

O Bologhine ! si Firmus (23) a su protéger Icosium, au point que cette cité connût une destinée prodigieuse,

Et si les Amazigh des Donatus se sont soulevés, rassemblant une armée formidable,

Ce sont bien eux qui ont conduit le peuple au sacrifice suprême, livrant les batailles et affrontant l'ennemi.

Ils ont soumis la fatalité à leur volonté, édifié le pays, établi l'ordre.

Dieu bénisse dix années d'indépendance qui rivalisent en gloire avec dix siècles de sacrifice. (24)

Dieu bénisse une telle fidélité !

Béni soit le mois de juillet en ses deux significations, (25) car l'aurore n'est que fille des ténèbres !

Et que soient exaltés les héroïsmes de cette Algérie, berceau des lions, terre des vaillants !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Cherchell, te souvient-il de Juba (32) et de ceux qui donnèrent à ton trône le nom de Césarée ?

Te souvient-il de ceux qui te civilisèrent, au point que tu devins de Rome la rivale ?

Ah ! pourquoi a-t-on dit de Juba : «le second», alors qu'il fut premier dans l'essor des cités ?

Il a fait de Cherchell l'image de l'Eden, orné de mille fleurs ses splendides jardins. Ne fut-il pas premier à établir la carte représentant, pour nous, la presqu'ile arabique ?

N'a-t-il pas érigé, en l'honneur de la science, une université, la plus ancienne au monde ?

c'est alors qu'apparut le célèbre Apulée, (33) médecin dont la science reconnut le génie.

Il composa des fables, vrais chefs-d'œuvre d'esprit, dont l'empreinte fut grande sur le conte Omeyyade.

Puis Apulée devint le grand juge dans Rome.

Et c'est à lui que fut soumise chaque affaire.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Tel furent nos ancêtres, depuis l'époque de Jésus. Mohamed ne fut-il pas son frère, par alliance ?

Puis le jour se leva secouant les ivrognes, dispersant les buveurs et brisant les verres.

Il reveilla le songe des nuits porteuses d'évènements imprévus

et lança à travers l'espace les chevaux ailés de la gloire.

L'injustice fut détruite, ses racines furent extirpées. Les haches abattirent l'arbre de tyrannie.

L'homme fut prévenu de ne plus nuire à son prochain.

Les chances devinrent égales entre tous; les têtes se relevèrent.

Eve sortit de la tombe où elle gisait et insuffla une âme nouvelle à l'humanité brisée.

Car si la religion a combattu le vice, jamais elle n'a eu pour principe de priver l'homme de ses droits.

Nous n'avons jamais renié nos pères, qu'ils fussent Chrétiens ou Mazdéens.

Les Amazigh n'étaient-ils pas cousins de l'antique Jorhom (34) ? Aurions-nous oublié les leçons de l'histoire ?

Bien que la religion ait fait de nous des Arabes par le sang, Mohamed demeure le frère de Jésus par son alliance avec lui.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nous avons reçu, en offrande, l'arabisme en tant que race et religion et nous sommes satisfaits de ce don.

Si cela doit nous unir et nous rendre solidaires, alors nous en sommes fiers,

Mais si Yarob accepte l'opprobre et revêt le manteau de l'ignominie, nous reprouvons ce fait.

Nous disons alors ! «Kosseila avait raison et la kahina est plus avisée que nous».

Soyez les bienvenus, vous nos cousins, qui êtes venus dans notre Algérie, en conquérants.

Bravo à Okba qui, sur notre terre, a éclairé les intelligences et répandu la foi.

Lui qui a élevé les minarets à Kairouan et construit les forteresses (35) pour sa défense,

établi des étapes (35) à chaque défilé, à tel point que l'univers a été émerveillé par sa stratégie.

Les noirs ont échangé leur or contre le sel du Fezzan (35) qui en regorgeait.

Par la suite Jawhar fut tributaire de cette méthode à Okba, le jour où il embarqua... (35)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Ibn Rostom ne pouvait admettre que nous ne soyions souverains et que nous demeurions incapables de nous ériger en état indépendant.

C'est pourquoi, à Tihirt, il hissa pavillon, établit l'ordre et garantit la justice. (36)

Le Conseil des Chourat gouverna le pays selon le droit divin, la justice et le mérite.

Les affaires du pays furent dirigées selon la volonté du peuple et le principe de l'élection de l'imam fut respecté.

Loin de rester esclave des attaches personnelles, il répudia l'esprit de clocher.

Il vainquit Bagdad à l'apogée de sa gloire et cette capitale devint de Tihirt un pâle reflet.

Les flots de la science coulèrent à profusion, nourrissant les esprits et couvrant de noblesse la terre algérienne.

Le printemps fleurit dans ses jardins, échangeant avec Tlemcen roses et jasmin.

Ibn Hammad fut le fruit de son inspiration, comme elle, généreux et génial.

De même Aflah qui a perpétué ses gloires, réussissant aussi bien dans ses écrits que dans ses actes.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Pour savoir qui étaient les Aghlabites, demandez au Zab quel est son voisin immédiat. (37)

Tabna (38) a-t-elle gardé le souvenir de Tamimi et de son «Histoire de Cordoue» ?

A M'Sila (39) nous découvrons la certitude au sujet de ceux qui ont scellé l'unité du Maghrib.

Les Fatimides ont crée la poésie de Ibn Hani, comme le Compositeur crée la musique à l'intention du chanteur.

Le poète a écrit des merveilles, au point qu'il prétendit, comme moi, être prophète. Mais, ni lui ni moi, ne somme de faux prophètes.

Pourquoi l'a-t-on surnommé «l'Andàlou», lui le Maghribin d'origine pure ?

Ah combien notre gloire est convoitée et combien on est injuste envers ce beau pays !

Combien de miracles, que l'on se refuse de reconnaitre et dont on ne veut prendre acte existent en Algérie !

Et que de choses risibles, chez nos cousins, comme l'a dit Al Mutanabbi !

Ils ont dit : «L'Orient est le berceau de toutes les Prophéties». Mais tel n'est pas mon avis.

Car même si Dieu avait élu, parmi les fils du Maghrib, un prophète, ils l'auraient récusé !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Dans le mystère sacré de nos jardins éclatants, des visages contemplent la face du seigneur; et procurent à Mo'izz la force de susciter un Jawhar et de créer le Caire.

C'est de notre terroire que le Nil a acquis la pureté et la sincérité.

Il coule lentement, selon notre orientation, en suivant le cortège de notre munificence inépuisable.

L'Algérie révoltée a enseigné à Ramsès le sens de l'émancipation des peuples. (40)

Si le Nil a commémoré le Millénaire (41) du Caire, que n'a-t-il fêté le dixième anniversaire de notre indépendance !

Il peut soutenir la comparaison avec le fleuve de sang que nos âmes impétueuses ont versé.

Le sacrifice de Cléopâtre n'est-il pas semblable à l'holocauste des djamila dont s'énorgueillit notre révolution ?

Nous sommes des Amazigh fidèles à nos alliances; nous respectons le mérite et l'ascendance commune.

Nous honorons l'Egypte et ses hommes libres, et vénérons tous ceux qui nous soutinrent dans notre combat victorieux.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Bologhine, toi qui as construit la pérennité, nous serons fidèles à ton serment et à ton pacte.

Est-ce toi ou Firmus (42) qui as édifié Alger, sujèt d'admiration de l'Occident et de l'Orient?

Tu as érigé cette cité plus haut que les constellations, qui ne furent, elles, que les degrés de notre ascension.

Tu l'as arrosée du sang de notre cœur et fait surgir son rameau, couvert de feuillage.

A Médéa (43) tu as placé la couronne de la Majesté et tu en as rehaussé le front de Miliana

En ornant l'Algérie de ces deux fleurons, tu as décrété une obligation d'amour envers elle.

Le charme de Médéa a fait succomber bien des rois et combien parmi ceux qui ont rêvé sa possession échouèrent.

Les Romains et les Musulmans se sont disputé cette cité, alors que Ziane s'est efforcé de l'emporter.

Ibn Toujin et Ibn Merine ont failli être brûlés par les flammes de Médéa.

Est-elle une ville de l'eau-delà transporté ici-bas par les anges dù Seigneur ? qui la voit, croit en cette légende.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Eclair de la majesté du droit divin, don de la nature.

Ibn Youcef (44) a propagé en toi la vertu mais la beauté a orné tes collines ravissantes.

Le «Nid d'Aigle» (45) est-ce toi ou le Djebel Zaccar ? Le fils de l'aigle t'a-t-il emprunté ses côtes ?

L'amoureux passionné a-t-il donc fait couler ses larmes aux sources des Anassers ?

La passion a-t-elle eu pitié du fou de Leïla, au point que pour lui rendre la raison elle l'ait aspergé d'eau d'Aïn Nsour ? (46)

Est-ce l'empereur Pompée qui t'a construite ou Bologhine fut-il ton maître-d'œuvre ? (47)

Nombreux furent ceux qui te convoitèrent, mais pour eux tu ne fus pas une proie facile. (48)

Les Banou Handal (49) ne trouvèrent aucune quiétude en toi, tandis que Ibn Aïcha connut une fin tragique. (50)

Tes assemblées, comme ton fleuve, firent couler les flots de la science et donnèrent la primauté à Ahmad. (51 et 52)

C'est pourquoi Yacoub lui offrit le domaine d'Aghmat. Certes la générosité est une nature chez les Banou Merine.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Interroge Ibn Ilinnas (53) à notre sujet et demande à la forteresse des Béni Hammad quelle fut notre gloire.

Ibn Hamdis, (54) le poète immortel, te répondra par les rimes que notre pays lui a inspirées.

La poétesse Aïcha (55) te dira comment elle savait être, tantôt tendre, tantôt dure envers les hommes.

Bougie évoquera nos alliances et notre flotte énorme qui partait à la conquête du monde. (56)

La princesse Bellara (57) brillait dans le palais, inondant le ciel de sa beauté éclatante.

Elle unissait le charme à l'intelligence et grâce à cette conjonction notre union se réalisa.

Bougie accrut la fierté de l'Algérie dans le domaine du savoir, édifiant les palais de la félicité.

Lorsque Ibn Sab'ine (58) ouvrit une polémique avec les Chrétiens, il les réduisit au silence.

C'est à partir de là que la vieille Europe préféra adopter l'usage de nos chiffres arabes

Abou Madyen et Taâlibi (59) étaient alors deux constructeurs de notre pays.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nédroma enfanta des hommes immortels et l'Algérie dès lors a relevé le front.

Ibn Ali (60) forgea notre unité et porta haut notre étendard.

Marrakech suivit son nouveau destin et secoua la poussière des siècles.

Le cœur de l'Algérie se mit à battre, pendant que Tunis entrait en extase.

Les flots d'Andalousie se déversèrent sur notre territoire et nous fûmes heureux d'accueillir les Arabes émigrés. (61)

Ibn Toumert entreprit son combat contre l'erreur. La raison et la religion revinrent entièrement à Dieu.

Il fit composer l'ouvrage de droit (62) qui éclaira le chemin.

Nos contrées regorgèrent de science et l'intelligence connut un admirable essor.

Chérif, (63) le poète, chanta ses poèmes et Youssouf, l'Historien, brilla parmi les hommes illustres.

Quand donc reviendront-ils à la bonne voie, ceux qui doutent de l'unité de notre Maghrib ?

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Tlemcen, quelle que soit la longueur de notre périple, c'est vers toi que nous revenons.

Yaghmoracen, le brave, après tant d'impatience, a combattu pendant cinquante années difficiles. (64)

Il a livré aux Banou Hafs une guerre sans merci et ne put se résoudre à reconnaitre les Banou Mérine. (65)

Tlemcen était alors un havre de paix.

Les affaires du pays y furent réglées dans l'ordre.

Honneur à son assemblée Nationale (Méchouar) où Ziane tranchait les différends. (66)

C'est là qu'il dirigeait les pas des Banou Abdel Oued, allant, à la fois graves et légers, vers la conquête de la vie.

Les cascades de l'Ourit énivraient le monde de leurs chants pendant que les étoiles y pressaient leurs grappes de lumière.

Yahya Ibn Khaldoun composait son livre qui dévoilait les secrets les plus mystérieux. (67)

L'horloge laissait apparaitre des statuettes de jeunes filles ravissantes qui rendaient Moussa amoureux, au point qu'il ne pouvait les quitter des yeux. (68)

Est-ce dans les splendeurs de l'Eternité que fut découverte Tlemcen que l'on a enlevée pour ici-bas la placer ?

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Notre grandeur nous attira la convoitise de la croix haineuse et le jaloux nous prit à partie. (69)

Les Gitanos déferlèrent traitreusement sur Oran tandis que Ziane ne pouvait rassembler les soldats pour la défendre. (70)

Son appel retentit aux oreilles de Barberousse qui se dressa et fit le serment de vaincre ou de ne plus revenir. (71)

Kheirddine défendit la religion, en faisant triompher notre flotte sur les mers. (72)

Les corsaires firent beaucoup de mal, mais le Lion des mers donna une leçon à ces singes.

Les Amazigh entrèrent en lice, avec la bénédiction des ancêtres.

Les Turcs nous soutinrent jusqu'au triomphe final et ne portèrent pas atteinte aux anciens pactes d'amitié.

Nous entreprîmes alors de gouverner le pays avec justice, de faire le bien et de respecter les lois.

Nous n'étions pas à la remorque des Turcs, bien qu'ils nous aient aidés dans notre entreprise.

Car nous sommes des hommes qui reconnaissent le bienfait et respectent l'accord scellé avec l'ami fidèle.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Lorsque la France eut faim, nous fûmes généreux, car nous sommes ceux qui dispensent la nourriture.

Elle s'engorgea de notre blé doré; (73) souvent, un bienfait pousse le mauvais homme à l'ingratitude.

La France acheta la conscience des juifs et les juifs à leur tour trahirent la foi jurée.

Bouchenak ne fut qu'un loup et Boukris un chenapan. (74)

Charles, le roi malade, après avoir semé le désordre dans son pays, vit son peuple se dresser, menaçant.

Le chômage avait envahi la France; le roi malade ne pouvait plus dormir.

C'est alors que notre blé lui inspira la conquête de notre pays et qu'il lança chaque grain comme une flèche contre nous.

Il déversa sur nous tous les déchets de sa nation, (75) trahissant ainsi le Christ et trompant la populace.

Car la légende de l'éventail du Dey ne fut qu'un prétexte permettant au brigand de commettre son méfait. (76)

Interrogez l'espion Boutin pour savoir si la bataille de Sidi Ferruch a établi la France en Algérie. (77)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Non, O Français, car notre souveraineté dans cette enceinte, nous l'avons faite avec notre sang.

Nous avons combattu pendant de longues années. Aidés et bénis par les miracles divins.

Cent trente ans se sont écoulés, durant lesquels nous avons lutté, sans jamais nous résoudre à la défaite.

Nous sommes montés, escaladant dans notre lutte les marches d'Orient et celles d'Occident, et nos âmes sacrifiées étaient les degrés de notre ascension.

Lorsque Lamoricière a attaqué Ahmad Pacha, nous nous sommes levés à Cirta pour défendre nos foyers. (78)

Nous avons combattu, défendant maison par maison, chaque pouce de terrain, et vengeant notre honneur.

N'était l'abandon de certains êtres sans énergie ni courage, nous aurions saisi le criminel.

A Mascara, nous avons vu exploser l'énergie de la jeunesse et le géant de cette cité a pu atteindre la hauteur des étoiles.

Son poète hachémite a reçu le serment d'allégeance et devint le chef génial. (79)

Il composait sa poésie et aiguisait son épée, le sang coulant de l'une et de l'autre.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

O Abdelkader tu fus capable, mais longue et difficile fut ta lutte.

Tu as levé l'étendard de la guerre sainte, le peuple a répondu à ton appel. Le seigneur t'a parlé et tu fus son auxiliaire.

Tu as organisé une armée, dirigé un pays et tu fus l'émir avisé et influent.

Tu as attisé la foi des indolents, réveillé la conscience des asservis,

fait subir à Marianne les pires défaites et goûter à Bugeaud l'amertume de la souffrance. (80)

Pendant dix huit ans, (81) tu as défié la mort, organisé les expéditions, et construit l'avenir.

Tu réfutais, par ta science, les arguments de ceux qui te contestaient et tu fus un esprit puissant; alors qu'ils se révèlèrent des imbéciles. (82)

Combien de fois les malhonnêtes ont essayé de t'induire en erreur,

mais tu ne fus ni naïf ni puéril. (83)

Combien de fois ils ont traité avec toi puis violé le pacte alors que tu prévoyais leurs arrières-pensées. (84)

Tu as tracé au peuple le chemin du sacrifice et le jour ou tu devins prisonnier, tu n'as point été homme vil. (85)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Ton étendard a été ressaisi par le fils d'El-Djazaïr : Ibn Ziane consentit le sacrifice suprême. (86)

Les Zaâtchas insurgés, se déchainèrent.

A leur aide, chacun accourut.

Ibn Ziane, narguant la stupidité des méchants, mourut en martyr, pour que vive l'Algérie.

L'Algérien ne s'incline jamais devant la furie des ouragans.

Biskra, devant tant de carnages, sera témoin de notre volonté tenace et de la sincérité de notre cri.

Que les palmiers parlent de nous à Okba et que les sables relatent la résistance des lions.

Que Boumaza raconte aux montagnes la lutte de Boubaghla dans les grottes. (87)

Que Sétif garde le souvenir des faits légendaires pour les dire à ses héros et à ceux de Cirta.

La lutte n'a jamais cessé. Jamais ses flammes ne se sont éteintes dans les cités ni dans les villages.

Ils furent les tyrans, mais nous fûmes la mort.

Ils furent les petits moineaux mais nous fûmes les oiseaux de proie.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Puisse notre puissante révolution garder la mémoire des hauts faits accomplis par Lalla Fatima. (88)

Tel un volcan, le Djurdjura explosa, faisant trembler Paris et Alger.

Par le nom de Lalla Khadidja sa mère, elle immortalisa une gloire, sanctifiée à jamais !

Le sang des Aït Irathen coula à flots, tribut payé en hommage à ces résolutions capitales !

O Nsoumar, tu appartiens au village de Takla et tu as surpassé, toi Fatima, toutes les mères qui ont perdu leurs enfants.

Le feu que tu as allumé a fait fondre les neiges et englouti les hordes criminelles de mercenaires, que l'on achète et vend comme des bestiaux.

Tu as fait saigner du nez le général Randon et, malgré sa morgue, tu lui as fait subir l'humiliation de la défaite.

Tu as fait baisser pavillon à maints généraux, déjouant ainsi leurs manœuvres scélérates.

L'Algérie pourra-t-elle jamais oublier sa première héroïne, alors que sa gloire est toujours vivante dans les âmes ?

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Les fils de Sidi Cheikh ont continué le combat, ébranlant la terre et réduisant les montagnes en poussière. (90)

Fidèle au serment, Slimane Hamza a infligé des pertes désastreuses à l'agresseur.

Le Colonel Beauprêtre pourrait-il nous dire comment Hamza transperça par des lances son corps étendu...

Comment, de sa propre main, il extirpa de sa poitrine le souffle de vie, faisant pleurer les femmes endeuillées...

Pendant qu'à Oran le sang coulait à torrents sur les champs de bataille, excitant l'ardeur des guerriers.

Au Sahara Ben Chohra enterrait dans le sable la troupe des envahisseurs. (90)

L'Armée de Bouchoucha, dans le Sud, en cambattant jusqu'à la mort,

faisait sauter les positions ennemies.

Puis s'éleva la voix d'El Haddad, dont l'écho se repercuta à travers le pays, appelant à la lutte immédiate.

Et parmi les Mokrani, dans les montagnes, il y avait des oiseaux de proie, amoureux de la guerre. (90)

Lorsque Boumezrag dit : «C'est l'heure du Djihad» il fit, par ses prouesses, des actions incroyables.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Fils de Mokrani, lions de la guerre, vous êtes la source de la générosité, du bien et de la vertu.

En attaquant l'ennemi, vous avez ouvert le chemin de la gloire et tracé, par les armes, la voie de la grandeur.

Lorsque El Haddad a jeté son bâton sur la place du marché, il a proclamé le djihad par monts et par vaux. (91)

«Je jetterai les Français à la mer comme ici j'ai jeté mon bâton et je transpercerai leur corps avec des flèches». (92)

Salut à ce vieillard de quatre vingts ans qui incarne à Seddouk l'idéal de la lutte et de sacrifice. (93)

Salut à ce prisonnier octogénaire dont les chaînes n'ont point entamé l'ardeur.

Salut à Malek dont le volcan est entré en éruption à Cherchell,

déversant l'espérance sur tout le pays. (94)

Salut aux Béni Mnacer ! salut au Cheikh vénérable de la zaouia de Oudris. (95)

Dont l'appel a été repris par Bouamama, multipliant les chances de succès, (96)

Alors que le Hoggar s'énorgueillit de son Amoud défendant l'honneur de la patrie violée. (97)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

El-Djazaïr, chef d'œuvre de la création divine, le Seigneur majestueux l'a façonnée avec une argile pétrie dans la lutte.

Cette terre fait courir ses amoureux et ne leur accorde guère les douces faveurs de la possession.

La révolte n'a jamais cessé dans les plaines.

Le feu de la guerre ne s'est jamais éteint dans les montagnes.

L'Aurès a-t-il jamais baissé la tête et l'ouragan des sables s'est-il jamais soumis à l'envahisseur ? Le Djurdjura s'est-il jamais incliné ?

La torture a-t-elle jamais brisé l'élan de son peuple ? (98)

Badaoui n'a-t-il pas décidé du sort de l'Algérie en faisant sa proclamation sur la «Place des Martyrs» ? (99)

De même à Cherchell, l'appel à l'insurrection a retenti, malgré le peu d'espoir.

Au nom de la conscience morale, l'Emir Khaled (100) se mit à poursuivre un rêve chimérique...

courant derrière les promesses, à Versailles, et demandant à Wilson d'admettre l'impossible.

Les tentives de l'Emir Khaled, qu'elles quelles fussent, sont de celles que l'on met au crédit des hommes de valeur.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Si le tumulte des armes éclatantes s'est apaisé, si le bruit des lances s'est tu,

La lutte ne s'en est pas moins poursuivie dans le domaine de la polémique, grâce aux contingents de «l'Etoile Nord Africaine»...

qui, en France, ont combattu la France et prédit à ses dirigeants la catastrophe qui les menaçait.

Les militants nationalistes étaient comme des amoureux passionnés d'héroïsme et d'espérance.

Les cris révoltés de la conscience bénissaient leur action et les souvenirs de la lutte inspiraient leur conduite.

Les poltrons disaient, «ce sont des gens vulgaires, des fous à la poursuite de chimères».

Mais les gens valeureux disaient : «ce sont des purs, des hommes courageux, grands parmi les grands».

Et les Français de proclamer : «triste lendemain si nous n'écrasons pas ces individus par la torture !».

Les alliés de notre parti crièrent : «Nous détruirons l'opprobre de l'occupation ! ».

Mais le poète, dont ils ont immortalisé l'hymne a crié ! «Que mon âme et ma fortune servent de rançon à l'Algérie !». (101)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

L'association des Ulémas veillait sur la nation, nourrissant les intelligences avec les principes spirituels,

guidant les âmes vers le droit chemin et y semant les germes de fierté,

Elle a mené le combat côte à côte avec l'Etoile Nord Africaine, et rempli notre univers de lumière.

Bachir Ibrahimi secondait Ibn Badis, entouré d'un nombreux aréopage d'hommes purs et sincères,

menant la lutte contre l'erreur chez ceux qui, trompés par l'imagination, faisaient partie de la troupe des simples d'esprit.

On planta les racines de l'authenticité dans l'âme de notre peuple et l'on effaça les traces de l'infâmie apportée par les intrus.

On édifia des écoles à travers tout le territoire; Ibn Badis veillait à cette édification.

Le tyran colonialiste prit peur, car la lumière aveugle les chauves-souris,

le renard craint l'ombre du lion et la voix de la sincérité fait mal à l'hypocrite.

C'est ainsi que les Ulémas ont tracé la route à travers les montagnes en s'inspirant de l'idéal céleste et en payant le tribut du sang.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Dieu récompense les malheurs car la commémoration du (Centenaire de l'Algérie) (102) par la France fut un bien pour nous.

Pouvons-nous oublier, en dépit de tout, nos blessures alors qu'elles saignent encore ?

Certes, il nous ont humiliés un instant en célébrant leur «centenaire» mais la (Fête d'El-Djazaïr) durera jusqu'à la fin des siècles.

Ils ont dansé sur les lambeaux de notre chair, festoyé sur les dos d'un peuple meurtri.

Mais nous, à notre tour, nous avons dansé au son des balles et confié notre secret au destin.

Ils ont dissout (l'Etoile Nord Africaine) (103) : le Parti du Peuple Algérien a continué la lutte,

composé de conscience fidèles au serment, d'hommes qui ne sont ni à vendre ni à acheter...

Si Violette a pu tromper certains, et induire en erreur les faibles d'esprit... (104)

Le P.P.A. a prévenu contre les «congrés» (105) d'aucuns qui prenaient le mirage du désert pour un fleuve abondant.

Le «Parti du Peuple Algérien» a défendu les principes nationaux : le peuple Algérien est bien placé pour le savoir.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Lorsque le parti du Manifeste se réveilla de ses illusions, il confia la conduite des affaires aux hommes sincères. (106)

Il fut débarrassé alors du doute qui planait sur ses origines et les mains se tendirent vers lui.

L'intégration française inspira l'intégration de ces deux partis jumeaux (107) qui visaient le même but.

Ben Badis donna sa bénédiction à l'union et ce fut une période de confiance...

Puis vint le mois de juillet avec Ahmed Messali (108) qui, au stade municipal, lança l'appel comme un muezzin le ferait pour la prière.

Son cri avait revêtu un caractère nouveau qui foudroya les parias et les poltrons.

La France eut recours à ses idoles, s'efforçant par l'intrigue de gagner le pari.

Elle fit assassiner Kahoul (109), en rejetant le sang de ce crime sur El Okbi, homme d'une grande influence.

Si au sujet d'El Okbi la suite des évènements nous a déçus, si Messali a prêté l'oreille au chant des sirènes,

Notre histoire ne pourra guère méconnaître le mérite; certes, la vie ici-bas est une épreuve pour les humains.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

La diversité d'opinion a scindé un même parti qui est, malgré tout, demeuré uni quant à ses buts. (110)

L'amour du pouvoir n'a pas su freiner les ambitions mais il a créé une nouvelle forme de division.

Les mandats électoraux ont exercé une tentation sur les esprits faibles, pareils en cela à la géhenne insatiable.

La politique a obnubilé l'intelligence du leader, sombrant dans la stupidité...

A telle enseigne que l'on croirait que des esprits maléfiques ont envahi les dirigeants, tels un ouragan.

Or les démons ont-ils la faculté de raisonner ? Le (Triomphe) (111) ne consiste pas à participer aux élections ni à frapper du point sur la table.

Il ne consiste pas à faire des inscriptions sur les murs. L'encre est-elle utile dans la guerre ?

Il ne consiste pas à crier «Vive» ou «Bravo» car les paroles n'ont jamais libéré un peuple asservi.

Il ne consiste pas à envoyer des délégations car les oreilles de la France étaient bouchées par la rouille de l'erreur.

Seul le sang est capable de laver l'infâmie,

et que vive le fer tranchant le fer !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nous n'avons guère oublié l'année 45, ni les victimes des carnages qui eurent lieu en ce jour de malheur. (112)

Induits en erreur, nous avons partagé la joie des alliés et nous mîmes à applaudir, fort mal à propos,

Ils se retournèrent contre nous, les traitres, et donnèrent ainsi une belle leçon à nos dirigeants.

Le génocide de Sétif et celui de Guelma sonnèrent le réveil du peuple.

Lestrade Carbonnel (113), en secouant un peuple indolent, fit renaître à la vie une conscience endormie.

Achiary (114) nous apprit à prendre le chemin du maquis. La couleur du sang leva toutes les équivoques.

Nous poursuivions, par nos écrits, un mirage de perdition;
c'est pourquoi aucun résultat ne fut atteint.

Nos partis militaient avec des chimères, tantôt à haute voix, tantôt en messes basses.

Le bruit des balles interrompit les discours et fit parler des bouches qui n'étaient pas muettes.

Nous nous attelâmes à aplanir la route de l'émancipation, pour nous débarasser de toutes les souillures.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

La guerre des palabres dura longtemps mais le peuple n'en tira aucun profit.

Ceux qui connurent le feu y crurent, de même ceux qui découvrirent «l'organisation secrète». (115)

Salut à l'année 1949 car c'est l'année du sevrage, le signe avant-coureur de la guerre de délivrance, bien que sous des flots de paroles vulgaires l'on ait passé le fait sous silence.

Que la mémoire de Laïmèche (117) soit honorée à jamais et que celle de Kahal (118) soit saluée parmi celles des pionniers et des hommes valeureux.

Qu'un souffle embaumé salue Rabah Moussaoui (119) et Gharrafa (120), le nationaliste intrépide.

Salut à Asla (121) qui, après avoir été pleuré par Taleb (122), l'a rejoint dans la mort, à l'issue d'une maladie terrible.

Voici «Douar» (122) souhaitant la bienvenue aux martyrs, à ceux qui ont été fidèles au serment.

Tels sont les révolutionnaires qui ont engendré le 1er Novembre avec leur propre sang, et ce fut la victoire.

Ceci dit, jamais une Révolution ne tombe du Ciel, comme le Messie, que sur lui soit le salut.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton me,
EL-DJAZAIR

Dieu, en cette nuit du Destin, se révéla jetant le manteau de l'oubli sur mille mois !

Le peuple lui dit : «Nous sommes à tes ordres, Seigneur ! » et Dieu répondit : «Ton affaire est la mienne ! »

Et la loi du Talion s'imposa à la France sénile, pour ses parjures et ses méfaits.

Les balles firent entendre leur voix déchirante, la plume dédaigna les fables de l'écriture.

Lorsque les paroles ne sont pas flamme et braise, les canons méprisent le langage.

De même lorsque les caractères ne sont pas lettres rouges les bombes refusent d'imprimer les textes.

Et lorsque les épées publient les pages il faut que celles-ci soient des arrêts !

Ca[illegible] que lorsqu'il s'agit de mes hymnes !

O Novembre ! tu as changé le cours de l'éxistence !

O Novembre, tu as été le lever du jour.

Tu nous as fait revivre la bataille de «Badr», en Algérie, et nous sommes dressés pour égaler les compagnons du Prophète !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Que grande, pour nous, est ta majesté. O Novembre !

N'es-tu pas la source de notre absolu !

Nous avons navigué sur les flots de notre sang et conduit le navire vers la victoire.

Nous nous sommes révoltés, faisant jaillir le feu et la lumière et façonnant des insurgés avec les lambeaux de notre chair.

Nous avons inspiré les objectifs de notre révolution, et celle-ci à son tour inspira le monde.

Notre (front) se moquait des malheurs ! nous raillons l'injustice et les tyrans !

Bientôt, la politique, bon gré malgré, baissa pavillon devant le peuple qui, lui, releva la tête !

Nous avons rassemblé, pour le Parti de la Délivrance, les débris épars pour conduire l'ensemble sur la voie lumineuse.

N'était le coude-à-coude de l'union, nous serions apparus comme de tristes individus !

Ah ! si la Palestine pouvait suivre notre exemple ! et faire ainsi l'économie de plusieurs années de guerre !

Ah ! si elle daignait se préoccuper de Jérusalem et non des sièges et mandats qui la font balancer de «droite» et de «gauche». (123)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Notre appel est arrivé ! C'était un cri auquel nous avons répondu.

Nous nous sommes retrouvés dans le sein de notre union et c'est ainsi que nous nous sommes émancipés.

Les adversaires nous ont proposé d'ouvrir des pourparlers au sujet de nos problèmes, de notre souveraineté... mais nous avons refusé.

Ils dirent : «Nous allons organiser une consultation par oui ou par non !

C'était un piège. Nous nous sommes opposés. (124)

O France, tu as oublié l'inoubliable : n'avons nous pas déjà voté le 1er Novembre ?

Les balles nous ont ouvert le scrutin. Elles ont rougi nos bulletins

Et nous avons voté. Nous avons dit, et l'Univers a dit avec nous : «Attention !» «Courage !».

Et nous sommes demeurés inébranlables.

Nous avons rejeté les demi-mesures et évité les pièges du «Dominion». (125)

Et lorsque De Gaulle fit avancer ses pions, notre Roc (126) les terrassa et nous fûmes victorieux.

Il eut peur des «barricades» qui protégeaient alors les ultras et faisaient pleurer la France.

Mais nous, nous avons bien ri ! (127)

De Gaulle après avoir réfléchi sur leur sottise et sur notre sincérité a dit : «Je vous ai compris». (128)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Nous avons imposé notre volonté inéxorable et attisé notre feu brûlant !

Avec les balles, avec la réfléxion et l'argument sans faille, nous avons façonné notre destin.

La parole de Dieu, qui était à l'origine du conflit, se réalisa.

Dans le mystère des nuits, apparut bientôt la délivrance dont les oriflammes brillants frémissaient au vent.

L'hymne d'Al-Djazaïr retentit, envahissant la terre et criant : «Je jure par le sang» (129) le chant du drapeau fit entendre ses accents profonds et les hommes se prosternèrent. (130)

L'armée chantait : «Voici notre sang si cher versé abondamment pour toi» (131)

Nos étudiants, nos ouvriers, nos paysans, tous chantaient ! (132)

La fille d'Al-Djazaïr entonnait l'hymne des adolescentes, pendant que la terre entière écoutait dans le silence de l'adoration (134)

Puis, nous nous relevâmes pour édifier le pays et construire notre souveraineté renaissante.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

El-Djazaïr, notre très chère a dit : «Telle est la sincérité ! »
Par elle j'ai réalisé mes vœux !

Par le sang de mes enfants, les lambeaux de leur chair, j'ai donné mon offrande au Dieu de la Victoire.

Sous la bannière ressuscitée de Khalid Ibn Al-Walid (135), sous celle de Saâd Ibn Waqqas,
J'ai enrôlé mes preux !

J'ai su renouveler les exploits de «Hittin» (136) et immortaliser, de nouveau, «Antioche». (137)

Oh combien est sublime le sacrifice de millions d'hommes, reposant dans la verdure d'El-Alia, après que leurs âmes eurent rejoint fièrement le paradis d'Allah !

Sur chaque parcelle de terre, nous avons inscrit un drame dont les scènes sont faites de notre substance et de notre sang !

Les rôles sont récités par Oujda à qui font écho Bizerte et Sakiet Sidi Youcef (137 bis) !

Oh Maghrib, toi qui as été uni dans le sacrifice du sang, toi qui as proclamé ton unanimité au milieu des ouragans dévastateurs !

Toi que l'Atlas a béni le long des siècles, en forgeant notre Unité, puissent les autres te laisser, toi le rassembleur, faire et imposer la suite de notre destin !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invacations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Certains perdirent l'esprit; certes la passion du pouvoir est comme une tempête que déchaînent les démons.

Le monde des ambitions révèle bien des mystères, et incite les ambitieux à commettre bien des erreurs.

Des hommes s'empressèrent de panser les blessures, mais d'autres tournèrent casaque.

Puis l'on tourna la page des fautes stupides, comme on ferme un livre.

Ne me demandez donc pas de vous en déchiffrer les secrets.

Laissez à la postérité le soin de le faire, car le temps sera beaucoup plus éloquent que moi.

Lorsque Juin nous apporta ses nouvelles, nous en fûmes réjouis comme l'ondée réjouit les êtres !

Nous nous mîmes à organiser l'économie du pays et à élever les usines.

Nous procurâmes à la classe laborieuse le pain de la dignité, gagné par la science et la technique.

Notre fellah arrosa sa terre, non d'espoirs futiles, mais d'efforts et de sang.

Et nous façonnâmes avec notre dure réalité, notre propre idéologie, en repoussant tout paternalisme.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

J'ai bu la foi jusqu'à la dernière gorgée, puis je me suis prosterné devant la Majesté du Seigneur.

Car sans la fidélité a notre Islam, jamais le peuple ne serait devenu maître de son destin.

Sans la droiture de notre caractère, jamais le combat du peuple n'aurait eu cette sincérité !

Sans cette alliance entre Dieu et le Peuple, jamais le Seigneur n'aurait exaucé son vœu !

Telle est la religion : elle inonde notre âme de lumière et de certitude absolue et y établit le sens de justice.

Lorsque le peuple viole le serment de Dieu et trahit la Foi, attends-toi à le voir disparaître.

Si nous avons remporté la victoire de la délivrance, aujourd'hui notre bataille est celle de l'Authenticité. (138)

Nous avons engagé le combat de l'élévation du niveau algérien, en éduquant les âmes et en luttant contre l'ignorance.

Notre peuple forgera une nation juste, d'où la perdition sera bannie.

Si le peuple gagne «la guerre pour l'esprit», nous célébrerons sa victoire au nom de l'esprit.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Notre nature est bonne et généreuse. Elle n'a que mépris pour les âmes viles et corrompues.

Notre virilité refuse ce qui est bas et dédaigne les valets de la vulgarité ainsi que les «cheveux longs».

Ce siècle est devenu efféminé, les «hippies» se sont partout répandus, semant le vice.

Après avoir égorgé la vertu, Adam rivalise avec Eve dans le maniérisme et la mignardise.

Les pantalons, tantôt courts tantôt longs, traînent partout, tels des paons exibant leur plumage.

Sans certains signes, on ne pourrait plus distinguer le beau de la belle.

La déviation s'est propagée, ainsi que le hashiche, offrant de puissants moyens à la débauche.

Partout la puanteur blesse notre odorat, sans que nous puissions l'éviter.

El-Djazaïr étant la terre des hommes énergiques, où donc sont passées la bravoure et la virilité ?

Qui néglige les valeurs sacrées de notre pays et ne rejette pas ces déchets humains est un traître envers sa génération.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme
EL-DJAZAIR

Les foyers de notre rayonnement sont élevés et consolident notre foi pure.

Partout, dans chaque vallée, les temples de la bonne voie éclairent la route, devant les générations de notre peuple.

Cirta, dont est originaire Ibn Badis, se dresse illuminée, tandis qu'à Oran nous trouvons la source idéale de notre inspiration.

La Mosqué Ketchaoua recouvrée, reste le symbole de nos aspirations.

Au bord du Nil, Al Azhar l'invoque et toutes deux se réclament de nos ancêtres communs.

Oh de Bourmont ! (139) la rancune de la Croix était-elle si vive ?

Grégoire (140) est-il arrivé à briser notre fermeté ?

Louis Philippe (141) a-t-il pu ébranler notre résolution et les évêques sont-ils parvenus à nous abaisser ?

Napoléon (142) et tous ceux qu'ils a décorés de ses mains, ont-ils eu raison de notre tenacité?

Lavigerie, (143) malgré des années d'efforts, a-t-il réussi à détourner nos enfants de leur foi ?

Mais voici que malgré tant de congrès eucharistiques, Ketchaoua, languissant nos âmes, a fini par nous revenir. (144)

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

A Fez, l'écho a retenti profondément; partant de «Qaraouïne» (145) il a envahi l'espace.

Il a échangé le salut avec la «Zitouna» bénie qui a répondu à cet appel.

Voici le grand Maghrib, tenant du Prophète les messages de la bonne voie.

L'unité de notre Maghrib aujourd'hui n'est qu'un pas vers l'unité de l'Islam, demain.

En unissant une partie du monde, nous unissons le tout, car la conclusion d'un langage ne saurait contredire ses prémisses.

Peut être notre Maghrib constituera-t-il un exemple parfait que d'autres suivront.

Nous tendrons la main à tous les Arabes s'ils s'engagent dans la bonne voie pour ce qui les concerne.

Nous nous dresserons alors pour que nos âmes leur servent de rachat, car nous sommes ceux qui savent se sacrifier totalement, et qui ont lavé le déshonneur avec le feu, en défiant la mort par la mort...

Et en abolissant les slogans, pour les remplacer par des actes, méritant ainsi puissance et suprématie.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Dieu ! protège-nous d'un danger imminent ! Seigneur préserve-nous des engins de la démolition !

Les «théoriciens» ont envahi l'esprit de la jeunesse avec des doctrines importées, stupides et délétères.

Ils les ont conduits dans une voie qui exclut leur Islam et n'est point sûre.

Ils ont introduit le virus du «Communisme» comme un poison servi dans la nourriture.

Ils ont dit : «Le progrès est la loi de la vie. Le rêve ne fait pas avancer le dormeur».

Ils ont dit aussi : «Le retour à la religion est une regression. La vie est pour les hommes debout».

La jeunesse perdit son chemin, trompée par cette vipère à la peau lisse et bariolée !

Elle se pressa derrière ces guides de la bassesse, qui la dévièrent des principes éternels et immuables.

Certains professeurs répandirent parmi les jeunes des idées qui ne sont que séquelles d'un colonialisme cruel !

On dit que ce sont de savants «docteurs». Malheur aux savants esclaves de l'erreur !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Cette jeunesse est devenue dissolue et mièvre ! Elle a ruiné sa vertu et s'est liquéfiée !

Malheur à l'Algérie et aux Musulmans si nos jeunes salissent leur âme !

Comment un être sot, qui a perdu sa conscience et qui s'est perdu lui-même, peut-il diriger le pays ?

Qui peut être sûr de l'avenir du pays, si le peuple en confie l'héritage à des veaux ?

Comment pourraient-ils améliorer la nation alors qu'ils ne peuvent s'améliorer eux-mêmes.

Comment cette jeunesse pourrait-elle préserver son authenticité, alors qu'elle l'a livrée et vendue ?

Comment parviendrait-elle è éclairer sa propre route, alors que l'impureté a détruit en elle tout rayonnement ?

Comment le malade peut-il guérir un homme sain, alors que la phtisie dévore ses poumons.

De quelle manière peut-il dominer l'existence alors qu'il n'est maître ni de son cœur ni de son langage ? (146)

C'est là le danger dont le courant irrésistible nous menace de toute part. Si vous ne prenez garde, alors tout est perdu !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAÏR

Il y a des êtres débauchés qui se sont perdus et qui sont les adversaires notoires des bonnes mœurs.

Ils prétendent que le progrès consiste à devenir impudent, dévergondé, à commettre des pêchés.

A avoir les cheveux longs, à porter des bijoux et des colliers, commes les filles.

Ils sont fiers de boire du vin alors qu'au fond du verre tous les malheurs s'accumulent.

Ils dansent avec la frénésie de l'oiseau que l'on égorge et ne pensent pas au temps qui passe... ni à la mort.

Ils affirment : «Le progrès c'est cette poésie décadente d'où l'authenticité s'est envolée comme des éclats» !

Une poésie dans le rythme est comme la conscience des sionistes, basée sur des intentions perfides.

Aujourd'hui, à l'instar de cette génération, la poésie a perdu sa virilité. La mièvrerie y fait fondre les cellules du corps.

Si on a «sionnisé» notre caractère : ils nous laisse le soin de rester des sujets.

Pourquoi le colonialiste éprouverait-il de la tristesse après notre émancipation, alors qu'entre ses mains il détient, prisonnière, notre force morale ?

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAKAÏR

Edificateurs d'El-Djazaïr, prenez soin de la jeunesse. Ne faites pas confiance aux loups qui la menacent.

Ne négligez pas l'état de nos étudiants. Car leur esprit est plongé dans la désolation.

Que de ravages la falsification a causés dans leur esprit !

Que de destructions elle a opérées dans leur personnalité !

Que de jeunes, dont le sentiment islamique était perverti, ont été détournés de la bonne voie !

Leur pensée est devenue «rouge», (147) hétérodoxe, et leur foi douteuse.

Les inépties de Cohn Bendit ont cours chez eux et sèment le trouble chez les plus naïfs.

Et lorsque retentissent les sirènes de Marx, ils s'empressent de prendre un corbeau comme guide. (148)

Quel malheur pour les jeunes que ces maîtres ineptes qui méconnaissent le livre.

Quel malheur que ces mercenaires, cerveaux à gages, esprits inconséquents.

Parmi nous il y a encore des «yeux» qui observent pour le compte de nos colonialistes, bien que ceux-ci nous aient abandonné le territoire.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

D'aucuns parmi les orientalistes ont aimé la grandeur, d'autres ont propagé l'erreur.

Ceux qui ont été justes à notre égard, qui ont dit la vérité et qui sont venus de loin à notre Séminaire. (149)

Ceux qui n'ont pas cherché à diminuer la valeur de nos gloires, ceux-là seront pour nous des guides et des exemples.

Notre peuple rendra hommage à leur esprit d'équité et la science reconnaîtra leur vertu.

Mais ceux qui cachent la vérité sous un voile tissé de rancunes profondes, ceux qui agissent à l'ombre de la Croix.

Ceux qui furent les agents de nos anciens colonisateurs, et qui sont les produits engendrés par nos nuits de malheur, ceux-là seront conviés par nous à une controverse impartiale, car nous ne craignons pas la controverse.

S'ils sont objectifs envers la science et la vérité nous leur dirons : «Parfait ! l'homme est celui qui respecte l'homme».

Mais si la haine obnubile leur esprit nous les rejetterons, en interrompant le débat.

Avec le sang nous écrivons notre histoire, mais avec la justice nous atteignons la Perfection.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Le prosélytisme s'écrasa devant la profondeur de la foi islamique. Les «bons offices» ne servirent à rien.

Le poison enrobé de miel, la munificence cachant les intentions criminelles...

Les visites à domicile (alors que derrière les portes notre moral était solide)...

Les soins dispensés au malade (alors que l'on cherche à détruire sa foi et sa langue)...

La lecture de l'Evangile, (en ce cas, de nul effet)...

Tout cela n'a servi à rien.

Que ces expériences pour nous détourner de la foi, pendant un siècle et demi, suffisent à démontrer la stupidité du prosélytisme.

Notre foi, comme notre gloire, atteint un haut niveau. Nous avons toujours vu très loin en ce domaine.

Que celui qui s'en va répandre la bonne parole ailleurs, commence par convertir ses propres enfants; car ils sont devenus des singes pourchassés.

Le «hipisme» les mène à la mort, promptement.

Ne serait-il pas plus logique que nous venions, nous, avec notre Islam et nos principes conformes à la raison, faire parmi vous des prosélytes ?

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

D'aucuns ont épousé des étrangères. Ils disent : «Mon épouse est cultivée, citadine.

Elle danse avec moi, avec celui-ci, avec celui-là; elle est espiègle, mais sans malice. Coquette, elle porte des mini-jupes qui montrent bien ses séductions cachées.

Elle me laisse seul - et je ne lui en veux pas - pour aller assister à des «surprise-party». Elle découche : n'est-ce pas, ainsi, le progrès ?

Quand elle enfante, de qui est l'enfant ? peu importe, puisqu'il appartient au genre humain. (150)

Le matin, je l'appelle «Salah» mais le soir il répond au nom de «Maurice».

Quand il fait une bêtise, elle lui crie «Bicot» et je pense immédiatement que «Bicot» vient de «Bey». (150 bis)

Elle appelle le domestique «mon Arabe» et c'est là que j'éprouve de l'amour pour l'arabisme et la langue arabe.

Sur son cou j'égorge mon amour-propre; elle devient alors «moi» et je deviens «elle».

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme.
EL-DJAZAIR

C'est une pomme qui a fait sortir du Paradis, Adam, maudit par le Ciel.

Mais Eve avala la pomme et troqua le musulman contre l'infidèle.

Son mâle, elle ne voulut point le choisir parmi sa race. Elle s'éprit donc de celui qui «ne jette rien lorsqu'il jette».

Malheur à une jeune femme qui dénature une génération et qui voit son propre sang la maudire.

Malheur à celle qui provoque la colère de Jésus et fait pleurer Marie, accoudée au tronc du palmier. (151)

Malheur à cette société léthargique où les individus ressemblent à des figurines !

La conscience y est morte et enterrée.

L'innocent protège le criminel.

Viens-donc, ô France, reviens tranquillement, tes enfants remplissent le pays.

Demain, en poussant des cris de joie, ils te souhaiteront bienvenue sur notre terre, après tout ce qui s'est passé...

Et vous, dirigeants du peuple, si un tel état de choses dure encore, apprêtez-vous à porter le deuil de votre nation !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Oh ! Séminaire de notre pensée Islamique.

Manifestation de notre Foi Sacrée !

Source lumineuse de notre Inspiration !

Citadelle d'où rayonne notre Authenticité !

Témoignage de la mission glorieuse dont est chargée l'Algérie envers le monde.

Preuve de la fidélité de notre pays envers notre Coran, le long des siècles !

Soyez les bienvenus, ô vous nos visiteurs, soyez honorés sur la terre de nos ancêtres !

Des millions de héros, hôtes du Paradis, sont présents parmi vous, leurs âmes vous entourent.

Elles invoquent en vous la pureté de votre conscience, et l'esprit de justice qui vous anime à l'égard de notre Islam...

Et vous invitent à renouveler l'étude impartiale de son histoire à l'intention de nos générations futures.

Car l'Algérie est le pays de la clarté. Et telle est la pureté de nos intentions.

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Mon pays ! mon pays ! toi dont j'implore grâce
Comment chanter ta gloire avec de pauvres mots ?
Ta majesté sublime défie le langage
et la magie de l'éloquence me trahit !
Les hommes t'ont aimé, et les tyrans aussi
N'épargnant rien en toi, pas même la durée.
Tu as ravis l'esprit de tous tes conquérants
qui, séduits par l'Orient, vinrent trainer leurs sceptres,
sur la terre qu'ils ne voulurent plus quitter,
Le jour où les peuples relevèrent la tête
refusant de plier devant l'indignité !
Un tremblement saisit alors l'immensité.
La lune et le soleil maudirent l'agresseur.
Le peuple le défia, partout résolument,
et le fit culbuter, lors de l'affrontement.
La page de l'Afrique apparut toute blanche
et ton lâche agresseur dut se voiler la face !
Ton âme illuminée atteignit le sublime
Innondant de tendresse et de beauté, l'espace...
Pour toi ma prière et mon plus pur salut
Mon pays, mon pays, toi dont j'implore grâce !

Nous avons occupé la scène de l'Histoire
En déclamant des vers ainsi qu'une prière
dont les invocations jaillissent de ton âme,
EL-DJAZAIR

Ici s'arrête l'Iliade provisoirement, elle se poursuivra et atteindra avant la fin de l'année son millième vers.

Moufdi ZAKARIA.

NOTES EXPLICATIVES

N° 1 A propos de la sorcellerie, le Coran, parlant des Juifs qui s'adonnaient à ces pratiques dit : «Ils suivaient ce que les démons inspiraient au pouvoir de Salomon. Mais les démons furent infidèles. Ils apprenaient la sorcellerie aux gens et leur enseignaient ce qui à Babel avait été inspiré aux deux anges Harout et Marout ; ceux-ci n'édifiaient personne avant de le prévenir : «Nous sommes seulement une tentation, lui disaient-ils, ne soit pas impie». (Coran, 102).

N° 2 Mutanabbi, un des plus grands poètes arabes, vécut il y a dix siècles à la cour de Séït Eddaula, à Alep : pendant sa jeunesse, il prétendit être «Prophète». C'est pour quoi Abou Tayyeb fut surnommé «Mutanabbi» et non «Nabi». (prétendant être prophète et non prophète)

N° 3 Les belles que Dieu promet aux Croyants dans l'autre monde.

N° 4 Quartiers connus d'Alger et de la banlieue.

N° 5 Col qui donne sur l'autre versant du Djurdjura.

N° 6 En arabe «Azali» signifie éternel, sans commencement ni fin dans le temps.

N° 7 Hamane est le ministre de Pharaon à qui celui-ci a dit : «Oh ! Hamane, érige-moi un palais pour que j'atteigne le Dieu de "Moïse"». (Coran)

N° 8 Antilopes. Image courante chez les poètes arabes qui comparent souvent les beaux yeux de leurs bien-aimées à ceux des antilopes (mhâya en arabe dialectal).

N° 8 bis Sur la route de Bougie à Djidjelli, la grotte des 7 merveilles est célèbre par sa beauté sauvage.

N° 9 - 10 Mot à mot dans «les deux plus petits organes». Le proverbe arabe dit : «L'homme ne vaut que par ses deux plus petits organes : le cœur et la langue.

N° 11 Grand poète mystique, saint patron de Tlemcen.

N° 12 «Aïn-Arroumi».

N° 12 bis Yahia Ibn Khaldoun, frère de l'historien illustre, et Ibn Khamîs sont deux grands poètes tlemceniens.

N° 13 Laghouat signifie «Oasis» «Jardins». Singulier : «ghaouta». Comparaison avec la Ghaouta de Damas.

N° 14 Laouh Al Mahfoud est le «livre où Dieu a inscrit tous les secrets du Destin et de la Création.

N° 15 Abderahmane ibn Rostom qui était d'origine persane, fonda, à Tihert (Tiaret) la dynastie des Rostomides. Ceux-ci durent la fuir, vaincus par les Obaïdites, pour créer le Mzab dont l'Etat s'étendit jusqu'à Wineba, au Ghana, qui émigrèrent au Sahara où ils créerent le Mzab.

N° 16 Le poète a passé de nombreuses années de sa jeunesse dans les prisons colonialistes.

N° 17 Le cri d'Adam dans le Coran «O mon Dieu, tu m'as fait habiter, avec ma descendance, dans cette vallée aride».

N° 18 Les richesses en hydrocarbures.

N° 19 Thamoud et Ad, deux célèbres et prestigieuses tribus arabes disparues, citées dans le Coran en exemples de la précarité des choses de ce monde.

N° 20 «Iram» la ville aux colonnes «Iram dhât al imad» dont parle le Coran est citée en exemple par Dieu lorsqu'il nous parle des cités antiques anéanties par Lui, à cause de leur injustice et de leur immoralité.

N° 21 Bologhine, fils de Ziri, fils de Menad, construisit Alger en 392 de l'Hégire.

N° 22 Seybouse est le nom antique de «Annaba», construite par Ziri Ibn Menad. Le fleuve «Seybouse» porte le même nom que l'antique Annaba.

N° 23 Firmus fils de Nabal, roi des Amazighs, souleva le Djurdjura et l'Aurès puis toute la Numidie. Les Amazigh-donatistes le reconnurent comme chef de tout le Maghreb. Les officiers romains eux-mêmes le rejoignirent. Il conquit «Icosium» qui deviendra plus tard «Al-Djazaïr» et en fit la capitale du pays. Après avoir envahi Cherchell et affronté avec succès les légions de Théodose, le meilleur général romain, il fut trahi par son propre frère Gildon. Plus tard, celui-ci se soulèvera à son tour contre la domination romaine et faillit l'ébranler.

N° 24 Le poète veut dire que le combat pour l'indépendance n'a pas cessé pendant dix siècles. Nous retrouverons cette idée développée tout au long du poème.

N° 25 L'Algérie a été envahie en Juillet 1830, elle a proclamé son indépendance en Juillet 1962.

N° 26 Massinissa, roi des Amazighs (massyles), fils de Gaïa, naquit en 238 avant Jésus Christ, pendant les guerres puniques. Un autre roi Amazigh, Syphax, était alors l'allié de Rome. Massinissa lutta contre ces deux ennemis. Lorsqu'il remporta la victoire de Zama contre les Carthaginois, les Romains souhaitèrent que Massinissa devînt leur vassal, chose qu'il refusa. Il fonda un vaste royaume qui connut un essor considérable, surtout dans le domaine agricole. Son épouse Sophonisbe, femme de haute culture, l'aida à organiser cet état qu'il dirigea pendant une cinquantaine d'années. La puissance et la prospérité de cet Etat suscitèrent la jalousie de Rome.

N° 27 Jugurtha, né en 145 avant Jésus Christ fut un des plus grands rois parmi les Amazighs. Profitant adroitement de la guerre qui sévissait entre Romains et Carthaginois, il fonda un Etat Amazigh, basé sur des règles démocratiques. Cette république, dont les fondements étaient authentiquement numides, eut pour capitale Carta (Cirta), aujourd'hui Constantine. Son territoire embrassait l'Ifrikia à l'Est, où sa base était Thala et le Kef.

N° 28 Sophonisbe, reine de Numidie, fut d'abord l'épouse de Syphax puis celle de Massinissa. Après la victoire de Scipion, elle préféra se donner la mort, plutôt que de figurer à Rome, dans le défilé en l'honneur de l'ennemi victorieux.
Cette femme d'une haute intelligence était très instruite. Elle contribua, certainement, aux côtés de Massinissa, à faire de la Numidie un Etat prospère.

N° 29 Tacfarinas, Chef Amazigh, s'est soulevé contre le pouvoir de Rome. Son insurrection, qui a embrassé toute l'Afrique du Nord, jusqu'au Sahara, a duré plus de huit ans.

N° 30 Faraxen, chef d'une nouvelle insurrection Amazigh qui fit trembler le pouvoir romain jusqu'en 262.

N° 31 Saint Augustin, né à Thaghaste (Souk Aharas) en 354. Evêque d'Hippone (395), il fit triompher la foi contre les hérésies. Auteur de la «Cité de Dieu» et des «Confessions» il fut un des plus grands écrivains de langue latine.

N° 32 Juba monta sur le trône de Césarée, l'antique Iol, actuelle Cherchell, et dirigea le royaume de Mauritanie Césarienne, située entre Cirta et la Mauritanie Tingitane. Politique avisé, savant d'une haute culture, général victorieux, urbaniste de valeur, il voulut faire de sa capitale l'égale de Rome, en la décorant de nombreux monuments, théâtres et temples. Il y créa une université où l'on enseigna les sciences, les lettres, les beaux-arts sous la direction de savants, de sculpteurs, d'architectes et de chorégraphes qu'il fit venir de Grèce. Auteur d'une encyclopédie générale de toutes les connaissances humaines, il fut le premier à établir une carte géographique de la presqu'île arabique.

N° 33 Apuléius, née vers 125 à Madaure, étudia la rhétorique et les sciences. Auteur des «Florides» (où l'on trouve les histoires les plus variées) et des «Métamorphoses» histoire d'un homme transformé en âne qui reprend ensuite sa forme première. Ce fut un grand rhéteur et un grand médecin dont la célébrité fut immense à Rome même.

N° 34 Jorhom est une tribu arabe très ancienne, comme Ad et Thamud. Elle fait partie des «Arabes disparus» «Arab Baïda».

N° 35 Okba dans sa marche vers le Maghreb a soigneusement évité d'une part la mer (où croisait la flotte Byzantine) et la montagne, dont l'accès est difficile. Il a donc établi des étapes le long de la côte. Cette tactique a été suivie par le maréchal Montgoméry et par les Allemands lors de la deuxième guerre mondiale.
En échangant le sel du Fezzan contre l'or de l'Afrique noire, il a pu financier cette expédition.

N° 36 Les Rostomides ont apporté à Tiaret le (Amin Nameh) iranien qui englobe aussi bien le statut gouvernemental que l'étiquette, l'organisation militaire et prétorienne (sifahi) etc... Le gouvernement lui-même était contrôlé par les «Chorât», ceux qui ont «vendu» (chara) leur âme à Dieu. Chara signifie aussi bien vendre qu'acheter.

N° 37 Le voisin immédiat c'est Mahdia, en Tunisie.

N° 38 Tabna est une des villes construites par les Aghlabites. Ibn El Husseïn At-tamimi, né à Tabna, fut un grand écrivain qui se fixa à Cordoue sous le règne d'Al Mansour, l'omeyyade. Il devint le poète et l'historiographe du royaume. Il fut surnommé «l'Historien de Cordoue». Il y mourut en 394 (1004 de l'ère Chrétienne).

N° 39 M'sila fut la capitale de Moïzz ibn Badis Al Sanhadji. C'est là que monta l'étoile d'Ibn Hani, le poète algérien surnommé «le Mutanabbi maghribin».

N° 40 Les Pharaons avaient réduit les peuples en esclaves. Ce n'est qu'après la fondation du Caire que l'Egypte brisa ses chaînes.

N° 41 L'Egypte en est redevable à l'Algérie, directement.

N° 42 En réalité c'est Bologhine qui fonda Alger et non Badis.

N° 43 On dit que Médéa ou Mehdia signifie l'ancienne.
La légende dit que cette ville aurait été construite ailleurs, puis transportée par les anges à son emplacement actuel.

N° 44 Sidi-Ahmed ben Youcef, saint patron de Miliana.

N° 45 Le «Nid d'Aigle» est le surnom de Miliana, comme l'a écrit Mr. Belhamici dans la revue «Al Açala». Zaccar est la montagne qui domine Miliana.

N° 46 Le voyageur Abdari compare l'eau de Miliana à des larmes (tant elle est limpide) et ses cailloux à des parcelles d'or. «Si, dit-il on en aspergeait un homme qui a perdu ses facultés il les retrouverait aussitôt».

N° 47 Les historiens sont d'accord pour dire que Miliana est une ville romaine, fondée depuis une époque immémoriale, sur les vestiges d'une ancienne cité grecque. Le grand général romain Pompée y serait enterré, aux côtés de son neveu, d'après certaines inscriptions.

N° 48 Les Almohades, les Banou Ghania, les Ziyanites, les Sanhadjites, les Merénides, les Banou Handal, les Almoravides et les Hafcides se sont longtemps disputé la possession de Miliana.

N° 49 Les gens de Miliana seraient originaires des Banou Handal qui se sont ensuite installés à Warlenines.

N° 50 Badr Ibn Aïcha était le gouverneur de Miliana, nommé par Ali Ibn Ishaq, compagnon de Abou Youcef Yacob. Mais les gens de Miliana, hostiles à Ibn Aïcha, le combattirent et le firent prisonnier. A la suite de son évasion, ils le tuèrent.

N° 51 - 52 Abou Abbas Ahmed Ibn Ali fut une gloire de Miliana. Savant, juriste, grand poète, il fut honoré par le Sultan Yacob le Mérénide qui lui fit don de la province d'Aghmât au Maroc.

N° 53 Ibn Ilinas fut un roi hammadite célèbre et puissant qui encouragea les sciences et protégea les savants.

N° 54 Ibn Hamdis, poète de Bougie, glorifia le règne d'Ibn Ilinas et célébra les louanges des Banu Hammâd.

N° 55 Aïcha Al Ammaria fut une poètesse célèbre, pendant le règne des Hammadites. Elle excella dans le genre lyrique et dans la poésie satyrique, tels des vers où elle décrit un chauve venu la demander en mariage.

N° 56 A cette époque l'Algérie disposait d'une flotte puissante. Elle était liée par des accords commerciaux avec la plupart des pays d'Europe.

N° 57 Fille du poète Tamîm Ibn Moïzz Ibn Badis. Elle possédait le palais «Bellara» à Qala'a des Beni Hammad décrit merveilleusement par Ibn Hamdis. En se mariant, Bellara qui était très belle et savait s'occuper des affaires de l'Etat, réussit à unir les deux dynasties (Hammadites de Bougie et Zirides de Mahdia) qui formèrent une espèce de confédération.

N° 58 Ibn Sib'în, dans sa polémique avec les Chrétiens, réussit à les vaincre.

N° 59 Abou Madyen et Taalibi, enterrés l'un à Tlemcen, l'autre à Alger, sont natifs de Bougie.

N° 60 En 524 de l'Hégire, Abdel Moumen ibn Ali fonda la dynastie des Almohades après avoir détruit celle des Almoravides au Maroc. Il poussa vers l'Est, conquit les deux Maghribs (moyen et oriental), et unifia ainsi tout le Maghrib (Algérie, Tunisie et Maroc) sous la direction de Mahdi Ibn Toumert. Il fixa définitivement les tribus hilaliennes que les Etats précédents n'avaient pas réussi à intégrer.

N° 61 Les pays du Maghrib reçurent un nombre considérable d'Andalous émigrés qui y trouvèrent un refuge inviolable, étant donné l'ordre qui régnait en Afrique du Nord.

N° 62 «Aazz mâ youtlab» «Le but suprême» ouvrage de droit composé par Mahdi ibn Toumərt.

N° 63 Chérif ibn Imara composa des muwachah (poèmes en forme de strophes que l'on chante). Youcef ibn Ibrahim, originaire de Ouargla fut un juriste de grande valeur.

N° 64 En 733 de l'Hégire, Yaghmoracen proclama le pouvoir Zianite et se détacha des Almohades dont le pouvoir déclinait à Marrakech. Pendant cinquante ans, il organisa sans relâche l'état des Banou Ziane.

N° 65 Après avoir lutté contre les Hafcides à l'Est et les Mérinides à l'Ouest, les Banou Ziane purent ériger une dynastie puissante.

N° 66 Le Méchouar ou «Dar Ech Choura» (Palais du Conseil). Ses vestiges sont encore visibles à Tlemcen.

N° 67 Ouvrage de Yahya ibn Kaldoun «Le but des chercheurs au sujet des Benou Abdel Wâd».

N° 68 Ibn Al Fahham a inventé une espèce d'«horloge parlante», à l'intention du roi Abou Hamou Moussa. A chaque heure, l'horloge s'entrouvrait, laissant apparaître des figurines représentant des jeunes filles ravissantes qui déclamaient des poèmes annonçant l'heure de la journée ou de la nuit.

N° 69 Il s'agit du Cardinal Ximenès de Cisneros qui dirigea les attaques criminelles des Espagnols contre Oran et Mers El-Kebir. Les Portugais et les Français participèrent à ces «croisades» ignobles.

N° 70 Les «Gitanos» bohémiens espagnols. Ce mot a donné en arabe dialectal algérien (Guezzana) (gitane, diseuse de bonne aventure).

N° 71 Les Espagnols et les Portugais furent les premiers à instituer la «course» en Méditerranée. Leurs corsaires vinrent piller les régions côtières du Maghreb et s'attaquer aux Andalous qui osaient quitter l'Espagne pour se réfugier en Afrique du Nord. Tels étaient les ancêtres des futurs fondateurs de l'O.A.S. !

N° 72 Le salut vint de deux frères : Barberousse et Kheirddine qui aidèrent les Musulmans d'Espagne à traverser la mer pour venir s'installer en pays musulmans. Ces deux héros agirent par idéal de solidarité islamique. C'étaient des volontaires de la foi qui réveillèrent les sentiments patriotiques des Algériens. Lorsque l'Algérie remporta la victoire contre ses agresseurs de tous bords, elle sut gré aux Turcs de l'avoir aidée à conserver son intégrité et son indépendance. Les Turcs gouvernèrent sous la direction d'un «divan» composé des notabilités algériennes (diwane). Il y a encore à Alger une «rue du Divan».

N° 73 L'affaire de la dette que les Français ont contractée pour acheter notre blé est trop connue pour être commentée.

N° 74 Le Trésor Français s'était associé avec des intermédiaires (comme les deux juifs Bouchenack ou Bacri) pour financer cette opération qui devait sauver la France de la famine.

N° 75 Dans un discours prononcé le 2 Mars 1830 Charles X, roi des Français a proclamé : «Cette expédition que j'ai décidé de faire pour l'honneur de la France profitera, par la grâce de Dieu, à la Chrétienneté entière».

N° 76 Histoire connue.

N° 77 L'espion Français, le commandant du génie Boutin, par ordre de Napoléon, fit en Juillet 1808 des levées et des études sur place dont le corps expéditionnaire tira grand parti en 1830.

N° 78 Après l'invasion, la résistance prit deux aspects : l'un officiel et politique, l'autre populaire. Le premier aspect fut illustré par le Bey de Constantine, Ahmed Bey autour duquel se groupèrent les Algériens et ce qui subsistait des Turcs. Notons que Ahmed Bey était parent d'El Mokrani qui se révoltera à son tour en 1871. Lamoricière conquit Constantine en 1838. Le combat cessa officiellement, mais le feu de la résistance populaire couvait sous la cendre, après que la ville eut lutté avec acharnement, obligeant l'ennemi à un combat de rues resté célèbre dans les annales de l'héroïsme. Le siège dura 7 ans.

N° 79 La résistance populaire se cristallisa en 1832 lorsque les notables et chefs de tribus se réunirent à la mosquée de Mascara et reconnurent comme émir un jeune homme de 24 ans, réputé pour sa sagesse, sa bravoure et son intelligence : Abdelkader fils de Mahieddine El Hachimi. On lui demanda de chasser l'ennemi et de créer un état musulman algérien indépendant, basé sur l'ordre et la justice. En plus de ses qualités de chef, l'émir Abdelkader était un poète qui exaltait les sentiments nobles et chevaleresques. Son épouse «Omm El Banine» était pour lui une source d'inspiration.

N° 80 Les batailles de l'Emir contre Bugeaud sont connues. (Voir Touhfat Az-za'ir) (L'offrande au visiteur) qui est une biographie de l'Emir.

N° 81 La lutte de l'Emir a duré 18 ans (1830 à 1848).

N° 82 La polémique entre l'Emir et les généraux Français, Bugeaud notamment, se trouve amplement relatée dans l'ouvrage (Touhfat Az-za'ir).

N° 83 Parmi les procédés les plus vils utilisés alors par la France, il faut mentionner la corruption, moyen remis en honneur et perfectionné par le ministre des Affaires Etrangères Talleyrand, prince de Bénévent et roi du bakchich. Les Français ont offert maintes fois des sommes extraordinaires pour «acheter» l'émir qui a répondu par le plus grand mépris.

N° 84 La France a traité à plusieurs reprises avec l'émir, chaque fois qu'elle se sentait en danger, quitte à renier sa parole dès qu'elle le pouvait. L'émir savait à quoi s'en tenir au sujet de ces «traités» mais il les signait uniquement pour se donner du repit et la possibilité d'organiser ses troupes.

N° 85 Le traité final signé par Abdelkader était un «acte d'honneur» qui ne l'a pas empêché d'aider ceux qui continuaient à résister, tels son fils Mahieddine et autres combattants.
Dans tous les pays où il a séjourné ensuite, Abdelkader a rempli pleinement son devoir, en tant qu'homme et en tant que musulman.

N° 86 L'insurrection violente déclenchée dans l'oasis Zaatchas (près de Biskra) était conduite par un pur martyr, Abderrahmane Ibn Ziane. Le «Revue des deux mondes» a donné la relation suivante de ces évènements :

Le chef de la tribu, Abderrahmane Ibn Ziane avait conclu avec le commandement des troupes françaises un accord selon lequel elles s'abstiendraient de l'attaquer, en échange de quoi il promettait de leur fournir tout ce dont elles avaient besoin en matière de ravitaillement. C'était, de sa part, une ruse audacieuse qui lui permettait de mieux préparer son offensive. Mais un capitaine Français, ayant flairé le subterfuge, se résolut à provoquer Ibn Ziane, en posant la question suivante : «Existe-t-il un Algérien assez fort pour ne pas se prosterner à mes pieds ? ». Il lui fut répondu : «Oui, c'est Abderrahmane Ibn Ziane, le chef de Zaatchas». Il le manda, mais le Cheikh refusa de venir le voir. Il lui envoya alors des troupes qu'il décima, puis d'autres qui furent également anéanties et un troisième contingent qui disparut à son tour.
La guerre dura plusieurs années. Les Arabes résistèrent à chaque pouce de terrain, à chaque palmier. On dit qu'un million de palmiers furent détruits et qu'un million de combattants périrent. Puis les Français arrivèrent aux murailles du bordj où ils furent contenus pendant un mois, mourant tous les jours, sans pouvoir franchir l'enceinte. Ils réussirent néanmoins à ouvrir une brèche, et à pénétrer dans la ville où la résistance acharnée des assiégés qui luttaient au corps à corps, maison par maison, ne cessa que lorsqu'ils détruisirent la porte de la maison où le Cheikh, qui jusqu'alors combattait avec ses hommes, s'était retiré pour prier, pendant que ses enfants tombaient les uns après les autres, les armes à la main.
L'officier Français pénétra dans la salle et demanda : «Existe-t-il un Algérien qui ne se prosterna pas devant moi ? ». Abderrahmane lui répondit : «Moi ! Abderrahmane Ibn Ziane». Le Français lui dit alors : «Si tu te soumets, tu seras traité convenablement». Le Cheikh lui cria : «Je suis un Moudjahid dans la voie de Dieu... Je préfère mourir en combattant plutôt que de vivre en traître envers ma patrie». Le capitaine lui trancha la tête et la présenta à ses soldats il leur dit : «Il y a longtemps que vous n'avez pas joué à la balle, en voici une qui est de taille, amusez-vous ! ». Puis il fit entrer les soldats qui violèrent les femmes. Les hommes se défendirent jusqu'à la dernière goutte de sang. Leurs têtes furent tranchées et jetées à la soldatesque.
C'est alors que l'un des martyrs prononça une phrase prophétique : «Un jour, cria-t-il, nos petits enfants vous chasseront de notre pays». Ce chahid a dit vrai. Après 104 ans d'occupation, ils furent chassés !

N° 87 L'insurrection de Bou Maaza et celle de Bou Baghla eurent lieu dans la partie orientale du pays. Les principales batailles se déroulèrent dans les environs de Sétif et de Constantine.

N° 88 Lalla Fatima Nsoumar était la fille de Sidi-Mohammed Ben Aïssa, le Cheikh des Rahmania. Sa mère était Lalla Khdidja, dont le nom a été donné au plus haut sommet du Djurdjura. Le mari de Lalla Fatima s'appelait Sidi Hadj Omar, du village de Takla, des Aït Iraten. Elle dirigea l'insurrection aux côtés de son mari, puis seule; elle tua le bachagha si Djoudi, allié de la France.
A la tête des moudjahidine, elle résista à l'armée française de 1856 à 1857, face à six généraux : Gastu, Renault, Yusuf, Mac-Mahon, Maissiat et Deliguy, tous placés sous le commandement du maréchal Randon, Chef suprême des opérations et gouverneur général de l'Algérie. Celui-ci disposait de 45.000 soldats bien armés et pourvus d'un équipement moderne, pendant que Lalla Fatima ne disposait que de 7.000 moudjahidine.
Les opérations de guerre se déroulèrent à travers tout le massif du Djurdjura jusqu'au sommet de Lalla Khdidja. Mais la bataille décisive eut lieu à Icherriden, le 24 Juin 1857. Lalla Fatima fut faite prisonnière au village de Takla, le 11 Juillet 1857, en même temps que ses partisans, les Khouans de la confrérie Rahmania.

N° 89 Jeu de mots : thakla signifie en arabe la femme qui a perdu son fils ou sa fille, pluriel : Thawakil.
Cette allitération s'appelle, en rhétorique arabe, «jinas».

N° 90 Les Ouled Sidi Cheikh se sont révoltés en 1864 sous la conduite du bachagha Slimane ben Hamza ben Boubeker. Ils infligèrent aux troupes françaises des défaites retentissantes au

cours desquelles la totalité des envahisseurs, y compris leur chef, le colonel Beauprêtre, a été anéantie. Le Cheikh Slimane Ben Hamza a péri ensuite en combattant, après avoir tué de ses propres mains ce colonel.
L'ennemi avait recruté des «goumiers» c'est-à-dire des algériens mercenaires qui, pendant la bataille, abandonnèrent leurs maîtres et rallièrent le camp des moudjahidine.
Au Sud de Laghouat, à la même époque, Bouchoucha déclencha une insurrection terrible : son exemple fut suivi, au Sahara également, par Benchohra. Au nord du pays, Boumezrag et Mokrani se livraient à des préparatifs sérieux. C'est alors que le Cheikh Aziz Ben Cheikh El Haddad, adressa des appels pressants à toutes les régions, exhortant les Algériens au combat et leur démontrant la nécessité de saisir l'occasion favorable, la France ayant atteint son plus bas niveau de faiblesse (fin de l'année 1870).
Le 8 Janvier 1871 Mokrani se rendit secrètement à Seddouk où il conféra avec le Cheikh El Haddad, de la nécessité de proclamer le Djihad. Au cours de la même année la famille des Mokrani se rassembla à Médjana. Après avoir prévenu l'autorité française à Alger, et offert sa démission du poste de bachagha, Mokrani, soucieux de respecter les règles du djihad en Islam, qui prescrivent de ne pas agir en traître, proclama l'ouverture des hostilités pour le lendemain. Le 15 Janvier il lança l'attaque contre Bordj-Bouareridj et l'occupa. De là, les flammes de l'insurrection embrasèrent le pays.

N° 91 Le 8 Avril 1871 Cheikh El Haddad proclama la guerre. Il avait plus de quatre vingt ans. Ce jour-là, sur la place du marché de Seddouk, il jeta son bâton sur la place du marché, après la prière du Vendredi, en présence d'une affluence nombreuse et cria : «Nous jetterons les Français à la mer, comme moi, aujourd'hui, j'ai jeté ce bâton».

N° 92 Après de nombreux combats d'une rare violence, le Cheikh El Haddad, fut fait prisonnier. On le fit promener, enchaîné dans un cercueil à travers Bougie.

N° 93 Le 5 Mai 1871 le Bachagha Mokrani est mort sur le champ d'honneur à Souffléte, près de Bouira.

N° 94 Malek El Berkani, neveu de Aïssa, un des préfets de l'émir Abdelkader, entra en dissidence le 13 Mai 1871 à Souk-El-Had, dans les montagnes de Beni Mnacer près de Cherchell, selon la méthode suivie auparavant par le Cheikh El Haddad.

N° 95 Pendant ce temps là, le Cheikh Sadkaoui, de la Zaouïa de Oudris, combattait contre l'ennemi.

N° 96 Les Ouled Sidi-Cheikh continuaient la lutte qu'ils avaient entreprise dans le sud Oranais depuis 1860. Cette guerre atteignit sa plus grande intensité en 1881, année où les guerriers de Bouamama arrivèrent jusqu'à Médéa et jusqu'aux alentours d'Alger.

N° 97 Lorsque les actions guerrières des Ouled Sidi-Cheikh et celles du Touat et d'Aïn Salah s'arrêtèrent en 1900, le Hoggar déclencha à son tour une insurrection qui, sous la conduite du Amoud (chef des Touareg) ne cessa qu'en 1912. Amoud signifie en langue Amazigh «le pilier».

N° 98 L'Aurès et le Djurdjura ne furent jamais soumis à l'envahisseur durant toute la période de résistance.

N° 99 Vers la même époque, un patriote Algérien, Mohamed Badaoui, a proclamé sur la Place du Gouvernement, actuelle Place des Martyrs, l'indépendamce du pays. Avec un groupe de nationalistes, il organisa la résistance sur toute la côte ouest d'Alger jusqu'aux environs de Cherchell. Cette tentative échoua et Badaoui fut condamné à sept ans de travaux forcés.

N° 100 L'émir Khaled, petit fils de l'émir Abdelkader, revendiquait l'égalité des droits avec les Français, l'abrogation des lois d'exception, (code de l'indigénat) et la représentation parlementaire. Dès la fin de la première guerre mondiale, il forma une délégation qui alla à Versailles où le président Wilson essayait de faire valoir les principes qu'il avait défendus, durant les hostilités, entre autres celui de la liberté des peuples à disposer d'eux-mêmes. Mais en vain...

N° 101 Le premier hymne nationaliste «Fidaoul Djazaïri rouhi oua mali» dont l'auteur est Moufdi Zakaria. Ce chant demeura le cri de ralliement de tous les patriotes jusqu'au jour où fut composé l'hymne officiel «Qassaman» écrit par le même auteur.

N° 102 Le «Centenaire» de l'Algérie célébré en 1930 pour rappeler une triste date, 1830, et la conquête de notre pays.

N° 103 Après dissolution de l'Etoile Nord Africaine, le P.P.A. reprit le flambeau de la résistance.

N° 104 Le projet «Blum-Violette» octroyant quelques maigres franchises.

N° 105 «Le Congrès Musulman» de 1936.

N° 106 Ferhat Abbas, ayant cessé de se poser des questions, reconnut la vérité. Ce n'est pas là un de ses moindres mérites.

N° 107 L'idée d'intégration à la France, prêchée par les partisans de l'assimilation, fit naître l'idée d'intégrer les deux partis (le Manifeste et le P.P.A.) après que l'expérience eut prouvé la vanité des théories de l'«Union Française».

N° 108 Allusion à la surprise extraordinaire que réserva Ahmad Messali aux foules rassemblées dans l'enceinte du stade municipal, lorsqu'il revendiqua l'indépendance de l'Algérie dans son discours prononcé le 17 Juillet 1936.

N° 109 La police colonialiste ayant fait assassiner le muphti Kahoul, accusa de ce meurtre le Cheikh Tayeb El Okbi, grand tribun de l'«Association des Ulémas».

N° 110 Allusion à la scission intervenue dans le sein du P.P.A.

N° 111 Le Mouvement pour le Triomphe des Libertés Démocratiques (MTLD).

N° 112 Le génocide de 1945 à Guelma, Sétif, Kherrata, El Aïn El Kebira (ex Perrigoville etc...

N° 113 Préfet de Constantine, un des responsables du meurtre de 45.000 Algériens en Mai 1945.

N° 114 Sous-Préfet de Guelma, autre responsable de ce carnage.

N° 115 L'organisation secrète (O.S.), créée en 1949, fut découverte par l'ennemi à Tebessa.

N° 117 Ali Laïmèche, un des premiers militants nationalistes, fut parmi les fondateurs de l'Etoile Nord Africaine.

N° 118 Kehhal Arezki fut l'un des militants les plus fougueux de l'Etoile Nord-Africaine.

N° 119 Rabah Moussaoui, autre fondateur de l'Etoile Nord-Africaine.

N° 120 Le Martyr Guerrafa Brahim, un des tout premiers militants de la cause nationaliste à laquelle il sacrifia tout son être.

N° 121 Hocine Asla : militant intrépide et infatiguable du P.P.A.

N° 122 Mohammed Taleb, une des gloires de la jeunesse P.P.A. et M.T.L.D
Douar Mohammed, héros du P.P.A et du M.T.L.D. Elu par le peuple, il fut assassiné par les colonialistes. Cette liste est loin d'être exhaustive. Les militants nationalistes, aussi bien les morts que les vivants, sont trop nombreux pour que l'on puisse les mentionner tous, ici Comme dit Dieu dans le Coran : «Certains d'entre eux ont goûté la mort, d'autres attendent leur tour. Mais ils n'ont changé en aucune façon».

N° 123 Allusion aux tendances contradictoires dites de «gauche» et de «droite» qui divisent la résistance Palestinienne.

N° 124 Allusion aux fameuses «élections libres» de Guy Mollet.

N° 125 L'autonomie interne assortie d'une dépendance avec la France.

N° 126 Dans le jeu d'échec, la Tour se dit Rokh en arabe, ou «Roc» en français (Roc venant de l'arabe Rokh).

N° 127 Les ultras d'Alger avaient dressé des barricades et s'étaient soulevés contre Paris, sous la conduite de Lagaillarde (avec la complicité de l'armée colonialiste)...

N° 128 La conférence d'Evian, prélude à l'indépendance.

N° 129 «Qassaman» qui est devenu l'hymne national algérien.

N° 130 Publié dans le «Feu sacré» recueil de poésie de Moufdi Zakaria.

N° 131 Hymne de l'armée, en arabe parlé (publié dans le même recueil).

N° 132 «Nahnou Toullabou l'Djazaïr» l'hymne des étudiants.

N° 133 «Nahnou oummal al ittihad oua l'amal» chant des ouvriers.

N° 134 «Ana bint Al Djazaïr» l'hymne de la jeune algérienne. Tous ces poèmes et chants, composés pour la plupart en prison à Barberousse, figurent dans le «Feu sacré» «Allahab Al Moukaddas» de Moufdi Zakaria.

N° 135 Khalid Ibn Al Walid et Saad Ibn Waqqas, deux grands généraux des premiers temps de l'Islam. Le premier remporta de nombreuses victoires en Syrie et en Iraq, le second vainquit les Perses.

N° 136 Hittîne est le nom d'un grande bataillle qui eut lieu en 1187 (de l'ère Chrétienne) près du lac de Tibériade, en Palestine. Cette victoire de l'armée musulmane, sous la conduite de Salah Eddine El Ayyoubi (Saladin) brisa l'élan des Croisés et ouvrit à l'Islam les portes de Jérusalem.

N° 137 Ville de Turquie d'Asie mineure, (Antakia en arabe) fut construite par les Grecs de l'antiquité, conquise par les musulmans, sous Omar Ibn Al Khattab, en 636. Les croisés la prirent en 1098 pour y installer un des quatre états chrétiens qu'ils créèrent pendant la 1ère croisade. Les Turcs les délogèrent en 1571 et la conservèrent.

N° 137 bis Sakiet Sidi Youcef, Bizerte et Oudja, furent le théâtre d'évènements sanglants où nos frères tunisiens et marocains eurent plusieurs milliers de morts, parce que l'armée colonialiste entendait appliquait «le droit de suite» c'est-à-dire la faculté de poursuivre les moudjahidine Algériens lorsque ceux-ci se trouvaient au Maroc et en Tunisie, pourtant souverains. Notre poète veut dire que le sang des martyrs tunisiens et marocains, mêlé à celui des martyrs algériens, a scellé l'unité de notre Maghrib.

N° 138 Il s'agit de recouvrer notre âme originelle (assâla) «authenticité». Ce mot est plus précis que «Thaquafa» «culture».

N° 139 La France a décidé de transformer la mosquée «Ketchaoua» en église cathédrale, le 5 Juillet 1830, le jour même de la conquête d'Alger. Le maréchal de Bourmont, en décorant les édifices d'Alger avec des drapeaux français, choisit Ketchaoua pour la faire surmonter d'une grande croix, parce que cette mosquée était l'édifice le plus élevé de la capitale.

N° 140 Le Pape Grégoire bénit lui-même cette action.

N° 141 Louis Philippe nomma les prêtres et fit paraître un édit royal pour doter la nouvelle cathédrale de tout ce qui lui était nécessaire.

N° 142 Napoléon III visita deux fois Ketchaoua et apporta le plus grand soin à l'agrandir, en faisant frapper, à cette occasion, une médaille commémorative.

N° 143 Le cardinal Lavigerie fut un des plus célèbres prélats d'Afrique. Il fit montre d'un grand zèle dans le domaine du prosélytisme. Son action échoua néanmoins car tous les Algériens qu'il arrivait à christianiser dans leur enfance revenaient à l'Islam, une fois qu'ils avaient atteint leur majorité (Voir Gustave Lebon «la civilisation Arabe»).

N° 144 A l'occasion du «Centenaire de l'Algérie» en 1930 de grandes cérémonies religieuses (congrès eucharistiques) eurent lieu dans l'ex-cathédrale à Alger et à Tunis.

N° 145 La Zitouna et Qaraouyine sont les deux foyers de la culture islamique dans le Maghrib.

N° 146 Mot à mot : les deux plus petits organes : le cœur et la langue (alasgharaïni).

N° 147 L'auteur dit «quormozi» = rouge foncé. A noter que le mot «cramoisi» vient de là.

N° 148 Allusion au poète ancien qui dit : «Lorsque les gens acceptent pour guide un corbeau, celui-ci les conduit aux charognes de chiens ! ».

N° 149 Allusion à une discussion assez animée, qui s'est instaurée lors de ce 6ème séminaire de la Pensée Islamique, et qui avait pour thème l'objectivité des Orientalistes.

N° 150 Ceci englobe, hélas, un grand nombre de musulmanes algériennes et autres musulmanes appartenant à des pays frères, toutes «évoluées», «civilisées», «progressistes» et «ouvertes» sur le vaste monde.

N° 150 bis La qualité du Bey (en Egypte' est la «Bekaouya».

N° 151 Image coranique. Allusion à Marie se réfugiant sous un palmier, prise par les douleurs de l'enfantement.

TRADUCTION DE L'ALLOCUTION DE MONSIEUR Mouloud KASSIM,

Ministre de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses clôturant le Sixième Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique

Monsieur le Grand Imam,

Messieurs les Ministres,

Messieurs les distingués professeurs,

Messieurs,

Frères étudiants, Sœurs étudiantes.

Nous clôturons aujourd'hui ce Sixième Séminaire, après dix huit jours de travail continu, au rythme de trois conférences quotidiennes suivies de débats et de commentaires qui auront eu sensiblement la même durée. Que puis-je ajouter à tout ce qui a été dit sur la question ?

Je serai donc très bref, me contentant d'aborder quelques points précis, en rapport avec le thème de mon propos, même si je suis d'avance convaincu que je n'aurai pas, en fin de compte, accordé tous les soins que j'aurais voulu consacrer à ce sujet.

L'Islam est une religion et un Etat, un système social intégral, valable en tout temps et en tout lieu.

D'aucuns estimeront inutile le rappel de ces évidences qui ne sont plus à démontrer.

D'autres les réfuteront catégoriquement, ajoutant que même si cela a été le cas à un moment donné de l'histoire, cette époque est définitivement révolue !

Néanmoins, les deux thèses sont aussi négatives, aussi stériles et finalement aussi nulles l'une que l'autre !

C'est ainsi qu'en un siècle où le monde se trouve confronté à une lutte intellectuelle, religieuse et, pour employer la terminologie moderne, idéologique, d'une rare violence, nous constatons que les penseurs, ou présumés tels, du monde musulman, se divisent en deux groupes.

Car si certains d'entre eux croient aux évidences déjà énoncées, lesquelles sont matérialisées par une civilisation et une culture parmi les plus authentiques, les plus fécondes, les plus diverses, les plus achevées, les plus profondes, les plus multidimensionnelles, puisqu'elles ont répandu leurs lumières sur la plupart des régions du monde dit civilisé et ont été le point de départ de la renaissance européenne, il s'agit seulement d'une conviction formelle et superficielle. En effet, ils ne les ont pas appliquées dans leur essence, se contentant de quelques unes de leurs apparences, et, dans les meilleurs des cas, d'un minimum de leur contenu.

Ils donnent, ce faisant, une image déformée de l'Islam et se font souvent - sciemment ou naïvement - les instruments dociles des adeptes de la stagnation, en apportant de l'eau au moulin de ceux qui soutiennent l'impossibilité de toute novation par rapport

à ce qui est et se joignent à ceux qui prétendent que ce monde est le meilleur des mondes possibles.

Ils vont même parfois jusqu'à se lier d'amitié et à contracter alliance avec les plus fanatiques d'un certain clergé sous le prétexte de coopération des religions contre l'athéisme, pour finir, sur le plan politique, par emboîter le pas à qui vous savez !

D'autres nient les évidences énoncées plus haut et ne reconnaissent pas à l'Islam ce rôle essentiel et déterminant dans l'histoire de la civilisation humaine. Ils n'hésitent pas à effacer d'un trait de plume quatorze siècles de civilisation et de pensée islamiques, en comblant le vide vertigineux ainsi ouvert par quelques banalités brillantes et certains slogans retentissants appartenants à des idéologies importées, dont le moins que nous puissions dire est que dans l'ensemble elles n'ont pas été et ne sont pas d'une grande utilité même pour ceux qu'elles concernaient, sans compter qu'elles sont incompatibles avec les composantes de notre personnalité et jurent avec notre authenticité.

Ceux-là sont coupables envers eux-mêmes et envers leur nation, qu'ils veulent laisser suspendue dans le vide s'ingéniant à perdre ce qu'elle possède sans rien acquérir de neuf, ils font partie de ces orphelins de la culture et de ces éternels suivistes et dépendants intellectuels qui - en connaissance de cause, ou par irresponsabilité - jouent un rôle combien destructeur, un rôle d'agent de l'étranger, du seul fait qu'ils ignorent l'histoire de leur propre nation, et creusent, en quelque sorte, leurs tombes de leurs propres mains, comme le dit le proverbe arabe !

C'est pour répondre aux uns et aux autres, et pour contribuer à la clarification des idées et au redressement des conceptions erronnées que nous organisons ces rencontres entre une élite de penseurs musulmans - et également de non-musulmans pour ce qui est du présent séminaire - et de jeunes étudiants des facultés et des deux années terminales du secondaire, aussi bien d'Algérie que du monde musulman des trois continents.

Nous pensons qu'en ouvrant ainsi un large débat, en diffusant les conférences dans les organes de la presse écrite, parlée et télévisée, et en les réunissant ainsi que les comptes rendus des débats et discussions dans deux ou trois volumes, en deux ou peut-être trois langues, nous aidons notre jeunesse à approfondir sa connaissance de la vraie nature de l'Islam parmi les courants intellectuels contemporains de par le monde et que nous œuvrons à la coopération et à la solidarité entre les hommes.

Frères étudiants,

Vous entendrez dire : "La religion - quelle qu'elle soit - (et l'on visera surtout l'Islam) est réactionnaire, au service du féodalisme, de l'exploitation de l'homme par l'homme, elle signifie avilissement et fermeture sur le monde ! ".

L'on vous a cité de nombreux exemples au cours de l'allocution d'ouverture que j'ai eu l'honneur de prononcer au nom du Président Boumediène, et à l'occasion des conférences et des discussions sur l'équité de l'Islam, son insistance à recommander la recherche du savoir, l'équivalence qu'il a établie entre l'encre des savants et le sang des martyrs, la révolution qu'il a apportée dans les domaines économique, culturel et social et dans les diverses activités de l'homme et ses besoins spirituels et matériels.

La raison en est que l'Islam est aussi bien une religion qu'un Etat, un système social intégral, valable en tout temps et en tout lieu, car il s'adapte au progrès bien conçu et aux exigences du siècle, avec un esprit que traduit si parfaitement la notion d' «idjtihad» (effort personnel d'interpréta-

tion des textes selon les circonstances) présente dans les déductions analogiques et le consensus (Qiyas et Idjmaâ).

Cette notion est décelable même dans l'interprétation de la tradition du Prophète, que le Salut et la Bénédiction de Dieu soient sur lui, comme nous l'avons vu à travers le dialogue d'Omar et des Beni Mouzaïna.

L'idjtihad est donc bien l'une des sources de la législation islamique, contrairement à la portée restrictive que voudraient lui accoler les partisans de l'inertie et de la stagnation !

L'Islam est aussi - quoi qu'en disent ou pensent certains bavards et certains plumitifs - un système social intégral, au sens premier comme au sens actuel de ce terme.

Nous avons d'ailleurs longuement traité de la répartition équitable des richesses en Islam, en donnant pour exemples illustres les comportements du Prophète et d'Omar..

Nous avons largement évoqué le socialisme de l'Islam - comme l'a appelé le chahid Hassan al Banna - et nous y avons apporté de nouveaux éclairages, après en avoir suffisamment traité l'an dernier au cours du 5ème Séminaire, dans le contexte de la révolution agraire et des nécessités du développement dans l'économie moderne.

Aussi, je me contenterai ici d'établir un parallèle à propos d'une institution sociale considérée comme le sommet des réalisations révolutionnaires par certains Etats européens avancés, à savoir la sécurité sociale, la pension de vieillesse, etc...

L'Islam a devancé la Suède ou tout autre pays dans le monde, qu'il soit capitaliste ou socialiste, dans la création et l'application de la sécurité sociale et dans l'octroi de ce que l'on nomme aujourd'hui l'allocation-vieillesse aux vieillards invalides et dans le besoin.

En effet, c'est Omar Ibnou Al Khattab qui a institué ce système et en a étendu le bénéfice même aux "dhimmis", c'est-à-dire aux membres non-musulmans de la société.

Ayant aperçu un jour devant la porte d'une maison un mendiant vieux et aveugle, il s'approcha de lui et, après lui avoir tapé amicalement sur l'épaule, il lui demanda : "De quels gens du Livre es-tu ? " "Juif", répond le vieillard. "Qui t'oblige à mendier ainsi ?", lui demande encore Omar, avant de l'amener chez lui où il lui donna une part de ce qu'il possédait en guise de premiers secours. Il l'envoya ensuite au responsable du trésor public, en lui ordonnant de lui prescrire une allocation suffisante à ses besoins. Puis il récita le verset : "Les aumônes (et plus précisément la zakat) sont exclusivement destinées aux *pauvres* et au démunis, à ceux qui y travaillent (collecteurs et gestionnaires), à l'affranchissement des esclaves, aux endettés (en cas de carence), au djihad et aux voyageurs sans ressources", ajoutant : "Et celui-ci est un pauvre appartenant aux "gens du Livre".

- La zakat avait si bien rempli son rôle social sous Omar Ibnou Abdelaziz que plus personne n'en avait besoin - C'est cette même zakat qui a fait dire au théologue allemand Marx Wilhelm : "Cet impôt était une obligation religieuse incombant à tous".

"Outre son cachet religieux, la zakat est un système intéressant l'ensemble de la société, et une source de revenus employés par l'Etat Islamique au secours des pauvres, selon une organisation judicieuse qui n'est ni autoritaire et dictatoriale, ni circonstancielle, spontanée et aléatoire.

"Et c'est l'Islam qui, le premier dans l'histoire de l'humanité, a jeté les fondements de cette institution admirable. L'impôt de la zakat, en obligeant les classes possédantes, les commerçants et les riches, à consentir à l'Etat une contribution au prorata de leurs

richesses, pour être utilisée au profit des pauvres et des invalides, a détruit le cloisonnement des classes au sein d'une même société et d'un même Etat, et unifié la nation dans un cadre social équitable. Cette institution islamique a enfin démontré qu'elle n'était pas basée sur l'égoïsme abject".

C'est également sous cet angle que nous pouvons le mieux juger de l'attitude ferme d'Abou Bakr, lorsqu'il combattit énergiquement ceux qui se montraient récalcitrants à payer la zakat, en disant à ce sujet : "Par Dieu, s'ils me refusent seulement l'entrave d'un chameau qu'ils livraient au Prophète de Dieu, je les combattraits jusqu'à ce qu'ils s'en acquittent".

Nous pouvons aisément faire la comparaison entre la zakat que le musulman consent librement, en vertu d'une option et pour être en règle avec sa conscience et avec le devoir religieux, et les impôts que beaucoup d'Européens s'efforçent de frauder, au risque de se trouver dans des situations délicates, comme cela est arrivé récemment à un chef de gouvernement européen contraint de démissionner à la suite d'une campagne de presse l'accusant d'avoir falsifié ses déclarations sur ses revenus personnels.

C'est aussi du "Beit el Mal" qu'Omar prélevait les traitements alloués aux impotents ainsi que l'allocation dont il avait généralisé le bénéfice aux vieillards et aux invalides, musulmans et non-musulmans.

L'Islam a été plus généreux et plus juste que les conceptions modernes sur la répartition des allocations familiales. Abou Bakr les avait, en effet, accordées à tous les enfants sans exception, contrairement aux régimes sociaux actuels qui la limitent aux enfants des fonctionnaires et des salariés.

Aux époques de l'apogée de l'Islam, cette institution a porté la générosité et la sollicitude à un point tel que les allocations familiales étaient attribuées même aux enfants illégitimes. Et c'est Omar, ce Khalife intraitable, ce défenseur farouche des vertus morales et des valeurs familiales, qui est l'auteur de cette "largesse" incompréhensible pour beaucoup et impossible pour l'époque.

La même constatation peut être faite à propos d'El Oualid Ibnou Abd El Malik qui a élargi la sphère d'application de cette allocation spéciale, d'Omar Ibnou Abd El Aziz qui a le premier admis un ascendant, en l'occurence la mère du bénéficiaire, dans la nomenclature des personnes à charge donnant droit aux allocations familiales.

Tout ceci, grâce à ce système social d'avant-garde qu'est la zakat, l'un des piliers de l'Islam et le plus éminent du point de vue social, et qui n'est cependant pas une aumône ou un don, mais une obligation divine, "un droit inaliénable du nécessiteux et du déshérité". C'est d'ailleurs cette particularité de la Zakat qui inspirera à Chawki ces vers admirables, s'adressant au Prophète (treize siècles après sa mort) :

"L'action pieuse est, chez toi, une dette mo-
[rale et une obligation sacrée,

Non une aumône que l'on souligne ou un
[cadeau,

La zakat a unifié les voies de la piété,

De sorte que les généreux autant que les
[avares s'y sont rencontrés,

Tu as donné leurs droits aux pauvres sur les
[biens des riches,

Reconnaissant aux uns et aux autres les mê-
[mes droits à la vie,

Si jamais un humain devait choisir sa voie,

C'est sans doute ta religion qu'adopteraient
[les pauvres".

Dans le même ordre d'idées, Salah Ed-Dine El Ayoubi (Saladin) a précédé de plusieurs siècles Mendès France dans l'institution de

la célèbre "goutte de lait" ! N'a-t-il pas été le créateur d'une fondation pieuse (waqf) offrant aux mères de famille le lait nécessaire à l'alimentation de leurs enfants, et ce, en édifiant aux portes de Damas deux fontaines publiques dispensant, l'une le lait, et l'autre l'eau sucrée, et où les mamans venaient deux fois par semaine puiser la ration indispensable en calcium, protéine et sucre, de leurs bébés ?

Il existait également des waqfs affectés au financement du traitement des maladies psychiques par le moyen de la musique et d'autres formes de divertissement et de relaxation.

A l'hôpital du sultan Kalaoun, au Caire, il y avait même une troupe théâtrale jouant comme unique répertoire des comédies populaires capables de délasser les malades.

Il y avait également dans le monde de l'Islam des waqfs pour subvenir aux frais de mariage des pauvres, hommes et femmes. Comment ne pas citer également le fameux waqf "ez-zabadi", consacré à l'aide aux gens de maison s'il leur arrivait de casser une pièce de vaisselle au cours du trajet entre la maison de leur maître et une autre destination.

Il suffisait alors à l'enfant ou au domestique de s'adresser au préposé du waqf qui lui remettait sans difficulté une pièce neuve, lui évitant de la sorte une punition corporelle ou une retenue de salaire.

Des waqfs étaient créés même au profit des animaux domestiques et des oiseaux, afin de les protéger, de traiter leurs éventuelles fractures et de leur assurer tel traitement en cas de maladie, ainsi que cela existait encore jusqu'à un passé récent à Damas et à Fès.

Si malheureusement rien de tout cela ne subsiste aujourd'hui dans le monde musulman, après les tempêtes qu'il a subies aux siècles d'apathie et de léthargie et après que le colonialisme ait été sur le point de lui donner le coup de grâce, l'Europe et l'Amérique ne l'ont, quant à elles, jamais connu, même à l'heure actuelle, si l'on fait abstraction de quelques sociétés protectrices des chiens, qui demeurent des exceptions plus folkloriques que vraiment sérieuses !

Ceci sans compter évidemment les waqfs destinés aux œuvres d'utilité publique, telles que les établissements d'enseignement, les routes, les orphelinats, les maisons d'enfants trouvés, les cimetières, les prisons, les puits et les sources, les hôpitaux, les bibliothèques les mosquées, etc, etc...

Frères étudiants,

Ce sont là des exemples qui peuvent paraître incroyables à certains, eu égard à l'organisation merveilleuse - progressiste dirait-on aujourd'hui - qu'ils impliquent et au cachet humain qu'ils offrent même lorsqu'il s'agit de nos frères inférieurs !

Il s'agit là cependant d'un minimum de ce que l'Islam et la civilisation musulmane ont atteint même si cela n'est que souvenir.

Notre réconfort, notre espoir, que dis-je, notre intime conviction, est que ce qui a été possible hier l'est aussi aujourd'hui, à condition que nous suivions la même voie et que nous retournions aux mêmes sources, puisque "les dernières générations de cette nation ne recouvreront leur dignité et leur grandeur que si elles observent les règles appliquées par les premières". "Telle est la loi de Dieu et il n'est pas de changement à ses décrets". "Dieu ne transformera point la situation d'un peuple s'il ne commence par se transformer lui-même. (la première citation est du Prophète; les deux dernières sont des versets du Coran).

Les Musulmans ne seront pas appelés à progresser tant qu'ils ne se seront pas posé la fameuse question de Shakespeare : "to be or

not to be" (être ou ne pas être), comme l'a fait Chakib Arslane, et tant qu'ils ne retourneront pas à cette règle d'or que sont les sources de l'Islam lequel a été, reste et restera une religion et un Etat, un système social intégral, si nous demeurons attachés à ses enseignements infaillibles, comme l'a dit Djamal Ed-Dine Al Afghâni, si nous secouons les âmes des léthargiques, comme le disait Badis, et extirpons les racines des traîtres, étant entendu que le traître au regard de Mohamed Abdou n'est pas seulement celui qui a vendu sa patrie, mais aussi quiconque aura eu la possibilité de faire quelque chose pour elle et ne l'aura pas fait, ce qui s'applique à tout musulman ayant les moyens d'éveiller la nation islamique et d'accélérer sa renaissance, mais qui, par paresse, néglige de remplir ce devoir.

Allez de l'avant et n'écoutez pas les voix marginales de ceux qui bégaient des mots creux non par conviction mais par complexe.

Ne dansez pas à tous les rythmes et ne vous laissez pas abuser par la conduite d'une certaine catégorie de gens qui ont une fausse idée du progrès et du progressisme et qui pensent que cela consiste à sortir de son authenticité, à délaisser sa religion libérale et lumineuse, à enfreindre les règles de la bienséance et les traditions.

Efforcez-vous de leur porter la contradiction avec mesure, sinon moquez-vous de ce "progressisme" folklorique !

Il m'a été donné d'entendre une fois dans un café connu d'une capitale de l'Orient arabe un homme d'âge mûr discuter avec un compagnon et lui dire : "Untel réactionnaire ? C'est impossible, puisqu'il ne respecte pas le jeûne du carême et que je l'ai vu danser, que j'ai bu avec lui du vin et qu'au surplus, il ne croit pas aux pompes religieuses ! ".

J'ai été évidemment fort étonné d'entendre pareilles réflexions, mais il y a quelques mois j'ai eu le même écho ici-même de la part d'un jeune Algérien. N'est-ce pas là une mode qui ne prouve pas autre chose qu'une grande pauvreté de la faculté d'intelligence et du bon sens, cette chose du monde la mieux partagée, si l'on en croit Descartes?

Nous sommes au regret d'ajouter que nous trouvons bon nombre de ces malheureux parmi ceux dont les études ont été "traditionnelles", comme on dit. Comme s'ils voulaient nous démontrer par là qu'ils ont répudié leur passé, qu'ils le renient, le réprouvent, le chargent de tous leurs maux, lui vouent une haine inexplicable, et, pour tout dire, ne se reconnaissent plus en lui.

Ils taxent quiconque appelle au respect des valeurs, ou tout au moins ne partage pas leurs idées superficielles et ridicules, de fanatique et de réactionnaire, d'affligé de mentalité moyennageuse, ignorant en cela jusqu'au sens du Moyen-Age lui-même et jusqu'à son appartenance historique, et n'adoptant du progrès et du progressisme que ce qui en est le plus éloigné.

Ils croient que le progrès se traduit par la fréquentation des bars et autres cabarets, par la danse et le "verre', ignorant qu'il ne peut être que synonyme d'usines et de domaines agricoles prospères, d'instituts d'enseignement et d'hôpitaux, de production constante et toujours accrue et surtout de sauvegarde des valeurs morales et spirituelles !

Ne vous laissez pas tromper par les slogans creux qui bercent les âmes de ces victimes mais néanmoins prosélytes acharnés, de ceux qui se disent "rationnalistes", alors que toute leur culture, si toutefois ils en ont une, est tendue uniquement vers la critique destructrice, l'action stérile et la négation érigée en système !

Soyez ardents à conquérir le savoir et la culture, et efforcez-vous toujours de les lier à votre attachement indéfectible au code moral, aux règles de la bonne éducation.

Soyez en même temps ouverts au monde extérieur et à ses cultures, tout en préservant comme la prunelle de vos yeux les composantes de votre personnalité et tous les éléments de votre authenticité qui constitue votre unique sauvegarde.

Par l'Islam nous nous sommes prémunis contre l'aliénation de notre personnalité et contre notre assimilation ; par l'Islam nous avons résisté et combattu depuis Abdelkader, Boumaâza, Lalla Fatma, Cheikh Al Haddad, Al Mokrani, Benchohra, Berkani, Bouchouchi, Boumezrag, Ouled Sidi Cheikh, Bouâmama, Samory-Touré, Cheikh Chamil, Abdelkrim Al Khattabi, Omar Al Mokhtar, Cheikh Amoud et d'autres noms appartenant désormais à l'Histoire.

C'est au nom de l'Islam que fut menés la lutte politique révolutionnaire et le réformisme religieux en Algérie ; c'est sous son invocation que se poursuivit le 1er Novembre 1954 pour aboutir au 5 Juillet 1962, et ce n'est certes pas fortuitement que les soldats de l'ALN se nommaient "El-Moudjahidine", que leur journal avait et a encore pour titre "El-Moudjahid" !

Il s'agit donc de l'Islam qui se matérialise dans l'édification spirituelle et matérielle, qui concilie religion et existence, et non de cette image négative qu'en ont ceux qui voudraient en faire une marionnette inanimée pour y accrocher leurs talismans et leurs espoirs, bornés au demeurant aux antiques "zardaş, waâdas et qaâdas" !

Ceux-là même qui s'opposent à tout "idjtihad", à toute évolution saine, et même au retour à l'authenticité, sous le prétexte de préserver l'Islam de toute altération !

Nous avons vu comment Omar a utilisé à maintes reprises l'idjtihad, lui dont la ferme intransigeance et la dureté étaient proverbiales.

Si nous stigmatisons ceux qui nous invitent - au nom de l'ouverture d'esprit - à détruire en fait tout l'édifice islamique, nous nous élevons également contre les partisans de l'inertie, de la stagnation et du négativisme invoqués au nom de la sauvegarde de la religion. *Car si les derniers nous invitent à fermer portes et fenêtres, les premiers nous conseillent d'ouvrir même les toits !*

C'est par cet Islam exempt de toute déformation que nous préserverons notre immunité et les composantes de notre personnalité, puisqu'il constitue le ressort de notre existence et qu'en le gardant intact nous verrons nos efforts aboutir, tout en échappant dans le même temps au jugement d'Abou Al Aâla Al Mawdoudi sur tous les pays islamiques libérés, à savoir qu'ils ont combattu par l'Islam, mais qu'une fois victorieux ils lui ont témoigné la plus noire ingratitude et lui ont tournée délibérément le dos !

Soyez plutôt comme les rossignols, qui emploient la nuit au sommeil et se réveillent aux aurores afin de humer l'air pur du matin, entonner leur concert à la louange de Dieu et rassembler leur pitance quotidienne par les moyens licites.

Evitez de ressembler aux crapauds qui passent leur nuit à s'ébattre dans les eaux troubles et à poursuivre leurs horribles croassements, et leur journée dans les creux obscurs et malsains, la vase et les rochers suintants.

Ne vous laissez pas abuser par ceux qui voudraient vous entraîner dans les "caves" et les "boites de nuit", dans l'atmosphère étouffante et polluée, en pensant que cela suffit à en faire des lettrés géniaux, des artistes inspirés, se croyant dans les caves du Quartier Latin sur la Rive gauche et se prenant pour des Jean-Paul Sartre, des Pablo Picasso et des Simone de Beauvoir.

Frères étudiants,

Je voudrais enfin remercier en votre nom à tous, Messieurs les professeurs éminents, - conférenciers et commentateurs - qui nous ont beaucoup appris et ont déployé des efforts dont nous tenons à leur témoigner toute notre gratitude, et nous espérons les retrouver bientôt, de nouveau, en Algérie.

Permettez-moi aussi d'accorder une mention spéciale à Messieurs le Grand Imam, docteur Al Faham, Recteur d'Al-Azhar, Boubou Hamma, Président de l'Assemblée Nationale du Niger, à Leurs Excellences, Chérif Nebhani, ministre du Développement Régional de la République de Guinée, Abd-Allah Ould Boya, ministre de l'Enseignement Fondamental et des Affaires Religieuses de la République Islamique de Mauritanie, Mohamed Abdou Yamani, ministre-adjoint de la Culture du Royaume d'Arabie Saoudite, pour avoir tenu à participer personnellement à ce Séminaire et à contribuer, aux côtés des autres distingués professeurs des pays frères et amis et aussi d'Algérie, au succès de cette rencontre dans la capitale de ce pays qui fête à la fois son millénaire et le dixième anniversaire du recouvrement de son indépendance.

En votre nom, je remercie également toutes les autorités et corps constitués qui nous ont aidés et plus particulièrement la Présidence, les Ministères des Affaires Etrangères, de l'Intérieur, de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique, de l'Enseignement Primaire et Secondaire, des Transports, du Tourisme, la Gendarmerie Nationale et le Ministère de l'Information et de la Culture, dont les efforts ont permis à cette rencontre de rayonner hors de cette enceinte.

Comme je remercie en votre nom les cités de Miliana et de Médéa, population et responsables, pour les deux journées mémorables qui resteront parmi les plus belles de ce Séminaire.

Je n'omettrai pas de citer également l'ensemble des personnels techniques, dames et messieurs, du Secrétariat, de l'Interprétariat et tous ceux qui ont participé, de près ou de loin, à l'œuvre commune.

A vous frères étudiants, envers qui nous avons utilisé peut être un langage de fermeté et appliqué un règlement sévère, je voudrais enfin vous féliciter pour votre discipline, pour l'attention soutenue que vous avez manifestée tout au long des travaux et pour votre contribution remarquable à l'animation des débats.

Maintenant que les Séminaires ont fait le tour de Qassantina en 1970, de Ouahrane en 1971 et d'Aldjazaïr en 1972, ils doivent désormais se tenir tour à tour dans l'une des villes de l'intérieur, apportant ainsi leur modeste contribution dans la révolution culturelle. Le 7ème Séminaire aura lieu à Tizi-Ouzou.

Mesdames et Messieurs, je vous remercie de votre attention.

VERS UNE RENAISSANCE DU MONDE MUSULMAN
DE L'ALIENATION AU RETOUR SUR SA PROPRE PERSONNALITE

Conférence donnée par Madame le Docteur Sigrid Hunke
à l'occasion du 6ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique à Alger

Si, en tant qu'allemande, j'aborde le sujet "Vers une Renaissance du Monde Musulman : de l'Aliénation au Retour sur sa Propre Personnalité", je le fais non pas uniquement en raison de l'amitié et de la sympathie que j'éprouve pour votre peuple, de l'admiration que je professe pour l'histoire captivante de votre pays et de l'intérêt que je ressens pour son évolution future, mais aussi, parce que je connais et que je comprends les problèmes de l'Algérie et du monde musulman par expérience dans mon propre pays.

Bien que le destin de l'Algérie ne soit pas comparable à celui de l'Allemagne, il existe néanmoins dans l'histoire de nos deux pays des points comparables, encore que leurs origines soient fort différentes.

Après la deuxième guerre mondiale, l'Allemagne dut reconstruire un nouvel édifice administratif, politique et économique. De plus, il lui fallut et il lui faut encore, en raison du système de «Rééducation» prescrit par les puissances victorieuses, se préserver des risques d'aliénation, de l'Ouest et de l'Est.

C'est d'autant plus difficile que l'Allemagne a perdu, par suite du rôle qu'elle joua dans le dernier conflit mondial et de la défaite qui s'ensuivit, la conscience des idéaux que lui conféra son histoire. Cette situation l'a amenée à couper les ponts avec son passé. En outre, elle est sujette, tout comme d'autres pays, à des crises psychiques causées par le matérialisme pur remplaçant toute obligation religieuse et idéale.

Cette crise se manifeste par l'insensibilisation du sentiment, du vide et des sentiments à l'égard des réalités existentielles et par les réactions d'une jeunesse recherchant quelque échappatoire dans l'usage de stupéfiants, dans la sexualité et la violence.

Notons également le problème qui consiste à maîtriser la technique, un problème qui se pose à nombre de pays et, notamment, à une société qui a perdu l'héritage de son passé, la conscience de son histoire, sa religion, voire sa propre identité.

Toutes ces blessures brûlantes dans le corps et l'âme de mon peuple m'ont conduite à en étudier les causes dans plusieurs livres dont je suis l'auteur, et à rechercher les remèdes adéquats. Ces études me sensibilisèrent en même temps aux problèmes de l'Algérie et me permirent de mieux saisir leur complexité. Je constatais aussi qu'il n'existait pas de panacée applicable d'un pays à l'autre, mais qu'il fallait considérer la situation particulière à chaque pays.

Le monde arabo-musulman qui aujourd'hui renait à la vie, demeura pendant bien longtemps sous la férule du colonialisme. Ce colonialisme qui, obéissant à sa propre logique, imposa sa culture, ses valeurs morales, ses intérêts, en un mot, son avantage aux peuples arabes.

Ce fut également le colonialisme qui transforma les hommes en instruments utiles à ses fins, en transformant leurs esprits et les assujetissant à sa manière de sentir et de penser, et à sa morale. Le colonialisme a fait d'affreux ravages dans le monde musulman et dans l'âme même de l'Arabe. Il ne laissa derrière lui que stagnation, régression, effondrement et décadence de la civilisation arabo-islamique avec la perte de la personnalité arabe et de l'identité spécifiquement arabe. Tel est le lourd héritage qu'il transmit au monde arabe.

Mais aucun pays arabe n'a été aussi profondément touché par le colonialisme étranger que l'Algérie. Aucun n'en a autant souffert qu'elle et aucun n'éprouve aujourd'hui de nostalgie aussi grave et passionnée de sa propre identité qui lui a été ravie sciemment et systématiquement par 130 années de domination française.

Le mythe fatal selon lequel la «mission culturelle française» devait franciser les esprits, faire des Algériens des Français et de l'Algérie un territoire français, n'eut d'autres conséquences que de spolier le peuple Algérien de sa liberté, de sa tradition, de sa langue et de sa religion et d'en faire un peuple vassal auquel on inculqua l'idée : «Nos ancêtres les Gaulois». Un gigantesque processus de transformation qui aliéna tout un peuple de soi-même tout en sapant les fondements de sa morale, de sa religion et de sa culture.

Lorsque, libérés de l'oppression étrangère, les pays arabes durent faire face aux exigences des temps modernes, de la haute industrialisation ils prirent des chemins différents. Que pouvaient-ils faire d'autre, semblait-il, si ce n'est de s'adapter aux temps modernes, de calquer leur futur mode de vie sur celui de leurs anciens colonisateurs, pour devenir aussi européens que les Européens ou, plutôt, aussi américains que les Américains ou aussi russes que les Russes.

Mais l'Algérie n'a pas succombé à cette tentation. Un fait bien significatif si l'on considère les deux raisons qui ont joué un rôle à cet égard et qui sont inhérentes à sa personnalité et à son histoire :

1) Un peuple qui a souffert du colonialisme au plus profond de lui-même et qui a combattu, comme aucun autre pays musulman, pour sa libération, n'est certes pas disposé à marchander une liberté acquise aux prix de tant de sacrifices, ni à troquer son indépendance si durement obtenue, contre une nouvelle dépendance et une nouvelle aliénation. Cela s'entend aussi bien dans les domaines spirituels et culturels que politiques et économiques.

2) Un peuple qui possède des liens naturels avec son passé et qui entend confier la sauvegarde de ses valeurs éthiques, non pas aux citadins, par trop affranchis, mais, comme l'a souligné le professeur Driss Chabou, aux ruraux attachés aux idées traditionnelles et communautaires, n'a pas le choix entre la tradition et le progrès - un progrès qui avance en s'éloignant de soi-même, de son terroir, de ses origines, de ses racines. Car pour lui l'un n'exclut pas l'autre. Pour l'Algérie en effet, le progrès ne peut s'ériger que sur le fondement de la tradition.

Les dirigeants algériens ont reconnu très tôt cette nécessité et ont agi en conséquence. Ainsi, le Président Boumédiene déclara : «Pour bâtir notre avenir, il nous faut retourner à nos origines et affirmer notre propre personnalité. Seul celui qui reste fidèle à lui-même peut faire face au monde moderne, sans risquer de s'identifier à ce monde et, éventuellement, de s'y fourvoyer. Il

s'agit donc de renforcer les racines pour ne pas tomber d'une aliénation dans une autre», comme écrivit le ministre algérien M. Taleb, et il poursuit : «Notre jeunesse ne pourra assumer et assimiler valablement les plus grandes acquisitions de l'Occident sans partir d'un noyau authentiquement original plongeant ses racines dans notre patrimoine culturel. En d'autres termes, il faudrait qu'elle se nourisse du suc du terroir avant de puiser aux sources étrangères et s'ouvrir aux sciences, idées et techniques modernes».

«Etre fidèle à soi-même», «retourner à ses origines», à son propre «terroir» ça c'est une maxime berbère qui convient parfaitement à l'Algérie et aux autres pays du Maghreb, pour lesquels authenticité est garantie par croissance végétative et enracinement organique. L'Algérie est, depuis longtemps consciente de cette necessité ; elle sait qu'un arbre ne peut se dresser haut dans le ciel que si ses racines plongent profondément dans le sol.

Mais quel est ce terroir, cette glèbe dans laquelle l'Algérie doit s'enraciner pour retrouver elle-même et redécouvrir sa propre personnalité.

C'est, primo, la langue arabe. La langue arabe est la clé d'un royaume auquel n'eut accés dans le passé qu'un nombre réduit d'Algériens ; la clé de sa culture héréditaire et de sa religion, de ses traditions populaires, de ses chansons, de ses contes, de ses proverbes et de sa poésie nationale. La langue maternelle est beaucoup plus qu'un simple système d'échanges verbaux.

Et puisqu'elle concrétise la pensée de chaque peuple, elle empreint la pensée de chaque enfant d'une manière qui lui permettra de s'intégrer progressivement dans le monde. C'est donc pas du tout la même chose si les enfants arabes, voire même quelques générations, sont imprégnés par l'esprit arabe ou par l'esprit français et par sa vue du monde.

Dans cet esprit français ils ne peuvent jamais devenir authentiquement eux-mêmes ni authentiquement des Français. En d'autres termes, un peuple qui, dès l'enfance, se développe dans une pensée étrangère ne s'épanouit pas de la même façon que s'il était resté au contact de sa culture originelle, et reste ainsi en vérité chez lui.

La récupération de la langue arabe est une clé qui ouvre différentes portes. Elle permet d'entrer dans le monde arabe, son propre et véritable monde, dans la pensée arabe et de reconquérir la conscience individuelle du monde musulman.

Cette terre dans laquelle l'Algérie doit reprendre racine afin de retrouver son identité c'est, secondo, l'Islam ; une religion qui, bien plus que toute autre, règle le comportement d'un peuple dans tous les domaines. Cette religion ou cette loi fait autorité pour tout ce qui relève de l'éthique, de la vie sociale, du droit privé, de l'enseignement et de la culture. Cette religion est au centre même de l'existence. L'Islam en tant que religion est la pierre angulaire de la civilisation musulmane.

C'est elle qui permettra la renaissance du monde arabe, ces considérations sont motivées par l'expérience que j'ai faite en Europe, sur un continent où l'effacement progressif de la religion prend des relations effrayantes.

Ce processus de déracination religieuse commença en Europe il y a deux siècles, et a atteint aujourd'hui son paroxysme..

Nietzsche avait déjà prédit cette évolution et ses conséquences fatales. Il parlait de la «mort de Dieu» et entendait par là que l'on ne croyait plus aux conceptions chrétiennes de Dieu et du Christianisme. Il prophétisa une éclipse de soleil jamais enregistrée dans les annales de l'histoire et d'importants cataclysmes exactement du genre de ceux que nous connaissons actuellement à l'Est comme à l'Ouest.

Le nihilisme et le matérialisme ont pris naissance, alors que la religion commençait à lâcher prise et l'homme perdait la transcendence. L'existence sans transcendence perd toute dimension de profondeur, elle est plate, vide et terrifiante. L'homme qui s'est coupé de ses racines religieuses ne voit plus aucune raison d'être valable, il souffre du sentiment du vide et de l'angoisse existentielle, il désespère.

En outre, il s'éloigne des responsabilités de ce monde et de ses hommes et cherche une nouvelle voie dans l'indifférence, dans la violence, dans un monde de sensation et de jouissance matérielles. Quant aux jeunes générations, elles vont vers une déchéance totale par la drogue et la terreur, la sexualité et la brutalité, par la maladie et la dépression. L'homme et l'humanité sont à un tournant dangereux de leur évolution.

En tant que vice-présidente d'un mouvement religieux non-chrétien en Allemagne, des Unitairiens Allemands, je vois la seule possibilité de résoudre la crise dans laquelle se trouve actuellement notre société malade et d'épargner ainsi à notre civilisation un déclin de l'humanité dans la récupération de la religion et de la transcendence.

La religion faisant partie de l'être humain. Sans elle, il n'est pas possible de guérir le monde des maux dont il souffre. Si nous ne faisons pas appel à la religion, la misère humaine ira grandissante, il y aura une marche à vide à un point mort, décomposition et déclin, et tous nos efforts resteront vains. Les hommes ont besoin d'une religion qui leur indique le chemin à suivre dans le monde et non hors du monde ; une religion qui sache prendre ses responsabilités vis-à-vis du monde et de l'humanité.

J'aimerais faire profiter le monde musulman de cette expérience amère du monde occidental et des enseignements qui en découlent. Le monde musulman, lui, est encore intact quoique menacé par areligiosité.

La perte des principes religieux risquerait d'ébranler l'ensemble de la civilisation arabe.

J'ai constaté à ma grande satisfaction que le monde arabe se tourne de plus en plus vers la religion, qu'il s'emploie à colmater les brèches, à consolider les bases religieuses de l'Islam, sans pour cela tomber dans un excès de fanatisme, de dogmatisme ou d'orthodoxie. Déjà apparaissent de nouvelles forces régénératrices dans l'Islam capables de maîtriser l'évolution actuelle de la société arabe et d'assurer sa renaissance.

Je suis émue de noter que l'Algérie, elle aussi, déploie de nombreux efforts afin de redonner à l'Islam toute sa vigueur. Immédiatement après sa libération, le peuple Algérien, dans un élan de spontanéité, se mit à reconstruire ses mosquées et zaouias. Dans cette ranimation des traditions et valeurs morales, culturelles et sociales, dans ce renforcement de l'esprit de famille, de la solidarité, du civisme et de la coopération, dans cette faculté de se dépasser soi-même et d'agir dans l'intérêt commun, même si cela nécessite un engagement journalier, voire l'abnégation de sa propre personne, on peut constater la régénération des valeurs traditionnelles.

Ces valeurs trouvèrent leur renaissance dans le feu des mitrailleuses d'une guerre impitoyable de sept ans et y connurent l'épreuve du feu. Elles constituent aujourd'hui le «socialisme» spécifiquement arabe. Ce socialisme ou cette forme progressiste de l'Islam arabo-berbère - comme le dit Driss Chabou - fut «appliqué et vécu» par les anciennes générations algériennes, bien avant que n'existaient les théories et les idéologies marxistes, léninistes et maoistes du socialisme.

Un Islam épuré de ses accessoires non-islamique, de la superstition et de ce saufisme empreint de fatalisme, de sa croyance à la précarité et à l'irréalité du monde et

de son renoncement à la vie. Cet Islam ouvert au monde et à la réalité ne va pas à l'encontre de toute évolution intellectuelle. Car, comme l'affirme le professeur Mohamed Aziz Lahbabi, «le Muslim s'engage envers Dieu, s'il s'engage en faveur des hommes. La loi musulmane et «Chahada» et «Amal», témoignage en engagement pour le monde c'est-à-dire pour Dieu, engagement de l'être total de l'homme qui est responsable au suprême degré, personnellement, de ses actes».

Retour sur soi-même et sur sa propre personnalité nécessite tertio : une rétrospective du passé historique. En effet, la connaissance de la nature et de la signification de ses propres origines est la supposition de l'identité d'un peuple qui veut agir comme créateur en histoire et civilisation. Et «toute voie vers la liberté commence par celle de son propre passé».

On fit croire à des générations d'Algériens que les Gaulois étaient leurs ancêtres et que leur histoire et leur culture commencèrent le jour où les premiers colons français foulèrent le sol algérien. Mais ils ignoraient alors que leur culture, rayonna pendant plusieurs siècles par delà la culture française encore balbutiante et «qu'avant Descartes il y eut Ghazzali, avant Voltaire et Montesquieu, Ibn Rushd; avant Vico, Ibn Khaldoun, avant Foe, Ibn Tofail, avant St. Bernard, Ibn Sina, avant Dante, Ma'arri, et avant Lamartine, Omar Ibn Rabia», comme Ahmed TALEB l'a formulé. Tandis que l'on cachait aux Arabes la culture florissante de leurs ancêtres ainsi que leur contribution considérable au développement des pays occidentaux, on en faisait accoire aux élèves algériens cette falsification grotesque de l'histoire selon laquelle la défaite arabe à Poitiers en 732 étaient une victoire des pays de l'ouest contre la barbarie.

Il est d'une importance existentielle pour reconquérir la conscience islamo-arabique et redécouvrir les qualités intrinsèques du monde arabe de déterrer le passé. Il faut rééduquer une conscience du passé qui demeura longtemps paralysée. Il faut faire revivre le passé du monde arabe dans tout son faste afin que le peuple s'en imprègne au maximum. Oui, il est en effet nécessaire d'analyser les causes du développement de la civilisation arabe, de sa gloire et de son declin afin d'en tirer une leçon.

Car les Arabes se sont déjà trouvés dans le passé devant un commencement alors qu'autour d'eux dominaient des civilisations supérieures. Ils ont retenu de l'Hellénisme, des Chinois et des Hindous ce qui leur parut vital et utile. Mais jamais ils imitèrent inconsidérément. Bien au contraire, ils passèrent toutes les idées au crible de leur esprit critique. La reproduction pure et simple d'une culture n'est jamais rien d'autre qu'une mauvaise copie qui n'engendrera qu'un semblant de civilisation, stérile et anémique, vouée à s'étioler bientôt.

La plupart des historiens européens reprochent à la civilisation arabe qu'elle soit stérile et que son rôle soit simplement celui d'un facteur des civilisations antiques, sans aucune contribution créatrice. Moi, j'ai réfuté de telles assertions, car elles ne sont pas le reflet de la réalité. Pour rendre justice aux peuples arabes, il ne suffit pas d'être orientaliste. Il faut plutôt connaître la psychologie des peuples et des cultures. L'allégation selon laquelle le monde arabe manque de créativité est motivée - en dehors du préjugé chrétien - par un manque de connaissances psychologiques des caractéristiques structurelles propres aux différentes cultures mondiales.

Cette réaction est, en outre, la conséquence d'une sur-estimation des valeurs matérielles transmises d'un peuple à l'autre - j'entends par là, aussi bien les objets utilitaires ou les éléments d'architecture que les strophes de poèmes ou les notations scientifiques - . C'est aussi un manque de discernement entre les différentes structures sty-

listiques des pensées grecque, indienne et arabe. Bref, l'observation de l'objet se fait sans sujet.

C'est en exploitant les héritages grecs et indiens à l'aide de leurs propres aptitudes, en cultivant ce précieux héritage dans leur manière propre que les Arabes devinrent conscients de leurs capacités créatrices et qu'ils devinrent capables de concevoir une civilisation tout a fait nouvelle d'une portée historique mondiale. J'ai traité en détail cette évolution dans mon livre «Le Soleil d'Allah brille sur l'Occident».

Ainsi naquit une culture mondiale d'une originalité incontestable portant le cachet de l'esprit arabo-islamique. Cette civilisation qui marqua de son empreinte unitaire un immense empire atteint un si haut niveau que même l'Occident, à l'époque hostile à toute culture islamique, s'intéressa secrètement à son enseignement et lui dut de multiples stimulations. Il ne fait aucun doute que la culture occidentale a été fortement enrichie dans tous les domaines par les achèvements du monde arabe.

Quelle source de la connaissance de la propre personnalité et de confiance en soi-même. Quelle source de compréhension de la manière, des possibilités et des tâches du propre esprit. Quelle source d'optimisme et de fierté, mais aussi d'engagement pour les héritiers actuels de cette civilisation. Quelle source de vénération devant de telles œuvres qui servent de critères au présent. Quelle source de discernement dans la manière et la mission de l'esprit arabe pour l'avenir.

Car, chers amis, il ne suffit pas d'évoquer le passé glorieux. La régénération de la grande civilisation arabe ne doit pas favoriser une évasion, oublier des réalités présentes. Elle ne doit pas servir de prétexte au contentement de soi-même, à la suffisance qui nourrit l'orgueil sans obligation à se montrer digne de son passé glorieux et tirer les nombreuses.

Il ne suffit pas non plus d'analyser les raisons pour lesquelles la civilisation arabe a connu une telle prospérité. Il faut aussi examiner les causes de son déclin, de sa stagnation et de sa décadence afin d'éviter qu'un tel danger ne réapparaisse. Le danger d'orthodoxie et de dogmatisme intolérant, le danger non seulement d'isolement et de fermeture, mais aussi d'aliénation et de dépersonnalisation.

Nous en arrivons, Mesdames et Messieurs, à un point essentiel. Comme je l'ai déjà mentionné, le danger réside non seulement dans l'isolement, mais aussi dans une trop large ouverture sur le monde jusqu'à l'aliénation. C'est une des leçons que l'histoire de la levée et du déclin de la culture arabe nous a léguée :

Tout point de vue exclusif est pernicieux, toute exclusivité, tout «d'une façon ou de l'autre» est l'ennemie de la vie».

Le problème de la renaissance n'est donc pas, comme je l'ai souligné au début : ou tradition ou progrès ; ou souvenir du passé ou ouverture sur le monde moderne et ses techniques. En fait, reconquérir une personnalité propre en régénérant la langue arabe et la religion islamique et en faisant revivre le passé : tout ça ne suffit pas pour s'intégrer dans le monde moderne d'aujourd'hui.

Tradition et évolution ne sont pas des contradictions. La vie a besoin de tous les deux. Une renaissance authentique a besoin de tous les deux : non «seulement» - mais «aussi» : non seulement tradition mais aussi progrès; non seulement le passé mais aussi l'ouverture sur les évolutions dans le monde moderne. Et de même la question ne se pose pas : parler ou bien l'arabe ou bien le français. Ici comme ailleurs toute exclusivité serait fausse.

La langue arabe ouvre la voie essentielle à la restauration de la personnalité algérienne, elle rouvre la porte à soi-même, à l'Islam, au patrimoine arabe et la porte à l'esprit

de ses grands savants, philosophes et poètes et elle demeurera toujours la base de la culture nationale originelle. La langue française ouvre la civilisation et les sciences universelles et il faut ne pas dédaigner mais reconnaître la contribution de la civilisation française.

Il serait de même absolument faux d'amalgamer le vieux et le moderne, de juxtaposer la civilisation arabe et la civilisation étrangère, le passé et le progrès, sans accord et sans communication, d'acheter des machines techniques modernes et de les placer dans un monde traditionnel ou de cultiver un romantisme et de se donner aux temps modernes décorés seulement par les fresques d'un grand passé.

Une telle culture «qui emprunte du maquillage à la civilisation moderne», pour citer Mr Lahbabi, demeurerait stérile et contrefait, une imitation sans vie et sans valeur.

C'est justement ça ce que l'histoire arabo-islamique peut enseigner aux Arabes d'aujourd'hui : A l'origine de la grandeur des ancêtres arabes et de leur civilisation florissante était la capacité de l'homme arabe d'intégrer l'héritage étranger à sa propre culture et d'assimiler et de transformer les dons étrangers, les idées, les acquisitions scientifiques, techniques et artistiques, les modèles nouveaux par *leur* esprit propre et par leur énergie créatrice en les transformant dans une expression originale de leur personnalité.

La grandeur de cette culture et les raisons de sa fécondité résident dans le fait qu'elle ne se contenta pas d'imiter machinalement l'étranger, mais de l'insuffler l'âme propre et de l'animer d'un souffle nouveau d'elle-même.

J'ai la ferme conviction que le monde arabo-islamique est sur la voie droite à sa renaissance authentique autant qu'elle est consciente - comme c'est bien le cas ici en Algérie - que : La victoire sur le colonialisme se complète et se parachève par la liberté intérieure, la liberté de l'esprit et de l'âme.

Loin de se livrer à une nouvelle dépendance découlant des influences étrangères, à une nouvelle aliénation et, par là, de retomber sous la tutelle d'un néo-colonialisme, venant de l'Ouest ou de l'Est, le monde musulman s'efforcera en premier lieu et avec constance en plongeant toujours de nouveau dans ses propres sources à la recherche incessante de son identité, de sa personnalité, de son «moi», et d'en puiser les forces et énergies créatrices qui lui permettront sa renaissance complète et de reprendre sa place bien méritée dans le monde.

Dr. Sigrid Hunke

RECOMMANDATIONS DE LA PREMIERE COMMISSION

Présidée par Mr Abdallah INAN, (historien Egyptien) :,

Considérant que l'Islam a été l'artisan d'une riche et haute civilisation.

Considérant qu'il a été un élément moteur dans notre résistance et la lutte des différents pays musulmans qui se sont exposés à l'invasion colonialiste.

Considérant que l'Islam a été le facteur fondamental qui scelle notre unité au cours de notre dernier combat armé libérateur qui a été déclenché au nom du Djihad et que les combattants se sont donné comme nom les "Moudjahidine" et leur porte parole le "Moudjahid".

La première commission recommande :

Premièrement : la nécessité de compléter tous les établissements d'éducation de l'enseignement primaire ou secondaire, et tous les organes d'information dans les pays musulmans pour une éducation islamique, seule capable d'assister les efforts de la famille qu'à son tour doit être orientée par les moyens d'éducations diverses.

Deuxièment : faire connaitre l'Islam et ses valeurs par différents moyens en particulier le livre, la presse et la radio.

Troisièment : la tenue régulière de séminaires islamiques dans les pays musulmans et faciliter la rencontre entre les savants, les penseurs et la jeunesse, une coordination judicieuse entre ces pays doit être assurée afin d'éviter l'éparpillement des efforts et la perte d'énergie et assurer une meilleure complémentarité.

Quatrièment : saisir toute occasion pour multiplier les rencontres dans les pays musulmans entre les savants et les penseurs de l'Islam et entre la jeunesse musulmane, en plus des séminaires pour la Connaissance de la Pensée Islamique qui doivent se généraliser et embrasser les divers pays musulmans, dans un ordre chronologique bien étudié et en parfaite coordination.

Cinquièment : la nécessité d'insister, au cours de ces rencontres sur le rôle efficace et décisif de l'Islam dans la libération des pays musulmans. Sur le plan politique, économique, culturel, et social et dans leur combat pour leur développement, de leurs structures sociales, l'unité du monde musulman seule capable de rendre à la nation musulmane, sa gloire, sa puissance et lui permettre d'apporter comme par le passé sa contribution au bien être, à la prospérité et la paix dans le monde.

RECOMMANDATIONS DE LA DEUXIEME COMMISSION

Voici les recommandations de la deuxième commission présidée par le Professeur Dr. W. Hoennerbach, Directeur de l'Institut des Etudes Orientales à l'Université de Bonn (RFA), relatives au rôle des cités zirides à savoir : Alger, Miliana, Médéa, dans la civilisation islamique. Ces recommandations concernent également la nécessité d'honorer la mémoire des glorieux ancêtres par la commémoration de leurs souvenirs, la diffusion du patrimoine, et de redécouvrir le passé et l'influence sur l'Europe et sur le Monde.

La deuxième commission propose à l'Assemblée pleinière du Séminaire de dégager les différents avis émis par les séminaristes, le programme suivant :

1) Rassemblement de tout ce qui a été dit et écrit à l'occasion du millénaire de ces villes.

2) Elaboration d'un catalogue comportant la bibliographie originale des ouvrages historiques d'avant la période coloniale. Seront consignés dans ce catalogue, les documents arabes, turcs et espagnols. Il y sera ajouté les documents français et allemands se trouvant dans les bibliothèques universitaires.

3) Elaboration d'un catalogue signalant les sources secondaires, c'est-à-dire les ouvrages d'Orientalistes tels que : Azan, Bernard, Bertrand, Gautier, Mas Latie, Marçais, Bouges, Yvers, etc...

Et mettre en relief leur tendance colonialiste.

4) Elaboration d'un manuel d'histoire succinte des villes, comme Tiaret, Béjaïa, Tlemcen, Alger, Médéa, Miliana et d'autres en Algérie et dans les pays musulmans en général.

5) Elaboration d'un manuel déterminant la date de la fondation de ces villes, de leurs bâtiments.

6) Mise au point d'un manuel traitant de la biographie des hommes célèbres de ces villes.

7) Elaboration d'un ouvrage géographique qui traite des changements intervenus dans la structure sociale dans la vie contemporaine de ces cités.

8) Description des relations de ces villes avec l'Europe et le monde.

9) Etude des méfaits du colonialisme français en Algérie et des tentatives de celui-ci pour le couper de son passé de ses glorieux ancêtres.

10) Restauration des noms des villes détruites et des grands noms de l'Histoire de celles-ci ainsi que des lieux liés à l'Histoire comme Tobna et autres en Algérie et dans le monde musulman.

11) Donner toute l'importance à la commémoration des anniversaires des villes et des évènements historiques, des personnalités illustres en Algérie et dans le monde musulman.

RECOMMANDATIONS DE LA TROISIEME COMMISSION

La troisième commission chargée de l'élaboration de recommandations relatives au point trois a tenu sa réunion le Mardi 29 Djoumada 2 1392 (8 Août 1972) à 10 heures dans la salle n° 3, et sous la présidence de Monsieur Othmane EL KAAK.

Etaient présents les membres de la Commission dont les noms suivent :

Dr. Omar FERROUKH

Abdelwahab SOULEIMAN

Abderrahmane EL DJILLALI

El Mahdi BOUABDELLI

Soleïman DAOUD BEN YOUSSEF

Exposé des motifs

Considérant le point trois ainsi libellé.

Optique des historiens non musulmans sur l'Islam et la civilisation islamique et la nécessité de réécrire nous-même notre histoire.

Considérant les contenus des conférences données au cours du séminaire sur ce sujet.

Considérant l'article paru dans la revue El Açala, première année n° 4 page 99 concernant un entretien avec l'historien français Ageron relatif à la remise en cause des travaux de certains orientalistes sur l'Islam et la civilisation musulmane.

Considérant qu'il s'avère nécessaire de réécrire notre histoire conformément au contenu du point trois.

La troisième commission recommande :

Premièrement : Remise en cause du cadre temporel dans la division des époques historiques qui ont été définies jusqu'à présent d'après les évènements historiques du monde occidental et des batailles décisives de la chrétienneté. Cette division sera désormais faite d'après les évènements nationaux et les grandes dates de l'Islam.

Deuxièment : Considérant que les documents étrangers manquent souvent d'objectivité, il convient de réunir le maximum d'ouvrages arabes, turcs, iraniens, indiens ou d'Afrique Noire et d'autres pays et les considérer comme des références dignes de foi.

Troisièment : Publication après une critique comparative des documents qui demeurent encore manuscrits.

Quatrièment : Réédition des ouvrages épuisés.

Cinquièment : Traduction des ouvrages étrangers dignes de foi et élaborés par les orientalistes et concernant la biographie des historiens musulmans, la traduction des historiens musulmans et l'étude de l'historiographie chez les musulmans.

Sixièment : Traduction d'une série exhaustive d'ouvrages les plus importants sur l'Islam dans tout pays musulman afin de permettre aux musulmans du monde de mieux se connaitre.

Septièment : Création d'une académie d'Histoire musulmane dotée d'une bibliothèque universelle d'archives générales et d'un musée pour les recherches historiographiques musulmanes.

Cette académie publiera un bulletin périodique qui résumera tout ce que publient les Européens sur les musulmans dans les livres et revues, pour permettre à chaque musulman de suivre le mouvement intellectuel islamique et s'informer de tout ce qu'écrivent, bon ou mauvais, les orientalistes et autres auteurs. Cette académie sera dotée de droits d'auteurs et de la protection de la propriété intellectuelle dans tous les pays musulmans surtout ce qui s'éditera en fait d'études historiographiques relatives à l'Islam.

Huitièment : Constitution d'une commission chargée de l'élaboration d'une encyclopédie historiographique musulmane qui servira de source d'information et de documentation authentique pour les chercheurs.

Neuvièment : Constitution d'une commission permanente chargée de recueillir les articles de journaux ou de revues islamiques dans toutes les langues, de les classer par décades selon les sujets et de les placer dans l'ordre chronologique selon les sujets et les pays afin de faciliter l'utilisation de ces sources importantes. S'inspirer si besoin est des travaux du professeur anglais Pearson dans la brochure islamique index dans laquelle il a publié les différents sujets traités dans les revues orientalistes pour une période de cinquante ans.

Dixièment : L'ignorance de leur histoire ancienne et moderne est l'une des causes, des conflits secouant les pays arabes. C'est pourquoi, il s'avère nécessaire de s'intéresser beaucoup plus à l'histoire des nations musulmanes anciennes et modernes dans les programmes d'enseignement comme premier pas pour promouvoir une meilleure connaissance des peuples musulmans entre eux et d'ouvrir la voie à une unité universelle.

Troisième commission :

A N N E X E

Projets de directives relatives à l'enseignement de l'histoire dans les pays musulmans.

A - *L'âge de la pierre* : La période demeura inchangée par contre son contenu ainsi conçu :

1) l'Orient arabe et islamique

2) l'Andalousie, le Maghrib et l'Afrique

3) comparaison de cette période avec celle de l'Europe en considérant l'Homo sapiens en Algérie comme l'équivalent du Cromanion en France.

B - *L'Antiquité :* Le début de cette période demeurera inchangé et sa fin débutera à la date de la division de l'empire romain en deux parties : la partie occidentale avec Rome pour capitale et la partie orientale avec pour capitale Byzance jusqu'à l'Hégire du Prophète.

Son contenu sera ainsi conçu :

I - Les arabes pendant la période antéislamique

— la presqu'île arabe

— Syrie

— Irak

II - Les Amazigh (Berbères) : origine

— civilisation amazigh lybique

— guerre de libération amazigh.

III - La Turquie antique

4) L'Iran antique

5) Achor

6) Les Phéniciens - Carthage - civilisation punique

7) Les Grecs (en insistant sur la contribution des peuples conquis à cette civilisation)

Les Romains

8) Les Juifs

9) Les Barbares

10) Les Vandales

11) Les Byzantins

C - *Le Moyen-Age :* Nous l'appellerons l'âge de la Renaissance islamique contrairement aux allégations des étrangers qui qualifient cet âge de celui de la décadence. Cette décadence s'applique pour eux et non pour nous.

1) L'apparition de l'Islam : le Message ; période antérieure à l'Hégire.

2) Les Khalifes orthodoxes (conquêtes et évènements).

3) Le Khalifat Omeyade

4) Les Abassides

5) L'apparition du Khalifat Omeyade en Andalousie.

6) Apparition des dynasties (Tahirites, Mamuluks, Hamdanites, Aghlabides, Rostomites, Idrissides, Husseinites en Sicile).

7) Apparition du Khalifat Fatimide au Maghrib - Apparition de la dynastie Ikhchidite en Egypte

8) Apparition du Khalifat Fatimide en Orient

9) Les Sanhadjas au Maghrib

10) Apparition de la dynastie Hamadite en Algérie.

11) Les Almoravides

12) Les Almohades

13) Les Hafsides à Tunis

14) Les Zianides en Algérie

15) Les Mérinides au Maroc

16) Les Seljoukides

17) Les Ghaznaouides

18) Les Ilkhanides en Irak

19) Les Empires du Soudan

20) Patrimoine Islamique et son influence dans le contact de la civilisation avec l'Europe et son influence sur elle.

Les Croisades

I) *Les temps modernes :*

Depuis la conquête d'Istambul par le sultan Mohamed et la chute de Grenade jusqu'à la campagne de Napoléon contre l'Egypte.

— Le sultanat Othoman - les nouveaux états Othomans :

— La Roumanie, la Bulgarie, la Grèce, la Yougoslavie, l'Albanie

— Evacuation des Espagnols d'Algérie, de Tunisie et de Libye

— La Piraterie (les chevaliers de Malte) lutte contre la piraterie

— La découverte de l'Amérique - l'action des historiens arabes dans l'évènement de l'Amérique

— Les nouvelles cultures et l'élevage de nouveaux animaux

— Le mouvement réformiste en Europe

— La Renaissance : la nouvelle littérature européenne ; arts nouveaux :

— le seixième siècle

— le dix-septième siècle

— le dix-huitième siècle

— Le progrès des sciences, les nouvelles inventions et découvertes - Australie

— Début du colonialisme en Indonésie, Inde et Golfe Arabique

— Iran - Afghanistan

— La Russie et le Monde Othoman

— L'éxode Indonésienne, causes, phases, influence des Indonésiens sur la Renaissance Economique, sociale et culturelle dans le pays où ils ont émigré

— Aperçu sur le monde oriental

E - *L'époque coloniale :*

— De la campagne de Napoléon à Juillet 62

1) causes du colonialisme

2) guerre coloniale

3) politique coloniale

— Pays colonisés

— La Résistance nationale

— Mouvement de la Nahda dans les pays musulmans dans les domaines de la politique, de l'administration, de la médecine, des lettres, des arts, des techniques traduction andalouse : Maroc - Algérie - Tunisie - Libye - Egypte - Syrie - Irak.

— *Les organisations :*

Développement de la politique coloniale.

— Durcissement des mouvements nationaux

La première guerre mondiale - l'entre deux guerres et les mouvements ouvriers.

Les mouvements de libération - la seconde guerre mondiale.

— La fin du colonialisme, la première indépendance.

F - L'époque des Etats musulmans :

— Le néo-colonialisme

— Les effets du sous-développement

— L'édification - regroupement politique de planification - congrès courants politique, les deux grands, le non alignement.

RECOMMANDATIONS DE LA QUATRIEME COMMISSION

- Commission de l'Eveil du Monde Musulman aujourd'hui et sa renaissance demain et le rôle dynamique de l'Islam face aux défis du siècle et aux multiples formes d'invasion et d'aliénation -

La commission présidée par l'Eminent Professeur Mohamed EL FAHAM, recteur de l'université d'AL AZHAR, s'est réunie pour élaborer ses recommandations relatives à l'éveil du monde musulman dans le temps présent et sa renaissance universelle dans l'avenir.

Elle a tenu plusieurs réunions et étudier le sujet à la lumière des études conférences et communications et commentaires divers entendus au cours des séances pleinières.

Considérant que tous les séminaristes ont été unanimes pour affirmer que l'Islam a été est demeurera la religion universelle, que le Coran n'a jamais été atteint par les différentes formes d'aliénation auxquelles se sont exposés les autres écritures, qu'il demeure toujours actuel dans sa lettre et dans son esprit - et que le progrès scientifique ne fait que démontrer d'une manière éclatante, son évidence et son rayonnement sur l'humanité.

Considérant que l'Islam est la religion parfaite parce qu'elle est l'émanation d'Allah que les musulmans sont des humains sujets à erreur lorsqu'ils s'en tiennent à la lettre du Coran sans pénétrer les gardes de son esprit et de ses visées. C'est pourquoi la commission pense qu'il est du devoir des croyants éclairés, informés du message de l'Islam de rappeler les perplexes que la logique de notre esprit et de notre comportement durant les défis du siècle, doit procéder de la même logique à laquelle Allah nous a gardé c'est-à-dire une connaissance approfondie de notre religion et le soin particulier qui mérite la langue du Coran.

Considérant l'insistance des moudjahidine sincères pour la tenue de ce séminaire et de ceux qui l'ont précédé, pour s'initier à la pensée islamique sous ses différents aspects, que la participation des savants, des chercheurs, des étudiants, de l'est et de l'ouest pour y prendre part pour l'analyse, le commentaire et les demandes d'explication est une nouvelle preuve de la justesse de cette religion et de sa vitalité; que si les générations musulmanes montantes parvenaient à en pénétrer l'esprit et en connaître le message, cela lui procurera la vigueur de pensée qui manque dans d'autres pays de l'Islam, aux générations d'égarés.

Considérant que les membres du séminaire ont été unanimes pour affirmer que les pays musulmans affrontent de nos jours, une véritable invasion intellectuelle et s'exposent à des campagnes virulentes dont le but est de semer le doute dans l'universalité de l'Islam et sa capacité à répandre aux exigences du siècle. Pour cela, ils rejettent d'une façon catégorique toute propagande pour une culture intruse qui essaye de s'infiltrer d'une façon sournoise pour prendre la place du colonialisme vaincu dans nos pays.

Ils exhortent tous les musulmans en général et les penseurs en particulier, d'appliquer les principes moraux islamiques, celui de recommander le bien et de déconseiller le mal et de se libérer de l'attitude négative héritée des siècles de faiblesse, de croire successivement en leur livre, de reprendre confiance en eux-mêmes, bref, de réformer intérieurement leur comportement afin que Dieu les aide à échanger leur situation de demeurer rattachés à leur originalité tout en s'ouvrant sur le monde avec sagesse et détermination.

Recommande :

1) De reprendre l'initiative d'édification et d'action pour sortir le monde musulman de la position de défense qui lui est imposée par les circonstances présentes.

2) De généraliser l'enseignement de la doctrine musulmane et d'introduire cet enseignement dans les programmes scolaires à tous les niveaux.

D'ouvrir à côté des universités islamiques d'autres universités islamiques où s'enseigneront toutes les sciences modernes à l'instar de ce qui existe dans certains pays musulmans.

Cet enseignement doit se faire d'une façon judicieuse et claire qui convient à l'esprit moderne et le raisonnement scientifique sans pour cela sacrifier l'essence de la doctrine et l'esprit qui la caractérise.

Le séminaire saisie cette occasion, pour saluer l'Algérie et son gouvernement éclairé qui a pris l'initiative de fonder une université islamique à laquelle nous souhaitons tout le succès voulu et demande instamment à ce qu'un nouvel essor soit donné aux grandes universités musulmanes telles que la Zitouna de Tunis, l'université islamique de Libye, l'université islamique d'Oum Darman au Soudan et l'université Elikn en Inde et leur porter assistance pour leur permettre d'assumer leur message de la façon la plus parfaite.

3) La création dans les différents pays musulmans d'instituts d'enseignement dont le but est de former des messagers compétents ayant une large culture musulmane et une connaissance étendue des langues pratiquées par les peuples musulmans non arabes, telles que l'Iranien, le Turc, l'Ordon, l'Indonésien, le Sawahili, tout en introduisant l'enseignement des langues étrangères.

4) Le séminaire recommande de propager la langue arabe classique parmi la jeunesse des pays musulmans et d'inviter les peuples et les gouvernements arabes de s'acquitter de leur rôle pour la réalisation de ce but, que ce soit en créant des établissements d'enseignement de l'arabe en pays musulmans non arabes, ou en y envoyant des missions de professeurs arabes, ou en échangeant des groupes d'étudiants.

5) D'autre part le séminaire recommande de resserrer les liens de la pensée islamique entre les pays musulmans arabes et non arabes. Ceci en procédant à la traduction des grands ouvrages écrits sur l'Islam, sa culture, sa civilisation, dans les langues de ces derniers pays, de s'informer d'une façon continue sur tout ouvrage écrit sur l'Islam par les étrangers ; ce en vue d'en contrôler le contenu, l'apprécier, et réfuter toute erreur ou déviation, y incluse.

6) Le séminaire exprime toute sa reconnaissance et salue pays musulmans qui ont conservé l'alphabet arabe pour transcrire leurs langues et lancer un appel aux pays qui ont adopté un alphabet étranger en vue de réviser leur décision, ce dans le but de préserver le lien culturel qui les lie à la langue du Coran et à l'héritage de l'Islam.

Deuxièment :

Recommandations d'ordre pratique :

1 - Le séminaire recommande de prendre soin de l'éducation de la jeunesse musulmane, afin de donner à cette éducation un caractère islamique basé sur la vraie foi, que ce soit au sein de la famille, des foyers, de jeunes, ou des organisations des jeunes : ce en vue de compléter l'enseignement de l'école et de donner naissance à une génération de musulmans forts par leur foi, leur volonté, capables de vaincre les obstacles et d'affronter tout défi.

2 - Le séminaire recommande d'autre part d'aider et de subventionner les institutions sociales, les associations de bienfaisance qui secourent les indigents et les pauvres. Ce en application du principe de solidarité entre musulmans et en vue d'arrêter la propagande missionnaire qui se manifeste par l'action de bienfaisance.

3 - Le séminaire recommande d'établir des contacts avec les musulmans émigrés dans les pays étrangers ainsi qu'avec les musulmans citoyens de ces pays en vue de s'informer de leur situation, de subvenir à leurs besoins et de leur inculquer le véritable Islam.

4 - De coordonner les relations entre les institutions des différents pays musulmans afin de regrouper leurs efforts dans tout domaine d'action pour le bien de l'Islam et des musulmans.

5 - Le séminaire se doit de lancer un appel à toute la nation musulmane peuples et Etats, en vue d'agir avec détermination et positivement en vue d'aider matériellement et moralement la révolution armée du peuple palestinien, et de lutter par nécessité entre la spoliation sioniste qui vise à effacer l'Islam et sa civilisation.

Le séminaire relate à cette occasion, avec grand regret les méfaits d'Israël qui a incendié la mosquée d'El Qods, et qui poursuit la destruction des lieux saints musulmans, la création des colonies juives au lieu et place et proteste contre les atrocités, les exécutions et les internements dont souffrent les musulmans en Palestine occupée.

Le séminaire en appelle à tous les musulmans pour condamner les tentatives de liquidation de la cause palestinienne, de les faire échouer avant qu'il ne soit trop tard; les invite à considérer la révolution Palestinienne comme le seul représentant légal du peuple Palestinien.

Le séminaire dénonce par ailleurs, les agressions répétées des Chrétiens contre nos frères musulmans des Philippines, et leur demande d'intervenir pour mettre fin à ces traitements contraires à tous les principes humanitaires.

6 - Le séminaire invite les peuples et gouvernements musulmans à redoubler de vigilance afin de se libérer de toutes les formes d'exploitation étrangère; les invite à déployer tous leurs efforts pour élever le niveau culturel, social et économique de leur pays.

Leur rappeler que le sous-développement dans ces domaines, les rend vulnérables à l'invasion intellectuelle et coloniale. Car il a été établi d'une façon évidente que le colonialisme culturel et économique est plus dangereux pour les musulmans que le colonialisme politique et militaire.

7 - Le séminaire recommande la constitution dans chaque pays participant d'une commission chargée de suivre l'exécution de ces recommandations.

8 - Le séminaire recommande de se dresser comme un seul homme devant leurs ennemis qui apportent appui et assistance aux sionistes dans l'exécution de leur plan impérialiste et de les boycotter.

Au Nom de Dieu, Clément et Miséricordieux,

Que le Salut et la Bénédiction de Dieu soient sur son Prophète Mohammed.

L'avis de la commission d'Al Iftaâ, en ce qui concerne l'utilisation du calcul astronomique pour la détermination des dates et horaires des pratiques et des fêtes religieuses - dont le jeûne du ramadhan et la prière - et l'établissement d'un calendrier islamique unique.

La commission d'Al Iftaâ, réunie le 29 moharram 1392 H, correspondant au 13 avril 1972.

Après avoir examiné les textes religieux et passé en revue les opinions des savants musulmans, anciens et nouveaux, aussi bien ceux que préconisent que ceux qui rejettent la prise en considération du calcul astronomique et son utilisation pour la détermination de la naissance des nouvelles lunes - dans le cas où la vision du croissant lunaire ne serait pas possible - et notamment l'étude du grand savant et moudjtahid, le cheikh Mohammed Rachid Rédha, incluse dans son exégèse d'Al Manar, ainsi que les recommandations du Congrès des Ulémas tenu en Malaisia du 21 au 27 avril 1969.

Considère : Que l'utilisation du calcul astronomique et des évaluations réalisées par les observatoires est licite et qu'il est permis de s'ý rapporter pour déterminer les dates et heures de toutes les pratiques et solennités religieuses - y compris la naissance des nouvelles lunes des mois de ramadhan et chouël, pour la fixation du commencement et de la fin du jeûne.

— Qu'il appartient aux responsables musulmans de prendre dans ce contexte toutes décisions qu'ils jugent conformes aux objectifs et aux textes religieux, attendu :

— Que l'un des objectifs poursuivis par le Législateur consiste à concrétiser en tant que moyen et en tant que finalité l'accord le plus étroit de la nation dans l'observance de ses obligations religieuses et qu'il est évident qu'un tel accord n'est possible qu'à condition d'adopter l'application des calculs astronomiques.

— Que cette adoption est plus rapprochée des vrais desseins de notre religion, qui visent, en l'occurence, à fixer de façon exacte et ferme, les dates et les heures des pratiques et des évènements religieux, et à exclure tout désaccord à leur propos. Car il va sans dire qu'en demandant aux fidèles de déterminer le temps de leurs obligations par la vision occulaire - dans le but d'alléger la charge de ces mêmes obligations en faveur de la nation ignorante - le Législateur n'y voyait - dans sa sagesse - qu'un moyen de lui en assurer la connaissance et non une injonction inimaginable d'adorer la nouvelle lune ou tout autre phénomène naturel.

— Que les calculs élaborés dans les observatoires apportent de nos jours un concours précieux au progrès des sciences exactes, ces mêmes sciences quil nous est fait un devoir d'assimiler et de promouvoir, et qui représentent l'un des objectifs de notre religion, comme en témoignent ces versets du Coran :

«C'est Lui qui a fait du soleil une source de lumière et de la lune un éclairage, et a fixé les phases de celle-ci afin que vous connaissiez (par le calcul) le nombre des années et la mesure du temps» (1).

«Le soleil et la lune évoluent d'après des lois fixes» (2). Dieu a dit également dans le verset relatif à la «nuit et au jour» : «...afin que vous recherchez la grâce de votre Dieu et que vous sachiez calculer le nombre des années et mesurer le temps» (3).

— Qu'en cas d'obscurcissement du ciel, à cause des nuages, par exemple, intervient la connaissance astronomique basée sur les calculs et établissant soit la naissance de la nouvelle lune - celle-ci est-elle visible ou non à l'œil nu - soit sa non-apparition, alors que toute autre connaissance ne saurait se fonder en la matière que sur des suppositions.

— Que l'une des règles de notre religion accorde la préférence à la conviction sur la croyance entâchée de doute et ne permet pas d'avoir recours à celle-ci en présence de celle-là.

— Que si l'on objecte que le concours assuré par le calcul à la science exacte est, dans le cas qui nous préoccupe, une affaire qui regarde uniquement l'astronome, le Cheikh Mohammed Rachid Rédha, a d'avance répondu à cette objection en déclarant : «Les dirigeants musulmans convaincus de son bien-fondé, peuvent décider par un acte d'autorité l'utilisation officielle de cette méthode, afin que celle-ci soit le seul critère valable pour tous». Il a, en outre étayé son propos en rapportant une troisième opinion de l'Imam Ahmed en ce qui concerne l'attitude à adopter par les fidèles en cas d'empêchement de la vision du croissant lunaire, en disant notamment : «Ils (les fidèles) doivent dans ce cas s'en rapporter à l'avis de l'Imam (c'est-à-dire du roi ou du détenteur du pouvoir) pour la fixation du commencement et de la fin du jeûne».

— Que tous les musulmans se fient au calcul estronomique pour déterminer les heures des prières - et aussi pour commencer ou rompre le jeûne quotidien - et il est connu que la prière constitue pourtant, de l'avis unanime de tous nos savants, le pilier de la religion et une piété beaucoup plus importante que le jeûne du ramadhan.

— En conséquence, la commission recommande, comme il a été préconisé par le Cheikh Rachid Rédha et le congrès des Ulémas de Malaisia, l'établissement d'un calendrier général fixant les dates où la nouvelle lune de chaque mois pourrait être visible, sauf empêchement, dans tous les pays. Ce calendrier serait distribué dans le monde pour être suivi par tout pays musulman. Au cas où un peu partout des groupes de fidèles désignés à cet effet observeraient la naissance de la nouvelle lune, leurs témoignages seraient évidemment les bienvenus et confirmeraient les prévisions de ce calendrier unique.

Il n'est pas douteux que l'usage d'un tel instrument uniforme ne concoure à éliminer un facteur de division entre les musulmans et à renforcer l'harmonie et la concorde qui doivent caractériser leurs relations. Puisse Dieu nous guider dans le droit chemin.

---

(1) - Sourate de Jonas, Verset 5.

(2) - Sourate du Clément, Verset 5.

(3) - Sourate du Voyage Nocturne (et de l'Ascension), Verset 12.

N°11

فهرس العدد

الكلمة التذكارية للرئيس بومدين على هذه الوثيقة

من بين الانجازات التى نختتم بها هذا العام انجاز نفخر اليوم بوضع حجره التذكارى ليكون دعامة لثورتنا الثقافية، وضمانا من ضمانات المقومات الاساسية لشخصيتنا العربية الاسلامية، وأساسا روحيا لبنائنا الاشتراكى.

وإن اهتمامنا بأمثال هذه الانجازات يعبر عن إيماننا بأن أمة تكتفى بالبناء المادى دون الاهتمام بالجانب الفكرى والروحى، هى أمة بدون شخصيّة أو كيان.

وفقكم الله وسدّد خطاكم

هوارى بومدين

رئيس مجلس الثورة ورئيس مجلس الوزراء

دور التعليم الأصلي
في ثقافتنا الحديثة

عثمان شبوب

لعل أهم حدث ثقافي سجل في اطار الثورة الثقافية وتوجت به انجازات هذه السنة هو اشراف السيد رئيس مجلس الثورة والحكومة الأخ هواري بومدين بنفسه على وضع الحجر الأساسي لثانوية بلكين (1) للتعليم الأصلي بالعاصمة الذي جاء تأكيدا واضحا من طرف الدولة على تدعيم هذا النوع من التعليم الذي عاش ردحا من الزمن معرضا لشتى أنواع الضغوط والابادة من طرف الاحتلال الأجنبي الذي لم يقتصر على الغزو العسكري والاحتلال الاداري والاستغلال الاقتصادي، بل عمد الى تحطيم الاعمدة التي تقوم

1) تكفلت وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية بانشاء وتجهيز هذه الثانوية التي تتكون من 40 فصلا دراسيا بالاضافة الى 4 مخابر . وتستوعب 2000 طالب من بينهم 800 طالب داخلي . وتستغرق مدة تنفيذ الاشغال 24 شهرا ، ومجموع تكاليف البناء : 281،014،40 9 د ج . ويقوم بتنفيذ البناء المركب المعماري والاشغال العمومية على مرحلتين تدوم كل مرحلة 12 شهرا .

عليها شخصيتنا وهى اللغـة ، والـدين ، والتاريخ ، وكل القيم الفكرية والاخلاقية التى نستمد منها معنى وجودنا وهويتنا .

فقد كان هؤلاء المستعمرون يرون أن الـواجب يدعـو الى مقـاومة « التعصب الاسلامى » على حـد تعبـيرهم لأنه يمثـل الحاجز الأقوى فى وجه ما كانوا يسمـونه بحركة «التمدين» والتبشير ولأنه الاطـار الأشمل الذى يحوى كل مقومات الشخصية العربية الاسلامية .

كما ركز البعض منهم على تحطيـم اللغة العربية وخاصة فى بلدان المغـرب العربى،ووضع لذلك مخططات مدققة ، أما لابقائها محصورة فى الكتاتيب ، أو قصرها على بعض المواد الدينية واللغوية،أو حذفها تماما فى المدارس الفرنسية .

واما بالنسبة لتاريخنا فقد تعرض هو الآخر لشـتى ضروب التشويه والمسـخ وأبرزت بشكل مقصود الجوانب المظلمة ، وتجوهلت الجوانب المضيئة ، والمشرفـة ، وعللت بعض الأحداث بصفات سلبيـة ، ونفى أن تكون بلادنا كيفت التاريخ بارادة أبنـائها .

والمؤسف أن هذه الكتابات المغرضـة وجدت لها صدى فى نفوس وعقول نفـر من أبناء وطننا ممن تتلمذوا على أصحاب هذه الكتابات مباشرة ، أو ممن انفعلوا بها بطريقة غير مباشرة،مثل الترجمة ، وهـم لا يجدون بأسا فى أن نمحو صفحتنا الماضية بكل ما خط فيها من مآثر فكرية وماديـة ، لنملأها بالثقافة الأجنبية وحدها ، بغـير اضافة أو تعـديل .

واذا كان لمـوقف النفـر الأول الذى تضلع فى الثقافة غير العربية ، بعـض الايجابية ، بما عرض من فنـون وألـوان هذه الثقافة ، أما عن طريق الترجمـة المباشرة ، أو عن طريق تمثلها ودمجها فى شخصيته ونظرته للحياة فى أشمل ميادينها، وأرحب آفاقها ، فان النفر الثانى المنفعل، لا تزيد نزعته عن أن تكون تعبيرا عن عقد نفسية أكثر منها اختيارا فكريا مدروسا . وتلمس ضحالته الفكرية فى هذا الطابـع الخطابى والانشائى والتعميمى الذى يبدو على كتاباته ومعالجته لهذا الموضوع .

فموقف هؤلاء عبارة عن تمرد صبيانى وليس ثورة واعية كما يحاولون أن يوهموا به غير العارفين .

ان هذين النموذجين فى حياتنا الثقافية لا يمكن أن يلعبا أى دور ايجابى فى المعركة

الثقافية التى نخوضها ، باختيارهما طريقة الهروب الى الأمام ، والذوبان فى عالم غير عالمهـــم .

ورأيى أن الثقافة العربية الاسلامية الحديثة قد بدأت تتضح لها معالم الطريق من خلال تيار ثقافى صاعد ، أخذ يحتـــل مكانه فى حياتنا الثقافية ، وهو المؤهل لأن يضطلع بالمواجهة الثقافية مع مشاكـــل الحياة المعاصرة بكل تعقيداتها وتشعباتها ، وأن يصوغ ثقافة العصر فى مقولات الثقافة العربية الاسلامية كما عرفتها عصـــورها الذهبية الأولى .

وفى هذا الاطار يمكن أن نضـــع التعليم الأصلى كأساس لهذه الثقـــافـة الحديثة التى نعمل على اشاعتها فى المجتمع.
واذا تأملنا برنامج هذا التعليم نجده يحقق هذا التكامل بين الأصالة والتفتح :

فالى جانب تدريس المواد الاسلامية كالفقه والتوحيد ، والتفسير ، والسيرة ، وأصول الدين ، والفلسفة ، نجد المـــواد العربية والعلوم الحديثة والرياضيـــات والفيـزياء ، والكيميـــاء ، والتـاريخ ، والجغرافيا ، وما يتبعها من تدريس اللغتين الاجنبيتين الفرنسية والانجليزية تسير فى خط واحد نحو ثقافة متكاملة .

ان تطبيق هذا البرنامج بنفس الوعى الذى وضع به ، وأعنى بذلك السهـــر بصفة دائمة على تكوين اطارات يتـكامل فيها هذان البعدان من أبعاد هذا التعليم : بعد الأصالة ، وبعد المعاصرة والتفتـــح ، لتتولى تطبيقه بشكل سليم ، وابعاد العناصر المنغلقة التى ما تزال تعتقد «بأن الـكون هو ما قد كان» لا «ان الزمان الحـى هـــو ديمومة متصلة واستمرار دائب» كما يقول برغسون أو كما يقول أيضا «ان المقـولة الأولى من مقولات الوعى التاريخى لايمكن أن تكون هى الذاكرة أو التذكر ، بل هى الترقب أو الانتظار،والرجاء أو الاستباق»

أقول ان التعليم الأصلى بمراعاة هذه الشروط يمكنه أن يلبى رغبتنا فى تحقيق التقدم التقنى والفنى ، لا على حســـاب تجاهل القيم الوطنيـــة والانسانية ، وانما لفائدة ازدهارها وأداء وظيفتها فى تكوين مجتمع متناسق متوازن .

انا لا نأتى بجديد اذا قلنا بأن تقدم الشعوب لا بد له من أساسين : أساس علمى وتقنى ، وأساس فكرى وأخلاقى ، وليس جديدا أيضا عند ما نقول بأهمية اعـداد الاجيال الصاعدة لعصر الثورة التكنولوجية غير أن الجديد فيما أرى هو أن نؤكد عـلى الترابط والتكامل بين هذا الهدف والهدف



جانب من الارض التى تقام عليها ثانوية بلكين للتعليم الاصلى بحى حسين داى بالعاصمة
وهو مكان استراتيجى ممتاز اختير من طرف الاخ الرئيس هوارى بومدين بنفسه

الآخر ، وأن نؤكد الصلة الدائرية بينهما .

وشواهـد التاريخ العديدة أمثـلة صارخة على ما نقول : انها تبين أن الأمـم التى استطاعت أن تنهض نهوضا سريعا ، وتخلق حضـارة جديـدة هى التى عرفت كيف تجمع بين العلم والتقنية من جهـة ، والقيم الفكرية القومية والانسانية منجهة ثانيـة .

وقد تتضح لنا أهمية الجمع بين هذين العنصرين المترابطين فى مثال الحضـارة الاسلامية واليابان ، والصين الشعبية .

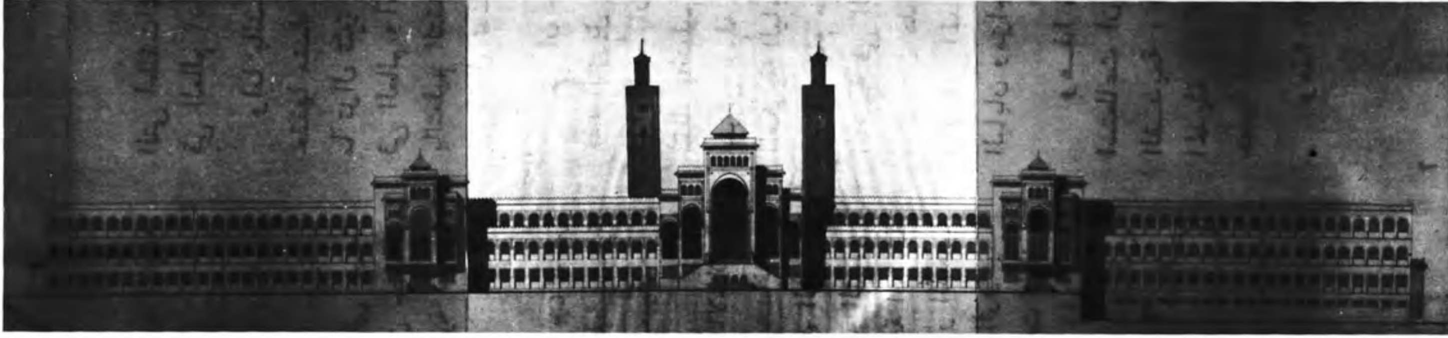
فبالنسبة للحضارة العربيـة الاسلامية فقد كانت وليدة قيم روحية وانسـانية ، آمن بها المسلمون ، وأذاعوها بين الشعوب الأخرى ، وان هذه القيم الروحية التـى احتضنت فى قلبها التجربة الثقافية العلمية التى ازدهرت وتفتحت فى العصور الذهبية الأولى للاسلام ، وان تلك القيم الروحيـة التى أشاعها الاسلام هى التى أنتجت المنازع العلمية التجريبية التى عرفتها الحضـارة العربية الاسلامية ، وان المنازع الفـكرية والانسانية فى المجتمع العربى الاسـلامى هى التى تزاوجت مع المنازع العلميـة التجريبية ، أو ليست المعجزة الاسلاميـة كما يقول فانتيجو وسواه هى تلك المعجزة التى أطلقت شرارة البحث العلمى التجريبى فى العالم ؟

وأما بالنسبة لليابان فان الوثبـة التى حققها منـذ بدايـة عصر ميجى عام 1868 ما تزال تثير اهتمام المؤرخين والاقتصاديين فى العالم،وأكثرهم يشير الى العناية العامة بالتعليم التقنى خاصة،والجهود الاستثنائية فى مجال تصنيـع البـلاد

غير أن جل الباحثين المحتقين لايقنعهم هذا التأويل وحده ، بل يبينون أن أساس هذا كله ، ان التربية اليابانية لم تهتـم فقط بالتعليم التقنى ، بل عنيت فوق هذا بغرس جملة من المبادىء الخلقية والقيـم الفكرية اليابانية القديمة وجعلتها تسـير فى انسجام مع الأفكار الجديدة للثـورة التقنية فى اليابان ، بل وان اليابانيـين ليعتبرون هذا التأليف بين الأفكار القديمة والأفكار الجديدة هو أهم ميزات ثقـافة اليابان ومزاجه الوطنى .

وهـذا مثـل الصـين الشعبية الـتى استطاعت أن توائم بين تقاليدها الثقافية القـديمة ، والاديـولوجية المـاركسيـة الحديثة ، وكانت ثورتها الثقافية مجـالا خصبا لعملية التلاقح الناجحة هذه .

وهذا الاتجاه الى الاهتمام بمشـكل



منظر عام لتصميم ثانوية بلكين للتعليم الاصلي بالعاصمة

القيم ، ظهر واضحا فى اتجاه أغلب المعاهد والكليات العلمية فى الشرق والغرب ، حتى ذات التخصص العلمى الضيق ، لادخال العنصر الفكرى والفلسفى ضمن برامجها لاعتقادها ان التقنية ليست عملا علميا باردا ، بل لا بد من ارتباطها بقيم اجتماعية وانسانية تتفاعل معها ، ومن لقائهما تنبثق دينامية التقدم لفائدة العلم ولفائدة الانسان أولا وقبل كل شىء .

وبديهى أن لكل شعب قيما خاصة انحدرت اليه من تجربته الثقافية والحضارية ولا بد من تكييفها مع القيم الانسانية الأخرى المعاصرة لتسهم بشكل ايجابى فى تقدمه العام .

كل هذا معروف . غير أن الظاهرة التى ينبغى توضيحها ومناقشتها هى ظاهرة وضع التقدم العلمى بمظاهره المختلفة ، والتراث الفكرى والثقافى القديم لأى شعب ، كشيئين متناقضين .

ان الذين يقدمون مثال أوروبا دائما كحجة دامغة ، ينسون انه لولا أوروبا الزراعية القديمة لما كانت أوروبا الصناعية الحديثة ، فالثقافة الاوروبية القديمة هى التى صنعت أوروبا الحديثة .

صحيح ان هذا التراث القديم يحتوى دوما على عناصر ميتة ، ولكن المهم هو أن هذا التراث يحتوى على نواة حية هى التى لعبت دورا فى تحريك المجتمع ، ولذلك عند ما نريد تجديد مجتمعاتنا على أسس من تراثنا القديم ، فاننا نعمد الى التخلص من الجوانب السلبية المهترئة،وبعث الحركة فى النواة من جديد .

وهكذا فاننا اذا أردنا أن ندخل فى عهد الثورة الثقافية فعلينا أن نهتدى الى هذه النواة لتكون محركها وروحها .

عثمان شبوب

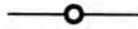
منشورات وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

قريبا سيصـدر كتـاب :

الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني

لمؤلفه

الشيخ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي



تحقيق

المهـدي البوعبدلي



من أحاديث الرباط :

طوفان الاستــلابات

الإستلاب السياسي

3

عبدالمجيد مزيان
أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

الفيلسوف :

تتضمن المفاهيم المتعلقة بالسياسة كثيرا من الغموض ، والاضطراب العاطفى . والتنقيب عــن المعنى الاصلى قد يردنا الى ان نحصر المفهــوم فى تدبير المدينة . ولكن طرائق التدبير ، ومبادىء هذا التدبير ، وحجم المدينة ، وتخصص المدبرين كلهــا مشاكل فكرية تجرنا الى النقاش الطويل المتشعب .

عالم الاجتماع :

تحديد النقاش يقتضى الاختيار بين منهجين . اما أن ننظم الى النماذج المدنية الموجـــودة أو التى وجدت فى التاريخ لتدرس كما هى ، وهذا المنهاج الوضعى هو الذى يجرى عليه العلماء ، واما ان نوسع الموضوع الى مبادىء التدبير ونصبح باحثين خياليين وعاطفيين ، ورغم ما للخيال والعاطفة من قيمة فى هذا الميدان فانى أرى ان الطريق الوضعى أصوب .

الفيلسوف :

يجب أنْ نحترز من ذلك النوع من الوضعية المضيق لآفاق التفكير ، خصوصا فى ميدان انسانى مثل ميدان السياسة والمدنية ، حيث الطاقة الخلاقة للبشر وأنواع الابداع كثيرة ومتنوعة . فالخيـــال كمنطلق تغيير الاوضاع « الوضعية » كما تقولون ، والعاطفة كأساس للنقد الاخلاقى مثـلا تعد مـــن صميم السياسة المدنيـــة . وحتى لـــو كنـــت وضعيا صلبـــا فأنـا لا أومـــن بوجـــود نموذج للانسان السياسى لا يتغير ، ولا أرى انه يعيش ويعمل حسب قوانين حتمية تجعله كما يقول ماكياقيلي الرجل « اللااخلاقى لان الاخلاق ليست ميدانه » فعيـــب المنهج الماكيافيلى هو الاسراف فى الوضعيـــة الـذى يجر الى حصر السياسة المدنية فى التطبيقات كمـــا نقول اليوم .

عالم الاجتماع :

جلنا يرى أن السياسة المدنية محصورة فى التطبيقات ، ومن أجل ذلك صرنا نعتبر النمـــاذج الكائنة هى المنطلق الوحيد للبحث العلمى فاذا أخذت نماذج مما هو كائن فى أنواع الحكم مثلا ، قـــررت انطلاقا من هذا بان الاستبداد الأسيوى يتصور فى جنكيز خان وتيمور لنك ، والديكتاتورية فى هتلر ومن يشابهه فى طرائق الحكم ، فانا انطلق من النماذج الحية لأتفهم النماذج النظرية . واما ان أتعدى حدود هذا الموقف النظرى ، فيبدو لى أن ذلك هو الخيـــال الطائش .

الفيلسوف :

ليس الخيال الناقد ، المتصور لمجتمعات أفضل من النماذج الموجودة ، فى حدود من الواقعية الراجعة الى تحديد امكانيات التطبيق ، مما يجوز وصفـه بالطيش . ذلك أن الثورات مثلا كانت فى انطلاقها نقدا لنماذج موجودة وتصورا لنماذج أخرى مـــن التدبير السياسى ، فى حدود تفكير واقعى . امـــا تقريرنا أن الميدان السياسى ميدان حتميات مطلقة فمعناه اننا ننفى التطور التاريخى من الاساس .

المـؤرخ :

نظرتى الى السياسة من خلال التاريخ جـــد متشائمة ذلك انى أرى الابداع الانسانى منذ أول حضارة بشرية معروفة وهى حضارة « الفراعنة » ، انما هو ابداع ضئيل . فالسياسة كما كان يراها الفراعنة عبارة عن قهر للشعوب وقد أخذت مختلف الحضارات التى اتت فيما بعد بهذا المبدأ السياسى نظريا وعمليا . فالروم والفرس أهل تدبير سياسى على القهر . اما النموذج الديمقراطى الذى عرف عند اليونان فلم يكن ممكن الوجود الا فى المدن الصغيرة . ولقد انمحى من الوجود بمجرد انْ اتسعت المـــدن

والاوطان وليس ابن خلدون بالبعيد عنا وهو الذى عرف السياسة بناء على النماذج الاسلامية بأنها « السلطان القاهر » . ولست أرى أى نوع من الحكم يوجد اليوم منقطع الصلة بالفرعونية القاهرة للشعوب . فاما قهر بدائى من النوع الاسيوى الغليظ واما قهر بالحيل والتستر وراء الديمقراطية، واما قهر بالتسلط الروحى الذى هو الدعاية وانواع المخادعات الفكرية والفرعونية كانت تركيبا من كل هذه الانواع .

طالب :

هل يمكن ان نقول بان الاستلاب السياسى هو هذا السلطان القاهر الذى ذكرتم .

الفيلسوف :

ان الاستلاب السياسى أوسع آفاقا وتأثيرا من القهر الذى يبدو لنا واضحا فى ممارسة السلطة .

عالم الاجتماع :

تتكلمون عن الفهم السياسى بطريقة معيارية كأنه الشر بنفسه ، والواقع أنه من صميم الحياة المدنية ، انه نتيجة توزيع الاعمال والتخصص . وهو الوسيلة التجريبية ولا أدعى انه الوسيلة العقلانية ، لتدبير المدينة . فالقهر السياسى استلاب فى حالات معينة وهى حالات التطرف فى بعض النماذج البدائية للحكم . فالسلطة الفردية مثلا والتسلط الطبقى العنيف من الاستلاب السافر . أما وجود الحاكم والمحكوم فشرط من شروط الوجود المدنى نفسه .

الفيلسوف :

المهم أن نتتبع أنواع الاستلاب السياسى مهما خفيت ذلك ، ان كل تخصص يؤدى الى تنصيب جماعة حاكمة باسم القوة ، أو باسم القانون ، أو باسم مبدأ من المبادىء يجر معه سيلا عارما من الاستلابات ، كما سنرى . وعلينا الاختيار بين أمرين : اما احصاء هذه الاستلابات للتخفيف منها واما التفكير فى بناء مدنى جديد على أسس لا قهرية. أما ايماننا بالنموذج المدنى الحتمى الذى يفرض حتمية السلطان القاهر فعقم فى الخيال السياسى .

المصلح الدينى :

نخشى ، اذا أطلقنا العنان للخيال السياسى أن ننجر مع ذلك التيار الذى ينتسب الى «الطوبية» أو أنواع المدن الفاضلة كما كان يسميها القدماء ، فنصبح متخيلين للعدالة بكيفية مطلقة ، وللمجتمع المثالى بكيفية شبه فوضوية . بل يجب أن نرى فى الواقع الاجتماعى منطلق كل تفكير اصلاحى ، حتى لا نتيه فى شبه شيوعية أفلاطونية ، أو شبه اباحية منبثقة من مقتنا العاطفى للمجتمع . واذا اردنا أن نرفع الاستلابات السياسية فعلينا أن نرجع الى الاخلاق لنربط بها المجتمع فى بنائه ونشاطه .

الفيلسوف :

كان دائما هذا الموقف هو عيب التفكير عند الكثير من المصلحين الدينيين : اقرار الواقع السياسى ، ثم محاولة اصلاح هذا الواقع السياسى بالدعوة الى مبادىء أخلاقية . أما التفكير فى ثورة قاضية على المجتمع الفاسد من جذوره وتبديله

ببناء جديد فكان يعد دوما من قبيل الخيال الطائش ، فالاخلاق المطلقة التى يتشبثون بها مجرد مبادىء غامضة . واذا تعمقنا موضوع الاخلاق والسياسة فسنجد أن لكل مجتمع أخلاقه . وقد تكون فى الغالب أخلاق هذا المجتمع مع سياسته بنية فكرية واحدة ، رغم وجود فوارق فى التطبيق . وصغار الثوار يلجأون الى اصلاح التطبيقات ، وقلما ينتبهون الى اصلاح البناء الفكرى . هنا يلعب الخيال السياسى دوره البناء . فكأنى بكم تحكمون على الخيال الفكرى فى السياسة كما يحكم عليه المحافظون فى الاحزاب السياسية لانهم يخشون انهيار البناء الذى عليه تعتمد كل امتيازاتهم ومكتسباتهم . وما رأينا المحافظين ينظرون الى الاخلاق الا كأنها السند الفكرى للامتياز المادى .

وعيب رجل الاخلاق أو شبه المصلح الذى «يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر» هو نظرته الجزئية السطحية التى تجعله يماشى الواقع فى أجزائه التافهة غير منتبه الى تفرعها عن البناء الضخم الذى هو المجتمع بما فيه من اقتصاد وسياسة . وما يختلف اثنان فى أن الواقع التاريخى أو ما نسميه بالحياة السياسية يخضع جله للصدف . فتلفيقات الثورات السطحية التى تبدل الاشخاص والجماعات الحاكمة ، والادعاءات اللفظية للمصلحين الاجتماعيين كل ذلك لا يتعدى مرحلة مسايرة الصدف . وهذا راجع الى عقم الخيال السياسى . وان بطولات مثل هؤلاء المصلحين بطولات كاذبة . فابن تومرت مثلا يفضح حكم المرابطين لان بلاط المرابطين مملوء بالخمر والجوارى ، ولكنه لا يفضح نوع البناء الفكرى والسياسى بأكمله ، وهو على كل حال لا يتخيل تقاطعا بين نموذج ممكن الوجود والنموذج القديم ، بل ذهب الى مسايرة هذا النموذج القديم ، وما طال الامد بأتباع ابن تومرت حتى غرقوا فى الخمر والجوارى ، ليست الدورية الخلدونية سر من الاسرار العميقة فى الحياة الاجتماعية والتاريخية ، ولكنها محصورة فى عقم الخيال السياسى عند رجال القرون الوسطى .

المصلح الديني :

لا يخلو التفكير الدينى من خيال سياسى وروح ثورية لانه جاء لتقويض البنيات القديمة التى تسمونها بالفرعونية ، رغم ان هذا التفكير يحمل الناس عاطفة خلقية تمكنهم من التحول الى بناة مجتمع عادل ، فالجماعة الاخلاقية فى الاسلام الاول وهى المتكونة من النزهاء مثل على ، وعمر ، وابن مسعود ، وأبى ذر ، فشلت فى مهامها بعد طغيان الارستقراطية التجارية ، ولكن الفكرة باقية ، ويمكن تجديدها .

الفيلسوف :

نحن متفقون فيما يخص ثورية الاديان ، نظريا ومبدئيا ، وما هو صحيح بالنسبة للاسلام الاول ، فهو أيضا صحيح بالنسبة للمسيحية الاولى مثلا . لكن مقتضيات كل دراسة عقلانية تجعلنا ننظر أيضا الى الدين التاريخى أى كما عاشه الناس . وهنا نلمس عقم التفكير السياسى عند جل المفكرين المنتسبين لمختلف الاديان . ذلك أنهم مرتبطون دائما بمشروعية ما ، وانهم غارقون فى الهياكل القانونية

أما الشجعان فيتناوشون مع السلطان القاهر فى جزئيات خلقية وأما المستدجنون فلا يجوز أن نعيرهم أى اهتمام فى ميدان الفكر لانهم أساسا متهمون بالتدليس . ولا ننسى مع كل هذا ان عاطفة العدالة المكبوتة عند الشعوب قد وجهت عند كثير من رجال الدين الى خيال جنونى هو من صميم الاستلاب السياسى . فتعويض العدالة الاجتماعية بالمهدوية مثلا ، وتقديس الصبر على الظلم ، والانواع الاخرى من الشعوذة المنومة للشعوب هى الضباب أو الافيون الذى كثر عليه الكلام فى أيامنا هذه .

المصلح الدينى :

أليس الافيون موجودا حتى فى الفلسفات ؟ ان المثالية الماقتة لكل تدخل فى ميدان العمل ، المقتصرة على تصورات خيالية ، ضرب من التضليل ، انه لا يكفى أن تكون لدينا أفكار نبيلة فاضلة ، ومهما كمل النسق الفكرى الذى ترتبط به هذه الافكار الفاضلة فانه سخف اذا كان تطبيقها مستحيلا . فجراءة الخيال ليست من فضائل التفكير السياسى فيما أعتقد . ولدينا أمثلة كثيرة عن هذا . منها شيوعية افلاطون . وفردوس أوطوبيا لمورروس ، وعالم الانسان المتفوق لنيتشة .

الفيلسوف :

الحقيقة ان هذا الضرب من الخيال يعد متاهة فكرية ، ولكنه رغم كل عيوبه يفوق المهدوية بنزوله الى الارض . ان «أوطوبيا» مدينة يبنيها البشر للبشر ومسؤوليتهم كاملة فى هذا البناء . أما المهدوية فاتكال على تدخل الله لاصلاح الشرور البشرية . والاوطبيات نقد صارخ للاستبداد واللامساواة ، بينما المهدوية تسالم الاستبداد كأنه شر لا بد منه فى انتظار الفردوس المهدوى . فالآمال الميتافيزيقية كتعويض لشرور الواقع استلاب من النوع البدائى.

وأؤكد أن الخيال السياسى البناء لا ينتمى الى أى نوع من هذه الانواع التى نتكلم عنها . ذلك أن «أطوبيته» مبنية على دراسة الواقع الحالى وبناء نموذج ذى أسس علمية . فالنسق المدنى الذى يتخيله المفكر السياسى منطلق من نقد عميق لما هو موجود . والتفكير فى التطبيق هنا لا يقل أهمية عن البناء نفسه ، بل البناء له أساس تطبيقى .

وللزيادة فى الايضاح يمكننا أن نقول ان الخيال السياسى البناء يوجد بين الاوطوبية المطلقة والواقعية الضيقة . انه عدو المكياڤيلية كما انه عدو الافلاطونية .

عالم الاجتماع :

اننا مع كل هذه الايضاحات نفهم أن الخيال السياسى ليس من العلم فى شىء مع أن الموضوعية العامية فى دراسة المجتمع عدوة الميكياڤلية وعدوة الافلاطونية ان صح وصف الموضوعية بأنها عدوة لشىء ما .

الفيلسوف :

العلم وصف للواقع . والخيال السياسى نقد لهذا الواقع . مع محاولة ابداع فى تصوره لبناء مجتمع عادل . ان الخيال السياسى يتعدى العلم ولكنه يربط تصوراته بالبناءات الممكنة علميا وعمليا .

طالب :

هل يجب أن نفهم من خلال المناقشة أن دور الخيال السياسى مهم جدا فى تحديد الاستلابات السياسية ؟

الفيلسوف :

هذا هو المقصود من المناقشة . نريد ألا يرد علينا باسم الواقعية والحتمية حينما نسمى الاستبداد واللامساواة شرورا سياسية يمكن تبديلها بتدبير عادل للمدينة . ان ضيق التفكير المكيافيلى راجع الى خطيئتين على الاقل ، فالخطيئة الاولى هى تصوره لطبيعة سياسية مستقلة عن ارادة البشر . فالسياسى فى نظره يكون جزءا من هذه الطبيعة وهو يعمل فى اطار قوانين تخضعه ولا يستطيع اخضاعها الا فى نطاق ضيق . فاذا كان السياسى عند ماكيافيل سفاكا وخداعا فهو متجاوب مع الطبيعة السياسية. ذلك أن أخلاق السياسة ليست بالاخلاق الفردية ولا الاخلاق المبدئية . وهذا ما نسميه نحن مسايرة للصدف ومسايرة للواقع على أنه محتوم لا يمكن تغييره . أما الخطيئة الثانية فى التفكير المكيافيلى فهى انعدام كل عاطفة وخيال فيه مع استهانة وازدراء للبشر جعلته لا يتصور مطلقا قدرتهم على الخروج من الانماط الاجتماعية التى عاشوا عليها منذ آلاف السنين ، وهى بطبيعة الحال الانماط الاستبدادية المبنية على اللامساواة واستعباد البشر للبشر .

طالب :

يبدو مما وقع عرضه هنا ان الاستلاب يوجد حتى فى طرح الموضوع أى فى تحديد التفكير السياسى .

الفيلسوف :

نعم ، ان اخضاع التفكير للواقع فى ميدان لا يختلف فيه الواقع عن الصدف لمن صميم الاستلاب . لنتصور مليا كيف كانت تدور الحياة السياسية فى القرون الوسطى : العصبية القوية تأكل العصبية الضعيفة . ثم تنتصب مشروعية مكان مشروعية سابقة ، وتستخدم العقيدة والقوانين لتثبيت المشروعية المتغلبة . وتتوالى العصبيات عبر القرون دون أن يظهر مفكر ينادى بعقم تفكير رجال العقيدة ورجال القانون المشرعين لمشروعية العصبيات فمفكرو المشروعيات فى مثل هذه الحالة يعانون استلابا قاسيا . لانهم لا يتخيلون انعدام العالم الاجتماعى الذى يعيشون فيه ، ولا تحركهم أية عاطفة للتفكير فى تفتيته . رغم ما فيه من عفونات محسوسة . ان مسايرة الواقع فى هذا الميدان سور حديدى مضروب للحد من آفاق التفكير السياسى . وهذا ما نريد أن نتلافاه فى تعرضنا للاستلابات السياسية .

طالب :

اذا كانت المدينة فى تكوينها نتيجة لتجارب بشرية طويلة الامد ألا يمكن أن تعد بعض المكتسبات صالحة فى حد ذاتها ؟ فالمدينة أو لنقل الدولة هى الاطار السياسى لكل حضارة وكل علم وكل تقدم .

الفيلسوف :

صحيح ان الحضارة والعلم والتقدم مكتسبات لم تتمكن البشرية من الحصول عليها الا فى اطار

الحياة المدنية . ولكن لننظر الى البطء ، والصدف ، واللامساواة ، فى توزيع هذه المكتسبات ونحن لا ندعى أن رفع الاستلاب فى هذا الميدان يبدأ من زمنى الحياة المدنية والرجوع الى الفوضى ، بل القضية قضية تصور نمط عادل للحياة المدنية . فاذا أخذنا الحياة السياسية لنتتبع آثار الاستلاب فيها فاننا بناء على ما ذكرنا سنجد الاستلاب الاول فى بناء الدولة نفسه ، لانه بناء تقريبى ، غامض ، أغلب حركاته موكولة بالصدف واللاوعى ، والغريزة . وسنرى أن المفكرين الذين يدعون وجود العقد الاجتماعى ضمنيا فى نموذج الدولة ذات الطابع الغربى الرومانى انما هم مفكرون مسايرون للواقع ومشرعون للمشروعيات . . وسنرى أيضا أن القانون بناء يدعى الوضعية وصيانة حقوق المجتمع أو الاغلبية منه ، ولكنه فى الواقع قانون لحماية مصالح الطبقة الغالبة . وسنتطرق أخيرا الى الاجهزة المختلفة لنرى ما تحتوى عليه من تدليسات وتناقضات ، وستبدو لنا من خلال المناقشة أنواع الاستلابات السياسية فى هذا النمط الاجتماعى الذى يعده بعضهم قمة ما وصلت اليه البشرية من الابداع فى الميدان المدنى ، ألا وهو النمط الغربى الرومانى.

– يتبع



اطفال الثورات لايخافون

الطفل الصغير « هوابينه » قال في اخر صورة من فيلم راوول كوتارد عن الفيتنام : « يا ابي قل لي ما هو السلام » ؟

وفي عام ١٩٦٠ استعان المخرج يان ليماسون بالاطفال الجزائريين، في فيلم « عمري ٨ سنوات » . وتميز الفيلم بتواجد رعب الحـرب . لقد كان ذلك في الجزائر .

وفي ٢٥ الجاري ستعرض رسوم اطفال فيتنام الشمالية فـي باريس باشراف جمعية الصداقة الفرنسية ــ الفيتنامية . وهـــذه الرسوم وضعها اطفال المدارس الذين تتراوح اعمارهم بين ٨ و١٣ سنة ، وقد قدمت الى الجمعية في نيسان الماضي ، قبل ان يتجـدد القصف باسبوع واحد .

وفي هذه الرسوم يصور الاطفال الفيتناميون الشماليون حياتهم اليومية بالالوان . هناك بالطبع الحرب التي تحرق وتقتل ، لكننا قلما نراها في هذه الرسوم ، فهي لا تظهر الا في ثلاثين رسما فقط : امراة نائمة على الارض وتحمي طفليها خلال هجوم ، طفل يتأمل بيتا مدمرا، اشجار مكسرة بكثرة . وهذه الرسوم تصور الحرب والدمار ، ولكنها لا تصور العدو ابـــــدا .

وبقية الرسوم تتناول حياة الاطفال ، والاعداد اليومي لحرب الشعب التي يشاركون فيها بهدوء وفرح : فنرى في رسوم الاطفـــال



من اعمال طفـــل فيتنامـــي

عائلات تحمل الازهار والمواد الغذائيـــة للمقاتلـين وراء المدافـــع المضادة للطائرات ، كما نرى اعجاب الاطفال في المدن بالارياف المحيطة بهانوي ، حيث كانوا ينقلون اليها في اغلب الاحيان ، تاركين مدارسهم اما بسبب القصف ، واما لحضور اعياد راس السنة القمرية وزرع اشجار صغيرة ، والرقص في مجموعات كبيرة تحت شمس تغطـــي السماء كلها . ويقول احد اعضاء جمعيـة الصداقة الفرنسية ــ الفيتنامية : « الاطفال لا يخافون ، اذ ان صفاءهم يعكس صفـــاء آبائهم . لقد عاشوا ضد الحرب ، ولم يعيشوا في الحرب » .

الوحــدة الثقــافية للمغــرب العــربي

عثمان الكعاك
مؤرخ تونسي

ان للمغرب ثقافة مشتركة · ثقــافة مرت بعدة لغات وارست بالنهاية على العربية التى هى أم اللغات وسيدة الساميات ولغة القرآن الكريم ولسان الثقافة العلمية والادبيــة والفنيــة والتقنية طوال اثنى عشر قرنــا وهى تسترجع الآن اولا باول وبخطى عملاقــة مكانتها العــالمية · فان استقلال الدول الاسلاميــة ولا سيما العربية منها جعلتها تهتم فى برامج تعليمها بهذا اللسان المبين · ثــم انتشرت فى الدول العربية وفى كثير مــن الدول الاسلاميــة وحتى الامريكية أو الاوروبية صحــافة كبرى واذاعــات وتلفزات تجعل الانسان يسمع خمس ساعات باليوم على الاقــل الى هذا اللسان الموسيقى القوى التعبير الرائع التراكيب اللطيف البلاغيات ·

وتكاثر الكتاب والمترجمون والباحثون ورفعت الامية فى كثير من الاقطار وشاركت المرأة الرجل فى التعلم العربى والتعليم والتاليف والترجمـة وانحدر سن المطالعة الى عهد الطفولة فصار اطفالنا يطالعون فى سن مبكرة بعد ان كـانوا يشرعون فى المطالعة ـ ان شرعوا أبدا ـ ليلة زفافهم ٠

وهذه اللغات التى مرت بالديار المغربية وتركت فيها اثرا ثقـافيا هى البربرية والبونيقية واللاطينية والتركية ، والاسبانية والايطالية والفرنسية ٠

والثقافة ليست الادب فقط بـل العلوم والفنون مـن موسيقى ورسم ونـقش ونحت وتطريز وتخريـم وترصيع ٠ وهى ايضا المعمـار بمدارسـه البربرية والبونيقية والرومـانية والعربية والتركية والموحدية والاندلسية والمدجنة Medujar

فكل هذه المظاهر الثقـافية هى مقدار اشتراك بيننا معشر المغاربة فهى العروة الوثقى التى لاتنفصم عراها ٠

لكن هذا لايعنى اننا نعيش بمعزل أو يجب ان نعيش بمعزل عن الثقـافة العربيـة الشرقية القديمة والوسيطة والحديثة ـ كلا وألف كـلا ـ لانها مصدر مستمر لثقافتنا العربية ٠ كما ان اخواننا المشـارقة لا يستطيعون ان يتجاهلوا ابـن هانى وابـن زيدون وابن عمار وابن باجة وابن الزرقال وابن رشد وابن زهر وابن طفيل والمقرى والسوسى وابن رشيق وابن شرف وابن منظور والاجدابى ٠ وليس ذلك فقط بـل لابـد ان نكون على صلة وثيقة مـع الآداب الايرانية والآداب التركيـة والهندية والهندونيسية والسوداء لأنها آداب اسلامية ولان هذه الشعوب الاسلامية قد قدمت قسطا وفيرا للأدب العربى العام مثل البخارى والترمذى والنسائى وسيبويه والطبرى وابن المقفع والفارابى وابن سينا وابن الهيثم وطاش كبرى زاده ومصطفى شلبى (الحـاج خليفـة) واحمد التنبكتى واضرابهم ، لا سيما وان المستقبل الثقـافى فى هاته الجمهوريـات الافريقية الحبيبـة سيكـون اهتمامها بالعربية والدراسات الاسلامية والتأليف فيها ، ولـم تكن هنـاك طوال العصر الوسيط قطيعة ثقـافية بين هذه الاقطار والعالم المغربى على اننا لاننسى نصيبنا من الادب المغربى لأنـه أدب رفيع مغذ دسم طريف ٠ وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : (أطلبوا العلم ولـو بـالصين) ومعناه الامر بـاكتساب الثقـافات المتعددة بعد الانتهاء من الثقافة الاسلامية وحتى قبل الانتهاء منها على شريطـة تصحيحها وارساخها فى الذهن اولا واعتبارها الكنز الاثمن يمكن الافتخـار بتوزيعه على العالم ٠

وذلك لاننا معشر المغـاربة نعيش فى رقعة من هذه الارض الكريمة بها اربع نوافذ ٠

١) نافذة شرقية اولا : تطل على الشرق وياتى منها النسيم العليل المنعش وقد جاء منها الفينيقيون الكنعانيون العرب فى القرن الثـانى عشر قبل الميلاد وعلمونـا الفلاحـة والتجـارة والصنـاعة والملاحة والكتابة ٠

وجاءنا منها العرب : يعلمونا الاسلام والعربية والحضارة الاسلامية ٠

وجاءنا منها الايرانيون فعلمونا نظـام الحكم والعسكريـة الفنية والزراعـة المستحدثـة والآداب الايرانية ٠

وجاءنا منها الاتراك فعلمونا الاسلحة النـارية والشرطة المتحركة وفـن الابراج والقـلاع الزراعية والاسلامية الحرة الغيورة والملاحة المتقدمة ٠

٢) نـافذة جنوبية : جـاءتنا منها الحضـارة الزنجية الاولى التى تشمل الموسيقى وفنـون النحت

والمسرح الساذج والصناعات التقليدية الاولى ·

وجاءنا منها البربر من اليمن وهم مـن حمير فهم من العرب العاربة ، فاقاموا حضارة كبرى فيها النظام الجمهورى القبائلى وفيها التعـاون الزراعى والصناعى والبنائى والتجارى ، وفيها نشاط النحلة ونظامها المرتب وترتيبها السلمى من ملكة وشغالات وتقسيم عمل ، وفيها دؤوب النملة التى هى الح مـن خنفساء واكثر عنادا من اندلسى وفيها تقسيم العمل وتقسيم المجتمع النملى واقامته الحدود ، وقد قاموا بـدور كبير فى القديم والوسيط سـواء بالاندلس او بـاى قطر من اقطـار المغرب واقـاموا حتى خلافـة الموحدين التى اسسها المهدى ابن تومرت ·

وجاءتنا من هذه النـافذة الثـانية الحضـارة المصرية التى انتشرت بقرطاجنة منذ القرن السادس قبل الميلاد مـع مصر واثرت فى جـوانب متعددة من النواحى الحضرية ، وصارت وحدة ثقافية مع مصر و آل بطوس Battides بشحات Cyrêne بليبيا مع مدرسة الاسكندرية التـابعة للبطـاسة وكـانت المعاهدة العلمية المغربية بشرشال وقرطاجنة والشحات تتعـاون مع مدرسة الاسكندرانيـة ولمـا اراد غورد يـانوس الثـانى Gordien II الامبراطور الرومـانى التونسى ارسل بعثة عسكرية الى ايران اضاف اليها الفيلسوف المصرى فلوطينس Plotin ليطلع على الفلسفة الايرانية والهندية والاشرية والشرقية بوجه عـام حتى اذا انضـافت الى الفلسفـة اليونـانيـة والرومانية كانت كلا فلسفيا عديم النظير ·

وجـاءت مصر مـرة اخـرى الى المغرب فمن الفسطاط كان انطلاق عمرو بفتح ليبيا · ومنها كـان يـاتى الـولاة الى المغرب ، الى ان استقلت الولايـة المغربية ثم استقلت البلدان المغربية نفسها خلال القرن الثانى الهجرى فصارت الدولـة الامويـة بالاندلس والادريسية بـالمغرب الاقصى والرستمية بـالجزائر والاغلبية بافريقية (بالتشديد اى هى تونس) وانتسبت المدرسة الفقهية المغربية الاولى الى الفسطاط الى أن انتشر مذهب الاوزاعى اولا ، ثم جاء المذهب الاباضى ثم استقرت المدرسة المالكية فانتشرت بـواسطة على بـن زيـاد الليبيى دفين تونس ثـم سحنون بن سعيد التنوخى ودراس بن اسماعيل واضرابهما ، على أن المدرسة الفقهية البرقاوية استمرت فى البرقيين الذين كان معظم تعلمهم بمصر الى أن أسس سحنون معهد دروسه باجدابيـة حيث لا يزال الجـامع الذى كـان يدرس فيه قائما ، والى أن تأسست مدرسـة تاهرت وطبنة والمسيلة وبونـة ، وربما تلمسـان وقسنطينة فانهما قديمتان ونضيف اليها على الخصوص مدرسة سدراتة ·

واتصل المغرب بمصر مـرة أخرى كبرى حين توجه الفاطميون الى مصر على عهد المعز لدين الله الفاطمى وتأسيس القاهرة المعزية والجـامع الازهر من طرف القائد جوهر ·

وعلى عهد النهضـة الاولى فى مفتتح القـرن الماضى تاكدت صلات ثقافية جديدة بين المغرب ومصر فجاءت منها الكُتب المطبوعة الاصيلـة أو المترجمة ثم جاء الامـام عبده المصلح الكبير فـزار الجـزائر وتونس ثم تعددت رحلات المصريين ثم جـاء التمثيل ثم الاذاعة ، ثم جـاء الاساتذة بعد الاستقلال فقاموا بـدور يذكر فيشكر وجعلت ارساليـات الطلبـة الى الشرق كما كانت فى صدر الملة ·

وجاء من هذه النافذة الثانية عرب الفتح الاول سنة ٢٧ هـ ، وهم قبائل متعددة من حجازية ونجدية ويمنية وعراقية وكويتية وشامية ، وجاء العرب مرة ثانية فى آخر القرن الرابع الهجرى فأعان ذلك على تأكيد العربية والعروبة فى البلاد ·

النافذة الثالثة : مفتوحة على الشمال جاءنا منها الرومان واليونان والنورمان والاسبان والاندلس والايطاليون والفرنسيون والانكليز وبوجه عام جاءتنا منها الشعوب والحضارات الاوروبية في مختلف عصورها الحجرية والقديمة والوسيطة والمعاصرة فاعتنقنا أصولها وهضمناها وشاركنا فيها واجدنا المشاركة وضممناها الى بقية ما هضمناه من الحضارات الجنوبية الى الشرقية وصهرناها فاذا بها ، في احسن أصولها جزء من تراثنا ومن حضارتنا واذا بنا متصلون ومنفعلون بخير ما يوجد في الحضارة الغربية التي هي تشمل في أصل نشأتها عناصر شرقية صريحة بقدر ما نحن منفعلون بالحضارة الشرقية في أية مرحلة من مراحلها منذ العصر الحجري الى يوم الناس ، واذا بالمغربي انساناً لا انسان واحد في خير ما يوجد عند الانسان من عقل وقلب وفكر وعلم وأدب وفن وتقنية وحضارة وسلوك وفلسفة وتصوف وعقائدية ·

فنحن انسان شرقي كامل قد درسنا وهضمنا علوم الشرق وتعاليمه وآدابه وفلسفته وفنونه وتقنياته وتعاقيله وفكره التأملي والرياضي على السواء ، والتحليلي والتجميعي على السواء ·

ونحن انسان غربي على قاب قوسين او ادنى من الغرب درسنا اللغات الغربية فحذقناها ودرسنا العلوم والآداب الغربية في أي عصر من عصورها وضربنا في ميدانها بسهم مصيب وترجمنا اليها وترجمنا عنها · وانفعلنا بالحضارة الغربية بقدر ما انفعلنا بالحضارة الشرقية ، فاذا اضفنا الى ذلك شخصيتنا الافريقية واصول حضارتنا الافريقية التي تشمل عناصر مصرية وزنجية وبربرية كنا انساناً حضرياً مثلثاً بادراس وكنا بنك حضارات شرقية وغربية وافريقية تجمع الحضارات وتحللها وتصنفها وتصهرها في بوتقة واحدة فتخرج منها حضارة عالمية انسانية علمية وادبية وفنية نوزعها على العالم كانا وكالة توزيع حضاري عالمي لذلك اتسمت التآليف العربية الاصيلة بالعالمية كجغرافية الادريسي وطب ابن الجزار وفلك ابن ابي الرجال وشمس المعارف للبوني وموسوعة التيفاشي العلمية ونفح المقرى وتاريخ ابن خلدون ولسان العرب لا بن منظور وفلسفة ابن زهر وابن باجة وابن الطفيل وابن رشد وتراجم الكتب العربية الى اللاتينية التي قام بها قسطنطين الافريقي ·

– النافذة الرابعة : هي النافذة المغربية التي جاءتنا منها الحضارات المراكشية والمرابطية والموحدية والاندلسية والاسبانية والبرتغالية والقوطية والوندالية والاميركية ·

فتكاملت حضارتنا فصار المغرب متحفاً دائماً حياً متزايداً قاراً وحركياً لحضارات الامم وصار أرشيف هذه الحضارات ومتحفها الناطق باخباره وآثاره المنوه باخبارها والراوي لازدهارها والمترجم لأعلامها واحبارها والموزع لها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في عامة اعصاره وعموم اطواره · فلا تشذ عنه حضارة منها ولا يتاخر عن المساهمة بجدارة وصدارة في كل واحدة منها فصار المغربي انساناً حضرياً سامياً مثالياً نموذجياً مربعاً بالرأس · قد جمع في بوتقة واحدة حضارات العيون والبحيارات والانهار والبحار والاجواء · وحضارات الزنوج والبربر والفنيقيين والايرانيين والمصريين واليونانيين والرومان والوندال والبيزنطين والعرب والنومان والاندلس والاسبانيين والاتراك والايطاليين والفرانسيين والاميركيين ·

ليس في علوم هذه الأمم الا ولابناء المغرب فيها نصيب وليس لآداب هذه الامم ادب الا وقد ساهم فيه مغربي وكان في الطليعة منه وفي احسن مكان

من الشمس بــه ، وليس لهذه الامم فــن موسيقى او معمــارى او رسم او نحت الا ولابنــاء المغرب الدور الكبير فيــه وليس من لغــة من لغــات هذه الامم الا وللمغاربة فيها شعر ونثر وكتاب وقول ونصيب شاهد فى هذه اللغة المغربية الدارجــة التى هى فسيفساء جميلة نــاصعة ملتصفــة تصــدر هذه الحضــارات المتعاقبة فى ابدع لوحة فسبحان الخلاق العظيم ٠

هذا هو دورنــا الحضارى التــاريخى الأوفى نعطى وناخذ ونشارك ونريد ونخلق ونجمع ونصفف ونوزع ٠

فيجب ان تكون ثقافتنا فى الحــال والاستقبال على هــذه الاسس العربيــة ركنهــا الاول هى لغــة تعبيرهــا وتاريخها وآدابهــا ولكــن بــدون ضيق فى التفكير ولا تحديد فى التعبير ، فالمغــربي يستطيع أن يتعلــم ويتكلــم ويجيــد الكتــابــة شعــرا أو نثــرا باية لغة على شريطة أن يكــون ذلك بعد حذقــه لغته الوطنية الاسلامية التى هضمت غيرها وعاشت أطول منها ومــاتت الاخرى بعد أن أدت رســالتها فورثتها العربية على وجه الدهر وعــاشت بعدهــا الى أبــد الآبدين ودهر الداهرين والى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ٠

وعلى هذه الأسس يجب أن تتقــاسم جامعاتنا معاهد دراسات لعصورنا القديمة كمعهد الدراسات الصحراويــة ومعهد الدراســات الاندلسيــة ومعهد الدراسات الافريقية ومعهد الدراسات التركية ومعهد الدراسات الفولكلورية وفى مقدمــة هذه المعاهد دار الدراسات القرآنيــة ودار الدراسات الحديثية ودار الدراســات الاسلاميــة ، ومــن معــاهد الصــدراة معهد ترجمة ما ألفــه الرومــان والاتراك والاسبــان والايطاليــون ، والفرنسيــون والانكليز عنــا ، حتى نستقل بثقافتنا مثــل ما استقلنــا سياسيــا واداريــا وعسكريا واقتصاديا ، فيجب ان نستقل ثقافيا أيضا أى أن نستقل بمصادرنا التى لا يتم الإستقلال الثقافى الا بوجودها ٠

وذلك أن كل أمــة مهما كــانت اذا وقعت تحت نير الاستعمار فطــالما الاستعمار قــائم فيها فمعظم مصــادرها بلغــة المستعمر حتى اذا استقلت وجدت فراغا عظيما فى هيكل ثقافتها كان ما لديها من الكتب البــاحثة فى شؤونها هو بلغــة الاجنبى ، فيجب فى مرحلة أن تترجم هذه الكتب وفى مرحلــة ثــانية أن تصحح اغلاطها وفى الآن نفسه وخصوصا فى مرحلة ثانية أن تالف كتبها عن نفسها بنفسها لنفسها وبوجهة نظر نفسها فما حك جلدك مثل ظفرك وما خــدم أحــد أحدا أفضل من نفسه ٠

ثم ان الاوروبيين أسسوا فى بــلاد الاستعمار مجلات اقتصادية وتشريعية وفنية وتاريخية وجامعة تعد بــالعشرات كمجلات علم الاسمــاك ، والنــحل والاغنام والخيل والحشرات والصيد والفلاحة وزراعة البرتقــال واللوز والكروم وتربيــة الدواجن الى غير ذلك ٠ وكــل هذه المجلات تعطلت بطبيعــة الحــال ٠ فتكونت طبعــا هوة علمية تقنية داخليــة وخــارجية فيجب أن يتوزع المغرب هذا العبء الثقيل اللازم وان تظهر معظم هذه المجلات من جديد فيختص كــل قطر بنصيب منها وتتشــارك جميع الاقطــار فى تحريرها والاتفاق عليها وتكون بالعربية مع تلخيص بالفرنسية والانكليزية ٠

ومن جهــة أخرى يجب أن تكون هنــاك معاهد ثقافية على المستوى الاتحادى مثل المتحف الاتحادى والمكتبة الاتحادية ومركز البحوث الاتحادى ، ويجب أن يقع الاتفاق على برنامج تعليمى موحد مع استثناء ما يجب أو ما تريد الدول أن تحتفظ بــه كالجغرافية الخاصة والتاريخ الخاص ، ويجب أن تكون هنــاك اجتمــاعــات دوريــة بــين وزراء الثقــافة والتعليم

والمسؤولين عن الثقافة فى الاقطار المغربية للتشاور وضبط الخطط الموحدة ٠

ويجب أن تكون هناك مؤتمرات ثقـافية دورية وأكاديمية اتحـادية تضبط الاصطلاحات وتوحدهـا وتنسقها مع المشرق وتتولى تعريب أمهات الكتب التى تتعلق بالمغرب وجمع الوثائق ويجب أن يكـون هناك معهد اتحادى للمخطوطات وجمعيات تقنية اتحادية كالجمعية التـاريخية والجمعيـة الاثريـة والجمعية الادبيـة وجمعية العلـوم الى غيـر ذلك ، ويجب أن ينظم التزاور والتشـاور بين الاساتذة والمثقفين فى دوامة مستمرة ٠

هذه هى الاصـول العـامـة التى يعتمد عليها توحيد الثقافة المغربية وفوق كل ذى علم عليم ٠



الإيديولوجيـــة الثورية في الحركة الوطنيـة الجزائـــرية

أحمـــد قنانش

لقد قامت الحركة الوطنية الجزائريـة بايدى العمـال المغتربين ، فاصطبغت بـالصبغة العمـالية وأصبحت تمثل الطبقة الشغلية المهـاجرة ، وتأثرث بالجو العالمى الذى كان يسود أوروبـا من أفكـار جديدة ، وايديولوجية ثورية ، وترعرعت فى فرنسا ، وبصورة خاصة فى « بـاريس » التى شهدت الثورة الفـرنسية الكبرى · وثـورة ٤٨ وثـورة لاكومين ، وكـانت تزخر بعد الحرب العـالمية الأولى بحركـة عمـالية ثوريـة تستمد مثلها من الثـورة الروسيـة وتتغذى بمبـادئها : من مـاركسية ولينينيـة ، وبعد اعلان مبـادىء ويلسـون التى تبخرت على مستوى الحكومـات ولكنها اثمرت على مستوى الشعـوب ، وبعد نجاح الكارتل دى قوش بزعامة « هيريو » ·

كل هذه الأحداث قد تركت بصماتها على العامل الجزائرى ، وصبغت الايديولوجية الجزائرية بالثورية وامدتها بالروح الجديدة ، والنظم المسـايرة للتطور التاريخى التى خلقت من العامل الامى المغترب عـن وطنه منـاضلا سيـاسيا ، يفرض وجوده واحترامه على المستعمر فى عقـر داره ، ويسـاهم فى معركـة تحرر عالميـة تتخطى الفوارق الجنسيـة والـدينيـة واللونية .

هذا من ناحية التأثير الخارجى أو الشكلى أما من ناحية المضمون فقد كان هناك رصيد من دين عتيد جمع بـين المهاجرين فى أرض الغربة ، فأثـار فيهم النخوة والكرامة ، وبقايا عـادات وتقـاليد كـانوا يعتزون بهـا حصنتهم من الذوبـان والتميع ، ونفس متمردة ثائرة على الطغيان ومتعطشة الى العدالـة ، وحنين الى الـوطن الام كـان يدفعهم الى أن يقوموا بواجبهم شان غيرهم من المغتربين .

ثم كانت هناك ريـح جديدة هبت مـن الشرق بعثها جمال الدين الأفغانى بمجلته « العروة الوثقى » التى كانت تصدر ببـاريس ، وباتصالاتـه المختلفة ، وتصريحاته الجريئة، ثم مصطفى كامل الزعيم الشاب مؤسس الحزب الوطنى المصرى وما قام به من دعاية فى الأوساط الفرنسية ضد الاحتلال الانجليزى ، ثم الجماعات السياسية العربية التى فرت من استبداد الأتراك وأنشأت جمعيات سرية ومؤتمرات فى فرنسا على الخصوص وأوروبا على العموم ، ونهضة تركيا الحديثة ، وانتصارات مصطفى كمال ومـا تركته من صدى لدى جميع الدول الاسلامية ، وتجربـة الأمير خـالد فى المطـالبة بـالحقوق السيـاسية بواسطة الانتخابات ، وأخيرا حرب الريف التى هزت العـالم العربى والفرنسى ، وقد قـام فيها الحزب الشيوعى بنشاط لا مثيل له ، وأصبح اسم عبد الكريم الخطابى منارة يهتدى بها ، وقد قال الشاعر السورى فى وقته ينبه الشرقيين الى أن يأخذوا المثل من الريف اذ يقول :

الـريف فى الغرب مرفوع له علم
فهل لواؤك يابن الشرق مرفوع ؟

غير أن الحركة الوطنية قد امتازت على غيرها من الحركـات فى البـلاد العربية والاسلاميـة بعدة امتيازات :

١) النظرة الشاملة للمشكل الأسـاسى وهو التحرير التام من السيطرة الأجنبية بكل مظاهرها : السياسية والاقتصادية والثقافية .

٢) اختيار العمال كركيزة أسـاسية ثورية فى الوقت التى كانت غيرها من الحركات السياسية تقوم على المثقفين وأصحاب المناصب والتجار .

٣) الاعتماد على العمل الثورى لتربية المناضل، وجعله يتمرن على تحمل المسؤولية بشجاعة وحزم .

٤) الاحتكاك بالأحزاب المخاصمة والمعادية مما مكنه من التسلح بزمام المبادرة أمام كل حادث جديد، وأن يكون مستعدا للهجوم قبل أن يهاجم .

٥) النظـام المكحم ، والامتثـال للأوامر التى تعطى من طرف المسؤولين .

٦) الديموقراطيـة التى جعلتهم يشـاركـون بآرائهم فى الاجتماعات العـامة ويدافعون عنها بكل حرية ، ثم الاقتراحـات التى يقدمونهـا فيما يخص الحلول التى يرونها صالحة .

٧) محاسبة المسؤولين عن تنفيذ مهامهم ، ثم انتقادهم أو تأييدهم .

٨) وضوح الأهداف والوسائل وبساطتها .

٩) تكويـن ايديولوجيتها الثورية فى مـيدان العمل ، وعلى ضوء الحقـائق التى كـانت تعيشها ، فكانت الأفكار تتولد من العمل وتقود الى العمل .

١٠) تكوين ايديولوجيتها الثورية انطلاقا من أرضية الشمال الافريقى والواقع الاستعمارى ، واعتمادا على قاعدة اجتماعية معينة وواقع تاريخى يأخذ بعين الاعتبار العقائد والعادات والتقاليد مستعملة الدياليكتية الثورية كوسيلة للتحليل السياسى ، وربط الحركة الوطنية بالحركات التحررية عبر العالم وبما يجرى على الصعيد الدولى من أحداث .

وقد تأسست حركة نجم الشمال الافريقى على انقاض جمعية دينية(١)كانت هى النواة الأولى وعاشت سنة كاملة من أول ١٩٢٥ الى أوائل ١٩٢٦ بعد ما يتبين لأعضائها أن من واجبهم أن ينزلوا الى ميدان الكفاح السياسى ، الطريق الوحيد للوصول الى أهداف سامية وخلق مجتمع جديد يتماشى والتقدم العصرى .

وانعقد أول اجتماع بشهادة السيد بانون (٢) أكلى أحد أعضائها الأوائل يوم ١٥ ماى بنهج بروطان ٤٩ باريس وفيه وقع الاتفاق على اسم « نجمة شمال افريقيا »

وفى ٢ جوان عقد أول اجتماع عام أعلن فيه عن تأسيس الحركة وعن اسمها .

وفى ٢ جوليت انعقد اجتماع للأعضاء بقاعة النقابة نهج « قرانج اوبيل » وفيه تأسست اللجنة المركزية التى كانت تضم ثلاثين عضوا أشهرهم كما يلى :

حاج على عبد القادر	غيليزان	رئيسا
مصالى الحاج	تلمسان	كاتبا عاما
شابيله الجيلالى	البليدة	أمينا للمال
السى الجيلالى محمد السعيد	اربعا ناتراثن	عضوا
بانون أكلى	سيدى عيش	عضوا
معروف محمد	الأصنام	عضوا
قدور قار	الأغواط	عضوا
سعدون	بنى عباس	عضوا

وبوسعنا أن نختار ثلاثة أحداث نطل منها على مدى النشاطات التى قامت بها الحركة فى أول نشأتها ، والطريق الصعب الذى اختارته للوصول الى أهدافها البعيدة . وهذه الأحداث هى :

١) انشاؤها لجريدة الاقدام

٢) مشاركتها فى مؤتمر بروكسل لمكافحة الاستعمار .

٣) تحديد موقفها من القضية الوطنية ومن الحزب الشيوعى .

فبعد تأسيس اللجنة المركزية والمكتب التنفيذى، كان أول عمل استرعى اهتمامها هو انشاء صحيفة تكون لسانها الناطق باسمها وفعلا فقد أسست جريدة « الاقدام » فى السنة نفسها وقد كتب تحت عنوانها جريدة شهرية أسست للدفاع عن مسلمى شمال افريقيا وللأسف لم نتصل بأى عدد منها الا صورة عنوانها وما نقل عنها فى الصحف والمجلات ولا سيما فى نشرة ادارة افريقيا الفرنسية، وتأسست لجان تحمل اسم أحباب جريدة « الاقدام » فى تونس وفى القاهرة ووزعت منشورات بهذا الاسم.

وهاهو منشور باسم جماعة من التونسيين أحباب جريدة «الاقدام» ان جريدة الاقدام قد اسستها جميعة نجمة شمال افريقيا . فجميع التونسيين والجزائريين والمغاربة يمكنهم ـ بغير تحفظ ـ الدفاع

(1) مصالى الحاج فى حديث خاص
(2) شهادته ستنشر قريبا

عن مصالح بلادهم المبنى على الوطنية الصادقة والمخلصة ، فليطمئن الشعب التونسى فالجريدة ومسيروها ليس لهم اى ارتباط بأى حزب سياسى سوى حزب الاستقلال الوطنى الثورى ٠

ولقد انتظم حول هذه الجريدة بعض التونسيين وهم متيقنون باستقلالها ومتفقون على الموقف السياسى الذى يعبر عن أغلبية الشعب التونسى ، ويوجهون هذا النداء لمواطنيهم يدعونهم فيه الى العمل ٠

وقد كانت الجريدة تصل الى تونس بانتظام حتى ضاقت بها الاقامة العامة ومنعتها من الدخول بقرار وزارى بتاريخ ٢٨ ماى ١٩٢٧ ثم عطلتها الحكومة فى باريس لوجود صفحة فيها بالعربية والعربية لغة غير معترف بها فى فرنسا ثم خلفتها أخت لها حملت اسم « الاقدام الباريسى » واضطلعت بنفس المهمة ولكنها لقيت نفس المصير ٠ وقد كتب فى صدر أحد اعدادها هذه الفذلكة بالفرنسية السيد « سارو » يؤكد بأن الاستعمار الفرنسى انسانى ٠ فى هذه السنة ٠ فى تونس والجزائر والمغرب ، مآت الآلاف من الأهالى يموتون جوعا ٠

والسنوات تتتابع وتتشابه ٠ فقر ، وضغط
فليسقط الاستعمار !

وعلى الصفحة العربية ما يلى :
« فى الانتخابات البلدية بالجزائر ، من ٤٨٠٠٠ جزائرى ١٦٠٠ لهم الحق فى الانتخاب وقد امتنع منهم عن التصويت احتجاجا ٨٠٠ و ١٦٠ تحدوا الحكومة وصوتوا على الاستقلال ٠

أننا فى الطريق الصحيح ٠ فلنتابع طريقنا ٠

أما الحدث الثانى فهو مؤتمر « بروكسل » ضد الاستعمار وهو أكبر حدث سياسى على الصعيد العالمى والأول من نوعه ، فلم يسبق فى تاريخ الانسانية أن اجتمع الضعفاء ليندوا بالأقوياء ، فلقد كان يمثل ثمانية ملايين من العمال المشتركين فى النقابات المختلفة ، ويتكلم باسم مليار من البشرأى الأغلبية الساحقة فى سكان المعمورة اذ ذاك ٠ ويمثل القارات الخمس ويعد كذلك كمقدمة لمؤتمر «باندونغ» الذى كان المنطلق لتحرير الشعوب الضعيفة وتكسير القيود الاستعمارية ٠

وقد كتب السيد فرنسوا مارسال رئيس الوزراء السابق فى صحيفة « العالم الجديد » المؤرخ ب ١٥ مارس ١٩٢٧ حول المؤتمر ما يلى : « لقد تكلمت قليلا الصحافة الفرنسية عن مؤتمر بروكسل ضد الاستعمار وهذا غلط ، لأن سياسة النعامة لا تعطى الا الفاكهة المرة ٠ يجب على الخصوص ، فحص الخطر ، وتحديد مناورات الأعداء ، ومعرفة الخبايا٠

فالتقليل من قيمة الخصم ذنب ، وتجاهله غلط، فمن الضرورى معرفة حقيقة المؤامرات التىيحوكها معارضو الاستعمار الأوروبى فى اجتماع بروكسل »٠

لقد رأينا حضور شخصيات مثل « هنرى باربوس » وفيليسيان شالى والشيوعى الانجليزى « لنسبورى » ورئيس دولية المواصلات « بيمى »ولكن الذى ينذر حقيقة بالخطر هو حضور ١٢٧ ممثل أهلى أعلنوا كلهم عن وجوب تحريرهم بجميع الوسائل » ٠

وقد اغتنمت الحركة هذه الفرصة فاوفدت الى المؤتمر الكاتب العام مصالى الحاج والسيد الشاذلى خير الله ممثلا للحزب الحر الدستورى وعضوا فى اللجنة العالمية ضد الضغط الاستعمارى والامبريالى وقد تكلم الاثنان فى المؤتمر وتعرفا على بعض الشخصيات التى كانت موجودة فى المؤتمر مثل هوشى مينهونهرو وسوكارنو وها نحن ننقل ما جاء فى جريدة « الراية الحمراء » ما يلى : « لقد أخذ الكلمة مصالى فى مؤتمر بروكسل وقدم المطالب

الجزائرية كالآتى : استقلال الجزائر ، جلاء القوات الفرنسيــة المحتلــة ، تــاسيس جيش وطنى ، حجــز الامــلاك الفــلاحية الكبيــرة التى استــولى عليهــا الاقطاعيون عملاء الامبريالية والمعمرون والجمعيات الرأسمالية الخــاصة وارجــاع الأراضى المحجوزة الى الفلاحيــن التى سلبت منهم ، احتــرام الأمــلاك الصغيرة والمتوسطة ، وارجــاع الأراضى والغابات التى استولت عليها الحكومة الفرنسية الى الحكومة الجزائرية ، اعانة صغار الفلاحين بقروض واسعة ، الغاء فورى لقوانين الانديجينا والقوانين الخاصة ، العفو عن المساجين سواء المبعدون والمودعون تحت الاقامة الاجبــارية ، حرية الصحــافة والاجتماعات والجمعيات ، التمتع بــالحقوق السياسية والنقابية مثلما يتمتع بهما الفرنسى بالجزائر ، تغيير المجلس المالى المنتخب بــاقليــة الى برلمان جزائــرى ينتخب بالاقتراع العام ، انتخاب المجلس البلدى بــالاقتراع العام أيضا ، التمتع بحق التعليم فى جميع المراحل ، انشاء مدارس للعربية ، تطبيق القوانين الاجتماعية ٠

وقد كتب الشاذلى فى جريدة « الاقدام » التى صدرت بعد مؤتمر بروكسل تحت هذا العنوان « حق الشعوب فى تقرير مصيرها » نقتطف منه هذه القطعة « وهكذا حقا ان الشعوب التى تتألم هى نفسها التى تكــافح ، وشعوب الشمــال الافريقى التى اجتــازت مرحلــة تحمل الالم قــد دخلت ابتــداء مــن مــؤتمر « بروكسل » فى طور دقيق مــن كفــاحها فى ميــدان الايديولوجية الثورية » وفى نفس العدد مــن جريدة الاقــدام كذلك هذا العنــوان « ممثلونــا فى مــؤتمر بروكسل يقدمون عرضا عن مهمتهم » « أقــامت نجمة جمعية شمال افريقيا تجمعا شعبيا عرض فيــه ممثلو الجمعية ماقاموا بــه من نشــاط فى مؤتمر بروكسل وبعد قراءة التقرير وترجمتــه الى العربيــة بواسطة الكاتب العام مصالى الحــاج والى اللهجة القبائلية بواسطة السى الجيلالى عضو اللجنة المركزية وافق أعضاء الجمعية على التقرير وشكروا ممثليهم على المهمة التى قاموا بها ٠ ثم أخذ الكلمة السيد الشاذلى خير الله فنوه بأبطال الشمــال الافريقى وذكر الأمير خالد والأمير عز الدين والامير عبد الكريم الخطابى والشيخ الثعالبى ، ثم بين أهمية المؤتمر والدور التى مثلته نجمة افريقيا الشمــالية فيما يخص الجــزائر وتونس وعقب بان الحركة ستستعمل جميع الوسائل للــوصول الى تحقيــق غــايتهــا ٠ وان المتشككيــن والخائفين سيلاحظون بــأن أعمالها لا تكون عفويــة مثل حركة الأمير خالد الذى لم يكن يدعمه أى نظام ، ولا مع الاستعمــار المقنع تحت ستــار الدفــاع عــن المسلمين مثل ابن تامى وأضرابه ، ولكن عملها عمل عميق مرتكز على الجماهير الشعبية المتيقنــة بقولها وارادتها على الاستقلال، وختمها بنداء لجميع الاخوة التونسيين والجزائريين والمغاربة كيفما كانت مرتبتهم أن يقووا صفها ويقفوا بجانبها قبل أن تدوسهم أقدام الجماهير الشعبية المتحفزة الى التخلص من بــراثن الاستعمار ٠

وبعده أخذ الكلمة ممثل هندى وممثل مصرى وشرحا حالة بلديهما ثم ركزا على أن كفاح الشعوب الضعيفة مشترك ٠

أما الحدث الثالث فهو الاجتمــاع الذى انعقد فى شهر نوفمبر ٢٧ ، والذى قدمت فيه لائحة تطالب بــاستقلال الجزائر ونــالت أغلبيــة الأصوات الا أن الشيوعيين احتجوا ضد اللائحة وخرجوا من الاجتماع وخرج معهم بعض الفرنسيين الذيــن كانوا يظهرون عطفهم على الحركة الوطنية بــالرغم من أن الأغلبية المطلقة صوتت على اللائحة ٠

وليست هذه أول مناوشة بين الاتجـاهين فقد بدأت فى مؤتمر بروكسل ضد الاستعمـار الذى عقد بين ١٠ و ١٥ فبراير من نفس السنة حينما ركز ممثل الحركـة على استقلال الجزائر ، وانسحـاب قوات الاحتلال ، وتأسيس جيش وطنى ممـا أثـار ثـائرة الشيوعيين ، وكانت المصادقة على لائحـة الاستقلال خاتمة المطاف بـين الحزب الشيوعى ونجمة شمـال افريقيا ٠

وهكذا ابتعد الشيوعيون عن الحركة ولم يبق الا شابيله أمـا حـاج على عبد القـادر فقـد رفض المسؤوليـة وبقى يظهر مـرة ويختفى أخرى حتى قدم تسليمه من الحزب الشيوعى ومن الحركـة فى سنة ١٩٢٩ ، وبعد هذا الاجتمـاع وقع تحوير فى الإدارة فمصالى الحاج أصبح رئيسـا وشابيله كـاتبا عاما وسى الجلانى أمينا للمال ٠

وفى سنة ١٩٢٨ قامت الحركة بتوزيع منشورات فى الشمـــال الافـريقى وفى فرنسـا ضـد الحرب الاستعمارية فى تافيلالت والأطلس ، والمغرب ونسبت الصحـافة هذه الحملـة الى الشيوعيين فعلق السيد كلازا أمين المكتب فى الجزائر للحزب الشيوعى بأن نجم الشمـال الافريقى حركـة وطنيـة لا عـلاقة لها بالشيوعيـة والحزب الشيوعى يتتبع بكـل اهتمـام الحركات الوطنية فى المستعمرات التى تسعى لتحرير نفسها وليست له أى علاقة فيما يقوم به من نشاط ٠

ولم يكد عـام ١٩٢٩ يشرف على النهـاية أى بـالضبط فى شهر نوفمبر ــ حتى ضـاقت حكومـة طارديو اليمينية بنشاط الحركة الوطنية وقررت حلها وقد استدعى قاضى التحقيق مسئولى الحركة ليبلغهم قرار الحل ولكن المحامى « بيرطون » نصح المسئولين أن لا يستجيبوا لهذا الاستدعاء ويتجاهلوا القرار ٠ وهكذا بقى القرار عديم المفعول لأنه لم ينفذ فى حينه

وهنـا تنتهى المرحلـة الأولى من تـاريخ نجم الشمال الافريقى ويمكن أن تنعت بمرحلة التكوين ٠



الإنسان الأعلى عند نيتشه

3

د : عبدالله شريط
أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

يجب أن نفهم كل شيء ان الانسان الاعلى عنـد نيتشة ليس نوعا جـديدا يجب خلقه من العـدم بل هو نموذج خاص لذلك الانسان الذى لميفتـأ يوجد من زمن لآخر . ثم فى كل مرة تتألب عليه أحقاد المتآمرين ودسائسهم النسوية ليقضوا على رجولته وعنفوانه وكمـاله كما فعل الانجليز والخـونة من الفرنسيين بنابليون (ولو عاش نيتشة نحو ثلاثين أخرى حتى رأى هتلـر لجعله فـوق مرتبة نابليون لانه هو الذى حقق أحلامه كما سنرى) . فالانسان الاعلى هو ذلك النموذج الخاص من الرجال الذى يجب حمايته ومؤازرته وشد عضده . ولهذه الغاية يجب أن نسير فى طريق مزدوجة السبل ان صح التعبير تتعلق احداهما بنفسية الانسان الاعلى والثانيـة بتكوين الآخرين وتثقيفهم .

فلكي يخلق الانسان الاعلى ويتكون يجب أن يكون متحررا من كل التقاليد والنظريات وان يحاكم الاشياء والاحيا، بميزان واحد هو ميزان ما لديهم من قوة ، وان تكون له الشجاعة على « الاحتقار الاكبر » حتى لا يخشى وحشة العواطف وقساوتها والتعبير عنها بملء حياته . كما يجب أن ينمي كبرياءه وما تشعر به احساساته ، أو ما يخطر بها من أفكار أو من أعمال . فالانسان الاعلى هو ذلك كل ما يأتي به من بطولات والتمتع بكل قوته ومظاهر هذه القوة فيه . يجب أن يصير « قلبه جديدا » وان يطهر روحه من كل تلك السخافات التي جاءت بها المسيحية وتسميها فضائل لانها في الواقع رذائل بعيدة عن الاخلاق ، فما أجدره باهمال أولئك الذين يتعذبون لكي ينمي قوته على حسابهم، فما قيمة صرخاتهم وانينهم اذا كانا لازمين لوجود شيء عظيم وجميل . . كالانسان الاعلى ؟ وهو ينبغي أن لا يخشى الالم بل يجب أن يحبه : فالالم هو الذي يتيح للبطولات أن تنفجر ولصاحبها ان يفرح بنشوة النصر . « ان هدفي هو خلق الآلام للنفس وللآخرين حتى أصيرهم أكفاء لحمل اعباء الحياة العنيفة حياة المنتصرين الغالبين » يجب على البطل أن يحيا حياته بكل علاء وعمق رغم أنف من لا يعجبهم منه ذلك ، لان كل ما يصدر عنه جميل وخير فاضل مادام يقضى به الى تحقق الحياة العنيفة النبيلة الواسعة . ان المرائين الجبناء هم الذين يضعون على وجوههم النقاب .

ثم يطلب نيتشة الى كل واحد منا أن يطرح على نفسه هذا السؤال :

هل أنا رجل يحمل فى دمه غرائز حربية . واذا كنت حربيا فهل أنا حربى مهاجم أو مدافع ؟ ويريد أن يكون كل واحد منا منتسبا لصفوف الضباط مهما كانت مهنته خارج الجندية ، وان يكون فى نفس كل واحد طبع الغازى المهاجم ، لان ما يجب أن نبحث عنه فى الحياة « هو صورتها العالية وهى حياة الخطر » والهجوم والقتال .

ان المثل الاعلى فى الحياة ليس هو الانسانية التى يجب أن نبقى على حياتها ونحافظ عليها بل هو الانسان الاعلى الذى يجب أن يوجد على حسابها.

أما فيما يتعلق بناحية تربية الآخرين فانه يجب أن نعيد النظر فى مسألة تحقيق مصلحة الجماعة الحاضرة وان نعتاض بها ما يحقق المصلحة الكبرى . . المصلحة المنتظرة فى المستقبل ، لقد كان المفكرون يحاولون أن يصنعوا الناس صنعا بواسطة آلة عندهم يؤمنون بأنها قادرة على هذا الصنع وهى العقل ويسمون ذلك مصلحة عامة . وهذا خطأ فادح . ان المصلحة الحقيقية والواجب الخلقى هو أن نعتنى بالتربية عناية ننظر منها الى الجماعة على انها شيء متحول متبدل دائما وعلى انها بالخصوص وسيلة فقط وليست هى الغاية ، هى وسيلة نستعملها لخلق الانسان الاعلى . اننا نستعمل « كمها » لكى نحقق « كيفها » وهذا يقتضينا ان نتحلل من روابط الحلال والحرام كما يقتضينا حفرة من المسافات والفوارق تعزل ذلك النوع الخاص من الانسان الذى هو هدفنا حتى لا يختلط الانسان الاعلى بالانسان الكلب . وعند ما نحقق هذا النوع من الانسان يجب أن نمحصه جيدا

لان مهمته ليست فى أن يكون جنديا من السادة فحسب ، بل نوع يتمتع بحيوية خاصة تصل فيها القوة الى أوجها من الجمال والبطولة التى تشعر بالحاجة الى الاستبداد لا الى جمع الثروات والتى ترتفع فوق « الخير والشر » ومفاهيمها واحكامها .

أما المدرسة التى ستنتج هذا النوع فيسميها نيتشة « المدرسة القوية » وتنحصر مهمتها فى العناية بأمرين متلازمين لا يجوز اهمال أحدهما على حساب الآخر وهما : العقل والجسم معا (كان التعلم فى اليونان أيضا قائما على هذين العنصرين) وهى تعلم كلا من الجندى والعالم الطاعة والكفاءة والمقدرة لان العالم الذى يستحق هذا الاسم لا يمكن أن يكون كذلك بدون غرائز الجندية . ومعرفة القيادة هى أيضا معرفة الطاعة النبيلة ، وهى تعنى أن الوقوف فى مكاننا بالصف هو استعداد فى الوقت نفسه للقيادة ، وهى بعد كل شىء ايثار الخطر على الدعة والامن واتخاذ المسكنة والضعف عدوا لدودا لها أكثر من الشر . هذا ما يجب أن تعلمه المدرسة القوية ، وهو القيادة والطاعة ، لهذا المفهوم والاعتناء بالعقل والجسم معا.

ويقول نيتشة : ان اولئك الذين يحملون فى أجسامهم أرواحا لا تفتأ تحوم حول القيم التى عرفت حتى الآن متجولين حول شطآن بحر المثالية ، عليهم أن يعرفوا ما هى « الصحة الكبرى » فالصحة عند البطل ليست هى التى يملكها فقط بل التى يحارب من اجلها باستمرار لانه يجب أن يضحى بها باستمرار ولان مثلا أعلى يعد وامامه دائما فيحمله على ركوب المخاطر والاهوال حتى تصبح تصرفاته صادرة عنه بعفوية وبساطة لفرط امتثاله وقوته اللتين تفيضان مكتسحتين كل ما عرف حتى الآن

ويرى نيتشة ان الخطأ الفاحش الذىوقعت فيه كل المدنيات هو ما انصرفت اليه من الاعتناء بالمخ وحده واهمال كل ما عداه فلا شىء أدى للاسف من ضم عقل راق الى مزاج منهاركالذى تدعو اليه الاديان فمن بلغ بأصحابها العقوق للجسد ان توهموا بانهم فازوا بالتعليم بعيدا عن جسدهم ، ومن هذه الارض . « لان أقول للمستهزئين بالجسد كلمتين فيهم : اذ، واجبهم ان لا يغيروا من طرائق تعاليمهم، ولكن عليهم أيضا أن يودعوا أجسادهم فيستولى على ألسنتهم الخرس . يقول الطفل أنا جسد وروح ، فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالاطفال ، الا أن الجسد المبدع قد أوجد العقل لخدمته كمساعد يتحرك بارادته » .

بالاضافة الى هذا يوجد عنصر آخر لتحقيق الانسان الاعلى وهو عنصر الحب أو بالاحرى الزواج وهنا أيضا يأتينا نيتشة بفكرة لا تنقصها الطرافة ان لم نقل الغرابة . فاذا كان الناس يقدمون الحب ويضعونه فى مصاف المثل العليا للانسانية فان نيتشة يعتبره عاطفة محطمة للانسانية ، وقد تعجب نيتشة الذى يدعو الى ما يغنى النفس ويشحن العواطف وينمى الغرائز ويخصب الفكر كيف وهذه العوامل محطة للانسانية ، وكيف نسى اعجابه بنابليون الذى كان مشهورا بغزارة عاطفة الحب الى درجة الاسراف ، ولكن كما سنرى ليست هذه احدى التناقضات الصغيرة فى فلسفته . فهو يرى ان الانسانية لكى تنجب انسانها الاعلى يجب أن

تحطم الميل الغريزى عند الرجل نحو المرأة عنــد ما يتكون بصورة مهملة لاخيار فيها ولا اصطفاء ، وبدون أن يفحص الزوجين هل يتفقان أو يختلفان قوة وضعفا ورقيا وانحطاطا ، وبدون أن نضمـــن الاختيار الذى يحقق تكامل النسل وتطوره دائمـا الى ما أرقى وأقوى . ان دورمن كان على خطأ كبـير عند ما اعتمد على الطبيعة وحدها لتحقيق ما يسميه « بالانتقاء الطبيعى » ، وخاصة عند ما اعتقــد أن انتقاءها هذا لا يخطىء أهدافه فى حين ان الانتقــاء الطبيعى لا يهدف لان يأتينا دائما بما تهدف اليــه من قوة . تذكر ما قاله نيتشة فيما تقدم من فلسفته لا يبحث لها عن أسس مفتعلة وانما يعمد الى طبيعــة الحياة نفسها . ويرى نيتشة ان الانتقاء الصنــعى عندما يوجه توجيها حسنا هادفا يأتى بالمعجـزات كما أثبتت ذلك تربية الحيوانات والنبــاتات . فلم لا نقوم بنفس العملية التلقيحية الاصطفائية فى ميدان الرجل والمرأة ؟ نعم ينبغى أن نفعل ذلك . وينبغى أن نكف عن التغنى بالحب ورقته . انـــه أزمة من أزمات البدائيين ، ونحن تجاوزنا عمـــر الطفولة فى تاريخ البشرية . ان هدفنا اليوم هـو تحقيق ذلك الحدث الخطير العظيم وهو الانســـان الاعلى ؟ . الاعلى فى الناحية الجسمية والعقليــــة والخلقية ، جمعـا ، بذلك الذى يتعدى الانســانية الحاضرة ويجعلها نسيا منسيا « هذه الانســـانية التى أصبحت الآن نعرف عنها أكثر مما تستحق منا والتى سئمناها ولم نعد الكلام عنها . ان كل قيمتها اليوم هى أنها تصلح أن تكون لنا مزرعة نستخرج منها الجنس الممتاز من الرجال » .

وهــذا يعنى « ان المرضى والمجرمين يجب ان يعتبروا صالحين لهذا الانتاج » . وفى هـــذا الميدان ينبغى ان نتخلص من ذلك المرض المسيحى الـــذى نسميه الشفقة . ان الشفقــة بالمجرمــين والمرضى والضعاف والمعتوهين والعجز والمنحرفين وما أشبهم ان الشفقة على كل أولئك تعنى القسوة على النـسل الذى سينحدر منهم .

ويحاول نيتشة ان يؤثر علينا لنعتنق هـــذه التشريعة فى الزواج فيقول : « لى سؤال انصحك به لأسبر أغوار عمقك يا أخى : انت فى مقتبــل العمر وتتمنى ان يكون لك زوج وولد ، فهل انت الرجــل الذى له حق فى ان يعانق مثل هذه الامنية ؟ انت الظافر المنتصر على نفسه المتحكم فى حواسه صاحب السيادة على فضائله ؟ أم أن تمنيك هذا ليس شهوة حيوان أو وحش منفرد وحيد ؟ ان ما اريده منك هو ان تتوق بانتصارك وحريتك وتوسعك الى التجديد بواسطة الولد . ان عليك ان تقيم الانصاب الى ما فوق مستواك . وهل بوسعك ان تفعل اذا لم تكـن متين البنية من رأسك حتى افحص قدميك ؟ ليس عليك ان ترسل سلالتك الى الأمام فحسب بل عليك بخاصة ان ترفعها الى فوق . فليكن عملك فى حقل الزواج ناهدا الى هذه الغاية عليك ان توجد جسدا جوهره انقى من جوهر جسدك انت . ان واجبك هو ابداع من يبدع وخلق من يخلق . ان الزواج فى عرفى ليس الا اتحاد ارادتين لايجاد فرد يفوق ماكانا علة فى وجوده ، اما الزواج بالمعنى الذى يفهمـــه الدخلاء فليس غير مسكنة ودنس ولذه بائنة تتحكم فى اثنين ، ولكن هؤلاء الدخلاء يرون فيــه رباطـا

عقدتـــه السمـــاء . . ألا كـــم مـــن طفـــل يحـق لـــه ان يبكي عـلى ابويـه . انني لأود ان تميد بي الارض على ان أرى رجلا فاضلا يتخذ لـه زوجة حمقـاء » .

ولكن هل نستطيع ان نعرف شيئا من صفات هذا الانسان الاعلى الذي يعشقه نيتشة من قبل ان يراه كما يفعل الشيعة عندنا بامامهم المنتظر ؟ نعم اليك شيئا من هذه الصفات الساحرة : « ان ما اريد ان اعلمكم اياه هو الانسانالاعلى . اما الانسان فشيء يجب تجاوزه فماذا فعلتم لتتجاوزوه ؟ ان كـــل الكائنات التي وجدت حتى اليوم قـد مـدت بمـا امكنها القيام به لتتجاوز نفسها . اما انتم فتودون ان ترجعوا الى الحيوان الذي يجاوزه الانسان .. ما هو القرد بالنسبة للانسان ؟ انه شيء مخجل تعس . وهكذا الانسان بالنسبة للانسان الاعلى . انكـــم قطعتم ، الطريق الفاصلة بين الدودة والانسان . وقد بقي عليكم ان تقطعوا تلك التي تفصل بينكم وبين الانسان الاعلى . وان من بينكم حتى اليـــوم كثيرا من ديدان الارض لقد كنتم فيما مضى قرودا وانني لأرىانسان اليوم اكثر فردية من أي فردكان . ان الانسان الاعلى الذي أريد ان أعلمكم اياه هـــو الغايةمن وجود الانسان على هذه الارض . وانني ادعوكم يا أخواني ان تبقوا لهذه الارض أوفيـــاء

وان لا تؤمنوا بما وراءالارض.ان أولئكالذينيبشرون بما وراءها انما هم اناس يوشكون ان يسمموكـم فاحذروهم . فهم انفسهم قد تسمموا بما يقولونه عن الروح وعن السماء . وقد تعبت الارض كمـــا تعبت اجسادهم من حملهم فليفعوا عندها بسلام » .

ان الانسان الاعـلى اذن لا يؤمـن الا بالارض ولكنه ايمان علمي واخلاقي لا ينزل الى اللذائذ الحقيرة والشهوات العابرة . وهو يحتقر الضعفاء ويدوسهم ولكن لا ينبغي ان تداس ديدان الارض ؟ وهو مترفع عن ان يكون قردا كقرود القرن التاسع عشر الذين خاطبهم نيتشة . ثم هو عبارة عن قوة فائضة تأكل نفسها لتلد نفسها من جديد . وهو عبارة عن ساحة تتصارع فيها تلك القوى الطاغية ويأكل اقواهـــا اضعفها حتى ينفنى منها كل زيف وضعف . وهو لا يهتم لشهواته القريبة الفردية المباشرة لا لأن يحتقر الشهوات بل انه تحرر من سلطانها ولانه تحرر من كل سلطان حتى نفسه وحتى سلطان الحاجـة لاى شيء ولاى كان . انه رجل خلق ليعطى من فيضه . انه يكتسح امام كل المخلوقات التي لا جذور لهـا المخلوقات الزائفة المفتعلة ، لذلك ينبغي ان نضحى لـه وفي سبيله بالجموع والقطيـع والصعاليـــك ونسخرهم له ليتحقق فيهم امكانياته ومواهبه وحاجته للسيطرة والغزو دون ان نسمح لهم بالقضاء عليه بدسائسهم النسوية ومؤامراتهم الخبيثة وتألبهـم الوضيع عليه لانه هو الغاية وهم الواسطة وليس من شيء يقف امام هذه الغاية لانه لا شيء انبل منها . انها هي رسالة الانسان على الارض .

هذا هو المعيار الذييجب ان تخضع له الاخلاق ومفاهيمها ، يجب ان نفهم من كلمة – أخلاق معنى القيم : القيم التي نخلعها نحن عليها وليس فيهـا الذاتية الموهومة . وبعبارة أخرى الوسائـــل التي تحقق لنا الانسان الاعلى هي ما يجب ان نعتبرهـا

فيما عليها . والعراقيل التى تعترض هذه الغاية هى قيم سافلة ولا اخلاقية مهما خلقت عليها الفلسفات والاديان من نعوت الفضيلة والانسانية والسمو .

ان مشكلة الخير والشر لم يعدلها مجال للاستعمال فى قاموس الاخلاق الهادفة لخلق الانسان الاعلى . ان هذه المشكلة يجب ان تبقى سر عالم الصعاليك وضعاف الارادة وديدان الارض ان هم ارادوا ان يلتهوا بها ويصنعوا منها عالما من الاوهام يعيشون فيه حتى لا يهلكوا كمدا وحقدا . ان الانسان الاعلى والانسانية لا تخضع لقانون الخير والشر بل لقانون القوة والعظمة والسيطرة وعمق المياه النفسية التى يعيشها الانسان الاعلى بأنفعال وحرارة والم وفرح عميقين لانها حياة تتصارع فيها قواه النفسية الهائلة لتجدد باستمرار وكذلك تصرفه خارج نفسه فيحطم ويبيد كل الخفافيش التى تعترض طريقه وهو صاعد الى اعلى .

ان نيتشة تأثر كثيرا بكتاب القرن الثامن عشر الفرنسيين ولكن من حيث العاطفة المتدفقة واللهجة الحارة فقط . اما مبادئهم وافكارهم فقد ضرب بها عرض الحائط كما فعل بالفلسفة اليونانية . وقد بين فى كتابه « المسافر وظله » كيف ان الاحاسيس الاخلاقية الاساسية مثل الشفقة واحتقار الانسان للغرائز وعنايته بفعل الخير لغيره وما الى ذلك من الاحاسيس قد تكونت عند الرجل الاوربى من جراء تفسيرات خاطئة لمبادىء اهداف كانت سائدة قبل عصر العلم . انه يرى ان المبادىء .. الاخلاقية نفسها قائمة على الصراع فيما بينها ، هذه الرغبة عنده ناشئة عن حبه لشىء فى نفسه أو لفكرة أو رغبة أكثر من حبه لشىء آخر أو فكرة أو رغبة أخرى . ولانه يقسم ذاته الى مناطق أو طبقات أو قسمات يضحى بقسمة منها فى سبيل قسمة أخرى .

وهو بالرغم من ثورته على الفلاسفة اليونان يعتبر فلسفتهم « من عصورها قبل التاريخ ولكنها برغم ذلك أو قل بسبب ذلك تحتوى على كنوز غنية مستمرة » .

ومن متناقضات نيتشة البريئة ان اعجابه بعصر العلم لم يمنعه من ان ينحو فى كتابة فلسفته منحى القدماء من انباء ما قبل التاريخ فى لهجتهم البعيدة عن اللهجة العلمية التحليلية كما فعل بصورة خاصة فى كتاب « هكذا تكلم فرراديتشت » . تلك اللهجة المليئة بالاهواد المشعة والصور الرومانطيقية الساحرة . وهو يشبه الانبياء الذين ثار عليهم آخر يتمثل فى عنايته بشىء واحد من المعرفة هو الاخلاق ومصير الانسان . ولكنه يرى فى المثل الاوربية للاخلاق وهى الروح المسيحية والتشاؤم والوجب والديمقراطية والافكار الاشتراكية كلها علامات انحطاط وتدهور فى المجتمع الاوربى ونذير لفقر الحياة وانطفائها . لقد كرس جهوده فى محاولات قلب التيار الذى يتحكم فى القيم الاخلاقية وجعل « ارادة القوة » فى القاطرة التى تجر القيم الاخلاقية وراءها الى هدف الانسان الاعلى وهو غزارة الحياة وامتلاؤها .

لقد كان روسو يقول : ان هذه الحضارة التعسة هى السبب فى فساد اخلاقنا . اما نيتشة فيرى « ان هذه الاخلاق المائعة هى السبب فى حضارتنا التعسة . وان مفاهيمها فى الخير والشر

وتأثير هذه المفاهيم على اجسامنا وارواحنا قــد انتهت الى اضعاف كل الاجسام والارواح والى تحطيم الرجال الحقيقيين الذين يؤيدون دعائم الحضــارة القوية » . انه يرى ان شعور القوة هو الاساس لكل ثقافة راقية . على ان شعور القوة عنده ينبغي ان يكون نابعا من الشعور بالاحتقار أكثر من الشعور بالحقد . ويثور على العلماء الذين اصبح العلم عندهم « ملجأ لأولئك المنقادين الفاشلين الذين تعذبهم ضمائرهم وتأكلهم شكوكهم لانهم محرومون من الاهداف الاخلاقية ومن الحب الاكبر ان ادمغتهم تغلي ليل نهار لتلد الفوضى والغموض والعمى عن الهدايات الناصعة » .

يقول العمري :

وبصــر الاقــوام مثــل اعمــى

من فتى عالوا فى جنــد تصــادم

ان هؤلاء العلماء مثلهم مثل الفلاسفة والانبياء قد قضوا على ماضي الانسان لانهم جعلوه في نظر نفسه هو الهدف في حين « ان الانسان جسر وليس هــدفــا » .

ولانهم حاربوا فيه غريزته في حب المخاطر وحرفوا طبيعته الحقيقية فجعلوه يعيش من أجل رغبته في الحياة في حين انه خلق ليعيش من أجل رغبته في القوة وليكون بطلا . « انتم يا أيها الرجال الاعلون . هل تظنون انني أتيت لأعيد ما افسدتم ؟ كلا ينبغي ان يموت منكم كل يوم اكثر ما ينبغي ان يمــوت خياركم لان هذه هي الطريق الوحيدة التي تجعــل الانسان يكبر وهو يرتفع » .

2) **مناقشــة .**

لكي نناقش نيتشة ينبغي ان نتخلص قبل كل شيء من لهجته الشعرية المؤثرة ونأخذ أفكاره مجردة عن صورها البلاغية الاخاذة فماذا نجد ؟ يصطدمنا قبل كل شيء ادعاؤه لا يخلو من سذاجة بان الاخلاق العائمة على فلسفة القوة كانت أرضا بكرا لــم يحرثها احد قبله . وهو على حق اذا كان يقصد الكونفوشيوسية الصينية أو البوذية الهنديــة أو الرسالات النبوية في الشرق الاوسط — أي كل المفاهيم الاخلاقية في الشرق فهي مفاهيم قائمة على العناية بالعدد لا بالفرد وبالجماعة الكبيرة لا بالصفوة القليلة من الناس وبالضعفاء والفقراء لا بالاقويـاء الاثرياء والعنصر العاطفي الذي يغلب عليها هــو الشفقة والاحسان . والعنصر الفلسفي الفــكري المسيطر عليها هو مقاومــة الغــرائز والشهوات وتحكيم التعقل والتوسط في كل شيء . ومنــذ كونفوشيوس الى بوذا الى المسيــح الى محمــد كانت دائما القاعدة الاخلاقية المثالية هي ان تحب لغيرك ما تحب لنفسك لا ان تحرم غيرك من كــل شيء لتوفر لنفسك كل شيء على حسابه . والحياة عندهم تعاون وليست صراعا . ومحبــة وليست مغالبة هذا من أقصى الشرق الى ادناه . ومن القرن الخامس قبل الميلاد الى السابع بعده ، عاشت عليها المجتمعات الشرقية واصبحت اكثر من مفاهيم واحكام وفلسفات واتخذت طابع العقيدة والعــادة التي لا تتحول . ونحن الى اليوم ما زلنا نعيش هذه «المفاهيم» المتسامحة في حياتنا الدولية بالرغم من كل ما لقيناه من الغرب من نكبات بسبب هذه الطبيعة الساذجة .

اما عندما ننتقل الى فلسفة الغرب وان كانت تبدأ من اقرب نقطة الى الشرق وهي اليونان — فاننا

نجد المناخ قد تبدل والهواء والاخلاق ذات رائحة اخرى تنفح منه رائحة القوة والعناية بالفرد واحتقار العدد وفقدان التسامح وموت العاطفة . وهذا منذ القرن الثالث قبل الميلاد الى الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع بعده الى زمن الحرب الصليبية الى عهد الاستعمار الذى كان هو نفسه وما يزال قائما لفائدة « الصفوة » من امم الغرب وليس لفائدة شعوبها وجماهيرها التى يحتقرها نيتشة .

في بعض محاولات افلاطون فصل عنوانـــه « غورجياس » ولا نظن ان نيتشة لم يقرأ هـــذا الكتاب – يـدور فيـــه الحـــديث بين ســـقراط و (كاليكليس) ويعالج القضية التالية : هل ينبغي ان نفضل التعرض لظلم غيرنا أو يجب ان نوقع نحن الظلم بالآخرين ؟ وما هو الموقف الذى يعتبر اخلاقيا اكثر من الآخر ؟ يرى سقراط انه ينبغي ان نفضل تحمل الظلم من الآخرين على ان نوقعه نحن بهـــم ونسلطه عليهم . اما (كاليكليس) فيؤكد ان المجتمع البشرى يتألف من نوعين من المخلوقات الاقويـــاء والضعفاء والعلاقة بينهما تخضع لقـــانون طبيعي ومؤداه ان القوى يجب ان يملك كل شيء لانه قوى ، والضعيف يجب ان يحرم من كل شيء لانه ضعيف . ولكن الضعفاء ، ادركوا ما في هـــذا القانون من الخطورة فاجمعوا امرهم ورصوا صفوفهم واخترعوا ما سموه « بالعدالة المدنية » ليعارضوا به قانـــون الطبيعة . وتقضى العدالة التى جاءوا بها . الاقوياء يجب ان يحترموا من هم اضعف منهم واقل قـوة وان يتسامحوا معهم بل ويساعدوهم عـــلى متاعب الحياة ويربوا اولادهم على هذه المبادىء والخلال .

ويرى كاليكليس ان هذا امر مفجع فظيع – وهـو ان يصبح قانون الطبيعة غير عادل جاء بـه هؤلاء الاذلاء المستضعفون هو العدل بعينه .

هذا فضلا عن فكرة افلاطون فى ان العبيـــد ضروريون لكى يقوموا بضرورات الحياة العاديـــة للاحرار ويتوفر لهؤلاء الآخرين الوقت الكافى للاهتمام بجلائل الاعمال ويشيدوا معالم الحضارة .

أليست هذه اسس عميقة لفلسفـة نيتشه ؟ غريب كيف لم يشر اليها ولم يعترف لاصحابها بانهم قدموا له بذور تفكيره فى فلسفة القوة وتقسيم الناس الى اقوياء وضعفاء أو احرار وعبيد ؟

كذلك لسنا فى حاجة لان نطيل مناقشته فى فهمه للحقيقة وكيف أخذها كما هى عن الفسطائيين اليونان : كل له حقيقته حسب تصوره لها وقدرته على تحقيقها . ليس هناك حقيقة عامة لجميع الناس فالخير لبعضهم شر لبعضهم الآخر ومصائب قوم عند قوم فوائد كما قال المتنبىء ايضا ، اما عندما يذهب نيتشة الى انكار وجود الحقيقة اطلاقا (ان هؤلاء ما زالوا بعيدون عن الفكر الحر . انهم ما زالوا يؤمنون بالحقيقة) عندما يذهب الى هذا الحد فاننا نعتبـــره شاعرا مغاضبا اكثر منه فيلسوفا « عاقلا » .

ان الحقيقة التى آمن بها نيتشة واقام عليهـا فلسفته الاخلاقية هى الطبيعة وقال ان الطبيعة علمتنا ان نهدم ويحطم القوى من عناصرها الضعيف وهذا القانون صحيح ولكنه ليس وحده . ان هناك قانونا آخر فى الطبيعة غفل عنه نيتشة ولا يقل أهمية عن

الاول فى بناء صرح الحياة . ونفى به قانون التعاون وتبادل المنافع ونحن نجده محكما كلما كانت المجتمعات ارقى من غيرها سواء فى مجتمع الحيوان أو مجتمع الانسان . ان النحل الذى يضحى بأتعابه فى سبيل الغاية المشتركة ـ أرقى من السمك الذى لا يعرف هذا التعاون بل يأكل قويه ضعيفه بالضبط على النحو الذى يدعو له نيتشة وأرقى من الحيوانات السامة والمفترسة . والمجتمعات البشرية أيضا نجد عندها التعاون بين القوى والضعيف يتدرج نحو القانون العام بقدر ما ترقى المجتمعات فى سلم الرقى.

فى حين نجد الجماعات البدائية والمتأخرة قد استحكم فيها ما يسمى بقانون الغاب ولا تعرف شيئا لمعنى التعاون بين القوى والضعيف . والقرن التاسع عشر نفسه الذى عاش فيه نيتشة اكبر شاهد على ذلك . اذ انتشرت فيه المبادىء الديمقراطية بقدر ما شمله من عوامل الرقى والحضارة . وليس من محض الصدفة ان نجد آثار « النبل» والاقطاعية، والعائلات المتحضرة ازاء بؤس الجماهير وتعاستها وجعلها قائمة كلهافى المجتمعات المتأخرة أو ما نسميها اليوم بالعالم الثالث . فكيف يأخذ نيتشة بالاحط والادنى من هذا القانون ويطبقه على المجتمع الارقى الذى يريد ان ينتج له الانسان الاعلى. ان انسان نيتشة الذى يحلم به ان ننتظر بروزه ـ حسب هذا القانون من مجتمعات الديدان والحوت ـ والقبائل البدائية التى يتحكم فيها رئيس القبيلة ولا يجرؤ احد من اتباعه على ان يرفع بصره اليه .

3) اما ما يزعمه نيتشة من ان الانسان ينزع بطبعه الى ارادة « القوة » لا الى السعادة فهو ايضا اقرب الى الشذوذ منه الى القانون الطبيعى الذى يدعى نيتشة انه استمد منه مبادئه. اذ لا يفضل احد ان « يعيش فى خطر » على ان يعيش سعيدا الا اذا كان مصابا بعاهة نفسية . بل حتى اذا وجدنا من ينزع الى القوة والسيطرة فبدافع الى السعادة والفرار من الشقاء . ولكنه يتصور ان طريق السعادة هى السيطرة على الآخرين كما يتصور آخرون ان طريق السعادة هو المال . وعند آخرين هو الحياة الفكرية الخ . ولكن الذى لا يشك فيه على اية حال هو ان الجميع يبحثون عن السعادة ويفرون من الشقاء . أى ان هناك اختلافا بين الناس فى فهمهم للسعادة ولكن ليس بينهم اختلاف فى طموحهم اليها .

التن كان هناك من لا يبحث على السعادة فالخيبة وفشله فى الحصول عليها وليس لعدم نزوعه اليها :

فما السعادة فى الدنيا سوى شبح
فان ومزمار صخر ماله رنم
يحاول ان يلقى به نغما
لكنه الصخر جسم كله بكم

(الشابى)

4 ـ كذلك من اغرب الافكار التى طلع بها نيتشة مدعيا انه استمدها من الطبيعة وعودته الى تحطيم عاطفة الشفقة معتبرا انها عاطفة محطمة للحياة . فكيف قبل نيتشة عن ان الشفقة ايضا قانون طبيعى لا تستقيم الحياة بدونه . بل هى الحياة فى أروع صورها ؟ ماذا كان يكون مصير الطفل الرضيع لو لم تكن عند امه عاطفة الشفقة

عليه ؟ بل ماذا يكون مصير نيتشة نفسه ـ وهـو ذلك الرجل المريض الضعيف المحطم الاعصاب ـ لو لم تحن عليه ام حتى وهو كبير ولو لم تشفق عليه بل عملت بفلسفته فاذا الهوان والتعذيب والاذلال منادية بان هذا ما يقتضيه قانون الحياة وميـــلاد الانسان الاعلى ؟

5 ـ ويعتبر نيتشة انه اكتشف حقيقة هائلة عندما اعلن ان الله قد مات . فاذا كان يعنى بموت الاله ان تعاليمه لم يعد لها رواج فان القوانـــين الوضعيـــة قـــد حلت محل الاديان السماويـــة عند الشعوب المتقدمة فى اوربا فى هذا الاعـــلان الجديد بالنسبة لفيلسوف فى القرن التاسع عشر . فالرجل العادى فى المجتمعات الاوربية وحتى فـى غير المجتمعات الاوربية لم يعد مستعدا لتقبل أى دين جديد أو بين يظهر على الارض . اما اذا كان يعنى بموت الاله اننا لم نعد. نشعر بالحاجة اليـــه فى أعماق نفوسنا ولا نلجأ اليه فى الملمات العظمى التى نعجز عن دفعها عن أنفسنا فهو ادعاء باطل . نعم يستطيع نيتشة أن يقول لنا ان ايمانكم بالله وهم تعودتم عليه وتوارثتموه من عصور الانحطاط ولكن من سوء حظ نيتشة ان هذا الوهم نفســـه ضرورى لنا ولا نستطيع أن نعيش بدونه . « لـو لم يكن هناك الاه لوجب أن نخلقه » لاننا نريد أن أن نشعر باننا لسنا وحدنا فى هذا العالم خلقنـا فى هذا العالم أم عن الذين خلقناه بأوهامنا فـــان شعورنا بوجوده أو لا بد منـــه ولا نستطيـــع أن نستغـــنى عنه .

6 ـ ومن الاخطاء القديمة التى وقع فيـــها نيتشة تهجمه على الاديان وخاصة على المسيحيـــة . ان الاديان بصفة عامة قد أدت خدمة جليلة لكثـير من الشعوب وأعانتها على النهوض ودفعتها خطـوات كبيرة فى سبيل الرقى . فهل لم يدرس نيتشـــة التاريخ ، وكيف كان اليهود قبل المسيح عليـــه السلام قد غرقوا فى التكالب على المادة والمصـــالح الحقـيرة التى يحتضرها نيتشة نفســه حتى تلاشت كل القيم الاخلاقية عندهم ودب فيهم التفســـخ والانحلال حتى كانت المسيحية كرد فعل يتمشى مع قانون التاريخ فحاربت المصالح المادية حربـــا شعواء وان كانت قد أسرفت فى ذلك حتى وقعت فى الجانب الآخر من التطرف وأصبحت تقـــاوم الحياة نفسها . ولكنها مع ذلك أنقذت البشـــرية من الهوة الوسخة التى كان يدفعها اليها اليهـود ، بمادیتهم الجافة المنحطة . فلو نظر نيتشة نظـــرة تاريخية فاحصة لوجد ان المسيحية كانت مرحـلة هامة فى رفع مستوى البشر الى السمو بالنسبة لما كانت عليه فى عهد اليهود . بحيث أن المسيحيـة جاءت لتقاوم أفكار اليهود ومبادئهم المغرقـــة فى المادية . وليس اليهود هم الذين اخترعوا المسيحية. لقد كانوا أحقر من أن يرتفعوا الى مستواها . ألم يفتخروا بانهم هم الذين قتلوا المسيح وصلبوه ؟ ثم ألم يكن اليهود يدعون هم أيضا بأنهم خير الامم والاجناس ؟ ولنفرض بعد كل ذلك لان اليهـــود كانوا مضطرين فعلا ولم يجدوا ملجأ يخرجون به من وضعهم غير اختراع فكرة المساواة ـ فانه يبقى علينا أن نعترف بأن ليس اليهود هم الذين اخترعوا مبدأ المساواة مما يجعل هذا العبد فاسدا ويجعـل

نظرية تسلط الاقوياء على الضعفاء هو المبدأ الــذى يخدم تقدم الحياة ويستجيب لقوانينها ، لقــد دل التطور الاجتماعى عبر القرون وخاصة منــذ عصر النهضة الاوربية بان احتــرام الاقويــاء للضعفــاء ومساعدتهم على مصاعب الحياة ليس فى صالـــح الضعفاء وحدهم بل هو فى صالح السادة الاقوياء أيضا أى فى صالح المجموع . فكم نود ان لو عاش نيتشة فى القرن العشرين واذن لرأى الاعاجيب التى حققتها تلك الجموع التى يحتقرها وينعتها بالصعاليك والرعالم وكيف اصبحوا اليوم هم المصدر الرئيسى لكل انتاج ولكل مرافق التقدم الهائل الذى نشهده فى عصرنا ، وكيف اصبح هؤلاء النبلاء والسادة لاهم لهم الا الملذات والتكالب على التافة من الرغائب فى الحياة .

وكيف اصبحوا هم آخر من ينتظر منهم بروز الانسان الاعلى . واخيرا لا نجد انفسنا فى حاجـة كبيرة لنقد فكرة نيتشة فى الحب وادعائـــه بــــان الزواج بين الرجل والمرأة ينبغى ان لا يخضع بعاطفة الحب بل العامل الاخيار المنظم ، اما الحب فيجب ان نحتقره . ان نيتشة لا يعرف على التأكيد شيئا عن الدور الذى يؤديه الحب فى اخصاب الحياة النفسية تفجير المواهب الذهنية وعبلغ ما ادته هذه العاطفة الانسانية الحيوية من الخدمات الجليلة فى تزويدها – فى كل مراحل تاريخ البشرية من روائع الفـــن وتفتح العبقريات وتجميل الحياة والاقبال عليها حتى ان المرء ليصعب عليه ان يتصور الحياة – بـــدون عاطفة الحب – الافقرا يدب فيه الموت ويلتهمه الجفاف. ويقضى على كل ما فى أعماق الانسان من شعور بالحياة.

آثــار نيتشــة :

ومع كل هذا فان فلسفة نيتشة لا تحتوى على الشر وحده . أو على الاقل لم يكن صاحبها يقصد منها الشر للاخلاق والانسانية . بل كان يقصـــد الخير وان سلك له مسلكا محفوفا بالمخاطر . وشر ما فيها انها وجدت نفوسا مستعدة لقبول عناصرها السلبية وحدها لان اصحابها عجـــزوا عن ادراك مقاصدها الايجابية الخيرية فنزلوا بفلسفة نيتشة الى مستوى معين من الابتذال ، وجعلوا غايتهم منها تجنيد القوة المادية وحدها وتوفير عناصر التسلط على الشعوب المستضعفة ونهب خيراتها الاقتصادية بدون أى هدف اعلى يقصدون اليه . بحيث لــو بقيت فلسفة نيتشة تعيش فى الكتب وحدهـــا فيقرأهــا القـــراء ويدرسها المهتمـــون بالفلسفة ويناقشونها على انها آراء تقبل الاخذ والرد لمـــا استحقت ان ندرسها فى هذا المكان ونناقشها . اننا اصبحنا نحن ضحاياها وليس ببعيد ان تظل اجيالنا القادمة فريسة لمخالبهـــا اذا لـــم تدرك الانسانية رشدها ولم تلجم الشعوب المتقدمة اطماع ساستها . وذلك اننا ما نزال حتى اليوم نشهد آثار هذه الفلسفة ماثلة فى الاخلاق الدولية الراهنة واذا كانت بعض صور هذه السياسة تبـــدو فى معاملة امريكا اليوم للسود فى وطنها ومعاملتهـــا لشعوب امريكا اللاتينية وجنوب شرقى آسيا خارج وطنها – فان أفدح هذه العصور قـــد ظهـــر فى الفاشيستية الايطالية والنازية الالمانية قبل الحرب العالمية الاخيرة ، وليس هناك ما يضمن لنا بانهـــا لن تعود الى الظهور غدا فى اليابان أو تستعر من

جديد فى المانيا أو ايطاليا حيث ما يزال جمرهـا خامدا تحت رماد الحرب العالمية الاخيرة .

فمن المبـــادىء النيتشية التى نجدهـــا فى الفاشيستية الايطالية هى « حصر الزعامة والقيادة فى ايدى جماعة من الصفوة الممتازة .. والحكومة المثالية فى نظر الفاشيستية يجب ان تقوم على مبدأ تفضيل العنـــاصر الصالحـــة واستبعاد العناصر الرديئة وربط المسؤولية بالكفاية بطريقة تؤدى الى اختيار السلطة العليا للحكم .. وتزعم الفاشيستية انها تنشىء بذلك ارستقراطية فى اهل الكفايـــة والامتياز . امـــا الارادة العامة أو ارادة الشعب فانها ليست سوى غريزة القطيع ، وهى لذلك لا تؤمن بسيادة الامة ونظامها فى الحكم هو الطاعة بدون مناقشة والنظام والضبط والسلطة .

هذا فيما يتعلق بالحكم الداخلى أو سياســة المجتمع . امـا السياسة الدوليـــة فى النظـــم الفاشيستية فانها كانت قائمة على استعـادة مجد ألامبراطورية الرومانية ، وبدأت فعلا فى تنفيـذ خطتها بغزو الحبشة والبانيا ، وكان فى نيتها ان تحتل ايضا مصر وتونس وسوريا وتركيا واليونان، ولم تدخل الحرب الا بدافع هذه الاطماع . ولـولا التناقضات الاستعمارية التى وقفت فى طريقها هى والمانية فى حربهما ضد أطماع المعسكر الديمقراطى لاكتسحت البحر الابيض المتوسط كله شمالا وجنوبا.

اما فيما يخص المانيا فالمسألة ابعد عمقا وابلغ اثرا . فالاشتراكية الوطنية الالمانية التى قامت على المبادىء النازية تعتبر فى نظر المؤرخين اعنف ثورة عرفها التاريخ كما تعتبر الحرب العالمية الاخيرة التى شنتها على العالم اعنف حرب عرفتها البشريه واكثرها ضحايا واذا كان لهتلر مسؤولية مباشرة فى هـذه الكارثة فينبغى ان لا ننسى مسؤولية نيتشة فيهـــا خاصة عندما يتناول افكاره رجل أمى مثل هتـلر وفى شعب له من مواهب التنظيم وامكانيات الصناعة المدمرة ما للشعب الالمانى .

ان كل الفلسفة النازية سواء التى قـام عليها « حزب العمال الاشتراكى الوطنى » أو التى وضعت فى دستور الدولة قد استوحت قوتها ومثلها من آراء نيتشة الخطرة .

فما ورد فى مواد ميثاق الحزب تنقية الجنس وتطهيره من كل شخص يجرى فى عروقه دم غـير آرى .. ولا يحق لغير الذين ينحدرون من دم المانى أو جنس آرى ان يكونوا مواطنين فى الامة . ثـم شيئا فشيئا تقدمت هذه النظرية خطوة اخـــرى فأصبحت تقول بتفوق الجنس الآرى على غيره وان هذا الجنس هو الذى يجب ان يتزعم العالم . ومن آراء هتلر انه يجب هدم الاديان كلها لانهـا عبث باطل اما المسيحية فيجب سحقها تماما من المانيا . وان الالمانى ينبغى ان يختار بين « ان يكون المانيـا أو مسيحيا » اما الضمير الانسانى فلا وجود لـه وانما هو اختراع يهودى ، ينبغى ان لا نثق بالعقل أو بالضمير بل بالغريزة وحدها . والقول بحريـــة العلم واستقلاله بعيدا عن الفائدة المادية نظريـــة سخيفة . ان العلم يجب ان يكون وسيلة تحقيق الغايــة الحقيقية منهـا وهى امداد الحكام بوسائل السيطرة على المحكومين . اما فكرة الامة فانها بدعة اخترعها الديمقراطيون ، ويجب القضاء عليها واحلال

فكرة الجنس أو السلالة محلها . كذلك ينبغي أن يتحرر العالم من ماضيه التاريخي . ولما كانت الامم هي ميراث التاريخ فيجب تحطيم هذه الامم ووضع حد للفوضى التاريخية التي اوجدتها . وفكـــرة (الجنس) هي اصلح محور لهذا التغيير . كان هتلر يزعم انه هو الذي اختارته العناية الالهيـــة ليكون محور الانسانية الاعظم - وانه هـــو الذي سيحرر الانسان .

وكان هتلر مثل نيتشة قوى العبارة ساحرا يسيطر على الجماهير في خطبه بنفس السهولة التي يسيطر بها نيتشة على قرائه .

ويرى هتلر في كتابه « كفاحي » ان الحضارات العظمى لا تفنى الا بسبب اختلاط جنسها بالاجناس المنحطة والشعوب المغلوبة وبعد ان ينعت هتـــلر اليهود بانهم شعب محروم من الابتكار ولم يخلق أى حضارة بنفسه وبانه لا يحدوه أى مثل اعلى في الحياة ينتقل الى تعميم هذا الحكم أو ما يشبهه على جميع الاجناس الاخرى غير الجنس أو الاجنـــاس الآرية ويصفها بانها منحطة سواء منها شعوب البحر الابيض المتوسط جنوبا أو شمالا أو شرقا ، وان هذه الشعوب كلها ينبغي ان يسودها الشعب الجرماني خالق الحضارات .

وبالرغم من نظريته الاشتراكية فان الاشتراكية عنده تقوم على زعامة الفرد على الجماهير ، وزعامة الطبقة الارستقراطية على غيرها . ولم تتردد صحيفة الحزب الوطني الاشتراكي ان تكتب سنة 1940 (ان الالمان خلقوا ليحكموا أوربا .. وان الشعوب المنحطة تحتاج الى غذاء اقل وملابس اقل وثقافة أقل ممـــا يحتاج اليه الشعب الارقى) .

هذا هو المستوى المتدهور الذي نزلت اليـــه فلسفة نيتشة على يد تلك الكمشة من المغـــامرين الخطرين .

ان القرن التاسع عشر كان عصر الغرور فـــي اوربا لم ينضج فيه العقل أو بالاحرى استهوتـــه الاكتشافات العلمية الهائلة فاصبح يتوهم أنـــه قادر على كل شيء وان العقل الاوربي قد وجد المفتاح لكل مغاليق الكون والحياة ، وانه جدير بالاستيلاء على البشرية كلها واخضاعها لرغائبه وشهواته ولم يكن نيتشة هو وحده الذي نادى بهـــذه الفلسفة التفوقية الخطرة : بل اشباهه في كـــل من فرنسا وبريطانيا تغذت من كتابـــاتهم طبقـــة سخيفة من الكتاب النازيين في عهد هتلر ممن باعوا ضمائرهم وسخروا جهودهم لا لخدمة العلم بل للتهريـــج والدعاية الساقطة لفائدة المغـــامرين السياسيين . وقد ألهتهم هذه الدعاية عن البحث العلمي السليم فنسوا ان الحضارات الرائعة التي زخر بها التاريخ كانت من انتاج شعوب البحـــر الابيض المتوسط وشعوب الشرق وان شعوبهم الشمالية هذه ظلت طوال عصور التاريخ تسمى بالشعوب الهمجية ولـــم تعرف أي حضارة في التاريـــخ . انه من التهريـــج الصبياني ان يزعم عالم اليوم أو مؤرخ عن هـــذا الجنس أو ذلك الشعب نقي الدم من اخلاط لحقتـــه عبر التاريخ من اجناس وشعوب أخرى ، ان الامـــم قد اختلطت بالحروب والتجارة والهجرة والغزو حتى

أصبح من المستحيل الجزم بان هذا الشعب أو ذاك ينحدر من هذا الجنس أو ذاك دون خلط أو امتزاج بغيره من الاجناس والامم . لذلك يرى كثير مـــن المؤرخين ان العلماء النازيين لم يكونوا يؤمنون بشيء من نظرية التفوق السخيفة هذه وانهم كانوا يسخرون منها ولكنهم يستغلونها مع ذلك لتحميس الشعـب الالماني ودفعه الى الغزو واستكمال القوة والسيطرة على الشعوب . وقد خلقت عند الكتاب النازيين فكرة « المجال الحيوي » الذى يعطى الحق لدولة مثل المانيا ان تبحث خارج وطنها الضيق عن متنفس تدفع اليها ابناءها للسيادة على بلاد أخرى واستثمار خيراتها لفائدة الشعب الماني : اما البحث فيمـــا اذا كانت المانيا على الحق فى هـــذا الغزو ام لا ؟ فليس له أى اعتبار . ألم يقل نيتشة بان الحق هو ما سميتـــه انت كذلك . وكانت المانيا عندما راودتها الاحـلام (النيتشية) قد جاءت الى عالم الاستعمار متأخـرة عن الوقت وبعد ان استولت الدول الاوربية الاخرى على مختلف المستعمرات فى آسيا وافريقيـا . وهى تذكرنا بحالة الاميركان اليوم وهمْ ينبشون قبـور الاستعمار فى المستعمرات الاوربية السابقة ويرومون احتلالها من جديد بعد ان تخلى عنها المستعمـرون السابقون .

ان افكار نيتشة عندما يقرؤها الانسان كافكار يعجب ببلاغة صاحبها وبالنشوة التى كان يشعر بها الكاتب وهو يسجلها فى حمية وحرارة . ولكن هذة الافكار عندما دخلت ميدان التطبيق على يد النازية الهتلرية اصبحت شيئا رهيبا . لقد سحقت كل معالم الديمقراطية فى المانيا وقضت على جميع الحريـــات الفرديـــة وتدخلت حتى فى الحيـاة الخاصة بحجة ان الفـــرد والاسرة والامــــة جميعـــا يجـــب ان يفنوا فى الدولة . وبذلك اصبح الشعب كله عبدا للدولة واجهزتها الجهنمية لا يعرف العمل المرهـــق والخضوع الاعمى للطغيان الرهيب ، واصبحت حتى حياة الاسرة والزواج والتربية والحياة المنزلية تخضع لتعاليم النازية التي لا تعرف رحمة ولا ترعى قانونا انسانيا واخلاقيا من الاحتشام والسمو . كما قضى النظام النازى على الثقافة الجامعية الرفيعة وشرد آلاف الاساتذة ممن لم يتحمسوا للنظريات النازية السخيفة والحياة العسكرية حتى على الحياة المدنية . اما الآداب والفنون الرفيعة فلم يعدلها شيء مما سمى (بمخلفات الميوعة والديمقراطية) وهكذا اصبحت المانيا فى العهد النازى وتحت ظل الافكار النيتشية عبارة عن معسكر حقيقى يعمل ليلا نهارا لتهيئة اكبر مجزرة عرفها التاريخ ريثما يخضع بقية البشر لنفس الحياة الخانقة .

ولكن الحياة التى لا تسير الى الوراء بالرغم من مزاعم نيتشة ابت الا ان تحطم المانيا كلها التى اعتقنت هذه المبادىء التقهقرية الرجعية ، ولقيت المانيا الهتلرية أو النيتشية مصيرها المـــروع فى الحرب العالمية الثانية بعد ان تألبت عليها الانسانية كلها حتى ايطاليا التى اندفعت معها فى الخطوات الاولى من المغامرة . وبزوال النازية زال اكبر خطر هدد البشرية فى تاريخها القديم والحديث وتحطمت اعظم قوة نمازية برزت الى الوجود ، واخطر عـــلى القيم الانسانية والاخلاق الدولية عرفه البشر .

ولكن القضاء على القوة المادية المعتدية لا يكفى

لانه لا يدوم الا حينا من الدهر ثم لا بد ان تجد في التناقضات السياسية ما يساعدها يوما على البروز من جديد وفي يدها من الاسلحة اضعاف ما كـان لديها في السابق ان ما يجب القضاء عليه هو القوة المعنوية والاسس الفلسفية التي نبعت منها جذور هذه السياسة التي لا تدين بالاخلاق ولا تؤمن بالقيم ولا ترعى الا ولاذمة سواء عند المانيا او غير المانيا ، ان فكرة القوة هذه يجب ان تقاوم في المـــدارس والكتب والافلام والروايات المسرحيـــة والصحف والاذاعات . وذلك سواء في الحياة الوطنية داخـل كل قطر أو في الحياة الدولية والعلاقات بين الشعوب نعم انه ليس من السهل ان نقيم توازنا ثابتا بـين المصالح والمبادىء وبين المنافع والقيم وبين الاطماع والخلق الرفيع سواء بين الافراد أو الشعوب ولكن المشكلة ليس لنا فيها كبير خيار : ان الانسانية كما قال نهرو . (وهو ما يحســن بالسيدة أنديـرا ان تتذكره) : « اذا كانت رشيدة فستقضي على فكرة القوة ، واذا كانت سفيهة فنقضي عليها بالقـوة » .

وانني لم اقصد ان اختم هذا بفصل فكرة من الهند . ولكنه انسياق القلم والخواطر . لقد كـان نيتشة مولعا بالتفكير الهندي ولكنه لم ياخذ مـــن فلسفات الهنـد القديمـة المتعـــددة غير فكـــرة (البراهمانية) في وجوب « حفظ الاجناس مـــن الاختلاط خوفا من الانحطاط اذ ان امتزاج الدماء يعتبر جريمة من الجرائم » وفكرة تقسيم المجتمع الى احرار ومحاربين من جهة وغيرهم من جهة اخرى وهم المنبوذون .

ان افكار نيتشة كانت جديرة بان تعرفهـــا البشرية في العهود الاولى من تفكيرها الفلسفي اما ان تظهر في القرن التاسع عشر وتطبق في القـــرن العشرين فعلا فهو ما يعتبر نكسة خطيرة نرجو ان لا تصبح مرضا يعاود الانسانية من حين لآخر .



الحضارة الاسلامية والبحث العلمي

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .. ان العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في اسبانيا ، لم تنهض في عنفوانها الا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العالم وحده هو الذي أعاد الى أوروبا الحياة ، بل ان مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الاوروبية فعلى الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الاوروبي الا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة فان هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي ..

بريفولت (بناء الانسانية)



اواني من خشب ابدعتها اليد العربية الفنانة

دراســة حول ديوان محمد العيد

د : محمد رشدي حسن
أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة وهران ـ

تقـديم الشـاعر :

ان المتصفح للادب الجزائرى الحديث يجد فى كل صحيفة من صحائفه ذكرا لشاعرنا محمد العيد ـ بل ان لقب «أمير شعراء الجزائر» كثيرا ما يسبق اسمـه .

وان كثرة ترداد اسم شاعرنا محمد العيد والعنايه التى أحاطت بشعره دفعتانى الى أن اتصل بهـذا الشاعر وأقرأ له وعنه ، وهذا الاتصال أقنعنى بأنه يستحق الدراسة لا من جانب اخواننا الجزائريين فحسب بل وأيضا من جانب كل من يهتم بالادب الحديث فى كافة أنحاء العالم العربى (*)

فمحمد العيد يقف فى صف الممتازين من شعرائنا وان المتدبر لشعره يشعر بأنه صورة حية نابضة لقلب الشعب الجزائرى بما فيه من كفاح وثورة وانفعالات وأشجان وعواصف ورعود .

(*) اتصل الدكتور ابو القاسم سعد الله بشاعرنا فى كتابين له هما : محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائرى فى العصر الحديث ـ دراسات فى الادب الجزائرى الحديث ، وكذلك فقد سجل الاستاذ صلاح مؤيد بعض اشعاره فى كتاب له بعنوان : « الثورة فى الادب الجزائرى » كما كتبت الدكتورة سعاد محمد خضر شيئا عن الادب الجزائرى الحديث فى كتابها : « الادب الجزائرى المعاصر »

وقارىء ديوانه يجد أن شعره الذى قاله منذ عام 1954 لم يخب حماسه بالرغم من انه كان قد جاوز الخمسين من عمره . فشاعرنا قد ولد فى مدينة العين البيضاء على حافة الصحراء سنة 1904 وقد مثل شعبه أصدق التمثيل فى ما امتلأ به قلبه ثم نطق به لسانه،فهو شاعر فى شعب وشعب فى شاعر . وقد قاسى الاهوال على يد المستعمر الفرنسى الذى ضيق عليه الخناقة وسجنه ومنع الاتصال به ثم أفرج عنه وحدد اقامته فى مدينة بسكرة ولكنه يرسل شعره رعبا قويا يجلجل به فى آذان الشعب وقد انجلت همة هذا الاحتلال ونالت الجزائر استقلالها سنة 1962 ولم تنس فضل أبطال التحرير بالسنان كما لم تنس فضل أبطال التحرير باللسان ــ وكان شاعرنا محمد العيد على رأس هؤلاء المكرمين فجمع شعره وطلع علينا فى ديوان سنة 1967 ووجدنا فيه كلمة للاستاذ محمد البشير الابراهيمى (1) قال فيها :

« الاستاذ محمد العيد شاعر الشباب وشاعر الجزائر الفتاة بل شاعر الشمال الافريقى بلا منازع . . رافق شعره النهضة الجزائرية فى جميع مراحلها وله فى كل ناحية من نواحيها وفى كل طور من أطوارها وفى كل أثر من آثارها القصائد الغرر والمقاطع الخالدة .

موقف الشاعر من الغزل والمرأة :

وبعد هذه المقدمة التى لابد منها ، نرجع الى ديوان الشاعر فنجد أن شاعرنا قد طرق فيه كل الاغراض الشعرية القديمة ولكنه لم يتغزل أبدا فشعره الغزلى ليس له وجود ، وان كنا نلمس زقة العاطفة وشفافيتها فى الاغراض الاخرى ، وقد تعجبت من خلو ديوان الشاعر من هذا الغزل ولكن عجبنا يزول حين نجد أن كفاح الجزائر المستمر من سنة 1830 لم يجعل شاعرنا يفرغ الى نفسه ولو قليلا ليعبر عن ذاته المحبة المشتاقة . ولعل شاعرنا الآن بعد أن قرت عيناه وحقق وطنه ما يصبو اليه يتمكن من اضافة باب الغزل الى ديوانه . فالغزل يحتاج الى عاطفة مشبوبة ورقيقة وشفافة ، وعاطفة شاعرنا من هذه الناحية لا تخلو من تلك الصفات ولا يجب أن يكون شعراؤنا ــ من هذه الناحية ــ

(1) محمد البشير الابراهيمى احد رجال الجزائر البارزين الذين كافحوا بكل ما يملكون فى سبيل استقلال الجزائر واعادتها الى عروبتها ، وقد تولى رئاسة جمعية العلماء المسلمين بالجزائر بعد وفاة الامام الجزائرى عبد الحميد بن باديس سنة 1940 وكان الشيخ محمد البشير الابراهيمى عضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وقد تتلمذ عليه شاعرنا ردحا من الزمن واستفاد منه كثيرا ، وقد توفى الشيخ محمد البشير الابراهيمى بالجزائر فى 21 ماى سنة 1965 بعد ان قرت عيناه باستقلال الجزائر وعودتها الى الحياة العربية الاسلامية من جديد ، ومن مؤلفاته المشهورة : « عيون البصائر » وقد طبع حديثا وقرضه شاعرنا محمد العيد فى مجلة الثقافة الجزائرية عدد سبتمبر سنة 1970 بقوله :

كتاب لمن املاه بالعلم يعهد ... يطالعنا بالعود والعود احمد

يتوجه باسم الاله و حمده ... نصير لمن يدعو اليه مؤيد

عيون بها تجلو البصائر نورها ... علينا كما يجلو الكواكب مرصد

الجزائريون نسيج أنفسهم فى هذا الميدان فتخلو دواوينهم من هذه الذاتية الرقراقة المحببة الى نفوس عشاق الفنون والآداب ، وعليهم ألا يستمعوا الى قول زميلهم الشاعر الجزائرى اللقان :

ألا فدع التغزل فى غوان
فتلك طريقة المستهترينا

فليس الغزل فى الحسان استهتارا وانما هو رقى فحب الصورة البشرية مرقى لحب الذات الالهية بل ان اتقى الشعراء وأصفاهم وأدناهم من الحقيقة القدسية مثل ابن الفارض ومحيى الدين بن عربى وعبد الغنى النابلسى وقريب الله أبى صالح تفيض أشعارهم بالغزل الصريح والمرموز .

وبالرغم من دفاعنا عن شعر الغزل فانه لا يمكن لنا أن ننسى أن الاحتلال الذى قاست منه الجزائر كان احتلالا بشعا من كل ناحية ، ومن ثم فلا يمكن لاى شاعر يرى ألوان البشاعة ثم يفيق الى نفسه ويغنى تاثرها بالجمال أو تشكيها من صد الحبيب ، لقد قتل المحتلون فى 8 مايو 1945 خمسة وأربعين ألفا من أبطال الجزائريين مرة واحدة فكيف تهنأ نفس الوطنى العادى بل كيف تهنأ نفس الشاعر محمد العيد ليقول الغزل ؟ وهكذا لا نجد مكانا فى قلبه لزينب والرباب ، بل نجد مكانا فقط للشعب كما يصرح بذلك فى قوله :

أيها الشعب أنت موضع شعرى
وشعورى لا زينب والرباب

وان وجد مليحة فانه يغض البصر :

يا أخا العين لا
تغترر للصور
انها للبلايا
اجلت للحفر
فادرع للملاح
بغض البصر

وبالرغم من خلو شعره من الغزل الا انه لا ينسى المرأة على الاطلاق أو دورها البناء فى المجتمع وهو فى هذا يعتمد على الاسلام كعهدنا به دائما فى القضايا الفردية وقضايا المجتمع على السواء :

آتوا النساء نصيبهن من الهدى
يخرجن نشئا كالرماح الشارع

وقد صاح الشاعر الصيحة لانه خاف على الفتاة المعاصرة التى تظن انها بخروجها على الآداب الاسلامية فانما بذلك تساير ركب الحرية . يقول الشاعر :

ما بال فتاة العصر منحرفا
يهوى بها فى مهاوى الافك والزور
ان الجزائر أمست بنتها غرضا
لكل رام بسهم الغى ماجور
ما بالها هجرت آداب ملتها
ما بالها أعرضت عن خير دستور

وبعد أن بين موطن الداء يذكر لنا الدواء والعلاج المستمد من الاسلام :

ان الذى برأ الجنسين خولها
حقوقها فى كتاب منه مسطور
لو أنها اقتبست من نوره وجنت
من روضه التحقت فى الطهر بالحور

وبعد أن يتحقق هذا الصلاح فان الفتاة جديرة بأن تتحمل مسؤولياتها كاملة فى ثورية واعية :

أنا ثورية سلاما وحربا
فكرتى عدتى و علمى زادى

ثم يختم الشاعر قصيدته على لسان بنت الجزائر قائلا :

كيف أنسى مجد الجزائر قدما
كيف أنسى مآثر الاجداد
لست أنسى مفاخرى فاطمئنى
وثقى بى فى ثورتى يا بلادى

وفى قصيدة أخرى له يوضح واجب الفتاة نحو نفسها ونحو رجلها ونحو ولدها فى قوله :

قمن لله بالقرب
وتحلين بالادب
يا نساء الجزائر

كن فى البيت للرجل
نسوة فذة المثل
يا نساء الجزائر

كن فى البيت للولد
هاديات الى الرشد
يا نساء الجزائر

وهكذا ينظر الشاعر الى المرأة هذه النظرة الدينية السليمة ويمسك بعصا القيادة الاسلامية موجها بها ومرشدا .

شعر الوطنية والاسلام والعروبة :

وتتالت المحن على الجزائر منذ احتلالها سنة 1830 فلم يجد الشعب الجزائرى بدا من أن يكتل صفوفه ويقاوم المحتل بنفس سلاحه سلاح القوة والبطش، ولكن ثورة السلاح هذه كانت نتيجة لثورة الشعر أولا . فالشعر الثورى الذى تغنى به الشعب الجزائرى كان عاملا أساسيا فى اشتداد الثورة الجزائرية التى نظمت تنظيما كاملا منذ سنة 1954 حتى انتصرت على الدخيل الفرنسى سنة 1962 . يوضح هذه الفكرة شاعرنا محمد العيد فى قوله :

ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعـ
ـب و عادت عليه بالآلاء

فهو يعرف أن للشعر رسالة ورسالته فى مد الثوار بالمبادىء الخالدة الدينية والقومية والوطنية وهو فى هذا يعد ندا للمسلمين الكبار من أمثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وعبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الابراهيمى . وان وصول صوت الافغانى فى مصر الى محمد العيد فى الجزائر لدليل على هذه الوحدة المتكاملة التى تربط بين أجزاء العالم العربى ـ فجمال الدين عاش فى مصر من سنة 1871 الى سنة 1879 وحمل رسالته من بعده الشيخ محمد عبده الذى توفى سنة 1905 ثم وجدنا الامام الجزائرى عبد الحميد بن باديس الذى أحبه شاعرنا وتتلمذ عليه وأخلص له يؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى مايو سنة 1931 وظل رئيسا لها حتى وفاته سنة 1940 فتولى رئاستها من بعده العالم الجزائرى محمد البشير الابراهيمى وهذه الجمعية قامت بحركة قال عنها الدكتور أبو القاسم سعد الله بانها (تسترت هذه الحركة أول مرة تحت تعاليم الاسلام واللغة العربية

ومحاربة الخرافات وحفظ شخصية الجزائر ولكنها ما لبثت أن تركزت وأصبح لها جمهـور قـوى أن أعلنت أن كل المبادىء السابقة تستلزم انفصـــال الجزائر عن فرنســـا) . (2)

فالمؤذن يؤذن فى الشرق فيسمعه من فى الغرب هذا وان تباعدت الازمنة والامكنة . الا ان الاحساس بالآلام والآمال متشابه فلو أن جمال الدين أتى الى الجزائر لم يقل الا ما قاله عبد الحميد بن باديـس فيها . وعلى هذا فان الفجيعة فى ابن باديس حـين ما توفى الى رحمة الله كانت فجيعة عاتية اهتـزت لها نفس شاعرنا كما اهتـزت لها نفوس الملايـين

وقد ارتجل محمد العيدأمام قبـره قصيـــدة يقول فيهـا :

يـا قبـر طبت وطـاب فيـك عبـير
هل أنت بالضـيف العـزيـز خبـير

هذا ابن بـاديـس الامـام المـرتضى
عبد الحميـــد الى حمـــاك يصـــير

العـالم الفـذ الـذى لعلـــومـــه
صـيت بأطـــراف البـــلاد كبـــير

بعث الجـــزائر بعد طـول سبـــاتها
فالشـعب فيهـــا بالحيـــاة بصـــير

وقـضى بهـا خمســين عامـا كلهـــا
خـير لـكل المسلمــين و خـير (3)

وقد نقشت هذه الابيات على قبر الامام الراحـل وان كنا قد لاحظنا عادية الالفاظ فى هذه الابيـات وخاصة فى الشطر الاخير من البيت الثالث فكلماته فيه هبطت الى الحد الذى ظننا معه أن محمد العيد ليس هو القائل وان ارتجال الابيات لا يغفر له هذا الانحدار من سموه العـــالى .

نخلص من هذا كله الى أن شاعرنا محمد العيد قد الشعر ومكانته وفهم رسالته فلم يعد الشعر فى نظره مجرد مدح للعطاء أو قدح للهجاء ولم نجـــده فى شعره يتنازل من عليائه ليستجدى حاكمـــا او ليسترضى ذا جاه . انما هو حر كريم يصافح العلياء فى سمائها والكرامة فى ابائها والوطنية فى بهائها والعقيـــدة فى صفـائها . وليـــس معنى هـــذا انه كان يحيا فى برج عاجى ينظر من قمتـــه الى الكادحين فى كدحهم والى المناضلين فى نضالهم ثـم يرسم ظلالهم بألوان مزخرفة ــ كلا ــ وانما هو أولا وأخيرا شاعر فى شعب وشعب فى شاعر والشعب فى حقيقته شعب عربى ذو اباء وشمم وكرامـــة ووطنيـة وعقيـــدة ــ فاذا كان شاعـرنا كريمـا فانما لان شعبه كريم . واذا كان شاعرنا مدافعـا عن العقيدة ومنافحا عنها فانما لان شعبه كذلك .

يقول الشاعر :

على أنى ارتجـيت نجـاة شـــعبى
فأسعـفـنى الالـــه بما ارتجيت

ويقول :

جعلت الشعـر فى الدنيـا نجيى
فكـان لخـاطـرى كالتـرجمـان

ولم أكفف عن استنهـاض شعـبى
بـه لأراه فى أعـــــلى مـــكان

لذاك رجـوت أن يبـقى كـذكـر
لشعـبى . رافـع للذكـر بـانى

(2) دراسات فى الادب الجزائرى الحديث (3) الخير بمعنى الشرف والكرم كما فى لسان العرب بكسر الخاء

ولا يغيب الشعب عن خاطر الشاعر أبدا بل نجده فى كل قصيدة بل فى كل بيت من القصيدة وهو يمزج الشعب بالشعر كأن الشعر هو الذى يخلق حماس الشعب أو كأن الشعب هو الذى يخلق حماس الشعر . ها هو يقول :

هو الشعب فانزل على حكمه
و أذعن لاجماعه الباتر
اذا ما أصر على مطلب
فقل أبرمته يد القادر
لقد بذر الشعر فيه الفدا
وحسبك بالشعر من باذر

ثم نجده فى نفس القصيدة يعرف لنا الشعر ولا يخرج تعريفه له عما أشرنا اليه من أن الشعر من وحى الشعب ذاته :

وما الشعر الا شعور سما
خلى بايحائه الشاعر
يهز النفوس بتياره
فتسمو الى الاوج كالطائر

وينتقل شاعرنا بعد ذلك الى تعريفنا بأنه قديم عهد بالشعر وانه اتصل به منذ صباه المبكر وان كان شاعرنا قد دفع من أجله ثمنا غاليا وموحشا مهجته ، الا أن هذا كله سيهون فى سبيل الشعب البطل الذى ينتمى اليه :

شغفت به منذ عهد الصبا
فأبت بعمر به عامر
و عرضت نفسى لأخطاره
بما ليس يعرض بالخاطر
وقفت على الشعب جهدى به
و كرست عمرى الى الآخر
فدون شعرى بمرآته
جلا غابر الشعب للحاضر

ولا يمل شاعرنا من تبيان رسالة الشعر ، وان الشعر ضياء يسير على أشعته أبناء الوطن حتى يحققوا المجد للامة الجزائرية التى يتزلف اليها قربى لانها شغفته حبا بأفضالها عليه وهو ليس بالناكر للعرفان :

أقدمه مشعلا ثاقبا
الى شعبى البطل الثائر
ليسعى على ضوئه هادفا
الى المجد فى ركبه السائر
هدية من بهوى شعبه
تتيم مذ فطرة الفاطر
تقرب للشعب زلفى بها
و حاشاه من وصمة الناكر
اذا ما جزاها بعرفانها
أصاب به بغية الشاعر

وان صوت الشعر فى الجزائر صوت مدو عال يستخدمه المناضل فى كفاحه كما يستخدم مدفعه وبندقيته ، فالامير عبد القادر الجزائرى (4) الذى قاد الجزائرين ضد الغزو الفرنسى كان شاعرا

(4) ألشاعر محمد العيد لا ينسى فى شعره القائدين المجاهدين عبد القادر الجزائرى وعبد الحميد بن باديس ويجعلهما قدوة له ولغيره :

كن كابن باديس الامام مجاهدا   او كن كعبد القادر المقدام

وكذلك فان عبد الحميد بن باديس العالم الرفيع القدر والذى رأس جمعية العلماء المسلمين كان أيضا يقول الشعر ولكن محمد العيد كان أعلاهم صوتا وأكثرهم وأغزرهم انتاجا للشعر . وقد نجح عبد الحميد بن باديس ايما نجاح فى وسم الشعار بالابيات القليلة ولكنها سهلة التلحين ميسرة الترداد مما جعله صالحا للانشاد تنشده فرق كفاح الوطن وطلبة المدارس . يقول الامام عبد الحميد بن باديس :

فاذا هلكت فصيحتى
تحيا الجزائر و العرب

شعب الجزائر مسلم
و الى العروبة ينتسب

من قال حاد عن اصله
أو قال مات فقد كذب

أما شاعرنا محمد العيد فيعبر عن شعب الجزائر المسلم العربى فى أبيات كثيرة منتشرة فى معظم قصائده . فقد قال مادحا الاساتذة العرب من مصر ومبينا ان الدين والعروبة أبوان للمصريين والجزائريين جميعا :

لستم هنا غرباء بل فى أرضكم
وديـاركم ان الغريب المبعد

ما نحن الا اخوة من أسرة
كرمت أرومتها وطاب المحتد

الملة السمحاء اصرة لنا
فوق الاواصر والعروبة مولد

هيهات تقدر أن تفرقنا يد
والله يجمع شملنا و محمد

ان العروبة أمنا الكبرى التى
فى الامهات نظيرها لا يوجد

ثم يقول أيضا ممجدا العروبة والمنتسبين اليها :

نبنى العروبة من جديد قلعة
من حولها قصف المدافع يرعد

فلتحى وحدتنا بها فى منعة
و من المحيط الى الخليج تمدد

ولتحى مصر مع الجزائر فى رضى
و محبة و صداقة تتأكد

وليحى شعبانا كشعب واحد
و كلاهما متقرب متودد

وليحى فى ظل العروبة ودنا
ملء القلوب و عهدنا المتأبد

فهنا وجه المقارنة ائتلافا واختلافا بين ابن باديس ومحمد العيد فقد اتفقا فى فكرة واحدة وهى تمجيد الاسلام والعروبة كما رأينا فى أبياتهما . أما الوجه الآخر فقد اختلف الاول عن الثانى فى أنه قلل العبارة واوجز فيها ولم يختل المعنى ، بينما أطال الثانى فى العبارات التى تمجد نفس الفكرة وكرر ما يدعو اليه فى أساليب مختلفة ولم يختل المعنى عنده أيضا .

وقد تكررت معانى تمجيد الاسلام والعروبه فى كثير من قصائد شاعرنا الزاخرة الفياضة . وقد بلغ الشاعر القمة فى تقدير هؤلاء العلماء العاملين الذين يعملون على أداء رسالتهم فى تثبيت الاسلام فى

القلوب ورفع راية العروبة فى كل مكان يحلون به من أرض الجزائر بعد قدومهم من مصر .

ها هو يقول : (5)

أيها الوفد جئت عقبة ضيفا
فتبوأت قمة العبان
مد أوراس سفحه لك ظلا
ان أوراس مكرم الضيفان
فغرست العلوم للنشء روضا
و مددت الفنون كالافنان
كيف يجزيك عن أياديك انا
لا نراها ترد بالشكران
قد عجزنا عن الجزاء صنيعا
فرأينا أداءه بالمثانى
و ثواب الاله للعبد فى أخـ
ـراه أولى من الثواب الفانى
أيها الناشرون للعلم فينا
علما عندنا رفيع المكان
فاض عرفانكم على الارض حتى
أصبح النيل منه كالغدران
كم لكم فى الجزائر اليوم من سـ
ـد ، يباهى السدين فى أسوان
انما هذه المعاهد سـ
ـد بعد سد تفيض بالعرفان
انما هذه المعاهد برها
ن على حكمكم الى برهان
و دليل ان الجزائر قد سا
دت و عادت لأصلها العدنانى

ثم نجده يهتف فى آخر قصيدته هذه بالسلام على مصر وعلى أمة العروبة جمعاء مجددا العهد لتكون الجزائر عضوا عاملا فى أمة العرب .

ها هو يقول :

بلغوا مصر شوقنا و هوانا
و رضانا فى السر و الاعلان
و سلام على الكنانة منا
ما استنارت بالازهر المزدان
و على أمة العروبة فى كـ
ـل مكان يضمها و زمان
سنوالى الجهود حتى نراها
فخمة الحكم ضخمة السلطان
و لواء الاسلام فى كل أرض
خافقا يحتمى به الخافقان

وان هذا الشعر قد وضح لنا ان الجزائر متقدمة فى الصفوف من ناحية قدرة شعرائها على التعبير بأجزل الاساليب وأروع البيان عن وقع الوجد على الوجدان ـ وكان شاعرنا قد حقق بالفطرة والكسب جميع ما دعا اليه الحكيم جمال الدين الافغانى من أن اللغة هى قوام الامة حين قال :

(5) يخاطب هنا وفد العلماء المصريين الذين اتوا الى الحفل الذى اقيم بمناسبة اختتام السنة الدراسية بالمعهد الاسلامى بمدينة باتنة صيف سنة 1965

« لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لهم اذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم فيعمل عملهم وينسج على منوالهم » .

وحقق شاعرنا أيضا قول الشيخ محمد البشير الابراهيمى فى الاعتزاز باللغة العربية :

« لغة الامة هى ترجمان افكارها وخزانة أسرارها ، فاذا حافظ الزنجى على لسان ولم يبتغ به بديلا وحافظ الصينى على لغته فلم يرض عنها تحويلا فالعربى أولى بذاك وأحسن لان لغته تجمع من خصائص البيان ما لا يوجد جزء منه فى لغة الزنجى أو لغة الصين ولان لغته كانت فى وقت ما لسان معارف البشر وكانت فى زمن ما ترجمان حضارتهم وكانت فى وقت ما ناقلة فلسفات الشرق وفنونه الى الغرب وكانت فى وقت ما هادية العقل الغربى العالى الى أمور الحكمة فى الشرق وكانت فى جميع الاوقات مستودعة آداب الشرق وملتقى تياراته الفكرية ولازالت صالحة لذلك لولا غبار من الاهمال علاها وعاق من الابناء قلاها وتيم من لغات الاقوياء المعروفة دخل عليها » .

والحقيقة اننا فى بحثنا هذا قد اعتززنا كثيرا بأقوال هؤلاء الحكماء لان اللغة العربية وجدت فى الجزائر حربا شعواء لا هوادة فيها فالفرنسيون كان من أهدافهم القضاء على اللغة العربية فى الجزائر وفرنستها يتوهمون أنهم لا محالة سيحققون فى الجزائر العربية ما فشل الالمان فى تحقيقه فى بلادهم عند ما احتلوها منذ زمن مضى ، وعلى ذلك كان هذا الاعتزاز العميق باللغة العربية والحفاظ عليها .

ومما قام به الفرنسيون فى محاربة اللغة العربية انهم يسجنون كل من يفتح مدرسة لتعليم اللغة العربية وقد تجرأ بعض العلماء وفتحوا مدرسة لتعليم اللغة العربية سنة 1939 فى قرية من قرى الجزائر فسجنتهم السلطات الفرنسية ـ فما كان من شاعرنا محمد العيد الا أن عبر عن رأى الشعب فى احساسه بالضيق. لسجن هؤلاء الوطنيين الاشراف :

تساءل الشعب فى ضيق وفى حرج
هل للمساجين من عفو ومن فرج

وقد ذكرنا شاعرنا محمد العيد فى دفاعه عن اللغة العربية فى الجزائر بما فعله زميله شاعر النيل حافظ ابراهيم حينما دافع عن اللغة العربية بمصر فى قوله :

انا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفات

ومن الشعر الدينى عند محمد العيد ما قاله فى تارك الصلاة :

أيها التارك الصلاة أبن لى
أى عذر لـه تركت الصلاة ؟ !

أغرورا تركتها ؟ أم نفورا ؟
أم كفورا ؟ أم سخطة ؟ أم شماتا ؟

كل يوم تقول سوف أصلى
سوف أقضى من فرضها ما فاتا

هكذا ينقضي زمانك ليلا
و نهارا تؤجل الاوقاتا
بادر الفرض واستر العرض أولا
فترقب من ربك الاعناتا

وبهذا الاسلوب الشعرى السهل يخاطب شاعرنا تارك الصلاة فى طريقة مبسطة ولكنها تهز الوجدان وتدعو الى أن يتساءل تارك الصلاة الى متى هذا الهجر للصلاة فحينما لا يجيب – وبأى شىء يجيب – نجده فورا يقلع عن غفلته ولا يتوانى عن صلاته مرة أخرى ثم يدفع الشاعر بالحجة تلو الحجة لتكون الصلاة جزءا من الحياة لا يتركها المسلم أبدا فيقول :

هذه دار كلفة لا تـوان
فاجعل الصبر عدة والثباتا
أيها المطمئن فيها اغترارا
بالامانى متى ملكت الحياتا
انها ساعة تمر كان لم
تغن فيها عشية أو غداتا
كم غنى بالفقر فوجىء يوما
و معافى اذا به قيل مات

وأيضا فان شاعرنا يخاطب تارك الزكاة كما يخاطب تارك الصلاة وهو أيضا يخاطب وجدان المسلم ويبين أن الزكاة فرض وهذا الفرض واجب التنفيذ ، ويا حبذا لو كان الشاعر قد فصل الفوائد الاجتماعية التى تعود على المجتمع الذى يؤدى أفراده فرائض الدين .

ها هو محمد العيد يقول مخاطبا تارك الزكاة :

أيها التارك الزكاة لماذا
لا تزكى ؟ وقد ملكت النصابا
مر حول عليك من بعد حول
مثلما يتبع السحاب السحابا
تكنز المال صامتا لست تروى
منه عبا مهما استزدت شرابا
كل يوم تقول هل من مزيد
كلظى زادها المزيد التهابا

وبعد ذلك نجده يوضح القسوة التى منى بها تارك الزكاة فهو يطرد الفقير والمسكين :

و تذود الفقير بالنهر والمسـ
ـكين عنها كما تذوذ الذبابا

ثم يختم القصيدة بأبيات يذكر فيها تارك الزكاة بان الموت نهايته ولن يأخذ شيئا من ماله معه الى القبر .

ها هو يقول :

ان فرض الزكاة يدعوك فاسمع
صوت انذاره ورد الجوابا
فكانى بك اخترمت بموت
خاطف بعده تلاقى الحسابا
و كانى بك احتملت الى القبـ
ـر و وسدت فى التراب الترابا
و كانى بالأهل بعدك حازوا
منك ميراثهم منابا منابا
قم فقدم زكاة مالك وارقب
بركات الزكاة وارج الثوابا

قم فقدم زكاته فهي أرجى
لك من كنزه وأنجى مآبا

وهذه الروح الدينية تسرى فيه سريان الدم فلا نجد قصيدة الا وهو يدعو فيها الى التمسك بأهداب الدين وهو يهجو الخمر مر الهجو فيقول فيها :

الخمر شربة رجس أم أرجاس
الخمر صاعقة تهوى على الراس

الخمر محنة سوء من أصيب بها
أصيب فى كل وعى منه حساس

ثم يبين آثارها المضرة على العقل الذى هو النبراس الذى يستضىء به الانسان :

ما الخمر الا ظلام للنفوس فلا
يغررك منها شعاع لاح فى الكاس

على الفؤاد بها النيران موقدة
وفى الدماغ لها دقات أجراس

وكيف تطفىء نبراسا حباك به
رب البرايا وتبقى دون نبراس

فحطم الكأس واهجر كل رفقتها
تعش سعيدا وتأمن ألسن الناس

ثم نجد ان الشاعر يبين للشباب أن عناصر مجده وخلوده تتمثل فى العلم والدين كما يقول :

انت من عنصر الخلود لباب
كن الى المجد طامحا يا شباب

لك مشعل العلم فى يمينك يهدى
كل سار به و يجلى الضباب

لك دين مدى الدهور عزيز
يبذل المال دونه و الرقاب

لك ماض ما مثله قط ماض
تتباهى بمجده الاحقاب

و لسان لم يدن منه لسان
و كتاب لم يدن منه كتاب

تلك فينا وديعة السلف الـ
ـزاكى فهلا تصونها الاعقاب

وبعد أن يوجه شاعرنا الشباب الى التمسك بالدين وباللسان العربى نجده يلح عليه فى الاتجاه نحو الشرق العربى لان الشرق العربى هو ملاذ العروبة :

انما الشرق للعروبة ورد
بارد الماء سائغ المستطاب

ويعود بنا الشاعر مرة أخرى الى الدين موجها الشباب اليه حاثا اياه على التمسك بقيمه فهى نجاته :

نتمنى بالدين أن نتحلى
من تحلى بدينه لا يعاب

انما الدين لليوث عرين
و تعرنا بالعراء الذئاب

انما الدين فى المبادى رأس
المجد فيها و غيره أذناب

ويخاطب أيضا شعب الجزائر مبينا أن من أعظم دواعى الخلود هو التمسك بالدين واللغة العربية ، وعلينا أن نذكر الشهداء الذين ضحوا

بالنفس والنفيس في سبيل المحافظة على كيـــان الجزائر مسلمة عربية :

و حكم كتـاب الله في كل فتنـــة
فتحكيمــه لا بد أن يطـفى الجمـرا

تعـود لســان الضاد نطقا تعد بـه
معـدا الى الدنيا وتنشــر به فهرا

السنا وان طال المـدى نسل يعرب
تطـول بنا فرعا وتزكو بها جـذرا

فأوطـاننـا أرض العـروبة كلـــها
ســواء بها نثـوى الجزائر أو مصرا

لقد جمعتنـا وحـــدة عربيـــة
على الحـق جمعـا لا نخاف له كسرا

وكن سمـاعا صـوت الجـزائر انها
تناديك بعد النصـر أن تبنى الوكرا

ولا تنس فعل السابقـين الى الفـدا
من الشهداء الطيبـين بها ذكـــرا

ترحـم عليهـم واحتفظ بقبـــورهم
ورب بنيـهم واتخـذ عهدهم ذخـرا

والشاعر كعربى يعج بنا الى الشقيقات العربيات ويتحدث في المناسبات الوطنية ، فمثلا وجـدناه يهتز طــربا حينمـا استقلت الســودان فيتحفها بقصيدة يقـول فيها :

مـا أسعـد الســودان باستقـلالـه
فاليـوم يرفـع رأســه الســـودان

ويقول أيضا فيها :

هل كان كالســـودان شعب صالح
فيه استقـام الشيب و الشبـــان

ثم ان شاعرنا قد قرأ تاريخ السودان وتعـــرف على الحركة المهدية (7) في أواخر القرن التـــاسع عشر ومن ثم فهو يمدحها مشيدا بها لان كل حركة فيها قضا. على الاستعمار في البلاد العربية انمـا هي بشير بانبلاج الفجر في بلاده هو .

يقول محمد العيد :

أم كيـف ننـسى فيه أعظـم صورة
آثـــارهـا لم تمحهـــا الازمــــان

ما كاد حاكمـه يسـوء حــكومـة
ويسود فيها الجـور و الطغيــــان

حتى بـدا المهـدى يعلن دعـــوة
في كـردفـان قوامهـا الايمـــان

طلعت طلوع الفجـر يجـلو نـورها
سجف الـدجى فاستيقـظ الوسنان

لما رمـاهـا الانجليـز بــكيـــده
طافت عليـه كأنهـــا طـوفـــان

وتمخض الســودان عن عهـد نمـا
فيه الحـجى وتـدفـق العـــرفـان

ويعرج على بلده الجزائر التى كانت آنئذ سنـة 1956 في أوج ثورتها ضد المحتل الفرنسى :

(7) اقرأ عن التعاون الاسلامى العربى بين هذه الثورة المهدية في السودان والثورة العرابية في مصر في كتاب المؤلف (نصيحة احمد العوام) دار الفكر بيروت

نتبادل القبلات باستقلاله
فرحا وان طافت به الاحزان
متسائلين عن الجزائر هل دنا
بتحرير أم حظها الحرمان ؟
ومتى تفوز بنعمة استقلالها ؟
فقد استقلت دونها الاوطان

وكما مجد شاعرنا استقلال السودان فى شعره فانه أيضا مجد استقلال ليبيا فى قوله :

أمل تقفى بعد طول نضال
و مثال فوز كان خير مثال
أرأيت أعظم غبطة من أمة
مهضومة حظيت بالاستقلال
اليوم أمة ليبيا قد حطمت
ما أحكم الطغيان من أغلال
شملت أقاليم البلاد بوحدة
ليبية كالعقد نظم لآلى

ثم أيضا يذكر أن الاستقلال الذى نالته ليبيا لم يتم الا بالثمن الغالى وهو دماء أبطالها من امثال الشهيد الليبى عمر المختار :

و مضى بهم عمر الشهيد يقودهم
للحرب ينأم نأمة الرئبال
خاض الجهاد مظفرا حتى انجلى
عما انجلى و الحرب ذات سجال
لقى الشهادة فيه شنقا مرهقا
تحت الاسنة موثقا بحبال
كتب الاله له الشهادة مرة
ليفوز منه بطعمها العسال

وانه أيضا فى هذه القصيدة التى يهنىء فيها ليبيا باستقلالها سنة 1952 يرنو الى استقلال بلاده الجزائر ويرمز لهذا الاستقلال بحمامة ورقاء هام بها ولكن عز منالها . ها هو يقول :

ولقد شجت قلبى وهاجت عرئى
ورقاء فى شرف بعيد عال
حمراء حرر جيدها من طوقها
فى الورق فهى عديمة الامثال
هتفت فقمت مجاوبا لهتافها
ولحنت عن قصد فقلت تعالى
شرقية فى الطير أم عربية
ما دمت واصلة فلست أبالى
وا لهفتاه عليك حسنك فاتن
وهواك ممنوع ووصلك غال
من كان فى العشاق باسمك ناطقا
فكأنما هو ناطق بمحال

ثم وهو يتغزل بعهد الاستقلال المنتظر لوطنه الغالى يبين أن هناك مراقبة مفروضة عليه من سلطات الاحتلال الفرنسى . ها هو يقول :

قد أحدق الرقباء و العذال بى
ويحى من الرقباء و العذال
عز اللقاء ولست منك بيائس
فلعل بعد البين قرب وصال .

وقد قال الشاعر هذه القصيدة قبل أن تنال الجزائر استقلالها بعشر سنوات . والآن قد صدقت نبوءته نعرف أن الشاعر كان محقا حينما قال (عز

اللقاء ـ ولست منك بيائس) فاليأس لا يعرف طريقا اليه ولا الى الشعب الجزائرى .

ولا ننسى فى حديثنا عن احتفاء الشاعر بالوطنية والعروبة والاسلام ان نتوجه باحتفائه الخاص بمصر التى هى قلب العروبة ومطمح آمال المسلمين ، وحقيقة فان الشاعر كان شعوره ازاء مصر مفعما بالحرارة والحماس ، الا انه صادق كل الصدق فهو لا يكتفى بآيات المدح بل يعدد الاسباب التى دفعته الى أن يمدح ، وهذه قمة الصدق الخلقى والصدق الفنى على السواء .

يقول الشاعر :

ولقد تقدم شعب مصر مبكرا
وأنار فى التاريخ كل ظلام
وأهاب بالنوام حتى استيقظوا
فابن الكنانة موقظ النوام
أولا تراه على العروبة قائما
يحتل منها الصدر فى القوام

ثم يخاطب المصريين مبينا الاخوة التى هى العنوان لعلاقتهم مع الجزائريين :

يا جيرة الوادى المبارك منبعا
و مشيدى السد الكبير السامى
انا وان نأت المسافة اخوة
فى وحدة الآمال و الآلام
فى الدين والدم واللسان أواصر
ما بيننا تقضى بكل وئام

وفى قصيدة نونية له يكرر نفس المعانى السابقة :

يا بنى مصر للعروبة فيكم
مركز القطب خص بالرجحان
ان مصرا أرض الحضارة و العلـ
ـم و مهد النبوغ والعمران
تتجلى المآثر الشم فيها
عن ذكاء النهى و فن البنان

ثم يستطرد ممجدا الاسلام التى تلقته مصر مرحبة به لانه دين الهدى ، وبعد أن اعتنقته نشرت هداه فى شرق البلاد وغربها ثم قادت البلاد الى بر الامان :

شرف الدين أرضكم فاقتبلتم
بالايادى هداه و الاحضان
و نشرتم هداه شرقا و غربا
و كسرتم عناصر العدوان
و رفعتم رأس العروبة عاليا
فهى من حسن رعيكم فى أمان

وقد زار الرئيس جمال عبد الناصر الجزائر فى يونيو سنة 1963 ولم ينس شاعرنا محمد العيد فى قصيدته التى يرحب فيها بالرئيس التعبير عما تكنه الجزائر من حب لمصر وما تكنه مصر من حب للجزائر ، يتضح هذا فى قوله :

أقبل على البشرى ويمن الطائر
و انزل فأهلا بالنزيل الزائر

ثم يقول :

ان العروبة دوحة لم تنبتا
الا فروعا لا تلين لكاسر

مهما تسـر باسم العـروبة خطـوة
كنا بجنـبك فى الركـاب السائر
ان الجـزائر أخت مصـر تلاقتـا
فى شعبنـا المتـواصل المتـزاور
لا فـرق فى أقطـارها و ديـارها
ما بين مصـرى و جـزائـرى

ثم يقول :

يا رائد العـرب استقمت على الهدى
و أقمت أعـلام الهـدى للحـائر
صنت العـروبة من عوامـل نقصها
وجمعت شمـل نظـامهـا المتنـاثر

وهكذا نرى أن الشاعر لا يكتفى فى شعـره الوطنى القومى الاسلامى بالتصفيق للوطن والدين والزعماء وانما هو فى الواقع يعايش هذا كلـه ويواكبه ولا يكل أبدا فى رحلة عمره المـديد باذن اللـه فى تمجيـد كل مخلص لوطنه .

شخصيـة الشـاعر :

بعد هذا العرض لشعر شاعرنا محمد العيد نحب أن نتعرف على شخصيته ، وقد آثرت أن نتعـرف على هذه الشخصية فى نهاية المطاف حتى أشـرك القارىء معى فى هذا التعرف ، وقد خصه كثير من معاصريه بنعوت مختلفة أشرنا اليها فى تقـديم الشاعر ، ولكنى هنا لا أريد أن أعول عليها بقدر ما أريد أن أعول على شعره وأسلوبه ، فانى مـن المؤمنين بأن الاسلوب هو الشخصية .

ان شاعرنا يعجبك اول ما يعجبـك فيه ولاؤه الروحى الصافى فهو متدين وبعمق يعيش دينـه لا كما يعيشه الافراد العاديون وانما هو قد صب فى الدين صبا فلا يحيد عنه قيد أنملة وهذا هـو سر الايمان القوى الذى اتضح فى شعره الـذى استشهدنا به سابقا وهو أيضا قد اعترف صراحة بهذا الايمان :

أرى الـكون قـرآنا من اللـه منزلا
على الـروح و الاحـداث آى عظات

وهو فى هذه النزعة الروحية يذكرنا بشاعـر عربى آخر الا وهو الشاعر السودانى محمد سعيد العباس الذى يقول عنه الاستاذ الدكتور عبد المجيد عابدين : « تجلت النخوة العربية مقترنة بالنزعـة الروحية فى شعر العباسى ولم تكن النـزعة عنده انطواءا واستسلاما ، كان طموحا وثيق الصلـة بالمجتمع متفتحا لشؤون الحياة الى جانب ثقافته الروحية وايمان عميق بالله ، والقارىء فى ديوانه يحس نفحات من هذه الثقافة وذلك الايمان تترقرق من خلال شعره » (8)

بل ان السيمات الجسمانية تبدو أيضا متشابهة فكأن شاعرنا فى الشمال الغربى صورة أخـرى لشاعرنا فى الجنوب ، فالشاعر محمد العيد تبرز ملامحه العربية أيضا فى وجهه وجبهته وفخـامة نطقـه .

وقد أحب شاعرنا محمد العيد البادية حبا ملـك عليه ذاته كما فعل الشاعر السودانى محمد سعيد العباسى . ها هو محمد العيد يقول :

(8) أنظر كتاب (فى الشعر السودانى) للدكتور عبد المجيد عابدين الدار السودانية الخرطوم صفحة 6

دع الحواضر لا يغررك زخـرفهـا
فجـوها قـاتـم كـالغـاز خنـاق
واغـش البوادى تنعـم فى مرابعها
عيشا و يخطئك اعسـار و امـلاق
عيش البـوادى نضـير لا نظـير له
و جـوها لعضـال الـداء تريـاق

ولكن هناك شيء رأيته وهو استقرار ملامح وجهه على وضع واحد فنادرا ما تراه يضحك بل هـو يطالب بعقـاب كل من يضحك :

لو كنت ذا سلطة فى الناس قاهرة
عاقبت بالجلـد والتغريب من ضحكا

ولعل هذا يرجع الى ما المحنا اليه فى فصـل (موقف الشاعر من الغزل والمرأة) من أن السبب هو سنوات العسف الطويلة المـريرة التى انست اخواننا الجزائريين انسهم بالمرح وأنس المرح بهم.

وقد خاف شاعرنا على شخصيته من أن تذوب وسط تيار المحدثات ومن ثم فهو قد حافظ عليها ولكنه لا يكره الجديد الصالح ، وضح هذا فىقوله :

رب مستهـزىء بمبـدأ ديـنى
بـين قـومى كمـا يـراه يـرانى
صـده عـن تـراثـه كـل رأى
أجـنـبى عتـاه فى الـوديـان
قال لى خـذ بمنـهجى قلت مهـلا
كيف أختـار قاصيـا عـن دانى
قال لى انـه على الغـرب أجـدى
قلت جـوى و جـوه ضـدان
قـال لى انـه تقـدم فـكـر
قـلت مـرعى و ليـس كـالسعدان
ايمت مـا عشت للتقـدم ضـدا
غـير انى عـلى الحـمى غـير جانى
ان حفـظ المقـومـات حيـاة
كل شعـب أضـاعها فهـو فـانى

وهو بعد أن عرفنا بشخصيته يجدد لنا هـذا التعريف فيما يقوله لشباب الجزائر وطلاب العلم بهـا :

فتـدارسوا القـرآن فهو هـدى لكم
و شفـاء أنفسـكم من الاسقـام
و تعلمـوا فصـحى اللغـات فانها
علـوية الاسـرار و الانغـام
كونـوا مع التعـريب واحموا جنبه
لا تنسخـوه بنقطـة الاعجـام

ومن أبرز ملامح شخصية شاعرنا انه يعشـق الجزائر العشق الذى يملك عليه نفسه كلها :

يا موطنـا لى خصبـه و نعيمـه
وله هـواى على المـدى و تشيـعى
ما زال حبـك ناشئـا متـرعـرعـا
فى نـاشىء بجـوانحى متـرعـرع
اقسمت لـو خـيرت فى مصـرع
ما اخترت الا فى سبيلك مصـرعى

الا أن شخصية الاديب الالمعى فى نفس الشاعر شخصية تحتاج الى أن يكون صبورا ، لان الاديب يقابل كثيرا من الكيد فى دنياه التى يحياها :

وتـرى الاديب الالمـعي مـؤخـرا
ومحقـــرا وهـو الاديب الالمـــعي
قل لـلاديب اعـمـل وكن متـدرعـا
بالصبـر نعـم الصبـر للمتـــدرع
دنيـــانا ضـد للعبـــاقـرة الالـى
لا يحفلـــون بصنعـها المتصنــع

وهو لاشك يقصد نفسه فهو يعزيها بقوله :

باللــه قبـــل و النبيـــين ازدرى
والقــانتـين السـاجـدين الـركـع
ما رد كيـد النـاس عـنك تـذرع
فاضرف لـرب النـاس كل تضرع
ولعـل ذنبـكَ ان قلبـك مولــــع
بهـوى به الجمهـور ليـس بمولع

ثم يبين أن قلمه الذى يسيل بالشعر هو سبب الالم لانه يشير على موضع الداء فيتألب عليه ذوو النفوس الضعيفة للنيل من شخصيته ومكانته :

و لعـل ذنبـك ريشـــة أوتيتهـــا
أصبـــاغها لم تنشـر من مستودع
و لعلـه قيثـارة تسلـــو بهـــا
فى جـو لحـــن من لهـاك مرجـــع
و لعلـه ذوب الرحيـــق تديـــره
صرفـا على الاخـوان غـير مشعشع

وهكذا فان شخصية الشاعر لا تسمح له بمجارات ذوى النفوس الضعيفة فى تهالكهم على المحتـــل (المستـــودع) وفى تهالكهـم على الخمـر (الصرف المشعشع) وشخصيته أيضا تأبى عليه الا أن يشرب من الرحيق غير المشعشع .

ثم يعود الشاعر مرة أخرى معزيا لشخصيتـــه الادبية التى لها رسالة عليها أن تؤديها بأمـــانة لابنـاء الشعب :

و تبـوأ الخلـــد الذى أعطيتــــه
متنـــقلا فى دوحـــة المتفـــرع
أومض ببرقك من بعيـــد تستبـــن
و احـرق بخورك من جـديد يسطع
لا بـد أن تـعى البـــلاد نصيحـة
مصحوبة لـك بالـدليـل المقنـــع

مما سبق ندرك الى أى حد تبدو لنا شخصيـة شاعرنا محمد العيد كشاعر ممتاز جـاد يطـــرق أغراض الشعر المختلفة الا الغزل ، وكم هـو محب لشعبه وحدب عليه فهو يحدثه حديث الزعيم المشفق الذى لا يألو جهدا فى النصح والارشاد حتى يتعلق الشعب الجزائرى باسلامه وعروبته ووطنه .

هذا وان كنـا من قبل قد اعتبرنا خلو شعـر شاعرنا من الغزل عيبا من العيوب الا انه مع ذلك لا يعدم الرقة والرشاقة والشفافيـة , وكفاه سؤددا وعلو همة انه ظل محتفظا بامارة الشعر فى الجزائر هذه المدة الطويلة ولم تنتزع من يده الراية أبـدا كما أن شعره تطور مع أحداث الجزائر يغـــذى الوطنية ويحدو ركاب الجهاد , وكما قال الاستاذ الدكتور أحمـد طالب الابراهيمى وزير الثقـــافة والاعلام فى الجزائر عنه : « ان شعر محمد العيـد ساير نهضة الجزائر الحديثة وواكبها فهو قلبها الخافق ولسانها النـاطق وترجمانها الصادق » , ولعل الاخ الوزير علاوة على اعجابه بالشاعر وبجمال

شعره ووطنيته قد ورث ايضا الحب من والده الشيخ محمد البشير الابراهيمي حين قال عن شاعرنا : « ان روح الصدق المتفشية فى شعره انما هى من آثار صدق الايمان وصحة التخلق » بل ان الامير شكيب ارسلان قد مدح شعره أيضا حين قال : « ان القارىء كان يظن ان القطر الجزائرى تأخر عن اخوته سائر الاقطار العربية فى ميدان الادب ولاسيما فى الشعر ، ولعله بعد الآن سيعود الفرق ، بل يسبق غيره بمحمد العيد »

وحينما نرجع الى كلام الشيخ محمد البشير الابراهيمي فى تحديد ملامح شخصية شاعرنا نجد أن روح الصدق المتفشية فى شعره قد أملت عليه ألا يكثر من وصف الطبيعة ومظاهرها فى بلاده .

وفى ديوانه وصف للبحر الذى يسبح فيه فكرا لا جسما كما يقول من فيه يسبح :

من فيك يسبح جسما
ففيك أسبح فكرا

ثم هو يمزج كلامه عن البحر بآرائه النابعة من شخصيته التى لا ترضى بالعيب أو الهجر :

على الشواطىء سيل
من الفضائح أزرى
تلقى الفتاة فتاها
كلاهما فيك معرى
يكاشفانك فحشا
و يسمعانك هجرا

ويبين أيضا جمال الريف فى أبيات قليلة يصف فيها ما به من حقول الكروم والانهار والقطعان الطيور والشمس والبدر وكل مظهر من مظاهر جمال الريف لا يأخذ منه الا بيتا واحدا كأنه على موعد فهو دائما فى شعر الطبيعة متعجل :

والحقل محتفل الاشجار من طرب
تشدو وتهفو به ورق وأوراق

والنهر فى جنبات الصفح منبسط
والماء فى جنبات النهر رقراق

والبدر فى الليل يبدو زاهدا ورعا
له الى الله اخبات واطراق

وهذا البيت الاخير أجاد فيه الشاعر ايما ايجاد حينما شبه البدر فى حالة تلحفه بالسحاب وفى حالة انقشاع السحاب عنه بالزاهد الساجد الذى يرفع من سجوده .

ثم انه يبين ان الشاعر الحق يحب الطبيعة :

حب الطبيعة داب
لكل من قال شعرا

ولكن مع حبه للطبيعة لم نجد عنده توازنا بين حبه وقوله ، فشعر وصف الطبيعة عنده شعر مقل لان الطبيعة عنده لا تأسر لبه فحبه للاسلام والعروبة والوطن الذى ميز شخصيته لم يدع له مجالا للغزل أو الاكثار من وصف الطبيعة ، ولو فعل ذلك مع عدم اقتناعه به لجاء شعره متكلفا ، وان الشاعر الذى لا يتكلف فى شعره هو الشاعر الحق فلعل هذه الطبيعة الرائعة لم تنعكس بروعتها على وجدانه لان وجدانه قد صحا مع الاحياء من أبناء وطنه فرياح المناضلين هى التى هزته وربيع الاستقلال هو الذى أثر فيه وسماء مجد بلاده هى التى أظلته فلم ير نجوما الا نجوم الشهداء ولم يلاحظ ربيعا الا ربيع الاستقلال .

ومع ذلك فاننا نامل مرة أخرى من شاعرنا محمد العيد أن يستنطق الطبيعة الرائعة فى بلاده حتى تحدثه وان يرفع النقاب عن جمال الحسن حتى ينتشى به ، ونريد أن نسمع شعر الطبيعة وشعر الجمال على لسانه الذى عذب به الشعر العربى الرصين .

الجـــزائر في الأدب المغـــربي

الحـــديث و المعـــاصـــر

د : عباس الجراري
استاذ بجامعة محمد الخامس
ـ المغرب ـ

لعل قبل ان ادخل فى صميم الموضوع ارى لزاما على ان امهـد ببعض التعـريف لادبنا الحـديث ما هى اولا الفترة التى نحدد بها هذا الادب ؟ ان هذه الفترة الحديثة بالنسبة للمغرب تاريخا وادبا تبدا منذ احتلال الجزائر سنة 1830 ، لان هـــذا الاحتلال هز كيان المغرب العربى هزا عنيفا ، وكان لهذا الهز اثر كبير كاد ان يفضى الى نهضة ، ولكن تعثرت هذه النهضة ، ذلكم أنه بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر عاد المغرب الى نفسه يبحث فى أسباب هذا الاحتلال ويراجع الآثار القوية والعنيفة التى كانت له اثـر هذا الاحتـلال .

محاضرة ألقاها د . الجراري بالمركز الجامعي بابن عكنون اثناء زيارته للجزائر في الربيع الماضي 1972 م

ومن جملة هذه العوامل التى كانت يمكن أن تخلق النهضة فى هذه الفترة ، أن الحكم بدأ يراجع نفسه وفكر فى اصلاح الادارة واصلاح الجيش ، عامـــل آخر أيضا هو ارسال البعثات الى الشرق والغـرب فكانت أولى هذه البعثات الى مصر سنة 1276 هـ فى عهد السلطان محمد بن عبد الرحمن ، وتخرج بهـا بعض المغاربة كالاطباء وعلماء الجغرافية والتاريـخ وغيرها من العلوم ، ثم كانت بعثات أخرى الى أوروبا فى عهد السلطان الحسن الاول ، ولكن لم تأت أكلها ولم تؤت ثمارها لاسباب سنراها فيما بعد . وكان أيضا من عوامل النهضة ، ظهور الطباعة حيث دخلت المغرب أول الامر سنة 1856 على يد أحد الدبلوماسيين المغاربة الذى ذهب الى فرنسا وعاد ومعه مطبعـــة واسمه محمد بن ادريس ، ثم فى سنة 1865 مطبعة أخرى حملها معه من مصر الطيب الروداني ، ولكنها لم تعن الا باخراج بعض الكتب الدينية والتى كانت تروج فى حلقات القرويين . كذلك من عوامـــل النهوض ظهور الصحافة ، وأول صحيفة ظهـــرت فى المغرب سنة 1889 كان يديرها بعض اللبنانيين اسمها «المغرب» وهى أسبوعية ، ثم جريدة «المغرب الاقصى» سنة 1900 ، بعد هذه العوامل وجد عامـل آخر على مستوى السياسة والفكر وهو حـــدث الدستور على عهد السلطان عبد الحفيظ سنة 1908 أى قبل أربع سنوات من اعلان الحماية ، ولـــكن هذه العوامل لم تتم لعوائق وعراقيل منها : عدم وجود رأى عام مغربى ناضج ، ثم ان هذه البعثات لم توجه للنواحى الفكرية والانسانية ، ثم الظـروف والملابسات التى كانت تعمل بالمغرب ســـواء فى الاطار المحلى أو العالمى والتى انتهت باحتلال المغرب وفرض الحماية عليه ، ثم كان هناك عائق هو خوف الحكم القائم آنذاك من أى تفتح أو استثمار فكرى أو انســانى . ولهذا حـــين عاد هؤلاء الخريجـون وجدوا من يسد الطرق أمامهم ، وعادوا الى حرفهم ومهنهم التى كانوا يزاولونها قبل اتمام الدراسة . ولهذا فالنهضة الحديثة المغربية لم تبدأ الا بعـــد فرض الحماية ، وبالضبط فى بداية الربع الثـانى من القرن الحالى ، وكان لها أسباب وعوامل منهـا ظهور الحركة السلفية التى سارت فى خط واحـد مع الحركة الاصــلاحية فى الجـزائر . ثم حـادث الظهير البربرى سنة 1930 الذى تولدت عنه الحركة الوطنية ، ثم انتشار التعليم العربى الحر وما كان له من تأثير ، ثم انتشار التعليم الفرنسى واستفادة المغاربة عن طريق غير مباشر منه ، واذن فالنهضـة الحقيقية تأخرت الى هذه الفترة وكان ممـــكنا أن تظهر من قبل فى القرن الماضى ، ومع ذلك فـــكل هذه المرحلة تعتبر عصرا حديثا .

ماذا عن الادب فى هذه الفترة ؟

باختصار ، فى القرن الماضى وفى بداية هـــذا القرن كان الادب يسير فى ركاب القديم وتقليـد هذا القديم ، يتصل حينا بالشرق بشعراء العربية الفحول ، ويتصل أحيانا أخرى بالتراث الاندلسى ، وربما كان تقليد الاندلسيين الطابع المميز ولاسيما عند المجيدين ، حيث كان « مودة » ، وبصفة عامـة كان طابع الزخرفة والصنعة والميل الى تزويـــق الاسلوب ، كان المميز لادب هذه الفترة شعرا ونثرا، ولم يتغير هذا الطـابع الا فى هذه النهضـــة فى اتجاهـين :

أما الاتجاه الاول فارتبط بحركة البعث بمصر ، واما الاتجاه الثانى كان أحدث منه وارتبط بحركة الديوان وبمدرسة المهجر وبالاتجاهات الحديثة .

ويسير الادب فى هذين الاتجاهين الى ما بعد الاستقلال فأخذ طابعا آخر متأثرا بمؤثرات خارجية، متأثرا بالاتجاهات الصادرة عن جيل ما بعد الحرب ، فيها كثير من القلق والاضطراب وملامح الثورة النفسية الداخلية ، وكذلك متأثرة بما أطلق عليه الوجدان الجماعى أو الاتجاه الواقعى والاشتراكى بمصر بعد ثورة 1952 . ومن حيث الشكل تأثر الادب والشعر خاصة بالحركة الشعرية الاخرى وان لم تستقم الاداة عند الكثيرين .

هذه باختصار خطوط الادب المغربى فى فترة النهضة الحديثة .

فماذا عن موقف هذا الادب من القضايا التى كانت تعترض شقيقتنا الجزائر ؟

المسافة طويلة والطريق متعثر ، ولكنى سأقصر نقاط موضوعى فى حدثين خطيرين هما :

الاحتلال ثم الثورة الجزائرية .

لعلى فى غير حاجة للتحدث عن الاحتلال كواقعة تاريخية ، ولكن لا بأس أن ألقى أضواء على بعض الملامح التى ربما ستساعد على فهم مواقف بعض الادباء المغاربة من الاحتلال ، حين احتلت الجزائر سنة 1830 لم يكن أمامها الا أن تعتمد على نفسها أو أن تمد يدها الى جيرانها ، الحكم العثمانى كان عاجزا عن مواجهة الاحتلال ، ويقال ان السلطان لم يكن يقبل أن يزعجه الوالى بمشاكل هذا القطر ، ومن هنا فان العثمانيين لم يلبثوا أن تخلوا عن الجزائر حين أصابها الاحتلال . وان ظروف تونس لم تكن تسمح بمد يد المعونة . بل يقال ان سلطات الاحتلال عينت دايا من تونس على اقليم وهران . اذن فكان على الجزائر أن تعتمد على القيادات الشعبية والثوار الشعبيين الذين يقودون الجماهير ، وتحاول أن تستعين بالمغرب . وفعلا مدت الجزائر يدها للمغرب وحاول السلطان عبد الرحمن بن هشام ان يعين الجزائر لاسيما بعد أن طلب منه الامير عبد القادر رسميا ، ولاسيما بعد أن جاءت وفود من تلمسان تطلب بيعة السلطان.واستفتى السلطان العلماء فأفتوا بعدم قبول هذه البيعة ولكنه قبلها بالفعل وحاول أن يمد يد العون للجزائر ، ولكنه ماكاد أن يفعل حتى أصابته نيران الاحتلال الفرنسى كان بين فرنسا والمغرب معاهدة هدنة ، فاعتبرت فرنسا أن تدخل المغرب الى جانب الجزائر هو كسر لهذه الهدنة ، فارادت فرنسا ان تعطى درسا للمغرب ، فكانت هذه الحملات التى وجهتها نحو المغرب الشرقى فى ناحية بنى ناسن وعمالة وجدة ، وكانت تلكم الوقعة الشهيرة وهى وقعة ايسلى سنة 1844 ، هذه الوقعة التى هزم فيها الجيش المغربى والتى كشفت عن مدى هزال الهياكل التى كانت يومئذ تحكم المغرب ، وتحت ضغط الهزيمة اضطر الحكم فى المغرب أن يحارب عبد القادر الذى كان قد التجأ الى المغرب ، وبعد أربع سنوات من المحاربة اضطر عبد القادر الى الاستسلام . بعض المصادر التاريخية الموالية للحكم تقول : ان أسباب محاربة السلطان للامير هو

احساسه بطمعه فى السيطرة على الامارة فى المغرب. ولكن هذا تعليل لا يتفق مع واقع التاريخ ، ولكنه تبرير للتخاذل الذى أبداه المغاربة ، وما كان بامكانهم فى الواقع أن يفعلوا أكثر مما فعلوا .

حين ننظر الى الادب الذى صاحب هذه الفترة لا نجد فى الواقع شيئا كثيرا ، ولكن نجد ما يدل على مدى التفاعل والتجاوب مع الجزائريين فى نضالهم ، ويتجلى هذا التجاوب فى بعض جملة مظاهر أدبية ، وفى بعض الفتاوى التى قدمها بعض العلماء لبعض المشاكل التى عرضها عليهم عبد القادر فى مواجهة العدو ، بعضها فى كيفية أخذ المساعدات المالية ، وكيفية معاملة المنحرفين الذين اتخذهم الاحتلال عملاء ، وكيفية معاملة الرعية ، وما اليه مما قد يصادفه القائد ، وأجاب العلماء المغاربة ، ومن أهمها اجابة كان قدمها أحد القضاة واسمه على التسولى ، قدم هذه الاجوبة على أسئلة للامير وقدمها فى شكلين ، شكل مطول ثم شكل وجيز ، وهى موجودة فى كتاب « فتاوى المعيار الجديد » للشيخ الفاسى .

لا اريد ان أطيل عند هذه الاجابة فهى تتصف بطابع دينى صرف ، تحاول الرد على هذه الاسئلة والكشف عن بعض الغوامض مستعينة بالقرآن والحديث وآراء الرسول والخلفاء الراشدين .

ولكن الذى يثير الانتباه فى هذه الاجوبة هى خطبة يختم بها هذه الاجوبة وهى حث على الجهاد فيقول فيها : « فالجهاد فريضة على من نزل فيهم عدو الدين ، فان لم تكن فيهم كفاية أو لم تجتمع لهم كلمة ، فعلى الذين يولونهم ، وهكذا الى أن تحصل الكفاية ولو اتصل ذلك منهم مثل المغرب لبغداد أو عما ذلك من الآفاق الحاضرة والبادية ، فايقظوا أنفسكم من وسن الغفلة وانتهزوا من عدوكم الفرصة مادامت معكم فسحة الاستعداد ، قبل أن يتفاقم الهول ويحد القول ويسد الباب ويحق العذاب وتسترق بالكفر الرقاب » . واستمر على هذا النسق بالحث على الجهاد . وواضح من الخطبة هذا النفس فيه بعض السجع وان كان لا يبدو فيه التكلف. أيضا من الذين أجابوا أحد القضاة واسمه عبد الهادى العلوى .

ولكن ما دور الشعر ، وكيف صور تجاوب المغاربة مع اخوانهم الجزائريين ؟ ويكفينى أن أشير الى شاعرين اثنين هما : ابن ادريس ، ومحمد غربط. كلاهما كان وزيرا ، وكلاهما كان شاعرا . ابن ادريس قال ثلاث قصائد فى هذه المحنة ، سأحاول أن أقرأ بعض الابيات منها ، وسنلاحظ بوضوح أنها تدور حول موضوع واحد هو : تنبيه الناس ، هو دق ناقوس خطر الاحتلال ، هو الحث على الجهاد. والحث على ضم الصفوف لمواجهة العدو . ففى قصيدة ـ مثلا ـ يقول مخاطبا المغاربة :

يا أهل مغربنا حقا نشير لكم
الى الجهاد فما فى الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام أهل الدين من شطط

وفى قصيدة أخرى يقول مستحثا الهمم واستنهاضها على الجهاد :

فرض على كل مسكين وسلطان
حمل السلاح على عباد أوثان

فحمله شرف عال ومفخرة
خص الاله به أعز عبدان

لا شىء أحسن من صوت السلاح على
الاعناق فى طاعة المولى ورضوان

وله قصيدة أخرى طويلة يقول فيها :

يا ساكنى الغرب : الجهاد ! الجهاد !
فالكفر قد شاركـكم فى البلاد

والشرك قد نصب أشراكه
مستعبدا بكيده للعباد

ويا حماة الدين ما صبركم
و المشركون يطلبون البلاد

ما هذه الغفلة عن ضدكم
وأنتم فى الحرب أسد الجلاد

واسطة الغرب قد حازها
والامر جد والبلى فى ازدياد

حوى الجزائر و وهرانها
وراع حاضرا بذاك و باد

مصائب صبت على معشر
يبكى من الاشفاق منها الجماد

اخوانكم دينا وجيرانكم أضحوا
رعايا الشرك بين أعاد

من حلقت لحيته جار له
فلتكونن لحيته فى اعتداد

أما الشاعر ابن غريط الذى عاصر فترة الاحتلال فيقول قصيدة بعد احتلال تلمسان منها هذه الابيات :

مالى أرى جفن أهل الغرب وسنانا
من بعد ما أخذ الرومى تلمسانا !

كأنهم ما دروا ماذا يريد بهم
عدو دينهم لا نال امكانا

ولا على فعله فى دفتر وقفوا
بأهل أندلس يا بئس ما كانا

أين الحماة الكماة ما لهم رقدوا
والكفر فى أخذهم ما زال يقضانا ؟

موتوا كراما فان الحر يأنف من
معيشة تدع الحليم حيرانا

لا موت أشرف من موت الجهاد لمن
يرجو من الله رحمة ورضوانا

ان هذا الاحساس بالخطر جعل الشعراء البعيدين عن الخطر أن يقولوا بعض الشعر ويقولوا قصائد ويحاولون ابراز بعض العيوب والمناكر التى كانت متفشية ومن شأنها أن تقعد الناس . فهناك شاعر هو محمد بن الشنقيطى فى قلب الصحراء يقول :

ترانا عاكفين على المغانى
لفرط الشوق نندبها حيارى

أسارى لوعة وأسى ننادى
وما يغنى النداء عن الاسارى

ولو فى المسلمين اليوم حر
يفك الاسر أو يحمى الذمارا

لفكوا دينهم وحموه لما
أراد الكافرون به الصغارا

بحيث هناك شبه تعليل لما أصاب الجزائريين ولما أصاب المغاربة فى الناحية الشرقية وما قد يصيب المسلمين . وهو اهمال الدين والالتهاء بمسائل أخرى بعيدة .

ولا أود ان أترك هذه النقطة دون الاشارة الى تجاوب الأدب الشعبى المغربى مع هذه المحنة . وان كان هذا الادب هو الآخر يسير فى نفس ركاب الادب المعطى .

ومن هنا نجد شاعراً شعبيا هو الشيخ الاكحل يتحدث عن قضية الجزائر وعن حال المسلمين فيرد

الامر الى قضاء الله وقـدره ، فعنده ان الله اراد ان يرتد العرب ويفشل المسلمون ـ وان يحتل الكفار هذا الجزء من الوطن الاسلامي فيقول :

العـرب بقـدرة الله تعـود مـرتديـن
تعـود باذن اللـه مـــكان للـكفـار

واضيف شاعراً شعبيا آخر هو هاشم السعداني ، له قصيدة اسمها « دخول وجدة » ويتحدث فيها عـن القضية كلها سواء احتلال شرق المغرب أو الجزائـر وهو يلح على قضية التفريط بالديـن وعلى ضـرورة الجهاد ، وضرورة الموت في سبيـل الله ، ويكفيني ان أقرأ عليكم لازمة هذه القصيدة :

بـالاسـلام بكيت عـلى دخـول وجـدة
دون حرب غنمها العدو ونـال المـراد

يكفيني هذا بالنسبة لفترة الاحتلال وأنتقل بسرعة الى تجاوب الادبـاء مع الثورة التحررية الجزائريـة ، ربما قد تسالونني لماذا تغاضيت عن هذه الفتـرة الطويلة كلها ؟ في الواقع انـه لم يكن هنـاك ادب يسير في اطار هذا الموضوع الذى نتحـدث عنـه ، وربما يرجع ذلك لأن المغرب دخل هـو نفسـه في دوامة الاحتلال ودخل في مشاكله وقضاياه واصابه ما أصاب الجزائر فكانت المأساة واحدة ، فلم يكـن للأدباء المغاربة ان يتحسسوا ويعربوا عـن موقفهم من احتلال الجزائر فقد أصبحوا في بوتقة واحدة .

بالنسبة للثـورة الجـزائرية نشير الى بعـض الظواهر ونميز هنا بين الثورة ابان عملها وابـان كفاحها ونضالها ، وبين الثـورة بعد انتصارهـا . أما الثورة ابان احتدامها فلم يتجاوب معهـا الا الشبان ، لمـاذا ؟ هناك ردود كثـيرة في الفتـرة التي شبت فيها الثورة ، كان المغرب مازال يعاني من الاستعمار وكان هو يـكافح ويناضل من أجـل استقلاله ، فاذن كان المغاربة مشغولين بقضيتهم ، ولكن المغرب لم يلبث طويلا حتى أحرز على استقلاله. وهنا كان ممـكنا أن يلتفت المغـاربة الى الثـورة الجزائرية ، ولكنهم كانوا في جملتهم منشغلـين وكانوا في نشوة الاستقلال ، ولم يستيقظوا الا بعد سنوات ، وبدأت تظهر بعض الانحرافات .

ولكن الشعراء الشبان بحكم ثقافتهم وبحـكم وعيهم السياسي وبحكم نضالهم كانوا أبعـد نظرا من غيرهم ، فالتفتوا الى هذه الثورة ولم يلتهـوا بنشوة الاستقلال ، والذى يميـز أدب هؤلاء في التحامهم مع الجزائر هو الابعاد الشاملة الـتي اعطوها للثورة التي لم يكتفوا في ادخـال أنفسهم في تيار الثورة ولكن أرادوا لها أن تكون ذات أبعاد عريضة ، ولاشك أن هذا يعطى قيمة لهذا الشعر ، ومن أهم الشعراء الذين ساروا في هذا الاتجـاه يكفي أن أشير الى الشاعر مصطفى المعداوى وهـو شاعر شاب مناضل لقى حتفـه في حادث طائـرة سنة 1962 ، وله ديوان كله في النضال والكفـاح سواء على المستوى الوطني أو القومي ، وله جملة قصائد في الثورة الجزائرية تعبر كلها الى النظـرة الشمولية للثـورة ، منها قصيدة «شعوب تطـلب الحرية» وهي قصيدة بشكل حوار بين الحـرية والشعوب المتعطشة لها ، سواء الشعوب الافريقية أو العربية ، فقال يخاطب الحرية :

نحبك لحناً يـذوب انفعالا
على شفـة الحـاصـد

نحبك فجرا وفير الضيـاء
لأعيننـا فى السنـة الوافـد
نحبك فجرا وفير الضياء
نحبك أغنية للخلـود
تهيـم على شفة العـائد
وأرض الجدود كريم الخطى
يعـانق وهج السنة الشـاهد
نحبك هلا فتحت ذراعيك للقارة
الظامية ولونت آفاقنا بالعبير . وزخرفت جبهتنا القانيـة

فتجيبـه الحرية :

أبـارك ثـورة جيـل جـديـد
يريـد الحيـاة بشتى الصـور
و أجثـو أمـامه أتلـو النشيـد
نشيـد الـوفـاء لصفـو البشر
و الهمـه نفحـات الشـروق
ليحضنـه النـور أنى خطـر
فما عـاق شعبـا حـذاء الدخيل
ولا كبلتـه صـروف القـدر

ثم يدخل فى حوار بين الحرية وشهداء الثورة ، ويختم القصيدة بهذا الصوت الذى يأتى مـن الجبال الثـائرة :

هيـه يا رجـال شـدوا على النضال
بـارك المـولى أنشـودة الابطـال
هيـه يـا رجـال هيـه يـا رجـال

ويكاد يسير فى هذا الاتجاه شاعر آخر أيضا ، ركز على مواضيع النضال وعلى المشـاكل القـومية والوطنية . هو محمد بن دفعة . وعلى الرغم من أنه مغرق فى الرومانسية اليائسة فى بعض الاحيـان وهذا يتضح من عنوان ديوانه «أشواك بلا وردة» مع ذلك فهو حين يتخلى عن وجدانه الفردى . ويلتحم مع الجماهير والآخرين فانه يتخلى عن هذا الاتجاه ، وله قصيدة «صوت شعب» كلها تضامن وحماس ، فهو يريد أن يموت فى سبيل الجزائر وفى سبيـل العروبة فيقول :

أنا فى الجـزائر
ثـورة لـن تخمـدا
أنا لست أرهـب أن يغيلـنى أن
أمت ، بقيت بطولتى بعدى ما بقى الندا
تحـيا جـزائـرى أمـة عربيـة
واذا قضـيت فـداءهـا لن أفقـدا
أنا ان مت فعـروبتى تحـظى بمـا
ارجـو لها من عـزة رغم العـدا
أنا صـوت شعب أقسمت أوراسـه
أن لا تنـام وثأره هـذا سـدى

ولهذا الشاعر أيضا قصيدة على اثر وفاة الاديـب الجزائرى مولود فرعون ، وكلها تضامن مع النضـال والمناضلين وكلها تحدى للقضاء . ويظهر هذا مـن استخدامه لأسطورة يونانيـة :

مولود لم يزل معى اهزوجة
لمطلـع النصـر الكبـير
اغرودة بيضاء بين أضلعى
لا تكذبوا على . مات ؟! لا ، مولود كف اسطيفلا(I)
شكى اللهيب صبرها الخطـير
مضت لم تمض بل تحولت
يضوع فى روابى اسطيفلا الكبير
مولود لم يمت . مولود لم يمت

I) اسطيفلا : بطل اسطورة يونانية أحرق كف يده ليظهر للذين حكموا عليه أنه لا يبالى بالاحراق .

شاعر آخر أريد أن أضيفه الى هذه الاسماء وهـو أحمد صبرى ، يسير فى نفس الاتجاه ، اتجــــاه قضايا النضال وقضايا الثورة ، ولكنه لاينطلق من مضامين فكرية واضحة،ويغلب عليه الحماس ، وفى نفس الوقت يحاول أن يستخدم الرمز ، فهو مثلا فى هذه القصيدة «الطائر الجبار» يقول :

القارب المصبوغ بالدم لم يقف
والعاصفة ماتت عـلى أضلاعه
الطائر الجبار بالمنقار ، خطف الثمار
من نخلـــة الشمس
الطائر الجبار بالمنقار ، وهب الثمار
للقارب المصبوغ بدماء قلب العاصفة

فى قصيدة أخرى وفى نفس هذا الاتجاه يقـول مخاطبا واحدا من المجموعة المناضلة :

ان جاء فجرك بالرصاص معطر الاكناف
برائحة الرصـــــاص
ان جاء ينتعل الجماجم ، غانم وعلى
الجبين نياشين منحوتة فى صلد صخر الافئدة
منقوشة بقداسة الشعب الحبيب
ان جاء يزخر بالحياة وضياه ، بحر كبير ، نصر كبير
ان جاء فجرك بالرصاص معطر الاكناف
عانقه فى لهف يعـربد بالهتــــاف

واسمحوا لى أن أضيف له أبيـاتا من قصيــــدة أخرى بعنـوان «أبو كبـور» أحد الذين ماتوا ، وكان صديقا له ، فذهب الى الجبال فمات شهيدا :

تقلـــدت البندقيــة
ووشمت على صــــدرى
فى الجهـة اليســرى قلبا
كتبت فيه الجـزائر ! الجـزائر !
آه للجـزائر وتدحرجت
على قمم الاوراس نصرا كمليون نصر
وجريت فى هضاب عنابة ومغنية
آه وكان اسم حبيبتى أيضا مغنية

يكفينا بالنسبة لهؤلاء الشبان الذين تفاعلوا مع الثورة بهذه الاساليب المختلفة ، وننتقل الى مجالات أخرى فتحت أمام الشعراء المغاربة بعد انتصــــار الثـورة الجزائرية .

وهنا يمكننا أن نميز بين اتجاهات مختلفة :

1 ـ الشعراء الشيوخ الذين فرحـــوا بهــــذا الانتصار فأرادوا أن يعبروا عن هذه الفرحــــة ، وكانت مناسبة ليصفـوا النضال الجزائرى ومدى ما قاسته الجزائر ابان هذا النضال .

2 ـ اتجاه الشباب الذى استمر يشيد بالثـورة ويحاول أن يصور أبعاد هذه الثورة .

3 ـ اتجاه الذين استغلوا نصر الجزائر ، الشعراء المرتزقة ، كان هدفهم شيئا آخر .

بالنسبة لاتجاه الشعراء التقليديين نلاحظ عودة النغم الدينى ، ونلاحظ أيضا السـير فى الاتجـــاه التاريخى ، والتركيز على أمجاد العروبة وانها عادت، ثم تصويرا ضافيا لمشاهد من الكفاح الذى عانتــه الجزائر ، ويكفينى أن أمثل بالشاعر محمد بن عمار العلـوى ، له قصيدة «فرحة اللقاء» ، يبدو واضحا فيها هذا النغم الدينى :

الله أكبـر نـور حـق أشرقـــا
فمحـا الظـلام عن العبـاد ومحقـا

سبحانه من راحم سبحانه
يجزى بعفو بعد أمراض الشقا
يعطى لخلقه ما يشاء لحكمة
فى علمه سبقت وفضلا مرتقا
عمت مواهب جوده وتكاثرت
ومن المواهب خصمنا قد أخفقا

وهناك قصيدة أخرى أكثر قوة وهى للشاعر محمد الحلوى بعنوان «صرخة الجزائر» وهو يسير فى الاتجاه التاريخى الذى يعتمد على المجد العربى الحافل ، وكيف أن الثورة الجزائرية بانتصارها أعادت للعرب والعروبة هذه الامجاد السالفة ، وتمتاز بروح قوية سواء فى كلماتها أو فى نفسها يقول فيها :

أطلق النار أو فسل الحساما
هم أرادوا أن لا يقروا السلاما
فاصرخى يا ابنة الجزائر صرخات
رؤوم تدهده الايتاما
ترتها أظافر الوحش ثكلى
تجرع الجوع والاسى والسقاما
واحضنى أكتة السلاح اذا فاتك
ان تحضنى الهوى و الغلاما
وأرى القوم كيف تفترس الغيد
و يخشى المستبسلون الرئاما
واملئى سجع الزمان زغاريد
تدوى و رجعى الانغاما
لهفى للايدى النواعم كانت
تنسج البردة و توشى اللثاما
عاكفات على الترروس تغيض
الحب فيها و يمسك الاقلاما

تصنع الخبز والغذاء و ترفوا
و تواسى الجروح و الآلاما
لهفى لليتيم يبحث عن أم
طواها الردى، يردد ماما
أذهلتها عنه طلائع وحش
جائع قبل أن بعد الفطاما
ان ليل الغزاة ولى و فجر
العرب يبدو مهللا بساما
بارك الله فى الجزائر شعبا
عربيا مناضلا مقداما

هذا بالنسبة للشعراء التقليديين ، واستمر الشعراء الشباب فى اتجاهاتهم وان كانوا لم يعطوا كل طاقاتهم لانتصار الثورة الجزائرية ، ربما لانهم شغلوا بثورة أخرى هى الثورة الفلسطينية التى بدأوا يتجاوبون معها ، ومنهم من سار على نهج تقليدى بالاشادة بالانتصار وابداء الفرحة ، ومنهم من سار على نهج الشبان الآخرين وأعطوها الابعاد العريضة الواسعة :

من الاتجاه الاول نذكر الشاعر عبد اللطيف خالص له قصيدة «موكب النصر» وهو يسير وراء الذين ابتهجوا بدافع دينى ورأوا أن الله قد نصر المسلمين فى الجزائر :

الله أكبر لا مرد لأمره
ختم الاله لتنصرن جزائر
الله أكبر قد أرانا نعمة
ظلت تراود فكرنا و تساور
أرض الجزائر تستعيد كرامة
أيعيث بعد اليوم فيها فاجر

شعب الجزائر يستقل و يرتقى
درج الكمال و يحتفى و يثابر
شعب غدا بعد الكفاح محررا
و الخصم منكسر الجوانب صادر

أما الشباب الذين تجاوبوا مع الانتصار وأشادوا به فى نفس جديد ، فيكفينى أن أذكر الشاعر ابراهيم السولمى ، له قصيدة بعنوان «أخى فى الجزائر» يقول فيها متضامنا متحمسا :

فديتك يا عينا على سفح الجبل
يازارع أرضى بحبات الامل ، ومد يد الاجل
أنت أدرى أن أوراس يباهى بك فخرا
قمة العزة أوراس صخرة فاضت على الدنيا حماس
أنت أدرى أن للحرية قصة
سنرى روعتها على الشاشة يوما
انا أشدو وعباب الثورة
بالشدو يجاهر
دق قلب الفجر فى صدر الدياجر
فابشرى بالنور يا أرض الجزائر .

أما الاتجاه الثالث والاخير ، وهو الذى لم يكن يهدف الى التعبير عن شعوره نحو الثورة بقدر ما كان يستغل هذا الحديث عن الثورة للوصول الى هدف آخر وهو المدح . وهناك قصيدة للشاعر المدنى الحمراوى ، يشيد بقوة فى الكفاح الجزائرى. ولكن هذا كله مطية للوصول الى هدفه ، حين يقول عن المناضلين الجزائريين ، ومدى صبرهم فى الكفاح يتخلص من ذلك ليقول :

وللحسن الثانى مؤيد عزمهم
وحافظ عهد العرب أستخلص الشكرا

وينطلق فى المدح الذى هو الهدف من القصيدة :

ومثله شاعر آخر وهو شاعر مجيد ولكنه للاسف شاعر منحرف وهو الشاعر ادريس الجاى ، له ديوان « سوانح » أخرجته مطبعة القصر الملكى ، وكله مدائح ، فيه قصيدة « أرض البطولة » :

أرض البطولة جل الامر والشان
كذا يذود عن الاوطان شجعان
يا ثورة شنها الاحرار عارمة
فقوضت ما بنى ظلم و عدوان

واضح من هذه القصيدة أن له نفسا جيدا وقويا، ولكنه لا يقصد الى الاشادة بالثورة الجزائرية وبانتصارها ، وانما هى مطية لموضوع آخر هو هدفه فيقول :

وعاهل المغرب الاقصى وقادة أوراس
الاشاوس أحباب و اخوان
قد عاهدوا الله أن يبنوا لمغربنا
الكبير صرحا له الامجاد أركان

لا اريد أن أطيل أكثر من هذا فى عرض هذه النماذج الادبية ، والادب الذى تجاوب به المغاربة مع اخوانهم الجزائريين. هناك مجالات أخرى لم أشأ ان أتحدث عنها ، هناك نثر ، مقالات ، قصائد نثرية ، أبحاث حول الجزائر والنضال الجزائرى، ولكن أردت فقط أن ألقى الملامح العريضة ، وانى على استعداد لكى أتبادل واياكم الرأى ، وأناقش ما شئتم من موضوعات سواء حول هذه النقاط التى طرحت أو غيرها من النقاط التى تتعلق بالادب المغربى المعاصر .

الكتاب والحضارة

عبدالمجيد مزيان
أستاذ بكلية الآداب
– جامعة الجزائر –

سوف لا يتناول هذا العرض عن الكتاب والحضارة مناقشة مفاهيم الحضارة ودور الكتاب فيها ، كما انه لن يتناول تاريخ الكتاب لان مثل هذه الموضوعات قد كتب عنها كثيرا وأهميتها لا تخفى على أحد ، أما عرضنا هذا فانه سيقتصر على درس مشاكل حالية،وسيتناولها على الخصوص فى مجتمعنا الحالى ، وستبنى اكثر اعتباراتنا على النموذج الحضارى الاقرب الينا وهو النموذج الاسلامى وذلك مراعاة للواقع الحى الذى يحرك ذهنية الاغلبية الساحقة من أبناء أمتنا الذين لم يتاثروا بعد بحضارة اخرى رغم ما يبدو من المظاهر السطحية ، وقد يكون من العجب ، ان نبدأ بمثل هذه المسلمات فى حديث عن الكتاب ونتكلم عن الجماهير مثلا ، مع علمنا علم اليقين ، ان جماهيرنا جماهير أمية ، قليلة العلاقة بالكتاب ، ومن هنا يبدأ النقاش .

(*) محاضرة ألقيت بمناسبة الاسبوع الوطنى للكتاب، بشهر ديسمبر 1972

الكتاب للجماهير ، والكتاب للخواص ، وأى كتاب لهؤلاء ، وهؤلاء ؟ واذا كانت الجماهير امية فما معنى الكتاب بالنسبة اليها ؟ واذا تفنن الخواص فى أمة ما ، وبقيت الجماهير بعيدة عن كل معرفة ، فما بال الحضارة التى تنتسب اليها هذه الامة ؟ ثم ما هـو دور الكتاب فى الغزو الحضارى الذى يجرى بين الامم منذ قرون ، ومنذ قرنين على الخصوص ؟ وستكون هذه المناقشة ، رغم تمسكها قدر المستطاع بالموضوعيه، مناقشة ذات غاية واضحة وهى غائية الالتزام بآراء اصلاحية لفائدة الجماهير .

لا جدال فى أن قمة الهرم الحضارى منذ نشأت الحضارة ، تتلخص فى المعرفة المنقولة عبر الآفـاق وعبر الاجيال .. ولا معرفة ولا نقل للمعرفة دون كتابة أو دون كتاب . لان ما يسمى بذاكرة الامم انما هى قوة واهية تتلاشى بسرعة ان لم تتدونها الدواوين نقلا عن أفواه الرجـال . فالكيـان الحضـارى ذو مستويات ، والمعرفة المسموعة من الافواه ، دون المستوى للمعارف المكتوبة . ولقد كنا نرى عبـر التاريخ مواقف الامم المتحضرة تجاه هجومات الامم البدوية . مواقف خوف ومحافظة مستمرة على كنوزها التى هى الكنوز لنقل المعرفة اذ بها قوام الحضـارة جمعاء فكنوز المعرفة تجدد حيوية الامة من جيل الى جيل.ان صور الصين لا يعنى تبديل الجيوش بالجدران الواقية فقط،ولكنه يعنى الخوف على الحضارة مما كان يسمى بالهمجية فى تلك العصور . ولقـد كانت الحواضر القديمة كلها فى موقف الصين ذات حصون مانعة ، سواء بالجدران ، أو بتسليح الاذهان . وليس ببعيد عنا فى هذا الغرب الاسلامى ، ذلكم الزمن الذى كان يتحدث فيه الحضر عن فساد المدن التى تفتـح أبوابها للبدو طوعا أو كرها . اذ البدو فى نظـرهم لا يدركون كيان الحضارة فيفسدون مؤسساتها من حيث لا يشعرون .

كان هذا فى التاريخ نوعا من الصراع المبنى على اللاوعى واستهانة الامم بعضها للبعض الآخـر وبناء البذخ الحضارى على حساب الشعوب . وانتقام الشعوب من الحواضر حقدا منها على مظاهر اللامساواة الصارخة الفاحشة . واننا لنعلم اليوم أن كل جماعة بشرية مهما كان قربها من التوحش كما يقول ابن خلدون ، انما هى تواقة بالطبع الى الحضارة ، واذا لم يسمح لها بهذا الحق فى التحضر فانها ستناضل من أجل الوصول الى هذه الحضارة بالطرق العنيفة كانت هذه المشكلة فى التاريخ ، ولا زلنا نعيش عليها اليوم فى الصراع الذى يجرى بين الامم المتحضرة ، والامم المتخلفة .

كثيرا ما يحكى لنا المؤرخون عن الفساد الذى لحق بعض الحضارات من هجومات البدو المتتالية ، اذ انهم كانوا فى كل هجوم يقوضون جزءا من البناء الحضارى اما عمرانا واما مؤسسات صناعية واما مؤسسات ثقافية وكتب حتى يأتى الانحطاط . كان هذا شأن الحضارة اليونانية مع الروم ، وشأن الروم مع الهمج كما كانوا يقولون ، وشأن العرب مع التتر والمغول ، ولا ننكر ان المجتمعات التى وصلت بكل سكانها الى معاش الاستقرار فى المدن والقرى هى الامم الاكثر تحضرا وان القادة الواعين هم الذين فـكروا وسخروا كل مجهـوداتهم فى خلـق هذا الاستقرار ، ولكن يجب أن نتوقف هنا بعـــض الشىء لتصحيح بعض المفاهيـم .

اننا نعلم ان لكل حضارة حروبها الوقائية ، وحروبها التبشيرية ، فمثل الحروب الوقائية يمكن ان يلمس فى تيمورلنك . انه الغازى الذى يقتل مئات الآلاف من البدو . حتى لا يقضوا علـى حضارتـه السمرقندية ، التى ينتسب اليها عشرات الآلاف من البشر . ونراه من جهة أخرى يسطو على كـل الحضارات المجاورة من فارسية وعربية وتركيـة وصينية ، باسم توحيد الحضارة تحت رايته . واذا نظرنا الى هذا المتحضر نظرة انصاف ، فاننا سنقول بانه كان أشد خطرا على الحضارة وعلى البشرية من جميع بدو الدنيا منذ بداية التاريخ .

ومثل الحروب التبشيرية ما ألفناه من جنـود الاستعمار فى ادعائهم اننا همج يجب ان يحضرونا بالقوة . وما فعله جنود الاستعمار ونخاسوه مـن تقتيل وتعذيب وابادة للشعوب لا تعادله اية همجية يمكن ان يتصورها الخيال البشرى .

والحضرى فى مجابهته للحضارة ، عبارة عـن قوتين همجيتين أطلق لهما العنان فلا يهدأ صراعهما حتى يبيد أحدهما الآخر ابادة نهائية . وان كنـوز الحضارة التى أتلفها الحضر أهم بكثير من الكنوز التى أتلفها البدو . ان مفهوم الهمجية مفهـوم واسـع ، يكتسى كثيرا من الغموض والالتباس وأهم التباس يطرأ عليه هو أن يقرن اطلاقا بين البداوة والهمجية وما أقربنا من عصور واحداث تضرب لنا فيها البراهين على أن التقدم العلمى كثيرا ما يستخدم فى ابـادة الشعوب والحضارات . فحروب النازية ، والهجومات على فيتنام وغارات الصهاينة أحسن دليل على اقتران أنواع من المعرفة والحضارة بالهمجية السافرة .

اننا نعرف امما أمية ، من جهة أخرى ، تقدس الكتاب . وتقدس قبل كل شىء كتاب الآخرين ، اذ لا كتاب لها . واذا درسنا نفسية مثل هـذه الامـم وسلوكها الاجتماعى تجاه الكتاب وحملة الثقافـة فاننا سنجده موقف تقدير واعجاب ، فالكتاب هنا مظهر حضارى واسع يعنى التفوق الثقـافى . ولا يمكن ان يحصر معنـاه فى هـذه الادارة التى هى الصحف المكتوبة فقط . وهذا شأن البدوى الامى الذى يقدس الكتاب بمعناه الاوسع فى عصرنا الحاضر ومن هنا يمكن تعليل توقانه الى الثقافة التى هـو محروم منها . ولنا فى نفسية المسلمين الاولين خير نموذج لادراك هذه الوضعية . وقد ورثنا جميـعا وورثت جماهيرنا من هذه النفسية كثيرا من المظاهر ، لا يزال الامى عندنا يلتقط الصحيفة المكتوبة اذا كانت ملقاة على الارض حتى لا تدوسها الاقدام لان فيها الكتابة المقدسة التى بها يكتب اسم الله ، وبها يكتب القرآن . والمثقف بالنسبة اليه ، الذى يحمل الكتاب يحظى بكل تقدير ، ومهما يرى المراقبون السطحيون من استهزاء أو استخفاف لهذه المواقف فانها تنبىء لدى من يتعمق فى النظرة عن مـوقف تقديس لكل مظاهر الثقافة ، المادية منها والروحية.

كان الاسلام فى بداية أمره ينظر الى أهـل الكتاب نظرة تقدير ، وكانت الجماعات الكتابيـة منحصرة أول الامر فى اليهود والنصارى المتعايشين مع العرب . وما لبث المفهوم ان اتسع بعد الفتوحات الى جماعات أخرى مثل الصابئين والمجوس على انهم أيضا أهل كتاب . واذا ضربنا صفحا عن مناقشات علماء الكلام فى تقديم هذا المفهوم من الناحيـة

العقائدية ، فاننا نجد الكتاب مقترنا بالثقافة والحضارة عند المسلمين الاولين ، فكل امة متحضرة ذات ثقافة مكتوبة كانت تعتبر كتابية ، والثورة الاسلامية عند من يعتبرها ثورة . انما هي تجنيدالامم المحرومة من الثقافة لمنازلة أهل الكتاب المتعالين على البشريةالمعتبرين انفسهمشعبالله‌دون الناسأجمعين. وان منازلة الكتابيين بالكتاب الجديد الناسخ الذى هو القرآن ، معناها رفع الاميين الى مستوى أهل الكتاب وأشعارهم بان البشر لا يوجد منهم من هو مختص بالثقافة والتفرق الروحى دون غيره من بنى الانسان كان فى هذا تحقيق للتوقان الحضارى الذى كانت ترنو اليه الشعوب الامية منذ عهد بعيد,وان رباطها على ضواحى الحواضر الفارسية والرومانية فى حنين الى التحضر وهو الحنين المكبوت لم يتحول الى حركة ايجابية منطلقة العقد الا بعد ان وعى الاميون الكتاب والحكمة النبوية . فحصلت لهم الثقة بالنفس والشعور بالتفوق الروحى على جيرانهم فأصبحوا ينادون بقدرتهم على تثقيف الآخرين بالاسلام . وهانت فى أعينهم كل المزايا المادية للحضارة أمام الكتاب الذى أصبح الحضارة كلها بالنسبة اليهم .

لنتذكر مثلا ان سفراء المسلمين لدى رستم فى القادسية كانوا يتكلمون بنفس العبارات التى تحط من شأن الحضارة المادية وتفتخر بالكتاب والاسلام وتسفه استعباد الفرس بعضهم لبعض متباهية بالمساواة والعدالة الاسلامية .

ان الاستنتاج الذى يمكن استخلاصه من مثل هذه الاحداث التاريخية وهذه المواقف الحضارية يمكن تلخيصه فى اعتبارين ، الاعتبار الاول : هو ان نؤكد وهن الحضارة المادية امام القوة النفسية التى لا تخضع لاغراء الماديات .

والاعتبار الثانى : ان نعلم علم اليقين ان الثقافة ليست وقفا على أمة من الامم . أو جماعة بشرية دون غيرها من البشر ولكن اذهان الناس مهما اختلفت مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية متفتحة على السواء وتواقة كلها الى اكتساب الثقافة ولا تفاضل فى ذلك لان منطلق الافضلية يرجع الى اختلاف الفرص غير ان توقان الامم لا يكفى وحده . للصعود الى مستوى الثقافة المحضرة بل لا بد من جهود جماعية وارادة موحدة للخروج من المعرفة السمعية الى المعرفة المكتوبة . كثيرا ما نسمع مثلا الى الخرافة المتداولة بين الناس ، يقول من يذيعها : ان المعارف الاسلامية الاولى كانت سمعية وسمعية فحسب ، ونذكرهم هنا بمجهود المسلمين الاولين فى الكتابة والقراءة ، كان أسارى المشركين يفدون انفسهم مقابل تعليم الكتابة أولاد المسلمين ، وكان هناك كتاب للوحى يقيدونه فى صحف محفوظة ، وكانت العهود والمواثيق تكتب ويختم عليها ، وكان السفراء يذهبون مثلا فى تكوين الجماعة الاسلامية الاولى ميثاقا لا يقل أهمية عن أى دستور سياسى مكتوب . طبعا بالنسبة لذلك العصر حتى ان بعض الصحابة مثل على كان يحمله معه فى صحيفة معلقة بسيفه تقديرا لهذا المكتوب . وكانت العادة ان تقيد الديون وتضبط الحسابات بين المتعاملين فى التجارة كل هذه المجهودات فى الكتابة والتقييد وترك عادة الاحلاف الكلامية وضبط الوحى فى الكتاب المقدس

كانت كلها تدل على ارادة الجماعة الاسلامية الاولى فى الخروج من المستوى الادنى للثقافة الـذى هـو المستوى السمعى ، ولا يمكننا ان ننكر استمرار الثقافة السمعية وتعايشها مع الثقافة الكتابية الى عصور متأخرة . بل الى عصرنا هذا عند الشعوب الاسلامية مثلما هو الشأن فى حفظ القرآن وحفظ الحديث والاخبار التاريخية والروايات الادبيـــة ، ولكن أفواه الرجال لم تكن معوضة فى يوم من الايام عن الكتاب كأداة أساسية للثقافة .

وبمجرد ما شرع المسلمون فى التأليف اتقنوا صناعة الكتاب من نسخ وتحقيق وتجديد وانتاج ضخم للكاغد ، منذ زمن الفضل بن يحيى ، الـذى أشار بصناعته كما هو معلوم بكتب التاريخ ، وتمت فى مدة قليلة عملية نقل المعارف من الامم المختلفة كاليونان والفرس والهند ، ووقع اصهارهـــا فى المعارف الاسلامية التى هى أساس هذه الحضارة ، ولا تهمنا هذه الحقيقة التاريخية فى حد ذاتهـــا ، تفاخرا بما صنع الاجداد كما جرت العادة بذلك فى جيلنا ، وانما المقصود من ذكرها هو الانتباه من جهة الى أهمية الكتاب فى نقل المعارف بين الاجيال والامم لتكوين ما نسميه اليوم بالحضارة العالمية . ثم الانتباه من جهة أخرى الى بعض أمراض الحضارة الكتابية ، ان صح هذا التعبير .

نقـــول فى عصرنا الحاضر ان الافـــراط فى التخصص مضر بالعلوم لانه يـــؤدى الى تشتيتها ويهيىء الجو بسبب هذا التشتيت الى تقهقرها . ومن ثم طبعا ، نصل الى التقهقر الحضرى. وليس من العجب ان تنزلق المجتمعات المتحضرة الى انحطاط ثقافى بسبب التكديس وتضخم الانتاج المتخصص الى درجـة ان المؤلف يصبح فى مثل هذه الحالة كالمحاور لنفسه ولن يجد أى قارىء يفهمه ، فتناسى المتخصصين لدور الكتاب كأداة اتصال ثقافى من جملة الاسبـــاب القاضية على الكتاب .

لقد وقع احصاء العلوم فى الملة الاسلاميـــة قبيل الانحطاط الى ثلاث مئة وخمسين علما . أمـا الفنون والصناعات المتعلقة بالثقافة ، فانها كانت تفوق الالف فى الحواضر الكبرى مثل بغداد وقرطبة والقاهرة . وحينما بلغ التكديس منتهاه ، كانت تجمع فى بعض المكاتب مئات الآلاف من الكتب قلما تقرأ لانها كانت مفرطـــة فى التخصص . ولا ننسى ان هجوم التتر على بغداد ادى الى اتلاف جل هذه الكتب بتغريقها فى الانهار ، كما ان رؤســـاء الكنيسـة بالاندلس حرقوا جبالا من المجلدات كانوا يعتقدون انها مصاحف قرآن .

ولسنا نزعم ان الحضارة العربية اليوم ستمر بنفس الطريق الانحطاطى الذى مرت به الحضـــارة الاسلامية والحضـــارة اليونانيـــة من قبلهـــا ، لان الوضعيات تختلف كثيرا ولقد ارتفعت درجة الوعى الانسانى حتى اصبحنا اليوم نستطيـــع خلـــق الوقايات اللازمة لمجابهة اسباب الانحطاط ، لكن مرض التخصص المفرط والتكديس فى الثقافة الكتابية موجود اليوم كما كان موجودا بالامس . من عادة المفكر المنعزل عن الواقع المجتمعى ان ينظر الى المشاكل الحية من خلال عدسته الخاصة ، فيزعم انه يمكـن فض هذه المشاكل بالكلام عنها فى كتاب ، وتطوى الصحف وينتهى الامر . هذا مرض آخر من أمراض الثقافة الكتابية ، يتلخص فى مفارقة الواقع الحـى

الذى يعيـش عليه الناس بكل قواهم الحيوية فاذا أصبح الكتاب ومن يصنعه يكونان معا عالما خاصا هو عالم الفرار والافلات من قبضة الواقع أو يزعمان تعويض الطاقة الفعالة بالطاقة اللفظية تم نهائيـا ابخاس الثقافة من لدن ابناء مجتمعها . هذا عيـب كل الثقافات ، ثقافة الاعيان التى تنطوى على نفسها وتعجز عن ايجاد الفن الاليق لتبليغ المعـارف الى أكبر عدد ممكن من الناس . فعيبها الاول انها تبدأ بابخاس الجماهير وتجاهلها فتترتب عن ذلك جدلية ابخاس واحتقاز متبادلة ، فمن بين الملايين مــن التآليف التى كتبت فى مدة احد عشر قرنا مــن الازدهار الثقافى فى البلاد الاسلامية لا نجـد الا نوعين من الكتب قدر لها أن تجتاز كل الاخطـار وتحـظى بالنجـاح .

فالنوع الاول هو ما نسميه بالامهـات التى تحفظ الكيان الحضارى أو الكل الوجودى للامة ، وبها قوام المعارف والشخصية وبها الصمود فى وجه الغزوات المختلفة .

والنوع الثانى هو تلك الملخصات التى كانت السبب فى نشر الثقافة بين الجماهير بل وتبسيط المعارف الى درجة تقريبها لاذهان الاميـين حتى لا يحرموا من النصيب الادنى من ثقافة الامة ، وقـد سبق فى مناسبات أخرى ان سميناها الكتب الحمر للعقيدة الاسلامية ؟

من هذا الواقع التاريخى يمكننا أن نخرج بنتائج صالحة للعصر ، ويتعلق جلها بمشـاكل الثقافة ووسائل تبليغها فى بلادنا العازمة على النمو

قرأنا منذ ايام تصريحا على لسان احـــد مثقفينا يقول فيه باننا شعب لا يقرأ كثيرا لاننا لـم نكد نخرج من مرحلة الثقافة السمعية ، وأريد أن ابدأ النقاش حول التبليغ الثقافى من هذه الفكرة التى أعتبرها خاطئة .

فالخطأ الاول هنا أن نعتبر أنفسنا دون تقاليد كتابية ، مع اننا أمة تقدس الكتاب وعاشت حياتها الثقافية كلها مع الكتاب فيمكننا ان نقول مع الكتاب وحده ، ولو رجعنا الى ما قبل الاستعمار بقليل لوجدنا كل قرية بمؤسساتها الثقافية تعقد فيها حلق العلم لابناء الامة دون تمييز ، وتشرح على مسامعهم كتب الفقه والتوحيد والحديث وتفاسير القرآن ابتداء من المصنفات اذ ذاك . ومهما ذكرنا فلن يكفينا التذكير مثلا ، بان جيش الامير عبدالقادر كان يعقد الندوات العلمية فى حله وترحاله وان خزانة الكتب كانت من انفس كنوزه . ولكن الضربات التى وجهها الاستعمار الى مؤسساتنا الثقافية كانت هى السبب فى انكماش معارفنا الى ذلك النوع السمعى الذى كنا نجده قبيل حرب التحرير عند طلبة البوادى من حفظ للكتاب والحديث والمختصرات الفقهية عن ظهر قلب . نضالا منهم لانقاذ القدر الادنى من الكيان الثقافى الاسلامى فى عالم كان كله اذ ذاك حروبا ومؤامرات على هذه الثقافة غير انه لا يمكننا نكران تراجع ثقافتنا اثناء الانحطاط الى المحافظة دون الخلـق والابداع . ولا ننكر ان التعايش بين الثقافة المكتوبة ، والثقافـة السمعية كان على حساب الكتب فى كثير من الاحيان، ولكن وجود هذه الوضعية فى فترات معينة لا يعنى

اننا لم نخرج بعد من الثقافة السمعية بينما نحن فى زمن ما بعد التخمة والتكديس الثقافى .

والخطأ الثانى الذى يتعلق بمشكل الاتصال مع الجماهير بواسطة الكتاب هو ان ندعى بأن الشعب غير قارىء ونبرر بذلك قطع صلتنا بماضى الامــة بل وبحاضرها ، ونخلق لانفسنا عالما متنكرا لهويتنا، ونحافظ محافظة المستميت على الجسور التى تربطنا بالاستعمار غير مميزين بين جسور التبادل المشروعة، والجسور المؤدية الى الذوبان . ويحق لنا اليوم ان نتخوف من اتخاذ مثقفينا أمية الجماهير درقا للفرار الى التعبير بغير لغتنا . وفى ظنى ليس هناك فرق بين الامى الصرف والمثقف الذى مرت عليه سنوات الاستقلال كلها دون أن يتعلم لغته الوطنية ؛ هــذا مع ان الامى الصرف معذور والمثقف لا يمكــن ان يلفــق له أى عــذر .

ومن الخطأ أيضا ألا ندرك اننا نجتاز مرحلة بناء حضارى جديد بعد التفكك الذى مر علينا ، ولا يخفى على احد ان المؤسسات المختلفــة للثقافــة الشعبية قد انقرضت نهائيا ولم يفكر فى تعويضها حتى الآن . قد ادركنا حقا بفضل ضغوط الاحداث ان شعبا غير مستقر فى مدينة أو قرية لا يمكــن تثقيفه . ويظن جلنا ان المدرسة كافية لنشر العلوم وتوعية الاجيال . والواقع ان المدرسة بعيدة سواء عندنا أو فى جهات أخرى من العالم عن سد حاجيات الامة فى متطلباتها الثقافية . وقد وصل تفكيــك المجتمعات القديمة فى بلادنا الى خلق سكان حيارى يجولون الى غير قصد من حول العمارات أو فى طرقات القرى . لا يجدون ما يسدون به فراغهم الثقافى الا أوهام الصور الخلابة والمجلات الملونة والاشرطــة السينمائية .. الخ . واذا صحت المقارنــة فانــه يمكننا أن نقارن بين سلوك المواطن قبيــل تفــكيك جماعته . وسلوكه الآن تجاه الحيــاة الثقافيــة ، وستسفر المقارنة عن تبليغ للمعارف المبسطة وقضاء للفراغ فى احضان الجماعة قبيل التفكك . بينمــا الشخص مقذوف به اليوم الى عالم المجهول مفقــود الهوية الاجتماعية رغم ان البناءات متلاصقة ، فان الجماعة هنا متشتتة الجماعة الانسانية متشتتة الى اقصى حد ، ولا يمكننا ان نواجه هذه الوضعية بانتظار الاجيال الصاعدة التى ستمر على المدرسة والجامعة لتنشىء لنا المجتمع المتحضر العالم الذى قد يطــول انتظاره . ان كل انتظار موكول بالصدف الا اذا كان هذا الانتظار محترما علميا ، وليس الامر كذلك فيما يخصها بل يجب ان نعامل الامية كما نعامل العدو الذى يتطلب تعبئة الجيوش والمعدات من كل جهة .

نتساءل اليوم كيف ان الكتاب قبل عصر المطبعة كان اداة للحضارة فى مجتمعنا ، يجتمع الناس حوله للقراءة العمومية . وكيف اصبح اليوم مع ثمنــه الزهيد وسهولة نقله . اداة غير نفيسة ، ولا نتساءل عن الاسباب الاجتماعية لهذه الوضعية .

تقول الاحصائيات ان ما يصرف على الكتاب فى بلادنا لا يتعدى الدينار الواحد فى السنة بالنسبة لكل مواطن ، واذا زدنا فى التدقيق ادركنا ان جل الكتب التى تقتنى انما يقتنيها الطلاب على الخصوص والمعلمون للحاجة المهنية لا غير . واذا اردنا ان نعرف من هم هواة الكتاب فى مدينة من المدن . فلا اسهل من أن نسأل عنهم أى مواطن بتلك المدينة لان ارباب

خزائن الكتب الشخصية لا يتعدون بضعة اشخاص معروفين عند جميع السكان .

ان السبب الاول فى هذه الوضعية هو انعدام القوام المادى للثقافة ، ولا اعنى بالقوام المادى مـا يصرف من اموال لهذا الغرض ، ولكن اعنى المؤسسة التى يجتمع فيها الناس للقراءة والعلم . اعنى ما يعوض الزاوية ، أو الرباط أو المسجد ، كبيـوت للعلم أى تلك البناءات الحضارية التى كانت مراكز للاشعاع الثقافى فى القديم . ان سبب نجاحها كان يرجع الى الحرية والديمقراطية التى كانت تتصف بها طرق تسييرها . ولو دخلتها بيروقراطية مـــا لافسدتها تمام الافساد . ان المؤسسة التى توجـد فيها مثلا خزانة الكتب وتنصب فيها حلق العـــلم بكل حرية ويأتيها العالم والامى كمواطنين متساويين ليسد كل منهما رغبته الثقافية ، ولا يمكن لاى احد ان يطرد أى احد منها بدعوى الطبقية أو السن أو البيروقراطية أو الدبلوم الخ .. كما نقول اليوم ، هذه المؤسسات التى تسير على هذا النحو لا يمكن ان تكون مؤسسات فاشلة .

منا اليوم من يطرح المشكل بذهنية تجزيئية فيتناول درس الوضعية الحالية ، اما من زاوية نشر الكتاب أو من زاوية المؤلفين أو من زاوية سياستنا الثقافية ، والواقع ان القضية قضية اجمالية لا تقبل التجزيء ، ليس هناك قراء لان الشعب امى ، وليس هناك تأليف موجه الى الشعب اذ ليس فى الشعب قراء ، وسياسة بث الثقافة بتشجيع المؤلفين عبارة عن نفخ فى الرماد ، اذ ان هذا التشجيع لا ينتهى الى خلق قراء . ان القراءة والتأليف وانتشار الكتاب اذن قضية حضارية تركيبية ، وهى ايضـا قضية تربوية اذا أخذنا التربية بالمعنى الاعم الذى هو تعويد الناس على سلوكات حضارية معينة ، اذ ربما نجد ان الناس الذين يحسنون القراءة لا يصرفون فيهـا الا الوقت اليسير وبعامل الصدف .

واذا أردنا ان نحيط بالمشكل فى ابرز جوانبه امكننا ان نلخص القضية فى النقط الآتية :

أولا : ان محور التحول الحضارى الذى نريد ان نخرج به من الامية ، نحن ابناء الامم العازمة على النمو ، لا يدور على تقنيات لتلقين القراءة ، ولكنه مسألة مجتمعية نفسية ومعناه تجنيد كل الطاقات ولاجل معين من اجل القضاء على هذه الكارثة وهى الامية ، لقد سبقنا غيرنا الى مثل هذه التجربة وكانت ناجحة فى اغلب الاحيان . هناك دول فتية ، تجابه حربا ضروسا مع الاستعمار قد انهت حملتها عـــلى الامية فى ظرف ست سنوات ، ولا يمكن ان نعلل باسم الاسبقيات تأجيل مثل هذه الحملات الى اجـــل غير مسمى أو الى انتظار الاجيال الصاعدة . فتارة يقال انما الاسبقية للاقتصاد ، لأن الاقتصاد يمكن ان يزدهر على ايدى الاميين فى عصر التكنولوجيا .

وتارة يقال ان الاسبقية للتعليم العمـــومى ، ومجهودات هذا التعليم تضيع فى ادغال الجهـــــل العمومى .

كل هـــــذه المواقف المنهجيــــة فى سياسة الاسبقيات معقولة الى حد ما ، ولكنها تظهر شبه تضحية بكهول اليوم الذين يبنون اقتصاد الغد ، ويسهرون على تربية جيل الغد ، فالتحول الحضارى

مجهود تكاملي يقتضي مجابهة اسبقيات متعددة في نفس الوقت . ومن لدن جميع المواطنين ، حتى لا نسقط في فخ التقنوقراطيات الباردة المزدريـــة للانسان .

ثانيا : توصلنا بعد تجارب التاريخ الطويل ، وتجارب عصرنا الحاضر ، الى الحكم على كل ثقافـة للاعيان بأنها ثقافة عقيمة ، لانها تبقى دولة بـين أقوام منعزلين عن مجتمعهم يجترون افكارا وخيالات لا يمكن تبليغها للغير . وتكون الثقافة في هـذا المجتمع الضيق بمثابة حوار مع الذات . وما تلبث ان تصبح ظاهرة طبقية مثلما هو الشأن في الاقتصاد فتنجر عن ذلك التناقضات والصراعات . غير ان هذا الاستنتاج ذي الغائية الخلقية الذي هو الحكم بالعقم على ثقافة الاعيان ، لا ينفي الوجود الواقعي للتفاوت في المعرفة ، ويصبح ابتداء من هذا فرضا عـلى المحظوظين ثقافيا ان يكونوا من انفسهم قوة طلائعية لتبليغ القدر الضروري من الثقافة الى كافة مواطنيهم. وعليهم ايضا ان يدرسوا الطرق التقنية والتربوية لهذا التبليغ حتى يصبح من السهولة والشمولـة بحيث يصل الى الجماهير دون عراقيل .

ان كل التيارات العقائدية ، والدينية ، متمسكة اشد التمسك بهذا المبدأ الخلقي الذي يبدو خياليا لبعضنا ، مع انه ممكن التطبيق لانه جرب بالفعـل في مواطن كثيرة ، وبعصرنا الحاضر على الخصوص .

ثالثا : ان ديمقراطية الثقافة بمعناها الاوسع دون الاقتصار على التعليم المدرسي لا يمكن أن نعامل كحلم بعيد المنال يستهزىء به دعاة واقعية مزيفـة مثبطة للعزائم . واذا أردنا ان نحقق هذا المبدأ الذي اصبح من المبادىء المسلم بها عالميا ، مثل حريـة التعبير والتفكير ، فعلينا ان نخلق المؤسسات الحية التي تحتضن التعليم الشعبي المعمم ويكون جزء منها مخصصا لتكوين ذي الغائية المهنية . ويكون الجزء الآخر مخصصا للترقية الثقافية دون غائيـة من ورائها لانها غاية الانسانية القصوى .

رابعا : لا يمكن الاستمرار في ابقاء طـرق التوعية موكولة بالصدف والارتجال في عصر تتباين فيه المجتمعات الى حد كبير بحيث لا يمكن ان تطبق طرق ثقافية لمجتمع ما على مجتمع آخر لعمق الاختلاف الموجود بينهما . ومن هنا يجب ان ندرك ان القراءة ليست في مجتمعاتنا المتأخرة نشاطا تمتعيا فقط كما هو الشأن في كثير من المجتمعات الاستهلاكية ، طبعا بالنسبة لنوع معين من القراءة ، ولندرك ان جـزءا كبيرا من الانتاج الادبي في المجتمعات التي تشكو من التخمة الادبية انما يبحث عن الاغراءات والتسليات والمواضيع المثيرة للغرائز ولا يمكن بالطبع لمثل هذا الانتاج ان يسيطر في هذا الجزء من العالم الذي لم يخرج بعد من الامية .

ان انتاج العالم الثالث يجب ان يكون ملائمـا لوضعيتهم الاجتماعية . هذا ومن اللاوعي ايضا ان نبدأ بازدراء القراءة والتهافت على الوسائل الاخرى للتبليغ مثل السينما والتلفزة ، معتبرين انهما اداة تثقيفية ، مع انها كثيرا ما تكون وسائل لتبليـغ ثقافة مجتمع استهلاكي مريض ، بل لابد ان نعي ان الوسائل الجديدة انما تأتي مكملة للكتاب والقراءة

فى نشر الثقافة والا سيكون الانزلاق الى الامية فى اجل قريب .

ونقول مستنتجين ، ان القراءة والكتاب ليست قضية فنية ينظر اليها بمعزل عن المشاكل المجتمعية الاخرى . ولكنها جانب من المشكل الحضارى الاعم ، فالكتاب منتوج حضارى ، كما انه اداة للتربيــة والتحول الحضارى ، انه سبب ومسبب فى نفس الآن ، ولكن ليس فى حد ذاته . وكلما حاولنا أن نعالج مشاكل التاليف والقراءة اعترضتنا امواج من المشاكل الاجتماعية والانسانية الاساسية مما يجعلنا متيقنين بأن بداية الامور فى الميدان الثقافى هــى العزم على اقبار الامية دون تأجيــل وبوسائل لا ترتضى انصاف الحلول والسلام عليكم ..



مراكز الثقافة وخزائن الكتب بالجزائر عبـــر التـــاريخ

نشــأتهـــا
تطـورهـــا
آثـــارهـــا

2

المهدى البوعبدلى
عضو المجلس الاسلامى الاعلى بالجزائر

المدارس بالجـزائر :

عرفها المؤرخ الجزائرى أبو راس الناصرى (1165 ـ 1237 هـ) فى تاليفه « عجائب الاسفار » فقـال : « المدرسة المتعارفة عندنا الآن هى التى تبنى لدراسة العلم ، اى لتعليمه وتعلمه ، كمدرسة ابنى الامـام بتلمسان ، والقشاشيـة بالجـزائر ، والمحمـديـة بأم عسكر . . وان هذه المدارس لم تكن معروفة فى اول الاسلام ، وانما كانت دراسة القرآن وسـائر العلوم بالمسـاجد فقط ، او بمواضع لا يطلقـون عليها اسم المدرسة . . كان ابتداء ظهور المـدارس آخر القرن الرابع (1) واول من بنى المدارس واقتدى به الناس فى ذلك أبو على الحسن بن على بن اسحاق الملقب نظام المـلك » .

(1) المدرسة النظامية انشئت ببغداد سنة 457 هـ لتدريس الفقه الشافعى وعلم فيها ابوحامد الغزالى من 484 الى 488 هـ وحظيت بعدة دراسات بمختلف اللغات ، وقول ابى رأس آخر القرن الرابع غلط من الناسخ اذ كان محققا

كما ذكر الدكتور حسين أحمد في مجلة «الاستاذ» التي تصدرها كلية التربية بجامعة بغداد، مقـالا عنوانه « المساجد الاسلامية وأثرها في نشر التعليم» (المجلد 12 سنة 1383 ـ 1384 هـ : 1963 ـ 64 م) قال فيما يخص موضوعنا : «كانت المساجد الاسلامية هي معاهد التعليم الاولى في العصور الاسلامية منذ بدء الدعوة الشريفة حتى أوائل القرن الرابـــع الهجري ظلت المساجد هي المعاهد الاولى والاساسية التي تمد المدارس الاسلامية، التي أنشئت في القرون الوسطى كالنظامية ببغـداد . . . »

ان أول مدرسة بنيت في الجزائر حسبما يظهر من قول المحقق أبي راس الناصري هي مـــدرسة ابني الامام بتلمسان، بناها لهما الملك أبو حمو الزياني الاول المتوفى سنة 718 هـ (وهو رابع ملوك بني زيان) قال ابن فرحون في «الديبـاج» عنـد ترجمته لابني الامام المذكورين: «ولما استقل أبوحمو بالحكم، اختط لهما المدرسة، وابتنى لهما دارين على جانبها، وجعل لهما التدريس فيها في ايوانين معدين لذلك، واختصهما بالفتوى والشورى فكانت لهما في دولته قـدم عاليـة » .

هذان الاخوان هما أبوزيـد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ولدا محمد بن عبد الله بن الامام، كان أبوهما اماما بجامع برشك (برشك مدينـــة قديمة اشتهرت من جملـة مدن امارة مغــــراوة وبني زيري وهي بين تنس وشرشال وموقعها حيث يوجد ضريح ابراهيم الخواص حاليا) قتل أبوهمـا في أواخر القرن السابع، فارتحلا الى تونـس ثم الى المشرق وبعد رجوعهما اتصل بهما الملك أبوحمو (لخبر يطول) وبنى لهما المدرسة التي مازالت منارة مسجدها قائمة تحمل اسميهما ـ جامع اولاد الامام ـ بلغ هذان العالمان شهرة في العالم الاسلامي اذ كان من جملة تلامذتهما المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون، ولسان الدين الخطيب التلمساني، وكـــل منهمـا ترجمهما ترجمة وافية، كما تخرج عليهما جـــل علماء المغرب العربي اذ ذاك، ومن جملة ما ذكـر في ترجمتهما : انهما لما كانا في المشرق ناظـرا الامام تقي الدين بن تيمية وظهرا عليه «وكان ذلك سبب محنته» (2) قال عبد الجليـل التنـسي في في تاليفه «الدر والعقيـان في دولة بني زيـــان» عند ترجمته للملك أبي حمو الاول قال : «كـــان أبو حمو صاحب آثار جميلة، وسيرة حسنة محبا في العلم وأهله، ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب (المريني) الفقيهان العالمان الجليلان أبوزيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى ابنا الامام فقـــام بحقهما، وأكرم مثواهما، وبنى لهما المدرسة التي تسمى بهما، وكان يكثر مجالستهما، والاقتـــداء بهما .

المـدرسة الثانية بتلمســـان :

هي التي بناها الملك أبو تاشفين الاول ولد الملك أبي حمو السابق الذكر، وهذه المدرسة هي التي

(2) ولم يعرف موضوع هذه المناظرة اذ لم تذكره كتب التـراجم المتداولة فيما نعلم ، وكل ما ذكروه انهما ناظرا ابن تيميـــة وظهرا عليه وكان ذلك سبب محنته

اشتهرت بالمدرسة «التاشفينية» وبقيت قائمة الى سنة 1873 وبنى على انقاضها المجلس البلدى بتلمسان (الحالى) ذكر القس (3) بارجيس (BARGES) انه شاهد هذه المدرسة التى هدمت سنة 1873 وكانت رائعة . وأبو تاشفين هذا هو مجدد منارة الجامع الاعظم المالكى بالجزائر وما زالت قطعة الرخام التى كتبت عليها أبيات فيها تاريخ البناء محفوظة على حائط المنارة المذكورة ، من جملتها هذه الابيات (على لسان المنارة) أى منار حاله فى الحسن كحالى :

أقام أمير المسلمين تفافحا
كسانى بها حسنا وتمم بنيانى

وقابلنى بدر السماء وقال لى
عليك سلامى أيها القمر الثانى

الخ . كما بنى هذا الملك قصر «الياقوتة» عند حصاره لبجاية ، وهو شبيه بقصور بجاية الناصرية (4) ومازال سكان بجاية يطلقون على بعض دورهم اسم «الياقوتة» . وموضع قصر الياقوتة الذى بناه الملك أبوتاشفين هو ما يسمى الآن بمدينة «القصر» (التى تبعد عن بجاية بنحو 20 كم) .

شاهد القس بارجيس (ABBE BARGES) المدرسة التاشفينية واحتفظ ببعض صورها كما شاهد بقايا مدرسة ابنى الامام وبقايا المسجد الملحق بها .

اختار أبو تاشفين لمدرسته العالم الشهير ابا موسى عمران المشدالى البجائى ، صهر العالم الذائع الصيت ناصر الدين المشدالى ، وتخرج عليه من هذه المدرسة كثير من علماء البلاد منهم المقرى الجد (وكان عمران المشدالى هذا هو الذى نشر تعاليم صهره التى سنتحدث عنها فى موضعها) .

قيل ان عمران المشدالى فر من بجاية اثناء حصار الملك ابى تاشفين لها وسكن الجزائر ، ولما سمع به أبو تاشفين دعاه الى تلمسان اذ كان الملوك يتسابقون الى اختيار العلماء . قال التنسى فى «الدر والعقيان» : «كان أبوتاشفين مولعا بتشييد القصور ، فخلد آثارا لم تكن لمن قبله ولا لمن بعده (كدار الملك) و (دار السرور) والصهريج الاعظم وكانت عنده شجرة من فضة ، على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة ، وأعلاها صقر ، فاذا استعمل المنافخ فى أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور ، صوتت بمنطقها ، المعلوم ، فاذا وصل الريح موضع الصقر ، صوت فأقطع صوت تلك الطيور كلها . . واحسن من هذا كله بناء المدرسة الجليلة العديمة النظير التى بناها بازاء الجامع الاعظم ، ما ترك شيئا مما اختص به قصره المشيد الا وشيد مثله بها ، شكر الله صنيعه . . وفد عليه بتلمسان العالم أبو موسى عمران المشدالى ، فأكرم نزله ، وأدام المبرة له وولاه التدريس بمدرسته الجديدة» اهـ كلام التنسى .

---

(3) كان بتلمسان وكتب عنها كثيرا منها : ـ تلمسان العاصمة القديمة ـ (Tlemcen ancienne capitale) . . . . . . طبع باريز سنة 1859 او ـ تاريخ بنى زيان ـ ثم ملحقا فيه بعض الفصول من ـ الدر والعرفان ـ للتنسى ، الخ

(4) قصر بجاية الذى وصفه بتفصيل ابن حمديس الصقلى واشتهرت قصيدته فى تاريخ الادب العربى هو قصر ـ اللؤلؤة ـ

وقال المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون فى ترجمة شيخه محمد المقرى (تلميذ المدرسة التاشفينية) قال : . . ثم لزم الفقيه عمران المشدالى تلميذ ابى على ناصر الدين وتفقه عليه ، وبرز فى العلوم الى حيث لم تلحق غايته ، وبنى السلطان أبو تاشفين ، مدرسته بتلمسان ، فقدمه للتدريس بها ، يضاهى به أولاد الامام» اهـ

المدرسة الثالثة بتلمسان :

هى مدرسة العباد ، أسسها الملك ابو الحسن المرينى قرب مسجد ضريح الشيخ أبى مدين ، وقد درس بهذه المدرسة ابن مرزوق (5) الخطيب (الجد) اذ كان أفراد اسرته يتوارثون امامة جامع العباد (ولهذا عرف بالخطيب) كما درس فيها حفيده الحافظ بن مرزوق الحفيد ، واستاذه عبد الرحمن ابن خلدون الذى كان ينوى الاقامة بها والانقطاع لخدمة العلم بعد خروجه من سجن الملك ابى عنان ومازالت المدرسة تحتفظ بآثار الملك أبى الحسن منها ابيات شعر مكتوبة على قبة المسجد الخاص بها الذى اتخذ كتابا لتعليم الصبيان وهى هذه :

الحمد لله رب العالمين

بنانى كى يقيهم لدى دينا
الاسلام (؟) أمير المومنينا
أبو الحسن الذى فيه المزايا
تفوق النظم بالدر الثمينا
امام لا يعبر عنه وصف
بما أجرى به الاعمال دينا
سليل ابى سعيد ذى المعالى
أقر الى الانام به عيونا
وقد سماه خالقه عليا
فأعلاه و أعطاه يقينا
أبان بصالحات منه دينا
و ايمانا يكون له معينا
لشهر ربيع الثانى لسبع
خلون من السنين و أربعينا
الى سبع مئين بدار سعد
محوله مناصده فنونا
و كان له الالاه على اتصال
على مرضاته دأبا معينا

ويوجد بالمسجد الجامع بالعباد قطعة رخام كتب فيها جميع ما حبسه الملك أبو الحسن على المسجد الجامع والمدرسة والزاوية ـ ولم ندر هل الزاوية كانت موجودة أو بناها الملك ، والحقيقة أن الملك جدد الزاوية والجامع ـ يقول المحبس فيما يخص المدرسة والزاوية « أمر ببناء هذا الجامع المبارك مع المدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان . . . وحبس المدرسة المذكورة على طلبة العلم الشريف وتدريسه ، وبعد أن يذكر كل ما حبسه يختتم ذلك بقوله . . برسم اطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج والمقيمين والواردين

---

(5) ابن مرزوق الخطيب المعروف بالجد هو صاحب كتاب ـ المسند الحسن فى التعريف بالملك ابى الحسن ـ يقصد المرينى وتوجد منه مخطوطة بخزانة الاسكوريال وهو المتوفى بمصر وقد ترجمه لسان الدين بن الخطيب فى الاحاطة وابن خلدون

عليها . . الخ » وبقايا زاوية العباد هي مسكن الوكيل حاليا .

المدرسة الرابعة بتلمسان :

هي مدرسة الشيخ الحلوى ، بناها الملك أبو عنان فارس المريني لما خلف والده أبا الحسن ، وقد وجدت كتابة تخص المسجد منها ما كتب على كل من الساريتين اللتين رفع عليهما المحراب ، الاولى كتب عليها «جامع ضريح الشيخ الولي الرضى الحلوى رحمة الله عليه » والثانية كتب عليها « أمر ببناء هذا الجامع المبارك عبد الله المتوكل على الله فارس أمير المؤمنين » وتوجد كتابة ثالثة فيها كلمات ممحوة ، وقد بنى أبوعنان زاوية ومدرسة قُرب المسجد الجامع ولم يعثر لهما على أثر ، وكل ما عثر عليه هو وصف للزاوية،سجله الاديب الشهير أبو عبد الله محمد بن جزى الاندلسى كاتب أبي عنان الخاص ، قال في وصفها :

هذا محل الفضل و الايثار
و الرفق بالسكان و الزوار
دار على الاحسان شيدت و التقى
فجزاؤها الحسنى و عقبى الدار
هي ملجأ للواردين و مورد
لابن السبيل و كل ركب سارى
آثار مولانا الخليفة فارس
أكرم بها في المجد من آثار
بنيت على يد عبدهم وخديم با
بهم العلي محمد بن حدار
في عام أربعة وخمسين انقضت
من بعد سبع مئين في الاعصار
(754 هـ)

وابن جزى هذا هو الذى حرر رحلة ابن بطوطة المشهورة في بلاط الملك ابى عنان ، وقد غادر غرناطة لضيم أدركه بها وقد اشتهرت الابيات التى نظمها عند توديعه غرناطة وصارت مضرب الامثال قال :

و انى لمن قوم يهون عليهم
ورود المنايا في سبيل المكارم
يطيرون مهما ازور للدهر جانب
بأجنحة من ماضيات العزائم
و ما كل نفس تحمل الذل انني
رأيت احتمال الذل شأن البهائم
اذا أنا لم أظفر «بزاد مسافر»
لديكم فعندي « تحفة قادر »

ورى بكتاب زاد المسافر وغرة محيا الادب السافر» لابى بحر صفوان التجيبى المرسى الذي حققه ونشره الاستاذ عبد القادر محداد التلمسانى و «تحفة القادم» هو من أشهر تآليف ابن الابار القضاعي الاندلسى .

واندثار هذه المدرسة والزاوية (6) كان لا محالة

(6) ان الزاوية التى ظهرت في عهد ملوك بنى مرين كانت كما وصفها ابن جزى – ملجا للواردين ومورد لابن السبيل – وهو نفس ما ذكره والد الملك ابى عنان في تحبيسه على زاوية العباد حيث قال : – برسم أطعام الطعام بزاوية العباد عمرها الله للفقراء والحجاج والواردين عليها – ثم نجدها بعد القرن العاشر أستحالت الزاوية الى مركز للطرق الصوفية يذكرون فيها أورادهم ثم اتخذوها للدراسة وسنتحدث عنها في القسم الاخير من هذه الدراسة

فى العهد التركى اذ عد الرحالة الشهير الوزان الفاسى المشهور بليون الافريقى «LEON L'AFRICAIN» انه وجد بتلمسان خمس مدارس عند ما زارها فى أوائل القرن العاشر الهجرى ، هذا وان فقدت تلمسان مدرسة ابى عنان فان التاريخ احتفظ لنا بمدرسة أبى عنان بفاس التى مازالت تبهر سواح العالم من الفنانين والاثريين والمؤرخين حتى ان كثيرا من المهندسين المعماريين المتخرجين من أرقى المعاهد العالمية يشدون اليها الرحال سنويا ، وقد كان من الصدف ان الملك أبا عنان عين لمدرسته العنانية ـ مازالت مشهورة بهذا الاسم ـ هذه قاضى حضرته بتلمسان العلامة الشيخ محمد المقرى التلمسانى ، قبل أن تتوتر العلائق بينهما ، وذلك انه صرح بأن النظام الملكى يخالف تعاليم الاسلام التى تحبذ الشورى كما يدل عليه عمل الصحابة فى عهد الخلفاء الراشدين الذين تولوا انتخابهم تلقائيا ، كما استدل على أن مصائب المسلمين جاءتهم من النظام الملكى ـ وقد وافقه تلميذه عبد الرحمن ابن خلدون على تسرب التدهور للمسلمين فى ذلك العهد أى منتصف القرن الثامن ورجع ابن خلدون ذلك الى أسباب أخرى ذكرها فى تاريخه ـ وكان لمحمد المقرى هذا مواقف ، وهو من صقرة (7) ، «قرية مازالت محتفظة باسمها قرب مدينة بريكة بالزاب) وجاء أحد أجداده مع الشيخ ابى مدين وأسسوا أعظم شركة تجارية لها نظام وجند تعجز عنها الدول،وقد خصه تلميذ من تلامذته ابن مرزوق بتاليف سماه «النور البدرى ، فى التعريف بالفقيه المقرى» كما أخذ عن المقرى هذا امام القراءات الشهير أبو القاسم الشاطبى الاندلسى ، ولسان الدين بن الخطيب ، ومازال بعض أفراد هذه الاسرة بالمغرب وبجبال زواوة .

المدرسة الخامسة بتلمسان : (8)

هى التى بناها الملك ابو حمو موسى الثانى (سادس ملوك بنى زيان) وبنى لها مسجدا على العادة المتبعة اذ ذاك ، وكانت المساجد الملحقة بالمدارس خاصة بالاساتذة وتلاميذ المدرسة ، وسماها « اليعقوبية » تخليدا لاسم والده أبى يعقوب ولم يبق منها اليوم الا مسجدها المشهور الآن «بجامع سيدى ابراهيم» بنيت هذه المدرسة سنة 765 هـ بعد خروج المرينيين ، وكان أبو حمو هذا عالما أديبا تربى ونشأ فى الاندلس وهو الذى ارسل اليه عبد الرحمن بن خلدون أخاه يحيى كاتبا ببلاطه وفى قصره ألف كتابه المشهور «بغية الرواد ، فى ذكر ملوك بنى عبد الواد» وفى الحقيقة كان هذا التأليف خاصا بمآثر الملك أبى حمو ، اتخذ أبو حمو بعد انتهائه من بناء المسجد والمدرسة مقبرة دفن فيها آباه ثم عميه (أبوه كان

(7) وقع الخلاف فى ضبط كلمة المقرى فيهم من يقرؤها المقرى بتشديد القاف وفتحها ومنهم من ينطق بها بسكون القاف ونطق العلامة الحافظ بن مرزوق بسكون القاف فى كتابه الخاص بترجمته دليل على ترجيح السكون ، ثم أن السكان انفسهم مازالوا لم يغيروا النطق بسكونها وهى من المدن القديمة التى كانت قبل الاسلام واسمها قديم لم يتغير كثيرا

(8) اظن انه لم يوجد بتلمسان الا هذه المدارس الخمس الى العهد التركى اذ ذكر الرحالة الوزان الفاسى المشهور بـ LEON L'AFRICAIN انه لما زار تلمسان حوالى 920 هـ وجد فيها المدارس المذكورة وهى على غاية من الزخرفة والابهة ـ رحلة الوزان المذكور ج 2 ص 333 ـ

On compte également cinq beaux collèges, très bien construits et ornés de mosaïques et d'autres ouvrages d'art)

مجاهدا مشهورا بالعلم والصلاح . وتوفي بالجزائر وعماه دفنا بالعباد) ثم بقية أفراد الاسرة المالكة ولما توفى العلامة الشيخ ابراهيم المصمودى حوالى سنة 805 هـ دفنوه بهذه المقبرة . الا أن اسمه مع طول الزمان تغلب على اسم والد الملك والملك نفسه – حيث دفن أبو حمو بتلك المقبرة – وصار يعرف «بمسجد سيدى ابراهيم» اندثرت هذه المدرسة كغيرها . وكان أبو حمو اختار لها العلامة الشيخ أبا عبد الله الشريف دفين تلمسان . ترجم ابن فرحون في الديباج لابى عبد الله الشريف هذا فقال عنه : «علامة تلمسان . بل امام المغرب قاطبة». وترجمه الحافظ بن مرزوق الحفيد فقال: «شيخ شيوخنا أعلم أهل عصره باجماع» . وترجمه تلميذه عبد الرحمن بن خلدون فقال : «انه تعلم بتلمسان فاختص باولاد الامام ثم لزم شيخنا الابلى . وتضلع من معارفه واستبحر . وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه . ثم رحل الى تونس سنة 40 (أى وسبعمائة) فلقى شيخنا ابن عبد السلام وأفاد منهم واستعظم رتبته في العلم . وكان ابن عبد السلام يصغى اليه ويؤثر محله حتى زعموا انه كان يخلو به فى بيته . فيقرأ عليه – أى على تلميذه أبى عبد الله التلمساني – فصل التصوف من اشارات ابن سينا . لان الشريف قد أحكم الكتاب على الابلى . ومن تلاخيص أرسطو لابن رشد ومن الحساب والهندسة والهيئة . وله اليد الطولى فى الخلافيات» ثم ذكر ابن خلدن انه لما رجع الى تلمسان فملا المغرب معارف وتلاميذ وتعرض لما لاقاه من محن فى عهد المرينيين . ويختم ترجمته بقوله : «انه لما استرجع الملك أبو حمو الثانى المذكور مملكته استدعى الشريف وتلقاه براحتيه وأصهر له فى بنته فزوجها له وبنى له مدرسته فقام يدرس حتى هلك سنة احدى وسبعين (9) . وكان مولده على ما أخبرنى عام عشرة» أى وسبعمائة . اهـ كلام ابن خلدون .

وهؤلاء العلماء المذكورون الذين عينوا بمدارس تلمسان كابن الامام وعمران المشدالى وتلميذه محمد المقرى وابو عبد الله الشريف هم الذين شاركوا وقادوا الحركة الفكرية أو «الثورة الثقافية» التى كان الفضل فيها لناصر الدين المشدالى البجائى وتلميذه عمران المشدال مدير المدرسة التاشفينية . مما سنذكره فى موضعه بعد . كما أن ملوك بنى مرين وبنى زيان المذكورين . مؤسسو هذه المدارس . الذين كانوا كلهم ينتمون الى الدولة الموحدية قبل انحلالها وتفككها كان كل منهم يرى انه الاحق بوراثة تعاليم المهدى بن تومرت وكانت فكرة الوطنية الضيقة لم يسر مفعولها بعد . والدليل على ذلك ان المهدى بن تومرت مؤسس الدولة وصاحب الفكرة لما بويع فى وطنه ونصره اهل عشيرته قدم تلميذيه الجزائريين المنفردين لأرقى المناصب . قدم عبد المومن بن على الكومى لولاية العهد والخلافة . وابا محمد البشير (10)

(9) وقد دفن ابو عبد الله الشريف بروضة بنى زيان هذه وكان ابراهيم المصمودى الذى اشتهر به المسجد والمدرسة من تلامذته المتخرجين عنه ، كما دفن الملك ابوحمو مؤسس المدرسة وكثير من افراد اسرته بها وعثر على قبورهم بعد نبشها الــــر الاحتلال الفرنسى

(10) أبو محمد هذا كان من رفقاء المهدى ابن تومرت وعبد المومن رافقهما عند ما مر بجبل ونشريس عند رجوعهما من المشرق وقد مات فى عهد المهدى ابن تومرت فى معركة مشهورة مع المرابطين بالمغرب

الونشريسي لقيادة الجيش ، ولم يعارضه في ذلك أهل عشيرته ، كما أن بني حفص السوسيين توارثوا مملكة تونس ثلاثة قرون فلم يتعرض لهم أي أحـد من انهم غرباء على البلاد ، ولهذا ينبغي لنا أن لانحكم على أحداث ذلك العهد بمناظر زماننا هذا ، وبهـذا يتبين لنا أن القبائل الجزائرية والامـارات الـتي انتصرت للمرينيين أو للمرابطين قبلهم والمغـاربة الذين انتصروا لبلقين بن زيرى وللزيانيين أو لبنى حفص لم يكونوا خونة كما أراد وصمهم بذلك كثير من الكتاب الذين كانوا المرة بعد المرة يقودون السواح لآثار المنصورة ويصحبون معهم بعض تلامذة المدارس الجزائريين ليظهروا لهم أن الوحدة الاسلامية مـن الاساطير والخيال ، وقد حضرت مرة ـ سنة 1935 ـ عند ما انعقد مؤتمر طلبة شمال افريقية بتلمسان وأقام شيخ بلديتها VALEUR مأدبة شاي بالمجلس البلدي صرح من دون حياء ولا خجل للمؤتمرين « انكم تزعمون ان البلاد الاسلامية عامة وافريقية الشمالية خاصة كانت موحدة وفرقها الاستعمـار وحال بينكم بأسوار . فان برنامج « تفسحاتكم » يشمل زيارة آثار المنصورة فعند ما تصلون هناك راجعوا ما تفوه به رئيس جلستكم» ـ وكان اذذاك المرحوم علالة بلهوان ـ وغادر الجلسة يستشيط غضبا من كلمات المرحوم بلهوان».ولنرجع الى الحديث عن هؤلاء الملوك اى مؤسسي مدارس تلمسان فنجد معظمهم من أكابر علماء أزمنتهم كانوا يشاركـون في المناظرات العلمية وينسخون الكتب ويؤلفونها وكانوا كذلك يعرفون كيف يحيون وكيف يموتون كان الملك أبو تاشفين (II) الاول مؤسس المدرسة التاشفينية لما حوصرت تلمسان ودخلها الملك أبو الحسن المريني وكان المؤرخ ابن خلدون قريب عهد بذلك قال عن موقف الملك أبي تاشفين وأقاربه : « فمانعوا دون القصر ـ أي قصر المشور الحـالي ـ مستميتين الى ان استلحموا ورفعت رؤوسهـم عـلى عصى الرماح فطيف بهم وغصت سكك البلـد من خارجهـا وداخلهـا بالعسـاكر واكتضت أبـوابها بالزحام . . وتراكمت أشلاؤهم ما بين البابـين حتى ضاق المذهب . . وانطلقت الايدى على المنازل انتهابا واكتساحا وخلص السلطـان الى المسجـد الجـامع واستدعى رؤساء الفتيا والشورى أبا زيـد عبـد الرحمن وأبا موسى عيسى ابني الامام قدمهما مـن أعماله لمكان معتقده في اهل العلم فحضروه ورفعوا اليه امر الناس وما نالهم من معرة العسكر ووعظوه فأناب ونادى مناديه برفع الايدى عن ذلك فسكن الاضطراب » .

ونستدل مما ذكر أيضا على أن العلماء كابـني الامام المذكورين كانوا بفضـل حسـن سلـوكهم ونزاهتهم ونفوذهم الادبي لدى الرأى العام محـل احترام وتقدير عند مختلف الملوك الذين تـداولوا على البلاد رغم الخلافات والخصومات .

ولنرجع الى الحديث عن بقية المدارس فنجـد مدرسة القشاش التي اشتهرت بالجزائر وذكرهـا أبو راس في «عجائب الاسفار» اذ شاهدها بالعاصمة

(II) وقد ذكر الرحالة الوزان رواية أن سكان تلمسان لما ضاقوا ذرعا بالحصار ذهبوا الى الملك أبي تاشفين وشكوا له حالهم فوجدوا على مائدته طعاما مشتملا على حب الشعير وبعض الحشـائش فكان أسوا من طعامهم فعندئذ عزم على الخـروج هو وأفراد أسرته للقاء العدو المحاصر والاستشهاد فكان موقفه من المواقف التي احيا بها صورة رائعة للفـداء.

عند ما زارها لاول مرة فى طريق رحلته الى الحج سنة 1204 هـ . اندثرت هذه المدرسة ولم يبق عند الاحتلال الفرنسى منه الا مسجدها الذى كان فى نهج القناصل . ذكر المؤرخ دفول (12) (DEVOULX) فى تأليفه القيم « المعاهد الدينية بالجزائر » Les Edifices religieux انه عثر على عقد حبس مؤرخ فى أواخر القرن العاشر الهجرى يذكر أحباس زاوية القشاش . وقد اطلعت على مصحف محبس على طلبة القرآن – الساكنين بزاوية القشاش . وتاريخ تحبيسه سنة 1156 هـ – كما كانت بالجزائر « مدرسة أبى عنان أو المدرسة العنانية » وهى التى هدمت وبنى على انقاضها الجامع الجديد الحنفى . وذلك حوالى سنة 1070 هـ – 1660 م . والمدرسة الثالثة بالجزائر هى مدرسة الجامع الاعظم المالكى . وكانت تشتمل على مسجد صغير من دون منارة وزاوية خاصة بالعلماء الفقراء . هى تشتمل على طابقين . بنيت أو جددت حوالى سنة تسع وثلاثين وألف 1039 هـ . من ريع أحباس الجامع الاعظم فى عهد المفتى الشيخ سعيد قدورة ، عثر دفول على وثيقتى حبس : واحدة تذكر أن مامى رايس (13) القايد البحرى ورفقاءه أهدوا للمفتى المذكور أسيرا مسيحيا ليبيعه ويشترى بثمنه محلا يحبس على المدرسة المقابلة للمسجد .

والثانية فيها تاريخ بناء أو تجديد هذه المدرسة ولواحقها . وقد اطلعت على الوثيقة الثانية بخط المرحوم الشيخ حميدة العمالى العلامة الشهير – 1227 – 1290 هـ – يقول فيها : « هذه صورة رسم يتضمن ما حبسه شيخ الجماعة خاتمة المحققين سيدى سعيد قدورة لما فضل من ريع أوقاف الجامع الاعظم نقلته هنا تبركا به واعتبارا .. » وبعد ما يذكر «أن جميع ما يأتى ذكره من شراء كتب وأملاك واقامة بناء بعض الاماكن انما ذلك كله من الفاضل بيده من خراج أوقاف الجامع المذكور » . يقول « . . فمن ذلك بناء دار الوضوء المسامية للجامع المذكور والمسجد الراكب عليها والمدرسة وانشاء علوى بازائها لسكنى امام المسجد المذكور . . ما قدر الجميع بالاضافة خمسة عشر ألف دينار . . . » الخ . وتاريخ الوثيقة 1052 هـ

وكانت هناك مدارس أخرى لا يتسع المقام لذكرها كلها . كما كانت مدارس بقسنطينة وبجاية وأم عسكر ومازونة ووهران . ذكر أبو راس المدرسة المحمدية بأم عسكر التى اشتهرت فى عهده . وهذه المدرسة هى التى أنشأها الباى محمد ابن عثمان الكبير فاتح وهران سنة 1206 هـ فانه بنى المدرسة والمسجد وقد وصف المدرسة والمسجد

---

(12) كان دفو هذا محافظا لوثائق الاملاك اثر الاحتلال فاطلع على وثائق الاحباس ونشرها فى – المجلة الافريقية – التى كانت تصدر بالجزائر ثم خصها بكتاب مستقل سماه : – المعاهد الدينية – «Les Edifices religieux» وهو من اهم الكتب فى موضوعه اذ فيه احصائيات لجميع المساجد والزوايا والمعاهد التى كانت بالعاصمة اثر الاحتلال

(13) ان احباس الجزائر التى تضخمت فى العهد التركى حتى صارت تفوق اعظم العواصم الاسلامية كانت بسبب الغنائم التى يخصها بها البحارة فكانوا كلما غنموا الا واسهموا للمساجد وسبل الخيرات وبقية المؤسسات حتى كان الطب والتعليم بجميع مراحله وايواء الفقراء وعابرى السبيل والمهاجرين ينفق عليهم من ريع الاحباس

كثير من الشعراء منهم أبو العباس أحمد المقرى (14) القرومى (قرومة قرية تابعة للاخضرية PALESTRO السابقة) ولاية تيزى وزو كانت دار علم) قال من قصيدة طويلة :

عجبا له من مسجد فى الارض قد
حاكى السماء تطاولا فى المفخر
وترى المدرس قد علا كرسيه
يلقى على العلماء حب الجوهر
تحويه « مدرسة » غدت آثارها
تحييه بالعلم النفيس الاشعرى
تمحى رسوم الجهل من ألواحه
تحمى شمائله من الزور السرى
بنا الامير محمد فى الغرب قد
لاحت آثاره كالصباح المسفر

وقد كان اتمام هذه المدرسة سنة 1196 هـ وقد عين الباى أعظم عالم مديرا لها وهو الشيخ محمد ابن عبد الله الجلالى الذى اشتهر بتنظيم رباط وهران ورياسته ، ذلك الرباط الذى استعان به الباى محمد بن عثمان على طرد الاسبان من وهران. لم يبق من هذه المدرسة الا المسجد المعروف الآن بمسجد حسن وبمسجد المبايعة حيث وقعت فيه البيعة الثانية للامير عبد القادر سنة 1248 هـ كما بنى الباى المذكور «مدرسة» بوهران بعد فتحها ولم يبق منها الآن الا مسجدها الصغير وضريح الباى الفاتح مؤسسهما وهو المشهور الآن بجامع الباى محمد بالربض القديم «ربض خنق النطاح» وما دمنا نتحدث عن هذا الباى الفاتح نلحق بهذين المدرستين مدرسة مازونة التى هى من مآثره وخلد فيها صفحة من صفحات الجهاد اذ وهران كما هو معلوم بقيت تحت حكم الاسبان ما يقرب من ثلاثة قرون أى من سنة 914 هـ الى سنة 1206 هـ اللهم الا فى فترة قصيرة استرجعها المسلمون فى عهد باكداش باشا الجزائر من سنة 1119 الى 1144 . أسس الباى محمد بن عثمان مدرسة مازونة جزاء لرئيس معهد مازونة الشيخ محمد بن على أبو طالب الذى شارك فى حرب وهران سنة 1206 على رأس مائتى طالب من تلاميذ المعهد وابنيه اللذين استشهد احدهما وهو السيد هنى فى الحرب المذكورة كان أبوطالب لما التحق بجيش ورباط وهران يربو عمره على الثمانين سنة . وقد ضرب الفقيه المذكور المثل لبقية الفقهاء الذين التحقوا بالرباط حيث ذهب ماشيا من مازونة الى معسكر ثم منها الى وهران ورفض الركوب على الدابة الوحيدة التى كانت عندهم وتركها للمرضى والعاجزين عن المشى . بنى الباى هذه المدرسة وحبس عليها أحباسا هامة وكتبا . مازالت المدرسة تحتفظ بجزء من صحيح مسلم عليه نص التحبيس بخط ولد الباى المذكور عثمان . اشتهرت مدرسة مازونة فى عهدها الاخير بأنها تخصصت لدراسة الفقه

---

(14) احمد المقرى هذا من أسرة المقرى التلمسانى التى سكنت بقرومة . وقد عرف هذا الفرع بسكان زواوة كما ذكر الشيخ ابن شنب فى فهرس ـ المخطوطات بالجامع الكبير بالجزائر ـ وقد غلط اذ حسب أن صاحب المخطوط المقرى الجد المذكور فى عده المحاضرة والحقيقة ان صاحب التاليف الذى ذكره ابن شنب ونسبه الى زواوة ـ قرومة ـ من اهل القرن الحادى عشر

المالكي . وكان يقصدها علاوة على طلبة البـــلاد ، طلبة المغرب الذين كانت شهادة مدرسة مـــازونة معتبرة عندهم ، وبقى هذا الاعتبار سارى المفعول حتى فى عهد الحماية حيث كانت السلطـــات المغربية تعين المجازين من مازونة (15) فى وظائف العدالة والقضاء الى أن توقفت الـدراسة بهـا أو لفظت أنفاسها سنة 1940 .

ومازونة وان كانت دار علم واشتهرت بمعاهدها العلمية الذين تخرج منهم فطاحل العلماء كالحافظ الرماصى وأبو راس الناصرى ومحمد بن السنوسى دفين ليبيا ، فقد بقيت المدرسة الوحيدة الى العهد المذكور مدرسة الشيخ أبى طالب يتوارث التدريس بها أفراد الاسرة ، وقد حاولت السلطات الفرنسية أن تؤممها وتوظف المدرسين بها فامتنعوا معتذرين بأن عندهم ما يكفيهم لضرورياتهم . وقد زارهـــا الرحالة صديق خان سنة 1332 هـ . وقد كان على رأسها الفقيه الشهير الشيخ محمد ابو راس حفيد الشيخ محمد بن على أبو طالب . وسمى جده للام محمد ابو راس المؤرخ الشهير . فمدح الرحـــالة المذكور المدرسة ومديرها فقال :

ألما على ميـزونة وانظـرا العـــلا
ميزونـة بيت الهـــدى و ســلام
ومن بـــ-بيب العلـم بيت لقاصد
دعائـــه فوق السمـــا و مقـــــام
لها شهـــرة.قـدما بيـث علومهـا
و نشر التـقى بين الـورى وانـام
حمـــاها منـيع و المقـــام مشيـد
و ذكر لها يســرى كبـدر تمـــام
ابى اللـه الا أن تـــكون كـكعبـة
ملاذا لمن قـد ضل بـين ظـــلام
رحلت بـلادا فى الزمـان كثــيرة
لأنظـر حـال العلـم بين خيــــام
فشـاهدت كـلا بين مثـن و شاكر
لها خـير صنـع فى أجل نظــام
ولا عـجب فاللـه أيـــد أزرهـا
بهذا الذى بـين الملى كإمـــــام
عنـيت بـه بـدر الائمـة مالــكا
فقيـه الشـورى بل رأس كل امـــام
محمد ابو راس لذا سـار نهجــه
و سوى سبيـل الفقه خـــير امـام
و قام لـه بين الرجـــال بخـدمـة
و عزم متـين فوق حـد حســــام
فاظهـر مكنـونا و أبـدى دقائقـا
و اخـرج آيـات بخـير قـــوام

نكتفى بهذا القدر اذ مجال هذه المحاضرة لا يسع تتبع موضوع يتطلب سلسلة محـاضرات . ثم ان هذه المدارس امتازت بنظام خاص كالقيام بضروريات جميع ما يحتاجه الطالب والاستاذ مدة الدراسـة ثم السيرة التى تشترط فى الطلبة والمواظبة عـلى الدروس وان لم تكن هناك امتحانات الا ان الاساتذة

(15) مازال كثير من خريجى مدرسة مازونة يشغلون وظائف بشرق المغرب وبلاد الريف ، وكان من جملتهم المرحوم محمد بن العالم عامل وجدة بعد استقلال المغرب وبعض افراد اسرته

كانوا يجيزون طلبتهم فى مختلف الفنون ، وهـذه الاجـازات تختلـف حسب استعـدادات الطالب وتحصيله ، فهنالك نوع من هذه الاجازات هو عبارة عن شهادة تمنح لحاملها بانه حضر فى الدروس المدة التى حضرها والفنون التى قرأها ، وهنـاك شهادات تعطى لنبغاء الطلبة والمحصلين ، يـأذن لهم فيها الاساتذة بالتدريس وبرواية الحديث الخ وكل هذه الاجازات لا تخلو من توصيات هامـة كقول المجيز « اتركوا اليأس مما فى أيدى الناس تعيشوا أعزة » وكقوله « اجـازة مطلقة عـامة ، بشرطها المقرر ، وقيدها المعتبر ، وهو الصـدق والامانة والتحرى ، وأن يقول فيما لا يدرى لا أدرى موصيا له برفع الهمة ، وحفظ الحرمة ، والعمـل بالعلم ، فانه يستجلب النور والفهم » ، وكذلـك نجد فى معظم هذه الاجازات الاشادة بالعلـم والتحريض على تعلمه خصوصا عند المتـأخرين ، فنجد مثلا العلامة محمد بن عبد الله الجلالى مدير المدرسة المحمدية الآنفة الذكر يقول فى بعـض اجازاته : « أما بعد ، فان العلم أشرف المكاسب ، وأفضل المناصب ، وأرفع المطالب ، والغـاية القصوى لكل طالب . . فهو المفيد ، لكل مستفيد ، فى القديم والجديد ، وهو الرافع لكل خامل ، الراد لكل معاتل ، المشرف الاسافل ، الخافض للخلو منه قدر أبناء الافاضل ، والجاعل للموالى موالى ، فى هذه العصور ، والعصور الخوالى ، الخ. »

ثم ان التلميذ نفسه كان يختار الاستاذ فـاذا اطلع على ما يقدح فى مروءته انصرف عنه كما وقع لكثير من العلماء فى عهد شبابهم ودراستهم مثـل المؤرخ أبى راس الناصرى فقد حكى فى رحلته انه حضر بعض دروس استاذ من أساتذته ولما رأى منه ما كان ينكره انصرف عنه ، ونرى هذا التشـدد عند علماء الحـديث ، قال ابن عبد البـر فيما رواه محمد بن على السنوسى (16) ان مالكا كان يوصى تلامذته بقوله « ان هذا العلم دين فانظروا عمـن تاخذون دينكم ، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الاساطين وأشار الى مسجده صلى الله عليه وسلم فمـا أخذت عنهم شيئا ، وان أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أمينا الا انهم لم يكونوا من أهـل هـذا الشأن » وكان الرأى العام الثقافى لا يعترف بسهولة لمن لم تتوفر فيهم الشروط بلقب العالم أو المدرس فقد قال أحمـد (17) بن يحـيى الونشريـسى فى الموضوع : « من هنا يعلم ان اطلاق اسم المـدرس على المقتصر على نقل تقاييد الرسالة والمدونة من غير فتش ، ولا تنزيل ، ولا كشف ، واستظهار بغيرها : مجاز لا حقيقة ، وهذا الوصف كاد أن يعم أهـل الوقت ، أو عمهم ، فنسأل الله العظيم المغفـرة من التطفل وتعاطى ما ليس فى المقدور » ، ثم ان مـدة اقامة الطالب بالمدرسة كانت محدودة كما ذكـر ذلك الونشريسى فى « المعيار » ثم ظهرت فى الجزائر ابتداءا من أوائل القرن التاسع معاهد لا هى مساجد ولا مدارس ، لها نظام خاص شبيه بالمدرسة مـن

(16) ــ مقدمة موطا مالك ــ لمحمد بن على السنوسى طبع القصر الملكى بليبيا
(17) من ــ ازهار الرياض ــ لاحمد المغربى ج 3 ص 35 نشر المعهد الخليفى للابحاث المغربية

حيث الالتزام بضروريات الطالب والاستاذ وشروط الالتحاق بهذه المعاهد واما من حيث الدراسة فكانت مسجدية ـ حلقات ـ والمواد التى تدرس فيهـــا بلغت فى بعض الاوقات ما كان يدرس فى جامعتى الزيتونة والقرويين . ظهرت هذه المعاهد فى كامـل جهات القطر فى الراشـدية . وكانت مشهـــورة بالتخصص فى الفقه والتوحيد وفى نواحى تلمسان وسطيف كمعهد قجال ووادى بجاية والقبـــائل الكبرى . وسنتحدث عنها بمزيد من التفصيل فى القسم الثالث والاخير من هذه الدراسة . وقبل أن نتعرض للحديث عن خزائن الكتب نواصل تتمــة الحديث عن تطور الثقافة فى عهد المدارس ومساهمة علماء بجاية وتلمسان فى ذلك التطور الذى اشرت اليه فى آخر دراسة القسم الاول هن هذا الحـديث وقد اعترف لهم به جميع من اهتم بدراسة هـــذا الموضوع منهم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون وأحمد المقرى التلمسانى . أحدثت دولـة المـوحدين أول ظهورها رجة فى العالم الاسلامى وفى المغرب العربى والاندلس بالخصوص . رجة شبيهة بالرجـة التى أحدثتها دولة العبيديين الشيعية . كان من الاقدار أن بجاية التى آوت المهدى بن تومرت أيام محنته . وضعفه هى التى كانت مسرحا للثورة على تعاليـم المهدى بعد انتصاراته واحتلاله البلاد . كان فقهاء بجاية كما تحدثنا عنهم فى القسم الاول من هـــذا الحديث تتكون أغلبيتهم من اللاجئين الاندلسيـــين الذين شاهدوا ما لحق بلادهم فى أيام ملـــوك الطوائف من الذل والهوان وتفكك الوحدة . ثـــم رأوا انقاذ الفاتح العظيم يوسف بن تاشفين للبلاد والقضاء على ملوك الطوائف . ومن هؤلاء الفقهـــاء الامام عبد الحق الاشبيلى . لم يكن عبد الحـــــق الاشبيلى هذا ولا رفيقه ومواطنه أبو مدين (دفـــين تلمسان) مجسمين ولا كفارا ولا حتى متزمتين بـل كان الكثير منهم ومن أفراد طبقتهـم المنتصريــــن للمرابطين يختلفون مع الموحدين وينكرون عليـــهم فكرة عصمة ابن تومرت وبعض تنبؤاته المهدوية . ثم ان هؤلاء الفقهاء الذين كانوا من أنصار العلـــم والذين كانوا يقارنون بين سير ولاة المرابطين وولاة الموحدين . فبقدر ما كان المرابطون : ملوكهم وولاتهم مشهورين بالاستقامة والـورع كان ولاة الموحـدين بعكس ذلك فان والى بجاية الذى وقعت ثورة المرابطين فى عهده وهو سليمان بن عبد الله بن عبد المومن كاتب ابن عمه والى تلمسان عليا ابن عمر بن عبد المومن يستدعيه لمائدة شراب يوم جمعة فقال :

اليوم يوم الجمعة ★ يوم سرور ودعة
وشملنا مفترق ★ فهل ترى أن نجمعه

فأجابه ابن عمه :

اليوم يوم جمعة ★ وربنا قـد رفعـه
والشرب فيه بدعة ★ فهل ترى أن ندعه

لاشك ان مثل هذا التحدى من أمير بجاية فى وسط فقهائها يترك أثرا سيئا فى أوساط الفقهاء وبالخصوص عبد الحق الاشبيلى الذى كان من أكبر الزهاد وهو الذى كان يردد قوله :

ومـاذا أؤمـــل أو أرتجيـــه
و قد جـزت ستـا على أربعـين
ولو كان عقـــلى معى حاضـــرا
سمعـت لعمـرى منهـا أنينـــا

وكان يقول :

وهذه النفس لها حاجة
و العمر عن تحصليها يقصر

و كلما تزجر عن مطلب
كانت به أهيم اذ تزجر

و ربما ألقت معاذيرها
لو انها يا ويحها تعذر

و ناظر الموت لها ناظر
لو انها تنظر اذ ينظر

و رائد الموت له طلعة
يبصرها الاكمه و الابصر

و روعة الموت لها سكرة
و مثلها من روعة تسكر

و بين أطباق الثرى منزل
ينزله الاعظم و الاحقر

يترك ذو الفخر به فخره
و صاحب الكبر به يصغر

ثم ان عبد الحق هذا زيادة على ما اشتهر به من الزهد والورع كان ينفى الانسانية على الجاهل اذ هو القائل (18) :

اذا أنت لم تعلم ولم تتعلم
وكنت امرءا عما يراد به عم

فكن صورة قد أكمل الله حظها
من الشكل والتخطيط واللحم والدم

ولا تك انسانا فما أنت منهم
وان كنت لم تعلم بذلك فاعلم

كان معظم فقهاء بجاية على هذه الحالة وقد بقوا ممتازين عن معاصريهم بالزهد والورع الى أواخر القرن التاسع فمن ذلك ما ذكره الشيخ محمد الهوارى دفين وهران اذ تخرج على أحمد بن ادريس ـ استاذ عبد الرحمن بن خلدون ـ وتلميذه عبد الرحمن الوغليسى فى أواخر القرن الثامن فوصف بجاية (19) ـ على عادته ـ بأبيات من الشعر الملحون فقال :

لو وصفت لك ماريت فى بجاية وهى هيا
بلد الورع والعلم وترابى حقيقيا الخ

ويقول الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر فى بجاية التى زارها فى رحلته لطلب العلم (20) « . . ثم تناهت بى الرحلة الى بجاية فدخلتها عام اثنين وثمانمائة فلقيت بها الائمة المقتدى بهم فى علمهم ودينهم وورعهم أصحاب الشيخ الفقيه الزاهد الورع أبى زيد عبد الرحمن بن أحمد الوغليسى وأصحاب الشيخ أبى العباس أحمد بن ادريس وهم يومئذ متوافرون أهل ورع ووقوف مع الحدود لا يعرفون الامراء ولا يخالطونهم وسلك اتباعهم وطلبتهم مسلكهم رضى الله عنهم أجمعين » . ولم يكن

(18) هذه الابيات المذكورة موجودة فى ديوان عبد الحق الاشبيلي المخطوط بخزانة القرويين والذى املاه بنفسه على ناسخه بجامع بجاية

(19) من ترجمة الهوارى الموجودة فى كتاب ـ روضة النسرين فى التعريف بالاشياخ الاربعة المتاخرين ـ لابن صعد الانصارى التلمسانى دفين مصر ، والهوارى توفى سنة 843 بوهران

(20) هذه الفقرات منقولة من فهرس الشيخ الثعالبى ذكر فيها رحلته العلمية وترجمته

علماء بجاية كما اتهمهم خصومهم الموحدون بأنهم صورة مصغرة من فقهاء قرطبة بل كان الكثير منهم ينتصر للموحدين فى مواقفهم كأبى الفضل بن النحوى دفين قلعة بنى حماد فانه صادفه الحال بالمغرب لما أمر ملوك المرابطين الفقهاء باحراق احياء علوم الدين للغزالى وحلفوا المتهمين بكسبه ، فانه أفتى بعدم لزوم تلك الايمان . ثم كان يصرح بانه نسخ احياء علوم الدين وتمنى «انه لم ينظر فى عمره سواه» .

انتصر فقهاء بجاية على الموحدين مثل ما انتصروا على من قبلهم . الا انهم فى هذه المرة كانت هذه المعركة مبدأ معركة أخرى فى صفوف الفقهاء الذين انقسموا الى مجددين ومحافظين أو انصار المتأخرين وانصار المتقدمين . يقصدون بانصار المتقدمين المتبعين لمذهب الفرابى وللمتأخرين الرازى . وقد علمنا ان الموحدين بعد وفاة يعقوب المنصور الذى تجرأ فى عهده على احراق كتب الفروع وحاكم عدة علماء منهم ابن رشد ثار عليه الرأى العام حتى أن ولده المأمون التجأ الى الوسيلة الوحيدة لارضائه وهى تصريحه من أعلى منبر جامع مراكش ــ عاصمة دولة الموحدين ــ وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمهدى المعصوم وادعوه بالغوى المذموم ، فانه لا معصوم الا الانبياء ، ولا مهدى الا عيسى ، وانا قد نبذنا أمره النحيس » الخ .

أمكن للفقهاء الانتصار على مخالفيهم وخصومهم الموحدين ، ثم على الفقهاء المحافظين المنتصرين لفقهاء قرطبة ، وبفضل الانتصار الاخير هذا تطور الفقه وماشى الحضارة واعترف الباحثون ان الانتصار فى هذه المعركة يرجع فضله الى علماء بجاية وتلمسان وكان من الصدف أن العلامة المرحوم مفتى الديار التونسية الشيخ محمد الفاضل بن عاشور نشر قبل وفاته بقليل دراسة قيمة فى هذا الموضوع فى «مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق سنة 1389 هـ ــ 1969 م» وهذه الدراسة يظهر أن الشيخ المرحوم استمدها من «أزهار الرياض» لاحمد المقرى التلمسانى (ج 3 ص 21 نشر المعهد الخليفى للابحاث المغربية) تحت عنوان « صناعة التاليف بالمغرب» قال بعدها : «ولقد وقفت فى بعض التعاليق لاحد المتأخرين على كلام فى صناعة التاليف رأيت أن أجلبه جميعه لما فيه من ذكر بلاغة القاضى عياض » الخ . وتبين من المقال الطويل أن صاحب التعاليق من علماء القرن التاسع .

أما الشيخ الفاضل فانه عنون دراسته القيمة « بالثقافة الاسلامية فى المغرب » وبعد أن بين موقف فقهاء قرطبة فى عهد المرابطين وذكر «ان المجتمع الاسلامى بالمغرب العربى قد أحس بوطاة الضغط الشديد الذى ضيق عليه الانفاس فى ما أحاطت به من هيكل جسمه قبضة حكم المرابطين» وان كان الشيخ يفرق بين عمل المرابطين السياسى الذى «أنقذ الاندلس ووحدها وضمها الى مملكة الاسلام فى المغرب الافريقى» وعمله فى الحقل العقائدى «الذى زاد فى الحسرة التى امتلكت القلوب من جراء الفتنة الاعتقادية التى أبعدت المجتمع عن تحقيق مثله العليا» ويذكر ان الذى قام بالثورة الفكرية وكان له الفضل فى القضاء على فقهاء قرطبة هو الامام المازرى الذى «كانت حلق دروسه منابع فياضة

بالتوجيه الى العمل الايجابى فى سبيل حماية الحرية الدينية والحفاظ على شعلة الحكمة الكلامية العالية التى كادت حركة المرابطين أن تطفىء نورها» ثم يتعرض لظهور المهدى ابن تومرت ويرى « ان الحكمة الدينية المتمثلة فى المهدى بن تومرت عند ما انتصرت على المرابطين وادالت دولتهم ، كان ذلك الانتصار رافعا لحاجز كان قائما فى طريق تقدم الحكمتين وحائلا دون تواصلهما» ثم يذكر الاعلام الذين ظهروا بالمشرق والاندلس ويحلل آراءهم وتآليفهم ويذكر منهم ابن الحاجب الذى كان لتأليفه «المختصر» صدى فى المشرق وعند ظهوره وانتشاره عكف الناس عليه و «هجر دارسو الفقه طريقة المدونة وتهاذيبها وشروحها» الى أن يقول : «وكان طريق اتصال مختصر ابن الحاجب الفرعى ببلاد المغرب العربى ان الشيخ ناصر الدين الزواوى من فقهاء بجاية ارتحل الى المشرق فى أواخر القرن السابع فلقى تلاميذ ابن الحاجب بمصر وتخرج عليهم فجاء معه بمختصر ابن الحاجب ونشره فى تلاميذه ببجاية ، ومن هناك انتقل الى عامة أقطار المغرب العربى فعكف الفقهاء على دراسته وشرحه واعتنى به كبار فقهاء تونس ، مثل ابن عبد السلام وابن هارون وابن راشد وفقهاء تلمسان مثل ابنى الامام» ثم يذكر «ان منهجا جديدا فى الدراسة العلمية قد ظهر فى البلاد التونسية وهو منهج القاضى ابن زيتون المتخرج على تلامذة الامام فخر الدين الرازى ودرج على طريقته فى الجمع بين العقليات والنقليات على الاسلوب التعليمى الراقى» ثم يذكر ان هذه الطريقة أى طريقة الرازى كان من يناببعها بتلمسان العلامة الشهير امام التعاليم والرياضيات ابى عبد الله (21) الابلى التلمسانى ـ المتكون فى حكمته التجريبية على طريقة ابن رشد ـ فتواصلت طرق التخرج على منهج النظر الحكمى فى التكاليف الدينية بين أقطار المغرب فى شمالى افريقيا والاندلس فظهر من أعلام تلك الطريقة أعلام درسوا الفقه بالتعقيد والمقارنة وربط الفروع بالاصول مثل الامام أبى عبد الله المقرى التلمسانى (خريج المدرسة التاشفينية) والامام أبى اسحاق الشاطبى الغرناطى (تلميذ المقرى) والامام العلامة ابى عبد الله العلويتى الشهير بالشريف (مدير المدرسة اليعقوبية) التلمسانى الذى عد من أهل الاجتهاد»

وبعد أن يذكر أحداث المغرب فى ذلك العهد كسقوط بعض بلدان الاندلس واستفحال الازمة الاقتصادية بسبب فتح طريق الهند البحرى «كان القرن التاسع قرنا وضع فيه الفقه المالكى من جديد على بساط النقد والتمحيص حيث دخل فى مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد : هو مقياس الفتوى والعمل» ثم يذكر الفقهاء التلمسانيين مثل العقبانى الذى نشر فتاواه تلميذه يحيى المغيلى المازونى فى «الدرر المكنونة فى نوازل مازونة» وابن

(21) سمعت فى هذا الشهر سلسلة محاضرات لعلماء جامعيين من الرباط اذاعوها فى ـ احاديث الظهيرة ـ تعرضوا فيها للنهضة الثقافية فى القرن الثامن وذكروا جل علماء تلمسان وبجاية الذين ذكرهم المقرى والشيخ الفاضل وقد رجعوا الفضل فى الدراسات الفلسفية لابى عبد الله الابلى هذا وان ابن خلدون نفسه استفاد منه كثيرا

مرزوق الحفيد ـ الذى سما فى فقهه الى أفق تحرير الافكار وابتكار الانظار ـ وقد «درس الفقه الشافعى فى تلمسان بكتاب النبيه لابى اسحاق الشيرازى ، و«الوجيز» للغزالى ، مع انه لم يكن بتلمسان شافعيا» ثم يختم دراسته القيمة بالاشادة بكتاب المعيـــار للونشريسى «وهو فى أسفار ضخمة يتبين لمتصفحه ـ عند ما يقابله ـ بجواهر ابى شاس أو بمختصر ابن الحاجب ، كم استطاع النظر الفقهى فى هـذا المغرب أن ينتج من تطور ويظهر من حيوية ، لمـا عدل عن المنهج الالتزامى وسار على المنهج التصرفى الذى فتحه ابن رشد ومهده ابن عرفة وتلاميذه واقام أعلامه الونشريسى فى المعيار» اهـ كلام الشـــيخ الفاضل .

وقال المقرى فى الموضوع مما نقله عن «بعـض التعاليق لاحد المتأخرين» بعد أن ذكر ما امتـازت به تآليف المشارقة والمغاربة ووازن بينهما قـال : «والعلة فى ذلك كون صناعة التعليم وملكة التلقى لم تبلغ فاسا كما هى بمدينة تونس ، اتصلت اليهم من الامام المازرى (22) كما تلقاها عن الشيـخ اللخمى،وتلقاها اللخمى عن حذاق القرويين ـ يقصد علماء القيروان ـ وانتقلت ملكة هذا التعليـم الى الشيخ ابن عبد السـلام مفـتى البلاد الافـريقية وأصقاعها (وابن عبد السلام هذا هو الذى أخذ عنه ابو عبد الله الشريف التلمسانى وقيل انه كـان يأخذ عنه بدوره مؤلفات ابن سينا وتلاخيص ارسطو لابن رشد) واستقرت تلك الملكة فى تلميذه ابن عرفة وفى الشيخ ابن الامام التلمسانى ، ونجب من طلبة ابن الامام تلميذه الامـام أبو عبـد الله الشريف ، وانتهت طريقته لولده أبى يحيى المفسر العالـم واستقرت أيضا طريقة ابن الامام فى تلميذه سعيد ابن محمد العقبانى (التلمسانى) وانتهى ذلك الى ولده شيخنا ابى الفضل قاسم العقبانى رحمهـم الله جميعا» اهـ كلام المقرى

ثم قال : «قال ابن خلدون ولمن ذكرنا من أهـل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم وملكة التلقى » يعنى بذلك الشريف والعقبانى رحمهما الله قـال : لكونهما الفا التصانيف البعيدة وزاحما رتبـة الاجتهاد من غير منازع . قلت وكذلك بلغ رتبـة التبريز فى تحصيل العلم كل واحد من ولديهما : الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد والفقيه الاوحـد السيد أبو يحيى الشريف اذ بلغا درجة الامـامة والفتيا . . ومنهم شيخنا الامام الحافظ المجتهـد صاحب التصانيف المفيدة أبو عبد الله محمـد بن مرزوق (التلمسانى دفين تلمسان تلميذ ابن خلدون واستاذ عبد الرحمن الثعالبى) قلت : انما اقتصرت على ذكر هذين الشيخين ـ كان ذكر قبل ابن مرزوق الامام البرزلى تلميذ ابن عرفة ـ الامامين لما لهمـا على من المشيخة ولشهرتهما بالتآليف التى تقـوم مقام الشاهد لما قلته حتى نبعد عن شبهة التعصب» انتهى كلام المقرى

ثم قال المقرى فيما نقله «واما ملكة العلوم النظرية فهى قاصرة على البلاد المشرقية ولا عناية لحـذاق القرويين والافريقيين الا بتحقيق الفقه فقط ولـم

(22) هو محمد بن على بن عمر التميمى المازرى الصقلى توفى سنة 536 هـ عن ثلاث وثمانين سنة

يزل الحال كذلك الى أن رحل الفقيه ابن زيتون الى المشرق فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ولازمهم زمانا حتى تمكن من ملكة التعليم وقدم الى تونس فانتفع به أهلها وانتهت طريقته النظرية الى تلميـــذه ابن عبد السلام المذكور واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة وكذلك أبو عيسى موسى بن الامـــام التلمساني المذكور ، ولهذا نجد العلوم النظـــريـة بتلمسان» .

نقتصر على هذا القدر لنبين ان دراســة المرحوم الشيخ الفاضل استمدها من «ازهــار الريـــاض» وأفرغها في بوتقة بيانه الساحر وان علماء تلمسان وبجاية كانوا فى مقدمة علماء زمانهم من قـــــادة الفكر فى العــالم الاسلامى .

خزائــن الكـــتب :

ان مركز الكتاب فى البلاد الاسلامية كان أيضا المسجد ، فالامام مالك صنف كتاب الموطأ فى مسجد المدينة والامام الشافعى صنف كتاب الام فى مسجد الفسطاط وابن حنبل مسنده فى مساجد بغــداد والخليل بن أحمد ألف كتاب العين فى مسجـــد البصرة وأتمه فى جامع دمشق ، وقد اشتهـــرت الخزائن فى الجزائر ووصف بعضها كثير مـــــن الرحالين كعبد الرحمن الجامعى الفاسى عند مازارها حوالى 1120 هـ وابن زاكور الفاسى فى أواخــــر القرن الحادى عشر والزيانى (1147 ـ 1249 هـ) ، (23) الذى اطلع بنفسه عند مازار تلمسان وأقام بها مدة على عدة كتب من ضمنها «تاريخ سليمـان بن اسحاق المطماطى وتاريخ هانى بن يصدور القوصى وتاريخ كهلان بن أبى لؤى الاوربى فى أنســـاب البربر وايامهم فى الجاهلية والاسلام لانهم كانـوا نسابة البربر »

كما ذكر الزيانى عدة كتب لمؤلفـين جزائريـين ضاع معظمها ، ثم نجد الخزائن التى اشتهرت فى الجزائر الخزانة التى أسسها الملك أبو حمو موسى الثانى بالجامع الاعظم وكل ما بقى من آثارها لوحة على حائط المسجد فيها تاريخ تأسيس هذه الخزانة وكان الملك ابو حمو هذا من كبار العلمـاء والف كتابه الشهير «واسطة السلوك فى سياسة الملـوك» (24) وهو من باب الوصايا التى ذكرناها فى أول الحديث كتبه وصية لولده ابى تاشفين الثانى وقال الزيانى : لما اطلع عليه فى تلمسان «وجهه هديـة لسلطان الاندلس ومدحه فقهاء الاندلس وعجبـــوا من سياسته وأدبه وحسن صنيعــــه ، ذكـره ابن الخطيب فى الاحاطة» الخ .

كان الملوك يتبارون فى التأليف ، وتسخ الكتب بخطوطهم وقد كتب الملـك أبو الحســن المـــرينى ثلاثة مصاحف أهداها الى الحرمين وبيت المقدس ، وحبس على قرائها أحباسا هائلة ، وقد شاهد أحمد المقرى المصحف المحبس على بيت المقدس وكـذلك اشتهر كثير من ملوك بنى زيان بنسخ الكتب منهم الملك أبوزيان الذى تولى المملكة فى أواخر القـــرن الثامن فمازال مصحف من مصاحفه التى نسخهـــا

(23) أبو القاسم الزيانى ـ الترجمانة الكبرى فى اخبار المعمور برا وبحرا ـ نشر وزارة الاعلام بالمغرب 1387 هـ ـ 1967 م صفحة 144

(24) طبع هذا الكتاب فى تونس سنة 1279 هـ وفى الاستانة سنة 1295

بيده موجودا بتونس . وقد نسخ عدة نسخ من صحيح البخارى مازالت بعض الابيات كتبها على نسخة صحيح البخارى يتناقلها الناس وهى :

أحق يد تحوز مدى الفخار
يد نسخت أحاديث البخارى
فقد عنيت يداى به جميعا
وان اربى اليمين على اليسار
فهذا ممسك طرسا و هذا
بطرف براعة فى الطرس جار
و أخدمت الجوارح فيه طرا
مواصلة العشى بالابتكار الخ .

وهى قصيدة طويلة .

وقد مدح هذا الملك شاعر البلاط الثغرى فقال فى الموضوع :

لئن كان بحرا فى العلوم فان فى
بنان يديه للندا أبحرا عشرا
له بكتاب الله أعنى عناية
و بالسنة الغراء هو المغرم المغرا
فما همه الا كتاب و سنة
بنسخهما قد أحرز الفخر والاجرا
فنسخ كتاب الله جل جلاله
و نسخ البخارى ضامنا له النصرا

كان هؤلاء الملوك يستخدمون الخطاطين المشهورين من الاندلسيين التى مازال بعضها الى يومنا هذا .

كما اشتهرت اذذاك خزانة اسرة المقرى المتحدث عنه فى هذه الدراسة فى ترجمة اسرته الذين اشتهروا بتأسيسهم لاول شركة تجارية قال «فخرجت أموالهم عن الحد . وكادت تفوت الحصر والعد . . ولما درج هؤلاء الاشياخ جعل أبناؤهم ينفقون ما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير . . فها أنا ذا لم أدرك من ذلك الا أثر نعمة . اتخذنا فصوله عيشا . وأصوله حرمة . ومن جملة ذلك خزانة كثيرة من الكتب » .

ثم اشتهرت فى الجزائر مكتبة الجامع الاعظم المالكى التى كانت شبه مكتبة خاصة . أما الخزانة العامة الدولية فكان مقرها بالجامع الجديد الحنفى مركز شيخ الاسلام الحنفى . ونجد فى بعض الوثائق التاريخية قائمة بعض الكتب اشتراها ناظر احباس الجامع المالكى الشيخ سعيد قدورة من ربع الحبس الفاضل على مصاريف المسجد ومن بين هذه الكتب «شرح الامام العينى لصحيح البخارى» فى ثلاثة أسفار اشتراه «بألف دينار واحدة واربعمائة دينار» والنسخة المشهورة بالخروبية فى عشرين جزءا مكتوبة فى الرق «سبعمائة دينار» وهذه النسخة كان يملكها العلامة محمد بن على الخروبى (25) امام الجامع المالكى . وقد كتب عليها بخطه سماعات نقلها من نسخة قديمة كانت من أملاك المسجد يرجع عهدها الى أوائل القرن الخامس أى عليها خط واجازة محمد بن أحمد بن محمد الهروى امام الرواة ومن عليه المدار فى رواية البخارى

(25) محمد بن على الخروبى كان اماما بالجزائر فى أوائل القرن العاشر ولما توفى حسن بن خير الدين باشا أستعمله فى السفارة الى المغرب مرتين اجتمع خلالهما بعلماء المغرب ووقعت بينه وبينهم خلافات وتبودلت رسائل وتاليف تعرض لها علماء التراجم والسير فكانت سبب شهرة الخروبى وقد ترك تاليف قيمة وتوفى بالجزائر حوالى سنة 963

(355 – 435 هـ) كان مجموع ما انفقه ناظر الاحباس في شراء كتب اسرة الخروبي وبناء واصـــــلاحات المدرسة والكتاب ودار العجزة من طلبة العلم (التي تحدثنا عـن وثيقتها عنـــد الحـديث على مـدارس العاصمة) 37.302 دينار جزائرية خمسينية العدد.. وذلك في أوائل شهر ربيع الاول عام اثنين وخمسين وألف هـ، يذكر ابن رجب الجزائري المشهور بابن المفتي في مذكراته التي ترجمها دفول الآنف الذكر نشرها بالمجلة الافريقية كما نشر بعض فصولهـا الشيخ عبد القادر نور الدين انه لما هاجم العـدو الجزائر بعد موت الشيخ سعيد قدورة وهـــدموا السور الخارجي للمسجد الاعظم نقـلت الكتب الى برج مولاى حسن خارج الباب الجديد ودام هـــذا النقل ثلاثة أيام على الابل – والهجوم المذكور وقع سنة 1071 هـ – 1661 من الانكليز – والذى يلفـت النظر هنا هو قيمة الكتاب اذذاك والاهتمـام به . وهذه المصاريف صرفها المفتي الناظر للاحباس من الفاضل على مصاريف المسجد المذكور الذى كان عدد موظفيه يربو على الخمسين موظفا منهم ثلاثـــون مدرسا وبقى عدد هؤلاء الموظفين الى ما بعـــد الاحتلال الفرنسى فحاولت الحكومة تغيير نظام حبس الجامع فتعرض لها المفتي مصطفى ابن الكبابطي(26) وذلك سنة 1843 فالقت عليه القبض ونفته (واختار الاقامة بالاسكندرية الى أن توفي بها)

ثم اشتهرت خزانة الباى محمد المصطفى بـــن زرفة الدحاوي صاحب «الرحلة القمرية في الاخبار المحمدية» التي سجل فيها حرب وهران . قال متحدثا عن الباى محمد بن عثمان المذكور «فكان من سابغ فضله أن زودني من خزائن كتبه عمرها اللـــــه تعالى بطول عمره ودوام منصبه ما استظهر به عليه ما أنا بصدده فكان كالدليل المعين على السفر» الخ. وكانت خزانة المؤرخ أبي راس بأم عسكر التي قال عنها في رحلته «ثم اني أختم هذا الباب الابدع بما مدحت به مصريتنا التي هي بيت المذاهب الاربعة وهذه مكتوبة في بيت كتبنا في بهوها بخط بعض تلامذتنا :

فللـه قبــة يعـــز نظـــيرها
و بهـوها قد حاز المباهي مباهيا
تقول لمــن يأتي لهـا متنــزها
تأمل جمالي تستفـد شرح حاليا
بنيت لخـدمة العلـوم و بثهـا
لمن يروح نحـوى ومن هو غاديا

الـخ . .

ثم كانت خزانة الشيخ عبد القادر بن يســـعد البرذعي دفين قرية الدبة قرب قلعة هوارة (غيلزان) كان صاحبها من علماء القرن العاشر فتخرج مـــن مجاجة على الشيخ محمد بن علي شيخ سعيد قدورة. كان هذا العالم يستكتب اللاجئين الاندلسيين للنسخ وقد أسس هذه الخزانة وشحنها بأمهات الـكتب

(26) ذكر دفو في تاريخ الجامع الاعظم المالكي : – انه لم يتغير فيه شيء مدة ثلاث عشرة سنة وفي ماى 1843 عصا المفتي ابن الكبابطي اوامر الحكومة علانية فالقى عليه القبض وابعد الى فرنسا وأغتنمت الحكومة هذه الفرصة لتغيير نظام المسجد المذكور واتخذ الوالي العام قراراً مؤرخا في 4 يونيو 1843

وقد بقيت هذه الخزانة رغم وجودها فى بادية منقطعة محتفظة ببعض ما تبقى على طعم الارضة والاهمال والنهب عليها خط المؤسس وتعاليقه كما احتفظت ببعض كتب نسخها اللاجئون الاندلسيون ومن أهم ما كانت تحتفظ به هذه المكتبة وعثر عليه منذ خمس سنوات كتاب «الدرر المكنونة فى نوازل مازونة» منقول من نسخة المؤلف وعليه تقريظ للعلامة الشيخ احمد بن يحيى الونشريسى صاحب المعيار قبل هجرته الى المغرب ويمتاز هذا التقريظ الذى نقل من خطه انه ترجم فيه لصاحب الدرر المكنونة ترجمة وافية اذ ان كل التراجم الموجودة فى «ذيل الديباج» و «البستان» لم تذكر فى ترجمته الا سطورا قليلة كما ذكر الونشريسى انه تلميذ للمؤلف وان سبب انتقال المؤلف ابى زكرياء يحيى بن موسى المغيلى الى تلمسان باستدعاء الملك الزيانى المتوكل «حين أورد هذا الشيخ المذكور حضرته العلية صحبة ركابه وجعله أحد مشيخته الاعلام المشاورين بقصره المنصور وعلى بابه وهاهو الآن بها يقرى ويفيد ويعيد» وهذا التقريظ مؤرخ عام 871 هـ . وكان معظم من ترجم للونشريسى لم يطلعوا على علائقه بصاحب الدرر اذ نجد فى ترجمته لاحمد بابا فى «ذيل الديباج» عند ما يذكر مصادر فتاوى المعيار «قلت أما فتاوى افريقية وتلمسان فاعتمد فى ذلك على نوازل البرزلى والمازونى فيما يظهر لمن طالعهما» الخ . والملك المتوكل هذا هو الذى نهب دار الونشريسى وكان سببا فى هجرته الى المغرب وذلك سنة 874 هـ .

كما اشتهرت مكتبة الشيخ سعيد قدورة الى أن بيعت منذ أربعين سنة . وما زالت بعض الكتب من عهد جامعها ومؤسسها قرئت عليه . وكذلك بعض مؤلفات ابن أبى محلى كان أهداها له عند اجتماعه به وتداخله فى الخلاف الذى كان بينه وبين الشيخ عبد القادر بن محمد بن سليمان بن سماحة المشهور بالشيخ - مؤسس اسرة أبناء سيدى الشيخ المشهورين بثورة 1864 -

يمتاز الكتاب المخطوط الجزائرى انه كثيرا ماكان يتخذ سجلا للولادات والوفيات للاسرة ولاعيان العلماء والاحداث الهامة . أما الولادات فان معظم من سجلوا ولادات الاسرة الا ويلحقونها بهذا الدعاء أو الامنية وهى : انه ولد له ولد سماه فلانا وهو يرجو أن «يجعله الله من العلماء العاملين» ولم نجد من طلب غير العلم مع كثرة هذه التسجيلات كما يذكرون فيه عقود الزواج والصداق وقيمة الشورى والتحبيس والاجازات ان كان الكتاب للمؤلف وما ترتب فى ذمته ان اشتراه دينا . ومن ذلك ما سجله العالم الاديب محمد اقوجيل (27) تلميذ الشيخ سعيد قدورة الذى اشترى كتاب «فتح البارى» على شيخه المذكور فسجل على ظهر النسخة المشتراة هذه الابيات :

(27) هو محمد بن محمد بن على اقوجيل قرأ بالمشرق ولقى العلماء وكان اديبا ترجمه محمد بن ميمون الجزائرى فى - التحفة المرضية فى الدولة البكداشية - وذكر قصيدته التى وجهها سنة 1067 لباشا الجزائر فيها نصائح وتحريض على محاربة الاسبان الذين كانوا فى وهران ، توفى سنة 1080 هـ

الحمد للمهيمن المعين
على اداء ثقل الديون
و بعد فالقصد بذى الابيات
تذكرة خشية امرياتى
فى ذمتى لشيخنا العلامة
حاوى العلوم صاحب الامامة
بالجامع الاعظم بالجزائر
عم نداها ثاويا و زائر
و هو سعيد نجل ابراهيم
لا زال فى سعادة مقيما
ستون بيضا من كبار ما ضرب
بصنع روم للريال تنتسب
ترتبت على باختيارى
من اشترائى منه فتح البارى
و أجل الدراهم المذكورة
الى انقضاء سنة موفورة
و مبدأ العدد من شوال
من بعد ستين من الاحوال
سنة من بعد ألف ماضية
بعون ربنا أكون قاضية

ثم نجد خزانة آل ابن الفقون بقسنطينة التى اشتهرت من أوائل القرن السادس فى عهد عالم الاسرة وأديبها الشهير ابى على حسن صاحب الرحلة المنظومة التى ضمنها سفره من قسنطينة الى مراكش . أما بجاية فانها كما نعلم جميعا أصيبت بالاحتلال الاسبانى الذى اشتهر بانه كان أشد خطرا على الكتب العربية من المغول والتتار والصليبيين الاولين ، وقد عرفنا مصير الكتب بعد سقوط غرناطة وبتونس كما ذكر ذلك بتفصيل صاحب المؤنس وكتب الله النجاة لبعض كتب بجاية بفضل اللاجئين الاندلسيين الذين أسسوا المعاهد بوادى بجاية وبنى يعلى وتمقرا فانقذوا الكثير منها كما انقذت مؤلفات عبد الحق الاشبيلى ومنها ديوانه الذى ذكره صاحب عنوان الدراية وكان مفقودا بعد ذلك فقد احتفظت به خزانة القرويين العامرة كما احتفظت بجل تآليفه الا «العاقبة» فانها بقيت ببجاية الى أن اشتراها المرحوم الشيخ أبو الحبال (28) مفتى بجاية وهى الآن بالمكتبة الوطنية ضمن كتبه . أما ديوان عبد الحق فقد أملاه على ناسخه حيث يقول : «أنشدنى الفقيه الحافظ الزاهد الامام المحدث الخطيب أبو محمد عبد الحق الاشبيلى بجامع بجاية سنة ست وسبعين وخمسمائة » الخ

ولم تكن الكتب مقصورة على الملوك والعلماء فقد سار داء عدواها الى رؤساء الاقطاع الذين كانوا يحبون أن يتشبهوا بالملوك فى كل شىء فقد عثرت على نسخة من مختصر ابن ابى جمرة يقول ناسخها : «نسخه بيده الفانية للخزانة العلمية العلية خزانة أميرنا ومولانا أبو عبد الله محمد الصخرى بن أحمد الشريف أيدهم الله بنصره وأدام حياته حصنا منيفا لاهل طاعته وذلك فى مجانة سنة 1099 هـ»

(28) مكتبة ابى الحبال كانت بيعت للخزانة المذكورة بعد وفاته

والصخرى هذا هو رئيس قبيلة الذواودة الذى ثار على الاتراك وقد سجل ثورته الاديب محمد بن راس العين فى رسالة كاتب بها الخلافة بالاستانة قال فيهـا ـ يصف الجزائر ـ «فبلدتنـا هذه ذات بساتين وأنهار ، وأصوات وأطيـار ، وغـــدران وأشجـــار ، وآصـــال وأسحـــار ، وأعيـــاد ومـواسم ، وثغـــور بواسم ، ونفحات ونواســم ، وجهـاد وملاحـم ، وكـرات ومـزاحم ، مشائخهـا تقاة ، وكهولها ثقات ، وولدانها طغـاة ، وعساكرها غـزاة . . والآن ضعفت الرعية ، فعظمت البليـة ، وحلت الرزية ، وضاق المعاش ، لما كثرت الاوباش، وضاعت الفقراء ، اذ حارت الامراء ، وعظم الخطب ، وتضاعف الـكرب ، ونغص العيش طاغية من طواغى البادية ، فعظم الخطب وحلت الداهية . .» وهـذا الطاغية الذى نغص العيش هو صاحب « الخـزانة العلمية العلية » .

واسمحوا لى أن أختم حديثى بالكارثة العظـمى التى أصابت الجزائر عند ما فقدت خزانة الامـــير عبد القادر بواقعة الزمالة فى طاقين ، اذ أن الامـير عبد القادر علاوة على مركزه السياسى كان شغوفـا بالكتب حتى ان أول فرنسى زاره لمعسـكر بعـــد معاهدة دوميشال سنة 1835 ووصف انطباعاتـــه اثر هذه الزيارة ذكر انه «وجده جالسا فى مكتبـه الخاص الذى هو عبارة عن بيت صغير له نافذة وعند ما دخل عليه وجده واضعا على يمينه ويساره نحو الاربعين مخطوطة كلها مجلدة » وهذا الـكاتب هو TARTAREAU الـــذى نقـل عنـه الاستـاذ امريت فى كتـابه : « الجـزائر فى عهـد الامـير عبـــد القـــادر »

والحديث عن خـزانة الامـير وبعض نـــوادر المخطوطات التى استنسخها او اشتراها أو أهديت له سنتحدث عنها فى المحاضرة المقبلة .



كلمـــــات

الخطـاط العـربى يفـوق الفنـــان

فن الكتابة ملتصق بتاريخ الحضارات حتى أن علماء الآثـار يربطون ظهورها فى بيئة معينة مع دخول هذه البيئة الاحداث التاريخية . اذ ان للكتابة أولا فضل التدوين فهى ذاكرة المجتمعات.ان صورت (الهيروغليفية) وان نقشت (المسمارية) وان كتبت الاصوات (الابجدية) تظل أبـــدا صاحبة دور وظائفى ذى صلة بيوميات الانسان . وتمتزج مع قيمـــه وواقعه ، فتتداخل فى أسلوبه التعاطفى العيش حتى الذوبان ضمنـه ، فكل مجتمع « يكتب » كما « يحـترف الحياة » كما يؤمن ويحب ويأكل ويموت كما ينجح فى بناء ثوابت حاضره وفى تطوره لهذا الحاضر الى النهاية .

لذا احتلت الكتابة واجهة الفنون فى الايام السابقة للطباعـــة ، فالفنان الاول (بعد المعمارى) هو الخطاط ، بخاصة فى المجتمعات حيـث اقترن الخط بالمقدسات ومن هؤلاء العرب ، حيث أخذت الكتابة العربية وجه (ذاكرة المسلمين) غذتها الموانع المتعددة التى أبعدت صورة الانسان ومتمماتها عن فنونهم ، مما رفع من مضمون الخط وساهم فى تعميمـــه كوسيلة للتعبير عن روحانية الاسلام ثم فى ترويجه أداة زخرفية أنيقـة (تجمل وتعلم) .

نجم عن ذلك تجريد يطبع فن الكتابة العربية ، وبعض الرمـــزية أيضا ، فليس الخطاط رساما ، ان طبقنا عليه المفهوم الغربى ، «الموروث عن مفهوم قدماء اليونان» وليس مصورا ان نظـرنا اليه من الزاويـــة التقليدية ، بل انه فى اطار واقع الحضارة الاســـلامية .

الانسان الذى أحيطت وظيفته بهالة محترمة ، ولقد رأى فيـــه المسلمون من يعطيهم عطر دينهم ويحفظ لهم تراثهم ، ويزخرف مساجدهم ومجالسهم ، وفى ذلك ما يكفى لاعطائه صفة معنوية هى فوق صفـــة الفنـــان .

وهوية التجريد التى فى الكتابة العربية ، لاقت تجاوبا منتظـــرا عند كبار الفنانين الغربيين الذين رفضوا فى مطلع القرن العشرين الرسم التصويرى ، أى أن هؤلاء باختيارهم فى رسومهم التعبير عن مضمـــــون الاشياء لا عن مظاهرها الواقعية تلاقوا مع الخطاطين العرب ، ثم أخذ الشكل صفة المقارنة فى المضمـــون .

ولقد أعجب خطاط الغرب الاول «جورج مايتـو» كثـيرا بالخـط العربى وتحمس بشدة للكتابة العربية ، وعند ما زار بيروت عام 1960 كان يقف طويلا أمام آرمات المحلات ، كذلك العرب الذين درسوا الفنـــون التشكيلية حسب القواعد الاوروبية فقد توصلوا الى النتيجة نفسها .

عن «النهـار»

الموشحات فن أصيل ومتطور

د. الطاهر أحمد مكي
أستاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

الحديث عن الموشحات حديث عن فن قديم جديد قديم لان أصوله تعود الى نهاية القرن التاسع الميلادى أو بداية العاشر ، انه فن مضى على ابتداعه الف عام كاملة ، ومازال حيا رقيقا ، اخاذا جذابا ، ينشد ويغنى ويستمتع به الناس .

وجديد لانه يعيش فى فكرنا رغم قدمه ، ظاهرة مثيرة وفكرة ملحة ، ولانه فى أصوله وطريقة تكوينه، لا يغلق الباب على نفسه ، ولا ينطوى متقوقعا بعيدا عن ركب الحياة المتطور ، وانما يفتح بين يدى مبدعيه والمهمتين به ، أبواب التجديد والتجدد واسعة عريضة ، فاذا أغلقناها ، وهى مغلقة الآن حقا ، فلعيب فينا ، وتخلف فى حاضرنا ، وليس لاسباب تعود الى خصائص الفن نفسه .

لقد كانت الجزائر مـن البلاد التى حافظـت الموشحات على مكانها فيها ، لم تتراجع ، ولم تندثر ، وان توقفت عندما كانت عليه منذ قرون . ورسالة الذين يقومون عليها بخاصة ، وعلى المسرح الغنائى بعامة ، ان يدفعوا بها الى الامام ، لتكون بمستوى العصر الذى نعيش فيه ، نغما فى الموسيقى ، وفكرة فى التعبير ، ولن يتاح لنا ان نطـور القديـم ، وان نصنع منه جديدا مشعا ، الا بدرسه وتمعنه ، لندرك القوانين الاصيلة الباقية فيــه ، ونلمس العوارض المتغيرة .

ويقتضينى الاخلاص أن أشـير ، اننــــا فى عنايتنا الحاضرة بالموشحات، درسا وتحليلا وتطويرا، مقلدين للاوربيين وتابعين ، فمنذ قرن من الزمــــان وهذا الفن العربى يثير بين شعوب البحر الابيض المتوسط غير العربية ، نقاشا حادا وعنيفا ، واتسعت دائرته فشملت أمما وشعوبا تقع بعيدا عن مرمى هذا البحر العريق ، شاهد الحضارات الاولى وطريقتها الى التلاقى والتبادل والترابط والتأثير .

ففى منتصف القرن التاسع عشر قال الكسندر ديما Alexandre Dumas (1802 ـ 1870) ، كلمة قدر لها ان تغير مجرى الدراسات الاندلسية فى اسبانيا الى حد بعيد . قال الكاتب الفرنسى فى مجال التعريض باسبانيا وتخلفها اذ ذاك، «ان أوربا تنتهى عند جبال البرانس» . وطبيعى ان كثيرين من الكتاب الاسبان ردوا عليه ، وأمسكوا بخناقه ، غير ان ردودهم لم تتجاوز العاطفة المنفعلة ، لايدعمهـا واقع قائم ، ولا ماض تاريخى مزدهر ، فمنــذ أن سقطت دولة الاسلام فى اسبانيا ، وقامت مكانــه الكاثوليكية ، أضاءت اسبانيا لاعوام قليلة ، بنــور الاسلام المستعار ، على حد تعبير المؤرخ الانجليز لين بول ، ثم تردت فى الظلام . نعم كانت لها امجاد أيام شارل الاول ، أو الخامس عند الاسبان ، ثـم ابنــــه فيليب الثانى ، غير ان الاول لم يكــن اسبانيـا لا عاطفة ولا لغة ولا اقامة ، والثانى بدد كل التراث الاسلامى الذى ورثوه ، طرد المسلمين ، وكـانــوا الفنانين والحرفيين وخيار المزارعين ، وبعثر كل قوى أمته يحـارب الاصلاحيين والتقدميـين فى الاراضى الواطئة وما بعدها ، وينشر الرعـب أيان كانـت اسبانيا ، عبر محاكم التفتيش ، وحتى فيما وراء المحيط الاطلنطى على امتداد العالم الجديد .

فى ذلك الوقت حاول المستشرقون الاسبان ان يشاركوا فى المعركة ، وعن طريق ما يجيدون وما تخصصوا فيه ، وان تكون مساهمتهم باظهـار الدور الـــذى لعبته اسبانيا الاسلامية فى البعث الحضارى الاوربى المعاصر ، وهو دور اسبانى بقدر ما هو مسلم ، ويحسب لها فى عداد الاضافات العقلية العالمية التى تعتز بها الشعوب .

بدأ هؤلاء المستشرقون يدرسون تاريخ الاندلس بروح جديد ، وعاطفة حنون ، تحت عنوان «اسبانيا الاسلامية » ، وبكل ما يتطلبه البحث من موضوعية وحيدة ، واختفت ـ على الاقل لزمن ـ من المؤلفـات الاسبانية كلمات الاحتلال العربى،والحق ان الاندلس أو اسبانيا بتعبيرنا الحديث ، أصبح شعبا اسلاميا ، مستقلا ، ولم يكن مستعمرة عربية تابعة ، بعد فترة لا تتجاوز خمسين عاما من الفتح الاسلامى ، والاسلام

عقيدة تعتنق ، وليس قوة تتسلط ، فكرة تتبع ، وليس جبروتا ينحنى امامه الناس خائفين .

ليس هنا المجال لان نعرض لنتائج كل هـذا الصراع الفكرى . ولا الحقائق التى أظهرها انصافا لدور الاسلام فى الاندلس . وانما يعنينا منه ، الدور الذى اضطلع به المستعرب الجليـل جوليان ريبيرا Julian Ribera . وهو بلنسى الاصل، فقد عكف على دراسة الموشحات ، واثبت انها كانت النموذج الذى احتذاه الشعر الاسبانى والشعـر البروفنسى . فكلاهما صيغ على نحو ما صيغت عليه الموشحات شكلا ، وتاثر بها صورا وافكارا . وترك الثانى آثارا واضحة فى الشعر الايطالى الوسيط ، واخرى أقل قوة فى الشعر الالمانى ، ثم جاء نيكل NYKL . المستشرق التشيكوسلوفاكى الاصل، والمهاجر الآن الى الولايات المتحدة . فزاد الامر يقينا، حين عكف على دراسة شعراء التروبادور ، واثبت ببراهين قاطعة . انهم كانوا فى قصائدهم يحتذون الموشحات شكلا ومضمونا ، وزاد فتتبع آثارها فى اللغة الانجليزية ، واكتشف لنا قصيدة انجليزية قديمة اخذت شكل موشحة تماما . ومعه عكف العالم الاسبانى المعاصر MENENDIZ PIDAL فـدرس القضية فى كتاب كامل هو « الشعر العربى والشعر الاوربى »، وفى موضوعية مستأنية وصابرة، ووضوح جلى وموثق ، برهن على ان الموشحات . باشكالهـا وافكارها ، كانـت وراء الشعر الاوربى الوسيط بعامـة .

انتهى عالم المستشرقين الى هذه الحقيقة فيما بين الحربين العالميين، الاولى والثانية ، وعقد المسلمين متناثر ، وحدتهم أثر . وخلافتهم تاريخ ، وتـوزع المنتصرون بينهم، ما بقى من عالم العرب غيرمستعمر، وكان هذا مدعـاة لان يستكثر قلة مـن الباحثين الاوربيين انه يبدع العرب ، وهذا حالهم ، فنا يتجاوز حدودهم ، ويقدمون به لغيرهم المثل . كان المنكرون شيعا ، بينهم البرتغالى Rodrigués Leppa والالمانى APPEL والفرنسى JEANROY وآخرين ، والكثرة منهم يجهل اللغة العربية ، وتعرف الاندلس عن طريق الآخرين . فبنوا نتـائجهم على مقـدمات خاطئة . أخطاء واضحة ، الهدف منها الانكار أولا ، ثم البحث عن الاسباب المؤدية له . أما القلة منهـم فتعرف العربية . ومن بينهـم المستشرق الاسبانى المعاصر غرسية غومث GARCIA GOMEZ ، فآثرت ان تمسك بالتأثير بين يديها، وان تستولى على فن الموشحات بدل ان تنكر دوره . وانصرفت الى لون آخر مـن الدراسة . لم يؤد بعد الى نتائج محققة يطمئن اليها الباحثون . اتجاه هذه القلة يرى ان الموشحات أثرت فى الشعر الاوربى الوسيط ، ولكـن الموشحات بدورها لم تكن وليدة ابداع مسلمى الاندلس ، وانما كانوا فيها عالة على شعر عامى اسبانى قديم ، ذهب به الزمان ولم يحفظ لنا التاريخ منه شيئا . ذلـك رأيهم . والى ان نضع أيدينا على هذا الشعر الاسبانى القديم . أو شىء منـه ، والـذى قلـده الوشاحون الاندلسيون . فيما يزعمـون ، يبقى الامـر مجـرد افتراض لا يقوم عليه دليل .

لا نعرف شيئا كثيرا عن مبدع الموشحات ، ولا عن ظروف نشأته ، والقليل الذى بين أيدينا ندين به لأديبين من القرن الثانى عشر الميلادى ، هما : ابن

بسام الشنتريني ، وابو عبد الله الحجاري ، ومؤرخ من القرن الرابع عشر الميلادي ، هو ابـن خلـدون العظيم . كلهم يقرر ان مخترع الموشحة اندلسي يدعى مقدم بن معافى القبري ، نسبة الى بلدة قبرة ، مدينة صغيرة ما تزال قائمة حتى أيامنا هذه قريبامنقرطبة. وعاش حياته أيام حكم الامير عبدالله ، والخليفة عبدالرحمن الناصر ، في نهاية القرن التاسع واوائل القرن العاشر ، وطبقا لروايتهم فان الموشحات التي اخترعها مقدم كانت تتكون من أدوار ، والدور الواحد يتكون من مركز يتألف من بيت . تليه الاغصان مؤلفة من ثلاثة أبيات متفقة القافية فيما بينها . يليها بيت رابع يسمى القفل ، له نفس قافية المركز ، وكما كان يقول شيوخنا القدامى ، بالمثال يتضح المقام ، ومن ثم سوف أذكـر الدور الاول من موشح لابـن بقي القرطبي المتوفى عام 1145م :

خـــذ حديث الشوق عـن نفسي
وعـــن الدمـع الـــذي همعـــا
امـــا تـــرى شـــوقي وقـــدا
وهمـــا دمعـــي واطـــردا
واغتـدى قلـبي عليـك سـدى
آه مـــن مـــاء ومـــن قبس
بـــين طرفي والحشـــا جمعـــا

ولا فرق بـين الموشحة والزجـل في الشكـل والتركيب ، وكل ما هنالك ان الزجل كان يتخـــذ مفرداته من لغة الشارع ، أو ما اصطلح على تسميته بعامية أهل الاندلس ، وكانت مزيجا من العربيـــة والرومانثية ، ومفردات أخرى من لغات عديدة ، بينما صيغت المـوشحات من اللغة العـربية الفصيحـة وكانت لغة الدولة الرسمية ، ولغة التعليم والادارة ، ولغة الادب في المجتمع ، ومن يقلدها أو يلوذ بها . ومن جانب آخر كانت الموشحات أكثر احتشاما فيما تعالج من قضايا العاطفة والوجدان ، بينمـا يعكس الزجل مشاعر غـير محتشمة ، فانحـــدر احساسا وتعبيرا .

الشكل الذي أشرنا اليه من قبل ، هو الشكل البسيط ، أو البدائي للموشحة ، ثم تطورت مع الزمن، أصبح المركز يتألف من بيتـين ، وطالت الاغصان فاصبحت خمسة ، وأصاب القفل ما أصاب المركز ، وتنوعت موسيقاها ، فأصبح البيت يتكون من وحدات لها قوافي داخلية متحدة . وجرت العادة عـلى ان يسمى آخر قفل ، في آخر دور، من الموشحة «خرجة» بقي أن أشير ان اسم الزجـــل لشهرته في العصر الوسيط أسيء استخدامه في المشرق ، فأصبح يطلق على الشعر العادي حـــين تكون مفرداته عامية ، أي ما يطلق عليه الشعر الملحون في الغرب الاسلامي .

كانتالموشحات تغنى ، ويقوم بالغناء فرد واحد تشاركه مجموعة ، مهمتها ان تغني المركز عند نهاية كل دور . المغني ، وهو الموسيقي في نفس الوقت ، يغني المركز أولا ، ثم تغنيه المجموعة ، وبعد فاصل موسيقي ، يبدأ المغني في غناء الغصن بمصاحبـــة الموسيقى ، ثم يغني القفل ، وما ان ينتهي منه ، حتى تبدأ المجموعة في غناء المركز ، وأذكر مرة أخرى ان قافية القفل تتفق مع قافية المركز ، وهو أمر لم يجيء اعتباطا ، وانما أريد منه أن يكون كالتنبيه للمجموعة لكي تتدخل في الغناء ، وهكذا يتكرر الامر مع كـل

دور . وكان الغناء يتم بمصاحبة العود أو النـاى ، والطنبور والدف . والصاجات ، وقد يتضمن الحفل رقصات تتم أثناء الغناء . وعلى نغمات الموسيقى ، والاغانى والرقصات الشعبية الاسبانية اليوم ، ذات الشهرة العالمية ، والتى تنسب الى اشبيلية ورنـدة وقادس ومالقة ليست فى الحقيقة الا امتدادا لما كانت عليه الاغانى والموسيقى أيام الاسلام الزاهرة هناك ، وعلى نحو خاص فى القرنين العاشر والحادى عشر ، مع مراعاة أنهم استفادوا من تقديم العصر فى الوسائل والآلات .

صنعت الموشحات أصلا لتغنى ، وأثرت طبيعتها فى تدوينها . مثلا كان المركز يغنى بعد كل قفل ، لكن الذين دونوا الموشحات كانوا يرون فى احايين كثيرة ، ان تكرار تدوين المركز بعد كل قفل يثقل على القارىء فحذفوه . فأصبح بين أيدينا موشحات يذكر فيها المركز للمرة الاولى . ثم لا يكتب ثانيـة اعتمادا على متعارف الغناء ، أو لان المغنى كان يغنى وحده بلا مجموعة ، فليس فى حاجة لان يذكر أحدا . ان ترديد المركز خمس أو ست مرات فى الموشحـة الواحدة ، يصبح جميلا ومقبولا عندما تتغنى بـه المجموعة ، تردده بروح حماسى وجماعى . أما عند ما يكون المغنى وحيدا ، أو ترتجـل الموشحات فى رفقة دون موسيقى أو غناء . فان ترديـده يكـون ثقيلا ورتيبا .

أشار المؤرخون المسلمون عرضا الى اسم مبدع الزجل أو الموشحات ، ثم صمتوا تماما عن الدواعى الملزمة ، وسكتوا عن الظروف المفسرة وبوسعنا الآن قياسا للماضى على الحاضر ، وانطلاقا من المعلـوم للمجهول ، ان نجد لها أسبابا .وان نتصور عوامل ، وان نقف عندها ، لندفع فى ضوئها بالموشحات الى عصر جديد .

قريبا من نهاية القرن التاسع الميلادى ، بدأت قرطبة عاصمة الغرب الاسلامى تلك طريقها نحـو القمة ، تعداد سكان ، واتساع عمران . يعدون لها واحدا وعشرين ربضا ، أى ضاحية بلغـة العصر الحديث . يسكنها ما يزيد عن مليون من البشر ، رقم لم يكن عاديا فى تلك الفترة من الزمـن ، وطبقا للمستشرق الهولندى DOZY ، يندر بينهم ، كما يندر بين بقية سكان الاندلس ، من جهل القراءة والكتابة . وفيها ألف وست مائة مسجد فيما هـو معقول ومقبول من الروايات ، وبها تسعمائة حمام عام . تزدحم بالمكتبات العامة والخاصة وتموج بعناصر متباينة من البشر مقيمة أو وافدة من بلاد سحيقة ، متاجرة أو تطلب العلم . متجسمة أو تبحث عن المجد . بغداديون ومصريون وأفارقة ، فرنسيون من الجنوب، وصقالية من أواسط أوربا ، وحتى نورمانديون من الشمال البعيد . وتتحدث فى شوارعها لغات عديدة، ويسلك المؤمنون من سكانها طريقهم الى الله عبـر أديان مختلفة وتظل الجميع سماحة نادرة ، ويتمتعون بحرية وافرة . ويصدرون عن مواطنة فريدة . ومع الحياة الرخية والثراء المتدفق . أقبل الناس على مباهج الحياة يعبون منها بغير حساب ، كأنهم لا يعيشون لغير لحظتهم ، واعطت الدولة العاصمة مزيدا من العناية . فكانت لها الحدائـق الواسعة المزهـرة والشوارع النظيفة المضاءة . والنوافير المتدفقة الجميلة ، والبحيرات الواسعة الهادئة . يسبح فيها البط ، وتتناثر فوقها

التماثيل . ويلتف حولها الناس متأملين معجبين سعداء . لون من الحياة الراقية لا تجد لها مثيلا الا في الاسكندرية في القرون الثلاثة الاولى التي سبقت ميلاد المسيح ، وفي باريس في القرن الثامن عشر . أى بعد ألف عام من الزمان .

لم يعرف المجتمع الاسلامي المسرح على نحو ما كان عليه الامر في الحياة اليونانية والرومانية ، ولكنه عرف شيئا آخر ، عرف الافنية الواسعة ، داخل القصور الكبيرة . تؤدى رسالة المسرح في مجال الموسيقى والغناء ، وانتقالا منها . وتقليدا لها . شاع هذا اللون عند عامة الناس . كان للطبقة الوسطى وهى أعم من طبقات المجتمع الاندلسى حلقاتها التي تضم المثقفين والشعراء الموسيقيين والمغنين والراقصين والراقصات ، وكان لعامة الناس حظها من هذه الفنون كلها ، في حلقات تتم أمام البيوت أو في داخلها ، ان الافنية والساحات والاسواق ، والبيوت والقصور في قرطبة . تكفلت على نحو ما بالدور الذى كان يقوم به المسرح في أثينا من قبل وفي روما بعدها .

في مواجهة هذا الرقي لم تعد الموسيقى العادية قادرة على التعبير عن رغائب هذا المجتمع المزدهر ، ثقافة وتمدينا . ودون أن تطرب أذواق الناس الرقيقة والمصقولة ، ومشاعرهم المرهفة ، فتطلع الاندلسيون الى المشرق ينتظرون المعجزة ، يقول التيفاشي : احمد بن يوسف ، المتوفى عام 651 هـ — 1253 م ، وهو تونسى . في كتاب جليل عن فن الموسيقى والرقص أسماه : « متعة الاسماع في علم الاسماع » ، ولما يزل مخطوطا بعد : « أخبرني أبو الحسن على بن سعيد ان أهل الاندلس في القديم كان غناؤهم اما بطريقة النصارى . واما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه ، الى أن تأثلت الدولة الاموية ، وكانت مدة الحكم الربضى « حكم 796 الى 822 » فوفد عليه من أفريقية « أى من تونس » ، من يحسن غناء التلاحين المدنية ، فأخذ الناس عنهم ، الى ان وفد الامام المقدم في هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب . غلام اسحاق الموصلى ... » .

جاء زرياب من المشرق ، وكان عبقريا . يعرف عشرة آلاف لحن بأشعارها ، وزاد في أوتار العود وترا خامسا ، بعد ان كانت أربعة ، وجعل مضربه من قوادم النسر بعد ان كانت من خشب ، وحار الناس في تفسير مواهبه . فأحاطوه بهالة من الاساطير ، ابسطها ما اتصل بضيق أستاذه ابراهيم الموصلى به . وتخييره بين أن يرحل من بغداد أو يعمل على التخلص منه . والذى أراه ان زرياب جاء مدعوا من الحكم الاول ، فرأى الفرصة مواتية ليقتحم بمواهبه الفريدة دنيا جديدة ، تطاول بغداد شهرة وثراء ، وتفوقها رعاية للفن واجلالا للعلماء . ولقد توفى الحكم وزرياب في طريقه لما يصل بعد ، فأوشك ان يعود من حيث أتى ، لكن عبد الرحمن الثانى وقد انتهت اليه مقاليد الامارة لم يكن بأقل من الحكم الاول رغبة فيه . وزاد فتجاوز في اكرامه ما هو مألوف ومعتاد ، أوفد للقائه بعثة رسمية استقبلته عند الحدود . وخرج للقائه بنفسه عندما وصل العاصمة ، ثم أنزله في قصر فخم ، وأجرى عليه راتبا ثانيا ثلاثة آلاف دينار من الذهب في العام ، ووهبه عقارا قيمته 40 ألف دينار ذهبا . ولم يكن ذلك عليه بكثير ، فسرعان ما ملأ الاندلس

انغاما والحانا . وبهت الناس ازاء جمالها ، فقالوا : ان الجن تأتيه فى الليل فتعلمه الالحان . وأنشأ فى قرطبة أكبر معهد للموسيقى ، واتبعه بمدارس أخرى فى اشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة .

وكما يحدث فى عصرنا حين تصبح حياة كبـار الفنانين المثل والقدوة للشباب وغـير الشباب ، يقلدونهم فيما يرتدون من الملابس وما يخترعـون من انماط الاناقة . كذلك كان زرياب فى الاندلس ، علم الناس طريقة جديدة لتصفيف الشعر وترجيله نسبت اليه . وبقيت بعده زمنا ، وعرفهم الـوانا جديدة من الطعام ، ودلهم على فنون مستحدثة فى ترتيب المائدة . وارشدهم الى اتخاذ اوانى من الزجاج الرفيع بـدل الذهب والفضـة . وابتدع لهم نماذج جديدة من الازياء ، باختصار كان لهم كل شىء فى مجال الفن والذوق . لقد اغرقوه كرمـا وتقديرا ، فأغرقهم ابتداعا وتفننا . وحول الاندلس الى عالـم يعيش على الموسيقى والاغنية ويطرب لها من الاعماق، فى مسراته واحزانه فى عبادته وفى مباذله ، حـين يضحك وحين يبكى . حين يعمل ، أوحين ياخذ بحظه من الراحة مستجما . وهى خصائص ما تزال باقية بكل جوانبها فى اسبانيا المعاصرة . يقول ابن عبد ربه . فى كتابه « العقـد الفريـد » وكـان معاصرا لزرياب ، وكارها له ، وضائقابشهرته يقول عـن الموسيقى انها : « الصناعة التى هى مراد السمع ، ومرتع النفس ، وربيع القلب ، ومجال الهـوى ، ومسلاة الكئيب ، وانس الوحيد . وزاد الراكب ... وقد يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة ، فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق ، من اصطناع المعروف . وصلة الرحم . والذب عـن الاعراض ، والتجاوز عن الذنوب ، وقد يبكى بها الرجل عـلى خطيئته . ويرقق القلب من قوته ، ويتذكر نعيـم الملكوت ، ويتمثله فى ضميره » .

اذا كـان المجتمـع الراقى يتطلب موسيقى بمستوى تحضيره ، فالموسيقى الرفيعة تتطلب اغنية بمستواها ، فكرة وشكلا وصلاحية للتلحين . ومـن الواضح ان القصيدة العربية فى شكلها الكلاسيكى قصرت عن الـوفاء بحاجات هـذه الموسيـقى الناهضة فدار الادباء حولها . وتهيأ المجتمع لمولـد فن جديد سوف يدخل التاريخ تحت اسم الزجـل أو الموشحات .

نحن أمام فن لا يعرف له مبتدع معين على نحو أكيد ، كان ، فيما يبدو لى شخصيا . هاجسا خطر بعقول كثيرة ، وضرورة ملحة فكر فيها غير اديب ، وطافت بوجدان أكثر من شاعر . وترجم كـل ما أحس به ، فى الاشكال الاولى لهذا الفن . وضاعت كلها . أمر يمكن أن يتم مصادفة وعفوا ، على غـير لقاء ودون تواعد ، فاتفاق المناخ النفسى ، وتشابه الضواغط الاجتماعية ، قد يؤدى الى ابـداع أدبى متقارب . عند عدد من الادباء دون تقليد أو مذاكرة أو تأثر او تأثـير .

لا أود أن أعود الى مناقشة الآراء المتصلـة بنشأة هذا الفن . وبحسبنا ان نقرر أنه فن أندلسى أصيل ، والذين قالوا انه فن مشرقى ، وهم الكثرة الغالبة من مؤرخى الادب فى الثلاثينيات ، وزادوا فنسبوا ابداعه الى الشاعر ابن المعتز بالذات ، كانوا

ضحية لبس مصدره ديوان الشاعر . ذلك أن ناسخ الديوان أعجب بموشحة رقيقة فأضافها اليه ، دون أن تكون للشاعر ، ودون أن يشير الى صاحبهـا . فلما نشر الديوان للمرة الاولى تضمن هذه الموشحة، وجاء المؤرخون المحدثون فاعتقدوا انها له ، وأقاموا على وجودها نظريتهم ، رغم أنها جاءت يتيمـــة ، وتفرد بها ابن المعتز فلم يرافقه أو يتبعه شــاعر مشرقى آخر . وهذه الموشحة هي :

أيها الســاقى اليك المشتـكى
قد دعـوناك وان لم تسمـــع

فلما نشر بعض التراث الاندلسى بعد الحرب العالمية الثانية ، تبين أن الموشحة الملحقة بـــآخر ديوان الشاعر العباسى ليست له ، وانما هى لابن زهر الاندلسى ، أعجب بها الناسخ فألحقها بديوان الشاعر العباسى ، وبتصحيح هذا الخطأ ، سقطت النظرية القائلة بأن الموشح ابتداع مشرقى .

اذا عرفنا ان الموشحات فن أندلسى ، ابتدعه الاندلسيـــون استجابة لضواغط فنية واجتمــاعية فى حياتهم ، وسبقوا به على غير مثال احتــذوه ، فهل كان ما صنعوه أولا ، فى البدء ، باللغة الفصحى أو باللغة العامية ، أو بتعبير آخر ، هل كــــان ما صنعوه فى البدء موشحات صيغ الزجـــل على منوالها أو العــكس ؟

فيما أتصور ، اقول أتصور ، لاننى لا أملك بين يدى ، أنا او غيرى ، وثائق مادية قاطعة ، أن الزجل هو الذى صنع أولا ، وكانت المـــوشحـــة تهذيبا له ، وصعودا به . وأخيرا فالزجل أو الموشحة كلاهما خروج على قوانين القصيدة العربية العادية ، ودوافع الخروج عليها عند العامة مفهومة وواضحة ، فهم لا يفهمونها بسهــولة ، ولا يتجـاوبون عنــد الغناء بها ، فقد كانوا فى معظمهم عربا مستعربة ، يتعلمون الفصحى ، يقولون بها الشعر ، أو يكتبون بها الادب ، ولكن لغتهم اليومية ، ووجدانهم أقرب ما يكون الى العامية الاندلسية ، يألفونها داخليا ، ويطربون بما يقال فيها على نحو أقوى ، واذا فهم فى حاجة الى شعر يتخذ العامية وسيلة للتعبير . والعامة أميل الى التحلل من القيود والخروج عليها، وربما كان وراء الاتجاه كله ، تقوية العامية ، وصوغ الازجال فيها ، تيار سياسى يتــألف من المسلمـين الاسبان ، أولئكم الذين ارتضوا الاسلام دينـــــا ، وعقائديا هو دين المساواة الكاملة ، لكنهم وجدوا لأنفسهم واقعا دون العرب الفاتحين ، فوقـــفوا وراء الاتجاه يدعمونه ، لا حبا فى العــامية ، ولا كراهية فى العربية ، وانما مناهضة لمن يمثلونهـا تفوقا عنصريـا .

كانت القصيدة العربية أمام صائغى الزجل ، فعبثوا بها ، تصرفوا فى قوافيها ، فأصبحـت فى الموشحة متنوعة بعد أن كانت فى القصيدة واحدة، وتصرفوا فى بحورها من تشطير وتجزئة ، فتعددت تفاعيلها ، والتزام البحر الواحد فى القصيــــدة الواحدة أمر جوهرى ، وتابعوا عبثهم فكان الزجل، وتعهدوه عناية ، فأصبح فى شكله الذى بـــين أيدينا . وأقبلت العامة على هذا الفن الجديد هواية وافتنانا واستسهالا ، كرد فعل ضـــد القصيــدة العربية الصعبة ، وتغنى به آخرون منافسة وتقليدا.

ومن الواضح أن الخطوات الاولى لهذا الفن كانت متعثرة ، لم تنضج تماما . وان الدولة لم ترحب به ولم تشجع عليه ، ومن ثم لم يستطع أن يفرض نفسه على الحياة الادبية فى سهولة . لقد عاش مقدم بن معافى أول من تنسب اليه الموشحة حتى مطلع القرن العاشر ، ويهمنى أن أشير الى أنه عاشر زرياب ، زرياب شيخا يتقدم نحو النهاية ، ومقدم فتى يواجه بداية الطريق . وأن ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وتوفى عام 940 م ، جرب حظه مع الفن الجديد ، وان يوسف ابن هارون الرمادى المتوفى عام 1022 ، من شعراء المنصور بن أبى عامر كان وشاحا ، ورغم ذلك فان موشحات هؤلاء جميعا ضاعت كلها ، لم يصلنا منها ولا دور واحد ، رغم انهم عاشوا فى زهوة العصر الاندلسى ، وعاصروا عددا من كبار مؤرخى الادب ، كابن بسام صاحب كتاب الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، والفتح بن خاقان صاحب كتابى «قلائد العقيان» و «مطمح الانفس» . ولم يسجل لنا ابن عبد ربه فى كتابه الضخم « العقد الفريد » شيئا منها ، رغم انه ضمنه عددا لا بأس به من أشعاره . ان أقدم موشحة بين أيدينا فى الحقيقة هى لعبادة بن ماء السماء ، المتوفى عام 1028 م ، ومطلعها :

من ولى فى أمة أمرا ولم يعدل
يعزل ، الا لحاظ الرشأ الاكحل

أى أن موشحات القرن العاشر كله لم يصلنا منها شىء ، ورواية الحجارى ، وابن خلدون صريحة فى أن موشحات هذا القرن كسدت ، وأن المتأخرين وحدهم هم الذين نبغوا فى هذا الفن ، ويحددون أول نابغة فيه عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ، أمير المرية ، وعاش حتى أواسط النصف الثانى من القرن الحادى عشر ، والحق أن ابن القزاز رقق كثيرا من فن الموشحات ، وجعلها أكثر فنية وتعقيدا ، وكانت الموشحات على أى حال اغلب ابداعه ، وكان معاصرا لابن ماء السماء ، وان عمر بعده طويلا ، وكثيرا ما يخلط الناس بينهما .

راقت فكرة الزجل للمغنين ، فاستغلوها فى الحفلات الخاصة أولا ، ثم العامة فيما بعد ، ولاقت من الناس اقبالا شديدا . حينئذ تحرك الشعراء ليأخذوا بحظهم من هذا الفن الجديد ، يزاحمون الزجالين فى فن أصبح قبلة الجماهير غير أن الفرق بين الاثنين أن الشعراء كانوا يكتبون للخاصة المثقفة ، ويريدون لابداعهم الفنى أن يبقى فلم يهبطوا به الى مستوى اللغة العامية ، وانما صاغوه فى الفصحى ، وان اتخذوا شكل الزجل ، ومع انتشار عقد الخلافة ، وسقطت نهائيا شكلا ورسما ، عام 1021 ، أما واقعا فسقطت قبل ذلك بكثير ، حينئذ خفت قبضة العربية ، فتزاحم الشعراء عليه ، ومضوا به الى غايته ، اتقانا وتجويدا ، ولم يعد الزجالون يقصرون فى تسجيله، وهكذا نجد أول كتاب ضم موشحات هو كتاب «المغرب فى أخبار المغرب» لابناء سعيد ، وألف على امتداد القرن الثالث عشر ، وأول ديوان كامل للازجال ، وهو ديوان ابن قزمان ، وصيغ فى عامية مختلطة بالرومانتية ، وعسير الفهم للغاية ، يعود الى نهاية القرن الثانى عشر ، ولحسن الحظ

فان مخطوطة وحيدة لهذا الديوان وصلتنا . وتوجد الآن في مكتبة لينتجراد في الاتحاد السوفييتي .

انتشرت الموشحــات والزجل ، بسرعة كبيرة عبر كل البلاد العربية ، وأورد ابن حزم القــرطبي المتوفى عام 1063 ، أي بعد قرن من وفاة مقدم بـــن معافى مبتدع الزجل ، نصا نسبه للمؤرخ ابنه غالب، في رسالته عن فضائل أهل الاندلس يعد فيه مــن فضائل قومه « أنهم ابتدعوا الموشحات . وقد اعجب به المشرقيون كثيرا ، وأولعوا بتقليده » . حتى ان ابنه سناء الملك المصرى قام قريبا من عام 1200 م بجمع وتاليف عدد من الموشحات لكى يفيد منها المعجبون به . وما يزال كتابه هذا من اولى المراجع في دراستنا للموشحات ، ولما كان الصوفي الاندلسي الشهـــير ابن عــربي قد صــاغ أشواقــــه القدسيــــــة في موشحات، لكى يتغنى بها تابعوه. فقد دفع بالموشحات الى حيث لا تتحــدث اللغــة العربية . ان المسلمين الطيبين في الهند وباكستان وافغانستان ، ما يزالون حتى ايامنا هذه . يذكرون الله على انغام الموسيقى ، يترنمون صحبتها بموشحات ابن عربي . وفي قالب الموشحات صاغ الشاعر الفارسي فخر الدين أسد ، قريبا من عــام 1084 م ، قصيدته ويس ورامـــــين WIZ Y RAMIN كمــا ان الفيلســـــوف الاندلسي اليهودي ابـــن جبيرول المتوفى عام 1069 تضمن ديوان شعره باللغة العبرية عددا من الموشحات كتبت في اللغة العبرية،ولكنها اتخذت شكل الموشحة العــربية .

اذا كانت الموشحات قد اصابت هذا النجح السريع في المشرق ، فان دورها في المغرب لا يحتاج الى فضل بيان .

لقد تابعت الموشحات سيرها صعدا تحت حكم المرابطين والموحدين ، وخلال الدولتين كانت الاندلس تؤلف مع المغرب الآن . والجزائر وتونس . ومــالي والسينغال وموريتانيا ، جزءا من دولة تتسع أحيانا وتضيق أحيانا أخرى . فمن البديهي ان يكون صدى الاحداث واحدا ، ذلك ان الرحلات كانت مستمرة ، والانتقال بين العدوتين لا ينقطع ، وحتى قبـــل ان تقوم امبراطورية المرابطين . ان مجموعة من التجار والصيادين الاندلسيين هم الــــذى أسسوا مدينــة وهران مثلا عام 902 م ، وكانت شواطىء الجزائــر تتلقى كل يوم مع توالى سقوط المدن الاسلامية في الاندلس في يد النصارى ، افواجا من المهاجرين لا تتوقف . وكان هؤلاء المهاجرون يأتون الى هنا بعاداتهم وتقاليدهم، باحزانهم ومسراتهم، باغانيهم وموسيقاهم وأسماء القرى التي أعطوها لمهابطهم . وهي أندلسية، شاهد حي على ما نقول . مثل الشراقة ، والبليدة ، وغـيرها .

كذلك فـــان الحـروب المتتالية بين المسلمين والاسبان حتى بعد سقوط دولة الاسلام في الاندلس، جعل الاتصال مستمرا . والتأثير قائما ، والحروب كما تهلك وتدمر من جانب ، تكون عامـــل اثراء واحياء من جانب آخر . ولا احد يستطيع ان ينكـر الفائدة الكبرى التي حصلها الروائي الاسباني العالمي سرفانتيس . مؤلف دون كيخوته ، حين جاء الجزائر أسيرا ، وبقي فيها اعواما طويلة ، عاد بعدهـا الى اسبانيا ليكتب روايته الخالدة .

غير ان الموسيقى الاندلسيــة والموشحــات الاندلسية فى حياتها الجديدة ، لم تجر أقدارها على خط واحد . توقفت فى بلاد ، وتحجرت فى ثانيـة ، وتلاشت نهائيا فى أخرى .

وفى حركة البعث الثقافى الذى تضطلع بـه الجزائر اليوم،ويمتد فيشمل الموشحات وموسيقاها، فان من المهم بمكان ، اذا أريد للموشحات ان تعود فنا حيا متطورا يلبى أذواق مجتمعنا المعاصر ، ان تقوم دراستها وتدريسها عى أسس علمية،تستهدف تنقية الجوهر مما علق به ، خلال عصور الاستعمار والاضمحلال .

ولعله أن يكون مفيدا أن يكون الانطـلاق من أغانى وموشحات القرى والمدن الصغيرة . انها أصدق أصالة ، وأقل تأثيرا بالتيارات الاجنبية ، وان نصفى الموشحات التى تغنى ، ماكان خاطئا أصلحناه ، وما كان محرفا أعدناه الى أصله ، فاذا أصلحنا النصوص، وضبطنا الموسيقى ، تأتى الخطوة التالية . ان ندرس عوامل التجديد التى أصابت الموسيقى الاسبانيــة الفولكلورية ، والتى تعرف « بالفلامنكو » ، فهى فى العمق تعود الى موسيقى الموشحات ، فنفيد منها فى تطوير موسيقانا ، لتكون فى مستوى العصر ، نغما وفنا . لا شىء يمكن ان يتم بمعزل عن دراسة التطور الغناء الشعـبى فى اسبانيـا ، البلـد الذى أبدع الموشحات فى القديم .

فاذا صقلنا هذا الفن ، وشددنا اليه السامع ، ودفعنا بـه الى خشبة المســرح عرضا واستعراضا فسوف تنشق الارض ساعتها عن وشاح جديـد ، ينشىء لنا موشحات عصرية تتحدث عن آمالناوأمانينا وتبشر بغـدنا وتقدمنا ، وتكون اسهاما أصيلا فى عالم المسرح والفنون .



كلمـــــات

جنــرال أمريكى أراد ربح الحرب وحده

أوردت (اكسبريس) خبرا عن الجنرال جون د . لافيل الذى كـان يقوم بحرب (خاصة) فى الفيتنام ، قالت الجريدة :

لم يبق الدكتور "فولامور أسطورة . انه موجود ، فحتى شهـــر مارس الماضى كان يخوض حربه الصغيرة الخاصة فى الفيتنام الشماليـة على رأس 400 طائرة مقنبلة و 40 الف طيار .

هذا ما أخبرنا به الامريكيون عند ما مثل الجنرال جون د . لافيل القائد السابق للفيلق الجوى السابع فى جنوب شرق آسيا أمام لجنـــة الكونغـــريس .

ورغم تعليمات رئيس الولايات المتحدة فقد اعطى الجنرال لافيـــل أمره من شهر نونمبر 1971 الى غاية مارس 1972 للقيام بتســع وعشرين غارة (خاصة) على الفيتنام الشمالية ، وكان يكتب عنها فى التقـــارير الرسمية ببساطة انها «محركات وقائية» .

كان الذى اكتشف العمليات هو سرجان الطيران الامريكى كتب الى أحد الشيوخ الامريكيين ، وكالعادة بررت القيادة العليا والبانتاغـــون العمليات . وعند ما فاحت الرائحة طالب الكونغريس بايضاحات .

واكتشف أن أوامر الرئيس ريشار نيكسون عصيت وخـــــرقت حرمة البرلمان الامريكى . وان بعض عمليات القرصنة هاته تمت فىالوقت الذى كان هنرى كيسينغير يفاوض سريا السيد ديك تهو ببـــــاريس ، ويمكن القول انه ربما كانت هذه العمليات وراء فشل المحادثات .

واعطى البانتاغون أمره الصارم بعودة الجنرال لافيل الى الولايات وقدم له منصبا آخر ، لكن الجنرال رفض ، وفضل التقاعد (لأسبـــــاب صحية) . ولم تفتح محاكمة . ومن هذه القضية سوف لا يفقد الجنـــرال لافيل الا نجمة واحـــدة ! !

الأرض والهجـــرة

د. عـمار بوحـوش
استاذ بكلية الحقوق

« فى سنة ١٣٨٠ لم تكن هناك نية لدى الحكومة أو الشعب الفرنسى لخلق مستعمرات ، لكن رجـال الأعمال الذين رافقوا الحملات العسكرية وجدوا انه من الطبيعى وضع الأملاك التى استولوا عليها ايـام الارهاب تحت الحماية الوطنية· ومـن ذلك الوقت ، تكون حزب المعمرين الذى خلــق اسطورة الجزائر·

لقـد أوهم قادتـه الرأى العـام مـن خـلال الندوات الصحفية بأنه لايوجد هناك أى شىء يماثـل مقاطعة الجزائر وضواحيها التى تتميز بوفرة الأراضى لكل من أراد أن يأخذها ، والتى لـن تواجه فيها منشآتنا الا عقبة ضئيلة من طرف العرب ، خـاصة وأنه فى الامكان « تسويد » ملفات الحكـام الجهويين الذيـن لا يظهرون تأييدا كافيا لسياسة اقامة المستعمرات· وهكذا وقع ترويض السيد النبيل « بيشون Pichon » وأصبح لا مفر من فسح المجال أمام عمليات الجنرال « كلوزيـل » الذى يتمتع بتأييد حزب المعمرين ولـه دراية هائلة بفن الأبادة ··· » ·

السياسة الفرنسية فى مطلع القرن التاسع عشر

من الاشياء المتعارف عليها لدى الفرنسيين هى تعلقهم بوطنهم وقلة رغبتهم فى الهجرة الى بلد آخر· وهذا يعود فى الأصل الى موقـع فرنسا الاقتصادى والاجتماعى فى القـارة الأوروبية· وخلافا لوضعية بعض دول تلك القـارة ، فـان فرنسا تمتعت بتوازن اقتصـادى متكـامل ومستوى رفـيع مـن الثقـافة· فالفرنسيون لـم يـواجهوا الازمـات الاجتمـاعيـة والاقتصادية الحادة التى هزت أوروبا· مثل ازمـة البطـاطس التى حصلت فى ارلندة أو كـارثة وبـاء القطـن فى انجلترا ، ولذلك لـم يواجهوا الاختيـار المريرين البقاء فى بلدهم ومواجهة مجاعة أو الهجرة الى بلد آخر والبحث عن لقمة العيش هناك ·

وبالاضافة الى توفر العيش الذى ساعد الفرنسيين على المكـوث فى بـلدهم ، هنـاك النمو البطىء الذى تميز به سكان فرنسا منذ مدة طويلـة · فالانخفاض فى مستوى النسل أدى الى قلة الازدحـام السكانى واشباع الحاجيات المتزايدة بطريقة نظامية منسقة· ونتيجة لذلك ، لقد قل اقبال الفرنسيين على الهجرة الى الخـارج ولم يقع هنـاك أى ارتبـاك أو خلل فى انظمت التجارة وجلب المواد الاوليـة لسد حـاجات الشعب الفرنسى · فى حين نجد أن دولا اخرى مثل بريطـانيا ، قـد شجعت ابنـاءها على الهجرة الى مستعمرات ما وراء البحار نتيجـة لدوافع تجارية وبقصد سد حاجيـات البريطـانيين · وعلى هـذا ، فالدوافع الاساسية التى ادت بالحكومة الفرنسية الى تبنى سياسة التوسع وراء البحار وخلق مستعمرات ما هى الا عوامل سياسية داخلية أو سياسة خارجية تهدف بالدرجة الأولى الى خلقسمعة شعبية والمحافظة على بقائهم فى الحكم (١) ·

وتحديدا لموضوعنا هذا ، فـاننا قد قررنـا أن تكـون ١٨١٥ كبداية لتحليلنا هذا ، وذلك لما تتميز به هذه المرحلة الحاسمة فى تاريخ الاستعمار الفرنسى من صراع متواصل بين العهد القديم والجيل الثورى الجديد ، وتناقض شديد بين الأنظمة الفـاسدة التى كانت تسير عليها الأسرة الملكية والتنظيمات الثورية التى تبنتها الثورة ثـم دعمتها امبراطورية نـابليون المتحررة· (٢) ان مجرد عودة تشارل العاشر وبقية افراد الحاشية المطرودين من قبل قادة الثورة قد اثار مخاوف الفرنسيين خـاصة وان الأسرة الملكيـة قد اعيدت الى البلد من طرف الحلفاء وليس تلبية لرغبة شعبيـة · ولعل الشىء الذى زاد الوضع تعقيدا هو تصميم المهاجرين العائدين من ابناء الأسرة المالكية على استعادة نفوذهم ومعاقبة المتواطئين مـع الحكم الثورى الذى وضع حدا لا متيازاتهم ، وبـالفعل لقد اثبتت تجربة ١٨٣٠ انهم «لم يتعلموا شيئا ولم ينسوا أى شىء » · لقد نفد صبرهم ودفعوا بالأسرة الملكية الى الهاوية يوم شعروا أنه فى امكـانهم التحكم فى مصير الشعب الفـرنسى من جديد وفـرض ارادتهم عليـــه ·

ولتجنب الدخول فى أيـة منـاقشة تهدف الى تحديد العلاقة التى تربط بين الأسرة المالكية والمجلس

الوطنى الجديد ، اراد تشارل العاشر أن يتغلب على استياء الشعب من حكومته بمنـافسة بريطانيـا فى البحار واشعار العالم بعظمة فرنسا فى المجال الدولى· لكن هذه المحاولة لطمس مكـاسب الثـورة وتحويل الانظار عن السياسة الداخلية المتعارضة مع مكاسب الثـورة كـان مـآلها الفشل· فـقد تصدى القـادة الباريسيون لسيـاسة اقـامة المستعمرات واصروا على ضرورة ابقاء مبادئى الثورة واحباط كل مؤامرة تهدف الى عودة الحكم الرجعى القديم · ومن جملة الاشيـاء التى لجأوا اليهـا لترجيح كفتهم وانجـاح خطتهم ، اقـامة علاقـة وديـة مع الطبقـات الريفية والتحالف قصد اقامة نظام تحررى يعتمد اساسا على الطبقة الريفية الكادحة (٣) ، وفى النهاية ، لقد كللت مجوداتهم بالنجاح وأطاحوا بالنظام الملكى الذى أراد المراوغـة والتهرب مـن مواجهـة الشعب الفرنسى بالبحث عن مغامرات فى الخارج واقامة مستعمرات فرنسية ·

والحقيقة أن الطبقة الملكية وحاشيتها لـم تكن الفئـة الـوحيدة التى اظهرت عـداوتهـا السـافرة للمكاسب الاقتصادية والاجتماعية التى حققتها الثورة الفرنسية· فهناك أصحاب الاسطول التجارى ورجال الاعمال الذين حقدوا على كل من تعاون مـع الثورة وساعد نـابليون على تحقيق المسـاواة والعدالة فى المجتمع الفرنسى · لقد بدى لهم أن الحياة فى العهد الجديد سئيمة وغير منعشة · فالثورة قد جردتهم من مكانتهم المرموقـة فى المجتمع والامبراطورية قضت على ارباحهم الهائلة غداة انهزام نابليون واعـادة السيطرة البريطانية على التجارة فى العالم · وعلى هذا ، فكروا فى البحث عـن حلفـاء لهم فى المجتمع الفرنسى الذين قد يساعدوهم على تنشيط التجـارة واقامة مستعمرات لتصدير البضاعات الفرنسية ·

وهنـا وقع العثور على الجيش الفرنسى الذى هو الآخر حلت به هزيمة « واترلوا » واصبح لامفر له من ازالـة تلك الوصمة من العـار · لقد شعر قـادة الجيش الفرنسى انه من الضرورى استعادة مكـانة الجندى الفرنسى فى المجتمع واظهـار شجـاعته · ونظرا لتفوق بريطانيا والنمسا فى أوروبا، فليس هناك اى مجال لاثبات كفاءة وشجاعة الضباط الفرنسيين الا فى شمال افريقيا حيث اشتهر قـادتها بالسطيرة على المرور عبر البحر الأبيض المتوسط ومصالح الدول الكبرى لاتتعارض مع مصلحة فرنسـا · والوثـائق التـاريخية كلها تشير الى أن بريطانيـا والنمسا قد شجعتا تشارل العـاشر على غزو الجـزائر لأن ذلك قد يساعد صديقهم الملك الفرنسى فى المحافظة على عرشه وبقاء فى الحكم لمدة اطول ·

وعلى هذا ، فقد اقتضت مصلحة الفئات الثلاث، قادة الأسرة الملكية المنفيين فى عهد الثورة وأصحاب السفن والتجارة وقـادة الجيش ، أن يقـوموا بغزو الجزائـر وتحقيق مطـامحهم · وسبب هـذه الحرب التى شنوها على شمال القارة الافريقية لم تكن ناتجة عن احتياج الشعب الفرنسى لمواد أوليـة أو ازدحام فى السكان بقدر ماكانت تستهدف خنق اصوا ت الطبقة المتحررة والمنادية بالعدل والمساواة واستعداة هيبة الجيش التى اصبحت فى الحضيض منذ اليوم الذى انهارت فيه امبراطورية نابليون الشاسعة الأطراف ·

الجيش يـقيم دولـة

وكتمهيد لاحتلال الجزائر ، فقد استغل تشارل العـاشر ذلك الخلاف الطويل الصدى بين تـاجرين جـزائريين والحكومة الفرنسية التى اشترت القمح منهما وما طلت فى دفع الثمن المتفق عليه · وعندما قام داى الجـزائر بمساعى لدى الحكومـة الفرنسية لتسديد الديون المتراكمـة ، والتى بلغت ما يعـادل

مليون جنيه سنة ١٨١٧ (٤) ، رفض الملك الفرنسي أن يصغي الى طلبه ويستجيب لعروضه السخية التي تقدم بها اليه لتسوية الخلاف القائم بين الطرفين ٠ وكانت النتيجة الحتمية هي لطم القنصل الفرنسي بالجزائر على خده بمروحة داي الجزائر الذي استاء من وقاحته وتصرفه المنافي للعرف الدبلوماسي ٠ لقد شعر الداي بأن الدبلوماسي الفرنسي يسعى الى تعقيد الامور وانه يعمل بتواطيء مع الفئات الفرنسية التي كانت تحاول خلق جو مكهرب لامجال امامه من دخول فرنسا في حرب مع الجزائر ٠

الا أن نتيجة الهجوم على الجزائر لم تأت وفق الخطة التي اعدها تشارل العاشر ٠ لقد انهار الحكم الملكي وأطاح به الشعب الفرنسي سنة ١٨٣٠ ٠ بيد أن الجيش والتجار حصلوا على الاهداف التي دخلوا المعمعة من أجلها ٠ وهذا يتلجى بوضوح في اقامة نظام عسكري في الجزائر يهدف الى توطيد مكانة فرنسا في شمال افريقيا وايجاد الفرصة لتعزيز مهن الضباط ووجود عمل دائم يرتزقون منه ٠ ومن الاشياء التي ساعدت الضباط على اقامة شبه حكومة فرنسية في الجزائر :

١ ـ التأييد المالي المتواصل من طرف باريس لأن المقاومة الجزائرية لن تتوقف وهذا سيجبر الحكومة الفرنسية علىمواصلة امدادات الجيش بكل ما يحتاجه من ذخيرة واعتمادات مالية ٠

٢ ـ الوضع السياسي السائد في باريس حيث تكاثرت الاحزاب وتعددت المجالس واصبح من الصعب على المسؤولين في الدولة الاتفاق على اجراءات جماعية ضد قادة الحكم العسكري في الجزائر ٠

٣ ـ احتياج الجيش الى معمرين فرنسيين للاستيطان بالاماكن التي تحت سيطرته ورغبة الحكومات الفرنسية في التخلص من بعض العناصر المناوئة للحكم وذلك بابعادهم الى الجزائر ٠ فالجيش من هذه الناحية قد يساعد الحكومة على « تأديب » الافراد الذين يثيرون زوبعات سياسية في فرنسا ٠

وفي البداية اطلق اسم «قائد الجيش الافريقي» على القائد العسكري الذي يعتبر المسؤول الكبير عن تسيير دفة الحكم في الجزائر ٠ الا أن هذا الاسم أدخل عليه تغييرا خفيفا سنة ١٨٣٤ واصبح يسمى «الحاكم العام للممتلكات الفرنسية في شمال افريقيا» وفي هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر ، عمد الضباط الفرنسيون الى توطيد حكمهم واخضاع الجزائريين الى سلطتهم المباشرة ٠ ولتحقيق هذه الاهداف لجأوا الى :

١ ـ جلب العدد الكافي من المعمرين الذين يساعدونهم على اقامة المستعمرات وتزويد الجيش بالمواد الأولية ٠

٢ ـ الاستيلاء على اراضي الجزائريين التي منها يكسبون رزقهم ٠

٣ ـ اقامة خلايا سرية وعلنية اطلق عليها اسم « المكاتب العربية » ومهمتها التسلل الى داخل صفوف الجزائريين وتبرير الاحتلال الفرنسي واظهار مزاياه ٠

٤ ـ عدم تخويل السلطة لأية وزارة من الوزارات في باريس بمراقبة اعمالهم ما عدا وزارة الحربية التي تتفهم قضيتهم ٠ وهذه المبادرة من طرف الجيش الفرنسي في الحقيقة لم تكن تهدف الى اخضاع الجزائريين بقدر ما كانت ترمي الى اقناع الشعب الفرنسي بفكرة اقامة المستعمرات ومباركة العمل الوطني الذي يقوم به الجيش ٠ وبهذا يتسنى لقادة الاحتلال ان يتغلبوا على امتعاض الشعب الفرنسي من اقامة المستعمرات ورغبته في تحسين الوضع السياسي الداخلي ٠ والشيىء الذي أثار

مخاوف الضباط بصفة خـاصة هو الشعور السائد لدى الرأى العام الفرنسى سنة ١٨٣٠ بأنه من مصلحة فرنسا الانسحـاب من الجـزائر لـولا أن هذا يمس شرف الجيش (٥) ·

وفى الفترة مـا بـين ١٨٣٤ و ١٨٤٥ ارتفعت قوة الجيش من ٦٠ الى ١١٠ ألف رجل (٦) وأصبح فى امكانه جبر الجزائريين على مهـاجرة اراضيهم الخصبة · وقد عبر عن هذه السياسة بدقة الماريشال بوجو فى خطابه الهام الذى القاه فى البرلمان الفرنسى يوم ١٥ جانفى ١٨٤٠ حين قال : «اننى لم أجد أيـة وسيلة فعالة لاخضاع الجزائر أحسن من مصـادرة الأملاك الزراعية (٧) وأكد ان السيـاسة العسكرية ستكون مركزة على اتاحة الفرصة للمعمرين الفرنسيين بالاقامة فى كل مكان توجد فيه مياه واراضى خصبة ولن تكون هناك مراعاة لمن هـو الملك الشرعى لتلك الأراضى (٨) وأكد أن مهمة الجيش الفرنسى ليست الجرى وراء العرب لان ذلك لايجدى نفعا وانما منعهم من زرع وحصد اراضيهم (٩) ·

كيف بدأت هجرة الجزائريين

وبطبيعة الحال ، فان سياسة الشدة التى سلكها الجيش الفرنسى قـد ارغمت الجزائريين سواء على الاعتصام بالجبال والدفاع عن حقوقهم من هناك أو الانتقال الى أماكن أخرى بحثـا عن العيش · وهذه الخطـة التى سـار عليها الحكـام الفرنسيون بدأت تجرى تطبيقها بكل شدة منذ ١٥ افريـل ١٨٤٥ يـوم قسموا الجزائر الى الأراضى الخاضعه للحكم المدنى والاراضى الى تتبـــع الحكـم المختـلط والأراضى « العربية » التى تخضع للنظام العسكرى · ففى النوع الأول من الاراضى اقاموا المجالس البلدية واختاروا النواب الذين يمثلون مصالح المجموعة الأوروبية · وفى الأراضى المختلطة ، حيث كان من الصعب على الأوروبين تسيير الامور بأنفسهم نظرا لقلـة عددهم ، يعين الحاكم العسكرى العام محافظ عسكرى ويكلفه بتسيير الأمور فى الناحية المعين عليها · والمعمرون الاوروبيون يستطيعون انشاء المتاجر والحصول على الأراضى التى يحتاجون اليهـا بعد مـوافقة وزيـر الحوبية فى باريس (١٠) والقسم الثالث اطلق عليه اسم « الاراضى العربيـة » وللقـادة العسكريين فيه مطلق الحرية فى تقلد زمـام أمور العدالـة والتعليم والتسيير الادارى · وانفردت هذه الاراضى بالحكم العسكرى المبـاشر وذلك نـظرا لان القـاطنين فيهـا جزائريين والسياسة المتبعة هناك هى حرمان أهـل البلد من الحقوق التى منحها الدستور الفرنسى لكل أنسان يعيش تحت السلطة الفرنسية ·

وفى الحقيقة فـان السيـاسة العسكرية التى اتبعها الضبـاط الفرنسيـون فى الجـزائر هى التى أدت الى هجرة الجزائريين ولن يدرك الانسان ابعادها الكبـرى الا بتسليط بعض الاضـــواء على النفـوذ السياسى الذى كان يتمتع به الحـاكم العسكرى فى الجزائر · فقد كان له الحرية التامة فى قبول أو رفض جميع المقترحـات المقدمـة اليه من طرف الأوروبيين لاقامة المراكز التجارية فى الأراضى العربية (١١) · وسلطته الواسعة قد أدهشت حتى الفرنسيين انفسهم · فعندما زار الجزائر العالم الفرنسى « طوكفيل » لاحظ ان المهمة الرئيسية للحـاكم العسكرى فى الجـزائر كانت تتمثل فى فرض السيطرة على البلد ، والاشراف على تسيير أمور السكان ، والاهتمام بالأمور المتعلقة بالسلم والحرب والنفوذ الواسع لسد حاجيات الجيش وتوزيع السكـان الاوروبيون والعرب فى الأراضى المختلفة (١٢) هذا ونشير الى انـه بموجب المرسوم المؤرخ فى ١٨٤٥/٤/١٥ قد اصبح الحاكم العسكرى هو المكلف بتعيين كل مدير عام للشؤون المدنية ويعتبر

كل واحد من هؤلاء المديرين المساعد الكبير للحاكم العسكرى كما انه هو الذى يقترح عليه جميع القرارات التى تمس نواحى تعمير الأرض ، والشؤون الفلاحية ، والتجارة والاشغال العمومية (١٣) ٠

ونحن لا نريد أن ندخل فى تفاصيل الموضوع المتعلق بنتائج الحكم العسكرى ومن هو المستفيد من اقامته فى الجزائر : هل هم المعمرون ، أم الجيش أم اهل البلد الأصليين ، ونكتفى بكلمة شاهد عيان الذى اعطانا وصفا كاملا عن ذلك ٠ ففى شهر اكتوبر ١٨٤١ قام « كوطفيل » بزيارة للجزائر ولاحظ أن هناك أشياء غريبة ومدهشة ٠ لقد أحس بأن قادة الجيش يكنون عداوة للمعمرين ٠ والسبب فى ذلك أن الضباط قد حقدوا على المعمرين الذين جمعوا الاموال الطائلة ، ولذلك حاول العسكريون من جهتهم انتهاز كل فرصة ملائمة للتقليل من ارباح المعمرين أو العمل على افلاسهم (١٤) ولا حظ « طوكفيل » ، كذلك ، أن المعمرين من جهتهم كانوا متضايقين وحاقدين على الحكام العسكريين الذين لم يعطوهم الحرية الكاملة للاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من الأراضى واخضاع أهل البلد لحكمهم المباشر ٠

ومن الاشياء التى اذهلت « طوكفيل » هى « الوحشية السريعة » التى تمت بها مصادرة الأراضى من طرف الحاكم العسكرى ٠ فقد استغل هذا الاخير المرسوم الصادر فى ١٧ اكتوبر ١٨٣٣ الذى بمقتضاه خول للادارة الفرنسية أن تستحوذ فى خلال أربع وعشرين ساعة على أية قطعة من الأرض بدون تعويض فالمحاكم كانت تشترط يوما واحدا فقط لتعيين خبير من طرف مالك الأرض وخبير من طرف الادارة الفرنسية لتقييم الأرض المؤممة ٠ وفى حالة عدم تعيين واحد من طرف المالك ، تقوم المحكمة بتعيين خبير آخر عنه وتصدر حكمها بتحويل الملكية ٠ وترتب عن هذا النظام ارتباك فى الحياة الاجتماعية وتدهور فى العلاقات التى تربط الجيش بالمدنيين ٠ ومن جملة النصائح الهامة التى قدمها « طوكفيل » للحاكم العسكرى بالجزائر هى العدول عن اسلوب مصادرة الأراضى بهذه الطريقة الوحشية لأنها قد تعطى فكرة للمواطنين الجزائريين بأن فرنسا تحاول ازاحتهم واحلال محلهم العنصر الأوروبى (١٥) ٠

وقد بلغ الحكم العسكرى فى الجزائر أوجه فى عهد الجنرال « بوجو » الذى حاول ان يسخر الأوروبيين المدنيين لتوطيد دعائم النظام العسكرى ٠ فقد اشترط على كل معمر أوروبى أن يؤدى خدمة عسكرية فى الجيش لاتقل عن ثلاث سنوات قبل أن يسمح له بالحصول على الأرض مجانا ٠ وهذا ، بطبيعة الحال، أدى الى توتر العلاقات بين الجيش والمعمرين الفرنسيين ٠ ولكن الحدث الهام الذى أدى الى زعزعة الحكم العسكرى فى الجزائر هى المجزرة الرهيبة التى ذهب ضحيتها فى يوم واحد خمسمائة امرأة وطفل جزائرى عندما لجاؤا الى كهف وقضت عليهم قوات الجنرالات « بيليسية » و« كافينياك » ، و « سانت أرنو » (١٦) ٠ فقد وجهت انتقادات لاذعة الى الجنرال « بوجو » من طرف نائب فرنسى ، يطلق عليه اسم « لامارتين » حيث اتهمه بأن الأسلوب الذى اتبعه اخذ شكل « الابادة ويعتبر اسوأ من جرائم نيرون وتيبيريوس » (١٧) بيد أن نائب آخر ، يدعى « كورسيل » قد لفت نظر النواب الفرنسيين الى خطر آخر يهدد مستقبل شمال افريقيا ٠ والذى كان يعنيه هذا النائب هم المعمرون المدنيون الذين بدأت صحافتهم فى الجزائر العاصمة تنشر الحقائق مشوهة وتحث على محق الجزائريين والتى تعتبرهم من أحط الاجناس البشرية (١٨) ٠

وترتب عن هذه المناقشة انشـاء لجنة برلمانية متكونة من ثلاثة نواب ، وتكليفها بجمع الحقائق عن الاعمال التى يقوم بها الجيش الفرنسى فى الجزائر · وبعد اقامة وجيزة بمدينة الجزائر العاصمة ، عادت اللجنة الثلاثية بتقرير غامض · وخلاصته أن مصلحة فرنسا تقتضى انشـاء مجموعة فرنسية تسير حسب القوانين والعادات المستمدة من الحضارة الفرنسية· ثم أوصت اللجنة فى قرارها بحسن معـاملة ابنـاء البلد ، كما تقتضى مصلحة الفرنسيين والمحافظة على شرف كلمتهم (١٩) · ولازالة هذا الغموض وتقديم الاقتراحات الواضحة حول تحسين الحالة العسكرية بالجزائر ، قـام « طوكفيل » بتحديد الخطوات التى يجب اتخـاذها للتغلب على الفـوضى التى سـادت الأراضى التى سيـطر عليهـا الجـيش الفـرنـسى بالجزائر · وهذه الاقتراحات يمكـن تلخيصها فيما يـلى :

١ ـ تخفيف حدة نفوذ باريس على الجزائر ،

٢ ـ ادخال برنامج اللامركزية بالجزائر بحيث أن الحاكم العام يتقاسم السلطة السياسية مع معاونيه ،

٣ ـ الاعتماد على انظمة ادارية تكون غاية فى البساطة والتنسيق المحكم فى الميدان الادارى ،

٤ ـ تمنح للمسؤولين المحليين سلطات تنفيذية أوسع من التى أعطيت لهم ·

٥ ـ تعيين مدير للشؤون الدنية وفصل سلطته عـن السلطـة العسكريـةالتى هى فى يد الحـاكم العام (٢٠) ·

ثم ان « كوطفيل » قد كشف النقاب عن الطريقة الاستبدادية التى كان يستعملها الحاكم العام لتوطيد سلطته العسكرية بـأى ثمن كـان · فقد ابدى تدمره من سلطة الحاكم العام على القضاة وعزلهم اذا هو أراد ذلك · كما أنه استاء مـن المراسيم التى تسمح للحاكم العام بمعاقبة أى شخص يعتبره مهددا لأمن الجزائر · ونلاحظ ايضا أن « طوكفيل » قد تأثر كثيرا بالقوانين الصارمة التى تفرض على سكـان المناطق المختلطة والتى كانت تتكون فى معظمها من الجزائريين وعدد بسيط من الأوروبين · كمـا اندهش من كـون الحاكم العام يتمتع بجميع الصلاحيات التى تخول له مصادرة أراضى أى فرد ودفع تعويضات له فى شكل سندات يقع تسديدها فيما بعد (٢١) ·

وأدت الانتقادات البرلمانية واستنكار «طوكفيل» للاعمـال العسكريـة التعسفيـة الى اضمحلال نفوذ الحاكم العام وسطوع نجم القادة المدنيين فى الجزائر · وتصادف تغير القوة السيـاسية من يـد العسكريين الى المدنيين فى الجـزائر الاطـاحة بحكومـة لويس فليب سنة ١٨٤٨ وقيـام حكومـة ثورية فى فرنسا · ويرى بعض العلمـاء أن نجـاح ثـورة ١٨٤٨ يعتبر بمثابة انتصار لـ ١٢٥،٠٠٠ معمرا أوروبى بالجزائر حيث ان الملكة هى التى كانت سبب مصائبهم · فقد تمادت فى تجاهلها لمطالبهم ووضع حد لسلطة الجيش عليهم · ثم انها تركت قضية الاراضى المصادرة غير محددة · هذا بالاضافة الى وقفها موقف المتفرج ازاء سياسة الادمـاج وتثبيط عزائم الذين ارادوا اقـامة مستعمرات فى البلاد (٢٢) · وعلى العكس من ذلك، نجد أن النظام الجمهورى الجديد قد جـاء بسياسة محددة وواضحـة تجـاه الجـزائر · وخلاصتها ان الجمهوريين قد صمموا على اتباع سياسة «الادماج» التى كـانت مبنيـة على فكرة المسـاواة بـين جميع الفرنسيين واعتبار جميع المقـاطعات الفرنسية جزء لا يتجزأ من فرنسا (٢٣) ·

وفى شهر أوت ١٨٤٨ ، وضعوا هذا المشروع حيـز التنفيد حيث اتخذت الخطوات اللازمـة لنقـل الاعمال الادارية لكثير مـن المصالح الحكومية مـن

الجزائر الى باريس . وبمقتضى التعديلات الجديدة ، انتقلت أمور العدالة فى الجزائر الى الوزارة المختصة بذلك فى باريس ، باستثناء الأمور التى تتعلق بالمسلمين الجزائريين فقد بقيت تابعة لوزارة الحربية، أما الحاكم العام فقد اصبحت سلطته محدودة ، ولم يعد سوى منسق لشؤون فرنسا بالجزائر . اذ انه وضع تحت التصرف المباشر لوزيرى الحربية والعدلية فى باريس واصبحت مهمته هى التأكد من تطبيق وتنفيذ الأوامر القادمة من العاصمة الفرنسية .

واذا كانت القرارات الهامة الصادرة فى المرسوم المؤرخ فى ١٢ اكتوبر ١٨٤٨ قد اتخذتها باريس لاراحة المعمرين من التعسف العسكرى فان المستوطنين الاوروبين بالجزائر قد شعروا بخيبة الأمل وهضم حقوقهم من طرف باريس . والسبب فى استقبال قرارات باريس ببرود هو تحويل السلطة من الحاكم العام الى وزير الحربية الفرنسى بدلا من وضعها فى يد الأوروبيين المدنيين بالجزائر . ومما زاد فى مخاوفهم اعطاء الصلاحيات لوزير الحربية بالاشراف على جميع الشؤون التابعة لوزارات الداخلية ، والاشغال العامة والفلاحة والمالية . وبهذا بقى مصيرهم فى يد وزير الحربية ومن الصعب عليهم تدعيم نفوذهم فى الجزائر . وقد احتفظ وزير الحربية بهذه المهمات الى يوم ١٢ أوت ١٨٨١ ، يوم صدر قرار آخر بتجريده من هذه الصلاحيات (٢٤) .

وبهذا الصدد نشير الى أن القادة العسكريين فى الجزائر ووزارة الحربية فى باريس كانا قد دخلا فى صراع حول السياسة التى ينبغى اتباعها فى الجزائر منذ سنة ١٨٤٠ . فبينما كان الماريشال « بيجو » الذى كان الحاكم العام للجزائر من سنة ١٨٤٠ الى غاية ١٨٤٧ ، يسعى الى طلب المزيد من الجنود وتوزيع الأراضى المصادرة على الجنود الذين أدوا خدمتهم العسكرية ، نجد الجنرال «لاموريسيير» يدافع عن نظرية أخرى قائمة على أساس استثمار الأراضى التى استولت عليها فرنسا وليس جلب المزيد من رجال الجيش الفرنسى . وعندما قبلت وزارة الحربية الاقتراح الأخير وأصدرت مرسوما يوم ٤ ديسمبر ١٨٤٦ لتبنى هذه الفكرة ، تقدم « بيجو » بطلب الى المجلس الوطنى الفرنسى وحثه فيه على تخصيص ٣ ملايين فرنك لانشاء المراكز الزراعية لاولئك الجنود الذين قاموا باداء الخدمة العسكرية فى الجزائر ولما رفض المجلس هذا الطلب لتزويد الجنود بمساعدة مالية ، قدم « بيجو » استقالته فى شهر جوان سنة ١٨٤٧ (٢٥) .

ولكن الحقيقة هى أن الحكم الجمهورى الذى جاء عقب ثورة ١٨٤٨ قد عمل بكل جهد لترضية رغبات المعمرين بالجزائر . ففى ١٩ سبتمبر ١٨٤٨ صدر مرسوم يقضى بتخصيص ٥٠ مليون فرنك لمساعدة المهاجرين المدنيين الى الجزائر : ٥ ملايين تصرف سنة ١٨٤٨ و ١٠ ملايين تخصص لسنة ١٨٤٩ ٣٥ ملايين للسنوات التى تأتى عقب ذلك (٢٦) . وكانت تهدف سياسة الجمهوريين الى توطيد دعائم الاستعمار المدنى وذلك ببناء القرى الصغيرة للمهاجرين الاوروبيين وتشجيعهم على استثمار الأراضى الخصبة . كما انهم كانوا يأملون أن يتخلصوا من المشاغبين فى باريس لأن بقاءهم فى العاصمة الفرنسية يشكل خطرا دائما على النظام الجمهورى . ولترغيب المهاجرين فى الالتحاق بالجزائر افواجا ، نص المرسوم المذكور آنفا على تزويد كل عامل مهاجر بقطعة أرض تتراوح بين ٢ و ١٠ هكتارات ، ومنزل ، بالاضافة الى بعض المساعدات المادية . وكان لهذه العروض المغرية أثر كبير على نفوس العمال الكادحين . فقد قبل الالتحاق بالجزائر حوالى ١٣،٥٠٠ فى سنة ١٨٤٨ . واثناء توديع الفوج الأول من المهاجرين القى رئيس الحكومة خطابا قال فيه : ان المستقبل لكم ، حيث ستجدون أمامكم مناخ صحى ، وسهول شاسعة واراضى خام وخصبة ملك لكم وليس لأحد آخر غيركم ، والتى ستحرثونها وترتقون الى حياة مزدهرة وشريفة (٢٧) .

هـــــوامش

1) Henri Brunschwing, FRENCH COLONIALISM 1871-1914 : NYTHO AND REALITIES. London Pall mall Press, 1964, p. 16.

2) David Thompson, DEMOCRATIC FRANCE SINCE 1870. New York : oxford university Press, 1964 p. 14.

3) Brunschwing OP.CIT. p. 18.

4) Tania mathews, WAR IN ALGERIA : BACKGROUND FOR CRISIS. New York : Fordham university Press, 1961, p. 7.

5) D. K. Fieldhouse THE COLONIAL EMPIRE, London : weidenfeld and Nisbon limited, 1966, p. 181.

6) Gsell, HISTOIRE DE L'ALGERIE, Paris : Ancienne librairie Furne Boivin et société, éditeurs 1929, p. 217.

7) Bugeaud, in LES CONSTRUCTEURS DE LA FRANCE D'OUTRE-MER. Paris : Editions Correa, 1946, p. 208.

8) Mathews, OP. CIT. p. 10.

9) Bugeaud, OP. CIT. p. 209.

10) J. L. (de) Lanssen : L'EXPANSION COLONIALE DE LA FRANCE. Paris : Ancienne librairie Germer Baillière et Cie, 1886, p. 84

11) Ibid ; p. 84.

12) Alexis de Tocqueville, ŒUVRES, PAPIERS ET CORRESPONDANCE DE TOCQUEVILLE. Paris : Editions Gallimard, 1962 p. 338.

13) Lanssen, OP. CIT. p. 82.

14) Tocqueville, OP. CIT. p. 264.

15) IBIA ; p. 217.

16) Malvin Richter "Tocqueville on Algeria". THE REVIEW OF POLITICS. Vol. 25, Number 3, (July, 1963) p. 389.

17) IBID ; p. 389

18) IBID ; pp. 389-90

19) IBID ; p. 391

20) IBID ; p. 393

21) IBID ; p. 393

22) Charles - André Julien, HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE : *LA CONQUETE ET LES DEBUTS DE LA COLONISATION* : 1827-1871. Paris : Presses Universitaires de France, 1964, pp. 342-43

23) Gordon Wright, France in modern Times : 1760 to the present Time. Chicago : Rand Mc Nally C°, 1960, p. 256

24) Julien, OP. CIT. p. 351

25) Frederic Mauro, L'EXPANSION EUROPEENNE : 1600-1870. Paris : Presses Universitaires de France, 1964, p.248

26) Quoted in Maurice Moissonier, "Origines et débuts de la conquête de l'Algérie", CAHIERS INTERNATIONAUX, vol. 12, N° 113, 1960, p. 75

مصـــادر هـــذا البحث

1) Brunschwing, H. FRENCH COLONIALISM 1871-1914 : MYTHS AND REALITIES. London : Pall Mall Press, 1964.

2) Bugeaud, in LES CONSTRUCTEURS DE LA FRANCE D'OUTRE-MER. Paris : Editions Correa, 1946.

3) Fieldhouse, D. K. THE COLONIAL EMPIRE. London : Weidenfeld and Nisbon Limited, 1964.

4) Gsell, HISTOIRE DE L'ALGERIE. Paris : Ancienne Librairie Furne Boivin et société, éditeurs, 1929.

5) Julien, C. A. HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE : *LA CONQUETE ET LES DEBUTS DE LA COLONISATION* : 1827-1871. Paris : Presses Universitaires de France, 1964.

6) Lanssen (de) J. L. L'EXPANSION COLONIALE DE LA FRANCE. Paris : Ancienne Librairie Germer Bailler et société, 1886.

7) Mathews, T. War in Algeria : BACKGROUND FOR CRISIS. New-York : Fordham university Press, 1961.

8) Mauro, F. L'EXPANSION EUROPEENNE : 1600-1870. Paris : Presses Universitaires de France. 1964.

9) Moissonier, M. in "Origine et débuts de la conquête de l'Algérie" CAHIERS INTERNATIONAUX, Vol. 12, Number 113, 1960.

10) Thompson, D. Democratic France since 1870. New-York : Oxford university Presses, 1964

11) Tocqueville, A. ŒUVRES, PAPIERS ET CORRESPONDANCE DE TOCQUEVILLE. Paris : Editions Gallimard, 1962.

12) Wright, G. FRANCE IN MODERN TIMES : 1760 To the present time. Chicago : Rand Mc Nally Company, 1960.



ابن هانئ الأندلسي

أحمد بن ذياب
أستاذ بثانوية الفتح
ـ البليدة ـ

لا أحسبني مبالغا اذا قلت : « ان الشاعر النابغة ابن هـانئ الانـدلسي » مولدا ، والعـربي نسبا ، والجزائري نبوغا ، والشيعي مذهبا ، ما يزال حتى الآن لـما يوضع موضعه ، ولـما ينل حقه من عنايـة النقاد والباحثين ، وما تزال الكلمات تكتب حولـه كلمات مجملة حينا ومتضاربة أحيـانا ، ولا تـكاد تفي بمـا يرادمنها .

فاذا أضيف الى الاجمــال والتضــارب اللذين يكتنفانه هذا النقص العظيم في ديوانه المطبــوع - في لبنان - أصبح له الحق علينا أن نثير حوله نقاشا ، وأن نحاول جاهدين أن نلقى بعض الاضواء ولو موضعية محـدودة ، أو هامشية غـير مركزة ، عسى أن تساعد على تجديد النظر فيما قيل - ويقال- عنه حتى يتبين الصبح لذى عينين ، وتتجلى الحقيقة للناظرين والدارســين .

وقد يكون من أول ما يلاقى الباحث - أمــام المدخل الاول الى دراسته - هذا الخلاف حول مولده أين كان ؟ ومتى كان ؟

فالاندلسيون - مثل الحميدى فى جذوة المقتبس- وقد يكون من طلائع من تناوله - يجمل القــول حوله اجمالا . ولعل هذا الاجمال يفسره لنا قولـه « خرج عن الاندلس فشهر شعره فى الغربة »

وتكون عبارة الحميدى المجملة هذه هى الـتى يكررها الضبى بنصها فى كتابه « بغية الملتمس » لكن ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى حلى المغرب » وابن الابار فى كتابه « التكملـة » يتفقان على أنـه من مواليد « البـيرة » وهى - كما يقول ياقوت - مدينة متصلة بأراضى قبرة بين القبلة والشرق مـن قرطبة . والبيـرة - يومئذ - عاصمة الولاية ماتزال لما تنافسها غرناطة .

واذا كان ابن الابار وابن سعيد من أعرف الادباء بتاريخ الادب الاندلسى ورجاله ، واذا كان ابن حزم نفسه - كما نقل عنه شكيب ارسلان - فى الحلـل السندسية - قبلهما يؤيدهما فان ما جاء بعد ذلـك - أو قيل ذلك - فى كتب أخرى تقول « انـه مـن مواليد اشبيلية » فهو غير صحيـح .

وقد يكون ياقوت الحموى الذى قال فى معجـم الادباء « انه ولد باشبيلية ونشأ بها » هو الــذى أوقع من أتى بعده فى هذا الخطأ . فقد تابعه فيه من القدماء رجال مثل ابن خلكان فى وفيات الاعيـان وأدباء من المحدثين مثل الزيـات فى تاريـخ الادب العربى . وأحمد أمين فى ظهر الاسلام . والفـاخورى فى تاريخ الادب . وما أكثر غيرهم . فاذا بطـلت رواية «اشبيلية» لا فى المولـد ولا فى النشــأة نعود الى ابن الابار الذى يقدم لنا تفصيلات - لايكاد يتعرض لها غيره فيقول : « محمد بن هانىء بن محمد ابن سعدون الازدى الاندلسى - غلب عليـه ذلك - من أهل البـيرة . ونشأ بقرطبة - يكنى «أبا القاسم» وهو من ولد المهلب بن ابى صفرة . وأبوه من قرية من قرى المهدية . دخل الاندلس . وولد له ابنــه أبو القاسم بها » (1)

فاذاكان هذا هو رأى ابن الابار - وهو لا يتعارض ورأى ابن سعيد . - كما كنت قدمت - أمـكن أن أن نلفت النظر الى قـوله « غلب ذلك عليه » وهى عبارة تذكرنا بقول الحميدى خرج عن الاندلس فشهر شعره فى الغربة . فهما يتفقان فى « ان ابن هانىء » لا يكاد يعد «اندلسيا» اما من وجهة نظر ابن الابار فلان أصله عربى تونسى . ولانه من جهة اخرى لم يقل شعره - أو أكثره - الا خارج الاندلس .

(1) عن كتابه التكملة ج 1 ص 368

وأما الحميدى فلان «شهرته كانت بدار الغربة» ولانه لم يمت بالاندلس . والحميدى تلميذ ابن حزم الوفى . وابن حزم يرى أن نسبة الشاعر او العالم أو الاديب . ينبغى أن تكون لدار مهجره - ان كانت هى التى تلقت آثاره . ودفن بها . وهو رأى محترم - فى نظـرى -

نشأتـه الاولى :

اما عن نشأته الاولى فقد كانت تتراوح بـين مسقط رأسه البـيرة . ومدينة قرطبة العاصمـة العلمية والسياسية يومئذ - وهى فى أوج عظمتها - والذى يفيدنا فى هذا الميدان هو ابن الابار الـذى ينص هكذا « من أهل البـيرة . ونشأ بقرطبة » ثم يقـول « وكان أكثر تأدبه بقـرطبة . ثم استـوطن أبوه البـيرة »

وعد ابن سعيد له فى شعراء « البـيرة » يتفـق مع « ابن الابار » فى جانب المولد . ولكنه لا ينص على مكان النشأة . أو مكان الدراسة كما فعـل ابن الابار .

أما عن موعد المولد - أو تاريخه - فهناك روايتان احداهما تقول انه ولد حـوالى سنـة 320 للهجرة . والاخرى تؤخره الى سنة 326 . ومن ثم جاء الخـلاف حول تقدير عمره بين كونه عاش ستا وثلاثين سنة. أو عاش اثنين واربعين لان موته كان فى أكثـر الروايات دقة سنة 362 .

اما عن طبيعة النشأة فلعلنا نستطيع أن نطمـئن الى قول ابن خلكان الذى يقول عن والده « وكـان شاعرا أديبا » (2) . وهى عبارة لا نعثر عليها عنـد كل الاندلسيين الذين اطلعنا على ما كتبوه حوله .

فاذا قدرنا أن لابن خلكان «أصلا» استند اليه ؛ أمكن أن نقول ان للوالد كما للبيئة أثرا فى حيـاة ابن هانىء وتكوينه . وأن قرطبة - دون شك - ذات أثر فى توسيع ثقافته العامة . ومنها هذه الثقـافة اللغوية الزاخرة التى نحسها فى شعره . ويطفـح بها ديوانه .

والذين كتبوا حوله جميعا يتفقون على أن الرجل غادر الاندلس وفى عمره نحو من ست وعشرين سنة.

اما عن أسباب الفراق فأكثـر ما قيل محـض تخمين . وضرب من التكهن لا يستند لحجة قوية . ولا سبب تاريخى واضح .

فالذين قالوا ان السبب هو آراؤه المتطـرفـة التى تشبه آراء المعرى ينسون - أو يتناسون - أن المعرى لم تعرف المعرة مولده الا بعد أن غادر ابن هانىء هذه الدار بنحو السنة . أو أكثر . لان وفاة ابن هانىء كانت خلال سنة 362 ومولد المعرى كان خلال سنة 363 .

ولكن الذى أوقع المؤرخين فى هذه الورطة ما جاء فى عبارات « الفتح بن خاقان» فى كتابه المطمـح والتى يقول فيها « غير أن ابن هانىء نبت بـه أكنافها . وشمخت عليه آنافها . وبرئت منه . وزويت الخيرات فيها عنه . لانه سلك مسلك المعرى . وتجرد من التدين وعرى . وابدى الغلو . وتعدى الحـق المجلو . فمجته الانفس . وأزعجته الاندلس . فخرج

(2) وفيـات الاعيـان ج 4 ص 49

على غير اختيار ، وما عرج على هذه الديار ، الى أن وصل الزاب ، واتصل بجعفر بن الاندلسية (3) .

وهذه العبارة من الفتح بن خاقان — فيما أعتقد — هى مصدر الشرقيين فيما تناقلوه بعد ذلك ، وكان امامهم فى تهذيب العبارة ، وتخليصها من السجع هو ياقوت الحموى فى معجم الادباء حين قال : «وكان متهما بالفلسفة **يسلك فى أقواله وأشعاره مسلــك المعــرى** . وما زال يغلو فى ذلك حتى تعدى الحق ، وخرج فى غلوه الى ما لا وجــه له فى التــأويل ، فأزعجه أهل الاندلس ، اضطروه الى الخــروج من وطنه » (4) .

ونحن نعلم أن الفلسفة فى عهد ابن هانىء لــم يكن لها وجود يذكر بالاندلس ، ولان حرية الرأى فى عهد عبد الرحمن الناصر ، كانت محترمة ، ولان فلسفة المعرى التى ظهرت بعد وفاة ابن هانىء بعهد طويل لم تكن تتفق وفلسفة ابن هانىء ان صح أن لهذا فلسفة ، فالاول يسخر من ضعف الانســان ، وتفاهة شأنه فى الكون ، وقلة محصوله العلــمى — مهما اتسع — بينما ابن هانىء يؤله ممدوحيــه ، ويتجاوز بهم كل حد فى التقــدير والتعظــيم ، أو التملق السخيف الوضيع .

والاول يخاطب أول ما يخاطب العقول المتفتحة ، والمثقفين الواعين ، بينما ابن هانىء يخدم الشيعــة — ومذهبهم — لتخدير العامة ، وما يشبه العــوام لغرض الزلفى والتقرب من جهازهم الاعلامى العام — ان صح هذا التعبير — .

وجميع المصادر الانــدلسية لا تشير الى الحــاكم أو الامير الذى نصحه بمغادرة الاندلس خوفا عليــه أو خوفا من الفتنة وانما نقرأ عبارة الحميدى هكذا: « خرج عن الاندلس فشهر شعره فى الغربة » أما عن رأيه فى دينه فيقول : « ومدح المعز أبا تميــم معد بن اسماعيل — صاحب المغرب قبل وصوله الى مصر — بأوصاف استجازها فأنكرت واستعظمت (5)

ونقرأ عبارة ابن الابار على هذه الصورة :

« وخرج من البــيرة ، فاتصل بجعفر بن على بن حمدون الاندلسى ، وبأخيه يحيى ، ثم صحب المعــز معد بن اسماعيل صاحب افريقية والمغرب ، وغــلا فى مدحه بأوصاف أنكرت واستعظمت» (6) .

أما ابن سعيد فيقول « وبرع فى الشعر ، واشتهر ذكره ، وقصد جعفر بن على الاندلسى ملك الــزاب من المغرب الاوسط » فوجد بابه معمورا بالشعراء.. فمدحه وجل عنده من ذلك الحين ، الى أن كتب اليه المعز الاسماعيلى الخليفة بالقيروان فى توجيهــه لحضرته ، فوجهه » ، انظر الجزء الثانى من كتاب المغرب فى حلى المغرب .

وبكلمة موجزة نقول بأن أقــرب الاسبــاب الى المعقول هو أن ابن هانىء خرج عن الاندلس نتيجــة شعور بالحاجة الى المال ، والرغبة فى البحث عــن حياة أفضل ، وان قصة «الفلسفة والتأثر بالمعرى» كلمات جاءت — فى غير موضعها — اما عن سهــو من المــؤلف ابن خاقــان ، أو من بعض تزيــدات النساخ الذين يتاجرون فى «الوراقة» أو «نســخ المؤلفــات» .

(3) الجزء الخامس من كتاب نفح الطيب ص 183 طبعة 1949 (4) معجم الادباء ج 19 ص 92 (5) جذوة المقتبس ص 96
(6) ابن الابار فى التكملة ج 1 ص 368

وكانت تقول الشرقيين كلهم أو جلهم عن ياقــوت الذى روج عبارة الفتح فى اسلوبه الخاص .

«عندى أن الحميدى وابن الابار وابن سعيــد الضبى – وهم أربعة مؤلفين – ما كانوا ليتركــوا الاشارة لقصة «الفلسفة» أو مــا شابهها لو كــان هنــاك اخراج ، او احراج من أجلها .

ثم ان الرجل – كما نرى – لم يثبت عنه فى أى مصدر اندلسى بما فيها « المطمح نفسه » انه عاش باشبيلية ، أو اتصل بأميرها . .

فمن أين جاءت كلمات « وأشــار عليه صــاحب اشبيلية بالخروج «عن الاندلس» درءا للفتنة» كمــا قال ياقـــوت .

أو عبارة « واتصل بصاحب اشبيلية ، وحـــظى عنده وكان كثير الانهماك فى الملاذ ، متهما بمذهب الفلاسفة ، ولما اشتهر بذلك نقم عليه أهل اشبيلية، وساءت المقالة فى حق الملك بسببه ، واتهم بمذهبه – أيضا – فأشار الملك عليه بالغيبة عن البلد مـــدة ينسى فيها خبره فانفصل عنها » التى يرويهـــــا ابن خلكان فى وفياته ؟

الحق أن الشرقيين – قديما وحديثا – اذا كتبـوا عن قضايا المغرب العربى أو أدبائه كثيرا مــــــا يكونون متأثرين بروايات واهية ضعيفة ينقلها اليهم عابر سبيل من قاصدى البقاع المقدسة ، أو رحالة جوال فتروج لديهم ويبنون عليها أحكامهم – دون تحقيق أو تمحيص –

ابن هانىء شاعر جـزائرى ، ولكن أدباء الشرق يتجاهلون هذه الحقيقة

اذا عدنا الى التاريخ نجد أن ابن هانىء غـــادر الاندلس حوالى 346 فى أخريات عهد الاندلس الزاهر عهد عبد الرحمن الناصر ، أو عبد الرحمن الثـالث ، وانه قصد المسيلة – او المحمدية – كما كانت تسمى يومئذ ، وانه وجد هناك الاكرام والترحيب ، وبقى مع جعفر بن على بن حمدون الاندلسى أميرها مـــدة لا تنقص بأية حال عن احدى عشرة سنة ، قال فيها أكثر ديوانه ، بين مدح ورثاء وتهنئات فى مناسبات .

قال شعره فى جعفر بن على ، وفى أخيه يحـيى، وفى قائده أبى الفرج الشيبانى وفى كاتبه الوهرانى ، وفى أمه ، وفى ابنه ، وما اتصل بأسرة جعفر بن على من قريب أو بعيـد ؛ وصف قصور المسيلـــة ووصف متنزهاتها .

وفى الديوان الذى بين أيدينا – رغم نقصـــــه المحقق – ما ينيف على الثلاثين قصيدة ، ومقطوعـة كلها قيلت فى امارة بنى حمدون فى المسيلة ما بـين سنة 347 هـ حتى سنة 358 هـ .

ومع ذلك فان كل الذين ترجمـوا لابن هـــانىء من اخواننا المشارقة فى العصر الحاضر يهملـــون جانب المسيلة ، أو «المغرب الاوسط» أو «امـــارة الزاب» كأن ابن هانىء – مر فى طيارة بريـــة أو بحرية – نقلته من مدينة البـيرة «والتى يسمونهـا – غلطا – اشبيلية» الى مدينة المهدية ، أو القيروان بتونس ، دون أن تطأ قدماه تراب الجزائر ، وحـتى الهواء الذى استنشقه – أثناء الرحلة – لم يـــكن للجزائر حـظ فيه .

فقد سار على هذا المنوال فى اهمال شأن الجزائر – أثناء ترجمة ابن هانىء – كل من جرجى زيـدان

فى كتابه آداب اللغة العربية ، والزيات فى كتابـه تاريخ الادب العربى ، واحمد أمين فى ضحى الاسلام ولجنة «المفصل» بأفرادها الخمسة ، ثم الفاخـورى فى تاريخ الادب العربى ، والدكتور جودت الركابى فى كتابه «الادب الاندلسى» بل حتى الاخ عبـد الله شريط ـ بالاشتراك مع محمد كرو فى كتابهمـــا : «شخصيات أدبية» من المشرق والمغرب يضربان على هذه النغمة فلا يهتمان بنا أو ببلدنا ، أو بشعـره فينـــا .

فاذا أضيف الى هده الحقيقة أن جزءا من ديوان ابن هانىء فى الجزائر غـير مطبوع فى الديوان ـ وهو من خيرة شعره ـ خامرنا الشك أكثر فى تعمد هؤلاء نسيان الجزائر ، ومحو أثرها من التاريخ .

والا فبم نعلل عدم وجود هذه القصيدة الرائيـة التى قالها ابن هانىء فى جعفر بن على ـ فى ديوانه ـ وهى من خيرة الشعر وأروعه ؟ والتى حفظ لنـا منها نفح الطيب هذه المقطوعة حيث يقول :

خليـلى أين الـزاب منى وجعفـــر
وجنـات عـدن بنت عنهـا وكوثـر ؟

فقبـلى نـأى عن جنـة الخلـد آدم
فما راقـه من جانب الارض منظـــر

لقــد ســرنى أنى أمــر ببـالـه
فيخبـــرنى عنـــه بـذلـك مخبـــر

وقـد ســاءنى ألا أراه ببـلـــدة
بهـا منســك منه عظيم و مشعـر

وقـد كان لى منـه شفيــع مشفــع
به يمحـص اللـه الذنـوب و يغفـــر

أتى النـاس أفـــواجا اليك كأنمـــا
من الـزاب بيت أو من الـزاب محشر

فأنت لمـن قد مـزق اللـه شملـــه
ومعشــره ـ والاهـل ـ أهل ومعشـر

وهى مقطوعة من قصيدة طويلة ـ كما تدل عـلى ذلك سلاسة القافية وطول نفس الشاعر ـ كما هى عادتـه ـ

أقول لماذا تحذف هذه من الديوان المطبـــوع فى لبنان ؟ مع أن ديوان ابن هانىء ـ كما يقـــول جرجى زيدان ـ توجد منه نسخ فى أوروبا ، فهـل هى أيضا ناقصة ؟ وقد قيل ان مطبعة « بـــولاق » نشرته من قبل فهل كانت هى مصدر طباعة لبنان ؟ أو كانت هى ـ أيضا ـ ناقصة ؟

وقصيدة أخرى جزائرية لا توجد فى الديـــوان المطبوع وهى هذه القافية التى أبقى لنا منها نفـح الطيب ـ أيضا ـ عشرة أبيات والتى قالها فى جعفر ابن على فكان منها :

ألا أيهـا الـوادى المقـدس بالنـــدى
وأهـل النـدى قلـبى اليك مشـوق !

ويا أيهـا القصـر المنيف قبـابـه
على الـزاب لا يسـدد اليك طريـق ؛

ويا ملـك الـزاب الرفيـع عمـــاده
بقيت لجمـع المجـد ، وهو فـريـق

الى آخر الابيـــات .

وبالاختصار ، فانا نعود فنقول :

علينا أن نتصدى للبحث عن ديـوان ابن هانىء

عسى أن نجد فيه المزيد منّ الشعر الذى يصـــور الجزائر فى امارة بنى حمدون .

والديوان لاشك موجود ـ فى نسخة ما ـ اما فى المغرب أو فى المشرق .

وآخر ما قرأت حوله هذا البحث الذى قدمتـــه مجلة الهلال فى عددها الصادر بأفريل المـــاضى ، والذى جاء فيه مقال حوله للدكتور أحمد هيكل ، أشار فى أثنائه الى كتاب حديث تحت عنوان «تبيين المعانى ، فى شرح ديوان ابن هانىء» للدكتور عـلى زاهد ، فهل يـكون تاما لنجـد فيه ما فقـدناه فى غـــيره ؟

أما البحث الذى قدمه هيكل فلا جديد فيـــه بالنسبة للجزائر ، أما الدعوة بأنه شاعر جزائرى فهو أن الاندلس أخرجته ، أو خرج منها فارا ، وان ابن حزم يقـول : «وهـو يجيب ابن الـربيب فى رسالته المشهورة» :

« ان من هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحـق به ـ وهو منا بحكم جميع أولى الامر منا ، الـذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافـــه ، واما من هاجر منا الى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذى اختاره أسعد به ، فكما لا ندع اسماعيـــل بن القاسم ـ يعنى أبا على القالى ـ فكذلك لا نـنـــازع فى محمد بن هانىء سوانا ، والعدل أولى ما حرص عليه ، والنصف أفضل ما دعى اليه (7)

ولان أكثر عمره الشعرى قضاه فى الجزائـر ، ولانه لم يقم بتونس أكثر من أربع سنوات على أكثر تقدير ، كان فيها يحن الى الجزائر ، والى جعفر بن على الذى اتخذ منه صـديقا ، وشـاعرا للامارة فى الوقت نفسه ، حتى تدخل الوشاة وأرسل المعـز فى طلبـــه .

هذه كلمة ألقى بها لا أريد الا عرض موضـــوع ابن هانىء للمناقشة لاعادة الحق الى نصابه .

اما عن شعره ومكانته ورأيى فيه فالى منـاسبة أخـــرى .

أحمد بن ذياب

(7) نفح الطيب ج 4 ص 159



كـلـمـــــــات

كتب Casette في قسنطينة يقول : « من العجب ان لم نتفطن حتى لهذا الوقت لأهمية تعليم الشباب • وفي نفس الوقت كتب Mercier Lacombe الكاتب العام للولاية العامة يقول : « في الوقت الحاضر يجرى تعليم الشعب العربي الجزائري خارج تأثيرنا ، والمعلمون الذين يمارسون هذا التعليم لم يأخذوا منا شيئا من الافكار وهم خارجون عن رقابتنا ، فكيف نعول عليهم لكي يدخلوا الى عقول تلاميذهم أفكارا تحبذ حضورنا حتى يكون الجيل الناشيء أقل عداء لنا من الجيل الذي قبله ، وفي الوقت نفسه كتب Lacombe يقول : «ان الجيل الناشيء يكبر اليوم امام ابصارنا ويتلقى منذ صباه دروسا في الحقد علينا • انه لا يجدر بنا أن نترك أكبر المتعصبين ينشرون أفكارهم المعادية لنا في هذه الاجيال الناشئة التي يجب أن نكسبها نحن•ذلك ان الجيل الذي يربونه لا يقبل سيطرتنا الا بألم ، فانه لا يجوز لنا أن نترك الجيل الجديد ينشأ على نفس الاحقاد ضدنا اننا لا نستطيع ان نبقى وجودنا في هذه البلاد وجودا عدائيا الى الابد • ولكن لا يوجد أي شيء يدل على اننا نعطي لهذه القضية ما تستحق من اهتمام • اى ان التعليم هو الذي يحفظ استمرار هذا الوجود • ان المعلمين الذين شحنوا بحقد لا يتزحزح ضد المسيحيين سيبذلون دائما جهدهم ليبقوا الجيل الناشيء بعيدا عنا مع ان هذا الشباب هو وحده الذي نعول عليه في بقائنا • (109) ولكن المشكلة هي أن هؤلاء المعلمين يستمدون كل سلاحهم ضدنا من التعاليم الدينية •

من كتاب المجابهات الثقافية في الجزائر المستعمرة ـ للدكتورة تورين

إبراهيم بن أحمد الفجيجي وقصيدته المطردة "روضة السلوان"

رابح بونار

يخيل الى الباحث فى الحركة العلمية والادبية فى القطر الجزائرى أن أعلام الفكر الذين نبغوا فيـــه ينتسبون كلهم الى الشمال . أما الصحراءفهى غفل من رجال العلم والادب ، ذلك لاننا اذا تصفحنا تراجم هؤلاء الرجال فى مختلف المراجع التى بين أيدينـــا كنيل الابتهاج للتنبكى ، وعنوان الدراية للغبرينى، والبستان لابن مريم ، ودوحة الناشر لابن عسكر ، ونفح الطيب للمقرى ، فاننا نجد أن المترجم لهم فى هذه الكتب تعود كثرتهم الغالبة الى حواضر المدن الشمالية .

ويستنتج الباحث من ذلك ان مدن الصحـــراء تكاد تكون مقفرة من الدراسات العلمية فى العصر الوسيط .

والحقيقة انه على الرغم من تخلف الحواضـــر الجنوبية نسبيا عن حواضر الشمـال ، فان ذلـك لا يبيح لنا أن نحكم عليها بالجدب الفكرى ، او الفراغ العلمى فى هذه الفترة ؛ ذلك لاننا اذا بحثنا عـن معالم النشاط العلمى فيها نجد فى كل عصر أقباسا هنا وهنا تنير طريق الدراسات العلمية والادبية .

وقد ازدهرت فى كثير من هذه الحواضر الدراسات العلمية ، والادبية بعض الازدهار ، كوارجلان التى تعد أسبق الحواضر تقدما علميا ، واجلها شانـا لكثرة من نبغ فيها ، وكذلك حاضرة بسكرة التى كانت من أحفل المدن الصحراوية ، وأكثرها نشاطا علميا فى مختلف العهود ، وقد عاش ابن خلـدون فيها مدة ، وأفاد اهلها .

ومثلها مدينة توات التى ازدهرت فيها الدراسات الفقهية ، والـكلامية والادبية فى القـرن التاســع ومـا بعده .

واخيرا نصل الى فيقيق ، او فجيج التى نبغ فيها جماعة من الاعلام ، من أجلهم المترجم له ابراهيـم ابن احمد الفجيجى .

تـرجـمـتــه :

ابراهيم الفجيجى ، هو ابراهيم بن أحمد الشريف الرحالة ، وهو لا تعرف سنة ميلاده ، ولا سنة وفاته بالتحديد ، وقد نشأ فى أرض صحراوية تحـت كنف الواحات الرائعة ، وفى ظلال النخيل الوارفة ، وأغرم بمعاناة الصيد ، ومطاردة الطرائد من أرانب وغزلان وحبارى وغيرها منذ صغره ، تأثر بكل ذلك وانطبع به شعره بعد أن نضجت ملكته الادبية .

رحلتــه فى طلب العلــم :

وقد رحل ابراهيم الفجيجى فى طلب العلـم الى فاس ، وأخذ فيها عن اساتذتها المشاهـير فى الدراسات العلمية والفقهية كالاستاذ الصغـير ، والشيخ ابن غازى ، وابى العباس أحمد الونشريسى صاحب المعيار وغيرهم .

ثم انتقل منها الى تلمسان ، وأخذ فيها عـن بعض أعلامها فى العلوم الاسلامية كالامام محمد بن يوسف السنوسى ، والامام ابن مرزوق ، والعقبانى والحافظ التنسى وغـيرهم .

ارتحـــاله الى المشـــرق :

وفى أواخر القرن التاسع الهجرى ارتحل المترجم له الى المشـرق ، وأخـذ بمصر عن جـلال الدين السيوطى ، والبساطى ، وابن النجار الحنـفى ، وأخذ بالمدينة المشرقـة عن السخاوي والاشمونى، وغـيرهم ، وله عن جميعهم اجازات ومنـاولات ومسلسـلات (1)

عودتـهمن المشـــرق :

وعاد المترجم له من المشرق الى وطنه بفجيـج واقام فيه دارسا ومعلما مدة .

وفى هذه الاثناء توفى مواطنـه عبد الحق السكونى الشريف فرثاه بقصيدة لامية جاء فيها :

---

(1) جذوة الاقتباس لابن القاضى ص 94 – وتعريف الخلف للحفنـاوى ج 2 ص 3

تغيرت البلدان و احلولك الليل
وشب ضرام الشر وانهمر السيل

وآن الرحيل عن بلاد تآمرت
بها المفسدون واستمر بها الهول

فلا فتكة الا وتنسيك فتكة
ولا فتنة ، الا ويدخلها الغول

ولا صلح الا اثره الف غدرة
ولا قول الا غيره القول والفعل

سلام عليها لا تجاور جيرة
من الجور عتباهم اذا عاتبوا المثل

اتشكر أرض ليس ينهى سفيهها
على خطر يبقى بها من له الفضل

ارتحاله الى السودان :

ويبدو أن صاحب الترجمة لم يلبث الا قليلا بعد وفاة مرثيه السابق ثم عزم أن يرتحل الى بلاد السودان ، وقد يعود ذلك الى اضطراب الحياة الاجتماعية الذى عم منطقة فجيج فى هذه الآونة ، ونشأ عنه انتشار الفوضى،وكثرت المظالم والاعتداءات فحمله ذلك على مغادرة وطنه الى بلاد السودان . ولا ندرى المدة التى أقامها هناك ، ولا نشاطه فى موطنه الجديد ، على أنه لا يعدو أن يكون نشاطا تعليميا تبشيريا استمر الى أن توفى بعد سنة 900هـ

مـؤلفـاته :

ترك صاحب الترجمة بعض آثار منظومة من اشهرها :

1 – روضة السلوان ، وهى قصيدة فى الادب الطردى او ادب الصيد .

2 – منظومة فى الديانات ، ضمنها عيون الفقه ونوادر المسائل وسماها « المفيدة » .

3 – ومقطوعات أخرى كالمرثية السابقة ، ومنها بيتان رواهما أبو القاسم الفجيجى شارح قصيدته « روض السلوان » وهما فى نظم نسب النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول فيهما :

علقت شفيعا هال عقل قرانه
كتاب مبين كسب لى غرائبه
فذا معشر نفسى كرام خلاصتى
منى اليهم مذ نيل مجد عواقبه

* * *

وقد ضمن أوائل كل كلمة حرفا من اسم أحد آباء النبى صلى‌الله عليه وسلم . فالعين من علقت لوالده عبد الله،والشين لشيبة وهو عبد المطلب،والهاء لهاشم ، والعين لعبد مناف ، والقاف لقصى ، والكاف لكلاب ، والميم لمرة ، والكاف أيضا لكعب ، واللام للؤى ، والغين لغالب ، والفاء لفهر ، والميم أيضا لمالك ، والنون للنضر ، والكاف لكنانة ، والخاء لخزيمة ، والميم لمدركة ، والالف لألياس ، والميم لمضر ، والنون لنزار ، والميم لمعد ، والعين لعدنان، وهو الجد المتفق على صحة النسب اليه ، وقد اختلف فيما بعده الى آدم عليه السلام ، وهناك قول ينسب السين للونشريسى أو الزقاق .

كلمة حول مخطوط قصيدة « روض السلوان » وشرحها :

ان قصيدة «روض السلوان» للفجيجى هى من

أجل القصــائد فى الادب الطـردى . ومن نــوادر التراث الفكرى فى الادب العربى بالجـزائر . لان منشئها الفجيجى قد طرق فيها موضوعا شيقا فى الادب الوصفى وهو وصف الطرائد . وحركــــات القناصــين . وهذا النوع معروف فى الادب العربى، وقد أنشأ فيه الشعراء العباسيون قصائد جليلـة كأبى نواس الذى قال فيه ضمن قصيدة :

لمـا تبــدى مــن حجــابه
كطلعــة الاشمط من جلبـابه
هجــنا بــكلب طالما هجنا به
ينتســف المقــود من كلابه
كأن متنـــيه لــدى انســلابه
متنــا شجــاع لج فى انسيابه
كانمـا الاظفــور فى قنــــابـه
موسى ضنــاع رد فى نصابه
تراه فى الحضر اذا هاهى بـه
يكاد أن يخـرج من اهــابه

ومثله ابن الرومى الذى قال فيه من قصيدة :

وقد أغتــدى للطير والطير هجــع
ولو أوجست مغداى ما بتن هجعا
بخلــين تما بى ثــلاثــة اخــوة .
جسومهم شــتى وأرواحهــم معــا
مطيعين أهــواء توافت على هــوى
فلو ارسلت كالنبع لم تعد موقعا
فشــاروا الى آلاتهم فتقلـــــدوا
خرائط حمرا تحمل الســم منقعا

* * *

وقد طرق الموضوع غير هؤلاء من الشعراء . وأهم ما يلاحظ على قصيدة ابراهيم بن عبد الجبار انها تمتاز بخصائص قد ترفعها عن غيرها من القصــائد التى انشئت فى الموضوع .

ومن أهم ذلك انها قصيدة ذات وحدة موضوعية لا تشتمل الا على موضوع الصيد وما يتصل به .

وانها قصيدة مليئة بضروب الوصف الحى للبيئة الصحراوية كوصف مجالس البادية . ووســـائل الصيد . ووصف ذكور الطيور . والجــوارح التى يستعملها القناصون وكذلك وصف الديار ونزول الامطار ونباتات الارض وذكر أحكام الصيــــــد ونشاطه من الوجهة الفقهية .

وتمتاز هذه القصيدة أيضا بأنها قصيدة طويلة النفس قد بلغ عدد أبياتها 214 بيتا من بحر الطويل وفى آخرها يقول :

وفى مـائــتى بيت تجلت وعشـرة
لهــن ثــلاث للختـــام توابـــع
واهــدى صــلاة مع زكى تحيـــة
الى خــير مبعــوث ومن هو شافــع

وعلى رغم ما فى هذه القصيدة من جمال وطرافة فانها ينقصها الخيال الادبى . والعاطفة . وتثقلهــا فى كثير من أبياتها الفاظ الفقهاء . لتغلب الطابــع الفقهى على الشاعر .

وقد شرح هذه القصيدة الشيخ أبو القاســـم محمد بن عبد الجبار الفجيجى بشرح سماه «الفريد فى تقييد الشريد وتوصيد الوبيد» وقال فى آخره : انه فرغ منه فى 16 ذى الحجة عام 986 هـ .

وتوجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية تحت رقم 1509 ، خطها مغربي جميل ، وحجمها كبير ، وهذه القصيدة وشرحها يعدان من نوادر تراثنا الادبي ، وقد شعر الاستاذ نور الدين عبد القادر ، وزميله الحكيم هتري جهير بأهمية هذه القصيدة فنشراها مع تعليق موجز وترجمت الى الفرنسية سنة 1959م ولو نشراها بشرحها الكبير لكان ذلك أكثر نفعا وأجدى صنعا ، لان هذا الشرح يشتمل على فوائد لغوية جليلة ، وقد أحببنا ان نطلع القراء الكرام على نماذج من هذه القصيدة الطريفة ليستعيدوا بمطالعتها لونا من ألوان الادب الطردي الذي يذكرنا بأخلاق الفروسية ، وبعهد الفتوة في مجال الصيد .

نماذج من هذه القصيدة :

يقول ابراهيم الفجيجي في مطلعها في وصف منافع الصيد :

يلومونني في الصيد والصيد جامع
لاشياء للانسان فيها منافع

فأولها كسب الحلال أتت به
نصوص كتاب الله وهي قواطع

فصحة جسم ثم صحة ناظر
و احكام اجراء السوابق رابع

و بعد عن الارذال مع صون همة
واغلاق باب القيل والقال سابع

و أيضا لعرض المرء فيه سلامة
و حفظ لدينه و ذلك تاسع

و فيه لاهل الفضل و الدين عبرة
و تذكرة لها لديهم مواقع

ويورث طيب النفس والجود والسخا
ويألف منه الصبر من هو جازع

و ينفي الهموم المهرمات عن الفتى
و يقمع وفد الشيب كي لا يسارع

و يورث عند الالتحام شجاعة
و فيه من السر الخفي بدائع

كرعي نظام و افتقاد رعية
و حفظ جناب من عدو ينازع

و تدبير أمر الحرب و الفتك بالعدى
و صيد أسود الانس و الوحش تابع

* * *

ويصف القانص في بعض أبيات القصيدة فيقول:

بنفسي عفيفا مترفا ذا نزاهة
له في سماء المجد و السعد طالع

على هيكل نهد و فوق شماله
وقور من الصقور أبيض ناصع

* * *

ويستحضر الذكريات الماضية لايام الصيد فيقول :

أخي هل ترى الايام تجمع شملنا
و نحن على جرد سراع نطالع

لدى كل ربوة و أجراس طيرنا
لها زجل من فوقنا و قعاقع

فنقـضى من السلــوان بعض غرامنـا
و نجنى جنى اللذات و الدهر خاضع

* * *

ويصف الصقر الذى يصيد به تصويرا بديعـا يجمع بين وصف الحركة واللون حتى يخيل الينـا اننا نراه أمامنا فيقول :

عظيم ثـلاث رأسـه ثم فخـــذه
و منســره لجزر ما هـو صـــادع
عليـه سمـــات الفـتك اما نظـرته
أطلت حـواجب ! و غـارت مـدامـع
طمـوح كثـير الالتفـات مسلـــط
لأم الســلاح الدهر منـه فجـــائع

* * *

وفى آخر القصيدة يخاطب قارئه فيقول :

أتيـتك بالتحقيـــق نظما فخــذ به
و دع عـنك ما سـواه فهو جعاجـــع
و دونـكهـا من بحـــر فـكرى درة
تفجـر منهـا للعلـــوم ينـــابـع
فتنبت فى أرض القلـــوب معـــارفا
و تشـــرح صـــدرا ضيقتـه الزعازع
فمن كان ذا جد رعى خصب حـــكمة
ومن يبتـغى الاحمــاض فالمـرج واسع
وفى مائتى بيـت تجـلت و عشـــرة
لهـن ثـــلاث للختـــام تـوابـــع
و أهـدى صـــلاة مـع زكى تحيـــة
الى خـير مبعـوث و من هو شافـــع

* * *

وهكذا تنتهى هذه القصيدة الطويلة التى جمعت من ضروب الوصف الدقيق شيئا كثيرا . ولا شـك ان قارئها سيجد فيها متعة وأدبا وطرافة قد لا يجدها فى قصائد كثير من الشعراء الذين طرقوا موضـوع الطرديات فى الادب العربى وحاولوا الابتـــكار والابـــداع فيه .





نقـــد

ردًّا على تقـريظ كتاب :

"مسـيرة شمال إفريقـيا"

محمد شريف ساحلي

سفير الجزائر
في تشيكوسلوفاكيا

ترجمة هيئة التحرير

طالعتنا جريدة «المجاهد» اليومية بمقال كتبه السيد قـدور محمصاجي يشيدفيه بـكتـاب « مسيرة شمال افريقيا» الذى ألفه شارل أندرى جوليان ، وقام بنشره لاول مرة عـام ١٩٥٢ وصدرت لـه طبعة جديدة فى المدة الاخيرة ٠

يرى السيد محمصاجي ان هذا الكتاب لايزال يحظى بالمعجبين ، بل لايزال ينهل منه الطلبة والباحثون ، لانه اصبح من امهات الكتب باتم معنى الكلمة، وسوف يطالعه القارىء للمرة الاولى اوالثانية بمزيد من الاهتمام ، لانه من تاليف مؤرخ شغوف بالبحث العلمي ، متضلع فيه ، يعرف كيف يحلل نشوء الحركات الوطنية المغربية، ويكشف النقاب عن اخطاء الدولة الفرنسية التي انتهجت سياسة استعمارية·»

ويضيف السيد محمصاجي أن المغاربة أنفسهم يقدرون هذا الكتاب حق قدره ، وان اكبر ميزة يمتاز بها هي «انه يتسم بروح التنبؤ،وينم عن تبصر بالامور لان صاحبه استطاع ، من غيران يزيف الحقائق ، ان يتنبأ بما قامت به فرنسا فيما بعد من مآس ، في تونس والمغرب و الجزائر·» (١)

وبعد، فانا لا انوى ان اعود بالقارىء الى موضوع طال حوله النقاش والجدال ، لان صفحات التاريخ اصبحت منذ ١٩٥٢ ، تسجل بطريقة حاسمة لامجال فيها للاخذ والرد· ولكن لابد لي مع ذلك من الاقرار بانني ، بعد ما قرات الكتاب بكل تمعن ، لااستطيع ان اشارك السيد محمصاجي تحمسه للكتاب السابق الذكر· ورغم ان المؤلفين تعجبهم عادة عبارات المدح والاطراء ، فانني اتساءل فيما اذا كان السيد جوليان وهو من رجال الفكر والادب ـ سوف يشعر بالرضى والارتياح لما جاء في كلام السيد محمصاجي من اشادة بما في كتابه «روح التنبؤ»· ويطيب لي ان اعيد الى الاذهان بهذه المناسبة ان السيد جوليان كان له فضل كبير حين أقر خلال حرب التحرير ، في مقال نشرته جريدة «فرانس اوبسيرفاتور» بخطئه الفادح في نظرته السابقة الى الحركة الوطنية الجزائرية التي طالما استهان بها· اما بالنسبة الى موقف ابناء المغرب من هذا الكتاب، فقد كان على وجه العموم مناهضا تماما ويكفيني في هذا الصدد ان اذكر بانه ، عند مافتح باب النقاش بعد المحاضرة التي القاها السيد جوليان نفسه في اجتماع نظمه اتحاد طلبة شمال افريقيا المسلمين بباريس ، فان المحاضر فضل ان يجمع اوراق محاضرته وان يغادر القاعة عوض ان يرد بكل هدوء على الاسئلة والانتقادات التي وجهت اليه·

وبالفعل ، فلم يكن في الكتاب آنذاك ما يدعو الى المدح والاطراء فالموضوع المطروق لايمت الى التاريخ بصلة ، بل هو اشبه ما يكون بمقال سياسى يعتمد على تاويلات مغرضة حول تاريخ المغرب العربي· وزيادة على ماجاء في الكتاب من عموميات هي أقرب الى فلسفة التاريخ ـ وهي فلسفة لايمكن ان نوافق عليها لما فيها من مزالق ـ لابد من الاشارة الى ما لاحظناه من اختلاف واضح ومقصود ، بين طريقته في معالجة قضيتي المغرب الاقصى وتونس ، وبين طريقته في معالجة القضية الجزائرية·

وهل نحن بعد هذا فى حاجة الى التعليق على الفقرة المعروفة التى استنكر فيما السيد جوليان ماسماه هجوم الهلاليين ، وتحدث بعبارات مغرضة عن تعريب شمال افريقيا ودخولها في الاسلام؟ ان السيد جوليان كاتب موهوب وعبارته فصيحة للغاية حينما يقول :«ان بعض الناس ينكرون على فرنسا سياستها الهادفة الى اسكان ابنائها في مستعمراتها· فليكن··ولكن ما قول هؤلاء في هجوم بني هلال وبني سليم في القرن الحادى عشر عندما اكتسحوا البلاد كالجراد وخربوا كل شيء فى طريقهم على حد تعبير ابن خلدون، واستولوا على النساء والاطفال؟··ان هذا الهجوم هو الذى قضى على محاولة توحيد المغرب من طرف الصنهاجيين وادخل الى المغرب ما يزيد على المليون من البدو

١ ـ «المجاهد» ، تاريخ ٣١ ماى ١٩٧٢

الاجانب· فهذه الكارثة العظمى هي التي سهلت عملية تعريب البلاد واسلامها ، ولكن هذا لم يتم الا بعد خراب دام سنين·» (٢)

لست ادرى اذا كانت هذه الفقرة لاتزال ثابتة في الطبعة الجديدة· والشيء المؤكد عندى ان مثل هذا الكلام أقرب الى المقال السياسي المغرض منه الى التاريخ الموضوعي الرصين· ولا أعتقدانه يوجد اليوم من المؤرخين ، من يصدق الخرافة التي تقول بأن مليونا من البدو العرب اكتسحوا شمال افريقياكالموجة العارمة· ان ما يتمتع به ابن خلدون في القديم ، من صيت ذائع ، لايكفي وحده لتبرير أمثال هذه المبالغات والخرافات التي دحضها منذ زمن بعيد ، المؤرخ الكبير المتخصص في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وأعني به فرنان برودال· والمؤسف في كل هذا أن «روح التنبؤ معتمد فعلا على محك التجربة والواقع ، الا أن القرون الغابرة ، بما يكتنفها منغموض وابهام ، تفسح المجال واسعا للنظريات المغرضة الضالة ، خاصة عندما تحل الاوهام والاغراض محل النزاهة العلمية·

لقد كان مؤلف «مسيرة شمال افريقيا» من المؤيدين والمساندين للمغرب الاقصى وتونس في جهودهما لنيل الاستقلال الوطني· الا انه لايكاد يتناول القضية الجزائرية بالدراسة حتى يبدى امتعاضه وانقباضه· فتاريخ الجزائر المستعمرة آنذاك يتلخص بالنسبة اليه في عدد من «الفرص التي ضاعت من يد فرنسا»· وفرنسا في نظره ، كان في امكانها مرات عديدة ، ان تربط نهائيا مصير الشعب الجزائرى بمصيرها ، عن طريق اجراء اصلاحات مناسبة على الصعيدالسياسي والاجتماعي والاقتصادى· ولكن الفرص ضاعت المرة تلو الاخرى ، نتيجة للمعارضة الشديدة الصارمة من طرف المعمرين ، وكذلك نتيجة لما ابداه القادة الفرنسيون من تخوفات ، وماقاموابه من أخطاء سياسية واذا بحثت في كتاب السيد جوليانعنالحركة الوطنية الجزائرية ونضالها السياسي ، وكفاحها الطويل من أجل الاستقلال الوطني فلا تجد لها أثرا· وقد صرح السيد جوليان ، قبيل اندلاع ثورة فاتح نوفمبر بسنتين ، أن الثورة ليست من التياراتالحتمية في مجرى التاريخ ، بل هي من الظواهر الاجتماعية البسيطة التي تنشأ عن تردى الوضع الاجتماعي ، وعن سياسة القمع و البطش ، وبالتالي فهي من الظواهر التي تزول عندما تنتهج الدولة الحاكمة سياسة رشيدة تقوم على اصلاح الاوضاع·

وانا لااريد في هذا المقام ان الح على هذه «النظرة التنبؤية» ، وانما اشير الى ان الفرق بين المستعمرين المتطرفين ، وبين المتحررين امثال السيد جوليان ، لم يكن في الهدف بقدر ما كان في الطرائق والوسائل· فهؤلاء جميعا كانوا يريدون ابقاء الجزائر في اطار السيادة الفرنسية ، وكانوا يعارضونبشدة مطالب الحركة الوطنية الجزائرية· وبينما نجد أن المتطرفين يعملون من اجل بقاء السيطرة الفرنسية واخضاع الاهالى من السكان للدولة الحاكمة فان المتحررين من جهتهم كانوا يقترحون انتهاج سياسة الالحاق والادماج· وهكذا نلاحظ ان الجزائريين كانوا مخيرين بين حلين لاثالث لهما : فاما ان يرضوا بحياة العبودية ، واما ان يصبحوا مواطنين فرنسيين· وهذا لعمرى أشبه ما يكون بمن يخير خصمه في الطريقة التي سوف يقضي بها عليه·

ولقد يستغرب البعض هذا التجاهل للحركة الوطنية الجزائرية ، خاصة اذا صدر هذا الموقف من مؤرخ متخصص في تاريخ بلادنا· الا ان الاستغراب يزول اذا عرفنا بأن هذا الموقف يرجع الى فهم سقيم لتاريخ الجزائر· وقد كان المؤرخ «غوتيي» لايعترف

٢ ــ راجع كتاب جوليان : «مسيرة شمال افريقيا·» ص· ٢٩١ L'Afrique du Nord en marche"

للانسان المغربي بأية «شخصية ايجابية» ، فلما جاء جوليان وكورتوا ، أقرا تلك الشخصية لطرفي المغرب العربي ، الا انهما ادعيا بأن المنطقة الوسطى من المغرب لاتتمتع بأية شخصية : «ان من يستعرض تاريخ شمال افريقيا في خلال ثلاثين قرنا ، يدرك أن الطرفين من هذه المنطقة لهما شخصية متميزة، في حين أن الجزائر الواقعة وسط تلك المنطقة لها شخصية «سلبية» اذا صح التعبير.» (٣)

ولئن كانت آراء غوتيي موسومة بالطابع الاستعمارى المعروف ، فان آراء السيد جوليان مرجعها الى عدم تبصره في القضايا السياسية ، شأن غيره من الاشتراكيين الفرنسيين الذين تلاحقوا منذ القرن التاسع عشر. وهذا ما دعا كارل ماركس الى استنكار موقفهم المعارض للحركات الاوربية الهادفة الى التحرر الوطني ، وقد كانوا يرون بأنه لافائدة من تكوين دول جديدة ، مادامت البشرية سائرة نحو الاممية ، مما جعل ماركس يرد عليهم في احدى المناسبات : «ان اصدقاءنا الفرنسيين يريدون زوال جميع الامم وجميع الدول ، ولكنهم في الحقيقة يريدون ادماج تلك الامم والدول في الامة النموذجية ، وهي الامة الفرنسية.»

ومن المحتمل ان السيد جوليان قد تغير موقفه وتحسن بالنسبة الى آرائه في التاريخ ، ولكن القارىء الذى يطالع كتابه «مسيرة شمال افريقيا» لايستطيع ان يمنع نفسه من القول بأن اتجاهات المؤلف السياسية قد اوقعته في ضلال مبين فيما يتصل بدراساته وأحكامه التاريخية. واذا كان الامر كذلك فلا يسعنا الا ان نبدى ارتيابنا بالنسبة الى قيمة ماكتبه حول تاريخ الجزائر على وجه الخصوص ، وتاريخ المغرب العربي على وجه العموم.

ولعله من المفيد أن يطلع القارىء على مايقوله أحد المؤرخين الفرنسيين انفسهم ، في مجال الرد على السيد جوليان. فالكاتب الشهير «ايميريت» الذى له دراسات عديدة عن تاريخ الجزائر ، لايخفي رأيه الصريح في هذه المسالة فهو يقول في تقرير له حول الدراسة التي وضعها آجيرون عن تاريخ الجزائر : «يبدو لي أن السيد آجيرون قد سارع الى تبني آراء المؤرخ جوليان. وكأني به يعتقد أن الاصلاحات المناسبة (أو الفرص الضائعة) كان من الممكن أن تنقذ الاستعمار الفرنسى من مصيره المحتوم. وهذا ينم عن جهل صريح بروح الشعب الجزائرى الذى لم يرض أبدا بالاحتلال ، ومهما يكن من أمر فان الروح الوطنية التي هي أعمق من الايمان ، لابد من أن تنتصر. ففي عصرنا هذا لايمكن لنا أن نتصور كيف تستطيع حروب الاحتلال أن تنشىء كيانا متينا ، مهما اشتدت وسائل البطش والقمع. وأنا أشك في أن يتبنى مؤرخو المستقبل آراء بعض الكتاب السياسيين «المتحررين» أمثال الاستاذ جوليان» (٤)

وبعد ، فاذا كان المؤرخ جوليان قد غير نظرته وطرائقه وآراءه ، فان ذلك حقا من دواعى السرور. واذا كان الطلبة ورجال البحث عندنا يستفيدون من كتاب «مسيرة شمال افريقيا» فان هذا أمر طبيعي لانه لابد من أن يطلعوا على كل شىء ، ماداموا مزودين بزاد كاف من الثقافة والتوجيه السياسي ، يجعلهم قادرين على التمييز بين الوقائع والفرضيات الواهية ولكن.. لايسعنى الا أن أبدى أسفى الشديد حين يعتبر البعض كتاب «مسيرة شمال افريقيا» من امهات الكتب.

ان بلادنا قد سلكت اليوم طريق المجد والفخار، وأخذت الى العلياء المرتقى الصعب ، من أجل تشييد مجتمع جديد تسود فيه العدالة ، ومن أجل تأسيس دولة حديثة اشتراكية. فلا بد من أن نتفادى اليوم أكثر من أى وقت مضى ، الوقوع في المزالق الفكرية والانسياق للتضليل العقائدى.

محمد شريف الساحلي.

---

3) Histoire de l'Afrique du Nord T.I. p. 16
4) Revue "Annales", Juillet - Août 1965 (n° 4)

ويخـلق مالا تعـلمون !!

مفـدي زكـرياء
شاعر النضال السياسى الثورى
والكفاح التحريرى المسلح

قام بعض المنتسبين (للاسلام الجغرافى) بحملة مسعورة فى بعض صحفنا المحترمة ، ظاهرها الغيرة على أصالة الاسلام الذى لا يملكون منه حتى المظاهر ! وباطنها الخربشة السخيفة ابتغاء اشاعة الغمـــوض والارتياب فى المجهودات البناءة التى يبذلها مـــن اصطفاهم الله وزكاهم حسن الاختيار وتقـــدير الكفاءات لتركيز حقيقة الاسلام . وغزو الضـــلالات والشكوك التى ما انفك يلصقها بهذا الاسلام — عن عمد وسابق اصرار ، خصوم الاسلام المقنعون ، وذوو العقول المراهقة التى لم تبلغ بعد فطامها ، أولـــئك الذين جرفتهم التيارات المدخولة لتسخر منهم طوابير هدم وتخريب !

وان تعجب ، فعجب قولهم : ان الالحـــان الوجـدانية التى تفـرغ على كلمات المدائح النبوية والاناشيد القومية مروق عن الأصالة وتحد لشعور المؤمنين ، وانتهاكا لحرمة مساجد الله .

1 – قد يكون فى منتهى الغباوة من بلغ بـه الانغلاق والتخلف الذهنى الى الاعتقاد بأن الموسيقى تدخل فى نطاق التفكير المتحجر الضيق المحـدود ، وهى هى لغة القلوب النابضة المتجاوبة مع دقـات القلب البشرى . ودفقات الدماء الحرار التى تبعث الحيوية والدفء فى الكائن الحى . مهما تكن الكلمات والاغراض التى تحتضنها . بعيدا عنحماقاتالزميتين وشذوذ المتحذلقين .

2 – أليس هذا الكون لوحة جمالية تدل عـلى حقيقة وجود هذه القوة الخلاقة التى نسميها الله ؟ وهى وحدة لا تتجزأ ولا تحدها الحواجز المصطنعـة والحدود المفتعلـة .

3 – فزقزة العصافير ، وأنين النواعير ، وحفيف الاشجار ، وخرير المياه ، ووسوسة الحلى ، والشفق الباكى ، والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس ، والقلب الخافق العذب اذا انتفض للحب وتضرع للاله الجميل ، كل أولئك يكونون (سنفونـيـة وجوديـة خالدة) تسبح بحمد الصانع البديع ، وتؤكد عظمة هذا الوجـــود .

4 – وقديما قال أحد الصوفية :

وكل نائحة فى الكون تطربنى

فعقب عليه بعض الفضوليين قائلا : ولو كان النائـح حمارا ؟

فأجابه الصوفى فورا : أقول له : أسـكت يا حمـــار !

5 – ومتى كانت الشرائع السماوية تعنى فيما شرعته من حلال وحرام ،بدنيا النبرات والانغام ؟

أما بعث النبى داود عليه السلام وبين يديـه معجزة المزامير لادخال المبادىء التى أمر بتبليغها فى مجتمع يتهالك فى الالحان والمزامير ! !

أما وقف رسولنا الاعظم سيدنا محمد صـلى الله عليه وسلم متواجدا أمام منزل تنبعث منـــه نبرات نقر الدفوف والتغنى بالاهازيج الحالمة ؟

أما استقبل فى المدينة بأغنية بنات النجار ؟

وما دفعه الفضول أن يسأل هل اللحن مقتبس من أغنية غرامية أم هو لحن وليـد ؟

والرسول محمد الانسان ـ وقد عرف الحـب الذى ساعد رسالته على الانتشار ، لـم يتـردد أن يخلع بردته على ابن أبى سلمى ويتواجد مع :

بانت سعاد ، فقلبى اليـوم متبول
متيـم اثـرها ، لم يفـــد مـــكبول
وما سعـاد غداة البـين اذ رحلـوا
الا أغـن أسيل الطـرف مكحـــول
تجلـو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت
كأنـه منهـــل بالـــراح معلـــول
هيفـاء ، مقبلة ، عجزاء مدبـــرة
لا يشتـكى قصـر منها ولا طول !!

فهل أنكر محمد الانسان على زهير الانسان هيامـه وتغنيه بلهيب جسد محبوبته سعاد ! وهل عـاب

عليه أن تحدث عن شقراء أو سمراء أو هيفـاء أو عجزاء وهو فى مقام تسمو قداسته عن قداسة بيوت أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه .

6 ـ وفى (المدارك) غنى أحدهم أمام الامـام مالك الانسان رضى الله عنه فأفسد اللحن فقال له مالك : غن هكذا ، فأدى الامام مالك لحن الاغنيـــة على قواعده ، ثم نهاه أن يعود لمثل هذا المســـخ والتشـــويه .

7 ـ ثم أليست جميع الاوزان الايقاعيـــة المضبوطة من عند الخليل تستعمل كلها أو جلها فى تجويد القرآن الكريم ـ مثل الصيكة ـ والحجاز ـ والصبا ـ كما تستعمل نفس هذه الالحان على غـير كلام الله مما تصطخب به حوالج هذا الانســـان الظلوم الجهول ؟ فهل يدفعنا هذا الى تحريم تجويد القرآن فى مساجد الله ؟

8 ـ واذا كنا نأخذ سخافات المخربشـــين مأخذ الجد متنكرين لواقع القلب البشرى وما أودع الله فى أعماقه من صراع دائب بين القوة والضعف وجب علينا أن نلغى من مصاحف القرآن الـكريم سورة سيدنا يوسف عليه السلام ، ونحضر عـــلى ذوى الأصالة فى الاسلام تلاوتها فى مســـاجد الله . أليست سورة يوسف لوحة واضحة سافرة عن خوالج الانسان ؟ أليست قصصا متحررا عـــن اللف والدوران ؟ أليست مثالا حيا لتسمية الاشياء بأسمائها بعيدا عن التزمت والنفاق ؟ (وقالت هيت لـك ...)

9 ـ ثم ، أليست هذه الالحان (التقـــدمية) الجديدة التى وضـــع الغربيـــون على رقصاتهـــا ـ أغانى السوينق ، والرومبا ، والصامبا ، والبوليرو ، والاشاشا ، والمامبو ، أليست الحانا افريقية صرفـة لا تزال طابعا لأحاسيس أشقائنا فى قارتنا السمراء المشبـــوبة ؟

10 ـ أليست كل الالحان الاندلسية المبتكـرة تعنى ـ قبل وبعد ـ بنوع من الحب يمتد على حساب الوقار الى ما وراء الحدود الطبيعية فيما نعرفه من مدلول كلمة (حب) ، ومع ذلك تقام لتخليدهـــا واحيائها مهرجانات على الصعيد الرسمى ، يخصص لها (هذه السنة) شهر رمضان المبارك ! الـــذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفـرقان ؟

11 ـ وبعد : فليعلم الضالون الاغـــرار من (المسلمين الجغرافيين) ان انتحال الالحان الغراميـة وخلعها على التسابيح الدينية والقومية ، فلسفـة عميقة مدروسة وتخطيط هادف اهتدى له أولئـك الذين يؤمنون بأن «أقرب مسافة بين نقطتين خط مستقيم» فعملية غسل المخ وتحويل الاتجاه الخاطىء لشبابنا المحموم برقصات الاغانى العربيدة ، لاتنجح الا بالتسلل من خلال هذه الالحان نفسها الى أعماق الذهنية الشابة وترويضها على استيعاب ما تصخب به هذه الالحان من كلمات هادفة فى الترغيب بالمثل العليا ، ويأتى التعود عليها كأرضية انتقاليـة من مفهوم الى مفهوم ، ولقد أثبتت التجارب ان اصلاح النفوس من طريق الاصطدام الفاشل والمواجهـــة الصماء عقيم الجدوى ، وزرع المثل العليا فى النفوس

12 ـ عن طريق المتعة حيلة ناجحة ، وقـــد أثبتت التجارب نجاعتها فى العلاج التدريـــجى للمدمنين وضحايا العـــاهات .

13 ـ وما عرف اللفيف حلاوة الاسلام الا عن طريق الشطحات الصوفية ، ومواجد ابن الفارض سلطان العاشقين ومن سار على منواله كابن خميس وشعيب بن الحسين ابى مدين الجزائريين وامـــام الثوار الامير عبد القادر الهاشمي الجزائري .

14 ـ وما اجتــذب رجال الــدين المسيــحي جماهــيرهم نحو الــدين الا عن طريق الاغــاني الكنائسية التي اقتبس منها الاخوان رحباني مــا اثار اعجاب الجماهير بفــيروز .

15 ـ ولو استعرضنا بانصاف وتجرد أغاني فرقة (السلامية) بتونس ، وفرقة (الجيلالية) بالجزائر منذ العشرينات لتبين لنا الهدف الذي تعمل من من أجل تحقيقه هذه المجموعات الضخمة مـــن الاهازيج التي لا تزال تحتفظ بجديتها وعناصرها الايجابية .

16 ـ نحن نردد في كل مناسبة دينيـــــة ، ونرسل على أمواج الاثير الاغنية القائلة :

يا كعبــة . يا بيت ربي ما احلاك

ونذكر أبدا انها مقتبسة من الاغنية الغـــرامية العربيدة القائلة :

يا كحله يا بنت عمي ما احلاك

ومنذ انطلاق الحركات الوطنية بالجزائر ما انفــك مناضلونا (المسلمون حقا) يرددون نشيــد :

ـ حيــوا الشمـــال ـ

والمولعون بذكريات الماضي الحالم يذكرون انهــــا ماخوذة من الاغنية التونسية القديمة ـ قدم قلــة الحيــــاء ـ

كحلة لهـــذاب

الليلة ياكحلة لهـــذاب الليلة يا

كحلة لهـــذاب

سعدى بمــواضى لحباب الليلة يا

ولا نضيع الوقت في سرد الامثلة والاتيــان بالمقارنات . وربما أفردنا لذلك حديثا خاصا في يوم غــير بعيـــد .

وكم أتمنى مذ عمدت ـ وأنا بأعماق. بربروس ـ لابدال جل الاغاني الغرامية المتداولة بين الجمهور آنذاك ووفقت لتحويلها الى ملاحم ثورية وأناشيد وطنية مثل رقصة المدفع :

دوم دوم لشعبك دوم حرر شعبك المظلوم

دوم لشعبك ، دوم لشعبك ، دوم دوم

وقد وضعت على لحن أغنية غرامية مشهورة :

دوم دوم لحبك دوم

وكانت تجيد أداءها المطربة لطيفة

ومثل (الدبكة) المشهورة :

يا غزيل يا بو لعيبة

التي أبدلت هكذا :

يا التزاير يا لحبيبه راهي الحرية قريبه

نار الثـورة شعاله نرمي روحي في لهيبه

ومثل الاغنية الشامية :

ليش . ليش . يا ولفي ما تخاف الله

أبدلت هـــكذا :

ليش . ليش ، يا خاين ما تخاف الله

ومثل الاغنية التونسية :

أنت جفيت جبدتي روحك مني

طريق السلامة او خاطري متهني

أبدلت هـــكذا :

أنت ظلمت سلبت حقي مني

طريق السلامة او خاطري متهني

ومثل أغنيـــة :

يا جارحـة قلـبي

التي أبدلت هـــكذا :

يا ظالـة شعـبي

وغير ذلك كثير سيأخذ طريقه للمجتمع بعد اعداده وطبعه باسم (أهازيج الزحف المقدس) بما فيه من أغان شعبية موضوعه تجسد مراحل الكفاح التحريري وإحداثه الصارخة والتحديـات الاستعماريـــــة المأفـونة .

وأخيرا ـ فليفهم المسلمون الجغرافيون ، أن المصادر التي نستقي منها أصالتنا غير المستنقعات التي أغرقتهم في الحماقات الى الاذقان ، وان الغيرة على الاصالة ليست في مسخ الطابع الاندلـــسي العريق . وحذف (ربع المقام) من الاغاني المدسوسة على الاندلسيين (وربع المقام) في الموسيقى العربية هو وحده قـوام عراقة نسبها الغـير المغمـــوز ، والاستغناء عن الآلات التقليدية وابدالها بـــآلات ميكانيكية اليكترونية باهتة غربية ليس من الاصالة في شيء ، واقتباس جانب المأساة والبكاء من التراث الاندلسي ليس مما يتماشى مع ثوراتنا الصاخبـة ، ولا نزال ـ مع الحسرة والاسى ـ نقف عند الشطر الاول من « قفا نبك »

ألفنا بكاء منذ أن قال قيسنـــا

قفا نبك .. لكنا بكينا وما قمنا

وليعلم المخربشون ان الايقـاع الموســـيقى ملك مشاع بين القلوب الشاعرة بالله . وببـــديع صنع الله الجميل .

وان منطق (اللامعقول) الذي يخاطبوننا به يدفعنا الى تشريف العقل الذي قيل فيه :

ولولا العقـل ، فالضرغـام أولى

من الانســان بالشـرف الرفيـع

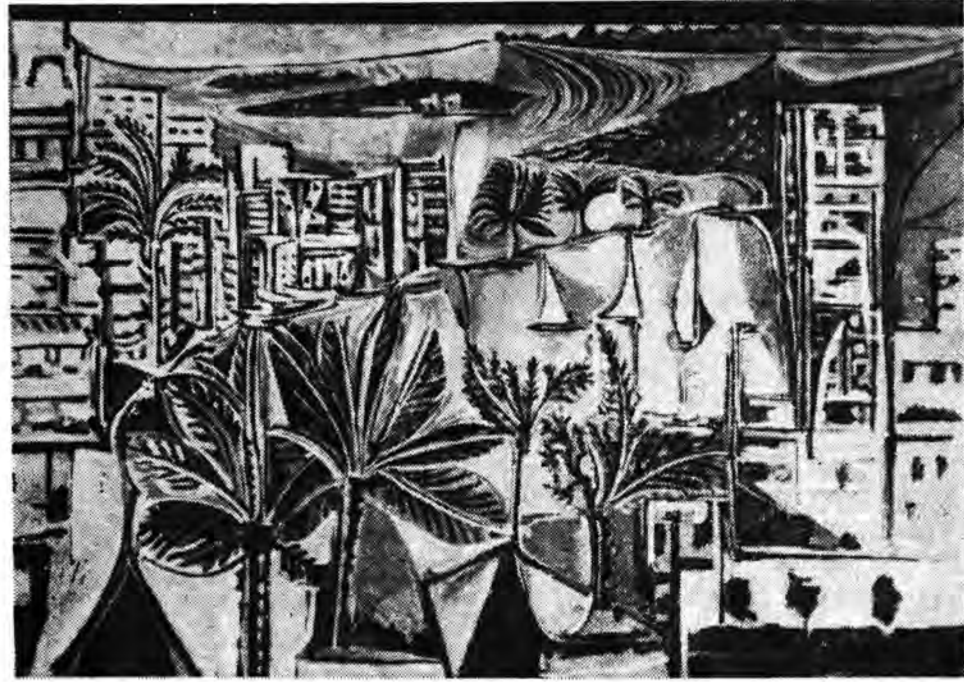
فقولوا ما شئتم واتركونا نغنى ونرســــل التسابيح . وحسبنا ما تأمرنا به الأصالة ،

وحسبكم أن تذرفوا دموع التماسيح .

والقافلة تسـير .

والى الله تصير الامور





لوحة لبيكاسو عن مناظر البحر الابيض المتوسط وهى رحلة رسم عبر عنها الرسام الكثير من لوحاته

التعريب الجامعي في الميزان

د : عبدالقادر حليمي

أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

يتفق الباحثون على ان للمقومات الوطنية اسسا ودعائم منها : الدين والتاريخ واللغة . فالدين هو المقوم الروحي ، والمحرك الاخلاقي ، والموجه النفسي نحو عمل الخير لنيل السعادة ، وراحة الضمير ، فالجماعة التي تدين بدين واحد تشعر دائما انها كتلة واحدة ، متساوية في الشعور ، وتزداد الثقة المتبادلة بين افرادها . والتاريخ هو التراث الحضاري المشترك الناتج عن التفاعل البشري والاحتكاك الانساني .

والانسجام قوى بين أفراد الجماعـة الذين مرت بهم نفس الحوادث ، واشتركوا فى بناء نفـــس الكيان التاريخى واجتازت نفس المحن . أما اللغـة فهى أداة نقـل أو آلـة التوصيـل للمشـاعر ، والاحساسات والتفكير . ولعل اللغة هى أهم مقـوم يميز المجموعات البشرية عن بعضها ، وبالخصوص المجتمعات الحالية التى تعددت فيها اللغات ، ووراح الكل يبحث عن أصله فى لغته ، وحيث أن حضارة القرن العشرين أخذت تتخطى العصبيات الدينيـة التى كانت عليها فى القرون الوسطى أو العتيقة ، وتميل نحو التسامح فى المعتقدات ، عملا بما جاء فى الدين الاسلامى ، «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انا أعتدنا للظالمين نـارا أحاط بهم سرادقها ، وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجـوه» .

ثم ان الحضارة الحالية مبنية على الماديات والمحسوسات ولا تؤمن بالميطافيزيقة الا قليلا . ولهذا بقيت اللغة أهم نقطة مركزية للمقومات الوطنية تتحد حولهـا المجموعات البشرية ، بل ان اللغة كثـيرا ما كانت مبررا صحيحا فى تخطيط التخوم الدولية ، وضبط الحدود السياسية ، وتتميز بها المجموعات البشرية وما زلنا نسمع ونقرأ حتى الوقت الحالى عـــن الاصطدامات التى تحدث من حين لآخر بين مجموعتين بشريتين تسكنان اقليما واحدا أو دولة واحـــدة نتيجة الاختلاف فى اللغة . ولنضرب مثلا بـــكندا التى يعمرها 18 مليون نسمة منهم 12 مليون نسمة يعبرون باللغة الانجليزية لانهم يمثلون الطائفـــة المهاجرة من بريطانيا ، ومنهم 6 ملايين نسمــــة لغتهم الفرنسية لانهم يمثلون الطائفة ذات الاصل الفرنسى ، وبين الطائفتين تنافس وغيرة شديـــدة على اللغة . فالمهاجر الفرنسى يعبر بلغته ويحـاول أن يجعل لها اليد العليا فى تسيير شؤون البلاد ، والانجليزى يعبر بلغته ويعتز بها ويحاول أن يجعل منها سيدة لغة البلاد ، وكم حاولت السيـــاســة الكندية أن تزيل هذه العصبية اللغوية ، لكن هيهات، اذ الكل يعبر بلغته التى تشربها فى أصوله البعيدة ولا يبغى بها بديلا ، ويعتز بها أشد الاعتـــزاز ، ويدافع عنها كل الدفاع ويعتبرها جزءا من شخصيته وكيف لا وهى جزء من كيانه الحقيقى .

ونفس هذه الحالة من التصارع اللغوى نجـدها فى بلجيكا بين الفلامانيين فى الشمال والفالونيـين سكان الجنوب ، فالفالونيون ينحدرون من أصـــل لاتينى ويعبرون بالفرنسية ، أما الفلامانيون الذين يمثلون البرنسية فهم من أصل جرمانى ويعبـرون بلغة قريبة من الهولندية ، وبين الطائفتين نـزاع قوى وصراع شديد منذ مدة طويلة على فرض لغته على الآخر ، ولقد ذهب التعصب اللغوى بالفلامانيين الى التشطط فى الحكم فانشـأوا لهم جامعـــة فى مدينة جاند التى تلقى فيها الدروس بالفلامـانية ، وطالبوا بالانفصال الادارى والسياسى عن الفلامانيين والامثلة من هذا النوع كثيرة ، وهكذا يظهـــر أن اللغة مازالت تمثل حتى الوقت الحالى أهم دعامـة لوحدة المجتمع وأهم قاعدة للدولة وهذا حتى فى الدول المصنفة فى قائمة التقدميين.فالتفاهم والالتحام بين أفراد المجتمع يتم فى التخاطب بلغة واحـدة . والتنافر يكون فى الحديث بلغة لا يفهمها السامع . ولعمرى ما كان انسجام شعورى بين فردين يختلفان فى اللغة .

ولم يغفل الاستعمار الفرنسى فى الجزائر عـن مدى أهمية هذا المقوم فى حياة الشعوب ، ولقد أدرك منذ البداية ان لا سبيل للسيطـرة والسيـادة الا بفرض لغته ، وانه متى تم له ذلك فقد أحرز النصر النهائى ، وسجل الهدف الاخير ، اذ أن بقيـــــة المقومات تأتى تباعا ، ولهذا صوب سهمه نحو هذا الهدف وركز مجهوده نحو افساد وتظليل اللغـــة العربيـــة ، واستعمـــل أسلـوبه الجهنمى لاقنـاع المستضعفين فى الرجوع عن لغة الاجداد والتخـلى عن لغة الآباء والامهات ، وزين لهم محاسن اللغـة الفرنسية وطمس أعينهم عن الصواب . ولقـــد

أنشئت الجامعة الجزائرية أول ما أنشئت لهذا الغرض ، واتخذت منها فرنسا منبعاً لانطلاق وتعميم اللغة الفرنسية ونشرها في البلاد ، لهذا اقتصر فيها التعليم بالفرنسية . أما اللغة العربية فقد وضعت جانباً ، بل ان الذين كانوا يعلمونها لأبناء الجزائر وهم من الفرنسيين كانوا لا يتورعون عن ابرازها في شكل مشوه للغاية ، وكيف لا ، والهدف الاساسي هو حمل المثقفين من أبناء الوطن على مقت لغتهم ، والتصديق بعجزها عن استيعاب التطور الحضاري ، والمخترعات الحديثة ، وكان للمدة الطويلة التي قضاها الاستعمار الفرنسي في الجزائر أثرها البالغ على لغة السكان حيث آمن بعض المستضعفين من أن اللغة العربية لا يمكنها أن تكون لغة علم ، وبالتالي أخذ يتقلص ظل اللغة العربية وينحصر لدى الجماعات التي كفرت بهذا المبدأ الاستعماري ، ونبذت هذه الفكرة الاوروبية ، وقامت جماعات من الشعب تنادي بالرجوع الى الاصل وكان من بينهم الرجل العظيم عبد الحميد بن باديس الذي رأى أن الشخصية الجزائرية بدأت تنهار بانهيار اللغة العربية وان حياة الشعب الجزائري متوقفة على هذا المبدأ ولذلك كرس جهوده لاحياء هذه اللغة وبعثها من جديد ، لكن الوباء الذي زرعه الاستعمار الفرنسي بين أفراد الشعب كان له مفعوله الخاص ، واشتد الصراع بين اللغتين وتعالت بعض الحناجر بالمبادىء المزيفة من أن اللغة الفرنسية هي لغة الخبز والحياة والتقدم ، واللغة العربية هي لغة التاخر والآخرة .

وهكذا تبلورت مشكلة اللغة في المجتمع الجزائري كان لها مفعولها الواضح حتى — بعد الاستقلال — حيث أن الجزائر بعد استقلالها أخذت تعاني مشكلة ازدواج اللغة ، لان الاستعمار الفرنسي بعد خروجه من الجزائر ترك أفكارا مشبعة بالرواسب المتعفنة وهي الافكار التي اعتنقت المبدأ الاستعماري وحلت محله واستمرت في نشره . وكان من الطبيعي أن تكون لها اليد العليا في الادارة الموروثة . أما المثقفين بالعربية فقد أبعدوا عن الادارة بدعوى انه من الصعب تعريب البلاد في فترة وجيزة ، أو ان العربية عاجزة عن تسيير الادارة أو ليست في المستوى التقني ، أو بحجج أخرى واهية مثل ان العربية لم تنجح في تونس والمغرب فكيف يمكنها أن تنجح في الجزائر ؟ وانه اذا عربت خربت ، والغريب ان دعاة اللغة الفرنسية يحكمون على اللغة العربية بالعقم دون أن يتركوا لها المجال للخصب. فهم يبعدون أصحابها عن احيائها ويصفونهم بالجمود زاعمين أن لغة الضاد لم تأت بشيء جديد وانها لا تصلح الا للشعر لانها ولدت في الصحراء حيث مجال الخيال والبيئة الفقيرة لذلك كانت خيالية وفقيرة وعقيمة ولا تتلاءم والمكانة الحديثة ، ولذلك تسامحوا في تعريب كلية الآداب بجامعة الجزائر وعارضوا كل المعارضة في تعريب كليات أخرى،ولم يدر هؤلاء أن اللغة العبرية ولدت في الصحراء، وهي تعد حاليا من اللغات العتيقة المحلية التي أحياها اليهود وراحوا يعبرون بها حتى عن أحدث المخترعات ، وانها قد اتسعت لاستيعاب الحضارة بجميع فنونها ، مع انها لم تبلغ قديما ذروة التطور التي بلغتها اللغة العربية ، وهناك أمم أخرى كثيرة قد تخلت عن لغة المستعمر أو لغة الدخيل وعادت تبحث عن أصولها القديمة بعد أن تبين لها ان لا مجال للتحرر من السيطرة الاجنبية الا بالتحرر الفكري واللغوي ، وما حوادث الشعب الملغاشي الناتجة عن الرجوع الى الاصل ببعيدة عنا .

ومما يجلب الانتباه في انتشار اللغة الفرنسية بالجزائر في عهد الاستقلال هو انها أصبحت تتعاطى وتستخدم أكثر مما كانت عليه أيام الاحتلال ، حيث أننا كثيرا ما لاحظنا ان الذين يملكون منها الكلمة أو الكلمتين يحاولون استعمالها كلما أتيحت لهم الفرص خشية أن يفلت منهم هذا الكنز الثمين ، وصدق المثل العربي من أن أحب

شيء للانسان ما منع منه . كما لاحظنا أن البعض ممن يعتبرون ضمن المثقفين بالفرنسية يبحثون عـــن الكلمات الفرنسية البالية أو الميتة وينفخون فيهـا من أرواحهم ليعيدوا لها الحياة فهم بذلك يخدمــون اللغة الفرنسية أكثر مما يخدمها الفرنسيون أنفسهم ومما يزيد استغرابا انهم يكفرون أشد الكفر بلغة أجدادهم وانهم آمنوا كل الايمان باللغة الاجنبيـة وغرفوا منها الكثير حتى ثملتهم وأعمتهم عن الصواب فراحوا يعملون ما في وسعهم للتطفل على غيرهـم . وكيف لا . وهم لا يؤمنون بأنفسهم ان ظهروا أمام الرجل الفرنسي. ويقدسون الفرنسية أشد التقديس وكأن وجودهم مرتبط بالفرنسية ويعتبرونهـــا ضرورية لحياتهم كضرورة الماء للاسماك . ان هـــذا البلاء عظيم لأمة تريد بناء كيانها وفرض وجودهـا على الحياة والتاريخ . فالكيان يحتاج الى شخصية . وللشخصية لغة ولا شخصية لمن لا لغة له . وهـل يمكن أن يبنى كيان بمن لا ايمان له بنفسه ؟ فالذى يتطفل على لغة غيره يعيش بلا عنوان . اذ مـــن المعروف أن أساس المشاركة فى الركب الحضاري والتحرر من السيطرة الاجنبية هو اكتساب الثقـة بالنفس . والارادة القوية . والاتحاد فى العمل نحو هدف معين . وكيف يمكن التلاحم والعمل سويـا مع من لا ثقة له بنفسه أو من يتكل على غـيره أو ينتظر توجيها من غيره للسير قدما نحو الحياة ؟

فهو كالفرخ الذى تربى فى أحضان امه ولا يريـــد الخروج من عشه رغم قدرته الا بعد أن تدفعنـــه الام بالقوة من أعالى الشجرة . هنالك فقط عند مـا يرى نفسه انه واقع لا محالـة يفتح جناحيه . ان عدم الثقة فى النفس مرض خطير يجب معالجتـــه فى الحين والا سرت العدوى وكان التـــأخر . لان الفترة التى تجتاحها الجزائر حاليا هى مرحلـــة تدعو الى التعاون الجماعى . وللسير بخطى سريعة نحو التقدم وقطع المسافة البعيدة أو بلوغ المرحلة التى بلغتها الامم المتطورة وهى ليست مرحلة البحث عن الطريق . أو مرحلة التوقف للاختيار . بـل ان الاختيار قد تم فى أول نوفمبر سنة 1954 عنـــد ما انطلقت أول رصـاصة لاستـــرداد الحقـــوق والشخصية . فعلى الذين يجنون ثمرة الكفاح المرير أن لا يعاكسوا المبادىء المقدسة التى ماتت من أجلها أكثر من مليـون نسمة .

ولا نعنى بهذا الحديث اننا ضد اللغـــات الاجنبيـة بل العكس . اننا نريد اعـادة السيـادة للغـة القومية . والتى مات لاحيائها الملايين من أبناء الوطن . وان اللغات الاجنبية يجب اتخاذها مادامت تخدم اللغة القومية ؛ فاللغة الفرنسية والانجليزية وغيرهما هى من اللغات الحية التى يجب ان تسخر لخدمة اللغة العربية وتطويرها . ولا يصح أن تكون لهما اليد العليا على اللغة القوميـة .



ثورات العرب ضد الإستعمار في جنوب الهنـد

دنس ووفـر
أستاذ التاريخ
بجامعة استراليا

في الاسبوع الاخير من شهر اغسطس 1921 ثار المابليون العرب في اقليم مالابار على اوضاعهم فقالت صحيفة التايمز اللندنية في افتتاحية لها معلقة على هذه الثورة (اغسطس 29) ما نصه :

«مادامت جماعة صغيرة من شعب هم سريعو الثورة تستمر ساكنة بين هنادسة اميل الى المسالمة ، ويكنون غلا واستياء على صعوبات زراعية واقعا كانت ام وهما ، فلا بد من ان نسمع اخبارا عن اضطرابات مابلية من حين الى حين» من البين ان كاتب افتتاحية التايمز لم يجرب شخصيا تلك الصعوبات الزراعية «التافهة» التي عسى المابليين «وهموها» والتي نزلت بشعب ابى قديم من ماض بذروة الازدهار والمجد والعظمة الى حاضر قاس هم فيه اقنان زراعيون مضطهدون منتظرين تنفيذ الخطط المرسومة لمحو معالم كيانهم وهويتهم .

اتصلنا من الاستاذ دنس ووفر بهذه الدراسة ننشرها شاكرين

فيستمـر كاتب افتتـاحية التايميز بســأمه الاستعماری الانيق عن هذا «العنصر الغريب الساكن فی ركن شاسع بعيد لشبه قارة الهند » باستشفاف عدم تمثيلهم لواقع الهند العام : «يجب علينا أن نفهم أن المابليين ليسوا بالعموم من أصل هندى ، انهم ينحدرون من عرب يحبون خوض المعــارك استوطنـوا بســاحل مالابـار منـذ قـــرون ، رغم تـزاوج كثـير . . » ومع أن الوحوش المابليــين THE WILD MOPLAHS لم يمثلـوا جماهــير الشعب الهندی لعلهم مثلوا خطرا كامنا فی القومية الهندية الناشئة التی هی بالاساس حلف حركة الخـلافة الاسلامية مع حركة المؤتمر القـومی ـ الهندوسی ـ قاده غاندی ، فحاولت التايمز أن تفسر الثـــورة بتلك الطريقة وتدعو الى اجراءات «حاسمة» من قبل السلطات البريطانية : «ثارت المابليون فی الماضی تعصبا غير مسؤول منهم ، وكثيرا ما أثارتهم نزاعات عقارية مع ملاكين عقاريين هنادسة ، أما الآن فثاروا من تحريض المحرضين «الخلافيين» الذين وجــدوا جهلهم السريع الاشتغال يسير الاستغلال فی سبيل اثارة أعمال العنف ، أعترف انه منذ أشهـر كـان المبعوثون المسلمون من مناطق هندية أخرى ينشرون دعايتهم التخريبية بين المابليين ، منذ شهـــرين اثنين جاءت الاخبار أن جماعات متطوعين مابليــين يلبسون نوعا من البزة العسكرية . . ان الامــر الذی نحن له من المتوقعين هل حكومة الهنـد التی قد كانت يدها خفيفة جدا ، تستطيع الاستمـرار فی تغـاضيها عن أعمـال المحـرضين الخـلافيين التخريبية ؟ ان رسالة نطبعها اليوم تثبت ان دعاية مخطرة مماثلة تجری فی بانجاب والاقاليم المتحـدة الهندية الآن ، فی حين تثير بلاغة السيد غانـدی الريحية ـ بانتظام ـ هيجانا على نطاق واسع يفضی الى اسالة الدماء ، ان لسياسة التسامح الـــرسمی حدودها حتى فی الهند ، فيبدو أننا وصلنـــا الى هـذا الحـــد . . »

ان هذا الكلام ـ وهذا غنى عن القول ـ فـارغ تماما . ان «البينـات» البـريطانية المثبـة لاصـل «خلافی» لثورة المابليين العرب ضئيلة جدا بشكل مربك ، ومما لاشك فيه ان البريطانيين ـ لو ظنوا بجد أن حركة الخلافة تريد تدبير ثورة فی طـول الهند وعرضها للاطـاحة بحكم الرجل الابيـــض الاستعماری ـ لقمعوها بأسرع من لمحة البـرق ، ولكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا ـ فكما أعلن سـير وليام فنسنت فی الجمعية التشريعية بمدينة سيملا بتاريخ سبتمبر 1916 «ان سياسة الحكومة ازاء حركة عدم التعاون وحركات الخلافة لن تتأثر نتيجـــة لنشوب انتفاضات تعصبية فی أی ركن من أركان البلاد» رغم ان الحكومة ، لاحظت ، كما قـــال سير فنسنت ، مظهرا مريبا من مظاهر التحـــريض الخلافی وهو محاولة العبث بولاء الشرطة والجنود، محاولة فشلت من حسن الحظ (1) ، ان هـــذه الخطوط البسيطة ـ نشر الدعاية المعادية للاستعمار البريطانی بين صفوف الجنود المسلمـين الذين فی الجيش البريطانی ـ كانت الواحدة التی اتخذهـــا حركة الخلافة ، التی تتشدق بشعارات الـــوحـدة

1) The London Times 7.9.1921

الاسلامية العالمية ، تضامنا مع المابليين المواجهين للابادة العنصرية ! فأمام هذه الحقائق يجب علينا أن ننظر فى شعارات حركة الخلافة النارية مرة أخرى . اننا نجد حكيم أجمل خان ، رئيس الحركة مثلا يفيد المحتلين خبرا بأن «آسيا الصغرى من جانب والهند من الجانب الآخر ليسا الا حلقتان بعيدتان فى حلقات سلسلة الاتحاد الاسلامى العالمى الذى سيحقق فى المستقبل» وأضاف منددا «بالمذابح الوحشية» البريطانية ، كلاما لم يكن له أن يفيد المجاهدين المابليين العرب شيئا فى هذا التاريخ المتأخر . والمذابح تكاد أن تهىء اجراءها والشعب المابلى على وشك الانهزام بعد مقاومة بطولية طويلة وقفوا ابانها فى وجه اكبر امبراطورية فى العالم عندئذ . فان أثبت بيان حكيم أجمل خان هذا ، المدلى به فى 28 سبتمبر شيئا ، هو أن حركة الخلافة فى التحليل النهائى ، رغم شعاراتها الطنانة عن الوحدة الاسلامية العالمية لم تكن على استعداد أن تخرج من اطار الاعمال السياسية الذى أقامه الحكم البريطانى . لم تكن على استعداد أن تثور على نظام البؤس والحرمان المفروض على جماهير الشعب الهندى لانها كانت اسير القومية البورجوازية التى مثلها غاندى فلهذا السبب بقيت أعمال الحركة داخل حدود النظام الهندى القائم على اللاعنف ، بخلاف كلماتها التى حلقت فوق طول العالم الاسلامى ، فلو سمعت خطاباتها الرنانة تصورت أن حركة الوحدة الاسلامية هذه حركة ذات باس جديرة بأن تهز الدنيا . . ولكنهم هؤلاء الخلافيين لم يستطيعوا انقاذ المابليين الذين يبيدهم الانكليز فى بيوتهم بجوارهم فكيف ينقذون خلافة المسلمين والدولة العثمانية ؟ فان بحثا علميا فى حركة المابليين العرب لابد له أن يتخلص من الضباب الكثيف الذى أثاره الانكليز فرارا من الاسباب والوقائع الحقيقية فى مثل هذه الفقرة من التايميز – «مع أن السياسيين يقدمون الحجة ان معضلات ملكية الاراضى LAND TENURE هى المسؤولة عن الانتفاضة ، فكل الدلائل والبينات تثبت ان هذه المشاكل انبثقت من تعصب وجنون دينيين اسلاميين أثارهما محرضو حركة الخلافة الخطباء» (2) ان هذا النوع من الاقوال ، المفعمة بالتحيز الاعمى ورفض النظر فى أوضاع المابليين وعواطفهم – كما عرفها ثقات وسياسيون محليون هم يلمون بأوضاع مسقط راسهم علما – هو السبب الاساسى للغموض التاريخى والاهمال الشائن اللذين هما يحاصران هذه الثورة المهمة الى يومنا هذا ، فعلينا أن نتعرف نحن المسلمين مرة أخرى على ثورة من ثورات العروبة الخالدة

ان الاحوال التى عاشها هذا الشعب العربى فى جنوب الهند هى تبين مغزى الثورة ، ان نظرنا فيها ، ان الثورة المابلية كانت انتفاضة ثقافة منخنقة على حكم أجنبى وبيئة معادية قد أحاطا بها وشرعا يخنقانها شيئا فشيئا . انها مثلت تحديا اجتماعيا عميقا وجذريا لكل ما مثله المجتمع الهندى من ظلم وطبقات وراثية ، وتمييز عنصرى وطبقى شنيع ، ان هذه الثورة تشبه تماما ثورة

2) The London Times 2.9. 1921

شريعة الله ودود هوميان فى بنغال ابتداءا مـن العقد الثالث للقرن التاسع عشر ـ ان الابـــادة الاستعمارية لمواقع الطبقة الاسـلامية الحـاكمة فى بنغال واستئصال الثقافة الفارسية الناتج عن هذه الغزوة الاستعمارية العسكرية والاقتصادية قد خلا المجال أمام قيام قوى أكثر جذرية من بين جماهير الشعب البنغالى ، بدون رادع من طبقة مسلمـــة نبيلة تكون «القيادة الرسمية» للشعب ، وان البند التام للثقافة الطبقية الايرانية التقليدية الذى امتاز به قادة الحركة الفرائضية أخـذ تعبـــير عودة الى الاسلام الاصلى ، كما تراه حركة الوهابـين العـرب فى جزيرة العرب ، فكان كل قواد الفـــرائضية نصف عرب ثقافيا عرفوا مهد العرب جيدا وأجبروا أتباعهم على أكل الجـراد ـ أكـل يستحبه العرب ويكرهه الهنادسة ـ رمزا لانفصالهم من العـــالم الهندوسى الذى قد انغمس فيه الاسلام فى شكلـه الشعبى فى البنغال ، ان حركة الفرائضية عبأت الطاقات الثورية للاسلام الذى اعتنقه فى الهنـد المستضعفون فى الارض من المنبوذين والطبقـــات السفلى والذين عرفوا التمييز العنصرى والاستغلال الطبقى فى مجتمع الهندوسية فارادوا النجاة منها، ان الحركة وجـدت المـلاكين العقـاريين المسلمـين الباقين فى البنغال يلجأون الى الانكليز ويعملـون مع الملاكين العقاريين الهنادسة ، الذين خلقـــهم الاستعمار ، فى سبيل قمع انتفاضة جماهـــــير الفلاحين المسلمين ، كانت دوافع الحركة المابلية جد مماثلة ، ان الفتح البريطانى ، كما فى البنغـال ، أفقر وخرب المسلمين اقتصاديا عن عمد مسبـــق وأخضع الجماهير المسلمة فى نفس الوقت لطبقـة ناشئة من الملاكين العقاريين الهندوس الذين أخفض لهم جناحه ، وكان الاسلام يكسب دائما أتبـاعـا جددا من المنبوذين والفلاحين الفقرا، الهنادسة الذين دخلوا فى دين الله أفواجا فى جنوب الهند مما رسم خطوط الكراهية الطبقية أكثر حدة بين الحالتـين الاثنتين ، اللتين ينتميان أيضا الى دينين وثقافتـين لا توفيق بينهما ، فكانت المنطقة دائما تشهـــد ثورات فـلاحية اســـلامية عنيفة على المستغلـــين الهندوسيين المحميين من قبل الادارة الاستعماريـة البريطانية ، فتقول دائرة معارف الاسلام : «قـد نشبت ابان القرن الماضى ما يعادل 51 انتفـــاضة تعصبية بين المابليـين ، بالخصـوص فى ارنـاض بمقاطعة مالابار ، ضد الهنود ، ان بعض المابليـــين يبدأون على العموم بقتل ملاك عقارى هندى ، وبعد هذا الاعدام ، يطلبون الاستشهاد قاتلين الكفار ؛ فينضم آخرون فى صفوفهم بعد تطليق زوجاتهم ، فيخرجـون لابسـين ثـوب الشهادة الفضفـــاض ليستشهدوا مقاتلين الكفار ، وهم لا يشعرون بشىء ازاء الموت الا الاحتقار المطلق ، انهم ينتهكون حرمة الهيـــاكل الهنـــدية ويحـرقونهـا و يختنـــون اجبارا أولئك الهنادسة الذين لا يقتلونهم ، وكان بعض هذه الانتفاضات حركها استياء الفلاحـــين الهنادسة المسلمين ضد ظلم الملاكين العقاريـــين الهنادسة» ولكن المقالة تضيف «غير أن الانتفاضـة الاخيرة ـ سنة 1921 ـ كانت ذا طابع سياسى بحت فأثارها حركة الخلافة ؛ انها اختلفت من كل التى سبقتها من ناحية اتساع نطاقها والدلائل الواضحة

على تنظيمها واستعدادها المخطط ؛ ان الفضائح التى جاءتها ضد الهنادسة تثير الغثيان بشكل خاص (3) . كانى أرى الباحثين الغربيين النصارى يشغلهم «الغثيان» – ولو كان الغثيان مبررا من «فظائع» المابليين – عن دوافع المابليين أنفسهم والظلم والقهر اللذين عانوهما هم كمسلمين فى مجتمع من أظلم ما خلق الله من أنظمة انسانية . ان انتفاضات فلاحية ، او انتفاضات عبيد ليست جميلة ابدا فاعتقد أن مواقف كمثل موقف هذه المقالة تهمل مرجع هذه الوحشية وفى هذا المثل المذكور بالفوق ، تؤدى الى رؤية «اختلافات» حيث هى معدومة وتجنب درس علمى بدعوى بعض العوامل أو الوقائع التى فى تعيين مغزاها قد وقع اختلاف كثير ، فجودة التخطيط العسكرى مثلا الذى امتاز به الثوار ، والذى رآها البريطانيون كدليل آخر على يد خلافى .. كتب مراسل التايمز من بومباى انها «طبيعية تماما فتمائل تمالك قبائل حدود الهند الشرقية الشمالية انفسهم أمام النيران وقيادتهم الجنود» (4) كما دلت قطاعة اليوم التالى فى التايمز على الدور الذى لعبه جنود متقاعدون فى صفوف الثوار العرب المابليين .

ان كل الثقات والملمين بشؤون مالابار اعترفوا بشناعة الاستغلال الذى تضور من وطاته الشعب العربى المابيلى من قبل ملاكين عقاريين هنود لجأوا الى كل الوسائل الممكن اتخاذها لأجل اعتصار الاموال منهم ، هذا الاستغلال الذى تضور من وطأته الجائعون حتى اغمى عليهم . ان الشعب البنغالى فى أكثف أيامه سوادا ، بعد الهدم التام لقيادته التقليدية ، فى شبه عزلة من الوطن العربى ورغم ظروف قاسية ومواصلات بدائية وانغماس الشعب فى الجهل وجاهلية ثانية ، استطاعوا قلب أحوالهم رأسا على عقب وارساخ وعى اسلامىأممى فى عقول الجماهير المؤمنة الغفيرة ، بخلق اطار حضارى عروبى جديد قضى على العقلية الرائجة فى بنغال آنذاك والتى هى خليط من عناصر متناقضة للحضارتين المغولية الايرانية والهندوسية الشعبية ، لم يحتج البناغلة فى ذلك العهد الى اللاعنفيين الخلافيين البورجوازيين ولم يحتج المابليون العرب ، كذلك ، الى «محرضى» هذه الحركة من بعد مئة سنين ! ! كفاهم الاسلام ذخيرة من الهداية وكفاهم تجربة تاريخهم العربى القومى استراتيجات لكى يخوضوا هذه الثورة المسلحة . ان حقائق صغيرة كثيرة تثبت الطابع الجماهيرى ، الجذرى اجتماعيا ، الذى لهذه الثورة المابلية – رغم اغفال المؤلفين الاجانب أهم البينات والدلائل ! – ان المابليين مثلا احرقوا كل السجلات المتناولة الممتلكات العقارية التى هى الاساس القانونى للاوضاع الاجتماعية القائمة فى الريف المالاباري . . فقال مؤلف بريطانى «ان تدمير هذه السجلات والوثائق ستؤثر فى مصير الهنادسة المساكين الذين سيصعب عليهم الآن اثبات صحة ادعاءاتهم لممتلكات وأراض هى لهم ؛ بدون أدنى شك ، (5) وان الفظائع التى اقترفها بشناعة الاستغلال الذى عاناه الشعب العربى

(3) دائرة معارف الاسلام ليدن حرف م ص 261

4) The London Times 2 Septembre 1921
5) The London Times 30.11.1921

الثوار كان بعضها مسددة الى نظام اجتماعى تجرع القائمون بالثورة من قبل مرارة منه ومهانة واستغلالا نزل بهم الى مستوى البهائم تتضور منه النســاء والاطفال حتى يغمى عليهم جوعا . ان كثيرين من الذين انضموا بين «العرب» فى مالابار كانــوا من الملاعين والمنبوذين والمحتقرين فى المجتمع الهندى، فاعتنقوا الاسلام لانهم آنسوا فيه اخاء ومساواة فى توحيد الله فقفزوا فى دقيقة من الموقع الاسفل الى الذروة فى أوضاع مالابار . ولكن المستعمــرين البريطانيين فتحوا مالابار واضطهدوا الشعـــب العربى هناك ، محاولين محو ثقافتهم ولغتهـــم ، واقامة طبقة جديدة من الملاكين العقاريين الهنادسة عليهم مرة أخرى مما جعل المسلمــين مستضعفــين فى الارض بضرب عليهم المسكنة والحرمان فيجدون انفسهم بأسفل المجتمع الهندى . ورغم هذا استمر الاسلام يكسب اتباعا جددا من فقراء القوم والفلاحين المعوزين فى كل العهد البريطانى ، ورغم خسارة أكثر المابليين لغتهم العربية الاصلية ، ورغــم سياســة الافقار والتجهيل الرسميين،انهم احتفظوا بشعورهم العربى العميق ، بواسطة أغانيهم النشيدية الشعبية باللغة اللامايالامية الداعية الى الكفاح والجهاد ضد الاستعمار وعملائه الهنادسة ، فكان من الواضــح ان ارتباط هذه القومية العربية المتغربة بجماهير مستائين من فلاحين قد طال عليهم الظلم لابد لــه ان يخلق وضعا مخطرا جدا . ان ثورات عبيــد أو اقنان ليست أبدا جميلة ، ان المجتمع الهنــدوسى فى مالابار كان مجتمعا غير عادل وجدت قوىانفجاره تعبيرها الصادق فى ثورة الفلاحين المسلمين «العرب» فان اعمال اغتصاب نساء طبقة النايار NAYARS الهندوسية الحاكمة ، مثلا ، من جانب الثوار تبدو كانها اهانة مسددة الى نظام الطبقات الوراثيـــة المتخذ لرمز منع التزاوج كرمــز لظلمه أكثـــر منها تهيج لا دافع وراءه الا الشهوانية.ان ثار الجماهير العربية ، من حفــر مقابر جماعية للذين عــــادوا الثورة مثلا شيء رهيب ولكن نظام الطبقات الوراثية الهندوسية كذلك انكار شنيع لاخوة الانسان وكان العرب والجماهير الكادحة الداخلة فى صفوفهم قــد عقدوا العزم ، وهم يعون تأريخا مجيدا ، ألا تفرض عليهم مرة أخرى تلك العبودية فأصاب «الــكفار» عقاب بما قدمت ايديهم .

فلنر الآن على أى مستوى كانت تخاطيط الثوار وما كانت أهدافهم ، وأى نوع من حرب شعبيـــة هذه ، وما كانت نتائجها الاخيرة كتجربة رائدية رسم طريقا أمام كل من الشعب الهندوسى والشــــعب الاسلامى فى شبه قارة الهند ـ باكستان .

يقتطف ر . س . مجامدار آراء التقرير الانكليزى لرسمى فى نشوب الثورة (6) ورد أفعال الهنادسة حاول جمعها الآن باقتطاف أقوال التايمز لكى نرى صورة متحركة للثـورة مرحلة مرحلة فنستنـــبط الدوافع الحافزة للقائمين بها . ولو انتصر الثـــوار العرب وكتبوا هم كتب التاريخ والابحاث الاكاديمية أمكنهم تقديم تفسير ثان يختلف من الذى رائج . من التقرير ـ «ابان الاشهر الاولى فى 1921 ،

6) R.C. Mujamdar "History of The Freedom Movement In India Calcutta 1963 page 190

قصرها . انهم هجموا على مكاتب الدولة والمحاكم. فدمروا كل السجلات العامة . وسلبوا مـــراكز الشرطة كل أسلحتها وذخيرتها حتى أن الحكومة المدنية توقفت عن السير تماما . ان فجاة نشوب النيران واتساع نطاقها يدلان بما لا يقبل الجدال من الاثبات على وجود منظمـة مخطـرة واسعـة ، قوادها كانوا يتربصون فرصة لمحاولة الاطـــاحة بالحكومة القائمة بواسطة العنف المسلح (7) .

تعطى ملحمة محاصرة المسجد بممبر فكرة عامة لبسالة المابليين فى خوض معـارك مستميتـــة . « كان ثمة كثير من المقاتل قبل ما استسلم الثـوار أن يطعنوا بسكاكينهم حتى بعد مـا اختـــرقتهم الحراب» وفى المعركة الحامية الوطيس التى ذهبت بأرواح أكثر المسلمين المرابطين بالمسجد الذيـــن حوصر بهم من بعد مئة ياردات «أصابت كثـــارا من الموتى ـ العرب ـ طلقات رصاصية كثـــيرة قبلما صرعتهم . فكان احتقارهم للموت خـــارقا حقا» (8) .

وكتبت التايمز بتاريخ 1921/9/19 تحت عنوان «روح المابليين الكفاحية لم تكسر بعد» ما نصه :

« **سملا 16 سبتمبر** أعلــن فى مجلـــس الدولة (كونسل أوف ستيت) ان الاوضـــاع فى مالابار لا تزال مخطرة . ان الاراضى الداخلية لارنـــاض وولاناواد لا يزال الثوار يسيطرون عليها وعددهـم يقدر بثلاثة آلاف . ويعرقل حركات الجنود سرعة تنقل الثوار من مكان الى مـــكان وصعوبات النقل والمواصلات . ان معنويات الثورة لم تهتز بعد فلا تزال مراكز الشرطة والمحاكم مغلقة ولم تسنـــح الفرصة بعد لتقييم مدى الضرر والتخريب اللذين الحقوهما بأملاك الحكومة والمدنيين . ان الجســـور والطرق التى رممها الجنود دمرها الثـوار للفـور مرة أخرى » .

« **كاليـــكوت 1921/9/18** وردت الاخبـــار من بيلا عمبور التى تبعد 36 ميلا من كاليكوت شرقا ان وريانكونات كنحمد الحاج يدعى سلطته المستقلة فى ارناض الشرقية فيصف ارناض ووالاوانـــاد WALAWANAD كممتلـــكتين خلافيتــــين مزعومتين . انه افتخر بانه فتح ارناض ووالاواناد اللتين لن تدفع الضرائب الزراعية العقارية فـوق أراضيها مرة أخرى» ان هذا المقتطف الاخير يبرز مرة ثانية أولية الاستيلاء العقارى الذى بصدور الفلاحين المسلمين القائمين بالثورة.فلم تكن الوحدة الاسلامية العالمية من طراز الحركة الخلافية أو «دولة اسلامية» الا البناء الفوقى النظرى الذى قام على هذا الاساس»

ان التايمز تقدم تصويرا للهجمـــة المضـــادة الاستعمارية التى مثلها الزحف على مابوروم انقاذا للمدينة «ان كثارا من المابليين الواقفين فى وجـــه طابور النجدة التى أرسلت من كاليكوت انقـــاذا لمدينة ملابوروم كانوا جنودا متقاعدين من الجيش الهندى البريطانى سابقا . اشتركوا فى الجيـــش البريطانى فى معارك ما بين الرافدين . ان هــؤلاء حصنوا انفسهم فى بيوت بوقاطور PUKKATUR

(8) نفس المـــرجع

7) The London Times 8 Septembre 1921

وردوا بشدة على طلقات الجنود الحاملين عليهـــم بنيران مماثلة ، فلم يجد الجنود الهــاجمون بـــدا من أن يكتسحوا عددا من المتراسات بهجوم مقابل وجها لوجه . . » وقال البيان العسكرى الـــذى أصدرته السلطات البريطانية : ان الثـوار هجمـوا على طابور النجدة التى أرسل بها الى مالابورم من الامام والخلف وكلا الجانبين ، ولم يتبعثروا الا بعد أربع ساعات من القتال بالسلاح الابيض» ثم قال البيان ما له مغزاه العميق بعد شهر كامــــل من مقاومة الوحوش المزعومين للعرب المابليين : « ان السكة الحديدية الى كاليكوت قد أعيد استعمالهـا مؤقتا ولكن كل البرالمالاباري ما سوا « تعلـــق » بالغات (أى منطقة بالغات) لم نسيطـــر عليـــه بعــــد» (9)

كلما حمى وطيس الحرب وتصاعدت اعمــــال الجانبين عنفا ووحشية كسبت المقاومة العربيـــة طابع حرب شعبية أكثر فأكثر ، ولكن الشعب الذى كانت الحرب له لم يكن بالتأكيد الشعب الهندوسى الذى وقف فى جانب البريطانيين من اللحظة الاولى للثورة ، ان هذا الاصطلاح «الشعب الهندوسى» طبعا سيثير الجدل ، ولكن مسألة الاصطلاحات اساسية فى فهم الحوادث ، ان المعلقين والمؤلفين الهنــــود والانكليز يرون انتفاضة المابليين كـ «تعصب» محض ولا شىء آخر ، ان هذا لانهم يأبون النظر فى الحركة من موقف تحليل قومى واجتماعى ، ولكن ، كمـا رأينا من البحث ، لم تكن فى المجتمع المالاباوى أى وحدة قومية مطلقا بل كان أساس العقــائـدية السائدة فى ذلك المجتمع ـ أعنى الهندوسيـــــــة البرهمانية ونظام طبقاته الوراثية ـ انـــــكار امكانية نشوء وحدة شاملة من الاخاء القـــومى ، كان بين الطبقات المختلفة فى مالابار ـ التى هى بالحقيقة كيانات **عنصرية** فبالتحت ثمة الدراقديون سكان الارض الاولون وبالقمة الآريـــين الرصانة الغزاة ـ كان بينها وهدة لاجسر عبرها ، ولكن ، أليس ممكنا أن هذه التوترات الطبقية تنحصر داخل اطار مادى مصلحى طبقى ؟ يكاد يمكن ، لولا مجىء العرب الذين فجروا هذه الدنيا الجامدة ، الراكدة، وقدموا على تـــراب مالابـار كيـــانا قوميـــا واقتصاديا يخالف النظـام القـائم كل المخالفة ، فجذبوا الجماهير اليهم وهم الاسلام والعروبـــة بالسيطرة على الاوضاع ، ولكن مجىء البرتغاليـين عرقل سير هذه العملية الطبيعية التقـــدمية فى المجتمع المالابارى ، ثم جاء الانكليز وأخذ نظـــام الهندوسية الطبقى نفسا آخر بعد احتضاره وبدأت مصائب تصيب العروبة من جـراء انهيار أسسهـا الاقتصادية التجارية مما ألحق أضرارا بالغـــــا بالثقــافة العربية ومعالم الشخصية العربيـــة ، فابتدأت اللغة العربية تتراجع الى الوراء بعـــد زوال التأييد الشبه الرسمى الذى تلقته فى العهد السابق لمجىء البرتغاليين ، ولكن التحدى للظلـــم الاجتماعى الذى كمن فى عقائدية الاسلام أنقـــذ العروبة من قاعدة تجارية طبقية مدينية ذات ملحق فلاحى الى قاعدة فلاحية ريفية ذات ملحق تجـارى بسيط ، فى ابان هذا الانتقال زالت العربية تكون

9) The London Times 21.9.1921

اللغة الام لمعظم المسلمين في الاقليم ولكن العقائدية العروبية بقيت وارتبطت بكفاح الفلاحين المسلمين الفقراء ضد دولة ونظام اجتماعي هما يضطهدانهم من ناحيتين — طبقية وقومية . ان الثورة المابلية ثورة قوم مضطهدين وطبقة مضطهدة وان هاتين الحقيقيتين ، أى هذا الاضطهاد المزدوج ، يعللان عنف الانتفاضة واسالة دمائها .

طبعا لن يرضى عقائدو القومية الهندية البرجوازية بهذا التحليل ، ولا الانكليز ، لانه — لو أثبتناه — سوف يعني ان وحدة ارض الهند وهم من الاوهام، ان لها أقواما وشعوبا وأمما متعددة ، وليست ذات مقومات هوية موحدة ، ولكن تطور الحوادث تؤيد تحليلنا . ان غاندي من الاول لم يفهم ما يجري في مالابار فأيد الى حين ثورة العرب هناك وتغاضى عن اسالة دماء الهنادسة في الاقليم ، الا أن الانكليز والرجعية الهندوسية المحلية الذين سدد ضدهم ضربات قاصمة بعشرتهم كالعهن المنفوش لم يريدوا أيضا فهم ما جرى ، ان كل الاطراف الثلاثة رفضت اعتبار الثورة المابلية ماكانت — ثورة أمة عربية متغربة فوق تراب الهند،امة لاعهد لها بالاقوام الاخرى التي شاركتها تراب الهند اللهم الا الشعب الاسلامي الشريف في السند والبانجاب والبنغال الذي يشاركها حضارتها الاسلامية ، فقال السيد مونتاغيو ، وزير الهند ، أمام البرلمان البريطاني : «قد اقترف الثوار فظائع ما أكثرها اثارة للغثيان ضد مواطنيهم الهنادسة الذين كانوا رعايا موالين لنا» their loyal Hindu Fellov subjects.

(10) ولكن السؤال هو : في أي معنى كان العرب المالاباريون «مواطنين» للهنود الا من الناحية الرسمية الاسمية ؟ فان مستبدا أجنبيا مشتركا لا يخلق قومية مشتركة ، ان القوميين الهنود يقولون للمابليين انهم «عصبة من مسلمين متعصبين فقراء جاهلين عددهم حوالى مليون نسمة ، ينحدرون من العرب المستوطنين على ساحل مالابار . . » (11) فهل اعمال عنفهم تدل على «تعصب» غير معقول لا دافع عقلاني له أم على مصالح تخالف مصالح الذين يجاورونهم لانها قائمة على أساس قومي وطبقي لا غير ، لا توفيق بينهما ولا شفاء للظلم الناتج عن اقامة الانكليز أحد القومين على الآخر الا انفجار عربي عنيف ؟ ! هل «الجهل» بالجماهير العربية في جنوب الهند أم بالذين يحكمون على هذه الجماهير من العلياء ؟

أيد الهندوسيون الانكليز على العرب الثوار ، ان مجامدار ينكر هذا ، ويدعى انه كلام كاذب من قبل متطرفي حركة الخلافة يذهبون بها فظائع المابليين التي «لا سبب لها» ولكن اخبار التايمز تفيد عكس ذلك ، فاذا قرأنا ما بين سطورها تبينا أن مجموعات معينة بين الهنود عارضوا الثوار وفعلوا كل ما استطاعوا لعرقلة سيرهم لنفس أسباب تأييد آبائهم للانكليز حين غزوا شبه قارة الهند باكستان — انهم اعتبروا العرب المسلمين شعبا ليسوا منهم ، لا مصلحة مشتركة لهم ، ففضلوا حكم المسيحي الازرق العينين الذي يحمي مصالح الرجعيين الهنود على المسلم

10) The London Times 8.11.1921 11) R.S. Majumdar History of The Freedom Movement In India page 190

الاسمر كمثلهم الذى يطالب المساواة والعدل واستقلال البلاد ، وان أقوال التايمز تثبت بما لا جدال فيه أن الهنادسة كانوا حقا استحقوا اطراء وزير بريطانيا للهند أمام البرلمان الانكليزى ـ كانوا فعلا «رعايا مواليد» ، فلم تكن أعمال العنف والثار بدون سبب ، ولم تكن الثورة انفجارا فوضويا ، بل عملا منظما لها أهدافها المرسومة العادلة ، فان قائدا كمثل سيثيكويا تهنكل مثلا SEETHIKOYA THANGAL الذى انضم فى الثورة يعلن جمهورية اسلامية بمنطقة كورمرام فى شهر سبتمبر قد أصدر قبل استسلامه فى ديسمبر أكثر من فتوى ، باسمه كوالى مملكته الخلافية ، تحرم على اتباعه اعمال السلب وفظائع أخرى ، مشيرا بكلماته الى أن البلاد الآن لهم » (12) ولكنه من شهر اكتوبر فصاعدا ـ كلما تحسن وضع الانكليز وازداد الضغط على الثوار فوجد الهنادسة شجاعة أكثر ، اخذ الثوار ثارا رهيبا من الذين تعاونوا مع العدو ، ان منطق الاختلافات الطبقية واللغوية والثقافية والدينية كانت تفصل بين الجاليتين الهندوسية والاسلامية حسب خطوط هى عنصرية وقومية ، كان الشعبان فى مالابار يتخذان موقفين مختلفين كل الاختلاف من مسألة الثورة المسلحة فى سبيل الاستقلال لان كل واحد منهما رأى استقلال الآخر او ازدهار الآخر عبودية بالنسبة اليه ولكن رد الفعل العربى لم يكن بدون تمييز رغم أنه عنيف ، كانت أسباب ملموسة موجودة «ان الثوار سلبوا مكان دكان لان صاحبه أعطى سجاير للجنود ، فهو الآن خفى وعين له يومان عليه أن يظهر مرة أخرى والا فهددوا بقطع الايدى» (13) ، «ان جيمبر اسيرى تهنكل الذى انضم فى صفوفه كون حماد الحاج قد أعلن الحكم العسكرى حسبما تفيد الاخبار ، وهدد بقتل كل هندوسى لا يعتنق الاسلام ، ان الثوار يشتكون من مساعدة الهنادسة للحكومة» ان حفر القبور الجماعية التى تزعمها المصادر الانكليزية ، ان صح كان همجية أو بربرية ولكنه يجب علينا أن نفهم نوع البربرية فتقول التايمز : «مثلا سلخ القائد العربى جيمبراسيرى جلد رجل اتهم بأن قدم اللبن الى الجنود الانكليز » (14) ولكن التايمز تذكر كذلك ان مسلمين تعاونوا مع الانكليز لقوا نفس العقاب الشديد ، فنرى كون حماد مثلا يحاكم المتعاونين الاعوان فيحكم بقطف رؤوسهم عليهم من بينهم 34 هندوسيا ومابليارين اثنان كما يقول التايمز ، فى يوم 25 سبتمبر (15) هذا ويدل على حكم صارم على كل من عاون المستعمر بدون مراعاة طائفية .

وبعد الفترة الاولى من الهجوم العربى سرعان ما تحولت الحرب الى حرب عصابات طويل الامد جر بكثير من الآلام على السكان المدنيين من جراء سياسة «احراق الارض البريطانية» فكانت هذه حرب شعب بأسره لاحرب عصابات متفرقة ، فبعد بعض الهزات أصبحت قوى الشعب «يلتجئون الى الاتلال من حيث يخرجون ليلة نازلين على القرى يقدمن النساء المابليات ما لذ وطاب من الاكل لهم هناك ويضربن الطبول كلما اقترب جنود الحكومة البريطانية» (16)

12) The London Times 23.12.1921
13) The London Times 19.9.1921
14) The London Times 24.11.1921
15) The London Times 5.10.1921
16) The London Times 3.10.1921

فلا شك أن هذا النوع من الخبر حفز البريطانيين ان ينتقموا من اولئك المابليين الذين يمدون اليهم الايادى من أهل القرى العزل . فان الهجوم المضاد البريطانى لم يحقق النتائج الحاسمة المتوقعة . فكما قال أمين الشؤون الداخلية HOME SECRETARY في مجلس الدولة بسملا SIMLA 1921/9/30 «مجموع عصابات المابليين المسلحة عشرة ألف رجل,ولا تزال مقاومتهم تقوى وان تكتيكاتهم العصابية من الارجح انها ستطيل فترة العمليات العسكرية فمستحيل اذا أن تتنبأ بسحب الحكم العسكرى فرأى مراسل التايمز في رسالته المؤرخة 1921/10/21 «ان المماطلة واعلان الحكم العسكرى أعطت الوقت اللازم للثوار أن يغيروا تخاطيطهم فالآن هى تخطيطات حرب العصابات . فالآن يختفون بأعداد كبيرة في الغابات الاستوائية الكثيفة» فلم ير مراسل التايمز أملا أن يقضوا على الثوار قبل عيد الميلاد . من جراء كرمهم البريطانى المعتاد الذى دائما لا يلائم معاملة وحوش مابليين . . وفي الاحيان التى تقدم العرب فيها للمعركة كانت النتيجة أقرب الى مجزرة منها الى قتال بالمعنى الحقيقى للكلمة . فخذ البيان العسكرى بتاريخ 1921/11/15 صادر في دلهى الجديدة : «ان الفين اثنين مابليا هاجموا بشدة حصن باندیقاد الذى رابط فيه فصيلة من «البنادق 2 ـ 8 الغوركهاوية . فخسر العدو 230 قتيلا . كان خسائرنا القبطان ايقرل وثلاثة رجال من مراتب أخرى قتلى و 34 جريحا . ان آمر البريد المدنى بياندیفاد ذبح . اننا قبضنا على بندقية و 139 سكينا» ان الجملة الاخيرة هى التى تثير العواطف فبدون أسلحة تقريبا . اللهم الا بعض السكاكين المصنوعة في القرى المابلية الفقيرة . جاهد هذا الشعب الباسل أقوى الدول الاستعمارية بأسا آنذاك لكى يعيش حياة حرة . أما الانكليز . فكانوا متأسفين كل التأسف الانيق من ضرورة ابادة المابليين ابادة جماعية ـ كمثل التايمز في افتتاحيتها المهذبة الاولى حول الانتفاضة اذ قالت «ان المابليين هم متعصبون حقيقيون يخرجون مصممين على الاستشهاد وفي الماضى صفتهم كانت الا يستسلموا ابدا . منذ خمس وعشرين سنة كان لابد من صرع مئة منهم باطلاق الرصاص عليهم على مضض منا ـ في هيكل تملجرى لانهم اختاروا الموت على الاستسلام» (47) ان المابليين مرة أخرى ـ فضلوا الاستشهاد على حياة معيش تحت نير مواطنى أصحاب التايمز الذين يبيدون بنى البشر على مضض .

رغم الضغط المبرح الذى عليهم من ملاحقة الجحافل البريطانية . طور المابليون مستوى استراتيجيتهم في حرب العصابات بحرب المقاومة الوطنية . كانت الحرب الى حد بعيد اقتصادية . فكان من المحتم أن تكسب هذه الابعاد بعد نشوبها فكان أصحاب المزارع الانكليزية الذين كانوا يغرسون التوابل ومحصولات تجارية أخرى يعرفون أن الثورة الشعبية هددت بالقضاء على سيادتهم الاستغلالية . ولهذا نظموا دوريات من المرتزقين المحليين والميليشيا الاستعمارى . مواجهة للوضع المخطر . ان المابليين قد عانوا منهم فلم يرحموهم

47) The London Times 29.8.1921

وقتلوا هؤلاء المستغلين الاجانب كلما استطاعوا الى القتل سبيلا . وفى الايام الاولى للثورة كان الطريق الىغودالووويناد ، وهو الشريان الرئيسى بالنسبة الى الغارسين الانكليز ، مسدودا تماما . فالاراضى المجاورة تكتظ بالثوار واستطاع هؤلاء الثوار العرب تطوير طرائق محاربتهم العدو حتى بعد ابتداء دور المهاجمة المضادة الانكليزية (رغم دوريات أصحـاب المزارع انهم عرفوا كيف يسددون ضربات الىالاسس الاقتصادية الاستغلالية التى للانكليز ومواقفهـم ، فنجد ذى تايمز تقول بشىء من الحـزن (12/16 1921) والثورة «تقترب من الانهيار» : «ان وحـدة محلية .قد أعلنت فتح الطريق أخيرا ـ أى الشريان الحيوى لاصحاب المزارع الانكليز ولكن أخبـــار اليوم الواردة تفيد حدوث فظيعة مابلية . عملتهـا كما يبدو عصابة غازية قرب فودالور ـ قتل مفتش شرطى وكنستبلان اثنان وجرح أربعة شرطيين » وكلما شدت السلطات ربقة جحافلهم حول الثـوار كانوا اما ينسلون من بينها واما يردون عـــلى التخطيطات الانكليزية بضربة غير متوقعة فى نقطة ضعف ما ـ كهجومهم على قرية ياندالور التى هى خارج حدود مالابار مثلا . والتى لم يتوقع الانكليز أى هجوم عليها

ولكن انهيار القاعدة الشعبية تحت ضربـــات الانكليز انهكت مصدر طاقات الثوار.فحسب رسالة من كاليكوت (مؤرخ بـ 1921/12/14) أن «قدمت تسع انسام (أقسام مقاطعات) بضواحيتيرورانافادى ذات مجموع سكانى من 4٫400 نسمة عـــريضة الى الحكومة أن يسمح لهم الاستسلام . ان أناسا آخرين من السكان يقتفون هذه الخطوة» شيئا فشيئـــا أصبحت الجماهير يرون المعركة كأنها عديمة أمـل . فانهارت المعنويات الشعبية وبالتالى معنويات رجال المقاومة فانتصرت بريطانيا مع رشاشاتهـا وطائراتها ومدمراتها على هذا الشعب الابى الذى جاهــــدهم بما عنده .

كان النصر الانكليزى بدون هـوادة ، كان قواد الثورة يتوفون فى سجن الانكليز فى ظروف مشبوهة مريبة وانكشفت خفـــايا كمثل خنق سبعـين أسيرا عربيا فى داخل قطار فى طور نقلهم الى المعتقلات فى حرالشمس ، ان الانكليز لم يعطفوا على الاسرى العرب كما عطفوا على جنودهم هم الذيـن رأتهـم الصحف الانكليزية مضرب المثل من البطولة لانهم يزحفـون على العدو فى حر الشمس التى قتلت السبعين عربيا ورفضت السلطات الانكليزية طلب الدوائر القومية بين المسلميـن ان يجلس ممثلـون للرأى العـــام الشعبى فى لجان « التحقيـق » أو « التقريـر » التى اجرتها السلطات فى شأن هذه الفظائع .

لاشك ان الثـورة المابلية من أعظـم النضـالات التحررية بطولة فى تاريـخ الهند ـ باكستـان فى عهد الاستعمار . ان المابليين برهنـوا بضحاياهم ان الثورة المسلحـة للجماهيـر شىء ممكن وفعـال ينطبق على كل الشبه قارة وعلى كل شعب اسلامـى وعربى فى كل مكان ازاء.تحدى الوجـود الاجنبى ، وبهذا سود المابليـون وجـه القوميـة الهنديـــة البورجوازية ووجه القومية الاسلامية البورجوازية أو الاقطاعية الصغيرة التى مثلتها حركـة الخلافـة كذلك ان ثورة العرب فى مالابار أسهمت فى كفاح

كل الشعوب الاسلامية عموما فكانت جزءا من كفاح الشعوب الاسلامية الدولى . كما رات افتتاحية التايمز « تعقيدات الشرق الاوسط » التى ربطت « حركة الخلافة التحريضية » و « حتى الوحوش المابليين » باخطار الحركة فى آسيا الوسطى لمصالحنا المتعددة فى الشرق » فهذه المصالح . بعد فشل العميل الامين فيصل فى فرض نفسه على أوضاع العراق «بينه بما يكفى عند ناس هذه البلاد» من هذه الناحية . قدمت انتفاضة المابليين نقدا ثوريا للقوميتين الهندسية والاسلامية الناشئتين فى الهند آنذاك مما أثر فى المدى البعيد فى تطور حركات الارهاب مثلا فى بنغال . وفى مواقف المسلمين فى جنوب الهند وحيدرآباد بالخصوص . ان الثورة العربية المابلية أول خروج شعبى هندى من اطار التطور السياسى اللاعنفى الذى أقامه الاستعمار . انها قفزة من المعارضة باللسان . وهو أضعف ايمان . الى طور المعارضة باليد .

ثانيا : كشف كذب نظرية « قومية هندية واحدة غير طائفية» التى قد تشدق بها غاندى فى بعض الاوقات مع أن أسلوبه الجدلى عند الجماهير لم يترك مجالا للشك ان قوميته الحقيقية هندوسية بحت . تستجيب مع عواطف البورجوازية التقليدية الهندوسية الصغيرة . ان غاندى قد كسب تعاون المسلمين بواسطة اتخاذه لموقف صارم ضد الغزوة الاستعمارية فى الشرق الاوسط . الذى اهتم المسلمون الهنود به معتبرين اياه بوطنهم الام . فدعا غاندى الحكومة البريطانية الى الامتناع من عزل الخليفة العثمانى . وهى خطوة ستهدم الوحدة الامية للشعوب الاسلامية . فقد قرانا خطاب أجمل خان . رئيس الخلافيين . دعا فيه الى اتحاد اسلامى دولى يضم الاراضى الاسلامية فى الهند . فغنى عن القول ان لا توفيق بين هذا الهدف وأهداف القومية الهندية التى عند «حزب المؤتمر القومى» - حزب غاندى الهندوسى البورجوازى - فوضعت ثورة المابليين غاندى فى ورطة لان العرب فى مالابار وجدوا الهندوسيين ليسوا من أمتهم ، ولا يتعاطفون مع أمتهم ، بل يكنون للعروبة عداء وغلا ويتعاونون مع الانكليز فاصبح النضال العربى صراعا بين الامة العربية الاسلامية من جانب والامة الهندوسية وحماتهم الانكليز من جانب آخر . فاول الامر حاول غاندى أن يرى كفاح المابليين ككفاح قومى . هو للهنود بقدر ما هو للمسلمين . ولكن « المعتدلين » فى حزبه استغلوا موقفه هذا ضده فى تقويض قاعدته الشعبية عند الجماهير الهندوسية التى كانت فى حال غليان ضد العروبة . فوجد نفسه يخسر شعبيته ووجد هندوسيى مدارس مثلا . التى بجوار منطقة الثورة . يرفضون أن يلبسوا الطاقيات الغاندية وهى رمز للقومية الهندية . فاجبر غاندى على تعديل موقفه الغير واقع فى حين أن المنظمات الاسلامية عبأوا - على مستوى الكلام على كل حال - تأييدهم المطلق للشعب المابلى . فلا شك ان ثورة العرب المابليين كانت مفترق الطرق بالنسبة الى شعوب الهند . فاخذ المسلمون طريقا وأخذ غاندى طريقا آخر أفضيا فى آخر الامر الى غايتين متخالفتين ومتناقضتين - أفضيا الى نشوء دولتين مستقلتين من انقاص الهند البريطانية الموحدة -

هما الدولـــة الاســـلامية «باكستـان» والـدولة الهندوسية «الهند» فلا نستغرب فـرح التايمز من تطور الحوادث من خيـانة القوميين الهنود الجبناء للثورة المابلية . واستسلامهم أمام الوجــــود الاستعماري : «ان نظرنا في الهند بصورة عامة نجد دلائل كثيرة على الثبات والاستقرار ، ان الذبـــح المابلي الوحشي لهنادسة كثيرين قد جعل كل الهند تدرك نوع الفوضى الذي سيجيء من جراء اختفـاء لـــذراع البريطـــاني القـــوى ، ان لوردريدنغ LORD READING الذي حاول اعتدالا وتمالكا ذاتيا في تنفيذ في مالابار واجهته أخـيرا عريضة تحمل توقيعات كثيرة من منطقة الانتفاضة ، ترجوه أن يشدد تنفيذ تشديدا أكثر . ان السكان الهنود استجدوا وسأموا أن يرسل مزيدا من الجنود لتضمين عقاب كاف سريع فعال لكل المجرمين» (18)

ومن الممكن ان في هذا اليوم ولد باكستان . . دولة منفصلة لمسلمي الهند الذين وجدوا أنفسهم أكثر فأكثر مندفعين الى الدفاع عن عروبتهـــم العنصرية التي قادها غاندى ونهرو والتي لم تكن مستعدة لمنح المسلمين في الهند حق المحـافظة على ثقافتهم العربية الخاصة ضمن دولة هندية موحدة فثار المسلمون على الهنادسة . وسادتهم الانـكليز. وحققوا استقـلال وطنهم . باكستان .

(18) The London Times 16.11.1921





دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية

د . موسى لقبـال

أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

اخترت هذا الموضوع لاعتبارات منها ، أنه موضوع بكر ، لم يلق حتى الان عناية جادة من الباحثين ، ولأن تاريخ كتامه يمثل جزءا هاما من التاريخ القومي لسكان المغرب الاوسط في العصور الوسطى ، وهو مرحلة هامه لدراسة أحوال هذه البلاد على مدى أكثر من قرنين تمتد حتى القرن الخامس بعد الهجره • هذا فضلا عن ان تاريخ كتامه زاوية هامه أو نافذه يطل منها الباحث على سير العلاقات العامه بين المغرب والمشرق الاسلامي ، ومصر الفاطمية ولا يخفى أن تاريخ كتامه هو تاريخ نجاح التجربه الوحدوية الرائده • او تاريخ نجاح التقاء ارادة ابناء المغرب بارادة ابناء مصر والمشرق العربي على صعيد الوحدة والجهاد لاعلاء كلمة الاسلام •

ملخص رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الاسلامي 21 صفحة فولسكاب

موضوعها : «دور قبيلة كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية» ـ قدمها لقبال موسى بن علاوة ـ مدرس التاريخ بكلية الآداب،جامعة الجزائر الى كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ناقشها الاساتذة الدكاترة : 1 ـ سعد زغلول عبد الحميد ـ استاذ ورئيس قسم التاريخ وعميد كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية ـ 2 ـ عبد المنعم ماجد ـ استاذ ورئيس فرع التاريخ الاسلامي بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس 3 ـ سعيد عبد الفتاح عاشور ـ استاذ كرسي تاريخ العصور الوسطى ورئيس الفرع بكلية الآداب جامعة القاهرة

مدة المناقشة : اربع ساعات ونصف ـ تاريخ المناقشة : 11 ـ 7 ـ 1972

التقدير : نالت الرسالة مرتبة الشرف الاولى ـ

ـ وتعتبر اول رسالة عند قبائل المغرب الاوسط ـ في العصر الفاطمي ـ ودورها الرائد في توجيه الاحداث في المشرق العربي •

ولاعتقادى بـان عمل الكتاميين كـان شـاملا للمغرب والمشرق ، ومتكاملا فى نـواحيه السياسية والمذهبيـة ، فقد جعلت بحثى صدى لاقتنـاعى بهذه الحقيقة ، منطلقـا من التعريف بفروع حلف كتـامة ودورهم منذ مـا قبل القرن الثـالث بعد الهجره الى قرب نهاية القرن الخامس (هـ) وقد تضمن البحث .

١ ـ مقدمة مـركزة عـن أهمية الموضوع وفى كون عمل كتامة يمثل فترة حاسمة فى نهضة الفروسية الاسلامية فى بلاد المغرب ·

٢ ـ دراسة نقديـه هادفه عن مظـان البحث ، ومصادره الاصلية والمساعدة بان اثناءها الدور الهام الذى تمثله المصـادر الخطية والمذهبية وكتب الرحلة والانساب والنحل ·

أما مادة البحث فقد وزعت على خمسة ابواب تختلف اهمية وحجما غير انها تتصل ببعضها اتصالا وثيقا وتتكامل أجزاؤها الخاصة بالمغرب مع أجزائها الخاصة بالمشرق ، مثل تكامل عمل كتامة ، وسـائر ابناء المغرب مع اخوانهم ابناء مصر والمشرق العربى سواء بسواء ·

٣ ـ **وقد اضمن الباب الاول :** تعريفا شـاملا بـالقبـائل المتصلة بكتـامة ، التى يشملها مصطلح « البرانس » فى افريقيه والمغرب الاوسط ، ثم دراسة شاملـه عن فروع كتـامه ، بمـا فى ذلك زواوه التى يشملها مدلول الحلف ، مع مضـاربهم ورجـالاتهم ، ووصف مراكزهم ومدنهم الساحلية والداخلية على مستوى بلاد المغرب بما فيها الاندلس ، كمـا تضمن نقرة عن جوانب الحياة العقليه ، وعن علماء كتامه وزواوه وفقهائها ، وعن دور هذه القبائل فى الحياه السياسية والمذهبيه فى بـلاد المغرب حتى قبيل نهاية القـرن الثـالث بعد الهجره ، حيث ظهرت الحركـة الاسماعيليه ، وهذه الفتره أى ما قبل التشيع يصح اعتبارها فى تاريخ كتامه فترة الغمرة والخمول ·

٤ ـ **وكان الباب الثانى :** الذى يتناول ما يصح اعتباره فى تاريخ كتامة فترة الشهرة والظهور عبارة عن شرح مستفيض لدور هذه القبيلـه ، وعلاقـاتها بـالحركة الاسماعيلية منذ بـدء ظهورها حتى قيـام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب على انقاض الدويلات المحليه · وفى اطار هذا البـاب بحثت مسـائل هامه تتعلق بالبذور الاولى للتشيع فى بلاد المغرب ، ودور الادارسة والدعاة فى التمهيد لنجـاح فكرة التشيع لآل البيت ، وبالتـالى لتبنى الدعـوة الاسمـاعيلية الاولى (دور الهجرة) فى بلاد المغرب، وهى : ايكجان وتـازروت فى اقليم كتـامة ، فى مد نـفوذ الحركـة الاسماعيلية تدريجيا من منطقة كتامة الى بقية اقليم الزاب ، فحواضر افريقية الاخـرى ، حيـث كـانت الخاتمة سقـوط الامـارة الاغلبية ، وصيرورة مدينة رقادة الداخلية لفترة قصيرة عاصمة مؤقتة للخلافة الفاطمية ، وذلك قبل بناء دار هجرة جديدة او عاصمة سيـاسية جديدة هى المهديـة فى منطقـة السـاحـل التونسى وعلى مقربة من مركز ثابسوس القديم ·

٥ ـ **وكرست الباب الثـالث** لبحث دور كتامـة المنتصرة فى حراسة مكـاسب النظـام الجديد وفى العمل على مد نفوذ الخلافـة الفـاطمية سيـاسيـا ومذهبيا خـارج ارض افـريقية وتضمن هذا البـاب مسائل تتعلق بدور رجالات كتامة فى التصدى لحركة المعارضة الداخلية والخارجية سواء كان مأتاها من بترزناتة المعادين لكتـامة وصنهاجة لانهما من فـرع البرانس او من الاباضية والصفرية او من بقايا بنى الاغلب ومواليهم ، او من جانب الادارسة العلويين ، وغيرهم من عملاء المروانية ، ثم خصصت حيزا هاما لبحث دور كتامة فى تغذية الصراع المذهبى ومحاولتهم

بتشجيع من الخلفاء الفاطمين فرض ارائهم ومعتقداتهم الاسماعيلية على جمهور سنى يأبى الا التمسك بمذاهبه وتقاليده ، كما حاولت تحديد وضع كتامة نفسها فى نظام الخلافة الفاطمية وذلك منذ قيام الدولة حتى عصر المعز لدين الله الذى يمثل بحق عصرا ذهبيا لكتامة ، وللخلافة الفاطمية ايضا ، لانه توج بفتح مصر وبلاد الشام بواسطة عناصر اغلبها كتامة وكان هذا يعنى تحقق حلم رجال الدعوة الاسماعيلية القديم ، فى اتخاذ قاعدة او دار هجرة فى نقطة ما من بلاد المشرق العربى ، وكانت القاهرة هى تلك العاصمة الجديدة التى ورثت مجد المهدية والمنصورية وايكجان ، وغدت على مدى اكثر من قرنين قاعدة انطلاق فاطمية لمواصلة النضال ضد العباسيين « المغتصبين » والروم البيزنطيين ·

٦ ـ **وكان الباب الرابع :** شرحا وافيا لجهود كتامة وغيرهم من اولياء الخلافة الفاطمية من اجل تحقيق المشروعات الحيوية لها فى مصر وبلاد الشام وما وراؤهما ، تحقيقا ثم تأكيدا على ضرورة وحدة الخلافة وارجاعها الى مستحقيها من العلويين وردا على تحديات الروم واحلافهم ، وقد بانت ملامح خطة الحركة الاسماعيلية تجاه المشرق منذ وقت مبكر يرتبط بالمهدى الذى اشرف على النشاط الثغرى ضد مصر ، العباسية من عاصمته الجديدة التى اختارها على الساحل التونسى ·

٧ ـ **اما الباب الخامس :** فكان مخصصا لدراسة دور كتامة وغيرهم من اولياء الدولة فى العلاقات مع دار الحرب ودار الاسلام ، خاصة مع الامراء الزيريين فى بلاد المغرب ، الذين كانوا ميالين الى الانفصال· وبفضل كتامة الباقية فى المغرب تأخر انفصال بلاد المغرب عن مصر فترة طويلة ·

وللبحث عن اسباب ظاهرة الانفصال فى القرن الخامس ، لابد من الاشارة الى بعض أسبابها ، ومن ذلك غلبة الطابع المشرقى ، على خلفاء الدور المصرى وضعف اهتمامهم تدريجيا بشئون المغرب ، واهمالهم لرعاية حال عصبيتهم الكتامية فى المشرق ، وفى المغرب ايضا ولهذه الاسباب لم تبدر من كتامه فى المغرب بادرة عصيان او ثورة ضد المعز بن باديس الذى اعلن الحرب السياسية والمذهبية ضد الخلفاء الفاطمين « الكفرة الملاعين » فى نظره ·

وكانت ملاحق البحث صورة معبرة عن المحتوى العام ، ومتمشية مع محاوره الاساسية وهى الحياة « السياسية » للعلويين ، وحركة التوسع الاسماعيلى فى بلاد المغرب ، وردود الفعل الداخلية والخارجية ، ومميزات العصر الذهبى لعنصر كتامة ، ولدورهم فى العلاقات ، وهذا مع محاولة استخراج الم أسر كتامة التى لعبت ادوارا هامة فى مصر وبلاد الشام · وكل هذه الملاحق أخذت من مصادر خطية ومذهبية ، بحيث يعتبر اغلبيا فريدا فى بابه ·

وكانت خاتمة البحث عرضا مختصرا لآفاق الدراسة وللنقاط الجديدة التى توصلت اليها وأهمها·

ان كتامة ليست مصطلحا قبليا وجغرافيا يحيط به قدر كبير من الغموض ، ولا قبيلة صغيرة ، بل هى حلف عتيد يتضمن زواوة ، ولفروعه حواضر ومدن كبرى مازال بعضها يمثل دورا هاما فى الحياة الاقتصادية لبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) ·

وأن مجالات هذا الحلف هى أوسع بكثير مما حدده ابن خلدون ، وتشمل المغارب الثلاثة مع بقية جزيرة الاندلس ·

وليست قبيلة كتامة ، طبقة عسكرية فقط ، بل كانت لها اسهامات ثقافية فى بلاد المغرب ، والمشرق على السواء ·

ولم تكن فروع القبيلة كلها مؤيدة للحركة الاسماعيلية ، بل احتفظ بعضها بمذهبه القديم وهاجم

في سبيله ، خارج بيئة كتامة وارض افريقية .

وان ايكجان ـ القاعدة الاسماعيلية الاولى فى كتامة ، او دار الهجرة الكبرى هى التى انطلقت منها حركة الدعوة والتوسع ايضا . وتوجد بقاياها بجوار قرية بنى عزيز CHEVREUIL دائرة العين الكبيرة PERREGOTVILLE وكان دور كتامة متكاملا فى نواحيه السياسية والمذهبية وشاملا لبلاد المغرب ومن هنا التجربة التى خاضت كتامة بمساعدة اولياء الدولة الشيعى تجربة وحدوية فريدة فى نوعها فى فترة مبكرة . فاقت فى سعتها وشمولها التجربة التى تحققت على أيدى الموحدين فى بلاد المغرب ، ثم على أيدى الأيوبيين بعد ذلك فى المشرق العربى .

ومما يلاحظ ان صلة كتامة بالخلفاء الفاطميين :

ان علاقتها الثابتة لم تسر على نسق واحد او على مستوى الود والتأييد قبل ان اعترى هؤلاء وتلك العلاقة ... بينهم جو العداء والسلبية فى بعد هذه الفترة .

اما العصر الذهبى الذى عاشه الكتاميون بعد قيام الخلافة الفاطمية ، ثم فى عهد المعز لدين اللــه فقد استمر حتى السنوات الاولى من خلافة الحاكم بأمر الله ، ثم انقلب الوضع بالنسبة اليهم تدريجيا ، وغدا الامر عبــارة عن تدهور سريــع لنفوذهم وتضــاؤل لقيمتهم وأهمية دورهم لفائدة عناصر اجنبيه أخرى .

ومع ان عمل الكتاميين فى المغرب ، وفى المشرق على السواء لم يكن عملا سيئا كله بالنسبة لجما السكان ، فان هؤلاء بـدافع الخلاف المذهبى ، قسوا على العناصر الكتامية منذ القرن الخامس بعد الهجرة وهو عصر انتعاش السنة ، وأخذوهم بجيرة اعمالهم الســابقة فى نصرة المــذهب الاسمــاعيلى وتــأيــيد الفــاطميين ، وأذلوهم وأمعنوا فى ذلك بقصد الثار لما حل باسلافهم علمــاء السنة ورجالها ، مــن عنت وأضطهاد على أيدى الفاطميين ، ولم يقتصر اضطهاد الكتاميين ، عند حد الايذاء المــادى بــل تجــاوز ذلك الى محاولة تعفية آثارهم ، وأسمهم من بيئتهم الاصلية ومحو أغلب الآثار التى تشير الى عصرهم فى مصر وبلاد الشام .

ويلاحظ أن البون شاسع بين ما عهده النــاس قديمــا وعلى مدى أكثر مــن قرنيين ، مــن اعتبــار الانتساب الى كتامة مبعث فخر واعتزاز وقوة ، وبين ما استقر عليه الوضع بعد القرن الخامس للهجرة ، ومن حرص الكتاميين على اخفــاء نسبهم واعتبــار النسبة الى كتامة وصمة عار ومبعث سخرية واحتقار .



الشـــعر الدّيـــني الحَـــديث
في الجـــزائر

احرز الاستاذ عبد اللـه ركيبى ، مدرس الادب العربى فى كلية الاداب بجامعة الجزائر على دكتوراه دولة بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الاولى٠٠ناقشها اساتذة اللغة العربية والأدب العربى فى كلية الآدب بجـامعـة القـاهرة : الدكتـورة سهير القلمـاوى ، والدكتور عبد القادر القط ، والدكتور شكرى عياد ٠

وملف القضية الضخم عنوانه « الشعر الدينى الحديـث فى الجزائـر » ٠٠ فى سبعمائـة وخمسين صفحة « فولسكاب » ، بالاضافة الى عدة ملاحق فى مائتى صفحة تقريبا ٠٠ وهى تغطى مسـاحة زمنية طولها مائة عام ٠٠

والقضية بعد ذلك تحـاول الاثبات والرد على عـاملين اثنين مهمين فى حيـاة الـفكر الجـزائرى الحديث هما :

● ان كثيرا من الباحثين الاجانب والمستشرقين، يزعمون ان الثقافة العربية فى الجـزائر قد توقفت ، خاصة فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر - وان الادب العربى قـد انتهى دوره فى الحيـاة الفكريـة والاجتماعية ٠

● ان موضوع الدين فى الشعر الجزائرى الحديث لم يعن به الدارسون الجزائريون أو غيرهم ٠٠ بينما هو يمثل تراثـا عريقا فى الادب الجزائرى بخاصة ، والادب العربى بعامة ٠

ومـن أجل هذين العـاملين ٠٠ كـانت رسالة الـدكتـوراه هذه فى « الشعر الـدينى الجـزائـرى الحديث » ٠٠ تحاول ان تربط بين دوره فى الحيـاة الادبية والاجتماعية ٠٠ بحيث انعكس عليه مـا كان يجرى فى البيئة الجزائرية ، ومـا يضطرم فيها مـن افكار واراء ٠٠ وثورة وثراء فكرى وادبى ٠

وكانت ثورة « المقرانى » ١٨٧١ بداية للرسالة ٠٠٠ فهى تعد آخر ثـورة شعبية عمت أجـزاء كثيرة من الوطن الجزائرى ، وشارك فيها الفلاحون ، وكثير من الفئـات الجزائريـة الاخرى ، وهددت الـوجود الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر ٠٠ وكانت العوامل كثيرة ومتشابكة ـ سياسية واجتماعية واقتصادية ـ ادت الى قيام هذه الثورة ٠

كما أن نهاية الرســالة كـانت سنة ١٩٣٠ ٠٠ وهذا التـاريخ يمثل مرور قرن كـامل على الاحتلال الفرنسى للجزائر ٠ فقد احتفلت فرنسا بهذا التاريخ . واعتبرت أن الجـزائر القت السلاح ، وتوقفت عـن النضال سياسيا وفكريا وعسكريا وادبيا ٠

وهذا التاريخ ـ فى الواقع ـ يمثل فاصلا زمنيا واضحا فى الحياة الثقافية والسياسية ٠٠ بالاضافة الى ان الكثير مـن الشعراء موضوع الرســالة ٠٠ انتهى دورهم فى الفكر والادب ٠٠

* * *

وبادىء ذى بدء ٠٠ نقول ان الشعر الدينى ٠٠ كان هو الفارس المغوار ، وهو الذى عبر عن كفـاح الجـزائر ٠٠ وتـاريخها فى هذه الفتـرة ٠٠ أصدق تعبير ٠٠

ورغم أن الكثير من الباحثين ينظرون الى دور الشعر الدينى بصفة عامة صوفى أو غير صوفى ٠٠ الى أنه دور سلبى ٠٠ فانه كان على العكس بالنسبة للجزائر ومناخها ٠ كـان له دور ايجـابى ٠ فالدين اضطهد فى الجزائر مثلما اضطهدت الثقافة القومية ولـم يجد الفرد والمجتمع ملاذا سوى الدين ، فقـال الشعراء قصائدهم بالفصحى والعامية ، تعبيرا عـن نوازعهم الروحية مـن جهة ، وتنفيسا عمـا يحسون به ٠٠كمواطنين جزائريين ـ من ظلم وضغط، وارهاب فكرى وعسكرى ٠٠ أثناء الاحتلال ـ من جهة أخرى٠

اذن ٠٠ فـالشعر الدينى الجـزائرى لعب فى حياة الجزائرى دورا هاما ٠٠ انه استطاع ان يعبر عـن وجدان الجـزائـرى ، وعـن العقيدة الروحيـة للمجتمع ٠٠

والواقع انه بالدين استطاع الجزائرى أن يحقق ذاته ٠وبـه استطـاع الجزائرى ان يقف صلدا أمام عمليات « المسخ والتغريب » التى حاولت القضاء على شخصيته العربية الاسلامية٠٠ بل ان الدين أذكى فى الجزائر حب الحرية التى هى مبدا من مبـادى الدين الاسلامى ٠٠ حتى ليقال ان « الزوايا »٠٠ و « جدران الطرق الصوفية » ٠٠ كـانت فى وقت من الاوقـات « خلايا » ثوريـة ٠٠ تقوم بدورها ضد المستعمر ٠٠ ثـم حمل « الاصلاحيون » ٠٠ بعد ذلك الرسالـة ٠٠ وظلوا على حملها بأمانة الى ان قـامت ثورة المليون شهيد فى نـوفمبر عـام ١٩٥٤ ٠٠ لتعبر عـن وجـه الجزائـر العربى الاصيل ، وتؤكده ٠٠ ويذوب كـل ذلك حتى ولو فى الظاهر ٠٠ !!

والشعر الـديني في فترة البحث صنفـان أو أسلوبان ٠٠ أسلوب تقليدى ٠٠ هو مفيد من الناحية التاريخية ٠٠ ولكنـه لا يفيد النـاقد الذى يبحث عن نفسية الشاعر ، وفهمه لمهمته ووظيفته ، ثـم الشعر الشعبى ٠٠ فالشعر الشعبى الجزائرى استطاع بما يملك من حرية فى التعبير ، وجراة فى التصرف ، ان يكون مجددا فى صوره وأساليبه ٠ الشاعر الشعبى لعب دورا هاما فى الحياة الادبية والفكرية للشعب ، وللعـامة من النـاس ٠٠ حتى تحررت الجـزائر فى الواقع ٠

* * *

ولقد قسم البـاحث الرسـالة الى ثلاث فترات **الفترة الاولى** من الاحتـلال الفرنسى فى ١٨٣٠ الى عام ١٨٧١ بدء قيام ثورة « المقرانى » ٠

الفترة الثانية من ١٨٧١ الى عام ١٩٠٠

أما الفترة الثالثة فهى التى تبدأ مع بداية القرن العشرين وتنتهى فى عام ١٩٣٠

والفترة الاولى يمثلها بصورة واضحـة شعر **الامير عبد القادر الجزائرى** ٠٠ اثناء كفـاحـه ضد الاحتـلال الفرنسى ٠ فهو قـد قـاد المقـاومـة ضد الفرنسيين طيلـة ١٥ سنة ٠ وكـان شعره معبرا عن نفسيته كشاعر فارس عربى مارس الحرب وتغنى بها ووصفها ، واشاد بشجاعة جنوده ، شـان الشعراء الفرسان ٠٠

وهنـاك شـاعر آخر عـاش فى هذه الفترة ، ووصف حالة الجزائر بعد نكبتها بالاحتلال الفرنسى ، وصفا دقيقا بعكس ما آلت اليه البلاد بعد استعمارها ، هو الشاعر محمد بن الشاهد فهو هنا يصف الجزائر فيقول :

أمن صولـة الاعداء سور الجـزائر
سرى فيك رعب أم ركنت الى الاشـر

لبسـت سـواد الحـزن المسـرة
وعمت بـداريـك الفتـون بـلا حصر

ويختم الشاعر محمد بن الشاهد قصيدته قائلا :

ويـا صـاح تدبير الامـور لخـالـق
فصبرا عسى عسر يبـدل بـاليسر

شعر هذه الفترة ٠٠ هو فى الواقع تقليد للعصر التركى ، وما سادفيه من ان شخصية الشعر لا تظهر شخصية الشاعر ، فيما عدا شعر الامير عبد القادر ٠ وأسلوب الشعر ركيك ، وضعيف الى حد ما ، يغلب عليه الطابع التعليمى والمباشرة ، وتخفت فيه العاطفة ويقل التصوير ٠ وقيمته فى واقع الامر انما تاتى مما سجله من أحداث ووقائع ، أو من حياة تلك المرحلة ٠٠

أمـا الشعر الملحون ٠٠ وهـو الشعر الشعبى والزجل ، أو الفولكلور ٠٠ فهنـاك قصـائد لشعراء مدحوا فيها الامير عبد القادر ، أوهاجموه ٠٠ وتركوا لنـا نمـاذج جيدة فى الشعر الشعبى ، وفى اسلوب قوى متين معبر ٠٠ وخاصة حين تغنوا فى قصائدهم بحب الوطن ، بعد أن نفاهم الاستعمار الفرنسى خارج البلاد ، أو هم فروا هربا من ظلمـه واضطهـاده ٠٠ ومن هؤلاء الشعراء مصطفى بن ابراهيم ، وبن حوا ٠٠ فهؤلاء تغنوا بالامير وشجاعته ، كما تغنوا بحب الوطن ٠٠ فى نغمة دينية سيطرت على فكر العصر ٠٠

* * *

أما الفترة الثانية ، التى تبدا بها الرسالة ٠٠ فهى ثورة « المقرانى » وما آلت اليه ٠٠ و « المقرانى » ٠٠ كان موظفافى الادارة الفرنسية ، ثم استقال من وظيفته ، ودعا الى الثورة ٠٠ وقد أيده فيها « مقدم زاويـة » ، وهو رجـل مـن رجـال الطرق الصوفية الرحمـانية ٠ وهذا التأييد سـاعد المقرانى على أن يوسع من دائرة ثورته فامتدت الى امـاكن شتى فى

الجزائر . وقد وصل عدد اتبـاعه الى ٥٠٠ الف فى تنظيمات قوية ..

ولقد قيل فى هذه الثورة الكثير ، قـال عنهـا الفرنسيون أنها موقف شخصى .

لكن الحقيقة أن الثورة قامت تعبيرا عن سخط عام بين الجزائريين .. حين أحدثت الادارة الفرنسية فى الجزائر قانون « كريمو » ١٨٧١ .. وهو القانون الذى يجعل مـن اليهود فرنسيـين .. وبذلك منحوا نوعا من التمييز عن المواطنين الجزائريين ..

على أن البعض يقـول أن سبب الثـورة هـو اشتراك فرنسا فى حرب السبعين . والبعض يقـول ان العامل الاقتصادى لعب دورا كبيرا ، لان الحكومة الفرنسية سيطرت على المراكز الاقتصـادية وطردت الجزائريـين مـن أراضيهم وأعطتهـا للمستوطنين الفرنسيين . كمـا يقـول البعض أن العـامل الدينى كان سببا رئيسيا فى تحريك هذه الثورة .

ويرى الدكتور عبد اللـه ركيبى فى رسالته أن الثورة قامت من أجل كـل هذه الاسباب مجتمعة .. وهى امتداد لثورات سبقتهـا مثل ثـورة الامير عبد القادر فى عـام ١٨٣٠ ، وثورة اولاد سيدى الشيخ ١٨٦٤ ، وثورة بو عمامة وثورة بو معزه .. وغيرها مـن الثورات والانتفاضـات التى وقعت فى القـرن الماضى ..

على أن العامل الرئيسى فى قيام هذه الثورة ، هو حب الحرية ، والتخلص من الاستعمار ، بعد أن ذاق الجزائريون مرارته وظلمه .

وفى هذه الثورة ، ومـا سبقها ، لعب رجـال الطرق الصوفية من الشعراء دورا بارزا ، لانهم كانوا يمثلون « النخبة » أو الطبقة المستنيرة فى عصرهم ، وكانوا قادة وزعماء القرن الماضى فى الجزائر ..

ومن هنا فان الشعر الجزائرى ارتبط بالزوايا التى أسسها « الطرقيون » وأشرفوا عليها ، خـاصة وان التعليم كان يركز على الدين والقرآن والحديث واللغة وقواعدها ، والعلوم العربية المعروفة ..

وايضا اتجه الشعراء الى الدين بعد فشل هذه الثورة ، لانهم لم يجدوا مـلاذهم سوى فى الديـن ، فمدحوا الـرسول ، وتحدثـوا عن الديـن الاسلامى منوهين بفضل العقيدة .

ومن هنـا يمكن التفريق بين نـوعين فى مدح الرسول :

البعض من الشعراء كـان يـركز على وصف جمال الرسول ، والنور المحمدى ، وعلامات النبوة.. الخ مثل قصيدة الشاعر الصوفى محمد بن سليمان وعنوانها « ياسائلا عن جمال كان لى وطنـا » يقول فيها :

يا سائلا عن جمـال كـان لى وطنـا
ولـم ازل اجتليـه وهـو مـا بطنـا
حـركت منى ولوعـا كـان مستتـرا
ولـم أزل أختفيـه وهـو يعلننـا
لكنهـا صولـة الاقـدار قـد حكمت
وكلنـا تحت قهر الحسن قـد سكنـا

والبعض الآخر من الشعراء مما يمكن أن نطلق عليهم الشعراء الإصلاحيين، مدحوا الرسول، ولكنهم نظروا اليـه هاديـا ومرشدا ومصلحـا ، حتى لقبوا « بـالمصالح » . فهو مدح يـدعو الى اليقظـة والى الثورة . شعر يربط بين وصف الرسول وبين ما آل اليه الوطن .. ويهاجم فى نفس الوقت المستعمر .. وهو يتمثل اكثر ما يتمثل فى شعر محمد العيد ، الذى يعتبر رائد الشعر الاصلاحى الدينى الحديث ، حيث يقول هذا الشاعر :

اشكو اليك بما تجدد من اذى
بعد التحاقك بالرفيق الاصعد

عصفت على الاسلام بعدك صرصر
فتهدد الاسلام كل مبدد

وجرت بارض المسلمين حوادث
شتى كامواج الخضم المزبد

اتذوق امتك النكا مضاعفا
من عائث فى ارضها متمرد

* * *

والملاحظ على خلاف ما يروج المستشرقين من أن الشعر الدينى الجزائرى ، لم ينفصل عن الشعر فى المشرق العربى · فهو الشكل التقليدى للقصيدة العربية · وقد تناول كل الاغراض تقريبا · كذلك هناك خاصية بارزة فى هذا الشعر ، وهو تاثر الذين قالوه بالقدماء فى أساليبهم وأخيلتهم ·· حتى انه وجد فى الشعر الجزائرى ما يعرف باسم البديعيات والمطولات والملاحم ·· فالشاعر الجزائرى « بلقاسم بن منيع » يكتب قصيدة من ٤٠٠ بيت على نهج « البردة » للبوصيرى ·· هذا رغم أن بعض الشعراء كانوا يعتبرون مجددين مثل الشاعر محمد بن سليمان الذى جاء شعره جيدا تظهر فيه شخصيته ·

ثم ان الشعر الصوفى البحت الجزائرى ، ارتبط بالتصوف الاسلامى فى افكاره وأساليبه كما تاثر بمصطلحاته وقاموسه اللغوى ·· حتى الشطحات الصوفية ، والخمر الالهى ، ورفض المنطق والعقل والنور المحمدى ·· كل ذلك ظهر فى الشعر الجزائرى ونحن نجد فى شعر الامير عبد القادر « فكرة الشهود » التى نادى بها ابن الفارض ·

ومعنى « فكرة » الشهود ·· هى أن الشاعر يندمج فى الله ، بحيث لا يحس بما عداه · يقول الشاعر الامير عبد القادر الجزائرى فى ذلك :

أمطنا الحجاب فانمحى عيهب السوى
وزال أنا وانت وهو ، فلا لبس

ولم يبق غيرنا ، وما كان غيرنا
أنا الساقى والمسقى والخمر والكاس

ويلاحظ أيضا أن الشعر الصوفى أغلب أوزانه مكسورة ·· لضعف ثقافة الشعراء الصوفيين · ولانهم لم يراجعوا ماكتبوه · فهم لم يلتزموا بقواعد اللغة ، ولا بما تفرضه عروض الشعر من التقيد بالاوازن السليمة · وهم ركزوا على المعانى ، واعترفوا بضعفهم فى مقدمات دواوينهم ذلك أن ما يهمهم هو الهدف ، أو المعنى لا المبنى ·· كما يقول الشاعر البوعبدلى :

ما در من نال التقى او فاته
اعراب قول ، أو قياس مناد

اعراب قول ، أو قياس مناد

الذى تغنى به الناس · ورغم أنه قديم فى الجزائر ·· فهو قد خرج عن واقعه ، وهاجم الاستعمار واليهود وسخر منهما · وقد خاض الشعر الملحون ــ قصائد وموشحات وأزجال ــ كل أغراض الشعر · وجاهد من أجل اعادة الروح المعنوية للشعب الجزائرى ، التى حاول الاستعمار الفرنسى قتلها بكل الطرق ·· ولكنه فشل ·· حتى أن الكثير من المستشرقين كتب الى الادارة الفرنسية ينبه الى خطورة هذا الشعر ·· ومن أبرز شعراء الملحون ، الحسين بنبركات والشاعر بن يوسف ··

وهاك مثلا للشعر الملحون يصف حالة الجزائر بعد انكسار ثورة المقرانى والغيم الذى حل على السهول والجبال · وهو الحسين بن بركات الذى عاصر ثورة المقرانى :

طاح الدمس على ظلال الليل سواد
زاد الغيم على المراقب غطاها

زال الضوء اخوتي لابو الاثماد
ماصبناش طريق نمشيو معاها

هب الريح على مصابيح التوقاد
فياها من قوته راه أطفاها

ولقد رد الدكتور عبد الله ركيبي على هؤلاء الذين يقولون ·· ان الشعر الملحون ينتمي الى الشعر اللاتيني لا الى الشعر العربي ·· وأثبت أن «الملحون» من الشعر عربي في مفرداته وقصائده ·· وحتى أغراضه ·

وأخيرا نأتي الى آخر فصل في الرسالة ·· حيث تتناول الشعر الاصلاحي الديني ··

في هذه الفترة انتقل الشعر من التصوف الى التعبير عن قضايا الشعب الجزائري ··

ان تأثير الحرب العالمية الاولى ، وانفتاح الجزائر على الطباعة ، وظهور الصحافة ·· والثورات التي حدثت في العالم العربي ·· كل ذلك فتح الذهن الجزائري ·· ودفعه الى التخلص من الاستعمار ··

وقد خاض الشعر الاصلاحي معارك كثيرة ·· حتى ضد الفكر الجزائري الكلاسيكي·

وهو يتميز بميزات عدة أهمها ·· التركيز على النهضة والايقاظ ·· فقد دعا لتعليم المرأة وبناء المدارس ، والاستفادة من الحضارة الغربية كما هاجم البدع والخرافات ·

ولذلك فان الشعر الديني الاصلاحي نقل الينا ما كان يجري في هذه البيئة الجزائرية ، وما يصطرع فيها ·· من أفكار جديدة ·

ومما يذكر عنا أن الحركة الاصلاحية في الجزائر كانت امتدادا للحركة الاصلاحية في المشرق ·· التي وضع بذورها جمال الدين الافغاني ·· ولقد كان الصراع حتى بين الاصلاحيين والمستشرقين ينعكس تأثيره على الجزائر ·· فمثلما رد الشيخ محمد عبده على « هانوتو » ·· رد الجزائريون على المستشرق « أشيل » الذي هاجم الاسلام ·

أيضا فان الشعر الاصلاحي قام بدور ضد « الفرنسة والتجنيس » ·

وقد عبر الشعر عن وجهة نظر رجال الفكر الاصلاحي أصدق تعبير ·· ومثال ذلك هذه الابيات التي تقول :

وما يصلح الاسلام الا برجعة
الى خير قول نابذ الجهل والمقت

ويقول آخر

فما الدين الا من كتاب وسنة
وغيرهما زور من القول منكر

اما وظيفة الشعر كما فهمها الاصلاحيون ·· فهي خدمة الدين والشعب والتعبير عن قضايا المجتمع· يقول في ذلك أحد الاصلاحيين :

واخدم بشعرك شعبك الحر الذي
مزجت بطينته دما الاعراق

واختر لشعرك أحسن الالفاظ
لاتنظم سوى في المجد أنت الراق

وأهم ما يميز هذا الشعر الاصلاحي ، أنه ظهر فيه « الرمز » لا « الرمزية » ·· بمعنى أن الشاعر حين كان يتغزل مثلا في السياسة فهو يرمز اليها بامرأة ·· ومثال ذلك :

خاطبتها حين بدت برونقها
الا اسعفني انني بالصدق مقتول

غضت وولت ومالت لى لقد نزلت
آيات رب الورى والوحى مرسول

لكن الشاعر كان يفسر الرمز فى نفس القصيدة باستثناء الشاعر الجزائرى محمد العيد الذى كان يتغزل فى الحرية ·· لكن رمزه كان دون تفسير :

كما ظهرت فى الشعر الدينى الجزائرى الرومانسية ، والاتجاه الى الواقع ··ولكن بأسلوب تقليدى ··

يضاف الى ذلك أن الشعر الدينى الجزائرى لاصلاحى ·· وجد فيه أسلوب قصصى حوارى ستاز بالبساطة فى الاداء ورسم الشخصية ·· ولكن يغلب عليه أيضا الصراخ والنبرة العالية ·· كما عمت فى هذا الشعر ظاهرة التضمين والتشطير بصورة لافتة للنظر ·

* * *

وبعد ·· فهذا هو الشعر الدينى الجزائرى الحديث ··من خلال رسالة الدكتور عبد الله ركيبى ·

وهو موضوع جديد وحديث فى الادب العربى ·· أضاءت جوانبه هذه الرسالة ·· التى تضع الاصابع على مجال جديد ·· أمام الباحثين والدارسية ·

وهو بعد ذلك يحتاج الى دراسات مقارنة بالنسبة لما كان فى المشرق ·· فى هذا الوقت ·

وهو يثبت أن الجزائر ·· رغم كل شىء ·· ورغم كل المحاولات ظلت وجها عربيا ·· وامتزج فيها الدين بالوطن ·





صراع باخرتين — للفنان الجزائرى محمد راسم —



النشـــاط الثقـــافى

الاسبوع الوطنى للكتاب

نظمت الجـزائر كغيرها مـن الـدول الأخرى اسبوعا وطنيا للكتاب فى الفترة الواقعة مـا بين ٢٧ نوفمبر الى ٢ ديسمبـر ١٩٧٢ ٠ وذلـك فى نطـاق الأسبوع الدولى للكتاب الذى تشرف عليـه المنظمـة العـالمية للتربيـة والعلـوم والثقافـة « اليونسكو » وقـد أشـرف على تـدشيـن مـعرض الكتـاب فى الجـزائـر ٠ أحمـد طـالب الابـراهيمى وزيـر الأعلام والثقافة وذلك بمركز الاعلام التـابع للجيش الوطنى الشعبى ، ولاقامة هذا المعرض الثقافى ابعاد كثيرة أهمهـا تقييم المجهودات المبذولة فى الجـزائر منذ الاستقلال فى ميادين النشر والاشهـار ، والبعد الثـانى وهو ابراز الغـاية والفـائدة المرجوة مـن الأسبوع الوطنى للكتاب وبالتالى التعريف باحتياجات الجزائر فى مادة الكتاب وامكانيات التصدير واستراد الكتب وخاصة الكتب العربية فى نطاق ثورة التعريب ولكن هناك ملاحظة هامة ومفادها انـه للوصول الى هذه الغاية وخاصة جعل الناس يقبلون على القراءة أكثر فأكثر هناك مرحلة لابد منها وهى تعميم التعليم والثقافة ، والتربية ٠

وقد تم الى جـانب عرض كتب أدبية وثقـافية باللغتين الوطنيـة والفرنسية عرض الكتـاب التقنى الذى عـرض بمعهد تقنيـات التخطيط والاقتصـــاد والمطبق ، وهذا الكتاب التقنى يعالج أساسا التقنيات الاقتصادية ، والمالية والفنية ، وهى أعمال فى معظمها منشورات حديثة ٠

وتتويجا لهذا المجهود الذى تقوم بـه الشركة الوطنية للنشر والتوزيع فى خدمـة القراء وخدمـة الثقافة العامة قام د٠ أحمد طالب الابراهيمى بوضع الحجر الأساسى للمركب المطبعى الجديد بناحية الرغاية دائرة رويبة ــ ولاية الجزائر٠ وهذا المركب كفيل بأن يضمن النجاح الكامل للتعليم والتعريب ، وذلك بفضل الأسعار الزهيدة التى يسمح بها هذا الانجاز ، وبهذا سيكـون هذا المركب احدث مطبعة فى افريقيا ويقدر انتـاجـه السنـوى حـوالى ٠٠٠ ٥٠٠ ٧ كتـاب و ٠٠٠ ٠٠٠ ٧ كتيـب ومجلـة مـاعـدا اللافتـات ، والمنشورات، والبطاقات ويقدر الورق المستهلك سنويا بـ ٤٠٠٠ طنا ٠

ولقد عاش هذا الأسبوع مظاهرة ثقافية القيت خلالهـا محاضرات من طرف مسؤوليـن بـالشركة الوطنية للنشر والتوزيـع ، ودارت هذه المحاضرات بالخصوص حول أهمية الكتاب كأداة للثقافة والمعرفة وحول مشاكله ٠

كما قـامت المكتبة الوطنيـة من جهتها بعرض لمخطوطات قديمة فى اطار مسـابقة لأحسن مخطوط قديم وتكون هذه المخطوطات حوالى ٣٠ كتابا كانت هذه الكتب تعكس صورة التراث الذى ظل قائما برغم الاهمال الذى تعرض لـه طيلة سيطرة الاستعمار ، ونظرا لأهمية هذه المخطوطات فى التاريخ والحضارة اتصل مسؤولو المكتبة الوطنية بمالكى الكتب القديمة المنسوخـة بـاليد وطلبوا منهم أن يقدموا هذه الكتب لعرضها ثم ترد اليهم بعد انتهاء العرض ٠

والخلاصـة التى يمكن استنتاجها مـن هـذا الأسبوع هو أنه انتهى بعلامة تفاؤل بالنسبة لجوانبه المختلفـة مثـل البحث عـن المخطوطـات والانتـاج والتسويق ومحاولة ايجاد سياسة للقراءة ومضاعفة عدد القراء ٠



الملـتقى المغـربى للمطـالعة والكتـاب
ـ الحمـــامـــات ـ تـونس

بناء على دعوة من وزارة التربية القومية التونسية شارك الاخ عثمان شبوب ممثلا لوزارة التعلـــيم الاصلى والشؤون الدينية بمعية ممثلين لوزارتـــى التعليم الابتدائى والثانوى ، والاعلام والثقافة فى « الملتقى المغربى حول الكتاب والمطالعة » بالحمامات الذى ابتدأ فى 21 ـ وانتهى فى 25 نوفمبر 1972 م .

والقى فى جلسة الافتتاح كلمة باسم الجزائر نوه فيها بالمبادرة التونسية لتنظيم هذا الملتـقى ، وأبرز تقديرنا لأهمية الموضوع وعلاقته بتطـورنـا الثقافى والاجتماعى والاقتصادى .

وقال على الخصوص : ان ما نلاحظه فى حياتنا الثقافية من أزمات يعود بعضها الى تلك الهوة بـين المثقفين وعامة القراء وابتعاد الآخرين عن الاهتمام بالكتاب والمطالعة بصفة عامة ، الامر الذى جعـل التفاعل بينهما قليلا ان لم نقل معدوما ، وانعكس هذا بطبيعة الحال على بطء تطور حياتنا الثقافيـة وفقدانها للفعالية الـلازمة .

وقام بمقارنة بين البلدان المتقدمة حيث الكتاب عندهم صديق الجميع ، وسلوة للنفس ، ومتعة للقلب، وزاد للذهن يفتح آفاق المعرفة والاتصال بالثقافة الانسانية على أوسع نطاق ، وبين البلدان المتخلفة التى لا تزال تتخبط فى أمية شاملة .

وقال : ان الجزائر ، ايمانا منها بأهمية هذه المسألة ، تبذل جهودا كبيرة من أجل محو الاميـــة أولا ، كما انها تطبق سياسة مدققة لانتشار الكتاب وتشجيع التأليف وفتح المكتبات العمومية والمراكز الثقافة ، كما توجد فى أغلب مساجدنـا مكتبـات يتمكن خلالها المؤمن من المطالعة المثمـرة .

وقال : ان جهود الجزائر هذه تتدرج فى اطار نظرتها الشمولية لمشاكل التطور والتنمية اذ انها تعتبر أن التقدم الاقتصادى والاجتماعى مرهونان ومرتبطان بشكل عضوى بمشكل النهضة الثقافية التى يعتبر الكتاب أحد وسائلها الاساسية .

هذا واثر جلسة الافتتاح نظم معرض للكتب المغربية لم نشاهد فيه أى كتاب جزائرى ، اللهم الا مجموعة من مجلة الاصالة وكتاب الملتقى الرابع والخامس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى حملـها الوفد معه .

جـــدول الاعمـــال :

فى جميع الجلسات كانت تقدم ابحاث لمختصين فى التربية والتعليم ، تعتمد على الطريقة المباشرة ، والاعمال الميدانية لجعل الطفل يقبل على المطـــالعة ويرغب فيها ، وعرضت أفلام مدرسية وتجارب عن أثر الوسائل السمعية والبصرية فى الترغيب فى المطـــالعة .

كما نظمت زيارات لبعض المدارس حيث شاهد الملتقون دروسا نموذجية ، كما نوقشت فى الملتقى مشكلة النشر ووضع المكتبات فى تونس وعلاقتها بنشر الكتاب ، وقدم هذه الابحاث المختلفة مختصون من تونس ومن اليونيسكو .

وأما وفد الجزائر فقد كانت مشاركته تقتصر على التدخلات والمناقشات ، اللهم الا الكلمة التى

القاها الاخ جدوانى نوار مندوب وزارة الاعــلام والثقافة عن وضع المكتبات فى الجزائر لاننــا لم نتصل بمواضيع الملتقى ومتطلباته الا قبل أيــام قليلة جدا من انعقاد الملتقى . والدوائر المسؤولة فى وزارة الخارجية تلقى المسؤولية على تونـــس ، والاخوان التونسيون يؤكدون بأنهم وجهوا الدعوة ومواضيع الملتقى منذ شهر جوان 1972 .

هذا ، واثر انتهاء أعمال الملتقى ، شكلت لجنة لوضع التوصيات ضمت الجزائر والمغرب وتونس ، وقد أكدت هذه التوصيات على ضرورة تبادل التجارب والخبرات بين بلدان المغرب العربى وتشجيع التأليف المدرسى والاكثار من المكتبات ودور الثقافة .

توصيــات الملتقى المغربى حول
قضــايا الكتــاب والمطــالعة

ان الملتقى المغربى لقضايا الكتاب والمطالعـة المنعقد بالحمامات من 21 ـ 25 نوفمبر 1972 م يوصى بمـا يلى :

قضايا اللغـة العربية :

1 ـ القيام بكشف شامل لتدريس اللغـــة العربية فى جميع مراحل التعليم ومختلف المواد ، ووصف ما قد يوجد من تجارب جارية لتغيـــير الوضع الموجود على أن يكون العمل جاهزا آخـــر السنة الدراسية 1973 .

2 ـ اقتراح تنظيم ملتقى جديد فى الجـزائر يدرس المشاكل التى يواجهها تدريس اللغة العربية فى جميع مراحل التعليم حتى العالى وتقديم التجارب للاستفادة منها . وذلك فى أفريل 1973 على أن يكون الملتقى الثالث فى المغرب .

3 ـ الاستفادة من مكتب تنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية فى استخدام نتائج ابحاثـه فى التدريس والتأليف .

4 ـ تبــادل الكتب المدرسية .

تبادل الوثائق والمؤلفـات المدرسية :

ضرورة العمل على تبادل الوثائق التربوية من دراسات ومؤلفات ووضعها فى يد المؤلفين .

قضــايا النشـر :

1 ـ القيام بكشف شامل لاحصاء المشــاكل التى تعترض نشر الكتاب وتوزيعه . وتنظيم ملتقى يضم المؤلفين والناشرين والمسؤولين عن الاقتصاد والمكتبات ومراكز الثقافة ، ومراكز التوثيق لدرس هذه المشاكل . وايجاد حلول عملية لها تضمن نشر الثقافة فى بلدان المغرب العربى على أوسع نطاق .

2 ـ ينعقد الملتقى فى شهر جويلية 1973 فى أحد البلدان الثلاثة على أن يهيأ له بعقد ملتقيات عــلى الصعيد الوطنى فى كل قطر خلال السبعة أشهـر القـادمة .

المكتبـــات :

ـ ضرورة الاسراع بتنفيذ الاتفاقيات الثقافية بين المكتبات على الصعيد المغربى .

ـ تبادل الزيارات والخبرات والمنشـــورات .

بـــــلاغ

حـول الملتـقى السـابع للتعـرف على الفـكر الاسـلامى

تعلن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ان الملتقى السابع للتعرف عـلى الفكر الاسلامى سينعقد فى مدينة تيزى وزو من 10 الى 20 جمادى الثـــانية 1393 هـ (الموافق 19 الى 20 يوليــو 1973) .

وسيحضره طلاب وطالبات من جامعات الجزائر وقسنطينة ووهران وتـــلاميذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقـــا) وأى طالب مسلم حيثما كان ومن أى بلد كان .

ونظام الملتقى هو النظام الداخلى . ويمكن السماح بالنظام الخارجى لمن يطلبـــه وسيسمح لاطارات الادارة بقدر الامكان بالمشاركة فى الملتــقى .

هذا وتتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى . الا انه سيطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا .

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية ، بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتــقى » على زاوية من الغــلاف .

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية ، وآخر أجـل لارسال طلبات المشاركة هو 27 ربيـــع الاول 1393 هـ الموافق 30 أبريــل 1973 م ، وسيكون ختم البـريد شاهــدا .

وستدعى الى الملتقى شخصيــات بارزة من الجـزائر وغيرها من أنحاء العـــالم الاسلامى وبلدان أخرى لالقــاء المحاضرات والمناقشة مع الطلبــة .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) ـ روح الشريعة الاسلامية وواقع التشريع اليوم فى العالم الاسلامى .

2) ـ المؤامرات التى تعرضت لها وحدة الامة الاسلامية بالامس ويتعرض لها ما تبقى منها اليوم من طرف الصهيونية وغيرها وما يجب علينا حيال ذلك .

3) ـ نشاط التبشير ودوره الاستعمارى التخريبى بالامس واليوم وما يجب القيام به ازاء هذا الخطـــر .

4) ـ اخطار العزلة والاندماج التى يتعرض لها أبناء الجاليات الاسلاميــة فى الهجرة وواجب الدول الاســـلامية نحـوهم .

5) ـ دور وسائل التأثير على الجماهير وخاصة منها الصحافة والسنما والتلفزة فى البناء أو التخريب الذاتى لما تبقى من الامة الاسلامية المفروض أنها فى صميـــم معركتها لاسترجاع نفسها ، ومسؤولية هذه الاجهزة فى مكافحة أو نشر جنـــوح الاحداث بل والاجرام نفسه والانحلال الخلــقى والالحـــاد .

NO 12

فهرس العدد

بعد أربعة عشر قرنا من نزول "إقرأ"!

« أمة أمية

لا تكتب ولا تحسب » ! ! !

مولود قاسم

وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية

أصحاب المعالى

حضرات السادة

باسم الوفد الجزائرى أشكر الكويت الكريم المضياف أميرا وحكومة وشعبا ، وخاصة صاحب المعالى السيد راشد الفرحان على هذه البادرة الطيبة التى جمعتنا هنا لنتدارس بعض الجوانب التى تهم حياة ومصير الأمة الاسلامية .

فبخصوص تحديد وتوحيد العمل بالشهور وأيام المناسبات الاسلامية أظن أن موقف الجزائر معروف فقد أعلنا عنه عمليا بعد اليأس من اتخاذ أية خطوة ايجابية فاصلة فى هذه المسألة على مستوى الأمة الاسلامية .

نص الكلمة التى القاها السيد مولود قاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية فى مؤتمر وزراء الشؤون الدينية والاسلامية والأوقاف فى البلاد العربية المنعقد بالكويت .

وطبقنا ما دعا اليه الامام رشيد رضاوالاستاذ علال الفاسى ، ومـا أوصى بـه مؤتمر ماليزيا وانتهت اليه لجنة الافتـاءالجزائرية من ضرورة اتخاذ تقويم قمـرى اسلامى على مدار السنة على أساس امكانيةالرؤية بالحساب الفلكى .

وفعلا فقد بدأنا العمل بهـذه الطريقةالتى تجمع بين الرؤية وضمان صدق هذه الرؤية ، وهى استعمال الوسائل العلميـةالتى تفيد القطع الذى هـو مـن مقاصد الشريعة الاسلامية ، وأصدرنا يومية تبين لنا بدقة ووضوح وتحديد أيام المناسبات الدينية ، وذلك منذ رمضان المـاضى حتى عيد الفطر المقبل ، وبها عرفنا متى سيكون اليوم الأول لرمضان المنصرم ، وعيد الفطر وعيد الأضحى اللذين تلياه ، وعرفنا مقدما بشهور ميلاد السنة الهجرية الجديدة ويوم عاشوراء ، وعرفنا متى سيكون اليوم الأول لرمضان المقبل ، ومتى سيكون عيد الفطروعيد الأضحى لعام 1393 هـ(1973ـ1974م)، وهذه اليومية ، يومية الجيب والمكتب ، هى الآن لديكم وزعناها هنا على حضراتكم .

طبعا وجدنا أمامنا بعض من ظل أياما يردد ذلك الحديث : «انا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب ، الشهر هكذا وهكذا وهكذا ،أو هكذا وهكذا وعقد ابهامه ، أى 30 أو 29 يوما ! ولكننا ذكرنا لهم ما أفتى به الامام محمد رشيد رضا من جواز العمـل بل ضرورة استعمـال الحسـاب الفلكى فى العبادات وبالتالى اتخاذ تقويم قمرى ثابت عـلى الحسـاب استنـادا الى روح الشريعة الاسلامية ومقاصدها التى تدعو الى اليقين الذى يفيده العلم بوسائله الحديثة ، ممـا يمكننا من التثبت من امكانية رؤية الهلال يوم مولده ، علميا ، سواء رؤى أم لم يـر بالعين المجردة حيث ان رؤيته ليست تعبدية وغاية فى ذاتها ، وانما هى وسيلة وأداةفمتى تحققت امكانية رؤيته ثبتت لنا شرعا وصح العمل بها ، بل وجب أى ان الرؤية الحكمية تغنى عـن الرؤية الفعليـة غـير المضمونة .

وأضاف رشيد رضا باننا نعمل به فى الصيام ، وذلك اننا نعلم جميعا ان مؤذنينا وأئمتنا سامحهم اللـه يؤذنـون ويصلون بالاستناد الى ساعـات صنعهـا ، نصارى ،

ويهود ! ومجوس هنا وهناك، ولا يتحققون اطلاقا أو غالبا من غروب الشمس ومن الغسق ولا من تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود !

وذكرناهم أيضا بفتوى أصدرها الاستاذ علال الفاسى وهو من علماء القرويين ومجتهدى هذا العصر اذ قال ان ذلك الحديث « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته ، انا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب ، الشهر هكذا الخ » قد خرج تخريج الكلام المعلل ، وهو جهل العرب اذ ذاك ، أما وقد زال ذلك الجهل فتنطبق عليه القاعدة الأصولية المعروفة القائلة بأن المعلول يدور مع العلة وجودا وعدما » أى أنه ما دامت الأمية قد زالت أى أصبحنا نقرأ ونحسب ، سقط علينا الالزام بالعمل بالرؤية بالعين المجردة ، بل وجب علينا العمل بالوسائل التى تفيد القطع وهى الوسائل العلمية .

واسمحوا لى أن أضيف الى هذا انه من العجب العجاب ـ مهما كانت أسانيد الحديث المذكور ـ أن نظل نتمسك بظاهره بعد أربعة عشر قرنا من نزول « اقرأ » الذى فرض علينا العلم بعدد السنين والحساب ، فى أمة كانت حقا أمية ومن أكثر الأمم أمية وجهلا ، وتأخرا ، ولكنها أصبحت بذلك « اقرأ باسم ربك » معلمة البشرية ، اذ زودتها بالجبر والمثلثات ، وأنجبت جابر بن حيان ، والخوارزمى ، وابن الهيثم ، والبيرونى ، وابن سينا ، والادريسى ، والرازى ، وابن الجزار ، وابا القاسم ، وابن النفيس ، وابا حمزة ، وغيرهم كثيرون!

وانه لمن الأعجب ـ ولكن ليس التناقض الوحيد فى حياتنا ! ـ أقول انه لمن الأعجب أن يستعمل هؤلاء الناس اليوم النظارات ليحققوا مخطوطات الفقه والحديث ، ومكبرات الصوت الكهربائية للآذان أوسماعه ، ويستعملون آلات التصوير لأخذ نسخ من أمهات كتب الشريعة ، ويركنون الى الآذان من الاذاعة ، ويسجلون القرآن أو يستمعون اليه مسجلا فى اسطوانات أو مرسلا من اذاعات ، ويركبون السيارات الى صلاة الجمعة ، والطائرات الى بيت الله الحرام ، بل ويعتمدون على المراصد

والساعات فى تحديد أوقات الصلوات ، بل وحتى فى الصوم يعتمدون على هذه المراصد والساعات فى تحديد الامساك والافطار من بداية اليوم الأول حتى نهاية اليوم الأخير ، أى مدة ثمانية وعشرين أو سبعة وعشرين يوما ، الا فى تحديد ميلاد اليوم الأول وانتهاء اليوم الأخير من رمضان ، فلا يصدقون المراصد والساعات ،، هذه الأجهزة الشيطانية الملعونة !

أصحاب المعالى . حضرات الاخوان

على ضوء هذه المعلومات الحديثة التى ذكرناها ، على أساس مقاصد الشريعة التى وضحها أعلام من علمائنا ومجتهدينا فى العصر الحديث واستنادا الى تجاربنا الخاصة ، والضوء الأخضر الذى أمدتنا به لجنة الافتاء ، قررت الجزائر العمل بقوله تعالى: «ولتعلموا عدد السنين والحساب» واستغنينا نهائيا عن العمل بالرؤية وبالعين المجردة فى اثبات الهلال ، ووضعنا تقويما قمريا اسلاميا على مدار السنة ، وأصبحت الأعياد الاسلامية والأيام الكبرى مثل بداية رمضان وبقية شهور التقويم الهجرى معروفة مقدما ، يعمل بها ، وتحترم على المستوى الشعبى والرسمى ، وانتهى الأمر الذى كانوا فيه يستفتون ، ويتجادلون ، ويتخاصمون ، ويتسابون ، ويضحكون ، به على أنفسهم وعلينا العالم !

بقى ان هذا الذى تم فى الجزائر ، لايكون له مغزاه كاملا الا اذا تم على مستوى العالم الاسلامى وتوحدت الأعياد والايام الكبرى ، وكان هناك تقويم ثابت عام ، كما هو الشأن بالنسبة لليهود والمسيحيين فى جميع أنحاء العالم أو أغلبها ، وهذا ما يجب علينا أن نحققه هنا :

والجزائر رغبة منها فى هذا التوحيد مستعدة طبعا لأن تضرب صفحا عن تقويمها هذا اذا تم الاتفاق هنا على تقويم آخر على مدار السنة وبصفة نهائية ، على أساس علمى واضح ثابت ، ايا كان البلد الذى سيكون مرصده هو المرجع والمنطلق لهذا



1) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك الا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون »

« صدق الله العظيم »

2) « ... انا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ... » ؟

ولكنه قال أيضا : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« حديث شريف »

التقويم القمرى الاسلامى الموحد ، الشامل لسائر أو أغلب انحاء العالم الاسلامى والمعروف مقدما على مدار السنة .

اذا لم يتم هذا ، فاننا سنبقى عاملين بتقويمنا ، ولن نعمل بأية رؤية بمجرد العين ، كما كان الأمر حتى هذه السنة حيث تتضارب الشهادات ، وتتعارض من بلد الى آخر ، وأغلب الأحيان فى نفس البلد وفى نفس الحى من طرف شهود ثقاة ، تقاة ، يكذب بعضهم بعضا ، وكثيرا مايتبادلون التهم ويتفضل بعضهم على الآخر بغاية السهولة والسخاء والبساطة بكفارة الستين يوما كاملا غير منقوص ، مما يحول أعياد المسلمين من مناسبات أفراح ، وتآلف ، وتآخ ، وتزاور ، ومظهر وحدة واتحاد ، الى تنافر وتبادل تكفير وسباب ، واحن ، وبغضاء ، أو على الأقل الى خلاف وجدال يعرضاننا لسخرية العالم .

حضرات السادة

موضوع المراكز الاسلامية هام جدا فى داخل العالم نفسه حيث يتعرض شبابنا للنشاط الهدام الذى تقوم به مراكز ثقافية ومنظمات عديدة الاتجاهات والألوان من تبشيرية وصهيونية ، والحادية ، وغيرها ، ولكن متشابهة الطرق ، وموحدة الأهداف ، تتمثل طرقها فى الكتب والمجلات ، والنوادى ، والنشرات ، والأفلام التى تعرضها أجهزة بعض الدول الاسلامية مع الأسف ، وأهدافها كلها خلخلة عقيدة شبابنا ، وذبذبة شخصيته ، وزعزعة أصالته الاسلامية وتشكيكه فى أصله وتوجيهه نحو مختلف مظاهر الاختلال والانحلال ، التى تهيىء كلها للاحتلال !

وأهمية هذه المراكز بالنسبة لأبناء الجاليات الاسلامية فى الخارج ليست دون الأولى ، اذ هم معرضون هناك للذوبان ، والاندماج ، والامساخ الذى يعقبه الانسلاخ حيث تركز عليهم عديد من وسائل الاغراء ، وأحيانا حتى التهديد غير المباشر من حيث فرص العمل ، والتوظيف ، والتجارة ، وغيرها من سبل العيش ، وحيث تعلن بعض الدول جهارا عن عزمها عن تلك النية وتبدأ فى تطبيقها .

فاذا كانت وسيلتنا الوحيدة لتحصين شبابنا هنا هى احياء جامعاتنا الاسلامية المهلهلة أو المندثرة ، بجعلها جامعات كاملة تشمل الدنيا والدين ، كما يقال ، والاسلام كما نعلم دين ودولة ، وتعزيز هذا التعليم ونشره من رياض الأطفال حتى الابتدائى والثانوى ، فان ملاذنا الوحيد بالنسبة لأبنائنا فى الهجرة (فى الوقت الحاضر على الأقل) هى هذه المراكز الثقافية وما يمكن أن ننشئه من مدارس لتغذية أبنائنا هناك بلبان ثقافتهم ، ودينهم واعطائهم صورا عن تراثهم وعن مجد أمتهم . وواقعها الأليم وآفاقها الباسمة ان أرادت !

وبهذه المناسبة أود أن أخبر الاخوان هنا أن ملتقى للهجرة قد انعقد أخيرا فى الجزائر ، وان موضوع أبناء جالياتنا مع موضوع التبشير بمختلف أنواعه هو احدى نقاط جدول أعمال الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى الذى سينعقد فى الجزائر فى الصيف القادم بين نخبة من الأساتذة من سائر أنحاء العالم الاسلامى وطلبة الجامعات والسنتين النهائيتين من الثانوى ، الذين يبلغ عدد المشاركين منهم أحيانا حوالى الألفين من الجزائر وغيرها .

وأخيرا اذ أشكر مرة أخرى الكويت الشقيقة على هذه الخطوة المباركة ، أود أن أقترح عليكم جميعا أن نجعل مؤتمرنا هذا دوريا ، ينعقد كل سنة ، أو كل سنتين ، وان نوسعه ليشمل البلدان الاسلامية كلها ، لا العربية وحدها ، وانى لأدعوكم الى عقد المؤتمر القادم فى الجزائر ، وربما كان أحسن الأوقات له بمناسبة احدى هذه الملتقيات التى تنعقد سنويا ، قبيل الافتتاح أو الاختتام مباشرة ليحضره الجميع .

ان مهمة المسؤولين على هذا القطاع الروحى التربوى مهمة شاقة ، فعلينا أن نقوم بها بروح هذه المسؤولية ، ونحن كلنا عابرو سبيل ، بل علينا أن نكون الضمير الواعى لأمتنا الاسلامية ، وان نبصرها بما لها وما عليها ، والا نبقى سلبيين ، خجلين وجلين ، ونكتفى بالاستعاذة والحوقلة فى حالات الاستنكار .

وفقنا الله جميعا الى القيام بالرسالة ،واداء الأمانة ، والسلام عليكم .

التقليـــد

يقول ابو العـلاء المعرى فى حـال أولئك الذين لا يهتدون بهدى عقولهم ، وانما يأخـذ بعضهم عن بعض تقليدا ومحاكاة بغير تفكـير مستقل .

« يلقن الطفل الناشىء ما سمعه من الاكابر ، فيلبث معه في الدهر الغابر ، والذين يسكنون في الصوامع ، والمتعبدون في الجوامع ، يأخذون ما هم عليه كنقل الخبر عن المخبِّر ، لا يميزون الصدق من الكذب لـدى المعبر ، ... واذا المجتهد نكب عن التقليد ، فما يظفر بغير التبليد ، واذا المعقول جعل هاديا ، نقع بريّه صاديا ، ولكن اين من يصبر على احكام العقل ، ويصقل فهمه ابلغ صقل ؟ ! هيهات ! عدم ذلك فى من تطلـع عليه الشمس ، ومن ضمنه فى الرمم رمس ، الا ان يشذ رجل فى الامم يخص من فضل بعمم » .



حدود الخيال السياسي

عند الفارابي

عبد المجيد مزيان
أستاذ بكلية الآداب
– جامعة الجزائر –

ان عقم الخيال السياسى الذى يتهم به مفكرو الاسلام اصبح بمثابة الامر المسلم به نهائيا عند كثير من الباحثين • ويرجع هذا الموقف فيما يبدو لجل المهتمين بالموضوع ، الى قلة الانتاج السياسى ، الذى يرد بدوره الى نوعية الحكم عند المسلمين •

يقولون انه ليس من العسير على عالم الاجتماع مثلا، ان يصنف للدول الاسلامية ، لانها من نمط واحد انها قبل كل شيء دول تبنى السلطـــة على روابط روحية بين «المواطنين» ، فى ظل رئاسة تستمد نصف قوتها من الدين والنصف الآخر من «العصبية» فى مظهرها العسكرى · هذا ولـــن يجـــد المؤرخون المستعجلون فى تاريخ الامة الاسلامية ، الا خلافات متتابعة على الخلافة والملك · اما الفيلسوف فانـــه سيستعرض الانتاج السياسى فيجده منحصرا فيما سطرته عن الامامة أقلام الفقهاء وعلماء الكلام ، وفى بعض الانتاج الضئيل من النمط الفلسفى فى السياسة المدنية ، جادت به قرائح الحكماء ، مع اعطاء مكانـة خاصة لابن خلدون من أجل واقعيته ، والفارابى من أجل مثاليته و« سعة خياليه» على شرط ان نعتبـر سعة الخيال هذه أمرا نسبيا ·

يبدو لى ان دور مؤرخى الفلسفة ، فى عصرنـــا هذا ، أهم مما نتصوره فى ميدان التنقيب عن انتاجنا السياسى فى جميع مظاهره · نعم ، قد يسهل علينا ان نقول ، اذا اردنا التخلص من المناقشة ان جمهورية افلاطون مثلا ، لم تؤثر فى المفكرين المسلمين لان نوع الحكم الذى كان يعيش حكماؤنا تحت ظله ، كان نوعا استبداديا لا يسمح بذيوع الافكار ذات الصبغـــة الديمقراطية ،والحقيقة ان كثيرا من المذاهب الاسلامية دعت الى ديمقراطية تكاد تكون فوضوية ، ولم يتمكن نوع الحكم من كبتها،لا عن اذاعة افكارها ولا عـــن شن حركات سياسية وعسكرية عميقة التأثـير فى الجماهير · ليست افكار افلاطون باكثر تطرفا مـــن افكار بعض القرامطة ، فى مظهرها الشيوعى ، ولا بعض الزندقات باقل جراءة فى دعواتها الاجتماعية، من كل المعتقدات السياسية التى نقلت عن اليونان وانه لمن الممكن اليوم ان نستخلص من مختلف المذاهب والعقائد ابعادها السياسية ، اذا التزمنا فى مناهج بحوثنا بالتحليلات العلمية لمختلف البناءات الاجتماعية التى ظهرت واذيعت فيها هذه العقائد · ولا يظـن ان النصوص تنقصنا فى هذا الميدان ·

ثم انه يجوز لكل باحث فى التفكير السياسى ان يتعدى ذلك النـــوع من الدراســات التى تتدرع بموضوعية سطحية وتنحصر فى الكلام عن الخلافـة وخططها ، وعن الاحداث العسكرية كانها تستوعب كل التاريخ · بل الاهم فى التنقيب عن التفكـــير السياسى عند المسلمين هـو الرجـــوع الى المبادىء الاسلامية نفسها من شورى وعدالة اجتماعية ومساواة وصراع مع العرقية والاستبداد ، وروح نضاليـــة تتلخص فى الجهاد وفى الامر بالمعروف والنهى عـن المنكر · وانه لمن العجب ان لا نبحث عن الاسبـاب التى جعلت هذه المبادىء القوية تطمس فى تطبيقات ادارية تافهة وخطط استبدادية تكاد تكون مخالفة كـــل المخالفة لـــروح العدالة الاسلامية : فتسلط العصبيات فى بناء الدول،وانعدام مؤسسات للشورى وتصرف الملوك والرؤساء فى أموال الامة تصرفـــا مطلقا ، وايجاد خطط ذات اختصاصات بيروقراطية طاحنة ،مثل الوزارة والحجابة والحسبة التى لا يسأل اصحابها الا من لدن **السلطان القاهر** كل ذلك يعد من قبيل التصرفات والنظم التى تبرهن على ازدراء الحكام لامتهم ومبادىء أمتهم · فلا عجب والحالة هـــذه ان تتعدد المذاهب وتتستر من وراء الافكار الدينيـــة

للتعبـــير عن خيبتهـا وعن آمــالها السياسية .

من أجل هذا نقول ان الانتاج السياسى متعـدد الجوانب ويشترط ان يبحث عنه حتى فى غير مؤلفات السياسة المدنية والاحكام السلطانية بل نجده فى الفقه والعقائد • فالتراث هنا واسع الآفاق . بينما الانتاج السياسى ذو الصبغة الفلسفية قليل •

تجرنا هذه الملاحظة الى التساؤل عن ضعف تأثير الفكر السياسى **اليونانى فى المفكرين المسلمين** واذا سلمنا ان الفكر اليونانى لا يتلاءم مع معتقداتهم فاننا نتساءل لماذا لم يظهر الى الوجود انتاج سياسى منبثق من صميم المبادىء الاسلامية فيكون هــذا الانتاج متمسكا بالنقد والخيال البناء الرامى الى اصــلاح الوضعيات الفاسدة التى خلقها « السلطان القاهر » و « الملك العضوض » الذى كان يشتكى منه كــل المسلمين ؟ ونخصص من بين المفكرين كبار الفلاسفة فنقول لماذا لم يعتنوا لا بهذا الجانب ولا بذاك بالقدر الذى يستحقانه . مع ان الموضوعين الاسلامى مثل اليونانى من صميم اختصاصهم ، زيادة على ان كليهما مشحون قوة واغراء ؟

قد نتيه فى البحث عن السبب والمسبب اذا بقينا منحصرين فى دائرة ربط القضية كلها بنوعية الحكم، لانه يجوز ان نتصور استبداد الحكام المسلمين كبتا للخيال السياسى فى صفته الفلسفية . كما يجوز ان نتصور ضعف الخيال وضعف الانتاج السياسى سببا فى دوام الاحكام الاستبدادية •

وقد يكون من اسباب الصدف التاريخية ان وقع نشر التراث اليونانى على يد مثقفين مرتزقة او شبه مرتزقة لم يجرأوا على تبسيــط وتوضيــح الافـكار السياسية المخالفة لمصالح الحكام القائمين . ولكن هذه الصدفة لا تفسر شيئا لان المناوئين لهؤلاء الحكام كان فى استطاعتهم ان يذيعوا بالقدر الكافى كتبا مثــل الجمهورية ونماذج دستورية لها صبغة ديمقراطيــة ، زيادة على كتاب السياسة لأرسطو مثلا • ولا يكفى ان يقال بان الازمنة التى عاش فيها كبار الفلاسفة مثل الفارابى وابن سينا وابن رشد كانت أزمنــــة اضطهاد . لا يسمح فيها بالالتفات الى الخيال السياسى عند اليونان ولا عند غير اليونان • ذلك ان كثيرا من المفكرين اضطهدوا من أجل افكار قد نعتبرها اليوم قليلة الاهمية لانها محض نظرية . بينما لم يجرؤ أى واحد منهم الى اثارة الاضطهاد من أجل تفكير سياسى ذى نزوع نقدى • وقد يتبادر الى أذهان كثير مـــن مؤرخى الفلسفة ان الـــذوق والتكويــن السياسى للمفكرين المسلمين كان لا يتفق مع الاتجاه الـــذى اتخذه التفكير السياسى اليونانى . والافلاطونى منه على الخصوص . ولنا خير مثـال فى التراث الادبـى اليونانى الذى لم يثر انتباههم طول فترة احتكاكهم با نتاج اليونان • يبدو ان الجواب عن كل هـــذه التساؤلات والملاحظات قد ينحصر فى نقط ثلاث على الاقل،وذلك قبل توسيع المناقشة الى اعتبـــارات اجمالية عن المجتمع الاسلامى : فالنقطة الاولى ترجع الى تحديد ميادين الفلسفة من لدن المفكرين المسلمين وحصرها فى العلوم الحكمية مع سيطرة المنطق سيطرة كاملة على جميع الميادين.وقد برهن على هذه السيطرة بكل ما تستحق من تدقيق الفيلســوف المعــاصر ابراهيم مدكور فى كتابه عن تأثير اورجانون ارسطو فى الفلسفة العربية . فلا سبيل مع هذا التمســك

بالعقلانية الصورية الى اثارة مواضيع يتدخل فيها الخيال . وتبنى فيها مدن الاحلام مثل التى بناهـا أفلاطون . والنقطة الثانية هى الصبغة الارستقراطية التى كانت تصطبغ بها الفلسفة عند المسلمين بادعاء « منتحليها » أن ثقافتهم ثقافة أعيان تسمو على «السوقة» واهتماماتهم . فالسياسة المدنية حسب مقتضيات التفكير الفلسفى الارستقراطى هى قبل كل شىء قضية « تدبير للرعية » بمقتضى الحكمة والاخلاق ومنطق تسخير الناس بعضهم لبعض . فلا عجب اذن ان تسود عندهم كل الافكار الآخذة باتجاه أرسطو لانها أقرب الى المنطق والارستقراطية فى ميـدان السياسة . ولا عجب أن تطمس الافكار المشوبـة بالخيال فى كل الشروح والتلخيصات التى وردت عن سياسة أفلاطون .

والنقطة الثالثة ترجع الى اهتمام الفلاسفة المسلمين بالتوفيـق بين الاسلام والحكمة ، ولم يستثنـوا السياسة من هذا الاهتمام . ولقد كان جل مفكرينا ينتسبون الى السنة او الى الشيعة فى حـدود شبه تقليدية وحاولوا اشباع مذاهبهم بالحكمة اليونانية فى مظاهرها المتفقة مع المعتقـدات السائدة , دون محاولة تجديد او أبداع سواء فيما يخص الفلسفة أو فيما يخص الاسلام .

يمكننا ان نتحدث عن حدود الخيال السياسى عند فلاسفة المسلمين انطلاقا من هذه الاعتبارات . هـذا على شرط أن نمنح الفارابى مكانة خاصة ضمن هذه الحدود . كما سبق ان أشرنا الى ذلك من قبل . لانه الفيلسوف الوحيد الذى اعتنى بالمدنية المثالية ،

تثير النصوص السياسية الفارابية بعض اضطراب عند قرائها ، خصوصا اذا سبق لهم قراءة أفلاطون وأرسطو من جهة . وسبق لهم أن تعودوا على البحث فى الاخلاق السياسية الاسلامية من جهة أخـرى . ذلك لان الوضوح الذى يجدونه فى الفكر اليونانى أو فى المبادىء الاسلامية يصبح محاطا بكثـير مـن الغموض والتلفيق الغليظ فى النصوص الفارابية .

نقول فيما يخص العنصر اليونـانى ان المدينـة الفاضلة تكاد تكون كلها نقلا عن الجمهورية ولكننا نحس فى هذا النقل بتعثر قد يرجع فى الاصـل الى سوء تكيف المفاهيم الافلاطونية مع العبارات العربية، زيادة على ان هناك غموضا فى الامثلة . فاذا أردنا ان نتتبع الاصول الافلاطونية لتصنيف المدن والدساتير من خلال التصنيفات التى أتى بها الفارابى . فـان المقابلة ستطول . ويدخلها كثير من الضباب والالتباس فلن نجد مثلا . الا بشق الانفس . وبعـد مقابلات عديدة أن الاوليغارشية هى مدينـة النذالة . وأن التيمقراطية هى مدينة التغلب وأن الديمقراطية هى المدينة الجماعية . ثم انك تجد العبارات قد تغيرت أحيانـا فتصبح الديمقراطية مدينـة ضالـة ، والاوليغارشية مدينة فاسقة . والتيمقراطية مدينة جاهلة . وتأتى عبارة المدن الجاهلية للزيادة فى اللبس ولن تعرف أنها الانحراف عن الارستقراطية أو المدينة الفاضلة الا بعد المقارنات العسيرة . ولا يسعنا فى مثل هذه الحال الا الاقتصار على الاوصاف الاكثـر بروزا . لان بعض الاوصاف الجزئية لمختلف الاصناف تتداخل بكيفية تقلق القراء المتعودين على وضـوح التصنيف الافلاطـونى .

من الطبيعي أن النماذج التي كان يصفها أفلاطون كانت ماخوذة من دساتير يونانية قد سبق لـه أن تعرف على بعضها . ومهما كانت المبالغات التي أدخلها خياله الخصب على هذه النماذج فان منطلق تصنيفاته هو الواقع الحي • أما الفارابي فلم تفده تجربتـه الشخصية شيئا في تصور النظم المختلفة . لانه لم يعرف من الواقع الحي الا نموذجا واحدا بما فيه من اختلافات اخلاقية الا وهو النموذج الاستبدادي الذي ينتسب الى الاسلام • ولكن لا يجوز أن ندعي أن ذلك هو السر الوحيد في غموض ملامح المدن التي وصفها المعلم الثاني ، فقد تكون هناك اعتبارات أخرى،منها رداءة النقل من اليونانية الى العربية . ومنها التمييع المتعمد للمفاهيم السياسية في التصورات الخلقيـة ومنها المحاولات التوفيقية بين السياسة والفلسفـة الأولى •

نقول بصدد هذه الملاحظة الاخيرة انه يمكننا العثور في كتاب السياسة المدنية الذي سمـاه الفارابي مبادىء الموجودات على محاولة تنسيق بين الاكـوان المختلفة من العقل الاول والارواح العلوية الى المدينة والانسان الفرد بما في هذه الاكوان مـن مراتب متفاوتة . وهـو لا يتوقف هنا عنـد النظريـات الافلاطونية مع انه اليها أميل في هذا الميدان . بل كثيرا ما نعثر على آراء أرسطية . خصوصا فيما يتعلق بالتفاوت العرقي بين أجناس البشرية ويعد وصفه الدقيق للجنس الادنى الـذي يسميه « البهيميين بالطبع» منأبرز الامثلة لهذا التاثر بالآراء الارسطية• حيث يقول : « البهيميون بالطبع ليسوا مدنيـين ولا تكون لهم اجتماعات مدنية أصلا . بل يكـون بعضهم على مثال ما عليه البهـائم الوحشية . فبعض هؤلاء أمثال السباع • وكذلك يوجد فيهم من يأوي البراري متفرقين . ويوجد فيهم من يأويها مجتمعين . ويتسافدون تسافد الوحش • وفيهم من يأوي قرب المدن • ومنهم من لا ياكل الا اللحوم النية • ومنهم من يرعى النبات البري . ومنهم من يفترس مثلمـا تفترس السباع وهؤلاء يوجدون في أطراف المساكن المعمورة اما في أقاصي الشمال . وامـا في أقاصي الجنوب • وهؤلاء ينبغي أن يجروا مجرى البهائـم فمن كان منهم انسيا وانتفع به في شيء من المـدن **ترك واستعبد واستعمل كما تستعمل البهيمة • ومن كان منهم لا ينتفع به أو كان ضارا عمل به ما يعمل بسائر الحيوانات الضارة** . وكذلك ينبغي انيعمل بمن اتفق ان يكون من اولاد اهل المـدن بهيميا » . ان النزعة العرقية والاسترقاقية التي دافع عنها أرسطو في أكثر من نص مع تبريره لابادة الشعوب «الهمجية» لما يظهر بكل وضوح في هذه السطور . فالاخـلاق السامية هنا والنزعـة الانسانية التي تنسب الى الفارابي انما هي أخلاق وانسانية اليونان العرقيين لم تدخل عليهـا لا الاعتبارات الاسلامية مثـلا ولا المجهود الشخصي في نقد هذه المواقف بمقتضى الواقع الاجتماعي الذي كان يعيش فيه « المعلم الثاني » وهو يشاهد قدرات الامم البدوية على التحول والابداع في الحضارة • ولا يسعنا الا ان نلاحظ في مثل هذا الموقف تمسك الفارابي بالحكمة اليونانية على ان هذه الحكمة في نظره حقيقة مطلقة لا يمكن أن يتسرب اليها الخطأ بأي وجه « منالوجوه . فموقف المناضل الذي يذود عن الحكمة اليونانية ويحاول تبرير شواذهـا

والتوفيق بين مختلف آرائها بما فى ذلك من آراء متناقضة ، بقى هو هو فى انتاجه السياسى .

بقى علينا ان نعرف ما هى العناصر الاسلامية التى أوحت الى الفارابى بعض مواقفه فى هذا الميدان ٠ يظهر من تصنيفه للعلوم انه كان مدركا للعلاقات الموجودة بين «العلم المدنى» وعلم الفقه وعلم الكلام ، واذا كان العلم المدنى مستوحى بأتمه من « كتب أفلاطون وكتاب بوليطيقى الذى هو كتاب السياسة لارسطوطاليس » على حد تعبيره فان علم الكلام بصفته علم الدفاع عن الملة وهو ذو فوائد سياسية واضحة يرجع أغلبه الى العقائد الاسلامية المتعلقة بوحدانية الله والوحى مع تفسيرات فلسفية ذات صبغة أرسطية على الخصوص ٠ وقد يذل الفارابى كثيرا من المجهودات التوفيقية فى هذا الميدان الى درجة ان القارىء يقتنع حينما يطلع على مقدمات مقالاته السياسة بأنه المفكر القوى التمسك بدين التوحيد الذى حاول ان يعقلنه ببراهين المنطق والصيغ التعبيرية الفلسفية ٠ ويفسر هذا المنهج فى ارجاع كل مقالة سياسية الى جذورها العقائدية بما فيها من الهيات وأخلاق نظرية بادراكه قوة الاتصال الموجود بين الموضوعين ٠ وقد صرح عن ذلك بكل وضوح فى أكثر فى مناسبة وفى احصاء العلوم على الخصوص لانه كان مدركا ان تماسك المدينة او الملة منوط بقوة عقيدتها .

واذا كان اطلاع الفارابى ، كما يبدو فى الكثير من مصنفاته ، اطلاعا قويا فى ميدان علم الكلام ، فان مراجعه وثقافته الفقهية تظهر زهيدة من خلال ماترك لنا من آثار.وسوف لا نكون مبالغين اذا اعتبرناه من أقل الفلاسفة المسلمين اطلاعا على الفقه ، خصوصا فى المواد التى كان عليه ان يدققها لمقارنتها مع آراء أسلافه اليونان ، مثل الاخلاق الاقتصادية ، والامامة والجهاد . ويظهر ان موقفه هنا موقف الحكيم الصرف الذى يتناسى هذه الميادين لانها لا تعد مبدئية فى نظره.وهى من اجل هذا لا تستحق كثيرا من العناية.ولعله موقف انفرد به من بين سائر الفلاسفة المسلمين الذين كانوا كثيرى الاعتناء بشريعة ملتهم . وتكفينا الاشارة الى ابن رشد والرازى وابن خلدون والى سعة اطلاعهم فى الشريعة ليتضح لنا تغافل الفارابى عن هذا الميدان الثقافى .

وانه ليمكن تفسير نظرية الفارابى فى الرئاسة انطلاقا من هذا الموقف المتمسك بالحكمة اليونانية مع الاعتناء بالعقيدة الاسلامية ، دون تدقيق فى مسائل الامامة الشرعية ٠ فالمطابقة بين صفات الرئيس الفاضل الحكيم فى المدينة الفاضلة ذات الطابع الافلاطونى وصفات الامام الملهم « الذى ينبغى ان يقال فيه ، حسب تعبير الفارابى ، انه يوحى اليه » انما هى مطابقة بين الارستقراطية الافلاطونية والارستقراطية الشيعية فى مستوى تركيبى عام ٠ ولا يمكننا الادعاء بانها مطابقة عفوية ما دمنا نعلم مقدار الجاذبية التى تكونها نظرية الفيض وتفاوت العقول وانطباع أدناها باعلاها عند مفكرى الشيعة الذين أرادوا لمجتمعهم ان يكون ارستقراطيا يراسه حكماء ملهمون معصومون . فالنزعة الشيعية فى التفكير السياسى عند الفارابى لا تحتاج الى سرد مطول للادلة ، لانها واردة بكل وضوح فى مختلف النصوص غير أن موقف المعلم الثانى موقف تقليدى محدود كما

قلنا . سواء بالنسبة للتفكير الشيعي أو بالنسبة للتفكير الفلسفي ,لانه دون الخيال الافلاطوني الخصب ودون الحماس الشيعي بكثير ۰ اما البحث في المبادئ السياسية الاسلامية مثل المساواة والعدالة ونقد الاستبداد . انطلاقا من نماذج حية . ايجابا مثل خلافة الراشدين . أو سلبا كالقيصرية والكسروية . فلا أثر له مطلقا في انتاج الفارابي ۰

قد يصل بنا الشك أحيانا الى اعتبار هذا الانتاج السياسي مقصود التحديد مسبقا . حينما نراه مقتصرا على جوانب محدودة من الفكر اليوناني والفكر الاسلامي ۰ وقد يظن ان صاحبه رمى الى اخراج ضرب من التفكير يجمع بين العقيدة والحكمة دون اسراف في الخيال . وانها لفكرة يمكن الدفاع عنها اذا اقتنعنا بان الفارابي كان يرمي قبل كل شيء الى بث الافكار اليونانية عند المسلمين لانها الحكمة العصماء في نظره وكان عليه ان يصيغها فيصيغ مقبولة منطقيا وشرعا، ولكننا نخشى ان يكون هذا التعليل مجرد عذر نبرر به كثيرا من مواقفه . ونخشى ان تكون أعذارنا مصطنعة في كثير من الوجوه ۰

هل يصح العذر مثلا حينما نجد الفارابي يتجاهل واقع عصره . ولا يعطي ولو مثلا واحدا عن النظم السياسية والاجتماعية التي كان يشاهدها مشاهدة العيان . مع العلم ان سلفيه أفلاطون وأرسطو كانا كثيري الامثلة المأخوذة من الواقع الحي ؟

ان التقية الشيعية لا تكفي وحدها لتفسير هذا الموقف اذ ان مختلف الامم والقبائل والانظمة المعاصرة للنظام الذي كان يعيش الفارابي في احضانه ويتقيه ما هي الا امثلة قريبة لا تحتاج الى كثير من التنقيب .

ونقول من جهة أخرى ما معنى عدم الاكثرات بالقوانين والدساتير في التفكير السياسي مع ان كتب الفلاسفة اليونان تكون منها محورا للدول والمدن التي وصفتها سواء كانت هذه المدن « فاضلة » أو «جاهلة» ؟ أليس هو عدم ادراك لاهمية الدساتير بصفتها تجسيد للنظريات الاخلاقية وللعقائد عند الامم ؟ أو لم يتضح هذا في ذهن المعلم الثاني من قراءاته لأفلاطون ؟ أم هي التقية والموقف الارستقراطي ايضا لان الدساتير تعطي مبدأيا حقوقا للشعوب ؟

ثم ما معنى تجاهل الفكر الاسلامي . الا القدر العقائدي الضئيل منه . مع أن هذا الفكر يوسع آفاق النظريات السياسية ويكسب الفكر الفلسفي كثيرا من الغنى، لانه يراجع عرقية أرسطو ومثالية أفلاطون ؟

كل هذه التساؤلات تجعلنا نشك في تخطيط الفارابي لحدود انتاجه . وادراكه بكل دقة تلك التضييقات التي ينطبع بها فكره السياسي ۰

ليس من الطبيعي ان ننتقد بذهنيتنا المعاصرة عقم الخيال السياسي عند مفكري القرون الوسطى، خصوصا اذا استندنا على مفاهيم لم تبرز للوجود الا انبثاقا من أحداث سياسية قريبة العهد بنا ۰ وانا لمتيقنون أن لكل عصر مدينته أو مدنه الفاضلة وهي مدن الاحلام التي تناقض مدن الواقع الذي يتألم منه أبناء العصر ۰ وقد يذهب الخيال أحيانا الى انواع المدن الالهية . والجنات الارضية . والمهدويات المنقذة . والطوبيات والفوضويات المنتقمة في الاحلام من الاستبداد . كل ذلك لتعويض الآلام التي تقاسيها الامم عند ما يصبح النظام السياسي تنينا يأكل الناس أكلا ۰ ولعمري

انه لخيال غير عقيم ، وانه للوجه الآخر للواقع المر ، يمكنك أن تقرأ فيه مرارة هذا الواقع ·

ولا سبيل الى البحث عن هذه الاحلام السياسية الفياضة فى صفحات انتاج فلسفى تقيد فى بداية ظهوره بالمنطق البارد والافكار المجردة، وبأرستقراطية محتقرة لآلام الشعوب وأحلامها ·

اذا اردنا ان نقرأ قراءة جديدة تاريخ انتاجنا السياسى فليست امثال المدينة الفاضلة وآراء اهلها المضيقة لكل من الخيال الافلاطونى وحماس الاسلام ، بالنموذج المعبر بصدق عن واقع المجتمع الاسلامى واحساسه واحلامه · بل أصبح من المحتوم علينا أن ندقق البحث فى طيات العقائد المذهبية ، وفى كتب الشريعة وفى الاساطير الشعبية ، وفى كثير من الاحداث التاريخية نفسها ، لما يبدو فيها من حماس الشعوب واستماتتها فى سبيل عقيدتها · وستتضح لنا اذ ذاك معالم التفكير السياسى عند المسلمين ·



محمد بن تومرت وتوفيقه بين الحكمة والشريعة

د . يحيى هويدي
عميد بكلية الآداب
ـ جامعة القاهرة ـ

ا ـ ترجمة حياة محمد بن تومرت :

اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى ولد فيها محمد بن عبدالله بن تومرت الملقب بمهدى الموحدين ، وهو الرجل الذى أسس دولة الموحدين التى قامت على انقاض دولة المرابطين . فالبعض (ابن الاثير فى الكامل) يجعلها سنة 469 أو سنة 473 والبعض الآخر (القفطى فى اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وحاجى خليفة فى كشف الظنون) يجعلها سنة 493 . وآثر البعض الآخر (عبدالواحد المراكشى فى المعجب فى تلخيص اخبار المغرب وابن ابى ذرع فى الأنيس المطرب بروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) عدم التعرض لها اطلاقا .

وبالاضافة الى هذه النقطة الغامضة فى حياة ابن تومرت ، هناك نقطة غامضة أخرى تدور حول لقائه فى شبابه بالامام الغزالى فى تلك الرحلة التى اعتزل فيها الغزالى الناس وسلك سبل التصوف واستمرت عشر سنوات (488 – 499) . وبدأت برحيله عـن بغداد عام 488 وزار خلالها بيت المقدس ومكة ومصر فابن الأثير يقول ان لقاءهما تم فى بغداد : « وكان ابن تومرت قد رحل فى شبيبته الى بلاد الشرق فى طلب العلم .. وصل فى سفره الى العراق واجتمـع بالغزالى » . وابن خلدون يقول فى « العبر» (ج 6) « ولقى فيما زعموا أبا حامد الغزالى » مما يشعر بأنه يشك فى هذا اللقاء . وابن خلكان فى وفيـات الاعيان يؤكد انهما التقيا فىالعراق.فيقول : «رحل الى المشرق فى شبيبته طالبا للعلم فانتهى الى العراق واجتمع بابى حامد الغزالى » وابن ابى دينـار فى المؤنس فى أخبار افريقية وتونس يقدم لنا بصدد هذا اللقاء روايتين : فى الاولى يؤكد لنا ان هـذا اللقاء قد تم دون أن يحدد لنا زمانه ومكانه قائلا : « وأول أمره كان متقشفا مشتغلا بطلب العلم فرحل الى المشرق ولازم ابا حامد الغزالى ثلاث سنين وحصل عليه علما عظيما . وكان أبو حامد اذا رأى ابـن تومرت يقول لابد لهذا البربرى من دولة » ، وفى الرواية الثانية ، يذهب الى ان هذا اللقاء لم يتـم فيقول : «ولما اتسعت دعوة ابن تومرت وفـد الى عبد المومن أهل اشبيلية بالبيعة فى سنة 542 وفيهم ابو بكر بن العربى فسأله عبدالمؤمن : هـل رأى المهدى عند الشيخ ابى حامد الغزالى ، قال : ما لقيته ولكن سمعت به . فقال له فما كان أبو حامد يقول فيه ، قال : كان يقول لابد لهذا البربرى ان يكون له شأن » . أما صاحب المعجز فيقول ان اللقـاء بينهما قد تم فى الشام وليس فى العراق : « كان ابن تومرت حاضرا لمجلس الغزالى فى الشام وروى له ما فعل أمير المسلمين بكتبه التى وصلت الى المغرب من احراقها وافسادها . وابن تومرت حاضر ذلك المجلس . فقال الغزالى حين بلغه ذلك : ليذهبن عن قليل ملكه وليقتلن ولده . وما أحسب المتولى لذلك الا حاضرا مجلسنا » . ولكنه يعود فيشكك فى هذا اللقاء بهذه العبارة : « وقيل انه لقى أبـا حـامـد الغزالى أيام تزهده فالله أعلم » .

لكن المستشرق جولد تسيهر فى المقدمة الفرنسية التى كتبها وهو يقدم كتاب « أعز ما يطلب » لابـن تومرت يقول ان « علينا ان نلغى من تاريخ حيـاة ابن تومرت واقعة لقائه مع الغزالى » . وذلك لان ابن تومرت قام برحلته الى المشرق عام 501 (الجزائر ، 1903) .

وباستثناء هاتين النقطتين فى تاريخ حياة ابن تومرت : وهما تحديد تاريخ مولده ولقاؤه مع الغزالى فان ترجمة حياته لا تثير صعوبات كثيرة فهو رجـل من أهل السوس ، من قبيلة تس هرغة ، بطن من بطون السامدة ، وهو علوى يتصل نسبـه بالحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب . رحل فى شبيبته الى الاسكندرية واختلف فيها الى مجلس ابى بكـر الطرطوش . ونفاه المتولى على الاسكندرية عن البلاد فركب البحر واستمر بالسفينة على عادته من الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الى ان القاه اهل السفينة

فى البحر . ثم انتشلوه منه . ووصل الى بجاية بالمغرب ولقى عبدالمؤمن بن على وعرف فيه ضالته ، وتسمى بالمهدى . وانتقل الى مراكش ايام خلافة يوسف بن على بن تاشفين وناظر فقهاء المرابطين وطعن فيهـم وفى ملوكهم وفى تبرج نسائهم وأخذ يدعو الى خلع طاعتهم . وتوافدت عليه القبائل وعلمهم التوحيد باللسان البربرى . وندبهـم الى جهاد المرابطـين وكتب له النصر على جيوش المرابطين وأسس دولة الموحدين عام 515 هـ وتوفى عام 524 هـ . وبعد وفاته تلاه خليفته عبدالمؤمن ثم خلفاء عبد المؤمن واستمرت دولة الموحدين حتى عام 674 هـ (1275 م) بعد أن كان قد دان لها بالطاعة جميع المغرب وافريقيـة والاندلس .

ب ـ توفيقه بين الحكمة والشريعة :

1 ـ مقدمه : أول من أخذ مسألة التوفيق بـين الحكمة والشريعة ، مأخذ الجد من بين جميع مفكرى الاسلام وفلاسفته جميعا ، هو محمد بن تومرت امام الموحدين ، ومن بعده أبو الوليد بن رشد فيلسوفهم فليس بصحيح ما يقال من أن الاتجاه العام الـذى يميز الفلسفة الاسلامية هو توفيقها بين الحكمـة والشريعة ، وذلك لانه بالاضافة الى النظريات التى اشتملت عليها هذه الفلسفة وجاءت متعارضة مـع العقيدة (نظرية الفيض ونظرية المعدوم مثلا) علينا أن نتسأل : ما هى الجهود الجادة التى بذلها الفلاسفة الاسلاميون واستخراج ما اشتمل عليه كتاب الله من فلسفة قرآنية ؟ والاجابة الصريحة على هـذا التساؤل انهم لم يقدموا لنا الا النذر اليسير . فقد

اكتفى هؤلاء الفلاسفة بان غاية الدين وغاية الفلسفة واحدة تتمثل فى تحقيق السعادة للانسان . واكتفوا بتحوير بعض آراء فلاسفة اليونان فى النفس والحركة والذوات لتتفق مع الشريعة ، ولكن هذا كله لم يكن كافيا . ولا أدل على أن الفلاسفة الاسلاميين لـم يكونوا صادقين فى توفيقهم بين الحكمة والشريعة انهم فى مسألة خطيرة كمسألة اذاعـة الحكمـة أو الفلسفة بين الجمهور واتفق رأيهم جميعا على عـدم اذاعتها بينهم لان افهامهم تقصر عن تذوقها . وأجمعوا على أن الشريعة وحدها هى التى تتناسب مع أفهام عوام الخلق . والذى ينبغى علينا ان نفهمه مـن كلامهم هذا ان الشريعة فى رأيهم لا تحتوى عـلى الحكمة أو أنها خلو منها ، وانها من أجل ذلك جاءت على قدر عقول العوام أما الحكمة فلأن العامة ليسوا أهلا لتعلمها ولانها من اختصاصات أهل البرهان وهم الصفوة فهى موجهة أصلا الى طبقة خاصة هى طبقة الفلاسفة (انظر فى هذا : الفارابى الجمع بين رأى الحكيمين افلاطون وأرسطو ضمن « المجموع » طبعة القاهرة 1907 م ـ ابن سينا : النجاة ، طبعة القاهرة 1321 هـ . وكتاب منطق المشرقين ـ نشرة محب الدين الخطيب ، القاهرة . 1910 م ـ الغزالى : احياء علوم الدين ، ج 1 ، كتاب العلم ، الجام العلوم عن علم الكلام ، القاهرة : 1303 هـ ـ ابن طفيل : حى بن يقظان ـ لابن سينا وابن طفيل والسهروردى تحقيق وتعليق أحمد أمين ، دار المعارف . 1959) . ومن الطبيعى بعد أن أقيمت الحواجز على هذا النحو بين طبقة الفلاسفة التى تتوجه الى رجالها الحكمة،وطبقة العوام التى تتوجه الى رجالها الشريعة ان يكون

حديث الفلاسفة الاسلاميين في التوفيق بين الحكمة والشريعة من قبيل ذر الرماد في العيون .

وما هكذا كانت محاولة ابن تومرت وابن رشــد في التوفيق بين الحكمة والشريعة . فنحن نلتقى فى فلسفتيهما بتأسيس تام للتوحيد على العقل ، وبابراز الدور العقلى فى أمور الدين . وبمقابلة تفصيلية بين القياس العقلى والقياس الشرعى أو الفقهى . وفوق هذا كله نلتقى عندهما ، وهذا هو الاهم ، بتأكيدهما أن الشريعة تتضمن ، فيما تتضمن ، طريقة البرهان أى الحكمة حقا . اننا نلتقى عندهما بما وجدناه عند سائر الفلاسفة الاسلاميين ، من توصية بحظر اذاعة الفلسفة على الجمهور ، ولهما ان التأويل لا يتناسب مع أفهام العامة . لكن كلامهما فى هذا السبيل ينبغى أن لا نسوقه سوقا واحدا مع كلام غيرهما من الفلاسفة وذلك لان مؤدى كلام الفلاسفة أن الشريعة لا تحتوى على الحكمة . اما مؤدى كلام ابن تومرت وابن رشد فهو ان الشريعة تحتوى على الحكمة وزيادة . ومــن أجل هذا . ينبغى أن ننتقى من الشريعة الطريقة التى تتناسب مع أفهام من نتوجه اليه بكلامنا ، من حيث أن الشريعة تشتمل على جميع طرق الايمان . ومــن حيث انها تخــاطب كل فريق من النــاس على قــدر عقولهم . اذ لو خلطنا بين الطريقة التى تتناســب مع أفهام الجمهور وهى وقوفهم عند الظاهر ، والطريقة التى تتلاءم مع أفهام أهل البرهان ، وهى حرصهم على التأويل . وقدمنا طريقة هؤلاء الى أولئك ، أو طريقة أولئك الى هؤلاء . فيسؤدى هذا حتما الى فساد الحكمة والشريعة والى تشويش عقول الجمهور وأهل البرهان جميعــا .

وعلينا ان نلتفت ايضا الى انــه بينما يتحدث الفارابى وابن سينا مثلا عن الحكمة النظرية ويفصلان بين أصحابها الممتازين وبين أهل الجمهور اصحاب الشريعة على نحو، بوسعنا ان نقول عنه انه فصل طبقى قائم على ارستقراطية عقلية واضحة ، اذا بابن تومرت وابن رشد لا يتحدثان الا عن « التأويل » أى عــن تأويل الشريعة ، باعتبار انها تمثل عندهما المصدر المشترك لجميع انواع الأدلة التى تتناسب مع جميع الناس على اختلاف طرق ايمانهم والتأويل عندهما هو ما يقابل الحكمة النظرية عند غيرهما . ولكنهما يكتفيان بتسميته تأويلا ليتجه الذهن الى المصدر المشترك للمعرفة وهو الشريعة . ولسبب آخر أيضا، وهو أن أهل البرهان أو أهل التأويل عندهمـــا لا يمثلون طبقة ، بل يمثلون بالأحرى أصحاب منهج معين او طريقة معينة فى الاستدلال ، هذا بالاضافة الى أن هذه الطريقة ــ طريقة اهل البرهان أو أهــل التأويل ــ لا تمثل عند ابن تومرت وابن رشد معــا الطريقة الممتازة فى الاستدلال ، بل الأحرى أن نقول هنا ان كفة أهل الظاهر ــ وهم الجمهور ــ ترجح كفة أهل التأويل البرهانى . فضلا عـــن الجدلى . واذا اضفنا الى هذا ان كتب اهل البرهان مليئة بالتأويلات الفاسدة التى حرص كل من ابن تومرت وابن رشد على بيان أسس تهافتها ومواطن الزلل فيها ، فان كفة الجمهور سترجح ــ من باب أولى ــ كفة البرهانين والجدليين لانها ترجح كفتهم وهم فى احسن أحوالهم، أى وهم يقدمون لنا استدلالات صحيحة . فلا بد أن يتفوقوا عليهم ــ من بــاب اولى ــ وهم يقـــدمــون استدلالات فاسدة .

وقبل أن ننتقل الى تفصيل هذا كله ، علينا أن نشير الى ان هذه المحاولة الجادة التى قام بها ابـن تومرت وابن رشد فى التوفيق بين الحكمة والشريعة تلك المحاولة التى تحدونا الى وضعهما كرائدين هامين من رواد الفلسفة القرآنية ، ليست منفصلة عـن الظروف العقلية والاجتماعية التى نشأت فيها دولة الموحدين فى كل من المغرب والاندلس على انقاض دولة المرابطين . وهذا هو الذى يجعلنا نقول بتأثير قوى من جانب ابن تومرت على ابن رشد باعتبـار انها ممثلين لاتجاه واحد وهو اتجاه فلسفة الاسلام فى عهد الموحدين وباعتبار أن ابن تومرت هو امام الموحدين وفيلسوفهم الأول .

فقبل ظهور ابن تومرت لم تكن العلاقة بين الحكمة والشريعة على ما يرام فى كل من المغرب والاندلس ففى المغرب كان السائد أيام المرابطين هو اهتمام الفقهاء بالخلافيات وفروع الفقه . واهمالهم لعلـم الاصلين : أصول الدين وأصول الفقه ولعلوم الحديث أيضا ، مع جنوح الى التجسيم والتشبيه حتى أطلق عليهم اسم « حشوية الفروع » . مع ما ارتبط هذا كله بتشدد فى تطبيق الاحكام (انظـر البكرى : المغرب فى ذكـر بلاد افريقيـة والمغرب ، نشرة دى سلان ، فصل تحت عنوان : ماشذ فيه عبدالله ابن يس من الاحكام . وكذلك المعجب للمراكشى . وفى الاندلس لم يمنع ظهور مذهب مـالك من اهتمـام الاندلس بعلوم الحديث على يد بقى بن مخلد وابـن وضاح (انظر ابن الفرضى تاريخ علماء الاندلس) . ولم يمنع هذا أيضا من ظهور بعض الافكار الحـرة على يد بعض من دان بالاعتزال من أمثال محمد بـن أبى برده وبخاصة على يد محمد بن عبدالله بن مسرة (توفى عام 319 هـ) الذى مـزج الاعتزال بآراء الاسماعيلية ونظريات الافلاطونية المحدثة . وظهرت كذلك فى تلك الفترة بعض الآراء الالحادية على يد جماعة المفكرين اللاأدرين الذين نادوا بتكافؤ الادلة (ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ج 5 ص : 119 ـ 121 طبعة بولاق) وعلى يد جماعة اخوان الصفا ورسائلهم ـ وهى رسائل اسماعيلية (الفصل ج 2 ص 91 ـ 92) .

وكان لابد لهذه الهوة القائمة بين الحكمة والشريعة من أن تعبر . ومن هنا نفهم أهمية الدور الذى قام به ابن تومرت فى التقريب بين الحكمة والشريعة ، وكان يرمى من وراء هذا الى هدفين : (أولا) غرس الاسلام السميح فى نفوس الامازيغ الاحرار،والاسلام الصحيح فى نظره لم يكن شيئا آخر الا التوحيـد القائم على أساس العقل (ثانيا) : اخراج أتبـاعه ومواطنيه من الجهل الذى ضرب عليهم أيام المرابطين، وكسر الحصار الذى ضربه فقهاء المرابطين حول الدين باهتمامهم بالخلافيات ليزداد شعور الناس والسلاطين معا بحاجتهم اليهم .

2 ـ اسس التوفيق عند ابن تومرت :

يقول ابن تومرت « ان التوحيد هو أساس الدين الذى بنى عليه . وان فرحه انما تثبت بعد العلـم بثبوته» (أعز ما يطلب ص : 271) فلا بد اذن من البدء باثبات التوحيد،والعلم بهذا الاثبات،اما الطريق الى هذا فهو العقل:«بضرورة العقل يعلم توحيده سبحانه» وهذا كله هو ما يطلق عليه اسم العلم . وقد أحتوى

كتاب » أعز ما يطلب على فصل في « فضل العلم » عدد فيه ابن تومرت الآيات والأحاديث التي وردت في تكريم العلم والعلماء . مثل قوله تعالى : « شهد الله انه لا اله الاهو والملائكة وأولو العلم قائمـــا بالقسط» (فسوى الله تعالى فيهذه الآية العلماء بنفسه وبملائكته باستعمال واو التشريك) . ومثل قوله تعالى : « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتى الحكمـة فقد أوتى خيرا كثيرا » . ومثل : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ومثل قوله تعالى لنبيه الكريم : « وقل رب زدني علما » .

أما طرق العلم فثلاث : الحس والعقل والسمع . والعلم الذي يأتي عن طريق العقل يقوم على القياس العقلي . أما العلم الذي يأتي عن طريق السمع فيقوم على القياس الشرعي . ولا فارق عند ابن تومرت بين القياس العقلي والقياس الشرعي : لا فرق بين القياس العقلي والشرعي في الاطراد اذا حقق معناه . فـان القياس العقليهو المساواة فيما يجبويجوز ويستحيل والقياس الشرعيهو المساواة في الوجوب «والتحليل أو التحريم » (ص : 173) .

فالقياس الذي يقيس به الشرعيون المحرمات على المباحات مثلا قياس فاسد . وكذلك قياسهم التحليل على الوجوب . وانما يجب عليهم أن يقيسوا الوجوب على الوجوب ، والتحليل على التحليل ، والتحريم على التحريم . وقد ادى عدم مراعاة الشرعيينلهذه القاعدة أن مزقوا الشرع كل ممزق . مثال ذلك ما حكى عن بعضهم في قوله عليه السلام « من تبدل دينه فاضربوا عنقه » انه أوله بمعنى ان النساء لا يقتلن اذا بـدلن اديانهن . وقال انما هذا خطاب للرجال بدليل النهي عن قتل النساء في حديث آخر . فيقال له : هــل تماثلت المعاني أو اختلفت ؟ وتماثلها باطل . فان المعاني مختلفة . اذ المعنى ترك قتل النساء لأجــل ضعفهن وقلة فائدتهن في القتال ، وهذا فيالجهاد . أما قتل من بدل دينه فانه نكال وردع يدخل فيــه كل من فعل ذلك » (ص : 173) .

وقد عرف عن الصحابة التـوقف والتحرى لانهم كانوا يفهمون عن الرسول المعنى الذى نبه عليــه فحملوا عليه . وكل ما حملوه على سبيل المصلحـة والمشورة « ولا يقال انهم يستخرجون من عقولهـم أحكاما وشريعة . ومن تقول ذلك عليهم فقد افترى» (ص : 175) .

أما رجال الشرع فاستخرجوا من عقولهم أحكاما كثيرة وعارضوا الاخبار وتركوها جانبا مع ان هذا لا يجوز بوجه . لانه « لا يجوز تقديم قياس عــلى خبر » (ص : 174) ، وبالغوا في الاعتماد على القياس حتى تواضعوا فيما بينهم شروطا للقياس وذهبوا الى أن القياس انما يصح بأربعة شروطهي : العلة والحكم والأصل والفرع . وكل هذا باطل .

وليس معنى هذا انه لا مجال للقياس الشرعي . فالقياس الشرعي جائز . ولكنه لا يجوز الا في الحكم. أما المتشابه فلا يلزم اتباعه ولا العمل به . لكـــن المحكم اما ان يكون واضحا لا اشكال فيه ، وهـــو لا يثير مشكلة . وانما ان يكون ملتبسا . لكن الملتبس له ضوابط تضبطه . فاذا تعارض حكمان شرعيان مثلا ، فحكم التعارض الجمع ، فان تعذر ، فان الحكم المتاخر أولى من المتقدم ، فان تعذر فالذي عليه العمل

فان تعذر فالترجيح بالصحة والكثرة . ولا بد للقياس الشرعى من مراعاة هذا كله . فالقياس مثلا يسقط اذا قوبل بالعمل ورجح العمل ، ويسقط اذا قوبل بالخبر والكثرة والتواتر.. وهكذا ، أما ان «يستخرج رجال الشرع من عقولهم أحكاما شرعيــة » فهــذا غــير جائز .

أما القياس العقلى فالقاعدة فيه ــ كما قــدمنا ــ المساواة فيما يجب وفيما يستحيل وهو محصور فى النفى والاثبات . وكل ما تعدى ذلك فغير جائز . فالقياس الذى يقيس به بعض المتكلمين الغائب على الشاهد قياس باطل : « بطل قياس الغائب عــلى الشاهد. اذ لا جماع بينهما لان كل واحد منهمــا مضاد للآخر . لان ذا يفعل وذاك لا يفعل . وذا قديم، وذا محدث ، وذا مفتقر وذا غنى ، فاذا قيس أحدهما على الآخر بطلت حقيقتهما لان القياس انما يصــح بين المتماثلين اذا كان بينهما شبه . والبارى سبحانه ليس له مثل ولا شبه . فاذا ثبت هذا وصح ، بطل به التشبيه وبطل به قياس الغائب على الشاهد » (ص: 168) . هذا فضلا عن ان البحث فى ذات الله ووحدانيته وصفاته هو بحث فى دائــرة الواجب . وهى دائرة مختلفة عــن دائرة الجائز أو دائــرة المستحيل . لان هاتين الدائرتين يدخل فيهما الجهل والشك والظن ، وكلها من أصل الضــلال الــذى لا يغنى عن الحــق شيئا .

وهذا التقابل التام الذى أقامه ابن تومرت بــين القياس العقلى والقياس الشرعى يؤدى اذا روعيت أحكامه وشروطه الدقيقة الى التقارب بــين ميدانى الحكمة والشريعة ، ويؤدى الى فتح باب الحكمة أمام رجال الشرع وباب الشرع امام الحكماء . بل يؤدى حتما الى ان تتكشف الشريعة امام رجال الجمهور ، بكل ما فيها من بساطة ووضوح . وتزول هذه الهالة التى اقامها علماء الشريعة حول علومهم ليزيــدوا من غموضها أمام الناس .

ولكن هذا التقارب بين العقل والشريعة ينبغى أن لا يساء فهمه . اذ من الممكن أن يفهم على أساس أن ابن تومرت قد أباح تدخل العقل فى أحكام الشريعة من غير حدود . لكن هذا هو عكس ما قصد اليه تماما اذ ان ما عابه على فقهاء المرابطين انهم بالغوا فى تحكيم عقولهم فى احكام الشريعة ، ولكى يقاوم ابن تومرت هذا الاتجاه نادى بمبدئه المعروف وهو ان « العقــل ليس له فى الشرع مجال » ص : 17) . وأن « العقل لا مدخل له فى السمع ، والسمع لا طريق لــه الا التوقيف » (ص : 146).

ومع ذلك ، فاذا كان ابن تومرت قد قاوم على هذا النحو أولئك الذين يستنبطون من عقولهم أحكــام الشريعة ، فان مقاومته للطائفة الأخرى التى ظنت ان الشريعة خلو من الحكمة لم تكن أقل عنفا مــن مقاومته للطائفة الاولى. يقول ابن تومرت فى الرد على هؤلاء : «هذه اشارة ترد على بعض من لا خلاق له فيما ذهبنا اليه من أن الشريعة لا حكمة فيها ، وانها ليست على سنن العقل جارية طعنا منهم فى الدين وجهــلا بحكمة الله تعالى » (ص : 164) .

والحل الوحيد أمامنــا مراعاة شــروط القيــاس الشرعى وشروط القياس العقلى على نحو ما ذكرنا . وسنرى فى نهاية الامر ان الشريعة أخت للحكمة .

ولا أدل على ان الشريعة تجرى على سنن العقل وانها ليست خلوا من الحكمة كما افترى المفترون ، أننا نجد فيها جميع الادلة والبراهين على وجود الله. فالشريعة تخبرنا بان الله فاطر السموات والارض : « افى الله شك فاطر السموات والارض » . وتخبرنا بان الانسان حدث : « وقد خلقتك من قبل ولم تـك شيئا » ، ومعنى ذلك انه خلق بعد ان لم يكن . واذا علم الانسان هذا علم وجودهخالقه.والقرآن الكريم ملء بهذه الآيات التى تشهد بوجود الخـــالق والتى تخاطب فى الانسان عقله . فالليل والنهار والدواب والانعام والطيــور والسمـــوات والارض وجميـع المخلوقات . كل هذه اشياء حادثة اذا علم الانسان « أنها موجودة بعد ان لم تكن علم ان المخلوق يستحيل ان يكون خالقا » (ص : 233) .

ثمّ يضيف ابن تومرت الى هذه الادلة أدلة أخرى فيقول مثلا : « وبالفعل الواحد يعلم وجود البـارى سبحانه ، وكذلك الثانى والثالث الى ما لا ينحصر » وهذا الدليل الآخر وهو دليل الحركة : « كما يعلـم بحدوث الحركة الواحدة لوجوب افتقارها الى الفاعل واستحالة وجودها من غير فاعل » . ثم يجمع ابن تومرت آيات العناية الألهية ودلائل الاختراع الربانى فيما اطلق عليه اسم « تسبيح البارى سبحانه فيقول « سبحانه من أرسى مهاد الارض بالشامخات وارتفعت بقدرته السموات ، ودبر الازمان بالنور والظلمـات ، وتدكدكتلجلاله القاسيات،وأثار السحاب بالعاصفات وانزل الثجاج من المعصرات فأخرج به مـن الارض البركات وقسم بعدله الأوقات سبحان من قيد الخلق بالحركات والسكنات ، وصورهم بتباين الهيئات ، وسخرهم بتسلط الحاجات ، وأظهر عجزهم بتبدل الحالات .. سبحان من أوضح لعباده الآيات وأظهر لهم الدلالات عـــلى فاطر السموات فنطقت بوجوده الجمادات » (ص : 242 ــ 243) .

ونلاحظ ان ابن تومرت بالرغم من علمه التـــام بأقوال الاشاعرة وبالرغم من موافقته لهم فى القول بالجوهر الفرد عند تقسيمه للموجودات وقوله انها على ضربين « منفرد ومؤتلف » الا انـــه لم يؤسس براهينه على وجود الله على هذا القول وضرب صفحا عنه . وآثر ان تكون هذه البراهين هى نفس الادلة التى وردت فى التنزيل الالهى .

وينتقل ابن تومرتالى نظريته فى التأويل فيقول :

« السائلون ثلاثة : مسترشد ومستفت ومناظر . فالمسترشد يسأل عن الحكم وعن الدليل . والمستفتى هو الذى يسأل عن الحكم . واما المناظر فليس هـذا زمانه » (ص : 220).

وواضح ان المناظر هو ما يقابل عند ابن رشـد الجدليين . والمسترشد هو الذى يقابل البرهانيين . اما المستفتى فمن الممكن ان نقول انه يقابل الخطابيين عند ابن رشد . لكن من الجائز ايضا ان نقول انـه يمثل العوام فى ايمانهم الاعمى ، وفى رغبتهمالصادقة فى التعرف على أحكام الشريعة دون اجهاد انفسهم فى التفتيش عن الادلة والبراهين العقلية .

وابن تومرت يقف فى صف هؤلاء العوام ونشعر بتفضيله لطريقة ايمانهم ، فموقفه مثلا من المتشابهات هو موقف السلف الصالح : « أورد من المتشابهات التى توهم التشبيه والتكييف كآية الاستواء وحديث

النزول وغير ذلك من المتشابهات في الشرع فيجب الايمان بها كما جاءت مع نفي التشبيه والتكييف » (ص : 233).

وفي موقفه من مسالة صفات الله نجده لا يوافق الأشاعرة في تصورهم لها على انها معان قديمـة قائمة بالذات . ولا يوافق المعتزلة في قولهـم بانها عين الذات ، بل يقرر ان الصفات هي أسماء اللـه تعالى التي سمى بها نفسه ، وهي موقوفة على اذنه . ثم يؤكد انها ينبغي أن تفهم عـلى انها استحالات للنقائص : « فاذا علم انفراده بواحدانية على ما وجب له من عزته وجلاله علم استحالة النقائص عليه لوجوب كون الخالق حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيـرا متكلما من غير توهم تكييف (ص : 235) .

لكنه مع هذا كله يجيز التأويل . ويجيزه بنوع خاص للمسترشد الذي يسأل عن الحكم وعن الدليل، وذلك لان هذا المسترشد لن يقع بالوقوف عند الدلالات الظاهرة للالفاظ ، وقد يوقعه حرصه على البحث عن الدلالات والبرهان في التجسيم او التعطيل . لهذا يصبح التأويل هنا ضرورة . ومن المبررات القوية للتأويل ان اللغة ، التي نزلت بها شريعتنا الغـراء تفتح المجال امام كثير من التاويـل . اذ ان فيهـا « التشبيه والاستعارة وحذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه ووصف ما لا يعقل بصفة من يعقل وتسمية الشيء بما يؤول اليه وتسمية الشيء بأصله وتسمية السبب وتسميته الشيء بمعظمه وتمية الشيء بمـا يقاربه وتسمية الشيء بما يقارنه وتسمية الشيء بما يقاربه وتسمية الشيء باسم ما يخالفه وتسميـة الشيء باسم ما يناقضه وتسمية الجملة باسم البعض وتسمية المعاني باسماء الاشخاص » (ص : 182) . وكل هذا يوجب العلم باللغة والاعراب على من يأخذ نفسه بالتأويل ، ليتسنى له ان يخرج الالفاظ من دلالتها الظاهرة الى دلالتها المجارية من غ‍ء ان يخلوا في هذا بعادة لسان العرب .

واصحاب التأويل يلجأون الى القياس العقلي ، ولكن القياس العقلي له شروطه التي ذكرناها سابقا والتي تتلخص في المساواة فيما يجب وفيما يجوز وفيما يستحيل . واذا راعى المتأول هـذه الشروط فسينتهي حتما الى قياس صحيح ، وسيكتشف ايضا انه لا خلاف بين الحكمة والشريعة . أما اذا أغفلها فسينتهي حتما الى أقيسة فاسدة ، وسيتوهم قيام تعارض بين الحكمة والشريعة . يقول ابن تومرت :

« ان القياس الفاسد على خمسة أضرب : قياس الوجود وقياس العادة وقياس المشاهدة وقياس العلل وقياس الافعال . فأما قياس الوجود فهو قيـاس المجسمة الذين قالوا بأن جميع ما شاهدنا وجوده على ثلاثة أقسام : جواهر واعراض واجسام . وأدى بهم هذا الى ان يلحقوا الجسمية بالله سبحانه أو أن يقولوا انه جوهر متحيز . أما قياس المعطية الذين قالوا ان جميع ما شاهدناه من موجودات انما هو ولد من والد وزرع من زارع وطـائر من بيضـة ، وطردوا ذلك في جميع الموجودات . فجرهم ذلك الى ابطال الفاعل ، وأما قياس المشاهدة فهو قيـاس أصحاب الجهة الذين قالوا ان جميع ما شاهدناه من موجودات لم نشاهد شيئا الا في جهـة . وكذلك الغائب عنا أي الباري سبحانه . وأما قياس أصحاب العلل الذين قالوا بأن قيام العلم بالعلم علة في كونه

عالما شاهدا . فكذلك ينبغي ان يكون في الغائب ، فوصفوا علم الله تعالى بانه علة . لكن هذا خطــأ اذ ان العلة يجوز ان تفارق المعلول ويجوز أن تبقى معه ، فليس بقاؤها باولى من مفارقتها . ولا مفارقتها باولى من بقائها الا بمخصص . وأما قياس الافعال فانهم أرادوا بذلك خروج بعض المخلوقات عن أن يكون البارى سبحانه خالقها لخيالات توهموهــا . وذلك أنهم قالوا رأينا شاهدا بان كل من فعل فعلا اتصف به ، فمن اعتدى أو ظلم سمي بذلك جائرا وظالما . فدل على ان البارى سبحانه لا يفعل ظلما ولا جورا ، لو فعل هذا لسمي به . والذى قالـــوه باطل لان البارى سبحانه لا تتصف افعاله بالجـور والظلم » (ص : 165 ـ 166) . ونكاد نقطع بان ابن رشد اعتمد على هذا النص الهام في نقده للمتكلمين والفلاسفة الذى قدمه لنا في كتاب « مناهج الأدلة في عقائد الملة » .

3 ـ **اسس التوفيق عند ابن رشد :**

هذا مجمل نظرية ابن تومرت في التوفيق بــين الحكمة والشريعة . وليس هناك ما يمنع من أن يكون ابن رشد قد اطلع على كتابات ابن تومرت ، ولكن ما دمنا نفتقر الى دليل قاطع يؤدى هذا الاطلاع ، فليس أمامنا الا أن نحلل كتابات ابن رشد في التوفيـــق بين الحكمة والشريعة لنرى مدى التشابه بين أقواله في هذا الباب وأقوال ابن تومرت .

فابن تومرت ـ كما رايناه ـ يرى أن التوحيد قائم على أساس النظر العقلي ويبرز في هذا السبيل فضل العلم والعلماء . ويورد الآيات الكثيرة التى توصى بالنظر في الكون والموجودات . كذلك ابن رشد ، فانه أبرز ما يقرره الشرع من وجوب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، يقول ابن رشد : « واذ تقرر ان الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها ، وكان الاعتبار ليس شيئا أكثــر مــن استنباط المجهول من المعلوم ، واستخراجه منه ، وهذا هو القياس . أو بالقياس ، فواجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي . وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا اليه الشرع وحث عليــه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ـ وهو المسمى برهانا ـ واذا كان الشرع قد حث على معرفة اللــه تعالى وموجوداته بالبرهان . كان من الافضـــل ـ أو الامر الضرورى ـ لمن اراد ان يعلم الله تبارك وتعالى وسائر الموجودات بالبرهان . ان يتقدم اولا فيعلــم أنواع البراهين وشروطها » (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ـ كتاب فلسفة رشد يحتوى على كتابى فصل المقال والكشف عن مناهج الأدلة تاليف ابــن رشد نشرة المكتبـــة المحمودية التجارية سنة 1935 ، ص : 10) .

فابن رشد يرى أن الشريعة حق ، وان الحكمــة حق » والحق ـ كما يقول في فصل المقال ـ لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد عليه » (ص : 10) . ثــم يقرر ابن رشد ان كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فان ذلك الظاهر يقبل التأويل عــلى قانون التأويل العربى وهو « اخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبيهه او سببه او لاحقه او مقانه او غــير

ذلك من الأشيـاء التـى عودت فى تعريف أصناف الكلام المجازى » (ص : 16) . وهذه هى الفاظ ابن تومرت بعينها .

وكما قرر ابن تومرت ان الشريعة تحتوى علـى الحكمة وانها جارية على سنن العقل يقرر ابن رشد ان الشرع « يشتمل على جميع انحاء طرق التصديق وأنحاء طرق التصور » (ص : 29) . أى أنه يشتمل فيما يشتمل عليه . على طريقة البرهان . لأنهما أى الحكمة والشريعة ــ أختان رضيعتان . وهذا ما لـم يقل به أحد من فلاسفة الاسلام الا ابن تومرت امام الموحدين وفيلسوفهم الأول .

وبراهين ابن رشد على وجود الله هى عينهـــا البراهين الواضحة البسيطة التى وردت فى القرآن الكريم ، وأعنى بها دليل العناية ودليل الاختراع ، وهى عينها البراهين التى قال بهـا ابن تومرت . ونقد ابن رشد للأشاعرة بصفة خاصة على أساس أنهم يقيسون الغائب على الشاهد هو نفس النقـد الذى وجهه ابن تومرت لهم . وحديث ابن رشد فى التقابل بين القياس العقلى والقياس الشرعى أو الفقهى هو نفس حديث ابن تومرت . وتقسيم ابن رشد ــ فى فصل المقال وفى مناهج الأدلـة ــ النـاس الى برهانيين وجدليين وخطابيين هو نفس تقسيم ابن تومرت السائلين الى ثلاثـة أصنـاف : مسترشد ومستفت ومناظر . وكلام ابن تومرت عن التأويل هو نفس كلام ابن رشد عنه ، وحديثهما عن معناه يكاد يتفق حتى فى الألفاظ . ونقد ابن رشد للمتكلمين فى كتابه مناهج الأدلة فى عقائد الملة (انظر المقدمـة التى كتبها الدكتور محمد قاسم فى نقد مدارس علم الكلام مع نشره لكتاب مناهج الأدلة ــ الطبعة الثانية 1964) . وللادلة التى ساقوها حول الصفات والجهة والرؤية والعدل والجور هى نفس أنواع الأقيسـة الفاسدة التى تحدث عنها ابن تومرت فى النص الهام الذى أوردناه سابقا . وأعنى بها : قياس الوجـود وقياس العادة وقياس المشاهدة وقياس العلل وقياس الأفعـال .

4 ــ هل نصرح بالحكمة للجمهور ام لا نصرح لهم بهـا ؟ :

لكن ابن رشد وابن تومرت متفقان معا على عدم اذاعة الحكمة بين الجمهور . فابن رشد ينقد المتكلمين والفلاسفة ــ وبخاصة الغزالى ــ بل ويكفرهم ، لأنهم صرحوا بالحكمة للجمهور « والصواب » كان ألا يصرح (أى الغزالى) بالحكمة للجمهور » . وابـن تومرت كذلك بالرغم من ايمانه بالدور الذى يلعبه التأويل فى فهم الشرع ، الا أنه يفضل الوقوف عند ظاهر المتشابهات ويؤثر الايمان بها بلا تشبيه ولا تكييف.

لكن عدم التصريح بالحكمة للجمهور لا يتفق منطقيا مع ما أوصانا به الشرع من تحكيم النظر العقلى ومع ما أراده كل من ابن تومرت وابن رشد من تثقيف الجمهور وانتشاله من هذا الجهل الذى أراده لهـم فقهاء المرابطين كما أسلفنا ، ليظلوا هم ــأى الفقهاءــ فى نظر الجمهور الملجأ الوحيد لهم ولسلاطينهم فى أمور الدين . فالمنطق يأبى علينا أن نسلم بأن ابن تومرت وابن رشد أرادا ان يستبدلا بالارستقراطية الفقهية التى كانت سائـدة فى عهـد المرابطين ارستقراطية عقلية ، وهذا المنطق نفسه يفرض علينا

القول بان كسب الجمهور الى صفوفهما كان أمرا يسعى اليه كل منهما . ففيم اذن القول بعـــدم التصريح بالحكمة أو بعدم التصريح بالجمع بينها وبين الشريعة للجمهور ؟

الحكمة الضارة بالجمهور هي الحكمة الملفقة التـي ابتدأ فيها المتكلمون والفلاسفة من مقدمات أخرجوها من عقولهم هم . لا من الشرع في أصوله . ومـــن تأويلات نزولها ـ بنص تعبير ابن رشد ـ على الاعتقاد بوجود الله ووحدانيته وصفاته وكونه جسما وكونه في جهة ، وكذلك على الاعتقاد بحدوث العالم وقضاء الله وقدره والجور والعدل .. الخ ، وعرضوا كل هذا للجمهور فأفسدوه وأفسدوا الحكمة والشرع جميعا . واذا كانت الحكمة كلها من هذا الطـــراز الملفق ، فالتصريح بها للجمهور ضار لا ريب في ذلك ـ لكن الحكمة ليست ـ لحسن الحظ ـ كلها من هذا الطراز ، أو ـ على الأقل ـ فان الحكمة كما فهمها ابن تومرت وابن رشد والتي كانا يأملان فياذاعتها بين الجمهور وفي تنويره بها ، تمشيا مع الاتجاه العام لفلسفـة الاسلام في عهد الموحدين ، ليست من هذا الطراز .

الحكمة الضارة التي ينبغي عدم التصريح بهـــا للجمهور هي اذن أقـــوال المتكلمين وتخريجـــات الفلاسفة التي شوشوا بها عقول الجمهور وأبعدوهم عن شريعتهم الحقة ، كما ابعدهم عنها ايضا فقهـاء المرابطين في خلافياتهم الفقهية . أما الحكمة المفيدة التي ينبغي اذاعتها بين الجمهور فهي تلك التي تبدأ بالتزام نص الشرع ، وبالوقوف عنـــد ظاهـره ، وبالتوقف والحيطه في الحكم بأن هذه الآية أو تلك من المتشابهات أم لا ، وبعدم الالتجاء الى التأويل الا اذا دعت الضرورة اليه ، مع ملاحظة أن هذا التأويل يجب أن لا يخرج عن لسان العرب ، وأن أي تأويل او قياس يسقط اذا كانهناك نصغيرملتبس يعارضه او اذا كان يناقض السنـة المطهـرة ، سواء كانت خبرا متواترا او عملا ، هذه لحكمة التي تراعي هذا كله هي التي تلتقي بالشرع حتما ، وهي التي علينا أن نذيعها بين الجمهور ، اذا كنا واثقين من قدرتـه على التأويل الصحيح ، في الحدود المشروعة له . وذلك لأننا سنجني من وراء اذاعتها الخير كل الخير .

وفي كلمة واحدة نستطيع أن نقول ان الحكمـة الضارة التي ينبغي عدم التصريح بها للجمهور هي الفلسـفة الاسلامية . اما الحكمة المفيدة التي ينبغي التصريح بها للجمهور فهي الفلسفة القرآنية .

محاضرة القاها الدكتور هويدي في البليدة أثنـاء زيارته للجزائر في السنة الماضية .



فن المقامة

في النثر الجزائري الحديث

د. عبدالله ركيبي
أستاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

اذا كان الشعر الجزائري الحديث ، قد وجد من يعنى به من الدارسين ، ووجد عناية تمثلت فيما قدم من ابحاث تاريخا او نقدا او جمعا ، فان النثر الجزائري الحديث ، رغم ما قدم فيه من ابحاث ، مازال في حاجة الى مجهودات اخرى تبرز قيمته الفنية والانسانية ، ذلك ان الدارسين لأدبنا الحديث يجتذبهم الشعر قولا أو دراسة بوصفه ذلك الفن العريق في الأدب العربي .

أما النثر فلا يتمتع بهذه النظرة ، لذلك لم يعط ما يستحق من عناية واهتمام ، فى حــين ان النثــر الجزائرى فى بعض أشكاله كان أكثر تعبيرا عــــن أحساس الكاتب من جهة ، وأقوى تصويرا لواقــع المجتمع فى مرحلة معينة ، من جهة أخرى ، على ان شكلا آخر من أشــكال هذا النثر لم يجد عنـــايـة اطلاقا لا قليلا ولا كثيرا ، هذا الشكل هو : فــــن المقامة فى هذا النثر بالرغم من انه لعب دورا هاما فى الحياة الأدبية ، اثناء القرن الماضى . وسجل بعض القضايا التى كانت محل عناية الادباء والكتاب ، كما سجل مظاهر سادت فى تلك الفترة ونقل لنــا صورة من المجتمع وما كان يعيش فيه من اوضــاع اجتماعية وثقافية واقتصادية .

وقد فطن الى هذا اللون من الادب بعض الأجانب وعنوا به نشرا أو تعليقا عليه ، ولكن من زاويـــة خاصة تتفق ونظرتهم للتــــراث القومى ، التى هى نظرة لا تنفذ الى الجوهر وانما تكتفى بما يظهر عـلى السطح دون أن تبحث عن الأعماق أو المعطيات .

ومن هنا رأيت ان أعرض لهذا الموضوع بعــد ان عثرت على انتاج يتصل بأدب المقامة فى أدبنا الحديث لا لأن فى هذا دراسة للتراث القومى ، وتقويما لــه ، ولا لأن نظرتنا مختلفة فى فهمه عن هؤلاء الاجــانب فحسب ، ولكن لأنه يمثل لونا جديدا فى المقامـــة الادبية فى ادبنا الحديث ، وهو لون ، فى تصــورى يظهر ، لأول مرة ، فى أدبنا العربى الحديث فيمـــا أعرف ، هذا اللون هو المقامة الشعبية التى ظهرت فى الثلث الأخير من القرن الماضى واتخذت اسلوبا جديدا فى تصوير البيئة الجزائرية كما نقلت لنــا مظمونا يعطيها صبغة خاصة ، وعالجت موضوعـــا مختلفا عما ألفناه فى فن المقامة المعروف فى الادب العربى . ومن المعروف ان هذا الفن قديم فى أدبنا العربى ، وان المقامة بوصفها ، أحــاديث تلقى فى جماعة قد شاعت منذ وقت مبكر وتعددت وظيفتها من اعلامية ، الى وعظية دينية أو اخلاقية الى وظيفة لغوية .

ولكن هذا الفن رسخت جذوره منـــذ ان ظهــر « الهمذانى » ثم بلغ الذروة منذ ان جاء « الحريرى » وتميزت ملامحه وخصائصه وأخذ طابعه الذى عرف به بعد ذلك حتى جاء العصر الحديث فنقل هذا الفن الى مرحلة اخرى لم تصبح فيها المقامة عملا أدبيـــا يعنى الكاتب فيها بالجانب اللغوى اكثر من غــيره وانما يعنى بالواقع ونقده ويسعى الى تغييره كما ظهر هنا فى مقامات « المويحلى » فى كتابه « حديث عيسى ابن هشام» ، وفى « مجمع البحرين » لليــازجى .

أما فى النثر الجزائرى فقد ظهرت فيه المقامة منذ وقت مبكر . وهناك أديب جزائرى برع فى هــــذا اللون من الكتابة الادبية ونوه الـكتاب والدارسون بآثاره فى النثر والفن هذا الكاتب هو « محمد بـن محرز الوهرانى » الذى عاش فى القــرن السادس الهجرى ، وكتب مقامات ومنامات ورسائل أدبيـة صور فيها ، بصدق وبعبارة قوية ، بعض جـوانب الحياة فى المجتمع العربى فى عصره «عصر الايوبيين» وقد ظل الوهرانى ، زمنا طويلا ، مجهولا بالنسبـة لكثير من الدارسين ، ولكنه فى السنوات الاخيرة وجد من يعنى به وبآثاره ، بل اصبح موضوعـا لبحوث جامعية فى الشرق العربى .

وقد أشاد بأعماله الادبية بعض الباحثين الجادين أمثال الدكتور « عبدالعزيز الأهوانى » الذى قدم لأعماله الادبية بقوله : « ان هذه المجموعة من النصوص تمتاز فى تاريخ النثر الفنى فى الادب العربى بميزات ترفعها الى مقام عال .

ولا نكاد نجد فى النثر الفنى ، فى الأدب العربى القديم نصوصا فيها ، ما فى كتابات الوهرانى من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب » (I)

وهذا النص لباحث عالم سجل فيه رأيه فيما انتجه هذا الأديب الناثر الجزائرى اثناء الحديث عن مناماته التى شهر بها . هذا النص يؤكد ان النثر الجزائرى ما زال فى حاجة الى دراسة مستفيظة تكشف عما فيه من قيم أدبية وانسانية .

والواقع ان الدارسين يفرقون بين « المنامة والمقامة » ، فالاولى غالبا ما يكون أشخاصها ممن تستحيل رؤيتهم وممن وجدوا فى التاريخ كالصحابة مثلا .

أما المقامة فانها مستقاة من واقع الحياة ومن واقع العصر الذى عاش فيه المؤلف وصور بعض النماذج التى عاشرها أو استوحاها من بيئته .

وقد استطاعت المقامة ان تتخطى فى تأثيرها النطاق العربى - كما يذهب بعض الدارسين - استطاعت ان تؤثر فى الأدب الاسبانى فيما عرف « بقصص الشطار » بل ان بعضهم يذهب الى أبعد من ذلك ، فيرى انها قد أثرت فى الأدب الأوربى بعامة بعد ان ترجمت الى لغات متعددة ، لكن تأثيرها لا يقاس بتأثير قصص ألف ليلة وليلة فى الآداب الاجنبية .

اما المقامة فى النثر الجزائرى الحديث فيبدوا انها انتشرت بصورة أقل مما هى عليه فى الادب القديم وربما يرجع السبب كما ذكرت ، الى ان الشعر كان هو الفن المسيطر على الحياة الادبية ، أو ان ما كتب من مقامات لم يظهر بعد لسبب أو لآخر .

ومع هذا فان الذى بين أيدينا من بعض النصوص يؤكد ان فن المقامة وجد فى النثر الجزائرى الحديث ويمكن التمييز فيه بين انواع ثلاثة :.

المقامة الصوفية - المقامة الأدبية النقدية ثم المقامة الشعبية - فالمقامة الصوفية هى من الاشكال الادبية تنتمى الى النثر الصوفى وقد عبر فيها اصحابها عن نزعاتهم الروحية مثلما عبروا عن ذلك بالشعر ، ويعد الامير عبدالقادر ممن عالج الامرين معا :

الشعر والنثر الصوفيين ، وكتب ما يمكن ان يعد مقامة أو شبه مقامة أدبية صوفية نشرها فى كتابه « المواقف » وقد أراد لها ان تكون بمثابة المدخل لهذه المواقف يساعد على فهمها ويصور بها الموضوع الذى أرق المتصوف طويلا وهو موضوع « الحقيقة الالهية » وكيف أنها تدرك بالذوق لا بالعقل ، لذلك فان البرهان عليها بالادلة العقلية مستحيل ، والامير يعمد الى خلق شخصية فى هذه المقامة ، وان لم يذكر لنا اسما خاصا ، بل اكتفى بتعريفها لنا بقوله : «عريف الجماعة ومقدم أهل البراعة» .

I) سنذكر هذه المراجع بالتفصيل فى نهاية هذه الدراسة

وبالطبع فان لفظتي العريف والمقدم من الالقاب الصوفية . والامير يصف مجلسا حضره هذا الراوي واجتمع فيه أناس ظرفاء ليتحدثوا او ليستمعوا الى من يقص عليهم قصة « معشوقة غير مرموقة » وهو يمهد بذلك لتصوير مغامرة روحية فيصف هـذا المجلس حين يقول : « حضرت محاضرة من محاضرات الشرفاء ومسامرة من مسامرات الظرفاء في نادي من اندية العرفاء . فجاؤوا في سمرهم بكل طرفة غريبة مستظرفة عجيبة ... » .

ووصف هذه « المعشوقة » يكون بتلك الاوصاف التجريدية التي نلحظهـا في الادب الصوفي والتي لا تحدد الموصوف تحديدا يوضح الملامح والصفات التي تميزها عن غيرها ، وانما تكون أوصافا عامة ، فهي : « الباطنة . الظاهرة . المستورة السائـدة ، الجامعة للتضاد . بل ولجميع أنواع المنافاة والعناد» .

فالامير هنا يتحدث عن « الذات الالهية بأسلـوب صوفي غامض لينطلق بعد ذلك الى الرحلة التي قام بها بطله بحثا عن المجهول . وتبدأ المغامرة يقوم بها بطل ، ولكنه ليس من اصطناع المؤلف أو اختراعه شان كتاب المقامة في ابتكار شخصيات معينة وانما البطل هنا هو المؤلف نفسه الذي يقوم بمغامرة روحية فريده يصعب على غيره ان يقوم بها . والتي لا يمكن ان يحققها الا امثاله ممن قدر لهم الوصول الى غاية يقصر أو يعجز عن تحقيقها غيره .

والطريق الى هذه الغاية محفوف بالاشواك والمخاطر طريق وعر يكتنفه التيه ، مجاهله كثيرة ، ويحيط به القفار من كل جانب وليس هناك دليل سوى المجهول، وحين يسأل البطل عن هذه الغاية لا يجد جوابا شافيا ورغم هذا يستمر في البحث ويستمر في السيـر وتستمر المقامة في تصاعدها الروحي . كما يمـر البطل بأقوام تحاول مثله الوصول الى المحبوبة . لكنه يجد الناس بين غارق وتائه وعاثر عاجز ، بينما هذا البطل يساعده الصبر « على الوصول » وعلى تحقيق الهدف .

وحين عاد من رحلته هذه والتقى بالجماعة ، سئل عما رأى فرفض ان يجيب بشيء سوى ضرب الامثلة لان المسالة لا تروى أو تحكى وانما تحس بالـذوق والمشاهدة والتجربة .

وهذه هي النتيجة التي يريد المؤلف ان يصل اليها وهي ان معرفة الحقيقة الصوفية لا تتم عن طريق الفكر والمنطق ولكنها تتحقق عن طريق السياحة الروحيـة ان صح التعبير .

فهذه المقامة اذن أشبه بالرحلة الدائرية ، رحلة من الارض الى السماء ثم من السماء الى الارض . الحركة فيها ليست حركة بالمعنى المالوف.ليست بالجسم وانما هي بالـروح .

أما مضمونها حينما يقوم فلا ينبغي ان ينظـر اليه على أساس غير ما عرف لدى المتصوفة من فهم او نظر يتصل بالكون وبالطبيعة وما بعد الطبيعـة . لان هذا هو طريقهم وسبيلهم الى المعرفة عن طريـق الذوق والرياضة والمشاهدة .

كذلك فان اسلوب هذه المقامة قد تاثر بمصطلح المتصوفة . اذ يغلب عليه الرمز والغموض.والحديث في هذه المقامة تلميح لا تصريح ، واشارة ورمز كما

هو الامر فى النثر الصوفى بعامة · تبدو لغة الامير فى هذه المقامة لغة قوية جزلة ، غير ان الحوار نادر فيها وما وجد منه لا يختلف فى طريقته عن السرد من حيث انه حوار غامض يعتمد على الايماء وعلى التلويح بالمعانى والافكار . اما عنصر القص فهو ضعيف لان الحركة غير واضحة وغير موجودة بصورة تجعل من عنصر القص اسلوبا مشوقا ، لان الموضوع بطبيعته يتسم بالتجريد والتعميم ، كذلك فان الامير يقلد كتاب المقامة فى الاستشهاد بالشعر ليؤكد غرضه أو يوحى لما يهدف اليه من كتابة هذه المقامة ووظيفتها هنا تختلف عن وظيفة المقامة اللغوية التى تهدف الى التسلية والترفيه أو الى ابراز تمكن الكاتب من اللغة او اظهار البراعة اللفظية وانما تهدف المقامة الصوفية الى ابراز المعنى الميتافيزيقى للمعرفة ·

وبصرف النظر عن تجاوبنا أو عدمه مع هذا الاتجاه ، فان الذى يعنى الباحث هو رصد الظاهرة الادبية وتحليلها ورصد السمات والخصائص الادبية للاشكال أو الانواع أو الاجناس الادبية المختلفة · وقد يكون من التطويل ان نعرض للعوامل التى دفعت الامير الى ان يتجه الى التصوف والتأليف فيه شعرا أو نثرا ، وهل هذا الاتجاه بعيد عن عصره أو هو تقليد للسابقين أو انه يرتبط بتكوين الامير وثقافته خاصة ، وقد عرضنا لهذا كله فى دراستنا للشعر الدينىالجزائرى الحديث .ولكن الذى نسجله ان الامير فى هذه المقامة قد اطلق عليها لفظه « قصة » كما اننا نسجل بان مقامته هذه اسهمت من الناحية الادبية فى النثر الجزائرى الحديث . وان اتخذت طابعا خاصا واتجاها معينا ·

اما النوع الثانى للمقامة فى النثر الجزائرى الحديث فهو « المقامة الادبية النقدية الفصيحة » ، ولكن هذا اللون لم ينتشر فى أدبنا الحديث بالرغم أن هذا الأدب خضع بصورة واضحة للأساليب البيانية فى الأدب العربى · وكنا نتوقع ان تظهر مقامات كثيرة لانها تتناسبمع فكرة الاحياء التى دعا اليها «رجال الحركة الاصلاحية» من جهة ، ولانها تساعدهم على صب افكارهم فى هذا القالب القديم ·

والواقع اننا وجدنا خليطا من هذا الشكل ومن اشكالأخرى فى النثر الاصلاحىعرضنا له فى دراستنا للقصة القصيرة الجزائرية ، ولكننا لم نعثر على مقامة متكاملة ومستوحاة من الاشكال القديمة،متكاملة فى خصائصها وسماتها كما عرف لهذه المقامة من مميزات تجعلها فنا خاصا له تقاليده المعروفة · غير أننا عثرنا على مقامة ادبية كتبها « عمر بن برهيمات » ونشرها فى جريدة « المغرب » سنة 1903 تحت عنوان : «مقامة أدبية » تحدث فيها عن رحلته الى المؤتمر العلمى الذى انعقد بباريس فى شهر سبتمبر سنة 1897 م ، وفيه التقى برجال العلم ونوه بالشيخ المفتى التونسى « سالم ابو حاجب » ومدحه بمقطوعة شعرية ·

وفى هذه المقامة يصور « بن برهيمات » كيف انه اجتمع اثناء هذا المؤتمر بوفود كثيرة ، لكن شخصا من بين الحاضرين لفت انتباهه بتظاهره بالعلم وبلباسه الذى كان يقلد فيه العلماء ، فقد كان : « يلبس عمامة ولكنه قام يستنقص من المسلمين وعلومهم ولا يعرف له نسب وان كان متعمما كما يتعمم أهل جزيرة العرب ··· » فالكاتب استخدم اسلوب المقامة

ليطوعه الى تصوير وقائع شاهدها واراد بواسطة هذه الطريقة ان يسخر من هذا الشخص الذى حضر هذا المؤتمر الذى هاجم فيه المسلمين وعلومهم شأن بعض المستشرقين حين يندسون لا لخدمة الفكر الاسلامي او خدمة الادب العربي ولكن لخدمة أفكار أخرى يدسونها باسم العلم أو باسم الثقافة • ولكي يصور الكاتب هذه الشخصية المزيفة تصويرا (كاريكاتوريا) ضاحكا وهو اسلوب قديم فى المقامة . لكي يفعل ذلك أخذ يصف حركات هذا الشخص وتصرفاته بأسلوب ساخر فيه فكاهة كثيرة وفيه سجع كثير أيضا .

يقول بن برهيمات : « ثم انه صار يدندن كالسنور ويخور خوارا كخوار الثور والناس يسمعون وجلهم له يلعنون فلما أتم سفهه ، والبزاق قد ملاء فمه وكان قد لازمنى أحد فضلاء اللجنة الاخيار من ابناء امجادها الابرار اشتملت ذاته على غالب أوصاف الادب غير انه لم يكن يعرف لغة العرب . وكان حفظه الله يرغب منى ان أعجم له تلك المقالة ، فلم يسعنى الا اجابته الى ما طلب • • • »

وهذه المقامة توضح ذلك الصراع الذى مازالت آثاره موجودة بين بعض المستشرقين وبين علماء المسلمين فيما يتعلق بالثقافة والفكر والادب . والتراث العربى الاسلامى • ولا شك ان استخدام الكاتب عن وعى لاسلوب المقامة انما كان هدفه التأثير فى المتلقى من ناحية كما ان عنايته بالسجع وبالفواصل وبالموسيقى كانه يقصد منه انه يحدث نوعا من اللذة الادبية من ناحية ثانية ومن جهة ثالثة عمد الى السخرية ليصبغ على مقامته نوعا من الحيوية ، ولكن عنصر القص فى هذه المقامة ضعيف الى حد ما غير ان الذى تؤكده المقامة هو ان اللغة العربية فى فترة متقدمة كانت تتمتع بقوة ساعدتها على الاستمرار والتطور رغم ما عاشته من ظروف قاسية صعبة ، ولو انتشر فن المقامة فى تلك الفترة لأمكن ان نعرف وضع العربية باعتبارها أداة فن وثقافة ، ولاستطعنا ان نعرف القضايا التى كانت تشغل أدباء ذلك العصر ولكن الذى نقل ما افتقدناه فى المقامة الادبية التى كتبت بلغة عربية فصيحة معربة انما هو كاتب آخر عالج نوعا من المقامة مختلفا عما ألفناه فى اسلوبها ولغتها . هذا الكاتب هو « محمد بن على » الذى ترك لنا مقامات شعبية أطلق عليها : (المقامات العوالية فى أخبار العلالية على اللغة المغربية) . وقد نشرها وترجمها : ج.فوز . كما قدم لها : م . ج . دلفين . وقد نشرت بالمجلة الاسيوية .

واهمية هذه المقامات ليست فقط فى انها انتاج أدبى ظهر فى فترة كانت اللغة العربية ــ أواخر القرن الماضى ــ تمر بمرحلة من أخطر المراحل التى مرت بها فى حياتها منذ وقع الاحتلال الفرنسى لبلادنا ، كذلك ليست اهميتها ايضا فى انها كتبت بأسلوب مختلف وبلغة تختلف عن المقامة القديمة التى اتخذت العربية الفصحى المعربة أداة للبيان ولكن هذه المقامات كتبت بلغة جمعت بين الفصحى والعامية ، ليست اهميتها فى هذا كله وانما اهميتها تبدو أكثر فى القضايا التى عالجتها وفى المشاكل التى صورتها ، وهى قضايا ومشاكل تعطينا صورة عما كان يجرى فى المجتمع الجزائرى وما كان يضطرب فيه من آراء وافكار وما كان يعانى من جراء الاستعمار

بالرغم من ان الكاتب لا يفصح عن هذا تصريحا ولكنه يومىء الى ذلك رمزا أو تلميحا .

وقبل ان نعرض لهذه المقامات بالتحليل لابد ان نشير الى الظروف التى ظهرت والمؤثرات التى دفعت كاتبها الى ان يختار طريقا مختلفا عما الفنـــاه فى كتابة المقامة الأدبية سواء من حيث اللغة , أو الموضوع أو المضمون .

والكاتب «محمد بن على الطاهر الجبارى» ينتمى الى أسرة من أسر «بطيوة» ـ أرزيو القديمة ـ بغرب الجزائر وقد عاشر فترة بسعيدة ومعسكر ، وقد أتيــح لــه ان يدرس بالمساجد ويتعلم بالزوايـــا حيث التقى بنماذج من الطلبة الجزائريين في ذلك الوقت وعاش بينهم يتعلم العربية وقواعدها بالطرق التقليديـة وبالاساليب الجامدة المعروفة فى عصره وشاهـد هذا كله وأثر فيه وتأثر به فانشأ هذه المقامات تصويرا لواقع هؤلاء الطلبة ، وما يعيشون فيه من ظنك وفقر. كما شعر بظاهرة انتشرت وهى ان اللهجات المحلية قد سيطرت على اللغة العربية الفصيحة المعربة، حيث استشرى فيها اللحن وطغت عليها الرطانة فهزه هذا الوضع الخاص باللغة ودفعه الى تاليف بعض هـــذه المقامات وقد شكى من انتشار العامية التى يطلـق عليها (البربرية) بلهجاتها المتعددة والفاظها البعيدة عن العربية الام ، . وقد ذكر جملة منها ولكنه لـم يذكر الفرنسية التى طغت فى عصره بل وظهـــرت حتى فيما كتبه هو نفسه فى هذه المقامات كما ظهرت فى كتابات غيره أيضا .

ولكنه لم يشر الى ذلك فيما نتصور لانه لو اعتبر اللغة الفرنسية أجنبية ربما تعرض لأذى السلطات الاستعمارية خاصة وانه فى فترة من حياته كـــان قاضيا تابعا للادارة الفرنسية , إذن فقد اشـــار الى تعدد اللهجات فى القطر الجزائرى وبوجه خاص فى غربه حيث نشأ الكاتب وتنقل بين ربوعــه وخالط قبائل كثيرة تختلف لهجاتها اختلافا واضحا أدى الى ضعف اللغة العربية حيث اعترف بان العلماء الذين يأتون من الشرق قد لا يفهمون اللهجة الجزائرية رغم ان المغرب كما يقول قد انجب علماء فطاحل فى مختلف فروع المعرفة والثقافة والأدب .

وهو يسجل بان هؤلاء العلماء الذين نشأوا فى الجزائر اصبحوا مجهولين فى بيئتهم ، فما بالك فى البيئات الاخرى . كل هذه الدوافع قد حركت فيــه هذه النزعة لان يكتب هذه المقامـات بغرض واضح وهو انه : يرجو من الله ان تكون تخليصا للفصاحة فى الاوطان المغربية وزبدة لتقريب قاريها بالنظرية وانى ألفتها على صفة المقامات لانها تفيدنا عن غيرها من المقالات ، ولان سلفى بذلك حائـزون التفضيل والاحسان ، والشكر الجزيل بلا فخر ولا امتنـــان العلامة بديع الزمان همذان وابو الفتح الاسكندرى وابن هشام ، والعلامة الحريرى وابو زيد السروجى والحارث بن همام فلا حرج ان عذرى واضح وعـدم قدرى فادح ، وانى لا طاقة لى لاستباحة ببحـورهم» فالكاتب فى المقدمة يستخـدم أسلـوبا متفاصحـا استخدمه فى المقامات وهو يصرح بهدفين :

أولهما ـ كما أشرنا ـ هو اعادة الصفاء للغـــة العربية فى الفاظها وتعابيرها وصقلها صقلا يعيـــد لها بيانها المشرق . اما الثانى فان الكاتب يعتـرف بعجزه عن تقليد كبار كتاب المقامات فى العصـــور

الزاهرة ولكنه استخدم المقامة وعاء لتطوير افكاره وآرائه لما لها من تأثير في المتلقي بسبب ما تمتاز به من صفات وخصائص ٠ وليس غرضه فقط ـ كما ذكر دولفين ـ تسلية القارىء واثارة الرغبة الحارة في نفسه . كذلك لم يكن يهدف الى كتابة المقامات لتصبح أدبا شعبيا أو لتدخل في اطـــار الفلكلور المغربي ، كما ذهب الكاتب ايضا ولكنه كتبها فيما نعتقد بحثا عن أسلوب جديد يساعد على بقاء اللغة العربية في عصر الكاتب ، لغة أدب وفن وثقافـــة كما صرح بذلك . هذا من ناحية ، أما من ناحية ثانية فان هدف الكاتب هو عرض افكاره وآرائه وتوصيلها الى البسطاء من المتعلمين الذين أطلق عليهم ـ دولفين ـ « انصاف المثقفين » وهم اولئك الذين تعلموا تعليما تقليديا صرفا لايساعدهم على التذوق الادبي بقـدر ما يساعدهم على حفظ النصوص الفقهية واللغوية فالكاتب من جهة ثالثة يهدف الى أحداث اللذة الفنية باصطناعه اسلوبا معينا واختياره لغة وسطا تجمع بين العامية والمعربة الفصيحة ٠

وواقع الامر ان الادب الشعبي سواء منه ما تناقلته الشفاه والرواة أو ما أصبح نصوصا تدخل في هذا « المصطلح » رغم ان كتابه معروفون ، هـذا الادب انتشر في الحقبة المشار اليها في القرن الماضي لظروف كثيرة ، فحين ضعف الادب الرسمي وجد هذا الادب ليملأ فراغا كبيرا كان يحس به الشعب الجزائري الذي حرم من لغته ومن ثقافته القومية فوجـد في الادب الشعبي ملاذا له من الحرمان الذي كان يشعر بـــه المنشأ والمتلقي على السواء .

فكاتبنا قد يكون هذا من بين الدوافع التي دفعته الى كتابة مقاماته هذه بالاسلوب الذي اختاره وباللغة التي اصطفاها ، فهو يساير موجة في الادب سادت في عصره والتي سببها ضعف اللغة العربية الى حد ما وانكماشها في اطار خاص وبين فيئة معينة ٠ يضاف الى ذلك خوفه على هذه اللغة حتى ولو كانت عامية ان تضمحل أو تذوى فاختار هذه الطريقة ليصور مظاهر في المجتمع ويسجل ظواهر نشأت في عصره مازال بعضها يعيش في البيئات الشعبية في بلادنا ٠

ونحن نميل الى القول ان اهتمام بعـض الكتاب الاجانب بالادب الشعبي انما يقصد منه توجيه الانظار الى اللهجة العامية بدل اللغة المعربة الفصحى بغرض التقليل من قيمة هذه الاداة واعطائها صبغة خاصة تجعلها مجرد لهجة من اللهجات التي انتشرت في البلاد٠

ومما يؤكد هذا ان مقدم هذه المقامات لم يشر الى وضع اللغة العربية أثناء حديثه عن هذه المقامات التي تثير قضية من أخطر القضايا . ونعني بها الصراع بين العامية والفصحى والتي عرض لها الكتاب والباحثون واسهموا بآرائهم فيها بقطع النظر عن الدوافع التي تحرك بعضهم وبقطع النظر عن الصورة القومية او الفنية بالنسبة للاديب شاعرا أو ناثرا و أيضـــا بقطع النظر عن التعاطف أو عدمه تجاه اللغة القومية أو تجاه اللهجات العامية ٠

ومما لاشك فيه ان الظروف التي احاطت بالمجتمع كما اشرنا ســـواء منها السياسية والاقتصادية أو الثقافية أو الاجتماعية قد أسهمت في انشار الادب الشعبي الذي لعب دورا هاما في الحياة الادبية بحيث وجدت فيه الجماهير تعبيرا عن مطامحها وآلامها لذلك لم يكن غريبا ان تظهر المقامـة الشعبية في هذه الفترة

بالذات تهدف ضمن ما تهدف اليه الىتشريح المجتمع وما استشرى فيه من مظالم ومساوىء اجتماعية نشات بسبب الاستعمار وآثاره.ومن ثم وجدنـــا في هذه المقامات الحث على فضائل معينة والنهي عن رذائـل كانت قد ظهرت في عصر الكاتب وبالتالي كان يهدف مؤلف هذه المقامات الى تقديم العبرة والنصيحة مـن خلال أعماله الادبية هذه .

فالهدف التعليمي اذن واضح فيها ، أما الهدف الفني فيتمثل في استعراض المؤلف لمقدرته اللغوية ومعرفته لمفرداتها واستيعابه اللهجات المحلية المتعددة في البلاد ، أما مسرح أحداث هذه المقامات فهو القطر الجزائري كله بمختلف بيئاته الاجتماعية والطبيعية، ذلك ان المؤلف قد تنقل بين أماكن كثيرة وعرف مناطق متعددة وان كان الشطر الاكبر مما كتبه قد كرس لمنطقة وهران التي عاش في نواحيها وخالط قطاعا كبيرا من سكانها غير ان القطاع الذي سيطر على فكره وعني به في مقاماته هذه هو قطاع « الطلبة العرب » وهو اصطلاح اطلق على من كان يدرس القرآن والفقه وقواعد اللغة العربية كما أشرنا . وغالبا ما كانت الدراسة تتم في ظروف غاية في الضنك والضيـق فكان هؤلاء الطلبة ينتقلون من بلدة الى أخرى طلبا للعلم ويبدو ان هذا المؤلف كابد كثيرا في سبيل ذلك وعاني طويلا من حياة قاسية وتعرض للجوع والفاقة فخرج بهذه التجربة التي تصور قطاع « الطلبـــة » وحدهم . لكنها فيما اتصور تسجل ظروف المجتمع كله ، فتظهر الاحوال الاقتصادية التي اضطربت في عصر المؤلف .

وقد اعترف مقدم هذه المقامات بأن هؤلاء «الطلبة» كانوا يعيشون في وضع خاص في حيـاة تتســم بالاضطراب والفاقة ولكنها أخـــذت : (اليـوم في التلاشي بسبب تغييرات كثيرة أدخلهـــا النظـــام الاستعماري الذي يقصد القضاء عليها نهائيا) .

فمحاولة القضاء عليها ليس لأنها تمثل وضعـا سيئا ولكن لأنها تمثل وضعا خاصا بقي للغة العربية ولا يقصد من القضاء على هذا الوضع نشراللغة العربية أو انقاذ « الطلبة من حياة الفقر بقدر ما كان يهدف الى ازالة ما بقي من قشور للثقافـــة القومية ، كان هؤلاء الطلبة يمثلونها ويحافظون عليها .

والظاهرة التي أرقت الكاتب الجزائري هي ظاهرة الفقر انه المحور الذي أدار حوله هذه المقامات الاثنتي عشر والذي يجسد بصورة مهولة وضع الجزائر أواخر القرن الماضي . ومدلول الفقر يتسع ليشمل الفقـر المادي المعروف وفقر العلم وفقر الحضارة . والكاتب لا يشير الى سبب هذا التخلف وانما نحن نستنتج ان المجتمع الجزائري في هذه الفترة عاش وضعا شاذا من جراء السيطرة الاجنبية يضاف الى هـذا ان الكاتب عرض ، ناقدا او ساخرا ، لمظاهر سلبية حدثت في عصره سنعرض لها حين ندرس مقاماته من ناحيتي الأسلوب والمحتوى .

فيلم عن العالم العظيم (البيرونى)

ان المخرج السينمائى شهرت عباسوف المشهور فى الافلام « أنت لست يتيما » و « طشقند ، مدينة الخبز » و « مأساة الحب » يباشر بتصوير فيلم جديد يتكون من فصلين عن البيرونى ، مفكر الشرق العظيم فى القرون الوسطى .

يقول شهرت عباسوف : ان وضع فيلم عن البيرونى وعصره مهمة ذات شأن كبير فوق العادة ، لقد امتاز العالم الموسوعى العظيم بآراء تقدمية بالنسبة لزمنه ، انه ناضل ضد العداوة بين الشعوب ، وكتب عن الحروب الاحتلالية بسخط وغضب .

وأثرت أفكار واكتشافات البيرونى تأثيرا كبيرا على تطور الفكر الفلسفى والعلوم الطبيعية للشرق فى القرون الوسطى ، ومن المقرر انجاز الفيلم عن تاريخ وسيرة حياة العالم العبقرى فى عام 1973 الى حلول الذكرى الألفية لميلاد البيرونى .

هاينريش شليمان
أو ميلاد علم جديد

د. هشام الصفدي
أستاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

هنالك فى حقل الصراع البشرى عدد وفير من الحروب الكبرى الا ان عددا قليلا جدا من هذه الحروب بقيت اخبارها حية فى ذاكرة الشعوب . ولعل الحرب الضروس التى دارت رحاها بين الاغريق وأهل مدينة طروادة قبل حوالى ثلاثة آلاف سنة فى طليعة تلك الملاحم الخالدة . ولا يخفى عن البال ان حرب طروادة ما كانت لتحتل مكانة مرموقة جدا فى التاريخ وفى الأدب العالمى لو لم تخط اخبار السنة الاخيرة من براعة كاتب عبقرى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد ، شاعر يكاد يكون مجهولا من الناس رغم انه خلق لهم أجمل ملحمتين من ملاحم الشعر العالمى هى الالياذة والاوديسة .

1) بمناسبة مرور مئة وخمسين عاما على ميلاد العالم شليمان 1822 ـ 1972

لقد سجل الشاعر هوميروس فى كتابه الالياذة(1) اخبار واحداث اناس عاشوا قبل عصره بمئات السنين ورغم ذلك استطاع هوميروس بما لديه من موهبــة فذة ، وخيال ملهم حى أن ينقل قراءه الى ذلك العالم الاسطورى · عالم اشترك فيه البشر والآلهة عـــلى السواء فى صنع احداث حرب رهيبة انتهت بدمار مدينة طروادة بعد حصار طويل وحروب مريــرة ·

وتكاد روعة الوصف التى تفرد هوميروس بها تجعل من الصعب على القارىء أن يميز بين مــا هو بشرى وبين ما هو فوق البشر ، الحقيقة والاسطورة · ومع مرور الزمن تناقلت ، الشعوب ملحمة طروادة حينما وضعها هوميروس · وازداداهتمامهم بها خاصة مع بزوغ عصر النهضة الاوربيــة ــ التى اتخذت مـــن التراث الحضارىالاغريقى ــ الرومانى قاعدة للحضارة الوليدة فى أوربا ، واعتبارا من ذلك العهد انقسم الناس بين مصدق ومكذب لمـــا جــاء فى مرويات هوميروس من أخبار ، بل وذهب البعض الى انكــار وجود الشاعر نفسه ونسبة مؤلفاته الى كتاب آخرين مجهولين ، لذلك كان من الطبيعى ان ينشب جــدل فى الاوساط المثقفــة الاوربيــة حـــول هوميروس ومؤلفاته ، وان يستمـــر اللغط حتى منتصف القرن التاسع عشر. وبالنظر الى الاحداثالخيالية الاسطورية التى حفلت بها ملحمة الالياذة ، مال الكثــيرون الى رفض هوميروس كمؤرخ ، والى اعتبار وقائع الحــرب الطروادية لا تشكل فصلا حقيقيا من فصول التاريخ البشرى ·

هوميروس وحرب طروادة :

نشيــد الزمـــان
وقصيــدة المـاضى
وغنـــاء السلف !
· · · · · ·
انشديــا هوميروس
واملاء الاحقاب موسيقى
واللانهاية جمالا وسحرا

فالارواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والانسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دوى العصر ، فهى ابدا تحن الى سكون الماضى ! (2) ·

بهذه الاشعار الحادية يفتتح هوميروس ملحمـــة الالياذة ، وبقصة التفاحة الشهيرة يمهــد للاحداث المروعة التى ستؤدى الى دمار مدينة عظيمة ·

الأسطــورة :

فى احتفال الآلهة بعرس زيتيس ابنـــة نريوس رب الاعماق على ملك فيتيا قدمت الربــــة ايريس (ربة الخصام) غاضبة لانها لم تدع من دون كافــة الارباب الى الحفل ، ولكى تنتقم لنفسها القت عـــلى الخوان تفاحة كبيرة من الذهب نقشت عليها كلمــة مقتضبة : « للأجمل » ·

---

1) دون هوميروس فى هذه الملحمة قصة الصراع حول مدينة ــ ايليون ــ ولكنه لم يكن يتوخى فى عرضه للاحداث كتابة سجل التاريخ للحرب : فلم يبدأ ملحمته من تاريخ نزول الاغريق على شواطىء طروادة ، ولا استعرض السنوات العشر التى يستغرقها الصراع ، بــل اقتصر على اخبار السنة الاخيرة وجعل « غضب البطل آخيل » عنوانا لها

2) الالياذة لشاعر الخلود هوميروس ، ترجمة درينى خشبة ، دارالهلال ، ص 15

وما لبثت جميلات الحفل ان اختلفن على ملكية التفاحة . وانضمت اليهن الربات حيرا . مينرفا ، فينوس ، وكل منهن تعتقد نفسها اجمل نساء العالم ، وانها أحق انثى بالتفاحة الذهبية . ولما احتدم الخلاف اتفقت الربات على تحكيم اول عابر سبيل . وتشاء الاقدار ان يكون باريس الراعى الشاب الوسيم وابن الملك بريام ملك طروارة ذلك الحكم (3) . وعندها تتقدم آلهة الحب فينوس ذات الجمال الساحر تتثنى أمام باريس بكل ألوان الاغراء وتحثه على ان يحكم لها بالجمال قائلة : «ألست تحب ان اهبك أجمل زوجة فى العالم ؟ ستكون زوجتك مثلى تغمرك بجمال لا حدود له ، ولن تشعر معها الا انك تعيش منها فى جنة .. فتنة .. نظرات حلوة .. خد مورد .. أهداب كظلال الخلد . . عينان نجلاوان . .جسم ممشوق طويل .. زوجة ترضيك وتغريك .. قلب ينبض بحبك .. هاتها يا باريس . هاتها يا حبيبى . . » فيرق قلب الفتى ويلقى التفاحة فى يد فينوس ، وبذلك يجر على نفسه وعلى قومه . غضب الربتين حيرا وميترفا .

يتابع هوميروس عرض الاسطورة العاطفية لاسباب الحرب الطرداوية فيقول: «ان الربة فينوس لم تكذب لان الآلهة لا تكذب ، واذا كانت الآلهة لا تكذب فلن يكذب ابوللو (4) . لابد ان تصدق النبوءة القديمة. لابد ان يبحر باريس الى هيلاس ليجر الخراب على طروادة .. » وفى مدينة اسبارطة يلتقى باريس بهيلين أجمل نساء الارض وزوجة مينلاوس ملك المدينة . وما ان تلتقى عيناه بعينيها حتى ينسى باريس نفسه . اذ رمته هيلين بسهم من عينيها الساجيتين زلزل قلبه . وتهرع الربة فينوس الى باريس تشجعه على وصال زوجة مضيفه والتحبب اليها . وينتهز الشاب فرصة سفر مينلاوس ليتابع محاولاته فتستجيب اليه هيليك .. وما ان يسالها باريس : «ألا يسرك يا هيليك ان نعيش سويا أبد الدهر..؟» حتى تجيبه : «ألا يسرنى ؟ وما السرور اذاً يا حبيبى باريس ؟ » « اذاً فلنرحل فى ظلام الفجر ، الى طروآدة» . ويهرب باريس عائدا الى طروادة ، حاملا فى مركبه حبيبته الجميلة هيلين» ، وحينما يعود الملك مينلاوس من رحلته القصيرة ، يعرف قصة الخيانة ، ويتمرغ بعار الفضيحة فليصيح ملتاعا : « الحرب الحرب ! الانتقام من الفاجرة ..

اقتلوا الخائن يا حلفائى .. تنداريوس ادع حلفاءك .. لقد اقسموا جميعا .. استيقظى يا اسبارطه .. جنودى .. شعبى . . هلموا الى » (5) واستمعت هيلاس الى صرخة مينلادس وانتفضت فصارت ثكنة تعج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالاساطيل .. ولن يرسو الاسطول الا فى مياه طروادة .

3) تقول الاسطورة : ان بريام ملك طروادة اخذ ابنه الوليد باريس الى هيكل الرب ابو للو ليتعرف طالعه . فجاءت النبؤة تقول : بان باريس سيكون كارثة على قومه وعلى بلده ، وانه سيأتى من الاثم ما يجر الى قتل ذوويه وبنى جلدته ، ويفضى الى سقوط طروادة فى يد اعدائها . فيصمم الوالدان على التخلص من باريس ، لكن راعيا يعثر على الطفل المنبوذ فى العراء فيتبناه ويشب فى كنفه راعيا للغنم . الى ان تكافئه الربة فينوس بعد قصة التفاحة الذهبية ، فتعيده الى والده .

4) الالياذة ، نفس المرجع ، ص 16

5) كانت هيلين ابنة للرب زويس وثمرة حبه لامها ليدا . وقد تزوجت أمها الامير تنداريوس بعد ان هجرها زويس . وفى قصر تنداريوس شبت هيلين

يتضح من المقطع المتقدم من الالياذة بأن اسباب نشوب الحرب الطروادية يعود الى احداث أسطورية خرافية . وقد قدم هوميروس العواطف البشرية : من حب وكراهية . من غيرة وانتقام بأنها المحرك الرئيسي لأحداث دولية خطيرة تجاوزت آثارها آفاق البر الاغريقي . وبالتالي ولد مزج الشاعر للاسطورة الغامضة بالاحداث التاريخية شكا قويا لدى كثير من المفكرين . وميلا الى تكذيب ما يروى . وكانت حجتهم في الانكار تستند الى تحليل منطقي ، فاذا كان الجزء الاول من ملحمة الالياذة اسطوريا عاطفيا ، فلماذا ينبغي عليهم ان يصدقوا ان الجزء الآخر الدراماتيكي من الملحمة يشكل حقيقة تاريخية؟ أوليست اسماء أبطال الالياذة الرئيسيين : كبريام ومينلاوس ، وباريس ، وهيلين ، وهكتور ، وآخيل.. الخ اسماء اسطورية لم يعش اصحابها الا في مخيلة الشاعر هوميدّيس ، وبين صفحات كتابه ؟ وبالمثل حق لهم ان يتساءلوا : أين هي مدينة طروادة العظيمة وهل قامت حقا مدينة بهذا الاسم ، عاشت وازدهرت ثم جاءت حملة اغريقية عاتية لتنهي وجود المدينة بالنار والدمار ؟

الى جانب المنكرين لحقيقة ملحمة الالياذة . وجد نفر آخر من الناس اقتنعوا بأن الاخبار التي تضمنتها فصول الالياذة تشكل جزءا من التاريخ . حتى وعلى الرغم من الطابع الاسطوري الذي يسيطر على القصة وقد استندوا في تصديقهم الى ما اورده الشاعر اللاتيني فيرجيل عن دمار مدينة طروادة ، ومع ذلك ظل الصمت والغموض يلفان المدينة العتيدة قرونا طويلة فلم يقدم أحد حتى منتصف القرن التاسع عشر على تلك المحاولة الجريئة : سواء لتحديد موقع طروادة . او للتنقيب والكشف عن بقايا أسوارها وقصورها . وبقيت الملحمة الكبيرة تتابع حياتها في ذاكرة الشعوب حتى عام 1870 . ففي هذا العالم تم لرجل جرىء اسمه هاينريش شليمان ، ان يحقق حلما ما انفك يراوده منذ طفولته : حلم البحث عن المدينة المسحورة التي خلدها هوميروس في ملحمته . والتحقق من صحة وجودها .

الطريق من الاسطورة الى الحقيقة التاريخية :

كان من الممكن جدا ان تبقى مدينة طروادة مفقودة ـ شأنها في ذلك شأن الكثير من المدن التي قامت ثم اندثرت وضاعت ـ الا انه من غرابة الاقدار ان يرتبط اسم المدينة الاسطورية بعد قرون من الثبات باسم رجل مجهول . وان تقترن عملية بعثها بنقطة حياة طفل بدأ حياته صبيا لبقال في مدينة المانية صغيرة ، وان يكون اسم ذلك الصبي المجهول هاينريش شليمان . كان والد شليمان راهبا بروتستانيا فقيرا في مدينة انكرسهاجن ، وقد ماتت والدته في سن مبكرة ، ثم فصل والده عن العمل بسبب خطيئة ارتكبها . وبالنظر لفقر والده لم يتمكن هاينريش الصغير ان يتابع دراسته الثانوية . واضطر الى مغادرتها الى العمل المهني بعد ان حصل على دبلوم بسيط ، وبذلك ضاعت على الفتى الطامح الى المعرفة والى التعليم فرصة التعليم الجامعي والدراسات العليا . جابه شليمان الحياة القاسية ولم يكن له بعد أكثر من اربع عشرة سنة ، فعمل صبيا في بقالة صغيرة . وقد تحمل خلالها الكثير من الاسى ومن الشقاء . ولم ينقذه من هذا العمل المنهك الا انهياره

مرة تحت وطاة برميل ثقيل كان يحمله. ولذلك اضطر هاينريش الى البحث عن عمل آخر يحتمله جسده المجهد . فانتهز الفرصة ليتعلم أصول المحاسبة ، ثم جمع القليل مما ورثه عن امه . وسافر هاربا من شقائه الى هامبورج أملا في اكتشاف العالم وفي بدء حياة جديدة . وخيل للفتى ان الحظ يبتسم له أخيرا . عند ما عثر على عمل في فنزويلا، فركب البحر متوجها الى هناك ، غير ان عاصفة تداهم مركبه ، وهو لم يبتعد عن الشاطىء الاوربي بعد . وكان شليمان من بين القلائل الذين نجوا من الغرق . نعاد الى امستردام وعمل فيها صبيا في مكتب تجاري براتب ضئيل . ومع ذلك اخذ يخصص نصف هذا المرتب لتعلم اللغتين الانكليزية والفرنسية ، وكان النصف الآخر لا يكفي لسد ثمن الطعام واجرة المسكن . وفي هذه المرحلة الهامة من حياة شليمان تتبلور خصائص شخصيته وتظهر الى الوجود . اذ أثبت انه لم يكن ذلك الطفل الحالم ، ولا الخيالي المتحمس حسبما اعتاد اهله ان يسموه ، بل تميز بحس واقعي وبروح واضحة صافية ،. وقد زادته الآلام قوة وصلابة . وكان شليمان قبل كل شيء يعرف ماذا يريد . وقد أراد ان يخرج من الفقر الذي يشل فعالياته مؤمنا بأن الطريق الى ذلك يكمن في الحصول على المعرفة . والحصول على المال ، لذلك صمم على الحصول عليهما معا مهما كلفه ذلك من ثمن .

هنالك عظماء كثيرون في التاريخ وصلوا الى ما يصبون اليه دون ان يكون لمراحل طفولتهم الباكرة دور كبير في نجاحهم . الا ان شليمان يتميز بانه رسم قدر حياته منذ طفولته الباكرة . وفي هذه الطفولة البريئة بدأت قصة الصراع الطويل بين الاسطورة والحقيقة التاريخية . وكان للانطباعات الفنية التي حصل عليها من والده آنذاك تركت اثرا عميقا في فكره . فقد كان والده معجبا بالشاعر هوميروس ويستهويه التاريخ القديم . وكان الاب يقرأ لابنه مقاطع من الالياذة والاوديسة ويحدثه عن الابطال السالفين . مما ملأ قلب هاينريش الصغير اعجابا بهم وبمدينة طروادة الرائعة . كان هاينريش يحلم بالمدينة وبالمصير البائس الذي لقيته ، وقد صدف ان رأى في كتاب تاريخ أعد للاطفال . صورة خيالية لطروادة والنار تلتهم قصورها واسوارها ، فقال لابيه ان مؤلف الكتاب لم يكن يستطيع رسم مثل هذه الصورة لو لم ير المدينة . فهل كان لقصر بريام اسوار ضخمة بهذه الدرجة ؟ وعندما اجابه والده بالايجاب . اضاف هاينريش : «اذا كان الامر كذلك فان الاسوار والمدينة لا يمكن ان تختفي كلية . لابد ان تكون طروادة مدفونة باسوارها ومنازلها تحت الغبار والتراب وانقاض القرون العديدة . وعندما ساصبح كبيرا سوف اذهب لافتش عن طروادة ، ولانبش في المدينة كل الكنوز التي احتوتها ... ! » .

لم يفارق هذا العزم مخيلة هاينريش خلال مراحل حياته العصامية . وقد بدأ الطريق بتعلم اللغات الاجنبية ، واقبل عليها بشره وعطش شديدين فتعلم الانكليزية والفرنسية والهولاندية والاسبانية واللاتينية ... وكان يحفظ مجلدات بكاملها عن ظهر قلب . وفي عام 1846 ارسله مدير المؤسسة التجارية التي يعمل فيها في امستردام ليمثل

الشركة فى فرعها فى روسيا . فانكب على تعلم اللغة الروسية مما ساعده على تحقيق تقدم كبير فى عمله فى مدينة بتسبرج . وما لبث ان استقل فى تجارة استيراد الخشب والشاى والسكر والقهوة من امريكا اللاتينية · وابتسم له الحظ عندما قبل عام 1847 فى النقابة الاولى لتجار الجملة ، الامر الذى فتح لــه الطريق الى معرفة العائلات الشهيرة واصحاب الاعمال فى روسيا · وهكذا اصبح لشليمان صلات تجارية مربحة بين أوربا الغربية وروسيا · اضاف اليهـا تجارته بالذهب فى الولايات المتحدة بعد وفاة شقيقه الذى قضى باحثا عن الثروة فى العالم الجديد · وفى عام 1855 بلغت ارباح شليمان الصافيـة 220،000 تالرثم ما لبثت ان ارتفعت الى ارقام خيالية · وفى رسالة كتبها عام 1858 الى صديق له يقول شليمان « لقد قمت بتجربة جمع الثـروة وعرفت الفشـل مثلما عرفت النجاح ان متابعة هذا الجهـد يتجاوز قوامى · وهذا ما يهدمنى معنويا وجسديا ·

وحتى اذا استطعت ان اربح الملايين نتيجة الاستمرار فى التجارة فانى سارفض ذلك ··· » · ولعل مـن بين اسباب عزوف شليمان عن متابعة التجارة فشله فى حياته الزوجية وفى علاقته مع زوجته الروسية التى رزق منها بطفلين ثم بثالث · فصفاته فى العمل الجدى وفى متابعة دراسة اللغات كالاغريقية القديمة والحديثة والبولونية والسلافية ، لم تترك له مجـالا للتفرغ للحياة البيتية · وكان من الصعب على امراة شابة ان تعود نفسها على مثل هذا الرجل العنيد الملىء بالحيوية الذى يستغرق العمل كل وقته . وبمـا ان زواج شليمان لم يكن وليد حب ، فان برود زوجته الزائد لم يترك له مجالا غير الطلاق منها . وقد تم عام 1868

ذكرنا ان شليمان اراد منذ عام 1858 هجر التجارة وكان شوقه نحو تعلم اللغات تعبيرا عن اسفه الشديد لحرمانه من الدراسة العليا لسبب خارج عن ارادته· وكان حلم طفولته يراوده دوما ويقول فى رسائله : « أمالى تزداد ، ويجب ان اعيش من اجل العلم الذى أحبه كثيرا » · وهذا العلم كان « علم الآثار » ، والحلم الذى يراوده منذ الطفولة هو الكشف عن سر طروادة وفى عام 1863 تم لشليمان نهائيا الانسحاب من حياة رجل الاعمال التى عاشها خلال عشرين سنة بنجاح كبير ·

شليمان العالم :

ابتدأ شليمان، الصفحة الجديدة من حياته برحلة طويلة حول العالم استغرقت سنتين . كتب مذكراته خلالها فى 580 صفحة ، بالاضافة الى كتابه الاول عن «الصين واليابان » الذى ظهر فى باريس عام 1867 · ثـم استقر فى مدينة باريس وكان له من العمـر انذاك اربعة واربعون عاما . وهناك بدأ دراسته العلمية فى الصوربون ، وتسجل فى دراسة اللغات والآثـار المصرية والفلسفة والادب الاغريقى . واللغة والشعر العربى ··· الخ · واعتبارا مـن عام 1868 يكرس نفسه للدراسات الاثرية فقط · وفى ابريل من السنة ذاتها بدأ شليمان رحلته فى بلاد الاغريق متقفيـا آثار هوميروس ، حيث وطات قدماه لاول مرة ارض طروادة · فاخذ يبحث عنها حاملا الياذة هوميروس فى يده ·

لم يكن شليمان أول من ذهب للبحث عن طروادة بل سبقه عالم فرنسى حدد موقعها خطأ فى مكان آخر

وبعد بحث طويل قادته خطاه الى هضبة «حصارلك» -بعد ان تتبع مجرى نهر اسكماندر- وهى تل يقع على مبعدة ساعة من شاطىء البحر « اطللسبونت » بشكل مستطيل طوله 230 مترا وعرضه 160 مترا م ويقول شليمان : « هنا كان قصر مبريام . وبواسطة الرفش سأقدم البرهان على ذلك » ولكى يستمع الناس الى وجهة نظره ، فكر فى ان يقدم نفسه اليهم ليصبح معروفا من قبلهم . فكتب كتابا بعنوان : « ايتاك ، والبيليبونز ، وطروادة ابحاث أثرية » ضمنه نتائج رحلته مع نبذة من تاريخ حياته لينال به درجة الدكتورة من جامعة روستوك ، والآن اصبح شليمان يمتلك معظم الوسائل التى تؤمن له تحقيق حلم طفولته • فكانت حياته ملحمة متكاملة : من الطفولة الى العمل . الى الزواج ، والعلم • ولم يكن الانتقال بين هذه المراحل فجائيا كما رأينا وهذا خلافا لما يرمى به البعض شليمان بانه مجرد تاجر غنى – بل كان بطيئا متواصلا عاش كل مرحلةمنه بكل ابعادها وعرف فيها الشقاء مثلما عرف السعادة وكما كان طريق ارتقائه من صبى بقال الى تاجر غنى محاطا بالصعوبات وبالمشاق . فان طريق شليمان من طالب علم الى مكتشف وعالم كبير لم يكن باقل صعوبة • وقد انهال النقاد على كتابه يسفهون آراءه ويجرحون النتائج التى أراد التنبيه اليها (6) •

البحث عن طروادة وبدء الحفريات الأثرية :

تقدم شليمان الى الحكومة العثمانية بطلب يرجو منها الموافقة على مشروع التنقيب عن طروادة فى تل « حصارلك » ، واستغرق انتظاره سنة كاملة • وكان قد انتقل للعيش فى مدينة اثينا احدى مسارح ابطال احلامه وبسم الحظ له بان تزوج من صوفيا الاغريقية ، وهى فتاة جميلة ذكية من فتيات اسر مدينة اثينا . المرموقة ، ولم يكن لها من العمر انذاك اكثر من سبعة عشر عاما •

جاءت الموافقة من السلطات العثمانية فى استامبول وقد اشترط فيها ان يقدم الجزء الاكبر من الاشياءالتى سيعثر عليها الى الدولة . وان يلتزم بالحاق موظف تركى ببعثته ، علاوة على تحمل شليمان مصاريف التنقيب •

اعتمد شليمان على وصف هوميروس للمدنية فى كتاب الالياذة ، وهذا ما قاده الى الاستنتاج بأن « الطبقات العليا من التل يجب ان تخفى فى طياتها طبقات المنشآت العائدة الى العهدين الرومانى والاغريقى • وتحت هذه الطبقات يجب ان توجد مدينة طروادة المدفونة تحت انقاض الآف السنين • ولذلك يجب التفتيش عنها فى اعماق التل » • وبالفعل بدات الحفريات ، على سطح التل عام 1871 بحفر عديدة وعميقة ، وبلغ عدد العمال حوالى 20:

(6 تميزت حملة العلماء على شليمان بالنقد العنيف : مرة لانهم اعتبروه دخيلا على الوسط العلمى ، وثانية لانه هدم لهم مسلمات كانوا يتعلقون بها . وكتب الى والده يقول : « وبينما أهدم كل ما كتبه سترابون والمؤلفون التالون عن طروادة ، يصبح كتابى هدفا لنقد عنيف ومع ذلك فانى لست اخاف النقد لانى سأقدم براهين عديدة تستند الى حقائق مؤكدة » ، وكان النقاد يقولون عنه : « انه غنى ، ولكنه مجنون » •

عاملا ، أشرفت زوجته صوفيا على ادارة قسم منهم ٠ وكانت صوفيا من انصار هوميروس ومتحسة جــدا لعمل زوجها ٠ وما ان بدا العمال يتعمقون فى باطن التل حتى أخذت البقايا الاثرية تتكاثر . فهنــالك جدران من الحجــارة المنحوتــة والاراضى الفخارية والادوات من مختلف الانواع والاشكال مما شجع شليمان على متابعة الحفر بحماس ، فقام بشق سبــر جديد من حافة التل الغربية متجها الى وسط التل. فاصبح العمل صعبا وخطيرا بسبب احتمال انهيار جوانب السبر فوق العمال . كما كانت الريــــاح تسفى الغبار والتراب فى عيونهم ، والحرارة تنهكهم وازدادت الصعوبات عندمــا اتضح لشليمان بان السبر فى اعماق التل يكشف عن عدد وفير من طبقات المدن والسكنى توضعت فوق بعضها البعض ٠ وكان بعضها يحمل على الجدران وفى التراب آثار حريــق واضحة ٠ هذا التعاقب الطبقى برهن بانه توجد فى تل « حصارلك » مدن عديدة غير مدينة طروادة ، بلغ عددها سبعة مدن أولا ثم ازداد الى تسعة مدن فيما بعد ٠ وهذه المدن فيها قصور ومساكن وادوات على مستوى مختلف من التطور الحضارى ٠ والآن وقف شليمان أمام حيرة كبيرة . فأى المــدن هــذه كانت المدينة التى تغنى شاعره الكبير هوميروس باخبارها٠

اخيرا وصل العمال الى الصخر الاصم . فعثروا على عمق عشرة امتار من سطح التل على سور ضخم من الحجارة مازال قائما فى مكانه بارتفاع ستة أمتار والسور يذكر باسلوب بنائه بابنية العهود القديمة ومع تتبع الجدار ورفع الاتربة والانقاض ظهر للعيان بوابة ضخمة ذات بابين ، فاعتقد شليمان مبتهجــا بأنها، بوابة مدينة طروادة ذات المرتقى المنحدر الذى يؤدى الى السهل المجاور . وزاد فى قناعة شليمان عثوره على آثار حريق ضخم على جدران السور أكد ظنه فى ان البوابة الضخمة هى المدخل الى مدينـــة بريام ٠ وهكذا خيل الى شليمان انه وجد حلا للغز الكبير ، وانه استطاع بمساعدة الرفش والمعــول الوصول الى هدفه . وبان طروادة كانت موجودة حقا٠ ولم يكن ذلك نصرا لاحلام صبى البقــال هاينريش شليمان فقط بل كان ايضا نصرا للشاعر هوميروس٠

اعتقد شليمان انه انجز مهمة حياته فى طروادة ، وبينما كان يتأهب لانهاء الحفريات ومغادرة المدينة يوم 15 جوان 1873 ، اذا به يفاجأ باكتشاف جديد مذهل . فقد عثر فى مكان خفى من السور على كنــز كبير من الذهب أطلق عليه اسم « كنز بريام » ويتالف الكنز من طاسات ثقيلة من الذهب ، وأوانى كبــيرة وصغيرة وقصعات من الفضة ومن الالكتروم (مزيج من الفضة والذهب) وتيجان ذهبيــة ، وأســاور وأقراط وعقود .. الخ . فاخفى أمرها عن العمــال ونقلها سرا الى كوخه الصغير . ثم غادر تركيا حاملا الكنز معه ٠

نشر شليمان تقريرا يتضمن صورا وفيرة لاجزاء الكنز ولحفرياته فى طروادة ٠ وكان التقريــر فى مجلدين تحت عنوان « آثار طروادة » ٠ وظهر الخبر فى الصحف . العالمية منذ يوم الاكتشاف ، فاحدث رد فعل عنيف لدى مختلف الاوساط من مؤرخــين واثريين وعلماء وسياسيين فى أوربا ٠ وتبلــور رد الفعل فى نقد عنيف وموقف سلبى . وزعم البعض بأن الكنز مزيف . واتهموا شليمان بانه « مــزيف ومحب للشهرة » ، أو بانه « مجنون وناضج للذهاب

الى المنفى » • ولم يقف الى جانبه الاشخاص : ينوتون مدير المتحف البريطانى ، وجلاد ستون رئيس وزراء بريطانيا الذى كان من المعجبين بهوميروس.واستقبل شليمان فى انكلترا كما لو انه ظفر للتاج البريطانى بمستعمرة جديدة • وما لبثت الاكاديميات العلمية ان دعته لقبول عضويتها ، وحظى بمقابلة خاصة مع ملكة هولاندة • غير ان الحكومة العثمانية اقامت عليه الدعوى لانه اخرج الآثار الثمينة التى اكتشفها فى طروادة . وحكم عليه بدفع تعويض قدره عشرة آلاف فرنك ، اسرع شليمان لدفع خمسين الفا عوضا عنها وفيما بعد اهدى شليمان « كنز بريام » الى متحف مدينة برلين الى الشعب الالمانى لكى يملكه ويقـوم بالحفاظ عليه الى الابد (7) وفى 14 جويلية عام 1881 استقبلت عاصمة الرايخ ابنها العالم ومنحته لقب مواطن شرف فى احتفال منقطع النظير (8) •

بين الشك واليقين :

لم تبارح الشكوك خاطر شليمان حول فرضياته واستنتاجاته بالنسبة لهوية مدينة طروادة • واعتقد ان الجواب القاطع على دوامة الاسئلة العديدة لابد ان يكون فى البر الاغريقى نفسه : فى بقايا المـدن والقصور التى عاش فيهـا اجاممنون وصيفلاوس وبقية ابطال الحرب الطروادية • لذلك طلب مـن الحكومة اليونانية الموافقة على اجراء تنقيبات اثرية فى موقع مدينة ميكينى • وابتسم الحظ من جديد لعالم الآثار مثلما ابتسم من قبل للتاجر . فقد عثر مـع زوجته على اكتشافات مذهلة ضمن قبور المدينة • فتضمنت القبور ثروة من الذهب من حلى واقنعـة وتماثيل واسلحة لا تدفن عادة الا مع جثث الملـوك والامراء • فكتب فى نشرة الحماس « لم يعثر احد حتى الآن فى اوربا على لقى من قبل التاريخ على مقارنتها بهذه الكنوز ، وكل متاحف العالم لا تملك مجتمعـة خمس هذه الثروة ! » . ومع ذلك ورغـم الضجـة الكبيرة التى أحدثتها اكتشافات شليمان فى ميكينى لم يعثر بعد على جواب قاطع • فعاد الى طروادة من جديد ليوسع المنطقة المحفورة ، وليكشف عن عدد من المبانى الكبيرة عن الطريق الموصل الى البوابـة الواقعـة فى الشمـال الغربى مـن القصر الملكى وبمساعـدة المهندس والمستشرق اميـل بورونوف Bournouf وابنته التى كانت ترسم مخططات ومقاطع دقيقة للاسبار وللمبانى المكتشفة ، تمكـن العالم من اكتشاف ثلاثة كنوز جديدة فى الطبقـة الثالثة من سويات السكنى • واستانف العمل فى المدينة عـام 1882 يصاحبه المهندسـان دوربفلـد Dderpfled وهوفلر Höefler : اذ مـازال الشك يقلقه • فطروادة التى اكتشفها كانت «صغيرة جـدا» بالنسبة لطروادة التى وصفها هوميروس ، ولربما لا تكون هى نفسها ! وسعى شليمان لاجراء قياسات دقيقة ، ومخططات لطبقات المدينة المختلفة •

تبين بنتيجة الاعمال الاخيرة ان سويات السكنى التى تم الكشف عنها كانت تختلف عن تلـك التى

7) فقد الكنز الكبير خلال الحرب العالمية الثانية •

8) لم يمنح لقب مواطن شرف لمدينة برلين قبل شليمان الا الى بسمارك وفون مولتكه

افترضها شليمان فى مواسم التنقيب السابقـة • ولقد كان لهذه النتيجة وقع مؤلم على شليمان . ولكنه توجب عليه قبولها باسم الحقيقة العلمية • فالمدينة « المحترقة » التى عثر على بقاياها سابقا اصبح الآن ترتيبها الثانية اعتبارا من الاسفل الى الاعلى ، بينما اعتبرها شلِيمان خطأ المدينة الثالثة • فلم تكن هى مدينة طروادة الهومرية . بل كانت تعود الى عهود اقدم بكثير • وبالتالى فان الكنز الذى اكتشفه انذاك ليس على الاطلاق « كنز الملك بريام » ملك طروادة

الى جانب العمل فى ميـدان التنقيب ، تابــع شليمان تاليف كتابه الهام (ايليوس) Ilios (9) وهذا مازاد من شد انتباه المثقفين فى انحاء العالـم الى اهمية عمله والى خطورة النتائج التى أسفر عنها وتضمن الكتاب مقدمة للعالم الالمانى الكبير اميل فيرشو Virchow جاء فيها : « الآن انتقل الباحث عن الكنوز الى مصاف العالم ••• وقد فرض شليمان نفسه لا بالنجاح فقط الذى حققته له اكتشافاتـه ، بل وايضا بالطريقة التى اتبعها فى العمل . لاريب ان الياذة هوميروس الخالدة قد استحوذت على خيال هايزيش الذى شكل ايضا مفتاح نجاحه ••• ومع ذلك لربما كانت مدينة طروادة « المحترقة » ماتزال اليوم والى الابد تحت ظلام التراب ، لو ان الرفش لم يكن يوجهه الخيال ••• » • ويقدر العالم سايس Soyce جهود شليمان فى مقدمته : « لا يوجـد اليوم عالم آثار مختص سواء فى بلاد اليونان أو فى أوربا الغربية يشك بالاعمال الرئيسية التى أثبتتها حفريات شليمان • فقد دشن حقبة جديدة فى دراسة التاريخ الكلاسيكى ، وبعثر مفاهمنا عـن الماضى ، وأرسخ العلام الأول والهادى فى ميدان البحث العلمى بواسطة الرفش » •

9) صدر الكتاب بالتنابى باللغات الانجليزية ، الالمانية ، والفرنسية

ابعدوا عنا الخمريات والغلاميات

واعطونا موسيقى وطنية ذات بعد عالمي

ملخص رسالة اجاب بها السيد مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، على دعوة وزارة الاعلام والثقافة ، الى المشاركة في الملتقى الخاص بالموسيقى الاندلسية الذي انعقد اخيرا ، وكلمة القاها في جلسة افتتاح الملتقى :

... « فبقطع النظر عن الجانب الفني البحت ، من حيث استعمال هذه الآلة أو تلك ، من تقليدية أو حديثة ، ومن استعمال النوطة لتسجيل التراث والانتاج الجديد والحفاظ عليهما ، وتعميم فائدتهما ، بنشرهما واعطائهما صبغة عالمية ، أقول ، وبقطع النظر عن هذا أو

ذاك من الجوانب الفنية فهناك جانب يهمني أكثر من غيره ، وأظنه يهم الجميع، وخاصة المواطن الجزائري « الشعبي » ، العـادي ، البسيط ، « المحافظ » ، الذي يحب هـذه الموسيقى ــ أو ينبغي تحبيبها اليه ــ ويود أن يتمتع بها بين أفراد أسرته بدون حرج وخوف من المفاجآت ... الأكيدة ، وهـذا الجانب أود أن أعبر عن رأيي بخصوصه منذ الآن ، وهي الفقرة الثالثة من النقطة الأولى أي المحتوى أو النصوص ، ولقـد سبق لي مرارا أن أسررت بشعوري الخاص هذا الى كثير من الاخوان المسؤولين عـلى هـذا القطاع ، من المستوى الأعلى ، حتى المشرفين على الاذاعة والتلفزة ، وحتى بعض شيوخ هذا الفن .

فاذا كانت الحان موسيقانا هذه رائعـة كلها ، وتعطينا صورة عما وصل اليـه الرقي الفني لدى اسلافنا ، فان محتواهـا مؤسف جـدا ، في غايـة السخافـة ، والسطحية ، والسماجة ، بل والقبح !

فكم من مرة فوجئت أسر مجتمعة حول جهاز التلفزة لسماع موسيقانا بكلمـات ناشزة بذيئة تتغنى لا بالخمر والخلاعـة وو ... فحسب ، بل وأيضا بقده ، وخده ، وثغره ، الخ ، من الغلاميات المعروفـة ، خاصة في قمة ازدهار الحضارة الاسلامية ، التي كانت بداية انحدارها وانهيارها في نفس الوقت ، كما هو شأن أغلب الحضارات على مر الزمن !

فاذا كان افراد العائلة اليوم يفترقون ، كل في جهة ، وينفرون عن الجهاز ، بعد أن كانوا محيطين به ، عند سماع مثل هذه الكلمات في أفواه « شيوخ الفن » على رأس الفرق المحترفة ، مثل عبد الكريم دالي ، ودحمان بن عاشـور ، والصادق البجائي ، ومحيي الدين باشتارزي ، وعبد الـرزاق فخارجي ، وعبد المؤمن بن طوبال ، والطاهر الفرقاني ، وحسن العنابي ، والمرحومـين الشيخ العربي بن ساري والحاج المحفوظ ، والمرحومتين مريم فكاي وفضيلة الجزائرية، وزهور الفرقاني، وثريا،وسلوى،الخ،الخ، فان سماع مثل هذه الكلمات وغيرهـا في أفواهشبان، بل أطفال صغار وبنات يافعات، من تلاميذ وتلميذاتالمدارس، لشيء فظيعلا ينبغي أن يسمح به بعد اليوم تحت صورة من الصور ، وبأية حجة أو تعلة من الحجج والتعلات !

وفي امكاننا ، بـل مـن واجبنـا ، أن نعوض ذلك كله بروائع مـن الخنساء ، وجرير ، والفرزدق ، والمتنبي ، والبحتري، وأبي تمام ، والمعري ، وابن هانيء وابن حمديس ، وابن قنفد ، وبلارة ، وغيرهـم

مـــن شعرائنـا القدمـــاء ، والمحدثين ، والمعاصرين ، من ذلك الشعر الجزل محتوى وشكلا ، ولنكف نهائيا عن سخافات المنحلين من الاندلس الذيـن ظلوا قرونـا يرددون مبتذلاتهم من نوع « اسقنا كؤوس الخلاعة » حتى خلعوا عن بكرة أبيهم وجدهم الأول !

وهذا لا يمنعنا من ان نسجل اعترافنا لشيوخ هذا الفن بفضل الحفاظ لنا على هذا التراث ، وخاصة طيلة العهد الاستعمارى الذى حاول ادماجنا والقضاء على تراثنـا الثقافى ، ولكننـا نطلب منهــم فقط أن يعيدوا النظر اعادة جذرية فى هذا التراث من حيث الشكل ، حيث اللحـن الفظيـع ، لأنهم حفظوه عن ظهر قلب وأغلبهم لا يعرفون العربية ، وكذلك وخاصة من حيث المحتوى الذى قلنا أنه ينبغى تطهيره ، بل تعويضه بمحتوى جديد يتفق أكثر وأمجاد ماضينا ، ومشاكل وقضايا حاضرنا،وآفاق مستقبلنا.

ثم ان هناك نقطة أخرى هامــة جــدا ، وهى العناية بتراثنا الشعبى ، من حيـث الحانه على الأقل ، فى اقامة موسيقى عالمية رائعة ، كما فعل الكثير فى مختلف أنحـاء العالم ، وأذكر منهم هنا فـوج الخمسة فى روسيـــا ، ريمسكـى كورساكـــوف ، موسورقسكى ، بورودين ، الخ) وسميتانا ودفورجاك فى تشيكوسلوفاكيا ، وبارتوك وكودالى فى المجر ، الذين أخذوا من الحانهم الشعبية ووضعوا منها موسيقى عالميـة ، وفى الجزائر المرحـوم محمـد ايقربوشن الذى صاغ موسيقى وطنية فى غاية الروعة وعلى المستوى العالمى من الحاننا الشعبيـــة من مختلف جهات الجزائر ، وتراثه معروف عالميا ، حيث وضع الموسيقى لأكثر من مائة شريط سنيمائى فى أوروبا ، وهو الـذى درس فى المعاهـد الموسيقيـة العليـا فى انجلترا ، والنمسا ، وفرنسا ، وسجلت له قطع موسيقية عالمية رائعة ، ولا تزال كثير من مؤلفاته عـلى مستـوى المخطوطات فى المعهد الموسيقى الجزائرى نرجو أن تبدأ فى الخروج من الدواليب ، وأخرى مسجلة فى اسطوانات ، وفى اذاعتنـــا التى عرضت الكثير منها فى السنوات الماضية ، وخاصة منها قصيدته السيمفونية المعروفة « ليالى الجزائر » . ومع ذلك فيوم مات فى مارس 1967 أو 1968 كنا قلائل الذين حضرنـــا جنازته مع أسرته ، ولم نر هناك فى المقبرة مدندنا واحدامن هؤلاء المدندنين المدربكين، كما لاحظت ذلك معنا صحفية فى جريدة الشعب بامضاء عفيفة •

(انظر نص كلمتها صحبة هذا المقال)

الموت بداية حياة فنان جزائرى
ـ محمد ايقربوشن ـ

لقد خسرنا اكبر مرشد لنا فى ميدان الموسيقى . . . واسمحوا لى اذا قلت الحقيقة الجارحة : لقد تخلينا عن موسيقار عظيم ، ولم نقدر العواقب . . . لم نقرا حسابا للخسارة الفظيعة التى نلاقيها فى ميدان الموسيقى بوفاة الفنان العظيم الاستاذ الموسيقار ايقربوشن .

كان الاستاذ الراحل يتمنى ان تعطى له مسؤولية الاشراف عل التكوين الموسيقى فى هذا المجال او ذاك ، وهو خريج اكبر معهد للموسيقى فى العالم فى فيينا ومات وامنيته معه ، قبرها فى اللحد . . لقد تنكرنا له ، ولم نعطه ما يستحق . . ولم نفسح له المجال ليعمل ويبدع . . وينتج ويكون .

لقد قال لى اكثر من مرة : لقد هجرت من كانوا يحترموننى وجئت الى بلدى . . لا حبا فى المال ولا الجاه . . ولكن حبا فى الانتاج والتكوين والعمل ، وكان الحال كما ترين تجاهل تام كاننا لا نعرف فى الموسيقى غير الانتساب .

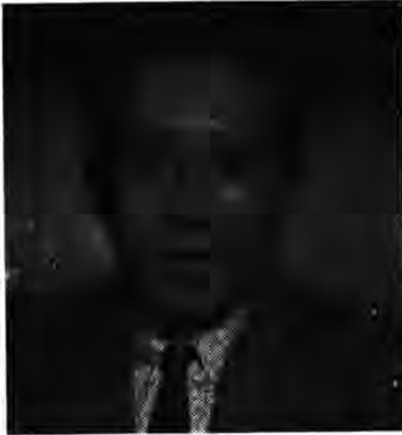
كان الاستاذ الراحل يعمل لفائدة الجيل الجديد لا من اجل المال . . وكان يتمنى ان تنطلق شهرته باسم : محمد الجزائرى لا باسم جورج ايقربوشن ، كما نشاهد ذلك فى كثير من الافلام السينمائية العالمية التى يضع لها الحانها التصويرية .

هذا العبقرى كرس حياته فى سبيل الفن . . والبلاد . وعوض ان نشجعه ، لم يتردد البعض فى وصفه بالجنون ولا يصفه بذلك الا منافسوه . . وما اكثرهم ولكنهم مع الاسف ـ بدون سلاح ـ اى بدون ثقافة موسيقية ولا موهبة موسيقية فنية اصيلة .

ان الفنان تتراكم عليه الصعاب فى اول الامر .. لكنه يصمد ويصارع الى ان ينتصر . غير ان حياة ايقربوشن كانت بالعكس ، كافح وناضل وصمد وصارع فى الخارج . . الى ان انتصر . ثم جاء الى الجزائر ليقبر مع فنه نكرة مجهولة لا يهتم به احد .

ولم اتعجب عند ما سرت فى جنازة المرحوم . . لقد تاكدت اننا لا نقدر الفنانين احياء ولا امواتا . . فلم املك الا ان ارسل دمعة حرى مشفوعة بالدعوات ليسكن الله فقيد الفن ، فسيح الجنان ، ورحم الله رحمة واسعة كل فنان كرس حياته من اجل الفن والحياة فى بلاده امثال رشيد القسنطينى ومحمد تورى ووراد بومدين وغيرهم .

عفيفة
من جريدة «الشعب»



محمد ايقربوشن

فلا بد لنا أن نرقى بموسيقانا الى المستوى العالمى ، وأن ينسج شبابنا على منوال محمد ايقربوشن ، ليكون لموسيقانا صداها فى مختلف انحاء العالم ، وألا نبقى مكتفين بترديد الدندنة القديمة ، وخاصة بمحتواها المبتذل البذىء ، اذا ما أردنا أن نسمع صوت الجزائر فى العالم فى المجال الموسيقى الذى لا يقل أهمية عن أى مجال آخر من مجالات التعبير ، ان لم يكن أهمها ، وبيتهوفن هو الذى قال مرة : «ان الموسيقى هى وحى اعلى من كل فلسفة ، واعمق من كل حكمة ! والذى تنفتح له موسيقاى يتحرر من جميع المحن التى تثقل كواهل الآخرين ! » .

وذلك ان بيتهوفن لم يكن من انصار «الفن للفن» بل كان يرى ان فنه أداة تعبيره عن تمجيده للطبيعة وآلامه الشخصية ، مع القدر ، كما فى السيمفونية السادسة والخامسة ، أو عن مشاعره الوطنية ، كما فى السيمفونية الثالثة مثلا وقطع أخرى ، وعن مبادئه الأخلاقية ، كما فى « فيدليو » ، وعن عقيدته أو بالأحرى روحه الدينية ، كما فى مؤلفاته العديدة ، وافكاره الانسانية ، كما فى السيمفونية التاسعة الخالدة !

وبهذه المناسبة استغربت من أن صحافتنا التى أوردت فقرة أو فقرتين من من كلمتى فى افتتاح ملتقى الموسيقى الاندلسية التى ذكرت فيها محمد ايقربوشن والموسيقيين الروس والتشيكوسلوفاكيين والمجريين لم تذكر الأ هؤلاء الأخيرين ، وضربت صفحا عن العبقرى الجزائرى الوحيد عندنا الى الآن فى هذا الميدان ، مع كل الآمال التى نعلقها على الشبان الناشئين الذين يبعثون حقيقة على التفاؤل الكبير ، وبدأوا فعلا ينتجون ويشرفون البلاد فى



بيتهوفن

الخارج ، امثال البرادعى ، وحكيم ، ومرزاق .

وأخيرا ، اننا اذ نهنىء أنفسنا بهذا الملتقى ، الذى جاء بعد طول انتظار ، نرجو ان يثمر ، وان يحقق الآمال المعلقة عليه ، والنتائج المرجوة منه كمنطلق أول ، ولنستعض بها عن كؤوس الخلاعة لأبى عبد الله الخليع ، آخر ملوك الاندلس !

مولود قاسم .

الفصــل بين العلــم والعمل

يقــول ابو حيان التوحيدى فى كتابــه « الاشارات الالهيــة » فى معرض نقد طائفة من علماء عصره ، كانت تسد منافذ الهــواء امــام التفكير الحر وضد استخدام العقل ، واقامة هـــوة عميقة بــين الفكــر والسلوك . وهو نقد ما يزال يصدق على طائفة من « علمائنا » المعاصرين الذين يحاولون نفس المحاولة :

« ... والعجيب انــك ــ أيهــا العــالم الفقيــه ، والأديب النحوى تتكلم فى اعرابه وغريبه (يقصد القرآن الكريم) وتأويله وتنزيله، ... وكيف ورد ، وبأى شىء تعلق ، وكيف حكمه فيما خص وعم ، ودل وشمل، وكيف وجهه ، وكيف ظاهره وباطنه ، ومشتمله ورمزه ، وماذا أولــه وآخره ، واين صدره وعجزه ، وكنايته وافصاحه، وكيف حلاله وحرامه، وبلاغته ونظامه ، وغايته ودرجته ومقامه ، ومن قرأ بحرف كذا وبحرف كذا ، ثم لا تجد فى شىء مما ذكرتك بــه ، ووصفتك فيه ، ذرة تدل عــلى صفائك فى حالك وادراكك ، مالك ، بل لا تعرف حلاوة حرف منها ... **فعلمك كله لفظ ، وروايتك حفظ ، وعملك كله رفض** »

أعمال كراتشوفسكي وآثاره في ميدان

الاستشراق العربي

المهدي البوعبدلي

عضو المجلس الاسلامي الاعلى بالجزائر

نشرت « المجلة المدار » التي تصدرها وكالة انباء نوفوستي السوفييتية في عددها الأول المؤرخ (يناير 1972) مقالا عنوانه « **الاستعراب في الاتحاد السوفييتي** بقلم ع. شوباتوف الدكتور في الفلسفة » قال فيه : « **الاستعراب السوفياتي اليوم علم كبير متعدد الجوانب** ، وهو يبحث عن تاريخ العرب القديم **والحديث ولغتهم وآدابهم الكلاسيكي والحديث وفلسفتهم واقتصادهم** .. وقد أدى الاكاديمي كراتشوفسكي امام المستعربين السوفيات خدمات جليلة في ميادين دراسة الادب العربي ووضع في مدة 45 عاما من النشاط العلمي أكثر من (450) مؤلفا ، ومن أعماله أول دراسة في العلم العالمي للادب العربي الحديث وعدد كبير من المقالات حول ابداع شعراء الجاهلية والقرون الوسطى .. » اهـ .

كان أهم ما ألفه المستشرق المذكور هو كتابــه «مع المخطوطات العربية» وهو شبه مذكرات تحدث فيها عن المدة التى اشتغل فيها بدراسة اللغة العربية وزار المشرق ومعاهده ومكتباته التى اكتشف فيهــا نوادر المخطوطات التى نقد معظمها بأسلوبه الساحر الجذاب وبمجرد ظهور الكتاب اعتنى به كثير مــن الكتاب ونقدوه ثم ترجموه الى عدة لغات كان مــن جملة من نقد الكتاب وترجمــه الى الفرنسية ونشر دراسته القيمة فى « المجلة الافريقية »(1) الاستاذ ـ سابقا ـ بكلية الآداب بالجزائر كانار قال : «كتاب» « أربعين سنة مع المخطوطات العربية » أو « مذكرات مستعرب » هما العنوانان اللذان أخترتهما للكتاب القيم الذى ألفه كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى بالاتحاد السوفييتى واستاذ اللغة العربية بجامعة لنينغراد . ذلك الكتاب الذى ألفه مدة الحرب العالمية الثانية نال نجاحا كبيرا فى روسيا . ذلــك النجاح الذى جعل مؤلفه يتبع طبعته الأولى التى ظهرت سنة 1945 ، بطبعة ثانيــة ظهرت سنة 1946 ... يعرف المستشرقون انتاج كراتشكوفسكى حيث ان الكثير منها نشر أو ترجم الى اللغات الغربية . ويعرفون أيضا مكانة المؤلف فى أوساط الاستشراق .

أما عامة القراء فان معرفتهم له ضئيلة . ولهــذا فان كثيرا مــا افاجىء اصدقــاء . بالجزائر ومنهـــم الروسيون ، عندما أقول لهم أن روسيا يمكن لها ان تفتخر بوجود اعظـــم مستشرق ـ مستعرب ـ فى العالم اجمع ببلادها ، وهذا هو رأى الاختصاصيين فى ميدان الاستشراق .

ان مذكراته التى اتممت ترجمتها الى الفرنسيــة والتى أنوى نشرها قريبا ستعرفه لا محالة فى محيط أوسع . وتعرف فيه زيادة على العالم الاختصاصى . العالم الانسانى الذى لا يخلو عمله فى الميدان العلمى من حيوية مقرونة بعمق فى التفكــير يفتح الآفاق الواسعة فى تاريخ التمدن » انتهى كلام كانار.ترجم الكتاب . أى «مع المخطوطات العربية» أو «المذكرات» (كما سماها كانار) الى عدة لغات ، منها العربية ، فقد ظهرت سلسلة فصول منه فى « مجلة الرسالة » المصرية سنة 1946 ثم ظهرت ترجمة عربية مستقلة سنة 1963 ترجمت مـــن الأصل الروسى مباشرة . قامت بها زوجته العالمة الجامعية فيرا كراتشوفسكى باعانة بعض مواطنيها . وقد مت لها مقدمة هامــة وسمت التاليف « مع المخطوطات العربيــة » عرفت فى هذا التقديم بزوجها . واهتمامه المبكر بالاستشراق ورحلته فى شبابه الى البلاد العربية الشرقية ، وذلك بين سنوات 1908 و 1911 ، زار خلالها لبنان وسورية وفلسطين ومصر فتعرف ببعض الادباء المشهورين اذ ذاك كامــين الريحانى ، وجرجى زيــدان . وأحمــد تيمور ، ومحمد كردعلى ، وميخائيل نعيمة . وكان يتبادل معهم الرسائــل حتى ان كثــيرا من الكتاب التجاوا الى تلك الرسائل ليستعينوا بها على تراجم بعضهم ، من ذلك الرسائل المتبادلة بينه وبين الاديب الشهير ميخائيل نعيمة ونشرها كراتشوفسكى (2)

1) ـ المجلة الافريقية ـ اعداد 406 الى 409 المؤرخة سنة 1946 ص 118

2) وقد ترجم هذه الرسالة محمد منير مرسى فى مجلة ـ الرسالة ـ المصرية بعددها 1052 ـ 28 شوال 1383

تحت عنوان « ميخائيل نعيمة يحكي قصة حياته » لم يكتف المترجم طيلة مدة أقامته بالديار الشرقية لم يكتف بالتردد على المعاهد العلمية وخزائن الكتب ومخالطة الادباء والعلماء بل كان يقضي اوقاتا طويلة في الأسواق والمقاهي ومجالس القصاص والزجالين حتى امكنه ان يجيد اللغة الدارجة بمختلف لهجاتها كما كان يتقن الفصحى ٠

ثم ذكرت ارملة الكاتب ان زوجها ألف كتابه أيام الحرب العالمية الثانية اذ شرع فيه بالضبط سنة 1941 بلنينغراد عندما كان محافظا على القسم العربي من مخطوطات « المتحف الأسيوي » قبل نشوب الحرب (الألمانية ـ الروسية) وبعد اندلاع الحرب انتقل المؤلف الى ضواحي موسكو « أثر مرض عضال أصيب به وقت حصار لنينغراد»ورغم انه كان يعالج في بعض المصحات فقد واصل بها اتمام تأليفه وابى الله الا ان يتأخر اتمامه الى سنة 1945 بلنينغراد نفسها بعد رد هجومات العدو والنصر النهائي كان ابتداء دراسة المستشرق للغة العربية سنة 1901 فالتحق بكلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبوغ (لنينقراد) ثم واصل تعليمه الى ان رحل الى المشرق كما ذكرنا وبعد رجوعه من رحلته الشرقية الى بلاده عين عضوا في اكاديمية العلوم السوفييتية سنة 1921 ثم انتخب سنة 1923 عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق كما عين عضوا في مختلف الاكاديميات والجمعيات العلمية في جملة بلدان آخرى ٠

ثم ذكرت زوجته ان مجموع ما كتبه ستمائة دراسة علمية معظمها في تاريخ الآداب العربية القديمة والحديثة . وتذكر أنه عندما حاصر المحور مدينة لنينقراد في الحرب العالمية الثانية وكان كراتشوفسكي محافظا لقسم المخطوطات العربية بالمتحف الأسيوي وكان بصدد كتابة تأليفه بذل جهودا جبارة في صيانة تلك الذخيرة وانقذها بالفعل (مجموعة المخطوطات) فقدرت الحكومة السوفياتية صنيعه هذا ومنحته بعد الأنتصار أعلى وسام سوفييتي (وسام لنين) كما عززت له ذلك سنة 1945 بوسام ثان تقديرا لمآثره العلمية ٠

طبع هذا الكتاب خمس مرات باللغة الروسية ونفذت هذه الطبعات بسرعة ، ثم ترجم (1) الى الالمانية سنة 1949 والى البولندية 1952 والانجليزية 1953 والفرنسية 1954 ـ وقد علمنا ان كانار استاذ جامعة الجزائر ذكر انه ترجمه سنة 1946 ـ

ثم تذكر الزوجة ما قاله المترجم في مقدمته للتاليف والذي يمكننا ان نعتبره تلخيصا لدواعي تأليفه قال « انني لم اتعمد في هذا الكتاب السعي الى تبسيط العلم فليس يهمني ان لا يتذكر القارىء جميع ما ورد فيه من الوقائع المنفردة أو اسماء الاعلام ولكني اقتصرت في تحديد مادة الكتاب على المواد القريبة من محيط عالمي ، واكتب عن اشياء متعددة أخرى بطريقة تختلف عن ذي قبل . ولهذا فقد يجد القارىء من حين لآخر ، في هذا الكتاب ، اشياء جديدة ومفيدة للعلم ، على ان هذا ليس ما يهمني من الامر . وانما

1) ذكر تاريخ هذه التراجم عبد الرحمن بدوي في ـ مجلة الكتاب العربي ـ المصرية عدد اكتوبر 1964

الذى يهمني هو شيء آخر ، انني لا اخفي انني اردت ان أقوم بشيء من الدعاية لميدان عملي ، وان اتحدث بملء صوتي عن علم اللغات والآداب الشرقية ، لقد اردت ان ابين قدر طاقتي كيف ان ثمة اناسا يعملون في هذا الميدان لمجرد ان لديهم ذوقا ذاتيا غريبـــا على حد ظن بعضهم ، يجتذبهم الى هذا العمل ، وان هؤلاء الناس يطوفون بهذا الميدان ، لا بدافع الولع بالغرائب وانهم ليسوا بزهاد ينعزلون عن الحياة ، ان ذكريات مشاعري نحو المخطوطات تحتم على ان اتكلم عن كل نقطة تفصيلية فيها ، لانها تتكامــل فيما بينها ، وترتبط بمسائــل ضخمـــة ، تتعلق بتاريخ الثقافة ، وجميعها تصب آخر المطاف ، في تيارقوى ، نحو مثل الانسانية الرفيعة ، هذا هــو ما كان يستحوذ على فكرى دائما واني أود ان تجد هذه الافكار الطريق الى عقول وقلوب مــن سيقرؤون هذا الكتاب » .

هذا بعض ما قاله الكاتب في مقدمة تاليفه وهو على سرير مصحة من مصحات ضواحي موسكو وقد أحس ان اعتناءه بمثل هذا التأليف « ومبالغته » في التنويه بشأنه لربما يجر عليه بعض التهم التي كانت تكال لكثير من المستشرقين ، منها ما اشار اليه «ان لديهم ذوقا ذاتيا غريبا » أو أنهم يعملون في هــذا الميدان « بدافع الولع بالغرائب » وما الى ذلك فقال : « وقد يرى الناس في حــديثي فيضا مـــن العاطفة والرومانطيقية الا انني لا اخاف هذا اللوم ، فهكذا عشت عملي وهكذا اتذكره » .

ثم نرجع قليلا الى نقد الاستاذ كانار حيث قال « ان الاقبال الذى لاقاه التاليف في روسيا يثبت ان جماهير القراء يمكنهم ان يهتموا بهذا النوع من البحوث (الاستشراق العربي) بشرط ان تفرغ وتقدم لهم في اطارات حيوية » ثم يصف لنا الكتاب فيقول « انه يحتوى على 28 مقالا تشملها سبعة فصول مــع مقدمة وخاتمة ، كل مقال يذكر فيــه الظروف التي اكتشف فيها تلك المخطوطات وانطباعاته » ونجد المؤلف يقول في مقدمته : « فما كتبت هذه المذكرات عن نفسي ، بل عن المخطوطات العربيــة التي لعبت دورا كبيرا في حياتي ، والتي شاء لي الحظ ، ان اقع عليها ، أو التي شقت طريقها الى دنيا العلم عبــر يــدى » .

ولنقتصر على تقديم مقالين من هذه المقالات المذكورة
1) دراسة بعض أوراق بالخط الكوفي من مصحف
2) دراسة ديوان ابي بكر بن قزمان الاندلسي .
فالدراسة الاولى عنوان لهــا : « قــرآن كوفي » « وجدة عربية » والثانية (مخطوط وحيد وعلمـــاء « اثنتي عشرة لغة ») .

قال عن (قرآن كوفي « وجدة عربية » ما يلي : « يمثل القرآن الكوفي مـــن القرنـــين الهجريـين الاول والثاني شيئا نادرا جدا في مجموعة المخطوطات وتعتبر النسخ الكاملة منه احادية في كل العالــم وكان زينة مكتبتنا العامة مدة طويلة ، القرآن الذى يعرف بالعثماني أو السمرقندى ، وقد حمــل الى مدينتنا بامر الجنرال فون كاو فمان ، كغنيمة حربية عند غزو آسيا الوسطى ، ثم عاد من جديد الى آسيا الوسطى بعد ثورة اكتوبر وبالطبع فانه لم يكن مطلقا في يد الخليفة في اللحظة التي مات فيها ، مثله كمثل توائمه التي عرف منها في العالم ما لا يقل عن ثلاث أو اربع نسخ ، ولكنهما تنسب كلهـــا أو ترجع الى

القرن الاول الهجرى فان تلك النسخة الكاملة لم تبق في لينينقراد وكان الامر هنا وفى البلاد الأخرى عادة ان القرآن الكوفى فى كل مكان يتمثل فى أوراق ناقصة من الرق ، يختلف عددها باختلاف الاماكن ، بل ان مارسيل المشهور ، مؤسس المطبعة العربية فى مصر وقت حملة نابوليون ، والهاوى الكبير لفن الخطوط ، ولعلم تطور الخطوط الأثرية لم يستطع ان يحمل معه – من مصر – الا اوراقا منفردة وقع جزء منها فى مكتبتنا العامة ، ولقد شكلت امريكا طيلة القرن الأخير وبفضل ملايينها ، مجموعات فى مجالات مختلفة ، يكسف ضوؤها احيانا مجموعات العالم القديم ، الا انها حتى الآن ليست اسعد من هذا العالم فى المخطوطات الكوفية ، وهى تقوم بنشاط بوصف وبحث الاوراق الجزئية المختلفة التى تقع لديها من وراء المحيط الا ان مثل هذه الاوراق الكوفية لم تكن تظهر بصورة كثيرة •

ولذلك يصبح من المفهوم كيف خفق قلبى ، عندما وقع فى يدى ذات مرة فى خريف 1936 ، بضع عشرات من الاوراق الرقية الكبيرة الرائعة بخط كوفى قديم ، وكانت سيدة مجهولة قد حملت هذه الاوراق الى معهد الاستشراق لتبيعها ••• ، وهنا تبدو قصة جزء المصحف الذى اشتراه المؤلف لخزانتهم وذكر ضمنها المصحف العثمانى الذى كان بالمتحف الاسيوى بلينينقراد •

ولنقف قليلا لنتحدث عن المصحف العثمانى المذكور . كانت هذه المصاحف أى المنسوبة لعهد الخليفة عثمان بن عفان يتسابق الى اقتنائها الملوك والسلاطين وبالفعل يحكى ان واحدا منها ختم به المطاف ببجاية (1) وكان الناس يجتمعون للتبرك به ليلة 27 رمضان لحبر يطول ثم ، عرف ان مصحفا آخر كان بخزانة تيمور اللنق بسمرقند وبالفعل لا زالت آثار سمرقند تحتفظ « بالقاعدة الرخامية » أى مصطبة من رخام بساحة البلدة وقيل ان هذه المصطبة كانت داخل مسجد الخواجة احرار ، وقد امر ببنائها العالم الفلكى الشهير أولغ (2) بك حفيد تيمور اللنق ليوضع عليها المصحف واثر الزلازل التى هدمت كثيرا من معالم البلدة اخرجت هذه المصطبة الى الساحة العمومية وقد تعرضت مجلة «دعوة الحق» التى تصدرها وزارة الاوقاف بالمغرب بالحديث عن هذا المصحف فى معرض سلسلة احاديث كانت نشرتها بمناسبة زيارة الوفد المغربى الذى زار الاتحاد السوفييتى سنة 1968 تحت رياسة السيد احمد برقاش وزير الاوقاف حينئذ قالت المجلة المذكورة

1) عثرت فى بعض الاوراق على قصيدة وصف فيها صاحبها حالة بجاية ويذكر ان اهلها كانوا يخرجون ليلة 27 رمضان الى ساحة سفح «جبل قليفلة» ليتبركوا بالمصحف العثمانى ، وبالفعل استحال هذا الاجتماع الى ما سمى بصلاة 27 ونسبت تلك الصلاة انها كانت لاحياء ذكرى احد مشائخ الطريقة الرحمانية ، والحقيقة او ما يقرب منها هو ما ذكره الشاعر حيث بقى سكان البوادى يزورون البلدة ومساجدها ليلة 27 رمضان من كل سنة

2) اولغ بك الذى خصه العالم الانكليزى المستشرق Thomas Hydo (1636 – 1703) بتاليف قيم والذى ما زالت آثاره بمتحف انكلترا بنى له متحف بضواحى سمرقند على انقاض مرصده الفلكى الذى اكتشفه العالم الاثرى الروسى فاتكين سنة 1934 وقد كانت تاليفه عمدة فى الفلك الى القرن الثامن عشر

فى عددها المؤرخ ـ شوال (1388 ـ 1969) تصف مكتبة طشقند ـ عاصمة اوز بكستان ـ « انها تضم عشرين ألف مجلد من بينها نحو الألفين من المخطوطات التى لا توجد الا فى هذه المدينة ·· وفيها من الآثار النفيسة والاغلاف الثمينة نسخة فوتوغرافية مـن مصحف عثمان رضى الله عنه وهو يعتبر من الآثار التى قدمتها الدولة السوفياتية الى المسلمين حيث اهتمت الحكومة بان تعيد الى المسلمين مقدساتهـم وذخائرهم الدينية ··· وفى سنة 1968 أى بعـد استلاء القوات القيصرية على سمرقند بوقت قصـير عثر حاكم تركستان العسكرى على هـذا المخطوط القديم القيم فى مسجد « خواجة احرار » وارسلـه الى المكتبة الامبراطورية بطرسبورغ ··· وبايعاز من لنين اعادت السلطة السوفييتية على الفور الى المسلمين هذه الذخيرة القومية التى يحترمونها احتراما عميقا·

وقد أبدى فضيلة الاسناذ عبدالله قنون (احـد اعضاء الوفد الزائر) شكه فى نسبة هذا المصحف الشريف الى سيدنا عثمان لان الفن الدقيق الـذى كتب به وابعاد الحروف الهندسية الجميلـة للكلمات كل ذلك كان بعيدا عن شكل الكتابة المتداولـة فى عهد سيدنا عثمان رضى الله عنه حيث كانت رسوم الكلمات اذ ذاك غير مستحكمة فى الاجادة ··· » اهـ ما نشرته المجلة ورغم خفقان قلـب كراتشوفسكى عندما قدمت له السيدة المجهولة الاوراق الكوفيـة فقد ذكر كيف استشار اختصاصيين « فى علم تطور الخطوط الأثرية العربية » كلا عـلى حدته . واتفق جوابهما له ، ان تلك الكتابة « ترجع الى بدايـة القرن التاسع الميلادى أو ربما الى نهاية القرن الثامن» ذلك انه رغم تخصصه فقد رأى عدم الاتكال عـلى نفسه بالتحقيق فى قيمة الاوراق المعروضة عليـه ثم يتحدث عن بائعة الاوراق فيقول « وهذه السيدة سمت نفسها باسم روسى عادى الا انها قالت انـه كانت لديهم منذ وقت بعيد جدة عربيـة توفيت لا تذكرها، ثم يذكر كيف امكنه ان يغرى تلك المرأةحتى تلحق بقية الاوراق التى عدها من اعظم النفائس وبالفعل الحقت البقية التى صار مجموعها يشتمـل « ربع مصحف » واكتشف اثناء تصفحـه للاوراق ولبعض كتب الحقتها مع الاوراق ان البائعة الروسية ليست لها جدة عربية بل جد عربى من اكابر العلماء المستشرقين والذى يهمه مـن امر هـذا المستشرق وحفيدته هو ما ختم به مقاله : « ··· وبعد اعوام كثيرة عرفت مصادفة ان تخمينى كان مضبوطا واننا اشترينا القرآن الكوفى حقيقة من حفيدة نوفل (1)»

حفيدة نوفل هذه التى قال عنها المؤلف بان جدها « كانت مكتبته جيدة فى وقت ما ولم تحـو الكتب فحسب بل والمخطوطات أيضا ··· وكان نصيب المكتبة لسوء الحظ مؤسفا ، باولاده نصف الروسيين ونصف الفرنسيين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى المدارس

---

1) هو اريني غيورغييفتش نوفل عربى مسيحى من اسرة مشهورة فى طرابلس الشام كان يعلم فى القسم التعليمى بالوزارة الخارجية بروسيا حوالى 1860 من جملة ما قال فيه كراتشوفسكى : « فقد كان نوفل كالكثير من العرب المسيحيين لا يميل الى الاسلام وسمح مرارا لنفسه فى كتبه بالنيل من الرسول محمد ومن الاسلام وقد احتج السفير التركى على ذلك وطلب مصادرة كتبه » ·

الخاصة بأولاد كبار الشخصيات ، وكانوا من أولئك الاولاد « ذوى الملاعق الذهبية » الذين كانوا معروفين آنذاك ، ولم يكونوا يهتمون لا بالعلم ولا بالأدب .. وانتهى بهم الامر تدريجيا الى انهم انتهزوا فرصة شيخوخة والدهم فاخذوا يبيعون الكتب المختلفة .. ولعل حفيدته لم ترد ان تتذكر مساوى والدها أو لعلها خافت ان تكشف عن جدها الذى كان مستخدما كبيرا فى وزارة الخارجية فى زمن القيصرية ، وبسبب هذا استبدلت « الجد العربى » « بالجدة العربية» ومن الصعب القول أيا من هذين الاحتمالين هو الاصح »

والدراسة الثانية هى تحليله لديوان ابن قزمان وللظروف التى اكتشف فيها ووصل الى خزانة لنينقراد فقال تحت عنوان (مخطوط وحيد وعلماء « اثنتى عشرة لغة ») .

وقبل ان نذكر مقال المترجم نذكر بايجاز نبذة من حياة ابن قزمان كما حررها احد (1) الادبـاء الاختصاصيين فقال « لولا المصادفة التى حفظت لنا ديوان ابن قزمان فى نسخة وحيدة كتبت فى صفد فى القرن السابع الهجرى لكان مبلغ علمنا عن امام الزجالين لا يتجاوز كثيرا القدر الضئيل الذى نعلمه عن حياة ابن زجال آخر ، ذكره صاحب المغرب ومع هذا فالنسخة التى جمعت فيها أزجاله قد سقطت منها أوراق ، ولم تذكر شيئا عن المناسبات التى قيل فيها الزجل ، ولا عن تاريخ نظمه ، وقد ندرت اخبار ابن قزمان لان اصحاب كتب التراجم من الاندلسيين اعرضوا عن ذكره ، كما اعرضوا عن ذكر الزجالين قبله وبعده ، فابن بسام لم يفرد لـه ترجمـة فى الذخيرة ، وابن خاقان لم يشر اليـه فى القلائد أو المطمح ، ... اما ابن الخطيب فقد ترجـم له فى الاحاطة ولكنه خلط بينه وبين عمه اما الذين ترجموا له من الاندلسيين فهـم ابـن الأبار فى تحفة القادم ذكر اسمه وانه من أهل قرطبة وقال ، وهو المنفرد بالابداع فى طريقة الازجال وذكر انه توفى سنـة 554 هـ .

وبعد ان يذكر الاهوانى من ترجموا لابن قزمان من القدماء شرقيين واندلسيين يقول «... ذلك مبلغ ما وصلنا من عناية القدماء بابن‌قزمان. اما المحدثون والغربيون منهم بنوع خاص ، فكان لابن قزمان عندهم شأنا آخر ، اذ ان اكتشاف ديوانه كان لديهم حدثا جديدا فى تاريخ الشعر الاندلسى بل والاوربى كله. فعكف عليه العلماء،سواء فى ذلك اصحاب الدراسات العربية او الدراسات الرومانية فى القرون الوسطى، يقتبسون منه الشواهد ويقارنون بين نظام القوافى عنده وعند التروبادور ، ويحاولـون تفسير بعض الفاظ اعجمية استخدمها الزجال ، الى غير ذلك من ابحاث عد منها الاستاذ ليفى بروفنصال فى مقالة له كتبها سنة 1944 تسعة وعشرين بحثا أو اشارة أو اقتباسا ويمكن ان يضاف الى هذا العدد مقالات جديدة صدرت بعد التاريـخ المذكـور » اهـ كـلام الاهوانى .

ولنواصل حديث كراتشوفسكى : قال اثر العنوان « غالبـا مـا كنت فى حيـاتى الاستعرابية التقى

1) هو الدكتور عبد العزيز الاهوانى «الزجل فى الاندلس» طبع مصر سنة 1957 ص 67

بمخطوطات كانت قد اكتشفت منذ زمن بعيد دون ان يشعر احد ودون أية جلبة أو ضوضاء الا ان قصة دخولها بالتدريج الى دنيا العلم ، تذكر احيانا باسطورة سحرية : فى هذه القصة يقوم بالادوار مجموعة من الشخصيات ارتبطت اقدارهم معا بدون انتظار . ومع ان موضوع القصة «بدون رتوش » الا انها تعطى صورة ذات دلالة للعمل الجماعى لعلماء كثرة من الشعوب الذى يجذب الى مجراه موهوبين ممتازين وعاملين بسطاء وشعوبا كاملة بتراثها الاستعرابى القديم والقوميات التى نالت استقلالها امام عيوننا بل ويجذب الى مجراه الشرق والغرب كافة على اختلاف اشكالها الظاهرية ، حقا انها لصورة جذابة تحمل بين جوانبها قوة معلمة . ومثل هذه الصورة كمثل « الشمس على قطيرة ماء » تعكس حركة الثقافة الانسانية التى لا تعرف الكلل » .

ثم يذكر المؤلف ابن قزمان ونبذة من ترجمة حياته والوسط الذى عاش فيه وكيف وصل (1) ديوانه الوحيد الى مكتبة لنينقراد وذلك ان احد احفاد الكاتب الفرنسى الشهير جان جاك روسو كان له حفيد اعين قنصلا لحكومته بحلب وبغداد . وانجب هناك ولدا شغف بالعربية حتى صار من علمائها ، وجمع مجموعة من المخطوطات القيمة منها « ديوان ابن قزمان » وانتقل روسو المستشرق الى طرابلس الشام وتغيرت ظروفه المادية . اذ كان من كبار المثرين فى أول عهده ، فالتجأ الى بيع خزانته وكان ذلك بواسطة المستشرق الفرنسى المعروف

سيلفيستر دوساس « اكبر مستشرق ثم مشهور فى عصره الذى كان يقدر جيدا قيمة هذه المجموعة » فاتصل بواسطة تلاميذه بوزير التعليم الشعبى بروسيا فبيعت المجموعة على دفعتين فى عامى 1819 و 1825 و « حرمت فرنسا من مجموعة قيمة » يذكر ان هذه المجموعة هى التى كانت اساسا لمجموعات المتحف الاسيوى العالمية الشان التى جذبت بدورها المستشرقفرين «أول خازن للمتحف الاسيوى ومؤسس استعرابنا العلمى » وان هذا المستشرق هو أول من اعد فهرسا لهذه المخطوطات التى كان من ضمنها « ديوان ابن قزمان » وحفظت وجوده الا انه بقى مغمورا اكثر من ستين عاما ، ولما عين روزن المستشرق الالمانى (عضوا معاونا) للاكاديمية الروسية طبع ونشر فهرسا للمخطوطات الموجودة بالمتحف الاسيوى ، ووجه اهتماما خاصا لديوان ابن قزمان . وطبعه بانفراده باللغة العربية لأول مرة ، واستعان على شرح المفردات التى كان الكثير منها باللغتين العربية والاسبانية الدارجتين ، واستعان بالمستشرق الشهير دوزى الهولندى « الذى كان خبيرا بالموضوعات الاسبانية احسن من كل المستشرقين فى أوروبا » الا ان دوزى كما قال كراتشوفسكى « كان يشعر بان ايامه تميل نحو

1) يذكر كراتشوفسكى ان ديوان ابن قزمان شق طريقه رويدا رويدا من الاندلس الى الشرق العربى ، وهناك فى فلسطين وبالضبط فى مدينة صفد ، قام شخص عربى بعد مائة سنة من ظهور الديوان بنسخ هذه الازجال ورغم قيامه بكتابتها بدقة وعناية الا انه كان يجهل لهجات الاندلس الشعبية والاسبانية فلهذا تسربت الاخطاء ، ثم يقول : وعلى كل حال فما كنا لنعرف الشىء الكثير عن ابن قزمان لو لم يخزن هذا المخطوط فى المتحف الاسيوى

الغروب ـ وقد مات فعلا بعد عامين ـ وعلى هذا لم يجرأ على ان يربط نفسه بعمل جديد مجهد ولم يستجب لتحرش روزى الا بخطاب يتضمن بعض ملاحظات طريفة تتعلق بالشاعر ابن قزمان وباشعاره وحولى سنة 1880 قام المخطوط برحلة خاصة الى غرناطة حيث كان يدرسه الاستاذ الجامعى الاسبانى سيمونيت ، وقد قام بتعريف ابناء وطنه بالشاعر القرطبى فى مقالة خاصة كتبها ، وكثيرا ما كان يستعين بعناصر من مؤلفات ابن قزمان فى اعماله العلمية عن تاريخ الاسبان المستعربين الى ان قام البارون دافيد غينتسبورغ تلميذ روزى وهذا البارون رغم انه من رجال الاعمال وكبار الرأسماليين فانه كان يهتم بالعربية وبتاريخ الاندلس فقام بنشر ديوان ابن قزمان بماله الخاص ... وهكذا اصبح المخطوط فى متناول كل راغب فى دراسته .

وبعد ان يذكر اهتمام المستشرقين الاسبانيين بالديوان كريبيرا ... والمراحل التى اجتازها بعد هذه الطبعة يذكر اهتمام المستشرق التشيكى نيكل المتخصص فى الدراسات الرومانية الذى رأى ان الحروف العربية « لا تعبر عن صوتياته الا بصورة رديئة » فاختار طبعه بالحروف اللاتينية وكانت هذه الطبعة هى المرحلة الثانية (بعد طبعة غينتسبورغ) فى خلق (ادوات العمل على أزجال ابن قزمان .. ، وقد استمرت التأليفات عن ابن قزمان تنمو دون توقف حيث انه يوجد فى المجلد التكميلى للطبعة العالمية لدائرة المعارف الاسلامية التى صدرت بثلاث لغات ، ظهرت المقالة الثانية عن ابن قزمان ، والمقالة الاولى موجودة فى مجلد اساسى ، وكان قد كتبها علامة المانى فى ذلك الوقت الذى بدأت فيه فقط دراسة ابن قزمان ، وظهر ان مؤلف المقالة الثانية هو رائد الاستشراق العلمى فى يوغوسلافيا بيرقترا افيتش الذى كانت تتوحد فى استعداده جامعتا فينا والجزائر ولا يقل دلالة ان قد ظهر بعد مرور ستين سنة بعد صدورمقالة روزى الفرنسية الاولى المتعلقة بالمخطوط ، بحث تحليلى دقيق عن بعض اشعار ابن قزمان ، وكان قد كتب هذا البحث باللغة الفرنسية البليغة أويفوتووليو المستعرب الفلندى الموهوب والمتخصص فى الدراسات الرومانية

وختم كراتشوفسكي دراسته القيمة بعد ما وصف المخطوط ـ الاصلى للديوان ـ بانه متواضع بسيط مائل الى الصفرة وغلافه ردىء من الورق المقوى بالوان مختلفة انطفأت من تأثير أشعة الشمس وهذا الجلد يرجع فى أصله الى الشرق ثم يقول ... وفى كل مرة كنت امر فيها امام المخطوط كنت اتوقف قريبا منه بشعور خاص يسيطر على : ان هذا الكتاب انما هو مخطوطنا الفريد المشهور لديوان ابن قزمان وبدا فى ان المخطوط يملك قوة جذابة بالنسبة للعلماء فان كثيرا منهم من تطلع باهتمام بل وسنوات طويلة فى هذه الاوراق الصفراء أو فى صورها الفوتوغرافية ومن هؤلاء العلماء : الانجليز والفرنسيون والروس والهولنديون والاسبانيون والالمان وكان احيانا كلمن اليهودى والتشكى يحاولان فك رموز سطوره الملغزة باصرار لا يقل عن اصرار العربى أو الفلندى ، انها لأمية العلم حقا يوحدها هدف واحد وباى امتاع ترى كلمات العالم الفلندى الاخيرة فى عمله عن ابن قزمان التى املاها وهو

على سرير المرض فى آخر أيام حياته اثناء فترة قصيرة ما بين الحربين اللتين عذبتا وطنه الصغير : « ايهـا العمل السلمى العالمى ، ليتك تستطيع ان تستمر وتتصل بصرف النظرعن كل ما يهددك اليوم بالدمار» (ان للمخطوطات اقدارها) فان قوتها السحريـة التى توحد العلماء الكثيرين فى اندفاع مشتــرك تطرد نهائيا فى يوم من الايام أرواح الظلام الشريرة التى ترمى الى التفرقة بين الناس والشعوب » اهـ كما ظهرت لكراتشوفسكى تآليف أخرى منها «الادب العربى فى القرن العشرين » قرظته مجلة الرسالة المصرية فقالت « هذا عنوان كتاب أخرجه حديثـا المستشرق الروسى الشهير(يوليفيتش كراتشوفسكى) تناول فيه بالبحث والتحليل التيارات الادبية فى العالم العربى ومؤلفات الكتاب العرب البارزيـن وعقد فصلا خاصا للحديث عن الأدباء المصريين الذين امتد تأثيرهم الى العراق وسوريا والاقطار العربية المختلفة ، وختم الكتاب بفصل مطول عن المؤلفات التى ظهرت لكتاب العرب فى مرحلة الحرب العالمية الثانية وما بعدها ، كما تحدث فى هذا الفصل عن قصائد الشعراء العرب فى الموضوعات الحربية وما نظم منها خاصة فى تمجيد بطولة « ستالينجراد »

وكراتشوفسكى وثيق الصلة بالشرق العربى من قديم وله صداقات كثيرة بعلماء العربية ورجـال الأدب العربى ثم يذكر رحلته فى زمن التعلم ـ التى ذكرناها ـ ويقول « نشر كراتشوفسكى كثيرا مـن الآثار العربية النادرة بعـد ان قـام بتصحيحها واستكمالها وفى عام 1930 ألف كتابا خاصا عـن الشيخ عياد الطنطاوى الذى سافر من مصر لتدريس اللغة العربية فى روسيا فعاشر هناك من عام 1847 حتى عام 1861 (وهو الذى خلفه نوفل جد بائعـة أوراق المصحف الكوفى) وتوفى ودفن هناك ، وفى العام الماضى أخرج كتابا طريفا بعنوان « مع المخطوطات العربية » وقد تحدث فيه حديثا قصصيا خلابا عـن رحلته الى بـلاد الشرق العـربى ... فالمستشرق كراتشوفسكى وثيق الصلة بالادب العربى القديم والحديث ، وقد عاصره عن قرب اكثر من اربعين عاما فاذا تحدث عن « الادب العربى فى القرن العشرين » فلاشك ان حديثه حديث العالم الخبير » اهـ تقريظ الرسالة وقد ظهر كثـير مـن تآليفـه فى ميدان الاستشراق وقد اهتم بها الكتاب فترجموها الى اللغة العربية ونقدوها ومن اهم هذه التآليف«تاريخ الأدب الجغرافى » الذى ترجمه أو ترجم القسم الأول منـه الدكتور صلاح الدين هاشم السودانى وقد طبعت هذه الترجمة بالقاهرة سنة 1963 ونقدها كثير مـن الكتاب منهم الدكتور عبدالرحمن بدوى والدكتورة عائشة بنت الشاطىء نشر الدكتور عبدالرحمن بدوى نقده فى « مجلة الكتاب العربى » بعددهـا الخامس المؤرخ فى جمادى الاخرة سنة 1384 ـ 1964 فقـال « هذا كتاب ممتاز ، أعد ، من خير ما أخرجت المكتبة العربية من كتب علمية فى تاريخ العلوم عند العرب وترجمته الى العربية عمل جليل خصوصا والمترجم الدكتور صلاح الدين عثمان هاشم من السودان قد ترجمه عن اللغة الروسية مباشرة ولم يترجم الى لغة أخرى : انجليزية أو فرنسية حتى يكون فى متناول الباحثين ولم يوجد فى بابه غير كتاب جوزيف رينو (1795 ـ 1867) المستشرق الفرنسى المعروف الذى

بدأ فنشر مع ماك جوكين دي سلان كتاب « تقويم البلدان » لابى الفداء سنة 1840 ثم ترجم الكتاب الى الفرنسية ... ومنذ دراسة رينو هذه لم يظهر غير مقالات متفرقات عن الجغرافيين العرب الى ان جاء اجناتي كراتشوفسكي من تلاميذ روزي المستشرق الروسى الكبير (1849 ــ 1908) .

ثم يذكر ترجمة المؤلف (التى سبق ان ذكرنا مجملها في هذه الدراسة) ويقول : « وقد طبع كتابه هذا لاول مرة سنة 1957 الجزء الرابع من « منتخبات آثار أبى كراتشوفسكى » وانما طبع منه قبل ذلك فصولا متفرقة أو اما كاملة أو مبتورة على هيئة مقالات مستقلة ، وكان تأليفه له في الفترة بين عامى 1938 و 1945 فكان الكتاب لم ير النور بضرورته الراهنة فى حياة المؤلف الذى توفى سنة 1951 وقد أشرف على طبعه زوجته وميخايلوفا يعاونها بلبائف وبيكوف وبيسارفسكى وتسريتلي والترجمة التى بين ايدينا هى للقسم الأول من الكتاب (وقد ظهر منذ سنتين أو ثلاث القسم الثانى منه) .

ثم يذكر الناقد « ان المؤلف اتبع فى تاليفه الترتيب التاريخى فبدأ ببداية الجغرافيا الرياضية عند العرب قبل ظهور المصنفات الجغرافية الأولى . وقفى على ذلك بدراسة بداية الجغرافية عند العرب ثم الجغرافيين العرب المتأثرين بكتب الجغرافيا اليونانية (الخوارزمى ، الزرقانى ، الخازنى ــ والمراكشى ، نصير الدين الطوسى الخ ...) .

ثم يتناول الجغرافيين اللغويين ... ثم يذكر الرحالة الذين زاروا الاصقاع الشمالية (روسيا وغيرها) مثل ابن فضلان الذى كتب عن رحلته بعض المستشرقين الروس والدانيماركيين ... ثم يصل الى المدرسة الكلاسيكية التى يؤلفها جغرافيو القرن الرابع الهجرى وعلى رأسها البلخى والاصطخرى وابن حوقل والمقدسى وبها تبدو الخرائط الجغرافية العربية .

ثم يذكر جغرافيي القرن الخامس مثل البيرونى ، وابى عبيد البكرى الاندلسى ثم جغرافيي القرن السادس كالادريسى صاحب كتاب « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى كتبه فى بلاط ملك صقلية روجارو الذى امتاز بانه أول كتاب رسمت فيه خريطة للعالم .

ثم يختم الدكتور بدوى دراسته بقوله « والمؤلف فى ذكره لكل علم من هؤلاء يتحدث عن اهمية ما نشر له ومصادره وقد يتحدث عن المخطوطات والدراسات التى كتبت حول المؤلف والكتاب وما ترجم الى اللغات الاوربية » .

أما الدكتورة عائشة بنت الشاطىء فكتبت فى جريدة الأهرام المصرية بعددها المؤرخ 19ـ6ـ64 تحت عنوان « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » (كتاب من موسكو) ما يلى : « هذا كتاب يحمل آثار جهد شاق صابر وعمل مخلص دائب استغرق ثلث قرن من الزمن . امضاه المستشرق الروسى «كراتشوفسكى» فى جمع مادته الخصبة من تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب من الايماءات الأولى فى قديم ما وصل الينا من الشعر الجاهلى الى قريب من العصر الحديث .

ويأخذنى العجب ، وانا اتمثل هذا العالم الكبير ، يستقرىء مئات المصادر الادبية والعلمية ويراجع دواوين الشعراء واساطير العرب ، ويطالع فى القرآن

الكريم والاحاديث النبوية ، ويتتبع قصص الرحلات والاسفار وكتاب البلدان ومؤلفات العرب فى الجغرافيا الوصفية والرياضية والاقليمية، ليستخلص منها جميعا معالم تاريخنا الجغرافى على امتداد سيره الطويل وليسجل ما وعلى الزمان من خيالاتنا الاسطورية وتصوراتنا الادبية وبحوثنا العلمية وكشوفنا الجغرافية متتبعا مجرى التيار على درب الزمن ، ليرقب روافده الاصيلة التى انطلقت الى الخارج تحمل الى الدنيا ثقافة العرب ومعارفهم الجغرافية ، ويميز فى الوقت نفسه ما تلقى التيار من روافد خارجية على مر العصور والادهار .

يا لها من رحلة مثيرة فى اعماق تاريخنا الجغرافى يرويها لنا شيخ المستشرقين الروس بكل ما حوت من عجائب وغرائب ، ويضع بين ايدينا بعد كل مرحلة من مراحلها ، حشدا من المصادر والمراجع التى كشفت له عن معالم الطريق واضاءت مسالكه ، ووجهت خطوات السير فيه فما انتهت الرحلة الا وقد اجتمع لنا الفهرس الجامع لمراجع البحث فى تاريخ الجغرافيا عند العرب ، دليلا مرشدا للمتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية ، ومؤرخى الحضارة الاسلامية بوجه عام ... » .



من جوانب الازدواج اللغوى في ندرومـة

جيلبير جران جييوم
استاذ بجامعة وهران
ترجمة هيئـة التحرير

ان اللغة العربية الدارجة فى ندرومة ، كجميـع اللهجات الاخرى ، ما فتئت تتطور باستمرار . ومن خصائص ذلك التطور ، ادخال كلمات فرنسية فى اللغة الدارجة . ولا يخفى ما لذلك الاقتباس مـن اهمية ، خاصة اذا عرفـنا ان الفـرنسية لا تـزال تحتفظ بمنزلة كبرى فى الادارة والمطالعة والحياة العامة ببلاد الجزائر .

ان الاسباب الداعية الى الاقتباس من الفرنسية متنوعة ، وأولى الاسباب ان الازدواج اللغوى ، اذا نظرنا اليه من الناحية اللسانية ، وضعية لا يرتاح اليها الناس . ولذلك فان قانون « الاقتصـاد فى الجهد » يدعونا الى ان نحاول ما امكن تخفيـض ما نتكلفه من الجهود فى التخـاطب ، عن طـريق استعمال لغة واحدة ، بدلا من لغتين . وعلى سبيـل المثال ، فان المتكلم العربى ، وان كان يعرف الكلمة

ننشر هذا المقـال كوجهة نظر قابلة للنقـاش

العربية «قابسة» ، الا انه سوف يكون ميالا لاستعمال كلمة قريبة من اللفظة الفرنسية « بواط BOITE التي اعتادها عند ما يتكلم الفرنسية . . فاذا ما تحدث بالعربية ، فانه سوف يستعمل اللفظة « بواطة BWATA » ، اذ من فوائد هذا الاستعمال انه يخفف من شدة التذبذب والحيرة بين اللغتين .

ان هذا التطور اللغوى الذى يسميه البعض « فساد اللغة » ، يمكن أن يصبح معتدلا ، لانه خاضع للقانون الذى يتحكم فى أداة التبليغ ذاتها ، كما انه خاضع لسلاح السخرية ، وهو السلاح الذى يحارب به المجتمع كل من يشذ عن قواعده . ومن المفروض فى الحالة الاولى ألا يفهم كلام من يستعمل أمثال هذه المفردات الجديدة ، الا اننا نلاحظ أن تلك المفردات مفهومة تماما ، بل هى فى كثير من الاحيان مفهومة أكثر مما لو استعمل المتكلم بدلا عنها ، مفردات من الفصحى ، لان الفصحى غير معروفة الا لدى الخاصة . واما بالنسبة الى العقاب الاجتماعى الذى يتمثل فى السخرية ممن يستعمل مفردات جديدة ، فانه فى الواقع معدوم تماما ، لان الناس عادة يغضون الطرف عن هذا الاستعمال . . ومما لاشك فيه ان المتمسكين بالقواعد اللغوية قد يحتجون . . ومن ذلك الصورة الكاريكاتورية التى نشرتها جريدة « الشعب » اليومية فى عددها الصادر فى 14 مارس 1967 ، وهى تمثل أحد معلمى العربية ، وقد لبس عمامة وجلابة ، وأخذ يكتب على السبورة بالحروف العربية : «بسكلاتن» و «توم أوبيلن» .

وهناك سبب آخر لهذا التطور وهو دخول بعض المفاهيم العصرية التى ليس لها ما يقابلها من المفردات فى اللغة الدارجة ، مثل « الثلاجة أو البراد والملعب » الخ . . فالعامة من الناس يجهلون المصطلحات الدالة على تلك المفاهيم فى اللغة الفصحى ، واذا عرفوها فانهم لا يستعملونها ، لانها تعتبر من الدخيل فى لغتهم الدارجة . وبالاضافة الى ذلك ، فان الاسماء العربية فى نظر البعض منهم، غير ملائمة للمسميات العصرية ، ولذا ترى الواحد من هؤلاء يمتنع عن اطلاق تلك الاسماء عليها .

وزيادة على ما سبق ، فلا ينبغى أن ننسى موقف التنطع MOBISME لدى البعض من الشبان الذين يتوهمون ان التكلم بالفرنسية سلوك يدل على التمدن والحضارة ، بينما التكلم بالعربية وحدها دليل على التأخر . والادهى من هذا ، أن يعتبر المتكلم نفسه مهانا اذا خاطبه أحد الناس بالعربية ، لان هذا الاخير ربما يظن أنه جاهل ، ولا يعرف الفرنسية . .

الا أن هذه الحالات الشاذة ، وهذا التطور السقيم للغة ، لا نجد لها أثرا الا فى المدن الكبرى ، وهذا ما توصلنا اليه من خلال دراسة استقصائية قمنا بها فى وهران . . على أن هذه التبدلات فى اللغة حاصلة أيضا فى مدينة ندرومة . وقد أردنا ان نحدد مدى التبدلات . فقمنا باستقصاء فى ندرومة ما بين فبراير ومارس من عام 1969 . ونقدم فيما يلى عرضا لما توصلنا اليه :

استقصاء حول تطور اللغة :

قمنا بهذا الاستقصاء بالاشتراك مع تلامذة المدرسة المتوسطة التابعة لمدينة ندرومة . وبعد أن

شرحنا لهم أهمية دراسة تطور اللغة . طلبنا منهم أن يسجلوا خلال فترة محدودة (فبراير – مارس 1969) الجمل التى يتفوه بها المتكلمون العرب الذين تعودوا ادخال العبارات الفرنسية فى كلامهم . وطلبنا منهم كذلك ملء جذاذة FICHE تشتمل على العناصر الآتية :

– الجملة المسموعة (ويسجلها التلميذ بحسب طريقة بسيطة فى الرسم الاملائى) .

– المعنى ، كما فهمه التلميذ (بالفرنسية) .

– جنس المتكلم (ذكر أو أنثى) ، وعمره على وجه التقريب وحالته الاجتماعية .

– متى سمعت الجملة وفى أى حى من أحياء المدينة .

– اسم التلميذ القائم بالتحقيق .

ومتوسط عمر التلاميذ من البنات والصبيان الذين شاركوا فى جمع المعلومات 17 سنة ، وبعد الغاء بعض الجذاذات التى لم تتوفر فيها الشروط المطلوبة ، حصلنا على النتائج الآتية : قامت 18 بنتا بملء 400 جذاذة ، وهى تشتمل على 1000 جملة حصلن عليها فى مختلف احياء المدينة ، وفى مختلف الاوساط ، ما بين ذكور واناث .

ملاحظات عامة حول التبدلات :

عند ما تدخل كلمة فرنسية الى العربية ، فان أداة التعريف التى تسبقها فى الفرنسية تصبح كأنها لاصقة بها ، كما لو كانت جزءا من الكلمة .

مثلا : «الكلاصا» LA CLASSE «لاكرى» LA CRAIE

على أن اداة التعريف هذه لا تظهر دائما فى الصيغة العربية ؛ فهى فى هذه الحالة مندمجة فى الحرف الاول الصامت من الكلمة . وذلك ان القاعدة تقضى فى العربية بادماج أداة التعريف « ال » فى الحرف الاول الصامت ، اذا كان ذلك الحرف من الحروف الشمسية ، وعلى وجه العموم فان الكلمة الفرنسية المبدوءة بأحد الحروف الصامتة الآتية : التاء ، الدال ، الراء ، السين ، اللام والنون ، هذه الكلمة تدمج معها أداة التعريف فى النطق العربى ، بحيث يصبح الحرف الاول مضاعفا ، أو ممدودا ، وان كان المد غير واضح فى الكلمات الدارجة الاستعمال . وعلى سبيل المثال ، فان الكلمة الفرنسية « ريجل » REGLE المقترنة بأداة التعريف LA ، يتلفظ بها فى العربية « ار – ريجلة » .

أما اذا كانت الكلمة لا تستعمل الا فى صيغة الجمع ، فان اداة التعريف LES تتحول الى LI وتندمج مع الكلمة ، مثلا : LES BAS تصبح فى النطق العربى « ليبا » .

أما حالة النكرة ، فمن المعروف أنها تكون فى العربية بحذف أداة التعريف ، وفى الفرنسية بزيادة UN أو UNE فاذا كانت الكلمة الدخيلة نكرة ، فانها فى الغالب مقترنة فى النطق العربى بالحرف « أ » أو « ها » الذى يشير الى الصوت الفرنسى UN .

مثلا :

« بوى اشرانا أفريجيدير » . (أبى اشترى لنا ثلاجة) .

« خدمت ها شد ـ شابو » . (صنعت قبعة) .

« ايخصك ها بولون فى ار ـ رأس (معناه حرفيا تنقصك محزقة فى الرأس) .

وفيما يتصل بالتبدلات التى تطرأ على الحروف الصامتة ، فاننا نلاحظ نوعا من التداخل بين الحروف المتقاربة المخرج كالراء والنون واللام . ومن ذلك انقلاب الراء عن اللام :

الكول تصبح أركول

تلفون تصبح ترفون

تلفزيون تصبح ترفزيون

أوتيل تصبح نتير

وانقلاب النون عن الراء :

فريجيدير تصبح أحيانا « فريجيدين »

وانقلاب النون عن اللام :

ميليتير تصبح « مونيتير »

فولار تصبح « فونارة » أو « فولارة »

ليموناد تصبح « نيموناد »

تيليغرام تصبح « تينيغرام »

بوتو تيلغرافيك تصبح « تينغرافة »

كولوار ، تتحول الى « كونوار » أو « كولوار »

وبما أن الغنة NASALISATION غير موجودة فى العربية ، فان الحرف الصائت الأغن يتلفظ به على حدة ، وبشكل واضح فى أكثر الاحيان .

وبما أن الكلمة فى العربية لا تبدأ الا بالحرف الصائت فان الكلمات الدخيلة المبدوءة بالحرف الصائت يحذف منها ذلك الحرف فى أكثر الاحيان .

ايبيسرى EPICERIE تصبح « لبيسرى » (بالباء أو P

أوبيراسيون OPERATION تصبح « لاباراسيون »

وبما أن الحروف الشفوية و غير معروفة فى العربية ، فان الكلمات الفرنسية المبدوءة بهما ، يتحول فيها هذان الحرفان اما الى باء أو فاء أو يظلان على حالهما ، مثلا كلمة :

ليفر LIVRE تنطق « الليبرى » أو « الليفرى »

لامب LAMPE تنطق « اللمبة » (بالباء أو بالحرف P

وفى بعض الحالات ، فان الحرف الاخير من أداة التعريف LES ، تندمج فى الكلمة ، كما فى :

آلوميت ALLUMETTES التى تصبح « زالاميت »

مفردات فى الادارة :

1 ـ الشرطة :

البوليس ، البوليسى (ويجمع على : البوليسية) . الشرطة والشرطى .

الجدرمى (ويجمع على الجدرمية) : الدركى .

ابريجادير (بالجيم المصرية) : العريف .

الكوميسار : مفوض شرطة .

الشمبيط : الناطور .

سامحتك هذا الخطرة ، بصح خطرة اخرى ابروسى . «أصفح عنك هذه المرة ، ولكن ، مرة اخرى ، أسجل عليك مخالفة »

2 ـ الجمــارك :

الديوانة : الجمارك .

نحن الديوانية ، نخدمو بزاف ، أى « نحن رجال الجمارك نشتغل كثيرا »

3 ـ دار البلـدية :

لاميرى ، المـير : دار البلدية ، شيخ البلدية .

الدوسيى : الملف .

أدى هذى الكارطا اللاميرى باش اتسنييها «خذ هذه البطاقة الى دار البلدية للتوقيع عليها»

4 ـ البريد والمواصلات :

البوشطة : مركز البريد

تيليغرام أو تينيغرام : برقية

تيلفون أو تيريفون : الهاتف

التامبر : طابع البريد

الكولى ، الكوريى ، الفاكتور : الطرد ، بريـــد الرسائل ، موزع البريد

الفاكتور سربآ الكوريى : وزع ساعى البريـــد الرســائل

المــاندة : حوالة بريـدية

الروسوفــور : المحصل

5 ـ المتنوعـــات :

الدومينات المؤممة كتيرة بالـزاير « الامـلاك المؤممة كثيرة بالجزائر »

هذى لبسه تاع المونيتير ، اى هذه بدلة عسكرية

راك كونتـرولور علينا ؟ اى أنت علينا رقيب حسيب ؟

ـ 6 المجال التقـنى :

البيسكليت أو «الباسكليت» أى الدراجة

خويا عندو الفيلو مكروفية ، ان أخى عنـــده دراجة عجلتها مثقوبة

جيب البومبة انعمر البيسكليت ، هات المنفــاخ لتعبئة الدراجة

اما خير ، البيسكليت والا الموبيليت ؟ أى : ماذا تستحسن : الدراجة أو الموبيليت ؟

انت جونفلـيت (بالجيم المصرية) بها اللــوتو : أنت نفخت به (أى بالمنفاخ) السيارة

هذا الكاميو راه امشارجى : سيارة الشحن هذه محملـــة

شارجيت الكاميو ؟ : هل حملت (البضائع) على سيارة الشحن ؟

استاسيونى فى استاسيون تاع تاكسيات ، اى توقف (بالسيارة) فى موقف سيارات الاجرة .

السيمــا : الاسمنت

الماشينا ، لوزين : الآلة ، المصنع

خويا راه ماشى يخرج جنيور : أخى ســـوف يتخرج مهندسا .

ـ 7 التجـــارة :

البنتورة : الطلاء ، الدهان

ليصانص : بنــزين

عمر لى البلانى ديصانص : املا الخزان بالبنزيـن

رح للمارشى : اذهب الى السوق

هاك اشر لى باكية دخان البوفيلتر : خذ واشتر لى علبة سجاير بمصفاة

امشيت البيهسرى واشريت باكى تاع زالاميط «ذهبت الى دكان البقال واشتريت علبة كبريت

أوزن فى الباسكول : ضع فى الميزان

ها ميل فرا واشرى لى تامبر ورد لى لامــونى : هاك ألف فرنك . اشتر لى طابعا ورد لى الصرف

اشر مل كاليتى : اشتر من النوع الممتاز

انريجلو داك الكونت : هيا نسو هذا الحساب

اشر لى بومادا من عند الفرماسيان . اشتر لى مرهما من عند الصيدلى

ماركيها فى لكارنى : سجلها فى دفتر الحساب

العلاقات الاجتمـــاعية :

راك واقف جرنيزو GARNISOU ؟ «ما لى أراك واقفا كالحارس ؟

رانى امديجوتى DEGOUTE : نفسى مشمئزة

ما تنرفينيش : لا تزعجنى

• فى ساعة اتنرفا : انزعج فى الحين

طاندينى هنا : انتظرنى هنا

خاصك الكوراج : تنقصك الشجاعة

أنا ما وكلتش كبشى بالفــوراج تاع الــزاويــة «أنا لم أغذ كبشى بكلأ الزاوية »

ما ناكلشى من فوراج الزاوية : لا أتغذى من كلا الزاويـــة

مانــديو MON DIEU يا الهى

رانى نتريى فى الدروبة : اتسكع فى الطرقات

ما تانكييتيش : لا تقلق

كونفيونسيتو : منحته الثقة

أواه يكمى ، جوموفو عليه ! : اذا كان يدخـن فانا لا يهمنى أمره

عندك رانديفو فى هذا الكارتيى : عندك موعد فى هذا الحى

بركة ما تبلاجى : كف عن الهزل

أنت تجى غــير تبروفيتى ، بــارازيت !» : أنت لا تأتى الا لمصلحة ، يا طفيلى!»

كن ديجوردى : كن فطنــا

آلور قال لى موفيو ماشى ديجوردى : عندئذ قال لى : لست من ذوى الفطنة

ايخصك بولون فى الراس : (أنت مختل العقل)

أنا انجارانتى لك بللى اتديجوتى : أضمن لك انك سوف تشمئز .

الحيـــاة المـدرسية :

1 ـ أدوات مدرسية :

لاتروس ، الكايى ، الكريون أو الكرييون ، أى : المقلمة ، الكراس ، القلـم .

لاردواز ـ الطــابلــو ، لاكــرى ، أى اللــوحة ، السبورة ، الطباشـير

الستيلو ، لبلوما ، البيفار أى قلم الحبر ، الريشة النشـــافة

الكارنى ، الكولور ، أى : المفكرة ، الاقلام الملونة

الليفرى ، ويجمع على ليفريات أو ليفرات ، أى : الكتاب ، وهذه العبارة العربية غير مستعملة اطلاقا.

الكرطابل أى المحفظة ـ كرطابلك ، أى محفظتك

الكولا ، الريجلا ، أى : الصمغ ، المسطرة

الطابلة ، الكلاصا ، اى : الطاولة ، القسم

الكوليج ، الليـكول ، الليـسى ، أى : المدرسة المتوسطة ، الأبتدائية ، الثانوية

الميطـرات ، أى المعلمون

الميطر ضربنا ، أى ضربنا المعلم

2 ـ تعابـير متنوعة :

فاصى الطابلو ، أى امسح السبورة

سولينيى السطـر بالـريجلة : ضـع سطـرا بالمسطـرة .

ما تكوبيش : لا تنقل . (أى لا تغش)

طابيت الكريون . أى : بريت القلم

مانكا الدرس / منك الدرس / مانكا الكلاصا ، أى : تغيب عن الدرس

كوفرى الليفرى : اصنع غطاء للكتاب

ماريزوميتش بزاف : لم ألخص كثيرا .

3 ـ جمل ينسبها بعض التـلاميذ المـاكرين الى معلمى العـربية :

فاصى الطابلو : امسح السبورة

ابلاسيه هنا : ضعه هنا

منك الدرس : تغيب عن الدرس

اكتب فى الكايى : أكتب على الكراس

جيب هذا الليفرى : هات ذلك الكتاب

هذى الكلاصا فيها بزاف تاع ليزيليف . أى : هذا القسم فيه كثير من التلاميذ .



لاشك أن هذه الدراسة الاستقصائية محدودة ، الا انها تعبر تماما عما يجرى فى اللغة من تطور ، وعن آليات ذلك التطور .

فالمسـألة ليست مجـرد استعمـال للمفردات الاجنبية ، بل هى مسألة اقتباس واقتراض لتلـك المفردات .

وقد رأينا كيف ان هذه المفردات أصبحـت خاضعة لقواعد الصوتيات والنحو ، من حيث الجمع، وتصريف الافعال ، الخ ... وأكثر هذه الافتراضات EMPRUNTS متعلقة بميادين الحياة العصرية ، علما بأن اللهجات السائدة فى أقطار المشرق العربى تعبر عن هذه المعانى العصرية بكلمات عربية محضة. ويبدو أن هذا الوضع مرجعه فى الماضى الى استعمال الناس للفرنسية ، والى ضعف الجهود فى ميدان التعريب .

ما هو مستقبل هذا التطور اللغوى ؟ ان الـشىء الملاحظ فى ندرومة وفى غيرها من المدن ، أن هذه الافتراضات أكثر ما تكون فى لغـة الشبان ، وذلك أن التعليم الجزائرى قد أقر الازدواج اللغوى على جميع الاطفال ، وهذا الامر يـدعو الى الاقتبـاس ويشجـع عليه .

ويبدو أن هذا التيار متزايد فى المرحلة الراهنة ، وان كان البعض يعتقد بأن مساعى التعريب قـد تعوقه . الا ان هذا ليس مؤكدا ، لان الظـاهرة اللغوية لا يمكن أن تعزل عن غيرها من الظواهر . وعلى هذا ، فان تطور اللغة الدارجة سوف يـكون بدوره خاضعا نوعا ما ، لتأثير مختلف الانمـاط الثقافية فى الشبيبـة .

المـرونـة والحـــزم

منذ عام 1968 ، أى منذ البداية الفعلية لمفاوضات باريس حـــول فيتنام ، تركز انتباه صحافة العالم حول سيدة هادئة ، انيقة بسيطـة فى بداية العقد الخامس من عمرها وهذه السيدة كانت هى التى ترأست وفد الحكومة الثورية لفيتنام الجنوبية فى المفاوضات .

انها السيدة نغويين تى بنه ابنة موظف بسيط ولدت فى سايغون .. ولم تعرف منذ طفولتها وشبابها ، سوى النضال الحازم ضد المستعمـر الفرنسى ، ثم المحتل الاميركى ، وضد الحكم العميل فى سايغون .

ابتداء من عام 1950 ، خاضت السيدة بنه النضال عبـر الحركات الطلابية وحركات المثقفين ، وتولت مركـز الصدارة فى مظاهـرة 19 مارس ـ اذار الشهيرة ، ضد المحتل الفرنسى ـ وبعد ذلك بعام واحـد اعتقلت حيث بقيت فى السجن اربع سوات ، ثم خرجت منـه لتتابـع نضالها وتصبح احدى أهم قائدات الثورة الفيتنامية .

تعرف السيد بنه نضالها بانه يرتكز على « المرونة والحزم » تقول « لقد ابدينا الكثير من المرونة ،، ومع ذلك ظلت الادارة الاميركية عـلى تصلبها ، فاضطررنا الى متابعة القتال .. بحزم .. » .

انها مثال ونموذج حى للمرأة فى عصرنا .



حوار جديد

د. عبد الله شريط
أستاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

في اطار اطلاع القراء على مختلف الندوات التى تنعقد فى العالم حول الثقافة العربية الاسلامية وعلاقتها بالثقافات الاخرى ، ننشر هنا ثلاثة ابحاث القيت فى ندوة فلورنسا التى نظمها معهد العلاقات بين ايطاليا وبلدان افريقيا وامريكا اللاتينية والشرق الاوسط وتمكنت المجلة من الحصول عليها ٠

ونحن نرحب باى نقاش موضوعى يأتينا فى هذا الموضوع ايمانا منا بان الحوار الموضوعى هو افضل سبيل لدراسة اوضاعنا المختلفة ، والوصول الى الحقيقة ٠

« الاصالة »

يبدو أن هذا الحوار بين ثقافتين يتطلب من المثقفين العرب أن يتحدثوا عن علاقة ثقافتهم بالثقافة الاوروبية ، وأن يتحدث المثقفون الاوروبيون عن علاقة ثقافتهم وقضاياهم الفكرية بالثقافة العربية ٠ وماذا يمكن أن نبذل من جهد لتطوير الحوار القائم على هذا الاساس ٠

ولذلك سأحاول أن أعطى لهذا الحوار هنا طابعا عمليا بقدر الامكان وبسيطا وواضحا فى نفس الوقت .

المثقفون من أبناء العالم المتخلف عنه ما يدعون الى حوار كهذا مع المثقفين من أبناء العالم المتقدم — لا يشعرون بحرج لانهم ينتمون الى عالم متخلف ، بل يشعرون بتعقد جديد ومصاعب اضافية تنضم الى ما يعانون ، فى بلادهم من صعوبات فى الحوار مع مجتمعهم ، بل مع أنفسهم . كل واحد منهم فى هذا الحوار يتساءل ماذا يفعل مع لغته المحنطة وثقافته التى فقدت حيويتها ، **ومجتمعه المتخلف ، هل يحطم أم يرمم ؟ هل يبنى على فراغ أم على جدار قد انحنى تحت وطأة القرون ؟ يبدأ من الصفر أم من اللانهاية ؟ يعود الى الماضى أم يبدأ من الحاضر ؟ يلتفت الى الوراء أم يقفز الى الامام فى المجهول وحده ؟**

اننا نعيش فى متناقضات مع أنفسنا ومع مجتمعنا . متناقضات بين ماضينا ومستقبلنا . بين حياتنا المادية المصطنعة وحياتنا الفكرية المذبذبة .

نعيش فى مجتمع ثقل علينا عبء حمله من القرون البدائية الى عصر التكنولوجية .

نعيش فى خصومة بين المؤمن بالقوانين الطبيعية فى نزول المطر . وبين المؤمن بارادة الله التى تفعل وحدها كل شىء . خصومة بين قوانين المرور التى نستمدها من عندكم ونسوق بها السيارة فى الشارع ، وبين طبيعة البدوى الذى لا يعترف لأحد بالمرور قبله . خصومة عندنا بين من يقول تنتهى حريتك حيث تبدأ حرية غيرك . ومن يقول : الشىء الذى أبصرته فهو لك,وما لم تبصره فلك فيه النصف بين طبيعة رجل يشترى لزوجته آخر مودة من اللباس . ويمنعها من مصاحبته الى حفلة ساهرة . خصومة بين ما أخذناه عنكم من «أشياء» نكدسها لان أخذها سهل ، نشتريها فقط ونستعملها . ولكنها ليست من انتاج حضارتنا — وبين ما يشكل حقيقة الحضارة . وهو الانسان الذى يعيش بعقله لا بالاشياء المكدسة .

هذه الخصومة نشأت فى عصرنا هذا من أن طبيعة الاتصال بين تخلفنا وتقدمكم مرت عن طريق علاقة بين تجارنا وتجاركم . كان فيها العقل متغيبا . وبين سياسينا وسياسيكم لم يحضر فيها من الفكر الا عنصر الحيلة ، وبين عسكريينا وعسكرييكم الذى كان الجسر الوحيد الذى اقاموه بينهم للقاء هو جسر الموت ، وبين رجال الدين الذين كان كل فريق منهم يعتقد أنه وحده المؤمن ، وان الاخر كافر ، لقد ثار عليهم ابوبكر الرازى منذ القرن العاشر الميلادى . (وهو ذلك الفيلسوف الذى ترجمت اكثر كتبه الى اللاتينية هنا فى ايطاليا (البندقية وصقلية) فى القرن 13 و 16) ثار على الاتجاهات الاستغلالية للاديان كلها،لانها عنده « أخرت الناس فى سلوكهم وعاداتهم السيئة. وزادت من ضيق عقولهم، بالاضافة الى ما سببته بينهم من حروب وعدوات . وما سببته من عداوة رجال الدين للفلسفة والفلاسفة ، فى حين أن الفلاسفة افادوا الانسانية أكثر من الانبياء » انظر احمد أمين — ظهر الاسلام . ج 2 — ص : 186 ».

وبعد الرازى أضيف الى العداوات الدينية ، عداوات الاقتصاد والحربية ، والسياسة التى جعلت لخدمتهما ان الاتصال الوحيد الذى لم يقع الا نادرا فى علاقتنا الحديثة . هو الاتصال بين المثقفين ، هؤلاء ليست بينهم . على الاقل من حيث المبدأ . عداوة تسيرها الاطماع التجارية أو الحيلة السياسية . أو التدمير العسكرى ، أو الحقد الدينى . انهم يؤمنون بقيمة وحيدة فوق كل القيم المالية والسياسية والعسكرية والدينية ، وهى كرامة الانسان ورقيه .

واليوم وفى هذا الحوار الجديد بيننا وبينكم . ماذا نمثل كلنا ، نحن وانتم ؟ هل نمثل مجتمعاتنا ؟ هل نمثل انفسنا فقط ؟ هل نمثل حضارة ؟ اما فيما يخص حضارتنا نحن فقد خرجنا منها ، وحضارتكم لم ندخلها بعد . لان السباق بيننا وبينكم كالسباق بين الخيل والسلحفاة عند زينون فى ابطاء الحركة .

لانمثل مجتمعنا لاننا اقلية فيه . نحن وحدات ضائعة فى خضم لا يكاد يشعر بنا ، نحاول ان نعيش معكم . ولكننا لا نريد ايضا ان ننقطع عن مجتمعنا ، ومجتمعنا ما يزال يعيش مع اجداده وهو يجهلهم وهو دون مستواهم ، بما تركوا له من مسكن وعادات وفكر . هم يؤثرون فيه لانهم يعيشون معه حياته اليومية ، ولا يستمع الى اقوالنا لاننا نرمى بها اليه ونحن مارون فى سيارتنا امام كوخه. اننا لم نستطع ان نلحقكم انتم ، ولا ان نبقى مع مجتمعنا ، حيث هو يقعد به الجوع . فيشعر بعضنا بالحاجة الى الثورة ونحن مختنقون فى ملابسكم لانها لم تخلق لحرارة الشمس فى صحرائنا .

اما السعداء منا فيخلقون جنة لانفسهم من اوراق البلاستيك ـ يقيمونها فى الرمال ليشعروا انهم معكم فى اوروبا ، ويلذ لهم ان يضيفوا الى لهيب الصحراء لهيب الخمر . لانكم تشربونها فى البرد . ويرقصون فى الخرائب والغبار لانكم ترقصون فى القصور وعلى ضفاف الانهار .

انكم اذا حذفتم من وجودنا كل ما هو انتم ، لا يبقى شىء تتحاورون معه . ولكن انتم ، ماذا تمثلون فى مجتمعكم ؟ .

هل تمثلون انسان ما بعد الحرب ، كما صورته لنا الوجودية ؟ يعيش فى حلقة الخوف واليأس . وكما يصفه « مونى » بانه انسان متهافت غير متين، لان معتقداته مغامرة ، ومؤسساته العقلية غير ثابتة . والعالم من حوله صامت لا يقول شيئا ، والموجودات غارقة فى الوحدة . والعدم يصاحب كل شىء ، ينظر الى الناس من حوله على انهم اشياء ، ويتوهم انهم ينظرون اليه على انه شىء ، لانهم سرقوا حريته فرفض معهم كل تواصل . أم تمثلون فى مجتمعكم ذلك الانسان البورجوازى صاحب الشراسة المبتسمة (لنفس الكاتب) ذلك الذى يعتبر انالفضائل الاخلاقية تنحصر فى كثرة المطالب والجشع وعدم الاهتمام بالغير ، لان محبةالمال قد التهمت عنده كل الفضائل الاخرى وحلت عنده قيم الرخاء والبذخ رأس درجات السلم . لا يسمع نداءات الاخرين لانه لا يرى من التعاسة الا تعاسة الشخصية . ذلك الانسان الذى نشا فى رجل المال ثم امتد الى التاجر والفلاح والعامل والصانع وساكن القرية وترك اثره فى كل الطبقات ظاهرا كالسيول المدمرة ؟

لا تنزعجوا هذا هو نفس الانسان الذى وصفه ابن خلدون عندنا قبل ان يحكم علينا الاستعمار الحديث بالفقر العام .

كلا انكم لا تمثلون هذه القيم الناقصة ـ ولا هذا المجتمع الكافر بالانسان ـ لانكم انتم الذين تصيحون فيه ليستيقظ . وتتعرضون للتيار فلا يجرفكم . ولكنكم لا تستطيعون ايقافه ،كما لانستطيع نحن ان نشعل النار فى الرماد .

لقد استولى على مجتمعنا الأموات كما يقول (اوغست كونت) . واستولت على مجتمعكم فردية الآلة ، واننا لو نستمع واياكم لما تقوله لنا روح الاستسلام لوجدنا انفسنا فى جمهورية أفلاطون ، جموع العبيد فيها اكثر من الاحرار . وعبيد اليوم هم الجماهير التى لا تشعر بشقائها . والاحرار فيها هم من يملكون الأساطيل والبنوك والمراقص ، وينفقون فى ليلة على شهواتهم ما يعيل اسرا باكملها طيلة عام عندنا . ولكنهم هم أيضا ليسوا احرارا لانهم مملكون لما يملكون . ان أغلال عبودية العالم اليوم اصبحت مرة أخرى اغلالا نفسية ، لان الجشع الذى تحكم فى كل الطبقات أصبح هو مركز الرحى فى العالم المعاصر .

هذا هو الاله العنيد الذى ثار عليه سقراط والمسيح ، ومحمد ، وثار عليه نيتشه وماركس وغاندى . وروسكين ، وكروتشى . ومونيى .

اننا نقرأ وصفا لمجتمعكم عند «ريش» فنجدكم مجتمعا يعمل على نشر أخلاق المتعة ، والهدف عنده هو استفزاز شهوة الاستهلاك من أجل الازدهار الاقتصادى .

اما العمل فى حد ذاته فليس الا حلقة فراغ بين سلسلة اللذات ، هو وقت تغيب عن الحياة . مجتمع مدلل لا يعجبه شيء ، ولا شيء فى نظره جميل همه ان يشكو باستمرار وهو جالس فى حلقة دائرة تحيط به ألعابه البراقة ، التى خيبت آماله .

ونقرأ عنكم بودمير الالمانى فنجد مجتمعكم عنده اصبح يكثر من استعمال التقنية الصيدلية ليواجه مشاكل الحياة الحديثة وأتعابها . أصبح لا يعتمد على مقاومته الطبيعية ، وانما يصنع وسائل هذه المقاومة ضد ما صنعه من وسائل المتاعب والتعقيد . وهو نوع من الضعف العضوى الذى جعل الناس يحسون باى ألم على انه مصيبة عظمى تفسد مزاجهم، وتجعلهم فى حالة توتر دائم تشبه حالتهم وهم يسوقون السيارة .. لقد اصبح كل واحد يساق الى عملية التقدم الصناعى بدون شفقة دون ان يتصور ماذا يحقق من وراء عمله ، انهم مطالبون دائما بالتلاؤم مع ما يظهر من جديد فى عالم التكنولوجيا ، وعندما يشعر بالحاجة الى الروح يصنع لنفسه روحا بالمواد الكيمياوية .

ان التقدم الصناعى لا بد أن يدفع ثمنه بالانحدار الانسانى وفقدان الاسس الاخلاقية ، وعالم التكنولوجيا ـ ولعل هذا قد بدا فعلا ـ هو الذى ينحدر منه الانسان الى العالم البدائى .

ونفس النظرة نجدها عند (فولكوف) الروسى وان كان يعزو أسبابها لا الى التقدم العلمى والتكنولوجى ، بل الى نوعية العلاقات الاجتماعية فى المجتمع الرأسمالى .

ولكن ما يهمنا من كل ذلك هو ان مجتمعكم ، على ما نفهم مصاب بامراض الشبع ، الشبع بكـل انواعه وفى مختلف ميادينه المعاشية ، كما يسميها ، ـ ابن خلدون ـ عندنا : شبع فى المأكل والملبس والعلاقات الجنسية ، والعمل والتثقف والحـروب والغربة والضياع ، انتم مصابون بأمراض الحيـاة المكثفة القصيرة التى يفضلها ـ ابن سينا ـ عندنا على الحياة الفارغة الطويلة وهـذه الحيـاة الفارغـة الطويلة التى يعانيها مجتمعنا نحن ، حياة الجوع بكل انواعه ومختلف اشكاله وميادينه المعاشية : الجوع فى المأكل والملبس والتثقف ، وكل ضروب المتعـة الفكرية والمادية . هناك شىء واحد يتميز به مجتمعنا عن مجتمعكم وغذاؤه منه أوفر . وهو غذاء الطمأنينة والراحة والايمان والرضى الا بله . يقابله ما يسميه (فولكوف) عندكم بضياع معنى الحيـاة وفقدان الايمان باى شىء وعدم الثقة فى اى شىء .

وما عندنا وما عندكم فى كلا المجتمعين لانقره جميعا، ونستنكره ونحاربه. كل فى ميدانه وبالسلاح الذى توفر له ، ولكن ما نلاحظه هـو ان صياحكم ضائع فى ضجيج الالة ، وصياحنا ضائع فى سكون الصحراء . ولقاؤنا اليوم وحوارنا اذا كان فيه مـا يجمعنا حقا ، فهو هـذا التضامـن بيننا تضامن الضائعين الغرباء فى مجتمعات فقدت توازنها، وفقدان التوازن فيها هو أيضا ما يجمع بينها لان أمراض الشبع فى مجتمعكم ناتجة عـن امراض الجوع فى مجتمعنا، تذكرون كلكم قصة برناردشو مع (تشرشل) عندما قال له هذا : مالك نحيف هكذا يا صاحبى ؟ ان من يراك يحسب انجلترا تعيش فى مجاعـة . فاجابه شو بقوله : ومن يراك أنت ياحضرة الوزير الاول يعرف سبب المجـاعة . اننا لا نقصد من هذا أن تعملوا على أن يتنازل مجتمعكم عن بعض ما عنده لمجتمعنا فنحن هنا نؤمن برأى (تيبورماند) بـأن مساعدات الدول المتقدمة للدول المتخلفة هى العرقلة الاولى امام الدول المتخلفة ، لتتغلب على مصاعبها . ويؤمن الواعون منا بمبدأ الاعتماد عـلى النفس ولا نرضى بان ياكل البطال الكسول عندنا ثمرة العامل الكادح عندكم ، وان بقى بعض المسؤولين فى العالم الثالث يمدون أيديهم ! ولكن ما نطلبه ، وما نعتبره حقا مقدسـا هو مبـدأ الإحترام . وأعتقد شخصيا أن هذا اللقاء بيننا وبينكم قائم على هذا المبـدأ أكثر من أى شىء آخر : مبدأ الاحتـرام وتبـادل المعارف والتجربة الانسانية . اننا فى الوقت الحاضر لا نصنع ما نتبادل به واياكم ، ولكننا نملك مـن تراثنا ما يفيدكم أن تتطلعوا عليه . ولا تظنـوا أن الحضارة الحديثة قد حوت كل الحقيقة . وان ما قبلها من حضارات قديمة لم تعرف الا الخطأ .

ان ما نعمله فى مجتمعنا نحن . عن وعى وعن غير وعى ، هو تمجيد القيم التى قامت عليها حضارتكم، ننشر هذا فى محيطنـا الراكد المـتخلف ونعلمـه لاطفالنا فى المدارس ، ولكننا لا ندرى بعد اذا كنتم تقومون فى مجتمعكم بمثل هذا التمجيد للقيم التى قامت عليها حضاراتنا وتجاربنا الغنيـة فى الحياة الانسانية . ونحب ان نعتقد ان هذا الملتقى الذى دعوتمونا اليه مشكورين ، هو حركة من هذا العمل، تريدون أن تتعرفوا من خلالها على تجربة أمم أخرى غير تجربتكم لا لتستفيد السياسة عندكم من هـذه المعرفة اشياء لنفسها ، بل لتساعدكم فى عمليـة

انقاذ مجتمعكم ، ونحن نستجيب لهذا اللقاء أيضا لاننا واثقون ان تجربتنا مهما كانت ثرية فـــهى لا تغنينا عن معرفة تجربتكم بخيرها وشرها . لان كل حضارة شرها جزء من خيرها .

ان التضامن الذى يجب أن يقوم بيننا نحـــن المثقفين من ابناء المجتمعات المتخلفة ، وبينكم انتم المثقفين من ابناء المجتمعات المتقدمة هو تضامن لنفس المعركة . هذا التضامن أصبح ضروريا لأن المثقفـين فى العالم اليوم سواء منه العالم المتخلف أو المتقدم، أصبحوا أخف وزنا فى مجتمعاتهم مما كان عليـــه سابقوهم فى المجتمعات القديمة . فى الوقـت الذى ندعى فيه بأن عصرنا هو عصر العلم والتكنولوجيـا والثقافة . ولكن المثقفين فيه لا يؤثرون فى توجيهه بقدر ما يستغلهم رجال السياسة والاقتصـــــاد والحروب فى تحريف الحياة الاجتماعية عن قيمهـــا العليا .

لقد انقسموا طائفتين متناطحتين : طائفة تعيش بالمثل والكتب وتجهل الحياة الصاخبة ، وطائفـة انتهازية تبيع ثقافتها كما تباع كل السلـــع فى الاسواق . وتنتج حسب الطلب المستعجل الانى ، انتاجا نسى مشكلة القيم ولم تطرح أمامه .

واذا أردنا أن ننقذ مجتمعاتنا المتقدمة والمتخلفة على السواء يجب أن نجدد نداء ماركس ولكـن الى المثقفين ، يا مثقفى العالم اتحـــدوا !

ان السياسيين اليوم على المستوى العـــــالمى تجمعهم مصلحة استغلال الشعوب ، والاقتصاديين تجمعهم مصلحة استغلال الطبيعة والامخاخ البشرية.

ولكن الاجماع بين هؤلاء واولئك تنخره المتناقضات التى تنشأ دائما عن المصلحة المادية وتنافسها . أما المثقفون فعند ما يتحدون على المستوى العالمى ومن أجل خوض معركة الانسان وسعادته . فانهم لا توجد بينهم متناقضات لانهم لا يتنافسون من أجل مصلحة مادية وهذه هى قوتهم ، ولكنهم لم يشعروا بها بعد.

غارودى : (ان المهمة الاولى فى تكوين الكتلـــة التاريخية الجديدة ، المهمة الحاسمة بالنسبة للمستقبل هى اتحاد قوى العمل والثقافة) . تحالف اليـــد والفكر على المستوى العـالمى .

ولكى يأتى هذا التحالف بثمرته المنعشة لـكل شعوب العالم ، يجب أن يكون فيه المثقفون عـــلى مقربة فى حياتهم من قوى العمل ، وتكون قـــوى العمل ذات مستوى ثقـافى .

هذا ما فعله (سقراط) فحكم عليه بالاعدام من السياسيين ، وهذا ما حاول (الاسكندر) الاكبر أن يمنع أرسطو من القيام به . وهذا ما فعله المسيـح فانتشرت دعوته بتضحية قوى العمل الفقـــيرة . وهذا ما فعله (محمد) الذى كان يقول : « اللهـــم أحينى مع الفقراء وأمتنى مع الفقراء وابعثنى يـوم القيامة مع الفقراء » .

هؤلاء الفقراء هم الذين يتكون منهم اليـــــوم مجتمعكم المفتقر الى الايمـان والقنـاعة والقيـــم الخلقية ويتكون منهم مجتمعنا المفتقر الى الخبـــز والكتـاب والنشـــاط .

وكل هذا يتطلب منا نحن أن نتحرر من عقـدنا وتحرزنا منكم . ويتطلب منكم انتم أن تحذروا من

أن يستخدمكم السياسيون والتجار لرواج بضائعهم باشهـــار ثقافي .

نحن اليوم في العالم الثالث بما فيه العـــالم العربي يقوم بيننا حوار عن قيمكم : بعضنا يعلمها للنشء ويحرض عليها . والبعض الآخر يرفضهـــا ويعتبرها تبعية ومسخا . فهل يوجد هذا الحـــوار اليوم بين المثقفين في الغرب فيما يتعلق بالحضـــارة والثقافة العربية ؟ هل تدرسون حضارتنا ومشاكلنا ووجودنا في غير الكتب الاستشراقية الخاصة التي لا يقرؤها الا الخاصة ، يؤلفها مستشرقون ، ويقرؤها مستشرقون . أما بقية المجتمع الاوروبي فلا يعرف عنا شيئـــا ؟

اننا نتساءل اليوم أمامكم . هل سيعمل المثقفون في الغرب على تلافي هذا النقص في المستقبـــل ؟ هل سنجد في يـوم من الايام مفـكرينا وعلماءنـا مذكورين في كتب التاريخ وكتب تاريخ الفلسفة ، وتاريخ الآداب العالمية ، يدرسون في المعاهـــد الثانوية والجامعات كما ندرس نحن علماءكـــم وفلاسفتكم وأدباءكم في مقاعد مدارسنا . ولا يبقى التراث العربي معروفا فقط من المستشرقين عندكم؟

اذا أردنا أن نهيء أجيالا في بلداننا لمستقبـــل يكون فيه أكثر تفاهما وانسجاما فيجب علينا أن نبـدأ من هنـا .

اننا اليوم بعض أفراد مجتمعين في هذه القاعة جئنا من أربع قارات . أما غدا فيجب أن تصبـــح هذه الملتقيات على مختلف المستويات : بين المثقفين والشباب والنقابات والاحزاب والتشكيلات الجماهيرية يتكلم كل واحد منهم لغة الآخر . ويعـــرف تراثه وأبطاله في الفكر والتاريخ . وهذا ما نسميه غـدا بالاحترام المتبادل . ان أي طالب من طلابنا يعـرف من هو أرسطو ودانتي وديكارت وهيجل وكروتشي ، فهل يعرف الطلاب في المدارس الاوروبية أسمـاء ابن سينا وابن رشد وابن خلدون ومحمد عبـــده وباديس ؟

هذا ما يجب أن يتطوع له دعاة مناضلون لبثـه في الحياة الثقافية والتعليمية في أوروبا ، وعندئذ فقط يمكننا أن نتكلم عن المجموعة الثقافية المتوسطية





(Dessin de Konk.)

المساعي الاميركية لاعادة بناءالهند الصينية

عن « لوموند »

الحواجز التي منعت أوربا من فهم العرب

بول بالطا

صحفي فرنسي
ومندوب فرنسي

حدثني الجنرال دي غول يوما عن علاقات فرنسا مع العالم العربي فقال : « ان التجارة والاقتصاد والثقافة ، كلها أمور مهمة . ويجب ان نتكلم عما يجري فيه العمل من هذه الامور ، لانها هي التي تهيء المستقبل . يجب ان ننظر الى البعيد . انظروا مثلا الى الضفة الاخرى من البحر الابيض المتوسط ، تجدون بلدانا في طريق النمو . ولكن توجد عند أهلها حضارة أيضا ، وثقافة وانسانية وحس بالعلاقات الانسانية لا نجدها في مجتمعاتنا نحن المصنعة . ولعله يسعدنا يوما ان نجدها عندهم .

اننا وإيـاهم جميعـا نتقدم ، بحسب سرعتنـا وامكانياتنا وعبقريتنا نحو حضارة صناعية . ولكن اذا اردنا ان نكون حضارة حول البحر الابيـــض المتوسط مهد الحضارات ، واذا اردنا ان لا تكون هذه الحضارة على الطرازالامريكي،حتى يكون فيها الانسان غاية لا وسيلة ـ اذا اردنا كل ذلك،فيجب ان تنفتح ثقافتانا انفتاحا واسعا ـ نحو بعضهما البعض » .

وعند ما سالته لماذا لا يقول مثل هذا الكلام أمام العمـوم في مؤتمر صحفي مثـلا ، أجابني بقوله : «كنت أخشى ان يسيء فهمي الناس» . ثم رفع رأسه وأضاف : «وأخشى الآن ان اليوم الذي يحسن الناس فيه فهم هذا الكلام ، يكون قد فات أوان فائدته » .

ان في هذا الكلام مسحة من التشاؤم لا محالة ، ولكننا لا نجد مناصا من الاعتراف بانه يوجد فيـه نصيب من الحقيقة ، اذا لم نقل كل الحقيقة . ومن المؤكد ان الجنرال دي غول في هذا القول كان يفكر في مصلحة فرنسا.ولكن الوضعية القائمة في فرنسا لا تبدو لي في هذا الميدان مختلفة عما عليه في الاقطار الاوربية الاخرى.ان من المحتمل ان يرى الاختصاصيون واساتـذة اللغة العربية والادب العـربي والمؤرخون وعلماء الاجتماع والباحثون ، وباختصار كل المهتمين بالعالم العربي والاسلام ان يـروا الامـور بمنظـار اكثر اعتدالا ، في الحدود التي تسمح لهم فيهـا اعمالهم بالمحافظة على الاتصال المستمر مع رجـال العالم العربي والاسلامي ، ومع ماضيه وحاضـره وآثـاره .

أما بالنسبة لصحفي مختص في الشؤون العربية المعاصرة ، ولكنه لا يريد ان يقصر اهتمامه على جانب الحوادث والحقائق والتواريخ التي تجرى حاليا ، بل يريد ان يفهم نفسية الشعوب ، ويوسع ميدان نشاطه الى علم الاجتماع،لان هذا العلم يساعده أكثر على فهم الظواهر الاقتصادية والسياسية . ان صحفيا كهذا تبدو له الوضعية مخيبة للامل من عدة جوانب .

ان هذا الملتقى قد اتخذ كموضوع له مسالة التلاقي بين الثقافة العربية والثقـافة الاوربيـة . وأود من ناحيتي ان انكب بالخصوص على الحواجز الـــتي تشكل عرقلة في طريق هذا التلاقي . والبحث في هذه العراقيل ، أليس هو من نوع البحث عن اسباب المرض لايجاد أنجع الادوية ؟ وهذه الحواجز منهـا ما هو من نوع تاريخي ، وآخر اجتماعي ، ونــوع أخير سيـاسي .

الحواجـز التاريخيـــة :

في المجتمع الاوربي كثيرا ما نثير ذكريات الحروب الصليبية والغزو العربي الى «بواتيي» ، والنـــزاع التقليدي بين الصليب والهلال ، وما نسميه «بالتعصب الاسلامي» كل ذلك نفسر به موقف التحرز ، ان لم يكن موقف العداء ـ كما لو كان العداء هو دائمـا القاعدة ـ وفي كثير من الاحيان نستعمل هـــذه «الكليشيات» لنبرز بها الصعوبات القائمة بـــين الثقافتين .

أما ان يكون العالمان الاوربي والعربي قد تحاربا فهذا ما لا يستطيع انكاره أحد . ولكن هل نستطيع ان ننسى ان المسيحية والاسلام قد تعايشا اربعـة قرون : اذ توفي محمد سنة 632 ، والحرب الصليبية الاولى وقعت سنة 1095 . وفي هذه القرون الاربعة ، فان وجود المسلمين في الارض المقدسة ، لم يثـر أي

نزاع خطير بين الكنيسة والخلفاء المسلمين ، كما لم يمنع الحجاج المسيحيين من التوجه الى القدس . فهل نقول هذا فى كتبنا المدرسية ؟ وهل يمكننا ان ننسى ان الصليبيين فى حربهم كانت لهم أسباب لا علاقة لها بالدين ولا بالآخرة اطلاقا ؟ وهل ننسى ان صقلية فى عهد روجى الثانى و فريدريك الثانى فى القرون الوسطى كانت مهدا للثقافة الاسلامية المسيحية والتى كان يفتخر فيها الاوربيون بانهم يتكلمون اللغة العربية ؟

لننظر الآن كيف كتبنا نحن هذا التاريخ ، ولنفتح قاموس «لاروس الكبير» الذى يستغرق عشرة أجزاء . اننا لا نجد فيه أى ذكر «لروجى الثانى» ولا «لفريدريك الثانى» واننا نجد فى كلمة صقلية هذه المعلومات : «تعرضت صقلية للغزو العربى . ولكن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية لم تمحيا منها . . وازدهرت فى هذه الفترة الآداب والهندسة المعمارية .. وقد هزم «هوتفيل» العرب . وحرر الجزيرة من سيطرتهم ، وجعل صقلية مركزا لمملكة مزدهرة قوية .. وقد احترم «النورمان» شعائر الاسلام وتقاليد أهله » .

ونلاحظ فى هذا النص اختيار الكلمات والتعابير بعناية . ولكن ما هو الشعور الذى نخرج به من قراءته . الا ان الغزو النورماندى كان أكثر حضارة وأكثر تسامحا من حضارة وتسامح العرب ؟ ومع هذا يكفى ان يزور المرء هذه الجزيرة الجميلة ، ويستنطق الهندسة المعمارية فيها وحدها ليعرف انها كانت ملتقى رائعا لتعاون الحضارتين النورماندية والعربية.

وهل يمكننا ان ننسى ان أسبانيا نادرا ما بلغت فى تاريخها مستوى الرخاء الذى بلغته فى أيام مملكة قرطبة وغرناطة (739 ـ 1492) . وانها لم تستطع ان تنفلت من قبضة محاكم التفتيش التى اعقبت تاريخ الاسلام ؟

وهل يمكننا ان نجهل ذكرى «بواتى» وذكر الحروب الصليبية لم تمنع «فرانسوا الاول» من الاستنجاد بالخليفة العثمانى سليمان الثانى فى القرن السادس عشر ليواجه سيطرة «شارل كان» على البحر الابيض المتوسط ؟

وهل يمكننا ان ننسى أن فرنسا الجمهورية قد تابعت باستمرارية رائعة سياسة التعاون . التى كان يسير عليها النظام الملكى قبلها مع العالم العربى الاسلامى ؟ وهل يمكننا ان ننسى أخيرا ان كتاب دائرة المعارف الفرنسية انفسهم كانوا يعطون المفكرين والفلاسفة المسلمين كمثال على التسامح ؟ وان « التعصب » الذى كثر عنه الحديث هو ظاهرة متأخرة نسبيا ، ارتبطت بظاهرة أخرى هى الاستعمار فكان فى الحقيقة عبارة عن رد فعل دفاعى قام به جسم المجتمع .

واريد بعد هذه التحليقة التاريخية القصيرة ان استشهد بأحد كتاب القرن التاسع عشر ، وهو ميشلى . لانه صور لنا باقصى ما يمكن من الدقة والعمق . المستوى الفكرى الذى كانت عليه أوربا فى القرن السادس عشر . ان نظرة هذا الكاتب ما تزال بالنسبة الينا نحن ابناء القرن العشرين ، غنية بالمعلومات . يقول ميشلى : « باستثناء البندقية وبعض الفرنسيين . لا نجد رجلا فى اوربا يعرف شيئا

عن الشرق . وعند ما أفل نجم البندقية ورثت عنها فرنسا دور الوساطة بين الاسلام والمسيحية ، أى بدور انقاذ اوربا . لقد أصبحت فرنسا بعد البندقية، وباعانة الاتراك ، هى المدافع عن المسيحية حتى لا تقضى على نفسها . فحفظتها من ان تقضى عليها اسبانيا ومحاكم تفتيشها . لهذا يجب ان نحيى الرجال الاحرار ، ذوى الافكار والشجاعة ، الذين كانوا من باريس والبندقية من ناحية . ومن اسطمبول من ناحية أخرى . يمدون ايديهم بعضهم الى بعض عبر القارة الاوربية ، لينقذوها . فلتقشعر الارض ، ولترعد السماء .. فان ما حصل ، بفضل الجرأة اللادينية ، والعمل المقدس ، الذى تم من خلال التصالح بين اوربا وآسيا ، هو الذى خلق التوازن الجديد ، والنظام الاعظم للعصر الحديث ، وهو كون الانسجام المسيحى قد ترك واختفى وترك المكان للانسجام الانسانى ».

ان هذه النزعة الانسانية هى التى يجب علينا نحن اليوم ان نوليها الصدارة من اهتمامنا . ولكن بالرغم من وجود بعض الرواد فى هذا المجال ، فانه يخيل الى اننا ما زلنا بعيدين عن هذه الغاية . ذلك انه ــ بعد الحاجز التاريخى الذى نكتبه ونقرؤه ــ يقوم فى طريقنا الحاجز المجتمعى ، و «الكليشيات» المعادية للعرب ، والضاربة بعروقها فى اعماق الكثيرين منا ، يرجع تاريخها ، الى حد بعيد ، للعهد الاستعمارى ، ان الاستعمار لكى يبرر وجوده من الناحية الاخلاقية ، عمد الى التنقيص ، او تشويه ، بل الى انكار القيم العربية الاسلامية اطلاقا ، ولنأخذ مثلا صارخا على ذلك ، أذكر ان كتب التاريخ التى تعلمتها فى المدرسة ، كانت تقف عند القول بأن «شارل مارتيل» قد هزم العرب سنة 732 ، وبقيت صورة العرب فى ذهنى وأنا طفل ، هى صورة الهمج الذين قدموا من آسيا الوسطى فى القرن الخامس غازين اوربا وخاصة فرنسا . وذلك لان تلك الكتب لا تذكر لنا الى جانب ذلك ان العرب قد أقاموا حضارة فى اسبانيا من ألمع الحضارات ، حضارة لم تكن تدانيها حالة فرنسا اذاك وحالة بقية اوربا .

وفى اواسط القرن التاسع عشر ، اختل التوازن القديم بفعل الاستعمار . وفى النصف الثانى من القرن العشرين جاء دور القضاء على الاستعمار بفضل حركات التحرير ، ولكن هذا لم يعد يخلق بعد توازنا جديدا ، يصبح فيه التعاون قائما مقام علاقات القوة فى كل الميادين ، ولم يخلق فكرا جديدا ، ولم ينظم اعترافا حقيقيا بوجود عدوتين للبحر المتوسط.

ولكن فى الوقت الذى بدأ فيه تراجع المد الاستعمارى ، جاءت المشكلة الاسرائيلية العربية لتضيف حاجزا جديدا يخفى كثيرا من الحقائق ويعرقل التقارب المنتظر .

الحاجز السياسى :

وهنا نصل الى الحاجز الثالث ذى الطابع السياسى ويكفى ان نفتح أعيننا وآذاننا ، لنسمع الاذاعات ، ونبصر التيلفزيون ، ونقرأ الصحف ، فلا نجدها فى مجال الاخبار تذكر شيئا عن العالم العربى الا اذا وقعت فيه توترات داخلية ، أو أمر يتعلق بالنزاع العربى الاسرائيلى فى الشرق الاوسط . وحتى فى هذه الحالة يذكرون العرب كما لو كانوا امة لا ماضى لها ، ولا تقاليد ، ولا حياة خاصة بها ، ولا نظرة الى المستقبل ، وانتظرنا عندنا فى فرنسا سنة 1971 لكى نرى فى التيلفزيون سلسلة من الحلقات ، وهى

من التعاون الفرنسى الايطالى ، عن تاريخ الاسلام . ومن حسن الحظ ان التعليق على هذه السلسلة قد عهد به الى مثقف كفء بالعربية هو السيد «أندرى ميكيل» . وكان علينا ان ننتظر ايضا سنة 1972 ، لكى يعطينا «جان مارى درو» صورا ذكية ومحمسة عن مصـــر .

واليوم وانا انتهى من كتاب ألفته أنا وزوجتى ، عن «سياسة فرنسا نحو العالم العربى» عثرنا على حقيقة هى أشبه بسخرية القدر ، او بالتناقضات المذهلة . وهى ان الاوربيين اليوم أصبحوا يعرفون عن شؤون العالم العربى الاسلامى اقل مما كانوا يعرفونه الى عهد حفر قنال السويس سنة 1869 .

اننى أبعد ما اكون عن انى انكر صدور مؤلفات عندنا عن العرب ، تعتبر فى الدرجة الاولى من حيث الاهمية والمستوى ، ولكن ماذا يباع من هـــذه المؤلفات ؟ ألفان ، ثلاثة آلاف ، خمسة آلاف نسخة على اكثر تقدير . فكيف نفسر هذا الاهتمام الهزيل الذى تلقاه عندنا الكتب المؤلفة عن العالم العربى ، فى الوقت الذى ازداد فيه عدد السكان زيادة هامة عما كان عليه منذ قرن مضى ، وفى الوقت الـــذى يزداد فيه السواح نحو العدوة الاخرى من البحـــر الابيض المتوسط ؟

اليس الامر اذاً أمر التكوين الذى ننصهـر فى قالبه ، وامر الاخبار التى تقدم الينا ؟

ان الصورة المنفـرة التى تقدم الينـا عن العـالم العربى ، والتى لا تميز بين سياسة هذه الدولة او تلك ، وتترك كل واحد منا حرا فى الحكم عليها ، وكذلك نوعية الثقافة التى نتلقاها ، والتى نفترض انها جزء من التراث العالمى ، تعتبر من أهم العوامل التى أوجدت عندنا هذه الظاهرة الغريبة .

ان الحروب التى تطاحنت فيها فرنسا والمانيـــا وبريطانيا وايطاليا،لم تحملنا على أن نحذف من كتبنا المدرسية ، ومن مسرحنا ـ شكسبير ، وموليـــار ، وجوته ، ودانتى ، بل ان بقاء هذه الشخصيات فى برامجنا المدرسية والمسرحية ومؤلفاتنا الادبية هـو الذى أعان على تحقيق التصالح بعـــد مرور فتـــرة الحرب بين هذه الدول .

وفى مقابل ذلك متى واين ايقظنا فى طلابنـــــا وتلاميذنا روح الاهتمام بالبحث عما قدمه للثقافـة العالمية ابن خلدون الاب الاول لعلم الاجتماع ، وابن رشد وابن سينا اللذين طبعا بطابعهما القوى تفكير القديس «توما الاكوينى» و «ديكارت» ؟

من منا لا يعرف رحلات «ماركو بولو» ؟ ولكن من منا يعرف شيئا عن ابن بطوطة الذى لا تقل قصص رحلاته روعة عن قصص «ماركو بولو» ؟

اعرف ان موضوع ملتقانا هذا يتعلق بالتبـادل القائم فى الوقت الحاضر ، ولكن هذا التبادل يدخل فى اطار ، وجهلنا بالماضى ليس من شأنه ان يهىء احسن الظروف للتلاقى . واليوم ، كم عدد القصص العربية المعاصرة التى ترجمت فى اوربا كلها ؟ وكم هو عدد الناشرين الكبار الذين اهتموا بها ؟ وفى ميدان علم الاجتماع للعالم العربى المعاصر ، نجـد الثغرات والنقائص أقل مما فى غيره ، وهذا عـــلى الاقل فى مستوى الباحثين . ولكن أى مجهود بـذل فى مستوى التوزيع والتعريف والتبسيط الـــذى يمكن الجمهور من التعرف على هذا الميدان ؟

أما ما يتعلق بالمفكرين فى العالم العربى ، فــان بعض الاوساط عندنا تتجاهل اهميتهم ، بل ولا تعترف بوجودهم اطلاقا .

لنرجع مثلا الى الملتقى الذى عقد فى «لوفان» فى اكتوبر 1970 ، والذى كانت أهم البحوث فيه قــد نشرت تحت عنوان « نهضة العالم العربى » ، وقراءة هذا السجـل الكبـير من شأنها ان تعـدل من رأى المتشائمين ، وتزيد من معلومات الآخرين ، ولــكن يحسن هنا ايضا ان نضع السؤال : كم من صحيفة وكم من اذاعة تحدثت عن هذا الملتقى ؟

لعل من المناسب ان نقول كلمة ايضا عن تعليـم اللغة العربية عندنا ، تلك اللغة التى قال عنهــا ماسينيون انها ضرورية لسلامة العالم ، كضــرورة الانجيل لسلامة المسيحيين ، ان فرنسا من بــين الدول الاوربية كلها ، هى الدولة الوحيدة التى تعلم هذه اللغة فى مدارسها الثانوية ، ولكن فى فرنسا كلها لا يتجـاوز عدد الطــلاب الذين يتعلمــونها الخمسمائة طــالب .

ان كل هذه النقائص التى أتينا عليها فيما يتعلق بتلاقى الثقافتين العربية والاوربية تبدو غريبة ولا مبرر لوجودها ، خاصة وان التبادل فى الميــدان الاقتصادى يبلغ أقصى درجات الاهمية بين عدوتــى البحر الابيض المتوسط ، ان اوربا هى المصــدر الاول للعالم العربى ، وهى فى نفس الوقت المستهلك للبترول العــربى .

وفى الوضعية التى تهمنا هنا ــ وهى وضعيــة البحر الابيض المتوسط ــ نجد الاقتصاد غير منفصل عن الحضارة والثقافة ، هكذا كان الامر منذ أقــدم العصور ، ولكن هذه الحقيقة تصدق اليوم أكثر من أى وقت فى الماضى ، حتى ولو كانت هذه الحقيقــة لا تبدو بديهية لدى المجتمعات التى تقدم لهـــا المعلومات والاخبار تقديما ناقصا او مشوها .

فى الوقت الذى أصبح فيه البترول حيويا لاوربا وتمثل البتروكيمياوية وحـدهـا من 40 الى 50 فى المائة من الانتاج الصناعى لبلدان اوربا الرئيسيــة فى الســوق الاوربية المشتركة فان ما هــو حيــوى بالنسبة للدول العــربية مهما كان نظامها السياسى هو التطور الصنــاعى ، ألا يوجد هنا ميدان واسع مفتوح للتعاون ، تعاون يبدو لنا ذا اهمية اساسية؟

ان بعض رجال الاعمال ، يخشون ، دون أن يقولوا ذلك صراحة ، ان يخلق التطور الصناعى القــوى فى البلدان العربية ، منطقة جديدة للتنافس ، والواقع ان تطورا كهذا يخلق امكانيات جديدة للتبـــادل حتى ولو أدى ذلك الى تلاؤم جديد فى هذا القطاع او ذاك ، ولكن ما هو اساسى ، هو ان هذا التطور يكون اكبر ضمان لاستقلال الدول العربية ، وفى الوقت نفسه هو أفضل وسيلة ، ان لم يكن الوسيلـــة الوحيدة ، التى تمكنها من الافلات من السيطـــرة الاجنبية ، واستقلال العالم العربى وتدعيم اركانــه يكون بالنسبة لدول البحر الابيض المتوسط الاوربية وللدول الاوربية الاخرى ايضا ، ضمانا لاستقــلالها الخاص ، وان الوعى بهذا التكامل والتضامن بين عدوتى البحر الابيض المتوسط ، هو الذى يمكننــا من النجاح فى المحافظة على القيم التى تمتاز بهــا الحضارات القديمة التى تعز علينا ، ونستطيــع أن نستخرج منها انسانية جـديدة .

ان هذا يتطلب منا حتما ان نتغلب على بعـــض التناقضات . وان نهتم على الفور بمداواة آثار الجراح التى خلفتها النزاعات القديمة ، أو الحديثـــة ، ويتطلب هذا من اوربا خصوصا ان تعمد الى عمليـة انتزاع الفكر الاستعمارى من دماغها . ويجـب ان نتجاوز التحرر من الاستعمار الثقافى الى التعـــاون الثقافى ، وهذا يفترض ان يعترف كل منا بـــأن «الآخر» له شخصيته الكاملة .

يمكن ان اتعرض هنا لملاحظة وهى انى لم اذكر الا الحواجز والعراقيل القائمة من الجانب الاوربى . وان هناك حواجز اخرى قائمة من الجانب العربى . وهذا صحيح،ولكنى اعتقد ان هذا الدور يعود الى اصدقائنا العرب عند ما يتحدثون عن مشاكلهم الخاصـــة . واريد ان أضيف مع ذلك . بأن التجربة علمتنى مـا يـلى ، وهو :

ان العرب يعملون جهدهم على ازاحة الحواجز ورفع الستائر المنسدلة ليتصلوا بالجانب «الآخر» ، وذلك فى الحدود التى يشعرون فيها بان «الآخر» يبادلهم التفاهم والتعاطف اللذين ، بدونهما ، لا يمـــكن ان يتحقق تلاق ولا حوار ، وهم فى هذا الميـــدان يبرهنون عن حدس لا نملكه نحن فى اغلب الاحيان».



الشعور بالعدالة

«رسالة عمر ابن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري»

لقد عرف عمر بن الخطاب بتمسكه الصارم بالمبادئ حتى ولو كان ذلك على حساب نفسه أو على حساب أسرته. وكذلك كان يعامل المسلمين جميعهم مهما كانت رتبتهم ومهما امتازت مكانتهم الاجتماعية. وكان يأبى إلا أن يتابع بنفسه النزاعات والخلافات عند نشوبها وينظر شخصيًا في صيغ الأحكام التي كانت تصدر وقت عهده للبت فيها.

كما اشتهر عمر برسائله الرامية إلى تطهير واستقامة العلاقات بين الناس بعضهم بعضًا: بين الحكام والمحكومين وبين القضاة والمتقاضين. وها هي إحدى رسائله التي بعث بها إلى أبي موسى الأشعري:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك. أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور بأشباهها. واجعل للمدعي حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهي إليه فإن أحضر بينة أخذ بحقه، وإلا وجهت القضاء عليه. فإن ذلك أجلى للعمى وأبلغ للعذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حد أو مجربًا في شهادة زور أو ظنينًا في ولاء أو قرابة فإن الله سبحانه وتعالى تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالبينات. وإياك والقلق والضجر والتأذي للناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر. فإنه من يصلح نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله منه غير ذلك شانه الله

دور التراث العربي في

تحديد نظرة العرب لأنفسهم ولأوربا

في القرن التاسع عشر

محمد عمارة

مندوب جمهورية
مصر العربية

تؤرخ الحركة الفكرية العربية بالقرن التاسع عشر لعصر النهضة العربية الحديثة ، اذ فى هذا القرن بدات فى العالم العربى ، وبالذات فى مصر ، عملية التفتح على اسباب الحضارة والتعرف على وسائل التقدم ، وبدأ الانسان العربى منذ ذلك التاريخ يدرك مكانه من حركة التقدم الانسانى ، ويعقد المقارنات بين مكانه ومكانته وبين ماوصل اليه غيره ، خصوصا فى أوربا ، وأوربا البحر المتوسط بالذات ٠

ولقد كــان هذا التفتح وتلك المقارنــة البدايــة لعمليات مــن القلــق والمعاناة ومحاولات مــن الخطأ والصــواب ، وحركــات ثــوريــة وأخرى اصلاحيــة وانجازات ناجحة أو مخفقة قام بها وحاولها وحققهــا الانسان العربى على طريــق نهضته وتقدمه ، محاولا بكل الوسائل تجاوز العصر المظلم الذى ســاد عالمه منذ أن غابت عنه شمس ازدهــار الحضارة العربية ، وبالذات منذ أن بــدأ العصر المملوكى سنة ١٢٥٠ م ، والذى ازداد ظــلامــا وتخلفــا تحت حكــم الأتــراك العثمانيين الذى بدأ فى سنة ١٥١٧ م ٠

كانت شعوب الــوطن العربى احتكت مــن قبــل باوربا خلال الحروب التى نشبت فى العصور الوسطى والتى عرفت بــاسم الحــروب الصليبيــة (١٠٩٧ ــ ١٢٩٤ م) ، ولكــن الاحتكاك الذى حدث مــع بدايــة القرن التاسع عشر قد اثــار فى العالم العربى مــالم يثره ذلك الاحتكاك القديم ٠٠ فخلال الحروب الصليبية كان العرب ، حضاريا ، فى مكــان رفيــع ومتقدم اذا ماقيسوا بأمراء الاقطاع الأوربيين الذين قادوا حملات الغــزو تحت شعارات المسيحيــة وصليب المسيح ٠٠ أمــا فى هذا الاحتكــاك الأخير ، والذى مثلت حملــة بونابرت طلائعه سنة ١٧٩٨ م ، فلقد كان الوضع على النقيض ٠٠ العــرب أسرى التخلف الحضارى الذى كرسه العثمانيون ، بينمــا الحضارة فى أوربــا قــد قطعت شوطا كبيرا على طريق الازدهار ٠

ولقد أسهم هذا الاحتكــاك العنيف بيــن العرب والأوربيين فى تفجير وابراز وتنمية عوامل المقــاومة فى الانســان العربى ، ممــا كشف عــن عجز القوى الاجتماعية التى ســادت فى عصور تخلفــه ، وأفسح بعض الطريق لقوى اجتماعية جديدة كى تبدأ صفحة جديدة فى كتاب تطور هذا الانسان ٠

فبدا واضحا عجــز القوى الاقطاعية العثمانية ومعها الرجعية الدينيــة التى كــانت تبرر لها مظالمها واستعمارها للعرب باسم الاسلام ٠

كما بدا واضحا عجز المماليك ، أولئك الفرسان الاقطاعيون الذين ركبوا الموجة لعدة قرون فى البلاد العربيــة لمــا أحرزوه مــن انتصــارات حربيــة ضد الصليبيين والتتار ٠٠

كمــا بــدت واضحــة مخــاطر ذلــك التحــدى الاستعمارى الأوربى الجديد ، ذلك الذى ورثت فيــه البورجوازية الاوربية ــ مسلحــة بالحضارة الحديثة ــ دور أمــراء الاقطــاع فى العصــور الــوسطى فى محاولات التوسع والاستعمار بالوطن العربى ٠٠ تلك المخــاطر التى تجلت بعد حملــة بونابرت فى الحملــة الانجليزية التى قادهــا الجنرال « فريزر » ضد مصر سنــة ١٨٠٧ م ٠٠ وفى الاحتــلال الفرنسى للجزائر سنة ١٨٣٠ م والاحتلال الانجليزى لعدن سنة ١٨٣٨م واشتراك انجلترا مع العثمانيين فى منــاوأة الجيش المصرى بالشام سنة ١٨٤١ م ثم احتلال تــونس سنة ١٨٨١ م واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ م ٠ الخ ٠٠ الخ ٠

واذا كان تكشف عجز العثمانيين والمماليك قــد أبــرز دور القوى الاجتمــاعية الجديــدة ، والعنصر الــوطنى الأصيل ، فى مصر خــاصة والبلاد العربية الاخرى بوجه عام،فان هذه القوى الاجتماعية الوطنية لم تواجه التحدى الاستعمارى الأوربى بالانطواء على الذات والعزلة بعيدا عما يمثله الانسان الأوربى الذى طرق بــاب الشرق بــالعنف فى ذلك الحين ٠٠ وذلك لأسباب من أهمها :

١ ــ أن النظام الاستعمارى ، الذى كان بسبيله الى أن يصبح نظاما عالميا ، وبمــا يملك من وســائــل الحضارة الحديثة النامية ، قــد أخذ يضيق المسافات بيــن القارات ، وذلك تمهيدا لمحاولــة الغائها ، ممــا

جعل التفكير فى مواجهته بالعزلة والتقوقع ضربا من الوهم وخداع الذات ·

٢ ـ أن الشعوب العربية ـ وهى ليست فريدة فى ذلك ـ كانت لها تجارب سابقة فى صراعاتها التاريخية ، تعلمت منها أن من أهم الاسلحة فعالية فى هذه الصراعات ان تبصر العوامل التى تحقق تفوق أعدائها ، وتجتهد لتحصيلها وامتلاكها تمهيدا لاستخدامها والاستفادة منها فى هذه الصراعات ·· صنعت ذلك عندما واجهت الصراعات الفكرية التى تعرض لها الاسلام على يد تيارات فكرية مثل «المانونية» و « الغنوصية » و « الصابئة » و النساطرة (١) و « اليهود » بعد أن فتح العرب البلاد التى كانت تتوطن بها شعوب تؤمن بهذه المذاهب والأديان ، وفى هذا الصراع الفكرى تسلح العرب المسلمون ممثلين يومئذ فى حركة « المعتزلة » ـ تسلحوا بأدوات المنطق الأرسطى ، والفلسفة اليونانية ، واستخدموا هذه الادوات كأسلحة عربية اسلامية، ضد هؤلاء الخصوم الذين كانوا مسلحين بهذه الادوات ·

وفى العصور الوسطى ، وبعد نجاح الموجات الأولى للغزو الصليبى ، نظر العرب المسلمون مليا فى حركة الفروسية التى كان يمثلها يومئذ أمراء الاقطاع الأوربيون الغزاة، وأدى ذلك الى نشأة نظام الفروسية عند العرب ، ذلك الذى قامت على أساسه « الدولة الزنكية » فى « الموصل » سنة ١١٢٧ م ، والتى خلفتها فى تبنيه « الدولة الأيوبية » عندما قامت بمصر سنة ١١٧١ م ، واستطاعت هى ، والمماليك من بعدها ، أن يستخدموا المؤسسات العسكرية القائمة على نظام الفروسية فى هزيمة موجات الغزو الصليبى ويطردوا آخر فلولها من حصن « عكا » سنة ١٢٩٤ م ·

فهو اذا النظر الى الذات ، ونقد الواقع ، ومحاولة التخفف من قيوده ومعوقاته ، وكذلك النظر الى الخصم ، ومحاولة التعرف على عوامل قوته وأسباب تفوقه ، ثم استعارة ما يمكن هضمه وتمثله واقلمته من هذه العوامل والأسباب ·· كان ذلك هو سبيل شعوب الامة العربية فى صراعاتها التاريخية القديمة الشهيرة ، على اختلاف طبيعتها ، وكان هذا هو سبيلها فى القرن التاسع عشر عندما وقفت وجها لوجه أمام تحديات الاستعمار الأوربى الحديث ومخاطره ·

ويجسد لنا هذه الحقيقة ويبرزها اننا لا نبصر بين كبار المفكرين العرب الذين قادوا عملية البعث والاحياء للوطن العربى فى القرن التاسع عشر ، على اختلاف منطلقاتهم وتعدد بيئاتهم ، من دعى الى مواجهة تحديات أوربا الاستعمارية والتصدى لما تمثله بالعزلة والتقوقع والانطواء على الذات ·· وانما نجد القسمة المشتركة بين هؤلاء المفكرين والقادة والثوريين والمصلحين هى الدعوة للانفتاح على أوربا وتجديد صلاتنا بها، بل وتوثيق هذه الصلات، والتعلم منها ، كما سبق لها أن تعلمت من الحضارة العربية فى فترة ازدهارها ، والمواءمة بين ما يجب بعثه مما هو صالح للتطور والتطوير من تراث العرب والمسلمين وبين ما لابد لهؤلاء العرب والمسلمين من استعارته ووعيه وتمثله من الانجازات الحضارية للأوربيين ·

---

(١) « المانوية » هم اتباع « مانى » (القرن الثالث الميلادى) ويقولون بالهين ـ النور والظلمة ـ للخير والشر · (والغنوصية) ـ نسبة الى « غنوصيص » ـ حركة فلسفية ودينية نشأت فى العصر الهلينستى ، وهى تقول بالخلاص عن طريق المعرفة · « والصابئة » ديانة قديمة عاش أصحابها بشمال العراق ، واسهموا فى الحركة العربية ، زمن الحكم العباسى . « والنساطرة » هم اتباع «نسطوريوس» بطريرك القسطنطينية . الذى اعترض على تسمية مريم العذراء بأم الاله . واستقرت تعاليمه بالكنيسة الفارسية

نجد ذلك عند أبرز هـؤلاء المفكريـن والقـادة والمصلحين والثوريين ٠٠ وفى مقدمتهم : رفاعة رافع الطهطـاوى (١٨٠١ ـ ١٨٧٣ م) وجمــال الديـن الافغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧ م) ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) وعبـد الـرحمن الكـواكبى (١٨٥٤ ـ ١٩٠٢ م) وغيرهم من الذين تركزا بصمات أفكارهم على هذه الحقبة ٠

ويكفى أن نعلم أن الطهطاوى ـ وهـو الـرائد لحركة البعث والتجديد فى الوطن العربى ـ قد اعتبر الصلات التى تجددت بيـن العرب ، وخـاصة مصر ، وبين أوربا فى القرن التاسع عشر من أهم الانجازات التى قام بها نظـام حكم « محمد على » ، واعتبر هذه الصلات الحضارية « الدواء الشافى والعلاج المعانى» للداء الذى عانى منه العرب لعدة قرون فكتب يقـول : انه « لو لم يكن للمرحوم محمد على مـن المحاسن الا تجديد المخالطات المصريـة مع الـدول الأجنبية ، بعد ان ضعفت الامة المصرية بانقطـاعها المـدد المـديدة والسنين العـديـدة ، لكفــاه ذلك ، فقـــد أذهب عنهـا داء الوحشة والانفراد ، وآنسها بوصال أبناء الممالك الأخرى والبلاد ، لنشر المنافع العمومية واكتساب السبق فى ميدان التقدمية (١) » وأنــه قـد اعتبر المخالطة « مغناطيس المنافع » ورآها مع العمل الوطنى طريق التطور، ورأى أن الحرية هى سبيلهما ، وأبصر أنــه لابـد للمخالطة التى تـؤدى الى « كسب المعارف العمومية » من أن تصاحبها « المحبة الوطنية» كي يتأتى لنا « ابلاغ الوطن المطلوب» ٠٠٠ ولم يفـزع الطهطاوى مـن أن تكـون هذه المخالطة نتيجة صراع استعمارى تشنه أوربا مثلا على الـوطن العربى ، اذ مـن الممكن والضرورى للعرب أن يستفيدوا جـوانب ايجابية من خلال الاحتكاك الذى يصاحب هذا الصراع فهو يقول : ان « مخالطة الأغراب ، لا سيما اذا كانوا من أولى الألباب ، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجـاب ، ولـو كـانت مترتبـة على التغلب والاغتصاب ، فربما صحت الأجسام بالعلل ٠٠ !!٠٠ (٢) ولم يكـن الطهطاوى فريدا فى هذا الموقف ، بـل كان معه فيه ، وان يكن بدرجات متفاوته ، أبرز أعلام الفكر العربى فى ذلك القرن ٠

ولما كـان الهدف المنـوط بهذا البحث هو ابراز دور التراث العربى الاسلامى فى تحديد نظرة العرب لأنفسهم ولاوربا فى القرن التاسع عشر ، فلقد آثـرنا أن يكون عرضـا لبعض الآثـار التى قدمها عدد مـن المفكريـن العرب حـول أهم وأبـرز القضـايـا التى استهدفوا من خلالها بعث شعوب أمتهم كى تنفلت من نطاق التخلف العثمـانى والمملوكى وتتصدى للـوجه الاستعمارى الأوربى وتبنى كيـانها الذاتى المستقـل والمتقدم ٠٠ وهى الآثار التى وضح فيها أثر التراث ـ العربى الاسلامى ـ الذى ألم به هؤلاء المفكرين ووعوا آثاره حسب طاقاتهم ومواقعهم الفكرية ـ كمـا وضح فيهـا أثـر الصلات الفكريـة التى كـانت بين هـؤلاء المفكرين وبين الحضارة الأوربية التى تفتحت عليهـا عيونهم وقلوبهم وعقولهم منذ أن وطئت أقدام رفاعــه الطهطاوى أرض باريس سنة ١٨٢٦ م ٠

فهم مفكرون قد نشأوا وتكونوا فى محيط الثقافة العربية الاسلامية ، ثم انفتحوا على الحضارة الأوربية فكـانت معالجاتهم للقضايـا معاصرة بقدر مـا هى ضاربة بجذورها فى أعماق تراثنـا القديم ، وكـانت مقارناتهم بين ما أنجزته الحضـارة الأوربية الحديثة وبين ما أنجزته الحضارة العربية فى عصر ازدهارها

١) الطهطاوى (مناهج الالباب المصرية فى مباهج الآدات العصرية) الباب الرابع . الفصل الثالث .
٢) المصدر السابق ٠ الباب الثالث ٠ الفصل الثالث .

٠٠ كان ذلك هو الأساس الذى جعل من آرائهم نماذج اتحدت فيهـا نظرة العرب الى ذواتهـم بنظرتهم الى أوربا فى ذلك الحين ٠

أمـا القضايا والأفكار التى تصلح ، كأمثلـة ، من تراث هؤلاء المفكرين والقادة والمصلحين والثوار فانها كثيرة منها مثلا :

١ ـ الموقف من العقـل ، فى بيئة سيطرت عليها لعدة قرون منـاهج العثمـانيين الرجعية والجـامدة والمحافظـة ، وسادت فيهـا « النصوص » وزحزحت سلطان العقل والفلسفة عن عرشه ٠٠ ذلك الأمر الذى تجلى فى اضطهاد « ابن رشد » (١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) فى البيئة العثمانية ، واعلاء شان « الغزالى » (١٠٥٩ ـ ١١١١ م) واطلاق العنـان للحركـات الصوفيـة ، وسيادة الشعوذة وانتشار الخرافات ٠

مـا موقف هـؤلاء المفكرين الجدد مـن العقـل والمنهج والعقلانى فى التفكير ؟؟ وكيف نظروا للتيـار العلمانى الأوربى ؟؟ وكيف عالجوا هذه القضيـة فى بيئتهم العربية الاسلامية ؟؟ ٠

٢ ـ الموقف من الديمقراطية البورجوازية ، التى بشر بها بونابرت فى مصر ، والتى شاهدها الطهطاوى فى باريس ؟؟ وكيف رآهـا هـؤلاء المفكرون فى ضوء تـراثهم العربى الاسلامى ، وفى ضـوء الاحتياجات الملحـة للتخلـص مـن أسلـوب الحكـم العثمـانـى الاستبدادى ، ولبعث الروح فى الحركـة الجماهيرية كى تسهم فى صد الغزو الاستعمارى الأوربى ؟؟

تلـك هى بعض القضايـا التى يمكن بواسطتها أن تبرز كيف لعب التراث العربى الاسلامى دورا فى تحديد ملامـح نظرة العرب لأنفسهم والى أوربـا فى القرن الماضى ٠٠ والمدى الذى بلغه فى ذلك ٠

الموقف من العقـل :

بمقدار الصدام الفكرى والعملى بيـن المفكـر العربى ، فى القرن التـاسع عشر ، وبيـن السلطـة العثمانية ونمط تفكيرها ، كان اقتراب هذا المفكـر أو ابتعاده عن الايمان بالعقل وقدراتـه فى ميدان البحث والنظر ، ومدى الثقة الممنوحة له فى تقدير الحقـائق واستكشاف المجهول ٠

فجمال الدين الأفغانى ، وهو الذى تزعم تيـارا فكريا وسياسيا عقلانيا وثوريـا ،نجد صدامـه مـع الرجعية الدينية العثمانية ، ونمط الحيـاة العثمانى ، ونظامهم السياسى ، أحـد الدوافع التى أبرزت لديـه الموقف العقلانى ، وجعله يؤمن بالقدرات غير المحدودة للعقـل الانسانى فى البحث واستكشاف المجهول ٠٠ كمـا نجد فى موقفه ووعيـه للتراث العربى الاسلامى عاملا هاما فى عقلانيته هذه ٠

فهو فيما يتعلق بالعقائد الاسلامية ، والقضايا الخلافية التى ثارت بين علماء الكلام الاسلاميين كان يميل الى مذهب « الماتريدية » (١) ، وهم تيـار فكرى وسطى يقترب من عقلانية « المعتزلة » اكثر من اقترابه من « الاشعرية » (٢) المحافظيـن ٠

وهو فيما يتعلق بالموقف مـن التراث الصوفى فى الفكر الاسلامى كان اقرب الى «التصوف الفلسفى» أو « التصوف العقلانى » ـ ان جاز التعبير ـ منه الى التصوف العملى القـائم على « التنسك » و « الذوق » و « الحدس » ٠٠ فمعروف عنه تقديره الكبيرَ للشيخ محى الدين ابن عربى (١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م) الذى يعد من أبرز أعلام التصوف الفلسفى فى الفكر الاسلامى ٠

---

١) الماتريدية هم اتباع ابو منصور الماتريدى (المتوفى سنة 944 م)

٢) الاشعرية هم اتباع أبى الحسن الاشعرى (873ـ942 م) وهو تيار فكرى فى العقائد الاسلامية نشأ مناقضا للمعتزلة واتجاههم العقلانى ٠

فالصدام مــع العثمانيين ، والفهــم العقــلانى لقضايا التراث العربى الاسلامى ، كانا من أبــــرز الأسبــاب التى جعلت الافغــانى يقترب هذا الاقتراب الشديد من العقل والعقلانية ٠

فهو يقدم لنــا فكرا ناضجا عــن العلاقــة بيــن « الفكــر » و « المــادة » والتاثير المتبــادل بينهمــا ، فيتحدث عن ان (الملاحظة) « الشهود » تحدث (فكرا) ثم يعود (الفكر) الى التاثير فى (العمل) والواقع ، ثم تستمر علاقة التاثير المتبادل والتأثر المتبادل دائما وباستمــرار لتحدث التغيير الــدائــم المستمــــر فى كل الأشياء ، وذلك عندمــا يقــول : ان « كــل شهود يحدث فكرا ، وكــل فكر يكون له اثــر فى داعية يدعو اليها ، وعن كل داعية ينشأ عمل ، ثم يعود من العمل الى الفكر ٠ دور يتسلسل ، ولا ينقطع الانفعال بيــن الأعمال والافكار مــا دامت الارواح فى الاجســاد ، وكل قبيل هو للآخر عمــاد ، آخر الفكــر أول العمل ، واول العمل آخر الفكــر (١) ٠

وهذه النظرة الجدلية التى جعلت الافغانى يقيم الــواقع هذا التقييم العــالى ، ويبرز اثره فى حركــة الفكر ، جعلته يــؤمن بالقدرات غير المحدودة للعقــل الانسانى ، على عكس النظرة الجــامدة أو المحافظة فى هذا المجال ، فهو يعلن انه لا حدود أمام انتصارات الانسان الفكرية على الطبيعــة والكــون والمجهول ، شريطة انيتحرر العقل الانسانى من قيود الأوهــام ، فيقول : انه « اذا ظفر العقل فى هذا العراك والجدال وتغلب اقدامه على الأوهــام ، واستطاع فك قيوده ، ومشى مطلق السراح ، لا يلبث طويــلا الا وتــراه قد طار بأسرع من العقبان ، وغاص فى البحــار يسابق الحيتان ، وسخر البرق ، بلا سلك ، لحمل أخباره ؟! وتحادث عن بعد شهر مع غيره كأنه قــاب قوسين أو أدنى ٠ وهل يبقى مستحيلا ايجاد مطية توصله للقمر أو الأجــرام الاخرى ؟! ومايدرينا بعــد ذلك مايأتيــه الانسان فى مستقبل الزمــان اذا هو ثــابر على هــذا المسير لكشف الســر بعد السر مــن مجموع أســرار الطبيعة التى ماوجدت الا للانسان وماوجد الانســان الا لهــــا (٢) ٠

ثم يرتب على علو قدر العقل علــو قدر الانسان فى الكون ، فيقول : « ان الانسان من أكبر أسرار هذا الكون ، ولسوف يستجلى بعقله ما غمض وخفى مــن أسرار الطبيعة ، وسوف يصل بالعمل وباطلاق سراح العقــل الى تصديق تصوراته ، فيرى مــا كــان مــن التصورات مستحيلا قد صــار ممكنــا ، ومــا صوره جموده وتوقف عقله عنده بأنــه « خيــال » قد أصبح « حقيقــة » ٠٠ (٣)

ولقد شارك الأفغانى فى هذه العقلانية المصلح الدينى الشيخ محمد عبده ، لأنه كان زميــل نضالــه ضــد نمط الحكم والحيــاة والتفكير لدى العثمانيين ، فــوجه هجومه مبــاشرة الى ذلك المبرر الذى حــاول العثمانيون بواسطتــه احكــام قبضتهم الاستعمارية على العالم العربى ، مبرر وحدة الديــن بين أغلبيــة العرب وبيــن الأتــراك العثمانيين ٠٠ فهــاجم محمد عبده وجود « السلطة الدينية » من أساسها ، وأعلن أنها لا صلــة لها بالاسلام ، بــل وأن الاسلام يرفضها ويدعو الى تقويضها ٠٠ وكتب يقول : « انــه ليس فى

---

1) الافغانى (الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى ، مع دراســة عن حياته وآثاره) دراسة وتحقيق محمد عمــاره ص 104 طبعة القاهرة سنة 1968 م ٠

2) المصدر السابق – ص 265

3) المصدر السابق – ص 264 – 265

الاسلام سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة والدعوة الى الخير والتنفير عن الشر ، وهى سلطة خولها الله لأدنى المسلمين يقرع بها انف اعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من ادناهم » اى انه ليست هناك سلطة سياسية دينية فى الاسلام ٠

بل يذهب الى ما هو ابعد من هذا ، فيرى ان احدى المهام التى جاء لها الاسلام ونهض بها فى المجتمع الذى ظهر فيه ، والتى تعتبر اصلا من اصوله هى قلب السلطة الدينية واقتلاعها من الجذور ، فيقول : « ٠٠ اصل من اصول الاسلام ٠٠ قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من اساسها ، هدم الاسلام بناء تلك السلطة ، ومحا اثرها ، حتى لم يبق لها عند الجمهور من اهله اسم و لارسم ٠٠ على ان الرسول ، عليه السلام ، كان مبلغا ومذكرا ، ولا مهيمنا ولا مسيطرا ٠٠ فليس فى الاسلام ما يسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه ٠٠ »

ثم يتحدث عن القائم بالسلطة السياسية فى المجتمع وهو ما يسميه المسلمون « بالسلطان » او « الخليفة » ، فيؤكد ان الأمة هى صاحبة الحق فى اختياره وانتخابه ، وهى صاحبة الحق فى السيطرة عليه ، وهى صاحبة الحق فى عزله وخلعه ، وذلك لأنه ـ حسب تعبير محمد عبده ـ « حاكم مدنى من جميع الوجوه » ٠

وهو لا ينفى وجود السلطان الدينى والسلطة الدينية عن القيادة السياسية العليا للمجتمع فحسب ، بل ينفى اعتراف الاسلام بها ، او اقراره لها بالنسبة لأية مؤسسه من المؤسسات التى تمارس سلطة من السلطات فى مجتمع المسلمين ، مثل المؤسسات التى تتولى « القضاء » او « الافتاء » او قيادة « علماء الدين » (شيخ الاسلام) فيكتب : « يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الدينى ، افلا يكون للقاضى ؟ او للمفتى ؟ او لشيخ الاسلام ؟؟ ٠٠ واقول : ان الاسلام لم يجعل لهؤلاء ادنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام ، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى سلطة مدنية قدرها الشرع الاسلامى ، ولا يسوغ لواحد منهم ان يدعى حق السيطرة على ايمان أحد ، أو عبادته لربه ، أو ينازعه فى طريقة نظره ٠٠ » فهو يقطع ـ وكان يومئذ هو « مفتى » الديار المصرية وأبرز علماء الاسلام ـ أن سلطات « القاضى » و « المفتى » و « شيخ الاسلام » هى سلطات مدنية لا دينية ٠

ثم يعم هذا الموقف العلمانى العقلانى فيقيم به التاريخ العربى الاسلامى ٠٠ ويقرر أن الحروب والفتوحات التى حدثت بعد ظهور الاسلام كانت فتوحات سياسية ، ولم تكن بالحروب الدينية ، وأنها كانت ضرورة من ضرورات « الملك » لا « الدين » ٠٠ فيقول : لقد « اشهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن انفسهم ، وكفا للعدوان عليهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ٠٠ » وهذا ينطبق على الحروب التى دارت بين الفرق الاسلامية ، فهى لم تكن حروب « عقيدة دينية » وانما كانت حروبا « سياسية » ، فنحن « نعرف بحروب الخوارج ، كما وقع من القرامطة ، وغيرهم ٠٠ وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف فى العقائد ، وانما اشعلتها الآراء السياسية فى طريقة حكم الأمة ٠ ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل ان ينصروا عقيدة ، ولكن لأجل ان يغيروا شكل حكومة٠ وما كان من حرب بين الأمويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة ، وهى بالسياسة أشبه ، بل هى اصل السياسة ٠٠ » ٠

وهذا الموقف العلمانى العقلانى هو الذى جعل الشيخ محمد عبده يوافق ويصوغ فى برنامج الحزب الذى قاد الثورة العرابية بمصر سنة ١٨٨١ م

(الحزب الوطنى الحر) ــ المادة الخامسة التى تقول : « الحزب الوطنى حزب سياسى ، لادينى ، فإنه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب، وجميع النصارى واليهود ، وكــل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتهــا منضم اليه ، لأنــه لا ينظر لاختلاف المعتقدات ، ويعلم أن الجميــع اخــوان ، وأن حقــوقهم فى السيــاســة والشرائع متساوية،وهذا مسلم به عند اخص مشايخ الأزهــر الذين يعضدون هــذا الحــزب ويعتقدون أن الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء ، وتعتبر الناس فى المعاملة سواء ٠٠ » ٠

وهــذا الموقف العلمــانى العقلانى ، الذى قــاد محمد عبده الى الوقوف على أرض التفكير القومى ، هو الذى جعله يتصدى سنة ١٨٨٨ م ــ من منفاه فى بيروت ــ لاحدى محــاولات الوقيعــة والتفرقة بيــن المسلمين وبين المسيحيين المصريين ، بسبب تصرفات منسوبة لبعض الموظفين فى وزارة الحقانية ــ (العدل) ــ يومئذ ٠٠ فطالب بالتفرقــة بيــن الوطنى ــ بصرف النظر عــن دينــه ــ وبيــن الأجنبى المستعمر ، وكتب يقول : « ان التحامل على شخص بعينــه لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة ، فان ذلك اعتداء على غير معتد ، ومحاربة لغير محــارب ، أو كما يقال : جهــاد فى غير عدو ، وهــو ممــا ضرره أكثر من نفعه ، ان كان له نفع ٠٠٠ فليس من اللائــق بأصحاب الجرائــد أن يعمدوا الى احدى الطــوائف المتوطنة فى ارض واحدة فيشملوها بشىء من الطعن أو ينسبوها الى شائن من العمل ، تعللا بــأن رجــلا أو رجــالا منهــا قد استهدفوا لذلك ٠٠ فــاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بمــا يحط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضررا على أوطانهم ٠٠٠ نعم ٠٠ ان كانت الطائفة أو الأمــة ــ (أى الجماعة) ــ مــن قوم أجانب عن البلاد ، متغلبين عليها بقوة قــاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمــال آحــادها مبنية على أصول سنها المتغلبون ، فيكــون عمــل الواحد كائــه صادر عن الجملة ، كما فى أعمــال الانجليز بمصر ، جــاز للناقد أن يأخذ الجماعــة بــإثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعا لكشفهم عــن بــلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه ٠٠ » (١) ٠

وهذا الحسم الذى نجده عند محمد عبده فيمــا يتعلق بالعلمانية المؤسسة على العقلانية ، والنــابعة مــن الوعى العقلانى للتــراث العــربى الاســلامى ، والصراع ضد الأتــراك العثمــانيين ، ورؤيــة الاثــر التقدمى الذى لعبته العلمانية فى تقدم أوربا الحضارى ٠٠ هذا الحسم نجده عند عبــد الرحمن الكواكبى ٠٠ فهو يرى أن الحكــام والساسة الذين يحاولون الخلط ما بين « الدين » و « السيــاسة » لا يتراؤون بــالدين الا بقصد تمكين سطتهم على البسطاء من الامة » (٢) وأن موقفهم هذا لا أصل له فى الاسلام كديــن ، لأنــه « لا يــوجد فى الاسلامية نفــوذ دينى مطلقــا فى غير مسائل اقامة الــدين » (٣) ٠

ولقد أبصر الكواكبى ــ عندما نظر الى الواقع العربى ــ عظــم المخــاطر التى تتعرض لهــا الوحدة المرجوة للعرب بسبب الطائفية الدينية التى تشجعهــا بعض الدوائر العثمانية ، كمــا أبصر ــ عندما تطلــع الى آثــار الدسائس الاستعمارية الأوربيــة ــ عظــم

1) حول موقف محمد عبده من هذه القضية يرجع الى الدراسة التى كتبناها فى التقديم لاعماله الكاملة ج 1 (الكتابات السياسية) ص 104ــ109 طبعة بيروت سنة 1972 م

2) (الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، مع دراسة عن حياتهوآثاره) دراسة وتحقيق محمد عمارة ــ ص 82 طبعة القاهرة سنة1970م

3) المصدر السابق ــ ص 348

المخاطر التي تحدثها هـذه الدسائس على الـوحدة العربية المرجوة ٠٠ فأعلن هذا المفكر العربى الشجاع ان العلاج الكفيل بتلافى هذه المخاطر وابطال مضارها هـو الوحدة العربيـة ، على اسـاس قـومى ووطنى وجنسى ، دونما نظر للخلافات الدينيـة والمذهبيـة ، وتقدم الى قومـه بهذه الدعـوة ، ضـاربـا الأمثلـة بالنجاحات التى احرزتها مثل هذه الوحدات القومية فى أوربا وامريكا ، فتحدث عن تلك الأمم التى تحررت وامتلكت مقدرات حاضرها ومستقبلها ، واستراحت من أخطبوط النزاعات الطائفـة ، وقـال : « هذه امم اوستريا وامريكا ، قد هداهـا العلم لطرائـق شتى ، واصول راسخة للاتحاد الوطنى دون الدينى، والوفاق الجنسى دون المـذهبى ، والارتبـاط السيـاسى دون الادارى ـ (أى اللامركزية) ـ فما بالنا نحن لا نفتكر فى ان نتبع احـدى تلك الطـرق او شبهـها ، فيقـول عقـلاؤنـا لمثيـرى الشحنـاء مـن الأعجـام ـ (أى العثمانيين) ـ والأجانب ـ (أى الاوربيين الطامعين) ـ : دعونـا يـا هؤلاء ، نحن ندير شأننـا ، ونتفاهم بالفصحاء ، ونتراحم بالاخاء ، ونتواسى فى الضراء ونتساوى فى السراء دعونـا ندبر حيـاتنا الدنيـا ، ونجعل الأديان تحكم فى الاخرى فقط ، دعونا نجتمع على كلمات سواء ، الا وهى : (فلتحيا الأمة ، فليحيا الوطن ، فلنحيا طلقاء اعـزاء) ٠٠ » (١) ٠

ثم يشير الى دسـائس الفرنسيين الاستعمارية التى حـاولوا بهـا استخدام « الطائفـة المارونيـة » العربية ضد « الدروز » العرب ، والذين كان الانجليز يستخدمونهم ايضا فى لعبـة التفرقـة الطـائفة بيـن العرب ، يشير الكواكبى الى هذه اللعبة التى ادت الى المجازر الطائفية الشهيرة سنـة ١٨٦٠ م ، فيخـاطب الأطراف العربية قـائلا لهم : « اليس مطلـق العربى اخف استحقارا لأخيه من الغربى ؟! ٠٠ الغربى مهما مكث فى الشرق لا يخرج عـن كـونه تاجر مستمتع ، هذا الغربى قد أصبح ماديا لا دين لـه غير الكسب ، فما تظاهره مع بعضنا بالاخـاء الدينى الا مخادعـة وكـذبا ٠٠ » (٢) ٠

فهو هنا يدعو الى الوحدة على اساس قومى ، والى اسقاط الفروق الدينية والخلافات المذهبية ، لان موقفه العلمانى العقلانى قـد قـاده الى الوقوف على ارض الفكر القومى ، حيث رأى أن الأمة والشعب هو عبـارة عن « جمع بينهم روابط جنس ولغـة ووطـن وحقوق مشتركة » ٠٠ (٣) ولانه كان يـدعو الـــى «الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية» (٤) كمـا يقـول صديقه الشيخ محمد رشيد رضـا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) ٠

اما رفاعة رافع الطهطاوى فهـو يقف ، عمليا ، مع هذه العلمانية والعقلانية ، لأنه لم يكن مجرد مفكر ومثقف بالمعنى المتعارف عليه ، وانما كان رجـل دولة حمـل على كاهلـه عبء الاسهام فى بنـاء التجربـة « المدنيـة » التى قـامت بمصـر فى عهـد محمد على (١٨٠٥ ـ ١٨٤٩ م) وعهـد الخـديـو اسمـاعيـل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ م) على انقاض النظـام العثمانى المملوكى الذى كان يخفى استبداده ومظالمه بستـار من الدين ٠

١) المصدر السابق ـ ص 417 ـ 418
٢) المصدر السابق ـ ص 418
٣) المصدر السابق ـ ص 429
٤) المصدر السابق ـ ص 50

والفكر الوطنى والقومى لرفـاعة الطهطاوى ـ فضلا عن مواقفه العملية ـ يجعله فى المعسكر المناقض للسلطة العثمانية ونمطها فى التفكير ·· فهو يتحدث عن سر اختيار العثمانيين للمذهب الفقهى الذى أرسى قواعده الامام ابوحنيفة النعمـان (٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) فيرجع هذا السر الى ملائمة بعض قواعد هذا المذهب لنمط الحكـم المطلـق العثمـانى ، والى انـاحة هذا المذهب الفرصة للعثمانيين ـ وهم أتـراك غير عرب ، ولا علاقة لهم بقبيلة قريش كى يغتصبوا تعبيره : انه « بهذا كان مذهب ابى حنيفة اوفق للملوك !! » (١) ·

وهو يتحدث عـن فتوحات الجيش المصرى فى الشام ، تلك التى هزم فيها الجيش العثمانى ، وحرر من قبضته مناطق شاسعة من بـلاد المشرق العربى ، فيفتخر بها، ويزدرى الأتراك ،الذين يسميهم «الاروام» ويقول : ان هذه الفتوحات « لم تكن من محض العبث ولا مـن ذميم تعـدى الحـدود » وانمـا كـان الهدف الأساسى من ورائها ايقاظ الامـة العربية ، وبتعبيره هو : « تنبيه أعضاء ملة عظيمة تحسبهم ايقاظا وهـم رقـــود » ·· (٢)

والطهطاوى الذى انجز مع تلاميـــذه ترجمـة القوانين المدنية والتجارية الفرنسية للدولة المصريـة فى القرن الماضى ، فعل ذلك من موقف عملى علمانى، ونبه على ذلك بقوله : « أن الحالة الراهنـة اقتضت أن تكون الأقضية والاحكام على وفق معاملات العصر بما حدث فيها مـن المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الاخذ والاعطاء من امـم الانام »·· (٣) وحـاول ان يطمئن الذيـن نظروا الى هـذه القـوانين الاوربيـة باعتبارها خروجا على الشريعـة الاسلامية ، فقـال لهم ـ وهو الواعى بتراث العرب المسلمين فى التشريع ـ : ان « من زاول علم أصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليـه مـن الضوابط والقواعـد ، جـزم بـأن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت عقول أهـالى باقى الأمم المتمدنة اليها ، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم واحكامهم،قل ان تخرج عن تلك الاصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية التى عليها مدار المعاملات· فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى مـا يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعيـة أو النواميس الفطريـة ، وهى عبـارة عن قـواعد عقليـة ، تحسينا وتقبيحا ، يؤسسون عليها احـكام المدنية · وما نسميـه بفروع الفقه يسمى عندهم بـالحقوق أو بالأحكـام المدنية ، ومانسميه بـالعدل والاحسان يعبرون عنـه بـالحرية والتسـوية ·· » (٤)

ولكن هذا الموقف الذى وقفـه الطهطاوى مـن القوانين الأوربية ، والذى أبصر فيـه وجوه الشبـه بينها وبيــن التـراث العربى الاسلامى فى التشريع ، لايعنى أن الرجل قد دعا الى الاستعاضة عن التراث التشريعى العربى بالقوانين الأوربية التى عقد معهـا المقارنات ، بل لقد جبذ الرجل استلهام مـا فى تراث العرب التشريعى مـن أصـول وقـواعد ، وذلك بعد صياغتها الصياغة العصرية ، وبشرط أن تكون ملائمة لروح العصر وطبيعة الواقع الجديد وحسب تعبيره : بعد توقيعها على الوقت والحال » (٥) ·

---

1) مناهج الالباب ـ الخاتمة ـ الفصل الثانى
2) المصدر السابق ـ الباب الرابع ـ الفصل الاول
3) المصدر السابق ـ الخاتمة ـ الفصل الثانى
4) الطهطاوى (المرشد الامين للبنات والبنين) الباب الرابع ـ الفصل الخامس ـ
5) (مناهج الالباب) الباب الثانى ـ الفصل الرابع ـ

بل لقد استنكر الرجل أن يكون الاحتكام فى المنازعات التجارية بين التجار الشرقيين والأوربيين الى القوانين الاوربية « حيث ترتب الآن فى المدن الاسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين الاهالى والاجانب بقوانين،فى الغالب اوربية ، مع ان المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما اخلت بالحقوق ‧‧ ومن امعن النظر فى كتب الفقه الاسلامية ظهر له أنها لاتخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية ابوابا مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة والمضابة ، والقرض ، والمخابره ، والعارية والصلح ، وغير ذلك » (١) ‧

وهكذا اجتمعت للطهطاوى النظرة العلمانية ، فى الموقف العملى ، فنظر الى الحضارة الأوربية وملىء عقله التراث العربى الاسلامى الذى وعى الكثير من صفحاته قبل وبعد رحلته الى باريس (١٨٢٦ ـ ١٨٣١ م) ‧

على أننا، ونحن نتحدث عن العلمانية والعقلانية عند الطهطاوى ، لابد من أن نوضح ما أشرنا اليه عندما قلنا انه كان حاسما فى انحيازه لها « فى الموقف العملى » عندما كان يترجم قوانين الفرنسيين ويتحدث عن علومهم العملية والانسانية ‧‧ أما عندما كان الرجل يقترب من ميدان الفكر الدينى فانه يتجلى مسلما « سنيا » « اشعريا » محافظا ، ويظهر لنا ، عندئذ التناقض بينه وبين الموقف العلمانى العقلانى فى التفكير ‧‧ وهذا اثر من آثار الجانب المحافظ فى التراث الاسلامى ، وهو الجانب الذى مال اليه الطهطاوى ، والذى ساعد على التزامه به ولزومه له أن الرجل وان تناقض مع العثمانيين وايد لوجيتهم ونمطهم الفكرى الا انه لم يدخل ضدهم صراعا فكريا كما حدث للافغانى ، ومحمد عبده ، والكواكبى فالصراع الفكرى الذى خاضه هؤلاء ضد العثمانيين قد حسم انحيازهم الفكرى الى العلمانية والعقلانية ، بينما بقى تردد الطهطاوى ، بل وتنكره للعلمانية والعقلانية ، عندما يفكر فى المسائل الاعتقادية الدينية أو فى القضايا المتصلة بهذه المسائل بسبب وثيق ‧

فلم يقف الطهطاوى على مقربة من تيار « المعتزلة » العقلانى فى الفكر الاسلامى ، كما صنع الآخرون ، بل لقد اعتبر آراء « المعتزلة » مجرد « شبه » يجب الابتعاد عنها ‧‧ وعند ما اراد مدح علماء الدين بمصر مدحهم باعتبارهم من «أهل السنة» الذين « طرحوا وراءهم ظهريا ما كان منها مشوبا » بالضلال ، وتباعدوا عن شبه أهل الاعتزال » (٢) ‧

ورغم ان الرجل يعتبر « أن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لنا أو التعبدية التى يعلم حكمتها المولى سبحانه وتعالى » الا انه يدعو الى أن لانعتمد على العقل فى الحكم بحسن الأشياء أو قبحها فيقول : « ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه الا اذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه ‧‧ ان تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به الا اذا قرره الشرع ‧‧ » (٣) ‧

ورغم اعتراف الرجل بأن « الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله

1) المصدر السابق ـ الباب الثانى ـ الفصل الرابع
2) الطهطاوى (أنوار توفيق الجليل) التمهيد . الفقرة الخاصة بكيفية تقدم الفنون والمعارف
3) المرشد الامين ـ الباب الرابع ـ الفصل السادس

تعالى العقل والهمهم الصناعة ، الا انه ينكر الاعتماد على العقل المجرد كسبيل لتحصيل المنافع ودرء المفاسد ، فيقول : انه « ينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة ·· فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لاتثمر العاقبة الحسنى فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا اليها تحسينا وتقبيحا ، وظنوا انهم فازوا بالمقصود بتعدى الحدود ·· » (١) ·

لقد وقف الطهطاوى من العقل ، ومن قدرته على التحسين والتقبيح للأشياء هذا الموقف الجامد والمحافظ ، لأنه كان « سنيا » « أشعريا » يرفض فكر « المعتزلة » ، وهم الذين قالوا ، فى التراث العربى الاسلامى ، بالتحسين والتقبيح بواسطة العقل ، وان العقل هو الذى يحكم بحسن الأشياء او قبحها ، بصرف النظر عن النصوص والروايات المأثورة فى هذه الأشياء ·

والطهطاوى قد اتخذ هذا الموقف الجامد والمحافظ ، رغم انه قد ادرك قيام الحضارة الأوربية على قاعدة التحسين والتقبيح بواسطة العقل ، لا النصوص (٢) ، وبالرغم من انه قال : ان الادلة التى يقدمها الفرنسيون لاثبات ما اسماه « حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية » هى « ادلة يعسر على الانسان ردها ؟ ! » (٣) ·

وعندما يتحدث الطهطاوى عن « الأسباب » وارتباطها « بالمسببات » يقف قريبا من موقف « الغزالى » الذى كان يرى أن النار ليست هى التى تحرقّ ، وأن الثلج ليس هو سبب البرودة ، وانما السبب هو الله ، وأن ما نسميه « أسبابا و «مسببات» ليست سوى اشياء قد جرت « العادة » « باقترانها » بعضها ببعض عند حدوث النتائج (٤) ؟ ! فيحبذ الطهطاوى « مباشرة الأسباب » « مع عدم الاعتماد عليها » (٥) ؟ ! كما يعتبر ان التوكل على الله يعنى « اسقاط الأسباب عن حيز الاعتداد بها والاعتماد عليها » (٦) ·

يتخذ الطهطاوى هذه المواقف الجامدة والمحافظة والتى تبعده عن الموقف العقلانى ، على الرغم من انه ، عندما يفكر فى الحضارة المادية ، والعلوم العملية ، يعطى ثقته للعقل الانسانى الذى زين الله به الانسان كى « يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب » ·· (٧) وعند ما يفكر فى هذه الميادين ، أيضا ، يوحى حديثه بصواب الاعتماد على الأسباب ، والثقة المتزايدة فى العقل ، فيقول ان الانسان « بالادراك يقتدر أن يرتب المقدمات لاستخراج النتائج ، وأن ينسب الماضى للحال ، ويتبصر فى عواقب المستقبل ، ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية ، ويميز الحسن من القبيح ، والضار من النافع · وبالادراك والفهم

1) المصدر السابق ــ الباب الثالث ــ الفصل الاول
2) الطهطاوى (تخليص الابريز فى تخليص باريز) المقالة الرابعة ــ الفصل الخامس ــ
3) المصدر السابق ــ المقالة الثالثة ــ الفصل الثالث عشر
4) أبو حامد الغزالى (تهافت الفلاسفة) ص 65 ــ 68 طبعة القاهرة سنة 1903 م
5) المرشد الامين ــ الباب السادس ــ الفصل الثانى
6) المصدر السابق ــ الباب الاول ــ الفصل السادس ــ
7) المصدر السابق ــ الباب الثالث ــ الفصل الخامس

يصلح الانسان الأشياء ويشكلها على الوجه المطلوب» (١) ·

فالطهطاوى ، اذا ، لا يتنكر للعقل جملة ، كما انه لا ينتصر له بشكل مطلق ·· فهو ينتصر له فى ميدان العلوم العملية والانسانية، ويتحفظ على قدراته عندما يكون الحديث متعلقا بالعلوم الالهية والقضايا الدينية وما هو متصل بها بسبب وثيق ·· ومن هنا شابت علمانيته شوائب نعتقد ان مصدرها هو فهمه المحافظ لبعض صفحات التراث العربى الاسلامى ، ذلك الفهم المحافظ الذى ساعد على بقائه فى فكر الرجل وملازمته له حتى آخر حياته انه لم يدخل معركة « فكرية » ضد النمط الفكرى اللاعقلانى الذى كان سائدا فى الدولة العثمانية كما صنع ذلك الافغانى ومحمد عبده والكواكبى ، الذين جاءوا من بعده ، فكانوا امتدادا متطورا لكثير من الأفكار التى قدمها هذا العملاق للانسان فى مطلع عهد هذا الانسان بحركة البعث والنهضة والاحياء ·

الموقف من الديمقراطية :

كان الموقف من الديمقراطية ، بالمفهوم والشكل الليبرالى كما عرفتها أوربا بعد الثورات البورجوازية لشعوبها ، من القضايا التى طرحت على العقل العربى فى القرن التاسع عشر ، ولقد كانت المطالبة بالأخذ بهذه الديمقراطية واقامة مؤسساتها تعنى :

١ ــ التصدى بالمعارضة والمقاومة للنمط الفردى الاستبدادى الذى كرسه الحكم العثمانى فى البلاد العربية لعدة قرون ·

٢ ــ المطالبة بتعديلات جوهرية فى نمط الحكم الفردى الذى اتبعه محمد على فى مصر ، والذى حذا حذوه فيه خلفاؤه الذين توارثوا حكم البلاد من بعده ·

٣ ــ الدعوة الى ان تقوم جماهير الشعب بدور اكبر فى ادارة شئون بلادها والاشراف على مقدراتها ·· وهو الأمر الذى يعجل بتجاوز المجتمع العربى للتخلف ، ويسرع به نحو مدارج الرقى ، مما يقطع الطريق على الأطماع الاستعمارية الاوربية التى كانت تحرس التخلف فى الامبراطورية العثمانية حتى تتمكن من النفوذ من خلال ثغرات هذا التخلف لوراثة تركة دولة الرجل المريض ·

ومن هنا كانت الدعوة الى الديمقراطية للبلاد العربية فى القرن الماضى تعنى الشيء الكثير ، ويحاول دعاتها ، بوعى عميق ، أن يتخذوا منها احد الأسلحة التى يحاربون بها أغلب الاعداء المتربصين بهذه البلاد ·

ولذلك فاننا نجد هذه الدعوة ذات وزن كبير عند جمال الدين الأفغانى وتياره الفكرى والسياسى الثورى ، وهو التيار الذى تصدى لمحاربة الزحف الاستعمارى الأوربى ، والتخلف العثمانى ، وناضل لتجديد حياة الشرق والشرقيين ·

فالتنظيم السرى ــ (الحزب الوطنى الحر) ــ الذى أقامه الأفغانى بمصر فى سبعينات القرن الماضى كانت من اهدافه اقامة حكومة دستورية مقيدة « بالقانون الأساسى » (الدستور) ، وخاضعة لرقابة مجلس نيابى منتخب من الشعب ·· والأفغانى يطلب من الخديو توفيق (١٨٧٩ ــ ١٨٩٢ م) ــ باسم هذا الحزب ــ ان يأمر « باجراء انتخاب نواب عن الامة

١) المصدر السابق ــ الباب الاول ــ الفصل الاول

تسن القـوانين ، وتنفـذ ··· » (١) ويحـدد مطلـب الحزب فى جعـل السلطة بيـد الشعب ، بقولـه : ان « حكم مصر باهلها انما أعنى بـه : الاشتراك الأهلى بـالحكم الدستورى الصحيح » (٢) ويتحدث عـن أن المطلوب ليس المؤسسات الشكلية المفرغة من المضمون والتى يقيمها الحاكم تفضلا منه على الأمـة ، وانمـا المطلوب : مؤسسات ديمقراطية حقيقية يقيمها الشعب بنضاله وينتزعها من غاصبى حقـوقه وحريـاته ، فيقول : « ان القوة النيابية ، لأى أمة كانت ، لا يمكن أن تحوز المعنى الحقيقى الا اذا كانت من نفس الأمة ·· وأى مجلس نيابى يأمر بتشكيله ملك أو أميـر أو قوة أجنبية محركة لهما ، فاعلموا أن حياة تلك القوة النيابة موقوفة على ارادة من احدثها ·· » (٣) وانـه « اذا صح ان من الاشياء مـا ليس يوهب فـاهم هـذه الاشياء : الحرية والاستقلال ، لان الحريـة الحقيقية لا يهبهـا الملك والمسيطر للأمـة عـن طيب خـاطر ، والاستقلال كذلك ·· بـل هاتان النعمتـان ـ الحرية والاستقلال ـ انما حصلت وتحصل عليها الأمم اخذا بقـوة واقتدار ··· أمـا تغيير شكـل الحكم المطلق بالشكـل النيابى الشورى فهـو أيسر مطلبـا وأقرب منـالا ·· » (٤) ·

كما يدعو الأفغانى الى ان تختار الامة حاكمها ، وأن يكون خضوعـه للدستور أهـم شرط لبقـائه فى الحكم ، فيقول عن هذا الحاكم : « تاتى به الأمة فتملكه على شرط الامـانة والخضوع لقـانونها الأساسى ـ (الدستور) ـ وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه لـه : يبقى التاج على راسه ما بقى هو محافظا أيضـا على صون الدستور ، وانه اذا حنث بقسمه ، وخان دستور الأمـة ، امـا ان يبقى راسه بـلا تـاج أو تـاجه بـلا رأس ؟ !! » (٥) ·

وهذه الدعوة الديمقراطية الثورية التى بشربها الافغانىنجد صداها عند الكواكبى،الذىتاثر بالافغانى ومدرسته ، كمـا استفـاد مـن فكر الكـاتب الايطالى « الفيرى فيتريو Alfièri Vittoria(١٧٤٩ ـ ١٨٠٣ م ·· فلقد كـان الكواكبى حاسمـا عندمـا قرر أن كـل أمـراض الشـرق انمـا مرجعهـا الى « الاستبداد » وانحلال « السلطة القانونية » وغلبة شخص أو عـدة اشخاص على هذه السلطة ، و « أن العـافية المفقودة هى الحرية السياسية » (٦) ·

وعندمـا نظر الكـواكبى فى تجربـة أوربـا الديمقراطية تحدث عن أوجه الشبه بينها وبين مادعا اليه الاسلام ، فقال : « ان هذه الامم الموفقـة خصصت منها جماعات باسم مجالس نواب ، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الادارة العمومية السياسية · وذلك منطبق تماما على مـا أمر بـه القرآن الكريم فى ايـة (ولتكـن منكـم أمـة يدعـون الى الخيـر ويأمـرون بالمعروف وينهون عـن المنكر) ·· » وهذه الـوظيفة

---

١) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني ـ ص 473
2) المصدر السابق ـ ص 477
3) المصدر السابق ـ ص 473
4) المصدر السابق ـ ص 478
5) المصدر السابق ـ ص 477 ـ 479
6) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي ـ ص 62

شريفة فى ذاتها ، ممقوتة » طبعا عند المستبد واعوانه » (١) ٠

كما حبذ النمط الليبرالى فى الحرية عندما تحدث عن أن « الأمم الحرة قد أطلقت حرية الخطابة والتاليف والمطبوعات ، مستثنية القذف فقط ٠ ورأت ان تحمل مضرة الفوضى فى ذلك خير من التحديد ، لأنه لاضامن للحكام ان يجعلوا الشعرة من التقييد سلسلة من حديد ، يخنقون بها عدوتهم الطبيعية : الحرية » ٠ (٢) ٠

اما الطهطاوى ومحمد عبده فاننا لانجد عندهما ذلك النضج والحسم اللذين نجدهما عند الأفغانى والكواكبى حيال قضية الديمقراطية ٠٠ صحيح ان الطهطاوى قد تحدث باعجاب عن التجربة الديمقراطية الفرنسية بكتابه (تخليص الابريز فى تخليص باريز) وكان حديثه هذا أول كلام عربى عن الديمقراطية الاوربية يدخل من بوابة الشرق المحكومة بسلطات الحكم الفردى الاستبدادى ٠٠ وصحيح أن الرجل لم يكن هدفه مجرد الوصف والحكاية ، وانما استهدف ايقاظ وطنه وفتح عيون مواطنيه ٠٠ ولكن ذلك الرباط الوثيق بين الطهطاوى وبين جهاز الدولة ، سواء فى عهد محمد علىّ أو عهد اسماعيل ، قد ابتعد بفكر الرجل وقلمه عن ان يتخذ الموقف الناضج والحاسم والنحاز الى جانب الفكر الديمقراطى ٠٠ فهو عندما يتحدث عن فروع القوة الحاكمة ، وهى السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية يرى أن مرجع هذه السلطات ومصدرها « القوة الحاكمة » اى السلطة العليا فى الدولة ، وليس « القوة المحكومة » ، اى الشعب ، وان كان يطلب أن تكون « القوة الحاكمة » مفيدة و «مشروطة بالقوانين» ٠٠ واكثر من ذلك نراه يتحدث عن اختصاصات ووظائف المجالس النيابية فيحصرها فى النطاق « الاستشارى » فقط ، بينما تبقى السلطة الحقيقية للحاكم الأعلى للبلاد ، فيقول : «واما وظائف المجالس الخصوصية ومجالس النواب فليس من خصائصها الا المذكرات والمداولات وعمل القرارات على ما تستقر عليه الآراء الاغلبية ، وتقديم ذلك لولى الامر٠٠» (٣)

ونحن نعتقد أن الموقف المحافظ الذى وقفه الطهطاوى فى فهم قضايا التراث العربى الاسلامى وتقييم تياراته الفكرية قد كان له اثر فى موقفه هذا من الديمقراطية ومؤسساتها ٠٠ لأن التيارات الفكرية الاسلامية التى وقف ضدها الطهطاوى — (الخوارج والمعتزلة مثلا) — هى فى مقدمة التيارات الفكرية التى يستطيع الانسان العربى أن يلمح فى تراثها بذورا وجذورا للفكر الديمقراطى الحديث ٠

فاذا ماجئنا الى موقف الشيخ محمد عبده من هذه القضية، وجدناه يبدأ حياته الفكرية — قبل الثورة العرابية — بموقف معارض لادخال المؤسسات الديمقراطية الى بلاد الشرق ، بدعوى عدم نضج الشعب وغياب « الرأى العام » الذى لم يتكون بعد ٠٠ حتى اذا ما قامت الثورة العرابية سنة ١٨٨١ م ، واصبح الدستور والمجلس النيابى حقيقة واقعة ، غير الرجل موقفه ، لقيام هذه المؤسسات بالفعل ، ولتغير صورة الجماهير فى نظره بفعل الثورة وأحداثها ٠٠ حتى اذا ما فشلت الثورة فى سبتمبر

1) المصدر السابق — ص 390
2) المصدر السابق — ص 389 — 390
3) مناهج الالباب — الخاتمة — الفصل الاول

سنة ١٨٨٢ م نجـد الرجـل يعود ثـانية الى موقفـه « الاصلاحى » ، بـل ويبشر بعد ذلك بنظرية الحـاكم الفرد ــ (المستبد العادل) ــ الذى رآه ضرورة لا بـد منها كي يعد الناس للحرية قبـل ان ينالوها ؟ ! (١)٠ ولقد كان موقفه هذا ، المعادى للديمقراطية ، اثرا من آثـار نوريته « الاصلاحية » التى علق فيها الآمـال على « النخبة المثقفة المستنيرة » ، بينما رأى الجماهير العـاملـة « همـلا ، لا يحدثون تقدمـا ولا يمنعـون تأخرا ؟ ! » ومن ثم لم يعلق أية آمال فى الاصـلاح على اعطاء هذه الجماهير السلطات التى تمـارسها من خـلال المؤسسات الديمقراطية ٠٠ وهـو مـوقف مغـاير ومناقض لموقف كـل مـن الأفغانى والكواكبى حيال هذا الموضوع ٠

تلك اشـارات سـريعـة ــ مـن خـلال قضيتى العقلانية والديمقراطيـة ــ الى دور التـراث العربى الاسلامى فى تحديد نظرة العرب لأنفسهم واوربـا فى القرن التاسع عشر ، من خلال ذلك اللقاء الذى تحقق فى عقول هؤلاء المفكرين ، الذيـن وعـوا ــ بدرجات متفاوتة ومن مواقع فكرية مختلفة ــ تراث أمتهم ثـم انفتحوا على حضارة أوربا وانجازاتها ٠٠

فهـل استطاعت هذه الصفحات أن تنهض بذلك أو بشىء منه ؟ ؟

ان كانت الاجابة بـ : نعم ٠٠ فذلك مـا قصدنـا اليه ٠٠ والا فحسبنا شرف المحاولة فى ذلك الميدان ٠ وشكرا ٠

(١) الاعمال الكاملة للامام محمد عبده ٠ ج ١ (الكتابات السياسية) ــ ص 33–99 ، 716





بين الشـاذلي القسـنطيني والأمير عبد القـادر

د . أبو القاسم سعد الله
استاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

لا ندري متى بدات صلة الشاذلي القسنطيني بالامير عبد القادر هل سبق لهما التعـارف الشخصي قبل شتـاء ١٨٤٩ ـ ١٨٥٠ ؟ لأحد قد تحدث عن ذلك على ما نعلم٠ والقصيدة التي سنقدمها لا تصرح بان الشاذلي قد زار الامير او عرفه شخصيا قبل التاريخ المذكور ٠ وتذكر المصـادر الفرنسيـة (١) ان سبب سفر الشاذلي الى امبواز هو ان السلطات الفرنسية في الجزائر قد رشحته لموءانسة الامير بعد ان ابدى هذا قلقا من الوحدة التي كان يعانيها ٠ ولكن هذه المصادر لا تذكر ما اذا كـان الامير قد طلب الشاذلي بـالاسم او ان السلطات الفرنسيـة ، وبالاخص المكتب العربي في قسنطينـة ، هي التي اختارت الشـاذلي دون غيره ٠

I) أخذ بهذا الرأى ايضا الامير محمد في ـ تحفة الزائر ـ ج 2 ص I8

غير اننا عرفنا من الرسائل ومن ظروف اخرى ان الشاذلى كان راغبا جدا فى العودة الى فرنسا والعيش فيها والاتصال هناك ببعض شخصياتها ولا سيما بعد ان ذاق فى الرحلتين السابقتين لذة التكريم والاعتبار · وقد لاحظنا من قبل انه خلال رحلة سنة ١٨٤٧ قد ابدى اعجابا قويا بمظاهر الحضارة هناك او على الاقل هكذا صورته المصادر الفرنسية عندئذ كما لاحظنا ان الشاذلى لم يكن راغبا فى البقاء فى قسنطينة وانه كان يشعر بنوع من الالزام فى التمادى فى وظيفته ، وانه كاديب كان يريد التنقل واقتطاف ثمار المعرفة حيث وجدها ، ولكن هل كان الفرنسيون على علم بقصيدة الشاذلى فى الامير او على الاقل برأى الشاذلى فيه ، وهو الامر الذى جعلهم يقدمونه على غيره من علماء الجزائر عند اختيارهم من يؤانس الامير ؟ هذا ايضا ما لانستطيع الجزم به لعدم وجود الادلة القاطعة ·

ومهما يكن من امر فان المصادر الفرنسية تذكر ان الشاذلى لم يقم لدى الامير بدور الرفيق المسلى فقط ولكنه قد قام ايضا ، وهذا هو المهم، بدور المطمئن والمعرف بالحضارة الفرنسية وبالمشاكل الفرنسية السياسية والاقتصادية التى منعت حتى ذلك الحين من اطلاق سراحه · فالامير ، بناء على هذه المصادر ، كان قلقا منزعجا من ترك قضيته جانبا واهتمام الفرنسيين بمشاكلهم الخاصة وانه قد استسلم الى نوع من الياس والقنوط موطنا نفسه ان مصيره سيكون السجن المؤبد والنسيان الابدى · ومن جهة اخرى كان الفرنسيون منشغلين بمشاكل الحكم والتنظيم الاجتماعى· فهذا الحكم الملكى قد سقط وحلت بعده الجمهورية الثانية ، ولكن التحزبات وظهور القضايا العمالية ونفوذ الجيش وامكانيات انقلاب فى صالح الامبراطورية ، كلها كانت لاتسمح للفرنسيين بالتفكير فى قضية جزئية صغيرة مثل سجن او اطلاق سراح عبد القادر · لذلك فكر خبراؤهم فيمن يخفف عنه الوطاة فلم يجدوا افضل من الشاذلى الذى كانوا يثقون فى موقفه منهم والذى كان فى نفس الوقت اديبا وقاضيا ، اى عالما من علماء الجزائر الذين فى امكانهم ملء عين الامير بعلمهم ومعارفهم وادبهم · وقد جاء الشاذلى ، بناء على هذه المصادر ، ليقول للامير بان الفرنسيين غير ناسين له ولكنهم كانوا منشغلين بقضايا اهم من قضيته وليطلعه على ما للفرنسيين من حضارة عريقة ونظم سياسية واجتماعية جديرة بالاحترام ، وبالتالى ليخفف من غلواء ونقمة الامير ضدهم · فكان مهمة الشاذلى كانت تليين عريكة الامير ورفع روحه المعنوية وتخفيف حدة طبعه وتعصبه الدينى نحو الحضارة الاوربية عامة والفرنسية خاصة · (١) وبهذا التفسير تصبح مهمة الشاذلى نحو الامير مهمة سياسية وليست انسانية · ولكننا عرفنا ان الشاذلى كان قد جاء الى فرنسا بدون ترتيبات سابقة وانه كان فى الواقع يعمل اثناء وجوده فى فرنسا لمصالح شخصية · اما السياسة الفرنسية ومؤانسة الامير فقد كانتا فى الدرجة الثانية بالنسبة اليه ·

وصل الشاذلى الى باريس فى اكتوبر سنة ١٨٤٩ · (٢) وبعد ان اقام بها فترة توجه الى امبواز لاداء مهمته بجانب الامير · وفى امبواز توطدت العلاقة بين الرجلين · وتعددت بينهما الزيارات والمساجلات الشعرية · ويبدو ان الشاذلى كان يقيم فى جزء من القصر خلال هذه المدة · ولكنه كان يتردد

---

1) هذا هو الراى الذى يأخذ به بيريس ، ص 337 – 338 ، ومورنان ص 315

2) رسالة بتاريخ 16 اكتوبر 1849 من الشاذلى الى بواسونى ، وقد جاء فيها انه وصل الى باريس يوم 15 اكتوبر وانه نزل فى ساحة المادلين رقم 33 عند السيد دين وانه قد حل بباريس لكى ينظر بوسونى فى امره

على باريس مـن وقت لاخـر لقضـاء مآربـه وتدبير شؤونه ۰ ومرض اثناء ذلك عدة مرات وكـان شتـاء منطقة اللوار القارس اقـوى مـن جسمه فلم يحتمله بالاضافة الى مرض عينيه ، ومعنى هذا ان اقامته فى امبواز لم تكن كلها سعادة وهناء ۰ ولاندرى ايضـا ما اذا كان الشاذلى قد جاء باهله او ببعض اقـاربه معه ، ولكن الظاهر انه قد جاء منفردا ، ولذلك كـان هو الآخر يبحث عن مؤانسة فى ليالى الشتاء الباردة فـالتقى بالفتـاة الفرنسية واحبها حبـا جمـا واراد الزواج منهـا ، وهى التى دخلت شعره الرقيق الذى ساجل به الامير ، عندما قـال :

ايـا اهـل فـن الطب بـاللـه خبروا
ايـوجـد لـلصـب النحيـل دواء
كلفـت بهـا وهى الفـريـدة والتـى
تجمـع فيهـا الحسن وهـى ضيـاء

وهكـذا اصبـح الشـاذلى هـو الغريب وليس الامير ۰ وقد زاده المرض شعورا بالغربة الى ان شكا ذلك للامير فى قوله :

مـرضت غـريبـا بين قـوم اعـزة
فـكلهـم عـن زورتـى متمنـع
اذا كنت مصحـوب السلامـة اقبلـوا
وان كنـت فى سقـم فـربعك بلقـع

ولم يجد الامير بدا من ان يسليه ويخفف عنـه هذا الشعور القاسى ،فكتب اليه :

ولست غريبـا بيـن قـوم احبـة
مكـانك فيهم مـن بنى الـدهر ارفـع

ومن العجيب ان رجـلا غريبـا فى وسط العمر (كان عمره اذاك حوالى ٤٢ سنة)بعيدا عن زوجتـه يـاكل الى حـد التخمة صفار البيض مـع الامير عبد القادر الذى كانت معه زوجته وسراريه ، حتى اذا ما هاجت نفسه واشتد به الشوق راح ينصح الشباب بان لايفعلوا فعلته (١) ۰

ويصرح الامير بانه لم ير الشاذلى قبل امبواز وانما سمع عنه كثيرا ، وكان يرغب فى التعرف عليه والاجتماع به ۰ ولكن الظروف لم تسمح له بذلك ۰وفى الابيات التـالية التى استقبل بهـا الامير ضيفـه عند وصوله دليل على ما نقول :

طـالت مساءلتى الركـاب تشوقـا
لجمـال رؤيـة وجهـك المتعـاظـم
لاغـرو ان احببتكـم مـن قبـل مـا
شـاهدتكم انتـم جمـال العـالـم
كـانت على سمعى تغـار نـواظرى
حتـى رآتـك وانـت انـت مكـالمى

فهذه الابيات لا تدع مجـالا للشك فى ان الامير كان قد سمع الكثير عن الشاذلى ولكنـه لم يلتق بـه وانه كـان يسال عنه الغـادين والرائحين ويود لقائه ويحس نحوه بميـل خـاص ، حتى لقد كـانت عينـاه تغاران من سمعه عليه ، الى ان تحقق مـا كـان يريد واجتمع الصديقان وجها لوجـه ، امـا الشاذلى فقد اشار ايضا الى انه كـان يشرئب الى روءيـة الامير وانه كان يريد لقاءه ولكـن على سدة الملك وليس فى سجن امبواز ۰ غير ان الايام تـدور والدهر خداع ۰ فلنستمع اليه :

وكـان مـرادى ان الاقـيكـم على
بسـاط عزيـز الملك والحرب فى نشب
ومـا كـان فى ظنى ارى سيدى كمـا
رايت الا اللـه ما تصنع النـوب (٢)

١) انظر هذه القصة فى ـ تحفة الزائر ـ ج 2 ص 25

٢) انظر هذه المساجلات فى نفس المصدر ص 19 ـ 25

فهذان البيتان لايدعان مجالا للشك ايضــا فى ان الشاذلى لم ير الامير من قبل · بيد انهمــا تنمــان عن شىء جديد وهو ان الشاذلى كان قد سمع بالامير اثناء معاركه وحروبه وانــه كــان يتطلع الى ملاقاته وهو عزيز قوى صاحب ملك وسلطان · ولكن امنيته لم تتحقق · فهذا المعنى يساعدنــا على فهم القصيدة التى سندرسها بعد قليل ، والتى ما هى الا نداء مــن بعيد الى رجل سبقته سمعته لينجد قــوما كــانوا فى شدة وعسر · والواقع أن دراســة المساجلات دراسة نفسية وتاريخية تساعد على فهم العلاقة بين الرجلين·

ولــلامير رأى واضح فى صــالح الشــاذلى · فبالاضــافــة الى الاوصــاف التى اطلقهــا عليــه فى المساجــلات مثــل « الحبيب » و « فــريد عصــره » و قــرة العين » و « سمى قطب العارفين » (١) فانــه قد وصفه نثرا او صافا قريبة من النفس حبيبة الى القلب من ذلك قوله فيه ، كــان لنا خير انيس واحسن جليس نفس من همومنا بلطائفه وطرائفه مــالا تنفسه الصبا واجلى مــن احزاننا مــا لاتجليه الصهبا » (٢) ويبدو ان الامير قد الفــه كثيرا وفرح بمقدمه واقــامته معه وتالم لفراقه غاية التالم · وقد قارن بين حالته قبــل قدومه عليه وحالته بعد فراقه له ، معترفا له بالفضل « لازمنى ايــام نفور الحميم والقريب ، وآنستى حين لى من الجنس او غريب وتجشم شقة دونها اكبر مشقة فى مكان لايقتحمه الاســد الهصور ، بل تنقطع دونــه اجنحة النسور ، وكنا قبل وروده علينا نناغى الحائم ونسامر الفرقدين والحمائم ، وان كــانت الحمائم اذا صدحت لاتفهمنا وتجيبنا بالشجى فتدنفنا » (٣) وقــد ارتبطت بينهمــا هذة الصداقــة واستمرت حتى بعــد عودة الشــاذلى الى قسنطينــة وارتحــال الامير الى المشرق · فقد وجدنا فى بعض الرسائل (٤) ان الامير قد طلبه اليه فى المشرق وان الشاذلى قــد رحب بذلك غير انــه اشتــرط بعض الشروط الماديــة على الدولة الفرنسية ·

وللشاذلى رأى فى الامير جدير ايضا بالوقوف عنــده · واذا كــانت القصيــدة التى سنتعرض لهــا صريحة فى اعجابه به ورفعه له مصاف القواد العظماء والرجال الشرفاء ، فان اوصافه له المنبثة هنا وهناك تعطى صــورة واضحــة على تقديره للامير ، وكــان الشاذلى يظهر التواضع الجم امــام الامير حتى لقــد وصف نفسه « بــالعبد الذليل » وخاطب الامير بقــوله « سيدى » ونعته بصاحب الخلق الكريم والمحتد النبيل وكان عنده محل ثقة واحترام حتى لقد طلب ان يتزوج على يديــه بالفتــاة الفرنسيــة ، ورحب ، كما رأينــا باللحاق به فى المشرق · ومن سوء الحظ اننا لم نعثر على كل اوراق الشاذلى ، ولو تحقق ذلك لكشفت لنــا عن المراسلات التى قد تكون دارت بينــه وبين الامير بعد عودته من عنده أو فى مناسبات اخرى · (٥)

1) وهو يعنى بذلك ابا الحسن الشاذلى صاحب الطريقة المعروفة باسمه وقد كان الامير ـ شاذليا ـ ايضا

2) انظر تحفة الزائر ج 2 ص 19

3) نفس المصدر ص 241

4) رسالة بتاريخ 10 فبراير 1854 من الشاذلى ويقول الشاذلى ان العقيد دنف هو الذى أخبره من مدينة الجزائر بان الامير قد طلبه اليه وقد عثرنا على رسالة بتاريخ 9 فبراير 1853 من الامير الى السيد ف هاليفى يطالب فيها الامير ـ وهو عندئذ فى بروسة ـ ارسال الشاذلى اليه لمؤانسته ـ مجموعة رسائل بالمكتبة الوطنية تحت رقم2274 ـ

5) كان الشاذلى محبوبا لدى الامير ويذكر السيد مورنان ـ ص 313 ـ انه قد وجد عند زيارته لقصر امبوز طفل الامير محمد صاحب ـ تحفة الزائر ـ ومحيى الدين يلعبان فى الحديقة وكان اول ما سألاه عنه هو احوال الشيخ الشاذلى . والمعروف ان الامير كان يحب لعبة الشطرنج · انظر تحفة الزائر ج 2 ص 307 . وكذلك كان الشاذلى . فقد طلب بواسونى ذات مرة منه ـ الشاذلى ـ ان يعلم صديقا له الشطرنج فدعاه الشاذلى الى بيته ـ فى باريس ـ عند العصر وعلمه هذه اللعبة · وقد روى ذلك الشاذلى بتاريخ 12 يناير 1850 الى بواسونى

أشير

عاصمة بني زيري

د. رشيد بورويبة

أستاذ بكلية الآداب
– جامعة الجزائر –

ان على مسافة ١٥٠ كم جنوبى الجزائر العاصمة ، وفى ولاية تيطرى قرب قرية عين بوسيف ، نجد آثار مدينة قديمة لعبت دورا هاما فى تاريخ المغرب وكانت مركزا عظيما للحضارة الاسلامية • هذه المدينة هى اشير عاصمة بنى زيرى موضوع مقالنا هذا فقسمنا دراستنا لهذه المدينة المشهورة الى خمسة اقسام وهى : تاسيس مدينة اشير ومراحل تشييدها ووصفها وتاريخها والابحاث والحفريات التى اجريت بها •

١) تاسيس مدينة اشير

اتفق المؤرخون والجغرافيـون على ان مؤسس مدينة اشير هو زيرى بن مناد · فقال البكرى (١) عن محمد بـن يـوسف « ان الذى بنى اشير هـو زيـرى والدليل على ذلك ما انشده عبد الملك بن عيشون

يـا ايهـا السـائل عـن غـربنـا
وعــن محــل الكفــر اشيــر
عـن دار فسـق ظـالـم اهلهـا
قــد شيــدت لــلافك والـــزور
اسسهـــا المعلـــون زيـريـهـا
فلعنـــة اللـــــه عــلى زيـــرى

وقـال ابن عذارى المراكشى (٢) « امـا مدينة اشير فبناها زيرى بن مناد الصنهاجي » ثم ذكر نفس الابيات الشعرية التى ذكرها البكرى غير انه كتب فى الشطر الاول للبيت الاول « يا ايها السائل عن حربنا» عوضا عن « يا ايها السائل عن غربنا » ·

وقـال صاحب « كتـاب الاستمـار فى عجائب الامصار » (٣) وهو يحدثنا عن اشير « بنـا ها زيرى بن منـاد الصنهاجي وتعرف باشير زيرى » وسماها الادريسى باشير زيرى » (٤) وقال ابن خلدون (٥) : ولمـا كـانت فتنة ابى يزيد ، والتـاث امر العبيديين بالقيروان والمهدية · كان لزيرى بن منـاد منافرة الى الخواوج اصحـاب ابـى يزيـد واعقـابهم وتسريب الحشود الى مناصرة العبيديين بالقيروان كما سنراه واختط مدينة اشير »

وقال النويرى (٦) « وصل زيرى الى مكان اشير وقال لاصحابه « هذا هو المكان الذى يلائمكم واسس فيه مدينة » وذكر ابـن الاثير (٧) : « ان تبـع زيرى كثروا بعد انتصاره على زناته « فضاقت بهم ارضهم فقالوا له : لو اتخذت لنا بلدا غير هذا فسار بهم الى موضع مدينة اشير فراى ما فيه من العيون فاستحسنه وبنى فيه مدينة اشير وسكنها هو واصحابه »

هذا فيمـا يخص اسم الامير الذى اسس مدينة اشير · اما فيما يتعلق بتاريخ تاسيسها فنحن امـام روايتين ، رواية النويرى التى تـذكران اشير اسست سنة ٣٢٤/ ٩٣٦ ـ ٩٣٧ ورواية ابن الاثير التى تقول ان اشير اسست سنـة ٣٦٤/٩٧٤ ـ ٩٧٥ · ولكـن التاريخ الذى ذكره ابن الاثير يناقض ما قاله المؤرخ من قبـل وهو ان مدينـة اشير اسست فى عهد زيرى بن مناد لاننـا نعرف ان زيرى قتـل سنة ٣٦٠/٩٧١ اذن نستطيع ان نقول ان نص ابن الاثير فيه غلط ولكن السؤال المطروح هو : هل وقع الغلط فى اسم الامير الذى اسس مدينة اشير او فى تاريخ تاسيسها ؟

ففى راينا وقع الغلط فى تـاريخ تاسيس اشير للسببين الاتيين الاول هـو ان جميـع الاحداث التى يذكرها ابن الاثير بعد تاريخ تاسيس اشير مثل ثورة

1) البكرى ، **كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب** ، ص 61
2) ابن عذارى المراكشى ، **البيان المغرب فى ذكر اخبار المغرب** ج 1 ـ ص 306
3) **كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار** ، ص 58
4) الادريسى ، **وصف افريقيا الشمالية والصحراوية** ، ص 59
5) ابن خلدون ، **كتاب العبر** ، ج 6 ـ ص 313
6) النويرى ، الملحق الأول للجزء الثانى من ترجمة دى سلان لتاريخ ابن خلدون ، ص 489
7) ابن الأثير، **الكامل فى التاريخ**، ج 8، ص 47

ابن يزيد ومحاربة الزيريين لجعفر بن على بن حمدو وقعت بـدون شك فى عهد زيرى بن منـاد · والسبب الثانى هو ان صاحب « الكامل فى التاريخ » (١) ذكر ما بين الاحداث التى وقعت سنة احدى وستين وثلاثمئة ان بلقين بن زيرى اتاه الخبر « ان زناتـة نزلوا على تلمسان فرحل اليها فهربوا منه واقـام على تلمسان فحصرها مدة ثم نزلوا على حكمه فعفا عنهم الا انـه نقلهم الى مدينـة اشير فبنوا عندهـا مدينة سموهـا تلمسان » ·

ان هذا النص يدل على ان اشير كانت موجودة سنة ٣٦١ ·

اذن تاريخ التاسيس المذكور فى « الكامل » اى ٣٦٤ غير صحيح ومن حيث ان ذكر هذا التاريخ جاء قبل ذكر حصار مدينة المهدية من طرف ابن يزيد الذى وقع سنة ٣٣٣ ، ففى راينـا التاريخ الذى اراد ابـن الاثير ان يكتبه هو سنـة ٣٢٤ اولا للتشـابه بين (٢) و (٦) وثانيا لانـه يوافق التاريخ الموجود فى روايـة النـويرى وهكذا نستطيع ان نقـول ان مدينـة اشير اسست سنة ٣٢٤ ·

٢) مراحل تشييدها

قد راينا ان ، على قول ابن الاثير ، مدينة اشير اسست فى عهد زيرى بن مناد واتسعت فى عهد بلقين بـن زيرى · فنجد ايضا مرحلتين فى تشييد اشير فى كتاب البكرى من حيث انه بعدما قال ان اشير اسست فى عهد زيرى بن مناد ، اضاف الى ذلك : « الذى بنى سورها بلقين يوسف بن زيرى بـن منـاد الصنهاجى سنة سبع وستين وثلاث مائة »

اما ابـن خلدون فيذكر لنـا ان اشير بنيت فى ثلاث مراحل فى عهد زيرى بـن مناد : مرحلة الاختطاط ومرحلة التحصين ومرحلة تشييد « القصور والمنازل والحمامات »

٣) وصفها :

ان المؤرخين والجغرافيين الذين وصفوا اشير اكدوا على حصانتها وكثرة مياهها واهميتها ومبانيها

ا) حصانتها

فقـال ابـن حوقل (٩) « انهـا مدينة محصنة » وذكر الادريسى انهـا « حصن حسن الموقع » وقـال صاحب « كتاب الاستمار فى عجائب الامصار » ابـن زيرى بنى « سورها وحصنها وعمـر هافليس فى تلك الاقطار احصن منها وهى بين جبـال شامخـة محيطة بها » وقال البكرى « هى جليلـة حصينة يـذكر انـه ليس فى تلك الاقطـار احصن متناولا ولا مرامـا ولا يـوصل الى شىء منها بقتـال الا من موضع يحميـه عشرة رجـال وهو فى شرقيهـا الذى ينفذ الى عيـن مسعود وسائر نواحيها تزل عنها العيون فكيف الاقدام وهى مع ذلك بين جبـال شامخـة محيطة بهـا دائرة عليها » وذكـر النويرى « ان اشير مدينـة حصينـة لا يوصل اليها الا من موضع من شرقيها يحميه عشرة رجـال ومـن حيث انهـا مبنية فى سفح جبـل وعـر لا تحتاج الى سور »

ب) كثرة مياهها

قال ابن حوقل « لها عيون ثرة » وقـال صاحب « كتاب الاستبصار » « داخـل المدينة عينـان لا يبلغ لهما غور ولايدرك لهما قعر » وذكر البكرى عينا توجد شرقى المدينـة وهى عيـن مسعود ثم قـال ان داخـل المدينة « عينان ثرتان لايبلغ لهـا غور ولا يدرك لهمـا قعر احداهما تعرف بعيـن سليمـان والاخرى بعيـن

---

1) الاثير الكامل فى التاريخ ج 8 ص 46 – 47

2) ابن حوقل كتاب صورة الأرض ترجمة كرامير وفيات ص 88

تالانتيرغ » ٠ وقال النويرى « ان داخــل مدينة اشير عينان ثرتان ماءها زلال » ٠

ج) اهميتها

قال ابن حوقل : « لمدينة اشير اسواق وبساتين واراض تصلح للفلاحة » وذكر الادريسى ان « اشير زيرى ٠٠٠ كثير المنــافع ولــه اسواق يــوم معروف يجلب اليه كل لطيفة ويباع به كل طريقة » ٠

وقال ابن خلدون « كانت من اعظم مدن المغرب واتسعت بعد ذلك خطتها واستبحر عمر انها ورحــل اليها العلماء والتجار من القاصية » وذكر النويرى ان « مدينــة اشير شهرت بفقهائها وعلمائهــا وتجــارها واخبرنا بان فى ذلك العهد كان سكانها لا يستعملون الذهب والفضة فى تجارتهم بــل كانوا يبادلون ابلهم وبقرهم وغنمهم بالاشياء التى يحتاجون اليها هذا ما دفع زيرى الى ضرب السكة فاعطى جنوده مالا كثيرا ودفع لهم اجرتهم فى مواعيدها حتى اصبحت الدنانير والدراهم وافرة عند سكــان المدينــة وذكــر النويرى اخيرا ان الشعوب الرحالة التى كانت ساكنة بنواحى اشير رضيت بخدمة الارض ٠

وذكر البكرى ان اربع طروق كانت تجمع اشير بمرسى الدجاج (١) وجــزائر بنى مزغنة (الجــزائر العاصمــة الحالية) (٢) ومليــانــة (٣) وقلعــة بنى حماد (٤) ٠ فكانت الطريق الاولى تمــر بشعبة (٥) وســوق حمــزة (بويرة الحــالية) وبليــاس (٦) والطريــق الثانية تجوز بالمدية وقزونة (نــاحية البليدة) واغزر (ناحية بوفاريك) والطريق الثالثة تمر بسوق هوارة (٧) وســوق كــرام (٨) ومليــانــة ٠ امــا الطريــق الرابعة فتمر بالمسيلة ٠

د) مبانيها العظيمة

بجانب ابن خلدون الذى ذكر ، كما رايناه مــن قبل ، القصور والمنازل والحمامات التى بنيت باشير اخبرنا صاحب « كتاب الاستبصار » ان « بالقرب من المدينة بنيان عظيم عجيب يعرف بمحراب سليمان لــم ير بنيان اعظم منه ولا احكم ، فيه من الرخام والاعمدة والنقوش ما يقصر عنه الوصف ٠

٤) تاريخهــا

من تاسيسها الى تعيين بلقين بن زيرى كخليفة للفاطميين على افريقيــة والمغرب كــانت مدينة اشير عاصمة الزيريين واعظم مدن المغرب الاوسط ٠ ومن تعيين بلقين الى تأسيس مدينة قلعة بنى حمــاد سنــة ٣٩٨/١٠٠٧ ــ ١٠٠٨ بقيت اشير تلعب دورا هامــا فى تاريخ المغرب ٠ فنرى مثلا ان المنصور بــن بلقين بويع بها بعد موت ابيه والقى بهاخطابه المشهور «ان ابى وجدى أخذ الناس بالسيف قهرا وانــا لا آخذهم الا بالاحســان ٠ ومــا انــا فى هــذا الملك ممن يولى

---

1) البكرى **كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب** ص 64 ـ 65
2) **نفس المرجع** ص 65 ـ 66
3) **نفس المرجع** ص 60 ـ 61
4) **نفس المرجع** ص 59 ـ 60
5) لا نعرف شيئا عن موقع هذا المكان
6) هو ثنية البقاس قرب الجزائر على قول دى سلان فى ترجمة لكتاب البكرى ص 135
7) لا تعرف شيئا عن هذا المكان
8) اسم قرية مبنية على ضفة نهر شلف على قول دى سلان فى ترجمة لكتاب البكرى ص 127

بكتاب ويعزل بكتاب لانى ورثته عن آبائى واجدادى وورثوه من ابائهم واجدادهم حمير (١) · وبها استقبل المنصور سعيد بن خزرون بن فلفول بن خزر (٢) وبها ولد باديس بن المنصور يوم ١٣ ربيع الاول ٣٧٤/١٤ اوت ٩٨٤ (٣) ·

وفى عهد هذا الامير الاخير كانت مدينة اشير مقرا لأحداث خطيرة فحصرها زيرى بن عطية الزناتى (٥) وثاربها ما كسن وزاوى ومغنين وعزم ، اخوة جد باديس سنة ٣٨٩/٩٩٩ هذا ما دفع زيرى بن عطية الى السير اليها من جديد و « اناخ عليها واستامن اليه زاوى بن زيرى ومن كان معه من اكابر اهل بيته المنازعين لباديس » ومرض زيرى بن عطية اثناء الحصار ومات قربها يوم ١٢ رمضان ٣٩١/١٥ اوت ١٠٠١ (٦) ·

وبعد تاسيس مدينة قلعة بنى حماد قلت اهمية اشير واصبحت تحت حكم حماد بن بلقين الذى ولى خلف الحميرى عليها وبعد ما ثار حماد على ابن اخيه باديس الامير الزيرى اصبحت مدينة اشير من جديد مقرا لاحداث مهمة · فخضع واليها خلف الحميرى لباديس ومنع حمادا من الدخول اليها وهو متبوع بجيش باديس وفتحها باديس (٧) ثم بعد موت باديس التى وقعت اثناء حصار قلعة بنى حماد سار كرامة اخو باديس الى اشير · فحاصرها حماد وفتحها سنة ٤٠٦/١٠١٦ (٧) ·

وبقيت أشير فى حالة سلم من سنة ٤٠٦/١٠١٦ الى سنة ٤٣٤/١٠٤٦ ثم ثار سكانها على القائد بن حماد ، الامير الحمادى الذى كان يحارب الامير الزيرى المعز بن باديس · فحصرها القائد وفتحها (٨) ثم رجع الهدوء الى اشير لكنه لم يدم من حيث ان يوسف بن حماد خربها وعلى قول البكرى (٩) « استباح اموالها وفضح حرمها ذلك بعد سنة ٤٥٥ ١٠٦٣ ثم تراجع اليها الناس بعد خمس وخمسين

وفى عهد الامير الحمادى الناصر بن علناس كانت اشير مقر ولاية على رأسها يوسف بن الناصر· ففتحها المنتصر بن خزرون « مع عدى من قبائل» (١٠) وبقى بها الى ان الناصر هجم عليه واضطره الى الفرار وفى عهد المنصور بن علناس غزاها تاشفين بن تينعمروالى تلمسان بامر من يوسف بن تاشفين الامير المرابطى وفتحها وخربها سنة ٤٩٦/١١٠٣ (١١) ونظن انها بقيت تحت سلطة المرابطين الى شوال ٤٩٦ يوليو ـ اوت ١١٠٣ عندما فتح المنصور مدينة تلمسان ·

ثم لا نعرف شيئا عن مدينة اشير الى حوالى سنة ٥٨٠/١١٨٠ حيث نرى غزى الصنهاجى حليف بنى غانية يتغلب عليها (١٢) وبعد ذلك يحدثنا ابن خلدون مرتين عن أشير · فالمرة الاولى يقول لنا (١٣)

---

1) انظر ابن عذارى **البيان المغرب فى ذكر اخبار المغرب** ج 1 ص 443
2) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 7 ص 82
3) انظر ابن عذارى **البيان** ج 1 ص 344
4) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 322
5) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 158
6) ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 352
7) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 352
8) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 352
9) البكرى **كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب** ص 60
10) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 7 ص 90
11) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 360
12) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 508
13) انظر ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 92

ان قبيلة حصين نزلت « بتيطرى وهو جبل اشير وملكوه وتحصنوا به » وذلك « لما عاد بنو عبد الواد الى ملكهم لعهد ابى حمو موسى ابن يوسف بعد مهلك ابى عنان » سنة ٧٦٠/١٣٥٩ · واما المرة الثانية (١) فيخبرنا ان الثعالبة كانوا « يسكنون تيطرى الى ان ازاحهم قبائل حصين » · فنرى اذن ان مدينة اشير كانت فى اول الامر بين يدى الثعالبة ثم تحت سلطة حصين ·

وبعد العهد الزيانى يظهر ان مدينة اشير نسيت ·

فمن هذا النسيان اراد البحاثون والآثاريون ان يخرجوها كما سنراه

٥) الابحاث والحفريات الاثارية

ان اول بحاث اهتم بمدينة اشير هو بربروقر Berberuguer فرحل مرتين اليها فى يوليو ١٨٥٠ وفى اوت ١٨٥٢ ، فكشف اثناء ابحاثه خربة قصبة بمكان اسمه منزه بنت السلطان وهو فى رايه مدينة اشير الاولى كما عثر على مكان اخر شمالى منزه بنت السلطان وهو على قوله اشير الجديدة التى يذكرها النويرى · وبجانب ذلك يخبرنا فى المذكرة التى تركها لنا (٢) بان اشير تدعى ياشير باللهجة البربرية وان هذه الكلمة معناها مخلب وتلقى على المراكز العسكرية القوية لانها تهدد العدو كالمخلب · واخيرا يعلمنا بان اشير كانت فى العهد العثمانى بين يدى قبيلة اولاد الان وانها مازالت لها اهمية استراتيجية من حيث ان اولاد الان كانوا يلجؤون اليها عندما يريدون ان يستخلصوا من دفع الغرائم ·

وبعد بربروقر ، زار شاباسيار Chabassière موقع اشير سنة ١٨٦٩ وافادنا بمخطط قصبة منزه بنت السلطان (٣) وفى سنة ١٩٠٨ قام النقيب رودى Rodet (٤) ببحث جدى عن اشير فوجد بها ثلاثة مواقع : منزه بنت السلطان وياشير او الاشير وبنية · فالمكان الاول يقع على ١٠ كم شمالى/شمالى غربى عين بوسيف فهو حصن حصين طوله ٢٧٦ م وعرضه ٢٥ م وكان على قول رودى مدينة زيرى بن مناد قبل تاسيس اشير · والمكان الثانى ياشير يقع على ١٢ كم شرقى /شمالى شرقى عين بوسيف ·فهو على شكل مربع منحرف مساحته حوالى ١٥ هكتار · وهو فى راى رودى مدينة اشير الاولى · واما المكان الثالث ، بنية ، فهو على حوالى ٢ كم جنوبى/جنوبى شرقى ياشير · فهو على شكل مربع مساحته ٣٥ هكتار و وجد رودى به بنيانا ظن انه حمام · وبنية فى راى رودى هى المدينة التى يصفها البكرى ·

وفى سنة ١٩٢٢ قام جورج مارسى برحلة الى اشير وافادنا بالنتائج التى حصل عليها فى مقال ذى اهمية كبيرة (٥) اكد فيه ما جاء فى مقال رودى الا فيما يخص البنيان المربع الموجود ببنية فهو مسجد لا حمام كما ذكره رودى · وببنية عثر جورج مارسى على تاج عمود من الحجر وعلى كتابة منقوشة على الحجر وهى معروضة فى متحف الآثار بالعاصمة ·

وفى سنة ١٩٥٤ مساعد لقسم الجغرافية التابع لكلية الآدب الجزائرية ، اسمه تابوتو كشف اثناء ابحاثه فى جبل تيطرى فى مكان يسمى

---

1) ابن خلدون **كتاب العبر** ج 6 ص 128
2) انظر دى سلان ترجمة**كتاب العبر** لابن خلدونج 2 ص 490 مذكرة (1)
3) شابا سيار **كاف الاخضر وخربه** المجلة الافريقية سنة 1869 ص 116
4) النقيب رودى **خرب اشير** المجلة الافريقية سنة 1908 ص86 ـ 104
5) جورج مارسى **ابحاث عن الآثار الاسلامية** المجلة الافريقية سنة 1922 ص 21 ـ 38

بنية المرحوم خرائب ذات اهمية على نحو كيلوميتر شرقى ياشير • وعند رجوعه الى العاصمة اخبر جورج مارسى باكتشافه • فانتقل جورج مارسى وتابوتو والاستاذان لى تورنو Tourneau وقولفين Golvin الى اشير وقرروا باجراء حفريات بهذا المكان تحت رئاسة الاستاذ قولفين •

وهكذا اجريت حفريات باشير من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٦ • فاكتشف اثناءها قصر زيرى بن مناد • فافادنا الاستاذ قولفين بالنتائج التى حصل عليها فى كتابه المشهور « المغرب الاوسط فى عهد الزيريين (٦) وبمقال صدر فى المجلة الاميريكية « ارس اوربانتا ليس (٧)

ان قصر زيرى بنيان من الحجر على شكل مستطيل طوله ٧٢ م وعرضه ٤٠ م يمتاز بسور محصن بابراج مربعة فى الزوايا ومستطيلة فى اضلاع المستطيل وبباب عرضه ٩ م بارز على الحائط بحوالى ٣ م وبصحونه الخمسة المحيطة بقاعات مختلفة الشكل مزينة بالواح جصية منقوشة وبحيوطه المزينة باقواس مشتبكة •

وعثر الاستاذ قولفين على حجرة من الكلس مزخرفة برؤوس اسود وعلى قطع من الخزف مزينة بزخارف مسحوبة وعلى اربعة تيجان مزينة باوراق منحرفة مثل تيجان جامع سيدى عقبة بالقروان وجامع الزيتونة بتونس •

هذه هى النتائج التى حصل عليها الاستاذ قولفين • فالقصر الذى اكتشفه هو فى راينا البنيان العظيم العجيب الذى ذكره صاحب «كتاب الاستبصار» وسماه محراب سليمان •

علينا الان ان نواصل الابحاث حتى نكتشف المبانى التى ذكرها ابن خلدون من قصور ومنازل وحمامات والمبانى التى لم تذكر من طرف المؤرخين والجغرافيين مثل المساجد التى كانت موجودة بدون شك بمدينة اشير عاصمة بنى زيرى •

6) لوسيان قولفين المغرب الاوسط فى عهد الزيزيين ص 180–181
7) لوسيان قولفين قصر زيرى باشير (القرن العاشر) اريانتاليس سنة 1966 ص 67 – 76



الحرب العالمية الاولى لم تزل تقتل

نشرت دوائر الدفاع المدني في فرنسا أرقاما تكاد لا تصدق وتشهد بأن حرب سنة 1914 ـ 1918 لم تزل لها ضحايا بعد انقضاء 55 سنة على نهايتها !

ففي سنة 1971 عثرت دوائر كسح الالغام على 260 ألف قنبلة وقذيفة ولغم الخ كانت دفينة في الارض ولم تنفجر ، وفي سنة 1970 كانت قد عثرت على مثل هذا العدد .

وتبين بعد التحقيق ان صنف هذه الالغام والقنابل كان قد استخدم في الحرب العالمية الاولى .

وفي سنة 1963 اي بعد انقضاء عشرين سنة على نهاية الحرب العالمية الثانية ، عثر في فرنسا على 175000 صنف من أصناف القنابل والالغام التي لم تنفجر ، وفي السنين العشر المنصرمة كان نحو 540 شخصا ضحية لانفجار قنابل أو ألغام دفينة ، ومعظمهم من الاطفال الذين لا ينتبهون عادة الى خطر هذه الدفائن .

وان عمليات الكسح والتعطيل مشحونة بالخطر أيضا بدليل انه كان ضحية هذه العمليات منذ سنة 1962 الى اليوم نحو 592 من العمال الذين اشتركوا في هذه العمليات. كما انه قد جرح نحو 850 اخرين .

وتفسر دوائر الدفاع هذه الاوضاع بانه قد دست في الارض بضعة ملايين من الالغام المتنوعة بين سنة 1940 و سنة 1945 وان هذه الالغام تصعد الى السطح بفعل الانجراف والتاكل الطبيعي ولا سيما في السواحل وفي الاراضي المفلوحة وفي الاماكن التي تجري فيها مشاريع بناء كبرى .

ولهذا لم تزل السلطات تحذر السكان من مس هذه الدفائن الخطيرة وتطلب منهم أن يخبروا الشرطة حال عثورهم عليها

مقاومة الجزائر

للتكتل الأوربي

قبل الاحتلال

د. محمد العربي الزبيري
أستاذ بكلية الآداب
– جامعة الجزائر –

لقد كانت معظم الدول الاوربية وامريكا ، فى نهاية القرن الثامن عشر ، تدفع ضريبة سنوية واخرى دولية الى ايالة الجزائر مقابل حرية الملاحة فى البحر الأبيض المتوسط ، وكان حكام الجزائر يشترطون ان تكون جل الدفعات فى شكل مواد اولية او مصنوعة مثل اللوح والبارود والاسلحة والحبالة الى غير ذلك مما تحتاج اليه الدولة فى حياتها اليومية (1) ، والتى يتعذر الحصول عليها بالطرق الاخرى ، لأن تجار شمال افريقيا كانوا لا يقبلون فى تلك البلاد ، واذا دخلوها ، فانهم يعرضون أنفسهم وما يملكون للهلاك والضياع .

1) يذكر صاحب التقرير بأن جميع الدول الاوربية تقريبا ، تخضع طواعية للجزائر ، فبعضها يزودها بالسفن والأسلحة ، والبعض الآخر يقدم لها الكور والبارود ، وجميعها تهدى الدراهم والبضائع وغير ذلك من الاشياء الثمينة.

(1) ANP, AE B3 304, "Rapport de THEDENAT", présenté le 19 Août 1802.

والواقع ان الدول الاوربية ، فى ذلك الحين ، كانت تعيش فى نزاع دائم فيما بينها نتيجة تضارب المصالح واختلاف النظم ، ثم جاءت حروب الثورة الفرنسية فكادت تعمها جميعا ، وجندت لها كل طاقة حية . ولذلك لم تتمكن هذه البلدان من اتخاذ اجراءات حاسمة تجعلها فى مأمن من مدافع بحارة الايالة . بل على العكس ، فان عددا من هذه الدول كانت تتقرب للجزائريين وتخطب ودهم ليساعدوها على مجابهة اعدائها ، او على تحطيمهم كما فعلت انكلترا فى عهد الداى بابا حسن لعزل فرنسا وتجريدها من الامتيازات التجارية التى كانت تحظى بها فى موانى الشرق الجزائرى (2) وكان الجزائريون يجدون ، فى هذه المواقف الاوربية ، خدمة لمصالحهم فيؤيدون هذا مرة ، ويقفون ضده مرة أخرى الى أن يضاعف الهدايا ، ويزيد فى تنويعها .

واذا تأملنا فى تصرف الايالة هذا الذى قد يعتبر غير مشرف لعدم التزامه بالمبادىء ، وجدنا انه يشكل – بالاضافة الى كونه من متطلبات الجهاد البحرى – رد فعل على وقوف اوربا ضد تكوين اسطول تجارى جزائرى ، وعلى الاستغلال التجارى الذى يتعرض له الاهالى نتيجة لذلك .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، دعمت الجزائر اسطولها الحربى حتى أصبح يحتل مكانة مرموقة ، ويتكون من ثلاثين مركبا ، وبارجتين بأربع واربعين مدفعا تحت قيادة ضباط أكفاء مثل الريس حميدو (3) . ومن ثم تضاعف النشاط البحرى مستهدفا جميع الاساطيل الاوربية بنوعيها ، وكثرت الغنائم ، خاصة وان اوربا كانت مشغولة بحروب نابليون التى دوختها واضعفت قواها ، فلم تعد تفكر الا فى الخلاص من براثن الامبراطورية الفرنسية التى كانت تعمل جاهدة ، لبسط نفوذها على كامل انحاء القارة ، وحينما انتصر الحلفاء أعادوا البوربون الى عرشهم فىفرنسا ، وراحوا يبحثون عن كيفية يحافظون بها على الانتصار : فكلفوا امبراطور النمسا (4) بتوجيه دعوات لممثلى سائر الشعوب الاوربية التى شاركت فى الحرب لحضور مؤتمر يعقد فى فيانه (5)

ومن جملة القضايا الهامة التى أثيرت فى هذا المؤتمر مسألة الجزائر التى ظلت تتابع جهادها البحرى مقلقة ، بذلك ، سائر الدول المسيحية . وبعد مداولات ومناقشات ، أجمع الحاضرون على ضرورة القيام بعمل مشترك للقضاء على حكومة الدايات » وايجاد حكومة محلية ، تحترم القوانين

---

(2) Mercier, HIST. DE L'AF. SEPT. T III P. 445.

3) هو حميدو بن على من مواليد مدينة الجزائر ، اشتهر بالشجاعة والمهارة الحربية ، حقق انتصارات كثيرة لبلاده ، وعند ما تولى عمر باشا حكم الايالة طلب منه ان يحضر له سفينة امريكية فخرج الى المحيط الاطلسى حيث التقى باسطول من الولايات المتحدة يقوده الكومادور ديكاتور ، واشتعلت نيران المعركة ولكن «المسعودة» (سفينة الريس) لم يتمكن من قهر البوارج الامريكية واصيب حميدو بقنبلة اردته قتيلا ، والقيت جثته فى البحر حسب رغبته وتطبيقا لشعار البحارة الجزائريين «يابريطة ، ياكريطة ، ياقاع البحر»

4) هو فرانسوا الاول – 1768 – 1835 – الذى حارب نابليون ثم زوجه ابنته مارى لويز

5) وقع سنة 1814 – 1815

الدولية » (6) وبما ان بريطانيا كانت ، فى ذلــك الحين ، قد بلغت أوج سلطانها ، كلفها المؤتمـــر الاتصال بالجزائر ، واستعمال كل ما لديها مـــن وسائل لأرغام الايــالات العثمانية على الغاء الــرق ، وانهاء ما أسموه بالقرصنة فى حوض البحر الابيض المتوسط .

غير ان الجزائر لم تعط أية اهمية لقــرارات هذا المؤتمر ، وضاعفت حملاتها المظفرة ضد الشــواطىء والاساطيل الاوربية ، اقتناعا منها بان ذلك ضرورى لانه يعوض منافع التجارة التى حرمت منها نتيجـة تآمر الاوربيين ، واضطرت ان تتركها بين ايـــدى الاجانب يعبثون بها وبغيرها من ثروات البلاد .

وهكذا ، فان الجهاد البحرى كان يشكل رد فعـل على وضع قائم تسببت فيه الدول الاوربية بتصرفاتها العدوانية المتعصبة ؛ ولا يمكن التخلى عنه بمحـض الارادة . ولذلك قررت بريطانيا تنظيم حملة تأديبية واسعة النطاق أطلق عليها المؤرخون اسم قائدهـــا اللورد آكسمات .

حملـة آكسمـــات :

لقد أثرت هذه الحملة تأثيرا كبيرا على التجـــارة الخارجية فى الشرق الجزائرى ، لانها جعلت السلطات الجزائــرية تعيد حق استغــلال الموانى هنــاك الى الفرنسيين بعد ان تمتع الانكليز مدة لا تقل عن IO سنوات (7) . وقد أدت عملية النقل هذه الى توقف النشاط التجارى ردحا من الزمن ، كما انها تسببت فى تهديم المؤسسات بعد ان ألقى القبض على مـن كان بها من ممثلى التجارة البريطانية ، كما سبق أن رأينـــا .

وعلى الرغم من ان هذه الحملة كانت ، فى ظاهرها ، تنفيذا لارادة الدول الاوربية ، فان بريطانيا كـانت تهدف ، من خلالها ، الى فرض سيطرتها على البحار للاستحواذ على طرق المواصلات وللحفاظ عـــلى مصالحها فى الشرق والهند،بعد ان فقدت مستعمراتها فى القارة الامريكية ؛ كما ان هناك دافعا أساسيـا آخر جعلها تقوم بهذا العدوان ، ويتمثل فى حصولها على جميع الجزر الايونية (8) .

وقد تمت الحملة على مرحلتين : مرحلة اولى ابرمت فيها عدة اتفاقات مع اولى الامر فى الايالة ، وكـانت كلها لصالح الجزائريين ؛ حتى ان البلاطات الاوربية احتجت بشدة ونددت بتصرفات اللورد التى قيل عنها انها «تسمح لقراصنة الجزائر بملاحقة السفن المسيحية التى ترفض تسديد الاتاوات لها» (9) ، واتهمتــه بالضعف والجبن مما دفع حكومته الى تأنيبه ، وأمره باعادة الكرة لتحرير العبيد وارغام الجزائر على ارجاع المبالغ المالية التى اتصلت بها كفدية لبعض هـؤلاء الاسرى . أما المرحلة الثانية ، فهى التى انضم فيها الى الاسطول الانكليزى ، اسطول هولندى بقيـادة .

(6) Fillias, NOTICES... P. 14.

يذكر المؤلف ان هذه الفكرة جاء بها السيد كاستلرى وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الحين

(7) Ferraud, "Destruction des Etablissements Français de la Calle en 1827, d'après des documents indigènes" R.A. T. 17, 1873, P. 426.

(8) Mercier, HIST. DE L'AF. SEPT., T III, P. 491.

(9) نفس المصدر

الامبرال فان كابلان ، وتجلى فيها التكتل المسيحى ضد الايالة المسلمة . ولنا أدلة كثيرة على هذا التكتل نستخلصها من مختلف المصادر التى عثرنا عليها(10) ونوجزها فى النقاط التالية ، بالاضافة الى الوحدة المذكورة بين الاسطولين الهولندى والبريطانى :

1 – ان ملوك هولنده واسبانيا وصردينيا قد منحوا رتبة الفروسية الى اللورد .

2 – ان مدينة لندن منحته حق البورجوازية ، وان رئيس البلدية فيها سلمه ، باسم أصحاب الحرف ، سيفا مرصعا بالماس .

3 – ان مدينة اوكسفورد البريطانية منحتة حق البورجوازية .

4 – ان جمعية تحرير العبيد فى فرنسا ضربت ميدالية ذهبية تخلد الانتصار وتحمل صورة اللورد ، وذلك على الرغم من العداوة التقليدية بين فرنسا وانكلترا ، وعلى الرغم من ان بريطانيا كانت قد بذلت كل ما فى وسعها للقضاء على الامتيازات الفرنسية فى شمال افريقيا .

وحينما وقع الاتصال بالجزائر ، ورأى عمر باشا (11) هذا التكتل وما وراءه من قوة ، لجأ الى المماطلة فى جوابه وادعى انه لا يستطيع البت فى امر هام كهذا ، بدون استشارة الباب العالى ، ولذلك طلب مهلة لاعطاء الرد النهائى ؛ وفى الواقع ، لقد اتبع هذه الخطة ليتمكن من الاستعداد للمعركة التى بدأت يوم السابع والعشرين أوت من نفس السنة – 1816 – وانتهت بعد ثلاثة ايام بانتصار الحلفاء ، وابرام اتفاق يحتوى على النقاط التالية :

1 – الغاء الرق الغاء كليا ودائما .

2 – تسليم جميع العبيد مهما كانت جنسيتهم الى الامبرال الانكليزى .

3 – استرجاع الاموال التى قبضها الداى منذ بداية السنة مقابل تحرير بعض العبيد .

4 – تعويض الخسائر التى أصيبت بها القنصلية الانكليزية .

5 – اعتذار الداى أمام وزرائه وضباطه ، وفقا للصيغة التى اختارتها انكلترا .

أما عن أسباب الهزيمة ، فهناك روايتان متناقضتان تقول الاولى : لقد انهزم الجزائريون لانهم لم يكونوا قد استكملوا الاستعداد ، ولان القائد البريطانى استطاع ان يقضى على اسطولهم ، وهو فى الميناء ، عند ما أرسل ، تحت وابل من القنابل ، قاربا ألصق أقمصة مكبرتة بالبوارج التى تسد مدخل المرسى ، ثم وجه اليها مدافعه فاشتعلت النيران والتهمت كامل القطع التى تشكل الاسطول الجزائرى (12) ، ومعنى ذلك ان الجيوش المسيحية انتزعت هذا الانتصار انتزاعا بفضل تفوقها على اعدائها من حيث التخطيط والاستماتة فى القتال .

أما الرواية الثانية ، وهى جزائرية ، فانها تنسب الهزيمة الى تحايل اللور آكسماوث وانخداع السلطات المحلية له : ذلك ان «النمرود رفع راية

(10) ANP, F 80 et F 80 1670 .
— OMCH, F IX, Dossier ALG. EXPEDITION DE 1816, PP. 5 - 8
— Playfair (R.L.), "Episodes de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats Barbares avant la conquête Française", R.A. T 24, 1880, PP 31 - 34.
(ANP, F 80, CHRONOLOGIE ALGERIENNE, P. 11).

11) هو الداى الثامن بعد بابا حسان ، وقد تولى الحكم سنة 1815 بعد ان قتل سابقه الداى محمد ، وفى عهده حل الطاعون واجتاح الجراد الايالة ، ووقع السلم مع الولايات المتحدة

(12) Fillias, L'ALGERIE DE 1830 A 1860, P. 14.

بيضاء على الصوارى تشير الى السلم . ثم توجه الى الارض وأرسل كتابا الى الباشا يذكر فيه انه جاء يشترى جميع العبيد . ولكن ذلك كان كذبا وبهتانا، لان الغرض الحقيقى من الرسالة كان هو صد الانظار حتى يتمكن من تنفيذ خطته . وعند ما دخل الاسطول الى المرسى ، باغت المدينة بوابل من القنابل» (13) . وما من شك ان هذه هى الرواية الصحيحة لان السيد شالار الذى كان قنصلا عاما لامريكا فى الجزائر ، يؤكد بأن البحرية الجزائرية كان من الممكن ان تنتصر على أعدائها بكل سهولة لو انها اطلقت النار على اسطول الحلفاء ، ومنعته من الدخول الى الميناء حيث احتل مواقع استراتيجية (14) .

ومهما يكن ، فان المعركة كانت حامية حتى ان اللورد اضطر الى التراجع ، وصار يفكر فى الانسحاب النهائى . ولكن تخوف السكان من تكرار هذا الهجوم المفاجىء الذى أحدث لهم أضرارا كبيرة ، هو الذى دفع الداى الى قبول المعاهدة الآنفة الذكر ، ولو انه ثبت فى موقفه قليلا لاستطاع ان يخرج من القتال منتصرا ، وان يجنب البلاد كارثة كان لها بالغ الاثر فى جميع الميادين .

أما النتائج التى أسفرت عنها هذه الحملة فمتعددة وأهمها :

1 ـ ظهور التضامن الفعال بين بلدان المغرب ؛ اذ سارع سلطان مراكش وباى تونس الى مساعدة الايالة المهزومة على تجديد اسطولها . ولم يمض على الحادثة المؤلمة عام واحد حتى تجدد الاسطول ، واعيد بناء العاصمة . كما لو لم تصب بقنبلة واحدة .

2 ـ تأكد الشعب الجزائرى من عجز الدولة العثمانية التى كان يعتقد انها قادرة على حمايته ، وتيقن انه يجب الاعتماد على النفس ، فراح يستعد للطوارىء ؛ الامر الذى سيمكنه . فيما بعد ، من الصمود ، سنوات عديدة ، فى وجه الاستعمار الفرنسى .

3 ـ اكتشاف السلطات الجزائرية لأهمية البينون الحربية ، وتزويدها له بمدافع ثقيلة تمنع هجومات من هذا النوع .

4 ـ شعور فرنسا بان بريطانيا تحوم حول المنطقة ، وتهدف الى احتلالها ، قصد السيطرة على البحار . ووجود انكلترا فى حوض البحر الابيض المتوسط يحد من نشاط التجارة الفرنسية ، مما جعل من المحتوم على مملكة العودة ان تتخذ التدابير التى يمكن ان تحول دون هذا الاحتلال . ومن ثمة كانت هذه الحملة سببا فى خلق عداوة جديدة بين هاتين الدولتين الاوربيتين المسيحيتين فى المنطقة .

5 ـ استرجاع السلطات الفرنسية لأهم المؤسسات التجارية التى تدخل فى نطاق الامتيازات ، والتى ظلت فى حوزة بريطانيا مدة عشر سنوات ابتداء من عام 1807 .

هذا وقد اورد شالار (15) قائمة بأسماء المراكب المكونة للاسطولين اللذين قاما بالعدوان على الايالة ، نوردها هنا لنعطى فكرة عن القوة الهائلة التى استعملها الحلفاء فى حملتهم هذه ، مع العلم بأن أكبر بارجة حربية جزائرية لا تتوفر على أكثر من سبعين مدفعا .

---

(13) Devoulx (A.), TACHRIFAT, Recueil de notes historiqes sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger, SD. PP. 13 - 14.

14) شالار ، ص 172

15) شالار ، ص 383

جــدول باسمــاء السفن الحربية التى شاركت فى الحملة ضد الجزائر سنـــة 1816

الاسطــــول الانكليــزى		عدد مدافعه	الاسطـول الهـولنـدى		عدد مدافعه
اسم المــــركب			اسم المــــركب		
الملكة شارلوت	Charlotte	100	لوملمبيــس	Le Mélanpus	40
لانبــرونابل	L'imprenable	98	لافريدريكيــه	La Frédirica	44
لوسيبيــارت	Le Superbe	74	لودكــراد	Le Dagaraad	36
لومنـــدن	Le Minden	74	لاديـــان	La Diane	40
لالبيـــون	L'Albin	74	لامستـــال	L'Amstel	44
لوليـــاندر	Le Léandre	50	لاندراخــت	L'Andracht	24
لوسفـــرن	Le Severn	40			
لوكــلاسكون	Le Glascon	40			
لوكرانيــك	Le Granique	36			
لوهبـــر	Le Hebre	36			

والى جانب هذه السفن الحربية دعمت انكلتــرااسطولها بالقطع التالية :

ـ 5 بوارج حربيــة

ـ 4 قاذفات للقنابل (أومقنبلات)

ـ 14 قاربا حربيا للنجدة

وبالنسبة لاعضاء مؤتمر فيانه ، فان الحملة لم تؤت ثمارها ، اذ ان البحارة الجزائريين لم يهنوا ، وواصلوا نشاطهم بنجاح باهر حتى ان اوربا اندهشت لذلك وخصصت الجزء الاكبر من مداولاتها – اثناء مؤتمر آكس لاشبال الذى انعقد فى العشرين من نوفمبر سنة 1819 – لدراسة الوسائل اللازمة للقضاء على ما أسموه بالقرصنة (16) . ثم اتفق المؤتمرون على ان اى اعتداء تتعرض له المصالح التجارية لأية دولة اوربية يجب ان ينجر عنه عقاب شديد تقوم به جميع الدول ضد الايالات المغربية ؛ وطلبوا من ممثلى فرنسا وانكلترا (17) أن يتوسطا لدى حكومتيهما لتوجها الى دول شمال افريقيا « كلاما جديا ، وتنذراها بان الاستمرار فى طرق العنف والعداء ضد التجارة المسيحية سيكتل ضدها – مرة أخرى – قوات اوربا بأسرها » (18) .

وعلى اثر هذا الاتفاق ، تم تشكيل وفد مزدوج سافر الى الجزائر يوم 5 سبتمبر 1819 تحت قيادة الاميرالين جوليان Julien الفرنسى وفريمنتل Free mantlé الانكليزى ؛ ولكن الداى حسين (19) رفض الامتثال للامر الذى آتيا به وقال انه لن يستسلم مهما كانت الظروف وكيفما كانت رغبة ملوك اوربا ، وان ايالته حرة فى ان تحارب من تشاء وتسالم من تشاء . ولكى يقرن القول بالعمل ، أمر بمضاعفة النشاط البحرى ، واستدعى جميع قناصل الدول المسيحية وأخبرهم بان « كل بلد يتراخى فى تسديد الضرائب أو يتهاون فى ارسال الهدايا المعهودة ، سوف يعتبر عدوا ، ويتعرض – لا محالة ، لغزونا ونيران مدافعنا » (20) .

حرب عام 1824 :

وقد ظل الوضع على هذه الحال الى ان كانت سنة 1823 ؛ فتطورت الامور تطورا خطيرا ، وأخذت الايالة فى تشديد الرقابة على الهيآت الاجنبية التى بدأت تتدخل فى شؤون البلاد ، وخاصة قنصلية فرنسا ، فى عنابة ، التى كانت تقوم بالعمليات التجارية المحظورة مثل توريد الاسلحة النارية وبيعها الى مختلف القبائل الجزائرية (21) .

وفى اواخر السنة المذكورة ، اتهمت السلطات الجزائرية **بعض الاشخاص** ممن يعملون فى القنصليات الاجنبية ، اتهمتهم بالتآمر على أمن الدولة ، وارادت النظر فى أمرهم ، فطلبت من القناصل تسليمهم ،

---

16) بيليسى ، ج 1 ص 16 ، غير ان مارس فى – تاريخ شمال افريقيا – ج 3 ص 506 يذكر بأن المؤتمر وقع يوم 18 نوفمبر بدلا من يوم 20

17) وزير خارجية فرنسا السيد ريشليو ، ووزير خارجية انكلترا السيد كاستلرى

(18) Fillias, L'ALGERIE DE 1830 A 1860, P. 56.

19) تولى الحكم سنة 1818 بعد وفاة على بورصلى خليفة عمر باشا وفى عهده اصيبت البليدة بزلزال مريع ، واشتدت الرقابة على المؤسسات الفرنسية فى عنابة ، وفى عهده كذلك وقعت حادثة المروحة الشهيرة ، وتم احتلال البلاد ، وقد كان رجلا تقيا ، مخلصا وشجاعا ، حكم الايالة بالعدل والاعتدال (ANP, F 80, Chronologie Algérienne, P. 11).

(20) Fillias, L'ALGERIE DE 1830 A 1860, P. 57 et Mercier, HIST. DE L'AF. SEPT., T. III, P. 506.

21) بيليسى ج 1 ص 14

ولكن قنصلي امريكا ، وبريطانيا لم يستجيبا للطلب وأصرا على عدم الامتثال لاوامر الداى الذى اعتبر الموقف تدخلا فى شؤونه الخاصة . ووجه لهما انذارا أخيرا ؛ ثم استعمل القوة لفرض ارادته . واحترام السيادة الجزائرية ؛ مما جعل قناصلة هولندة وانكليترا وامريكا (22) يرفعون احتجاجا ، باسم حكوماتهم ضد العنف . غير ان الديوان اهمل برقيتهم ، ولم يعرها أى اهتمام ؛ ولذلك انعقد اجتماع آخر يوم 2 ديسمبر 1823 ، فى دار القنصل الامريكى ضم جميع القناصل الاجانب ، وتمخض عن لائحة احتجاج ثانية ، حملت حينا ، الى الداى الذى ردها عليهم مذكرا اياهم بان الايالة حرة فى تصرفها مع رعاياها تماما كما هو الشأن لسائر البلدان المتحضرة (23) .

وأخبر الدبلوماسييون حكوماتهم بهذا الرد الحازم ، فقامت كل من فرنسا وانكلترا باتخاذ الاجراءات التى رأتها ضرورية لرفع التحدى ، ولارغام الايالة على التراجع عن موقفها . أما السلطات الفرنسية فقد أمرت قنصلها ان يتصل بزميله البريطانى لتتضافر الجهود . وليعلم الداى انه أمام تحزب فيعدل عن نواياه . واما البريطانيون ، فانهم أرسلوا ، الى ميناء الجزائر ، بارجة حربية بقيادة النقيب سينسر تحمل التعليمات الى ممثلهم فى عاصمة الايالة . ومن جملة هذه التعليمات أن يلجأ الى السفينة ، وان يتخذ منها مقرا يملى منه شروطه على السلطات الجزائرية (24) .

ولما علمت الجزائر بهذا التكتل ، أرادت أن توجه ضربتها الى السيد ماك دونال – رأس الفتنة وروح المناورات – فطلبت من الحكومة الانكليزية استبداله بشخص آخر ، ورفضت كل تفاهم معه ، خاصة بعد ان غادر التراب الجزائرى والتحق بالسفينة المذكورة وحاول جميع القناصل المحايدين ان يتدخلوا لتسوية الخلاف ، ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ، الامر الذى جعل سينسر يعود الى بلاده كما جاء .

وفى فاتح فبراير سنة 1824 ، قدم الاميرال هارى نيل فى اسطول حربى بأمر مكتوب يقول : « ان بريطانيا تعتبر نفسها فى حالة حرب مع الجزائر، وان نيل سيشدد الحصار على الموانى ، ويتخذ جميع التدابير اللازمة الى أن يستجاب لمطالب العرش الانكليزى . وتتلخص هذه المطالب فى النقاط التالية (25) :

1 – امتداد الحصانة الدبلوماسية الى دارالقنصل الريفية .

2 – حق رفع العلم البريطانى فوق مبنى الدارين (26) .

---

22) اما قنصل فرنسا فانه امتثل للاوامر ، وسلم ما عنده من خدم ولذلك ، فان ماك دونال (القنصل الانكليزى) يقول عنه انه رجل بدون ضمير ، لا يمكن الاعتماد عليه . (شالار ص 227

23) نفس المصدر

24) شالار ، ص 239 – غير ان دونال فى مقاله ص 203 يذكر بانه ارغم على مغادرة البلاد

(25) OMCH, Fonds IX, DOSSIER ALG. AVANT 1830, Shaler, P. 247 et Aouell, P. 204.

26) دار القنصلية فى المدينة ، والدار الريفية التى يرتاح فيها القنصل . ويعتبر المبنى الثانى خاصا فلا يرفع عليه العلم

3 — الاعتراف بالقنصل الانكليزي كعميد للقناصلة المسيحيين ، واعطاؤه جميع الامتيازات المترتبة على ذلك (27) .

4 — اعفاء الاهالي الذين يخدمون القنصل الانكليزي من الضرائب .

5 — عدم مراقبة الدبلوماسيين البريطانيين .

ومن الواضح ان هذه الشروط تهدف من جهة الى اشعار سلطات الايالة بالتفوق الانكليزي ، وخلق الجو المناسب الذي يساعد الدبلوماسيين الانكليز على استعمال جماعة من السكان في القيام بأعمال التجسس ؛ وترمي من جهة أخرى الى القضاء على نفوذ فرنسا التي كانت تعمل على البقاء في مركزها الممتاز ، والتسلل الى القارة السمراء لتوسيع تجارتها ، وتجنب الاخطار التي تتعرض لها بضائعها باستمرار ؛ والى تدعيم نفوذ بريطانيا التي فقدت مستعمراتها في القارة الامريكية ؛ وأصبح عليها ان تضع خطة جديدة تمكنها من ايجاد أسواق عديدة تبيع فيها منتوجاتها ، وتأخذ منها كل ما تحتاج اليه من المواد الاولية .

وقد رد الداي على هذه المطالب بانه يرغب في التصالح مع انكلترا ، ولكنه يرفض باصرار رجوع القنصل القديم ، ولذلك قرر حكام الانكليز انهم يعلنون الحرب ضد الجزائر ، وانهم يحاصرونها بحرا ويحتجزون جميع المراكب التي يجدونها على كامل الساحل الجزائري (28) . ومن البديهي ان بريطانيا لم تقدم على هذه الحرب الا بعد ان تحققت من ان الايالة ارسلت الى السلطان محمود الثاني جزءا كبيرا من اسطولها ، مع خيرة بحارتها للمساهمة في اخماد الثورة اليونانية (29) .

وعلى الرغم من ان اعلان الحرب لا يمكن ان يصدر الا عن حكومة ، فان السلطات الفرنسية قد امتثلت له وامرت اعضاء الغرفة التجارية في مرسيليا باتخاذ التدابير اللازمة لمنع الاتصالات بموانى الجزائر الشرقية ، حتى لا تتعرض مراكبهم للقنبلة او للحجز وحتى لا يتعكر الجو من جديد بين البلدين .

ولما كانت بريطانيا تريد الاضرار بمصالح التجار الفرنسيين ، فانها امرت أسطولها المحاصر بأن يسمح لغير السفن الفرنسية — وهي قلة — بالدخول الى ميناء الجزائر ، ويقول شالار ، عن هذه التصرفات بانها كانت منافية لقوانين الحرب (30) .

وقد ظل هذا الحصار قائما حوالي نصف عام ، تعطلت فيه التجارة الخارجية التي تتم عن طريق البحر،ولكن الجزائر لم تتأثر لذلك كثيرا لان خزينتها عامرة ، ولان الاسواق التونسية والمغربية كانت تزودها بكل ما تحتاج اليه من المواد الاوربية .

وحينما يئست القوات البريطانية من استسلام الايالة بواسطة الحصار ، لجأت الى حد السلاح وبدأت المعارك يوم 11 جوليت 1824 (31) ، ولكن صمود الجزائريين ارغم الانكليز على التقهقر ، وابرم السلم يوم 26 من نفس الشهر بعد ان قبل القائد الاعلى

27) كان هذا الامتياز ، حتى ذلك الحين ، من حق القنصل الفرنسي

(28) Devoulx, TACHRIFAT, P. 15 et OMCH, F IX, Dossier ALG. avant 1830, LETTRE DU COMMISSAIRE GENERAL DE LA MARINE A L'INTENDANT DE LA MARINE A TOULON, le 24 Mars 1824.

29) جاء في هذه الوثيقة الاخيرة ان «نيل كتب لنا بان الحصار الذي يقوم به يشمل جميع موانى الايالة»

30) شالار ، ص 263

31) دونال ، ص 204 ، ولكن شالار ، ص 273 يقول بان المعارك بدأت يوم 12

ـ السيد نيل ـ استبدال القنصل ماك دونال (32).

وهكذا ، لم تنجح انكلترا ـ مرة أخرى ـ فى فرض سيطرتها على قلب شمال افريقيا ، وتأكدت من ان القوة لا تجدى نفعا ؛ وبذلك تحتم عليها ان تغــير سياستها تجاه الجزائريين ، وان تعمل على التقــرب منهم بدلا من اعلان الحرب عليهم .

(32) OMCH, F IX, Dossier ALG. avant 1830, LETTRE DU CONSULAT DE SA MAJESTE BRITANIQUE A LA CHAMBRE DE COMMERCE, Marseille le 3 Août 1824 et Devoulx, TACHRIFAT, P. 15.



في تاريخ جامع مُستغانم العتيق

د . مولاي بلحميسي

استاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

يــوجد باقدم حي لمدينــة مستغــانم ، بنهج « البــايلك » سابقــا مسجد تــاريخي عتيق يحــاذي وادي العيــن الصفراء ومساحته حوالي ١٢٠٠٠ متر مربع (١)

ومــا من شك انــهُ اعيد بنــاؤه مرة او عدة مــرات على انقاض المسجد الاول الذي يرجع عهده الى ايــام احتــلال بني مرين لتلمســان وذلك في القــرن الــرابع عشر ميلادي • امــا الصومعة الحالية فهي من هندسة تركية •

---

(1) THIREAU, Mostaganem et ses environs, P. 115

وينسب المستشرق رونى بـاسى تشييــد هــذا الجامع الى السلطان ابى عنــان خلف السلطان ابى الحسن علي الذى حكم بفاس من ١٣٤٨ الى ١٣٥٨ (٢)

وبقى هــذا الغلط التــاريخى فــاشيــا الى ان اكتشفت بحمام ابن برنو لوحــه مــن الرخــام مربعة منقوش عليهــا بخط اندلسى نص بنــاء هــذا المسجد وتاريخه وتفاصيل أخرى ما كنا نعرفها من قبل ٠

فاثبتت هذه اللوحة ان باني هذا الجــامع هــو المرينى أبــو الحسن على بن أبى سعيد ٠ وكــان ذلك فى عام ٧٤٢ هـ الموافق لسنة ١٣٤١ م (٣) ٠

وكــان السلطــان المرينى فى ذلك العهد يقــود جيوشه فى سلسلة من الفتوحات لتوسيع رقعة مملكته ولتحقيــق أغلى أحلامــه وهــو التحلى بلقب « أميــر المؤمنين » ٠

ويشهد التاريخ لرجال لهذه الدولة الفاسية فى ميــدان العمران بمــاخلد ذكــرهم ، فشغفوا بالبنــاء وخاصة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ٠

ويذكر أبو عبد الله بن مرزوق (٤) من بين مــآثر السلطان المرينى ومنجزاته بنــاء عدد مــن المســاجد بالغرب الجزائرى مثل مسجد العباد ، ومسجد هنين وتوسيع الجامع الكبير بالعاصمة ٠

وتثبت السطور الاهدائية فى الرخامــة النفيسة أن بنــاء مسجد مستغانم كــان مــن صنع ابى الحسن

ثم ان هذه الوثيقة المنقوشة ذات قيمــة اخبارية جدهامة اذ غفــل المؤرخون عــن تــاريخ تشييد هذا الجامع ، وعنايــة السلطان به ، كمــا يــدل على ذلك ما أوقفه من دكاكين وأفران وغــلال ينفق دخلها على الجامع فى سبيل الله ، وعلى من يعمل به ٠

وبما أنه لا يوجد بين أيدينا فى الــوقت الحالى نص يثبت بصفة قطعية تاريخ استيلاء بنى مريــن على مستغانم فان ما ورد فى هذه الرخامة يدل على الاقل أن المدينة كانت سنة ٧٤٢ هـ ١٣٤١ م تابعة (مؤقتــا) لدولة أبى الحسن على (٥) ٠



(2) RENE BASSET, Mélanges... P. 105.

(3) A. BEL, Inscriptions arabes de Fès P. 390

5) ولد بلتمسان سنة 710 هـ / 1310 م وتوفى بالقاهرة سنــة781 هـ ـ 1379 م ، وله كتاب سماه « المسند الصحيح » الأحسن فى مآثر مولانا أبى الحسن »

4) والغريب أن « السند » الذى عدد منجزاب السلطان فى جميع تنقلاته لم يشر قط الى حوادث مستغانم فى ايام ابى الحسن

صـورة الـوقف



صـورة الـوقف

نص الوقف :

الحمد لله رب العالمين والعــاقبة للمتقين (١) أمــر ببنــاء هذا الجــامع المبارك سيدنا ومولانا السلطان الاعدل عبد الله على امير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ابو الحسن بن مولانا امير المسلمين المجاهد فى سبيــل رب العالمين ابى سعيد بن مولانا امير المسلمين المجاهد فى سبيل رب العالمين ابى يوسف بن عبد الحق وصلى الله على نبيه وبلغه فى فعل الخير سعيه ومقصوده وجعل ملــوك الشرك خوله وعبيده وذلك فى عــام اثنين واربعين وسبع مــاية وحبس عليه خلد الله مفاخره وابد اثاره الكريمة ومآثره حانوتين ثنتين ·

بالسوق الكبير (٢) فتح باباهما قبلة وهما الملاصقتان لدار ابن أبى عروز وفرنيى اثنين احدهما ·

قبلى هذا الجامع المبارك والاخر عــن يمين الخارج من بــاب البلد وثلاث جرار من الزيت المستفاد ·

من العشر لتصرف غلات الربيع المذكور فى مرتب الامام الخطيب وقراة الحزب والموذنين والحصر بعد الروم والاصلاح ويصرف من الزيت المذكور فى الاستصباح ويتولى النظر فى ذلك وصرفه حيث ·

ذكر القاضى والخطيب معا وعشرة من اهل الخير نفعنا الله بذلك المقام العلى وضاعف اجره واطال عزه ·

---

1) قرآن كريم : 7 ، آية 127

2) لعله السوق الموجود بالنهج الممتد من الدائرة ـ اليوم ـ الى المسجد · ويسمى ايضا حارة الحمام حيث عثر عل اللوحة ·

في تاريخ جامع مستغانم العتيق

LA GRANDE MOSQUEE DE MOSTAGANEM : Historique.

Dans la rue du Beylik, le long de l'Aïn Sefra, un vaste édifice religieux occupe une superficie d'environ 12.000 m2. (1)

Cet édifice occupe soit le tout, soit une partie d'une ancienne Mosquée édifiée sous l'occupation de Tlemcen par les Mérinides. Le Minaret actuel est turc cependant.

René Basset attribue la fondation de la Grande Mosquée à Abû ' Inàn, (2) (fils et successeur d'Abû l-Hasan'Ali qui régna à Fès de 1348 à 1358).

Mais un jour, on découvrit dans le vieux bain de Benbernou, une dalle carrée portant, en caractère andalous, l'inscription avec indication de la date exacte de la fondation de l'édifice religieux.

C'est bien le Sultan mérinide Abû l-Hasan Ali ibn Abî Sa ' îd qui ordonna la construction de la Mosquée en 742 de l'H = 1341-42. (3)

Cette date nous rapporte au temps des grandes conquêtes de ce Sultan, à l'époque où il cherchait non seulement à étendre les limites de ses Etats mais aussi à prendre pour lui-même le titre éminent et combien envié de «Prince des Croyants» (Amir al Mu ' mi nîn).

Les Mérinides furent en effet de grands batisseurs, surtout dans la première moitié du XIV[e] siècle.

A l'actif du Sultan Abû l-Hasan Ali, ibn Marzûq (4) cite la construction de nombreuses mosquées, dont une à al ' Ubbâd, une autre à Hunaïn ainsi que l'agrandissement de la Grande Mosquée d'Alger.

La fondation de la Mosquée de Mostaganem, qui n'avait jamais été attribuée à Abû l-Hasan est pourtant bien établie par l'inscription dédicatoire suivie de la table des habous.

Ce document épigraphique de cette époque est très précieux pour l'histoire, car les chroniqueurs sont muets sur la construction de cette Mosquée Cathédrale.

La traduction de cette inscription s'impose. Nous l'empruntons à A. Bel (inscriptions arabes de Fès).

TRADUCTION

— Louange à Allah, Maître des Mondes ! "La fin heureuse est à ceux qui craignent (Dieu)" (5).

— L'ordre de construire cette Mosquée bénie a été donné par notre Seigneur et Maître, le Sultan très juste, le serviteur d'Allah, Ali, l'Emir des Musulmans, soldat de la guerre dans la voie du Maître des Mondes, Abû l-Hasan, fils de notre maître, l'Emir des Musulmans, guerrier dans la voie du Maître des Mondes, Abû Sa'id,

(1) Thireau, Mostaganem et ses environs P. 115.
(2) R. Basset, Mélanges... P. 105.
(3) A. Bel, Inscriptions arabes de Fès. P. 390.
(4) Abû'Abd Allah ibn Marzûq, né à Tlemcen en 1310-11 / =710-11 mort au Caire en 1379/781, auteur d'un "Musnad"
(5) Qur'àn, VII, 125.

fils de notre maître l'Emir des Musulmans, soldat de la guerre dans la voie du Maître des Mondes, Abû Yûsuf ibn'Abd al Haqq.

Qu'Allah répande ses Grâces sur son Prophète Muhammad ! qu'il mette l'acte de ce souverain au nombre des bonnes actions, fasse atteindre à ce monarque le but qu'il s'est proposé ! qu'il place les rois chrétiens parmi ses biens et en fasse ses esclaves !

Ceci eut lieu en l'an 742 (1340-1341). (Le fondateur) a établi en habous pour l'entretien de cette Mosquée - qu'Allah perpétue ses glorieux mérites conservés par les nobles pages de son histoire et les monuments qu'il a laissés ! :

1) Deux boutiques sises au souq principal (essûq al Kabîr) (6) ouvrant tous deux dans la direction de la qibla et contigües à la maison d'ibn Abî'Azzûz.

2) Deux fours (à pain) dont l'un est au Sud de cette Mosquée bénie et l'autre à droite en sortant par la porte de la ville (7).

3) Trois jarres de l'huile retirée de la dîme.

Les revenus des immeubles ci-dessus seront employés au traitement de l'Imam et Hatîb de cette Mosquée, des lecteurs du hizb quotidien, à celui des Muezzins et à l'achat des nattes après (avoir prélevé le nécessaire) pour l'entretien et les réparations. Quant à l'huile ci-dessus mentionnée, elle sera employée dans les lampes (de la Mosquée).

Le contrôle de ces dépenses et leur emploi comme il a été dit sont attribués au qadi et au Hatîb ensemble, ainsi qu'à dix personnes (choisies) parmi les meilleures (de la ville).

Qu'Allah rende profitable (les actions de) ce noble souverain qu'il augmente la récompense (qu'il lui réserve) et étende sa puissance !

A défaut d'un texte historique précis sur la prise de Mostaganem par le Mérinide, l'inscription de la Mosquée indique ,tout au moins, qu'en 742 de l'H/ = 1341-42 la ville faisait partie des Etats de Abû l-Hasan Ali (8).

---

(6) Peut-être le soûq de la rue en pente dirigée à peu près d'Ouest en Est et qui part de la Daïra pour aboutir près de la Mosquée à sa partie basse. On l'appelle encore Harat al Hammam, à cause du bain maure qui se trouve dans le bas, non loin de la Mosquée et dans lequel a été trouvée cette inscription.

Il s'agit peut-être du nom de l'une des portes de la Mosquée, celle qui donnait du côté de la rue principale conduisant en ville.

(8) Dans le "Musnad" il n'y a aucune mention de la Mosquée de Mostaganem. Est-ce une omission ou un manque d'information ?



يقظة العالم الإسلامي اليوم ونهضته غدًا

وَدَور الإسلام الفعّال فيهما أمام تحديات العصر وَمختلف أنواع الغزو والإستلاب

عبد الله ولد بوية
وزير العدل
بالجمهورية الإسلامية الموريطانية

اود قبل كل شيء أن احيى باسم حزب الشعب الموريتانى وحكومته الشعب الجزائرى الثائر وقادته وان اهنئهم بالانجازات الكبرى التى تعتبر بحق مفخرة ومثالا يحتذى واتمنى لهم التوفيق ولمسيرتهم الظافرة الاستمرار كما أود ان اشكر اخى الفاضل معالى مولود قاسم على الفرصة التى أتاحها لى لحضور هذا الملتقى حول الفكر الاسلامى الذى سنته وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينية فى الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية سنة نرجو أن يقتدى بها فى أقطار أخرى من العالم الاسلامى حتى يعم الانتفاع بهذه التجربة الرائدة فى ميدان توجيه الشباب وتعريفه بحضارته الاسلامية العظيمة ٠

واود ايضا ان اقول ان حرصى على الحضــور شخصيا لا يعنى ابدا اننى ادعى لنفسى مقام المحاضر او اهفو الى كرسى الاستاذية لأقدم لهذا المـلأ الجليل نظريات جديدة ومعلومات نادرة بل انى اردت فقط أن استفيد شخصيــا مــن البحــوث والدراسات المفيــدة الخصبة التى ستكون ثراء فى موضوع له أهميته فى حياة الأمــة الاسلامية العمليــة وكذلك لاستفيد مــن اسلوب نظام هذا الملتقى من جهة ، ومــن جهة أخرى لتبــادل وجهة النظر حــول بعض المواضيع مــع أخى مولود قاسم الذى اتمنى له كل نجاح وتوفيق ·

ان الموضوع الذى ساحاول أن اقدم فيه مساهمة متواضعة هو « يقظة العالم الاسلامى اليــوم ونهضته غدا ودور الاسلام الفعال فيهما أمام تحديات العصر ومختلف انــواع الغزو والاستلاب » وكمــا ترون فهو موضوع مترامى الأطراف متسع الارجــاء كاتســاع رقعة العالمالاسلامى · وفى رأيى أن دراسته تقتضى منا أن نقسمه الى اقسام لنتمكن من القاء الضوء على جوانبه المختلفة باختصار ·

ولذلك استعرض بصفــة موجزة مــا قبــل هذه اليقظة ثم ننتهى الى اليقظة ومميزاتها والشروط التى يلزم أن تتوافر لتكون نهضة الغد قــائمة على اســاس صحيح ملمعيــن فى نفس الــوقت الى التحديات التى تقف فى وجه النهضة ودور الاسلام ومكانتــه فى هذه المراحل المختلفة ·

ان ملاحظة تفرض نفسها وأريد أن اقدمها بيــن يدى هذا المقــال حتى لا اتحمــل مسؤولية الحكــم فى موضوع لا يمكــن الضغط عليــه ولا الاحاطــة بكــل جوانبه · مــن المعلوم أن تطبيق النظريات الرياضيــة على الظواهر الاجتماعيــة والتنبأ عــن سير الحركــة الاقتصادية وعلاقــة الانتــاج بــالسكان اصبح امــرا ميسورا ·

الا انه عندما نحاول اصدار حكم على العــالم الاسلامى ككل وخصوصا عندمــا نــريد أن نتنبأ عــن مستقبل نهضتــه تصبح النظريات الرياضية وقــواعد الاستقراء تقريبا عديمة الجدوى وتصبح لغــة الأرقام والمعادلات غير معبرة ·

ان أى نظريــة تحقق نوعــا من الحكم التقريبى كنظرية الاحتمال مثلا يصعب تطبيقها لرسم خط تقريبى لسير العالم الاسلامى ، ان عمليــة انتقــاء العينــات لتكون اساسا لاصدار قرار على مجتمع ما من الصعب الاعتماد عليها فى هذا الموضوع لأننا أمــام مجتمعات متعددة والعينات التى نأخذها قد لا تكون دقيقــة لأنها غير ممثلــة تمثيلا صحيحــا كمــا أن عــوامل التحيز شخصية أو مكانيــة أو زمانية لهــا دورها فى التأثير على القرار ·

اذا كل الذى اريد أن اقوله هــو أنى لا أستطيع اصدار حكم قاطع على العالم الاسلامى ككل كما أنى لا يمكن أن اتنبأ عــن مستقبل نهضته كمــا يتنبأ عــن الانواء وحــالات الجــو لعدم وجــود معطيات أكيــدة وخصوصا لعدم وجود العينات التى تمثله ككل تمثيلا دقيقــا ·

اخوانى الأفاضل :

بعد هذه الملاحظة وطبقا لطريقة عرض الموضوع التى أعلنت عنها قبل قليل ، فلنلق نظرة عابرة على ما سبق اليقظة الحديثة للعالم الاسلامى مكتفين بالاشارة والالماع بــدون التعرض للتفاصيل ولا للاستدلال اذ أن المقام لا يتسع لأكثر مــن مقدمة بسيطــة للموضوع الذى نحن بصدد معالجته ·

ان العالم الاسلامى اخذ شكله الجغرافى الحالى تقريبا فى القرن الأول بمعنى ان هذه الرقعة فى آسيا وافريقيا شملها الاسلام فى ذلك الوقت واقــول تقريبا

لأن اندونيسيا وبعض النواحى الافريقية لم يصل اليها الاسلام الا فى فترات متأخرة ·

بدأ هذا الدين من جزيرة العرب فغير مجرى تاريخ البشرية التى انحرفت فى ذلك العصر عن الطريق السوى وضيعت الامانه ولم تقم بأعباء الخلافة فى الأرض فأذن الله بقيام الامة الوسط التى عهد اليها بقيادة البشرية « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » ·

وهكذا كانت بعثة النبى (ص) فاتحة ذلك العهد الجديد بعد أن بلغت الجهالة أوجها وسادت الخرافات وعبادة الحجارة وغيرها حيث أصبح لكل قبيلة رب · مما عبر عنه الشاعر بقوله :

أربا واحدا أم ألف رب
أدين اذا تقسمت الشؤون
فلا العزى أدين ولا ابنتيها
ولا صنمى بنى طسم أدين

وتبعا لهذه الحالة فان الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية كانت متردية الى اقصى حد فعمليات النهب والسلب كانت قانون العرب ·

ولم تكن الحالة مرضية فى الامبراطورية الفارسية التى تقع على الحدود الشرقية للعرب فالتعاليم المانية والمزدكية لم تعد صالحة ، والفلاحون يعيشون ظروفا قاسية والاغتيال للاستيلاء على العرش أصبح سنة والحرب مع المملكة البزنطية لا يطفأ اوارها حتى تشب من جديد ولم تكن هذه المملكة البزنطية التى تقع على الحدود الشمالية العربية بأحسن حظا · فالامبراطور هو كل شىء والديانة المسيحية قد حرفت وأصبحت وسيلة لتكديس الثروة فى أيدى رجال الكنيسة ·

وباختصار فان الامبراطوريتين خرجتا نتيجة لتلك الحروب والأوضاع الداخلية المتردية منهوكتى القوى تجران أذيال الدمار وتلوحان باعلام الفناء · حتى أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله · فدعى الناس كافة الى الاستسلام لله وحده وليكونوا أمة واحدة فقام معه أولئك الذين وفقهم الله لفهم هذه الدعوة ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور أو « من السرداب المظلم الى فسيح من الأرض » على حد تعبير المستشرق الانجليزى اللورد هيدلى الذى وصف بذلك حالته عندما خرج من ديانة قومه ودخل فى الدين الاسلامى ·

وهكذا اذنت العناية الالهية بظهور عهد جديد قوامه العدل والأخوة الانسانية والمساواة والشورى وقاعدته الايمان بالله الواحد الأحد ورفض الخرافات مهما كان نوعها وأيا ما كان مصدرها ·

أسوق هنا كمثال بسيط كسوف الشمس فى عهد النبى (ص) يوم وفاة ولده ابراهيم فيقول الناس انما خسفت بوفاته فيصعد الرسول على المنبر لينفى نفيا قاطعا مثل هذه الخرافة قائلا ان الشمس والقمر أيتان من ايات الله لايخفان لموت أحد ولا لحياته ·

انها حياة جديدة من الجد والاجتهاد ، لا تعرف الملل ولا تخضع أمام العقبات ، كانت حياة الرسول وخلفاؤه مثالا يحتذى وقدوة لا يوجد له نظير ، ان حياة النبى صلى الله عليه وسلم كانت كلها هدى ونورا وعبرة لأولى الالباب ·

فماذا يمكن أن أقول عنها ، ولكنى سأترك كاتبا غربيا هو كارلايل توماسى الانجليزى فى القرن التاسع عشر يتكلم عنها فى كتابه الأبطال « انه من الخطأ أن نعد محمدا رجلا كاذبا متصنعا متذرعا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع وما الرسالة التى اداها الا الصدق والحق وما كلمته الا صوت حق صادق صادر من العالم المجهول ، وما هو الا شهاب

أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء :

أحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى لا يعتمد الا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يكن متكبرا ولا ذليلا فى ثوبه المرقع كما أوجده الله يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم يرشدهم لما يجب عليهم لهذه الحياة والحياة الآخرة ، تلك نبذة مما قال وقاله كتاب آخرون منصفون .

وأما أصحابه فكما وصفهم أحدهم كانوا على قلب رجل واحد ، ويكفى أن نتعرض لميدان الرئاسة أو الخلافة قد كانوا يعتبرونها عبئا جليلا من حمله على كاهله يصبح هو نفسه تجسيما للمسؤولية يسهر على أحوال الرعية من أدناها الى أعلاها فالخليفة الذى يعين عن طريق الشورى يلزم نفسه بهذه الشورى ، فالاجتماعات تلو الأخرى لمناقشة المسائل المختلفة من قتال أهل الردة أو الثوار الذين يهددون وجود الدولة الى مشاكل توزيع أرض العراق وكل ذلك يقع البت فيه علنا وبمرءى ومسمع من الأمة الاسلامية بعد مناقشات تصل الى الحدة فى بعض الأحيان كما وقع بين الخليفة عمر وبلال فى مسألة أراضى العراق مما لا مجال لذكره هنا .

مصلحة الأمة أصبحت فوق كل الاعتبارات فالدولة تتوسع رقعتها والادارة تنظم والأموال توزع بعدالة والولاة يراقبون مراقبة شديدة وأحوال الرعية تقع متابعتها بدون تراخ فلو قتل ذيب شاة فى أقصى المملكة لكان الخليفة مسؤولا على حد تعبير الخليفة عمر .

ان الروح الجماعية كانت من الظواهر الواضحة فى أيام حكم الخلفاء ، ولكن بعد ثلاثين سنة يتغير الحكم ويصبح حكم الشورى أو ما سميناه بالحكم الجماعى حكما ملكيا فرديا وارثيا أو على حد تعبير الحديث الشريف « ملكا عضوضا »واختفت الأمة ولم تعد للشعب الاسلامى كلمة فى أخذ القرارات كما كان فى عهد الراشدين .

لا أريد أن أتحدث عن حقب التاريخ المتتالية الى عصور الانحطاط الا بقدر ما نشير بعلاقتها بالعصر الذى نعيشه فقط .

أقول ان انحرافا عن الطريق للعصر الأول قد طرأ مما يشكل بداية نظام لا يتلاءم مع روحانية الاسلام ومثاليته .

الا ان انطلاقة الاسلام لم تتوقف وامتداده لم يتعطل ، والحركة العملية التى مهد لها الاسلام استمرت وساد العمران فى انحاء المملكة الاسلامية التى ظلت رقعتها تتسع يوما بعد يوم وتستقطب شعوبا جديدة أضناها الظلم واضاعها الفساد لتجد فى احضان الدين الجديد طلاق سراحها وصلاح احوالها ومتنفس احزانها وانطلاق قواها الخلاقة ، الا أن الانحراف عن الروح الاسلامية ظل يطبع خط سير المجتمع واصبحت الهوة تزداد مع الايام عمقا بين سلوك الأمة وتعاليم الاسلام وبالتالى انحسرت الروح الاسلامية الحقة من حياة الدولة لتصبح قضية شخصية وسلوكا فرديا وبالتالى مسألة ضميرية وفرضت على الاسلام عزلة عن الحياة العملية اليومية غيرت طبيعته وانحرفت عن رسالته وردته الى ابعاد غير ابعاده الحقيقة ــ فتكونت فى المجتمع طوائف وطبقات ونشأ تصوف ورهبانية بجانب القصور والملاهى فلا أولئك استطاعوا اصلاح المجتمع ولا هؤلاء قدروا على قيادته فخوت النفوس من الايمان و « لم يبق من الاسلام الا اسمه ومن القرآن الا رسمه » ونتيجة لهذه الاوضاع الفاسدة استفحل الداء وعز الدواء ووطئت الارض الاسلامية الطاهرة سنابك

خيول العدو فمن حملات الصليبيين الى غزو التتار الى سقوط الاندلس الى آخر تلك الاحداث المؤسفة التى فتحت ثغرة خطيرة من القلعة الاسلامية ايذانا بغزوها واحتلالها .

كما حذرنا منه نبينا حيث نهانا عن ترك الجهاد وأوعدنا ان نحن تركنا بان العدو سيطأ ارضنا وستغزونا فى عقر دارنا وهذا هو تأويل الآية الكريمة يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، والآية الأخرى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، وهذه هى نظرية القوة الرادعة والحرب من أجل السلام ، الى أن وصلت هذه الاحداث المؤسفة الى اوجها باحتلال الاقطار الاسلامية قطرا قطرا بدون ان ترفع الاقطار المجاورة رأسا أو تعد للحرب عدة رامية عرض الحائط بكل الأوامر السماوية التى توجب الجهاد اذا اصبح أى بلد اسلامى مهددا فى أمنه أو متعديا على حرماته .

وهكذا نزل بالأمة الاسلامية فى مشارق الارض ومغاربها حادث الاستعمار الذى هو فى جوهره ليس الا امتداد لحرب صليبية أعدت لها العدة منذ أجيال وتوارثها الابناء عن الاجداد تلك الحرب التى شنها عدو يتربص بنا الدوائر يعرف كيف ينتهز الفرص وكيف يستغل علمنا ضدنا وكذلك كيف يستغل خطانا ويفرق كلمتنا وكانت خاتمة مطاف كيده ومؤامرته انشاء دولة يهودية فى أكبر قلعة من قلاع الاسلام وفى جزء مقدس من ارضه فى الشام وبالذات فى القدس الشريف ، لتحقق مالم يستطع الغزو الصليبى تحقيقه .

وفى هذه الاوضاع الحائرة اليائسة وأمام امتهان الكرامة وانواع وسائل الضغط واذابة الشخصية وطمس معالمها التاريخية بدات الحياة تدب فى جسم الأمة الاسلامية الخائر الذى أنهكه المرض وأضناه الاعياء وخانته أطرافه المشلولة وقوة الضربات التى سددت اليه فلم يكد يفيق من ضربة الا سددت اليه أخرى ، الا أن القوة الذاتية للاسلام كانت أقوى من كل الضربات واقدر من كل النكبات وكانت حدها كفيلة رغم العقبات والصعاب باعادة الشباب الى العالم الاسلامى .

فقامت الانتفاضات والكوارث فى كل مكان وتحركت الهمم وثارت العزائم ، ولقد كان المسلمون فى بداية عصر الاستعمار مثل جيش فقد قادته واختل نظامه فاصبح كل فرد يقاتل لينجو بنفسه ويسير فى غير اتجاه فقد سدت عليه الابواب وأفقدته المفاجأة صوابه .

الا اننا فى عصر اليقظة نشاهد هذا الجيش ينظم وحداته وتقوم كل خلية منه بتنظيم نفسها وتعود اليها معنوياتها وفعلا فقد تحركت هذه الخلايا من جبال الهملايا الى جبال الاطلس ومن جبال باريزان فى اندونوسيا الى جبال الفوتاحل فى غينيا ، ان أصداء الدعوة الى الجهاد او الاصلاح اذا رددها جمال الدين الافغانى والدكتور اقبال والشيخ محمد عبده وابن باديس يتجاوب معها العالم الاسلامى فى كل مكان وتنطلق التحذيرات على كل لسان فيقول الشيخ سيد محمد بن الشيخ سيديا منذ ٨٠ سنة من موريتانيا فى قصيدة له يحذر فيها من الاستعمار والويلات التى تنجر عنه :

حماة الدين ان الدين صارا
اسير للصوص وللنصارى
فان بادرتموه تداركوه
والا يسبق السيف البدارا

ان عهدا جديدا قد بدأ لا محالة وان ريحا جديدة قد هبت ، ان هذا الوعى وهذه الحركة تتفاوت من بقعة لاخرى ومن قطر لآخر بناء على معطيات تاريخية واجتماعية لا سبيل لسردها فى هذا المكان ولذلك فقد

ثبت فى أول حديثى الى أن عدم التجانس فى العينات يجعل من الصعب تعميم حكم على العالم الاسلامى الا أن هناك قاسما مشتركا بين كل هذه التحركات ، هو الشعور بالذات أى اليقظة وانطلاقا منه ميلاد الروح المعنوية الجماعية أو روح الفريق ولقد كان الاسلام حتما وراء هذه الروح .

ان الروح الجماعية لها أهميتها ودورها فى تغيير أية أوضاع كما يقوله علماء الاجتماع فيقول « كانت » : ان هذه الروح تتعلق بعاملين رئيسيين : وجود هدف مشترك لأفراد الجماعة ، ووجود خطة مقبولة اجتماعيا لتحقيق الهدف .

ويرى البورت أنه يجب توافر بعض العناصر ، بأن يكون للفرد قيم ومعتقدات راسخة تجعل حياته ذات غاية وذات قيمة مما يوفر لديه الطاقة والثقة لمواجهة المستقبل ، ان يكون مدركا لوظيفة معينة ينبغى أن ينجزها ليدافع عن القيم التى يؤمن بها ، وينبغى أن تكون قيمه متفقة بصفة رئيسية مع قيم الجماعة التى ينتمى اليها الى آخر الاراء المعروفة لديكم ، الا أنى اسمح لنفسى أن أقول ان الروح المعنوية الجماعية كما أراها ــ هى حالة نفسية تجعل المرء يتجاوز الأنا حتى لايرى الا المثل العليا وحينئذ فهو يتمثل نفسه فى الجماعة التى تؤمن بمثل مبادئه وتسهل عليه التضحية لتحقيق مثلها ومبادئها .

وان هذه الروح المعنوية الجماعية تميز أساسا هذه اليقظة الجديدة لدى العالم الاسلامى ولذا كنت أريد أن أعطى مثالا فانى أريد أن أقارن بين شيئين اذ أنه بذكر الأشياء تتبين اضدادها ، انه فى عصور الانحطاط كانت الثورات والانتقاضات يقوم عليها رجال أفراد مهما بلغ حسن نيتهم فانه لا يمكنهم أن يسدوا الفراغ الكبير الذى هو روح الجماعة ، أما فى عصر اليقظة الحديثة فالذى ضمن لهذه الثورات النجاح هو روح الجماعة اذ أنها لم تعد ثورة الامير عبد القادر ولا ثورة المقرانى ولا أولاد سيدى الشيخ انها ثورة الجميع ثورة الشعب الجزائرى ، فالروح المعنوية لعبد القادر أصبحت تتمثل فى كل فرد وبالتالى فان اللااسمية واللاشخصية لهذه الثورة ، وتجاوز الانا جعلها تنجح لا محالة وهذه النتيجة العكسية التى لم يكن الاستعمار ينتظرها اذ أنه بقدر ما يحاول فرض شخصيته تتحرك الشخصية الوطنية بقوتها الذاتية كرد فعل وتنمو الروح المعنوية الجماعية .

ان مقومات هذه الروح لا يمكن أن تعزل عن الاسلام ، وانى هنا لا أريد أن أنكر وجود ثورة عالمية وحركة تحرر عالمية بدأت تنمو من بداية هذا القرن فى شتى بقاع المعمورة ، الا أنه من المكابرة والعناد وعدم الواقعية أن ننكر دور الاسلام بالنسبة للحركة التحريرية فى الاقطار الاسلامية وأن المثل والمبادىء التى المعنا الى وجوب توفرها لقيام روح معنوية جماعية تجعل الفرد يضحى بنفسه فى سبيلها هى مثل اسلامية بمعنى أن المقاتلين كانوا يضحون لتبقى شخصيتهم الحضارية فى الوقت الذى تهدد فيه من طرف شخصية أخرى .

ومادمنا فى الجزائر فان المثال غير بعيد ويكفينا أن نقول مع ابن باديس .

شعب الجزائر مسلم
والى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قال مات فقد كذب

لنعرف مدى عمق الفكرة الاسلامية فى الثورة وأن الصراع هو صراع بين الشخصية الاصلية والشخصية الغريبة التى تريد ابتلاعها واذابتها وانه بقدر ما تتقوى الروح المعنوية الجماعية تصبح الشخصية الاصلية قادرة على الدفاع عن نفسها

ومستعدة لخوض معركة المصير .

اذا فان رد الفعل وميلاد الروح الجماعية هو أعظم حدث اجتماعي صبغ حركة الأمة الاسلامية في عصر اليقظة ، ان هذه اليقظة أدت الى رحيل الاستعمار عن كثير من الاقطار الاسلامية والى زوال وجوده المادي وانسحاب جيوشه الى مواقع أخرى ، الا أن التحديات لاتزال كبيرة وبقدر ما تستطيع الأمة الاسلامية مواجهتها بقدر ما تضمن قيام نهضة الغد على أسس صحيحة ومضمونة خالية من الارتجال والخطوات الخاطئة والالهلاع كما كان عاملا حاسما في نمو الروح المعنوية وميلاد اليقظة أمام تحديات الاذابة والابادة فانه سيظل عاملا أساسيا في تحقيق نهضة الغد حيث يجتاز العالم الاسلامي مراحل دقيقة في وقت بلغت فيه السرعة والحركة أو سرعة الحركة أوجها واحتد فيه السباق في الميدان الاقتصادي بالذات وفي ميدان التكنولوجيا والعلوم الا أن القواعد التي تحكم هذا السباق ليست دائما أخلاقية وليست دائما خالية من نزعة السيطرة والهيمنة الانانية حتى ولو كان ذلك على حساب الشعوب الاخرى التي تئن تحت وطأة الفقر وفي بعض الحالات تحت وطأة الحرب والدمار بأحدث مخترعات العلم ، ان هذا يبرهن لنا أن هذه الحركة الظاهرة يتستر وراءها جمودا فكريا متحجرا ، وان هذا الربيع المشرق يجري على أذياله شتاء سبيريا قارصا لايعرف دفء العواطف النبيلة الا بقدر ما يتلاعب بهذه العواطف لتحقيق مطامعه ومخططاته ، اذا فالتحديات خطيرة فنحن أمام السرعة والسباق ونحن متخلفون فعلينا أن نلحق بالركب وبالتكنولوجيا الحديثة في أسرع وقت فالثواني تعد علينا وأمام اللا اخلاقية التي لم يزل يبرهن عنها الطرف الآخر في حلبة السباق الذي لايحترم قواعد اللعب الا بقدر ما هي في مصلحته والذي لا يتورع عن استعمال القوة جهرا وعن استعمال أخبث المؤامرات والدسائس سرا ليفرض علينا موتا بطيئا وليجعلنا في حالة مزرية حالة انسان من الدرجة الثانية أو الثالثة كتلك الخرافات التي يروجونها في جنوب افريقيا .

وأخيرا فاننا أمام برد سبيريا القارص وثلوجها وعواصفها الهوجاء فعلينا أن نتحصن بالمعاطف ونعتقل بالملاجيء حتى لاتجتاحنا الاديولوجيات الغازية ونصبح ريشة في مهب رياح الشرق وأعاصير الغرب .

ان دور الاسلام والمسلمين في هذه المرحلة خطير ، ان الاسلام هو الروح المعنوية وهو الايمان وهو المثل العليا التي ولدت في ظلالها اليقظة التي حفزت المجاهدين الى التضحية ويجب أن تظل الحافز القوي والعامل الأكيد في مرحلة البناء وفي مواجهة التحديات الجديدة .

اننا نجد في الاسلام الصحيح ما يدعونا للعمل ويحرضنا على العلم ان لم يكن بين الاسلام الصحيح والعلم في يوم من الأيام خلاف أو خصومة كما يحلولخصوم الاسلام أن يوهمونا ، قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، فهو يحثنا على التدبر وكشف نواميس الكون ومافيه من عجائب وغرائب .

وما ورد في الاحاديث الشريفة من فضل العلم وما ذكره العلماء في تفضيله على العبادة وقد اعترف بهذا الأوروبيون المنصفون أنفسهم فيقول بول كازانوف المستشرق الفرنسي والأستاذ في كلية فرنسا بباريس : (يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا ، يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة) .

فأى رئيس دينى كبير وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجراة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المتين ، الى آخره ٠

ومن المعلوم لديكم أن الحضارة الاسلامية أسهمت اسهاما كبيرا فى ميلاد الحضارة الفنية الجديدة وليس هذا مكان سرد آثار العلماء المسلمين فى الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية فهذا شىء مفروغ منه ، المهم ان الرجوع لهذه المنابع الاصلية والاسلام الصحيح يمكن أن يكون حافزا للعمل وعاملا فى ظهور عبقريتنا ونبوغنا من جديد ، وأن نحاول ادخال روح جديدة على مفاهيم هذه الحضارة التى وصفتها آنفا باللاأخلاقية فالدين الاسلامى هو بكل جدارة دين الاخلاق ، والحديث الشريف يقول : (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق) ان قانون الغاب ومؤامرات الكبار أو مؤتمرات الكبار ونهب ثروات العالم الثالث ومعاملته معاملة جائرة كلها ادلة على نوع أخلاق الانسان الأعلى أو السبيرمان حسب تعبير نيتشه ٠

ولكن كيف نغير هذه المفاهيم ونحن نمثل الضعف والفوضى ونشكل سوقا لا تباع فيها المنتجات ما يسمى بالدول الصناعية فقط ولكن تباع فيها كذلك الايديولوجيات والأفكار التافهة والموضات الجديدة ٠

انه يجب علينا فى هذا الميدان أيضا أن نحصن شبابنا بتقديم الغذاء الثقافى الأصيل لشباب نهم يبحث عن المعرفة وعن الافكار والنظريات العملية ٠

علينا أن نكون على مستوى التحديات بالرجوع الى المنابع الأصلية للاسلام ، وعلينا أن نخلص عقلياتنا مما علق بها طيلة عصور الانحطاط حتى نظهر الاسلام فى أثوابه القشيبة كوسيلة للتقدم وداع الى الهدى والنور ومنقذ من الجهل ومخلص من التخلف المادى والفكرى ومعبىء لقوى الامة لتصل الى أهدافها الكبرى ، وفعلا فقد كان الاسلام فى العصر الذهبى أكبر وسيلة للتعبئة وداع للحياة فالله سبحانه وتعالى يقول : (يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم) ٠

والتعبئة فى ميدان الجهاد قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة الآية ، (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم) ، ولقد طبقت هذه الأوامر عملا فى حياة الامة الاسلامية فينهض الصحابة فى حملة لمحو الأمية يتعلمون من أسارى الحرب ، ولقد كان النساء يشاركن فى الاعمال بجانب الرجال ففضلا عن النساء المجاهدات كنسيبة وخولة يحدثنا الحافظ ابو عمر بن عبد البر فى كتابه الاستيعاب عن ممرضات يصحبن النبى فى حملاته لمداواة المرضى ومعالجة الجرحى ويسمى أسماء بعضهن كليلى الغفارية وأم عطية الانصارية ، ويقول بالحرف الواحد عن هذه الأخيرة ، « كانت من كبار نساء الصحابة وكانت تغزو كثيرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تمرض المرضى وتداوى الجرحى) ٠

ان مهمة استرجاع الماضى صعبة ولكن بدونها لاتمكن مواجهة التحديات الآنفة الذكر عن طريق الاسلام وسيكون مصير العالم الاسلامى الانحلال والتقليد والسقوط فى أحضان أية دعوة ــ وبالتالى فان تطوره اذا كتب له التطور سيكون عن طريق غير اسلامية وانطلاقا من ذلك سيفقد شخصيته الحضارية الى الابد وسيقطع حاضره ومستقبله من ماضيه وعليه أن يبدأ من الصفر ليجد مثلا ومبادىء جديدة ولن يجدها الا فى احضان المشبوهين وانه بذلك سيفقد عنصر وحدة قوى هو العنصر الأساسى الثقافى المشترك الذى يربط العالم الاسلام برباط واحد فى وقت يحاول فيه الآخرون التكتل ويبحثون عن وسائل التجمع ٠

نحن اذا على مفترق الطرق ، والاختيار واضح فعلينا أن نحمل رسالتنا التاريخية بالعودة الى المنابع الأصلية للاسلام فى الوقت الذى نرفض فيه تطورا ليس عن طريق الاسلام ونرفض التحجر والجمود الفكرى الموروث عن عهد الانحطاط ، بقدر ما نرفض الانصياع للاديولوجيات الدخيلة الغربية التى تحاول أن تدخل من النافذة بعد أن خرج الاستعمار من الباب فاذا كانت الأصالة والرجوع الى المنابع هما الحل الذى يجب أن نتوخاه ونجعل مساعينا تندرج فى اطاره فان الطريق اليهما غير واضح المعالم ومحفوفة بالاشواك والمخاطر وذلك لأسباب عديدة مختلفة بطبيعتها الا انها كلها تئول الى نتيجة واحدة هى ابقاء العالم الاسلامى فى وضع مزر متخلفا اقتصاديا واجتماعيا وفكريا وثقافيا .

١) فمن هذه الأسباب التحجر الفكرى والجمود العقلى الذى كان وليدا للأوضاع والعقليات التى كانت سائدة فى عصور الانحطاط الامر الذى حجب الرؤية الصحيحة للاسلام وابعد المسلمين عن مفاهيمه الحقيقية .

٢) حملات التشكيك فى صلاحية الاسلام وثقافته للبقاء والتطور ولمسايرة روح العصر التى يقوم بها ويغذيها أعداء الاسلام من الغربيين وتلاميذهم من الذين يصبحون من غير وعى ببغاوات تردد اقوال الآخرين وأدوات لترجيع أصداء تلك الاراء المشبوهة باسم التمدن والتقدم وهم بذلك انما يرددون مع الاستعمار بيد أن الاسلام كنظام غير صالح لهذا العصر .

٣) مصالح القوى الدولية الطامعة التى لن تدخروسعا فى اعاقة نهضة العالم الاسلامى .

٤) ان الذين يطالبون بالرجوع الى المنابع الاصلية كانوا قلة وقد كانوا يلاقون فى عصور الانحطاط كثيرا من الصعوبات من طرف أولئك الذين يريدون المحافظة على مصالحهم الخاصة تحت ستار الدين مما جعل دعوة المصلحين تخرج مشوهة وتستدرج الى ذلك النوع من الجدل المقيم الذى اضاع وقتا كبيرا على المسلمين ذلك لأنه لايمت للواقع العملى بصلة وبالتالى لايمت للاسلام لأن الاسلام قبل كل شىء عملى ودعوة الى العمل أمام كل هذا فان الدعوة يجب أن تكون شاملة بحيث تشمل كل قطاعات الحياة ويجب أن تكون قوية بمعنى انها تستمد جذورها من قوة الايمان وحيوية الشباب الاسلامى الطالع ، وانه لمما يبشر بالخير ان تباشير هذا الفجر بدأت تظهر للوجود مع تبنى بعض الدول الاسلامية لاتجاهات ومفاهيم اسلامية صحيحة تتصف بالشمول وبالتجديد .

ان مفهوم الأصالة هنا فى الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية الشقيقة والذى يعنى على حد ما افهمه الرجوع الى ما هو أصيل والتخلص من الدخيل ومن مظاهر التخلف الذى فرضه عهد الاستعمار البائد فى مختلف اشكاله هو ما نسميه فى الجمهورية الاسلامية الموريتانية استعادة الشخصية الموريتانية الذى يعنى حسب مفهوم حزب الشعب الموريتانى استرجاع الشخصية الكاملة للشعب الموريتانى الذى سلبه الاستعمار شخصيته فى جميع الميادين وفى مختلف المجالات فعلينا أن نسترجع شخصيتنا الثقافية والاقتصادية والسياسية ولقد اعطى البيان الأخير للمكتب السياسى بعدا جديدا لهذا المفهوم حيث أصبح يغطى علاقات موريتانيا مع الدول الاجنبية . فاسترجاع الشخصية الموريتانية بهذا المعنى يقتضى أن تكون علاقاتنا مع هذه القوى على قدم المساواة والا يكون هناك أى مجال للاستغلال والاستعلاء الذى من شانه أن يجعل سياستنا ناقصة وبالتالى ابقاءنا فى

وضعمستخلف يضمـن مصالح القـوى الأجنبية الى وقت غيـر محدود · ان مفهوم الشمول كـان واضحا فى تحرك حزب الشعب فلقد أعلـن أننـا نريد تكويـن شبـاب يستمد قيمه مـن القيم الاسلامية الصحيحة ، كـل هذه الحركات وبالذات هذه العينات مـن العالم الاسلامى تبشر ببداية عهد جديد يتسم كما ذكرت آنفا بالشمول وبالعمق وبالأصالة وبالوعى ، ومهما يكـن من أمر فـان العـالم الاسلامى بملايينـه الثمانمائـة وبموقعه الجغرافى الممتاز فى القارات الثلاث : آسيا وافريقيـا ، وأوروبـا ، ويتحكم فى طـرق المواصلات وثرواته الهائلة التى تخبؤها اراضيه البكرة وثقافته العريقة وماضيه المجيد يملك كل مقومات النهضة ·

ايها الاخوان · ·

ان الدلائل تشير على ان العالم الاسلامى يسير فى طريقه الى نهضة رغم النكسات وتعرج خط سيره والعقبات التى ستظل توضع فى طريقـه ، واذا كـان الشمول يجب أن يكون منطلقا فـان عملا محددا يجب أن نقوم به ·

١) على العـالم الاسلامى ان يصنع نفسه حتى يكون استقلاله صحيحـا واستعادة شخصيته كـاملة وبالتالى يستولى على امكانياته الاقتصادية ليستخدمها فى مصالحـه ويغير الانطبـاع الذى اراد الاستعمار والامبريالية ان يلصقاه به وهو أنه وجد ليكون سوقا للمنتجات ، ومصدرا للمواد الخـام وليس مـن قبيل الصدف أن أقرن فى هذه المحاضرة بين سوق البضائع وسـوق الاديولوجيات لأن جودة الانتـاج قد تـؤخذ كمثال حى على صلاحية الاديولوجية ·

٢) ان استقلالا ثقافيا وفكريـا يجب أن يكـون « أولى الأولويـات » حسب العبـارة المصطلح عليهـا عندنا وفى هـذا المجـال بالذات يقرر مصير العـالم الاسلامى هل سنرضى لشبابنا أن يظـل يرجع أصداء ماركس ولينين وغير ذلك من الدعوات التى لـم تعـد ترضى المجتمعات التى ولدت فيها فضلا عن مجتمعات لاصلة لها بها حضاريا بدون أن يكون له رأى ولا فكر منزوع السلاح ·

انها مهمة عاجلة تتمثل فى تغيير البرامج وتعلم الديـن الاسلامى الصحيح فى المـدارس والجامعات و نشر الفكر الاسلامى حتى نحصن الشباب لابد مـن اعطاء الدين مفاهيم اديولوجية كنظام شامل للحيـاة وحمل أمانة الكون وقيادة العالم ·

فالاسلام دعى كل الملل للدخول فى دين واحـد يضمن الحرية والمساواة ، (قل ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء) · · الى آخره ·

لابد مـن تفسير كـل تلك المفاهيم حتى يصبـح الشباب شـاعرا بنفسه وبشخصيته وبرسالته وأكـاد أقـول بهذا الصدد أن العلـوم الانسانيـة فى العـالم الاسلامى يجب أن تكون مستمدة من الاسلام ولا يعنى هذا بحال من الأحوال دعوة الى الانغلاق والانكماش والاسلام نفسه لم يفرض على اتباعه مثل هذا الانغلاق فالرسول عليـه السلام كـان يحـاور أهـل الديانات ويتحاكم معهم على العقـل السليم ويقارعهم الحجـة بالحجة واللـه سبحانه وتعالى يقول لـه : (وجادلهم بالتى هى أحسن) · ولم يأمره بأن يغلق بـابه دونهم الا أن الاسلام لايمكنـه بحال من الأحـوال أن يكـون مستعدا لخلع شخصيته الحضارية ليتقمص شخصية حضارية أخرى ·

فى اعتقـادى أن أهميـة هـذا الموضوع تبـرر دراسته مـن طرف المسئوليـن عن التربيـة وشئـون الشبـاب فى الـدول الاسلامية لتحديد خـط السيـر الصحيح الذى يجب أن نسير عليه ·

٣) القيام بالدعوة مـن جديد لتكويـن دعـاة للاسلام من طراز جديد ليس من نوع الدعـاة الذيـن

يضرون بالاسـلام أو الذيـن لا يستطيعـون مـواجهة أوساط معينة وخصوصا ان وجود مثل هؤلاء الدعاة ضرورى فى المرحلـة التى نجتازهـا لتعميـق الفكـر الاسلامى ، الا أن هؤلاء الدعاة لن يتوجهوا فى هذه المـرة الى غيـر المسلمين لادخالهم فى حظيرة الديـن ولكنه يجب ان يجوبوا كافة أنحـاء العـالم الاسلامى ليحاضروا فى الجامعات وليكونـوا فكـرا اسلاميـا موحدا ٠

يجب أن نقـوم بالدعـوة الشاملـة فى العـالم الاسلامى قبل أن نحمل الدعوة الى الخارج وستحمل نفسها وان تعـاونا وثيقـا واقعيـا يـراعى الظروف الخاصة لكل بلد ، يجب أن يقوم بين الدول الاسلامية٠

ومـا المؤتمرات العديدة التى بـدأ عقدها مـع اليقظـة الجديدة منـذ الثلاثينات ، ومؤتمـر القمـة الاسلامى ، وصدور ميثاق الدول الاسلامية وغيرهـا من التجمعات الاسلامية مهما كانت دوافعها والظروف التى تحيط بها ألا دليل على رغبة تتبلور يوما بعد يوم فى التعاون بين الشعوب الاسلامية ٠

وكما قلت فى بدايـة هذه المحاضرة فـان الدين الاسلامى دين الشمول وديـن الحيـاة والعمل وبهذه المفاهيم فقط يمكن أن نواجه التحديات فى الوقت الذى تواجه فيه الحضارة العالمية أزمات أخلاقية ونفسيـة مستعصية ٠

ويمكن لنهضة الغد أن تقوم على أساس صحيح وسليم ، ويمكن فى النهاية أن نقول مع مبعوث جيش الاسلام عندمـا كـان يستعد لفتح العراق وقـد سأله كسرى امبراطور فارس ما الذى جاء بكم هـا هنـا ؟ فأجابه المبعوث الاسلامى : « ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا الى سعتها ومن جور الأديان الى عدل الاسلام»٠

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

محاضرة القاها السيد عبد الله ولد بويه وزير التعليم الاساسى والشؤون الدينية بموريتانيا سابقا ، ووزير العدل حاليا فى الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى



ثمرة الخطيئة فى الولايات المتحدة !

أفردت المجلة الاسبوعية الامريكية « نيوزويك » مطالعة مفصلة عن تجارة « الجنس » وعن أرباحها ، كائنا ما كان شكلها ، كالافلام السينمائية الخلاعية والكتب والمجلات المصورة ، و « صالونات التمسيد » والملاهى الليلية ، فضلا عن البغاء التقليدى .

تعتقد المجلة أن أرباح هذه التجارة أعلى مما ذكرته لجنة التحقيق الرسمية أى نحو مليارى دولار فى السنة .

قالت المجلة الامريكية أن مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هـــذه التجارة المربحة ، ففى مدة سنتين انتقل عدد « صالونات التمسيد » مـــن أربعة الى ستة وأربعين ، علما أن هذه التسمية ليست سوى « توريـــة » للدعاة ومحايلة على القانون ، وذكرت أن ثمن عناية ثلاث « ممسدات » يبلغ مئة دولار ، وأن بعض صالونات التمسيد تستقبل كل يوم مئـــة رجل ، ولا تعطل فى نهاية الاسبوع .

غير أن ثمرة الخطيئة هذه ، كما سمتها المجلة انما تستدر خاصـــة من الافلام الخلاعية ، وكان أحدثهم فيلم « ديب ثروت » أى الحنجـــرة العميقة ، فقد در على أصحابه ثلاثة ملايين دولار بينما لم يكلفهم سوى 25 ألف دولار .

الا أن الاختصاصيين فى علم الاجتماع يعتقدون أن هذه التجارة أشرفت على الكساد ، وانه لن تمضى سنة أو سنتين حتى يصاب السكان بالملل والضجر ، مثلما حصل فى الدانمارك .

الحسَاب الهجري على أسَاس الرؤية العلمية

احمد حمانى

رئيس المجلس الاسلامى الأعلى
واستاذ بجامعة الجزائر

مشكلة الاضطراب فى اثبات دخول الشهور القمرية ، وما تسببه من خلل فى حياة الامة الدينية والاجتماعية ، ومن تفرقة فى صفوف المسلمين ـ حتى فى القطر الواحد ـ مشكلة قديمة . وكانت، الادارة الاستعمارية المهيمنة على مقدرات بلادنا تنتهزها فرصة لتزيد فى

شدة الخلاف ، وتعميق الهاوية ، وتوليد اسباب الاحن والشقــاق . وبعـــد زوال الـكابوس الاستعماري عن بلادنا ، وعن أغلب الاقطــار الاسلامية ، التي أصبحت تملك ارادتهــا ـ أحس المسلمون ـ في جميع أقطارهم ، وعلى اختلاف مذاهبهم ـ بضرورة معالجة هـــذا الاضطراب ، وازالة هذا الخلل الذي اصبــح يمتد الى حياتهم الادارية ، والسياسيـــة ، والاقتصادية ، بل أصبح يهدد نفس التاريخ الهجري والتقويم القمري بزواله والاعــراض عن استعماله . ومن أنكر هذا فقد قــال : ان الصبح ليــل !

لقد أصبحت الحكومات الاسلامية تبدي تساؤلها ، وتلح أن تجد لها مخرجا . واهتم العلماء بالامـــر ، واخذ كل في نطاق اختصاصه يحاول ان يشــارك في ايجاد حل للقضية ، وعلاج شاف لهذا الداء .

أما بالنسبة الينا فقد كان الامر يحتاج الى دراسة مقنعة ، وجراءة حازمة ، وخطوة حاسمة . وهـــذا ما أقــدمت عليه وزارة التعليم الاصلي والشـــؤون الدينية .

ولقد كان المسؤولون يعلمون ان ما اتخذوه من اجراء في الموضوع لا بد ان يثير عواطف بعض الناس، من الذين حسنت نيتهم ، وزكت نفوسهم ، ولــكنهم فطروا على التقليد الاعمى ، فهم لا يريدون به بديلا ، او من الذين هم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون ، فمنهم الجاهلون المعذورون ومنهم المعاندون المغرضون المتفننون بالارجاف في المدينة.

ولقد كان الامر كما احتسب فالجمهور المسلـــم اقتنع بما أدلي اليه ، ورضي بما عرض عليه ، واطمأن لاجراء اتخذه من حملهم الامانة الثقيلة فحملـــوها معاهدين الله ان يثبتوا ويصبروا ، وألا يثنيهم عن الخدمة الصادقة للامة المسلمة والدين الحنيف والشريعة المطهرة ارجاف من مرجف في المدينة ، ولا شتـــم سفيه ، ولا قذف بذيء ولا خربشـــة مخربش ، ولا ارعاد مرعــد .

لقد ارتاح العلماء والعقلاء لزوال عهد الاضطراب واقبال عهد الثبات والاستقرار ، وهم يرجون أن يعم هذا الامر جميع بلاد المسلمين ويتحدوا في عبادتهم واعيادهم ، ولعل هذا يكون بداية لوحدة تعم جميع شؤونهم .

أما بعض «المتعالمين» فقد ظن ان هذا القرار خرق لاجماع سابق من علماء المسلمين وبدعة جديــدة في الدين ، وأن من جــاء به قد جــاء شيئا ادا ، يــكاد السماوات يتفطرن منه ، وتنشق الارض وتخر لــه الجبال هــدا .

ولم يعلم هؤلاء ان القول بالعمل بالحساب الفلكي النجومي واعتماده ـ اذا غم الهلال ـ قول قديـــم معروف ، حكته كتب جميـــع المذاهب الاســـلاميــة القديمة وذكرته ، ولم تبدع أصحابه ولا كفرتهم ، وغاية ما ذكرته ان المشهور خلافه ، أما العلمـــــاء

المحدثون فانهم بحثوا الامر من جديد ، وأتوا فيه حقا بالجديد المفيد ، وهذا ما سنعرض اليه فى كلمتنا الآتية :

علماء التابعين :

لعل أول من عرف عنه هذا القول واشتهر به مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو من كبار التابعين وكل من تكلم فى الموضوع أشار الى مذهبه وقوله . وممن نقل قوله من المالكية القرطبى ، والقاضى ابن رشد ، وغيرهما ، ومن الشافعية النووى فى شرح مسلم ، ومن الزيدية الشوكانى ، ومن الاباضية الاستاذ الامام ابوطاهر اسماعيل بن موسى الجيطالى الاباضى فى كتابه القواعد اذ قال : «وروى عن مطرف ابن الشجرى وكان من التابعين انه اذا غم الهلال اعتبر الحساب بسير الشمس والقمر ومثله روى عن الشافعى ! ..» (1)

الشافعى :

ولقد اشتهر بهذا القول المذهب الشافعى ، لانه أحد الاقوال المنسوبة الى الامام الشافعى نفسه ، وان شهر علماء الشافعية خلافه . ونقل هذا القول عن الشافعى أصحابه واصحاب المذاهب الاخرى . ومن الناقلين له الامام الجيطالى الاباضى فى كتابه المذكور آنفا اذ قال عقب نقل مذهب مطرف : «ومثله روى عن الشافعى انه قال : من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر ثم تبين له من قبل ذلك ان الهلال مرئى وقد غم فانه يعتقد الصوم ويجزيه» (1)

وقد اقتبسنا فيما نشر فى عدد ماض من الأصالة نقول العلماء الآخرين وتعليقاتهم .

هذا القول من الشافعى ، وان شهر المتأخرون خلافه ، فان فيهم علماء محققين اثباتا لا يتطرق الشك الى ديانتهم وأمانتهم وكفاءتهم العلمية نصروا هذا المذهب ودعموه بالحجج الواضحة .

عند المالكية :

وهو قول موجود فى الفقه المالكى ، معروف لعلمائه ، حكاه شهاب الدين القرافى - وهو ثقة فى روايته وعلمه ، لا يحوم الشك حول أمانته وديانته - وان شهر المالكية خلافه ، قال القرافى فى كتابه الجليل « الفروق » :

« الفرق الثانى والمائة بين قاعدة أوقات الصلوات يجوز اثباتها بالحساب والآلات وبين قاعدة الاهلة فى الرمضانات لا يجوز اثباتها بالحساب ، وفيه قولان عندنا ، وعند الشافعية رحمهم الله تعالى ، والمشهور فى المذهبين عدم اعتبار الحساب » (2) .

والشاهد فى قوله «فيه قولان عندنا وعند الشافعية» . ولا يقدح فى القول عدم شهرته فمن المعلوم ان المشهور ما كثر قائلوه . وقد يكون القول مشهورا ومقابله هو الصحيح ، فان الصحيح ما قوى دليله . ولا ندعى ذلك هنا ، وانما ننبه الغافل المنكر لوجود القول بالحساب . أما ما ذكره القرافى من فرق بين القاعدتين فقد أباه الشيخ محمد رشيد رضا

---

1) كتاب القواعد بحاشية الشيخ ابى عبدالله محمد بن عمر بوسدنة الورجلانى على كتاب القواعد تاليف الامام الشيخ اسماعيل بن موسى الجيطالى الاباضى وقد طبع سنة 1297 هـ والنقل من نسخة خطية من الهامش ص 312

2) الفروق ج 2 ص 199 - 200 .

اذ جعل ان الرؤية للاهلة كالرؤية لعلامات أوقات الصلوات من رؤية لضوء الصبح ، والزوال ، وظل القامة ، والغروب للشمس والشفق ، انها كلها وسائل لحصول العلم بدخول الوقت ، فالمراد من نصب الشارع لها حصول العلم وليس التعبد بالرؤية .

هل يجوز العمل به ؟

اشتهر ذكر هذا القول في الفقه الشافعي،وبحثوا فيه . ومنهم من اعتمده وصحح العمل به . ومنهم من أباه . وقد بسط مذهبهم القسطلاني في شرح البخارى فقال : «قال الشافعية ولا عبرة بقول المنجم فلا يجب به الصوم ولا يجوز . والمراد بالآية «وبالنجم هم يهتدون» الاهتداء في ادلة القبلة ، ولكن له ان يعمل بحسابه كالصلاة ولظاهر الآية . وقيل ليس له وصحح في المجموع ان له ذلك ولكن لا يجزئه عن فرضه . وصحح في الكفاية انه اذا جاز أجزأه ، ونقله عن الاصحاب . وصوبه الزركشي تبعا للسبكي وصرح به في الروضة » (1) .

وتوضيح هذا الكلام ان الحاسب والمنجم اذا دلهما الحساب على وجود الهلال وامكان رؤيته لهما ان يعملا بعلمهما في انفسهما لظاهر الآية « وبالنجم هم يهتدون » وقياسا على الصلاة . ومن صام منهما برئت ذمته وأجزأه صومه عن الفرض كما صوبه السبكي وتبعه الزركشي . وقيل يصوم ولكن لا تبرأ ذمته ولا يجزئه صومه . واما قوله ولا عبرة بقول المنجم فان مراده في الحكم بايجاب الصوم على العامة واعلان الصوم والافطار لهم .

من هو الحاسب ومن هو المنجم ؟

عرفهما القسطلاني وفرق بينهما فقال : «والحاسب وهو من يعتمد منازل القمر وتقدير سيره في معنى المنجم وهو من يرى اول الشهر طلوع النجم الفلاني وقد صرح بهما في المجموع » (1) .

وانما نفر العلماء من المنجمين لانهم يتهمونهم بالقول بالحدس والتخمين ، ومن قبل كان مذهبهم مرفوضا ممقوتا « قال ابن بزيزة وهو مذهب باطل (يعني الرجوع الى قول المنجمين) فقد نهت الشريعة عن علم النجوم لأنها حدس وتخمين ليس فيها قطع ولا ظن غالب » (2) .

والمحققون من علماء الشريعة يفرقون بين التدجيل بالتنجيم ، وبين علم الفلك والنجوم والحساب ويحكمون ان هذا العلم يفيد القطع واليقين لا الظن والحدس والتخمين . وعلماء أوربا يشهدون أن علماء العرب بلغوا فيه شاوا بعيد .

قال شهاب الدين القرافي :

« ان حساب الأهلة والكسوفات والخسوفات قطعي فان الله أجرى عادته بأن حركات الافلاك وأنتقالات الكواكب السبعة السيارة على نظام واحد طول الدهر بتقدير العزيز العليم قال تعالى : «والقمر

1) نقلا عن فتح العلي المالك .. فتاوى الشيخ عليش ج 1 ص 169

2) القسطلاني في فتح البارى بنقل علال الفاسي في كتابه الجواب الصحيح - ص 29 .

قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » وقــال تعالى « الشمس والقمر بحسبان » أى هما ذوا حساب فلا ينخرم ذلك ابدا وكذلك الفصول الاربعة لا ينخرم حسابها والعوائد اذا أستمرت أفادت القطع كما اذا رأينا شيخا نجوم بانه لم يولد كذلك بل طفلا لأجل عادة الله بذلك والا فالعقل يجوز ولادته كذلـك . والقطع الحاصل فيه انما هو لأجل العادة واذا حصل القطع بالحساب ينبغى ان يعتمـد عليــه كاوقات الصلوات فانه لا غاية بعد حصول القطع » (1) .

فهذا البيان الساطع مــن شهابالدين يوضح بطلان أتهام علم الفلك وحسابه بانه ظن وتخمين . ولعمرى ان هذا القول من هذا الامام الفحل يزيـن علماءنا ويرفع عنهم وسما نجلهم أن يوسموا بـه ، كما وسم به علماء الكنيسة آنذاك الذيــن كانوا يحاكمون العلماء الفلكيين ويحكمون عليهم بالاعدام حرقا جزاء بحوثهم واكتشافاتهم العلمية .

وكما ورد ذكر الخلاف فى فى أستعمال الحساب فى كتب المالكية والشافعية ، ورد فى كتب غيرهم فقد جاء فى « النيل » وهو عمـدة المذهب الاباضى قوله « وان غم وتعذرت الرؤية وجب الاكمال وعليه الاكثر (2) » فقوله وعليه الاكثر يفهم ان كثيرا عـلى غيره وفى الجزء الثانى من شرح النيل صفحة 187 ما نصه « وتعذرت الرؤية وجب الاكمال بان يعد للشهر ثلاثون وعليه الاكثر وهو قول اصحابنا » وحكى فى « سلك الدرر فى نظم النيل صفحة 273 – 274 هذا القول المخالف بقوله :

وقال بل حسابــه يعتبــر
بجريان الشمس حــين تعبر

وذا هــو المعروف بالتقويـم
لدى اصطلاح علــم النجـوم

لابـن سريج الشافعى نقــلا
ومطرف مــن علماء من خـلا

وزعم صاحب النظم أنه مذهب الروافض وانهم مجمعون عليه فقال :

وهكــذا اطبقـت الـروافض
ايضا على الآخـذ به وناقضوا

الى ان يقول :

قالوا فكل من يكــون حاسبا
فبالحساب الصوم صار واجبا

وقال صاحب « حى على الفلاح حاشية الايضاح » ما نصه :

« ... وما الصوم والافطار بحساب الفلك فخطأ وكفر ومخالفة للسنة ... » وفى هذه الكلمة « كفر » من العنف ما تنزهت عنه اقلام الفحول المتقدمـين . وقد مر فى حكاية الجيطالى ما يدل على العلم والادب الجم والدين المتين ، وينبغى أن تموت أمثـال هـذه الكلمة من افواه واقلام الكاتبين . فلقد اجمع جميع الناقلين عــلى ان القول بالعمل بالحساب النجومى

1) الفروق ج 2 ص – 200
2) النيل ج 1 ص 165

مذهب مطرف . ووسموه بانه من كبار التابعــين وأجمع النقل على أنه قول للشافعي في رواية عنه سلم صحتها اليه أمثال الشيخ عليش في المتزمتــين وامثال ابن رشد في المقدمات فكيف يكفر من أخـذ بتأويل صحيح النسبة الى امام مجتهد مثل الشافعي، هذه زلة قلم ينبغي سترها ٠

لقد صرح بجواز العمل بالحساب الفلكي علمـاء اعلام امثال الزركشي ، وابن السبكي، ولكن اصرحهم قولا ، وابينهم حجة هو ابن دقيق العيد ٠

ابن دقيق العيد :

هذا الامام من اعظم علماء الحديث والسنة والفقه الشافعي . خدم الاسلام خدمات جليلة . قال في شرح « عمدة الأحكام » ينقل الاستاذ علال الفاسي :

« والذى اقول به ان الحساب لا يجوز ان يعتمد عليه في الصوم بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية بيوم أو يومين فأن ذلك احداث لسبب لم يشرعـه الله تعالى ٠

واماادل الحساب على ان الهلال قد طلع من الأفق على وجه يرى لولا وجود المانع كالغيم مثلا فهـــذا يقتضي الوجوب ، لوجوب السبب الشرعي ، **وليس حقيقة الرؤية بمشروطة في اللزوم** لان الاتفاق على ان المحبوس في المطمورة اذا علم بالحساب باكمال العدة أو بالاجتهاد بامارات وجب عليه الصوم وان لم ير الهلال ولا أخبره من رآه » (1) ٠

فهذا تصريح واضح بين ان حقيقة الرؤية غـــير مشروطة في اللزوم ٠ وان الصيـام واجب لوجوب السبب الشرعي وهو وجود الهلال الممكن رؤيته في الاحوال العادية ٠

وهذا الفهم الصحيح للنصوص الشرعية، والتأويل البين الصريح للأحاديث الصحيحة **فهمه** وصرح به أمثال ابن دقيق العيد في المتقدمين ، ومحمد رشيد رضا وعلال الفاسي في المتأخرين ، وأذاعوا ما علموه بغاية البيان ٠

وبما ان مـذهب هؤلاء الثـلاثة ــ في الحقيقـة ــ مذهب واحد ، فاننا نذكرهم متتابعين وان اختلفت أزمانهم . وقد تقدم كلام الاول . وهاكم مـــــذهب الآخرين :

محمد رشيـــد رضا :

رفض الشيخ رشيد رضا في بحثه الفرق بـــين اثبات اول الرمضانات ، والشهور بالاهلة ورؤيتها ، وبين اثبات أوقات الصلوات برؤية علامات الفجـر والزوال ، والظـل والقـامة ، والغـروب للشمس والشفق ، وجعل غرض الشارع في كلها معرفتهـا وحصول العلم بها لا التعبد برؤيتها . وما ذكـــره (ص) من نـوط اثبات الشهر برؤيـة الهـــلال او اكمال العدة علله بكون الامة كانت أمية في عهده ، ومن مقاصد شريعته اخراجها من الامية لا ابقـاؤها فيها . « هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان

---

1) الجواب الصحيح ــ ص 30

كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وفى معناه دعوة ابراهيم فى سورة البقرة « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ، ويؤخذ من هذا ان لعلم الكتابة والحكمة حكما غير حكم الامية .

ومن مقاصد الشريعة اتفاق الامة فى عبادتها ما أمكن الاتفاق وسيلة ومقصدا ، ولا سبيل الى هذا الاتفاق الا بالعمل بالحساب والمراصد عند ثبوت افادتها للعلم القطعى بهذه الاوقات التى جرى بها العمل فى جميع بلاد الحضارة الاسلامية فى الصلاة و «لو» مع المحافظة على الاستهلال ورؤية الهلال فى حال عدم المانع من رؤيته للجمع بين ظاهر النص والمراد منه . والصلاة أعم وأعظم من الصوم .

فمذهبه صريح فى الاعتماد على الحساب واستعماله وانه المراد من النص . وقد بين كيفية اثبات الشهر بالحساب بما يوضح كلام ابن دقيق العيد فقال :

كيفية اثبات الشهر بالحساب :

«يثبتون (الحاسبون) وقت ولادة الهلال . أى مفارقته للشمس فى آخر الشهر بالساعات والدقائق ومنه يعلم امكان رؤيته لمعتدلى البصر أو عدم امكانها، فاذا كان من الدقة بحيث لا يرى لايثبتون الشهر بولادته ، واذا كان بحيث يرى قطعا عند انتفاء المانع من غيم او نحو ذلك يثبتون الشهر .

ويقال «ان الشهر ثبت برؤية الهلال حقيقة اى حكما فلا يكون اثبات وجوب الصوم بقول الفلكيين الحاسبين ، بل يوجد الهلال وانما يبينون للناس متى يرى » (1) .

وكلام الشيخ محمد رشيد بيان لكلام ابن دقيق العيد ، وكل منهما يرفض ان يعتمد على المنجمين القائلين بتقديم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية، ولكنه يقبل قول الحاسبين والمنجمين المفيد للقطع بأن الهلال موجود يتخلف مغيبه عن مغيب الشمس تمكن رؤيته فى الاحوال العادية لذوى الابصار العادية او انه يغيب قبلها أو معها او بعدها بقليل بحيث لا تمكن رؤيته . وفى الحالة الاولى يثبت الشهر ، وفى الحالة الثانية لا يثبت .

الشيخ علال الفاسى :

وقد ألف العلامة الجليل الاستاذ علال الفاسى فى مسألة طرق الاثباتات الشرعية للاهلة والنظريات المختلفة لعلماء المذاهب الاسلامية رسالة جليلة ، أو كتب فتوى تشرح رأى الشريعة الاسلامية وما ينبغى ان يكون العمل بمقتضاه . وعنوانها «الجواب الصحيح والنصح الخالص عن نازلة فاس وما يتعلق بمبدأ الشهور الاسلامية العربية» . وقد طبعت هذه الرسالة التى تم تأليفها فى رمضان 1385 هـ . برهن السيد الفاسى على علم غزير ، وفهم دقيق ورأى صائب ، وشجاعة يتحلى بها الراسخون .

ولما وصل الاستاذ الفاسى الى الجواب عن السؤال: هل يعمل بالحساب قال :

---

1) المنار ج 1 م 28

«ان المشهور فى كل مذهب هو القول بعدم العمل بالحساب فى الصوم والافطار وغيرهما من المواسم والاعياد . والسبب فى انتشار القول بذلك أمور :

1) فهم الحديث ان المقصود به المنع مطلقا من الحساب . وان الرؤية هى الامارة الشرعية الواحدة حتى لو تبدلت الاحوال .

2) التحوف من الوقوع فيما وقع فيه البابليون وقدماء الامم الذين خالطوا التنجيم ، والخلط بين عبادة النجوم والسحر بها ، وبين استعمال الحساب والرصد لفائدة المعرفة وتدقيق السنين والحساب .

3) كون الاغلبية الساحقة فى العصور الاولى بل جميع الامم فيما قبل العصر العباسى كانت بعيدة عن اتقان الفلكيات حتى تستفيد منها .

وقد تطورت الاحوال وبقى معظم علمائنا على القول بما قال به الاولون الا فئة يسيرة ممن أعملوا رأيهم من العلماء فى كل عصر ومن بينهم العلامة ابن دقيق العيد .. ومن بينهم الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى الحاتمى .. » (1) .

ثم ذكر الاستاذ الفاسى بعض القائلين بالحساب : مطرف . والشافعى فى احدى المنقولات عنه ومحمد بن مقاتل الرازى.وبعض المالكية وابن طاووس من الامامية وجماعة منهم (2) والعاملى وابن‌الحديد وابن ابى الحديد . ومن المتأخرين الشيخ أحمد شاكر ، والشيخ أحمد بن الصديق الغمارى من المغاربة ، (والظاهر انه لم يطلع على بحث الشيخ رشيد رضا).

ثم بين الاستاذ الفاسى رأيه الخاص فقال :

والذى أعتقده ان الحديث ـ انا أمة امية لا تقرأ ولا تحسب ـ خرج مخرج الكلام المعلل ، وهو ان العرب ، بل الذين كانوا فى عصر النبى (ص) من أمم العالم لم يكونوا على درجة من العلم يجعل نتائج حساباتهم قطعية ، بل كانت مقدمات الحساب الفلكى لاثبات الشهر قبل الاسلام والى حياة النبى (ص) ظنية غير متقنة الانتاج كما تدل على ذلك بقايا نصوص الفلكيين القديمة . اما اليوم فقد تطورت حال معرفة المسلمين للفلك ، ومنذ العصر العباسى وعلماؤنا يتعاطون هذا الفن . وانضمت اليه الدراسات العصرية . فلم يعد من الممكن القول بأن النتائج الحسابية ظنية بل هى قطعية بقدر ما تكون الرياضيات قطعية . وعليه ، فما دام الحكم قد خرج معللا ، وما دامت العلة قد انتفت أى اننا لم نعد امة أمية بل اصبحنا نقرأ ونحسب فقد ارشدنا الحديث الى العمل بالحساب طبقا للقاعدة الاصولية التى تقول : العلة تدور مع المعلول وجودا وعدما .

ولا عبرة بادعاء ان الحكم يبقى مستمرا حتى بعد تغيير الاحوال لانه لادليل عليه . وايضا فانه (ص) قال فى حديث : «فان غم عليكم فاقدروا له» . وقد فسره الشراح بمعنى خذوا له التقدير الحسابى . وقال عليه السلام فى الرواية الاخرى : « فأكلموا العدة ثلاثين» فجمع (ص) بين حال من يعرف الحساب

---

1) الجواب الصحيح ـ ص 30

2) المشهور عن الامامية انهم ينصرون القول بالحساب الفلكى فهؤلاء السادة من أعلامهم ، وقد رأينا فى مجلة ايرانية ثناء على من اهتم بالقضية من الاخوان المغاربة ، ثم بلغنا ان سماحة الامام موسى الصدر امام الشيعة بلبنان عبر عن اغتباطه بالبادرة الجزائرية القاضية بالعمل بالحساب الفلكى ـ وانها ستكون مثلا يحتذى لجميع البلاد الاسلامية طال الزمن أو قصر

وحال من لا يعرف . فالامة فى حال قصورها العلمى تعتمد الرؤية المحضة تسهيلا على الناس . فاذا كانوا قد تعلموا واصبح فى مقدور المتخصصين منهم أن يهيئوا لهم وسائل التقدير الحسابى فعليهم ان يعملوا بالحساب فى الصوم كما عملوا به فى الصلاة تحقيقا لقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل . . . لتعلموا عدد السنين والحساب » .

نعم يجب ان نحقق المناط طبقا لما فعله العلامة ابن دقيق العيد فنقول : ان الحساب الذى نعتمده هو الذى يدل على ان الهلال قد طلع من الافق على وجه يرى لولا وجود المانع مثلا فهذا يقتضى الوجوب لوجود السبب الشرعى ولا تعتبر حقيقة الرؤية مشروطة . اما الحساب بمفارقة القمر للشمس على ما يراه المنجمون من تقدم الشهر بالحساب على الشهر بالرؤية بيوم او يومين فهذا ما لا أقول به لانه احداث لسبب شرعى لم يشرعه الله ، فأنا متفق تماما مع رأى الامام ابن دقيق العيد رحمه الله» (1) .

وهذا الذى اتفق عليه رأى هؤلاء العلماء الثلاثة هو الذى أخذت به لجنة الفتوى واعتمدته وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية فى قرارها .

أثناء القرن الماضى :

وقد يظن ان القول بالحساب الفلكى فى اثبات الصوم والافطار والعمل به فعلا ــ لا قولا فقط ــ من مبتكرات هذا العصر . ولكن الصحيح ان فى علماء المسلمين من كان يعتقده ويعمل به ، ويعلنه ولا يسره . ويقلد فيه من خواصه واصحابه ولا ينكر عليه .

ولقد روى لنا الشيخ عليش حادثة عالم شافعى معاصر فى سؤال ورد عليه أدرجه فى كتابه «فتح العلى المالك . فى الفتوى على مذهب الامام مالك» ، وأجاب عنه ، ونص السؤال :

«ما قولكم فيما وقع من بعض الشافعية . مشهورا بالعلم والديانة . من اعتماده فى ثبوت رمضان وشوال على حسابه سير القمر وعدم اعتباره لرؤية الهلال بالبصر واتفق له مرارا صومه قبل عموم الناس بيوم وفطره قبلهم كذلك . ويظهر ذلك لخواصه واحبابه ويقلدونه فيه ، وربما تعدى الامر لغيرهم فقلده ايضا وكاد ان يتسع هذا الخرق واهل العلم ساكتون عليه » (2) .

والذى يلفت النظر ما جاء من وصفه بالعلم والديانة . ومن اعتماده على الحساب وعدم اعتباره لرؤية الهلال ، وانه يقلد من احبابه وخواصه . وان اهل العلم ساكتون عنه .

أما الشيخ عليش ــ وهو مالكى غير شافعى ــ فلم يسكت عنه ، بل أثار السؤال أعصابه فاتهمه بهدم الدين . وبالجهل المركب . وعدم الديانة ، واختلال العدالة ، ودناءة الهمة ، وعدم المروءة . وما كان ينتظر من الشيخ عليش غير ذلك . فقد كفر بما هو أهون من هذا . كفر محمد بن على السنوسى ، ورفع العصا على الشيخ محمد عبده . ولكن هذه

1) الجواب الصحيح ــ ص 31 ــ 32
2) فتح العلى المالك ــ ص 168

الوثيقة التى لا يتطرق الشك الى صحتها تثــبت اصرار بعض اهل العلم من الشافعية على القــــول بالحساب والعمل به لا فى خاصة انفسهم ، ولــكن لهم ولغيرهم ، وكان زملاؤهم ومعاصروهم يـــرون ذلك منهم ولا ينكرونه .

فى هـــذا العصــر :

أما فى هذا العصر فقد تعالت اصوات المسلمــين من كل قطر ومصر تطالب بالخروج من هـــــذا الاضطراب ، وتلح فى وجوب الوصول الى حل يزيح عن صدور المسلمين هذا الحرج . واهتم بالامر العلماء افرادا وجماعات ، وخرجوا بفتــاوى او بحــوث او توصيات وقرارات . ولم يعالج الموضوع ، فى رأينا، وحسبما اطلعنا عليه بأحسن مما عالجه العلامــة السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار ، والسيــد علال الفاسى . وكل منهما أعلن رأيه بصراحــة فى انه ينبغى العمل بالحساب الفلكى لانه حساب يفيد القطع . ولان الشارع الحكيم ارشدنا الى العمل بــه فهو المراد من النص ، اذ علل العمل بالرؤية والاكمال بانا امة أمية لا نقرأ ولا نحسب ، وهذه العلــة قــد انتفت . وهما يتفقــان فى ان ذكر «الاميـــة» فى الحديث علة لنوط اثبات الشهر بالرؤية البصريــة او اكمال العدة . وان من مقاصد بعثة محمد (ص) اخراجها من الاميـــة .

ولقد جاء فى توصيات مؤتمر العلماء المسلمـــين المنعقد بماليزيا :

«اذا تعذرت الرؤية لسبب من الاسباب .. وكان الحساب الفلكى يثبت امكان رؤية الهلال يبـــاح الاعتماد على الحساب الفلكى» .

وجاء فى قرارات المؤتمر السنوى لمجمع البحوث الاسلامية ما نصه :

«4 يعتمد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية ، ولم يتيسر الوصول الى اتمـــام الشهر السابق ثلاثين يوما» .

ولقد جاء فى توصيات مؤتمر ماليزيا :

«ان على الاقطار الاسلامية المختلفة ان تقيم هيئة من الخبراء لتحديد بداية شهرى رمضــان وشوال بما يتفق والمبادى السابقة والمطالبة بالعمل عـــلى اخراج تقويم قمرى اسلامى موحد» .

ففى توصيات مؤتمر العلماء بماليزيا ، وقرارات مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية ترجيح لمذهب مطرف وقول الشافعى ، ومذهب الذين جاءوا من بعدهـــم وسلكوا طريقهم . بل فيه شيء جديد وهو ان مطرفا والشافعى ـ فيما نسب لهما ـ يقولان بأن الحاسب يعمل بعلمه فى خاصة نفسه ، ولا يلزم غيره . امـا التوصيات والقرارات فان مفهومها ان للحكومات ان تعلن ذلك للناس وتلزمهم به . ولقد سبق لنا نشر توصيات مؤتمر العلماء بماليزيا ، واليوم ننشــر كامل نص قرارات مجمع البحوث الاسلامية حسبما جاء فى مجلة «منبر الاسلام» برواية فضيلة شيــخ الجامع الازهر .

شيــخ الازهر يجيب :

سؤال 7 « ورد فى الحديث : صوموا لرؤيتـــــه وافطروا لرؤيته الخ » . والرؤية كما يتبادر مـــن الحديث حسية وتقع بالعين المجردة او بواسطـــة آلات الرصد . فهل يمكن ان تفسر هنا بمعنى تحكم العقــل والعلـم واستخدام الحســاب الفلكى دون الاعتمـــاد عـــلى الـــرؤيـــة البصريـــة الا فى

حالات الامكان .. ودون ان يكـــون هناك تعارض بين الدين والعلم وذلك حتى يكون فى الامكان توحيد أوائل الشهور العربية ليمكن الاحتفال بالشعـــائر الدينية فى الوطن الاسلامى ؟

« عدد كبير من القراء »

الجـــواب :

«ان موضوع توحيد مبدأ الصيام وبالتالى توحيد العيد فى البلاد الاسلامية موضوع مناقشة الفقهاء فى القرون الاولى ، كما ناقشه علماء مجمع البحوث الاسلامية فى السنوات الاخيرة ، وهم جميعا متفقون على انه لا تعارض بين الدين والعلم ابدا . فالديـن نفسه هو الذى يدعو الى العلم . وفى مسألتنا هـذه علق الحديث الصوم والافطار على رؤية الهـــلال فان لم تمكن الرؤية بالبصر لجأنا الى العلم . ومـا الارشاد الى اكمال شعبان ثلاثين يوما الا توجيـــه لاحترام الحساب الذى هو مظهر من مظاهر العلم.. والراصدون للهلال يستعينون بالمناظير وهى ادوات علمية ، كما يستعينـــون بمصلحة الارصـــاد فى اجهزتها وامكانياتها الاخرى .

وقد القى فضيلة الاستـــاذ الشيخ محمـد عـلى السائس عضو مجمـع البحـوث الاسلامية بحثـا مستفيضا فى هذا الموضوع امام المؤتمر السنـــوى وانتهى المؤتمر الى اصدار القرارات الآتية :

1 ـ ان الرؤية هى الاصل فى معرفة دخول أى شهر قمـرى كما يدل عليه الحـديث الشـريف ، فالرؤية هى الاساس ، لكن لا يعتمد عليها اذا تمكنت فيها التهم تمكنا قويا .

2 ـ يكون ثبوت رؤية الهلال بالتواتر والاستفاضة كما يكون بخبر الواحد ذكرا كان او انثى اذا لـم تتمكن التهمة فى اخباره بسبب من الاسباب ، ومن هذه الاسباب مخالفة الحساب الفلكى الموثـوق به الصادر ممن يوثق به .

3 ـ خبر الواحد ملزم له ولمن يثق به ، اما الزام الكافة فلايكون الا بعد ثبوت الرؤية عند من خصصته الدولة الاسلامية للنظر فى ذلك .

4 ـ يعتمد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما .

5 ـ يرى المؤتمر انه لا عبرة باختلاف المطالع وان تباعدت الاقاليم متى كانت مشتركة فى جزء مـن ليلة الرؤية وان قل ، ويكون اختلاف المطالع معتبرا بين الاقاليم التى لا تشترك فى جزء من هذه الليلة .

6 ـ يهيب المؤتمر بالشعوب والحكومات الاسلامية ان يكون فى كل اقليم اسلامى هيئة اسلامية يناط بها اثبات الشهور القمرية مع مراعاة اتصال بعضها بعضها ببعض والاتصال بالمراصد والفلكيين الموثوق بهـم» (1) .

ومن يتمعن فى هذه القرارات الموفقة جيدا يجد انها تجاوز حقا قول مطرف وابن الشخير ، وقـــول الشافعى الى القول بالزام العموم بعلـــم الحساب

---

1) مجلة منبر الاسلام عدد رمضان 1392 هـ

والاعتماد عليه ، ولقد ذهبوا أبعد من ذلك . الى رد الرؤية اذا تمكنت فيها التهمة تمكنا قويا • ومــن الاسباب لرد الاخبار مخالفة الحساب الفلكي الموثوق به المصادر ممن يوثق به • . وفى القرار الرابــع التصريح بالاعتماد على الحساب فى اثبات دخول الشهر اذا لم تتحقق الرؤية **ولم يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما** ، ومتى لا يتيسر الوصول الى اتمام الشهر السابق ثلاثين يوما ؟ الا يكون ذلك اذا قرر العلماء المسلمون المتقون الحاسبون ان الهلال موجود تمكن رؤيته عادة لو زالت الاسباب المانعة ؟ ومتى يتيسر الوصول الى الثلاثين ؟ الا يكون ذلــك عندما يقرر علماء الحساب الفلكي أن الهلال يغيــب قبل الشمس أو معها أو بعدها بمدة لا تتيسر رؤيته ؟ أليس هذا نفس ما قرره ابن دقيق العيد ، ومحمد رشيد رضا ، وعلال الفاسي بفصيح العبارة وبيبان لا لبس فيه ؟

أما أهل الاختصاص من علمــاء الحساب الفلكي والمراصد من المسلمين الاتقياء الغيورين على شريعتهم العالمين حقا انها صالحة لكل زمان ومكان ، فانهــم يحاولون نشر معارفهم المتطورة ، ومبلغ علمهم فى الموضوع لانارة أفكار علمــاء الشريعة المختصين ، وجمهور المسلمين وذلك فى الكتب المفيدة ، أو فى المجالات والنشريات الموثوق بها •

ومن هؤلاء العلماء السيد محمد أبو العلا البنــا استاذ الفلك بكلية الشريعة بالجامعة الازهرية • كتب بحثا قيما فى الموضوع ، أقتبس منه فقرات مفيــدة الاستاذ علال الفاسى فى كتابه النفيس « الجــواب الصحيح ••• » • وقد اقترح الاستاذ ابو العلا على الحكومات الاسلامية ان تجتمع وتختار « المبدأ المكانى» أى الدوران لليوم الشرعى حلا لمشاكلهم الاجتماعية الدينية كما اتفقت الدول حلا لمشاكلهم الاجتماعيــة المدنية » (1) •

ثم اقتراح ايضا •

« ان ينشأ جهاز حسابى فلكي يعمل عــلى ضوء الشريعة الاسلامية لتقوم بحساب جــداول عامــة بجميع المسلمين فى بقاع الارض لاوقات الصلوات الخمس وضبط احوال رؤية الهلال فى جميع البلاد المهمة التى يمكن رؤيته فيها وعمل جداول عامة أيضا لتعيين القبلة ، وان تمنع النتائج (اليوميات) التى لم يؤخذ حسابها من هذه الجداول العامة والتى لــم تسخر الوضع الهلالى فى حساب أول الشهر القمرى وان تراعى حدود الرؤية لمبــدأ الامكان والوجوب فى ابعد حكومة اسلامية نحو الغرب وهى مراكش فى النتائج (اليوميات) التى تنشر حتى تكون هلالية عالمية » (2) •

رمضــان هذه السنــة :

ونقلت صحيفة « العلم » المغربية عن مجلة «منبر الاسلام » التى يصدرها المجلس الاعــلى للشؤون الاسلامية بحثا نفيسا فى الموضوع ، تعرض بالخصوص لرمضان فى هذه السنة ، ونشر قبل الاعلان عــن

---

1) الجواب الصحيح

2) الجواب الصحيح – ص 31

بدايته • وقد كتبه العالمان الجليلان الدكتور زكى عياد والاستاذ احمد حسين احمـد ، تحت اشراف الدكتور جمال الدين الفندى •

ولقد قدموا للموضوع بمقدمة هذا نصها :

« ليس من العجيب فى شىء ان يعمد المسلمون الى الاستعانة بالحساب الفلكى فى شأن ضبط التقويم الهجرى . فقد سبقنا الى ذلك الفرنجة ايام قـام جريجورى الثالث عشر باصلاح التقويم الميلادى • لهذا نتقدم للعالم الاسلامى بسلسلة مـن البحوث نشرح فيها وجهة نظر العلم آملين ان يهتم بها علماء المسلمين . . .

. . . ولا بد لكى تقوم بذلك ان نؤمن بالحسـاب الفلكى قاعدة للوصول الى ما نريد »

وبعد شرح واف لدوران الارض حول الشمس ، والقمر حول الارض وسيره قالوا « ان الحساب الفلكى يتطلب فقط تحديد لحظة انسلاخ القمر عن الشمس **فاذا وقع ذلك قبل غروب الشمس ، وغرب الهلال** بعد غروب الشمس ، بدأ الشهر فى اليوم التالى » .

ثم أعلنوا أنهم قاموا بحساب لمعرفة دخول شهر رمضان لسنة 1392 هـ فى المنطقة التى تقع فيها البلاد الاسلامية •

« من غرب موريطانيا غربا ، حتى شرق اندونيسيا شرقا ، ومن شمال تركيا شمالا حتى جزيرة مدغشقر جنوبا (لا ندرى لماذا جعلوا الحد الشمالى للمنطقـة شمال تركيا ، مع أن المسلمين يتوغلون الى ابعد من ذلك فى بلاد روسيا وهـم مستوطنون بموسكـو ، وبفنلاندا كاستيطانهم مدغشقر وتنزانيا !) وذلك على الحاسب الالكترونى ، وقسمنا هـذه المنطقة فى الرسم الى مربعات طول ضلع كل منها خمس درجات ودونا فى بعض اركانها وعلى مواقع المدن الهامـة الفترات التى يمكثها الهلال فى الافق الغربى بعـد غروب الشمس ، وبذلك انقسمت الخريطة الى ثلاث مناطق مميزة •

1) فى المنطقة السفلى المظللة بخطين متقـاطعين يرى الهلال يوم السبت الموافق 7 أكتوبر •

2) وفى المنطقة الوسطى المظللة بخط واحد مائل يرى الهلال فى يوم الاحد الموافق 8 اكتوبر **ولا يمكن رؤيته فى هذه المنطقة فى يوم 7** •

3) اما فى المنطقة العليا غير المظللة فلا يرى الهلال قبل يوم الاثنين الموافق 9 أكتوبر •

وجدير بالذكر ان المنطقة السفلى تضم بعض بلاد المسلمين مثل دار السلام وجزيرة مدغشقر ، وغانا ، وغينيا ، وليبريا • ويمكث الهـلال فى تناناريف عاصمة مدغشقر لمدة ثمان دقائق • اما المنطقة الوسطى فهى تضم اغلب بلاد المسلمين بحق • • • » (1) •

فهذا البحث النفيس يدعم رأى علمائنا الفلكيين القاعدين للرصد بمرصد « أبى زريعة » الفلكـين الحاسبين الذين أعلنوا ان هلال رمضـان 1392 هـ يستحيل ان يرى فى كامل سماء الجزائر مساء السبت 7 اكتوبر • وانما يرى مساء الاحد ، وهذا ما قرره البحاثون المصريون ، لأن كل بلاد العرب، واغلب بلاد المسلمين واقعة فى المنطقة الوسطى حسب رسمهـم وتقسيمهم وقد قالوا « ولا يمكن رؤيته فى هـذه

1) جريدة العلم عدد 8132 فى 24 شعبان 1392 ـ 3 أكتوبـر 1972 م

المنطقة يوم 7 أكتوبر (1) .

واذا كان هذا حكم العلماء المختصين – وقولهم يفيد العلم والقطع – فان كل شهادة برؤيته في الاقطار التي حكموا باستحالة رؤيته فيها متهمة، معرضة لتكذيب العلم .

وقد رأينا ان مؤتمر مجمع البحوث الاسلامية جعل من اسباب رد الاخبار بالرؤية مخالفة الحساب الفلكي الموثوق به . ولفقهائنا الاقدمين قولان في الموضوع .

سئل الشيخ عليش عن شهادة عدلين برؤية الهلال مع قول أهل الحساب انه لا تمكن رؤيته قطعا فافتى بانه « يعمل بشهادة العدلين ويطرح كلام أهل الحساب (2) » ونقل عن الحطاب قوله « الذي يظهر من كلام اصحابنا انه لا يلتفت لقول أهل الحساب (2) » .

ونقل عن السبكي وغيره من الشافعية « انه لا تقبل الشهادة لأن الحساب أمر قطعي والشهادة ظنية . والظني لا يعارض القطع (2) » ونازع في قول ابن السبكي بعض الشافعية ورده المتأخرون منهم . كما نقل عليش .

وقد كانت الشهادة المتهمة – منذ القديم – شهادة سوء كما وسمها مالك بن انس . وسحنون ، وحكم علمائنا الاقدمين عليها حكم صارم كحكم المتأخرين من علماء « مجمع البحوث الاسلامية » .

جاء في « تبصرة الحكام » لابن فرحون في فصل الحكم بالقرائن والامارات ما نصه :

« قال اصحابنا اذا شهد شاهدان في الصحو في المصر الكبير على هلال رمضان ولم يره غيرهما : قال سحنون : هما شاهدا سوء فاذا قبلا فعد ثلاثون يوما فلم ير الهلال والسماء مصحية قال مالك هما شاهدا سوء لأن ذلك قرينة ظاهرة في كذبها (3) » .

هذا احتياط علمائنا الاقدمين – في اتهام شهادة الشاهدين يريانه وحدهما في المصر الكبير ، وكانت ظروف تلك الازمنة لا تسمح بنشر الانباء بسرعة اليوم . ويكاد كل مصر يكون مستقلا ، فكيف لا يتهم اليوم شاهدان يشهدان برؤيته وحدهما دون ان يراه غيرهما لا في قطر واحد أو مصر بل في اقطار واسعة وقد شهد العلم باستحالة رؤيته .

فان كان الذين أعلنوا اثبات رمضان بيوم الاحد 8 اكتوبر قد اعتمدوا رؤية ما ، في بلاد تقع في هذه المنطقة ، **فقد صادموا رأى الفلكيين الحاسبين** المفيد للعلم وان كانوا قد اعتمدوا **رؤية** فعلية في الاقطار الجنوبية . أو رؤية « حكمية » فيها ، كما قطع به الحاسبون وان الهلال مرئي لا محالة في هذه الاقطار الواقعة في المنطقة الاولى حسب تقسيمهم ، وجعلوها ملزمة للكافة في جميع انحاء بلاد الاسلام – فقد ساروا خطوة واسعة نحو توحيد فعلي للعالم الاسلامي في هذه العبادة ، وانه لحل يلبي رغبة جميع المسلمين . ويثلج صدورهم . اننا لنأمل ان يكون هذا ما وقع فيكون عالم المسلمين الشرقي قد صام

---

1) جريدة «العلم» عدد 8132 في 24 شعبان 1392 – 3 أكتوبر 1972 م

2) فتح العلي المالك – ص 170

3) تبصرة الحكام في أصول الاقضية ومناهج الاحكام ج 2 ص 99 المطبعة البهية (القاهرة) سنة 1302

على رؤية واقعة فعلا ، ممكنة علما ، ولا يكون هـذا الا فى المنطقة التى قال العلم عنها ان ذلك ممكـن فيها ، أما ان كان الصيام عن رؤية « فعلية » زعمت فى منطقة قال العلم فيها « لا يمكن ان يرى الهـلال فيها » فان ذلك قد يجرنا لموقف يكون فيه ديننـا عرضة للتهم ، وعلماؤنا عرضة للسخرية ٠ فليقرر علماؤنا ان رؤية مدغشقر أو دار السلام ، أو كوناكرى سواء كانت فعلية أو حكمية ملزمة لجميع المسلمـين المشتركين فى جزء من الليل مع بلد الرؤية تستجب جموع المسلمين ، وتطمئن قلوبهم ، ويقبلوا عـلى عبادتهم أو أعيادهم جادين فرحـين مستبشـرين

ان اختلاف المطالع ملغى عند فقهاء المالكية ، ومتى ثبت الشهر فى اقليم وجب الصوم على بقية الاقاليم، ما لم يكن بين الاقليمين بعد فاحش ، قالوا كالاندلس وخراسان ٠ واعتبر الشافعية اختلاف المطالع ، وقالوا لكل الاقليم رؤيته ٠ وكاد المتاخرون يجمعون عـلى الغاء اختلاف المطالع واصطلحت مجتمعاتهم ومؤتمراتهم على اعتبار الاشتراك فى ليلة الرؤية ولو بجزء يسير٠

وان هذا مما يسهل اجتماع المسلمين وتوحيـد كلمتهم ، ولكن التوحيد الحقيقى انما يتم يوم تتفق الحكومات الاسلامية على العمـل بالحساب اليقينى القطعى كما قال السيد محمد رشيد رضا رحمه الله « اذا تقرر لدى أولى الامر العمل بالتقاويم الفلكيـة من مواقيت شهرى الصيام والحج كمواقيت الصلاة وصيام كل يوم من الفجر الى الليل أمتنع التفـرق والاختلاف بين المسلمين فى كل قطر أو فى البـلاد التى تتفق مطالعها » ٠



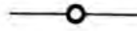
منشورات وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية

قريبا سيصــدر كتــاب :

الثغر الجمانى فى ابتسام الثغر الوهرانى

لمؤلفه

الشيخ أحمد بن محمد بن على بن سحنون الراشدى



تحقيق

المهــدى البوعبدلى



المؤتمر القـادم لـوزراء الشؤون الدينيـة والاسلامية والاوقـاف ينعقـد بالجزائـر بمناسبـة الملتقى الثـامـن للتعرف عـلى الفكـر الاسلامى

عاد الاخ مولود قاسم وزير التعليـم الاصـلى والشؤون الدينية الى الجزائر مـن الكويت حيث شارك على رأس وفد جزائرى هام فى اشغال مؤتمر وزارة الشؤون الدينية والاوقاف العرب الذى انعقد بالعاصمة الكويتية فى الفترة بين 23 محرم 1393 هـ الموافق 1973/2/26 و 28 محرم 1393 هـ الموافـق 1973/3/3 .

وفى القاعة الشرفية بالمطار أدلى الاخ مولود قاسم بتصريح الى ممثلى الصحافة الوطنية ذكر فيه بأن اشغال المؤتمر قد تركزت على عدة نقاط أهمها توحيد الاعياد والمواسم الدينية فى البلاد العربية وشرح الفكر الاسلامىورد الاباطيلالتى تذاع عنه والتنسيق بين المراكز الاسلامية الموجودة فى أوروبا وبـين مختلف المؤتمرات والملتقيات التى تنعقد فى العالم العربى .

وأضاف الاخ مولود قاسم أن وفد الجزائـر فى مؤتمر الكويت قد أكد بخصوص المراكز الاسلامية فى أوروبا عـلى ضرورة التنسيق الكامل بينهـا ومضاعفة عددها وذلك ليس فقط للتعريف بالفكر الاسلامى فى البلاد الاجنبية ولكن ـ وهذا هـو الأهم ـ للمحافظة على أبناء الجالية الموجودة هنـاك وخاصة فى أوروبا وأمريكا والذين كثيرا ما يتعرضون لمختلف وسائل الذوبان والسلخ عـن مجتمعهـم الاسلامى .

أما فيما يتعلق بالاعياد والمواسم الدينية أوضح الاخ مولود قاسم أن الوفد الجزائرى فى مؤتمـر الكويت قد أكد على ضرورة وأهمية توحيد هـذه المواسم بوضع تقويم قمرى ملزم شامل ومنظـم وثابت على مدار السنة ، الأمر الذى سيمكن البلاد الاسلامية من البرمجة والتخطيط بالنسبة للمستقبل دون انتظار ميلاد أو نهاية الشهر .

وأضاف الاخ الوزير أن الوضع اليـوم ليس وضع ما قبل ثلاثة عشر قرنا بل لدينا امكانيـات لمعرفة ميلاد الشهر أو اختفائه مقدما بشهور وسنوات

واحيانا بعشرات السنوات وقال أن الوفد الجزائرى قد اعلن فى المؤتمر أن الجزائر مستعدة للتنازل عن التقويم القمرى الذى وضعته لنفسها اذا ما اتفقت الدول العربية فى مرحلة أولى والدول الاسلامية فى مرحلة ثانية على وضع تقويم شامل وملزم للجميع .

وذكر الاخ مولود قاسم أن القرار الذى صادق عليه المؤتمر والمتصل بهذا الموضوع قد نص على تكوين لجنة تضم علماء الدين وعلماء الفلك من الجزائر وتونس ومصر والكويت وقطر لوضع تقويم قمرى ثابت مقدم بسنة وملزم لجميع الدول الاسلامية.

وأكد الاخ مولود قاسم بأن الموضوع هام للغاية عكس ما يبدو للبعض واذا كنا لا نتفق فى هذه الشكليات فكيف نريد أن نتفق فى المسائل الجوهرية .

وأضاف الاخ مولود قاسم : وحتى سمو أمير الكويت عندما استقبل وفد الوزراء المؤتمرين سألهم أول ما سألهم : « ماذا فعلتم لنا فى موضوع توحيد الاعياد ورمضان الخ ! اننا نجد أنفسنا دائما فى حرج وخجل عندما نكون فى أوروبا ويسألنا المستشرقون : لماذا تختلف الدول الاسلامية فى صومها وافطارها ومختلف أعيادها ! » .

ان اللجنة التى تم تشكيلها ستعرض التقويم الذى ستضعه على مدار السنة على المؤتمر القادم لوزراء الشؤون الدينية والاوقاف العرب الذى سينعقد فى الجزائر بمناسبة الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامى .

وقال أنه بشأن التنسيق بين المؤتمرات والملتقيات الاسلامية وبين المراكز الاسلامية الموجودة خاصة فى أوروبا تم تكوين لجنة تضم فى عضويتها الجزائر.

وعلى سؤال حول صدى ملتقيات التعرف على الفكر الاسلامى التى تنظم سنويا فى الجزائر ذكر الاخ مولود قاسم أن هناك اهتماما كبيرا جدا لدى أغلبية الدول العربية والاسلامية بهذه الملتقيات لانها تمتاز عن غيرها التى تنعقد فى البلدان العربية الأخرى بالاتصال والحوار الخصب الذى يدور بين الشباب والاساتذة المتخصصين . ولذا تقرر عقد المؤتمر القادم لوزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف بالجزائر بمناسبة عقد الملتقى الثامن حتى يتمكن هؤلاء الوزراء من حضوره .



مقررات وتوصيات مؤتمر وزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف فى البلاد العـربيـــة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسـول اللـه وعلى آله وصحبه ومن والاه من أجل اعلاء كلمة اللـه وتجاوبا مع مشاعر الامة العربية والاسلامية ووحدتها ونهوضا بـالواجب الملقى على عاتقها بالدفـاع عـن قضايـا المسلمين ومقدساتهم وتراثهـم وحضـارتهم ولغتهم ·

وبناء على الدعوة الكريمة الموجهة مـن السيد وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية فى دولـة الكويت وبرعاية من حضرة صاحب السمو أمير دولة الكويت المعظم وسمـو ولى العهد ورئيس مجلس الـوزراء ، انعقد مؤتمر وزراء الاوقـاف والشـؤون الاسلامية والدينية فى البـلاد العربية بدولـة الكويت فى الفترة الواقعة ما بين ٢٣ محرم ١٣٩٢ هـ المـوافق ٢٦/٢/١٩٧٣ م ـ ٢٨ محرم ١٣٩٢ المـوافق ٢/٣/١٩٧٣ ، وقد مثلت فى المؤتمر جميع الدول العربية كما شاركت الامانة العـامة الاسلامية لمـؤتمر وزراء الخارجية ومنظمة التحرير الفلسطينية ·

وبعد أن أجمع الحاضرون على اسنـاد رئاسة المـؤتمر الى السيد راشد عبد اللـه الفرحـان وزير الاوقاف والشؤون الاسلاميـة بدولـة الكويت تداول المؤتمر فى كافة الموضوعات المطروحة عليـه واستمع الى كلمات الوفود وتدارس جميع الاقتراحات المقدمة من الاعضاء وشكل لها اللجان المختصة وهى :

(١) لجنة الدعوة الاسلامية والصندوق ·

(٢) لجنة التنسيق والمقترحات ·

(٣) لجنة توحيد المناسبات الاسلامية ·

(٤) لجنة الصياغة ·

انتهى المؤتمر الى المقررات والتوصيات التالية :

أولا : ـ فيما يتعلق بالدعوة الاسلامية :

قـــــرر :

١ ـ انشاء صندوق للدعوة الاسلامية تكون المساهمة فيه اختيارية ·

٢ ـ اختيار الدعاة الصالحين مـن العلماء المؤهلين للنهوض بهـذا العبء مـع توفير الامكـانيـات الأدبية والمادية لهم ولنشاط دعوتهم ·

٣ ـ تعميـم مدارس تحفيظ القـرآن الكـريم وتفهيم معانيه لتكوين روافد للتعليم الدينى · ووضـع

· الحوافز المشجعة على الالتحاق بها ·

٤ ـ مراجعة ترجمات معانى القرآن الكريم فى كـل اللغات بدقة وعناية ·

٥ ـ مراقبة كل مـا يطبع مـن المصـاحف الشريفة بواسطة لجان من العلماء القـراء للتأكد مـن صحتها والوثوق بها وان تعلـن للدول العربية والاسلامية عند وقوفها على الأخطاء ·

٦ ـ وضع تفسير لكتاب الله يتضمن افضل مـا كتب فى هذا الشأن ويكون موضوعيا ومختصرا على أن يترجم الى اللغات الحيـة ولغـات الشعوب الاسلامية ·

٧ ـ العـودة بـالمسجد الى سيرتـه الأولى ووضـع أسلوب جديد لخطبة الجمعة ليقوم برسالته على اكمل وجـه ·

التوصيــات :

١ ـ يوصى المـؤتمر بالعنـاية بـابراز الحضـارة والثقافة الاسلامية مـع تجسيد تعـاليم الاسلام فى سلوك عام بين المسلمين بوضع خطة تجعل الشريعـة الاسلاميـة واقعا حيـا بحكم حيـاة المسلمين ·

٢ ـ **يوصى المؤتمر** : أ) ـ بانشـاء كليات للدعـوة الاسلامية ·

ب) ـ بتعديل منـاهج كليـات الحقوق بجعـل مـادة التشريع والفقه الاسلامى مـادة أسـاسيـة فى السـاعـات والـدرس تتناول كافة الأحكـام فى المعاملات وغيرها ·

٣ ـ يوصى المؤتمر بتطوير منـاهج التعليم وأساليبه فى كـل المـواد وبصورة تـدعم العقيدة وتركز الايمان فى نفوس الطلاب وجعل الديـن مـادة أساسية فى جميع المراحل التعليمية ·

٤ ـ يوصى المؤتمر بالعمل على ايجاد رياض اسلامية للأطفال يستغنى بها عن المؤسسات الاجنبية ·

٥ ـ زيادة الاهتمام والعناية بابناء الشهداء والايتام المسلمين ·

٦ ـ ايجاد التعاون بين وزارات الاوقـاف والشئون الدينية ووزارات الشؤون الاجتماعيـة والتعليم والاعـلام فى البلد الـواحد وتنسيق الجهـود وتبادل الآراء بين وزارات الاوقاف والشؤون الدينيـة بمختلف البلاد العربية والاسلامية ·

٧ ـ تغذية وكالة الانباء الاسلامية فى جده بالاخبار الصحيحة لتحرير الخبر الاسلامى مـن قيـود وعوائق وكالات الانباء الاجنبية ·

ثانيـا : وفيما يتعلق بتوحيد أوائـل الشهور القمريـة والمناسبات الدينية ·

قـــرر :

١) ان رؤيـة الهلال هى الأصـل فى تحديد أوائـل الشهور القمرية ، شرط الا تتمكن منها التهمـة تمكنا قويـا ، وهى تثبت بـالتواتر والاستفاضة أو بخبر الواحد العدل اذا لـم تتمكن التهمة فى الاخبـار لسبب من الأسبـاب ومنهـا مخـالفة الحساب الموثوق بـه ·

٢) انه لاعبرة باختلاف المطالع وان تباعدت الأقاليم متى كانت مشتركة فى جزء من ليلة الرؤية وان قل واذا ثبتت الرؤية فى بلد ، وجب أن تأخذ بها

البلدان الأخرى اذا كانت اذاعة ذلك البلد مـن جهة رسمية وبالوسائل المعتمدة ..

٣) انه اذا تعذرت الرؤيـة يجـوز الاعتمـاد على الحساب الفلكى الموثوق بـه .

٤) وجوب عمل تقويم قمرى بمعرفة لجنـة معتمدة مـن فقهـاء الشريعة الأسلامية وعلمـاء الفلك تلتـزم بـه الحكومات الاسلاميـة فى صومهـا وفطرهـا وفى تحديد مواسمهـا الدينيـة وفى تـاريخهـا .

٥) انه حتى يصدر هذا التقويم يبقى الاعتماد على رؤيـة الهـلال اساسا لتحديد اوائـل الشهور القمرية(وكما تحفظت عدة دول بخصوص بعض النقاط سجلت الجزائر التحفظ التالى بخصوص هذه النقطة : « يتحفظ وفد الجـزائر بخصوص النقطـة الخامسة مـن موضوع توحيد اوائـل الشهور القمرية والمناسبات الدينية وذلك طبقـا لمـا كان قـد صرح بـه رئيس الوفـد بمختلف المناسبات اثناء المؤتمر وخاصة فى كلمته الملقاة امـام المؤتمر . وكذلك لـدى اقرار توصيـات وقرارات المؤتمر من طرف رؤساء الوفود » .

٦) توطئة لاعتماد الحساب الفلكى الموثوق بـه فى تحديد أوائل الشهور القمرية يقرر المؤتمر تعميم المراصد الفلكية فى البلاد العربيـة والاسلامية والمبادرة الى تاليف اللجنة المشار اليها فى المادة الرابعـة بحيث تنتهى من مهمتها قبـل انعقـاد المـؤتمر الثـانى لوزراء الأوقـاف والشـؤون الاسلامية والدينية .

٧) اتخاذ يوم الجمعة عطلة اسبوعية رسمية لدى الحكومات العربيـة والاسلاميـة كـافة تاكيدا لوحدة الأمة الاسلامية وتعزيزا لشعائرها .

ثـالثا : فيما يتعلق بالتنسيق بيـن مختلف الأنشطـة الاسلامية .

قـــرر :

١) أن ينشىء المؤتمر مكتبـا للمتـابعة والتنفيذ ، يكـون تابعـا لـه ، ويسمى (بمكتب التنسيـق الاسلامى) ، ويوضع لهذا المكتب نظام خـاص يحدد شكل العمـل عند تنفيذ مقررات المؤتمر ، وتكون له ادارته وموظفوه وهيئة الاشراف فيه كما تكون له ميزانية خاصة به تسهم فى تغذيتها الدول العربية كـل حسب امكاناتها ، وان تكون دولة الكويت مقرا لـه .

٢) وان تكون مهمة مكتب التنسيق الاسلامى تامين الدراسات والمعلومات عـن حـاجات المسلمين الروحية والمادية فى شتى أنحاء العالم من جهة، وذلك بغرض توجيـه هذه الامكانات وتنميتهـا بحيث تكـون قـادرة علـى تغطيـة الحاجـات الاسلامية المشار اليها من جهة أخرى .

٣) بأن يهتم مكتب التنسيق الاسلامى بشكل خاص بالأمور التاليـة :

أ) التنسيق بين المؤتمرات الاسلامية التى تعقد فى شتى أنحاء العالم ، بحيث يعمل على عـدم انعقـاد أكثر من مـؤتمر واحد فى وقت واحد ، كما يعمل على عدم تكرار الموضوعات المطروحة والتى انتهى بحثها فى مؤتمر مـن المؤتمرات ، بالتنبيه الى ضرورة عدم طرحهـا فى مـؤتمر آخر .

ب) يساعد مكتب التنسيق الاسلامى على انشاء اتحاد محلى للجمعيات والهيئات الاسلامية فى كل دولة فيها نشاط اسلامى ، بحيث يتكون هذا الاتحـاد المحلى فى اطـار النظـم والقـوانين المعمول بهـا .

٤) بأن يقـوم الاتحاد المحلي بـاحصاء ودراسـة الحاجات الاسلامية المحلية مـن جهة واحصاء ودراسة الامكانات الاسلامية مـن جهة أخرى ، ويحـاول تغطيـة الحاجات الاسلامية المحليـة بالامكانات الاسلاميـة الموجـودة عـن طريـق التنسيـق • وفي حـال الحاجـة الى المعونـة الخارجية ، يعد الاتحـاد المحلي الدراسات في هذا الموضوع ويرفعها مع مقترحاته الى المؤتمر بواسطة مكتب التنسيق الاسلامي •

كما يرفع الاتحاد المحلي عن هذا الطريق أيضا ، تقاريره الدوريـة الى المؤتمر موضحـا بنـوع خـاص مـا يلـي :

١ ـ حاجات المسلمين في الدولـة التي ينتمـي الاتحاد اليهـا •

٢ ـ الامكانات التي يمكـن ان يقدمها المسلمون في هذه الدولة لمساعدة المسلمين في الدول الأخرى ، وينبغي ان تتناول هذه الحاجات والامكانات معلومات عـن البعثات الدينيـة والمنح الدراسيـة والجامعيـة والمسـاعدات المـالية والكتب والمجـلات والمنشورات والمـواد الاعلامية الاسلاميـة المتنوعـة والمعلومـات المتعلقـة بالشبهات التي يثيرها اعـداء الاسلام للـرد عليها وتفنيدها بما يحض الناشئة ويمكن للعقيدة في النفـوس •

٥) أن يجتمع المؤتمر مـرة في السنة ، وكلمـا دعت الضرورة الى ذلك ، بدعـوة مـن وزيـر الأوقاف والشؤون الاسلاميـة والدينية في أي بلد مـن البلدان التي يتم الاتفـاق المسبق على انعقاد المؤتمر فيها •

رابعـا : وفيما يتعلق بالمقترحات العـامة التي تقدمت بها الوفود

قـــرر :

١ ـ تعطى الافضلية للحركات الاسلامية التي تضع هدف تحرير المقدسات الاسلاميـة في فلسطيـن وهدف تحريـر الاراضي العربيـة المحتلـة في طليعة التزاماتها •

٢ ـ يستنكر المؤتمر ما تلاقيه الاقليات الاسلامية من عسف واضطهاد في كثير مـن البـلاد ويطالب بايقاف المجازر ضد المسلمين في الفلبين وغيرها كمـا يطالب بالافراج عن الاسرى الباكستانيين كما يشجب التفرقة العنصرية اينما تكون •

٣ ـ ويعلن استنكاره للعدوان الصهيوني على طائرة الركاب المدنيين الليبية وعلى مخيمات اللاجئين في لبنـان ويهيب بـالضمير العـالمي ان ينهض لوضع حد لمثل هذا الطغيان •

٤ ـ يحيي المؤتمر حكومات وشعوب البلدان الافريقية التي قطعت علاقاتها مع اسرائيل ويقدر موقفها النبيل ويدعو لمناصرتها وتمتين العلاقات معها •

٥ ـ وضع قانون موحد للأوقاف مستمد من الشريعة الاسلامية بحيث يكون محققا للاهداف السامية التي وجدت الاوقاف من أجلهـا •

٦ ـ يوصي المؤتمر الدول العربية والاسلامية بالنص في دساتيرها على ان دين الدولة هـو الاسلام والشريعة الاسلامية هي مصدر التشريع •

٧ ـ يوصي المؤتمر الدول العربيـة والاسلامية بنبذ الخلافات السياسية والمذهبية وحـل مشكلاتهم بالطرق السلمية والعمل صفـا واحدا لتعـزيز الكيان الاسلامي وحماية وجوده •

٨ ـ يفـوض المـؤتمر وزيـر الاوقـاف والشـؤون الاسلامية بدولـة الكويت الاشراف على مكتب التنسيق الاسلامي وادارته حتى انعقـاد المؤتمر القـادم •

٩ ـ لايسـع المؤتمر اخيرا الا ان يرفـع الى حضرة صاحب السمو امير دولة الكويت المعظم اجزل الشكر وخالص التقدير والامتنان على رعـايته السامية لهذا المؤتمر ، كما يقدم شكره الصادق لمعالي وزير الاوقاف ومساعديه وللصحافة وسائر اجهزة الاعلام في الكويت على مـا قدموه مـن جهود مخلصة لانجاح هذا المؤتمر وايصاله الى ما يتطلع اليه من خير للامة الاسلامية •

امليـن من اللـه العلي القدير ان يصون دولـة الكويت وكافة الدول العربية والاسلامية ويجمع كلمة المسئولين فيها في ظـل الاسلام ومبادئـه الرفيعـة •

توصيات الملتقى الوطني للموسيقى الاندلسية

ننشر فيما يلى نص التوصيات التى صادق عليها
الملتقى الوطنى للموسيقى الاندلسية الذى انعقد فى الشهر الماضى بـالجزائر

توصيـات اللجنة الخـامسـة
المكلفـة بـالمحتوى والتطويـر
وآفـاق المستقبـل

اجتمعت اللجنـة الخـامسة المكلفة بمشاكل المحتوى والتطويـر وافاق المستقبل بمقر المعهد الوطنى للمـوسيقى مـن ٢١ الى ٢٣/٢/١٩٧٣ ، وارتأت بأنه ،

نظرا لما تحتوى عليه الأغنية الجزائرية الكلاسيكية أو غيرها من كلمات وعبارات لا تتناسب وبعض الظروف الاجتماعية ،

ونظـرا الى أن بهـا بعض التوجيهات الخلقية تتنافى والتوجيه السليم للجيل الصاعد ،

ونظـرا للـدور الذى تلعبـه الأغنية كوسيلة توصيل لغوى ،

ونظرا الى انها تعكس جانبا مهمـا مـن الحيـاة الاجتماعيـة والثقافية لمجتمع مـا فـان اللجنة الخامسة توصى بما يلى :

١ ـ فيما يخص المحتوى والتطوير :

أ ـ تنقيـح واصـلاح بعض الكلمات والعبارات غير اللائقة في النصـوص المغنـاة مـن الشعـر والموشحات ،

ب ـ تكليف مجموعـة مـن الشعراء

ـ اما بنظم قطع شعريـة تتوفر فيها مقاييس المعانى والموازين التى تتـوفـر فى مقطـوعـات التـراث الموسيقى

ـ واما باختيار القطع الشعرية التى تتوفر فيها نفس المقاييس من النتاج العربى ،

ج ـ دعوة المطربين الى المحافظة على سلامـة النطق والوضوح فى الاداء ،

د ـ دعوة الملحنين الى استلهام التراث لتغذيـة الحـانهم الجديدة والمحافظة على الطابع الوطنى فى الألحان ،

ـ ليتسنى مزج التراث بأسلوب حديث فى حياتنا العصرية

ـ لتحبيبه الى الأجيال الحديثة وجعله فى متناول الجميع واعطائه بعدا عالميا

ـ ليساهم فى التربية الموسيقية للأجيال الصاعدة

هـ ـ دعوة الفنـانين المعاصرين الى السموبنتاجهم الفنى ومسايرة الثـورة لصقـل الأذواق وتهذيب العواطف وربط الفن بالحياة ليكون فى خدمة الجماهير الشعبية ،

٢ ـ فيما يخص آفاق المستقبل :

ان اللجنة الخامسة توجه دعوة الى المسؤولين

١ ـ لتخصيص عنـاية كـافيـة بالأغنية العصرية ورجالها لتكون تلك العناية دافعـا للفنـانين على النتاج بثقة واعتدال ٠

ب ـ لتخصيص جـوائز تحمل اسماء شهداء فنانين تمنح للفائزين فى المبارات والمهرجانات التى تقام عبر الوطن ٠

ج ـ تكوين لجنة وطنية دائمـة مهمتها تنفيذ قرارات وتوصيـات والملتقيات والعمـل باستمرار على تطوير الموسيقى الوطنية ٠

د ـ لاطـلاق اسم : المـوسيقى الكلاسيكية الجزائرية على التراث الموسيقى المسمى سابقا الموسيقى الأندلسية ٠

قرارات اللجنـة الثـانية المكلفـة بالمحافظة على التـراث الوطنى

ان الثورة الثقافية التى يشعر كل جزائرى بضرورتها الملحة مـن أجـل تشييد مجتمـع اشتراكى ، يجب حتمـا أن تقوم على أسـاس استعادة الشخصية وقيمها الثقافية الأصلية ٠

وبناء على هذا فان اسـاس كل عمل يجب أن يوجـه من أجـل المحافظة على تراثنـا الموسيقى فى جميع أشكال تعابيره ٠

ان اللجنة الثـانية المجتمعة فى ٢١ و ٢٢ فيفرى ١٩٧٣ ، وبعد اطلاعها على عمليات جمع التراث من طرف المعهد الوطنى للموسيقى وشعورا منها بضرورة شمول هذا العمل لجميع أنـواع الموسيقى فى كافة أنحاء التراب الوطنى، توصى بما يلى :

١ ـ مـواصـلة هذه المهمـة وباستعمال جميع الوسائل التقنية مثـل التسجيـل على الأشـرطـة السمعية منها والبصرية ، والكتابة. وباتباع المناهج الحديثة والاستفادة مـن خبـرات مختلف الشيـوخ الحـاملين لهذا التراث وبـالرواة الذين لهم معرفـة فى هذا الميدان ، كـل هذا مـن أجـل المحافظة على اصالة تراثنا ٠

٢ ـ الاستفـادة مـن جميع مصـادر الاعـلام مثـل الاذاعـة والتلفـزة الجزائريـة والمكتبـات الخ ٠٠٠ وتدعو اللجنة المؤسسات والهيئات العمومية مثل المجـالس الشعبية البلدية والولايات واللجان الجهوية ومديريات التربية والثقافة كمـا تدعو جميع الاشخاص الذين يملكون وثـائق خاصة ان يقدمـوا للمعهد الـوطنى للمـوسيقى كـل مساعدتهم من أجـل انجـاح هذا العمل ذى الأهمية الوطنية ٠

٣ ـ تبنى فيما يتعلق باشغال التنويط الموسيقى ، النظام العالى المكمل بالاشكال النوعية الخاصة بموسيقانا حسب النتائج التى تـم الوصول اليها حتى الآن ٠

٤ ـ مـواصلـة عمليـات الدراسة والبحث للمواد التى تـم جمعهـا طبقـا للمناهج العلميـة كالمقارنـة وتحديد القـواعد التى ينبغى أن تسير بمقتضاها مختلف أنواع التراث الموسيقى وترتيبهـا ونشرها ٠

٥ ـ المحـافظة على اصـالة الأسلوب الخاص بكـل مدرسة او بكـل جهـة طبقـا لنتـائج البحث والدراسة التى تم التوصل اليهـا وذلك لكـى لا نقضـى على هـذه الثورة محافظـة على تنوعهـا فى اطار الوحدة ٠

ان اللجنة الثانية تعبر عـن ارتياحها لانشـاء مصلحة تـابعة للمعهد الـوطنى للموسيقى مكلفة

بالمحافظـة على وثـائق التـراث الموسيقى ٠

وبناء على هذا فـان اعضاء اللجنة الثانية يلحون على ضرورة اسناد مهمة المحافظة على كل ماله علاقـة بـالموسيقى بمـا فـى ذلك الآلات الموسيقية الى المعهد الوطنى للموسيقى ٠

كما تعبر اللجنة عن ارتياحها لـوضع مشـروع انشـاء متحف للآلات الموسيقية ٠

وتغتنم اللجنة فرصة انعقاد هذا الملتقى للفت انتبـاه السلطات العمومية لقـائمة الآلات الأصليـة التى يتركب منها الجوق التقليدى للموسيقى الكلاسيكية، هذه الآلات هى الرباب ، كويطرة ، الدربوكة ، عـود عربى ، قـانون الجـواق ، والنغرات ٠

ان الأداء الغنـائى يمكن ان يكون جماعيا او فرديـا بالتناوب بينهمـا ٠

ونظرا لتعدد الآلات المستعملة فان اللجنـة لا تمانع مـن ادخـال جميـع الآلات التى لهـا تاثير على الشبـاب بشرط الا تشوه سلمنـا المـوسيقـى والا تـمس بجمـال موسيقانا ٠

وفى الاخير فـان الشيـوخ المشاركين فى اللجنة الثانية شعورا منهم بـالدور الذى يتعين عليهـم القيام به من أجـل انجـاح مهمة المحافظـة على التـراث الموسيقى المناطة بالمعهد الوطنى للموسيقى ، يتعهدون بمساعدة المعهد، ويرجون من كـل الشيوخ تقديم مساعداتهم الفعلية ليـؤدى هذه المهمـة على اكمل وجـه ٠

تـوصيـات اللجنـة الأولـى المكلفة بمشـاكل تنظيم المهرجـان

ان وزارة الاعلام والثقافة ، سعيا منها وراء التعريف بتراثنـا الموسيقى وتطويره قد قامت بتنظيم عـدة تظـاهرات فنيـة بواسطـة الاسـابيع الثقـافية والمهرجانات الوطنية ٠

وقد برهنت هذه التظاهرات على انهـا احسـن طريـق لجمـع مختلف انواع الموسيقى وحصرها ، كما انها احسن حافز لتنمية نشاط الجمعيات الموسيقية ٠

وشعـورا بضرورة وجـود تقـاليـد ثقـافيـة بحيث تصبـح التظاهرات الفنية ذات طابع رسمى يساعد على تنشيط طاقة الجماهير الشعبية ، لذا فان اعضـاء اللجنة الأولى المجتمعين بتاريخ ٢١ و ٢٢ فبراير ١٩٧٣ يوصون بالآتى :

١ ـ تنظيـم مهـرجـانـات للموسيقى الكلاسيكية ٠

ـ مهرجانات للمـوسيقى والأغانى الشعبية ٠

ـ مهـرجانـات للفكلـور ومهرجانات للموسيقى والأغـانى العصرية ٠

٢ ـ اقامة نظام للمهرجانات المقبلة بحيث تتم بالتناوب كل ثلاث سنـوات ، بـاستثنـاء مهرجـان الموسيقى والأغانى العصرية الذى ينظم كل سنة ٠

٣ ـ العمـل مـن الآن علـى اقامة تنظيمات نوعية لكل مهرجان، بحيث يطلـع عليهـا المشـاركون بسنـة على الأقـل قبل التظاهرات المقررة ، الا أن هذا الأجل سيخفض الى ستة اشهر بالنسبـة لمهرجـان الموسيقى والأغانى العصرية ٠

وفى الأخير ، ولكى نتمكـن من ايجاد تقاليد فنية خاصة ببعض المدن الكبرى بالبلاد فـان اللجنة الأولى تعبـر عـن رغبتهـا فى أن يشرع فى جعـل المهرجانات تأخذ اتجاها لا مركزيا ٠

وتفضل اللجنة أن يتم اختيار المدن من جهة على أساس التقـاليد الثقافية الموجودة بتلك المدن ، ومن جهة ثانية على أساس وجود هياكل للاستقبال تكون مناسبـة ٠

تـوصيـات اللجنـة الثـالثـة
المكلفة بنشر الموسيقى

ايمانا بالدور الذى تستطيع أن تلعبه الموسيقى فى رفع المستوى الثقافى لبلاد هى فى ازدهار مستمر مثل بلادنا يـؤكد المشاركون فى اللجنة الثـالثة ضرورة نشر هذه الموسيقى على أوسع نطاق بأحدث الوسائل وأكثرها فعالية ·

وبناء عليه فهم يوصون بمـا يلى :

١ ـ تكـويـن وتـوعيـة الجمهور بوسائل مثل :

أ ـ محـاضرات متبـوعـة بحفلات موسيقية وأخرى تتخللها نمـاذج مـوسيقيـة ومتبـوعـة بمناقشـات ·

ب ـ حفلات موسيقية قـارة ومتنقلة تحييها فرق مختصة ·

ج ـ نشـر وتـوزيـع الاسطوانات والأشرطة المسجلـة « كاسات » بأسعار منخفضة ··· وتحتوى على برامج معدة اعدادا خاصا ومرفقة بتوضيحات وتعاليق مكتوبـة أو منطوقـة بعدة لغـات للمسـاعـدة على فهم محتـوى ذات المقطوعات المسجلة ·

د ـ اخراج افـلام موسيقية ذات طابع تعليمى أو ترفيهى ·

هـ ـ نشر وتوزيع المطبوعات الموسيقية والمجلات وغيرها لتعليم هذا الفن والتعريف به ·

و ـ تـأسيس هيـأة وطنيـة تتمتع بمنحة قارة مماثلة لمـا هـو موجود فى بلدان أخرى تحت اسم « السبيبة الموسيقية » ·

ز ـ تنظيم العاب ومسابقات مختلفة لتعريف الشبـاب بشؤون الموسيقى ·

ولكى تكون هذه الجهود أكثر فائدة فان دور البلديات والولايات ضرورى وحتمى ·

وينبغـى علـى البلديـات بالخصوص :

أ ـ الـدعـوة الى تكويـن جمعيات موسيقية وتشجيعها ·

ب ـ توفير المحلات للجمعيات وتسهيـل جمع جميع الضروريـة لنشاطها ، آلات ، وثائق منشطون·

وعلى مستـوى الـولايـات ينبغى تكوين لجان ثقافية جهويـة تكلف ليس بمسـاعدة الجمعيـات والفرق الموجودة وتنسيق جهودها فحسب ، بـل باقتراح المبـادرات وتخطيط المبادلات داخـل الولايـة وبين الولايـات والعناية بجـودة البـرامج التى تعرض فى مختلف المناسبـات ·

٢ ـ توسيع المبـادلات مـع الخـارج بـالفـرق المـوسيقيـة والشخصيـات الفنيـة والبرامـج الاذاعية والتلفزيونية والاسطوانات والمؤلفـات المختصة مـع احترام قواعد المعاملة فى التبادل ·

٣ ـ على الاذاعة والتلفزيون التى لهـا دور أسـاسى فى هـذا الميدان :

أ ـ أن تخصص للمـوسيقى الجزائرية بجميع أنواعها التقليدية أو العصريـة مقدارا مـن الـوقت يعادل على الأقل ثلثى المقدار العام المخصص لبـرامـج المـوسيقى والمنوعـات ·

ب ـ أن تحـدد لـبـرامـج الموسيقى الجزائرية أوقاتا مناسبة للسمـاع مـوزعـة علـى مختلف القنوات ·

ولتحديد هذه الأوقات وهذه البرامج تـوصى اللجنـة بتكوين لجنـة استشاريـة للبرامج لـدى الادارة العامة للاذاعة والتلفزيون الجزائرية مؤلفة من مسؤولين من الاذاعة الوطنية ومـن شخصيات ثقـافية وموسيقية يعينهـا وزيـر

الاعلام والثقافة ويمكن أن يكون ، مهام هذه اللجنة ابـداء الراى فى المبادلات مع الخارج ·

ج ـ أن تنظم بطريقة منهجية مستمرة ، بـرامج موسيقيـة فى المحطات الجهوية والأستوديوهات خارج العاصمة ·

وأخيرا بما أن نشر الموسيقى الوطنيـة يتطلب موسيقيين اكفـاء كثيرين فان المشاركين فى الملتقى يلتمسون من كافة المسؤولين بصفة خاصة :

١ ـ أن يضمنـــوا لجميـع الـموسيقيين ، مـؤلفين وملحنيـن ومطربيـن وعـازفين ومعلميـن ، احترام حقوقهم كفنانين وعمـال ، احتراما كليـا ·

ب ـ أن يعفو مـن الرسـوم الجمركية الآلات الموسيقية والقطع اللازمة لهـا والتى هى ضروريـة لتعليم وممارسة الفن الموسيقى ·

ج ـ أن يوفروا ـ فى قريب ـ الامكانيات اللازمة لصناعة الآلات الموسيقية داخـل الوطن ·

توصيات اللجنة الرابعـة الخـاصـة بـالتعليم والتكويـن

ان لجنـة التعليم والتكوين المتفرعـة عـن الملتقـى الـوطنى للـموسيقى المنعقـد بـالجـزائـر والمجتمعة بالمعهد الوطنى للموسيقى من ٢١ الى ٢٣ فيفرى ١٩٧٣ ·

ـ شعـورا منهـا بضرورة تكامل الأبعاد الثقافية الاصلية فى اطار الاختيارات الاساسية للوطن·

ـ حرصا منهـا على تكوين المواطن الصالح الذى يكون رائـد المجتمع الاشتراكى ·

ـ شعـورا منهـا بضرورة اعطاء الطفل تعليما متكاملا وتربية جمالية ملائمة ·

توصى بما يلى :

١ ـ توجيهـات عـامة :

١ ـ أن الموسيقى باعتبارها تربيـة فنيـة وجماليـة ، يجب أن تمارس فى جميع الأوساط التربوية ابتـداء مـن أولى مراحـل حيـاة الطفل ·

ويتحتم ان تتواصل ممارستها وتتاكد خلال جميع اطوار التكوين·

ب ـ يجب أن تهدف التربية الفنيـة والجمـاليـة فى التعليـم الابتدائى الى تربية الذوق الموسيقى لدى الطفل وتلقينه ·

فى اطار النشاط الثقافى ـ المبادىء الأولية لهذا الفـن وذلك طبقا لميوله واستعداداته الطبيعية·

ج ـ ان هذه التربية المبسطة يجب أن تسمح للطفل بالتعرف على المبـادىء الاسـاسية للـموسيقى وخاصة الايقاع والالحـان ، وذلك بـاستعمـــال الطـرق التربـويـة النشيطة ·

ويجب أن تعتمد أساسا على الغناء الجماعى واستعمال الآلات الموسيقية التى تكـون فى متنـاول الطفل ·

د ـ أمـا بـالنسبـة للتعليم المتـوسـط والثـانـوى فيجب أن تتواصل التربية الموسيقية بصورة أعمق واكثر اعتمـادا على دراسة النظريات الموسيقية والنوتة وتاريخ هذا الفـن ·

يجب كـذلك أن يتـواصـل الاعتمـاد على الغنـاء الجمـاعى بصفته أساسا لهذه التربية ، ومن المامول أن تجرى ممـارسة احدى الآلات الموسيقية ·

هـ ـ تتمنى اللجنة أن يستمر تعليم المـوسيقى فى الجـامعة وأن يتـواصل الاهتمـام بهـا فى هذا المستوى ·

٢ ـ الوسـائـل :

وللـوصـول الى الأهـداف المحددة آنفا فمن الضرورى تسخير

الوسائل البشرية والمادية الكافيـة والملائمة ٠

ويتمثـل اعـداد الوسـائل البشريـة ، بادىء ذى بدىء ، فى تكوين الاطارات تكوينا ملائما لكل مرحلة من مراحل التعليم بالاعتماد على مختلف مراحل النمو النفسانى للتلميذ ٠

وينبغى أن يتم هذا التكوين فى المظهرين الآتيين :

ـ التكـويـن الاولى داخـل المؤسسات المخصصة لهذا الشان من جهة

ـ تنظيـم دورات تـدريبيـة للمعلمين المبـاشرين للعمل ، مـن جهة أخرى مع اعلام واسع النطاق متجه لكل فئات المعلمين ٠

اما بالنسبة للوسائل المادية فهى تشمـل التجهيـزات الفرديـة والجمـاعيـة فى صـورة وسـائل سمعية وبصرية ومطبوعات ٠

ومن ناحية أخرى يتم انتاج تلك الوسائل من طرف القطـاعات الوطنية المختصة ٠

واللجنـة الفـرعيـة تقترح مبدئيا الوسائل الاتية :

أ ـ طبـع مختـارات مـن الانـاشيد المدرسيـة تشتمل على الكلمات والموسيقى ٠

ب ـ طبـع كتب مـدرسيـة خاصة بتعليم هاته المادة ٠

ج ـ اعداد وسـائل تعليمية جماعية وفردية مرفوقـة بمذكرات تربوية ٠

د ـ انتـاج اسطـوانـات واشرطة تعليمية ٠

هـ ـ انتاج أفلام وصور ثابتة تعليمية مرفقة بمذكرات توضيحية للمعلم ٠

و ـ انتـاج افـلام ثقـافيـة وترفيهية ضمن منتوجات السينما التربوية التابعـة للمعهد التربوى الوطنى ٠

ز ـ تـزويد كـل مؤسسـة تعليمية بـآلات التسجيل والعرض السنمائى وجهاز اسطوانات ٠

٣ ـ هياكل التكويـن :

بغية الاستجـابة للحاجيات مـن الاطراف الموسيقيـة فى كـل المستويات التى يبـدو فيهـا نقص ثـابت سـواء على صعيد التبليغ (عازفين) أو على مستوى التكوين (اطارات مكونة) ، توصى اللجنة الفرعية بما يلى :

أ ـ القيـام بصفـة عـاجلة بانشاء وحدة تكوينية ذات نظـام داخلى بالجزائر العاصمة لاستقبال التلاميذ الوافدين من مختلف أنحاء المهنى ، تعليما ملائمـا ومختصـا بالناحية التربوية والثقافية ٠

ج ـ انشـاء مدارس للتربية والقسنطينـى ٠

ومـن الضرورى أن تتلقـى الاطـارات المستفيـدة مـن هـذا التكويـن ، عـلاوة على التكويـن كل ما سمحت الظروف بذلك ٠

الموسيقيـة على مستوى البلديات ، وفى نطـاق هـذه العمليـة الهادفـة الى التعريف بـالموسيقى

على أوسع نطاق وتكوين الاطارات توصى اللجنـة بـاشراك المدارس والمعاهد البلدية الموجودة حاليا :

د ـ انشاء مؤسسة مختصة تتولى تكويـن الاطـارات الفنيـة وانتـاج مختلف الآلات الموسيقية لتحقيـق الأهـداف المنشـودة ، وتدريب نفس الاطارات القائمة على هذا الانتاج ٠

هـ ـ انشـاء مسلك دراسـى مستـوى القطاعيـن الـوهرانـى يؤدى الى تخريج حملة البكالوريا الموسيقية ٠

وفى الختـام فـان اللجنـة الفرعية ترجو مـن كـل السلطات

ب ـ انشـاء وحدات تكوين أخرى فى مرحلة قادمة على البلاد ٠

المعنيـة أن تنعكف علـى وضـع القوانين الخاصة بالمهنة الموسيقية وفق السياسة الثقافية للبلاد ٠

٤ ـ التنسيق بين الهيئات المعنية :

من أجل مضاعفة النشاطات المنجزة من طرفمختلف المؤسسات المكلفة بانتاج ونشر وتبليغ المـادة الموسيقية ، فعلى جميع القطاعات الوزارية المضطلعة بدور الوصاية أن تقوم بما يلى :

أ ـ تنصيب لجان تقنية ٠

ب ـ تنشيـط لجـان البحث والدراسة ٠

ج ـ القيـام بالترتيبـات الاداريـة اللازمـة بغيـة ضمـان المساهمة فى ترقية سياسة ثقـافية وطنية متجددة ، وذلك بفضل القيام بالتزاماتها المشتركة ٠



نافذة على العالم

الحضارة

ن. شوربجى

الانسان : عود على بدء ؟

على الرغم من أن قابيل مازال يقتل اخاه ، نجد ان جهود الأنبياء والمشرعين والمصلحين الأخلاقيين تنجح عبر مئات القرون فى التوصل الى تحريم اكل الانسان لحم اخيه الانسان . وباستثناء بعض المجتمعات البدائية المنعزلة التى يقال : بأن أفرادها يتعاطون اكل لحوم البشر ، وباستثناء بعض الحالات القاهرة خلال الحروب وفى معسكرات الاعتقال - يمكن القول بان الانسان بكل ألوانه واجناسه اصبح مقتنعا بهذا التحريم، مثل قناعته مثلا باستحالة الزواج من والديه .

قبيل أعياد الميــلاد المنصرمة اهتزت مشاعــر الانسانية من جديد وبعنف ، ازاء خبر يزلزل هذه القناعة ، وينكص الى الوراء بكل ما تم التعارف عليه بين البشر المتحضر •

بدأت القصة المثيرة فى طائرة للركاب كانت تحمل فريقا رياضيا من الأرجواى فى امريكا اللاتينية • اذ اصطدمت الطائرة وهى تحلق فوق جبل الاندين فى الشيلى وسقطت على قمة يبلغ ارتفاعها 3600 مترا • وتصادف سقوطها فى هاوية عميقة ضمن الجبل ، مما سبب انهيار جرار من الثلج سقط فوق الطائرة ودفن تسعة وعشرين فردا من ركابها • أما من نجى مـن الكارثة وعددهم ستة عشر مسافرا فقد التجأوا الى الجزء المتبقى من هيكل الطائرة ، وظلوا يقاومون الموت بردا وجوعا مدة تسعة وستين يوما الى ان تم العثور عليهم وانقاذهم •

اعتبر انقاذ الرياضيين الباقين على قيد الحيـــاة معجزة . الا ان المعجزة سرعان ما تحولت الى مأساة مرعبة • فقد ذكر الناجون من أعضاء الفريق الرياضى بانهم استعانوا على مقاومة البرد والجوع بما تبقى فى مستودع الطائرة من الطعمة • وعندما نفذت مؤونتهم لجأوا خلال الاسابيع الاربعة الاخيرة الى تدبـير خطير جدا وهى الاقتيات بلحوم رفاقهم الموتى . والذيـن مازالت جثثهم محفوظة ضمن الثلج • وبعد حـوار طويل بين الناجين تم تنفيذ القرار . وكان اللحـــم البشرى المقتطع من جثة احد الرفاق يكفى لاطعـام مجموعة الناجين وعددهم ستة عشر رجلا مدة خمسة أيام . وعلى ذلك اقتات الرياضيون بلحم ستــة من رفاقهم الموتى •

أثار الخبر ومازال يثير ردود فعل مختلفة لدى البشر فى أنحاء العالم . وسارع علماء اللا هوت لتقييم هذا العمل . والحكم على « آكلى لحوم البشر » بالعفـو أو بالادانة . ومن الطرافة بمكان ان احدا لم يجرؤ على ادانة عملهم • حتى الفاتيكان نفسه مال الى تبرير عملهم من الناحية الاخلاقية ، باعتبار ان عملهم تـم بدفع ضرورة قاهرة وحفاظا على الحياة •

اما من الناحية القانونية فان هذا الموضوع يماثل الى حد كبير فحوى الدعوى التى رفعتها سيدة زنجية امريكية مؤخرا ضد ذلك الطبيب الذى سمح لنفسه وبدون اذن منها ـــ ان ينتزع قلب زوجها الشاب . وكان الشاب الزنجى قد قتل فى حادث اصطـدام سيارة ، فزرع اخصائى القلب قلب الزنجى فى صدر مريض احضر الى المستشفى مصابا بأزمة قلبية مميتة ولربما سيلجأ اقرباء الرياضيين الذين « افترس » رفاقهم لحومهم الى القضاء أيضا لينظر فى هذه القضية الفريدة من نوعها فى التاريخ المعاصر •

الصحـة

الطريق الى القبر معطر باريج القهوة .

يجمع الاطباء أن الاكثار من الاطعمة ، وقلة الحركة، والاجهاد . والتدخين وتناول المشروبات الكحوليـة من بين العوامل الرئيسية التى تسبب مرض الذبحة الصدرية . والى هذه العوامل تمكن العلماء مؤخرا من اضافة عنصر جديد هو القهوة التى يتناولها الناس بنسب مختلفة ويعتبر الامريكيون فى طليعة مستهلكى القهوة « اذ يبلغ متوسط استهلاك الفرد سنويا حوالى ألف فنجا نمن القهوة » مما دفع الاطباء الاميركان الى

الشك بان شرب القهوة يساعد على الاصابة بمرض المدنية الاول فى عصرنا اى بالذبحة الصدرية أو (الجلطة) .

وقد نشرت مجلة الطب البريطانية مؤخرا نتائج بحث كان الاطباء الاميركان قداجروه على 1380 مريضا فى مستشفيات مدينة بوسطن . واختار الاطباء بصفة خاصة من بين هؤلاء المرضى 276 مريضا كانوا دخلوا الى المستشفى بسبب اصابتهم بذبحة صدرية حادة. وقد حرص الاطباء عـلى استجواب هـؤلاء المرضى والاستعلام منهم عن كمية ونوع المشروبات التى كانوا يتناولونها يوميا.وخاصة القهوة،أو تدخين السجاير وفيما اذا كانوا قد اصيبوا بارتفاع ضغط الدم ، أو بمرض السكر ... الخ فتبين للاطباء ان نسبـة الاصابة بالذبحة كانت مرتفعـة بشكل واضـح بين أولئك المرضى الذين يتناولون القهـوة . فالشخص الذى كان يتناول أكثر من خمسة فناجين من القهوة يوميا كان احتمال تعرضه للازمة القلبية مضاعفـا بالنسبة للشخص الزاهد فى القهـوة . والسيدات اللواتى يشربن القهوة يتعرضن أكثر من الرجـال لخطر الاصابة بالذبحة .

فمن يستهلك من السيدات عشرة فناجين مـن القهوة أو أكثر يوميا . يكون تعرضهن للازمة القلبية اربعة أضعاف بالنسبة لغيرهن . ولا يقتصر خطـر الاصابة بالذبحة عن المدمنين على شرب القهوة . بل يشمل أولئك الذين يتناولـون السائـل الاسـود (القهوة) باعتدال فهم يتعرضون بالاصابة بل اكثر من أولئك الذين يشربون القهوة اطلاقا . فالذيـن يشربون وسطيا فنجانا الى خمسة فناجين من القهوة فى اليوم من المرضى الموضوعين تحت الدراسـة فى مستشفى بوسطن - يتعرضون للاصابة بالذبحـة أكثر بمرة ونصف من الاشخاص الذين لا يشربون القهوة . علاوة على ذلك تبين للاطباء الباحثين بـان الشخص الذى يحمل جسمه عناء شرب أكثر مـن خمسة فناجين من القهوة . بالاصابة الى تدخين أكثر من عشرين سجارة يوميا ، يتعرض للاصابة بالذبحة ثلاث مرات أكثر من زميله الذى لا يدخن ولا يشرب القهوة .

غير انه لم يتضح للاطباء بعد ماهية المادة الموجودة فى القهوة ، والتى تسبب الذبحة الصدرية . ومـن المحتمل انها مادة كيماوية تؤثر على عملية تبـادل المواد الدسمة أى على كمية الكوليترين فى الدم . ولا يستبعد الاطباء أيضا انه يكون للعنصر النفسانى دور فى الموضوع ، وذلك بان يكون الاشخاص المدمنون على شربالقهوة بنفس الوقت نماذجلأولئك الاشخاص المعرضون بالاصابة بالذبحة الصدرية .

وهنا لابد من الاشارة ان مادة الطائفتين الموجودة فى القهوة ، والتى تسبب نشاطا للانسان عقب شرب القهوة ، ليست مسؤولة عن الاصابة بالذبحة كما قد يخيل للبعض . ذلك ان كمية 100 - 150 ملليجرام من الطائفتين التى يحتويها فنجان القهوة موجـودة بنفس النسبة فى أى فنجان من الشاى .

أما شراب الشاى فقد تبين لنفس الباحثين وبشكل يثير الدهشة - انه ليس مضرا ، بل على العكس تبين أنه وسيلة تساعد على الوقاية من الاصابة بالذبحـة الصدرية فالمرضى الذينكانوا يحتسون أكثر منخمسة فناجين من الشاى يوميا - بدلا من شرب القهوة -

تقل نسبة اصابتهم بالذبحة خمسين بالمئة بالنسبة الى الاشخاص الذين لا يشربون الشاى ! .

الجنـــس

العلاقة بين الجنســين فى الصين الشعبية .

لربما يلوح موقف شعب الصين من الجنس محيرا بالنسبة للزائر الاجنبى. ففى الايام الاولى من الاقامة فى الصين يلوح للزائر كمـا لو ان الصينيين ليس لديهم اهتمام بالجنس كلية . فثياب الصينيين فضفاضة خيطت للنساء وللرجال على السواء ، وعلى نمط واحد، وتتميز انها لا تساعد البتته على اظهار شكل تقاطيع الجسم. وكذلك يندر للزائر ان يصادف امرأة ترتدى (تنورة) أو ثوبا نسائيا

ومع ذلك تمتلىء متاجر الدولة فى مدينتى بكـين وشنغـاى بانواع وفيرة من دهون البشرة ومستحضرات التجميل . ويذكر أحد المحررين الغربيين ان الفضول دفعه ليسأل فتاة صينية تعمل دليلــة فى معرض سنغـاى الصناعى عمن يستعمـل طائفـة الالـوان والمساحيق والعطور المعروضة على الرفوف فى أروقة المعرض ؟ فتلعثمت الفتاة قليلا ، ثم اجابت بان مواد التجميل معدة للتصدير . وفيما بعد شرع أحد القائمين على المعرض حقيقـــة الامـر قائـــلا : « ان الفتيات الصينيات يحببن الجمال الطبيعى » . وفى الصـــين يقابل الزائر فتيات جميلات جذابات ، يعمل بعضهن فى الصناعة ، وحتى فى ميادين من الصناعة ليست مخصصة فى بلاد أخرى للنساء. ورغم ذلك تحافظ الفتاة الصينية على انوثتها ، فهى تتقبل ــ شأنهـا شأن أى فتاة أخرى ــ نظرة اعجاب من الرجل بابتسامة رقيقة تدل على العرفان .

ويذكر المحرر نفسه انه قابل فى ترسانه السفن فى شنغهاى فتاة طويلة فاتحة البشرة تحمل آلـــة ثقب فى يدها . فتوقف ليبادلها الحديث . وبعــد تبادل أسئلة وأجوبة فى مواضيع تدور حول عملها ، تطرق ليسألها فيما اذا كانت متزوجة؟ فما كان منها الا ان أجابته على الفور : « بان هذا الموضوع أمـــر شخصى » . ثم استدركت ضاحكة بانها « لم تتزوج بعـــد » .

هناك ظاهرة هامة يتميز بها المجتمع فى الصين الشعبية ، تتلخص فى تحريم Taboo العلاقات الجنسية قبل الزواج ، وفى ضبط النفس الشديد فى التعبير عن الحب وعن العواطف .

ومن النادر ان يرى الزائر الشباب والفتيات سوية الا ان ذلك لا يشمل الازواج من النساء والرجـــال الذين يتمشون عبر الطريق المحاذى للنهر فى مدينة شنغاى . والمجال الرئيسى لتقابل الشباب والفتيات يكون فى المدرسة أو فى العمل أو فى قصر الثقافـة الشعبى . وهذه الاماكن السالفة الذكر هى المواضع التى التقى فيها الازواج بزوجاتهم حسبما يؤكـــد الكثير من الصينيـين .

أما بالنسبة الى الحب فان الكثير مـــن الصينين يضحكون عندما يسألهم زائر غربى فيما اذا كانـوا يقولون لزوجاتهم عبارة « أحبك » ؟

ويجيب ناشر احدى الصحف فى شنغهاى على نفس السؤال بان «هذه العبارة أى احبك، ليست ضرورية» ويقول «نحن نفهم هذه الاشياء دون ان نحتاج للتفوه بها »

ومع ذلك يجد الزائران الجنس أمر معترف بـه فى الصين الشعبية . حينما يسـافر المـرء يرى أقساما مخصصة للعيادات التناسلية فى المستشفيات الملحقة بالبلديات وبالمعامل ، تقدم حبوب منع الحمل مجانا . وتؤمن الاجهاض بنفقات زهيدة . ومراكـز رعاية الامومة أساسية ومنظمة . وتحصل الامهات عادة على اجازة أمومة مقدارها خمسون يوما . وتبقى المرأة الوالدة اسبوعا فى المستشفى بعد اتمام الوضع وهى تنهض وتسير على قدميها عقب الولادة ومنـذ اليوم الاول . وكما يصرح احـد اطباء الصـين : « لا تسبب ولادة طفل للمرأة العاملة فى الحقل أى مشكلة » .

بحسب التقاليد السابقة فى الصين يتمنى الاهل ان يرزقوا ببنين يرثونهم أما الفتيات فلا قيمة كبيرة لهن ، الا ان الموقف سرعان ما تبدل حديثا بالنسبة للرغبة فى الحصول على بنين . فالدولة تهتم بأمور المواطنين فى الشيخوخة . ولم يعد المواطن يعتمد على ابنائه فى العناية به عند الكبر . اما بالنسبة للمهنة التى يفضلها الاباء فى الصين لابنائهم ، فان اختيار المهنة اصبح مرتبطا بالدولة ولا ادل على التلاحـم الوثيق بين المواطن والدولة من الاجابة التى ذكرها أحد الاباء الصينيين حول موضوع اختيار مهنة لابنه : « أى شىء » سيؤدى الى خدمة الدولة سيكون جيدا لابنى » .

التميز العنصـرى

هل حرر ابراهام لينكولن العبيد حقا ؟

تعتبر مشكلة التميز العنصرى من ابرز المواضيع التى تهز بعنف اركان « الديمقراطية » فى الولايات المتحدة . فهى تمسك بخناق المجتمع الاميركى وتتسبب فى أونة الى أخرى فى اصطدامات دموية ، وحوادث عنف يذهب ضحيتها عادة « المواطنون الاميركيون السود » ، وكثيرا ما يكون الاغتيال والتصفية الجسدية من بين الوسائل التى يستخدمها العنصريون البيض للتخلص من رجال المقاومة كما حدث للزعيم الراحل مارتين لوتركيغ . ومن بين الوسائل الاخرى العديدة أرسال الاميركيين « الزنوج » الى آتون الحـرب فى فيتنام . وهى حرب لا ناقة للسود فيها ولا جمل . لذلك كانت عناقيد الغضب تتجمع لتنفجر فى الوطن نفسه — فى الاطار المدنى ، مثلما تتجمع فى الخارج — حتى ضمن الاطار العسكرى ، وحيثما وجد الجنـود السود فى قطعات الجيش والبحرية الاميركية .

لعل من أخطر مظاهر انفجار الغضب الاسود القتال الذى نشب مؤخرا بين البحارة السود وزملائهم البيض العاملين على حاملة الطائرات الاميركية المسماة «كيتى حول » . وهى احدى قطع الاسطول الامريكى العامل قرب سواحل فيتنام . وعلى الرغم من ان ثورة الملاحين السود كانت صغـيرة فى انتشارها . محدودة فى وسائلها ، حرصت دوائر البنتاغون اخفاء امرها قدر المستطاع ، وتمويه أسبابها وحقائقها . ومـع ذلك ما لبث الخبر ان تسرب وانتشر فى العالم بعد عودة الحاملة الى قاعدتها فى ميناء سان ديجو .

هنالك روايات عديدة حول الحـادث واسبابه . ويقول الملاح الابيض جونسن أحد شهود المعركة : ابتدأت الفتنة على ظهر الحاملة بان لوح أحد البحارة السود بقضيب من الحديد ثم رمى به ضابطا أبيضا فاصابه فى ساقه . وما لبث القتال ان نشب وكانت

اسلحته الايدى واللكمات ، وكانت صيحات الملاحين البيض تـدوى : « اقتلوا الزنوج N.ggerse » ، وصرخات الملاحين السود تنادى : «اقتلوهم اقتلوهم» واستخدم الطرفان كل ما وصلت اليه الايدى مـــن سلاسل حديديـة، وكراسى وعصى بعنف متناهى • ويقول الشاهد جونسون : « انه خيل اليه ان أمر حاملة الطائرات التى تزن 75000 طن قد أفلت مـن يدى قائدها وانتقل الى جماعة من الثائرين الزنوج هبوا لاصطياد الملاحين البيض ! » •

ومن الواضح هذا الادعاء لا ينسجم مع الحقيقـة الراهنة . فالجنود السود لا يتجاوز عددهـــم 600 ملاح مقابل 4400 ملاحا ابيضا . كما أن الملاحين السود لم يكن لديهم أسلحة بعكس بوليس الحاملة المسلحين•

اخطأ قائد الحاملة عندما اذاع فى خضم الازمـــة « بأن الامور ليست سيئة كما قد يتراءى » . «فالفتنة التى نشبت على ظهر الحاملة الاميركية كيتى هـــول لم تنحصر آثارها فى هذه السفينـة بل انها هزت البحرية الحربية الاميركية بكاملها وحتى جذورها» . حسب تعبير جريدة التايمز الصادرة فى لوس انجلوس وسرعان ما أعقبها فتن عنصرية مماثلة على السفـن الاخرى • مما جعل البنتاغون يضطر للاعتراف «بان التميز العنصرى النظامى مازال يمارس يوميـا فى أوساط البحرية الحربية الاميركية » •

ورغم ذلك ما زالت غلالة من السرية « تلف الاحداث التى جرت على سطح الحاملة كيتى هول » • ويقـال بان جذور الفتنة بدأت منذ رسو الحاملة فى موانىء الفليبين • فالتميز العنصرى لم يقتصر على نطـــاق الفتنة فقط ـ حيث حجز البحارة السود على ظهرها مدة ثمانية أشهر ـ بل انتقل الى اليابسة أيضا فلم يطق السود تحمله • ويبدو ان التميز فى المعاملة بين الملاحين السود والبيض يعتبر أمرا مالوفا فى القاعدة البحرية . ففى كل مطعم أو بار أو ملهى يلقى الملاحون السود معاملة من الدرجة الثانية •

ومع القلق ازداد عـــدد الاشاعات • وما لبثت الاشاعات ان تحولت الى حقيقة عندما قام أربعـون ملاحا أبيضا بالاعتداء على ملاح اسود فى نادى سان ميجويل . وما ان وصل الخبر الى البحارة السود حتى بلغ الغضب أشده . وكانت السفينة آنـــذاك تشق طريقها اتجاه المياه الفيتنامية . واحتقن الجـــو فى السفينة الى درجة من السخط لم يكن يعلم معها فى أى لحظـة ينفجر فيها .

حدث الانفجار ليلة 12 اكتوبر 1972 . وكان سببه تافها • يقال بان أحد الطهاة البيض رفض اعطاء ملاح أسود نصيبه الاضافى من الطعام . وهناك من يقول بان أحد البيض جلس فى مكان محجوز لملاح أسود ، أو انه فرض على أحد الملاحين السود ان يمسح أشياء سكبها ملاح أبيض على الارض .

المهم ان الملاحين الاميركيين السود ضاقت صدورهم بالاضطهاد وبالمذلة . وما لبث العراك بالايـدى ان أعقب المبارزة بالكلمات وبالشتائم • وسرعان ما تدخل بوليس السفينة شاهرا الاسلحة لكى «يخضع السود ويلقيهم الى الخارج » حسبما تناهى الى سمع ملاح أسود• وانتشر القتال من المطعم الى سطح المنبر حيث كان الصراخ وتحطيم الكراسى تسمع من بعيد • ويقول أحد البحارة انه سمع ضابطا فى السفينة يأمر باعداد الاسلحة . وباطلاق النار اذا لزم الامر •

ومن الغريب ان الصراع العرقى على ظهر الحاملة لم يقتصر على الملاحين . بل شمل القيادة أيضا • فقد حاول الضابط الاول وهو اسود ان يفصل المتقاتلين فطلب من بوليس الحاملة الانسحاب الى مقدمة السفينة وأمر الملاحين السود ان يذهبوا الى المطعم فى المؤخر • وهنا يدعقائد الحاملة الى التدخل فيلغى الامر الذى آذاعه الضابط الاول الاسود عبر مكبرات الصوت فى الحاملة . ويذيع القائد مصححا بان الضابط الاول كان لديه معلومات خاطئة عن الفتنة •

ولقد أسفر الصراع العنصرى على ظهر حاملـــة الطائرات الامريكية « كيتى هول » عـــن اصابة 46 ملاحا بجروح . وعن تقديم 21 ملاحا الى المحاكم الحربية

الادب

ألف ليلة وليلة والاسلام •

كتب الاديب الالمانى يوهان ولفجانج جوتـة فى فى الحواشى والتذيلات على « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » يقول :

« ان الرسول محمدا (ص) فى اعراضه عن الشعر كان منطقيا مع نفسه الى أقصى الحدود حين حرم كافة الاساطير • فقد كانت الاعيب ذلك الخيال الارعـــن الذى يحوم فيما بين الواقع والمستحيل ويصور غير الممكن وكأنه حقيقة لا تقبل التجريح . أنسب ما يكون فى عرف الحسية الشرقية الى الراحة الرخية . والكسل المريح • وقد تكاثرت هذه الاشكال الهوائية المتأرجحة فوق أرضية من الاعاجيب الى ما لا نهاية له فى عهـد الساسانيين . وهو ماتعرضه لنا « ألف ليلة وليلة » فى امثلة مصفوفة على خيط محلول • وان طابعها الذى يميزها ان ليس لها غاية خلقية . وعليه فانها لا تمضى بالانسان عائدة به الى ذاته . وانما تنطلق بـــه الى خارج نفسه حيث الحرية المطلقة . وما اراد الرسول محمد هو عكس هذا على خط مستقيم •



وضع المرأة .. في اميركا اللاتينية !

نشرت منظمة الدول الاميركية ، مؤخرا ، تقريرا يشير الى بعض المعطيات حول المرأة في اميركا اللاتينية . ويشير التقرير ، فيما يتعلق بالدراسة الابتدائية الى ان غياب الجنس اللطيف وتركه للمدرسة كبير النسبة ، وهو يتمركز في المناطق الريفية بشكل حاد وكثيف ، وهـذا يمكن تفسيره بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية من جهة ، وباضطرارها وحدها للقيام باعباء المنزل من جهة أخرى ، وبالاحكام المسبقة حـول قضية التعليم من جهة ثالثة . اما الرغبة في متابعة الدراسة لما بعـد المرحلة الابتدائية فمعدومة عند النسـاء ، بسبب الـزواج .. وأيضاً بسبب العمل . اما على مستوى التعليم العالي فالفروقات بين نسبـة الرجال ونسبة النساء يمكن الحديث عنها بلا حرج .

كل هذا ما هو الا دليل حاسم على الوضع الذي تعيشه المـرأة في جنوب القارة الاميركية .. ولكن هنا لا بد من طرح تساؤل حاد : كم هي بعيدة أميركا اللاتينية عن وطننا العربي .. وفي هذا المجال بشكل خاص.

ترى أليس صحيحا ان البعد يقترب .. وان المصيبة بامكانها جمع من لا يجتمع ؟

N° 13

فهـرس العـدد

التوجيهات الحديثة للدعوة الاسلامية

مولود قاسم
وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأمين العام .
اصحاب السعادة .
حضرات السادة والسيدات .

اود في بدء هذه الكلمة ان اسدى واجب الشكر للامانة العامة الاسلامية على هذه البادرة الطيبة التى اتخذتها بعقد هذا المؤتمر الذى حان وقته ، ومنذ مدة ، والذى نرجو ان يبقى مؤسسة دائمة تنعقد دوراتها بانتظام ، وان تتوسع لتشمل افريقيا ، وآسيا ،وامريكا ، واستراليا ، بحيث يصبح هذا المؤتمر في اجل قريب مؤتمر المراكز الاسلامية في العالم ، عند ما توجد هذه المراكز ، ويجب ان توجد .

حضرات السادة .

لقد كان الموضوع الأول المقترح على هو « الاسلام دين ودولة ونظام اجتماعى كامل » ، وهو موضوع على اهميته كنت طرقته في الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد في الجزائر في الصيف الماضي ، ونشر فيما بعد في مجلة الأصالة ، ولذا رحبت كل الترحيب بالموضوع الجديد الذى اقترحته الامانة العامة الاسلامية فيما بعد عوض الأول ، والذى ساحاول ان اطرقه اليوم ، اذ يندرج اكثر في جدول اعمال المؤتمر .

غير انى ساعطيه وجهة ربما تختلف قليلا عما يكون قد قصد منه السادة منظمو المؤتمر ، اذا ما فهمته جيد الفهم .

وذلك ان المقصود عامة بمفهوم الدعوة هو كسب مسلمين جدد ، اى زيادة عدد المسلمين في العالم . فاذا كان هذا هو المقصود من الموضوع المقترح على طرقه فانى قد اصدم بعض العواطف ، واخيب بعض الآمال ، اذا ما اختلفت وجهة نظرى عن هذا الراى ، اللهم الا اذا اعتبرنا انفسنا نحن مسلمى اليوم غير مسلمين حقا وصدقا ، واردنا ان نعود بانفسنا الى الاسلام الصحيح ، وفي هذه الحال لا باس، بل من المستحسن ، بل من الواجب ان نحاول زيادة الانصار حتى من بين الذين لم يرثوا الاسلام معنا ارثا ابا عن جد ، منذ اربعة عشر قرنا او بضعة قرون على الاقل ، ونعمل على كسب اكبر عدد ممكن منهم للاسلام ، الذى نود ان نقول انه هو الطريق الامثل للانسانية دائما ، واليوم اكثر من اى وقت مضى.

كلمة السيد مولود قاسم وزير التعليم الاصلي والشؤون الدينية في مؤتمر المراكز الاسلامية المنعقد في لندن فيما بين 14 - 16 ربيع الثانى 1393 هـ — 17 - 19 مايو 1973 م .

وذلك ان عدد المسلمين الناشئين الذين ينصرفون عن الاسلام ، او على الاقل المعرضين لمختلف الهزات والزوابع الدعائية المختلفة ، وبالتالي المتشككين في قيمه الخالدة وفي صلاحيته لكل زمان ومكان وحتى اليوم وغدا ، يزداد باطراد ، هنا خارج العالم الاسلامي حيث توجد جاليات كبيرة وخاصة الصغار منهم الذين يندمجون بسهولة في الوسط الذي هم فيه ، وبالتالي ينسلخون بسهولة اكبر عن اصلهم واصالتهم من دين ، وثقافة ، وتقاليد ، بل وكثيرا ما ينسلخون حتى عن جنسياتهم بمجرد بلوغ السن القانونية ، بفعل تاثير الوسط ، وكذلك بفعل التركيز عليهم من طرف منظمات مختلفة لكسبهم لأديان اخرى ، منزلة او وضعية ، وحتى تلك الاتجاهات التي تنكر الاديان هي في الواقع اديان جديدة حسب منطق هيجل الذي استند اليه دعاة الدين المادي الجديد .

على اننا نجد هذا الانجراف ، او على الأقل هذه الزعزعة للعقائد الصحيحة ، وهذه الخلخلة للمفاهيم السليمة ، حتى داخل العالم الاسلامي او ما يسمى كذلك ، حيث تجد البعثات التبشيرية المتعددة والاتجاهات المادية الالحادية الانحلالية مرتعا خصبا في غفلة عن الاجهزة المسؤولة من هذه البلدان ، المنهمكة غالبا في البناء المادي الصرف ، او المتهالكة على معارك جانبية ، وفي كلتا الحالتين يبقى الشباب مسلما تسليما يكاد يكون كليا لاسراب الدعاة المختلفة الاشكال والالوان ، سواء منها التي تتكلم علانية عن تمسيح شعوب العالم الثالث عوض التركيز على شعوبها التي تعاني هي بدورها ما تعاني ، او تلك الاخرى التي تدعو للجنة الارضية التي لم تر منها شعوبها الا النزر القليل !

ومن هنا دعوت في الكلمة التي القيتها اخيرا في الكويت في مؤتمر وزراء الشؤون الدينية والاسلامية والاوقاف الى الاهتمام بنوعين من المراكز الاسلامية ، داخلية في البلدان الاسلامية نفسها لتحصين شبابها ، وخارجية حيثما وجدت جالية اسلامية للحفاظ على ابنائها هناك ، سواء كان ذلك في اوروبا ، او امريكا ، او استراليا ، او في بلدان افريقية واسيوية كثيرة .

وذلك انى اتصور الدعوة الاسلامية الحديثة مركزة بالدرجة الاولى على ابنائنا وبناتنا ، حتى لا ينسلخوا عن الاسلام ، قبل ان نهتم بكسب مسلمين جدد ، من المانيا ، او بريطانيا ، او اليابان ، او غيرها ، وكم من واحد يفرح ويهلل عند ما يسمع او يتعرف بفرنسي او ابرازيلي دخل في الاسلام ، وفي نفس الوقت لا يهمه مصير عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين الذين يذوبون في الهجرة ، في امريكا اللاتينية ، او فرنسا ، او بريطانيا ، او امريكا ، ولا مآل الشباب الاسلامي داخل العالم الاسلامي نفسه وهو يتعرض لمختلف مؤامرات التفتيت ، والسلخ ، والمسخ ، باسم ايديولوجيات مختلفة ، او مذاهب واديان عديدة ، بل ولا يهمهم مصير عشرات الملايين من المسلمين هنا وهناك في العالم الاوسع !

ان العبرة بالكيف وليست بالكم ، وتعداد الامة الاسلامية والحمد لله هائل ، يقرب المليار ، ولكنه ، مع الاسف الشديد ، الف كاف ! فالاجدر بنا ان نهتم بما في بيتنا اولا ، ونحصنه ، ونضمنه ، قبل ان نرنو بانظارنا بعيدا ، ونفرح بكل من يدفعه نوع من حب الفولكلور ، او تحركهم اغراض

اخرى خطيرة على مصير ما تبقى من امتنا الى الدخول في الاسلام ، لتخريبه من داخله ، وما الدونمة عنا ببعيدة ، وامتنا المسكينة لا تزال تعاني من ويلاتها ومؤامراتها الى الآن !

ولذا فاذا كان الاسلام ليس ملكنا ، وهو الدين عند الله ، وليس لنا ان نغلق بابه امام احد ، فانه ليس من صالح الامة الاسلامية ايضا ان تتهافت على التضخم ، وتزيد من تعدادها بطريقة اصطناعية تعود عليها بالوبال اكثر مما تفيدها ، والاجدر بها الف مرة ان تمتن اساسها ، وتعزز بناءه على ما هو عليه ، من ان تتهالك على بناء طبقات عديدة فوقه تنهار على البناء الاصلي ، وتؤدي به عوض ان تزيد من علوه ، وجماله ، وقوته .

ولكن الذي يجب علينا ان نقوم به ، وقد نكون قد قصرنا فيه التقصير الكبير ، منذ وفاة شكيب ارسلان ، هو دحض الاباطيل ورد المفتريات التي تبثها اوساط مختلفة المشارب ، ولكنها موحدة الهدف ضد الاسلام ، لابانة وجهه الروحي والثقافي الصحيح ، واماطة الستار الذي اسدلته عن دوره الحضاري الانساني قرون من الجمود ، والركود ، والتخلف ، وعمقه الاستعمار وركائزه من تبشيرية ، وايديولوجية مختلفة ، من صهيونية وغيرها ، وما اكثرن الوانها واصباغها !

وهذا وحده عمل عظيم سيتطلب جهودا مضنية ، ولكن اذا كانت يصاحبها شيء من التصميم والتخطيط ، ولم تعدم التنسيق ، وكانت شاملة لجوانب الفكر الاسلامي وحضارته ، وشارحة للجوانب الروحية ، والاجتماعية ، والصحية ، والاقتصادية ، والتشريعية ، التي تشتمل عليها اعمدته ،كالجانب الاجتماعي الاقتصادي في الزكاة ، والصحي التربوي في الصوم ، والروحي بل والسياسي ايضا في الصلاة والحج ، بنظرة علمية كما يقال اليوم ، من اقتصادية ، واجتماعية ، ونفسية ، وطبية ، تقوم على الفحص والتحليل ، والامثلة ، والمقارنة ، فان هذه الجهود ستاتي بثمرة مزدوجة ، تقنع شبابنا الضائع او المعرض للضياع بصلاحية دينه لكل زمان ومكان ، وتمحو من اذهان كثير من غير المسلمين ما يكون قد علق بها من دعايات واكاذيب عن الاسلام ، وتجذبها اليه ، وتكسب له انصارا جددا ، ومسلمين عن اعتقاد واقتناع قد يصلحون اكثر من الذين ورثوه ارثا ، ولم يتعمقوا في دراسته ، او على الاقل لم يتشبعوا بروحه ، وانما بقي عندهم على مستوى العادات والتقاليد ، والطقوس الآلية الرتيبة .

على اننا ينبغي لنا دائما ان نكون حذرين ، فامثال اتيان ديني ، او عبد الكريم جرمانوس قليلون جدا ، وامثال ليون روش (Léon Roche) في الجزائر ، وغيره من الدونمات الكثيرة ، ومن يهودية ، ومسيحية ، وغيرها ، لا تكاد تحصى ، وكما كانت موجودة بالأمس ، فهي اليوم اكثر وجودا واقوى عددا ، واحد سلاحا ، وان كان هذا لا ينطبق طبعا على الجماهير او القبائل الافريقية او الأسيوية التي تدخل في الإسلام افواجا .

واذا ما اردنا الآن ان نبين بعض الوسائل لتحقيق هدف هذه الدعوة الشاملة للمسلمين وغير المسلمين ، فربما استطعنا ان نذكر الطرق الآتية على سبيل المثل لا الحصر :

1) تكوين الدعاة :

فللقيام بدعوة ما لا بد من دعاة ، ودعاة الاسلام في عالم اليوم ينبغي ان يتسلحوا بوسائل اليوم ، فحتى داخل العالم الاسلامي ينبغي لأئمة المنابر مثلا ان يقلعوا عن طرقهم القديمة ، التي لا تقنع الا الكبار المسنين المقتنعين ، فطريقة الوعظ والارشاد ينبغي ان تتغير جذريا ، فالدعوة الخصبة المثمرة هي التي تنصب على غير المقتنعين لتقنعهم ، وعلى المزعزعين المذبذبين لتعيدهم الى الجادة الصحيحة وتحصنهم ، وخاصة منهم ما يسمى بالشباب المثقف الذي هو ليس في الغالب الا متعلما لا مثقفا • ولذا فعلينا ان نحرص على اعطاء ثقافة واسعة متنوعة شاملة لدعاتنا لكي يخاطبوا شباب اليوم بلغته ، وليقولوا له وهو الذي يتكلم عن العلم والعلمية والتفتح وافيون الشعوب ان باستور و اينشتاين كانا يخرجان من مخبريهما احدهما الى كنيسته ، والآخر الى بيعته ، وان عبقريتهما واكتشافاتهما العلمية لم تمنعهما من الايمان بدينهما والعمل بهما ، بل عمقت فيهما الروح ، والايمان ، والتمسك بعقيدتيهما ، كما راينا ذلك لدى اسلافنا من امثال الرازي ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وابن الجزار ، وابن القاسم ، وغيرهم ممن اسهموا في الحضارة الانسانية وقدموا العلم البشري درجات ، ومع ذلك ظلوا مسلمين وربما احسن من كثير من غيرهم ممن لم يسيروا في الارض ولم ينظروا ، ولم يتفكروا ، ولم يتذكروا ، ولم يعقلوا ، ولم يبصروا ، ولم يشتغلوا في المخابر ، ولا امسكت ايديهم بالمجاهر !

2) التركيز على الشباب والذهاب اليهم في انديتهم ، ومقاهيهم ، ومعسكراتهم ، ومراكزهم حيثما كانت ، وعدم التأفف من ذلك ، كما هي عادة ائمتنا ودعاتنا الذين يفضلون الحلول السهلة المتمثلة في الاقتصار على الشيوخ الذين ينصتون اليهم وهم مقتنعون مقدما ، ويفرون من الشباب وجيل اليوم مستعيذين منه ، ومبسملين ،محوقلين !

وينبغي ان يستعملوا مع الشباب الطرق التربوية التي يكونون قد تلقوها هم انفسهم ، حتى لا يصدموا الشباب بالموانع والمحرمات فحسب ، بل يحاولون ان يكسبوهم ، مع تبصيرهم بلغة العصر باخطار سلوكهم واخطاره عليهم ومستقبلهم • وما الذي يمنع مثلا دعاتنا من ان يقولوا للشباب في التلفزة ، والاذاعة ، وخطب الجمعة ، ودروس الوعظ والارشاد في المساجد ، والنوادي ، وغيرها ، انه الى جانب راى الشريعة الاسلامية في الخمر والكحول عامة ، نجد ان اوروبا اليوم تقاوم هذه الآفة لاضرارها بالصحة ، والانتاج ، وتسببها في امراض عديدة ، وفي حوادث السير والعمل ، وان عالما اوروبيا مشهورا مثل المؤرخ ارنولد طوينبي – ونحن في بلده – قال : انه من مزايا الاسلام على البشرية انه منع جميع انواع السكر ؟ ان استعمال مثل هذه البراهين قد يفيد لدى الشباب اكثر من مائة درس وعظ وارشاد مع الاسف ! وما الذي يمنع من الجمع بين الاثنين ؟

وما الذي يمنع من ان نقول في تحذيرنا من العواقب الوخيمة للاختلاط اللاضروري جدا انه الى جانب حكم الاسلام في ذلك نجد ان علماء اجتماعيين كثيرين في اوروبا وامريكا ينسبون اليه ما انحدرت اليه الاوضاع الاخلاقية فيهما اليوم ، وان فيلسوفا عظيما مثل برتراند راسل مثلا – ونحن في بلده ايضا – كتب في مؤلفه : «الاخلاق والزواج» ما يلي : «هناك شرط مهم يساعد في دعم الحياة

الزوجية ، ذلك هو خلو الحياة الاجتماعية من النظم التي تسمح بالمصادقة والمخالطة بين الرجال والنساء، سواء في العمل او في المناسبات والحفلات وما شاكلها» .

ويضيف راسل فيقول :

ان العلاقات العاطفية بين المتزوجين وغير المتزوجين من رجال ونساء خارج دائرة الحياة الزوجية هي سبب شقاء الازواج وكثرة حوادث الطلاق ، وليس عسيرا ان نجمع امثلة كثيرة عن البيوت التي انهارت بسبب اتصال الازواج والزوجات بغير شركائهم في الحياة الزوجية ، سواء في العمل او في المناسبات الاجتماعية » .

ان الاستدلال بهذا الراى مثلا في مناقشة مع الشباب في مثل هذا الموضوع لفي غاية الاهمية بالنسبة للامام في منبره ، او في نادى الشباب ، او في الشارع ، او في اى مكان ، الى جانب بيان راى الاسلام في الموضوع طبعا ، الا ان اكتفاءه بهذا الاخير قد لا يكون له اى صدى مع الاسف لدى شباب اليوم ، الذى قد يقولون له ان هذا كان منذ اربعة عشر قرنا ، لدى نزول القرآن ، اما نحن ففي القرن العشرين . ولذا فليستدرك ايضا براى اعظم فيلسوف من فلاسفة اوروبا وامريكا في القرن العشرين، وسيكون لكلام الامام وقع وصدى ! وقد كنت قلت في الملتقى الخامس للتعرف على الفكر الاسلامي في وهران سنة 1391 ـ 1971 اننا في هذا لسنا مع اولئك الذين يدعوننا باسم التقاليد الى اغلاق كل من الابواب والنوافذ ، ولا مع اولئك الذين يدعوننا باسم التفتح والتطور الى فتح النوافذ،والابواب، ونزع السقوف ايضا ، بل نحن مع الحل الاوسط الذى يقضي بالاحتفاظ بالسقف ، مع فتح النوافذ ، بل والابواب عند اللزوم ، وهذا وحده هو الحل السليم .

3) تطوير دور المسجد ليقوم بالتعليم ايضا للكبار والشباب الذين فاتتهم سن التعليم ، وتحفيظ القرآن للصبية والقاء المحاضرات ، وادارة المناقشات ، هذا كله يجعل دور المسجد حيويا خصبا ، ويجذب اليه المصلين ، ويمكنه من القيام بدوره لا كمسجد فحسب ، بل وايضا كمدرسة ، ومجلس علم، ومنتدى ، وملتقى ، وخلية نحل ، مما يجعله مركز الحي او القرية،يحيد بالكثير من الشباب بل والكهول عن اماكن اخرى لا يتعلمون فيها الا المضار .

4) تأسيس جامعات اسلامية على غرار الجامعة الازهرية الحالية ، وجامعة لوفان ببلجيكا ، والجامعة الكاثوليكية بفرنسا ، حيث تدرس جميع العلوم الحديثة مع العلوم الدينية والاخلاقية بحيث يتخرج منها الطبيب مثلا مجهزا بأحدث المعلومات والتجارب وفي نفس الوقت محصنا بالاخلاقيات والقيم الانسانية المثل التي يتمثلها مع المواد الدينية ، والاخلاقية ، والتربوية .

وتبنى الجزائر حاليا الكلية الأولى من هذا النوع في قسنطينة كنواة اولى لجامعة اسلامية كاملة تشمل جميع الكليات ، حتى العلمية منها كالطب ، والهندسة ، والزراعة ، والعلوم الخ .

5) زيادة الاهتمام بالنشر في المجلات والجرائد والكتب في العالم الاسلامي وخارجه ، وخاصة خارجه ، لنشر مبادىء الاسلام ، وابراز دوره الحضاري في تاريخ الانسانية والاكتشافات العلمية لرجالاته في الماضي ، مع تشجيع باكورات الجهود الحالية في المجال العلمي .

6) تجنيد اجهزة الاعلام والتأثير على الجماهير من صحافة ، واذاعة ، وتلفزة ، ومسارح في نفس

الغرض ، عوض الدور السلبي الذى تقوم به حاليا هذه الاجهزة في اغلب انحاء العالم الاسلامي ، بما تعرضه من خلاعات في قصصها ، وافلامها وصورها ، ومسرحياتها عامة .

7) حضور جميع المحافل العلمية خاصة خارج العالم الاسلامي بقدر الامكان لتمثيل وجه الاسلام الحقيقي ، بابراز صفحاته المجيدة والرد على المفتريات التى تبث عنه بمناسبة ودون مناسبة في جميع انحاء العالم .

8) تنظيم ملتقيات دورية للشباب في العالم الاسلامي وخارجه لتعريف شبابنا وشباب العالم بالاسلام مع ضمان مستوى عال من حيث المحاضرين والمناقشين وافساح مجال المناقشة للشباب .

9) اقامة جامعات ومعاهد ومدارس ثانوية وابتدائية في العالم الاسلامي الاوسع وخارجه بقدر الامكان مع ضمان ازدواجية اللغة ، لتزويد شباب الاسلام بتكوين تام وتحصينه من مختلف التيارات الجارفة التى تستهدفه في مختلف انحاء العالم بمختلف الطرق وخاصة بطريق التعليم .

وذلك ان الاكتفاء بارسال بضعة مصاحف او كتب من حين لآخر او ارسال وفود عابرة ، او عقد بعض الاجتماعات ، كل هذا يتبخر بسرعة وفي وقته ولا يكون له خصب كبير ذو فعالية وتاثير باقيين ونتائج متجددة دائمة .

فلتقم الجزائر مثلا او المغرب او تونس او معا ثانوية في باريس مزدوجة اللغة توصل حتى الشهادة الثانوية ، لأبناء الجالية الاسلامية هناك ،ولينضم اليها بقدر الطاقة حتى آخرون ، ولتفعل مصر او باكستان او ماليزيا او ليبيا نفس الشيء هنا في لندن ، ولتشيد المملكة العربية السعودية او الكويت جامعة في كوناكرى ، او نواقشط ، او روما ولتقم سوريا كلية او ثانوية في سيراليون ، او بلغراد ، او في اية مدينة اخرى في افريقيا او آسيا، وليقم هذا البلد او ذاك مسجدا ومدرسةابتدائية او ثانوية ملحقة به في التشاد ، او اندونيسيا ، او اسبانيا ، او البرازيل ، او واشنطن .

وليكن هذا العمل بتعاون واسهام بين جميع الدول الاسلامية او ببوادر انفرادية خاصة بكل دولة، ولكن بتنسيق وتوزيع عمل بينها من طرف الامانة العامة الاسلامية مثلا ، كأن تعلمها كل دولة تريد التبرع باقامة جامعة ، او كلية ، او ثانوية ، او جامع مع مدرسة ابتدائية في بلد ما بعزمها حتى لا تنصب جهود عدة دول على مدينة او بلد واحد وتبقى اخرى بدون شيء ، وليكن في ذلك تسابق ايجابي بين الدول الاسلامية ، وفي ذلك فلتتنافس المتنافسات !

بل ولم لا يفتح الباب في ذلك امام الجمعيات الخيرية ، بل والافراد المحسنين ايضا ومختلف المنظمات ، ولتكن مثلا ثانوية او مدرسة فلان بن فلان الكويتي ، او الافغاني في كندا ، او زنجبار ، او ثانوية او جامع ومدرسة جمعية الاصلاح الاجتماعي الكويتية في ستوكهولم او ثانوية او جامع ومدرسة جمعية تحفيظ القرآن التونسية في جنيف ، او بروكسيل ، او اوغاندا او الكمرون ، او اريتريا ، وقد راينا في الجزائر افرادا متوسطي الدخل انشأوا مساجد ومدارس معها في مدن مختلفة من القطر من مالهم الخاص ، تتبناها الدولة فيما بعد وتضمن تسييرها .

وستتبنى كثير من الدول في افريقيا وآسيا بل وربما حتى في اوروبا وكندا واستراليا تسييرها المالي او المساهمة فيه على الاقل ، وعلى الامانة العامة الاسلامية ان تتعاون مع الدول الاسلامية ، بل وربما ايضا مع جامعة الدول العربية ، ومنظمة الوحدة الافريقية ، واليونسكو ، لضمان تسييرها المالي

فيما بعد ، وقد راينا بلجيكا مثلا تساهم بالكثير في هذا المجال لتحقيق مركز ومسجد بروكسيل وضمان التعليم العربي الاسلامي على الاقل لأبناء الجاليات الاسلامية في بلجيكا .

10) وهل نتكلم عن اقامة مستشفيات ايضا في بلدان اسلامية عديدة تستعمل فيها مستشفيات لتحويلها عن دينها ؟ قد يكون هذا من انجع الوسائل ، ولكن قد تكون هذه الوسائل معقدة نوعا ما ، وتتطلب جهودا اكبر من غيرها فلتكن على الاقل محط انظارنا لمشاريع المستقبل .

11) واخيرا ، وليس آخرا ، ربما كانت احسن الوسائل وانجعها على الاطلاق هي القدوة ، هـو المثل الحسن من طرف الافراد والامة للافراد والامم! ان حسن سلوك مسلم او مسلمة في وسط اسلامي او غيره لاشك يجذب الى الاسلام افرادا آخرين،من مسلمين وغير مسلمين ، كما ان القدوة التي تتمثـل في ازدهار دول وشعوب الاسلام ، ان الامة الاسلامية في مجموعها او في بعضها ، من حيث السلوك الاسلامي الصحيح في الجمع بين الدين والدنيا ، والاسلام دين ودولة ، بنظامها ، وازدهارها في مختلف المجالات من اقتصادية ، وثقافية ، وصحية ، واجتماعية عامة ، وبروزها العلمي ، وتحقيق العدالـة الاجتماعية وتساوي الفرص بين جميع افرادها ، واستثمار مواردها بنفسها لصالح افرادها ، والامـة الاسلامية، والاسهام في التقدم البشري العام ، كل هذا سوف يجذب الى الاسلام الافراد والامـم ، وتكون فيه احسن طرق الدعوة الى الاسلام ، كارقى نظام يضمن للبشر ، وخاصة في معتـرك اليـوم ، السعادتين ، فهل نحن ، افرادا ، وشعوبا ، ودولا ،في امة الاسلام ، شاعرون بهذا ، مدركون لـه ، مستعدون لتحقيقه ؟

حضرات السـادة .

اظن ان في وسعنا ان نقوم بالشيء الكثير من هذا ان لم يكن بالكل ، اذا ما توفـرت الارادة وهذه هي مشكلتنا ، ارادة التضحية ، وهي مشكلة المشاكل ، وليست الوسائل المادية ولا الاطارات الانسانية هي التي تعوزنا !

فاذا ما صممنا حققنا ، وقد حققت الجاليات اليهودية في اغلب انحاء العالم العجائب في هـذا المجال ، وهم لا يبلغون في جملتهم العشرين مليونا ، فهل المليار او ما يقرب المليار من المسلمـين بطاقاتهم ، وثرواتهم ، وتعدد امكاناتهم ، عاجزون عن تحقيق هذا او جزء منه ؟ هذه هي الحكاية .

علينا ان نتساءل على غرار هملت : ان المشكلة هي مشكلة الوجود او الانصراف ، الروحي اولا ، ثم المادي فيما بعد بقليل ، واذا انصرفنا روحيا من سطح الارض ، فذلك اخطر انواع الاستسـلام والفنـاء !

اننا امام نقطة تحول كبرى ، وعلينا ان نحتاط منذ البداية ، هم الذين يقولون : «Wehret den Anfaengen ! » اى حذار من البداية ، لان بعض الامراض اذا بدات استفحلت ، واذا استفحلت صعب علاجها ، او استحال !

مرة اخرى اود ان اشكر الامانة العامة الاسلامية على هذه البادرة ، التي نرجو ملحين ان تستمر ، وتنتظم ، وتصبح دورية ، وان يخـرج من هـذه الدورة ، من هذا المؤتمر ، الاول ، لا الاخـير ، كل الفوائد المرجوة لأمتنا الاسلامية ولحضارة الانسان وقيمه ، واتمنى للمؤتمر مطلق النجاح .

والسـلام عليـكم .

ضمان حياة عائلية هادئة مستقرة

د. بوعلام بن حمودة
وزير العدل وحافظ الاختام

ايها الاخوة ، ايتها الاخوات ،

بعد ايام قلائل سنقدم مشروع قانون الاسرة لمجلس الثورة ومجلس الوزراء فاعتبرنا من المفيد ان نفتح مناقشة حول النقاط الرئيسية ، في اطار ملتقى يجمع ممثلين عن الحزب والمنظمات الوطنية وممثلين لكل الوزارات واساتذة متخصصين في الفقه الاسلامي وفي قانون الاسرة وفي علم الاجتماع وقضاة ومحامين لهم خبرة بالمسائل التي تتعرض لها الاسرة الجزائرية .

والمشروع ياتي كحلقة من حلقات تنظيم حياتنا الوطنية في جميع الميادين بعد ان انتزعنا استقلالنا وسيادتنا .

انه يجسم رغبتنا في التحرر السريع من قوانين بائدة لا تتلاءم مع شخصيتنا العربية الاسلامية ومع حضارتنا ومع ثورتنا .

(*) نص الكلمة التي القاها السيد بوعلام بن حموده وزير العدل وحافظ الاختام في الملتقى الذي نظمته وزارة العدل حول «مشاكل الاسرة » والذي انعقد بقصر زيروت يوسف بتاريخ 22 و 23 صفر 1393 هـ الموافق لـ 27 و 28 مارس 1973 م .

وتنظيم حياة الاسرة ياتى فى اوانه متمما للتشريعات التى ضبطت امور الادارة والمجموعات المحلية وضبطت تسيير الوحدات الانتاجية والوحدات الثقافية.واكثر من ذلك يعتبر تنظيم الاسرة كضرورة ملحة لانجاح المجهودات الضخمة التى تنفقها الثورة الجزائرية لان هذه الثورة التى تستهدف من وراء الازدهار الاقتصادى كرامة الانسان تحتاج الى تجنيد الطاقات البشرية والى مواطنين صالحين منسجمين مع التيار الثورى ومع الخلايا الاجتماعية التى لها دور فعال فى بلوغ الغاية المنشودة ، توجد الاسرة ، هذه الاسرة التى يولد فيها الطفل ويربى ويلقن آداب السلوك فى المجتمع وما يسمى بفلسفة الحياة ، وما يخرج منها بعد 25 سنة تقريبا الا ليؤسس بدوره اسرة جديدة يمدد بها النسل ويعد فيها مواطنى الغد.

اننا تفهمنا هذه المعانى وحاولنا فى قانون الاسرة ان نخلق جوا ملائما لحياة عائلية تقل فيها الزوابع ويسود فيها الوئام الذى له تاثيرات حسنة فى السلوك خارج الاسرة .

ولكن القانون وحده لا يكفى ، فيجب ان ننظف البيئة التى تحيا مثلا فيها الاسرة وينبغى ان نحارب الاخطار التى تحدق بها وتعوق نموها الصالح ، ومن الاخطار الانحلال الاخلاقى الذى نلاحظه عادة فى المجتمعات التى خرجت من فترة الحرب والتى تتعرض للتراخى الاخلاقى ، ومن الاخطار ايضا الافلام والكتب ان لم تكن مراقبة ، ونذكر من بين الاخطار بعض السير الاجتماعية المستوردة التى تلبسها الدعاية البراقة ، ثياب التقدم العصرى والتطور الحتمى وما هى الا علامات انحطاط كان قد عرفها العالم الاسلامى فى دمشق وفى بغداد وفى الاندلس .

ان الاستقامة الاخلاقية ليست ثانوية كما يظن البعض ، فعليها يتوقف قطاف ثمرات الثورة المجيدة ، مثال واحد يبين قيمة هذه القاعدة ، قررنا اشراك العمال اشراكا تاما فى تسيير المؤسسات الانتاجية والاجتماعية والثقافية فاذا لم تكن استقامة اخلاقية يضطرب لا محالة سير المؤسسة .

فكيف تسير سيرا حسنا اذا نشأت حزازات تافهة وتكتلات مضنية واذا انتشر التراخى فى الانتاج والتهاون والاهمال واذا اغمضت العيون عن التبديد والاختلاس ؟

ولا شك ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى الجزائر من شانها ان توفر بيئة مواتية للاسرة .فتوفير العمل للجميع ، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الافراد وحتى بين الجهات وتقوية وسائل التعليم والتثقيف ، والاهتمام بالشبيبة ، كل ذلك تجندت من اجله الثورة الاشتراكية ، ولكن يبقى على الاسرة ان تؤدى دورها من جهتها ازاء المجتمع ، فهى مسؤولة بقسط كبير عن سلوك الناس فى الشوارع وفى الاحياء وفى اماكن التجمعات واماكن العمل لان تربيتها هى التى تقوم او تعوج وهنا يتجلى معنى الحديث الشريف : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » .

ستستمعون بعد قليل الى تقرير يقدمه قاض من القضاة ويتناول بالوصف المسائل التى تتعرض لها الاسرة ، اذا استقرانا الملفات التى تقدم للمحاكم وستستمعون ايضا الى تقرير من محام يشرح لكم الخطوط العريضة لمشروع قانون الاسرة ، والنقاط التى استرعت انتباه اللجنة الوطنية الاستشارية ، ومن بعد تقديم التقريرين سنفتح مناقشة عامة تطرح فيها الآراء بكل موضوعية وواقعية آخذة بالاعتبار ارتباطنا بالاسلام ، وحالة العصر الجديد وتطورات المجتمع تحت تأثير مباشر مما يجرى فى وطننا ، وتاثير غير مباشر مما يجرى فى العالم .

حول مشاكل الأسرة

أحمد حماني

رئيس المجلس الاسلامى الأعلى
واستاذ بجامعة الجزائر

ان اعظم مميزات الشخصية القومية فى كل امة : الدين واللغة .

وان العدو اذا تغلب على امة من الامم واراد ابتلاعها يعلم انه لا يتمكن من ذلك الا بمحو شخصيتها . ولذلك فهو يسعى للقضاء على الدين ليعم الانحلال الخلقى ، وفساد العقائد ، والذبذبة والقضاء على اللغة فتذهب اداة التعبير الجامعة واداة العلم والثقافة والرقى الذهنى .

(*) نص الكلمة التى القاها الاستاذ احمد حمانى رئيس المجلس الاسلامى الاعلى فى الملتقى الذى نظمته وزارة العدل حول « مشاكل الاسرة » والذى انعقد بقصر زيروت يوسف بتاريخ 22 و 23 صفر 1393 هـ الموافق لـ 27 و 28 مارس 1973 م .

ولقد كان شأن الاستعمار ــ منذ حل ببلادنا ــ ان يحاول القضاء على الدين واللغة ما استطاع ، فشجع فساد العقائد وانتشار الدجل والتحريف ومنع كل ما يبرز الشخصية الدينية ، وابرز مظاهرها : المساجد والمحاكم .

ففي المساجد تقام شعائر العبادات وتحارب الآفات ، وتقوم الاخلاق ، وتدرس علوم الدين ، وتزدهر دراسة القرآن والحديث ، فعمد المستعمر الى المساجد وخربها واتلف تسعة اعشارها ، واغتصب معين حياتها من الاوقاف ، وطارد رجالها من العلماء .

وفي المحاكم ينفذ القضاة الشرع بالاحكام ، وكان القضاء في بلادنا ــ كما هو في سائر بلاد المسلمين ــ محترم الجانب موفور الكرامة لا يتولاه الا من توفرت فيه النزاهة والاستقامة وغزارة العلم واكتسى لباس التقوى ، يحكم في المسلمين بما انزل الله ، فلا يجدون في انفسهم حرجا مما قضى ويسلمون تسليما ، وكان امراؤنا يحترمون القضاء ويضمنون له الاستقلال ، ويخضعون هم وعائلاتهم لأحكام القاضي . فكان هم الاستعمار الاول التوصل الى نسف هذا القضاء ، والاستراحة منه .

مراحل نسف القضاء

أول محاولة وقعت كانت بعد 11 سنة من نزول المستعمر ببلادنا ، ومهد لذلك بابعاد القضاة الاقوياء الشخصية ، امثال العنابي والكبابطي رحمهما الله ، ثم أصدر قانون 28 ــ 2 ــ 1841 فنزع به من القضاء الاسلامي سلطة الاحكام في الجنايات والجنح ، وجعل احكامه في غيرها تستانف أمام المحاكم الفرنسية وفي عهد نابليون الثالث عاد اليه ثلاث مرات في 1 ــ 10 ــ 1854 و 31 ــ 12 ــ 1859 و 13 ــ 12 ــ 1866 . وانتهى به الى اجبار المسلمين على التقاضي أمام قضاة الصلح . ثم جاء عهد الجمهورية الثالثة فتم فيه نسف اعظم جانب منه ولم يبق له الا بعض الاحوال الشخصية ، فقد أصدر فيه قانون 26 ــ 5 ــ 1873 وقرار 17 ــ 4 ــ 1889 وأخيرا قانون 7 ــ 6 ــ 1889 المنقح بقرار 25 ــ 5 ــ 1892 والذى زعم فيه انه تنظيم القضاء الشرعي الاسلامي بعد ان نزع منه كل سلطة ، واصبح نظر القاضي لا يمثل الا الانكحة والمواريث وتنفيذ احكام قضاة الصلح .

ان هذه الاعتداءات المتكررة من المستعمر على القضاء الاسلامي والتي أراد بها ان يمحو كل أثر شخصيتنا بالتدريج قد توالت في كل العهود وعلى مختلف مشارب حكوماته المركزية .

ومن عجيب امره ، ان الاستعمار ــ وهو يلفظ انفاسه الاخيرة وقد تيقن بدنو أجله ــ قد تابع مكايده ضد شريعتنا ، واعلان حقده الدفين ضد شخصيتنا ، فاصدر قوانين ينسف بها البقية الباقية من الاحكام الاسلامية التى كانوا يطلقون عليها لقب : « قانون الاحوال الشخصية » نسفا .

ففي 11 ــ 7 ــ 1957 أصدر القانون الخاص بالولاية ، وفي 4 ــ 2 ــ 1959 أصدر القانون

الخاص بالزواج والطلاق او ما اسموه « انحلال الزواج » وصدر مرسوم التطبيق فى 17 – 9 – 1959 وهذا القانون هو المنسوب لوزيرة الاستعمار الآنسة سيدقاره .

ان الاستعمار فى سنتى 1957 و 1959 كان يحاول ان يفاوض الثورة الجزائرية فى شان رحيله وقد تحقق انهزامه . فلم يصدر هذه القوانين الخاصة لينسف بها آخر ما تبقى فى المحاكم من شؤون القضاء الاسلامى واحكام الشريعة ؟

لا شك انه كان يريد ان يترك فينا ارثا عفنا ، وجرثومة خبيثة او قنبلة زمنية تفسد علينا حالنا ، وتستعبد قضاءنا .

ان شعبنا المسلم الابى قد رفض كل محاولات الاستعمار لمحو شخصيته ونسخ شريعته والتنازل عن أحكام قرآنه قولا وعملا واعتقادا . وقد كان ينظم ما اختل من احكام شريعته بواسطة علمائه وفقهائه وجماعاته ، وقد جعل من قضاة المحاكم موثقين فحسب – وقاطعت اكثرية المسلمين – وخصوصا فى البوادى والقرى وهى صميم الامة – قضاته حتى فى الشؤون المالية ، وحكموا علماءهم وجماعاتهم . ولقد تمسك شعبنا تمسكا شديدا « بالاحوال الشخصية » رغم المساومة عليها والتلويح بالحصول على كل الحقوق الفرنسية بالتنازل عنها . ولو وجد تجار السياسة أدنى تهاون منه لتم لهم عقد اكبر صفقة كان الاستعمار حريصا على اتمام عقدها ، وهى « الاندماج » . فقانون الاحوال الشخصية هو الذى كان يتنازل عنه كل متجنس عند ما يمضى وثيقة تجنيسه فيصبح منبوذا من امته محكوما بردته .

فكيف يخطر على البال اننا فى عهد الحرية والاستقلال نحقق ما ابيناه فى عهد الاحتلال ؟

تنظيم الامة لا يعنى الغاء الشريعة

ان تنظيم الاسرة لحفظ كيانها وحمايتها من التلاشى والانحلال ، واجب المجتمع الذى تمثله الدولة ، والدولة مكلفة بالسهر على الامن والنظام ، يحفظ الدين ، والعرض ، والمال ، والارض . وبذلك تحفظ كيان الامة وتذب عنها العوادى ، ولقد كانت الدولة الاسلامية منذ عهد رسول الله (ص) الى اليوم وعلى مختلف العصور والدول تعنى عناية شديدة بتنظيم الاسرة . ومن مظاهر ذلك التنظيم انها كانت تختار أكفأ القضاة وأتقاهم للفصل بين الناس ، وتعطيهم كل الاستقلال والحرية فى احكامهم التى لا تتقيد الا بالنصوص الشرعية ، ومن ذلك ان الامير الاغلبى اراد ان يولى سحنون القضاء ، فاشترط عليه ان يكون حكمه نافذا عليه وعلى اهل بيته من الامراء والاميرات فقبل الشرط . وورد قاضى قرطبة محمد بن بشير شهادة رئيس الدولة الامير الاموى الذى ولاه القضاء ، فارتاح لحكمه ولم يغضب عليه . وخضع المأمون لحكم قاضيه يحيى بن أكثم كما خضع من قبله على بن ابىطالب لحكم قاضيه عليه ، وكذلك عمر لحكم شريح

عليه . وكذلك كان كل المسلمين يخضعون لحكم القاضى ويرضونه ، والسبب فى ذلك ان القاضى منفذ الشرع بالاحكام .

ولم ينفك ولاة أمورنا يصرحون بانهم اذا كانوا يهتمون بتنظيم الاسرة فلا يعنى ذلك انهم يريدون نسخ شريعتنا . فهذا تصريح الرئيس بومدين الاخير فى المهرجان الشعبى الاخير بمناسبة اليوم العالمى للمراة يقول : « اذا كنا نعمل من اجل حرية المراة وحصولها على حقوقها المشروعة فاننا فى نفس الوقت نؤكد ضرورة ان يتم ذلك فى اطار المحافظة على العناصر الرئيسية لشخصيتنا العربية الاسلامية التى حاول الاستعمار القضاء عليها ، وكان احتفاظنا بها هو السلاح الرئيسى الذى تمكنا بواسطته من تحقيق الانتصار » . وجاء فى تصريحه وهو يتكلم على القوانين الصادرة فى العهد الاستعمارى التى قرر قانون 31 – 12 – 1962 امتدادها ، وكان هذا التصريح فى 13 – 3 – 1971 :

« ان قانون كل امة قطعة من ماضيها الطويل وحاضرها الماثل يمثل نشأتها وتطورها واخلاقها وتقاليدها ودينها ومعتقداتها . . وان قوانيننا الحالية غريبة عنا تتعارض مع احسن ما فى تشريعنا الاسلامى التقليدى . . فيجب اذن اعادة النظر فيها جذريا لترد الى المصادر التشريعية الاسلامية » .

احكام الشريعة صالحة لكل زمان ومكان

ان احكام شريعتنا الغراء صالحة لكل زمان ومكان لمرونتها ، وبنائها على الحكمة ، والرفق ، والرحمة ، والمصلحة الراجحة ودفع المضرة . ولقد أشار الى ذلك الرئيس بومدين فى خطابه أمام اللجنة الاستشارية لاصلاح القوانين يوم 13 – 3 – 1971 اذ قال : « ان ما فى خصائص التشريع الاسلامى من سعة ودقة فى بناء الاحكام ومكانة العرف فيه وحرصه على التوازن فى الحقوق بين الفرد والجماعة مثل منع التعسف فى استعمال الحق الخاص ومنع الاحتكار فى التجارة وموضوعية احكامه وتجردها من كل عصبية او عاطفة خاصة سوى فكرة العدل والحق المطلق ومرونة اصوله ومصادره .

أقول هذا كله أكسب الشريعة الاسلامية صفة الخلود وقابلية الاستجابة لتغطية جميع الحاجات التشريعية تبعا لمصلحة الامة فى مختلف مراحل نموها على مر الزمن وعلى اساس المحافظة على أصالتها وروحها فى تطورها وتطور الحضارة الانسانية الشاملة » .

مصادر احكام « الاحوال الشخصية »

ومن المعلوم ان مصادر الاحكام شخصية كانت او غير شخصية – اما القرآن الكريم فى آيات محكمة صريحة ، واما السنة فى احاديث صحيحة ، واما الاجماع الذى لا بد ان يستند الى نص معلوم لنا او علمه المجمعون ، واما القياس ومنه آراء المجتهدين والعلماء المتأولين المؤلفين الشراح .

فاما رد النص الصريح من القرآن والحكم الثابت الصحيح من الرسول (ص) فهو ردة وكفر بلا شك لقوله تعالى : « ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون .. فاولئك هم الظالمون . . فاولئك هم الفاسقون » قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله : « . . فالذين يتركون ما أنزل الله فى كتابه من الاحكام من غير تاويل صحته يصدق عليهم ما قال الله تعالى فى الآيات الثلاث . . فمن اعرض من الحكم . . غير مذعن له لاستقباحه اياه وتفضيل غيره من اوضاع البشر عليه فهو كافر قطعا . . » ثم قال : «الاحكام المنزلة من الله منها ما يتعلق بالدين نفسه كاحكام العبادات وما فى معناها كالنكاح والطلاق وهى لا تحل مخالفتها بحال . . » ومثل مخالفة القرآن وحكم الرسول ، العدول عن الاجماع ، لانه لا يستند االا الى نص اذا صح الاجماع . واما آراء الفقهاء والشراح والعلماء فيمكن النظر فيها وترجيح بعضها على بعض واعمال بعض واهمال الآخر ، فهى محل اجتهاد ونظر والحكم للمصلحة العامة .

عمل لجنة قانون الاسرة

ان اللجنة الموكول اليها وضع نص لقانون الاسرة يجب ان تكون مقيدة بالمحافظة على هذه الروح كما يريدها شعبنا وكما أعلن عن ذلك رئيسنا ، وليس لها ان تخرج عن ذلك الى النسخ لنصوص القرآن والمسخ لاحكام الفقه والتنكر لماضينا الطويل فى الاسلام .

ان الذى يدرس النصوص المعروضة علينا يتحقق انها اخذ غالبها بحروفه من القانون المدنى الفرنسى ، او من قانون 11 – 7 – 1957 الخاص بالولاية ، او من القانون التعيس قانون الآنسة سيد قاره الصادر فى 4 – 2 – 1959 ، ومرسوم التطبيق الصادر فى 17 – 9 – 1959 الخاص بالزواج والطلاق او انحلال الزواج كما يقولون . وحتى بعض ما فى مواد هذا القانون من حسن قد مسخ فيه وابدل ، مثل اشتراط القانون الفرنسى فى عمل الزوجة ان لزوجها ان يعترض وان رضاه مشروط ، بينما يقول مشروع لجنتنا عكس ذلك ، ويعطيها حق العمل دون رضاء زوجها فمثل هذا نشوز وخروج عن الطاعة وقد اصبحت به قوامة على زوجها ، ويناقض حتى النص الذى يقول فيه : «ان الرجل رئيس العائلة» ومثل ابتداء ترتيب آثار الطلاق عليه ففى قانون الآنسة سيد قاره يبدأ ذلك من يوم طلب الطلاق ، بينما عدل فى هذا المشروع بانه يبدأ من يوم الحكم بالطلاق وقد يكون الزوج قد طلق بالفعل منذ شهور او اعوام ، وخرجت من العدة شرعا ومع ذلك فلو فرض ان جاءت باولاد – هم لسفاح دون شك – فهذا القانون يعتبرهم ابناءه .

ان هذه القوانين الاستعمارية البغيضة المصادمة لروح شريعتنا تريد ان تلبس لنا جبة جزائرية محتشمة وتنسل انسلالا شرعيا الى محاكمنا .

ان شعبنا يأباها ، لقد صرخ بذلك فى كل

مناسبة وجرت دماؤه الزكية فى سبيل ردهــا وطرد مشرعيها . ولقد عبــر عن ارادة الشعب أصدق تعبير رئيس مجلس الثورة والحكومة فى تصريحه أمام اللجنة الاستشارية لاصلاح القوانين فى يوم 13 – 3 – 1971 حيث قال :

« ان التشريعات التى فرضها النظــام الاستعمارى على بلادنا فرضا مدة قرن وربــع قرن والتى سلبنا بها مكتسباتنا الروحيــة والمادية وحاول بها طمس ماضينا ومحو عناصر شخصيتنا قد بقى معظمها جاريا به العمل بمقتضى قانون 31 – 12 – 1962 وهى الغريبة عن ديارنا والتى وضعت لاستغلالنا وانكار وجودنا وذاتيتنا. والآن وقد انفكت الاغلال وملكنا زمام امرنــا لتسيير شؤوننا بانفسنا ، فعلينا ان نتخلــص نهائيا من القوانين الدخيلة علينا ، ومن التركــة التشريعية التى كانت فى خدمة الاحتــلال العسكرى والاستغلال الاقتصادى » .

وهكذا نـرى اننا اذا تبنينــا – وقد ابطلت شريعتنا التبنى – قوانين وضعت فى عهــد الاستعمار لم نكن عند حسن ظن شعبنا بنــا ، ولا عند ارادة رئيس مجلس الثورة والحكومة منا.

عجبا ! انعجز فى عهد الاستقلال و الحريــة عن صوغ قانون لنا بأسلوب لغتنا المعجز ، ومن نصوص شريعتنا وصميم أمتنا ونتلهف على نسخ مواد مريبة ونسج أثواب مهلهلة مما وضعــه غيرنا حسنا كان او رديئا .

ألا نخشى اذا اطلع عليه غيرنا ان نتهــم – زيادة على ارتدادنا فى الدين وكفرنا بالقومية – بالعجز والعقم وسوء التدبير !

نتهم بالكفر ؟ أجل وبالنفاق ، فقد قال اللــه سبحانه وتعالى فى محكم التنزيل : « ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك ومـا انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا ان يكفروا به ، ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الـى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقــين يصدون عنك صدودا » .

فمن قال انا مسلم مؤمن ثم طـاب نفسا ان ينسخ حكم آية او يجعلها قد تجاوزتها الاحداث، او من التقاليد القديمة او يجعل القرآن من المصادر التاريخية فانه يزعم الايمان والاسلام ، وهــو مكذب فيهما . وقد نفى الله ذلك وأقسم اللــه عليه اذ قال : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

لا يمكن لمسلم او مسلمة حقا ان يوافق عـلى نص قانونى ينسخ نصا قرآنيا او يصادم حكما شرعيا . ولا يمكن لوطنى او وطنية حقــا ان يتبنى قوانين استعمارية كريهة .

وبناء على كل الاعتبارات السابقة ، وبناء على ان هذا المشروع لم يوضع باللغة العربية لغــة الشريعة ولغة الشعب ولغة المحكمة ، وبناء على رداءة النص العربى لكونه مترجما غير اصيل مع ان لغة المحكمة عربية ، وبناء على مصادمة كثـير

من نصوصه لنصوص محكمة من القرآن او الحديث او لآحكام معلومة فى الفقه الاسلامى ، وبناء على ان هذا المشروع لا يستجيب فى مضمـونه ولا فى شكله لطابع شخصيتنا المسلمة العربيـــة المعتزة باستقلالها السياسى والاقتصادى والساعية بكل مجهوداتها الى استكمال استقلالها الثقـافى والتشريعى .

بناء على كل ذلك فاننا نقترح :

اولا :

اعادة النظر جذريا فى المشروع المعروض علينا

ثانيـا :

ان يوضع الاصل باللغة العربية ليعبر تعبيرا جيدا عن نصوص الشريعة ومصطلحـــات الفقه دون تحريف يقع من الترجمة .

ثالثـا :

تشكل لذلك لجنة من المختصين المتضلعـــين فى الفقه الاسلامى والقانون من وزاتى العدل والتعليم الاصلى والشؤون الدينية ، مهمتهـا تحقيق ما سبق ووضع القانون فى صيغتــه النهائية .

رابعـا :

يجب الاسراع بالعمل فى تنفيذ ذلك حـتى يمكن اتمام المشروع فى أقرب وقت .

سيدى الوزير ،

أيها السادة ، ايتها السيدات ،

هذا ما رأينا ان من واجبنا الدينى والوطنى ان نصدع به . حتى لا يقال لقد تم العمل باجماع ولم تقولوا .

والله مولانا ومعتصمنا ، وانه لنعم المـولى ، ونعم النصـــير .



بـــلاغ

حـول الملتـقى السـابع للتعـرف على الفـكر الاسـلامى

تعلن وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية أن الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى سينعقد فى مدينة تيزى وزو من 10 الى 20 جمادى الثـانية 1393 هـ (الموافق 10 الى 20 يوليـو 1973) .

وسيحضره طلاب وطالبات من جامعات الجزائر وقسنطينة ووهران وتـلاميذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقـا) وأى طالب مسلم حيثما كان ومن أى بلد كان .

ونظام الملتقى هو النظام الداخلى . ويمكن السماح بالنظام الخارجى لمن يطلبـه وسيسمح لاطارات الادارة بقدر الامـكان بالمشاركة فى الملتـقى .

هذا وتتحمل الوزارة ، فى اطار الملتقى ، نفقات الاقامة والتنقل داخل التراب الوطنى ، الا انه سيطلب من المشاركين اسهام رمزى قدره خمسون دينارا جزائريا .

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية ، بوزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، 4 نهج تيمقاد ، حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمة « الملتـقى » على زاوية من الغـلاف .

وعلى كل مترشح أن يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية ، وآخر اجـل لارسال طلبات المشاركة هو 27 ربيـع الاول 1393 هـ الموافق 30 أبريـل 1973 م ، وسيكون ختم البـريد شاهـدا .

وستدعى الى الملتقى شخصيـات بارزة من الجـزائر وغيرها من أنحاء العـالم الاسلامى وبلدان أخرى لالقـاء المحاضرات والمناقشة مع الطلبـة .

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتى :

1) ـ روح الشريعة الاسلامية وواقع التشريع اليوم فى العالم الاسلامى .

2) ـ المؤامرات التى تعرضت لها وحدة الامة الاسلامية بالامس ويتعرض لها ما تبقى منها اليوم من طرف الصهيونية وغيرها وما يجب علينا حيال ذلك .

3) ـ نشاط التبشير ودوره الاستعمارى التخريبى بالامس واليوم وما يجب القيام به ازاء هذا الخطـر .

4) ـ اخطار العزلة والاندماج التى يتعرض لها أبناء الجاليات الاسلاميـة فى الهجرة وواجب الدول الاسـلامية نحـوهم .

5) ـ دور وسائل التأثير على الجماهير وخاصة منها الصحافة والسنما والتلفزة فى البناء أو التخريب الذاتى لما تبقى من الامة الاسلامية المفروض أنها فى صميـم معركتها لاسترجاع نفسها ، ومسؤولية هذه الاجهزة فى مكافحة أو نشر جنـوح الاحداث بل واجرام نفسه والانحلال الخلـقى والالحـاد .

الرباط والفداء
في وهران والقبائل الكبرى

المهدي البوعبدلي

عضو المجلس الاسلامي الاعلى

ان موضوع حديثي في هذه الدراسة : الرباط والفداء في تاريخ البلاد الاسلامية بصفة اجمالية، واركز بحثي عن الرباط الذى اشتهر بمدينة وهران حيث لعب ادوارا رائعة ، وحظي بدراسات هامة لكثير من كبار المؤرخين بينوا فيها بتفصيل نظامه وموقعه وحياة المرابطين فيه وكيف كان فضله من اسباب انتصار المسلمين على الاسبان وطردهم من وهران ، بعد احتلال دام ما يقرب من ثلاثة قرون .

كما أتحدث عن الفداء الذى اشتهر ببلاد القبائل الكبرى بعد الاحتلال الفرنسى ، اذ امتاز بنظام خاص لم نجد له شبيها فى بقية البلاد الاسلامية عبر التاريخ .

الرباط والفداء فى بلاد الاسلام عامة
وفى بلاد المغرب العربى خاصة

الرباط هو الملازمة فى سبيل الله ، أصلها من ربط الخيل ، ثم سمى كل ملازم لثغر من ثغور الاسلام مرابطا ، فارسا كان او راجلا ، واللفظة مأخوذة من الربط : مصدر رابط يرابط ، بمعنى أقام ولازم المكان ، ويطلق فى اصطلاح علماء الدين خصوصا الفقهاء المتصوفين على الامكنة التى تنشأ فى المواقع الحربية ، لحماية البلاد وحراستها من هجومات الاعداء ، وكذلك تطلق على البقاع التى تؤسس لاجتماع المنقطعين لله والمتعبدين الذاكرين ، وكذلك على المعتكفين لتعلم الدين وتعليمه .

واصل الرباط فى القرآن قوله سبحانه وتعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وقوله « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

قال الشيخ عبد الرحمن الثعالبى دفين الجزائر فى «الجواهر الحسان» فى تفسير هذه الآية : روى مسلم فى صحيحه عن سلمان قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات جرى عليه عمله ، الذى كان يعمله ، واجرى عليه رزقه وأمن الفتن » وخرج الترمذى عن فضالة عن عبيد على ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : «كل ميت يختم على عمله ، الا الذى مات مرابطا فى سبيل الله ، فانه ينمو عمله الى يوم القيامة، ويأمن من فتنة القبر» ، قال ابو عيسى هذا حديث صحيح ، وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «من مات مرابطا فى سبيل الله ، أجرى الله عليه أجر عمله الصالح الذى كان يعمل ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتن ويبعثه الله آمنا من الفزع» وروى مسلم والبخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها» ثم قال روى أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لرباط يوم فى سبيل الله ، وراء عورة المسلمين محتسبا من غير شهر رمضان ، أعظم اجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ، ورباط يوم فى رمضان افضل عند الله واعظم اجرا من عبادة ألفى سنة ، صيامها وقيامها» ذكره القرطبى مسندا ، ثم تعرض الثعالبى لمعنى الرباط اللغوى فقال : «ان زين الدين العراقى ذكر فى اختصاره لغريب القرآن تأليف ابى حيان معنى رابطوا داوموا وأثبتوا» وهذه الاحاديث النبوية التى ساقها الثعالبى فى تفسير هذه الآية الكريمة دالة على اهتمام تعاليم الاسلام بالرباط والترغيب فى دوام الاقامة به ، اذ الدوام والثبوت اللذين فسر بهما زين الدين العراقى ، الآية

الكريمة ، لا يتأتيان غالبا الا مع السكنى ، ثم ان المفسرين والمحدثين قسموا هذه الرباطات والاقامة فيها الى درجات ، وجعلوا تفاوت أجور المرابطين بها حسب موقعها وبعدها أو قربها من بلاد الاسلام،خصوصا الموجودة منها فيالشواطىء القريبة من بلاد الكفار .

قال فى كتاب الحبس من المدونة : ومن حبس فى سبيل الله فرسا او متاعا فذلك فى الغزو ، ومواحيز الرباط كالاسكندرية ونحوها ، وامر مالك فى مال جعل فى السبيل ، ان يفرق فى السواحل من الشام ومصر ، ولم يرض جدة من ذلك ، قيل له : قد نزل بها العدو ، قال كان ذلك أمرا خفيفا ، قال ابن الحاجب فى التوضيح : وساله قوم ايام كان من دهلك ماكان (ودهلك هذا فى كلام المدونة اسم ملك من ملوك السودان وبه سمى البلد ، وهى جزيرة ساحل البحر من جهة اليمن) ـ قاله عياض ، وقال هو بفتح الدال ـ

وقد تجهزوا يريدون الغزو الى عسقلان ، والاسكندرية ، وبعض السواحل ، وسالوه ان ينصرفوا الى جدة ، فنهاهم عن ذلك ، وقال لهم الحقوا بالسواحل اهـ .

وحكم مالك على رباط جدة ، قد ألغى فيما بعد ، اذ ذكر كثير من الفقهاء المتأخرين ، ان جدة نزل العدو بسواحلها فى اوائل القرن العاشر الهجرى ، فهى ثغر ، ذكر هذا الفقيهان الحطاب وسالم السنهورى ، وعن بعضهم يكون بها قتلى وشهداء لا شهيد على وجه الارض افضل منهم ، ثم قال الحطاب وسالم السنهورى : وهى فىهذه الايام رباط ، وان العدو توصل الى بلاد الهند فى اوائل العاشر ، واستولوا على بلاد كثيرة منه ، ووصلوا الى جدة سنة تسع عشر وتسعمائة (919) فشق ذلك على المسلمين ونزل الناس الى جدة ، ثم خذل الله العدو بعد ان بنوا حصنا لوخم ارسله الله عليهم ، ثم جاءوا سنة ثلاث وعشرين ونزلوا بساحل جدة فى ثمانية وعشرين قطعة ، وحصل للناس وجل عظيم ، وايقنوا بالاخذ ، ونزلوا الى جدة من المدينة وغيرها ، وحصنوها بالمدافع ، فالقى الله الرعب فى قلوب العدو ، وحبسهم عن النزول للبر حابس ثم تشتتوا ، وغنم منهم امير جدة غرابا ، واسر من فيه ، ثم فى سنة ست وعشرين أتوا الى قرب جدة ورجعوا مخذولين ، وفى سنة تسع واربعين وتسعمائة (949) جاء منهم بعض الاغربة لساحل جدة ، واخذوا بعض الجلاب الواصلة لها من الشام ، واليمن ، وفيها جماعة من الحجيج ففك الله اسرهم ونصرهم ، والهمهم رشدهم وخذل الكفرة ، ورد كيدهم فى نحورهم اهـ .
فلا شك حينئذ ان ما حكم به مالك على رباط جدة قد زال ، وان رباط جدة من اعظم الرباطات

ولهذا قال ابن جريج ، ان فضل مرابطى جدة على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلاد .

والحاصل ان الثغور فى الاصطلاح ، جعلت علما على الامكنة المخوف عليها من العدو ، وهذه الخطورة تتغير زيادة على ما ذكرناه من تفاوت

أجر المرابطين حسب مواقعها ، تتغير ايضـــا بحسب الامكنة والازمنة ، وقوة العدو وضعفه ، واهتمام الملوك بالدفاع عن حمى الوطـــن او تقاعسهم واتفاقهم مع العدو سرا او علانيـــة كما وقع ذلك في كثير من الاوقات ببلاد المغـرب العربى .

وقد اشتهـرت الـربط لحراسة الثغـور ، ورباطات المتعبدين في بلاد الاسلام من اوائـــل الفتح ، وقويت لما اشتدت غارات المسيحيين على شواطىء المغرب العربى والشمال الافريقـــي ، اثر الحروب الصليبية ، واسترجاع المسيحيين لجزيرة صقلية ، واثر غارات الاسبان والبرتقال على قواعد البلاد الاسلامية بشواطي افريقيـــا الشمالية ، فزيادة على شن غارات الاعداء عـلى السواحل المذكورة كانت بعض العصابـــات المسيحية تكونت لحسابها الخاص ولها اساطيل تقصد شواطىء القرى المنقطعة ، فتختطف السكان لتنصيرهم او بيعهم في أســواق الرقيق ، أو لمبادلتهم مع الاسرى المسيحيين . ذكر الشيـــخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي في تاليفـــه المسمى «بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحـت ولاية الاسبان من الاعراب كبنى عامر» الذى الفه سنة 1178 هـ عن نوع من المتعاونين مع الاسبان مدة احتلالهم لوهران كانوا يعرفون بالمغطسين او المغاطس ، يستعين بهم الاسبان لاختطـــاف اولاد المسلمين ، قال بعد أن عرف افراد قبيلتهم التى كانت تسكن بقرية كرشتل (التى تبعد عن وهران بنحو 20 كلم) قال : « وسكنوا بهـا في القرن الثامن من الهجرة وبنوا بها مدشـــرا محصنا بالجبال من البر ، لا طريق له الا مـــن جهة موعرة ، وكانت بتلك الارض عيون عذبـة منهمرة ، فاستقروا بها للآن ، وكان شأنهم مع الاسبانيين جلب الاخبار لهم ، وتغطيس الناس، فهم المغاطيس ، ويقال لهم المغطسون ، فهـــذا الاسم هو لهم على الحقيقة ، ولغيرهم على المجاز، لعملهم عملهم اقتداء بهم ، ويحكى عنهم انهـــم غطسوا امامهم الذى يصلى بهم ، بانهم باعـــوه للاسبانيين غفلة منه ، وكيفية التغطيس انهـــم يأتون بدوابهم للدواوير ، على صفة الحضـــر المدوسين بالدواوير البائعين للعطرية ومعهـــم مناطق من الجلود الغلالية ، فاذا وجدوا خبـــرا جلبوه للنصارى ، واذا راوا فرصة في الصغـير او الكبير أخذوه ، وجعلوا الجلود على فيــه كي لا يتكلم ، وحملوه على دوابهم ، ومشوا به ليـلا لوهران ، فيبيعونه للاسبانيين ، وينتفعـــون بثمنه ، هذا دأبهم لعنهم الله واخزاهم ، واخـلا الارض منهم ومسكنهم حال انحصارهم بالمسلمين بالاودية التى بساحة وهران ، حذو البرج الاحمر اسفل خنق النطاح ، وكانت لهم زوارق يسافرون فيها من مدشرهم لوهران اذا اشتد عليهم الامر، وسدت عليهم الطرق البرية ، يحملون فيهـــا سائر الخضر ونحوها ، وكان الاسبانيـــون لا ينقطعون عنهم في البحر ، لأخذ ما يفتقـــرون اليه من عندهم . وكان من الكرشتليين بعـــض الاعين للنواحى الشرقية والقبلية» اهـ .

ولهذا كثر عدد الربط طوال شواطىء البلاد وكان الكثير منها يشرف عليه ويؤسسه علماء الدين باتفاق مع السكان ، وقد رأينا ان كثيرا من الرحالين والجغرافيين والمؤرخين ذكروا بعض هذه الرباطات ، التي كانت في اوقات الخطر تتحول الى مراكز حربية ، وحصون عسكرية ، ذكر ابن حوقل وكذلك البكري والادريسي كثيرا من هذه الرباطات التي شاهدوها او ذكرت لهم. كرباط ماسة بجنوب المغرب الاقصى ، وربـاط شاكر ، ورباط سلا ، وتيط والمنستير ، وربط رادس ، وسوسة ، وشرشال ، ووهران وندرومة وجبل ارزيو وغيرها ، والكثير من هذه الربط يرجع عهده الى زمن الفتوحات كرباط ماسة الذي يرجع عهده الى زمن الفاتح الشهير عقبة ابن نافع ، ورباط شاكر المعروف اليوم بالمغرب «بسيدي شاكر» وهو على ضفة وادي نفيس بحوز مراكش ، وفيه دفن المجاهد العربي شاكر من اصحاب عقبة بن نافع ، وقد بناه يعلى بن مصلين ، احد رجال رجراجة السبعة ، الذين يقال انهم وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، فأسلموا ورجعوا الى المغرب دعاة ومبشرين بالدين الاسلامي الحنيف ، وكذلك أقام المسلمون رباطا آخر بشمال تامسني ، على ضفة نهر ابي رقراق او وادي سلا كما يسميه ابن حوقل الذي وصف هذا الربـاط بقوله : «والناس يسكنون ويرابطون برباط يحف بها ، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف انسان يزيدون وينقصون ، ورباطهم على برغواطة» و (برغواطة هذه قبيلة بربرية تنتمي الى مصمودة كانت تسكن في هذه الناحية وانتصرت لميسرة المطغري ، الذي ثار على العرب سنة 122 هـ وانتحل مذهب الخوارج الصفرية ، وبقي افراد قبيلة برغواطة في حالة حرب وسلم مع المسلمين الى ان خضد شوكتهم المرابطون الملثمون في القرن الخامس الهجري) .

وقال البكري : «ويقال ان الذي جلب الساقية الى مدينة السوس عبد الرحمن بن مروان ، أخو محمد الجعدي ، وانه هو الذي عمر وادي السوس الى وادي ماشة ، مسيرة يومين ، عليه قرى كثيرة ، وهو ينصب في البحر المحيط ، وماسة التي أضيف اليها الوادي رباط مقصود عندهم ، له موسم عظيم ، ومجمع جليل ، وهو مأوى للصالحين» ، وقد عرف البكري ايضا ربط سوسة ورادس والمنستير بقوله في «المسالك والممالك» :

«وخارج مدينة سوسة محارس ، وروابط ومجامع للصالحين وداخلها محرس عظيم ، كالمدينة ، مسور بسور متقن ، يعرف بمحرس الرباط ، هو مأوى للاخيار والصالحين ، داخله حصن ثان يسمى القصبة . . الى ان يقول . . ومن محارس سوسة المذكورة محرس المنستير ، الذي جاء فيه الاثر المتقدم الذكر . . ثم يقول . . وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل ، يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين ، قد حبسوا انفسهم فيه منفردين ، دون الاهل والعشائر ، أما

رباط رادس فهو الذى رابط فيه المجاهدون الفاتحون فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقال الصحابيان الشهيران انس بن مالك وزيد ابن ثابت للمجاهدين «من رابط برادس يوما فله الجنة حتما» ، وقالا لعبد الملك بن مروان : «امدد هذه البلاد ، وانصر اهلها ، ليامنوا من العدو ، ويكون لك ثوابها واجرها ، فانها من البلدان المقدسة» الخ .

ومن الرباطات المشهورة ايضا فى المغرب العربى رباط وهران ، ويسمى برباط صلب الفتح ، وسبب تسميته بذلك ان تاشفين بن الملك على بن يوسف بن تاشفين ، آخر ملوك دولة المرابطين الملثمين اللمتونيين ، لما اشتدت الحرب بينهم وبين الموحدين وانتقلت رحاها من المغرب الى الجزائر ، سيره والده على بن يوسف على رأس جيشه ، ليكون قبالة عبد المومن بن على ، فمات ابوه ، وأيس تاشفين من ربح المعركة فقصد وهران ، مركز اسطولهم لينسحب منها الى الاندلس ، فدخلها مختفيا ، وصادف ليلة سبع وعشرين من رمضان ، سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فذهب تاشفين مختفيا مع ثلة من اصحابه الى رباط وهران ، للحضور فى احياء ليلة القدر ، وكان الموحدون منه بالمرصاد منذ دخل وهران ، يتتبعون حركاته ، ولحقوا به فى تلك الليلة ، وحاصروه بالرباط ، واحرقوا عليه بابه ، فخرج تاشفين ممتطيا جواده ، فترامى به حتى تردى من جرف فلقى حتفه ، وقتل اصحابه الذين كانوا برفقته ، ولا علم لعسكره بذلك ، ولما بلغ الخبر الى عبد المومن بن على ، التحق بوهران ، وسمى ذلك الرباط ، برباط صلب الفتح ، بدلا من رباط صلب الكلب الذى كان مشهورا به قبل هذه الواقعة .

وقد عرف البكرى رباط جبل ارزيو بقوله : «وبقرب مدينة أرزيو جبل كبير فيه قلاع ثلاث ، مسورة ، رباط يقصد اليه» ، وقال البكرى ايضا فى التعريف برباط ندرومة ما يلى : «ومدينة ندرومة هى فى طرف جبل تاجرا ، وغربيها وشماليها بسائط طيبة ومزارع ، وبينها وبين البحر عشرة اميال . . الى ان يقول . . وله مرسى مأمون وعليه حصنان ، ورباط حسن مقصود يتبرك به» .

وقد ذكر ابو عبد الله محمد بن مرزوق العجيسى التلمسانى المعروف بالجد وبالخطيب والمتوفى بالقاهرة (سنة 781 هـ — 1379 م) وهو من مشائخ المؤرخ ابن خلدون ، ولسان الدين ابن الخطيب السلمانى قال فى تأليفه : «المسند الصحيح الحسن» ان الملك ابا الحسن المرينى لما كثرت هجومات القراصنة الاوربويين على شواطىء المغرب العربى فى عهده ، أنشأ ربطا طوال هذه الشواطىء «واذا وقعت النيران فى اعلاها ، تتصل فى الليلة الواحدة او فى بعض ليلة ، وذلك فى مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين ، وفى كل محرس منها رجال مرتبون ، نظار ، وطلاع ، يكشفون البحر ، فلا تظهر فى البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين

الا والتنفير يبدو فى المحارس ، فأمنت السواحل فى ايامه السعيدة» .

وكان هذا النوع اى الاتصال بين الرباطات والمنارات على طريق ايقاد النيران معروفا من قديم ، ذكر بعض المؤرخين لدولة الاغالبة «انه كان لبنى الاغلب علائم نارية ، يبلغ بها الخبر فى الليل من طود الى طود بسواحل الزاب وغيرها من المغرب بحيث ينتقل الخبر من سبتة الى الاسكندرية فى ليلة واحدة» .

ثم ظهرت هذه الرباطات وتطورت بصورة جلية ونظمت بعد الاحتلال الاسبانى لمدن سواحل المغرب العربى ، وكان جلها يؤسسه ويشرف عليه علماء الدين ورؤساؤه ، حيث تبين ضعف الملوك عن المقاومة ، وتخاذل الامراء ، حتى ان الكثير منهم كانوا يقدمون خدماتهم وتعوانهم للمحتلين ، ويتعهدون لهم بدفع الجزية ، وامدادهم بما يحتاجونه من العتاد والتموين مما هو مشهور عند المؤرخين .

وقد احتفظ لنا التاريخ ببعض الوثائق تثبت كيفية انشاء هذه الرباطات ، منها وثيقة مؤرخة فى سنة 954 هـ الموافقة لـ 1548 م ،بخط العلامة الشيخ عبد الرحمن اليعقوبى صاحب المعهد المشهور الآن بمعهد اليعقوبى بنواحى ندرومة ، وهذه الوثيقة عبارة عن معرض لمؤتمر دعا الى انعقاده العالم المذكور بعد احتلال الاسبانيين لتلمسان ، وكان رؤساء القبائل الذين استجابوا لدعوته ، هم رؤساء قبائل اتقاد ، وبنى سنوس ، وترارة ، ومطغرة ، وبعض علماء تلمسان واعيانها ، تعهدوا بامداد الرباط بالمال والرجال ، ثم لما ظهر الاتراك واحتلوا تلمسان ، نبذ هذا المشروع وانتقل صاحبه الى المغرب .

ومثل هذه الوثيقة التى تظهر لنا تطور الرباط فى ذلك العهد ، نجدها ايضا بالمغرب الاقصى بعد احتلال بعض شواطئه اثر غارات البرتغاليين وظهور العالم المجاهد الشيخ ابو عبد الله محمد بن احمد العياشى ، الذى تزعم المقاومة ونادى بالجهاد ، وابلى فى سبيله البلاء الحسن .

ذكر كثير من المؤرخين ومنهم الناصرى صاحب الاستقصاء : ان العياشى جمع مؤتمرا لمبايعته ، قال الناصرى عن المؤتمرين : «وقدموه على انفسهم والتزموا طاعته ، وان اى قبيلة خرجت عن امره ، كانوا معه يدا واحدة على مقاتلتها ، حتى تفىء الى امر الله ، فأعطوا بذلك خطوطهم ، فى ظهير ، وانهم رضوه ، وقدموه على انفسهم ، ووافق على ذلك قضاة الوقت وفقهاؤه ، من تامسنا الى تازى ، وكان الحامل له على طلب ذلك منهم انه بلغه عن بعض طلبة الوقت ، انه قال : لا يحل الجهاد الا مع الامير ، ففعل ذلك خروجا عن تلك الدعوة الواهية» .

انشئت معظم الرباطات فى بدايتها للعبادة والتعلم ، ثم انها اتخذت عند ما دعت الحاجة ، بعد شن غارات الاعداء ، الى ربط ، ومراكز حربية ، وذلك كرباط يحيى بن ابراهيم اللمتونى الذى كان يعلم فيه ، ويدعو للاسلام عبد الله بن

ياسين الجزولي ، وتتلمذ لعبد الله بن ياسين جل القبائل المجاورة ، ثم استحال هذا الرباط الى مركز انطلاق لأعظم دولة اسلامية عرفها الاسلام بالمغرب العربي والاندلس ، وهي المعروفة بدولة المرابطين الملثمين واللمتونيين .

ولهذا اشتبه على كثير من الكتاب والمؤرخين الرباط بالزاوية ، وبقية المعاهد الموجودة في قمم الجبال .

والحقيقة ان الرباط غير الزاوية ، فاذا وجدنا الرباط مرتبطا بعهد الفتوحات الاسلامية فان الزاوية عرفت في اوائل القرن الثامن الهجري ، فكانت تطلق على مكان معد للعبادة ، كالمسجد ، ويشتمل على المرافق للطلبة المجاورين بها ، وايوائها للواردين عليها ، وعابري السبيل، وقيل انها عرفت في المغرب بعد القرن الخامس الهجري وسميت في بادي امرها «بدار الكرامة» كالتي بناها الملك يعقوب المنصور الموحدي في مراكش ، ثم اطلق المرينيون على الزوايا التي بنوها في عهدهم اسم « دار الضيوف » ومن ذلك الزاوية العظيمة التي اسسها الملكابو عنان المريني خارج سلا وهي التي ذكرها ابن بطوطة في رحلته ، وزاوية شالة في الرباط التي دفن فيها الملك ابو عنان والده ابو الحسن ، وزارها لسان الدين بن الخطيب وخاطبه فيها بخطبته الشهيرة في تاريخ الادب العربي .

ثم عرفت الزاوية بعد ذلك في المغرب العربي بانها مؤسسة لرؤساء الطرق الصوفية ، يجتمع فيها مريدوهم لذكر الاوراد ، كما كانت تتخذ ماوى لطلبة القرآن والعلم وبقية الزوار الذين يقصدونها للاستفتاء ، والصلح بين المتخاصمين ، وكثر هذا النوع من الزوايا ابتداء من القرن العاشر ، بعد هجومات البرتغال والاسبان على شواطىء المغرب العربي ، وقد كان لبعض هذه الزوايا شان عظيم ، استحالت الى ممالك ، وذلك كالزاوية الدلائية بالمغرب التي كتب عنها كثير من المؤرخين ، وخصها اخيرا الاستاذ محمد حجي بدراسة قيمة ، نال بها جائزة الدراسات العليا من جامعة الرباط ، وكالزاوية السنوسية بليبيا فقد استحالت هي الاخرى الى مملكة .

ثم ظهر نوع آخر من هذه المعاهد لا هي زاوية ولا رباط ، تعرف في بلاد القبائل بالمعمرة ، وهي عبارة عن معاهد لتعلم القرآن وحفظه ، او لدراسة العلوم ، وقد انتشر هذا النوع بوادي بجاية بعد احتلال اسبانيا لبجاية ، ومغادرة سكانها ، خصوصا الجالية الاندلسية التي كانت لاجئة فيها ، فان الكثير من افرادها اسسوا معاهد في بني يعلى العجيسي ، وببني وغليس ، وكانت هذه المعاهد او المعمرات ، لها احباس هامة ، وقوانين داخلية ، انتشرت في معظم معاهد القبائل الصغرى والكبرى ، وهي تمتاز عن نظم الزاوية ، اذ الزاوية في الغالب تخضع لتصرف شيخ الطريقة ، او مقدميه ، أما هذه المعاهد فان لها قوانين داخلية ، محكمة ، واذا وقع خلل او سوء فهم لتطبيق تلك القوانين ، او

تداخل السلطات ، فان قدماء المتخرجين منها هم الذين يرجع لهم الامر ، فيجتمعون لحل المشاكل ، وبعض هذه الزوايا او المعاهد المسماة بالمعمرة كثيرا ما كانت تشد ازر الرباط في اوقات الحروب ، وتعينه على اداء مهمته ، فمن ذلك ما ذكره ابو الحسن الشريف في « كامل البغية » ونقله عنه صاحب « تعريف الخلف برجال السلف » قال : « خرجنا الى ثغر تغرتنس فلقينا سيدى محمد بن على ، وانزلنا بزاويته في مجاجة ، وكنا في جوع ونحن نحو 1300 ، (ثلاثة عشر مائة) نفس ، وقصدناه للزيارة ، فأكرمنا خارج الزاوية ، لكثرتنا ، وكانت خيولنا ذكورا واناثا ، فقال لنا اتركوها ، من الف بين قلوبكم يؤلف بينها ، وامرنا بالجلوس على 24 جلسة ، وافاض علينا الثريد واللحم والعسل والسمن » الخ .

ولنرجع الى الحديث عن الربط فان في عهد الاتراك لما اشتدت الحرب بينهم وبين الاسبان ، اعتنى الاتراك ببعض الرباطات ، وتعاونوا مع مؤسسيها ، وعلى حد تعبير المعاصرين ، امموها ونظموها نظاما لم يعهد من قبل في تاريخها ، وكان من حسن حظ التاريخ ان خصصت لهذه الربط التي أحياها الاتراك ، تآليف ، تعرض فيها مؤلفوها لذكر هذه الربط ، ووصفوها وصفا مفصلا ، منها تاليف «الرحلة القمرية في الاخبار المحمدية» لمحمد المصطفى بن زرقة ، و «التغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» ، لاحمد بن سحنون ، فانهما تحدثا بمزيد التفصيل والتوضيح لرباط وهران الذى احياه الباى محمد بن عثمان فاتح وهران سنة 1206 هـ .

وكما تعرض لرباط وهران عبد الرحمن الجامعي الفاسي شارح ارجوزة الحلفاوى التي تعرض فيها مؤلفها لفتح وهران الاول سنة 1119 على يد باشا الجزائر محمد بكداش ، اذ وهران دام احتلالها (280) ثمانين ومائتي سنة ، اذ احتلت سنة 914 هـ ، وفتحها لاول مرة بكداش باشا سنة 1119 ، ثم استرجعها الاسبان بعد بقائهم بها خمسة وعشرين سنة ، سنة 1144 ، وبقوا بها الى ان اخرجهم الباى محمد بن عثمان سنة 1206 هـ .

قال صاحب الثغر الجماني يصف الرباط الذى أحياه الباى محمد بن عثمان :

ورتب المرابطين في الجبل
من كل حبر عن هوى الموت جبل
وكل مقدام همام وبطل
منذ بدا باد الضلال وبطل
مؤمرا لشيخنا الجلالي
محمد الاحق بالاجلال

ومحمد بن عبد الله الجلالي الذى ولاه الباى رئاسة الرباط كان من اكابر علماء البلاد ومديرا للمدرسة التي انشأها الباى في قاعدة ولاية معسكر ، وسماها بالمدرسة المحمدية ، كما عين لمساعدته قاضي القضاة السيد الطاهر بن حواء ، وكاتبه الخاص محمد المصطفى بن زرقة ، مؤلف الرحلة القمرية المتحدث عنها . قال المؤلف ان

الباى محمد بن عثمان لم يزل منذ ولى يتحيل على الظفر بالكفرة ، وينصب لهم المكائد والخدع الشبيهة بالاشراك التى تنصب للطير ليقبض فتارة يوجه لهم المهرة بالسباحة فى البحر ، فيبيتون من قدروا عليه منهم فى بيوتهم ، ويأتونه برؤوسهم ، وتارة يرصد لهم الكمين قرب اسوارهم حتى يظفروا بهم ، وتارة تحمل عليهم طلائع جنوده ، فيتخطفونهم مخطف السقور للبغاة - الى ان يقول - ثم ظهر له ايده الله فقرر فيه المرابطين للتضييق على الكفرة ، فنادى فى رعيته من ارتحل الى الرباط سقطت عنه المطالب المخزنية ، وبقى محترما موقرا فاجتمعت فيه أمة من الناس ، من كل ناحية باموالهم ، واولادهم ، فنزلوا فيما بين سيدى معروف والبريدية الى عين تانشالت وجعل عليهم قوادا يقومون بأمرهم ... ولعمرى لقد بلغوا غرضه فى المضيق على الكفرة ، حتى منعوهم من ادامة الخروج ، وقصرت ايديهم عن نيل اكثر ما كانوا ينالونه من الغياض والمروج ، وانقطعت غارة المغاطيس فصاروا لا يبلغون وان جهدوا مبلغ اصوات النواقيس من بعد ان كانوا يغزون البلاد ، ويقيمون مع المسلمين عند جللهم اسواق الجلاد ، فكم لهم من غارة شهيرة ، انتهبوا فيها اموالا كثيرة ، تارة يفوزون بها، فيبلغونها لناديهم، وتارة يعترضهم المسلمون فينتزعونها من ايديهم ، ثم حسم مادتهم ، وقطع شافتهم ، بجمع الطلبة فى الجبل ، وهنا يذكر لنا المؤلف بمزيد البيان والتوضيح رباط وهران فيقول « وقد كان الامير جهز نحو الستة من الطلبة ألبستهم لباسا جيدا ، ودفع لهم عدة رقيعة ، ووجههم لجمع الطلبة وترغيبهم فى الرباط ، فلم تمض الا ايام قلائل حتى قدموا من مختلف الجهات، فبعث لهم الاسلحة ، وكل ما يحتاجون اليه ، ولم يزل مددهم يتواصل حتى اربى عددهم عن الحد ، كل هذا ، وهو يوجه لهم بالاطعمة والسمن والزيت والفواكه ونحوها ، وبالشاء والبقر للذبح ربما استحدث من السلاح والبارود الخ ، ويبعث مع ذلك فى كل شهر من يقسمه عليهم ، من أمنائه ، حتى ترتفع التهم ، منهم ، عن أميره عليهم وقد كان مطبخهم واحدا ، تأخذ كل جماعة منه ما يكفيها ، فلما كثروا وعجز الطباخون عن القيام بجميعهم ظهر له ان يدونهم خمسة وعشرين خمسة وعشرين ، فى الديوان ويدفع لكل ديوان ما يكفيهم من الطعام والدراهم لشراء المصالح ، فيعث من دونهم بعد ان فاوضهم فى القدر الذى يكفيهم من ذلك ، فاتفق رأيهم على اربعين صاعا من القمح لكل ديوان فى الشهر ، وخمسة وعشرين لمصالحه ، فكانوا يذهبون بالقمح لمن يجاورهم من الاعراب يطحنونه لهم بأجرة ، فصعب ذلك عليهم ، وكانوا لا يفترقون معهم غالبا الا عن خصومة او مضاربة ، فالتزم لهم بدفعه مطحونا بنقص ريال من واجب كل ديوان ، ثم بدا له فبنى له ثلاث ارحاء ماء بنهر مسرقه ، بينهم وبينه نحو الثلاثة اميال لجهة الغرب ، كل هذا وهم يتزايدون حتى انهم قسموا الرزق أول رجب على ستين ديوانا ، ثم قسمنا على ما ينيف على المائة ، وتصدق عليهم أول شعبان ، بزيادة

ريال لكل شخص ، وقد كان اشترى لهم نحـــو الالف سيف ، فأمر فجعلت لها الاغماد والحمائل، ثم بعثها لهم ، ففرقناها عليهم مع بعض المكاحل التى كان يوجهها اليهم مرة مرة ، فتسابقوا اليها وتزاحموا عليها الى ان آل الامر الى انهم خطفـوا بعضها نهبة ، ثم ردوه فقسم عليهم سواء ، وفى ذلك يقول مؤلف الثغر الجمانى :

ملتـزما لرزقهم جميعـــا
ملبيـا لقـولهم سميعا
فوقعت هنالـــكم حـــروب
زيدت بها على العدى كروب
ومـات فى اولها المفضـل
قاضى القضاة الطاهر المفضل

كان اهتمام الباى بالرباط وبساكنيه متزايدا اذ فى كل اسبوع بل فى كل يوم يفد عليـــه المرابطون ، فانتشـرت الاخبيـة والمضـــارب ، والقياطين ، والخيم ، على جميع تلك الآكام،وذلك الوطاء الفياح ، فكستها ، وما زالت الكتـــائب تتواصل ، والجيوش تتراسل ، والمواكب تجتمع اعدادها ، والابطال تنتظم ازواجها وافرادها ، وهم مشتغلون بقراءة القرآن والفقه والنحو لا يتركون ذلك الا فى اوقات القتال ، وبالليل يبيتون يتلون القرآن العزيز ، لا يفترون عنه الا نحو الساعتين من اوقات النوم ، ومتى انتبه النائم وجـــدهم على حالتهم تلك ، وسمع التلاوة من كل ناحيـة فى ذلك الوادى ، فكانوا كما قيل فى سلفهـــم الصالح رضى الله عنهم : رهبان بالليل أســـود بالنهار .

هذا فى الجملة رباط وهران الذى احيـــاه الباى محمد بن عثمان ، وقد احدث بعد احتلال الاسبان مباشرة ، كما ذكر ذلك الجامعى ، اذ كان حصار وهران وعلى رأس المحاصرين اهل العلـم والدين متواصلا طيلة مدة الاحتلال ، وقد أحدث هذا الرباط كما بينا فى غير موقع الربـــاط القديم المشهور الذى حوصر فيه آخر ملـــوك المرابطين تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، ذكـرت بعض الفقـرات فى وصفه كما ذكـرهـا الكاتبان احمد بن سحنون فى الثغر الجمـــانى ومحمد المصطفى بن زرفة فى الرحلة القمريـة : وهذا الاخير اهتم بتسجيل معظم رسائل الباى الى رئيس الرباط ، لا يسع المقام لذكرها ، وقد اتخذ الباى لهذه المراسلة بريدا خاصا .

وقد اعتنى ايضا بهذه الرباطات بعـــض المستشرقين فخصوها بدراسات قيمـة منهـم العالمان الاثريان Henri ZERRASSE & René BASSET حيث كتبا على رباط تيط بنواحى الجديدة بالمغرب الشقيق ، وجورج مارسى الذى كتب عن مسجـد ابى مروان بعنابة الذى كان يجمع بفضل موقعه الجغرافى بين مجمع العباد والمرابطـين ، الا ان معظم دراسات هؤلاء المستشرقين كانت ترجـــع الى الناحية الفنية والمعمارية .

كان هذا الرباط اى رباط وهران بوادى يفرى غربى ساحل وهران ، وقد كان طلبة القـــرآن ورجال العلم بالمدينة يحيون ذكراه سنويا ، الا انه لطول العهد تنوسيت اسباب هذه الذكـــرى وصار جل الحاضرين يعتقدون ان هذا الاجتماع

مجرد احتفال عادى للطلبة ، وقد بقيت هـــذه الذكرى تقام سنويا بيفرى الى اوائل الحـــرب العالمية الثانية ، وكثيرا ما كان يرأسها عالـــم وهران الراحل الشيخ الطيب المهـاجي .

الفـداء والـربـاط

أصله من الكتاب آيات متعددة ، منها قولـه تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهـــم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن » ، اى سواءا قتلوا ورجعوا ، أو قتلوا ، ولهذا ذهب بعض الصحابة الى ان كل مؤمن له بيعة فى عنقه ، اذ انه بايع اللـــه على القتال فى سبيل الله ، وجزاؤه الجنة ، وقد ذكر الامام ابو عبد الله الحضرمى الاندلسى فى تاليفه (الفـرائد المرويـات فى فوائد الثـلاثيات) اى ثلاثيات البخارى ، فى حديث يتصل بسلمـــة ابن الاكوع الصحابى قال : «بايعت النبى صـلى الله عليه وسلم ثم عدلت الى ظل شجرة ، فلمـا خف الناس قال : يا ابن الاكوع ألا تبـايـــع ، قال : قلت قد بايعت يا رسول الله ، قـــال : وأيضا ، فبايعته الثانية ، فقلت : يا ابا مسلم ، على اى شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : عـــلى الموت » .

وقد قام الصحابة الـكرام بأعـال فدائيـــة جريئة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبأمر منه ، فهى اذن سنة عملية من سنن الاسلام ، ومن هذا يتبين لنا ان العمل الفدائى مشروع كتابـا وسنة واجماعا ، وهو نوع من الجهاد الذى حض عليه الشرع ورغب فيه ، وأوجبه عينيا على كل مسلم ، وان القائمين به يعدون من الســـابقين الاولين المستحقين للمدح الذى خص الله بـــه سلفهـم فى قوله تعالى : « لا يستـوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجـة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعـــد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبـير » . قيل ان اول فدائى فى الاسلام هو الخليفة على بـــن ابى طالب كرم الله وجهه ، حيث خلف النبـى صلى الله عليه وسلم فى فراشه ليلة الهجـرة ، تضليلا للمشركين الذين كانوا يتربصون بالنبى لقتله ، وتفقدوه بالفعل فى تلك الليلة ، الا انهم كانوا يجدونه ملقى على فراشه ، فاطمأنوا عـــلى وجوده ، الى ان بوغتوا فى الصباح عند ما رأوا عليا خارجا من المنزل ، وعندئذ لم يتمـالكوا ، فتسابقوا اليه يسألونه عن النبى اين هو ، فما كان من على الا ان أجابهم بانه لا يعلم عنه شيئا . وقد ذكر المؤرخـون واصحـاب السيـــر عـدة فدائيين من الصحابة والتابعين،كمحمد بن مسلمة الانصارى ، ورفيقه ابى نائلة اللذين قتلا كعب ابن الاشرف اليهودى المتهم باذائه النبىواصحابه قتلاه بأمر منه صلى الله عليه وسلم ، وان امثال هذه الاعمال الفدائية كثيرة فى عهد النبى وفـى عهد خلفائه ، وتاريخ الاسلام مترع بروعـــة التضحية فى سبيل الله وحب الفداء .

ثم ان حياة النبى صلى الله عليه وسلم نفسها قدوة حسنة للمسلمين عبر تاريخهم الطويـــل

في بذل نفوسهم ، وتضحيتهم بأغلى ما يملكه الانسان في هذه الدنيا ، ألا وهي الحياة ، فلقد غزا صلى الله عليه وسلم سبعا وعشرين غزوة في نحو عشر سنوات ، وبدأ جياة الجهاد بعد الهجرة بعام ، وعمره يزيد عن ثلاث وخمسين سنة ، فكان لا ينتهي من معركة الا ويستعد لمعركة أخرى .

ولقد ذكر اصحاب السير باسهاب مواقفه يوم حنين ، حيث صعد على ربوة مرتفعة ، وقد افترق عنه اصحابه ، فواجه أعداءه منـاديا أصحابه ومشجعا لهم ، والسهام تتساقط عليه ، فتسابق حينئذ كثير من اصحابه ملبين نداءه ، وخاضوا المعارك ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من نجا ، وقائمة المستشهدين في هذه الغزوات خصوصا غزوات حنين وبدر و أحد طويلة ، لايسع المقام لتتبعها بتفصيل ، وانما لا يفوتنا ان نذكر ان مواقفه صلى الله عليه وسلم ومواقف اصحابه توارثها المسلمون خلفا عن سلف ، في مختلف العصور ، وكانت الهدف والمثل الاعلى للمجاهدين في مختلف الامكنة والازمنة ، فكان المسلم عند ما يخرج للمعركة يخرج لها مستعدا استعدادا نفسيا ووجدانيا ، ويوطن نفسه على القتل والموت ، قبل يوم القتل والموت .

ان كثيرا من المؤرخين حتى في العصر الاخير ، خصوصا الاجانب منهم وقفوا حيارى مدهوشين عن اسباب الانتصارات التي احرز عليها الفاتحون المسلمون بتلك السرعة التي ضربت الرقم القياسي في تاريخ الحروب العالمية ، ولم يسع المسيحيون انفسهم الا الاعتراف بروح التضحية والفداء اللتين كان يمتاز بهما الفاتحون حيث تمكنوا من الانتصار ، واطاحة معظم الدول التي حاربتهم ، فعند ما جمع البابا Léon الرابع المؤتمر الشهير للملوك المسيحيين بفرنسا في عهده (886 م 912 م) وبحثوا فيه احداث جيش دولي لمحاربة اعداء المسيح ، وكان هذا الجيش اول نواة للحروب الصليبية . ووعد فيه البابا المذكور المحاربين المسيحيين ، وعدهم بالجزاء الالاهي لكل من مات مقاتلا ، اذ كانت التعاليم المسيحية تحرم في اول عهدها قتل النفس وترى المقاتل الذي يموت في الحرب كقاتل النفس ، وكان على رأس هؤلاء الرؤساء البابوات Lactance, TERTULLIEN, DRIGENE فكانوا يحرمون رفع السيوف ، وهدر الدماء ، الى ان كان عهد St Augustin الشهير في القرن الرابع المسيحي ، فقسم الحرب الى حربين : حرب مباحة ، وحرب محرمة ، فالحرب المحرمة هي التي تمنع وتحرم المقاتل الذي يموت في ساحة الوغى من الجزاء الالاهي ، أما الحرب المباحة فلا ، ومن الحروب المباحة عند المسيحيين طبعا هي الحروب الصليبية ، الا ان هناك بعض الكنائس بقيت متشبثة بالتعاليم الاولى ، ولهذا أفتى البابا Léon الرابع في هذا المؤتمر بان المحاربين في سبيل العقيدة المسيحية ، ينالون الجزاء الالاهي خصوصا من مات منهم مقاتلا .

واستدل البابا Léon هذا فى ذلك المؤتمر بحروب المسلمين وكيف كانوا لا يهابون الموت ، وانما قال لبلبلة افكار المؤتمرين « ان العرب الذين يشاركون فى الجهاد ، كان يحدو الاغنياء منهم التضحية فى سبيل سعادة شعوبهم وخدمتها ، . أما الفقراء فكان الداعى لهم الحصول على الغنائم ، وقد يعين المجاهدين على التسليح النساء والاطفال، حيث ان تعاليم دينهم ، ترى ان من لم تمكنه المشاركة فى الحرب ، فبهذه الاعانة يعد كالمشارك فيها بنفسه » ، وهناك بعض المؤتمرين اعترفوا بالحقيقة وقالوا : «ان المسلمين يندفعون للحرب المقدسة بأسباب اخرى ، ويعرفون خصوصا فكرة الفداء ، وما اعده الله للمجاهد ، الا انهم قالوا : ان هذا الجزاء الموعود به قاتل النفس يعد منكرا فى التعاليم المسيحية» .

والذى يهمنا فى هذه الدراسة هو ان الفداء فى الاسلام كان موضع اهتمام اعداء المسلمين فى مؤتمراتهم ، ويقرءون له الف حساب ، وقد ذكر بعض علمائنا : «ان بعض الصحابة سئلوا من بعض التابعين ، فقالوا لهم : ما لكم انتم فى قلة وتهزمون الجيوش ، ونحن الآن فى عدد كثير ، ولم يكن لنا ما كان لكم من النصرة ؟ فأجابهم احد الصحابة قائلا : انا نحن كنا فى الحروب نفضل الموت على الحياة ، وانتم لربما صرتم تفضلون الحياة على الموت ، فوقع فى قلوبكم الرعب» .

اشتهر المسلمون عبر تاريخهم بتوطين نفوسهم على التضحية والاستشهاد فى سبيل الله ، فرادى وجماعات ، وان تتبع اشهر الوقائع لا يسعه مجال هذه الدراسة المحدود ، وانما لا يفوتنا ان نذكر على سبيل المثال بعض المواقف وقفها المسلمون عند ما كانوا يصطدمون بالحوادث الجسام ، فتهون عليهم نفوسهم كما ذكرنا فرادى وجماعات ، يحدثنا التاريخ ان أحد رفقاء المهدى ابن تومرت وتلميذه عبد المومن بن على لما كانوا فى طريق عودتهم من بجاية الى المغرب وقضوا ليلة ببعض القرى تقدم ذلك الرفيق لعبد المومن وطلب منه ان يستبدل معه مكان نومه فأجابه عبد المومن الى رغبته وفى الصباح وجد الرفيق ميتا ، فادرك السر وتحقق ان ذلك الرفيق فداه بنفسه ، كان اسم هذا الفدائى اسماعيل بن يحيى الهزرجى ، وقد ذكر الرحالة ابن جبير الاندلسى فى رحلته فى الحديث عن مدينة صور وهى اذاك تحت حكم الصليبيين فقال : « . . . وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور بمسجد بقى بأيدى المسلمين ولهم فيها مساجد اخر ، فاعلمنا به احد اشياخ اهل صور من المسلمين ، انها أخذت منهم سنة ثمان عشرة وخمسمائة واخذت عكة قبلها باثنتى عشرة سنة بعد محاصرة طويلة ، وبعد استيلاء المسغبة عليهم، ذكر لنا انهم انتهوا منها لحال نعوذ بالله منها ، وذلك انهم عزموا على ان يجمعوا اهاليهم ، وابناءهم فى المسجد الجامع ، ويحملوا السيف عليهم غيرة من تملك النصارى لهم ، ثم يخرجوا الى عدوهم بعزمة نافذة ، ويصدموهم صدمة صادقة ، حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضى الله قضاءه ، فمنعهم من ذلك فقهاؤهم والمتورعون منهم ، واجمعوا على دفع البلد ، والخروج منه بسلام ، فكان ذلك » .

هذا وان منع الفقهاء والمتورعون سكان صــور من تنفيذ ما عزموا عليه من قتل اهليهم غيرة من تملك النصارى لهم ، فان التاريخ القريب يحدثنا عن مسلمين آخرين نفذوا بالفعل هــذه الخطــة ، حيث قتلوا نساءهم وابناءهم ، ثم قتلوا انفسهم عند ما تحققوا وقوعهم في قبضة الاسر ، وكـان الاسر في هذه الواقعة عند اخوانهم المسلمـين لا عند النصارى مثل اصحاب صور . وهذه الحادثة المؤلمة نذكرها للاستدلال على ما يتعلق ببحثنـا هذا ، اذ كان المسلمون في مشارق الارض ومغاربها وفي مختلف العصور عند ما يصطدمون بالحوادث الجسام كان شعارهم دائما « النار ولا العار » ، وقعت الحادثة الثانية هذه لجيش الامير عبد القادر عند ما كان بالمغرب ، وتوترت العلائق بينهم وبين جيش ملك المغرب الشقيق . ولنترك الكلمة للمؤرخ قال : « اثر الخلاف الذى وقع بين الجيشين بعث المؤرخ‌الناصرى هو وجهة نظر المغرب الرسميــة قال : « اثر الخلاف الذى وقع بين الجيشيين بأث الملك لجيش الامير عبد القادر عسكرا من الشراردة فاجتاحوهم بعد جهد جهيد وقتال شديد ، من ذلك انهم اعتصموا بربوة ، وجعلوا يقاتلون على‌حريمهم وكانوا رماة ، لا تسقط لهم رصاصة في الارض ، فكانوا كلما توجهت اليهم طائفة من الجيــش (المغربى) استأصلوها بالرصاص ، وكانوا يجمعون موتاهم فينصبونها اشبارا يتترسون بها ويقاتلون من خلفها ، ولما اعيا الجيش امرهم ، حملوا عليهم حملة واحدة ، حتى خالطوهم في معتصمهـــم ، وجالدوهم بالسيوف ، وطاعنوهم بالرمـــاح والتوافل ، وانقطع البارود فكانوا يقتلون ابناءهم ونساءهم بأيديهم فرارا من السبى والعار ، ثـم جعلوا يقتلون انفسهم حين تحققوا انهم في قبضة الاسر. ثم يسترسل الناصرى في الحديث ويقول . . ان الامير عبد القادر عمد ذات ليلة الى طائفـة من جنده نحو الخمس عشرة مائة على ما قيل ، كلهم بطل مجرب ، انتقاهم انتقاء ، وكان جيـش الخليفة اى ولى عهد ملك المغرب منقسما قسمـين، بعضه معه ، وبعضه مع اخيه ، فصمد الحاج عبد القادر اليهما بتلك العصبة ، الذين هم فتيـــان الكريهة ، ومساعير الهيجاء ، وجمرات الحرب ، طالما هد بهم الوقائع وخاض غمـرات المـــوت مع الفرنسيس ... الى ان يقول ... فهلك مـــن المحلتين بسبب ذلك بشر كثير ، واما الامير عبـد القادر فانه فر في اصحابه بعد ان حملوا الكثـير من موتاهم معهم ، ولما اصبح الناس وتفقدوا حالهم، وجدوا فيهم من الجرحى نحو الالف ، ومن القتلى ما يقرب من ذلك، واصبح حول المحلة من قتلى اصحاب الامير عبد القادر الذين اجهضهم القتال من حملهم نحو الخمسين ، وأسروا نفرا احياء ، فشاهدوا من **طمانينتهم عند القتال** ما قضـوا منـــه العجب ، ووجدوا عليهم لبس رفيعة ، مطـرزة بالصقـل ، والحرير ونحو ذلك : والشاهد عندنا من رواية هذه القصة هو قول المؤرخ الناصرى « كانوا يقتلـون ابناءهم ونساءهم بأيديهم فرارا من السبى والعار، ثم جعلوا يقتلون انفسهم حين تحققوا انهـــم في قبضة الاسر » وقوله في ختام حديثه « وأسروا نفرا

احياء فشاهدوا من طمانينتهم عند القتل ما قضوا منه العجب ووجدوا عليهم كسى رفيعة مطـــرزة بالصقلى والحرير » .

فاكتفى بهذا القدر للاستدلال على ما ذكرناه والا فلو تتبعنا اشهـر المـواقف فى هذا الميـدان لاحتاج ذلـك الى مجلـدات ، فمواقف الاندلسيين ببلنسية عـلى ما حـكى ابن الابـار ، ومواقفهـم بالبيازين بعد سقوط غرناطة لا يقلان روعـة ولا بسالة عما تحدثنا عنه .

ولننتقل الآن الى الحديث عن نظـام الفـداء الذى ظهر فى بلاد القبائل بعد الاحتلال الفرنسى، وبهر كثيرا من الكتاب خصوصا الضباط الفرنسيين الذين خصصوه بتآليف قيمة منها تأليف الجنـرال HANOTEAU الذى سماه « بلاد القبائل وعوائد سكانها » "La Kabylie et les coutumes Kabyles".

المسبلـــون :

كان هذا النوع من الفداء يسمى فى بـــلاد القبائل بامسبلن وهو جمع مسبل بلغة البلاد ، وهو يطلق تماما عـلى الفدائى فى بقية البـــلاد الاسلامية الا انه يختلف عنه فى بعض الجزئيات، تخص ضبطه ونظامه فى بلاد القبائل ، لايجنـد المسبل الا بطلب واذن المسؤولـين السياسيين والعسكريين عندما تعلن البلاد حربا مع دولـــة اجنبية للدفاع عن حمى الوطن ، أو طرد العدو المحتل ، ومـن هذا لا يجنـد المسبـل للحروب الداخلية بين القبائل بعضهم لبعض ، كيفما كانت الاسباب الداعية لنشوب تلك الحروب وبعـــد الحصول على الاذن من المسؤولين المذكورين الذين يحددون عدد ما يحتاجونه ، تتقـدم شخصيـة دينية تتمتع بالنفوذ والسمعة الطيبة فى البلاد ، فيفتح سجلات لتسجيل المجندين ، وفى الغالب يقع ذلك فى الاســواق والمجتمعات العامـــة ، ويشترط فى المسبل ، ان يكون اعزب ويقدمه أهله ، وبالخصوص والده ان كان حاضرا ، ويقبل المتزوج ان دعت الحاجة الى ذلك، وبعد التسجيل لا يقبل باى وجه رفض لمجند للخدمة ، كيفما كان العذر ، اللهم الا اذا كان والـده غـير حاضـر ، وتعرض له ، فانه يقبل منه ذلك ، وقـد يحاط هؤلاء المجندون بمجرد تسجيلهم فى فرقـــــة المسبلين بالاحترام والتقدير ، ويتـولى الجماعة اى المسؤولين السياسيين والعسكريين النفقـة عليهم ، وعلى ذويهم ، ويقدم لهم الشعب جميـــع الهدايا من سلاح وتموين لهم ولافراد اسرتهم ، ثم بعد الانتهاء من التسجيل تقدمهم الشخصية الدينية للجماعة ويكون ذلك فى حفل عمومى ، فيصطف المسبلون صفوفا ، ويرتل القرآن ، ثم تقرأ بعض الادعية من الحاضرين ، والمسبلـون صامتون ، لا يشاركون بقية الحاضرين لا فى قراءة القرآن ولا فى الادعية ، وتعد تلك القراءة بمثابة الصلاة على الجنازة ، وحينئذ تعـين الجماعة اى المسؤولين القائمين بالدفاع عن البلاد،مهام اولئك المسبلين ، فتخطط لهم البرامج التى يتبعونها ، والمواضع ، ونوع الاسلحة ، وحتى الامكنة التى يذهبون اليها أو ينسحبون فى الكر والفر بحيث لا يجاوز المحل المعين له فى حالة الانتصار أو فى

حالة الانسحاب ، ثم ان المسبلين فى حالة الحرب لا يختلطون ببقية المجاهدين ، وبعد الاستشهاد تتخذ لهم مقابر خاصة تدعى بتمقبرت امسبلـين اما الذين ينكصون على اعقابهم ، أو يفرون مـن ساحة الوغى فانهم يهجرون ، ويحاطون بالخزى والعار ، وكثيرا ما يعدمهم اقاربهم للعـار الذى يلحق الاسرة ، وحتى القرية والقبيلة والناكص الذى ينجو من الاعدام تضيق عليـه الارض بمـا رحبت فيهاجر البلاد ، وينقطع خبره واثره .

واول ما ظهر هذا النوع من المسبلـين فـى بلاد القبائل فى يونيو 1854 عند الاحتلال الفرنسى وثورة الشريف بوبغلة ، فكان الجنرال RANDON الوالى العام بالجزائر ، ورفيقه الجنرال ماكماهو Mac Mahon خرجا على رأس الجيـش الفرنسى فى جولة تفقدية ، اذ كانت الحـرب اوشكت على النهاية ، فعند ما وصلا الى قرب بنى يتورغ رأوا النـيران موقدة على قمم الجبـال ، فتوجسا خيفة ، اذ ايقاد النيران بقمم الجبال كان بمثابة الاذن لاجتماع المجاهدين ، وتهيئهم للحرب ثم اطلعوا على الحقيقة وهى ان امرأة من سكـان الناحية تزعمت المقاومة ، ورفضت الاستسـلام ، ونادت بالجهاد ، واحيت سنة المسبلين ، الـذى قال بعض من كتب عنها انها كانت قديمة جـدا ببلاد القبائل ، كانت هذه المرأة هى لالا فاطمـة كما كان يدعوها السكان ، ولقبها الفرنسيـون بنبية الجرجرة La Prophetesse de Djurjura. وقد وصفها الضباط المذكورون ، انها كانـت مرتدية حائكا احمر فى ذلك اليوم ، وهى فـوق ربوة مرتفعة ، محاطة بنساء القرية ، يحرضـن المسبلين على الموت فى سبيل الله ، ويذكـرن المسبلين بما وعد الله به الشهداء ، وكانت المقاومة من اعنف ما لاقاه الجيش الفرنسى فى حروبـه ببلاد القبائل رغم قلة عدد المسبلين الذين اطلع عليهم فيما بعد ، ان السيدة فاطمة عند ما اعلنت الحرب كان يشد ازرها اخوتها ، وتولى أحدهم وهو السيد الطاهر تجنيد المسبلين اذ اذن لـه فى تجنيد الف مسبل ، فلم يسعه الوقـت الا لتجنيد 157 مسبلا اذ هاجمه الفرنسيون ، ورغم قلة هذا العدد امكن للزعيمة ان تدافع عن قريتها سومر ببنى يتورغ واستشهد جل المسبلين الذين دافعوا دفاع الابطال باعتراف اعدائهم ، وبقيت السيدة فاطمة او لالا فاطمة كما كان يدعـوها السكان ، تواصل المقاومة والجهاد تارة على رأس المسبلين وتارة على رأس المجاهدين الى ان اسرت سنة 1857 ، وسجنت صحبة ما تبقى من اخوتها ببنى سليمان حوز مدينة الاخضرية الحاليـة ، وكان السكان وبالخصوص النسوة يزورونهـا من جميع البلاد القبائلية ، حتى ان السلطـات الفرنسية احصت عدد زوارها الذين بلغوا فى يوم من الايام مائتى نسمة ، معظمهم من النساء والصبيان ، ولم ينقطع سيل هؤلاء الزوار طيلة ايام حياتها اذ توفيت رحمها الله سنة 1863 .

كانت معركة لالا فاطمة نسـومر بنى يتـورغ هى التى ظهر فيها لاول مرة حرب المسبلـين ، وذلك سنة 1854 ثم كانت ثورة سنة 1871 ، وهى المشهورة بثورة المقرانى وصهره الشيـخ

محمد امزيان ابن الحداد ، فظهرت حينئذ حرب المسبلين بصفة جلية ، واعتنى بها ايضا قادة الجيش الفرنسى وخصوها بتآليف قيمة ، ذكروا فيها النظام الخاص بالمسبلين ، وهو لا يختلف عما سبق ذكره ، ولنكتف بذكر واقعة اهتم بها المؤرخون وكتبوا عنها بتفصيل ، كتبوء عن موقف هؤلاء المسبلين حيث كلفوا بالهجوم على حصن اربعاء بنى راتن المشهور بفورناصيونال

كان عدد المسبلين المجندين للهجوم على هذا الحصن 2280 مسبلا فحاصروا الحصن ابتداء من 14 افريل 71 ، وكانوا تحت قيادة الشيخ محمد وعلى اوسحنون وجمعوا اثناء الحصار 700 سلما منها المتخذ من الحبال ومنها السلاليم الخشبية واتفقوا على ان الهجوم يقع ليلة 22 مايو وقد وصف قائد الجيش الفرنسى فى تقريره الرسمى الذى ارسله الى رؤسائه يصف لهم فيه الواقعة وكان هذا التقرير مؤرخا فى 16 يونيو قال : « . . . ان ليلة 22 مايو كانت هادئة بخلاف الليالى السابقة ، فلم يسمع أدنى صوت من خارج الحصن ، ولا اية طلقة نارية فعندما اوقدوا القناديل المستعملة بالحصن كان الهدوء التام فى الحصن وفى البلدة .

وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل سمع نشيد دينى من روابى تابلبلت ، وبعد ربع ساعة سمع نشيد آخر من روابى اورفيا ، ثم تلا هذين النشيدين صمت دام ربع ساعة ، وحينئذ سمعت أصوات مزعجة ، من الشعاب المحاطة بالحصن ، واطلقت نيران البنادق صوب الحصن وكانت السلاليم مجهزة فصعد عليها المسبلون ، وصاروا ينادون فرادى الواحد بعد الآخر بأعلى اصواتهم «انى انا فلان ابن فلان وانى مسبل» ويطلق نيران بندقيته الا ان المقاومة كانت عنيفة من الحصن ، وكان كلما سقط المسبلون من اعلى السلاليم ، الا ويخلفهم آخرون ، وهكذا دامت المعركة الى ان طلعت الشمس ولم تات بالنتيجة المرجوة اذ كان المحاصرون على علم من الهجوم فى تلك الليلة ، فالموظف المدعو امين الامناء بذل جهودا ليبلغ الخبر قبل الهجوم بليلة الى قائد الحصن الفرنسى وكيفما كانت تلك النتيجة فانها تركت آثارها عند المحاصرين اذ لما انسحب المسبلون فى الصباح وتركوا بعض السلاليم حملوا امواتهم وجرحاهم الا انهم تقدموا للموت بشجاعة لم يعهدها ضباط الحصن لا فى الحروب التى شاهدوها اذ كان معظم ضباط حرب الاحتلال الفرنسى ممن شاهدوا وخاضوا غمار حروب نابليون الاول باوروبا وروسيا خصوصا عند ما راوا ان بعض المسبلين كانوا يربطون بعضهم بعضا بالحبال حتى لا يتأخروا ويشاركون بعضهم بعضا فى الاستشهاد وكان هذا الربط يسمى بأنمسفراس ايشدان

ولم يخف الضباط الفرنسيون اعجابهم بهذا النوع من المقاتلين فى تقاريرهم الرسمية الى رؤسائهم حيث يلفتون انظارهم ان الامة التى تهتدى وتحافظ على هذا النوع من النظام الحربى ينبغى ان لا يستهان بها ويقرؤ لها حسابها .

بحث كثير من الكتاب الاوروبويين وبالخصوص الضباط الفرنسيين الذين ارتطموا بهذا النوع من الفدائيين ببلاد القبائل سواء فى حرب الاحتلال 1854 او ثورة المقرانى وتحققوا انه وراثى يرجع عهده الى الازمنة القديمة ، وقد سجل فى التاريخ الجزائرى فى اوائل القرن العاشر الهجرى عند ما احتل الاسبانيون مدينة بجاية ثم ظهر الاتراك فى الميدان فحاصرها صالح رايس ما يقرب من الشهر فاستولى على حصن عبد القادر ثم هاجم حصن موسى ـ قصبة البلاد فى العهد الاسلامى ـ فتحصن بها حاكم البلدة لويس دوبرالطا LOUIS de PERALTA. فكانت المقاومة عنيفة ودامت ثلاثة اسابيع فعندئذ تقدم سبعة جنود (فدائيين) واتخذوا سلاليم من حبال ولما سقطوا تحت وابل رصاص الاسبان لم تذهب تضحيتهم سبهللا فقد خلفهم كثير من رفقائهم ولم تمض تلك الليلة حتى تغلب أصحاب السلاليم على المقاومين الاسبان وفتحوا الحصن فخلد صالح رايس اثر احتلاله هؤلاء الشهداء وبنى لهم ضريحا فى سفح برج موسى واشتهر هذا الضريح بهم مدة ، وما زال الى الآن حمام بسيط بقربه يحمل هذا الاسم (حمام السبعة رجال) .

هذه فى الجملة نبذة تاريخية عن الرباط والفداء ، وهى كما رايتم وان كانت كل بلدة اسلامية لا تخلو منها ، الا ان نظام الرباط بوهران والفداء ببلاد القبائل لم نجد لهم نظيرا فى بقية البلاد الاسلامية او لم يعن بها المؤرخون كما اعتنوا برباط وهران ، وفدائى القبائل .



منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب



التكافل الإجتماعي في الإسلام

د . فتحي الدريني

استاذ الحقوق
جامعة الجزائر

لابد لنا قبل أن نستنبط بالادلة الاصول الدينية التوجيهية والتشريعية التى ينبثق عنها التكافل الاجتماعي فى الاسلام من أن نتناول بالبحث النظرية العامة التى قامت عليها الشريعة الاسلامية ، وتفرعت عنها أحكامها العملية المنظمة لجميع شئون الحياة وما ترمى اليه من هدف عام تتجه جميع تلك الاحكام جزئيها و كليها ـ نحو تحقيقه ، ومما لا ريب فيه أن النظرية العامة للشريعة وطبيعة ماترمى اليه من هدف يعكسان لنا الاطار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى يحدد لنا ذاتية النظام التشريعى الاسلامى العام، وفى ضوء ذلك يمكننا أن نتبين أصول التكافل الاجتماعى فى الشريعة الاسلامية بمعناه الواسع ماديا ومعنويا .

النظرية العامة للشريعة تحدد ذاتيتها وهدفها العام :

من المقرر الثابت عند جمهور علماء الاصول والفقة أن أحكام الشريعة ـ فيما خلا التعبديات ـ انما شرعت لاهداف ومقاصد على وجه التفصيل، الامر الذى ينفى عنها صفة العبث او التحكمية ، اذ لا يتسق ذلك مع الحكمة الالهية من انزال الشريعة ، أو مع واقع مسلك الشارع فى تعليل النصوص كتابا وسنة .

ويتفرع عن ذلك وجوب اعمال الفكر والنظر ممن اوتوا ملكة الاجتهاد لتبين هذه المصالح ـ الجزئية والعامة ـ التى قصد الشارع الى تحقيقها عن طريق تشريع الاحكام . ثم تقصى هذه المقاصد فى المحال ، الطارئة العارية عن النصوص ، والتحقق من وجودها بعينها اوجنسها فيها لسحب الاحكام المنصوصة عليها تنفيذا لمرادات الشارع فى أوسع مدى .

على ان ذلك غير كاف ـ فى نظرنا ـ فى تحديد ذاتية الشريعة ، ونظامها التشريعى العام ، بل لابد مع ذلك ـ من استخلاص الهدف التشريعى العام وهو المحور الذى تدور حوله أحكام الشريعة كلها ، وتبين طبيعة هذا الهدف الذى يعتبر معيارا علميا لكل حكم ، وتوافق مدى اتساقه أو تناقضه مع ذلك الهدف ، لان الشريعة كل متسق لا تتناقض اجزاؤه ، ومبدأ التكافل الاجتماعى فى الاسلام فى اصوله التى نهضت به ، لا يفهم الا على ضوء من ذلك كله .

وبديهى أن الشريعة الاسلامية ـ وهى قانون عام شامل ترسم باحكامها ومقاصدها الاساسية ومايتبعها ملامح المجتمع الاسلامى فى شتى نواحى حياته ـ بل وتشيد بنيانه على نحو خاص ، لخصائصه ومميزاته الذاتية ، ومن هنا أشار الامام الشاطبى الى أن احكام الشريعة ومقاصدها الهية ، لا لينفى عنها صفة المعقولية ، والا لما كانت غائية ذات اهداف ، بل ليؤكد ذاتية الشريعة ، وانها من وضع الشارع الحكيم حكما ومقصدا ، وانه ليس للمجتهد سلطة ابتداع الاحكام ، لانه قضاء على تلك الذاتية ، بتاسيس فقه جديد ، فضلا عن انه افتئات على حق الله فى التشريع ، اذ يقول : «واما تحريم الحلال وتحليل الحرام وما أشبهه فمن حق الله تعالى لانه تشريع مبتدأ وانشاء كلية شرعية الزمها العباد ، فليس لهم فيها تحكم . . فهو مجرد احكام فيما ليس لغير الله نصيب ، فلذلك لم يكن لاحد فيه خيرة» ، هذا فى الاحكام .

واما المصالح التى هى غايات الاحكام فقد أشار الى انها من وضع الشارع الحكيم ايضا بقوله : «ان كون المصلحة مصلحة تقصد بالحكم ، والمفسدة كذلك، مما يختص بالشارع ، لا مجال للعقل فيه . . فاذا كان الشارع قد شرع الحكم لمصلحة فهو الواضع لها مصلحة ، والا فكان يمكن عقلا الاتكون كذلك» .

الاحكام منشا الحقوق

ان الذى يعنينا من بيان منشا الحق فى الشريعة الاسلامية هو اثره فى تحديد مدى استعماله تحقيقا للتكامل الاجتماعى بين الافراد قبل بعضهم وبين الفرد والجماعة .

فمن المعلوم بداهة ان منشا الحق فى الشريعة، هو الحكم الشرعى ، وهو مايعبر عنه فى الفقه القانونى «بالقاعدة القانونية» وعلى هذا لا يعتبر الحق حقا فى نظر الشرع الا اذا قرره الشارع ، وتقريره انما يكون بحكم ، والحكم يستفاد من مصادر الشريعة ، فكانت مصادر الشريعة هى مصادر الحقوق .

ويتفرع عن هذا ان «الحق» منوضع الشارع الحكيم فهو اذن منحة منه تعالى ، وهذا ما يؤكده الامام الشاطبي بقوله : «فان ماهو لله أى من الحقوق ـ فهو لله ، وماكان للعبد فراجع الى الله ، من جهة حق الله فيه ، ومن جهة كون حق العبد من حقوق الله اذ كان لله الا يجعل للعبد حقا أصلا» .

نخلص من هذا الى أن الشريعة هى أساس الحق، وليس الحق هو اساس الشريعة· وبيان ذلك أن الحق فى نظر الشريعة ليس صفة ذاتية من صفات الانسان، أو خاصية من خصائصه الفطرية كما يرى أنصار المذهب الفردى فى فلسفة القانون، حتى يكون الاصل فى الحق الاطلاق لانه سابق فى وجوده على القانون والجماعة والدولة، وتقييده ليس الا استثناء لدفع العدوان على حق الغير، أقول ليس الحق صفة ذاتية سابقة على وجود، الحق فالشريعة هى التى أنشأت الحق انشاء وجاءت به، ويقرر الامام الشاطبى هذا المعنى بقوله : «لان ماهو حق للعبد انماثبت كونه حقا باثبات الشرع ذلك له، لابكونه مستحقا لذلك(١) بحكم الاصل ويتفرع عن هذا أن الحق فى الشريعةمقيد بما قيد به الشارع ابتداء، فالاصل فيه التقييد لا الاطلاق على ما سياتى بيانه·

وأيضا، لو كان الحق صفة ذاتية للانسان وانه خلق مزودا بها، ولم يكن ثمة من قيد يرد على الحق الفطرى ابتداء، فكان لذلك مطلقا، لو كان الحق كذلك، لما كان للمصلحة العامة اى اعتبار، اذ ليس لها على هذاالنظر حقيقة أو وجود مستقل، وهذا ما تصرح به فلسفة الفرديين، من أن المصلحة العامة ليست الا حصيلة المصالح الفردية، لا لتصور التناقض بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة، ويتفرع عن ذلك أنه لاتناقض اذ التناقض فرع وجود المتناقضين، والمصلحة العامة ليس لها حقيقة جوهرية، أووجود مستقل فى نظر هذا المذهب كما قدمنا، لانها تتحقق تلقائيا بمجرد مراعاة المصالح الفردية، وهو ما اثبت الواقع بطلانه، اما الشريعة الاسلامية فقد اعتبرت أن للمجتمع مصلحة عامة جوهرية ومستقلة عن المصالح الفردية· ومن ثم أمكن تصور وقوع التناقض بينهما، وشرعت من القواعد مايكفل التنسيق أو التوفيق بينهما ما أمكن، ويؤكد مبدأ التكافل الاجتماعى فى الاسلام، حتى اذا تعذر ذلك قدمت المصلحة العامة، وهو اجماع تصرح به الشريعة اذ تعتبر ان ما يصرح به الامام الشاطبى بقوله : «المصلحة العامة مقدمةج٢ ص ٣٥٠» صادقا·

وأخيرا، فان الحكم اذا كان منشئا للحق (والحكم وسيلة وليس غاية ذاته بالاجماع) فالحق هو ثمرة والحكم مجرد وسيلة من باب أولى، وهو ما نقلنا نظيره عن الامام الشاطبى فيما سبق ·

الهـدف المزدوج :

لاعبرة بالوسيلة اذا تقاعدت عن تحصيل مقصدها

من الثابت أصوليا أن الوسيلة انما شرعت طريقا لتحقيق مصلحة معينةمرسومة، حتى اذا أضحت تلك الوسيلة فى ظرف من الظروف غير مفضية الى ذلك أو غدت تفضى الى نقيض مقصودها يقينا أو الغالب من الظن، بطلت مشروعيتها، لان الوسائل تسقط بسقوط مقاصدها بالاجماع· يقول الامام العز بن عبد السلام «كل تصرف تقاعد عن تحصيل مقصوده باطل (٢)»·

ويقول صاحب منح الجليل : «والوسيلة لا تشرع عند ظن عدم ترتب المقصود عليها (٣) وهذه من قضايا العقل، كما انها من قضايا الدين، وأصل ذلك قوله تعالى : «وان كان ذو عسرة فنظرة الى مسيرة وان تصدقوا··» فاذا كان الحبس وسيلة مشروعة من وسائل الاكراه البدنى لحمل المدين الواجد على قضاء دينه فى رأى فريق من العلماء، فان هذه الوسيلة تصبح غير مشروعة حالة الاعسار، لانها لا تثمر ولا تحصل مقصودها، وهكذا تسقط الوسيلة بسقوط مقصودها شرعا، والآية الكريمة اذ توجب انظار

(١) الاصل ج ٢ص ٣١٦ (٢) قواعد الاحكام : ج٢/ص ١٦١ ـ ص ١٦٢ (٣) ج٢/ص١٠٢ ـ ص١٠٣

المعسر تندب الى التصدق عليه بالدين ، ولا يخفى ما لهذا الاصل من صلة بمبدأ التكافل الاجتماعى فى الاسلام، وتمتين روابط الاخوة بين أفراد المجتمع الاسلامى .

الهدف العام الذى يعتبر محور احكام الشريعة :

سبق أن قررنا أن الشريعة الاسلامية قد اعترفت بالمصلحة العامة لحقيقة جوهرية مستقلة عن المصالح الفردية فى مجموعها ، وترتب على هذا الاصل امكان وقوع التناقض بين المصلحتين الفردية والعامة ، وهو ما عملت الشريعة على تنسيقه بقواعد محكمة . من مثل قاعدة «يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام» وأيضا أجمع الاصوليون والفقهاء على أن المصلحة العامة مقدمة «حين يتعذر التوفيق مع مراعاة المصلحة الخاصة فى التعويض» ولا يخفى أن التضحية بالمصلحة الفردية عند تعارضها مع مصلحة الجماعة انما يعتبر اصلا من اصول التكافل فى الاسلام . أما اذا لم يكن ثمة تعارض فان كلا من المصلحتين يعتبر ، يدلنا على هذا تقسيم الاصولين الحق الى قسمين رئيسيين : حق الله وحق العبد ، وتفسير الاول بانه انما أضيف اليه لشمول نفعه وعظيم خطره، ولا يقصد بالمصلحة العامة الا هذا ، ومن التطبيق العملى على هذا الاصل أحكام الاحتكار ، والتسعير الجبرى ، وبيع الحاضر للبادى فى الشريعة الاسلامية ، حيث تجد أن فى تلك الاحكام رعاية للحقين معا دون افتئات أحدهما على الآخر .

فعلى هاتين المصلحتين دارت أحكام الشريعة كلها، وشرعت لهما الوسيلتين اللتين أشرنا اليهما وتفضيان الى تحقيقهما وهما حق الله وحق العبد ، فالهدف العام فى الشريعة الاسلامية اذن مزدوج .

ويترتب على هذا الاصل أن الشريعة الاسلامية لا تجعل مدار احكامها على مصلحة الجماعة فحسب كما هو الشان فى بعض النظريات القانونية ، دون النظر الى المصلحة الفردية ، ولا تهدر القيمة الذاتية للانسان وذلك لانها تستند مبدئيا الى عقيدة دينية، وهى بالفرد أمس والصق بل لولم تراع حق الفرد ومصلحته أولا وبالذات لفقدت مبرر انزالها كشريعة سماوية . فليس الفرد فى نظر الشريعة آلة اجتماعية مسخرة،أو مجرد عنصر تكوين يعمل لصالح الجماعة دون اعتبار لمصلحته الخاصة .ولا أدل على ذلك من الادلة الواردة فى الكتاب والسنة الناهضة بتقرير حق الملكية الفردية كحقيقة ثابتة معلومة من الدين بالضرورة .وهذا الحق يتفرع عنه حق الارث .

طبيعة الهدف العام فى الشريعة يؤذن بواقيعتها وخلودها :

ليس من ريب فى أن الشريعة الاسلامية اذ تجعل الهدف العام الذى اتخذته محورا لتشريعها مزدوجا قوامه مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة ، وتشرع لهما حق الفرد وحق الله كوسيلتين انما تقرر ذلك نزولا منها على مكونات الواقع ، فلا نكران أن المجتمع مكون من أفرَاد لكل منهم مصلحة ذاتية ، وكيان مستقل ، باعتباره كائنا حيا حرا مستقلا مسئولا .

كما أن للمجتمع مصلحة جوهرية مستقلة عن مجموع المصالح الفردية، والافما هذا التناقض الذى كثر وقوعه بعد القرن الثامن عشر ابان انتشار الانتاج الصناعى الكبير نتيجة للتقدم الحضارى ؟

فاهدار أى منهما يعتبر تجاهلا لمكونات الواقع، والتشريع بما هو قانون الحياة ينبغى الا يتجاهل الظواهر الاجتماعية التىماوجد الا لينظمها علىضوء من الحق والعدل ، وليس التجّاهل لاحدى المصلحتين سبيلا الى العدالة ، بل هو مناكرة لها .وبهذا التجاهل يفقد التشريع مقومات وجوده وهو عنصر العدالة .

هذا شىء وشىء آخرهو أنالتكافل الاجتماعى انما يتحقق على الوجه الصحيح فى ظل من العدالة الاجتماعية، لانهليس الامظهرا من مظاهرها ولذالانرى

ان ثمة تكافلا اجتماعيا حقا فيما ينكر حق الفرد أوحقا للجماعة باطلاق من النظم التشريعية.

واذا كان هدف الشريعة العام انعكاسا لمكونات واقع المجتمع الانسانى حيثما وجد ، ادركنا ما تنطوى عليه الشريعة من عناصر الحياة والبقاء لواقعيتها وتحريها معايير العدالة.

مظهر التكافل الاجتماعى فى الحقوق الفردية فى الشريعة الاسلامية :

لانرى أصلا للتكافل الاجتماعى تنهض به الفلسفة الفردية للقانون ، تلك الفلسفة التى تذهب الى اطلاق الحقوق والحريات العامة ، ولا تقيدها الا استثناء بضرورة المحافظة على النظام العام والآداب ومقتضى ذلك أن للفرد ان يتصرف فى حقوقه وحرياته العامة وفق رغبته ومشيئته، دون اعتبار لمصلحة غيره من الفرد أو الجماعة ، ولا تتجه عليه المسالة القانونية الا فى حالة مجاوزته حدود حقه الموضوعية أو الاعتداء على حق غيره.

وعلى هذا لايرد أى قيد يلقى واجب التكافل الاجتماعى على عاتق الفرد ابان ممارسته لحقه أولاية حرية من حريته العامة. كما لاتسعف مبادىء تلك الفلسفة الفردية على اعطاء تفسير لاصل تدخل الدول فى شئون الافراد فضلا عن تحديد مداه ما دامت المصلحة الفردية هى محور التشريع وغايته المقدسة.

أما الفلسفة الفقهية للقانون التى اتجهت عكسيا بحيث اضحت على النقيض من الفردية أساسا وهدفا، ونعنى بها تلك الفلسفة التي تجعل الجماعة وحدها محور التشريع وغايته ، فان كفالة مصلحة الجماعة هى المقصد العام الوحيد من التشريع فى نظرها، حتى اتسعت مبادئها بالتالى لتفسير تدخل الدولة بلاعتبرته الاصل ، أما المصلحة الفردية فترى أنها مكفولة ضمنا أو تبعا ، لكن بقى أن يتجه على هذا النظر ان اعتبار الشخصية الانسانية العاملة المستقلة ، أو رعاية المصلحة الذاتية ليس أمرا مقصودا قصدا أوليا وأصالة وبالتالى لايتصور أن تعمل على تحقيق ذاتية الفرد ، أو يفسح المجال لمواهبه الشخصية وملكاته النفسية لكى تعبر عن نفسها ، ولا أدل على ذلك من اعتبار الفرد مجرد موظف عام لا صاحب سلطة. لذا لانرىفى هذه الفلسفة مظهرا كاملا للتكافل الاجتماعى كما يبدو ذلك واضحا فى أصول التشريع الاسلامى وفلسفته العامة ، يرشدك الى هذا أن مفهوم الحق فى نظر تلك الفلسفة لا يعدو أن يكون مركزا قانونيا أو وظيفة اجتماعية مما يؤذن بان صاحب الحق ليس الا موظفا عاما يعمل لصالح الجماعة لا لمصلحته الخاصة أولا.

استقر فى أصول الفقة الاسلامى أن كل حق فردى مشوب بحق الغير ، وحق الغير أهم من أن يكون مصلحة الفرد أو الجماعة ، وليس لذى الحق «خيرة» فى اسقاط حق الغير بل اعتبره علماء الاصول «حق الله» فى كل حق فردى.

هذا ، وليس المقصود بالمحافظة على حق الغير عدم الاعتداء أو تحريم المجاوزة فحسب، لان هذا مقرر فى جميع الشرائع ولانه فعل محرم فى ذاته لخروجه عن حدود الحق الموضوعية، بل المراد أن حق الغير محافظ عليه شرعا ابان استعمال الفرد لحقة كسبا وانتفاعا وممارسته اياه ولو ضمن حدوده الموضوعية واهدار حق الغير فى هذه الحاليعبر عنه بسوء استعمال الحق، أو التعسف فى استعماله، وهو أمر لم تهتد اليه التشريعات الوضعية الا فى هذا القرن العشرين وعلى نحو ضيق ومبهم فى حين أن الشريعة قد جاءت به منذ أربعة عشر قرنا نظرية عامة مدعمة الاصول من الكتاب والسنة وفقه الصحابه ومن بعدهم محددة المعايير منبسطة الظل على جميع أنواع الحقوق ،

وتعتبر دستورا كاملا بحكم أستعمال الحقوق على نحو يحقق التكافل الاجتماعي باجلى صوره ، في الفرد قبل نفسه أولا لانه مسئول عن صون حياته وعن اضلال نفسه وتضييع ماله مثلا ، أو بين الفرد والفرد ، أوبين الفرد والجماعة أو الفرد والدولة وبذلك تضفي الشريعة على الحق الطابع الاجتماعي ، وتنفى عنه الصبغة الفردية أو الانانية.

يقول الامام الشاطبي : «وأيضا ، ففى العادات حق اللهتعالى من جهة وجه الكسب ووجه الانتفاع ، لان حق الغير محافظ عليه شرعا أيضا ، ولا خيرة فيه للعبد، فهو حق اللهتعالى صرفا لا فى حق الغير ، حتى يسقط حقه باختياره فى بعض الجزئيات، لا فى الأمر الكلى ونفس المكلف أيضا داخلة فى هذا الحق ، اذ ليس له تسليط على نفسه ولا على عضو من أعضائه بالاتلاف (١).

فالعادات ـ من الحقوق والحريات العامة ـ ليست خالصة لاربابها ، حتى حق الحياة نفسه ليس خالصا للانسان فى نظر الشرع ، فليس له أن يقضى على حياته انتحارا ، أو التسليط على نفسه أو أى عضو من أعضائه بالاتلاف ، لان للهتعالى حقا خالصا أيضافى حياة الانسان ، وهو العبودية له تعالى والنهوض بالالتزامات الايجابية والسلبية التى يقضى بها مبدأ الاتلاف فى الارض تعمدا ونشرا للقيم الانسانية الخالدة في ظل من عبودية الله نفيا للظلم والاستبداد وتصرف الانسان فى حق حياته على وجه لايحقق ذلك محرم ، لان فيه اهدارا لحق الله وحق الجماعة ، وهذا لاريب من أقوى وجود التكافل الاجتماعي فى الاسلام اذ يجعل للجماعة حقا فى حياة فرد ، فليست حريته اذن مطلقة فى التصرف حتى فى حق نفسه أوأى عضو من أعضاء جسمه.

كذلك لايجوز للفرد افساد مال نفسه ، لان المال انما خلق عونا للفرد فى دنياه وآخرته ، وافساد المال فى غير المصلحة التى شرع من أجلها محض عبث والعبث حرام بناء على القول بالمصالح ففى المال حق الله تعالى وهو حق.

يقول الامام القرافى « فحجر الرب تعالى برحمته على عبده فى تضييع ماله الذى هو عونه على أمر دنياه وآخرته ، ولو رضى العبد باسقاط حقه فى ذلك لم يؤثر رضاه ، و كذلك حجر الرب تعالى على العبد فى القاء ماله فى البحر وتضييعه ، من غير مصلحة، ولو رضى العبد بذلك لم يعتبر رضاه (٢) ».

ففى المثال الاول صورة للتصرف فى حرية عامة، وفى الثانى صورة للتصرف فى حق الملكية ، وكلاهما مقيد بما يحقق التكافل الاجتماعي ، لان للمجتمع حقا خالصا فيهما.

فمبدأ المحافظة على حق الغير من الفرد أو الجماعة اذن قوام الحقوق الفردية والحريات العامة ، وهى فى مال الامر قوام التكافل الاجتماعي فى الاسلام.

وليست المحافظة على حق الغير مقصورة على الناحية السلبية من التصرف فى حدود الموضوعية للحق الفردى ، وهى عدم التسبب فى الاضرار ابان ممارسة الفرد لحقه، بل تشمل الى ذلك الناحية الايجابية التى تفرض على المالك أن يخلى سبيل غيره للانتفاع بما يملك اذا لم يعد على الاول ضرر ومن باب أولى اذا كان يعود عليه نفع، وهذا يؤكد الاصل العام الذى جاءت به الآية الكريمة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان» وهو يقضى بان كل فرد ـ حاكما أم محكوما ـ ملزم ايجابيا بالعمل على تحقيق مبدأ التعاون أو التكافل ، كما هو ملزم

---

(١) الموافقات : ج٢ ص٣٢٢ (٢) الفروق : ج ٢ ص ١٤١

سلبيا بالامتناع عن كل مايخل بمقتضيات هذا المبدأ· وهو أصل يقيد بمقتضاه جميع الحقوق فى الشريعة، حتى لايوجد فيها حق جزئى يتنافى مع هذا الاصل الكلى

ولقد طبق الاصوليون والفقهاء هذا المبدأ فى كثير من جزئيات المسائل الفقهية وسنورد طرفا منها فى شرحنا لمبدأ تقييد الحق الفردى رعاية لمصلحة أخرى خاصة وتقييده بالنسبة للمصلحة العامة تحقيقا لمبدأ التكافل الاجتماعى (١)·

الطبيعة المزدوجة للحق الفردى :

نخلص من هذا الى ان الحق الفردى فى الشريعة الاسلامية ذو طبيعة مزدوجة فردية وتتبدى فيما لدى الحق من مصلحة ذاتية واجتماعية ، وهى المصلحة المحافظ عليها شرعا فى كل حق فردى كما قدمنا ، وفى تقديم المصلحة العامة اذا تعذر التوفيق بينها وبين المصلحة الفردية·

والواقع أن هذه الطبيعة المزدوجة للحق فى الفقة الاسلامى تعتبر انعكاسا لطبيعة الانسان نفسه بما هو كائن اجتماعى ، لايسعه العيش على نحو فردى منعزل بل لايمكنه أن يحيا الا فى وسط اجتماعى ولكن ذلك لايعنى أن ليس له مصلحة ذاتية خاصة·

طبيعة الحق الفردى تتسق مع الهدف العام للتشريع :

الطبيعة المزدوجة للحق الفردى التى يقتضيها مبدأ التكافل الاجتماعى فى الاسلام تعتبر انعكاسا للهدف العام للنظام التشريعى الاسلامى ، وهو رعاية المصلحتين الفردية والاجتماعية معا ، وهذا مما يؤكد المعنى الاجتماعى للحق فى الشريعة الاسلامية·

وقبل أن نتناول تفصيل الأصول التشريعية التى تنهض بمبدأ التكافل الاجتماعى وما ترفع عنها فى الاجتهاد التشريعى ، نود أن نلقى نظرة عامة على الاصول الدينية التوجيهية الى العمل بمقتضيات هذا المبدأ·

الاصول الدينية التوجيهية التى تنهض ببناء التكافل الاجتماعى ماديا ومعنويا :

تفرض الشريعة واجبات دينية وخلقية شتى، سموا بالذات الانسانية ، واستكمالا لفضائلها النفسية لان ذلك من المهمة الاولى للشريعة ، وليس من جزاء على الاخلال بهذا الواجب الا نفور الرأى العام ، والادانة الاخروية ، وهى أعظم سلطانا ورهبة من الجزاء الدنيوى·

على ان القاعدة الدينية أو الخلقية قد ترقى الى قاعدة شرعية تواجه أثر الاخلال بها اذا ترتب عليه ضرر للناس ، وذلك لترتيب جزاء دنيوى·

ولقد كان محرما ديانة التصرف فى حق الملكية تصرفا يضر بالجار ضررا بينا أو فاحشا عند الامام أبى حنيفة ، ولايمنع من التصرف قضاء ، لان الناس مسلطون على أموالهم ، ولكن أفتى المتاخرون بتحويل هذه القاعدة الديانية الى قاعدة شرعية تطبق فى القضاء ، حتى أفتى المتاخرون من الحنفية بمنع المالك من التصرف فى ملكه على هذا الوجه لضعف الوازع الدينى ، وعدوا ذلك من باب الاستحسان لضرورة المصلحة (٢)·

وكذلك «الاحتكار» فجميع ماورد بشانه فى السنة أحكام ديانية ترتب الجزاء الاخروى فحسب حتى جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاصدر منشورا بشأن الاحتكار· كما ورد فى موطاالامام مالك وغير ذلك كثير

مزج القواعد الدينية بالقواعد التشريعية فى الفقة الاسلامى :

على أن هذه القيم الانسانية والمثل العليا ، امتزجت

---

(١) راجع الموافقات : للامام الشاطبى ــ ج ــ ص

(٢) تبيين الحقائق ــ للزيلعى : ج ٤/ص ١٩٦

فى الفقة الاسلامى بقواعد التشريع المصحوبة بالجزاء من البر والاحسان والرحمة والاخوة والايثار تستمد معاييرها وتدعيمها من ينبوع واحد هو الايمان بالله تبارك وتعالى ، كما تهدف الى غاية مشتركة ، هى اقامة الدنيا بحيث تكون سبيلا الى الآخرة تحقيقا لصالح الفرد والجماعة ، بل والانسانية بعامة ، اى لبناء مجتمع انسانى فاضل على أساس من التعاون والتكافل المادى والمعنوى فى دائرة البر ، والتسابق فى الخير ، والتواصى بالرحمة ، والتفاضل بالتقوى والعمل الصالح والسعى ـ افرادا وجماعات ـ لابتغاء مرضاة الله ، وهو الهدف المشترك للفرد والجماعة فى الشريعة.

فالشريعة الاسلامية لاتفصل المعنى الدينى عن كل تصرف ، عبادة كان أم معاملة لسبب بسيط ، هو أن الاوامر والنواهى ، وهى مناشىء الحقوق والواجبات كما علمنا،شاملة للقواعد الخلقية المبثوثة فى الشريعة واذا كانت الشريعة انما انزلت للامتثال ابتغاء مرضاة الله، فالقواعد الخلقية والفقهية كلاهما فى نظر الشرع بمنزلة سواء من حيث وجوب الامتثال، ومن هنا تسهم القواعد الدينية والخلقية فى خلق التكافل الاجتماعى تحت تاثير الوجدان أو العقيدة الدينية وذلك لما ينأى بالحق عن معنى السلطة المطلقة او الانانية الفردية ، ذلك المعنى الذى عانت منه التشريعات الوضعية ردحا من الزمن وعجزت عن مواجهة أزمة التضارب بين المصلحة الفردية والمصلحة العامة ، مماترتب عليه مظالم اجتماعية فادحة ،فهذا المعنى لاوجود له ـ كما رأينا ـ فى الشريعة الاسلامية.

هذه السمة البارزة التى تتسم بها الشريعة الاسلامية تتفق مع طبيعة التشريع من حيث هو قانون تقويمى لاتقريرى :

مزج القواعد الخلقية بالقواعد التشريعية خصيصة اتسمت بها الشريعة الاسلامية على نحو لم يعرف فى اى نظام تشريعى ، ومن المقرر أن أصل القاعدة التشريعية (القانونية) قاعدة خلقية ، وأن غنى القانون انما يقاس بخصوبة ما يرتكز عليه من قواعد خلقية اذا ثبت هذا ـ وهو ثابت لامرية فيه ، ان الشريعة الاسلامية تعتبر من اخصب النظم التشريعية فى العالم.

منافاة منهج بعض النظم التشريعية لطبيعة التشريع نفسه :

على أن بعض الفلسفات القانونية من مثل فلسفة العميد «ديجى» فى مذهبه التضامن الاجتماعى لاتجعل للمثل العليا والمبادىء الخلقية من الايثار والرحمة والعفومكانا فى التشريع ذهابا منها الى أن المنهج الذى يجب أن يخضع له القانون مادى محسوس هو المشاهدة والتجربة وصدا للظواهر الاجتماعيةباعتبار أن القانون ليس الاظاهرةاجتماعية، وعلى هذا لامكان للامور المثالية ولاسيما تلك التىتتعلقبماوراء الطبيعة لانها أمور لاتتعلق بالواقع المحسوس المشاهد ، والقانون وظيفته تقرير ذلك.

ولكن يرد على هذا النظر أن المنهج العلمى فى البحث يجب أن يكون مشتقا من طبيعة المادة المدروسة والشريعة أو القانون يختلفان طبيعة وهدفا عن العلوم التقريرية التى تخضع لوسيلة المشاهدة والتجربة كالعلوم الفيزيائية والكيميائية التى تقرر حقائقها العلمية التجربية فى المعامل المخبرية ، فهى علوم تقريرية.

أما الشريعة فتعنى أولا وقبل كل شىء بتقويم الواقع لابتقريره ، ومن ثم كانت متعلقة بالارادة فتقومها لتتجه الى الغاية المرسومة من التشريع،فيجب أن تحكم بقانون الغاية ، ومن ثم تدخل المثل العليا والمبادىء الخلقية فى الشريعة لما لها من أثر تقويم الارادة وتوجيهها وحينئذ يكون اتخاذ قانون الغاية

أساسا لبحث الشريعة متفقا أومشتقا من طبيعة المادة المدروسة وهو أحدث ماوصل اليه منطق دراسة العلوم من مناهج ، والشريعة علم تقويمي لا تقريري·

الاصل الديني الذي تؤصله الحكمة القرانية في بناء التكافل الاجتماعي فيما يتعلق بالحق قضاء واقتضاء

بينا أن المعنى الديني والخلقي لاينفصل عن المعاملات في الفقة الاسلامي ، بل ان من الأصوليين من يجعل العفو عن المظالم واسقاط الحقوق من قواعد الشريعة، ويعتبر تحريم العفو والاخذ بالجزاء دائما أبعد عن القواعد ، يقول الامام العز بن عبد السلام : وقال بعض العلماء ينبغي الا يعفى عن الظالم كيلا يجترىء على المظالم ، وهو بعيد من القواعد ، لان الغالب ممن يعفى عنه أنه يستحي ويرتدع عن الظلم ولا سيما عن ظلم المعافي ، وقد وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بانه لايجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح مع أن الجراة عليه أقبحمن كل جراة ، ولان العفو لايؤدى الى الجراة غالبا ··· وقد مدح الله العافين عن الناس ، وهو يحب العفو بقوله «فمن عفا وأصلح فاجره على الله» وقال في القصاص «فمن تصدق به فهو كفارة له» (١)·

وواضح أن العفو ــ في الاصل ــ شيمة خلقية ، وفضيلة نفسية، وهي عند علماء المسلمين أصل من أصول الشريعة يتصل بقواعدها ، ولعل هذا العفو يتصل بالرحمة ، ورحمة قد أنزلت الشريعة كلها من أجلها «ومااًرسلناك الارحمة للعالمين» ، «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»·

واقعية المثالية ومثالية الواقعية في الفقة الاسلامي :

ان الشريعة الاسلامية اذ شرعت القصاص أقرت بواقع فطرة النفس الانسانية ، فالجزاء الوفاق على الجريمة عدل يرتاح له ضمير الفرد ، وتطمئن اليه نفسه ، ويعسر عليها أن تتقبل احتمال الاذى والظلم، ذلك لان النفس لايرضيها الا المماثلة في الجزاء غالبا. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان شرعية القصاص زاجرة للنفوس التي لايردعها عن الظلم والفساد الا أحكام رادعة ، فلا بد اذن من تشريع القصاص عدلا وردعا ، وفي هذا تساير الشريعة منطق الواقعية من ناحيتين من ناحية من له الحق وناحية من عليه الحق·

غير أن الشريعة في الوقت نفسه قد فتحت السبيل للتخفيف من حدة المماثلة، وشدة وطاة المعادلة الدقيقة في الاقتضاء ، تساميا الى المثالية وحثت النفوس على ذلك ، وراعت تفاوت همسها ، فجعلت لولي الدم العفو الى بدل مالي وهو الدية ، أو العفو المطلق ، وعلى من عفا الى بدل أن يتبع القاتل بالمعروف ، ولا يطالبه بعد العفو الا بالمال المصالح عليه ، وعلى القاتل أن يؤدى بدل الصلح باحسان أى بلا مطل ولا بخس ، يؤكد مبدأ العفو هذا نصوص كثيرة من مثل قوله تعالى : «وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين» ، «وأن تعفوا هو أقرب للتقوى»·

ولاشك أن في ندب الشريعة الى اسقاط الحق ، كما في التصدق بالدين على المدين المعسر، وكما في العفو المطلق عن القاتل ، تمتينا لروابط التكافل الاجتماعي، ولا يخفى مافي التعبير بقوله تعالى : «من أخيه» من التعطف الداعي الى العفو والاشارة الى أن عاطفة الاخوة في الدين أقوى من عاطفة الانتقام ، فالقتل لاينبغي أن يذهب باخوة الايمان ، وهذا أكبر مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي بين الافراد كما يؤكد ما قررناه سابقا من أن المبدأ الذي حثت عليه الشريعة في استعمال الحق ، هو تجاوز العدل الى الاحسان

---

(١) القواعد : ج ٢/ص ١٦١ ــ ١٦٢

والفضل،ممثلا بقوله تعالى : «ولاتنسوا الفضل بينكم» وقوله تعالى : «ان الله يأمر بالعدل والاحسان» وقوله تعالى : «ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور».

الاخوة الدينية أصل في الشريعة اعتبره القرآن والسنة مؤيدا لمبدأ التكافل الاجتماعي :

لايكفي ــ لاعتبار المجتمع قائما في نظر الاسلام ، وجود أفراد متكاثرين يعيشون في مكان ما، اذ ليست مقومات المجتمع الاسلامي مجرد عناصر مادية بل هي خصائص معنوية ، وعلى راسها هذه «العقيدة» التي هي ينبوع الخير ، ومنشأ الخصائص الانسانية للبشر كافة.

والعقيدة هي رباط روحي ، توحد شعور الافراد بقيم انسانية خالدة ، وتجمعهم على هدف مشترك ، ومن هنا كانت الأخوة الدينية حقيقة نفسية واقعية في يقين المسلم قد قررها القرآن الكريم على نحوما يقرر الحقائق الواقعية التي لا تقبل ما ينافيها من الوان الصلات الاخرى ايا كان نوعها ، قال تعالى «انما المؤمنون اخوة» بل قد رتب الله سبحانه الوعيد على ايثار اية صلة اخرى ولو كانت صلة الدم والنسب : قال تعالى ، «لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم او ابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، او لئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله الا ان حزب الله هم المفلحون».

واذا كان الايمان باللهتعالى هو سبيل التحرر من عوامل الخوف وأسباب الاضطراب فهو السبيل ايضا الى بث روح الاستبشار والتفاؤل في الفرد قال تعالى «يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لايضيع اجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما اصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قدجمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوابنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم».

وقال تعالى : «الا ان أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون».

هذا الايمان هو الذي يخلق الشعور بالاخوةالدينية وهي أكبر ضمان نفسي لتحقيق التكافل الاجتماعي لان المسلم الحق ينزل على مقتضياتها في التعامل مع أخيه في جميع مجالات الحياة ، وقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بان هذه الاخوة هي مصدر التكافل الاجتماعي في الاسلام ماديا ومعنويا بقوله : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ــ ويشير الى صدره ثلاث مرات بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام :دمه وماله وعرضه».

فالشريعة تؤكد أن التكافل لايتحقق الا عن طريق عوامل نفسية ، وانه لايكون في الاصل مفروضا من خارج.

والاخوة في المبدأ شعور نفسي واقعي يستلزم ، المحبة ، وهي أصل العلاقات الطيبة في المجتمع الانساني ، وقد اعتنى الاسلام بهذه القيمة الانسانية الخالدة أيما عناية ، اذ ربطها بالايمان ، بل جعلها دليلا على كماله ، قال صلى الله عليه وسلم «لايؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه».

هذا، والاسلام اذ يجعل من الخصائص الاصلية للمجتمع الاسلامي ، ولاء افراده بعضهم لبعض والولاية تنطوي على كل معاني التناصر والتساند، فانما يشير الى هذه الثمرة التي تترتب على الاصل الديني الاول وهو الاخوة ، فالنزول على مقتضياتها

يستلزم التكافل ، ولاسيما وقت الشدة والازمات· «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض»

ويصور الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الشعور بالحقائق النفسية التى قررها الاسلام ثمرة للايمان من الاخوة والمحبة والولاية بقوله عليه السلام «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الاعضاء بالسهر والحمى»·

وهو تعبير عن عمق الشعور الديني وصدقه ووحدته وعن هذا التجاوب النفسى بين أفراد المجتمع الاسلامى وقت الازمات والشدة ، فالتعاطف والتراحم والتواد كل أولئك قيم انسانية خالصة تعتبر منطلقات اساسية للتكافل الاجتماعى فى الاسلام ، وهذه القيم النفسية هى التى تجعل من المجتمع وحدة منسجمة شعورا ومقصدا على النحو الذى عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»·

والواقع أن المجتمع الاسلامى الذى تسوده هذه العلائق التى قوامها قيم انسانية هو مجتمع انسانى، على أن مقومات المجتمع الاسلامى لاتقف عند هذا الحد من المعانى دون أن يكون من جانب افراده عمل ايجابى يحقق مقتضاها ، بل على العكس من ذلك تظهر ايجابيته أولا فى تحقيق هذا التكافل عن طريق تكوين رأى عام فاضل يامر بالمعروف وينهى عن المنكر· وهو نتيجة حتمية للولاية·

فالتكافل الاجتماعى فى الاسلام قد تايد اذن بعامل معنوى هو الامر بالمعروف والنهى عن المنكر·

وايضا صار من الاسلام تلك القاعدة الدينية المقامة التى تعتبر ملاك الشريعة كلها ، وهى التى يقررها قوله الكريم : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان»·

فانت ـ كما ترى ـ تلك الدعامة بوجهيها الايجابى والسلبى من اكبر الدعائم التى شيد الاسلام عليها صرح التكافل الاجتماعى·

صحيح أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ينشا عنه مؤيد معنوى هو هذا الرأى العام الذى يبسط سلطانه المعنوى على الافراد ويلزمهم ادبيا بالتكافل ، غير أن الاصوليين لم يقصروا حكمها على ذلك بل عملوا بمقتضاها حين يتخذ التصرف ذريعة الى اهدار واجب أو تحليل محرم ، فلم يجيزوا ذلك التصرف المشروع فى ظاهره ، وعللوا بطلانه بان فى تصحيحه تعاونا على الاثم والعدوان ، وذلك غير جائز باطلاق، وقد اشار الرسول الكريم الى أن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقتصر على معنى النصح والارشاد بل يتعدى ذلك الى التنفيذ العملى بابقاء المعروف وازالة المنكر عملا حيث يقول : «من رأى منكم منكرا فليغيره»·

ثم وضع الفقهاء نظام الحسبة فى الاسلام كمؤيد مادى للتكافل الاجتماعى ، والحيلولة دون الافتئات عليه أو الاحتيال على عدم تنفيذه ، فاوجب هذا النظام تنفيذ هذه القاعدة على كل المرافق الحيوية فى الدولة صيانة للمجتمع من الظلم والفساد·

هذا ، والتكافل اذ ينبثق من الخصائص الانسانية التى أصلها القرآن والسنة يصبح أداة فعالة فى حفظ كيان المجتمع الاسلامى ، وذلك بحفظه من التدهور والخذلان أمام عدو متربص مهاجم ، وذلك بالحفاظ على هذه الخصائص الانسانية وتنميتها، وذلك لايتاتى الا بالحيلولة دون تسرب ولاية الاجنبى على بلادنا، لان مالا يتحقق به الواجب فهو واجب·

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلى والشؤون الدينيـة

صدر أخـيرا:

ديـوان الـكفاح التحريرى الجزائرى





على هامش مؤتمراتنا الأدبية :

الأديب العربي والشعب

د. عبدالله شريط
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

لو اردنا ان نقيم موقف الاديب العربى من مجتمعه ، واظن ان هذا التقييم من اهم واجباتنا اليوم بعد نصف قرن من يقظة العالم العربى الحديثة ، ولو اردنا ان نجمل هذا التقييم فى خطوط رئيسية ، لوجدناه على ما اعتقد يتمثل فى المراحل التالية :

المرحلـة النضاليـة :

كـان فى العصر الذى نسميه جاهليا اديبـا شعبيا حقا ، وفى صدر الاسلام كان اديبا مناضلا، وفى العصر الاموى كان اديبا سياسيا ، وبعد ذلك دخل فى حيـاة ارستقراطية فارسية انعزل فيها عن الشعب · وفـى عصور الانحطـاط الطويلـة فقـد وجوده تماما ثـم فى عصر الاستعمار لـم ينفصل عن الشعب فحسب بل انفصل عـن امته باكملها ، والتحق بالحضارات الحديثة مخلفا وراءه شعبـه وتـراث شعبـه فى وادى الاهمـال والنسيان ، لان الثقافة الحديثة وجدهـا امامـه جاهزة يستطيـع استغلالها بسهولة اما تراث شعبه فيتطلب خلقـا من جديد ·

هذا بصورة اجمالية ، فـالمجتمع العربى فى الجاهلية كان مجتمعا طبقيا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ولكنه كان مجتمعا ديمقراطيا شعبيـا متجانسا متلائما لا تناقض فيه من الناحية الادبية او الفكرية ولعلنا نجد سبب ذلك واضحا فى اشارة عند بن خلدون يتحدث فيها عـن موضوع آخـر ، وهو أن اللغـة كانت فطريـة وتبعية بالنسبة لكـل الطبقات فلم يكن الغنى قادرا على تعلمها والفقير عاجزا عن ذلك كما اصبح الأمـر فيما بعد ، بـل كانت اللغة رابطا طبيعيا بين كـل الطبقات مهمـا تفاوتت اقتصاديا او اجتماعيا ، ولم تكـن هنـاك لغة للخاصة واخرى للعامـة ، فالثروة اللغويـة واحدة بالنسبة للجميع ، والادارة التى تحمل هذه اللغـة وتنتقل بها من طبقـة الى اخرى كانت اداة واحدة ومـن الشعر الى جانب الحكـم والامثـال والخطب والاقاصيص الاسطوريـة واذا قيل عـن الشعر انه ديوان العرب فانـه كذلك حقـا بالنسبة لجميع العرب لابالنسبة للمتعلمين منهم او الاغنياء دون الاميين او الفقراء ، ان المنزلـة الثقافية لـم تكن تتفاوت بتفاوت المستوى الاجتماعى باى شكل مـن الاشكال ، ولا يستطيع احد ان يقـول لنـا ان الشعر الجاهلى كان يصور الحيـاة الارستقراطية فى قريش دون سواها ، لا بـل نحن نجد الاصداء والصور التى يحملها شعر الشنفرى الصعلوك هى نفس الصور والاصداء التى يحملها امـرؤ القيس الأميـر ، وهى ايضـا نفس الاهتمامـات والمثـل الاخلاقية ·

فى العهد الاسلامى اكتسب الاديب العـربى روحا نضالية واخلاقية جديدة ومثلا عقائدية عـن الديـن دخـل بها الى معترك سيـاسى فى العهـد الامـوى · وبقى الاديب العـربى علـى احترامـه لانتاجه الادبى معتبرا ايـاه ذلك المحرك العاطفى والسياسى يستخدمه فى نصرة مذهب أو اتجاه ، وان كان البعض مـن فحولهم قد مال الى الدعـة والافراط فى التغزل الا ان البعض الآخر ، وخاصة الخوارج ، اصبح عندهم الشعر سلاحا من اخطر ما يخشاه خصومهم لما فيه من الشعلة النضالية ، والطهر الدينى والسمو الخلقى الى جانب الصور الحية الرائعـة والتعابير الفخمة ، كمـا ظـل الى جانبهم شعراء الشيعة يدونون مآسيهم ويندبـون حظهم فى شعر كله الم وبكاء ، ولئن خلا من الروح النضالية · الا ان كـلا مـن اولئك وهـؤلاء ظـل شعرهم ، كما كان الشعر الجاهلى بالنسبة للقبيلة، شعرا يسمو بـه صاحبه عـن احلامـه الشخصية وفرديته الضيقة وقضاء حوائجه التافهة ·

هذه الفترة من حياة الاديب العربى وتاريخه والتى استغرقت العصر الجاهلى وصدر الاسـلام والعصر الاموى يمكـن ان ندعوها كلها بالمرحلـة النضالية فى الشعر العربى ، هى المرحلة التى كان فيها الشاعر، وهو الصورة المفردة للمثقف العربى

لا يعيش ادبه من اجل نفسه بل من اجل قبيلته او المثل الاعلى لقومه أو الدعوة الروحية لامته ، او الالتزام الفكرى لمذهب يدين به دون آخر ، ويلاقى فى سبيل كل ذلك من المتاعب والعنت والتشرد اكثر مما يلاقى فيه من المجد وعلو المكانة والمنفعة المادية .

مرحلة الانحراف :

تبدا هذه المرحلة بالعصر العباسى الذى دخل فيه الأديب العربى فى امتحان قاس خسره الى اليوم . وذلك كما يقول ابن خلدون « لما غلب العرب على الفرس والترك فخالطوهم وتداولت بينهم لغاتهم فى الاكرة والفلاحين والسبى الذين اتخذوهم خولا ودايات واظآرا ومراضع . وكذا اهل الاندلس مع عجم الجلالقة والانفرجة، واصبح العربى يدخل هذا المجتمع الخليط فيجد اهله كما قال اعرابى : « يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح » . اما حياة هذا المجتمع فقد دخلتها الطبقية لأول مرة . يقول عنها الجاحظ « ضراب اللبن والطيان والمراش ، وكذلك ما صغر من التجارات والصناعات ، الا ترون ان الاموال كثيرا ما تكون عند الكتاب وعند اصحاب الجواهر والوشى والانماط والصاغة ..» اما الحكام فى هذا المجتمع فقد بلغوا ذروة انفصالهم عن الشعب فى حياتهم وليس فقط فى أساليب حكمهم ، ذلك الاسلوب الذى بداه الحجاج قبل ذلك وقال عنه اعرابى ساله عنه عمر : « لقد تركته يا امير المؤمنين يظلم وحده » يقصد : يحكم وحده دون استشارة غيره .

الكتاب اذن فى هذا الانفصال اختاروا الانضمام لا الى السقاء والطيان وضراب اللبن والمراث والتاجر الصغير والفلاح الصغير ، بل اختاروا ان يكونوا فى طبقة الحكام واصحاب الجواهر والوشى والصاغة والنخاسين . حتى ان الجاحظ يوازن بينهم وبين اصحاب الحرف واهل الأسواق فى التنافس والتناحر فيجد ان الكتاب لم يكونوا جديرين بمهنتهم فهم « يتنافسون كالكلاب يمر بها اصناف الناس فلا يتحركون ، وان مر بهم كلب منهم نهضوا اليه باجمعهم حتى يقتلوا فى حين انك لو نظرت الى القصابين فى سوقهم لوجدت احدهم ان اعلن حاجته الى المال سارع الآخرون لعونه وجعلوا ربح يوم من كسبهم . فاين هؤلاء من اولئك ؟ » (انظر الجاحظ والحضارة العباسية للدكتورة وديعة طه النجم) . وبعد حكم الجاحظ هذا على الأديب العباسى يحكم عليه ابن خلدون بحكم لا يقل قساوة عندما يقول : « ثم جاء خلف لم يكن اللسان وانما تعلموه صناعة، فمدحوا باشعارهم امراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك عن الاغراض كما فعله حبيب والبحترى والمتنبى وبن هانىء ومن بعدهم ، فصار غرض الشعر فى الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التى كانت فيه للأولين » .

ابن خلدون هنا يربط بين هذه الارستقراطية وبين العجمة فى ان كلتيهما دخيلة على الحياة العربية ، فاصبحت الثقافة ذات قيمة تجارية ولم تعد لها القيمة الاخلاقية والنضالية التى كانت لها فى العصرين الجاهلى والاسلامى الاول .

مرحلة التحجر والاستعمار :

فى عصر التحجر أو ما يسمى بعصر الانحطاط لا حاجة بنا الى الاضافة فيه اكثر من اختصاره فى كلمة واحدة وهى ان الاديب أو الكاتب أو الشاعر اصبح اميا ليس له حتى

البضاعة الثقافية التى كـانت لزميلـه فى العصر الذى اصطلح على تسميته بالعصر العباسى • كل مـا بقى لـه من الثقـافة فى مغربنـا العربى على الخصوص هو قواعد اللغـة لا اللغة نفسها كمـا يقول بن خلدون • يعرف النحو ولكنه لا يعرف ماذا يصنع بالنحو • حتى يشبهه ابن خلدون بمن يعلمك قواعد النجـارة والخياطة ولكنـه لا يعرف شيئـا من الخياطة والنجارة نفسها • ولكن الفترة التى يحسـن ان نتوسع فيهـا بعض الشىء هى فتـرة الاستعمار التى شاهدنا فيها الاديب مثل غيره من المواطنين يتململ ويحـاول الخروج مـن منطقـة الاختناق • فنجد المثقفين عندنا فى الجزائر ـ فيما يرى الاستاذ مصطفى الاشرف ـ منذ اوائل الغزو الفرنسى يشكلون روح المقاومة وفى بعض الأحيان اطرهـا السياسية والعسكرية • وأن الاميـر عبد القـادر وهو الشاعر المفكر جمع حولـه النخبـة الممتازة من المفكرين فى زمنه موكلا اليهم المسؤوليات الجسام ضمن الدولة الجزائرية التى كانت يومئذ فى حالة حرب• وكان تكوين هذه النخبـة الدينى والفقهى مستمدا من ثقافة ذلك الزمن ومن التراث العربى القديم •

ولكن كان من نتائج تلك الحرب الاستعمارية التـى دامـت اربـعيـن سنـة ان قضت علـى عدد كبير مـن رجالات هذه النخبـة المفكرة التى كانت من جهة ثانية بحكم منشئها الريفى قد الفت الحياة العملية والجهد الجسدى القاسى ، بل الفت النضال المسلح لمقاومة الغزو الاجنبى ، اقـول ان عددا كبيرا مـن هذه النخبـة ذهب ضحية المعارك والفوضى والتهديم المنظم للمدارس والمكتبات وقد ظل الامير عبد القادر ولفيف من مساعديه نموذجا لثقافة موغلة فى المحافظة الا انهـا تحتفظ بمزيـة تكوين رجال متكاملين متجاوبين مع مثلهم الاعلى فى الحرية والنازع الانسانية •

ويمكننا القول ايضا أن هذه المآثر النضالية فى المثقف العربى بالجزائر قد ظلت ارثـا استطاع ليل الاستعمار الطويل ان يخفيـه ويخنقـه ويشله زمنا طويلا ولكنه لم يستطع أن يقضى عليه تماما • فلـم تكد النهضة السياسية تسترجع كلمتهـا بعد الحرب العالمية الاولى حتى وجدت المثقف الجزائرى الى جانبها يواكبهـا فى المسيرة يدفعهـا احيانـا وتدفعه احيانا اخرى ، وتحول وعيه السياسى فى هذه المرحلة الجديدة الى شىء من الوعى القومى ايضـــا •

نعم ان التكوين العلمى لهذه النخبة ظل الى هذا العهد تكوينا دينيا تقليديا فى مصر او تـونس او المغرب ، وهم بالاضافة الى ذلك قليلو العدد جدا كما ظل المثقفون عندنا ــ واعنى بهم دائما المثقفين بالعربية ــ مفصولين عن الثقافة الحديثة • وعندما استانفوا المعركـة القـومية الى جـانب النضـال السياسى لم يستخدموا الأدب فى صورته الحديثة سلاحا فى هذه المعركة ، بـل استخدموا التوعيـة الدينية السلفيـة التى كـانت تجد صدى بعيدا فى الأوساط الشعبية كما يعتمدون أيضا الى حـد مـا على الشعر الذى كان تأثيره أقـل فعالية لانتشـار الامية فى الريف والمدينة معا ، والذى كـان ثمرة من ثمار سياسة التجهيل المنظم الذى حققه الغـزو الفرنسى طيلة قرن من الزمن والذى يعد المسؤول الاول عما بلغته اللغة والثقافة بصورة عامة مـن تدهور يكاد يتخذ فى الجزائر طابعا مـن القساوة والحدة لا يوجد فى غيرهـا مـن انحـاء الـوطن العربى • يضـاف الى التجهيل الثقـافى واللغوى

المنظم التجهيل الفكرى وتشجيع الاباطيل والعقلية الخرافية فى الاوساط الشعبية ٠

وفى اوائل الحرب العالمية الثانية ظهر كتاب جزائريون باللغة الفرنسية تنبهوا لبعض القيم الوطنية ولم يكن عملهم ناتجا عن ثقافتهم الفرنسية بقدر ما كان ناتجا عن الانقلابات التى سببتها هذه الحرب والتكوين العقائدى عند بعضهم ومشاركة بعضهم الآخر فى حوادث ١٩٤٥ الدامية فاخذ هذا الادب يعكس ولو بصورة ناقصة حقيقة جزائرية ٠

ولكن هذا الادب مع ذلك لم يكن انعكاسا اصيلا للمجتمع الجزائرى وبخاصة على مستوى الجماهير الشعبية الكادحة المستغلة ، ولا الشعب بصفة عامة بفضائله وانسانيته ومقاومته الصامتة او العلنية للضغط الاستعمارى ٠ ان هؤلاء الكتاب بحكم تكوينهم كانوا بعيدين عن التقاليد الشعبية فى المدن وخاصة فى الريف ، فعبروا بصورة تعليمية جافة عن واقع محدود محلى خيل اليهم انه واقع البلاد بجملتها ٠ انهم عجزوا ايضا — مثلهم فى ذلك مثل زملائهم المثقفين بالفصحى — عن استثمار ينابيع الادب الشعبى الحية ، ومأساة هذا الادب الجزائرى المكتوب بالفرنسية انه يجد قراءه خارج بلاده ، وخاصة فى فرنسا حيث يقرأه اناس يريدون تهدئة اصوات ضمائرهم ٠ اما الشعب الجزائرى فهو وحده القادر على ان يحكم على اصالة هذه الآثار ٠ ومع ذلك فان الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية اذا لم تعكس بامانة صادقة نضال الشعب فقد طبعت نزوعه نحو الحرية والحقيقة٠ (انظر كتاب « الجزائر امة ومجتمعا » لمصطفى الاشرف)

والحق اننا هنا لا نستطيع ان نلقى التبعية كلها على المثقفين فى هذه الفترة لأنهم كانوا ضحية ظروف سابقة لوجودهم ، بل خارجة حتى عن ظروف مجتمعهم الراهنة ٠ لقد كانوا فى مجموعهم من ابناء الشعب ، ابناء التجار الصغار وصغار الملاكين وابناء العمال والفلاحين ، او من الايتام العصاميين الذين اقتلعوا اشواك الامية والجهل عن انفسهم باظافرهم العارية ، فالذى وجد امامه العربية المتجمدة طريقا للثقافة اخذ بها والذى وجد السبيل مهياة بالفرنسية لم يتردد فى التزود منها٠ ولكن الذى تعلم الفرنسية لم ياخذ اللغة وحدها ، بل اخذ معها مفاهيمها الحياتية وقوالبها الذهنية وطمح الى المستوى الحضارى الذى لابنائها ٠ والذى تثقف بالعربية اخذ ايضا ما فيها من رواسب الانحطاط ومن السلبية والاكتفاء بما تيسر من أسباب الحياة الفكرية ٠ وكان ما نتج عن هذا الوضع عندنا فى الجزائر كما يقول الاشرف هو ان « نجد فى بلدنا لغتين كتابيتين ولغة ثالثة هى لغة التخاطب ٠ وكل من هذه المجالات وهذه الثقافات نمت بمعزل عن الأخرى ٠ فنحن بازاء كتل مبعثرة لارابط بينها ولا تخضع لاى تطور تبادلى ٠٠ ان الجزائر لم تستعمر طيلة قرن وثلث القرن دون ان تدفع الثمن ، وهى اليوم تواجه تاثيرات اجنبية ولكنها لن تتمكن من هذه المواجهة بصورة فعالة الا اذا عزمت على القيام بعملية تحويل صعبة متسلسلة تبدا بالتعليم وتنتهى الى البحث المنظم والابداع فى كل المجالات مارة حتما بتلك الكتلة الرئيسية التى هى فى آن واحد الخصم والحكم وهى الجمهور المتشدد الفطن ٠

وفى هذا الموضوع ايضا يقول الاستاذ محمد سعيدى : « اننا اذا اردنا ان ناخذ الجزائر كمثال للمشكل الثقافى الذى تواجهه الشعوب النامية نجد الجزائر المستقلة ورثت تركة ثقيلة متكونة من ثقافة الاقطاع وما

يتبعها من تعصب دينى وقبلى ومن انانية وتسلط ، ومن ثقافة الكولون الفرنسيين الذين كانوا يمثلون قمة الاقطاع الاوروبى ومن خليط من الثقافة الفرنسية المشوهة · ويمثل «الماساة» الثقافية فى بلادنا فقدان لغة جامعة يمكن لكل المواطنين التفاهم بها فى شؤونهم.عندنا قطاع من المثقفين بالفرنسية وهم فى غالبهم غرباء عن الجماهير الشعبية الواسعة وجماعة من المثقفين بالعربية ولكن تنقص الغالبية منهم ديناميكية الثقافة المعاصرة فهم مشدودون الى الماضى اكثر مما هم منطلقون الى المستقبل ، وفى وسط هذين التيارين تقف جماعة قليلة جدا من مزدوجى الثقافة وهم يشقون طريقهم فى جبال من الصعاب والتناقضات ·

ان الشعوذة ما زالت منتشرة عندنا وفى الجزائر الثائرة استطاع مشعوذ ان يحدث «ضجة» وان يستولى على عقول كثير من الجماهير ويسلبها وعيها ونقودها ·

وما زالت التعاويذ تسيطر على عقول الاغلبية الواسعة من المواطنية فى الارياف والقرى ، وما زالت العقلية الطبقية « مجذرة » فى الوطن العربى كله : فقراء واغنياء ، علماء ، وجهال ، سعداء واشقياء ، وماشاكل ذلك من القدرية العمياء · وهذه الوضعية هى التى جعلت عددا ضخما من اطبائنا وحشيين يحرصون على ملء جيوبهم اكثر مما يحرصون على رعاية صحة المواطنين وسلامتها وكذلك مهندسين ومحامين واساتذة وحشدا كبيرا من المواطنين البيروقراطيين والمحترفين السياسيين ومن الاساتذة والكتاب والصحفيين والفنانين الذين لا يعملون لاسعاد المواطنين وخدمتهم بما حصلوا عليه من علم وثقافة ، وانما كل همهم السباق لتقاسم ثورة الوطن ·

وتزخر اليوم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا باثمن الاطارات الثقافية من الناحية الكيفية من المواطنين العرب الذين يتركون شعوبهم التى تناضل من اجل التغير الاجتماعى ويلتجئون الى البلدان الغربية الرجعية التى تغويهم بالمال والجاه·

لعلنا (١) من هذا العرض الموجز يمكن ان نخرج بتقييم موضوعى لموقف اديبنا من مجتمعه على ضوء القيم الجديدة التى ياخذ بها العالم الحديث اليوم دون ان نضطر الى اثارة قضية الالتزام او عدمه · اذ اننا نتحدث عن الالتزام لا عن الالزام ، عن شعور الاديب بمسؤوليته كمواطن فى مجتمعه شعورا داخليا اختياريا اى شعورا اخلاقيا على نحو ما يؤمن به كنط ·

ولقد استشهدت ببعض ما يعالجه كتابنا اليوم فى الجزائر عن مشكل القطيعة المستحكمة بين اديبنا وبين جماهير الشعب لأبين ان هذه المشكلة نعيشها فى الجزائر بشىء كثير من الحدة والتوتر · ونحن سائرون فى طريق صعب فى هذا الميدان الثقافى ، لانه ليس طريق الاستسلام للاوضاع التاريخية والاجتماعية التى فرضت على جيلنا · بل نحن نبحث عن اصل الداء ونحن عازمون على اقتلاعه من طباعنا ومن وسطنا مهما كان هذا الاقتلاع مؤلما لنصل الى الحل الذى نعتقد انه لا مفر منه ، وهو ان يندمج الاديب فى

1) يلاحظ القارىء ان كل هذه المواضيع الملحة التى هى مواضيع تخلف لم يتفطن اليها الادباء العرب بعد . بل عقد مؤتمرهم الاخير فى تونس تحت شعار : الادب والتكنولوجيا ـ كما لو اننا بلغنا من التقدم التكنولوجى حدا اصبح به يشكل لنا مشكلة صحية او اخلاقية او حضارية فى حياتنا ! (الاصالة) .

شعبه لا بحياته اليومية فقط بل بانتاجه ، فيتفاعل معه ويستطيع ان يتاثر به ويؤثر فيه ويستطيع ان يحركه ويتحرك به ويقضى على هذه الغربة التى قضت عليه بان يعيش بها فى صميم مجتمعه ·

ان ثورتنا الوحيدة سواء كانت اقتصادية او سياسية او ثقافية هى الشعب وعزلة اديبنا عن الشعب هى التى جعلت اديبنا يمد يده للانتاج الخارجي ، اكثر مما يستوحى الثروة الهائلة التى تنطوى عليها حياة شعبه من التجارب الانسانية الخالدة ·

ان هناك ظاهرة بقيت مهملة فى تاريخنا الفكرى ، وهى ان تراثنا السياسى وبطولاتنا الشعبية وحروبنا التى خضناها مع الغزاة الاجانب مثل حياة شعبنا اليومية والحضارية ، وتقاليده وعاداته ، كل ذلك ظل احداثا تاريخية جامدة فى الحدود التى كتب له فيها ان يسجل فى التاريخ ، ولم يتحول بعد الى تراث ادبى او فنى يسجل تلك الاحداث تسجيلا حيا ، تعيشه اجيالنا وتستاثر به وتنطبع بطابعه · وهذه الثغرة فى نظرى لعبت دورا كبيرا فى الشعور بالاستخفاف الذى يقابل به شبابنا تراثنا الحضارى · بل هو يشعر ان تاريخنا نفسه فارغ من التجارب الانسانية ومن البطولات والقيم ·

واذا كان للقاءاتنا هذه من فائدة فهى لا تحققها الا بقدر ما تعبىء من طاقاتنا الفكرية لتوجيهها هذه الوجهة بشكل منظم ومتضامن · وان اختلاف الانظمة السياسية لبلداننا لاعلاقة له فى نظرى بهذا الموضوع · فلتكن هذه الانظمة اشتراكية او ملكية او جمهورية او ماشاءت أن تكون ، فان النقطة التى نستطيع ان نلتقى فيها نحن فى هذه الانظمة هى خدمة الشعب واخراجه من منطقة التخلف الذهنى ورفع مستواه العقلى والانسانى ·



منشـــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

قريبا سيصدر كتاب :

الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي

في طبعتين منفصلتين بالعربية والفرنسية
كل منهما في عدة أجزاء

وتشمل سائـر

المحاضـــرات
والتعقيبـــات
والمنـــاقشـــات

الجِـرَاحُ الّتي لَا تنَـام

مُفـدي زكريَاء

نطق الجرح، فاخرستُ الكلاما — مَهرجان الشعر، أقريك السّلامَا

وأحيّيك، علىٰ جمر الغضـا — وأهاديك كِلامـا... لا كَلامًا!

وأغنيك، تراتيل الدّمـاَ — وتسابيحَ الثكالى، والأيامىَ

وأناجيك، ولي فيك رجاء — من جراحاتٍ، أبت أن لاتنامى...

نزلا، في رفرف الخلد الذي لعُلاه، قعَد الدهر، وقاما
عَانقوا الأرواحَ، في هَذا الحِمىَ وأهبطوا الخضراء، إخوانا كرامًا
واقرؤوا الأمجَاد في ألواحهَا واسألوا - عن طبعهَا، الشعبَ الهماما
تونس الخضراء، نشيد في فمي باركوا - في قدسهَا، البيتَ الحَراما
زرَع الزيتون فيهَا رَحمَة وسَلاما، عَلم السجع الحماما
زانها الرشد، وزكاها الحجىَ ومَضىَ يخطو وإياها، قوَاما
-ضَربَ التفكير منهَا مثلاً يلهم الدنيا، اتزانًا، وانسجاما
وانطوى الإنسان في آلامه فبَراها، مُبدع الكون - ابتساما
وتداعى الحُب، في أعماقه فتلافاه حبيبي فاستقاما
كلما طفت بهَا، عَاد شبَابي، واكتوى من حبّها القلب، فهاما
مهرَجان الشعر في أرض الفدَا والبطولات ... جَلا لاً، واحتراما
ضاق صَدر الشعر بالشعر، فلا تلبسُوا - التنزيل - لهوًا وغرَاما
لم يعُد يطربني شعرُ الهوى وعَذابي في لظى كان غراما
عمَر الخيام ... مَهمَا هاجَني للغوايات، تذكرت الخياما!!!

أنامن حطمت كأسي، بعدما | أترعوها من دم الشعب مداما
أنامن أهرقت دني عندما | أسكر الوهم السهارى، والندامى
وسلا القلب من الحب فما | عاد يرعى ظبية، ترعى الخزامى!
ويح هذا القلب ... ما أكفره!! | ما الذي أوحاه أن يجفو الهياما ؟
إن هذا القلب كون غامض | هده الخطب، فأبقاه حطاما
ألهمته، ثورتي، في مغربي | فغدا بالنار صبًا مستهاما
سفراء الشعر، من وحي الدما | شرفوا الوحي، وفاءً، والتزامًا
وارفضوا شعر (الخنافيس) الذى | صوبوه للأصالات، سهاما
واغمسوا الريشة في أكبادكم | واغمروا الألواح، نورًا، وضراما
وابعثوها، مع أملاك السما | لفلسطين... صلاة وسلاما
واسألوا العرب، متى يسمو النهى؟؟ | ومتى يصحو السكارى؟؟ وإلى ما
ومتى نذرو يمينًا، ويسارًا | تتقاضانا ... اقتناصًا واغتناما؟
لابن عفان، قميص واحد | فارحموه ... فهو يأبى الاقتساما
وضمير النفط حر، لم يدع | بيد الدولار، والروبل الزماما

وشتات الصف تخزيه الدما   وتلقيه، انهيارًا وانهزاما

هجم الرجس على أقدارنا   وتهجمنا احترامًا، واتهاما

وَوقفنا بين شدقي، مارد   نخجل الكون ضجيجًا، وخصاما

والشعارات... وما اسخفها   تركت يعرب، يستف الرغاما

وملأنا بالأناشيد، الدنا   والدنا تصخب، أحداثًا جساما

سخر العلم يهودًا فاهتدى   وتعللنا بأمجاد القدامى

كم بكينا مع (قفا نبك) فلم   نك نبكي - كامرئ القيس - قياما..

وعقدنا قممًا... لكننا   ما بلغنا في مراميها المراما..

وانحرفنا عن مدى أهدافنا   وصرفنا عن سوانا الاهتماما..

ونفضنا من فلسطين يدًا   وخجلنا... فذكرناها... احتشاما!

وتفاوضنا فرادى،،، والردى   جاثم، ينقعنا الموت الزؤاما..

بيدق الشطرنج... ماعاد به   مغنم... طوع هواه نترامى

وفلسطين لها أكبادها   بلغوا الرشد... وماعادوا يتامى!!

فاعضدوا زحف بَنيها تنتصر — وترج الظلم فيها، والظلاما

واتركوا الرشاش، يَعقد قمة — لفلسطين ... بها ترفع هاما

أخرست ألسنة النار اللغى — فدعوا النار تنهنه، مَن تعاما

وتقرّر بلظاها، وضعنا — وتبدّد عن طوايانا الركاما

وادفنوا التفكير في حكم غد!! — أيمينًا؟ .. أم يسارًا؟ .. أم قواما؟؟

وثقوا بالشعب ... يفرض حكمَه — أوَ ما قد بلغ الشعب الفطاما؟؟

واسخروا بالتبعيات التي — تصنع الأصنام للفوضى سناما

وعلى نسف المبادى في الدنا — والأصالات ... تشيع الانقساما

إن في الإسلام مَا يهدي الورَى — في المتاهات، وما يرسي النظاما

ودم الأحرار في مغربنا — علم الدنيا انصهارًا والتحاما

وحدته في الوغى أهدافه — فغدا في ثورة الحق إماما

موطن، تسمو به أهدافه — وسجاياه، ويأبى أن يضاما

رفض الأحلام في واقعه — وتحاشى مع ماضيه الاصطداما

وتحدّى الصمت في درب المنى — ومضى يفجأ بالعزم الأناما

جل هـذا الشعب... ما أروعـه | علم الإنسان أن يرعى الذماما
هكذا أخلاقنا في مغرب | (وحدوي) بالمبادئ يتسامى
هكذا عودنـا إيماننـا | أن نرى النجدة فرضًا ولزاما
هكذا علمنـا إسلامنـا | أن نرى الإسلام حبًا ووئاما
وإذا ما جد جـد، فاسألوا | مصرعنا، واسألوا عنا الشئاما
واسألوا عن صدقنا أندلسا | هل على أندلس (جيطان) دما
وإذا عاد لها جلادها | وطغى في الأرض حقدًا وانتقاما
إنما الوزر على أبنائها | لا علينا... فاصرفوا عنا الملاما
هذه الأرض مثال للوفا | والرسالات، انفتاحًا، وانتظاما
وإذا أنكرنا إخواننا | ذات يوم،،، أو ما كنا كراما،
بادلونا الصدق، والحب، عسى | يجد الجرح بأيدينا التئاما
وإذا ما فضل (العرب) الكلاما!! | مهرجان الشعر أقريك السلاما

مفدي زكرياء

فن المقامة

في النثر الجزائري الحديث

د. عبدالله ركيبي

أستاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

الحلقة الثانية

في المقال السابق عرضنا لانواع من المقامة الادبية في النثر الجزائري الحديث ، واشرنا الى نوع جديد من هذا اللون راينا فيه اسلوبا جديدا لكتابة المقامة الادبية سواء من حيث الموضوع او الاسلوب او المحتوى ونعمد في هذا المقال الى عرض الموضوع بالتفصيل .

ومن البداية نذكر ان «المقامة الشعبية» التى كتبها ـ كما اسلفنا ـ «محمد بن علي» قد استخدم فيها طريقة القدماء من كتاب المقامات فى وصف الاحداث وتصوير البطل عن طريق الراوى ، وهو هنا ابن العربى . اما البطل فقد اختار له اسم «لحبيب بن عيسى» وربما فى تسمية الـــراوى ما يوحى بقصده من انه يوعز الى « العـــربى الجزائرى » فى ان يتأمل ما سيقصه عليــه ، ويفكر فى وضعه ووضع المجتمع الذى ينتــمى اليه .

على ان بطل المقامات ـ الحبيب بن عيسى ـ قد يتشابه مع بطلى الهمذانى والحريرى ، فهو يمتاز بالمكر والدهاء والحيلة ويتصف بالدعابـة والمرح وايضا فهو صعلوك متشرد لفظه المجتمع ، فانتقم منه باصطناع الحيلة والاستهتار . فالصفة المشتركة بين ابطال بعض المقامات القديمـــة ومقامات كاتبنا ، هى انهم اناس فقراء معدمون، ضاقت بهم السبل وسدت فى وجوههم طـــرق الرزق الشريفة فى وطنهم فعمدوا الى الحيلـــة والتحايل على الآخرين .

فبطل مقاماتنا ـ الحبيب بن عيسى ـ هـــو الآخر لا يملك سوى دهائه وسعة حيلته واعتمد على ذلك لكسب رزقه وعيشه ، ورغم ان الكاتب احيانا يرسمه فى صورة البطل المستهتر الدجال، الا اننا مع هذا نتعاطف معه اكثر مما نتعاطف مع ابطال المقامات الاخرى لان وضع البطل فى المجتمع الجزائرى غيره فى المجتمع القديم ، صحيح ان ابطال المقامات القديمة عانوا من الفقر ومـن الطبقية ومن الفروق الاجتماعية والاقتصـاديـة المادية ، ولكنها لم تبلغ الفروق التى عاش فيها الفرد الجزائرى تحت الاحتلال الاستعمـــارى . فقد تعمد الاحتلال اذلال الفرد والشعب معـا ، واستولى المعمـرون على كل شىء ، ولم يتـــركوا للطبقة الشعبية ـ ومنها بطـل هذه المقامـات فرصة للحياة الكريمة ـ ومن ثمة وجد هـــذا النموذج الذى يتكسب بالحيلة والدهاء والاستهتار ايضا . ومما يزيد من تعاطفنا مع هذه الشخصية ان المؤلف صور بطله فى صورة فكاهية وباسلوب ساخر فى أحيان كثيرة ، يضاف الى ذلك انـــه يضعه فى مواقف مختلفة وينوع من شخصيتـه فى الظاهر ، ولكن تبقى الحقيقة واحدة ويبـقى الهدف واحدا ، هو نقد المجتمع والاوضـــاع السيئة ، وهو فى تنويعه لحال البطل يقصـــد الترويح عن المتلقى وكذلك نقد الواقع والظروف والبيئات التى تعج بالمشاكل المتعددة ، ويقـدم المؤلف بطله على هذا النحو : «وجدت ابن عيسى الهوالى يتلاعب بالاوصاف والاحوال ، فمـــرة يحضر مع الطلبة فى الجنايز ، وطورا يقصـــه خطبة العجايز ، وتارة يميل الى مجالس العلامة واخرى يحضر مع كبار الجماعة ، وساعة يـأتى راكبا مع الميعاد ، ويتخالى مع الامراء والقياد ..» فهذه الاوصاف لبطل المقامات تدل على ان الكاتب يهدف الى رسم صورة لهذه الشخصية التى تندس بين الفئات تبحث عن رزقها اينما وجدته .

على ان المؤلف لم يرسم لنا شخصية البطـل رسما دقيقا وانما يكتفى بالملامح العامة ، فهـو

ينتقل من بلدة الى اخرى ومن حال لغيره ، ولا يعنى الكاتب بنفسية البطل وسماته الا نادرا ، انما تعنيه الاوصاف الجسدية ، فبطله تقدم فى السن فازداد ترهلا ، وبدأ الشيب يدب فى رأسه واذا سار يهرول ويبدو كانه « يستنكف » على وجهه ، وحين يضحك يقهقه من اعماقه ، واذا وقع فى مأزق يتخلص منه بسهولة عجيبة ويفر هاربا فى كل مرة يحدث له ذلك ، وهو شغوف بالنوادر والملح والنكت ، يسخر من النـــاس باستمرار او يرثى لغفلتهم وجهلهم .

وبالرغم من ان هذه الشخصية لا تتطور فى تفكيرها كثيرا ، فان التنوع يبدو فى مواقفها واساليبها ، وقد احس الكاتب بان تنوع هذه المواقف يؤثر فى المتلقى ويضفى الحيوية على بطله وعلى الحدث او الاحداث معا ، فجعله تارة رجلا أعزب وأخرى متزوجا ولديه أطفال ، ومرة هو أرمل ــ وكثيرا ما يمهد للحدث بوصف موقف البطل وحاله ومظهره حتى يعدنا لتلقى الخبر او النهاية • مفرحة او محزنة : « اذا رايت شيخنا ابن عيسى طالعا مع الواد مهدونا فى مشيته كانه من اهل الرشاد ، فلقيته ماشـيا بالحى وطرت عليه من القفى ، ولما سلمت عليه وسألته عن احواله وكيف حاله من امتحـــاله ، زفر زفرة المفترق وكاد من الغيظ يختنق ••• » .

فقد صور هيئته هنا فى صورة الشخص المتعب مثل « اهل الرشاد » وهو بهذا يشير الى واقع اصبح فيه اهل الخير والرشاد فى ضنك وتعب ، ولكنـه فى نفس الوقت يمهد لبطله الذى خسر المغامرة التى سعى اليها •

والواقع ان هناك سمة أخرى تميز بطل هذه المقامات عن غيرها هى انه فى معظم الاحيـــان ناجح فى مغامرته واهدافه وخاصة مع البسطاء الطيبين الذين ينتمى اليهم ، مع السـذج ، مع « الطلبة » من أبناء الشعب ، لكنه فاشل ومواهبه تتعطل ولا تسعفه حين يصطدم بالسلطة • وهذا الشخص ليس محبـا للمال فقط ولكنـه محب للطعام أيضا فهو نهم حتى أنه قد يغمى عليه الا اذا وجد الطعام أمامه فينسى همومه واحزانه . وهذا يؤكد مرة أخرى وضعية هذه الطبقة الفقيرة التى كانت لا تجد حتى الطعام فى الفتـرة التى تصورها هذه المقامات •

واذا كنا قد عرضنا باختصار شديد لبطل هذه المقامات وكيف رسمه الكاتب ، فاننا نحـاول بايجاز أكثر عرض مضمون هذه المقامات والافكار التى عالجها الكاتب من خلال هذه الشخصية دون أن نفيض القول فى ذلك لان المجال لا يتسع الى التفصيل •

فى المقامة الاولى ــ الصحراوية ــ يعرض فيها المؤلف الى قضية خطيرة لها مســاس بالمجتمع الجزائرى فى الثلث الاخير من القـرن الماضى ، ونعنى بها السخرة ، وهو يحدد تاريخـها بعـام 1882 ولعله يشـير الى ثورة « أبى عمامة » فهـو لا يذكرها حرفيا وانما يذكـر الاحـداث التى وقعت فى ذلك التاريخ ، ويسوق هذا على لسان

الراوى الذى ذهب مع جماعة ، ولكنهم تفرقوا فى الطريق ، خوفا من البطش والظلم أو الموت . وحاول أن يختفى على أعين الناس وسمع رجلان يتحاوران ،فيقول أحدهما للآخر :« اعلم يا ولدى أنك اذا بليت بنوبة السخرة وعينت لتقطع فيافى الصحرا ، فكن صبورا على كيد الزمان ومحنه ... » .

وهذه النصيحة تجسد الظلم الذى سلط على الشعب بعد هذه الثورة وكيف كان الناس يساقون بالجملة وتحت الارهاب لخدمة المعمرين الذين يسخرونهم لمآربهم الخاصة . وقد رأى الراوى صورا من هذه السخرة ، ورأى البطل مع كثيرين غيره ، ويصفه وصفا حيا معبرا عما تعرض له من عذاب : « قد رق جلده واصفر لونه ، ثم ان لحمته هزلت ولحيته تكشردت ... » ويصف كيف رآه يبكى بدموع حارة فعطف عليه وأعطاه من المال ما يكفى لاطلاق سراحه ومنذ ذلك اليوم اختفى البطل ولم يعثر له على أثر .

والمؤلف يبدأ بهذه الصورة القاتمة للمجتمع الجزائرى ليرسم بعد ذلك الخطوط العريضة للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والفكرية يستكمل بها شيئا فشيئا صورة الجزائر فى تلك الفترة . ولكى يربط الكاتب بين ظلم الاستعمار وبين مسخه للعدالة والقضاء واستخدامه للقضاة الذين اصبحوا أداة قمع للاستعمار ، يسوق هذا فى المقامة الثانية التى يصور فيها وجها آخر من وجوه الظلم متمثلا فى القضاء المتعسف بحيث يعاقب الفرد لأتفه الاسباب ، فابن عيسى عاقبه القاضى بأن : « يجلد على بطنه بمشحاط زيتون غلظة كالخنصر وطوله شبران ومفصلان ويجلد من يد طالب يكون سنه أكثر من (21) احدى وعشرين سنة ، بعدد ما مضت من الايام من السنة العجمية من يوم التاريخ ، والضرب يكون متوسطا على بطنه مرتفقا ، وذلك أن يرفع المشحاط بينه وبين بطنه قدر ذراعين مالكية فقط ثم ينزل بخفة متوسطة .. » .

فالكاتب يبدو خبيرا بأساليب القضاة ـ وقد كان قاضيا ـ يصف فى أسلوب ساخر ، الدقة الكاملة فى اختيار العصا ومن يضرب بها ، ويعنى بالتفاصيل والجزئيات بل يستخدم حتى الالفاظ التى هى من قواميس القضاة ، وفى نفس الوقت يصور قسوة القضاة وظلمه وتدهوره ، وقد أشار الى ضعف القضاء الاسلامى فى تلك الرحالة المعروف « محمد بيرم التونسى » فى كتابه : « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار .. » وذلك حين مر بالجزائر وسجل مشاهداته ونقد القضاةوجهلهم بلواستهتارهم .

ويزيد من تجسيد صورة القاضى وعسفه والسخرية منه أيضا ، فضلا عن عما سبق ، أن هذا القاضى لم يصدر حكمه هذا الا بعد أن قرأ كثيرا فى كتب التفسير والحديث والفقه ، وحتى تكون المفارقة أكثر ايحاء وتعبيرا ، فان هذا العقاب انما سببه أن البطل طلب قليلا من التين من صاحب بستان فراوغه ولم يعطه شيئا فذهب ـ اى البطل ـ الى القاضى يشكوه له فعاقبه بالجلد

وعاقب صاحب البستان بغرامة وباقامة « زردة » تكون وليمة للطلبة العرب . ويأتى الحكم على القضاء حكما ساخرا قاسيا حين يسأل البطل عن عدم قدرته وعجزه عن الدفاع عن نفسه ، يقول : « يا ولدى ! ألم تعلم بأن الرشوة عبدة ، والدراهم زبدة ، وأن كبشا سمينا عند الطلبة أفضل من سبعين خطبة .. » . فالمزج بين السخرية والجد هى من سمات هذا الكاتب وقدرته على النقد فى ثوب الفكاهة .

وهو – كما أشرنا – يؤرقه الفقر الذى انتشر فى الجزائر فى عصره ، ويصوره من خلال مواقف مختلفة ، فهو فى المقامة الثالثة يختار مسرح أحداثه بين القبائل والاعراش وينتسب لها مهما تعددت لهجاتها ولكنها تنكره ولا تعطيه شيئا فيغضب ويهجوها وربما كان يهدف – فوق أنه يصف الفقر ، فهو أيضا يهدف الى نقد الروح القبلية التى غذاها الاستعمار حتى يفتت وحدة الشعب الجزائرى ويمزق شمله ويجعله متناحرا مبعثر الاجزاء وهى دوافع معروفة .

كذلك فان المقامة الثالثة تعالج موضوع الكاتب المحبب الى نفسه ، وهو ضيق الرزق ، فبطله أينما ذهب لا يجد رزقا ولا ملجأ ولا معينا وانما يصادف التعب والطرد ، واذا ابتسمت له الحياة مرة فانها تقطب له مرات ، واذا سلم من السلطة فانه لا يسلم من اللصوص ، والربط بين الفقر واللصوصية له دلالته ومغزاه ، فالفقر تنشأ عنه الرذائل بما فيها اللصوصية .

والكاتب يكاد يتتبع مساوىء المجتمع فى وقته ، فهو فى المقامة الرابعة ينقد ظاهرة قراءة القرآن على الاموات بقصد التكسب ، وقد انتشرت فى عصره ولعلها ما زالت موجودة حتى اليوم فى بيئات معينة .

والواقع ان المقامة التى شذ فيها عن موضوعه وعن القضايا الاجتماعية هى المقامة الخامسة التى تحدث فيها عن جمال الطبيعة بوهران ورسم لها صورة أخاذة كما تحدث عن الخمر والموسيقى ، ولكنه لم يفصح عن هدفه من ذلك ، ويبدو أنه أراد أن يصور وضعا مغايرا للطبقة الاخرى التى تتمتع بالجاه والمال والنفوذ وتعيش منغمسة فى اللهو والشراب وتبحث عما يمتعها ويزجى فراغها ، ولكن على أية حال فان المقامة هى من النوع الرومانسى فى أسلوبها وطريقة الاداء فيها .

ومع هذا فان المؤلف سرعان ما رجع الى موضوعه ، الى الحديث عن الفقر والتخلف ، ولكنه يضع ذلك فى اطار جديد يعتمد هذه المرة على اللغز – كما فعل الحريرى قبله – فكان البطل يرمى بالالغاز واحدا فواحدا على مسامع بعض الفتيات وحين يعجزن عن الحل يطلب منهن الهبة لقاء عجزهن ، ويظهر البطل ذكاء ودهاء كبيرين ، كما تظهر سرعة بديهته واعتماده على الحيلة واعمال الفكر بهدف الكسب . ومما يؤكد ان الكاتب له خط واضح فى تصوير الفقر انه يلتجىء الى النساء بعد أن خاب أمله فى الرجال ، وهو يبرر ذلك فى قوله شعرا ملحونا :

يابن العـــربي يا حبيبي لا تلمني فيما مرا
بن الدهـر سخي بيـدي وصـير عيشي مرا

والكاتب يعي أخـــلاق مجتمعه ويعرف عصره ومعاصريه فنراه يقدم تلك الصورة المتشـائمة السوداوية عن زمانه فيحـــكم على أخلاق الناس بقوله أيضا ملحونا :

ما فيهم الا حسد وبغض وبدلوا بالخير شرا

ومن هنا فهو يرفض الانتماء اليهم ، لانهـــم اصبحوا فرديين أنانيين فمن حقه أن يرفضهم لانه افتقد الخير في الرجال فمال الى النساء ، ولهـذا دلالة معينة :

واني ضربت عنهم صفحا ودحضتهم بالجزع فرا
ولذا الى النســـاء ملت نلت ما يســد فقرا

والملاحظ ان الكاتب اقحم في هذه المقـــامه وصفا للمهـــرجانات التي كانت تقام في وقتـه تحدث فيها عن الفروسية والرقص،وكان يراقص الفتيات ويعلمهن « فن الرقص » مقـابل مـكافأة ماليـــة .

وفي المقامة السابعة يستخدم شكل الرسالة ولكنه لا يعالج فيها قضيةواضحة بقدر ما يحاول اظهار براعته في « فن التوســـل » وقدرته على التلاعب بالالفاظ والجمل وهي طريقة امتـاز بها الحريري أيضا .

على أن الكاتب يعود مرة أخـــرى الى وصف أدواء المجتمع وأمراضه وما اســـتشرى فيه من مظاهر تدل على جمود في الفكـر وعلى تخلف في التفكير ، يعود الى هذا في المقامة الثامنـــة التي كرسها لقضية خطيرة هي المتاجـــرة بالدين من الدجالين الذين يسخرون الدين لمآربهم الخاصـة ويضللون العامة باسمه ، ويستغلون البســـطاء والسذج الذين يعتقدون في الزوايا والاضرحـة والاولياء . يعرض لهذا من خلال ما كان يقـــام من ولائم أو ما يسمى « بالوعدة » ويصف بطـل المقامة الذي كان يهتز مجذوبا مثل الآخـــرين ، وصفا حيا :

« يهتز كأنه برميل ويرمي بشرر ثقيل ، وحين يسأل عنه يقولون له : هذا شيخ أتى من المغرب الاقصى .. » . والكاتب ينقد هـــذه الظاهـرة السلبية التي اجتاحت المجتمع الجزائري فيالقرن الماضي بل واستمرت معه الى فترة متأخرة . وهي تظهر أيضا أن كثيرا من مدعي « الولاية » كانوا يأتون من المغرب ويفدون على الجزائر ولهم شهرة ذائعة في ادعاء أشياء كثيرة منـــها قدرتهم ـ كما يزعمون ـ على فتح « الكنوز المغلقة » ومعرفة ما يغمض من الامور وادعـاء التصـــوف ، فبطلنـا استخدم هذه الطريقة ليعيش منها ويتكسب بها وادعى أنه قدم من المغرب حتى ينال رضى الناس عنــه .

ويصف الكاتب ـ في صـــــور حية ـ تزاحم القوم على الطعام حـين قـــدم لهم ويصف بدقة « مقدم الزاوية » الذي يقوم بالدعاية للشـــيخ ويطلب من الناس أن يجـــزلوا له العطاء حتى ينالوا بركته .

والواقع أن عناية الكاتب بهذا الموضـــــوع

والحاحه عليه يؤكد أن هذه المظاهر قد انتشرت وكثر المدعون والسماسرة باسم الدين وطغى التصوف على الحياة الفكرية والثقافية وكان لذلك كله أثره فى عقول الناس حتى اختلط بالدين ما ليس منه · كما انتشرت البدع والخرافات وسيطر الوهم على العقول والقلوب بتشجيع من الاستعمار بحيث استمرأ رجال الطرق هذا الوضع ودأبوا على ترسيخه فى أذهان العامة ، خاصة وأن الفترة التى كتبت فيها هذه المقامات هى الفترة التى اشتد فيها نشاط هذه الزوايا ومال أصحابها الى الراحة ومهادنة الاحتلال وبحثوا عن الاطمئنان والاستقرار فتعلقوا أشد التعلق بهذا الوضع ·

والكاتب يعى هذا جيدا ، فيجسده من خلال هذه الصورة لمقدم الطريقة : « هلموا أيها العباد : هذا سوق ماله نفاد ، فمن زين نيته نور سريرته، ومن خاب ظنه ، ضيع سعيه ·وهذا شيخنا الكبير خليفة السيد الامير فمن تعلق بأذياله ، نال جميع تنجاله ، ومن أراد اصلاح أموره فليبادر بما فى مكتوبه (جيبه) ·· » ·

واذا كان الكاتب يصور الشخصية الثانية للزاوية وهى الداعية للشيخ القائمة على أموره ، فانه يصور أيضا فكرة انتساب هذه الطرق الدينية الى الاشراف ، وهذا الشيخ ينتسب للامير ، وهو يقصد الامير عبد القادر فيما يبدو لانه كان ينتمى الى احدى هذه الطرق الصوفية · وتكون المفارقة أشد حين ندرك أن الشيخ هنا انما هو بطل المقامات الذى تستر باسم الدين لانه فقير أراد أن يشترى دابة فعجز فالتجأ الى هذا الامر ·

ويعود الكاتب الى هذا الموضوع مرة أخرى فى المقامة الثانية عشر ، ولكنه فيها يركز على المرابطين وكيف ضللوا الشعب وخاصة من حرم نعمة العلم والتعلم لا سيما أن الاستعمار شجع هذا الجهل وهذا التأخر حتى يظل الشعب بعيدا عن الواقع المر الذى يعيش فيه · ويكون هذا النقد من خلال وصف « الزردة » التى تقام فى المساجد حيث يجتمع الناس وقت الفجر فى انتظار المرابط او الشيخ الولى فيخرج لهم من ثنايا أمواج البحر فيحتفلون به ويلتمسون منه البركة والخير ·

على أن المؤلف هنا يظهر وعيا بالموضوع بحيث يؤكد بان هذه العادة ــ كما أطلق عليها ــ قد ذهبت ، ولكن الناس طالبوا بها والحوا فى عودتها · وحتى يبعث الاهتمام فينا ، يجعل الخلاف يشتد بين المؤيدين لرجوعها والمعارضين لذلك ، حتى وصل الامر الى القضاء ، واجتمع العلماء واحتكموا الى الفقهاء فلم يصلوا الى اتفاق · وحتى يبرز الكاتب التناقض العجيب بين هدف العلم والعلماء فى هذه المرحلة وبين الدجل باسم الدين ، بل وحتى يبرز جهل العلماء وخلافهم حول قضية لا تستحق هذا الخلاف ، فانه يعمد الى « شخص يضرب الرمل » فيحكم برجوع «الزردة»، بل لكى يبرز دور الاستعمار الفرنسى وحكمه الجائر وتشجيع هذه الظواهر السلبية فان الوالى

او الحاكم الاجنبى يدافع عن رجوع هـــذه العادة التى تدل على التخلف المادى والثقافى ٠

ومثلما هو شان الكاتب فى اظهـــار المفارقات بين هذه التناقضات المختلفة ، فانه أيضـا يجعل « الشيخ » لا يقدم سوى التمنيات والادعية مقابل الاموال التى تقدم له ، وان مشاكل الناس تحل ــ على يديه ــ بهذه التمتمات التى تصدر منه فى تكلف،ويضيف الى هذا كله صورة هذا «المرابط» الذى يلبس الثوب الجديد بينما الناس لا يجدون حتى الاسمال البالية ، وهى صورة طريفة معبرة عن الغرض المقصود ٠

ويتصل بهذا الموضوع أيضا ما ساد فى عصره من سحر وشعوذة واعتقاد فى هـــذه الاوهـــام والخرافات واعتقاد الناس خاصـــة فيما يتعلق بالزواج والطلاق وأثر السحر فى هـــذا ٠ وقد عنى الكاتب بتعلق الناس بهذه الامور السطحية الغيبية باسلوب فكه ، ويقرن السـحر أحيـانا بالفقر فالطلبة الذى يكتبون « الـرقى » يفعلون هذا بدافع فقرهم وبهدف الرزق ، ذلك أن عيشهم الصعب وسط ظروف قاسية يدفعهم الى هـــذا الموقف ، لهذا يسخر الكاتب من الطـــرق التى تستخدم فى هذا المضمار ، فكتب رســـالة فيها رموز مما شاع فى هذه الرقى ، كتبها على لسان البطل بلهجة عامية واضحة يقول فيـها : « أجى سى اللام وآضره رينـج والمورميز رينـــد لواد ، فيز ، رينص ومع رينج ، الوالبة رينط ٠٠٠ »

فهذه الكلمات لا معنى لها مثل كثـير منها فى هذه المقامة وانما جاء بها الكاتب لينتقد الزيف والدجل عند مدعى السحر والشـــعوذة بهـذا الاسلوب الساخر القاسى فى كثير من الاحيـان ، وبوجه خاص حين يعرض للزواج وما يحيط بـه من غموض فى العلاقة بين الرجل والمرأة ٠

ومن المظاهر الســـيئة التى عالجها الكاتب ما انتشر فى عصره وما زالت آثاره حتى الآن ، وهو نقد ظاهرة المراة السمسارة او «الخاطبة» الـتى تتوسط بين الرجل والمرأة ٠ وقد هاجمها الكاتب فى مقامته العاشرة حيث ذكر أن البطل طلب من امراة طاعنة فى السن ان تتوسط له لدى حبيبته ولكنها غدرت به فذهب الى الحاكم يشكوها فكان جزاؤه الركل والضرب ، ولعل الكاتب يقصد نقد البوليس ويجمع الى ذلك نقد المظاهر الكاذبة التى سادت فى عصره حين يلبس الشخص لباســـا نظيفا ويبـــدو فى هيئة « العـالم » أو « الفقيه المتدين » مثل البطل لان الشرطى ظنه من هـــذا الصنف من العلماء بينما هو يشكو من قضـــية تافهة ، قضية المرأة التى خدعته ٠ وأغلب الظن أن الكاتب يهاجم أولئك الذين يتظاهرون بالعلم وهم جهـــال أغبياء مدعون وقد يأتون أشـــياء ويقترفون أمورا لا يفعلها من يحترم نفسه ، فوق أن المؤلف ينقد ــ كما أشرنا ــ السمسرة لقـــاء ثمن معين ٠ كذلك فانالكاتب هاجمتعدد اللهجات واختلافها وما تسببه من غموض فى المعنى ٠

بقيت المقامة الحادية عشر التى ضمنها الكاتب نقد بعض الامور ولكنه عنى فيها بالنصح والوعظ والارشاد الى جانب انه أعاد وصف مهرجان آخر بوهران وصف فيه الفروسية العربيـــة وبعض

التقاليد الجزائرية فى عصره والتى لا زالت حتى اليوم ، على أن الجدير بالملاحظة أن المؤلف استخدم هنا فى هذه المقامة تعبيرا سياسيا اطلقه فى هذه الفترة المتقدمة ، ونعنى به تعبير « الامة العربية » الذى ظهر مع اليقظة الحديثة ، ولكن الكاتب استخدمه فى وقت مبكر جدا ، وكان يقصد به التفريق بين الامة الفرنسية – كما نعتقد – وبين الشعب الجزائرى العربى ، فهو فى معرض حديثه عن العرب يقول : « فعند ذلك شهد أهل الدولة وأضيافهم السادات الكرام وعلماؤهم ببراعة الامة العربية ، بفضيلة اهلها على غيرهم بالكلية .. » وقد ساق هذه الجملة أثناء وصفه للفروسية العربية فى المهرجان المشار اليه ، وأغلب الظن أن الكاتب يهدف أيضا الى اظهار الخلاف فى التقاليد بين الجزائر وفرنسا وان هناك خصائص معينة لكل شعب منهما بغرض اثبات أن الجزائر لها كيانها الخاص وذاتيتها الخاصة ، لا سيما وأن الفترة كانت فترة دعوة الى الادماج الكامل للشعب الجزائرى ومحاولة فرنسته والقضاء على شخصيته ، والا فكيف نفسر بداية الكاتب لمقامته بموضوع بعيد كل البعد ثم انتقاله الى هذه الفكرة لولا انه يهدف – فيما اتصور – الى ابراز الحقائق الخاصة بالشعب الجزائرى واظهار تميزه عن غيره .

هكذا نكون قد عرضنا الى الخطوط الرئيسية فى هذه المقامات واثرنا بعض الافكار التى عالجها الكاتب وأوضحنا الافكار الاساسية التى قصد اليها قصدا ، ولكن تبقى جزئيات كثيرة وتفاصيل تتفرع عن هذه القضايا وتتشابك معها وتتصل بها من قريب أو بعيد تحتاج الى دراسة مفصلة أكثر والى مجال آخر أوسع وأرحب .

على ان هذه الدراسة لا تكتمل صورتها سوى بربطها بأسلوب الكاتب وطريقته فى التعبير وكيفية تناوله للموضوع والمحتوى معا ، والسمة الاولى فى هذه المقامات أن الطابع العام الذى يغلب على أسلوبها هو طابع الفكاهة الراقية فالاولى يقصد منها الاضحاك لمجرد الاضحاك ورسم الصورة الكاريكاتورية الباسمة ، اما الثانية فهى الفكاهة التى لا تقصد لذاتها ولكنها تقصد النقد فى صورة ضاحكة مرة وساخرة مرة أخرى ، وهذه السمة ليست مقصورة على موضوع دون آخر وانما يمكن ان تكون فى مثل ما كتب فيه الكاتب أو فى غيره من الموضوعات ، والكاتب العظيم فى أية لغة هو ذلك الذى يتمتع بقدر يقل أو يكثر من هذه الفكاهة ، بل ان الكاتب الجاد لا تخلو كتابته من مسحة فكاهية لاذعة تنفذ الى أعماق النفس فتفجر أعماقها ضحكا أو سخطا على الواقع ومن ثمة تكون البداية للتغيير والعمل على التخلص من الرواسب القابعة فى أغوار النفس أو فى الجانب المظلم من الفكر المتخلف ، ومن ثمة يقوم الادب فى صورته الفكاهية بدور الايقاظ والتنبيه والوعى وكاتبنا يتمتع بموهبة الاثارة والسخرية والفكاهة الى جانب أنه يعرف مختلف اللهجات الوطنية ، فهو متبحر فى معرفته لهذه اللهجات وادراكه للفروق بينها وما توحى به هذه الفروق التى قد تغير من

اشياء كثيرة بل تغير المعنى كلية ومن هذا اللون الفكاهي الصافي تلك الصورة التي رسمها للهجة احدى المناطق الجزائرية حيث ينطق القاف فيها كافا والتي قد تشـوه ـ لا النطق العربي الفصيح فقط وانما تشوه بلاغة وفصاحة القرآن ـ يصور المؤلف هذا تصويرا له دلالته فيقول على لسـان البطـــل :

« وأول ما شاهدتهواغرب ما رأيته انني مررت بمسجد وسمعت طالبا يتلو القرآن ويرتل بزعمه البيان وهو يقـول : « كال كائل منهم لا تكتلوا يوسف والكوه في غيابات الجب ، وهو يقصد : قال قائل منهم لا تقتلوا يوسفوالقوه في غيابات الجب ٠٠ » وهذه آية قرآنية حرفها النطق ، وحين تتعدد اللهجـــات المتضـــاربة يصعب التفاهم والتخاطب ويصعب حتى فهم القرآن ٠ واذا كان الكاتب يلح على هذه الفكرة بسخريته المعهـودة فانه ـ لكي يعمق فكـــرة أن الجهل قد تفشى بين مواطنيه ، يقرر بطله الذي سمع ذلك التحريف ان يتجول في الشارع عارضا بيع النقط ، نقط القاف لاهل البلدة ٠

ومن الصور الفكاهية البسيطة وصفه ـ مثلا ـ لرجل كفيف ذهب للحمام فنصحوه بالا يطيل فيه البقاء كثيرا لان حرارته مرتفعة جدا فلم يستمع لانه أراد أن يأخذ حقه كاملا في الاســتحمام لقاء ما دفع من دراهم ، فكان أن قضت عليه الحـرارة فمات لعناده ٠ الى غير هذا من الصور الكثـــيرة المعبرة عن قدرة الكاتب على الاضحاك والتفكه ٠

ومن النوع الذي يتسم بالســخرية والفكاهة النقدية قوله وهو يصف البطل الدجـــال الذي لبس لباس الولي الصالح حتى ان الناس اصبحوا يترقبون منه ما يزيل كـربهم ٠ ويصف الراوي هذا المنظر وهو يعرف أن هـــذا الدجال بطل المقامةفيقول : « قربوا له كاليشا واركبوه وركب معه أعيـــان القـــوم وشرفوه ، وانطلقوا به مع الطريق السلطانية بلا أمل راجعين للقبــة برأس الجبلوكر الهجيج فيأثرهم يتلاعبون ويتصارفون ويتسابقون ويتضاربون وهم فرحين مستبشرين لازالة ما كان على قلوبهم متكدر ، من الشـــوق لرؤية قطبهم المخضر فاتبعنا أثرهم رويدا رويدا والامام رفيقي يكل من السير ويشد عضدا عضدا ونحن فاكهة الحديث على ما رأينا منالبحبحة التي لم يلبث لها لبيث فعفت ان لم أبين له الســـر المكتوم أكون عنـده غير صـــادق مأثوم ٠٠٠ » ويستمر الراوي في وصف احتفال الناس بهـذا الشـــخص الذي يعرفه حق المعرفة ، يعرف انه يتظاهر باسم الدين ويستغله من أجل الحصـول على المال ، ويصفه بأنه : « ليس بولي صالح ، ولا بعالم ناصح ، وانما هو صعلوكا لكاعا خـــداعا بداعا ، أصله زمالي اسمه ابن عيسى العوالي وهذه صحة علامته ويقين حكايته ٠٠ » ٠ ويطول بنـــا الامر لو اردنا أن نسوق أمثلة على فكاهة الكاتب وروحه المرحة لان أسلوبه في هذه المقامات كلــه فكاهة ونقد ٠

والسمة الثانيـــة قدرة الكاتب على الوصف والاطناب فيه واستقصاء الفكـــرة وتقليبها على وجوهها كما يقول واحتفاله بالصور والتشبيهات البسيطة والمركبة أحيانا ، وهي كثيرة فيالمقامات سواء منها ما كان وصـــفا للمظاهر الســـلبية والعيوب الاجتماعية أو لوصفالطبيعة أو لوصف

بطله وحيله وطرقه الذكية فى استغلال الآخرين والضحك على اذقانهم واللعب بعقولهم وعواطفهم. والسمة البارزة أيضا فى كتابته أن لغته متفاصحة ـ كما ذكرنا ـ يمزج فيها بين الفصحى والعامية ، ولكن الفصحى تغلب على لغته وأحيانا يأتى بالعامية ليس فقط لتخليص العربية من اللهجات المحلية المتضاربة ولكن من أجل اثبات قدرته على استيعابها من جهة وعلى الترويح على النفس من جهة أخرى ، كما انه قد يستخدم مفردات والفاظا أجنبية ، ربما أيضا لانها تعبر عما يريد أن يصوره لانها اصبحت من اللهجات الدارجة أو لانها علقت بذهنه او يأتى بها من اجل الاضحاك وهى على كل حال تدل على ان اللغة العربية ـ معربة او دارجة ـ قد طغت عليها الفرنسية فى تلك الفترة وتغلغلت فى اللهجات المحلية بعد أن فرضت بالقانون والقوة على البلاد ولغتها وثقافتها القومية .

وهناك خاصية أخرى وجدت فى المقامات منذ استقام فنها وهى العناية بالسجع ولكنه فى كثير من الاحيان يأتى عفو الخاطر وهو فى الوقت نفسه تقليد لاسلوب شاع فى الادب العربى نثره وشعره فى فترة جموده وذاع فى المقامات بوجه خاص ، وكان يقصد منه اللذة والامتاع الفنى والتأثير من خلال الموسيقى والتوازن بين العبارات والقوافى فى الجمل أو فى الكلمات ولكنه فى فترة متأخرة أصبح هدفا لذاته لا لغاية جمالية ادبية ، كما يظهر فى اسلوب كاتبنا استيعابه للغة العربية الفصيحة المعربة والدارجة أيضا الامة الذى سهل له أن يتلاعب بالالفاظ واظهار البراعة اللفظية .

وكذلك خاصية الاستشهاد بالشعر فى الغرض المقصود أو بالمثل والحكمة بغرض التعلم والوعظ والعبرة . وقد اقتفى كاتبنا هذه الطريقة ولكن الابيات التى جاء بها هى من تاليفه وبلهجة عامية تمتاز بالفكاهة والصور الساخرة تارة يبرر بها موقف البطل وحيله وتارة يصف بها الناس والزمان أو يصف بها الطبيعة وجمالها وما الى هذا السبيل .

ولا شك أنه من التقاليد المعروفة فى المقامة هى اعتمادها الى حد ما على الحوار بين الاشخاص، ولكن الحوار لا يأتى للتعبير عن مستوى الشخصية كما هو الشان فى القصة الفنية الحديثة ، بل يأتى فى أغلب الاحيان لاضفاء الحيوية على القصة المقامة ويأتى للتعبير عن افكار الكاتب ، وهذا هو الطابع العام فى مقاماتنا هذه وان كان أحيانا يأتى موجزا معبرا عن الفكرة فى حين أنه فى كثير من الاحيان لا تكون وظيفته فنية بقدر ما تكون لابراز الهدف الذى يرمى اليه المؤلف ، فهو اذن حوار لا يساعد كثيرا على رسم الشخصية خاصة وهو قليل فى هذه المقامات بالقياس الى العناصر الاخرى ، لان المؤلف مشغول بالسرد والوصف ، وهو سرد يمتاز بالحيوية والتدفق لما فيه من حركة واضحة منبعها تتابع الاحداث وسلاسة التعبير ورصد المفارقات والتناقض بين المواقف ونقد الواقع فى وعى وفهم عميقين .

على أن بناء هذه المقامات في الغالب ـ بناء مفككلان الكاتب لا يكتب قصةقصيرة فنية يراعي تقاليدها ومقوماتها بقدر ما يعنيه عنصر القص والفكرة التي تلح عليه ويهدف الى اظهارها وابرازها ، فهو لا يربط بين الشخصية والحادثة ربطا محكما متفاعلا متطورا في خط مستقيم ، وانما ينتقل من فكرة الى أخرى ومن موضوع الى آخر حسبما يطرأ في ذهنه مي أفكار وما تختزن مخيلته من صور وما ترسب في عقله ونفسه من تجارب يهمه ابداء الراى فيها . ولسنا بصدد مناقشة هذه المقامات ومدى ما حققته من سمات القصة القصيرة وهل هي من هذا الشكل ؟ أو هي شكل مستقل بنفسه ؟ وانما غرضنا فقط الكشف عن نتاج أدبي لعب دورا هاما في الحياة الادبية والاجتماعية وسجل كاتبها ما رآه وعاشه ، ويكفيه أنه كان صادقا في تصويره لبيئته ولمجتمعه ونقل لنا ما كان يضطرب في عصره من قضايا وأفكار هي من صميم الحياة الاجتماعية عاشها ، ويكفيه أنه كان شاهد عصره ، وكانت مقاماته وثيقة صارخة على ما كان يجري في مجتمعه ، والادب الحي هو الذي ينقل لنا ـ بصدق ـ أحوال الافراد والمجتمعات وكيف كانوا يفكرون ويحلمون ، وليس أصدق شهادة من الادب حين يتوفر فيه عنصر الصدق والكشف عن الحقيقة وتصوير الحياة .

بعض مراجع هذا البحث :

- « المقامة » ـ سلسلة فنون الادب العربي ـ د . شوقي ضيف ـ مطبعة المعارف سنة 1954
- « رأى في المقامات » ـ د . عبد الرحمن ياغي ـ المكتب التجاري ـ بيروت سنة 1969
- « منامات الوهراني » ـ من مطبوعات المجمع اللغوي ـ القاهرة
- « صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار » ـ محمد بيرم التونسي ـ المطبعة الاسلامية سنة 1884
- « المواقف » ـ الامير عبد القادر ط 1 ج 1 مطبعة الشباب سنة 1911
- « مجلة المغرب » ـ العدد 11 سنة 1903
- « المجلة الاسيوية » ـ الحلقة 11 عدد 2 سنة 1913
- « مغامرات طالبين » ـ نشرت بوهران وباريس سنة 1887

الأمراض والعاهات والعيوب

ومايتصل بها في عاميتنا

د. عبدالملك مرتاض

يمثل هذا البحث الفصل الخامس من كتاب قدم الى الطبع ، وعنوانه : « العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى » . فلا غرو اذا لاحظ القارىء الكريم اشارات في هذا المقال الى أمور مضت ولم ترد فيه .

عاميتنا فى هذا البـاب ، كفصحانا تقريبا ٠ ففصحانا لاتبرح شديدة الخجل ، كثيرة التردد فى تسمية هذه الأدوية الحديثة الكثيرة الاسمـاء ، اذ أن اسمـاء هذه الأدوية خلقت معهـا ، وولدت يوم استكشافها ، فما تصنع العربية والحال ان أهلهـا لا يخترعون اليوم شيئـا من الأدوية ولا مـن غير الأدوية ؟ فاللامة هنا لا تقع على العربية المظلومة ، وانما تقع على الناطقين بها ٠

ولـما كانت العامية بنتـا للفصحى فى معظم مفرداتها وتراكيبها ، ناشئة عنها ، منحوتة منهـا ، فانها تقوى فى الموضوعات أو المجالات التى تقوى فيها الأم ، وتضعف فى المواطن التى تضعف فيها ٠

من اجـل كـل ذلك ، نجـد عاميتنـا شديدة القصور فى مجال التطبيب ، وذكر أسماء الأمراض وما يتصل بكل ذلك من الفاظ كثيرة متنوعة دقيقة ٠

بيـد ان عاميتنـا لاتبـرح محتفظـة بمعظم الأمراض والعوارض التى تعتـور الجسم ، والتى يكثر شيوعها فى فصحانا القديمة ٠

وهدفنا فى هذا الفصل أن نذكر مـا حضرنا مـن هذه الألفاظ التى لا تـزال جـارية على ألسنة عوامنا فى البوادى والقرى ، وحتى المدن ٠

السـل :

(ينطقونها بفتح السين) وقد أشرنا غير مرة الى أن عوامنـا ، يعدلون عـن الضم الى الفتـح لخفته ٠

ويستعملون مـن هذا اللفظ اسـم المفعـول استعمالا فصيحا صحيحا فيقولون : هو مسلول ، وهى مسلولـة ٠ ولوجود هذا اللفظ فى عـاميتنا علاقة بوجود المرض نفسه الذى ظـل يفتك بحيـاة كثير من الناس ٠ غير ان هذا المرض كان قليلا فى البـوادى ، بـالرغم مـن عدم وجود اى طبيب او مستشفى ٠ ونعلـل ذلـك ، لا بالنظـافة ، وحسن الغذاء ، ومراعاة جميع الشروط الصحية المطلوبة، وانما بنقاوة الهواء ، وقلة ازدحام السكان ٠

بوزلـــوم :

يطلقون هذا اللفظ على داء « الروماتيزم » ٠ والعربية لاتزال فى ضيق من تسمية هذا الـداء ٠ وانا لانقطع بعربية لفظ « بوزلوم » ، غير أننا نميل الى عربيته ، على انه جـاء من لفظ « زلـم » الذى معناه « قطع » (بتضعيف الطـاء) (١) ٠ لان هذا الـداء يتسرب الى جسـم الانسـان ، والى بعض اعضائه خاصة ، فيصيبها بـالآم واوجاع تشبـه المناشير التى تقطع ٠

والعامة عندنا يتداوون من هذا الداء بطرق سانجة شتى ، أهمها ما يشيع فى الغرب الجزائرى مـن وضع سلك اصفر رقيـق فى أسفـل الأذنين ، ولكـن ذلك لايتم الا بيد شيخ مشهود له بالكرامـة والبركة ، كالشيخ ابن عمرو او أبنائه بندرومة ٠

الرهصـــة :

(بفتح الراء وسكون الهاء) ينطقها العوام عندنـا على الأصـل بدون اى تغيير ٠ والرهصـة عبارة عن تورم وتعفن يحدثان فى أسفل القدم اما من اثـر شدة الحفـا ، وامـا مـن احتكـاك القدم بـالأحجـار والاشـواك نتيجـة لمشـى الشخص حافيا (٢) ٠

1) انظر اساس البلاغة : زلم .
2) انظر اساس البلاغة : رهص .

الى يومنا هذا ، وهى تشبه الرهصة من حيث طبيعة الافة (٣) ٠

الداحوســـــة :

لفظة عربية فصيحة لاتزال جارية على السنة كثير من الفلاحين والرعاة لم يصبهـا ادنى تغيـر

المعلـــول :

يقولونه هكذا على مـراد الوضع ، لأن لفظ العليل انما اريد به « المعلول » ٠ وهذا جـار على باب جريح ، واراد به مجروح ، وقتيل ، والمراد به قتيل ، وهلم جرا ٠

وهم يطلقـون هذا اللفظ على المريض الـذى طال مرضه ، دون ان يشتد عليـه فيؤدى بـه الى التلف ٠

غير انهم يستعملون احيانـا لفظ « العليل » ايضا ٠

مجنـــون :

يستعملون هذا اللفظ لمـا استعمـل لـه فى الأصل ، وهو ضد العاقل ٠

مـجدوب :

(ينطقونه بـالدال المهملـة وهو نطقه فصيح صحيح ، ويريدون بلفـظ « المجدوب » الى الرجـل الذى أصيب بخلل مـا فى عقلـه ، فتغير تصرفه ، واصبح الناس ينكرون مـن امره بعض مـا كانوا لا ينكرون ٠

ورغم ان المعاجم العربية لا تكـاد تذكر مـن هذا المعنى شيئا ، فانى افترض عربيـة المجدوب ، على اساس انه آت من لفظ « الجادب » الذى مـن معانيه : العيب ، والكذب (٤) ٠

فكأن المجدوب معاب ، وهو حـق ٠

غير انهم يطلقون لفظ « المجدوب » على كـل رجل يـزعم انـه يعلم شيئـا مـن الغيب ، فيتكلم بالألغاز ، ويعمى فى أحاديثه ، فيصعب تأويلها ٠

فهذا فرق ما بين لفظى المجنون والمجدوب ٠ اما الأحمق فهو عندهم كل شخص كان ناقص العقل على نحو مـا ٠

غيـر انهـم يتصرفون فى لفـظ الأحمق مـا لا يتصرفون فى غيره ، فهم يستعملون منـه الفعل والمصدر والتعجب على أسلوبهم الخاص ٠

عيــان :

يـريدون بهذا اللفظ الـى معنى « متعب » وهى عربيـة فصيحة عـالية ، ولكـن تستعمل فى الأصل للعجز المطلق، لا للتعب ، ومنه قوله تعالى « أفعيينـا بـالخلق الأول » ؟ (٥) ٠ ولفـظ عيـان يستعمل لمعنى النصب فى أقصى غربنـا ، امـا فى وهران وضواحيها ، فانهم يصطنعون لفظا آخر هو « عـى » ٠ وهذا اللفظ من مرادفات « عيان » ، فان العرب تقـول : عيـان ، وعى ، وعيـاء ، وعيى ، وتجمعه على أعياء ، وأعيياء (٦) ٠

---

3) اساس البلاغة : دحس .
4) انظر مادة « جدب » فى لسان العرب .
5) سورة ق : الآية : 15 .
6) انظر القاموس المحيط : 370/4 (عى) .

الشقيقــة :

الشقيقة من الأمراض التى كانت تعتور النبى عليــه الصلاة والسلام ، وهــى عبــارة عــن وجع يصيب الراس اكثر مــا يكون خفيفا نسبيا ، واكثر ما يكون عارضا قصيرا سرعان ما يذهب ٠

واللفظة عربية فصيحة وهى لا تبرح قــائمة مستعملة فى بوادينا وقرانا خاصة ٠

الطبيب :

لا يقول اهل القرى والبوادى غير هذا اللفظ لهذا المعنى ٠ ولكن اهــل المدن عندنــا كثيرا مــا يستعملون لفظا من هذه الألفــاظ الاجنبية الدالــة على هذا المسمى ، وربمــا قــالوا ، هــم ايضــا ، « الطبيب » ولكن بنطق فرنسى بحت ، بحيث تصبح الطاء تاء مضمومة ، بعدها باء رقيقة ٠

ومــن الغريب ان لفظ « الطبيب » دخــل الى الفرنسية الحديثة والمعاصرة نفسها ، فى حين ان بعض الجــزائريين مــن المتفــرنسين لا يبرحــون يستعملون غيره ٠

الـــدواء :

معظم النــاس عندنــا يصطنعون هذا اللفظ العربى ٠

دواء العــرب :

يقصدون بــه الــدواء التقليدى الذى يشيع استعماله بين مــن لهــم تجربــة فى هذا الشــان ، كالشيوخ والعجــائز فى البــوادى خــاصة ، فهم يتطببون بادوية من العشب ، لا نزعم انها سانجة ، ولكن نقول : انها تقليدية قديمــة ٠ وهذه الادويــة كثيرا ما تدور على محور واحد غالبا ، هو العسل٠

الـــداء :

ينطقونه صحيحا بدون تحريف ، اذ ليس فى هذا اللفظ ما ينبغى أن يحرف ٠

الفارماسيان :

لا يعرف العــوام عندنــا لفظ « الصيدلى » ، وان كانوا يعرفونه فانهم لا يصطنعونه، ويستعملون فى الأغلب اللفظ الفرنسى المذكــور ٠ غير ان لفظ الصيدلى اخذ يشيع فى مجتمعنا قليلا بفعل التعليم والاذاعــة ٠

العمليــة :

الواقع ان لفظ « العمليــة » اخذ يــدور على الألسنــة فى مجتمعنا دورانــا يدعو الى التفــاؤل بمستقبل العربية فى الجزائر ، فانك قلما تسمع عند الذين يحبون العربية غيره ٠ ومن العوام عندنا من اخذوا اللفظ الفرنسى وعربوه بحيث ينطقونه بدون عناء ، فاذا هم يقولون : « الباراسيون » ٠

فوت لافيزيت :

لا يقــال فى اوساطنا الشعبية غير هذا ، اى لا يقولون : « الزيارة » ٠ مع انهذه اللفظة بالذات كثيرة الشيوع فى عاميتنا ، وربما قالوا : «فيزيتا» وهــم حين يستعملون هــذا اللفظ الاخيــر كــانهم يعتقدون انه اقرب الى العربية ، مع انــه اسبانى ٠ وكل ما فيه من العربية هذا التحريف النطقى ٠

العمــــاش :

يــريدون بهذا « العمش » ، فيشبعون الميــم بالألف ٠

اعمــش :

ينطقونه نطقا صحيحا ٠

الطمســة :

يريدون بهذا اللفظ الى المرض الحــاد الذى يصيب العين فيطمسها ، فلا يدع شقا بين جفنيها ٠ وهى عربية فصيحة عالية لا تبرح قائمة الى يومنا هذا ٠ ويقولون للمصاب بهذا المرض مــن الأطفال خاصــة ، فى فصــل الخريف ابــان جنى الرمــان خاصة : انه « مطموس » ، بدون تغيير ولاتبديل ٠

خاصة : انه «مطموس» بدون تغيير ولاتبديل (٧) ٠

الدمعــــة :

لا يريدون بهذا اللفظ هنــا البكــاء ، وانمــا يريدون به الى ما يصيب العين العليلة من دمــوع غير طبيعية ، فيقولون : عينه مريضة ، فهى حمراء تدمــع ٠

السعلة :

يقولون هذا ، ويقولون ايضا : « الكحــة » ٠ ولا أدرى من أين جاءوا بهذا اللفظ ٠

الحمى :

ينطقون هذا اللفظ بفتح الحاء بدل ضمهــا ، على دأبهم فى مثــل هذه الحالات ولكنهم ينطقــون حرفا من هذه المادة نطقا صحيحا فيقولون : فلان محموم ٠

الجدرى :

ينطقونه بفتح الجيم وسكون الدال المهملة ، مع ان الأفصح هو غير ذلك ٠ وهم انما صنعوا ذلك لفرارهم أبدا من الضم الى الفتح ، ومن الفتح الى السكون ٠ اى فرارهم مــن الثقيــل الى الخفيف ، ومن الخفيف الى الأخف ٠

البــواسر :

يريدون بهذا اللفظ ، كمــا هو واضح ، الى « البواسير » ٠ وهى كلمــة علــى صيغــة منتهــى الجموع يصعب على العــامة نطقها نطقا صحيحا ، الى ما كلفوا به من حب التغيير ، وحب التخفيف ٠

الحــرز :

ينطقونه بفتح الحاء ، والوجه الكسر (٨) ٠ وهو العوذة المعروفة التى يكتبهــا المحترفون مــن حفظة القرآن ، ومن بعض المشعوذين ٠

وتنفق سوق كتابة الحروز فى بلادنــا نفاقــا كثيرا ، وبالرغم من بعض المحاولات التى قام بهــا بعض الكتاب الاجتماعيين لمحاربة السحر والتدجيل والشعبذة فى الاذاعــة والتلفزة وسواهما ، فــان هذه الظاهرة يصعب اختفاؤها وزوالها الابعد ان يمضى وقت لا نستطيع تحديده ٠ وانا اعرف مــن كتاب الحروز من يعيش افضل من الموظف الكبير ، ويعقد صفقات مع النساء الثريات رابحة جدا ، وقد تبلغ العملية الف دينار كاملــة ، وربما فاقتها اذا اتصل الامــر خاصة بالتطليق والتزويج ونحوهما من القضايا المعقدة ٠ ٠

والعجب ان عقيدة « الكتابة » أو « الكتبــة » كما يقولون ، تشيع فى معظم المجتمعات النسوية ،

---

7) انظر اساس البلاغة : طمس .

8) انظر اساس البلاغة : (حرز) .

وحتى عند بعض المثقفين ٠ فانى اعرف كثيرا من المعلمات يطلبن الى الفقيه المفضل ان يكتب لهن حروزا خاصة ، اذا اردن الزواج ، او اذا شعرن بان بعولتهن لا يحبونهن حبا كافيا ، وهلم جرا ٠

والطبيب لا يساوى شيئا على الاطلاق امام الفقيه فى حالات خاصة فى مجتمعنا ، منها ان العروس اذا دخل على حليلته فباتت بليلة حرة ، فان أهله يفزعون حالا الى كتبة الحروز ليحلوا لهم هذا العروس « المربوط » ٠ وقد أخبرنى من اثق به ان عملية من هذا النوع جرت فى مغنية ، ففزع أهل العروس الى أمهر الكتاب المحترفين ولكن ذلك كلفهم مبلغا من المال ضخما ، قبل ان تبيت العروس بليلة شيباء ٠

العزيمة :

وجمعها عزائم ، وهى فصيحة (٩) ٠

والعزيمة هى ان يقرأ الفقيه آيات او أورادا خاصة على « المسكون » اى على الذى اصيب بالصرعة الجنونية المفاجئة ٠ والعزيمة من هذه الناحية اغلى ثمنا ، لانها اصعب مراسا من الكتابة العادية ٠ فكل فقيه كاتب حروز ، ولكن ليس كل فقيه قادرا على احتراف « العزيمة » ٠

المسكون :

يريدون به الشخص الذى اصيب بصرعة جنونية مفاجئة ٠ وارادوا انه سكنته الجن ، فبنوه للمجهول ٠

اعوج :

يريدون به الى الأعرج ٠ وهم لا يستعملون الا هذه الصفة عند ارادة هذا المعنى بالذات ، فاذا تصرفوا واصطنعوا الفعل ، فانهم يقولون : وفلان يعرج ٠ وهم اكثر ما يستعملون لفظ «العرج» للبهائم والمواشى ، اما العوج فهو عندهم للانسان فقط ٠

أعور :

يطلق لفظ اعور فى عاميتنا على كل اعمى ، لا على كل انسان فقد عينا واحدة ، وبقى يبصر بواحدة أخرى فقط ٠ فهم يستعملون هذا الحرف فى غير موضعه اللغوى غالبا ٠

اعمى :

يستعمل عندهم لمعنى الأعور ايضا ٠ وهم يرونهما مترادفتين لشىء واحد مع انهما مختلفان ٠ وهم حين يدعون على الشخص يقولون : « العمى » اى «سلط الله عليك آفة العمى ، فيختصرون ٠ ولكنهم كثيرا ما يقلبون هذا الحرف ، فيقولون : « معمى » (على وزن مكوى ومروى) وهم انما يريدون « اعمى » ، ويؤنثونه فيقولون : « معمية» ٠

اطرش :

يريدون به اصم ٠ واطرش لفظ عربى ، ولكنهم لا يقولون : اصم ، ابدا ٠

بكوش :

يريدون به ابكم ٠ وهو حرف ليس عربيا ، غير انهم اذا ارادوا اظهار العطف والشفقة على

---

(9) انظر الحيوان : 184/4 ، 185 ، 187 ، 186 ، 189 . 190 .

الماشية قالوا : « بكمـاء مسكينة » ، فـاذا ارادوا الانسان قالوا : « بكوش » ٠

والذى يتتبع عاميتنـا فى مجـال الأوصاف السيئة المذمومة ، وغيـر المذمومة ، يجد عوامنـا ينطقونها نطقا عربيا سليمـا فى الغالب ، كمـا فى هذه الالفاظ التى تحضرنى مثـلا :

احـول ، احمق ، اصلـع ، اقـرع ، افطس اعمش ٠

ويتصل بهذا اسماء المفعول الدالة على مرض أو داء أو آفـة عارضة ، كقـولهم قـولا صحيحـا فصيحـا :

مجروح ، مقتول ، ملسوع ، مسموم ، ملعون مدفون ، مجنون (وقد سبقت) ، مسعور ، محموم مظلوم ، وهلم جرا ٠ فمثل هذه الأوصاف لا تـزال تحتفظ بفصاحتها ونقاوتها فى عاميتنا الى اليوم ٠



منشــــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيــة

قريبا ستصدر في طبعة مستقلة كاملة مع الترجمة

اليـــاذة الجـزائـــر

التي نظمها خصيصا للملتقى السادس
للتعرف على الفكر الاسلامي

الشاعـــر
مفــدي زكريـــاء

أدباؤنا والمسيرة الثورية

د. محمد مصايف

لا اعرف ان قضية نالت من النقاش والبحث مثل ما نالت قضية « الالتزام » ، وهذا للمكانة الخاصة التى تحتلها بين القضايا الأدبية المعاصرة، وفى البحوث والمقالات السياسية والاجتماعية ٠ وأكثر ما تثار قضية الالتزام عندما تضطرب الأفكار ، وتتضارب النزعات ، ويجد مجتمع ما نفسه فى مرحلة انتقالية حساسة من حياته ٠ وليس من شك فى ان مجتمعنا يمر اليوم بمثل هذه المرحلة ، وفى أنه يطمح الى حالة افضل من حالته الحاضرة ، حالة تتماشى والمكانة البارزة التى يحتلها بين شعوب العالم الثالث ٠

وهذا فى اعتقادى من الأسباب الاساسية فى كثرة الكلام حول الالتزام والمتزمين فى السنوات الأخيرة ، وفى تصنيف ادبائنا الى طائفة ملتزمة ، وأخرى سلبية لايهمها من أمر المجتمع شيء . ومهما كان الأمر فان بلادنا فى امس الحاجة الى مجهودات واخلاص جميع أبنائها ، وبخاصة الى مجهودات هؤلاء الذين يتمتعون بثقافة عالية ، ويملكون وعيا حادا بالقضايا الوطنية ، واحساسا عميقا بحاجيات الوطن والمواطنين .

وليس بمعقول مطلقا أن يظل هؤلاء الأدباء بمعزل عما يعتمل فى بلادهم من ثورات ، بل من المنتظر ان يتحملوا مسؤوليتهم بكل شجاعة فى هذه الثورات ، وأن يغذوا مسيرتها بأفكارهم المدروسة الناضجة ، وأن يوجهوها وجهة تتناسب والاتجاه العقائدى العام الذى تعتنقه بلادنا، وتعمل من جراء تأصيله فى سياستنا الوطنية . فما رسالة الأديب بالضبط فى هذه المرحلة الحاسمة ؟

أول ما يمكن أن يقال فى هذه الرسالة انها شاقة ، وأنها تتطلب من الأديب ايمانا صادقا بالقضايا التى يعالجها ، وروحا مثالية ، وشجاعة أدبية فى اتخاذ المواقف ، وفى الدفاع عنها ، وعمقا فى التفكير يمكنه من مواجهة المشاكل والقضايا بنجاح وقوة . وبقدر ما تتوفر هذه الشروط فى الأديب بقدر ما يوفق هذا الاديب فى رسالته . ويعد انعدام هذه الشروط او بعضها فى الأديب من الأسباب التى تكشفت عما نطلق عليه « الازمة الثقافية » ، اذ لا يتنازع اثنان فى أن ثقافتنا الوطنية تعانى أزمة حادة حقا . ويكفى للتأكد من هذه الحقيقة المؤلمة أن نفتح معظم صحفنا ومجلاتنا ، وأن نقرأ ما تنشره عن ثوراتنا الثلاث قراءة متأنية ، فقلما نعثر على مقال أو قصة أو قصيدة تقول عن هذه الثورات أكثر مما يقول رجل الشارع . ومن المؤكد أن هذه السطحية البارزة فى معظم ما تنشره صحافتنا راجعة الى انعدام العلاقة النفسية بين أدبائنا وبين القضايا التى يعالجونها ، هذه العلاقة التى ينبغى أن تكون الأساس الاول الذى تقوم عليه شخصية الاديب الحق ، وتجعل من انتاجه لذلك انتاجا قياديا فى هذه المرحلة من حياتنا .

ومما يحز فى النفوس أن أدباءنا لا يتفاعلون مع مجتمعهم بطريقة ايجابية ، فيكتفون غالبا بالتعبير عن مسيرته من الخارج، الأمر الذى يجعل أعمالهم الأدبية تبدو وكأنها كتبت من طرف أجانب لايهمهم من أمر هذا المجتمع لانجاحه ولا فشله . أليس من اللافت للنظر أن نرى بلادنا تخوض ثورة صناعية ضخمة ، وتبدأ فى تطبيق ثورة زراعية تبشر بمستقبل زاهر ، ولا نرى الثورة الثقافية ، وهى الثورة الثالثة التى تعنى الأديب بالدرجة الاولى ، تخرج من مكاتب المسؤولين ، ومن المؤسسات التربوية المختلفة ؟ ان هذه الظاهرة لتلفت النظر حقا، لأن ثورة ثقافية لا تحس آثارها فى الشارع ، وفى المزرعة ، وفى الصحف والمجلات ، وفى الانتاج الواعى المتنوع ، لا تعد من الثورات فى شيء ، وانما هى كلمة تقال فى المناسبات ، ويستغلها العاجزون منا عن التفكير المثمر . وليس هذا منى ضربا من التشاؤم أبدا ، بل هو تعبير عن واقع سيىء يحسه كل أديب مخلص ويشعر به كل مواطن واع .

ان كل ثورة من الثورات الثلاث تجند طاقات بشرية هائلة ، وترصد لها أموال طائلة ضخمة . وليس من أحد يستطيع التعبير عن هذه الطاقات وهذه الأموال والخبرات غير الاديب . وانما

سلاحه الأول الذى ينبغى أن يتحلى به للقيام بهذه الرسالة هو الاتصال النفسى المباشر بقضايا هذه الثورات كما سلف ، واخلاصه فى التعبير عن هذا الاتصال تعبيرا فنيا مناسبا • وبدون هذا الاتصال لا يتسنى للأديب أن يسجل احداث هذه الثورات ومواقفها الا تسجيلا فوتوغرافيا لا يصل الى القلوب • واعتقد أن الكثير مما نقرأه عن الثورتين الصناعية والزراعية لا يعدو هذا النوع من الكتابة ، النوع الذى يكتفى فيه صاحبه بلوك الشعارات ، وباستخدام الخطب الرسمية فى ملء الأوراق والاعمدة • ولعل هذا من الاسباب التى جعلت شعبنا لا يقرا بحماس ما يظهر فى صحافتنا كل يوم ، ويستغنى عن القراءة بالاستماع الى الأخبار والتعليقات التى تقدمها الاذاعة والتلفزة الوطنية •

وعندما ما نتساءل عن علة عجز ادبائنا عن التعبير عما يعتمل فى مجتمعنا من ثورة ، ويجرى فى بلادنا من حركة ، لا نستطيع الا ان نرد ذلك الى ضعف ايمان هؤلاء الأدباء بما تشهد بلادنا من تغيير • وينتج هذا الضعف عادة عن انفصال الأديب عن مجتمعه ، واكتفائه لذلك بملاحظة حياة مواطنيه من بعيد • وهو شيء يحدث غالبا لكل اديب اثر العزلة ، واتسم بالانانية وحب النفس • ولا اشترط فى الكاتب ان يعيش فى مزرعة ، أو معمل ، ليقوى ايمانه بالثورة الزراعية او الثورة الصناعية • وانما أرى أن من واجبه أن يخالط افراد شعبه بصدق ، وبنية التعرف الى مشاكلهم ومطامحهم ، وأن يحاول الوصول ولو بعقله وشعوره الى كوخ الفلاح الفقير الذى لا يجد ما يعول به نفسه وأولاده • ان هذه المخالطة الهادفة ، وهذا التفكير الجدى فى مشاكل الآخرين ، لمايعين الأديب على الاتصال نفسيا بالطبقة الكادحة من شعبه ، ومن ثم على القيام برسالته قياما مرضيا •

ان الايمان الناتج عن هذا الاتصال بمشاكل المجتمع هو الذى يضفى على كتابة الأديب حرارة ضرورية للأعمال الأدبية الناجحة • وليس من شرط الكاتب أن يكون ماركسيا ليؤمن بحق الضعفاء فى الحيا ، الكريمة ، بل يكفيه أن يكون انسانى القلب والعاطفة والعقل ، فان هذه الانسانية هى التى تجعله يحس بما يحس به الآخرون ، وتتالم لما يتالمون له ، ويتمنى لهم ما يتمناه لنفسه وذويه من حياة كريمة ، ومستقبل زاهر • واذا افتقد الكاتب هذه الانسانية فقد فقد كل دافع للاتصال بالآخرين اتصال تعاطف ، وامسى المواطن فى نظره شيئا لا يستاهل الا لتفات اليه ، فضلا عن الاهتمام به •

وهذا الايمان بحق الآخرين فى الحياة الكريمة هو الذى يخلق فى الأديب روحا مثالية ، روحا تدفعه الى العمل من اجل مواطنيه ، والى السعى فى سبيل تحقيق أهداف انسانية سامية ، فتعود الكتابة بالنسبة اليه شيئا تمليه العقيدة بقدر ما تفرضه حياة مواطنيه • فاذا امتلأ قلب الأديب بحق كل انسان فى العيش الكريم ، ونشأت لديه هذه الروح المثالية ، استطاع أن يقف موقف الدفاع من قضايا هؤلاء المواطنين ، واعتبر نفسه ليس ممثلا لحق شعبه فحسب ، بل منافحا عن قضايا تهمه هو بالدرجة الأولى • ومن هنا تكون كتابته قطعة من نفسه ، وبالتالى قادرة على التاثير فى الآخرين • وهذا التاثير الايجابى هو الذى نطلبه من كل عمل ادبى خليق بهذا الاسم • وهو ما نفتقده بكل تاكيد فى جل الأعمال الادبية التى نقراها • وليس لك الا ان تقرا ما تطالعنا به

الصحف لتعلم انـه لا علاقـة بين معظم المقـالات والبحوث وبين نفوس أصحابها ، وانها لـم تكتب فى الواقع الا لقتل الوقـتوتزجية الفراغ ٠

فايمان الكاتب بمـا يعالجه مـن قضايـا ، واخلاصه فيما يتخذه من مواقف ، همـا الشرطان الأساسيان لقيام هذا الكاتب برسالته خير قيـام ، وذلك لأنه من حق الاديب الا يكتفى بتلخيص اقوال الآخرين ، ولا بتبنى مـواقف المسؤولين بصـورة سطحية ، بـل عليه أن يعمـق هذه المواقف ، وأن يشكـل منهـا اتجـاها يجتمع حولـه المواطنون ، وعقيدة تدفعهم الى النشـاط والتضحيـة ٠ وهذا لا يكون بطبيعة الحال إلا اذا وعى الأديب رسالته ، وعرف المـراد من الكتابـة والنظم ٠ ولا أعتقد ان الكثير من كتابنـا يدركون هذه الرسالـة الخالدة حـق ادراكها ، ويعرفون بالضبط مـا ينتظر منهم الفـن والمجتمع ، فليس مـن هـم الأديب أن يمس الاشياء مساخفيفا ، ولا أن يكتفى بالعرض المبسط الموجز ، لأن ذلك شىء يستطيعه كل من تعاطى فن الكتابة بشكل مـن الأشكال ٠ ولكن مـن همـه أن يتخذ موقفا من القضايا التى يعالجها ، وأن يعبـر عن هذا الموقف فى قـوة وحرارة ٠ وهذا لا يمكـن الا بالايمان بهذه القضايا ، وبعمق التفكير فيهـا ٠ ولعـل أول مرحلة من مـراحل العمـل الهادف هى التفكير العميق الذى قد يطول الساعات والأيـام ، وقد يطو لالاسابيع والشهور ٠ فليس فن الكتابـة أن يحمل الواحد منا يراعه ، ويسطر به على ورقة أو أوراق ما يبدو له لأول وهلـة ، بل هو أن يفكـر قبل كل شىء فى موضوعه ، وأن يزن الأمور بميزان القلب والعقل ، وأن يرى مدى اتفاقـه أو اختلافـه مع الآخرين ، وأن يعرف انه يكتب للأجيال المتعاقبة التى ستحكم عليه من خلال ما يقول ٠ كل هذا يجب أن يفعله الكاتب الهادف قبل أن يعمد الى الورقـة والقلم ٠ وهذا هو الذى يضفى ميزات خاصة على الأعمال الادبية الخالدة ٠ وبهذا فقط ، وبمراعـاة متطلبات الفن ، يستطيع الكاتب أن يزعم انه ابدع عملا ادبيا خالدا ، عملا ينتسب اليه ، ويعرف به ٠ ولا أظن اننـا نختلف ، بعد تحديد مهمـة الكـاتب بهذا الشكـل ، فى وسـم معظم انتاجنـا الأدبـى بالضعف ، وبالسطحية ٠ والشىء المـؤسف حقـا هو أن نـرى هذه السطحية طابعـا لجميع الأنواع الادبية ، للقصة والقصيدة والمقالة الصحفية ٠ فاذا كـان الكاتب الصحفى يكتفى عمومـا بـالعرض والجمع والتنويه، فان القصاص والشاعر لايزيدان فى غـالـب الأحيـان ، علـى مس القضـايـا الإجتماعية مسا خفيفـا ، بحيث لا يهتمان بوصف الشخصيـات ، ولا بتحديد المـواقف ، بقـدر مـا يهتمان بسرد الأحداث الخارجية التى لا تشكل فى الواقع اكثر من اطار للموضوع ٠

لقـد قلـت ان السبب الأسـاسى فى هـذه السطحية البـارزة فى معظم انتاجنـا هـو ضعف ايماننـا بالقضايا التى نعالجهـا ، وبالتالى عـدم اتصالنا بهذه القضايا اتصالا مباشرا وهادفـا ، واضيف اليه هنا سببا ثانيا هو التسرع فى العمل ، وعدم التثبت فيمـا نـرى ونقـول ٠ فالقليل مـن ادبائنا يأخذ مـن الوقت مـا يكفيـه لتجويد العمل الأدبى ، وتقويم الآراء والمواقف ٠ وهذا التسـرع هو الذى يجعل بعض ادبائنا يتخذون أحيانا مواقف ادبية وفنية اقـل مـا توصف بـه أنها لا تـدل على شىء ، وأنهـا انمـا اتخذت مجاملة لصديق ، أو نكايـة فى خصم ٠ والمـؤسف فى الأمـر أن هـذه المـواقف وهذه الآراء تقـرأ مـن طرف ناشئتنا ، وتقلد ، وتوخذ على انها قضايا مسلم بها ، الأمـر

الذى يشكل خطرا أكيدا على مستقبل الثقافة فى بلادنا بصفة عامة ، وعلى تكوين هذه الناشئة بصفة خاصة ٠

ومن الشروط التى أراها ضرورية للانتاج الرفيع ما سميته فى بداية هذا البحث « بالشجاعة الأدبية » ، وأعنى بها هذه الشجاعة التى تفرض على الاديب اتجاها عقائديا معينا ، وتمكنه من الاعلان عن هذا الاتجاه فى صراحة ودون لف ولادوران ٠ وبهذه الشجاعة وحدها يفرق بين اديب ملتزم ، وآخر غير ملتزم ، اذ ان الالتزام فى الفن لا يعنى مجرد اتخاذ موقف ما فحسب ، بل يعنى علاوة على ذلك ان ياتى هذا الموقف معبرا عن وجهة نظر الأديب ازاء نفسه ، وازاء مشاكل المجتمع الذى يعيش فيه ٠ وليس بين تعبير الأديب عن وجهة نظره وبين ما ينبغى له من التجاوب مع محيطه أى تناقض ، بل بينها تكامل يعد شرطا أساسيا فى الأدب الرفيع ، لان المواقف الذاتية المحضة امست اليوم لا ترضى النقد الحديث ، كما أن المواقف الاجتماعية التى لا تعبر عن نفس صاحبها بصدق وعمق مواقف مزيفة لا تسمو الى درجة الأدب الانسانى الخالد ٠ فنحن اذا طالبنا الأديب بالتعبير عن نفسه ، وعما تمده به هذه النفس من مواقف واحاسيس ، لا نريد من هذا الأديب ان ينزوى فى عالمه الذاتى الخاص ، ولا أن يمنع حواسه ومشاعره من الاتصال بمحيطه اتصالا مباشرا ومفيدا ٠ على انه حتى لوأردنا ذلك ما افلحنا ، لأن الاديب ، وهو انسان عادى ، ليس الا عضوا كاملا فى مجتمعه الذى يؤثر فيه ، ويتأثر به ٠

فالأدب الرفيع يقوم اذن على عنصرين اثنين : عنصر شخصى يمثل الأديب ومشاعره ، وعنصر عام يشترك فيه هذا الأديب مع أفراد المجتمع ٠ ولاشتراط العنصر الشخصى فى الأدب الرفيع يحتاج الأديب الى شجاعة ادبية خاصة يعبر بها عن هذا العنصر ، وهو يحتاج اليها فى القضايا الادبية الخالصة ، كما يحتاج اليها فى القضايا الاجتماعية العامة ٠ ففى قضايا الأدب والفن يستحيل على الأديب مخالفة الشائع دون هذه الشجاعة ، وفى القضايا الاجتماعية هو فى حاجة اليها لتناول الأشياء بطريقة خاصة ، ولتعميق الأفكار والمواقف المتداولة وتجديدها ٠ على أن فى مجتمعنا مساوىء ينبغى التنبيه اليها فى قوة وصرامة ، لأن فى استطاعة هذه المساوىء اذا لم تعالج أن تقف فى طريق مسيرتنا ، وأن تعطل تطورنا فى الأمد البعيد ٠ ولا أعتقد أن ثورتنا فى غنى عن النقد البناء ، بل أعتقد جازما أن حاجتها الى هذا النقد أكبر من حاجتها الى التنويه المزيف ٠ اجل ان فى ثورتنا جوانب ايجابية تستحق التقدير، وتستوجب تهنئة المسؤولين القائمين عليها ٠ غير ان هذه الجوانب الايجابية العديدة لا ينبغى ان تنسينا الجوانب السلبية ، بل من حق هذه الجوانب أن تدفعنا الى الكشف عنها ، وعلاجها فى أسرع وقت ، وباسلوب ثورى ٠ وهذه مهمة تحتاج الى شجاعة ادبية عالية كما اسلفت ، وهو ما افتقدناه الى اليوم فى كتاباتنا ٠ وقد آن الأوان لان نتدارك هذا النقص فى ثورتنا الثقافية ٠

هذا بخصوص الكتابة الادبية بصفة عامة ، أما فيما يخص كتابة القصة ونظم الشعر فالشجاعة الادبية المطلوبة هنا تختلف قليلا عنها كما وصفناها فيما سلف ٠ فالقصاص والشاعر مطالبان كذلك بالنقد البناء فى آثارهما ، بيد أن نقدهما يحتاج الى شجاعة ادبية فى البحث

والدراسة اكثر مما يحتاج اليها فى التعبير وابداء الرأى · لأن ما تفتقده القصة الجزائرية والشعر الجزائرى الحديث عموما هو الاحاطة بالموضوع ، والغوص على السمات المميزة ، ومحاولة الابداع فى العمل · وهذه شجاعة تعنى الاديب وموضوعه اكثر مما تعنى المجتمع او افراد المجتمع ، فعلى القصاص والشاعر الجزائريين الا يكتفيا بالعرض والتكديس ، بل عليهما أن يدرسا موضوعهما دراسة عميقة متأنية ، وأن يحاولا تقديم نماذج بشرية ايجابية صالحة لأن تكون أسوة حسنة للمواطن الجزائرى · ومما لا شك فيه أن هذا عمل يتطلب أناة وخبرة ونشاطا متصلا · وهذا ما نراه نادرا فيما نشر بعد الثورة الجزائرية ، فالكثير من قصاصينا وشعرائنا يهتمون بالحجم والعدد اكثر مما يهتمون بالكيف والجودة · وهذا ما جعل نهضتنا الثقافية متأرجحة بين الغناء والحياة ، وجعل مثقفينا يقرأون قليلا فى البلدان العربية الشقيقة ·

هذه هى حالة الثقافة فى بلادنا ، وهذا هو موقف أدبائنا منها · ولن تلحق ثقافتنا بشقيقاتها فى البلدان العربية الا اذا امتلك الأديب القدرة على تحمل مسؤوليته كاملة فى مسيرتنا الثورية · وهذا لا يمكنه أن يقوم به الا اذا تحلى بالايمان والروح ، وتعاطى البحث والدراسة بجد واستمرار ، واتخذ موقفا واضحا من شؤون الحياة والمجتمع فى شجاعة والتزام ·



جان بول سارتر يتحدث عن :

الإصلاح والعنف والثورة

د. هشام الصفدي

استاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

في هذا الحديث الذي اجراه محررو مجلة « دير شبيغل » الالمانية (I) مع الفيلسوف سارتر ، وكان بعنـــوان « الجبهة الشعبية ليست بافضل من الديغوليين » ، تحدث سارتر قبيل الانتخابات الفرنسية التي جرت في شهر مارس 1973 ، فعبر عن رايه في عدد من المواضـــيع الهامة . ومن ابرز هـــذه المواضيع : الآثار المباشرة والبعيـــدة للاضطرابات التي هزت فرنسا عام 1968 وادت الى استقالة الجنرال ديغول ، موقف سارتر من الاحزاب اليسارية الفرنسية والشيوعية ، واسباب انقسام الحركات الثورية اليســـارية ، العنف والارهاب ،

I) مجلة « دير شـبيغل » العدد 7 ، I2 فيفرى 1973 ، ص 84 ـ 98 .

والصراع العربى ـ الاسرائيلى .

يصدق عن سارتر ما قالته الكاتبة ايريس موردوخ : « ان تفهم شيئا عن سارتر ، معناه ان تفهم شيئا هاما عن عصرنا الراهن » . اذ يبدو فى اجابات سارتر على المواضيع الآنفة الذكر شيء من التارجح والتناقض : مثل مهاجمته للشيوعيين او مصادقتهم ، الاعتدال ، والتطرف ، وهى ظواهر تكررت فى احداث عديدة كانت اضطرابات عام 1968 ثم انتخابات الجمعية الفرنسية عام 1973 بعض حلقاتها . ويقول بعض المفكرين ان التارجح فى موقف سارتر يكمن وراءه عنصر استمرار واطراد هو الدفاع عن الاشتراكية ، وكراهية البورجوازية ... وكما تقول رفيقة سارتر سيمون دى بوفوار فى كتابها « قـوة الاشياء » : « ... اما الآن فان سارتر يرى فى (الاشتراكية) خط الانسانية الوحيـد ، وشرط اكتمالها الخاص فى وقت واحـد » .

يعود سارتر مجددا الى اسلوبه المتارجح عندما يعقد المقارنة بين اليمين الراسمالى المحافظ من جهة ـ وبين اليسار الاشتراكى ـ الشيوعى فى فرنسا من جهة اخرى . فيعبر عن راى متطرف يتلخص فى انعدام الفوارق بين الطرفين ، وينادى بضرورة محـاربتهما على السـواء : لأن الديغوليين يمكن شراؤهم » ، ولان الجبهة الاشتراكية ـ الشيوعية تساهم حسب رايه فى تدعيم النظام الراسمالى . ويخلص سارتر الى القول بان الشيوعيين الفرنسيين لا يمثلون اليسار الثورى ، وان الثورة الاجتماعية التى تتم عن طريق الانتخابات التقليـدية ليست بثورة حقيقية . ويبشر مقدما بان نظام الحكم اليسارى الجديد فى فرنسا قد يكون اسـوا من النظام الديغولى ..!! ويبدو الآن وكان سارتر اليسارى المتطرف يفضل بقاء نظام الحكم المحافظ فى فرنسا ـ وهذا ما حققته الانتخابات الاخيرة . فهو يرفض الاصلاح والحلول الوسطى ـ التى تستهدف رفع نسبة الانتاج دون ان تهتم بتجديد نسبة الارباح ـ ولا يقبل بديلا عن تحقيق تغير جذرى ثورى فى كيان المجتمع الاوروبى الصناعى . ويتطلع الى التجربة الصينية باعتبارها تجـربة رائدة للثورتين الاجتماعية والثقافية . كذلك يهاجم سارتـر نقابات العمال ، والاحزاب التقليدية . وينبذ فكرة (النخبة) من الثوريين المحترفين الذين يعيشـون بمعزل عن الجماهير ليصيغوا لها افكارا ، مثلما يهاجم المفكر الكلاسيكى ويدعوه لافساح المكان للمفكر العصرى . اما تحقيق الحرية للانسـان فسوف يتم عن طريق العنف الجماعى لا الفردى . اخيرا لا ينسى سـارتر ان يغمز من مثله الاعلى « الصينى » منذ ان تحولت الصين الى دولة عظمى ، فخطت برايه خطو الاتحاد السوفياتى فى ممارسة السياسة الوطنية على حساب القضية الثورية .

يلاحظ المتتبع لموقف سـارتر من القضية العربية حدوث تحول فى تفكيره يطرا فجاة بوضوح عقب زيارته لاسرائيل عام 1967 ، ثم ما اعقب ذلك : من بيـان اصدره مع مفـكرين آخرين بصدد ازمة الملاحة فى خليج العقبة . انحـاز فيه الى الجانب الاسرائيلى وتخلى عن سياسة الحياد السابقة المتعاطفة مع قضية اللاجئين الفلسطينيين . هذا التحول يكاد يسير متوازيا مع ما طرا على سارتر عام 1968 عقب اضطرابات الطلاب فى فرنسا ، ودخول القوات السوفياتية الى تشـيكوسلوفاكيا . فيتهم الحزب الشيوعى الفرنسى بخيانة ثورة الطلاب المذكورة ، ويدين التدخل السوفياتى . ويلوح كان هنالك ترابطا وتبادلا فى التاثير فى الموقفين لدى سارتر . وهى مواقف متنـاقضة حقا . وفى حديثه مع محررى مجلة دير شبيغل يعطى الحق للفدائيين الفلسطينيين فى الدفاع عن قضيتهم ، مثلما فعلوا فى مونيخ ـ ويدين البوليس الالمانى والمسؤولين الاسرائيليين بالتسبب فى قتل الرهائن ـ ولكنه يسـمح للاسرائيليين فى الوقت ذاته فى مقاومة (الارهاب) ـ اى مقاومة الحق الذى اقره للفلسطينيين ـ كيفما امكنهم ذلك .

وبكلمات اخرى يجمع سارتر بين الضحية والجلاد على صعيد واحد ، لربما لانه يؤمن بان الصراع اسـاسى لكل العلاقات البشرية . الا ان سارتر كان قد عبر سابقا عن شعور مختلف فى موقف مماثل ، وذلك ابان الثورة الجزائرية . اذ خاطب مواطنيه الفرنسيين الذين خرست اصواتهم عن ادانة المجازر الفرنسية فى الجزائر قائلا : « اذا كانت خمس عشرة سنـة كافية لتحويل الضـحايا (1) الى جلادين (2) ، فذلك لان الظرف هو وحده الذى يقرر : فحسب الظرف يستطيع اى كان ، وفى اى وقت ان يصبح ضحية او جلادا . وفى اثنـاء الحرب عندما كانت الاذاعات الانكليزية تتحدث عن مذبحـة « اورادور » كنا ننظر الجنـود الالمان الذين يتنزهون فى الشوارع نظرة بريئة . وكنا نقول احيانا : انهم ، مع ذلك رجال يشبهوننا ، فكيف يـكون باستطـاعتهم ان يفعلوا ما فعلوا ؟ .. » .(3) . ومن الغريب حقا ان الظرف وحده : اى دعم الامبريالية للصهيونية العالمية ـ هو الذى حـول اليهود الاوروبيين : ضحايا النازية بالامس ـ الى جلادين لا للشعب الفلسطينى فحسب ، بل لكافة الشعب العربى اليوم . ترى الم يخطر ببال الفيلسوف سارتر ان يطرح على الاسرائيليين خاصة وعلى شعوب الغرب عامة ـ وهو يتجول فى شـوارع القدس ـ نفس السؤال الذى كان وجهه للفرنسيين من قبل ؟ وكيف يمكن لثـورى متطرف فى ثوريتـه وفى نقمتـه على الامبريالية ـ ان يتخلى عن المنطق والتاريخ مؤقتا ـ فيتناسى التحالف الوثيـق المعقود بين الامبريالية وبين جلادى الشعب العربى الجدد ؟ ايدينهم فى فيتنام كمجرمى حرب ، ويتساهم فى فلسطين !

اذا لم نخطىء الظن بثورة سارتر ، يخيل الينا احيـانا ، وكانه يشير بكلماته الى الطريق الوحيد ـ والذى سلكته من قبل الثورة الجزائرية : « ان الشقاء فى ظل الحراب الاسرائيلية لا تنهيه الا الحراب والا الدماء العربية » .

---

1) يقصد بالضحية الفرنسيين أثناء الاحتلال النازى لفرنسا

2) الجلادون الجـدد هم الجيش الفرنسى والمنظمـة السرية الذين يحاربون الشعب الجزائرى

3) راجع : سارتر « عارنا فى الجزائر » ص : 47

المحرر : صرح الجنرال ديغول في عام الثورة 1968 بأن الامور لن تكون في المستقبل مثلما كانت عليه في السابق • ولقد عبرت يا سيد سارتر انذاك عن قناعة مماثلة في حديث صحفي لمجلتنا • ومما لا ريب فيه اليوم ان النظام القديم للمجتمع ما زال قائما دون أن يمس • فهل خاب أملك ؟

سارتر : قطعا ، فنتيجة الانتخابات التي تلت شهر مايو من عام 1968 تعطى في الحقيقة الانطباع، كما لو أن نظام المجتمع ما زال نفسه وكما كان عليه في السابق • الا ان هذا النظام قد تزعزع في الواقع •

المحرر : الى أى مدى ؟

سارتر : منذ ذلك الحين توجد حركة كبيرة تنادى بشرعية نظام مناهض لتدرج المراتب ، وهى حركة تدعو للحرية الكاملة. هذه الحرية لا أعنيها بالمدلول الفوضوى — حركة تدعو مثلا لحرية النساء ، أو لحرية الرجال المنحرفين جنسيا • فعندما يقوم موظف كبير مثل جابريل أرنادا بكشف النقاب عن فضيحة كبيرة ، ندرك ان هنالك شيئا جديدا في المجتمع يستحق التسجيل.

المحرر : الامثلة التى تقدمها تمس فقط مظاهر هامشية للمجتمع •

سارتر : بامكانك أن تسمى ذلك مظاهر هامشية • غير انك عندما تأخذ الطبقة العاملة على سبيل المثال ، فانك ستتحقق من ان الاضرابات الطويلة تختلف عما كانت عليه في السابق •

وفى الحقيقة يدور الامر فى هذه الاضرابات ايضا حول المطالبة بالاجور ، ولكنها غدت حركة مستقلة •

المحرر : الا تحاول ان تتوصل بواسطة امثلة منعزلة الى استنتاجات عامة ؟

سارتر : لا اعتقد بان المرء يستطيع القول بان الاضرابات الراهنة التى يقوم فيها العمال المضربون مرارا بحجز أرباب العمل بأنها امثلة منعزلة • من المؤكد بان هذه الامور تشكل حالات متفرقة ، غير انه يجب علينا ان نسجل وجود غضب موجه لا ضد الرأسماليين والمدراء فحسب، ولكنه وجه مجددا ايضا ضد من يسمون «بصغار الرؤساء» ، وضد رؤساء الورشات ، وضد معلمى العمال الذين يتولون جميعا حث العمال ودفعهم الى المزيد من السرعة فى العمل . فيقوم العمال باخضاع هؤلاء الناس واجبارهم مثلا على أن يمارسوا هم بانفسهم العمل فى نطاق « البساط الدائر «Fliessband» ، او انهم يحجزون حريتهم • وهذا يرى ارادة معادية لتدرج المراتب HIERARCHIE ذات وقع ملحوظ اذ ان الكراهية التى توجه ضد كل هؤلاء الناس ليست موجهة ضدهم باعتبارهم اشخاصا ، بل باعتبارهم ممثلين « لتدرج المراتب » ضمن المعمل • وهذا هام جدا •

المحرر : هل هنالك فرق كبير ، فيما اذا كان العمال يحتجون بشدة ضد الرؤساء الكبار ، أم ضد الرؤساء الصغار ؟

سارتر : أرى ان الموضوع يدور حول اجزاء من ظاهرة واحدة ، نصفها بانها ثورة عقائدية · وعلى المرء أن لا ينسى ما كان لدى العمال فى السابق من خوف سحرى تجاه هذه السلطات · وعلى كل نجد الآن انه عندما يسجن رئيس صغير ، أو رب عمل ، فانه لا يعود فى علاقاته مع العمال ـ بعد هذه الحادثة ـ نفس ما كان عليه من قبل · اذ انه لم يعد يمتلك ذلك الشيء السحرى أو المقدس الذى كان يمتلكه فى السابق · والعمال لا يرون فى العادة رب العمل كثيرا · ولكنهم ما ان يقبضوا عليه مرة ، ويجبروه على البقاء فى المعمل ، وعلى تناول ما يقدموه له من طعام ، حتى يدركون انذاك بان ذلك الشخص بشر مثل أى بشر آخر ، بل وانه انسان نزع منه سلاحه ·

المحرر : نلاحظ أن عدد الثورات بالنسبة لعدد رؤساء العمل ـ الكبار منهم ، أو الصغار بصفة خاصة ـ ضئيل جدا حقا ·

سارتر : لا يوجد الكثير من الثورات ولكن هنالك البعض منها . والملاحظ ان فى كل مرة يتطور فيها الخلاف الى صراع ، يكون الصراع قاسيا جدا ·

المحرر : ومع ذلك ، أليس كل هذا قليل جدا تجاه الآمال الكبرى التى تفتحت فى شهر ماى عام 1968 ؟

سارتر : لا يجوز لك أن تنسى ، بأن الحركة الجديدة ابتدأت بهزيمة · واذا نظرنا الى الامر بشكل موضوعى ، فان شهر ماى عام 1968 كان هزيمة · لقد قمنا بانتفاضة ، وعندها سمح لنا ان نقترع . الا ان الحكام السابقين ما لبثوا ان عادوا من جديد للقبض على الأعنة · وهذا كان بالطبع هزيمة · ومع ذلك لا تنسى بأن انتفاضة ماى قادت الى استقالة ديغول ـ حتى ولو انه لم يسقط مباشرة بفعل القلاقل نفسها ·

المحرر : نرى بان الراسمالية تزدهر ، والارباح والاجور تتصاعد ، ونقابات العمال اندمجت كلية فى النظام الراسمالى ـ وهكذا لم يبق شيء من الاحلام ·

سارتر : حقيقى للاسف أن النقابات عادت الى امساك زمام العمال بيدها · ومع ذلك فلست أرى بان نقابات العمال كان لها دور كبير فى الحركة المناهضة للسلطة · وفى البرنامج الانتخابى للاحزاب اليسارية يجرى الادعاء بأن النقابات تمثل الطبقة العاملة ولكن ···

المحرر : الا تصدق هذا الادعاء ؟

سارتر : لا ·

المحرر : ما هو الدور الذى يمكن للنقابات بعد ان تلعبه حسب رأيك ؟

سارتر : لاريب فى ان النقابات مفيدة جدا للعمال ، الا ان النقابات تميل فى حالة الاضراب الى الحلول الوسطى غالبا · والنقابات تمارس الاصلاح وتبقى شريك تحدث دائم للطبقة الشعبية · أما عقلية العمال وصغار المواطنين فانها تتغير · فالكثير من الاضرابات تبدأ اليوم

بدون النقابات ، ثم تقوم النقابات بعد ذلك بكثير بتبني العمل ٠

المحرر : لقاء أى شيء تريد استبدال النقابات؟ هل لقاء منظمات أخرى ؟

سارتر : لا اطلاقا ٠

المحرر : اذا هل تريد استبدالها بفرق الكفاح ؟

سارتر : أريد استبدالها بذلك الشيء الذى يسميه المرء « الديمقراطية المباشرة » وذلك فى الحقيقة فى مراكز العمل وفى كافة الاجتماعات التى يلتقى فيها اناس تجمعهم اهتمامات متماثلة٠

الديمقراطية المباشرة فى العمل والسياسة

المحرر : تعنون اذا مجالس للعمال ٠

سارتر : نعم ٠

المحرر : هل هى مجالس عمال كتلك التى قامت فى المانيا مباشرة بعد الحرب العالمية الاولى؟

سارتر : نعم ، او كتلك التى قامت فى روسيا بعد عام 1905 ٠ فقبل عام 1917 وجد فى روسيا مجالس سوفيت حقيقية . وكانت انذاك اجتماعات يمكن للمرء أن يصفها بأنها «ديمقراطية مباشرة» ٠ وفيما بعد حل محلها ممثلون للسلطة ، أى من الحزب ٠

المحرر : وكما فشلت التجربة الروسية ، فشلت كافة التجارب من هذا النوع حتى الآن ٠

سارتر : نعم ٠ أعرف ذلك ٠

المحرر : كيف تعتقد رغم ذلك ، بان اسلوب الديمقراطية المباشرة يمكنه ان يعمل ؟

سارتر : انا افترض حتى ، بان الديمقراطية المباشرة يمكن تطبيقها لا فى ميدان العمل فحسب ، بل وفى مجالات اخرى ايضا : فى السياسة الخارجية والداخلية مثلا ٠ ولا تنسى بان الامر يدور فى هذه الحالة حول ظاهرة سوف يعين موت الدولة على تحقيقها ٠

المحرر : لا يلحظ المرء وفرة فى الظواهر التى تشير الى موت الدولة

سارتر : تقول لى : « بان المرء لا يعثر على ظواهر كافية » تشير الى موت الدولة ٠ ولكنى أوضح لك بأنه توجد تلك الظواهر ٠ كذلك توجد أمثلة تشير الى ان الديمقراطية يمكنها ان تفلح فى عملها دون الحاجة الى وجود مندوبين عن السلطة ٠ وفى كثير من المعامل الفرنسية تعمل اليوم لجان كفاح «Kampfausschuesse» فى الاحوال التى لا يوجد فيها اضرابات ٠ ولكن ما ان ينشب اضراب فى أحد المعامل ، حتى يحل محل لجنة الكفاح هيئة للاضراب — Streik Komitée ٠ أو ان لجنة الكفاح تحول نفسها الى هيئة اضراب ٠ وهكذا نرى حدوث تجديد مستمر ينطلق من القاعدة ٠

المحرر : كما يرينا التاريخ . قامت الحركات الثورية اليسارية بالانقسام على نفسها ٠ وهذا الشيء لم يحدث فى فرنسا فحسب.لذلك لا عجب

ان لا يوجد اليوم لهذه الحركات تأثير يذكر في أي بقعة من بقاع العالم . ألا يثبط ذلك من عزمك ؟

سارتر : كلا . هذا الوضع لا يثبط العزيمة ، بل انه الموقف الراهن الذي وصلت اليه الامور .

المحرر : وضع الاشتراكيون والشيوعيون في فرنسا برنامجا مشتركا للحكم سيخوضون الانتخابات على هديه . وبذلك سيكون في فرنسا لاول مرة في فترة ما بعد الحرب بديل يساري للاغلبية المحافظة . أليست هذه الظاهرة أحفل بالمعاني من نشاط كافة الجماعات الثورية ؟

سارتر : لهذه الظاهرة مدلول معين ضمن اطار الاسلوب بالنسبة لنا . اذ يتوجب على المرء ان يحارب ضد كليهما ، أي ان يحارب ضد الرأسماليين كما وضد أحزاب الاشتراكيين والشيوعيين الذين يدعمون هذه الرأسمالية .

المحرر : سيكون امامك في هذه الحالة الكثير من الاعداء .

سارتر : وليكن ذلك . فمارشي Marchais رئيس الحزب الشيوعي يقول : « نحن نريد نظاما اجتماعيا اكثر عدالة ، دون ان نسبب الالم لأحد » . وهنا اسألك : أين يكمن الفارق هنا على سبيل المثال بينهم وبين الديغوليين الشعبيين ؟ في الواقع ليس ثمة من فارق .

المحرر : عندما وصلت الجبهة الشعبية الى الحكم في فرنسا عام 1936 ، أدى ذلك الى تعبئة الجماهير والى اضرابات عامة . هل يحتمل ان يتكرر شيء من هذا القبيل ؟

سارتر : يحتمل ان يستفيد الحزبان الاشتراكي والشيوعي من مثل هذه التعبئة الجماهيرية فقط ، ويفرضان عليها عقيدتهم . وفي هذه الحالة ستهدد حرية وتلقائية الجماهير فورا .

الثورة التي تتم عن طريق بطاقة الاقتراع ليست بثورة

المحرر : هل تريد القول بأن انهيار الديغولية «GAULISMUS» واقامة حكومة يسارية في فرنسا أمور لا تعني بالنسبة لك تحقيق أي تقدم ؟

سارتر : الشيوعيون والاشتراكيون ليسوا ممثلي اليسار . اما بالنسبة لنا فهنالك حتى من يقولون بأن نظام الحكم هذا لربما يكون اسوأ من النظام الديغولي .

المحرر : ألا تقيم فارقا على الاطلاق بين الديغوليين والشيوعيين ؟

سارتر : اذا نظرنا الى ذلك من الناحية الاجتماعية لوجدنا انالفارق ضئيل . واذا نظرنا اليهما من الناحية السياسية نجد ان الطرف الاول يمكن شراؤه ، واظن ان هذا الشيء أقل احتمالا بالنسبة للشيوعيين وللاشتراكيين . لذلك لربما تكون الحكومة اليسارية اكثر اخلاصا ، ولكن هذا ليس الحاسم في الامر .

المحرر : من المحتمل ان العمال ينظـرون الى الامر نظرة مختلفة عن نظرة الفلاسفة . ذلك ان برنامج الاحزاب اليسارية يتضمن على كل حـال سلسلة من النقاط ، يحارب ملايين العمـال من أجلها منذ أمد بعيد .

سارتر : تعنى بان العمـال لديهم مطـــالب محددة بدقة ، اكثر من تلك التى تجول فى رأس سارتر المشوش ؟

المحرر : هذا لم نقله .

سارتر : اجيبك على ملاحظتك بانهذه المطالب دقيقة ولكنها مبهمة . فهى قد أعيد تشـــكيلها وتحـــويلها من قبل النقابات بكل ما تحتـــويه النقابات من عناصر مصـــــنفة وفق مبدأ تدرج المراتب «Hierarchie» . وهنا أود ان أقول لك بأن الامر لا يدور حول افكار سارتر ، بل انه يدور حول افكار مناهضة للتـــــدرج فى المراتب ، والتى غدا لها اليوم مدلول اساسى .

المحرر : فى البرنامج المشترك الذى أعـدته الاحزاب اليسارية يرد على سبيل المثال العـزم على تأميم تسعة مشاريع خاصة . وهذا شىء ليس بالقليل .

سارتر : لا أعتقد بأن التأميم سوف يغير الشىء الكثير . فعندما يحافظ المرء على الكيان الرأسمالى ويقوم بتأميم المشاريع يحصـــل نتيجة ذلك على رأسمالية الـدولة . وانت تعلم حقا بأن احـــد المشاريع الفرنسية ، التى يقتل فيـها البوليس الخاص فى احدها عاملا ، هى مشروع مؤمم . من المؤكد ان البورجوازيين يشعرون بالقلق تجـاه الشيوعيين . ولكن هذا الشـــعور لا يتعدى أن يكون موقفا مراسميا Zeremonielle فالقلق أصبح شيئا كلاسيكيا .

المحرر : هل تعنى بأن القلق لا يســـتند على اسباب صحيحة ، نظرا لأن الحزب الشيوعى تخلى عن كل الاهداف الثورية ؟

سارتر : لا أقول بان الحزب الشيوعى قد تخلى الى الابد عن كل هدف ثورى ، غير ان هذا الحزب لا يرى فى المستقبل التاريخى القريب امكانيـة القيام بثورة . والثورة التى تتحقق عن طـريق بطاقات الاقتراع ليست بثورة .

المحرر : انت لا تعتقد بان الشيوعيين أفضل من الديغوليين.وقد اوصيت انت المواطنين بالامتناع عن التصويت فى الانتخابات التى ستجرى فى شهر مارس عـــام 1973 . كذلك كنت افصحت مقدما فى الحديث الـذى اجريته عـــام 1968 مع محررى مجلة شبيغل عن احتقارك « للرفاهيـــة الاشتراكية الديمقراطية » . ألا يستنتج من ذلك انك تتبع سياسةالحصول على كل شىء أو لا شىء ؟

سارتر : ولا بشكل .

الحزب الشيوعى ليس ثوريا

المحرر : فى الواقع أنت تقسم الناس والاحزاب والنقابات الى فئتين : ثوريين ،ومصلحين. ونلاحظ ان كل ما يقوم به المصلحون ـ حتى ولو كـــان

يستهدف تحقيق تقدم اجتماعي حقيقي ـ لا يلقى الموافقة من جان بول سارتر ، في حين ان كل ما يفعله الثوريون يكون جيدا في نظره ·

سارتر : أنت تعرض الامور بطريقة بسيطة نوعا ما ، وهذا لأني اعتقد بأن حزبا كالحزب الشيوعي ، يعلن عن نفسه بانه ثوري ، وهو في الحقيقة ليس بثوري ·

المحرر : ما رأيك في الاشتراكيين أحلاف الشيوعيين ، ما رأيك مثلا في فرانسوا ميتران ؟

سارتر : هذا ما لا اود التصريح به ·

المحرر : أي دور سيلعبه ميتران حسب رأيك فيما اذا نجحت الجبهة الشعبية في الوصول الى الحكم ؟

سارتر : لو أن الامر يتعلق ببلد من بلدان المعسكر الشرقي ، لامكنني ان اتصور بان ميتران سوف يشنق ، أو أنه سيلقى به من نافذة في مدينة براغ · ولكن لن يحدث شيء من هذا القبيل هنا في فرنسا حسبما اعتقد · فعندنا في فرنسا يحترم الشيوعيون المواثيق التي يعقدونها ·

المحرر : لا يمكن حتى للذي يحتقر الاتجاه الاصلاحي الاشتراكي ـ الديمقراطي أن ينكر بان التقدم الاجتماعي والانعتاق السياسي قد تم قبل كل شيء بفضل الاشتراكيين ـ الديمقراطيين ، وان انتصار المصلح ويلي براندت مثلا قد غير المناخ السياسي في جمهورية المانيا الفيدرالية ·

سارتر : من المؤكد ان هذا شيء هام ، ولكن يشترط فيه ان يستخدم المرء هذا الانتصار لكي يقوم بتحقيق شيء ما ·

المحرر : وهذا يعني ؟

سارتر : بعد زياراتي المتكررة لالمانيا يتولد لدى الانطباع بانه لا توجد الآن هناك رغبة كبيرة جدا نحو التغيير · وهذه الرغبة لا توجد حتى لدى المثقفين · ويمكن القول بوضوح انه لا يوجد في المانيا الغربية تيار ثوري قوي · ولكن هناك قوى «Bader-Meinhof» Kraefte فيها تلوح لى ذات اهمية مثل جماعة «بادر ـ ماينهوف» .

المحرر : ما هو موقفك من نشاط جماعة بادر ـ ماينهوف ؟

سارتر : يلوح وكان دخول هذه الجماعة سابق لاوانه · ولكني لا ادرك الاسباب التي تجعل الناس في المانيا يشعرون بالسخط على اولئك الذين ايدوا هذه الجماعة · ولدينا مثلا الكاتب بول Boell حيث ان الاتهامات التي اوردها المتهجمون عليه لا يمكن تصديقها ·

المحرر : لم يعلن الكاتب بول عن تضامنه مع جماعة بادر ـ ماينهوف ·

سارتر : كلا · ولكنه عالج المشاكل بطريقة موضوعية · وعلاوة على ذلك اعتبر كما قلت آنفا ان نشاط هذه الجماعة سابق لاوانه · ويلوح بأن لدى افرادها اشياء حقيقية ملموسة تتمثل : في الفعالية ، والروح ، والمبادهة ، والحس الثورية ·

المحرر : أنها عناصر حقيقية بالتأكيد ، ولكنها بالكاد ان تكون واقعية . ألم يبرهن تاريخيا ان المخطط الاصــــلاحي ينفــرد حتى الآن من بــين المشاريع الاخرى في فرض نفسه في البـــلدان الصناعية العصرية . في حين تم النجاح للمخطط الثوري في البلدان المتخلفة اقتصاديا مثل روسيا عام 1917 ، ثم الصين فيما بعد ـ وهناك ايضـا لامد معين فقط . الا يجب علينا ان نستنتج من ذلك ان الطريق الوحيد الذي يؤدي الى الهــدف المنشود بالنسبة للبلدان الصناعية كفرنســـا والمانيا هو طريق الاشتراكية الديمقراطية ؟

سارتر : كلا . برأي هنالك حركة اصــلاحية او بالاصح حركة تنقيحية Revisionistische يمكن تاريخها منـــذ بداية القرن العشرين ، الا انها لم تستمر الا الى حوالى العام 1960.ثم ما لبث انظهر ببطء عنصر جديد.فقد تقدم الشباب في المانيا وفي فرنسا بمطالب لـم تعد تقتصر على تحسين الاجور وتحديد اســعار السلع ، بل تصدت مطالبـهم الى الوســـائل والامكانيات التي تساعد على التمتع بحياة حرة ، حياة كريمة جديرة بان يحياها الانسان ، حيـاة يتوفر فيها أشياء اخرى غير السلع الاستهلاكية الكثيرة . ولهذا السبب نرى الشباب في فرنسا وفي المانيا يعزفون عن متابعة العيش في مجتمع الانتاج الذي يتزايد فيه الانتاج بهدف تحقيـــق اكبر قدر من الارباح ، ويتسبب هذا بالتالي في تلوث البيئة . وهم يهتمون اكثر في ان ينطلـق الانتاج من وحي الحاجات الحقيقية للفرد . شانهم في ذلك شان الصينيين الذين لم يعودوا يشعرون بوطأة رؤسائهم الصغار تجثم فوق رؤوسهم خلال العمل . والشباب يريدون حقا انينتجوا ـ لا اقل مما ينتج الآن ـ ولكن بأســـلوب آخر . فهم لا يريدون مثلا ان يرغموا على شراء ثلاجة جديدة كل ثلاثة أو خمسة سنوات ، بل على العكس يريدون ان ينتجوا ثلاجة تستطيع خدمة مالكها مدة عشرة أو خمسة عشر عاما .

المحرر : هنالك المصلحون ايضـــا ، يريدون تحسين نوعية الحياة .

سارتر : كلا . يدور الامر بالنسبة للمصلحين في ان ينتجوا اكثر مما كان عليه مستوى الانتاج في السابق . وهم لا يفكروا بادخال اصلاح على نســـبة الارباح . ولو أنهم أرادوا ذلك ، لكانت الثورة .

انا مؤيد للماركسية ولست ماركسيا

المحرر : طالما انك لا تتفق مع النقابات ولا مع الشيوعيين ولا مع الاشتراكيــين الديمقراطيين ، فالى من تميل الى الانتساب ؟

سارتر : الى « المـاو » MAO

المحرر : ما الذي تفهمه من هذا الاسم ؟

سارتر : تحت هذا الاســم أفهــم الماويــين، ولكن هذا ينبغي ايضاحه من وجهة نظر تاريخية. فالماويين موجودون في فرنسا منــذ عام 1967 . وقد عملوا انذاك في الجماعات الاساسية ، وفي

اللجان التى شكلت ضـــــد الحرب الفيتنامية . ويستندوا فى عملهم على انموذج الصـــين ، وعلى الثورة الثقافية خاصة . وعلى الرغم من ان معظمهم من المثقفين، نجد انهم لم يحققوا عام 1968 تأييدا كبيرا لانتفاضة الطلاب . لذلك تحولوا فورا الى المعامل وحاولوا ان يشاركوا فى الكفاح هناك ، ذلك الكفاح الذى تحقق ايضا . واطلق على هؤلاء الناس اسم الشباب الشـــــيوعى الماركسى — اللينينى . ثم انقسمـوا على انفسهم الى فئتين : تحالفت الاولى مباشرة مع الصينيين ، بينما شكلت الاخرى منظمة « البروليتاريين اليساريين » وهى المنظمة التى تقربت أنا منها . وفى هذه الاثنـاء صدر امر بمنع هذه المنظمة ، وما لبثت ان حلت نفسها بنفسها . وقد توفر فيها تيار ثورى يمتلك رغم ذلك أداة تنظيمية معينـــة . وهؤلاء هم من اطلق عليهم اسم « الماو » .

المحرر : انت لست بفوضوى اذا ؟

سارتر : كلا . فانـا ادرك ما الـــذى يفعله الفوضويون عندنا . وبرأيى ان هذه الاعمـــال ليست اعمالا مترابطة يمكنها فى وقت من الاوقات ان تؤدى الى الثورة .

المحرر : اذا ما أنت ؟

سارتر : اننى اقف قريبا من مخطط يعرف فى فرنســـا بانه تحـــريـرى «Libertaire» وهو يتضمن ان البشر اسياد فى تقرير حياتهم ، واسياد بالمثل فى تحديد شروط هذه الحياة . فانا شخصيا عندما اتمكن من تقرير مصـــيرى ، او عندما تتمكن الجماعة التى انتسب اليها من تقرير مصيرها ، نكون آنذاك متمتعين بالحرية . وهذا يشترط مقدما ، انتفاء كل شكل من أشـــكال الارغام . وبكلمات أخرى ، يشترط تحقيق الحرية مقدما قلبا ثوريا لنظام المجتمع الرأسمالى .

المحرر : لربما يكـــون فى ذلك اعراض عن الماركسية .

سارتر : أنا مؤيد للماركسية «Marxien» ولست بماركسى .

المحرر : ما هـــو الفارق بين المـــؤيد وبين الماركسى ؟

سارتر : ليس من السهل ذكر الفارق ، ولكنى الفت كتابا ضخما حول هذا الموضوع عنـــوانه « نقد التعقل الديالكتيكى la critique de la raison dialictique » وقبلت ضمنه كافة التحاليل الماركسية تقـــريبا باستثناء تلك التحاليل التى تتعلـق بالبشر فى « مواقف » «Situation» ، وبكلمات أخرى . انا أوافق كلية عندما تكون الماركسية جدلية . الا انه يوجد حتم ماركسى «Determinismus» فى تقييم الافراد ، والاعمال الجماعية لا اقبـله ، وذلك لانى بقيت مخلصا لفكرة الحـــرية . وانا اعتقد بان الناس احرار .

عند مقتل نيكســون سافرك يدى « ابتهاجا »

المحرر : من الواضح ان مفهومك للحـــرية لا يعنى بالضرورة بان الناس لا يخضعوا لالزامات اجتماعية .

سارتر : على العكس أريد من ذلك ان أقول : اذا توجد الزامات اجتماعية ، فذلك لان الناس احرار . واذا امكننا ان نتكلم عن الغربة التى يشعر بها الفرد فى مجتمعه ، فذلك لان الناس احرار . ولو كان الناس مجبرين «determiniert» ، فأى معنى يكون انذاك لاعطائهم مزيدا قليلا من الرفاهية ، ثم التوقف عند هذا الحد ؟ لا ، فالبشر يريدون العثور على الامكانية المؤدية الى الحرية ، والتى بلا ريب لم يمتلكوها اية مرة ، رغم انها تعيش فيهم .

المحرر : للماركسيةمخططات متنوعة : فهنالك أولا ماركس الذى حلل مجتمع القرن التاسع عشر الرأسمالى فى كتابه « رأس المال » . ولكن هنالك أيضا كتابات ماركس الباكرة والتى تظهر الماركسية فيها اكثر من مجرد مخطط اخلاقى : فالانسان ينبغى ان يتم تحريره لكى يحصل على امكانية تقرير مصيره بنفسه . هل تعتقد بأن هذا المبدأ ما زال سارى المفعول ؟

سارتر : نعم ، وبشكل مطلق . فالحرية كما وصفتها أنا فى كتاب « الوجود أو اللاوجود » «L'être et le néant» كانت وما زالت حرية بشر بلا طبقات . وهنالك اعتراض استخدمه رايموند آرون ARON مرة ضدى ، جعلنى اعيد التفكير فى الامر . فقد قال لى آرون : «بما ان الناس احرار ، فلماذا تنتهى الامور نهاية سيئة ؟ » . وفى الحقيقة اذا كانت الطبقة منعدمة ، واذا كان الناس احرارا حقا ، فليس من الجائز ان ينتهوا دوما الى ذلك الشىء الذى اسميه « الغربة Entfremdung » . واعنى ان الانسان حر اليوم ، ولكنه غير محرر (بضم الميم وفتح الراء) . وهذا يعنى انه توجد طبقات ويوجد مجتمع تعمل فيها قوى متنوعة على تغريب الانسان (١) . فهى تعلق حريته ، وتجبره فى النهاية على الاقدام على افعال ، ما ان يقوم بها مرة ، حتى لا يعد يتعرف عليها بأنها افعاله . والمثال على ذلك كما يلى : لدينا عائلة من العمال رزقت بطفلين سابقا ، وهنالك طفل جديد تنتظر ولادته . فما العمل فى هذه الحالة ؟ أمامنا حالات ثلاث : اما ان تقدم الاسرة على اجهاض الطفل ، أو ان الطفل يولد ثم يموت لانه لم يلق العناية الكافية ، أو انه يعيش حاملا آثار الاهمال . انها فى الواقع ثلاث خيارات يفترض انها حرة ، لكنها تنطلق من موقف وحيد هو الارغام Zwang وبما ان الاسرة المذكورة لا تحصل الا على أجر محدود ، فانها لن تستطيع فىهذه الحالة اعالة أكثر من ولدين.وفى هذه اللحظة نجد انالخيارات الثلاثة الآنفة الذكر يتم البت فيها دون ان يكون الفرد سيدا للموقف كلية ، بل ان المجتمع هو الذى يبت فيها .

المحرر : هل تدخل الاحزاب القائمة حاليا فى عداد القوى التى تعيق تحرر الانسان ؟

---

١) جعل الانسان غريبا فى مجتمعه .

سارتر : نعم وبالتأكيد · فالاحزاب نشـــأت فى الاصل نتيجة لمســـــاعى البشر ان يمنحوا انفسهم صيغة اكثر حرية · الا ان الاحـزاب ما لبثت ان تحولت فغدت تسودها البيروقراطية ، والنسقية Serialisiert ـ والنســقية مدلول استعمله انا ـ ومنذ ذلك الحــين لم تعد الاحزاب مثلما كانت فى الاصل ·

المحرر : انطلق لينين من ان الجماهير تحتــاج الى قيادة ، أى الى حزب قائد يهديها الطريق دوما خلال العمل ·

سارتر : لا أشارك لينين هـــذا الرأى · فاذا نظرنا الى الموضوع تاريخيا نجد فيه شـــيئا من الحقيقة · لكن الامر كان يدور انذاك حول تدريب الثوار المحترفين · أما فى الوقت الحاضر فلم يعد هنالك معنى لفكرة وجود نخبة من الثـــوريين المحترفين ، يعيشـــــون بمعزل كلى عن الجماهير ويقدمون أفكارا ، تحتضنها بعد ذلك الجماهير ·

المحرر : ما هـو الدور الذى يلعبـــه العنف المباشر ـ اى الارهاب ـ فى تحرير البشر ؟

سارتر : انه لدور ضـــخم · فأنا أؤمن بان المرء يستطيع ان ينجح فى تحرير البشر بواسطة العنف ـ وبالطبع ليس بواسطة العنف الفردى ، لان هذا النوع لا يمكن ان يكون له الا اهـــداف فردية · لنهب ان شخصا سيقوم غدا بقتـــــل نيكسون ، عند ذاك سأفرك يدى ، لاننى اعتبـر نيكسون انسانا مضرا الى اقصى حد · ورغم هذا سيبقى على قيد الحيـــاة اولئك الرجال الذين يدعمون نيكسون ، ولا شىء سيتغير ·

ابدا لم يكن الرهائن فى مونيخ ليقتلوا

المحرر : وكيف يكون الحال عندما يقوم الثوار باختطاف سفير دولة رأســـــمالية لكى يرغموا الآخرين على تحرير المساجين ، مثلما حدث عـام 1970 مع جراف سبرتى سفير المانيا الغربيـة فى غواتيمالا ؟

سارتر : فى البداية أسفرت العملية عن نتائج فى البرازيل ، ثم توقف ذلك الآن ·

المحرر : ما هو موقفك من عملية الفلسطينيين خلال الالعاب الاوليمبية فى مونيخ ؟ هـل كانت ارهابا فرديا لا معنى له ، أم كانت ارهابا جماعيا حافلا بالمعانى ؟

سارتر : أود ان اقول اولا انى شخصيا لست من انصار تدمير دولة اسرائيل ···

المحرر : لمعظم اصدقائك من « الماويين » ولكثير من الجماعات اليسارية رأى آخر فى هذا الصدد ·

سارتر : لم أحاول فى اى مرة أن اخفى هـذا الاختلاف فى الرأى · ومن جهة اخرى لم يعقنى الاختلاف رغم ذلك ان أظل مرتبطا بهذه الجماعات· أعنى ان للفلسطينيين الحق المطلق فى ممارســـة الارهاب حيثما شاؤوا ، نظرا للظروف الحاليـة التى يعيشون فيها · وأعنى بلا ريب ايضا بـان الاسرائيليين يجب ان يدافعوا عن انفسهم ضـد هذا الارهاب كيفما امكنهم ذلك .

المحرر : اذا لقد كان من الصواب : ان يحتجز الفلسطينيون الرهائن الاسرائيليين اثناء الالعاب

الاوليمبيـــة ، كما وان يطلب الاسرائيليون من المسؤولين الالمان ان يتصلبوا في موقفهم ؟

سارتر : اعتقد بان الرهائن لم يكونوا ليقتلوا. لو ان المرء تركهم يطيروا صحبة مختطفيهم • فهم كانوا سيرسلون عندئذ الى مصر أو الى الجزائر ، ثم سيطلق سراحهم ان عاجلا او آجلا • ولقد قاد تصرف بوليس مدينة مونيخ وحده الى الكارثة ، عندما قام ببساطة باطلاق النار • ومثل هـــذا الشيء مستحيل •

واذا نظرنا الى الامر من الناحية السياسية ، نجد ان الفلسطينيين كانوا على حـق • فبعملهم الثوري أوصلوا صراعهم الى المسرح الدولي •

المحرر : الا ان العمل الثـوري المزعوم الذي قام به الفلسطينيون لم يقرب الصراع في الشرق الاوسط مترا واحدا من الحل المنشود •

سارتر : لا بالطبع . وهذا ما لا تقدر العملية ايضا على تحقيقه . فالمرء لا ينجح في الوصول الى حلول بمجرد ان يخضع عدة رياضيين في مونيخ لسيطرته • وهنا لابد لي من التاكيد ايضا بانى لا أستطيع ان اؤيد بصفة خاصة مثلهذه الاعمال الفردية • وفي الجزائر كان الشـــعب كله يقف وراء الارهابيين (1) وهذا كان ايضا شيئا آخر حقـا •

لا تفرقة بعد اليوم بين المثقفين والعمال

المحرر : انت نفسك لم تمارس العنف خـلال اعمالك ، ومع ذلك فقد توغلت ضمن معامل رينو للسيارات لكي توزع المناشير هناك • كما قمت مع اصدقائك باحتـــلال مكاتب شركة الكهرباء والغاز الحكومية ، وتوليت بيع جريدة ممنوعة هي « قضية الشعب » La cause du peuple في شـــوارع باريـــس . ألم يخـــب أملـــك من نتائج اعمالك • Aktionen (2)

سارتر : لا ، وبأي حـال . أما فيما يتعلـق « بجريدة قضية الشعب » فقد حققنا نصرا عـلى الحكومة ، واصبح من الممكن بيع الجريدة بحرية •

المحرر : تتمتع كافة اعمالك (2) بنـــوع من التـــرف ، وذلك بان يـــدع البوليس الفرنسي الفيلسوف سارتر ذيالشهرة العالمية في سلام • ويذكر ان ديغول قال مرة ملمحا اليك : « بـان المرء لا يعتقل فولتير » ، في الوقت الذي كان فيه الضر نصيب المتظاهرين الآخرين المجهولين •

سارتر : من الطبيعي ان يكـــون المفـــكر شخصية ، لا تقبع ضمن الاطار العـــادي • ومن الطبيعي ان يكون عندي شيء – لا يخصـــني ولا استخدمه شخصيا – وهو ما يمكن ان يطلق عليه اسم « دور النجم STARROLLE » • الا انني عندما اعمل مع جماعة من الناس يتعرضون

---

1 – راجع جان بول سارتر : عارنا في الجزائر ، ترجمة عائدة وسهيل ادريس ، بيروت 1958

2 – المراد منها العمل السياسي

لهجوم سياسى ، لا اتردد فى مساعدتهم بواسطة « دور النجم » عندما يكون ذلك مجديا ·

المحرر : متى تقوم بالضبط بتقديم المساعدة عن طريق « دور النجم » ؟

سارتر : لقد تناقشت مرارا حول هذه المسالة مع اصدقائى · وأوضحت بان عملا لا يمكنه ان يقوم الا باشتراك سارتر ، هو عمل سىء ·

المحرر : هل لديك مثال تقدمه عن عمل جيد قمت به ؟

سارتر : طبعا · فعندما اغتال بواب الفتى العربى جلالى البالغ اربعة عشر عاما من العمر ، رجانى الناس ان اشارك فى مظاهرة احتجاج · وقد ذهبنا الى المقاهى والمطاعم التى يتردد اليها العرب ، وتحدثت مع الناس فى الشارع · وحاولنا ان نشعل نوعا من الثورة ضد الكراهية العرقية · وفى كل مكان وقف رجال البوليس دون ان يفعلوا شيئا ضدنا · وكما علمت فيما بعد ، لم يشأ رجال البوليس ان يضربوا المتظاهرين ، لاحتمال ان يرغموا على ضرب سارتر ايضا · ألا ترى كم كان ذلك مفيدا ، فقد استطاع اصدقائى بهذه الواسطة ان يتحدثوا مع الناس مثل ما فعلت انا .

المحرر : هل هذا هو الدور الذى تريد اليوم ان تعطيه للمفكر بصفة عامة ؟

سارتر : كان رأيى حتى عام 1968 ، بأن المفكر رجل مصطفا ، وانه ينبغى عليه ان يشعر بذاته انه مصطفا ضمن اولئك الذين اطلق أنا عليهم اسم «اخصائى العلم العملى» : وهم الاطباء ، والعلماء ، والاساتذة . واعتقد بأن المفكر انسان يرى التناقض القائم بين الهدف العالمى للعلم وللتكوين العلمى من جهة ، وتطبيقاتها الخاصة من قبل المجتمع ــ ذلك المجتمع الذى تهيمن فيه طبقات محددة على السلطة ــ من جهة اخرى · علاوة على ذلك انطلقت فى اعتقادى بان هذا التناقض جزء من المفكر : فهو يكمن فيه ، ويعانى منه ·

المحرر : هل يجب على المفكر اذا ان يتألم ؟

سارتر : وجد العالم اينشتاين نفسه فى تناقض · فهو خلال عمله على القنبلة الذرية كان يدرك تماما بان هذه القنبلة سوف تمنح قوة متفوقة لنظام اجتماعى معين يتفوق بها على نظام آخر ، كما انها قد تهيىء فرصة لاشعال نار الحرب · والعالم الذى سينادى مثل اينشتاين محذرا : « انتبهوا ، هذا أمر سىء » سيتحول فى هذه اللحظة الى مفكر ·

المحرر : لقد كان هذا نقطة الانطلاق · فما الذى تغير بعد احداث ماى 1968 ؟

سارتر : لم يشك أحد بى بعد فى شهر ماى عام 1968 عند ما استطعت التحدث مع الطلاب فى السوربون ، بل فيما بعد عام 1969 عند ما (حصلت لى صعوبات مع الطلاب) فقد أدركت عندها بان هنالك شىء يقلق الطلاب· فاتضح لى بأن هذا المفكر لم يعد بامكانه الآن ان يعيش ، نظرا لان الجماهير تريد شيئا شاملا وتتمنى زوال الامتيازات · وعلى المفكر اذا ان يندفع نحو الجماهير وان يضع نفسه تحت تصرفها ·

المحرر : لم تعد مهمة المفكر اذا أن يصنع افكارا للجماهير ؟

سارتر : كلا . لقد قام المفكر بهذه المهمة سابقا ، وللجماهير ان تستمد افكارها من رجل عالمي Universalen وليس من مفكر لا يفهم من الامر شيئا عندما يكون منفصلا عن الجماهير .

المحرر : لديك اذا نمطين للمفكر : المفكر الكلاسيكي ، والمفكر العصري .

سارتر : نعم . واني لآمل ان تتغير الاوضاع خلال مائة سنة أو ربما خلال خمسين سنة ، حتى يزول التفريق بين المفكرين والعمال .

المحرر : اليس ذلك وهما ؟

سارتر : كلا . لان المرء يرى ذلك في الصين ، وهذا جيد جدا . وعلى سبيل المثال سيكون لي في القريب العاجل سكرتير ، هو ابن عامل ، تعلم المهن اليدوية ، وتأثر كثيرا في مدرسة التكنيك المهني من محاضرات القاها فيلسوف . فوجه هذا الرجل نفسه نحو الفلسفة ، مع متابعة عمله اليدوي بنفس الوقت . والآن يستعد لاداء امتحان الدولة في الفلسفة . هذا الرجل يختلف كثيرا عن المفكرين أمثالي .

المحرر : عندما تتابع الآن عملك في كتابة سيرة حياة فلوبير Flaubert فهل أنت « اخصائي في العلوم العملية » ؟

سارتر : نعم ، ولكن عمري 67 سنة . ولو كنت في الخامسة والعشرين أو في الاربعين أو حتى في الخمسين من العمر لكان باستطاعتي أن أفعل أكثر من ذلك . لاني استطيع بالتخلي عن بعض الاشياء التي بدأت بها ، ان اضع اهدافا جديدة . وعندما يكون المرء في السابعة والستين من العمر ، ويعمل منذ عشرين سنة في تاليف كتاب ، يبرز عندئذ ذلك الشيء الذي يطلق عليه اسم الاهتمام العقائدي . وكل كاتب لديه هذا الاهتمام ، وهو ليس باهتمام مالي . وخلاصة الامر ان الكاتب قال اشياء ، يتوجب عليه ان يتابعها . فمثلا تتطلب مني المجلدات الثلاثة التي الفتها عن فلوبير تاليف جزء رابع . ولقد ذكرت في المجلد الثالث : « الآن يستطيع المرء رؤية فلوبير » وهذا كلام موجود في المجلد ويشكل لي تحديا ذاتيا . ولعلك ترى بأن هذا الرجل ذو السبعة والستين عاما ، والذي لا يذهب الى المعمل ، ولا يستطيع حتى المشاركة في اعمال يتطلب فيها السير بسرعة ــ مجبرا ان يحيا Aktionen حياة متناقضة ، ولكنها حياة مختلفة عن حياة المفكر الكلاسيكي . وهذا لا يعني بالضرورة : حياة موزعة بين العالمي والمميز ، ولكنها حياة موزعة بين ذلك الذي يتبقى من المفكر الكلاسيكي ــ الكتب التي اؤلفها ، والعمل (السياسي) AKTION الذي أشارك به الآن رفاقي . وهذا هو الوضع الذي اوجد فيه حاليا .

حكومة لا تقول ما تفعل

المحرر : هل يسبب لك هذا الوضع المتناقض صعوبات ؟

سارتر : لا يسبب لى ، ولكنه يسبب لاصدقائى « الماويين » مثلا . فهم يسألوننى : « لماذا تؤلف اذا كتاب فلوبير ؟ » لانهم لا يطيقونه . وهم يتركونى أدافع عن نفسى ، ولكنهم يفضلون ان أكتب شيئا آخر : كرواية شعبية ، أو قصة متسلسلة . اما بالنسبة لى فانى لا اعارض فى ذلك لانه قد يكون مسليا تماما .

المحرر : ما هى الفرصة التى تتوقعها لاشكال الفن الجماعى ، فى ميدان الادب مثلا ؟

سارتر : لا توجد بعد كتابة جماعية ، واعنى بذلك كتابة جماعية حقيقية ، وبالمقابل اعتقد انها ممكنة فى الروايات المسرحية .

المحرر : هل يمكن للمرء ان يكتب مقالات الصحف ايضا بشكل جماعى ؟ فأنت تريد تأسيس صحيفة يومية . لماذا ؟

سارتر : نريد تعميم الحركة النازعة الى التحرر والمناهضة لتدرج المراتب anti hierarchie . غير ان جريدة اسبوعية كصحيفة « قضية الشعب » لا تلائم لذلك . اذ لا يمكن كتابة تقرير عن اضراب بعد اسبوع من شن الاضراب ، وانما يجب الاعلام عنه فى الصباح التالى .

المحرر : متى ستصدر الجريدة ؟

سارتر : بين الخامس من فبراير وبداية مارس .

المحرر : هل ستكون جريدة كفاح سياسى ، أم صفحة اعلامية ؟

سارتر : ستكون صفحة اعلامية ، ولهذا السبب بالضبط ستكون صفحة كفاح سياسى .

المحرر : هذا تناقض .

سارتر : كلا . نريد ان نخبر الجماهير عن سرين كبيرين فى فرنسا المعاصرة . عن سر حكومة لا تقول ما تفعله . حكومة يمكنها ارتكاب الشائنات نظرا لان الشعب لا يطلع (بضم الياء) على ما يجرى . أما السر الثانى فانه يكمن فى ان أحدا من الناس لا يطلع على موقف الآخرين من عمل Aktion يخصهم بالذات .

المحرر : تريد اذا ان تترك هؤلاء الناس يمارسون التعبير عن انفسهم مباشرة ؟

سارتر : نعم . ونحن نرى ضرورة وضع هؤلاء الناس فى سوية واحدة مع الصحفيين الذين سيتولون استجوابهم . ولسوف يكون أجر صحافيينا مماثل لاجر عامل متعلم . هؤلاء الصحفيون سوف يكونون فى الشوارع وامام المعامل وفى المطاعم . وباختصار سيكونوا موجودين مع اولئك الناس العاملين .

المحرر : هل ستساهم بشكل فعال فى العمل فى هذه الصحيفة ؟

سارتر : سوف اكرس نفسى لهذه الصحيفة لمدة ثلاثة اشهر ٠

المحرر : هل تبغى انشاء حركة سياسية تلتف حول هذه الجريدة ؟

سارتر : كلا ٠ لا أريد ذلك فى البداية على الاقل ٠ نريد حاليا ان نساهم فى التقريب بين جماعات المجتمع المتنوعة ، وذلك بان نقوم بنشر اعلانات صغيرة مجانية نقول فيها مثلا : « فى هذا اليوم أو ذاك ستضطر هذه العائلة او تلك لمغادرة منزلها ٠ وينبغى فى هذه الحالة توفر من يراقب أولادها الثلاثة ٠ من يريد التكفل بذلك ؟ ثم نرجو عائلة عاملة اخرى ان تعلن : ستكون ابنتنا البالغة عشرين سنة من العمر غير مرتبطة بعمل فى هذا اليوم او ذاك ٠ وسوف تقوم بمراقبة الاولاد وتتأمل فيما بعد ان تلقى مساعدة مماثلة » ٠

المحرر : هل تعزف عن انشاء منظمة جديدة ، لانك تخشى ان تتحول المنظمة بالضرورة الى بيروقراطية جديدة ، وبالتالى لان تؤدى الى غربة جديدة ؟

سارتر : هذه المخاوف موجودة لدينا فى الحقيقة ٠ فالتاريخ يبرهن بأن الامور سارت دوما على هذا المنوال ، وبأنه تنشأ كيانات بيروقراطية وتدرج فى المراتب ٠

نيكسون اذا مجرم حرب

المحرر : تقول ان التاريخ يقدم لنا هذا البرهان ـ ونحن نؤيد رأيك عن طيبة خاطر ٠ وكنت فى السابق استثنيت الصين ٠ الا انه فى هذه الاثناء انهت الصين الثورة الثقافية ، وتخلت عن الاعمال الثورية فى العالم ، وتقربت حتى من الولايات المتحدة ٠٠٠

سارتر : فى الحقيقة اصبحت السياسة الخارجية للصين ـ الى المدى الذى افهمها فيه ـ سياسة دولة عظمى ٠

المحرر : هل تعنى بان الصين خطت خطو الاتحاد السوفياتى عندما اخذت تمارس السياسة الوطنية على حساب قضية الثوار ؟

سارتر : فى هذا شيء من الصحة : وانت تعرف بان جريدة « قضية الشعب » قد نحت مؤخرا صورة رأس ماوتسى تونغ من صفحتها الاولى ٠ ولكننى لا أعرف تماما هل ان تصرف الصين يرد الى خطيئة أم الى ضرورة ملحة ٠ واننى اشكو شخصيا من سياسة الصين على سبيل المثال تجاه بنغلاديش وتجاه سيلان ٠ واتألم بالمثل لان الصين استقبلت نيكسون الذى سمح عقب تلك الزيارة باستئناف القصف الجوى ضد فيتنام ٠

المحرر : ألم تغير حكمك على الحرب فى فيتنام؟

سارتر : كلا ٠ لقد مارس الامريكان مدة سبعة سنوات عملية قتل الشعوب ٠ وعندما تضع دولة مؤلفة من مئتى مليون نسمة ـ وهى بنفس الوقت اكبر قوة رأسمالية فى العالم ـ

عندما تضع كافة امكانياتها الحربية ضد بلد متخلف ، يبعد عنها آلاف الكيلو مترات ، وعندما يكون خلافا للمنطق أن تتصور الولايات المتحدة احتمال اقدام هذا البلد الصغير - فيتنام - على توجيه ضربة معاكسة ، فان المرء يجد نفسه تجاه شيء يجب ان يطلق عليه اسم قتل محدود لشعب ، الا انه مع ذلك قتل شعب • وحتى أمد معين قام عدد من الجماعات بتنفيذ عمل القتل سواء من طرف البنتاغون أو الى حد ما من طرف جونسون • غير ان التنفيذ لم يتم اية مرة من قبل هذا الشخص وحده • ومنذ ذلك الحين غدا كل شيء واضحا : فهنالك بالنسبة للاجرام الذى اقترف فى فيتنام شخص واحد يعتبر مسؤولا عنه • وحتى لو ان البنتاغون قد ضغط عليه ليتصرف ، فان نيكسون هو الذى أصدر القرار • وفى لحظة محددة قال نيكسون : « افعلوا هذا » • فهو اذا مجرم حرب • وما فعله نيكسون قد يكون واقعا سياسيا ، ولكن الواقعية السياسة تقضى ايضا بان ينظر اليه كمجرم حرب •

المحرر : والآن لقد قام ماوتسى تونج باستقبال نيكسون هذا • لنفترض مرة بان الصين تحولت غدا الى قوة معادية للثورة ، فهل سيصبح سارتر انذاك متشائما من مفهومه الثورى ؟

سارتر : اعترف بطيبة خاطر بانى فى طبيعة الحال متشائم فى السياسة • ولست بمتأكد اننا سننجح أية مرة فى تحقيق ذلك الذى نريده ، سواء هنا أو فى أى مكان آخر • وقد احتفظت شخصيا بنوع من الشك السياسى منذ ان كتبت كتاب « القرف » DER EKEL • لربما يكون له تأثير نظرا لانى انحدر من الطبقة الشعبية • وعلى كل حال لدى هذا الشك • ولكن هذا لا يعنى بأنه يتوجب علينا ان لا نقوم بعمل الشيء الذى نعمله • وبكلمات اخرى : الحالة السيئة ، ولكنها لربما تصبح اكثر سوءا ، لو انه لم يوجد أناس يكافحون ضد النظام الراهن •



الحلاج والقرامطة

د. محمود قاسم
عميد كلية العلوم
ـ القاهرة ـ

يجب الاعتراف بأن كتابات « لويس ماسينيون » عن الحلاج تعد المرجع المعاصر الاول الذى يجب الرجوع اليه للكشف عن ملامح تلك الشخصية العجيبة التى كان لها أثرها الدينى فى تاريخ الاسلام ، كما كان لها آثارها العميقة فى التاريخ السياسى لهذه الأمة منذ أواخر القرن الثالث الهجرى حتى يومنا هذا . كذلك ينبغى ان نشيد بالجهاد العظيم الذى بذله «ماسينيون» فى جمع مادته وحشد النصوص والوقائع من التراث الفكرى فى الاسلام ، فانه جهد ينوء به المختصون، ويكاد يدفعنا الى القول بأن نوعا من المودة بين « ماسينيون » وفكر الحلاج هو الذى ساعده على بذل هذا الجهد الخارق للعادة.

غير ان هناك ظاهرة أثارت اهتمامنا فيما كتبه « ماسينيون » ، وبخاصة فى كتابه الضخم عن الحلاج « شهيد الصوفية فى الاسلام » ، وهى انه بدا شديد الحرص على نفس الصلة بين الحلاج والقرامطة ، وقد ظل يؤكد لنا ان هذا المتصوف لم يكن داعية سياسيا بل انتهى به الحب الالهى الى التضحية بنفسه على مذبح هذا الحب . كذلك يؤكد لنا ، دون ملل ، ان الحلاج كان متصوفا سنيا أراد تعميق الروح الدينية فى بيئة جفت عاطفتها الروحية ، وتمسكت بقشور الدين دون لبه . وقد ظـن « ماسينيون » وبعض تلاميذه أن الحلاج ، الذى قال بحلول الله فيه ، يعد جسرا بين المسيحية والاسلام السنى . ومع ذلك ، فان هذا الحرص الشديد على نفس الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤذن ، على عكس ذلك ، بوجود هذه الصلة بينه وبينهم .

وتلك هى المسألة التى نريد ، نحن ، أن نتبين وجه الحق فيها ، وبخاصة لان « ماسينيون » يعترف فى موطن ما من كتابه عن الحلاج بأن موقف هـذا المتصوف من فريضة الحج كـان سببا فى اذانته ومصرعه ، وانه جرد مكة من افضليتها وقداستها ، مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجـاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الأسود منها ، ثم ارساله الى هجر حيث بقى هناك نحوا من اثنين وعشريـن سنة ، فلم يعد الى موضعه الا بعد أن استقرت الدولة الفاطمية وبعد أن ثبت الحكم الفارسى فى بغداد بدلا من الحكم العربى .

ولكى نسير على نهج واضح ، ولكيلا نضل الطريق فى كثير من الشعاب التى يقفز اليها احيانا تفكير « لويس ماسينيون » رأينا أن نبدأ بدراسة الأفكار الموجهة عند القرامطة وما أدت اليه من أحداث على أن نقارن فيما بعد بين هذه الحركة وبين ما نجده فى كتاب « ماسينيون » من وقائع توشك ان تفصح عن صلة وثيقة بين الحلاج والقرامطة (1) . ونعتقد أن هذا المنهج يتسق مع طبيعة الفترة الزمنية التى عاش فيها الحلاج . فقد عاصر حركتين شعوبيتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة ، وربما تكشفت لنا خيوط تربط احدى هاتين الثورتين بالأخرى . وذلك أمر يتسق مـع طبيعة الأحداث التاريخية والاجتماعية . وسوف نوجز فى عرض هذه الأحداث والايدلوجية المرتبطة بها بقدر مـا نستطيع ، أى بالقدر الذى يسمح بوضوح الفكرة والمنهج فى آن واحـد .

ويمكن القول بدءا بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركـات سياسية ترمى الى تقويض الدولـة العباسية والتمهيد لدولة علوية ، بعـد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافة من الأمويين الى آل البيت . وكان من الطبيعى أن تصطبغ هـذه الحركات بصبغة دينية جلبا للأنصار من الحانقين على الدولة العباسية ، وربما كانت هناك دوافع اجتماعية وسياسية وعنصرية توجب الحنق على أصحاب هذه الدولة . لكن سارت الثورات السياسية جنبا الى جنب مع ظاهرة دينية ، اذ كـان ادعاء النبوة أو

(1) سنخصص مقالا آخر لمناقشة هذه الوقائع تفصيلا

الربوبية أمرا مألوفا فى تلك الحقبة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية التى بدأت تتحلل لكى تمهد لظهور عصر الدويلات الصغيرة ، منذ أواخر القرن الثالث بصفة خاصة .

اذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من ادعى الألوهية ولا آخرهم . فقد سبقه كثيرون ، كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ، ونعنى به أبا عمرة الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . وليس من هدفنا أن نعرض بالتفصيل لتاريخ هؤلاء الذين ادعوا الربوبية ، تغريرا بالسذج من العامة ومساندة لبعض الحركات السياسية . فذلك أمر يطول سرده ، ويخرجنا عما نحن بصدده ، من الكشف عن حقيقة الصلة بين الحلاج والقرامطة . لكن لنا ان نذكر على سبيل المثال أن رجلا يقال له محمود بن الفرج النيسابورى ظهر فى سامراء سنة 235 هجرية ، فزعم انه نبى ، واخترع كتابا أدعى أنه قرآن أوحى به اليه ، كما سيفعل الحلاج فيما بعد عند ما حاول معارضة القرآن بكتاب ادعى انه وحى الاهى . أما ذلك النبى النيسابورى فقد أحضر هو وأصحابه الى الخليفة المتوكل ، وضرب ضربا شديدا فاعترف بكذبه . وأمر المتوكل أصحابه ، وكانوا سبعة وعشرين رجلا ، أن يصفعه كل واحد منهم عشر صفعات ، وذلك بعد ان « اخذوا له مصحفا فيه كلام قد دبجه » (1) .

وفى سنة 250 هجرية ظهر احد العلويين بالكوفة وهو يحيى بن عمر . ودعا الى الرضا من آل محمد أى الى البيت العلوى فاجتمع الناس اليه وتبعه بعض العامة من أهل بغداد « وبايعه جماعة من أهل الكوفة ممن لهم **تدبير وبصيرة** فى تشيعهم ، ودخل فيهم أخلاط لا ديانة لهم » لكن فشلت تلك الثورة وحملت رأس صاحبها الى الخليفة المستعين . ثم ظهر فى السنة نفسها علوى آخر فبايعه « الديلم » **وكثر جمعه واتاه كل طالب نهب وفتنة** » ثم استولى على الرى . وولى عليها رجلا من شيعته (2) . وهكذا ساعد ضعف السلطة المركزية فى بغداد على تتابع الفتن فيها وفى الموصل ، ثم على نجاح ثورة الزنج التى بدأت فى سنة 255 هـ ، واستمرت نحوا من خمسة عشر عاما .

وقد بدأت هذه الحركة ايضا تحت لافتة دينية . اذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة الى آل البيت . وهو محمد بن محمد بن عبدالرحيم الذى ولد فى الطالقان بخراسان ، وهى المنطقة التى كان يجوب فيها دعاة الاسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح . والتى جال فيها الحلاج ايضا ، والتى ثارت بعد مصرع هذا الأخير – نقول ان هذه الحركة بدأت بمجىء صاحب الزنج من خراسان . وقد ادعى هذا الرجل انه على بن محمد بن احمد بن عيسى من أبناء الحسين ، ونجح فى كسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله . ثم اتجه الى البحرين التى ستكون من أهم المراكز القرمطية فيما بعد . فاتبعه جماعة كبيرة من أهلها وغيرها . ثم

1) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 43

2) مروج الذهب ج 4 ص 146

ادعى لنفسه النبوة ، وزعم ان الوحي ينزل عليه . وقد نقل عنه انه قال : «اوتيت ، تلك الايام ، بالبادية ، آيات » من آيات امامتي ظاهرة للناس ، منها أنني لقنت سورا من القرآن . فجرى بها لساني في ساعة ، وحفظتها في دفعة واحدة ، منها سبحان، والكهف ، وصاد . ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده ، حيث نبت بي البلاد . فأظلتني غمامة ، وخوطبت منها . فقيل لي : أقصد البصرة» وقد استطاع خديعة أهل البادية لفترة من الزمن ، لكنهم انفضوا عنه بعد هزيمة قتل فيها كثير من اخوانهم.

ثم انتقل الى البصرة ومنها الى بغداد « فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر اصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم . « وتلك هي الكرامة التي نسبها الحلاج الى نفسه أو نسبها اليه اصحابه فيما بعد ، فسمي حلاج الأسرار . ومهما يكن من أمر فقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد ثم انتقل هو واتباعه الى البصرة في سنة 255 . ومن الطريف أن الحلاج سلك هذا المسلك فقد اقنع جماعة من الاهواز بالانتقال معه الى بغداد فاستقروا بها ابتداء من سنة 292 هـ . أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزا له ، بعد ان عزل واليها فأظهر هو انه وكيل لولد الواثق لبيع السباخ . ثم أخذ يستدرج العبيد ، وكون منهم جماعات نصب على كل جماعة منها رئيسا من بينهم . وكان يعدهم الجنة . فاجتمع لديه عدد كبير من غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليه خلاصا من الرق والتعب . وأقسم لهم انه لن يخونهم . ولما جاء أصحاب العبيد يطالبون بارقائهم « بطحهم وأمر عبيدهم بضربهم » لكنه كان يأخذ من كل عبد ينضم اليه خمسة دنانير ، وهو نفس الأسلوب الذى طبقه القرامطة مع أنصارهم فيما بعد . ولما قوى أمره سار الى القادسية ونهبها هو وأصحابه . ثم عاد بهم وهاجم البصرة ووضع في أهلها السيف بعد ان هزم جيشها ، فقتل من أهل البصرة خلقا كثيرا . وربما بالغ المسعودى صاحب كتاب مروج الذهب في تقدير عدد القتلى والغرقى من البصريين ، اذ يقول ان عدد هؤلاء كان 300،000 نفس . ثم يرسم لنا المسعودى صورا بشعة لكارثة البصرة فيقول : « واختفى كثير من الناس في الدور والآبار . فكانوا يظهرون بالليل ، فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها . والفيران والسنانير فأفنوها .. فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه .

وهكذا لم تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها الحقيقي ، فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيينفي أسواق الرقيق » تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلاني . لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤهن الزنج ، ويخدمن النساء الزنجيات .

وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الأسرى . فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها دون قتال ، كما فعل اهل عبادان . وقد دخل الاهواز وخربها ثم أحرقها ، ولم يكن يحترم وعدا أو عهدا مع اعدائه . ذلك انه لما دخل البصرة « اقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت . ولما طلب أهل البصرة الامان أمنهم . فلما تجمعوا في دار حددت لهم غدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم ...

وأحرق البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق . وقتلوا كل من راوه بها . فمن كان من أهل اليسار أخذوا ماله وقتلوه ، **ومن كان فقيرا قتلوه لوقته** » وهذا هو ما فعلوه بمدينـة واسط عندما دخلـوا اليها فى سنة 264 هـ ، ولم تتمكن جيـوش الدولة العباسية من الصمود أمام طائفة الزنج وصاحبها الا ابتداء من سنة 267 هـ عندما هزمهم أبو العباس الموفق الهزيمة الاولى . فكان هذا هو أول الفتح (1) ثم كتب الموفق الى صاحب الزنج كتابا يدعوه فيه الى التوبة مما اقترف من سفك الدمـاء وانتهاك المحارم واخراب البلاد وادعاء النبوة والرسالـة . لكن الثائر لم يستجب . فحاصر الموفق مدينته التى سماها « المختارة » وضيق عليها الحصار وأجـاد التاثير النفسى فى أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون من المدينة المحاصرة ومن بينهم بعض القواد وكانوا يطلبون الأمان من الموفق فأمنهم ، وظـل يحاصر المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها . فكان الواحد منهم يأكل صاحبه اذا انفرد به .

وأخيرا اقتحم الموفق المدينة المحاصرة وأحـرق قصورها وأنقذ النساء والأطفال . واستطاع القضاء على ثورة الزنج فى سنة 270 » (2) .

لكن ما لبثت ان نشبت ثورة جديدة بعـد وفاة الموفق فى سنة 278 ، ونعنى بها ثورة القرامطة التى امتدت قرنا من الزمان . وقد اتهم الحلاج بأنه مـن كبار دعاتها والمروجين لها تحت ستار من التصوف وادعاء الألوهية الى جانب المناداة بابطال فرائض الاسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة،وتوحيد ايضا. وسنرى كيف حاول « ماسينيون » جاهدا أن ينفى عنه التهمة السياسية ، وان أقر بأن الحلاج نادى باسقاط التكاليف وبأن الولى أعلى مرتبة من النبى وله أن ينسخ الشريعة وأن يقرر عبادات جديدة .

وعلى الرغم من هذا الفاصل الزمنى بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فانا نجد أنفسنا فى الواقع أمام ثورة متصلة أجيد تخطيطها والاعـداد لها بصور متقاربة . وهذا أمر تشهـد التجربـة المعاصرة بصدقه . فلقد بدأت هذه الحركة عندمـا قدم رجل منهم من خوزستان فهبط الى سواد الكوفة، وأظهر الزهد والتقشف ، وأعلم الناس أنه جـاء يدعو الى امام من آل بيت الرسول . ولما مرض هذا الداعى المتشيع حمله رجل من أهـل القرية التى نزل بها ويسمى « قرمط » الى داره وعنى به حتى شفى « ودعا أهل تلك الناحية الى مذهبه ، وكـان يأخذ من الرجل اذا أجابه دينارا وزعم أنه للأمام » ثم جعل يرسم لجماعة صلوات خاصة ، كتلك التى رسمها الحلاج فيما بعد حتى يعفيهم من الصلاة جملة باعتراف « ماسينيون » نفسه . اشتغل الناس به عن أعمالهم . ولا سيما بعد أن أقنعهم ، هو الآخر ، بأنه صاحب معجزات . أما تلك المعجزة التى نسبت اليه فترجع الى أن احد الملاك وجد تقصيرا فى العمل، فلما بحث عن سببه علم بأمر ذلك الرجل الـذى

1) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 121
1) نفس المصدر ج 7 ص 159

يصرف القوم عن أعمالهم . فأخذه وحبسه في بيته وأغلق باب البيت بمفتاح ، ووضع المفتاح تحت وسادته . غير ان احدى جواريه رق قلبها للرجل فأخذت المفتاح خلسة وأخرجت الرجل من سجنه ، ثم أعادت المفتاح الى مكانه . ولما أراد صاحب الدار الفتك بسجينه لم يجده » وشاع ذلك في الناس . فافتتن به أهل تلك الناحية ، وقالوا : رفع . ثم ظهر في ناحية أخرى ، ولقي جماعة من أصحابه وغيرهم . فسألوه عن قصته . فقال : لا يمكن أحد ان ينالني بسوء ، فعظم في أعينهم » وتشبه هذه المعجزة التي افتتن بها بعض أهل ذلك العصر ما نسب الى الحلاج فيما بعد من أنه كان يخترق جدران سجنه ثم يعود اليه حسبما يريد . ثم ان هذا العلوى المزعوم خاف على نفسه ، فخرج الى الشام واتخذ لنفسه اسم الرجل الذى حمله الى داره عندما أصابه المرض . فعرف في موطنه الجديد باسم « قرمط » لكن هناك رواية أخرى تقول ان «قرمط» لقب لرجل كان بسواد الكوفة يحمل غلة الاقليم على ثيران له وكان اسمه حمدان .

وأيا ما كان الأمر في نشأة هذه الطائفة فمن المؤكد أنه كانت للقرامطة « ايدلوجية » دينية لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم ، سنية كانوا أم شيعة . فقد ادعى القرمطي الأول انه داعية المسيح وانه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل،وينم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقي للماسونية القرمطية والباطنية بصفة عامة ، ثم ذكر ان المسيح تصور له في جسم انسان ، واخبره أنه هو الحجة ، وحدد له أمورا كثيرة منها ان الصلاة اربع ركعات : ركعتان قبل طلوع الشمس،وركعتان بعد غروبها(1) وأن الرسل أولو العزم هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وهذا ما نجده عند الاسماعيلية التي لم تكن طائفة القرامطة الا فرعا منها عهد اليه بالاعداد للدولة الفاطمية في المشرق، على نحو ما ستكشف الحوادث عنه فيما بعد عندما دب الخلاف بين الطائفتين في عصر المعز لدين الله . ويخبرنا ابن الاثير أن « قرمطا » اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله وأخبره أن معه مائة ألف ضارب بالسيف . لكن لم يتفق الرجلان لبعض الفروق المذهبية . وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين الى حد كبير من سبى النساء والجوارى وقتل الأسرى والسلب والنهب ، مما يشعر بوحدة الفكر في التخطيط .

وفي أول الأمر ، ظهر نشاط حركة القرامطة بالبحرين سنة 281 هـ . فقد ادعى رسولهم الى هذه المنطقة ، وهو يحيى بن المهدى ، أنه رسول المهدى المنتظر ، وأنه جاء ليدعوهم الى مناصرته ، وأخبرهم أنه سيظهر عما قريب » وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي ، وكان يبيع للناس الطعام .. ثم غاب عنهم يحيى بن المهدى مدة ، ثم رجع ومعه كتاب يزعم أنه من المهدى الى شيعته » وفيه يطلب الى هؤلاء ان يدفع كل رجل منهم ستة دنانير وثلثين لرسوله فدفعوها اليه ، ثم رحل عنهم مرة ثانية . ولما عاد طلب اليهم

---

1) انظر وصفا تفصيليا لفريضتي الصلاة والصوم عند القرامطة في كتاب الكامل لابن الاثير ج 7 ص 160 ــ 161

بكتاب آخر من المهدى أن يدفعوا اليه خمس اموالهم ففعلوا . ولا بد من ان يكون الاغراء شديـدا حتى يسارع هؤلاء يدفع ما يطلب اليهم عن طيب خاطر . وفيما بعد كان الحمقى فى احـدى جزائر البصرة يشترون الذراع فى الجنة بمائة دينار ، كما يخبرنا الامام الغزالى . وفى اثناء ذلك كله توثقت صلـة هذا الرسول بأبى سعيد الجنابى حتى قيل ، عـلى حد ما يرويه لنا ابن الأثير ، ان أبا سعيد طلب الى زوجته أن تعنى عناية خاصة برسول المهدى لو أراد.

ثم انتقل يحيى بن المهدى يدعو بنى كلاب وعقيل وغيرهم « فاجتمعوا معه ومع ابى سعيد فعظم أمـر أبى سعيد » . وفى سنة 286 حشد هـذا الأخـير جماعة من الأعراب والقرامطة بالبحرين وجعل يغير على ما حوله من القرى ، ثم سار الى القطيف ، وقتل من بها ، واظهر أنه يريد البصرة ، وطبيعى أننا لا نريد ان نغترف هنا من المراجع التاريخيـة تفاصيل ثورة القرامطة التى لم تكن ثورة اشتراكية كمـا خيل الى الاستاذ روجيه جارودى فى محاضراتـه بالقاهرة سنة 1969 (1) ، بل كانت حركة سياسية ترمى الى الاطاحة بالدولة العباسية ، لكى تجعـل مكانها دولة الفاطميين ، وهم من الاسماعيلية ، وكانت حروبها ، فى التحليل الأخير ، أشبه بأساليب السطو وقطع الطريق والتنكيل بالا برياء .

لكن ينبغى ان نشـير بايجـاز الى ان اسلـوب القرامطة كان امتدادا لاسلوب صاحب الزنج فقـد أغار أبو سعيد الجنابى على نواحى هجر ، واقترب هو وأعوانه من البصرة فهزموا قائد المعتضد فى سنة 287 . وكان الجنابى يقتل الأسرى ويحرقهم . ولمـا بدأت جيوش العباسيين تنكل بالقرامطة فى سواد الكوفة ظهـر احد دعاتهم فى الشـام فى سنة 289 وزعم أنه محمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . وقد أطلق جماعة من أتباعه على أنفسهم اسم الفاطميين . وبدأ يهاجم العراق وأحرق مسجد الرصافة ، ثم انتشر القرامطة فى تلك السنة بسواد بغداد التى ستصبح بعد سنوات قليلـة ، مسرحا لأسطورة الحلاج .

ومن الطريف أن نجد من بين القرامطة رجلا كان يمكن أن يكون هو ايضا موضوعا لأسطورة كالحلاج نفسه ، وهو ابن ابى الفوارس الذى ادعى أن روح الله وروح أنبيائه قد حلت فيه لتعصمه من الزلـل ولتوفقه الى صالح العمل . فلما قبض عليه وأحضر بين يدى الخليفة المعتضد قال : « يا هـذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك ، وان حلت روح ابليس فما ينفعك ؟ فلا تسأل عما لا يعنيك . وسل عمـا يخصك » ثم جعل يجبـه الخليفـة بـأن العباسيين اغتصبوا الخلافة ، فأمر المعتضد بتعذيبه ، وقطع يديه ورجليه ، ثم قتل وصلب (2) . وكان لأهل بغداد فى قتل ابن ابى الفوارس أراجيف كثيرة . فقد قيل

---

1) انظر ردنا على جارودى ــ الهلال عدد يناير 1971 بعنوان : لاسلام والاشتراكية
2) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 185

انه قال لبعض من حضر مقتله من العوام ، وقد أوصاه بحفظ عمامته ، أنه سيعود بعد أربعين يوما . «فكان يجتمع فى كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الأيام ، ويقتتلون ، ويتناظرون فى الطرق فى ذلك . ثم تمت الأربعون ليلة فكثر لغط العامة » فكان بعضهم يقول هذا جسده ويقول آخر قد مر، وانما السلطان قتل رجلا آخر وصلبه موضعه لكيلا يفتتن الناس » وبعد عدة اعوام اعـــاد عوام بغداد هذا الخلاف فيما بينهم . بسبب مقتل الحلاج . فقد سمع أحدهم الحلاج وهو فى طريقه الى تنفيذ الحكم يقول لأتباعه لا تجزعوا . سأعود اليكم بعد ثلاثين يوما ، وقال ابن زنجى أنه سمع أنه قال بأنه سيعود بعد اربعين يوما (1) . ومهما يكن من امر فقد ظل أبو الفوارس مصلوبا فترة طويلة من الزمن بعد أن طلى جسمه بالصبر وغيره مـــن الأطلية القابضــة والماسكة ، ثم ضاق به أهل بغداد فأنزله جماعة من العامة من خشبته ، وجعلوا يتراقصون بجثته ويغنون وينادونه باسم الأستاذ ، ثم ألقوه فى النهر ، وألقى بعض العامة بأنفسهم وراءه فغرق منهم عدد كبـــير على نحو ما يروى لنا صاحب مروج الذهب .

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خراسان منذ سنة 285 هجرية لفترة امتدت نحوا من خمس سنوات كان شديد اللهفة على ظهور المهدى المتنظر فأخـذ يقسم بسنة 290 هجرية ، وهى السنة التى كـــان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضـا على نحو ما سنفصل القول فيه بعض التفصيل فيما بعد . وأيا ما كان الأمر فان تلـك السنة هى التى بلغت فيها ثورة القرامطة أوجها من العنف . فقـد حاصر القرامطة فيها دمشق وضيقوا عـــلى أهلهـا وأشرف كثير من أهل دمشق على الهلاك .

ولما قتل الحسين شيخ القرامطة فى الشام عـــلى باب دمشق اجتمع من بقى منهم على بيعة أخيه الحسن الذى سمى نفسه أحمد . ثم سار الى دمشق وصالح أهلها على خراج دفعوه اليه ، فانصرف عنهم ، واتجه الى حمص وقد لقب نفسه بالمهدى أمير المؤمنين » ولما اطاعه اهل حمص وفتحوا له بابها خوفا منه ، سار على حماة ومعرة النعمان وغيرهما ، فقتل أهلها وقتل النساء والصبيان ، ثم سار الى بعلبك فقتل عامــة أهلها .. ثم سار الى سلمية فمنعه اهلها ثم صالحهم، وأعطاهم الأمان ، ففتحوا له بابها ، فبدأ بمن فيهـا من بنى هاشم وكانوا جماعة فقتلهم اجمعين ، ثـم قتل البهائم والصبيان » (على نحو ما يفعل اليهود فى حروبهم) ثم خرج منها وليس بها عين تطرف » وفى الجملة ، سلك مسلك صاحب الزنج فجعـــل يخرب القرى ويسبى ويقتل ويحرق ، حتى جـاءت جيوش الخليفة المكتفى وأنزلت بالقرامطـــة بعض الهزائم واسرت زعيمهم الذى كان يلقب بأبى شامة، وحمل هذا القرمطى الى بغداد ومعه نفر من أصحابه فقطعت أيديهم وارجلهم ثم ضربت أعناقهم ، ورفعت رأس ابى شامة على خشبة ونصبت على الجسر .

لكن سرعان ما تجمع القرامطة عندما جاءهم كتاب من أحد زعمائهم ، وهو زكرويه ابن مهرويه يخبرهم

1) ماسينيون : كتاب الحلاج ج 1 ص 301

فيه أنه قد اوحى اليه « ان صاحب الشامة وأخـاه المعروف بالشيخ يقتلان ، وان امامه الذى هـو حى يظهر بعدهما ويظفر » وبدأت جيوش القرامطة تغير على دمشق من جديد ، وعلى طبرية . وقد فعلوا بهذه المدينة الأخيرة ما فعلوا بغيرها من قتل وسبى . ثم أعدوا عدتهم للاستيلاء على الكوفة واتجهوا اليهـا يحملون راياتهـم البيضاء وهى تشبـه رايـات الاسماعيلية فى لونها . فلما عجزوا عن فتحها ساروا الى القادسية ، وقد ادعى زكرويه أنه من أولياء الله ، وكان اتباعه متى رأوه سجدوا له كما كان يفعـل اتباع الحلاج وقد استطاع زكرويه أن يهـزم جيش الخليفة فى سنة 293 بعد أن نصب له كمينا وقتـل منه عددا كبيرا . ثم جعل القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج من أهل خراسان . وربما امكن تفسـير ذلك بانهم كانوا حريصين على جعل خراسان منطقة مغلقة لدعاتهم هناك حتى يتـم كسب الخراسانيين للدعوة الاسماعيلية» وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء ، فمن كلمهن قتلنه»(1) ثم جهز المكتفى الجيوش وقتل من القرامطة خلقـا كثيرا ، وأصيب زكرويه بضربة سيف فى رأسـه مات بعدها بخمسة أيام فنقلت جثته مـع أسرى القرامطة الى بغداد ، وحملت رأسه الى خراسان حتى لا ينقطع الحاج .

وفى أثناء الصراع بين القرامطة وخلفاء بغداد ظهر مدع آخر للربوبية سنة 289 ، ثم قبض على الحلاج فى 301 ، ويقول ابن الاثير عنه انه كان « مشعبـذا فى قول بعضهم وصاحب حقيقة فى قول بعضهم ، ومعه صاحب له ، فقيل انه يدعى الربوبية (2) وفيما بعد قال الامام الجوينى امام الحرمين ان الحلاج كان مـن دعاة القرامطة » وانه اتفق هو والجنابى وابن المقفع على افساد عقائد الناس ، وتفرقوا فى البلاد ، فكان الجنابى فى هجر والبحرين ، وابن المقفع ببلاد الترك ، ودخل الحلاج العراق » غير أن ابن خلكان الذى نقل كلام الجوينى يلاحظ أن ابن المقفع كان قبل الحـلاج بزمن طويل ، أى فى أيام السفاح والمنصور . ولذا نجد ابن كثير صاحب البداية والنهاية يصحح كلام امام الحرمين فيقول ان الثلاثة الذين اجتمعوا فى عصر واحد على اضلال الناس وافساد عقائدهم هم الحلاج وابن السمعانى ، وهو أبو جعفر بن محمد بن على ، وأبو طاهر سليمان بن أبى سعيد بن الحسن بن بهرام الجنابى القرمطى » (3) . ومهما يكن من شيء فقـد ظهر امر الحلاج وانتشر ذكره فى سنة 299 هـ .

غير أنه لم يكن لمقتل أبى سعيد الجنابى ولأربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد احد خدمه من الصقالبة فى سنة 301 هـ تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين . وأخذ القرامطة يقطعـون الطريق على الحجاج بعد خروجهم من مكة . وزادت حركة القرامطة عنفا عندما تزعمها أبو طاهر ابـن أبى سعيد الجنابى وكان فى السابعة عشرة من عمره

1) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 195 — 196

2) نفس المصدر

3) البداية والنهاية ج 11 ص 143 — 144 ، وماسينيون نفس المصدر ص 70

عند ما فتك بالحجاج العراقيون فى سنة 313،وعندئذ خرج نسوة العراق ممن قتل أزواجهن فى أثناء العودة من الحج ، وممن نكبهم ابن الفرات فى بغداد «وجعلن ينادين القرمطى أبو طاهر قتل المسلمين فى طريق مكة ، والقرمطى الكبير قد قتل المسلمين فى بغداد . وكانت صورة فظيعة شنيعة ، وكسر العامة منابر الجوامع وسووا المحاريب » (1) وعجز الخليفة وأعوانه عن الوقوف فى وجه القرامطة ، فدخل القرمطى الصغير الى الكوفة وارسل الى الخليفة يطلب منه البصرة والأهواز . فلما لم يلق جوابا نهب الكوفة ثم عاد الى هجر . وساءت أحوال الحكم فى بغداد . ثم سار أبو طاهر القرمطى الى الكوفة فى سنة 315 وهزم الجيوش التى حاولت الايقاع به واعوانه .

وهناك ظواهر ذات دلالة خاصة تشير الى وجود صلة وثيقة بين القرامطة وبين الفاطميين فى تلك الفترة الغامضة من تاريخ الدولة العباسية وقت احتضارها . فمن ذلك ما نقله الينا ابن الأثير من أن انسانا جاء الى أحد وزراء بغداد وأخبره بأن « فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب ابا طاهر بالأخبار . فأحضره وسأله ، واعترف ، وقال ما صحبت أبا طاهر الا لما صح عندى أنه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الخليفة) كفار تأخذون ما ليس لكم . ولا بد لله من حجة فى أرضه . وامامنا المهدى محمد بن فلان بن فلان بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب . ولسنا **كالرافضة والاثناء عشرية** الذين يقولون . بجهلهم ، ان لهم اماما

(1) الكامل لابن الاثير ج 8 ص 50

(2) نفس المصدر ج 8 ص 69

صلة وثيقة بين القرامطة وبين الفاطميين فى تلك وسمعته وهو يقرأ،ولا ينكرون،بجهلهم وغباوتهم،انه لا يجوز ان يعطى من العمر ما يظنونه ، فقال له : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم . فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف تطمع منى أن اسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك ! فأمر به فضرب ضربا شديدا . ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة ايام ! !

ومن ذلك أيضا ما روى من أن المهدى أرسل خطابا الى أبى طاهر القرمطى الصغير يلومه فيه ويعنفه . فان القرمطى هاجم مكة فى سنة 317 هـ فى يوم التروية فنهب هو وأصحابه أموال الحاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام . ثم خلع الحجر الاسود وأرسله الى هجر حيث ظل هناك أكثر من عشرين سنة . ثم قتل أمير مكة ومن معه من الأشراف ، والقى بالقتلى فى بئر زمزم . ودفن الآخرين فى المسجد الحرام بغير كفن ولا غسل ولا صلى على أحد منهم . ثم انتزع كسوة الكعبة وقسمها على أصحابه ونهب دور مكة . فلما « بلغ ذلك المهدى أبا محمد عبيد الله العلوى بافريقية ، كتب اليه ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه .. ويقول : قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا الكفر والالحاد بما فعلت . وان لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود الى مكة ، وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة .. (2)

لكن يبدو أن هذا السخط الذى أظهره المهدى لم يكن الا ظاهريا فحسب . بل ربما كان يخفى شيئا آخر اتفق عليه مع دعاة دولته . ذلك ان الدولة لم تكن قد استقرت تماما للفاطميين فى المغرب ، لقد تظاهر ابو طاهر انه سيرد الحجر الاسود وانه استرد ما يمكنه من اموال مكة أما كسوة الكعبة واموال الحجاج فقد اقتسمها الناس ولذا فلن يستطيع ردها ، ومهما يكن من شيء فقد احتفظ ابوطاهر القرمطى بالحجر الاسود فى هجر . ومات فى سنة 332 دون ان يرده . وظل الحجر الاسود فى حوزة القرامطة حتى سنة 338 ، ولما أعادوه فى تلك السنة ، قالوا : « أخذناه بأمر . وأعدناه بأمر » وقد ردوه دون عوض . بعد ان رفضوا رده مقابل 50,000 دينار » فلما أرادوا رده حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى رآه الناس ، ثم حملوه الى مكة وكان مكنه عندهم اثنتين وعشرين سنة» (1) غير اننا نلاحظ أنه لم يرد الا بعد القضاء على الدولة العباسية اذ لم يعد ثمة ما يوجب محاربة فريضة الحج بعد نجاح الدولة الاسماعيلية .

واذا بقى بعد ذلك ريب فى أمر الصلة بين القرامطة والدولة الفاطمية الاسماعيلية فى المغرب فلنا أن نذكر حدثا تريخيا له دلالته . وهو أن المعز لدين الله كتب الى أحد رؤساء القرامطة فى سنة 363 هـ ، أى بعد الانشقاق بين القرامطة والفاطميين . يذكره بتلك الصلة الوثيقة بين الطائفتين ، وذلك عند ما سار القرامطة وعلى رأسهم الحسن بن احمد بن الاحساء على مصر لحصارها . « فلما سمع المعز لدين الله صاحب مصر أنه يريد قصد مصر كتب اليه كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته . **وأن الدعوة واحدة** وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آبائه من قبله ، ووعظه وبالغ فى تهديده . وسير الكتاب اليه . فكتب جوابه : وصل كتابك الذى قل تحصيله ، وكثر تفصيله . ونحن سائرون اليك على أثره والسلام (2)

وهكذا لم يدب الشقاق بين القرامطة والفاطميين الا بعد تحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على دولة آل عباس . لكن الذى يعنينا هنا هو أن نفسر عنف القرامطة فى محاربة الحجاج والفتك بهم . وسنرى كيف اضطر « ماسينيون » . رغم محاولاته العديدة انكار الصلة بين الحلاج والقرامطة ، أن يعترف بأن الحلاج كان يريد ابطال فريضة الحج.ويبدو ان محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفا أساسيا من أهداف الدعوة الفاطمية . فقد تجددت هذه المحاولة حتى بعد انهاء حركة القرامطة بزمن طويل . فقد روى لنا ابن الأثير فى أثناء كلامه عن حوادث سنة 414 هـ أن رجلا من مصر قام بعد صلاة الامام فى المسجد الحرام ، وباحدى يديه سيف مسلول وفى الأخرى دبوس » فقصد ذلك الرجل الحجر الأسود كأنه يستلمه . فضرب الرجل الحجر ثلاث ضربات بالدبوس وقال الى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلى ؟ فليمنعنى مانع من هذا .

1) نفس المصدر ج 8 ص 175
2) نفس المصدر ج 8 ص 229

فانى أريد هدم البيت . فخاف أكثـــر الحاضرين ، وتراجعوا عنه . وكاد يفلت . فثار به رجل فضربه بخنجر ، وقطعه الناس وأحرقوه . وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة وأحرقوا ، وثارت فتنة .. والـح الناس ، ذلك اليوم . على المغاربة والمصريين بالنهب .. فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا ، وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل . فقالوا نحن مائة . فضربت أعناق هؤلاء الأربعة » (١) .

كذلك لم تنقطع ظاهرة ادعاء الربوبية بعد مقتل الحلاج فقد ادعاها الشلفانى لنفسه . ثم ادعاها أحد الحلاجية فى القرن الخامس الهجرى كما أشرنـا الى ذلك من قبل . ويمكن القول بان هاتين الظاهرتين أعنى ظاهرة ابطالفريضة الحجوظاهرة ادعاء الالوهية هما الظاهرتان الغالبتان فى المجال الدينى طيلـة القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد جمع الحلاج بين هذين الأمرين ، ثم اختلف الناس فى تفسـير مقتله ، أكان بسبب محاولته اسقاط فريضة الحج ، أم كان بسبب ادعائه للألوهية ؟ لكن يبدو أنه كان يريد الأمرين معا ، فانه يصرح بأنه يدين بمذهب الحلول ، ويعترف بأنه يريد صرف الناس عن الحج أليس هو الذى يقول :

على ديـــن الصليب يكـــون موتى
ولا البطحا اريـد ولا المدينة ؟

فهو ، عندما يجمع بين الأمرين ، لا يفعل سوى أن يسير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطـة والدعوة الفاطمية ، وان استعان فى سيرته هـــذه بالسحر والتصوف فى الوقت نفسه ، على نحو ما يعترف له بذلك أنصاره وخصومه ، وعلى نحو مـا سنكشف من جانبنا عن حقيقة صلته بالقرامطـــة من دراسة لويس ماسينيون فى مقال آخر .

١) نفس المصدر ج ٩ ص ١١٤ ــ ١١٥



نظـرية العصبـــية عنـد

ابن خلـدون وابن الازرق

الحسن السايح
الرباط ـ المغرب

يزعم كثير من المستشرقـين ان المؤرخـين المغاربة لـم يهتموا بتاريخ البادية المغربية وهى التى لا يمكن أن يتجاهل احد أهميتها فى فهم حركة تاريخ المغرب ، ويستدلون على ذلك بقلة الوثائق فى هذا الموضوع بالذات . والواقع ان المؤرخـين المغاربة لم يغفلوا عن تدوين كثير من أحداث البادية غـير أن المؤلفين الذين صرفوا جهدهم لهذه الناحية من التاريخ هـــم أصحاب الرحلات وعلماء الانســـاب والمترجمـون للقبائـل وأنسابها وصلحائها .

وقد يكون عمل المؤرخين المغاربة قليلا بالنسبة لما اضطلع به المؤرخون العرب للبادية العربية حيث كانوا يتقصون أخبار البادية لمعرفة اللغة واستخراج قواعد النحو بالاعتماد على السماع اللغوى ، أما المؤرخون المغاربة فكان عملهم يرمى الى استقصاء الانساب ومعرفة الرجال ، ثم تسجيل الاحداث التاريخية فى هذا الاطار ثم تجاوزوا ذلك الى تحليل العلاقة بين البادية والحاضرة ، وأقاموا على ذلك فلسفة العصبية وظهورها فى البادية وتفسخها فى الحواضر، كما فعل ابن خلدون وشراح نظريته من بعده ولم يكن جورج مارسى منصفا حين ذكر فى كتابه Les Arabes en Berberie بأن تاريخ المغرب هو تاريخ بواديه نفسه ، ولهذا فهو لم يغر المؤرخين العرب مستدلا على ذلك بقلة الوثائق .. وهذا خطأ فى استقراء عمل المؤرخين المغاربة لأن تاريخ المغرب هو تاريخ البادية والحاضرة معا ، ولأن المؤرخين المغاربة كتبوا عن البادية فى غير المصادر التى ألفها المستشرقين ككتب الرحلات والفهارس والفتاوى والتراجم بل استفاد المستشرقون أنفسهم من ذلك كما هو واضح فيما كتبه R. Montegne وما كتبه J. Berttre وغير ذلك من الكتب المهتمة بهذا الموضوع .

وقد اعتمد هؤلاء جميعا على المصادر المغربية ، وجعلوها نواة لدارسة حديثة .. ولا شك أن المؤرخ ابن خلدون اعتمد على مصادر كثيرة من المؤلفات القديمة عن القبائل البدوية فيما ألفه فى تاريخيه ولا يهمنا ان نستقصى مصادره ومظانه،وانما نريد ان نذكر خلاصة تجربته وفلسفته فى موضوع الحضر والبدو ونقارن عمله بما كتبه ابن‌الازرق وابن خلدون يخصص الفصل الأول من الباب الثانى فى مقدمته للكلام على العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض فى ذلك من الأحوال ، وهو فى هذا الفصل يتناول بالدرس حقيقة البادية والحاضرة ، واقدمية البدو على الحضر وطبيعة أهل البادية من الخير والشجاعة ، وأسباب فساد طبيعة أهل الحضر ويقارن بين المجتمع الحضرى والمجتمع البدوى ، وضرورة العصبية للبادية ، وتفسير العصبية والنسب واختلافه وكيف تكون الرياسة فى أهل العصبية ولأهل الموالى مع تعريف الحسب وأثره فى تكوين العصبية ثم الرجوع الى اثر الامم الوحشية فى التغلب وهدفه الذى هو الملك ثم بيان علاقة الملك بالتنافس فى الخلل الحميدة وأخيرا يطبق ابن خلدون هذه النظرية على العرب مبينا أنهم لا يتغلبون الا على البسائط وكيف يعاجلونها ، ثم كيف يحصلون على الملك بصبغة نبوة أو رئاسة أو ولاية ، ثم يرجع للبادية من جديد مبينا أسباب تغلب أهل الامصار على البوادى ثم يوضح ابن خلدون فى الفصل الثالث ضرورة العصبية للملك ومتى يستغنى عنها ، وأثر الدين فى العصبية ، الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب كيف لا تستحكم فيها الدولة مع بيان عمر الدولة وكيف تنتقل من البداوة الى الحضارة .

وقد ظلت اصطلاحات ابن خلدون لا تكاد تفهم لجدتها وحداثتها ، ولان المؤلف لم يكلف نفسه عناء شرحها ، ولهذا بقيت كلمة (العصبية) و (العروبة) و (الاجتماع) وغيرهما من الكلمات ذات الابعاد والاحتمالات العديدة بالنسبة للمستشرقين بالاخص

اذا كان ابن خلدون يرجع فى أرائه لاستنتاجات كثير من الفلاسفة والمؤرخين الذين سبقوه . ويستعمل اصطلاحات لغوية ذات أصول فى اللغة العربية ، فالواقع أنه أضفى عليها معنى جديدا .. ، فكلمة العصبية مأخوذة من العصبة .. كما (جاء فى سورة يوسف ونحن عصبة) غير أنها عند ابن خلدون تدل على رابطة القرابة والنسب والولاء والحلف والاصطناع وعلى اساسها تلتحم الحياة الاجتماعية ، وقد بنى ابن خلدون فلسفته السياسية على العصبية ومراحلها الاجتماعية ودورها السياسى وعلاقتها بالدولة والديانة والملك والدعوة . واختلف المترجمون فى مدلولها وترجمتها من (دوسلان) الى غيره . كما ان كلمة (العرب) المستعملة عند ابن خلدون تختلف بمفهوم الجنس والاجتماع واللغة (فالعرب) عنده تعنى البدو والاعراب ، لا بمعنى الاصطلاح القديم المفرق بين العرب والاعراب ، ولا بالمفهوم الجنسى الحديث . وقد استعمل ابن خلدون كلمة العرب أو العربى فى عدة مواضيع من المقدمة . لم يستعمل الاعراب والاعرابى الا فى بضعة مواضيع أخرى وهو يستعمل العرب بمعنى سكان البادية ، وفى التاريخ نفسه يستعمل العرب بمعنى سكان البادية بالمفهوم الاجتماعى لا بالمفهوم الجنسى وكذلك يستعمل العرب بمعنى الاعراب أى البدو ، وخالف ابن خلدون مؤرخى العرب فى تقسيم العرب الى ثلاث طبقات . وهى البادية والعاربة . والمستعربة ، فقسمهم الى أربع طبقات ، وهى العاربة ، والمتعربة . والتابعة والمستعجمة . ويريد بالمستعجمة القبائل البدوية . وعلى هذا فالعرب عند ابن خلدون هم الاعراب ومنهم العرب كما ترجمها دوسلان ومعظم عبارات ابن خلدون فى العرب تمثل البربر والاكراد والتركمان كذلك صراحة او ضمنا واذا كانت مصطلحات ابن خلدون فى حاجة الى الشرح . وان الفلسفة الخلدونية ظهرت واضحة فى كتابه القيم ــ المقدمة ــ ولم تكن النظريات الخلدونية فى تفسير التاريخ فى حاجة الى معاجم لتصبح مفهومة واضحة عند معاصريه ، لان ابن خلدون له من القدرة على التعبير ما جعل أفكاره واضحة مفسرة فى كتابه ... غير ان المستشرقين أسرفوا فى اتهام عصر ابن خلدون بالجمود الفكرى متغافلين ان هذا العصر عرف أكبر نكبة فى العالم العربى والاسلامى ، وهى سقوط غرناطة التى بدأ معها سقوط العالم الاسلامى كله ، وبذلك صرف الناس اهتمامهم عن الدراسات العلمية (بعد أن عجزت عن انقاذهم) الى التبتلات الصوفية كما يفعل المريض ساعة الاحتضار ... ورغم ذلك كله فقد عرف عصر ابن خلدون كتابا اهتموا (بالمقدمة) وعلى رأسهم القاضى ابن الازرق 832 ــ 896 مؤلف كتاب بدائع السلك فى نظام الملك ... (أو بدائع السلوك فى نظام الملوك) وهو تحليل وشرح لفلسفة ابن خلدون وتوضيح لبعض نظرياته ... وقد استعمل ابن الازرق نفس الاصطلاحات الخلدونية واعطى للكلمات تفسيرات واضحة لا تدع مجالا للشك أن ابن الازرق عرف الخلدونية حق المعرفة وتجاوزها الى مصادرها . وكابن السكاك محمد بن الاغالب ، المكناسى الاصل الفاسى الدراسة المتوفى سنة 818 هـ 1406 مؤلف كتاب الاساليب وكتاب نصح ملوك الاسلام.. واذا رجعنا الى ابن الازرق فنحن نراه يخص (المقدمة) الاولى من كتابه لنفس الموضوع أى

البدواة والحضارة والعصبية ، ولكنه يربط ذلك بنتيجة العصبية فيقول (المقدمة الاولى فى نقرير ما يوطىء للنظر فى الملك عقلا) وتشمل هذه المقدمة عشرين سابقة ٠

واذا فابن خلدون خصص فى الباب الثانى من المقدمة تسعة وعشرين فصلا لهذا الموضوع ثم أعقبه فى الكتاب الثانى فى الدول العامة والملك والخلافة وأعراض السلطانة وما يعرض فى ذلك كله من الأحوال . وفى هذا الكتاب تكلم عن الملك وحصوله بالعصبية ومتى يمكن الاستغناء عنها ، وأثر النبوة والدين فى العصبية وعدم جدوى الدعوة الدينية دون عصبية ٠٠٠ اما ابن الأزرق فقد اختصر الباب الثانى فى (عشرين سابقة) وجعل الكتاب الاول فى حقيقة الملك والخلافة وقسمه الى سوابق تتناول حقيقة الملك والخلافة والعصبية وغير ذلك من الابحاث بأسلوب جديد وتنسيق محكم . واذا تجاوزنا الاطار الى التحليل.فابن الازرق يختصر فصول المقدمة ويرتبها ترتيبا آخر متسلسلا ، فهو يذكر فى السابقة الاولى فى الاجتماع الانسانى ويفسره بانه هو (عمران العالم . ويرى ضرورته ، ومن تم قال الحكماء ان الانسان مدنى بالطبع أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية عندهم . يحفظ به وجوده وبقاء نوعه اذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه واعداد ما يدفع به عن نفسه دون معين من أبناء جنسه فيضطر الى اجتماع يتكفل له بذلك على أيسر مرام لتتم حمكة ايجاده وغاية ما خلق له) ٠

ويذكر فى السابقة الثانية أن من العوارض الطبيعية لهذا الاجتماع أمورا خمسة (أولها) البدو، وهو الذى يكون فى الضواحى والجبال الى آخر التعريف وفى السابقة الثانية يتكلم عن أسباب انقسام العمران ٠ ثم يأخذ فى بيان تقدم أسباب العمران الى أن ينتهى الى العصبية فيفسرها ويتحدث عن نتائجها ٠٠٠ ويفسر ابن الازرق العصبية بقوله : ولا يصدق ذلك الا اذا كانوا ذوى عصبية مشتبكة وأهل تشييع واحد ، وحينئذ تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم لما جبل فى القلوب من الشفقة والنعرة على ذوى الرحم والقرابة . ومن تم قال أخوة يوسف عليه السلام (لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون) والمفترقون فى النسب قل أن يجد أحد منهم نعرة على صاحبه يوم الكفاح على حد ما هى من ذوى الارحام ، فلا يقدرون لذلك على سكنى القفر والا كانوا فريسة من سواهم ٠٠ وبعد أن يتم ابن الازرق الكلام على العصبية مبينا أنها انما تحصل بالتحام نسب أو ما فى معناه كالولاء والحلف ، وان الرياسة على أهل العصبية لا تكون فى غير نسبهم وأن شرف البيت فى الحقيقة لأهل العصبية ولغيرهم بالمجاز . ثم يتكلم على معنى الحسب ونهايته . يعود الى قدرة الامم الوحشية على التغلب ٠٠٠ وأخيرا يصل الى (العرب) فيذكر أنهم لا يتغلبون الا على البسائط واذا تغلبوا عليها أسرع الخراب اليها لأن طبيعة التوحيش تنافر العمران ، ولأن غاية الأحوال عندهم هى الرحلة والتغلب ، ولأنهم يكلفون على أهل الصنائع أعمالا لا يرون لها قيمة ولا استحقاقا ولأنهم لا عناية لهم بالأحكام الواجبة شرعا وسياسة. وكذلك لأجل تنافسهم فى الرياسة ويختم ابن الازرق هذا الفصل بملاحظة تحت عنوان (تعيين) قال (ابن ابى خلدون) وهؤلاء العرب وفى معناهم ظواعن البربر وزناتة بالمغرب . والاكراد والتركمان بالمشرق قال الا أن العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لاختصاصهم بالقيام على الابل فقط ، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاه والبقر ، وبه يتبين أن جيل العرب طبيعى لابد منه ٠ ومن هذا الفصل تعرف أسلوب ابن الازرق فى شرح المقدمة أى أنه يختصرها ويرتبها ترتيبا جديدا متساوما ومتكاملا . فاهما اصطلاحات ابن خلدون ! حق الفهم ٠



الأرض والهجرة

د. عمار بوحوش

استاذ بكلية الحقوق

هناك اختلاف بسيط بين سياسة الجمهوريين وسياسية نابليون الثالث · فبينما اختار قادة النظام الجمهورى هجرة المدنيين ومساعدتهم على استثمار الاراضى الشاسعة ، نجد ان لويس نابليون قد اختار « هجرة رؤوس الأموال » وخاصة فيما بين ١٨٥٨ ـ ١٨٥١ · وخلاصة فكرته ان الهجرة يجب ان تتم على اوسع نطاق ممكن وان الشركات فى امكانها ان تحصل على امتيازات واراضى خصبة مقابل بناء مساكن للمهاجرين الفرنسيين الى الأراضى الجزائرية · ونتج عن هذه السياسة تغير ملحوظ فى العدد وفى نوع المهاجرين الجدد · فمن سنة ١٨٥١ ارتفع عدد المهاجرين الاوروبيين من ١٣١٠٠٠ الى ١٨١٠٠٠ نسمة · ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان نصف المهاجرين الى الجزائر ينتمون الى فرنسا ·

اما النصف الآخر فيحملون جنسيات مختلفة . وكانت هذه فاتحة عهد جديد بالنسبة للمهاجرين الاجانب الذين بداوا يدخلون الى الجزائر افواجا وكانهم فى تسابق مع الفرنسيين لتوطيد قدمهم فى أرض الجزائر . ومما يلاحظ فى هذا الشان ، أن عدد الاسبانيين والاطاليين القادمين الى الجزائر قد بلغ ١٥٥،٧٣٥ نسمة سنة ١٨٧٦ وعدد الفرنسيين الذى وصل الى ١٥٥،٧٢٧ ياتى فى الدرجة الثانية . (٢٨) وترتب عن هذا السباق الى الهجرة بين الفرنسيين والاقليات الاجنبية الأخرى زيادة فى الاقبال على أخذ الارض ومزاحمة الجزائر بين ميدان الفلاحة الذى كان هو مصدر العيش بالنسبة لما لا يقل عن ثلاثة ارباع الشعب . ويذكر المؤرخ الفرنسى الشهير جوليان أن بعض العائلات الجزائرية التى تقطن بشرق الجزائر قد فقدت ما يتراوح بين ٤٠ و ٨٥ ٪ من أراضيها (٢٩) .

ثم أن لويس نابليون ، الذى كان يحاول أن يظهر بمثابة الحاكم المنصف ، قد عكر علاقته مع المعمرين الاوروبين فى الجزائر دون أن يتجرأ على تحديد العلاقات التى تربط بينهم وبين أهل البلد الاصليين . فابتداء من ديسمبر ١٨٥١ ، وهو تاريخ الانقلاب الذى قام به للاستيلاء على الحكم فى فرنسا ، ونابليون الثالث يسعى لأدخال تعديل على النظام الذى اقرته الحكومات الفرنسية السابقة بالجزائر .

فمن جهة ، ارجع السلطة الى القيادة العسكرية بالجزائر وذلك بتعيين الجنرال راندون حاكما عاما ، من سنة ١٨٥١ ـ ١٨٥٨ . واكثر من هذا ، أثار الامبراطور الفرنسى مخاوف الجالية الاوروبية بالجزائر عند ما جردهم من حقهم فى اختيار ممثلين ينوبون عنهم فى مجلس النواب الفرنسى ، كما فعل فى دستوره الجديد الذى ظهر فى جانفى ١٨٥٢ (٣٠) .

ومن جهة أخرى عمل ، باتفاق مع الحاكم العام بالجزائر ، على ترضية المهاجرين الأوروبيين وقدم اليهم مساعدات لم يحلموا بها من قبل . ففى مرسوم صدر أواخر سنة ١٨٥١ ، بعث الحاكم العام بتعليمات للولاة فى القطر الجزائرى وطلب منهم ان تمنح فورا ، لكل معمر اوروبى مساحة من الاراضى بشرط أن لا تزيد عن ٥٠ هكتارا.وجاء فى تعليماته للولاة أن الاراضى تعطى مجانا وبدون تأخر . ونظرا لاقبال الأوروبيين على اخذ نصيبهم ، فان الاراضى الموجودة فى حوزة الدولة قد نفذت بسرعة ، وآنذاك لجأ الجنرال « روندون » الى اتباع سياسة جديدة تكفل له الحصول على المزيد من أراضى العشائر والشخصيات الجزائرية . وقد اطلق على خطته الجديدة سياسة « الأقلية Cantonnement أو تجزئة الاراضى الى قطع صغيرة بحيث لا يترك لاية قبيلة الا الجزء الذى تحرثه للحصول على قوت افرادها وما زاد عن ذلك تتخلى عنه لأيواء المهاجرين الاوروبيين (٣١) . وحسب تقدير الخبراء ، فان سياسة راندون التوسعية قد مهدت الطريق لا ستيلاء الحكومة على ما لا يقل عن ١،٥٠٠،٠٠٠ هكتار (٣٢) .

والسبب فى اتباع سياسة الاستعمار الراسمالى واقامة مراكز الاستيطان للجالية الاوروبية يرجع بالدرجة الأولى الى رغبة نابليون الثالث فى ترضية جميع العناصر التى كان يخشى أن تشكل خطرا على سلطته . وأول فئة كان يسعى الى تلبية مطالبها هى الجالية الاوروبية التى بقيت مرتبكة وغير قادرة على استثمار الأراضى التى فى حوزتها وذلك نظرا لخوفها من هجمات اصحاب الارض الاصليين أو الوطنيين الذين يحبذون مواصلة المعركة حتى النهاية . وبما انه من الصعب على حكومة لويس نابليون تزويد كل مستوطن أوروبى بقوات عسكرية تحميه وتتيح له

فرصة زراعة الارض ، فقد استقر رايه على اقامة مراكز الاستيطان وتشجيع كل معمر على استغلال الاراضى الخصبة التى فى حوزته • وهذا العمل يقود الى نتيجة اخرى الا وهى ايجاد العمل لأبناء البلد الأصليين • وبذلك تستطيع السياسة النابوليونية تجنب ثورة الطبقة الكادحة التى تعتبر الارض مصدر الرزق ، من جهة ، ودفع الاوروبيين الى العمل المنتج بدلا من الاعتماد على أموال الدولة الفرنسية لتغطية تكاليف اقامتهم • واكثر من هذا ، فان توفر ايد عاملة تتقاضى اجورا بسيطة يعتبر نعمة بالنسبة للاقتصاد الفرنسى • ولهذا فلا ينبغى أن يتوانى المعمرون الجدد فى تسخير هذه الطاقة الانسانية الهائلة لمصلحتهم ومصلحة فرنسا بالجزائر •

ويلاحظ أن الجيش الفرنسى كان يسعى هو الآخر لاظهار عبقرية قادته ، الذين ينظر اليهم الشعب الفرنسى نظرة ازدراء ويعتبرهم آلة مسخرة لخدمة اغراض الشخصيات السياسية • ولذا نجدهم هذه المرة قد عقدوا العزم على مساعدة المعمرين المدنيين واسكات الذين يروجون دعايات مغرضة ضد سياسة الحكم العسكرى فى الجزائر • كما حاولوا التقرب والتفاهم مع الجزائريين وذلك حتى يتسنى لضباط الجيش الفرنسى أن يحصلوا على ثقة اهل البلد الأصليين ويقيموا بافريقيا « فرنسا الجديدة » •

ولكن مجهودات قادة الجيش الفرنسى لم تكلل بالنجاح حيث أن التعاون الذى حاولوا اقامته مع ابناء الجزائر كان صوريا فقط والغرض منه خلق جبهة موحدة ضد المعمرين الذين يتنافسون معهم على كرس القيادة فى الجزائر • وانتهز لويس نابليون فرصة كشف الستار عن بعض الفضائح التى وقعت فى صفوف بعض الجزائريين الموالين لفرنسا الذين كانوا ينتمون الى شبكة التجسس لمصلحة الجيش الفرنسى او ما نسميهم بـ « *المكاتب العربيه* » وامر بتغيير نوع الحكم فى الجزائر • ففى يوم ٢١ ابريل ١٨٥٨ ، بدا حلقة جديدة من سلسلة مغامراته باوروبا وافريقيا • لقد اقدم فى ذلك اليوم على اخلاء كرسى الزعامة فى الجزائر من الطرفين المتنازعين عليه ، واجلس عليه ابن عمه الامير جيروم PrinceGérôme ثم لطلق عليه لقب « وزير الجزائر والمستعمرات » • وتوج قرارته الصادرة يوم ٢١ ابريل ١٨٥٨ بزيارة مجاملة الى الجزائر حيث أراد أن يتطلع بنفسه على سير الأمور هناك ويتعرف على ابناء رعيته من العرب • ثم عاد الى باريس وهو مخلوب اللب بالشعب العربى و عاداته (٣٣) وقد لوحظ انه تاثر كثيرا بالحالة البئسة التى كان فيها العرب بالجزائر وقال انه من غير الانصاف عدم « حماية الجزائر من هجومات الأجانب » • وانساق وراء عواطفه وشعوره بالعظمة واعلن بكل جراءة أن الجزائر ليست مستعمرة ولكنها مملكة عربية • وبناء على ذلك ، قال نابليون الثالث : « ان اهل البلد الأصليين بالجزائر لهم حق التمتع برعايتى واننى اعتبر نفسى امبراطور العرب ، تماما كما اننى امبراطور الفرنسيين » • ثم اوضح بأن واجب الفرنسيين هو « اقناع العرب بأن الهدف من مجيئنا ليس هو تعريتهم وانما تقديم مزايا التمدن والتقدم الانسانى اليهم » •

ولم يمض الا وقت قصير على هذه التصريحات حتى بدا الامبراطور يدرك عدم مقدرته على مجابهة الضغوط المتوالية عليه من طرف قادة الجيش والمعمرين بالجزائر بشأن التخلى عن اقامة مملكة عربية ذيلا لامبراطوريته • وبالفعل ، فقد عدل عن مشروعه السابق واصدر يوم ١٠ سبتمبر ١٨٦٠ مرسوما يقضى باعادة السلطة الى يد الحاكم العام العسكرى فى الجزائر • وفى الحال ، تم تعيين

الماريشال بيليسي فى هذا المنصب الجديد ٠ وباستثناء أمور العدالة والتعليم العمومى والشؤون الدينية التى الحقت بالوزارات المختلفة بباريس ، فان الحاكم العسكرى أصبح هو المكلف بجميع الأمور العسكرية والمدنية فى الجزائر ٠ وبايجاز ، فقد صعد الى كرسى القيادة وهو يتمتع بالصلاحيات الآتية التى وضعت مصير البلد فى يده :

١ ـ أن يكون الحاكم الجديد ، غير تابع لوزير العدلية كما كان الحال فى السابق ، وان تتم المفاهمات والاتصلات بينه وبين وزير الحربية بطريقة مباشرة ٠

٢ ـ ان يقوم القائد العسكرى الجديد بتحضير واعداد ميزانية الجزائر ٠

٣ ـ أن يقرر نوعية جباية الضرائب التى تفرض على المنتجين والمتملكين ٠

٤ ـ أن يتكفل بمراقبة كل قضية تتعلق بكل تسليف لاجل قصير أو قرض طويل المدى (٣٤) ٠

وجاءت هذه القرارات بمثابة صدمة للمستوطنين الأوروبيين بالجزائر ٠ فاعادة قائد عسكرى الى كرسى القيادة اقنعهم بعدم جدوى مساعيهم لابعاد قادة الجيش من الجزائر واستيلائهم على زمام الأمور هناك ٠ ولكن الشيىء المحزن ، بالنسبة للجالية الاوروبية بالجزائر ، هو امكانية تجديد التحالف بين الجيش والجزائريين ومضايقتهم ٠ ومما زاد فى مخاوفهم، قرار الامبراطور الفرنسى المؤرخ فى ٢٢ ابريل ١٨٦٣ الذى ينص على اعادة توزيع أراضى الأحواز الى اصحابها الاصليين (٣٥) ٠ ويعتبر هذا المشروع الذى اطلق عليه نابليون الثالث اسم « قرار مشيخى Senatus Consulate تراجعا فى قراراته السابقة التى اعدها سنة ١٨٥٨ واصبح بمقتضاها من حق الدولة أن تستولى على أراضى الحبس والعشائر التى يتجاوز حجمها ما يحتاجه الافراد المعنيون بتلك الأرض ٠ ثم ان رغبة نابليون الثالث فى السماح للجزائريين الاحتفاظ بالاراضى التى فى حوزتهم قد جابهت المعمرين فى الجزائر بالحقيقة المرة وهى أن الباب أصبح مغلوقا فى وجه المهاجرين الذين قد لا يستطيعون ، من الآن فصاعدا ، انتزاع الاراضى الخصبة من أهل البلد (٣٦) ٠ ومما زاد الوضع تعقيدا ، اصرار الامبراطور على رفض الدولة لتمويل مشاريع الاستثمار ، وخاصة تلك التى تتعلق بتدعيم مصالح المعمرين التجارية والعمرانية ، وحثه ، للمهاجرين الاوروبيين بايجاد رؤوس الأموال الخاصة لتدعيم أعمالهم (٣٧) ٠

ومن كل هذا بدا يتضح للجالية الاوروبية بالجزائر أن مقاومة الامبراطور أو الدخول فى صراع معه ليس فى مصلحتهم ابدا ٠ ولهذا ركنوا الى العمل بجهد وصمت وأخذوا يترقبون ذلك اليوم الذى تواتيهم فيه الظروف لتغيير مجرى الأحداث ٠ ومما ضاعف فى أملهم ان انتظارهم لن يطول ، تدهور الوضع السياسى باوروبا وتضايق الراى العام الفرنسى من سياسة حكومة نابليون الثالث المتزمته ٠ هذا بالاضافة الى ان فرنسا قد تمركزت بالجزائر وان مهمة الجيش قد اوشكت على الانتهاء٠ وبالفعل ، فقد استقبلت الجالية الاوروبية ببرودة اعصاب القرار الذى اتخذه الامبراطور يوم ٧ جويلية ١٨٦٤ والقاضى بالغاء منصب مدير الشؤون المدنية وتبعية الاعمال التى يقوم بها الولاة الى الجنرالات العسكريين فى كل ولاية (٣٨) ٠ ولم يثيروا ايه ضجة ، كعادتهم ، حينما عمد الامبراطور الفرنسى الى تشديد قبضة الجيش على المواطنين الجزائريين سنة ١٨٦٧ ٠ ففى هذه الفترة وجد نابليون الثالث أنه من مصلحته التخلى عن فكرة حماية ابناء « مملكته العربية » فى شمال افريقيا ومناصرة الضباط

العسكريين الذين اصبحوا اداة فعالة لتاديب المتمردين على سياسة الامبراطورية · ومن جملة الخدمات التى قدمها لهم تزويد « المكاتب العربية بالمزيد من النفوذ والسلطة وذلك حتى يتمكن الجيش من فرض سيطرته على ابناء البلد الأصليين والمعمرين المدنيين معا ·

الا أن سياسة تجنب الدخول فى صراع مع نابليون الثالث لا تعنى تخلى الجالية الاوربية عن فكرتهم الاساسية فى ابعاد القادة العسكريين من الحكم واستلام زمام القيادة بالجزائر · فنظرا لشعورهم بالضعف وعدم قدرتهم على مواجهة الجيش بالجزائر . قرروا نقل المعركة الى باريس حيث ضموا اصواتهم الى خصوم الامبراطور وحاولوا تلويث سمعة حكومته واتهامه بالدكتاتورية· وتركزت حملتهم بصفة خاصة على مستقبل الفرنسيين المغتربين وكيفية تذليل العقبات التى تعترض سبيل اقامتهم بالجزائر · ووجدت هذه الفكرة تجاوبا من طرف بعض القادة الباريسيين الذين تطوعوا للدفاع عن قضايا الجالية الاوربية بالجزائر · وكانت الشخصية الفرنسية البارزة التى تزعمت حركة الدفاع عن مصالح الجالية الاوربية فى مجلس النواب الفرنسى هىسيادة جول سيمون Jules Simon الذى هو احد قادة حزب الجمهورية (٣٩)وفجأة بدأ الراى العام الفرنسى يظهر عداوته للحكم العسكرى بالجزائر ، خاصة وأن شخصية فرنسية مرموقة ، مثل Prevost-Parédol قد اظهرت حماسا لقضية الجالية الفرنسية بالجزائر وشنت حملة واسعة النطاق فى La France Nouvelleالتى شرح فيها انواع القساوة التى يتعرض لها هؤلاء الفرنسيين الغرباء · وفى رأى قائد هذه الحركة ان الجزائر يجب أن لا تكون « معسكر لتمرينات جيشنا ··· لكن ارض مسكونة ومملوكة ومحروثة من طرف الفرنسيين » (٤٠) ·

ثم انضم الى صف المهاجرين الفرنسيين رجال الكنيسة الذين شعروا أن سبب فشلهم فى تحويل الجزائريين الى مسيحيين يعود الى عدم تعاون القادة العسكريين معهم خاصة وأن اسقف الجزائر العاصمة لافيجرى الذى تزعم حركة الدعوة المسيحية قد اصبح شبه مقتنع بأن الجيش هو الذى حال دون قيام دولة مسيحية بالجزائر (٤١) · وبالاضافة الى هذه التجمعات المناهضة لنفوذ الجيش بالجزائر ، فقد حدثت مجاعة مخيفة سنة ١٨٦٧ وذهب ضحيتها نصف مليون جزائرى (٤٢) · وادت هذه الكارثة الى اعطاء فكرة سيئة للراى العام الفرنسى عن الوضعية بالجزائر واجراء تحقيق حول الموضوع ·

واستجابة للضغط المتزايد عليه ، امر نابليون الثالث فى ابريل ١٨٦٨ بتكوين لجنة برلمانية وكلفها بمهمة استطلاعية فى الجزائر · واثناء اقامة اللجنة بالجزائر ، استطاع رئيسها ، السيد Le Comte Le Hon الصديق الروحى للامبراطور ، أن يتفهم نفسية الجالية الاوربية ويقدم تقريرا مفصلا عن مطالبهم الى مجلس النواب الفرنسى · ويبدو انه كان مقتنعا مقدما بأن الحل الوحيد لاسكات المعمرين والتغلب على معارضتهم هوالاستجابة لرغباتهم · ومما جاء فى الوثيقة التى قدمها الى مجلس النواب الفرنسى الاقتراحات التالية :

١ ـ توسيع رقعة الأراضى التى تخضع للنظام المدنى ·

٢ ـ الغاء « المكاتب العربية التابعة للجيش ·

٣ ـ تقسيم أراضى الاعراش أو الأراضى التى تخضع للملكية الجماعية ولا تباع الا باتفاق جميع الافراد الذين يهمهم الأمر ·

٤ ـ السماح بتكوين الملكية الفردية ٠
٥ ـ التخلص من قادة العرب الاستقراطيين ٠
٦ ـ عدم استعمال الشريعة الاسلامية التى يتبعها القضاة وتطبيق قوانين العدالة الفرنسية على جميع القاطنين بالجزائر ٠
٧ ـ تكوين هياة محلفين من الفرنسيين للنظر فى الاعمال الجنائية (٤٣) ٠ وبالاضافة الى هذه الاقتراحات المقدمة من طرف اللجنة البرلمانية تقدم المعمرون من جهتهم ببعض الاستثناءات التى يعفون بمقتضاها من القوانين الفرنسية :
١ ـ لاضرائب على الأرض والممتلكات الاخرى
٢ ـ الاعفاء من الخدمة العسكرية
٣ ـ فرض ضرائب على أهل البلد الأصليين ٠
٤ ـ خضوع المسلمين الجزائريين للقوانين الفرنسية وتطبيقها عليهم فى جميع الحالات (٤٤) ٠ وقد وصف احد المعمرين ، واسمه De Montebello ،مقترحات اللجنة البرلمانية بانها تهدف الى تحقيق « الادماج الذى هو لصالح الفرنسيين فقط ٠ فالمسلمون لا يرغبون فى اى شيىء ولديهم كل ما يحتاجون ٠ ان الفرنسيين ليست لديهم نية اقتسام امتيازاتهم او سلطتهم مع اجناس يرغبون فى ان يتزلوا بنا الى درجة سفلى » (٤٥) ٠

وعندما ما تطورت الوضعية لصالح المعمرين اوصبح النائب "لو هو" LE HON المتكلم باسمهم فى مجلس النواب الفرنسى ، بادر وزير الحربية بكتابة رسالة الى الامبراطور يوم ٢٤ افريل ١٨٦٩ وانذره فيها بتكهرب الجو وامكانية حدوث اضطرابات خطيرة مالم يسارع بتحويل قضية الجزائر من مجلس النواب الى مجلس الشيوخ ٠ ثم نصحه ان يوجه تعليمات لاعضاء المجلس الاخير باعداد « دستور خاص » للجزائر على أن يتضمن الاعتراف بحقوق الجالية الفرنسية وصيانة مصالح ابناء البلد الاصليين ٠ وفى الحين أمر الامبراطور الفرنسى بتعيين لجنة متكونة من تسعة اعضاء (٣ عسكريين و ٦ مدنيين) وعلى راسها الماريشال « رانــــدون»٠وفى شهر مارس ١٨٧٠ ، تقدمت اللجنة بمشروعها الى نابليون الثالث الذى قبله فى الحال واحاله الى مجلس الدولة للتأكد من سلامة محتويات الدستور الجديد الخاص بالجزائر، الا أن مجلس النواب رفض المشروع بدعوى انه لا ينص على « الاندماج التام » وانه قد منح سلطات واسعة للوزير المقيم بالجزائر ٠ ثم انه يهدف الى تجميد الوضع الراهن فيما يتعلق بامور العدالة ولا يتماشى ورغبة الجالية الاروبية فى ايجاد نظام للمحلفين الذين ينظرون فى جميع القضايا الجنائية ٠ واكثر من هذا ، أصر النائب«لوهو» LE HON وزميله Jules Favre على ادانة « الدستور الخاص » بالجزائر وذلك فى جلسة مجلس النواب التى عقدت يوم ٢٨ ماى ١٨٧٠ ٠ واخيرا ، تعثر هذا المشروع وقضى عليه نهائيا فى استفتاء ١٨٧٠ الذى امتنع فيه عن التصويت ٣٥ ٪ من المعمرين وقالوا لنابليون الثالث بانهم « يتجاهلون حتى وجود الامبراطورية»(٤٦) ٠

وهكذا تمكن المهاجرون الفرنسيون والاجانب من كسب المعركة وعرقلة مشاريع الامبراطور الفرنسى لترجيح كفة الجيش واخضاع ابناء الجزائر لسيطرته ٠ ففى المرسوم الصدر يوم ٣١ ماى ١٨٧٠ ادخل تعديل على نظام ولايات الجزائر حيث اصبح كل والى تابع للحكام العام وليس الى جنـرالات عمالة ، كما كان فى السابق (٤٧) ٠ ثم جاءت نكسة سدان ووقوع نابليون الثالث اسيرا فى يد جيوش بيسمارك فاتيحت الفرصة لقادة النظام الجمهورى الجديد وزعماء الجالية الاوربية بالجزائر لوضع برنامج مفصل يكفل لهم السيطرة على شمال افريقيا وفرنسة الجزائر بصفة خاصة ٠ ومما يلاحظ فى هذا الصدد أن المعمرين بالجزائر قد حملوا الامبراطور وجيشه مسؤولية الهزيمة واتهموا قادة الجيش الفرنسى بأنهم « جبناء وخونة » ٠

هـوامـــش

BIBLIOGRAPHIE

(28) Un Algérien, "La Question Algérienne" REVUE POLITIQUE & PARLEMENTAIRE, Volume 29, (Juillet, Août, Septembre) 1901, P. 90.

(29) Julien, HISTOIRE DE L'ALGERIE CONTEMPORAINE, Op-Cit. P. 405

(30) Henri, Blet, HISTOIRE DE LA COLONISATION FRANÇAISE : 1789-1870. Paris : B. Arthaud, 1946, P. 185

(31) Stephen H. Roberts, HISTORY OF THE FRENCH COLONIAL POLICY 1870-1925 (twe volumes). London : P.S. King, 1929, P. 197

(32) Robert Aron, LES ORIGINES DE LA GUERRE D'ALGERIE. Paris : Fayard, 1962, P. 42

(33) Wright, OP. CIT. P. 258

(34) Lanessan, OP. CIT. PP. 90-91

(35) Vincent Confer, FRENCH AND ALGERIA : THE PROBLEM OF CIVIL AND POLITICAL REFORM, 1870-1920. Syracuse, N.Y. Syracuse University Press, 1960, P. 5

(36) Roberts, Op. Cit. P. 199

(37) Edwar Behr, THE ALGERIAN PROBLEM. New-York : W. W. Norton and Company Inc. 1962, P. 34

(38) Blet, OP. CIT, P. 189

(39) Quoted in Confer, OP. CIT., P. 5 from August Brunet, JULES SIMON & LE PROBLEME DE LA CONSTITUTION COLONIALE. Paris : Charles-Lavauxelle, 1945

(40) Blet, OP. CIT., P. 191

(41) IBID ; P. 19 : For a good study of this question, see :
Marcel Emerit, "Le problème de la conversion des Musulmans d'Algérie sous le Second Empire : le conflit entre Mc Mahon et Lavigerie", REVUE HISTORIQUE (Janvier-Mars) 1960, PP. 63-84

(42) Charles-Henri Favrod, La Révolution Algérienne. Paris : Plon, 1959, P. 15

(43) Charles-Robert Ageron, LES ALGERIENS MUSULMANS & LA FRANCE : 1871-1919. Paris : Presse Universitaire de France, 1968, P. 44

(44) IBID ; P. 44

(45) IBID ; P. 44

(46) IBID ; P. 44

(46) IBID ; P. 44 and Julien, OP. CIT. PP. 442-446

(47) Lanessan, OP. CIT. P. 92

مستقبل الشعر كما يراه توفيق الحكيم

ان الشعر فى عصرنا الحديث اخذ فى الضعف سائرا الى الفناء او الى ما يشبه الفناء ! ٠٠ ان كل شاعر يمضى يترك مكانه فراغا ! ٠٠ وكل ذواقة للشعر يذهب لا يترك له خلفا ! ٠٠ وكل راوية للشعر منقرض ! ٠٠ وكل ناشر لدواوينه مبتعد !٠٠نرى هذا اليوم فى كل بلد فان دور النشر فى انحاء العالم لا تطبع ديوان الشعر الا وهى مؤمنة بالخسارة مدركة لفداحة التضحية ٠٠لماذا ؟ ٠٠ هنا الخطر ٠٠ الخطر الحقيقى على الشعر ٠

والعلة فيما اعتقد هى ضعف الثقافة فى الشعوب ٠ ٠ ان شعوب الارض اليوم تتعلم على نطاق واسع تعلميا سطحيا ٠٠ ان تلك الطبقة المختارة من المتذوقين للفنون العليا تكاد تغرق اليوم فى محيط هذه الملايين من اشباه المتعلمين ، هذا المحيط الطامى لم تنتشر فيه الثقافة ولكن الذى انتشر فيه هو ضعف الثقافة ٠ وهذا المحيط الذى يمتد فى كل بقاع الارض ـ من المشارق للمغارب ـ هو الذى يفرض ذوقه على الانتاج الذهنى وعلى دور النشر ٠

والشعر هو خلاصة الثقافة وعصارة الذوق فهو لذلك فن مركز يضغط فى ابياته القليلة ما يوحى بالكثير الى اصحاب الافهام ٠ انه ليس كالنثر فن اسهاب وايضاح يفرغ فى رؤوس الناس ما يريد من كلام وثرثرة ومعلومات يزدردونها هينة بلا جهد ولا اجهاد ٠

ان الشعر فن ايجاز وايحاء يفترض فى السامع قدرا من الثقافة وحظا من الذوق ٠ انه ليس طعاما يقذف به فى الفم ولكنه مفتاح نحرك به موسيقى النفس فلا بد اذن ان تكون الناس مستعدة له وان تكون قد هذبت اوتارها قبل ان تتهيأ للمفتاح ٠

هذا التهذيب او الاعداد لم يتح بعد لكل ذرات هذا المحيط الطامى من الشعوب ٠٠٠ وما دامت الغلبة للعدد فلا مفر من ان يلبى المجتمع نداء غالبيته الطاغية الساحقة!وما هو هذا النداء؟انه الرغبة فى التقام السؤال اى النثر !

وليس كل النثر ايضا ، ففى النثر ما يسمو الى مرتبة الشعر ايجازا وتفكيرا وفنا ٠٠ هذا ايضا يجب ان يبعد او يحصر فى اضيق نطاق الى ان يختنق ٠

جمـــع أم تشـتيت

فتيحة بغاي
استاذة فلسفة

ان اى نظام تربوى او اجتماعى لا يهدف الى تعزيز المثل العليا التى تنادى بها المبادىء الانسانية والقيم الروحية ويعمـل على اقامتها بيـن افـراد المجتمع لهو نظام لا يفصل بين الخيال والواقع ·

وان تلك المثل الروحية التى تميـز الانسان عن الحيوان اذا لـم يعمل النظام الاجتماعى على تحويلها الى حقائق واقعية فى مدنية يدور بناؤها حول الانتاج والاستهلاك والنجاح فى السوق باى ثمـن ، وحول العمل الآلى المتـواصل لتحقيق هذا الكسب المادى الضخم ·

كما لا يمكن من ناحية أخرى ان يحقق هذا النظام السياسة المنشودة ما لم تكن الفلسفة السائدة نتيجة تخطيط وتدبير محكم يهدف الى تطبيق مبادىء الثورة الوطنية فى الواقع الحى بين افراد المجتمع ٠

ولسنا فى حاجة ماسة الى البحث عن حكمة جديدة ولكننا بحاجة الى الايمان باصالة حكمتنا والى الاخلاص اليها ٠

ومن واجب النظام التعليمى والتربوى قبل كل نظام ان يثبت فى الناس المثل التى نسترشد بها ، ومن واجب المدرسة ان تنشر تعاليم النظام الاجتماعى المنشود بين طلابها وان تعمل على توجيههم الى الخطة التى رسمتها لتحقيقه على أسس متينة علمية ، وطرق موضوعية ، حديثة تبرز كرامة الانسان وتعزز ارادته الحرة فى العمل والتفتح وفهم الحياة ٠

وأكثر مراحل هذا التعليم خطورة وعناية بهذا الجانب التوجيهى ، هى مرحلة الاقسام النهائية من التعليم الثانوى ، ففيها يتلقى الشاب الاتجاه الذى سيدخل به معركة الحياة الاجتماعية الكبرى ٠

وفيها يطلع على أكبر المذاهب الفكرية والانظمة الاجتماعية ، وفيها يتساءل عن وضعه فى هذا الوجود ، وعن وضع بلاده وعن مصيره ومصير أمته وعن غايته فى هذه الحياة ، وغاية وطنه ٠

وخلالها يتم اعداد الناشىء لتحمل مسؤولياته كمواطن له مهام يقوم بها مساهمة فى المحافظة على بقاء مجتمعه ، وشخصية شعبه وأصالة عنصره بما لديه من لغة وعقيدة وتفكير ومبادىء ٠

وفها يتاثر الشاب بالعوامل الثقافية السائدة فى المجتمع ، وتكون حصيلة هذا المجتمع ونتاج هذا الشعب ذلك المراهق الذى ورث عنها العوامل البيولوجية من ناحية وأخذ عنها النمط الثقافى والتوجيهى والتعليمى من ناحية أخرى ٠

وهو هذا الفرد الذى يبحث لنفسه فى المجتمع الذى يعيش فيه عن وضع ما ، من الاوضاع كى يحقق وجوده ويصبح شخصا له كيان مستقل ومكانة بينة ٠

والمراهقة فى المجتمعات المتحررة المستقرة تعتبر مرحلة اكتساب توجيه سليم وخبرات مفيدة ونمو طبيعى واضح الاتجاه ٠

وفى المجتمعات الصاعدة النامية ، كثيرا ما تكون متقلبة ، متغيرة غامضة المعالم متناقضة الاهداف ٠

أما فى المجتمعات المتزمتة الرجعية ، فشد ما تكون مرحلة التوافق عسيرة خانقة ، وقد ينجو المراهق باتزانه النفسى والذهنى أو قد تشمله طلاسم الخرافات والمعتقدات البالية ٠

ومهما كانت أوضاع المجتمعات ، فكلها تتغنى بنشيد واحد وهو تربية نشئها احسن تربية ، واعداده للاندماج الفعال فى أنظمتها كى يعزز صفها ، ويضاعف طاقتها ٠ غير ان السبل المتخذة والتخطيطات المسطرة هى التى ستضمن لنا نجاح هذه الاهداف او اخفاقها ٠

ولذا وجب على التربية ان تحدد نماذج التطور والمدنية التى ينبغى ان تحذو حذوها لان مدارس البلدان العربية بصفة عامة لازالت تأخذ على عاتقها أن تمد طلابها بالمعارف التى لامناص لهم من تحصيلها لكى يؤدوا واجباتهم العملية فى

الحياة وقلما تزودهم هذه المعاهد بالقدرة على التفكير النقدى ، المنطقى ، وفهم المبادىء الانسانية المقدسة التى يقرها كل كائن بشرى ، وقد يجوز ذلك مادمنا نشكو نقص الاطارات ولكن اذا تم ذلك ، أو كان علينا لابد من ان نحافظ فى نفس الوقت على وحدة الشخصية الوطنية ، وان نعزز مقوماتها ونثبت كيانها ، فلا مناص لنا اذن من احداث انقلاب أساسى فى طريقة التربية ورسم برامج تهدف الى اعداد اساتذة اكفاء لتنفيذه على أكمل وجه ، فتكون غايته نمو الشبا بنموا طبيعيا ، انسانيا ، ثابت الاصالة واضح الاهداف ·

هذا الشاب الذى يبحث عن قالب يصب فيه مقومات شخصيته الناشئة كى يحقق وجوده فى عالم الكهول ، عالم تتزاحم فيه تيارات شتى وتسيطر عليه قيم عديدة ، فيجد الشاب نفسه بين هذه التيارات وهذه القيم فى صراع عنيف مع نفسه ومع مجتمعه ، فاما ان يخرج من هذا الصراع ويثبت كيانه والا اختلطت عليه الامور وتعددت المذاهب واستغلت المذاهب المادية هذا الصراع النفسى الذى يستبد بالشباب فى فترة المراهقة ، ودعتهم الى اثبات ذواتهم بشتى الطرق ومختلف السبل ·

وساحصر حديثى على اهم مادة تمد المراهق بهذا التوجيه وتساعد ذهنه على التفتح الكامل امام كل معرفة انسانية : **تلك هى مادة الفلسفة والتى من المفروض ان تلعب دورا هاما مع بقية المواد العلمية والادبية والدينية** فى العمل على تكوين الشاب تكوينا يتماشى مع اهداف الثورة الوطنية فى المحافظة على الاصالة الحضارية وعلى الشخصية الجزائرية ولكن ماذا يحدث **فى المدارس المزدوجة اللغة مثلا حيث تعطى هذه المادة باللغتين (الفرنسية والعربية) من طرف استاذين يختلفان فى المبادىء والمواقف والنزعات ، ويشتركان فى تدريس مادة واحدة واحيانا مواضيع واحدة ·**

واى اتجاه سيسلك الطالب الذى يستعد لخوض الحياة الاجتماعية الواسعة ؟ اذا سمع استاذ الفلسفة باللغة الفرنسية يقول له : (لايوجد اله،ولا وجود لروح فهذه خرافة القرون الوسطى كل ما يوجد هو المادة فاذا زالت المادة زال الانسان واذا حذفنا الدماغ توقف التفكير ، وكل حقيقة لا تتجسم فى الواقع المحسوس ، فهى وهم وخيال ــ لاروح ولا ضمير للروح بعد زوال الجسد فالحقيقة مادية والكون آلة ضخمة اجزاؤها الكائنات التى تظهر وتتوارى وتروح وتغدو وتنمو وتضمحل خاضعة فى ذلك لحتمية طبيعية لا تتبدل وخضوع الانسان لهذا النظام خضوع سائر الحيوانات والنبات والجماد ·)

ثم يضع تحت تصرف الطلاب كل الوثائق التى تؤيد قوله · ويسمع نفس الطالب الى استاذ الفلسفة باللغة العربية وهو يقاوم بشدة وايمان ماصب فى الاوعية الصاغية من معلومات بقوله : ان الله موجود ــ وان الانسان يتكون من مادة وروح ، ولا يمكن الفصل بين الجسم والعقل لادراك العالم ويستدل بادلة عديدة ، ثم يواصل : « **ومهما اجاد الانسان فى أداء عمله ومهما بلغ من التهذيب والنزاهة والرفاهية المادية ، لا يكون ولن يكون راضيا عن نفسه كل الرضا لأن شعور الانسان بالاطمئنان فى هذه الحياة ، وشعوره بالراحة النفسية الداخلية لا يتحقق الا اذا تجاوز الانسان حياته المادية ، وحاول رفع القيم الروحية فوق كل القيم المادية بدليل كذا وكذا** » ···

أى مصير سيؤمن به هذا المراهق ؟ هل هـو المصير الـروحى المعنـوى أو هـو المصير المـادى الآلى ؟ وسيعمل على تحقيق مـاذا ؟ روحانيتـه ؟ ام حيوانيته ؟ أم انسانيته ؟ كل يتغنى حسب رايـه الشخصى وكل يتطرف لموقفه الخاص من الحيـاة ولمبادئه الخاصة ·

وكلا هما يغرس بذورا فى نفـوس التلاميذ ، ويصب معلومـات واتجاهات فى لا شعورهم عـن قصد أو بدون قصد ·

وكل أستاذ يصل الى اقناع الشاب بمنطقـه الخاص والتأثير فى نفسه ببراعته الخاصة ، وقلما يتفق استاذان على مبدأ واحد وعقيدة واحدة ·

وما الذى يحدث خـلال هذا الصراع الذى يقحم فيه المراهق المسكين ، هذا الذى يجتاز أخطر وأصعب مرحلـة من حيـاته النفسية والبيولوجية ويبحث خلالها عن اثبات كيانه باختيار موقف مـن الحياة لأنه لا زال يجهل هذه المواقف ·

وينعزل الطالب بمـا سجلـه مـن معلومات ويأخذ فى الفحص والمقارنة والبحث عـن طريـق يخرجه من الشك فى بعض المعلومات ·

فماذا يقـع ؟ امـا أن يكفر الطـالب بجميـع المذاهب ويـرى فيهـا تناقضا وتضاربـا ونسبيـة لا محدودة واما ان يتخذ الموقف الذى أثر فى نفسه اكثر من الآخر وأى المواقف سيختار طبعـا ؟ وأى الاتجاهات ؟ فغالبا ما ينساق وراء المذاهب المادية والوجودية لأنهـا ابسط المذاهب شرحـا وتلقينـا وأقربهـا الى عـالم المحسوس الذى لازال يخضع اليه المراهق ·

فهو لا يؤمن الا بما هو ملموس فى الـواقع المادى أما المعانى المجردة والنظريات التى تحتاج الى نضج عقلى وسن معينة فغالبا ما يميل الى تجنبها لأنها صعبة الادراك بعيدة المنال ، أجلـة التحقيق بـل ربما لأنهـا لم توضع لـه فى قـالب محسوس يجعلها قريبة من فهمه ·

أليس من اللائق أن نحاول مـا استطعنا أن نعيش وفق معتقداتنا الدينيـة ، ولا أقـل مـن أن نؤمن بمبادىء الاعتدال فى المواقف ، وعدم التطرف فى الاحكام او تجنب اقنـاع الغير بشتى الوسائل حتى الدنيئة منهـا والحقيرة سعيـا وراء تحقيـق أغراض ذاتيـة وبث الذبذبة والفوضى فى عقـول الشباب لأهداف قلما تتصف بالاعتدال والانصاف والموضوعية وقلما تخدم الصالح العام والمبادىء الانسانية · أولا تنحصر مهمـة أستاذ الفلسفة فى اطلاع الطالب كل الاطلاع على المعلومات الملقنـة بكل حذق ومهارة وحذر ، دون تعصب ولا اباحية ؟ أو لم يكلف بتدريب الشـاب على استعمال تفكيره والتخليص شيئا فشيئا مـن التبعية الذهنيـة التى لازال يخضع اليها الكهول ؟ وكيف ذلك اذا لم يوجه الطـالب الى التفكير المـؤسس على المنهج العلمى البعيد عـن الأهواء والاعتقادات حتى يضمن لـه نوعا من الاستقرار فى الحياة التعليمية ، ويسهل له فرصة معالجة المشاكل عن طريق هادىء عقلى سليـم ·

وكـل مجهود يبذلـه الطـالب فى حـل هذا الصراع وتثبيت سلوكه على نمط سليم ، هو الذى سيخلق منه شخصية سوية متكاملة مبدعة ·

ان الاستاذ معلم قبـل كـل شىء ورسالتـه تنتهى عند تبليغ المعرفة للطالب ووضع كل الوسائل المؤدية الى فهم واستعمال تلك المعرفة بين يديه ·

فما عليه الا أن يعلمه كيف يفهم الوجود فهما دقيقا ، وكيف يتعلم وكيف يفكـر ، وكيف يختـار ويحسن الاختيار ، وكيف يراجع اختياره اذا كان متسرعا ، وكيف ينتقى من بين المعلومات الملقنة ما

يليق باوضاعنا وفلسفتنا، وكيف يميز بين الصواب والخطا بين الجمال والقبح ، بين العدل والظلم بين الخير والشر ، بين الحــق والبــاطل بين الكرامــة والذل وهذا يعنى تنمية التفكير النقدى لديه وكـم يفتقر سواد شعوبنا العربية الى تلك الميــزة ، بــل تمجها بعض الاذواق وتصفها بالجراة والوقاحة اذا مست حساسية شعورها ٠ أما مواقف الطالب من المذاهب الفكرية الكبرى فله كل الحق لا تخاذها وله كذلك تجاربه الخاصة وممارسة العملية للحياة الاجتماعية المتشعبة ٠

واننا اذ ندعو الى حيــاد الاستاذ واعتداله فى تلقين تاريخ الفكر الانسانى فاننــا ننكر كذلك على بعض الاساتذة تطرفهم الى الجانب اللاهوتى وتعمقهم فى الروحانيات والتحديدات الميتافيزيقية والسفسطة ، والنظريات التقريبية المهلهلة وبعض غموضات التصوف التى تثقل كاهل الطالب الشاب فلا يقدر على هضمهــا ولا يتشوق الى معرفتهــا ، خاصة اذا سيقت له فى قالب خطابى طويل النفس، كثيــر الطلاسم عديــد الــوعظ ، ثقيــل الاسلوب غامض الافكار ــ بهذا نحيد عــن مهمتنــا وتنفر نفوسا كنا نهدف الى انطياعها واقناعها منطقيا كى يتسنى لنا توجيهها توجيها يليق بكرامــة الانسان فى القرن العشرين ٠

فمــاذا عسانا نحقق بهذه الطريقــة ؟ جمع مقومــات الشخصيــة لــدى الطــالب أو تشتيتهــا وتقسيمها ؟ وهى لازالت بعد فى مرحلة التكوين

واية فكرة سياخذها الطالب عن هذا التحزب المذهبى الذى يعــود بنــا الى عهد اختلاف الائمــة واحزابهم وشيعهم وحملاتهــم العنيفــة التى ادت بالمسلمين الى التفرقة والضعف والاضمحلال ؟



شعار القومية و العلمنة لماذا ؟

القى الاب مكرم قزح وهو كاهن مارونى محاضرة عن الدور الذى ينبغى على الكنيسة العربية والشرقية ان تلعبه ، نقتطف منها ما يلى :

يقول مكرم : ان وضع الكنيسة فى المشرق تأثر كثيرا بنمو الظاهرة الطائفية منذ ان اثارت السلطنة العثمانية حفيظة الطوائف الدينية ، الى ان جاءت الدول الغربية تستغل الحساسيات الدينية ابان ضعف السلطنة ، وحتى تكريس هذا الخط الطائفى بانشاء الكيان الاسرائيلى العنصرى التيوقراطى فى فلسطين .

ورغم هذا الجو المحموم ، لعب مسيحيو لبنان دورا رائدا فى النهضة العربية المعاصرة . فعدا الاسماء العديدة فى ميادين الادب والفن ، فان اغلب التنظيمات السياسية الوطنية التى نمت بعد ذلك ، وما زالت حتى يومنا هذا تلعب دورا بارزا فى الحياة العربية كان على راسها مسيحيون من المشرق العربى . فقد دعا عفلق الى البعث القومى ، واسس جيش حركة القوميين العرب ، وجاء فؤاد الشمالى الى بكفيا يكون نقابة لعمال التبغ ، ويدعو الى الشيوعية ، فى حين كان سعاده يدعو الى ما كان يسميه « بالنهضة السورية » ...

أما لماذا نما الفكر العلمانى عند المسيحيين العرب فى المشرق ، فان مكرم يرد ذلك الى جملة عوامل واسباب اهمها : ان الدين المسيحى يميز فى جوهره بين ما لله ، وما لقيصر . **ثم ان المسيحيين يشكلون اقليات فى المجتمع الاسلامى الذى يعتبر الدين والدولة توامان لا ينفصلان ، وبالتالى فان العلمنة تصبح ضمانة لوجودهم كمواطنين ، وتبعد عنهم الخوف من الذوبان ، وفقدان شخصيتهم او حقوقهم . خاصة وان بعض دعوات القومية العربية ايام الشريف حسين كانت دعوات دينية فى الاساس ، ولم تكن محاولات فصل العروبة عن الاسلام سوى محاولات جزئية ومترددة . لهذه الاسباب كلها يرى مكرم انه نما لدى مسيحى المشرق مركب خوف من العرب والمسلمين ، ومركب تفوق فى آن واحد . «بينما الحقيقة هى اننا كمسيحيين ما زلنا متخلفين . بعضنا ما زال يعيش فى العصر البيزنطى وبدايات الفتح الاسلامى» على حد قول المحاضر .**

عن مجلة «البلاغ» اللبنانية عدد 68



ندوة الأصالة

الغزو الثقافي

ادار الندوة
عثمان شبوب

ابدأ هذه الندوة بتقديم شكر مجلة الاصالة للاساتذة الحاضرين الذين لبوا دعوتنا ووافقوا على الاشتراك فيها • فقد رأت المجلة أن تساهم في هـذا الظرف بالذات ، وكلنا يعرف طبيعة المرحلة الصعبة الدقيقة التي تمر بها الثقافة العربية الاسلامية •

أقول رأت المجلة إن تساهم بالتوعية الفكرية وتوضيح بعض المفاهيم في موضوع يعتبر من

اخطر الموضـــوعات واهمها فيما يتعلق بحاضر الامة العربية ومستقبلـها ، لذلك قررت تنظيم هذه الندوة حول موضوع « الغــزو الثقافى » ٠ والموضوعات التى يمكن ان يتطرق اليها البحث هى تحديد مفهوم الغــــزو الثقافى : مظاهره ، نتائجه ٠ اذا رايتم بدانا بهذه الموضوعات تباعا الواحد بعد الآخر يتحدث فى كل منها من يريد ان يتحدث ، ونجرى بعض الحوار ، ثم ننتقل الى موضـــوع آخر ، والكلمة للدكتـور عبـد الله الركيبى ٠

د٠ عبد الله الركيبى : لاشك ان هذه الندوة تدخل فى اطار مراجعة الحياة الفكرية والثقافيـة فى مرحلة يمر بها وطننا تحتاج الى اعادة النظر فى الامور التى تدخل فى مجـــال اعادة تقييم النظرة ومحاولة الوصول الى افكار جديدة او الى نتائج جديدة ، ومن هنا فان اختيار الغزو الثقافى كمناسبة يناقش فيها الاخوة الاسـاتذة هـــذا الموضوع ستكون بلا شك من احسن ما يمكن ان يقدم للقارىء الجـزائرى الذى عانى كثـيرا من الغزو الثقافى ٠ ومن الصعب جـــدا ان نعرف الغزو الثـقافى بتعريف جامع مانع كما يقـــول المناطقة أو الفلاسفة ، وانما يمكن أن نقول انه عبارة عن تسرب ثقافة عدائية الى ثقافة شعب من الشعوب وتاثيرها فى نفســـية الفرد والجماعة بغـــرض تحطيــــم الروح المعنــــــويـــة والتأثير فى فكر الناس وجعلهم تابعين شـعوريا أو لا شعوريا فى نفوذ هـــذه الثقافة ، ولا شك أيضا اننا فى عالم معاصر يوجد فيه تواصل بين الشعوب ، وهذا التواصل منه ما قد يكون مفيدا بالنسبة لنا كشعب خرج من حرب ودخـــل فى مرحلة يطمح فيها الى بناء مجتمع جديد فهو قـد يستفيد من هذا التواصل حين يكون أمر الثقافة أمرا يتصل بالجانب الانسانى منها ، فاذا كانت الثقافة هدفها خدمة الانسان فاننا سنستفيد من هذه الثقافة وتسهم فى تقدمنا وتطورنا الفكرى ، والاجتماعى ، والروحى ٠٠٠ الخ ٠

أما اذا كان هذا التواصل يقصد السيطرة أو التـــأثير لغرض من الاغراض فهنا يأتى الغــزو الثقافى وهذا لابد ان نفرق بينه وبين التبــادل الثقافى ، فالتبــادل يكون بين شـــعبين أو بين مجتمعين متكافئين فى المســـتوى الحضـــارى ، والفكرى ، والثقافى ، ومن ثم فهناك ندية ـ ان صح التعبير ـ بين هذين الشعبين ولا يمكن أن يكون هناك غزو ثقافى فى هذه الحالة ولكن فى الحالة الثانية ، وهى ان شعبـــا اقوى حضارة وثقافة من شعب آخر فانه يستطيع ان يؤثر فيه وهنا يمكن أن نضرب المثل باحتلال الاســـتعمار الفرنسى للجـــزائر فى القرن الماضى ، فهـــذا الاستعمار حين جاء بالقوة وسيطر على الشعب الجزائرى جاء بثقافة تسندها حضـــارة عدائية وبذلك استطاعت هذه الحضارة ان تترك نفوذا كبيرا فى مجتمعنا وفى وطننا ، الامر الذى أوجد ما نسميه بالغزو الثقافى اليـــوم ٠ ربما يكون الغزو الثقافى ليس فقط عن طريق هذه القــوة العسكرية وانما يكون عن طريق آخر ، عن طريق ما تنتجه المطابع من كتب أو من صحافة أو من دوريات ربما يكون عن طريق الاذاعـــة والتلفزة خاصة ونحن اليوم نعيش فى عالم اصبح كالبيت الواحد ٠ وشكرا ٠

الاستاذ عبد المجيد مزيان

قبل أن نطرح مشكلة الغزو او الاصطدام الثقافي لابد ان نبدأ من حل المشكل المنهجي الذي يتلخص في هذا السؤال وهو لماذا نعزل الثقافة عن المركب الحضاري الواسع ؟ ثم ان هناك مفهوما اجتماعيا تسبب في كثير من الالتباسات وهو مفهوم الحضارة العالمية • ان الحضارة العالمية اليوم سواء اردنا ام كرهنا هي الحضارة الغربية التي وصلت الى مستوى مكنها من فرض نفسها بعد طور الاستعمار ، على اغلبية الشعوب • انها اوجدت كثيرا من السلوكات الاقتصادية والثقافية والسياسية الجماعية مع ما لها من امتدادات في الميدان الفردي • وهي في غالب الاحيان سلوكات محاكاة غير واعية اذ فرضتها علينا الحضارة الغربية في عصرنا هذا • ومن العجب أننا ننتبه الى شيء واحد وهو الثقافة بصفتها ظاهرة منعزلة عن المركب الحضاري ولا ننتبه الى السلوكات الاخرى السياسية والاقتصادية مثلا •

هناك الغزو الاستعماري المركب كما قلنا ولكن هناك أشياء أو سلوكات حضارية او في بعض الاحيان ثقافية قبلناها بأنفسنا ، اننا حينما نتكلم عن الانظمة السياسية في جميع بلاد العالم الثالث فنحن نعرف بان هذه الانظمة السياسية هي انظمة تحاكي الانظمة الموجودة في البلاد الغربية ، واننا اذ قبلنا هذه الانظمة السياسية الثقافية ، اذن فالقضية متشابكة الى اقصى حد •

ان تكويننا السياسي النظري يرجع اليوم الى مفاهيم غربية من ديمقراطية ولا مركزية ، واستمرارية للدولة ، وهي مفاهيم ثقافية داخلة في تكوين كل فرد من مجتمعنا ، فأين الحدود اذن بين السياسة والثقافة ؟ في القديم كانت الحضارة العربية الاسلامية في مستوى عال ماديا واقتصاديا وعسكريا ، لم تكن هناك مشكلة بالنسبة اليها اذ كانت متوفرة على شروط المناعة التي تجعلها تبتلع الثقافات الاخرى أو تبتلع الحضارات الاخرى وتكون منها مركبا يسمى مركب الحضارة الاسلامية • لكن في عصرنا الحاضر يمكننا أن نقول بأننا وصلنا الى وضعية من نوع آخر وهو ان الحضارة الغربية سيطرت على جميع بقاع الدنيا بما فيها العالم الاسلامي وسبب سيطرتها يؤول الى ظاهرتين : فالظاهرة الاولى ترجع الى فرض الانظمة السياسية الغربية كما أشرنا الى ذلك سابقا والظاهرة الثانية تتلخص في وجود العلوم الوضعية والتكنولوجية ولا يمكن لاى شعب من الشعوب في عصرنا الحاضر أن ينفلت من هذا النوع من الاستيراد الثقافي وهو مفروض مبدئيا اذ لا يمكن لامة ما ان تصبح أمة متحضرة وقوية ما لم تحصل على هذين الشرطين • ولا يمكننا أن ندعي أن هذا الاستيراد سيجعل حتما من الامة « المستوردة » أمة ضعيفة مغلوبة • بل لدينا أمثلة حية تكذب هذا الادعاء ولنضرب مثالا بالصين ، في الصين توجد أنظمة سياسية من نوع أوروبي ، كما توجد تكنولوجيا معاصرة ، وعلوم من أصل غربي ،

ويوجد مع هذا شعب ذو مناعة ثقافية ، اذ بقى هناك القدر الادنى من الثقافة الوطنية بما فيه من لغة وظيفية ومقومات وطنية واضحة فى السلوك الاجتماعى · كل هذا جعل الصين تضمن لنفسها الاستقلال الحضارى رغم الاستيراد الضخم الـذى أتت به من أوروبا ·

أما بالنسبة للبلاد العربية الاســـلامية فى عصرنا الحاضر ، فانها فى الجملة مستسلمة للغزو الثقافى الغربى فاذا اخـــذنا الطبقات العليا فى اغلبية هذه البلاد وهى الطبقات الحاكمة ثم التى تليها من المثقفين فانها طبقات استغربت بمعنى الكلمة أى أنها خضعت للغزو الثقافى الغربى فى جميع الميادين سياسيا ، واقتصاديا ، وسلوكيا ، بحيث ان الســـلوكات أصبحت كلها سلوكات طبقة معينة منعزلة عن الشعب · نعم ان الشعب فى حصانة فى هذه البلاد ولكنها حصانة الجهـل وليست حصانة الرقى ، انها حصانة المحافظـة المنكمشة·ان الثقافات الشعبية قد تقف فىوجه الغزو الثقافى الخارجى ظاهرا ولفظيا فقط ولكنها مع الاسف فى مستوى من الجهل بحيث لا تمكن الشعوب من التصرف الواعى فى مستقبلها · ان الشعوب المتروكة للصدف أصبحت اليوم تتاثر بالغرب الرأسمالى وكأنها تغزو نفسها بنفسها ، انها من هذا المنظار لذات حصانة مكذوبة تدعى الرفض صوريا ولا تســـــتطيع أن تقاوم فى أى ميدان ·

افتح جهاز التيلفزيون فى أى بلـد من البلاد المتخلفة أو اقرأ الصحف أو شاهد ســـلوكات البشر فانك ترى تأثير العالم الغربى واضحا فى كل ميدان اننا نتطرق الى مشـــاكل ليست من مشاكلنا ولنا سلوكات وأذواق وبيت عـلى نمط غربى ، فنحن نعشق الموضة من باريس ونهوى الافلام الامريكية ··· الخ ، من هنـا يمكننا ان نقول بأن الشـــعب الذى يريد ان يواجه الغزو الثقافى يجب عليه ألا يترك أى شيء للصدفة ، أى يجب عليه ان يتسـلح عقائديا ، وسياســيا ، واقتصـــاديا ، وثقافيا دون عـــزل للثقافة عن البناءات الحضارية الاخرى ·

الاستـاذ الشيخ بوعمـران :

ان العبارة هذه تستحق ان نقف عندها بعض الشيء : عبارة الغزو الثقافى · انى ارحب بها كل الترحيب · وانما هناك مرحلة يجوز فيهـا استعمال هذه العبارة ، وهناك مرحلة تحول فيها الغزو الى صراع ثقافى ، وهناك مرحلة اخرى وهى الثالثة والاخيرة ، يمكن ان نتحدث فيها على التفاعل الثقافى ·

كان الغزو الثقافى فى المرحلة الاولى مـــن مراحل تاريخ شعوبنا ، ونحن الآن فى العالـــم الثالث ، وهذا شيء لا ينكر · تلك هى المرحلـة التى صادفت الغزو الاستعمارى · فالغزو الثقافى مظهر من مظاهر الاحتلال ·

وبعد ما حصلت الكثير من الشعوب المتخلفة على استقلالها السياسى تحول هذا الغزو الثقافى الى نفوذ ثقافى او الى صراع ثقافى بين الثقافات الاجنبية وعلى رأسها ثقافة الدولة التى استعمرت

هذه الشعوب نفسها ، وهي الثقافة الاوربية ، اما عن طريق الانجليزية اما عن طريق الفرنسية او عن طريق لغة اخرى ·

نشاهد ، أولا ، مخلفات العهد الاستعماري ، ولا يمكن ان تذوب هذه المخلفات بمجرد استقلال الشعوب التي كانت مستعمرة ، ثم نشاهد مجهودات او تخطيطات للقضاء على هذه المخلفات ولانتهاج سياسة ثقافية جديدة تتناسب والظروف الجديدة التي يعيش فيها هذا الشعب الحديث العهد بالاستقلال ، ثم يظهر جانب ثالث وهو التفاعل الثقافي وهذا بقطع النظر عن العلاقات السياسية والاقتصادية التي توجد عادة بين الشعوب · ان التفاعل الثقافي يكتسي مظاهر علمية او حضارية معينة ، فالتقدم العلمي والتيكنولوجي اصبح اليوم ضروريا لجميع الثقافات ، ولا يمكن ان نطلق عليه اسم الغزو الثقافي او الصراع الثقافي لان هذا الجانب من الثقافة العصرية مقبول عند جميع الشعوب التي تريد ان تكون من الشعوب المتقدمة والا تبقى متخلفة حضاريا بعد الاستقلال الجديد الذي نالته ، وثم جوانب مشتركة في تطور الانسانية في اللباس او في المأكولات او في المواصلات ، منها التلفزة والاذاعة ··· كل هذه المظاهر التي أتتنا من اوربا بعد ما تقدمت علميا وتيكنولوجيا واقتصاديا يمكن ان نتفق عليها ولا نتكلم في شانها عن الغزو او عن الصراع ، لانها مقبولة ومطلوبة · هذا ما يتعلق بالنقطة الاولى التي هي تحديد مفهوم كلمة الغزو الثقافي او الصراع الثقافي او التفاعل الثقافي ، ثم سنعود الى الحديث بشيء من التفصيل بعد ما ننتقل من هذه النقطة الاولى الى النقطة الثانية ·

د · هشام الصفدي :

في الواقع، الموضوع كبير ولا تتسع هذه الجلسة القصيرة للاحاطة به ، ولكن سنحاول ان نصل الى الاهداف التي نريدها .

الغزو الثقافي جزء من كل . ومن الخطأ ان يبدأ الانسان بمعالجة الجزء ان لم يكن محيطا بالموضوع ككل · واعتقد بالنسبة الى ان الغزو الثقافي جانب من جوانب الاستعمار : اي الاستعمار البشري الذي ابتليت به شعوب ضعيفة قهرت من قبل شعوب قوية سبقتها في التطور . وهناك في التاريخ امثلة وفيرة من الغزو الاستعماري من شعوب قوية لشعوب ضعيفة . وعلى ذلك ينتج في تعريف معنى كلمة الاستعمار او مفهوم الاستعمار الثقافي انه جانب من جوانب الاستعمار الاقتصادي . والاستعمار الاقتصادي يرمي الى ربط المجتمعات المستعمرة ، وعلى كل صعيد بالمستعمر . ويهدف الى تغيير الشخصية القومية والثقافية ، ووضع اليد على الموارد الاقتصادية . فاذن لدينا غزو ثقافي مباشر مرتبط بالغزو الاستعماري . وهذا أمر واقع في الهند ، وفي الشرق الاوسط ، وفي شمال افريقيا ، حيث ابتليت هذه الشعوب بالاستعمار الانجليزي او الفرنسي . ولكني اعتقد ان المشكلة لم تعد تقتصر على الغزو المباشر او على الاستعمار المباشر ، وانما نحن نعاني اليوم

من مشكلة اخطر بكثير وهي الاستعمار غير المباشر الذى يرمى الى نفس الاهداف تقريبا ولكن بوسائل مختلفة . فبدلا من الغزو العسكرى هناك الغزو الاقتصادى : سواء بجعل المنطقة المغزوة مكانا لتصريف البضائع المنتجة ، او لاحتكار السلع الخام الموجودة فى المنطقة لاستخدامها فى الصناعات الكبرى . والمثل الذى تضربه المنطقة العربية جيد لكلا الشرطين : لاستهلاك البضائع المصنوعة ولاحتكار المواد الاولية الخام ـ كالبترول مثلا ـ التى تتوفر فيها . فاذن اذا اردنا ان نتحدث عن الغزو الثقافى يمكن ان نعالجه على مرحلتين : مرحلته المباشرة التى ارتبطت بالاستعمار . وبما اننا انتهينا الآن فى معظم هذه المنطقة من الانظمة الاستعمارية تبقى الرواسب والبقايا لهذا الغزو ، وسنحلل الآثار الناتجة عنه فى حينها . ثم يكون امامنا التصدى للمشكلة الرئيسية وهى : الغزو غير المباشر ، وهو غزو مقنع . لان الغزو الثقافى له هدف وليس وليد الصدفة ، اذ انه متمم للغزو الاقتصادى ، وملازم له ان لم يكن شرطا له . فعلى سبيل المثال نحن لا خطر علينا من مؤلفات واعمال جوته و فيكتور هيجو و شكسبير ولا الثقافة الادبية لاوربا على الاطلاق اذا اتيح لنا ان ننهل منها ، ولكن الخطر من هذه الثقافة يكون فى الواقع عند ما يحتم علينا ان ندرس جوته وفيكتور هيجو وشكسبير وان نتخلى عما لدينا من لغة ومن ادب ومن ثقافة ، ونصبح نحن ظلا للثقافات الاخرى ، وهنا برأيى يكمن الخطر .

هذه المشكلة مثلا عالجتها الصين الشعبية وذلك من خلال الثورة الثقافيه ، فالصين بلد عقائدى اشتراكى استطاع ان ينتزع حريته عن طريق الصراع الطبقى ، وان يفرض سيادته وان يضع المناهج التى يريدها لتطوير المجتمع . وكان فى طليعة هذه المواضيع الثقافة والثورة الثقافية ، وهنا أحب ان أقارن بشكل واضح بين موقفنا نحن شعوب العالم الثالث تجاه غزو ثقافى مباشر او غير مباشر وموقف دولة كبرى مثل الصين ـ تجاه الغزو المماثل ـ التى احرقت كتب جوتيه والتى حطمت اسطوانات بيتهوفن والموسيقى الكلاسيكية كلها خلال فترة طويلة واوقفت الانتاج الثقافى والادبى،لكى تقوم كما يقول ماوتسى تونغ باعطاء المجتمع «علاجا عن طريق الصدمة» وهذا العلاج بالصدمة كان وصفة من القائد ماوتسى تونغ للمجتمع لكى يحافظ على قوة الدفع الثورية. وهذه الصدمة تتضمن مبدءا اساسيا وهو ان الادب والفن والثقافة يجب قبل كل شىء ان تخدم البروليتاريا وان تستوحى منها ، فمثلا كثير من الادباء الصينيين توقفوا عن الانتاج ، وقيل لهم أعيدوا النظر فى مواضيعكم وكتبكم واصقلوها من جديد واخرجوها من جديد على ضوء الثورة الثقافية . وبعض الكتاب مضى عليهم ثلاثة او اربع سنوات لم يكتبوا حرفا واحدا وانما يتقاضوا اجورهم فى الصين ليدرسوا المجتمع قالوا تركنا المكاتب وذهبنا الى المصانع والى المعامل والى المناجم لنراقب الانسان لنحتك به لنفهم حاجاته ونعيد كتابها من جديد

لاننا لا نستطيع ان نكتب مشاكل البروليتاريا ونحن فى ابراجنا العاجية . يجب ان نحتك بالبروليتاريا . هذا نموذج لردة على غزوة ثقافية قامت بها دولة كما قال الاستاذ عبد المجيد مزيان « لديها الحصانة الثقافية » ، ولكن كيف الحال بالنسبة لنا نحن شعوب العالم الثالث !

نحن ما نزال نعانى أصلا من آثار الموجة الاستعمارية التى تركت آثارا ثقافية بعيدة لدينا، ولسوء الحظ نصاب من جديد بشكل مزدوج بآثار الغزو الثقافى الغير المباشر . وهنا لا أخطىء اذا اعدت الى الذاكرة كلام ابن خلدون « المغلوب مولع بتقليد الغالب » نحن فى انظمتنا أخذنا كثيرا من مظاهر المجتمع الراسمالى الغربى ·ونحن نحاول اقتباسها بوعى او بدون وعى سواء فى الاذاعات او فى الكتابات او فى التيلفزيون ، او فى مظاهر الحياة الاخرى : من اللباس حتى الى العادات والى الكلمات والاصطلاحات التى نستعملها · هنا قبل ان ننتقل الى العلاج — لان الجزء الثانى من الموضوع يبدأ فى العلاج أى فى بعض التحليل وفى ايجاد المقومات اللازمة للوقوف فى وجه الغزو الثقافى المباشر الذى هو الاستعمار ، والاعراض التى تعانى منها المجتمعات فى العالم الثالث من الغزو الثقافى غير المباشر .

الدكتور جمال قنان

ان موضوع « الغزو الثقافى » يجذب الانتباه ويطرح عدة قضايا فى نفس الوقت · يجذب الانتباه لأنه عنوان مثير : فكلمة « غزو » تدل على وجود حركة عنيفة تقتحم وجودا ساكنا، وتدفعنا الى القاء نظرة على ما حولنا وتصفح واقعنا لمعرفة ما اذا كانت هاته الظاهرة ، موجودة فعلا · هل هناك حركة ديناميكية تقتحم وجودا ساكنا ؟ وهل فى واقعنا الثقافى شىء من هذا ؟ قبل معالجة هاته القضية يجب أن يتم تحديد اطارها واستخلاص بعض المسائل التى هى متفق عليها من طرف الجميع · فكلمة الغزو الثقافى هى صيغة عامة لا يمكن مناقشتها قبل أن يتم تحديدها بدقة · فضرورة التقدم العلمى والتقنى وضرورة التصنيع بالنسبة لشعوب العالم الثالث هى قضايا يتفق عليها كل الناس ولذلك — فى رايى — يجب أن يفرز جانبا وأن لا تحتويها كلمة الغزو الثقافى · لتصبح هاته الاخيرة تدل فقط على تلك التيارات الفكرية التى تطرح قضايا الانسان : مشاكله ، ظروفه الحياتية ، وضعه وتنظيماته وآفاقه بالنسبة للمستقبل · بمعنى أن هناك فرقا واضحا بين الحركة العلمية من جهة والتيارات الثقافية من جهة أخرى · فالثقافة فى نظرى هى تلك التيارات الفكرية التى تطرح مشاكل الانسان من مختلف الزوايا · ومن هنا تبدو خطورة استعمال كلمة الغزو فى هذا الاطار ·

ففى نظرى أن كلمة « الغزو » لا تنطبق على واقع العالم الثالث اليوم بقدر ما تنطبق عليه كلمة «العقم الثقافى»· وهذا لا يعنى مطلقا انكار بعض المسلمات معترف بها من طرف الجميع وهى : وجود سيطرة استعمارية كانت قد فرضت فى الماضى على أغلب شعوب العالم الثالث وأن هاته السيطرة تركت وراءها آثارا ومخلفات فى مختلف الميادين من بينها الميدان الثقافى · لكن اذا نظرنا الى هاته المسالة بمنظار الساعة

وتفحصنا واقـع العالم الثالث اليوم فاننـا نجد اغلب بلدانه قد استردت حريتها وبنت أو اعادت بناء كياناتها السياسية ، وتطمح الى المستقبل ٠

وهنا يتبادر سوال آخر الى الذهن : ما هو موقف هذه الشعوب من هذه التيارات الثقافيـة التى هى مواكبة للغزو الاستعمارى فى الماضى ٠ وتنطلق فى الحاضر ــ فى اغلبهـا ــ مـن نفس المنـاطق التى ينطلق منهـا الاستعمار الجديد ؟ هل يكون موقف الرفض بدعوى ان هاته التيارات نفذت عـن طريـق الدول الاستعمارية الى بلدان العالم الثالث ؟ أم يكون موقفها هو التقييم واعادة النظر فى هاتـه الافكار وتصفيتهـا والأخذ مـا يناسب منها ويساعد على بناء الدول النامية ؟٠ وفى الحقيقة فليس هنـاك رد واحد على هذيـن السؤاليـن ٠ أو بالاخرى فليس هنـاك اى رد ٠ ومن هنـا تبدولى كلمـة « عقـم » هى اقرب الى الحقيقة من كلمـة « غـزو » وذلك أن فى واقـع العالم الثالث اليوم لـم يبرز هنـاك اى مجهود جدى ــ مـا عدا بعض المحاولات لم تتاكـد بعد ظهرت فى منـاطق متفرقـة ــ يهدف الى اعـادة النظر وتقييم هذا التـراث الذى واكب الغـزو الاستعمارى ويعمل على غربلته معتمدا فى ذلك على أسس تضعهـا شعوب العـالم الثـالث هى نفسها وتنطلق من حاجياتها ومن طبيعة الاهداف التى تسعى الى تحقيقها ٠

وبطبيعة الحـال فلا يمكن وضع مقـاييس عفوية لغربلة هذه آلتيارات لخطورة النتائج التى قـد يـؤدى اليهـا اى مـوقف متطرف فى كـلا الاتجاهين ٠ انما يجب أن يتم ذلك ــ فى نظرى ــ عـن طريـق تحديد موقف واضح جلى مـن كـل القضايا التى تطرحها هـاته التيارات اولا ثـم وضع خطة شاملة للنهوض بالثقافة القومية التى هى مـن بين جوانبها الاستفـادة مـن العناصر الايجابيـة التى تحتويهـا التيـارات الثقـافيـة المعاصرة ٠ ومـن خلال هذا يتضح ان المشكلـة ليست مشكلة « غزو » بقدر ما هى مشكلة «عقم» ثقافى تعانيه شعوب العالم الثالث ٠

عثمـان شبوب :

الآن ننتقل الى المناقشـــة والكلمة الاولى الى الاستاذ عبد المجيد مزيان ٠

عبد المجيد مزيان : اريد على الخصـــوص ان أدقق نقطتين ، النقطة الاولى هى قضـــية العلم والتكنـــولوجيا ، يبـــدو لاول وهلة بأن العلم والتكنولوجيا مســـلم لابد ان ننطلق منه لان قضية التطور بالنسبة لشعوب العـــالم الثالث تفرض هـــذا ، ولكن لا ننسى بأن الاخذ بالعلم والتيكنولوجيا يقتضى كثـــيرا من الوعى ، لان عددا من الافكار وخصوصا فى الميدان الانسانى قد تعد علمية فى بعض الاحيان (وهذا التباس كبير) بينما هى مجرد مفاهيم وقيم حضـــارية نسبية ، وهذا صحيح لكل العلوم الانسانية من اقتصـــاد واجتـــماع وتاريخ ، ان التحليلات الانسانية حينما تاتينا من الغرب تاتينا عـــلى انها مســـلمات علمية لانها تتقنع بقناع العلم فالاستلاب هنا ان نخضع لاعتبارات سياســـية وعقائدية مصحوبة بتحليلات نصف علمية ونأخذ بها أنها حقائق مطلقة ٠ هذا شأن الافـكار التى تأتينا من الغرب الرأسمالى مثـلا فى التحليلات الاقتصادية والاجتماعية : انها تعكس العقيـدة

والرغبات الرأسمالية ولكنــها تخفيها من وراء التحليلات والمناهج الشبه علمية ٠

اما النقطة الثانية فهى نقطة التبادل الثقـافى فى الوقت الحاضر تقول : ليس هناك تبـادل ثقافى ولكن هناك تيار ذو اتجاه واحـد ـ يأتى من الغرب او من البلاد المتطورة تيكنولوجيـا وعلميا ليذاع بين الامم الضعيفة ، اننا لا نـرى أثرا لثقافتنا فى اوربا باستثناء ما نجـده من اهتمام تلك الدوائر القليلة من المتخصصـين الذين هم المستشرقون ، نراهم يتعلمون لغـات العالم الثالث ويهتمون بمجتمعات وثقافات هذا العالم . وليس هذا الاهتمام من التبادل فى شىء لانه محدود وقليل التأثير . ان التبادل يجب ان يكون اوسع من هذا ، يجب ان يصدر بين مجتمع ومجتمع وثقافة وثقافة بالمعنى الواسع . هـذه كلها تدقيقات كان لا بد من تقديمها لنـرى ان الغزو لا زال ممتد الآثار حتى بعد التخلص مـن السيطرة السياسية ، اذ لا زلنا نعانيه ، ولا زلنا لم نصل بعد الى مرحلة التبادل الذى يقتـضى تكافؤ الانتاج وتكافؤ القوى والمستوى الحضارى بين المتبادلين .

الاستاذ الشيخ بوعمران :

اذا عدنا الى تحديد موضوع الندوة وهـو الغزو الثقافى يبدو لى ان العبارات التى استعملناها فى هذا الموضوع كلها غير كافية من ناحيـة ، وكافية من نواحى ، مثلا اذا قلنا بالعقم ، حقيقة هناك عقم فى بعض المجالات ، ولكن ثمة انتـاج ايضا وادب وثقافة فى مجالات اخرى ، على سبيل المثال : ان ثقافتنا الآن نحن الشعوب الناميـة سواء فى العالم العربى الاسلامى او افريقيا او آسيا او امريكا اللاتينية قد طغى عليها الطابع الادبى وضعف فيها الجانب العلمى او كاد ان يكون معدوما ٠ هذا شىء معروف ، وهو نـاتـج عن اوضاعنا المختلفة سياسيا ، واقتصـاديا ، وثقافيا ، ولم يكن الامر هكذا فى جميع مراحـل تاريخنا ٠ فالعالم العربى الاسلامى عرف مراحل تاريخية قد ازدهرت فيها العلوم واستطعنـا ان نأخذ من الثقافات الاجنبية ما كان يناسب اهدافنا الحضارية ، مثلا نقلنا علوم اليونان الى الحضارة العربية فى بداية العصر العباسى واخذنا مـن الثقافة اليونانية العلوم والفلسفة خاصة وقمنا بغربلة غريبة من نوعها ، لم نأخذ من الشعـر اليونانى شيئا الا نادرا ، واخذنا الفلسفة تقريبا كلها وقمنا بتقييمها واخذنا من العلوم علم الفلك والرياضيات والطب الى غير ذلك ٠ غير اننا قمنا بعملية يجب ان نقوم بها الآن فى عصرنا بالنسبة الى الثقافة الاوربية التى اتفقنا على انها تفوقت اليوم ، وهى عملية الفحص والغربلة واثـراء ما وصل الينا والابداع فى هذه المجالات المختلفة، وكل هذا قد تم بمعنى الكلمة فى العصر العباسى ومن هناك انتشرت الثقافة العربية الى اوربـا وآسيا وافريقيا ٠٠٠ هذه المرحلة وصلنا اليهـا فى فترة معينة من تاريخنا ، فنجحنا فيها حتى عرفنا اوربا بالفلسفة اليونانية وبجوانب اخرى من الثقافة اليونانية ٠ اما فى عصرنا القريـب فذكر بعض الزملاء الصين ، حقيقة الصين الآن

بارزة فى العصر الحديث ، وانما ثمة شعب آخر فى آسيا وهو الشعب اليابانى ، وكانت وضعيته فى القرن التاسع عشر تقريبا هى وضعية العالم الثالث اليوم . وكان قد تعرض الى غزو عسكرى واقتصادى من طرف امريكا . ان هذا الشعب قد اقتبس الكثير من الحضارة الغربية وهنا أستعمل كلمة الحضارة بدلا من كلمة الثقافة لانه تبنى كل ما فى اوربا وامريكا من ظواهر اجتماعية وثقافية وتيكنولوجية ، ووضع اليابان كل هذا فى مجتمع يابانى وهو غير المجتمع الاوربى والامريكى ، وقام هذا الشعب بفحص وغربلة ونجح الى حد كبير فى مزج هذه الظواهر الحضارية الاوربية بحضارته الاصلية وحافظ على ظواهر كثيرة من حضارته الى يومنا هذا ، ذلك هو الطابع الموجود فى الصين وفى اليابان اليوم مع بعض الفوارق منها الاختيار العقائدى أو السياسى بصفة عامة . ولكن تعقيبا على ما قال بعض الزملاء ومهما قال ابن خلدون فى العبارة التى ذكرها الزميل ان التاريخ يدل على ان بعض الشعوب المغلوبة قد تؤثر فى الشعب الغالب واذكر على سبيل المثال قضية الحضارة اليونانيه والغزو الرومانى ، ان روما لم تكن فى المستوى الحضارى الذى كانت فيه اليونان ، وعندما احتلت روما المدن اليونانية اثرت الثقافة اليونانية فى الثقافة اللاتينية بشكل واضح انا نستطيع القول بان ليس هناك فلسفة لاتينية بمعنى الكلمة ، الفلسفة الموجودة هى الفلسفة اليونانية التى اثرت فى الفكر الغربى كله الى يومنا هذا ، كنت اريد ان اقوله تعقيبا على مفهوم الغزو الثقافى او الركود الثقافى بعبارة ادق .

د . هشام الصفدى :

أشارك الزملاء فى موضوع التصدى الى العقم الثقافى لان هذه الكلمة طبية ، واذا اردنا ان نرجع الى الكلمات بشكل حرفى نجد ان المرأة العقيم هى التى لا تنجب اطفالا . وفى الواقع الحضارات التى كانت مزدهرة فى العالم الثالث ومنها الحضارة العربية الاسلامية انجبت أولادا كثيرين موزعين فى انحاء العالم . وافضل اذا وافق الزميل جمال قنان استعمال كلمة «ركود ثقافى» لانها تعبير عن الواقع لسبب بسيط وهو ان الثقافة ليست انتاج مجموعات لا منظورة !! لا ، فالثقافة هى انتاج الافراد من القاعدة ، من الخلية التى تبدأ بالاسرة وتنتهى الى القرية او المجتمع او الوطن . فاذا اردنا ان ننصف الحقيقة نجد أن الافراد فى العالم الثالث وقد فرض عليهم على كثير منهم ان ينهلوا من الثقافة الغربية بحكم تبعية بلدانهم فى احيان كثيرة الى استعمار غربى طويل الامد فرنسى او انجليزى او هولاندى . . الخ ، فهؤلاء النخبة اذا حق لنا ان نسميهم كذلك ذهبوا الى الغرب ووجدوا هناك فى اوساط ثقافية وعلمية صحيحة ، فحققوا ذاتهم هناك ، واثبت الكثير منهم انهم على مستوى المسؤولية . ولمع الكثيرون منهم ممن بقوا فى المجتمعات الغربية اليوم وأصبحوا علماء وساروا فى مضمار الحياة مثلهم مثل اى انسان من ابناء المجتمع الاوربى وهناك

علماء كثيرون في كندا والولايات المتحدة والمانيا من بلدان العالم الثالث . ولا حاجة للذكر بالتخصيص . اذن المشكلة ان مواطن الدول المتخلفة او دول العالم الثالث مشكلته ليست في انه عقيم او خصيب ، مشكلته اتاحة الفرصة العادلة له لكي يحقق ذاته ولكي يعطي مجتمعاته الحضارة والازدهار الثقافي اللازم لها ، هنا أصل الى التعليق على التعبير الذي استعمله الاخ جمال قنان وهو «العقم» لان العقم فعلا قد ينتج عن اجهاضات ـ اذا استعملنا الاصطلاح الطبي ـ متكررة ، المرأة التي تجهض عدة مرات قد تصاب بالعقم . ولسوء الحظ نجد في بلادنا ان التفتحات الثقافية ـ سواء في المغرب او في المشرق العربي ـ والتي أعطتنا فطاحل من العلماء ومن المثقفين ، لا حاجة لتسمية اسمائهم ، قد أصيبت باجهاضات متعددة كلما آن الاوان لقطاف موسم جديد ليبنى عليه موسم تال ، والثقافة ليست هي لبنة واحدة توضع وكفى ، وانما هي بناء يبنى عبر الاجيال من آلاف اللبنات ويتوارثه الاب عن الجد ..الخ ويعطيه الى ابنائه . فمشكلتنا في العالم الثالث ان هنالك محاولات عامدة لاجهاض الحركات الثقافية . وكما قلت في بدء التعريف للغزو الثقافي ، ان الغزو الثقافي جزء من كل ، والكل هو الاستعمار بكامله الذي يطمح الى شيء اساسي هو المكاسب الاقتصادية ، وهذا روح الرأسمالية العالمية وسر الاستعمار .

ثانيا نحن ندور في حلقة مفرغة وقد نختلف على التسميات ولكن المحتوى هو شيء واحد . لكي تستطيع هذه المنطقة او دول العالم الثالث ان تتخلص من التخلف وان تقاوم الغزو الثقافي يجب ان يكون لها عقيدة نابعة من ذاتها عقيدة تمليها مصالح الاكثرية الطبقة الكادحة او جماهير الناس . هذه الارادة للاسف لم تعل في يوم من الايام بشكل واضح الى ما فوق الماء . وهي كلما تبرز برأسها كلما تغمس اعمق واعمق في الوحل حتى لا تتمكن من التعبير عن ذاتها . اذن ، نحن الآن في ماء عكر ننتظر الفرصة لكي تستطيع هذه الامكانيات ان تصعد فوقه وتحوله الى ماء صافي : كما كان في الماضي وكما يجب ان يكون في المستقبل .

الدكتور جمال قنان

في الحقيقة ان استعمال كلمة « عقم » تستوجب وقفة لتوضيح المقصود منها ودلالتها بالنسبة للمسالة المطروحة أمامنا . فأنا عندما استعملت هاته الكلمة اقصد مطلقا الماضي عندما كانت أغلب شعوب العالم الثالث تعيش تحت وطاة الاستعمار وارادتها مغلولة ومقهورة بسبب هاته السيطرة . فأنا اكدت كثيرا وركزت على واقع العالم الثالث اليوم ، وهو الذي يعنينا ، كما أن استعمال هاته الكلمة استعمالا مجردا ومبهما قد يؤدي الى خدمة أغراض ونوايا ليست هي التي نرمي اليها عندما استعملناها . ولا نقصد بها أن شعوب العالم الثالث غير قادرة بالطبيعة على الخلق والابتكار . كما اكده بعض الغلاة من منظري الاستعمار انما نقصد العكس ، بأن هاته الشعوب تستطيع ، ولكنها لم تفعل ، لمرض هي قادرة على علاجه والتخلص منه ولكنها

لم تكتشفه بدقة ولم تشخصه الا فى عموميـاته عـن طريق بعض اعراضه الخارجيـة ٠ ذلك ان حالـة « العقم » الثقـافى الملاحظـة عند شعوب العـالم الثالث مربوطـة بأسباب موضوعية اذا دققناها ربما نجد انها اسباب تتجاوز امكانيات الافراد ــ كـل على حدة ــ ولكنهـا لا تتجـاوز المجتمع اذا مـا حاول التخلص منهـا ٠ وكذلك لا أستطيع أن أقـول ان هنـاك ركودا ٠ ذلك ان هنـاك حركـة نتـاج فى مختلف فروع الآداب والعلوم الانسانية ٠ ولكن ما قيمة هذا الانتـاج فى حركة التاريخ بالنسبة لهذه الشعوب ٠ ففى مجمله ــ مـا عدا بعض الاستثناءات القليلـة ــ نجده عبارة عن تكرار ومحاكاة لما قاله علمـاء الغرب وليس هو خلق وابتكار كما هو مطلوب ٠ واعتقد بهاته الاضافة ان استعمالى لكلمة «عقم» واضحة الدلالة ولا يمكـن أن يتخللها لبس ، أو تؤدى الى سوء فهم ٠

د ٠ عبد الله الركيبى :

الواقع ان موضوع الندوة اثار نقاشا مهما جدا والاخوة تقريبا متفقون على ان هناك تفريقا او ينبغى ان يكون هناك تفريق بين امرين فيما يتصـــل بالغزو الحضارى كما عبر عنه بعض الاخوان وليس الغزو الثقافى ٠ والحقيقة ان الحضارة والثقافة فى اغلب الاحيان متلازمان والتفريق بين شيئين وهى العلم والتيكنولوجية وبين العلوم الانسـانية كما ذكر الاستاذ عبد المجيـد مزيان ، هذا لابد ان نضعه فى الاعتبار ، صـحيح ينبغى ان ناخـذ بحذر فيما يتصـــل بهذا النـــوع بالعلم أو بالتيكنولوجية ولكن على العموم هذا الجانب عام يلتقى فيه الامريكى كما يلتقى فيه الروسى كمـا يلتقى فيه الغربى فى اوروبا الغربية كما نلتقى نحن ايضا فيه وفى العالم الثالث سواء كان فى الصين او فى الهند او فى افريقيا أو فى اى بلـد آخر ينتج صناعة حتى ولو كانت صناعة بسيطة لان هذه الصناعة البسيطة قد يستفيد منها هـذا المتقدم حضاريا او صناعيا وانا اعرف ان هنـاك بعض الصناعات الوطنية الجزائرية اليوم يمكن ان تؤخذ بعين الاعتبار فى اوروبا المتقدمة صناعيـا مثلا فيما يتصل بالقماش ، هناك صناعة جزائرية متقدمة وهناك صناعة فى العـالم الثالث متقدمة يمكن ان تقارن حتى بالصناعة فى اوروبا ، ولكن المشكلة الاساسية فى رأيى الشخصى واظن ان بعض الاخوان اشار اليها هى ان الغزو الثقافى غالبا ما يأتى من الجانب الانســـانى فى العلوم الانسانية ونحن نعرف ان تشويه التاريخ الوطنى التاريخ الجزائرى وربما هـــذا ينســـحب على الشعوب التى بليت وابتليت بالاستعمار قد جند الاستعمار التاريخ كما جند علم الاجتماع كما جند الفلسفة جند الادب كما جند علم النفس، كما جند كل العلوم الانسانية ليشوه هذا التاريخ وليجعل الشعوب المغلوبة على أمرها تحس او تشـــعر بالنقص تجـــاه الدولة الغازية ، اذن فالعلوم الانسانية هى التى يأتى من خلالها وبواسـطتها الغزو الثقافى ومن ثم الحذر هنا من هذه العلـوم ينبغى ان يكون اشد واقوى من الحذر من الجانب التيكنولوجى ونحن نعرف مثلا انكم مارســـتم الثقافة فى بلادنا وتمارسونها وتكتبون وتؤلفون

وتحاضرون وتعرفون ماذا قد حصل من تشويه للتاريخ الجزائري فيما يتصل بالجانب الثقافي وبجانب العلوم الانسانية يكفي هنا ان نثير قضية اللغة مثلا وهي أداة الآداب التي تعطي الطابع الحقيقي لشخصية شعب من الشعوب في الصين اذا انتصرت فقد انتصرت بلغتها واليابان اذا انتصرت فقد انتصرت بلغتها والفيتنام اليوم تنتصر بلغتها وقد رأيت ممثل الفيتنام يتحدث بلغته ويترجم وهو يعرف لغات متعددة كغيره من بقية الاشخاص .

عثمان شبوب : اظن ان انتقالنا الى النقطة الثانية وهو استعراض بعض المظاهر ، مظاهر الغزو الثقافي من شأنه ان يوضح كثيرا من أهداف هذا النقاش الذي دار حول النقطة الاولى . واذا انتقلنا الى النقطة الثانية وهو استعراض بعض مظاهر هذا الغزو وانا اقترح كمدخل عبارة متداولة كثيرا في هذا الموضوع وهي عبارة المبادىء المستوردة ، نريد ان نوضح هذه المبادىء المستوردة مع ذكر الامثلة ، لان هدف هذه الندوة في الاخير هو كما قلنا في التقديم توضيح بعض المفاهيم المتداولة عندنا .

الاستاذ عبد المجيد مزيان :

ان كلمة « مبادىء مستوردة » غير لائقة في نظري ، بل ان هناك ما نسميه اجمالا بالغزو الثقافي ، ويمكننا ان نتكلم بالتدقيق عن الغزو الايديولوجي ذلك لان الغزو الثقافي يتضمن العقيدة فاذا كان هناك فراغ عقائدي وخصوصا في فترات التبعية للاستعمار ، فان المجتمع المغلوب يتبنى مرغما عقيدة مستعمريه قبل فترة الوعي والنضال .

لناخذ مثالا حيا من بلادنا . فمقاومة الجزائر لحضارة اجنبية غازية وهي الحضارة الفرنسية كانت في أواخر القرن العشرين مبنية على عقيدة هي العقيدة الاسلامية لانها كانت قوية في ذلك الوقت مما أدى الى تجنيد الشعب بأكمله من أجل مقاومة حضارة أجنبية مع ما فيها من قوة مادية وثقافية معا وبعد ماتوغل الاستعمار في البلاد فان اول شيء بدأ به هو الحرب الثقافية . وكانت المدارس الفرنسية حسب مخططات الولاية العامة تسعى تدريجيا لاثبات لغتها وثقافتها ثم التوصل اخيرا الى محو آثار كل كيان ثقافي وطني في هذه البلاد بما فيها اللغة لان اللغة لها أهمية كبيرة في هذا الميدان اذ الكيان الوطني يبدأ من اللغة انما تمتاز الامة عن غيرها من الامم بالتعبير وبالتبليغ الثقافي قبل كل شيء . فاذا كانت هناك « مبادىء مستوردة » فكلمة استيراد تقتضي نوعا من الاختيار . نحن في عصر غزو ثقافي لا يسمح بالاختيار ، ولكنه الاخضاع والخضوع .

لناخذ مثالا من الاقلية المثقفة بالفرنسية في عصر ما قبل الحركات الاصلاحية عندنا أي في سنة 1926-1927 حينما انتجت المدارس الفرنسية أول دفعة من المثقفين الذين انعزلوا عن شعبهم وكانوا يتبجحون بالثقافة الفرنسية والعلم الفرنسي ويطلبون الاندماج الكلي في المجتمع

الاستعماري لا يمكننا ان نقول بان هؤلاء يكونون جماعة واعية استوردت المبادىء من فرنسا وانما هي جماعة كونها الفرنسيون لانفسـهم كطبقة معينة ليحكموا بواسطتها الشعب الجـزائري ولينشروا بواسطتها ثقافتهم .

عثـمان شبـوب :

ان الذين يتحدثون عن المبادىء المسـتوردة يقصـدون بعض الايديولوجيات المعاصرة مثل النظريات الاشتراكية بانواعها فيقولون ان هـذه الاديولوجيات داخلـة في نطاق الغزو الثقافي !

الاستاذ عبد المجيد مزيان :

اذا كنا نتكلم عن الوضعية الحالية ونقول بان هناك نظريات « مستوردة » فكلمة « اسـتيراد » تتضمن هنا كذلك موقفا نقديا معناه ان الشخص الذي يسمي هذه المبادىء مبادىء مستوردة يعمم الاستيراد في الظاهر ، ولكنه في النهاية لا يقصد الا الاتجاه الاشتراكي وحده . فلماذا لا يقصـد العقائد التي تأتينا من الغرب ؟ بل كثيرا ما نرى هؤلاء المنتقدين للنظريات الاشتراكية يدعون ان النظريات التي تأتي من أمريكا أو من فرنسـا تتفق مع الاسلام لانها تدافع عن الملكية الشخصية ولانها تدافع عن الفرد وتدافع عن قيمنا الاسلامية بينما نحن نعلم حق العلم ان المصائب الكبـرى انما اتت الى الشـعوب الاسـلامية من الغزو الرأسمالي . لكن المنتقدين لا يتكلمون عن الغزو الثقافي الرأسمالي بل يتكلمون دائما عن الغـزو الماركسي وهنا الالتباس . ومن حقنا ان نوضـح هذا الموقف كامل الايضاح . ان الغزو مفهـوم اجمالي وعملي يقتضي تخطيطا من المستعمر يرمي الى تفكيك المجتـمع المغلوب وابتلاعه والغـزو الثقافي وجه جزئي من الغزو الشامل واذا كنـا واقعيين ومنصفين اعترفنا ان الاسـتعمار هو الغازي الاكبر ، واذا عرفنا ان الاستعمار وجـه من وجوه الراسمالية علمنا ان الغزو ياتينا قبل كل شيء من الراسـمالية . فنظـريات النظـام الرأسمالي ليست مسـتوردة فقط وانما هي نظريات عدائية غازية اما النظريات الماركسـية فانها اتت في غالب الاحيان مسايرة للحـركات الاستقلالية التحررية ولقد كان على مفكري الحروب التحريرية ان يأخذوا بسلاح الثورة الماركسـية ليحاربوا به الراسمالية لان الاستعمار في قمـة الرأسمالية . والماركسـية كانت دائما تعتبر منهجا تحليليا وعمليا بالنسبة لزعماء الحـروب التحريرية لانها المذهب الوحيـد الذي فضح الرأسمالية بكيفية علمية وواقعية . نعم لقد وقع كثير من الالتباس في اسـتعمال هذه التحليلات الماركسية ، لان النضج الثقافي لم يكن موجودا عندنا وصرنا ناخذ بظاهر المذهب غير واعين ما في هذا الاخذ الوثوقي من اخطار اذ لم يدرك بعضنا ، وخصـوصا المثقفون الذين تنقصهم التجـربة السياسـية . ان مجتمعنا مغاير تمام المغايرة للمجتمعات الاوروبية التي كانت نماذج لتحليلات الاشتراكية العلمية الاولى . نعم اننا نعترف أن هذا الموقف الوثوقي نوع من عدم الوعي ، ولكن عدم الوعي الذي يؤدي الى احتضان افكار العدو

والدفاع عنها لانها توافق مصالح بعض الطبقات الخاصة عندنا انما هو كارثة ثقافية وسياسية لا نظير لها .

عثمان شبوب :

وزيادة في التوضيح أذكر انني قلت في تقديم هذه الندوة نريد انوضح بعض المفاهيم بامثلة . حينما نتكلم عن الايديولوجية الماركسية فانها طبعا تتمثل لنا في عدة مفاهيم ماركسية . ان الذين يتحدثون عن الغزو الماركسي ويلحون عليه وعند ما يتحدثون عن المبادىء المستوردة فانما يقصدون الفكر الاشتراكي بصفة عامة .

عبد المجيد مزيان : اما الفكر الرأسمالي فلا يذكرونه ؟

عثمان شبوب : الراسماليلا يذكرونه وسياتي توضيح لهذا ، ان المبادىء المستوردة عندهم يحددونها في مفاهيم مثل مفهوم طبقة ومفهوم «اشتراكية» او مادية تاريخية فان هذه المفاهيم هي التي يسمونها مبادىء مستوردة ويقولون يجب ان نتخلى حتى عن هذه الكلمات .

السؤال الثاني وهو غير موجه للاستاذ عبد المجيد فقط وانما لجميع الاخوة الحاضرين نطرحه للنقاش .

هل تعتقدون بان الفكر الاشتراكي بصفة عامة اكثر خطورة على الشعوب النامية وعلى ثقافتها من الفكر الراسمالي بجميع انواعه كما يقول هؤلاء .

الاستاذ الشيخ بوعمران :

اود ان ننتقل الآن الى النقطة الثانية التي هي الغزو الثقافي او الركود الثقافي او العقم الثقافي حسب المصطلحات التي ناقشناها ، ولا يمكن ان نذكر جميع هذه المظاهر وانما اريد ان اركز على البعض منها ، ولا شك ان الزملاء سيركزون على مظاهر أخرى .

اذا اقتصرنا على الجزائر ويهمنا طبعا المجتمع الجزائري بالدرجة الاولى كنموذج من نماذج العالم الثالث ، تظهر لنا سياسة الاستعمار في بداية الاحتلال الفرنسي . ان هذا الاحتلال كان احتلالا حضاريا كما قلنا ، وذلك من جميع النواحي قد - اتى المستعمر بنظام سياسي ، واقتصادي ، وثقافي ، وعلمي ، وعسكري - اراد ان يفرضه على الجزائر بقطع النظر عن الظروف التي تعيش فيها الجزائر ، واراد ان يتجاهل الشعب الجزائري وتقاليده وثقافته ، وهذا ظاهر في كتابات المؤرخين الفرنسيين والمثقفين والعسكريين والحكام في بداية الاحتلال - لانهم اصطدموا بواقع لم يقرؤوا له حسابه ، فاخذوا يفكرون في هذه القوة السرية او الخفية التي تواجه القوة الفرنسية التي كانت في ذلك العصر من ابرز القوى في اوربا - فاكتشفوا اصالة الشعب الجزائري ، فاهتدوا الى ان هناك شخصية جزائرية وأخذوا يدرسون الشخصية وبرز فيهم علماء استعماريون طبعا من مؤرخين ، وادباء ، وأطباء ، وفولكلوريين وايثنوغرافيين . وقبل ان تستعمل كلمة علم

الاجتماع التى ذكرها الزميل عبد المجيد مزيان كانت علوم الشعوب البـدائية انتـربولوجية واعتبروا اننا من هذه الشعوب، الشعوب المتخلفة حضاريا فالفوا كتبا فى هذه المسائل ثم ارادوا ان يقضوا على مظاهر الحضارة العربية الاسلامية فى الجزائر وعلى اللغة العربية وعلى المجتمع العربى بما فيه من عقائد دينية وتقاليد شعبية وأصالة ثقافية .

وما بعـد الاستقلال طبعا أول شيء قمنـا بـه ونقوم به فى العالم الثالث هو تصحيح هـذه المفاهيم التى زيفها الاستعمار ، تلك هى المرحلة الاولى . فأعدنا النظر فى تاريخنـا وثقافتنـا ، وقيمنا وتقاليدنا والآن ما زلنـا نكتب ونحاضر ونحارب تشويه تاريخ الجزائر وتشويه الفكر أو العقيدة الاسلامية في الجزائر من طرف المستشرق فلان أو فلان ، أعدنا النظر فى التعليم و الادب الفرنسى الـذى يدرس فى التعليـم الابتدائى والثانوى والعالى حتى نقوم بعملية فرز فى الادب الفرنسى الذى يحمل ايديولوجية تختلف مـع اختيارتنا الاساسية ، ثم في العصر الذى نعيش فيه قد تمسك بعض المثقفين بالثقافة الاجنبيـة وهذا مرض نعانى منه فى العالم الثالث لان الكثير من المثقفين ــ وهم أقلية بالنسبة الى بقية الشعب يرون بان هذه الثقافة هى الوحيدة القوية التى يمكن ان نتبعها . فهذه بقايا من رواسب العصر الاستعمارى ، واعدنا النظر فى مشاكلنا الحضارية لنقضى عـلى التخلف الاقتصـادى والعلـمى والتيكنولوجى والفكرى والادبى ، لان الانتـاج الادبى كما قلت موجود كذلك الانتاج التاريخى وهناك محاولات فكرية لا تنكر وما نسميه الفكر هو الفكر العالمى لا جزءا منه خاصا بنا فى منطقة معينة ان لقاء بعض الافكار أو الاجماع عليها فى العالم باسره ، ما زلنا نتباحث فيها وقد نكتفى بمناقشات بزنطية حول مفردات أو مصطلحات فى قضية الطبقة أو قضية الاشتراكية فنحن نتناقش طويلا ونكتب مقالات كثيرة فى تحليل مصطلحات أجمع الناس عليها وهذا لا يليق طبعا بمستوى ثقافى محترم ، يبدو لى ان قضيتنا اليوم كما كانت من قبل قضية حضارة لا قضية ثقافة معينـة وطبعا الثقافة تلعب دورهـا وينبغى ان ندرس علاقتنا نحن شعوب العالم المتخلف بالثقافـة الاوروبية سواء كانت أوروبا الغربية أو امريكا او اوروبا الشرقية التى تطبق اشتراكيات متنوعة حسب ظروفها الخاصة و اذا استطعنا ان نبحث هذه المسائل ونسلط عليها فكرنا وتفكيرنا يمكن ان نكون فى مستوى العصر اما واذا اكتفينا بذكر امجادنا العلمية والثقافية والادبية والتاريخيـة والسياسية فتبين ان هذا الموقف يدل على ركودنا الشامل .

د . هشام الصفدى :

بالواقع بالنسبة للمظاهر هناك الشيء الكثير وكما قال الاستاذ والزملاء بان المظهر الرئيسى فى الغزو الثقافى يشمل بالدرجة الاولى اللغـة القومية لدى كل الشعوب ، وهذه حقيقة ، وقد

رأينا انه في المنطقة التي هي المغرب او المشرق العربي اللغة العربية كانت وعاءا للاسلام، والاسلام واللغة العربية تقريبا مترادفين يتلخص عنهما وينتج حضارة عامة شاملة صبغت اجيالا ورقعا جغرافية بصبغة معينة • ويحق للانسان ان يفتخر بها • ولكن المشكلة في رواسب الغزو الاستعماري هو كما قال احد الزملاء ان هنالك اجيالا فرض عليها ان تتنكر للغتها القومية وان تعتقد بأن الاخذ باللغة الاجنبية اى لغة المستعمر مهما كان اسمه ولونه، ان هذه اللغة هي مفتاح السلام، واقول مرة اخرى انه لا يمكننا ان نفصل بين العلم وبين التيكنولوجية وبين العلوم الانسانية لانها كلها تصب في بحر واحد هو المجتمع الذي يعيش فيه الفرد فلا يمكن ان يفكر بنصف عقله بالتيكنولوجية بمفاهيم معينة وان ينظر بنصف عقله الى العلوم الانسانية فيعالجها بمفاهيم معينة • وكما وجدت الصين في تجربتها الرائدة الناجحة الخلاص وطريق الخلاص في العودة الى الحاجات المحلية النابعة والتخلي عن المستوردات والعقائد الغريبة على المجتمع الصيني، أعود فاقول ان طريق الخلاص بالنسبة للمجتمعات المتخلفة في العالم العربي الاسلامي وفي العالم الثالث هو في العودة الى أصالته • ونحن نتكلم عن الأصالة وعن الدروع الواقية التي حمته قرونا طويلة وأضرب افضل مثال على ذلك من الجزائر : اذ ان الدين الاسلامي واللغة العربية كانت الحصن الحصين الذي تجمعت وراءه ارادة التحرير الجزائرية وانتصرت مؤخرا، فاذن من هذا المنطلق يمكننا ان نبدأ بحث الوسائل الناجعة للتغلب على آثار مظاهر الاستعمار الثقافي السابقة والتي قلت عنها مباشرة، والتصدي الى محاولات الغزو المقنع تحت الشعارات الثقافية – وهو اقتصادي في صميمه – وايجاد حلول عملية كثيرة لها •

هنا احب ان أذكر مثالا صغيرا عانيته في مطلع وصولي الى الجزائر الحبيبة وهو الحادثة التالية : كان أحد زملائنا يشكو دوما من الم في رأسه ويخاف من المطر لانه أصلع الرأس فيضطر الى وضع قبعة، ولما اتى الجزائر اخبره الطلاب والزملاء بان هذا منكر : لان القبعة رمز للرومي اى رمز للمستعمر، وعليك بان تخلعها • فأسرع مذعورا الى خلعها والقاها دون ان يستعملها مرة اخرى • بقي هذا الحادث في ذاكرتي، ولكم تبادر الى وانا ارى بعض الفتيات وخاصة في المدينة العاصمة يرتدين «الميني جيب» اى الخراطة القصيرة جدا ويمشين حتى في شهر رمضان في الشوارع بهذا الشكل • فقلت يا سبحان الله المواطن الجزائري صدمته القبعة التي تحمي الرأس ولم تصدمه «القندورة» القصيرة التي تعرض جسم الفتاة الى البرد والى غير البرد ؟ حاولت ان افسر هذه الظاهرة لانها فعلا ظاهرة عامة، فقلت في نفسي : الحق مع ذلك المواطن الذي احتج على القبعة لانها رآها ترافق حراب المستعمر فجعلها شعارا للمستعمر وللرومي بصفة خاصة، واما «الميني جيب» فقد جاءته عقب خروج المستعمر وتسللت اليه عن طريق السلام والتعاون، فاعتقد انها مظهر من مظاهر الحضارة

والتقدم يمكنه ان يقلده دونما خطر . هذا مثـال بسيط يمثل لنا كيف ان الشعوب المتحـــررة حديثا قد تتخلى سريعا عن الدروع الواقية التى استعملتها فى الماضى للتحرر لاعتقادها انهـــا أصبحت فى مأمن ، وانها يمكنها ان تغض الطرف عن احتمال استعمار جديد . وارى ان الاستعمار الثقافى «غير المباشر» يستهدف فى طليعة مـا يستهدف «العقيدة» التى تتجسد فيها مكـــارم الاخلاق ، «واللغة» التى كانت وما زالت وعـاء الحضارة واداة تعبيرها . ولا غرابة فى ذلك ، فالعقيدة واللغة دعامتان اساسيتان ترتكز عليهما شخصية وحضارة المجتمعات البشرية فى المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج .

الدكتور جمـال قنـان

مسالـة المظاهر فى الواقـع هى متشعبـة لكنهـا فى نظرى تتلخص فى موقفين : المـوقف الاول هـو التردد الثقافى وهذا التردد الثقـافى يعكس انمـاطا مـن السلكات الفرديـة المختلفـة نستطيـع أن نضعهـا تحت عنـاوين مختلفـة . والذبذبـة الحضاريـة وهـاتـه على مستـوى المجتمعات . معنى هذا أنهـا تشكل حاجزا ضد النمـو والتطـور والامثلـة على ذلك كثيـرة فى مجتمعنـا العربى . وابرزها هنـا فى الجزائـر موقف بعض الطوائف من مسالة اللغة القومية : وهى اللغة العربية . ومن قضية التعريب . ومن المسلمات لدى كل مواطن سليم الطويـة وصفى الضمير انه لا يمكن مطلقا التشكك حول امكانيات هاتـه اللغة مـن الناحية الثقافية وقدرتها على مواكبة التطور بجميع مراحله وفى جميع الميادين ومع ذلك وجدنا مواقف متشككة حول هاته اللغة وحول امكانياتها واهميتهـا وحتى ضرورتهـا بالنسبة لنـا . ولا أعتقد ان هنـاك احدا يستطيع أن ينكر مدى ما سببه هذا الموقف المتشكك مـن الصعوبات فى طريق انجاز هذه المهمة الوطنية التى هى مهمة أساسية وحجر الزاويـة بالنسبة لمستقبلنـا .

د . عبد الله الركيبى :

اعتقد انه فيما يتصل بمظاهر الغزو الثقافى ان المبدأ الاول والاســـاسى هو قضـــية التأثير والتأثر ، فهناك جانب قـــوى مؤثر فى جانب ضعيف والجانب الضعيف يتأثر بالجانب القوى ، اولها فان موقف هذا الجانب الضعيف وهو ينطبق على الشعوب التى استعمرت طويلا أو على العـالم الثالث كما يتحدث الاخوان ، ينطوى على موقف واحد يشمل مظاهر الحيـــاة بمختلف مجالاتها واشكالها ، وتنوعها هذا الموقف هو ان الفـــرد مثل المجتمع فى هذه البيئات المتخلفة باستمرار يعمد الى المقارنة بين ما لديه وبين ما لدى القوى أو ما لدى الآخرين ، وهذا بطبيعة الحال قد نشأ من شعور الفرد او شعور المجتمع بالنقص تجـاه القوى او تجاه الحضارة القوية او الثقافة الغازية فهو باستمرار فى موقف المدافع كما ذكر الاستاذ مزيان فى ملاحظة من الملاحظات ، والشـــعور بالنقص او مركب النقص هذا يمكن ان يعمم على كل ما فى حياتنا من الناحية الاقتصـــادية او الاجتماعية او الثقافية او الحضارية او اللغوية او الدينية فكل ما هو موجود لدينا يخضع لهذا المبدأ وهو مبدأ المقارنة مبدأ الشعور بالنقص وسأضرب امثلة مثلا ، فحين يظهر فى مجال الثقافة ونحـن

ننتمى الى هذا المجال ، حين يظهر كتـــابا ألفه جزائرى او الفه عربى او الفه من ينتمى الى العالم الثالث فلا يجد القبـــول ولا تعطى له قيمة مهما كانت قيمته الا اذا بصم عليه الاجانب ونوهوا به او نقدوه او عرفوا به فى صحفهم او فى بلدانهم ، مثلا فاذا كتب منـــا كاتب رواية فاننـــا نعمد باستمرار الى المقارنة هل هى تشـــبه ما كتبه الروائى الفلانى الغربى أولا ؟ ماذا تحقق فيها من آراء أو من مبادىء او من خصائص او من افـكار مما وجد عند الاجانب ، فاذا خططنا للاقتصـــاد الوطنى فنحن دائما نعمد الى المقارنة هل هـــذا يشابه ما هو موجود فى البلد القوى او البـــلد الذى كان بالامس بلدا مستعمرا حاكما ام يختلف عن ذلك ؟ فاذا ظهرت ظاهرة اجتماعية فهل هذه الظاهرة الاجتماعية الموجودة فى بيئتنا توجد فى البيئة الاخرى ؟ فنحن باســـتمرار فى موقف المقارنة وهـــذا هو المظهر الاســـاسى والمظهر الواضح والمظهر الطاغى على حياتنا وبالطبع حين نتحدث عن العلاج سيأتى الظرف المناسب لذلك .

هناك ايضا قضية تتصل بهـــذا الموضـــوع بالذات وهو ان الشـــخص حينما يقارن وحينما يشعر بمركب النقص فانه يعمد الى التقليد يقلد الاجنبى ، وما ضربه الاستاذ الدكتور هشـــام الصفدى فيما يخص المرأة وتقليد الغرب ، هـذا يمكن ان يسحب او ينسحب على مجالات اخرى ، على الشباب ، على اللباس ، على الاكل ، بل أكثر من هذا ينسحب على التصرفات ، احيانا الشخص يتصرف كما يتصرف الاجنبى سواء عن شعور او عن غير شعور او عن قصد او غير قصد لان الغزو الثقافى والحضارى ترسب فى الاعماق ويتصرف او يشكل حركاته دائما وابدا بالمقارنة الى الرجل القوى او الحضارة القوية ، ماذا خلق هذا كله ؟ خلق هذا انعدام الثقة بالفرد وبالمجتمع ، وخلق هذا استسلاما للفـــرد وللمجتمع لهذه الثقافة الغازية لهذه الحضارة العدائية واصبح مستسلما يتلقاها دون رد فعل اطلاقا لان معنوياته اصبحت فى درجة من الانهيار لا تساعده على ان يقاوم هذا التأثير تأثير الغزو الفكـــرى او الثـــقافى او الحضارى ، اكثر من هذا ان الكثير من الشـــعوب التى استقلت فى العالم الثالث تقلـــد حتى فى انظمتها السياسية الغرب ، مثلا هل يصلح الحكم البرلمانى أو لا يصلح ؟ مادام قد صلح وافاد فى البلدة الفلانية او فى المكان الفلانى مثلا فانه لابد ان يصلح فى البلد الحديث الذى استقل حديثا ، ومن هنا نتطرق أو ننطلق الى موقف الطبقة التى تأثرت اكثر من غيرها بالغزو الثقافى او الحضارى وأعنى بها الطبقة البورجوازية فى العالم الثالث والتى ثقفت الثقافة الاجنبية ولم تتحصن ضـــد هذه الثقافات واصبحت تدعو الى افكار ربما لا تتـــلاءم مع بيئتها ولا تصـــلح لشعوبها بدافع التقليد او بدافع الانبهار لانها انبهرت من هـذه الثقافة او من الحضارة فتريد ان تنقل وهى تظهر فى نقلها لهذه الحضارة او الثقافة نقلا او نسخا كاملا دون التفكير فى البيئة ، تنقل هذه الثقافة او هذه الانظمة السياسية او الاقتصـــادية او الاجتماعيـــة دون ان تراعى الـواقع الوطنى او

الواقع القومى وبذلك تخلق صعوبة جـديدة لان الفرد لم يصل الى درجة من الوعى أن يهضم ربما هذه الاشياء الجديدة أو لانه يحتاج الى نظام يلائم حياته يختلف تماما عن الانظمة الاخرى ، ونحن نعرف ان الطبقة البورجوازية عندنا فى الجزائر منذ دخل الاستعمار وهو يخلق فيها شعورا بالنقص ويحاول ان يمسخهامسخا كاملا لتساعده على أن يحكم الوطن ، وهذه حقيقة تاريخية وكلنا نعرفها كلكم تعرفون ان هذه الطبقة لا زالت الى اليوم لها جذور ولها بقايا لليوم ما زالت موجودة وحين نسأل السؤال الذى طرح منـذ لحظات فى الفكر المستورد او الفكر غير المستورد .. الخ نجد هذه الفئة هى التى تتزعم هـذه الفكرة ولا ترى فى افـكار اخـرى هدامة لا ترى التفكير البرجوازى ، التفكير الرأسمالى الذى غزى بلادنا قرنا ونيف لا ترى فيه عنصرا هداما فى مجتمعنا وانما ترى فى اشياء اخرى . واظن اننا من هنـا سننطلق الى النقطة الثالثة والاخيرة وهـذه ربما تلخص الافكار كلها .. وشكرا .

عثمـان شـبوب :

انا اذا سمحتم لى ، ان هذه الندوة تحـاول ان تجيب الى حد ما عن التساؤلات المطروحة فى حياتنا الثقافية بشكل عام : انا ارى ان هناك نقطة لا بد ان تحدد ، لان كلمة الغزو الثقـافى كلمة واسعة ، وكل واحد من مردديها يقصـد اشياء معينة ومحددة . فمثلا هناك من يقصـد بالغزو الثقافى الماركسية ، وهناك من يرى بأن الغزو الثقافى يتمثل فى غزو المـاضى للحاضـر والمستقبل . نريد الآن مناقشة مدى تعبير هذين النموذجين عن الحقيقة .

عبد المجيد مزيان :

أنا يظهر لى بان كلا الموقفين على خطـأ ، اولا نقتصر ــ كما قلت آنفا ــ على اتجاه واحد وهو ان نقول بأن الايديولوجية الماركسية هى العـدو الوحيد الذى يجب ان نتقى منه ، ان هذا موقف مسرف وموقف مغرض الى اقصى حد ، لان جميع الاضرار التى لحقت العالم الثالث لم تلحقه من الاديولوجيـات التحـريرية ولكن لحقتـه من الرأسمالية مباشرة بما فيها من قوة عسكريـة وبما فيها كذلك من افكار مسمومة التى تبنتها بورجوازياتنا فى العالم الثالث . وبرجوازياتنا هى نسخة طبق الاصل من البرجوازية الغربية فهى عدوة لشعبها بقدر ما كانت القوة الاستعمارية عدوة لشعبها . هذه امثلة البرجوازيات فى العالم الثالث كلها ، مثلا حينما أقول بأن برجوازياتنا الجزائرية قبل مثلا الحركة الاصلاحية كانـت تدعو الى الاندماج ، فهذا موقف صريح فيمـا يخص العداوة للشعب الجزائرى لان الاندمـاج هو الغاية التى كان يقصدها الاستعمار بالـذات وهو ذوبان شخصيتنا ، او مثلا فى مصر ما قبل الثورة حينما كانت الاقطاعيات المصرية تساند الاستعمار الانجليزى وتضرب على رأس الفـلاح المصرى فهى عدوة بمعنى الكلمة ، وكانت تدعو اقتصاديا وثقافيا الى الحضارة الغربية ، والعراق

قبل الثورة مثلا مع حكم نورى السعيد ، هـذه كلها ادلة واضحة صريحة على ان البرجوازيـة عدوة للشعوب وما تبنته هذه البورجوازية مـن أفكار يعنى فى الواقع كانت افكار غزو وعداء لشعوبها ، هذا موقف صريح ، اما قضية الخطر الوحيد الموجود على شعوبنا الآن هو غزو الماضى للحاضر ، انا اعتقد كذلك بان فيه اسرافا لانـه لا يمكن ان تنسلخ اية امة فى الدنيا عن ماضيها. فماضيها منها ، هل هناك مثلا شعب من الشعوب حتى مثلا حينما نأخذ الاتحاد السوفييتى ، هـل تحول الاتحاد السوفييتى عن لغته ؟ التى هـى الروسية ، بل وقعت هناك عملية واسعة لنشر اللغةالروسية فى جميع بقاع الاتحاد السوفييتى بما فى ذلك الاقليات التى لها لغتها الخاصـة . اذن ، الانسلاخ عن الشخصية والماضى يتنافى مع تثبيت الشخصية وتركيز الكيان . اذا انسلخنا عن الماضى فنحن لا شىء ، اين هى الشخصيـة بدون ماض ؟ اذن هذا كذلك التباس من نـوع آخر ، وهؤلاء الاشخاص يريدوننا ان نكون فـى حالة التبعية ونندمج فى شبه حضارة متلاشيـه بدعوى العالمية ! ان الماضى هو الكيان الحضارى الاساسى الذى ينبنى عليه الوطن ، ثم من بعـد ذلك نبنى الجسر الذى يؤدى بنا الى المستـوى الحضارى العالمى ، لكن لا عالمية بدون وطنيـة ، اذا لم تكن هناك عالمية فليس هناك وطنيـة مطلقا : لان نفى الذات لا يؤدى الى الوصول الى مستوى أعلى ، الذى هو المستوى الحضارى . ادن انا اعتقد بان المشكل مطروح بكيفية غير لائقة .

والموقف هنا هو اننا لا نرفض كل ما ياتينا من الخارج بدعوى انه آت من الخارج ، بل يجب ان يأخذ بعين الاعتبار كل الاشياء التى تعد سلاحا لتحررنا . كما اننا مثلا نستفيد من التيكنولوجية والعلـوم بصفة عامة لرفـع مستوانا الحضـارى كذلك اذا كانت هناك افكار يجب انندرسهـا بالدقة اللازمة وبالموضوعية اللازمة وتحت منظار مصالحنا الخاصة دون عداء مسبق .

الاستاذ الشيخ بوعمران :

أما فيما يتعلق بهذا السؤال فان المعركـة التى ينبغى ان يهتم بهـا العالـم الثالث ليست منحصرة فى هذا الجانب فقط ، ان خطورة المعركة على العالم الثالث تتحسم فىالصراع مابين القديم والحديث ان المشكلة الاساسية التى يعانى منهـا هذا العالم هى قضية التخلف الاقتصادى والعلمى والتيكنولوجي والسياسى والثقافى . تلـك هى القضية الاساسية فينبغى ان نبحث على كيفيـة حلها،هناك طرق مختلفة منها الطريقة الرأسمالية والطريقة الاشتراكيـة يجب علينـا ان ندرس الاوضاع العالميـة كلها بمـا فيها المحاسن والمساوى، وان نسلط عليها تجربتنا نحن شعوب العالم الثالث منها ما يليق بنا من هذه الانظمة العالمية وبحضارتنا حتى نقضى على التخلف بأيى وسيلة كانت ، مثلا وقعت تجربة فى اسرائيـل فى اثراء الصحراء التى اصبحت متنتجة وقـد ملكنا هذه الصحراء منذ قرون فتركناها كمـا كانت عليه فجاءت اسرائيل بوسائل حديثة من أوروبا وامريكا واعادت النظر فى هذه الطبيعة

وجلبت لها الخبراء من اى جانب كان فاضحت هذه المناطق اراضى صالحة للزراعة ، هذه التجربة ينبغى ان ندرسها ونستفيد منها ، ثم وقعت كذلك فىروسيا او فىالصين او فىامريكا فىهذه النقطة بالذات تجارب اخرى ينبغى ان نطلع عليهـا وان نطبقها حسب ظروفنا ، فلا نستورد اى فكـرة كما هى لان ظروفنا فى الجزائر او فى تونس او فى المغرب او فى العالم العربى او العالم المتخلف بصفة عامة تختلف عن بقية البلاد الاخـرى فى أوروبا الغربية او الشرقية او امريكا وكل شعب من هذه الشعوب المتخلفة له ظروفه الخاصة به . فيجب ان نقرأ حسابها وان نطبق عليها ما يليق ونتجنب ما لا يليق ، ان العملية الثانية بعـد القضاء على التخلف هى تحديد مفهومنا للاصالة والعصرية وهذا الموضوع مطروح ضمنيا فى هـذه الندوة وقد نختم به الحديث ، انى اريد قبل ان ننتقل الى النقطة الثا لثة والاخيرة، ان اقول كلمة وجيزة فى قضية القديم والحديث . هذه مشكلة من المشاكل المزيفة فى رايى . فالصراع بـين القديموالحديث من المشاكلالمصطنعة التى يرددها الناس ومنها العقم الثقافى الذى اشـار بعض الزملاء اليه ، انى اعتقد انه ليس هناك ماضى مجرد جامد لانه كل ماضى فيه جوانب حيـة تسير فى الحاضر وتنميه وهى الحجر الاساسى الذى يبنى عليه الحاضر ، فالحاضر ليس مخلوقا مـن عدم ، قد حاز اخيرا العالم السويسرى «بياجى» على جائزة فى علم النفس بعد ما مر على اكتشافاته اكثر من ثلاثين سنة ، فذكر فى حديث له مـع مجلة ، بأن النفس لها قوانين ثابتة طبيعيـة فاراد ان يسلط عليها الاضواء وان يدرسهـا ، واكتشف من جملة ما اكتشف بأن هناك حقائق لا تتغير فى نفسية الطفل مع وجود تغيرات كثيرة فى المحيط من حوله هذا المثل ينطبق على حديثنا اليوم ان الماضى موجود فى الحاضر ، والحاضر ذاته يتطلع الى المستقبل وكل واحد يتفاعل مع الآخر وهنالك جوانب من الماضى قد انتهت ولا نتحدث عنها وهذه حقيقة من الحقائق العلمية التى يمكن ان نتفق عليها جميعا ولا يجـدر بنـا ان نـردد المجادلات الادبية التى كانت دائما تقارن ما بين الحاضر والماضى وتريد ان تفضل الماضى عـلى الحاضر ، أو الحاضر على الماضى ، ان هذه المجادلات مصطنعة ولا صلة لها بالواقع .

عثمان شبوب :

ان عملية التشخيص قد تكون ميسورة الـى حد ما ، ولكن الصعب هو فى ايجاد الحلول . فما هى فى رايـكم انجع الحلول لهذه المشـاكل ؟

الاستاذ هشام الصفاقسى :

نتطرق الآن الى الحلول وهذا اصعب جانـب من الموضوع على ما اعتقد ، لاننا فى كثـير من المحاولات لايجاد حلول للمشاكل التى تعانيها ، نقف عند التشخيص وننسى الحلـول ، والواقع ان الغزو الثقافى الذى نتصدى له اليوم ، يتمثل فى مظاهر عديدة كلها تخدم هدفا واحدا وهو فى رايى الهدف الاقتصادى لانه لا غاية لشعب ان يملا ارض شعب آخر بآلاف المجلات من جميـع

الانواع والكتب والمطبوعات التافهة والجيدة ـ وغالبا ما ترسل التافهة اكثر مما ترسل الجيدة ـ الا اذا كان له هدف من ذلك · ومن ذلك ايضا الكتب والافلام والزيارات ، وحتى الشهادات التى تمنح ، فمثلا من احدى الظواهر التى هى خطيرة فعلا هو ان كثيرا من ابناء العالم الثالث يذهبون الى اوربا للثقافة فتعطى لهم شهادات للتصدير لان هذا المتخرج «لن يخدم فى المجتمع الغربى وانما سيذهب الى بلاده» ، وطالما انه سيذهب الى بلاده فليأخذ علما من الدرجة الثانية او من الدرجة العاشرة وليكون ما يكون · هذه مظاهر واشياء خطيرة ، ولكن اذا اردنا ان نعود الى الواقع يجب ان نرجع قبل كل شىء الى الشعب والى حاجات الشعب فهى التى تبنى الحصون ضد الغزو الثقافى · وحاجات الشعب لم يقررها فرد او طبقة ، وانما يقررها المجتمع بكامله عن طريق هيئات للدراسة · فمثلا كم تفتقد بلدان العالم الثالث الى مؤسسات لدراسة الظواهر الاجتماعية ، او لدراسة مظاهر الغزو الثقافى مثلا ، كيف التحرر ، كيف الخلاص ؟ تدور الافكار فى حلقة مفرغة ولا تجد طريقا عمليا · والخلاص لن يكون ارتجاليا بل يجب ان يكون مدروسا منهجيا فتوضع حلول واقعية · والحلول يجب ان تكون مستمدة من واقع الشعب ومن حاجاته الاساسية ـ ونعنى بالشعب ، الجماهير العامة ـ وان تستمد من الشخصية القومية لان شخصية الشعب لا تبدأ فى يوم معين او فى عهد شخص معين وانما هى هدير مستمر كالبحر وكالنهر ، وهى تتدفق دائما · وانما يلزم فقط تنظيم هذا التدفق حتى لا يصب فى الصحراء، بل يصب فى بحر الحضارة الانسانية ايضا · هذا التنظيم لدفع الغزو الثقافى لا يكون الا بالاستناد الى المبادىء الاخلاقية ، لانه لا فائدة ان نسلح ابناءنا بالتكنولوجية وبالعلوم ، وفى نفس الوقت نجدهم يصبحون بلا اخلاق ، او يصبحون مدمنين على الحشيش ، او لا يؤمنون بوطنيتهم ولا يؤمنون بشخصيتهم · اذن هذا علم لا فائدة له وهو ثقافة مستوردة لا تخدم فى الاخير المجتمع الذى ستعمل به · قد يقول البعض بأننا فى هذا الدفاع عن وجود الشخصية القومية يقول باننا متعصبين او يرمينا باننا نستخدم الدين لاغراض طائفية ، او لتنمية الحقد او لاشعال الكراهية ضد الآخرين · وللاسف نجد ان الشعوب الاخرى تحافظ على ذلك ، ففرنسا فى عهد ديغول وقبل عهده كانت ايضا تعتنى بالديانة الكاثوليكية وفى المؤسسات الكاثوليكية والفكر الكاثوليكى وكل ما ينتج عن ذلك من أعمال لها دور هام فى المجتمع رغم انها دولة علمانية ، اذكر بهذا الصدد مثلا : صورة رأيتها فى زيارة لمدينة مكناس فى السنة الماضية، اذ وجدت فى جامع المدينة الجميل البناء ، العريق فى التاريخ ، والذى ينطق بالحضارة وبالاصالة وجدت شابا وفتاة اوربيين تكاد تكون الفتاة عارية تجلس مع الشاب فى حرم المسجد يتطارحان الغرام وهما جالسان على ارض البلاط كانهما فى بيتهم ، وكانت جماعات الزوار تدخل وتخرج

وكان الامر لا يعنيهم . انا اعتقد ان شخصيـــة الانسان جزء لا يتجزء ، واذا كان الانسان يتنازل فى احترام شخصيته او فى فرضها ، فهو مستعد أن يتنازل عن جوانب اخرى . وبالمقابل بعــد هذا الحدث بيومين كنت فى مدريد أزور « ريال بالاسيو » القصر الملكى فى مدريد . وهنالك فى القصر صومعة خاصة لعبادة ملك اسبانيا وزوجته مليئة بالذهب والفضة وكل الكنوز التى سلبها الاسبان من امريكا اللاتينية ، ويوجد مقاعــد فى هذه الغرفة . كان معى فى زيارة القصــر ابنى الصغير فوضعته على الكرسى ثانية لكــى اصلح له حذاءه الذى كاد ان يخــرج من قدمــه ، فلم اجد الا والحارس ينقض على ويقول بالاسبانية – وفهمت ما يريد – اذا كررت هذا العمل مــرة اخرى ساطردك من القصر ! ! لماذا ؟ لماذا التمسك والمحافظة على الشخصية فى هذا المثــال ، ولماذا الاهمال والتهاون فى ذلك المثال ؟ واردت ان اكتب حقا الى وزير السياحة المراكشى اعلمه بأن هــذا شيء معيب ولا يليق مطلقا ان تصبح المساجد او مقدسات الشعب مثلا فى هذا الوضع من الاستهانة بحجة ماذا ؟ بحجة اننا اذا تشددنا سيذهــب السواح عنا . فليذهبوا وليخسر البلد هــذه الدراهم المشؤومة التى تاتى عن طريق السياحة لكى يحتفظ بشخصيته . واذا ضربنا هذا المثال فرضا فى عهد احتلال الجزائر، هل كان باستطاعة أى اجنبى ان يهين المقدسات التى تمثل الاخلاق وتمثل الشخصية بهذا الشكل ؟ اعتقد انــــه كانت تحدث مذبحة وكانت تشتعل ثورة عارمة فى كل مكان ضد هذا الوضع . فاذن بعد هذه المرحلة نجد ان هناك نوعا من التراخى عن مقومات الشخصية . وهذا اخطر ما يحدث . والذى يتخلى عن الشخصية فى ميدان يتخلى عنها فى ميــــدان آخر ، والميدان الرئيسى هو اللغة والقوميــــة والشخصية الاجتماعية ، بكل اختصار اريد ان أقول ان الحلول سهلة ، والحلول – بخطوطهــا العريضة – وكما عبر عنها الصينيون هى: الاكتفاء الذاتى . وكل العالم اليوم يسير نحو الاكتفاء الذاتى حتى فى الثقافة ، لنرى كيف ان الصينيين يريدون ثقافة خاصة بهم . فهم ينفتحون عــلى العالم كله ولكنهم أيضا يأخـــذون ثقافة تلائم المجتمع الصينى . فلنأت ونطبق هذا المثال – لا من قبيل التجربة – على المجتمع ، أى على العــالم الثالث . هذه المجتمعات فرض عليها جهل قرون طويلة بسبب الاستعمار وبسبب عوامل أخرى ، كيف الخلاص منها ؟ الخلاص منها بالعلم ، والعلم هو أول وآخر دواء ، كيف نأتى بالعلــم ؟ نأتى بالعلم من العلماء ، أين يوجـــد العلماء ؟ أما ان يكونوا فى المنطقة ولهم ادوار ثانوية وللاسف فى كثير من البلدان المتخلفة ، والعلم والعلماء هــم آخر من تكون لهم الكلمة وآخر من يســــمع صوتهم ، وأما ان نستورد العلم والعلماء ولنطبق هنا مثالا مستمدا من الحياة الاقتصـــــادية فى أوروبا ، فعنـــدما لم تســـتطع أوروبا أن تقيم الاكتـــفاء الذاتى اقتصاديا ، اضـــطرت لاقامة السوق الاوروبية المشتركة : فانفتحت الحــدود وزالت الحواجز وحتى الحواجز القومية التى كانت

كالمحرمات في الســـابق انفتحت ٠ وأصبحت اوروبا بلدا واحدا تقريبا٠، اقتصــــاديا وحتى علميا ٠ لماذا لم نتبع تجربة مماثلة على الاقل في عالمنا من الاكتفاء الذاتي ، وهذا ما تطبقه الجزائر فعليا في نطاق العلم ، حيثما يفتقد الى عالم أو الى خبير من أبناء المنطقة يمكن استيراده عن طـريق اقامة سوق عربية أو سوق مشتركة ثقافية للعالم الثالث لماذا نتكلم عن الاقتصاد ولا نتـــكلم على الثقافة بايجاد ســـوق ثقافية مشـــتركة حتى تستطيع كل دولة من هـــذه الدول أن تســـد حاجياتها ٠ وعندها يحدث الاكتـــفاء الذاتي عن طريق دراسة كل ما يرد من تيارات ثقافيـــة على ضوء المصـــلحة المحلية ، أو على ضـــوء حاجات الجماهير كما قلت ٠ وهذه السوق يمكن ان يكون لها حماية مثلا ، مثلما هنالك حماية تفرض على منتجات بلد ناشيء فعندما ينتج بلد من البلدان احذية ، ويكون له معمل للاحذية تضـــع الدولة حواجز جمركية ، لتمنع دخـول احذية أخـــرى تنافس الصناعة المحلية ٠ وهـــذا ينطبق على الصابون وعلى السلع الاستهلاكية وعلى الســـلع الصناعية كلها ، فلم لا نقيم للكتاب الذى ينبع من ضمير هـــذه الامة حماية ؟ لماذا لا نكون له حماية جمـــركية ، أو حماية ثقافيـــة ، فنجعله يســـتطيع الوقوف على اقـدامه ، نعطيه فرصة الحياة ولندعه يؤدى الرسالة الوطنية ، الرسالة الثقافية الصحيحة التى يمكن بواســـطتها ان نحارب الغـــزو الثقافي ٠ بدون كتاب وبدون استاذ لا توجـــد ثقافة وبدون معاهد لا يوجـــد علم ٠ وكل اختـــلال في هذه الاعمدة الثلاثة سيؤدى الى افساح المجال أمام الغزو الثقافي ٠

الدكتور جمـــال قنـــان

الحديث عـن العلاج حديث في اعتقـادى صعب ، صعب ، لانه يطرح عدة مشكلات جزئية ويتطلب أيضـا النظـرة النقديـة لفحص بنيـــة مجتمعاتنـا في مختلف الميادين ، لكـن لا مانـــع مطلقا لأن يحدد العلاج بكيفية عامـة في اطـار مبادىء اساسية ٠ من المعروف تاريخيـا ومؤكدا أن المجتمـع الذى لا يخضـع ، واستعمـل هنـا ، التعبير الشائع ، « للغزو الثقافي » هو المجتمع المتكامل بمعنى هذا ، أن له نظرة لكـل المشكلات التى تطرح للفرد ٠ فيما يخص وضعه الاقتصادى وفيما يخص حياته المادية ، الثقافيـة والروحية وعلاقاته الاجتماعية ٠٠٠ الخ هذا المجتمع الذى له نظرة تكاملية هو الذى يكون بمنأى أو بمعزل عن الغزو الثقافي ، في واقعنا اليوم هـل يمكن أن نجد مثـل هذه الوضعية في بلداننا ، البعض يعتقد ان بالسلفية يمكن أن توجد كل الحلول لكل المشاكل المطروحة ، النظرة الموضوعية للانسان تثبت أن هذا الكائن هو في تطور مستمر وبالتالى فان حاجياته لا يمكن أن تسد مـرة واحدة فقط ، انما هي حاجيات تتوالد وتستمر ، والحلول التى توجد هي حلـول تسد حاجيات المرحلـة ريثمـا تظهر حاجيات اخرى ، فنظرتنا لتراثنا ولثقافتنا في الماضي ، عندما نقيمها على مستوى عصرها ، أيام ازدهارها ، نجدها فعلا تملك هاته الخاصية الفرد يجـد حاجتـه ، يجد غذاءه الروحى كمـا يجد غداءه المادى في هذه الثقافة وفي هذا التراث وفي هذه المبادىء ، لكن لا يمكن أن ننكر مطلقـا

بأنه يفصلنا عن نهضتنا فترة لا تقل عـن خمسة قرون عشنـا فيهـا بمعزل عـن التطورات التى شهدتها الانسانية كنا فى سبـات عميق ، وخلال الخمسة قرون هذه ، كـان مجتمعنـا موجودا ، وكـانت مشاكلـه موجودة وزاد مـن عمق هذه المشـاكل اصطدامه بحضارات أجنبيـة ، وبـدا واضحا أن مجتمعنا اليوم يفصله عن تراثه هوة عميقة ونتج بمقارنته بالمجتمعات المتقدمة اليـوم التخلف والركود ، اذن ما هو الحل ؟ اين يمكن أن نجد الحل ؟ بطبيعة الحـال الحل لا يمكن ان يوجد ايضا عند دعاة السلفية ، ولا يمكن ان يوجد ايضا عند دعاة الضحلية. بمعنى هذا اولئك الذين يتشبثون بقشور الثقافة الأجنبية ، كنت قد ذكرت أن من مظاهر الغزو الثقافى واستعمل هنا الكلمة الشائعة هو وجود ذبذبـة على المستوى الثقافى على مستـوى كـل فـرد وموجود التـردد على مستوى الحضارة ، ولما كانت هذه هى الوضعية بطبيعة الحال ، فهذا يعنى ان الثقافة السلفية لم تستجب لمتطلباتنا لم تستطع أن تغطى حاجاتنـا المتزايدة الى الضـوء والى الوضوح ، وايضـا هل فى الثقافة الاجنبية واعنى الثقافـة الغربيـة حل ، هل نستطيع أن نشبع ظمانا من هذه الثقافة وننهل منها ونجد فيهـا حلولا لمشاكلنا ، لا يمكن أن نجازف بجواب سريع ، لكنه يجب أن نمحص ماضينـا القريب ، عشنا هذه الثقافة مدة تقرب من قرنين الآن وهى ثقافـة ذات طـابع ، مؤكد ، بورجوازى ، وعندما اقول طـابع بورجوازى ، اريد أن أوضح استعمال هذه الكلمة ، فلم يكـن الماركسيون ابدا هم أول من استعمل هذه الكلمة ، لأن هـذه الكلمـة وردت كتعـريف وكمصطلـح انجبته واتت به التطورات والتيارات الانسانيـة الحديثـة ، اذن ، فالثقافـة البرجوازيـة التـى واكبناها والتى عشناها خلال النظام الاستعمارى كله لم نجد فيهـا حلا لمشاكلنا وخاصة ، وكـل يعرف ذلك ، كل مثقف سليم السريرة لا يمكن ان ينكر هذا ، ان الثقافة الغربية هى ثقـافة طبقيـة وحتى المثقفين الغربيين لا ينكـرون هذا الشىء ، كبار علمائهم لا ينكرون هذا ، انها ثقافة طبقية ، فهل يمكن لهذه الثقافة التى هى ثقافة طبقية ذات طابع استغلالى ذات طابع تعسفى وهجومى على الشعوب التى هى فى طـريق النمـو ، ان تلبى حاجتنا ؟ بطبيعة الحال ، لا ، اذن ما هو الحـل واين نجد الحلول لمشاكلنا ؟ فلا يمكن ان نجدها فى خزانـة مقفلـة نفتحهـا ونستخرج الحلول ، هناك اجتهادات ، وهنـاك محص وتصفية يجب أن نعمد اليه وأن نعتمده كاسلوب . مـن جملـة مظاهر السلبيـة للثقافـة البجوازية ، انهـا منذ بدايـة القرن العشرين عملت على تشييع ونشر بعض التعاريف المغرضة ، عن الثقافة الماركسية انا شخصيا وانـا طفل كنت لا اعرف عـن هذه الماركسية الا بعض الشىء ومن جملة هذا الشىء هـو أن الماركسية ضد الايمـان ، وتعتبر الدين أفيون الشعـوب ، وهـذه التعـاريف كـانت شائعة ومنتشرة فى جميع الطوائف ثم ايضا ما نعرفه عـن الماركسية هى انهـا كذلك تحلل مـا تحرمه الاخلاق والديانات اى تدعـو للاباحيـة مثلا وعندما بلغ الانسان مبلغ الادراك واستطاع ان يطلع ويقرأ وجد انه فعلا في الماركسية شيئا ضد الديانـة لكـن هذا يعتبر الجانب الثـانوى والجانب غير العلمى فى الماركسيـة وليس هـو الجانب الاساسى ذو الأولوية فيها . فهذا جانب عقـائدى تماما يخص مـا وراء الطبيعة ويخص

الشخص نفسه فلسفيا ، وأما الاباحية فشيء لا وجود لها ، لا وجود لها مطلقا في الغرب الراسمالي فان الطوائف الاجتماعية التي لها اخلاقيات هي الطوائف التي تنتمي لهذه المذاهب وذكر الزملاء تجربة الصين في عدة مجالات وهنا اذكر أن تجربة الصين من الناحية الاخلاقية هي اروع مثال أو تجربة الفيتنام اليوم أيضا هي اروع نموذج الاخلاقية في تعريفنا الاسلامي للاخلاق · اذن بقي لنا هذا المعين هو المعين الاشتراكي ، فالماركسية تعطى لنا نموذجا ، نظرة وطريقة الامساك بالحل ولا تقول انها طريقة نهائية ، فنحن بتراثنا عند ما يتم اعادة سبكه وبعثه تحت ثوب جديد يمكن أن نأخذ الكثير من هذه المبادىء ونستفيد منها ، والدليل على قوة هذه المبادىء هو أن الكثير منها أصبح الآن مأخوذا به ، حتى من طرف المذاهب الرأسمالية · فكلمة « تخطيط » مثلا هي ماخوذة من الفكر الاقتصادي الماركسي وقد اصبحت الآن تشكل حجر الزاوية في التطور الصناعي للبلدان الرأسمالية وقد كانت من قبل غير معترف بها من طرف هذا المذهب ولا أقول أن في الاشتراكية نجد الحلول جاهزة لكن أقول في اجتهادنا في الاشتراكية نستطيع ان نجد حلولا ، اذن كما ترون انها مشكلة تتطلب كثيرا من التدقيق وكثيرا من التفكير وكثيرا من الاجتهاد .

د · عبد الله الركيبي :

اظن ان معالجة هذا الموضوع المطروح واقتراح الحلول في جلسة كهذه من الصعب جدا أن يحاط به من جميع الاطراف كما ذكر الاخوة الزملاء ، وانما يمكن ان نختصر الاجابة فنقول بأن الحل الاساسي في رأيي الشخصي يتمثل في تحرير الفرد والمجتمع من السيطرة ، سواء سيطرة الماضي او سيطرة الحاضر بشتى مفهوم هذه الكلمة ، او باي نوع من انواع المفاهيم لهذه الكلمة ، ذلك اننا نحتاج الى ان نبحث عن طريقة نكون بها توازنا بين هذا الماضي وبين هذا الحاضر ، وحين نصل الى هذه الطريقة عندئذ نقول اننا نملك انفسنا ونملك وجودنا وسنستطيع ان نوجد عبقريتنا سواء كأفراد أو كوطن أو كمجتمع ، فاذا استطعنا ان نطور من اساليبنا فيما يتصل بالجانب الثاني من الشخصية وهو اللغة بأن نطور منها من اساليبها من كلماته ، من تعابيرها ، من مصطلحاتها ·· الخ · واذا استطعنا ان نطور من اقتصادنا من مفاهيمنا الاجتماعية ووصلنا الى الحد الذي يمكن ان نضع فيه هذا التوازن فاننا سنصل الى الحل المطلوب ، ولكن حين يصبح الفرد او المجتمع يعيش متقوقعا في الماضي بصرف النظر عن الحاضر أو ينغمس في هذا الحاضر نهائيا ويرفض الماضي رفضا كليا فهنا يصاب بنوع من الانغلاق لان الذي ينغلق في الماضي نهائيا او في الحاضر نهائيا هو انسان ينعزل عن الحياة وعن الواقع ، كما ان الفرد لا يمكن ان ينكر ماضيه ، ومن هنا نجد ان الجانبين يلتقيان في نقطة مثلا الذين يعيشون في الماضي كلهم ينهالون باللوم على المجتمع العربي وعلى النكبة او النكسة او الكارثة التي حدثت له بعد 1967 يلتقي مع ذلك الذي لا يؤمن بالماضي اطلاقا والذي ·

يجرى وراء الحضارة الغربية وراء المثل الاعلى فى رأيه وفى تفكـيره ، يلتقيـــان جميعا فى الموقف الواحد تجاه هذه القضية ، قضية العرب فى 67 بينما التفكير المنطقى يقتضى اننا نراجع انفسنا كل فرد يراجـــع نفسه ، وكل مجتمـــع يراجع نفسه ، كل فئـــة تراجع نفسها ، وتبحث عـــن العيوب المـوجـودة فى الفـــرد الموجـود فى المجتمع الموجودة فى مظاهـر الحياة الموجودة فى مظاهر التفكير،فى مظاهر الثقافة٠٠الخ فحين نصل الى التحليل السليم للاوضـــاع وللظروف وللعوامل عندئذ نصل الى الحل ، وفى الواقع هنا يمكن ان نطرق قضية الثقافة ونصل الى الحل ، فالثقافة فى المفهوم البرجوازى هى ســـلعة من الســـلع ، تقدم لطائفة معينة او لفئـــة معينة تستخدمها تلهو او تتسلى بها وتشـــبع فراغها وتشبع رغباتها تشبع ربما غرائزها ٠٠ الـخ ، وقد كان الادب وهذا ربما لى صلة به اكثـر من غيره لدى اوروبا سواء فى عصـــور الاقطاع او عصور ما بعد الاقطاع عصور الصناعة نجـد ان الادب كان فى عصر الاقطاع ما هو الا تعبير عن تفكير الاقطـــاع ، يعنى أن الكاتب كان يلهو به صاحب الاقطـاعية فيكتب له قصـة او رواية او قصيدة يشـــغل فراغه او يمتعه او يلهيـــه او يسليه ٠٠ الخ وحين جاءت الطبقة البرجـوازية التى نتجت بعد النهضة الصناعية أصبح الادب يواكب او يساير النهضة الصناعية ، ويدعو الى التفكير البرجوازى ويساند الكتاب والادباء كانوا يساندون هذه الطبقة ، اذن فالثقافة حين تصبح سلعة تساير طبقة معينة او فئة معينة هنا تفقـد اصالتها وتفقد الطابع او العنصر الاساسى وهـو العمل من اجل الانسان ، فاذن فالعلاج من وجهة نظرى هى اننا نغير من مفهوم الثقافة فى بلدنا ، بلدنا له تقاليده وله مثله وله واقعه وله حضارته وله شخصيته فلابد ان تكون الثقافة تعبـيرا عن هذا كله حتى نتميز عن غيرنا من بقية الشعـوب الاخـرى التى لا تتفق معنـــا لا فى اللغة ولا فى الدين ولا فى الحضارة ولا فى الاخـــلاق ، واذا استطعنا فعلا ان نوجد هذه الثقافة فاننا سنقضى على الغزو الثقافى لان حينئذ تكون لدينا حصانة فكرية وحصانة معنوية وحصانة ادبية وحصانة اجتماعية وحصانة ثقافية تمكننا من ان نقاوم أى غزو ثقافى كيـــفما كانت قـــوته وكيفما كانت سيطرته وهذا اذا استعرنا ربما الاساليب الطبية فاننا نقـول ان المجتمع مثل الجســـم يحتاج الى حصانة والى تلقيح ، ولنا امثلة كثيرة فى هـــذا المجال ، فانا قد قرات رســـالة فى الطب لمؤلف ولعالم جزائرى اسمه ابن العربى الفها سنة1882 نال بها جائزة طبية من جامعة فرنســـا فى ذلك الوقت حول الطب العربى والطـب فى الجـزائر، فلو فعلنا نحن ايضا هذا فى المجالات الاخـــرى فاننا نصـــل ألى الحلول الحقيقية ، وأنا ألاحظ بالمناسبة مثلا ان التفكير البرجـــوازى هو الذى يقف ضد التقدم ، تقدم الفرد ، تقـدم المجتمع ، لنا مثل حى اليوم ان هذا التفكير هو الذى يقف ضد الثورة الزراعية ، لا أقف ضدها أنا اطلاقا بل انا مع الثـــورة الزراعية وكلنا معها والفلاح

معها والعامل معها ولكن التفكير البرجوازى يقف ضد هذه الثورة ، الثورة التى تخدم الانسان وتخدم المجتمع الجزائرى وتحرر طاقة الفرد وتحرير طاقة الفرد هى المفتاح لتحرير المجتمع . وشكرا .

الاستاذ الشيخ بوعمران :

يظهر لى فى نهاية الحديث انه لا يمكن ان نحصرجميع الحلول التى يمكن ان نتفق عليها وانما ينبغى ان نشير الى البعض منها كما ذكرنا فى بداية الحديث ، ان بعض المظاهر من الغزو الثقافى واضحة فعلينا ان نجمع هنا بين ما يجب ان نقوله وما قلناه فى بداية الندوة عندما تناقشنا فى مفهوم الثقافة قد قلنا بان الثقافة جزء من الحضارة فينبغى ان تكون الحلول كذلك فى مستوى حضارى فيجب ان تتركز الثقافة على اللغة الوطنية وعلى الشخصية الوطنية لاحياء التراث المفيد فنعير الاهمية للجوانب الحية منه التى لها قيمة وفعالية فى عصرنا وعلينا ان ننشر الثقافة فى عامة الناس لانه من رواسب الغزو الاستعمارى ان تحصر الثقافة فى نخبة معينة وان ينفصل المثقفون عن عامة الشعب ، ان هذه المظاهر خطيرة فالقضاء عليها ضرورى فى اقرب وقت وباسرع الوسائل ، لاننا لا نفصل بين مظاهر الحضارة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية وقد اشار الدكتور الصفدى الى هذا ، لان ما سماه هو بالذاتية الاقتصادية يعنى الاستقلال الاقتصادى وهذا لا بد منه . مثلا تعميم الشركات الصناعية والسكة الحديدية ، والاراضى الواسعة شىء اساسى ، ثم من الناحية الاقتصادية والسياسية معا ينبغى ان يشارك المواطن فى تطور البلاد وبعبارة أخرى ان المواطن فى العالم الثالث بصفة عامة لا يشارك عمليا فى تطوير الاقتصاد ولا فى التخطيط الثقافى وانما يملى عليه غالب الاوقات من مجموعة معينة فهذا الاستبداد الفكرى والسياسى يجعل المواطنين فى جل بلاد العالم الثالث كأن الامر لا يهمها وانما الامر يهم فقط طبقة معينة لا الشعب كله ، اما فى الجزائر وبعد عشر سنوات من الاستقلال فان الواقع يدل على التقدم الاقتصادى ، غير ان التقدم الثقافى لم يواكب هذا التقدم الاقتصادى واريد هنا ان اشير الى دور المثقفين ما دمنا فى ندوة ثقافية لمجلة ثقافية فواجبهم ان يساهموا فى هذا النهوض بالمجتمع وان يفكروا جديا فى الحلول الجوهرية لذلك ، وهذه الحلول يمكن ان تنحصر فيما نسميه بتحقيق العدالة الاجتماعية وهذاهو المقصود بالاشتراكية الجزائرية الحقة فالغرض منها نشر العدالة الاجتماعية فى الوطن مع احترام ظروفنا العامة وهى الظروف الحضارية والتاريخية الخاصة بالجزائر وجميع البلاد الاخرى تحاول ان تطبق هذه الاشتراكية حسب ظروفها ، اننا نشاهد انواعا من الاشتراكية فى العالم واصبح الامر مسلما لان كل وطن يختار النوع الذى يليق به ، ان الاسلام الحقيقى اذا تفهمناه لا يتنافى اطلاقا مع هذا المفهوم للعدالة الاجتماعية وبعد ما اشار بعض الزملاء الى السلفية ، اقول بان السلفية

الحقيقية اذا دققنا البحث فيها توافق على هـذه العدالة ، ان ابن حزم الذى اشتهر بالتشدد فى فى موافقه يذهب فى بعض الكتب الى تأميم جميع ما يملكه الاغنياء فى حالة المجاعة وهذا بناء عـلى على اصول ونصوص دينية واضحة وهذه المواقف غير محصورة فى هذا المثل ، اذن ينبغى ان نعيد النظر فى هذا المجتمع الذى نعيش فيه وان نجمع ما بين الاصالة الحقيقية بعد ما نزيل عنها كل هذه المفاهيم الفاسدة وان نواكب العصر ليكون كل هذا فى خدمة المجتمع والانسان حتى نقضى عـلى المخلفات والتخلف من جميع النواحى ٠

د ٠ جمال قنـان :

الحقيقة اننى استعملت كلمة السلفيـــة ولا اقصد بها تراثنا فى عصر النهضة ، تراثنا لـما كان مشرقا ولما كان خلاقا ، ما اقصده بالحركـة السلفية هى تلك الحركة الاصلاحية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر وفى الحقيقة هناك عـدة مدارس فى السلفية ، فهناك المدرسة التى ظهرت فى الجزيرة العـربية والمهدية فى الســـــودان والسنوسية فى ليبيا وغيرها ٠ هناك عـــد ة مدارس ٠

عثمان شبــوب :

مسألة السلفية وتقييم الحركة السلفية مـن جميع جوانبها يحتاج الى موضوع خاص ولكـــن هذه الندوة لا تتسع لهذا الموضوع ، والشىء الذى نريد ان نختم به هذه الندوة هو اننا فى مجتمع فى طريق التحول ، ومن مميزات هذه المرحلـة وجود تناقضات اجتماعية تنعكس على المستـوى الفكرى وتمثل فى هذه الاتجـاهـات المختلفـة ، والتصورات المتباينة ، وفى حالة عدم وجـــود اديولوجية محددة فانا اعتقد بان احسن طريـق للوصول الى الحقيقة هو الايمان بمبدا الحـوار ٠ والحوار المـوضوعى هو افضل سبيـل للوصول الى الحقيقـة ومناقشـة اوضاعنـا وتوضيـــح كثير من المفاهيم ، وبالتالى صياغة ايديولوجيـة متكاملة لمجتمعنا ٠ واشكر جميع الاساتـــذة على الجهود التى بذلوها فى هذه الندوة ، وعـلى التوضيحات التى قدموها ٠

والسلام عليــكم ٠

فى ممارسة البحوث الاجتماعية

وما يجب أن يلقاه الباحث الاجتماعي من تشجيعات

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

كلما تطرقنا الى مشكلة تشجيع نوع ما من الابحاث العلمية اعترضتنا مبدئيا مشكلة الفوائد الملموسة الحالية التى تحصل عليها الامة من هذه الابحاث . لا نذكر ان قضية حساب الفوائد العاجلة من أبرز مظاهر ذهنيتنا كابناء أمة مستعجلة تخوض معركة التنمية بحمى المجتمع

فى اطار اطلاع القراء على مختلف الندوات التى تعقد ، ننشر فى هذا العدد ثلاثة ابحاث القيت فى «حلقة النهوض بعلم الاجتماع فى البلاد العربية» التى عقدت بالجزائر باشراف «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم»

الذى يخشى ان يفوته الوقت وتماشيا مع هـــذا الواقع نقول ان جوهر قضيتنا اليـــوم هو ان نتساءل عن الفائدة العاجلةالتى تضمنها البحوث الاجتماعية للامة • وبالجواب عن هذا الســؤال يمكننا ان نعرف هل ستعطى التشجيعات فى يوم من الايام للباحثين فى العلــوم الاجتماعية ، ام سيبقى هذا التشجيع مجـــرد رغبة تعلن عنها التوصيات الملحة فى مختلف الملتقيات • ان مثل هذا الاصطدام العنيف مع الواقع قد يكون مفيدا على الاقل فى تغيير ذهنية الباحث الاجتماعى ، وفى تغيير الصور التى أخذت عنه حتى الآن ، كما انهيطرح مسائل جوهرية تهمالاتصال والانفصال المنهجى والغائى بين الباحثين فى الامم العازمـة على النمو ، وبين الباحثين فى الامم النامية •

ان الباحث الفردى المنعزل السائر على منهاج الباحثين النظريين ، بدعوى تنزيه الفكر العلمى المجرد عن كل التزام علمى ، لهو النموذج الذى يعرفه الرأى العام عندنا ، وان الصورة العالقـة بأذهان الناس عن هذا النوع من العلماء هى التى جعلتهم حتى الآن يعاملونهم معاملة الاشخـاص القليلى الفائدة العملية •

ليس من الطبيعى ان نتناسى فضل الابحـاث النظرية ، اذا تخصص لها عدد من العلماء سبق لهم ان مارسوا القدر الضرورى من الابحـــاث العملية • ولا يعاب على أمة وصــــل بها الرقى العلمى الى الحد المستحب انتشجع بعض أفرادها على التخصص فى النظريات •

اما الامم الفتية فلها اهتمامات واســبقيات أخرى ، خصوصا ان عدد الباحثين فيـها لا يزال قليلا ، أو نقول ان عدد العلماء لا يزال لم يصل بعد الى مســتوى البحث الحقيقى ، لان اعبـاء التدريس والادارة لم تســمح حتى الآن لذوى الاستعدادات بالتفرغ الى البحث الصرف ، كما هو الشأن فى البلاد المتقدمة •

انه لمن الواضح انتبقى سياستنا تجاه البحث والباحثين ، لمدة غير قصيرة ، مربوطة بهذا الواقع

واذا أردنا ان نتكلم عن التشــجيعات التى يتطلبها البحث الاجتماعى ليتفتق عن انتـــاج غزير الفائدة ، فلا يمكن مطلقا ، فيما يبدو لى ان نتهم الادارات ورجال التسيير بالتقصير ، ذلك انهم لميلمسوا بعد فائدة هذا النوع من الابحاث، وليسوا على كل حال مسؤولين عن العقم ،ومفارقة الـواقع • ولا يســعنا الا ان نحمل علماءنـا الناشئين بعض المسؤولية ، ولا يمكن استدراك الخلل الا باجراء نقد قوى على الوضعية الحالية ، ولا يمكن ان يصدر مثل هذا النقد الذاتى الا من لدن الخبـــراء أنفســـهم ، لانهم أدرى الناس بمشاكلهم •

لقد سبقت الاشــــارة غير ما مرة فى البلاد الناشئة الى وجوب القيام بحملة عارمـــة لتتبع آثار العقيدة الاستعمارية فى ميـــادين البحث الاجتماعى • وليست العقيدة الاستعمارية ، مـع الاسف بالامر الواضح الذى يسفر عن وجـوده تلقائيا ، كما يبدو ذلك لاول وهلة ، لان ما هــو علمى وما هـــو عقائدى فى العلــوم الاجتماعية

يكونان معا ميدانا متشـــابكا الى أقصى حدود التشابك . والنزاهة العلمية تقتضي ان نتخلص من مركبات الردود المزيفة والســـطحية على الاستعمار ، بقدر ما تقتضي التخلص من مركبات التتلمذ الصـــبياني والتبعية العمياء للمدارس الغربية .

لقد كان من نصيب الابحـــاث الاجتماعية في الغرب ان تتطرق الى دراسة كل المجتمعات ، او نقول ان نصيبها الاوفر كان يهتـــم بمجتمعات العالم الثالث .ولا يخلو هذا الاختيار من مواقف ضمنية سواء فيما يخص المنهج والغائية .

واننا لو اقتصرنا على ذكـــر المواقف الاثنية المجزئة اصطناعيا لمجتمعات العـــالم الثالث ، كنموذج لمنهج فاسد يتضمن غائية عقائدية تكاد تلمس فيها العرقية الاستعمارية بالايدي ، لكفانا ذلك مثالا عن هذا الاتجاه . وأما اشتراطهم ان تكون كل الدراسات الموضوعية من خارج فيتضمن ان هناك مجتمعات تنتج الدارســـين وان كل ما سواها ليس الا مادة للدرس ، وأي ادعاء يثبت النزعة الاستعمارية كهذا الادعاء ؟

يصعب علينا ان نثبت استقلال الاتجـــاه في الابحاث الاجتماعية عن متطلبات المجتمع الـذى يرتبط به الباحث . وبناء على هذا لا يمكننا ان نتعجب من مسايرة البحوث لمتطلبات القضـــية الاستعمارية في فترات طغيان الاستعمار . أمـا الآن وقد دخلنا في عصر التخلص من الاستعمار فلا عجب ان نشاهد بعض المجهود من بعض ابناء الدول المتقدمة في مراجعة المناهج والاهتمامات ، لان ذهنيـــة العصر تجـاه الاعراق ، والشعوب ، والمجتمعات الصغرى قد تغيرت بكيفية جذرية . غير ان ادراك واقع مجتمعات العـــالم الثالث ، وتحديد حركياتها وتطلعاتها الثورية ، والوقوف بدقة على اهتماماتها لا يمكن ان يحصل على يـد باحثين تعودوا منذ زمن بعيد على التبســـيط والتجـــزئي في كل ما هو اجنبي عن المجتمع الغربي . وان هذه الاعتبارات لما يجعلنا نطرح بكل الحاح مشكلة التتـــلمذ الاعمى على باحثين مختلفين عنـــا كل الاختـــلاف في اهتـــماماتهم وذهنياتهم .

وان اثارة هذه القضية لا يمكن ان يرمي الآن بوجه من الوجوه الى مقابلة مدرسة بمدرســـة أخرى لمجرد المعارضة ،ولكنه يعني الخروج بمناهج البحث واهتمامات الباحثين من اتجاه فرضـــته سيطرة الاستاذية المتسلطة الى الالتزام بمناهج واهتمامات منبثقة من صميم الواقع المجتمعي الحي في البلاد العازمة على النمو . واذا كان هـــذا الموقف يقتضي تقاطعا منهجيا وغائيا بين الباحثين في البلاد المتقدمة والباحثين في بلادنا ، فلابد من تحديد وجوه هذا التقاطع بكل ما تســـتحقه من جدية علمية .

I ـ نقول فيما يخص المنهج بأن الابحـــاث الاجتمـــاعية التي تقتصر على دراســة المجتمعات الصغرى من جانبها الثقافي ، ليست الا امتدادا لاهتمامات المدارس القـــديمة التي كانت تعتني بالاعـراق والعـادات انطـلاقا من تجـزيئـات وتصنيفات فاسدة في غالب الاحيان . أما الآن

وقد حلت الامة محل المجتمعات الصـــــغرى فى جميع انحاء العالم الثالث ، وفى بلادنا العربية على الخصوص ، فينبغى على الباحث ان يراجع فى كل مرة مناسبة ابحاثه بالاســتناد على هــذا الواقع ، وان يدمج كل وحدة صغيرة فى الوحدة الاساسية التى هى الامة ٠

2 ـ وأما التخصص الضيق الذى يتناسب مع نوع الابحـاث الفردية المنعزلة فقد اصبـح قليل الفائدة لان جل المخططات الوطنية تكتسى صبغة من الشمولية والاستعجال يصعب معهــا التباطؤ فى محاولات ادماج مثــل هذه الاعمال الفردية ضمن البحوث الواسعة التى تفرضــها ظروفنا الحالية ٠ ولا نرى ان ممارسة الابحـاث الاجتماعية بمعزل عن الابحاث الاقتصادية مثـلا بقى كثــير الجدوى ، بل لابد من ادراكنـــا ان التخصص فى الاجتماع او الاقتصـــاد يقتضى تكاملا بين الميـــدانين وتناسقا موحــدا لنتائج الابحاث حتى تصير شبه جاهزة بالنســـبة للمخططين ٠ فلا غرابة اذا ان يتبين لنا من هنـا فضل الاعمال الجماعية على الاعمال الفـردية فى البحث الجامعى الذى يعطى سويعات من الاقتصاد لعلماء الاجتماع وسويعات من الاجتماع لعلمـاء الاقتصاد سيعين على حل المشكل ، ذلك ان القضية قضية عملية ، ترجع الى الممارسة اليومية للابحاث الاجتماعية الاقتصادية فيما بعد التكوين الجامعى ، وترجع فى بدئها الى خلق المؤسسة ذات الفعالية التى ستعمل فى اطارها الجماعة المتماســكه من علماء الاقتصاد وعلماء الاجتماع ٠

ونعتقد ان هذه المؤسسة للبحوث ستعين على رد النــزعات الفــردية الى اهتمامات الجماعة الواسعة ، كما أنها ستعين على التخطيط للابحاث ، وستقضى بذلك على عادات الانقياد مع الصــدف والاهواء التى نشاهدها اليوم عند الكثــير من الباحثين ٠

3 ـ وأما تحديد غائية كل بحث اجتماعى فيبدو انه أصبح من المتطلبات الاكيدة فى بلادنا الفتية ٠ فلا يمكن ان يطرق موضوع التنمية مثلا دون ان ينظــر الى اثمــانها الاجتمـــاعية والاطــلاع على الوضعيات الحالية للمجتمعات التى ستنتفع من مخططات هـــذه التنمية ان الربط بين البحث والواقع الذى ينوى تغييره هو الغاية من كل بحث مفيد ٠ فاذا اخذنا ظواهر اجتماعية تعد من ابرز مميزات التخلف مثل الامية ، ونظام الرحل ، فان التزام الباحث بدراسة هاتين الظاهرتين لا يعنى الوقوف عند الملاحظة ، وعرض الاحصائية ، بل يفترض من دراسته ان تبين وطاة الامية ونظام الرحل فى التخلف ، وان توحى بأهمية الموضوعين حتى تتناولهما المخططات الوطنية ضمن المشاكل المستعجلة ٠ ان الدراسة للدراسة ، أو انعدام الغاية العملية فى البحث العلمى نوع من الترف الفكرى لا يمكن ان يوجد فى البـــلاد المتخلفة ، هذه ثلاث نقط بينا فيها باستعجال خصــوصية الاتجاه الذى يمكن ان يسيطر على ممارسة البحث الاجتماعى فى بلادنا ليصـــبح بحثا عمليا نافعا قابلا للاستغلال ضمن المخططات الوطنية ٠ ولا شك أن هذا الاتجاه العملى ، سيضمن ، ان تحقق

فى يوم من الايام ، ابطال الصور المشوهة التى أخذت عن الباحثين فى علم الاجتماع ، بصفتهم مربوطين بمدارس تقليدية محض نظرية منحصرة مجالاتها فىالاهتمام بالاعراق والعادات وحاجيات العقيدة الاستعمارية البالية ٠

بقى علينا الآن ان نبين ما هى التشجيعات التى ستنهض بالبحث الاجتماعى فى بلادنا ، بعد ان ذكرنا اهمية التحول الذهنى الذى تنتظره الامة من علمائها ٠

نقول فى البداية ان جل هذه التشجيعات تعد من قبيل التشجيع المعنوى ذلك لان المشكل الاساسى الذى يتعرض له الباحثون انما هو مشكل العزلة والانفصال عن الاعمال التى تهم ميدان خبرتهم ٠ ولقد تعمدنا فى الجزء الاول من هذا العرض التنبيه الى مسؤولية الباحثين فى خلق هذه العزلة بسلوكهم المتعالى على الحياة العملية ، غير ان المسؤولية مشتركة بينهم وبين رجال العمل فى ضرب هذا السد بين الجانبين ٠ ولا يمكن ان نلاحظ دون استنكار ذلك النوع من الانطواء على الذات الذى يتميز به كل منالباحثين ورجال الادارة ، ورجال التخطيط ٠ واذا أردنا ان نأتى بالادلة التى تثبت النقائص الناتجة عن هذه العزلة فليس من العسير أن نعثر عليها ، لانها واضحة كل الوضوح فى كثير من المشاريع والمخططات ٠ اننا نجد فى كثير من المشاريع ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية معا اغفال الجانب الاجتماعى وتضييق النظرة الانسانية وحصر التحليلات فى معطيات اقتصادية باردة ٠

ونجد فى مشاريع اخرى التعرض الى تنمية جهة من الجهات بمحض المنجزات الصناعية مثلا ، دون التعرض الى حالةالسكان الاجتماعية ودوندراسة عن الرفع بمستواهم بعد تحقيق المنجزات ٠ وأما تقييم الكوارث الاجتماعية الكبرى التى تعرقل الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية معا ، مثل الامية وأنواع البطالات المقنعة ، وفوضوية العمران فى المدن الناشئة ، فانها عملية لم تتناولها بالدرس مخططاتنا فى البلاد الفتية ٠ وكثيرا ما نسمع من الخبراء الذين يسند اليهم تحرير مثل هذه المشاريع أنواعا من الاعذار مثل قولهم : « اننا خبراء تنحصر مهمتنا فى نطاق ضيق » وأما توسيع المشاريع الى النظرة الشمولية اى الاقتصادية والاجتماعية معا ، فهى فى نظرهم من اختصاص المسؤولينالسياسيين ٠ ومهما الححنا فانه لن يكفينا الالحاح على اضرار هذه العزلة لانها تشتيت للجهود ، وتضييق لآفاق المنجزات ٠ ولدينا مثال آخر عما تجره العزلة بين الباحثين ورجال العمل من اخطاء ، الا وهو الاسراف فى استخدام شركات الابحاث الاجنبية لدراسة كثير من المشاريع الوطنية ٠

ان الاعذار التى تقدمها مختلف الادارات عن هذا السلوك تتلخص فى نقطتينوهما الاستعجال، وعدم وجود الدارسين الاكفاء من ابناء الوطن ٠

لقد كان فى امكان كثير من الباحثين أنيطلعوا بدقة على نماذج من البحث الذى انتجته هذه الشركات ، وقد لاحظوا كلهم اهمية الثغرات الموجودة فى دراساتهم ، زيادة على الاخطاء

الفاحشة التى يرتكبونها فى الميدان الاجتماعى بالخصوص ٠وقد لوحظ مرارا فىبعض الدراسات ورودها على نمط واحـــد فى مختلف الجهـــات والاقطار ،مما يجعلنا نستنتج انالنماذج موجودة مسبقا ، ويكفى أن تغير فيها بعض الفقراتوبعض الاسماء الجغرافية لتصبح صالحة لاكثر من مكان واكثر من زمان ٠ وهذا طبعا مما يعين على تحقيق رغبة رجال الادارة المستعجلين ، وانه لما يفسر أيضا سرعة الانجـاز ٠ واننـــا نعتقد يقينا ان الباحث المبتدىء من ابناء الامة لا يمكن انيرتكب نفس الاخطاء ، ونفس التهاون الذى ترتكبه مثل هذه الشركات المرتزقة التى تحظى بالاقبـــال ، وبقدر غير يسير من الاموال ٠

واننا نعتقد أيضا ان اجتماع باحثين من بين متخصصين فىالاقتصاد ومتخصصين فىالاجتماع على مشروع مشترك ، سيقدمون لمجتمعهم دراسات اكثر جدية واكثر واقعية من أى دراسة ياتى بها الاجانب ، لانهم الصق بالمشاكل ، واكثر ادراكا لواقع بلادهم ٠

هذه نظرة عن التقاطع الموجود بين الباحثـين ورجال الادارة أردنا ان نعطيه كابرز مثـــال عن العراقيل التى يعانيها البحث العلمى فى بلادنا العربية ، وان احسن تشجيع يمكن ان يحظى به علم الاجتماع لينهض قويا عندنا ، هو القضاء على هذه العزلة المصطنعة ٠

وأما الجانب التنظيمى الذى سيكون بمثـابة التشجيع الاكثر فعالية ، فهو انشاء مؤسســـات للبحوث الاجتماعية تصبح الاطار العادى للعمـل الجماعى النافع الذى تنتظـــره الامة من جميع الباحثين ٠

قد يظن لاول وهلة ان انشاء مؤسســـات من هذا النوع يقتضى فى البداية وجود باحثـين من ذوى الشـــهرة العالمية يسـهرون على التوجيه والتخطيط والتنسيق فى هذا الاطار العلمى وقد يظن من جهة اخرى ان مراكز للابحاث قد تعـــد بمثابة مؤسسات لرفع الصيت والتفاخر ، عـلى غرار ما هى عليه فى بعض البـلاد المتقدمة حيث ينضم اليها علماء من مختلف الفنون والمشــارب تضيع ابحاثهم فى النظريات ، وتنفق الاموال فى البحوث القليلة الفائدة العملية ٠

نقول للجـواب عن كل هـذا ان مؤسســات البحوث الاجتماعية فى الوطن العـــربى تختلف جوهريا عن اخواتها فى البلاد الاوروبية ، اذ انها فى اوروبا نتيجة الترف الثقافى ، بينما هى فى بلادنا وليدة الضرورة العملية ٠

لقد ضربنا ، فى الفقرات الســـابقة ، مثلا بشركات البحث الاجنبية وتلاعبها بالبحـــوث ، واشرنا الى الاموال الضخمة التى تنفق فىدراسة المشاريع المختلفة ٠ ولقد كان من حقنا ان نذكر ان طبيعة البلاد الفتية التى تخوض معركة النمو ، هى التى خلقتهذا النوع منالشركاتالمتخصصة فى الدراسات الاقتصادية الاجتماعية ٠ ذلك لان حاجيات البلاد فى هذا الميدان اصبحت ملحـــة ومستعجلة بقدر ما تعتبر الانجازات الاقتصادية والفنية ملحة ومستعجلة فى هذا الفترة المتوقدة بالحماس الا وهى فترة الاقلاع عن التخلف ٠ ولا

يخفى على احد ان العالم الراسمالى خبير بحاجيات الامم المتخلفة واستغلال هذه الحاجيات اسرافا وبدارا ان تفيق · ولو قدر لمؤسسات البحوث الاجتماعية ـ الاقتصادية ان تفى ولو بجزء من حاجيات اداراتنا العربية فى الدراسات لكانت ذات مردود عملى آنى ، ولكانت أداة للتحرر من ربقة تعاون ملىء بالغرور والاخطار ·

واما نظام هذه المؤسسات للبحث فاننا نراه يختلف كل الاختلاف فى بلادنا عن النظام الموجود فى البلاد الاوروبية · ذلك ان النزعة الفردية والنزعة النظرية التى تمتاز بها مراكز البحث فى اوروبا الغربية مثلا يجب ان تتقى من البداية ، كما ان انعزال المتخصصين بعضهم عن البعض يجب ان يعتبر خطرا يحترز منه فى كل حين · فتكتل الباحثين فى اطار مؤسسة تفرض عليهم توزيع العمل ، وتضافر الجهود ، والخضوع لمخطط واحد ، وتنسيق النتائج ، لما يضمن التغلب على التشتيت والاخطاء · ولسنا نعتقد ان الشهرة العالمية فى المعرفة النظرية ، كما يقومها الاساتذة الاوروبيون بمعاييرهم الخاصة تعد شرطا اساسيا للقدرة على المشاركة فى مثل هذه الابحاث الجماعية · فلقد رأينا اكثر ما من مرة جماعات من الطلبة يقدمون أبحاثا ذات مستوى مقبول تحت اشراف اساتذة مبتدئين وما نقص من قيمة ابحاثهم أنهم مبتدئون ·

ثم اننا نرى من مزايا مؤسسات البحوث الاجتماعية الاقتصادية قيامها بالدور التكوينى السريع فى الميدان العملى ، لانها تقذف بالباحث فى صميم الواقع التقنى وفى صميم الواقع المجتمعى ، بفرضها عليه نوعا من العمل يدخل فى مخطط مضبوط ودقيق يصعب معه التيه فى النظريات ، والانقياد مع الهوايات الشخصية ·

ولا يمكن أن نقول بأن نفقات تسيير مثل هذه المؤسسات ستكون عبء على الامة لانها ستنحصر فى ضمان مرتبات ومصاريف بعثات داخلية وخارجية لشرذمة من الباحثين يعدون فى مستوى الاساتذة الجامعيين ، ونحن متيقنون ان نفقاتهم السنوية سوف لا تتعدى عشر ما تصرفه الامة على الدراسات التى تحضرها الشركات الاجنبية ·

ولو لم نعد من فضائل هذه المؤسسات الا مساهمتها الفعالة فى خلق التعود على العمل المشترك بين الباحثين فى الاقتصاد والباحثين فى الاجتماع ورجال الادارة والتخطيط لكان فضلها كبيرا على أمتنا الناشئة التى تحتاج الى تضافر الجهود بين ابنائها ·

بقى علينا الآن ان نتكلم عن تبادل البحوث والخبرات كوسيلة مشجعة بالنسبة للباحث الاجتماعى · انه لا يخفى على أحد ان الوضعيات الاجتماعية متشابهة ، ان لم نقل هى واحدة فى كثير من الاحيان اذا عممنا دراستنا فى الاقطار العربية · ويمكننا الزيادة فى التعميم فنقول ان جل البلاد المتخلفة تعانى أزمات اجتماعية واقتصادية من نوع واحد لانها خضعت لنفس المخططات ونفس الاحتلال الاستعمارى المفكك للمجتمعات هذا ولا يخفى علينا ايضا ان اهتمامات

رجال الاقتصاد فى بلادنا العربية ، رغم اختلاف مناهجهم العملية ، ترجع الى الاصطدام مع الواقع المؤلم الذى يتجلى فى مظاهر التخلف . ان كل مجتمعاتنا تعانى الشدائد من انخفاض مستوى الحياة فى الارياف ، ومن الامية ، ومن فوضى العمران فى الحواضر .

ولا نشك ان دراسات كثيرة فى هذه المواضيع صدرت هنا وهناك ، ولكنها بقيت مجهولة بالنسبة للباحثين فى البلاد الشقيقة . وكثيرا ما يتكرر نفس البحث ولنفس الغرض التطبيقى فتضيع الجهود فى هذا التكرار عوض ان تصرف فى اهتمامات جديدة . واعتقد أن عزلة الباحثين التى ذكرناها فى الفقرات الاولى من هذا العرض وهى العزلة داخل القطر نفسه ، ليست باشد وطأة من العزلة بين الباحثين فى مختلف البلاد الشقيقة . وما نظن ان تبادل الوثائق ، وتبادل الخبرات والدراسات من الامور التى يصعب تطبيقها ، اذا عدت من اهتمامات مؤسسات البحوث ، ومن اهتمامات الباحثين انفسهم اذا حصل بينهم الاتصال والتعارف . ولعل هذا التبادل وهذا الاتصال سيؤدى بعد أجل قريب الى القيام ببحوث مشتركة تتناول الظواهر الاقتصادية والاجتماعية المشتركة بين الاقطار الشقيقة . ومن يدرى . فلعلنا نصل بعد ذلك الى انشاء مركز عربى للبحوث الاجتماعية والاقتصادية يفرضه واقعنا الموحد وتطلعاتنا الموحدة الى القضاء على الكوارث الاجتماعية التى تتخبط فيها شعوبنا .



علم الاجتماع العربي هل هو ممكن :

ملاحظات في العلاقة بين علم الإجتماع والإديولوجيا

الطاهر الجديدي
استاذ بكلية الآداب
ـ جامعة الجزائر ـ

لقد أمكن أن يكتب على حائط سربون ماى 68 أى بعد عشر سنوات من خلق اجازة فرنسية فى علم الاجتماع ما نعتذر عن البـــدء بتذكيره كما أتى : « اذا شنق آخر بيروقراطى بأمعاء آخر عالم اجتماعى فلن تكون لنا مشـــاكل » ، كما كتب اختصارا : « اقتلوا علماء الاجتماع » ٠ طبعا فى هذا أولا انذار بافلاس علم الاجتـــماع الفرنسى التقليدى أو « الرسمى » كما يقولون هناك ٠ علم لم تسمح له طـــرقه الاســـتفتائية ومفاهيمه السكونية أو باختصـــار القواعد الدوركهايمية

المرونة بتحليل الدينامكية وما قد تحـوى من قطع أو قطيعة . على انه جدير بالاشارة بدءا ان جل من نادوا اذاك بسقوط علم الاجتماع كانوا ينتسبون الى علم الاجتماع . لهذا كانت فيـما تلى تلك المدة كتابات وملتقيات فرنسـية كان موضوعها التحليل السوسـيولوجى لظاهـرة اجتماعية جـديدة هى اتهام السوسـيولوجيا للسوسيولوجيا .

لكن هناك أيضا - وهذا محور الحديث - فكرة الربط بين هـذا العلم والايديولوجيا ولتكف الاشارة الى أن أول اطار للحـركة التى انتخبت هذا التوعد الرمزى بالعـالم الاجتماعى الفرنسى كانت المظاهرات المعادية للامبـريالية والهاتفة بحياة الشعب الفيتنامى . كما ان البند 23 ممـا سماه الطلبة اذاك « ميثاق السربون » ينص على رفض الفصل بين العلم والايديولوجيا فصلا ما انفكت اغلبية اهل العلوم الانسانية عامة وعلماء الاجتماع خاصة تؤكده وتدافع عنه بدعوى مـا تسميه الموضوعية . لهـذا مثلا لاقت كتابات التوسير ALTHUSSER ابتـداء من 68 وبعـد نجاحها الاول ردود فعل عنيفة لا تقبـل خاصة ما يسميه « القطع الايبيسـتيمولوجى » جـاعلا من 1844 حـدا فاصلا بين الايديولوجية والعلمية عند ماركس .

ماذا اذا من أمر علاقة اكدتها الازمات ، ثـم ما صلة هذا بمشروع النهوض بعلم الاجتماع فى الوطن العربى ؟

من المفروغ منه اليوم ان العالم تتقاسـمه الايديولوجيات . تتقاسـمه الى حد ان فكرة «العالمية» مثلا بل وحتى فكرة «الحوار» تبدوان من أخطر أمراض العالم الثالث اجمالا . ذلـك ان العالم على عكس ما يزعم اهـل الخيالية او المثالية يسير سيرا حثيثا الى نظام الكتل ، بحيث اصبح الشعور بالانتماء لا عنصرا تعريفيا فحسب بل وعاملا حيـويا من عوامل البـقاء . على ان التجربة العربية فى هذا الباب جد معلومة ..

من هنا جاءت تصنيفات ابرزها عـلى وجـه التأليف : علم اجتماع رأسـمالى وعلم اجتماع اشتراكى ، ثم علم اجتماع البلدان المتقدمة وعلم اجتـماع العـالم الثالث . على أن خلال هـذه التصنيفات وما تحصره من تصنيفات وسطية يبدو تمييز عام بين ما لا يتردد فى تسميته علم اجتماع تقدمى وعلم اجتماع رجعى .

النـزعة الايديولوجية موجودة اذا ووجودها ثابت فى المستوى النظرى وفىالمستوى التطبيقى أو على الاصح فى المسـتوى الايبيستيولوجى الرابط بينهما :

لكى لا ندخل مبدئيا فى ملابسـات تعاريف الايديولوجيا المتعددة يكفى فهمها تبسـيطا على أنها تمثل ذهنى للواقع تمثلا يحـدده التاريخ ويرتبط بوضع نفعى . فهى بالتالى بناء نظرى قد يشوه الواقع وقد يكون غير واع لدوافعه ،ولكنه قد يكون أيضا عن وعى ذا صلة موضوعيةبالواقع

وبالتالى ذا وظيفة غير نفعية فى المعنى الضيق للكلمة ٠

على هذا الاساس تكون فكرة الفصل بين علم الاجتماع والايديولوجيا مدعية وجود عالم اجتماعى خارج عن كل وضع واقعى يتمثله تبعا للتاثير المتبادل بينهما ٠ علم لا يكون له ككل الناس دور ومكانة تواليا وباستمرار ٠

لكن اصل الفكرة معلوم : دراسة الظواهر الاجتماعية كما تدرس الاشياء ومن الخارج ٠ مما أفضى الى مطالبة العالم الاجتماعى بموقف الفيزيائى ٠ وهى مطالبة وضعية وهمية ٠ ذلك ان المسافة التى تفصل العالمين عن موضوعيهما ليست من طبيعة واحدة ٠ فعلى عكس الفيزيائى يصعب الى حد الاستحالة على العالم الاجتماعى التمييز بين الشىء الواقعى أى ما يعرض على الادراك والشىء المبنى بالدراسة وخلالها ٠ واذا كان للادراك عوامل ذاتيةمفروغ منها فان ما يبنى اعتمادا عليه مجبور على التغير ، فى حين يبقى الفيزيائى على حاله مستقلا بذاته ، بل أن دارسه لا يبنيه بل لا يدركه بالمعنى البسيكولوجى للكلمة ٠

ان الفرق واضح بين من يحلل معدنا تحليلا لا يخضع ـ مهما كانت فلسفة الحياة ـ الا الى قوانين علمية داخلية وبين من يحلل ظاهرة اجتماعية هو أولا جزء منها ، ثم هو لا يباشرها مجردا من مكتسباته النفسية والذهنية ومن وعيه الممكن أى من نزعة التوق الى حل مشاكله فردية كانت أم جماعية ٠ معنى هذا انه يتناولها رجوعا الى جملة من الرموز والاصطلاحات حدد مضمونها الانتماء الى وضعية معينة ابرز اشكالها الوجود الطبقى ٠ كما ان الثقافة فى حد ذاتها ككسب امتيازى كافية لتشخيص هذا الوجود ٠ بل لقد يمكن القول بأن رفض المثقفين ايديولوجيا للعرقية الطبقية ethnocentrisme de classe ومنهجيا للاموضوعية قد لا يكون غير تغطية محكمة أو مغرية لعرقيتهم الثقافية او المهنية كمجموعة ـ مرجع ، وبالتالى ذات سلطة ٠ وليسمح بالاشارة العابرة فى هذا الخصوص الى غرابة الترسيمة البنيوية التى يمكن الحصول عليها اعتمادا على مشتقات كلمة الثقافة كما تثبتها القواميس العربية : هناك رسم مرتبى قاعدته الذكاء او اللامساواة الطبيعية وقيمته الغلبة او السيطرة او كما تقول القواميس: الاصابة فى الغرة ٠

لهذا يمكن التساؤل : اذا كان مستحيلا على العالم الاجتماعى ان يتجرد من مسبقاته المفهومية التى لا يملى عليه موضوعه فحسب ، بل وأيضا منهجيته ، واذا كانت فكرة التخلص من القيم الايديولوجية ليست تبعا لذلك الا موقفا ايديولوجيا خاصا ، واذا كان آخر الامر فرق بين موضوعية العلم وموضوعية العالم ، اذا كان هذا وذاك فكيف يعلل هذا التضارب الذى يجب فى اعتقادنا ـ أن يتفطن اليه الباحث فى العالم الثالث عموما وفى البلدان العربية خصوصا : طغيان فكرة التجرد الايديولوجى désidéologisation فى فترة يطغى فيها الصراع الايديولوجى فى العالم ؟

تلخيصا للاشارات السابقة وانطلاقا منها تبدو فكرة التجرد الايديولوجي ايديولوجية غربية ذات حدين على الاقل : انتقاد التحليل الاشـــتراكي وقـــواده ، ثم بل قبـــل ذلك واساسا المدافعة الضمنية عن نظام اجتماعي واقتصادي طبقي يجد فيه العالم الاجتماعي كغيره من العلماء مكانه بل مكانة في البيروقراطية الموجودة ٠

النقطة الاولى يطول الجدل في ملابساتها ويكفي الرجوع الى عوارضها الاولى عنـــد ماكس فيبر وكارل منهايم بالنسبـة للنقطة الثانية يلاحـظ أولا ان الانتاج في البحوث العلمية والاجتماعيـة يخضع لقانون العرض والطلب ٠ لكن من يعرض ويطلب في البلدان الرأســـمالية ؟ هنا صلب القضية ٠

في عام 1969 خصص 130 مليارا من الفرنكات للبحث في الولايات المتحدة ، لكن على الوجـــه التالي : 50٪ للدفاع و 25٪ للفضاء و 12٪ للذرة ، بحيث لا يصرف في دراســـة كل ما تبقى من جوانب الحياة البشرية الا 13٪ ٠ صاحب الطلب هنا الايديولوجيا الحاكمة ، واذا فالاشـــارة الى صلة البحث بالسياسة الامريكية داخلا وخارجا اشارة مبتذلة ٠

كذلك الامر اذا كان صاحب الطلب مؤسســة من المؤسسات او منشـــأة صناعية او تجارية خاصة ٠ لا مجال هنا للتعميم ، ولكن من المعلوم ان المستقلين من الباحثين في البلدان الرأسمالية قلة بالنسبة للبيروقراطيين العاملين لفائدة القطاع الخاص ٠ بل هم يعانون كبتـــا مأتاه أن لا تحظى نتائجهم بالتطبيق لانها لا تلبي طلبا ٠ ولقد ذكر ميرتين MERTON الذي اهتـــم بهـــذا الموضوع مثال الميز العنصري في مركز صـــناعي بشمال الولايات المتحدة الذي اكتشف فيه تدهور نفسي عند العمال السود وانخفاض في مســتوى الانتاج يعزى ظاهرا الى الميز العنصري ٠ « كان المشكل بالنسبة للباحث البيروقراطي معرفا كما يلي : كيف يمكننا ارجاع الميز العنصري مطاقا أو مستلطفا عند العامل الاســود ؟ ثم ينبه هـــذا الباحث (البيروقراطي) الى أن أنواعا من الدعاية يمكنها رفع معنويات الســود دون ان تقضى على الميز ٠ فهو يقحم نفسه اذا داخل سياسة سابقة يدعمها » ٠ هذا النوع من الموقف سمح لكثير من الناظرين في علم الاجتماع الصـــناعي الامريكي باعتبار مشروع الاندماج او التلاؤم موضـــوعا أساسيا فيه . فكرة الدفاع الضمني عن نظـام يستغله مالك العمل ومالك الثقافة لا يحتاج هنا الى الاثبـات .

هـــذا ما ينطبق أخـيرا على النقد الاجتماعي نفسه ٠ ذلك ان النقد الموجه الى المجتمع لا مناص له من الرجوع الى نوع ايديولوجي خاص او في طريق التبلور وبالتالي الى قيم يطالب بها المجتمع نفسه ، وهو ما يمكن اكتشـــافه أيضـــا وراء دراسات هاجمت في أمريكا مثلا جوانب معينة من النظام الرأسمالي الاســـتهلاكي كما فعل ميلس MILLS وفانس باكار FACARD وغـــيرهما ٠ وعلى كل فالمقصـــود من هـــذه الاستشهادات المقتضبة لا تتجاوز ضرب المثل على

التوازى بين النـــزعات الايديولوجية واتجاهات البحث فى بلد أراد أن يرث فورث فعـلا عن دور كهايم وماكس فيبر خاصة ما يسمى بالتجـــرد الموضوعى • وهو تواز ممكن التعميم ورابط بين ذاتية الموضوعية وموضوعية الذاتية •

ولنفتح فى خصوص هذا التعميم قوســـين يحصران وضعـا غريبـا فى بلداننا العربية : المجتمع العربى اجمالا مجتمع أدبى الى حد الآن • ولسنا ندرى ما اذا كان فى هذا اثبات للـــرأى القائل بأن الشعوب المضطهدة لا تجد من التعبير عن حالها غير الادب • على كل ومهما يكن من أمر فان الادب هو الذى أثار جوانب هامشية نسبيا مما نتحدث عنه : مشكلةالشكل والمضمون وصلة العبارة بالمجتمع وفكرة الالتزام والفصـــل بين الذاتية والموضوعية ، الى غير ذلك . . ولنتـذكر مثلا من جملة المعارك ما كان بعد الثورة المصرية حوالى عام 1954 بين طه حسين أو العقاد ومحمود العالم أو عبد العظيم أنيس وأنصـارهم • وهى غالبها معارك لا يواجه فيها الادب غير الادب • بل ان كثيرا من مواضيع الطلائعية اليوم ــ وهى من اهتمامات علم الاجتماعالحديث فى بلدان اخرى ــ لا يزال يرد عنها ولا نقول يحللها ادباء لا تربطهم بالمنهجية العلمية اية رابطة • وهم طبعا ادبـاء يمثلون اعراضا ايديولوجية قلما تم الشـــعور لهم بها •

ان ما يدعـــو نهـــاية الامر الى تحليـــل ايبيســـتيمولوجى هو هـــذا التداخل الغريب واللاواعى غالبا بين ما سمى العامل الموضـوعى الذى هو حكم الايديولوجيا والعامل الذاتى الذى هو ادراك العالم لهذه الايديولوجيا على أنها من ثمار ابحاثه جناها اختيـــارا وبمحض ارادته • لنترك هذه النقطة للتأمل وليكن تلخيص العلاقة ان علم الاجتـــماع لا يتأثر حتما بالايديولوجيـا فحسب ، بل يصبح نفسه ايديولوجيا او وسيلة من وسائل الصراع الايديولوجى •

يمكن بعد هذا وعلى ضوئه التفكير فى كمونيات هذا العلم فى البلدان النامية بما فيها البـــلدان العربية • ولعله من الحشـــو التنبيه الى ثغرات ستبدو فى محـــاولة تمر على تباين الاوضـــاع وتضاربها ســـعيا فى تأليف مجبر بالتالى عن التفاؤل •

السؤال اذا هو التالى : المناداة بالتجـــرد الايديولوجى كانت ولا تزال باســـم الموضوعية والمنهجية ، لكن أية موضوعية وأية منهجية ؟ • وفى خصوص المنهجية ــ وهى منالعقد العصيبة ــ كلنا يعلم ان ما يؤخذ عن الغرب كان وســـيلة اختارها هذا الغرب لتحليل ذاته أى كان عرضا تاريخيا لحلول تناسب مشـــاكله الخاصة • فهى حلول مكيفة تفضى استعارتها على رمتها الى جملة من المفاهيم المرتبطة بتطور يختلف بناء عن تطور المستعير بل ان تطبيق بعضالوسائل فى البحوث الميدانية نفسها قد يؤدى الى نتـــائج لا تمت الى الواقع بصلة• ذلك انالاستمارة السوسيولوجية او الزائر (أو التاست) البسيكولوجى قد تحوى مفاهيم لا ترجع الى معنيات مضـــبوطة فى دنيا الشخص المدروس •

ان المنهجية المطبقة فى البـــلدان النامية لم تكتشف ولم تطور تلبية لحاجيات هذه البلدان ، وهو شيء طبيعيمنطقى ٠ بل العكس هو الصحيح وتاريخ الاتنوغرافيا شاهد على ذلك ٠ بل يشهد عليه اليوم فشل الكثيرين من أهل الاختصــاص الاجانب كلما تنـــاولوا ولو ثوريا وبعزم سليم مشاكل غيرهم بأساليب غربية ٠

باختصار ، ان المنهجية المســتعارة لا تبعدنا عما نريد تحليـــله من واقعنا فحسب ، بل انها تقوى الشعور « بالعقدة » أمام منهجية ــ معيــار تتطور فى الغــرب تطورا غريبا . اذ معلــوم ان سرعة الخلق وسرعة الاخذ لا تتعادلان ٠ هذا دون اعتبار لوقت تتطلبه الملاءمة لو كانت موجودة ٠ هذه المسافة المتـــزايدة دوما تبـــدو فى موقف السمسرة بقواعد دوركهـــايم او فى العيــش بها وعليها ، فى حين ان آفاقا منهجية اخرى ظهرت واتسعت تتشعب فيها الآراء والمناقشات وتتعدد النتائج متكاملة لفائدة الفكر العلمى ٠ وهىنتائج اذا استوردت يوما وقد ولى زمانها فسوف تكون جوابا عن سؤال غير مطروح ٠

أما فى خصوص الموضوعية فالمشكل ان هـــذه الموضوعية كما اتضح سابقا تعنى اولا اختيـــار موضوع وثانيا ما يزعم انه الحياد ٠ الا ان الاهم من ذلك ــ وهنــــا نتناول الجانب الايجـــابى او التقدمى او الموضوعى الفعلى للايديولوجيا ــ ان من المواضيع المدروسة فى بلداننا ما يذهب جفاء لا ينفع الناس ، أو هو ــ وهو أدهى ــ لا ينفع غير قلة اصحابه بمن فيهم الباحث ٠ بل لقــد يمكن الذهاب أبعد من ذلك : يجب الاعتراف بأن من الحقائق او بعبارة اوضح بأن من البحـــوث عن الحقيقة ما قد لا تكون تدليلاته ونتائجه الا عملا سلبيا ، ولنقل رجعيا ــ ولم لا ؟

فى المستوى البشرى ، أما ما يزعم انه الحياد فى البحث فمنه ايضا ما ليسانسانيا ولو سلمت طويته ٠ المثل يضرب يوميا : جدل هزلى الدراما وبيزنطة مهددة !

العالم الثالث وفى مقدمته البـــلدان العربية مهدد باســـتعمار جديد يتسرب اليـــه فى كل مستوياته من شعاب دقيقة وفى أشكال غريبة ٠ هذا بقطع النظر عما يستمر من استعمار صريح فى بعض أراضيه ٠ فى هذا المســـتوى العلائقى قد لا يكون الموضوع كموضوع الا بعدا ثقافيا من أبعاد هذا الاستعمار الجديد ،وقد كان كذلك فعلا فيما مضى ٠ على أن فى الرأى الغربى نزعة قوية ظاهرة الى استنتاج تفوقه استنادا الى ســيطرة مواضيعه على البلدان النامية ٠ واذا كان مشكل اللغة مبسوطا فذلك لانها هى أيضا موضـــــوع وليست مجرد شكل حيادى كما كان يظن ٠ دل على ذلك مثلا موقف فرنسا اللغوى من دخـــول بريطانيا فى السوق الاوربية المشتركة . ثم انه لغنى عن الذكر هنا ان البحوث الخاصة بالبلدان النامية هى نفسها جلها بين أيدى أهلالاختصاص الاجانب يقـــومون بهـــا او يشرفون عليـــها ٠ فالدراسات حول المغرب العــــربى مثلا لا يزال أكثرها ــ رغم تزايد الباحثين اجمالا فى البلدان الثلاثة ورغم رغبتهم الواعيـــة فى التعويض ــ لا

يزال من انتـــاج المؤسسات الفرنســـية عملا وتوجيها • ويبدو ان عدد الباحثـــين الانقلو ـ سكسونيين قد تفاقم فجأة بعد اســتقلال المغرب العربي خاصة في المغرب الاقصى وتونس •

ان الفخ المنصوب اذا ـ في المستوى النظرى ـ يغطيه منطق الربط بين الموضوعية والموضـــوع ربطا تعمى فيه نسبية الاختيـــار • بحيث يكون الحل الوهمى هو التالى : اكتساب الموضوعية عن طريق الموضوع الذى ثبتت فيه • هـذا ما يفسر المسايرة الرائجة لكتب سوســـيولوجية غربية فصلا فصلا او فكرة فكرة فى تدريســنا الجامعى مثلا • وهو بالتالى ما يفسر المســافة المهولة بين طالب فى علم الاجتماع والمجتمـع الذى كان من أوكد حقوقه معرفته • ثم من منا لم يعش تجـربة غريبة شاء التاريخ ان نتعرف فيها فى مجتمعاتنا عن الغرب وفى الغـرب عن مجتمعاتنـــا • وهى تجربة لم يجابه فيها المستشرق مســـــتغربا بل رافق متغربا •

واذا فبأى موضوع وبأية منهجية نهتم ؟ على الاصح : أية موضوعية نختار ؟ واضح هنـــا ان عبارة الاختيار مقصودة بعد ان ذكرت صـــلتها بالايديولوجيا • فهى لا تعنى رفضا شاملا يبطله تكامل الثقافات ولا انطواء دوغماتيكيا قد يؤول الى عمل هاتف لا هادف • انها تعنى الاولوية • أولوية تحددها ايديولوجيا موضوعية • هـــذه الايديولوجية الموضوعية واحدة لا غير : تلك التى وظيفتها الاجتماعية خدمة ما يجب ان تعنيه فعلا عبارة المصلحة العامة ، أى مصلحة المجمـــوعات المشرئبة الى التقدم والتى لا تعاكس التـاريخ • وهى التى وظيفتها على الصعيد العالمى ـ تأكيد الشخصية القومية كتركيب تاريخى أمام عمليات المسح او المسخ الخارجىوتوطيد مشيتها ـ تحليلا لا هتـــافا طبعا ـ نحو الثبات الحيـــوى وسط مجمـــوعة يدعوه اليها منطق التقدم والتآزر المحتمل : عالم ثالث ، وطن عربى ، مغرب عربى، الى غير ذلك •

على هذا الاساس تعطى الاولوية بحثا وتعليما الى مواضـــيع تباشر التغير الاجتـــماعى او الديناميكية وهى الموضوع الفعلى لعلم الاجتماع لا الى مواضيع تكون نتائجها « الموضوعية » اثبات السكونية وما وراء ذلك من نزعة المحافظة على ما هو موجود • على هذا الاســاس تعطى الاولوية للنمو وللوعى الممكن (أو ما يسميه الفرنسيون بالـ : connaissaance possible وهو من واقعالمجتمع لا الى مواضيع تصبحالثقافة فيها فلكلورا ينشر لفائدة السائح واغرابيته • على هذا الاساس تكون المواضيع مرسومة داخـل كلية ذات حاصلة تقدمية لا متشتتة او مشـــتته باسم الموضوعية والدقة : قبائل ، لهجات وغـير ذلك دون ان تبدو التناقضات كقوة محـركة فى التغير الاجتماعى ، مما يبقى او يســـقط العالم الاجتماعى فى أتعس الدراســـات الاتنوغرافية عقما وارثا • على هـذا الاســـاس ايضا تعطى الاولوية لتحرر الشعوب ولتحليل الاســـتعمار الجديد وهو موضـــوع سيكون اختصـــاصا فى مستقبل العالم الثالث ولا شك •

طبعا لا مجال هنا لعرض القائمة الكامنة ولا مجال لذكر المراجعات الضرورية التي يجب ان يمليها التـأمل في علاقة المعرفة بالواقع الحي . وهو تأمل مستعجل الضرورة كما تنبهت الى ذلك بعض النداءاتالفردية وقلة من مشاريعالسياسة الثقافية في المغرب العـربي مثلا . ففي تونس ـ وهي نسبيا ذات عملة سوسيولوجية ـ خوطب الباحث الرسمي باسم الشخصية القومية وانتقد التعليم باسم التونسة . وفي الجـزائر يكفي الرجوع الى المشروع الثوري الرامي ـ كما ينص الاصلاح ـ الى ان « تجد الجامعة نفسها في شعبها وان يجـد الشعب نفسـه في جامعته » والى «ارضاخ المواد الموجهـة او الملوثة بايديولوجيـا استعمارية(كالتاريخوالانتوغرافيا والانتولوجيا) الى صيرورة الانعتاق من الاستعمار » . لا شك ان عراقيل هذه المشاريع متعددة الطبيعة والدرجة ، لكن لها مساس بالسياق : فقد يفضي اتصـال « الموضوعية » بموضـوع مسـتعار غير واف بأغراض التقدم الى محو شخصية الباحث نفسه او الى نوع من « التموضع » .

لقد شاء رسـام فرنسي ان يعلـق على رحلـة لأنديرا غاندي في أوروبا فرسمها أمام طفل عار جائع يطلبها قوتا فتفتح له حقيبة ملئت شعارات: تفهم ، رحمة ، سند معنوي وما شابه ذلك ... نفس الخيبة تقريبا ـ مع اضافة العمد طبعا ـ بين من يعطي الاولوية الى الوظيفيـة او الى البنيوية التقليدية (وليس في هـذا رفض لما يجب نقد معرفته ومعرفة نقده) وبين من يرجو حلا لمشاكل أولىمن ذلك واوكد بكثير:مشاكل حياة او موت . نفس الخيبة تقريبا بين من ينقل نظريات تجاوزها اهلها وبين من لا يفهم واقعه الا انطـلاقا منـه ورجوعا اليه . المسألة اذاً مسألة اولية اكسـب الحق في تحديدها تحرر الشعوب . لذلك لابـد هنا من احتراز : قد يؤول امر البحث الى خطية مبتذلة لا خلق فيها ولا تجديد كما ان التركيـز على المباشر قد يؤدي الى عقم الفكر النظـري او كبته في حين ان المرحلة التنظيرية هي التي تمكن من بلورة المفاهيم وضبطها انطلاقا من خصوصية التجربة ، وهي بالتالي هي التي تسـوغ صياغة تاليفيـة ما نترقبه من نوعية الاسـتقلالية في البحث .

وختـاما لا شك ان فيما سـبق شـيئا من التبسيط ومرا على كثير من الملابسات الموضوعية هي ايضـا! . من ذلك اساسا حـرية الباحث موضوعا ومنهجا حسب امكانيته داخـل الاطار التقدمي العام . هذا طبعا اذا وجد هذا الاطار العام . أما اذا لم يوجـد ـ كما هو واقع ـ أو حال وجوده دون ظهور التحليل النقدي كما هـو واقع ايضا ، فأما ان يساهم الباحث باسم العلم في افساد وضع فاسد ، واما ان يضـمر البحث ويختنق بالتركيـز في براغماتيكية سـطحية ضيقة ، وهو ايضـا نوع من الافلاس : التاليف التكاملي هنا جد عسير بين حتمية الايديولوجيـا الموضوعية وحرية الباحث ، ولكنه مرحلة حاسمة الاساسـية . لهذا تسـاءلنا ما اذا كان علم الاجتماع ممكنا في البلدان العربية . وهو تساؤل

أقرب الى الغيرة منه الى شيء آخر • تساؤل يريد فيه تشاؤمه المتفائل ان يراهن على المستقبل •

من ذلك ايضا مشكلة الكفاءة او التجربة على الاصح ، اذ معلوم ان استقلال البلدان النامية لم يعن كسبا تلقائيا لهذه التجربة • لكن – ودون تبذير في العبارة – قد لا يكون هذا الحرمان في ميدان البحث الا حظا فريدا في توجيه مستقبل فريد • ذلك ان المنحنى العام الذىسبقت محاولة رسمه (وهو ارتباط علم يخال حياديا بالايديولوجيا ، ربطا لا حل له غير الربط بايديولوجيا موضوعية ذات وظيفة اجتماعية تقدمية) لا شك يفضى الى خلق فعلى في هذا الميدان وبالتالى الى اثراء المعرفة في العالم •

ثم لعله – ومن يدرى ؟ – قد يخلق في الوطن العربى علم اجتماع متميز الموضوع والمنهجية ، وبالتالى متميز الايديولوجيا •

هذه – في اعتقادنا – امكانية علم يعتبر الامكان من ابعاد موضوعه الجذرية ، علم يساير التاريخ ولا يريد ان يشنق يوما !••





.. هل ينزل المطر الآن ؟

قتلوهم لكي ينزل المطر !

حكومة جنوب أفريقيا العنصرية ، نشرت هذه الصور ، ووزعتها بواسطة طائرات الهليكوبتر على سكان جنوب افريقيا الاصليين ، مع التعليق التالي : « لقد قتل هؤلاء الرجال ، لانهم ساعدوا الارهابيين ... وبعضكم يفعلون الشيء نفسه ! أن ارواح موتى قبيلتكم ، تقـــول لكم انها غاضبة عليكم لهذا السبب . وبسبب هذا الغضب لم تمطـــر السماء .. وستصاب محصولاتكم باليباس والقحط ، وستكون هنـــاك مجاعة كبيرة .

« الحكومة هي التي يمكنها مساعدتكم ، اذا ساعدتموها بالقبض على المخربين والارهابيين ، واخبرتموها عنهم » .

ومن المعروف أن وطنيي جنوب أفريقيا ، قد بدأوا أخيرا القيـــام بحملة مركزة من الكفاح المسلح ، ضد الحكومة العنصرية . هذا عدا الاضرابات العمالية في المناجم .. وهي اضرابات لا تجابهها السلطة الا باراقة الدماء .

اتجاهات في
منهج البحث في الدراسات الاجتماعية

د. عمار طالبي
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

يبدو ان العلوم الاجتماعية عامة وفى صدارتها علم الاجتماع تمر بأزمة ، ويمكن القول بأن لهذه الازمة وجهين : أزمة نمو على صعيد البلاد الغنية، وأزمة نشوء على صعيد البلاد الفقيرة او المتخلفة ، وهى أزمة ذات صبغة منهجية قائمة فى التفسير وناشئة عن عدم وجود نظـــرية واضـــحة فى الانسان ٠

اتجاهات في
منهج البحث في الدراسات الاجتماعية

د. عمار طالبي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

يبدو ان العلوم الاجتماعية عامة وفي صدارتها علم الاجتماع تمر بأزمة ، ويمكن القول بأن لهذه الازمة وجهين : أزمة نمو على صعيد البلاد الغنية، وأزمة نشوء على صعيد البلاد الفقيرة او المتخلفة ، وهي أزمة ذات صبغة منهجية قائمة في التفسير وناشئة عن عدم وجود نظرية واضحة في الانسان .

التعاونيات مثلا يتضمن رفع مستوى ثقافةالعمال لا فى معارفهم الفنية فحسب ، ولكن فى شعورهم بالمسؤولية نحو المستقبل والثقة فى امكانيــة تغيير الانسان لعالمه بوسائله الخاصة .

وقد استطاعت الصين ان تبرهن على امكانية ايجاد بديل آخـر لنموذج الحضـارة الغربية والسوفياتية فبـدلا من حمى التنافس وزيادة الدخل اوجدت مدنا دون بنوك ولا مخدرات ولا كحول ولا سيارات خاصة ولا اعلانات اشهارية ، وتوقفت شـانغاى عن ان تكون مركز اعلاميـا للافيون ووصلت الى نجاح علمى به رالعالمبالرغم من أنها قطعت الاعانة الفنية وغيرها اكثـر من عشر سنوات سواء من قبل الرأسـمالية او الاتحاد السـوفياتى ، وغيرت طريقة التربية ووجهت جميع الطلاب المتخرجين من الثانويـات دون استثناء لا الى الجامعة مباشرة وانما الى العمل فى المصانع ، وفى الريف لمدة ثلاث سنوات على الاقل . والذينابدوا نجاحا فى اعمالهم وسلوكهم هم الذين يفتح لهم باب التعليم العالى (1) هـذه ظاهرة تشير الى امكانية فتح طريق جديد وتغيير أهداف ثقافة ما ، ووسائلها ورؤية سبيل آخر لمشروع حضارة جديدة وقد فشلت عدة مناهج فى نطاق استمرار حضارة فى الحصـول على رضا الباحثين وحتى المنهج الديالكتيكى توقف عن أن يكون منهجا ،وأصبح ايديولوجيةتبرير واحتجاج ودفاع حيث اعتبرت ـ كما يقول Garaudy

التاريخ حالة خاصة من حالات ديالكتيكية الطبيعة . وهذا يشير اليه موقف الشباب القلق فى البلاد الاشتراكية ازاء التعليم الاجبارى للمادية ديالكتيكية اصبحت دين الدولة الرسمى .

ومن معوقات البحث العلمى والتنمية عنـدنا الزعم بان النموذج الوحيد للحضارة هو النموذج الغـربى او الشرقى وصـراع الايديولوجيـات الموجه من قبل الاستعمار فالابحاث الاجتماعيـة التى اجراها الفرنسيون فى بلاد المغرب عامـة تشـير الى هذا ويمكن ان تصـنف الى ثلاث اتجاهات :

1 ـ علم الاجتماع الادبى ويمثـله جاك بارك الذى يحاول ان يجمع حوله اتباعا يسـلكون مسلكه ويكفى ان نصفه بأنه أدبى .

2 ـ علم الاجتماع السياسى الذى اتخذ اسـم الاثنوغرافيا تارة والاتنولوجيا اخرى ويبدو ذلك فى أعمال Pierre Bordieu وهو اتجاه فولكلورى مقصده سـياسى يؤدى الى التمزيق والابقاء على التخلف باسم العلم .

3 ـ واتجاه ثالث نسميه الاتجاه الديماغوجى ويمثله جماعة منهم MAXIM RODINSON واتباعه ممن يشوهون الحقائق عن طريق دعايه ايديولوجية يغرون بها الشـباب الذى يتتلمذ عليهم . وما كتابه : الماركسية والعالم الاسلامى وما كتاب احد اتباعه الايديولوجية العربيـة الا دليل واضح على ذلك .

ان هؤلاء وغيرهم من الباحثين الفرنسـيين ينظرون الى مشاكلنا ومجتمعنا بنظارات ملـونة بلون حضارتهم ويحاولون ان يكونوا لنا باحثين

واذا كان البحث العلمى والتقنى من شروط الثروة والقوةفانهما ليسا غاية فى ذاتهما ،ويبدو أن الاتجاه أصبح يشير بشعور او بغير شعور ، الى ان تنمية الانتاج غاية فى ذاتها ، وابتعدت عن ان تكون تنمية للانسان فهى تنمية علمية تقنية انتاجية . وما الانسان الا أداة لها لا غاية والدليل على ذلك اننا نصنف الامم على أساس العائد القومى الخام بحسب كل فرد من أفراد السكان .

ومن جهة اخرى فهناك مسلمة تكمن وراء هذه الاختبارات والتجارب والاستبيانات فى المصانع وغيرها الا وهى ان الانسان اداة للانتاج . واذا كان المنهج التجريبى او الامبريكى صالحا لحل مشاكل عارضة للامم المتحضرة التى ركبت جهاز حضارتها من الاشخاص والافكار والاشياء وانطلق محرك هذا الجهاز الذى قد تعترضه عوارض فيحتاج الى اصلاح فهل يمكن للامم المتخلفة ان تقلع او تنطلق على أساس هذه البحوث الميدانية الجزئية التى تعالج خللا جزئيا هنا وهناك ؟

اننا نعتقد ان التخلف الذى تراكم علينا منذ قرون واثقلنا حمله لا يتزحزح بمجرد اجراء اختبارات او بحوث ميدانية جزئية تساعد على ازالة نقص هنا وهناك . ان التخلص من التخلف يكون بفعل تغييرى شامل وهو ما نسميه بالثورة. وليست الثورة علما فقط او فلسفة او ايديولوجية ، انها كيفية لحركة تاريخية ، حركة الانسان فى التاريخ او حركة المجتمع مبدؤها الايمان بامكانية التغيير ، وبارادة التغيير ، والشعور بالمسؤولية عن هذا التغيير وبالاضافة الى ذلك فان العالم الثالث او المجتمعات المختلفة قلدت الغرب وتقلده فى انشاء الجامعات وفى طرق البحث كأنه لا يوجد الا نموذج واحد ينبغى أن يتبع ، وكأنه ليس فى الامكان فتح أفق جديد يتلاءم مع اوضاعه واهدافه ومستوى وجوده الحضارى ، اذ ان هذه المناهج الغربية كلها قائمة على أسس فلسفية نظرية ، اما فلسفة تجريبية أو ديالكتيكية او فلسفة ظواهرية او غيرها من الركائز الخلفية . وهذه الفلسفات نشأت فى ظروف اجتماعية وحضارية معينة ومن ثم فان هذه المناهج تؤدى وظيفتها فى نطاق حضارة ، ولكن نحن على أهبة الدخول الى مرحلة الحضارة بعد ان خرجنا عن نطاقها قرونا . ان المناهج التجريبية الحالية مناهج تعالج مسائل جزئية فى نطاق كل، ولكن مشكلتنا كلية فى حاجة الى علاج كلى والى منطق كلى ، فهناك مناهج استمرار حضارة وجدت، وهناك منهج مشروع حضارة ، وفرق بينهما .

ان البلاد المتخلفة تضع بجوار البؤس العام والفقر ترفا غريبا لجماعة قليلة ناشزة وتعالج المشكلات علاجا ترقيعيا لما لا يقبل الترقيع لاتساع الرقعة على الراقع . فان الامر يتطلب اختيارا اجتماعيا اساسيا يختلف فى غاياته ووسائله عن النمط الغربى او الشرقى ان نظام

(1) Garaudy, l'Alternative. Robert Laffont 1972 P. 132

يلبسونهم هذه النظارات ليروا بها رؤية تحجبهم عن الحقيقة الواقعة بحيث لا يرون بأعينهم وانما بأعين مستعارة ، اذ ان هؤلاء الباحثين لا يرون الا مصالحهم . ان الاثنولوجيا لا تنفعنا وان عبرت عن حقائق واقعة .

ومن ثم وجب التفكير في وضع علم اجتماع جديد ومنهج جديد يخضع لمنطقنا ولتاريخنا ولتجربتنا فاننا لا نصل الى الحقائق الاجتماعية عن طريق السوربون ولا عن طريق موسكو ، وليس من شأن التقليد ان يضيء طريقنا الحضارى بنورهما ·

وأود ان أشير الى منهج جديد في دراسةالواقع الاجتماعي يمثله الاستاذ مالك بن نبي وترجع اصالة هذا المنهج الى كونه قابلا للتطبيق على جميع اطوار الامم المتطورة والمتخلفة وهو منهج يمكننا من رؤية قضايانا من جذورها لا من سطحها · ذلك ان رؤية القضايا رؤيتان ·

ـ رؤية تجلى بعض الحقائق وتخفى أخرى تبعا لمنطق مخطط وهى رؤية الاجنبى الى قضايانا ورؤية الخبراء والمتعاونين الاجانب .

ـ رؤية اصيلة يتولاها الانسان صاحب المصلحه مباشرة بعينة وخبرته ولمسه ، ويعبر عنها بلسانه ولا يرى عن طريقها بأعين الآخرين وخبرتهم · وهذه الرؤية ان لم تحقق الا كونها تخلصنا من التبعية فذلك نجاح وبداية في الطريق الموصل · ويمكن تلخيص هذا المنهج الذى جاء به الاستاذ مالك وطبقه في دراساته وحلقاته الاسبوعية مع الطلاب في ان كل مجتمع تاريخي معاصر او مندثر يحتل مركز محددا على محور يمثل جميع مراحل التطور وهي ثلاثة :

1 ـ مرحلة المجتمع قبل التحضر

2 ـ مرحلة المجتمع المتحضر

3 ـ مرحلة المجتمع عند التحضر (1) .

وجرت العادة عند المؤرخين ان يميزوا بين المرحلة الاولى والثانية ولكنهم لم يميزوا بينهما وبين المرحلة الثالثة وهي مرحلة ما بعد التحضر لان المجتمع ما بعد الحضارة ليس مجتمعا يواصل سيره في طريق حضارته وانما هو مجتمع ينتكس في خط سيره ويتجه الى الخلف بعد ان انحرف عن طريق حضارته وانقطعت صلته بها · وفي كل مرحلة من هذه المراحل هناك علاقات متبادلة جدلية بين عناصر ثلاثة هي عالم الاشخاص وعالم الافكار وعالم الاشياء . فنشاط المجتمع وحركته تتداخل فيها هذه العناصر . وخصائص هذه الحركة تكون تابعة للعلاقات الداخلية التى تقوم بين عناصرهافي عالم الثقافة، وكل طور من اطوار المجتمع تواكبه علاقة معينة بين الاشياء والاشخاص والافكار في كيان تلك

1) مالك بن نبى ، مشكلة الافكار في العالم الاسلامى ، مكتبة عمار القاهرة 1971 ص 141

2) ترجمة محمد عبد العظيم ، مكتبة عمار ، القاهرة 1391 ـ 1971

3) ترجمة عبد الصبور شاهين دار العروبة القاهرة 1959

4) ترجمة عبد الصبور شاهين دار العروبة القاهرة الجزء الاول 1962

الحركة الامر الذى سماه جدلية العالم الثقافى بما فى ذلك من جدلية الفكرة والشىء وصراع الفكرة والشخص . وهذا التركيبالديناميكى قد يحدث فيه اختلال يكون لصالح احد الطواغيت فقد يطغى الشىء فيصبح المجتمع المحروم يستسلم لسيطرة عالم الاشـــياء بسبب ندرتها ويولد فيه مركب الحرمان فيميل الى التكديس فىالمجال الاقتصادى.

وفى البـــــلد المتقدم درجة معينة من التقدم يسيطر الشىء بوفرته ويفرض نوعا من الاشباع يتولد عنه الميل الى الهروب والتمرد على سيطرة الاشياء ويتجه الى تغيير اطار حياته . ونحن الآن فى مرحلة ما بعد التحضر وعلى ابوابه واجهتنا صعاب كثيرة واصبحت حركة مجتمعنا التاريخية تسير بعيدا عن حدود المقاييس الفعالة . وتتـم فى ظل الفوضى الفكرية وبضياع الوقت وتبديد الوسائل من جراء عدم تماسك الافكار وطغيان الاشياء او الاشخاص او اعتبار الافكار مجـرد زينة او حلية يتحلى بها .

وطبق هذا المنهج فى كتابه مشكلة الافكار فى العالم الاسلامى(2)وفى كتابه مشكلة الثقافة (3) وكتاب ميلاد مجتمع (4) فمواجهة مشكلة الثقافة مثلا انما هى مواجهة تكون حسب درجة التطور فى مجتمـع ما ، وتبعا لمرحلته التاريخية فالعالم العربى يختلف فى موقفه من دراسة الثقافة عن العالم العربى يختلف فى موقفه من دراسةالثقافة عن العالم الغربى والعالم الشيوعى . فهى تتصل لديها بفهم واقع اجتماعى معين موجود بالفعل فى نطاق تاريخى معين وعندنا فى الوطن العـــربى المشكلة الجوهرية ، هى خلق واقع اجتماعى معين لم يوجد بعد فهى خلق لهذا الواقع اكثـــر منها مشكلة فهم ، وتفسير لواقع ، المشكلة هى منهج التحقيق كبرنامج تربوى . ويرى الاستاذ مالك ان المجتمع النامى لا يتميز بقلة الوسائل المادية (الاشياء) بقدر ما يتميز بقصور فى الافكـــار ويتجلى هذا القصور خاصة فى طريقة استخدامه بفاعلية او عدم فاعلية للوسائل المادية المتوفرة لديه مع عجزه عن ايجاد غيرها فالارض اليوم هى الطريقة المامونة للاقلاع كما يقول المتخصصون فى دراسة مشكلات العالم الثالثولكن نرى اكثر الاراضى خصوبة (اندونيسيا والعراق)لم تمكن هذين البلدين من الاقلاع . وقد اتجهت الثـورة الزراعية عندنا لاستخدام هذه الوسيلة لا للانتاج فقط ولكن لتغيير الوجه الاجتماعى والاقتصـــادى والثقافى . وايجاد العلاقة الفعالة بين الانسـان والارض اذ من المشكلات الاساســـية فى الوطن العربى مشكلة الارض ولحد الآن لم تستغل وهذا جدول يشير الى استغلال الارض فى بعض البلاد العربية :

البلاد	قابلة للزراعة ٪	مزروعة فعلا
العراق	20	3
الاردن	9	5
لبنـــان	60	44
السعودية	4	2
سوريا	20	8

لكن لا يتم ذلك الا بشروط نفسية واجتماعية يساعد على ايجادها عالم الاجتماع .

طه حسين وقضايا اللغة العربية



على اثر اختتام الدورة التاسعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، والتى حضرها اكثر من 150 مندوبا من مختلف الاقطار العربية . اوردت مجلة « المصور » المصرية حديثا هاما للدكتور طه حسين الذى يراس مجمع اللغة العربية . يستحق ان نتوقف عنده قليلا .

فقد اشار الدكتور طه حسين فى البداية الى انه طالما لم تتحقق الوحدة السياسية فى العالم العربى ، فلا امل بتحقيق مجمع موحد للغة ! .

ثم اضاف : « اننا نهتم باللغة العربية الفصحى فقط ، حيث انها لغة واحدة ، اما اللهجات المختلفة ، والعامية فهي ليست لغة..ان ما يكتب باللغة العامية لا يسمى ادبا ، نحن لا نعترف باللغة العامية ، وليس ذلك بموجب قانون المجمع ، ولكن لاننا اساسا عرب » .

ثم تحدث الدكتور طه حسين عن اعمال المجمع . ودور الجامعات بقوله : « المجمع اللغوي يتعب نفسه كثيرا بتعريف المصطلحات الحضارية والعلمية ، ثم لا ينفذ اي شيء مما نقوم به .. وحتى الآن ، فى التعليم الثانوي ، يدرس التلاميذ بالعامية لم ؟ دار العلوم لها مائة سنة ، ماذا عملت باللغة العربية ؟ تخرج معلمين ينقلون الكلام الموجود فى الكتب الى تلاميذهم ، وكفى » . اما بالنسبة للجامعات « فالمراجع العلمية لم تعرب فيها كلها فلو تمت ترجمة اهم المراجع العلمية من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ، لكانت لغتنا هي سيدة الموقف الآن فى الجامعة ، ولكن الحال غير ذلك .

وانا اسال : هل يحدث هذا الآن فى باريس ؟ بمعنى هل يدرس فى جامعات باريس باي لغة اخرى غير اللغة الفرنسية ؟ .. والجواب طبعا لا!..

يجب ان يكون هناك الزام بان يكون التدريس باللغة العربية وحدها ، ولا يستثنى من هذا سوى الكليات التى تدرس اللغات الاجنبية » .

ثم يشير الدكتور طه حسين الى انه لا يوجد اي اتصال بين مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، ومجامع اللغة العربية الاخرى فى العالم ، ويدعو الى الاهتمام باحياء التراث ونشره وتقديمه مع الدراسات اللازمة ..

اما عن دور المستشرقين فهو يرى: « انه لا يهمهم الانقل ما فى اللغة العربية ، فكل جهودهم تتم لصالح لغتهم اصلا ، وليس لصالح اللغة العربية !» .



دراسات تاريخية

مدرسة بجاية الاندلسية

وأثرها في إحياء العلوم بالمغرب الاوسط

عبدالله عنان
ـ القاهرة ـ

ان بجاية اليوم هى ثغر هـادىء مـن ثغـور الجزائر الشرقية ، ولكنها كانت منذ احقاب طويلة، مهدا لحركة علمية جليلة ، ازدهرت عصرا فى هذه المنطقة من المغرب الاوسط ، ولبثت مدى قـرن مـن الزمـان تنافس قرينتها تلمسان ، عـاصمة المغرب الاوسط العلمية ، وكانت هذه الحركة العلمية التى اختصت بها بجاية تمتاز قبل كل شىء بانها امتداد لحركة العلوم الاندلسية المجيدة ، التى نزحت اليها فى ظروف عصيبة مؤلمة ٠

كان ذلك فى اوائل القرن السابع الهجرى ، او الثالث عشر الميلادى • وكانت الاندلس قد اضطربت شئونها ، واخذ سلطان حكامها من الموحدين يتداعى وينهار تباعا فى القواعد والثغور الكبرى ، بسبب ما اصاب الخلافة الموحدية بالمغرب من التصدع والتمزق عقب هزيمة العقاب المشئومة فى سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) وعجزها بذلك عن ان تمد الاندلس بالغوث والعون • واشتد ساعد اسبانيا النصرانية فى نفس الوقت ، واخذت تستولى تباعا على القواعد الاندلسية الكبرى • وبدأ الانهيار فى شرقى الاندلس ، حينما دهم الملك خايمى ملك ارجوان بقواته ثغر بلنسيه العظيم ، وضرب حوله الحصار فى رمضان سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٨ م) • وبعث الامير ابو جميل زيان بن مردنيش امير بلنسيه بصريخه على يد كاتبه الفقيه الشاعر المؤرخ ، ابن الابار القضاعى ، الى الامير ابى زكريا الحفصى عاهل افريقية ، والقى ابن الابار بين يديه قصيدته السينية الرائعة الشهيرة التى مطلعها •

ادرك بخيلك خيل الله اندلسا

ان السبيل الى منجاتها درسا

فاستجاب الامير أبو زكريا الى الصريخ ، وبعث عدة من السفن المشحونة بالعتاد والاموال انجادا للمدينة المحصورة ، ولكنها لم تستطع اختراق الحصار • واضطر البلنسيون آخر الامر الى التسليم ، وسقطت بذلك بلنسيه فى ايدى الأرجونيين ، فى اليوم السابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦ هـ ، الموافق لليوم التاسع من اكتوبر سنة ١٢٣٨ ، وانهارت بذلك سائر خطط الدفاع عن شرقى الاندلس ، واستولى الارجونيون تباعا على شاطبة ودانية ولقنت واوريوله وقرطاجنة ، ثم دخلوا مرسية صلحا بعد ذلك باربعة اعوام ، وبذلك تم استيلاؤهم على شرقى الاندلس •

وفى خلال هذه المحنة الغامرة ، غادر القواعد المفتوحة ، معظم سكانها المسلمين ، وهرعوا الى بقية القواعد بالاندلس الجنوبية ، وعبرت طوائف كبيرة منهم الى الضفة الاخرى من البحر ، الى مختلف الثغور الافريقية ، وفى مقدمتهم جمهرة كبيرة من العلماء والفقهاء والادباء •

وكانت الدولة الحفصية ، فى الضفة الاخرى من البحر ، ترقب مصاير الاندلس بمنتهى الجزع ، وكانت تشعر بعد انهيار الشرق ، وسقوط قواعده على هذا النحو فى ايدى النصارى ، بالرغم مما بذلته من مجهود يائس لانجاد بلنسيه ، ان عليها واجبا اخر ، نحو ذلك التراث الفكرى والحضارى الاندلسى المنهار • وكان الامير ابو زكريا الحفصى ورجال دولته يشعرون انهم بحماية هذا التراث العلمى المنهار ـ تراث الاندلس المجيدة ـ انما يعملون على صون التراث المشترك ، تراث العلوم الاسلامية ، وهو من تراث أمة عزيزة بلغت فى ميدان العلوم والاداب اعظم شأو ، فاذا كانت الظروف لم تمكن الدولة الحفصية ، من ان تقوم بانجاد بلنسيه ، ورجالات الاندلس ، بطريقة ناجعة فقد كانت على الاقل تستطيع ان تفتح ذراعيها لاستقبال هذه الجمهرة الحاشدة من علماء الاندلس ، شرقها وغربها وان تسبغ عليهم رعايتها وحمايتها • وكان البلاط الحفصى ، وعلى رأسه الامير أبو زكريا يرى ان التجاء هؤلاء العلماء الاندلسيين الى مملكته انما هو تشريف لها ، واغناء لثروتها العلمية ، وسمعتها الأدبية فى افريقية والعالم الاسلامى ، وكان كأمير مستنير يرى ان

هذه الرعايـة ، تضفى على شخصه بهاء ولمعانـا . وعلى سمعته سناء وذخرا ، هذا فضلا عمـا كـان يخالجه مـن شعور ، بـان لهؤلاء النازحين عـن ديارهم ، حق اللجوء والعول ، فى اقرب بلد شقيق يتطلعون الى رعايته وحمايته ·

ومن ثم كانت تلك الحركة العلمية والادبية الجيـاشة التى قـامت بـافريقيـة ، فى ظـل هذه الرعاية ، وعلى يـد اولئك العلمـاء النازحين ، ومنهم جمهرة كبيـرة من أساطين الفقـه والحديث والادب واللغـة ، واستمرت آثـار هذه الحركـة طوال القرن السـابع الهجرى · وكـانت مدينـة بجاية بالأخص ، منزلا مفضلا لكثير من العلمـاء النازحين ، وقد أقاموا بها مدرسة علمية زاهرة ، واستمرت عصرا ، وبرز فيهـا كثير مـن علمـاء العصر ، ويرجـع ذلك اولا الى مـوقع بجـايـة الجغرافى ، وقربهـا مـن معظم ثغـور الشـرق الاندلسى ، وثانيا لانها كانت بعد العاصمة تونس من اهم مراكز التجمع العلمى ، وثالثا لانها كانت منذ البدايـة مقصد جمهرة مـن زعمـاء العلمـاء النازحين ، فكانوا هم قدوة فى تفضيلها والنزول بهـا (١) ·

وانه لمن الصعب ان نحيط بذكـر العلمـاء الاندلسيين ، الذين وفدوا بعد الانهيار ، وسقوط قواعد الشرق ، على افريقية ، سـواء منهم مـن نزل بجاية او تونس · بيد اننا نذكر أنـه كان فى مقدمة أولئك العلماء ثلاثة من اعظم والمع كتـاب الشرق الاندلسى ، وهم ابـو عبد اللـه محمد بن الابار القضاعى ، وابن عميره المخزومى ، وابن عبد اللـه بن محمد المعروف بابن الجنان · وقـد وفد اولهم وهو ابن الابار ، وهو الفقيـه المـؤرخ والشاعر الكبير على تـونس عقب سقوط بلنسيه فى ايدى النصارى ، ونزل بتونس فى كنف عاهلها الامير ابى زكريا ، واخذ يتردد بين بجاية وتونس ولما توفى الامير ابو زكريا ، لقى نفس الرعاية من ولده المستنصر ، وقـد استدعاه المستنصر مـن بجاية الى تونس ، وضمه الى بطـانته العلمية ، ولكن فريقـا مـن خصومه دسـوا فى حقـه الى المستنصر ، فاشتد غضبه عليه ، وامر بجلده ثـم قتله · ووقع مصرع ابن الأبار المؤسى على هـذا النحو فى المحرم سنـة ٦٥٨ هـ (ينـاير ١٢٦٠) وكـانت هذه سقطة مؤسفـة للمستنصر اسبغت سحبا على خلاله ·

وثانى اولئك العلمـاء النازحين الاعلام ، هو ابو المطرف بن عميرة المخزومى ، وهو الكاتب والشاعر البليـغ المبـدع ، وكـان بعـد أن سقطت بلنسيه ، قد عبر البحر الى العدوة والتحق بخدمة الخليفة الموحدى ، وتولى القضاء فى عدة جهات ثم غادر مراكش وسار الى افريقية ، وقصد الى بجاية محط العلماء الوافدين ، وسكن بها حينـا ثم رحل الى تونس ، وحظى لدى عاهلها المستنصر فولاه القضاء · وكـان مثل زميله ابن الابار يمثل كلاهما بشعره ونثره ، نفثة مـن نفثات الاندلس المحتضرة ، ويودع كلاهما رسائلـه انفس نماذج ، من تراثها الادبى الاخير ، وتوفى ابن عميرة عن

١) واود ان اضيف هنا بعد ان قمت بزيارة بجاية فى اوخر اغسطس الماضى اثناء شهودى بالجزائر للمؤتمر السادس للتعرف على الفكر الاسلامى وهى الزيارة التى تفضل السيد الوزير الهمام مولود قاسام مشكورا بتيسيرها لى ـ اذ ما شهدته من جمال موقع بجاية على البحر ، ومن مناظرها الطبيعية الساحرة وهوائها العليل المنعش ، كانت بلا ريب من اسباب اجذاب العلماء الاندلسيين النازحين الى النزول بها .

سن عالية فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ ٠

وثالثهم هو ابو عبد الله بن محمد الانصارى المعروف بابن الجنان ، وهو اهل مرسية ، وكان محدثا راوية وكاتبا بليغا ، وشاعرا محسنا ، ولما استولى النصارى على مرسيه غادرها ، ونزح الى افريقية ، ونزل ببجاية وعاش الى ان توفى سنة ٦٥٠ هـ ٠

ولحق ببجاية فى نفس الوقت رهط آخر من العلماء النازحين ، نذكر منهم ابو عثمان بن سعيد بن زاهر الانصارى البلنسى ، وكان اماما فى القراءات والعربية وتوفى سنة ٦٥٤ هـ ٠ وابو بكر محمد بن احمد بن سليمان الزهرى المعروف بابن محرز ، وهو ايضا من اهل بلنسيه ، وكان اماما فى الحديث والفقه والادب واللغة ، وله شعر رائق ، وقد عبر الى العدوة واستوطن بجاية وكان لسمو قدره العلمى ، يعتبر عميد الجامعة الاندلسية بها ، ياتون الى منزله ، ويعقدون به حلقاتهم واجتماعاتهم ، وفى مقدمتهم ابن الابار وابن عميرة ، وابن سيد الناس ، وابن الجنان وغيرهم ، وتوفى ابن محرز سنة ٦٥٥ هـ ٠

ولم يكن حضور العلماء ، النازحين الى بجاية قاصرا على علماء الشرق ، ولكن كثيرا من زملائهم ، من اهل قرطبة واشبيليه ، حذو حذوهم ، ولحقوا بهم الى بجاية ، ونذكر من هؤلاء ابو بكر محمد بن احمد بن سيد الناس اليعمرى الاشبيلى ، وكان من ائمة الحديث واللغة ٠ واستوطن بجاية وولى الخطبة بجامعها واقرأ بها ٠ وحملت شهرته الخليفة المستنصر على استدعائه الى تونس ، فحضر اليها ، وحظى لديه ، وتوفى بالحضرة سنة ٦٥٩ هـ ٠

واستمرت بجاية عصرا موئل العلماء النازحين المفضل ، ووفد فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، عدد كبير من علماء الشرق ومعظمهم من اهل مرسيه وشاطبة ، اللتين تاخر سقوطهما وقتا فى ايدى النصارى ، وبعضهم ممن حاول المقام فى الوطن المغلوب ، ولكنه لم يستطع الاستمرار ، ونستطيع ان نذكر من هؤلاء الوافدين المتاخرين ، ابن اشكورنه الأزدى المعروف بابن برطلة ، وكان محدثا بارعا ، وفد على بجاية واستوطنها مدة ٠ ثم انتقل الى تونس ، واستمر يقرىء بها حتى توفى سنة ٦٦١ هـ ٠ وابو الحسن على بن مؤمن الحضرمى المعروف بابن عصفور من علماء اللغة ، وهو من اهل اشبيليه ، عبر الى العدوة ، ونزل ببجاية واستوطنها مدة ، ثم ارتحل الى تونس وحظى لدى المستنصر ، وكان من خواص مجلسه ٠ وتوفى بتونس سنة ٦٧٠ هـ ، وابو القاسم محمد بن احمد الأموى المعروف بابن ابدراس ، من اهل مرسيه ، وكان طبيبا بارعا واماما من ائمة اللغة ٠ وفد على بجاية وكان يقرىء بها ارجوزة الشيخ الرئيس ابن سينا ، واشتهر بدقته وبراعته فى تشخيص الامراض ، والبحث عن اسباب العلل ، وتوفى بتونس ٦٧٤ هـ ٠

وممن نزلوا ايضا ببجاية واستقروا بها فى اواخر القرن السابع ، ابو العباس ابن خضر الصدفى ، امام القراءات والرواية ، وقد توفى ببجاية سنة ٦٧٤ هـ ، وابو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الشاطبى ، من اهل شاطبة ، وكان عالما بالعربية واصول الفقه ، وقد توفى بتونس سنة ٦٩١ هـ ٠ وابو العباس احمد بن محمد بن الغسار الانصارى البلنسى ، وقد نزح الى بجاية ، ولقى بها اكابر الشيوخ من مواطنيه النازحين ٠ وولى

القضاء ببجاية حينا ، وكـان مقربا مـن الخليفـة المستنصر أثيرا لديه ، وقد ندبه للسفارة عنـه الى بعض ملوك المغرب لبراعتـه وبعد همتـه · وتوفى بتونس سنة ٦٩٣ هـ ·

وان الحديث ليطول ، اذا امضينا فى ذكـر هذه الجمهرة الغفيرة من العلماء النازحين من كـل ضرب وفن ، الى هذا الثغـر المرموق ـ بجـاية ـ والذين شملتهم الدولة الحفصية الزاهرة برعايتها · وعاشوا فى ظلالهـا آمنين مكرمين ، وقد ذكر لنـا منهم العلامـة المعـاصر ، ابـو العبـاس الغرينى عشرات وعشرات فى كتابه « عنوان الدراية ، فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة فى بجاية » ·

وقد أستمرت مدرسة بجاية العلمية ، وجـل اساتذتها ، حسبما راينا من الاندلسيين النازحين عصرا ، وازدهرت طـوال القرن السابع الهجرى ، ومـن بعده أحقابا ، على يـد تلاميذها مـن ورثـة التـراث الاندلسى ، وبثت فـى سـائر الحـواضر الافريقية ، نهضة علمية زاهرة ، كـان لهـا اعظم الاثر فى احياء العلوم والآداب فى المغرب الاوسط، وقامت فى ذلك بنفس الـدور العظيم ، الذى كـانت تقوم به قرينتها ومنافستها تلمسان ، فى النـاحية الاخرى من المغرب ·

وانه ليحق اليوم لبجاية ان يذكر هذا الماضى الجليل ، وان تعتز بـه ، وان تحـاول الاسترشـاد بهديه فى حاضرها الجديد ·





اكتشافات أثرية فريدة بالصين

تمت اكتشافات اثرية عريدة في الصين خلال حملات الحفائر الكبرى التي نظمت بهذا البلد في الاعوام الاخيرة اثناء الثورة الثقافية • فقد عثر علماء الاثار الصينيون على عدد كبير من التحف لم يسبق ان راتها عين ، وكنوزا لم يشهد لها مثيل ، من بينها كفنان من اليشب والذهب لامير واميرة من سلالة هان الملكية توفيا منذ الفي عام تقريبا •

وقد حيكت هذه الشرائح فيما بينها باسلاك من الذهب ، وهي تكون في مجموعها شيئا شبيها بدرع يغلف البدن باكمله • كما عثر في المغازة التي دفن بها الاميران على اشياء اخرى لا يقل عددها عن 2800 قطعة من الذهب والفضة واليشب والبرونز والاحجار الكريمة والاثاث المبرنق والحرير •

ويتضمن العدد المذكور من « رسالة اليونسكو » دراسة هامة عن اختراع الورق والطباعة والحروف المتحركة في بلاد الصين •

فقد عثر مؤخرا في مقبرة شان-سي على اقدم قطعة من الورق عرفها العالم ، فهي ترجع الى القرن الثاني قبل الميلاد • وبهذا الكشف يرجع تاريخ أختراع الورق المتعارف عليه الى الوراء باكثر من قرنين ، ومن المعروف ان هذا الاختراع كان ينسب الى تساي لون ، ويقال انه تم حوالي عام 105 بعد الميلاد •

جوانب من كفاح

الشيخ عبد الحليم بن سماية

السياسي والثقافي

1353-1283 هـ

1933-1866 م

عبد الرحمن الجيلالي

من أوجب الواجب علينا وقد أخذنا العهد على أنفسنا حسبما سطرناه على واجهة كتابنا « تاريخ الجزائر العام » من ذكر نبذ من تراجم العبقريين وأرباب القرائح لمشاهير الجزائريين عبر العصور ، وقد اثبتنا هذا فيما تقدم نشره فيما طبع منه فى الجزئين الاولين من أجزاء الكتاب الاربعة . ولقد سرنا فى الجزء الثالث والرابع على نمط الطريقة التى سلكناها من قبل ، فترجمنا لطائفة من صفوة نبغاء الجزائر وأفذاذها الممتازين المبرزين فى مختلف الميادين وعلى اختلاف مشاربهم وتنوع

(*) فصل من الجزء الرابع لكتاب « تاريخ الجزائر العام » لتلميذه الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى الذى سيظهر قريبا

نشاطهم ، فكان لزاما علينا ونحن نـؤرخ فى هذا الجزء ـ الرابع ـ مـن الكتاب للجزائر المعاصرة ان لا نغفل كتابنا هذا من ذكر بطل من أبطال الجهاد الجزائرى فى سبيل الديـن والعلم والوطن ، وان لانحرم قراء هذا التاريخ من الاطلاع والتعرف على شخصية فـذة هى مـن صميم أبنـاء الجزائـر ـ العـاصمـة ـ ذوى النفـوس الأبيـة والشهـامـة الاسلامية والأفكار الحرة الزكية والهمة الشمـاء والمعارف الواسعة ، ذلكم هو عـالم جيله وامـام وقته شيخنا العلامـة المحقق الاستـاذ عبد الحليم بن سماية سقى اللـه ضريحه ٠

واذا ذكر الشيخ عبد الحليم بن سماية لدى من رآه أو عرفه أو عاصره أو سمع به فلسرعان ما ينبهر لسماع اسمه وينصرف ذهنه فى الحال الى ما يتصوره أو يتمثله فى ذهنـه ومخيلته مـن المثل العليا فى النبوغ والفضل والعلم الصحيح والتقوى والشجاعة والوطنية والكمـال النفسانى وطهـارة الروح ودماثة الاخلاق والنبل والنزاهة والاباء ، فاسمه رحمه الله لا يزال ولا ريب عند من عرفـه عنوانا لهذا كله ، وليس يصح من أحد أيا كان ممن تكون له أيى صلة بالحركة العقلية أو الاجتماعيـة أو السياسية لهذه البلاد أن يجهل مكانة هذا الرجل ومنزلته الساميـة فى المجتمع الجزائرى ، هذا ان لم يكـن يعرف عنـه الكثير والكثير مـن مـواقفه المشرفة وخصائصه الكريمة ، وهذا أمر يعترف به حتى الأجانب ذوى النفوذ من خصومه الفرنسيين المعمرين ممن كان يجهر أمامهم وعلى مرآى ومسمع منهـم بكلمـة الحـق فيبهتهم ، ولا يحجبـه عـن الصراحة بذلك هيبة مهيب ولا رهبـة رهيب ، الى ما أوتيه من ثبات فى الجنان وسحر فى البيان ٠

ومن ذلك ما يشهد له به موقفه الصارم الذى وقفه تجاه الاستعمار الفرنسى يـوم ان جـاء هذا بمشروعـه لتجنيد الشعب الجزائـرى فى الجيش الفرنسى ، فعارضه الاستاذ معارضة شديدة حتى انه هم بمغادرة الوطن والهجرة منه الى المشرق ان تم تنفيذ هذا القانون الاجبارى ، وفعلا لمـا شعر بتصميم الحكومـة على تنفيذه أخذ يسعى فى قطع جميع العلائـق التى تربطـه بوطنه وأقر بائه وقدم استقالتـه من وظائفـه فى التدريس سواء فى ذلك المسجد الجامع أو المدرسة وباع مسكنه الذى كان ان ورثه عن أبويه وعرض أثاث منزله على السوق واهدى كتبـه ولـم يستثنى منهـا سوى المصحف وتفسير الجواهر الحسان وودع اصدقاءه واستعد للـرحيل لولا ان وقف فى وجهـه اهـل الجـزائر واعيانهـا مستعطفين ومتوسلين قـائلين لـه : ان هجرتنا انت فالى من تتركنا ؟ ٠٠٠ فاهتز الشيخ لهذا الموقف المؤثر الرهيب وعدل عـن رأيه مكبرا لهم كريم اخلاقهم وخالص وفائهم ٠

ثم انه جـاء اليـوم الذى استدعت السلطة الفرنسية فيـه الشيخ لسمـاع رأيـه الأخيـر فى الموضوع واجتمع الملأ بدار البلديـة فى الجزائـر يوم الثلاثاء ٢٥ يوليو ١٩١١ م وحضر ذلك المجلس كبار ضباط فرنسا وحكامها وحضره جمهور مـن الناس وكثير من المسلمين وكان الى جانب الشيخ فضيلة مفتى الحنفية الشيخ محمد بوقندورة وجاء دور الكلام فاستنطق الشيخ عبد الحليم ، فأول ما فعل ان تـوجه الى الجمهور قـائلا : أيها النـاس أتأذنون لى أن أتكلم بالنيابة عنكم وعن اذنكم ، أم لا تأذنـون فأسكت وأصمت ؟ ٠٠ فكلهـم أجـاب ! بلسـان واحـد : نعم ٠٠ نعم ٠٠ تكلم تكلم أيهـا الاستـاذ ! فنهض قائلا : أى هـؤلاء ـ مشيرا الى جماعة المسلمين لو انهم ارتضوا الخدمة العسكرية للدولة الفرنسية فـانهم لا يكونون بذلك مسلميـن

بجميع معنى الكلمة ، ولو انهم مع ذلك ينالون مــن الحريــة مــا يخــول لنبغائهم التربــع على دست الجمهوريــة ــ الفرنسيــة ــ وانطلق يستدل على صحة كلامه بما جاء فى كتب الشريعــة ونصوص القرآن والسنة ··

ثــم قــال : ودعوى ان ذلك يدفع بفرنسا الى منــح الحريــة السياسية للمسلمين فهى دعوى باطلــة ، واعلموا انه اذا منح لهم ذلك مقابل تجنيدهم تكون هنالك الضربة القاضية على القوميــة الاسلاميــة والجنسية معا ، اذ يقع بذلك اندماجهم فى الأمــة الفرنسية نهائيا ! ··· وهنــا حصلت فى المجلس ضجة واغتنمها بعض المتفرنجين فاحدث تشويشا حول خطاب الشيخ وقال : ان هذا الرجل قد اسهب فى الموضوع على حين أن المسألــة لا علاقــة لهــا بفلسفة القرآن ، فرد عليه الشيخ كلامــه وقــال ــ مشيرا الى رئيس الجلســة وهو يــومئذ الكــاتب الفرنسى الفنان م · دوغالان

انى اتكلم مــع رجــل عــالم فدعونى انهــى خطابى مــع جنابه ، فــانه يدرى ما أقــول ويدرك الامور، والا فتكلموا انتم معشر الخشب المسندة !! ونهض الشيخ ميمما نحو باب القاعة عازما عــلى الانصراف مــن القاعــة فاسترده رئيس الجلســة مظهرا أسفه الشديد على ما حصل وندبه لاتمــام خطابه فعاد الشيخ لاتمام حديثه مستوفيا لمقاصده ومعانيه ، ولما أتمه صاح الجمع من المسلمين ومن بينهم فضيلــة المفتى الحنفى بأنهم مــوافقون على رأى الشيخ الذى جاء فى خطابه هذا حول رفض مشــــروع التجــنيــد الاجبــــارى فــى الجيــش الفرنسى (١) ·

نــرى من خلال ذلك ان الشيخ كان مــن ألد أعداء الاستعمار ، وانــه كان مــن القــوم الذيــن لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولولا تمسكه بنصر اللــه واعتصامــه بحبلــه المتين للعبت السيــاسية الفرنسية الاعيبها وأوقعت به فى مجاهل الفتنة···

ولقد اشتهر رحمه الله بتفرده من بين علماء عصره بهذه المنقبة الجليلة منقبة الشجاعة الادبية والبطولة التى كانت تظهر عليه عندما يجابه طغاة الحكام المستعمرين وقد سجلها لــه التاريخ بكــل فخر فاثبتها الاستــاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس فى كلمتــه الموجزة التى نعــاه بها يــوم وفاته على صفحات الشهاب (م ٩ ج ٢) اذ قال : « ان الاستاذ الشيخ عبد الحليم ابن سماية عــالم عــامل غيور على دينــه ووطنه مخلص لهما ··· فرحمه اللــه وجازاه عــن العلم وخدمته واحترامه والاعتزاز به خيرا ··· » وكما شهد له بهذا العدو قبل الصديق ·

وأصدق وصف للشيخ هو ما جــاء فى كلمة العــالم القرآنى الاستاذ احمد بــن محمد التّجانى وهو مــن أخص تلامذة المترجم ومريديه الاكرمين فيما كتبه عن شيخه بمجلة التلميذ ٣ ــ ٤ (السنة الثانية) حين بلغه نعيه وكان اذ ذلك بالمغرب الاقصى فقال حفظه الله « انه عالم الاتقياء وتقى العلماء·· انغلق ذلك الفم المتعطر بذكر الله وكان عينا فياضة بالمعارف يشرب منها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، سكت ذلك اللسان الفتان وكان حجة أهل الايمــان فى الديار الجزائرية وعندليب رياض الآداب بتلك الربوع ، اغمدت بقيــة ذلك السيف اليمانى لا بــل تلاشت تلك البقية التى ابقتها الايام من ذلك البطل ، ولا غرابة ولا استعجاب فان أصدق ما يصح تعريفه به انه كان نفس غالب فى جسم مغلوب ، عرفنا ذلك منه نحن معشر تلامذته بما كنا نشاهده من أحواله

1) جريدة الحضارة 70 ــ 18 ــ 8 ــ 1911 م ـــ مجلة الثقافة 3 السنة الاولى 1391 هـ ــ 1971 م

فى أثناء الدروس كلما عن لنا مثل عربى من نحو : النار ولا العار ، المنايا ولا الدنايا ، أو عنت لنا آية من مثل قوله تعالى : رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ، نرى مثل تيار كهربائى ينبعث من أعماق الاستاذ ويلوح كالبرق الخاطف أثر عامله القوى على صفحات محياه ...

وحيث يتأكد على من يتعاطى لتدوين تراجم الرجال أن يذكر أطوار حياتهم العامة ويتعرض الى ما كانوا يعيشون عليه ويحيونه ككل كائن حى منذ الزيادة الى الوفاة وجب ان نذكر مجمل تفاصيل حياة شخصية الشيخ فاليكها أيها القارىء الكريم كما يلى :

تنتمى أسرة الشيخ عبد الحليم الى آل سماية وهى أسرة من الأسر التركية العريقة بالعاصمة ويرجع أصلها الى اتراك بلدة ازمير ، وهنا عندنا بالعاصمة أسرتان مشتركتان فى التلقب بهذا اللقب وهذه النسبة ، اذ كل منهما تدعى « ابن سماية » وكلتاهما من أصل تركى ، وهما فى نفس الامر والواقع متباعدتان كل البعد عن بعضهما بعضا فى النسب ، فأسرة الشيخ عبد الحليم ترجع فى نسبها الى حسن خوجة قاطع السكة بدار الامارة الجزائرية ، على عهد الاتراك ، وهى أكثر شهرة بهذا اللقب ـ ابن سماية ـ من الثانية التى ينتمى اليها الشيخ يوسف بن سماية ، فان لقب هذه الحقيقى هو « بكير خوجة » وهو اللقب الرسمى الذى يجرى عليه العمل الادارى فى جميع أوراق التعريف الرسمية لكامل افراد هذه العائلة ، وان كانت هى كذلك تعرف بابن سماية وليس عليه العمل ، بخلاف أسرة الشيخ عبد الحليم فانها لا تعرف الا به ، ولا أدرى كيف حتى اشتركتا هاتان الاسرتان فى لقب واحد ؟ ..

اما والد الشيخ المترجم فهو على بن عبد الرحمن بن حسن خوجة ، وكان رجلا مثقفا ثقافة عربية اسلامية تتماشى مع العصر فهو ممن كان أخذ عن العلامة الشيخ مصطفى الحرار الجزائرى وكان يشغل منصب التدريس بالمساجد فكان أولا مدرسا بجامع سفير ثم انتقل الى مثل وظيفته بالجامع الجديد بالعاصمة ، واما والدته فهى كريمة المحتد من آل الشيخ مصطفى ابن الكبابطى آخر مفاتى المالكية بالجزائر على عهد الاتراك ، وهو الذى ابعدته السلطة الفرنسية واقصته عن البلاد سنة ١٨٤٣ بسبب ما اتخذه من موقفه الصارم فى رفضه لقبول وضع يد فرنسا على الاوقاف الجزائرية فتوفى رحمه الله بمدينة الاسكندرية غريبا ، فطوبى للغرباء .

ازدان بيت الشيخ على بن سمايه بمولوده عبد الحليم سنة ١٢٨٣ هـ ١٨٦٦ م فاعتنى والده بتربيته تربية أساسها الدين والاخلاق ، وحينما انس منه الاقتدار على مزاولة تعلم القراءة والكتابة أخذه الى كتاب بحى القصبة يعرف بجامع بالرقيسة ـ أو ابن رقيصة ـ وكان شيخ الكتاب وامام الجامع اذ ذاك هو الشيخ المبارك الميمون حسن بوشاشية ، وعليه تخرج مترجمنا فى حفظ القرآن الكريم كما تخرج على يده أغلب علماء الجزائر وحملة القرآن بها يومئذ ، وفى نفس الوقت كان والده يعمل على تلقينه مبادىء العلوم وتوجيهه فنشأ ابنه عبد الحليم على حب الفضائل والتناغى بالعلم والعمل ، وكان يصحبه معه الى مجلس درسه بالجامع ، فاخذ الغلام العربية والفقه والتوحيد عن والده ولازم مشائخ وقته وعلماء بلده مثل الشيخ على بن الحاج موسى والشيخ محمد القزادرى والشيخ على ابن الحفاف والشيخ ابن

ظاهر الوترى المدنى والشيخ قدور باصوم والشيخ طاهر قيطوس وحضر دروس الشيخ محمد سعيد ابن زكرى وغيرهم فأخذ عن هؤلاء فنونا من العلم فى اللغة وآدابها وعلوم الشريعة وفنونها كما انه تلقى الحساب والفرائض عن صهره الشيخ على بن حمودة ، وعلم الربع المجيب فى الفلك والتوقيت ومواقف العضد كلاهما عن شيخنا أبى القاسم الحفناوى صاحب كتاب تعريف الخلف برجال السلف ، وأخذ علم الاسطرلاب عن الاستاذ عارف بك .

وتشوق الشيخ الى معرفة علم الحكمة والفلسفة على طريقة قدماء الفلاسفة من مشائين واشراقيين ، ولا سيما فيما يتصل من بحوثهم فى الالهيات ، فتعلقت همته بدرس الفلسفة اليونانية وانصرف ذهنه الى طلب ما يسمونه بالمقولات العشر المنسوبة الى أرسطو الذى حصر مباحثه فى هذه المطالب العشرة ، على خلاف ما مشى عليه المتكلمون من عدها ثلاثة فحسب ، والباقى عندهم امر اعتبارى فقط كما هو مقرر فى مضانه من كتب الحكمة والفلسفة القديمة ، فتعاطى مترجمنا لمطالعة كتب هذا الفن ودفعه حماسه العلمى الى البحث عن استاذ ماهر يلقنه هذا العلم ، فأشير عليه بالاتصال بعالم جليل هو صديق حميم لوالده منذ أيام الطلب ، ذلك هو الشيخ محمد ابن عيسى الجزائرى وهو يومئذ بتونس مهاجرا (٢) فشد اليه رحله ونزل عليه ضيفا محببا مكرما وتلميذا مدللا ، لا سيما وقد جمعت بينهما المناسب فاكرمه الاستاذ ابن عيسى وانزله من نفسه منزل الابن فلازم عبد الحليم منزله مكبا على الدرس والتحصيل ولم يغادر المكان متفسحا أو متجولا فى رحاب المدينة حتى يتعرف الى معالمها الشامخة وآثارها الرفيعة وأسواقها الغنية الثرية أو يسمح على الاقل بنظرة الى جمالها الفتان ، كل ذلك لم يحرك منه ساكنا ، حتى انتهى من اتقان فنه المطلوب والمرغوب فيه فعاد الى وطنه دون أن يعرف عن تونس شيئا ! ولما حل بالجزائر ساله اصدقاؤه ورفاقه ان يصف لهم تونس ؟ فقال لهم سلوا عنها من رآها ! ! ...
وهذا نهاية الحب والشغف والتفانى فى التعلق بالمبدأ بل هى التضحية نفسها بكل حلو ولذيذ وبكل متعة فى سبيل العلم ، وكان ممن أخذ عنهم من كبار العلماء أيضا علامة القطرين الشيخ محمد المكى ابن عزوز حينما كان هذا الاستاذ يتردد على الجزائر بحكم انه جزائرى الاصل وله فيها رحم وخؤولة ، فكثيرا ما كان يرحل من تونس الى الجزائر ليزور خاله الشيخ أبا القاسم الحفناوى ويتصل ببنى عمه وقرابته فى برج بسكرة وبوسعادة فكان مترجمنا ينتهز هذه الفرص ليجتمع به فيستفيد منه ، فهؤلاء هم أساتذة شيخنا الذين

---

2) هو من اكابر بلغاء الكتاب وعلماء اللغة ومشاهير المترسلين ولد بالجزائر سنة 1243 هـ ـ 1828 م وكان فيمن اخذ عنهم العلم بها العلامة الشيخ حميدة العمالى ، هاجر الى تونس سنة 1272 هـ وهناك انقطع للعلم معلما ومتعلما وتولى رئاسة الكتابة العامة بالوزارة الكبرى سنة 1276 هـ وترقى الى خطة الانشاء سنة 1302 هـ وعرض عليه منصب رتبة حاكم مجلس الجنايات فأبى وامتنع مؤثرا خدمة العلم والادب ، كان ذا اخلاق كريمة مع عفة ونزاهة وزهد ، وله تآليف لطيفة ظريفة ، منها الرسالة الموسومة بالثريا لمن كان بعجائب القرآن حفيا ، مطبوعة بتونس 1307 هـ واخرى اسماها : الماس فى احتباك يعجز الجنة والناس ، وهى مطبوعة ايضا بتونس 1306 هـ وقصيدته الوسيلة فى مدح اهل الفضيلة ، طبعت بتونس سنة 1306 هـ ، وكانت وفاته بالمهجر سنة 1310 هـ رحمه الله

استقى منهم معلوماته وكلهم كان اماما وحجة فى فنه ، فما بالك بمن يتخرج عن مثل هؤلاء ؟

وما بلغ السنة الحادية والعشرين من عمره حتى كان قد بنى بكريمة من كرائم الأسر الجزائرية العريقة وهى كريمة السيد محمد بن مصطفى غياطو قاضى المالكية بالعاصمة واسمها عائشة فانجبت له ولدين : سعد الدين ومصطفى وثلاث بنات ٠ واحترف الشيخ مهنة التجارة فاكترى دكانا لبيع التبغ بحى باب الواد تجاه جامع على بتشنى فكان يعول أهله ويرتزق منه ومن ثمن كراء منزل له كان يدر عليه اربعين فرنكا مشاهرة ، ولم يلتفت للوظيفة حتى دعى اليها فتولى خطة التدريس بالمدرسة الرسمية، وذلك فى يوم ٤ ديسمبر ١٨٩٦م وعمره يومئذ لايتجاوز ثلاثين سنة ، فكان فيها أول من أقرأ كتاب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة للجرجانى ، والاقتصاد فى الاعتقاد للغزالى وتلخيص المفتاح لجلال الدين القزوينى ، والبصائر النصيرية فى المنطق لابن سهلان ، والمفصل فى النحو للزمخشرى وغيرها من الكتب المعتبرة عند اهل الخبرة والعلم ، فكان بذلك رحمه الله أول من أدخل نظام اصلاح التعليم العالى بالجزائر ، كما أنه كان أول من اهتم بتدريس رسالة التوحيد للامام محمد عبده وختمها فى ظرف سبعة أشهر ٠

ولما زار مؤلفها الجزائر صيف سنة ١٩٠٣ م جمادى الاولى ١٣٢١ هـ كان شيخنا أول من اسرع الى اقتباله وملازمته ليلا ونهارا فلم يفارقه طيلة ايام اقامته بالعاصمة حتى غادرها الامام الى تونس (٣) ومدحه بقصيدة بعثها اليه بالقاهرة نشر بعضها فى مجلة المنار المصرية فى عددها الصادر يوم ٦ ذى القعدة ١٣٢١ هـ ٣/٢/١٩٠٤ م وقدم لها صاحب المجلة الاستاذ محمد رشيد رضا بقوله : « قصيدة عالم جزائرى بل اشهر علماء الجزائر مدح بها الاستاذ الامام وأرسلها اليه فى القاهرة من عهد قريب فسرنا منه انها آية من ايات صلة علماء الاسلام بعضهم ببعض فى الاقطار المتباعدة وشعور أهل المغرب منهم بما يشعر به اهل المشرق من قدر الاستاذ الامام ، واننا نقتطف منها هذه الابيات وأود منها عشرين بيتا وهى تفوق فى عددها الخمسين واليك أيها القارى مقطوعة منها ٠ قال يخاطب الاستاذ الامام :

فانت لنا شمس تنير على المدى
اتى نورها من غير أن نتطلعا

ادير بذكراك الذى منك قد مضى
فاشرب كأسا بالصفاء مشعشعا

يذكر فيك المجد والعلم والتقى
فانظر من علياك عرشا مرفعا

وتلوى الى تلك المجالس فكرتى
فتترك قلبى بالخيال ممتعا

محافل كان العلم فيها مجالسى
أسامر بدرا بالجلال تقنعا

فاسمع فصلا من حكيم وحكمة
اذا ما بدت خرت ذرى الزور ركعا

---

3) رأيت بعض من كتب عن زيارة الاستاذ الامام للجزائر وعن الدرس الذى القاه بها ، فى تفسير سورة والعصر ، فقال عن الدرس انه القى بالجامع الجديد ، والصواب ان الدرس كان بجامع الحاج مصطفى الاكحل ـ الحر ـ الكائن والقائم الى اليوم بحى الحامة ـ بيلكور ـ بالقرب من ضريح الولى الشيخ سيدى محمد بن عبد الرحمن الازهرى

فما بـال أقـوام هدى اللـه عقلهم
يمـارون فيـه والسحـاب تقشعـا
الخ ....

واثنى صاحب المنـار على صاحب القصيدة فى الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامـام حينمـا ساق الحديث عن زيارة الامـام للجزائر فقـال : « وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلمـاء والعقلاء الذيـن يقدرون الاصلاح قدره ومـن خيـارهم فى الجزائـر الشيـخ محمد ابـن الخوجـة صـاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية.. وقد رأى هذين الفاضلين وغيرهما مغتبطين بالمنار ولا سيما دروس العقائد التى ينشرها تحت عنوان « أمالى دينيـة » ... وقالوا لـه اننا نعده مدد الحياة لنا ، فاذا انقطع انقطعت الحياة عنا (٤) .

وهذه صورة شمسية التقطت هنا بالجزائـر للشيخين عبد الحليم ومحمد عبده وهما جالسـان على أريكة واحدة جنبـا الى جنب ممـا يدل على كامل الصفاء والود وتأكيد العلاقة الاخوية بينهما. وخلفهما اقرباء الشيخ ابـن سماية وولد الحـاج مصطفى الاكحل .

ولما غادر الشيخ محمد عبده الجزائر وحـل بصقلية نـزل « بلرم » ومنهـا خاطب الشيخ عبد الحليم ابن سماية برسالة مؤرخـة فى ٣٠ جمادى الاخيرة سنة ١٣٢١ هـ وبها نعلم مقدار منزلةالشيخ العلمية كمـا يراها الاستاذ الامـام الشيخ محمد عبده جاء فيها : « حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحليم بن سماية ... لا يزال يؤنسنى مثـال من علمك وفضلك ويعجبنى رفيق رقيق من كمالك ونبلك وما كان ذلك ليفارقنى بعد ان صـار بضعة منى ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لى منهـا لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمـة العقل والادب ولعرفت انك ستكون امـام قومك تهديهم ان شـاء الله سبل الرشاد وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين حظ المعاش وحظ المعاد ، هذا هو أملى الذى أسأل الله تحقيقه ، فخذ مـن الوسائل مـا يبلغك بفضل الله غاية ما يرمى اليه استعدادك ...الخ...(١)

واشتهر الشيخ عبد الحليم من بين اسـاتذة عصره بالصلابة فى الدين ودفع شبـه المعارضين بما يستنبطه من الادلة اليقينية ، فانه كـان مهمـا تعرض عليـه بعض الشبـه التى يدلى بهـا بعض الناس ـ نحو الاسلام ـ واغلبهم كـان من مشائخ الافرنج بالجامعة الجزائرية حينما كانوا يتصلون بتلامذة الاستاذ بالمدرسة الا ويتصدى لهـا الشيخ بالمناقشة والحوار العلمى حتى يدحضها بنـاصع برهانه وصحيح استدلاله ، وهكذا كان رحمه الله فى كل موقف يقفه تجاه الملحدين وضلالات المبشرين واعتراضات المبطلين ، ولا عجب فى ذلك من رجل ثاقب الذهن مثله رزق البراعة فى البيان والاهتداء الى ناصع البرهان .

وفى ١٥ اكتوبر ١٩٠٠ م اسندت اليه خطـة التدريس بالجـامع الجديد مكـان والده المـرحوم الشيخ على بن سماية فشمر الشيخ عن ساعد الجد والاجتهاد وكرس حياته لخدمة الملة الاسلامية واخذ على عاتقـه القيـام بالمنصبين احسن قيـام فقسم ساعات العمل اليومية بين المدرسة والمسجد، فجعل منها للمسجد ١٢ ساعة فى الاسبوع وللمدرسة ١٤ ساعة ، وشرع فى تدريس علوم اللغـة والشريعة والمنطق بما سبق ذكره من الكتب ، وبما أنه رحمه الله كان حنفى المذهب فانه كان يقتصر فى دروس الفقه على كتب الشرنبلالى والقدورى والطحطاوى

1) فانظرها فى تاريخ الاستاذ الامام ج 2 ص 617 ط القاهرة 1344 هـ
4) تاريخ الاستاذ الامام ج 1 ص 872 ط دار المنار القاهرة 1931 م

وابن عابدين والنسفى ، وعندما يستشار من طرف العامة فى اختيار كتاب لهم فى الفقه ، فانه يشير عليهم برسالة ابى محمد بن أبى زيد القيروانى المالكى ·

وكان فيما اخذناه عنه وتلقيناه منه من الكتب التى اقرأها فى تدريسه بالمسجد خلال سنوات ١٣٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ هـ : ورقات امام الحرمين فى الاصول ، وشطرا من تنقيح القرافى ، ورسالة العضد فى علم الوضع ، وشرح السجاعى على المقولات العشر ، والجوهر المكنون فى البلاغة للاخضرى بشرح مؤلفه المخطوط ، ونظم الخزرجية فى العروض ، وقطر الندى فى النحو ، وتفسير سورة البقرة بالجواهر الحسان للثعالبى ، وهذا من غير ما كان يلقيه من دروس عامة للعامة فى سائر الامكنة العامة والخاصة وفى المحافل والنوادى وحيثما حل وارتحل وفى أيى بلد وجد سفرا وحضرا ·

وانى لمعتز وفخور بما اتحفنى بل وشرفنى به من تفضله على بكتابة اجازة بخطه أجازنى فيها بما أجازه به والده وجمع من مشائخه فى رواية صحيح الامام البخارى متصلة السند المسلسل بشيوخ العلم والحديث على الطريقة السلفية ·

وكان درسه رحمه الله جزلا بليغا يتكلم بفصاحة وعبارة منقحة بليغة والفاظ فخمة وذلك يرجع الى غزارة مادته اللغوية التى كونها أو تكونت فيه بسبب انكبابه على مطالعة معجم لسان العرب حتى كاد أن لا تخفى عليه مادة من مواده ، فهو لا يتنازل فى دروسه للغة العامية ابدا اللهم الا فى بعض النوادر او الحكايات التى قد يسوقها أحيانا فى المجلس للتسلى وهى لا تخلو من فائدة تكون متصلة بموضوع الدرس ، فكان لذلك لا يمل حديثه ، ولا يشعر بالضجر جليسه ، وبهذا الصنيع تخرج على يده جمع من الأدباء والعلماء شغلوا مناصب التدريس والقضاء والافتاء والامامة فى مختلف انحاء القطر الجزائرى وفيهم من شارك فى وظائف سامية بالمغرب الشقيق ···

وكان رحمه الله لا يرى مرتاحا فيما يلقيه على تلامذته من الدروس الا اذا شعر من نفس التلميذ باطمئنان الى ما تلقاه ووعى وحفظ لما زاوله من المسائل المطروحة فى الدرس ·

وكان للشيخ المام باللغة الفرنسية فهو يتحدث بها أحيانا عند اللزوم كما كانت له معرفة باللغة العبرانية واطلاع على ما بيد أهلها من نصوص العهد القديم والجديد من انجيل وتوراة وتلمود ، وكثيرا ما كان يجادل اصحابها فى دينهم ويناظر أحبارهم ورهبانهم ويسوق لهم الادلة والنصوص من كتبهم وبلسانهم ، وسمعته مرة يروى لنا قصة مناظرة جرت له مع حبر من أحبار اليهود حول اثبات تبشير التوراة بنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فأنكرها اليهودى ، فبينما الشيخ مستمرا فى حديثه بفصيح العبارة اذا به ينطق بهذه الجملة الغريبة (وهمليخ هايا هو بمركبه نوخخ ارم) فاسرعت الى كتابتها أولا ثم بعدما انتهى من حديثه استفهمته عن معانى الفاظ هذه الجملة وعن تركيبها ؟ ··· فقال لى : هذه الفاظ عبرانية تعبر عن ثبوت ذكر نبينا محمد عليه الصلاة والسلام فى كتبهم ، وقد جاءت هذه الجملة فى كتاب لهم معظم لدى اخبارهم يسمونه (ميلاخيم) وينسبونه لليسع عليه السلام والعبارة هذه تثبت ذكر اسم نبى الاسلام عندهم كما انها تحمل البشارة بظهوره وهكذا كان يفعل مع رهبان

النصرانية أيضـا فكان يجادلهم باناجيلهم وكثيرا مـا يفحمهم ولا سيمـا عندما يستدل لهم بانجيـل « بارنابا » فكانما رماهم بقاصمة الظهر ٠

واماما فطر عليـه وجبلت عليـه نفسه مـن الاخلاق الكريمة والشيم فانه كان كما عرفه جميع من عـاشره حلـو الشمـائل شجاعا طموحـا الى الاخطـار فى استرجـاع الشجاعـة الادبيـة وفى المجتمع ايضا الى قومـه ، يلتهب غيرة على دينـه ووطنه بمعناه العام الواسع لا الخاص الذى حددته السياسة ، وقورا عظيم المهابة كريما اريحيا أنوفا متواضعـا يتلألأ فى وجهـه نور العلـم والوقـار والجمال وضاح المحيا جميل المبسم مشرق الجبين قد داعبت زرقة السماء مقلتيه فاشرقتا فى طلعته البهيـة اشراق الشمس والقمر ، متمـاسك الجسم تام الخلق ربعة فسبحان من خلقه فى أحسن تقويم، وكـان حسن الشارة يظهر دائمـا فى شكل أنيـق وهيئة حسنة ، يتعمم بعمامة هندية الصنع جزائرية الوضع والشكـل (طربانطى) ويلبس مـن فـوق القميص (البداعى) وفوقهمـا (الجباضولى) أو ما يسمى (الدامى) وفـوق ذلك كلـه العبـاءة أو تارة البرنس يلقيه كرداء على كتفيـه ، وقد يجمع بين العباءة والبرنس فى حسن سمت ، وكان مولعا بتناول القهوة والتدخين ٠

وللشيخ مقدرة عظيمـة على الترسل ونظـم الشعر وله مكانة عاليـة فى نثره ونظمـه ، فهـو يكتب على اسلوب البلغـاء مـن الرعيل الاول فلا تكلف ولا تعسف وتـارة يميل الى السجع ، ولـه تخصص فى الشعر بنظم الموشحات على أسلـوب ما نظمه أدباء الجزائر وعلماؤها مـن موشحاتهم المولديـة الشهيرة الموزونة على مقتضى الانغـام والالحان والطبوع الموسيقية الاندلسية التى أشار اليهـا الشيخ سيدى احمد بـن عمـار فى رحلتـه « نحلة اللبيب باخبار الرحلة الى الحبيب » وكـان الشيخ يحسن هذا الفن ، فانصت معى الى قوله فى طالع موشح :

يـا روح سـار تعطـر
من نشـر اهـل الخيـام

بـاللـه تتخـطـر
واحمـل اليهـم سـلامى

بلـغ الى اهـل طيبـه
منـى عظيـم التحيـة

قـف وقفـة مستطيبـة
عنـد كـريـم السجيـة

وانشـق هنـالك طيبـه
مـن روضـة عبقريـة

الخ ٠٠٠

وهذه مقطوعة له أخرى من قصيدة نظمهـا بمناسبة اطلاعه على صنيع صديقنا الاستاذ احمد الاكحل فى رسالتـه (روح السعـادة) المطبوعـة بالجزائر ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م فقال :

رعى اللـه امرأ يـرعى المعالى
يسـامر نجمهـا جنح الليـالى

لـه نفس لهـا لحظ طمـوح
الى أعلـى ذرى حسن الخـلال

لـه عقـل لـه انف شمـوخ
ابـى الا طلـوعـا كـالهـلال

وخير النـاس من يهدى أنـاسا
اذا ركبـوا اهـاويج الضـلال

وخيـر الهدى هدى مـن لسـان
امـون نـاصح للـزور قـالـى

ويقول فيها :

اذا ضيعت عمـرك فى مجـال
متى تسمـو الى أفـق الكمـال
فـوقت للطعـام ووقـت نـرد
وأوقـات على قيـل وقـال
متـى تترك أخـى للعلـم وقتـا
فنجم العلـم عندك بـرج خـال
الخ ....

ولهذه القصيدة مقدمة اجتماعية كتبها الشيخ نفسه تمهيدا لها نقتطف منها الفقرة التالية كنموذج لأسلوب الشيخ فى نثره وما يرمى اليه من اصلاح المجتمع ، وكتابة المرء نمامة على علمه وعقل الكاتب فى قلمه .

« الحمد لله الذى ورث ذرية سيدنا محمد العلم ، وخصهم منه بمطالع اذا أهلت اهلتهم فيها هلـل لرؤيتها ذوو البصائر والفهم ، وشهدوا ان ذلك الجمال ، لا يشرق الا من أفق العلا والكمال ، والصـلاة والسـلام على منبـع الحكـم ، ومنيـر الدياجى اذا ادلهمت ديـاجر الظلـم ، وعلى آلـه وذريته وعترتـه الآخذيـن باليمين رايـات المجـد والكرم .

وبعد فان الجزائر بلدة كانت يشـار اليهـا بالبنـان ، فى العلم والهنـاء ومصـادر الخيرات والجود والاحسان ، مصونة مما هو نصب الاعين من التجاهر بالفساد ، ومما هو شائع وذائع مـن مراءى الزنى والسكر وكل ما يقذى العين ويشجى الفؤاد ، مشكومة اهلها بشكيمة الدين ولجام العفة ومكـارم الأخلاق والحيـاء ، عـن التلفظ بـالفاظ الفحش فضلا عن التجاهر بـه فى الخلاء والملاء ، الى ان قضى اللـه بهتك سترها ، فافضت الى مـا هو مشاهد من أمرها ، بعوامل قاطعة لأزمة الدين ، والحسنة لاطة فيه بالقذف والتقبيح والتشيين الى ان انقلب ظهر المجن ، وصار اعقل الناس من كان فى حضرة المكـر أجن ، وسدت أبـواب الارزاق ، وضاق بالخلق النطاق ، محنة دخلت على المسلمين من اهمالهم وصيـة سيد المرسلين (من حسـن اسلام المرء تركه مـالا يعنيه) فعوضا عـن العمل بهـا اشتغل كـل فرد الا القليل بمـا لا ينفعـه ولا يغنيه ... الخ .

وكـان للشيخ اصدقـاء وأحبـاء كثيـرون منتشرون فى انحـاء البلاد ، وكـانت تجرى بينهم وبينهمكاتبات فى مواضيع شتى ففيهـا الرسـائل الادبيـة وفيها الرسائـل العلمية وفيها الرسائـل الودية وفيها غير ذلك ، واليك نموذج منها نستكمل بهمعرفتنـا بأسلوب الشيخ فى انشائـه لرسائلـه ومخاطباته ولما فيها من الفوائد العلمية أيضا .

ففى سنة ١٣٢٢ هـ أيى بعد ان كـان قد زار الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مدينة الجزائـر وغادرها باحد عشر شهرا بالضبط اتصل شيخنـا برسالة من استاذه وصديقه الشيخ على بـن عبد الرحمن مفتى وهران ملتمسا منه ان يكشف له عن نظريته الخاصـة فى شخصية الشيخ محمد عبده ومستطلعا رأيه عن سلوكه وعلمه وأخلاقه ، فكان ذلك هو الباعث لـه على تحرير الرسالة التالية ، وهى لا تزال مخطوطة ومحفوظة بخزانة صديقنـا الاستاذ المهدى البوعبدلى . وهذه نبذة منها :

الحمد للـه وحده وصلى اللـه على سيدنـا محمد وآله وسلم

مشرفنا الذى نعشو الى شموس انواره ، ورياض طيبب حياتنا الذى ننتعش با ستنشاق ازهاره ، مولانا وسيدنا على بن عبد الرحمن أمدنا الله من همته العالية ما يبلغنا الى المراتب ، ويدفع عنا كل ما يلم من المتاعب والمصائب والحواجب ·

أزكى سلام ، ينافح الزهر فى الأحكام ، ويكاثر قطر الغمام ، وأوفى تحيات طيبات مباركة اخص بذلك مقامكم الأعلى زاده الله علوا ، ومن حضرة القدس دنوا ، وقد انهالت على رحمة ونعمة بكتابكم الشريف الذى عمنى انسه ، ونفح عبيره ، وحل من نفسى محل النفس وقوى رجائى فى الله عما أجراه على لسانكم من مستجاب دعائكم زاده الله بكم خيرا ولا ردنى على عقبى ببركتكم آمين آمين امين لا ارضى بواحدة ·

ومما تضمنه كتابكم الرفيع استبداء رايى فيما أعلم من فضيلة العلامة الذى شاع ذكره واشتهر أمره ، وانى عملا بالواجب على كل متدين من الذب عن أهل الله وان لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى أصدع بما اطلعت عليه من خصائص الرجل فى هذا الزمان الشبيه بزمان الفترة فأقول : هذا الرجل الجليل رجل حنكته تجارب الزمان ، واستقصى احوال الأمم حتى ميز منها ما زان وما شان ، وتطلع من الفنون على اختلاف أنواعها ، ومواضيعها وأعمل فكره أعمق تفكر وتدبر فى الحبل المتين والقرآن المبين فأدرك قوله عز وجل لنبيه الكريم وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ، فهو يرى أن كل خير صدر أو يصدر فى الوجود انما هو لمحة من شعاعه ، وبركة ناشئة من اتباعه ، فما سعد من سعد من الامم الا باتباع سننه ، والاهتداء بأنواره ، وقد أفصح بذلك فى مقالة له طويلة يتأسف فيها على الاسلام من تركهم العمل فيما انزل عليهم من الامر بالتعاون والتناصر واتخاذهم بدل ذلك التخاذل والتقاطع والكذب والخداع الى انْ صاروا حجة لغيرهم على دينهم وفتنة للذين كفروا ، وتأخروا وتقدم غيرهم بما كانوا يتقدمون به فى الازمنة السالفة ···

الى أن يقول :

ولقد شاهدت منه ـ أى من الشيخ عبده ـ فعلا كما سمعت منه قولا ان يفر من الاختلاف فراره من الاسد ، ومن عجيب امره انه ما خالفه مخالف فى مجلسه الا وتمكن من القاء القبض عليه بجند من جنود الحق حتى يوقفه الى جنبيه ، وكل ذلك بكلام لا يخالطه اللغط وعقل لا يستفزه الطيش وخلق لايأتى على وسعه ضيق بمقدمات ينتزعها من وجدان مخاطبه حتى يضطر الى الاقرار والاعتراف بنفسه من نفسه ، ولعها وراثة من شيخه جمال الدين الافغانى الذى تظافرت الروايات عنه انه ما خصم احدا الا وخصمه ···

وهكذا أطال الشيخ عبد الحليم فى ابداء رأيه النقدى الصحيح حول ما عرفه وخبره بنفسه عن عبده يوم ان اجتمعا فى الجزائر معترفا بفضل الامام على الاسلام والمسلمين وما له من المزايا العديدة على الشعوب الاسلامية فى بعثها نحو التقدم والرقى والمجد ·

ويظهر ان من تكاثر أعمال الشيخ الثقافية الثقلية فى ميدان التدريس والاقراء شغلته عن العمل فى مجال التاليف والتصنيف فلم يؤثر عنه كبير أمر من حيث الانتاج ووضع الكتب والاسفار اذ ليس يعلم من مؤلفاته المطبوعة سوى رسالة وضعها فى أحكام الربارد بها على من يقول باباحة

اتخاذ القليل منه وعنوانها : «اهتزاز الاطواد والربى من مسالة تحليل الربا» اذ يقول في مقدمتها كنت طالعت في بعض الجرائد ــ من غير ان يذكر اسم الجريدة ــ والامر لله ان بعض من يشار اليه بالبنان في العلم من غير ان يذكر اسم المشار اليه احل القليل من الربا وحرم الكثير منه محتجا بقول الله تعالى وتنزه عما يقول الظالمون علوا كبيرا يا ايها الذين امنوا لا تاكلوا الربا أضعافا مضاعفة ... » وهي رسالة غزيرة المادة في موضوعها استوعب فيها المؤلف أصول هذا الباب واحاط بفروعه وجاء فيها باستنتاجات وأحكام فقهية مركزة صحيحة ولقد دعا فيها علماء الاسلام قاطبة الى تحمل مسؤوليتهم امام هذا الموضوع الهام موجها رسالته هذه الى الاعلام منهم حيث كتب تحت العنوان ما يلي : « تعرض على أنظار العلماء الاعلام وتطلب تأدية ما في رقابهم من بيان الاحكام » وهي مطبوعة بالجزائر ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م ، أو ما قدمه وألقاه بنفسه في المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد هنا بالجزائر سنة ١٩٠٥م مما حرره من بحث فيما يتعلق ويتصل بحضارة الاسلام وفلسفته ، ولا يزال هذا البحث مجهولا لدينا الى اليوم فلا نعلم عنه شيئا ! ... كما انه اشتهر عند بعض تلامذته بان لــه تاليفا في العقائد موجودا عندهم ناقش فيه الشبه التي ياتي بها الملحدون فردها عليهم ولم نطلع عليه. ونشرت لــه بجريدة الاقدام الجزائرية التي كان يديرها الامير خالد عدة مقالات افتتاحية في السياسة والاجتماع والاخلاق فيها ما كان يمضيه باسمه الصريح وفيها ما كان ينشر بدون امضاء مراعاة لمقتضى الحال وكذلك فعل بمقالاته في الجرائد التونسية كجريدتي المشير والوزير وغيرهما .

وجئنا يوما الى الدرس ــ بالمسجد ــ وبيد أحدنا مجموع كان فيما يحتوي عليه نبذة من الاحاديث القضاعية ، فاستلم الشيخ ذلك المجموع من يد صاحبه وبعد أن تصفحه ووقف على الاحاديث التي فيه قال لنا استعدوا بتحضير ادوات الكتابة مع القرطاس فسنشرع في شرح هذه الاحاديث ان شاء الله ، وفعلا جئناه من الغد مستعدين لكتابة ما يلقيه علينا حول شرح هذه الاحاديث النبوية فاخذ رحمة الله عليه يستملي منا نص الحديث حسب ترتيبه في الكتاب ثم يأخذ هو في الشرح بطريقة الاملاء وبدون أن يحمل في يده شيئا من الكتب والأوراق وأخذنا نحن في كتابة ما يمليه علينا على أن يكون ذلك لــه تاليفا مستقلا ، وهكذا استمر الشيخ على متابعة املائه في عدة مجالس ، ثم كانت هنالك عوارض قطعت عنا ذلك المعين العذب الزلال ولم يتم الكتاب ، أو ما هنالك من قصائد شتى في أغراض ومواضيع مختلفة وهي لا تبلغ أن تكون ديوانا .

ولقد كان ان نشرت له رسالة صغيرة الحجم بعنوان : « الكنز المدفون والسر المكنون » طبعت بالجزائر على نفقة بعض الافاضل نحا الشيخ فيها منحى صوفيا خاصا ، فلم يرق ذلك لبعض رجال الطرق ولا سيما منهم التجانية فحذروا في كتبهم ومجالسهم من مطالعتها وسعوا في جمع ما وصلت اليه ايديهم من نسخ هذه الرسالة فأعدموها حرقا، ولا أدري لماذا كان ذلك ؟ ...

وهناك طورثان عاشه الشيخ في أواخر حياته يختلف كثيرا عن الفترة الاولى التي عاشها والمدة التي قضاها في صدر ايامه واعوامه الخالية فاصبح في هذه المرة عديم المبالات بنفسه فلا يلتفت الى مظهره ولا الى هيئته في ملبسه وسمته وهندامه

وحتى فى سلوكه وحياته اليومية العادية العامة كل ذلك تغير منه الى شبه احوال من يسمونهم بالمجاذيب ، فاتخذ لمركبه حصانا وتمنطق سيفا وأخذ يتجول ما بين أرباض العاصمة واحيائها ، وتارة يسافر الى ما جاورها من البلاد القريبة منها مثل البليدة والقليعة ولمدية وشرشال ولا يبالى اين ادركه الليل أو طلعت عليه شمس الغد ، وحيثما حل كان ملحوظ المنزلة عند الناس وذلك لما يشعرون به نحوه من العطف والحنان وما يكنون له فى صدورهم من التقدير والتعظيم والتبجيل ·

وكثيرا ما كان ينتزع سيفه فيشهره فى وجوه رجال السلطة الحاكمة أو عندما يتأثرو يشتد انفعاله مما يراه من تخلف قومه وتقدم عدوه على حساب وطنه واتخذ بعض الناس ذلك منه دعوة الى الفروسية ورمزا لحمل السلاح فى وجه الغاصبين ، وطالما صرح وهو فى هذه الحال بعبارات وتصريحات جارحة فى جانب المعمر ، رد بعضهم ذلك الى أسباب نفسانية والى انحراف وقع فى مزاج الشيخ حيث اضحى عصبى المزاج متأثرا بما يحمله فى صدره وينطوى عليه كشحه من الكآبة والبغضاء فى جانب الاستعمار بالاضافة الى ما هنالك من اسباب وراثية أخرى ، وهو الى ذلك لا يفتأ عن القاء دروسه فى المدرسة وفى المسجد ويفتى ويجيب سائليه عن عويص المسائل فى جميع ما تخصص له من فنون العلم والمعرفة بدون أن يخرج عن الموضوع ، واذكر يوما اننى كنت مرافقا لصديقى الاستاذ حمزة بوكوشة وكان اذاك امتع الله به حديث عهد برجوعه من جامع الزيتونة بعد أن حصل على رتبة التطويع العلمية ، فلمحنا الشيخ جالسا بجانب متجر على قارعة الطريق وهو فى طوره الثانى من حياته ، فقلت لصديقى تعال نتقدم نحو الشيخ لنسلم عليه ونختبر حاله ، واتفقنا على أن نطرح عليه سؤالا علميا ، وقلت لصديقى بما انك حديث عهد بمجالس ودروس جامع الزيتونة وانك خبير بما يجرى من المناقشة بين الاساتذة والطلبة فى الفنون المدروسة هناك فتفضل انت بالقاء السؤال وبعد المفاوضة فى تعيين موضوع السؤال اتفقنا على أن يكون فى البلاغة ، فكان الامر كذلك ، وكان موضوع السؤال هو باب الفصل والوصل من علم المعانى وبعد أن اطرق الشيخ هنيئه تدفق كالسيل الجارف يحلل الموضوع تحليلا شافيا آتيا بالشواهد والامثلة من القرآن الكريم ومن كلام العرب فاستفدنا من كلامه فوائد جليلة وحقائق دقيقة وقبلنا يده وانصرفنا ·

وللشيخ اخبار واثار عجيبة يرويها عنه العامة هنا وهناك وهى غامضة وخارقة للعادة فى بعض الاحيان وعدها بعضهم من الكرامات ·

واستمر الشيخ على هذا النمط من حياته فترة من الزمن ثم استقرت حاله وسكن نوعا ما ثم انتابه الامر مرة ثانية بصفة أهون من حالته الاولى ، وهكذا الى أن حل شهر رمضان لسنة ١٣٥١ هـ ·

فانه لما حل هذا الشهر اجتمع جيران الشيخ وهم سكان ضاحية (الحامة) ببلكور من العاصمة وقرروا فيما بينهم التوجه الى الشيخ ليعقد لهم مجالس دينية فى ليالى رمضان ووقع اتفاقهم على أن يكون مجلس الدرس بجامع زاوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن الازهرى ـ بالقرب من سكنى الشيخ ـ وعلى أن يكون زمن الدرس فيما بين العشائين وعرضوا عليه ذلك فوافقهم عليه ، وشرع بالفعل فى تدريس رسالة ابن ابى زيد

القيرواني من اول رمضان وكـان ياتى للدرس ولا يحمل معه سوى المتن فقط ، فالتف حوله الجمهور واقبل عليـه النـاس يتعلمون ويتبركون وساربهم الشيخ على هذا المنهاج اياما أربعة ، وفى الليلـة الخامسـة مـن الشهر المبـارك حضر الى المجلس كعادتـه وشرع فى تقريـر موضوع الدرس ، وفى الاثناء شعر بفتور عام فى جسمه وعـلاه شحوب فصمت هنيهـة ، فلمـا رآه الحاضرون علـى ذلك فـزعوا اليـه وأخذوا بيده واسعفه بعضهم فمشى معه ورافقه الى منزله الذى هـو قريب من مكـان الدرس ، وما ان رجع القوم من المنزل حتى ودعهم وودع الدنيا ملبيا دعوة مولاه : « يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربـك راضية مرضية فادخلى فى عبـادى وادخلـى جنتى » · فختمت انفـاسـه الزكية ليلة الخميس ٥ رمضان = ١٩٣٣/١/٢ م ومضى منصرفا الى جوار ربه مستقبلا وجه البقاء فشيعت جنازته من الغد فى جم غفير ودفن بتربـة الشيخ عبـد الرحمن الثعالبى رحم اللـه الجميع ورثاه على قبـره بعض شيوخ المدرسـة والتلاميذ وبعض السياسيين من الحكام مترحمين آسفين··

تلكم هى الخطوط العريضة من حياة شيخنا عبد الحليم بن سماية قدس الله روحه ·



من آثارنا المغمورة

بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد

لأبي زكريا يحيى ابن خلدون

محمود بوعياد
مدير المكتبة الوطنية
ـ الجزائر ـ

من بين الاثار الثقافية الوطنية التي لم يلتفت اليها الباحثون ولم يعطوها حق قدرها ، كتاب « بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد » ، وهذا رغم نفاسة هذا المصدر بالنسبة للمنقب عن تاريخ الجزائر في القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر من الميلاد) ، ورغم قيمته لدارسي الادب والحركة العلمية في ذلك العهد . فقد بقي هذا الكتاب مهملا منسيا ، لم يكتب مقال عن صاحبه ، ولم يدرس محتواه ، ولم يفكر احد في اعادة نشره وجعله متداولا بين

الباحثين وجمهور القراء ، حتى كأن الكتاب تناول موضوعا لايهم احدا ، ولا يمت بعلاقة الى تراثنا وتاريخنا ٠ وقد اعتنى المستشرقون فى اوائل هذا القرن الميلادى فنشره احدهم كما سنذكر ، غير ان الناشر لم يخرج الا نسخا قليلة على عادة المستشرقين فى ذلك العهد حيث ان كل انتاجهم كان موجها الى اقلية من المتخصصين ٠ فأصبح الكتاب مفقودا لا تملكه الا بعض المكتبات ٠ وفى الفترة الحاضرة التى كثرت فيها المساعى لاحياء التراث ، قصدنا بهذا المقال الفات اهتمام الباحثين لهذا الاثر ، بتذكيرهم بوجوده ، وبالتحدث عن محتواه ،

مؤلف الكتــــاب :

ولد يحي بن خلدون سنة ٧٣٤ هـ ــ ١٣٣٣ م بتونس حيث اخذ العلم عن نفس الشيوخ الذين تتلمذ لهم أخوه عبد الرحمن صاحب كتاب العبر ، ولا نعرف عن حياة يحى الا النزر اليسير ، وكل ما نعرفه مستخرج من كتابه « بغية الرواد » ، ومن المعلومات القليلة المذكورة فى « كتاب العبر » لعبد الرحمن الذى خص فصلا صغيرا من كتابه لمقتل اخيه الاصغر سماه : « وثبة ابن تاشفين بيحى بن خلدون كاتب ابيه » (١) ٠ وذكر أخاد ايضا فى ترجمته الشخصية فى آخر كتاب العبر ٠ وهكذا عرفنا أن يحى بعدما تولى مناصب لا شأن كبيرا لها ببجاية عند امرائها الحفصيين ، عينه ملك تلمسان ابو حمو موسى ، بوصية من اخيه عبد الرحمن ، فى منصب كتابة الانشاء سنة ٧٦٩ هـ ــ ١٣٦٨م ٠وكان كاتب الانشاء فى الادارة الزيانية بتلمسان فى منزلة كاتب الدولة والوزير فى النظام السائد اليوم فى العالم ، وبقى يحى فى منصبه الى سنة ٧٨٠ هـ ، وهى السنة التى ذهب فيها ضحية مؤامراة دبرها ابو تاشفين ابن السلطان ابى حمو ٠

وكان يحى اديبا ميالا الى البديع فى المنثور والمنظوم ، ولم يخلف حسب مالدينا من معلومات ، الا كتابا واحدا هو « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ٠ وقد نشره مع ترجمة فرنسية المستشرق الفريد بيل ما بين سنة١٣٢١هـ ــ١٩٠٤م وسنة ١٣٣٢ هـ ــ ١٩١٣ م بالجزائر فى جزأين وثلاثة مجلدات (٢) ٠ وقد احتوى المجلد الاول على تاريخ تلمسان ، وتاريخ الدولة الزيانية الى تولية ابى حمو موسى ، ونشرت الترجمة الفرنسية فى نفس المجلد ٠ وقسم الناشر الجزء الثانى الى مجلدين ، الاول نشر فيه المتن العربى وكله خاص بأخبار ابى حمو وضم الثانى ترجمته الفرنسية ٠

عـــنوان الكتـــــاب :

ان ناشر بغية الرواد قد اكتفى فى غلاف الكتاب المنشور وفى صفحة العنوان الداخلية ، بذكر العنوان التالى : « بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد » ، غير أننا عثرنا داخل المتن من الكتاب المنشور ، على عنوان اطول ، ولا مراء انه العنوان الحقيقى الذى اسنده يحى لكتابه ، بدليل انه قال : وسميته : « بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد ، وما حازه مولانا ابو حمو من

---

١) كتاب العبر ، ج 7 ص 292 ــ 293

(2) IBN KHALDOUN (Abou Zakaria Yahia). - Histoire des Beni 'Abd El-Wad, Rois de Tlemcen, édit. et trad. par Alfred Bel. - Alger, 1903-1913.

الشرف الشاهق الا طـواد » (٣) ، وهـو ادل على محتوى الكتاب لأن ثلثى الكتـاب تقريبا خصهمـا المؤلف لذكر أخبـار الملك ابى حمو موسى ، كمـا سنـرى بالتفصيل بعد قليـل فى الفصل الخـاص بمحتوى الكتاب·ونعثر فى المصادر القديمة على روايات أخرى · فبعض نسـاخ المخطوط كتبوا : «نجعة الرواد» عوض «بغية الرواد» وقد ذكر هذه الروايـة الفريد بيل ، وقد عثـر عليهـا فى أحـد المخطوطات التى اعتمد عليها ، فأشـار اليها فى هامش الكتاب المنشور (٤)·أمـا أحمد المقرى فى نفح الطيب، فذكر رواية ثالثة، فقال : «بغية الرواد فى أخبار بنى عبد الواد ، وايام ابى حمو الشامخة الاطواد » (٥) ، عوض « وما حازه مولانا ابى حمو مـن الشرف الشاهق الاطواد » ، وهكذا لـم يلتزم كل من ذكر بغيـة الرواد ، العنوان الذى أعطاه المؤلف لكتابه ·

مـــحتوى الكتـــاب :

الف يحى بن خلدون بغية الرواد بطلب مـن أبى حمـو موسى حسبمـا صرح هـو فى مقدمـة الكتـاب · فبعد أن تحدث عـن مشـروع تدويـن « ما جمعته سيرته الكريمة من حرب وسلم ، وتخليد ما لدولته الكريمة من معال الخ ·· ، قال : « وكنت ممن يامره أعلى الله مقامه بذلك ثم رايت ان امتثال امره العزيز علي فـرض ، وان طاعتـه من طاعـة الله على بعض ، فانتدبت لاملاء هذا الكتاب راكبا فيه لرضاه الاخطار الخ ·· » (٦) ·

وهذا ما يفسر لنا ان ثلثى الكتـاب خصهما المؤلف لاخبار ابى حمو واخبار عصره ، وهذا مـا يبين لنا أيضا كمـا سنرى ، تملـق يحى ، وتودده للدولة الزيانية بأجمعها ، وتملقـه لمستخدمه الملك ابى حمـو ·

وقسم ابـن خلدون كتابه الى ثلاثـة اقسام ، ثم قسم كل قسم الى ثلاثة ابـواب ، وكل بـاب الى عدة فصول ·

اما القسم الاول فخصه « للتعريف بكنه قبيل عبد الواد واوليته » وأول ابوابه الثلاثة « فى ذكر محل اعتماره من الارض » · ووصف فيـه مدينـة تلمسان وذكر محاسنها ، وماقيل فيها من اشعار ، ثم انتقل الى « تعداد من انجبته تلمسان واستقر بها من العلماء والصالحين » · وترجم المؤلف فى هذا الفصل الهام من الكتاب ، لثمانية وخمسين ومائـة عالم وصالح ، من بينهم بعض اشياخـه ، واعقب هذه التراجم بخلاصة تاريخ مدينة تلمسان ابتداء من الفتح الاسلامى الى عهد الموحدين ، وهو زمان ظهور بنى عبد الواد ، « وتملك هذا القبيل الشريف بلد تلمسان » (٧) ·

والبـاب الثـانى مـن القسـم الاول ، « فى التعريف بجنس هذا القبيـل الكـريم وفضلـه » · واستهله « بذكر البربر ومنتهى زناتة فيهم » · واذا كـان يحى قد ذكـر باختصار الروايات المختلفـة الشائعة عن نسب البـربر وتقسيم قبائلهم ، فـان

3) بغية الرواد ج 1 ص 6
5) نفح الطيب ج 9 ص 340
6) بغية الرواد ج 1 ص 4
7) نفس المصدر ج 1 ص 88

مخطوط بغية الرواد في أخبار بني عبد الواد ، محفوظ بالمكتبة الوطنية الجزائرية

اخاه عبد الرحمن قد اطنب فى الحديث عن هذا الموضوع ، وخص صاحب البغية الفصل التالى « لذكر شعب بنى عبد الواد » الذى ينتسب الى زناتة ، كما ينتسب الى زناتة ايضا بنو مرين ٠ وسرد باختصار تاريخ بنى عبد الواد ، وذكر طاعتهم لعقبة بن نافع فاتح المغرب ، وامدادهم اياه بالنجدات ثم اتصالهم بالمهدى بن تومرت ٠ ومما ذكر فى هذا الفصل حادثة وقعت بين بنى عبد الواد وبنى مرين ، ايام عبد المؤمن الذى استنجد بالاولين على الاخرين ٠ وهذه الواقعة حلقة من سلسلة الوقائع التى ادت الى العداوة والبغضاء بين القبيلتين القريبتين المنتسبتين الى جد واحد ٠

وذكر يحى فى هذا الفصل ان بنى زيان شرفاء ، وذلك لأن احد الادارسة من سلالة ادريس مؤسس الدولة الادريسية بفاس ، واسمه القاسم « انضاف الى بنى عبد الواد وتزوج فيهم ، ونسل بينهم ذرية صالحة » (٨) منهم الملوك من بنى عبد الواد ٠ وزاد قائلا : « فبنو القاسم هم الذين حازوا الشرف » (٩) الى ان قال : « ولا يسمع للطعن فى هذا النسب الكريم لأنه من الشهرة فى الآفاق ، والفشو فى القبائل والاباء (كذا) ، بحيث لا يحجبه بعد دار ، ولا يجحده لسان عدو » (١٠) ٠ وقد اقتفى هذا الراى محمد التنسى فى كتابه «نظم الدر والعقيان فى شرف بنى زيان » وذكر هو ايضا أن بنى عبد الواد من ذرية القاسم الادريسى ، خلافا لباقى بطون زناتة ٠ أما عبد الرحمن بن خلدون فقد أنكر هذا النسب واعتبره « مزعما لا مستند له الا اتفاق بنى القاسم هؤلاء عليه » (١١) ٠

أما الباب الثالث من القسم الاول هذا ، فهو خاص « بالتعريف باولية بنى عبد الواد ٠ وترحيل (كذا) أيامهم » ٠ وقد عاد المؤلف فى هذا الباب الى تاريخ القبيلة مبتدئا بعهد الموحدين ، حين ترك بنو عبد الواد الصحراء واستقروا بالتل الذى اتخذوه مربعا « بما أنسوه من خصبه وغضارة عيشه » (١٢) ، مسالمين الدولة الموحدية ، خلافا لابناء عمومتهم من بنى مرين الذين تمادوا فى مناهضتها ونصب العداء لها ٠ ثم انتقل المؤلف الى « ذكر سبب مصير الملك اليهم » ، وذلك حين استولى جدهم جابر بن يوسف ، فى عهد الخليفة المامون الموحدى (١٣) على تلمسان ، « واستقل بحكمها ، الا ما كان من ذكر المامون على المنبر ، وفى الدرهم والدينار » (١٤) ٠

وأتبع ذلك « بذكر من ولى منهم غير مستبد » اى من بقى من الامراء على طاعة خليفة مراكش من الدولة المومنية ٠

---

8) بغية الرواد ج 1 ص 102
9) نفس المصدر ج 1 ص 102
10) نفس المصدر ج 1 ص 103
11) العبر ج 7 ص 149
12) بغية الرواد ج 1 ص 104
13) خليفة من سنة 624 هـ ـ 1227 م الى سنة 630 هـ 1232 م
14) بغية الرواد ج 1 ص 107

أما القسم الثانى الذى قسمه يحى بن خلدون ايضا الى ثلاثة ابواب فقد خصصه المؤلف لذكر السلاطين من بنى عبد الواد • وذكر فى الباب الاول تباعا الملوك الاولين ، واخبار دولتهم ، والوقائع التى خاضوها ضد بنى مرين وما اكثرها الى ان بلغ بحديثه خبر مقتل الملك ابى تاشفين بباب قصر « المشور » سنة ٧٣٩ هـ ــ ١٣٣٩ م ، وطمس معالم الدولة على يدى السلطان المرينى ابى الحسن • ثم أتى فى الباب الثانى بخبر « احياء الدولة عقب العفاء » •

اما الباب الثالث والاخير من هذا القسم فهو خاص بأخبار « دولة السلطانين ابى سعيد وابى ثابت • » وكان على ايديهما احياء الدولة سنة ٧٤٩ هـ ــ ١٣٤٨ م • فجلسا على عرش ابائهما واقتسما مقاليد الحكم بدون أن يحدث بينهما أى خلاف ويفرقهما أى شقاق •

وخص المؤلف القسم الثالث من كتابه « لما حازه أمير المسلمين مولانا ابو حمو من الشرف الشاهق الا طواد » • وهذا القسم كما قلنا سابقا هو اطول أقسام الكتاب • وقسمه المؤلف مثلما فعل فى القسمين السابقين ، الى ثلاثة ابواب : الاول « فى ذكر سجاياه وسيره الحميدة » ، وأورد فيه بالخصوص مساعى ابى حمو لاحياء الدولة الزيانية بعد ان قضى عليها من جديد السلطان المرينى ابو عنان ، ومما تجدر الاشارة اليه أن السفر الثانى من كتاب « زهر البستان فى دولة بنى زيان » لمؤلف مجهول قد استهله صاحبه هو ايضا بذكر أخبار احياء الدولة على يد أبى حمو موسى •

والباب الثانى « فى اوليته ومصير الملك اليه » • وينتهى الكتاب بالباب الثالث وهو أطول باب فى الكتاب (١٥) • وقال عنه المؤلف ، « انى ذاكر فى هذا الباب ما التزمته من تفصيل ما اشتملت دولته من حرب وسلم ، وتفريق ولم ، وحكمة وحكم » (١٦) • وترك المؤلف فى بداية هذا الباب ، تقسيم المتن الى ابواب وفصول ، وشرع فى طريقة جديدة لتدوين الاخبار ، فرتبها على السنوات ، مثلما فعل قبله وبعده ، عدد كبير من المؤرخين الذين فضلوا ترتيب الاخبار على السنين بدلا من التبويب •

وشرع يحيى فى تدوين الاخبار على المنهج الجديد سنة ٧٦٠ هـ ــ ١٣٥٩ م وهى سنة «استقرار ابى حمو بدار الملك » ، وينهى أخباره فى سنة ٧٧٧ هـ ــ ١٣٧٦ م اى قبل مقتله بثلاث سنوات • ومما لاشك فيه أن يحيى لم يتم كتابه اذ كان فى نيته مواصلة تدوين أخبار مولاه • ويفهم ذلك من النص الذى بين ايدينا ، فقال المؤلف حسبما ذكرت بعض النسخ ، لا كلها كما بين ذلك الناشر • قال « تم السفر الاول من كتاب بغية الرواد الخ •• » ، (١٧) • ولو لم يكن فى نية يحيى ان يواصل حديثه لما ذكر ان ما كتب هو السفر الاول • واكبر الظن أن الموت حال بينه وبين مواصلة التصنيف •

هذا هو مضمون الكتاب عرضناه باختصار • والجدير بالذكر ان يحيى بن خلدون لم يعن باخبار باقى العالم ، فكان محور حديثه الدولة الزيانية وبالخصوص أبا حمو موسى ، فلم يذكر أخبار بنى مرين وبنى حفص الا اذا كانت لها علاقة بتاريخ الدولة العبدوادية •

---

15) بغية الرواد من ص 37 الى ص 332 من ج 2

16) نفس المصدر ج 2 ص 37

17) نفس المصدر ج 2 ص 327

وكان لثقافة يحيى بن خلدون الواسعة، وليله للادب والبلاغة ، اثر كبير فى بغية الرواد · فجـاء الكتاب وبالخصوص البـاب الطويل الخاص بابى حمو موسى ، مشحونـا بـالاشعـار وباوصـاف المجالس الادبية ، ويجتمع يحيى فى هذه الظـاهرة مع معاصره ، مؤلف زهر البستان ، ومـع التنسى فى نظم الـدر ، وكثيرا مـا نجد نفس القصائد فى الكتب الثلاثة ، واغلبها لشعراء من المغرب الاوسط بينمـا تميـز عبد الرحمن بـن خلدون بعدم ايراده الشعـر ، الا ما ذكـر فى المقدمـة وفى ترجمتـه الشخصية · وسبقت الاشارة الى أن صاحب البغية اهتم اهتمامـا كبيرا بحيـاة العلمـاء والادبـاء والصالحين ، فترجم لعدد كبير منهم فتحوا عيونهم بتلمسان او استقروا بها · وقد خالف بذلك كلا من صاحب زهر البستان واخيه عبد الرحمن والتنسى ·

قيمـــة الكتـــاب :

من المعروف عند الباحثين المهتمين بتـاريخ الجزائر فى العصر الاسلامى ، أن اركان التـاريخ الزيانى ثلاثة، وهى : بغية الرواد ليحيى بن خلدون وكتاب العبر لأخيه عبد الرحمن ، ونظم الدر لمحمد التنسى ، ولولا ضياع ثلثى كتاب زهـر البستـان فى دولة بنى زيان لا عتبرناه ركنا رابعـا ، غير ان اهميته نقصت بهذا البتر · واذا قارنا هذه المصادر الاربعة فيما بينها ، اكتشفنا ان لكـل واحد منهـا مزاياه وخصائصه ، كما أن لكل واحد منها عيوبه · فـان بغية الرواد تفـوق فى الغالب كتـاب العبر ، ونظم الدر بتفصيلها للأخبار ، لا سيمـا الخـاصة منها بعهد ابى حمو · ويشاركها فى هذه الخاصية زهر البستان ، غير ان عبد الرحمن قد انفرد ببعض الاخبار تتعلق بالفترة الاولى للدولة لـم يذكرهـا أخوه · ويشترك المؤلفون الاربعة فى ظاهرة واحدة وهى اتصالهـم كـل واحد فى وقتـه ، بفترة مـن الفترات التى دونـوا تاريخها ، فكـانت رواياتهـم رواية شاهد عيان احيانا ، غير ان التنسى لم يهتم فى « النظم » بتاريخ ملك زمانه ووعد بتاليف كتاب خاص به · وتميز عبد الرحمن مـن بين الاربعـة ، بنقده للأخبار ، ونفيـه لبعض الخرافات ، ومنهـا الحاق بنى عبد الواد بسلالة على بـن ابى طالب ، كما تميز بعدم تحيزه لدولة من الدول المغربية التى اتصل بها وخدمهـا ·

أما اتصال يحى بن خلدون بالدولة ، فكـان ناتجا عن طبيعة عمله· فقد مكنه منصبه وهو كتابة الانشـاء ، من استعمـال الوثـائق الرسمية مـن رسائل ، ومعاهدات من ناحية ، وبالاتصال برجال الدولة من الذين لعبوا دورا فى اكثر الاحداث التى سردها أوكانوا من المشاهدين لها من ناحية اخرى· واكبر الظن ان يحيى سمع روايات شيوخ بنى عبد الواد عن تاريخ قبيلتهم ، كما مكن له منصبه مـن التقاط الاخبار من كل تلك الشخصيات التى اخذها ابو حمو رهنا كما ذكر عبد الرحمن بـن خلدون من اهل العمالات ، وقبائل زنـاتة ، والعرب ، حتى من قومه بنى عبد الواد···«وتجاوز ذلك الى أهل الامصـار والثغـور مـن المشيخـة والسوقـة » · واسكنهم بجانبـه فى عاصمتـه (١٨) · فنعتقد ان يحيى جمع ما كانوا على علم به من اخبار قبائلهم وأخبار منازل عشائرهم فاطلع هكذا عن كتب على أخبار الدولة دقيقها وجليلها · فجاء كتابه مشحونا بالتفاصيل التى استفاد منها من أعقبه من المؤرخين فنقلوها عنه ومنهم المقرى فى كتابيه « نفح الطيب »

18) العبر ج 7 ص 215

« وازهار الرياض » ، والتنسى فى « نظم الدر والعقيان » الذى اعتمد على بغية الرواد اعتمادا كبيرا ، وابن مريم فى « البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » ، وقد اشرنا سابقا الى ان يحيى اهتم اهتماما كبيرا بآثار الاولين ، فترجم لعدد كبير من العلماء والصالحين ·

ومن امثلة الاحداث التى انفرد صاحب بغية الرواد بتدوينها بالتفصيل ، خبر احياء الدولة الزيانية سنة ٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م ، بعد أن أطاح بها ابو الحسن السلطان المرينى عشر سنوات من قبل باستلائه على تلمسان ، فأكمل يحيى بهذه التفاصيل الاخبار التى اوردها اخوه عبد الرحمن فى القسم الخاص ببنى عبد الواد من العبر ، عن هذا الحادث كما ذكر تفاصيل جديدة عن نكبة ابى الحسن ونهايته ، لا نجدها كلها فى القسم الخاص ببنى مرين من العبر ، ولا عند مؤرخى الدولة المرينية والدولة الحفصية الآخرين ·

سبق ان قلنا انه كان لثقافة يحيى بن خلدون وميله للادب ، تاثير كبير على كتابته بل على توازن كتابه · اذ أكثر من رواية القصائد الطويلة ، رواها فى غالب الاحيان بحذافيرها كما وصف المجالس الادبية ، وذكر للمترجمين لهم فى سلسلة تراجمه لعلماء تلمسان وصلحائها ، تآليفهم ، واعتنى احيانا بالناحية الفنية ، فقال على سبيل المثال فى ترجمة ابى الحسن القلعى : « كان فقيها اديبا حسن الخط ، مغربيه وشرقيه » (١٩) · وكان لاهتمام يحيى بن خلدون بالشعر ونقله للقصائد ، فضل كبير على الادب العربى على العموم والجزائرى على الخصوص ، اذ انه لم يرو فى أغلب الاحيان الا انتاج شعراء ولدوا بالمغرب الاوسط أو استقروا بتلمسان · فانقذ بذلك انتاجا لولاه لضاع أكثره ، اذ ان كتب الادب او التاريخ الاخرى مثل نفح الطيب ونظم الدر التى اوردت شعر شعراء المغرب الاوسط ، قد نقلت أكثره عن زهر البساتن الذى يشاركه فى الميزة نفسها ·

واعتمادا على هذه المزايا والخصائص التى ذكرناها ، نرى ان يحيى بن خلدون قد وصف المملكة العبدوادية ، سواء من الناحية السياسية او من الناحية الادبية ، وصفا من الداخل اعتمد المؤلف فيه على محفوظات الدواوين ، وعلى اتصاله بالرجال ، وعلى رواية الرواة ، وفى الاخير على مشاهداته الخاصة التى مكنته منها خدمته للدولة ، فجاء كتابه اكثر من الكتب الاخرى الخاصة ببنى عبد الواد وتاريخ دولتهم ، مرآة للحياة بالمغرب الاوسط على العموم ، وبتلمسان على الخصوص ·

وقد اثر ميل يحيى الى الادب والبلاغة فى اسلوب الكتاب ، فجاءت كتابته رصينة بديعة ، ولم يستعمل السجع الا قليلا فاستعمله بالخصوص فى بداية بعض الابواب · ويشترك يحيى بن خلدون فى هذه الظاهرة ، وهى رصانة الاسلوب ، مع التنسى غير ان اسلوب صاحب « نظم الدر » ، اكثر سلاسة واكثر جمالا فى نفس الوقت ، أما أخوه عبد الرحمن بن خلدون فانه لم يهتم بتنقيح الفاظه وتنميق صيغه ·

ونجد بجانب هذه المزايا والخصائص ، نقائص فى بغية الرواد ، وهى :

اذا كان لاقتراب يحيى بن خلدون الوثيق من السلطان اثره فى الاطلاع الواسع على احوال

19) بغية الرواد ج 1 ص 25

دولة بنى عبد الواد ، وعلى سير الاحداث الداخلية والخارجية ، قد ترتب عن هذه العلاقة نقص كبير وهو تحيزه لملوك تلمسان ، والتملق لهم ، وغض الطرف عن عيوبهم ونقائصهم « فمما تملق به لبنى عبد الواد ، اثباته شرفهم رغم تفاهة الرأى القائل ان مجموع زناتة بربر ، سوى فخذ واحد منها هو من سلالة فاطمة الزهراء ، وقد علمنا أن عبد الرحمن بن خلدون قد فند هذا النسب ونفاه نفيا باتا . ولم يظهر المؤلف على العموم فكرا نقادا فى اختياره للأخبار • فسرد اغربها وابعدها عن الواقع والمنطق بدون تعليق ، وابداء شك فى صحتها • لقد روى لنا مثلا فى اول الكتاب ، احاديث نبوية لا يقبلها العقل ، تثبت فضل مدينة تلمسان على غيرها من المدن ، وذكر ان بها جدار موسى والخضر عليهما السلام ، بدون تفنيد لهذه الخرافة وهكذا • ودفعه التودد لمستخدميه من بنى عبد الواد واصحاب النعمة عليه ، الى الاطناب فى الكلام متى احرزوا على نصر من ناحية والى الاختصار الكبير او السكوت تماما من ناحية اخرى ، عن كل خبر هزيمة منى بها سادته او جريمة ارتكبها احدهم • غير ان يحيى لم يتعرض بسوء الى اعداء بنى عبد الواد من بنى مرين وبنى حفص ورؤساء بعض القبائل التى خذلت اصحاب النعمة عليه فى احرج المواقف • فلم يحط من قيمة احد ، ولم يشتم دولة ولا ملكا ، خلافا لما قام به مؤرخ الدولة المرينية ابن الاحمر فى روضة النسرين ، من التشنيع بملوك تلمسان ، والصاق كل نقصية وعيب بهم •

ومما تجدر الاشارة اليه ان محمد التنسى صاحب « نظم الدر » جارى يحيى بن خلدون فى مجاملة ملك زمانه من بنى عبد الواد ، وتملقه للدولة الحاكمة ، لنفس السبب وهو التقرب من السلطان ، اذ ان التنسى مع انه لم يكن من موظفى الدولة حسب الظاهر ، دون كتابه هو ايضا تقربا من السلطان محمد المتوكل ، بل بطلب منه ، فذكر هو ايضا كل ما يرفع من سمعة الدولة ، وسكت أوكاد عن كل ما يدنس مجدها ، وينقص من نفوذها • واثبت بالخصوص بدوره ان بنى زيان من الشرفاء • ونذكر بهذا الصدد ان بغية الرواد كانت كما سبقت الاشارة الى ذلك ، اهم مصدر لمحمد التنسى لكتابة نظم الدر ، الا أنه لم يذكر دائما مصدره عندما نقل عنه ، وان كان هذا النقل نقلا حرفيا لفقرة طويلة ، ومن الذين استعملوا البغية ايضا ابن مريم صاحب « البستان فى ذكر العلماء والاولياء بتلمسان » • وقد ذكر المستشرق الفرنسى دى سلان ان عبد الرحمن بن خلدون رجع الى كتاب أخيه لكتابة الفصل الخاص ببنى عبد الواد فى تاريخه (٢٠) ، فتمكن من احكامه وصقله غير أن المقارنة التى قمنا بها بدورنا بين كتابى الاخوين ، لم تبين لنا حقيقة رجوع عبد الرحمن الى كتاب يحى قبل تدوين الفصل الخاص بدولة ابناء يغمراسن •

هذه هى اهم مميزات بغية الرواد ، وهذه هى عيوبه ، غير ان هذه العيوب والنقائص يجب الا تحجب عنا ، ولو قليلا ، فضل هذا الكتاب على تاريخ الدولة الزيانية ، وعلى الباحثين فى تاريخها ، وكذلك على الدارس للأدب العربى بالجزائر • فالدلائل التى بسطناها فى هذا البحث، تدل كلها على ان كتاب يحيى بن خلدون ، من اهم مصادر تاريخ الجزائر ، ومن انفس مصادر تاريخ أدبنا ، وانه فى انتظار من يهتم به ، فيخرجه اولا للناس ، ويعتنى بعد ذلك بمحتواه ، يحلله ويدرسه (٢١) •

(20) IBN KHALDOUN. - Histoire des Berbères, trad. de Slane, Tome I, P. XXXVIII, note 1.

(21) علمنا اخيرا ان السيد عبد الحميد حاجيات استاذ مساعد بكلية الآداب منكب على تحقيق بغية الرواد ، وانه حصل على نسخة جدة منه لم يستعملوا الفريد بيل ، وانه ينوى اخراج الجزء الاول منه فى الشهور القادمة ، وفقه الله

مصادر البحث :

(١) المصادر العربية

ـ ابـن الاحمر (اسماعيل بـن يوسف) ٠
ـ روضة النسرين ٠٠٠

ـ ابـن خلدون (عبد الرحمن) ٠ ـ كتـاب العبر ٠٠٠

ـ التنسى (محمد بـن عبد الله) ٠ ـ نظـم الدر والعقيان ٠٠٠

ـ زهر البستان فى دولة بنى زيـان ٠

(٢) المراجع الاجنبية

— A. Bel-Ibn Khaldoun : Encyclopédie de l'Islam, II, 418-420

— A. Ibn Khaldoun . - Histoire des Berbères , trad. de Slane.



المظهـــر الاقتصـــادى والاجتمـــاعى وصلتـه بالبيئـة الجغـرافيـة

فى بـلاد العـرب قبـل الاســـلام

د . موسى لقبـــال

استاذ بكلية الآداب
- جامعة الجزائر -

بلاد العرب شبه جزيرة كبرى ، سماها العرب جزيرة تصورا بأن الصحراء تمثل بحرا مـــن الرمال وهى حدها من جهة الشمال - وتعتبـر بادية العراق : السماوة ، وبادية الشام : الحماد فى اطار الحد الشمالى .

وتقسم بلاد العرب الى جزء جنوبى وآخــر شمالى ، يختلفان فى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ونميز في القسمين : الجنوبي والشمالي الاجزاء الآتيـــة :

ـ اليمن وملحقاته ـ نجدا ـ الحجاز ـ تهامة
ـ العروض . واساس التقسيم سلسلة جبـال السراة التي تمتد مـن جنـوب شبه الجـزيـــرة الى شمالها .

وقديما ميز الجغرافيون والرحالة الاغـــريق والرومان في بلاد العرب بين ثـلاث وحـــدات سياسية كبرى هي :

بلاد العرب السعيدة ARABIA FELIX وتتضمن بلاد اليمن وسائر جنوب الجزيرة

وبلاد العرب الصخرية ARABIA PETRA وتطلق على منطقة البحر الميت .

وشبه جزيرة سيناء وهي مركز دولة الأنباط

وبلاد العرب الصحراوية ARABIA DESERTA وتطلق على ما بقي من صحاري ، وحرار ، ودارات في شمال الجزيرة العربية .

ـ ويظن ان شبه الجزيرة العربية هي الوطـن الاصـلي لمجموعة الشعوب الساميـة ؛ ومنهـــا البابليون والاشوريون ، والعموريون ، والامازيغ، والفنيقيون ، والعبرانيون والآراميون ، والعـرب والأثيوبيون ، وقد خرجوا من شبـه الجزيـرة في هجرات متعاقبة ابتدأت منذ منتصف الألفالرابع ق م. حتى القرن السابع الميلادي ؛ تفصل الواحدة منها عن الأخرى ألف سنة تقريبا .

ـ ويختلف جنوب شبه الجزيرة عن شمالها في مظاهر الحياة الاقتصادية ، ولهذا كان سكـــان الجنوب من المستقرين المتحضرين ؛ وبقي معظـم سكان شمال شبه الجزيرة من البـدو المنتجعين للمرعى الخصيب والماء الوفير .

ويسكن شمـال شبه الجزيـــرة ـ العـــرب المستعربة ، ـ الاسماعيلية ، العدنانية .

ويسكن جنوب شبه الجزيرة العرب العاربـة والعرباء ، وهم بنو قحطان (يقطان في التوراة) واذا فللعرب جذمان رئيسيان هما :

القحطانية ـ أو بنو قحطان ومنهم حمير ومـن هؤلاء صنهاجة وكتامة وسائر البرانس .

العدنانية ـ أو بنو عدنان ـ ومنهم قيس عيلان ومن هؤلاء زناتة وسائر البتر .

أما لماذا كان جنوب الجزيرة مركـز حضارة واستقرار لفرع بني قحطان وأسلافهم؛ فمرجعه :

ـ أمطار منتظمة وموسمية ؛ ووفيرة .
ـ تربة صالحة للزراعة والغراسة .
ـ مناخ مـلائم .
ـ موقع جغرافي بحري ـ وجه السكان نحو البحرية التجارية ، وجعلهم مثل الفنيقيين مـن قبل ـ وسطاء في التجارة بين المراكز الحضاريـة في العالم القديم والوسيط .
ـ نظام سياسي مركزي قار : تمثل في الدول العربية التي نشأت في جنوب شبه الجزيرة ، منذ الالف الثاني ق م . وكانت دولا تجارية واهمها :
دولة معين عاصمتها القرناء (1200 ـ 950) ق م .
وسبأ وعاصمتهـا مـأرب (950 ـ 115) ق م .

وتعاصرها قتبان ؛ ثم حمير **وعاصمتها ظفار** (115 – 575) م . وهذه الدولة الاخيرة لم تقتصر فى نشاطها على الميدان الاقتصادى التجارى مثل سابقاتها ، **بل طمح تبابعتها** وأقيالها الى التوسع العسكرى ، **خارج مجال شبه** الجزيرة ، ومن هنا نشأت قصص عن عظمة سبأ وثراء أهلها . وبلاط بلقيس ، **مثلما نشأت قصص** عن مغامرات وفتوحات الملوك الحميريين **فى العراق** وفارس والهند وافريقية التى تنسب **الى افريقس** الملك الحميرى المشهور ، وفى ظل **الانظمة السياسة** السابقة عرف سكان جنوب شبه **الجزيرة حياة** حضارية تطورت **فى مستواها الى مدى يدعو الى** الدهشة والاعجاب خاصة فى **مجالى الزراعة** وتنظيم الرى ، والتجارة الداخلية **والخارجية** والحياة العمرانية ؛

وقد سميت بلاد اليمن نظرا لعمرانها المستبحر بالعربية السعيدة ، **ثم بلاد القصور ، وبلاد** الطيوب وأرض اللبان ؛ **وبلاد السدود أيضا .**

ومظاهر الحياة الاقتصادية فى الجنوب هى :

– الزراعة الموسمية – **وكان يبعث على نموها** وازدهارها ، تنظيم الرى والمحافظة **على المياه** وحجزها فى سدود كبيرة ، **لوقت الحاجة وقد** اشتهر منها : سد مأرب ، أو العرم ؛ **لانه ذكر فى** سورة سبأ ، بيد أن مثله كثير **حتى ان أحد** شعراء اليمن من **(مخلاف يحصب) ذكر بفخر** أن بلاده **يوجد فيها وحدها ثمانون سدا :**

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب
ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

ثم التجارة وكانت نشيطة **فى** الداخل ، ومن أسواقها المشهورة سوق « موزا » وهى مخا الحالية ، كما كانت نشيطة مع الخارج ، **أى مع مراكز الثقافة والحضارة فى غربى** آسيا ؛ **وفى حوض النيل ، وفى اقليم البحر** الابيض المتوسط .

وأهم متاجر الجنوب هى : التوابل (البهارات) العطور ، اللبان **– القرفة ؛ بالاضافة الى البضائع** التى كانت تفد من الحبشة ، والهند والبنجاب **والصين .**

وكانت هذه البضائع مرغوبا فيها ، ومطلوبة

فكان اللبان مثلا ، يستخدمه المصريون فى التحنيط كما كانوا يحرقونه **فى هياكل العبادة** وكانت التوابل يقبل عليها سكان **البحر الابيض** المتوسط .

ومظهر دور عرب الجنوب فى الحركة التجارية

كان فى الاشراف على استقبال المتاجر الخارجية واحتكار بيعها ووضع مكوس **مرتفعة عليها .**

– ثم فى تسويقها بأسعار مناسبة يحددونها بأنفسهم .

– وحراسة القوافل التجارية بواسطة خفراء وضعوا فى محطات على طول الطرق التجارية

– وكانت متاجر الجنوب المحلية والمستوردة من الخارج ، تأخذ طريقها الى مصر ، **وبلاد الرافدين** وفنيقيا عن طرق برية وأخرى **بحرية ، وكانت** **الطرق البرية مفضلة عندهم ؛ فرارا من اخطار**

الملاحة فى البحر الاحمر وفى الخليج العربى (الفارسى) .

- وعند طريق عرب الجنوب ، وجدت متاجر فنيقية وبلاد الشام سبيلها الى بلاد اليمن - وكانت المعاملة التجارية تتم مقايضة ؛ فى هذه الحالة .

والتجارة فى البر كانت تنطلق من بلاد اليمن الى البتراء عاصمة الانباط ، والى غزة - وبعد ذلك تجد طريقها الى بلاد الشام والعراق .

أما التجارة فى البحر فقد كانت تنطلق فى البحر الاحمر الى خليج العقبة (ايليا) ومنه تحمل برا الى فلسطين وبلاد الشام ومصر .

وكانت السفن التى تحمل متاجر لمصر الفرعونية ، ترسو فى ميناء القصير على البحر الاحمر ، ثم تحمل المتاجر برا الى مدينة قفط على نهر النيل ، وبواسطته يتم نقل المتاجر الى منفيس وغيرها من مدن مصر القديمة .

وتصل البضائع التجارية الى العراق ، اما عن طريق الخليج العربى بحرا أو برا عن طريق القوافل التجارية .

وكانت نتائج الحركة التجارية واسهام عرب الجنوب فيها عظيمة وتمثلت :

أ - فى الازدهار الاقتصادى .

ب - وفى التقدم فى الحياة الثقافية والعمرانية

ج - وفى كثرة السكان .

د - ثم فى التطور فى أساليب الحياة الاجتماعية وشيوع الغنى واساليب الترف .

هـ - وقد بدأت الانظمة السياسية البعيدة والمجاورة ترنو ببصرها الى موقع بلاد العرب الجنوبية؛الذى ضمن لسكانها تمثيل دور الوسيط والمحتكر لتجارة الشرق الاقصى وافريقيا .

- فالفراعنة ليتيسر لهم الحصول على متاجر الشرق مباشرة اهتموا بربط النيل بالبحر الاحمر بواسطة قناة ؛ حفرها سنوسرت ؛ واهتم بها من جاء بعده وهى التى اصبحت خليج أمير المؤمنين بعد فتح مصر على يد المسلمين .

والملكة حتشبسوت ارسلت بعثة الى بلاد بونت (الصومال) لهذا الغرض،ومثلها نحو تمس

- وسليمان الحكيم - صاحب ارشليم - يتحد مع حيرام حاكم صور الفنيقية ويسيران اسطولا تجاريا من خليج العقبة عبر البحر الاحمر الى شواطىء بلاد اليمن للحصول على متاجر الشرق وافريقيا مباشرة ، وكان الغرض الاساسى تحطيم الاحتكار الذى فرضه عرب الجنوب على التجارة بين الشرق الاقصى وعالم البحر الابيض المتوسط.

- وقد فكر الاسكندر الاكبر فى ضم بلاد العرب الى نفوذه ، فأرسل بعثة نارخوس لكشف الطرق البحرية .

- وإثر وفاته ، واستبداد البطالمة بمصر ، أحيوا مشروع القناة التى تربط النيل بالبحر الاحمر ، وعرفت بقناة (بطلموس قيلا دلفوس) وغرضهم منافسة عرب الجنوب ، وكسر الاحتكار، والاتصال ببضائع الشرق وافريقيا مباشرة .

- وقد نشط أحد الرواد الاوئل ويسمى

– هبالوس – لكشف سر الملاحة البحرية فى بحر الهند ، وبحر العرب ، وكانت خطرة فى نظر الرحالة والجغرافيين الاغريق .

كما كان هم هبالوس ان يعرف اتجاه ريح السموم ومواعيد هبوبها وكانت سرا لا يعرفه غير عرب الجنوب .

وعندما نجح هبالوس فى مغامرته ورجع من بحر الهند والبحر الاحمر الى الاسكندرية بسفينة شحنت ببضائع الشرق بدأ صرح الاحتكار يتهاوى وكانت بداية النهاية لنفوذ عرب الجنوب فى الميدان الاقتصادى ، اذ ظهرت اساطيل البطالمة فى البحر الاحمر ، واجتازت مضيق باب المندب .

– وقد ورث الرومان بعد احتلالهم مصر ، عن البطالمة سائر ممتلكاتهم وساروا على نهجهم فى ضرورة كسر الاحتكار ، والتوصل الى تجارة الشرق وافريقية مباشرة ؛ اذ كانوا فى أشد الحاجة اليها لترفهم ، ولحياتهم الدينية .

– وأول خطوة عملية خطاها الرومان – بعد احتلالهم مصر – هى ارسال حملة عسكرية بقيادة والى مصر الرومانى : ايليوس غالوس سنة 24 ق‌م ويساعده دليل من الانباط (سلاوس) فبلغت نجران فى الشمال ، ثم تجاوزتها الى مرياما – ثم حاق بها الفشل ولم يتمكن قائدها الذى فتك بجنده الوباء – من تحقيق اهدافه فىجنوب الجزيرة ورجع الى مقر ولايته فى مصر – وقد سجل اخبار هذه الحملة الفاشلة ، وعزا فشلها الى خيانة الدليل النبطى – المؤرخ والجغرافى اليونانى استرابون (24 م) الذى رافق قائد الحملة .

– وقد جاءت المحاولة الثانية لكسر الاحتكار ، من طرف الاحباش – الذين نظروا الى جيرانهم واقربائهم فى السلالة النسبية ، بنظرة ملؤها الحسد والغيرة؛ ولم تخل من التعصب الدينى ايضا – خاصة بعد أن أخذوا بالمسيحية – التى كانت دين اقليات فى اليمن، بجانب اليهودية، والوثنية – وتركز المسيحيون فى مدينة نجران –

ولم يتيسر للاحباش احتلال بلاد اليمن فى القرن السادس الميلادى – الا عند ما ظهرت مشكلة اضطهاد نصارى نجران ، من طرف الملك الحميرى ذى نواس – (وعرفوا بأصحاب الأخدود فى القرآن) ، عندئذ استجاب امبراطور بيزنطة جستنيان – الى نداء نصارى نجران – وحث الاحباش المسيحيين على تأديب الملك الحميرى ؛ واحتلال اليمن ؛ – وما كان هؤلاء يريدون غير ذلك منذ أمد بعيد تحقيقا لأهداف اقتصادية .

– غير ان النفوذ الحبشى ، ومن ورائه النفوذ البزنطى – السياسى والاقتصادى لم يستفزا لان الحركة الوطنية فى الجنوب – بقيادة سيف بن ذى يزن – استمدت العون الخارجى من اعدى اعداء البيزنطيين ومنافسيهم على السيطرة السياسية والاقتصادية فى بلاد العرب – وهم الفرس الساسانيون – الذين ظهروا بمظهر حماة الوثنية ، واليهودية والنسطورية – تحقيقا لاهداف استراتيجية سياسية واقتصادية ، وبمساعدة الفرس ، صفى النفوذ الحبشى ، وعادت بلاد اليمن تحت حكم ابنائها ظاهريا يتزعمهم سيف بن ذى يزن – الذى سلك سياسة الشدة والعنف مع بقايا الاحباش فقتلوه .

ـ واصبحت منطقة جنوب الجزيرة منطقة صراع دولى عنيف يتخذ شكلا سياسيا ودينيا ولكنه كان فيجوهره صراعا اقتصاديا بين امبراطوريتين عظيمتين هما : امبراطورية الروم البيزنطيين ، وامبراطورية الفرس الساسانيين .

ـ وكان لكل من الدولتين ماض قديم وعلاقات تاريخية مع العرب فى باديتى الشام والعراق . فعلاقة الفرس باللخميين او المناذرة من عرب الحيرة جنوب الفرات ، تحاكيها علاقة منافسيهم بعرب غسان او الغساسنة عرب جلق وحوران فى بلاد الشام .

ـ وهكذا كان موقع جنوب الجزيرة ـ واشراف عربها على تجارة الشرق واحتكارهم للبضائع المرغوب فيها سببا فى احتدام النزاع الذى هدأ قليلا وتجمد بظهور الاسلام ودخول اليمن دائرة الدولة العربية الاسلامية ، التى اطاحت بنظام الساسانيين ، وازاحت نفوذ البيزنطين عن كل من هو عربى سواء فى شمال الجزيرة ، أو فى جنوبها ؛ أو فى بلاد الشام وافريقية أيضا .

ـ ويلاحظ ان الطريق التجارى ـ بين الشرق الاقصى ـ واوربا الغربية فى العصور الوسطى ـ كان يمر ببرزخ السويس الى البحر الاحمر ، والبحر العربى ـ والمحيط الهندى وبسبب مرور التجارة عبر هذا الطريق ـ استفادت الانظمة السياسية فى مصر وفرض سلاطين المماليك شروطهم على التجار الاوربيين ـ كما فرضوا مكوسا باهظة ، مما كان له أثر فى ارتفاع الاصوات بالشكوى ، وعندما نشط البرتغاليون للكشف عن طريق بحرى مباشر الى الهند ـ ووفقوا فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح ـ انتقل مركز الثقل اليه ـ وتدهورت الحياة الاقتصادية فى مصر ، وفيما جاورها . وعندما اراد البرتغاليون التوسع فى البحر العربى والسيطرة على منافذ التجارة فى البحر الاحمر ، والخليج العربى (الفارسى) واحتلال الحجاز ، بمساعدة الاحباش ـ ظهر الاتراك العثمانيون ـ فعدلوا الوضع ورجحوا الكفة الى جانب دار الاسلام وحموا سكانها من غضب المستعمرين المبشرين فى بداية العصور الحديثة .

ـ وقد وقع لسكان الجنوب العربى ـ فى القديم ـ ما وقع لمصر المملوكية بعد كشف طريق مباشر الى الهند ـ فى بداية العصور الحديثة .

ـ فضعفت الانظمة السياسية .

ـ وتدهرت الحياة الاقتصادية .

ـ واهملت المرافق الحيوية للبلاد . وكان من مظاهر التدهور :

اهمال العناية بالسدود ـ فتفجر كثير منها ـ واشهر سد تفجر وكانت له اصداء خارجية هو سد مأرب (ماء راب أى كثير) .

ـ وكان من أثر ذلك :

ـ حدوث هجرات عربية من الجنوب الى الحجاز (الاوس والخزرج فى المدينة) ، والى الشام (عرب غسان) ، والى العراق (عرب لخم فى الحيرة) ـ وهذه الهجرات أثرتعلى تماسك المجتمعفىبلاد

الجنوب ، فتفرق ايدى سبا ـ كما يقال فى المثل العربى .

ـ وقد انتقل من جراء ذلك مركز الثقل والقيادة من جنوب الجزيرة الى شمالها ومن عرب بنى قحطان الى عرب بنى عدنان ، ومنهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ـ ولئن فقد عرب جنوب الجزيرة تماسكهم كمجتمع ، وكنظام سياسى ، فقد استمر دورهم ايجابيا بعد ظهور الاسلام .

ومظاهر الايجابية تبدو :

ـ فى اسهامهم فى نشر الحركة الاسلامية خارج بلاد العرب دعاة ، وجنودا ، ثم فى صناعة السفن واقامة نواة للبحرية الاسلامية ؛ حيث كانت لهم خبرة سابقة فى الملاحة البحرية .

ـ ولقد كانت اعدادهم فى جيوش الفتح كثيرة، وقد كونوا لهم مراكز ، وطبقات ، وبقوا فى مواطن هجرتهم سواء فى المشرق أو فى المغرب والاندلس يعتزون بأصلهم وبتقاليدهم .

ـ ولم يخل دفاعهم عن كيانهم وتقاليدهم من ريح الشقاق والعداء ـ بينهم وبين عرب الشمال.

ـ وحوليات التاريخ الاسلامى فى المشرق وفى المغرب والاندلس ـ حافلة بصراع القيسية وتمثل نزعة عرب الشمال مع الكلبية وتمثل نزعة عرب الجنوب .

أما آثار حضارة الجنوب العربى وما صنعه بنو قحطان فقد اشار اليه من الجغرافيين والرحالة الاغريق هيرودوت (ق5قم) ثم استرابون (24م) ومن العرب ابن الحائك الهمذانى فى كتابيه «الاكليل» و «صفة جزيرة العرب» .

واعظم من كشف عن مظاهر الحضارة العربية فى الجنوب ـ الرواد الاوربيون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر م وأشهرهم : كارستن نيبوهر وجوزيف هاليفى ، وادوار غلازر .

وبفضل هؤلاء عرفت حضار عرب الجنوب كما دونوها على الرقم والاحجار ، بالابجدية الحميرية او السبأئية القديمة وتعرف بالخط المسند الذى يختلف كلية عن ابجدية الشمال ، او الخط الشمالى الذى دون به القرآن .

أما شمال شبه الجزيرة العربية حيث بنو عدنان او الاسماعيلية الذين عرف بعضهم فى الكتابات القديمة باسم السراقينو : الشرقيين Les Sarrasins بسبب اغاراتهم المستمرة على مراكز الحضارة والاستقرار ، فكان حظه من هذه الحضارة ضعيفا ، اذا استثنينا مدن الحجاز ، ومنطقة الواحات ، والتهائم ، والاطراف حيث بادية الشام والعراق :

فكانت المناطق الداخلية فى شمال شبه الجزيرة ـ صحراء جرداء قليلة العمران ، او خالية (الربع الخالى) يسودها الجفاف ، وبالتالى فتربتها غير صالحة للزرع ، وانما تصلح للرعى احيانا .

وكانت الانماط البدوية هى السائدة بين سكانها القليلين ، مثل الانماط التى سادت بين فرع البتر فى افريقية ، والروح القبلية هى القوة المسيطرة على بدو الصحراء ، وبالتالى :

فلم يكن هناك فى اى وقت قبل الاسلام نظـــام سياسى جامع لكل بدو شمال الجزيرة ــ بـــل كانت هناك حكومات قبلية فى عصر الجاهلية .

أما منطقة الواحات واغلبها فى شمال الحجاز . فهى مراكز للزرع والضرع ، وينعم سكانهـــا بحياة مستقرة وهادئة بسبب وجود الماء ، ومن ذلك واحة خيبر ، ووادى القرى ، وفدك وتيماء .

وكذلك تسود حياة الاستقرارللزراعة والغراسة فى منطقة تهامة وهى السهول الساحلية المجاورة للبحر الاحمر .

أما مراكز الحضارة والاستقرار فى شمـــال شبه الجزيرة ، فهى المدن المشهورة : مكة (بكة) وتعرف بأم القرى (موطن قريش) وبجوارهـــا مدينة الطائف ، حيث قبيلة ثقيف ، ثم يثـرب وهى المدينة المنورة . ففى هذه المدن الثلاث كان مستوى التحضر والرفاهية رفيعا .

اذ كل مدينة كانت تنعم بنظام اشبه بنظـــام الحكومة (قارن ذلك بالحياة فى المدن اليونانية والفينيقية) .

وازدهار مكة آت من :

أ ــ نشاط قريش فى التجارة ،

ب ــ ومن كونها قبلـة القبائل العربيــة فى الشمال ، بسبب وجود الكعبة مقام ابراهيـــم ، ومجمع الاصنام العربية ، والاسواق المشهورة ، ومن أشهرها سوق عكاظ التى كانت تفيد منـه قبيلة ثقيف فى الطائف بسبب قربها من مقـــر اقامته .

وازدهرت الحياة الاقتصادية فى المدينة (يثرب) لسببيـــن :

ــ موقعها على طريق القوافل التجارية المتجهة الى الشام ،

ــ نشاط سكانها العرب ، وجاليتها اليهودية، فكان بنو قينقاع صاغة ، وبنو النضير وبنـــــو قريظة زراعا مثل يهود خيبر .

أما وسائل العيش ومظاهر الحياة الاقتصادية بين سكان شمال الجزيرة فتختلف بين البـــدو والمستقرين .

فاما البدو فقوام حياتهم :

أ ــ التنقل والرحلة حيث مواطن الكلا والماء ، وقلة هذه الاماكن ، وكثرة قصادها ، مع عـدم وجود نظام وازع ، وروح فردية مفرطة بنـــين البدو ــ جعل النزاع امرا لا مفر منه . وبعـض حروب العرب او ايامهم تفهم اسبابها عـلى ضوء ضيق الحياة الاقتصادية .

ب ــ ثم الاغارة على مراكز الاستقرار والحضارة لاخذ ما يحتاج اليه البدوى ، واحيانا اخـــرى كانت الغارات توجهها قبيلة ضد اخرى مجاورة او بعيدة لنفس الهدف ، ويصور ذلك شاعر قديم بقوله :

أغرن من الضباب على حلال
وضبة انه من حـان حانـا
واحيـانا على بكـر اخينـــا
اذا ما لم نجد الا أخـــانـا

وبين العرب من يغيرون وهم فى غنى ويسر ــ وهم فرسان العرب او فتيانهم او الصعاليك ــ

الذين يأخذون من الموسرين ، ويعطون للمعسرين

ج - وحراسة القوافل التجارية ليلا فى مجاهل الصحراء ، والدفاع عنها ضد المغيرين وارشاد رجالها الى المسالك والدروب كانت وسيلة للكسب ايضا .

اما المستقرون فى الواحات والتهائم فقوام حياتهم :

الزراعة - ثم الصناعة والتجارة ايضا .

ولما كانت الزراعة موردا لا يفى بحاجة السكان الذين يتكاثرون - كانت تحدث الهجرة ، اختيارا ، فاذا اجتاحت البلاد موجة الجفاف ، اضطر الناس الى الهجرة بحثا عن مجال حيوى للعيش .

وقوام حياة سكان المدن الحجازية :

أ - التجارة الداخلية - وتكون فى داخل المدن ، او فى الاسواق الموسمية التى تجمع القبائل من كل ناحية فى اوقات يحرم فيها القتال ، ومن ذلك سوق عكاظ - بين مكة والطائف - وكان يعقد فى شهر ذى القعدة وهو من الاشهر الحرم .

وللاسواق العربية مظهر اقتصادى وثقافى ايضا .

والاسواق والكعبة فى مكة ، ومجمع آلهة العرب تعتبر عناصر للوحدة بين عرب شمال الجزيرة قبل الاسلام - قارن ذلك بأثر النبوءات واثر البحر ، ومجمع آلهة اوليمبوس فى حياة الاغريق القدامى) .

وهذه العناصر هى سبب ما تمتعت به مكة وسكانها قريش من مكانة فى نظر القبائل العربية قبل الاسلام .

ب - التجارة الخارجية ، وبسبب ذلك - قام رجال قريش بدور الوسيط التجارى - مع مراكز الحضارة فى حوض النيل والفرات وفى منطقة بلاد الشام ، وفارس وبلاد الحبشة ايضا .

ولشهرة قريش : البطاح (الدواخل) والظواهر (اطراف مكة) بالتجارة مع الخارج،قيل ان اشتقاق الكلمة ، من التقرش وهو التجارة او التجمع من أجلها ، او للحصول على القرش .

وقد نوه القرآن بتجارة قريش ، واشار الى بعض رحلاتهم الخارجية ومنها رحلتان موسميتان

- رحلة الشتاء الى اليمن والجنوب العربى ،

- ورحلة الصيف الى بلاد الشام وما جاورها.

وفضلا عن ذلك :

كانت لقريش رحلات الى الحبشة للتجارة ، وبفضل هذه الصلات عرف الرقيق الاحباش فى بلاد الحجاز ، ومنهم طائفة عرفت بلقب : الاحابيش ، وكان دورهم حفظ الامن والنظام فى مكة ، وحراسة القوافل التجارية .

ومما له دلالة عن علاقة قريش بالحبشة ان اول سفارة قرشية لمكايدة الدعوة الاسلامية كانت اليها ، وقد رأسها عمرو بن العاص .

ولمعرفة الرسول (ص) بهذه العلاقة القديمة بين قريش والحبشة امر اصحابه بالهجرة اليها

حتى يكونوا فى مأمن من مضايقة اقربائهم وفى حماية النجاشى ملك الحبشة ، الذى رفض طلب قريش وتمسك بمبدأ حماية اللاجىء ، والمستجير والمضطهد فى دينه

وتجارة قريش كانت برية على شكل قوافل كبيرة (عير) تشبه الحملات العسكرية ، وتمثل سائر بطون قريش ، وتسير فى حراسة شديدة فى الصحراء ، او بمحاذاة البحر الاحمر ، وكان يقوم على حراستها عنصر «الاحابيش» سموا بذلك لان موطنهم الحبشة أصلا ، وقد اتخذوا مراكزهم في مكة ، بقرب جبل حبيش ، فيما يظن

واظهر فروع قريش فى ميدان التجارة الخارجية هم :

بنو عبد مناف ومنهم بنو عبد شمس وهم أصول دولة بنى امية ، ثم بنو هاشم وهم أصول واجداد محمد (ص) ، وكانت المنافسة بين هذين الفرعين شديدة قبل الاسلام ، واستمرت كذلك بعد ظهور الاسلام ، وموقف ابى سفيان من الرسول (ص) مثل موقف ابنه معاوية فيما بعد من على - يفسر على أساس المنافسة القديمة ، لذلك لم يسلم بنو عبد شمس وهم سادة واغنياء فى الجاهلية بالرئاسة لاقربائهم بنى هاشم عند ما بعث الرسول منهم .

وقد قاد ابو سفيان المعارضة ضد النبى (ص) وكان هو صاحب العير (القافلة) التى قدمت من الشام الى مكة واعترضها المسلمون (بدر الاولى) لكن ابا سفيان أفلت من قبضتهم بحيلة ، وقد تصدى لحماية عير قريش وخرج من مكة لتاديب المسلمين عتبة بن ربيعة جد معاوية لامه .. فكان ابو سفيان صاحب العير ، وعتبة صاحب النفير ، ومن ثم يقال على الخامل الشأن مثل عربى هو - لا فى العير ولا فى النفير -

وكان لابى سفيان ضياع واموال خارج الحجاز بسبب نشاطه التجارى وقد ورثها عنه ابنه معاوية .

كما سافر عمر رضى الله عنه قبل الاسلام الى مصر تاجرا ، ومثله ابوطالب الذى سافر الى الشام .

وقد اشترك محمد (ص) قبل بعثته فى الحركة التجارية الى بلاد الشام مرتين ، وكان فى المرة الاولى صغيرا مع عمه ابى طالب . وفى بصرى من ارض حوران تعرف عليه راهب مسيحى يعرف «بحيراء وشاهد مخايل النبوة عليه فأوصى به عمه خيرا ، وكان فى المرة الثانية كبيرا ، وقد جاء بتجارة للسيدة خديجة بنت خويلد وذلك قبل ان يتزوجها .

وبسبب مركز قريش التجارى ، واهمية مكة كمحج للقبائل العربية فى الشمال ، حاول ابرهة (ابراهيم) الحبشى من مركزه فى صنعاء ان يصرف القبائل العربية عنها الى اليمن ويؤثر فى مركزها التجارى ، فكانت لذلك :

حادثة الفيل الفاشلة ضد مكة التى روى اخبارها القرآن : « ألم تر كيف . . »

واثناء هذه الحادثة ظهرت شخصية عبد المطلب جد الرسول دون غيره من قادة قريش .

وحادث الفيل الذى وقع قبل ولادة الرسول بسنة ، اصبح أهم الحوادث التى يؤرخ بها عرب الشمال حتى السنة 17 من الهجرة النبوية .

ولحرص قريش على مكانتها التاريخية وهيبتها بين القبائل :

عارضت فكرة انشاء محج للقبائل العربية (القليس ECCLESIA) فى صنعاء ، لان هدف ابرهة الحبشى كان اقتصاديا ، ودينيا أيضا .

كما عارضت الدعوة الاسلامية ، لانها ضد الاصنام والاوثان ، وهى معبودات العرب ، الذين كانوا يؤمونها فى المواسم للزيارة والتبرك وكان مركزها مكة المكرمة ، ومجىء القبائل الى مكة كان يدر ارباحا كبيرة على سكانها ، كما هو الشأن الآن .

وعارضت قريش هجرة الرسول (ص) الى المدينة ، وحاولت منع المهاجرين من تنفيذ الفكرة ، لان المسلمين من موقعهم فى المدينة المنورة التى توجد فى طريق القوافل التجارية المتجهة الى الشام سيصبحون قوة ضاغطة على قريش للاذعان ، وسوف يستطيعون ان يصيبوا قريشا بخسائر مادية محققة ، وذلك بالاستيلاء على أموال القوافل ، او برصد الطريق ومراقبتها وحصارها عند الحاجة .

ولان حادث الهجرة جعل المدينة فى مركز ممتاز من النواحى الدينية والسياسية والاقتصادية وهيأ للمسلمين موقعا يمكنهم فى المستقبل من فرض حصارهم الاقتصادى،ومن املاء شروطهم على قريش مكة الوثنيين ، ولشعور هؤلاء بان زمام الامور قد بدأ يفلت من ايديهم وقد يأتى بنذر الشر فى القريب ، بدأت مقاومة قريش تأخذ شكلا حادا وعنيفا وذلك بالتعاون مع وثنيى العرب ويهود الحجاز ، فكانت سلسلة الغزوات المشهورة .

ولم تهدأ مقاومة قريش ولم يعترف زعماؤها بالامر الواقع فى الحجاز ، الا عشية فتح مكة وهدم الاصنام ، واعلان هذه المدينة العظيمة بلدا حراما مقدسا ، يتمتع سكانه بالعفو العام .

وعلى عكس ما كان يعتقده زعماء قريش فقد احتفظت مكة فى ظل الاسلام ، بمكانتها وبهيبتها وبمركزها التجارى ، كما اصبح سكانها وهم «الطلقاء» مع سكان المدينة والطائف جنود الدعوة الاسلامية ووقودها فى انحاء شبه الجزيرة .

ثم فى ارض الهلال الخصيب ، وفى وادى الرافدين وحوض النيل ، وفى ارض فارس وافريقية أيضا



نافذة على العالم

اعداد
ن . شوربجي

« ابادة المسلمين فى الفيليبين »

عندما أعلن الرئيس فرديناند ماركوس الاحكام فى الفيلبين فى شهر سبتمبر من السنة الفائتة، توقفت مؤقتا واحدة من اسوأ الحروب القذرة التى عرفها العالم . وهى حرب السنوات الاربع التى تدور رحاها بين المسلمين والمسيحيين فى جزر ميندناو وسولو . وحسب الاحصاءات الرسمية يقال انه تم فى المعارك التى نشبت فى جنوب البلاد الفيليبينية قتل ثلاثة آلاف مواطن ، وجرح

وتشريد حوالى نصف مليون نسمة ، كما هدمت مئات القـــرى ، وذهبت مبانيها طعمة لنـــيران المشاعل ·

وفى الواقع لم تنته الحرب ضد المسلمين رغـم اعلان الاحكام العرفية ، اذ تبين ان الاحـــكام العرفية التى أعلنـــها الرئيس الفيلبينى جاءت لتوقف صراعا قديما ولتخلق صراعا جديدا ·

فقد وجد المسلمون انفسهم الآن مضـــطرين لمتابعة النضـــــال ضد قطعات جيش الفيلبين النظامية بدلا من مصارعة المستوطنين المسيحيين المتدفقين عليهم ·

وقد ارسل رجال الجيش الى مناطق الحـــرب بحثا عن الاسلحة (الغير مشروعة) ، ولاعتقال زعماء الجزر المذكورة الذين يقودون حــــــركة استقلالية تنتشر بسرعة · وعندما احتدمت نيران المقاومة من جديد ، دعا الرئيس ماركوس مـرة أخرى لايقاف اطلاق النـار وعرض على المسلمين مراوغا شروطا جديدة للسلام ·

تتميز جزيرة ميندناو بأنها تقع فى الجنـــوب الاقصى من جزر الفيلبين ، وتضم اكثر من مليونى مسلم يشكلون الآن حوالى ثلث سكان الجزيرة · ويتميز المسلمون فى هذه الجزيرة وبفخر بأنهـم لم يخضعوا قط من قبل لغاصب : سواء من قبل المستعمرين الاسبانيين خلال قرون الاســـتعمار التقليدى ، أو من قبل الامريكيين خلفاء الاستعمار الاســـبانى فى المنطقة ، أو من اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية · ولم يتعرض المسلمون فى ميندناو الى خطر اجنبى يهدد وجودهم ومجتمعاتهم مثلما يتهدد الآن وجودهم على يد مواطنيهم الذين ينتسبون مثلهم الى نفس الجنس ، ولكنهم يختلفون عنهم فى العقيدة · اذا اندفع المسيحيون نحـــو الجزيرة قادمين من مناطق الشمال المكتظة منــــذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، بحثـا عن أراضى يستغلونها فى اقصى حدود البلاد الجنوبية · وما لبث الوافدون الجدد ان اقصوا سكان الجـــزيرة الاصليين من الفلاحين المسلمين الذين لم يكونوا متعودين على مفهوم « عقود التملك » ،ودفعوهم تدريجيا عن أفضل حقول الارز فيها ·

نشب الصراع عام 1969 بعد ان تنبه المسلمون الى الخطر المحيق بهم · اذ وجدوا انفسهم قد غدو بين عشية وضحاها أقلية بالنسبة للمســـيحيين الوافدين ـ فى منطقة يعتبرونها ملكا لهم · لذلك بادروا للدفاع عن أنفسهم مستعينين بعصـــابات أطلق عليها اسم « باراكودا » و « القمصـــــان السوداء » · وقابلهم المســـيحيون بضربات من عصاباتهم المعروفة باسم «ايلاجا» أى (الجرذان) ·

لم يكن اى من الفــــريقين المتقاتلين يعترف بقوانين او برجال القانون لدى الفريق الآخر · فالمسيحيون ادعو بأن الشرطة التى كانت تتضمن عددا من المسلمين ، كانت تعطف على الثائرين · وبالمقابل ادعى المســـلمون بان جيش الفيلبين المؤلف من المسيحيين يؤيد عصابات المسيحيين ·

لذلك لا عجب أن رد المسلمون بعنف على قوات الجيش الفيلبينى ، عنـدما ارســـلها الرئيس ماركوس للبحث عن الاســــلحة لدى الثـــوار ومصادرتها . وقد قام الجيش بضرب الثـــوار

المسلمين بكل عنف ولم يتورع عن استخدام الطائرات النفاثة ضدهم خلال احدى المعارك التى نشبت فى جزيرة جولو فى شهر ديسمبر الفائت ٠

وكما تقدم أمر الرئيس ماركوس الجيش بايقاف الهجمات ، وعقد مؤتمرا ضم 300 من قادة المسلمين ٠ وقد اعترف بان بعض الظلم قد الحق بجماعاتهم ٠ كما تقدم « بعفو مشروط » لرجال الثوار الذين ما زالوا معتصمين فى الهضاب ، وببرنامج واسع للمساعدة الاقتصادية لمساعدة فلاحى وصيادى الاسماك فى المنطقة ٠ ورغم هذه العروض لم يتقدم الثوار حتى الآن برد على مقترحات رئيس الدولة ٠ والظاهر ان الرئيس ماركوس قد تقدم بعروضه وهو تحت تأثير ضغوط عديدة وبأمل الوصول الى تسوية للصراع ٠ وكان عليه ان يتحرك بحذر خوفا من أن يثير جيرانه المسلمين ، الذين يشكلون اكثرية فى كل من دولتى ماليزيا واندونيزيا من جهة ، وليتجنب الحرب على جبهتين بآن واحد من جهة أخرى ٠ فجيش حكومة الفيلبين يحارب قوات اليساريين « جيش الشعب » الذين ثاروا فى شمال البلاد ، وقاموا بشن حرب عصابات فى مقاطعة ايزابيلا فى جزيرة لوزون ٠

لم يؤد اعلان الاحكام العرفية الا الى اثارة نقمة المسلمين ٠ فكان كالزيت يصب على النار ، ويزيد فى استبسال المسلمين واصرارهم على الدفاع عن حقوقهم . وفى جزيرة جولو يسيطر المسلمون على ثلثى المنطقة ، ويتوزع قناصتهم فى كل مكان ، وضمن أشجار النخيل . ويتميز هؤلاء بدقة اصابتهم للهدف حتى من مسافة بعيدة ٠

واستطاع القناصة فى سولو اسقاط ثلاث طائرات للحكومة خلال الاشهر الثلاثة الماضية ٠ وتجيب قوات حكومة الفيلبين على مقاومة المسلمين بكل عنف ٠ وما ان يشتبه بوجود قوات المسلمين فى منطقة حتى يعلن الجيش انها منطقة مباحة ، يطلق فيها النار على كل انسان : مدنيا كان ام عسكريا ٠ وقد ذهب مؤخرا فى جزيرة جولو 200 مواطن مسلم ضحية نار الجيش ، وقصف قطع البحرية للمنطقة بالمدفعية ٠ ويعمد جيش الفيلبين ايضا الى اخلاء المناطق من سكانها ٠ وبذلك تم اجلاء حوالى 14,000 مواطنا منهم فى سبعة عشر مخيما للاجئين اقيمت فى جزيرة بازيلان ٠

أما العفو الذى اعلنه الرئيس ماركوس فى 10 جانفى فانه يشترط على الثوار ان يسلموا سلاحهم حتى أجل أقصاه 28 فيفرى ٠ ولكن ثائرا واحدا لم يتقدم حسب اعتراف الجيش حتى الآن ليستفيد من العفو المزعوم . وهناك قول مأثور فى جزيرة ميندناو بأن المسلم قد يتخلى عن زوجته قبل ان يتخلى عن سلاحه . وينتظر الجيش انتهاء مهلة العفو حتى يتابع حملته ضد الثوار الذين لم يتوقف قناصتهم يوميا ، ومن الصباح الباكر عن اصطياد رجال الجيش الفيليبينى ، واجبارهم على ملازمة الخنادق والاوكار ٠ ويعترف المراقبون بأن الثوار المسلمين وخاصة «التوسوج» منهم ، مقاتلون اشداء خبيرون بفنون القتال ، وجيدو التسليح ٠ ينطلقون الى اهدافهم فى زمر

صغيرة تتألف من ثلاثة مقاتلين ، يحمي كل منهم الآخر خلال الادغال . ويحرصون على نقل جثث واسلحة رفاقهم القتلى او المجروحين . ومما يدعو للدهشة انه لم يقع ثائر واحد منهم أسيرا في قبضة الاعداء ، كما لم يعثر على جثة شهيد منهم في ساحة المعركة حتى الآن . ومع ذلك فان نسبة الاصابات كانت مرتفعة بين المتقاتلين . ويعترف الناطق العسكري الفيليبيني بان الجيش فقد حوالى 50 جنديا من جنوده خلال القتال ، بينما يدعي الثوار المسلمون بأنهم قتلوا حوالى 200 جنديا من الاعداء .

ورغم ضراوة القتال يحرص المسلمون على القتال الشريف . فيعترف الكولونيل الفونسو الكوسبا قائد القوات البرية هناك ، بان هؤلاء القوم « يعاملون عدوهم بشهامة في ميدان المعركة ، فلا يمثلون بجثث القتلى ، ولا يدنسونها » .

علم الاجتماع :

آثار اكتظاظ البيئة على حياة الانسان

لعل من أبرز مشاكل مجتمعات القرن العشرين تزايد عدد افراد الجنس البشري ، وتكاثفهم في بيئات معينة ، وخاصة في البلدان الصناعية . وهناك اصبح الناس يعيشون متلاصقين الى درجة فاقت الحد الطبيعي . ولدراسة هذه الظاهرة المقلقة ، عمد العلماء الى اجراء التجارب على الحيوانات أملا في تحديد النتائج المأساوية لضيق مجال العيش .

من بين هذه الابحاث تجربة قام بها عالم الحيوانات الدكتور فون هولست في معهد علم الحيوان في جامعة مونيخ . وقد اختيرت حيوانات السنجاب لاجراء التجارب عليها . كانت السناجيب المضحكة الصغيرة الحجم تعيش بسلام في القفص الكبير . تتبادل بسرور التحية عن طريقة اللحس باللسان ، وخاصة عندما يقابل الابوان صغارهم ، أما الام فقد حرصت على زيادة النسل بشكل منتظم . فكان عدد الاسرة الصغيرة يزداد كل ستة اسابيع بولادة سنجابين صغيرين وسطيا .

غير أن الحياة الهادئة ما تلبث ان تتغير في القفص ، وذلك عندما نمت أول أنثى في العائلة ونضجت . ومع ذلك بقيت الام تنجب كالسابق نسلا جديدا وبشكل منتظم . ولكن النسل الجديد كان قصير العمر . فما ان تمضي ساعات قليلة على ولادة السناجيب الجديدة حتى تلتقط الام اولادها من العش وتفترسهم .

كتب العالم فون هولست نتائج ابحاثه في « مجلةالعلم والتكنيك » الالمانية بعنوان « السلوك الاجتماعي والاجهاد الاجتماعي لدى حيوانات التوباجا » . وتعرض لآثار هذه الظاهرة الفريدة : أي حمايةالذات في وقت مبكر تجاه خطر تزايد عدد الجماعة التيتعيش في نفس البيئة . وقد توخى الباحث الاجتماعي - النفساني وزملاؤه من أبحاثهم ان يتبينوا : « متى وبأي طريقة تتحول الحياة لدى جماعة من جنس واحد الى عبء متبادل على افرادها . وقد اختار

الباحثون حيوانات التوباجا لهـــذه التجـــربة لسببين :

1 ـ الاستعداد الطبيعي لدىحيوانات‌التوباجا وقابليتها للتأثر من الاجهاد .

2 ـ امكانية مراقبة المظهـــر الخارجي لهـــذه الحيوانات ، والتعرف بواسطتها فيما اذا كانت الحيوانات موجودة تحت تأثير الاجهاد ، وبالتالي قياس آثار الاجهاد .

وهذا هو وضع حيوانات التوباجا التى تتميز بأنها نموذجية فى كونها « لا اجتماعية » حسب تعبير فون هولست ، والتى غالبا ما تعيش بشكل زوجين ، فيكون عبئا عليها ان تقابل غـــرباء من نفس جنسها . وحيوانات التوباجا تتحسس بكل تعكير يطرأ فى بيئتها : مثل الضوضاء الفجائية ، او تنسم رائحة غريبة ـ فتسبب لها اجهادا .

يمكن رؤية هذه الحالة من الاجهاد النفســانى عند سناجيب التوباجا بشكل واضـــح ، حيث تظهر الاعراض على ذيل الحيوان : فينتفش شعر الذيل ، وينتفخ فى حالة الاجهاد والتهيج ، أمـا فى الحـــالة الطبيعية فان الذيل أملس رفيع . وهكذا استعان العلماء الباحثون بظاهرة مرئيـــة على ذيل الحيوان ، واستخدموها مقياسا للمـــدة التى يستغرقها تعرضه للاجهاد .

سرعان ما تبين للباحثين بنتيجة الملاحظة ، بان التعرض للاجهاد يتولد عنه‌نتائج متنوعة ، ولكنها ذات أثر بعيـــد . فأنثى التـــوباجا كانت تغدو وتتسلق أثناء تعرضها للاجهاد ، وذيلها منفوش الشعر طيلة 50٪ من الوقت الذى كانت فيه تحت الدراسة . لذلك لم تعد البويضات فى مبايضها صالحة للاخصاب . وبالمثل تبين للباحثـــين بان ذكور التوباجا لا تعود صالحة للانجاب عنـــدما تتعرض طيلة 70٪ من وقت الدراســـة الى حالة اجهاد .

كذلك تبين انه عندما تتجاوز مـــدة التعرض للاجهاد عشر ساعات فى اليوم ، يؤدى التهيـــج الطويل الامد الى كارثة . فسرعان ما تســـمن الحيوانات ويزداد وزنها ، ثم تصاب بعد عـــدة ايام بتقلص فى العضلات وبشلل ، ثم تدخل فى اغماءة تنتهى بالموت .

حاول الباحثون ان يتعرفوا على السبب المولد لهذا التهيج ، فتوصلوا الى انه ناتج عن « تأثير ازدحام غير محدد » ، يحدث دوما عنـــدما يزداد عدد افراد اسرة التوباجا الى حـــد كبير . فيفقد ذكور هذا الحيوان واناثه من قوة الاخصاب بفعل الاجهاد ، وتبدأ الاناث بافتراس نسلها .

من جهة اخرى يتحدث الباحثـــون عن سبب آخر للتهيج يعرف‌باسم : « المؤثر السوسيولوجى ـ النفسانى » فحيوانات التوباجا تتعرض‌للاجهاد المستمر عندما تضـــطر للعيش خلافا لارادتها ـ وعلى مرآى عينها ـ مع نظير لها من نفس فصيلتها ولكنها ليست ندا له .

هنالك مثال‌نموذجى يقدمه العالم‌فون هولست للحالة الاخيرة‌فقد وضع ذكرين من ذكور التوباجا فى قفص واحد ارتفاعه 60 سنتمترا واتســـاعه

مترا مربعا • فما لبث القتـــال ان نشـــب بين الفريقين المهتاجين ، وكان هدفه تحديـد الاقوى بينهما • وانتهت المعركة خــــلال ثلاث دقائق بانتصار احد الخصـــــمين وهزيمة الآخر • ولم تمضى عشرة دقائق حتى هدأ المنتصر ، وسبلت شعرات ذيله ، وعادت ملساء كالسابق • امـا السنجاب المهزوم فقد قبع مختبئا وشـــعر ذيله منفوش باستمرار ، يراقب بعينيـه كل حركـة من حركات خصمه المنتصر • ولم يهدأ المهزوم الا عندما أدخل الباحثون جدارا حاجزا (غير شفاف) فصل بينه وبين غريمه . وعندها عاد المهزوم بعد انتـــهاء الصراع الى هدوئه بنفس السرعة التى استغرقها المنتصر للعودة الى الحالة الطبيعية •

من هذه التجربة الاضافية اســـتنتج علماء الحيوان بأن « رؤية » الخصـم المنتصر ، وليست « رائحـــة » المنتصر المكروه ، هى التى تعرض الحيوان المهزوم لحالة اجهاد Stress •

أو بكلمات أخرى : هى التى تقود الحيوان المهزوم الى الموت قهرا • وفى جميع التجـــارب المماثلة ماتت الحيوانات التى عرضت للاجهاد بعد عـــدة أيام : بسبب عجز الكليتين عن العمل ،

أخيرا يعتقد العالم فون هولست بأن علاقــات السيادة الشخصية هذه يوجد مثلها لدى افـراد البشر ــ وهى بالاضافة الى التعايش فى مجـال ضيق جدا ــ لا تؤثر فقط على كليتى حيـوانات التوباجا التى أجرى الاختبار عليها فحسب ، بل أن أعراض الاجهاد تظهر بشكل عام لدى الحيوانات الثديية : بما فى ذلك الانسان نفسه .

الطب :

عصر الفيتامينات

لم يمضى زمن طويل على اكتشـــاف العلماء للفيتامينات ، بأنواعها الوفيرة حتى غدت تحتـل مكانا هاما فى عالم الطب .وقد زادت اكتشافات العلماء والاطباء فى العصر الحاضر من قنـــاعة الناس بان الفيتناميات تشبه اكسير الحياة : فهى تؤمن للجسم البشرى الحماية من كثير من الامراض من الروماتيزم الى الشلل ، ومن العمى الليـلى الى التهاب البلعوم ومجارى التنفس ، من التعب العضلى ومن الضعف الجنسى . . وغيرها كثـير . وفى كل عام يوسع الباحثون مدى ومجــــالات استخدام الفيتناميات ، حتى شملت مثلا أمراض السرطان ، لان بعض الاطبـاء رد بعض اسباب نشوء هذا المرض الى نقص فى الفيتامنات .

وحتى عهد قريب كان العلماء يجمعون الرأى بأن جسم الانسان لا يحتاج الا الى كميات قليلة من الفيتامين ، لكى يمكن صيانتـه من الامـراض الناشئة عن قلة توفر الفيتامين فى الجسم .

وفى الحقيقة يحتوى غذاء الاصحاء كميـــات قليلة من الفيتامينات ، وتؤكد الكتب المقـــررة لطلاب الطب بان كميات قليلة من الفيتامنـات التى تزيد عن حاجة الجسم الطبيعية يوميا الى هذه المواد ، تبقى اما عديمة التأثير او انهـــا تؤدى على الاقل فى بعض زمر الفيتامينات ــ الى آثـار ضارة .

الا ان هذا الرأى الذى كان معمما فى الطـب المدرسى ، يتزعزع اليوم . فالعدد الوفير والمتزايد من الباحثين يميلون الى القناعة بان هناك قـوى

شفائية معينة توجد فى الفيتامينات ، يمكنهـا ان تلعب دورا فعالا اذا اعطيت للمريض يوميـا بكميات مرتفعة جدا — يرمز لها باصطـــلاح Mégavitamine يتجاوز احيانا المقدار المألوف سابقا بحوالى الفى مرة .

نادى بفكرة اعطاء الفيتامينات بكميات مرتفعة ومركزة الكيماوى الامريكى لينوس باولينـــــغ L. Pauling قبل عدة سنوات . وكان اول من يبشر بالمذهب الجديد . وقد اهلته ابحاثـه خلال 71 سنة للحصول على جائزة نوبل . وفى عام 1970 نشر باولينغ بعض النتائج التى توصل اليها فى مضمار الفيتامينات فى كتـاب علــمى مبسط للشعب عنوانه : «فيتامين ث والرشح » فأثارت اهتمام القراء ، غير ان الاخصائيــــين قابلوها بالهزء . ويؤكد العالم باولينغ فى ابحاثه فكرة جديدة مفادها انه لا توجد كمية معينــــة محددة لحاجة جسم الانسان اليومية الى فيتامين ث . بل ان حاجة الجسم من الفيتامين المذكـور تتصاعد وتزيد الى حد كبير فى حالة الاصـــابة بمرض معدى : كالاصابة بالرشح ، لان الفيتامين ث يلعب دورا حاسما فى اعداد المواد الدفاعيـة التى ينتجها الجسم لحماية ذاته . ويعتقد العالم باولينغ ان الاطباء الاخصائيين كان باستطاعتهم شن حملة ناجحة ضد امراض الرشح منذ زمـن طويل لو انهم مارسوا معالجة المرضى بجرعـات ضخمة من فيتامين ث ، ولو انهم اتبعوا هــذه الطريقة منذ زمن طويل لكان بامكانهم طــرد امراض الرشح والتهاب القصبات مرة والى الابد من الارض ، مثلما تم فى السابق تطهير الجزيرة البريطانية من مرض الجدرى . ولكن الاخصائيين أضاعوا هذه الفرصة ، حسب رأى باولينغ .

تلقى الاخصائيون هذا التوبيخ دون انيدافعوا عن انفسهم تقريبا ، فعلى الرغم من كل التقـدم الذى تم فى السنوات الاخيرة فى ميدان البحـث العلمى ، لم يتمكن الاخصائيون خلال هـــذه الفترة الا من تلمس خطواتهم خـــلال متاهـــة الكيمياء العضوية الطويلة . وتوقفوا عند المشارف الامامية لهذه المتاهة حيث يضيع اثر الفيتامينات

من الواضح ان الجسم البشرى لا يستطيـع ان يركب بنفسه الفيتامينات ، بل يحتـــاج لان تدفع اليه من الخارج باستمرار.وهذه الفيتامينات تلعب فى عمليـة تبادل المـواد العضويـة دور المستقطبات . فهى على سبيل المثال تشعل وتوجه التفاعلات الكيمائية العضوية فى ميدان هرمونات الجسم : سواء لتركيب الدم ، او لبناء انسجـة الجسم . وبما ان طريق البحث فى ميـــــدان الفيتامينات حافل «بالاجوبة التى يبحث المختصون عنها ، وبالاسئلة الجديدة التى يجـابهونها » ، نجد الاطباء المختصين لا يميلون الى تأكيد نظريات العالم باولينغ ، ولا الى نقضها . ومع ذلك قـام عدد منهم بمحاولة لفحص ادعاءاته . وبنتيجـة الابحاث توصل فريق من العلماء فى تورنتـــو (كندا) الى اعلان نتائج محاولة كبيرة قاموا بها. ويستخلص منها انه فى حالة اعطاء كميـــات ضخمة من فيتامين ث فان الامراض المعديـــة لا يندر حدوثها ، ولكنها اصبحت خفيفة الوطـأة

على المرضى ، ويشفون منها بسرعة . وكان العالم باولينغ اوصى باعطاء المريض كمية تتراوح بين ملليغرام الى اربعة ملليغرامات من فيتامين ث يوميا عند اصابته بالرشح . علاوة على ذلك ، اكتشف الكيمائيون العضويون فى ولاية تكساس بان حاجة الجسم الى هذا الفيتامين تختلف بشكل مدهش من فرد الى آخر ، وان هذه الحاجة مرتفعة اكثر مما كان العلماء يتصورون سابقا .

أخيرا ادت نتائج الاختبارات فى هذا الميدان، وخاصة فى الولايات المتحدة الى قيام حركة تتجه الى تعاطى الفيتامينات بكميات ضخمة «ميجافيتامين» ويدعو انصار هذا الاتجاه الى معالجة المرضى عن طريق «تركيز مثل هذه المواد» التى توجد عادة فى الجسم البشرى كالفيتامينات مثلا . وهو مفهوم ابتدعه العالم باولينغ واصبح يعرف باسم Orthomolekularemedezine واستنادا لذلك يوصى مؤيدو هذه الطريقة فى الطب ، اعطاء «كوكتيل» مركز من الفيتامينات . فيعطى الفرد غالبا مزيجا من فيتامين ث وفيتامين ب3 فى حالة تعرضه للاضطرابات النفسانية كانفصام الشخصية «الشيزوفرينى» . كذلك يوصون باعطاءه لمعالجة المدمنين على الكحول ، وللاطفال المصابين باضطرابات فى التعلم ، وللمرضى بالسكر . وقد افتتح فى ولاية كاليفورنيا عيادة طبية تعتبر الاولى من نوعها بين المستشفيات الحكومية فى الولايات المتحدة ، يتم فيها معالجة المرضى بالطريقة الجديدة . ومع ذلك لم يؤد تأسيس هذه العيادة الى تبديد شكوك غالبية الاطباء . وعلاوة على وجود ثغرات علمية ما تزال قائمة فى اسس طريقة المعالجة الجديدة بالفيتامينات ، ينبه الاطباء الى ناحية هامة تتناول الجانب العلمى فى الطريقة الجديدة ، وهى استحالة تركيب وصفة الفيتامينات المناسبة لكل مريض على حدة . اما العالم باولينغ المبشر العبقرى بطريقة المعالجة بالفيتامينات ، فان انتقادات الاطباء لم تفت من عزمه ، بل انه يجيب مدافعا عن نظريته « طالما ان المعالجة بالفيتامينات لا يقترن بها اى خطر ، فانى انصح كل طبيب، ان يجرب هذه الطريقة » .





من الصحافة

على اثر العدوان الاسرائيلي الاخير على بيروت واغتيال بعض القادة الفلسطينيين في ديارهم ، كتبت جريدة «الشهاب» اللبنانية بامضاء «حنظلة» هذا التعليق :

تلقى لبنان العدوان بصدر مفتوح ٠ فقد جاب المعتدون شوارع بيروت من شمالها حتى جنوبها ، من الاوزاعي الى فردان ٠ ومن الرملة البيضاء الى الدورة ، وخلفوا وراءهم وصمة عار على كل من في هذا البلد ٠٠ بل لقد شرع كل مواطن يتحسس موطىء قدمه : اليس بالامكان ان يكون هو الضحية في مرة قادمة ، سواء كان في شمال لبنان او جنوبه او في عاصمته الساهرة اللعوب بيروت ؟ !

أسئلة حيرى مخزية تطرح نفسها ولا تجد الاجابة ٠ هل كان المعتدون في طائرات فانتوم ام يسعون على الارض ويركبون السيارات السياحية ٠ هل كانوا مسلحين بصواريخ هوك الامريكية ام بمجرد الاسلحة الخفيفة المعتادة؟! ما الذي جعلهم يضربون ضربتهم دون ان يتحسبوا لسلاحنا الذي يستطيع ان يردعهم او للرجال الذين يستطيعون استعمال السلاح ؟ !

لقد وقفوا على حقيقة واحدة ، هي ان العرب قد اهملوا اتقان صناعة الموت ، وان ما وصف به القرآن اليهود قد انتقل الى العرب « **ولتجدنهم احرص الناس على حياة ٠ يود احدهم لو يعمر الف سنة ٠٠**» وما دام الناس لا يريدون ان يموتوا فلن توهب لهم الحياة ، حتى ولو بقيت فيهم دماء تتدفق وعروق تنبض ٠

جريدة «الشهاب» اللبنانية :

وكتب السيد فتحي يكن في نفس الجريدة تعليقا حول الاوضاع الحاليه في البلاد العربية جاء فيه :

« ... وقد لا يكون هناك من تفسير لهذه الاوضاع الشاذة التي تعيشها الامة الا ما يكاد يصل الى درجة اليقين عند نا وهو «ان الصهيونية تخطط ، والاستعمار يضغط ، وبعض العرب ـ ان لم اقل جلهم ـ ينفذون ! ! »

ولقد آن للامة ان تفيء الى رشدها وان تكشف من كانوا ولا زالوا سبب شقائها وبلائها ...

لقد آن للحس الديني ان يستيقظ فيها ، ويصبح ملاك امرها وقاعدة تصورها وتصرفها ، في وقت يتضاعف هذا الحس لدى اعدائها وتعتمده اسرائيل ـ دون غيره ـ لدفع الحركة اليهودية العالمية ، وتجنيد قواها وامكاناتها لخدمة الصهيونية في فلسطين .

لقد آن لجماهير الامة ان تثور لكرامتها وعزتها ، وتعلن غضبتها على الجناة الادعياء الذين اوردوها موارد الهلاك ، حتى لا يقودها الى الذبح من جديد ، وحتى لا تتكرر المأساة .

اعذر من انذر

لم يكن من الصدفة ان تظهر بعض المذاهب المنحرفة في العالم الاسلامي وفي فترة واحدة وسنين متقاربة ، بل كل الادلة تشير الى وجود مخطط للقضاء على وحدة المسلمين الفكرية والسياسية ليتسنى للمستعمر دخول البلاد واستثمار الخيرات ، وهكذا كانت أساليب الاستعمار المتنوعة - فظهرت البهائية في ايران والقاديانية في الهند وغيرها في بلاد اخرى ، وكان الخطر البهائي من اهم ما حاربه علماء الشيعة في النجف الاشرف وقم المقدسة وغيرها من الحواضر العلمية ، وبداوا يطاردونها

ويلاحقونها وينبهون المسلمين الى زيفها وضلالها ، وقد بدا واضحا للعيان ارتباط هذه الفئة بالاستعمار من اتصالات القائمين عليها بالاسياد وخاصة حينما اتخذوا اسرائيل مقرهم الذى فيه يعقدون محافلهم ومؤتمراتهم ليؤكدوا ارتباطهم بالصهيونية العالمية .

ومن المؤسف انهم حاولوا التغلغل في بعض البلاد العربية والاسلامية فاثاروا الاعتراف بهم رسميا فى لبنان ، ولكن جهود المخلصين الغيارى قضت على لعبتهم ، ومما تجدر الاشارة اليه هنا الرسالة التى ارسلها آية الله العظمى السيد شريعتمدارى الى رئيس الحكومة اللبنانية بواسطة سفير لبنان فى طهران منبها ومحذرا من هذا العدو الجديد .

كما وصلت أنباء عن تسرب بعضهم الى امارات الخليج وكذلك الى المملكة السعودية ، واندونيسيا ، واننا نرى من واجبنا ان نوجه هذه الصرخة الى من يهمهم أمر هذه الامة وخاصة العلماء الاعلام ليقوموا بدورهم فى كشف حقيقة هذه الفرقة الضالة وبيان زيفها واباطيلها أمام الناس جميعا لتكون الامة فى مأمن من الانزلاق فى أحابيلها ولئلا تقع فريسة للصهيونية الحاقدة التى لا تفتا وبكل الوسائل من القضاء على كياننا وتمزيقنا بتمرير مخططاتها الجهنمية . « وقد اعذر من انذر » .

عن مجلة الهادى ـ ايران

بل نحن التقدميون وانتم الرجعيون

كتب الاستاذ صالح جودت نائب رئيس مجلس ادارة «المصور» ورئيس تحرير مجلة «الهلال» فى مجلة «المصور» المصرية مقالا بعنوان : «بل نحن التقدميون وانتم الرجعيون» نقتطف منه هذه الفقرات للاطلاع عليها :

بل نحن التقدميون وانتم دعاة الثورة المضادة الجديدة ، هؤلاء يسمون انفسهم بالتقدميين ، ويقولون اننا رجعيون !

ـ من الرجعية عندهم ، ان يؤمن الانسان بالله عز وجل لان « انبياءهم الجدد » احق عندهم بان يتبعوا ، ولان الدين ـ فى عرفهم ـ افيون الشعوب !

ـ من الرجعية عندهم ، ان يؤمن الانسان بالتراث ، لان التراث نقيض لحضارة العصـــر الذرى ، وانه يصرف المثقفين عن قراءة ماركس وانجلز ، ويشغلهم بقراءة مقامات الحريـــرى والمعلقات السبع !

ـ من الرجعية عندهم ان يحرص الانسان على قوميته ، لان العصر لا يحتمل فكرة القوميات، لانه عالم بغير حدود

ـ من الرجعية عندهم ان يتمسك الانسان بالاخلاقيات ، لان الاخلاقيات مسالة تشكلهـــا اديان معينة ، او قوانين معينة ، او دساتير معينة ، هم لا يعترفون بها . .وعلى هذا، فلتـــكن لكـل امرىء اخلاقياته التى يرتضيها لنفسه ، ولو لم يقرها الآخرون !

اقول لهؤلاء . . دعاة الثورة المضادة الجديدة ، الذين نفضناهم اخــــيرا وطهـــرنا ورق الصحف من غبارهم ، انهم هم الرجعيون ونحن التقدميون

نحن التقدميون ، لاننا اصحاب ايمان ، واصحاب ولاء ، واصحاب جهاد واستشهاد

ـ نحن مؤمنون بالله وبكتبه وبرسله ، ولهذا فنحن نقدس القيم . . اما الذين لا يعترفون بالقيمة العليا فى الحياة ـ وهى وجود اللـــه عز وجل ـ فتهون عليهـم سائر القيـم من فضيلة وشرف ووطنية

ـ ونحن اصحاب ولاء ..ولاء لمصر ، وللفكرة القومية ليس فينا واحد يحـــن لموسكـو او يدافع عن موقف واشنطن ، وليس فينا واحد استحـل لنفسه فى يوم من الايـــام ان يمـــد يده لدولة اجنبية يسالها لنفسه نفعا او يتسول منها دعوة . . وهم لا يعرفون هذه العفة!

ـ ونحن اصحاب جهاد واستشهاد . . نحن نشرع القلم كل اسبوع منذ عشرات السنوات ، نكتب من اعماق ضمائرنا ، نكتب ما نؤمن به ، ونرفض ان نكتب ما لا نؤمن به . . وقد احتملنـا ـ فى زمانهم ـ سنوات من الارهاب الفكرى سقط منا خلالها اكثر من شهيد ، دون ان تلين قناة وهم لا يعرفون هذا الصمود . .

ـ ونحن ـ لا هم ـ المثقفون

لقد احتكروا لفظة « المثقفين » لانفسهم فى السنوات الاخيرة ، والثقافة الحقة منهم براء

نحن الذين طلبنا الثقافة من مصادرها فى الجامعات ، ثم طلبناها من مراجعها الأصيلـــة ، منذ الجاهلية ، وعهود الاغريق والرومان والفراعنة ، الى اليوم . . والى ان نلقى وجه الله

اما هم ، فقوام ثقافتهم ، المنشورات الحمراء والصفراء التى توزع عليهم بالمجـــان ، وتتلى عليهم فى الخلايا ليرددوها بعقول كعقول الببغاوات ، مخيخاتها ثاوية فى آذانهم واثمانها تمــلا بطونهم . . »

امريـكا ·· تدعم روسيا اقتصاديا ! !
فهل يمكن ان تقف روسيا ·· ضد امريكا ؟

من انباء هذا الاسبوع ان امريكا الراسمالية (!!) قدمت لروسيا الشيوعية (!!) دعما اقتصاديا ضخما بلغ 8 ثمانية آلاف مليون دولار ··

وقبل قليل ·· حصلت روسيا من امريكا على صفقتين اقتصاديتين احداهما بثلاثمائة مليون دولار والاخرى بسبعمائة مليون دولار ·

وبذلك تكون روسيا ·· قد حصلت على 9 تسعة آلاف مليون دولار امريكى ·· فى فترة قصيرة ! !

وهذا الدعم الامريكى الضخم لروسيا ليس منفصلا عن احداث منطقتنا ·· ولا عن الطمع الدولى فيها ·

ففى مقابل هذه الاموال الهائلة ·· قدمت روسيا لامريكا تسهيلات وخدمات ···ضخمة ايضا ·

- اغراق فلسطين المحتلة بالمهاجرين اليهود السوفييت ·
- ان تعمل روسيا على ابقاء اليهود متفوقين عسكريا فى المنطقة ·· بمعنى ان تخدر العرب كثيرا بدعاوى الدعم المسلح ·· بينما تعمل فى الواقع على منعهم من بناء اية قوة عسكرية حقيقية ·
- تمكين امريكا من السيطرة على منطقة الشرق الاوسط ·· على ان يكون جنس الثمار من تصيب الدولتين معا ·· امريكا تقطف ثم تمنح روسيا نصيبها من الاموال فى شكل قروض او تعاون اقتصادى بين الدولتين !

فهل هناك مجال ـ بعد الآن ـ للمتاجرة بالدعم الروسى للعرب ؟

وماذا يقول الشيوعيون واليساريون العرب فى هذا التحالف الامريكى ـ الروسى ضد مصالح الشعوب !

انها دعوة حارة لكى يفيق هؤلاء من مخدرات الشعارات ·

ودعوة حارة ·· الى المسؤولين المخلصين ·· وشعوب المنطقة كلهـا ··· بان يكون الاعتماد على الله وحده ·· وعلى انفسنا من بعد ·

ان اعدادنا البشرية هائلة ·

وثروة العالم تكاد تكون تحت اقدامنا ·· وبين ايدينا ·

وموقعنا الجغرافى ·· موقع استراتيجى ممتاز ·

فعلام نعطى الدنية ·· فى عقيدتنا وانفسنا وبلادنا ؟

ولا ينبغى ان نخشى احدا ابدا ·· فان هؤلاء الطامعين ضعاف ياكلهــم الخوف والجزع ·

« ان تكونوا تالمون فانهم يالمون كما تالمون ·· وترجـون من الله مـا لا يرجون ··· »

مجلة المجتمع الكويتية

لبنـان • • والجنـون الجنسي

يشهد لبنان منذ سنوات ـ وفي غفلة من كل رقابة ـ جنونا جنسيا محموما . .
ففي عالم السينمـا تجتاحه افلام جنسية ساقطة تعرض لكل انواع الرذيلة والشـذوذ ..
وفي عالم الكتب والمجـلات تغطي اسواقه مؤلفـات عربية واجنبية غايتها الدعوة الى الرذيلـة بشتى اساليب الاثارة والاغواء . . وفي عالم الازيـاء تتزاحم فيه كل ما انتجتـه مواخير العالم من ملابس فاضحة مبتذلة

هكذا يبدو الجنس في لبنان وقد اصبح الشغل الشاغل للناس ، بل اصبحت ممـارسته والاغراق فيه غاية الغايات وقمة الامنيات للغالبية الساحقة من المواطنين ! !

وفي الواقع انه يستحيل السير اليوم في اية مدينة من مدن لبنان دون التعرض «للقصف الجنسي» اعلانات من كل حجم . . مجلات واغلفة مصورة افلام سينمائية صور معروضـة في مداخل علب الليل . نساء وفتيات يرتدين ثيابا او اشباه ثياب ؟ ؟
في كل يوم تطلع الصحافة اللبنانية على الناس باخبار « الجنس » . . . شبكات المتاجـرة بالرقيق الابيض الاعتداءات على الاعراض خطف القاصرين والقاصرات الخيـانات الزوجية اوكار الرذيلة والشذوذ . . الخ

هذا الجنون الجنسي المحموم الذي بدات طلائعه منذ سنوات كان حصـاد اوضاع وقيـم عقائدية وفكرية واخلاقية معينة
لم تكن هذه الظاهرة وليدة الصدفة ابدا . . وانما كانت نتيجة واقع وثمرة شجـرة وتغذت من هذا الواقع
كان حصول ذلك متوقعا ومنتظرا ، منذ اللحظة الاولى امتى بدا الفكر المادي يجتاح وجودنا .

منذ اللحظة الاولى التي انقطعت فيها الصلة بين الكائن البشري وبين الحقائق والمسلمـات الغيبية ، منذ اللحظة التي انكر الناس فيها وجود الله ، وبالتالي وجود ضوابط اخلاقية لحياتهم وعقوبات ربانية لتصرفاتهم ، منذ تلك اللحظة غدا الانسان حيوانا يعيش بغرائزه ولها ، ويحيا لنزواته وبها ، تعطلت فيه نوازع الخير واستيقظت لديه نوازع الشر . اصبح والشهوة اكبـر همه ، والدنيا مبلغ علمه ، اولئك كالانعام بل اضل سبيلا .

ان المسؤولية الاولى تقع على الاسس التي تقوم عليها حضارتنا . على النظـم التي تحـكم امتنا ، على القوانين المرعية في بلادنا .

ان جرثومة فناء هذه الاسس والنظم والقوانين في انها بشرية وضعية قاصرة عن استيعاب الحياة ومشاكلها المتجددة ، عاجزة عن احتواء الفرد ورعايته كانسان . . ان مشكلتنا في لبنان هي مشكلة الانسانية في كل مكان :
« نسوا اللـه ، فانساهم انفسهم »

للاستاذ فتحي يكـن
عن الشهاب

NO 14-15

عـدد خـاص

فهرس العدد

الافتتاحية

انما الامم...

احتفلت الجزائر منذ أسابيع قليلة بالعيد الحادى عشر لاستعادة استقلالها واسترجاع سيادتها بعد كفاح طويل .

وهى الآن بصدد اعادة البناء ، وتدارك قرون من الجمود والركود ، أعقبها أكثر من قرن وربع من الاستعمار القائم على الثلاثى المشؤوم ، الذى حدده أرسطو منذ أكثر من ألفى عام ، وهو الفقر ، والجهل ، والمرض .

واذا كانت الجزائر قد استردت حريتها وثرواتها المادية ، واذا كانت اليوم فى طريق التغلب على هذا الثلاثى المشؤوم ، فان هناك جانبا واحدا لم تستكمل فيه تحررها وانعتاقها ، وهو لا يقل أهمية عن أى جانب من جوانب البناء ، وهو الوجه الروحى الاخلاقى ، الذى هو الاسمنت الروحى للمجتمعات والامم .

فهو الذى يعزز ، بل يضمن وحدتها وتماسكها ، ويجعلها تتخلص من كل ما يكون قد علق بها من عادات سيئة مستوردة، وتحصن نفسها ضد كل غزو فكرى، يسترجع بيد ما سلمه بأخرى عن كره ومضض .

والجزائر فى هذا ليست وحدها من بين اخواتها . ولكن ليس هذا طبعا بعزاء أو تخفيف للنفس مما يحز بها من توجسات ، ويقضها من تخوفات ، من ان ينطبق عليها من قريب او بعيد ذلك البيت المعروف فى هذا السياق :


مساواة! وحرية! وتفتح على العالم الأوسع !
Egalité !... Emancipation! Ouverture sur le Monde, le Vaste Monde


BRASSERIE Du PROGRES
TIREZ
انفتاح وانبطاح... والشباب عماد المستقبل!
33 خبّاطة!

(انمـا الامـم الاخلاق ما بقيت فان هـم ذهبت أخلاقهـم ذهبوا !)

لقد أوضحت هذا كله باسهاب في جريدة المجاهد اليومية التى تصدر بالفرنسية بتاريخ 29 سبتامبر 1970 ، ويجده القارىء فى هذا العدد بلغته الاصلية (ويلخص معناه هذان الرسمان بريشة ابن شهيد يتيم الام) ، وخاطبوا الناس بما يفهمون !

وحيث ان هذه المصيبة عامة شاملة لمختلف ديار الاسلام ، ونحن فى ملتقى للتعرف على الفكر الاسلامى ، وهى التى تعانى ما تعانى بدرجات متفاوتة فى هذا المجـال ، فلتجد فيه جميع البلدان الاسلامية انذارا وتحذيرا ، ونداء وتذكيرا ، فكلنا فى الهـم شرق ، وليس بين بلداننا فى هذا فرق !

واذا لم توجد فى بعض البلدان الاسلامية هذه النماذج ، فقد رأينا أبناءها وبناتها هـكذا فى الخارج !

فالبناء المادى ، اذا لم يكن هناك حس حاد بالشرف ، لن يكون الا عملاقا من خزف! هكذا رسبت أمم قبلنا ، وعانيناه بأندلس ، والذكرى تنفع المؤمنين !

مولود قاسم نايت بلقاسم

منشورات

وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية

صدر اخيرا كتاب

الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامي باللغـة العربيـة

ويحتوي على خمسة مجلدات



انتظروا الترجمة الفرنسية كاملة



منهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر

د. أبو القاسم سعد الله

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

يذكر السيد بيربروجر ، اول رئيس (للجمعية التاريخية الجزائرية) ، ان الفرنسيين قد شرعوا فى ادخال نظمهم العلمية والادبية والفنية الى الجزائر منذ ١٨٣٠ . وتروى الصحيفة الرسمية (المرشد الجزائرى Moniteur algérien التى اسسها الفرنسيون سنة ١٨٣٢ ، انه قد وجدت آنئذ مدرسة للطب ، وجمعية خيرية تقوم بنشاطها فى (جامع السيدة) ، كما شرع فى انشاء مكتبة عمومية . ومن بين هذه النظم العلمية ايضا الدراسات التاريخية . ففى سنة ١٨٣١ اذن بيرتزين ، قائد الجيش الفرنسى ، للسيد شهافى الذى كان عالما اثريا ، بالتنقيب عن الآثار فى المنازل والحدائق العامة (١) .

وفى دراستنا لمنهج الفرنسيين فى كتابة تاريخ الجزائر سنقصر حديثنا على الفترة الواقعة بين ١٨٣٠ - ١٩٥٤ مع بعض الاشارات للعهد العثمانى (١٥٠٠ - ١٨٣٠) كلما اقتضى الامر ذلك .

انظر التعاليق فى آخر البحث

مجالات البحث عند الفرنسيين :

ورغم جهل الفرنسيين أول الامـر بواقـع الجزائـر وتاريخها ، ورغـم انشغالهم بعمليات الحملة والاحتلال وافتقارهم فى البداية الى الذوق الثقافى ، فانهم اتجهوا فى البحث ثلاث مجالات فى نفس الـوقت :

١ ـ نشر الاثار السابقة عن الجزائر ٠

٢ ـ انشاء اللجان «العلمية» ومنح الرخص للافراد للقيام بعمليات البحث والجمع والتعريف بالاثار التاريخية فى البلاد ٠

٣ ـ تكوين الجمعيات المختصة ، والصحف والدوريـات التى تحفـظ المكتشفات التاريخيـة وتعتنى وتعرف بهـا المهتمين ٠

وفى نطاق المجال الاول نشروا منذ ١٨٣٠ كتب الرحلات والانطباعات التى كتبها الاوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثمانى ، مثل شيلروشو وبانانتى ورونودو وهـايدو وفانتوردى بارادى ٠ كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتمـوا (بالزهـــرة النيـرة) وبالوثائق العربية لحملـة شـارل الخامس على الجزائر ٠ وعادوا الى كتب المؤرخين والرحـالة العرب وشرعوا ايضا فى نشرها ، جزئيا او كليا كابن خلدون ، والبكرى والعياشى وحسن الوزانى (ليون الافريقى) ، وغيرهم ٠ ومن جهـة اخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا ، ومذكـرات وتقاريـر القنـاصـل والجـواسيس الفـرنسيين امثـال دوبوا ـ تـانفيل ، وبوتـان وكيرسى ٠ واهتموا بارشيف الغـرفة ألتجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التى توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا) ٠ وبالاضافة الى ذلك ابدوا عنايـة بالوثـائق العثمانـية التى وجدوها فى الجزائـر والتى ضـاع كثير منهـا سـاعـة الفـوضى التى سـادت دخـولهم الجزائـر (٢) ٠

وبخصوص المجال الثانى (انشاء اللجـان العلمية) ، نجد ان اللجنة الافريقية ، التى زارت الجزائر سنة ١٨٣٣ بقصد التحقيق فى مصيـر الجزائر ، تنهى اعمالها بتقارير ومحاضر غنيـة عـن الجزائـر فى مختلف المجالات ، ولا سيمـا الاقتصادية والاجتماعية ٠ وفى ١٨٣٧ انشـات وزارة الحربية لجنة بـاسم (اكتشاف الجـزائر العلمى) ٠ وقد قامت بنشر دراسات هامة فى عدة اجـزاء عن الآثـار والعلوم الطبيعـية والفنـون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات ٠ وكذلك قـام العديد من الافراد يبحثون وينشرون اعمالهم فى التاريخ المحلى ، عن اللهجات ، والطرق والنظم ، وطبائـع السكان ، والزوايا ، والحيـاة القبلية والمدن الخ ٠ وقـد ظهرت من ذلك مجموعة مـن الدراسات والانطباعات التى كتبهـا عسكـريون سنتحدث عن دورهم بعد قليل (٤) ٠

اما المجـال الثالث (الجمعيات والصحف) فقد ظهر هو الاخر منذ بداية الاحتلال ٠ فمنذ ٢٦ جوان ١٨٣٠ ولدت الصحافة بالجزائر فى سيدى فـرج ٠ ولعلها لم تكـن صحافة بالمعنى الدقيـق للكلمة ، لان أول جريدة حقيقية اسسها الفرنسيون فى الجزائر هى «المرشد الجزائرى» ٠ وكانت تهتم بالاضافـة الى القرارات والاعلانات الـرسمية ، بالتـاريخ المحلى واخبـار المسلمـين وحركـات الاهالى ، وكان على رأسها السيد بيروبرجر الذى

كان له دور فى ادخال كثير من عوامل الحضارة الاوربية الى الجزائر· ثم صدرت جريدة (الاخبار) سنة ١٨٣٩ ، وكانت هى الاخرى تهتم بالابحاث التاريخية الى جانب كونها جريدة سياسية اخبارية · وقد اهتمت أيضا (المبشر) التى ظهرت ١٨٤٧ بالاخبار المحلية وان كانت قليلة ، ولا سيما فى عهدها الاول ·

غير ان تأسيس (جمعية قسنطينة للاثار) (٥) سنة ١٨٥٢ قد ادى الى ظهور الدوريات المتخصصة فى الدراسات التاريخية والاثرية · فقد كانت هذه الجمعية تصدر منذ عامها الاول (تقويما Annuaire تحول فيما بعد الى (مجموعة Recueil من الدراسات والملاحظات المتعلقة بتاريخ المنطقة · وبوحى من الحاكم العام راندون ظهرت فى مدينة الجزائر سنة ١٨٥٦ (الجمعية التاريخية الجزائرية) (٦) التى اصدرت (المجلة الافريقية (R.A) وهى المجلة التى اصبحت بعد مائة سنة ونيف مرجعا لاغنى عنه للباحثين فى تاريخ الجزائر فى مختلف عصوره · ولم تحن سنة ١٨٧٨ حتى ظهرت فى وهران أيضا (جمعية وهران الاثرية) · وقد اصدرت بدورها (نشرة Bulletin تضم ابحاث اعضائها ومراسليها عن تاريخ المنطقة · وكل هذه الدوريات استمرت طويلا واثرت البحث التاريخى فى الجزائر وظهر على صفحاتها جم من العلماء الذين كرسوا اوقاتهم لجمع المعلومات عن التاريخ المحلى ·

والى جانب هذه الدوريات والجمعيات ظهرت مكتبة ومتحف الجزائر فقد ظهرت اول نواة (مكتبة مدينة الجزائر) سنة ١٨٣٥ ولم تبدأ فى العمل فعلا الا خلال سنة ١٨٣٨ · وبوحى من بريسون المتصرف المدنى ، اضيف الى المكتبة (متحف اثرى) · واصبحت المكتبة والمتحف منطلقا للباحثين فى تاريخ الجزائر يجدون فيهما المخطوطات العربيةو المطبوعات والاثار التى هى عدة المؤرخ · والملاحظ ان اول مقر للمكتبة والمتحف هو (دار الحاج عمر) ، صهر الداى حسن باشا وكانت هذه الدار على الطراز الاندلسى الجزائرى الجميل · وكانت تتكون من طابقين خصص الطابق الثانى للمكتبة ، وكان يضم اربع قاعات ثلاث منها للكتب والرابعة للمطالعة · والقاعة الاخيرة مقسمة الى جناحين واحد للمطالعين الاروبيين والثانى للمطالعين الجزائريين · والملاحظ ان الجناح الاول كان يحتوى على الكتب المتعلقة بالجزائر والتى كانت مطلوبة اكثر من غيرها ·

اما المتحف فكان فى الطابق الاول من الدار وكان يضم ايضا اربع قاعات ، خصصت ثلاث منها لعرض وحفظ التحف والاشياء الثمينة والخطوط والالات والاثار والاسلحة والحيوانات الخ · اما القاعة الرابعة منه فقد خصصت لدرس اللغة العربية الذى كان يقوم به السيد بريسنى · وبالاضافة الى مكتبة ومتحف مدينة الجزائر توسعت المكتبات العسكرية التى كانت تتبع الحاميات فى المدن التى وقع احتلالها ، كما تكونت متاحف اخرى مثل متحف شرشال الذى تكون فى الشهور الاولى للاحتلال والذى تخصص تقريبا فى حفظ الاثار الرومانية التى اولاها الفرنسيون اهتماما خاصا (٧) ·

دوافع البحث فى تاريخ الجزائر :

انطلق الفرنسيون فى كتابتهم تاريخ الجزائر من عدة معطيات اهمها : كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة ، وكونهم شعبا متحضرا حكموا شعبا متخلفا ، وكونهم مسيحيين قبضوا

على زمام شعب مسلم · وهذه المعطيات ، متفرقة ومجتمعة ، هى التى قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم ، وهى التى حددت منهجهم الذى تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين · ولعل تلك المعطيات هى التى ما زالت تتحكم فى الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم ·

وكانت هناك دوافع كثيرة دفعت الفرنسيين الى الاهتمام بالتاريخ الجزائرى · فهناك اولا الرغبة فى التعرف على شعب وقع فى قبضة الحضارة الاروبية · وكانت هذه الحضارة تحمل معها الى الجزائر كل ادوات الغزو الفكرى · فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة ، وبالمستشرقين الذين يدعون معرفة الاسلام وتاريخه ، وبالتراجمة الذين تخرجوا من مدارس اللغات الشرقية الاروبية او من الذين جاؤوا من الشام ومصر بعد ان ارتبطوا بالحضارة الاروبية عقب حملة نابليون (٨) ·

وهناك ثانيا دافع السيطرة والاحتلال ، ولا يمكن ان يتحقق ذلك الا بجمع الاثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها · ومن اجل ذلك استعان الفرنسيون ايضا بالكتاب الجزائريين ونذكر على سبيل المثال ما كتبه العنترى وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحى من بواسونى ، وما كتبه محمد بن على التلمسانى عن علماء وهران وتلمسان بوحى من عامل وهران الفرنسى · وما جمعه ونشره ابن ابى شنب والحفناوى وغيرهما بتحريض من الحاكم العام جونار وجملة من الباحثين الفرنسيين ·

وهناك ثالثا دافع الفضول العلمى · فقد احتلت الجزائر فى وقت كان فيه العقل الاروبى (الديكارتى) جامحا يتطفل على ميادين المعرفة ويجوب افاق الحياة يكتشف اسرارها ويذوق لذاتها ويحاول السيطرة على المجهول والمخيف منها · بينما العقل الشرقى (الجزائرى) كان ما يزال راكدا قابعا · ومع سيادة العقل الاروبى ظهرت فكرة التمايز والتفاضل بين الشعوب فاصبح هناك علماء يؤمنون بافضلية الشعوب الاروبية على الشعوب غير الاروبية ، وينادون بضرورة «تمدين» هذه الاخيرة بواسطة الاولى ، وهم يطالبون بذلك لا على انه تمنيات وآمل ولكن على انه (رسالة حضارية) لا بد من القيام بها والعمل من اجلها · وسنرى ان كتاب التاريخ الجزائرى من الفرنسيين كانوا من دعاة هذا المذهب ·

وهناك اخيرا دافع الدين فقد احتلت الجزائر بعد صراع شديد بينها وبين اروبا المسيحية دام ثلاثة قرون · والاروبيون يطلقون على ذلك عهد القرصنة (٩) ، وهو فى الواقع كان الفصل الثانى من عهد الحروب الصليبية · ولذلك اهتموا بتاريخ الجزائر اولا لمعرفة اسرار العهد المشار اليه ، وثانيا لتحطيم المعنويات التى قد تحدث تغييرا جذريا بعد نجاح الاحتلال · وسنرى انهم اهتموا بالدراسات الاسلامية والطرق الصوفية ورجال الدين ذوى النفوذ الروحى ، تمشيا مع هذا الاتجاه · كما شاركت الكنيسة ، بواسطة رجال التبشير ووسائلها المعنوية والمادية فى تبنى هذا الاتجاه (١٠) ·

ويمكن ان نقسم فترات البحث فى تاريخ الجزائر الى عهدين كبيرين هما : عهد المؤرخين

العسكريين وعهد المؤرخين المختصين او الجامعيين · وسندرس فيما يلى اهم ما تميز به كل عهد من الاهمامات ، واشهر رجال كل عهد ·

عهد المؤرخين العسكريين ١٨٣٠ ـ ١٨٨٠ :

يطلق المؤرخ ستيفان غزال على هذا العهد اسم (المدرسة الجزائرية القديمة)(١١) فى كتابة التاريخ · ذلك ان الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر ، الاقتصادى والسياسى والادارى خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة او تراجمة عسكريون وقد ظلت الادارة الفرنسية فى الجزائر عسكرية من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ (باستثناء سنتى ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠) · وان هناك مناطق من الجزائر ظلت عسكرية الى قيام الثورة · ولذلك فانه يمكن ان يقال بان الحكم الفرنسى فى الجزائر كان حكما عسكريا بالنسبة للجزائريين حتى عندما كان حكما مدنيا بالنسبة للاروبيين المقيمين بالجزائر· ذلك ان الادارة الفرنسية قد اعتمدت هى (الشؤون الاهلية) على ضباط كانوا يتكونون تكوينا خاصا ثم تسند اليهم وظيفة محلية محددة كان يطلق عليها اسم (المكتب العربى) · وشيئا فشيئا اصبحت (المكاتب العربية) هى فى الواقع الحكومة المحلية التى تباشر تسيير شؤون الجزائريين · وقد اختلفت ادارة شؤون الاروبيين من عهد الى عهد · ولكنها بالنسبة للجزائريين ظلت تعتمد على (المكاتب العربية) حتى ١٨٧١ · وعند ما تحولت الادارة العليا الى ادارة مدنية فى عهد الجمهورية الثالثة اصبح الجزائريون خاضعين لاجراءات لا تختلف عن مزيج من الادارة العسكرية والبوليسية ·

ومن هنا لا نستغرب ان يتولى العسكريون وهم الذين كانوا على صلة مباشرة بالجزائريين كتابة تاريخ محكوميهم · فخلال العشر سنوات الاولى من الاحتلال ظهر كتاب عسكريون امثال كاريت ، وبيليسى وهانوتو ، وديلامار ، وغيرهم· وقد شارك هؤلاء فى «اللجنة العلمية» التى اشرنا اليها (١٨٣٧) والتى كونتها وزارة الحربية لاكتشاف الجزائر ومعرفة احوال اهلها الماضين· وهكذا كتب كاريت عن القبائل الجزائرية وعن العلاقات الاقتصادية بينها ، وكتب بيليسى دى رونو كتابه (اخبار الجزائر) الذى ارخ فيه للثمانى عشرة سنة الاولى من الاحتلال · كما كتب هانوتو عن لهجات ونظم الجزائريين ، وجمع ديلامار وثائق عديدة عن الآثار والخطوط · يضاف اليهم البارون دى سلان الذى ترجم تاريخ ابن خلدون وجغرافية البكرى وغيرهما ، واختص الضابط بروسلار بالخط العربى · وقام فورنيل بكتابة تاريخ شمال افريقية فى العصور الوسطى اما لاكروا فقد نشر دراسات عن الاستعمار والادارة الرومانية فى افريقية · ومن كتاب هذا العهد ايضا بيربرجر الذى ملأ (المجلة الافريقية) بمقالاته عن اخبار الجزائر سواء التى جمعها مباشرة او التى ترجمها عن كتاب مسلمين مثلما فعل مع رحلة العياشى ·

واذا كان هؤلاء قد التفوا حول (اللجنة العلمية) فان هناك جماعة اخرى من الباحثين العسكريين قد التفوا حول مشروع (لوحة عن وضع المنشات الفرنسية فى الجزائر) وقد ظهر من هذا المشروع الضخم سبعة عشر مجلدا ، بين سنوات ١٨٤٣ ـ ١٩٦٤ · وفيه دراسات احصائية وغوص فى حياة السكان · ورغم قدم العهد فان هذه المجادات ما تزال مرجعا للباحثين · ومن كتاب هذا العهد شارل فيرو ، والاسكندر بيلامار، وارنو ، وولسن ايسرتهازى ، وروبان ، وترملي

ولويس رين ، وغيرهم · وبالاضافة الى مشروع (اللوحة) تجمع هؤلاء حول (جمعية قسنطينة للآثار) و (الجمعية التاريخية الجزائرية) ومجلتيهما · وقد امدوا هذه المنشآت بالدراسات والمذكرات عن القبائل وزعمائها والطرق والاثار والتواريخ المحلية · واللجهات والنظم والشخصيات السياسية التى لعبت دورا فى تاريخ الجزائر كالامير عبد القادر ، والحاج احمد وبومعزة ، وبوبغلة ، والحوادث الهامة كالمعارك والثورات ، ودور بعض العائلات والطرق الصوفية ، ولا نكاد نجد تاريخا لحروب الامير ، ونزاع الحاج احمد مع خصومه فى الزيبان وحوادث جرجرة ، وثورات أولاد سيدى الشيخ وثورة ١٨٧١ ونحوها الا بالعودة الى كتابات بيلامار ، وزيروكا ، وروبان ، ورين وتروملى ، ودوماس ، ودونوفو ، واضرابهم (١٢) ·

وقد اعتمد هؤلاء فى كتاباتهم على المصادر الاهلية فى غالب الاحيان · وهذه المصادر على نوعين مكتوبة وشفوية · ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة ، وعقود الملكية، ومذكرات رجال العلم الجزائريين · اما المصادر الشفوية التى اعتمدوا عليها اكثر من الاولى ، فقد جعلتهم يسجلون قصصا واحداثا من مختلف المشارب والانواع (١٣) ، وقد ساعدت الادارة هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق العربية والتركية التى وجدها الفرنسيون ساعة دخولهم الجزائر ، وفى هذه الوثائق معاهدات ، ودفاتر حساب ، وسجلات عسكرية ، وعقود وأوراق ادارية ، فقد انشئت (ادارة الدومين) ووضعت تلك الوثائق فى قسمها العربى الذى اسندت ادارته الى السيد ديفو وظل ديفو ٢٥ سنة كمحافظ للارشيف العربى ، ونشر خلال ذلك وثائق هامة عن تاريخ الجزائر الدينى ، والعسكرى ، والبحرى (١٤) · ورغم ان اعمال هؤلاء الباحثين العسكريين كانت تعتمد الجمع ، ولا سيما من المصادر الشفوية والمشاهدات الشخصية ، فانها قد تركت للمؤرخين اللاحقين ارضية يبدأون منها ومنافذ يطلون منها على احوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم الا القليل ·

عهد المؤرخين الاختصاصيين ١٨٨٠ ـ ١٨٥٤ :

بتاسيس جامعة الجزائر يبدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين · ففى سنة ١٨٨٠ صدر قانون بانشاء (المدارس العليا) فى الجزائر ، وهى التى اصبحت بعد حوالى ثلاثين سنة (١٩٠٩) جامعة الجزائر ، وكانت المدارس العليا تضم مدرسة الآداب ، ومدرسة الطب ، ومدرسة الحقوق ، ومدرسة العلوم ، وقد تكاتفت جهود اساتذة الجامعة مع جهود رؤساء الجمعيات التاريخية والاثرية التى سبق ذكرها ، وكتاب الدوريات العلمية ، واساتذة التاريخ فى الثانويات ونتج عن هذا التكاتف اهتمام خاص بتاريخ الجزائر ، ولكن ميلاد المدارس العليا تصادف مع موجة الاستعمار العنيفة التى بلغت ذورتها بالنسبة للجزائر فى الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال ، وتعكس الدراسات التى ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار ، او مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنه ويضحى فى سبيل ذلك بقيم البحث واخلاق العلم ، ذلك ان كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الاستعمار والتاريخ له ، وتعمل فى النهاية على انجاحه واستمراره (١٥) ·

وتصادف ميلاد جامعة الجزائر ايضا مع احتلال فرنسا لتونس واهتمامها بقضية المغرب الاقصى ، وبذلك اتسعت رقعة البحث لدى مؤرخى هذا العهد واصبحوا يتناولون فى كثير من الاحيان تاريخ شمال افريقية بصفة عامة ، ويربطون بين مصالح فرنسا فى الاقطار الثلاثة ، ويضاف الى ذلك منطقة الصحراء التى دخلت اهتمامات الابحاث الفرنسية خلال هذا العهد ايضا ، ولا غرابة ان نجد بعض التراجمة والباحثين الذين (تدربوا) فى الجزائر قد اصبحوا عاملين فى تونس والمغرب ايضا ، ولا غرابة ايضا ان تتكون سنة ١٩٢٥ (اتحادية الجمعيات العلمية لشمال افريقية) وقد اصبحت تجتمع كل سنة فى احدى مدن المغرب العربى لتنسق جهودها وتتذاكر فى خططها وتتبادل الخبرات والمعلومات وتلقى خلال ذلك الابحاث والدراسات ، وخلال هذا العهد ولد ايضا (معهد الدراسات الشرقية بالجزائر) ١٩٣٣ الذى اخذ على عاتقه الاهتمام بالحياة العربية الاسلامية لماضى الجزائر بالذات وقد تولى كبر أموره السيد جورج مارسى ثم هنرى بيريس المعروف بتعصبه ضد الجزائريين ، كما ولد سنة ١٩٤٠ (معهد الابحاث الصحراوية) ·

بدا اذن العهد الجديد من اهتمام الفرنسيين بتاريخ الجزائر خاصة وماضى شمال افريقية عامة (بعد احتلال تونس والاستعداد للمغرب) عندما فتحت مدرسة الآداب العليا (كلية الآداب فيما بعد) مجال التدريس والبحث فى تاريخ المغرب العربى وافريقية ، ولما كانت الابحاث تهدف الى خدمة الادارة الاستعمارية سواء فى الجزائر أو فى غيرها من أجزاء افريقية ، فان تسهيلات وتشجيعات مادية ومعنوية قد توفرت للاساتذة سواء اثناء وجودهم على كرسى التدريس أو اثناء تنقلاتهم بحثا عن المعارف والمصادر · وتذكر المصادر أن هؤلاء الاساتذة قد تنقلوا كثيرا وبعيدا وركبوا فى سبيل هدفهم الاحصنة والبغال وحتى الجمال (١٦) · ومن الاساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد السيد ماسكرى ، الذى لم يختص بموضوع بعينه ورينى باسى الذى اختص بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية ، ودوتى الذى كرس جهوده للابحاث الاجتماعية ، وجورج ايفير الذى اهتم بتاريخ الاحتلال ، وستيفان غزال الذى تخصص فى تاريخ شمال افريقية القديم ، ومارسيل ايمريت الذى اهتم بالنواحى الاجتماعية والاقتصادية للاهالى خلال العهد الفرنسى ، وياكونو الذى تناول قضايا الاستعمار والمكاتب العربية ، ويضاف الى هؤلاء عدد من المهتمين بتاريخ شمال افريقية فى فرنسا نفسها أمثال شارل اندرى جوليان (تاريخ شمال افريقية) وما نصو (التاريخ الادبى لافريقية المسيحية) ، وكانيا (الجيش الرومانى الافريقى) وديل (افريقية البيزنطية) ·

وخلال هذا العهد انشئت عدة مصالح ساعدت هؤلاء المؤرخين الاختصاصيين على اداء مهمتهم ففى سنة ١٨٨٠ تاسست (مصلحة الآثار التاريخية)بالجزائر، وهى التى قامتببعث مدينتى جميلةوتيمقاد الرومانيتين ، وفى باريس تاسست سنة ١٨٨٣ (لجنة افريقية الشمالية) التى كانت مهمتها بعث الوثائق والخطوط والنقوش الاثرية· وفى عهد جونار تاسست سنة ١٩١٥ لجنة بالجزائر عهد اليها بنشر مراسلات ومذكرات رجال العهد الفرنسى فى الجزائر وعلاقات الاهالى معهم ، وضمن هذا المشروع صدرت

مـراسلات كلوزيل وروفيقو وفوارول وديرلـون وآثار بوتان كمـا صدر كتـاب (الجزائر فى عهد الامير عبد القادر) لا يمريت ، وفى عهد جونـار ايضـا اعطيت الاشـارة لتشجـيع الدراسـات الاسلامية فقام محمد بن أبى شنب بنشر رحلتى ابـن عمـار والورتلانى ، وتحقـيق كتب قديمـة كعنوان الدراية للغبرينى ، والبستان لابن مريم ، وبغية الرواد ليحى بن خلدون ، وقام الحفناوى بوضع قاموس تراجمـه (تعريف الخلف بـرجال السلف) وتولى لوسيـانى (الذى كـان مسـؤول الشؤون الاهلية فى نفس الفترة) التعريف بآثـار رجال الدين المسلمين كالسنوسى وعبد الرحمن الاخضرى ·

وعندما حان الاحتفال بمـرور مائـة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون فى اللجـان التى كونتهـا (الحكومة العـامة) عندئذ لوضـع دراسات تركيبية عن تاريخ الاستعمار فى الجزائر وعن جهود فرنسا الحضارية فيها ، مـع نظـرة نقدية شاملة لما تحقق فى ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد ، وقـد خرجت مـن هذا الجـهد مجموعة من الابحاث اصبحت تعرف (بمجموعـة المائة سنة) وهى تشمل ميادين التاريخ ، والآثـار والجغرافية ، والفنون ، وغيرها ، وهذا اللقـاء بين المؤرخين الفرنسيين فى جامعة الجزائر وبين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطىء هؤلاء المؤرخين مع الادارة الاستعمارية وخدمتهم لاغراضها ·

وبحلول سنـة ١٩٥٦ احتفلت (الجمعيـة التاريخية الجزائرية) ومجلتها (المجلة الافريقية) بمرور مائة سنة أيضا على ميلادها ، وقد قـدم عدد من المؤرخين الجامعيين والباحثين دراسات هامة عن تقدم الكتابـة التاريخية خـلال سنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٥٦ · ونذكر من بين هذه الدراسات عن الفتـرة التى نكتب عنهـا مقالـة ياكونو التى تناول فيها تقييم ما كتب منذ الاحتلال ، وجزءا من مقالـة روجى لوثورنو عـن (العصـور الوسطى والعهود الحديثة) ، وهما بحثان غنيـان بالآراء والملاحظات والمراجع ، وفى نفس الوقت يبرهنان على مـدى مـا وصلت اليـه الكتابـة التاريخية الفرنسية عن الجزائر ، ومن جهة أخرى نـلاحظ ان البحثين كتبا فى بداية أحداث الثورة الجزائرية ولذلك لا نستغرب ان ينتهى لوتورنو الى القول بأن «البحث التاريخى عن الجزائر المسلمة ما يـزال بعيدا عن الانتهاء (١٧)» وان ينتهى زميله ياكونو الى القول بأنه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الاسلامية فى الجزائر ولا عن التحول الذى أصاب الاهالى بتأثر الاستعمار(١٨) · والواقـع ان المؤرخين الفرنسيين فى الجزائر قـد درسوا تاريخ الحملة والاحتلال والاستعمار ، ولكنهم لـم يدرسوا تطـور المجتمـع الجزائرى ولا سياسـة بلادهم نحو الجزائريين ·

مواقف المؤرخين الفرنسيين من قضايا التـاريخ الجزائرى :

رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الاهلية فانهم كثيرا مـا شككـوا فى قيمتهـا واتهموهـا بالتجريدية والمبالغـة ، بـل نـادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها ، فقد ادعى وليام مارسى انه يجب الاعتماد فى كتابة تـاريخ الجزائـر خـلال العهد العثمـانى على المصـادر الاوروبيـة ووثـائق الا رشيف الرسمية والتجارية (١٩) ، وهو فى هذا يقتدى برأى دى سلان الذى شك فى صحة اخبار

العرب عن المغرب (٢٠) ٠ ووافقه فى هذا الادعاء استيفان غزال حيث قال عن العهد الاسلامى (من الفتح العربى الى ١٥٠٠) ان الباحث فيه يدخل فى «ظلام دامس» لعدم وجود الوثائق الصحيحة والمعاصرة ، وقال ان الباحث لا يجد سوى بعض الحوادث المتاخرة وغير المنقودة وبعض التسجيلات للاحداث لكنها تسجيلات مرتبطة بالنظم العسكرية وغير نزيهة ٠ ولم يستثن غزال من هذا الحكم سوى ابن خلدون ، لذلك نادى ايضا بالاعتماد على رحلات الاوروبيين وارشيف الدول الاوروبية ٠ وقد وقف نفس الموقف من المصادر الاهلية خلال العهد العثمانى ، فقال ان المؤلفين العرب لم يكتبوا عن السادة (يعنى الاتراك) وعلاقاتهم بالاوروبيين والسلطان ، لذلك رأى ايضا الاعتماد ، لدراسة هذا العهد ، على الارشيفات الاوروبية ، والارشيف التركى ، والرحلات الاوروبية (٢١) ، والواقع ان الذى سبق الى هذا الرأى هو دى غرامون الذى رفض فى كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الاعتماد على المصادر الاهلية لعدم الثقة فيها ٠

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الاهلية ، فان الفرنسيين قد عملوا كما لاحظنا سابقا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر فى شتى العصور ، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة او وثيقة او مجموعة رسائل او سجلات حكومية الاترجموها كاملة او مجزأة ، ويطول بنا الحديث لواستعرضنا هنا كل الاعمال التى قاموا بها فى هذا الصدد، ويكفى ان نحيل القارىء الى الدراسة القصيرة ، لكنها مفيدة ، التى قام بها السيد هنرى ماسى بعنوان (الدراسات العربية فى الجزائر من ١٨٣٠ ـ ١٩٣٠) وهى الدراسة التى اخرجها بمناسبة الاحتفال المئوى بالاحتلال ، وكذلك الدراسة التى قام بها السيد كور بعنوان (ملاحظات عن كراسى اللغة العربية) فى الجزائر ونود ان نلاحظ ان الفرنسيين لم يكتفوا بما قام به مترجموهم فى نشر الدراسات الاسلامية العربية عن الجزائر ، بل استعملوا ، كما اسلفنا ، بعض المثقفين الجزائريين لنفس الغرض ايضا ، ومن هؤلاء محمد بن ابى شنب ، والعنترى ، والحاج صادق ، وصوالح ، واسماعيل حامد ، ويكفى ان نذكر فى هذا الصدد ترجمات الفرنسيين للكتب التالية : (تاريخ باشوات الجزائر) لابن المفتى ، و (الزهرة النيرة) للتلمسانى ، و (غزوات عروج وخير الدين) لمجهول ، و (الحلل السندسية) و (عجائب الاسفار) لابى رأس الناصرى ، و (بهجة الناظر) للمشرفى ، و (رحلة الباى محمد الكبير) لابن هطال ، و (رحلة الورتلانى) ، و (رحلة ابن عمار) ، و (كشف الرموز) لابن حمادوش ، و (تاريخ قسنطينة) لابن المبارك ، و (مذكرات) حمدان خوجة ، و (مذكرات بوضربة و (مذكرات) سى عزيز بن الشيخ الحداد ، و (مذكرات) الحاج احمد باى قسنطينة ، و (تاريخ بنى زيان) للتنسى ، و (تاريخ العدوانى) ، و (الفارسية) لابن قنفذ وغيرها ٠ بالاضافة الى العديد من الوثائق والرسائل والشعر الملحون، وكتب الفقه والنحو والاصول ٠

واذا كان هؤلاء المؤرخون قد اهتموا بالطرق الصوفية ورجالها وبكتب الفقه والاصول كمصادر للتفكير الاهلى ، فانهم وقفوا موقفا مشبوها من الاسلام، ذلك اننا لا نجدهم يعترضون على استيلاء الادارة الاستعمارية على ضم الاوقاف الى الدولة (الدومين) ولا على تحويل المساجد الى كنائس ،

ولا على تهديم بعضها ، حتى باسم الآثار والحرص على (الوجه الافريقي) للجزائر ، وقد اكثروا في كتاباتهم من استعمال عبارات «الاسلام الجزائري» و «الاسلام الجزائري الجديد» وهم يعنون الاسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بانهم لم يعتنقوه عن وعي ولم يمارسوه عن عقيدة ، وانما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة والفولكلور الذي يظهر في المناسبات ، ويتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربي (بالغزو العربي) ، ومن التركيز علىاحداث تاريخيةخاصة كحادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان ، وحادثة كسيلة وعقبة بن نافع ٠ وعندما تحدثوا عن هجرة بني هلال تحدثوا عنها «كغارة ذئاب» ، حسب تعبير ستيفان غزال ، على المغرب قصد فرض لغتهم ودينهم على السكان، وقد تاسف هذا الكاتب على ان الرومان قد اخطاوا عندما لم يحولوا السكان في شمال افريقيا الى «مسيحيين لاتينيين (٢٢) ٠

ويعزو هؤلاء المؤرخون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا الى الروح الوطنية والنفور من حكم الاجنبي وانما لضيق الافق والتعصب الديني (٢٣) ، أما ايميل قوتي فقد اطلق اسم « القرون الغامضة » على عهد الامارات الاسلامية في الجزائر والمغرب من الفتح العربي الى مجيء العثمانيين ، ويتصل بهذه النقطة اعتناؤهم « بقديسي الاسلام » في الجزائر فقد نشر دوتي كتابا بعنوان (الاسلام الجزائري) ونشر ترو ملي كتابا بعنوان (قديسو الاسلام الجزائري) واهتم دونوفو ولويس رين وكولاني (بالمرابطين والاخوان) ودرس اغسطين بيرك (المرابطين والعلماء) ، واخرج مارسيل بودان دراسة عن احمد بن يوسف الملياني ، وهلم جرا٠

والكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الامير عبد القادر كثيرة ، ولكنها لا تخرج في اغلبها عن الحط من دوره الوطني ، وجعله شخصا متعصبا دينيا في البداية وصديقا لفرنسا في النهاية ، وهذا الموقف يلخصه بصراحة كتاب بول ازان المسمى (الامير عبد القادر من التعصب الاسلامي الى القومية الفرنسية) ذلك ان اسناد دور المدافع الوطني للامير يبطل عمل فرنسا في الجزائر ، والغريب أن مؤرخا مختصا مثل جورج ايفير الذي تناول الامير وعصره في عدة مناسبات يقول عن الامير انه لم يكن بطل جنسية عربية في الجزائر لانها لم توجد ، ولم يكن سياسيا مجددا يهدف الى ادخال الحضارة الاوروبية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابر) ولكنه كان مرابطا طموحا ارادان يحل نفسه محل الاتراك ، واستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين ونسبه الشريف وشجاعته الشخصية ، ويضيف ايفير ان الامير قلد الاتراك في ادارتهم لانها كانت تصلح للاهالي، فملأ خزانته بالمال مثلهم (الاتراك) واعتمد على حكم القوة ، وقد اخذت فرنسا هذا النظام ايضا وطبقته على الاهالي ولكنها جعلته (اكثر انسانية) وينهي ايفير حكمه على الامير بقوله انه لم يأخذ من الحضارة الاوروبية الوسائل المادية التي تجعله يتخلص بسهولة من اعدائه المسلمين والمسيحيين على السواء (٢٤) ، ولم يكن بول ازان واندري جوليان (٢٥) اقل قسوة في الحكم على الامير من ايفير ٠ ونفس الموقف في الواقع يقفه هؤلاء المؤرخون من زعماء المقاومة الوطنية ، فلا الحاج احمد ولا المقراني ولا الحداد ولا بوبغلة ، ولا حمدان خوجة قد وجد من هؤلاء دارسا نزيها يحكم له أو عليه ، دون الارتباط المسبق بخدمة المصلحة الاستعمارية ، ذلك أن

الهدف البعيد لهؤلاء المؤرخين هو تجريد الجزائريين من «ابطالهم» كما حاولوا تجريدهم من اسلامهم الحق ، واتهامهم بالايمان « باسلام جزائرى » هو اقرب الى الخرافة منه الى العقيدة الراسخة الواعية ٠

واذا كان المؤرخون العسكريون يعرفون فى الغالب اللغة العربية التى استفادوا منها ونقلوا عنها ، فان المؤرخين الاختصاصيين الذين يفترض فيهم البحث فى تاريخ الجزائر معرفتها ، كانوا يجهلونها فلا ايفيرولا غزال ، ولا ايمريت ولا ياكنو كانوا يتقنون اللغة العربية ـ لغة الشعب الذى يكتبون عنه ـ ومذ هنا اعتمدوا فى فهم (الروح الاهلية) على ترجمات الصنف الاول من المؤرخين وعلى خريجى (مدرسة بيريس) من الجزائريين الذين كانت مهمتهم سواء كانوا تراجمة عسكريين أو شرعيين أو معلمين ، ترجمة المصادر الاهلية للفرنسيين ٠

ويتبين من هذا أن اللغة العربية لم تكن محل ثقة عند المؤرخين الفرنسيين (لانهم انتقدوا مصادرها) كما انها لم تكن اداة تاريخ عندهم ، وهم بذلك يصدقون على وجهة نظر الدوق دى روفيقو الذى اعلن سنة ١٨٣٢ عندما كان قائدا أعلى للجيش الفرنسى فى الجزائر قائلا ان هدفنا هو أن نحلّ الفرنسية محل العربية بنشرها بين الاهالى عن طريق السلطة والادارة ، ولا سيما اذا اقبل الجيل الجديد على التعلم فى مدارسنا (٢٦) ٠

وقد اكدت هذا الاعلان الرسمى جريدة (المرشد الجزائرى) فى فاتح سنة ١٨٣٣ عندما كتبت تقول ان هدفنا هو أن يعرف الاهالى لغتنا لا ان يعرفوا لغتهم ، فالعربية ليست مفيدة لنا الا فى علاقتنا بهم ، اما الفرنسية فهى لا تفتح لهم باب العلاقات معنا فقط ولكنها بالنسبة اليهم هى المفتاح الذى يدخلون به الى كتبنا واساتذتنا ، اى الى العلم نفسه ، وقد لخصت هذه الجريدة الموقف بقولها : ان ما بعد تعلم العربية ليس سوى اللغة اما ما بعد تعلم الفرنسية فهو جميع المعارف الانسانية (٢٧) ٠

وقد اكدت سنوات الاحتلال المتلاحقة على هذا الاتجاه ، ولذلك لا نستغرب ان لم يستعمل المؤرخون الفرنسيون فى الجزائر اللغة العربية فى مصادرهم ، باستثناء بعض الترجمات كما لاحظنا ، بل أنهم لا يكادون يعودون ، فى تناولهم للعهد الفرنسى ، حتى الى ما كتب باللغات الاوروبية الاخرى عنه ، وقد لاحظنا انهم يلجأون الى هذه اللغات فى العهود السابقة لسنة ١٨٣٠ لعدم ثقتهم فى المصادر العربية عن الجزائر ٠

والمتتبع لانتاج هؤلاء المؤرخين يجدهم يتناولون كل الموضوعات تقريبا ما عدا (الشعب الجزائرى) واذا ما اطلقت هذه العبارة (الشعب الجزائرى) عندهم فهم يعنون بها السكان الاوروبيين بالجزائر ، اما السكان الاصليون فهم (أهليون) وهو تعبير يشعر الجزائريين بالذلة والصغار ، لانه لا يطلق الا على من كانوا غير مواطنين ، اى غير المتساويين مع الآخرين فى الحقوق والواجبات ، وبهذا المعنى ظل مؤرخو العهد الاستعمارى يكتبون ، فغطوا ميادين الحملة والاحتلال والاستعمار والجيش الفرنسى ، والادارة والتشريعات والهجرة الاوروبية والاقتصاد ، واللهجات المحلية والطرق الصوفية ٠٠ الخ ، الا (الشعب الجزائرى) أو الوطنية الجزائرية (٢٨) ٠

وهذا فى الواقع هو النقص الفادح فى الكتابات التاريخية الفرنسية عن الجزائر الذى ظل الى قيام الثورة ، بدون تدارك ٠ وقد اشرنا سابقا الى ملاحظة ياكونو الذى كان يكتب سنة ١٩٥٦ ٠ ومن جهة اخرى اعترف جورج ايفير سنة ١٩٣٠ انه قد كتب الكثير عن الجزائر منذ مائة سنة ولكن الكتابات التاريخية الموضوعية قليلة وسطحية ، وكثير منها عبارة عن نقل عما سبقها (٢٩) ٠ غير أن ستيفان غزال الذى كان يكتب فى نفس السنة تمنى أن يرى علماء يكتبون تاريخا عن الاسلام فى شمال افريقيا ، وتاريخا عن المنشآت الاسبانية والبرتغالية فى شمال افريقيا ايضا ، وتاريخا كاملا عن الاحتلال الفرنسى ، وتاريخا عن الاستعمار الفرنسى فى الجزائر (٣٠) ٠ هذه اذن هى تمنيات المؤرخ الفرنسى بعد مائة سنة من الاحتلال ٠ والذى يلاحظ على هذه التمنيات ان صاحبها لم يقترح كتابة تاريخ اى جانب من جوانب المجتمع الجزائرى (سياسيا ، اقتصاديا ، ثقافيا) ٠ ولكن الذين واصلوا الرسالة بعد ١٩٣٠ لم يخرجوا عن هذا الاطار الذى تمناه لهم ستيفان غزال ٠

بعض الاستنتاجات :

ومما سبق يتضح ان الفرنسيين قد كتبوا الكثير عن الجزائر وتناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بها ٠ كما انهم ادخلوا تكنيكا جديدا فى البحث ، واستعملوا طريقة النقد الحديثة للمصادر ، وتوصلوا الى جمع آثار ومخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر وحفظوها فى المتاحف والمكتبات والارشيفات وانشأوا الجمعيات العلمية ، وعقدوا اللقاءات والمؤتمرات التى يكشفون خلالها عن اكتشافاتهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات ويوثقون الصلات فيما بينهم٠ وبالاضافة الى ذلك اسسوا الصحف والدوريات التى كانت تنشر ما توصلوا اليه من نتائج وما جمعوه من مواد ٠ وكانت الادارة العامة للجزائر تمدهم بالمال وتوفر لهم امكانيات الانتقال والاتصال والاطلاع ، وتساهم فى تجمعاتهم وفى جمعياتهم وفى طبع انتاجهم ٠ كما كانت الجامعات والمعاهد الفرنسية فى فرنسا تساهم هى الاخرى بامكانياتها البشرية والعلمية والمعنوية فى دفع عجلة البحث الذى يقوم به الفرنسيون بالجزائر٠ وكانت الحكومة الفرنسية ايضا تغطى نشاطهم وتفتح امامهم مجالات العمل وتشجع على عمل اللجان وتحي مغامرات الافراد من اجل البحث لانها فى الواقع هى المستفيدة فى نهاية المطاف ٠

ولكن هؤلاء الكتاب والباحثين لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصى الدقيق للكلمة ٠ كان معظمهم من الهواة ومن كتاب الثقافة العامة والانطباعات والمذكرات ، والتقارير الرسمية ٠ وقد رأينا انهم فى الفترة الاولى كانوا ضباطا عسكريين يجمعون بحماس شديد كلما تقع عليه ايديهم من مصادر مكتوبة او شفوية ، ومن اثار قديمة وحديثة ٠ وهدفهم من ذلك الوصول الى فهم السكان الذين يحكمونهم وليس هدفا علميا ٠ وكانوا يحصلون على تلك المصادر بالاغراء تارة وبالقوة تارة اخرى وبالضغط مرة ثالثة ٠ وتذكر الكتابات انبيربروجر كان يتبع الجيش حيثما توجه ، وعندما تحتل مدينة يأخذ هو المخطوطات العربية من الزوايا والجوامع والمكتبات الخاصة ويعود بها الى العاصمة (٣١) ٠ كما تذكر المصادر ان الجزائريين كانوا يضطرون الى بيع مخطوطاتهم وآثارهم وتحفهم اثناء شهر رمضان الذى تكثر فيه المطالب الاقتصادية (٣٢) ٠

وكان بعض الباحثين الفرنسيين قد حصل على جواز مرور من الحاكم العام ليجمع المعلومات والكتب من مكتبات الزوايا فى الصحراء · وكان الاهالى يخافون فيقدمون ما عندهم عندما تطلب منهم سلطات المكاتب العربية ذلك · ولعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا وتقربا ايضا ، وهكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر اهلية استفادوا منها كثيرا فى حكمهم للشعب الجزائرى ·

ونفس الظاهرة تنطلق على كتاب العهد الثانى · فاذا استثنينا بعض المؤرخين الاختصاصيين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل والنقد والمقارنة ، فان معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر) لم يكونوا فى الواقع مؤرخين وان كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة · اخذ مثلا ايميل قوتيى الذى كتب (القرون الغامضة) والذى كتب تاريخ الاستعمار الفرنسى حتى سنة ١٩٣٠ · انه لم يكن مؤرخا بالمعنى الدقيق· بل كان كاتبا عاما فى قضايا الاستعمار والمستعمرات · وكان اساس اهتمامه الجغرافية وطبقات الارض ونحو ذلك· وخذ مثلا آخر جوزيف ديبارسى الذى كتب الكثير عن عادات وتقاليد الشعب الجزائرى ، انه لم يكن مؤرخا هكذا ايضا وانما اهتم اثناء تدريسه بالبليدة ، بالنواحى الفولكلرية الجزائرية ، فركز على هذا الجانب وجمع منه مواد كثيرة فى العقائد الشعبية والخرافات ونحوها · وقد كان هدف هؤلاء ، كما كان هدف اولئك، هو مساعدة الادارة الاستعمارية الفرنسية فى الجزائر لكى تسيطر على مقاليد الجزائريين وبالطبع الدعاية للثقافة والوجود الفرنسى بين الجزائريين من جهة وبين الاجانب من جهة اخرى ·

ويمكننا تلخيص النواحى الايجابية فى اعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر فى النقاط التالية· (١) جمعهم المصادر والآثار وحفظها فى المكتبات والمتاحف والسهر عليها والاستفادة منها · (٢) نشر كثير من الآثار العربية الاسلامية فى لغتهم ، واحيانا فى نصها الاصلى ، وبذلك ساعدوا على بقائها ومكنوا الباحثين منها · (٣) استخدام التقنية الحديثة فى البحث كتصيف المواد حسب الاختصاص ، وتنظيم الفهارس ، والكاتالوق ، والتنظيم الا بجدى ، ومصطلح الفترات الزمنية والتصوير ، وما الى ذلك ·(٤) استعمال وسائل البحث وتشجيع الباحثين ، وشيوع التضامن العلمى بينهم وتبادل الخبرات عن طريق نشر الدوريات والكتب وعقد الملتقيات والمؤتمرات ، وتبادل الزيارات ، وتوفير المادة الضرورية لجمع المعلومات ونشرها بأقرب الطرق (٥) · واخيرا نقد المصادر والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وهذه النقطة وان كانت ايجابية اذا نظرنا اليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث الا انهم طبقوها خصوصا على المصادر العربية ــ الاسلامية ، فاصبحت وكانها ظاهرة غير علمية فى هدفها رغم ان اساسها علمى واضح ·

اما النواحى السلبية عندهم فيمكن حصرها ايضا فى النقاط التالية : (١) اهمالهم للشعب الجزائرى فى تناولهم لتاريخ الجزائر· لقد كتبوا عن الجزائر كمنطقة جغرافية من العالم تداولت عليها الدول والشعوب من الفنيقيين حتى الفرنسيين · وليس هناك فى نظرهم «شعب» أو «أمة» او «كيان» او «مجتمع متماسك» وانما هناك قبائل متنافرة متنابزة تخوض حروبا مستمرة ، ولا تخضعها الا القوي كالرومان والاتراك

والفرنسيين · هذه هى «فلسفة» الفرنسيين فى كتابتهم تاريخ الجزائر وهم لم يطبقوا هذه «النظرية» على عهدهم الذى يبدأ من سنة ١٨٣٠ ، ولكن على جميع عهود تاريخ الجزائر تبريرا لوجودهم · (٢) مجاراة المؤرخين ، عسكريين واختصاصيين، للسلطة ، ولا سيما الادارة الاستعمارية ووزارة الحربية التى كانت مسؤولة عن الجزائر ، وخضوعهم لالحاح وضغط المعمرين ، ونستطيع القول ان هؤلاء المؤرخين كانوا «اصوات» السلطة العسكرية فى الفترة من ١٨٣٠ الى ١٨٧١ و «اسواط» الادارة خلال الفترة المدنية الممتدة من ١٨٧١ ــ ١٩٥٤ · وهذه (التبعية) للسلطة قد اعمتهم عن الحقيقة وجعلت اعمالهم التاريخية تفقد روح البحث المجرد، واصبحت تتميز «بالطابع الرسمى» الضيق· (٣) وهذه الظاهرة جعلتهم يركزون فى كتاباتهم على التاريخ الاقتصادى والادارى والعسكرى جريا وراء الاستعمار والادارة (عسكرية ومدنية) وتحركات الجيش وقواده · فاذا ماتناولوا قضية دينية او قبلية او نحو ذلك فانما ذلك من اجل محاولة السيطرة على اصحابها كما فعل دونوفو بالنسبة للطرق الصوفية مثلا · وبذلك اهمل تاريخ الجزائريين السياسى والثقافى والاجتماعى ·(٤) اهتم الفرنسيون بالعهد ١٨٣٠ ــ ١٩٥٤ وكتبوا عن رجاله وسياستهم وتغير الحكومات الفرنسية واثر ذلك على الجزائر ، وعن الهجرات الاوروبية الخ · ويأتى فى المرتبة الثانية من اهتمامهم تاريخ الرومان فى الجزائر وتاريخ المسيحية فيها ، واخيرا تاريخ البيزنطيين فيها ايضا ، اما تاريخ العرب والمسلمين ، تاريخ العهد الذى تحرر فيه السكان من القيود الاجنبية واصبحوا فيه احرارا يؤسسون اماراتهم ويديرون شؤونهم بانفسهم فقد ظل عندهم «عهدا غامضا» ، حسب تعبير قوتى · وكذلك فعلوا مع العهد العثمانى فى الجزائر· وهو العهد الذى قويت فيه شوكة الجزائر وتوحدت فيه جغرافيا وسياسيا وتمركزت ادارتها·

هذه ، اذن بعض نقاط القوة وبعض نقاط الضعف التى تميزت بها الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر خلال الفترة من١٨٣٠ الى ١٩٥٤· وانى اعترف بان هذه دراسة تفتقر الى مزيد من التعميق ، لانها فى الواقع اقرب الى المدخل منها الى الدراسة الكثيفة المركزة ·



التعـــــالـــيق

١) بيريروجر فى مقدمة المجلة الافريقية (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ٠

٢) وليام مارسى فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، باريس ، ١٩٣١ ، ص ١٦٣ ٠

٣) انظر عنها كتابى «تاريخ الجزائر الحديث ـ بدايـة الاحتلال» ، القاهــرة ، ١٩٧٠ (معهد البحوث والدراسات العربية) ٠

٤) ستيفان غزال فى كتاب «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ٧ ـ ٨ ٠

٥) يعود الفضل فى تاسيسها الى الضابط كروللى ، والضابط بروسلار ، وشيربونو ، استاذ العربية٠

٦) اول مكتب لها كان يتكون من بيربروجر (رئيسا) وعضوية دى سلان ، ودونوفو (كلاهما عسكرى) وبريسنى (كاتب عام) استاذ اللغة العربية ٠

٧) بيربروجر فى مقدمة «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٨٥٧) ، ص ٤ ـ ٦ ، انظر كذلك «لوحـة عـن وضع المنشآت الفرنسية» (مجلد ١٨٤٦ ـ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ـ ١٩٧٠

٨) مثل جورج غروى ، وجونى فرعون ٠ انظر شارل فيرو «مترجمو الجيش الافريقى» وكذلك هنـرى ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر» (١٨٣٠ ـ ١٩٣٠) فاصلة من «المجلـة الافـريقية» ٣٥٦ ـ ٣٥٧ (١٩٣٣) ، ص ١ ـ ٣ ٠

٩) يقول الفريد بيل ان حكومة الاتراك فى الجزائر كانت حكومة قراصنة ، جعلت القرصنة البحريـة نظاما لها ٠ وكان اعضاؤها اتراكا أو مرتدين مسيحيين ٠ وكان اسلامهم «خفيفـا» ٠ انظـر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ١٩٤ ٠

١٠) منذ السنوات الاولى للاحتلال كانت صحيفة(المرشد الجزائرى) تتحدث عن تاثير الكنيسة على الجزائريين ٠ وسنة ١٨٤١ كون (دوبوش) رئيس كنيسة الجزائر جمعية باسم (جمعية سان أو غسطين) ٠

١١) انظر «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ص ٧ ـ ٨٠

١٢) بالاضافة الى انهم عسكريون فانهم اصلا لم يكـونوا مهتمين بالدراســات الجزائرية ٠ غـير ان وحدة الهدف ووحدة العمل ، وكذلك الزمالة ، جعلتهـم يتكاتفون وينتجون ٠ انظر غبريال اسكـير ، «الجمعية التاريخية الجزائرية» فى «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ـ ١٩٥٦) ، ص ١٩٨ ٠

١٣) وليام مارسى «التاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦٦ ٠ ينتقد الكاتب المصادر الاهلية بانها تفتقر الى الضبط التاريخى ، فهى حسب رايه تصف احداثا مضى عليها من ٥٠ الى ٢٥٠ سنة ٠

١٤) نفس المصدر ، ص ١٦٣ ٠ يقول الكاتب ان ديفو لم يكن فوق النقد وان بعض الوثائق التى كـان يشرف عليها وجدت تباع اثنــاء حياته ٠

١٥) بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية للاحتلال (١٩٣٠) انعقد فى الجزائر المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية· وكان ذلك بتاييد من الحكومة العامة بالجزائر · وقد تراسه السيد كوفيل رئيس اللجنة الفرنسية للعلوم التاريخية · وكان المؤتمر الوطنى الاول قد انعقد فى باريس سنة ١٩٢٧ · وفى خطبة الافتتاح التى حضرها الحاكم العام السيد بورد ، قال كوفيل ان انعقاد المؤتمر بالجزائر لا يعنى فقط الاحتفال بحادث عسكرى مجيد (يعنى نجاح الحملة الفرنسية على الجزائر) ولكنه يعنى ايضا الاعتراف بماقامت به فرنسا فى الجزائر منذ مائة سنة انظر «المؤتمر الوطنى الثانى للعلوم التاريخية» (الجزائر ١٩٣٢) ، ص ٨ ·

١٦) انظر غزال (تاريخ ومؤرخو الجزائر) ، ٩ ·

١٧) لوتورنو (المجلة الافريقية) (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٤٣ ·

١٨) ياكونو ــ نفس المصدر ، ص ١٨٣

١٩) وليام مارسى ، «تاريخ ومؤرخو الجزائر» ، ص ١٦١ ·

٢٠) نفس المصدر ، ص ١٧٤ ·

٢١) غزال ، نفس المصدر ، ص ٦ ــ ٧ ·

٢٢) نفس المصدر ، ص ٥ ·

٢٣) الفريد بيل ، نفس المصدر ، ص ١٩٦ ·

٢٤) جورج ايفير ، نفس المصدر ، ص ٢٩٠ ·

٢٥) انظر مقالى «الاستاذ جوليان والتاريخ الجزائرى» المعرفة (الجزائرية) ، عدد جوان ١٩٦٥ ص ١٠ ــ ٢٣ ·

٢٦) ماسى «الدراسات العربية فى الجزائر ، ص ٤ ·

٢٧) (المرشد الجزائرى) عدد ٥٢ ، تاريخ ١٩ جانفى (يناير) ، ١٨٣٣ ·

٢٨) يجب ان نستثنى بعض كتابات جوليان ، ونوشى ، واجرون ·

٢٩) جورج ايفير «التاريخ ومؤرخو الجزائر» · ص ٢٦٧ ·

٣٠ غزال ، نفس المصدر ، ص ١٦ ·

٣١) انظر «المجلة الافريقية» (١٨٥٦ ــ ١٩٥٦) ، ص ١٩٥ وما بعدها ·

٣٢) انظر «لوحة عن وضع المنشآت الفرنسية» فى الجزائر» (سنوات ١٨٤٦ ــ ١٨٤٩) ، ص ١٩٦ ·

ملحـق (١)

اللجان والجمعيات التى اهتمت بتـاريخ الجزائر

١) لجنة التحقيق المعروفة باسم (اللجنة الافريقية) سنــة ١٨٣٣ ٠

٢) لجنة اكتشاف الجزائر العلمى (اصدرت ١٧ مجلدا) سنــة ١٨٣٧ ٠

٣) جمعية قسنطينة الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٥٢

٤) المفتشية العامة للاثار التاريخية والمتاحف الاثرية سنــة ١٨٥٤ ٠

٥) الجمعية التاريخية الجزارئية (لها مجلة) سنــة ١٨٥٦ ٠

٦) اكاديمية هيبون (عنابة) (لها مجلة) سنة ١٨٦٣ ٠

٧) جمعية وهران الاثرية (لها مجلة) سنة ١٨٧٨ ٠

٨) مصلحة الاثار التاريخية بالجزائر سنة ١٨٨٠

٩) المدارس العليا (منها مدرسة الاداب العليا) سنة ١٨٨٠

١٠) الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر وشمال افريقيا (لها مجلة) سنة ١٨٩٦

١١) جامعة الجزائر (منها كلية الاداب) سنة ١٩٠٩

١٢) لجنة جونار لنشر الوثائق التاريخية (نشرت مراسلات ووثائق) سنة ١٩١٠

١٣) لجنة التحضير للاحتفال المئوى بالاحتلال (نشرت المجموعة المئوية) سنة ١٩٢٥

١٤) معهد الدراسات الشرقية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٣٣

١٥) اتحادية الجمعيات العلمية فى شمال افريقية (نشرت ابحاثها السنوية) سنة ١٩٣٥

١٦) معهد الابحاث الصحراوية بالجزائر (له مجلة) سنة ١٩٤٠

١٧) جمعية اصدقاء تلمسان القديمة سنة ؟ ١٩

١٨) جمعية تبسة لما قبل التاريخ والاثار سنة ؟ ١٩

١٩) الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف سنة ؟ ١٩

ملحــق (٢)

الجمعيات العضوة فى «اتحادية الجمعيات العلمية بشمال افريقية» عام تاسيسها سنة ١٩٣٥ بالجزائر

عن الجزائر :

- اكاديمية هيبون (عنــابة)
- مركز دراسات الاستعمار المقارن
- معهد الدراسات الشرقية
- الفرع الجزائرى للجمعية الفرنسية الفزيائية
- جمعية قسنطينة الاثرية
- الجمعية الاثرية والسياحية لتغاست (سوق اهراس)
- جمعية جغرافية مدينة الجزائر
- جمعية وهران للجغرافية والاثــار
- جمعية التاريخ الطبيعى لمدينة الجزائر
- الجمعية التاريخية الجزائريــة
- الجمعية التاريخية والجغرافية لمنطقة سطيف
- جمعية اصدقاء تلمسان القديمة

عن تــونس :

- معهد قرطــاج
- جمعية ســوسة الاثرية

عن المغــرب :

- مراكز الدراسات القضائية المغربية
- لجنة دراسات المياه الجوفية
- جمعية الدراسات الاقتصادية والاحصائية
- جمعية المغرب الجغرافية
- جمعية التاريخ الطبيعى بالمغــرب

ملحـق (٣)

الاسماء الاجنبية الواردة فى البحث

ملاحظة : تسهيلا للباحثين الذين يريدون الاهتداء بهذا البحث ، اضع هنا قائمة بالاسمـاء الاجنبـية بالحروف اللاتينية حسب الترتيب الابجدى · ولم اشـأ ان اثقل البحث بذكر الاسماء بالحرفين العربى واللاتينى فى ثنـاياه ·

ارنــو … Arnaud
ازان … Azan, P.
بـاسى … Basset, R.
بيرتزين (قائد عام الجيش) … Berthezène
بـيرك … Berque, A.
بيلمـار … Bellemare
بيربروجو … Berbrugger,
بريسنى … Bresnier
بريسون … Bresson
بروسلار … Brosselard
بـودان … Bodin
بواسونى … Boissonnet
بوتـان … Boutin
كانيـا … Cagnat
كاريت … Carette
شـارل ٥ … Charles V
كلوزيل قائد عام الجيش وحاكم عام) . Clauzel

كوبلانى … Coppolani
كـور … Cour, A.
دومـاس … Daumas
ديرلون (حاكم عام) … D'Erlon
ديلامـار … Delamare
دونوفو … De Neveu
دي سلان … De Slane
ديـل … Diehl
ديبـارمى … Desparmet J.
دوفـو … Devoulx
ديبوا ـ تانفيل … Dubois-Thanville
ايميريت … Emerit, M.
فـيرو … Feraud, Ch.
فورنيل … Fournel
قوتى … Gautier, E.F.
غرامون … Grammont (de)
غـزال … Gsell

هانوتو	Hanoteau
هايــدو	Haedo
جونار (حاكم عــام)	Jonnart
جوليان	Julien, Ch. A.
لاكروا	Lacroix, N.
لوتورنو	Letournou
لوسياني	Luciani
مارسي ، جورج	Marçais, G.
مارسي ويليام	Marçais, W.
ماسكاري	Marsquary
ماسي	Masset, H.
مونصــو	Monceaux
كيرسي	Kercy
باناني	Pannanti
بيليسي	Pellissier (de Reynaud)
بيريس	Pérès, H.
راندون (حاكم عام)	Randon
رونودو	Renandot
ريــن	Rinn, L.
روبــان	Robin
روفيقو	Rovigo
شيــافي	Sciavi
سيروكــا	Seroka
شيلر	Sholer
شــو	Shaw
ترملي	Trumelet
فانتور دي بارادي	Venture de Paradis
فوارول (حاكم عام)	Voirol
ويلسن ـ ايسترهازي	W. Esterhazy
ياكونو	Yacono, X.
ايفير	Yver, G.

النظريات التاريخية بين

التفسير والتحريف

عبد المجيد مزيان

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

انه لمن ادعاءات عصرنا ان نستاثر دون ابنـــاء العصور الاخرى بالتحليقات النظرية على التاريخ ونؤكد لانفسنا أننا فهمنا المخطط العام للمسـيرة البشرية واكتشفنا الانسانية كأنها الكائن النوعي الموحد الذىرسمت له غريزته الحيوية اهدافا تزعم انه من الممكن النظر اليها فى آفاق المســتقبل البعيــد .

وكم من تخليط وقع في مثل هذا الموقف بين معقولية التاريخ وسحرية الخيال · ولقد أصبح من الواجب الاكيد على الناقد ان يتحذر اليوم من مؤرخي الاحداث الجزئية الذين يفككون التاريخ قطعا قطعا حتى لا تعني أي قطعة أي شيء ، بقدر ما يتحذر من بعض فلاسفة التاريخ الذين يجولون في عالم ما وراء التاريخ كمن ينظر الى الارض من ابعاد السماء ·

لقد تساوت في السخف نظرية « تاثير انف كليوباترا » في تاريخ العالم ونظرية المعقولية المسبقة لكل التاريخ · ولقد تاه باسكال في جزئيات الوجوه والانوف بدعوى التفكير الدقيق بقدر ما تاه هيجل في تتبع مخطط خيالي مشترك بين الله والناس لتحديد أهداف الوجود ·

ليس للتاريخ عقلانية مستقلة عن الاحداث التاريخية نفسها ، وليست الاحداث شظايا مشتتة لا يمكن جمعها · وهذا الاعتبار هو الذي يفرض علينا أن نحدد معقولية التاريخ في نظريات لها قيمتها كأداة لفهم الاحداث ، على شرط ان لا تصبح هذه النظريات عقيدة فلسفية مستقلة بذاتها ، وعلى شرط ان نقول بنسبيتها في الزمن وفي مختلف المجتمعات · ان مهمة النظرية التاريخية هي ان تفسر الاحداث وتعقلن التطورات والارتباطات وليست مهمتها لذاتها · وما من نظرية الا ولها وجهان : انها صالحة مادامت أداة للمعقولية،وهي فاسدة حينما تدعي الاطلاق والتسلط على كل عصر وكل زمن، وهي فاسدة أيضا حينما تجر

الى سهولة التصورات واختصار البحث في العلاقات المتشعبة الدقيقة ·

من قبيل التصورات المختصرة تلك النظرية التي يمكن ان نسميها نظرية « الاستدجان » عند توينبي · وملخصها ما يلي :

ان الحالة الذهنية التي يكتسبها الانسان من سلوكه المعاشي تبقى متوغلة فيه . وقد تسيطر عليه حينما ينتقل من وضعية اقتصادية واجتماعية بدوية الى وضعية حضارية · فتتفتق هذه الذهنية عن انتقال صوري بينما محتوى السلوك يبين أن الذهنية لم تتغير جذريا وانما بقي صاحبها محافظا عليها ، رغم التحول السطحي الظاهر ·

وتطبيق هذه النظرية ان البدوي الذي يسكن المدينة مثلا يبقى محافظا على معايير المعاش البدوي رغم مظاهر التحضر السطحية ·

ولنا في التاريخ ، فيما يدعي توينبي خير مثال عن صحة هذه النظرية : فلنأخذ المجتمع التركي كنموذج للبدو الذين مروا بمراحل حضارية مختلفة المستويات · ان الترك كانوا في آسيا الصغرى يربون المواشي . وقد تعودوا على ترويض الطبيعة الحيوانية من الاسهل فالاصعب حتى مرنوا على « تدجين » أنواع مختلفة من الشاة والمعز الى الكلاب الى الخيل الى الابل · وحضارتهم كحضارة كل من في وضعيتهم من البدو انما هي حضارة كلها تربية وترويض للحيوان · ومن الطبيعي في ذهنيتهم ان يحاولوا تطبيق هذه الرياضة أو قل هذه التقنية التي هي تقنيةالتربية

على أعلى حيوان فى سلم الوجود الا وهو الانسان · ان الترك شرعوا فى استدجان البشر بمجــرد ما تحولوا الى الحياة الحضارية أى بعد تســـلطهم العسكرى على البلاد الاســـلامية ، وقد وصلوا باستدجانهم هذا مرتبة المنظومية والاتقان حينما بدأوا فى الاســـتيلاء على بعض المنـــاطق الغير الاسلامية ·

ولقد كان مآل هذه الحضارة ابتداء من الفتــرة الاتقانية فى النظام ان اخضعت كل وجودها لهذه الظاهرة التى هى ظاهرة استدجان البشر ·

وكانت الحلقة التى تجول فيها هذه الحضـــارة منحصرة فى اختطاف البشر لتربيتهم فى الثكنات، للهجوم على بشر آخرين ، الاختطاف ، للهجوم، فى دور وتسلسل عقيم ، عبر الاجيال · فالانكشارى أو المملوك ربى على أن يكون « كلب حراسة » تماما ككلب الحراسة الذى يرعى القطيع ، والشـعوب المحتلة ربيت على أن تكون شياها يستخرج منها المعاش · وأثرت سلوكات « كلب الحراســة » فى كل من الطبقة الحاكمة والحارسة على الســـواء وتحجرت بذلك الحضارة تحجرا سريعا ادى بها الى الانحطاط · فاتقان ظاهرة الاستدجان للبشر من ترويض طبقة منهم على أن تكون بمنزلة « الكلاب » وترويض طبقة أخـــرى على ان تكون بمنـــزلة « الشياه » ، وتعميم هذه التقنية هو سبب هلاك السلطنة العثمانية ، لانها رجعت بالانســـان الى مستوى الاتقانوالتحجر الذى عرفه النحل والنمل ملايين السنين قبل ان يتـأنسن الانســان فوق الارض ·

واذا أردنا ان نتصور صحة هذه النظرية كمـا يظن توينبى فما علينا الا أن نرجع الى النـــماذج الاجتماعية التى أتانا بها التاريخ · ان المجتمعات الحربية كلها من نمط واحد : انها تصل بالنظـام العسكرى الى مستوى الاتقان وما تلبث الحراســة التى هى وظيفة هذا النظام ان تخنـــق الوظائف الاخرى خنقا . فاذا تاملنا سبارتا مثلا وجـــدنا مجتمعها قوى النظام ولكنه قفر حزين لا فن فيـه ولا فكر ، ولا اختراع · هكـــذا كانت المجتمعات الآسيوية فى القـــرون الوسطى وهـــكذا كانت الفاشية فى القرن العشرين · وما يلبث المجتمع الحربى أن يصاب بالترف الاقتصادى والماليلتكرار هجوماته ولاشتداد حراسته · وسرعان ما تتحول « كلاب الحراسة » اذا جاعت ، الى ذئاب ضـــارية ترتمى على القطيـــع أكلا وتقتيلا ، ويتـــدهور الاقتصاد والعمران ، وتنعدم الغـاية التى كانت ترمى اليها وظيفة الحراسة وهى الحرب الخارجيــة للسلم الداخلى ويضطر المجتمع الى تقتيل « كلاب الحراسة » الآكلة للقطيع ويتبادل القتـــل ويعم ، ويفنى هذا النوع من الحضارة فى مناظر كابوسية كلها موت وخراب وقفار ، وجيف ونســـور ، وحزن رهيب ·

هذا ملخص نظرية الاستدجان · وانها لنظرية جذابة ولا أنكر اننى احببتها لقوتها الشـــعرية وليتها كتبت بأسلوب دانتى لتكون جزءا رائعا من رحلته الى الجحيم ·

وليس الجانب الشعرى الخيالى هو الوجه الوحيد الذى يحبب الينا هـــذه النظرية ، اذا قرأناها

مسرعين · بل نقول ان لها قوة المعقولية المريحة التى تفسر لنا جزءا كبيرا من تاريخ الانسانية ، وهو تاريخ المجتمعات الحربية فى جميع الفترات والبقاع · وهى ايضا مفتاح لفهم لغز الانحطاط الحضارى الذى اتعبتنا مجهودات التحليل بشأنه ولم نصل بعد فيه الا لنتائج تقريبية لا تؤدى الى الاقتناع · وأما اذا نظرنا الى هذه الفكرة من حيث التماسك ، فانها فى الظاهر متماسكة وقوية لانها تربط ربطا وثيقا بين الاقتصاد والتفكير والسلوك فى صيرورة الحضارات · اننا هنا بصدد حضارة بدوية ارتقت الى مستوى الاتقان وكانت جل تحولاتها فى اتجاه واحد ، مع تحسن مستمر فى هذا الاتجاه : من أسفل الى أعلى ، من تربية الحيوان الى تربية البشر وهو قمة الاتقان · ولكن ليس بعد قمة الاتقان النظامى الا التحجر ، والتحجر الاجتماعى هو الانحطاط بالذات · فكأننا بصدد المعقولية العلمية التى لا تتقبل النقاش ، وكأن النظرية توحى هنا بقانون النشوء والارتقاء والفناء الذى يسيطر على الكائنات الحية، والمجتمع كائن حى ممتاز ·

انى لمعترف أن هذه النظرية كان فى الامكان أن تقنعنى اقناعا كليا وأن لا أفكر فى مناقشتها فى يوم ما لو تناولت نموذجا حضاريا مثل سبارتا ، وألمانيا النازية مثلا ، ولكنى بدأت أشعر بعدم صحتهالانها تناولتتاريخ بلادى وتفسير حضارتى بطريقة تثير الاحساس وتثير الشكوك فى نفس الحين · وان اعترافى هذا يحتوى ضمنيا على تمسكى بمسبق منهجى وهو اعتقادى بأن النظريات التاريخية صورة واضحة للعقيدة التى ينتمى اليها أصحاب هذه النظريات · فالبحث عن الاصول العقائدية لكل نظرية تاريخية يعد اذا من الخطوات الاولى فى سبيل النقد التاريخى ·

انه لا يصعب على أى باحث ان يلمس فىنظرية الاستدجان موقفا عقائديا تحركه عواطفالبغضاء للانظمة العسكرية ، ويحركه التمسك بذلك النوع من الحرية الاقتصادية الذى يسيطر على العالم الغربى منذ ثلاثة قرون ·

لماذا ننتبه الى نوع واحد من الاستدجان ولا ننتبه الى أنواع الاسترقاق النازلة بالانسان ؟ ولماذا ننتبه الى تربية البشر فى الثكنات العسكرية ولا ننتبه الى استعبادهم فى المصانع التى هى سجون عصر التكنولوجيا ؟ ذلك لاننا ندرك كوارث الآخرين وتمنعنا عقيدتنا النابعة من مجتمعنا عن ادراك تناقضاتنا وتدهور حضارتنا · ان المجتمعات البشرية عاشت كلها على أنظمة استرقاقية منذ أقدم عصور التاريخ · ولم يكن من حظ البدو ان اخذوا بنظام الاسترقاق أكثر من غيرهم من المجتمعات · فلو سلمنا ان العرب باستعمالهم المماليك ، والترك باستعمالهم الانكشارية ، كانوا النموذج الاكثر بروزا لهؤلاء البدو الذين تجرأوا على تربية البشر كما تربى الحيوانات لسلمنا بموقف خاطىء فى بدايته ، وذلك لسببين · أما السبب الاول فلأن جيوش المرتزقة وأنظمة الارتزاق كانت من الانظمة المعروفة المشهورة فى مختلف الحضارات وفى

مختلف العصور . وكانت مستويات الاتقان في هذا النظام عديمة العلاقة بالاصل البدوي او الاصل المدني للمجتمعات . ان قرطاجنة العريقة في الحضارة مثلا قد وصلت بنظام الارتزاق الى حد لا يستهان به من الاتقان النظامي . وأما السبب الثاني فيرجع الى التغافل عن ظاهرة التحول الاجتماعي والانتقال من حال الى حال . ان النظام السياسي الذي يستعمل الارتزاق ويدقق له الوسائل والقوانين ، هو النظام الذي قد تعود على الحياة الحضرية وصار عاجزا عن حراسة ممتلكاته الا بوسائل الاستدجان . فالعرب المستعملون للمماليك او الترك المستعملون للانكشارية انما هم أبناء مجتمعات قطعت كل علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية والذهنية مع البداوة الاولى . والخطأ هنا في التخليط بين الاجيال وعدم الانتباه الى التحولات الجذرية التي فصل بينها .

هذا ولا ينتبه اصحاب هذه النظريات المختصرة الى حقيقة ظاهرة اتخاذ المماليك جندا وحرسا في العالم الاسلامي . انها تختلف عن الرق كل الاختلاف . ان المملوك يحارب من أجل أسياد ظاهريين ، وانه في عالم طغت عليه الحروب وشتى الاصطدامات السياسية لهو السيد الحقيقي لانه يحمل السلاح . ولو قارنا بين المرتبة الشرفية التي كان يحظى بها الخلفاء ووضعية المملوك الذي كان يضغط بكل قوة سلاحه ونظامه العسكري على الاحداث ، لرأينا ان السلطة الفعالة كانت بيد المملوك . من المماليك قواد حرب ، وأمراء أساطيل ، وملوك بكل ما في معنى الملك من قوة وسلطان . ولا تعني هذه الملاحظة اننا نحبذالنظام الذي كانت تسوده مثل هذه العلاقات ولكننا نريد أن نثبت ان الاستدجان كثيرا ما يقع لصالح المماليك لانهم يتصرفون في أصحاب السلطة الشرفية تماما كما يتصرف الحاكمون في محكوميهم، من تنصيب ، وعزل ، وقتل ، ومراقبة شديدة على سلوكاتهم العمومية . ولم يمر دهر طويل على هذه الظاهرة الحضارية حتى اصبحت قضية الدولة هي قضية المماليك ، هم الحريصون على كيانها ، والصامدون في وجه أعدائها ، والمستميتون في سبيل عقيدتها . وليس هذا السلوك من قبيل سلوك العبيد أو المستدجنين ، أو المرتزقة التقليديين .

ومن تمويهات نظرية الاستدجان انها تعمد الى قانون الاحياء لتقرن بين الاتقان والانحطاط . كان المجتمع حيوان كبير يخضع لقانون النشوء والارتقاء والفناء . وليس الاتقان النظامي فيما تزعم النظرية الا من حظ المجتمعات الحربية ، واسرافها في الاتقان والآلية هو الذي يجرها الى الهاوية لانها تقضي على روح الاختراع . أو لم يلاحظ المؤرخونان ما يسمى بالاتقانالنظامي انما هو حالة تحجر يكون قد سبقها الانحطاط الحقيقي منذ أجيال ؟ فآلية الانظمة سواء في أجهزة الادارات أو أجهزة الجيوش انما هو انكماش يدل على روح التقليد وعدم القدرة على الاختراع ، وعدم تفهم الصيرورة التاريخية التي تفرض دوام التجديد .

وليس التحجر والانحطاط من حظ المجتمعات العسكرية وحدها .

لا يعنينا كثيرا أن نعـدد الادلة التاريخية على فساد مثل هذه النظرية ، بقدر ما يهمنا ان نفكك اجهـزتها الى العناصر العقائدية والعاطفية التى ركبت منها . هل يمكن لفيلسـوف ومؤرخ يؤمن بمزايا الحرية الاقتصادية التى يعيش عليها مجتمعه أن ينظر الى العالم الخارجى نظرة استحسان ؟

ان التسلط العسكرى ، والاستبداد فى الحكم ، والرق ، والبداوة الغاشمة ، والبـدائية كلها ظواهر اجتماعية وتاريخيـة لا يمكن بزعمهم ، أن توجد لها النماذج الا خارج الغرب .

ولقد سبق لهيجل ان التمس رمـزا للحكـم المستبد فلم يلمسه الا فى النوع الآسيوى، وحينما اراد ان ينوه بالبناء السياسى الامثل فلم يجده الا فى النظام الاوروبى المشبع بالعقيدة الفلسـفية الجامعة بين الفكر الغربى وروحانية المسـيحية . ولنقف قليلا عند الاسترقاق .

اذا كان لابد من البحث عن نوع من الاستدجان، واتقان النظام فيه فليس هناك نموذج اجتـماعى وتاريخى يمثل هذه الظاهرة أحسن من الاقطاعية الغربية التى عاشت عليها أوروبا عدة قرون . ان الحاق البشر بالارض وتشـبيثهم فى المعاملات المتعلقة بها ، ومنعهم من التملص منها ، والاحتكار الطبقى لكل النشاطات المتعلقة بالزراعـة ، لمـن الاتقان الدقيق للنظام الاسترقاقى . فهـل كان اقطاعيو العالم الغربى ، وأعوانهم من رجـال الكنيسة بدوا قد وصلت بهم البراعة فى تربيـة المواشى الى البراعة فى تربية رقيق الارض ؟ وهل جر هذا الاتقان الدقيق لنظام الاسـترقاق الى انحطاط العالم الغربى ، أم أدت به الاسرافات فى تشديد النظام الى الثورة والنهوض ؟

وهل يمكن ان نلمس الاستدجان واتقان نظـام استغلال الانسان للانسان وهو الامتداد العصرى للاسترقاق ، فى غير الانظمة الرأسـمالية التى استعانت اليوم بالتكنولوجيا لتدقيق أجهزة ذلك الاستغلال ؟

واننا لنعجب فى مثل التصنيفات التى يأتى بها فلاسفة التاريخ المتشبعون بعقيدة الغرب الرأسمالى ان يجعلوا بعض المجتمعات الاسلامية نماذج للنظام الحربى ، ويتغافلون فى كل مرة عن الالتـفات الى النماذج العسكرية التى يأتى بها الغرب .

لقد كان من الممكن ان نأخذ المجتمع الانجليزى فى عصر الاستعمار كنموذج لاتقان النظام الحربى وسيطرته على جميع الاجهزة السياسـية الموجودة آنذاك . أليست سياسة التوسع المسـتمر ، وتوطيد النظام فى المستعمرات عبارة عن اتقـان دقيق لفنية الحـروب ؟ واذا أردنا ان نكشف عن منظومية الحرب وطغيانها على باقى النشـاطات الحضارية فى المجتمعات فلا احسن من المجتمعات الغربية لاعطائنا نماذج واضحة صريحة عن هـذه الظاهرة . ولننظر الى التـاريخ القريب : فمن الامبراطورية النمساوية الى بروسيا الى فرنسـا البونابرتية ثم الاستعمارية الى أمريكا فى عصرنا هذا الى دولة صهيون ، انها كلها مجتمعات تقدس الحرب وتهيء لها الاسـباب ، وتعممها تعميما

جنونيا وتسعى لابادة الآخـــــرين ، وتتفنن فى استخدام الفكر واستدجان المحاربين ، والعلماء ، والمهندسين‌حتى تسخر كل‌الطاقات المادية‌والفكرية فى سبيل الحروب . فأين غريزة الراعى فى مثـل هذا النظام العســـكرى الذى يسهر على تربية الجيوش واتقان اجهزتها ؟ ولماذا لا يمكن ان نتكلم عن التحجر والانحطاط فى مثل هذه الحال ؟

اننا نلمس من هذه المقارنات أهمية العقيـــدة كمحرك للنظرية‌التاريخية ٠ ولسنا ندعى التحليل النفسانى لصاحب النظرية فنقول ان العقيـــدة تحركه بكيفية لا شعورية‌وتجعله يعشو عن كوارث مجتمعه ويحلق بفكره فوق مجتمعات الآخرين ٠ بل نرى انه فى عقيدته ونظرياته ذو التزام صريح بفلسفة مجتمعه بكل ما لها من جوانب سياسـية وأخلاقية وتطبيقية ٠

اننا نرى من خلال الحكم على النظام والاتقـان بالعقم والتحجر موقفا شــعوريا وأخلاقيا يجعل صاحبه مبالغا فى مقت كل حضارة لا تؤمن بالحرية والاختراع ٠ ولو تصورنا الحاسة الحضـارية فى المجتمع الامثل ، حسبما يوحيه علينا هذا الموقف، لتصورناها عبارة عن تجسس فى الظلام ، واختراع مستمر ، وقدرة دائمة على التكيف مع الظروف ٠ هكذا يمكننا أن نلخص كل مواقف الفلســـــفة التجريبية العملية التى ظهرت فى‌العالم الانجليزى الامريكى منذ القرن الماضى ٠ ولا يظنن الباحث فى تاريخ الافكار ان هذه الفلسفة نبعت الى الوجود من أدمغة المفكرين وبمحض الاختيار المطلق ، بل ليس من الممكن ان نغفل عن ربطها بفكرة الحـرية الاقتصادية التى تدعو الى تشـــجيع المبادرات ، والتفتح على الاكتشاف والاختراع ، والتقليل من الانظمة المضيقة على حرية الافراد ٠ ويمكننا ان نقول بعبارة اخرى ان هذه الفلســـفة ليست الا عبارة عن عقيدة المجتمع الذى نبعت منـــه وانها تحتـــــوى ضمنيا على تناقضاته الاقتصـــــادية والاجتماعية ٠ انها تمثل الحرية الفردية لصـــالح أفراد فى طبقة ، ولكنها تمثل الحجـــر وتمتين النظام والحراسة الشرطية والعسـكرية على باقى الطبقات ، وعلى الشعوب التى تعترض حـــرية « الافراد المخترعين » ٠ انه لا يمكن مع هــــذا الالتزام الشعورى واللاشعورى بالعقيدة أن نؤمن بمعقولية النظريات التاريخية مهما ظهر منها من تماسك وقوة بناء ٠

يقول ماركوز فى كتابه عن « الانســـــان ذى البعد الوحيد » ان معقولية التاريخ هى الممكن فى حدود الحتمى ٠ ونجيبه نحن أبناء العالم الثـالث بأن الحتمى أضخم مما يتصوره المؤرخون.ان‌تصارع الحضارات يفرض علينا الدخول فى تيار العراك ، ونحن ملزمون بالتجهيز لهذا العراك من اتقـــان لوسائل الحرب ، وتحرر مستمر ٠ وليست عظمة بعض الحضارات فى عالم اليوم الا بناء يرتكز على استغلال الشعوب والضغط عليـــها وانزالها الى مرتبة الخضوع وفقدان الوعى ، الذى بواســـطته يمكن تفهم حدود الممكن والحتمى فى كل انجـــاز حضارى ٠ هذه حالة مضيقة لحدود الممكنات ٠ ان بعض المجتمعات بنت عظمتها على حساب مجتمعات اخرى ٠ وليس هناك امكان بالنسبة لهؤلاء وهؤلاء

الا التمادى فى الصراع واعداد العدد له من الطرفين ، الاقوياء للمحافظة والزيادة فى القوة ، والضعفاء للتخلص من الضغوط والاستغلال • فكان الممكن ضاق حتى أصبح هو الحتمى بالذات •

وبناء على هذا الاعتبار نقول ، ان تعميم الانظمة العسكرية واتقانها بالوسائل التكنولوجية ، وخلق الحروب المتسلسلة ، وجدلية الصراع المستمر ، أمر محتوم فى عالم اليوم ، سواء للمحافظة او للتحرر . وترجع مسؤولية هذا الوضع الى الحضارات البورجوازية لان الحضارات الاخرى عبارة عن ردود فعل وأجوبة على تحديات العظمة والطغيان للعالم الغربى • ومن العجب ان خالقى حتمية الحروب يدافعون ظاهرا عن الحرية والسلم • لسنا ندعى حينما نتكلم عن ضخامة الحتمى وتحديد نطاق الممكن ، بان الارادة البشرية لن تتجاوز هذا الوضع • ولكنها ستتجاوزها بالقضاء على التوازن الحالى الذى يفرض بقاء بعض البشر فى الخمول ، ليصعد البشر الآخرون الى النجوم • وهذه هى رسالة الثورات • لكل مجتمع حريته وسلمه • ان حرية الشعوب الضعيفة وسلمها هى أن يرفع عنها كابوس الضغط والاستغلال ، وان حرية المجتمعات القوية وسلمها هى ان لا يتغير أى شىء • كل شىء نسبى كما نرى فى ميدان التاريخ : ان الفكرة نسبية ويختلف مفهومها من مجتمع الى مجتمع ، وان النظرية التاريخية نسبية لا تتعدى صفة الاداة لفهم وضعية محدودة فى الزمن ، وان التحليل والنقد الذى يسلطه المؤرخون على المجتمعات يحتوى على مواقف مذهبية مهما كانت مظاهر المعقولية فى النقد والتحليل •

ما المقصود العملى من هذا العرض ؟ وما هى أغراضه بالنسبة لتاريخنا ؟ يمكننا تلخيص الاجوبة فى بعض النقط :

1) ان كل ما كتب عن تاريخ بلادنا وأمتنا يمكن مراجعته وتفسيره من جديد ، كما يمكن ازالة جميع التخريفات النظرية والخيالية التى الصقت بهذا التاريخ •

2) يجب ان يكون النقد التاريخى جذريا ، لاسترجاع الواقع ، وان ينتبه الناقد الى الالتزام العقائدى الذى يحرك المؤرخين

3) ليس المقصود من النقد التاريخى هو ابطال نظريات الاجانب للدفاع عن حضارتنا والانتصار لمذاهبنا ، بل يجب ان يكون النقد التاريخى نقدا ذاتيا أيضا ، وان ينبه الناقد الى واقع مجتمعنا بالاضواء التى لا تتوفر عند الآخرين ، وذلك للمساهمة عن طريق التوعية الفكرية فى انجازات التاريخ الحاضر الحى • وذلك للاعتبار الآتى :

4) ان التاريخ هو قبل كل شىء ما ينجز ، وأما ما يكتب فهو فى الغالب تصوير ذاتى أكثر منه عقلانى لاحداث وظواهر تجزئى الواقع وتصبغ عليه الوانا من العقائد والشعورات •

وأقول بهذا الصدد لاخوانى الذين تذهب نفسهم حسرات على سوء نية المؤرخين الذين يزيفون تاريخ أمتنا بان التاريخ ليس ضميرا انسانيا شموليا الا فى ميدان الانجاز لانه هو الباقى الملموس الذى تشاهده الاجيال ، وأما كل ما يكتب فيمكن نقضه بمكتوب جديد •

الدفاتر التركية والعربية في الجزائر

د. عبد الجليل التميمي
استاذ بكلية الآداب
جامعة تونس

يتمتع فن التاريخ (1) هذه السنوات باهتمام المسؤولين فى المغرب العربى ، فكثيرا ما نسمعهم ينوهون بعلم التاريخ داعين المؤرخين المغاربة الى كتابة تاريخنا القومى وتنقيته من الافتراءات والاخطاء والتشويه الذى لحقه واصابه على يد المؤرخين الغربيين ، ذلك ان هذا الميدان كان وقفا عليهم يوجهونه حسب ارائهم ، ومعتقداتهم،

1) هذه الدراسة هى خلاصة للمقدمة التى وضعتها لكتابنا المخطوط : « فهرس موجز للوثائق العربية والتركية » والذى نامل ان ينشر قريبا باللغتين العربية والفرنسية

ومخططاتهم ، ومن المؤسف ان يكـون هـؤلاء المؤرخون خاضعين لعدد من الاحكام المسبقة على تاريخ شعوبنا بتركيزهم البحث على فترات دون فترات وعلى اشخاص دون آخرين وعلى فنون دون اخرى ، من ذلك الاهتمام المفرط بتاريخ المغـرب قبل الفتح العربي واكسائه اهمية خاصة وكذلك فترة الاحتلال الفرنسي ، اما الفترات الاخرى ، فقد عرفت ارتفاعا ونـزولا حسب اهتمامات المختصين وتكوينهم العلمي وسير ابحاثهم .

ولقد شعر عدد من المؤرخين الفرنسيين بعدم تـوازن الدراسات التاريخيـة وحتمية الاهتمام بما يسمونه « بالعصور المظلمة » حتى تستكمـل الفجوات الخطيرة التي يشعـر بها كـل باحث لتاريخ المغرب العربي .

من ذلك يجمع المؤرخون الفرنسيون ان الحلقة المظلمة والمجهولة من تاريخ المغرب ، على الرغـم من قربها التاريخي ، هي فترة العهد العثماني ، **اذ الدراسات التي نملكها تكـاد تكـون نادرة ومعلوماتنا العامة قد استمدت مـن انطباعـات** الرحالة الاوروبيين ومن تقارير قناصل الـدول الاجنبية ، اما وثائق الدول المغربية العربيـة والتركية ، فلم يقع الاهتمام بها ولم تفهرس ولم يتم استغلالها ، وعلى هذا الاساس لا يمكننا اليوم التصدي لكتابة هذا التاريخ ، دون ان نقـوم بعملية اولية للكشف عـن كنوزنـا الوثائقية والمخطوطات والعمل على فهرستها لنتحسس مدى غناها واهميتها ، ونشرها ان امكن ، ومن هنا تاتي اهمية نشر الفهارس مهما كانت موادها ، ذلـك ان عمل الباحث اليوم يقوم على اساس الفهارس والبيبيوغرافيا ، فضلا عن نشر الوثائق نفسها ، ولا بد اذا اردنا للمدرسة التاريخية المغربيـة الناشئة ، الشمول والنجاعة والجدية والعلميـة من توفير مثل هذه الادوات لنغـذي دراساتنا ونكسبها القيمة العلمية الثابتة .

★ ★

ولنا ان نتساءل ما مرد عدم الاهتمام الـذي اظهرته المدرسة التاريخية الفرنسية تجاه تاريخ الجزائر خلال الثلاثة قرون من وجود العثمانيـين بالبلاد ؟

يعلل المؤرخون الفرنسيون سبب ذلك الى عدم استغلال وثائق ودفاتر الحكام العثمانيين والمحررة باللغتين العربية والتركية والتي استولت عليها الحكومة الفرنسية يوم ان احتلت الجزائر مـع اوائل الربع الثاني من القرن الماضي ، وقد نادى هؤلاء المؤرخون بضرورة الاهتمام بهاته الدفاتـر وفهرستها (2) لتكون اساسا ومنطلقا لدراسـة

(2) A) BUSQUET, Raoul, *Le fonds des Concessions d'Afrique et l'Organisation du Gouvernement Général de l'Algérie,* pp. 385-401, in, la Révolution Française, Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine, 28[e] année, 405, Paris, Novembre 1908.

B) DELPHIN, G, *Histoire des Pachas d'Alger de 1515 à 1745,* extrait d'une chronique indigène traduit et annoté, pp. 161-233, in, Journal Asiatique, Paris, Avril, Juin, 1922.

C) DENY, Jean, *A propos du fonds arabo-turc des Archives du Gouvernement Général de l'Algérie*, pp. 375-378, in, Revue Africaine, 1[e] trimestre, 1921, Alger, 1921.

ولاية الجزائر . ذلك انه لا سبيل الى دراسة تاريخ بلد ما ، دون ان نضع يدنا على وثائق الدولة الرسمية ومراسلاتها وقوانينها الادارية والمالية والاجتماعية والعسكرية التى سنتها . والتى تعتبر العمود الفقرى لاى محاولة جادة لسبر الابعاد التاريخية والحضارية للبلد المعنى والمراد دراسته .

ان الجزائر كسائر الولايات المرتبطة بمركز الامبراطورية العثمانية قد عرفت نشاطا حثيثا تجاريا وعسكريا فيحوض البحر الابيض المتوسط فى العصر الحديث ونتج عن ذلك وفرة الوثائق الرسمية . ولا ادل على ذلك من هاته المراسلات التى تمت بين الجزائر والباب العالى وانتظامها ، وبين الجزائر وسائر الدول الاوروبية حيث احتفظت لنا دور وثائقها بالنسخ الاصلية التى كان قد اوفدها حكام الجزائر الى رؤسائها ، ويمكن لنا ان نقرر بالنتيجة ان الدولة الجزائرية كانت لديها دفاتر وثائقها الرسمية المتعلقة ببيت المال والتجارة الخارجية والداخلية والضرائب والاحباس وما يتعلق بالانكشاريين ، بالاضافة الى مراسلاتها السياسية مع جميع الدول .

ونظرا الى عدم استعمال كل هاته المراجع الاساسية ، يمكننا ان نقرر على ضوء ذلك ، ان العهد العثمانى بالجزائر كما هو الحال بالنسبة لتونس وليبيا لم يدرس ، وان الابحاث القليلة التى تناولت بعض المسائل المتفرقة لا يمكن اعتبارها اساسية ، اذ هى تكتسى قيمة نسبية هذا ما يعترف به مؤرخو الغرب على اختلاف نزعاتهم وتكوينهم العلمى .

ودون ان نتعرض الى السرد التاريخى لمصير الوثائق الرسمية وهذا ما فصلناه فى مقدمة مخطوطنا ، نلاحظ ان الدفاتر العربية والتركية التى نجت من الضياع تتألف من حوالى 500 دفتر تضم 42 الف ورقة مخطوطة تقريبا ، سنحاول اعطاء بعض الاشارات حول مختلف موضوعات محتوياتها .

تجارة واقتصاد ولاية الجزائر

ان الدراسات التاريخية التى تناولت تجارة بلاد الجزائر مع دول البحر الابيض المتوسط قليلة وعليه تكاد تكون معرفتنا بهاته المواضيع شبه معدومة .

فمثلا تكاد تتركز معظم الدراسات التى ظهرت عن القرن السابع والثامن عشر حول القرصنة واسترقاق الاسرى المسيحيين وفديتهم، الشيء الذى جعل بعض المؤرخين يذهبون الى الاعتقاد ان القرصنة تشكل الصناعة الوطنية

D) MARÇAIS, William , *Un siècle de recherche sur le passé de l'Algérie Musulmane*, p. 163, in, Histoire et Historiens de l'Algérie, Paris, 1931.

E) EMERIT, Marcel, *l'Algérie à l'époque d'Abdelkader*, Paris, 1948.

F) YACONO, Xavier, *L'Algérie depuis* 1830, p. 162, in, Revue Africaine, centenaire de la Société Historique Algérienne, 1856-1956, Alger, 1956.

G) MANTRAN, Robert, *Les données de l'histoire mod. rne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie*, pp. 243-248, in Annuaire de l'Afrique du Nord, 1962, Aix-en-Provence - Paris, 1963.

(3) والمورد الرئيسي للبلاد ، وهو راى خاطيء ·

ان نظرة سريعة لمحتويات هاته الدفاتر تفند بصورة لا مجال للشك فيها ، بطلان هـذا الراى، فالدولة الجزائرية عرفت حركة تجارية نشيطة مع موانيء الشرق مثـل ازمـير وسـالونيك واسكندرية (4) وطرابلس بسوريـا وطرابلس الغرب وتونس والمغرب الاقصى ، وكذلك مع موانيء الدول الاوروبية وخاصة مع مرساى وكان لداي الجزائر وكلاء له في عدد من هذه الدول ·

ان هاته الدفاتر تذهب الى ابعد من اعطـاء صورة مصغرة على هاته التجارة ، بل على العكس من ذلك ، تسمح لنا بتقييم تجارة الجزائر تقييما تقريبيا بما توفره من معرفة صادرات وواردات البلاد ومقادرها مع ذكر اسعارها · ولا ننسى ان الجزائر لعبت دورا متكاملا مع وضعية البحـر الابيض المتوسط مع كل من مالطة والبندقيـة ومرساى وصقلية وغيرها من الموانيء ، وانه اذا اريد كتابة تاريخ الجزائر الاقتصادى والتجارى للمائتى سنة التى سبقت الاحتلال الفرنسى ، لا بد من دراسة الدفاتر العربية والتركية اولا ثـم تكملتها بدراسة دور الوثائق بايطاليا وخاصـة صقلية(5)والبندقية والغرفة التجارية بمرساى(6) Chambre de Commerce de Marseille وارشيف استنبول ودار الوثائق التونسية ·

الادارة الجزائرية في عهد الاتراك

ان هذا الحقلمن الدراساتلم يهتم به الباحثون الا نادرا وتكاد تكون معرفتنا لاصـول الادارة العثمانية بالجزائر قد استمدت مـن الرحالـين الاوروبيين امثال لوجيبى دو طاسى(Lougier de Tassy) وبيصونال (Peysonnel) وديفنتان (Desfontaine) وبوارى(Poiret)وفنتور دو برادى(Venture de Paradis) شو (Shaw) وغيرهم ، وقـد وصفوا الادارة وتركوا لنا انطباعاتهم التى لا تخلو مطلقا مـن الاهمية (7) على الرغم من ان اكثرهم كان يحقـد على الاتراك ، واصفين اياهم بالبربرية والقرصنة وقد تبع هؤلاء عدد من المؤرخين خاصة في القرن التاسع عشر وهم الذين حاولوا دراسة هـذا الموضوع وتبنوا احكامهم ونتائجهم (8) ·

كانت الادارة التركية بالجزائر خلافا لما يعتقد ادارة محكمة التنظيم وجد دقيقة ، اذ كان الدايات بالاستعانة بعدد من الوزراء والموظفين والمسؤولين قد تمكنوا من تسيير مختلف شؤون البـلاد ،

(3) ESQUER, Gabriel, *Le Commencement d'un empire : la prise d'Alger*, p. 11, Alger, 1923.
نلاحظ ان القرصنة شكلت بالنسبة للقرن السابع عشر موردا للجزائر العاصمة ، خلافا لقاطعات ولاية الجزائر الثلاث التى كانت تعتمد على التجارة والصيد عموما

(4) GIRARD, P.S., *Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte*, pp. 299-305, t. 17, in, *Description de l'Egypte*, l'Edition, Paris, 1924.

(5) TRASELLI, Carmelo, *Les sources d'archives du trafic maritime en Sicile*, pp 106-119, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au XVIII[e] siècle*, Paris, 1962.

(6) CARRIERE, Charles, *Les sources provençales de l'histoire de l'économie maritime à l'époque moderne*, pp. 227-243, in, *Les sources de l'histoire maritime en Europe du moyen âge au* XVIII[e] siècle, Paris, 1962.

(7) COLOMBE, Marcel, *L'Algérie Turque*, pp. 99-123, in *Initiation à l'Algérie*, Paris, 1937.

(8) BOYER, Pierre, *Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger*, pp. 297-316, in, Revue historique, Avril-Juin, 1966.

فالدولة كانت تتبع نظاما دقيقا لجباية الضرائب مثل العشر والمعونة والغرامة واللزمة وغيرها (9) كما كانت الدولة تميز القبائل الغنية من الفقيرة وفى بعض الاحيان كانت تسجل عدد افراد القبائل واملاكهم الشخصية (10) وعدد الحيوانات التى يملكونها ومداخيل المحصولات الزراعية (11) وكان جمع الضرائب وتوزيعها يتم على اساس نسبى للثروات والمحصولات ، كما ان هاته الدفاتر احتفظت لنا بتفاصيل كاملة للاداءات المفروضة على الواردات والصادرات ونشاط الجمارك وضرائب الشرطة على الاسواق اليومية والاسبوعية وكذلك الضرائب على تجارة اليهود ، كما نجد ايضا معلومات اخرى حول كميات الذهب والفضة التى اخذت من خزينة الدولة ليقع تحويلها الى عملة نقدية للتداول • ثم عجز الميزانية التى ترتب عنه تخفيض العملة فى كثير من المرات • (12)

تمكننا مثل هذه المعلومات من دراسة كل المظاهر الادارية والاجتماعية لحياة الدولة الجزائرية ، وتكون منطلقا لدراسات مفصلة ودقيقة ، كما ان هاته الدفاتر العربية والتركية ، تسمح لنا ايضا بالقيام باحصاء تقريبى لبعض القبائل وتوفر لنا معلومات مشجعة لعلاقات الجزائر ببقية البايلكات الثلاثة والاحداث الداخلية والمعارك التى شنتها الدولة ضدالقبائل الثائرة التى ترفض تسديد الاداء كما نجد تسجيلا دقيقا لتعيين الموظفين وتاريخ ذلك ثم عزلهم وتاريخ من عوضهم واسمائهم . كما نجد معلومات عن الهدايا التى ترفع لدار السلطان والضرائب (الدنوش) التى يحملها بايات ولاية الجزائر الى الداى مرتين كل سنة اثناء فصل الربيع والخريف وكذلك ما يقدمه الاغاوات والامراء وسائر القبائل من اداء وهدايا الى دار السلطان•

ومن جهة اخرى نأمل ان تساعدنا هاته الدفاتر على تحديد بعض الوظائف الادارية وتعددها واختصاصات كل منها واسماء القائمين عليها • على ان الباحث يجد بعض الاشارات والمعلومات التاريخية المفيدة لعلاقات الدولة الجزائرية مع الامبراطورية العثمانية وعدد كبير من دول البحر الابيض المتوسط وخاصة مع جاراتها •

والواقع اننا لا نستطيع التعرض لكلمحتويات هاته الدفاتر ، فهذه لمحة سريعة استوجبها التعريف بها وبمحتوياتها •

يذكر لنا السيد بوايير ان معلوماتنا عن الجزائر لم تتقدم منذ السنة التى نشر فيها قرامن Gremont سنة 1881 كتابه التالى : Histoire d'Alger sous la domination Turque
يبدو لنا ان عمل قرامن ومرسيى Mercier الذين يعدان من انصار المدرسة التاريخية والمستندة فى اغلبها على اساس الاحداث السياسية الفاصلة Histoire événementielle هما فى نظرنا على الرغم من محاولتهما الجدية يخضعان لمعطيات وافكار مسبقة وخاطئة عن الجزائر اثناء الحكم التركى

9) ان الضرائب التى كانت مفروضة على المواطنين بالجزائر هى اقل بكثير واخف وطاة من الضرائب التى فرضها البايات الحسينيون وحكامهم على رعايا البلاد التونسية والذين ضربوا اسوا الامثلة على ابتزاز اموال المواطنين بالقوة

10) راجع الدفتر رقم 4 من القسم الثانى الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

11) راجع الدفتر رقم 13 من القسم الثانى الموجود بارشيف الرئاسة بالجزائر

12) لقد تعرضنا بشىء من التفصيل فى المقدمة الى ذلك ، خصوصا ما كان متعلقا منها فى الربع الاول من القرن الماضى

الاحبــــاس

تعتبر الاحباس من اهم المشاريع الخـــيريـة التى اوجدها المجتمع الاسلامى ، ذلك ان المحبس لشىء يملكه لفائدة النفع العام كان مدفوعـا فى ذلك بحبه للخير والتقرب لمرضاة اللـه ورحمـــة بالفقراء وحبا للعلم ، وعليه انشئت المســاجد وشيدت المعاهد العلمية والخيرية والزوايـــا والملاجىء والتكايا ، وقد تزاحم الحكام والاغنياء فى تحقيق ذلك .

وقد تعددت فى مدينة الجزائر خاصة فضــلا عن قسنطينة ووهران ، الاملاك المحبسة ، حيث كانت مداخيلها ذات قيمة كبيرة سمحت بالقيام بعدد من المشاريع الخيرية والتعليمية مثل الاهتمام بالطلبة ومساعدتهم وصرف مبالغ كبيرة للاساتذة والقائمين على شؤون التعليم ورعاية السقايات ومساعدة فقراء الولاية وتخصيص قسم مـــن مداخيل الاحباس لفقراء الحرمين الشريفين (13) والمرابطـــين والاندلسيــــين والشرفـــاء ودار الانكشاريين وفدية الاسرى المسلمين الذين وقعوا فى اسر المسيحيين الى غير ذلك من المشاريع التى تكتسى طابعا خيريا وانسانيا .

ان الدفاتر العربية والتركية تسمح لنـــا بالقيام باحصاء تقريبى لمداخيل الاحباس نقدا ومحاصيل ومعرفة مصادرها ونوعيتها والمبالـغ المتاتية عن كرائها ، كما تمكننا من تحــــديد ممتلكات الافراد والقاء بعض الاضواء على المعطيات الاولية للحياة الفلاحية وبعض الاسعار العامة ، كما نجد بعض الاحصائيات لمصاريف الدولـــة العامة على الاحباس كالترميم مثلا ، ومن جهـــة اخرى نجد سجلا بالمبالغ المرسلة الى الحرمـــين الشريفين او الموزعة على فقراء الجزائر او المودعة فى بيت المال مع ذكر تصفية الحسابات مـــع الوكلاء القائمين عـلى جمـع مداخيل الاحباس ، وبالتالى تعد هاته المصادر مصدرا لدراسة طبقات المجتمع والفروق الموجودة بينها ، ذلك ان هـذا النوع من الدراسات لم يجلب اليه الباحثـون ولا بد اذا اريد الاهتمام بهذا الحقل من الدراسات من استغلال وثائق الاحباس الثرية والمتضمنـة عددا من المعطيات الاقتصادية والمالية والاجتماعية قل ان توفرها لنا الوثيقة التاريخية السياسية الصرفـــة .

الانـكشـــــاريـون

ان الدفاتر الموجودة بالمكتبة الوطنية بالجزائر والتى يبلغ عددها 35 دفترا تمكننا من تعميق معرفتنـا بفيلق الانكشاريين ومختلف وحداتهم ومرتباتهم واسماء الثكنات العثمانية التى كانوا يقيمـــون بها ، كما نجد فى عدد من الدفاتر الاخــــرى والموجودة برئاسة الوزراء بالجزائر اسمــــاء الانكشاريين الذين جندوا من الامبراطوريـــة العثمانية وتاريخ وصولهم وعددهم .

(13) JANSSENS, Gérard Busson de, *Contribution à l'étude des habous algériennes*, p. 27, étude dactylographiée.
يذكر المؤلف ان الاحباس المسجلة فى الجزائر باسم الحرمين الشريفين تبلغ ثلاثة ارباع الاحباس جميعها :
نستطيع حصر نسبة ذلك بالضبط غير اننا نـرى ان الاحباس باسم مكة والمدينة كانت بالفعل تتمتع باعلى نسبة فى ذلك

ولدراسة ادارة الاتراك بالجزائر ، لابد من الاهتمام بفيلق الانكشاريين وطريقة حياتهم والنظم العسكرية التى كانوا يخضعون لها حتى يكون اهتمامنا بتاريخ الجزائر اثناء الحكم التركى اكثر تبصرا ووعيا ·

لغة الدفاتر

حررت اكثر الدفاتر باللغة العربية وبخط مغربى تختلف جودته ورداءته من دفتر لآخر · اما الدفاتر الهامة فقد حررت بلغة تركية وهو ما اصطلح عليه «بالعثمانية» وهى صعبة القراءة وكثيرة الاخطاء ، ولا بد ان نتصور ان موظفى الاتراك القائمين على الشؤون المالية والادارية لم يكونوا يتمتعون بثقافة واسعة · ومن هنا نعلل كثرة اخطائهم ورداءة اسلوبهم ·

لقد هدفنا بهذا العرض السريع لمحتويات هاته الدفاتر ، لفت الباحثين العرب والاجانب لوجود هاته الدفاتر وغناها واهميتها دون ان ندعى اننا احطنا بكل شيء ، وكفانا مسؤولية اننا وفرنا اطارا ومادة جديدة للبحث العلمى التاريخى · (14)



14) لقد فصلنا فى المقدمة التى وضعتها للفهرس المخطوط ، الظروف والملابسات التاريخية التى لازمت هاته الدفاتر الى ان نقلت الى فرنسا قبيل الاستقلال ، ولم تسترجع الى الجزائر الا سنة 1965 بعد ان احتفظت الادارة الفرنسية بنسختين منها على شكل ميكروفيلم ، اودع احدها بالارشيف الوطنى بباريس تحت رقم 15 وسلم الثانى الى الارشيف الوطنى باكس آن بروفانس بنفس الرقم الباريسى

اما اصول هذه الدفاتر فقداحتفظت بارشيف رئاسة الوزراء بالجزائر ، هذا وقد تاكد لدى ان قسما من اصول هاته الدفاتر لم تسلم بعد الى الجزائر !



«قصر باردو بالعاصمة»

البولونيون وتاريخ المغرب الوسيط

د . ابراهيم فخار *

استاذ محاضر فى تاريخ المغرب
معهد كلية الآداب
جامعة قسنطينة

تقديم

يتسم العصر الحديث الذى تنوعت فيه الدراسات بالمنهجية العلمية فى أغلب أنواع المعرفة وبالتخصص الدقيق فى كل علم أو فن بحيث انه صار لكل علم وكل مجال من مجالات المعرفة منهجيته الخاصة وعلماؤه المتخصصون .

اما فى مجال التاريخ العربى عامة والمغربى خاصة فقد اتسمت كتابة المؤرخين الاوروبيين بعدم التعقل والتبصر أولا ثم بالمبالغة والغلو فى المناهج العلمية أو الرياضية ثانيا .

اما بالنسبة لمؤرخي الاسلام في العصر الوسيط عامة فقد اتسمت دراستهم للتاريخ بمناهج البحث الأدبي والاسرائيليات ثم بالتحيز وعدم الالتزام ، الأمر الذي يحتم علينا ان نعيد النظر من جديد لا فيما كتب عن تاريخ المغرب الوسيط فحسب بل وحتى بالنسبة للتاريخ الاسلامي العام ؛ فتاريخ الاسلام والهجرة يحتاج الى مراجعة وغربلة وتاريخ الشام تلزم اعادة النظر فيه ، وتاريخ بغداد تنبغي دراسته على ضوء روح العصر الذي كتب فيه ، وكذا الأمر بالنسبة لتاريخ شمال افريقيا (قديمه وسيطه وحديثه) فهو في اشد الحاجة الى ثورة شاملة لكنها ثورة هادئة وهادفة يكون الغرض منها : 1) اعادة الاحداث التاريخية الى وضعها الطبيعي أي ابعاد جميع الخرافات وروح العصبية التي طبع بها .

2) وضع هذه الاحداث حسب العصور في جوها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي تبلورت فيه حتى نتمكن من تفسير هذه الاحداث واخضاعها لقانون العلية .

3) جعل التاريخ المغربي العام في شخصيته الخاصة به كتاريخ شعب وأمة تعيش – جغرافيا – بمنطقة معينة وتخضع لنواميس تتأثر بها وتؤثر فيها .

4) وبعد اضفاء طابع الشخصية المغربية على تاريخ هذه المنطقة نضع هذا التاريخ المغربي البارز الشخصية في الاطار العام المشترك بين تواريخ الشعوب عامة ، ابتداء من تاريخ الاسلام والمسلمين في المغرب والقارة الافريقية الى ربط هذا التاريخ المغربي الافريقي بتاريخ الشعوب الاسلامية دون النظر الى مهبط وحيها أو مسقط رأسها اذ يوجد حتى اليوم في أقطار الارض مسلمون يستشهدون من أجل نصرة الاسلام كما ان هناك اسلاما تنتهك حرماته دون أن يحرك أتباعه الجغرافيون أي ساكن .

واعتقد ان هذه الخطوة الأولية أمر ضروري، واذا اقترنت هذه الخطوة ببعض الشروط الحتمية فقد نحقق بعض النجاح ونقدم خلال عشرين عاما تاريخا لا تظهر فيه روح المؤرخ بقدر ما تظهر الصورة الحقيقية الحية للشعب أو الوطن الذي أرخ له أو عنه بحيث تذوب شخصية المؤرخ ضمن المجموعة التي يؤرخ عنها وينتمي اليها ويكتب من أجلها .

وهذه الشروط في رأينا هي :

1) جمع كل الوثائق والمخطوطات المهربة والتي لها صلة بتاريخ المغرب بصفة عامة (2) .

2) ابعاد كل ما كتبه المؤرخون الغربيون المتعصبون عن المغرب والجزائر ، واذا استخدم ما كتبوه فيكون استعمال هذه الكتابات للرد عليها ودحض الشبه .

3) استخدام ما كتبه المؤرخون والباحثون الذين يحدوهم الصدق في العمل والجدية في البحث والتجرد للعلم ليس غيره .

4) توحيد المجهودات وتنسيق العمل بين ابناء المغرب المتخصصين في التاريخ وذلك مثل تأسيس مؤسسة علمية على مستوى مغربي تعنى

بتاريخ المغرب وشؤون مجتمعه ، اصدار مجلــة مغربية للتاريخ . واخيرا تبادل الآراء في القضايا التاريخية التي يشترك فيها ككل •

هذه بعض الاقتراحات التي هي مجرد رأي يمكن ان تناقش ويضاف اليها أو يعدل فيها ، المهــم هو انه حان الوقت للنظر في هذا الجانب الهام سيما اذا عرفنا ان هناك أناسا يدعون البحث والتعمق فيه . وجدوا الطريق ممهدة الى وثائقنا المكتوبــة منها والمروية على حد سواء ، فتسللوا أولا الى عقول البسطاء فاعتمدوها مصدرا لكتابــة تاريخهــم المغرض ، ودخلوا المكتبات العامة والخاصة فهربوا كنوزها وتسربوا الى أقسام الوثائق باسم العلــم وعالمية الثقافة فابتزوها ثم ادعوا فيما بعد انهــم - دون سواهم - اعرف بتاريخ بلادنا وهم اقدر على فهم التاريخ وربطه بقانون العليــة والاسباب والمسببات وهم يرمون من كل هــذا تشويــه الشخصية الوطنية وتجريدها من كل مقومــات الحضارة والرقي •

البولونيون •

انصافا للعلم والحقيقة لا نريد ان ننسى أولائك الذين انصفوا تاريخ العرب والمغرب والاســلام ، وظلوا مغمورين طيلة نصف قرن كامل •

لقد حاول البولونيون ان يدرسوا تاريخ المغرب على ضوء الوثائق والمخطوطات ووضعوا مبدا لهم هو تخليص الدراسات التاريخية المغربية مــن الشوائب التي علقت بها ، هذه القاعدة هي التي اعتمدتها المدرسة البولونية عندما تصدت لدراسة تاريخ المغرب أو تقديم بحوث عن المغرب •

فالبولونيون (أقصد منهم المؤرخين المحدثــين أو المعاصرين) عندما ارادوا دراسة تاريخ المغرب لجؤوا الى مصدر واحد هام في نظرهم هو النصوص وكل كتابة عندهم لا تعتمد النصوص التاريخيــة المغربية أو ما كتبه المغاربة انفسهم تعد لغوا وهراء

غير ان الملاحظ في هذه المدرسة البولونية التي ظهرت أواخر القرن الثامن عشر ومطلع هذا القرن هو انها اهتمت بتاريخ المغرب اهتماما كبــيرا وجمعت خلال ثلاث وثمانين عاما اعز واغلى وانفس ما يملكه المغرب من وثائق ومخطوطات •

وقد يتبادر الى الذهن سؤال أو أسئلة •

ما علاقة البولونيين بتاريخ المغرب الوسيط ؟

ولماذا عنى البولونيون بهذا القسم من افريقيا الشمالية سيما ليبيا وتونس والجزائر واخــيرا امتدت جذور هذه الدراسة بحكم الترابط والموقع الجغرافي الاستراتيجي امتدت الى جنوب المغــرب الاقصى فموريتانيا ثم النيجر ومالي وتشاد وتركزت خصوصا حول أودغشت وتمبكتو وتادمكت •

وما هي طبيعة الدراسات وفرع التاريخ المغربي الذي أهتم به البولونيون ؟

هل توجد وثائق ومخطوطات مغربية في بولونيا الكبــرى ؟

كل هذه الاسئلة وغيرها هي موضوع دراستنا هــذه •

حسب ما توصلت اليه من دراسة عميقة وبعد اتصالات مباشرة وعمل مع البولونيين في بولونيا تبين ان اكتشاف البولونيين لتاريخ المغرب يرجع

الى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ذلك ان الرائد البولونى الاول الذى تعرف على هذا المغرب فى الفترة المذكورة هو دى كالاسنتى موتيلانسكى الذى كان ترجمانا عسكريا فى خدمة الجيش الفرنسى ، ولكنه اذا كان قد وضع خبراته كترجمان فى خدمة الجيش الفرنسى فقد سخر مواهبه الى تاريخ المغرب وارساله مباشرة الى بولونيا بدل فرنسا ٠

ولقد كانت مساعى موتيلانسكى الاولية تتلخص فى الخطوات التالية :

1) جمع اكبر ما امكن جمعه من الوثائق والمخطوطات المغربية سيما التى لها صلة بصحراوات المغرب وعلاقتها الاقتصادية مع افريقيا الغربية والوسطى ٠

2) محاولة التعرف على عادات الشعب وتقاليده واخلاقه مع دراسة الانظمة الاجتماعية التى تسيره

3) تمتين الصلة مع اعيان المغرب من علماء وشيوخ ورؤساء القبائل ، وبحكم معرفة الرجل العميقة لعدة لغات منها العربية التى يملك زمامها والبربرية التى يتقنها والفرنسية التى يجيدها والانجليزية التى درسها ، بحكم هذه المعرفة استطاع ان يضمن لمسعاه النجاح ٠

4) توطيد العلاقة بينه وبين الاب دى فوكولد الذى كان منزويا فى اعماق صحراء الجزائر ، وفى ظل الرحمة الكنائسية والحماية الفرنسية استطاع الاثنان ان يستجليا مجاهل هذه الصحراوات العامرة المغمورة ٠

وفى خلال مدة عشرين عاما (1880 — 1900) كون موتيلانسكى نواة أولى لمكتبة مغربية تجمع عينات من الوثائق والمخطوطات ، اعقبها بمذكرات عن مشاهدته وملاحظته حول سكان الصحراء عامة ٠

هذه المجموعة كلها ارسلت الى مدينة لفوف (3) البولونية السوفياتية واصبحت تحمل اسم « مجموعة موتيلانسكى » (4) ٠

وهذه الوثائق والدراسات التى تضمها مكتبة جامعة لفوف هى :

1) سيرة ابن الصغير المالكى (القرن الثامن الهجرى) فى سيرة أئمة بنى رستم بتاهرت، ترجم الى الفرنسية وقدم عام 1905 كبحث فى المؤتمر العالمى الرابع عشر للمستشرقين المنعقد فى الجزائر ٠

2) الحملة الاسبانية ضد جزيرة جربة (تونس) فى مطلع القرن السادس عشر ٠

3) لهجات سكان أغدامس (دراسة فى علم الصوتيات واللسانيات) 1904 ٠

4) جبل نفوسة وصف اجتماعى وديموغرافى للجبل وسكانه متبوع بهوامش وتعاليق عن النطق ومخارج الحروف واللغة والتراكيب ٠ باريس 1898 ٠

5) نصوص لغوية تتعلق بسكان جربة الحومة أجيم صدغيان والغ والمحبوبين ٠

6) مؤلفات الاباضية ، درست وجمعت عام 85 — 1886 ٠ (5)

7) العقيدة الاباضية مترجم الى الفرنسيــة ، وقدم الى المؤتمر المذكور اعلاه .
8) مدينة القرارة منـذ نشأتها مترجـم الى الفرنسية ، واهم ما في « مدينة القرارة » .

التعليق الذى اضفاه موتيلانسكى على هـــذه الترجمة 1885 .

9) أصول العادات الاجتماعية وقواعد السياسة لسكان مدينة غرداية،دراسة تدخل ضمن التعاليق السالفة الذكر .

10) ابراهيم بن سليمان الشماخي تراجـم
11) اسم الجلالة فى اللغة البربرية (6) .

هذا ما استطعنا حصره بالنسبة لهذه المجموعة الموتيلانسكية التى توجد خارج الجزائر . وكانـت مكتبة جامعة الجزائر تضم مجموعة أخرى منذ 1925 تحمـل اسـم موتيلانسكى . الا ان زيقمونت سموقورزفسكى البولونى ورفيق موتيلانسكىفند فى رده العنيف على مرسيل مرسييه (7) الزعـم القائل بان مجموعة أخرى قيمة ولا تقدر كان قد جمعها موتيلانسكى ثم اختفت وظهرت فجأة فـي احدى الجامعات بامبركا دون ذكر اسم هذه الجامعة ويقول سموقورزفسكى فى دراسته ورده المذكور (8) : ان مرسيل مرسييه يجهل وجود مجموعـة موتيلانسكية من المخطوطات فى حوزة الاستـاذ قتنير الالمانى الذى تنازل عنها لصالح جامعة لفوف فى الاتحاد السوفيتى (9) .

وهذه المجموعة كمـا ذكرها سموقورزفسكى مترتبة على النحو التالى :

1) كتاب النيل وشفاء العليل للشيخ عبـد العزيز اليزجنى .

2) شرح الجهالات (10) لابى عمار عبد الكافى التناواتى الوارجلانى (11) .

3) الدليل والبرهان لابى يعقوب يوسف بـن ابراهيم الوارجلانى السدراتى ، من علماء الكـلام والمنطق والرياضيات (النصف الثانى من القرن السادس الهجرى) حياة حافلة بالاسفار والمؤلفات درس فى سدراتة (وارقلة) ثم رحل الى المشرق ومنه عاد الى المغرب فقصد قرطبــه حيث قـام بالتدريس فى جامعها فترة من الزمن وهناك تعرف عليه بعض الالمان الذين كانوا يدرسون العربيــة ولنا عودة فىدراسة قادمة على علاقـة الالمـان واهتمامهم البالغ بتاريخ المغرب فى عصر مبكـر جـدا .

بماذا نفسر وجود مخطوطات وثائق مغربيـة ذات قيمة فى مكتبات المانيا ؟

هذه المخطوطات التى يرجع تاريخها الى القرن الخامس والسادس الهجريين ، سؤال وجهته الى كاتب الدولة الالمانى للثقافة فرد على اثناء زيارته لجامعة قسنطينة ـ نعم هناك مؤلفات مغربية فى فى المكتبات الالمانية شأنها شأن غيرها مـن الكتب العربية التى شقت طريقها الى اوروبا .

4) كتاب اخبار المرجية (بفتح الميم) فى سيرة خير البرية لابى العباس احمد الحقانى . هـذه المجموعة توجد كاملة فى جامعة لفوف . واذا اردنا تصنيف هذه المجموعات التى جمعت ما بين 1880 الى 1926 نجد :

أولا : ان هناك مجموعة ارسلها موتيلانسكى مباشرة الى لفوف وهى التى كانـت للدارسـين

البولونيين نقطة انطلاق واستمرار البحث عن المخطوطات المغربية ٠

ثانيا : مجموعة أخرى كانت توجد فى حوزة قتنير الالمانى الذى تنازل عنها لفائدة جامعة لفوف ٠

ثالثا : مجموعة أخرى ثالثة مجهولة تسربت الى احدى الجامعات الاميركية والبحثعن هذهالمجموعة لا زال مستمرا ٠

رابعا : مجموعة رابعةأوقفها موتيلانسكى نفسه على جامعة الجزائر قبل وفاته 1884 ـ 1883 كما يشير الاهداء الذى سطره البولونى على احدى صفحات المخطوط وهذه المجموعة الاخيرة غير المجموعات الثلاثة الموجودة فى الاتحاد السوفيتى واميركا اذ يؤكد زيقمونت سموقورزفسكى « انها غير معروفة فى اوروبا » ولقد أكد لى الدكتور محمد حميد الله فى باريس 1965 انه عثر هو الآخر على مجموعة من المخطوطات المغربية فى مكتبة جامعة استراسبورغ وارسل بقائمتها الى الاستاذ البولونى المعاصر طدوز لفسكى فى بولونيا ٠ ولم أحصل على هذه القائمة التى ارسلها الدكتور حميد الله بعد عودتى من بولونيا ، الا ان هذه المجموعة تقبل احد الاحتماليين :

اما انها من جمع الالمان (قتنير ، شاخت ، وكارل سوتير) واما انها من عمل موتيلانسكى اهداها أو ارسلها الى استراسبورغ والذى يرجع هذا الاحتمال الاخير هو ان موتيلانسكى ذكر فى رسالة شخصية بعثها الى الاب دى فوكولد فى الهجار « إن وفدا المانيا عقد له زيارة ودية بمقر حكمه بمدينة غرداية واطلعهم على كنوز العلموالمخطوطات التى لا ينضب معينها » (12) ٠

اما الرائد البولونى الثانى الذى واصل رسالة موتيلانسكى هو الاستاذ زيقمونت سموقورزفسكى الذى زار المغرب وافريقيا الغربية الوسطى فى الربع الاول من القرن الحالى 1925 واستطاع هو الآخر بحكم سابق معرفته لاهمية تاريخ المغرب ومخطوطاته السهلة المنال ، بحكم هذه المعرفة سلك منهاجا جديدا فى جولته الاستطلاعية وهى تتمثل فى الحصول على انفس المخطوطات التى اشار اليها موتيلانسكى ولم يعثر عليها ، فكان زيقمونت يستهدف من هذه الرحلة تركيز عمله على استكمال ما نقص من مهمة سالفه ٠

وأول ما حصل عليه سموقورزفسكى هو كتاب السيرة واخبار الائمة (13) بجزئيه ٠

الجزء الاول ضمنه تاريخ المغرب الاسلامى الوسيط وعلى وجه الدقة تاريخ سياسة بنى رستم فى تاهرت وعلاقتهم بالاندلس والادارسة والاغالبة تدرجا فى العرض الغير المنظم الى عصره ٠ ويعتبر هذا القسم الاول تاريخى اما القسم الثانى فهو فى التراجم خاصة ٠

وهذا المخطوط لم يطبع بعد انما ترجمه الى الفرنسية ترجمة ركيكة الباحث الفرنسى اميل مسكراىوطبع فى الجزائر 1878 مع هوامشوتعاليق ضافية ٠

ولقد كانت توجد في مطلع هذا القرن عدة نسخ متوفرة من مخطوط كتاب السيرة الا ان شاخت الالماني في دراسته منذ سنوات قليلة أكد انه لم يعثر الا على نسخة واحدة ، غير ان ط • لفتسكي اخبرني شفويا انه توجد نسختان من المخطوط في لفوف باسم مجموعة زموقور زفسكي تحت رقم 157 ، 158 ونسخة خطية اخرى كاملة في كراكوفي تحت رقم 275 •

2) مخطوط طبقات الدرجيني (14) في قسمين والقسم الثاني مستقل عن القسم الاول ، ذكره سموقورزفسكي ضمن الكتب التي عثر عليها وارسل بها الى لفوف تحت رقم 275 •

3) دراسة حول شاعر مغربي (مجهول الاسم) ظهرت هذه الدراسة في المجلة البولونية الشرقية الجزء الثاني ص 260 ـ 268 •

4) جرد مفصل للمخطوطات والمؤلفات عند اباضية المغرب والمشرق ، وهو عبارة عن فهرست المؤلفين الذين تركوا آثارا مهملة ومشتتة هنا وهناك •

ولقد اعتمد سموقورزفسكي في عمله على كل المخطوطات بحيث كان استخدامه للمصادر مبنيا على دراستها العميقة ، وهو يذكر انه متمم لما لم يأت به موتيلانسكي •

والذي يهمنا في الدرجة الاولى قبل تقييم عمله هو حصره للمخطوطات وذكره لها بامانة معترفا بانه جمعها وارسلها الى جامعة كازيميرب • لفوف ثم يذكر في نفس الوقتالمخطوطات التي لاتوجدفي بولونيا انما في مكتبات معينة مثل مكتبة المتحف البريطاني وبرلين وليبزيغواكسفوردولندنوالمكتبة الخديوية بالقاهرة أو المكتبة الظاهرية بدمشق •

غير ان المخطوط الوحيد الذي لا زال في طي الغموض والكتمان هو « التاريخ الكبير لوارجلان وسدرته واريغ »(15) لابي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلاني الذي يعده الدارسون اكبر عالم رياضي في المغرب (الجزائر) الا انه لا زال في طي النسيان •

هذا المخطوط ذكره المؤرخالتونسي حسنحسني عبد الوهاب وقال (16) عنه انه رآه يباع في تركة المستشرق موتيلانسكي ولو ان له دراهم لاقتناه ولكنه اقتصر على شراء رسالة ابن الصغير المالكي •

ورغم ان البحث عن هذا المخطوط لم ينته بعد يمكننا ـ تاريخيا ـ ان نشير الى ان لهذا المخطوط الثمين قصة سوف نعود اليها في دراسة مستقلة •

وكل ما يمكن الحديث عنه الآن هو ان أبا يعقوب كان قد سافر الى السودان الغربي وقدم لنا وصفا قيما عنه (17) ثم قام بالتدريس في جامع قرطبه حيث تعرف عليه هناك جماعة من الالمان الطلبة وفي هذه الاثناء (القرن الثاني عشر ميلادي) كان قد انهى من اعداد كراريس ودفاتر « التاريخ الكبير » وفجأة يظهر المخطوط ـ في السودان ـ في افريقيا حيث استولى عليه البرتغاليون ، ثم ينتقل المخطوط من ايدي البرتغال الى الالمان حينما كانوا بافريقيا واخيرا بيع ـ على حسب رواية المؤرخ التونسي ـ في مطلع هذا القرن ضمن تركة موتيلانسكي •

والاسئلة التى تطرح هنا هى :

هل المخطوط الذىرآه حسنحسنى عبد الوهاب هو بعينه المخطوط الذى كان بين ايدى البرتغاليين والالمان ؟

كيف وأين عثر عليه موتيلانسكى ؟

من اشتراه ضمن التركة التى خلفها موتيلانسكى فى سماسرة المخطوطات ؟

اليهود الالمان ومن باريس وجد طريقه الىجامعة تل أبيب ؟

كل هذه الاسئلة تحتاج الى جواب والجواب هو متابعة هذا المخطوط الذى قيل انه عثر عليه فى المانيا من غير تأكيد .

وكذلك الامر بالنسبة لمخطوط يهودا بن قريش التاهرتى (من علماء تاهرت فى القـــرن الثانى الهجرى) الذى يحمل عنوان « النحو التنظيرى » دراسة لغوية مقارنة بين اللغة العبرية والعربيـة والبربرية . هذا المخطوط نعرف انـه موجـــود باكسفورد ولكن ينبغى الحصول عـــلى نسخـــة فتوغرافية على الاقل .

والى جانب هذين المخطوطين الهامين هنـــــاك مخطوطات اخرى لا تقل قيمة عنهمـــا ذكرهـــا البولونيون لما ما دون أن يمتلكوها أو يشيروا الى مكان وجودها .

اما الرائد البولونى الثالث الـــذى أستأنف رسالة أستاذيـه موتيلانسكى و سموقورزفسكى هو الاستاذ المعاصر طدوزلفتسكى (18) زار المغرب وافريقيا الغربية والوسطى عدة مرات كما أنـــه جاب صحراواتافريقيا بحثا عنمخطوط أو حصولا على تفسير كلمة طوبوغرافية عثر عليهـا فى نص تاريخى ، وهكذا تعتبر اعمال ط . لفتسكى بمثابة ثمرة مجهود علمى كبير دام قرنا الا ربعا .

واذا كان الرائدان الاولان قد اعتمدا فى عملهما على اكتشاف مجاهل المكتبات المغربية المطمـــورة وابرازها فقد عمد ط . لفتسكى الى النصوص المغربية المستخرجة من بطون المخطوطات التـى تملكها بولونيا فدرسها وقارنها وعلق عليهـــا فجاءت كل هذه الدراسات صورة جلية للمؤرخ الذى يدرس التاريخ من خلال النصوص التى ترجع الى عصر أو لآخر .

وهذه بعض الاعمال التى انجزها فى ميـــدان التاليف والتحقيق دون الحديث عن مساهمته فى اعادة طبع دائرة المعارف الاسلامية الحديثة . وعـن محاضراته التى يلقيهـا فى المؤتمرات العالميـة فى موسكو ، وفرنسا ، وايطاليا ، وتونس . ما عدا الجزائر (19) .

ونسرد الآن قائمة مؤلفاته دون مراعاة الترتيب الزمنى لها .

1) « أوائل تجار العرب الذيـــن سافروا الى الصين لغرض التجارة » .

دراسة نشرت لاول مرة بمجلة لفوف البولونية 1936 وتعتبر من أهم الموضوعات التى تجب العناية بها وتوجيه الباحثين اليها ذلك لوفـــرة المصادر والمراجع فيها ولان تجارة العرب مع الصين ترجع الى عهد قبل الاسلام .

ولقد اعتمد المؤلف فى هذه الدراسة على :

1) استخدام النصوص العربية المأخوذة من مظانها كالبلاذرى والدينورى وطبقات المشائخ (مخطوط فى لفوف) وابن خرداذبه .

2) ذكر اسماء التجار العرب الذين احترفوا التجارة مع الصين فى عصر مبكر جدا .

3) تصنيف أنواع البضائع التى كان العرب يجلبونها الى الجزيرة العربية ثم الى المغرب .

4) ذكر وسائل النقل التى كانوا يستعملونها فى اسفارهم الى الصين دون اهمال المحطات والموانىء التجارية التى كانوا يقصدونها لتبادل البضائع أو للاستراحة فيها .

5) ذكر جميع المصادر العربية والغربية التى اعتمد عليها فى هذا البحث .

2) « الكتاب العرب فى العصر الوسيط وحديثهم عن العنبر المستورد من بحر البلطيق الى بلاد العرب » (20) .

من المعروف بداهة ان مادة العنبر الاصفر أو ما يسمى بالكهربا (21) (يضم الراء) كانت ولا تزال من المواد التجارية الهامة فى الغرب والشرق على حد سواء الا ان الحكام العرب بالغوا فى طلبها ودفعوا النفيس من أجل اقتنائها وذلك لما لها من خاصيات على الحالات النفسية فى المرأة خاصة ولقد كانت المنافسة للحصول على هذه البضاعة النفسية شديدة لا من طرف أوروبا فحسب بل وحتى من طرف الحكام العرب فى الشام وبغداد ، لقد كان ولوع الافارقة بالعنبر أكثر ما يكون ولوعا بالتبر والآلى والمرجان كما ان اميرات القصور فى اقطار المملكة الاسلامية والامبراطورية الرومانية كن يغالين فى طلب العنبر وكن يدفعن الثمن اضعاف ثمنه المطلوب .

والعنبر الاصفر البلطيقى يستخرج من بحر البلطيق بعد ان تكون الامواج قد عقدته والقت به على شواطىء نهر GONIA (المانيا) ومن هنا يجمع ويتوجه به التجار نحو الغرب والمشرق الاسلامى والمغرب والاندلس .

اما بالنسبة للغرب فيمر عبر بروس وتروسو التى تقع فى مقاطعة البلاق ELBLAG أو البنق ELBING الحديثة شرق دانزق DANZIG الى خليج فنلاندا عن الطريق البحرى صامبى SAMBIE

اما دور التجار العرب فى هذه المادة فهم يلعبون دور الوسيط ، وتستنفد بغداد والشام والحجاز اكثره بحيث كلما قل عرضه كثر طلبه بالنسبة للتجار المغاربة ولذلك لا يصل العنبر الاصفر البلطيقى الى المغرب والاندلس الا بعد ارتفاع سعره بصورة فاحشة . ولقد اعتمد ط . لفتسكى فى دراسته للموضوع على النصوص العربية القديمة سيما التى لها شبه تخصص فى مضمار التجارة بأصنافها والعملة المتداولة بأنواعها والطرق المسلوكة برا وبحرا .

ونقتبس الآن نصا واحدا من هذا البحث لتوضيح الفكرة التى يسير عليها ط . لفتسكى فى عمله .

أقدم نص تشير اليه المصادر هو ليعقوب بن اسحاق الكندى (22) (933 ـ 1048) الذى عاصر

المامون والمعتصم والمتوكل ، والنص الذى أورده الكندى نقلا عن ابى الريحان البيرونى (23) فى كتابه المسمى « كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر » (24) الذى ألفه ما بين 1040 ـ 1048 ·

والنص الذى اقتبسه ط · لفتسكى هو : (25)

« الكاهربا صمغة كالسندروس من شجرة(25) تنبت ببلاد الصقالبة على شاطىء نهر (26) كل ما سقط منها فى الماء انعقد وجرى الى البحر والقته الامواج الى الساحل وما وقع على الارض لم ينعقد» وهكذا من خلال دراسة ط· لفتسكى لتسعة نصوص فى نفس الحجم والمضمون استطاع ان يقدم لنا بحثا قيما مركزا فى 39 صفحة معتذرا فى آخر البحث بأن الموضوع يحتاج الى دراسة عميقة على ضوء المخطوطات العربية ، هذا ودون اهمال ذكر اهمية العنبر ودوره فى الطب العربى (27) والذى يهمنا من هذا المثال الذى تعرضنا له بشىء من التفصيل هو دور العنبر فى الحركة التجارية بين دول المغرب الوسيط وافريقيا الغربية والوسطى اذ تذكر النصوص المغربية هى الاخرى ان العنبر كان يشكل احدى البضائع الهامة التى يصدرها التجار المغاربة الى سكان السودان حيث انهم يستعملونه فى عدة امور منها التطيب (وذلك لكثرة البخارة) والتداوى بل وحتى للسحر والتعوذ من الجن وتحنيط الموتى ·

والصلة الوثيقة بين الموضوعين السابقين«التجار العرب الاوائل الى الصين » « وحديث الكتاب العرب عن تجارة العنبر وخصائصه » تجرنا بطبيعتها الى بحثين آخرين مغربيين لطدوز لفتسكى الاول تحت عنوان :

(تاهرت وعلاقتها التجارية مع السودان الغربى فى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الميلاديين)

والثانى تحت عنوان : (حلقات التاريخ التجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط) نشر البحث الاول فى دفاتر الدراسات الافريقية رقم 8 وقدم كمحاضرة فى المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين المنعقد فى موسكو ·

والبحث يضم 23 صفحة مع 92 تعليقا كلها مركزة وغزيرة من حيث قيمتها العلمية وتحقيقاتها المستفيضة ·

والذى نلفت الانتباه اليه عن هذه الدراسة أمور :

1) اعتمد ط · لفتسكى ـ كعادته ـ على النصوص المغربية المستمدة من المخطوطات ·

2) رد على الكتاب الغربيين الذين اعتقدوا ـ تعصبا ـ ان العلاقات التجارية بين المغرب والسودان لم تعرف طريقها اليه الا فى نهاية القرن التاسع وبداية العاشر الميلادى ·

وعلى العكس من هذه النظرية المتاخرة نسبيا ارجع لفتسكى العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الى القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى أى ان الفارق الزمنى بين ماركروبوفيل وبين لفتسكى هو قرن كامل ·

3) عنى لفتسكى عناية خاصة بالاسواق والمدن التجارية فى كل من المغرب والسودان مع تحديد لمواقعها الجغرافية واهمية كل منها بالنسبة للدورة الزمنية حسب فيضانات النيجر وما يتبع ذلك من استخراج التبر بعد انحسار المياه ، وبالنسبة للبضائع التجارية تصديرا واستيرادا ۰

4) ذكر لفتسكى بكل دقة وامانة جميع المصادر العربية والمغربية التى تناولت العلاقات التجارية بين المغرب والسودان ۰

اما البحث الثانى حلقات التاريخ التجارى عبر الصحراء فى العصر الوسيط فقد نشر فى المجلة البولونية لدراسة أخلاق وعادات الشعوب ۰ ج 8 ETNOGRAPHIA POLSKA ۰ 1964

ويتميز هذا المبحث بما يلى :

1) استخدام النصوص المغربية المأخوذة من المخطوطات ثم النصوص العربية فى الدرجةالثانية

2) دراسة الطرقالصحراوية للقوافل التجارية ابتداء من جميع اسواق المغرب سلجماسة تافيلالت فاس ، تاهرت ، بسكرة ، توقورت ، مسيلة ، وارجلان ، بجاية ، القيروان ، توزر جادو بليبيا الى صحراء فزان ، تبستى ، كوار ، أهقار وانبيا ۰

ودائما فى اتجاه السودان، تكرور عبرموريتانيا، أودغشت(29) غانا، كومبى صالح جنوب شرقى تشيت، صنغاى قاو، تادمكت الى مصب نهر النيجر ثم اخيرا تشاد ۰

3) تسمية اغلب التجار والبعثات السياسية (الديبلوماسية) التى قصدت هذه البلدان لغرض التجارة او السياسة أو حتى المصاهرة (30) مع ملوك السودان الغربى ۰

4) حصر جميع البضائع الواردة والصادرة من الشمال الى السودان او العكس منها (العنبر الذى سبقت الاشارة اليه) ۰

5) بلغ عدد التعاليق على هذا البحث 65 وحوالى 113 مصدرا ما بين غربية وعربية ومغربية ۰

6) وآخر كلمة انهى بها لفتسكى بحثه هذا هى « ولكى نشبع رغبة التعرف على موضوع العلاقات التجارية المغربية والسودانية فى العصر الوسيط فلا تكفى دراسة مختصرة مركزة مثل هذه » ۰

وبمثل هذه العبارة ننهى هذا التقديم الاولى عن البولونيين وتاريخ المغرب الوسيط ونكمل فى بحث قادم دراسة مؤلفات لفتسكى التى تربو على العشرين (31) ۰

هـــوامـــش

1) « المغرب العربي في منظور المؤرخين الاستعماريين » محمد الميلي مجلة الثقافة العدد 12 يناير 1973 حيث اشار الاستاذ اشارة ذكية بارعة الى هذا الموضوع

2) نحن بصدد دراسة شاملة عن « المخطوطات المغربية في المكتبات الاوروبية » والتي ستظهر في حينها

3) مدينة لفوف LWOW تقع على الحدود البولونية الروسية وكانت قبل الحرب العالمية الثانية تابعة لبولونيا الكبرى

4) توجد في الحي الشعبي القسنطيني (سويقة حاليا) زنقة لعمامرة التي لا زالت تحمل منذ مطلع هذا القرن الى الآن اســـم (موتيلانسكي) سميت باسمه تخليدا لذكرى وفاته ، الم يحن الحين لاعادة اسم الزنقة الى اسمها الاول الاصيل ؟ علمنا والمقال مائل للطبع ، وفي ايام زيارة الاخ الرئيس بومدين لمدينة قسنطينة ، ان البلدية قررت الغاء يافطة موتيلانسكي وابدلتها فعلا باسم آخر غير زنقة لعمامرة قديما

5) في BCA الجزء 3 ص 15 ـ 72 ـ الجزائر

6) خلاصة مركزة في مجلة الدراسات الافريقية رقم 1905،257

7) كتاب الوقف الاباضي وتطبيقاته ط الجزائر 1927

8) رد على « دراسة مارسيل مرسييه للوقف الاباضي » ط لفوف 1929 ص 14 الفقرة 4

9) نفس المصدر ص 15 الفقرة الاولى السطر السادس

10) هو شرح لكتاب الجهالات الذى الفه ابو اسماعيل البشير المزاتي في الكلام ـ وتوجد منه نسخة خطية في مجموعة لفوق نقلت الآن من الاتحاد السوفيتي الى مكتبة ط . لفتسكي بولونيا

11) من مواليد وارجلان (وارقلة) في القرن السادس الهجري ، درس في تونس ثم رحل الى الشرق وبعد عودته بدا التدريس والتاليف بمسقط راسه ، وعند زيارة سموقورزفسكي البولوني لهذه المدينة عام 1925 وجد ضريح ابي عمار كما هو وعلى بعد 5 كيلومترات من الشمال الغربي لورقلة

ونشير هنا الى ان لابي عمار مؤلفات وكتبا اخرى ذكرت في عدة مصادر عربية واوروبية

12) مراسلات الاب دي فوكولد تاليف جورج قورى ط . باريس 1936 ـ 1946

13) تاليف ابي زكريا يحيى بن ابي بكر الوارجلاني (القرن الخامس الهجرى 11 م) ومن علماء الطبقـــة العاشرة ، قضى عشر سنوات في تامولاست قرية جبلية في الجنوب الشرقي التونسي حيث درس عى ابي الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، وفي تماوات (بوارقلة) الف كتابه المذكور ثم توفي فيها حوالي (1110ـ1111م) 504 هـ

14) الفه ابو العباس احمد بن سعيد بن سليمان بن علي بن يخلف الدرجيني من علماء ليبيا في القرن (6 هـ ـ 12 م) رجل تشريع وتاريخ ، يرجع نسبه الى تاميجار القرية الواقعة في جبل نفوسة بليبيا ، ونسبته الى درجيني السفلى الجديدة قـرب نفطة بتونس انما بسبب استقرار والده العالم في هذه القرية

15) وهناك تسميات اخرى لهذا المخطوط « فتوح المغرب » تاريخ المغرب او « التاريخ الكبير »

16) في مراسلة له مع ابي اليقظان

17) ذكر المؤلف ابو يعقوب في رسالته « الاقاليم السبعة وخط الاستواء » ما يلي : « وقد وصلت انا بنفسي الى قريب من خط الاستواء وليس بيني وبينه الا مسيرة شهر وكاد ان يستوى الليل والنهار فيه » الدليل ج 3 ص 216

18) رغم تقدم سن ط . لفتسكي فقد ساعدنا مساعدة كبيرة في اعداد الدكتوراه كما انه احسن وفادتنا عند اقامتنا في بولونيا 1965 ، ولقد كان لقاؤنا به مرة اخرى في موريتانيا لغرض البحث اثر كبير في اعداد عمل علمي مشترك سيظهر في حينه

19) وجهت اليه دعوة رسمية للحضور الى الجزائر ولكنها تاجلت على ما يبدو

20) نشر هذا البحث فى المجلة البولونية رقم 4 ـ 1962 ـ ص ـ 1 ـ 140

21) استعمله الكندى الكاهربا والمؤرخون المتاخرون كتبوه : كاربا ، كاهروا ، وقهربا ، واصل الكلمة فارسية كاهرباى او كهرباى فى النصوص البهلوية (قرن 3 ميلادى) اى قبل غزو العرب لدولة الساسا نيين ، والكلمة مركبة ومعربة عن الفارسية من كاه روبا ومعناها التبن الاخاذ او « سالب التبن » كما شرحها بالنص الحرفى يوسف بن اسماعيل بن الكبير الخوبى (1311) فى قاموس الادوية المسمى : شرح ما وقع من اسماء الادوية باليونانية والكتاب مخطوط فى مكتبة كامبرج ، ولم يطبع منه جورج الا الجزء المتعلق بالعنبر انظر ص 377 ـ 370

Neue Beiträge (Contribution moderne).

22) ترك الكندى حوالى مائتى نص فى شتى ميادين العلوم

23) انظر حول حياة البيرونى : كراتشكوفسكى فى 1 ،ج ، ع ، صفحة 244 ـ 266 لفتسكى : عالم الصقالبة : صفحة 368 ـ 369 بروكلمان GAL ج 1 ص 475 ـ 476 والتكميل ج 1 ص 870 ـ 875

24) وهناك ترجمة اخرى لعنوان الكتاب « الجواهر والمياه المعدنية » ، « الجواهر والمعادن السائلة » الاحجار الكريمة المستخرجة من الارض » انظر محمد يحيى هاشمى الذى اختار التسمية الثالثة ط . حيدر آباد 1936 ـ 1937 ص 211 سطر 15 ـ 21 وفى النص الالمانى ط بون 1935 ص 11 ـ 13 Die Quellen des Steinbuches des Beruni (Edi. BONN 1935).

25) السندروس هو صمغ الصنوبر او القلفونية : انظر كتاب « شرح ما وقع من اسماء الادوية » للخوبى (1311) ، كتاب معجم اسماء النباتات الواردة فى تاج العروس ، جمع وتحقيق محمود مصطفى الدمياطى 1966 القاهرة

26) المقصود بالنهر هنا هو الخليج الواقع بالقرب من البلاق الالمانية والذى يؤدى الى بحر البلطيق

27) ذكر ابن بيطار نقلا عن الرازى الطبيب فى كتابه « الشفاء » ان العنبر يستعمل ضد النزيف والاسهال

28) انظر ج ماركار MARQUART فى مجموعة لا نعرف تاريخ نشرها ، وبوفيل E. W. BOWILL فى
The golden trad of the moors. Londres 1958.

29) فى خلال اقامتى بموريتانيا 67 ـ 68 اتصلت بالبعثة الأثارية المشتركة بين موريتانية والسينيغال التى اكتشفت مدينة اودغشت الواقعة بين حدود البلدين ، ومن بين ما عثر عليه فى هذه المدينة الاثرية بعض قبور التجار المغاربة التى يرجع تاريخها الى القرن الثانى الهجرى والتى تضم الاوانى وحتى بعض انواع العملة المغربية التى شاهدت بعضها فى قسم الآثار بجامعة داكار . ولقد جرت العادة فى السودان الوسيط ان يدفن الغريب المجهول الهوية بما معه فى حوزته . انظر : كتاب اودغشت لـ روبير هوجو ودفيز ط . باريس 1970 Robert HUGO et DEVISE ED ARTS et METIERS.

30) محمد بن عرفة سفير الامام افلح الرستمى الى ملك قاو (جوجو فى المخطوطات المغربية) انظر : رسالة بن الصغير المالكى والازهار الرياضية لسليمان البارونى فى (ط . حجرية القاهرة 1904 ص 184 ـ 185)

31) نحن بصدد ترجمة هذه الدراسات الى العربية التى نامل ان تخرج الى القارىء قريبا

« حقوق الترجمة والتعريب والطبع محفوظة للمؤلف والمترجم » (كراكوفى 11 ـ 65)



واقعة المروحة

نماذج من تشويه بعض المؤرخين الأجانب لتاريخ الجزائر

محمد الميلي
مدير الاعلام
بوزارة الاعلام والثقافة

مدخل

بعد مضى أحد عشر عاما على استقلال الجزائر، ما تزال تصدر كتابات ودراسات فرنسية مختلفة عن حرب الجزائر ، وهو أمر طبيعي : فقد زلزلت حرب التحرير الجزائرية الامبراطورية الفرنسية ، وأجبرت الاستعمار المباشر فى القارة الافريقية على أن يتحول الى استعمار حديث . واضطرت الاستعماريين الراديكاليين الى تقديم تنازلات كبيرة فى تونس والمغرب ، وتسببت فى سقوط الجمهورية الرابعة وتعريض فرنسا لخطر حكم عسكرى فاشى .

ثم ان ارسال المجندين الفرنسيين للمساهمة فى الحرب ، طيلة نحو من سبع سنوات ، وأساليب التقتيل والتدمير وتعميم التعذيب والقمع الوحشى وتنظيمه ، يعنى أن الشعب الفرنسى قد ساهم ـ من خلال موجات المجندين المتلاحقة ـ فى الحرب وأن هذه قد خلقت آثارا عديدة فى نفسيات أبنائه الذين باشروا الحرب ومارسوا التعذيب ·

من الطبيعى والحالة هذه أن تتوالى الكتابات الفرنسية عن الجزائر · لكن ما يدفع الى التساؤل هو التأويلات التى تعطى للاحداث : فنادرا ما نجد انفسنا أمام محاولة موضوعية علمية ، بل ان معظم الكتب التى غمرت السوق الفرنسية منذ بضع سنوات ، هى كتابات متحيزة ، متجنية ، تتجاهل الواقع ، وترفض ـ عمليا ـ التسليم بالمقدمات المنطقية التى تبرهن عليها نتيجة الاستقلال وواقع الثورة ·

فهناك غير واحد من السياسيين الفرنسيين ، ممن عاشوا حرب الجزائر ، من يؤكد ـ الآن ـ بانه كان من الممكن أن تظل الجزائر فرنسية لو··

والواقع أن هذا العمى السياسى يصعب تفسيره بعامل واحد ، انه وليد عدة عوامل يمكن تلخيصها فيما يلى :

اولا : ان نظرة الفرنسيين الى الجزائر ، ما انفكت منذ الاحتلال فى القرن التاسع عشر ، تخضع لموقف معين من التاريخ ، هو عبارة عن جهل شنيع بتاريخ المنطقة ، ورفض عنيد للتعرف على حقيقة تاريخ المنطقة وحقيقة شعبها ·

فقد استطاع الفرنسيون أن يوهموا أنفسهم بانهم احتلوا الجزائر كى يطردوا منها الاتراك ، «الذين أخلوا بالامن فى حوض المتوسط» واطلقوا العنان لقراصنتهم ضد دول أوروبا وقد استراح الفرنسيون لهذا الوهم الكبير ، فعلى الرغم من الوان المقاومة الشعبية التى اصطدم بها الاستعمار وعلى رغم عديد الحروب التى نظمت ضدهم فى كامل انحاء الجزائر ، فقد فضلوا تجاهل الوجود التاريخى لشعب ، وقدموا تفاسير مختلفة لمقاومته مثل «التعصب الدينى» أو «الوحشية الفكرية» ، أو «عدم القابلية للحضارة» الخ ···

وهكذا استراح الاستعمار لنظرية «لا تاريخية الشعب الجزائرى» ، التى تعتبر ان تاريخ الجزائر (الارض) هو سلسلة من الحروب والاحتلالات الاجنبية تعاقب خلالها الرومان والوندال والبيزنطيون والعرب والاتراك ، ثم الفرنسيون· وقد خلقت هذه النظرية آثارا كتابية عديدة ، تركت ولا شك آثارها فى الذهنية الفرنسية ·

العامل الثانى : هو أن الاستعمار بطبعه ، يرفض الرؤية السليمة للتاريخ ، لان هذه تؤدى الى الاعتراف بوجود كيان المستعمر (بالفتح) وبالتالى تفتح المجال لمحاورته ، وهذا ما يتنافى مع طبيعة الاستعمار المباشر الذى يستمد وجوده من تجاهل الاخرين وانكار حق الحياة على غيره من الكيانات ·

ولا شك أن هذا الموقف الاساسى قد ترجم عن نفسه فى الواقع ، كتابات وسلوكا واتجاها طبعت اجيالا من فرنسيى الجزائر ، وفئات واسعة من فرنسيى «المتروبول» ·

العامل الثالث : ان الفرنسى بصفة عامة ، وفرنسى المستعمرات بصفة خاصة ، نرجسى النظرة لنفسه ، معجب بذاته ، هائم بكيانه ، لا يتصور انه يمكن أن يوجد شعب أعرق منه أو يمكن أن يساويه مؤهلات حضارية ·

وانطلاقا من هذه النرجسية ، يسعى الفرنسى الى فرض الفرنسة على الاخرين ، بل ويعتبر ذلك تفضلا منه وكرما ٠ ولا يستطيع أن يهضم ، كيف ترفض الفرنسة ، وكيف يسمح هؤلاء «البيكو» لانفسهم برفض «الشرف الكبير» الذى اتاحته لهم «فرنسا السخية» ٠

ولسنا فى حاجة الى الكشف عن النفاق الكامن وراء هذا الموقف ، لان الذى يعنينا هنا هو تفسير العمى السياسى والعلمى الذى تميزت وتتميز به كتابات فرنسية عديدة ٠

العامل الرابع : الصراع السياسى والاجتماعى بفرنسا اليوم ، يدفع مراكز القوى المتصارعة الى تقديم تبريرات أو تفسيرات ردا على هجوم هذه الجهة أو تلك ٠ وغير خاف أن «خسارة الجزائر» أو «التفريط فيها» (الوصف يختلف باختلاف موقع المهاجم من الخريطة السياسية الفرنسية) يعتبر من المواضيع الحساسة التى لا تتردد هذه الجهة أو تلك فى استعمالها لتعزيز موقعها والنيل من الموقع المضاد ٠

العامل الخامس : رفض الهزيمة ٠ ذلك ان الاستعماريين الفرنسيين يرفضون الاعتراف بالهزيمة ، فاذا كانت الجزائر تتمتع باستقلال ، فالسبب يرجع الى «ضعف النظام الديغولى» و «تفريطه فى الجزائر» ٠ أو الى «وجود مؤامرة عالمية ساهمت فيها كل من الولايات الامريكية المتحدة والاتحاد السوفياتى» أو بفعل «الطابور الخامس» الذى يعنى عندهم رجال اليسار والمتعاطفين مع كفاح الشعب الجزائرى ٠ وهذا المظهر من مظاهر الرفض للهزيمة ، نجده عند طوائف اليمين المتطرف ٠

وهناك مظهر آخر لرفض الهزيمة ، هو عبارة عن نوع من «خيبة الامل» ، نجده عند عينات مختلفة من اليسار ، فمعظم ممثلى اليسار بفرنسا أعطوا لحرب التحرير الجزائرية تفسيرات مغرية لكنها فى الواقع غير صحيحة تماما ، لانها تتبع من استقراء الاوضاع الاروبية ، اكثر مما تعتمد على التطور التاريخى لبلادنا ٠

يضاف الى ذلك أن عدة عناصر من ممثلى اليسار ، قد توهموا أنهم وجدوا ضالتهم المثلى فى حرب الجزائر ، أى أنهم تصوروا أنهم ، مقابل الدعم الذى يولونه للثورة الجزائرية ، سيكون فى امكانهم التاثير عليها ، وتحقيق الكثير مما كانوا يحلمون به عبرها ٠

لكن تطور الثورة الجزائرية ، خارج الوصاية اليسارية الفرنسية أوجد عند معظم اليساريين نوعا منخيبة الامل وخلفشيئا منالمرارة وهذا ما يفسر ذلك الاتجاه الى اصدار كتابات ودراسات غير موضوعية عن الجزائر ٠

وهذا الوضع هو ما يفسر ، التلاقى أحيانا، بين طوائف اليمين واليسار ، ضد الثورة الجزائرية رغم اختلاف المواقع التى تنطلق منها ٠

سادسا : ان الفرنسيين ـ والغرب بصفة عامة ـ كان قد تعود على «الشرعية» التى سنها ووضعها هو ، وهى «شرعية» تستند الى أجهزة سياسية وقانونية ودستورية من صنعه ، تتحكم فى توجيه العقليات والافكار ٠

فى حين ان الثورة الحقة ، سواء كانت بالجزائر أو بفيتنام أو بغيرهما من بلاد العالم الثالث تعنى الخروج على الهياكل التى تستند

اليها الشرعية الغربية ، وتقتضى استبدالها بشرعية أخرى ٠

لتوضيح هذه النقطة ، نسوق مثالا كان وما يزال موضوع نقاش ومثار مجادلات وصراعات لم تقتصر على ميدان الكلام ٠

موضوع التأميمات مثلا ٠ ان اقدام أى بلد من العالم الثالث على استرجاع ثرواته والتحكم فيها ، يكون مصحوبا عادة برد فعل عنيف من طرف استعمارى الامس ، مثلما شوهد عند تأميم البترول بالجزائر أو تأميم النحاس بالشيلى ٠

فى هذه الحالة ، تتحرك الاجهزة المختلفة ، التى تعتمد عليها «الشرعية الاستعمارية» لتطالب البلد صاحب الحق فى التأميم ، بتقديم الحساب ٠ ويجد البلد الذى أمم شركات استعمارية ظلت طيلة سنوات عديدة تنهب وتستفيد وتحقق تراكما ضخما فى الارباح ـ يجد هذا البلد نفسه فى موضع «المتهم» ويطالبونه بدفع ثمن التأميم٠ أى أن المضطهدين هم الذين يطالبون بتقديم الحساب للجلاد ٠

ذلك أن الغرب ، ينطلق فى هذه القضية من مبدأ «الشرعية الاستعمارية» أولا ، ويريد ثانيا أن يخضع عملية التأميم فى البلد المستقل عنه ، الى نفس القوانين والاساليب الاجرائية المعمول بها فى بلده ٠

انه يعتبر وجوده السابق «شرعيا» يخوله استمرار امتلاك الثروات الاقتصادية والتجارية ، والاستقلال عنده ، انما يضع حدا لسيادة سياسية أما الوضع الاقتصادى فيجب أن يستمر على ما كان عليه ٠

فى هذا الاطار ، يعامل التأميم فى البلد المستقل عنه ، نفس معاملته للتاميمات التى تتم فوق أرضه ٠ فى حين أن التأميم الذى يتم فى البلاد الغربية يختلف منطلقا وغاية ٠ فالتأميم فى البلاد الغربية ، عملية تفرضها متطلبات فنية واقتصادية أولا ، وهى ثانيا تنال مؤسسات «وطنية» ساهمت مساهمة أساسية فى صنع الازدهار وتحقيق التصنيع ٠ فالتعويض فى هذا الاطار ، له ما يبرره ٠

أما البلاد التى عانت من الاستعمار ، فان التأميم يفرضه منطق يختلف كل الاختلاف عن التأميم فى البلاد الغربية المصنعة : انه يصبح وسيلة ضرورية لتحقيق النهوض الاقتصادى ، وفى نفس الوقت الطريقة الوحيدة لاسترجاع الثروات الوطنية ووسائل الانتاج التى تتحكم فيها مؤسسات رأسمالية أجنبية٠ وهذه المؤسسات ليس فقط لم تلعب أى دور ايجابى فى تطوير البلاد المستعمرة اقتصاديا ، ولكنها على العكس من ذلك كانت عامل نهب للثروات الوطنية ، لانها كانت تعتبر بلادنا مجرد امتداد جغرافى تعتمده فى تطوير نشاطاتها وتنمية حجمها واسترداد أرباح ضخمة يتم تحويلها الى «الوطن الام» ٠

بل أن المسؤولية الكبيرة التى تتحملها الرأسمالية الغربية فى هذا المجال ، لا تتوقف عند حدود النتائج التى تؤدى اليها هذه المقارنة بين طبيعة نشاطها فى بلدها الاصلى وطبيعة نشاطها فى المستعمرات ، لان هذين الوجهين المختلفين للرأسمالية ، بناء وتنمية وتصنيعا هناك ، وتفقيرا واستغلالا ونهبا هنا ، يفسران الى حد كبير ظاهرة «التخلف» ، التى هى ، نتيجة لذلك ، ظاهرة حديثة لم يعرفها العالم من قبل فى تاريخه الطويل ٠

تلك أهم العوامل التى تفسر اتجاه الكتابات المعاصرة فى فرنسا الى تشويه الحقائق التاريخية المتصلة بتاريخ الجزائر وبتاريخ الثورة الجزائرية واذا كانت عملية التشويه ، تتم الان ، على مرأى ومسمع من الجيل الذى اضطلع بثورة نوفمبر ، والجزائر مستقلة ، وثورتها تزداد تجذيرا ، فاننا نستطيع أن نستنتج من ذلك مدى التشويه الذى تعرض له تاريخنا خلال الاستعمار ·

والواقع أنه بالنسبة للكتابات الغربية ، والفرنسية بصفة خاصة ، التى تناولت تاريخنا خلال الاستعمار ، نجد أن هناك عوامل أخرى دفعت مؤرخين غربيين الى تشويه الحقائق التاريخية ، يمكن حوصلتها فى ثلاثة عوامل أساسية :

١ ــ معظم الكتابات التاريخية ، عن الجزائر بأقلام فرنسية ، صدرت بعد الاحتلال الفرنسى للجزائر فى ١٨٣٠ · وكثير من هذه الكتابات صدرت فى نطاق خدمة الاستعمار ·

يقول ستيفان غزيل فى مقدمة كتاب تاريخ الجزائر ومؤرخوها»

يسطر التاريخ لنا واجباتنا أيضا · (أى بالنسبة للجزائر)، وهى تتمثل فى ارادتنا المصممة على أن نكون أسيادا فى كل مكان والى الابد ، وفى ضرورة اقامة اعمار يستند الى اسكان أروبى قوى فى الريف ، كما يتمثل فى ضرورة تقريب السكان منا ، رغبة وأملا فى تحقيق انصهار على مدى قريب أو بعيد ، ان هذا التاريخ اذن «لا يعتبر فى افريقيا ، هو اقل العلوم جدوى» (١) فستيفان غزيل الذى كان من مؤسسى الدراسات التاريخية الفرنسية بالجزائر ، صريح فى اخضاع علم التاريخ لمتطلبات الاستعمار · ونتأكد من وجود هذا الاتجاه عنده ، من خلال تحليل الجملة الأخيرة من الفقرة التى أوردناها ، فهو قد أحجم عن مناقشة الرأى القائل بأن «التاريخ هو اقل العلوم جدوى» من حيث هو واقتصر على مناقشته فيما يتعلق بتطبيق هذا الرأى على تاريخ المغرب العربى ، انه واضح فى تحميل التاريخ مسؤولية محددة ذات علاقة مباشرة بخدمة الاستعمار والمنطق الذىيتحكم فى هذا الاتجاه ، هو منطق تبرير الاستعمار · لان ازاحة الستار عن حقيقة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، يعنى نسف احدى الدعائم المعنوية الاساسية التى كان يستند اليها الاستعمار الفرنسى ·

فقد كان هذا الاستعمار فى حاجة الى القول بعدم قابلية الجزائر لان تشكل شعبا أو أمة ، مثلما كان فى حاجة الى انكار أى وجود سابق للجزائر كدولة ·

لقد كان فى حاجة لذلك كى يقر هذه الفكرة، عند أروبى الجزائر حتى يكونوا أشد اطمئنانا الى وجودهم بالجزائر وأكثر ثقة فى مستقبلهم بها · وكان فى حاجة الى ذلك أيضا كى يخلق الشك عند الجزائريين ·

فانكار أى وجود تاريخى للجزائر ، دولة أو أمة ، يهدف الى تحقيق هذا الهدف المزدوج : ضمان تكوين فكرى وعقائدى معين لدى أوربى الجزائر ، وزعزعة المعلومات التاريخية عند الجزائريين وتشكيكهم فى تاريخهم ·

وقد اكتست عملية التشكيك ، تشكيك الجزائريين فى تاريخهم ، طابعا خطيرا ، فزيادة

---

(١) ستيفان غزيل وآخرون

عن تحريف معلومات الكتب المدرسية التى تتصل بتاريخ الجزائر بصفة خاصة وتاريخ العرب والاسلام بصفة عامة ، نجد أن المعلمين الفرنسيين كانوا يروجون خرافات واهية ، تهدف الى دفع الطفل الجزائرى الى القرف من تاريخه وتهيئته نفسيا لان يتقبل الذوبان فى الاستعمار الفرنسى ، ويقبل به قضاء وقدرا لا مندوحة عنه ٠

عديدون هم الجزائريون ، الذين سمعوا فى المدارس الفرنسية ، تلك الصورة التاريخية التى تقول ان سكان الجزائر باعوا مدينتهم مقابل «قصعة زلابية» اعطاها لهم الفرنسيون ٠ وقد كان الكتاب المدرسى الذى يشتمل على هذه الخرافة ، مصحوبا برسوم موضحة ، تبين عددا من الجزائريين تحلقوا حول قصعة زلابية ٠

ان امثال هذه الخرافات ، تصبح مع طول الزمن ، حقيقة مسلما بها فى أوساط الاوروبيين خصوصا اذا عرفنا المستوى الثقافى السطحى الذى كان يطبع أغلبية الفئات الاستعمارية ٠

١ ــ العسكريون والاداريون الفرنسيون هم الذين وضعوا المواد الاولية لكتابة تاريخ الجزائر فى الادب الفرنسى ٠ وفى ذلك ما لا يخفى من تحيز يتنافى مع كل موضوعية ٠ فالعسكرى أو الادارى الفرنسى ، يعتبر كتاباته امتدادا لعمله فى الميدان ، وعمله الاساسى هو الحرب ضد الجزائر وضد كيان شعبها ٠

يضاف الى ذلك أن الفرنسيين بصفة عامة عسكريين كانوا أو اداريين أو غير ذلك ، نظروا الى تاريخ الجزائر من زاوية فرنسية ، فكانت كتاباتهم فى الحقيقة تاريخا للاستعمار الفرنسى من وجهة نظر فرنسية ، ولم تكن تاريخا للجزائر٠

صحيح أن عددا كبيرا من المؤرخين الفرنسيين قد تناولوا بالبحث تاريخ الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى ، لكن هذا التناول كان لا يخلو من احد المآخذ التالية :

أ ــ محاولة تشويه الماضى لا يجاد مبرر ــ قبل الابان ــ للاستعمار الفرنسى الذى جاء بعد ذلك٠

ب ــ التركيز على عهود ما قبل التاريخ وعلى العهد الرومانى ، واهمال العصر الاسلامى ٠

جـ ــ اهمال أو تجاهل المصادر المحلية ، والعربية لتاريخ الجزائر ٠ والنتيجة العملية لكل من المآخذ الثلاث المذكورة ، هى وجود تعريف ما ، متعمدا كان أن غير مقصود ، يقلل من اهمية فترات الاستقلال وعصور السيادة التى عرفتها بلادنا ، قديما وخلال العصور الوسطى ومع مطالع العصر الحديث ٠

٣ ــ يطبق المؤرخون الفرنسيون فى معالجة تاريخ الجزائر والمغرب العربى ، مناهج للبحث والتقييم ، ضبطت فى نطاق أروبى، لمعالجة التاريخ الاروبى ، ومن المعروف أن الاطوار التى مرت بها شعوب أروبا ، تختلف عن الاطوار التى مرت بها الشعوب العربية ، الاسلامية ٠

ومن هنا تاتى معظم الكتابات الفرنسية عن تاريخ الجزائر مطبوعة بهذا الطابع الذى يحكم عليها من الاساس : فالموازين والقواعد التى يقع الاحتكام اليها عادة ، وهى موازين وقواعد استنبطت من التاريخ الاروبى ، تجعل من يتناول تاريخ الجزائر من الفرنسيين يعمد الى الحكم على تاريخنا بالنسبة لشىء ما ، ولا شك أن تحكيم مثل هذه النسبية المفرطة ، ومثل هذه المقارنة غير الواردة ، لا يمكن الا أن يعطى نتائج غير صحيحة علميا ٠

بل ان هناك مؤرخين فرنسيين قد استغلوا وجود الاستعمار الرومانى فى الماضى ، فأرادوا أن يربطوا بينه وبين الاستعمار الفرنسى ، وأن يقفزوا من فوق خمسة عشر قرنا من الزمان ، وصولا الى نتيجة معينة وهى أن الوضع الطبيعى للجزائر هو وجودها فى نطاق أروبى ، وفى حكم التابع ٠

فستيفان غزيل لا يتردد فى التأكيد على أن الجزائر هى :

«جزء اقتطع تعسفا من افريقيا الشمالية» (١)

ويردد وليام مارسى صدى هذه الفكرة ، عندما يكتب مشيرا الى الفتح العربى الاسلامى والى العهد التركى :

«٠٠ فى كلتا الحالتين ، غزا المشرق هذا الجزء من الغرب» (٢)

تلك فى رأينا بعض العوامل الاساسية التى تحكمت فى توجيه كتابات فرنسية عديدة توجيها مغلوطا ، وتجعلها تسهم ، عن وعى أو بغير قصد ، فى تشويه تاريخ الجزائر القديم والحديث والمعاصر ٠

وسوف نتبين فى بحث قادم ، من خلال نماذج مختلفة ، حقيقة هذا التشويه ، الذى شمل كل العصور التاريخية فى بلادنا ٠

---

(١) المصدر السابق ص ٢

(٢) نفسه ص ١٣٩ ٠



المجلة التاريخية المغربية

انه لمن دواعى سرورنا أن نعلمكم بانشاء مجلة جديـدة تتناول تاريخ المغرب العربى الحديث والمعاصر وتحمل العنوان التالى : **المجلة التاريخية المغربية** .

والواقع ان مجلة بهذا الاختصاص عن تاريخ المغرب العربى سوف تسد فراغا كبيرا ؛ هاته المجلة التى نود أن تكـون موضع احتكاك حقيقى وفعال لكل المختصين بتاريخ المغرب ، نريد لنفسها أن تكون مجلة علمية بحتة، وسيقوم على تحريرها أساتذة من كلية الآداب والعلوم الانسانية بكل من جامعة تونس والجـزائر والمغـرب الاقصـى ، على أننـا ندعـو أصدقاءنـا غير المغاربة المختصين بتاريخ مغربنا ، الانضمام الينا لنتعاون جميعا ، يحدونا أخلاصنا للعلم وللحقيقة التاريخية المطلقة .

ان الهدف الذى نعمل من اجله ، ونحن الـذين نـؤمن بالحوار البناء المتفتح ، هو تعزيز البحث العلمى وفتح مجالات جديدة للخلق التاريخى والعمل على كتابة تاريخنا بصورة اكثر وعيا وموضوعية وشمولا ، لنساهم من جانبنا فى توعيـة الانسان المغربى الجديد وتغذية تطلعه الى ماضيه وايقاظ ضميره الانسانى حتى يواكب متطلبات العصر ، خصوصا وأن المغرب كان قد عرف طوال عصوره ، ترابطا وتلاحمـا ووحـدة فى مصيريته التاريخية .

أن اللغات التى نريدها للمجلة هى العربية والفرنسية والانقليزية ؛ غير أننا لضمان نجاعة احتكاك المـؤرخين ذوى الاتجاهات المختلفة بعضهم مع بعض ، ندعو زملائنا الذين يحررون أبحاثهم باللغة العربية ، أن يقدموا لنا موجزا باللغـة الفرنسية اذا أمكنهم ذلك ، واذا تعذر عليهم القيام بذلك ، فاننا نرجو منهم أن يوجزوا لنا ابحاثهم فى صفحة واحدة باللغـة العربية وسنعمل من جهتنـا على ترجمتها الى الفرنسية ، والعكس بالعكس ، كل دراسة بالفرنسية أو الانقليزية سوف ترفق بموجز باللغة العربية .

كما ان هيئة التحرير رأت ضرورة وحتمية الاهتمام بنشر الوثائق التاريخية ، وعليه سوف تخصص المجلة قسما من صفحاتها لنشر الوثائق العربية او الفرنسية والانقليزية .

أما الوثائق بغير هاته اللغات ، فسنعمل على آثبات ترجمتها وهذا من شأنه أن يضفى على المجلة قيمة جديدة ويجعلها أداة عمل لا مناص للباحث والمؤرخ من الاستغناء عنها ، وسوف نركز بالخصوص على المصادر العربية والعثمانية والتى أهملت الى وقت قريب جدا ، ذلك أن واجبنا اليوم هو اثارة الاهتمام لأهمية الوثائق غير الفرنسية لتاريخ مغربنا .

نكتب اليكم لندعوكم الى الانظمام الينا ومشاركتنا عملنا وتعزيز تجربتنا بما توفدوه علينا من دراسـات أو وثائـق أو تحقيقات وغير ذلك . وسنحاول اصدار عدديـن أو ثلاثـة فىالسنة وسنوافيكم بنشرياتنا بانتظام .

هذا هو عنواننا المؤقت : الدكتور عبد الجليل التميمى ، 21 شارع سوفيل ، الوردية ، حى الازدهار ـ تونس ؛ على أمل الاتصال بكم واستلام رد منكم ، تقبلوا صديقنا الاستاذ ، أطيب مشاعرنا الودية .

الهيئـة

نظـرة تقييميـة لدراسات تاريخيـة حـديثـة عن حركـات الخـوارج فى المغـرب العـربى فى العصر الاوسط

د. الحبيب الجنحانى
استاذ بكلية الآداب
جامعة تونس

تهدف هذه الدراسة المتواضعـة الى خدمـة غرضين اساسيين يؤمن بهما كثير من الباحثـين المغاربة المهتمين بالدراسات التاريخية والآثارية اليـــوم :

أولا - العمـل على بعث مدرسـة تاريخيـة مغربية لها مميزاتها ، ورؤيتها الحضارية الخاصة كمـا هـو الشـأن بالنسبـة لكثير مـن المدارس التاريخية المعروفة اليوم فى العالم .

هذا نص موجز للدراسة التى قدمت لندوة تاريخ المغرب العربى المنعقدة بالمركـز الثقافى الدولى فى الحمامات بالجمهورية التونسية من ٢٥ الى ٢٧ ماى ١٩٧٣ . وسننشر الدراسة كاملة فى عدد قادم .

ثانيا ـ نعتقد أن الخطوة الاولى فى بناء هذه المدرسة تتمثل فى تقييم الدراسات التى الفت عن عصر من العصور ، او مسالة معينة فى تـاريخ المغرب العربى ٠

وتعد حركات الخوارج ـ دون ريب ـ حلقـة أساسية فى تاريخ المغرب الوسيط ، لما كان لهـا من نتائج خطيرة فى تطور أحداث المغرب خـلال فترات طويلة ٠

وسوف تبقى كثير من الاسئلة بدون جـواب مالم يتمكن الباحثون مـن الاجابة عن كثير مـن نقاط الاستفهام حول ثورات الخوارج ، وحيـاة مجتمعاتهم بالمغرب ٠ ونلاحظ ، بادىء ذى بدء ، ان الجوانب التى تهمنا فى حركات الخوارج المغربية هى الجـوانب التاريخيـة الحضارية بالدرجـة الاولى ، أما الاصول المذهبية فنهتم بهـا بقـدر مـا تنير لنـا المسائـل التـاريخية ، والاحداث السياسية فى حيـاة الحـركـة ، وتطـورهـا ٠

ان المصادر والمراجع عن تاريخ الخوارج فى بـلاد المغرب قسمـان :

ـ قسم قديم معروف ، ونعنى هنا كتب التاريخ، والسير ، ومصادر المذهب الفقهية ، وغيرها ٠

ـ وقسم الدراسات الحديثة ، وهى موضوع هذه المحاولـة التقييمية ، وقـد بدأت تظهـر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ونستطيع تقسيمهـا الى :

ـ دراسات ايتنوغرافية وبيوغرافية ٠

ـ دراسات جغرافية بشرية (١)

ـ دراسات معمارية ، وهى قليلة (٢)

ـ دراســات اقتصاديـة واجتماعية ، وهـى نادرة ٠

وسنقف فى هذه النظـرة التقييميـة لـدى الدراسات التاريخية ، وهى نفسها قليلة بالنسبة للبحوث ذات الطابع الاتنولوجى ، او العقائدى ٠

ونذكـر هنا أهـم الدارسين الاجانب قبـل تقييم بعض أعمالهم :

— Pency Badguen ترجم كتاب كشف الغمة لمؤلف مجهول ، استخرج من كتابه تاريخ ايمة عمـان

— Emile Masqueray

ترجم القسم الاهم من كتاب «السيرة وأخبار الايمة» لابى زكريا مع تعاليق مفيدة ، الجزائـر ١٨٧٨ ٠

— Motylinski : Bibliographie du Mzab. Bulletin de correspondance Africaine.

الجزائر ، ١٨٨٥ ، ج ٣

— Motylinski : Le Djebel Nefousa.

ترجمة نص من البربرية الى الفرنسية مـع التعليق عليه ، باريس ١٨٩٨ م ٠

وقد كان Motylinski مترجما عسكريا فى مزاب ، ويقول فى بداية مقاله Bibliographie du Mzab

انه منذ احتلال مزاب سمى فيهـا ، وأخـذ يهتم بالاباضية ويقول : ان دراسـة مخطوطات الاباضيين هامة لمعرفـة جنس البربر ، ومعرفـة شمـال افريقيـا ٠

— René Basset : Les sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique.

ماى ـ جوان ، ١٨٩٩ ، جويلية ـ أوت من نفس السنة ٠

ودراسة ببليوغرافية كتبها المستشرق الالمانى شاخت بعنوان :

— Bibliothèques et manuscrits abâdites, R. A. 1956 الجزائر ، ١٩٥٦

ونلمح الى دراسات ثانوية قام بها المستشرقان الالمـانيـان Sachac و Strothman والى اعمال «La Rosa» فى ايطاليا٠

ونذكر الدراسة الفقهية القيمة التالية :

— Marcel MERCIER : Etude sur le waqf abâdite et ses applications au Mzab, 1927. الجزائر

ولا ننسـى اعمـال المستشـرق البولونـى «زيقمونت سموقور سفسكى»(Zygmunt Smogorzewski) بالرغم من انه لم يتمكن من نشر كثير من البحوث، ولكنه جمع مجموعة ذات قيمة مـن المخطوطات الاباضية فى مكتبة جامعة «لفوف» وتخرج اشهر مختص فى شؤون الاباضية فى المغـرب اليـوم المستشرق البولونى الاستاذ «تـادوش ليفسكى» T. Lewicki

ونشير هنا الى اهـم ما نشره ، زيادة عـن مقالاته فى دائـرة المعارف الاسلامية ، الطبعـة الجديدة

— Les subdivisions de l'Ibâdyya, Studia Islamica, Fasc. 9/1958.

— Ilâditica, Rocgnik Orientalis lycgny.

ج ٢٥ ، العدد الثـانى ٠

— La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen-Age. 1957 - 21. ج ٢١ ـ ١٩٥٧ نفس المجلة

— Notice sur la chronique ibâdite d'ad-dangini.

نفس المجلة ٠

— Un royaume ibâdite peu connu : l'Etat des Banu Marâla (IXe siècle).

نفس المجلة ج ١٣ العدد الثانى ١٩٦٨

— Un document ibâdite inédit sur l'émigration des Nafusa du Gabal dans le Sahel Tunisien au IIIe IXe siècle.

— Les historiens, biographiques et traditionnistes ibâdites - wahbites de l'Afrique du Nord du VIIIe au XVIe siècle. Krakow, 1962.

— Les Ibâdites en Tunisie au Moyen-âge. روما ١٩٥٨

— Le pays de Guguaf, Bruxelles, 1970.

— Etudes ibâdites nord-africaines, 1955. فرصوفيا

— Quelques textes, revue des Etudes Islamiques, 1934.

عدد٣

— Une chronique ibâdite. «Kitab as-Siyar». Revue des études Islamiques, 1936, cahier III (3). للشماخب

* *

اما دراسات الباحثين العـرب فى المشـرق والمغرب فهى قليلة ، واهمهـا :

ـ اطروحة الاستاذ د٠ ابراهيم فخار ، عميـد كلية الآداب بجامعة قسنطينة (٤)

ـ خصص الاستاذ د٠ سعد زغلول عبد الحميد فى كتابه «تاريخ المغرب العربى» (القاهرة ١٩٦٥) فصولا قيمة لحركات الخوارج فى المغرب ٠

ـ اطروحة د٠ محمود اسماعيل عبد الرزاق عن «الخوارج فى بلاد المغرب» (٥) ٠

ـ وتعرض كل من الاستاذين د٠ محمد الطالبى فى اطروحته عن امارة الاغالبة ، و د٠ فـرحات

الدشراوى فى اطروحته عن الفاطميين بافريقية الى الخوارج فى المغرب بصفة هامشية(٦) ٠

* *

ان جوانب التقييم متعددة ، ولكننى سأقتصر على ذكر نقطة واحدة تستجيب الى رأينا فى ضرورة اعادة التقييم والنظرة لبعث مدرسة تاريخية مغربية ذات رؤية جديدة ، وتتصل بتفسير اسباب هذه الحركات والعوامل التى جعلت الدعوة الخارجية تجد تربة خصبة بين القبائل البربرية بعد اعتناقها الاسلام (٧) ٠

ان الدراسات التاريخية الاجنبية ، ولا سيما ما كتبه «قوتيى» Gautier ، و«جوليان» Julien و «ج٠ مارسى» G. Marçais تركز عن قصد على نقطة حساسة ، وهى أن ثورات الخوارج فى المغرب هى رد فعل من السكان الاصليين ، البربر ضد العرب الفاتحين الذين هم دخلاء على البلاد ، فهى عنصرية جنسية بربرية ضد العنصر العربى الدخيل ، وهى فكرة خاطئة هدفت الى محاولة اثبات رفض السكان الاصليين ، وقد أسلموا ، وحسن اسلامهم ، للعرب الاجانب عن البلاد ، ونلاحظ أن الحديث هنا عن ثورات الخوارج التى اندلعت لاول مرة سنة ١٢٢ هـ ، وليس عن مقاومة القبائل البربرية للجيوش العربية أثناء فترة الفتح ٠

ولكننا نرى أن ثورات البربر ، واعتناقهم لمذهب الخوارج تكمن وراءها أسباب سياسية واجتماعية ، فهى ابعد عن أن تكون عنصرية بربرية ضد عنصرية عربية ، وان برز هذا الجانب فيما بعد ٠

ولكنه برز بصفة عرضية ، وليس له اتصال بالاسباب التاريخية التى جعلت الدعوة تجد تربة خصبة بين البربر المسلمين فى المغرب بصفة خاصة ٠

وهنا نترك النصوص القديمة نفسها توضح هذه الاسباب ٠

يقول ابن الاثير فى كتابه «الكامل فى التاريخ» (ج ٣ ، ص ٩٢ ــ ٩٣) :

«ثم لم يزل أهل افريقية من أطوع أهل البلدان واسمعهم الى زمان هشام بن عبد الملك حتى دب اليهم أهل العراق واستثاروهم فشقوا العصا ، وفرقوا بينهم الى اليوم ، وكانوا يقولون : لا نخالف الائمة بما تجنى العمال ، فقالوا لهم : انما يعمل هؤلاء بأمر أولئك، فقالوا : حتى نخبرهم فخرج ميسرة فى بضعة وعشرين رجلا فقدموا على هشام فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الابرش فقالوا : ابلغ أمير المؤمنين ان اميرنا يغزو بنا فاذا غنمنا نفلهم ، ويقول : هذا أخلص لجهادنا ، واذا حاصرنا مدينة قدمنا وأخرهم ، ويقول : هذا ازدياد فى الاجر ، ومثلنا كفى اخوانه ، ثم انهم عمدوا الى ماشيتنا فجعلوا يبقرون بطونها عن سخالها ويطلبون الفراء البيض لامير المؤمنين فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فاحتملنا ذلك ، ثم انهم سامونا ان يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا لن نجد هذا فى الكتاب ولا السنة ونحن المسلمون فاحببنا ان نعلم : أعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها الى وزرائه وقالوا : ان سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا الى افريقية فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على افريقية ، وبلغ الخبر هشاما فسأل عن النفر فعرف أسماءهم فاذا هم الذين صنعو ذلك» ٠

ويقول ابن عذارى فى «البيان المغرب» (ج ١ ص ٥٢) :

« ثم أن عمر بـن عبد الله المرادى ، عـامل طنجة ومـا والاها ، أسـاء السيـرة وتعدى فى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وانما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسـلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العبـاد نعوذ بالله من الظلم الذى هو وبال على أهله» ·

* *

ان هذه النصوص التاريخية تبين فى جـلاء أن ثورات الخوارج المعتمدة على العصبية القبلية البربرية كانت رد فعل ضد تصرف ممثلى الحكم المركزى فى دمشق اولا ، ثم فى بغداد ثانيا ، وضد معاملة ابعد ما تكون عن المبادىء الاسلامية التى اعتنقها البربر ، وآمنوا بها ايمانا عميقا ابتداء من بداية القرن الثانى للهجرة ·

انه من الغريب ـ اذن ـ أن نفسر حركـات الخوارج بعد هذه النصوص الواضحة بـانهـا حركات ضد العنصر العربى الدخيل كما حـاول الايهـام بذلـك بعض المؤرخيـن الفرنسيين ذوى النزعة الاستعمارية ·

هذا نموذج من نماذج كثيرة تجعل الباحثين المغاربة يفكرون فى اعادة التمحيص والنظـر ، اعتمادا على المصادر الاصلية ، واستنادا الـى المنهجية العلمية الحديثة فى الدراسات التاريخية فى كل مـا كتب عن المغـرب العربى منذ القـرن التـاسع عشـر ، وهى اللبنة الضرورية الاولى لبعث المدرسة التاريخية المغربية ·

التعليقـات

١) نذكر على سبيل المثـال : Despois

٢) أهمهـــا

— Le Djebel Nefousa.
— Le Djebel Ousselat.

G. MARÇAIS et A. DASSUS — LAMAR : Recherches d'archéologie musulmane : T. HIRT, in R. A., 1946.

٣) ان الدراسات الاجنبية ذات الطابع التاريخى البحث ، فهى قليلة جدا لا تتجاوز فصولا كتبها كل من
T. Lewiski, G. Marçais, Julien, Gautier :
R. Idris.

٤) هذه الاطروحة لم تنشر لحد الآن ـ حسب علمنا ـ ، ولم نتمكن من الحصول على نسخة مرقونـة منهـــا ·

٥) لم تنشر بعــد ·

٦) نلاحظ أن بحوث الدراسين العرب عن تاريخ حركات الخوارج المغربية ما تـزال قليلة بالرغم من أهمية هذه الحركات ، ونتائجها التاريخية ·

٧) نلاحظ للقارىء الكريم من جديد أن هذا النص هو اختصار للدراسة الكاملة ، ولهذا اقتصر فى التقييم على ذكر فكرة رئيسية واحـدة ·



مدافع القصبة بالعاصمة قبل الاحتلال

المؤرخون الفرنسيون والجزائر



مولاي بلحميسي

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

ما اكثر ما كتب الباحثون أن تاريخ الجزائر التركية مكتوب انطلاقا من مصادر أوربية وفي نظر بعضهم أن تاريخ الجزائر من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر - خلافا لتاريخ العصر الوسيط المغربي - يجب أن يدرس - بصفة رئيسية من خلال ما رواه مراقبون غربيون وبواسطة وثائق تاريخية (أرشيفات) وقد انتقل المغرب الاوسط - الذي يسمى بالجزائر فيما بعد - الى مرحلة جديدة من تاريخه ٠ وصارت الجزائر من ممتلكات العثمانيين طوال ثلاثة قرون٠ وذلك اثر غارات الاسبان ضد المدن الساحلية الرئيسية (المرسى الكبير - وهران وبجاية) ٠

واصبح التركى هو العدو الالد للاسبان ٠ فان تدخله صد المغاربة عن الخضوع للقوانين الكاثوليكية وصارت للجزائر ، منذ ذلك الحين ، حكومة مركزية فى مدينة الجزائر وادارة اقليمية وتخوم فى الشرق والغرب واسطول حربى وأصبح للجزائر بصفة خاصة أهمية بالغة فى العلاقات الدولية وتزايدت المعارك بينها وبين أوربا ٠

وحيرت هذه الحقبة التركية أوربا وأثارت ـ لا سيما عند الاسبان ـ اهتماما متزايدا ٠ وكانت من بين الحقب التى أسالت كثيرا من الحبر فى اسبانيا وفرنسا وايطاليا وفى غيرها من البلدان ٠

وفعلا قد أتاحت الحروب والتجارة والتجسس والدبلوماسية وافتداء الاسرى وحب المغامرات لسكان الضفة الاخرى من البحر المتوسط فرصا عديدة للتعرف على المغرب الاوسط أو التأليف فى تاريخه وتفصيل الكلام عن حادثة أو أخرى من الحوادث التى وقعت فيه ٠

ولاجل ذلك كانت الآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية جد كثيرة وجد متنوعة ٠

سنقتصر فى هذه الدراسة الموجزة على المصادر الفرنسية

* * *

والى جانب تصانيف وصفية (١) وكتب جغرافية عامة واقليمية للبلاد ، وأدلة عامة وأدلة طرق ومسالك ورحلات برية وبحرية ووصف أقطار اجتازها الكتاب ومدن زاروها وأخلاق وعادات للسكان ٠ يجب اضافة بحوث فى التاريخ العام (٢) تاريخ فترة من الفترات وذكريات **وكتب فى دراسات خاصة (٣) وتراجم (٤) ولنشر أيضا الى الدراسات** حول السياسة الجزائرية فى هذه الحقبة قد عرض فيها عدة مشاكل : مثل التنظيم الادارى (٥) **نظام الحكم التركى (٦) التعمير ، والدين (٧) الطرق الصوفية ، والقبائل** (٨) اليهود (٩) والنصارى فى الجزائر والعلاقات مع الدول الاجنبية (١٠) ٠

وهذا الترتيب للكتب وقع وفقا لموضوعاتها الرئيسية ولكن الكتب التى ألفت عن الجزائر لم تنحصر فى أغلب الاحيان داخل نطاق الموضوع المحدد لها تحديدا دقيقا ٠

القيمة الاخبارية لهذه المؤلفات :

وهذه العروض ـ على الرغم من النقص الكثير والاحكام المسبقة الخطيرة التى تشتمل عليها والتى نتعرض لذكرها فيما بعد ـ لاغنى لتاريخ بلدنا عنها لان المصادر الاسلامية فيما يخص هذه الحقبة نادرة وذات رديئة غالبا (١١) فالمصادر التركية التى كانت محط آمال كبار لا تتخطى القرن السابع عشر ٠

والمصادر التى يرجى منها أن تهدى المؤرخ ترقى الى القرن الثامن عشر فحسب ٠ وان جزأ من الوثائق التركية المحفوظة (أرشيف) نشر فى تونس واصطنبول والبندقية ٠ وقد نشرت وثائق تركية خاصة بافريقية الشمالية فى كتاب عزيز سميح التر : «الترك فى افريقية الشمالية(١٢)»وفى المقالات النادرة التى نشرتها مجلة جمعية تاريخ الترك ـ نشرة ـ وتشتمل فى أساسها على سجلات محاسبة ترجع الى ما بعد سنة ١٦٥٠ ٠ واستبطان محتوياتها لا يلقى ضوءا جديدا على حوادث وحياة المغرب الاوسط لان الجندى والضابط من الاوجاق لم يهتما اهتماما ذا خطر بسبب عدم مبالاتهما وأميتهما بتخليد ذكر الحوادث التى شاركا فيها ٠

أمـا المصادر العربية المعروفـة حتى الآن لا تصلح كأساس لدراسة الحقبة التى تهمنـا . فالنصوص نادرة وقليلة القيمة غالبا (١٣) والفنون القريبة من التاريخ نزحت الى تونس وفاس فور وصول الاتراك الى المغرب الاوسط .

وف نتدوين حوادث التاريخ لم يكن موجودا فى الجزائر فى هذه الحقبة لانه يزدهر فعـلا فى حماية الدول فقد اتفق عرش بنى زيان أشرف على الانهيار فى مطلـع القرن بينمـا ـ بعكس ذلك ـ مزدهرا فى تونس وفـاس (١٤) ذلك مـا يزودنا أحيانا ـ ولا سيما بصفة غير مباشرة ـ بمعلومات عن طائفة من حوادث المغرب الاوسط .

والدراسات التاريخيـة المتخصصة ينبغى أن تقـرأ بحذر لانهـا حررت فى أغلب الاحيـان لمجاملة الامـــراء الحفصيين أو السعديين الذين كانوا طبعا معادين لاتراك الجزائر .

والرحلات الثرية بتراجم الاولياء جد ضنينة بأى خبر عن حالة البلاد . ودونت على أى حـال بزمن طويل بعد النصف الاول من القرن السادس عشر (١٥) ولكن أدب التراجم يسمو على ركـام الاثار الادبية فى المغرب الاوسط على أن ازدهاره فى المغرب الاوسط يقل بكثير عن ازدهاره فـى المغرب (١٦) ونحن وان اطلعنا على حياة طائفة مـن المتصوفة المدرسين أو الشـراح فى القـرن السادس عشر نبقى ـ بعكس ذلك ـ جاهلين لحياة الرجال الذين أسهموا فى الحياة السياسية للبلاد وكان الحكام الاتراك أزهد الناس بالايعاز بتدوين مآثرهم . والتاريخ الصرف بمثله ـ هـو ايضـا من بين آثـار المـؤلفين المسلمين فى بلاد البـربر ابتداء من القرن السابع عشر ـ طـائفة التأليف لم تخل تماما من كل قيمة ولكننا لم نعد نجد فيها سمو النظر الذى نجده عند المؤرخين الكبار فـى العهد الوسيط وبصفة خاصة عند أكبرهم جميعـا ابن خلدون . ومؤرخو العصور الحديثة والتاريخ المعاصر يحملون طابع البيئة التى عاشوا فيهـا . فقد قام لديهم كره غير المسلم الذى يشفعون ذكـر اسمه باللعن أو بوصف يشعر بالاحتقار مقـام التسامح النسبى لدى مؤرخى العهد الوسيط (١٧)

وهكذا يعكس هؤلاء الكتاب عقلية عصرهم ويقدمون لنا ما يؤيد هذا التحول الكبير (١٨) وقد احتلت الدراسات الدينية ـ منذ بداية العصـور الحديثة ـ منزلة مرموقة فى قلوب سكان المغرب ـ « فباستثنـاء الفنون التى يستعان بهـا على فهم الدروس الدينية مثل النحو واللغة العربية اللذين لا يتعلم منها فقط الا لقدر الكافى لفهم النصوص الفقهية والدينية .

وباستثناء علمى البـلاغة والمنطق اللذين ينتفع بهمـا فى خطب الوعـظ والارشـاد وعلـم التوحيد وباستثناء مبادىء الحساب اللازمة لقسم المواريث وعلـم الفلك الذى يهدى لمعرفة أوقـات العبادة وأدائها جميع النشاطات التى لا صلة لها بالدين والشؤون الالهية تهمل على انها لافائدة فيها أو هى صالحة فقط ـ مثل الفلسفة ـ لتشويش الافكـار » (١٩) .

والمجهود الذى بذله المؤرخون الفرنسيون هو ضخم فى الجملة : البحث يحمل طابع الصبر والاناة . وعلى العمـل ميسم الضبط والاتقـان والتقسيم دقـيق ، وهذه الملاحظات هى المـزايا الجسميـة التى تكتسى بهـا آثـار باحثين مثـل مرسيى Mercier وغرامونت Grammont أو ماسون Masson والتى كـانت ركائـز كتب جديدة فى التاريخ مؤلفة باللغة العربية .

وكثير من الباحثين اقاموا فى مدينة الجزائر او طافوا خلال البلاد الجزائرية او حدموا فى حاشية البايات والدايات (٢٠) وملاحظاتهم مباشرة ومعلوماتهم التى يجودون بها هى جد نفيسة وكان لطائفة من البحاث بعد سنة ١٨٣٠ الفضل فى تعريب تقارير رسمية واست ثمار كثير من الوثائق الاصيلة المتينة المهمة (٢١) وعنيت طائفة منهم بموضوعات جد تقنية وجد مفيدة (٢٢) ٠

ولكن هذه المزايا لا يمكن ان تنسينا الجانب السلبى فى اغلب هذه الآثار واهمية هذه المصادر وهذه الكتب ـ فيما يخص الحقبة العثمانية ـ هى بعيدة كل البعد عن اجماع الباحثين ٠

فقد كتب رن RINN : « ان الوثائق الجيدة التى تخص العهد التركى قليلة ٠ واذا كان ما ملكه منها هو صادق ومثير للفضول ومفيد فلا يكاد يشتمل على شىء من تاريخ العرب والبربر الذين عاشوا خارج الاوليغارشية حكم المستغلين المسيطرين على البلاد » (٢٣) ٠

عندما نبحث الوثائق المكتوبة فى القرنين الثامن والتاسع عشر لا سيما الفرنسية منها نلاحظ ان اوسع اهتمام فيها قصر فعلا فى عهد «البربرسك» على القرصنة وعلى عمليات التلصص فى عرض البحر وعلى استعباد النصارى وعلى اقامة الاسرى الاوربيين فى مدينة الجزائر ٠ وعلى بؤسهم وشقائهم وعلى أوجاعهم والامهم وعلى افتداء الاسرى وعلى جمعيات الافتداء (٢٤) وعلى حياة التجارة (٢٥) وعلى الرهبان المبشرين بالنصرانية وعلى عدم ثبات اصلهم وعلى دور آباء جمعية الثالوث الاقدس وآباء جمعية القديس لازار رواد الكادرينال لا فيجرى » ٠

والعنوان الذى اختاره الاب « دان لكتابه هوذو مغزى : «**تاريخ بلاد البربر وقراصنتها** » ومملكة ومدن الجزائر وتونس وسلا وطرابلس ، حيث يبحث عن حكومتهم وعن أخلاقهم وقساوتهم وعن لصوصياتهم وأسحارهم وعن كثير من خصائصهم الاخرى اللافتة للنظر » ٠

هذا هو تاليف الاب «دان» حامل البكالوريا فى علم اللاهوت ورئيس « دير الثالوث الاقدس لافتداء الاسرى » (٢٦) ٠ والمؤلف الذى أقام فى مدينة الجزائر بين سنتى ١٦٣٤ م ١٦٣٥ قصر اكبر جزء من كتابه على طريقة تسليح القرصنة وعلى خصائص المرتدين والاعلاج و«على العقوبات والمصائب التى يذيقها الترك والمتوحشون للنصارى الذين يستعبدونهم ويقصر ما بقى من كتابه على الحديث عن جمعية الثالوث الاقدس »٠

والموضوعية ليست هى المزية الكبرى فى هذه التآليف والتفاسير فيها هى غالبا مغرضة والحذف من النص مقصود والمعلومات خاطئة ٠

وهؤلاء الباحثون المنتمون الى مختلف الجمعيات الدينية (٢٧) صنفوا كتبا دعائية وكانوا يهدفون بها الى ترغيب اتباعهم فى العطف على الاسرى لجمع موارد مالية ٠

فالمبالغة والقسوة والرعب هى الاشياء الوحيدة التى تستطيع ان تلين القلوب ٠ وكان نشر هذه التصانيف يسمح باكبر اذاعة لهذه المعلومات الرامية الى تغذية الحقد على المسلمين

لا لارضاء فضول الافكار المتعطشة لمعارف أوسع· ويقع التأثر من المصائب التى يصبها الجزائريون على النصارى لشن حرب صليبية على المسلمين·

والقناصلة الاوربيون (٢٨) الذين كانوا يشغلون مناصبهم فى مدينة الجزائر دونوا ذكرياتهم وقيدوا حوادث ورووا أشياء لها صلة بالمغرب الاوسط ·

حتى كانت طائفة منهم شهدوا معاصرين · وكانوا اذن بصفة عامة على خبرة جيدة بمشاكل عدة ومراسلاتهم وتقاريرهم كانت ذخيرة لا تنفد من المعلومات ·

ولكن كان تأييدهم فى الجملة للحكام الجدد فى دولة الجزائر ضعيفا فاترا ـ ومن جهة أخرى قد قصرت اقامة عدة من القناصلة على مدن سكانهم · وكانوا لا يسافرون أن بالاحرى كما أقل ما كانوا يسافرون · وكانوا لا يعيرون انتباها خاصا للحياة العميقة فى البلاد ·

وفى العاصمة نفسها كان المجتمع الاسلامى سرا مكتوما عنهم · وكانوا يجهلون حياة السكان فى الارياف والحواضر «يشاطرون مواطنيهم فى الاقتناع بالآراء المسبقة وفى نظرهم كان سكان المغرب منبعا للمصائب كلها مخادعين كسالى جشعين منكرين للجميل · وباختصار اجتمعت فيهم كل الرذائل ·

والكتب التى ظهرت بعد ١٨٣٠ تكتسى بنزعة أخرى · ولها قيم متفاوتة · اذا كان الباحثون يعتمدون ـ فيما يخص الحقبة الرومانية على المصادر المأذونة فقد راجعوا عن تاريخ العصور العتيقة ذات النصوص لمؤلفين يونان ورومان وان استثمروا فيها يتعلق بالحقبة الاستعمارية عروض وتقارير رسمية ووثائق أخرى فهم حيث اقبلوا على دراسة الحقبة الاسلامية قد واجهوا صعوبات فى تفهم النصوص العربية فى التاريخ أو الجغرافية وحكموا عليها بأنها تكاد تكون كلها دائما «غير دقيقة وتترك حيزا فسيحا للافتراض» وقد ظهرت لهم أسماء الاسر منفرة والحوادث «تحولات مستمرة لتاريخ يتالف ويتفكك باستمرار» (ج· مارسى) ·

وما أقل عدد المؤرخين الذين كانوا يقرأون العربية بسهولة ويفهمون دقائقها وصيغ تراكيبها أو صورها · والى جانب أعمال متينة نجد كتبا تهدف الى التعميم الشعبى ولاصلة لها البتة بالتاريخ العلمى (٢٩) بل كانت الغاية منها الحصول على الاعجاب أو كانت كتبا موجزة تحشر كل الحوادث فى تاريخ بلد فى أقل من مائتى صفحة (٣٠) أو كانت أنواعا من القوائم الفهارس تسرد حوادث بدون أى بيان أو تفسير (٣١) ·

ويصير هكذا تاريخ الحقبة التركية عبارة عن نظرة موجزة ينتقل منها الباحث بسرعة الى اعتداء ١٨٣٠ (٣٢) ·

لنطالع كتاب ل· قالبيرت :

« البلاد الجزائرية القديمة والحديثة » (باريس ١٨٤٤ ، اكثر من ٦٣٩ صفحة) وصف البلاد وتاريخها منذ العصور العتيقة حتى سنة ١٨٣٠ يقفان فى صفحة ٢٤٩ وكل ما بقى من الكتاب مقصور على السيطرة الفرنسية · النزعة الخيالية ونزعت الكلف بالاخبار العجيبة تختلطان بالتاريخ الصرف (٣٣) ·

والبحث ـ بعكس ذلك ـ منفر أحيانا لان القارىء لا يجد أمامه الاقساوات وانقلابات

وحروبا ممتدة على قرون وسيطرة الكبير على الصغير · لا تقدم ولا حضارة والا اكمال بشرية بناءة · هذه هى الانطباعات عند قراءة كتاب الجنرال فون بيقيت (٣٤) ·

وقد تعرض بايجاز عدة جوانب من الحياة الجزائرية قبل ١٨٣٠ ـ يحاول دوبوا فونتانيل (جوزيف قاسبار) أن يعرضها (٣٥) فى ٦٠ صفحة من الجزء الرابع من كتابه ·

وذلك نوع من تاريخ الجزائر فى شكل سرد أحداث يحكم عليها بأنها رئيسية منذ القرن السادس عشر ورواية طائفة من النوادر · تعدى الدايات على سلطة الباشاوات الممثلين للسلطان ونقص مواز لسلطة الباب فى مدينة الجزائر واثراء عجيب يحظى به أسير مسكين كان من قبل تعيسا قلما يرتد ويصير قرصانا ثم باشا طرابلس ثم باشا مدينة الجزائر والغارات الرئيسية من قبل الدول الغربية على مدينة الجزائر ·

هذه الثروة وهذا التنوع فى الموضوعات المعالجة يفسرها أن أروبا تكتشف المغرب منذ القرن السادس عشر بسبب حقبة مضطربة ساعدت على وضع المشاريع الضخمة فهناك روح غزو عالمى وعسكرى وتجارى وفكرى يحرك نفوس الاوربيين · فالاسفار البعيدة والاكتشاف لاراض جديدة ولشعوب مجهولة كان لزاما أن يؤدى كل ذلك الى توسيع هائل للبحث التاريخى ، وباستثناء تذوق الاخبار العجيبة والخارقة ، نجد أن الموضوعات الكبيرة فى تاريخ الجزائر قبل ١٨٣٠ هى مآسى الاسر والحملات ضد الاتراك ·

اما أسرى المسلمين الذين أخذوا فى البحر وبيعوا فى « ليفورن » بصفة خاصة فلا يوجد له صدى وأيضا · وكثير من المؤرخين يستولى عليهم التفكير فى قوة الجزائر والرغبة فى ذكر «كهف اللصوص» ويحلمون بشن غارة حاسمة ضد الجزائر ·

وكان التعصب فى نظرهم قوة من قوى الايمان · فهم يحكمون على الاسلام وفق أفكار مسلمة لديهم هذا دين عندهم خاطىء ·· فمن جاءوا من أوربا واعتنقوا الاسلام خائنون ··· والردة لا تغتفر حتى اغراء المنفعة لا يمكن أن يعد عذرا لها «لان اكبر خطيئة يرتكبها مسيحى هى العدول عن دينه »

وقد تحددت فى أوربا فى القرن التاسع عشر فقط النقد للمنهجية التاريخية · وان طائفة من الاخصائيين فى تاريخ المغرب بدأوا يجمعون المصادر ويقارنون بعضها ببعض ، ويعرضون أبحاث تركيب ناجحة الى حد ما وهى ـ على ما فيها من نقص وتوجيهات معينة تحدثنا عنها من قبل ـ تعد مشاركة ضرورية لمعرفة ماضينا · ونحن لسنا ملزمين برفض أو قبول كل شىء كتبوه بل ينبغى أن ننتفع بجد من هذه الاعمال التى تستحق طائفة منها ، قليلة مع الاسف أن تعرف لصالح الباحثين ·

تقـاييد ومـراجع

– راجع كتاب :

(1) *Ch. Taillard* ; L'Algérie dans la littérature française,essai de bibliographie méthodique et raisonnée jusqu'en 1924, Paris 1925 pp. 79-160.

– نذكر من بين الكتب العـامة :

(2) *Bardon* (*X*) ; "Histoire nationale de l'Algérie" (Paris 1886 428 p.)

– الباب الاول : تايخ الجزائر العام ، المناخ ، الحيوانات ، السكان، النواحى الادارية ، الدين، الضرائب العوائد ٠

– الباب الثانى : الفرنسيون فى الجزائر ٠

– !لباب الثالث : مستقبل الجزائر ٠

Berbrugger ; "Les époques militaires de la Grande Kabylie" (Alger 1857).

Cat (*E*) ; "Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc". (Alger 2 V. 1888-1891).

Clausolles (*P*) ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours..." (Paris 1843 2 V.).

Galibert (*L*) ; L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844) :

من صفحة ١ الى ٢٤٩ : الجزائر من أقدم العصور الى ١٨٣٠ ٠ وخصص ثلثا الكتـاب الى الاحتـلال الفرنسى وتقدم الاستيطان الفرنسى ٠

Garrot (*H*) ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910). (Sorte de répertoire, une compilation...)

Mercier (*E*) ; "Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés à la conquête française (1830). (Paris 1888-1890 3V.)

Faure Biguet ; (le général) "Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane" (Paris 1905- 458 p.).

(3) *Peste Maldjoglon* ; Mers Al Kébir, historique et description... (R.A. 1942).

Troussel ; Kalaa des Beni Rached (B.S.G.O. 1927).

Mac Carty ; Constantine.

Leclerc ; Koukou, ancienne capitale de la Kabylie (R.A. 1857).

Féraud ; Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A. T. XVII).

Galland (*Ch. A*) ; Bougie 1895.

Féraud (*Ch.*) ; Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Djijelli, Philippeville, Bône, Touggourt (Constantine 1864-1888).

Bel (*A*) ; Histoire de Tlemcen.

(4) *Devoulx* (*A*) ; Le Raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire algérien du XVIIIème siècle (Alger 1852).

Ibid ; Le Raïs Hadj M'barek (R.A. 1876).

(5) *Devoulx (A)* ; Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger. (Alger 1852 99 p.).

(6) *Rocqueville (le sieur de)* ; "Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger" (Paris 1675 - 112 p.).

هو وصف لمدينة الجزائر ولحفلات الزواج بالمدينة واستعراض للمصالح الحكومية والادارية وذكر لمختلف انواع العذاب الذى يتعرض له الاسرى النصارى ووصف للصلوات ولرمضان ...

(7) *Bel (A)* ; La Religion Musulmane en Berbérie T.I. (Paris 1938).

Boyer (P) ; La politique religieuse des Turcs (Revue l'Occident Musulman et de la Méditerranée N° I, 1966)

(8) *Gourgeot* ; Les Beni Amer (R.A. 1857).

Féraud ; Notice sur les tribus de la Province de Constantine.

Noël ; Documents pour servir à l'histoire des Hmiyan B.S.G.A.O. 1915 - 1916 - 1917.

(9) *Eisenbeth (M)* ; Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque 1516-1830.(R.A. 1952).

Cahen (Ab) ; L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.

Dupuy (E) ; Américains et Barbaresques 1776-1824 (Paris 1910).

Watbled (E) ; La France et les Barbaresques au XVIIè siècle. (Nouvelle revue 1893 T. 84) - p. 368-388.

Grammont (H. de) ; Relation entre la France et la Régence d'Alger au XVIIè siècle (R.A. 1879).

Playfair (R.L.) ; Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats Barbaresques avant la conquête française (R.A. 1878 - 1879 - 1880).

(11) *Montran (R)* ; Les données de l'Histoire Moderne et contemporaines de l'Algérie et de la Tunisie. (Annales de l'Afrique du Nord 1962 - p. 243-248).

(12) 2 V. Istambul 1936-1937.

(13) *R. Mantran* ; Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie (Annales de l'Afrique du Nord, 1962 pages 243-248).

(14) *L. Provençal* ; Les historiens des Chorfas, Paris, 1922.

(15) ـ راجع اشهرها رحلة التمقروتى (القرن١٦) والعياشى (القرن ١٧) والورثلانى (القرن ١٨) .

(16) ـ ولا يستحق الذكر الا كتاب البستان ... لابن مريم مع ما فيه من نقص وقلة المعلومات التاريخية

(17) اتهم الغربيون المصادر الاسلامية بالتحيز وكان التحيز خاص بالمسلمين دون سواهم . ولم يكتب التاريخ فى أوروبا على أسس علمية وبشبه موضوعية الا فى أواخر القرن التاسع عشر .

(18) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 376.

(19) *A. Bel* ; La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938, Page 374.

(20) *Shaw* ; "Voyage dans la Régence d'Alger" édité en 1775.

Thédénat ; "Les aventures de Thédénat esclave et ministre du Bey de Mascara".

وهى مذكرات قيدها الفرنسى الذى وقع فى قبضة المسلمين وأصبح فى خدمة الباى محمد الكبير راجع المجلة الافريقية سنة ١٩٤٨ .

Venture de Paradis ; Alger au XVIIIè siècle (R.A. 1895 - 1896 - 1897).

(21) *Berbrugger* ; La prise de Mers-El-Kébir par les Espagnols en 1505.
Elie de la Primaudaie ; Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574. (R.A. 1875-1877).

Ricard (*R*) ; Textes espagnols sur la Berbérie (XVè - XVIè - XVIIè siècles) (R.A. 1945).

(22) *Devoulx* (*A*) ; Un exploit des Algériens en 1802 (R.A. 1865).
Ibid ; La Marine de la Régence d'Alger (R.A. 1869).
Lacour (*A*) ; La Marine de la Régence d'Alger avant la conquête (Alger 1835).
Lacoste (*L*) ; La Marine Algérienne sous les Turcs (l'Amirauté d'Alger à travers l'histoire) (R. Maritime 1931).

(23) *Rinn* ; Bulletin de la société de géographie d'Alger 1903.

(24) *Aranda* (*Emmanuel d'*) ; Relation de la captivité (Paris 1657, 2 parties).
Berbrugger ; Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats barbaresques (R.A. 1867).
Busnot (*le père Dominique*) ; La Tradition de l'Eglise dans le soulagement et le rachat des esclaves (Rouen 1714 - 278 p.)

Pavy ; La piraterie barbaresque, (R.A. 1857).

(25) *Blavin* ; "La condition de la vie des Français dans la régence d'Alger". (Alger 1899, 104 p.).

(26) Paris 1637.

(27) *Godard* (*l'Abbé*) ; (Ancien curé de Laghouat)."Les soirées algériennes, corsaires esclaves et martyrs de Barbarie" (Tours 1857, 236 p.)

هى سلسلة من الاخبار ترجع الى العهد العثمانى بالجزائر : المسلمون الذين طردوا مـن الاندلس ـ الاتراك ـ القراصنة ـ الاعلاج ـ هروب الاسرى ، المفاداة ـ الاباء العازرين ٠

Godefron, Cornelin et la Motte (*les pères*) ;
"Etat des royaumes de Barbarie, Tripoli , Tunis et Alger, contenant l'histoire naturelle et politique de ces pays, la manière ou les Turcs y traitent les esclaves comme on les rachète et diverses aventures curieuses" (Rouen 1731 263 p.).
("L'état chrétien politique du royaume d'Alger, description de Bône séjour à Alger (1700) avec la narration des pourparlers").

(28) *Grammont* (*H. de*) ; Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742) (Paris 1890 - 293 p.)
Plantet (*E*) ; Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830) (Paris 1893-1894 - 2 V. 654-784).
Arvieux (*Chevalier d'*) ; Mémoires... (Paris 6 V.) La narration de son voyage à Alger se trouve dans le T. V. il y séjourna en 1674).

Berbrugger ; Un consul à Alger au XVIII (R.A. 1862) il s'agit de Bruce, consul d'Angleterre).
Devoulx (*A*) ; Les archives du consulat général de France à Alger (S.D. 152 p.).

(29) *Clausolles* (*P*) ; "L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours... (Paris 1843 - 2 V.).

(30) *Filias* (*Ach*) ; L'Algérie ancienne et nouvelle. (Paris 1875 - 192 p.) "Une sorte de vade-mécum pour gens cultivés".

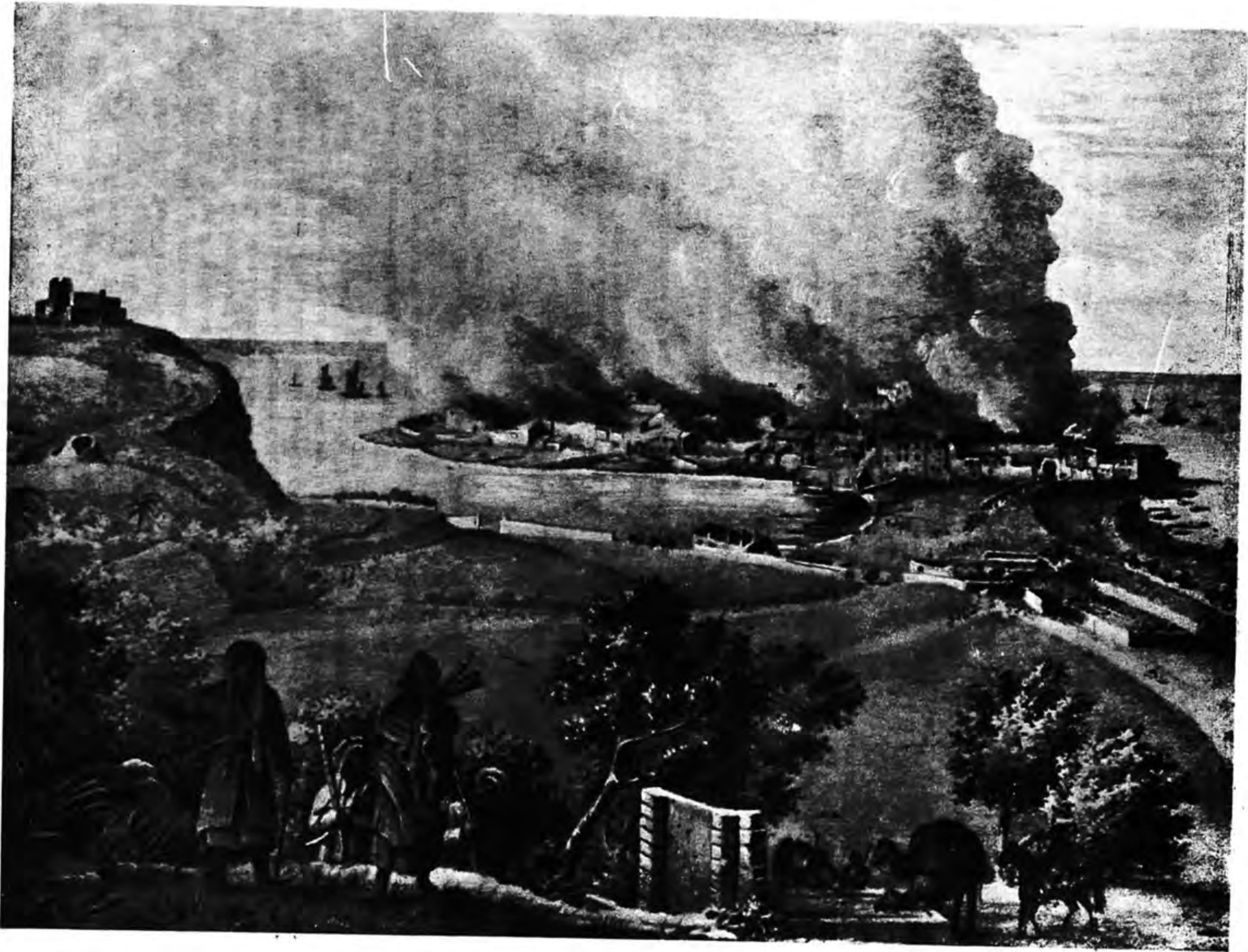
(31) *Garrot* (*H*) ; "Histoire générale de l'Algérie" (Alger 1910 - 1189 p.).

(32) *Vinchon* (*Le Baron de*) ; "Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours" (Paris 1839 - 316 p.).

(33) *Farine* (*Ch*) ; Deux pirates au XVIè siècle, histoire de Barberousse. (Paris 1869 - 377 p.).

(34) Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (Paris 1905 - 458 p.).

(35) "Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours" (Paris 1775 - 8 T. en 1 V.).



مدينة القالة ــ ولاية عنابة

كلمة مقتضبة
لتطهير تاريخ الجزائر
من الشوائب الإستعمارية

شارل روبير آجرون
مؤرخ فرنسي

للجزائريين الحق كل الحق فى التشكى من بعض المؤرخين الاجانب الذين لم يكونوا منصــــفين فى دراستهم لتاريخ الجزائر ، اما لغرض فى أنفسهم ، أو بسبب جهلهم لحقائق الامور • ونذهب الى ابعد من هذا فنقول بأن النظرة الاستعمارية كثــيرا ما أوقعت فى ضلال مبين بعض المؤرخين سواء النزهاء منهم او المغرضين • ولهذا ، فان تطهير التــاريخ الجزائرى من الشوائب الاستعمارية أصـــبح من أوكد الواجبات بالنســـبة الى كل من يبحث عن الحقيقة التاريخية الناصعة ، سواء كان أوروبيا أو من أبناء المغرب العربى •

وبما انني قمت ببحث جامعي لم ينشر الى حد اليوم ـ وكان الغرض منه نفي الطابع الاستعماري عن سياسة الجنرال برتوزين بالجزائر عام 1831 ـ فانني أسمح لنفسي بأن أسوق مثالا عن أحد المؤرخين المزيفين الذين كتبوا عن تلك الفترة ، ومن الجدير بالذكر ان نظرات هذا المؤرخ ظلت مدة طويلة من الزمان تعتبر مرجعا أساسيا ، واعني به « فيكتور ديمونتيس Victor Demontès الذي سوف اقتصر هنا على دراسة كتاب له يدعى أنه « كتاب علمي » ، وهذا الكتاب هو أطروحته التكميلية في الآداب التي عنوانها : « ادعاءات الجنرال برتوزين ضد سياسة الاستعمار في بلاد الجزائر » ، وهو منشور في الجزائر عام 1918 ، ويقع في 311 صفحة ·

ففي هذا الكتاب نلاحظ ان فيكتور ديمونتيس يتحامل بصريح العبارة ضد الجنرال برتوزين ، حاكم الجزائر بالوكالة ، والقائد العام لجيش الاحتلال الفرنسي في مدينة الجزائر· ولم يقتصر على هذا ، بل أخذ في كتابه يتهجم تهجما شديدا على هذا الرجل حتى ينال منه ويحطمه ، فوصفه بأنه « يناهض الاستعمار ، ويقف موقفا معاديا لمشروع الاحتلال » ، ولذلك ، فقد استنكر بشدة سياسته « المتسمة بالمجاملة تجاه الاهالي ، وبعدم الثقة تجاه الاوروبيين » · ويرى ان الجنرال برتوزين «هو المسؤول عن ضياع عشر سنوات في عملية اخضاع الجزائر للاستعمار » . وعقد مقارنة غريبة بين هذا الانسان المناهض للاستعمار ، وبين بطله المفضل . الجنرال كلوزيل « المخلص لسياسة الاستعمار » · وقد كتب يقول بان المسالة ليست مجرد اختلاف بين رجلين ، « بل هي اختلاف بين نظامين » ·

ان هذه الاحكام المغرضة ، وهذه الطريقة التعسفية في كتابة التاريخ ، تبعث في حد ذاتها على الاسف الشديد ، فما من مؤرخ الا ويعرف أن الحقائق التي يتوصل اليها تقريبية لا يقينية ، وان اسلوب الحكم في مجال التاريخ هو الاحتمال · وانه يجدر بالمؤرخ النزيه أن لا يطلق أحكاما حاسمة · على أن هناك ما هو أدهى وأمر ، اذا نظرنا الى المعيار الذي استند اليه هذا المؤرخ المزيف ·

كان الوهراني ديمونتيس يرى أن الوطنيين الفرنسيين الحقيقيين هم المعمرون Colonistes (وهي التسمية التي كانت تطلق عليهم عام 1831) ، والمؤيدون لسياسة اسكان الجزائر · اما من يعارض هذه السياسة فهو في نظره خائن ، حتى ولو كانت له أسباب سياسية تبرر موقفه ·

ولا شك ان الكثير من الفرنسيين ، وخاصة الاوروبيين المقيمين في الجزائر ، كانوا يشاطرون ديمونتيس مبدأه السقيم هذا · ومن الجدير بالذكر ان كل من يقصر في كيل الثناء ودفع الاموال للمعمرين ، كان يعتبر في بداية هذا القرن خائنا · وكان من تسول له نفسه ان يكتب كلمة للدفاع عن حقوق الاهالي المسلمين الجزائريين كان يعتبر « متأثرا بالبرنوس » · ونشير هنا الى ان ايدوار كاط ، كان قد ألف بين 1889 و 1891

كتابا عنوانه : « مختصر تاريخ الجزائر
une petite histoire de l'Algérie
فى جزءين . وقد استفاد منه ديمونتيس نفسه وكذلك أوغسطان بيرنار · ان حكم هذا المؤلف على برتوزين شبيه بالحكم السابق ، لانه اعتمد فيه على نفس المبدأ . فقد كتب يقول : « ان حماقته هى السبب فى الصعوبات التى واجهتها عملية الاحتلال فيما بعد » · وقد أنكر عليه تسامحه (لانه لم يتصرف تصرفا حازما مع الاهالى العرب) كما انكر عليه سرعة تصديقه (لانه ألقى آذانا صاغية « للنصائح المغرضة » التى قدمها اليه الاهالى فى الجزائر ، وخاصة ابو ضربة وحمدان ابن عثمان خوجة) ·

وقد عاد ديمونتيس الى نفس هذه الانتقادات ليدين بها برتوزين وليدعم بها نظريته السقيمة ، ولذلك يقول : لئن تخلى برتوزين عن فكرة احتلال المنطقة التى كانت تسمى « سهل المتيجة الموبوء » لما فيها من مستنقعات ،فلانه أراد بذلك ان يعاكس الحاكم السابق كلوزيل بايعاز من الاهالى العرب الذين كانوا يملكون اراضى شاسعة فى المتيجة »· ومما كتبه فى هذا الموضوع : «بذل الجنرال برتوزين كل ما استطاع من جهد لتحويل تيار الهجرة عن هذه المنطقة ، عملا بنصائح الاهالى المغرضة » ، الا انه لم يقدم أية حجة لتدعيم هذا الحكم التعسفى · أما بالنسبة الى اتهام برتوزين بمعاكسة الجنرال كلوزيل ، فلا يمكن تصور ذلك الا اذا كانت معاكسته مسبقة ، لان الجنرال كلوزيل لم يكشف عن خطته لاحتلال المتيجة الا عام 1833 ، على أن الجناية العظمى التى ارتكبها برتوزين فى نظر ديمونتيس وايدوار كاط ، هى انه اتخذ قراره « بناء على ما سمعه من الاهالى من آراء حول الاوبئة المتفشية فى سهل المتيجة ، فما كان منه الا ان صدق أقوالهم » ·

وهنا يكشف لنا ديمونتيس عن معيار آخر فى الحكم لا يليق بعالم يدعى بأنه يلتزم الموضوعية فى البحث : فقد أدان برتوزين لا لشىء سوى لانه لم يتردد فى استشارة الاعيان الجزائريين ، ولانه عاملهم بكل احترام ، ولانه « سارع الى تصديق ما سمعه من الاهالى العرب » · وباختصار فان هذا « المثقف » كان يتميز حقدا وغيظا ، كما هو شأن كل معمر · وقد ادعى ان قصده من تاليف كتابه هو النقد النزيه · والحقيقة انه لم يكن يرمى الى الكشف عن شخصية برتوزين وحكومته ، بقدر ما كان يرمى الى اقامة الدليل مرة أخرى – وخاصة فى سنتى 1917 – 1918 ، حيث كانت السلطات الفرنسية تستعد لمنح الجزائريين بعض الحقوق التى وعدتهم بها عام 1914 – على انه لابد من استعمال سياسة الحزم تجاه حركة الشبان الجزائريين ·

وقد كان هذا الاستاذ يعتقد دائما فى قرارة نفسه بأنه مجند للدفاع عن « الجزائر الفرنسية » فظل طوال حياته يطبق ، كمؤرخ ، مفهومه الغريب عن التاريخ ، ذلك المفهوم الذى وصفه فوستال دى كولانج
Fustel de Coulanges
بانه « سطحى » ، وهو مفهوم يحط من قدر التاريخ ، وينزل به الى مستوى الدعاية المغرضة· ومن المعروف انديمونتيس كان – بصفته صحافيا وكاتبا – يدافع بمنتهى الحماس عن وجهة نظر

المعمرين الفرنسيين فى النشرية التى كانت لجنة افريقيا الفرنسية تصدرها • على انه لم يكن احد يتصور بأن تحيزه سوف يؤدى به الى تسخير البحث العلمى للدعاية الاستعمارية • وهذا الموقف من شأنه ان يخرجه نهائيا من زمرة المؤرخين •

فلا نستغرب بعد هذا ان تعمد الحكومة العامة للجزائر الى مكافاة هذا الداعية النشيط على خدماته الجليلة • وقد بذلت هذه الجهة الرسمية كل ما وسعها من جهد لتعيينه استاذا فى الكوليج دى فرانس ، فلما اخفقت مساعيها ، « عينته مدرسا chargé de cours يلقى محاضرات عن شمال افريقيا ، علما بان النفقة المترتبة على هذا المنصب معتمدة فى ميزانية الجزائر • فهل نستغرب بعد هذا ان يتفانى فى الدفاع عن المعمرين ؟

رأيت لزاما على نفسى ، بعد ما اطلعت على ادانة الجنرال برتوزين ، بهذه الطريقة التعسفية المتسرعة ، من طرف شخص يدعى العلم ، رأيت لزاما على نفسى ان أعود الى الموضوع من اساسه وان أنظر فى الوثائق التى نشرها ديمونتيس ، وعددها 121 وثيقة • ولا يتسع المقام هنا لشرح النتائج المفصلة التى توصلت اليها فى التحقيق ، أما بالنسبة الى النتائج المتعلقة بشخصية الجنرال برتوزين الذى اعتقد جازما بأنه حاكم ميال للاهالى العرب ، فانها تشرف هذا الانسان النزيه الذى لم يعرفه الناس على حقيقته • كان مفوض الشرطة دوبيكنوسك d'Aubignosc يصف الجنرال برتوزين بالجنرال النزيه • فالاستقامة المتناهية التى كان يتحلى بها هى التى جعلته يتولى الدفاع عن الجزائريين • ولا شك انه ـ وهو القائدالمنتصر فى معركة الاسطى وعلى STAOUELI كان معجبا غاية الاعجاب بالجزائر « التى هى اجمل بلد رأيته ، بل هى أجمل بكثير من ايطاليا » • وكان همه الوحيد هو المحافظة على سمعة فرنسا لدى الجزائريين ، بممارسة حكم يتسم بالعدل والانصاف • ان هذا القائد العسكرى الذى كان على رأس الحرس الامبراطورى فى حملة نابليون على روسيا ، لم يتردد فى التفاوض مع مرابط القليعة (شيخها) سيدى على مبارك • ان هذا التصرف الذى استاءله ديمونتيسى يعد فى الحقيقة تصرفا طبيعيا جدا • فقد كان الجنرال برتوزين يرى بأنه لا يمكن « ان تسند ادارة شؤون بلدة أهاليها مسلمون ، الى شخص أوروبى يجهل تمام الجهل قوانينهم وتقاليدهم ولغتهم ومصالحهم وحاجياتهم » • وكان يرى انه لابد لمن شاء ان يبسط سلطانه على قبائل لا يعرف طبائع أهلها ، أن يستعين بوسطاء يتم اختيارهم من بين السكان. والحقيقة ان مرابط القليعة لم يكن ينوى ان يقدم خدماته الى فرنسا ، بقدر ما كان يريد ان يستتب السلام فى المنطقة ، ولذلك لم يقبل منصب الآغا الا بعد ما أكد له الجنرال بيرتوزين بأن القبائل لن تتعرض بعد اليوم للهجوم • وهكذا تقيد الطرفان بالتعهدات ، وعاد السلام الى المنطقة •

وكان هذا الجنرال الفرنسى ينوى من وراء انتهاج « سياسة الاحترام » أن يجعل الاهالى

ينسون اعمال العنف التى قام بها الحاكم السابق ٠ وقد اوعزت اليه الدوائر الاستعمارية ان يعمل على اخلاء المنطقة من السكان ، فاعتبر هذه المبادرة عملا يتسم بالدناءة والجور ٠ وقد حاول على العكس من هذا ان يطمئن الاعيان العرب المقيمين فى الجزائر العاصمة ٠ ومن ذلك انه أمر برفع الحجر عن املاك الاتراك والمؤسسات الخيرية ، ومن جهة اخرى ، فقد ابلغ كل «من يريد ان يحكم بالباطل وان يستخدم وسائل تتنافى مع الحضارة ، وكل من يؤمن بالمثل الذى يقول : الويل للمغلوب» ابلغ جميع هؤلاء بان سياسته تخالف هذه المبادىء ٠ ونحن لا ننكر انه امتثل لاوامر المارشال سولت SOULT عند ما امره بالرجوع الى سياسة الاستيلاء على البلاد ، لان فرنسا قررت انلا تتخلى عن الجزائر ٠ الا انه امتثل للاوامر ، لا عن يقين وايمان . وقد كتب يقول فى وثائقه الخاصة : ان المستعمرات لا ترفع من شان الدول ، ولا تزيدها غنى وثراء ، بل كلفت فرنسا دائما نفقات باهظة» ٠ وكان يرى بان المنطقة الاولى التى ينبغى الاستيلاء عليها هى منطقة الساحل القريب من العاصمة الجزائرية ، وذلك لاسباب تتعلق بالامن وبالصحة ٠ ومهما اختلفت الآراء ، فان انتشار الاوبئة فى سهل المتيجة ليس خرافة ، بل هو حقيقة لا مراء فيها ، بدليل ان 968 من الجنود لاقوا حتفهم فيها عام 1831 ، و 1415 عام 1832 ، نتيجة للحمى الخبيثة المتسببة عن فوحان المستنقعات ٠

وقد لاحظ بليميز دى رينو ان الاعتقاد السائد آنذاك هو : «ان اظهار اى نوع من انواع العطف نحو العرب يكاد يكون خيانة» علما بانه قد استنكر هذا الموقف ٠ وبهذا ندرك السبب الحقيقى الذى جعل بعض اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة «الجزائر فرنسية» ، يتحاملون بشدة على هذا الجنرال الذى بنى نظام حكمه على معاملة الاهالى العرب بالعدل والانصاف ٠ الا ان العشرة اشهر التى قضاها فى الحكم لم تكن كافية لتطبيق سياسته ، بل ان الحزب «المعمر parti coloniste هو الذى بذل المساعى لكى يستدعى من الجزائر حتى لا يسمح له بتحقيق ما اراد ، وكان برتوزين يقول بانه قد استمد سياسته من سياسة الجنرال دوسيكس Desaix الذى استحق لقب «السلطان العادل» فى حملة نابليون على مصر ٠ وكتب فى سنة 1834 يشرح اسباب استدعائه من الجزائر : بان هذا «النظام الذى طبقه هو النظام الوحيد المشرف لفرنسا وهو اقرب الانظمة الى السياسة الحكيمة ، واكثرها نفعا ، الا انه من جهة اخرى قد اضر بكثير من المصالح ، واثار العديد من المخاوف ، وحطم الكثير من المشاريع وتسبب فى معارضة شديدة» ٠ ونضيف الى ما قاله بيرتوزين بانه تسبب فى كراهية مستديمة ٠

وهكذا ، فلم يفكر احد فى الاشادة بهذا الانسان الذى لجت به الظروف ، رغم مشيئته ، فى مشروع استعمارى ، ولم يخطر ببال احد ان ينوه بذكر هذا الجنرال الشجاع ، الا بعد ان تمت تصفية الاستعمار ٠

وكان يندد : «باعمال العنف الوحشية» التى يقوم بها الجنود الفرنسيون ويستنكر «اعمال العنف المادية والمعنوية,والغدر والخداع والاهانة» وما الى ذلك من الوسائل التى استعملها المعمرون الاولون : «تلك الحثالة التى تعد احقر واحط ما تمخضت عنه ضفاف البحر الابيض المتوسط»٠

وربما راى البعض بان حياة هذا الجنرال لا تستحق كل هذا الاهتمام ٠ الا اننا نعتقد بانه مثال يقتدى ٠ ولقد استشهدنا به لنأتى بمثال يبين الاثر السىء الذى خلفه اشباه المؤرخين المتعصبين لفكرة الجزائر فرنسية» ٠ وختاما

لهذه الكلمة نقول بان تطهير تاريخ الجزائر من الشوائب الاستعمارية يهم الفرنسيين والجزائريين على حد سواء ٠



حول جنسية التاريخ

د. ايفون توران
استاذ التاريخ
بجامعة الجزائر

عندما اخذت علما بالموضـــــوع الذى طرحته مجلة الاصالة على بساط البحث فى عددها الممتاز ، وهو : « الجزائر عبر العصور ، ومواقف المؤرخين الاجانب » راودتنى أسئلة كثـيرة ، ولعل ابرزها هو السؤال الآتى : بما اننى أنا بالذات مؤرخـة أجنبية ، فقد أصبح من واجبى ان أحكم على نفسى بنفسى ، أى أن أكون الخصم والحكم فى نفس الوقت ولا يخفى على أحد أن هذا عمل شاق ... ولذلك ترددت بعض الوقت ، ثم اقتنعت بضرورة المساهمة

نظرا للبادرة الحسنة التى اتخذتها المجلة . ونظرا كذلك للثقة التى أظهرتها تجاه أولئك الاجانب • ولهذا وجدتنى مضطرة للاجابة لكى أعبر لها عن شكرى الجزيل ، وان يكن الدخول فى هذا الموضوع فيه مخاطرة •

ان المشكلة التى طرحتها مجلة الاصالة من نوع المشاكل التى يختص بدراستها « علم وصف التاريخ Historiographie » أو علم تاريخ التاريخ • وذلك ان تاريخ جميع المشكلات، وخاصة منها المشكلات العويصة ، مرتبط بعلم يصفه من الناحية التاريخية • ان تاريخ الديانات، وتاريخ العلاقات الدولية ، من العلوم التى لم يصفها العلماء على منوال واحد ، بل تغير وصفها كثيرا على مر العصور ، فبالنسبة الى تاريخ الديانات ، نلاحظ ان العلاقات بين الدين والمجتمع، وبين الملل والنحل فى حد ذاتها ، قد تطورت الى حد بعيد فى الغرب على وجه الخصوص • وأما بالنسبة الى تاريخ العلاقات الدولية ، فقد لوحظ ان الحياة الدولية تتفاعل فيها اطراف متعددة كثيرا ما تكون متصارعة فيما بينها ، ولكل طرف منها سياسة تناوىء سياسة الطرف الآخر • ويمكن ان نستشهد بالحرب العالمية الاولى كمثال نموذجى عن هذه الاختلافات التى لم يستطع المؤرخون الفرنسيون والالمان تذليلها فى لقاءاتهم الكثيرة • وربما كان من الاحسن ان لا يحاول المؤرخون تذليلها ، بل عليهم فقط ان يحددوها تحديدا دقيقا وان يشرحوها شرحا واضحا ، لأن هدف التاريخ كعلم ، ليس هو الكشف عن وجه الحقيقة الثابتة ، بل هو الاطلاع على مختلف الآراء والمناظرة بينها •

ومهما يكن من أمر ، فلهذه الاختلافات دلالة عميقة ، بل استطيع ان أذهب الى أبعد من هذا لأقول بأن هذه الاختلافات تبعث الاطمئنان فى النفس ، وهى ضرورية لانها عماد التاريخ ، ولكل مؤرخ ان يفتخر بها اذا شاء • ولعل القارىء يستغرب هذا الكلام • ولكن الاستغراب لا شك سيزول اذا عرف بأن هذه الاختلافات تبرهن على أن المسائل التاريخية لا تشبه فى شىء المسائل الحسابية ، والا لاستحال ان تتعدد الحلول المقترحة لتلك المسائل التاريخية ، كما انها تبرهن وتؤكد بأن ابناء البشر الذين يحاول الباحث ان يطلع على أحوالهم ليسوا مجرد وحدات تصلح للعد والحساب، بل هم قادرون ، لحسن الحظ ، على أن يفلتوا من رقابة الجهاز الالكترونى الذى يحاول ان يحصى حركاتهم وسكناتهم • ان المشاكل التى يتخبط فيها أبناء البشر تخلف دائما وراءها بقايا لا يمكن تفسيرها تفسيرا مطلقا • وتلك البقايا هى موضوع الجدال والخلاف بين المؤرخين ، وهى التى تسمح للمؤرخ بأن يستخدم طريقة التأويل فى تعليله للمشاكل التاريخية المستعصية • وهكذا فان الانتقال من الشك الى اليقين معناه التوصل الى حقيقة يستطيع أى مؤرخ آخر ان يتوصل اليها باتباع طريق آخر غير الطريق الاول ، شريطة ان لا يؤدى هذا التعدد فى الطرائق الى حد التهور المتعمد أو الى حد تزوير الحقائق •

ومما لا شك فيه ان تاريخ الاستعمار ، وتاريخ الاقطار التى كانت خاضعة للاستعمار ، يندرج كل منها فى نطاق هذه المسائل التى يحتـــدم حولها الجدال ، وبذلك نلتقى مع الموضوع الذى اقترحته مجلة الاصالة ٠

على أن هذا الموضوع يتجاوز نطاق الصعوبات التى تعترض المؤرخ المتقيد بالمنـــهج الوصفى المتــعارف لدى العلماء ٠٠٠ بطبيعة الحال ، قد يكون من المفيد ان نعرف كيف ان مشاكل الساعة أفضت ببعض المؤرخين الاجانب المعروفين بالتدقيق والتحقيق ، الى التسرع فى الاحكام ، وكيف ان الغرور الصريح أدى بالبعض منهم الى الضلال ، وكيف ان الالتزام السياسى انعكس على أوضـح صورة فى « التاريخ الملتزم » الذى هو أقرب فى منحاه واتجاهه الى الجدال ، بل الى الاخبار الملفقة تلفيقا ٠ على أن هذه الاحتمالات كلها ان هى الا جوانب من المشكلة الجوهرية التى سوف نتحدث عنها ، بعد ما أثارتها مجلة الاصالة وخصـــتها بالذكر ٠ ويمكن تلخيص ذلك فى السؤال الآتى : هل هناك فعلا مشكلة تتعلق بجنسية المؤرخ تجاه التاريخ الذى يسجل احداثه ؟ وفيما يتصـــل بالجزائر على وجه الخصوص ، هل يواجـه المؤرخ الاجنبى صعوبة بالنسبة الى الوفاء لرســـالته كمؤرخ ؟

ولنحاول الآن ان نلقى بعض الاضــــواء على السؤال الاول الذى يكتسى طابعا عاما ، ولننتقل بعد ذلك الى السؤال الثانى الذى يهمنا على وجه الخصوص ٠

ولابد هنا من ابداء ملاحظة ، وهى انه لا يوجد مؤرخ بدون جنسية ٠ وقد كان مفهوم الجنســـية فى القديم يتصف بالمرونة ، خلافا لما يتســـم به اليوم من تشدد ، بحيث ان جنسية المرء صارت تعتبر صفة راسخة فى نفسه ، كأنه مطبوع عليها طبعا ٠ ولا اخال أن أحدا يوافق اليوم مونتسكيو فى رأيه اذ يقول : « خلقت قبل كل شىء انسانا ، وأصبحت فرنسيا بالمصادفة » ٠ ومع ذلك فـان المؤرخين عندما كانوا فى القديم يتحـــدثون عن مناقب الملوك ، كانوا بعملهم ذاك يعبـــرون عن انتمائهم الى شعب من الشعوب ، وهذا الانتماء ، وان لم يكن واضــــحا ، الا انه يفرض على المؤرخ التزامات معينة ، وبناء على هذا ، فليس هنـــاك مؤرخ يشذ عن هذه القاعدة ، سواء تصدى لكتابة تاريخ بلاده ، أو تاريخ البلدان الاجنبية ٠ ويمكن حينئذ ان يصاغ السؤال على الشكل الآتى : هل يستحسن ان يتولى المؤرخ كتابة تاريخ بلاده ، أو على العكس ، يجدر به ان « يكون أجنبيا »بالنسبة الى الحقائق التى يريد ان يكشفها لنفســه ولغيره من الناس ؟

ونقول بادىء ذى بدء بأن المؤرخين الانجليز او الايطاليين الذين كتبوا تاريخ انجلترا وايطاليا ، أكثر عددا من المؤرخين الفرنسيين الذين أرخوا لالمانيا أو أمريكا ٠ على أن ارتباط المؤرخ بتـاريخ بلاده ، مرجعه فى الواقع الى ظروف العمل ، والى توفر الامكانيات والتسهيلات داخل البلاد التى ينتمى اليها الباحث ٠ فالصينى أقرب الناس الى فهم حقائق بلاده ، بسبب معرفته للغة ، ووجود

الوثائق والمصادر في مكان قريب • أما اذا تصدى أحد الاجانب لكتابة تاريخ الصين ، فانه سوف يصادف صعوبات لا من حيث جهله للغة وعدم توفر الوثائق والمصادر في عين المكان فحسب ، بل كذلك لانه سوف يضطر لاستكمال الوثائق المكتوبة بالآثار والشهادات غير المكتوبة • وهذا لا يمنع من القول بان بعض المؤلفات الانجليزية او الامريكية تعد في فرنسا من المراجع الاساسية حول تاريخ الامبراطورية الثانية (نابليون الثالث) (1) • وبالمقابل ، فان بعض المؤرخين الفرنسيين هم الذين كشفوا للانجليز المراحل الاولى المتعلقة بالثورة الصناعية في انجلترا (2) • ومن الامثلة على ذلك أيضا ان تاريخ الحركة التحررية في منطقة ريناني (ألمانيا) كتبه أحد المؤرخين الفرنسيين (ج• دروز) الذي يعد الى حد اليوم أحد الاختصاصيين الكبار في تاريخ المانيا (3) • وانا شخصيا كمؤرخة فرنسية لم أقم باي بحث حول تاريخ فرنسا ، بل انصرف اهتمامي الى ما يسمى اليوم بتاريخ الافكار في اسبانيا والجزائر (4) • وكثير من الامريكيين يهتمون اليوم بتاريخ العصور الوسطى في فرنسا وأوروبا • وهكذا ، فالامثلة التي يمكن الاستشهاد بها في هذا المجال لا تعد ولا تحصى • ويمكن هنا ان نتساءل : هل نعتبر هذا التنوع في البحث التاريخي من الحسنات او من السيئات ؟ وهل يشترط في من يريد ان يفهم آراء غيره ان يكون مشابها له ؟ أم يجب على العكس ان يختلف عنه حتى يتمكن من الاهتداء الى ما لا يستطيع الغير ان يفطن له بنفسه ؟ اننا نعتقد بأنه لا يوجد أي تعارض بين الموقفين ، بل هما متكاملان ، شريطة ان يصدر كل منهما عن روح تتميز بالتجاوب ، كما قال هـ• مارو ، في كتابه « معرفة التاريخ

«H. Marrou : Connaissance de l'Histoire»

وهذه الروح المتجردة من التحيز ، ومن التعصب للآراء والمذاهب ـ وهما موقفان مناقضان للعلم والاخلاق ـ هذه الروح هي التي تجعل المؤرخ يبحث في هدوء وصمت ، ويتناسى اغراضه الشخصية •

وقد لا يخلو الامر من فائدة في أن نبحث عن الصورة التي يقدمها الغير عنا • وعلى سبيل المثال ، فقد وفق تمام التوفيق ذلك الامريكي الذي الف كتابا عن قرية من قرى فرنسا ، وعنوانه : « قرية من قرى الفوكلوز » (5) • ان تلك الدراسة ، وان كانت انتقادية ، الا انها مع ذلك ذات صبغة ودية فيما تضمنته من ملاحظات طريفة ودقيقة حول الحياة اليومية التي يعيشها مجتمع ريفي

(1) V. Wright : Le Conseil d'Etat sous le Second Empire, Colin, travaux et recherches des Sciences politiques 1972
A fter Sedan, cornell univ., Press
J. Rothney : Bonapartism Ithaca, N.Y. 1969
(2) F. Crouzet : L'économie Britanique et le Blocus Continental 1806-1813, Paris P.UF. 1958.
(3) J. Droz : Le Libéralisme Rhénan, 1815 - 1848. Contribution à l'étude du libéralisme allemand, Paris, Sorlot, 1940.
(4) L'Education et l'Ecole en Espagne de 1874 à 1902. Libéralisme et tradition P.U.F. 1959.
Miguel de Unamuno, Universitaire, Biblioth. Gle de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris, SVEPEN, 1964.
(5) Laurence Wylie : «Un Village du Vaucluse , Paris, Gallemard, 1968.

ان هذا الكتاب الذي قدمه صاحبه عام 1960 كاطروحة في علم الاجتماع ، كان مكتوبا بالانجليزية ، الا انه لم يترجم الا جزء يسير منه الى الفرنسية ، مخافة ان يستاء سكان الفوكلوز مما جاء فيه ، على ان شيخ هذه البلدة الصغيرة هو الذي طلب فيما بعد ان يترجم الكتاب بتمامه ، قائلا بان النقد البناء اكثر فائدة على حال من التملق والرياء

صغير . وهذا الكلام يصدق أيضـــا على كتاب : « صمت العقيد برامبل Les silences du Colonel Bramble » ، فهو كتاب لا يستطيع ان يؤلفه شخص انجليزى ، لقد تناول فيه صاحبه وصف الرجل الانجليزى ، فى شكل قصة طريفة رفعت أندرى موروا الى ذروة المجد ، وجعلت ذلك العقيد يشتهر فى مشارق الارض ومغاربها . واذا رجعنا الى القارة الافريقية ، فربما كان من المفيد ايضا لو تصدى احد الافارقة البارعين فى الوصف ، ليقدم للاوروبى صورة تهكمية صادقة عن نفسه ، فيدرك ما آل اليه من تكالب على الحياة ، ورغبـة فى استغلال كل شىء لصالحه ، واشباع شهواته(6) وهكذا يتبين لنا ان وجهات النظر اذا تعـددت ، فانها تقدم للانسان صورة عن نفسه اصدق من الصورة التى يراها هو منعكسة فى المرآة .

هذا ما كنت أريد ان أقوله من الناحية العامة .

* * *

اما اذا اردنا ان نتطرق للحـــديث عن تاريخ الاستعمار ، فان هذا التاريخ ينبغى ولا شك ان يكون جزءا لا يتجزأ من تاريخ البشرية . الا انه مع ذلك قد احتفظ بمميزات خاصـــة به . ان الموضوع الذى اقترحته علينا مجلة الاصالة هو : « مواقف المؤرخين الاجانب » . ولا شك ان هذه طريقة لبقة للاشارة الى المؤرخين الفرنســيين على وجه الخصوص ، لانهم اكثر من تنــاول بالدرس تاريخ الجـــزائر ، وان كان المؤرخون الانجليز والايطاليون والاسبان قد ساهموا فى هذا الميدان بنصـــيب . نحن نعرف ان المعنيـــين بالامر هم المؤرخون الاجانب . ولكننا نتساءل : مـــن هـم هؤلاء الاجانب ؟ ان الوضعية الاستعمارية تتميز بكونها قد ربطت بين شعبين فى تاريخ واحـد ، بحيث ان المؤرخ الفرنسى هو فعلا اجنبى ، الا انه لا يريد ان يكون اجنبيا ، خاصة انه لم يكن بالامس القريب أجنبيا عن تاريخ الجزائر واحـــداثها . وهكذا فالمؤرخ الفرنسى يجد انه هو بالذات من المعنيين بالامر بالنسبة الى التاريخ الذى يسجل احداثه ، فبات لزاما عليه ان يضع نفسه موضع التساؤل وان يحدد الدور الذى لعبـــه فى تلك الاحداث وبذلك اصبح تاريخ الاستعمار من حيث كيفية كتابته ، أصبح جزء لا يتجزأ من القضايا الخاصة بتاريخ العلاقات الدوليـــة ، وان كانت القضية هنا اكثر تعقيدا ، لان الطرفين (فرنســا والجزائر) غير متكافئين ، ولانه لا تتوفر فى الوقت الحاضر آراء عديدة قد تكشف عن وجهات النظـر المختلفة .

وفى الواقع ، يمكن ان نميز فى تاريخ العهـد الاستعمارى الذى مرت به الجـــزائر ، أو أى بلد آخر ، فترتين : فتـــــرة المؤلفات المكتوبة قبل الاستقلال ، عندما كان تاريخ البلاد الخاضـــعة للاستعمار لم يتوصل بعد الى الحل النهائى ، وكانت الحوادث التى يسجلها التاريخ مرتبطة بالكفاح — واكبر شاهد على ذلك ما كتب بمناسبة الاحتفال بمرور قرن على الاستعمار — ، وفترة التاريخ الذى بدأ بعد الاستقلال . ولكن ، هل نستنتج من هذا التقسيم ان ما كتب فى الاولى كله تاريخ أسود ، وان ما كتب فى الفترة الثانية كله تاريخ ناصع

(6) Y. Turin : «Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale». Maspéro, 1971, p. 367.

البياض ؟ لا شك ان مثل هذا التمييز ينافي العقل تماما • فقد كان هناك مؤرخون كبار قبل الاستقلال ، وبعده , كما كان هناك مؤرخون منافقون بعد الاستقلال وقبله • ولا يكفي ان يكون النص مناهضا للاستعمار حتى يعد من النصوص العلمية • والجزائريون يعرفون هذا جيدا • وهنا يتدخل علم وصف التاريخ لكي ينظر في ما كتبه الباحثون من دراسات تاريخية في المجلات المتخصصة • أما فيما يتعلق بي شخصيا ، فقد كان قصدي ان ابين الى أي مدى يمكن ان تؤثر الروابط التاريخية المعاصرة في العلاقة بين المؤرخ وجنسيته ، وأن أوضح كيف ان الميزة الرئيسية للاستقلال تتجلى قبل كل شيء في تطهير التاريخ من الشوائب الاستعمارية ، أي تخليصه من الحلقة الاستعمارية التي سوف تظل دائما استعمارية النزعة ، رغم التظاهر احيانا بمناهضة الاستعمار .

ان الجزائر لا تزال حديثة العهد بالاستقلال ، ولذلك فمن السابق لاوانه أن نحاول تحديد خصائص ذلك الاستقلال • أما تحديد مفهوم التاريخ الاستعماري ، فانه أمر ممكن ، وسوف يساعدنا في فهم التيارات التي لا تزال اليوم تسود في ميدان التاريخ ، بل في ميدان علم الاجتماع أيضا ، لان النتائج التي ينتهي اليها المؤرخ وعالم الاجتماع واحدة ، ولان علم الاجتماع الاوروبي الحالي , وان كان محصورا في نطاق محلي ، الا انه كثيرا ما يتخذ صبغة تاريخية ، فتختلط بذلك المسائل ويسود الاضطراب في الآراء ، خاصة ان بعض علماء الاجتماع وبعض أشباه المؤرخين لا يفرقون أحيانا بين الدراسة التاريخية الرصينة والآراء الصحافية المغرضة ، حتى ان بعض الدراسات التي قدمت في هذا المجال ، على أساس أطروحات جامعية ، لا تشذ عن هذه القاعدة •

ان تاريخ الاستعمار , سواء كان قبل الاستقلال او بعده ، كان له ، ويمكن ان يكون له اليوم جانبان : فالجانب الاول استعماري النزعة ، أو قل بعبارة أخرى انه تاريخ متحيز ، أو « ملتزم » ، وهي العبارة الشائعة اليوم • أما الجانب الثاني فهو مناهض للاستعمار ، الا انه مع ذلك لا يقل تحيزا والتزاما عن النوع الاول , بل يظل هو الآخر مرتبطا من ناحية معينة ، بالاستعمار • وذلك ان الدراسات المتعلقة بتاريخ الاستعمار تتضمن ناحيتين احداهما استعمارية والاخرى مناهضة للاستعمار ، ولكنهما معا مرتبطتان أشد الارتباط بالنظرة الاستعمارية • ان كل واحدة منهما تتناول من زاوية معينة تاريخ الاستعمار والمستعمرين ، وقلما تتحدث عن الشعب الخاضع للاستعمار الذي لم يحظ الى حد الآن بالدراسة • ولذلك فمن المهم جدا ان نميز تمييزا واضحا بين التاريخ المناهض للاستعمار في الجزائر ، وبين تاريخ الجزائر الصرف • ولا شك ان الطريقة الثانية في البحث هي وحدها القادرة على التخلص من النظرة القديمة • ان التاريخ المناهض للاستعمار يشترك مع صنوه الملازم له (تاريخ الاستعمار) في اتباع طريقة يحاسب بها الشعب المسيطر نفسه ، بنظرة قد تكشف للمواطنين عن

عيوب النظام البائد . ولذلك فالتاريخ المناهض للاستعمار شبيه تماما بصنوه ، حتى ولو كان المذهب العقائدى الذى يصدر عنه ينطوى على شيء من المجاملة للشعوب التى كانت خاضعةللاستعمار

وعلى هذا الاساس ، فلا يكفى ان يكون التاريخ مناهضا للاستعمار ، كما لا يكفى ان يكون التاريخ جزائريا ، حتى يعد مطابقا للحقائق التاريخية .

على اننا اذا تعمقنا فى تحليل هذا المفهوم للتاريخ او لعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار ، وتأملنا فى هذا المذهب العقائدى المجامل للشعوب الخاضعة للاستعمار ، فاننا نستطيع ان نتساءل : هل يمكن ان نمنحه الثقة التامة ، أم ان هذا المفهوم يخبىء وراء ابتسامة المجاملة ، نوايا خبيثة ؟

وهنا أيضا قد يكون من المفيد ان نتخذ الاستقلال اساسا ومعيارا للتمييز بين طريقة وأخرى فى كتابة التاريخ . فقبل الاستقلال ، لم يكن هناك فرق بين التاريخ الاستعمارى من جهة ، والتاريخ وعلم الاجتماع المناهضين للاستعمار من جهة أخرى ، لانه يوجد قاسم مشترك بينها ، وهو خوض المعترك السياسى . فلا شك اذن ان تلك العلوم قد اتخذت كسلاح من اسلحة النضال والصراع ، لافحام الخصم ودحض حججه . ولا يسعنا مع ذلك الا ان نلاحظ بأن بعض المؤلفات التى اعتبرت فى تلك الفترة مناهضة للاستعمار ، مثل كتاب « افريقيا الشمالية فى مسيرتها » لشارل اندرى جوليان (7) تبدو لنا اليوم — بعد اعادة قراءتها على ضوء معطيات الساعة — كأنها تتحدث عن بلاد يسود فيها الهدوء التام ، مما يدل على أن الجو العلمى السائد آنذاك قد افسدته المواقف السياسية الذاتية . ولكن السؤال الذى يمكن ان يطرح هو السؤال التالى : هل يحتفظ ذلك الفكر العقائدى بنفس المحتوى بعد الاستقلال، ام انه يتغير تدريجيا الى أن يصبح مناقضا لما كان عليه قبل الاستقلال ؟ وهل يطابق الشكل المحتوى ، وهل يماثل الظاهر الباطن بالنسبة الى من لا يزال ينطق باسم ذلك الفكر العقائدى ، ومن بينهم بعض علماء الاجتماع وبعض المساهمين فى كتاب « تقويم شمال افريقيا L'Annuaire de l'Afrique du Nord » ؟ (8) ولابد من الاشارة هنا الى ان المؤرخين قلما يصدرون فى آرائهم عن ذلك الفكر العقائدى ، باستثناء الماركسيين منهم ، الذين يكتبون فى المواضيع التاريخية لا كتخصص ، بل كهواية ، مثل ايف لاكوست ، وم. برونان . أما جاليسو ، فهو مؤرخ بالمهنة .

* * *

وسواء نظرنا الى التاريخ ، أو الى علم الاجتماع المناهض للاستعمار ، فاننا نتساءل : أليس وراء كل منهما موقف ، وعقيدة قد بليت كما بلى الاستعمار ، وكما بلى التاريخ الاستعمارى ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا ؟ وما هو السبب ؟

لنقل بصفة عامة بأن السبب فى ذلك يرجع الى ان مثل هذا الموقف يمنح العقلية الاستعمارية أمدا أطول ، ويظل بها مرتبطا ، ويحافظ على

(7) Paris Julliard 1952

8) ومنهم ش . سوريان على وجه الخصوص ، وقد اتخذه منبرا لترويج آرائه

الاساس الذى تقوم عليه فكرة السيطرة فى حد ذاتها . وهذا الاساس هو : عزلة الانسان الخاضع للاستعمار ، وانفصاله عن بقية ابناء البشر ، من حيث طبيعته وأصله ۰ وبذلك يظل دائما شخصا لا يستحق ان نتحدث عنه ، أو ان نتعامل معه أو ان نتناوله بالدراسة ، الا على اساس انه مخالف لغيره من الناس ، لانه ينتمى الى عالم آخر غير هذا العالم الذى نعيش فيه ، واذا حاولت ان تخرجه منه ، فسوف ينوب امامك ويختفى ، ولذلك فلن يجد الباحث مادة للدراسة ، وربما اضطر الى استعمال المكبر لعله يعثر على بعض الحقائق ۰

ان هذا الفكر العقائدى المجامل للشعوب المستعمرة يعد من الاساليب الخفية التى كان يستخدمها الاوروبى المستعمر ۰ وقد استطاع هذا الفكر العقائدى ، بما اتسم به من نقد مزيف يصل أحيانا الى حد التطرف ، أن يوهم الناس بأن هناك درجات كبرى وفروقا بين المستعمر والمستعمر ، كما استطاع ان يلفت انتباه العالم الى وضعية المستعمر الغريبة ، عوضا من ان يعتبره كأى انسان آخر ممن يحتل مكانا فى هذا الوجود ، ويعيش كغيره من ابناء البشر ۰ ان هذا الفكر يقوم على رواسب نظرة ثنائية تعتبر ان الناس فئتان : فئة تفهم وتدرك , وفئة أخرى هى موضوع الفهم والادراك ۰۰۰ فئة تحكم ، وفئة أخرى يحكم عليها ۰ وذلك انّ أصحاب هذا الفكر يدعون ـ باسم الفكر المطلق ـ بأنهم يعرفون عن الشعوب المستعمرة سابقا ، أكثر مما تعرفه تلك الشعوب عن نفسها ، وأنه اصبح من حقهم ان يرشدوها اليوم ، كما أرشدوها بالامس ، عما يجب عليها ان تعمل ، أو عما يجدر بها أن تعمل ۰ وهكذا نجد ان العقلية الاستعمارية القديمة المتميزة بعلاقة السيد بالمسود ، وعلاقة العالم بالاسرار ، بمن اسراره كلها معلومة ، تلك العقلية تبعث اليوم من جديد تحت ستار مناهضة الاستعمار ۰

واننا لنجد مثالا مطابقا لذلك فى بحوث صدرت أخيرا تحت عنوان (المعلمون الجزائريون المكونون فى مدرسة المعلمين فى بوزريعة من سنة 1883 الى سنة 1939) اذ وردت فيها جمل مثل هذه الجملة : « انهم يقولون انهم مدينون بكل شيء لمدرسة المعلمين لان القوم ما فتئوا يكررون لهم انهم مدينون لها بكل شى » ان فى ذلك ما يعبر عن نفسية الباحث السائل تجاه المعلم المسؤول الذى كان يجيبه عن حسن نية واخلاص ان هذا المعلم على الرغم من تجاربه واجتهاده فى تحليل نفسيته انما هو رجل غير قادر على التفكير والاجتهاد ـ فى نظر ذلك العالم المثقف ـ ولذلك اصدرت محكمته حكمها بحشره فى زمرة الببغاوات وكيف يستطيع هذا المعلم ان يملك نظرا خاصا للاشياء (اديولوجيا) غير النظر الذى ينبثق معينه الصافى من الصفات العليا التى يتمتع بها ذلك الباحث الذى يسأله من أعالى كبريائه وقد جرده من معانى الثقافة كلها حتىجعلموضوع بحثه سفليا وبذلك يرجع المبدأ الاستعمارى الى مجراه ۰

وقد تبدو هذه الظاهرة غريبة ولكن غرابتها فى المظهر فقط ونحن نجدها منتشرة لدى الاجتماعيين

الذين عنوا بدراسة الجزائر اكثر من انتشارها لدى المؤرخين لان المؤرخ الناقص هو وحده الذى يقيم نفسه حكما او (مدعيا للربوبية) كما يقول مارو نعم اذا نحن امعنا النظر فى هذه الاديولوجيا التى فشت عقب انهيار الاستعمار فاننا نرى ان نظرية التثقيف الاجتماعى ACCULTURATION ما هى الا محض عبارة وان الافكار التى تنطوى عليها لم تنشأ قط فى البلدان التى كانت خاضعة لغيرها بل ان اوروبا وأمريكا هما المسيرتان ــ فى هذه المرة أيضا ــ الى ما ينبغى ان يقال ويذكر والصانعتان لاساليب التفكير المستحسن اتباعها مع مراعاة ان هذه الافكار لم تخلق فى البداية الا لغيرهم من الناس ولم يشرعوا فى استعمالها شيئا ما الا منذ عهد قريب اذن فالسادة القدامى هم الذين يوحون لرعاياهم القدامى ما ينبغى ان يعتقدوه فى أنفسهم وهم الذين يوزعون تفكيرهم مستعينين فى ذلك بما يعترفون به من نقص فى تلك الافكار فيظفرون لدى المستعمر القديم بالتأييد والعون ــ وهذا هو العجب العجاب ! انهم أصحاب ثقافة غالبة وجدوا الطف حيلة لعدم مشاطرة غيرهم اياها ألا وهى قتل رغبتهم بجعلها آثمة .

ان هذا العالم الاجنبى بل هذا الباحث الاجنبى الذى يعتد باجنبيته هل يرى نفسه معنيا بما يكتشفه من أفكار وهل تثير هذه الافكار فى قرارة نفسه حيرة واهتماما ؟ وهل يرى المخاوف والاخطار التى تكتنف اشخاص بحثه مخاوف واخطارا فى عالمه الذى يحيى فيه ؟ كلا لسنا متأكدين من ذلك بل الظاهر ان الحقائق تختلف حسب عالم الباحث وعالم المبحوث فيه .

ان هذا الاجنبى يستطيع بفضل رجاحة فكره واتساع علمه ونضج طبعه وعالمية ثقافته وحنكة تجاربه ان يعرض نفسه لجميع الانواء ويشم الهواء فى لجج البحر ويمارس هواياته الفنية ويشبع رغباته بالاطلاع كانسان على جميع العوالم التى تثير اهتمامه بل فى وسعه ان يبهر أنظاره ويسحر شعوره بمختلف الثقافات المتعددة كما فى وسعه ان يكتفى باستخلاص انفع ما فيها من دون ان يستهدف للادماج الثقافى Acculturation أو للتجريد من الثقافة deculturation انه لا يخشى أية سيادة على فكره انه لا ينحل فى غيره بل بالعكس ينحل غيره فيه ان التاثيرات الاجنبية لا تحدث الادماج الثقافى عندما تلمسه بل تحدث التثقيف (ان صح هذا التعبير) انه يزداد ثروة ورقة وجدة ــ شأنه شان بيكاسو الرسام عندما استلهم الفن السودانى أو اليابانى . انه « بعبارة واحدة » يحيى وان هذه الحياة التى تتصف بالحركة والتحول والنشدان (وهيهات أن تكون الحياة سكونا) يأباها صاحبنا على غيره من الناس ويقول لهم انها تنكر وعقوق بل تفكك وانحلال انه يزرع فى العالم التفوق والسيادة وينتمى ــ على كل حال ــ لعترة الاخيار اولئك الذين مثواهم فى الاحياء الصامتة المتصلبة ذات الابواب الموصدة فويل لمن يطرقها من عقاب الادماج الثقافى وهكذا يبقى صاحبنا ينعم فى جنته مطمئنا على فاكهته التى لو أكلها آكل غيره لاهلكته .

وهكذا نجد عالمين متقابلين العالم الذى نحيى فيه والعالم الذى نطوف من دون جدوى على مغانيه (والا حصل الخضوع للغالب) وبذلك تنعكس الفكرة والالفاظ المؤدية لها انعكاسا كليا فيؤدى معنى ضده ويستطيع المستعمر القديم ان ينام ناعم البال ٠

ان هذه النظريات الاوروبية الغربية هى ايضا اوروبية غربية من جانب آخر اذ انها تعتمد على فكرة خلوص الثقافات وتومىء الى الرجوع لحالة أولى طاهرة خالصة لم تشبها شائبة أوحت بها أشنع مذاهب الرجعية التى تمخض عنها الفكر الاوروبى فى القرنين 19 و 20 ثم طبقها أعنى نظرية طهارة الدماء ونقاوة السلالات التى لا يعد صفاء الثقافات الا نسخة منها ولم يكن اذن مولد هذه النظريات التى ابتكرها اعداء الاستعمار فى أوروبا ونشوؤها فى تلك التربة صدفة من الصدف ولو ان كاتبا تصدى لكتابة هذا الموضوع لكان بحثه شيقا حيث يدرس العلائق بينها وبين النظريات الملية فى القرن 19 وما بينهما من صلة وشبه وفرق ويبحث عن تاريخ العلماء الذين استعملوها وافكارهم الاجتماعية لو اعطى هذا الجانب حقه من العناية لافادنا ايما افادة فى الاطلاع على مأتى النظريات المذكورة وعلى كل فان فكرة (الاصل المشوب) التى نجدها ملازمة لفكرة الادماج الثقافى وتأثيمه انما هى فكرة اوروبة وانما تتحدث عن (الاصل المشوب) لدى الآخرين (لا لدى الاوروبيين) ولنضرب مثلا بالفرنسى أو الباريسى فى القرن العشرين ما هى بداية هذا الشوب أو (التلوث) لديهما ؟ انها لمسألة عويصة فهل فقد هذا الباريسى طهارته الثقافية الى حد يجعلنا لا نستطيع الوقوف لها على أثر أم هل بلغت هذه الطهارة حدا من الحصانة تجعله فى مأمن من فقدها وهل يوجد مكان فى الارض بلغت فيه العوامل المؤثرة ما بلغته فى باريس من القوة والعنف لا فى ميدان الازياء فقط بل فى شتى المجالات الفكرية حتى صار من العسير جدا ان نعثر فيها على تفكير أصيل ٠

وان هذه الملاحظة لتمهد لنا سبيل التنقل الى جانب آخر من هذه البحوث التى خصصناها ـ بفضل مجلة الاصالة ـ الى الدور الذى يقوم به الاجانب فى تطور العلوم التاريخية والاجتماعية فى هذه الفترة ، فترة ما بعد الاستعمار ٠

لقد عرف الادماج الثقافى ـ مبدئيا ـ بانه نتيجة الاتصال بين ثقافة غالبة وثقافة مغلوبة ومن هذه الحيثية نجد علم التاريخ أو علم الاجتماع المناهضين للاستعمار يعتبران عبارة (التغلب السياسى) مرادفة لعبارة (الثقافة الغالبة) كما يعتبران (الرضوخ السياسى) مرادفا (للثقافة المغلوبة) فهل هذه المقايسات صحيحة ؟ كلا انها من الجانب التاريخى خاطئة فان التاريخ يفيدنا انه لا وجود لصلة ضرورية بين التغلب السياسى والتغلب الثقافى ولا بين الرضوخ السياسى والرضوخ الثقافى وليس معنى هذا انه لا يوجد أبدا وبصفة مطلقة أى اتصال بين الحالين ولكن معناه ان الدولة الغالبة قد تستطيع ان تشجع صنفا آخر من الثقافة الا ان القوانين التى تجرى

على الحياة الثقافية غير القوانين التى تجــرى على الحوادث السياسية ومعناه ايضا ان المفعول الثقافى ليس نتيجة زائدة ينتجها العمل السياسى ولنضرب عن ذلك مثلا واضحا معروفا وهو استيلاء روما على اليونان ان الرجل اليونانى الحر اصــبح حينذاك ذميا رومانيا وصارت روما تسوس أثينا بواسطة مجلس شيوخها ولكن أثينا اصبحت تسوس روما بثقافتها وكذلك كان الامر عندما فتحت الشعوب الاخرى مملكة روما فاصــبحت تدين للثــقافة الرومانية بكل شيء لهذا ينبغى ان ندرس امــور الثقافة دون ان نجعل للسياسة ســيطرة مطلقة عليها كما انه لا ينبغى ان نستهين بتأثير السياسة عليها الى حد تجاهلها وانما خير المواقف الوســط وحتى فيما اذا كانت السيطرة السياسية مصحوبة بحالة ثقافية سيئة فان الثقافة المغلــوبة تنتقم لنفسها فى آخر الامر وتلك سنة مطردة أحســن مثال عنها اولئك الفرنســـيون الذين ولدوا فى الجزائر ثم جلوا الى فرنسا بعــد الاســـتقلال ويسمونهم (الارجل السود) Pieds noirs فاننــا نجــد لديهــم مــن العــوائد التى انتحلوها فى المآكل وفى الاسرة بل نجد غيرها من العادات لدى الجماعة الاوروبية التى لجــأت الى فرنسا بعد الاستقلال الجزائرى وهى كلهــا تؤكد القاعدة المذكورة ٠

وهكذا كثيرا ما نجد التاريخ والاجتماع لــدى المناهضين للاستعمار (فى الفترة بعد الاستقلال) يطبقون فى أعمالهم مجرد كليشهات ويســلطون على العلم طريقة مضادة له ديدنهم الشروع باعلان النتيجة وتاكيدها قبل الشروع فى البحث واليكم بعض العبارات التى تنم عن اسلوبهم منــها (ان الميدان اصبح مساعدا لتبين الامر الذى اردنا ان نبينه) (غرضنا ان نبين ٠٠٠ كان من اللازم ان نبين فيما بعد) (لقد حاولنا ان نظهر) ٠

وهكذا اصبحت نية عالم الاجتماع محصــورة فى التزكية لا فى العرفان واصبح العلم خــديم الاديولوجيا (ان لم نقل شيئا آخــر ربما يكون أقبح) فليس من المستغرب ان نضم الى هـــذا المذهب فئة الماركسيين وتآليف فاليســو وايف لاكست وبرونان ونوشى فى بعض ما كتب ٠

ومما يؤكد ذلك ايضا موقفهم امام جماهير هذا العالم المستعمر الذى بقى ملحا على الرفض مخلدا الى العزلة الثقافية ما بقى الاستعمار والذى اصبح اليوم يعبر عن نفسه بهذه المجلة او عن طــريق المظاهرات ومن بينها اسابيع ملتقى التعرف على الفكر الاسلامى التى ليست اقل المظاهرات خطورة وشأنا ولكنها تفاجيء القوم فيما الفوه وتقلقهم فيما أقاموه من نظريات وارادوه من تبيين وماذا عسى ان يكون موقفنا أمام طريقة تخضع الحقيقة لاديولوجيا تحتوى أنواعا من السلوك الثقافى غير متوقعــة ولا مطابقة للبنية المعدة لها ٠ فمما لا شك فيه ان بقاء مخلفات (أى رواســـب لا يمكن تعليــــلها) Résidus يظهــر لنا الى أى مدى ينتهى بنا التعجيل بالاقرار واســــتعمال الاساليب العلمية المشكوك فى صحتها وان الباحث الذى يؤكد عمله قبل ان يشرع فى بحثه ليوشك

ان يترك ذلك الشيء المجهول يفلت من بين يديه وربما يكون المفلت هو الشيء الـــذي كان يبحث عنه بالذات ·

واني لاترك جانبا في هذا المقال ما نستطيع ان نسميه التاريخ المتملق لانه هو ايضا امتـــداد للموقف الاستعماري الذي يرى انه حسب اولئك الذين يعاملهم معاملة الاطفال ان يقدم لهم من العلم أوهاما وأحلاما ··

اننا اجتهدنا ما استطعنا في معالجـــة قضية التاريخ وجنسيته واستطردنا شيئا ما الى القضايا التي يطرحها تاريخ الجزائر خاصة · وقد اقترحت مجلة الاصالة عبارة (مؤرخـــين أجانب) ولكننا عالجنا التاريخ كما عبر عنه اجانب وحللنا طبيعة النوايا التاريخية التي افصحوا عنها بالفعل وبذلك تحاشينا الاغترار بالمظاهر والانخـــداع بالالفاظ وحرصنا قبل كل شيء على اثبات ذلك الســـطر الناري الذي يسطره الاستقلال في علـــم وصف التاريخ وغيره من العلوم والاشياء · فكل ما قد كان من قبل السطر لا يمكن ان يكون من بعـــده حتى ولو انه (نوايا حسنة جدا) ·

وقد آن لنا الآن ان نبرح ميـــدان التحليل والتشريح وندخل نحن أيضا في ميدان المناظرة ــ بعد ان أعلنا هذا الدخول ــ متسائلين : هل يجب على علماء التاريخ والاجتماع الاجانب المعالجـــين لتاريخ الجزائر ان يكونوا مثل ذلك الجيش الفرنسي الذين قيل عنـــه انه دائما متخلف على أوانه بحرب ؟ هل يجب ان يفكروا كما في ذي قبـــل والواقع اننا في ذي بعد ؟ وان يبقوا عاجزين على ان يحلوا المعرفة محل الاصــــطدامات ؟ ان ما نسميه بذي قبل لم يفد كل فريق الا بأشـــياء طفيفة عن الفريق الآخر وذلك على الرغم مما قيل وعلى الرغم من جميع المظاهر ان الاجنبي الـــذي ينزل باقطار شمال افريقيا عقب اســـتقلالها لا يظفر الا بأفراد قلائل من ابناء جنســـه ممن في وسعهم ان يفيدوه بما لديهم من التجارب والعظات كما لا يجد الا افرادا قلائل من الجزائريين يشـــعر لديهم انهم يعرفونه حق المعرفة حتى ولو كانوا من الذين يتكلمون لغته احسن منه وهكذا يتضح لنا ان هذه المصنفات التاريخية ــ من اســـتعمارية ومناهضة للاستعمار ــ ما هي الا خطان متوازيان لا يلتقيان وامتداد لانعزال عنصري متبـــادل بل انعكاس لصورة الاســـتعمار الغابر ان لم يكن رجوعا اليها وربما جاز لنا ان نصف هؤلاء بأنهم قوم يحنون الى الماضي اجل ان احوال الاستعمار كانت تعوق المعرفة الحقة ولهذا يجوز الرجاء ان يكون الاستقلال عصر النهوض بها واحيائها ·

ومن هنا تظهر لنا قيمة هـــذه البادرة التي بدرت عن (مجلة الاصالة) فاستحقت بها كل شكر وثناء ·

ان هذه المجلة التي تصدرها وزارة الشـــؤون الدينية قد ضربت لنا مثلا عن نفســها فاقترحت علينا بحثا حول المؤرخين الاجانب لا لمحـــاربتهم ولكن لمحاورتهم حتى يجنح كل فريق الى التأمل والتدبر ففتحت على المصراعين ابواب اعمـــدتها لجميع المعلقين والملاحظين ·

فلتسمح لي أن أعبر لها عن شكري اذ سمحت لي بالاسهام في هذا المجهود ·

أضواء جديدة على

تاريخ المغرب

د. هشام الصفدى

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اذا تمعن الدارس فى الخطوط العريضة لتاريخ العالم القديم فى منطقة حوض البحر المتوسط ، استرعت انتباهه عدة حقائق اساسية :

1 ـ سبق المنطقة الشرقية من بحر المتوسط فى الدخول الى التاريخ ، وتسارع تطورها الحضارى • ويتمثل ذلك فى الحضارات الرافدية ، المصرية ، الكنعانية ، الايجية •

2 ـ تاخر المنطقة الغربية من المتوسط حوالى الفى سنة ، ثم تدرج دخولها فى الحقبة التاريخية فى ازمنة مختلفة ، وعلى درجات متفاوتة من التطور •

وقد تم ذلك بتحريض قادم من المنطقة الشرقية، ويتمثل فى تحركات بشرية : لفينقيين ، اتروسك ، اغريق الذين نقلوا معهم الادوات الرئيسية للدخول فى التاريخ ، وفى مقدمتها الكتابة الابجدية : الفينيقية والاغريقية .

3 ـ باستثناء مصر ، تتميز المنطقة الجنوبية من حوض المتوسط بضآلة المعلومات التاريخية عنها ، حتى ان فصولا عديدة من تاريخها ما تزال تتالف من صفحات غير مكتوبة ، يضاف اليها ثغرات تتخلل الفصول الاخرى ، هذا رغم ان بقعتين من هذه المنطقة المعروفة باسم شمال افريقيا : « ليبيا » ثم « الولاية الافريقية » أى تونس منحت اسمها مرتين للقارة السوداء . فكانت ليبيا سابقا ، وافريقيا لاحقا . هنالك اسباب عديدة يمكن ان تقدم كتبرير للوضع الراهن بالنسبة لتاريخ المغرب القديم . يرد فى مقدمتها الوضع الجغرافى ـ المناخى الذى فرض نوعا من العزلة ، نتج عنها بطء فى التطور ، وخاصة فى الانتقال من العصور الحجرية الى العصور التاريخية . ثم الوضع السياسى الذى شغل تاريخ المغرب بصراعات مع شعوب مجاورة أبكر فى التحضر : من مصريين، وايجبيين ، وفنيقيين واغريق . وقد عبر المؤرخ جوليان بشكل مبالغ عن ذلك : « لم يصطدم التاريخ بالبربر الا عرضا ، وذلك عند اتصالهم بالشعوب الاخرى » (1) . وبالضرورة قام بتسجيل هذه العلاقات كتاب ومؤرخون وفنانون اجانب من ابناء الشعوب التى اتصل المغاربة بها ، فكان تاريخا مختزلا وحيد الجانب ، لا يخلو من تحيز .

ولم تتمكن الكتابة الليبية مثلا من التطور والوصول الى مرحلة يمكن فيها تثبيت اللغة فى واسطة نقل أدبية ، علاوة على تعدد اللهجات . أخيرا وليس آخرا ، فقد المغرب القديم معظم مصادر تاريخه الكتابية والمادية المباشرة خلال الصراع الطاحن بين روما وقرطاجنة ، وبعد هزيمة الاخيرة . مثلما فقد الكثير من مصادر تاريخه غير المباشرة والتى تغطى حقبات هامة من الالف الاول ق.م . اثر هزائم مدينة صور ثم دمارها على يد الاسكندر الكبير ، واضمحلال المدن الفنيقية فى شرقى المتوسط .

اذا كانت العوامل السالفة تركت نتائجها السلبية ، والعميقة الاثر ، فى تاريخ المغرب القديم ، فلن يعنى ذلك ان الوضع الراهن للبحث سيستمر بالضرورة . واذا كانت مصادر تاريخ المغرب الكتابية تتميز بانها وحيدة الجانب حتى الآن ، أى انها من تاليف الآخرين ـ فان هنالك عنصرا يمكن ان يصبح معادلا لها من حيث القيمة التاريخية ، وهو المصادر المادية والكتابية المباشرة ، التى ما تزال تكمن عبر الازمنة تحت تراب المغرب وفى مواقعه الاثرية . وهذه لم تلق بعد القدر الوافى من العناية والبحث . ثم تاتى المصادر المادية والكتابية غير المباشرة المتناثرة فى البلاد التى احتكت بالمغرب من قريب أو بعيد . ولعل من أغراض هذا البحث ان يلفت انظار المهتمين بتاريخ المغرب لا الى اهمية المصادر المباشرة فحسب ، بل والى الدور البالغ الخطورة الذى يمكن ان تقدمه المصادر غير المباشرة ايضا (2) .

المصادر المصرية :

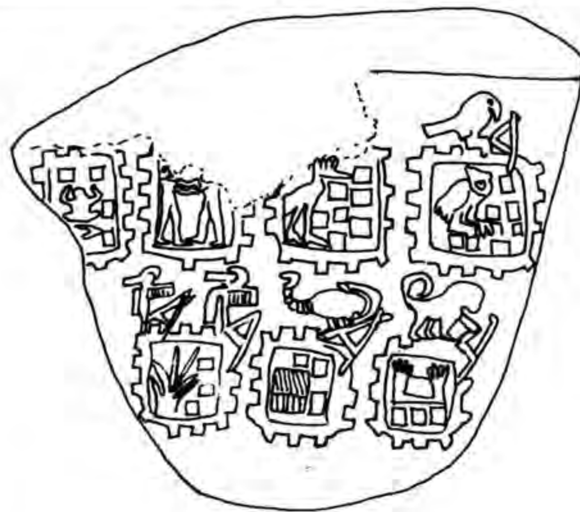
ذكرنا ان تاريخ المغرب القديم مستمد الى حد كبير من حوليات وشواهد ومستندات مصرية او ايجية ، او فنيقية ··· الخ · وتتميز المصادر المصرية حسبما تضمنتها حوليات الفراعنة وافاريز رسوم حملاتهم بأنها تكاد تنفرد فى القاء الاضواء على مرحلة ما قبل التاريخ المغربى · غير انها لا تصل الى مرتبة الكتابة التاريخية المنهجية التى سيكون المؤرخ هيرودوت اول من يمارسها بالنسبة لتاريخ المغرب (1) · كذلك لا تتصف العلاقات المصرية ـ المغربية بالشمول ، بل تقتصر على المناطق الواقعة الى الغرب من النيل مباشرة ـ وخاصة فى الواحات الغربية ـ ولا تتعدى على ما يبدو قرينى او خليج السرت الكبير · أماالمنطقة الممتدة وراء ذلك حتى شواطىء المحيط الاطلسى ، وافريقيا عامة فكانت ارضا مجهولة من المصريين · وقد اطلق هؤلاء على المناطق الواقعة غربى النيل اسما عاما هو imnt أى الغرب (2) كما اطلقوا اسم تهنو TEHEHU وتميهو TEMENU وليبو LEBU وغيرها كثير على الجماعات المقيمة مباشرة الى الشمال والجنوب والغرب منهم · واستنادا الى الوثائق المصرية من حوليات الدولة الحديثة ـ وخاصة من عهد رعمسيس الثالث ـ والتى تخبر عن جهود المصريين لضم مناطق الواحات الى مصر ـ يتبين ان ليبيا كانت تشمل منذ الالف الثالث على الاقل مناطق واسعة غربى النيل مباشرة (1) ، لا تنطبق مع معالم الحدود الحالية· وهذه حقيقة يشير اليها هيردروت عندما يقول : « تبدأ ليبيا من غرب النيل وتمتد حتى الاطلسى ، ويحدها من الجنوب ارض الاثيوبيين السود ذوى الشعر الصوفى » (2) ·

يسيطر على العلاقات المصرية ـ الليبية جهود الفراعنة المستمرة ـ منذ العصر الثينى 3000 ـ 2700 ق·م · أى منذ عصر الملكين العقرب ونارمر ـ لدفع الليبين الذين جذبتهم ثروات وادى النيل وأراضيه الخصبة ، وخاصة البدو سكان الصحراء الليبية · كذلك افقادهم الامل فى الوصول الى مناطق المدن والحضارة لنهبها او الاستقرار فيها ، وذلك عن طريق معاقبتهم خاصة انهم كانوا يتحالفون مع الثوار فى الدلتا · وهؤلاء كانوا يرفضون الاتحاد مع مصر العليا (3) · وقد درج فراعنة العصر الثينى ، والسلالات الاولى والثانية، والدولة القديمة على اتباع هذه السياسة الدفاعية· وخلدوا اخبارها على أوابد تذكارية : **كالهراوات الحجرية ، ولوحات مزج مساحيق الزينة** · ومن أبكر هذه الوثائق التى تسجل مواضيع تاريخية لوحة لمزج المساحيق SCHNINKPALETTE اصطلح الباحثون على تسميتها : «لوحة الحصون»، تعرض مشهدا يرمز لانتصار حققه الفرعون الغامض المعروف باسم « العقرب » · فقد رسم على الوجه الاول للوحة (1) صورة سبعة مواقع محصنة باسوار ذات ابراج تقوم حيوانات ترمز الى الملك ـ من بينها العقرب ـ بتهديمها (الصورة 1) · وعلى الوجه الآخر يرى صفوف من ثيران وحمير واكباش متتالية ، وفى الاسفل اشجار (تين ؟) غنمها الملك العقرب من ليبيا o وهنالك

الى جانب الاشجار العلامة الكتابية الخاصة بليبيا (الصورة I ب) ويستنتج المؤرخ الكسندر شارف من كل ذلك ان هذه اللوحة تخلد نصرا مصريا على جيران مصر الغربيين المقيمين فى ليبيا (2) • وهناك أثر ثان قد يؤيد هذا الرأى ، هو هراوة للملك العقرب نفسه عثر عليها فى انقاض معبد العاصمة هيرا كونبوليس . تصور الملك يرتدى تاج مصر العليا الابيض ويحتفل بانتصار الجنوب على تحالف يتالف من مصريين وأجانب (3) • أما الملك آها أو (مينس ؟) ـ أول ملك فى السلالة الاولى ـ فهنالك عدد من الاوابد تشير الى انتصاراته على اقوام الليبيين ومصرى الشمال • وبفضل حجر « بالرمو » نسمع عن حملة قادها الملك سنفرو (أول ملوك السلالة الرابعة) لحرب الليبيين ، انتصر فيها وعاد بعد ان غنم II000 اسير و I3I000 رأس ماشية (I) • ومن الجدير بالذكر ان وثائق السلالة الرابعة تقدم معلومات لاول مرة عن علاقات ذات طابع غير حربى فى العلاقات المصرية ـ الليبية • فحفيد الملك صنفرو ـ وابن خوفو بانى الهرم الاكبر ـ المسمى ددفرع يتزوج اخته من ابيه واسمها حتب ـ حريس • وقد عثر على صور هذه الملكة فى مدفن ابنتها محاطة بكامل القابها الملكية • وخلافا للنساء المصريات تتميز حتب ـ حريس بشعر اشقر وعيون فاتحة ، كما ترتدى ثيابا اجنبية • ويمكن اعتبارها أقدم ممثلة لليبيين الشقر « التميهو » ، الذين يدخلون لاول مرة عن قرب فى تاريخ الدولة المصرية القديمة • والمرجح ان الملك خوفو اتخذ لنفسه زوجة ليبية هى ام حتب ـ حريس الشقراء (2) • ومنذ هذا العهد الباكر ستتخذ مصر موقفا متماثلا من الليبيين فتكرر عبر السلالات الواحدة والعشرين أى حتى غزوة شعوب البحر حملات الفراعنة وجهودهم لصدهم . ويتكرر معها تسجيل هذه الاعمال على أوابد ووثائق الدولة المصرية بالكتابة وبالتصوير والنقش •

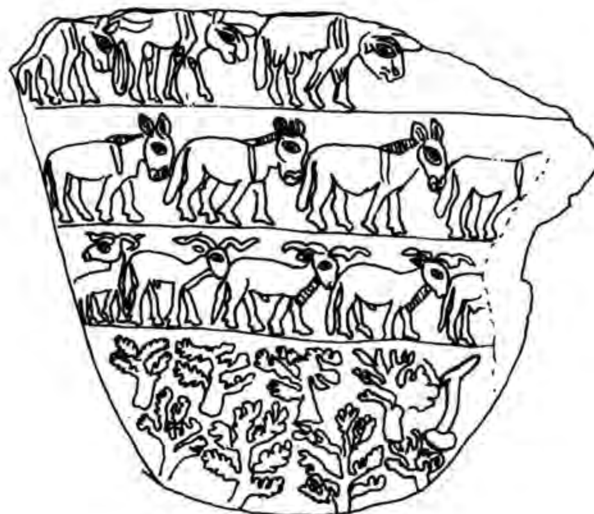
المصادر الايجية ـ الاغريقية :

لم يكن البحر المتوسط خاليا من النشاط الملاحى ، قبل أن يمخر عبابه الفنيقيون والاغريق، متجهين نحو الجزء الغربى منه ، بل كان الاخيرون ورثة حركة ملاحية نشيطة بدأها سكان جزر السيكلار منذ الالف الثالث ق•م • فعرفوا مسالكه بمراكبهم المتطاولة ذات المقدمة المرتفعة (I) المنتهية بشكل سمكة • كما شاركهم المصريون بسفن « أعالى البحار » الشهيرة ذات المجاذيف الوفيرة ، وتلاهم ملاحو جزيرة كريت « الكفيتو » KEFITU العظام ، الذين يكثر ذكرهم فى النصوص المصرية ، وملاحو العالم الايجى وخاصة فى العهد الميكينى • وقد استعمل هؤلاء سفنا تدفعها المجاذيف الوفيرة ، بالاضافة الى شراع مربع الشكل ربط على السارى الاوسط فى المركب • ومما لا ريب فيه ان الثراء المادى الضخم والازدهار الحضارى الذى حققته الحضارة « المينوسية » فى جزيرة كريت » والميكنية » فيما بعد فى شبه جزيرة البيليبونيز . يعود بالدرجة الاولى الى الحركة التجارية ـ البحرية الكثيفة التى تولتها اساطيل هذه المدن خلال الالف



1

حيوانات الملك العقرب تهدم المدن المحصنة الليبية

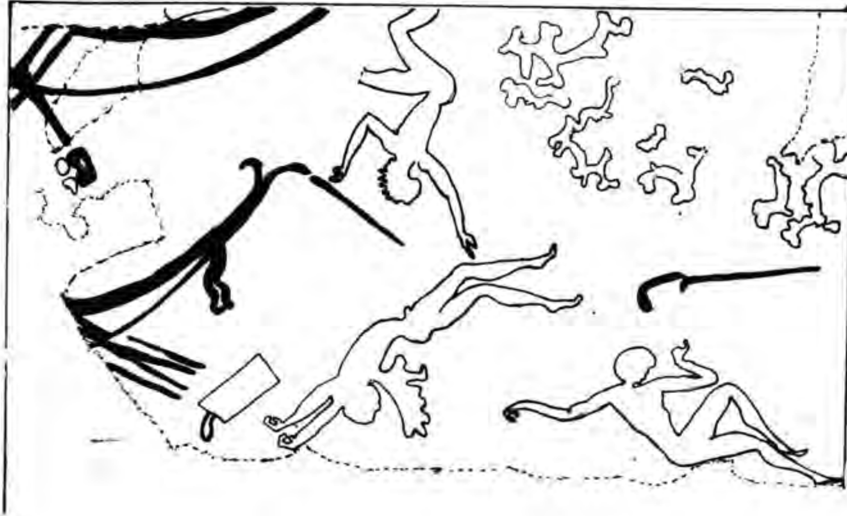


1 *bis*

غنائم الملك العقرب مع العلامة التي ترمز لليبيا

الثانى ق٠م ٠ فكان الحوض الشرقى للمتوسط يشبه بحيرة داخلية ، تتبادل الدول المطلة عليها المنتجات الزراعية والصناعية وخامات المعادن ٠ ومع السلع انتقلت الافكار والتأثيرات الحضارية فى كافة الاتجاهات ، وخاصة بين مصر والعالم الايجى ، وبين مدنه وعالم آسيا الغربية ٠ ولم يوقف هذه الحركة الدولية النشيطة فى عالم ساده تعايش-دولى . الا غزوة لشعوب همجية قدمت من اوروبا ، واجتاحت منطقة البحر المتوسط الشرقى فى حوالى 1200 ق٠م ٠ وقد عرفت باسم غزوة « شعوب البحر » ٠ أما الاثار التى خلفتها غزوتهم فكانت بعيدة الاثر ، بسبب الحريق والدمار الذى انزلوه بالمدن المزدهرة فى الاناضول وعلى طول شواطىء سورية وحتى مصر من جهة ، وبسبب تغير موازين القوى فى المنطقة من جهة اخرى (I)

قد يخيل للقارىء أن المغرب القديم بقى فى معزل عن الفعاليات والتيارات السالفة الذكر ، والتى سادت المتوسط الشرقى خلال الالف الثانى ق٠م ٠ ولعل ندارة المصادر التاريخية المباشرة تبرر ذلك الظن ٠ غير ان الواقع الجغرافى للمغرب وسير الاحداث التاريخية حوله ، تقدم دلائل قوية على ان المغرب ، خاصة شرقيه ، كان له

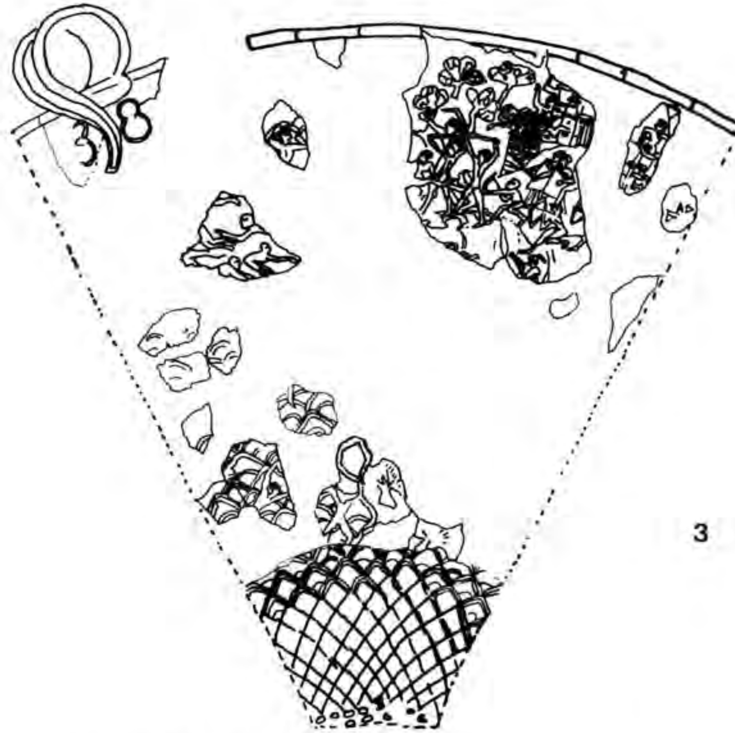


2

جنود قتلى يغرقون فى البحر قرب مركبين محلات للمليبي

دور هام . وتتظافر الادلة المكتشفة حديثا على دعم هذا الرأى ، وعلى رفع الضباب الذى يلف تاريخه ـ تكفى نظرة الى خارطة البحر المتوسط لتبيان صلة المغرب الشرقى (ليبيا) الوثيقة بتلك التفاعلات فليبيا تقع مباشرة تجاه بلاد الاغريق الام ، التى تؤلف جزيرة كريت واجهتها الجنوبية . ولا يفصل قرينى CYRENAICA عن كريت اكثر من 300 كيلو متر .

وهى نفس المسافة بين كريت ومرفأ اثينا ، او قيرينى ودلتا النيل تقريبا . وبسبب قرب المسافة كانت جزيرة كريت شديدة الصلة مع قيرينى ، أكثر من اتصالها مع بلاد اليونان الام (I) . وكانت الملاحة من كريت الى مصر تمر فى طريقين : مباشر ، يتوقف على تهيىء طقس مناسب ورياح غربية ، لكنه محفوف بالمخاطر ـ وآخر غير مباشر



مراكب ميكينية تهاجم مدينة على الشاطئ الليبي

يتجه الى قيريني ، ثم يتابع السفر الى مصر مستفيدا من الخلجان والشواطىء الرملية على طول الساحل الليبى ·

وهنالك طريق ثالث طويل يدور عبر جزيرة قبرص والساحل السورى · ومما لا ريب فيه ان الطريق الى مصر عبر قيريني كان أسهل واسلم هذه الطرق البحرية · ولا يستبعد ان العلاقات الوثيقة بين الحضارات المصرية – والمينوسية ، الميكنية استفادت من هذا الواقع (2) كذلك لا يستبعد العالم ايفانز قيام علاقات مباشرة بين ليبيا والعالم الايجى ·

هنالك حدث يمكن ان يقوم برهانا على قيام مثل هذه العلاقات ، ولكن فى فترة تالية – يتمثل فى اختيار الاغريق لمنطقة قيريني فى منتصف القرن السابع ق·م لتأسيس خمسة مستعمرات · وقد قام مؤسسوا مدينة قيريني نفسها CYRENE من جزيرة ثيرا THERA ، التى تقع مباشرة شمال جزيرة كريت (2) ·

وبالمثل لا يستبعد ان يكون المينوسيون قد أسسوا مستوطنات على الساحل الليبى – قبل ألف سنة ، ساهمت فى التجارة الدولية · وخاصة فى تصدير الثروات الزراعية والحيوانية التى اشتهرت بها ليبيا وفى مقدمتها نبات « السلفيون» SYLPHIONU (1) · ويستدل أيضا على قيام الصلات انذاك من العثور على نقش يصور مركبا منخفضا (فى مقنة بين باجه وطبرقة) – زود صاريه الاوسط بشراع شكله شبه منحرف ، يماثل المراكب المستخدمة فى الالف الثانى · ويحمل المركب جنودا يرفع احدهم سلاح الفأس المزدوج الشائع استعماله لدى المينوسيين · وقد يكون من المفيد لدعم الرأى المؤيد لقيام هذه العلاقات ، ايراد الاساطير التى تدور حول الموضوع ، والتى لابد وانها تحمل فى طياتها قبسا من حقيقة تاريخية يماثل ما قدمته اسطورة طروادة · ومن ذلك مايذكره ديودور الصقلى عن قيام ابطال الاغريق بتاسيس مدينة مشالة عقب عودتهم من حرب طروادة · وما تذكره احدى الاساطير من أن كوروبيوس الكريتى قذفت به العاصفة الى الشواطىء الليبية فعاد اليها مرة ثانية يقود سفينة (2)

اكتشافات جديدة من جزيرة ثيرا :

أشرنا الى ان اوائل المستعمرين الاغريق الذين تذكرهم المصادر التاريخية قدموا الى قيريني فى القرن السابع ق·م من جزيرة ثيرا · وكانت للاغريق مع الليبيين معارك عديدة وعنيفة ، الى ان تم اختلاط العنصرين وتعايشهما · ومن جزيرة ثيرا نفسها ترد الآن اكتشافات تاريخية هامة تلقى اضواء جديدة على حقبة تاريخية تكاد تكون ضائعة · ولربما تؤدى هذه الاكتشافات الى اعادة كتابة فصول بكاملها من التاريخ القديم ·

تم الاكتشاف الاول على يد بعثة من الاثريين اليونان برئاسة العالم سبريدون ميناتوس · وقد نقبوا مدة ستة سنوات للكشف عن موقع مدينة هامة فى جزيرة ثيرا ، كانت مركزا هاما من مراكز

الحضارة المينوسية (نسبة الى الملك الاسطورى مينوس) ولحسن حظ المؤرخ ، كانت هذه المدينة قد ردمت تحت غطاء من الرمال والتراب الذى شمل المنطقة فى حوالى 1500 ق.م نتيجة انفجار بركان كبير فيها (1) • وبذلك سلم كثير من معالم المدينة من عوامل الفناء ، أو من التلف على يد السكان التالين •

هنالك فى طليعة الوثائق المادية المكتشفة رسوم جدارية FRESCOES رائعة الجمال تعرض مشاهد طبيعية متنوعة : من سنونيات تحلق بين الازهار ، أو غلامين يتلاكمان ، او رجل يركع فى وضع العبادة ... علاوة على ذلك هنالك رسوم تعرض مشاهد تاريخية تتصل بشكل وثيق بماضى القوة البحرية التى ساعدت أهل جزيرة ثيرا على تكوين ثروتهم الضخمة • وقد عثر على هذه الوثائق فى منزل تم انقاذه من كتل الرماد فى الصيف الفائت، وكان مزينا بافريز يبلغ طوله 6ر30 مترا رسم بشكل عصابة تطوف بثلاثة من جدران المنزل • وقدم هذا الافريز المصور — بعد ترميمه — وصفا مثيرا « لملحمة حربية » تماثل ملحمة طروادة ، الا ان الفارق بينهما — كما عبر عن ذلك العالم مارينا توس — ليتركز فى ان ملحمة طراودة تتالف من شعر خطته يراعة كاتب ، وملحمة ثيرا تتالف من شعر صورته ريشة فنان •

مشاهد الملحمة :

تتالف اللوحة من سلسلة من المشاهد الصغيرة، لا يتجاوز ارتفاع احدها 40 سنتمترا • تعرض تفاصيل معركة حربية دارت بين اسطول من السفن المينوسية ، وعمارة بحرية صغيرة معادية له •وكان مسرح المعركة على مبعدة من شاطىء احدى المدن الساحلية • وبعد ان تمكن المقاتلون المينوسيون من الظفر باعدائهم ، نزلوا الى اليابسة ودمروا المدينة ، واستولوا على ما فيها من اشياء ثمينة • وقد قام الفنان باعادة تركيب تفاصيل المعركة : فهنالك رجال يسقطون فى البحر من سفن غارقة (الصورة 2) وهم ينحدرون الى الاعماق ، وبالمقابل تقفز نسوة هلعات يائسات من ابراج المدينة • بينما يقوم الجنود الظافرون بدفع قطعان الاغنام والابقار المنهوبة •

وفى الواح أخرى نرى سكان مدينتين اخريين يرحبون بالمنتصرين • وهذه الاعمال تدور أمام خلفية من مناظر الطبيعة التى تحفل بالاسود والوعول والنمور والفهود وحتى بالزرافات ، اضافة الى حيوان اسطورى له رأس وجناحى نسر وجسم اسد (جريفين) •

استنادا الى معالم وجوه السكان ، وأنواع الحيوانات الاهلية التى كانوا يربونها ،والحيوانات الوحشية التى تملأ خلفية المنطقة ، يستنتج العالم مارينا توس بان هذه المشاهد الحربية دارت على الشاطىء الليبى (1) ولربما كانت المدينتان المذكورتان اما مدينتين حليفتين للمينوسيين ، او مستعمرتين لهم • وقد قام أهل المدينتين على ما يبدو باستدعاء نجدة بحرية مينوسية لتساعدهم ضد مدينة غريمة او منافسة لهم • واذا كان مارينا توس مصيبا فى هذا التفسير للوثائق المصورة ، فان الافريز الملون الذى عثر عليه فى

جزيرة ثيرا يدفع تاريخ ليبيا الف سنة الى الوراء ، اى الى منتصف الالف الثـــانى ق٠م ٠ » ولهذه الاسباب يعتبر الافريز اثمن وثيقة تاريخية أمكن الحصول عليها حتى الآن من بقايا حضـارات عصر البرونز » (2) ٠

تزداد قيمة اكتشاف الصور الملونة فى جزيرة ثيرا الى حد كبير اذا استطعنا الآن أن نضيف اليها اكتشافا سابقا ، ظل أمره مهملا مدة طويلة لخطأ فى تفسيره ٠ فقد عثر سابقا فى ما يسمى » القبر الرابع « SCHACHTGRAB من القبـــور المكتشفة فى مدينة ميكينى (فى شـــبه جزيرة البيليبونز) (1) على اناء مخروطى الشكل صنع من معدن الفضة RHYTON ٠ وكان الاناء الثمين من ضمن الممتلكات الشـــخصية الوفيرة والفنية التى دفنت مع أمراء الاسرة الحاكمة فىهذه المدينة ٠ رسم على الاناء الفضى مشهد يمثل هجوم محاربين ميكنيين على مدينة تقع على الشـــاطىء (صورة 3) ٠ ويرى أهل المدينة يقفون على برج واسوار المدينة ، وقد رفعوا ايديهم هلعا ويأسا ، وهم يشاهدون المعـــركة التى تدور رحاها امام اسوار مدينتهم بين الغزاة والمدافعين ٠ وبالنظـر الى ان المشهد المرسوم على الاناء قد تشوه وضاعت اجزاء كثيرة منه مع الزمن ، فانه يمكن فيما تبقى منه رؤية محاربين صرعى ينحـــدرون الى اعماق المياه ، ومن المحتمل جدا ان المشهد كان يتضـمن صورا للمراكب البحرية التى اشـــتركت فى المعركة ٠ وفى خلفية الصـــورة ترى اشـجار (التين ؟) ٠ ويمكن تميز المهاجمين بخوذهم ذات الذؤابة (2) ، عن المدافعـــين العـــراة وحاسرى الرؤوس ، الذين يستخدمون القوس والنشـــاب والسيوف ؟ ٠ ويعود تاريخ الاناء الفضى الى بداية الثقافة الميكنية ، أى ا لىالقرن السادس عشر ق٠م

اختلف المؤرخون حول المكان الذى دارت فيه هذه المعركة ٠ واعتمدوا انداك على احتمال وجود حيوان رسم ضمن الماء ، فسروه بانه (فرس نيل)، ليقولوا بان المعركة يحتمل انها تمثل هجـــوما بحريا على حصن او مدينة للهكســـوس واقعة فى دلتا النيل ؟ وقد شك العالم شاخرماير فى صحة هذا التفسير ونوه بأنه غير مؤكد (1) ٠ واذا قارنا بين مشهد المعركة المرســوم على الانـــاء الفضى ، والمشهد الجدارى FRESCO المصور فى جزيرة ثيرا ، لراعنا التشابه التام فى الموضوع : (معركة بحرية امام مدينة ســـاحلية) ، وفى التفاصيل : (محاربون صرعى يسقطون فى اعماق الماء ومدينة تهزم) ٠ هذا بالاضافة الى الخصائص الفنية المشتركة : فى اسلوب الرسم ، وفى دقـة التعبير عن الحركة الحرة فى سقوط الاجســام فى الماء ، ومحاولة التعبير عن وجود الماء بشـــكل تموجات تتكاثف مع ازدياد العمق ٠ وهى جميعها خصائص تتميز بها مدرسة الفن الايجى ٠ اخيرا يخلد كلا المشهدين ذكرى انتصارات هامة تعتمد على غزو بحرى ٠

تقييم الشواهد التاريخية :

من المسلم به ان طبيعة المغرب ومناخه ساهمت الى حد كبير فى تطوره التاريخى ٠ فعن هـــذه المعطيات الطبيعية نشات ثلاثية البيئة : من سهل

وجبل وصحراء ، ومنها تكونت ثنائيته الاجتماعية: بدو وحضر · ولقد انتج المغرب منذ العصـــــور الحجرية حضارة رائعة فى المنطقة التى ستتحول الى « صحراء » ، بقيت رسومها الصخرية ، وادواتها الحجرية شاهدة على قيامها وعلى صلاتها الحضـارية بالمراكز المجاورة · أما السهل او شريط الحياة ، فانه غدا مع تزايد الجفاف فى الداخل ماوى للذين نزحوا عن مواطنهم السابقة ، ومهدا طبعيا لقيـام واحتضان حياة حضرية تعتمد على الاســــتقرار والزراعة وانشاء المدن · وبقـــدر ما كان تاريخ المنطقة الداخلية « الصحراء » غنيا بالشواهد عن ثقافة الصيادين الرعاة ـ لانها سجلت على مواد عسيرة على الفناء ـ تميزت منطقة الســـهل بقلة المصادر والشواهد التاريخية فى المرحلة الهامـة التى سبقت بداية التاريخ في المغــرب ، أى فى الالفين الثالث والثانى ق·م الا ان هذه الظاهرة ليست دليلا على « لا تاريخية المغرب » ولا نعـدو الحقيقة اذا شبهنا تاريخ المغرب القديم بصــــورة ضخمة من الموزاييك تبعثرت عبر الزمن الجزئيات الصغيرة التى كانت تتالف منها : فتشوه قسم ، وتحطم آخر ، وضاعت اقسام اخرى بفعل عوامل طبيعية وبشرية · ويمكن القول على ضوء الشواهد التاريخية التى قدمناها ـ من مصر ومن العـالم الميتوسى ـ الميكنى ومن المغرب نفسه ـ خلال هذا البحث ، بان جزئيات من الصورة الضخمة تظهـر مباشرة ، أو غير مباشرة ، نتيجة الصدفة حينا ، او نتيجة البحث التاريخى والتنقيب الاثرى احيانا · وهى تشير اى الجزئيات ـ حين يتم جمعها وتحدد العلاقة بينها ـ الى الاصل الواحد الذى كانت تمت اليــه ·

واذا عدنا الى الشواهد المســـتمدة من الالف الثالث لاحظنا ان مصر مارست علاقات متصلة مع المغرب الشرقى (ليبيا) ، وبالمثل كان للمغرب فى نفس الفترة (عصر البرونز الباكــر) تأثيرات قوية على جـــزيرة كريت تظهـــر فى انتقال فن العمارة الميجاليتية بابنيتها المستديرة واســلوب بناء قببها ، ومن كريت انتقلت هذه التأثيرات الى جزر السيكلاد والى بلاد اليونان الام · وتشـــير لوحة الملك « العقرب » على ما يبدو ، الى ان سكان ليبيا ـ مهما كانت حـــدودها الشرقية ، كانت لديهم منذ الالف الثالث مدن محصنة ، وزراعة ، وتربية مواشى وحيوانات أهليـــة وفيرة وملابس وعادات خاصـــة ، وملامح اتنوجرافية محددة ، وصلات مع مراكز الحضارات الاخرى · ولا يستبعد أن كانت ليبيا متحدة مع دلتا مصر فى الاصـــل ولها دور سياسى وحضارى يعبـــر عنه « اخـذ فرعون مصر التاج الابيض من ايدى الاجانب العظام الذين يحكمون الليبيين » · ثم حدث انفصـــال لاسباب اقتصـــادية تتعلق بطبيعة وادى النيل وضرورات اتحاد الجنوب مع الشـــمال · ولربما تشكل عودة الليبيين الى مصر فى عهد السلالتين 22 ـ 23 رجوع الى البـــداية التى انطلقت منها العلاقات بين المنطقتين فى باكورة التاريخ ·

اما الشواهد عن العلاقات مع العالم الايجى فقد جاءت لتؤكد حقائق عديدة وهى استمرار الصلات الحضارية خلال الالف الثـــانى ، ووجود المـدن

المحصنة فى المغرب الشرقى واستقرار الحيــــاة الحضرية فيه رغم وجود توازن مع نمط الحيــــاة المترحلة · وتكاد الوثائق الثلاثة التى قدمناها من فتــــرات ومناطق مختلفة تجمع على تأكيد هذه الصورة من التطور ، مثلما تشترك فى اعطــاء فكــرة عن طبيعة العلاقات التى كانت ســـائدة انذاك · والوثائق تكفى لدحض الافكار السلبية على الاقل التى ارســـخها المؤرخ سالوست عن « بربرية أوائل سكان المغرب » ، والجغــــرافى سترابون» عن بداية الزراعةوالتمدن لدى أهله» ، والمؤرخون المعاصرون أمثال قوتيه وجـوليان عن « لا تاريخية المغرب القديم » · ومما لا ريب فيــه ان الشواهد المقدمة تفتح أمام المؤرخ آفاقا جديدة من تاريخ المغرب القديم ، وتضع أمامه مهمة شاقة وممتعة بنفس الوقت لجمع المزيد من المعلــومات ، ولايضاح الدور الحقيقى الذى لعبه المغرب بالنسبة للحضارة الانسانية ·

هـــوامش :

(1 ش . جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية . تعريب مزالي وبن سلامه ، ص 70

(2 راجع هـ . الصفدى : نحو وعى افضل لتاريخ الجزائر ، مجلة الاصالة ، العدد 8 ، 1972 ، ص 165 ـ 177

1) Herodote, Textes relatifs à l'Histoire de l'Afrique du Nord par S. Gsell Alger 1915, p. 9

قارن تحديد هيرودوت لانحاء القبائل ومناطق انتشارها

(2 راجع الجداول المقارنة لاسماء ومناطق توضع الليبيين فى مؤلف O. Bates, The Eastern Libyans 1970, p. 39 f.f.

1) J. Breasted, ancient record of Egypte 1906, vol. IV, p. 213.

2) Herodote, II, 17, 32.

3) J. Vercoutter, Fischerweltgeschichte, Bd. II, s. 242 ff.

(1 لم يبق الا النصف الاسفل من هذه اللوحة المصنوعة من حجر الاردواز ، ويبلغ طولها 28 سنتيمترا ، وهى محفوظة فى متحف القاهرة ، راجع :

1) K. Lange Aegypten, Muenchen 1961, Taf.3 unten und S. 37.
2) A. Scharf, A. Moortgat, Aegypten und Vorderasien im Altertum, Muenchen 1950, S. 23-24.
3) A. Scharf, Ibid, S. 24.

(2 راجع
(1) J. Vercoutter, Fischer weltgestchichte, Bd. II, S. 256
(2) A. Scharf, Ibid, S. 57.

(1 انظر
(1) J. Vercoutter, Egypte et prébéllénes, 1954, P. 73.

(1 راجع اثار غزوة شعوب البحر على شمال افريقيا ، وعـــلى ليبيا خاصة :
(1) A. Scharf, Ibid, S. 164-169.

(1 وحدت الامبراطورية الرومانية جزيرة كريت وقيرينى فى ولاية واحدة

(2 راجع
(2) F. Schachermeyer, Aegaeis und Orient, wien 1967, S. 9-12.

(3 عرفت المدن باسم « البنتابوليس » وهى : قيرينى ـ برقة ـ برينيكه ـ ايبنوى ـ ابو للونيا ، واعطت قيرينى اسمها لكافة المنطقة

(1 انقرض السلفيون من ليبيا بسبب تهافت الاغريق الشديد على قطعه وتصديره ، وقد استعملوه فى تطيب الاطعمة والتداوى قبل معرفة توابل الهند ، فساهموا بذلك فى انجراف التربة الليبية

(2 راجع جوليان ، نفس المصدر ، ص 73

(1 انظر التقرير الموجز الذى نشرته مجلة « تايم » الامريكيةعن بعض نتائج التنقيب فى عددها السادس عشر ، عام 1973 ، ص 40 ، وصورة الجزء من المشهد

(1 قابل وصف هيرودوت : اشرت الى الليبيين البدو الذين يسكنون على طول (شاطىء) البحر ، وفوقهم وفى داخـــل البـــلاد توجد ليبيا الحيوانات المتوحشة

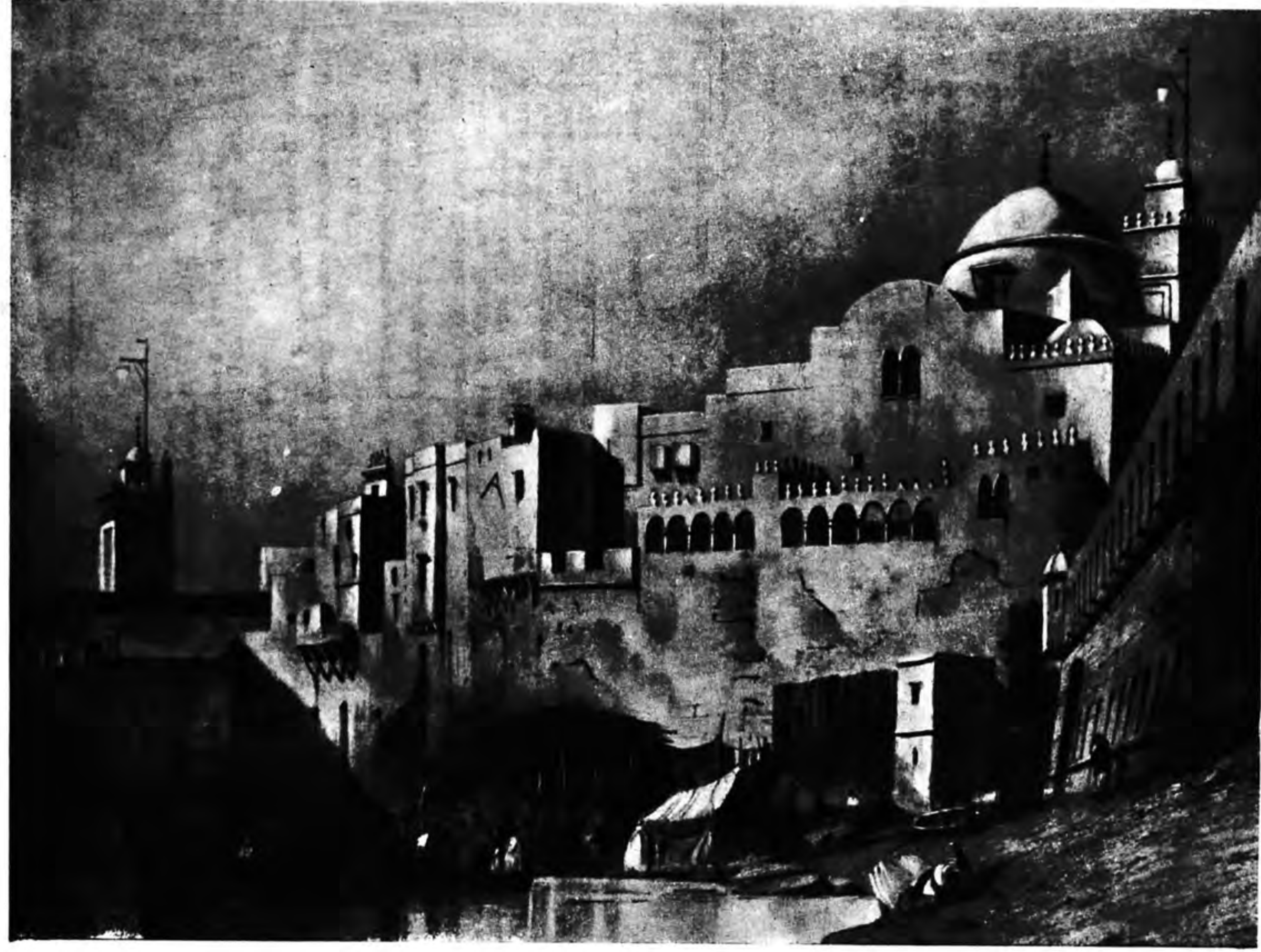
(2 اعتمدنا فى الوصف على تقرير مجلة « تايم » وعلى الصورة الوحيدة التى نشرت لجزء من الافريز (صورة 1) ، ولا شك ان نشر بقية الصور سيمكن من اجزاء مقارنات واستنتاجات تاريخية اكثر دقـــة

(1) Karo, Schachtgraben, 1930, Nr. 481, Taf. 122

(2 تشبه الخوذ التى يرتديها جنود مسينيون ورسمت على اناء فخارى ، وهنالك نموذج منها اشار اليه العالم Lhote ضمن رسوم الصحراء الصخرية

(1) F. Schachermeyer, Ibid, S. 48, 63.

فى الحقيقة ليتعذر تبين حيوان (فرس النيل) فى تفاصيل هذا المشهد



الجامع الجديد بالعاصمة

الجـزائر وأقطار العالم الثالث

في نظر الإتنولوجيا

في القرن التاسع عشر

د. يوسف نسيب
استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

من الشيق ان نتساءل كيف كان علماء الانتنولوجيا الاوروبيون في القرن التاسع عشر يتصورون معشر الجزائريين وشعوب اقطار العالم الثالث على العموم .

ومن المعلوم ان الاكتشافات الكبرى للهند وامريكا التي جاءت بعد عصر الانبعاث الاوروبي قد أثارت في أوروبا رغبة البحث عن الشعوب القصية وما في معاشها من عجائب وغرائب كان ذلك عند انتهاء القرون الوسطى المتسمة بالطابع

المسيحي اللاهوتي التي كان شعارها (لا منجاة خارج حضيرة الكنيسة) معنى ذلك ان الشعوب الاخرى لا تكون بطبيعة الحال الا قبائل متوحشة . فكانوا اذن يربطون كل شيء بأوروبا ونظرتها الى العالم وأوروبا تنبعث (لتحضير) العالم بحضارتها فكان (بروسبيرو) (1) يرى من واجبه تهذيب (كاليبان) (2) وهكذا كان شكسبير من ذلك العهد قد طرح قضية الاستعمار على البساط .

ولكن القوة الغاشمة هي التي كانت تسيطر على الموقف آنذاك فكانت شروط اللعبة واضحة ويا للاسف حيث يعلم (كاليبان) و (بروسبيرو) كلاهما ان للجزيرة مالكا شرعيا واحدا ولكن الاول كان يتمتع بقوة السيف في حين كان الثاني لا يتحصن الا بقوة الحق .

وفي حوالي سنة 1830 (وهي سنة ذات اهمية تاريخية مزدوجة بالنسبة للجزائر) شرع التوسع الاوروبي واستثماره للاصقاع الغنية القصية يحاولان ان يدعما كيانهما الاخلاقي بدعائم من العلم فقامت المباحث الانتولوجية في بدايتها ابان القرن الماضي تلعب هذا الدور اى دور الحديم العلمي وبقيت مدة طويلة وهي تحمل في جبينها تلك الوصمة ـ وصمة الخطيئة الاولى ـ .

ونشر اوغست كونت نظريته سنة 1830 مبنية على نموذج التطور الثلاثي حسب قطبين احدهما يتمثل في جهالة التوحش والآخر في اشراق نور الوضعية فاغرت هذه النظرية عقول الناس ومعنى ذلك ان اشراق نور الفكر وايناع بساتين الاخلاق انما هما في أوروبا ربة المحاسن اما مجاهل الجهالة وانحطاط الاخلاق فموضعهما في المجتمعات النائية القصية ذاك مع حكم به سداة الاتنوجيا في بدايتها فاتحد الزمان بالمكان واطمئنت الضمائر بحصول هذا القران أى ان النائي القصي والبدائي الاصلي اصبحا شيئا واحدا في ذهن الرعيل الاول من علماء الاتنولوجيا كما ان القريب الداني والمتحضر المتمدن يمتزجان في الثقافة الاوروبية المعاصرة لهم .

ان ذنب المجتمعات (المباينة) هو مباينتها لاوروبا فهي اذن مجتمعات (ليس لها تاريخ) واتفق ان العالم (بوشي دي برت) عثر في حفرياته وتنقيبه عما قبل التاريخ على بعض الادوات البدائية (سنة 1829) فخطا القوم بنظريتهم خطوة جديدة فقالوا ان الادوات التى تستعملها الفئات الافريقية وهي المسماة عندهم (بدائية) هي نفس الاشياء (تقريبا) أو مثل الاشياء التي عثر عليها في الرواسب او الغيران (وبعبارة واحدة) : كانت الاتنولوجيا الناشئة تظن أنها عثرت على الانسان الذى انقرض منذ آلاف السنين واندرست ثقافته وتعتقد انها وجدته حيا يرزق .. في المجتمعات التي سميت فيما بعد اقطار (العالم الثالث) .

لا شك ان لهذا الانسان الذى نجا من غير الزمان ميزات عقلية وبيولوجية معينة فهو غير

1 و 2) بروسبيرو وكاليبان من الاشخاص الخرافيين الذين انشاهم شكسبير في روايته (العاصفة) يمثل الاول السيد المتحضر غاصب الجزيرة ويمثل الثاني القوة المتوحشة الثائرة ضد الغاصب

قادر على (التنظير) أى انشاء نظرية ـ ذاك ما ما زعمه باحثو المدرسة الاحيائية وهو ايضا متقيد بالمحاكاة أى التقليد ، محكوم عليه بالركود وعدم التطور هذا هو الانسان المتوحش العاجز عن تصور المعانى وادراك ما بينها من ارتباط محمول على اللجوء الى (التصورات الجماعية) أى الى مزيج من العقل والعاطفة • وهكذا نشأت نظرية (التعليل العقائدى causalite mystique الغامض) (1) التى اصبحت احدى دعائم الفكرة التى اطلق عليها صاحب كتاب (النفسية البدائية) عبارة (ما قبل العقل) PRELOGIQUE

وقد كانت هذه الصورة فى حقيقتها تمهيدا يزعم نفسه علميا وهو داخل فى الاطار السياسى الذى وضعه الاستعمار فالانتنولوجيا فى القرن التاسع عشر وظهور الظاهرة الاستعمارية فرسا رهان ورضيعا لبان احدهما يساند الآخر اما عن قصد او بدون قصد فاذا شرح لنا المتحضر حالة المتوحش غارقا فى الجهالة تعين اذن تهذيبه وتمدينه واسرع القوم الى اصدار حضارتهم وابرمت الصفقة التى نعرف محتواها فان ما زعموه من (رسالة تمدين) ما كان الا دعوى خاطئة يستظهر بها مجتمع غالب لاستعباد مجتمع مغلوب على أمره والقضاء على كيانه الجسمى والثقافى وان جميع عمليات الابادة تتخذ ستارا من الحياء والاخلاق تنسجه على منوالها الخاص •

وما ان استقر المعمر فى بلد المغلوب حتى طفقت الادارة الاوروبية تحاول بجميع الوسائل أن تتعرف على (الاهالى) وأن تعلم ما هى المقاييس والحاجيات الموجودة فى تلك الفئات حتى تكون مستعدة لمجابهة رد الفعل منها • ان بدرت منها بادرة فانحدرت المباحث الاتنولوجية الى مستوى وظيفة التطلع أو الاستطلاع وهكذا شاهدت الجزائر عشرات من ضباط (الشؤون الاهلية) وصغار المعلمين والرحالين والمبشرين الغربيين يرتجلون علم الاجتماع ويعدون انفسهم علماء فى معاش الاهالى.

أجل ان فى بعض ما درسوه لفضلا اذ صوروا لنا طبق الاصل واقعا يصعب تحريفه وهو اليوم فوق المتناول لانه واقع زال وانقرض بل انهم تركوا لنا وثائق وحيدة فى نوعها لانها ثمينة وفريدة نقول ذلك (مثلا) عن القاموس الواسع الذى خلفه لنا الاب دى فوكو فى لغة (تاماشك) وهى لغة ابناء الهجار ولو لم يقم بذلك العمل لكان من الصعب علينا اليوم ان ناتى بمثله وقل مثل ذلك عن العمل الذى أتمه عسكرى آخر وهو الجنرال هانوتو الذى جمع ديوانا حافلا عن القصائد القبائلية سجلها بالحروف اللاتينية حوالى سنة 1860 ومع هذا نلاحظ ان نية علماء الاتنولوجيا فى القرن الماضى لم تكن فى غالب الاحيان علمية صرفة فقد كانوا ينظرون الى الاشياء بمنظار شعورهم بالتفوق وفى اطار الاحتلال والتغلب فكانت العينة الثقافية التى يحطبها اولئك الحاطبون فى غاب العجائب والغرائب والنوادر والشواذ

1) من معانى (مستيك) بالفرنسية العقيدة التى يكون مبعثها العاطفة وقد عبرناه بالعقائدى لا الصوفى وهى من معانى مستيك

معرضة للتشويه والتحريف حتى فيما يكتبـــونه لنعتها ووصفها ٠

أما التحليل نفسه فناهيك به من تحليل ! ان غايته الاساسية مشبوهة اذ يرمى الى اخبـــار السلطة المتعسفة فلا مناص من أن تكونالدراسات كلها تهدف الى تزكيـــة الواقع الاســـتعمارى وتبريره ٠ ألم يكن الهولنديون (من سنة 1870) يعلمون حكام مستعمراتهم فى المحيط الهادى علم الانتنولوجيا ؟ أما فى بلادنا الجزائرية فقـد كان عدد كبير من حكام (الاحواز الممتزجة) يصـفون الاهالى وما فى حياتهم من أشياء ملهية أو مخيفة فنظروا الى الحياة الريفية بهذا المنظار لذلك نجـد عددا كبيرا من النصوص التى تصف المظاهـــر الدينية عند الجماهير الشعبية كمناظر غريبة فى نفسها ولكنـــها مخيفة فى عواقبها والتفتوا الى الزوايا بمزيد العناية لانها كانت تحتضن أصـل المقاومة التى لا تقهـــر وثارت نقمة هانوتو على (الطريقة الرحمانية) لانها سببت ثورة (بوبغلة) فى عهد المقرانى ٠

وفى الحقيـــقة لـــم يكن علـم الانتنولوجيا الاستعمارية علم الانسان الشامل ولـم يبحث فى مختلف حضارات آسيا وافريقيا وأوروبا وأمريكا والمحيط الهادى للتقريب بين شتى هذه الحضارات ولميقم بنفسه كدراســـة تفارقية بـين الفرق والحضارات باعتبارها حرة متساوية فى الحقـوق ولكنه جعل افتراضه ونتيجته فى حين واحـد أن المجتمعات فيما قبل الطور الصناعى (ولا سـيما مجتمعـــات مـا قبـــل الطـــور الكتـابى) اعنى المجتمعـات التى لـــم تيسر لهـــا اسباب تاريخية معينة معرفة الفحم والآلة الصنـــاعية كلها فئات منحطة أى ان القوم طبقوا علينا أوهاما من الحكم أو أحكاما من الوهم لا قبل للعلوم بهـا

ان الباحثين فى عالمنا الثالث لجد شاعرين بهذا التحريف للواقع والتشويه للحقيقة وقد آن لنا ــ حيث طوينا تلك الصفحة من مغربنا ــ أن نجعل بلادنا فى علم الاجتماع ذاتا تبحث عن نفســها لا موضوعا يبحث فيـــه وقد حـــان أن نرجع علم الاجتماع البشرى الى منزلته الحقيقية والى رسالته الحقة التى تجمع كل صفات الوضعية والخصـــوبة والواقعية والحرية بل تتضمن أيضا ــ ولم لا ؟ ــ أصول المقارنة والمناظرة ٠

المؤرخون الالمـان والجزائر

د٠ ابو العيد دودو
استاذ بكلية الآداب
جامعـة الجزائـر

ليست علاقة المؤرخ بالتاريخ هي علاقة الرحالة به ، فارتباط المؤرخ بالتاريخ اوثق ، وصلتـه به أمتن ، ومع ذلك يمكن ان يعتبر الرحالون الالمان الذين كتبوا عن الجزائر ، مؤرخين بشـــكل او بآخر ٠ فمن النادر ان نجد بينهم من لم يهتـم بتاريخ الجزائر في طور من أطوارها ، ويحاول ان يقدم صورة عنه ، ولو كانت مختصرة غير وافية ٠ وكثيرا ما تكون هذه الصورة المختصرة تمهيـــدا لدراسة نفسية الشعب الجزائـري ، وعاداتـه وتقاليده ، وأساليب حياته وطرق معيشته ، ولما تخلفه الاحداث التاريخية في ذلك كله من آثـــار وسمات خاصة ، وبعبارة موجزة لربط ماضــيه بحاضره ٠ وهذا ما يجعل هذا الرحالة يختلف عن ذلك في تناول التاريخ واختيار الفترة الملائمـة للجوانب التي يريد معالجتها ٠

وكانت مصادرهم متنوعة ، وتأتي في الدرجة الاولى المصادر التاريخية المحضة وكتب الرحلات، سواء كانت المانية او أجنبية ، ثم التجـــارب الشخصية والروايات الجزائرية والاجنبية • وهذه المصادر الاخيرة في نظري أهم بكثير من غـــيرها ، لانها تقوم على شهادات أناس عاصروا الاحداث ، وشاهدوها عن قرب ، وعرفوا حقيقتها والطريقة التي تمت بها ، وقلما يلحقها التشويه ، خاصـــة اذا كانت قد صدرت عن انسان عادي ، لا مصلحة له في التزوير ، وسجلت من طرف رحالة نزيه ، ولو انه من الصعب التاكد من نزاهته •

ولعل سيمون بفايفر هو الالماني الوحيد ، الذي اعتمد على تجاربه الشخصية وعلى ما ســـمعه من أفواه الجزائريين .فقد أكد (أنظر رحلاتي وسنوات ســـجني ••• ص 101) انه ينقل ما رواه له الجزائريون • صحيح انه لم يقدم اي ضمان عـلى صحة ما روى له،ولكنها في اعتقاده، توضح بعض ما ورد في المصادر الفرنسية • وقد تكون هـــذه التحفظات ، التي ابداها بفايفر ازاء الروايـــات الجزائرية ، دليلا على صدقه ونزاهته ، ولعل هذا أيضا ما حمل مقدم كتابه فريدريش شميتهنر على أن يصف كتاباته (ص 5) بأنها تمتاز بالبساطة والصدق •

واعتمد فيلهلم شيمبر على ملاحظاته الخاصـــة وعلى ما حدثه به بعض الجنود ، الذين شاركوا في عدة معارك ، وكان لهم دور في بعض ما وقع من جـــرائم واعتـــداءات ، وكان من بينهم عدد من مواطنيه ، سبق لهم ان وصلوا الى الجزائـر مـع الحملة الفرنسية • واستمد بعض معلـــوماته من جهة اخرى من الجزائريين ، الذين اتيح له ان يقيم معهم علاقات ودية • وحين يتحدث عن العقيـــدة الاسلامية وتاريخها وتعاليمها يلجأ شيمبر الى من كتب عن هذا الموضوع قبله ، وما ذكره يشبه الى حد كبير ما ورد في كتاب الراهب الفرنسي دان « تاريخ البرابرة والقراصنة » ، الذي نشر سنة 1637 ، مما جعل حديثه هذا ذا صبغة صليبيـــة واضحة ، ولكن صليبيته هذه تنعدم بمجـــرد ان يبدأ بوصف علاقاته بالجزائريين وصلاته بهم •

واذا كان شيمبر قد اعتمد على مراجع أغلبهـــا اجنبية ، خاصة في حديثه عن تاريخ الجزائر ، فان مواطنه فرديناند فنكلمان يعتمد في كتابه « تاريخ احتلال الجزائر من طرف الفرنسيين سنة 1830 »، وقد أصدر كتابه عام 1832 ، على سيمون بفايفـر وعلى مصادر فرنسية متنوعة ، ولا ســـيما كتاب ضابط الحرس الفرنسي رونودو ، الذي ترجم الى الالمانية ونشر سنة 1830 ، واستفاد كذلك ممـــا كتبه الشاعر الايطـــالي فيليبو بنانتي في مؤلفه « مغامرات فيليبو بنانتي وملاحظاته عن ســـواحل البلدان البربرية » . وقد ترجم الى الالمانية ايضا وصدر سنة 1824

أما الامير النمساوي فريدريش شفار تسنبيرغ فقد شارك في الحملة الفرنسية ، وهو لهذا شاهد عيان فيما يخص تاريخ الاحتلال ، مما يجعل لكتابه اهمية كبيرة • وتقوم الفصول الاخيرة من كتـــابه

« التفاتات الى الجزائر واحتلالها من طرف القوات الملكية الفرنسية فى سنة 1830 » ، الصادر عـام 1837 ، على ملاحظاته الخاصة ، التى كان قد حرص على تسجيلها فى يومياته فى حينها · أما الفصول الاولى ، التى يحتوى عليها القسم الاول ، فقـد اعتمد فيها على الرحالة الانجليزى توماس شو ، صاحب كتـاب « رحلة توماس شـو فى ولاية الجزائر » ، الذى صدرت ترجمته الالمانية فى سنة 1765 ، واعتمد كذلك على ف· شيلر ، القنصـل الامريكى ، مؤلف « موجز الجزائر » الصادر سـنة 1826 ·

وسلك الطبيب الالمانى آدولف فون شونبيرغ نفس المنهج ، فقد شارك هو الآخـر فى الحملة الفرنسية ، وسجل فى الفصل الاول من كتـابه « نظرات على الاحتلال الاخير للجزائر وتاريخهـا واستعمارها الحديث » ، الذى نشره عـام 1839 ، اليوميات ، التى كتبها فى الميدان · وتناول فى الفصل الثانى ثمانية من دايات الجزائر ، ابتـداء من الداى مصطفى (1798 ـ 1805) الى حسـين باشا ، الداى الاخير · وقد كتب تاريخهم ، فيما ذكره فى المقدمة ، اعتمادا على معلومات ، زوده بها شخص ، لم يذكر اسمه ، عاش فى الجزائر أيـام الحكم التركى مدة طويلة ، وكان شاهد عيان لبعض ما رواه من اخبار ومعلومات ، ولكن شونبيرغ لم يكتف به ، بل استعمل مصادر أخرى لم يحـدد طبيعتها · وكانت مصادر الفصل الثالث والاخير ، الذى تناول فيه المناخ الجزائرى والحركة التجارية والصناعية ، فرنسية بحتة ، من ضـمنها بعض الوثائق والتقارير الرسمية ·

ويعتبر موريتس فاغنر افضل من غيره بكثير ، فقد تناول فى كتابه « رحلات فى ولاية الجزائر فى سنوات 1836 ، 1837 و 1838 » ، 1841 ، المصادر ، التى اعتمد عليها · تناولها فى المقدمة ، وهذا ما لم يفعله غـيره من الرحالين الالمان على هـذه الصورة · فاخذ على الرحـالين توماس شـو الانجليزى وبيصونيل الفرنسى ، وقد نشر كتاب هذا الاخير « رحلة فى سواحل البلدان البربرية » عام 1838 ، ان كتابيهما يتسمان بالجفاف ويهتمان بجانب واحد ، ويقول فاغنـر (ج 1 ص 17) ان المؤلفين قد وجها اهتمامهما لدراسة الآثار ونسيا فى غمرة ذلك الانسان ، الذى هو على حد تعبـير غوته ، أهم شىء فى أى مكان كان · ويشكو المؤلف الالمانى (ص 18) من عدم صدور كتب جيدة عن الجزائر منـذ الاحتـلال ، فالكتب العشرون او الثلاثون ، التى صدرت حتى ذلك الحين ، تقتصر على معالجة الناحيـة السياسـية او الناحية الاستعمارية ، ويفضـل من بينها « الحوليات الجزائرية » لبيليسيى · ويعترف فاغنر : لا يعرف من كتب الرحلات الحديثة سوى ثلاثة كتب ، أمـا البحـوث العلمية فهى متناثرة فى المجـلات المتخصصة ·

وهذه الكتب هى « رسـائل من الجنوب » لتوماس كامبل ، و « سـيميلاسو فى افريقيا » لبوكلر ـ موسكاو ، و « رحلة فى ولاية الجزائر » لروزيه · ويصف الاول بانه كان دون شك شاعرا انجح منه رحالة ، فما يجده الانسان عنده أقـل مما يجده فى انطباعات السائح العادى · ويصف

الثانى بانه اكثر سطحية من الاول وانه اصلح لوصف الحياة فى قصور النبلاء منه لوصف الحياة البدوية واكتشاف حقيقتها • ويفضل الثالث عليهما (ص 91) ، ولو انه اكتفى بوصف مدينة الجزائر والبليدة والمدية ووهران ، ويثنى فاغنر على مواطنيه شيمبر وميليتس •

ويذكر فاغنر (ص 21) انه كتب القسم التاريخى عن الجزائر بعد دراسة دقيقة للمصادر القديمة والحديثة ، واستمد معلوماته عن تاريخ الجزائر الحديث من الحوليات الجزائرية لبيليسيى، ومن محادثاته مع بعض الشخصيات الهامة ، التى عاشت الكثير من الاحداث التاريخية ، فنقل عن صديقه الضابط السويسرى مورالت قصة اللقاء ، الذى تم بين الامير عبد القادر وبوجو فى التافنة واخذ فاغنر أيضا بعض المعلومات عن المارقين الالمان ، الذين عاشوا فى الجزائر مدة طويلة ، وخاصة مارق يدعى بودوان ، قال عنه انه اصبح عربيا بأتم معنى الكلمة ، يحسن اللغة العربية ، ويتكلمها مثل اى رجل من رجال الدين • ثم المانى آخر ، اتخذ اسما عربيا ، وهو بن حميدو ، وكان اسمه الحقيقى غايستينجر ، حارب الى جانب الامير فى عدة معارك ، منها معركة المقطع الشهيرة ، وكان فاغنر قد التقى به أيام اقامته بمعسكر ، عاصمة الامير • وبعد معركة المقطع وجهه الامير الى المغرب ليسلم هدية الى السلطان مولاى عبد الرحمن ، وهى عبارة عن عربة للذخيرة ، غنمها الامير فى معركة المقطع •

ويذكر فاغنر ان الامير قال لغايستينجر عند سفره الى المغرب : « ابق هناك اذا شئت • اما اذا كنت تحبنى ، فما بى حاجة الى ان آمرك بالعودة •» وسافر الالمانى ، وكان قد أسلم فى أثناء ذلك ، الى المغرب ، واشترى مقهى بالمال الذى زوده الامير به . ولكنه عاد فى النهاية الى سيده الامير ، فعينه مديرا لمصنع الذخيرة بتلمسان • ويضاف الى هذين المانيان آخران ، هما فندلين شلوصر ، مروض السباع فى قصر باى قسنطينة ، وسند ، مدير معمل الاسلحة فى المدينة نفسها • وكان هذا الاخير قد وقع فى الاسر بعد انضمامه الى الفرقة الاجنبية ، فحمل الى المرابط سيدى على بن عيسى فى بلاد الجرجرة ، فارسله هذا الى باى قسنطينة الذى زوجه واعطاه دارا وزوده بالمال لفتح معمل للاسلحة (ص 391 ، ج 2 ص 332) •

ويعترف المؤلف (ص 21) بأنه قد اخذ بعض المعلومات عن المواطنين الجزائريين . وقد حضر بنفسه أحداثا بالغة الاهمية . فسجل فى كتابه ما شاهده فى الحملات الثلاث ، التى شارك فيها عضوا فى اللجنة العلمية ، وهى حملة البليدة ورغاية . وقسنطينة • واستمر فاغنر يسجل مذكراته الى ان ترك الجزائر فى شهر يونيه سنة 1838 ، وذلك بعد ان زار جميع المناطق ، التى كانت فرنسا قد احتلتها فى ذلك الحين ، وبعض المناطق التابعة لدولة الامير عبد القادر •

اما كارل فون ديكر فقد رجع فى وضع كتابه « الجزائر والحرب الدائرة هناك » . الذى نشر عام 1844 ، الى كتابات بيليسيى ، وبوكلر موسكاو ، وروزيه . وفاغنر • وكان قد زار الجزائر عام 1842

ليكون قريبا من أحداث الحرب وأوضاعها · وأوضح ديكر في مقدمة كتابه انه لا يريد كتـــابة تاريخ الحرب الجدير بالاهتمام ، فتاريخ ذلك كله لم يحن بعد وقت كتابته ، وانما أراد الحديث عن الحـرب الجارية في الجزائر · واعتمد ديكر كذلك على ما كتبه فريدريش شفار تسنبيرغ ، ونقل بعد فقره ليستشهد بها ·

ويصف ديكر كتاب فاغنر بانه احســن كتاب صدر عن الجزائر باللغة الالمانية ، ويحذر القارىء من ان يتصور ان موريتس فاغنر متعصب لفرنسا، لانه اهدى كتابه الى ولي العهد الفرنسي ، فالواقع خلاف ذلك ، وينصحه بالمضي في القراءة ، حتى يكتشف بنفسه عكس ما يوحي به الاهــــداء · فمواطنه في نظره بعيد عن التعصب ، وكان همه الاول والاخير اعطاء صورة صادقة عن الجزائر في جميع الميادين ·

وهناك من الرحالين الالمان من لا يعتمد على من سبقه اطلاقا ، وانما يكتفي بتســـجيل تجاربه الخاصة · وهذا ما فعله كليمنس لامبينغ في كتابه « مذكرات عن الجزائر » ، الذي نشره سنة 1844 ، اذ وصف فيه اصدقاءه الجـــزائريين وحياتهم ، وتحدث عن اهتماماتهم العامة ، كما وصف بعض المعارك التي شارك فيها ، وكذلك المناطق والمدن ، التي زارها وأقام فيها فترات متفاوتة ·

ومن الضروري ا نتســـاءل بعد هذا عن الاســـباب ، التي حملت الالمان على الاهتـــمام بالجزائر ، والعناية بتاريخها ، والحرص على وصف مظاهر الحياة فيها بدقة · والواقع ان هذهالاسباب تكاد تكون واحدة عندهم جميعا ، فهذا ما تثبته لنا تصريحاتهم على الاقل · لقد اعتبر الالمان احتلال الجزائر أهم حادثة وقعت في القرن الماضي ، وقد رأوا ما سيكون لهذا الاحتلال من ابعاد سياسية في أوروبا وافريقيا على حد سواء · فقد فتح امامهـم آفاقا جديدة ويسر لهم سبل الهجرة والمغامرة · والهجرة تتطلب معرفة بظروف المهجر واوضـاعه المختلفة ، ومن هنا كان لابد للمهاجـــر من كتب وأدلة سياحية ، وخاصة اذا كانت البلاد ، التي يريد ان يهاجر اليها ، خصبة التربة ، فاتنـــة المناظر ، شاسعة الاطراف ·

ولم يدع بفايفر صراحة الى الهجرة ، ولكنــه يتحدث (ص 231) عن روعة الجزائر ، وخصوبة أراضيها ، فيقول : « كثيرا ما فكرت ، بعد عودتي الى اوروبا ، في دولة الجــــزائر ، في وضعها السابق ، وفي وضعها الراهن ، وفي الوضع الذي يمكن ان تكون عليه في المستقبل · لقد آلمني ان تظل هذه البلاد الرائعة في بعض اجزائها ، الغنية بمنتجاتها ، التي يمكنها ان تمد الملايين العديدة بالطعام والغذاء ، وتكون بالنسبة لاصحابها الجدد ذات منافع لا حدود لها ، هكذا قفراء غير مستغلة ، لان الفرنسيين اقتصروا في صراعهم مع أهلها على الجزائر وحدها تقريبا » ·

ويرى شفار تسنبيرغ (ص 3 — 4) ان ما حدث في افريقيا قد جلب اهتمام الرأي العام ، نظرا الى ما سيكون للوجود الفرنسي في شمال القارة من اثر كبير في تاريخ العــــالم ، ولذلك فان كتابه سيكون ذا أهمية كبيرة ، لانه يتضمن وصفامتنوعا

وبعيدا عن التحيز للحملة الفرنسية ، كتبه شاهد عيان . ويعتقد ان القصص التى تاتى متأخرة فى التاريخ تعتبر أصدق من الاخبار الاولى ، لان هذه غالبا ما تكون متحيزة . تتحكم فيها الاحكام المسبقة . ويؤكد على ضرورة المعلومات ، التى يقدمها فى كتابه بالنسبة للمؤرخ والسياسى والعسكرى . فالنزول فى شواطىء قارة اجنبية يتطلب معرفة كاملة بخصائصها واوضاعها السياسية واجواء مناخها وطبيعتها ، لا سيما وان موانىء شمال افريقيا ستكون ذات اهمية كبيرة بالنسبة لاوروبا .

ويقدم شيمبر (ص 160 وما بعدها) نصائح لمواطنيه ، الذين يرغبون فى الهجرة الى الجزائر ، فينصحهم بعدم الاختلاط بالسفلة والاوباش،الذين قدموا الى الجزائر للسلب والنهب ، ويحدد لهم الاماكن ، التى لا يتعرضون فيها لهجومات العرب ، ويصف لهم الطرق ، التى يجب اتباعها للحصول على رخص الهجرة من الدوائر المعنية ، كما يحدثهم عن وسائل العيش فى الجزائر وغلاء المعيشة . ويحذرهم من الالتحاق بالفرقة الاجنبية ، ويطلب منهم ان يتجنبوا تلك التصرفات التى صدرت عن بعض مواطنيه ، وكانت نتيجتها ان اصبح الاسم الالمانى محتقرا فى الجزائر .

ويفخر موريتس فاغنر (ج 1 ص 5) فى الكلمة التى أهدى بها كتابه الى لويس فيليب ، دوق اورليانس ، بان بلاده تشارك فى تأسيس المستعمرات الاوروبية فى شمال افريقيا ، فالجندى الالمانى يحارب الى جانب الجندى الفرنسى ,والفلاح الالمانى يقوم باصلاح الاراضى الى جانب المستعمر الفرنسى . والعالم الالمانى يعمل مع العالم الفرنسى لاكتشاف تاريخ شمال افريقيا القديم . والغريب ان يفخر فاغنر أيضا بأن الهدف من ذلك كله هو نشر الحضارة والحرية فى الاراضى الجزائرية ، التى كانت فى القديم مزدهرة عامرة ! ويرجو فاغنر (ص 20) بعد ذلك ان يكون كتابه دليلا أمينا للسائح والمهاجر ،الذى يريد ان يستقر فىالجزائر بصفة دائمة ، ومصدرا مهما لمن يهتم بدراسة الشعوب وطباعها واسلوب معيشتها . ويؤكد بدوره على الاهمية ، التى يكتسبها شمال افريقيا يوما بعد آخر ، لان فرنسا ، فى نظره ، ستعلم سكان الجزائر ان وظيفة الانسان لا تتمثل فى محاربة اخيه الانسان ، وتمزيق لحمه ، واهمال أراضيه الجميلة الخصبة المعطاء !

ونجد لودفيغ بوفرى فى كتابه « الجزائر ومستقبلها تحت الحكم الفرنسى » ، الذى صدر سنة 55 ، يمثل نفس الافكار ، فهو يعتبر الجزائر بلادا صالحة جيدة ، يمكن استعمارها واستغلالها، ويقدم نصائح الى ابناء بلاده الراغبين فى الهجرة ، ويشير الى ان هناك احكاما مسبقة ، تتعلق بالهجرة الى الجزائر ، مبعثها عدم معرفة البلاد على حقيقتها والاطلاع على أوضاعها من جهة ، وجشع بعض الالمان الذين وصلوا الى الجزائر من جهة ثانية . ويؤكد (ص 18 ـ 19) ان الرغبة فى نفع مواطنيه والحيلولة دون هجرة الاسر بناء على ما يشيعه بعض المخادعين هو الذى دفعه إلى وضع كتابه هذا .

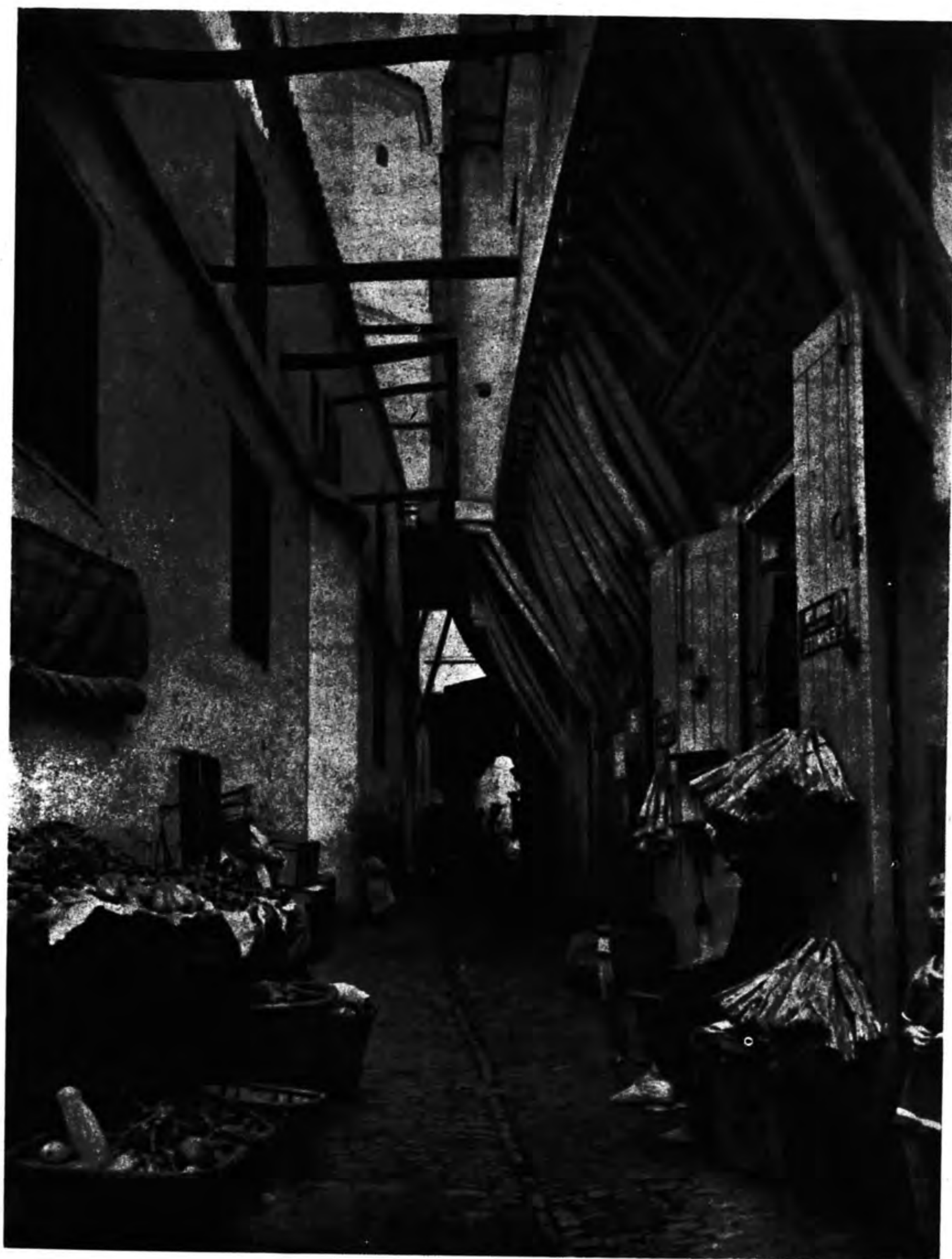
ويصف بوفرى المناطق الصالحة للزراعة ، ويعترف (ص 19) بأن الاوروبيين ، الذين كانوا عاجزين عن الحصول على قوتهم اليومى فى بلادهم قد تمكنوا من كسب ثروة . تجعل الفرق بين ما كانوا عليه فى السابق وما هم عليه الآن واضحا تمام الوضوح . وهو يقدم لهم هو الآخر معلومات متنوعة عن طبيعة البلاد ، ومناخها وآثاره ، والامراض . التى يمكن ان يتعرض لها المهاجر الالمانى ، ويبين كذلك طرق الاتصال بالادارات الخاصة ، التى تسهل لهوسائل الانتقال الى المناطق الآمنة ، ومحاولة الاستقرار فيها .

وقد اهدى فون بوفرى كتابه لنابليون الثالث ، ونوه فى الاهداء بالاعمال الجبارة . التى تقوم بها فرنسا ، من أجل بناء حضارة جديدة ، تحل محل الحضارة القديمة . تحت راية المسيحية ! ويبدى اعجابه بالازدهار ، الذى بدأ يعم مناطق الجزائر المتنوعة o

وهكذا نرى ان الجزائر كانت بالنسبة للالمان مهجرا جديدا ، يستطيع ان يعيش الالمانى فيه فى هناء ورفاهية ورخاء ، كما صرح بذلك فرديناند فنكلمان (ص 61) ، فالجزائر بالنسبة له مستعمرة رائعة . والالمانى فيها أكثر كرامة وأوفر عزة من الجزائرى ، لان فرنسا تحمى الالمانى كما تحمى غيره من الاوروبيين ،ولا تسمح للجزائرى باى نوع من التحدى والمقاومة . وهذا ما جعل فنكلمان يتنبأ (ص 71) بأنه لن يمر وقت طويل حتى يصبح عدد الاوروبيين فى المناطق الخصبة اكثر من عدد السكان الاصليين !

هذا ولا تخلو كتابات الالمان من اظهار العداء للجزائر . التى اهانت اوروبا لمدة طويلة ، وكان ذكر اسمها مجردا يثير الرعب فى قلوب ابنائها ، مما جعل شونبيرغ يعترف (ص 62) بأن اسم الجزائر لا يحمل على التفكير فى جمال سمائها ، وصحية مناخها ، وخصوبة أراضيها بقدر ما يحمل على التفكير فى الآلام . التى عرفها العبيد المسيحيون فيها . وهذا ايضا ما جعل كتاباتهم تتسم بالطابع الصليبى فى اغلب الاحيان ، فقد أشفت فرنسا غليل بعضهم فى الانتقام من الجزائريين ، فيصفونهم بالهمجية على غرار ما فعله بقية الاوروبيين مما كتبوا عن الجزائر .

لم أتناول فى هذه الدراسة جميع الرحالين الالمان ، فكتب الكثير منهم لم يمكننى الاطلاع عليها بعد . وانما اقتصرت على بعض من اتاحت لى مجهوداتى الفردية معرفة ما كتبوه عنا . ومع ذلك أرجو ان اكون قد قدمت فكرة تقريبية عن مصادرهم واغراضهم ، وليس بمستبعد ان تكون لهم اغراض اخرى لم يصرحوا بها ، واحتفظوا بها لانفسهم فى وثائقهم الخاصة او فى وثائق بعض الجهات التى مدتاليهم يد العون للقيام برحالاتهم . وأتمنى ان تتاح لى الفرصة فى المستقبل للاطلاع على وثائقهم فى مضانها ، حتى اتمكن من تقديم معلومات اخرى قد لا تخلو من فائدة فى مجال كتابة تاريخ الجزائر .



نهج من أنهج حي القصبة (بالعاصمة)

موقف المؤرخين الأجانب من

تاريخ الجزائر

عبر العصور

المهدي البوعبدلي

عضو المجلس الاسلامي الاعلى
– الجزائر –

ان المؤرخين الاجانب الذين اعتنوا بتاريخ الجزائر يعدون بالمئات، ولا زالت تآليفهم متواصلة ويمكننا ان نقسمهم الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول تخصص فى تاريخ البلاد القديم، اى عهد احتلال الرومان وما قبله .

والقسم الثانى اهتم بتاريخ الفتوحات والعهد الاسلامى .

والثالث اعتنى بتاريخ الاحتلال الفرنسى وما اعقبه من تطور الاستعمار وانتشاره وآثاره .

فمؤرخوا القسم الاول بالغوا فى الاشادة بروما ومدنيتها ، واحيــوا ما تبقى من آثــارها ، واستعانوا بما كان يمدهم به العنصريون،ودعاة « افريقيا المسيحية » ، وميزانية الدولة الــتى كانت تفتح لهم – على مصراعيها – ابوابهــا ، فاسست الجمعيات فى جميع انحاء البلاد ، للبحث والتنقيب عن الآثار ، واتخذت لها مكتبات ،ومجلات ومراكز للمحاضرات ، واقامت مؤتمرات علميــة كانت تدعو لحضورها ، وللمشاركة فى بحوثها اساطين العلم من الاثريين ، كل هذا لتتوصـــل الى هدف دعوتها : وهى ان الحضارة الرومانيــة المسيحية طبعت هذه البلاد بطابعها ، وان احتلال هذه البلاد هو استرجاع حق مغصوب ، وقليــل منهم من اهتم بتاريخ سكان البلاد الاصليــين – ان لم يكن ذلك لبث روح البلبلة والاحــن فــى الافكار ، واظهار العنصر العربى دخيلا ومستعمرا وما الى ذلك – اللهم الا ما كتبه المؤرخ العبقرى سطيفان قزيل Stephane Gsell فانــه خصص لهم تاليفا قيما ، اجمع المؤرخـــــون الاختصاصيون ، انه اهم واجمع مصدر لتاريــخ الدول البربرية ، التى كانت تتمتع باستقــلال داخلى ، وكانت لها حضارة ممتازة ، الا ان كثيرا من المؤرخين لتلك الفترة اهملوها ٠

اما القسم الثانى فان جل كتابه كان هدفهــم من دراساتهم تصوير الفتوحات الاسلامية بانها فرضت دين الاسلام بالاكراه ، والسيف،وقطعت صلة البلاد مع الحضارة الغربية والكنيســة ، فتعطلت المدنية ، وتوقفت ، كما استنتجــوا ان الجزائر لم تتوحد فى تاريخها ، وانها كــانت دائما خاضعة للمغيرين ، واشهر هذه الطبقــة واكثرها صراحة ، هو فليكس قوتى Félix Gautier اما الطبقة الثالثة وهى التى تمثل الاكثرية ، فان معظم كتابها مجدوا بطولة قادة جيش الاحتلال ، واشادوا بالاستعمار ، وظهرت آثار هذه الطبقة، اثر انتهاء مقاومة الامير عبد القادر ، ثم عنــد الاحتفال المئوى للاحتلال سنة 1930 ٠

واذا امعنا النظر فى جل ما وصلنا مــن هذا السيل العرمرم من التآليف ، نجد القســم الذى يستحق العناية والاهتمام ، هو القســم الشبيه بالمذكرات ، او مجاميع سجلات التقارير الرسمية ، فانها تحتوى على جوانب مفيدة فى حاجة الى الدراسة والمراجعة والتحقيق ، ولهذا فانى فى هذا البحث ساتعرض للقطــات (وان كانت مفككة ومجملة) لمختلف كتاب هذه الاقسام المذكورة لاجنب القارىء الدخول فى التفاصيل التى يمكنه تتبعها فى مواضعها ، وهذا لا يمنع من الخروج عن هــذا الالتــزام ببعض الاحداث الجوهرية فاذكرها بنوع من التفصيل وهــذه الطريقة هى التى تفرضها مثل هذه الدراسات المحدودة ٠

القســم الاول

كتب ستيفان قزيل Stephane Gsell المتوفى فى الثلاثينات من القرن المسيحى الجارى، كتابه الشهير « التاريخ القديم لافريقيا الشمالية» والكتاب يشمل ثمانية اجزاء ، خص جلها لتاريخ

الحضارة البربرية فى المدة التى تتراوح بـــين سقوط قرطاجنة واحتلال روما للبلاد ، وهـــذه المدة لا تتجاوز خمسا وثمانين ومائة سنة ، (185) اثبت المؤلف ان قرطاجنة لم تكن هى افريقيا ، اذ كان جل مؤرخى تلك الفترة يقتصرون عـلى الاعتناء بالمراكز التجارية التى احدثتها قرطاجنة طوال شواطىء البلاد ، ومثل هؤلاء المؤرخين كمثل زملائهم الذين ـ ولا زالوا ـ اقتصروا فى تآليفهم التاريخية عن حياة الملوك وقصورهم ، ضاربين صفحا عـن حيـاة البـلاد وسكانها وحضارتها وثقافتها ، هذا الفراغ هو الذى حاول قزيل ان يتداركه ، فنجح حيث ان مقرظى كتابه متفقون على انه احسن ما الف فى الموضوع ، بل هـو التأليف الوحيد فى العالم لهذه الفترة ، ويعدونه موسوعة تاريخية جمعت ما تفرق فى غيره ، وميزته استنتاجاته التى دعم بها آراءه ، فمما ذكره قزيل فى الموضوع : « ان تاريخ عهد قرطاجنة لا ينحصر فى المدن التى احدثوها كمراكز تجارية بشواطىء البلاد . فان بداخل البلاد ، كـان يوجـد شعب كون امارات ، وكانت هذه الامارات البربريـة فى حالتى حرب وسلم مع حكام البلاد الفنيقيين ، اى القرطاجنيين ـ كما بقوا عـلى هذه الحالة فى عهد الرومان بعدهم ـ وان هذه الامارات كانت مجهولة تماما ـ الا القليل منها ـ لدى المؤرخين القدامى من اليونانيين واللاتينيين ، وان اتيح لنا اليوم ان نكشف القناع عن تاريخهم ، فذلـــك يرجع الى فضل النقوش باللغة الفنيقيـة ، او الليبية (لغة لم نعرف منها الا اسماء الاعلام) او العثور على بعض الآثار كالمسكوكات والاضرحة الخ . كما يرجع فضل هذه الاكتشافات الى صمود ومحافظة سكـان افريقيا ، اذ هـــم مشهورون ومعهم الايطاليون ، بانهم فى مقدمة الامم المحافظة على التقاليد والعادات » وقد ضرب المؤلف مثـلا لذلك بالتوارق الذين حافظوا على كثير من العادات والتقاليد ، كانت موجودة فى بلادهم قبل الاسلام ولم يمنعهم اعتناقهم للدين الاسلامى من المحافظة عليها ، وفيها ما تنكره تعاليم الاسلام ، ثم ذكر او عقد فصلا للحضارة المادية البربرية بين فيه نموذجا من طريقة استنتاجاته التى اتبعهـــا فى تاليفه فقال : « السكان كانوا يعيشون جماعات فان الآلة الحجرية المجموعة فى مكان واحد قرب منابع المياه ، تثبت وجود قرى آهلة بالسكان ، قريبة من منابع الماء ، ليمكن لهـــم الاستيطان والدفاع عن انفسهم ، كما ان الاسرة تكونت هنا من قديم ، بخلاف بلاد آسيا ، وان المرأة كانت وظيفتها القيام بشؤون المنزل وخدمة الصوف ، وتربية الاولاد والحيوانات ، وان روح الجماعـة والتفافها حول رئيسها ، ثم التفاف الجميع حول رئيس القبيلة ، كانت ساريـة المفعـول كانت العصبية العائلية تسود المجتمع البربرى ، كما كانت القرية تخضع لنظام الجماعة المنتخبـة ، وكان الانتخاب يختلف ، فمنه ما ينتخب صاحبه لمدة الحياة ، ومنه لمدة تمكن فيها عزل المنتخب وتعويضه بغيره ، ثم يذكر المؤلف ان هذه القبائل كانت كثيرة التمرد على الحكم ، وبعد ان يتعرض للامارات التى تكونت والى زعمائها ، ومواقعها ،

وحياة الابطال امثال سيفاكس وماسنيسا ويوغرطة والحروب التى خاضوا غمارها ، تعرض للحياة الاقتصادية ، ومنتوجات البلاد من حبوب وفواكه ، وخضر ، وتربية المواشى والنحل وصيد السمك وتصبيره ، وصادرات البلاد التجارية ووارداتها . ومساكنهم ، وانواعها تعرض للتمدن المعنوى ، فقال ان اخلاق البربر وعوائدهم لفتت انظار المؤرخين والباحثين القدامى ، فسجلوا لهم خصوصيات غريبة ، منها ان مجتمعهم كانت تسوده الطهارة والعفاف ولهذا كانوا يصلون الى ارذل العمر ، محتفظين بصحتهم البدنية المثالية فهم لا يأكلون اللحم الا قليلا – رغم تربيتهم للمواشى ومختلف الحيوانات – ثم نجدهم لا ياكلون لحم الخنزير ولا يربونه الخ ٠

ان هذا التأليف قيم فى موضوعه وصاحبه مشهور بالعلم ، وعمق التفكير ، وسعة الاطلاع وهو وان كان من اقطاب افريقيا المسيحية » « والجزائر الفرنسية » الا ان تاليفه هذا يتوقف عليه تاريخ البلاد ، فهو دعامة لربط حاضرها بماضيها ، اذ الحقبة التى تعرض لها المؤلف وخصص لها ما يزيد على مائتين والف صفحة تلقى اضواء على تاريخ البلاد الحضارى ، الذى كثيرا ما اهمل اذ نجد اشهر كتابنا لم يهتموا بهذه الفترة ، وكل ما يذكرونه عندما يجدون آثارا قديمة هذه العبارة « وفيها آثار للاول » ان لم تختلط بالاساطير ، او ما تعود العوام ان يطلقون عليها ، مثل قولهم « بلاد الجهلاء » او « الاصنام » أو « الحرية » ٠

القسم الثانى هو ما ذكر فيه العهد الاسلامى وهو كثير ايضا ، اذ تخلل هذا العهد الاحتلال الاسبانى لبعض مدن السواحل كوهران وبجاية ، وقد بقى الاسبان ما يقرب من ثلاثة قرون بوهران ، وفى هذه المدة اهتم كثير من مؤرخى الاسبان بتاريخ البلاد ، اذ كان هذا الاحتلال سببا فى اثارة الاحقاد الصليبية الكامنة فى نفوس كثير من الكتاب الذين كانوا لا يخفون ان بلاد الشمال الافريقى طبعت من العهد الرومانى بالطابع المسيحى وكانوا يرون ان الفتوحات الاسلامية جريمة لا تغتفر ، وتفننت هذه الطبقة من الكتاب الذين كانت تشجعهم الكنيسة ماديا ومعنويا لبث السموم وتشويه الحقائق ، ثم نجد هذه الفترة غيرت الاوضاع ، واستولت على البحر الابيض اعظم قوة بحرية عالمية صارت اساطيل العالم تقرؤ لها الف حساب وحاولت القضاء عليها بشتى الوسائل فلم تفلح ، فصارت تمدها بالفدية مكرهة ، وهذه القوة البحرية التى هيمنت على البحر الابيض طيلة ثلاثة قرون هى قوة الدولة التركية التى شبهها بعض المؤرخين بقوة قرطاجنة البحرية فى عهد ازدهارها ، ويذكرون ان البحر الابيض لم يشاهد مثل هاتين القوتين – أى التركية والقرطاجنية – فى تاريخه الطويل ٠

ورد الى الجزائر للاسباب المذكورة كثير من علماء اوروبا المتصلين بالجزائر وكذلك الرحالون والاسرى والتجار والقناصل فكتبوا الكثير عنها ويمتاز بعض ما كتب بجوانب مفيدة فرضت نفسها وصارت من المصادر الهامة التى لا يستغنى

عنها ، ومن ذلك تأليف الراهب الاسباني دييقو دي هايدو Fray Diégo de Haëdo الذي كان اسيرا فى الجزائر ودون مذكرات سماها «تخطيط وتاريخ عام للجزائر» واهم ما فيه تخطيط مدينة الجزائر ومعالمها وتاريخ ملوكها ، طبع هذا التاليف لاول مرة على نفقة الكنيسة الاسبانية سنة 1612 ثم ترجم الى الفرنسية سنة 1870 وقد اعتمده كل من اشتغل بتخطيط مدينة الجزائر وذكر معالمها كما اعتمده ايضا كثير من المؤرخين فى تاريخ الحكم التركي وتداول حكم الباشوات، ومما يلحق به كتاب « تاريخ شمال افريقيا » لمواطنه دييقو سارز Diégo Suarez الذى كان جنديا بوهران بين سنوات 1577 و 1604 تعرض فى تاليفه لجغرافية البلاد ثم للاسباب الداعية الى احتلال وهران والهجوم الفاشل للملك شارلكان على الجزائر ذلك الهجوم الذى كان من اسباب تخليه عن الحكم حيث ان مفعول الهزيمة اثر فى معناوياته ، ففقد توازنه وقد عبر عنه احد متأخرى الكتاب (1) بقوله « وشارلكان الذى اشابته الاحداث ، غادر الجزائر مطاطىء الراس وطلقات المدافع يملأ دويها اذنيه ، غادر شارلكان اسوار الجزائر التى شاهدت ابتداء تقلص ظله » كما وصف سيارز الاسباني بعض المعارك شاهدها ، واهم ما فى الكتاب اعتراف مؤلفه بالحياة التعيسة التى كان يحياها الجيش الاسباني المرابط بوهران الذى شبه حياته فيها بحياة المساجين فى سجونهم وتعرض لقادة الجيش فاتهمهم بالجشع والطمع والسرقة ونقض العهد ، وضرب امثلة لذلك منها ان القائد الاعلى للجيش الاسباني كان يتعهد للقبائل الموالية لهم بالحماية ، فاذا به يهاجمهم فى حللهم للاستحواذ على اموالهم ومواشيهم ، وعندما يرجع جيشه الى وهران حاملا الغنائم ، يتقدم الجنرال من دون حياء ولا خجل ، فيقطع لنفسه قسمة الاسد، ثم يذكر بان العدل والنزاهة لا يحلم بها الا المتملقون ، وان كل ما يقع فى البلاد من احداث وهزائم ومجاعة يجهلها الملك ، اذ تصله التقارير مزيفة ، وان ما قاله هذا الكاتب يؤيده آخرون من مواطنيه صوروا الحياة بوهران بحياة الجحيم ، وهم اقلية ، ولكن بعد مرور الزمن اعترف المؤرخون الاسبانيون انفسهم بان كل من صوروا الواقع الوهراني بغير ما وصفته هذه الاقلية كانوا من طبقات الكتاب المأجورين او المتعصبين للكنيسة ، التى لم ترد ان تعترف بان هجومها واحتلالها لهذه المدينة كان كارثة على البلاد ، اقتصاديا ، ولنرجع الى ما كتبه بعض المؤرخين الفرنسيين وغيرهم لهذه الحقبة ، ولنبدا بأشهر كتاب لفت انظار القراء والكتاب وحظى بنقد تحليلي لمحبذيه من العنصريين والاستعماريين وصار عندهم الكتاب المفضل وعنوانه يدل على مضمونه « ماضي افريقيا الشمالية في القرون المظلمة » لاميل فليكس قوتي E. F. Gauti 1864-1940 الاستاذ السابق بمدرسة الآداب العليا بالجزائر، كان هذا المؤلف من غلاة المعمرين له عدة تآليف لم يخف فيها هويته الاستعمارية المتطرفة ، وقد كان تخصصه فى الجغرافية فعين استاذا فيها بالمدرسة المذكورة فى اواخر القرن المنصرم ، ولهذا ارتكب عدة غلطات فادحة ، تتناقص فى

1) الكاتب دوميتيك لوسياني مدير الشؤون الاسلامية السابق بالولاية العامة ورئيس النيابات المالية فى تابينه للكاتب ستيفان قزيل بالمجلة الافريقية سنة 1931

كثير من الجزئيات مع الاختصاصيين فى التاريخ ، حتى من الاستعماريين انفسهم ، ومن جملة ماذهب اليه فى تاليفه المذكور « هو ان سكان المغرب اى العنصر البربرى لم يملك شؤونه ابدا ، وبقدر ما نبحث فى التاريخ نجد سلسلة متصلة الحلقات لاحتلال الاجانب لهـذه الـبـلاد ، ان الفرنسيين خلفوا احتلال الاتراك ، الذين خلفوا احتـــلال العرب ، الذين خلفوا احتلال البيزنطيين الذيـن خلفوا احتلال الوندال ،الذين خلفوا احتـــلال الرومان ، الذين خلفوا احتـــلال القرطاجنيين ، وليسجل التاريخ ان هؤلاء المحتلين على اختلاف اجناسهم وازمنتهم كانوا يتصرفون بكامل الحرية فى شؤون البلاد الى ان يخرجهم ويطردهم محتل آخر ، يرث بدوره البلاد ان السكان الاهالى لهذه البلاد لم يتوصلوا يوما مـــن الايـام الى طـــرد مستعمريهم » ثم يقول : « ومع هذا نجد ان هؤلاء الراضين باستعمار بلادهم من دون ان يحركـــوا ساكنا ليسوا من الاجناس الهادية فانهم رجـال حروب ، ولهم قادة وابطال من عهد حنبعل Annibal الى عهد الامير عبد القادر » .

ثم يعقد فصلا للتاريخ فيقول ان المغـــرب يبدؤ مع الحروب الفنيقية فى الوقت الذى تكلم فيه المؤرخـون اليونانيـون واللاتينيون مكـــان المؤرخين القرطاجنيين الذين سكتوا ، فاننا نجد آخر عهد قرطاجنة وتاريخ افريقيا الرومانيـــة روايات نخبة رجال التاريخ مثل بوليب Polybe وصالوستر Sallustre وتيتليف Tite-live التى القت عليها الاضواء آثار البناءات والنقوش بل صقلتها وهذبت فصولها فى مختلف العصور . الموسوعة التاريخية القيمة لقزيـل التى لا زالت لم تتم » (هى التى تحدثنا عنها فى القسم الاول)

ثم يقول : « ان تاريخ المغرب ابتدا فى غايـة الوضوح ، الا انه اعقبه الظلام طيلة قرون ، الى ان كان القرن الثانى عشر المسيحى ، فقد ظهـرت الوثائق المتعددة لعهـــدى المرابطين والموحدين ، وهذه الآثار سواء منها البناءات او الكتابة فانها لا زالت مبعثرة » ثم قال مفسرا لعنوان كتابـــه ومدلوله « القرون المظلمة من ماضى تاريخ افريقيا الشمالية » ان العصر المظلم الذى هو فى حاجـة الى الانارة والبيان ، هو ما بين الغزوتين العربيتين الغزوة الاولى التى قام بها الامراء ممثلوا الخلافة الاسلامية فى آخر القـــرن السابـع المسيحى ، والثانية التى قام بها البـدو الهلاليـون والتى ابتدات فى منتصف القرن الحادى عشر المسيحى ، فهذه الفترة تنفصل تماما عن التاريخ المغربى » وبعد ان يذكر ان هذه الفترة من تاريخ البـــلاد المغربية التى شاهدت فتح الاندلس وصقليـــة ومصر يمكننا ان نسميها قرون المجد ، حيـــث شاهدت ذروة المجد ، ومع هذا فهى فى الـوقت نفسه « القرون المظلمة » ، فانها القرون المجهولـة فالفاتحون المسلمون لم يهتموا بالتاريخ ، فالعربى همجى ، لايهتم بالتاريخ ، فلم يظهر حب الاطلاع العلمى الا فى ايام الدولة العباسية عندما افـل نجم العنصر العربى وخلفـــه العنصر الفـارسى والشرقى الممثل للمدنية الفارسية التى اجتاحتها الغزوات العربية الخ .

ثم نجد من كتاب هـذه الفتـرة الراهب الانكليزى شاو Schaw الذى عاش ما يزيد على العشر سنوات تجول فى ربوعها ، تعـرض لوصف كثير من المدن ولاخلاق السكان وعوائدهم ومعيشتهم ، وقد نشرت هذا التاليف جامعـة اكسفورد Oxford سنة 1738 ، وترجـم الى الفرنسية ثم اخيرا لخص وترجم الى العربيـة وهو مفيد ، كما زار الجزائر سنة 1732 الكاتـب الالمانى هبوستريت Hebeustreit وكتب عنها وبيصونيل الذى زار الجزائـر PEYSONNEL سنة 1725 وفنتور دو براد Venture de Paradis الذى زار الجزائر سنة 1788 والاب رينال Abbé Raynal ولوجى دو طاسى Laugier de Tassy الذى قدم تاليفا لمؤلف هولاندى طبع بأمستردام سنـة 1725 وطبع فى باريس بعد ترجمته سنة 1727 ، ومعظم هؤلاء الكتاب اقاموا بالجزائـر لمختلف الاغراض ، وسجلوا انطباعاتهم ، ومشاهداتهم ، او ما استقوه من المعلومات عن الاوربيين المقيمين بالبلاد ، او من السكان المسلمين الذين كانـوا يتصلون بهم، بحكم وظائفهم ومهنهم وهى لا تختلف عن بعضها ، واكثرها نظريات سطحية ، ويمتاز من هؤلاء المذكورين لوجى دو طاسى Laugier de Tassy فانه فى تقديمـه للكاتب الهولانـدى رد عليـه الاتهامات التى اتهم بها الجزائر : منها التعصب الدينى فقال فى رده عليه « ففى الميدان الدينى نجد احسن شىء واروعه التسامح ، وهذا التسامح موجود فى الجزائر ، ويستحق سكانها الشكـر والاعتراف بالجميل » ثم قال « ان حكومة الجزائر لها سلوك ممتاز فى هذا الميدان فانها تترك الحرية التامة للمتدينين الساكنين ببلادها ، وبقـدر ما يشتهر عندهم الانسان بالتدين الا ويرتفع قدره عندهم ويحترمونه ويحمونه » ويناقش دو طاسى المؤلف الهولاندى الحساب ويظهر له مصدر هذه الاتهامات فيقول « ان منبع هذه الحملة المغرضـة هم القسيسـون المنسوبون الى جمعيـة الافتـداء المسيحية Redempteurs التى انشئت فى نابولى سنة 1731 ويسمون انفسهم بالمنقـذين والمخلصين والفادين (للاسرى المسيحيين الذيـن كانوا بالجزائر) فانهم هم الذين يتهمون الجـزائر بانها تضغط على الاسرى المسيحيين وتكـرههم على اعتناق الاسلام ، وهذا غير صحيح ، ويخاطب هؤلاء القسيسين فيقول لهم : ان شهادتكـم لا تقبل حيث ترتكبون اشنع الفظائع باسـم الدين ، فانكم تبيحون الفتك بالمسيحيين الذين من سوء طالعهـم ولدوا من آبـاء مسيحيين ، Protestants ويرد مزاعمهم فى الاكراه عـلى الاسلام ، فيقول : ان الجزائريين لا يثقون فـى الاسرى المعتنقين للاسلام ، اذ يرون ان دخولهـم فى الاسلام صورى ، يقصدون به قضاء مآربهم» الخ

اما القسم الثالث فان كتابه كما ذكرنا ينقسمون الى فرقتين : الفرقة الاولى واكثر افرادها مـن الضباط الذين خاضوا غمار حرب الاحتـلال فدونوا احداثها ككتاب «حوليات الجـزائـر» Annales Algériennes لبليسيى دوورينـو Pellissier de Reynaud الذى سجل احداث الجزائر ما بين سنوات 1848 و 1854 والكتـاب

يقع فى ثلاثة اجزاء وطبع بالجزائر سنة 1854 ، وهو من المصادر الهامة لذلك العهد ، وكثير من الكتاب يعترفون لمؤلفه بالشجاعة الادبية وبالنزاهة النسبية ، اذ نجد كثيرا من تصريحاته وتعليقاته على الاحداث لم تكن فى صالح السلطات ، كما يمتاز كتاب هذه الفرقة بسجلات تقاريرهم التى جمعت وطبعت بمناسبة الاحتفال المئوى،فنجدها تعرضت لكثير من احداث حرب الاحتلال كالمعارك الشهيرة «واقعة وادى المقطع» «واقعة سيدى ابراهيم» «طاقين» «الوفايا» «واقعة التنصير» فصورتها على ما يقرب من الحقيقة واعترف فيها كتابها بالغلطات الفادحة التى ارتكبها الجنرال تريزيل وتسببت فى هزيمة « وادى المقطع » ، والغلطة التى ارتكبها زميله الكولونيل دومنطانياك Mantagnac ولقى فيها حتفه بسيدى ابراهيم الخ . وهؤلاء الكتاب هم الجنرالات دوبورمون De Bourmont وكلوزيل Clauzel وقوارول Voirol ودامريمون Damrémont الخ ، ثم اعقب هذه الطبقة كتاب آخرون واصلوا آثارهم ، وجلهم اشادوا بالاحتلال وصفقوا لنجاحه ، خصوصا انصار الكنيسة الذى كان شعارهم « افريقيا اللاتينية» و « الجزائر الفرنسية » ، اذ كانوا يرون ان احتلال فرنسا للجزائر عبارة عن امتداد المدنية الرومانية فى هذه الربوع التى حال بينها الفتح الاسلامى ، وقد صرح بذلك كثير منهم ككاط E. Cat المبرز فى التاريخ ، والاستاذ بمدرسة الآداب العليا بالجزائر فى تاليفه « التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس » المطبوع فى الجزائر سنة 1891 (مطبعة جوردان) فقال : «فى الخامس يوليو امكن للجيش الفرنسى ان يخرق باقدامه شوارع الجزائر الضيقة مسلحا ، تلك الشوارع التى امتنعت على الملك شارلكان ولويس الرابع عشر ولم تطأ اقدام اجدادنا طرقاتها الا مكبلة بالحديد ، اسرى او عبيد ، فهذا مبدا اعظم احتلال يسجله التاريخ لفرنسا » ، ثم استدل المؤلف بكلام ركلوس O. Reclus الذى قال فى الموضوع : «ان هذا اليوم عظيم لان هذا الانتصار ليس هو من الانتصارات العقيمة الملوءة بها بعض صفحات كتبنا ، انه ليس انتصار مارينيان Marignan ولا روكروا Rocroy ولا فونتناى Fontenay ولا واقرام Wagram فهذا الانتصار هو احتلال الجزائر فى 5 يوليو 1830 ، ان هذه البلاد بموقعها ستسهل علينا الحاق جناحيها وبلاد الصحراء وتفتح لنا الطريق الى السودان » الخ . (يقصد بالجناحين المغرب وتونس) وهذا الكتاب رغم افكار صاحبه الاستعمارية يحتوى على حقائق هامة سنذكرها فى موضعها ، ولننتقل الى الحديث عن كتاب ظهر اخيرا اى طبع سنة 1965 وهو من نوع المذكرات نشره الكاتب بيير سيرڤال Pierre Serval تحت عنوان «المجهولون فى التاريخ» وهى مذكرات للماريشال دوبورمون قائد جيش الاحتلال الفرنسى للجزائر ، لم يسبق نشر كثير من فصولها قال الكاتب فى مدخل تاليفه : «انه منذ مائة وثلاثين سنة فى برج قصر انجقان Angevin

توجد بعض الوثائق المهملة ، وبعد الاطلاع عليها يكتشف القارىء الاسرار الغامضة التى تتعلق باحتلال الجزائر سنة 1830 » ثم يقول : «ان هذه الاحداث وان كانت قديمة ، فانه يمكن تطبيقها على الحالة الحاضرة ، حيث ان التاريخ يعيد نفسه ، ان التشابه بين قضية الجزائر فى القديم والحديث ، بلغ الى حد انه يمكن للانسان ان يكتفى بتغيير الاسماء والتاريخ فقط ، حتى يظن ان احداث هذا العهد هى نفس احداث الماضى » ثم يقول : « اننى اعد نفسى محظوظا حيث ان الفرص اتاحت لى الاطلاع على مئات الوثائق ، الكثير منها مجهول ، وان صحتها لا نزاع فيها ، ان هذه الوثائق سجل لوزير الحرب اذ ذاك وقائد جيش الاحتلال الفرنسى ، ولأهمية هذه الوثائق والحفاظ بقيمتها ، اخترت ان اتوارى وراء ممثليها الحقيقيين ، فأتركهم ، يتحدثون عن الاحداث التى مثلوها بدلا منى ، وان ما ذكرته لم يتمكن لى ، لولا فضل الكنت دوبرومون Comte Louis de Bourmont وقرينته اللذين فتحا لى باب برج قصرهم العتيق ، وتركا لى الحرية التامة لتصفح وثائق جدهم الماريشال دوبورمون ، كما انى مدين للكولونيل هنرى دوبرومون الذى شرح لى احداث تلك الفترة ذلك الشرح الذى يدل على سعة الاطلاع » .

ثم يتعرض المؤلف سيرڤال (1) فى الفصل الاول من التاليف الى سرد احداث محاولة شارلكان الفاشلة لاحتلال الجزائر سنة 1541 ، كما هو معروف ، ثم يذكر ما نسب الى الفارس الفرنسى بونس دوبالاقير Ponce de Balaguer الذى غرز سيفه قرب باب عزون وصرخ بقوله « سنرجع » وقال ان هذه الكلمة صارت شعارا من ذلك العهد لقادة الحروب منهم ماك ارتور Mac Arthur الامريكى الذى رددها عند ما اخرجه اليابان من جزر الفيلبين . ثم يتعرض المؤلف للتطاحن الذى كانت باريس مسرحا له بين الجمهوريين والملكيين وكيف استغل الملكيون قضية المروحة وبين بتفصيل ما ايد به آراءه من هذه المذكرات ، والذى يهمنا منها ـ ان المذكرات ـ وله علاقة بموضوعنا هو دور التاجرين اليهوديين بوشناق وباكرى فى قضية المروحة ، والاحتلال الفرنسى ، ان قضايا اليهود ومواقفهم ازاء المسلمين ودولهم من قديم الزمان لا ينبغى لها ان تهمل ، او تعد من القضايا العادية ، بل ينبغى لها ان تدرس مرتبطة ببعضها ، وقد علمنا ان وجود اليهود بالجزائر قديم ، وقد آوت الجزائر ـ باعتراف المؤرخين اليهود ـ اللاجئين منهم والمطرودين من مختلف البلاد الاوربية ، ابتداء من القرن الرابع عشر المسيحى ، الى ان وصل عددهم فى عاصمة الجزائر قبل الاحتلال الفرنسى الى ستة آلاف نسمة ، وقد علمنا انهم اعترافا بجميل الاحسان شاركوا فى المؤامرة التى سهلت على الاسبان احتلال المرسى الكبير ، ثم تطوعوا للجوسسة لصالح الاسبان بعد احتلالهم بجاية ،

(1) "Les Méconnus de l'Histoire". (Le Maréchal de Bourmont) par Pierre Serval (Edit. Caliman-Levy Paris 1965)

الى ان امر بطردهم الملك شارلكان (1) لما اخفق في هجومه على الجزائر سنة 1541 وقال قولته المشهورة في حقهم : « اننا اخرجناهم واطردناهم من بلادنا بخسة الغدر المتأصلة فيهم ، وقد آواهم اعداؤنا واحسنوا اليهم وبدلوا خوفهم لنا بجوسسة اللئام » هذا كله معروف في كتب التاريخ وانما اردنا تذكير القراء قبل ان نتحدث وننقل رواية صاحب المذكرات قائد جيش الاحتلال دو بورمون فشهادته لها قيمتها ووزنها ، وقد كشفت القناع عن الدور الخطير الذى لعبه اليهود اذ ذاك في سياسة حكام الجزائر وجعل كثيرا من المؤرخين والكتاب يتساءلون عن اسباب تدهور الدولة التركية في آخر عهدها وكان ختامه احتلال البلاد ، قدم المؤلف لحديثه عن قضية اليهود مدخلا قال فيه : «عند ما خفق شارلكان في حملته – 1541 – وايس من الاستيلاء عليها كان عمر الجزائر كقاعدة وعاصمة ثلاثين سنة ، ولكنها عاشت ثلاثة قرون مهيمنة على البحر الابيض ، مستعبدة للمسيحيين الذين كانوا يرزحون تحت قيد السلاسل والاغلال ، وقد بلغت ثروتها بفضل غنائم قراصنتها (غزاتها) الرقم القياسى الذى لم تبلغه دولة اخرى حينئذ ، وقد هاجمها بعد شارلكان الاميرال الفرنسى دوبوليو de Beaulieu باسم الملك لويس الثالث عشر ، ثم الملك لويس الرابع عشر بواسطة قائد اسطوله الدوك دوبوفور de Beaufort سنة 1663 ثم في سنة 1668 القائد الفرنسى دسترى d'Estrée فكانت النتيجة واحدة : الخيبة ، ثم تجددت هجومات الاميرالان دوكس و تورقيل (Duquesne)و(Tourville) فارتطما بنفس الخيبة .

فتداخل بعد هذا الدانمرك ، ثم الاسبان سنوات 1773 و 1783 و 1784 فكانت هجوماتهم كضربة السيف في الماء ، ثم اهتم بها نابوليون بونبارت واعد للامر عدته ، فلم تساعده الظروف ، فخلفه للقيام بالمهمة اعداؤه الانكليز فارسلوا سنة 1816 اللورد اكسموت Exmouth فخفق ، ثم اعادوا الكرة سنة 1824 وكان قائد الاسطول الاميرال نيال Néale فكانت الخيبة المتكررة المعروفة . ثم يدخل الكاتب في الموضوع ويبين موقف الملكيين الذين كانوا يخشون من انفجار الثورة ، فاتفقوا على ان املهم الوحيد في التغلب على الاحداث ، هو تجنيد جيش وخوض غمار حرب والتحصيل على نجاح ولو وهمى ليشغلوا بها الراى العام ، فكانت قضية المروحة ، وبعد حديث مفصل ينتقل المؤلف الى الحديث عن قضية دين اليهود فيتحدث عن علائق اليهودى جوزيف باكرى مع طاليران وزير نابليون ، ثم يتعرض لمكانة طاليران عند نابليون فقال : « كل ما يعرفه نابليون يعرفه طاليران ، والعكس بالعكس ، اللهم الا مسألة واحدة كان يعرفها طاليران ولا يعرفها نابليون وهى

(1) مر شارلكان على مرسى بجاية في طريق عودته بعد الهزيمة ووجد الاهالى بلباسهم في البلدة فاخبرانهم يهود اسبانيا المطرودين تطوعوا بالجوسسة لمعرفتهم لغة البلاد والاسبان

علائق طاليران مع التاجر اليهودى جوزيف باكرى » ولهذا فوجىء نابليون عند ما اطلع على تقرير سرى ارسله طاليران الى زميله وزير المالية روبير لاندى Robert Lindet مؤرخ فى 24 اوت 1800 نصه : « ان علائقنا مع الجزائر تستوجب ان نظهر لليهود نوايانا الحسنة معهم ولهذا فان قضية الدين لا ينبغى ان ننظر اليها من زاوية العلائق التجارية الخاصة العادية بل ينبغى لنا ان نعتبرها قضية دولة » .

ثم تساءل المؤلف فقال ما هو هذا الدين ؟ واجاب عن سؤاله بما يلى : « كان الفلس يهدد حكومة فرنسا من جهة ، وخطر المجاعة يهددها من جهة اخرى ، فكانت الدولة اذ ذاك فى اشد الحاجة الى القمح ، مهما بلغ ثمنه ، فتوجهت حكومة المديرين Directoire الى داى الجزائر، ونظرا لعلائقه الودية مع فرنسا اذ ذاك ، اجابهم لرغبتهم ، فباع لهم ما قدره مليون فرنك قمح ، وتبرع لهم بقرض من دون فائض .

كلف الداى شركة اليهود لتنفيذ الصفقة التجارية ، وتحمل ضمان المبلغ من خزينة الدولة، ثم ذكر المؤلف تفاصيل الصفقة وما جرته لليهود من ارباح ، اكثرها معروف فى كتب التاريخ ثم بين افراد الشركة ، ونشاطها التخريبى فى المنظمات الحربية والاقتصادية فى البلاد، فاعرضنا عنه ، لطوله واخترنا تتبع جوانب ما يهم من قضية الدين .

امكن لطاليران ان يحصل لباكرى الذى زاره بباريس اعترافا من الحكومة الفرنسية بما قدره مليونان ومائتان وسبعة وتسعون الف فرنك وتعهدت فرنسا ان تدفع هذا المبلغ بالتقسيط الا انه عند ما توترت العلائق بين تركيا وفرنسا وانقطعت العلائق بين الجزائر وفرنسا بسببها ، توقف دفع الدين الى ان وقع اتفاق بين الداى وممثلى فرنسا مؤرخ فى 17 دصمبر 1801 ، من جملة بنوده . تعهد الجانبان بتسهيل دفع ديون رعايا كل من الدولتين ، فكان مبلغ دين اليهود تضخم الى ان وصل ثمانية ملايين فرنك ، فقبض منه ثلاثة ملايين ، ثم مليون ومائتى الف فرنك وكان الداى اذ ذاك يجهل تفاصيل هذا الدين وانما كل ما يعرفه من القضية ان لرعاياه اليهود دين على فرنسا يجب الاسراع بقبضه ، فتكونت لجنة برلمانية فى فرنسا للبحث فى هذه القضية ، فاقرت هذا الدين لخبر يطول واكتفى المؤرخ بالاستدلال على ما حكم به احد كبار المؤرخين لما تعرض للحديث عنها وهو قابريال اسكير Gabriel Esquer صاحب كتاب «احتلال الجزائر » La Prise d'Alger سنة 1830 قال « ففى هذه القضية نجد الحكومة الفرنسية ودائنى الشركة اليهودية بل حتى اعضاء الشركة اليهودية (وهم كلهم من اسرة باكرى وبوشناق) كلهم خدعوا من طرف جوزيف باكرى الذى كان يتظاهر بالبلادة » ثم ذكر المؤلف ان الامير سكست دو بوربون Prince sixte de Bourbon علق على هذه الفقرة بقوله « كلهم خدعوا ماعدا طاليران » .

واننا ذكرنا هذه القضية بنوع من التفصيل

لان لها ابعاد واشباهـــا فى التاريخ العـــالمى وبالخصو ص الاسلامى ، اذ لم تكن هذه الكارثـة مقصورة على قضية الدين الملفقة والتى كانـــت خيوطها بباريس ، ولا نريد ان نطيل على القارىء وسنرجع اليها فى فرصة اخرى وانما تتميـــم للموضوع انقل ما وعدت به عند الحديث عـــلى المؤرخ كاط E. Cat السابق الذكر فقد وجدنا فى تاليفه ما ايد به دو بورمون فى مذكراتـه ، وحديثه تفسير لما تساءل عنه كثير من المؤرخين (1) عن سبب تدهور الحـكم التركى فى اواخر عهده فقال « ... عند ما اندلعت ثورة فرنسا سنـــة 1789 امتنع الباشا حسن ان ينضم الى اعداء الثورة لعلائقه الحسنة مع فرنسا ، وذلك رغم تدخـلات انكلترا ، واغراءاتها ، وقد انقذها من شبـــح المجاعة التى كانت تهددها ، فسهـــل لها شراء القمح واقرضها خمسة ملايين فرنك مـــن دون فائض » ثم قال المؤرخ كاط فيما يخص اليهـود « ان يهوديين لهما نفوذ وهما بوشناق وباكرى دفعا هذه الحبوب وقد جرت هذه القضية مشاكل معروفة ، ثم ذكر وفاة الداى حسن سنة 1798 اثر مرض وخلفه صهره الخزناجى مصطفى (1798 — 1805) ويذكر ان هذا الداى كان كناسا بشوارع العاصمة . جهولا فظا ، وهو مدين بمنصبه لليهودى بوشناق ، فلهذا كان لليهود فى عهـده التصرف المطلق فى شؤون البـــلاد فبسبب تداخلهم فى شؤن الدولة وقعت مصادرات لا نهاية لها كمـا

وقع عزل كثير من البايات ثم اجراءات استثنائية ضد القناصل الاوربويين،فغصبت اموالهم، واهين كثير منهم ، ومن هؤلاء قناصل انكلترا ، والسويد والدانمارك ، فقد عوملوا بقساوة واهانة ، بخلاف قنصل فرنسا ، فانه كان محاطا بالتجلة والتقدير الى حد ان الخليفة العثمانى لما امر الداى باعـلان الحرب على فرنسا بسبب الهجوم على مصر ، امتنع الداى من تنفيذ امره،وعندما تكرر الامر المصحوب بالانذار ، اكتفى الداى بالقاء القبض على بعض الرعايا الفرنسيين ، وكانت معاملتهم حسنـــة ، وقد اعتذر الداى لفرنسا (سنة 1799) معترفا لها انه اقدم على هذا الفعل مكرها ، وبعد مـدة تغيرت الاحوال وهاجم الاسطول الجزائرى بعض شواطىء فرنسا وهددها باعلان الحرب لخبر يطول

ثم يتعرض المؤلف لقضية اليهـــود فيقول : « ان نفوذ اليهود المتالق ، وعجبهم وغـــرورهـم بانفسهم ، جر عليهم موجة غضب من طرف السكان ولم يكن الغضب خاصا باليهوديين بوشنـــاق وباكرى بل شمل معهما الداى الذى كان يأتمر باوامرهما ان عدة مظاهرات غضب انفجرت ضده وفى ثلاث مرات اصيب وهذا نص الاصل :
وفى ثلاث مرات اصيب من جرائها بجروح خطيرة وهذا نص الاصل :

«Cependant la faveur croissante des Juifs, leurs vanité de parvenus, leur avaient attiré de nombreux ennemis. Buschnack et Bakri particulièrement étaient détestés et le Dey qui écoutait leurs conseils était enveloppé dans la même haine. Plusieurs emeutes éclatèrent. contre lui, trois fois à diverses reprises il reçut des blessures graves».

1) منهم حمدان بن عثمان خوجة فى المرآة فانه عقد فصلا هاما تعرض فيه للتصرفات الجنونية فى ذلك العهد

كانت اخطر هذه المظاهرات هي الواقعة في يونيو 1805 وسببها ان جنديا تركيا (انكاشري) اطلق على اليهودي بوشناق طلقة نارية اردته قتيلا ٠ وقد خاطبه عند اطلاق الرصاص عليه بقوله (خذها يا ملك الجزائر اذ كان لقوة نفوذه يطلق عليه لقب ملك الجزائر) ٠

وقد تسابق رفقاء الجندي اليه فحملوه على الاكتاف معلنين اغتباطهم بفعلته ، اما الداي فقد احس بالخطر ولم يسعه الا العفو عن القاتل اذ بمجرد ما بلغ السكان خبر القتل ، تسابقوا الى الحي اليهودي ، فنهبوه وخربوا دوره ، ومتاجره ، وقتلوا خمسين فردا منهم ، اما رد فعل الداي فكان ان امر بالقاء القبض على كثير من اعيان اليهود وابعاد الآخرين لينجي نفسه من تهمة حماية اليهود وصداقته لهم ، ومع هذا لم يسمح له السكان فقد ذبح بعد شهرين من قتل بوشناق وذلك في اوت 1805 وقد طالت المظاهرات ضد اليهود ، ثم توترت العلائق بين الجزائر وفرنسا من جديد ، واطرد الداي قنصل فرنسا ، ونكاية فيها حسنت الجزائر علائقها مع انكلترا ، فغضب لذلك نابليون وعمد الى الهجوم على الجزائر فكان تكليف الكمندان بوتان Boutin بتسطير تصميم الجزائر ، ذلك التصميم الذي اعتمده جيش الاحتلال فيما بعد ٠

هذه صفحات لا ينبغي دراستها متفرقة ومقطعة ومع الاسف لم يتعظ بها حكام الجزائر اذ ذاك خصوصا بعد ما اشتهرت قضية الدين وحوصرت الجزائر ما يقرب من ثلاث سنوات ثم احتلت ، وقد ظهر موقف اليهود بعد الاحتلال الفرنسي ، فقد شاركوا الفرنسيين في افراحهم رجالا ونساء ومع هذا كله نجد احمد باي قسنطينة يعين يهوديا للتفاوض مع الجنرال داميريمون اي مع ممثله الذي ارسله لهذا الغرض الى تونس ، ثم عين مرة ثانية يهوديا آخر كان من خدامه ليتفاوض من جديد مع داميريمون الذي كان هذا اليهودي الثاني المسمى بوشناق ، من سكان العاصمة وكان من ابرز جواسيس داميريمون نفسه ، اما اليهودي الاول فكان اسمه ابن باجو ، ثم نفس الغلطة تكررت في عهد الامير عبد القادر الذي عين ممثلا يهوديا بالعاصمة ، وقبل ان نختم هذه الدراسة نذكر ان كثيرا من مؤرخي فترة الاحتلال الفرنسي لم يخفوا ما وجده جيش الاحتلال الفرنسي عقبة في طريقه ، واعترف بعجزه عن ازالتها ، او تذليلها ، ولنقتصر على ما كتبه في القضية المؤرخ الشهير موريس (1) وهل Maurice Wahl وقد نشره وقدمه المؤرخ الشهير اوقستان برنار وهو كذلك من اقطاب غلاة المعمرين ، قال لما تحدث عن طبقات سكان البلاد اذ تاليفه خصه لجغرافية الجزائر : « ان الذي يجمع بين سكان الصحراء وفلاحي التل هو الدين ، كلهم مسلمون : فالمساجد والزوايا والقبب (الاضرحة) هي مراكز تجمعاتهم ، ان الكثيرين

(1) "L'Algérie" par Auguftin Bernard (Edit. Alcan Paris 1903).

منهم منخرطون في الطرق : الرحمانية ، الطيبية ، القادرية ، التجانية والسنوسية ، فهي كلها طرق قوية واخطرها السنوسية ، ان اكثريتهم متشبثون بتعاليم دينهم وقليل منهم من لم يراع هذه التعاليم : وضوء ، صلاة ، صيام رمضان ، وفي كل سنة يذهب الآلاف منهم الى الحج ، فمنهم من يموت في طريق الذهاب او الاياب ، ومنهم من يرجع منهوك القوى من اثر التعب والحرمان ، الا انهم مسرورون باداء الواجب المقدس ، ان هذه الروح الحماسية في التعلق بالدين ، هي العائق الوحيد الذي وجدناه في طريقنا ، فهي التي تعزز الروح الوطنية لايقاد نيران الغضب ، وتشجيع المقاومة ، ان معظم الثورات التي اجتاحت البلاد كانت بسبب دعاية رجال الدين والانكى انهم بمجرد اعلانهم الحرب على العدو الكافر ، تزول الخلافات بين الافراد ، وبين القبائل ، فهذه هي الحقيقة المخيفة دائما ، والتي لربما نصل الى التخفيف من وطأتها ، الا ان القضاء عليها صعب جدا » ، ثم يقول : « اما تنصير المسلمين الذي يحلم به بعضهم فهو خيال وحلم محفوف بالاخطار ، فتعاليم الاسلام بسيطة ، ومعنوياته واضحة ، فهو من هذه الناحية لا يختلف عن بقية الاديان التوحيدية، انه شبيه لها ، فالمسلم متعصب غير متسامح ، ولكنه في هذه الاحوال شبيه ببقية المتدينين الآخرين من مسيحيين ويهود ، وان القرآن وان كانت توجد فيه آيات تشيد بالقوة المادية ، فانه يشتمل على آيات تدعو الى الرحمة والعدل . فمحاربة التعصب او تلطيفه يكون بنشر الحضارة والعلم ، فالاديان السماوية وحدها غير كافية ، فهي في حاجة الى نشر العلم ، وتعزيزها به ، والاهلي الجزائري سيبقى مسلما ، كما ان الفرنسي المسيحي يبقى مسيحيا ، الا انه سيصير رجلا معاصرا لقرنه » . اهـ كلام المؤرخ وهل

وما نقلناه في ختام هذا البحث للمؤرخ وهل واقستان برنار هوما كاد ان يجمع عليه بقية المؤرخين آراءهم ، الا ان هذه الحصانة ، حدث ما يهددها بالتزعزع : طغيان الروح المادية ، ومتطلبات المادة التي انغمس فيها الافراد والجماعات ، فالروح الدينية التي كانت تجمع اشتات القبائل لم تعد كافية وحدها في مجتمع صار كثير من افراده يحاربون التقاليد والتعاليم الدينية ويتنكرون لها .

موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر

عثمان الكعاك
مؤرخ تونسي

1) تصدير صغير ·

هنالك قواعد اصولية وبديهيات مسلمة هى جوهر هذا الموضوع الذى نطرقه والعمود الفقرى منه وقطب الدائرة له والموضحة لأساسه ، والرافعة لالتباسه فلا بد من ايرادها اولا وبالذات

ا) القاعدة الاولى ·

هى ان كل امة وقعت تحت حكم غيرها تكون مصادرها التاريخية طوال حكم الاجنبى بلغة هذا الاجنبى ، وبمفاهيمه ، ونزعاته ، وما تقتضيه احكام سياسته · فما يؤلف فى التاريخ من كتب

تتعلق بتاريخ الامة العام ، أو تاريخ جهة منجهاتها أو قبيلة من قبائلها ، أو مؤسسة من مؤسساتها ، لا يكون الا بمقتضى القاعدة الاولى التى بيناها • ويضاف الى ذلك ما يؤلف من مذكرات أو يوميات أو اخبار وقائع يؤلفها القواد المحتلـــون ، فهى مرآة صادقة للنوايا المبيتة والتخطيطات المسطرة • ويكفينا شاهد على ذلك رسائل الماريشال بيجو الى زوجته وهى مطبوعة ومعروفـة ، ومن اكتفى بمطالعتها وحدها دون غيرها كفته مؤونة مطالعة غيرها ، وتالله لقد قضيت عاما كاملا اطالعها بامعان فكنت امرض فانقطع وارجع فامرض وهكذا دواليك طوال العام الذى كان بطول القيامة واشد هولا • ماذا قاسى الجزائريون ! ماذا احتملوا ! كم صبروا وصابروا ! اشياء اقلها يشيب لهولها الاطفال •

ويكفى ان نطالع الرسائل الاولى ، ووقعـة ام الطبول حتى نكتفى وزيادة • واقول انه من الخير ان تترجم هذه الرسائل الى العربية حتى يعلـــم ابناء الجزائر والعروبة والاسلام ماذا قاسى الاسلام والعروبة والجزائر •

ولكل قاعدة استثناء والاستثناء يؤيد العموم كما يقول المناطقة ، فقد جاءت مجلة العالمـــين Revue des deux mondes سنة 1549 وذكرت فى تفاصيل واقعية موضوعية مجسمة خالية من كل زيادة ونقصان واقعة الزعاطشة قرب سيـــدى عقبة من احواز بسكرة فى الجنوب الشـــرقى الجزائرى فانصفت وروت الاحداث كما هى وهى احداث هائلة مريعة فضيعة مرعبة تقشعر من هولها الجلود وتحمر الشمس وتربد السماء يبكى الناس بدم قلوبهم على كثة فضحها الجند امام حميها وعلى شيخ محترم عابد ناسك جعل رأسه كرة للترفيه على الجنود وعلى حامل بقر بطنها واخرج جنينهـا واجبرت على طبخه واكله • وماذا اقول ايضا •

لكن العرب بالباب والمجلة موجودة وهى شاهـــد عدل لا مطعن فيه •

وهنالك ايضا وثائق الخزائن documents d'archives الموجودة ليست فقط بالجزائر فى دواوين الحكومة والبلديات وأرشيف المحاكم وغيرها بل ايضـــا بفرنسا ووزارات الخارجية للامم كلها التى لها صلة بالجزائر والتى لها مواقف صدق وولاء او مواقف حياء او مواقف لا مبالاة او مواقف عداء • فهذه الارشيف التى فيها المعاهدات والاتفاقات والمراسيم والقرارات واذون الولايات ورؤساء البلديات هى مادة ثرية تبين المواقف النهائية المعادية الـــتى وقفها كل ذى سلطة قلت او جلت • وهنـــالك ارشيف مجالس الجزائر ومجالس الولايات ومجالس البلديات وما حرر من محاضر جلساتها • فهـذه ايضا مادة اخرى ثرية لابد من مراجعتها ولايـــة ولاية ودائرة دائرة وحوزا حوزا ، وهنالك أرشيف المحاكم المدنية او العسكريه وارشيف الانديجينا (الاحكام الاهلية) • فهذه كلها تبين من الالـف الى الياء وبوضع المنقط على الحـــروف وفى دون التواء ولا احجام جميع ما وقع بالجزائر •

وهنالك التقارير العسكرية والمجلات العسكرية•

وهنالك الصحافة الجزائرية الفرنسية اللسان• وهنالك المجلات الجزائرية الفرنسية وهى مـــآت

مختلفة المواضيع . منها ما فيه فوائد نزيهة في كثير من الاحيان مثال La Revue Africaine ومنها ما فيه الملاعن .

هذا هو الاصل الاول ويضاف اليه ان الدول الاستعمارية الاخرى هي ايضا تمشي مع فرانسا القذة بالقذة من باب :

فان ستروا عني تسترت دونهم
وان بحثوا عني ففيهم مباحث

وهو ما يسمى بتونس «شهادة باجية» اى اشهد لفائدتي وانا اشهد لفائدتك . ومن غير شك فهنا ايضا الاستثناء يؤيد العموم . فهناك دول قد انصفت مثل تركيا ودول قد انصفت احيانا ولم تنصف احيانا او انصفت في موضوع ولم تنصف في آخر . والانصاف صعب للشهادة الباجية التي تحدثنا عنها ولان مصدر المعرفة هي الجزائر نفسها ووسائل اعلامها او وسائل اعلام فرنسا نفسها فرواية الاخبار والاحداث ومهازل تقديم مجريات الاحوال للضيوف الذين سيكونون « شهودا من اهلها » كلها تتم وفق المرام باساليب كوميدية ابرع وابدع واروع من اساليب موليار لولا انها بعيدة كل البعد عن المرمى الاخلاقي ونزاهة الفكر وصدق القول . وليراجع من يشاء منا ما رواه كبار المشارقة عن زياراتهم المحتفى بها للجزائر فهى مكتوبة مشطرة مطبوعة بما فيها من خير وشر . وبما فيها من صدق او تلبيس ابليس كما يقول ابن الجوزى . على ان موضوعنا الاصلي هو ما كتبه المؤرخون الافرنج وما ذكرناه انما هو ذيول لذلك التاريخ الاصلي وامتدادات ، ومن باب الذكرى التي تنفع المؤمنين .

ولنتساءل الآن : لماذا لا يكتب ابناء البلاد المحتلة تاريخ احتلالهم ؟ قيل للارنب مرة لماذا تمعنين في اكل العشب ولا تأكلين اللحم ، انه انفع لك ؟ فقالت : سبحان الله ! انا سلمت بلحمي حتى آكل لحم الغير ؟

ان المحتل الاجنبي لاسيما اذا كان لاتينيا من اسبان وفرنسيين وايطاليين وبلجيكيين يمنع حرية القول وحرية النشر وحرية الصحافة . ومن غير شك ان هذا في اتجاه واحد . وكما يقول المثل التونسي : « عليهم عليهم يا سيدى القاضي » أو كما يقول المثل الآخر : « اذا كان ولدنا ضرب ولدكم هاكا حال الصغار ، واذا كان ولدكم ضرب ولدنا شام النهار » فاية رقابة قائمة عسكرية او مدنية تسمح لصحيفة او لكتاب ان يقولا عشر معشار الحقيقة حتى ولو تلميحا دون تصريح أو حتى باسلوب الخرافة والرمز مثل كليلة ودمنة وقصص جحا ولافونتان . كلا ثم كلا ، فمذهب هؤلاء هو اقامة محاكمة من اجل النية والمقصد اللذين لا يعلمها الا الله . فكيف اذا كانت هناك قطرة من يم ونزر من جم من الحقيقة ؟ الا تعلمون قصة الذئب من الخروف

La raison du plus fort est toujours la meilleure

ان حق الاقوى هو الافضل على وجه الدهر ، او كما قال الرصافي :

يا قوم لا تتكلموا
ان الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز الا النوم
وتاخروا عن كل ما
يقضى بأن تتقدموا
ان قال ان ثمادكم
سيل ! فقولوا مفعم
او قيل ان شهدكم
مر ، فقولوا علقم
او قيل ان نهاركم
ليل ، فقولوا مظلم
او قيل ان بلادكم
يا قوم سوف تقسم
فتحمدوا و تشكروا
و تنعموا و ترنموا

ومع ذلك فان الجزائريين لم يفعلوا ادنى شيء من ذلك فما حمدوا الا الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ولم يمدحوا الجزار ، بل فعلوا ما فى الوسع · بل جاء من المؤرخين حمدان خوجة الذى ذكر مخازى الاحتلال فى عصره ، وجاءت مجلة البصائر التى ذكرت الحقائق كما هى ، وجاءت خطب البشير الابراهيمى ومقالاته التى هى الشهب المحرقة · ولكن ذلك جاء بالاضافة الى فرنسا «عند العيا والكبر» وفى الفصل السابق للختامى من الرواية ذات المائة والعشرين فصلا ·

وصارت القضية الجزائرية كما قيل فى حكم عمورية :

السيف اصدق انباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

ولكن انتهت المعركة الاخيرة بانتصار الجزائريين انتصارا مبينا ونهائيا وابديا · غير ان الكتب التى الفها الاستعمار ووثائق الارشيف والصحافة والمجلات بقيت هى المصدر الوحيد لمعرفة التاريخ ولما رجع الجزائريون الاباسل من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر فمن معارك الجهاد الاكبر معركة الكتاب الاستعماريين والوثيقة الاستعمارية بالترجمة وكشف اللثام ومقابلة الكتاب بالكتاب· وهى معركة طويلة النفس ولكن لا يهم·ولما كانت طويلة فلنبدأ من الايام·فلنترجم ولنهذب ولنحقق ولنحرر النقاط · فما نهض الاسلام الا بترجمة المامون · فعلينا بالترجمة فى هذا العصر الميمون· والا لبقى ابناؤنا يرجعون الى تلك المصادر ويتأثرون بها فتمسخ ادمغتهم ومفاهيمهم ويبقون مع جهل من حقيقة الامر على وجه الدهر · فعلينا ببينيسلين الميكروب التاريخى الاستعمارى ·

القاعدة الثانية :

هى ان السياسة الاستعمارية تبدأ اولا بتغطية من التلبسات التاريخية والمغالطات والسفسطائيات وأنصاف الحقائق وارباع الحقائق واللاحقائق واضداد الحقائق · كما تبدأ المعركة المعاصرة بتغطية من اسراب الطيارات تجعل العمران قاعا صفصفا فتاتى الجيوش زاحفة كانها متجولة فى

بستان عمومي هو في الحقيقة مقبرة للبشر والحيوان والنبات والمعالم والاثار وكل اسباب العمران وموجبات الحياة ٠

وقاعدة هي المعركة التاريخية ترتكز على بيت الشاعر :

فان تكن سبة طاروا بها فرحا
وما رأوا حسنا الا وقد كتموا

او قول الآخر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما ان عين السخط تبدى المساويا

وقول المثل : « اللي تحبو سقط لو ، واللي تكرهو لقط لو » ، او قول المثل الآخر : « اللي ما فيه مخلوق ، يشريو هولو م السوق » والمثل الآخر : « يقطع يد اللي ما تضربش » ٠

والمهم في الامر هو ان نجعل اهل البلاد يؤمنون بحضارة غير حضارتهم ويعجبون بحضارة دين غير دينهم قد اخذ حضارته من دينهم وان نؤمن بعدم وجود حضارة لدينا ولا قدرة على اكتساب حضارة ما او بناء دولة او انشاء دولة علم او ادب أو فن او معمار او تقنية ٠ بحيث ينسى الناس في امجادهم او يحاول القوم ان ينسوهم في امجادهم وفي دورهم الحضاري وفي رسالتهم العالمية فيزهدون ويتزاهدون ٠ ووسائل ذلك هي الآتية :

أ ــ العناية بالآثار : وهذه العناية تسبق الاحتلال بمدة تقل وتزيد ٠ وهي تتظاهر ببراءة علمية ما عليه من مزيد ورسالة حضارية سامية وظاهره رحمة وباطنه عذاب ٠

فقد جاء الاقطار المغربية Shaw و Tissot واضرابهما وبحثوا عن حضارة الرومان وبينوا مجد الرومان واقاموا الدليل ببراءة علمية ايضا على ان العرب هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة اربعة عشر قرنا ٠ وبحمد الله جاء الفرنسيون او الاسبانيون او الايطاليون واعادوا مجد الرومان ولا شك ان الفرنسيين والاسبانيين والايطاليين هم احفاد الرومان بالمغرب حقيقة لا غبار عليها ولا مراء فيها ولكنها كلمة حق اريد بها باطل ٠ فالذين قاموا بحضارة الرومان ليسوا الرومان ولكن ابناء البلاد المغاربة ٠ فمدينة شرشال بناها يوبا الثاني الملك البربري وبنى جامعتها الكبرى والف اول موسوعة علمية عالمية اول جغرافية جامعة ٠ والمسرح الروماني بناه المغاربة والف مسرحياته القرطاجني طيرنسيوس وهو واضع علم التمثيل الحقيقي عند الرومان ومؤلف المسرحيات الرومانية الاصيلة الطريفة ٠ والنقد المسرحي وضعه مغاربة اصليون امثال ارنبيوس وترتوليانوس والقديس أوغستينوس ، واول مشروع روماني وضع المجلة الدائمة هو تونسي من بير بورقبة سلفيوس جوليانوس وكبار الامبراطورية الرومان مغاربة امثال كارلكله وسبتيموس سافاروس وغوديانوس الاول والثاني والثالث بناة قصر الجم بتونس ٠

وجاء Dussau فبحث عن الفينقة وان الفينقة ام الحضارة بالبحر المتوسط ٠ وهذه ايضا كلمة حق اريد بها باطل فهم يريدون من الفينقة ان

نعدل عن تاريخنا العربي الى الحضارة الفينيقية والحضارة الفينيقية هي حضارة عربية اصيلة لان الفينيقيين من بنى كنعان وهم اليوم من سكان لبنان وسوريا والاردن وفلسطين • فاذا كانت الفينقة هي ام الحضارة ونحن نسلم بذلك فابو الحضارة هو يعرب بن قحطان •

وذهب شامبوليون الى مصر فاخذ يطبل ويزمر لحضارة الفراعنة وهي ايضا ام الحضارات • يا اخى ! يا اخى ! اذا سلمت بانه يجوز ان يكون لاحدهم آباء متعددون فالام دائما واحدة • فما بال الحضارة عديدة •

واذا كنا نسلم بمجد الحضارة المصرية القديمة وانها اثرت فى حضارات البحر المتوسط حتى الحضارة البونيقية نفسها فما هى الا حضارة مصرية مسبوقة بحضارة ليبية ومجدمصرفيعصرها العربي الاسلامى اضعاف مجدها الفرعوني الذى فيه حضارة اليمن وحضارة الهكسوس وحضارة الايرانيين وحضارة الليبيين البطوسين Battides من اهل الشحات Cyrène والمصريون الاقدمون والمحدثون عرب ، والا فما بالهم ينشئون الجامعة العربية ويحدثون المرة بعد الاخرى شخصية علمية وادبية وفنية عربية اسلامية كبرى ولماذا يخرج منهم كبار المصلحين المعاصرين الى جانب الامير عبد القادر وخير الدين باشا التونسى •

ثم يذهب اخواننا الاثريون الى تركيا يبحثون عن آثار الطوخاريين والحثيين فيجدون الذب الابيض وحضارة الاتراك القدامى من سرامطة وحثيين ولكنهم يشتمون الفاتحين الاتراك امثال اتيلا وهولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك ويمشى المتأوربون من الاتراك فى هذه السبيل ويبقى الشعب التركى الاصيل والعقلاء فى حظيرة الاسلام الذى كون حضارتهم الكبرى واعز دولة ظهرت فى بلادهم •

ويذهبون الى العراق ، فيبحثون عن آثار بابل وآشور واور ونينوى ويحاولون تبيين انها اعظم من حضارة العراق الاسلامى •

ولا يصيب العراقيين الجنون والافتتان بترهات هؤلاء العلماء الذين لا يبحثون « لله » لانه «ما ثماش قطوس يصطاد لربى» ، ولكن كل هذه البحوث لابعاد الناس عن حضارتهم الاصلية والهائهم بحضارات سابقة هى جزء لامع من حضارتهم الاصلية وجعلهم لا يؤمنون بحضارتهم الى آخر ما قلنا •

وانتقل الاثريون الى ايران نفسها والى الهند فتحدث كريستنسنى Christensen عن الساسانين وكليمان هوار Cl-Huart عن تاريخ ايران فى العصور القديمة كل ذلك قصد انساء الايرانيين والمسلمين عامة فى مجد الطاهريين والصفاريين والصفويين والغزنويين واثبات عظمة قورش ودارا ورستم وانساء عظمة البخارى والنسائى والترمدى والبيرونى وابن سينا والشيرازى وابن بختيشوع والخوارزمى ، بل بلغ من امرهم انهم مجدوا الخيام الشاعر وحاولوا انساء الناس فى عمر الخيام الرياضى والعالم بالجبر والمقابلات والمثلثات •

وحاولوا تمجيد هند بوذا وبراهما والنرفانا وانساء الناس في هند محمود الغزنوي واكبر واورنغ ذيب وتاج محل واقبال والتهانوي ٠

ب ـ الحملة التشويهية : العربي جاهل قذر وسخ اشوه يلبس اطمارا بالية واسمالا ملطخة مرقعة قملة وهو كذوب لص مخادع كسول مراوغ قلب فاسد الاخلاق عديم المروءة لا عهد له ولا ميثاق ضعيف مريض يحمل جراثيم الاوبئة وينشر الامراض الوافدة غير مؤتمن لا يمكن ان يسترسل اليه في اي امر ٠

هذه هي الحملة التشويهية التي قام بها الفرنسيون ضد الجزائريين قبيل الاحتلال وعند الاحتلال وخلال الاحتلال وبثوها في كل مكان بجميع وسائل الاعلام من صحافة وكتب ومسرحيات وروايات وقصص وخطب ومحاضرات ٠

لكن ! كيف يقام الدليل على ذلك ؟ الامر بسيط ٠ يقال بالتونسية : « من لحيتوا اقبل لو شكال» فقد قال ابن خلدون وهو اكبر مؤرخي العرب « اذا عربت خربت واذا خربت لم تعمر » ، لا شك انها كذبة فقد قيل لرجل : بما ذا عرفت انها كذبة ؟ قال : من كبرها ٠ فابن خلدون لم يقل العرب وانما قال الاعراب اي البدو الرحل فياتي المسيو دوسلان ويترجم Les Arabes وتبنى على ذلك دنيا الاكاذيب وترهات بسابس والمزاعم والنظريات الخاطئة ٠ لكن من يستطيع ان يكذب المسيو دوسلان ؟

اذا قالت حذام فصدقوها
فان القول ما قالت حذام

العربي جاهل : لا يا سادة ٠ فكتابه الكريم يبدأ بفعل الامر من مادة قرأ ٠ ويسمى القرآن ولا يسمى كتاب كاء الشجرة La Bible ونبيه يقول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة» ويقول : «اطلبوا العلم من المهد الى اللحد» والله تعالى يقسم بالقلم في كتابه فيقول : « ن والقلم وما يسطرون » ويقول تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ٠

والمسلمون هم الذين علموا أوربا الصفر والارقام العربية والحساب والجبر والمقابلة والمثلثات والخوارزمية وعلموهم الفلك وقاسوا لهم خطوط الطول وخطوط العرض وعلموهم المعمار المرجن فبنوا لهم كنائسهم المرجنة واديرتهم وقصورهم باوربا واميركا ، وهم الذين نقلوا اليهم الكاغد والطباعة والتجليد ، وهم الذين علموهم الكيمياء والطبيعية والدورة الدموية والتحليل والتصعيد واصول الصيدلة المنفصلة عن الطب وعلموهم تلقيح الجدري وعلم التطعيم بوجه عام ٠ واخترعوا لهم الساعة والدفة والبوصلة والاسترلاب والخرائط البحرية وعلموهم مسالك البحار ٠ وعلموهم القافية والوزن والموشح والزجل والغرام المتظرف والبلاغيات وعلموهم الجمع gamme والنوطة الموسيقيةوادخلوا الى بلادهم العودوالرباب rebec والنقارات nacaire والسرناي haubois وعلموهم البلطة hallebarde والاسلحة النارية من البندقية الى المدافع ونظام

الاستحكامات فى القلاع ، فهل يبقون بعد كل هذا جهـــالا ؟

وانما انتم جهلتموهم فأغلقتم مدارسهم الوطنية وحرمتموهم من مدارسكم وجامعاتكم على حـــين انهم فتحوا لكم جامعات قرطبة وطليطلة وبالـــرم وسالرن والقيروان وبجاية وفاس •

المسلمون قذرون ؟ استغفر الله ! فالمسلـــم يغتسل طهورا اكبر مرة فى الاسبوع على الاقـــل وهو قد اخترع الحمام الرائع والمشن والصابون والطفل المعطر وانواع الغوالى crème de beauté حتى سميت الغالية بالاسبانية algalia وبالفرنسية القديمـــة algalia وبالبرتغالية algalie وهم الذين ابتدعوا لكم انـــواع العطور والمسك والزبد (انظر الجزء الثانى عشـــر من نهاية الارب للتويرى وكتاب العطور للكندى) وقد نشروا فى اوربا الصابون ، ولفظ الصابون وصناعة الصابون كما نشروا لفظ الزبد cevette ومسك musc والانبيق alambic وجـــلاب julape وماء الزهر agna de azahar وهم الذين اهتموا بنظافة الثوب ونظافة المكـــان ونظافة المدينة وهم الذين يغسلون اطـــرافهم ورؤوسهم ويستنون ويستنشقـــون ويستنثـــرون خمس عشر مرة فى اليوم ، وهم الذين لا تصح صلاتهم الا بطهور البدن والثوب والمكان والذهن والقلب فكيف يكون العربى قذرا ؟

وما قلناه عن العربى الجاهل والعربى القـــذر نقوله عن العربى السارق فهذا اختلاق آخـــر ما انزل الله به من سلطان • هل العربى احـــذ اراضى الفرنسى ام الفرنسى اخذ اراضى العربى ؟

ولولا خوف الاطالة لاوردنا من الامثلة العجيب والغريب •

والمهم من هذه السياسة التشويهية هو خلـــق مركب النقص ومركب الجريمة فى نفس العربى حتى لا ينوى يوما ان يثور على الجنس الرفيع الـــذى يحتل بلاده بعقود رومانية وغالية gauloises أخنى عليها الذى أخنى على لبد •

ومع ذلك فما خضع العربى ولا خنع ولا ارغم انفه فى التراب • ولا ذل ولا استكان ولا تمسكن حتى يتمكن الى ان قضى الله امرا كان مفعولا •

فكل هذا الادب التاريخى التشويهى يجب ان يجمع لنتعرف عليه حتى لا يختلط على الباحثين فى التاريخ الحابل بالنابل وحتى نعرف الكوع من البوع وحتى ننقى الحنطة من الزوان وحتى نجعل ما لله لله وما لقيصر لقيصر •

القاعـــدة الثـــالثة :

اننا اذا حللنا طبقات المؤرخـــين المستشرقين وجدنا عند آخر تحليل انهم ينقسمون الى ثلاث طبقات :

الطبقة الاولى •

المؤرخون المستشرقون الذين ينتسبون الى اقطار غير استعمارية ، فهؤلاء يكونون عادة اقرب انصافا فى دراستهم أو اقل حدة فى احكامهم فتاريخ الادب العربى لكارل بروكلمان أو كتابه الآخر « الموجز فى تاريخ اللغات السامية المقارنة » لا يمكن ان

بوصفها متعصب بل انهما معلمان من معالم الدراسات الاسلامية لا يوجد بالعربية لهما مثيل الا ما ترجم منهما . وكتاب زار Sarre في تاريخ التجليد الاسلامي شيء عظيم وكفى بالله . ولا عيب فيه الا انه لم يترجم بالعربية . وكتاب Toussaint المكسيكي عن تاريخ الفن المدجن الاسلامي بامير كا El arbe mudejâr en Amérique يقيم الدليل القاطع والبرهان الساطع على ان المعماريين المدجنين الاندلسيين الذين كانوا التقنيين في ذلك العصر قد بنوا طوال اربعة قرون كنائس جمهوريات امير كا واديرتها وقصورها وبساتينها بطراز عربي فيه الزليج والنقش العربي والقبة والسقف العربي والمشربية « القنارية » Verandah Loggia وذكر لنا البعض من اسماء هؤلاء وآتى بالتصاوير التي هي البرهان الذي لا يدحض . فهذا الرجل قد قام بعمل تاريخي لبيان مجد المعمار الاسلامي لم يقم به أي مؤرخ معماري مسلم . وديامند الاميركي الذي ألف كتابا في الفنون الصغرى الاسلامية من اثاث وانسجة وسلاح وزجاجيات وعاجيات واوان وحلي وتحف على اختلافها هو ايضا محتاج الى ان يقام له تمثال .

الطبقة الثانية .

المؤرخون المستشرقون المنتسبون الى اقطار قامت فيها دولة العرب والاسلام مثل الاندلس والبرتغال وجنوب فرنسا وجنوب ايطاليا (قلوريات كالابريا Calabre وصقلية وسردانيا ومالطة) . فهؤلاء معظمهم منصف اذا تحدث عن تاريخ المسلمين في بلاده او في العالم واقلهم المنصف اذا تحدث عن تاريخ البلاد التي يستعمرها مثال ذلك غوستاف لوبون في تاريخ العرب فقد اعطاهم حقهم وزيادة وعرف بحضارتهم ليس الافرنج فقط بل حتى المسلمين ، ومثل Leclerq في تاريخ الطب عند المسلمين ومثل W. Marçais في تاريخ الحديث وقيمته العظمى التربوية والاخلاقية عند الامم كافة فلا يوجد له نظير في أي ادب من آداب الامم ولا عند آداب الامم كافة . أو في بحثه عن اللهجات وأصول الكلمات المغربية أو في تخريجه المدرسين المسلمين الافذاذ اما اذا دخل السياسة فيصير شيئا آخر ومثل Pons Bouygues باسبانيا صاحب كتاب طبقات المؤرخين الاندلسيين وقد احصى فيه وترجم بما ينيف عن ستمائة مؤرخ اندلسي ومنهم المؤرخات ومثل قنزالس بلنسيه صاحب كتاب تاريخ الادب الاندلسي الذي ترجمه وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، ومثل كتاب تاريخ الحضارة الاندلسية وتاثيرها على حضارة اوربا الذي شرعنا في ترجمته ، ومثل كتاب El Islam y Occidente الحضارة الاسلامية في حضارة اوربا الناشئة . وهو اروع ما كتب عن تأثير وقد ترجمناه وهو ماثل للطبع .

ومثل امارى الايطالي صاحب كتاب تاريخ مسلمي صقلية وهو معلم ومعلمة نادر الوجود ولم يترجم الى الآن ، ولست ادرى ما يصنع الناس . ومثل Mielli الايطالي صاحب كتاب تاريخ علماء الرياضيات عند العرب ، ومثل Schiapparelli الذي الف تاريخ المعمار الاسلامي بصقلية .

اما اذا انتقلنا الى الريف الاسباني سابقا او الى ليبيا التي رزحت تحت نير الايطاليين فان الانصاف يقل ومع ذلك نجد من يحث بانصاف مثل Romanelli في تاريخ ليبيا الرومانية واقوستيني في تاريخ القبائل العربية ببرقة • اما اذا وصلنا الى Beguinot فيجب ان نتجهز بالمقص العازل والمجهر الميكروبي •

الطبقة الثالثة :

ونعني بها على الاكثر المؤرخين المستشرقين الذين نشؤوا ببلاد الاستعمار نفسها او الذين نشؤوا خارجها ولكنهم سخروا اقلامهم لخدمة الاستعمار في الدواليب الحكومية او الدواليب الاستعمارية •

ثم ان هذه الطبقات الثلاث تنقسم بدورها الى الصنوف الآتية :

الصنف الاول : الباحث العلمي النزيه والمؤرخ المتمحص للبحث عن الوثائق الصحيحة من مخطوطات وكتب تاريخ ووثائق خزائنية للوصول الى حقيقة تاريخية لا غبار عليها تبين مزية العرب على الحضارة مثل دراسة Blum عن الكاغد عند العرب ونشرهم اياه باوربا وفضلهم على الثقافة بهذا النشر • ومثل دراسات جامعة هال عن تاريخ الفلك عند المسلمين ، ومثل تآليف Vernet و Villacrosa الاسبانيين عن تاريخ الرياضيين الاندلسيين ، ومثل تآليف Ribera عن تاثير الموسيقى العربية باوربا وتاليفه الآخر عن تأثير القصة العربية في كوميديا دانتي الايطالي الالهية ومثل تالف Joseph Bedier في تاثير القصة العملية في أدب القصة باوروبا •ومثل دراسة لاوي بروفانصال عن نشأة شعر الطروبادور على غرار الموشح الاندلسي ووجود الخرجة العربية في شعر الطروبادور Guillaume d'Aquitaine (القرن التاسع الميلادي) أو دراسات الدكتور Reinaud عن اطباء العرب بالاندلس والمغرب أو Souneck عن الموسيقى الاندلسية أو Farme Rudolphed Erlange Coulangette عن الموسيقى العربية ، أو Terrasse و G. Marçais عن المعمار المغربي • و Golvin أو Alexis Chottin عن الموسيقى المغربية فهؤلاء نستطيع ان نطمئن اليهم مع التحصن بالاحتراز كما قال الشاعر :

أعد نظرا يا عبد قيس لعلما
اضاءت لك النار الحمار المقيدا

أو كما يقول المثل التونسي « اقرأ يس وهز حجره في يدك » أو كما قال مالك ، رضي الله عنه « اعقلها واتكل » وحتى لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين •

وقد قال صالح بن عبد القدوس :

واذا امرؤ لسعته افعى مرة
تركته حين يجر حبلا يفرق

وهو مثل المثل الجزائري : اللي لدغته حية من ظل الحبل يفزع •

وقال ابن شمس الخلافة :

ومن يذق لدغة الافعى ، وان سلمت ، منها حشاشته يفزع من الرسن والمثل التونسي يقول :

التي يقرموا الحنش من جرة الحبل يخاف ٠

الصنف الثاني

المؤرخ المستشرق المحايد ٠ وهو غالبا يبتعد في الزمان أو في المكان ٠ مثل Stephan Gsell الذي درس بدقة لا مزيد عليها تاريخ المغرب القديم قبل العرب أو مثل Carcopino الذي درس تاريخ المغرب الاقصى القديم فاجاد ٠ فهذا الصنف قد درس مواضيع تهم تاريخنا مباشرة لكن في غير العصور الاسلامية ، ونحن بوجه عام لا نعرفه كثيرا وليست لدينا عنه مصادر كثيرة ٠ وهم في الغالب مرتبطون بوثائق اثرية يصعب الطعن فيها فالقسم الاول من تاريخنا يمكن الاعتماد عليهم فيه بالاعتبارات الاتية :

الاعتبار الاول

ان البربر عرب من حمير فحضارتهم حضارة قحطانية عروبية أولى ، وليست هنالك خرافة ثلاثية البربر من السلت الغال gaulois من السلت ، فالبربر من الغال واذن فهم فرنسيون فهذه تسمى بالتونسية خرافة أم سيسى تكنس تكنس لقات فلشين ، أي شنشنة اعرفها من اخزم أو حديث خرافة يا ام عمرو ٠

الاعتبار الثاني

ان الفينيقيين عرب من بني كنعان فحضارتهم حضارتنا ومجدهم مجدنا ٠

الاعتبار الثالث

ان آثار الرومان بالمغرب هي آثار المغاربة لا الرومان ٠ فهي جزء لا يتجزأ من تراثنا لا من تراث غيرنا ٠

الاعتبار الرابع

ان آثار البربر والفينيقيين والرومان بالمغرب اعظم منها بالمشرق فحضارة البربر الكبرى انما ظهرت بالمغرب 50،000 سنة قبل المسيح حسبما تدل عليه حفريات الغارامنت بليبيا ، وحضارة الفينيقيين انما ازدهرت بالمشرق ٠

ومعالم الرومان وأدابهم وفنونهم ومسرحهم ومعمارهم وطبهم وقوانينهم ومحاكمهم انما ازدهرت بالمغرب اضعاف ما ازدهرت بالمشرق وقامت على ايدي مغاربة اضعاف ما قامت على ايدي رومانيين حتى في رجال النصرانية نفسهم وما عمله الامبراطرة المغاربة الذين جلسوا على عرش رومة اعظم مما عمله الامبراطرة الرومان واقرب الى الانسانية ، فخذ لك مثلا من ان القانون الروماني يقسم الناس الى populus-romanus الشعب الروماني والى Rem ٠ لا شيء أو شيء بالمعنى المغربي أي ان « الاهلي » هو بمثابة حجر لا ينتفع به أو عنكبوت أو اية كمية مهملة فلا وجود له قانوني ولا حق له في التراجع لدى المحاكم الى آخر ما هنالك وهذا يذكرنا بدقة بقوانين الاهلية بالجزائر فلما جاء الامبراطور سبتيموس سافاروس وهو بيسى محا هذه الفروق العنصرية فصار « الاهلي » بدون

ان يتجنس يملك ويتعلم ويتصرف ويكون ناخبا ومنحوبا .

الصنف الثالث

المؤرخ المستشرق المغرض الذى يريد ان «يغطى عين الشمس بالغربال » وهم غلاة الاستعمار بسنان اقلامهم وعذبة لسانهم الذى هو اشد سما من الافعى . ولهؤلاء كتبهم التى يدسون فيها السم فى الدسم مثل Gauthier فى كتابه « عصور المغرب المظلمة » و André Servier الذى يريد ان ينبذ عرب الجزائر الى الصحراء (ويا حبذا فى هذا الزمان ! لو كان يدرى !) .

وهؤلاء قد يذكرون حقيقة ما احيانا ولكنها غابة حطب على وقية عسل فانت يجب ان تبحث عن الحقيقة فى قعر البئر . وموقفنا من هذه الكتب ومن صحف مورينو واضرابه وخطب غلاة الاستعمار ان يترجم ويحلل ويصنف ما فيها ليعلم الناس الحقائق المرة اليوم ونحن فى فرحة الحياة وليتبين مجد المجاهدين الذين اخرجوا الناس من هذه المتاهة المظلمة النتنة العفنة المملوءة بالاشواك والعقاربوكسارة الزجاج والافاعيوالنيران الملتهبة والاصوات المزعجة والنيازك المحرك والتى دامت 130 سنة بدون ان يعلم لها آخر وبدون ان يباعد الجزائرية من خاتمة المطاف والخروج من المتاهة بسلام وعافية ومجد وشرف .

ولهؤلاء فضل علينا عظيم حيث قال الشاعر :

عداتى لهم فضل علي ومنة
فلا اذهب الرحمان عنى الاعاديا

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها
وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

فهم حافز لها وأى حافز للبحث عن امجادنا واخراجدررها اليتيمة اللموعة المخبوءة فىاصدافها المغمورة فى اغوار البحار الهوجاء .

2 ـ صميم الموضوع :

قد تبين من كل هذا ان العمل بالاضافة الى المؤرخ المسلم المعاصر هو ان يطرح كل شىء وان يبدأ من الصفر . ومعنى ذلك يتلخص فى المناهج الآتية :

المنهاج الاول : ترجمة كتب المستشرقين وبعد تقسيمها الى **أ** و **ب** و **ج** فالف هى كتب المستشرقين النزهاء و **ب** هى كتب المحايدين ، و **ج** هى كتب المغرضين . فنجعل قائمة من ذلك ونترجم اكثر ما يترجم ونهذب ما يمكن ان يهذب ونصحح ما يجب ان يصحح.وهو عمل طويل نفس دقيق وجدى ونفيس .

المنهاج الثانى : ان نلجأ الى الوثائقالثابتة وهى الانواع الآتية :

النوع الاول : الآثار . كل الآثار وان نعيد النظر فى دراستها وان نجمع المصادر التى الفت عنها . فلا توجد بالجزائر قرية او قبيلة لم يكتب عنها الفرنسيون واغلب ما كتبوه ففى مجلات الاثريين . انظر :

S. Gsell : Atlas archéologique de l'Algérie + bibliographie.

وفى مجلة La revue Africaine **ولمعرفة ذلك** فلينظر المصادر الجزائرية الصادرة سنة 1930 و Pearson : Index Islamicus وفهارس دار الكتب

الوطنية الجزائرية وليضبط فى ذلك فهرست ابجدى بمصادر تاريخ المدن والقرى والمداشر والقبائل الجزائرية ، هذا عمل اولى يسهل البحث على الباحثين • وينطلق منه الباحثون فى كل ناحية يبحثون عن ناحيتهم •

النوع الثانى المعمار : وهو المدارس المعمارية الجزائرية من العهد الحجرى الى البربرى الى البونيقى فالرومانى فالوندالى فالبيزنطى • ثم العصور الاسلامية من عصر الولاة الى الرستميين الى الفاطميين الى الحماديين الى الموحدين الىالاتراك• ثم يقارن بالمدارس المغربية والمشرقية ويقابل المدارس الاوربية وما كان مبلغ تأثيره عليها •

ويراجع من اجل ذلك :

Creswell : Early Islamic architecture
G. Marçais : Manuel d'Art Musulman et toute son œuvre.
Terrasse : Introduction à l'art Maghrébin.
Golvin : La Mosquée - La Kalaâ des Beni Hammad - Sitifés etc...

وللمقارنة :

Ahmed Fikry : La Cathédrale du Puy
Emile Boule : Ses études sur l'influence de l'art musulman sur l'art français + bibliographie.

النوع الثالث الفولكلور : فغالب الشعوب الاوربية او الامريكية او الاسياوية او الافريقية او الاسترالية التى كانت تحت الاستعمار واخذت تبحث عن تاريخها وجدته فى فولكلورها •فالفولكلور يشمل الامثال التى هى حكمة الامم وديوان سلوكها ومصدر تربيتها وعماد تفكيرها • ويشمل الملاحم التى هى ديوان ادب وشعر ولغة وقوة تعبير وتاريخ احداث ماجدة وبطولات نادرة • ويشمل دراسة الالبسة والاطعمة والاشربة والزينة والحلى والاسلحة والمسارح الشعبية والعلوم الشعبية الى غير ذلك ، فهذا ايضا مصدر حقيقى للبحث عن تاريخ الشعب الحقيقى • وقد كتب الفرنسيون كثيرا عن الفولكلور وكتب عنه المسلمون (رشيد ابن شنب ، بخوشة ، شعيب التلمسانى ، بلغوثى بو على وغيرهم) • واكثر هذه الدراسات مفهرس بدار الكتب الوطنية الجزائرية وبالمقامات التى اشار اليها Pearson فى Index Islamicus وهذا قليل من كثير فيجب القيام بالمسح الفولكلورى cadastre folklorique اى انطلاقا من المدن والقرى والمداشر والقبائل تتكون لجان محلية صغرى فى الدائرة ، تصب عملها فى الولاية التى ترسل الكل الى اللجنة الوطنية الفولكلورية بالعاصمة •

النوع الرابع : المسح الثقافى cadastre culturel

ويشمل :

اولا : الدواوين corpus اى دواوين الدواوين النقاشية corpus des inscriptions وهى بربرية وبونيقية ورومانية وعربية وتركية فيجب ان تكمل الى يوم الناس up to day

ثانيا ديوان الكتاب الجزائرى : وهو احصاء الكتاب الجزائرى منذ ظهوره الى يوم الناس بأية لغة (بربرية - بونيقية - لاتينية - يونانية - عربية - تركية - فرنسية - اسبانية - وبأية لغة اخرى كتبت عن الجزائر ويسمى هذا :

corpus librorunus algerisorunus

ويكون فى يوم ما جزاء corpus librorunus araborunus

ثالثا : ديوان الرجال الجزائريين (من رجال

ونساء) المشهورين عبر التاريخ فى الحرب والسياسة والعلوم والادب والفنون والتاريخ والتقنيات والتجارة والبحرية والاختراع · على غرار الاعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة · ويعتمد فى ذلك على ترجمة الرجال فى كل عصر يوبا الثانى ، عقبة بن نافع ، وعبد المومن ابن على ، وباديس ، وابن باديس الخ ··· بدون فرق ولا تمييز ·وتذيل كل ترجمة بمصادرها ·

رابعا : ديوان الامكنة الجزائرية (جبال ـ انهار ـ رؤوس ـ خلجان ـ بحيرات ـ مدن ـ قرى ـ مداشر ـ قبائل ـ) ويذيل كل فصل بمصادره ·

ومن اجل الفقرات الرابعة والثالثة والثانية والاولى اعلاه تؤسس اكاديمية العلوم التاريخية والجغرافية الجزائرية التى يكون اعضاؤها جزائريون ولها مراسلون اجانب فى الخارج ولها فرع فى كل ولاية وفرع ثانوى فى كل دائرة ولها فرق مسح جوالة مزودة بالآلات العصرية البصرية والصوتية والقبسية ولها روزنامة آجال معينة مسبقا · ولها الاعتمادات اللازمة للقيام بهذا العمل الجبار الذى يمكن ان يتم فى عشر سنوات ولا مزيد ·

وتضاف اليها ايضا مؤسسة ترجمة المصادر التاريخية واعدادها التى تتولى :

اولا : ترجمة الكتب التاريخية التى الفها الاجانب او الوطنيون او المخطوطات التى يعثر عليها ، فتجمع هذه الكتب وتعطى لها ارقام قيمية من واحد الى عشرة وتمتد ترجمتها ونشرها على عشر سنوات فما كان برقم واحد يترجم فى السنة الاولى وما كان برقم اثنين يترجم بالسنة الثانية وهلم جرا الى العشرة ·

فاذا جاءت السنة العاشرة وهى 1984 يكون قد تم كل شىء ·

وهذه اللجنة نفسها تعد المصادر الجزائرية ما كتبه الفرنسيون او الانكليز او الاسبان او العرب · وما يوجد فى الصحافة الغربية والعربية ، وما ينشر (Pearson : Index) على التوالى بأية لغة من كتاب ومجلة وصحيفة بالاشتراك مع وكالات التحليل المكلفة بذلك ·

ثانيا : تضاف اليها مؤسسة تاريخ التحرير الوطنى عبر التاريخ فتؤلف معجما باسماء الوقائع ومحالها وتاريخ احداثها ورجالها وابطالها وتذيل ذلك بالمصادر الوطنية التى هى فى الغالب تكون مسجلات وعرضحالات عن شهداء عيان او تقارير عسكرية وطنية او اجنبية واخباريات وكالات الاخبار او كتب تاريخية معاصرة · وقد فعل ذلك بالاضافة الى ليبيا العلامة الليبى السيد خليفة عمر التليسى انطلاقا من المصادر الوطنية والايطالية واصدر معجمه فكان من عجائب الدنيا·

على ان هذا العمل يقتضى مشروعا داخليا ـ وهو الذى ذكرناه من اوله الى آخره ـ وعملا عربيا اسلاميا وهو الذى تعقد له مؤتمرات على ضوء هذه المعلومات الصالحة للجميع وهذه المناهج العامة التى يمكن تطبيقها فى كل مكان وزمان · ولكن هذا ياتى من بعد · وفى راحة بال وبعد تجارب اولى تصحح الاوضاع وتثبت او تعدل النظريات والمبادى المرسومة · وفوق كل ذى علم عليم ·

3 ـ الموضوع فى العصور الجاهلية :

وهى العصر الحجرى ، والعصر البربرى ، والعصر البونيقى , والعصر الرومانى ، والعصر الوندالى ، والعصر البيزنطى · اما العصر الحجرى فهو كله مبنى على الآثار والمقارنة · لكن الفرنسيين يركزونه على آثارهم من انسان كرومانيون بينما العصر الافريقى يعتمد على انسان بير العاتر او الانسان الوهرانى او الانسان الغرامنى او الانسان الكبسى l'homme capseen وكلها حضارات ترجع الى العصر الحجرى وهى اقدم عهد وادق حضارة من انسان كرومانيون ·

واما العصر البربرى فهو يعتمد ايضا :

أ ـ على النقوش الصخرية بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا • ويعتمد على الكتابات الهيروغليفية الواردة فى المسلات والمصاطب وغرف وادى الملوك وادفو وغيرها •

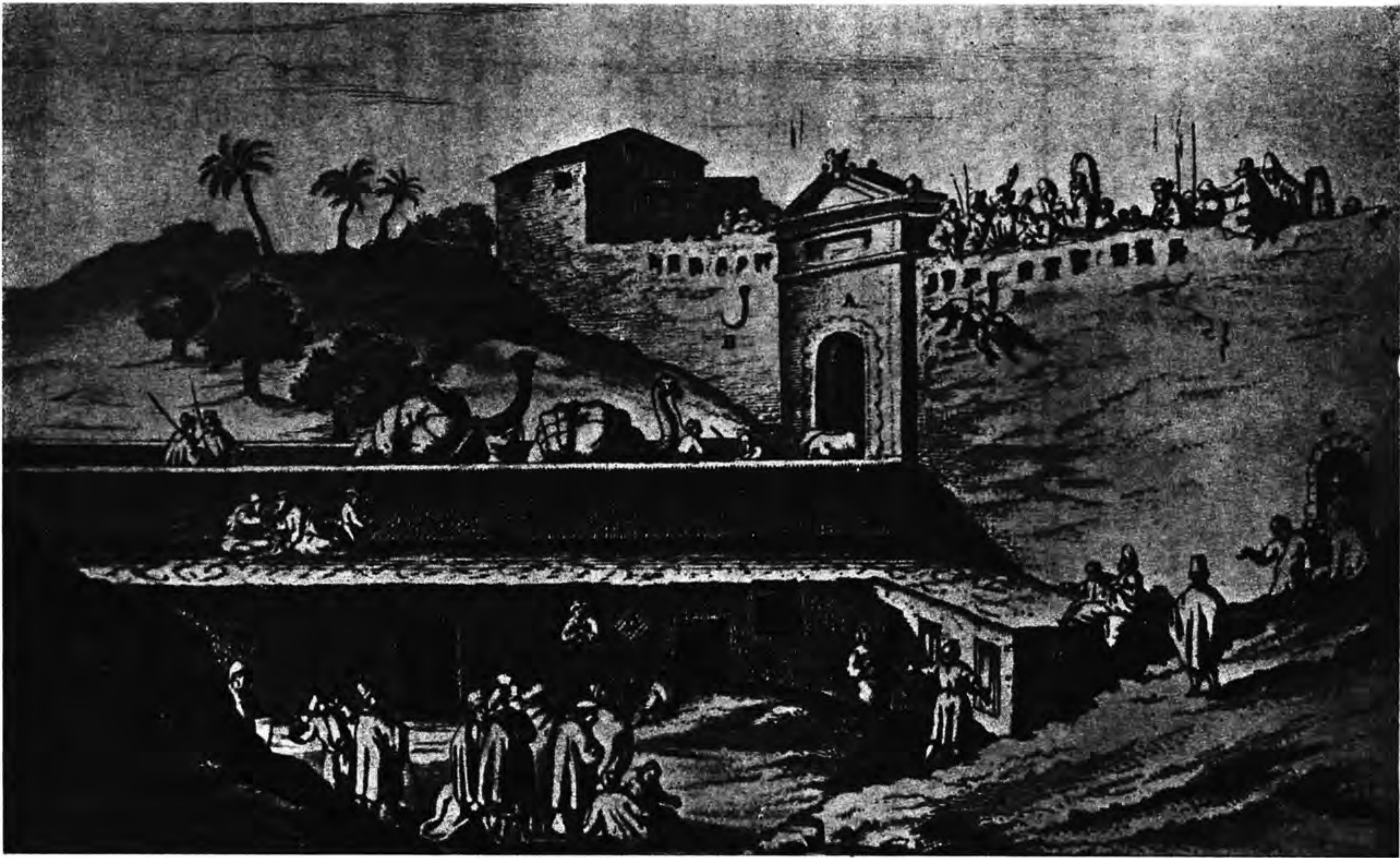
ويعتمد على كتب الانساب البربرية القديمة المكتوبة باللوبية والتى ترجمت ببيت الحكمة بالقيروان والتى اعتمدها ابن خلدون ، وكتب الانساب الوسيطة مثل تآليف سابق المطماطى وغيره من نسابى البربر ممن اعتمد ابن خلدون أيضا • وتعتمد على اسماء القبائل المقارنة مثل حمير وخمير وغمارة ، وعلى الصلات اللغوية بين الحميرية والبربرية وعلى اسماء الامكنة البربرية وعلى العادات البربرية المشابهة للعادات اليمنية فى السكن والملبس والمأكل والاثاث والخط وغير ذلك ، وعلى تحبيط خرافات الاوروبيين فى المقارنات اللهجوية أو الانثروبولوجية المدلسة مثل تلبسات Chantre et Berthlon فى Recherches anthropologiques dans la Berberie orientale.
وعلى اخبار البربر التى أوردها مؤرخو اليونان هيرودتوس ، بوبولبوس وقد جمعها S. Gsell فى كتاب بالفرنسية تجب ترجمته للتخلص من الموضوع مرة واحدة نهائية • أو مؤرخوا الرومان الخارجيون مثل ساللوسطس أو الداخليون الوطنيون مثل ابو ليوس وفلوروس واولو جيلس والقديس أو غوستينوس وغيرهم • وهذه الكتب عظيمة الاهمية وقد درسها Paul Monceaux فى Les Africains و La littérature romaine d'Afrique

علاوة عن الالمانى Mommser فى Geschiechte der Römer تاريخ الرومان وهو اوسع كتاب فى تاريخ افريقيا الرومانية ، أو ما كتبه الفرنسيون أو الايطاليون عن افريقيا الرومانية مثل Boissier S. Gsell Toutian Boissièr Andollent Vergara Combes Romanelli Toulotte الخ •••

واما العصر الوندالى فقد كتب عنه مطولا Schmidt الالمانى : Histoire des Vandales وهذا الكتاب لابد ان يترجم لانه دسم ككل الكتب الالمانية (وهو مترجم بالفرنسية فصار الامر سهلا) و Gauthier : Genseric Roi des Vandales يجب ان يترجم أيضا •

واما العصر البيزنطى فقد افرده بالتأليف Charles Dichl فى كتاب L'Afrique Byzantine وهو ايضا يحتاج الى ترجمة وكلها تدخل فى البرنامج العشرى على ان الكتاب المطول الدسم الذى جمع فاوعى فشمل باطالة واسهاب وتدقيق وشمول كل عصور الجاهلية المغربية فهو S. Gsell : Histoire de l'Afrique du Nord dans l'Antiquité
وهذا اذا ترجم فقد حققنا للمغرب الجاهلى كتابا مطولا دسما مثل كتاب جواد على تاريخ العرب فى جاهليتهم وبنفس الاسلوب والدقة والعدد •

ونحن لسنا فى حاجة الى كثير « التنقية » و « التصفية » و « التمحيص » فى هذه الكتب لان اصحابها كتبوها بنية التمجيد والتحميد والمثل يقول ما توصى يتيم على نواح اذا بكى اعمى عينيه ويقول المثل الاندلسى آش (سيد) تعلم اليتيم البكا ، وجاء المثل المغربى قائلا : « لا توصى يتيم على بكاه • أو هو كما يقول المثل التونسى الآخر : آش يعمل السراج فى سرج ابنو » ؟ •



مدخل باب عزون بالعاصمة قبل الاحتلال

من بواعث الإستشراق
وأهداف المستشرقين

عبد الرحمن الجيلالي
مؤرخ جزائري

لقد أدرك رجالات الغرب فضل العرب على العلم منذ توطيد سلطان الامويين بالاندلس ، وان المدنية الشرقية والحضارة العربية الاسلامية سبقت اختها الغربية بقرون • فأخذ بعض المتحمسين من هؤلاء الغربيين ـ حبا فى الاطلاع وللمعرفة والعلم ـ الدخول الى تلك المملكة العربية الاسلامية للدرس على علمائها ثم العودة بعدها الى بلاده لنشر ما اخذه عن العرب بين قومه وفى انحاء وطنه الغربى ، وكان فيهم اليهود والنصارى ،

وفيهم من اخذ بحظ وافر من علوم الشرق فانتفع بها فى حياته العملية وحاز بها أعلى المراتب ، فكان منهم من ارتقى الى البابوية مثل البابا « سلفيستر الثانى » الذى تخرج من مدارس الاندلس ، وكذلك « البير الكبير » و « روجى باكون » وغيرهم ، وكان الله سخر العرب لفتح الاندلس وصقلية وتعميرهما حتى ينقلوا لاهل أوروبا ألهم الحضارات ٠

وشاعت فى القرون الوسطى يومئذ لغتان شرقيتان واشتهر امرهما بين العلماء هما العربية والعبرانية ، فالعربية هى لغة الدين الجديدوالدولة الجديدة العتيدة ولغتها هى لغة العلم والفلسفة يومئذ ، واللغة العبرية هى لغة من اللغات السامية الشرقية الاصيلة فكان من الواجب على المستشرق ان يطلع على ما فى هاتين اللغتين من علوم ومعارف ، فكان من أثر ذلك تأسيس درس عام بباريس (أواسط القرن الثالث عشر) لدرس اللغة العربية ، وكانت أول ترجمة للقرآن عرفتها اوروبا هى ترجمة ما كتب طليطلة التى نقلها « كونيت » سنة 1143 م مستعينا باثنين من العرب وعرضها على « دكلين » بقصد نقدها ، فاتضح يومئذ بهذا ميدان للاستشراق ٠

وكان فى طليعة المعتنين بهذه البحوث الاستشراقية ولا سيما منها العربية هم الرهبان فتراهم منكبين على دراسة الفلسفة الاسلامية وترجمتها الى اللاتينية وبذلك تسربت اليهم علوم العرب ، وذلك لان الفلسفة فى عهودها الاسلامية الاولى كانت تنطوى على العلوم كلها ولم تعرف باقسامها الحاضرة الا بعد ان تفرعت العلوم أخيرا فقط ٠

ثم تنوعت اغراض هؤلاء المستشرقين واختلفت مقاصدهم بحسب اختلاف اتجاهاتهم نحو الشرق وتنوع غاياتهم منه، سياسيا ، ودينيا، واقتصاديا، وأدبيا ، ففى أوائل القرن السادس عشر ظهر الخلاف الدينى الذى وقع بالثورة البروتيستانية فى المانيا وعم الغرب كله واضطر اهله الى الرجوع بمباحثهم اللاهوتية الى دراسة التوراة العبرية فاضطروا حينئذ الى التعرف على قواعد اللغات الساميةفدرسوا منها العربية والعبرانيةوالكلدانية والسريانية وقابلوها ببعضها بعضا استعانوا فى ذلك باليهود والعرب ، فاتسع لهم بذلك مجال البحث وفشت بسببهم البحوث حول الآداب الشرقية وانشئتيومئذ المنابر لتعليم اللغةالعربية فى أشهر مدارس اوروبا ، وطبعت التوراة لاول مرة بالعربية فى ألمانيا سنة 1514 م وحصرت هذه الحركة الاستشراقية اتجاهها ضمن الدراسات الدينية ردحا من الزمن ولم تتحول الى الآداب العامة الا فى الاعصر التى نظمت فيها العربية بباريس تنظيما علمانيا ايام وجود المستشرق الفرنسى « سيلفيستر دوساسى » فى القرن الماضى، ويومئذ ظهرت الدراسات الوافية باللغات الاوروباوية كاللاتينية وغيرها تبحث فى تاريخ العرب والاسلام وقل مثل ذلك فى السياسة والاجتماع ٠

وبما ان كلا من دول فرنسا وانكلترا وهولاندا وأمريكا والنمسا والمانيا كل منها كانت ولا زالت

لها مصالح مرتبطة بالشرق وتلك المصالح غالبا تناط بالسفراء والقناصل فكان رجال السلك الدبلوماسى مضطرين الى دراسة اللغات الشرقية، وكان عكوفهم على تفهمها حق الفهم باعثا لهم على البحث عن المخطوطات المؤلفة بلغات الشرق فاجتمع لهم فى تنقلاتهم ورحلاتهم فى الشرق كميات ثمينة من المخطوطات النادرة هى اليوم زينة المكتبات المعتبرة فى أوروبا ، كما انه كان من بواعث الاستشراق وغاياته التوسع فى الميدان الاقتصادى والتجارى ، فكان هذا الميدان ولا يزال ينبوعا فياضا بالخيرات غزير المادة . والفائدة جامعا لمنابع الثروة ، فاقتضى ذلك المزيد من التفقه فى فقه اللغات الشرقية ولا سيما منها العربية لانها كما ذكرنا لغة شعب حمل لواء التفكير الانسانى اكثر من اربعة قرون ثم انه كان قبل ذلك يمثل المدنية الانسانية على مستوى العالم وقد اشتملت لغته على جميع ما انطوت عليه الحضارة الانسانية يومئذ ولا تزال هذه اللغة تماشى الحضارة الى اليوم ، ثم ان اساس الحركة الفكرية فى اوروبا منذ القرن الثالث عشر الميلادى يرجع الى المؤلفات العربية التى تناولها الاوروباويون بالمطالعة والدرس ، وزد الى ذلك ان لهؤلاء العرب دينا جليلا له تأثير عظيم فى عقليات كثيرة تبلغ مئات الملايين من الناس منذ نشأته الى الآن ، فمدارسة هذه اللغة يسهل لهم استغلال أهلها والانتفاع بما عندهم .

وهناك طائفة ممن اتخذ الاستشراق مهنة يرتزق منها ولا يبالى حيثما توجهت به الاهواء فهو مع السياسة كيفما كانت اغراض سادته فيستخدم العلم كآلة لبلوغ غاية معينة ، ومنهم من تسوقه الاغراض السافلة الى الطعن فى الثقافة الاسلامية وتشويه الحقائق وهذا المسكين لا يدرى وانه بذلك يشوه سمعة جماعة من قومه ومن بنى جنسه اخلصت للعلم وخدمت العلم للعلم ، ومنهم من يخبط خبط عشواء فهو لا يعير اهتماما لتحقيق المسائل ولا يتحرى الصواب فى كثير منها ،ومنهم من وقع فى اخطاء لم تكن متوقعة من مثله ممن اشتهر بالتحقيق والامعان فى البحث وسعة الاطلاع والتضلع من الثقافة الشرقية والغربية ، وخذ اليك مثلا العلامة (بروكلمان) المستشرق الالمانى الكبير الف كتابا فى تاريخ الشعوب الاسلامية ونشر بعدة لغات ومنها العربية ، ورغم ما احتوى عليه هذا الكتاب من الفوائد الجمة واستيعابه للتاريخ الاسلامى من مبدأه الى العصر الحاضر ، فان صاحبه وقع فى اخطاء ولا أدرى أهى عن عمد او عن غفلة وقلة مبالاة ؟!..

فعندما تكلم بروكلمان عن الخليفة الثالث عثمان ابن عفان رضى الله تعالى عنه واتى بتفصيل لحوادث الفتنة الكبرى التى أدت الى اغتياله ذكر من اسبابها خلع عمرو بن العاص رضى الله عنه من ولايته على مصر وتولية عبد الله بن سعد ابن ابى سرح ، قال « واشتدت النقمة على عثمان فى مصر وانضم الى عمرو فى اذكائها محمد بن ابى حذيفة وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ... » !! ..

فوا عجبا هكذا يذكر بروكلمان بنفسه اسم والد محمد فيقول هو ابن ابى حذيفة ، ثم يقول

وهو ابن ابى بكر الصديق بالتبنى ؟... ومعروف ان محمد ابن ابى حذيفة هذا ولد بأرض الحبشة ورباه عثمان بن عفان فلما شب رغب فى غـزو البحر فجهزه عثمان وبعثه الى مصر الخ القصة . وكيف يتبناه الخليفة الاول ابو بكر الصديق وهو ممن تلقى القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة ومن أعلم الناس بحلاله وحرامه وحـكم تحريم التبنى فى الاسلام من المسائل المعلومة من الدين بالضرورة فكيف تخفى على ابى بكر حتى يرتكبها بنفسه ؟!!... هذا مما لا يسيغه النقل ولا العقل ولا ادرى كيف وقع فى هـذا الغلط الفاحش مثل بروكلمان ؟...

وفى هذا الكتاب أيضا تعرض لتاريخ انشاء المنبر فى الاسلام فذكر ان هذه المؤسسة الاسلامية « وقعت من عمال الامصـار الذين كانوا يؤمون الناس فى أيام الجمعة فى الصلاة العامة بأنفسـهم فهم أول من اصطنع هذا المنبر ، ولم يصـبح - حسب زعمه - فى الناس عادة شـائعة الا فى المائة الثانية للهجرة » ... والواقع بخلاف ذلك فان علماء التاريخ الاسلامى مجمعون على ان انشاء المنبر وتأسيسه للخطابة بالمسجد كان على عهـد النبى صلى الله عليه وان ابتـداء العمل به كان سنة سبع او ثمان للهجرة وقد شوهد عليه الصلاة والسلام يخطب وهو واقف على المنبر بمسجده فى المدينة ، وكان هذا المنبر يشتمل على ثلاث مراق - درجات او درج - الى زمن خلافة معاوية بن ابى سفيان وكان الوالى على المدينة مروان بن الحـكم (42 - 49 هـ) فزاد فيه هذا ست درجات ، ولقد استمر هذا المنبر الشريف بمكانه من مسـجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومنه كان يلقى الخلفاء خطبهم الى ان احترق باحتراق المسجد سنة 654 هـ . فكيف يصح بعد هذا ان يقال ان المنبر هو من صنع عمال الامصار ؟!... وانه لم يصبح ارتقاء المنبر للخطابة فى الناس عادة شائعة الا فى المائة الثانية للهجرة ؟!..

وكذلك الامر بشأن احداث المنائر واتخـاذها لتأدية شعيرة الآذان بالمسـاجد ، فاننا نرى بروكلمان يقول : « ... والواقع ان العثمانيين هم اول من ضم المئـذنة الى المسجد فى آسـيا الصغرى ... » والواقع هو بخلاف ذلك . فـان أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع هو مسلمة بن مخلد حين ولايتـه على مصر (47 هـ/667 م) فانه هدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد بمصر وبناه هو وأمر ببناء منار المسجد ، فهو أول من احدث المنائر بالمساجد والجوامع .. (النجوم الزاهرة لابن تغـرى بردى ج 1 ص 133 ط دار الكتب بالقاهرة) فأين هذا مما نسبه بروكلمان الى الاتراك العثمانيين بآسيا الصغرى ؟..

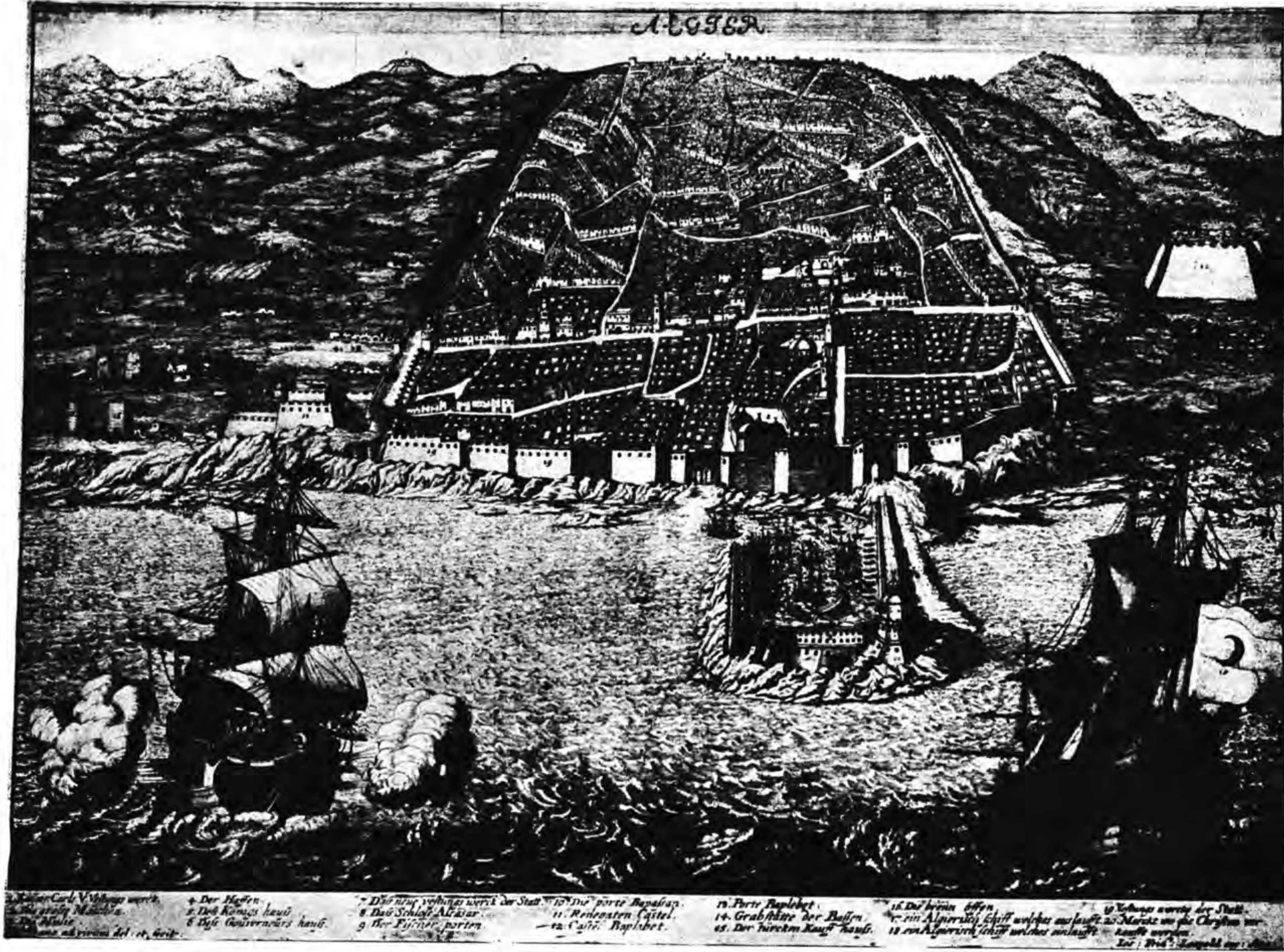
ومن ذلك ايضا قول هذا المستشرق فى نفس الكتاب بان « ... النظر فى المظالم والحكم بـين المتخاصمين ، وهى مهمة لم يكن يعين لها رجـال مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية .. » فأين هذا مما هو مشهور من ولاية القضـاء فى التاريخ الاسلامى على عهد النبى صلى الله عليـه وسـلم ، فقـد بعث على بن ابى طالب الى اليمن ليقضى بينهم، وعلمه كيف يقضى فقال له : اذا جلس

بين يديك الخصمان فلا تقض بينهم حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول فانه احرى ان تبين لك القضاء ...

كما انه عليه السلام عين معاذ بن جبل لقضاء الجند وكان ابو موسى الاشعرى قاضيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان القضاة على عهد النبى ستا : عمر وعليا وعبد الله بن مسعود وابى بن كعب وزيد بن ثابت وابا موسى الاشعرى ، وشريح الكندى كان قاضيا على عهد عمر بن الخطاب بالكوفة ..

الى غير ذلك من مسائل شتى طرقها هؤلاء المستشرقون دون ان يعيروها أدنى تحقيق ،وهذا لا يمنعنا من ان نعترف لهم بالفضل فى بذل جهود جبارة فى تحقيق المخطوطات النادرة وطبعها طبعة علمية مفهرسة بفهارس مفصلة مع ترجمتها ونقدها والتعليق عليها بتعاليق مفيدة وشروح فريدة وتوضيحهم لكثير من المسائل العلمية وتبديد ما تراكم عليها من غبار الاوهام والشكوك ، فلهم منا على ذلك مزيد التقدير والاحترام .





مدينة الجزائر فى القرن السابع عشر..

الحقيقة عن دور زاوية صدوق والإخوان الرحمانيين في ثورة 1871

يحيى بوعزيز
استاذ جامعة وهران

اصول اسرة الحداد ونشأة زاوية صدوق :

ان البلد الاصلى لاسرة الشيخ الحداد هـو بنى منصور ،ومنها انتقل بعض الاحفاد الـى ايموله فى الضفة الغربية لوادى الصومام ، والى بلدة صدوق الفوقانية على الضفة الشرقيـــة للوادى بين مدينتى اقبو ، وبجاية ، وذلك منذ اربعمائة عام قبل وقت الثورة ، وخمسمائة عام حاليا • وفى صدوق تعاطى الحفيد الذى هاجر اليها حرفة الحدادة ، وخلف ولدان احدهما كان مثقفا واسس زاوية لتعليم القرآن ، وهو والد الشيخ امزيان الحداد زعيم الثورة •

تعلم الشيخ امزيان فى زاوية ابيه ، فحفظ القرآن ، وتعلم بعض مبادى العربية ثم ذهب الى زاوية الشيخ ابن اعراب فى جبال جرجرة حيث واصل تعلمه مدة من الزمن ، وفى نهاية دراسته اخذ الميثاق على خليفة سيدى عبد الرحمن بوقبرين فى زاوية سيدى على بن عيسى فى جبال جرجرة • وعاد الى صدوق وتصدى للتعليم فى زاوية ابيه ، واختاره اهل القرية اماما ومعلما فى مسجدهم • وعند ما تكاثر الطلاب فى زاويته اذن له باعطاء الورد كمقدم وخليفة لطريقة سيدى عبد الرحمن ، واصبح يعطى الميثاق للمريدين ، وارتفع عدد الطلبة فى زاويته الى حوالى 500 ياكلون ويشربون ، وشاركت الزاوية فى تقديم اعانات مادية للمعوزين اثناء مجاعة عامى 1867 ـ 1868 م (1) •

وقد استطاعت عائلة الشيخ الحداد ان تفرض نفوذها وسيطرتها الدينية على المنطقة الواسعة شرقى وادى الصومام من البحر الى سهل الحضنة وعلى مناطق واسعة فى منطقة القبائل الكبرى ايضا •

ولزاوية صدوق ، من الناحية الدينية صلة بزاوية طولقة التى تعتبر الزاوية الام لكل الاخوان الرحمانيين فى الهامل ، ونفطة ، وتنافسها فى الاتجاه والسلوك زاويتا تيماسين، وقمار التيجانيتان •

وبين زوايا الرحمانيين انفسهم هناك خلافات وتنافس ، فزاوية طولقة رضيت منذ البداية بالتعامل مع سلطات الاحتلال ، واعلن رئيسها سى على بن عمر طاعته لسلطات الاحتلال منذ عام 1844 ، وفتح زاويته للقوم والجنود الفرنسيين فى احداث بسكرة بنفس العام • بينما زاوية نفطة كانت ملجأ لكل الفارين والمضطهدين من طرف سلطات الاحتلال منذ عام 1849 ، ولكن سياستها تغيرت بعد ان اصبح على راسها سى الحسين بن على بن عثمان شقيق رئيس زاوية طولقة، وتأثر باتجاه اخيه فاصبح من اعوان الفرنسيين وهو الذى ابلغهم عام 1871 بوصول محيى الدين ابن الامير عبد القادر صحبة ابن هلال اقدم كتاب ابيه ، وتقابله مع ناصر بن شهرة ، وبوشوشة •

اما زاوية صدوق فكان لها اتجاه مستقل ويمثل شيخها واتباعها الافكار الديمقراطية لان معظمهم من الطبقة الشعبية الكادحة المحرومة (2) وصلاتها بسلطات الاحتلال محدودة لانها لم تكن اسرة اوروستقراطية غنية من جهة ، ولم يتقلب افرادها فى الوظائف العامة الادارية باستثناء عزيز الذى عين قائدا على دوار عموشة لمدة قليلة وكان الشيخ امزيان الحداد يمثل الروح الاستقلالية والاتجاه الديمقراطى ، ويكره بطبيعة تكوينه الدينى سياسة المراوغة ، والانتهاز التى تتبعها العائلات الاوروستقراطية الاقطاعية امثال

---

1) سى عزيز : مذكرات متهم ، ص 77 ـ 81
2) لويس رين : تاريخ ثورة 1871 بالجزائر ، ص 89 ـ 92 ـ 105 ـ

عائلة باشاغا شلاطة ، التى تتصف بالكبرياء والتعالى ، وتعارض روح ومبدا المساواة ، والديمقراطية • (3)

مشاكل زاوية صدوق :

ان هذا الاتجاه الديمقراطى لزاوية صدوق ، المعادى بصورة عامة للاوروستقراطية هو الذى خلق لها مشاكل فى المنطقة من ضمنها التنافس والصراع الحاد الضمنى والعلنى مع زاوية باشاغا شلاطة ابن على الشريف ، وزاوية الشريف الشيخ محمد امزيان بن الموهوب ، شيخ العرش فى ايموله ، المتحدتين فى السيرة والاتجاه •

فزاوية الشريف محمد امزيان بن الموهوب سايرت سلطات الاحتلال ، ودخلت فى خدمتها منذ عام 1847 وتضامنت مع زاوية شلاطة ، وتحمل حقدا ضد عائلة الشيخ الحداد ، لان الشيخ محمد بن الشيخ امزيان الحداد كان ضمن جنود الشريف بوبغلة فى حركته ، وهو الذى هاجم زاوية ابن الموهوب فى 5 مارس 1851 ، وخربها ، لمعارضة صاحبها للثورة • وبقى هذا الكره والحقد حتى عام 1871 ، وتعرضت نفس الزاوية لهجوم عزيز فى 15 ابريل 1871 •

اما زاوية شلاطة فمشاكلها مع عائلة الحداد وزاوية صدوق اكثر تعقيدا • فزعيمها ابن على الشريف خضع لسلطات الاحتلال منذ احداث عبد القادر ، وتعاون مع الجنرال بيجو فى اطار المكاتب العربية ، وساعد الجيش الفرنسى على عبور منطقة وادى الساحل فكرموه ومنحوه لقب ضابط الشرف Officier de la Légion d'Honneur ووافقوا على امتيازات احتفاظه بمكانته وخدامه ، وعلى عدم دفع الضرائب •. واستدعى عام 1852 لحضور حفلة زواج الامبراطور نابليون فى كومبين Compiègne ويعتبره وارنى من اكثر الجزائريين تنويرا وتحضرا ، ولكن خضوعه لسلطات الاحتلال اساء لسمعته فضعف نفوذه • ومع انه بعد انتصارات راندون فى احتلال القبائل الكبرى استعاد سمعته بعض الشىء الا ان اغلبية اتباعه انضموا جماعات جماعات الى الشيخ الحداد فى صدوق ، ولم يبق له من قوة سوى فرق « القوم » المرتبطين بوظيفته ، والمدعمين بالسلطة الفرنسية • (4)

وكان ابن على الشريف يتباهى باصله لكونه ينحدر كما يدعى من الادارسة ، وبذكائه السياسى ، ويعرض بعائلة الحداد ، ويقول انها لا اصل لها ، وليس افرادها سوى عمال فى مهنة الحدادة • ويعود سبب الكره والحقد بين شلاطة وصدوق الى احداث بوبغلة كذلك حيث هاجم الشيخ امحمد بن الشيخ الحداد ، عزيب بن على الشريف فى 18 مارس 1851 ، تماما كما حصل لزاوية الشريف ابن الموهوب ، ونما هذا الحقد والكره وتضاعف حتى بلغ اقصاه عام 1871•

فقد تأكدت السلطات الاستعمارية من اخلاص

3) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 ـ 482
4) اندرى جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481

ابن علي الشريف ، فعينته باشاغا على شلاطة يوم 24 فيفرى 1869 ، واصبح نفوذه يشمل زاوية صدوق ، فلم يرتح عزيز لهذا العمل وهو قائد عموشة ، فقدم استقالته وتحول الى خصم لدود لابن علي الشريف يغتنم كل الفرص لاثارة المتاعب ضده · وقد اكد في مذكراته بان ابن علي الشريف له لسان طويل يلعب على الحبلين ، احيانا مع سلطات الحكومة ، واحيانا مع الثوار ، حتى لا يخسر احدا ، ويكون دائما هو الرابح ، ويتضح ذلك من احداث بوبغلة حيث كان يستقبل ثواره سرا ، ويعمل علنا مع فرنسا · (5) وهي نفس الفكرة التي اكدها بيدولت حيث قال : «ان ابن علي الشريف في زاوية شلاطة قوي ومعروف في كل القبائل ، ولكن ماضي اجداده وسلسلة نسبه ضاعت ، وعند ما ارتفعت قيمة الحداد في صدوق حاول ان يكسب السمعة بامواله ، وسياسته ، وذلك بالحصول على منصب باشاغا شلاطة في الجزائر ، واصبح يسيطر على بني وغليس ، واوزلاقن ، ويلوله ، وبني عيدل ، وبني مسيسنا واصبح له مرتب شهري بمبلغ 12 الف فرنك (6)

اسباب التجاء المقراني الى الشيخ الحداد :

كانت بمنطقة القبائل الصغرى ، والضفة الغربية لوادي لصومام وضعية شاذة بين الزوايا الدينية ، والعائلات الارستقراطية ، تعتبر احدى الاسباب التي ادت الى ثورة 1871 والى فشلها ·

فلقد شرحنا سابقا طبيعة الخلاف والمشاكل بين زاوية صدوق الرحمانية ، وزاويتي شلاطة ، ويلولة ، ونضيف هنا بان عائلة الباشاغا المقراني نفسها ، كانت منقسمة على نفسها الى فرعين : فرع الباشاغا محمد بمجانة وكان صديقا لباشاغا شلاطة ابن علي الشريف ، وفرع محمد بن عبد السلام المقراني قائد عين تاغروط شرق برج بوعريريج ، وهو صديق للشيخ عزيز قائد عموشة ، وعائلة الحداد بصدوق · وقد خلق هذا الانقسام في عائلة المقراني ، وهذه الصداقة المتعاكسة ، وضعا شاذا انعكس على الاحداث فيما بعد قبيل نشوب ثورة 1871 ، وزاد في حدة هذا الخلاف والشقاق التصرفات السيئة التي سلكها الضباط الفرنسيون بالمنطقة خاصة الجنرال اوجورو ، والكولونيل بونفالي ،وريلهاك ·

ففي اواخر 1870 استدعي بونفالي من مليانة ليخلف اوجورو في قيادة منطقة سطيف ، بعد ان نقل الاول الى قسنطينة ، وسلك سياسة المراوغة واظهر ميله لصف اولاد عبد السلام خصوم الباشاغا المقراني ، ولعائلة الحداد خدمة للمصالح الفرنسية ، واقترح عليه اوجورو قبل رحيله ان يحاول اصلاح ذات البين بين الصفين في منطقة وادي الساحل ، خاصة بين شلاطة وصدوق ، ورحب المقراني بالفكرة لان ذلك سيضمن عزل الاخوان الرحمانيين عن خصومه من ابناء عمومته صف محمد بن عبد

5) سي عزيز : مذكرات متهم ، ص 10 ـ 11 و 36 ـ 37
6) بيدولت : الحقيقة على الجزائر ، ص 56 ـ 58

السلام ، فاتصل بعدد من الشيوخ والقيـــاد ، وتألف وفد خلال شهر جانفى 1871 ذهب الـى بجاية ، ومنها الى صدوق ، ثم الى اقبو بصحبة عزيز • وكان اللقاء بين ابن علي الشريف وعزيز يوم 9 جانفى 1871 باقبو فاترا وباردا محوطـا بالشكوك والريب • ولم يفلح المقرانى فى ازالة شكوك ابن على الشريف نحو صدوق • (7)

لم يقدر لهذه الزيارات ان تثمر لان الخلاف كان عميقا وجذريا بين صدوق وشلاطة • وقد وصل الى علم بونفالى تأكيد عزيز بان اى تفرقة بين ابيه والاخوان سيؤدى الى نشوب ثــورة ، وابلغه ابن على الشريف نفسه فى رسالة وجهها اليه والى حاكم بجاية ويلهاك بان عزيز يضايقه ، وعليه ان يعتقله او يوقفه على الاقل ، فطلب من عزيز بأن يكف عن اثارة المشاكل ، ويتصـــل بحاكـم بجاية ، ويزوده بالاخبـار والمعلـومـات الضرورية •

وهكذا وجد المقرانى نفسه وحيدا ، وشبـه معزول عن تأييد هذه العائلات الاوروستقراطية ، وفى نفس الوقت اشتد قلقه من تزايد صعـود نجم خصومه : صف اولاد بن عبد السلام المقرانى واشتدت الاشاعات ، وقـويت عن اعتـــزام السلطات الفرنسية انتزاع الباشاغوية منـــه واعطائها لهم •

وهداه تفكيره الى استمالة الشيخ الحـداد ، والاخوان الرحمانيين بالتبعية • واستغل غضب عزيز الحداد وحدة خلافاته مع ابن على الشريف، فاندفع بحماس لفتح مفاوضات معه ومع ابيه ، رغم انعزيز كان صديقا شخصيا حتى ذلك الوقت لمحمد بن عبد السلام المقرانى • وهذه العلاقـة هى التى اخرت الاتصال بين صدوق ومجانـــة حتى هذه الساعة وجعلتها واهية •

وقد جاء هذا الاتصال ليزيد من طموح عزيـز ويرفعه ، فأكد له بأن كل الاخوان الرحمانيـين سينسحبون من صف ابن عبد السلام ، ويلتحقون به فى الحال ، ولم يكتف بهذا فأخذ يحث الناس على الجهاد قبل اعلانه رسميا ، وعقد اجتماعـات عامة فى صدوق وضواحيها خلال ايام 27 ــ 30 من مارس للتبشير بالجهاد ، وبسرعة اخـــذ الرحمانيون بزمام الموقف ، وتحول عزيـــز الى زعيم ثائر منذ اواخر سبتمبر عام 1870 • وقد كان وارنى منـذ اكتوبـر 1870 قـــد طلب من السلطات الفرنسية ايقاف شقيق عزيز ، الشيخ امحمد ، ولكن دوريو عـارض ، استنـــادا الى تأكيدات وضمانات الجنرال اوجورو فى اخلاص عائلة الشيخ الحداد •

ولما كان الشيخ امزيان الحداد كبير السـن ، طاعنا ، ولا يميل الى الحروب لكونه كان يـرى فيها تخريبا وتحطيما لزاويته ، وامكانياتهـــا المادية والدينية ، فقد تسلط عليه ابنه عـزيـز الذى كان على العكس منه حتى اقنعه باعـــلان الجهاد يوم 8 ابريل 1871 • (8)

7) الفريد رامبود : ثورة الجزائر عام 1871 ، ص 19 ، ورين ص : 111 ــ 116
8) جوليان : تاريخ الجزائر المعاصر ، ص 481 ــ 482 ، ورين ص : 198 ــ 199

عوامل استجابة الإخوان الرحمانيين للثورة :

هذه هي بعض الدوافع التي حفزت المقراني على الالتجاء الى اتباع الشيخ الحداد والاستنجاد بهم في حركته الثورية · فما هي العوامل التي حملت عزيزا واباه على الاستجابة بهذه السرعة وتلبية نداء الثورة ، واقحام الاخوان الرحمانيين؟

ان معظم الذين كتبوا على هذه الثورة وعلى راسهم لوي رين ، اعتبروا حركة الاخوان الرحمانيين ، ووصفوها بانها حرب دينية مبنية على التعصب الديني والعرقي ، بل ان البعض منهم اراد ان يتهم الاخوان بانهم مدفوعون من طرف مشوشين جاؤوا من مكة ·

ففاوتي مثلا يقول : ان كل الجزائر اخذت تستعمل النار مدعمة برياح التعصب الديني للاخوان (الرحمانيين) الذين انتشروا في مصيف جرجرة ، ومن حدود المغرب الى حدود تونس ، وان اخوان 1863 و 1865 ما يزالون اليوم يقودون الحرب الدينية · وقد جاؤوا من مكة لزرع التشويش الديني في كل الجزائر · (9)

ولكن الحقيقة غير ذلك ، وهناك ظروف عامة وخاصة اقحمت الاخوان في المعركة :

اولا : الخصومة التقليدية والحادة بين زاوية صدوق وزاوية شلاطة، وتبادل الطرفين التهم والسباب والشتائم ، فابن علي الشريف كان يظهر تكابره نظرا للمنصب الاداري الذي يشغله كباشاغا ، ويعرض بعائلة الحداد ويقول بانها لا اصل لها ، وان ابناءها من الحدادين ، والحدادة في نظره من المهن القذرة · وعزيز يرد عليه في مذكراته ، ويتهمه بالمقابل بانه لا اصل له ولا نسب رغم ادعائه بانتسابه الى الادارسة ، وقد سبق ان عرضنا راي بيدولت في ذلك · ويزيد عزيز ايضاحا لفكرته قائلا : ليس هناك عيب او احتشام ان ينحدر الانسان من جزار او خماس ، او حداد او تاجر او حمال ، ولكن العيب ان يجهل الانسان اصله ، ونسبه ، هذا هو السؤال · (10)

ولم يتورع ابن علي الشريف في اتخاذ اية وسيلة لتحطيم اسرة الحداد ، وبلغت به الجراة ان اقترح على حاكم بجاية اعتقال عزيز باعتباره مشوشا ، ورفض مساعي المقراني وغيره من الشخصيات من اجل تحقيق الصلح بين العائلتين كما سبق · وبالمقابل فان عزيز اندفع ليرد الخطر ويدافع عن اسرته واتباع زاوية ابيه · ان مرارة عزيز من ابن علي الشريف تجاوزت الحد كما يتضح ذلك في مذكراته ·

ثانيا : السلوك السيء الذي يتبعه الشيوخ والقواد الموظفون ، وضباط الجيش الفرنسي تجاه الاهالي خاصة الاخوان · ففي رسالة بعث بها عزيز الى ايلهاك حاكم بجاية يوم 14 جوان 71 ، حمل فيها مسؤولية الحرب على هؤلاء القواد والضباط ، الذين خربوا وحطموا المسلمين دون رأفة بما يقومون به من نقل اخبار مزيفة

9) فاوتي : استقلال الجزائر ، ص 3 ـ 8
10) سي عزيز : ص 81 ـ 84

له · واكد فى مذكراته ان ارهاق القواد والمقربين للناس هو الذى دفعهم الى الانضمام الى صفوف الثوار ، وقال انى شهدت بنفسى كيف عانى سكان قرية صدوق من تبذير اموالهم فى استضافة ولد بن على الشريف حين قدم اليها وبقى بها اربعة ليال كاملة · (11)

واوضح فى رسالته السابقة بانه على استعداد للسلم وفق الشروط التى يقترحها اذا كانت هناك رغبة للسلم ، وهو الاول لذلك ، ولكن اذا احتفظت السلطات الفرنسية باولئك القواد فسيبقى هو ورفاقه واقفين بمساعدة الله وتأييده للجهاد الى اليوم الذى يرزقه الله بحكومة اخرى تضع معهم سلما ، «**والى هنا نحن متحزبون ضدكم بحول الله** » (12)

ثالثا : ان اندفاع الاخوان للثورة لم يكن بسبب العاطفة الدينية المتعصبة كما يصفها الكتاب الفرنسيون ، وانها لاسباب اكثر عمقا سياسية واقتصادية واجتماعية ، وجاء العامل الدينى ليدعمها · وقد دافع عزيز نفسه على هذا خلال دفاعه فى محكمة قسنطينة حيث اكد بان الحرب الدينية التى تزعمها ليست الا وسيلة للعمل ، وليست حربا دينية ، وان الالقاب والعناوين التى الصقت به كأمير المجاهدين ، والمدافع عن الدين ما هى الا تصورات نتجت من الظروف ·

رابعا : وهناك الظروف العامة التى تعيشها البلاد من الاقدام على اعادة التنظيم وانشاء النظام المدنى بدلا من العسكرى ، واعطاء اليهود الجنسية الفرنسية بصورة جماعية ، وارهاق الناس بالضرائب ، والتهديد بانتزاع اراضيهم واعطائها للمهاجرين الاوروبيين الجدد بعد حرب السبعين ، وما سبق ذلك من مجاعة ، وما استتبع ذلك من احتمال تسلم اليهود السلطة بالبلاد ، وتسلطهم على الجزائريين · كل هذه الاشياء استعملها عزيز فى دعايته للثورة ، وكذلك كل مقدمى الاخوان الرحمانيين ، وهى امور ذات صلة بالوضع السياسى للبلاد ، ومستقبلها ، ولها تاثير كبير فى دفع الاخوان لخضم المعركة ·

وهكذا يتضح ان وصف حركة الاخوان الرحمانيين بانها دينية متعصبة ، فيه نوع من المبالغة ، والتجنى عن الحقيقة ·

دور الاخوان فى الثورة :

لا شك ان ارتماء الاخوان فى خضم هذه الثورة هو الذى ادى الى حدوث تطورات خطيرة فيها ، فتحولت الحرب من طابعها الاوروستقراطى ، الى ثورة شعبية ، واصبح الاخوان الرحمانيون يجاهدون بعاطفة الدين لغرض الحصول على الاستقلال ، بتأييد من كل القبائل كقاعدة شعبية ·

فبعد اعلان الشيخ الحداد الجهاد المقدس يوم 8 ابريل 1871 ببلدة صدوق امتدت الثورة الى

11) سى عزيز : ص 43 ــ 45
12) جوليان : ص 485 ــ 489

كل المناطق والقبائل الشمالية من الجزائر العاصمة الى القل وجيجل وباتنة ، وحوصرت مراكز الفرنسيين وقلاعهم في بجاية ، ودلس ، وتيزى وزو ، واربعاء نايت ايراثن ، وذراع الميزان ، والاخضرية ، وغيرها • وجر هذا الاعلان للجهاد من اتباع الحداد الرحمانيين اكثر من مائة وعشرين الف مجاهد ينتمون الى مائتين وخمسين قبيلة تؤلف ستمائة الف نسمة في خلال نصف شهر تقريبا • بينما لم يستطع الباشاغا المقراني قبل ذلك ان يجند سوى بعض مئات من آلاف الاشخاص يمثلون 25 الف محارب موزعين بين قبائل برج بوعراريج ، وبوسعادة ، وسور الغزلان •

وهذا الامر اصبح يمثل خطرا كبيرا بالنسبة لفرنسا ، لان عزيز واباه ليسا من المشعوذين او المتعصبين ، واعلانهما للجهاد ، واقحامهما الاخوان الرحمانيين في المعركة لا يمثل حدثا دينيا فقط ، وانما يتجاوز ذلك الى غرض سياسي يستهدف خدمة مصالح القبائل المادية • (13)

وفي رسالة للجنرال لاباسى الى الجنرال لالمان بتاريخ 18 ابريل 1871 من معسكره بالقصر قرب بجاية قال له :

ان الجزائر تمر بمرحلة صعبة ودقيقة وثورة الاخوان الرحمانيين الموزعة الى عدة فروع دينية اثرت على اصدقاء فرنسا من تونس الى المغرب ، وقد اصبح الشيخ عزيز مثل السلطان بالقبائل(14)

امتداد نفوذ الاخوان :

بعد التعرف على كيفية قيام حركة الاخوان الرحمانيين ، **لابد من التعرف على مدى امتدادها** داخل منطقة الحوادث لاستكشاف مدى نفوذها وخطورتها ومدى سيطرتها على الحوادث •

وما من شك في ان لزاوية صدوق انصارا واتباعا في معظم منطقة القبائل الكبرى ، والصغرى ، والشمال القسنطيني ، وفي العاصمة واحوازها ، ولها صلات روحية ببعض الزوايا الاخرى في حوض الشلف ، وواحات الجنوب الشرقية •

وعلى هذا الاساس تحرك اتباعها في كل هذه الجهات وقادوا الناس للجهاد افواجا وجماعات بدون صعوبات كبيرة بعد ان اعطى لهم شيخهم اشارة الضوء الاخضر في **اعلان 8 ابريل** 1871 •

ففي جبال بابور بالشمال القسنطيني ، **والمنطقة الشرقية لوادى الصومام** حيث اتباع الحداد بكثرة ، قاد عزيز بنفسه الحركة ، وتحولت زوايا المقدمين فيها الى مراكز الثورة ، ومصادر لالهام المجاهدين بالحماس ، ومن ابرز القادة الرحمانيين رئيس زاوية فرجيوة ، والمقدم الحسين بن احمد بن الشريف المدعو مولاى الشقفة زعيم زاوية مولاى الشقفة بالبابور •

غير ان عزيز والاخوان الرحمانيين بجبال البابور واجهوا صعابا ومقاومة من بعض العائلات

13) فيكتور بيكى تاريخ الجزائر الفرنسية (1830 - 1930) ص 230
14) ضابط قديم في الجيش الافريقي الجنرال لاباسى الجزء 2 ص 259

المتعاونة مع سلطات جيش الاحتلال امثـــال : اولاد نابت ، وعائلة ابن حبيلس ، واولاد داوود ابن كسكاس ·

ولا شك ان ثقل الاخوان الرحمانيين كان فى هذه المنطقة ، وفى حوض الصومام ·

وفى الضفة الغربية لوادى الصومام كـــان شقيق عزيز الشيخ امحمد هو الذى يقود المعركة فواصل محاصرة بجاية ، ومحاربة اتباع واعوان ابن على الشريف المتعاون مع الفرنسيين ، وخاض معركة تالاوريان غرب بجاية ضد قوات ريلهاك Reilhac يوم 24 ماى فقد كثيرا من جنوده نتيجة اختلاف اساليب الحرب بين الطرفـــين وفقدان جيش الشيخ امحمد للاسلحة الكافيـــة

وغير خفى ان الشيخ امحمد اعتاد على الجهاد منذ مدة طويلة فكان من قادة جيش الشـــريف محمد الامجد بن عبد المالك بوبغلة ، يحمل حقدا دفينا على سلطات الاحتلال وجيشها ولهذا اندفع بحماس للجهاد والحرب ، غير ان استسلام اخيه اثـــر فى قواته ، وغـــرر بـــه احـــد اولاد اورابح فسلمه الى حاكم بجاية فى اليوم الثانى من شهر جويلية 1871 بعد يومين فقط من استسلام عزيز للجنرال لالمان بالجرجرة ·

وفى ذراع الميزان : كانت زاوية سيدى عبد الرحمن بوقبرين مركز نشاط الاخوانالرحمانيين وكان مقدمها الشيخ محمد بن محمد الجعدى قد عينه الشيخ الحداد منذ عام 1860 رئيسا للاخوان فى المنطقة ووكيلا للزاوية وهو الذى تولى اعلان الجهاد باسم الشيخ الحداد ، ولم يتورع جيش الاحتلال فى حرقالقبة والزاوية،بعد ذلك ، وظل الثوار يحاصرون ذراع الميزان حوالى 42 يومـا من 20 ابريل الى 2 جوان ، ويذكر رين ان الجعدى هو الذى تسلم طابع الباشاغا وبعض اوراقـــه بعد استشهاده فى معركة وادى السفلى قـــرب البويرة يوم 5 ماى 1871 · (15)

وفى منطقة تيزى وزو : هناك فرع من عائلة اوقاسى المنحدرة من اسرة سلاطين بنى حمـاد ، مالت الى الرحمانيين ، وبرزت السيدة خديجـــة بنت بلكانون ارملة الباشاغا بلقاسم او قاسى ، فربطت صلاتها باتباع الطريقة الرحمـــانية ، وعينها الشيخ الحداد مقدمة لاتباعه فى المنطقة ، واصبحت تزوره بين الحين والآخر كما كـــان يزورها مقدم زاوية اوسحنون محمد على اوسحنون

والى جانب هذه السيدة هناك المقدم الرحمانى محمدوعلى اوقاضى من بوهينون الذى قام بنشاط واسع لصالح الثورة منذ 15 ابريل ، وكـــان مرشدا فصيح اللسان ذا سمعة كبيرة ، واستعمل فى دعايته نفس الاسلوب واللغة التى كـــان يستعملها عزيز والمقرانى فى دفع الناس للجهاد، وذلك بالتأكيد لهم على ان فرنسا اصبحت بدون جيش ، ويتحكم فيها اليهود ، وان الفرنسيـــين يحاربون رجالا مخلصين امثال الشيخ الحـــداد والمقرانى ·

15) رين : ص 257 ــ 264

على انه يلاحظ ان وجود علي اوقاسي بالمنطقة وصلاته الوثيقة بابن علي الشريف باشاغا شلاطة المعروف بميوله لفرنسا ، كان احدى العقبات في عمل الاخوان الرحمانيين بهذه المنطقة رغم ما حصل من حصار البلد ، وحصول حوادث دامية ، وارتماء علي اوقاسي بعد ذلك في احضان الثورة ٠

وفي دلس : كان هناك الحاج عمر بن محيي الدين الذى هو خصم لعائلة اوقاسي ، وممثل للاخوان الرحمانيين ٠ وقد عين الشيخ الحداد ابن اخيه الشيخ محمد بن علي بن امحمد مقدما للرحمانيين في هذه الجهة ، وهو الذى اعلن الجهاد في ابريل 1871 ، فارتمى كل افراد قبيلته في احضان الثورة وتبعهم كل الاخوان الرحمانيين وحاول الحاج عمر نفسه رغم كبر سنه ان يغرر بمحافظ شرطة دلس ويأخذ منه الاسلحة بعنوان الدفاع ليسلمها الى الثوار ٠

وقد تأثر نشاط الاخوان في الاخضرية (باليسطرو سابقا) بسبب عمق الخلافات بين العائلات الكبيرة خاصة آيت رحمون ٠

وفي الجزائر العاصمة ومتيجة : امتد نشاط الاخوان الدعائي في محاولة دفع الناس الى الثورة نظرا للعلاقات الروحية الموجودة بين الهيآت الدينية بصورة عامة ، وقد توصلت سلطات الاحتلال بمنشور موزع من طرف الاخوان يوم 26 ابريل ، دون ان يكون عليه امضاء واضح حتى لا يتعرض اصحابه للمتابعة والايقاف ٠ وفحوى هذا المنشور التهيئة لهجوم واسع على قرى سهل متيجة خلال يومي 29 ـ 30 ابريل ٠

وراجت الاشاعات بان الثوار سيطلبون نجدة السلطان العثماني ، ولربما الاسطول الانجليزي ومن الغريب ان التقرير الموجه الى دوقيدون كان مصحوبا برسالة ممضاة من وجهاء قسنطينة ، وكان من ضمن من وقع عليها الشيخ محمد امزيان بن الحداد ٠

وقد حاول وارني ان يرد هذا الغضب العام للاهالي ، الى قيام سلطات الاحتلال بمصادرة اوقاف المساجد الاسلامية ، والتعريض بالدين الاسلامي ورجاله ، كما حاول ان يدلل على ان محررى الوثيقة من مهاجرى الاندلس المستقرين بالعاصمة ، نظرا لما تحتويه من امثلة عن قيام الاسبان بطرد المسلمين وتنصيرهم بالقوة بالاندلس ٠ (16)

وفي منطقة باتنة والاوراس : لم يكن لاتباع الشيخ الحداد نفوذ ومركز كبير لان السكان هناك مرتبطون بزاوية طولقة التى اظهر شيخها على ابن عثمان بن عمر اخلاصه لسلطات الاحتلال ، وعارض الثورة من اول يوم لارتباطه بالتيجانيين الذين وثقوا صلاتهم بالادارة الاستعمارية ٠

ولكن اتباع الشيخ الحداد لم يقفوا مكتوفي الايدى ، فعلى اثر اعلان الجهاد في ابريل 1871 ، توجه جماعة من مقدمي زاوية صدوق الى بليزما

16) رين : ص 252 ـ 253

وعلى راسهم : احمد بن عبد الله ، يخلف بن مرا ، وعلى بن بوشيرب ، حاملين معهم امر اعلان الجهاد، فانضم الى الحركة جماعة من الاخوان الرحمانيين بالمنطقة من جماعة بن رحمون ، وسليمان بن دروعى ، كما انضم بعض مقدمى زاوية نفطة الرحمانية المنشقين عن زاوية بن عبيد ، ثم توالى انضمام الناس للحركة الثورية من غير الرحمانيين غير ان السلطات الفرنسية حاولت ان تعتبرها حركة عصيان من طرف قطاع الطرق والمجرمين : des bandits كما كتب عنها رين ، وروبين (رين 319 – 338 – 487) .

وحتى في بني مناصر : بمنطقة شارشال ، – غرب الجزائر العاصمة – اندلعت حركة ثورية فى جويلية 1871 بزعامة شخصية دينية ، ولكن اسبابها الرئيسية تعود للمشاكل المعقدة بين عائلتى : مالك البركانى، ومحمد الغبرينى ، ولو ان صدى حركة الاخوان الرحمانيين شرق العاصمة له دخل وتأثير على هذه الاحداث ، خاصة وان الرحمانيين له بعض الانصار والاتباع فى منطقة حمام ريغه .

والخلاصة : ان حركة المقرانى ما كانت لتعم وتنتشر الى كل هذه الجهات ، وينضم اليها عشرات الآلاف من الناس ، لولا قيام الاخوان الرحمانيين الى جانبه ، وارتماؤهم فى خضم المعركة بصورة تكاد تكون جماعية . والسؤال المطروح : لماذا انهارت هذه الحركة بسرعة كذلك ؟ ؟

تعميم حركة الاخوان :

ان الاخوان الرحمانيين اتباع زاوية صدوق ارتموا بكل ثقلهم وبصورة جماعية فى حركة الثورة الى جانب المقرانى . وكان دخولهم على هذا الشكل حدثا بالغ الاهمية بالنسبة للثورة نفسها ، وخطيرا بالنسبة لسلطات الاحتلال ، بحيث تحولت استراتيجية الحرب واساليبها وتغير طابعها . اذ كانت فى البداية حركة اروستقراطية بزعامة رؤساء اقطاعيين، واصبحت فى ابريل و ماى ثورة شعبية عارمة يقودها رجال كادحون لا صلة لهم بالمظاهر الاوروستقراطية ولا تربطهم بالادارة الاستعمارية سوى ظاهرة الخضوع ، وكان المفروض ان تكون النتائج فى مستوى هذه الخطورة من الجانب الايجابى للبلاد ومستقبلها .

غير ان الملاحظ هو ان الاخوان جاء اخفاقهم بصورة سريعة لها شبيه بطريقة ارتمائهم فى الثورة ، وذلك من الامور التى عجلت بوضع حدلها .

– فالشيخ عزيز استسلم للجنرال لالمان فى جبال جرجرة يوم 30 جوان .

– واخوه الشيخ امحمد غرر به احد رجال عائلة اورابح ، وقاده الى بجاية وسلمه الى حاكمها الفرنسى يوم 2 جويلية ليتقرب بذلك من السلطة .

– وابوهما الشيخ امزيان الحداد سلم للجنرال سوس يوم 13 جويلية فى تيزى الاكحل

قرب ذراع الاربعاء بعد ان علم بوقوع ابنيه في يد قوات جيش الاحتلال ٠

وكان استسلامهم على هذا الشكل كقادة وقيادة ، سببا في استسلام العديد من الرجال والقبائل ، وهذا امر طبيعي لان ضياع القيادة هو ضياع في نفس الوقت للجبهة نفسها خاصة في مثل تلك الظروف ٠

فما اسباب هذا ياترى ؟

ان الجواب على هذا السؤال ما يزال بحاجة الى تحقيق وتثبت ، ولكن هناك بعض الظواهر يمكن ان تكون جزءا من الاجابة عليه ، مع ملاحظة ضرورة التركيز على عزيز بصورة خاصة باعتباره زعيم الاخوان ونائبا عن ابيه ٠ والمسؤولية الكبرى تقع على عاتقه هو ٠

واول هذه الظواهر وجود او ظهور خلافات بين عزيز وبومزراق المقراني بعد استشهاد الباشاغا زعيم الثورة ، وهذه الخلافات على ما يبدو تعود الى طبيعة التكوين نفسها،فبومزراق شخصية اوروستقراطية مثل اخيه الباشاغا ، وعند ما تسلم راية الجهاد بعد 5 ماي اراد ان يكون مصدر كل شيء في التوجيه والعمل ، ولكن عزيزا لم يكن يطيق مثل هذه السيطرة وكان يود ان يكون له دور مماثل على الاقل ، ولما اعترضته صعوبات في البابور ، وفشل فيتكوين مركز قوى في الضفة الغربية لوادى الصومام ، تسرب اليه الفشل ، واسرع الى الاستسلام ٠

وثانى هذه الظواهر هو تصرفات عزيز شبه الحمقاء تجاه العائلات الدينية وخاصة زاوية الشريف بن الموهوب ، وزاوية شلاطة ، فرغم ذلك العداء كان من حقه ان يتجنب ما امكن الصدام معها حتى لا يخلق المزيد من الاعداء ، ولا يبعد عن صفوفه المزيد من الانصار ، فهاجم زاوية ابن الموهوب في 15 ابريل ، وزاوية شلاطة يوم 24 ماي ٠

ولا ننسى ايضا طريقة تعامله مع بعض القبائل حيث كان يرهقها بالضرائب لدرجة اظهرت استياءها وكفت عن تأييده ومناصرته كما حصل مع بنى جليل ٠

وهناك ظاهرة اخطر من كل هذا ، نعتمد فيها على مذكراته وهو انه لم يثر الا انتقاما من ابن على الشريف ، ومضايقة حاكم بجاية فقد قال في مذكراته : « ان كل ما احكيه عن حاكم بجاية وابن على الشريف اذا شهدوا على بشيء فهم مخطئون ، الا يبحثون الا على مصالحهم الشخصية، ان السبب الذى دفعنا الى الخصومة ضد الحكومة الفرنسية ليس الا تصرف الجنرال اوجورو ، الحاكم الاعلى لمدينة سطيف الذى يعرف اوضاع الصفوف القبائلية التى لم تحصل على مطالبها » (17) ٠

17) سي عزيز : ص 22 ــ 23

تاريخنا يحتاج الى اعادة نظر

الطاهر قيقة
مدير المركز الثقافي الدولي
بالحمامات – تونس

لابد ان تتبدل نظرتنا الى تاريخنا ...

اذكر استاذا لمادة التاريخ كان يبسط على تلامذته الاسباب التى جرت الغارات المتوالية التى شنها فى القرن العاشر الهجرى نصارى صقلية والاسبان على سواحل البلاد التونسية وعلى جزرها مثل « قرقنة » التى اكتسحوها اكتساحا وجربة التى خربوها وكانت لهم فيها هزيمة شنعاء .

كان ذلك الاستاذ يقول ما ملخصه : لما ازدهرت البحرية فى موانى شمال افريقيا وعاث القراصنة المسلمون فسادا فى سواحل ايطاليا وفرنسا واسبانيا ، تألب النصارى عليهم وقرروا دفع أذاهم بالغارة عليهم ومحاولة احتلال قواعد انطلاق سفنهم .

ولما سئل الاستاذ فقيل له : انت مواطن هذا البلد ، الا يمكن ان كانت الحوادث على عكس ما قلت ، أى ان اجدادك هم الذين كانوا يدافعون عن انفسهم وعن حماهم فى عصر نزلت فيه نكبة من اكبر النكبات التى اصابت دار الاسلام وهى اجلاء الاندلسيين المسلمين عن الاندلس .

فاجاب الاستاذ هكذا لقنت التاريخ فى الجامعة. وتلك هى الكارثة اخترت هذا المثال عمدا . ان الدراسات فى تاريخنا العربى تقدمت وازدهرت فى اوساط المستشرقين والمؤرخين باوروبا اكثر من تقدمها وازدهارها فى اوساطنا العلمية وهذا تابع لتقدم أوروبا وامريكا الشمالية علينا . وقد وقع تشويه بعض فترات من تاريخنا خاصة تلك الفترات التى اشتد فيها الصراع بين المدنية العربية والعالم الاوروبى النصرانى وفى احسن الحالات اول المؤرخون الاحداث حسب نظرتهم الخاصة المتاثرة طبعا بقيمهم الحضارية .

واحسن مثال هو مثال القرصنة ، سموها قرصنة ولصوصية فى البحر ، ونسوا ان الغارات على السواحل كانت تشن على ضفتى البحر الابيض المتوسط الضفة الشمالية النصرانية من قبل السفن المغربية والضفه الجنوبية المسلمة من قبل السفن النصرانية . اولئك الذين كانوا ينطلقون كالعقبان على ظهور سفنهم من موانى طرابلس الغرب وسوسة وبنزرت وعنابة وجيجل والجزائر وشرشال ووهران وندرومة وطنجة ورباط الفتح منقضين على شواطىء صقلية وسردانية وايطاليا الجنوبية وخليج جنوة وجنوبى فرنسا وجزيرتى ميورقة وشواطىء بلنسية كانوا بالنسبة الينا مجاهدين فى البحر يذودون عن سواحلنا وموانينا التى كانت دوما مهددة بغارات الاعادى .

كان القرن العاشر الهجرى الموافق للقرن السادس عشر الميلادى شديد الوطأة على المغرب العربى ، سقطت غرناطة فى ايدى الاسبان وكانت آخر معقل للمسلمين فى اسبانيا وأجلى كثير من اهلها فلجأوا الى المغرب العربى . وبعد ثمانية عشر عاما فقط احتل الاسبان مدينة وهران وسقطت عدة مدن ساحلية بايدى الاسبان آخرها تونس .

ان تداخل مجاهدى البحر الاتراك ثم الاسطول والجيش العثمانى فى المغرب العربى قد جنبه احتلالا اسبانيا قد خططته الحكومة الاسبانية والكنيسة الكاثوليكية معا .

ان خير الدين باشا استخدم اسطوله لحمل اللاجئين الاندلسيين شيوخا ونساء ، واطفالا من شواطىء اسبانيا الى الجزائر ، قيل انه حمل قرابة مائة الف لاجىء ، لم تكن هذه العملية قد املاها الطمع والجشع . وان النوتيين فى اسطول خير الدين الخطير كانوا من الاندلسيين اللاجئين

وكانت غارات الاسطول الجزائرى متواصلة علـى شواطىء اسبانيا حتى اجبر « فيليب » الثـانى على بناء سلسلة من المحارس والحصون لمراقبـة البحر ودفع الغارات ٠

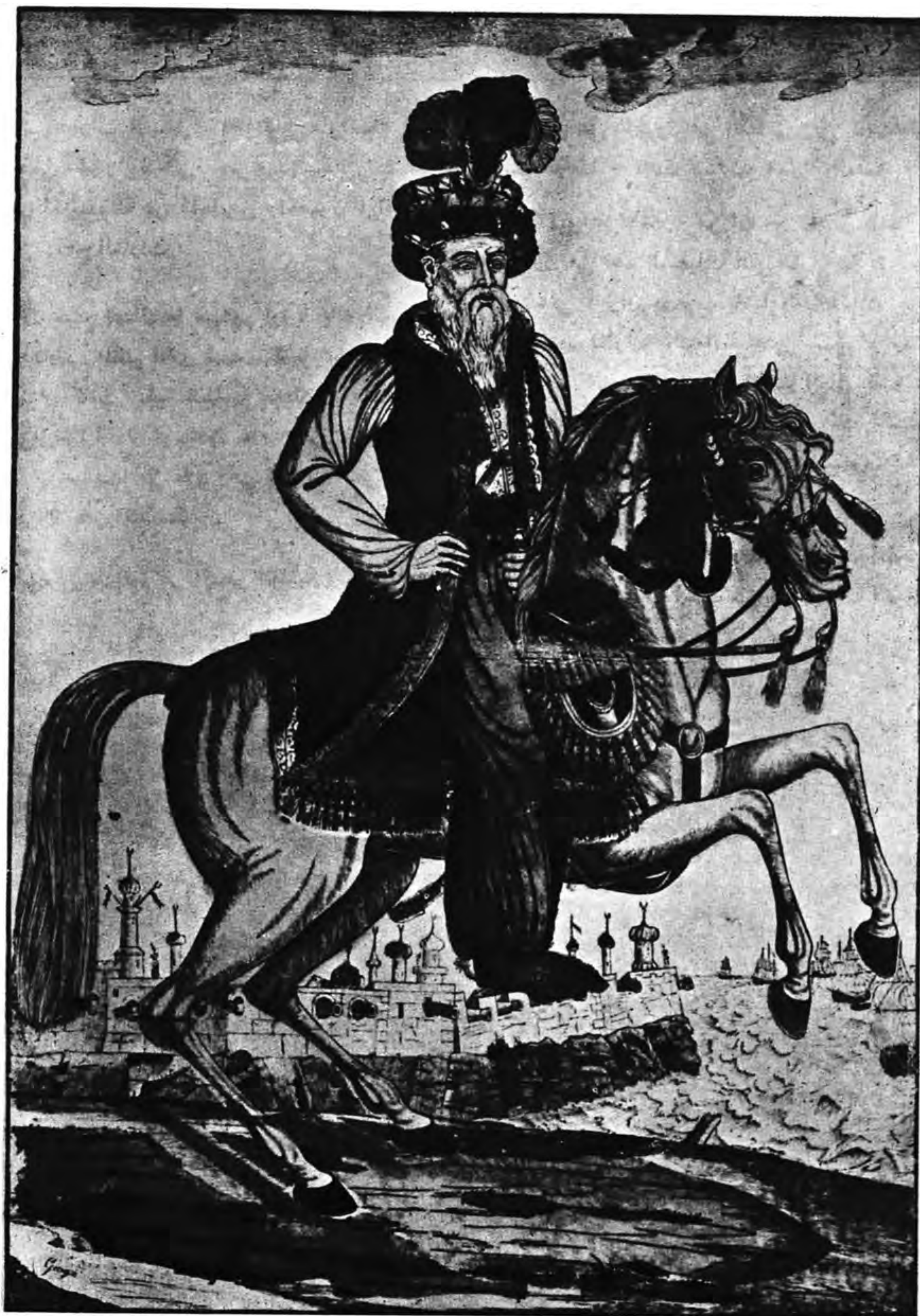
ان جميع اعمال ما سمتهم أروبا بالقراصنـة فىذلك القرن المظلم الذى شهد سقوط تونس بأيدى الاسبان كانت تمليه سياسة مخططة باسطنبـول ترمى الى حماية دار الاسلام، خاصة فى اخطر منطقة كان يهاجم فيها الاسلام وهى الناحية الغربية من البحر الابيض المتدسط ٠

لم تكن غاراتهم فى البحر تلقائية يمليها الطمع والحرص على الحصول على الغنائم ، بل كانت تطبيقا لسياسة عامة كانت تسلكها الدولة العثمانية ٠

الدليل على ذلك ، هو ان خير الدين باشا كان يشارك فى اهم العمليات التى يقوم بها الاسطول العثمانى ٠ وان درغوث باشا الذى كـان يباغت النصارى بغاراته الفجائية حتى سموه « نمـر البحر » كان ممثلا لاوامر الباب العالى يلتحـق بالاسطول العثمانى كلما دعى الى ذلك استشهد درغوث باشا تحت اسوار مالطة فى صفوف الجيش التركى ٠

من سيهتم منا بأبطال البحر باولائك الذيـن ذادوا عن حمانا فى احلك ظروف تاريخنا القومى ؟





أحد دايات الجزائر في لباسه الرسمي

دور فرنسا في
النهضة القوميّة الجزائريّة
من خلال مزاعم مؤرخين أجنبيين

د. محمد بيج

استاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائر

اشكر لمجلة الاصالة الغراء دعوتها الكريمة لى بالمساهمة فى بحث فى عددها الخاص الذى ازمعت اصداره عن « موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ الجزائر عبر العصور » .

وطالما اشتاق المؤرخون فى عالمنا العربى لمثل هذه المبادرات من مجلاتنا الثقافية والعلمية للكشف عن ذلك الزور والبهتان الذى غشى تاريخنا بفضل كتابات العديد من المؤرخين الاجانب زيفوا وقائع تاريخنا حتى بات البعض منا يصدق اقوالهم بل ويردد احاديثهم . ويا للاسف !

وبودى لو اتبعت هذه المجلة هذه الخطـــوة المباركة التى اقدمت عليها بخطوة اخرى هامـــة اشمل واعم فدعت المؤرخين للمساهمة بالكتابة فى احداث تاريخنا الاسلامى(1) عبر عصوره المختلفـة وما زيفه المؤرخون منه وما زالوا يزيفون منـــه دون ان يجدوا من الدراسات الاسلامية الجادة ما يبطل تشويههم وانى لاظنها قادمة على ذلك باذن الله بعد ان بدات بتاريخ امة اسلامية نالت مـن تزييف المؤرخين الشىء الكثير ، ذلكم هو تاريـخ الجزائر فى مراحله المختلفة ٠

وسأركز بحثى اليوم حول كاتبين : احدهمـا امريكى اسمه لوثروب ستودوارد Lothrop Stoddard وهو رجل عالم ما فى ذلك شك ، صدرت لـــه عدة كتب منها الثورة على الحضارة The Revolt against civilisation وكتاب آخر بعنوان : « نهضـة الشعوب الملونة » The Rising tide of colour و «اوروبا اليوم : فكرها القومى» Present day Europe : its national states of mind ثم كان كتابه الشهير عن العالم الاسلامى بعنوان عالمنا الاسلامى اليوم The New World of Islam وقد نقل الكتاب الى العربية واختار مترجمـــه عنوانا له اسم : حاضر العالم الاسلامى ٠ وقد صدر سنة 1925 وعلق عليه المرحوم الامـــير شكيب ارسلان ٠

والكتاب دراسة مستفيضة عن العالم الاسلامى ما فى ذلك شك واوفى كثيرا من المسائل حقهـا من البحث والدراسة خاصة فى مسائل الجامعة الاسلامية ٠ تحدث عن اليقظة الاسلامية والجامعة الاسلامية ثم انتقل الى الحديث عن سيطرة الغرب على الشرق ٠ ثم جاء حديثه عن العصبية الجنسية ٠ فعرف العصبية الجنسية بانها مقصد مشتـــرك عند عدد كبير من الناس يعقدون عايه قلوبهـــم وضمائرهم فهم يؤلفون ، جنسية ، متمايـــزة عمن سواها ٠

ونراه فى بحثه يرجع التنبه القومى وثـورة العصبية الجنسية فى العالم الاسلامى الى تيـار الغرب الذى وفد على هذا العالم (الاســلامى) ٠ وبدات هذه الحركة القومية فى العالم الاسلامى ـ وعلى حد قول الكاتب ـ فى تركيا متمثلة فـى حركة تركيا الفتاة « فبات رجال تركيا الفتـاة على اختلافهم فى شؤون اخرى يدعون الى هـذه العصبية وهم فى سبيلها مغامرون مستبسلون٠ ٠٠٠ وبعد ان انشات تباشير اليقظة القوميـــة والعصبية تتبدى فى العرب ٠ فيقظوا يقظـــة كان شانها شان كل يقظة مثلها يبتغيها شعـب محكوم ٠٠٠» ٠ ثم هو يتحدث عن الحركة الوهابية والجمعيات العربية التى قامت فى سوريا قبـل الحرب العالمية الاولى والمؤتمر العربى الذى عقد فى باريس سنة 1913 ٠٠٠ مما لا يدخل فى مجال بحثنا هذا ٠

ثم هو ينتقل ـ وهذا هو المهم ـ الى الحديث عن النهضة القومية فى شمال افريقيا فيخطـأ الخطأ كله حين يقول او حين يردد مع القائلين بان الوحدة القومية فى الجزائر مرجعها فرنســا ٠ وننقل هنا فقرة من حديثه :

1) كانت هذه المسالة احدى نقاط جدول اعمال الملتقى السادس للتعرف على الفكر الاسلامى الذى انعقد بالعاصمة بتاريخ 24 يوليو 1972

« ان فرنسا ارخت على البلاد سكينة واكسبتها نظاما ونجحا ماديا · غير ان هذه المنافع والفوائد التى اتت بها السيادة الاوربية فى هذه الاقطار الافريقية كما فى غيرها من الاقطار الشرقية قد كان من شانها ان خلقت نوعا حديثا من الوحدة والتضامن والتماسك بين اهل البلاد حتى غدوا جميعا على مستوى متماثل فى الاجماع على شناة الفاتح الاوربى وعلى نيل المطمح العام الذى يطمحون اليه ، وهو الاستقلال والتمتع بالحكم الذاتى بمعزل عن السيادة الاجنبية بتة · لذلك فقد شهد العالم خلال الجيل الماضى نشوء (الجزائر الفتاة) و (تونس الفتاة) وفيهما الاحزاب السياسية يقودها رجال فرنسيون من اهل العلم والتهذيب المتشبعين كل التشبع بالحكم الذاتى والحرية » ·

ومعنى هذا القول وما سبق من حديث الكاتب هو انعدام الوحدة القومية بين اهل الجزائر قبل الحكم الفرنسى فنراه يقول «انه ليس فى الشمال الافريقى (مراكش ، الجزائر وتونس) من كان شعبها فيما مضى امة واحدة · وفوق هذا فليس هناك اليوم من الظواهر الجلية ما يدل على ان احد هذه الشعوب العديدة سائر فى سبيل يصير بها امة صحيحة » ·

ونراه يؤكد ان السكينة والنظام والنجاح المادى قد اوجد فى الجزائر نوعا من الوحدة بين اهل هذه البلاد جعلهم يطلبون الاستقلال · وان نشوء تلك الحركات الاستقلالية مرجعه تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا ·

وسؤالنا الآن : هل حقا اوجدت فرنسا نهضة قومية فى الجزائر ؟ وهل تلك الحركات الاستقلالية التى شهدتها الجزائر مرجعها تلك النهضة التى اوجدتها فرنسا ؟ هذان هما السؤالان اللذان يدوران حولهما بحثى ·

يعلق المرحوم الامير شكيب ارسلان على ما قاله هذا الكاتب الامريكى فى كتابه « بينما انا احرر هذه السطور قرات فى الجريدة الفرنسوية نبأ عودة بعض النواب الفرنسيين من الجزائر حيث كانوا قد ذهبوا للاطلاع على حقيقة احوالها · فكان من جملة تحقيقاتهم ان من الاربعة ملايين ونصف مليون مسلم فى الجزائر ،اربعة ملايين نسمة لا يملكون شيئا من الدنيا ، بل هم جميعا مزارعين واجراء وعملة عند طبقة المستعمرين (الكولون) والمتملكين من المسلمين ، وان هذه الملايين الاربعة يتكففون باجرتهم اليومية وتراهم على اسوا حال من المعيشة ويموت اطفالهم 80 فى المائة من سوء الغذاء ويمضى شكيب ارسلان فى تعليقه فيقول : ومعلوم انه منذ سنوات لم تنقطع المجاعة من بلاد الجزائر وكان جميع فتكها بالمسلمين وفى كل سنة تقول الحكومة الفرنساوية انها اتخذت التدابير اللازمة لمنع ويل هذه المجاعة ولم ير العالم من ذلك شيئا · ولا يزال مسلمو الجزائر من 1920 الى اليوم (1925) يموت منهم الالوف من الجوع كانما ذلك من قبيل مكافأة فرنسا لهم على الاثنين والستين الف قتيل التى سقط منهم فى الحرب العامة (يقصد الحرب العالمية الاولى) · ثم يتعجب شكيب ارسلان كيف ان تجارة الجزائر التى زادت بشكل كبير وثروة

الكولون التى تضخمت على نمو عجيب تعجز عن تحسين حال الجزائريين . ثم يختم كلامه بقوله .

ولا غرو بعد هذه البراهين الحسابية التى لا تقبل ادنى جدال ، ان يبقى اربعة ملايين ونصف مليون نسمة مسلمة هناك (فى الجزائر) لا يملكون شروى نقير ويعيشون بأجرة عملهم اليومى أو بالاحرى لا يعيشون ...»

لكن المرحوم شكيب ارسلان وهو يعلق على قول الكاتب الامريكى تناول بالحديث الجانب الاقتصادى لفرنسا فى الجزائر او ان شئت الجانب المادى دون الجانب القومى . ولعله اراد ان يرد على قول الكاتب «ان فرنسا ارخت على الجزائر نظاما ونجحا ماديا ..»

والسؤال الاول ما هى حقيقة دور فرنسا فى النهضة القومية الجزائرية ؟ لقد وقع الكاتب الامريكى شان الكثير من الكتاب الفرنسيين فى خطأ حين يذكرون **ان الجزائر كوحدة سياسية قائمة هو من عمل الفرنسيين .**

وما من شك فى ان ذلك يتجاوز الحقيقة كثيرا . ذلك ان الوحدة السياسية للجزائر تشكلت خلال العهد العثمانى . فلقد شهدت الجزائر تغييرات كثيرة خلال الحكم العثمانى لها حتى انه يمكن تمييز اربع فترات مختلفة فى العهد العثمانى :

الفترة الاولى فترة البيلربكاوات سنة 1518 الى سنة 1588 حين نجح الحكام العثمانيون فى السيطرة على رجال الجيش والبحرية ولكن شأنهم اخذ يتضاءل بعد هزيمة الاسطول العثمانى فى موقعة ليبانتو فى اكتوبر 1571 (1) ، فألغت الحكومة العثمانية نظام البيلربك وجعلت من الجزائر ولاية عادية يتولاها احد الباشاوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات فقط . ثم تبدأ المرحلة الثانية من سنة 1588 الى 1659 حين فقد الباشوات سلطتهم على الانكشارية وانتقلت السلطة الفعلية الى الاوجاق او كبار ضباط الجند .

ولم تطل هذه الفترة لان الاهالى استاءوا من استئثار الانكشارية بالسلطة ومالوا الى تاييد الطائفة او رؤساء البحر ، وتبدأ منذ ذلك الحين الفترة الثالثة .

أما الفترة الرابعة فتبدأ حين نجح رؤساء البحر فى فرض احد رجالهم على الاوجاق سنة 1671 وشاع منذ ذلك الوقت استعمال لقب داى .

واذا كان خير الدين قد بسط سلطانه على القسم الشمالى من الجزائر فان خلفاءه اهتموا بتوسيع دائرة نفوذهم جنوبا . فاقيمت حاميات عثمانية فى بسكرة جنوب شرقى الجزائر وكذلك فى تلمسان بعد سقوط الدولة الزيانية ، ونقرأ

1) يطلق المؤرخون الفرنسيون على هذه المعركة الحرب الصليبية المسيحية La Croisade Chrétienne والسبب فى تسميتهم لها بهذا الاسم ان حلفا صليبيا تكون ضد العثمانيين عقب سقوط جزيرة قبرص فى ايديهم فدعت اسبانيا والبندقية الدول الاوربية الى حلف صليبى ضد العثمانيين وقد وضع فى قانون الحلف نص صريح يقرر ان الاستيلاء على بلاد المغرب هو هدف من اهداف الحلف ، واذا كان العثمانيون قد هزموا فى موقعة ليبانت Lepante فانهم استطاعوا ان يفرضوا على البندقية معاهدة مهينة وان ينتزعوا تونس من الاسبان

عن قوات عسكرية تتجه الى توغرت • كما نقرأ فى تحفة الزائر ان السلطنة العثمانية امتدت الى واحات الميزاب • ولكن الكتاب الفرنسيين يحاولون التقليل من اهمية الحكم العثمانى فى الجزائر ، فيقولون انه كان مقصورا على الساحل وانه اتسم بالفوضى وعدم النظام •

ولهذه المغالطات التاريخية هدف سياسى ما فى ذلك شك ، فالمقصود به التاكيد على زعمهم القائل ان الجزائر بحدودها السياسية الحالية هى من صنع فرنسا ومن جهودها •

يردد هذا القول بوضوح وفى اكثر من نقطة كاتب فرنسى استقى منه الكاتب الامريكى الذى سبقت الاشارة اليه ـ بعض معلوماته عن الحركة القومية فى الجزائر • ومن هنا لم يوفق كما سبق ان ذكرت •

اما هذا الكاتب الفرنسى الذى اود الحديث عنه الآن فهو سرفييه SERVIER صاحب الكتاب المعروف Le nationalisme musulman en Egypte en Tunisie en Algérie.

وقد سمى هذه الحركة الاسلامية فى كل من مصر وتونس والجزائر بانها خطر المستقبل • Le péril de l'avenir

ومن اجل هذا فان الاسم الكامل للكتاب هو : خطر المستقبل : القومية الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر • والكتاب الذى رجعت اليه هو الطبعة الثانية لكتابه الصادر فى قسنطينة ديسمبر سنة 1912 طبعت طبعته الثالثة بعد ذلك عام 1913 • كتب مقدمة الكتاب نائب فرنسى اسمه موريس آجام AJAM وتلمس من المقدمة التى كتبها هذا الرجل عداءه للاسلام، يقول آجام :

جاءنى فى يوم صديق يزورنى ويقول انت كتبت عن الاسلام وعدم ملائمته للعصر الحاضر وانت تجهل ان الاسلام فى العصور الوسطى كان مشعل الحضارة • وان هناك من المسلمين فلاسفة عظام وعلماء ومفكرين • ويقول ان هذا الصديق وابناءه يجهلون روح الاسلام وانه من الممكن للمسلم ان يتعاون مع «رومى» ويصفهم بانهم مثاليون لا يعيشون الواقع • وان المسلم مهما كان لا يقبل التعاون مع هذا المسيحى ابدا خصوصا اذا كان قد غزا ارضه •

وفى بداية الكتاب يقول سرفييه انه وقعت فى ايدينا (يعنى ايدى فرنسا) وثائق من مصريين يحرضون مواطنينا الجزائريين على الثورة • ويقول ان هذه الوثائق تؤكد ما اصبح يسود تلك المناطق من العالم الاسلامى سواء الخاضعة لانجلترا مثل مصر او الخاضعة لنا مثل تونس والجزائر • اننا ساهمنا فى خلق هذه العصبية الاسلامية» • ثم راح يوضح خطر هذه الحركة الاسلامية Panislamisme ويقول ان عددا من الجزائريين الذين شربوا روح الحضارة الاوربية التى جئنا بها الى الجزائر باتوا يحلمون ان يلعبوا دورا اكبر مما ينبغى ان يلعبوه وصاروا يحلمون احلاما عظمى • انهم يحلمون ان يحكموا انفسهم دون خضوع لسيادة اوروبية • ولقد شجعهم على المضى فى هذا الطريق اطماعهم الشخصية وتشددهم وتعصبهم لدينهم الذى لا يسمح لهم بالتعاون مع غير المسلمين • ومن ثم فانهم (هؤلاء الجزائريون) يعتبرونها نوعا من الحرب المقدسة لتدعيم النفوذ الاسلامى •

ويقول سرفييه Servier ان هذه الحركة (يقصد الحركة الاسلامية فى مصر وتونس والجزائر) بدأت فى مصر فى 22 اكتوبر 1907 حين اعلن فى الاسكندرية عن برنامج الحزب الوطنى الذى اصبح هو رئيسه · وينادى هذا الحزب بتقوية الروابط بين مصر وتركيا وبخروج الانجليز من مصر،ويقول ان مصطفى كامل يردد بأن المصريين لم تعد تخدعهم الالفاظ الطنانة للاصلاحات ولن يهدأ لهم بال الا بوجود حكومة وطنية مستقلة دستورية «فهو (مصطفى كامل) يرمى لطرد الانجليز من مصر» · وجاء من بعده محمد فريد وظهر لطفى السيد بآرائه التى اخذها ينشرها فى صحيفة (الجريدة) وعلى يوسف فى (المؤيد) ·

ويقول سرفييه لا بد ان ندرس افكار هؤلاء ، لان افكارهم وآراءهم اثرت على رجال تونس الفتاة والجزائر الفتاة · وهم (محمد فريد وغيره فى مصر) يرون ان المسلمين فى مصر والجزائر وتونس قدكفاهم ما تعلموه من الانجليزوالفرنسيين وينبغى ان يديروا شؤونهم بانفسهم ويجب اذا ان تكون مصر للمصريين وتونس للتونسيين وكذلك الجزائر للجزائريين ·

ثم نراه ينبه الى **خطورة هذه اليقظة الاسلامية على فرنسا ، انجلترا ، وايطاليا** التى دخلت هى الاخرى طرابلس الغرب · ويقول يجب ان نخطط للمستقبل «ان نكشف عن العصبة الاسلامية وافكارهم وآرائهم · ان هذا محور المشاكل فى المستقبل» ·

ويبدأ الكاتب دراسته للحركة الاسلامية فى مصر ثم فى تونس وهو ما يخرج عن نطاق هذا البحث ، وآمل ان اتناوله فى اعداد قادمة من هذه المجلة ان شاء الله ·

وانما يقتصر حديثنا عن الجزائر ·

والكتاب ملىء بالمغالطات التاريخية والتعصب المتوقع من مثله فيقول ـ وهو يحلل المجتمع الجزائرى ـ انه «مجتمع متأخر عن المجتمع التونسى ليس فيه وحدة الشعب التونسى · قبل الغزو الفرنسى لم توجد قوة قوية تسيطر على البلاد · فالداى لم تكن له سلطة الا على المدن · وان حكمنا الذى قام على اساس احترام النظام والمساواة قد قارب بين هذا المجتمع وبين المجتمع التونسى» · ثم يقول عن المجتمع الجزائرى انه بدأ فى دور التكوين وهناك البرجوازيون (الموظفون ، التجار واصحاب الارض) ثم العمال والفلاحون ·

ثم يتناول بالحديث الجزائر الفتاة ، ويرى ان هؤلاء الشبان الجزائريين الذين تلقوا ـ على حد زعمه ـ تعليما وثقافة فرنسية هم اخطر الناس على فرنسا · هو لا يخشى من الاجيال الجزائرية التى تجاوز اعمار الكثيرين منهم اربعين عاما فهم يقرون لنا بالاصلاحات التى ادخلناها فى بلادهم · اما هؤلاء الذين استفادوا من تعليمنا ونظمنا اى هؤلاء الشباب فهم من نتاج عملنا Est notre œuvre اننا بتشجيعنا للعلم فتحنا الآفاق لهؤلاء فقد كنا كرماء معهم كما كنا دائما عبر تاريخنا كله ! ! · اننا بما فعلناه معهم لم يعد يرضيهم ان يعيشوا معنا فى وئام كما عاش من قبلهم · وهو بهذا يتجاهل تماما تلك الحركات الاستقلالية التى قام بها الوطنيون الجزائريون ضد

المحتل الاجنبى مبتدا بالامير عبد القادر وما تبع ذلك من حركات وطنية عبر السنين التى بسط فيها المحتل الفرنسى وجوده على الارض الجزائرية.

ويرى هذا الكاتب ان حركة تركيا الفتاة ونجاحها فى القسطنطينية هى التى فتحت الآفاق امام هؤلاء الجزائريين . «وبمثل ما يطالب به رجال مصر الفتاة (1) ان مصر للمصريين يطالب هؤلاء الجزائريين انه اذا لم يكن ممكنا لهم ادارة بلادهم كاملا فليكن لهم جانب فى ادارتها» .

ولا يخشى سرفييه من الفلاح الجزائرى فيقول هو رجل امى لا ينبغى ان يقام له وزن .

ثم ينتقل الكاتب الى الحديث عن اثر الحرب بين روسيا واليابان (التى انتهت فى سبتمبر سنة 1905) وكيف ان انتصار اليابان فى هذه الحرب قضى على خرافة سيطرة الحضارة الغربية والغرب . ويقول ان اثر ذلك انه بدأت انجلترا تواجه متاعب فى الهند . «ونحن فى الجزائر نجد ان الحرب التركية الايطالية انعشت الروح الدينية التى تؤثر دائما على المصير السياسى . ان العقيدة خصوصا الاسلامية هى المؤثر الكبير على السياسة»

ثم يتحدث عن **النهضة الجزائرية فيصفها بانها ضعيفة تافهة** تنقل الصحافة الجزائرية كثيرا مما يكتب فى مصر وتونس ، ثم يعرج مرة اخرى على سياسة مصطفى كامل فى مصر ويقول انها تقوم على ثلاثة امور :

1) ــ عدم الثقة بالادارة الاروبية .

2) ــ اثارة سخط المواطنين بتوضيح سوء حظهم وان المحتل يعاملهم معاملة سيئة ،

3) ــ خلق وحدة فى المجتمع الاسلامى .

ويقول ان الصحافة الجزائرية نهجت نفس المنهج. ويقول ان صحيفة الاسلام تنقل وتتبع اسلوب محمد فريد وعلى باشى جانبه فى تونس. ويورد مقتطفات من صحيفة «الاسلام» (2) . من ذلك ما كتبته فى 14 جانفى ــ يناير سنة 1912 ــ تقول وهى تحرض الجزائريين على الثورة : الشهداء العرب ، ان دروس الماضى علمتنا ما فيه الكفاية ، وما ننتظره من الجزائر التى احكمت فرنسا فيها الظلم من حوالينا ان الجزائر اصبحت شهية للمستعمرين الذين يحتقرون العربى ، هذا العربى ضحية القاهرين استحوذ المستعمرون على الارض واستغلوها وسادوا عليها» .

ثم يورد من نفس الصحيفة اقوالا تثبت قيامهم (قيام كتاب هذه الصحيفة) بالدعوة الى التضامن الاسلامى والتاكيد على ان **الشعب الجزائرى جزء من الامة العربية .**

ويمضى الكاتب يؤكد ان حركة الجزائر الفتاة هى شىء مستورد من آراء وافكار مصر الفتاة وتونس الفتاة وان هذه الحركات الثلاث اقتبست اشياء كثيرة من حركة تركيا الفتاة .

النقطة الاخيرة التى احب ان اتعرض لها فى هذا الكتاب ما جاء فى الجزء الرابع منه تحت عنوان: «سياستنا (يقصد سياسة فرنسا) الاسلامية»

1) يقصد رجال الحزب الوطنى فى مصر

2) صحيفة جزائرية كانت تصدر فى الجزائر العاصمة اسسها محمد عز الدين القلال وصادق دندان فى اوت ــ اغسطس 1912 ــ ارجع الى فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية

يقول الكاتب : يتضح مما استعرضناه عن الحركة الاسلامية فى مصر وتونس ان هذه الحركة الاسلامية حركة متعصبة وانها ممتدة فى انحاء كثيرة من آسيا وافريقيا تحاول ان تثير تعصب الجماهير • ويورد اقوالا لمراسل صحيفة الطان Le Temps من القاهرة يقول ان حرب تركيا مع ايطاليا وحرب البلقان قوت امر هذه الحركة فى افريقيا وهذا امر يهم فرنسا بالدرجة الاولى• ثم يقول ان هناك اتحادا سريا اسمه الوحدة المغربية Union Maghrebine يهدف الى ان يضم كل المسلمين فى المغرب وغرب افريقيا • وان هذا الاتحاد ـ على حد ما اورد الكاتب ـ مؤسس فى القاهرة بتشجيع من الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وان امين صندوق هذا الاتحاد جزائرى اسمه امين بك المغربى • ويؤكد المراسل ان لهما فرعا فى الجزائر العاصمة وتونس وان المشجع الكبير لها هو المنتدى الادبى (1) فى القسطنطينية

ويمضى مراسل الطان حسب ما نقله سرفييه يقول : ان هدف هذه الوحدة المغربية تنظيم ثورة عامة فى افريقيا الفرنسية •

يخلص الكاتب من ذلك الى ان هذه الحركة الاسلامية خطر علينا (على الفرنسيين) خطر يهدد النفوذ الغربى فى كل مستعمراته فى آسيا وافريقيا •

ثم يتساءل هل يمكن مقاومة هذا الخطر ؟

يقول سرفييه : «ان القومية الاسلامية هى نتيجة الحضارة التى جئنا بها لهذه البلدان ! ! انها ثمرة الثقافة والحضارة الاوربية • ويقول ان مصر شهدت بداية هذه الحركة الاسلامية لماذا ؟ لان مصر شهدت اول نفوذ اوربى» • ثم يمضى قائلا ان الغزوة الفرنسية بقيادة بونابرت هى التى حركت القومية فى مصر • ان هذه الحملة الفرنسية هى التى جاءت بحضارة اوربا الى الشرق •

واترك الرد على تلك الادعاءات القائلة بان الحملة الفرنسية هى التى نقلت الحضارة الى عالمنا الاسلامى لأبحاث مقبلة ، كما اترك تهجمه على الاسلام حين قال : ان الاسلام لا يتمشى مع الحضارة وانه عدو لكل تقدم

Bref : l'Islam n'est compatible avec la civilisation parce qu'il est hostile a tout progrès.

هو يرى ان هناك اخطارا حادقة بالنفوذ الاستعمارى سواء فى مصر او فى تونس او الجزائر ويرى انه يجب على فرنسا ان تبادر باحتواء هذه الحركة ويرى ان ذلك ممكن تحقيقه بان تسمح فرنسا بقدر ضئيل من التعليم يتناول

1) المنتدى الادبى هو جمعية ثقافية اسسها مجموعة من العرب فى عاصمة الدولة العثمانية فى الاستانة ليكون مقرا ومكانا يجتمعون فيه سنة 1910 برئاسة عبد الكريم الخليل وهو احد الشهداء العرب الذين اغتالهم جمال باشا السفاح اثناء الحرب العالمية الاولى

ارجع الى توفيق برد : العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ص 210 وما بعدها

أول ما يتناول أمور التعليم خاصة الزراعى منه٠ ولا تسمح بوجود مثقفين جزائريين Pour l'instant l'Algérie n'a pas besoin d'intellectuels !

«علينا ان نسيطر على الامور ان نتحكم فـــى الجماهير حتى تكون لنا سيطرة سياسية ومعنوية وثقافية بهدف ان نبقى نحن الموجهين والمرشدين للاهالى» ٠

وبعد ، فتلك لمحة سريعة لما كتبه سرفييه وحاول شأنه شأن غيره ان يغمط الحركة الوطنية الجزائرية حقها ٠ هو يرجعها الى تيار وافد عليها من الشرق الاسلامى ثم هو يرجع تيار هذه النهضة الاسلامية لما تفضل به المستعمرون الاوربيون على عالمنـــا الاسلامى فتجده يقول فى صفحة 186 من كتــابه ان انتشار افكارنا الحضارية وانتشار التعليــم اوجدا اجمــاعا ، وبدأت احلام الاستقلال تراود الاهالى ٠ ان الحضارة الاوربية اعطتهم احساسـا بحقوقهم وجعلتهم يحسون بقيمتهم واشعرتهــم انهم قادرون على ادارة شؤون بلادهم ٠

وما احوج تاريخنا الاسلامى الى ان يجد مـن ابنائه من يتصـدون لمثل هذه الاكاذيب والادعاءات والله المـــوفق ٠



نابليون

منشور موجه من طرف نابليون الى الشعب
الجزائري الذي [illegible]ض الاحتلال

مساهمة المؤرخين الفرنسيين

وهل تصلح أساساً لتنمية تاريخنا القومي ؟

إسماعيل العربي

كاتب جزائري

الصورة الخلفية

ان تاريخ الجزائر عبر العصور القديمة والعصور الوسطى ملتحم بتاريخ المغرب العربى كله التحاما قويا ، ولا سيما بتونس والمغرب الاقصى • وهذا التاريخ يبدأ بانتشار المستعمرات الفنيقية فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، اى قبل تاسيس قرطجنة بحوالى اربعة قرون • وفى غضون القرون التالية ، توغل النفوذ السلمى الذى يرافق التجارة الدولية مع الثقافة الفنيقية فى هذه الديار •

وقد ظلت اللغة الفنيقية التى مهدت الطريق للغة العربية شائعة فى المغرب حتى فى عهد الفيلسوف الجزائرى سانت اغسطين (القرن الخامس الميلادى) (١) ، اى قبل الفتح الاسلامى بوقت قصير - الامر الذى لم يجد معه سكان هذه البلاد صعوبة فى التفاهم مع العرب وتقبل الدين الاسلامى ٠

وبعد سقوط قرطجنة (١٤٦ ق ٠ م ٠) ، واحتلال الرومان لشواطىء هذه البلاد ، سار اباطرة روما على حكمها بواسطة الملوك والامراء المحليين ٠ ولكن الطمع وشهوة السيطرة جعلتهم يوسعون سلطانهم تدريجيا حتى اتمواضم الجزائر نهائيا فى عهد الامبراطور كاليجولا (٤٠ م) ٠ على ان مساحات شاسعة من هذه الارض (تلال ولاية الجزائر وتلال ولاية وهران) ظلت مع ذلك حاملة لواء الحرية وافلتت من قبضة الاستعمار الرومانى ٠

وفى القرن الخامس الميلادى تعرضت البلاد لغزو الوندال المخربين ، ثم لغزو بيزنطة فى سنة ٥٣٣ م ٠ وفى اواخر القرن السابع ، تم للعرب فتح الجزائر بعد ما قضوا على فلول جيش بيزنطة وتغلبوا على جيوب المقاومة المحلية ٠

وفى اوائل القرن السادس عشر استقر الامر للاتراك فى هذه البلاد ، بعد ما طردوا الاسبان من شواطئها (فيما عدا وهران التى سيستولون عليها نهائيا فى سنة ١٧٠٨) ٠

وقد ظلت الجزائر فى غضون فترة تمتد على ما يقرب من ثلاثة قرون ، القوة الرئيسية فى البحر الابيض المتوسط ، حيث عجزت اساطيل شارل كينت ولويس الرابع عشر عن قهر اسطولها ٠

وقد اطلق الاجانب اسماء متعددة لم نعترف بها على بلادنا ، مثل « لوبو » الذى كان اليونان والعبريون يسمون به المناطق الشرقية ، واسم « المور » الذى كان الرومان يطلقونه فى البداية على شمال المغرب الاقصى ، ثم وسعوا مدلوله فى الاتجاه الشرقى ٠ وكذلك عرفت هذه البلاد تحت اسم « البربر » الذى كان الرومان يطلقونه على الشعوب التى لا تنتمى الى الحضارة الرومانية ٠

واما العرب ، فقد اطلقوا كلمة « افريقية » (التى يرجح ان تكون تسمية فنيقية) على المناطق التى تعرف باسم تونس حاليا على وجه التقريب ، والمغرب الاوسط ، على الجزائر ، والمغرب الاقصى على البلد الذى لا يزال يحمل نفس الاسم حتى اليوم ٠

وفى القرن التاسع عشر ، خلق الجغرافيون الاوروبيون تعبير « افريقية الصغرى » ، على غرار آسيا الصغرى ، للتمييز بين المغرب وبين بقية اطرافُ القارة ، ولالفات النظر الى اهميتها الاستراتيجية فى حوض البحر الابيض المتوسط الغربى ٠ وهذا التعبير ، كان بمثابة كلمة السر فى عملية انقضاض الاستعمار الفرنسى على هذه البلاد التى ستعيش فى ظله نيفا وقرن من الزمن ستتعرض خلالها مقوماتها الثقافية ومميزاتها القومية لامتحان عسير ٠

وجميع هذه الاطوار والحقب التى مرت بها الجزائر ، عالجها المؤرخون الفرنسيون باستفاضة فى كتب تختلف احجامها واهدافها وقيمتها العلمية ٠

Gsell (St) l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, Hachette 1913, T. IV, P. 498.

وعلى الصعيد الجغرافى ، تمثل جزيرة المغرب كما يحلو لبعض المؤرخين ان يسميها ، فضاء مربع الاضلاع يمتد بين شواطىء البحر الابيض ورمال الصحراء الكبرى والمحيط الاطلسى وراس بون · والاضلاع غير متساوية · فان المسافة بين راس اسبرتل وراس بون تبلغ حوالى ١٥٥٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ٢،٢٠٠ كيلو متر ، وبين راس بون وجابس ، اقل من ٤٠٠ كيلو متر · ومجموع هذه المساحة تبلغ ٩٣٠٠٠٠ كيلو متر مربع ·

ومستوى ارتفاع الارض على البحر فى اكثر من نصف هذه المساحة ، يزيد عن ٨٠٠ متر · والمتوسط فى كل واحد من الاقطار الثلاثة هو ـ ٣٠٠ متر فى تونس ، و ٨٠٠ متر فى المغرب الاقصى ، و٩٠٠ متر فى الجزائر · على ان ارتفاع هذا المعدل ، لا يدل على وجود جبال كبيرة العلو · لاننا اذا استثنينا قمة جبل توبكال فى المغرب (٤١٦٥ مترا) ، واعلى قمم جبل اوراس (٢٣٢٨ مترا) ، فان بقية جبال المغرب لا يتجاوز ارتفاعها ١٦٠٠ مترا · والارتفاع الشائع فى المغرب يتراوح بين ٨٠٠ و ١٢٠٠ مترا ـ وهو ارتفاع معتدل ·

على ان الجبال يحدث ان ترتفع قممها وتنفصل عن السهول والوهاد التى تحيط بها فجاة · وهذه هى الحالة ، مثلا ، بالنسبة الى الاطلس التلى المتيجى الذى يطل على مدينة البليدة من ارتفاع قدره ١٤٠٠ مترا فى اعلى قممه · والامر كذلك بالنسبة الى جبل سيدى عقبه الذى يشرف على سهول افلو من علو يبلغ ١٤٢٦ مترا·

لقد بدا الجغرافيون الفرنسيون استكشاف الاراضى الجزائرية ودراسة مختلف نواحيها لاغراض ادارية وعسكرية وعلمية الخ · ، منذ المراحل الاولى بعد الاحتلال · وقد انتهى بهم الامر الى تقسيم البلد فى وقت مبكر الى ثلاث مناطق متوازية تمتد من الغرب الى الشرق : الاطلس التلى ، والسهول المرتفعة ، والاطلس الصحراوى · وقد كان الراى السائد بين الجغرافيين الاوائل هو أن سلسلتى جبال الاطلس تمتد على هذا النحو من التوازى فى جميع شمال افريقية · ولكن هذا الراى تغير حينما انتبهوا الى ان سلسلتى الاطلس تلتقيان فى شرق الجزائر ···

ومهما يكن من شىء ، فان سلسلتى الاطلس متميزتان فى هذا البلد · فان الاطلس التلى يتميز بتضاريسه الحادة وبالارتفاع والهبوط الشديد فى منحدراته ·

واما الاطلس الصحراوى ، فهو على العكس ، يتسم بالاعتدال فى تعرجه وبالهبوط والصعود الرتيب نوعا ما بحيث ينتهى الى الاتصال بالمرتفعات الصحراوية بصورة لا تكاد تكون ملحوظة ·

وكذلك يلح الجغرافيون الفرنسيون على تقسيم آخر بين المناطق الشرقية والمناطق الغربية فى الجزائر · والسهول المرتفعة التى تحيط بها سلسلتا الاطلس لا ترتفع فى الحقيقة الا فى الغرب · فهناك تمتد سلسلتان من السهول : سهول الشلف التى تكملها سهول سيج وسبخة وهران من جهة ، وسهول معسكر وسيدى بلعباس وتلمسان ، من جهة اخرى · وهى تحيط بها من الشمال جبال ساحل وهران وجبال الظهرة المتفرعة عن الاطلس التلى ، ومن الجنوب جبال تسالة والورسنيس التى هى اعظم الكتل الجبلية التى تمتد فى غرب الجزائر ·

وفى الجنوب تمتد سلاسل قصيرة من الجبال التى تتصل بالاطلس الصحراوى ، وهى جبال القصور وعمور واولاد نايل التى تبدأ فى المغرب الاقصى وتتجه شرقا حتى الحضنة فى ارتفاع منتظم تقريبا ، وتفصل بينهما ممرات واسعة تسهل المواصلات عبرها من الجنوب الى الشمال ٠

وفى القسم الشرقى فقدت الجزائر كثيرا من انتظام هندسة جبالها ٠ فان معظم المناطق الساحلية عبارة عن جبال تتخذ اشكالا غير متسقة ولا مريحة للنظر ٠ ولكنه فى اقصى طرفى المنطقة الشرقية ، تمتد سهول مجاورة للشاطىء ، وتلك هى سهول متيجة الواقعة خلف الهضاب الشاطئية فى الغرب ، وسهول عنابة المشهورة التى تبدا فى جنوب جبل ايدوغ ، الذى كثيرا ما يسير موازيا للشاطىء مع سلسلة جبال بلاد القبائل التى تسندها من الجنوب جبال جرجرا ٠ والى الشرق من ذلك ، ترتفع جبال البابور ومجموعة من الجبال المتقطعة التى تمتد بين راس بوقرعون وراس الحديد ٠

وخلف المنطقة الساحلية تمتد جبال التل من الشلف حتى الحدود التونسية فى شكل مختلط الارتفاع والانخفاض بحيث لا يتجاوز ارتفاع اعلى قممها ١٨٠٠ مترا ٠ وهى فى بعض المناطق تمتزج بسهول محدودة المساحة ، مثل سهول ميلة وسهول قالمة ٠

وبنهاية منخفضات الحضنة فى الجنوب ، تنتهى السهول المرتفعة فى هذه المنطقة ، واما سلسلتا الاطلس التلى والصحراوى ، فهما تلتقيان فى منطقة عنابة ، كما اشرنا ، بينما تنتشر جبال ثانوية تشكل امتدادا لهما فى السهول المرتفعة القسنطينية بغير انتظام بحيث يسود هذه المنطقة وضع غير واضح ، اذ تنخفض الارض حينا وترتفع حينا آخر ٠

وعلى كل حال ، فان الاطلس الصحراوى يحتفظ باتجاهه الاصلى ، من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وتمثل جبال اوراس ذات التكوين غير المنتظم امتدادا مرتفعا له ٠ وبين اوراس ، من جهة ، وبلزمه وجبال الزيبان ، من جهة اخرى ، ينفتح منفذ الى الجنوب عن طريق وادى القنطرة الذى يجمع بين السهول المرتفعة والصحراء ٠

تلك هي ، بايجاز ، المعالم الرئيسية للتكوين الطبيعى للجزائر الذى عنى بدراسته وابراز تفاصيله عدد من الجغرافيين الفرنسيين الذين ندين لهم باعمال لابد من الاشادة بقيمتها الموضوعية ، خصوصا لان هذا المجال علمى ويبتعد أكثر من التاريخ عن التاثر بالاعتبارات السياسية ٠

ولكن ما هى آثار هذا التكوين الطبيعى للارض على السكان والمؤسسات والمجتمع البربرى ، بصفة عامة ؟ هل كان عاملا من عوامل القوة والوحدة ، أو سببا فى الضعف والانقسام ؟ وباختصار ، هل كان له حقا ذلك الثقل المزعوم على تاريخ المغرب وعلى تطوره السياسى والاجتماعى ؟

تلك اسئلة تلقت ردودا بالايجاب من الكتاب الفرنسيين لا نعتبرها مدعمة بما يكفى من الادلة والتحليل العلمى ٠ وهى فى راينا لا تتعدى كونها فروضا واستنتاجات يمكن للباحث ان يصل بسهولة الى نتائج تناقضها ٠ (١)

(١) قارن Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 1/12
E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, P. 9 - 10.

نمـوذج ممثل لمساهمة الفرنسيين

Paul Azan (Général), l'Emir Abd El-Kader du Fanatisme Musulman au patriotisme Français. Hachette 1925.

يمثـل هذا العمل الموجـه لخدمـة اهداف سياسية مجهودا فى البحث · وقد تمكن مؤلفه ، بفضل لقبه العسكرى الرفيع ، من الحصول على وثـائق اداريـة والتنقيب فى الارشيفات – وهى مزية لاتتاح لباحث عادى · واما نـزعة الكاتب واغراضه ، فيدل عليها عنوان الكتاب بوضوح · وقد اراد ابـراز بطولـة الامير عبد القـادر فى المعارك لكى يـزيد من قيمـة انتصارات الجيش الفرنسى عليـه ، ثـم لكي يضرب بتحول الامير عبد القادر المزعوم ، مثلا للجزائريين لكي يحذوا حذوه ·

E. Abertini, G. Marçais et G. Yever, l'Afrique du Nord Française dans l'Histoire Lyon-Paris, 1937.

كتاب غزير المادة ، حسن الترتيب ويقـرا بسهولة ، ولكنه كثير الايجاز · وضع له مقدمة –

R. Lespes

A. Bernard, l'Afrique Septentrionale et Occidentale (Collection Géographique Universelle de P. Vidal de la Blanche et L. Gallois) , 1937.

كتاب مهم يعطى فكرة اجمالية عن الجغرافيا الطبيعية والبشرية للمناطق التى يعالجها (وهى لا تشمل ليبيـا) ·

A. Bernard, l'Algérie, 1929.

كتـاب فى التـاريخ والجغرافيـا يعـالج مختلف النواحى مستعينا بوثائق متينة ·

G. Boissiere, Esquisse d'une Histoire de la Conquete et de l'Administration Romaine dans l'Afrique, et particulièrement dans la Province de Numidie, 1878.

كتابضعيف المـادة · وعلى الرغـم مـن عنوانـه الطويـل والمغرى ، فهـو قليل الفـائدة والقيمة العلمية ·

R. Cagnan, l'Armée Romaine en Afrique et l'occupation militaire sous les Empereurs, 1912.

كتاب متوسط المادة حسن الترتيب ويحتوى على معلومات من كل نوع تتجاوز النطاق الذى حدده المؤلف لبحثـه ·

H. Carrot, Histoire générale de l'Algérie, 1910.

عمل ضخم الحجم ، جمعت مواده تجميعـا دون عنايـة فى التنسيق والاختيـار والترتيب · وهو لا يقدم مساهمة تستحق الذكر ·

E. Carette, Recherches sur les origines et les migrations des principales tribus de l'Afrique septentrionale et particulièrement de l'Algérie, sur exploration scientifique de l'Algérie, III, 1853.

كتـاب يمثـل مجهـودا كبيـرا فى البحث وترتيب المواد ، وهو لا يـزال مرجعا مفيدا لمـن يهمه الموضوع ، ولا سيما الخريطة المرفقة به ·

J. Despois, l'Afrique du Nord (Collection géographie de l'Union Fraçaise. T. I.) 1949.

عمل يعطى فكرة واضحة عـن الجغرافيا الطبيعيـة والبشرية لبلدان المغرب · والكتـاب يحتوى على قائمة كبيرة من المراجع · والقسـم الثانى منه يعالج الصحراء ·

Ch. Dichl, l'Afrique Bysantine, Histoire de la domination Bysantine en Afrique (533 - 709) , 1896.

كتاب كبير القيمة ويحتفظ بكثير من جدتـه فى هذا المجال الذى لم يحظ بعنـاية الباحثين · ولكنه مع ذلك يحتاج الى نظرة نـاقدة متفحصة ممن يريدون الاستفادة منه ·

Four - Biguet (Général) l'Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination des Arabes, 1905.

كتاب متوسط الحجم حسن المادة والترتيب ويمتاز بالتحرى فى ترجمة النصوص العربيـة

واستعمالها ، حيث كان الكاتب ذا معرفة طيبة بلغتنا ٠

H. Fournet, les Berbères, Etude sur la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, 2 vol. Paris, 1875-1881.

كتاب اكبر حجما من الكتاب السابق ويضم وثائق ونصوصا مترجمة او مختصرة من اللغة العربية بدون كبير عناء فى التحرى ٠ وهو يعالج تاريخ المغرب حتى رحيل المعز لدين الله الى القاهرة ٠ ويلاحظ على الكتاب ايضا ضعف الربط وقلة التسلسل ٠ والكمية فيه لا تغنى عن النوع ٠ والباحث الذى تتوفر لديه امهات الكتب العربية ويمكنه استعمالها يمكنه ان يستغنى عنه ٠

E. F. Gautier, le passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.

كان هذا الكتاب قد نشر معظمه فى مجلة Revue Africaine تحت عنوان

Considérations sur l'Histoire du Maghreb

ثم طبع الكتاب تحت عنوان

les Siecles obscures du Maghreb

فى سنة ١٩٢٧ ، واعيد طبعه فى سنة ١٩٣٧ ٠ والكتاب ، مثل كاتبه ، العلامة جوتيه ، يتمتع بشهرة خاصة بين الباحثين فى تاريخ افريقية الشمالية ٠ ويمتاز الكتاب الذى نقح عدة مرات بنظرة نفاذة تتجاوز ما يستخلص من النصوص الى اعماق الماضى السحيق ، وكذلك يمتاز بما يشتمل عليه من المحاولات الجرئية ، التى قد لا يوافقه الكثيرون عليها للتركيب والتقريب بين التيارات والحوادث ٠ والكتاب يقدم كثيرا من الحلول الافتراضية لمشاكل تعوزنا الوثائق بشانها ، وكل ذلك مع احترام لقواعد متشددة فرضها الكاتب على منهاجه فى البحث ٠

S. Gsell, l'Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, 8 vol. : I: Les conditions du développement Historique (1913) ; II l'Etat Carthagenois, 1918; III Histoire militaire de Carthage, 1918 ; IV Civilisation Carthagenoise, 1920 ; V Organisations sociale, Politique et Economique, 1927 (2ᵉéd. 1929), VI les Royaumes Indigènes, vie matérielle, Intellectuelle et morale, 1928 ; VII la République Romaine et les Rois Indigènes, 1928 ; VIII Jules César et l'Afrique. Fin des royaumes indigènes 1928.

كتاب نادر المثال فى غزارة المادة والتعمق فى البحث ويمتاز بالعرض الشيق والتحليل النفاذ٠ ولكن البحث العلمى قد تجاوز الآن بعض اقسامه٠ ونحن نشير على من يهمه الامر بتكميل اطلاعه على الجزء الاول بمراجعة الكتابين التاليين :

P. R. Wulsin, The Prehistoric Archeology of North Weat Africa, Harward university, 1947 , M. Almagro Basch, Prehistorica del Norte de Africa y del Sahara Espagnol, Barcelone, 1946.
St. Gsell, Atlas Archéologique, 1911.

كتاب متخصص فى المعالم والاثار القديمة ولكنه يتناول ايضا العصر الاسلامى ٠ وهو ذوفائدة كبيرة للباحث المتعمق فى آثار الشمال الافريقى فى هذه العصور ٠

St. Gsell, G. Marçais, et G. Yever, l'histoire de l'Algérie, 1927.

كتاب لا يزال من احسن المؤلفات التى تعالج تاريخ الجزائر فى جملته ٠ وكان القسم الذى يتعلق منه بالعصور القديمة قد نشر قبل ذلك فى سنة ١٩٠٣ تحت عنوان

l'Algérie dans l'Antiquité

H. R. Idris, la Barbarie orientale sous les Zirides. Paris 1962.

دراسة يمكن القول بانها ستظل وقتا طويلا من ضمن المراجع الاساسية فى الموضوع · وهى تمتاز بالمنهج المحكم وبما تشتمل عليه من التفاصيل الدقيقة فى الحياة الاقتصادية والثقافية الى جانب النواحى السياسية والعسكرية فى عهد الزيريين فى افريقية (تونس) · واما شئون المغرب الاوسط تحت ملوك بنى حماد ، فان المؤلف قد اكتفى بنظرات سريعة عليها · وهو لا يمكن ان يلام على ذلك ، حيث ان عنوان الاطروحة يحدد موضوعها بوضوح ·

P. Jalabert, Histoire de l'Afrique du Nord, 1945.

كتاب ضعيف المادة ضحل التحليل وليس له اية قيمة علمية ·

Ch. - André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, 2 vol. : (I. des origines à la conquête arabe (647) ; II de la conquête arabe 1930) 1968 (1949)

كتاب كبير الفائدة يسمح باخذ فكرة تركيبية وافية عن تاريخ افريقية الشمالية ، خصوصا للقارىء الفرنسى وقد اعتمد المؤلف لتحرير هذا العمل على جميع الوثائق التى اكتشفت حديثا ، ولو انه ـ كما هى الحال فى كل عمل تركيبى من نوعه ـ لا يحيل الى المراجع التى ياخذ منها ، وهو امر يحرم القارىء من متعة المقارنة والمراقبة ومن بعض الفائدة ايضا · ويؤخذ على الكتاب فى مجموعه قلة التوازن بين مختلف اقسامه والتركيز على العصور القديمة خصوصا ، على حساب العصور الاسلامية · ويكفى ان نذكر هنا ، مثلا ، بان المؤلف لم يكرس فى هذا العمل لدولة بنى حماد (حوالى قرن من الزمن) سوى اربع صفحات · ثم ان افريقية الشمالية لا تزال تحمل فى الطبعة الاخيرة المنقحة اسم « افريقية الشمالية الفرنسية » ·

G. Marçais, les Arabes en berberie du XI^{e} au XIV^{e} siecle, 1913.

كتاب يعالج بكثير من الدقة والاستقصاء (اطروحة) غزو بنى هلال وتوسعهم · وهو من الاعمال التى لا يستغنى الباحث عن الرجوع اليها فى تاريخ هذه الفترة المضطربة من حياة المغرب·

G. Marçais, la Berberie musulmane au moyen age 1946

يمثل هذا الكتاب المتوسط الحجم ما يقرب من ثلاثين سنة قضاها المؤلف فى البحث والتنقيب والتامل فى تاريخ افريقية الشمالية فى العصور الوسطى · والكتاب مكتوب باسلوب علمى ولكنه غير ممل ويسود مختلف اقسامه تنظيم للمواد وتوازن فى توزيعها ·

E. Mercier, l'Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête Française, 3 vol 1888 - 1891 .

هذا العمل يمثل مجهودا فرديا منقطع النظير فى الموضوع ، ولا سيما اذا اعتبرنا ان هذا الكاتب كان يعمل فى قسنطينة ، وبالتالى ، بعيدا منقطعا عن مكتبات العاصمة ومتاحفها وغير ذلك من مصادر المعلومات التى لا يستغنى عنها الباحث · والكتاب غنى بالمعلومات المختلفة القيمة ويعتبر من الامهات التى استفاد منها كثير من الكتاب الفرنسيين ، على انه اصبح الآن قديما وتجاوزه الوقت ·

L. Mouggu, vue générale de l'Histoire berbère, Alger, 1950.

كتاب يعرض المعلومات فى ترتيب علمى محكم ويعتمد على وثائق حسنة ولكنه يدافع عن عدد من النظريات بحجج ضعيفة ·

E. Pellissier, mémoire historique et géographique sur l'Algérie, 1844.

يشتمل على دراسات لا تـزال لهـا بعض القيمة عن الحملات التى شنها الاسبان والايطاليون والانجليز والفرنسيون على بلاد البربر ·

تلك رزمة من الكتب اخترناها من بين مئات مـن الكتب والمنشـورات التـى تحتـوى علـى مساهمات تختلف قيمة كـل منها عـن الاخرى ، بقصد تقديم نموذج يمثـل الاعمال التى تعـالج مختلف العصـور · وغيرى قد يضيف الـى هذه القائمة او يحذف منها ، ولكننى اعتقد انهـا فى مجوعها تشكل العمود الفقرى لمساهمة المؤرخين والجغرافيين الفرنسيين · وكمـا يلاحظ ، فـان بعض هذه الاعمال يتناول التاريخ العام لشمـال افريقية او للجزائر ، والبعض الآخر يتناول حقبا معينة · ولكن هذه القائمـة لا تشمل الكتب التى تتخصص فى نواحى معينـة ، مثل تـاريخ الفن والحفريات الخ ·· ، كما انها لا تشمل الدراسات التـى ظهـرت فـى الدوريـات وتعـالج مختلف الموضوعات ·

الاسلوب والمنهج

كان المترجمون فى الجيش والادارة (مثل فيـرو ودو بارسيفال) والصحـافيون واشبـاه الصحافيين اول مـن تفتحت اعينهم الى اهميـة تاريخنا وتصدوا للكتابة عنه بمحصولهم العلمى المتواضع فى المراحل الاولى عقب الاحتلال · وقد ترك لنا فيرو ، مثلا ، دراسة لا تخلو من قيمة عن مدن ولاية قسنطينة ، كما وضع دوبارسفال (وهو الذى تولى ترجمة معاهدة تافنا) دراسات منها رسالة عن تاريخ العرب تقع فى جزأين · وقد قام عدد كبير من الصحافيين فى بداية عهد الاحتلال بنشـر استطلاعات ومقـالات عديدة فى الصحف الجزائريـة والفرنسية · ونحن ندين بـالفضل ، مثلا ، لبربروجر (محرر المجلة الافريقية) بالتعرف على موقع اشير والفات نظر علماء الحفريات الى اهمية خرائبها ·

وفى مـرحلـة تـاليـة ، اكتشفت الادارة الفرنسية فى الجزائـر ابعـاد التراث الثقـافى العربى ، ولا سيما ما يتصل منه بالتاريخ ، كما ادركت اهميـة فهم هذا التراث لارساء قـواعد الاستعمـار على اسس متينـة ، فاخذت تشجـع ترجمة بعض الكتب العربية الى الفرنسية · وقـد كان مـن بين الاوائل ومن اكبر العاملين فى هذا الحقل ، المستشرق المعروف ، البارون دوسـلان الذى حقـق القسم الذى يتصل ببلاد البربر مـن كتاب العبر لابن خلدون ونشره فى جزأين ، ثـم وضع ترجمة له الى اللغة الفرنسية (١) · وكذلك نشر دوسلان ايضا كتاب المغرب فى ذكر افريقية والمغرب لابى عبيد البكرى فى فترة تالية وترجمه الى الفرنسية (٢) وفى اواخر القرن كان عدد من امهات الكتب العربية فى التاريخ او من النصوص المقتبسة منها ما يتعلق بالجزائر والمغرب مترجما وتحت تصرف الباحثين ·

وقد كـان المستشرق فانان E. Fagnon الذى تـرجم عددا مهمـا مـن النصوص ، وفـى مقدمتها تـاريخ الموحدين والحفصيين للزركشى (٣) ، والنصوص التى تتعلق بالمغرب فى الكامل

1) نشر النص المحقق مع الهوامش فى سنة 1848 ، ثم ظهرت الترجمة الفرنسية خلال الفترة بين 1952 ـ 1856

2) ظهرت طبعة الجزائر المرفقة بالترجمة فى سنة 1911 ـ 1913

3) قسنطينـة ، 195

لابن الاثير (١) ، والنصوص التى نشرها فى مجلد تحت عنوان « نصوص غير منشورة » (٢) ، فضل كبير فى توسيع نشاط الترجمة التى تحسنت الآن واصبحت اكثر دقة .

ومع ذلك كله ، فان المؤرخ الجاد ، لم يكن فى استطاعته ان يكتب تاريخ الجزائر فى العصور الاسلامية بالاعتماد على الاعمال المترجمة وحدها، حيث كانت معظم المصادر لم تتناولها حركة الترجمة .

وكذلك ظهرت فى اوائل القرن الحالى مشكلة كان من المفروض ان يتعرف عليها المؤرخون منذ البداية وهى : هل لمؤرخ ان يكتب عن افريقية فى العصور الوسطى العليا ، اذا لم يكن مستعربا ويملك الوسيلة الضرورية (اللغة) للبحث والتحقيق ؟

وهذه المشكلة ، نجد رجعيا انها تهمنا نحن المغاربة بصفة خاصة ، لان التاثير (ان لم نقل التوجيه) المباشر وغير المباشر الذى تتعرض له الدراسات التاريخية من الادارة السياسية والاكاديمية والراى العام الفرنسى والناشرين والمناخ الثقافى بصفة عامة ، تجعلنا نفقد حتى الحد الادنى من الضمانات والمراقبة العلمية ، متى كان المؤرخ فى حل من الرجوع الى الاصول العربية والاحالة الى مراجعه . واذا كان من بين الباحثين ، مثل جوتيه ، من فرض على نفسه منهجا علميا متشددا يراعى الدقة والامانة ، فان هذه الفئة تشكل اقلية صغيرة ، مع الاسف .

ومن جهة اخرى . هل يترك تاريخ افريقية الشمالية فى العصور الوسطى الاسلامية للمستعربين دون سواهم – مع العلم بان تكوين المستشرق يختلف عن تكوين المؤرخ . وهذا فضلا عن أن المستشرق قلما يترك له عمله الذى يتصل بالنصوص ، وقتا لمعالجة المشاكل التاريخية .

وهكذا كان يبدو وكان المشكلة حلقة مفرغة لا يدرى أحد أين طرفها (٣) .

على أن هذه المشكلة النظرية وجدت حلها عمليا اذ مضى الكتاب الذين لا يحسنون اللغة العربية ، يكتبون فى التاريخ ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه نخبة من المؤرخين الذين مكنتهم معرفتهم باللغة العربية من استقاء مادتهم من المصادر مباشرة .

وفى مقدمة هذه الفئة ، بل وعلى رأسها ، العالم جورج مارسى ، الذى ندين له باهم ما لدينا من الدراسات عن تاريخ الفن الاسلامى فى المغرب وبعدد من الكتب التى تتناول بكل ما يشرف العالم من الجد والاستقصاء حقبا كانت مغلقة من تاريخنا .

ولكن التضلع فى اللغة العربية والتفرغ لتاريخ المغرب ، لم يكن دائما ، مع الاسف ، مرادفا للولاء للثقافة العربية ، أو حتى وسيلة لفهم التاريخ فهما موضوعيا مجردا من الاغراض.

والحق ان هذا العالم الذى تجد اعماله تقديرا شاملا بين المهتمين بتاريخ المغرب (ومن

1) الجزائر ، 1901

2) Extraits inédits relatifs au Maghreb, géographie et Histoire Alger, 1924.

3) عانى جوتيه من هذه المشكلة شخصيا وكرس لها فقرة فى كتابه المذكور حدد فيها موقفه . راجع le passé de l'Afrique du Nord, P. 51.

بينهم بعض علماء المغرب ايضا) ، لا تختلف نظرته الى المغرب ، ولا يختلف تفسيره العام لتاريخ هذه البلاد عن تفسير أجهل الكتاب الفرنسيين بالتاريخ والثقافة المغربية ·

لماذا ؟ أهي العنصرية وحدها ، أم تضاف الى العنصرية أغراض اخرى مثل الرغبة فى كسب الشهرة بين الجماهير والسعي لتسخير العلم لاهداف السياسة الاستعمارية ؟

مهما تكن الدوافع والاسباب ، فان جورج مارسى تجنى بالقلم على ثقافة هذه البلاد وعلى الشعب المغربى ، كما اعتدى عليه غيره بالسيف ، وذلك فى اكثر من موضع فى كتبه · ونحن ناخذ هنا اشهر كتبه واكثرها تدعيما لسمعته العلمية ، وهى اطروحته التى سبقت الاشارة اليها والتى تشتمل على الخطوط العريضة لنظرياته التى تبلورت فى اعماله اللاحقة · فما هو رأى الكاتب فى هذا الشعب الذى يصر على تسميته بالبربرى ، ياترى ؟

يقول مارسى : انه « تنقصه الوحدة والاستمرار » ونحن « لا نكتشف فيه شيئا يمكن مقارنته بالمجهود الشاق الواعي (···) الذى يدفع الشعوب الاوروبية نحو تحقيق مثال اجتماعى ، او لتكوين دولة اكبر » (١) ·

ويمضى الكاتب فيقول :

« وبلاد البربر لا يبدو أن فى امكانها التقدم بوسائلها الخاصة ، بل يجب عليها أن تضع نفسها وراء عربة اخرى لتجرها · فان قضاء وقدرا يمنعها من أن تكون الاتابعة أو خاضعة لغيرها ·

فهى مستودع لقوى لا التحام بينها (وبالتالى) فهى تحتاج الى تلقى النفوذ الموجه من الخارج : من الفنيقيين أو من الرومان ، أو من الشرق أو من اسبانيا » ·

والمؤلف يصطنع الخجل ، فلا يضيف فرنسا الى قائمة مصادر النفوذ المحتملة ، ولكن ذلك مفهوم ضمنيا وبحكم الامر الواقع !

وكانما خشى الا يستخلص قارئه جميع النتائج التى يريد أن يستخلصها من ملاحظاته ، فتكفل هو بالقيام بهذا العمل واردف فى شكل خاتمة يقول ·

« وما اشد ردود البربر ضد التقدم الذى يفرض عليهم ! وكم تساوى كلمة « البربر » معناها باللغة اللاتينية (أى الهمج) !

« وفى المعركة الهائلة التى تشنها بلاد البربر على الحضارة ، كم من مرة كان حظ البربر فيها الهزيمة والاندحار ! » (٢) (علامات التعجب مرقومة فى النص الاصلى)

والقارىء الحسن النية سيندهش بدون شك لهذا التهجم الخالى من كل تحفظ فى كتاب علمى وفى موضوع بعيد عن النزاع بين الجزائريين والاستعمار · بل ان البعض قد يتساءل فى براءة :

كيف يجهل هذا الكاتب ان سكان هذه البلاد هم الذين فتحوا الاندلس ومعظم جزر البحر الابيض المتوسط ، وان كتامة (هذه القبيلة البربرية) كانت ارضها منبت الدولة الفاطمية ،

1) راجع المصدر المذكور 1
2) نفس المصدر ، ص 2

G. Marçais, les Arabes en Berberie, P. 1.

وان القبيلة هى التى حملت لواء الدولة لفتح مصر والشام ، وان صنهاجة اقامت دعائم حضارة من اعظم ما شهده البحر الابيض المتوسط وان زناتة اقامت عددا من الدول فى المغرب بدات بدولة عطية بن زيرى ، وان امير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذى بسط سلطان المرابطين على المغرب والاندلس ، هو نبتة « اصيلة من تربة هذه الارض ، وان ابن تومرت وعبد المؤمن واضعا اركان دولة الموحدين ، لم يكن لهما ولاجدادهما وطن غير هذ الوطن ، وذلك على الرغم من جميع شجرات النسب المختلفة !

ولكن المشكلة هى ان جورج مارسى ، مثل غيره من العنصريين ، لا يجهل هذه الامور ، بل هو يعرف تفاصيلها كما لا يعرفها الا الخبراء ٠

ان المنطق واعتبارات الكرامة تفرض علينا الا ندع ما تنطوى عليه كثير من المساهمات الفرنسية من الاغلاط والانكار المغرض لماضينا يتسرب كالسموم الى عقول الناشئة والمثقفين الذين لم يتسلحوا بالمعرفة وطرق النقد التى تسمح لهم باكتشاف التزييف والتجنى على وطننا ٠

ضرورة اعادة التقييم

قد تبدو فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا فكرة غريبة لاول وهلة ٠ فان الباحثين فى كل بلد يتناولون بالدرس ويكتبون تواريخ جميع البلدان الاخرى ويقعون فى اغلاط ايضا ، دون ان نسمع ان واحدا من هذه البلدان شعر بالحاجة الى تقييم المساهمة الاجنبية فى تاريخه ـ فضلا عن اعادة تقييم هذه المساهمة ٠ فالهند (وباكستان) التى ظلت تحت الاستعمار البريطانى نيفا وثلاثة ارباع القرن (اقل منا قليلا !) ، لم تقم فيها دعوة لمراجعة التاريخ الذى سجل فى العهد البريطانى والعمل على أسس جديدة لتنمية تاريخها القومى ٠ والهند الصينية وافريقية الغربية وغيرها من المستعمرات السابقة كلها كانت فى وضع مماثل لوضع شمال افريقية٠

وقد يقال ايضا ان فكرة اعادة تقييم المساهمة الفرنسية تعبر عن نزعة وطنية ضيقة ، وانها حتى لو وجدت ما يبررها نظريا ، فان تطبيقها عمليا يكاد يكون فى حكم المستحيل ، بسبب ضخامة هذه المساهمة وشمولها ٠

ونحن لتوضيح الفكرة ينبغى ان نبين اولا مالا تستهدفه ٠ فهى لا تدعو الى اى تحريم للكتب التى وضعها المؤرخون الفرنسيون عن تاريخ بلادنا ٠ وزيادة على ذلك ، فهى لا تنادى بالاستغناء عن هذه المساهمة وبدء العمل من الصفر لتنمية تاريخنا القومى ٠ واعادة التقييم يعنى ضمنيا الاعتراف بقيمة نسبية لجهود الباحثين بقدر ما يكون هذا المجهود نزيه الدوافع وبقدر أهمية النتائج التى كشف عنها بالنسبة الينا وفى حدود استجابته لاولويات التنمية الثقافية فى بلدنا ٠

واعادة تقييم المساهمة الفرنسية فى تاريخنا عملية تفرضها عدة اعتبارات ، يمكن ان نوجز اهمها فيما يلى :

١ ـ ان النظام الاشتراكى الذى اختارته الجزائر والذى حطم معظم الاطارات الاجتماعية التقليدية بما فى ذلك نظام الملكية الزراعية ، لا يمكن ان يهمل قطاعا ثقافيا حيويا له اوثق الصلة بشخصيتنا ، ونعنى بذلك تاريخنا القومى٠ فمما لا ريب فيه ان هذا التاريخ لم يكتب حتى

الآن بالطريقة التى تتلاءم مع هذا التطور ومع النظرة الاشتراكية الى الاشياء · ومجهود اعادة تقييم ما كتب باللغات الاجنبية عن تاريخنا ، مجهود يخرج عن نطاق امكانيات الافراد من الباحثين ، ولذلك فهو يحتاج الى اهتمام قومى يمنح العمل لتخليص هذا القطاع من آثار الاستعمار الثقافى مكانة عالية بين او لويات التنمية الثقافية ·

٢ ـ ان الشعوب التى قبلت المساهمة الاجنبية بدون مراجعة هى ، اما شعوب لم يمس استقلالها وكرامتها السياسية ، او هى من الشعوب التى رضيت نهائيا بمبدأ « ازدواج الشخصية » ، ذلك الانحراف الذى يصعب معالجته فى الافراد ، ولكنه اصبح الآن اساسا شائعا للتنمية الثقافية فى عدد من المجتمعات المتطورة · واما الجزائر ، فقد شفيت من هذا الانحراف بفضل الصدمة التى هزت كيانها فى ثورة شاملة · فاذا رضيت شعوب افريقية الغربية والهند ، وخصوصا امريكا اللاتينية ، بادماج تراثها الثقافى القومى فى تيار الثقافة الغربية ، فذلك لانها قامت بعملية المواءمة والتوفيق الضرورى بين هذين التراثين فى اطار الشخصية المزدوجة · ولكن الجزائر التى اختارت مبدأ « الاصالة الشخصية » ، قد التزمت نحو نفسها ضمنيا بهذا الاختيار ببذل مجهود لفرز جميع العناصر التى ستشكل اساسا لنهضتها الثقافية المقبلة ·

٣ ـ ومن هذا الاعتبار ينبثق اعتبار آخر ، فرعى ولكنه مهم ، وهو ان كثيرا من المستعمرات سابقا (والامثلة السابقة صالحة فى هذا السياق) قد اختارت لغة المستعمر السابق لتكون لغتها الوطنية ، بينما أبت الجزائر ، فى هذا المجال ايضا ، الا أن تعود الى اصلها · وانطلاقا من هذا الاختيار ، فان اعادة التقييم عملية يحتمها التحول اللغوى نفسه ·

٤ ـ جرى المؤرخون الغربيون على تنسيق حوادث تاريخ المغرب خارج السياق الثقافى الاسلامى التقليدى ، بحيث يكون التاريخ المعروض قريبا من نمط التاريخ الدنيوى الذى ألفه القارىء الاروبى · وهذا المنهج ، اذا كان لا يخلو من بعض المزايا من حيث الشكل ، فهو فى الحقيقة يضع عقبة فى طريق فهم الاتجاه العام للتاريخ ، حيث يسلخ الحوادث من مناخ الثقافة الاسلامية ويعزلها عن الجو الفكرى الذى جرت فيه · فان القارىء الاروبى ، مثلا ، يفهم ان انطلاق بنى هلال لغزو المغرب ، كان سببه قرارا سياسيا اتخذه المعز بن باديس بالاستقلال بالمغرب عن الخليفة الفاطمى · وهذا صحيح من الناحية الشكلية (وخروج امير تابع عن طاعة ملك من الاحداث الشائعة فى التاريخ الاروبى وغيره) · ولكن هذا التعليل غير كاف لفهم صلب المشكلة وابعادها ، حيث ان السبب الحقيقى لهذا الحدث الذى كان من نتائجه تخريب الحضارة الزيرية ، هو تحول المغاربة عن عقيدة الشيعة التى فرضت عليهم فرضا ، الى مذهب أهل السنة ، حينما وثقوا من زوال نفوذ الفاطميين ، وشاع أن الملك نفسه كان على مذهب أهل السنة (سرا) ·

كيف يستطيع المؤرخ الاروبى أن يقدم هذا التعليل ، لدى عرضه لهذا الحادث ، دون أن يحتاج الى بحث خاص للتعريف بمذهب السنة وعقيدة الشيعة ؟

وخلاصة القول ، ان العودة بتاريخنا الى مناخ التقاليد الثقافية الاسلامية ، يجب أن يكون من الاهداف الاساسية التى نتوخاها وراء مجهود اعادة تقييم المساهمة الغربية عموما والمساهمة الفرنسية ، خصوصا ·



موقف المؤرخين الأجانب من
تاريخ المغرب العربي

ادار الندوة
عثمان شبـوب

اود أولا ان أشكر الاساتذة الافاضـل الذين لبوا دعوتنا وساهموا معنا فى هذه النـدوة التى تطرق موضوعا على غاية من الاهمية بالنسـبة لتاريخنـا ، وهو موقف المؤرخين الاجانب من تاريخ المغرب العربى ، وأضع أمامكم للنقاش ثلاثة مسائل يدلى فيها كل واحد منكم برأيه ثم نجرى المناقشة ان كان هناك ما يستوجب ذلك ٠ وفيما يلى هذه المسائل :

1 ــ كيف نشأ الاهتمام عند المؤرخين الاوروبيين بتاريخ المغرب العربى ؟

2 ــ ما هى العوامل الاجتماعية والسياسية والثقافية التى انطلقوا ومارسوا فيها كتاباتهم ٠

3 ــ ما هى الجوانب الايجابية او السلبية فى هذه الكتابات ؟

4 ــ ما هو المنهج الذى ينبغى اتباعه فى اعادة كتابة تاريخنا من جديد ؟

الاستاذ مصطفى زبيس ٠٠٠ متفقد الآثار بتونس ٠

نشأت فكرة التاريخ لدول المغرب العربى عند المؤرخين الاجانب غالبا لظروف سياسية ولخدمة سياسة معينة ، أى السياسة الاستعمارية ٠ ولا يمكن ان نفرق بين من أخذ منهاجا موضوعيا وغيرهم ، لان العمل كان متجها الى تدعيم السياسة مهما كان الشخص الذى تعاطى هذه المهنة ، ففى ميدان الآثار بالخصوص كانت النزعة الاصلية التى وجهت جميع المجهودات هى ان هذه البلاد كانت بلادا تشبعت بالحضارة الرومانية ، ثم انقلبت عند مجىء العرب الى تحطيم هذه الحضارة الرومانية وغالبا لم يكن رأيهم الا المرور مرورا عابرا على هذه الفترة الطويلة ، وكان رأيهم الاستنتاج وراء الاستكشافات التى عثروا عليها بعد التنقيب والبحث لاثارة أولى الامر من المستعمرين لتعاطى السياسة المعينة ، فمثلا اذا نظرنا الى الفسيفساء ، يقول هؤلاء ان الفسيفساء ازدهرت فى هذه البلاد ايام الرومان وبعدهم ، لانهم يحكمون على أنها انقطعت عند مجىء العرب وهذا غلط من الناحية المنطقية ، أولا وغلط من ناحية الواقع ٠

من الناحية المنطقية هذا لان اصحاب الصناعة ــ الفسيفساء ــ كانوا من الاهل من سكان البلاد الذين كانوا فى انعزال سياسى ، فكانوا يعملون لهؤلاء وهؤلاء لاغراض مالية وعيشية لكسب عيشهم ، فعندما تتبدل الاوضاع السياسية فالمعمل او المصنع الذى كان يصنع فيه الفسيفساء او غيره كان دائما اعماله متواصلة واصحابه فى مبانيهم ، وكان الصانع يتعاقب مع صناع آخرين من ابنائه ومن الآخرين المتواردين بعده ، ولم يكن هناك سبب لانقطاع هذه الصناعة من جراء تبديل الوضع السياسى ، من الناحية الواقعية نجد فى كثير من الاماكن قطع من الفسيفساء ازدهرت ايام العرب وتمادت الى مدة طويلة فقد وجدنا فى المهدية قاعة من قاعات القصور الفاطمية او الصنهاجية يعنى القرن 4 و 5 هـ وجدنا هذه الفسيفساء فى مكانها وعلى مساحة جيدة ولا يمكن ان تكون من آثار الرومان او البيزنطيين ، وفى رقادة وهى مدينة انشأها الاغالبة فى القرن 3 هـ ، هناك قاعة من الفسيفساء وهناك امكنة استعملت فيها فسيفساء جلبت من امكنة اخرى ، هذا ربما تضطرب من أجله الافكار الا أن القاعة التى هى ما زالت موجودة تدل على أن هذه الفسيفساء استمرت بعد الرومان وبعد البيزنطيين ، وقد عثرنا على أناس كانوا يبحثون هنا فى تونس فى 1947 ، 1948 فى ناحية جبل مروج فى ضيعة من

ضيعات اصدقائى فوجد الباحث الاثرى فى هذا المكان وكان مبدئيا قرر ان هـــذا المكان انما هو مكان لا يمكن ان يكون فيه الا الآثار الرومانية ، واذا به فوجىء بالعثـور على كميـــات من النقود الاغلبية ، فما جعل هذا بدل ان يضم هـــذا الى مستكشفاته ، اخذ هذه الكمية ووضعها جانبـــا حتى تبعد عن أصل البحث ، فمثل هذه الاعمال انما تؤدى الى قلب الحقائق والى البعد من الحقيقة الموضوعية المجردة فى البحث ، ومثل هذه الحالات كانت موجودة منذ ان تدخل الباحثون فى هـــذه البلاد اما للبحث عنالآثار وأما للبحث عن التاريخ .والى جانب هذا توجد النزعة من طرف العسكريين والسياسيين ورجال الدين ، هـــذه النزعة كانت تهدف الى جعل هذه البلاد دائما وأبدا بلادا منجرة عن لاتينية والحضارة الرومانية بصورة عامـــة ، هـــذا كان مبدؤهم ، وعلى هـــذه الاسس كانوا يعملون وكانوا يبحثون كأنهم يقدمون النتيجـــة على البحث ، وكانالبحث يستمر فىتدعيم وجهات هذه النظرة العنصرية ، واذا وجد من بين هـؤلاء من ينازع هذا المبدأ او من يناصر الحـــق فكانت هناك هيئات عظيمة تحطمه ، ولعلكم تتذكـــرون وانه فى سنة 1940 او 1942 كان هناك أب يقـال له الاب بيريه فالف كتابا عن الحضارة الاسلامية وانتشارها فى العالم الغربى وكان بحثه ممجـدا من أوله لآخره لهذا المبدأ ، ولكن لا يمكن لاحـد انيجد هذا الكتاب ،فقد غمر ، وفقد منذ صدوره، ولم أعثر عن هذا الكتاب الا فى نص تحليـلى فى مجلة من المجلات ، فهذه النزعة لم تكن الا نزعـة أصيلة متماشية مع السياسة التى كانت هناك ، ولهذا كثيرا من هؤلاء الباحثين ــ على انهم عملـوا عملا طيبا ومستفيضا فى نشر كثير من المعلومات وكثير من المصادر ، فلا نحكم على هؤلاء بالبطلان التام ، فهناك من الكتب ما يفيدنا الا اننا معشر الجيل الحاضر لابد ان نعيد النظر فى هذه الكتب وفى هذه النظريات وينفى ما يمكن الغاؤه ونزيل ما هو باطل ومخالف للحقائق التاريخية وتاريخنا بالخصوص .

الدكتور محمد طالبى ــ استاذ بكلية الآداب ــ جامعة تونس :

كيف نشأ اعتناء الغربيين بالتاريخ الاسلامى ، يرجع ذلك الى قرون بعيدة جدا ، وهذا الاعتناء فى الحقيقة لم ينقطع أبدا طوال العصور بالنســـبة للغربيين فيما يخص الامم الاخرى لان الاتصـــال بين المسيحية والاسلام كان متواصلا منذ الفتـح الاسلامى الى يومنا هذا ، فريمو جولو الاسـبانى الشهير كان قام بتنشئة أولاد الامويين ، ويمكن ان أضرب امثلة عديدة ، اذن كان الاتصال دائما وأبدا موجودا بين الاسلاموالمسيحية التى أصبحت فيما بعد العالم الغربى ، لكن نشأت حركة جديدة فى هذا الميدان يرجع ذلك فيما أظن الى القـــرن السابع عشر عندما اخذ الغرب يشعر بقـوته من ناحية وبضعف الطرف المقابل ــ الاسلامى ــ من الناحية الاخـــرى ، فالغرب قد اكتشف ضعف العالم الاسلامى فى القرن الســابع عشر فانقلبت الاوضاع والصلات التى كانت موجـــودة والتى كانت صـــلات تبـادل وتعارف اصبحت صـــلات

دراسة من طرف الاختصاصيين لحضارة عدوها قد انقرضت أو أخذت فى التلاشى . هذا الموقف ادخل اختلافا فى النظر ، فالغربيون اخذوا شيئا فشيئا يشعرون لا بقوتهم المادية فقط ، بل أيضا بقوتهم الفكرية وصادف ذلك القرن الثامن عشر نشوء فكرة الرقى والنور والتقدم والتطلع الى الحضارات الآفلة فاعتنى بعض علماء الغرب فيما اعتنوا به من جملة المواد بما سموه بالشرق . وهذا الشرق يمتد من اليابان الى البلاد الاسلامية ، ونشأت بأتم معنى الكلمة مدارس الاستشراق فى كامل البلاد الغربية وأسست المؤسسات واصدرت الاموال لذلك وأسست المكتبات واخذوا يعتنون بالحضارة الاسلامية من جملة الحضارات التى هى جديرة بالاعتناء والاهتمام ، فاعتناؤهم اذن بهذه الحضارة ناشىء عن فكرة علمية عن تقدم علمى اخذ يخرج بالعلماء من نطاقهم القومى الضيق الى نطاق عالمى ، هكذا اذن نشأ الاعتناء ، ونجد من بين هؤلاء المستشرقين من بذل الجهود الجبارة لاكتشاف كثير من البحوث العربية التى غفلها اصحابها فاخذوها بالنشر وبالبحث والقواعد مؤلفات فيما يخص كامل مظاهر الحضارة الاسلامية . ثم كان القرن التاسع عشر وصادف ذلك القرن التوسع الغربى بالقوة طبعا وبالعنف فى كثير من الاحيان الى خارج حدوده ، فقسمت الاراضى بين أمم كانت تحتل الركب التاريخى كما لفرنسا وكانت تمتاز بقوة مادية وفكرية واحتل كل فريق المنطقة التى اعدت له بعد المقاسمة الشهيرة فى برلين سنة 702 أو 1872 ، طبعا هناك أناس كانوا قد اعدوا العدة من قبل وكونوا مدارس الاستشراق ، ثم وجدوا أنفسهم فى صلب الاقطار التى كانوا قد افردوها بعنايتهم ، فهذا الوضع التاريخى الجديد كان حافزا لهم ومنشطا للتنقيب بأكثر جدية واهتمام ، فاعتنوا بجغرافية بلاد مختلفة وحيوانها ونباتها واقتصادها واجتماعها ، وبتاريخها ، فاخذوا يكتبون تاريخ هذه البلاد . كل مؤرخ مهما كانت ارادته كى يصل الى الموضوعية يستحيل عليه ان يتخلص تماما من الملابسات الزمنية والاوضاع الاجتماعية التى يعيش فيها ،فالغربيون كانوا يشعرون بحكم قوتهم وحضارتهم بتفوق كبير بالنسبة لاهالى البلاد المحتلة ، طبعا فى هذه الصورة كان يعسر عليهم ان لا ينظروا الى هذا التاريخ نظرة تحليلية تمكن من تفسير الوضع الذى عليه هذه الامم المتخلفة على ضوء تاريخها ، تلك هى المشكلة ، هم أرادوا ان يعللوا الوضع التخلفى الراهن بحكم تطور تاريخ هذه الامم قرأوا فى ذلك التاريخ تاريخا يؤدى الى التخلف ، فكانت هذه النظرة من هذه الزاوية تؤدى الى قراءة للنصوص لا تتفق وما اصبح عليه التاريخ اليوم ، لكن تلك القراءة فى عصرهم وفى ظروفهم وفى حياتهم كان من العسير جدا ان يتخلصوا منها ، والتاريخ دائما يجب ان يقرأ من جديد حسب الملابسات والظروف ، لان التاريخ شعرا كان تأويلا واسئلة تلقى على الماضى ، فهذه الاسئلة التى تلقى على الماضى يجب ان تلقى بها اجوبة لما يخامر نفوسنا اليوم ، لذا يجب ان يكتب التاريخ دائما ونحن نحاول اليوم بفضل ما اكتسبنا من

تجربة فى الماضى ان نكون اكثر موضوعية ممن تقدم او لعل مهما بلغت جهودنا ومهما بذلنا من عناية فى هذا الصدد . حكم المؤرخين فى المستقبل لعله لا يكون أقل شدة من حكمنا اليوم على من سبقونا ، اذن يحسن بنا عندما ننظر الى هذه الامور ان لا ندخل فى قراءة تاريخيه مدحية لماضينا لاننا اليوم نشعر بالنقص فنحاول ان نتلافى ذلك النقص بأن ننظر الى مرآة مجد نعتبره صافيا عظيما خالصا ،ونحرفهذا التاريخ تحريفا يجد السبب فيه أهواءنا اليوم كما فعل القدامى الذين حرفوه لاسباب ناتجة عن ملابسات وضعف، نحن هذا القيد نخشى ان نحرف تاريخنا أيضا اعتمادا على ملابساتنا فنكتب تاريخا مدحيا ، وهذا نجده فى كثير من الكتب فهى فاسدة تماما لانها تمجيد اكثر منها تثبت واعتناء ، اذن يجب علينا عندما ننظر الى هذا المشكل ، كيف كتب تاريخنا من طرف غيرنا وماذا يجب علينا ان نفعل فى تاريخنا ، يحسن بنا ان نقف موقف الاعتدال بدون تهجم على من سبقنا مهما كانت ظروفه وملابساته. وبدون ايضا سذاجة تجعلنا نؤمن بما كتبه كل غربى لان نكسب عليه هذا التقليص ، وفى نفس الوقت يحسن بنا ايضا ان نقاوم فينا النزعة المدحية بتحليلها بصفة علمية فنخرج من المازق ونخطو خطوة اخرى فى طريق الموضوعية التاريخية حتى نصبح فى يوم من الايام نؤمن بأن التاريخ علم بأتم معنى الكلمة ، لا علم الدولة التونسية او الفرنسية او الروسية ، بل يجب ان يكون علما بشريا ، الذى يريد لنا سر هذه البشرية كيف مرت بمراحل عسيرة هائلة خطيرة شاقه وهى تسير الى الامام لان سنة الله ان تسير البشرية الى الامام كى يتم الخلق لان الخلق مستمر والكائن البشرى جعله الله متطورا وجعله يسير الى اكثر انسانية . كى نصل اذن الى هذا يحسن بنا ان ننظر الى التاريخ نظرة علمية وان نضع دائما وأبدا الامور فى مستواها العالمى كى نخرج من التحزب الى شق دون شق والى التأويل العاطفى الذى يبعدنا عن العلم ٠

عثمان شبوب ـ أريد ان اسأل الاستاذ طالبى سؤالين : السؤال الاول : ما رأيه فى بعض المناهج التى استعملها المؤرخون الاوروبيون فى دراستهم لهذه المنطقة من المغرب العربى ، المنهج الاتنوغرافى مثلا ٠ والسؤال الثانى هل تتفقون مع الذين يقولون بان المنهج الماركسى هو أفضل منهج لاعطائنا تفسيرات دقيقة عن احداثنا التاريخية ٠

د٠ محمد الطالبى : الاتنوغرافى علم منفصل ليس بالتاريخ ، لان الاتنوغرافية تهتم بالعادات والاوضاع التى عليها مجتمع من المجتمعات فى يومه الحاضر . فاذن تصور الحياة الحاضرة فى اشكالها الاجتماعية وفى عاداتها ٠ وتقاليدها الخاصة ، والتاريخ يهتم بالماضى ، فهما اذن علمان مستقلان ، لكن الاتنوغرافيا قد تكون بالنسبة للمؤرخ من العلوم المساعدة كالآثار او غير ذلك من العلوم ، فالاوروبيون طبعا قد اهتموا اهتماما كبيرا بالاتنوغرافية وذلك امر طبيعى بالنسبة لهم لانهم قد وجدوا انفسهم فى بلاد جديدة وعوالم هامة يتعرف عليها . أما لاسباب علمية ٠٠٠ أو

لاسباب عملية لان هذا التعرف يعينهم على حسن سياسة تلك البلاد كيف يعاملون الناس ، كيف يجب ان يتفهموا عقول الناس حتى يحسنوا التصرف معهم باثارة أقل ما يمكن من المشاكل والقلق ، وحتى طبعا يتمكنوا من استثمار البلاد لصالحهم ، عندما يحتلون بلدا من الطبيعي ان يحاولوا استثمار مجهوداتهم التى مكنتهم من الاستيلاء على مقاطعة من المقاطعات فالاتنوغرافية اذن بالنسبة اليهم علم هام جدا لانه علم ككل العلوم يمكن فيما بعد ان يبحث فى مقارنة عادات هذه المدينة وهذه المدينة ، والعيوب الاجتماعية والاخلاقية واللسانية وغيرها ، وعندما نجمع الملاحظات الاتنوغرافية لبلاد العالم فان يمكن فيما بعد ان نستنبط بعض القوانين العامة التى تتصل بالبشرية وفيما يخص أيضا الحضارة ، اذن هو علم مستقل اعتنوا به كثيرا لاسباب نظرية ولاسباب عملية ونحن اليوم فى كثير من الاحيان ندين لهم بالفضل الكبير فى هذا لان كنا نحس بمركب النقص الذى زرع فينا من تخلفنا ننقم نقمة كبرى على عاداتنا وتقاليدنا ولا نريد ان ننظر فيها ولا نريد ان نسجلها للتاريخ ، فمن بين بنى وطن المغرب كتب فى عاداتنا وتقاليدنا منذ قرن أو نصف قرن منا اعتنى بالبربر وعاش اوساطهم وصوروهم للعظمة ، نحن لا نفعل ذلك ، فالغربيون اذن ديجونا بهذه الصفة بمجموعة من الوثائق الهامة التى اصبحت تاريخا ، فالمؤرخ اليوم عندما ينظر فى تاريخ القرن العشرين او التاسع عشر سوف يجد مجموعة من الوثائق حرر ودبج بفضل مجهودات هؤلاء الاجانب الذين عندما فتحوا البلاد وجهوا عنايتهم الى مختلف أوجه الحياة فى هذه البلاد ٠

السؤال الثانى : هذه الايام اصبحت من الوسائل التى تعاد وتكرر ، اى هل يكتب التاريخ كتابة ماركسية وما هى قيمة هذه الكتابة ؟

أظن ان الحرب بين الطرق التقليدية لكتابة التاريخ والطرق الماركسية بدأت تضع اوزارها فاليوم اصبحنا وكل ذى عقل يؤمن بذلك ان ماركس اتى بأشياء هامة وفتحت فى ميدان التاريخ بفضل الآراء التى ابداها ووجه البحث الى نواحى لم يكن الاعتناء بها كثيرا ، وكل منا اليوم مقتنع بتلك الفكرة الماكسية ، من ان عنصر التاريخ أو ان محور من محاور التاريخ هذا المحور الذى له دور هام الى جانب المحاور الاخرى هو المحور الاقتصادى ، هذا لا يشك فيه اثنان ولا يتناطح فيه عنزان ، الآن أصبح الامر واضحا جليا ، اهتمام مثلا ماركس بقراءة النصوص تجعلنا احيانا نرى فيها حركة جدلية تدفع البشرية الى الامام ، كل مؤرخ اليوم يؤمن بأن هذه القراءة ان لم تكن الوحيدة فهى مفيدة جدا لانها قد تفسر كثيرا من الاشياء لولاها لتبقى غامضة ، فاذن ماركس اليوم قد قبل بصدر رحب من كل علماء التاريخ .المشكل الوحيد هو ان هناك من المؤرخين الذين يريدون ان يجعلوا من كتاب ماركس قرآنا وان ينظروا اليه نظره تعصبية تتنافى والمبنى الماركسى نفسه ، لان ماركس كان ثوريا على الاساليب التى تقاومه، فاذا أردنا نحن ان نقلده تقليدا ديناميكيا حركيا

يجب ان نقلده بأثمن شىء علمنا اياه هذا الرجل ، وهى النظرة النقدية وعدم التبعية ، لم يكن متبعا ولذلك انشأ نظريته ، فاذا نحن تبعناه بما يؤدى الى الجمود والتبعية فقد خنا رسالة ماركس خيانة كبرى . وهذا ما فعله كثيرون ، فأصبحوا يحرفون تاريخهم تحريفا بليغا لانهم أرادوا ان يقصدوا من التاريخ محاور اخرى توجههم كالمحاور النفسية ، ونحن نعرف ان فى كثير من الاحيان الحركات العاطفية كان لها دور هام جدا فى توجيه التاريخ فبقطع النظر عن الحركات الاقتصادية ، ثم ايضا يجب ان لا نؤمن بالتحليل الماركسى الاقتصادى الى حد ان نجهل او نتجاهل قيمة عمل الفرد ،فمن منا مثلا يستطيع ان يعتبر ان تاريخ قرطاج كان يكون هو نفس التاريخ بعدم وجود هانيبال ، هذا من المستحيل ، أو تاريخ المانيا فى الفترة الاخيرة هل كان يكون نفس التاريخ لاسباب اقتصادية او غير ذلك ، اذن لو حذفنا هتلر وما اصيب به من أمراض عقلية . اذن هذا التطرف فى كتابة التاريخ على مذهب وحيد هو الذى يجرنا دائما وأبدا الى الانحراف ، اذن يحسن بالمؤرخ ان يكون دائما وأبدا انسانا حرا . يجب ان يتحرر من أهوائه وعاطفته وان يقاوم فى نفسه نزعاته ، ويجب ان يتحرر ايضا من الضغوط الخارجية من ملابسات وأوضاع وحالات سياسية واقتصادية ، ويجب ان يتحرر ايضا من المفكرين الذين قد يوجهوه توجيها غير طيب ، اذن يجب التحرر والتفتح لان يعسر عليه ان يكتب التاريخ وهو يجهل ما قاله المؤرخون والعلماء من قبل ، فهى اذن حياة عسيرة جدا حياة المؤرخ لانه يجب ان يكون جماعا لعلوم شتى ويجب ان يكون ايضا محللا لنفسه ومحللا لوضعه ومتفتحا على كل التيارات والافكار وفى نفس الوقت متحررا من كل التيارات والافكار .

عثمان شبوب : أنا أود من الاساتذة الآخرين ان يناقشوا جميع هذه الافكار المنهجية وغيرها . وأود ان أوضح ان الاتنوغرافيا وهو منهج داخل فى نطاق علم الاجتماع كما هو معروف ، لكن كثير م ن المؤرخين بنوا على هذا المنهج كثيرا من الاستنتاجات العنصرية الاستعمارية .

الدكتور التميمى : اجابتى عن السؤال متى بدأ اهتمام المؤرخين الاوروبيين بالتاريخ المغربى وكيف ؟ ان شاركت الاستاذ محمد طالبى فيما قاله حول اهتمام الاستشراق فى العالم العربى والاسلامى والبحر المتوسط ، لا أشاركه بأن اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قدساير هذا الأهتمام فى نفس الوقت ، ذلك ان اهتمامهم بتاريخ المغرب العربى قد ظهر اخيرا فى القرن 19 اما اهتمامهم قبل هذا الوقت فقد كان مقتصرا على ارسال بعض الرحالين لمعرفة عادات وتقاليد والظروف المناخية التى يعيش فيها المغرب العربى، وعندنا عدد كثير من الرحالة الاوروبيين الذين تركوا لنا انطباعات ، غير اننا لا نعرف اى عمل تاريخى كتب عن تاريخ المغرب العربى قبل 1830 وذلك تاريخ احتلال المستعمر الفرنسى للجزائر ويمكن اعتباره نقطة التحول باهتمام المؤرخين وخاصة الفرنسيين بتاريخ مغربنا ، ذلك ان

احتلالهم الجزائر جعلهم فى وضـــعية جديدة امام شعب جديد ومعطيات جديدة ودين جديد وانظمة جديدة ، هذه الفترة وهذا التاريخ بالذات 1830 قد جعل المسؤولين الفرنسيين يعجلون بارســـال الفرنسيين الى البلاد العربية ويلحون على معـــرفة اللغة العربية وبالتالى الى معرفة الشعب الجزائرى، من هو هـــذا الشـــعب ؟ وفعلا تعددت بعثات الفرنسيين وأذكر دوسلان كان أول احتكاكه – وهو اكبر المستشرقين – فى الجزائر قبل ان يحتك بأى شعب آخر ، وجاند روجر ودوفكس وكثـيرا من الفرنسيين الذين شعروا ان نواشـــدهم هو التعرف على الشعب الجزائرى ومعـــرفة معطيات الشعب ، هذا بطبيعة الحال تفوقهم الاقتصـــادى والثقافى جعلهم ينظرون ويقللون من أهمية الشعب المغربى وتاريخ الشعـب المغربى وهـــذا يعلـل اهتمامهم بفترات دون أخرى وتركيزهم بالبحث على شخصيات دون أخرى ، هادفين بذلك مباشرة تفكيرهم ومخططاتهم التى تهدف بالدرجـة الاولى الى جعل الشعوب المغربية يشعرون بدور التقليل من شأنهم وعدم اظهار مميزات التاريخ المغـربى اذكر بذلك اهتمامهم بالتاريخ ما قبل الفتح العربى كان بالغا اذا ما قارناه بالتـــاريخ العثمانى فى شمال افريقيا . وتعتبر فعرة مظلمة والفرنسيين لم يهتموا بها وقد كانوا يؤكدون على ان هـــذه الفترة فترة مظلمة وحكام قساة وجور . هـــذا يقطع النظر عن اسباب اخرى ، معناه حديثهـم هدفه هو افساد . والطابع الفرنسى طابع عدالة وطابع انقاذ للشعب المغربى من محيط التخـلف العقلى الذى هو فيه .

السؤال الثانى كيف كتب هـــذا التاريخ ، بطبيعة الحال كتب من وجهة نظر معينة معتمدين على معطيات معينة ان وجد بعض المستشرقين الذين درسوا التاريخ الوسيط وكانوا يعرفون العربية ، فانه لا يوجد حسب علمى فى القـــرن الماضى من اهتم بالتاريخ المغربى يعرف العربية الا القليـل جدا منهم . وعلى هذا الاساس فان التاريخ المغربى الذى كتب فى القرن الماضى لا يجب اعتبـــاره تاريخا فنيا ، ويجب تنقيته وتصحيحه ، هـــذا باختصار حتى افسح المجال لبقية الزملاء .

الاستاذ محمد فنطر – استاذ بكلية الآداب – قسم التاريخ : فى الحقيقة عندما ننظر الى سؤال اهتمام المؤرخين الغربيين واخص منهم المؤرخـين الفرنسيين ، فيما يتعلق مثلا بالدور القديم قبل احتلال ....

نرى ان امثال جورج غوتيه او جلير شـــارل بيكات . بما انهم قرأوا التاريخ او حاولوا قراءته لاهداف معينة كانت لهم أهداف ويصرحون بهـا فى صريح العبارة . فعند ما نقرأ مثلا كاتوبينوف يقول فى مقدمة كتـــابه المتعلق بالمغرب : « انه يحاول ان ينظر فيما كان عليه المغرب فى عهــد الرومان حتى يستنتج ما يساعده على ارســـاء الحماية أو الاحتلال الفرنسى فيقول انه لاحظ ان الحضارة الرومانية اينعت بالبلاد ويعتبرون ان الافارقة أقبلوا على هذه الحضارة وتبنوها وساعدوا على اثرائها ، اذن يعتبرون ان الاحتلال الرومانى كان ناجحا ، فاطلاعهم على تاريخ البلاد يهدف الى مد السلطة الفرنسية بوسائل تساعدهم على ارساء

الاحتلال الفرنسي وتساعدهم على التقرب من العنصر الوطني حتى يصبح متحمسا للحضور الفرنسي وللحضارة الفرنسية والى غير ذلك ، وهناك نظرة أخرى هي انهم يريدون تعليل او تبرير الحضور الفرنسي ، هنا فيه شيء لازما من واجبات الحضارة أن يكون الغربيون والفرنسيون بالذات في هذه البقعة ، لماذا ؟ يقولون ان هؤلاء الافارقة البرابرة هم عاجزون بطبعهم عن ادارة شؤونهم بأنفسهم ، فلابد ان يكون خارجي يأتي ليستتب الامن ويتمكن من ادارة هذه البقاع ، ونرى ان من كتب في التاريخ المغربي ينظرون الى الحضارات التي تعاقبت على البلاد دون ان يفرزوا مساهمة المغاربة في تلك الحضارات . فيقولون : الفنيقيون ، الرومان ، العرب الى غير ذلك لكن دائما البلاد لا وجود لها ، وهذا ما يدفعهم للقول جاء الفينقيون ، جاء الوندال ، جاء البيزنطيون جاء العرب ، ولا وجود لسكان البلاد . بل الحضارة لا تثبت وتظهر الا اذا كان أجنبي موجود في البلاد ، كل التاريخ يكاد يكون مركز على هذه النظرة وربما في شيء من اليأس ما زلنا للآن ندرس تاريخنا بهذه النظرة ، في كتب تقدم الى الطلاب والتلاميذ والاطفال تقدم لهم هذه النظرة . عطاء ، فقر ، هاتان الفكرتان هما جعلا بصفة عامة هناك ربما بعض الاشياء لا تدخل في هذا النطاق ، لكن في غالب الامر الدراسات ، هاتان الفكرتان هما الموجودتان ، حتى شارل أندري جوليان الذي نعتبره او نغالي بسخاء اراءه هو لم يتخط هذه الفكرة وهو يقول ان الافارقة لا يستطيعون ان يديروا انفسهم بأنفسهم.

ثم هناك حاجة اخرى خاصة بالتاريخ القديم ، الفرنسيون لما درسوا التاريخ قالوا ــ موش كور الذي كان يمضي بعض مقالاته بكلمة رد بالك ــ يقول موشي كور : عندما اضع اذني على الارض استمع الى رنين خطوات جنود اجدادنا الرومان . فاذن قرأوا التاريخ الروماني باعتباره حضور آثار اجدادهم في هذه الديار ، ويقول موشي كور : نحن لسنا أجانب في هذه البلاد . بل العرب هم الاجانب ، هذا يقوله بصريح العبارة وهذه الافكار سيطرت من غير شك كما قال الاستاذ طالبي بصفة شعورية او غير شعورية وكانوا غير قادرين على التخلص من تلك الملابسات والجو الذي كان يعيش فيه ، وكلنا مجبورون على أن نتحمل بصفة ما المحيط وما في المحيط من ظروف سياسية واجتماعية الى غير ذلك . هذا هو الشيء هذا هو النبراس الذي على ضوئه درسوا تاريخنا في القديم والوسيط والمعاصر •

بقي كيف نحن نقرأ التاريخ : نحن نقرأ التاريخ بالتخلص من كل ما يجعلنا نزيف التاريخ ، لا ينبغي أن نمجد ولا ينبغي أيضا ان تكون لنا مركبات نقص أو غرور تكون خطرا على الحقيقة التاريخية . فان هؤلاء رغم نظرتهم الخاطئة ويمكن أن نقول الملتزمة (لانه كان تاريخا ملتزما) ينبغي أن نؤمن بان المنهاج ، لا شك أنهم بلغوا مستوى علميا لا بأس به ينبغي ان نتحلى به ونأخذه ، هذا المستوى العلمي يمكن أن نقوله في جميع الوثائق وتكوين الملفات لحل القضايا التاريخية ، ففي مستوى التحقيق ــ لان المؤرخ يمكن ان نقارنه

بقاضي التحقيق ـ ففي جمع الوثائق وطـــريقة الاستنطاق ينبغي ان نأخذ بطرق علمية عالمية لا يمكن ان نقتصر بها نحن دون غيرنا ، لـــكن في مستوى استنطاق الوثائق ، المرحلة الثانية ، لا شك اننا نحن أدرى بشعابنا كما قال سقراط : « أعرف نفسك » نحـــن أقرب الناس لان نعرف أنفسنا ، فاذا دخلنا الى أنفسنا وتعرفنا على أنفسنا أمكننا ان نقترب اكثر من غيرنا الى الحقيقة التي عشناها سواء بأنفسنا أو بالاستمرار من الـذين سبقونا والذين ما زلنا نحمل آثارهم على كتفينا ٠

الحبيب الجنجحاني ـ كليـة الآداب ـ تونس : شخصيا في الحقيقة انني أعتقد ان الزملاء الذين سبقوني قد عالجوا الموضوع من زوايا مختـلفة ، وهنالك اجـــابة طبـــعا من الطبيعي ان تختلف باختلاف النظرة الى هذه القضـــايا ، ولذا أنا شخصيا لي ملاحظتان خاصة بما استمعت اليه من الزملاء ، الاولى لا شك أنا نحن نفرق كما قيـــل سلفا بين الاتصالات القديمة بين الاسلام والمسيحية وقد كانت صـــلات تعارف وتبـــادل قبل العهد الاستعماري ، ولكن كما أشير أيضا تغير طابعها تغـيرا كبـيرا بعـــد نهاية العهـد الاستعماري وهـــذا مـــن الطبيعي لان هـــذه العـلاقـات ليست علاقات التعامل الند للنـــد ، بل علاقات هيمنة ، يعني سيطرة جديدة على شعوب مستعمرة ومسيطرة عليها ، فمن الطبيـــعي ان تتغير طبيعة هذه العلاقات ، ونتيجة تغير طبيعة هذه العلاقات نلاحظ بروز فئتين من المستشرقين والباحثين في شـــؤون المغـــرب العـــربي والعـــالم العـــربي بصفة عامة ، هنالك فئة بحكم الاتصال بالشرق وربما هي امتداد لتقاليد من القرون الوسطى منذ العلاقات بين الاسلام والمسيحية هذه الفئة اهتمت بالدراسات الشرقية واللغويات وكانت بعيـــدة والاستعمار سهل لها الاتصال والزيارات ولكنها بقيت في ميدان الاختصاص الضـــيق ، والفئة الثانية واعتقد أنها لعبت الدور الاكمل على الاقـــل في مرحلة معينة هي فئة المستشرقين الذين دخلوا ميدان الاستشراق عن طـــريق خـــدمة الادارة الاستعمارية في بلدان المغرب العربي والعـــالم العربي ، مثلا ٠٠ وقد أشرت في الكلمة وهذا ليس سرا من أن موتلنسكي نفسه يقول بأنه كان مترجما عسكريا في بني ميزاب ، عن طريق خدمته للادارة الاستعمارية في هذه المنطقة اصبح يهتم بالحركات الاباضية وببني ميزاب وأصحاب هذا المذهب ٠٠ الخ يعني كاتب آخر وهو من كبار المعـــروفين في حياة تاريخ المغرب العربي ، ولكن لا ننسى انه بدأ حياته موظفا اداريا في المغرب ، جاك بيرك نفسه وربما هذا يفسر لنا التحـــول في مواقف هؤلاء المستشرقين من قضايا هذه البلدان ، لان البعض منهم نرى كتاباته قبل 20 أو 25 سنة كتبوا أشياء ومواقف معينة ، وكتبوا اشياء بعد استقلال بلاد المغرب العربي بنظرة أخرى ، حولوا في مواقفهم ربما عن اقتناع وربما حسب الظروف ، وأود ان أذكر اسما آخر يعد من كبار المستشرقين في الادب ورجال اللغة ولا يزال حيا ، وهو لم يكن يشتغل في الادارة الاستعمارية وانما كان موظفا اداريـــا في المكتب الثاني الفرنسي ، في سوريا ٠٠ الخ ، شامبليون هذا ليس سرا مثلا بالنسبة لالمانيـــا بيكير كان من كبار الموظفين في وزارة الخارجيـــة واهتم بشؤون الاسلام وكتب عنه ، لكن هنا أيضا نود أن نقول ان الحقيقة بدأوا طريقهم وحياتهم في

الاستشراق عن هذا الطريق . البعض منهم بعد ذلك بعد عن ميدان الخدمة الادارية واصبح يهتم فقط بالبحث ، وهذا يفسر لنا ويلفت النظر ان كثيرا منهم تحولوا من موظفين اداريين الى اساتذة كراسى فى الجامعات الاوروبية ،لكن مع بقاء الصلة وايضا ليس من السر ان الكثير منهم رغم اختصاصهم أنهم يستشارون من وزارة الخارجية فى شؤون المغرب او بلاد العالم العربى فى القضايا السياسية ، وهذه الطريقة ما زالت مستمرة بشكل آخر باسم الاستعمار المقنع من طرف البلدان الاخرى ، كثير من الباحثين الاوروبيين يأتون الى البلد ان العربية باسم البحث واعداد الاطروحات ولكنهم يكتبون تقارير من نوع آخر يرسلونها الى مراكز أخرى ، بحيث تغيرت . لكن مثل ما قال من سبقونى ان هؤلاء الناس الذين توفرت لهم الظروف تركوا لنا أعمالا يجب ان نعترف بها ونعتمد عليها مثلا احياء قسم من المخطوطات ، بعض الدراسات ذات الطابع التاريخي او اللغوى . المهم هذا عمل قاموا به وان لم يقوموا به من اجل العلم والبحث فالنتيجة قد حصلت ، فيجب ان نقف منها موقف الجرأة نعترف بالنقاط الايجابية منها ، ولكن نقف موقف جرأة متخلصين من المركبات ونقاط الضعف ، طبعا الامثلة كثيرة ، والا يعنى هى ظاهرة مثل ظاهرة التبشير مرتبطة فى بعض مظاهرها بالاستعمار بالعالم العربى والمغرب العربى على الخصوص . وليس من الصدفة ان نجد الالمان يعتنون بالدراسات الافريقية كتاباتهم احسن ما كتب عن افريقيا الشرقية ، لماذا ؟ لان المانيا المستعمرات الوحيدة فى الحرب العالمية الاولى كانت فى افريقيا الشرقية ، بلاد السودان طبعا اهتمام البريطانيين . معناه اذا أردنا اليوم ان نكتب بحثا عن السودان وعن جنوب السودان لا نستطيع بدون الرجوع الى ما كتبه البريطانيون، ولماذا لم يكتب الفرنسيون عن السودان وكتبوا عن شمال افريقيا ، اذن اسئلة واضحة ومنطقية بين ظاهرة الاستعمار والاستشراق ، بقى نحن انذاك لم نفعل شيئا ، طبعا المسألة مسألة تخلف لاننا كنا شعوب كانت بعيدة عن الحضارة كان الجهل منتشرا . وكانوا هم فى موقف القوة والسيطرة ، لكن المهم كما قلت هو فى نظرتنا فيما كتب التخلص من مركبات النقص تجاه ما كتبه المؤرخون الاجانب عن تاريخنا ، نعترف بالاشياء الحقيقة التاريخية والاخرى ندينها ، يعنى لا نمجد الدراسات ربما الهزيلة التى كتبت فى عهد معين فى تاريخنا ، ولكننا أيضا لا نمجد ما كتبه الاوروبيون لانه كتب من طرف الاوروبيين ، وهذا ما يعانى منه بعض المؤرخين المغاربة ، هو النظرة التمجيدية لهؤلاء الاوروبيين ، هذا ليس صحيحا، هو المهم التخلص من عقدة النقص هذا الشىء الاساسى .

عثمان شبوب الآن نأتى على النقطة الثانية وهى المناهج. أظن ان الاستاذ طالبى تكلم عن هذه المشكلة وانتهى ، فالآن الكلمة للاستاذ التميمى :

بالنسبة للمنهج الذى يجب اتباعه فى كتابة تاريخنا تحدث الاستاذ طالبى عن المنهج العقائدى بقى المنهج العلمى لكتابة هذا التاريخ وسأتكلم

فى نطاق التاريخ الحديث والمعاصر . فكل ما عندنا وكل ما كتبه الفرنسيون كان يعتمد على الوثائق ودور الارشيف الفرنسية ، واغلب المؤرخين لم يعتمدوا على دور الوثائق العربية والتركية ، فهذا الوضع جعل المؤرخين الفرنسيين يشعرون بالنقص ، هم يعترفون ان كتاباتهم تعكس وجهة نظر فرنسية . والدليل على ذلك بكل تواضع ، هناك استاذ فرنسى هو كربواييه ويعتبر المختص الوحيد لدراسة تاريخ الجزائر كتب أخيرا مقالا فى مجلة « افريقيا المسلمة والبحر المتوسط » العدد الاخير كتب يتكلم عن كتاب نصوص ووثائق التاريخ المغربى ، ويقول بالحرف الواحد : أنا لا أخجل ان أقول اننى كنت مخطئا عندما كتبت عن تاريخ الجزائر بهذه الطريقة ، ولا أخجل ان أقول اننى غيرت رأيى راسا عن عقب » أنا أظن ان هذا المثال فى منتهى الشجاعة الادبية ويؤدى بنا الى الاعتراف بأن ما كتبه الفرنسيون يجب ان نقف منه موقف الحذر لا أن نرفضه بالعكس ، أن نأخذه ونكمل عليه ، ما هى الطريقة العملية ،

أولا يجب ان تقوم بعملية احصاء لكل تراثنا سواء كان المخطوط او المطبوع وبالدرجة الاولى المخطوطات والوثائق سواء كانت عربية او تركية أو ايطالية أو اسبانية او غيرها ، ثم ان تكون عندنا قدرة كاملة على استيعاب كل هذه المعطيات وان نفهم ونذهب الى أبعد ما يكون من الوثيقة ، أن لا نقف عند ظاهر كلمات الوثيقة . بل أن نعرف الظروف الجغرافية والظروف المناخية والحياتية ، كل هذا يؤدى بنا الى فهم جديد اكثر وعيا واكثر شمولا ، بطبيعة الحال هذا يتوقف لا فقط على المؤرخين لان المؤرخ يحتاج الى عالم اجتماع والى الاديب . ثم شىء متكامل لا يمكن ان نفصل علم التاريخ عن الاجتماع ، أنا اعتبرهما علمان متكاملان فى هذا الاطار ، اطار فهم جديد اكثر وعيا لوضعيتنا الجغرافية ولفهم الماضى ايضا يمكن لنا ان نضع اطارا جديدا لمبدأ منهجية تأخذ بالاعتبار كل ما كتب وكل معطيات الوثائق التاريخية ، وهذا الحال لا يتوقف على فرد معين ولكن على المعاهد العلمية فى تاريخ المغرب العربى، يمكن ان ننشىءعددامن المعاهدوكل معهديختص بفترة معينة ثم تستكمل الابحاث بعضها البعض المهم من هذا نظرية الشمول . لابد ان تكون نظرية الشمول ونظرية ان يكمل الباحث التونسىالباحث المغربى والباحث الجزائرى ٠

بالنسبة للمذهب الماركسى ، والله أنا لا اضيف شيئا لما قاله استاذنا الفاضل محمد الطالبى ، اعتقد ان المذهب الماركسى فيه عناصر ايجابية لابد ان تؤخذ بالاعتبار . وفيه عناصر سلبية الا اننى اعتقد ايضا ان المؤرخ يجب ان يكون بعيدا على كل التيارات فوظيفته الفهم ، محاولة الفهم ، ممكن ان لا يفهم ، محاولة فهم المعطيات مهما كانت الطريقة. اذا كان المذهب الماركسى يؤدى بنا الى ان نفهم مجتمعنا اكثر وضوحا واكثر عمقا فمرحبا لكن شخصيا اعتقد ان المؤرخ يحتاج الى كل المعطيات وكل المذاهب دون ان يركز على مذهب دون آخر ٠

الاستاذ محمد فنطر : فيما يتعلق بالمنهج الذى ربما ينبغى على المؤرخ ان يتوخاه فى قراءة التاريخ

"Il n'est pas de Nations..."

L'Algérie a célébré depuis quelques semaines le onzième anniversaire de son indépendance et du recouvrement de sa souveraineté après une longue lutte.

Elle consacre aujourd'hui ses efforts à la reconstruction et à la résorption du retard accumulé pendant les siècles de léthargie et de stagnation auxquels ont succédé 125 ans de colonialisme basé sur la trilogie néfaste définie par Aristote depuis plus de deux millénaires : la misère, l'ignorance et la maladie.

Si l'Algérie a reconquis sa liberté et ses richesses matérielles, si elle est aujourd'hui en voie de vaincre cette néfaste trilogie, il est cependant un seul domaine où elle n'a pas encore parachevé sa libération et son affranchissement, domaine qui n'est pas moins important que celui de l'édification, à savoir les valeurs morales et spirituelles qui sont le ciment spirituel des sociétés et des nations.

Car ce sont ces valeurs qui renforcent et même garantissent leur unité et leur cohésion et qui leur permettent de se libérer des mauvaises habitudes importées, de se fortifier contre les tentatives de conquête intellectuelle qui visent à reprendre d'une main ce qui a été cédé de l'autre sous la contrainte.

L'Algérie n'est pas - sur ce plan là - un cas isolé, un cas unique parmi ses sœurs. Mais ceci ne constitue évidemment pas un réconfort ni une atténuation de ses craintes et de ses appréhensions, tant elle redoute que ne s'applique à son endroit - de près ou de loin - ce vers connu du poète chawki :

"Il n'est pas de nations sans valeurs morales.

Que disparaissent ces valeurs et les nations s'en iront à leur tour".

Je me suis longuement exprimé sur ce point dans le quotidien national de langue française "El-Moudjahid" en date du 29 septembre 1970, sous le titre : "Tirer la sonnette d'alarme !" et le lecteur trouvera dans ce numéro cet article dans sa langue d'origine (résumé par deux tableaux d'un fils de chahid orphelin de mère). Il faut parler aux gens le langage qu'ils comprennent !

Etant donné que le mal est général pour les différents pays musulmans, qu'ils en souffrent à des degrés divers - et l'occasion est propice de le rappeler à l'occasion de ce séminaire pour la connaissance de la pensée islamique -, que ces pays y trouvent un avertissement et une mise en garde, un appel et rappel, car nous sommes tous logés à la même enseigne !

Même si ces modèles n'apparaissent pas dans certains pays musulmans, c'est ainsi que nous avons vu leurs fils et leurs filles à l'extérieur.

L'édification matérielle, s'il n'existe pas un sentiment aigu de l'honneur, ne pourra être qu'un géant aux pieds d'argile !

Ainsi ont sombré des nations avant nous, et le même mal a causé notre perte en Andalousie. "Le rappel est certes utile aux croyants !" comme le dit le verset coranique.

Mouloud Kassim NAIT BELKACEM,



"Tirer la Sonnette d'Alarme"

par Mouloud KASSIM,
Ministre de l'Enseignement Originel
et des Affaires Religieuses.

En prenant l'heureuse initiative de cette table ronde sur les mœurs, sur la femme, la famille et la jeunesse dans la Nation, «El-Moudjahid» ne fait qu'être fidèle à lui-même. Il fait œuvre de continuité et honneur à son glorieux passé d'organe de la lutte de libération, cette libération qui n'a fait que commencer avec le recouvrement de l'indépendance politique et de la souveraineté.

Une autre bataille, non moins importante, est celle que doit mener et que mène notre Algérie socialiste et musulmane sur les plans économique, social et culturel. La libération des cerveaux et des cœurs n'est pas la moindre, car elle détermine et conditionne toutes les autres. Nous pensons donc que, tandis qu'il accomplit sa tâche de réveiller les consciences et participe ainsi très efficacement à l'achèvement de notre indépendance et à la récupération de tous nos biens moraux, après celle de nos richesses matérielles, c'est un grand honneur que nous fait notre quotidien national que de nous donner cette possibilité de prendre part à la campagne nationale d'assainissement. Tout en le remerciant vivement, encore une fois, et en nous permettant la prétention de recommander à nos autres organes en arabe et en français, ainsi qu'à la R.T.A., de suivre ce bon exemple, nous devons, dans ce contexte, saisir ici l'occasion de remercier également certains de nos services de souveraineté d'avoir agi sur le terrain et d'avoir contribué directement à l'œuvre de salubrité nationale.

La société algérienne est, dans son ensemble, encore très saine. Mais il faut se dire que la situation dans les grandes villes commence à connaitre de grands changements et que notre société subit actuellement les débuts d'une certaine érosion. En effet, nos grandes cités accusent présentement des signes alarmants, alors qu'elles offraient, jusqu'à la veille de la reprise de la lutte pour la libération nationale, le visage d'une vie exemplaire.

La population citadine (car il ne sera nullement question ici de nos campagnes qui demeurent encore, Dieu merci, intactes et fidèles à elles-mêmes), mue par les principes de base de notre religion, de son corollaire moral et de nos traditions ancestrales, et transposant les fondements de la vie familiale sur le plan national, avait fait échec à tous les procédés diaboliques de dépersonnalisation et de dénationalisation mobilisés par le colonialisme.

Mais la dislocation de plusieurs familles pendant la guerre de libération, un incontestable désordre et cosmopolitisme

durant les premières années du recouvrement de l'indépendance, favorisés par le snobisme de certains responsables de l'époque — qui étaient conseillés de l'extérieur par des spécialistes de la désintégration des peuples et du pourrissement des sociétés, pour les dépouiller de leur immunité, les mettre en condition et les préparer à subir ou même à réclamer des changements étudiés et planifiés hors des frontières de leur pays — tout cela, joint à une certaine démission criminelle des parents et une abdication lâche et honteuse des maris, a entrainé les débuts de cette érosion que nous connaissons maintenant dans les grandes villes. Cette situation menace, si elle n'est jugulée à temps, de s'étendre au reste du pays dans le sillage de la vague du bestialisme, du sexualisme, de l'alcoolisme, de la délinquance junénile, des divorces, des femmes et enfants abandonnés, et de déboucher sur la dislocation familiale et, partant de la société ainsi que de toutes les valeurs humaines sur lesquelles repose toute civilisation.

D'abord insoupçonné, puis minimisé, ce mal du siècle, qui envahit le monde et qui constitue une crise de civilisation, est de plus en plus pris au sérieux aussi bien en Europe qu'en Amérique, ainsi que dans bon nombre de pays du Tiers-Monde, et particulièrement en Afrique centrale et australe.

L'on n'a qu'à observer de près les campagnes organisées à différents niveaux en Europe occidentale, aux USA et en URSS, pour ne rien dire de la République Populaire de Chine, de la RPD de Corée et de la République Démocratique du Vietnam qui elles, ont enrayé tous ces maux, tout en travaillant d'arrache-pied pour l'édification du socialisme.

Tout récemment encore, une telle campagne a été déclenchée en URSS, particulièrement dans l'organe des Jeunesses Communistes «Komsomolsqaia Pravda», contre une certaine jeunesse dévoyée et notamment contre certaines femmes à l'affût du luxe et de l'étranger. Une autre campagne, en URSS également, a été, il y a peu de temps, consacrée à la lutte contre l'alcoolisme : elle conduisit à limiter strictement la consommation des boissons alcoolisées à certaines heures de la journée, en l'occurrence entre 11 h et 20 h, et à l'interdire totalement et sévèrement à proximité des établissements scolaires et universitaires, des usines, des théâtres, des cinémas et tous lieux publics, car ces boissons, stipulaient les textes de cette campagne anti-alcoolique «droguent le peuple et nuisent à la production du pays». En URSS, où les soins sont gratuits pour tous, les ivrognes ramassés dans la rue sont conduits de force dans les hôpitaux où ils sont soignés à leurs frais. Ils règlent même la dépense de leur transport à l'hôpital quand il est fait en taxi.

Chez nous, et des lettres de citoyennes, mères de famille, sont là, entre autres, pour en témoigner, l'alcoolisme, avec la promiscuité qu'il favorise, est l'une des principales causes des nombreux divorces qui sont en passe de devenir une mode et qui livrent les femmes et leurs enfants à la rue, poussant parfois les malheureuses abandonnées au plus vieux métier du monde et jetant les enfants dans l'école de la criminalité, comme y contribue également la fameuse loi portant le nom de la non moins fameuse Mlle Sid Cara, qui confère toujours le droit de garde à la mère, à tort ou à raison !

Nous avions cité, tout récemment dans un entretien avec «El Moudjahid», le cas de Sidi Aïch qui a vu proliférer le nombre de ses buvettes. Avec des amis,


مساواة ! وحرية ! وتفتح على العالم الأوسع !
Egalité !... Emancipation ! Ouverture sur le Monde, le Vaste Monde

de passage dans d'autres petits villages et villes : Tiaret, Djelfa, Miliana, sans parler d'Alger, d'Oran et d'Annaba, il nous est arrivé de ne pas trouver de boissons non-alcoolisées : «pas d'eau minérale» ; quant au café : «la machine est en panne ! ». Il ne nous restait plus que la «33» et en abondance, celle-ci !

Toynbee écrivait qu'il fallait mettre à l'acquit de l'Islam d'avoir liquidé notamment l'alcoolisme. Cet Islam-là n'est-il plus valable ou ne serions-nous plus musulmans ?

Il y a un autre fait à signaler, qui illustre cette imitation aveugle de l'étranger, c'est celui de l'habit féminin. Des cervelles superficielles peuvent penser que c'est superficiel de «s'abaisser» jusqu'à parler de mini-jupes qui, elles, sont effectivement très « élevées », redeviennent «maxi», pour remonter peut-être très bientôt plus haut encore qu'elles n'étaient auparavant !

Si l'habit ne fait pas le moine, il est néanmoins l'un des signes de toute civilisation à travers les siècles. L'on a toujours dit et écrit en Occident que ce sont les primitifs et sauvages qui se dénudent. Devons-nous suivre l'Occident dans toutes ses turpitudes et acrobaties et adopter le semi-nudisme simplement parce qu'il nous vient de lui ? Et comme par hasard, nous ne le suivons presque toujours, et très vite, que dans ses mauvais côtés !

Si nos traditions les plus respectables de décence et de pudeur auraient dû interdire à toute femme ou jeune fille jouissant de ses facultés de s'offrir en spectacle à ses parents, ses frères et sœurs, comment se fait-il que ceux-ci tolèrent de telles scènes insolites et obscènes ? Outre les règles les plus élémentaires de décence et de respect de soi et des autres, il aurait dû y avoir également le respect du bon goût, celui de l'esthétique la plus élémentaire. Or, tous les bons goûts s'accordent pour dire que l'habit long est plus gracieux, plus élégant plus féminin et plus esthétique !

Même cette «maxi» que nous trouvons nous «paysans», très jolie, et que nous avons admirée portée par nos paysannes et d'autres, espagnoles, tchèques, allemandes ou suédoises, certaines de nos femmes, celles des villes évidemment, ne se sont décidées à la mettre qu'une fois importée d'outre-mer, alors qu'elles s'en moquaient il n'y a pas longtemps, lorsqu'elles la voyaient sur nos sœurs !

Non, décidément, il faudrait prendre un chemin détourné, et d'abord convaincre l'Occident que certaines choses sont bonnes, ou nous paraissent telles, pour qu'elles soient adoptées chez nous par les écervelées ! celles-ci sont toujours là à singer... au gré de l'esprit mercantile de certains «modistes» fourbes qui exploitent le manque de cervelle chez nombre de femmes, lesquelles changent de costume et de coiffure du jour au lendemain selon la fantaisie, pas toujours inspirée et encore moins désintéressée, de ces mauvais prestidigitateurs.

Heureusement que ce ne sont pas nos «pauvres paysannes» de Tamanrasset, de l'Ouarsenis, de Kabylie ou des Aurès qui sont prises de telles fantaisies favorisant la corruption. Ces mêmes fantaisies demeurent encore l'apanage de certaines marquises de grandes villes dont on se demande comment leurs maris et... elles-mêmes s'en procurent les moyens !

Certains s'étonneront que l'on accorde tant d'importance à des points qui leur paraissent futiles, concernant la femme. Mais nous ne nous laisseront complexer ni par ces «conseilleurs professionnels» d'outre-mer qui veulent toujours couver



انفتاح وانبطاح... والشباب عماد المستقبل!
33 خبّاطة!

les pays dits du Tiers-Monde, ni encore moins par certains des nôtres qui demeurent encore mentalement colonisés. C'est que la femme, à notre avis comme de l'avis de tous, est la gardienne des traditions et la colonne vertébrale de la famille, cellule de base de la société. Et toute vie morale ou dissolue dans la famille et la société est déterminée en premier lieu par le comportement de la femme. Son rôle est donc capital.

Or, — et là encore nous ressassons peut-être des banalités mais qu'il faut malheureusement sans cesse rappeler — le ressort moral de toute nation est son premier et principal capital, même pour les pays socialistes qui ont chacun leur code moral, leur livre révélé ou mûrement réfléchi, blanc, noir, ou rouge. Il ne servirait à rien de multiplier des Hadja si l'on ne cimente pas en même temps la vie sociale. Une prospérité matérielle sans âme ne ferait de nous, comme de toute autre société, qu'un colosse aux pieds d'argile.

Aussi nous faut-il rectifier les fausses conceptions et réfuter les argumentations spécieuses et fallacieuses sur la fameuse émancipation de la femme. Avant l'Islam aussi bien que depuis, la femme n'a jamis été chez nous esclave comme ce fut le cas en Europe, où certaines hautes, très hautes, autorités écclésiastiques se sont posé la question de savoir si elle avait une âme, et où certains rois lui ont interdit de toucher aux Livres Saints qu'elle «profanait», et même de s'instruire !

Dans notre histoire, surtout pendant les moments décisifs, nous avons eu plusieurs grandes dames qui ont même mené les hommes à la résistance. Il nous suffit de rappeler un seul exemple, celui de la célèbre Lalla Fatma N'Soummer qui a dirigé les fameux moussebeline contre les généraux de l'armée d'invasion française dans les montagnes de Kabylie. Et l'histoire de l'Islam en général est riche de tels exemples.

L'Islam est contre tout excès. Mais, de l'état de «sans âme» à la «liberté» des cabarets, à la promiscuité des boîtes de nuit, et même jusqu'au «droit» de se prostituer, qui sont les corrolaires de cette «émancipation» que l'on nous vante d'outre-mer, il y a pour la femme plus que de l'écart et que des excès !

S'il est nécessaire, tel que le recommandait, voire l'imposait, le Prophète, il y a quatorze siècles, d'envoyer les filles comme les garçons sur les bancs des lycées et des facultés («s'instruire est un devoir pour chaque musulman et musulmane»), il est coupable, par contre, de les abandonner à elles-mêmes, de leur lâcher la bride et de ne pas surveiller leurs sorties et leurs rentrées à la maison. Il est encore plus condamnable de les accompagner, comme le font certains, jusqu'à Dar-El-Beïda, munies de passeports et d'argent ; ou même de leur libérer de somptueux appartements et villas sur les hauts d'Alger pour y «fêter Noël et la Saint-Sylvestre», seules avec leurs amis accourus d'outre-mer pour la circonstance, comme l'a fait telle famille algéroise très «civilisée» et très «ouverte sur le monde» !

Il est vrai que sans la confiance l'on ne peut rien garantir, mais il est encore plus vrai que la confiance à elle seule, et même doublée d'une bonne éducation, ne suffit nullement. Il ne faut pas tenter le diable en nous tous. Et Lénine avait, dans un autre contexte mais valable dans ce sens également, une devise que les allemands affectionnent et citent souvent :

«Vertrauen ist gut, Kontrolle ist besser !» (La confiance est une bonne chose, mais le contrôle est meilleur !).

D'autres écervelées, qui du temps de Schopenhauer avaient «les cheveux longs et les idées courtes» et qui, maintenant, ont tout en court : idées, cheveux et habits, pratiquent, sans sortir même hors de nos frontières, et préconisent publiquement, comme le dénonçait «El-Moudjahid» dans une toute récente enquête, ce qu'elles appellent effrontément les «unions libres»! Là également nous connaissons des cas spécifiques, même ou surtout dans certaines castes dites «chorfa» et «haute société» de grandes villes, et dont se vantent bon nombre de nos hôtes étrangers qui vivent en concubinage avec des algériennes ! Si de tels cas ont existé et existent encore, et de plus en plus, dans la plupart des pays industrialisés, et même dans certains pays frères, nous croyions, quant à nous, dans notre naïveté peut-être, que notre pays était exempt d'une telle tare ! Et c'était effectivement ainsi jusqu'au recouvrement de l'indépendance. Certes, ce ne sont encore, heureusement, que des accidents relativement rares, mais il faut remarquer que les mauvais exemples sont suivis bien plus souvent que les bons, car, et c'est la nature — il est banal peut-être de le rappeler — la pente est toujours plus facile... «la pente qui entraîne et perd» !

D'où viennent tous ces maux sinon d'une certaine promiscuité, fausse conception de la liberté et de l'émancipation de la femme, bref ! d'une certaine démission des parents et des maris qui doivent se ressaisir ? Démission coupable, abdication criminelle, aussi bien à l'égard de leurs enfants que de la Nation ! Pendant les années passées en Europe, il nous a été donné de constater tout le contraire, de voir même des professeurs d'université en France, Tchécoslovaquie, Allemagne Fédérale, Autriche, Suède, Suisse, attendre leurs filles à la sortie des lycées et des facultés.

Dans ce contexte, il faut souligner le fait que certains étrangers résidant en Algérie se sont assigné ou se sont laissé assigner la tâche de miner les fondements de la famille algérienne. Il y a des cas innombrables et flagrants qui dénotent une démarche systématique, réfléchie et planifiée. Je ne pourrais citer, dans le cadre de ces mots, que deux exemples révoltants qui résument tout et qui sont connus de certaines de nos autorités : celui d'un professeur d'éducation physique dans une petite ville près d'Alger, qui a ruiné l'avenir de sept de ses élèves-filles, et celui d'un autre coopérant à Alger qui a détruit le foyer de trois familles algériennes !

Sans parler d'une certaine activité de gens qui se disent missionnaires de Dieu... mais qui le sont du diable ! Ceux qui se sont faits les auxiliaires zélés de la pénétration coloniale et luttaient pour sa pérennité, veulent détruire d'une main ce qu'il n'ont pu garder de l'autre ! Nous sommes au courant de ces activités destructrices portant sur notre jeunesse : telles des soirées dites «d'études» et des «sorties de week-end» pour jeunes filles et garçons... !

D'autres idéologues, d'un autre bord ceux-là, mais procédant de la même manière et poursuivant le même objectif — celui de la destruction systématique de notre cellule familiale et des fondements de notre société, tels le sens familial, le sens civique, le sens national tout court, le sens de l'honneur et de la dignité humaine —, vont jusqu'à inciter des étudiantes et étudiants à prouver leur manque de «fanatisme», leur «ouverture sur le monde», leur «émancipation» et autres

choses belles en elles-mêmes mais que ces missionnaires du diable et révolutionnaires professionnels, en «détachement» chez nous, utilisent à des fins beaucoup moins belles, poussant ces jeunes âmes à des comportements immoraux pour démontrer cette «ouverture sur le monde» !

Et ceci alors que les pays de ces ressortissants étrangers font tout pour se ressaisir chez eux et sauvegarder leurs fondements.

Récemment encore, nous avons reçu de grands intellectuels d'une confession chrétienne d'un pays qui pratique depuis des siècles la séparation de l'Eglise et de l'Etat. Ceux-ci ont essayé de nous persuader du sens anachronique de l'enseignement religieux chez nous, et ce, au moment même où, conscients qu'ils sont de l'impact de l'éducation morale et religieuse sur la jeunesse et, partant, de son importance pour la nation, ils viennent de décider chez eux, en accord avec l'Etat, des mesures pour encourager cet enseignement religieux, appelé «enseignement libre» à tous les niveaux. C'est aussi le moment où ces «conseilleurs» étendent leur système d'enseignement missionnaire jusque chez nous et jusqu'à Kerala, et font tout pour le maintenir, et même, si possible — c'est le but de leurs «conseils» — de lui assurer l'exclusivité !

Certains autres «conseilleurs» ne diffèrent guère de ces hordes sionistes qui, par une certaine presse et des Cohen-Bendit interposés, stigmatisent tout rappel aux bonnes mœurs, les taxent d'étroitesse d'esprit, crient à l'anachronisme et au fanatisme et incitent partout à travers le monde au désordre, à la contestation et au rejet de toutes les valeurs morales. Excepté en Israël, bien sûr, où la morale est de rigueur parce que «constituant le fondement de l'Etat et la sauvegarde de l'âme du peuple élu», où l'on interdit le porc, impose le cachir, même aux non-juifs, et même dans les bateaux navigant au loin où l'on a refusé à la petite fille de Ben Gourion le droit d'épouser un officier supérieur de l'armée sioniste, parce que sa mère, en l'occurrence la bru de Ben Gourion, n'était pas juive de naissance, mais seulement convertie ; où l'on observe chaque samedi le Sabbat de la manière la plus officielle et solennelle et où l'on fixe un délai-limite de six mois à tout nouvel immigrant pour apprendre et utiliser l'hébreu, langue morte depuis plus de deux mille ans et ressuscitée en tant que lien sacré entre les juifs dans le monde et en tant que langue des sciences et de la vie quotidienne.

Pour revenir à l'Algérie, et avant de clore ces mots, nous voudrions souligner un point important pour l'ordre public et pour la morale de la jeunesse : nos services compétents, s'ils doivent redoubler d'efforts afin d'enrayer, de supprimer cette maladie masculine que l'on appelle «dragage» et qui empoisonne nos rues et nos plages, il est non moins nécessaire qu'ils sévissent contre une certaine gent féminine qui contribue à la progression des divorces et déshonore nos villes et notre pays.

Pour les paysans traditionnalistes et «retardataires» que nous sommes, il est devenu presque impossible de nous trouver ensemble avec des parents ou avec des amis âgés dans certains carrefours et artères de nos grandes villes, à cause de toutes sortes de spectacles désagréables que l'Espagne, par exemple, pourtant très attachée au tourisme, interdit même sur les plages les plus osées.

Dans le même ordre d'idées, nous voudrions insister sur la nécessité impérieuse de rappeler au moins à l'ordre, sinon de fermer, toutes sortes de bars, cabarets et autres boîtes de nuit et dan-

cings, qui empoisonnent les gens jusque dans leurs domiciles par leur tapage nocturne, favorisent la promiscuité, la corruption, les divorces, la délinquance juvénile, nuisent à toute la société et à la nation et donnent à notre capitale l'aspect de Changhai d'antan, que la Chine Populaire a supprimé radicalement, ainsi d'ailleurs que l'ont fait chez elles la République Démocratique du Vietnam, la R.P.D. de Corée et Cuba, entre autres.

Nous pensons fermement d'ailleurs que, parallèlement à toutes ces mesures plus que nécessaires d'assainissement et de sauvegarde, le Service National, par sa discipline et son effort éducatif, constituera pour la jeunesse une école exemplaire de sens civique et moral et contribuera à éliminer tous ces comportements qui jurent avec nos traditions et notre génie national.

Toute bonne éducation est faite de persuasion et de rigueur. L'Islam n'a jamais été une religion de privation ni d'ascétisme. Et s'il est la religion de l'au-delà, il est également et avant tout religion d'ici-bas et code de civilisation.

C'est le Prophète qui, en réponse à un des premiers croyants lequel se vantait de s'être imposé la pratique du jeûne durant toute l'année, la prière toute la nuit sans repos et le célibat, lui dit : «Moi, Prophète de Dieu, je me nourris, me repose et suis marié. Ce que tu fais, toi, n'est pas dans le sens de l'Islam».

Et c'est le second Khalife Omar, surnommé le Juste, qui, surprenant un jour dans une mosquée des fidèles psalmodiant encore après la prière obligatoire, aurait fait usage de sa canne en leur disant : Sortez, au travail, il ne pleut pas d'argent, encore moins d'or ! ».

Mais c'est lui aussi, un jour que passait devant lui un jeune homme à la démarche dandinante et à l'allure efféminée, qui aurait encore fait usage de sa canne, lui criant : «Pourquoi fais-tu ainsi le mort dans ta démarche ! Vous nous avez tué notre religion, que Dieu vous donne la mort ! ».

Quant à ceux qui invoquent la liberté individuelle, nous leur rappelons simplement que toute liberté a ses limites, et que celle des uns finit justement où doit commencer celle des autres. Liberté n'a jamais signifié libertinage, licence, indécence, désordre et anarchie.

Hélas ! il faut bien rappeler à ceux qui prennent tout d'une façon nonchalante, et même calculée et criminelle, et qui pensent ainsi avoir leur part de cette danse macabre, que toutes les civilisations et grandes nations ont sombré en minimisant la portée de leurs premiers pas vers la décadence. Qu'il nous suffise de rappeler l'exemple de la Grèce, de Rome et de l'Andalousie.

La sonnette d'alarme devait être tirée. Nous lançons cet appel à la Société, à l'Etat et à la Nation toute entière. Nous avons peut-être écorché un peu tout le monde au passage. Nous nous attendons à la réaction que nous savons, mais nous sommes, en tant que citoyen, conscient de nos responsabilités. C'est un gigantesque haut-parleur qu'il faudrait utiliser, et qui doit rugir en permanence, celui-là.

Mouloud KASSIM

Revue d'Histoire Maghrébine

Cher Professeur et Collègue,

C'est un grand plaisir de vous annoncer le projet de la création d'une nouvelle revue d'histoire moderne et contemporaine intitulée : *Revue d'Histoire Maghrébine.*

En effet la nécessité d'une telle revue sur le Maghreb se fait sentir ; celle-ci, dont nous voulons faire un lieu de rencontre utile pour tous les spécialistes du Maghreb tant Maghrebins qu'étrangers, se veut une revue à vocation scientifique. Des Universitaires de la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Tunis, d'Alger et de Rabat vont assumer cette responsabilité et invitent leurs collègues et amis étrangers à accorder leur collaboration pour la réussite de ce projet.

Notre tâche consiste à promouvoir un mouvement en faveur de la recherche concernant l'Histoire du Maghreb, dans une perspective objective et scientifique afin de contribuer à la formation d'une conscience historique chez les Maghrébins, pour enrichir leur présent par une meilleure connaissance de leur passé, surtout que les pays du Maghreb ont connu une solidarité et une communauté de destin dans leur évolution historique.

La Revue se propose d'utiliser l'arabe, le français et l'anglais. Pour assurer une meilleure utilisation de la Revue, nous jugeons utile d'accompagner toute étude par un résumé traduit dans une deuxième langue. Le résumé en question peut être soit directement rédigé par l'auteur soit traduit par nos soins sur un original présenté par l'auteur.

Le Comité de Rédaction de la Revue a jugé nécessaire de publier des documents inédits de préférence en langue arabe, française ou anglaise et nous tâcherons de traduire les documents rédigés dans d'autres langues ; nous insistons dans ce domaine sur les sources d'archives arabes et turques négligées jusqu'à ces derniers temps.

En vous écrivant, nous vous invitons à collaborer avec nous, à seconder et enrichir notre activité ; nous croyons, en effet, à l'ouverture, au dialogue et au progrès.

La Revue paraîtra à raison de deux ou trois numéros par an que nous nous chargerons de vous faire parvenir.

Voici notre adresse provisoire : Prof. Abdeljelil TEMIMI. — 21, Rue Souville, La Cagna - Tunis, Tunisie.

Nous espérons pouvoir compter sur votre participation et nous vous prions d'agréer, cher Professeur et Collègue, l'expression de nos sentiments les meilleurs.

Le Comité de Rédaction

L'Histoire et sa Nationalité

Yvonne TURIN,
Professeur d'Histoire
à la Faculté des Lettres d'Alger.

En prenant connaissance du sujet choisi pour le numéro spécial d'El Açalah : «L'histoire de l'Algérie à travers les siècles et les prises de positions des historiens étrangers», bien des questions me vinrent à l'esprit, mais celle-ci d'abord : historienne étrangère moi-même, il m'appartenait ainsi de devenir mon propre juge, d'être à la fois juge et partie. Difficile entreprise... J'ai donc hésité. Je me suis laissée convaincre par le geste de la revue elle-même et par la confiance qu'il exprime à l'égard de ces mêmes étrangers. Dès lors, comment ne pas répondre pour que soit dit le remerciement, même si l'engrenage est dangereux...

Le problème énoncé par El Açalah est de ceux qu'analyse l'historiographie, cette science de l'histoire. Toutes les histoires et surtout les problèmes difficiles ont une historiographie. L'histoire religieuse, l'histoire des relations internationales sont parmi celles dont la présentation a le plus varié.

La première parce que les relations entre la religion et la société, entre les formes religieuses elles-mêmes, ont beaucoup évolué en Occident notamment, la seconde parce que la vie internationale met en cause plusieurs parties, souvent antagoniste qui ont sur leur politique des points de vue non moins opposés : l'histoire de la première guerre mondiale peut être un exemple type de ces divergences et toutes les rencontres d'historiens franco-allemands n'ont pas réussies à éliminer totalement les désaccords. L'important étant, d'ailleurs, moins peut-être de les supprimer que de les situer et de les exposer clairement, la science historique n'ayant pas d'abord pour but l'expression d'une vérité intangible, mais la connaissance des opinions différentes et leur confrontation.

Ces discordances ont d'ailleurs un sens profond. J'irai jusqu'à dire qu'elles sont rassurantes. Elles sont essentielles, sinon l'essentiel de l'histoire, elles en sont la gloire! Paradoxe ? Non pas. Quoi donc alors ? Elles prouvent, ces divergences, que les problèmes historiques ne sont pas du même ordre que les comptes arithmétiques, sinon la variété des solutions proposées serait inconcevable. Elles affirment que les êtres humains que l'on cherche à connaître ne sont pas de simples unités de compte, qu'ils échappent toujours un peu, pour leur plus grande sécurité, à l'ordinateur.

Les difficultés où s'affrontent les hommes laissent toujours un résidu, réfractaire à l'explication absolue. C'est ce résidu qui est l'enjeu des querelles d'historiens et c'est lui qui permet à l'interprétation de s'immiscer dans le raisonnement historique. Passer du peut-être au sûrement, c'est alors franchir une frontière où chacun peut légitimement pénétrer par des portes différentes à condition, toutefois, que cette variété n'aille pas jusqu'à la fantaisie délibérée ou, encore, jusqu'au truquage.

Dans ces domaines controversés, l'histoire coloniale, et plus largement l'histoire des pays colonisés à sa place, et nous rejoignons ainsi la question posée par El Açalah.

Mais, cette question déborde les difficultés propres à l'historiographie classique : il est intéressant, évidemment, de découvrir comment les problèmes du moment ont pu conduire certains esprits étrangers, par ailleurs, rigoureux, à des interprétations rapides, comment l'autosatisfaction trop manifeste a engendré l'aveuglement et de quelle manière l'engagement politique s'est reflété dans une «histoire engagée» qu'il serait plus juste d'appeler polémique, sinon même quelquefois fabriquée. Mais toutes ces possibilités ne sont que des manifestations du problème fondamental que voici et que la curiosité d'El Açalah oblige à analyser en priorité : existe-t-il réellement un *problème de l'historien et de sa nationalité* face à l'histoire qu'il écrit ? Y-a-t-il, dans le cas particulier de l'Algérie, une difficulté propre à cette relation de l'historien avec lui-même lorsqu'il est étranger ?

Essayons d'éclairer quelque peu la première question — d'une formulation universelle — pour glisser lentement jusqu'à la seconde qui nous intéresse plus particulièrement ici.

Une remarque tout d'abord : il n'est pas d'historiens sans nationalité, et lorsque les nationalités n'étaient pas durcies comme elles le sont aujourd'hui, considérées en quelque sorte comme source d'une seconde nature — «Je suis homme d'abord et Français par hasard» de Montesquieu semble si loin... — lorsque les chroniqueurs racontaient le geste de leur roi, ils n'en appartenaient pas moins à une communauté dont les contours étaient moins nets, mais les exigences conceptuelles aussi certaines. Il n'est donc pas d'historiens qui puissent échapper au problème qu'il écrive ou non l'histoire de son propre pays. La question peut alors être formulée ainsi : est-il préférable d'écrire sa propre histoire, ou vaut-il mieux au contraire "être étranger" au monde que l'on engendre pour soi et pour les autres, à la connaissance ?

Il est certain, tout d'abord, que plus d'Anglais ont écrit l'histoire d'Angleterre ou d'Italiens celle d'Italie, que de Français n'ont raconté celle d'Allemagne ou d'Amérique. Mais cette fréquence du lien entre l'historien et son pays d'origine tient surtout aux conditions et aux commodités du travail scientifique. La langue d'abord, la localisation des documents ensuite plus nombreux en Chine sur l'histoire de Chine que nulle part ailleurs, c'est trop évident, surtout si l'on complète la documentation écrite par celle qui ne l'est pas. Ceci n'empêche que certains ouvrages anglais ou américains font aujourd'hui autorité en France pour l'histoire du Second Empire, par exemple (1), et inversement que certaines thèses françaises ont révélé aux Anglais les premiers pas de leur in-

1) V. Wright. Le Conseil d'Etat sous le Second Empire. Colin. Travaux et recherches de Sciences Politiques. 1972.
J. Rothney. Bonapartism after Sedan. Cornell Univ. Press, Ithaca, N.Y., 1969.

dustrialisation (2). Ou bien encore, l'histoire du libéralisme rhénan a été écrite par un français, J. Droz, qui est resté un spécialiste de l'histoire allemande (3). Française, moi-même, je n'ai jamais travailler sur l'histoire de France, mais sur ce qu'on a coutume d'appeler l'histoire des idées en Espagne ou en Algérie (4). Bien des Américains s'intéressent aujourd'hui au Moyen-Age français et européen. On pourrait multiplier les exemples à l'infini. Cette diversité est-elle un avantage ? Est-elle un inconvénient ? Faut-il ressembler à quelqu'un pour le comprendre ? Ou faut-il au contraire en différer pour lui découvrir ce qu'il peut difficilement dire de lui-même ? Les deux attitudes peuvent fort bien cohabiter, et se compléter, à condition qu'elles relèvent toutes les deux de cette manière de "sympathie" dont parle H. Marrou dans sa *Connaissance de l'histoire* (5), sympathie qui n'est pas tendance à la partialité — non plus qu'à l'apologie, aussi injurieuse scientifiquement que moralement — , mais goût du silence attentif et effacement conscient de soi-même.

Il peut y avoir une richesse à ce que d'autres que soi vous regardent. Seul un Américain par exemple, pouvait écrire ce *Village du Vaucluse* (6), critique mais amical aussi dans son observation amusée et stricte de la vie quotidienne d'une petite communauté provençale. Seul un non-Anglais pouvait surprendre *Les silences du Colonel Bramble* qui, sous forme de roman, étaient aussi une peinture de l'homme anglais, silences qui firent la gloire d'André Maurois en même temps que du fameux Colonel. Pour en revenir à l'Afrique, ne fallait-il pas quelque maître du rêve et du temps sans contrainte, quelques Africains, pour brosser cette satire impitoyable mais combien évocatrice et qui, soudain, révèle l'Européen à lui-même devenu brusquement, dans son besoin de tout exploiter «ce grand nègre robuste» prêt à féconder les veuves «pour ne rien laisser d'improductif» (7). Des regards convergents, mais dissemblables, révèlent mieux l'homme à lui-même qu'un simple miroir.

C'était là quelques mots sur le problème général.

2) F. Crouzet. L'Economie Britannique et le blocus continental, 1806 - 1813. Paris. P.U.F. 1958.

3) J. Droz. Le Libéralisme RHENAN 1815 - 1848. Contribution à l'étude du libéralisme allemand. Paris. Sorlot. 1940.

4) Ed. Seuil. 1954.

5). L'Education et l'école en Espagne de 1874 à 1902. Libéralisme et tradition. P.U.F. 1959. Miguel de Unamuno Universitaire. Bibliothèque Générale de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes. Paris. SVEPEN. 1964.

6) Laurence Wylie. *Un Village du Vaucluse*. Paris. Gallimard. 1968. L'ouvrage qui a été présenté comme thèse de sociologie avait été rédigé en anglais, en 1960, mais traduit partiellement de peur d'offusquer les habitants du Vaucluse. C'est, finalement, le maire de la petite cité décrite qui en a demandé la traduction intégrale pensant que la critique saine pouvait être plus louangeuse que la flatterie.

7) Y. Turin. Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale. Maspéro, 1971. p. 367.

L'histoire coloniale, si elle n'est et ne doit finir par être qu'un élément de l'histoire universelle, n'en a pas moins gardé, jusqu'à la fin de la colonisation surtout, des caractères particuliers. "Les prises de positions des historiens étrangers", dit El Açalah. C'est là une façon discrète de désigner surtout les historiens français, les plus nombreux à traîter du sujet, même si Anglais, Italiens et Espagnols, ont aussi participer à cette élaboration. Historiens étrangers, en effet, mais de quel étranger ? La situation coloniale avait cela de particulier qu'elle liait deux peuples dans la même histoire, de sorte que les Français sont ici un étranger qui n'acceptait pas de l'être et qui, d'une certaine manière ne l'était pas. Dans l'histoire qu'il composait ainsi le Français devenait partie prenante, il lui fallait se mettre en cause lui-même et se représenter. L'histoire coloniale rejoignait alors dans son élaboration les problèmes propres à l'histoire des relations internationales, aggravés même par la disproportion des partenaires et l'absence momentanée d'hypothèses contradictoires.

Car, on peut, en effet, distinguer dans l'histoire coloniale de l'Algérie, ou d'ailleurs deux périodes : les ouvrages écrits avant l'indépendance, alors que l'histoire du pays colonisé n'a pas encore trouvé sa solution et sa fin, que le geste décrit reste en quelque sorte incorporée à la lutte — une partie des publications du centenaire sont révélatrices à ce sujet — et celle qui commence à s'élaborer après la libération. Est-ce à dire que tout ce qui s'est dit avant est noir et que tout ce qui s'écrit après est blanc. Pareil contraste relève, évidemment, de l'absurde. Il y a de vrais savants avant et après, il y a des courtisans après comme avant, et il ne suffit pas à un texte d'être anti-colonialiste pour être scientifique ! Les Algériens le savent bien. Mais, c'est alors à l'historiographie particulière de reprendre ses droits et de suivre pas à pas l'état des publications spécialisées. Nous avons seulement voulu marquer, quant à nous, ce qui de la nature des rapports historiques contemporains peut rejaillir sur la relation entre l'historien et sa nationalité, et comment le fait essentiel de l'indépendance doit aussi décoloniser l'histoire, c'est-à-dire l'arracher au cycle colonial dont les manifestations anti-colonialistes n'en restent pas moins coloniales, par définition même et quel que soit le complément politique qu'elles se font à elles-mêmes.

Le temps de l'indépendance est encore aujourd'hui bien court, il est trop tôt pour en définir les caractères. Préciser la notion d'histoire coloniale permet, au contraire, de voir plus clair dans les courants qui restent aujourd'hui dominants non seulement en histoire mais — ajoutons-le — en sociologie, car les analyses se rejoingnent ici et la sociologie actuelle européenne, même si elle est d'origine locale, se donne volontiers des couleurs historiques qui, pour mélanger les genres, n'en augmente que plus la confusion — ces sociologues, pseudo-historiens, confondant souvent l'histoire et les convictions journalistiques. Certains travaux récents qui se présentent cependant, comme des thèses, n'échappent pas à cette attitude.

L'histoire coloniale, que ce soit avant ou après l'indépendance, pouvait et peut avoir deux aspects : colonialiste, synonyme d'histoire partisane, d'histoire engagée comme on dirait aujourd'hui, et anti-colonialiste qui, pour l'être d'une autre manière, peut-être tout aussi partisane et tout aussi engagée et qui, SURTOUT, N'EN EST PAS MOINS COLONIALE. La rubrique histoire coloniale comprend, en effet, deux volets : colonialiste et anti-colonialiste, mais tous rivés à LA MEME OPTIQUE COLONIALE.

L'un est l'autre, sous des jours opposés, font l'histoire de la colonisation, des colonisateurs beaucoup plus que du peuple colonisé qui reste, lui, l'objet d'une autre entreprise, disponible pour une autre écriture. Il y a, à ce sujet, un contraste entre le titre et le sous-titre de l'ouvrage de Ch. A. Julien : Histoire de l'Algérie contemporaine. T. I : La conquête et les débuts de la colonisation, 1827 - 1871. Seul le sous-titre correspond bien à la réalité historique du texte quiest, lui, l'histoire de la colonisation (8). Il est, donc, d'une extrême importance de ne pas confondre : histoire anti-colonialiste de l'Algérie et l'histoire de l'Algérie tout court. Seule la seconde est un effort pour échapper à l'ancienne vision. Tout comme sa campagne détestée mais inséparable, l'histoire anti-colonialiste reste un regard du peuple dominant sur lui-même, même si ce coup d'œil déshabille ses concitoyens pour en révéler les plaies, même si "l'idéologie", pour parler comme certains sociologues européens actuels d'Algérie, qui l'habite est bien pensante, regard clos, cependant sur des semblables s'il s'agit d'un historien français, et non pas vision intime de l'autre, dont le rythme et l'heure pouvaient ne pas être ceux du colonisateur.

Il ne suffit donc pas à une histoire d'être anti-colonialiste pour être vraie, au sens que prend ce mot dans cette science, non plus que pour être algérienne.

Mais poussant plus à fond l'analyse de ce concept d'histoire ou de sociologie anti-colonialistes, de cette "idéologie" vénérée par certains comme une panacée, peut-on réellement lui vouer la confiance qu'il appelle, et n'a-t-il pas, ce concept, quelques replis sournois qui, derrière le sourire cachent la grimace ?

Là encore, il semble bon de distinguer dans le temps, l'indépendance servant de charnière et de critère de référence. Avant l'indépendance, comme l'histoire colonialiste, l'histoire ou la sociologie anti-colonialistes entrent ou peuvent entrer dans le jeu politique. Elles sont, qu'on le veuille ou non, un élément de la lutte à qui il leur arrive de fournir des arguments contradictoires. Encore que certains de ces ouvrages qui, en leur temps, parurent iconoclastes, comme *l'Afrique du Nord en marche* de Ch. A Julien (9), apparaissent singulièrement calmes aujourd'hui à travers une relecture contemporaine — ce qui prouve, d'ailleurs, à quel point le climat scientifique lui-même était, alors, détérioré par les réactions passionnelles. Mais la question qui se pose est celle-ci : la même «idéologie» garde-t-elle après l'indépendance la même signification ou bien se change-t-elle peu à peu en son contraire ? Et ceux qui continuent de s'y référer ouvertement comme certains sociologues ou certains commentateurs de l'Annuaire de l'Afrique du Nord notamment (10) — les historiens ont été plus discrets, sauf ceux d'origine marxiste dont plusieurs ne sont d'ailleurs que des historiens d'occasion, Y. Lacoste ou M. Prenant par exemple, M. Gallissot qui est lui, un historien de métier, font-ils l'œuvre qu'ils ont l'air de dire ? L'affiche correspond-elle au produit ?

8) P.U.F., 1984.

9) Paris, Julliard, 1952.

10) Ch. Souriau en particulier et de ceux-là qui l'utilise comme un étendard.

Histoire, sociologie anti-colonialiste n'y a-t-il pas là, en effet, une attitude, une «idéologie» vieillie en même temps que la colonisation elle-même et que l'histoire colonialiste, son antithèse ? Et si tel était le cas, pourquoi ?

Disons d'une façon très générale ; parce que cette attitude prolonge la mentalité coloniale, qu'elle lui reste liée, qu'elle maintient ce qui était le fondement du principe dominateur lui-même : l'isolement du colonisé, son état d'être séparé du reste des hommes, de par son nature même en quelque sorte. Il reste ainsi celui dont on ne peut parler, traiter, qu'on ne peut «étudier» que comme un dissemblable. Quelqu'un d'un autre monde et qui doit y rester sous peine d'évanouissement. Dans le cas contraire, le savant étranger se verrait obliger de chercher l'objet de son étude à la loupe ou, qui sait, de perdre sa proie.

Cette "idéologie" bien pensante se révèle ainsi être une des formes les plus subtiles de la conscience supérieure qui animait "avant" l'Européen-colonisateur. Elle réussit ce tour de force qui, sous couleur de critique et même d'hypercritique à l'égard de soi-même, parvient à maintenir les distances et les différences, à désigner du doigt le colonisé à la curiosité universelle au lieu de le considérer comme à sa place dans le monde de tous, dans la communauté des hommes. Elle est fondée sur une dualité conservée, le monde qui comprend et celui qui est compris et, souvent même le monde qui juge et celui qui est jugé, *car ces adeptes d'eux-mêmes s'ils jugent au nom de l'absolu qu'ils créent l'ancien colonisateur,* n'hésitent pas, grâce à leur critère infaillible, à *savoir mieux* que l'ancien colonisé lui-même ce que celui-ci aurait dû faire ou ne pas faire, hier comme aujourd'hui. La situation coloniale, dominant dominé, celui qui sait celui qui est su, renait alors sous le couvert de l'anti-colonialisme.

Un bon exemple de cette attitude est fourni par une étude récente "Les instituteurs algériens formés à l'Ecole Normale de Bouzaréah 1883-1939". Des phrases comme celle-ci : l'Ecole Normale "à laquelle ils disent qu'ils doivent tout, *parce qu'on leur a sans cesse répété qu'ils lui doivent tout*" (11) exprime bien l'état d'esprit qui anime l'enquêteur face à l'intituteur qu'il interroge et qui se livre à lui de bonne foi. Cet homme malgré son expérience, malgré l'effort d'intropection qu'il réalise, vu du tribunal du savant "culturé" n'est même pas considéré comme capable d'une pensée personnelle, il est rangé parmi les perroquets. De quel droit s'attribuerait-il, en effet, une idéologie propre ? Il n'y en a point d'autre possible, pour lui, que celle dont la pureté nécessaire prend racine dans la qualité supérieure de celui qui le toise. Ainsi la notion d'acculturation maniée par l'enquêteur maintient-elle l'objet de son enquête en état définitif d'infériorité. Le principe colonial est rétabli.

Ce phénomène n'est qu'apparemment paradoxal. S'il s'est manifesté plus largement parmi les sociologues intéressés par l'Algérie que parmi les historiens, c'est que, seul, le mauvais historien s'érige en juge, "se prend pour Dieu", comme dit H. Marrou. Si l'on observe plus attentivement, en effet, l'origine des notions mises à la mode par cette "idéologie" dominante de l'ère post-coloniale, la théorie de l'acculturation en est une expression, on remarque en effet que ces notions ne prennent leur source dans au-

11) F. Colonna. Thèse du 3° cycle, dactylographiée, 1971, p. 293.

cun des pays dominés, mais qu'une fois encore l'Europe ou l'Amérique suggèrent ce qu'il faut dire, qu'elles élaborent les modes de pensée convenable, notions élaborées pour les autres d'abord, même si leur usage s'est depuis quelque peu élargi. Ce sont les anciens maîtres qui soufflent aux anciens sujets ce qu'ils doivent continuer à penser d'eux-mêmes. Ce sont eux qui diffusent, d'autant plus facilement qu'elle leur paraît défavorable, leur réflexion. Ils obtiennent, pour ce faire — c'est bien là le paradoxe ! — l'aide de leurs anciens subordonnés. Maîtres d'une culture dominante, ils ont ainsi découvert le moyen le plus subtil d'en éviter le partage ; éteindre le désir en le rendant coupable.

Car ce monde étranger, ce savant étranger et qui se veut tel, se sent-il lui aussi concerné par ses découvertes. Les théories qu'il élabore, éveillent-elles sa propre inquiétude ? Les menaces qui côtoient ses sujets d'observation ont-elles aussi une réalité dans son monde à lui ? Rien n'est moins certain. Il semble que les normes soient autres dans cet ailleurs préservé.

Il peut cet étranger, grâce à son intelligence sûre, à sa formation encyclopédique et adulte, à son expérience culturelle universelle et avertie, s'exposer à tous les vents, respirer au grand large, exercer sa curiosité d'esthète ou simplement d'homme auprès de tous les mondes qui éveillent son intérêt, il peut s'émerveiller et s'enchanter de la multiplicité des cultures, ou très prosaïquement en extraire l'utile sans que jamais l'acculturation, ou pire la déculturation ne le guette. Aucun effet de domination ne peut jamais s'exercer sur lui. Il n'est jamais assimilé, il assimile ce qui — est-il besoin d'y insister ? — est exactement le contraire. A son contact, les influences étrangères ne produisent pas l'acculturation, mais si on ose ce néologisme affreux : « la culturation ! » Lui s'enrichit, s'affine, se renouvelle — tel Picasso cherchant l'inspiration auprès de l'art nègre ou bien japonais. Pour tout dire, il vit. Mais cette vie qui est mouvement, changement, recherche — a-t-on jamais vu la vie immobilisée ? — il la refuse à d'autres pour qui elle devient reniement et risque de décomposition. Il sème dans un monde supérieur, dominant, il appartient en tout cas à une aristocratie dont les quartiers sont tacites mais rigides et dont les portes sont définitivement closes sous peine «d'acculturation» par celui qui les franchirait.

Ainsi pourra-t-il jouir en paix de ce Paradis dont la pomme défendue conduirait celui qui la mangerait l'autre, au néant. Il y a ainsi deux mondes ; celui où l'on vit et celui où l'on doit tourner en rond, sous peine de «domination». Le concept, et son vocabulaire propre, sont alors, totalement inversé. Le même mot désigne désormais, l'effet contraire, et l'ancien colonisateur peut vivre en paix.

Européennes, occidentales ces «idéologies» le sont encore d'une autre manière. Elles reposent sur une notion de pureté des cultures, elles suggèrent la référence à un état premier, non contaminé, qui s'inspire des théories élaborées et appliquées par les tendances les plus réactionnaires de la pensée en Europe au XIX^e et au XX^e siècle : les notions de pureté de sang ou de pureté de race, dont la «pureté» des cultures n'est qu'une variété.

Ce n'est donc sans doute pas un hasard si les théories maniées par les anti-colonialistes ont été inventées sous ces cieux occidentaux. Une étude fort intéressante serait à faire à ce sujet pour préciser leurs rapports, leurs ressemblances et leurs diffé-

rences, avec les idéologies racistes du XIX[e] siècle. Une histoire et une sociologie des savants qui les utilisent seraient aussi, sans doute, fort instructives pour en mieux comprendre l'origine. La notion d'impureté qui chemine tout au long de la notion d'acculturation et qui la culpabilise est, en tout cas, ici, une notion d'origine européenne et, le plus souvent, d'impureté des autres. Car où commencerait pour le Français ou le Parisien du XX[e] siècle l'état d'impureté ? Difficile problème ! Aurait-il, ce Parisien, si irrémédiablement perdu sa virginité culturelle qu'il ne soit plus possible d'en retrouver la trace, ou bien faudrait-il croire qu'elle est, cette virginité, d'une constitution telle qu'elle soit, pour lui, impérissable ? Car, enfin, où donc les influences sont-elles plus nombreuses, la tyrannie des modes, même intellectuelles, plus violentes, leur effet de domination plus fréquent, la difficulté de retrouver une pensée originelle plus grande ?

Cette remarque permet d'aborder un autre aspect de notre réflexion, dédiée, grâce à El Açalah, au rôle de l'étranger dans l'évolution des tendances post-coloniales des sciences historiques et sociologiques.

L'acculturation est, en principe, définie comme le résultat de la relation entre culture dominante et culture dominée. Dans cette optique, l'histoire ou la sociologie anti-colonialistes considèrent comme synonymes et concordantes domination politique et culture dominante, soumission politique et culture dominée. Ces équivalences sont-elles exactes ? Historiquement non. L'histoire enseigne qu'il n'y a pas de lien NECESSAIRE entre domination politique et domination culturelle, entre soumission politique et soumission culturelle.

Cela ne veut pas dire qu'il n'y ait jamais de rapports, cela veut dire que si une domination peut en favoriser une autre, les lois qui régissent la vie culturelle sont différentes, sont distinctes, de celles qui conduisent les évènements politiques. Cela veut dire que l'effet culturel n'est pas un surproduit de l'acte politique. Prenons un exemple, le plus connu, le plus évident : la Grèce conquise par Rome, le libre citoyen grec devint sujet romain. Rome gouvernait Athènes par son Sénat. Mais Athènes gouverna Rome par sa culture. Les Barbares conquirent l'Empire, mais la culture romaine à son tour les domina. Il faut donc étudier les faits culturels, non pas en ignorant la politique — ce qui serait absurde, un excès ne peut en compenser un autre — mais en évitant de tourner en système ce qui n'en est pas un. Même lorsque la domination politique se double d'un rapport culturel parallèlement défavorable, il n'est pas d'exemple d'une certaine revanche de la culture dominée. Les habitudes culinaires des "pieds-noirs", certaines formes de vie familiale des "petits blancs", d'autres habitudes encore que l'on découvrirait sans doute si l'on entreprenait, sous cet aspect, une étude de la communauté européenne repliée en France, en sont la preuve.

Ainsi, l'histoire et la sociologie anti-colonialistes postérieures à l'Indépendance travaillent-elles souvent sur des modèles stéréotypés, appliquant à la science une méthode anti-scientifique qui consiste à commencer par énoncer le résultat, à affirmer les conclusions avant même d'aborder la recherche qui n'a d'autre but que de s'y conformer. Quelques phrases comme celles-ci sont révélatrices à ce sujet : "Le terrain devenait favorable à la *démonstration* envisagée : *Il s'agissait de montrer... Il fallait montrer en-*

suite... On a essayé de montrer que..." L'intention du sociologue n'est donc pas la connaissance, mais la justification. La science devient alors vassale de l'idéologie (12) - pour éviter un mot plus cru.

Révélatrice aussi l'attitude à l'égard de cette masse du monde colonisé dont le refus et l'isolement culturel s'est effectivement maintenu pendant toute la période coloniale et qui s'exprime aujourd'hui dans cette revue même, ou bien par des manifestations, dont les moins importantes ne sont pas ces semaines de la Pensée Islamique qui surprennent parce qu'elles dérangent la théorie et gènent la démonstration. Que faire dans un système qui soumet la réalité à l'idéologie de comportements culturels non prévus et non conformes aux schémas préparés ? Il est certain, en tout cas, que l'existence de "résidus" aussi importants "montrent" les limites d'affirmations trop rapides et de procédés scientifiques discutables. A savoir avant même d'entreprendre la recherche on risque de laisser échapper l'inconnu qui est, justement, ce que l'on cherchait.

Je laisse de côté dans cet article l'histoire ou la sociologie qui relèveraient de ce qu'on pourrait appeler l'histoire courtisane. Quelques uns croient encore que la flatterie peut remplacer la science (13). C'est là aussi le prolongement d'une attitude coloniale portée à croire qu'une science d'illusion suffit à ceux que l'on traite en enfants.

Nous avons essayé de traiter au fond le problème de l'histoire et de sa nationalité, l'infléchissant peu à peu vers les questions posées par l'histoire particulière de l'Algérie. El-Açalah proposait "les historiens étrangers", nous avons analysé l'histoire formulée par des étrangers et la nature des intentions historiques effectivement manifestées par eux, essayant de déjouer les apparences et de désamorçer l'illusion des mots, nous efforçant de montrer surtout que l'Indépendance trace dans l'historiographie comme ailleurs une ligne de feu. Plus rien de ce qui était avant ne peut être encore après, même s'il s'agissait de "très bonnes" intentions.

Quittant alors le plan de l'analyse et de la dissection pour entrer nous-mêmes dans le débat — en le disant — et pour conclure, nous nous interrogeons. Historiens et sociologues étrangers traitant de l'histoire d'Algérie doivent-ils être comme l'armée française dont on a coutume de dire qu'elle est toujours en retard d'une guerre ? Doivent-ils penser avant alors que nous sommes après, incapables de faire succéder la connaissance au temps des affrontements ? Car l'avant quoiqu'on en pense et quelle que soient là aussi, les apparences n'apprit que très peu aux antagonistes sur chacun d'eux. Rien n'est plus évident pour l'étranger qui débarque en Afrique du Nord après les indépendances : rares sont les leçons trouvées auprès des siens qui peuvent lui être de quelque utilité, mais rares également les Algériens par lesquels il se sente vraiment connu - même s'il arrive à ceux-ci de manier sa langue mieux que lui-même (14). Ainsi ces histoi-

---

12) Il n'est pas étonnant de rattacher à cette tendance toute l'école marxiste et les travaux de R. Gallissot, Y. Lacoste, M. Prenont.

13) Ce sont souvent ceux qui, ayant vécu dans les pays colonisés comme Ch. Sourndi, voient dans l'anti-colonialisme flatteur une manière de compensation.

14) Il faut ici distinguer encore une fois : la linguistique, surtout structurale, a eu tendance à confondre les mots qui parlent et ce dont parlent les mots, la langue et ce que l'on dit grâce à elle. Or il semble manifeste, dans la pratique, que si la langue peut être une occasion d'identification, elle peut aussi servir à exprimer tout autre chose.

res parallèles colonialistes ou anti-colonialistes sont-elles des monologues et le prolongement d'une ségrégation réciproque, le reflet, sinon le retour à la situation coloniale. On pourrait en quelque sorte les dire nostalgiques. Si la situation coloniale entravait la véritable connaissance, on peut espérer qu'enfin l'indépendance en soit la promotion.

C'est ici que l'initiative d'El-Açalah prend toute sa valeur et qu'il faut lui en savoir infiniment gré. La revue qu'édite le Ministère des Affaires Religieuses donne l'exemple. Elle propose une étude sur les historiens étrangers, non pas comme un combat, mais sous forme de dialogue, incitant chacun à l'introspection, ouvrant largement ses colonnes aux remarques de tous. Qu'il me soit permis de la remercier pour m'avoir associée à son effort.

Y. Turin



Simple note en faveur de la décolonisation de l'Histoire Algérienne à propos d'un pseudo-historien de l'Algérie française

Charles Robert AGERON
ancien Professeur d'Histoire
à la Faculté des Lettres d'Alger

Les Algériens se plaignent à bon droit que leur histoire ait été parfois étudiée avec peu d'impartialité par des étrangers malveillants ou ignorants. Les préjugés colonialistes ont même pu dans certains cas, infecter littéralement quelques historiens ou pseudo-historiens, et la décolonisation de l'histoire algérienne s'impose donc à tous ceux qui ont en commun le souci de la vérité historique, qu'ils soient Européens ou Maghrébins.

Parce que j'ai consacré un travail universitaire demeuré jusqu'ici inédit à décoloniser *l'histoire du gouvernement du Général Berthezène à Alger en 1831*, je me permettrai de citer l'exemple d'un pseudo-historien de cette année 1831, dont les jugements ont cependant fait autorité pendant longtemps, j'ai nommé Victor Demontès dont je n'entends examiner ici qu'un ouvrage à prétention scientifique, sa thèse complémentaire de doctorat ès lettres intitulée, *les prétentions du Général Berthezène contre la colonisation de l'Algérie,* Alger 1918, 311 pages.

Dans ce livre, Victor Demontès ne cachait pas ses propres préventions à l'égard du Général Berthezène, gouverneur intérimaire et commandant en chef du corps d'occupation français d'Alger. Mieux encore, il donnait à son travail le caractère d'une charge violente contre un homme qu'il qualifiait, pour le mieux accabler, «d'anticolonisateur», «d'adversaire passionné de la colonisation algérienne». Il stigmatisait sa politique «toute de complaisance envers les indigènes, toute de défiance envers les Européens» et le désignant comme «l'autorité responsable de dix années de retard dans la colonisation algérienne».

A cet anticolonisateur, il opposait dans un face à face saisissant son héros préféré le Général Clauzel «un colonisateur» «il ne s'agissait pas seulement de deux hommes, écrivait-il, il s'agit de deux systèmes».

Ces jugements manichéens, cette manière d'écrire l'histoire en noir et blanc sont choquants en eux-mêmes : tout historien sérieux sait bien qu'on ne peut parvenir qu'à une vérité approchée, que le mode du jugement historique est la probabilité, et qu'on doit donc s'abstenir de jugements aussi tranchés. Mais plus inquiétant encore est le critère sous-jacent retenu par ce pseudo-historien : les "colonistes" comme on disait alors en 1831, les partisans d'une politique de peuplement de l'Algérie, étaient aux yeux de l'Oranais Demontès les seuls patriotes français, ceux qui y répugnaient, fût-ce pour des raisons patriotiques, étaient désignés comme des traîtres.

Ce postulat presque inconscient, V. Demontès le partageait sans doute avec beaucoup de Français de son temps, mais plus encore avec la totalité des Européens de l'Algérie. Quiconque au début de ce siècle prétendait mesurer les louanges ou les crédits à la colonisation agricole, était tenu par les Européens d'Algérie pour traîtres à la France. Quiconque croyait pouvoir dire ou écrire un mot en faveur des Musulmans algériens, passaient pour avoir subi "l'enveloppement du burnous". Edouard Cat qui publia entre 1889 et 1891 une *Petite Histoire de l'Algérie* en deux volumes, dont V. Demontès et Augustin Bernard se sont beaucoup servie, avait déjà formulé sur Berthezène les mêmes jugements au nom du même postulat : " Par son ineptie, écrivait Cat, il avait rendu plus difficile l'œuvre ultérieure de la conquête." Et Cat de lui reprocher encore sa faiblesse (il n'avait pas su agir vis-à-vis des indigènes avec la vigueur nécessaire) et sa crédulité (il aurait ajouté foi aux "conseils intéressés" des Maures d'Alger, notamment Abou Darbah et Hamdân Ben Othman Khodja).

Précisément, V. Demontès reprit ces accusations pour étayer sa thèse malveillante : si Berthezène renonça à l'idée de coloniser ce qu'on appelait alors "l'infecte Mitidja", «ces marais pontins de l'Algérie», ce ne pouvait être que pour «discréditer son prédécesseur Clauzel» et à l'instigation des Maures «grands propriétaires en Mitidja» : «c'est sur les conseils intéressés des Maures d'Alger que le Général Berthezène s'employa à détourner le courant d'immigration qui se dirigeait de ce côté» écrit V. Demontès sans donner la moindre preuve de cette affirmation gratuite. Quant a vouloir discréditer Clauzel ce devait être par avance sans doute puisque Clauzel ne publia son plan de colonisation de la Mitidja qu'en 1833. Mais le vrai crime de Berthezène selon Demontès et son prédécesseur Ed. Cat était de s'être prononcé «d'après les propos des Maures sur le caractère insalubre de la Mitidja qu'accepta la crédulité de Berthezène».

Dès lors apparait nettement un autre critère plus inavouable encore pour un savant prétendûment objectif, Berthezène était condamné parce qu'il n'hésitait pas à consulter des notables algériens ,parce qu'il faisait profession de les respecter, parce qu'il n'hésitait pas à «croire à la bonne foi des indigènes». Bref, en cet érudit grondant la passion du colon, son livre à prétention critique visait moins à faire la lumière sur le personnage et le gouvernement de Berthezène qu'à démontrer une fois encore, et plus spécialement en ces années 1917-1918 où les autorités métropolitaines s'apprêtaient à accorder aux Algériens des réformes promises en 1914, la nécessité de la fermeté vis à vis des ***jeunes Algériens.***

Ce professeur eût toujours quelque tendance à se croire mobilisé au service de l'Algérie française : Historien, il pratiqua sa vie durant cette conception de l'Histoire, que Fustel de Coulanges avait baptisée : *Ad. Profandum,* conception qui la ravale au rang d'une propagande. V. Demontès défendit comme journaliste et chroniqueur dans le bulletin du *Comité de l'Afrique Française* le point de vue des colons algériens avec l'exclusivisme le plus passionné - cela est bien connu. Mais il était moins connu que jusque dans un travail scientifique, il n'ait pas hésité à faire œuvre de propagandiste. Aux yeux des historiens, cela devrait le disqualifier à jamais.

On s'explique mieux d'ailleurs, que ce publiciste officieux ait été finalement récompensé de ses loyaux services par le gouvernement général de l'Algérie. Cette administration désespérant de le faire élire au Collège de France, le fit nommer comme chargé d'un cours sur l'Afrique du Nord, poste dont la charge financière revint au budget de l'Algérie. Les choses étaient ainsi plus claires, du moins, pour ceux qui connurent le fait.

Après une condamnation aussi sommaire et peu sereine de la personnalité du général Berthezène par un pseudo-savant, j'ai pensé qu'il importait en m'aidant d'ailleurs de nouveaux documents et en m'appuyant aussi sur les 121 pièces d'archives publiées par V. Demontès de reprendre complètement le sujet. Ce n'est point ici le lieu de dire les résultats détaillés de mon enquête. Quant aux conclusions concernant le personnage du général Berthezène que je n'ai pas hésité à appeler un gouverneur indigénophile, elles sont tout à l'honneur de cet honnête homme, si longtemps méconnu.

L'honnêteté farouche de «l'incorruptible général Berthezène», comme l'appelait le commissaire d'Aubignosc, le conduisit tout naturellement à prendre la défense des Algériens. Le vainqueur de la bataille de Staouéli avait certes été séduit par l'Algérie «le plus beau pays que j'ai vu et l'Italie et bien loin de le valoir» mais, il entendait surtout assurer par une stricte justice le renom de la France auprès des Algériens.

Cet ancien général d'Empire, qui commandait les grenadiers de la garde impériale pendant la Campagne de Russie, n'hésita pas à traîter avec le marabout de Koléa Sidi Ali M'Barek. Ce fait qui scandalisait V. Demontès, s'explique pourtant tout naturellement : Le général Berthezène pensait qu'il n'était pas possible de «faire administrer une ville musulmane par un européen qui n'en connait ni les lois, ni les mœurs, ni le langage, ni les intérêts, ni les besoins», il estimait qu'il était à plus forte raison nécessaire, pour administrer des tribus inconnues, d'avoir des intermédiaires pris dans la population. A vrai dire, le marabout de Koléa n'entendait pas servir la France, mais ramener la paix et il n'accepta la charge d'aghâ des Arabes que parce que le général Berthezène l'assura qu'il n'y aurait plus d'expéditions contre les tribus. De part et d'autre, les engagements furent respectés et la paix rétablie.

Cependant le général français entendait par une «politique des égards» faire oublier les violences de son prédécesseur. Considérant comme «infâme et inique, la proposition qu'on avait osé lui faire d'obliger les habitants à déserter le pays», Berthezène s'efforça tout au contraire de rassurer les «notabilités maures» d'Alger ; par exemple, il donna ordre de lever le sequestre établi sur les biens des Turcs et ceux des fondations pieuses. Inversement, il fit savoir à tous ceux à qui «il fallait, disait-il, une justice partiale et des moyens pris en dehors de la civilisation, à ceux dont la maxime est : malheur aux vaincus» que telle n'était point sa politique.

Certes, lorsque le maréchal Soult lui ordonna de reprendre l'idée de colonisation dans un pays que la France n'entendait plus abandonner, il s'exécuta. Mais ce fut sans conviction car il notait dans ses papiers peersonnels : «les colonies n'ajoutent rien à la force des Etats. Ajoutent-elles à leur richessrsonnels : «les colonies n'ajoutent rien à la

France». Et s'il désigna le Sahel d'Alger comme la première région à coloniser, ce fut pour d'évidentes raisons de sécurité et de salubrité, quoi qu'on en ait dit, l'insalubrité de la Mitidja n'était pas une légende puisque 968 militaires moururent de «fièvres pernicieuses dues à l'exhalaison des marais» en 1831 et 1415 en 1832.

«Montrer quelque sympathie pour les Arabes c'est presque une trahison» notait Pellissier de Reynaud qui condamnait quant à lui cette formule. Telle fut la véritable raison pour laquelle certains pseudo-historiens de l'Algérie Française se sont acharnés sur la mémoire de ce général intérimaire qui définissait son «système» comme fondé sur l'équité vis à vis des Maures et des Arabes. Dix mois de gouvernement ne lui permirent pas d'appliquer sa politique ou plutôt le parti «coloniste» le fit rappeler pour qu'il n'en eut point le temps.

Plaçant son action sous le patronage du général Desaix — «le sultan juste» de l'expédition d'Egypte —. Berthezène notait en 1834 pour expliquer son rappel que «ce système, le seul digne du nom français et qui paraissait à la fois le plus politique et le plus utile, blessait trop d'intérêts, éveillait trop de craintes et renversait trop de projet pour ne pas soulever de violentes oppositions». Ajoutons les haines durables.

Il aura fallu attendre la décolonisation pour qu'on pût rendre hommage à ce colonisateur malgré lui, à ce général courageux qui osait condamner «les violences à la turque» des militaires français et «les violences matérielles et morales, les fraudes, les humiliations» imposées par les premiers colons «ce rébut de ce que les rives de la Méditerrannée avaient de plus misérable et de plus immoral».

Le cas de ce général pourrait paraître de peu d'intérêt s'il n'était exemplaire. *Abuno omne disces.* Et l'on voit assez par cet exemple ce que put être la malfaisance des pseudo-historiens de l'Algérie Française. Finalement la décolonisation de l'histoire de l'Algérie importe autant aux Français qu'aux Algériens.

Charles Robert AGERON.



Les Historiens Français et l'Algérie à l'Epoque Ottomane

Moulay BELHAMISSI
Professeur d'Histoire
Faculté des Lettres - Alger

On a souvent écrit que l'histoire de l'Algérie turque est faite à partir des sources européennes et on a pensé, qu'à l'inverse de l'histoire du Moyen Age Maghrébin, celle de l'Algérie du XVIème au XIXème siècle, doit être étudiée surtout à travers les relations d'observateurs occidentaux et aux moyens de pièces d'archives.

Avec le XVIème siècle, le Maghreb Central — l'Algérie plus tard — entre dans une phase nouvelle de son histoire. Pendant plus de trois siècles, le pays a été une possession turque, à la suite de l'action espagnole contre les principales villes côtières (Mers Al Kâbir, Oran, Bidjâya...). Le Turc devient l'ennemi majeur des Espagnols, son intervention empêche «les Maures» de se soumettre aux lois catholiques. Le pays possède dès lors un gouvernement central à Alger, une administration régionale, des frontières à l'Est et à l'Ouest, une marine et surtout un poids dans les rapports internationaux. Les conflits avec l'Europe sont de plus en plus nombreux.

Cette période turque intrigue l'Europe et éveille chez les Espagnols surtout, un intérêt grandissant. Elle est parmi celles qui ont fait couler beaucoup d'encre en Espagne, en France, en Italie et ailleurs.

En effet, les guerres, le commerce, l'espionnage, la diplomatie, le rachat des captifs et le goût de l'aventure ont donné aux gens de l'autre côté de la Méditerranée, d'innombrables occasions de connaître ou d'écrire sur le Maghreb Central ou d'en relater tel ou tel évènement qui s'y est produit.

C'est pourquoi les ouvrages sur la littérature et sur les sciences sociales et politiques sont très nombreux et très variés.

Nous nous limiterons, dans cette brève étude, aux sources françaises seules.

A côté d'ouvrages descriptifs, (1) géographie générale et régionale du pays, guides, itinéraires, récits de voyage, narrations de navigation, descriptions des contrées traversées, des villes visitées, mœurs et coutumes des populations, il faut ajouter des travaux

1) *Ch. Taillard* : L'Algérie dans la littérature française, essai de bibliographie méthodique et raisonné jusqu'en 1924 Paris 1925 pp. 79-160.

d'histoire générale (2) ou partielle, des souvenirs, monographies (3), biographies (4). Signalons également les études sur la politique algérienne de l'époque. Plusieurs problèmes y sont abordés : organisation administrative (5), régime turc (6), peuplement, religion (7), confréries, tribus (8), Juifs (9) et Chrétiens en Algérie, relations avec les puissances étrangères (10).

---

2) Parmi les ouvrages généraux citons :
Bardon (X) «Histoire nationale de l'Algérie» (Paris 1886, 428 p.)
I - de l'Algérie en général son passé, son climat, les animaux, les habitants, divisions administratives, religion, impôts, mœurs.
II - les français en Algérie.
III - avenir de l'Algérie.
Berbrugger « Les époques militaires de la Grande Kabylie» (Alger 1857).
Cat (E) «Petite histoire de l'Algérie, Tunisie, Maroc». (Alger 2V. 1888-1891).
Clausolles (P) «L'Algérie pittorresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours...» (Paris 1843 2V.).
Galibert (L) «L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844).
De la page 1-249 : l'Algérie depuis l'antiquité à 1830 ; les 2/3 sur la domination française et les progrès de la colonisation...
Garrot (H) «Histoire générale de l'Algérie» (Alger 1910).
(Sorte de répertoire, une compilation...).
Mercier (E) «Histoire de l'Afrique septentrionale (Berbérie) depuis les temps les plus reculés à la conquête française (1830)».
(Paris 1888-1890 3V.).
Faure Biguet (le général) «Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane»
(Paris 1905 - 458 p.).

3) *Peste Maldjoglon* : Mers Al Kebir, historique et description... (R.A. 1942).
Troussel : Kalaa des Beni Rached (B.S.G.O. 1927).
Mac Carty : Constantine.
Leclerc : Koukou, ancienne capitale de la Kabylie (R.A. 1857).
Féraud : Documents pour servir à l'histoire de Bône (R.A. T. XVII).
Galland (Ch. A.) : Bougie 1895.
Féraud (Ch.) : Histoire des villes de la province de Constantine, Bougie, Djidjelli, Philippeville, Bône, Touggourt... (Constantine 1864-1888).
Bel (A) : Histoire de Tlemcen.

4) *Devoulx* (A) : La Raïs Hamidou. Notice biographique sur le plus célèbre corsaire Algérien du XVIII[e] siècle (Alger 1852).
ibid " : Le Raïs Hadj Mbarek. (R.A. 1876).

5) *Devoulx* (A) : Recueil de notes historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger. (Alger 1852 " 99 p.).

6) *Rocqueville* (Le sieur de) : Relation des mœurs et du gouvernement des Turcs d'Alger (Paris 1675 112 p.).
(Description de la ville d'Alger, cérémonies du mariage, gouvernement des Turcs, genres de supplices infligés aux captifs, prières, Ramadan...).

7) *Bel* (A) : La religion Musulmane en Berbérie T.I. (Paris 1938).
Boyer (P) : La politique religieuse des Turcs (Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée n° 1 1966).

8) *Gourgeot* : Les Béni Amer (R.A. 1857).
Féraud : Notice sur les tribus de la Province de Constantine.
Noël : Documents pour servir à l'histoire des Hmiyan B.S.G.A.O. 1915-1916-1917.

9) *Eisenbeth* (M) : Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque 1516-1830 (R.A. 1952).
Cahen (Ab) : Les Juifs de l'Afrique septentrionale (R.N.S.A. de Constantine 1867).

10) *Cour* (A) : L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger (1509-1830) Paris 1904.
Dupuy (E) : Américains et Barbaresques 1776-1824 (Paris 1910).
Watbled (E) : La France et les Barbaresques au XVII[e] siècle (Nouvelle revue 1893 T. 84 - p. 368-388).
Grammont (H. de) : Relations entre la France et la Régence d'Alger au XVII[e] siècle (R.A. 1879).
Playfair (R.L.) : Episode de l'histoire des relations de la Grande Bretagne avec les Etats barbaresques avant la conquête française (R.A. 1879-1880).

Cette classification des œuvres est faite d'après leur objet principal ; mais les livres sur l'Algérie ne sont pas dans la plupart du temps tenus sévèrement dans les limites d'un sujet arrêté avec précision.

VALEUR DOCUMENTAIRE DE CES ŒUVRES.

Ces récits, malgré les nombreuses lacunes et les graves préjugés, que nous relèverons plus loin, restent indispensables à l'histoire de notre pays car les sources musulmanes *sont à cette époque rares et souvent de valeurs médiocres* (11).

Les sources turques dont on attendait beaucoup remontent au 17e siècle seulement.

Celles qui sont susceptibles d'aider l'historien datent seulement du XVIIIe siècle. Une partie des documents d'archives turcs a été publiées à Tunis, Istambul et Venise. Quelques documents turcs relatifs à l'Afrique du Nord ont été publiés dans l'ouvrage de Aziz Samih Ilter «Simali Africa da Türkler» (les Turcs en Afrique du Nord) (12) et dans de rares articles de la revue de la société d'histoire turque, *Belletin*. Elles consistent pour l'essentiel en registres de comptabilité postérieurs à 1650. Leur exploration n'apporte guère de lumière nouvelle sur les évènements et la vie dans le Maghreb Central car le soldat et l'officier de l'oudjac insouciants ou illettrés se sont peu préoccupés de consacrer le souvenir des évènements auxquels ils ont pris part.

Les sources arabes connues jusqu'à ce jour, ne peuvent servir seules de base à l'étude de la période qui nous préoccupe. Les textes sont rares et souvent de valeur médiocre (13). Les genres voisins de l'histoire ont émigré vers Tunis et Fès dès l'arrivée des Turcs.

L'historiographie est inexistante en Algérie à cette époque. En effet, ce genre s'épanouit à l'ombre des dynasties. Or, le trône des Ziyanides était chancelant dès le début du siècle. Par contre, il fleurit encore à Tunis et à Fès (14), ce qui nous renseigne parfois, indirectement surtout, sur certains évènements du Maghreb Central.

Les monographies historiques sont à lire avec beaucoup de prudence, car elles sont écrites la plupart du temps pour ménager les souverains Hafcides ou Sa'adiens, naturellement hostiles aux Turcs d'Alger.

Les relations de voyages (Rihla-s), riches en biographies de saints, sont très pauvres en renseignements sur l'état du pays, et en tout cas très postérieures à la première moitié du XVIème siècle (15).

La littérature biographique émerge cependant de cet amas de productions littéraires dans le Maghreb Central. Certes, elle est loin de connaître un essor comparable à celui

11) *Montran* (R) : Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie. (Annales de l'Afrique du Nord 1962 - p. 243-248).

12) 2 V. Istambul 1936-1937.

13) *R. Montran* : Les données de l'histoire moderne et contemporaine de l'Algérie et de la Tunisie (Annales de l'Afrique du Nord 1962, p. 243-248).

14) *Voir L. Provençal* : «Les historiens des Chorfas», Paris 1922.

15) Les principales sont celles de Tamagroûtî (fin XVIe siècle) ; de Al Ayyâchî (XVIIe), de Al Warthilâni (XVIIIe).

du Maroc (16). Si nous connaissons la vie de plusieurs soufi, professeurs ou commentateurs du XVIe siècle, nous ignorons par contre celle des hommes qui furent mêlés à la vie politique du pays, et les dirigeants turcs étaient trop peu soucieux de voir relater leurs exploits.

L'histoire proprement dite, est représentée elle aussi parmi les écrits d'auteurs musulmans de la Berbérie, à partir du XVIIe siècle, par des œuvres qui ne sont pas sans valeur, mais l'on n'y trouve plus la hauteur de vue des grands historiens du Moyen Age, et notamment du plus grand de tous : Ibn Khaldûn. Les historiens des temps modernes et de l'époque contemporaine sont marqués par l'ambiance dans laquelle ils ont vécu : Chez eux, la tolérance relative des historiens du Moyen Age est remplacée par la haine du non-musulman dont ils accompagnent le nom d'une malédiction ou de quelque qualificatif méprisant (17). Ainsi, ces écrivains reflètent l'état d'esprit de leur époque, et nous apportent par là confirmation de ce grand changement... (18).

Les études religieuses ont, dès l'aurore des temps modernes, tenu une grande place au cœur des populations du Maghreb.

«En dehors des disciplines auxiliaires des études religieuses comme la grammaire et la langue arabe dont on apprend tout juste ce qui est indispensable à la compréhension des textes juridico-religieux, de la métrique et de la prosodie pour les poèmes didactiques et la poésie mystique, de la rhétorique et la logique pour les sermons d'édification et la théologie, des rudiments de calcul nécessaires au partage des successions et de l'astronomie servant à la fixation des temps canoniques pour les exercices cultuels, toutes les autres activités intellectuelles n'ayant trait qu'aux choses terrestres sans rapport avec la religion et les choses divines sont délaissées comme inutiles, ou tout juste bonnes, comme la philosophie, à troubler les esprits» (19).

Dans l'ensemble, le travail fourni par les historiens français est énorme, la recherche est patiente, le labeur consciencieux et les divisions nettes. Ces remarques sont les qualités majeures des travaux d'un Mercier, d'un Grammont ou d'un Masson qui ont été la base de récents livres d'histoire en langue Arabe.

Plusieurs auteurs ont séjourné à Alger, ou parcouru le pays, ou servi dans l'entourage des Deys et des Beys (20). Leurs observations sont directes et les renseignements qu'ils donnent sont très précieux.

---

16) On ne peut citer que le «Bustân» d'Ibn Mariam ; d'une sécheresse et d'une monotonie désespérante, on n'y trouve généralement que le nom du personnage, celui de ses professeurs, la liste des ouvrages qu'il a étudiés, et la date de sa mort, rien sur la vie intime du personnage, de son état d'esprit, rien sur les évènements auxquels il a pu être mêlé...

17) Les occidentaux ont accusé les sources musulmanes de partialité. La partialité est-elle le fait des seuls musulmans ? Il n'y a pas lontemps qu'ont été définies en Europe les règles critiques de la méthode historique. (Voir les cas de Haëdo, Dan, etc...).

18) A. Bel : La religion musulmane en Berbérie, Paris 1938, p. 376.

19) A. Bel : La religion musulmane en Berbérie, Paris 1938, p. 374.

20) *Shaw* : «Voyage dans la Régence d'Alger» édité en 1775.
Thédénat : Les aventures de Thédénat esclave et ministre du Bey de Mascara. (Mohamed al Kebir, mémoire rédigé en 1785) publié par M. Emerit (R.A. 1948).
Venture de Paradis ; Alger au XVIIIe siècle (R.A. 1895-1896-1897).

Quelques chercheurs, après 1830, ont eu le mérite de traduire des rapports officiels et d'exploiter nombres de documents originaux, solides et d'importance (21). Certains ont abordé des sujets très techniques et très utils (22).

Cependant ces qualités ne sauraient faire oublier l'aspect négatif de la plupart de ces œuvres.

L'importance de ces sources et de ces livres, pour la période ottomane, est loin de faire l'unanimité des chercheurs. «Pour la période turque, écrit Rinn, *Il y a pénurie de bons documents*, et si ceux que nous sont parfois sincères, curieux et instructifs, ils ne disent presque rien de l'histoire des Arabes et des Berbères ayant vécu en dehors de l'oligarchie, maîtresse du pays» (23).

Quand on examine les écrits des XVIII[e] et XIX[e] siècles, français notamment, on remarque que dans le cycle barbaresque, la plus grande place est réservée, en effet à la course, à «la piraterie», à l'esclavage chrétien, au séjour des Européens captifs à Alger, «à leur misère, leurs souffrances, leurs tourments, aux rachats des captifs et aux ordres de rédemption (24), à la vie des commerçants (25), des missionnaires, à la précarité de leur sécurité, au rôle des pères trinitaires et lazaristes «précurseurs du Cardinal Lavigerie».

Le titre choisi par le père Dan à son livre est significatif : «Histoire de Barbarie et de ses corsaires, le royaume et les villes d'Alger, de Tunis et de Salé de Tripoli où il est traité de leur gouvernement, de leurs mœurs, de leur cruauté, de leurs brigandages, de leurs sortilèges et de plusieurs autres particularités remarquables par le Père Dan, bachelier en théologie et supérieur du couvent de la Sainte Trinité pour la Rédemption des captifs» (26).

L'auteur qui a séjourné à Alger entre 1634 et 1635, consacre la plus grande partie de son livre à la façon d'armer en course, aux particularités des rénégats «aux peines et aux misères que les Turcs et les Barbares font endurer aux Chrétiens qui les tiennent esclaves et enfin à l'ordre de la Sainte-Trinité».

L'objectivité n'est pas la qualité maîtresse de ces œuvres. Les interprétations sont souvent tendancieuses, les omissions volontaires et les informations erronées.

21) *Berbrugger* : La prise de Mers El-Kebir par les Espagnols en 1505.
Elie de la Primaudaie : Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, 1506-1574. (R.A. 1875-1877).
Ricard (R) : Textes espagnols sur la Berbérie (XV[e]-XVI[e] et XVII[e] siècles) (R.A. 1945).

22) *Devoulx* (A) : Un exploit des Algériens en 1802 (R A **1865**).
Devoulx (A) : La marine de la Régence d'Alger (R **A. 1869**).
Lacour (A) : La marine de la Régence d'Alger avant la conquête (Alger 1835).
Lacoste (L) : La marine algérienne sous les Turcs (l'Amirauté d'Alger à travers l'histoire) (R. Maritime 1931).

23) *Rinn* : Bulletin de la société de géographie d'Alger 1903.

24) *Aranda* (Emmanuel d') : Relation de la captivité (Paris 1657, 2 parties).
Berbrugger : Voies et moyens du rachat des captifs chrétiens dans les Etats barbaresques (R.A. 1867).
Busnot (le père Dominique) : La tradition de l'Eglise dans le soulagement et le rachat des esclaves (Rouen 1714 - 278 p.).
Pavy : La piraterie barbaresque (R.A. 1857).

25) *Blavin* : «La condition de la vie des français dans la Régence d'Alger». (Alger 1899, 104 p.).

26) Paris 1637.

Ces auteurs, appartenant aux différents ordres religieux (27), ont écrit en fait des ouvrages de propagande. Ils voulaient intéresser les fidèles au sort des captifs pour ramasser des sommes d'argent. L'exagération, la cruauté et l'horreur pouvaient seules rendre les cœurs plus tendres. La publication de ces écrits permettaient une plus large diffusion de ces renseignements susceptibles d'alimenter la haine contre les Musulmans et non de satisfaire la curiosité d'esprits avides de plus amples connaissances. On s'émeut sur les malheurs que les Algériens infligent à la chrétienté pour en appeler à la croisade contre l'Islam.

Les consuls européens (28) qui étaient en poste à Alger ont consigné leurs souvenirs, noté des faits, rapporté certains évènements touchant le Maghreb Central.

Certains étaient même des témoins contemporains. Ils étaient donc généralement bien informés sur quelques problèmes. Leurs correspondances et leurs rapports sont une mine de renseignements.

Mais ils sont dans l'ensemble peu favorables aux nouveaux maîtres de la Régence. D'autre part, plusieurs consuls étaient confinés dans les villes de leur résidence, ne voyageaient pas, ou très peu, et ne portaient pas une attention particulière à la vie profonde du pays.

Dans la capitale même, la société musulmane leur restait secrète. Ils ignoraient la vie des ruraux et des citadins et «partageaient les préjugés de leurs compatriotes.

A leurs yeux, les gens du Maghreb étaient la source de tous les malheurs ils étaient fourbes, paresseux, avides, ingrats, en un mot, ils avaient tous les vices».

Les livres parus après 1830 ont une autre tendance et sont d'inégale valeur. Si pour la période romaine, les auteurs ont eu recours aux sources autorisées, ils ont consulté pour l'Antiquité les textes mêmes des auteurs grecs et latins, si pour la période coloniale ils ont exploité les comptes rendus, les rapports officiels et d'autres documents, pour la période musulmane ils ont éprouvé des difficultés à étudier les textes arabes d'histoire ou de géographie qu'ils jugeaient presque toujours «jamais précis et laissant une grande part à l'hypothèse...» Les noms de famille leur paraissaient rébutants, et les évènements des «revirements constants d'une histoire qui se fait et se défait sans cesse» (G. Marçais). Rares sont les historiens qui lisaient couramment l'arabe et en comprenaient les finesses, les tournures ou les images.

---

27) *Godard* (l'Abbé) : (ancien curé de Laghouat). «Les soirées algériennes. Corsaires esclaves et martyrs de Barbarie» (Tours 1857 - 236 p.) : c'est une suite de récits sur la période Turque Maures expulsés d'Espagne, les Turcs, les Corsaires, les prises, les rénégats, la fuite des esclaves martyrs, le rachat. Les Lazaristes.
Godefron, Gornelin et la Motte (les pères) : «Etat des royaumes de Barbarie, Tripoli, Tunis et Alger, contenant l'histoire naturelle et politique de ces pays, la manière ou les Turcs y traitent les esclaves comme on les rachète et diverses aventures curieuses» (Rouen 1731 - 263 p.).
(«L'Etat chrétien politique du royaume d'Alger description de Bône séjour à Alger (1700) avec la narration des pourparlers»).

28) *Grammont* (H. de) : Correspondance des consuls d'Alger (1600-1742) (Paris 1890 - 293 p.).
Plantet (E) : Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France (1577-1830) (Paris 1893-1894 - 2 V. 654-784).
Arvieux (Chevalier d') : Mémoires... (Paris 6 V.) (La narration de son voyage à Alger se trouve dans le T. V. ; il y séjourna en 1674).
Berbrugger : Un consul à Alger au XVIII[e] (R.A. 1862) (il s'agit de Bruce, consul d'Angleterre).
Devoulx (A) : Les archives du consulat général de France à Alger (S.D. 152 p.).

A côté de travaux solides, il y a de nombreux ouvrages de vulgarisation populaire qui n'ont rien d'une histoire scientifique (29) mais dont le dessein est de plaire ou des œuvres condensées : en moins de deux cents pages toute l'histoire du pays y passe (30) ou des sortes de répertoires, on énumère des faits sans expliquer et sans commenter (31).

L'époque turque n'est qu'esquissée pour pouvoir arriver rapidement à la conquête de 1830 (32).

Parcourons le livre de L. Galibert. «L'Algérie ancienne et moderne (Paris 1844, plus de 639 p.). La description du pays et son histoire depuis l'antiquité jusqu'en 1830 s'arrêtent à la page 249. Tout le reste est consacré à la domination française.

Le romanesque et le gout du merveilleux s'y mêlent à l'histoire proprement dite (33). Par contre le travail est quelquefois rebarbatif, on n'a, en face de soi que brutalités, révolutions, guerres pendant des siècles, domination du petit par un grand, Pas de progrès ou de civilisation, pas d'œuvre humaineconstructives. Telles sont les impressions en lisant le livre du Général Faure-Biguet (34).

Quelques aspects de la vie algérienne avant 1830 sont parfois rapportés brièvement.

Dubois-Fontanelle (Joseph Gaspard) essaye de les présenter (35) en 60 pages du tome IV de son livre.

C'est une sorte d'histoire d'Alger par narration des faits jugés principaux depuis le XVI[e] siècle et le récit de quelques anecdotes : empiètements des Deys sur le pouvoir des pachas, représentants du sultan, et diminution parallèle de l'autorité de la Porte à Alger, fortune extraordinaire d'un pauvre captif d'abord misérable et couvert de vermine qui renie, devient corsaire, puis pacha de Tripoli puis d'Alger, et les principales attaques des nations européennes d'Alger.

Cette richesse et cette variété de sujets traités s'expliquent par le fait que l'Europe dès le XVI[e] siècle découvre le Maghreb à la faveur d'une époque agitée qui favorise les grands desseins. Un esprit de conquête universelle, militaire, commerciale et intellectuelle anime les Européens. Les voyages lointains, les découvertes de nouvelles terres et de peuples inconnus devaient conduire à un élargissement considérable de la recherche historique.

---

29) *Clausolles* (P) : «L'Algérie pittoresque ou histoire de la Régence d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours... (Paris 1843 - 2 V.).

30) *Filias* (Ach.) : L'Algérie ancienne et nouvelle. (Paris 1875 - 192 p.) «une sorte de vade-mécum pour gens cultivés».

31) *Garot* (H) : «Histoire générale de l'Algérie (Alger 1910 - 1189 p.).

32) *Vinchon* (Le Baron de) : Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques jusqu'à nos jours (Paris 1839 316 p.).

33) *Farine* (Ch.) : Deux pirates au XVI[e] siècle, histoire de Barberousse. (Paris 1869 - 377 p.).

34) Histoire de l'Afrique septentrionale sous la domination musulmane (Paris 1905 - 458 p.).

35) «Anecdotes africaines depuis l'origine ou la découverte des différents royaumes qui composent l'Afrique jusqu'à nos jours» (Paris 1775 - 8 T. en 1 V.).

Mis à part le goût du merveilleux et de l'extraordinaire, les thèmes majeures de l'histoire de l'Algérie, avant 1830, sont les drames de la captivité — celle des Musulmans pris en mer et vendus à Livourne notamment, n'y figure pas — et les campagnes anti-turques.

Nombre d'historiens sont obsédés par la puissance d'Alger et par le désir de raser «la caverne des voleurs», et rêvent d'une opération décisive contre Alger.

L'intolérance est à leurs yeux une force de la foi. Ils jugent l'Islam avec des idées reçues. C'est une religion erronée... Ceux qui venus d'Europe se faire musulmans sont des traitres. Le reniement est impardonnable et même les tentations de l'intérêt ne sauraient l'excuser, «car la faute la plus grave qu'un Chrétien puisse commettre et de renoncer à sa religion».

Au XIXe siècle, les règles critiques de la méthode historique sont définies en Europe. Certains spécialistes du Maghreb commencent à rassembler, des matériaux, à confronter les sources et à présenter, avec plus ou moins de succès, des travaux de synthèse qui, malgré les lacunes ou les orientations données et que nous avons relevées plus haut, demeurent un apport substentiel à la connaissance de notre passé. Nous ne devons pas tout rejeter ou tout accepter, mais utiliser avec précaution ces travaux dont certains — rares hélàs — méritent d'être traduits en arabe au grand profit des chercheurs.

Moulay BELHAMISSI



L'ALGERIE ET LE TIERS-MONDE POUR L'ETHNOLOGIE DU XIXème SIECLE

par Youssef NACIB
Maître-assistant à l'Université d'Alger

Il est intéressant de se demander ce que représentaient les Algériens et les peuples du Tiers-Monde en général aux yeux de la plupart des ethnologues européens du XIX° siècle.

On sait qu'après la Renaissance, les grandes découvertes (Indes, Amérique etc...) ont engendré le désir de partir à la recherche des peuples exotiques et de leurs "étranges" façons de vivre. Au sortir du Moyen-Age clérical et dogmatique qui enseignait qu'hors de l'Eglise, point de salut", les "autres" — qu'étaient les sociétés extra-européennes — ne pouvaient tout naturellement être que des tribus sauvages. L'ethnocentrisme était la norme. C'est en son nom, avoué ou tacite, que l'Europe se lançait dans sa grande entreprise de "civilisation". Prospéro se faisait un devoir de dégrossir Caliban : Shakespeare, déjà, posait de fait le problème colonial...

Mais dans tout cela la puissance aveugle gardait le maître-mot. Du moins, les règles du jeu avaient-elles le piètre mérite de la clarté. Caliban autant que Prospéro savait que l'île avait un seul propriétaire légitime. Mais le second avait le fer pour lui quand le premier n'était fort que de son bon droit.

Or, à compter des années 1830 (date doublement marquante pour l'Algérie), l'expansion européenne et l'exploitation par elle de riches contrées lointaines tenteront de trouver leur fondement moral dans les exigences de la science. Les études éthnologiques débutantes du siècle dernier joueront alors ce rôle de savantes de service : elles en conserveront longtemps un arrière-goût de péché originel.

Dès la publication de la théorie comtiste à partir de 1830, donc, le schéma ternaire de l'évolution ayant pour double pôle l'obscurantisme de la barbarie et la clarté de l'âge positif, séduira les esprits. Or, les lumières de la raison et la santé morale, dans la perspective européano-centrique, étaient évidemment européennes ; quant aux affres de l'ignorance et de la sous-éducation, l'ethnologie balbutiante les attribua d'office aux sociétés exotiques. Ainsi, le temps épouse-t-il l'espace et leur union rassure-t-elle les bonnes consciences... Le lointain géographique et le primitif originel ne font qu'un dans l'esprit des premiers ethnographes, tandis que le plus proche et le civilisé se confondent dans la culture européenne de l'époque. Les sociétés "différentes", coupables

d'être différentes de l'europe, sont vite perçues comme a-historiques. Boucher de Perthes ayant exhumé des outils préhistoriques dès 1828, un autre pas fut franchi : on songea que l'équipement technologique des groupes africains, dits primitifs, devait être le même, à quelques nuances près, que les objets recueillis dans les couches sédimentaires ou les cavernes. En un mot, l'homme qui s'est éteint avec sa culture il y a des milliers d'années, l'ethnologie naissante croyait l'avoir retrouvé vivant dans les futurs pays du Tiers-Monde.

Ce rescapé du Temps devait avoir des caractéristiques mentales et biologiques déterminées. Il était notamment, suivant les chercheurs de l'école animiste, inapte à la théorisation. Sa tendance au mimétisme en faisait un être voué à la stagnation. Ce "sauvage", faute de pouvoir dégager des concepts et saisir les rapports, se réfugiera dans les "représentations collectives" qui font se fusionner l'intellect et l'affectif. La théorie de la "causalité mystique" restera l'un des supports de ce que l'auteur de *l'Ame primitive* a appelé du terme significatif de "pré-logique".

En réalité, cette toile de fond qui se voulait scientifique s'inscrit dans le contexte politique de la colonisation. Ethnologie du XIX° siècle et phénomène colonial : celui-ci est inséparable de celle-là, la première cautionnant le second intentionnellement ou indirectement. Car une fois expliqué que le "sauvage" est bien sauvage et que son éducation s'impose, le "civilisé" qui ne demande qu'à exporter sa civilisation s'empresse de le faire. On sait de quelle raison seront inspirés les termes du contrat... La prétendue mission civilisatrice a toujours été l'un des arguments les plus fallacieux qu'ait brandi une société dominante pour asservir, sinon assassiner physiquement ou culturellement, une société dominée. Ordinairement, les génocides affectionnent le voile pudique d'une morale forgée sur mesure.

Bref, dès l'implantation des colons, l'administration européenne cherchera par tous les moyens à connaître "les indigènes". Connaître surtout les valeurs et les besoins du groupe pour prévoir ses réactions dans les circonstances les plus variées. Les études ethnologiques seront ravalées à cette fonction d'éclaireur. En Algérie, des dizaines d'officiers des affaires indigènes, de petits enseignants, de voyageurs et de missionnaires européens s'improviseront sociologues de l'autochtone !

Certes, certaines de leurs études ont le mérite d'avoir photographié une réalité difficilement déformable et aujourd'hui insaisissable parce qu'éteinte. A ce titre, elles nous ont conservé des documents uniques au monde, précieux parce que singuliers. Ainsi, grâce au père de Foucauld, nous héritons d'un immense lexique tamacheq que nous n'aurions peut-être pas pu reconstituer de nos jours. Nous devons à un autre militaire, le général Hanoteau, un recueil dense de poésies Kabyles transcrites dans les années 1860...

Cependant, il est à noter que l'intention, dans la plupart des cas, était étrangère à la science chez les ethnographes du siècle dernier. Perçu sous le prisme déformant du complexe de supériorité et dans le contexte de l'occupation, le trait culturel collecté par les glanneurs d'extravagances subissait, dans la description même qui en était faite, une mutilation fatale. Et que dire de l'analyse ? Orientée vers une première finalité sans équivoque qui était de renseigner l'autorité repressive, l'étude sous couvert de science, se devait de justifier le fait colonial accompli. Les Hollandais n'enseignaient-ils pas dès 1870 l'ethnologie à leurs administrateurs des Indes néerlandaises ?

Dans notre pays, nombre d'administrateurs de communes mixtes ont décrit ce qu'ils croyaient être la sauvagerie amusante ou comminatoire de leurs administrés. Le monde rural, notamment, a été considéré sous ce double aspect. D'où la multitude de textes sur la religion populaire décrite comme spectacle exotique dans ses manifestations, mais redoutée dans ses effets. Si l'attention a été autant retenue par les zaouias, c'est qu'elles portaient en elles un germe de résistance irréductible. Hanoteau s'en est pris violemment aux Rahmaniya qui suscitèrent le soulèvement de Bou-Beghla, à l'époque d'El-Mokrani...

Somme toute, au lieu qu'elle fût considérée comme la science de l'Homme universel, étudiant pour les rapprocher les différentes civilisations d'Asie, d'Afrique, d'Europe, d'Amérique et d'Océanie ; au lieu qu'elle se constituât en étude différentielle des ethnies et des cultures libres et égales en droit pour ainsi dire, l'ethnologie coloniale a délibérément retenu comme hypothèse et conclusion que les sociétés pré-industrielles (à fortiori les groupes pré-scripturaires) — entendons : les sociétés qui, au XIX[e] siècle n'avaient pas encore connu pour des raisons historiques précises l'ère des charbonnages et du machinisme — étaient nécessairement inférieures. En d'autres termes, on nous a appliqué des préjugés scientifiquement intolérables.

Les chercheurs du Tiers-Monde prennent conscience de cette déformation des faits. La page coloniale étant maintenant tournée au Maghreb, il nous appartient de faire en sorte que le Maghreb-objet se transforme, dans le domaine sociologique, en Maghreb-sujet. Il est temps de réhabiliter la science du fait social dans sa vocation qui est d'être tout à la fois positive, féconde, concrète, libre et — pourquoi pas ? — comparative.



فهرس العدد

بـــــلاغ

حـول الملتـقى الثـامن للفـكر الاســلامي

تعلن وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية أن الملتقى الثامن للفكر الاسلامي سينعقد في بجـاية بقاعة المسرح البلدي من الفاتح الى الثـاني عشر من ربيـع الاول 1394 هـ الموافق الخامس والعشرين مـارس الى الخامس من ابريل 1974 م ٠

وسيحضره طلاب وطالبات جامعات الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، وتلاميـذ وتلميذات السنتين السادسة والسابعة من الثانويات (الاولى والنهائية سابقا) من أي بلد كان ، وسيسمح لغير الطلبة من الجزائر وغيرها ممن هم في المستوى المذكـور بالمشاركة في الملتقى حسب الاماكن الشاغرة ٠

وستدعى الى الملتقى شخصيات جامعية ورجال بحث من الجزائر وغيرها من أنحاء العالم الاسلامي وبلدان أخرى لالقاء المحاضرات ، وعقد الندوات ، والمناقشة فيمـا بينهم بحضور الطلبة ومشاركتـهم ٠

ونظام الملتقى هو النظام الداخلي ، ويمكن السماح بالنظام الخارجي لمن يطلبه ٠

هذا وتتحمل الوزارة ، في اطار الملتقى . نفقات الاقامة والتنقل داخل التـراب الوطني ، وبالنسبة للطلبة الآتين من أوروبا فستتحمل الوزارة نفقات سفرهم ذهابا وايابا من مرسيليا واليها أو احد موانى البحر الابيض المتوسط ٠

وسيطلب من المشاركين اسهام رمزي قدره خمسون دينارا جزائريا ، ويعفى منه الطلبة الآتون من خارج الجزائر ، جزائريين كانوا أو غيرهم ٠

وترسل طلبات المشاركة الى ادارة البحوث الاسلامية ، نيابة الملتقيات ، وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية 4 . نهج تيمقاد حيدرة ، الجزائر ، مع ذكر كلمـة « الملتقى » على زاوية الغلاف ٠

وعلى كل مترشح ان يبعث مع طلبه شهادة دراسية وشهادة طبية ٠

وآخر أجل لقبول طلبات المشاركة هـو السابع من محرم 1394 هـ المـوافق 31 يناير 1974 م ٠

هذا وسيكون جدول الاعمال كالآتي :

1) ــ وضع الاقليات والجاليات عموما والاسلامية خصوصا في كثير من بلدان القارات الخمس ، وواجب العلماء والمفكرين ، ورجال الاعلام نحوها ٠

2) ــ دور المفكر اليوم وعلى مر العصور في امته وتجاه الانسانية في كل مـن قضايا الساعة وآفاق المستقبل ٠

3) ــ مساهمة بجاية الحمادية في الحضارة والفكر الاسلاميين والعالميين وأسباب وآثار انحطاطهما ٠

4) ــ مساهمة الحضارة والفكر الاسلاميين في مختلف مجالات العلوم ، والفنون، والتراث الانساني على العموم٠ عوامل ازدهارهما ــ أسباب انحطاطهما وشروط انبعاثهما٠

5) ــ الاصالة والتفتح ــ ما معناهما ؟ وما مدى أهمية هذا الجمع اليوم بالنسبة للافراد والامم ولمصير الانسانية كلها ؟



ثلاثة نماذج

عثمان شبوب

لا شك ان ما يقاسيه العالم العربى اليوم من تخلف يكاد ان يكون شاملا ، انما هو نتيجة لأزمة حضارية وبالتالى لفشل ثقافى ، يتمثل فى القصور العلمى والتكنولوجى ، والعجز عن التنظيم الاجتماعى واستغلال ما توفر لديه من طاقات ، وامكانيات مادية وبشرية ، بالاضافة طبعا الى عوامل اخرى ، سياسية وتاريخية . لذلك اصبح الاتجاه اليوم مركزا على اعطاء الثقافة ـ كمفهوم شمولى ـ الجانب الأوفر من الاهتمام ، بصفتها اساس المعركة المصيرية الشاملة، لا مجرد نشاط كمالى يتفرغ اليه بعض المحظوظين والباحثين عن التسلية والترفيه .

وتاكد هذا الاتجاه خاصة بعد هزيمة 1967 وتحديات الصهيونية المتوالية،وضغط التيارات الحضارية المعاصرة .

لذلك لابد ان يقوم المثقفون فى البلاد العربية والاسلامية والعالم الثالث عموما بتحديد خطوط الرسالة الثقافية التى عليهم ان يضطلعوا بها ، وان يقوموا بتحديدات لمختلف الشعارات التى تسود الحياة الفكرية والثقافية فى بلدانهم ، ويعطوها محتواها الحقيقى .

ان قضايا العلاقة بين الأصالة والمعاصرة ، وقضايا التعاون الثقافى والفنى ، وقضايا التعريب اللغوى والثقافى او بعبارة أوجز ، رسم آفاق ما نسميه بالثورة الثقافية ، كل هذا يتطلب القيام بمجهود فكرى حقيقى ، لأنه بدونه ، ستكون مسيرة هذه الشعوب، معرضة للتذبذب ،والاهتزاز،والانحلال، والاختلال ، كما قال الأخ مولود قاسم فى عدة مناسبات ، ولخطر الذوبان والتلاشى. وما هذه الندوات والمؤتمرات التى تعقد هنا وهناك ، والمعاهد والمسؤسسات ذات الطابع الثقافى التى تؤسس فى بلدننا ، والارساليات الدينية التى تعم أرجاء ما يسمى بالعالم الثالث ، ودور النشر التى تغرق سوقها بأطنان من المجلات والمنشورات ذات الطابع الانحلالى والمعونات الضخمة التى تقدم لاولئك الذين نسميهم بحق ضحايا الاستعمار الثقافى ، كمدهم بوسائل النشر ، نشر انتاجهم باللغة الاجنبية خاصة ، وانشاء مجلات تنطق بلغتهم وتبشر بثقافتهم وحضارتهم ، وتقدمها على انها النموذج الامثل الجدير بالاتباع .

والامثلة فى الواقع كثيرة عن هذه الانشطة المركزة والموجهة والمخططة والتى تقف وراءها الدوائر السياسية الامبريالية ، وسأكتفى فى هذه الكلمة الوجيزة بايراد ثلاثة نماذج تستحق ان نوضح لشعوبنا ابعادها وأخطارها .

التعاون الثقافى

أعتقد ان كلمة « التعاون » هى فى الواقع ، وفى ضوء التحليل الاولى البسيط ، لا تعبر عن الواقع المعاش اذ التعاون يكون من الجانبين أى هناك تبادل، بينما الحقيقةان هناك جانبا واحدا فقط هو ما تقدمه الدول المتقدمة للدول المتخلفة من اعانات اللهم الا اذا اعتبرنا ما تحققه هذه الدول المتقدمة على حساب واقع التخلف من مكاسب ثقافية واقتصادية بسبب هذه الاعانات .

هذه ملاحظة هامشية فقط فى هذا الموضوع وليست هى موضوع كلمتى ،

كما انى لا انوى التعرض الى جانب أخر فى مشكل « التعاون الثقافى » وهو ما ينتج عنه من انحلال خلقى وتفكيك للتماسك الاجتماعى . فهذه قضية أخرى تضاف الى ملف التعاون .

وبالنسبة للناحية الثقافية والفكرية التى تعنينى فى هذه الكلمة فهناك تساؤلات : هل التعاون الثقافى قناع تختفى وراءه أهداف استعمارية تهدف الى استرجاع الامتيازات التى اجبرت اثناء الفترة الاستعمارية المباشرة ، على التخلى عنها ؟ هل التعاون استعمار جديد تقوم فيه رؤوس الاموال ، والمؤسسات الثقافية والاقتصادية ، والخبراء الاديولوجيون بالانتماء الذاتى ، أو الموجهون بالتخطيط ، مقام المبشرين التقليديين والمعمرين والعساكر ؟

أسئلة لم يطرحها المثقفون عندنا خاصة المثقفين الذين يسمون أنفسهم متفتحين ـ الا على ثقافتهم وواقع شعوبهم ، والطبيعة الحقة للتبادل الثقافى ـ لانهم لم يروا فى هذا شيئا غير طبيعى ، وانما هى أسئلة أو تساؤلات طرحتها مجلة فرنسية هى مجلة «اسبرى» عدد جويلية أوت 1970 الخاص بهذا الموضوع .

وقد تجلى من خلال أجوبة المتعاونين أنفسهم فى المغرب العربى ان أغلب المتعاونين يعتبرون انفسهم حلقة فى سلسلة الغزو الجديد ، وامتدادا متطورا طبيعيا لسياسة محو الثقافات الوطنية للشعوب محل الاهتمام .

يقول السيد فوشى وهو وزير تربية سابق فى الحكومة الفرنسية مشيرا الى هذا الدور : « لقد خسرنا امبراطورية استعمارية ، فيجب ان نتدارك ذلك بتشييد صرح امبراطورية ثقافية » . ويقول احد المتعاونين للمجلة المذكورة وهو استاذ فى تونس : « الواقع اننا نقدم للتلامذة شعرنا بذلك او لم نشعر ، مثلا أعلى برجوازيا ، ونمطا غربيا ينتمى الى مجتمع الاستهلاك الذى ننتسب اليه ، مما يورث هؤلاء التلاميذ شعور الحرمان، كثيرا ما يحاولون اثبات شخصيتهم بتقليدنا كالقردة » .

واورد الاستاذ محمد مزالى ، مدير مجلة الفكر التونسية مثالا فى تعليق له عن هذا الموضوع : ان الاب جان فونتان وهو من الآباء البيض المستوطنين فى تونس قال فيما معناه ، خلال حديث له عن الادب التونسى الحديث ، وبعد ان انتقى من انتاج الادباء الشباب ما يراه

يمثل تحديا للمقدسات الدينية وللغة الوطنية وللكفاح الوطني ، ان هذا الادب بدأ يتجه نحو فرنسا ، وان ادباءه يستلهمون افكارهم من الاتجاهات الادبية والفنية السائدة فيما وراء البحار . وقال : بأن هؤلاء الادباء الشبان يخوضون حربا ضد الرجعيين الذين يحملون ـ بسبب فشلهم ـ شعار التعريب ، ويشهرون المعركة ضد التزوج بالاجنبيات .

وهذا الاب كما يلاحظ من رأيه يضع نفسه كرائد «للتقدمية» عند ما يكون الامر متعلقا بالثقافة العربية الاسلامية . وهي خطة جديدة بدأتها الكنيسة العالمية لمواجهة التيارات الفكرية الجديدة ، ومحاولة التسرب الى الشباب الطالبي خاصة لاحتوائه باسم التقدمية . وهذه قضية تستحق وحدها مقالا خاصا .

* *

هذا النموذج ، يصور الى حد ما ، ما يمكن تسميته بالنموذج الاستعماري الحاقد الصليبي ان صح التعبير والذي تقف وراءه مؤسسات رسمية وغير رسمية وهدفه تخريب الكيان الثقافي لهذه الشعوب لتحقيق أهداف استعمارية معينة .

ولهذا النموذج اعوان وعملاء في الداخل ، عن شعور او لا شعور ، يساهمون في تحقيق هذه الاهداف التخريبية عن طريق المناورات ضد الثقافة الوطنية واللغة الوطنية بالخصوص ، والتشكيك في امكانياتها وصلاحيتها للعصر ، عن طريق دفاعهم وتطبيقهم ما اتيحت لهم الفرصة لمخطط الاستعماريين في تسيير الدراسة وفي ضبط البرامج ، وخاصة في العلوم الانسانية المتصلة بالناحية الفكرية والقيم الشخصية ، مع مدهم بوسائل بارعة لتنفيذ مخططهم . وهذا النموذج هو الذي عناه الاخ هواري بومدين ، رئيس مجلس الثورة والحكومة اثناء ازمة النفط بالحزب الفرنسي .

* *

اما النموذج الثاني فهو ذلك الذي يتمسح بمسوح القدمية والثورية . ومن آرائه في ميدان التعليم خاصة ، ان تعريب الفلسفة ، وما يتطلبه من تدريس نظريات الفلاسفة المسلمين هو رجوع الى الوراء ، وان تدريس التاريخ باللغة العربية يشكل خطرا كبيرا . وتعتبر الاكثرية منهم الفكر العربي الاسلامي خادما للاقطاعية وبالتالي فهو صورة عنها . وبقطع النظر عما في هذه الاحكام من

عموميات ساذجة ، نريد ان نسألهم هل الغوا من تاريخهم الفكرى والثقافى كل ما لا يمت الى الفكر الماركسى بصفته الصيغة التى ما تزال تحتفظ بجدتها للفكر الاشتراكى العالمى ؟ ان الكثير من هؤلاء الأميين الذين لا يعرفون من الماركسية الا الشعارات المعدة للاستهلاك السياسى اليومى ، لم تخطر ببالهم الاجابة عن هذا السؤال ، وانما اكتفوا باستعمال الاحكام الجاهزة التى تنم عن كسل عقلى فضيع .

انهم يقولون بكل بساطة : ان شعار الأصالة مثلا الذى طغى فى الآونة الاخيرة على الفكر العربى يعبر فقط عن اختيار ذاتى مؤقت لطبقة معينة هى البرجوازية الصغيرة الريفية ، تخوض به معاركها السياسية والاقتصادية ضد فئات أخرى منافسة لها .

فقضايا الدين واللغة الوطنية والثقافة هى كلها ميول ذاتية عابرة لطبقة معينة • وليست مكونات اساسية لشخصية الامة ، وتحديد لهويتها الخاصة . ولو قالوا على الاقل ان هناك فئة أو فئات فى هذه البلدان تعطى لهذه المبادىء الجوهرية مضمونا يعبر عن مصالها ونزوعاتها الطبقية لكان كلامهم قابلا للنقاش .

ورأينا منهم من يقول أيضا ان التعريب مناورة ضد الثورة الزراعية ويكتبون ذلك فى احدى نشراتهم ، وبالرغم من سخافة هذا القول منطقيا ، فان التجربة أثبتت ان اللغة الوطنية هى أداة الحوار والتجاوب الحقيقى مع الفلاحين .

لقد أوجدهذا التيار المسمى بالتقدمى سواء عن طريق المتعاونين أو عن طريق التأثر الثقافى المحض،أو عن طريق آخر، هذه النوعية من التقدميين المزيفين الذين كانوا وبالا على حقيقة الفكر التقدمى الانسانى الأصيل ، بحرفيتهم وجمودهم عن ادراك الوقائع المتحركة من حولهم .

والواقع ان مصيبة هؤلاء هى ان أغلبهم لم يكونوا فى مستوى من النضج الفكرى والثقافى بحيث يسخرون هذا المنهج ، المنهج الماركسى كأداة فى توضيح ماضى، وحاضر مجتمعاتهم، وأصبح عبارة عن عرض بيداغوجى مبسط لمقولات ماركس فى التاريخ والاجتماع والسياسة ، ممثلا عنها بأمثلة مأخوذة من مجتمعات وتواريخ بعيدة عنا . وبهذا جعلوا منها مجموعة أحكام بمثابة قوانين منزلة ، ونتج عن هذا كله أى عن هذه

النصوصية المغلقة ابتعادهم عـن اختبار قدرتها عـلى كشف منطق التطـورات التاريخية ، والتلازمات الاجتماعية داخل بلدانهم . وتركيزهم على عوامل أجنبية خارجية ، والتغنى بتفوق هذه الدولـة أو تلك من الدول .

فابتعاد هذه الفئات عن مجتمعاتها ، وانفصالها عن ثقافتها الوطنية ، وبالتالى عن شعوبها يمثل احد الاسباب الرئيسية لفشلها فى ان تقوم بدور فعال وايجابى فى معارك شعوبها . وهذا يصدق أيضا على الفئات التى تمثل التيار الأول .

وهكذا ، فباستقراء الوقائع ، يتبين ان كلا التيارين ، ـ على مستوى الرواد والمريدين ـ يستهدفان غاية واحدة هى محو أو على الاقل تجاوز الثقافات الوطنية اما على انها متخلفة لاتلائم العصر عنـد التيار الأول ، أو لانها رجعية اقطاعية عند التيار الثانى .

* *

أما التيار الثالث فيبدو وكأنهمتعاطف مع هذه الثقافات الوطنية ، ويتمثل فى موقف بعض المستشرقين الذين يوزعون مراكز الابداعوالخلق علىأساسجغرافى: فبلدنا موكل اليها ان تكون مركـز اشعاع روحى ، وعليها ان تحافظ عـلى خصوصيتها الروحانية المبنية على حرارة الايمان . واما أوروبا فهى مركز التفكير المحض ، والتعقل الصارم .

وهذا يفسره مثلا ، موقفها من هجرة العقول من هذه البلـدان نحو أوروبا ، الذىتبرره بانه انتقالمن بيئة لا يفيدها العقل كثيرا الى بيئات أخـرى تحتـاج بفضل طبيعة حضارتها وبيئتها العقليـة الى اعداد وفيرة من هذه العقول . وبقطع النظر عن تهافت هذا الحكم من الناحية التاريخية والمنطقية . فلنا ان نتساءل : هل اوربـا وبالتالى الثقافـة والحضـارة الاوربية عموما خاليةمن هذه الروحانية؟ اليست وقائع الاحداث المعاصرة تؤكـد انغراس هذه المثل الروحية لديها الى حد العنف والعدوان ؟

وهـم أيضا يدعوننـا الى التمسك بالاصالة ، ولكن أى أصالة ؟ انها تلك المظاهر الفولكلورية التى يحتاج اليهـا السائح ليريح عقله المكدود. انهم يريدون باسم الاصالة ابقاء شعوبنا متحفا للقيم الاثرية يكون فيها الماضى متجسدا فـى الحاضر

ولهذا التيار أيضا مريدون محليون ، يتخذون نفس منهجهم فى دراسة التراث العربى الاسلامى .

* *

لكن مع هذا كله ، فمن الموضوعية القول ، انه يوجد بازاء هذه التيارات المعادية لهذا السبب أو ذاك ، مجموعة من المفكرين والباحثين فى الشرق والغرب تصدوا بالدرس، والتحليل لتراثنا الثقافى القديم ، فى سنوات نومنا العميق ، وركودنا الطويل . وكان لهم الفضل فى الكشف عليه، والتعريف به لنا، ولاقسام، ولو كانت محدودة من مثقفيهم . هؤلاء آمنوا بضرورة تعددمراكز الاشعاع الثقافى وتكاملها ، وحذروا بلدانهم من مغبة الهيمنة والسيطرة الفكرية ، وبضرورة اندراج كل استيراد ثقافى وتقنى فى نطاق تبادل للخدمات ، لا فى نطاق اعانة مزعومة منطوية على ألوان من الاهانة .

وموقفنا هذا ليس صادرا عن تعصب أو ضيق نظر ، فطبيعة ثقافتنا ، وواقع تاريخنا يؤكد بقوة ، مدى رحابة صدرنا وتسامحنا المفرط الى حد الميوعة ، كما يندرج فى اطار نظرتنا واستقرائنا لتاريخ التبادل الثقافى عبر القرون ، ولحقيقة الثقافة واهدافها الانسانية .

ونحن الى ذلك ، ننطلق من مقولة فلسفيةأصيلة فىتراثنا الفكرىوالثقافى تقوم على اساس ان كلمة « أنا » التى جعلها ديكارت محور فلسفته ، لا يتم معناها الا «بالاخر».وان معرفة الانسان لنفسه التى أوصى بها سقراط مستحيلة الا اذا أخذنا الآخر فى الاعتبار . لان وجود الآخر شرط جوهرى لمعرفة الذات.

ومن الناحية العملية فواقع التخلف الذى ورثناه عنعهودالانحطاطوالاحتلال الاجنبى ، ومتطلبات سياسة التنمية تفرض علينا جميعها استيراد الاطارات العلمية والفنية ، وهذا أمر لا اظن من يجادل فى وجاهته ، ولكن علينا فى نفس الوقت ان نحدد سياسة عامة وذات طبيعة فكرية وثقافية فى الاساس، تمثل حصانة وقدرة على احتواء كل نتائج هذا التعاون الثقافى والفنى . والتاريخ يعلمنا ان الشعوب التى تترك للصدف سيكون مآلها الذوبان والامساخ .

واذا اردنا ان ندخلْ حقا فى عهد الثورة الثقافية فعلينا أولا ان لا ننظر الى الثقافة وكأنها منعزلة عن البناءات

الحضارية الاخـــرى ، ولا ننتبـــه الى السلوكات السياســـة والاقتصاديـــة لان ما اسميناه بالامبريالية الثقافية هو مركب معقد من مختلف مظاهر الحيـــاة العامة ، والتركيز على جانب واحد فقط هو تجزئة مصطنعة لمشكل واحد ، فلا بد لنا من التفكير الاستراتيجى ، والتخلص من التفكيرى المرحلى المؤقت .

انه بالامكان ان نحول هذه التحديات الى ازمات خالقة ، مبدعـــة ، مفجـــرة لارادتنا. ونقول اخيرا لاولئك«المتفتحين» جدا » عليكم الانفتاح على ثقافتكم الوطنية أولا واستغلال ثقافتكم الاجنبية لفائـــدة تطوير ثقافتكم الوطنية واغنائها لا ان « تناضلوا » لكى تكون بديلا عنها .

وحـــدة وحصانـــة

مولود قاسم نايت بلقاسم

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ،

أصحاب المعالى ،

حضرات الاساتذة الافاضل ،

اود في بدء هذه الكلمة أن أرحب بكم باسم الرئيس بومدين ، والحكومة ، والجزائر كلها ، وفي هذه الربوع بالذات ، عند سفح هذه الجبال الشامخة الشماء ، التى صارعت الغزو والاحتلال ، وكافحت الاستعمار والاذلال ، على مر العصور واختلاف الغزاة ، هذه القلعة من قلاع الاحتجاج والاشهاد ، بالتضحية والاستشهاد ، في وجه كل ثمود وعاد !

انها جبال جرجرة التى تحمل قمتها للا خديجة اسم أم بطلة كانتامراة من عظام الرجال، للا فاطمة نسومر التى كافحت الجيش المعتدى سنة 1856 ـ 1857 ، الذى كان يقوده سبعة جنرالات على رأسهم الحاكم العام الفرنسى في الجزائر ، المريشال راندون ، وجرعتهم مر العذاب ، وأعطتهم ، على رأس جيشها من المسبلين ، صورة حية عن الفداء والجهاد !

أصحاب المعالى ،

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوانى الطلبة والطالبات ،

نلتقى اليوم ، والامة الاسلامية ـ واقول الاسلامية ـ نلتقى اليوم والامة الاسلامية ، التى كانت خير امة اخرجت للناس ، تركز عليها ، أو على ما تبقى منها ، كل وسائل التخريب ، والتمزيق ، والتضليل !

نلتقى لنتدارس نقاطا من صميم ما تعانى هذه الامة ، نقاطا تتصل بصلب حياتها ، اذا لم تعالج عجلت بموتها !

1) فتشريعها ، المنتظر منه ان يبين لها شرعتها ، ويضمن لها ، اذا ما طبق ، سلامتها وتماسكها، بل ونموها وازدهارها ، ابعد ما يكون ، في اغلب جوانبه ، عما شرع الله لها من الدين ، واقرب ما يكون الى ابعادها عن قواعدها واصولها ، وهى روح القوانين ، وشريعة الجهد ، والجهاد ، والاجتهاد !

كلمة الافتتاح التى القاها السيد مولود قاسم في افتتاح الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامي بتيزى وزو

2) ووحدتها ، التي كانت قوتها ووجودها ، خاطرت بها عن غفلة وسذاجة من قوم تبع لكل من يريد هلاكها ووأدها ، بعد ان أعد لذلك بالتآمر على فك عراها وتفتيتها ، وراحت تصفق لكل غـراب ناعق ، لسم خصومها لاعق ، غربان مختلفة الالوان والصفات ، ولكنها في هذا موحدة الاهداف والغايات ، فتحاقد طورانيوها وقحطانيوها ، فمزقتها الشعـوبية ، وكادت لها الدونمة ، وشهد لهـا لورانس بالشجاعة والعبقرية ، ووقع عبد الحميد لرفضه ان يوقع ، فسقطت معه القبلة الاولى ، وأصبحت الامة في غمة ، وضحكت من جهلهـا الامـم !

لقد نشرت أخيرا جدا مجلة «در شبيغل» الالمانية مقالا عن الاسلام جاء فيه أن « خلافة جـديدة توحد المسلمين من المغرب الى اندونيسيا ستبقى حلمامن أحلام المثاليين ، وأمنية من أماني الطوباويين » .

هل يبقى الامر في عصر التجمعات الكبرى ، عبر الاجناس والقارات ، والاديان واللغات ، على مـا هو عليه لأمة الاسلام من التشتت والتفرق ، والتنازع والتمزق ، وهي التي ينبغي أن يجمعها كل شيء ، وألا يفرق بينها أي شيء ؟

هل من جواب على التحدي ؟ هل سيبقى العقد هكذا منتثرا ، والمجد الى الابد مندثرا ؟

3) وسلامة عقيدتها وصحة ايمانها ؟ ألم يعبث العابثون بعقول الكثير من ابنائها وبناتها ، بعـد أن ظننا أنها ، أي هذه الامة ، باستعادة الاستقلال ، الذي كان تآمر عليه المبشرون مع الجنرالات بالتمهيد للاحتلال ، ستضع عندها حدا لعبث التبشير ، فتستأصل جذوره ، وتجتث أصوله وبذوره ؟

هل ننسى في الجزائر مثلا ما قام به دوفوكو من دور في هذا المجال ، الذي أدى به الى ما نعرفـه من مـآل ؟ ولافيجري بعده ، الم يجهد نفسه في تنصير اليتامى في 1866 اثر المجاعة ، وان لم تكن لمساعيه كل النجـاعة ؟

كثير من السذج لدينا يستخفون بمحـاولات الذين هم بالضلال والردة مبشرون ، ويقولون خطأ عنهم انما هم لجهودهم مبذرون !

ولكنهم ينسون أن أحد أساطين التبشير وهو زويمر هو الذي قال ان الغاية من التبشير ليـس التمسيح بالضرورة ، ولكن يكفينا ان نذبذب المسلمين ، ونشككهم في عقيدتهم ، ونزعزع ثقتهم بأنفسهم وأصالتهـم .

لقد أكدنا مرارا لمختلف رجال الدين المسيحي في الخـارج ، الذين زارونا ببادرة منهم ، مـن بروتستانت ، وكاثوليك ، وارثوذكس ، ان الاسلام ، ان كان سمحا ، فهو لا يتسامح في نفسه ، واننا مستعدون دائما لمساعدتهم في مهمتهم ... ولكن لدى ابناء دينهم ، وعليهم ان يتركوا ابناءنا وشأنهم !

ومع ذلك لا نزال نتلقى أكواما من الرسائل من دوائر تبشيرية مختلفة ، ومن بلدان متعددة ، شرقية ، وغربية ، يأتي الينا آباء الاطفال الذين ترسل اليهم بالبريد ، أو توزع عليهم قرب المدارس ، يأتون الينا محتجين علينا بأننا لا نفعل شيئا لايقاف هذا السيل العارم من هذه المحاولات الاجرامية ، للتغرير بالاطفال العزل الإبرياء !

4) وأبناء هذه الامة في الخارج ، وما يتعرضون له من مثل هذه المحاولات ، ومن غيرها مما هو اكثر اغراء لهم ، وضغطا عليهم ، ماذا يمكن هذه الامة ، او ما تبقى منها ، ان تقوم به ازاءهم ؟

فهناك ملايين من المسلمين في أوروبا ، وامريكا ، واستراليا ، وابناؤهم يزداد عددهم باطراد .

أما من نواد ثقافية ؟ أما من مدارس ابتدائية ، وثانويات مزدوجة اللغة ؟ هذا ما قررت بعض الدول الشروع فيه ، وعزمت على انجازه ، ولكن يدا واحدة لا تصفق ، كما يقال ، وهل من تنسيق ، وتعاون ، والاقلاع عن الاهمال والتهاون ، على الاقل في هذا المجال ؟ هل من تدخل فعال من جمعيات خيرية ، وبوادر فردية ، تدعيما لجهود الدول والمؤسسات ؟

5) وأخيرا وليس آخرا ، تعاني هذه الامة المسكينة من نفسها ربما اكثر مما تعاني من غيرها ، وما ربك بظلام للعبيد ! نعيب على الغير ، ولكن العيب فينا ، نعيب على جيل اليوم ، وعلى الزمن ، وعلى القرن الرابع عشر الهجري ، او العشرين الميلادي ، والعيب كله فينا ، وابو الطيب هو الذي قال :

نعيب زمانا والعيب فينا

وما لزماننا عيب سوانا !

واظن ان عنوان محاضرة استاذنا الدكتور عثمان امين ، الذي اقتصر على الجزء الثاني من صدر البيت ، يشير الى نفس الموضوع ، وان لم نتصل بالنص بعد !

وفعلا ، ألا تبحث هذه الامة في مجموعها عن حتفها بأنفها ، وألا تخرب بيتها بيديها ، وألا تعرض دولها طهارة أطفالها للسموم والجراثيم ، بما تعرضه في اجهزتها الرسمية من خلاعات ، ونابيات ، في شكل افلام تدعو الى الالحاد ، والانحلال ، وتدفع الاحداث الى الجنوح ، بل والكبار الى الاجرام ، كما رأينا أمثلة لذلك نستطيع ان نذكرها بالاسماء ؟

ونود ان نقول هنا بدون أية مبالغة ان بعض الاشرطة التي تعرض في تلفزات كثير من البلدان الاسلامية تحث حثا مباشرا على الانحلال والاجرام ،هذان التوأمان المشؤومان !

ألا نستفيد من تجارب الدول التي تصدر الينا مثل هذه الاشرطة ؟ ام نريد ان نعرض انفسنا لما تعانيه ، وان لم تكن لنا نفس الوسائل لمعالجته ، او التخفيف من حدته ، اذا ما نما واستشرى !

لقد جاء في جريدة لوموند بتاريخ 30 مارس 1973 ان امريكا تنفق 750 مليار فرنك قديم سنويا على مكافحة الاجرام .

هل لذة الخمور ، ومتعة الاشرطة البوليسية والاجرامية ، تستحقان ان ندفع من اجلهما هذه المبالغ على فرض توافرها لدينا ، ونعرض مجتمعاتنا للهزات والزوابع ؟ هذا هو السؤال !

لقد جاء فى احدى الصحف الاوروبية أخيرا ان فرنسيا رفع قضية على شركة للطيران لانها عرضت ، فى طائرة لها وهى فى الجو ، شريطا مخلا بالآداب ، شاهده مكرها وبجنبه بنته الصغيرة .

قد يكون هذا السعي منه ناشزا فى نظر الكثير . ألا يستحق منا المناصرة والتقدير ؟ ام نحن نحب النشوز فى السلبيات فحسب ، لان المنحدر دائما أسهل ، والانسان الى الشر بطبعه أميل ؟

ان اجهزة الاعلام وسائل هامة ، وجامعات شعبية خصبة او قاتلة ، اذ تنفذ الى صميم الديار والاسر . فماذا نريد ان يكون برنامجها ؟ وماذا نريد ان يتعلمه منها اطفالنا ؟ وماذا نريد ان نجعله بواسطتها من امتنا ؟

هذا هو السؤال الذى ينبغي ان يلقيه المسلمون على أجهزة اعلامهم ومسؤوليهم ، لان المصيبة عامة طامة لأغلب اجزائها التى زرناها ، او قرأنا عنها اليوم ، وما اكثرنها تلك التى تستحق اللوم والعتاب ، والجزائر فى الدرجة الاولى فى هذا المجال مع الاسف الشديد !

ان المسؤولية لن يعود لها معنى اذا لم يكن امامالمسؤولين سائلون ، واذا مات حس الخير والشر فى النفوس ، وانعدم روح الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واكتفي رجال الدين بالفتاوى الادارية ، والدعاء بالخير وطول العمر لأصحاب الساعة ، واقتنعرجال الفكر والفن بالتنسيق،والتزويق ، والتصفيق!

أليست هناك اشرطة علمية ، تاريخية ، موسيقية راقية ، تربوية ، تملأ بها البرامج ، وتغذى بها العقول ، وتستطيع الاسرة مجتمعة ان تشاهدها بدون أى تخوف او احتياط ؟

هناك بلدان اوروبية تمنع بعض المناظر لا فى شوارعها فحسب ، بل حتى على شواطئها ، وفى بواديها ، وتعاقب عليها العقاب الشديد .

ونحن نرى هذه المناظر ليس فقط فى شوارع ، الكثير من البلدان الاسلامية التى نعرفها ، ولكنها تتبع الانسان الى المنزل ، وتنفذ الى صميم الأسرة !

وفى الاخير ، هل نحن مسلمون بصدق ، او فقط عن وراثة وتقليد ؟ هل نحن فى الاسلام ، ام نتتمى اليه فقط من بعيد ، بالذكريات والنسب المقطوع ، كأبناء الدوقات ، والمركيزات ، والاميرات ، والملوك ،والاباطرة ، والقياصرة ، الذين زال ملكهم ، وطردوا من بلادهم ، يعيشون فى المنفى ، وليس لهم من ملك آبائهم وأمهاتهم الا اللقب الشرفى الموروث ؟

اسمحوا لى ان اختم هذا « الوعظ والارشاد » ، كما قد يرى البعض،بذلك التحذير الذى استخف به الالمان فى احدى مراحل تاريخهم ، وندموا على ذلك مر الندم ، وهو « Wehret den Anfaengen » ! أى حذار من البداية !

والسلام عليكم



اتهام ابن خلدون
بالتحامل على العرب

د. على عبد الواحد وافى
استاذ علم الاجتماع
جامعة القاهرة

وضع ابن خلدون لبعض فصول من مقدمته عناوين يظهر منها فى بادىء الرأى انه يتحامل على الشعب العربى وينتقص من قدره . ويظهر هذا على الاخص فى عناوين ربعة فصول متتالية فى الباب الثانى (من الفصل الخامس والعشرين الى الفصل الثامن والعشرين) وفى عنوان الفصل التاسع من الباب الرابع ونصوص هذه العناوين ما يلى :

« فصل فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط » ؛ « فصل فى ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة» ؛ فصل فى ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب» ؛ فصل فى ان العرب ابعد الناس عن السياسة والملك » ؛ « فصل فى ان المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع اليها الفساد الا فى الاقل » (1) .

---

1) انظر المقدمة ، طبعة لجنة البيان العربى ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، الجزء الثانى صفحات 623 ـ 628 والجزء الثالث صفحات 991 ـ 992 (الطبعة الثانية)

والحقيقة ان ابن خلدون لا يقصد من كلمة «العرب» فى مثل هذه الفصول الشعب العربى ، وانما يستخدم هذه الكلمة **بمعنى الاعراب أو** سكان البادية الذين يعيشون خارج المدن والقرى ويشتغلون بمهنة الرعى وخاصة **رعى الابل** ، ويتخذون الخيام مساكن لهم **ويظعنون من مكان** الى آخر حسب مقتضيات حياتهم **وحاجات انفاسهم** التى يتوقف عليها معاشهم ؛ **وهم المقابلون لاهل** الحضر وسكان الامصار ؛ كما **تدل على ذلك الحقائق** نفسها التى عرضها ابن خلدون **فى الفصول التى** وردت فيها **هذه الكلمة** :

فهو يقول فى الفصل الثانى **من الباب الثانى** : **«واما من كان معاشهم من الابل فهم أكثر ظعنا ، وابعد فى القفر مجالا** ... فكانوا لذلك أشد توحشا ، وينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من **الحيوان العجم** ، **وهؤلاء العرب** وفى معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب ، والاكراد والتركمان بالشرق ؛ **الا ان العرب أبعد نجعة وأشد بداوة لانهم يختصون بالقيام على الابل فقط** » .

ويقول فى الفصل التاسع **من الباب الثانى** ، وهو الذى عنونه بقوله : « **فصل فى أن الصريح من النسب انما يوجد للمتوحشين فى القفر من العرب ومن فى معناهم** » : « **وذلك لما اختصوا به** من نكد العيش ، وشظف الاحوال ، وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التى عينت لهم **تلك القسمة وبما كان معاشهم من القيام على الابل ونتاجها** **ورعايتها ، والابل تدعوهم الى التوحش فى القفر لرعيها من شجره ونتاجها فى رماله** ... » .

ويقول فى الفصل الخامس والعشرين من الباب الثانى وهو الذى عنونه بقوله : « فصل فى ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط » : « وذلك انهم بطبيعة التوحش الذى فيهم اهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، **ويفرون الى منتجعهم بالقفر** » .

ويقول فى الفصل السادس والعشرين من الباب الثانى وهو الذى عنونه بقوله : « **فصل فى** ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » : « والسبب فى ذلك انهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش واسبابه فيهم .. وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له ، **فغاية الاحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب ، وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له فالحجر مثلا انما حاجتهم اليه لنصبه أثافى للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليها ويعيدونه لذلك . والخشب ايضا انما حاجتهم اليه ليعمدوا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم (من الشعر) ، فيخربون السقف عليه . فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو اصل العمران** » .

ويقول فى الفصل السابع والعشرين من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى عنونه بقوله : « **فصل** فى ان العرب لا يحصل لهم الملك ، الا بصبغة دينية ... » : « **والسبب فى ذلك انهم لخلق**

التوحش الذى فيهم اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض ... فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم » .

والتوحش الذى يعنيه هنا ابن خلدون ، كما يعنيه فى جميع المواطن التى يذكر فيها هذه الكلمة هو البعد عن الحضر وسكنى القفار وعدم الاستقرار وايلاف النجعة والظن من مكان الى آخر .

ويقول فى الفصل الثامن والعشرين من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى عنونه بقوله : : «فصل فى ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك » : « **والسبب فى ذلك انهم أكثر بداوة من سائر الامم وابعد مجالا فى القفر ، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم ، فضعف انقيادهم بعضهم لبعض** » .

ويقول فى الفصل التاسع من الباب الرابع وهو الفصل الذى عنونه بقوله : « فصل فى ان المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا فى الاقل » : « **والسبب فى ذلك شان البداوة** والبعد عن الصنائع ... وله والله أعلم وجه آخر ... وذلك قلة مراعاتهم لحسن الاختيار فى اختطاط المدن ... وانما يراعون مراعى **ابلهم خاصة ، ولا يبالون بالماء طاب أو خبث ولا** قل أو اكثر ، ولا يسالون عن زكاء المزارع والمنابت والاهوية **لانتقالهم فى الارض وتقلهم الحبوب من البلد البعيد . واما الرياح فالقفر مختلف للمهاب كلها ، والظعن كفيل لهم بطيبها لان الرياح انما تخبث مع القرار والسكنى** ، » .

ويقول فى الفصل الحادى والعشرين من الباب الخامس ، وهو الفصل الذى عنونه بقوله : «فصل فى ان العرب أبعدالناس عن الصنائع» : «والسبب فى ذلك **انهم اعرق فى البدو عن العمران الحضرى وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها** . والعجم من اهل المشرق وامم النصرانية عدوة البحر الرومى أقوم الناس عليها ، لانهم أعرق فى العمران الحضرى ، وابعد عن البدو وعمرانه ، **حتى ان الابل التى أعانت العرب على التوحش فى القفر والاعراق فى البدو** مفقودة لديهم بالجملة ومفقودة رعايتها »

وفضلا عن هذا كله فان ابن خلدون نفسه قد صرح بما يقصده من كلمة العرب اذ وضع للباب الثانى الذى وردت فيه الفصول الاربعة التى يبدو فيها شدة التحامل على العرب عنوانا يدل على انه انما يدرس فى هذا الباب الشعوب البدوية دون غيرها فقال : « **الباب الثانى فى العمران البدوى والامم الوحشية** » .

وذكر فى خاتمة تمهيده للمقدمة السبب الذى دعاه الى تقديم دراسة هذه الشعوب على دراسة غيرها فقال : « وقد قدمت **العمران البدوى** لانه سابق على جميعها كما **نبين لك بعد** » .

* * *

صحيح انه قد يتبادر الى الذهن مما ذكره ابن خلدون فى ثلاثة مواطن من الابواب السابق ذكرها انه يقصد شعب العرب على الاطلاق . ولكن بامعان

النظر فى هذه المواطن الثلاثة يتبين انه انما يقصد القبائل البدوية وحدها ٠ وسنعرض فيما يلى نص عباراته فى هذه المواطن مبينين ما يدل على حقيقة مقصده منها ٠

1 ــ ورد فى الفصل السادس والعشرين من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى عنونه بقوله : « فصل فى ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب » ما نصه : « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه ، وأقفر ساكنه ، وبدلت الارض فيه غير الارض : فاليمن قرارهم خراب الا قليلا من الامصار ؛ وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس اجمع ؛ والشام لهذا العهد كذلك ؛ وافريقية والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ أوائل المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها ، بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمرانا ، تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر » ٠

فمع انه يبدو من النظرة السطحية فى هذا النص انه يقصد شعب العرب على الاطلاق ، فان تأملا عميقا فى عباراته يتبين منه انه يقصد اليمن والعراق والشام فى عهودها الاخيرة المعاصرة له والقريبة منه ، وهى العهود التى تقوض فيها سلطان الخلافة المركزى وتغلبت عليها أسرات وشعوب همجية بدوية الاصل وتوزع السلطان فى كل بلد منها بين عصبيات متنافرة متناحرة وقد صرح بغرضه فيما يتعلق بافريقية والمغرب اذ ذكر انه قد اصابها هذا الخراب حينما تغلبت عليها شعوب بدوية من بنى هلال وبنى سليم ٠

2 ــ ورد فى الفصل الثامن والعشرين من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى عنونه بقوله : «فصل فى ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك» ما نصه : «فبعدت طباع العرب لذلك عن سياسة الملك ، وانما يصيرون اليها بعد انقلاب طباعهم ، وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من انفسهم ، وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه ٠ واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة ، لما شيد لهم الدين السياسة بالشريعة واحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا ، وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم ٠ كان رستم (قائد جيوش الفرس فى موقعة القادسية التى نشبت بينهم وبين المسلمين فى عهد عمر) يقول : أكل عمر كبدى ، يعلم الكلاب الآداب ٠ ثم انهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة اجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ، ورجعوا الى قفرهم ٠٠٠ فتوحشوا كما كانوا » ٠

فعلى الرغم مما يتبادر الى الذهن من ظاهر هذا النص من ان ابن خلدون يقصد به شعب العرب على الاطلاق فان تاملا عميقا فى عباراته يتبين منه انه يريد ان يقرر ان جيوش المسلمين فى حروبهم فى بلاد الفرس كان كثير من افرادها وافدين من قبائل بدوية همجية صعبة الانقياد ، وان وازع الدين هو الذى يرجع اليه الفضل فى تهذيب هذه

العناصر وتذليلها للانقياد والنظام • ويؤكد ذلك ما يذكره فى خاتمة هذا النص اذ يقول : « انهم لما نبذوا الدين نسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم فتوحشوا كما كانوا » •

3 ـ ورد فى الفصل التاسع من الباب الرابع وهو الفصل الذى عنونه بقوله : « فصل فى ان المبانى التى كانت تختطها العرب يسرع اليهـا الخراب الا فى الاقل » ما نصه : « وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا فى اختطاطها الا مراعى ابلهم ، وما يقرب من القفر ومسالك الظعن • فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعى للمدن ••• فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار ••• فلاول وهلة من انحلال امرهم وذهاب عصبيتهم التى كانت سياجا لها أتى عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن »

ولسنا فى حاجة فى هذا النص الى تأمل عميق لان عباراته نفسها تدل على انه يقصد انه قد غلبت على من اختطوا هذه المدن طباع البداوة والميل الى النجعة والظعن والتنقل والحرص على توافر مراعى الابل والقرب من القفر ، وهى الطباع التى كانت سائدة حينئذ لدى كثير من القادة والزعماء المنحدرين من قبائل بدوية • وغنى عن البيان ان هذه ليست طباعا لشعب العرب على الاطلاق وانماهى طباع لبعض قبائل من هذا الشعب وهى القبائل البدوية غير المستقرة التى تجنح للنجعة والتنقل وتعيش على مهنة رعى الابل •

* * *

هذا ، وقد اساء كثير من الباحثين فهم مدلول كلمة « العرب » فى عناوين فصول المقدمة ، ولم يمعن النظر فيما يذكره ابن خلدون تحت هذه العناوين من الامور القاطعة بأنه يقصد من هذه الكلمة سكان البادية الذين يشتغلون مهنة الرعى وخاصة رعى الابل ، ويعيشون عيشة تنقل ونجعة وهو احد المعانى اللغوية القديمة لهذه الكلمة ، وهو كذلك معنى لا يزال متداولا ومقصودا من هذه الكلمة فى الوقت الحاضر فى لهجات أهل الجزائر خاصة المناطق الشرقية منها كقسنطينة وما اليها فظن انه يقصد منها شعب العرب المقابل لشعب العجم • وممن وقع فى هذا الخطأ الاستاذ الدكتور فيقول : الدكتور طه حسين بعد ان بين مظاهر الاجتماعية » والاستاذ محمد عبد الله عنان فى كتابه عن « ابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى » طه حسين فى رسالته عن « فلسفة ابن خلدون الضعف الذى انتهى اليه امر العرب فى عصر ابن خلدون «فليس غريبا اذن ان يزدريهم ابن خلدون ولا سيما انه عاش فى ظل الاسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا افريقية الشمالية فى القرن الخامس» • ـ ويقول الاستاذ محمد عبد الله عنان بعد ان اشار الى عناوين الفصول السابق ذكرها وقرر انها تنطوى على تحامل وعداء شديدين للشعب العربى : «وقد يفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة اذا ذكرنا انه رغم انتسابه الى

1) « فلسفة ابن خلدون الاجتماعية » ترجمة محمد عبد الله عنان ـ ص 2 ، 1

أصل عربي ينتمي في الواقع الى ذلك الشعب البربري الذي افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتقاض ان يندمج اخيرا في الكتلة الاسلامية وان يخضع راغما لرياسة العرب في افريقية واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه . والخصومة بين العرب والبربر في افريقية واسبانيا شهيرة في التاريخ الاسلامي وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد . ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحدين والبربر وتقلبت في نعمهم ، فليس غريبا بعد ذلك ان نسمع منه أشد الاحكام واقساها على العرب » (2) .

وقد رتب بعض هؤلاء على فهمهم غير الصحيح لدلول كلمة « العرب » في عبارات ابن خلدون نتائج غريبة . فمن ذلك ما ذهب اليه بعضهم من ان ابن خلدون يدين بالمذهب الشعوبي المعادي للعرب وانه من الكافرين بالعروبة . ومن ذلك ايضا ما يزعمه بعضهم من ان في تحامل ابن خلدون على العرب دليلا على انه من أصل غير عربي ، وانه على الرغم من ادعائه العروبة فان طبيعة دمه تغلب عليه في تفكيره ، ومفاضلته بين الشعوب .

ومن الغريب ان يقع في هذا الخطأ باحثون من العرب حينما يسلم منه كثير من الفرنجة المستشرقين ومن الاتراك حتى القدامى منهم . واليك مثلا البارون دوسلان الذي ظهرت ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون سنة 1868 فانه يقول في تعليقه على عنوان الفصل الثاني من الباب الثاني ، وهو الفصل الذي عنونه بقوله : « فصل في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي » ما ترجمته «استخدم ابن خلدون في هذا الفصل وفي الفصول التالية كلمة العرب بمعنى البدو » ويقول في شرحه لكلمة العرب في معجم الالفاظ الملحق بترجمته للمقدمة ما ترجمته : « ان العرب عند ابن خلدون هم البدو الرحل » (3)

Les Arabes d'Ibn Khaldoun sont les Arabes nomades

وقد أشار كذلك الى هذا المعنى ضمنا لاصراحة المؤرخ التركي جودت باشا الذي لم يترجم كلمة « العرب » الى التركية بمعناها المتبادر الى الذهن وانما ترجمها على انها «قبائل عرب» او «القبائل العربية»فاضافة لفظ «قبائل» هنا يفيد ذلك المفهوم البدوي لا الحضاري،وهو المفهوم الذي قصده ابن خلدون .

ومع ذلك فقد وددنا لو استعمل ابن خلدون كلمة « البدو » في هذا المقام ، وهي الكلمة الصريحة فيما يقصده ، بدلا من كلمة « العرب » التي تطلق احيانا على المعنى الذي يقصده (لان الواقع انه لم يات بهذا المعنى من عنده ، بل انه احد المعاني اللغوية القديمة للكلمة) ، ولكنها في الغالب تطلق على الشعب العربي . واذن لاتقى هذا اللبس ، ولما اتاح لاحد مجالا للاعتراض

2) محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ، الطبعة الثانية — ص 12 ، 121
3) Vol. 3, p. 488

عليه . ومن ثم كان الاستاذ محمد جميل بيهم محقا اذ يقول : « لقد كان ابن خلدون جليا فى انه كان يذم البدو دون العرب ، وذلك بالفصول الاربعة التى جاءت تحت عنوان « فى العمران البدوى والامم المتوحشة والقبائل » ؛ كما كان واضحا فيما بعد انه كان يطرى العرب ويشيد بهم وبحضارتهم فى الاسلام وما قبله . ولكن مصدر الالتباس يرجع الى انه فى الحالتين استخدم كلمة « العرب » فترك المجال للشعوبيين لان يتجاوزوا قصد المؤلف الى التمسك بالكلمة دون المعنى ، والى اتخاذها حجة لهم فى التنديد بالعرب والحط من شأنهم » (4)

ولكننا لا نوافق الاستاذ محمد جميل بيهم فيما ذهب اليه بعد ذلك من انه من المحتمل ان يكون ابن خلدون قد قصد هذا الابهام وتعمده تزلفا لاصحاب السلطان عند أهل المغرب من البربر ؛ لاننا لم نجد من استقراء كلام ابن خلدون واحواله ما يدل على تعمده هذا الغموض لغرض ما . هذا الى انه لم يأت من عنده بالمعنى الذى قصده من كلمة « العرب » فى الفصول السابق ذكرها ، بل انه احد المعانى اللغوية القديمة للكلمة كما ذكرنا ذلك من قبل (5) .

4) محمد جميل بيهم : « العروبة والشعوبيات » ص 52 ، 54

5) انظر فى هذا الموضوع بحثين قيمين : احدهما للمرحوم ساطع الحصرى فى كتابه « دراسات عن ابن خلدون » ص 151 — 168 ؛ الآخر لصديقنا الاستاذ محمد عبد الغنى حسن فى عدد مايو 1961 (المجلة) بعنوان : « ابن خلدون بين الشاعرية والشعوبية والنصوص »



... ان الضيق الذى يشعر به الاوروبيون او الامريكيون اليوم فى بعض مرافـق الحياة ، ويعانيه مسؤولو دولهما فى مجال الطاقة ، وهم الذين يعيشون فى بـذخ ولا مبالاة وتجاهل للغـير ، سيجعلهم يتساءلون عن السبب الحقيقى لكل هذا البـلاء ، ويتصورون قليلا ما يعانيه شعب بأكمله . هو الشعب الفلسطينى ، لا فى مجـال الحرمان المـادى فحسب من حيث ضرورات المعيشة ، ولكن خاصة بسبب العـذاب النفسى المتمثل فى تجريده من اكسـير هذه الحياة نفسها الذى هو الحرية والكرامة ..

لقد ظلت النداءات الى الراى العام العالمى لمراعاة نكبة الشعب الفلسطينى بدون صدى ، والتلويح بل والتصريح باستعمال بعض الاسلحة العربية يثير على الشفـاه ابتسامة التشـكك ، بل والسخرية المرة ، والتهكم اللاذع ، ولم يسمع للامة العربيـة الا بعد ان بدأت تعطى اقوالها مضمونا فعليا ، وبدت قوتها مجسمة فى مجال الحيـاة الاقتصادية ومرافق الحياة الضرورية لكثير من بلدان العالم وبرز وجودها وكيـانها فجأة على المسرح العالمى .

وكم كنا ننتظر ــ ولا نزال ــ ان تعيد اوروبا تقييمها لعلاقاتها بالامة العربيـة ، لا على اساس اعتبارها منابع للطاقة وسوق استهلاك ، ولكن كمجموعة بشرية كبـرى لها وجودها بحضارتها وقيمها وكرامتها وحقها فى الحياة عزيزة غيورة على هـذه العـزة والـكرامة .

الرئيس بومدين فى اختتام مؤتمر القمة العربى السادس بالجزائر

حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية
في المغرب العربي
في القرن التاسع عشر

د٠ الحبيب الجنحاني
كلية الآداب
جامعة الجزائر

تعد حركة التبشير من أخطر الحركات التى واجهها العالم الاسلامى فى تاريخه الحديث والمعاصر ، وازداد خطرها عندما ارتبطت فى القرن التاسع عشر بالنظم الاستعمارية التى فرضت على كثير من البلدان الاسلامية ٠

(+) هذا نص المحاضرة التى القيت فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد من ١٠ الى ١٩٧٣/٧/٢٢ م بمدينة تيزى وزو بالجزائر ٠

ان تاريخ حركة التبشير ، والمراحل التى مرت بها ، والاساليب التى استعملتها معروف من الناحية الدينية ، وتصدى كثير من المفكرين المسلمين ، ولا سيما فى المشرق الاسلامى ، للرد على حملات التنصير ، والتهجم على الاسلام ، ولكن القضية التى سنحاول معالجتها هنا هى ارتباط حركة التبشير بالسياسة الاستعمارية ، وهى ظاهرة نجدها فى جميع البلدان التى استعمرتها الدول الاوروبية ، تعترضنا فى تاريخ الاستعمار فى الشرق الاقصى ، وفى البلدان الافريقية جنوب الصحراء ، وفى أمريكا اللاتينية بالنسبة للاستعمار الاسبانى والبرتغالى ، ولكننا سنقتصر فى هذه الكلمة على المغرب العربى خلال القرن التاسع عشر .

ان ارتباط الكنيسة بالاستعمار ما يزال فى حاجة الى دراسات علمية مركزة تعتمد خاصة وثائق الكنيسة من جهة ، ووثائق الادارة الاستعمارية من جهة أخرى ، وتدرس بدقة رد فعل المجتمع الاسلامى ضد حركات التبشير ، وما اتصل بها من أساليب تبشيرية مقنعة ، وتعوز الباحث الوثائق الكافية عن رد فعل البلدان الاسلامية نظرا للوضع الذى كان عليه العالم الاسلامى آنذاك ، وندرة النصوص الاصلية حول رد الفعل هذا .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المؤرخين الاوروبيين الذين كتبوا عن تاريخ بلدان المغرب فى القرنين التاسع عشر والعشرين لم يتحدثوا عن حركة التبشير ، ودور الكنيسة فى تدعيم أسس النظام الاستعمارى الفرنسى ، ونميل الى انه سكوت مقصود ، فنجد مثلا أحد المختصين الفرنسيين فى تاريخ المغرب العربى الاستاذ شارل أندريه جوليان يضطر فى كتابه « تاريخ الجزائر المعاصرة » Histoire de l'Algérie contemporaine **الى التعرض فى صفحات مقتضبة وبحذر** واضح الى دور الكردينال لا فيجرى بالرغم من أنه دور خطير فى الفترة التى يعالجها الكتاب .

ان الباحث يستغرب من هذا الصمت ، خاصة حين يدرك أن الكنيسة كانت تمثل دعامة أساسية من دعائم السياسة الاستعمارية ، فهى ثالثة الاثافى : الجندى الاستعمارى والصليب ، والمعمر .

وقبل الحديث عن حركة التبشير فى القرن التاسع عشر نتساءل كيف كان وضع الاقليات المسيحية فى العالم الاسلامى قبل هذا العهد ، وما هو التحول الذى حدث فى القرن التاسع عشر ؟ ان من المعروف أن الاقليات المسيحية فى العالم الاسلامى فى العصر الوسيط كانت تتمتع بحماية الدولة الاسلامية ، وبحرية ممارسة طقوسها الدينية ، خاضعة لمبادىء الشريعة الاسلامية فى معاملة أهل الكتاب ، وهكذا كانت العلاقات بين المسيحية والاسلام علاقات طبيعية تتسم بروح التعايش والتفاهم ، وبروح التسامح الاسلامى ، وقد تغيرت طبيعة هذه العلاقات حين شنت أوروبا المسيحية حملاتها الصليبية ضد العالم الاسلامى (١٠٩٦ م — ١٢٧٠ م) .

وبعد انتهاء الحروب الصليبية ، وانتصار العالم الاسلامى اصبحت الاراضى المقدسة ، ومدينة القدس بالذات خاضعة لسيادة الدولة الاسلامية ، وهو الوضع الجديد الذى يطلق عليه مؤرخو الكنيسة « سقوط مملكة القدس اللاتينية تحت ضربات المسلمين » .

وحاول العالم الاسلامى أن يطوى صفحة الماضى الاليم بالرغم من المآسى التى مر بها المجتمع الاسلامى أثناء الحملات الصليبية ، وسمح للاقليات بممارسة نشاطها التجارى، وأداء طقوسها الدينية ٠

ولكن الكنيسة لم تنس انتصار المسلمين ، واستعادتهم لبيت المقدس ، واضطرت بعد هزيمتها العسكرية أن تغير السياسة فحولتها من سياسة عسكرية الى سياسة ديبلوماسية ، وخاصة بعد سقوط عاصمة البيزنطيين ، القسطنطينية تحت ضربات دولة اسلامية قوية آنذاك ، الدولة العثمانية ٠

وقد بدأ هذه السياسة الديبلوماسية فرانسوا الاول فى اتفاقية سنة ١٥٣٥ م مع الباب العالى ، فاستقر رهبان يسوعيون فرنسيون فى اسطنبول ابتداء من ١٥٨٣ م ، فعوض التسرب الفكرى والدينى ، والبعثات التبشرية الحملات العسكرية٠

وبالرغم من هذه الاتفاقيات فقد كانت الدولة الاسلامية ايام قوتها آنذاك بالمرصاد لمحاولات التبشير ، وكانت البعثات الدينية تقصر نشاطها بين افراد الجاليات المسيحية المقيمة فى كثير من المدن الاسلامية ، وخاصة الساحلية منها ، لانها كانت تمارس التصدير والتوريد بالخصوص فى نشاطها التجارى ٠

فقد كانت تعيش فى كثير من المدن المغربية أقليات مسيحية تحترف التجارة وتمارس طقوسها الدينية بكل حرية ، فنجد أقليات فى طنجة ، وتبسه ، ووهران ، وتلمسان والجزائر ، وبجاية ، وعنابة ، وتونس ، والمهدية ، وصفاقس ، وقابس ، وجربة ، وطرابلس ، وكانت لهم كنائسهم ومقابرهم الخاصة بل اتخذ بعض أمراء المغرب الاقصى ، وتلمسان وبجاية وتونس حرسا خاصا من المسيحيين ، وسمحوا لهم بممارسة طقوسهم الدينية ، وقامت جمعيات مسيحية تآلفت لشراء العبيد المسيحيين ، ولا سيما أولئك الذين أسروا اثناء الغزوات البحرية التى قامت بها سفن مغربية ضد القراصنة الاوروبيين ، بنشاطها بكل حرية ٠

ولكننا نلاحظ أن رد فعل المجتمع الاسلامى كان دائما عنيفا حين تجاوزت البعثات المسيحية حدود نشاطها بين الاقليات الاجنبية ، وقامت بحملات تبشيرية ، مهاجمة للاسلام ٠

فلما ارسل سان فرانسوا داسيس Saint-François d'Assise أنصار طريقته الجديدة Françiscains سنة ١٢١٩ الى تونس والمغرب الاقصى للقيام بالرسالة التى أوصاهم بها : (التبشير بدين المسيح بدون خوف وتحمل جميع الوان العذاب) ، ونزلوا فى ميناء حلق الوادى مبشرين بالمسيحية ، مهاجمين الاسلام كاد أن يبطش بهم المسلمون ، فاحتموا بالتجار المسيحيين المقيمين هناك ٠

ونرى أن المجتمع الاسلامى يقوم فى هذه الحالات بالدفاع الذاتى دون الالتجاء الى الحاكمين ٠

وأمام موقف المسلمين هذا ، وانتشار حركة القرصنة تقلص ظل الحركة التبشيرية فى المغرب العربى قبل القرن التاسع عشر ٠ وأشهر المبشرين الذين ارسلوا الى تونس ، ثم الجزائر فى القرن التاسع عشر هو « جآن لوفا شى Jean le Vacher » الذى قام بدور تمهيدى خطير لحركة التبشير فى تونس أولا (من ١٦٥٠ م الى ١٦٦٨ م) ، ثم انتقل الى الجزائر ليقوم بنفس الدور ٠

ولكن الوضع يتغير جذريا مع بداية القرن التاسع عشر فالدولة العثمانية تنتقل من حالة ضعف عسكرى ، وتقهقر أمام الجيوش الاوروبية، وحالة ركود اقتصادية ، وتعفن نظام الحكم المطلق القهرى الى حالة أزمة خانقة جعلت حالة الرجل المريض تزداد سوءا من فترة لأخرى ، ويصبح عاجزا عن الوقوف أمام التوسع الاستعمارى الاوروبى ٠ أن الاحتلال الرسمى لكثير من اجزاء

العالم الاسلامى لم يسبقه تسرب اقتصادى ، ونفوذ سياسى فحسب بل مهد اليه تسرب دينى تبشيرى ويكفى أن نذكر هنا بالاتفاقيات التى فرضتها الدول الاوروبية على الباب العالى ، والتى تنص على الحقوق التجارية والسياسية للدول الاوروبية ، وعلى الحريات الدينية للاقليات الاوروبية الخاضعة للدولة العثمانية ، وما أدى اليه ذلك من نظام الامتيازات ، الشهير ، ونذكر ايضا بقضية الاراضى المقدسة ، واستغلالها من طرف الدول الاوروبية لفرض سيطرتها على العالم الاسلامى ، وتعديتها للحروب الدينية والطائفية فى بلاد الشام بالخصوص ٠

فلا غرابة ــ اذن ــ أن نجد الكنيسة تسير فى مقدمة الزحف الاستعمارى الفرنسى على أقطار المغرب العربى ، وجعل احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠ حركة التبشير فى المغرب تدخل عهدا جديدا ٠

وتستعمل الكنيسة فى تبريرها لمناصرتها للسياسة الاستعمارية ذلك الاساس النظرى الذى استند اليه مفكروها فى اثبات حق الاستعمار ، وربطه بحق التبشير ، وقد شرحه العالم الدينى الاسبانى « فرانسوا دوفيتوريا François de Vittoria وبقى مفكرو الكنيسة يعتمدون الى الثورة

الجزائرية حيث نجد الحركات الدينية الرجعية تستند على ذلك الاساس النظرى لتبرير موقفها فى مناصرة سياسة القمع التى اتبعتها الادارة الاستعمارية ضد الشعب الجزائرى المجاهد (١) ٠

ويتلخص هذا الاساس النظرى فى أن العالم قد خلق لجميع الناس ، ولا يستطيع اى شخص أن يضع العراقيل أمام بلوغ الانسان ثروات العالم حيثما كانت ٠ ان الانجيل يأمر قائلا : « اذهبوا وعلموا جميع الامم » ، ولا يمكن لاى شخص أن يعرقل الدعوة التبشيرية بدين المسيح ٠

فقد أصبح حق التبشير ، اذن ، وحق الاستعمار ، والاستيلاء على ثروات الشعوب الاخرى حقا واحدا ، وهو بالتالى حق استعمال العنف ضد كل شعب يدافع عن أرضه ، وثرواته ، وعقيدته ٠

وقد أشرفت البابوية نفسها على تقسيم المستعمرات فى البداية ، فلما نشب الخلاف بين البرتغال واسبانيا حول التجارة الافريقية أعلن البابا نيقولا الخامس عن حق البرتغال فى احتلال الاراضى الافريقية الى غينيا ، وما بعدها ، وحرم على بقية المسيحيين ممارسة التجارة فى هذه المناطق مهددا اياهم بالطرد من الكنيسة ٠

ولما برزت اسبانيا كقوة بحرية كبرى بعد اكتشافات (كريستوف كولومب) قسم البابا الكسندر يوم ٤ ماى ١٤٩٣ م مناطق النفوذ فى العالم بين اسبانيا والبرتغال ٠ ولا مناص هنا من توضيح ثلاث نقاط :

أولا ــ قد يتساءل أحد المستمعين قائلا :

ولكن الكنيسة نددت ببعض حركات القمع التى قامت بها النظم الاستعمارية ضد الشعوب المستعمرة ؟

قد وقع التنديد فعلا فى بعض الحالات ولكن لا بد أن نعرف أنه صدر عن بعض رجال الكنيسة ، أو عن ممثليها المحليين ، ولكن ليس عن الكنيسة كمنظمة ، وهذه المواقف النادرة نددت بعمل معين دون أن تدين النظام الاستعمارى نفسه ٠

ثانيا ـ ان الكنيسة قد غيرت أساليب سياستها التبشيرية فى القرن التاسع عشر نتيجة تجربة طويلة امتدت من نهاية الحروب الصليبية الى القرن التاسع عشر ، فأصبحت لا تدعو مباشرة الى اعتناق المسيحية ، وخاصة فى المجتمع الاسلامى ، ولا تهاجم الاديان الاخرى ، ومن المعروف أن هذه السياسة القديمة تسببت لها فى مشاكل معقدة بل ركزت جهودها على ميدانين أساسيين : « الاعمال الخيرية » من انشاء المستشفيات ، ومأوى لليتامى والعجز ، وارتفع شعار «الطب فى خدمة التبشير» من جهة ، وانشاء المدارس من جهة أخرى ٠

وهكذا عملت الكنيسة على تدعيم ثقافة المستعمر ، ومحاولة طمس الثقافة الوطنية ، آملة أن تصل عن طريق التسرب الفكرى الى التسرب العقائدى ٠

ثالثا ـ ان هذه النقطة الثالثة تتصل بتعاون الكنيسة الفرنسية مع النظام الاستعمارى الفرنسى فى بلدان المغرب العربى ، لانه يبدو أن هنالك تناقضا بين مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وسياسة الحكومة اللايكية فى فرنسا نفسها والتعاون المتين بين الكنيسة والادارة الاستعمارية فى المستعمرات الفرنسية ، وهو التناقض الذى لاحظه مستشرق فرنسى شاب أصبح فيما بعد من كبار المبشرين « أوجان بور » Eugène Bore حيث كتب من سوريا يوم ٣٠ نوفمبر ١٨٣٧ يشير الى هذا التناقض بين سياسة الحكومة الفرنسية اللايكية فى فرنسا مساندتها الواضحة لحركات التبشير فى المشرق الاسلامى ، ولكن اعترافه بنتائج هذه المساندة لدى الاقليات المسيحية فى المشرق ، وانتصاب العلم الفرنسى مرفرفا فوق الكنائس هنالك يكشف عن أهداف هذه السياسة رغم ما يبدو عليها من تناقض (٢) ٠

ان سياسة الدولة الفرنسية تجاه الكنيسة فى المستعمرات لا يدع مجالا للشك فى اعتماد السياسة الاستعمارية الفرنسية على الكنيسة ورجالها ٠ وقد قبلت الكنيسة هذا الدور بالرغم من موقف الدولة تجاهها فى فرنسا نفسها لانه يمكنها من تنفيذ أهدافها السياسة والدينية التى تتحد مع أهداف النظام الاستعمارى ٠

وقد اتسمت علاقات حركات التبشير بالنظام الاستعمارى الفرنسى فى بلاد المغرب بطابع التعاون الوطيد ، ورأت فى احتلال الجزائر عسكريا فتحا مسيحيا وبداية اعادة امجاد الماضى وتحقيق الحلم القديم حلم افريقيا المسيحية ، ومن الاعمال الاولى التى قامت بها الكنيسة بعد انتصابها تحت حماية الجيش الفرنسى فوق أرض الجزائر العربية المسلمة محاولة كتابة تاريخ الكنيسة الافريقية ، والعودة الى العهدين الرومانى والبيزنطى لتعطى لرسالتها التبشيرية الجديدة أسسا تاريخية تعود الى قرون بعيدة وترى فى الفتح الاسلامى وانتشار الاسلام فى أرض المغرب العربى غلطة لا تغتفر جعلت الدور التبشيرى الجديد تفصله عن الكنيسة الرومانية قرون طويلة من الصعب طمسها بسهولة ٠

ومن ابرز الرهبان الذيـن كرسوا جهودهم لكتابة تاريخ الكنيسة الافريقية الراهب (ج مسناج) Jean Mesnage (3).

وقد وردت عليــه رسائل الشكـر والتمجيد من رجال الكنيسة بمناسبة صدور كتابه « المسيحية فى افريقيا » ، كتب اليه الاسقف «قوتى » Gotti قائلا : « أهنئكم على دراستكم الجديدة الهادفـة الى القاء اضواء على أمجاد الحضارة المسيحية فى افريقيا الرومانية » ، وكتب اليه « بيار فرنان » Pierre Firnane أسقف وهران بقول : « ... ولا بد من الاشارة الى الفعلين ٤ و ٥ حول توســع دعاية التبشير فى هذا البلد الذى أصبح بلدنا» ! !

ونشطت الكنيسة اثر احتــلال الجزائر فى تنظيـم هياكلهـا فى الجزائــر ، وبعـث جمعيات تبشيرية ، فبعث القساوسة جمعية المبشرين وجاء قانون الابرشة الصادر سنة ١٧٤٩ ينص فى أحد بنوده على ما يلى :

« لا ينسى الرهبان رسالتهم الاصلية لــدى الاهالى ، أى تنصيرهم عندما تحين الفرصة ، ولذا يجب عليهم تعلـم العربيــة ، والقــرآن ، ودراسة عــادات الاهــالى وتقاليدهــم حتى يتمكنوا مــن اطلاعهم على الجانــب الغــالط واللااخلاقى فى عقيدتهم » (٤) ٠

وأول من تزعم حركة التبشير فى الجزائر ، ثم تونس فى القرن التاسع عشر ، وقام بدور كبير هو الكاهن فرانسوا بورغاد (١٨٠٦ ــ ١٨٦٦) (٥) ، فقد برز دوره ، فى تونس بعد قدومه اليها من الجزائر سنة ١٨٤٠ مرافقا « لاخوات الصفاء الساعيات فى مصالح الفقراء والمرضى ابتغــاء مرضاة اللــه » ، وقــد غادرن الجزائر متوجهات الى تونس بعد خلا فهن مع اسقف الجزائر ٠

وقد طبق بورغاد أساليب التبشير الجديدة فأسس مدرسة ، ومعهد سان لويس ، ومستشفى ، ومطبعة حجرية ، (٥) والف كتبا بطريقة الحــوار البسيط حول قضيا الاديان ليصل فى نهاية الحوار الى تفضــيل المسيحية على الاســلام ، وضرورة اعتناقهــا ٠

وقد أســس سنة ١٨٤٧ م « جمعيــة ســان لويــس أو حملــة صليبيــة سلميــة هدفها نشــر الحضارة المسيحية بين المسلمين بواسطة مؤلفات مكتوبة فى لغتهم ، أو مترجمة اليها » ٠

واشهر مؤلفاته « مسامرة قرطاجنة » ، وقد طبع بالفرنسية أولا فى باريس سنة ١٨٤٧ م ، ثم ترجمه مع أحد تلامذة معهــد سان لويس سليمان الحرارى (١٨٢٤ م ــ ١٨٧٧ م) وطبع فى مطبعة الحجرية فى تونس سنــة ١٨٥٠ م ، وقــد طبــع بالعنوان التالى « مسامــرة قرطاجنة ، محادثات بين مفت وقاض وراهب نصرانى » ، ثم الف كتاب « مفتاح القرآن » ، وكتابا ثالثا بعنوان « المرور من القرآن الى الانجيل » ٠

ولا نريد هنا أن نسهب الحديث عن أعمال الكاهن بورغاد التبشيرية ، ولكننا نريد الاشــارة الى أنه استطاع أن يقوم بهذا النشاط التبشيرى فى تونس ، وهى لم تستعمر بعد ، وذلك نتيجــة النفوذ الاوروبى ، وتأثير احتلال الجزائر عــلى الاوضاع فى تونس وكان عمله يهدف الى تمهيد احتلال البلاد التونسية ، فقد سعى جاهدا الــى بيان فضــل الانجيل على القــرآن ، والى خدمــة أهداف الاستعمار الفرنسى ، ونجده فى المحاورة الاولى مــن كتابه « مفتاح القــرآن » يحضــر فى الحوار شخصــية جزائريــة يلقبها « بالدريرى » ليخصص فصلا طويلا عن « مشاريــع الحكومــة

الفرنسية الرامية الى تحسين حالة الاهالى فى الجزائر » وليشنع على الامير عبد القادر وانصاره ، اذ « أن سلوكه فى افريقيا يضر مصالح العرب ودين القرآن أكثر مما ينفعها » (٦) ٠

وتاتى ثورة ١٨٤٨ فتضطرب الاحوال فى فرنسا ، ويغادر تونس بعد ذلك ليواصل نشاطه فى باريس ، وقبل أن يموت مسنا تعترف الدولة الفرنسية بدوره فى خدمة السياسة الفرنسية فى أقطار المغرب فتقلده وسام الشرف الفرنسى ٠

عاشت السياسة التبشيرية فى المغرب منعرجا جديدا على يد شخصية بارزة ركزت جهودها لتدعيم الكنيسة والنظام الاستعمارى فى كل من الجزائر وتونس سنوات طويلة ، ونعنى هنا شخصية الكردينال لافيجرى (١٨٢٥ م — ١٨٩٢) (٧) فقد كان أول اتصاله بالعالم الاسلامى ، وبنصارى الشرق الاسلامى سنة ١٨٦٠ م حين زار بلاد الشام، وحمل الى المسيحيين هنالك اعانة جمعت فى أوروبا لمساعدة المسيحيين الذين اضطهدهم الدروز فى الحرب الطائفية ألتى اندلعت بين الدروز والمسيحيين ، والتى أثارتها الدول الاوروبية نفسها فبرز تدخلها فى شؤون الباب العالى ، وآمن آنذاك أن الاسلام أخطر أعداء المسيحية ، ولذا يجب العمل على القضاء عليه ، وتخليص معتنقيه من شروره ، وادخالهم فى احضان المسيحية ، ويعود من المشرق الى باريس مارا بالباب فى الفاتيكان فيحرضه على مساندة حركات التبشير فى العالم الاسلامى ، ولفت انتباهه الى أهمية الموضوع ، وفى باريس تعترف الحكومة الفرنسية بدوره فى خدمة السياسة الفرنسية فى العالم الاسلامى فتسند اليه ، اعترافا بالجميل ، وسام الشرف الفرنسى فى ٨/٢/ ١٨٦١ م ٠

وقد ارتبط تعيينه من طرف الماريشال ماك ماهون ، حاكم الجزائر العام ، أسقفا فى الجزائر بأسطورة رؤيا سبقت هذا التعيين رأى فيها رسالة الاهية للقيام بعمل مسيحى جبار فى هذه القارة الافريقية التى يجب ان يعادلها مجدها المسيحى الرومانى قبل كل شىء ! !

ولما وطئت قدماه لاول مرة الارض الجزائرية فى ١٥ ماى ١٨٦٧ م كان يؤمن :

أولا — أن الجزائر هى نقطة الانطلاق التى ستتسرب منها حركة التبشير الى افريقيا كلها ٠
ثانيا — أن نشر المسيحية ركن اساسى فى البناء الاستعمارى الذى تنشده فرنسا ، فالكنيسة وفرنسا متحدان لاحياء أمجاد الماضى ، فقد كتب الى رهبان الجزائر يوم ٥ ماى ١٨٦٧ قائلا : « سآتيكم ، اخوانى الاعزاء ، فى ساعة مشهورة فى تاريخ افريقيا المسيحية ٠٠٠ الكنيسة وفرنسا متحدان لاحياء أمجاد الماضى » ٠
ثالثا — انه جاء لاحياء الماضى المجيد ، فهو الوارث لكرسى القديس سيبريان فهو يقول : « وكنيسة تونس هى كنيسة قرطاج الا أن قرطاج ٠٠ هى مهد المسيحية فى افريقيا وفيها كرسى الجاثليق المشرف على سبعمائة كنيسة أسقفية وهى مدينة العديد من الشهداء والعلماء والمعرفين والعذارى المقدسات ، هى مدينة ترتيليان ، وسيبريان ، وفو لجانس ، وفيليسيتى ، وبربيتو ، ومدينة تلك المجامع الشهيرة التى كانت مدة طويلة نور العالم المسيحى » (٨) ٠

وهذا الدور التبشيرى سوف لا يقتصر على انقاذ الشعب الجزائرى وادماجه فى فرنسا بعد تنصيره كما يقول بنفسه : « واذا وقعت المواظبة على هذا المشروع (مشروع تربية الاطفال) ٠٠٠

فستكون لنا بعد بضع سنوات مشتلة من العمال النافعين المؤيدين لاستعمارنا الفرنسى والاصدقاء له ، ولنقلها بوضوح : من العرب المسيحيين ، ان هؤلاء الاطفال الساكين الجاهلين غاية الجهل بكل شيء سواء بامور دينهم ، او بغيرها ، ليس لهم حتى من هذه الوجهة اى راى مسبق واى نفور منا ، ولا اشك فى ان الكثير منهم متى استفادوا من اقوالنا سيطلبون بانفسهم يوما ما التعميد ·

وسيكون ذلك بداية تجدد هذا الشعب ، وهذا الادماج الحقيقى الذى يبحث عنه لكن بدون طائل لان البحث عنه قد كان الى حد الآن مع القرآن ، وسنكون مع القرآن بعد الف سنة كما نحن اليوم كلابا من المسيحيين وسيكون ذبحنا والقاؤنا فى البحر عملا مقدسا يثاب عليه صاحبه ··· يجب انقاذ هذا الشعب ، ينبغى الاعراض عن اخطاء الماضى لا بد من الكف عن حصره فى قرآنه كما وقع ذلك فى مدة طالت اكثر من اللازم وكما يراد فعله الآن بواسطة مملكة عربية مزعومة ، يجب ان نلهمه ، عن طريق ابنائه على الاقل ، احاسيس اخرى ومبادىء اخرى ، وينبغى ان تقدم له فرنسا ، بل انا مخطىء ، تسمح بان تقدم له مبادىء الانجيل باشراكه اخيرا فى حياتنا ، او ان تطرده فى الصحارى ، بعيدا عن العالم المتمدن (٩) المسيحية — اذن — او التشريد فى الصحارى ، قد اشرنا الى ان الدور التبشيرى سوف لا يقتصر على انقاد الشعب الجزائرى فحسب ، بل يجب ان يعبر الصحراء ، ويشمل شعوب افريقيا الوسطى بعد ان « اصبحت الجزائر المسيحية بسرعة حقيقة حية » فى نظر لا فيجرى ، وقد ارسل دعاته فعلا يبشرون بالمسيحية بين شعوب افريقيا الوسطى (١٠) ·

فهو يقول فى رسالته الشهيرة الموجهة الى رهبان الجزائر : « اننى سميت لتحقيق الفتح معكم ، ولجعل الارض الجزائرية مهدا لامة عظيمة سخية ، مسيحية ، فرنسا اخرى ·

وفى كلمة واحدة : نشر من حولنا الانوار الحقيقية يكون فيها الانجيل المنبع والقانون ، وحمل هذه الانوار الى ما وراء الصحراء ، الى قلب هذه القارة الكبرى السابحة فى الوحشية ، اى ربط افريقيا الشمالية وافريقيا الوسطى بحياة الشعوب المسيحية ، ذلك هو المصير الذى اختاره لنا الاله (١١) وقد ادى تعصبه لسياسة التبشير ، وادماج الشعب الجزائرى فى الشعب الفرنسى عن طريق التنصير الى ظهور خلاف بينه وبين المسؤولين العسكريين فى الجزائر ، وفى مقدمتهم الماريشال « ماك ماهون » لانه اراد ان يبث المبشريين بين القبائل الخاضعة للسلطة العسكرية التى تخشى رد الفعل ، واندلاع ثورات جديدة ، ولكن الكردينال لافيجرى يريد ان يحمى الجيش الفرنسى حركات التبشير ، ويشن حملة ضد سياسة الحكومة الرسمية الهادفة انذاك الى بعث مملكة عربية داخل الامبرطورية الفرنسية، ويقول : ان القضية ليست قضية بعث مملكة عربية بل هى قضية ادماج عن طريق التنصير ، ويصبح لافيجرى يمثل سلطة الكنيسة فى الجزائر التى فاقت السلطة السياسية والعسكرية ، وبالرغم من معارضة « ماك ماهون » لسياسة الكردينال التبشيرية المفضوحة ، وتهجمه على الاسلام — وقد خشى الماريشال ان يؤدى الى حرب دينية — وبالرغم من تحفظ الامبراطور نابليون الثالث ، وقد نصح الكردينال بسلوك سياسة لبقة وحذرة فى هذا الميدان ، فان الكردينال يواصل سياسته التبشيرية

ويستغل الكردينال انتشار المجاعة سنة ١٨٦٨ م فينشىء ماوى للارامل واليتامى فى سهول وادى شلف يريدها أن تتحول الى «قرى عربية مسيحية» ويرسل رجال طريقته الجديدة ، « جمعية مبشرى افريقيا » المعروفة « بالاباء البيض » لجمع الاطفال الايتام ، ليوزع عليهم الخبز اولا ، ثم لينصرهم فيما بعد وقد اتهمه ماك ماهون نفسه بانه « يريد أن يدفع اولئك العرب المساكين ثمن الخبز الذى يوزعه عليهم بالتضحية بدينهم » ، وحاول عبثا أن ينفذ هذه التهمة ، لان سلوكه يصدقها ، فقد جمع ١٧٥٣ يتيما وأراد تنشئتهم فى القرى التى انشاها، ولما طلب منه اعادتهم لاسرهم بعد المجاعة رفض ذلك رفضا باتا ، وقال : « لا يمكن أخذهم من مآويهم الا بالقوة » .

ولم يتورع الكردينال من اختلاف قصص خيالية ليبين نتائج تنشئه لاطفال مسلمين ، فرجال الكنيسة الذين ارخوا لحياة لافيجرى يذكرون قصته مع « شارل عمر بن سعيد » بكل فخر ، واسمحوا لي ان اقصها عليكم كما وردت فى كتاب الراهب « بونارد » Bounard عن لافيجرى (ج ١ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤) .

التقى لافيجرى نفسه يوما من أيام سنة ١٨٦٧ م مع شاب فى سن العاشرة تقريبا ، فجرت المحادثة التالية : بين الكردينال وبين الشاب الجزائرى الذى اصبح يعرف باسم « شارل عمر بن سعيد » .

ـ من اين أنت قادم يا بنى ؟

ـ من الجبل ، بعيدا ، بعيدا

ـ وأبواك ، اين هما ؟

ـ ابى توفى ، وأمى فى كوخها .

ـ لم فارقتها ؟

ـ قالت لي : نفد الخير هنا ، اذهب الى قرى المسيحيين ، فأتيت .

ـ ماذا فعلت فى الطريق ؟

ـ اكلت العشب ، أسير نهارا فى المروج ، وفى الليل اختفى فى الحفر حتى لا يختطفنى العرب ، فقد قيل لي : انهم يقتلون الاطفال ، ويأكلونهم .

ـ والآن ، أين ستذهب ؟

ـ لا أعرف .

ـ هل تريد أن تذهب الى شيخ زاوية عربى ؟

ـ لا ، ابدا ، فلما ذهبت الى هؤلاء الشيوخ اطردونى ، فاذا لم اذهب بسرعة اطلقوا على كلابهم .

ـ هل تريد أن تبقى معى ؟

ـ نعم ، بكل سرور اريد ذلك .

ـ اذن تعال الى دار أطفالى ، ساعاملك مثلهم ، وستسمى مثلى « شارل » .

ويصبح شارل عمر هذا مسيحيا ـ حسب هذه القصة ـ ويتزوج مسيحية ، ويقول له الاسقف بعد مدة :

ـ هل تريد الرجوع الى امك ؟

ـ لا ، لا اريد

ـ لماذا ؟

ـ لانني وجدت أبا أحسن من والدتى !

وهكذا يصل لافيجرى الى بيت القصيد ، فينهى أسطورته فى سرور واطمئنان .

وقد اختار لافيجرى منطقة القبائل الكبرى بصفة خاصة لتطبيق خطته التبشيرية ، ولذا ليس

من الحدس التاريخى القول : ان احد العوامل الرئيسية فى اندلاع الثورة الشعبية فوق هذه الارض المجاهدة ، الثورة المعروفة بثورة المقرانى (١٨٧٠ ـ ١٨٧١ م) يعود الى رد فعل السكان ضد سياسة التنصير هذه ، واستغلال مجاعة سنة ١٨٦٨م فجمع الارامل واليتامى فى قرى لافيجرى المسيحية ، خاصة اذا ذكرنا هنا سياسته الرامية الى بث الشقاق بين العرب والبربر ، وقد بدأ أحد اتباعه الراهب « كروزات Creuzat يعمل فى هذا الاتجاه ، ولكن سياسته باءت بالفشل الذريع حيث يعترف الكولونال « هانوتو Hanoteau فى تقاريره باضطراب الوضع فى المناطق التى نشط فيها الراهب ، وبرد فعل السكان ، الامر الذى أدى الى قلق السلط العسكرية ، وخشيتها من الانتفاضات ٠

وهنا نتساءل : هل يستطيع ان يقوم لافيجرى بكل هذا النشاط لولا ذلك التعاون المتين بين الكنيسة والادارة الاستعمارية ، فقد أشرنا الى أنه ربط دائما بين التنصير وسياسة الادماج والاحتلال النهائى للجزائر ، فقد كتب يتحدث عن القرية التى جمع فيها عددا من اليتامى الذين نصرهم قائلا : « ان ما نريده هو خاصة ضرب مثل ، وفعلا نريد أن نبين ما يمكن أن يرجى يوما ما من هذا الجنس الافريقى الذى هوى الى الحضيض بانشاء قرية عربية فى ظل الصليب ، ولو كان ذلك فى ظروف غير ملائمة فان ما يعترض احتلالنا النهائى للجزائر هو فى الواقع مسالة دين كما قلناه مرارا » (١٢) ٠

ومن المعروف ان دور لافيجرى التبشيرى الاستعمارى تجاوز الجزائر ، وبلغ افريقيا كما أشرنا ، وهو الذى رفع شعار « انتصاب حماية فرنسا الدينية » على تونس ، وكان دليل « قامبتا » « وجول فيرى » فى وضع خطة احتلال البلاد التونسية ، فقد كتب : « لويس بارتورو » Louis Bertraud بمناسبة مرور قرن على ميلاد لافيجرى سنة ١٩٢٥ يقول : « لو لم يقم الا بتهيئة انتصاب حمايتنا على تونس ، تلك الحماية التى كان يمكن عقدها قبل الاوان الذى عقدت فيه لواستمع اليه ، وبأقل مما كلفتنا من الرجال والاموال بكثير لاستحق كل اعتراف بالجميل من الوطن الام ٠٠٠ » (١٣) ٠

ان احتلال تونس مرتبط لدى الكنيسة ، وبالخصوص فى ذهن ممثلها الاول فى افريقيا الكردينال لافيجرى يبعث مجد قرطاج الرومانى ، وبمتابعة أهداف الحملة الصليبية التى قادها ملك فرنسا « سان لويس » ضد الشعب التونسى العربى المسلم ٠

فقد فرض قنصل فرنسا فى تونس « ماتيو دوليسبس » Mathieu de Lesseps بعد أسابيع قليلة من احتلال الجزائر على باى تونس معاهدة (فى ٨ أوت ١٨٣٠) ينص فصل سرى منها على التنازل الابدى لفائدة فرنسا عن ربوة بيرصا بقرطاج لانشاء معبد تخليدا لذكرى سان لويس المتوفى فى ذلك المكان اثناء الحملة الصليبية (١٢٧٠ م) ٠

ونجد لافيجرى يهتم بمجد قرطاج المسيحى الرومانى ، وبانشاء كنيسة لسان لويس بعد تسميته اسقفا فى الجزائر وتونس معا ، وقبل احتلال البلاد التونسية رسميا بسنوات طويلة ٠

وقد واصل الاستعمار الفرنسى تدعيم الكنيسة فى سياسة التبشير والتنصير فى بلدان المغرب العربى فى القرن العشرين ، وأصبح له المجال فسيحا فى المغرب الاقصى ابتداء من سنة ١٩٠٧ بالخصوص

ثم جاء فرض الحماية على الشعب المغربى سنة ١٩١٢ مقترنا بتطبيق سياسة لافيجرى التبشرية التى بدأها بين قرى هذه الارض المجاهدة التى نجتمع اليوم فوق أديمها ٠

وقد حاولت الكنيسة والاستعمار بث روح الشقاق بين العرب والبربر فى المغرب الاقصى ٠

وما الظهير البربرى فى المغرب الاقصى ، وسياسة التجنيس فى تونس ، ثم انعقاد المؤتمر الافخاريستى سنة ١٩٣٠ الذى جمع اكثر من سبعمائة راهب من جميع انحاء العالم تحت خيام حملة صليبية جديدة نصبت فوق ربوة ببرصا بقرطاج ، وقرب قبر سان لويس ، وما احتوى عليه برنامج المؤتمر من مسيرة صليبية فى شوارع تونس تحت حماية الجيش الاستعمارى احتفالا بمرور قرن على احتلال الجزائر ، ونصف قرن على احتلال تونس ، ما ذلك كله الا مظهرا بينا لمواصلة سياسة التنصير فى القرن العشرين ، وارتباطها بأهداف السياسة الاستعمارية فى ادماج ، والقضاء على معالم الشخصية الوطنية العربية الاسلامية لشعوب المغرب العربى ٠

أردنا بهذه الاشارة الخاطفة الى ربط حركة التبشير فى القرن التاسع عشر ، وهو موضوع كلمتنا ، بمحاولات التبشير والتنصير فى القرن العشرين ، وهى محاولات تخضع لنفس الخطة وتخدم نفس الاهداف، وان تباينت الاساليب فى بعض الاحيان ونؤكد من جديد على ظاهرة الترابط الوثيق بين السياسة الاستعمارية والكنيسة من جهة ، وعلى فهم الحركات الوطنية المغربية لذلك الترابط ، ولذا اصبحت مقاومة الاستعمار هى فى نفس الوقت مقاومة لسياسة الكنيسة التبشيرية ، وجهاد فى سبيل العقيدة الاسلامية، والوطن، بل نجد كثيرا من الانتفاضات انطلقت من مبدأ الجهاد فى سبيل الاسلام ، والذود عن حماه ، وقد أشرنا سلفا الى الاتصال المتين بين سياسة لافيجرى التبشيرية وانشائه للقرى المسيحية وتنصيره لليتامى وبين اندلاع ثورة المقرانى الشعبية فوق هذه الجبال الصامدة البطلة ٠

وبعد هذه اللمحة عن السياسة التبشيرية الاستعمارية يتسائل المرءعن نقتطين : أولا ـ ما هى النتائج التى حققتها هذه السياسة التبشيرية ؟

النتائج معروفة ، انه الفشل الذريع ، وأبلغ حجة قاطعة على ذلك ثورة المجاهدين الجزائريين الابطال ، وكفاح شعوب المغرب العربى فى الذود عن شخصيتها الاسلامية العربية ، هذا النضال الذى توج باستقلال الجزائر العربية المسلمة ، وثورتها الزراعية والاقتصادية اليوم ، وهى تهدف الى تحقيق الدعامة الثورية الثالثة ٠

الثورة الثقافية التى لا يمكن الا أن تكون ابرازا وصقلا لمعالم الشخصية الوطنية العربية المسلمة ليس فقط للشعب الجزائرى المجاهد بل لجميع شعوب المغرب العربى التى كانت خاضعة بالامس القريب لنفس النظام الاستعمارى ، وميدانا لتطبيق سياسة الكنيسة التبشيرية ٠

ونذكر دليلا آخر اعترف به المستشرق الفرنسى الاستاذ « جاك بارك » ، وهو أن عدد الجزائريين الذين اعتنقوا المسيحية فى عهد لافيجرى لم يبلغ الالف رغم الوسائل الكبرى التى سخرها ، ورغم مساندة النظام الاستعمارى ، واستغلال لافيجرى لانتشار المجاعة والاوبئة فى سبيل تحقيق خطته (١٤) ٠

الهجرة الى المغرب فى العصور القديمة

عرفت افريقية الشمالية عند اليونان باسم ليبيا . والمؤرخون الاغريق وفى مقدمتهم هيرودت Herodote وسيلاكس Sylax واسترابون Strabon يذكرون سكان افريقية الشمالية باسم الليبيين . وهذه التسمية هى التى يستعملها هو ميروس أيضا فى الاوديسه . وقد ذهب بعض الباحثين الى أن كلمة « ليبيا » ، مشتقة من الكلمة الاغريقية "Libis" التى كانت تطلق على الريح الجنوبية الغربية . على أن البعض الآخر ، وفى مقدمتهم دوبرا Duprat يلاحظ أن الاولى أن تكون هذه الريح هى التى اخذت اسمها من ليبيا، لا العكس _ تماما كما كان الرومان يسمون هذه الريح نفسها بالريح الافريقية .

ولكن اعتقاد بعض المؤرخين المحدثين بأن هذه التسمية أغريقية ، يرجع الى أنهم لم يجدوها فى مصادر اقدم من المصادر الاغريقية .

وهذا لا يمنع من أن يكون الاغريق قد أخذوها بدورهم عن قدماء المصريين، أو الفنيقيين، مثلا .

وكذلك يوجد رأى يقول بان « ليبيا » ليست تسمية اثنوغرافية ، وانما هى وصف كان يطلق على طبيعة الارض وجو البلاد المجاورة لمصر من الناحية الغربية .

وعلى كل حال ، فان أول اتصال بين افريقية الشمالية (أو ليبيا) بالبلاد الواقعة على شواطىء بحر ايجية ، هو الذى يقدمه لنا هو ميروس فى الاوديسة . فبعد انتهاء حروب طروادة وسقوط هذه المدينة الجليلة طعمة للنيران والخراب ، قفل معظم الاغريقيين الى منازلهم . ولكن يوليس ، ملك ايثاكه ، ومعه بعض ابطال هذه الحرب المضنية التى دامت عشر سنوات ، آلوا على انفسهم الا يعودوا الى أحضان الحياة المنزلية الا بعد عشر سنوات من التجوال والمغامرات التى افضت بهم الى اعمدة هرقل (جبل طارق) .

وكذلك ترينا اسطورة جوموس Goumous شيخ التسلايين وهو يلقى عصا الترحال فى ليبيا ، كما تخبرنا اسطورة أخرى بنزول اللكريميين Les Locrémiens فى مدينة بنتبيول _ ببرقه .

ويروى هودوت الذى عاش فى القرن الخامس قبل المسيح ، ان الماكسيس Les Maxyes الذين كانوا يعيشون ، حسب هذا المؤلف ، غربى نهر تريطون Triton _ أى على شواطىء تونس الشرقية _ ينتسبون الى الطروادبين .

وذكر ديودور الصقلى Diodore de Sicile الذى عاش فى القرن الاول للمسيح ، أن الاغريقيين قد بنوا اثر عودتهم من حرب طرواده مدينة عظيمة اسمها ميشالن وأن هذه المدينة سقطت فى يد أحد قواد أجاثوكل Agathocle السيرا قوسى ، عدو القرطجنيين المعروف . ويحدد بعض العلماء موقع هذه المدينة فى الشمال الغربى لتونس غير بعيد من حدود الجزائر الشمالية الشرقية .

ومن جهة أخرى ، فقد دلت بعض الدراسات الحديثة على وجود عدد كبير من الكلمات البربرية المشتقة من أصول اغريقية . وقد اتخذ العالم الفرنسى برثلون Bertholon ، أحد الباحثين الذين تعمقوا فى درس هذا الموضوع ، من ذلك شاهدا على وجود أكثر من هجرة واحدة آتية من شواطىء بحر ايجية الى افريقية الشمالية، فى غضون الالف الثانية قبل الميلاد . بيد أن محاولات برثلون التى

تستهدف ابراز التقارب بين اللغة البربرية واللغة الاغريقية لوحظ عليها شيء من الغلو ، ومن ثم كان بعض علماء اللغات لا يوافقونه على جميع النتائج التى استخلصها ٠

ولكنه اذا كانت هذه الاساطير والروايات التاريخية لا تثبت على وجه القطع وجود هجرة من شواطيء بحر ايجيه وجزره ، الى شمال افريقية ، فنحن ، فى مقابل ذلك ، نعرف على وجه التأكيد ان الحضارة الايجية تركت آثارا لم تمتد اليها يد الفناء فى جزر مالطة وصقلية وسردينية ، وفى جزر الباليار المجاوره لشواطيء افريقية الشمالية ، بل وفى اسبانيا ايضا ، فى الالف الثانية والثالثة قبل الميلاد ٠ وقد كانت الادوات والمنتجات التى صنعت فى البلاد الواقعة على الشمال الشرقى للبحر الابيض ، تصدر الى صقلية وسردينية فى القرون الاخيرة من الالف الثانية قبل المسيح ، كما كانت سفن تلك البلاد ، التى أصبحت تعرف فيما بعد بالاغريقية تمخر الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط ٠

واذا كانت المعلومات المتوفرة لدينا حاليا تسمح باستبعاد كل غزو استعمارى اغريقى او هجرة واسعة النطاق ، فهى مع ذلك تسمح بالاعتقاد بوجود اتصال تجارى من النوع الذى يرافقه النفوذ الثقافى ، بين منطقة ايجية والشواطيء الافريقية ٠

وفيما يتعلق باحتمال وجود هجرة الى افريقية الشمالية من مناطق اخرى ، غير منطقة بحر ايجية ، توجد لدينا روايتان يختلف الباحثون فى تقييمهما اختلافا كبيرا ، احداهما أوردها سالوست ، الحاكم والمؤرخ الرومانى فى كتابه عن حرب يوغورطة (١) والثانية ذكرها المؤرخ اليونانى استرابون ٠

جاء فى رواية سالو ستيوس مانصه :

« فاول سكان افريقية هم الجيطول والليبيون الذين كانوا قوما بدائيين وكانوا يعيشون على لحم الحيوانات والاعشاب وكانوا يبيتون حيث يجدهم الليل ، فلا رئيس يقودهم ولا قوانين تضبطهم ٠ ولما لقى هرقل حتفه فى اسبانيا وترك وراءه جيشا عرمرما مؤلفا من اجناس مختلفة ، قام بين رجال هذا الجيش خلاف حول من يخلفه فى القيادة ، ثم تفرقوا فى عرض البلاد ٠

وقد ركب الميديون Les Médès والفرس والارمن متن البحر وعبروا الى افريقية ، فنزل الفرس فى المغرب الاقصى ، عند المحيط ، واتخذوا من جدران سفنهم منازل لانعدام مواد البناء فى البلد ، ولم يكن فى الامكان استجلابها من اسبانيا بالشراء او التبادل ٠

وعلى مر الزمن ، اختلط الفرس بالجيطول بالزواج ٠

ولما كان هؤلاء الاقوام كثيرى التنقل فى عرض البلاد ، فقد سموا بالنوماد (أى الرحل)٠

واما الميديون والارمن فقد امتزجوا بالليبيين الذين كانوا يعيشون على شواطيء البحر فى

---

١) ولد سالوست Saluste فى سنة 87 ق م ـ وفى سنة 47 ق م ، ارسل الى افريقية ليشغل منصب الحاكم على مملكة يوغورطة . وفى افريقية ، اهتم بدراسة شؤون هذه المملكة التى تمثل على وجه التقريب الرقعة التى تشغلها الجزائر حاليا ، وقد اعتمد سالوست على عدد من الكتب الفنيقية التى ترجمت له ، والتى يقول انه نقل منها هذه الرواية . وقد قام بترجمة كتاب سالوست عن حرب يوغورطة من اللاتينية ، الكاتب الفرنسى جول رومان ، ونشر هذا الكتاب فى باريس ، فى سنة 1924 .

افريقية (١) ـ بينما كان الجيطول يتعرضون للشمس فى المناطق الشديدة الحرارة (أى فى الجنوب) • وقد بنوا (الفرس والارمن) مدنا فى وقت مبكر واقاموا علاقات تجارية منتظمة مع اسبانيا التى لا يفصلهم عنها سوى مضيق قصير ، ثم حرف الليبيون فيما بعد اسم الميديين وحولوه فى لغتهم البربرية الى المور •

على أن قوة الفرس تزايدت بسرعة • وقد اضطرهم ازدحام السكان الى الهجرة تحت اسم النوميد (شرقا) واستولوا على المنطقة التى تسمى حاليا نوميديا والتى تقع قريبا من طنجة • وفى مرحلة تالية ، تعاونوا على اخضاع سكان المناطق المجاورة بقوة السلاح حينا ، وبالارهاب حينا آخر فارتفع اسمهم وكسبوا لانفسهم المجد والشهرة ، لان الليبيين كانوا اقل ميلا الى الحرب من الجيطول •

وهكذا انتهى الامر بهم الى الاستيلاء على جميع المناطق الداخلية من افريقية وادمجوا الشعوب التى اخضعوها واطلقوا عليها اسمهم •

« وفى العصور التالية ، كان الفنيقيون يبحثون عن مجال للتخلص مما كانوا يعانونه من كثافة السكان ، والبعض منهم سعيا للغزو ، فدفعوا بالطبقات الشعبية والمغامرين الى الهجرة الى افريقية حيث اسسوا عنابة وبنزرت وسوس الخ » •

وهذا النص الذى يلقى ضوءا خفيفا على وضع افريقية قبل الفنيقيين ، نورده كما هو بدون تعليق ، حيث تعوزنا الوثائق التى تسمح بالمقارنة والتمحيص • ولكننا نحيل من يهمه هذا الموضوع الى الهوامش التى وضعها عليه جول رومان (٢)•

واما رواية استرابون ، فهى تتصل بهجرة اخرى قيل انها جاءت من الهند • فهذا المؤرخ يذكر عند الحديث على بعض فروع البربر الرئيسية ، انه يوجد من يزعم ان البربر نزحوا الى شمال افريقية من الهند • وقد اغتتم بعض المؤرخين المحدثين هذه الاشارة كما التقطوا كلمة وروور Warwar التى وردت فى بعض النصوص المكتوبة باللغة السنسكريتية ـ والتى يبدو أنها كانت تطلق على شعب كان يقطن جنوب آسيا ـ وحاولوا ربط أصل البربر باصل هندى •

فقد ورد فى قصيدة هندية فى معرض الحديث عن احد ابطال اسطورة ، أن هذا البطل قد قهر الجافانيين Javanais (الجاويين) والطبودشاش Tamboudchache والورور Warwar (وهى الكلمة التى قيل انها حرفت الى «بربر») •

ويستند انصار هذه الهجرة المزعومة فى رأيهم ، خصوصا ، على وجود اسم البربر على شواطىء خليج عدن ، فيتخذون من هذه المنطقة المرحلة الاولى ، للهجرة ، ومن منطقة النوبة التى تمتد بين الشلال الاول والشلال الخامس ، والتى تحمل اسم البربر ، مرحلة ثانية ، قبل وصول العنصر البربرى الى شمال افريقية •

وقد وجدت رواية هجرة البربر من الهند مدافعا فى المؤرخ الالمانى Carl Ritter الذى عنى بتقديمها وشرحها فى كتابه المعنون Die Erd Kunde

1) اى المناطق الغربية الواقعة على البحر من افريقية ـ هامش المترجم ، جول رومان .

2) راجع التحفظ الذى عبر عنه المؤرخ الفرنسى المشهور تجاه هذا النص
Gselle (St.), (Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, I De Slane, les Berbères, I/169

(١) •وكذلك اهتم بها ودافع عنها بعض المؤرخين الفرنسيين ، ومن بينهم دوبرا الذى اشرنا اليه •

تلك هى الخطوط العريضة للروايات الغربية المهمة التى تتصل بهجرة واسعة النطاق لعناصر اثنوغرافية مــن مختلف المناطق غيـر الجزيـره العربية ، الى شمال افريقية ، فى العصور القديمة التى سبقت استقرار الفنيقيين فى هذه الديار •

واما الرواية العربية التى تتصل بهجـرة عناصر من قلب الجزيرة العربية أو من فلسطين ، فسنعرض لهـا فى الفقرة التاليـة التى نكرسـها لتسمية افريقية ، ولاصل البربر ، وذلك محافظـة على الارتبـاط الذى بـين هاتـين المسألتـين فى الـرواية •

تسمية افـريقية واصـل البربر

وردت عدة احاديث نبوية شريفة فى فضل المغرب وافريقية ، لا يتسـع هذا المجـال لنقدها وتمحيصها ، ولكننـا نذكرها هنـا ، خصوصا ، لقيمتها التاريخية ولدلالتها على أن اسم افريقية كان معروفا وراسخا فى الاذهان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم •

ذكر ابن الشباط فى كتاب مسلم فقال حدثنا يحيى بن يحيى ، قال حدثنا هشام عن داوود بـن أبى هند عن أبى عثمان عن سعيد بن أبى وقاص ، قال ، قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : « لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعــــة » •

وفى كتاب الطبقات فى علماء افريقية (٢) حدثنى فرات بن محمد قال حدثنا عبد الله بن أبى حسان اليحصبى عن عبد الرحمان بن زياد عــن أبى عبد الرحمان الجبلى عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلعم قال : « ليأتين اناس من أمتى من افريقية يوم القيامة وجوههم افضل نورا من القمر ليلــة البــدر » •

وروى جماعة عن سحلون بن سعيد وموسى بن معوية جميعا عن ابن وهب عن سعيد بـن أبى ايوب عن شرحيل بن سويد عن أبى عبد الرحمان الجبلى ، قال بعث رسول الله صلعم سرية فقفلوا فذكروا لرســول اللــه شدة برد اصـــابهم ، فقال رسول الله : «لكن افريقية أشد بردا وأعظم أجرا» وفى رواية أخرى : «ان البرد الشديد والاجر العظيم لاهــل افريقية » •

وروى ابن أبى العرب ، قال حدثنى فـرات حدثنى عبد الله بن ابى حسان عن عبد الرحمان بن زياد بن انعم عــن أبى عبد الرحمان الجبلى ، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ينقطع الجهاد عــن البلاد كلها فــلا يبقى الا بموضع فى المغرب يقال له افريقية » الخ الحديث •

وروى ابن أبى العرب عن عبد الله بن عمر العمرى عن ابى لهيعة عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو انه قال ، والله ليباعن الجمل بمصـــر بعشرة دنانير ثم ليباعن بمائة دينار لغالاة الناس بها • وكأنى أسمع صرير المحامل على عقبة الثنيه من مصر الى افريقية يطلبون بها الجهاد والعدل• وليملكن افريقية رجل يعدل فيهم اثنين وعشرين (أو اربعا وعشرين) سنة •

فهذه الاحاديث كلها تتصل بافريقية وسكانها الذين تعزو اليهم خصائص من التقوى وحســن الاستعداد للجهاد ، وليس من الملائم أن نبحث فى

1) راجع الطبعة الثانية ، برلين سنة 822 ، ص 554 وما يليها
2) نقله القيروانى ـ المؤنس ، 17

طياتها عن تحديد تاريخي أو جغرافي . ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نمنع انفسنا من ملاحظة التفرقة الهامة التي وردت في الحديث المروى عن ابن ابي العرب بين المغرب وافريقية ، واعتباره أن افريقية ليست الا موضعا من أرض المغرب. وهذا موضوع سنعود اليه لدى محاولة تحديد مدلول افريقية الجغرافي .

ولكن من اين جاءت كلمة « افريقية » التي كانت جارية الاستعمال في الجزيرة العربية في أوائل القرن السابع الميلادي ؟ .

يقول بوشار ، أحد العلماء في اللغات القديمة ان كلمة افريقية مشتقة من اسم فينيقي ترجمته « السيف » ، وأن هذه التسمية ترمز الى ما يتمتع به هذا البلد من الخصب والخير .

واما ديسبورح Desbourgh الذي عنى هو الآخر ببحث اشتقاق هذه الكلمة ، فيرى ان « افريقية » مأخوذة من الكلمة السنسكريتيه أبرا Apara التي تعنى « ما وراء » . وهذه الكلمة توجد محرفة في بعض اللهجات الهندية الى Aprica وهو شكل كما نرى ، قريب من الكلمة الاوروبية Africa . وكلمة Apara في اللغة الهندية تطلق على ما وراء نهر الكنج ، كما تدل على الاتجاه الغربي عموما .

ومما يعزز وجاهة هذا الاشتقاق اللغوى ، في نظر هؤلاء الباحثين، ان اللغة السنسكريتية قد أمدت الجغرافيا القديمة بكثير من الكلمات والمصطلحات .

ولكنه اذا كان من الممكن تسرب كلمة هندية الى اللغات الاوروبية حتى في تلك العصور ، فان من المستبعد أن تنتشر كلمة ذات معنى غامض ، مثل الغرب ، بحيث تصبح الاسم الذي تعرف به منطقة تقع على مسافة آلاف الاميال من الهند . ولو انطبقت هذه التسمية على جميع البلدان الاسيوية الواقعة غرب الهند ، لكان لافتراض هذا الاشتقاق شيء من الوجاهة . ولكن الامر ليس كذلك .

ولما تعرض العلامة جوتيي F. Gautier في كتابه المعنون « ماضي شمال افريقية » لهذه التسمية ، قال ان كلمة افرى Afri كانت تطلق اثناء الحروب الرومانية الفنيقية على الاهالي الخاضعين لحكم قرطجنة . واما الاهالي الثائرون أو الذين لم يشملهم سلطان قرطجنة ، فقد كانوا يحملون اسماء القبائل التي ينتمون اليها ، مثل موري وبربري ، ولكنه لم يكن يطلق عليهم اسم الافريقيين (١) .

وبعبارة اخرى ، فان الرومان ورثوا تسمية الافريقيين عن القرطجنيين .

وهذا أيضا هو رأى البارون دوسلان ، مترجم ابن خلدون الى الفرنسية ، الذي قال ان الرومان اخذوا كلمة افريقية عن الفنيقيين وأصبحت كلمة لاتينية تعنى عندهم « قطعة أو جزءا أو قطاعا منفصلا عن الارض الاصلية التي تركها المعمرون » (٢) .

وهذا التفسير يتفق مع ما ذكره بعض الباحثين من أن كلمة « افريكا » تعنى في اللغة

1) راجع F. Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, P. 115-116

2) راجع De Slane, Histoire des Berbères, IV/571-72

الفنيقية بلدا منفصلا عن الارض الاصيلة (أم الوطن) ، أو المستعمرة (١) ٠

ومن الطرائف اللغوية التى تتصل بتسمية افريقية ، ذلك الاشتقاق الذى يعزى الى الشاعر اللاتينى فرجيل الذى قال ان هذا الاسم اما أن يكون من أصل لاتينى Africa ، فيكون معناه الارض المعرضة للشمس ، او من أصل اغريقى ، A. ph. rike فيكون معناه الارض المحرومة من البرد ٠٠ !

ولكن الرواية التى تستحق كل اهتمامنا ، لانها تلقى ضوءا غير متوقع على هذه المسألة ، هى تلك التى نقلت الينا عن الشاعر اليونانى اسويداس Suidas (٢) الذى كان يستقى معلوماته من مصادر قيمة ٠ فقد ذكر الكاتب ان « افريقية » كان هو الاسم القديم لقرطجنه ٠ وقد اطلقت هذه التسمية فيما بعد لتشمل المناطق التى تمتد شرقا حتى مصر ، ثم اتسع مدلولها عند الرومان واروبا اللاتنية ليشمل غير هذه المنطقة ٠

بقى امامنا الآن ان نسأل هذا السؤال : متى دخلت كلمة « افريكا » الى اللغة اللاتينية لاول مرة ؟

كان أول استعمال الرومان لهذه الكلمة يعود الى الشاعر اللاتينى انيوس Ennius (٣) الذى عاش بعد الحرب الفنيقية الاولى وكان معاصرا للحرب الفنيقية الثانية (٤) ٠

وقد اطلق الرومان اسماء على عدة مناطق من افريقية اورد المؤرخ اتيان دوبيزانس Etienne de Byzance قائمة معتبره لها نقتصر على ذكر الاسماء التالية منها :

أوليمبى Olympie أوسيانيا Océanie اسخاتى Eskhati (أو اقصى المعمورة) كوريف Koriphe (او الارض المرتفعة) هيسبرى Hesperie (أو مغرب الشمس) ، ارتيجى Ortygie أمونيد Ammonide اثيوبيا Ethiopie سيرين Cyrène أوفيوس Ophius ليبيا Libye كيفنى Kephenie وايرى Aerie

وبعض هذه الاسماء واضحة المدلول ، مثل مغرب الشمس ، والارض المرتفعة ، أو هى لا تزال تحمل نفس الاسماء التى نعرفها بها الآن فى اللغات الاربية ، مثل ليبيا وسيرين ٠ ولكن هذا المجال لا يتسع لمحاولة التعرف عليها أو لتحديد كل منها ٠

والآن نعود الى الرواية العربية لنعرض رأى المؤرخين والكتاب العرب فى تسمية افريقية٠

---

1) عالم لغوى وشاعر عاش فى القرن العاشر بعد المسيح ، وقد اشتهر خصوصا بتجميع النصوص

2) وردت الكلمة فى البيت التالى من قصيدة طويلة كرسها لتمجيد روما :

3) راجع Dureau de la Malle, l'Afrique Ancienne, P.U.F. P. 4

Africa Terribile Trémit
Herrida Terra Tulmultu
"Undique"
Lenn. Annal (Cicéro, Festus, Esc.)
"Lati Campi Quos Gerit Africa Terra Qolitos"
- Lenn. Satyr. III (Nonius Marcellus)

4) والد انيوس فى قلورية Calabre فى سنة 240 ق م وتوفى فى سنة 169 ق م وقد عمل ضابطا فى الجيش الرومانى طون الذى تولى انيوس تعليمه اللغة اليونانية واصطحبه الامبراطورواشترك فى الحرب الفنيقية الثانية ، وكان صديقا حميما لقا معه الى روما ، وكذلك عرف انيوس بحظوته لدى السيبيون المدعو الافريقى (235 ـ 183 ق م) والذى انتصر على القائد القرطجنى هنيبال ، وقد اشتهر انيوس بانه اكبر عامل فى ادخال الثقافة اليونانية الى روما

يقول ابو عبيد الكبرى : قال قوم انها افريقية ، أى صاحبة السماء · ويمضى فيذكر رأيا آخر مؤداه أن الافارقة وبلادهم افريقية ، انما سموا بذلك لانهم من ولد فارق بن مصريم ، ثم يقول : وقد زعموا أن اسم افريقية ليبية سميت ببنت ياقوه بن يوتش الذى بنى مدينة منفش بمصر وهى التى ملكت ملك افريقية اجمع فسمى بها (١)

ويقول ابن ابى دينار القيروانى « انما سميت بافريقية لانها فرقت بين المشرق والمغرب ، وقيل «سميت افريقية باسم اهلها»· والافارق من ولد فاروق بنمصرايم (١) ، وكذلك نقل ابن أبى دينار عن الشباط بان افريقية تكتب بالباء وليس بالفاء ، وهى من البريق ، لان سماءها خال من السحاب · ولكن المؤرخ يرد على هذا الرأى قائلا انه بعيد ، لان افريقية كثيرة السحاب حتى قال بعضهم ان القيروان لا تخلو من السحاب فى غالب السنة (٢) ·

ولكن الرواية التى يذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب بما يشبه الاجتماع ، مؤداها أن ملكا حميريا اسمه افريقش غزا هذه البلاد فى وقت لا تحدده الرواية وقتل ملكها ، وسميت باسمه · وفى رواية أخرى ، وبنى فيها مدينة سميت باسمه (٣) ·

وصلب هذه الرواية يتمثل فيما نقله ابن خلدون عن ابن حزم ، ونحن ننقلها بنصها مع الاشارة الى اختلافها فى بعض التفاصيل عما ذكره غيره (٤) ·

قال ابن خلدون ان افريقش « هو افريقش بن قيس بن صفى ، أخا الحارث الرايش ، هو الذى ذهب بقبائل العرب الى افريقية ، وبه سميت وساق اليها من ارض كنعان (التى) مربها عندما غلبهم عليها يوشع وقتلهم ، فاحتمل الفا منهم وساقهم الى افريقية فانزلهم بها وقتل ملكها جريجر · ويقال انه سمي البربر بهذا الاسم ، لانه لما افتتح المغرب وسمع رطانتهم ، قال : ما اكثر بربرتهم (!) ، فسموا البرابرة (٥) والبربرة فى لغة العرب هى اختلاط اصوات غير مفهومة ، ومنه بربره الاسد » ·

« ولما رجع من غزو المغرب ، ترك هناك من قبائل حمير صنهاجة وكتامة · فهم الى الآن بها ، وليسوا من نسب البربر ، » قاله الطبرى والجرجانى والمسعودى وابن الكلبى والسهلى وجميع النسابين » ·

---

1) البكرى ، ص 21

1) المؤنس ، ص 15

2) نفس المصدر ، ص 16

3) راجع البكرى ، ص 21 ، الاستبصار ، ص 111 – كتاب العبر – طبع بيروت – 2 – 95 – 96 – المؤنس ص 15 ، مراصد الاطلاع 3–100–101 ، معجم البلدان 1–325 ، روض القرطاس ص 75 – المختصر فى اخبار البشر 1 – 67

4) اورد الملك ابو الفدا رواية اخرى نقلا عن سعيد المغربى لا نجد لها اثر فى المصادر الاخرى المعروفة لدينا ، ومؤداها ان شداد ابن عاد – من ملوك التبابعة – قد « غزا البلاد الى ان بلغ المغرب الاقصى » (المختصر فى أخبار البشر) 1–67

5) كلمة البربر ماخوذة من اصل اغريقى ، بربروس Barbaros اخذت فى اللاتينية شكل Barbarus وقد كان اليونان يطلقونها على جميع الشعوب غير الهيلينية ، بما فى ذلك الرومان ، واما الرومان فكانوا يطلقونها على جميع الشعوب الاجنبية غير الاغريق والرومان ، ولكننا لا نستبعد ان تكون الكلمة مستعملة بمعنى اثنوغرافى فى شمال افريقية فى عهد الفنيقيين حين كانت احدى القبائل تحمل اسم بربرى ، كما سبقت الاشارة الى ذلك

« ثم ملك من بعد افريقش اخوه العبد بن أبرهه ، وهو ذو الاذعار عند المسعودى · قال : سمى بذلك لكثرة ذعر الناس من جوره ، وملك خمسا وعشرين سنة · وكان على عهد سليمان بن داوود ، وقبله بقليل وغزا ديار المغرب » (٢) ·

وفى رواية اخرى ، تصعد الى نفس المصدر، ونعنى بذلك ابن الكلبى ، أن ملوك التبابعة قاموا بغزوة اخرى للمغرب فى عهد ناشر بن عمرو بن يغفر الذى يقال له ياسر أنعم · وقد سار هذا الملك غازيا الى المغرب « حتى بلغ وادى الرمل ، ولم يبلغه أحد ، ولم يجدوا فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر أصحابه فلم يرجعوا ، فامر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى ، وكتب فى صدره بالخط المسند : هذا الصنم لياسر أنعم الحميرى· ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلف احد ذلك فيعطب (٢) ·

وبعبارة اخرى ، فان التبابعة قاموا حسب هذه النصوص ، بغزو شمال افريقية فى عهدين مختلفين · قام بالغزو الاول ملك اسمه افريقش الذى لا نجد له ذكرا بين ملوك التبابعة المعروفين، وقام بالغزوة الثانية ياسر أنعم الذى خلف بلقيس التى كانت زوجة لسلميان ،·على عرش التبابعة ·

والرواية التى بين ايدينا صريحة فى ان ياسر أنعم هذا ، لم يات الى المغرب لتعزيز ملك أجداده ، وانما هو جاء اليه مغامرا مستكشفا ظن أن حدود هذا الجزء من العالم تنتهى عند وادى الرمل · وأما ما وراء هذا النهر ، فهو مجهول محفوف بالمخاطر ، لكثرة الرمل فيه ···

واما العبد بن ابرهة ذو الاذعار الذى تقول الرواية انه خلف افريقش فى حكم افريقية ، فنحن لا نعرف عنه الا القليل وهو على كل حال شخص ذو وجود تاريخى والذى نعرفه عنه جرى له ، لا فى افريقية ، بل فى اليمن · فنحن نعرف أنه دخل فى حرب مع كيقاوس بن كنعان ، ملك الفرس ، كانت نتيجتها انهزام كيقاوس الذى أسره ذو الاذعار ، وظل فى الاسر حتى جاء لنجدته وزيره رستم ، الذى زحف الى اليمن بجموع الفرس وحارب ذا الاذعار فغلبه واستخلص كيقاوس من اسره ·

ومن جهة أخرى ، ينقل الينا ابن خلدون رواية ترقى الى نفس هشام بن الكلبى ، مؤداها أن ذا الاذعار، هلك مسموما على يد بلقيس (٣)·

وقد خلف ذا الاذعار على عرش التبابعة ، الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن ذى الاذعار ، الذى ملك ست عشرة سنة (فى رواية المسعودى) ثم ملكت بعده ابنته بلقيس سبع سنين ·

واثرها تولى ملك التبابعة ناشر (أو ياسر) بن عمرو بن ذى الاذعار (الذى يعرف بناشر النعم) ·

والذى يتبادر الى الاذهان لاول وهلة ، هو أن ناشر بن عمرو هو ابن ذى الاذعار ، حيث انه لم ترد بينهما وصلة نسب اخرى · ولكن العلامة

1) العبر ، 1 — 95 — 96
2) نفس المصدر 2 — 97
3) نفس المصدر

ابن خلدون يتشكك في ذلك ، ويقول انه قد يكون بين الاثنين منهما عدة من الآباء . على ان المؤرخ يعترف ايضا باحتمال ان يكون «ملتصقا به» (١).

وبعبارة اخرى ، فان عهد عمرو بن ابرهة (ذى الاذعار) وعهد ابنه (او حفيده) ناشر بن ذى الاذعار لا يفصل بينهما سوى فترة ملك خلالها ملكان ، وهما ، حسب الرواية التى بين ايدينا : الهدهاد بن شرحيل بن عمرو بن ذى الاذعار (اخو ناشر) ، والملكة بلقيس . وقد كان مجموع مدة ملكهما ٢٣ سنة (١٦ و ٧) .

ولكن نصوصا حميرية اكتشفت حديثا تلقى ضوءا آخر على المسألة وتجعل من هذه الصلة ومن تواريخ هذا التتابع على عرش التبابعة مجرد تلفيق للاحداث وربط لا معنى له بين الاسماء .

فقد عثر على نص حميرى يوافق تاريخه سنة ٢٧٠ م تقريبا يتعلق بياسر انعم (او ياسر يهنعم) ، (٢) وعلى نص آخر يتصل بحفيد له يحمل لقبه (لم يذكره المؤرخون العرب) يوافق تاريخه سنة ٢٧٤ م . وكلا النصين يشكل دليلا على ان ما زعم من ان ناشر النعم كان معاصرا لبلقيس ، زوجة سليمان ، كان وضعا واختلاقا لا يستند على اى اساس تاريخى . ثم ان ناشر النعم هذا ، هو ابو « شمر يرعش » . وقد عثر على كتابة لشمر يرعش ، يوافق تاريخها سنة ٢٨١ ميلادية . وهذا تسلسل معقول فى النسب ويدل على ان ناشر انعم وابنه قد عاشا فى القرن الثالث ، بينما عاش حفيد ناشر النعم ، فى القرن الرابع الميلادى .

ومهما يكن من شيء ، فان غزو افريقش لافريقية ، يفترض ان يكون قد وقع قبل عهد سليمان بن داوود عليه السلام (٩٧٠ ـ ٩٣١ ق. م.) ، اى فى بداية الالف الاولى قبل ميلاد المسيح .

بل ان ذكر الرواية ليوشع الذى خلف موسى (القرن الثالث عشر ق. م.) فى قيادة بنى اسرائل ، يدل بوضوح على أن غزو افريقش وقع فى أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، بينما تذكر روايتنا أن ذا الاذعار (الذى خلف افريقش على افريقية) كان معاصرا لسليمان .

وكذلك نجد بالمقارنة والاستنتاج ، أن القارق الزمنى الذى يفصل بين افريقش وذى الاذعار ، يمتد على ما يتراوح بين قرنين وثلاثة قرون .

ولكن لننظر الى الرواية الآن من زاوية اخرى . فقد قيل أن افريقش لما نزل بافريقية على رأس قوة من رجاله وقوة من الفلسطينيين ، حارب ملكها جريجر وقتله .

وجريجر هو بالتاكيد تحريف للاسم الرومانى جريجوار . والمقصود هنا ، بدون شك ، هو باتريس جريجوار Patrice Grégoire الذى كان واليا على افريقية من قبل الامبراطورية البيزانطية حينما قام عبد الله بن سعد فى عهد عثمان بن عفان (ض) يغزو افريقية . وقد اشتبك الجيش الاسلامى فى معركة حاسمة بجيش بيزنطة فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ ـ ٦٤٦ م) فى اسبيطلة وانتهت هذه المعركة بهزيمة باتريس جريجوار الذى يرجح ان يكون عبد الله بن الزبير هو الذى قتله بنفسه .

1) العبر ـ طبعة بيروت ـ 2 ـ 97
2) راجع ترجمة ناشر انعم تحت «مالك بن عمرو» في الاعلام 6 ـ 139

وهكذا نرى ان رواية غزو افريقش الحميرى المزعومة لافريقية تخلط بين اشخاص تفصل بينهم نيف والف وخمسمائة سنة ، وذلك فى نسيج مهلهل يسوده الطابع الاسطورى ٠

والجدير بالاشارة أن المستعرب والمـؤرخ الفرنسى كوسان دوبارسيفال قد اقترح فى رسالته عن تاريخ العرب فرضا لحل ما يمكن ان نسميـه بلغز افريقش ، ولكنه زاد الموضوع تعقيدا وأضاف من الاسئلة اكثر مما وفر من الاجوبة والحلول ٠

فقد ذكر هذا الكاتب ان قيصر الذى كـان امبراطورا على مصر ، زحف على شمال افريقية فى سنـة ٤٦ ق٠ م٠ ليقضى على بقايـا جيـش بومبي الثائر ، وان جوبا النوميدى عرف بخبـر هذا الزحف كما بلغه أن جيش قيصر صغير ولذلك فقد زحف اليه على أمل أن يتمكن من سحقه ٠ ولكن جوبا انهزم بسبب ظهور جيش من المرتزقة بقيادة شخص يـدعى تيتوس Titus الذى استجاب لنداء القيصر لمناصرته (١) ٠

وهنـا يتسـاءل الكاتب : لمـا لا يكون جيش تيتوس هذا جيشا عربيا ، أو جيش الملك الحميرى الذى لا نعرف أسمه ؟

ونحن نتسائـل بدورنا ، كيف وصـل هذا الجيش الحميرى الى افريقية بعد ما مر بعدد من البلدان ، ومن بينها مصر التى كانت تحت الرومان دون ان يجد مقاومـة ؟ واذا كان قد جـاء لفتـح افريقية فكيف يتحـول الى جيش مرتزق ويعمـل تحت لواء قيصر ٠ ولم فضل القتال مع الرومان بدلا من التحالف مع جوبا ، ليضمن لنفسه حقـا شرعيا فى الاقامة فى البلد ؟ تلك وغيرها اسئلة لا تسمح باخذ هذا الفرض الى الاعتبار ٠

على ان المشكلة الجوهرية فى رواية غـزو افريقش لافريقية الشمالية تتصل بالمصدر الذى نقلت عنـه ، أو بالاحرى ، بالثقـة التى يمكن ان نوليها لذلـك المصدر ، وهو هشـام بن الكلبى ٠ ولكن هذه المسالة سنتعرض لها فيما بعد ٠

اما الآن فسنحاول التركيز على الجانـب الذى يتصل باصل البربر من هذه الرواية ٠

راينـا كيف أن افريقش احتمـل معـه الى افريقية جموعا مـن الكنعاييين وانزلهم فى هـذا البلد وانـه لمـا رجع من غزو المغرب ترك معه من قبائل حمير صنهاجة وكتامة الذين هم « ليسوا من نسب البربر » ٠ وبالتالى ، فان الكنعانيين يشكلون العنصر البربرى الذى جاء به افريقش من فلسطين

وهذا ايضـا هو مضمون روايـة الشريف الادريسى حـين يقـول : « كانت ديـار البرابر فلسطين ، وكان ملكهم جالوت بن ضريس بن جنا ، وهو أبو زناتة المغرب ٠ وجنى هو ابن لؤي بـن قيس بن الياس بن مضر ٠ فلما قتل داوود جالوت البربرى ، رحلت البربر الى المغرب حتى انتهـوا الى اقصى المغـرب فتفرقت هنـاك ونزلت مزاته ومغيلة وضريسة الجبال، ونزلت لواته ارض برقة ونزلت طائفة من هوارة بجيال نفوسه (٢) ٠

1) راجع Coussin de Parcenal, Essay sur l'Histoire des Arabes, I/68.

2) أورد الادريسى وغيره من الكتاب بشان تسمية هوارة قصة أكثر سذاجة من قصة افريقش نفسها ، فهو يقول ان أميرا من امراء العرب يدعى المسور ، تاهت ابله ، فسار فى طلبها مع غلام له ، ولما كان فى بعض الطريق سأل الغلام : أين نحن من الارض فاجاب الغلام : نحن فى افريقية . فقال الامير : لقد تهورنا ! فسموا لذلك « هوارة » ، ولما نزل هذا الامير فى قوم من زناتة ، تزوج منهم امراة ، فولد منها ابنا اسمه لمط ، وآخر اسمه صنهاج . وقد اشار ابن حزم الى هذه الرواية بصيغة التشكك ، بقوله : « ويقال ان صنهاج ولمط هما ابنا امراة واحدة ، يقال لها تزكى ، لا يعرف لها اب ، تزوجها أوريغ ، فولدت له هوارة ، فهم اخوة من أم » — (انظر جمهرة انساب العرب ، ص 463)

ونزل الغير ، ومنهم مصموده ، بالمغـرب الاقـصى (١) ٠

ولكن الجغرافى الصقلى لما تعرض لـذكر قبائل البربر ، أورد قائمة طويلة نجد من ضمنهـا زناتة وصنهاجة وكتامة ٠ وبعبارة اخرى ، فـان صنهاجة وكتامة ليست من قبائل جمير التى رافقت افريقش وتركها فى افريقية بل هى من الفلسطينيين الذيـن هجروا الى هذه البلاد وتفرقوا فيها اثـر قتل داوود جالوت ٠

وذكر ابن خلدون الذى نقلنـا نص روايته لغزوة افريقش ، فى معرض الحديث عن بطـون البربر ، أن علمـاء النسب « متفقون على انهـم (البربر) يجمعهم جذمان عظيمان وهما : برنس ومادغس ٠ وهما معا ابنا بر » ٠ ويضيف المؤرخ المغربى « أن شعوب البرانس عند اكثر النسابين يجمعهم سبعة أجذام وهى : ازداجـه ومصمودة واوربـة وعجيسه وكتامة وصنهاجة واوريغـة ٠ وزاد سابـق بـن سليمـان لمطـة وهكسـورة وكزوله (٢) » ٠

وكذلك نـرى ان صنهاجة وكتامة فى هـذا النسب ايضا تعتبر من قبائل البربر ٠

ولكن ابن خلدون الذى ينقـل عن غيره ، لا يريد ان نحمله تبعة ما قد يقع بين رواياته من التناقض ٠ ولذلك ، فقد عقب ، بعد ما فرغ مـن ذكر بطون البربر قائلا : « وأما الى مـن يرجـع نسبهم من الامم الماضية ، فقد اختلف النسابون فى ذلك اختلافا كبيرا ٠ فقال بعضهم انهم من ولد ابراهـيم عليه السـلام من نقشان ابنـه ٠ وقال آخـرون ان البـربر يمنيون ٠ فقال المسـعودى من غسـان وغيرهم ، تفرقوا عند مـا كان سيل العرم ٠ وقيل مـن لخم وجـذام وكانت منازلهم ، واخرجهم منها بعض ملوك فارس ٠ وقال آخرون انهم من ولد جالوت (١) ٠

واما بر ، ابو برنس وما دغس ، المشار اليه فهو ، فيما زعموا ، بر بن قيس عيلان ٠

---

١) الادريسى ، ص 57 ، نحن لا نستبعد هجرة محدودة النطاق فى الظروف التى يشير اليها بعض المؤرخين العرب ، ولكن الـذى لا يمكن تصوره هو ان تكون افريقية الشمالية خالية من السكان قبل هذه الهجرة ، والواقع ان مؤرخا بيزنطيا ، من المستحيل ان تكون قد وصلت اليه الرواية العربية ، وهو بروكوب Procope (مات سنة 562 م) يذكر ان هجرة فنيقية وقعت فى عهد يوشع الذى تولى رئاسة اليهود اثر موت موسى (ع س) لدى غزو العبريين لكنعان ، ويقول بروكوب «وكانت الشواطىء التى تمتد من صيدا حتى مصر فى ذلك الوقت كلها تسمى فنيقية ، ولما تبين للفنيقيين ان القائد الاجنبى لا يمكن قهره قرروا مغادرة اوطانهـم واجروا اولا الى مصر التى كانت على مقربة منهم (عند ابوابهم) ومن هناك اتجهوا الى افريقية التى احتلوها حتى اعمدة هرقل» وهذا النص معروف وقد نقله كثير من مؤرخى العصور القديمة ، وانا اقتبسته من كتاب العلامة

F. Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, P. 130.

٢) دول البربر ـ طبع الجزائر ـ ١ـ117

١) نفس المصدر

ولكن ابن حــزم ، صاحب جمهرة انســاب العرب ، لما تعرض لانساب البربر ذكر أن قومـا قالوا « انهم من ولد حام بن نوح عليه الســلام · وادعت طوائف منهــم الى اليمن والى حمــير ، وبعضهم الى بر بن قيس بن عيلان · وهذا باطــل لا شك فيه · وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه بر ، ولا كان لحمير طريق الى بــلاد البربر الا فى تكاذيب مؤرخى اليمن (١) » ·

ونحن نستطيع أن نضيف الى مؤرخى اليمن كلمة : وبعض الرواة العرب · وفى مقدمة هؤلاء بدون شك ، هشام ابن الكلبى الذى تصعد اليــه رواية غزو افريقش للمغرب وبعض الروايات التى تتصل بالانساب · فمن هذا المصدر استقى ابــو محمد بن حزم الذى استقى منه ابن خلدون ومحمد بن الحسن الهمذانى الذى اعتمده صاحب روض القرطاس وغيره من المتاخرين ·

ومــن المعلوم ان رواة الحديث مجمعــون على تجريح هشام بن الكلبى (توفى فى سنة ٢٠٤ ٢٠٦ هـ) (٢) وقد اتهم هو وأبــوه بالوضــع فى الحديث · وهشــام بن الكلبى ، هو الذى يرفــع اليه أبوه الفرج ، صاحب الاغانى ، اصبع الاتهام أكثر من مرة قائلا : « وهذا من اكاذيب بن الكلبى» (٣) بل ان ابن الكلبى نفسه ليعترف صراحة بكذبه فى النســب ·

فقد نقل عنه صاحب الاغانى قوله: أول كذبة كذبتها فى النسب ، هى ان خالــد بــن عبد اللــه القسرى سألنى عن جدته أم كريز – وكانت بغيا لبنى أسد – فقلت له : هى زينب بنت عرعره بــن جذيمة بن نمر بن قعين ، فسر بذلك ووصلنى (٣)· وقال صاحب الاغانى عن ابن الكلبى ان الاخبار التى ذكرها عن دريد بن الصمة موضوعة والتوليد بين فيها وفى اشعاره (٤) · وقد تحفظ زكى باشا عند ذكره بصفته راويا للحديث فقال : « ونحــن لا نريد الاعتماد على ابــن الكلبى بصفتــه مــن اهل الحديث (٤) ·

ولكن ابن الكلبى ليس هو المصدر الوحيــد للتزييف فى التــاريخ والنســب · لان المصالــح السياسية ومحاولات رؤساء بعض قبال البربــر ربط نسبهم بالعرب ، اعتقادا منهم أن السيادة فى هذه الديــار لا يمكــن ان تقــوم الا على اســاس الانتماء الى سلالة الرسول (صعلم) ، أو على الاقل الى قحطان قد لبعبت دورا مهما فيما لحــق اسناب البربر من الغش والتضليل · فان ابنــاء عبيد الله المهدى الذى وضع لنفسه شجرة نسب تــرقى به الى سلالــة الرســول ، راوا انــه لا بد لاستقرار سلطانهم فى افريقية من ربط أصل كتامة انصار دعوتهم الاوائل ، وصنهاجة خلفاؤهم فى الحكم ، باصل عربى قح · وأما صناعة قــوائم النسب فهى لا تنطوى ، بطبيعة الحال ، على اية صعوبة ، متى وجدت تأييدا وتشجيعا من الحكام· وقوائم انساب البربر توجد قرائن تدل على انهــا وضعت فى القرن الرابع الهجرى وحررت باللغة العربية (١) · فان أحد فرعى البربر ، مثلا يسمى بالبتر (جمع أبتر) ·

---

1) راجع جمهرة انساب العرب ، ص 461
2) راجع ترجمته فى : خير الدين الزركلى ، الاعلام ، 9 – 87 ، وفى الانسكلو بيديا الاسلامية (الطبعة الانجليزية) مقالة Brocklman
3) الاغانى ، 19 – 58
4) نفس المصدر ، 9 – 19 – 20
5) مقدمة كتاب الاصنام لابن الكلبى ، طبع دار الكتب المصرية 1924 ص 15
6) راجع De Slane, Les Berbères, 1/196

ولكن شجرة نسب صنهاجة يلاحظ ادخال تحسينات كبيرة عليها منذ بداية ولايتهم لافريقية. فان ابن خلكان عند ما يترجم لتميم بن المعز بن باديس ، يذكر لهذا الملك الصنهاجي ثلاثة وخمسين جدا آخرهم هود عليه السلام . وقد عزى ابن خلكان شجرة النسب هذه الى عماد الدين الاصفهاني (١) .

وبمراجعة كتاب جريدة القصر وجريدة العصر (٢) وجدت أن قائمة عماد الدين الاصفهاني لا تقف في الحقيقة عند النبي هود ، بل ترتقي بنسب صنهاجة الى آدم أبي البشر .

والذين يندهشون لهذه الدقة العجيبة في معرفة الانساب وتسلسلها ، ستزول دهشتهم اذا عرفوا أن عماد الدين الاصفهاني ، قد ذكر انه كان على صلة بالامير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز الصنهاجي الذي كان يقيم معه في دمشق ، وانه أخذ منه قائمة اجداده ، مع ديوان شعر للملك الصنهاجي ، تميم .

وهذه القائمة هي نفسها التي يوردها النويري في نهاية الارب .

وقد لاحظ دوسلان في تعليق له على هذه القائمة التي اشتمل عليها الملحق الذي اخذه من نهاية الارب ووضعه في آخر ترجمته الفرنسية لكتاب دول البربر ، كثرة ما تشتمل عليه من الاسماء البربرية ، الى جانب الاسماء العربية التي حشرت فيها حشرا .

وفي ختام هذا التحليل أرى أن افضل تعقيب لتلخيص راي في الموضوع ، هو اقتباس التعليق الذي سجله ابن خلدون حين يقول :

« والبربر معروفون في بلادهم واقاليمهم متميزون بشعارهم عن الامم منذ الاحقاب المتطاولة .

فما الذي يحوجنا الى التعلق بهذه الترهات في شأن اوليتهم ويحتاج الى مثله في كل جيل وامة من العجم والبربر (٣) » .

امتداد افريقية .

يختلف المؤرخون والجغرافيون العرب اختلافا كبيرا بشأن امتداد المساحة التي يطلق عليها اسم افريقية . وبينما يطلق هذا الاسم في نظر البعض على القيروان فقط (٤) فاذا بافريقية تمتد في نظر الآخرين ، طولا من برقة الى طنجة وعرضا من البحر الابيض المتوسط حتى بلاد السودان (٥) .

وبين هذين الطرفين يضع الكتاب العرب حدود افريقية في اماكن مختلفة .

فابن سعيد المغربي (القرن السابع الهجري) يقول ان آخر سلطنة ببجاية وأول سلطنة افريقية هي مدينة بونه (٦) .

وفي نظر ياقوت أن افريقية تمتد حتى بجاية « وقيل حتى مليانة (٧) » . وابو عبيد البكري الذي عمل عنوان كتابه ، « كتاب المغرب في ذكر

---

1) وفيات الاعيان I 173

2) النسخة الخطية في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 3335 ورقة 59 ظهر

3) دول البربر طبع الجزائر I — 117

4) المؤنس ، ص 15

5) الاستبصار ، ص 112

6) كتاب الجغرافيا ص 142

7) معجم البلدان ، I — 325 . راجع أيضا ، مراصد الاطلاع ، 103 — 101

اخبار افريقية والمغرب » ، لا يعتبر كلمة افريقية مرادفة للمغرب ، ولو انه لا يتعرض لذكر الحدود بينهما ٠

ولكن الـرأى هـو أن نعتبـر « افريقية » مصطلحا سياسيا ذا مضمون جغرافى غير محدد٠ واذا كان هذا المصطلح ينطبق فى عهد الاغالبـة وفى اوائل عهد العبيديين على حدود تونس الحالية تقريبا ، فان مدلوله قد اتسع فى عـهد الزيريين ليشمل المغرب الاوسط والاراضى التى فتحوهـا فى المغرب الاقصى ، والتى كانت فى عهد بلكين تمتد حتى شواطىء المحيط الاطلسى ٠

وكذلك تقلصت رقعة افريقية فى عهد بنـى حمـاد بحيث تقـف حدودها عند حـدود مملكتهم شـــرقا ٠

واحتلال بنى حماد لمدينة تونس وبعض المدن والمناطق الواقعة فى غربها منذ عهد الناصر بـن علناس حتى سقوط المهدية فى يد النورمانديين ، لا يبدو أنه غير شيئا فى مدلول هذه التسمية ٠

صنهاجـة وكتـامة وزناتـــة

رأينـا فى الفقرة السابقة كيـف ان خـلاقا مصطنعا قام بين المؤرخين العرب بشأن أصـــل صنهاجة وكتامة ، القبيلتين اللتين كان لهما اكبر الفضل فى انتصار العبيديين على الاغالبة ثم فى استمرار نفوذهم على المغرب ٠ وانه لمما يستلفت النظر فى هذا السياق أن احدى هاتين القبيلتين قلما يذكرها المؤرخون على انفراد، بل هم يجمعون بينهما فى الغالب ، فيقولون صنهاجة وكتامة ٠

وامـا زناتـة أعـداء صنهاجـة التقليدين ومنازعوا سلطان الفاطميين فى المناطق الغـربية من المغرب الاوسط وفى المغرب الاقصى ، فقـد اعتبروا من البربر ٠

وهذه القبيلة التى تعرضت أجيالا طويلـة لمطـاردة الزيريين ورات قواتهـم تشتت جموعها وتمحو مدنها من الوجود اكثر من مرة ، لم تدع الانتماء لغير هذه الارض ، ولم تحاول اصطناع نسب عربى لها حينما اصبحت هى الاخرى ، فى عهد زيرى بن عطية ، قوة سياسية معترفا بها فى المغـرب ٠ وهذه ميزة كبيرة لا بد مـن تسجيلها والاعتراف بها لهذه القبيلة التى تركت على هامش التاريـخ ، على الرغـم مما ابدته مـن ضـروب الشجاعة والبطولة فى الذود عن كيانها ٠

ومهما يكن من شىء فان القبائل الثـلاث كانت تشكـل مجتمعة (مضافـا اليها مصمودة وبرغواطه) كتلة سكان المغرب الاوسط والمغرب الاقصى فى العصور الوسطى ٠

وكتامة وصنهاجة كانت تشكل ، مع زواوه بالضبط المناطق التى تسمى الآن بلاد القبائـل أو موريطانيا فى عهد الرومان (١) ٠

وفيما يلى نحاول تحديد المنطقة الجغرافية التى كانت تحتلها وتعيش فيها كـل واحـدة مـن القبائـل الثلاث ٠

كتـــامـــة

كان اسم هذه القبيلة معروفا لدى الاغريق وقـد ذكـره بطليموس ، كمـا كان معروفا لــدى الرومان واتخـذ فى عهدهـم الشـكل اللاتينـى Ukulmani الذى عثـر عليـه منقوشا على بعض الآثار فى المنطقة التى تمتد بين ميلة وجيجل (٢)٠

١) راجع F. Gautier, le Passé de l'Afrique du Nord, P. 322

2) راجع Gsell (St.), Atlas de l'Algérie, feuille de Philippeville

بحيث كان من عاداتهم المبالغة فى تكريم الضيف بان يقدمو اليه ابن العائلة . وكانت هذه العادة مثارا للسخرية والاستهزاء بهم حتى فى قصور الملوك والامراء ، الامر الذى من شانه أن يجعل الكثيرين يخجلون من الانتساب الى كتامة .

صنهاجة

تمتد اراضى صنهاجة (أزناجه) التى يقول بعض الكتاب المحدثين ان اسم السنيغال ماخوذ من اسمها ، فى المناطق الواقعة فى شرق الجزائر على الشمال الشرقى لخط يمتد من جبال أوراس حتى تنس (١) وتشكل جبال زواوه ، على حد قول ابن خلدون الحدود التى تفصل بين صنهاجه وكتامة .

وقد اتسعت اراضى القبيلة فى الاتجاه الغربى تدريجيا بعد ما طردوا مغراوه وغيرهم من فروع زناتة مؤقتا ، من الاراضى الواقعة على ضفاف نهر الشلف .

ولكنه يوجد قبيل آخر من صنهاجة منه انحدر الملثمون (المرابطون) وهم من الرحل الذين كانوا يعيشون فى المناطق الجنوبية الغربية فى المغرب الاقصى (٢) .

وعلى عكس اخوانهم صنهاجة الغرب الذين كانوا يجوبون القفار مستخدمين الجمل فى تنقلهم ويعيشون على الرعى ، فان صنهاجة الشمال كانوا يعيشون حياة مماثلة لحياة جيرانهم كتامة وزواوه ، تعتمد على الزراعة والرعى ويسودها الاستقرار . ونظرا لوعورة الجبال التى كانوا يقطنونها فقد كانوا يستعملون البغال للتنقل . واما الخيل فعلى الرغم من أن صنهاجة كانت تستخدمه فى الحدود التى تسمح بها طبيعة الارض فسوف لا تكتشف قيمته الا بعد ما تبنى المدن وتنظم الجيوش ، أى بعد بناء اشير .

ولكن صنهاجة كانت لها دائما قرى تعقد فيها اسواقا يقصدها الناس مرة فى الاسبوع لبيع منتجاتهم ولشراء الاسلحة والادوات والاوانى وللافاة صناع السروج وتجار التوابل الخ .. ، على غرار ما يجرى العمل به اليوم فى بلاد القبائل .

واهم مدن صنهاجة ، قبل بناء اشير والقلعة وبجاية ، كانت هى الجزائر ومليانة (اللتين بناهما زيرى بن مناد) والمدية والمسيلة وسوق حمزة (البويره) .

وقد اختفى اسم صنهاجة فى المغرب الاوسط فى وقت لا نستطيع تحديده ولو ان بعض أفخاذ القبيلة مثل ونوغه وبنى مليكش التى يعتقد أنها من بينها ، لا تزال موجودة وتعتصم بجبال جرجره .

زناته

كانت المناطق التى تمتد بين نهر الشلف والمحيط الاطلسى مرتعا خصبا لبطون زناتة التى كانت تعيش حياة البدو الرحل . وكانوا يتقاسمون هذه المنطقة مع عدد من القبائل التى من اهمها برغواطه .

---

1) راجع L. Golvin, le Maghreb Central sous les Zirides, P. 33

2) راجع اعمال الاعلام ، ص 62

والمنطقة التى كانت تحتلها كتامة معروفة ومحددة بوضـــوح ٠

فاراضى كتامة تحدها غربا بـــلاد زواوه ٠ ولكن صلة كتامة بزواوه غير واضحة تماما فنحن نعرف أن زواوه كانت حليفا سياسيا لكتامة عند بدء الدعوة الشيعية ، ولكننا نجهل صلة القرابة والـــدم بينهما (١) ، وتمتد المساحـــة التى كـــانت تشغلها كتامة فى شـــرقى بلاد القبائـــل الصغرى بين سطيف وجيجل والقل ، وبين سلسلة جبـــال البابور وقسنطينة ٠ ومدن كتامه الرئيسية هـــى سطيـــف ونقاوس وتيجست والمليلـــة ، وجيجـــل وسكيكدة والقل وقسنطينة ، اقدم مدن الجزائر ٠

وهذه المنطقة تسود فيها المرتفعات والهضاب وتحيط بها غابات وجبال وعرة قليلة المداخـــل ، وتشكـــل نظاما طبيعيا للدفاع ٠ ومعظم القـــرى الواقعة فى ارض كتامة مبنية على قمم الجبال فى مواقع يصعب حصارها ووصـــول العدو اليها ٠ وسكـــان هذه المناطـــق يحرصـــون على امتـــلاك السلاح ٠

ويضاف الى هذه العقبات صعوبة تموين الجيوش الغازية لهذه المناطق بسبب قلة الطـــرق المسلوكـــة وتضامـــن السكـــان وتضافرهم ضـــد الاجنبى ٠

وهذه الاعتبارات تفسر لنا انتشار دعوة الشيعة بين كتامة الذين التجأ اليهم أبو عبد الله الداعى فى حوالى سنـــة ٢٧٧ هـ ، دون أن يمتـــد اليها سلطان الاغالبة ٠

وكذلك تفســـر لنـــا هذه الظروف الطبيعية صلابة عود هذه القبيلة التى انتزعت دفة الحكم من يد العرب الفاتحين لتضعة فى يد البربر لاول مرة فى التـــاريخ ٠

وقد توجت انتصاراتها فى المغرب بالاستيلاء على مصر وبناء القاهرة ٠

على ان هذه القبيلة انقرضت فى وقت مبكر جدا ٠ فان الشريف الادريسى الذى كان يكتب فى منتصف القرن السادس الهجرى (القرن الثانى عشر الميلادى) يقول انه لم يبق فى عصره مـــن هذه القبيلة سوى ما يقرب من اربعة آلاف رجـــل « وكـــانـــوا قـــبل ذلـــك عـــددا كبـــيرا وقبـــائـــل وشـــــعوبا (٢) » ٠

والسبب الرئيسى فى اختفاء اسم كتامـــة فى هذه البلاد يعود فى المرتبة الاولى الى أن هذه القبيلة كانت تمد الفاطميين بجزء مهم من الجيوش التى كانوا يعتمدون عليها فى فتوحاتهم كما كان الكتاميون يشكلون العمود الفقـــرى لـــلادارة فى القيروان ، ثم فى مصر والشام ، بعد ذلك ، وقـــد انغمسوا فى حياة القصـــور واستبدلوا وطنهـــم بأوطان أخـــرى ٠

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان كثيرا من بطون القبيلة التى بقيت فى المغرب الاوسط ، اثر رحيل العبيديين الى مصر ، كانت تنفر مـــن الانتساب الى كتامة بسبب الاضطهاد الذى كانت تتعرض له هذه القبيلة نتيجة لما عرف عنها مـــن التعلق بمذهب الشيعة ومناصرتها له ٠ وكذلـــك كان الشذوذ الجنسى منتشرا بين هذه القبيلـــة ،

1) ذكر ابن خلدون ان زواوة من بطون البربر البتر ، وروى عن ابن حزم ان زواوة من كتامة ، ولكن المؤرخ المغربى لا يستنـد فى هذا الرأى الا على ما عرف عن القبيلتين من اتصال الموطن والتشيـع ، ـ العبر 6 ـ 148 ـ

2) الادريسى ص 99

ولكن فروعا اخرى من زناتة كانت تعيش أيضا فى المناطق التى تمتد فى المغرب الاوسط جنوب خط الاوراس - تنس ٠

وكانت زناتة التى لم تتاثر بالعقيدة الاسلامية الا تاثرا سطحيا توفر موئلا وسندا للدعاة والثوار ولا سيما من الخوارج ٠

ولما انقسمت أسر البربر فى المغرب وسارت كتامة ، ثم بعدها صنهاجة على مذهب الشيعة ، رأت زناتة التى كانت تشعر بقوتها أن تجعل من الامويين السنيين فى الاندلس حلفاءها الذين تدين لهم بالولاء ، خصوصا ، بعد ما تركز سلطانهم فى فاس تحت زعامة زيرى ابن عطيه ٠ ولكن النضال القبلى الذى استمر اجيالا طويلة بينها وبين صنهاجة سيستنزف كثيرا من قوة هذه القبيلة التى انقسمت على نفسها الى عدة أمارات كثيرا ما دخلت فى معارك طاحنة ، بل ان بعضها سينضمون صراحة الى معسكر صنهاجة ، بعد ما بسطت سلطانها على مختلف اطراف المغرب ٠



مـراجع البحث

ابن ابى دينار القيروانى ، المؤنس فى اخبـار افريقية وتونس ـ طبع تونس سنة ١٢٨٦ هـ ٠

ابن حزم (ابو محمد بن على بن سعيد) ، جمهرة انساب العرب ، تحقيق Lévi Provincal طبع القاهرة سنة ١٩٤٨

ابن الخطيب (لسان الدين) تاريخ المغرب فى العصر الوسط ، وهو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام ، تحقيق العبادى وابراهيم الكتانى ، طبع دار البيضاء ، سنة ١٩٦٤ ٠

ابن خلدون ، كتاب العبر طبع بولاق (١٧ أجزاء) سنة ١٨٦٧ ٠

ابن سعيد المغربى كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربى ، طبع بيروت ، سنة ١٩٧٠ ٠

ابو الفدا (الملك المؤيد) المختصر فى اخبار البشر (١٤ اجزاء) طبع بيروت ٠

ابو عبيد البكرى ، كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق De Slane الطبعة الثانية باريس ١٩٦٥ ٠

خير الدين الزركلى ، الاعلام (١١ مجلدا) الطبعة الثالثة ، بيروت سنة ١٩٦٩ ٠

الادريسى (الشريف) ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس (مقتبس من كتاب نزهـة المشتاق) طبع ليدن سنة ١٩٦٦ ٠

صفى الدين (بن عبد المومن بن عبد الحق) ، مراصد الاطلاع ، تحقيق محمد ابو النجار ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ٠

كتاب الاستبصار فى عجـائب الامصار ، لمؤلف مغربى مـن كتاب القرن السادس الهجرى ، نشر زغلول عبد الحميد ، طبع الاسنكدرية ، سنة ١٩٥٨ ٠

ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، تحقيق Wüstenfeld ليبزيج ، ١٩٦٦ ٠

Caussin de Parceval, Essay sur l'Histoire des Arabes, (2 vol.) Paris, 1858.

De Slasse (traduction) l'Histoire des Berbères, Alger, 1852-1856.

Dureau de la Malle, l'Afrique, Esquisse Général de l'Afrique Ancienne, Paris, 1852.

F.E. Gauthier, le Passé de l'Afrique du Nord, Payot, 1952.

(St.) Gsell, Atlas Archéologique de l'Algérie, Paris, 1911.

(St.) Gsell, Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord, Paris, 1913-1928.

L. Golvin, le Maghreb Central à l'Epoque des Zirides, Alger, 1957.

Saluste, Conjuration de Catilina, Guerre de Jugurtha, Produit par J. Roman, Paris, 1924

لالا فاطمة نسومر

1863 - 1830

حسن حموتن
مفتش أكاديمية

حيـــاتهـــا :

أبوها سيدى محمد بن عيسى مقدم زاويـة الوالى الشيخ سيدى احمد أمزيان شيخ الطريقة الرحمانية المدفون فى قرية ايتسوراغ دوار يللتن فى بلدية عين الحمام ـ فى هذه القرية ولدت لالة فاطمة بنت سيدى محمد بن عيسى حوالى سنـة ١٨٣٠ ونشــات فى عائلـة مرابطية تنتمى الــى الشرفاء وتخلقت بمكارم الاخلاق وتحلت بالسجايا الحسنة متمسكة بالعوائد الجارية والتقاليد المتبعة فى البلاد ـ وكان أبوها شيخ طريقة ومقدم زاوية

يتمتع بالسمعة الحسنة ويتحكم فيمـا يحدث بـين الناس من شجار وخلاف وكان مقره مزارا يقصده المريدون مـن كـل حدب وصوب يـاتون زرافات ووحدانا وكان لهذا الشيخ الوقور خمسة أولاد ولم ندر هل كان له بنات غير لالـة فاطمة كما لا نعلم هل تعلمت لالة فاطمة في صباها شيئا مـن القرآن الكريـم في الزاوية وشيئـا من المبـادى العربية تبعا لعادات بنات المرابطين في الزواوة ادركت لالـة فاطمة السادسة عشـرة من عمرها وكانت وسيمة الطلعة ربعة القد ·· جميلة الوجه أنيقة الهندام ترتدى الحرير لباسا فيزيدها براعة في الجمال وسحرا في الابهـة ·

شخصيتهـــا :

اشتهرت لالة فاطمة نسومر بجمالها البـارع في الاوساط وعرفت في القرى بمكانة أبيها سيدى محمد بن عيسى صاحب الطريقة ومقدم المعمرة غير انها لم ترغب في الزواج وقد خطبها رجال كثيرون من ذوى الجاه والشرف فرفضت وآثرت التنسك والانقطاع للعبادة في خلوة بمنزل أبيها ثم تزوجت على كره منها بمرابط من سكان تيروردة اسمـه سى يحي بن يخولاف من ايتسوراغ فتظاهرت لـه ليلة الزفاف بالجنون والخيال فحطمت له الاواني ومزقت الثيـاب فمـا أصبحت حتى أرجعهـا الى أهلها متيقنا بانها مجنونة حقا فلا يحتمل عشرتها الا أنـه لم يطلقها وتـركها معضلة انتقاما منهـا لنشوزها فلم تتزوج بعده · انصرفت لالة فاطمة نسومر الى بيت أخيها الكبير سى الطاهر الساكن بقرية سومر واليها نسبت فيما بعد ، واشتهر سى الطاهر بالوقار والنظر في الفلك والعرافة واليقشة وكان بيته مزارا يأتيه الزوار رجالا ونساء مـن كل مكان ولم تلبث لالة فاطمة أن قلدته وصـارت هى الاخرى تنظر في الغيبيات وتكشف للـزوار عما كتب لهم في الباطن من خير وشر ـ وكانت لالة فاطمة تستقبل في خلوتها النساء على انفراد والرجال على انفراد ـ وفي هذه الفترة بين سنة ١٨٤٤ وسنة ١٨٤٥ توغل جيش الاحتلال داخـل البـلاد ووقعت معـارك عديدة : معركة تـادميت ١٨٤٤ قادها الماريشال (بيجو) نفسه ضد الحاج محمد بن زعموم فغلب الحاج محمد بـن زعموم وأسر ـ وقصد الجينيرال رندون قرى فليسة فعمل فيها الحديد والنار وأخضعها سنة ١٨٥٠ بينما زحف بيجـو على تيـزى وزو ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ ، ١٨٤٧ وعلى دلس وحاول اقتحام الاربعاء نـات ايراتن فانهزم ـ وتوجه الملازم بوربريط والجينيرال رندون لاخضاع نزليوة وقشطولة وبومهنى سنة ١٨٥١ ـ في هذه الفترة ظهر بوبغلة محمد بن عبد الله مولى الساعة قادما من سور الغزلان فهاجم الملازم بوبريط في بنى منصور ففرق فلوله ثـم انسحب بجيشه الى جرجره فزحف اليه بجيشين عرمرمين روندون آتيا من العاصمة وماكماحون قادما مـن قسنطينـة والتحمت المعركـة حاميـة الوطيس في ربوة تيمسقيدة ـ قصد بوبغلة بنى بنى ودعا الى الجهاد المقدس فرفع شيوخ الزوايا وكـلاء مقامات أوليـاء اللـه سناجقهم وجندوا اخونهم ومريديهم ونظموا الكفاح المقدس دفاعا عن الشرف والعرض والوطن والتحقوا بـواجهة واضية حيث اخذ العدو زحفه على قراها بقيـادة الجينيرالين يوسـف وروندون ومعهـم الخائـن لافاسى الجودى فوقعت عدة معارك في الناحية ، وكانت لالة فاطمة نسومر الى جانب بوبغلة تخوض غمار الحرب وتحرض المجاهدين وقيل رأت لافاسى الجودى في المعمعة فقصدته فقتلته بيدهـا ·وفي معركة أخرى سقط الشريف بوبغلة جريحا قربها

فاسعفته ونجته من السقوط بيد العدو ـ فاعجب بشجاعتها وبسالتها كما اعجب بجمالها البارع وخلقها الكريم فخطبها من اخيها سى الطاهر اكن زوجها ابى طلاقها فاراد بوبغلة أن يفديها منه بمبلغ بليغ فرفض سى يحي بن ليخولاف الفداء وفى سنة ١٨٤٥ كانت شهرة لالة فاطمة نسومر قد انتشرت فى القبائل الكبرى واقلقت فكر بيجو وأركان حربه وبعثت فى قلوب الجيش المتوغل فى البلاد الرعب بعد أن ذاق شر الهزيمة فى المعارك التى قادتها الى جانب بوبغلة فعزم الحاكم توجيه حملة عارمة للقضاء على الشريف بوبغلة والولية لالة فاطمة مسومر التى وصفها قادة جنوده بجاندارك القبائل الكبرى وعدها البعض منهم بأنها نبية فلا قبل لهم بها فقصدها الجينيرال روندون بجيش جرار من العاصمة الى جبال جرجرا واستقدم المريشال دى ماكماحون من قسنطينة فقدم بفيالقه العرمرمة وكانت الخطة المسطرة اكتساح القرى الثائرة وتحطيم القرى التى انسحب اليها بوبغلة ولالة فاطمة نسومر فى جرجرا ـ قصد رندون وماكماحون قرية توريرت عمران حيث اقاما معسكرهما وكانا قد اكتسح عسكرهما فى طريقه كل شىء بالنار والحديد وارتكبوا الافاعيل وأجرموا الجرائم ولوثوا الاعراض واهلكوا الحرث والنسك ـ وبعد ايام رسما خلالها خطة الهجوم اقتحمت فيالقهما مواقع المجاهدين فى ربوة تيمسقيدة وتيشكرت واقروا بورجة وتيزى بويرو واشتدت المعركة وابدى المسبلون شجاعتهم واستماتتهم فى القتال بالسلاح الابيض وقاوموا مقاومة الابطال ودافعوا دفاع الاسود عن العرين٠ وكانت لالة فاطمة نسومر فى وسط المعمعة تخوض غمار الحرب مرتدية لباسها الحريرى الاحمر اللون وبيدها السلاح تقاتل العدو وتحرض المجاهدين على القتال والاستماتة فى سبيل الدفاع عن العرض والشرف والوطن الحبيب ووراء البطلة لالة فاطمة نسومر حاشيتها من أشجع الفتيات والسيدات الشابات يقاتلن معها ويزغردن لتحريض المقاتلين المغاوير ويسعفن الجرحى ويضمدن جروحهم ويزودن المحاربين بالعتاد الحربى ـ وبالزاد ويقضين على جرحى العدو استعملت فى هذه المعركة كل أنواع الاسلحة حتى الحجارة وثبت المجاهدون الميامين واظهروا بسالة نادرة اعترف بها العدو المهاجم ثم شن المجاهدون هجوما موحدا على صفوف العدو فضعضعوهم وفرقوا شملهم فولوا الادبار وفروا منهزمين فصاحت أبواقهم بالانسحاب من المعركة فتابعهم المجاهدون حتى أخرجوهم من عرش يللتن فعاد القائدان روندون وماكماحون بفلول جيشهما الى تيزى وزو يجران وراءهما عار الهزيمة أمام بوبغلة ولالة فاطمة نسومر ٠

نهاية جهادها :

تابع جيش الاحتلال توسعه فى الجبال فدخلوا العزازقة فى افريل ١٨٥٤ بقيادة الكلونيل والف وتمركزوا بالمراكز الهامة وبنوا الثكنات وإستوردوا المعمرين للارض من أخلاط الاروبيين وأوباشهم واقطعوا لهم الارض فى سهول يسر وبرج أمنايل وسيدى داوود بعد أن انتزعوها من ايدى الاهالى واتخذوا دلس مركزا لقيادتهم ومبعثا لنشاطهم العسكرى من سنة ١٨٤٤ ثم اتخذوا مركزا آخر فى تيزى وزو ليكون منطلق فيالقهم لغزو القرى التى لا تزال محاربة لهم معارضة لتقديمهم بعد ان القى السلاح اغاوات الجهات اثر انهزام الحاج محمد بن زعموم فى معركة تادميت فى سنة ١٨٤٤ وأسره كما سلف

ثم نفيه الى جزيرة سانت مرجريت التابعة لفرنسا ومن هؤلاء الاغوات بلقاسم اقاسي آغا عمروة ٠٠ وبن سالم آغا جرجرا وكلاهما وليا للامير عـبد القادر انظم الى العدو بعد استسلام الامير عام ١٨٤٧ ٠ وفى سنة ١٨٥٧ أعاد الجنيرال دهوت بول الكرة على الاربعاء بنى ايراثن فدخلها بخيانة خابث من أهلها لا يزال اسمه مضرب المثل فـى الخديعة والخيانة الوطنية وقد جرت معركة هائلة فى قرية ايشريضن التحم فى وطيسها المجاهدون بالمعتدين واستبسـل فيها المسبلـون استبسـال الاسود الاساوس وجاهدوا حتى ماتوا عن آخرهم فى ربوة لا يزال ذكرها يرد فى أفواه الشعـراء شعرا حماسيا واغانى والحانا فى أفواه الشعب غير أن المقاومة انتقلت الى جبال جرجرا وقـرى ايللتن وتخليجت ناث عسو وأقرو بورجة وتوريرت عمران وتيزى بوايرو المنتشرة على ربوة تمسقيدة وكلها قرب عين الحمام والقرى لا تزال عامـرة الى اليوم وفى هذا العرش أو الدوار توجد قرية لالة فاطمة نسومر حيث لا تزال البطلة الشهيرة تنظم المقاومة وتستعد لقتـال المعتدين الاجانب ٠ وقد هاجمت مركـزهم بالاربعاء وقطعت عليهـم طريـق المواصلات فاشتد أمـرها وقوى جانبهـا وانظمت اليها قياد الاعراش وأمناء القرى فراحت تنـاوش كتائب الاعـداء وتهاجمهم فى المـراكز المتقدمة وتبعث الـرعب فى قلوبهـم حتى خشيت الولاية العامة بالعاصمة خطر لالة فاطمة نسومر فقـدم الجنيرال روندون وقصدها بجيش عظيـم واستنجد بالمريشـال ماكماحون فاتـاه بالعتـاد والعدد وقصد الجيشان جبال جرجرا والتقيا فى الحادى عشرة جويلية ١٨٥٧ فى أعـراش آيـت استوراغ وايللتن يقود كتائب هذا الجيش المتالف من ٤٥٠٠٠ جندى الجنيرالان السفاكن : يوسف وروندون فبدأت المعركـة واحتـدم فيها القتـال وجاهدت لالة فاطمة جهاد الابطال ثم رأت الخطر يحدق بالنساء والاطفال فأمرت باللجوء الى قرية ثيخليجث ناث عتسو فخرجت بالنساء والاطفـال والاموال الى هذه القرية ثـم أراد قادة الثـورة الاستسلام ودارت مفاوضات بينهم وبين رندون على الا تمس الاعراض بسوء ولا تخرب القريـة لكن القبطان فورشو اقتحم القرية بفرقة الزواف فأسر لالة فاطمة نسومر ومن معها من الاطفـال والنساء (٢٠٠ امرأة) فقدمها للجنيرال رندون فاكرمها اعجابا بشجاعتها وكفاحها ثم سيرها ومن معها مـن زميلاتها فى الكفاح الى زاويـة سـى تابلاط وكان هذا قد رافق العدو فى هذه الحملـة حيث وضعها وأتباعها من أهليها ومناصريها تحت الطاهر بن محى الديـن باشغا بنى سليمـان فى الاقامة الجبرية وكانت قد بلغت من العمر السابعة والعشرين وكان معها فى المعتقل اخوتها : سـى الطاهر وسى أحمد وسى شريـف وسى الهـادى وآخرون من أقاربها نحو الثلاثين وقد بقيت فى هذه الزاوية سبع سنوات فرغت نفسها للعبادة محترمة الجانب عظيمة القدر تزورها الوفود من جبـال جرجرا خاصة ومن قرى القبائـل عامة وتأتيهـا حتى من الجهات الاخرى للتبرك بالجلوس اليهـا والسماع الى احاديثها المملوءة بالعظمة والنصيحة حتى أدركتها الوفاة اثر التهاب أصابها فى بطنها أشل أعضاءها مدة ذاقت خلالها العذاب الاليم — توفيت البطلة لالة فاطمة نسومر فى شهر سبتمبر سنة ١٨٦٣ ببنى سليمان ودفنت الى جنب أخيهـا سى الطاهر الذى مات قبلها سنة ١٨٦١ ٠

نهب العسكـر منزلها فأخـذوا ١٠٠،٠٠٠ دينـار فضـــة ٠

وكل صيغة النساء

و٨٢ راسا من البقر

و١٠ بغال

و٢٥٠ شاة

و٥٠ بندقية

و١٥٠ مجلدا من اثمن الكتب وأشهر التآليف فى مختلف العلوم والفنون فى اللغة العربية وقد سعى أخوها سى الطاهر على استرداد هذه المجلدات لكن بدون جدوى ٠

الخاتمة :

لعبت لالة فاطمة نسومر دورا هاما فى المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى وتسرب العدو الى داخل الوطن فى بلاد القبائل خلال الثورة العارمة ما بين ١٨٥١ و ١٨٥٧ وكافحت الاستعمار كفاح الابطال أظهرت شجاعة نادرة فى المعارك وواجهت عشر جنيرالات لقنتهم دروس الفروسية والبطولة الجزائرية فى جبال جرجرا ولم تستسلم الا امام القوة الجبارة تجاه جيش بلغ عدده ٤٥٠٠٠ جندى ، فاذا كان لكل أمة بطلة يفتخر بها تاريخه فان لامة الجزائر زعيمتها وبطلتها لالة فاطمة نسومر التى توجت هامة جرجرا اكليل الفخار وزينت جبين لالة خديجة بغار الشرف ٠



الحـــل الامريكى السوفياتى لن يـرضى العـــرب

وفى يقينى ان معركة قادمة يجب ان تتجه الى تحطيم القوة الاسرائيلية المقاتلـة دون اعتبار لما تذيعه اسرائيل عن اقترابها من دمشق أو القاهرة لان توسعها جغرافيا هو اضعاف لها ·

لهذا قلت فى البداية ان لغة المؤتمر كانت لغة المعركة ولذا فان امامنا ثلاثـــة احتمالات للحلول ·

حل عربى : وهذا اسمى الحلول وهو يتطلب ان نكون فى مركز قوة ·

وحل امريكى : سوفياتى وهذا الحل لن يرضينا ابدا مائة بالمائة ·

حل امريكى : وهذا الحل سيكون على حسابنا كعرب ·

تكرر السؤال مرة ثانية عن مؤتمر السلام وعن اتجاه المؤتمر هل هو يدعو الى جنيف أو الى الجبهة ·

واجاب رئيس مجلس الثورة لكى أكون صريحا فان طريق جنيف يجب ان يمـر بالجبهة وهذه هى الفلسفة العامة للعمل العربى ·

وحول قضية النفط وما تردد من تهديدات قال الرئيس بومدين :

لسنا فى حاجة لجيوش ولا لدبابات لندافع عن نفطنا لا عددا بسيطا من فدائيين ان يمكننا بتسبب فى كارثة عالمية اذا ركب الغرب رأسه ·

وأنا اقول اذا حاول الغرب ان يتصرف بعنجهية ويحاول ممارسة القوة فان الكارثة ستقع بالنسبة له وستحترق كل الابار وتحطم كل الانابيب وسيدفع الثمن ·

وبعد ان عرض الرئيس على الصحفيين طريقة العمل داخل اطار مؤتمر القمـــة مؤكدا لهم الطابع الموضوعى الصريح البناء للمناقشات ومشيرا الى ان المعركة لم تنته بعد وان دور مؤتمر القمة هو ضمان التضامن العربى ورفض اعطاء أى معلومات عـن مساهمات الجزائر فى المعركة واكتفى بالقول بأنه خلال لقائه بالرئيس السادات فى القاهرة علم منه انه هناك فى الافق احتمالات عمل عسكرى فطلب من الرئيس المصرى ان يحدد احتياجاته وقد تمت الاستجابة لها ·

الرئيس بومدين فى ندوة مع ممثل الصحف العربية



كلمة السيد محمد أنور السادات

رئيس جمهورية مصر العربية الى ملتقى الفكر الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

الاخ الرئيس

الاخوة العلماء

ابناءنا الطلاب

تحية طيبة مباركة أبعثها اليكم فى ملتقاكم السابع للتعرف على الفكر الاسلامى ، الذى أصبح علامة منيرة فى طريق العمل الاسلامى على الصعيدين الجزائرى والاسلامى ·

فهذا المؤتمر يضم كل عام صفوة من العلماء جاءوا يحملون أقدس رسالة وهى رسالة العلم ·

وهو يضم ممثلين للجيل الجديد الذى نرجو أن يكون أسعد منا حظا وأقدر على حمل الامانة ، وفى هذا تواصل بين الاجيال وتدريب كريم للقيادات الشابة ·

وهو يعنى بقضايا حيوية تربط بين الدين والحياة بكل ما تحمل الحياة الاسلامية المعاصرة من مسئوليات وما نحتاج اليه من خلق كريم ويقظة فكرية ودأب على العمل الجاد الهادف ·

ومن هذا التواصل بين الاجيال الجديدة والعلماء ، وبين الدين والحياة وبين الكلمة والعمل يسلك الملتقى طريقه الصاعد الى أفق أوسع فى خدمة العقيدة والمجتمع ·

أدعو الله أن يجعل كل هذه الجهود مددا لرفعة الاسلام والمسلمين واقامة الحياة على سلام عادل نسترد فيه أرضنا المغتصبة ومقدساتنا السليبة ونعيد به السلام الى أرض السلام ·

وتحية الى أخى الرئيس هوارى بومدين والى حكومته الموقرة والشعب الجزائرى الشقيق والى علمائنا وشبابنا فى مسيرتهم الراشدة الى الايمان والعلم والعمل ·

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ·

تحريرا فى :

٥ جمادى الثانية سنة ١٣٩٣ هـ

٥ يوليو سنة ١٩٧٣ م

رئيس جمهورية مصر العربية

محمد أنور السادات

كلمة الاستاذ احمد توفيق المدنى وزير الاوقاف سابقا
وسفير الجزائر بباكستان حاليا
فى جلسة افتتاح الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

سعادة الوزير المصلح الجسور ،

سادتى العلماء الامجاد ،

ابنائى رجال الغد المشرق فى جزائر الاسلام ، والعروبة والنهضة الانشائية الكبرى انى لجد مغتبط وسعيد ، اذ يسر الله لى اسباب حضور ملتقاكم هذا ، واتاح لى من جديد ، شرف الانغماس فى معين الحياة الفكرية والادبية والاندفاع الثورى الخلاق الذى هو شعار جزائرنا الحرة الجديدة ٠

وانى ، علم الله ، كنت منذ امد طويل اتوق لحضور هذا الملتقى ، واذوب شوقا لسماع محاضراته ومناقشاته البناءة التى كانت والحق يقال ، مشعلا وضاء القى نوره الساطع على ماضينا ، وبين لنا اخطار حاضرنا ، وحدد لنا الى امد بعيد ، معالم مستقبلنا السعيد ، فما حال بينى وبين تحقيق تلك الامنية الغالية ، الا تلك الواجبات الكبيرة التى القيت على كاهلى ، فى آخر حلقة من هذا العمر الذى طال ، فمثلت بلادى الحرة العاملة فى شتى اقطار العالم الاسلامى النائية ، وازددت بذلك علما ، واتسعت آفاق التجربة عندى ، وكنت ، كما قلت ، ممثلا لبلادى بدينها ، بلغتها ، باخلاقها ، بثوريتها ، بكل هذه القيم العالية التى جعلت منها دولة بناءة رفيعة العماد ، متينة الاساس ، شديدة المراس ٠

اننى اتخطى اليوم عتبا ، باب السنة الخامسة والسبعين ، ولقد اسعدنى الله بتحقيق كل آمالى فيما جاهدت من اجله ، نحوا من ستين سنة ، مما كان يعتقده اكثر الناس فى ذلك الاوان خيالا واوهاما ، وياليتهم يرون اليوم جزائرنا الفتية العملاقة ، تتقلب على بساط الاستقلال التام، وترتفع فوق ربوعها اعلام الحرية الغالية مصبوغة بدماء شهداء الاجيال ، اذن لراوا أن الحرية تؤخذ قوة واقتدارا ولا تمنح هبة وفضلا ، واذن لرأوا ان أوهام الاستقلال والحرية ، تصبح حقيقية ثابتة راسخة كالاطواد اذا ما بذلت فى سبيلها المهج والارواح ، واذا ما قدمت فى سبيلها مواكب الضحايا ، يتلو بعضها بعضا ٠

من اعز هذه الامنيات الغالية التى شاهدت تحقيقها ، هذه المعاهد الاسلامية العربية النادرة المثال ، المنبثة فوق اديم الارض الجزائرية والتى ان كنت اعتز فى حياتى بشىء فاننى اعتز بشرف ابتكارها وتاسيسها واخراجها من عالم الخيال الى عالم الحقيقة الوضاءة منذ عشرة اعوام ،

ايام كنت وزيرا لاوقاف الجمهورية الجزائرية وبالله ، كم قاسيت يومئذ فى سبيل انشائها من عنت ومن ارهاق ، وكم تحملت من اذى ذوى القربى الذين وحدت بينى وبينهم الاوطان وفرقت بينى وبينهم الاهداف ، انما ذلك الجيل المجاهد من المؤمنين الصادقين الذى التف حولى وشد ازرى ، وذلك المدد السخى الذى امدنا الله به على يد البطل العربى الصادق جمال عبد الناصر رحمه الله ، ورجال الازهر الشريف ، واوقاف مصر المسلمة ، وذلك الاقبال المخلص المضحى من علماء الجزائر وطلبتها ، قد اكد لنا النصر العزيز المؤزر ، ولينصرن الله من ينصره ، فاصبحت المعاهد بين عشية وضحاها قائمة عاملة ، جادة ، وفتح امام الجزائر طريق الاسلام والعروبة والوطنية الصحيحة المجاهدة على اوسع ابوابه .

والآن ، وبهذه المناسبة ، اجد واجبا على مفروضا ان اتقدم بآيات من جميل الشكر ، وخالص التهنئة والثناء ، لهذا البطل الاسلامى الكبير ، وهذا المجاهد الجزائرى العظيم ، اخى وصديقى الاستاذ مولود قاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، وللصفوة المختارة من رجال الدولة الجزائرية الذين اعانوه وايدوه ولرأس الدولة العملاق المجاهد الهوارى بومدين ، الذى نفخ فى هذا العمل الجبار روحه واخلاصه ، واحساسه المرهف الشريف ، فبفضلهم جميعا رأينا الجدار يرتفع ، ورأينا البناء يشمخ ورأينا المعاهد ينمو عددها ويعم نفعها ، ويتوطد نظامها ورأينا هذه الطائفة المختارة من ابناء الجزائر الابرار يلتفون حولها قلبا وقالبا ، فتخرج هذا الجيل الغفير الحى ، وتجمع مثل هذا الملتقى الذى شاع ذكره وذاع ، واصبح حديث العرب والمسلمين فى كل اقطارهم ، ومنه يتفجر النور والهدى ، ويتجلى الكتاب المنير .

واظن أنه قد آن الاوان ، سيادة الوزير والمربى الحكيم ، وقد بلغت المعاهد هذا الشأو العظيم من الرسوخ والانتشار ، لانشاء « كلية العلوم الاسلامية » التى تفجر أمام جيلنا الصالح الدراسات الاسلامية العليا ، وتميط اللثام عن أسرار عظمتنا الغابرة ، وتأخذ بيد النابغين من ابنائنا الى ميادين التخصص المثمر ، حتى نستطيع أن نجارى علما وعملا ، جهود كبار الباحثين والمستنبطين ، فى الشرق وفى الغرب ولتدع ـ اذا رأيتم ـ كلية عبد الحميد بن باديس ، تحقيقا للفكرة التى كانت تروأد قطبنا الراحل اثناء جهاده الموفق .

هذه الكلية ـ سيادة الوزير ـ موجودة قانونا ، فقد صدر لانشائها أمر وأدرج بالجريدة الرسمية يوم ١٩٦٤/٦/١٧ ـ وقد آن فيما أرى اوان التنفيذ وما ذلك على همتكم وهمة رجال الحكومة الفضلاء ، بالامر العسير ، وليكن مقرها ـ اذا رأيتم ـ نفس مدينة تيزى وزو التى نجتمع فى رحابها اليوم ، هذه المدينة التى اختارها الاستعمار قديما لتكون مركزا راسخا لبث دعايته التبشيرية الهدامة المخربة ، فكانت على عكس ما كاد وما أراد ، مركزا للاصلاح الاسلامى الذريع ، وموقدا هائلا للثورة العارمة وستكون غدا بحول الله ، منبع النور والهدى ، ومركز البعث الاسلامى العظيم ، بهذه الديار .

أبنائى الطلبة الميامين :

أراكم ، فأنظر فوق جباهكم الوضاءة ، نور الاسلام ، وشرف العروبة ، ومجد الوطن وسمو مازيغ ، وشهادة قحطان .

أراكم ، فاتمثل فيكم فحول الرستميين ، وعظماء الحماديين ، وكبراء الزيانيين ، وأبطال العثمانيين .

أراكم ، فارى هذه الجزائر قد سمت بكم وباخوانكم ـ فى مستقبل قريب ـ نحو أوج العلا وادركت شأوا ربما لم يصل اليه أبناء العمومة وابناء الخؤولة .

انما ، تذكروا دائما ـ ابنائى ، قول الشاعر الاسلامى الكبير ، احمد شوقى :

وما نيل الرغائب بالتمني
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

فاذا كنتم تمثلون ابطالكم ، وتجسمون تاريخكم ، وتحملون امانة امتكم ، وتفتحون ابواب المستقبل السعيد فى وجه وطنكم ، فلن يكون ذلك والله الا نتيجة جهاد ، وثمرة جهود ، فالعلم والمعرفة يبتدآن على مقاعد المعهد ، وينموان بالسهر والمطالعة والحوار الصالح ، ويعظمان بالمشاركة فى الحياة العامة ، وبناء الجيل ، الفاضل والامة الصالحة والوطن العزيز ٠

جمع دراستكم التى هى عدتكم فى الحياة ، طالعوا وتثقفوا وادخلوا ميادين العمل الصالح المثمر ، تعلموا كل علم وتدارسوا كل فكر ، ومحصوا كل رأى وارتادوا كل ميدان ، سلاحكم القرآن ودرعكم الايمان ، حتى تساهموا من جهة مساهمة فعالة فى هذه النهضة العالمية الكبرى ، وحتى تستطيعوا – من جهة اخرى – ان تردوا غائلة كل مبشر اثيم ، وتدرأوا دسائس كل دخيل زنيم ٠

كونوا ابنائى مسلمين حق الاسلام، فالاسلام دين الله الحنيف ، وهو عزكم والاسلام كيانكم ، والاسلام فخاركم ، لتكونوا مسلمين قولا وفعلا ، لتكونوا مسلمين سرا وعلانية ، ان الاسلام هو الثورة العالمية الاولى ، وهو الثورة العالمية الاخيرة ٠ الاسلام قوة دافعة لا تقاوم ، نحو كل رقى وكل سمو مادى ومعنوى ، ان الاسلام ثورة مستمرة ، تبشر وتتفاعل مع كل طور من اطوار الحياة ، تحرر الفكر وتعتمد على العقل وتحث على العمل الصالح المثمر ، وتدفع بالفرد ، وبالجماعة وبالدولة نحو الكمال المطلق ، وبلوغ نهاية الارب ٠

كونوا عربا كما يجب ان تكون العروبة : لغة وفضائل واخلاقا ، وكفاحا فى سبيل المثل الاعلى ولتتغلبوا على رواسب عقد النقص التى الحقتها سنوات البوار والاستعمار لعروبتنا الطاهرة النقية ، ففى العالم العربى كله نجد اليوم جهادا ، وجهودا جبارة لنفض رماد الانحطاط عن هذه الحيرة التى لا تزال تحت الرماد متقدة حامية ، جمرة العروبة الحية الخالدة ، انها ستعود بفضلكم ، وبفضل اخوانكم فى شتى ميادين العروبة الفسيحة للاشراق المنير لاعلى العالم العربى والاسلامى فقط بل على العالم اجمع

كونوا – واقولها صراحة ، دون غموض او التباس : كونوا اشتراكيين صادقين ضمن دائرة الاسلام ، والعروبة ، والوطنية ، هذه الاشتراكية الصالحة الغير المستوردة ، النابعة من صميم واقعنا ، وفى حاجة شعبنا ، هذه الاشتراكية التى جعلت كل مصادر الثروة فى بلادنا ملكا خاصا للشعب العامل المكافح – هذه الاشتراكية التى تعيد لذلك الفلاح المنبوذ تحت حكم الاستعمار ، شرفه وعزته ومكانته الاجتماعية

وحذار حذار ابنائى ، ان تندس بين صفوفكم شرائم من الانهزاميين المعوقين دعاة الفساد والافساد ، الذين ينتقدون كل عمل ، ويشككون فى كل مسعى ، وينادون وراء العاملين بالويل والتبور ، سعيا وراء كسب حرام ، واثراء فاجر، ومال سحت : لهم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله انى يؤفكون ٠

ابنائى : لا تعيشوا بعد تخرجكم ، لبطونكم او لجيوبكم ، بل عيشوا لمجتمعكم ووطنكم ليكن منكم المجتهد فى الدين والمخترع فى المخبر ، والمكتشف فى مجاهل الحياة ، كفى عيشنا تحت كنف الاجنبى : هو المخترع ، والمكتشف ، والباحث ونحن التابعون واتباع التابعين ٠

ابنائى : لا تكونوا فى حياتكم من قوم «كان» بل لتصبحوا ومنذ الآن ، منقوم «صار» ٠

كفانا بكاء على الاطلال ، ولنفتح ابصارنا وبصائرنا على مستقبل سعيد نبنيه بسواعدنا وبايماننا ٠

قد تغنينا مئات السنين بذكر ابن خلدون – والفارابى ، وابن سينا ، والغزالى ، وابن رشد ، وابن الفحام ، وابن ماجد ، والمازرى ، وابن

النفيس ، وما لا يحصيه العد من امثالهم من العظماء لكننا خلال ذلك لم ننتج من يضاهيهم ، او من يسجل اسمه الى جانب اسمائهم ، فصرنا من قوم «كان» كفى ! لنصبح من قوم «صار» ولنندفع بقوة وبايمان فى ميادين الاعمال الذهنية والفكرية والانشائية ، فالفكر البشرى واحد ، والعلم واحد ، وميادين الاكتشاف والاختراع مفتوحة امام الجميع ، انما هى عزيمة الرجال تخور وتتضاءل ، فيصاب المجتمع بالشلل ويسير فى طريق الموت البطيء ، بينما الآخرون يتقدمون ويرتفعون .

ان الامة العربية لا تزال ولودا ، انما المجتمع المنحل المريض هو الذى يئد ابناءها .

ابنائى : قوموا الاخلاق ، فالاخلاق فى تدهور عظيم ، وما سقطت اخلاق شعب الا سقط بذلك ـ لا محالة ـ اسفل سافلين ، والله يقول : ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولائك هم المفلحون .

واخيرا ، ابنائى : انها لنعمة من الله عليكم ان قيض لكم ، على يد وزارتكم الحكيمة ، هذه الطائفة الصالحة ، من اعلام امة الاسلام ، ومن كبار مفكريها وعلمائها ، يحاضرونكم فى هذا الملتقى ، ويمدونكم بقبس من روحهم وفيض من تفكيرهم وتوجيهاتهم الصالحة فلتكن اذانكم صاغية ، ولتكن قلوبكم واعية ، ولتكونوا من الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، فانتم اليوم الشباب المتعلم ، وانتم غدا القادة الواعون الصالحون ، فالمستقبل ينتظركم ، والله مؤيدكم وناصركم .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



تعقيب السيد مولود قاسم نايت بلقاسم ، وزير التعليم الاصلى والشؤون الدينية على كلمة السيد احمد توفيق المدنى

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرات الاخوة ،

تعلمون انه من تقاليد هذه الملتقيات ان يكون اثر كل محاضرة تعقيب على تعقيب ، ومناقشة لكل محاضرة ، ونفتح مناقشة هذا الملتقى وتعقيباته بتعقيب على المجاهد الكبير الاب الروحى لاجيال واجيال الاخ احمد توفيق المدنى ، الذى كما قلت هو اب روحى لاجيال بفضل ما قدمه من آثار لشباب هذه البلاد بصفة خاصة ، وخدمة للامة الاسلامية الكبرى بصفة عامة ٠

ففى العشرينات ، كتب كتبا كانت نبراسا لشباب هذه الامة الصغيرة فى اطار الامة الكبيرة فى وقت كانت ركزت فيه كل وسائل المسخ والاذابة وكل وسائل الادماج والسلخ على هذا الشعب ، وبالضبط فى سنة ١٩٢٥ ـ اذا ما كانت ذاكرتى صحيحة ـ نشر الاخ الجليل كتاب الجزائر الذى ذكر فيه مراحل تطور هذه الامة الصغيرة ، كما قلت فى اطار الامة الكبيرة ، وجهادها ومساهمتها فى اطار الحضارة الاسلامية وفيه كذلك ذكر وتفصيل حقا للاستعمار الفرنسى فى مراحله العديدة ، وهذا الكتاب نشر فى سنة ١٩٢٥ م قبل ان اولد ببضع سنين ، وله كتب اخرى مثل كتابه هذا ، وامد الله لنا وللامة الاسلامية فى عمر الاخ الذى يفيض شبابا كما رأيتم روحا وجسما ٠ وكتب اخرى مثل عثمان باشا ، ومثل حرب الثلاثمائة سنة ـ الذى نشر اخيرا منذ سنين قليلة ـ عن المدة التى استغرقها كفاح هذا الشعب ضد المد الصليبى الاسبانى بعد سقوط الاندلس ، تعلمون ان الاستعمار الاسبانى او الحقد الصليبى امتد الى المغرب العربى الكبير المغرب والجزائر وتونس ووصل الى ليبيا ثم امتد بعد كما تعلمون الى الفليبين وآثاره ما تزال باقية الى اليوم وتعلمون ان امتداده بقى فى وهران ، والمرسى الكبير ، ومستغانم ، وتنس ، وشرشال ، والجزائر العاصمة ، وبجاية ، وجيجل ، وعنابة ، والقل ، وربط الحمير فى جامع الزيتونة فى تونس ، ووصل الى ليبيا ، الى ان طرده مجاهدون ابطال ، مثل خير الدين بربروس وابنائه ، وعثمان الكبير ٠٠ الخ ، وطرد هذا المد من هذه البلدان فيما بعد ٠

وهذا الكتاب ـ فيما اعلم ـ هو آخر ما انتجه اخونا الكبير الاستاذ احمد توفيق المدنى ، الذى كان الوزير الاول للاوقاف بعد استرجاع الجزائر لاستقلالها والذى هو الآن سفير الجزائر بباكستان ٠

وهو منشىء المعاهد الاسلامية بالجزائر سنة ١٩٦٣ م بمجهود متواضع وبصراع وبمقاومة وكفاح الخ ٠٠٠

واستمر على منواله فى تطوير هذه المعاهد الاخوان اللذان تلياه ، وهما الاخ التجانى هدام ، وزير الاوقاف سابقا والآن سفير الجزائر فى تونس والاخ العزبى سعدونى ، وزير الاوقاف ايضا سابقا ، والذى هو الآن سفير الجزائر فى دمشق .

اعود الآن الى الكلية بكلمة قصيرة ، فالكلية التى تكلم عنها الاخ أحمد توفيق المدنى هى الآن فى طور البناء ، وجدرانها صاعدة ، وقد زارها الرئيس منذ اقل من اسبوع فى قسنطينة ، وهى الكلية الاولى ، ولكننا سوف لا نبقى عند حدها ، لقد اعلن الرئيس هوارى بومدين فى خطابه فى جامع عقبة بن نافع رضى الله تعالى عنه فى القيروان ، فى السنة الماضية ، ان هذه الكلية التى سينتهى بنيانها فى آخر السنة المقبلة ان شاء الله وستفتح ابوابها فى اكتوبر سنة ١٩٧٤ م اذا تم كل شىء على ما هو مخطط ، اقول هى نواة فقط لجامعة اسلامية شاملة ، كاملة الكليات بمختلف انواعها ، من الكليات التقليدية كما يقال اليوم ، ككلية اصول الدين وتاريخ الاديان المقارن وكلية الشريعة ، وكلية اللغة العربية الى كليات أخرى ، ككلية العلوم ، وكلية التجارة ، والزراعة ، وكلية الهندسة، وكلية الطب فستكون جامعة كاملة الخ ... ، فلا بد للاستاذ وللمفتى وللامام ، وكما يقال (لرجل الدين) ان يطلع ايضا على ما يجرى فى بلدان اخرى ، وفى اديان اخرى وعلى ما يحاك ضدنا من مؤمرات ليرد علينا برفق .

وستكون مزروعة ـ ان سمحتم لي بالتعبير ـ وممتدة من اقصى شرق البلاد الى اقصى غربها ، فستكون كلية فى سوق اهراس وفى عنابة ، وفى قسنطينة ، وفى سطيف وفى بجاية ، وفى الجزائر العاصمة ، وفى وهران وفى تيارت ، وفى الاصنام وتلمسان ، وبسكرة وطولقة وتمنراست ، ليعم شعاعها البلاد كلها .

هذا ما أردت ان اضيفه بخصوص الكليات وشكرا .



كلمة السيد راشد عبد الله الفرحان
وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية بالكويت فى الملتقى

بسم الله الرحمن الرحيم
السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

ايها الاخوة والاخوات :

انه ليسعدنى فى أن أشارك فى هذا الملتقى الاسلامى للتعرف على الفكر الاسلامى الذى تنظمه وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بمدينة تيزى وزو والذى يضم نخبة كريمة من العلماء والمثقفين ويحضره الشباب الجزائرى المؤمن بدينه وعروبته ·

ويسرنى أن أحمل تحية الكويت الى هذا الملتقى وتمنياتها لكم بالتوفيق والنجاح ·

والفكر الاسلامى ايها السادة يتميز عن غيره من الاديان والنظريات لانه الدين الذى جاء لجميع البشر ليعالج مشاكل الانسان الذى ينبغى أن يعيش على وجه الارض كريما عزيزا (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الاسراء) ·

لقد اتسم الفكر الاسلامى بالوضوح والسهولة واليسر ، فالعقيدة الاسلامية لا تعترف الا باله واحد وتنكر تعدد آلالهة ، والايمان بالكتب السماوية والانبياء والرسل واجب ، ولكن محمدا (ص) هو خاتم الانبياء والرسل والقرآن ناسخ لجميع الكتب وكل من أدرك الاسلام وجب عليه الايمان وحمل دعوة الاسلام للاخرين وفى الوقت الذى يضع الاسلام للناس نظاما يسيرون عليه (هو الشريعة) لمعالجة مشاكلهم وتسيير حياتهم يقرر أن الدين والدولة شيئان متلازمان على الدولة أن ترعى الدين وبالدين تصان الدولة وأن الناحية الروحية تعتبر عاملا مؤثرا فى حياة المسلم وتصرفاته ، وهى غريزة من احدى غرائز الانسان فالمسلم لا يحتاج الى واسطة فى عبادته وصلته بربه فلا رهبانية ولا كرسى اعتراف (أعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) ·

وفى الوقت الذى يقرر فيه الاسلام والعدالة الاجتماعية حرية الفكر والتعبير وان الانسان يجب أن يعيش ويعمل لمصلحة المجموع ، نرى أصحاب النظرية الراسمالية لا يقيمون وزنا لمصلحة الكثرة من الفقراء فى سبيل مصلحة نفر من المحتكرين والاغنياء ، كما نرى أن الشركات الاحتكارية هى التى تسير السياسة وتسيطر على الحكام فى البلاد الغربية ، اما أصحاب النظرية المادية من الشيوعيين والوجوديين الذين يزعمون انهم ساووا بين الناس فى الرزق نجدهم قد

حجروا على الانسان حرية التعبير ومنعوه نعمة التفكير وسيطرة قلة من الحزبيين الملحدين على مجموع الشعب المغلوبين وهم بذلك لا يفرقون بين الناس ذى الميول والاتجاهات والمشاعر والغرائز وبين الجماد أو الحيوان البهيم أو الالة الصماء التى تحرك فتعمل ٠

ايها السادة :

ان الاسلام عقيدة ونظام وهو ذلك الفكر الذى خرج على العالم فاوجد دولة وحضارة بل يمكننا القول بأنه خلق انسانا جديدا قد تكون من الروح والجسد ٠

فقد خاطب القرآن القلب والفكر والعقل (افلا تذكرون) فى ٢٧٥ موضع وردت كلمة العلم والحث عليه فى العلم فى ٧٦٠ موضع وحث القرآن الناس على النظر (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) فى ٢٠٠ موضع وحث القرآن من الناس السير والنظر (قل سيروا فى الارض فانظروا ١٢ آية (كيف بدء الخلق) وحث القرآن الناس على العمل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) ٣٨٠ مرة ان هذا التميز فى الفكر الاسلامى عن غيره هو الذى جعله ينساب فى نفوس الناس وتتقبله ملايين البشر والشعوب ويدخل الناس فى دين الله افواجا ويصل الى اقاصى بلاد العالم ٠

والى جانب هذا فقد حبا الله العالم الاسلامى والعربى موقعا جغرافيا وسطا ممتازا بين الامم ، وافاض عليه من نعمه ثروات المعادن والبترول والغاز والزراعة والحيوانية ما يجعل مصانع دول الغرب توصد أبوابها لو توقف تصدير هذه الثروات ٠

اما مركزهم السياسى فانهم يشغلون ثلث أعضاء المنطقة الدولية الى جانب ٤٠ مليون فى الاتحاد السوفيتى و٧٥ مليون مسلم فى الهند واغلبية ساحقة فى افريقيا السوداء ٠

ولا تخلو بلد فى العالم اليوم فى الشرق أو الغرب من مسلم يوحد الله ان هذا التميز فى الفكر الاسلامى وهذا الموقع الممتاز للمسلمين هو الذى جعل أعداء الاسلام يحيكون المؤامرات ضد وحدة الامة العربية الاسلامية فبالامس كانت مؤامرات السبابية واليهودية ثم الشعوبيين والزنادقة والقرامطة والباطنية حتى تعرض الاسلام الى حركتين من اخطر الحركات فى التاريخ حركة من الشرق تزعمها التتار فأحبط الله كيدهم فى عين جالوت ، وحركة من الغرب تزعمها الصليبيون الذين كسر صلاح الدين شوكتهم فى حطين الى جانب محنة الاندلس ٠

وعندما شعر الكفر بأن قواته العسكرية لا تكفى وحدها أستعان بقوتين خطيرتين هما الاستشراق والتبشير الاول لتشويه الثقافة الاسلامية والثانى لهدم العقيدة الاسلامية واليكم ما قاله (بلفور) صاحب الوعد المشؤوم ، والذى كان آنذاك رئيس شرف للجنة تبشيرية : « أن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها فى كثير من الامور » لقد ظل الكفر ينفذ مخططه الرهيب فى تحطيم معنويات المسلمين بالغزو الفكرى وركز هجومه على المصدر الذى يمد المسلمين بالقوة وهو القرآن الكريم الذى رفعه (جلاستون) بيده ونادى فى مجلس العموم البريطانى (لن يقر لنا قرار بين المسلمين ما دام فيهم هذا الكتاب) ٠

واليوم ايها الاخوة :

فى الشهر الماضى وقع فى يدى كتاب بعنوان (القرآن عقيدته وتعاليمه) منسوب الى محى الدينوف سفير الاتحاد السوفيتى بسوريا مرسل من سفارة الاتحاد السوفيتى فى بكستان ، وهذا الكتاب كله هدم للقرآن وعقيدة الاسلام وتعاليم المسلمين وانكار لنبوة محمد (ص) وان كل ما جاء عن النبى (ص) هو مجموعة من الخرافات وقد تحققت من الموضوع من حكومة الاتحاد السوفيتى رسميا فنفت صدور مثل هذا الكتاب عنها ٠٠

أيهـا الاخـــوة :

ان هذه الجهات رغم تناقضها والاختلاف فيما بينها قد اتفقت كلمتها على محاربة المسلمين فى كـل مكان وهدفهم الاول هـو السيطرة على العالم الاسلامى ماديـا وفكـريا والقضاء على عقيدته وحضارته واقامة وحدته ٠

ان الجواب الصحيح على تحديات أعـداء الاسـلام ـ فى الداخـل والخـارج ـ هو التنظيم ووحدة العمل الاسلامى المشترك ، رسميا وشعبيا ومن أهم الامور العاجلة تنفيذ صندوق الدعـوة المقترح ٠

ولقد ضربت لنا ثورة الجزائر المناضلة المثل الحى عندما ضحت بلميون شهيد فى سبيل اللـه دفاعا عن عقيدة الاسلام وأرض المسلمين يوم أن كان شعار المعركة (اللـه أكبر لا اله الا اللـه) فانتزعت حريتها واستقلالها وبـارك اللـه لهـا ولاهلهــا ٠

واليوم نلتقى على أرضها الطيبة فى هـذا الملتقى الاسلامى الكبير الذى يعقد لسابع مـرة والمتتبع لبرنامج العمل والمحاضرات يجد نفسه فى مدرسة اسلامية كبيرة جامعة ٠٠٠ والمتتبـع لسير الاعداد والتنظيم والتوجيه يشعر بثـورة عربية تعلوها ثورة اسلامية ٠

فتحية للشعب الجزائرى العـربى المسلم ، وتحية لحكومة الثورة وللاخ هـوارى بومديـن ونخص بالذكر الزميل مولود قاسم ونشكره مـن عميق قلوبنا على هذه الدعوة الكريمة وتنظيـم هذا الملتقى وعلى ما لقيناه فى هذه البلدة واهلها الكـرام من حفاوة وتكريم ٠



كلمة الدكتور التيجاني هدام
وزير الاوقاف سابقا ، وسفير الجزائر بتونس حاليا
فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، ولا عدوان الا على الظالمين وما النصر الا من عند الله للمجاهدين ٠

أيها الاخ الكريم معالى الوزير ،

أيها الاخوأن الحاضرون ،

أيها الضيوف الكرام ،

أيها الطلبة ،

ما كنت انتظر أن آخذ الكلمة وأنا آت من بعيد ، وما كنت فى استعداد لهذا ، غير ان الكلمات الراقية التى سمعناها منذ حين ، هى التى جعلتنى أرحب باقتراح أخى العزيز الذى يقوم حاليا فى بلاد الثورة ، بل فى بلاد الثورات ، بمجهود جبار فى استحياء الاصالة فى الشعب الجزائرى الاصيل ، فأبيت الا أن أرحب بهذا الاقتراح وأقول كلمة قصيرة ، كلها روح واجلال وتقدير لهذا المجهود الجبار ٠

فلا شك أن الاسلام الذى كان مادة قوية والذى كان المحرك الاول للثورة الجزائرية وللشعب الجزائرى فلا بد لهذا الاسلام أن يراجع نفسه وأن يسترجع قواه ، ولا شك أن هذا الشباب الذى هو فى صدام مع لغات أخرى ، والذى يعيش مرحلة تاريخية عظيمة فى هذا البلد العظيم ، فلا شك أن الاسلام يأخذ مكانه الاصيل فى هذه البلاد وأن يكون له مفهوم حقيقى يتماشى مع العصر ، وكلنا نعلم أن شبابنا يتساءل عن الاسلام وفلسفة الاسلام ومعنى الاسلام فى الميدان الاقتصادى والصناعى والثقافى هذا الاسلام جدير بأن يتماشى والعصر ، بل هل هذا الاسلام يمكن له أن يكون داعيا لا فى الميدان العاطفى أو العقائدى فى الوسط الاسلامى فقط بل فى ميدان الحياة التى نحن نحياها كلنا ، وكل واحد فى مستواه ٠

فالاسلام هو الذى جعل ــ مثلا ــ الاستعمار لا يحقق لا فى ميدان الثقافة ، ولا فى ميدان اللغة كل ما كان يرمى اليه من خرخشة ومن تفكيك ومن تجزئة فكان الاسلام بهذا الشأن حصنا قويا ، وهو الذى جعل فى الشعب الجزائرى رجالا مثل أخى الكبير الاستاذ توفيق المدنى ، والاسلام هو الذى جعل فى الشعب الجزائرى مثل الامام عبد الحميد بن باديس ، والشيخ البشير الابراهيمى او الميلى والتبسى رحمهم الله ، أولئك الرجال هم الذين هيأوا فى افكار الجميع وهم الذين كانوا بالمرصاد بين منغلق ولا منغلق ، فاليوم والجزائر مستقلة والجزائر تبنى معلية مستقبلا مشرقا فشباب الجزائر من حقه أن يتساءل أو أن يسأل عن مفهوم الاسلام فى هذا العصر ٠

فما موقف الاسلام من الاقتصاد او الثورة الاقتصادية ؟ فما هو الاسلام من الثورة الثقافية ؟ ومن الثورة الفلاحية ؟ ونحن الآن كلنا نسعى الى تفهيمها فى وسط شبابنا ، وكلنا فوجئنا حين رأينا أن أعز شبابنا هو فى القدوة وفى الصف الاول فى هذه الثورة الفلاحية فما نرى أن الجزائر وأن السلطة الثورية الجزائرية التى اليوم تبنى وتشيد النهار والليل ، فلا شك أن هذه الثورة ، أن هذه السلطة الثورية هى التى تتحمل فى كامل العالم الاسلامى دورا طلائعيا وتاريخيا للنجدة للثورة الاسلامية الشاملة ، ونحن كلنا نعلم أن أعداء الاسلام يتربصون به ، وان اعداء الاسلام ومنهم الصهيونية والاستعمار القديم والجديد هم الذين ينتظرون ، هل نحن اهل لدورنا ؟ هل فى استطاعة المسلمين ان يحققوا افكار الاسلام ؟ وكان المسلم يعتز بافكاره وكان المسلم هو الذى يقود النشأ ، هو الذى يحرر الانسان ، هو الذى كان كما قال الشاعر :

لنا الصدر دون العالمين او القبر

وكان هو فى التضحية قبل اى بشر آخر ، ومعجزات الاسلام قد فاقت الايام ، وانتم الجسر الذهبى بين جيل قديم ، وجيل جديد ، ولا شك انه قول نأخذ منه كل ما نأخذ ولا شك اننا نأخذ منه المفيد ، ولكن هذا الجسر لمن حقه لمن واجبه ايضا ان يأخذ التفهيم بمرونة ، وان يأخذ شبابنا ، بكل دقة وبكل حكمة ، وان يكون متفتحا وان يكون متبصرا ، وان يكون هو الذى يقود الشباب ·

فأيها الاخوان شكرا ، كنا ننتظر هذا اليوم السعيد ، فكنا ننتظر ان نشارك فى هذا الحفل العظيم الذى نتلاقى فيه مع اخواننا وشاء القدر ان نلتقى فى تيزى وزو ووجوه الاخوان تنظر الينا وننظر اليها ، وأرواح اخوان سقطوا فى المعركة التحريرية وارواحهم حاضرة بيننا ، ونحن فى هذه الجبال الشامخة ، ونحن فى هذه الاراضى الطاهرة التى سقيت بدماء الشهداء ، فشاء القدر ان نلتقى فى مثل هذا اليوم وفى مثل هذا البلد الطيب وبين هذا الشعب الكريم الابى المجاهد العظيم ، وشكرا ايها الاخوة ، وشكرا مرة أخرى ايها الاخ الوزير شكرا جزيلا على هذه الفرصة السعيدة ، ومعذرة ايها الاخوان ، ما كنت انتظر ان اصطدم بمثل هذا النور وبمثل هذه الطاقة التى هى امامى اليوم ، فمعذرة اليكم وشكرا ·

والسلام على من اتبع الهدى



ملتقى الاجتماع

كلمة الاختتام للسيد مولود قاسم نايت بلقاسم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على اشرف المرسلين

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

بعد ثلاثة عشر يوما من نشاط متواصل ها نحن فى آخر الشوط بالنسبة للملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى ، الذى نسميه بعد اليوم ملتقى الفكر الاسلامى .

لقد جنينا جميعا من محاضرات خصبة ، تلتها تعقيبات ومناقشات لم تكن اقل خصوبة وحثا على التفكير ، فشكرا للاساتذة الافاضل الذين تجشموا من اجل هذا وعثاء السفر ، وهنيئا لهم بما زرعوا وافادوا ، وليست تهنئتى للجميع اقل بما جنوا وحصدوا !

حضرات الاساتذة الافاضل

اخوتى الطلبة والطالبات

قد قضينا اياما مفعمة بجو اخوى عارم ، سادت فيه العاطفة حينا ، وتغلب فيه العقل فى اكثر الاحيان ، وفى حمية النقاش المفتوح ، بقصد، للجميع ، وفى حرارة تيزى وزو الشديدة عادة والتى ازدادت بالملتقى ، من الممكن الا يكون الكثير منا قد ادركوا سائر ابعاد هذا الحدث الاسلامى العظيم ، وقدروه حق قدره ، وتخيلوا كل ما يمكن أن ينتج عنه لامتنا الاسلامية الكبرى !

نعم ، قد انعقدت اجتماعات ومجالس بين علماء مسلمين فى مناسبات عدة وفى عواصم مختلفة من عالمنا الاسلامى الاوسع ، ولكن لاول مرة ربما فى العصر الحديث يجتمع رجال من سائر المذاهب الاسلامية فى صعيد واحد ، لتبادل وجهات النظر حول المصير الواحد ، للامة الواحدة !

فهنيئا لك يا تيزى وزو بما اتيح لك ان يتلاقى فيك السادة المالكية ، والزيدية ، والشيعة ، والاباضية ، والحنفية ، والشافعية ، والحنابلة ، والظاهرية ، ولم يخلف لك احد الميعاد ، بل جاء كل منهم بحسن النية ووافر الزاد ، وكنت لعلماء الاسلام المجمع ، والمسجد الجامع !

لقد تباحثوا فى ربوعك شؤون الشريعة الواحدة ، واتفقوا على ضرورة ارجاع الامة بها الى الطريق المستقيم ، الواضح المعالم ، على هدى النقل والعقل ، وحصنوا البنيان بالاركان ، وجعلوا السقف يحمى الديار ، ويقيها من العار والدمار ، وتركوا بهذا الشرط باب الاجتهاد واسعا مفتوحا !

ولقد عنيتم كل العناية بموضوع الوحدة الاسلامية ، وما تعرضت له بالامس من مؤامرات ومناورات كادت تؤدى بالامة الاسلامية ، واقترحتم بعض التدابير التمهيدية لاعادة الوحدة الروحية ، التى كانت بالامس العامل الفعال فى الوحدة الكاملة .

واوليتم عظيم اهتمامكم موضوع التبشير ، وخاصة لدى الشباب الذى تركز عليه مختلف

الاوساط الايديولوجية من تنصيرية ، وصهيونية ، والحادية ، وانحرافية ، وأوصيتم المسؤولين بتحصين البلدان الاسلامية ضد هذا التضليل المخطط والمزود باعظم المغريات واحدثها ، واكثرها تاثيرا على الشباب خاصة ، وعلى المرأة بصفة أخص ، وهى العمود الفقرى للاسرة ، وبالتالى عماد الامة ·

ولم تكن عنايتكم أقل بالجاليات والاقليات الاسلامية ، أو ما يسمى كذلك ، واكدتم كل التاكيد على ضرورة رعايتها ، والعمل على تحصينها من التفتت والذوبان فى بعض الجهات ، وانقاذها من الابادة والانقراض فى جهات أخرى، وهى التى تكون جزءا لا يتجزأ من أمتنا ، فضلا عن الاعتبارات الانسانية المحضة ، التى تفرض على كل ذى ضمير وانسانية مراعاتها والعمل بها ·

وأخيرا ، وليس آخرا ، هل يمكن لهذه التدابير كلها ، ولكل ما يقام به من جهود هنا وهناك ، ويشيد من بناء ، أن يكون له مفعول ، وان يكون ذا نتيجة ، ما لم يوضع حد نهائى صارم لوسائل التفتيت والإبادة الروحية الجماعية لمجتمعات اسلامية بكاملها ، وبالتالى للامة كلها ، هذه الوسائل التى تتمثل فى الطرق الحالية لاجهزة الاعلام ووسائل التاثير على الجماهير ، من صحافة ، واذاعة ، وتلفزة ، وسينما ، ومسرحية ، وكتاب ، بما تعرضه من انتاج قتال مبيد للمجتمعات والامم ، يحث على الالحاد ، والانحلال ، والجنوح ، والاجرام ؟

هل سيؤخذ بما نصحتم به من جعل هذه الاجهزة تؤدى دورها الحقيقى الذى هو التكوين والتوجيه الصحيحان ؟

ان مثل هذه التوصيات تتخذ للمرة الاولى فيما نعلم على مستوى العالم الاسلامى ، واننا لنرجو من متابعة تنفيذها العلاج لكثير من أمراض مجتمعاتنا الاسلامية ، والانطلاق من جديد نحو تدارك ما فات ، واسترجاع ما فقد ، وتحقيق المجتمع الفاضل الذى تسعى اليه الانسانية كلها ، ويحثنا عليه الاسلام ·

حضرات الاساتذة الافاضل ،

حضرات السادة والسيدات ،

اخوتى الطلبة والطالبات ،

اظن انكم جميعا قمتم بعمل كبير ستكون له آثاره الفعالة ، وانني لاشكر مرة أخرى حضرات الاساتذة الافاضل الذين ضحوا بجزء من راحتهم الصيفية ، وخاصة الكبار منهم ، أمد الله لنا فى حياتهم ، لافادة الجميع ، وهو شكر صادق لا يعادله الا خلوص الطوية ، وصدق النية ، الذى أرجو ان يشفع لى عندكم جميعا فى كل ما يكون قد بدر منى من حدة أو صرامة فى الحفاظ على النظام ، لضمان نجاح الملتقى ، الذى هو ملتقى الجميع ، ولصالح الامة الاسلامية الكبرى ، والانسانية جمعاء ·

وأخيرا ، أود ان اشكر باسمكم جميعا ولاية تيزى وزو ، جماهير وسلطات ، على ما استقبلتنا به من حرارة ، وغمرتنا به من كرم وحسن ضيافة ، وأولتنا والملتقى من عناية ورعاية ، وهل ننسى ما لقيناه من الجميع فى حلنا وترحالنا ؟ ونود أن نخص بالذكر منهم سكان مدينة تيزى وزو ، والشرفة ، واغيل باماس، وبنى يانى ، وبوعدنان ، الذين أثروا الملتقى ببعد اضافى لا يقدر بقيمة أو ثمن !

ولا أختم هذه الكلمة قبل أن اشكر الاخـوة هنا من أجهزة الاعـلام الذين حاولوا جهدهم أن يضمنوا للملتقى امتدادا الى حيث هو ضرورى ، واخوانا من الرئاسة ، ووزارة الشؤون الخارجية وأكاديمية تيزى وزو ، وكذلك سائر الذين ساهموا من قريب أو بعيد ، فى اداء هذا الملتقى رسالته ·

وأنتن ، أخواتى الطالبات ، فشكرا وهنيئـا لكن بحسن السلوك والانضباط ، والحرص على الاستفادة ، والمساهمة الواعية فى مناقشـات الملتقى ، وفى اعطائه صبغته الاصيلة ، **وأما أنتم** اخوانى الطلبة ، فهنيئا لكم بنضجكم واهتمامكـم المتجلى فى اسئلتكم · ولئن استعملنا مع بعضكم الشدة احيانا ، فلا يسعنى الا أن انصح لمنظمى الملتقيات المقبلة بأن يكونوا معكـم اكثر ضبطـا وصرامة ، فى صالحكم ولخير الامـة ·

وأخيرا ، فعملا بسنة التنقل بالملتقى كـل سنة من ولاية الى أخرى ، أود أن أقول لكم الـى اللقاء فى الملتقى الثامن فى ولاية سطيف ، وفى الناصرية بالذات ، عاصمة الناصـر بن علنـاس الحمادى ، مدينة النور قبل باريس بقرون ، المدينة التى جابت البحار بأساطيلها ، وبهرت الانسانية ببلاراتها ، ولآلئها ، وغمرتها بعلومها وفنونها ، وأضاءت أوروبا والعالم بجامعاتها وشموعها : بجـــاية !

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



رأينا من افريقيا ما لم يكن الكثير قبل اليوم ليصدقه ، وهو تضامنها الملتزم ، والمتجلى فى قطع علاقاتها بالصهيونية ، نصرة للحق ، وتضامنا مع دول افريقية كانت ضحية لعدوان صارخ متكرر ، ومطمعا لتوسع استعمارى عنصرى تؤيده الامبريالية العالمية التى غرسته جسما غريبا كرأس جسر واصل لها فى المنطقة ، ووتد فاصل ، لا بين اجزاء العالم العربى فحسب ، بل وبين افريقيا وآسيا ، ومقبض ماسك بخناقهما ومهدد لهما فى كل لحظة واوان • ولا غرابة فى هذا الموقف الافريقى ، فان ما يربط بين القارة الافريقية والعالم العربى من روابط حضارية عريقة فى القدم اصيلة فى نوعها ، وما يجسم تلاحمها فى الحاضر من تحالف موضوعى وتداخل فى المصالح ، وما يشير المستقبل اليه من آفاق شاسعة ، وآمال واسعة ، ومصير مشترك ، كل ذلك يجعلنا نؤمن ايمانا راسخا بانه قد آن الاوان لاحكام الترابط العضوى وذلك على مستوى المبادرات السياسية والتعاون فى المجالات المختلفة •

وسنعمل جاهدين على جمع الشروط الموضوعية لنتيح فرصة اللقاء المشترك ، انطلاقا من المنعرج التاريخى ، للمؤسسات السياسية والفنية بين دول منظمة الوحدة الافريقية وبلدان الجامعة العربية ، وبمجرد ما تتوفر اسباب النجاح سنسعى لخلق الاتصال المباشر بين المسؤولين فى القارة والعالم العربى ، وذلك على اعلى المستويات واثقين بان لقاء كهذا بما يمثله من طاقات بشرية ومادية سيصبح قوة هائلة يحسب لها حسابها فى المجال الدولى ويزداد وزنها البناء فى خدمة قضية العدالة والسلم فى العالم •

الرئيس بومدين فى اختتام مؤتمر القمة العربى السادس بالجزائر

تــوصيــات الملتــقى الســابع

تـــلاهـــا الاســـاتذة :

- الدكتور عبد القهار مذكر رئيس اللجنة الاولى
- الدكتور عثمان امين نيابة عن معالى الدكتور عبد العزيز كامل رئيس اللجنة الثانية
- الاستاذ عثمان الكعاك رئيس اللجنة الثالثة
- الدكتور عبد الرحمن بيصار نيابة عن الاستـــاذ محمد الفاسى رئيس اللجنة الرابعة
- الاستاذ سيدى محمد يوسف جيرى رئيس الجنة الخامســـة

اللجنة الاولى

روح الشريعة الاسلامية وواقع التشريع اليوم فى العالم الاسلامى

التوصيات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ، وكانت رحمة الله ــ عز شانه ــ فى الشريعة الغراء التى أمر نبيه بتبليغها ، ودعوة الناس الى الاخذ بها ، فبلغها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعلمها أصحابه الذين شاهدوا وعاينوا ، ووحى الله يتنزل من السماء ٠

وسجلها القرآن الكريم فى محكم آياته ، وكان تطبيقها عزا للمسلمين ، وتكريما للانسانية ، ورفعا لقدر الانسان ، حيث جاء الاسلام نظاما كاملا شاملا قائما على التكافل والتضامن والعدالة الاجتماعية ، يوفى للآخذين به كل عوامل التقدم والرقى والانطلاق فى ميادين مختلف العلوم ، بما يفرضه من الاخذ بكل أسباب القوة والعزة ، فى الناحيتين الروحية والمادية ٠

ولما هجر المسلمون شريعة الله تعالى ، واتبعوا أهواء الانسان فى قوانينه الوضعية ذلوا وهانوا ، ولا شك أن التخلف الذى أصاب الامة الاسلامية ناشىء عن ترك المسلمين تنفيذ أوامر شريعتهم ، ومسئولية ذلك محيطة بأعناقهم ، فكان حقا عليهم أن يعودوا الى شريعة الله تعالى ، ويعملوا بها فى التشريع والقضاء والتربية والتعليم ، استعادة لمجدهم وانقاذا لوجودهم الانسانى ، وتمهيدا لطريق النصر أمامهم ٠

ولقد اتجهت المحاضرات والتعقيبات التى ألقيت فى هذا الملتقى المثمر الى ضرورة العودة لشريعة الله : شريعة الحق والعدل والعزة ، وتطبيقها تطبيقا كاملا غير منقوص ، حتى يعيدوا لانفسهم العزة الاسلامية ، والرفعة فى الارض ٠

واستيحاء من هذا كله يقرر الملتقى ما يلي :

١ ــ الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، وهى علاج حاسم لكل الادواء الاجتماعية فى البلاد الاسلامية ٠

٢ ــ يجب على كل دولة اسلامية أن يكون قانونها مأخوذا من الشريعة الاسلامية ، ولها أن تجعله من المذهب الفقهى الاسلامى السائد بين أهلها ٠

٣ ــ يجب أن يتعاون حكام المسلمين وعلماؤهم وشعوبهم على العودة الى الاحكام المستمدة من القرآن والسنة ٠

٤ ــ القرآن الكريم هو أصل الشريعة الغراء والاساس فى تنظيم العلاقات فيما بين المسلمين ، وبينهم وغيرهم ، والسنة هى المبينة له ، وآثار السلف الصالح هى الموضحة ٠

٥ ــ باب الاجتهاد مفتوح لاهله القادرين عليه ، ولا يجوز بحال من الاحوال أن يكون الاجتهاد مخالفا لنص أو اجماع ، ولا ينبغى الاجتهاد فى مسألة اذا كان فى الفقه الاسلامى بمذاهبه المختلفة ما يصلح علاجا لها ٠

٦ ــ يجب أن يكون حكم الشورى ــ بقواعدها الاسلامية ــ هو الطريق الملتزم فى نظام الحكم ٠

التــوصيـــات

ويوصى الملتقى بما يلي :

١) العمل على اقامة الحدود الشرعية ، مع ملاحظة أن الحدود تدرأ بالشبهات ، فلا يقام حد الا اذا اتفقت المذاهب الفقهية على اقامته ٠

٢) تنفيذ عقـوبات القصاص فى النفـوس والاطراف والديات ، ومالم يرد فيه تقدير شرعى من حد أو قصاص تكون العقوبة فيه تعزيرية ٠

٣) اقامة نظام اقتصادى واجتماعى متكامل، مستقل ومتميز عن المذاهب والنظريات الفلسفية والاجنبية ، ويقوم على الاقتصاد غير الربوى ، وعلى التكافـل والتضامن الاجتماعى ، وايجاد الفرص المتكافئة للجميع ٠

ويصر الملتقى بصورة خاصة على وجـوب منع التعامل بالربا فى أية صـورة من صـوره ، وفى أى تعامل بين الآحاد والمؤسسات ٠

٤) أ ـ احكام الاسرة بكل فروعها لا تأخذ الا من الفقه الاسلامى فى شتى مذاهبه ٠

ب ـ لا يجـوز تقييد تعـدد الزوجات ، ولا تقييد الطلاق بقيـــد ٠

٥) وضع مشروعات قوانين مدونة فى مواد من الشريعة الاســلامية ، لتحل محـل القوانين الاجنبية ، مع الشروع فورا فى تطبيق القوانين الاسلامية ٠

٦) ان التعاليم الاسلامية يجب أن تدرس فى كافة المعاهد والمدارس والجامعات ، على أن يكون فى المدارس الابتدائية والثانوية اهتمام خـاص بالجو الصالح والتربية العملية ، وفى الكليـات المتنوعة تدرس المـواد الاقتصادية والهندسيـة والفلسفة وتاريخ العلوم والآداب الخاصة بالاسلام كل حسب اختصاصها ٠

٧) انشاء مجمع فقهى اسلامى ، تمثل فيـه كل المذاهب الفقهية فى البلاد الاسلامية ، عـلى أن تكون له صفة العالمية ، ولا يرتبط بدولة معينة٠

٨) انشاء موسوعة فقهية تحت اشراف هذا المجمـع الفقهى ٠

٩) احيـاء التـراث الاســلامى فى شـتى الفـروع الاســلامية ٠

اللجنـــة الثـانيـــة

المؤامرات التى تعرضت لها وحدة الامـــة الاســلامية بالامس ويتعرض لها ما تبقى منهـا اليوم من طرف الصهيونية وغيرها وما يجب علينا حيـال ذلك ٠

التــوصيـــات

لما كانت الوحدة ركنـا وطيدا من اركـان الاســلام ، وكانت مكانـة الوحدة فى الشـريعة الاسلامية قد بلغت أسمى درجة فى الرعاية الدينية حتى جعل اجماع الامة واتفاقها على أمـر مـن الامور كاشفا عن حكم الله ، وعد الخروج عليه مروقـا مـن الديـــن ٠

وتأييدا لما دعا اليه رواد الوعى الاسلامى ، وتعبيرا عن رغبات الشعوب الاسلامية ، ودرءا للاخطار المحدقة بالامة ، واستجابة لما دعت اليه ملتقياتها ومؤتمراتها ومجامعها من وجوب العمل الجاد السريع على تحقيق هذه الوحدة ، بالتأكيد على جوانب الالتقاء بين الشعوب الاسلامية ، مع تجنب الخوض فى المسائل الخلافية ، وتزكية كل تحرك اسلامى فى هذا الاتجاه ـ يوصى الملتقى بـــما يلـــي :

١) أن يقوم كل بلد اسلامى بتنسيق العمل بين مختلف هيئاته المعنية بالشؤون الاسلامية ، تمهيدا لتوثيق الارتباط بين هذه الهيئات وبين نظيراتها فى البلاد الاخرى ٠

٢) تشكيل مجلس يسمى : « مجلس الامة الاسلامية » يتالف من ممثلى المؤتمرات والملتقيات والمجالس والمجامع والهيئات الاسلامية فى كل بلد ، للاجتماع مرة على الاقل فى كل عام ، لرسم الخطط ووضع البرامج اللازمة للنهوض بالامة الاسلامية ، ومواجهة ما يقابلها من تحديات ، والتمهيد لاعادة وحدتها واستعادة مجدها ٠

انشاء هيئة تنفيذية لهذا المجلس ، تقوم بتنفيذ قراراته ومتابعتها ، على أن يكون من مهامها جمع الوثائق المتصلة بقضايا المسلمين فى مختلف أقطار العالم ٠

اللجنة الثالثة

نشاط التبشير ودوره الاستعمارى التخريبى بالامس واليوم ، وما يجب القيام به ازاء هذا الخطر ٠

أ ـ الحيثيات

١ ـ حيث أن الكثير من الاقطار الاسلامية قد خرجت من الحرب العالمية الثانية مستقلة بعد أن كانت تحت نير الاستعمار المكشوف أو المقنع وبعد أن كان خصومها يظنون انه لم تعد قوة سياسية أو عقائدية أو معنوية فى العالم ٠

٢ ـ وحيث انها محتوية فى الدرجة الاولى على الطاقات الحضارية من نفط وغاز وخامات غذائية وبنائية ٠

٣ ـ وحيث انها ذات سيادة على بحار اساسية وبواغيز جوهرية وطرق استراتيجية من الطراز الاول ٠

٤ ـ وحيث أن ذلك يجعلها مخيفة فى نظر أعدائها ومنافسيها وحاسديها من اشخاص وجماعات وطوائف دينية وعقائدية وغيرها ٠

٥ ـ وحيث ان هذا الموقف جعلهم يعقدون النية على مصارعتها بجميع الوسائل والتالب عليها باى حجة وباية حيلة فى حملة تبشيرية عارمة شاملة ٠

٦ ـ وحيث أن هذا التبشير يصطبغ باصطباغات دينية مختلفة او عقائدية متنوعة او ثقافية قاتلة لاصالتها الثقافية ورسالتها الحضارية العالمية واجتماعية هدامة للفرد والاسرة والمجتمعات وبالتالى للامة الاسلامية جمعاء ٠

٧ ـ وحيث ان ذلك يهدف فى المقام الاول الى القضاء او الحط أو التشويه لقيمها ويتناول أولا وبالذات الاقليات وتقسيم دولها الكبرى والسعى الى تخريب مؤسساتها والتشكيك فى كل عنصر من عناصر مقوماتها والسعى بالايهام والسفسطاء والترويج والدعايات بجميع وسائل الاعلام المرئية والسمعية والمقروؤة السافرة أو الخفية على السواء ٠

ب ـ السندات

وبعد الاستماع الى المحاضرات التى القاها أصحابها بخصوص هذا الموضوع وما جرى فيها من مناقشات وتحريرات وتعليقات جعلت الموضوع واضحا ودقيقا ومحددا ٠

جـ ـ التــوصيــــات

فاعتبارا للحيثيات الواردة أعلاه وبالاطلاع على المستندات والوثائق والمصادر توصى اللجنة بما يلى :

١ ـ انه من واجب الحكومات والشعـوب الاسلامية أن تكـون واعيــة مرهفة الحــس لهذا الخطر الماحق فتنبرى فى جد وصرامة لوضع حد لاسبابه من هيآت تبشيرية ومدارس اجنبية تقوم بدعايات خفية وسافرة ضد الاسلام وصحافات محلية أو واردة مناوئة أو وسائل اعلام متوارية سافرة يدرس فيها السم فى الدسم وكتب دعايات وشعارات مستوردة وما اشبه ذلك مما يخطط له تخطيطا دقيقا شاملا بعد دراسات تقنية جامعــة للوثائق المعنية وممتدة سطحا وعمقا ٠

٢ ـ الوقوف بالمرصاد للهجرات الاجنبيــة الواردة على ديار الاسلام التى يقوم اصحابهــا فى خفاء بواسطة التعليم أو العمل أو المحاضرة على تخريب ديار الاسلام بأى وجه من الوجوه ، وأيضا ندعو الحكومات الاسلامية الى عدم منح جنسيتها لأى أجنبى الا بعد التأكد من اعتناقــه للاسلام وممارسته له فترة طويلة تثبت أنه لا يخفى وراء طلب التجنيس أهدافا تخريبية فى المجتمــع الاسلامى ، ونــرى أن أولى الــدول الاســلامية بتطبيق هذه المبادرة هى دول شبه الجزيرة العربية التزاما بالمبدأ الذى قــرره الرســول صلى اللــه عليه وسلم بأن الجزيرة لا يجــوز أن يكون فيــها الا ديــن واحــد ٠

٣ ـ حمايــة المسلمين المغتربين بتــأسيس المساجد وحلقات الوعظ والمدارس ونشر الصحف والكتب المصححة للاوضاع وتنظيم رحلات أبناء المغتربين وبناتهم الى الوطن للارتواء من مناهــل القيم الاســلامية من مصادرها الاصيلة والعيش مدة ما فى محيط اســلامى ٠

٤ ـ تنظيم مدارس للآباء والامهات حتــى يكونوا على بينة من الاخطار المحدقة بهم وبأبنائهم وعلى بينة من اصالة الاسلام ورسالته التاريخية والاطلاع على المناهج التوجيهية الراجعة الــى البيئة التربوية الاولى التى هى الاسرة وبتجهيز دقيق بوسائل الكشف عن جراثيم التخريب والحط مــن القيــم ٠

٥ ـ تنظيم الشباب المسلم تنظيما يجعلـــه فى مأمن من الدعايات الهدامة والتشكيكية ٠

٦ ـ دعــم وكالة الانباء الاســلامية العالمية بوسائل اعــلامية اســلامية تخبر عما يجرى فى العالم الاسلامى سواء فى الاقطار الاسلامية ذوات السيادة أو اقطــار الاقليات يوما بيــوم ودقيقــة بدقيقة حتى يمكــن الاســراع العاجــل بالاسعاف والنجدة فى الزمان السكلوجى وقبل فوات الوقت٠

٧ ـ تأليف تقويم للعالم الاسلامى يعطــى معلومات عن كــل قطر منه وكل اقلية بدقــة مــع أحدث المصادر وأوثقها ٠

٨ ـ اعداد مراجــع شاملة تكون مستندا ومقياسا كاشفا لاساليبه وأهدافه ٠

٩ ـ اعداد سلسلة شعبية من الكتب فيــها كتاب عن كل قطر اسلامى أو اقلية اسلامية حتى يعرف المسلمون بعضهم بعضا ٠

١٠ ـ ترجمة الكتب الموضوعية التى ألفها الاجانــب المنصفــون والتــى تتعلــق بالرسالــة الحضارية الاسلامية العالمية فى ميادين العلــوم والآداب والفنون والثقافــة ٠

١١ ـ احداث كراس فيما يتيسر من الجامعات الاسلامية بخصوص تاريخ العلوم والآداب والفنون والفلسفة عند المسلمين وتأثيرها على أوروبا وأمريكا ٠

١٢ ـ ارسال بعثات تعليمية الى اقطار الاقليات الاسلامية لتعليم أبناء المسلمين هناك ٠

١٣ ـ اعداد المعلمين المرسلين للاقطار الاسلامية للقيام بمهمة التعليم الاسلامى واللغة والآداب العربية والمشاركة المتطوعة أو المأجورة فى الاطار التعليمى المحلى ٠

١٤ ـ اعداد مجموعات من الكتب المبسطة باللغات الاسلامية المحلية لبيان محاسن ومبادىء وعشائر تاريخ الاسلام ورسالته الحضارية ٠

١٥ ـ ايجاد معهد أو معاهد لتعليم اللغات الاسلامية الافريقية أو الاسياوية او لغات للامم التى تحسن الدعاية الاسلامية لديها حتى تمكن الصلة المباشرة ٠

١٦ ـ ايجاد معاهد اسلامية أصيلة لتخريج شباب مسلم نظيف ومتحمس ومزود بالمعلومات والمصادر من أبناء الاقطار الاسلامية التى ليس فيها او لا يمكن أن يكون بها معاهد اسلامية سليمة

١٧ ـ اعادة النظر فى برامج التعليم وكتبه ولا سيما تعليم التاريخ حتى تتطهر برامج التعليم وكتبه من المفاهيم الخارجة عن الاسلام وتتجرد من المعلومات الكاذبة المغرضة التى تحط من قيمه وتشوه صورته ٠

١٨ ـ تقترح اللجنة أن يكون موضوع مقاومة التبشير والتيارات الالحادية والمذاهب الهدامة مثل القاديانية والاحمدية والبهائية وما الى ذلك فى جدول اعمال جميع الملتقيات الاسلامية وما اشبه ذلك ٠

١٩ ـ نطلب من الحكومات الاسلامية وضع الحد للعمل التبشيرى فى البلاد الاسلامية ومنع نشر الكتب والنشرات التبشيرية بين الشعوب الاسلامية ٠

٢٠ ـ نشر اللغة العربية بين المسلمين فى البلاد الاسلامية غير العربية بوضع كتب للاطفال والكبار على طريقة تربوية علمية تراعى فيها الاصطلاحات الاسلامية لكل قطر اسلامى ٠

٢١ ـ مع الاشادة والتنويه بالاعمال الكبرى والنتائج النظرية والتوضيحية والعملية الناتجة عن مؤتمرات الفكر الاسلامى وشكر وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية وعلى رأسها الاخ الفاضل مولود قاسم والحكومة الجزائرية والشعب الجزائرى على حسن الضيافة والتنظيم الدقيق واختيار المواضيع التى تعرض مشاكل العالم الاسلامى راجين مواصلة هذه المؤتمرات الى الاستيفاء ٠

اللجنة الرابعة

أخطار العزلة والاندماج التى يتعرض لها أبناء الجاليات الاسلامية فى الهجرة وواجب الدول الاسلامية نحوهم ٠

التوصيات

ان اللجنة الرابعة المنبثقة عن الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى ، بعد الاستماع الى محاضرات الاساتذة الدكتور محمد عبد الله عنان والدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ، والدكتور

العربى الزبيرى وكذلك سائر التعقيبات والملاحظات وبعد الدراسة الوافية لكل ذلك ·

ونظرا لما تتعرض له الجاليات الاسلامية فى المهجر من أخطار العزلة والاندماج ·

ونظرا لانعدام وجود منظمة اسلامية رسمية تعنى بشؤون الجاليات الاسلامية روحيا وماديا ·

ونظرا الى عدم وجود الوسائل الكافية لمجابهة أخطار التبشير والشعوذة وحملات التشكيك ·

ونظرا لما تتعرض له الاقليات الاسلامية من أخطار العنصرية والاضطهاد ، وضرورة العمل على حماية حقوقها الانسانية وممارسة شعائرها الدينية والمحافظة على مقوماتها الروحية ·

توصـــى بمـــا يلي :

١) انشاء منظمة اسلامية رسمية تشارك فيها كل الدول الاسلامية لترعى شؤون الجاليات الاسلامية روحيا وماديا وتربويا ·

٢) انشاء مصالح (مكاتب) خاصة بكل سفارات الدول الاسلامية لرعاية شؤون الجاليات الاسلامية فى المجالات الروحية والمادية والتربوية وحماية أبنائها من الانعزال والذوبان فى المجتمعات الغريبة عنها ·

٣) انشاء مراكز اسلامية بالبلاد التى تكثر فيها جاليات اسلامية يشرف عليها سفراء الدول الاسلامية فى تلك البلاد وتهتم على الخصوص بالناحية الثقافية والتربية الدينية لضمان ارتباطها بقيمها ومثلها العليا وحمايتها من أخطار التبشير وحملات التشكيك الالحادية ·

٤) انشاء هيئة اسلامية حرة تساندها الدول والمنظمات الاسلامية ، تهتم بالاقليات الاسلامية فى مجال الثقافة والتربية الاسلامية وحمايتها من الاضطهادات العنصرية والطائفية البغيضة مع القيام بمساعدتها على تحسين أوضاعها بالوسائل المستطاعة وتقوم هذه الهيئة فى نفس الوقت بتنسيق عملها مع المؤسسات الموجودة الآن التى تهتم بشؤون الاقليات الاسلامية ·

٥) يطلب من الحكومات المضيفة أن تساعد المسلمين المقيمين عندها على تربية ابنائهم وتنشئتهم وفق شريعتهم وكل ما تتطلبه مقومات شخصيتهم ·

وترى اللجنة بناء على هذه التوصية أن تعمل الدول الاسلامية على عقد اتفاقات ثقافية مع الدول التى بها أقليات اسلامية لتتمكن المنظمة بواسطتها من القيام بواجبها نحو هذه الاقليات فى مجال الثقافة الاسلامية وضمان حقوقهم الانسانية وممارسة شعائرهم الدينية والاتصالات باخوانهم فى العقيدة ومشاركتهم فى كل مجال يخدم الاسلام والمسلمين فى جميع بقاع الارض ·

٦) نطالب الحكومات الاسلامية بالتدخل لدى هيئة الامم المتحدة بصفتها منظمة ترعى حقوق الانسان أن تتدخل لحماية الاقليات الاسلامية من أخطار الاضطهاد العنصرى والطائفى والعقيدى التى تتعرض لها فى كثير من البلاد التى بها أقليات اسلامية حتى لا يلجأ الى المعاملة بالمثل فتتعرض العلاقات الدولية الى فوضى ما اغنى الانسانية عنها ·

٧) يحيى الملتقى قرار الحكومة الجزائرية الخاص بانشاء مؤسسة ثقافية فى فرنسا تعنى بتعليم اللغة القومية لابناء الجالية الجزائرية

والجاليات الاسلامية عموما ، وانشائها عـن طريق وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينيـة مفتشية فى أوروبـا لتعنى بالشـؤون الروحيـة والتربوية للجالية الجزائرية والاسلامية عموما ٠

٨) واذ يحيى الملتقى هاتين البادرتين من الجزائـر ، والتى اتخـذت أو ستتخـذ مـن دول اسلامية أخرى ، يوصى بضرورة تنسيق الجهود حتى لا تتبعثر ، وحتى تكون لها نتائجها المرجوة٠

اللجنــة الخامســة

دور وسائل التاثير على الجماهير ، وخاصة منها الصحافة والسينما والتلفزة ، فى البناء أو التخريب الذاتى لما تبقى مـن الامـة الاسـلامية المفـروض أنها فى صميـم معركتها لاستـرجاع نفسها ، ومسؤولية هذه الاجهـزة فى مكافحة أو نشـر جنـوح الاحداث ، بـل والاجرام نفسـه ، والانحلال الخلقى والالحاد ٠

التـوصيـات

نظـرا للمرحلـة التاريخية الصعبـة التى تجتازها الامـة الاسلامية فى مواجهـة الحـروب النفسيـة والاجتماعيـة والعقائديـة والثقافيـة والاقتصادية والسياسية التى تشـن ضدها مـن القوى المعادية للعالم الاسلامى ٠

ونظرا للدور الخطير الذى يلعبه الاعـلام بطاقاته غيـر المحدودة فى تكييف الرأى العـام ، وتوجيهه بـل وخلقـه ٠

ونظرا للاخطار التى تهدد المجتمع الاسلامى عن طريق أجهزة الاعـلام الصهيونى ، والصليبى والراسمالى والشيوعى الهادف الى تشويه القيم الاسلامية واشاعة الانحلال وتغذية نزعات الاجرام والعنف والتشكيك فى أوساط المجتمع وبالاخـص الشبـــاب ٠

ونظرا لما تشكو منه مجتمعاتنا الاسـلامية من مظاهر التفسخ والانحراف الفكرى ، والخلقى فى الزى ، والسلوك والمتفشية بشكـل مزعج فى جل طبقات مجتمعاتنا تاثرا بما تشيعه أجهـزة الاعلام من صحافة ووكالات أنبـاء ، وسينمـا ، وتلفـزة ، واذاعـة ومسرح ، ودور نشـر وذلك انسياقا وراء التبعية والتقليد ٠

ونظـرا الى ان تلـك الاخطـار تعمـل فى الدرجة الاولى لمحاولة تخريب المجتمع الاسلامى على حساب القيم الاخلاقية فان الملتقى السابـع للتعرف على الفكر الاسلامى يوصى بما يلي :

١) ضرورة ابراز حقائق الايمان والاسلام وتقديمها وعرضها فى اجهزة الاعـلام بصـورة واضحة مبـرأة الشـوائب ،وبلغة عصرية على أساس من الاصالة والتفتح معا ، وعرض وتقديم الثقافة والفكـر الاسلامى بخير ما فى الاسـلوب التقليدى من عمق وبأحسن معطيات الوسائـل الحديثة من فن وامكانيات وبأفضل مناهج التاثير والاقنـــاع ٠

٢) التعريف بالاسلام فى مختلف جـوانب العقيدة والعبادات والمعاملات مع مراعاة التبسيط والكشف عن عظمـة الشريعة والفكـر والثقـافة الاسلامية وثرائها وتاثيرها فى تمدين أوربا وابراز صلاحياتها لدستور كامل فى كافة جوانب الحياة٠

٣) العنايـة بقضايـا التـراث الاسـلامى والحضارة الاسلامية ، وكذلك العناية بموضوعات السيرة النبوية وشخصية الرسول عليه الصـلاة

والسلام وبالتاريخ الاسلامى مع تصحيح النظـرة اليه وتنقيته من محاولات التزييف على أن تحظى اللغة العربية بعناية خاصـة ·

٤) مواجهة حملات الغزو الفكرى الضارية وموجات الالحاد التى تسلط على عقول وافكـار ابنـاء الامـة الاسلامية ، والتصدى لهـا ـ على اختلاف مصادرها ـ بالفكر الاسلامى الصحيح ، على الا ينطلـق مـوقف أجهزة الاعـلام وأدوات الاتصال الجماهيرى من مـوقف الدفـاع دائما ، وانما ينبغى ان يكون لها زمام المبادرة فى كـل المجالات ·

وفى سـبيل تحقيـق هذه الاهداف يـؤكد الملتقى على ما يلي :

١ ـ ضرورة الاستفادة من أجهزة الاعـلام فى توسيع قاعدة الثقافة الاسلامية وفى القيـام بـدور ايجابى ونشيط فى مجال التعليم المدرسى والجامعى وتعليم الكبار وفى محاربة الامية وفى تـرسيخ القيـم الاسـلامية ومحاربة الجهـالات والخـرافات ·

٢ ـ أنه من الضرورى أن يكون هناك ميثاق اخلاقى يتعهد به العاملون فى مجالات الاعـلام ويلتزمون فيـه بقيم الاسـلام ومبادئه وبالتقاليد الاسلامية الصحيحة ، ويقفون ضد كل ما يسىء الى المجتمعات العربية والاسلامية ، وبصفة عامة ضد كل ما يمس بالاخلاق التى تستلهمها من دينها ومن الاقتداء برسولها الذى وصفه ربـه فقـال : « وانك لعلي خلـق عظـيم » ويتعاهدون على أن يمنعوا ذلك بكل الطرق الممكنة ليس فقط بالتعليمات التى ينبغى أن تصدر اليهم ، ولكن ايضا بوحى من ضمائرهم ووعى جاد بالمسؤولية الملقاة على عاتقهـم ·

٣ ـ تمكينا لوسائل الاعلام من أن تـؤدى دورها كاملا يجب ان تكون اجهزة الاعلام فى ايد أمينة مؤمنة كمـا يجب انشـاء معاهد اعـلامية اسلامية فى مختلف البلاد لتكوين اطارات اعلامية فى كل مجالات الاعلام تؤمن بالكلمـة الصادقة ، المخلصة وتعتبر العمل فى الحقول الاعلامية واجبا دينيا ، لا مجرد عمل روتينى وتكون مزودة بالعلم والمعرفة قـادرة على التعرف على كـل جـوانب الفكر الاسلامى ، وعلى تقديم مواد اعلامية جيدة فى ثوب مشوق يحبب الجماهير اليها ، وبصفـة خاصة يرى اعضاء الملتقى ان الصحافة فى البلدان الاسلامية قد اسرفت فى الغالب فى نشر الاخبار المثيرة والجرائـم ، والموضوعات غير الهادفـة وغيرهـا ·

وهم يطلبون من المشرفين على الصحافـة الامتناع عن نشر ذلك كلـه وذلك أنـه اذا كانت الصـورة العاريـة قـد أصبحت ـ فـى بعـض الصحف ـ خطرا شديدا فان الكلمة العارية قـد اصبحت اكثر خطورة ان الصحافة فى البـلاد الاسلامية ينبغى أن تكون دائما صحافة رسالـة لا صحافة تجارة تباع وتشترى ·

٤ ـ دعم وكالة الانباء الاسلامية ومطالبة الصحف والاذاعات الاسلامية بأن تنقى كل ما يرد اليها من وكالات الانباء الاستعمارية والاجنبيـة التى تحاول بها الاساءة الى الاسلام والمسلمين ·

٥ ـ مطالبة الصحف والمجلات الاسـلامية بأن تصدر اعدادا خاصة بالاسلام وبالشخصيات والمناسبات الاسلامية وأن تفتح ابوابها وصفحاتها للعلمـاء والمفكرين والمتخصصين فى الدراسات الاسلامية للاستفادة من علمهم وتجاربهم ·

٦ ـ المطالبة بالاكثار من اصدار الصحف والمجلات الاسلامية فى صورة تكفل اقبال الجماهير عليها والاستفادة منها ٠

٧ ـ ويسجل الملتقى بمزيد من الارتياح اهتمام بعض الاذاعات الاسلامية بالامور الدينية ، والتزامها ببرامج مخططة ومتوازية ويسجل بكل أسف أن بعض الاذاعات فى بعض البلاد الاسلامية قد اسرفت فى تقديم البرامج السطحية والاغانى السوقية وغيرها مما يسيء الى جماهير المستمعين ولذلك يجب الاهتمام بالامور الجادة والاكثار من البرامج والاحاديث الدينية وخاصة ما يتعلق منها بالشباب المسلم ، لكي تؤدى الاذاعات الاسلامية دورها فى خدمة الدعوة الاسلامية كما يجب ٠

٨ ـ يرجى من كل دولة اسلامية ان تخصص موجة أو اكثر من موجاتها للدعوة الاسلامية على أن تبحث الدول الاسلامية موضوع انشاء اذاعة اسلامية قوية تذيع بمختلف اللغات الحية ولغات الشعوب الاسلامية ٠

٩ ـ لقد اخطات السينما والتلفزة فى بعض البلاد الاسلامية ، فى حق مستقبل الامة الاسلامية وفى حق شبابها بنوع خاص لما تقدمه من افلام ، وبرامج هابطة المستوى مثيرة للغرائز ، والمشاركون فى الملتقى يطالبون المشرفين على السينما والتلفزة فى البلاد الاسلامية بان يمتنعوا بتاتا عن تقديم الافلام ، والبرامج ، التى تشيع الانحلال والانحراف والالحاد ، وكذلك الامتناع عن تقديم الافلام العنصرية والاجرامية التى قد تخدم الاستعمار والصهيونية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، ويطالبون بالابتعاد عن كل ما من شأنه المساس بالقيم والاخلاق وتقديم الافلام والبرامج التى تنشر الوعى الاسلامى ٠ كما يطالبون بعمل افلام سينمائية طويلة ، وقصيرة ، تخدم العقيدة الاسلامية ، وتصور الشخصيات الاسلامية التاريخية ٠

وتمكينا للسينما من أداء دورها يجب انشاء شركة افلام اسلامية تجمع الجهود ، والطاقات الاسلامية وتقدم الافلام الجيدة الصالحة التى تخدم الفكر الاسلامى والعقيدة الاسلامية ٠

١٠ ـ وفى المسرح يجب منع كافة المسرحيات غير اللاموضوعية والمترجمة التى تخدم الاهداف الاستعمارية ، وتقديم مسرحيات جادة مستمدة من التاريخ الاسلامى ٠

١١ ـ المطالبة بتبادل الخبرات والمواد الاعلامية الاسلامية داخل البلاد الاسلامية ٠

١٢ ـ التحذير من نشر وتوزيع الكتب التى تدعو الى الالحاد والآراء الهدامة ، ومطالبة دور النشر والتوزيع بالاكثار من نشر وتوزيع كتب التراث الاسلامى ٠

١٣ ـ تشكيل أجهزة الرقابة على الاعمال والمصنفات الادبية والفنية من عناصر ذات مستوى رفيع فى العلم ، والورع ، ويجب أن يكون عمل تلك الاجهزة محكوما بضوابط صارمة ، لا تتساهل فيما يمس الدين ، والضمير والمثل العليا ٠

١٤ ـ يوصى الملتقى بالدعوة الى عقد مؤتمر لوزراء الاعلام فى البلاد الاسلامية يدعى اليه رؤساء التحرير ، والمسئولون عن الصحافة الاسلامية ، لتبادل الرأى فى شئون الاعلام الاسلامى كما يوصى بتبليغ مقررات وتوصيات الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى ٠

١٥ ـ إن أعضاء الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى ليتطلعون الى يوم قريب يتحقق فيه للعالم الاسلامى اعلام اسلامى قوى يخدم العقيدة الاسلامية ، ويلتزم بالخط الاسلامى القويم ، ويهتم بالجوهر والمظهر بالشكل والمضمون ويخدم الجماهير المسلمة بالاسلوب الذى ترتضيه وتبتغيه ٠

" الحق فى جانبنا ، والقوة لاتعوزنا ، فعلينا الإستعداد لمواصلة الكفاح حتى تتحرر أراضى الدول العربية المحتلة ، ويسترجع الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية المشروعة بين الدول والأمم ، ويوضع حد نهائى لهذه المأساة التى تحز فينا ، ولا تشرف هيئة الأمم المتحدة ولا بشرية القرن العشرين "

الرئيس هوارى بومدين
مؤتمر القمة العربي بالجزائر 1973

NEWSWEEK APRIL 2 , 1973

مجلـة نيوزويك ٢ افريـــل ١٩٧٣

عمـــل نســـــائى جـــاد

جاء فى عدد مجلة نيوزويك الامريكية بتاريخ ٢ افريل ١٩٧٣ نبا هام عن عمـل نسائى جاد ويصح أن يكون قدوة لاعمال الجمعيات النسائية فى العالم أجمع ٠ فقـــد قامت اكثر من اثنى عشرة امراة أمريكية بعمل ضخم لتوعية المرأة الامريكية التى هى فى الحقيقة كمثيلتها فى بريطانيا تحتاج لتوعية اجتماعية وثقافية خلافا لما نعتقده ٠

وهذا العمل الجاد هو وضع كتاب يتضمن كل ما يجب ان تعرفه المرأة الامريكية عن نفسها وعن صحتها الجسدية ووصفها فى المجتمع وكل ما يتعلق بمشاكلها مع عرض حلول لهذه المشاكل ٠

واســم الكتاب : **أجسامنـا وكل مـا يتعلـق بنـا ٠**

OUR BODIES , OURSELVES

وثمنه ٣ ريالات فى متناول الجميع ٠ ومما يتناوله الكتاب الزواج والعمل وتربية الاطفـال والحمل والولادة والغذاء والعفة والرياضة والصحة ، فى ضـوء الاوضاع القائمة فى الولايات المتحدة ٠ ولا شك أن هذا افضل بكثير من تناول هذه المشـــاكل فى الصحف او الاذاعات ونشرها بما فيها من مسائل دقيقة على الملأ ٠



طلائع نهضة إسلامية جديدة

محمد عبد الله عنان
مؤرخ مصرى

شهدت بدعوة كريمة من الحكومة الجزائرية مؤتمر الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بالجزائر خلال شهر يولية الماضى • وقد كان هذا المؤتمر الكبير ، وهو السابع من نوعه ، يضم علماء ومندوبين من سائر الامم الاسلامية ، الافريقية والاسيوية وكان مسرحا كبيرا للاتصال والتعارف بين ابناء الامم الاسلامية ، من ماليزيا واندونسيا فى أقصى الشرق ، الى تونس والمغرب فى أقصى الغرب ، والى أمم القارة السوداء ، من أوغندا ومالاجاش وتنزانيا شرقا ، الى السنغال ومالى غربا •

وكان اجتماعه بالجزائر . وهو البلد الذى كان شعاره الاسلام ، والجهاد الاسلامى ، فى معركة التحرير المجيدة ، التى فقد فيها مليونا من الشهداء ، يضفى على هذا الجمع الاسلامى الحاشد، لونا عميقا من الخطورة الدينية ، ويرسم لاول مرة معالم المعركة . التى يراد ان تشهر باسم الاسلام والامم الاسلامية كلها ، على سائر القوى المعادية ، وفى مقدمتها الصهيونية المعتدية ، والاستعمار الغربى ، بسائر وسائله ، وغزواته الفكرية والاقتصادية ، والتبشيرية وغيرها •

والواقع انه قد اجتمعت فى العامين الأخرين عدة مؤتمرات اسلامية متعاقبة ، فى شبه الجزيرة العربية ، وفى مصر ، وفى ليبيا وغيرها • ولكن الاهداف لم تكن واضحة أو محددة فى هذه المؤتمرات ، مثل وضوحها وتحديدها فى مؤتمر الجزائر ، الذى اعلنت فيه الاهداف واضحة ، وهى تلخص الى جانب حماية الاسلام من غزو القوى الخصيمة ، بالاخص فى العمل على احياء الشريعة الاسلامية ، وتطبيقها كقانون وضعى وأخلاقى ، فى سائر البلاد الاسلامية •

منذ نحو قرن من الزمان ، ألقى المصلح الكبير السيد جمال الدين الافغانى ، صيحته المدوية بوجوب جمع كلمة الاسلام ، وتحريره من شوائب الاوهام والخرافات ، ومقاومة الامم الاسلامية لعدوان الغرب ، ولبث فترة من الزمن . يدعو بقلمه ولسانه ، الى تحرك اسلامى قوى ، سواء فى ميدان الفكر أو العمل • وكانت غايته البعيدة هو ان تجمع كلمة الامم الاسلامية تحت خلافة قوية وقيادة موحدة ، تستطيع رد عدوان الاستعمار الغربى ، وتعيد الى الاسلام مجده • وحمل من بعده دعوته تلميذه الامام محمد عبده • ولكن هذه الصيحة ، كانت يومئذ تلقى على أرض صخرية اذ كان العالم الاسلامى يرزح يومئذ فى سبات الجهل والتأخر • وكانت الاستجابة لمثل هذه الصيحات الثورية الاصلاحية ، تبدو كحلم بعيد المنال • ثم انه لم يمض على ذلك قليل من الزمن حتى اضطرمت الحرب العالمية الاولى ، وانتهت بانتصار الدول الاستعمارية الكبرى ، وسقوط عدد من الامم الاسلامية ، تحت نير الاستعمار ، وتمزيق العالم الاسلامى بصفة عامة • وكان من العسير ان تثمر أية صيحة فى سبيل نهوض الاسلام ، أو جمع كلمة الامم الاسلامية على أمر من الامور الهامة •

بيد ان هذه الصيحة المدوية لبثت مع ذلك راسخة فى اذهان المفكرين والكتاب ، رسوخ الثورة الكامنة التى قد تنبت يوما ثم تزدهر . وتنساب فروعها الى مختلف الامم الاسلامية • فتتحرك من سباتها العميق الى عالم جديد •

ثم كانت الحرب العالمية الثانية ، وانتهت بالعكس بانهيار الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى ، تحت وطأة الحركات التحريرية التى اضطرمت بها سائر الامم المغلوبة ، فى افريقية وآسيا ، وقامت دول اسلامية عديدة حرة ، واضحى العالم الاسلامى ، الذى تبلغ أممه اليوم نحو ستمائة مليون من الانفس ، قوة فى العالم الجديد يحسب حسابها •

ان هذا العالم الاسلامي الجديد المتحرر ، هو الذي يراد اليوم، ان تجمع كلمته على حماية الاسلام من القوة الخصيمة التي تتربص به بمختلف الوسائل والخطط الجديدة ، من غزوات ثقافية واقتصادية وتبشيرية وغيرها • وأول وأهم الوسائل التي يجب التذرع بها لاحباط هذه الغزوات الاستعمارية الخطيرة ، هو ان تبدا الدول الاسلامية بأن تجعل الاسلام شعارها القومي ، وان تقوم بتطبيقه تطبيقا عمليا حقيقيا • ولن يتحقق ذلك الا باحلال الشريعة الاسلامية ، مكان القوانين الوضعية ، التي استعارتها الدول الاسلامية من القوانين الغربية ، أيام ان كانت ترزح تحت نير الاستعمار ، وكان الاستعمار يملي عليها كل ما شاء • فالآن وقد تحررت من الاستعمار فعليها ان تلغى هذه القوانين الوضعية المستوردة ، وان تطبق احكام الشريعة الاسلامية في سائر المواد المدنية والجنائية والاجرائية • وفي معظم الدول الاسلامية يطبق اليوم جانب ضئيل من الشريعة الاسلامية ، هو قانون الاحوال الشخصية المتعلق بالزواج والطلاق والمواريث . ولكن ذلك لم يعد كافيا في بلد يدين ابناؤه بدين الاسلام •

هذا هو اهم التوضيحات والاهداف التي أقرها مؤتمر الجزائر بقوة واصرار ، ولقد ارتفعت بعض أصوات تقول ، ان تطبيق الشريعة الاسلامية في المواد الجنائية أمر عسير ، ولا يتفق مع روح العصر ، ولا مع الاتجاهات العلمية الجديدة • وكان الرد هو ان التعزيز في الشريعة الاسلامية ، هو باب واسع ، وان الاجتهاد المستنير كفيل بايجاد الحلول العادلة والقضاء على كل اعتراض من هذا النوع •

والى جانب ذلك ، وهو ما يتصل به أشد الاتصال ، هو ان توضع الوسائل الفعالة العملية والدبلوماسية لرعاية الاقليات الاسلامية في مختلف البلاد التي تعيش فيها وحمايتها من الاتجاه الى الذوبان تحت وطأة العزلة والانفصال عن الدول والامم، وتنظيم وسائل الاعلام وتسييرها وفق المبادىء الاسلامية ، والاهداف الثقافية والاخلاقية الفاضلة •

ثم انه يجب في نفس الوقت ان توضع الخطط والوسائل الفعالة لمقاومة غزوات التبشير الغربي الدينية والثقافية • فهذه تعتبر في الواقع أخطر ما يجب التنبيه اليه • والاحتياط لدفعه، خصوصا بعد ان اصبحت هذه الغزوات تتخذ في عصرنا ضروبا شتى ، من المحاولات الثقافية والتمدينية والانسانية ، التي لا يفطن اليها الا ذوو البصائر النافذة •

ونستطيع على ضوء ما تقدم ، ان نقول اننا نشهد اليوم طلائع نهضة اسلامية جديدة ، تمتاز بجديتها ، واندفاعها نحو الاهداف الجديدة بقوة ، وأهم ما يميز هذه النهضة هو اعتمادها على جمع كلمة الامم الإسلامية المختلفة في افريقيا وآسيا، وتقوية الصلات بينها • ولقد كان الاسلام في القارة السوداء ، يوم ان كان تحت نير الاستعمار بعيدا عن الاتصال بالامم الاسلامية المتقدمة، ولكنه اليوم يتجه اليها دون عائق ، ويستمع الى ندائها وتوجيهها • ولقد كان مؤتمر الجزائر في الواقع أكبر مظاهرة اسلامية من نوعها في عصرنا • وهو يعتزم السير قدما في نشاطه ، بالاجتماع كل عام، على نفس التنسيق والتكامل ، ليضع خططا جديدة ويتقدم خطوات الى الامام • ومن سبق لقول ان نحاول التنبؤ بما يترتب على هذا النشاط الاسلامي الكبير من النتائج العملية • ولكن الذي لا شك فيه هو أنه نذير بأن الاسلام يتحرك نحو آفاق جديدة ، ربما كانت ذات أثر حاسم في مصايره ، في هذا العالم الجديد •

من انتصـــاراتنـا هزمنـا الخــوف

انا لست زعيما للعروبة ولا اطمح لهذا وجل ما اطمح اليـه ان نتغلـب عــلى مشاكل التنمية والبناء الداخلي في الجزائر ٠

وعن انجازات الحاضر وترقبات المستقبل وامكانيات جولة قادمة في ظروف الوفاق العالمي ، قال رئيس مجلس الثورة والحكومة :

للإجابة الكاملة عن سؤال كهذا لا بد من التعرض لعدة مواضيع ٠

هناك ظروف الوفاق الدولي الذي يسعى طرفان لتدعيمه ولكل منهما مصلحته ٠

واذا كان الطرفان الآن في نقطة الانطلاق فهل سيستمر تكامل المصالح بينهمـا الى ما لا نهاية ام ان هناك نقطة معينة سينفجر عندها التناقض من جهة اخرى ؟

بفرض ان كلا من الطرف العربي والاسرائيلي سيحضر مؤتمر السلام فان لكـل منهما تصوره الخاص للسلام الذي يتناقض مع تصور الطرف الثاني ، هذا يعطيـــكم صورة عن ترقبات المستقبل الاخر ٠

ولست احب ان نغالي في تقدير انتصاراتنا حتى لا يقع المواطن العربي في الخطأ الذي وقعت فيه اسرائيل بعد 1967 ٠

ونحن لم نهزم اسرائيل ، ولكننا هزمنا الخوف وهذا من اهم مكاسب المعركـة ، وهكذا سيحارب الجندي العربي في معركة قادمة بمعنويات اكثر ارتفاعا من المــاضي في الوقت الذي يحارب فيه الاسرائيلي بمعنويات اضعف من معنوياته في الماضي ٠

لقد خلقت بعض اجهزة الاعلام العربية من فانتوم العدو ـ عزرائيلا ـ لا يمكــن قهره وتمكنت طائرات عربية اضعف امكانيات من ـ الفانتوم ـ اسقاط هذه الطائـرة محطمة بذلك الشبح الذي كان العدو يخيف به العرب ، وكان هذا تحطيما لاسطـــورة السلا ح المتفوق ٠

ولقد أثبتنا ان انتصار اسرائيل على العرب مستحيل ولن تكون الكلمة لها في معركة قادمة لان عوامل نصرها تتناقض يوما بعد يوم يضاف الى هذا وجودها في حالـــة استنفـــار دائم ٠

الرئيس بومدين في ندوة مع ممثل الصحف العربية

خواطر وانطباعات حول
الملتقى السابع للتعرف على الفكر الإسلامي

د· عبد الملك مرتاض
كلية الآداب
جامعة الجزائر

1

يا ليت شعري متى تؤسس جامعة اسلامية ، في الجزائر ، للدراسات الدينية الاكاديمية ؟ فقد لاحظنا أن المعقبين الجزائريين في معظمهم كانوا ينتمون الى كليات الآداب ، وربما الطب · وما كان أحد منهم يعتزي الى كلية شريعة، أو جامعة دينية وذلك جعلنا نشعر بفراغ رهيب في الفكر الاسلامي لدينا ، بالرغم من الاستعداد الطيب ، والعقلية المنظمة المستنيرة ، والتفتح الذهني النقي · فمتى تفتح أو تؤسس هذه الكليات الاسلامية في الجزائر فما أشد حاجتنا الى مثل هذه المؤسسات ، ليتخرج فيها أساتذة وباحثون مختصون في الشريعة الاسلامية اختصاصا اكاديميا عاليا ·

2

كان ملتقى الفكر الاسلامى السابع عبارة عن «عكاظ» تبارى فيه الخطباء ، وان لم يقصدوا الى هذا التبارى • وقد كان المعقبون والخطباء (واقول: الخطباء ، لان بعضهم كان يحلو له ان يخطب باستثارته مشاعر الطلاب الشباب ، وانتزاع التصفيق منهم انتزاعا شديدا) يصطنعون لغة عربية عالية فى معظم الاحوال • كما كانوا يعالجون امورا وقضايا اكتست فى كثير من مظاهرها صبغة اكاديمية•وكان الدكتور الشرباصى احسن خطيب ومعقب ، من حيث جمال اللغة ، وفصاحة المخرج• اما الذى سحر الملتقين بقوة الحجة ، واستحوذ على ألبابهم بعلمه ولطفه وهدوئه وابتسامته ، فقد كان الامام موسى الصدر • ان الله حبا هذا الرجل بسر عظيم لم يحب به جميع الناس • وقد زاده محبة فى قلوب الملتقين ما كان فى رأيه من جراة وحرية واجتهاد ، فى كل قضية عالجها ، او درس قام به ، او محاضرة ألقاها •

3

قمت بجولة قصيرة فى مدينة تيزى وزو ، فى اليوم الاول من حياة الملتقى ، مصحوبا بالشيخ الزبير ، فدخلنا دكان تاجر كهل فى المدينة • فانساق بيننا وبينه الحديث ، الى ان وصلنا الى ذكر المؤتمر ، واننا ما جئنا الى المدينة الا لحضوره• فانبرى يتحدث عن الاسلام فى لهجة يفهم منها ان هذا الرجل لم يك مسلما ، لانه اخذ يمتدح النصرانية واصحابها ، ويذم الاسلام ورجاله ، وانه يحب «الآباء البيض» حبا شديدا ، وانه يستمع الى اذاعة النصارى فى روما يوميا • وان المسلمين حين جاؤوه ليلتمسوا منه مساعدة لبناء مسجد تيزى وزو ، رفض ذلك رفضا باتا • فقلت له : انت تظلم الاسلام ، لانك تحكم عليه وانت له من الجاهلين ، فهلا ذهبت الى هذا المؤتمر العظيم ، فسمعت فناقشت ، وهنالك تصدر حكما • • • فقال : لا ايمان لى ! فلم اكذب او انافق؟ • • • فقلت للشيخ الزبير : لقد احسنت وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية بعقدها هذا المؤتمر فى هذه المدينة التى استعصمت فما دخلتها حركة الاصلاح التى تزعمها العلماء ، بالحاح شديد من جمعيات التنصير التى جاهدت نفسها جهادا شاقا لتتخذ من هذا الوجه من ارضنا العزيزة مجالا فسيحا للتنصير والتنفير من الاسلام ، والعبث بعقول المواطنين •

لقد دفعتنى هذه الحادثة الى شىء قاتم من التشاؤم اول الامر ، ثم ما لبثت ان تفاءلت واستبشرت خيرا كثيرا حين اتصلت باهالى المدينة الآخرين كالحاج صالحى • والرجل الصالح السيد محمد فرج • فقد وجدت محبة فى الاسلام عظيمة ، وقياما بواجبات الاسلام قياما حسنا ، وان ذلك الكهل الضال لم يك الا فلتة شاذة •

4

انعقد المؤتمر فى قاعة المحاضرات التابعة لمعهد تخريج المعلمات • وقد اعجب الناس اشد الاعجاب بهذه القاعة الفخمة الضخمة ، المكيفة

الهواء، الواسعة الارجاء، الجميلة الاضواء، الفسيحة الفناء ، وقد كانت هذه القاعة فلتة من الفلتـــات التى قل ان حظيت بها مؤسسة للتعليم . ينبغى ان تكون مفخرة من مفاخر ثورتنا العظيمــــة ، ودليلا ناطقا على العمل البناء ، والتشييد الجاد . وهذه القاعة ليست كل ما بنى فى البرنامج الخاص طبعا ، فان تيزى وزو اصبحت بحرا عارمــا من الاوراش والاعمال المستمرة النشيطة التى شملت المدينة وضــواحيها ، فاذا البنايـات تقام ، واذا الطرق تشق ، واذا المؤسسات تشاد . ومن ذلك المسجد العظيم الذى بنى ايضا فى نطاق البرنامج الخاص . وقل مثل ذلك فى هذه العمارات الضخمة التى ازدانت بها المدينة ازدهاء . والحق ان هــذه المدينة لم تك شيئا على الاطلاق ، قبل منجـزات البرنامج الخاص . هذه هى الحقيقة .

5

لقد سرنى منظر اسلامى رائع ، ولا أحسب الا انه سر جميع الحاضرين المتأملين ، وقد تمثل فى جلوس رؤساء الفئات الاسلامية او اعضاء مذاهبها البارزين جنبا لجنب . فكان الامام موسى الصدر بجوار الشيخ ابى زهرة ، كما كان الاباضيـــــة يجلسون بجانب الامامية واهل الجماعة . وقــد كان كل واحد من هــؤلاء العلماء ينشد الحــق . ويبتغى الخير للاســـلام الذى مزقته المــذاهب ، واضعفت من قواه هذه الخلافات التى نشأت عن الفروع اكثر مما نشأت عن الاصول . وقد حادثت الشيخ سليمان فى مقهى المؤتمر ، فقلت لــه : أتمثل فقهاء المسلمين وعلماءهم فى هذا المؤتمـر وكأنهم عادوا الى ما قبل قيام هذه المـــذاهب الفقهية ، او هذه الطوائف الاسلامية نفسها . أى انهم عادوا الى اصول الدين الاسلامى . تلـــك الاصول التى لا تخرج عن مصدرين رئيسيــين : هما الكتاب والسنة .

واحسب انه لو خصص مؤتمر لمناقشة القضايا التى يختلف فيها علماء المسلمين الذين ينتمـون الى الثمانية المذاهب الرئيسية . وهى قضـــايا جزئية ، واحكام فرعية ، لامحت هذه الخلافـــات واندثرت . واعتقد مخلصا ان هذا المؤتمر الاسلامى قرب بين المسلمين الى حد كبير ، وابرز كثـيرا من العيوب التى يجب ان تزول ، وكثيرا من الامراض التى ينبغى ان يسارع المسلمون الى مداواتهـــا وعلاجـــها .

6

فى يوم الجمعة الاول من عمر المؤتمر ، استضاف اهل المدينة وفود الملتقين ، بمن فيهم الطـــلاب ، فتجلت ، فى هذه الاستضافة ، روعة الكـــرم والسخاء لدى سكان هذه المدينة العزيزة . فعكاظ فى حقيقة الامر ، لم تك داخل القاعة الفخمــــة الضخمة التى آوت المؤتمر وسعته ، وانما كانت ايضا فى هذه الصفة التى اتصف بها الجزائريـون وهى استضافة الوفود المشاركة فى المؤتمـــر الاسلامى كلما انعقد . فلقد حدث ذلك فى المؤتمر الاسلامى كلما انعقد . فلقد حدث ذلك فى تلمسان، أثناء انعقاد الملتقى فى وهران ، وفى المدية أثنـاء انعقاد الملتقى السادس بالعاصمة ، وفى المؤتمـر السابع بتيـزى وزو ، وبنى ينى والشرفـــاء ، ببلاد القبـائل الـكبرى .

وقد عرفت هذه العادة اول مرة في الجزائر ، فيما اعلم ، في تلمسان سنة 1937 بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث ، حيث استضاف التلمسانيون الوفود التي جاءت لتحضير تدشين تلك المدرسة • ثم وقع مثل ذلك بعده في قسنطينة بمناسبة ختم تفسير القرآن الكريم للعلامة ابن باديس • وقد أبدى القسنطينيون يومئذ من حسن الضيافة وسعة الكرم ما فاق كل تقدير •

7

من الطف التعقيبات وأخفها ، تعقيبات الشيخ عبد الله المجاهد اليماني ، فقد كان هذا الشيخ يمثل الرجل العربي القديم كما نقرأ عنه في الادب العربي ، في خفة روحه ، وحلاوة لفتته ، وصفاء ذهنه ، وجمال عبارته • فقد كان كلما اراد ان يعقب على محاضر بادر اليه طبعه الخطابي ، فخطب وقد كانت تاتيه اسجاع لطيفة تدل على سلامة الطبع العربي الاصيل • كما انني لم افهم النطق بالقاف المعقودة التي تجري على السنة بعض الناس لدينا في الجزائر حتى هذه الايام التي كنت اسمع فيها الشيخ المجاهد ناطقا هذه القاف على النحو الذي ذكرت آنفا •

8

لقد كانت القاعة الضخمة التي اجتمع فيها المؤتمرون مزدانة بألواح زيتية تمثل شخصيات اسلامية بارزة ، وقد لاحظنا من بين هذه الالواح ، رسوما لابن باديس ، والابراهيمي ، والعربي التبسي ، ومحمد عبده • كما ازدانت هذه القاعة بزرابي جزائرية جميلة الصنع ، قد علقت بصورة منتظمة بحيث وزعت على القاعة توزيعا منظما يدل على سمو ذوق الذي قام بتعليقها على الجدران الاربعة • وقد عددتها فألفيتها تسعا • كما علقت لافتة في صدر القاعة كتب عليها بخط في منتهى الجمال والكمال هذه الآية الكريمة : « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » • وقد كانت هذه الآية هي شعار المؤتمر ، وما اعظمه واحكمه من شعار !

9

لقد شارك في هذا المؤتمر الشعراء ايضا •

ولكن لا تحسب هذه الاشعار الخليعة السفيهة، بل كانت موضوعات هذه الاشعار دينية وتاريخية ووطنية واجتماعية • فكان ينشد مفدي زكرياء طائفة من شعر « الياذة الجزائر » بين محاضرة ومحاضرة ، او بين تعقيب وآخر • ولم يقف امر الشعر عليه وحده ، بل جاوزه الى صالح جودت الذي انشد قصائد جميلة رقيقة جدا في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي موضوعات اخرى اسلامية • وقد تقدم حسن حموتن الذي القى قصيدة ميمية طويلة عرض فيها الى كثير من الحوادث التاريخية ، والبطولات الوطنية ، ولاسيما المتعلقة بالقبائل الكبرى • وقد اعجبني في قصيدة وصفه الطبيعة الجزائرية في منطقة القبائل ، وهي طبيعة لا تضاهيها في جمالها وكمالها وعظمتها اى طبيعة ! وهي لفتة طريفة من هذا الشاعر تجدر بالتقدير الكبير • ذلك بأن الشعر الجزائري

يكاد يخلو من وصف الطبيعة لغلبة الالتزام الاجتماعي او السياسي عليه • اليس ان هذه الطبيعة هي التي كيفتنا وساعدت على تكوين أذواقنا ووعينا ؟ ثم اليس انها ساعدت على تحرير ارضنا من المغتصبين ، فغطت كثيرا من رجالنا واخفتهم بين احضانها فنجوا من بطش الاستعمار الذي ادرك هذا ، فسلط على كثير من غاباتنا العظيمة نار طائراته فاحرقتها ، ولا تزال من ذلك آثار باقية ، وامارات بادية ؟ افبعد كل ذلك يسكت شعراؤنا فلا يصفون هذه الغاب ، ويتبلد كتابنا فلا تستهديهم هذه المناظر العجيبة• بجبالها الشاهقة ، واشجارها الباسقة ، وسواقيها الجارية ، وعيونها الثرثارة ؟

فمتى يستفيق أدبنا من سباته الطويل،ويصحو من سكرته الضالة ، فينبه الى جمال هذه الطبيعة الفاتنة الخالدة ؟

أما حموتن فقد أستفيق بعد ، وقد أنشدني بعض قصائده الاخرى ، فاذا فيها عناية بادية بالطبيعة الجزائرية وذكر لها،واعجاب شديد بها•

10

لم نلبث‌ان أستكشفنا شاعرا جديدا من الطراز اللطيف ، ذلكم هو الشيخ عبدالله المجاهد اليماني الذى انشأ فى أواخر المؤتمر يشنف أسماع المحاضرين بأشعار تسيل عذوبة وجمالا وحماسة، الفاظ جزلة ، فيها حرارة العاطفة ، ولطف النكتة وصدق المشاعر • وقد كان الشيخ يقرض الشعر على البديهه ، وقد أخبرنا ان كل عالم دين أو فقيه فى اليمن ، يجمع الى علمه وفقهه وفضله قول الشعر•• فهو ان قال الشعر ، لا يعدو ان يكون رجلا مسلما يمانيا •

11

استرعى الانتباه ، يوم الاثنين 16 جمادى الثانية 1393 ، ان شابا اوغانديا قام ليتحدث معقبا ، ولكن لا بالعربية ، بل باللغة الانجليزية فاضطر منظمو المؤتمر الى وضع مترجم باللغة العربية بجانبه ، وكان مما قال : « ان المنصرين (ولا أقول المبشرين ، لانها لفظة جميلة لا ينبغى ان تطلق على اعمال اولئك القوم) استغلوا جهل الافارقة فأسسوا لهم المدارس • كما استغلوا مرضهم ، فأقاموا لهم المستشفيات ، فاوشكوا ان ينجحوا نجاحا كبيرا » • وقد لاحظ المعقب الاوغاندى انه ما من مسجد يقام ، الا وتقام حوله كنيسة فى افريقيا •••

واذا كان هذا الاوغاندى عقب بالانجليزية ، فان مفاجأة المؤتمر حقا ، تمثلت فى شاب سنغالى يسمى محمودا ؛ عندما انبرى يعقب باللغة العربية الفصحى ، فبهر الناس بطلاقة لسانه ، وحلاوة تعبيره ، ونقاوة أسلوبه • وأحسب ان تعقيبه كان من أنجح التعقيبات اطلاقا فى هذا الملتقى • كما ان هذا الشاب كان أفصح المسلمين غير العرب : تحدثا بالعربية والماما بها ، وتصرفا فى ألفاظها •

12

فمرحى بهذا الشاب الافريقى المسلم ، مرحى !

كان يوم الجمعة 20 جمادى الثانية فى برنامج الملتقى ، يوم سياحة وتجوال فى بلاد القبائل الكبرى ، وماان أزفت الساعة الثامنة صباحا حتى كانت الحافلات التى بلغ عددها زهاء خمس وعشرين تزحف نحو المرتفعات فى طريق شديد الالتواء ، وكان الموكب يسير وئيدا لوعورة الطريق ، وكثرة الحافلات التى كانت غاصة بالاساتذة والطلاب •

وقد انبهر السياح بجمال هذه الطبيعة العظيمة التى سحرت ألباب الضيوف والجزائريين جميعا • وقد بلغ اثر ذلك فى نفس الشيخ عبد الله المجاهد اليمانى ، انه انشأ قصيدة أثناء صعودنا فى وصف هذه الطبيعة العذراء • فقد كانت الجبال شاهقة والطريق وعرا ، تدب الحافلات ، فيها دبيبا ثقيلا كأنما أثر عليها ما فى هذا الطريق من منعرجات متصلة اتصالا مستمرا • ولكن هذه الجبال لم تك جرداء عارية ، أو صخرية قاحلة ، وانما كانت مكسوة بخميلة شديدة الاخضرار ، كأنما نسجت نسجا خاصا ثم كسيتها •

ما أجمل بلادى ! ما أروع هذا المنظر العجيب الذى تشكل من صنع الله الواحد القهار ! فقد أرسى الجبال الشاهقة ثم كساها بهذه الاشجار التى كانت مختلفة فى أنواعها من بعيد تمثل منظرا واحدا ، وصورة واحدة ، ووجها واحدا ، هو الاخضرار • هو الجمال الفياض •

لقد اقتنع كل من حادثتهم من مفكرى الاسلام أن هذه الطبيعة بلغت حد الفتنة ، وان هذا الجمال بلغ حد الاعجاز ، وان الجزائر تضاهى أجمل بلاد الدنيا • حتى ان أحدهم زعم لصاحبه فى عبارة مرحة ـ وذلك بعد اداء صلاة الجمعة والتنزه بين اشجار الحور ـ ان هذه هى الجنة ! ام لا يرى العيون والاشجار ، والفواكه والثمار ! ام عمى عن هذه الزرابى المبثوثة فى هذه الظلال الوارفة ؟

اما أنا فقد قلت لمراسل صحافى : لا يمكن ان يصاب أحد من هؤلاء السكان الكرماء بمرض ؟

ثم قلت فى نفسى : كيف لا يكون من هذه الارض العظيمة شعراء عظام ؟ ان كل ما فى هذه الفلات الكثيفة ، والقمم العالية ، والاودية الرهيبة يدعو الى الشعر ويوحى به ؛ هذه الاطيار المغردة وهى تشدو ألحان الحياة كمانما تسبح عظمة هذه الطبيعة الرائعة • وهذه القرى البسيطة الصغيرة المنبثة هنا وهناك ، كأنها خلية النحل فى تركيبها الهندسى ، ثم هذه الديار التى كانت تقع فى قمم الجبال والربى ، كأنها قناديل علقت على اشجار بل كأنها تيجان وضعت على رؤوس حسان •

انه جمال وجلال وكمال !

انها طبيعة خليقة بالتمجيد والتعظيم ؛ لانها محراب الشعراء ، وبهجة هذه الحياة •

لا أحسب انى تمتعت بجولة فى حياتى كلها ، مثلما تمتعت هذا اليوم • وذلك هو الشعور العام الذى آب به أكثر من الف سائح فى هذا اليوم •

والفضل في كل ذلك يعود الى وزارة التعليم الاصلي والشؤون الدينية ، فهي لا تنشر الثقافة وتناقش الفكر ، وتنقي عقول الاجيال الصاعدة من الالحاد والكثلكة والفساد فحسب , وانما تشارك في رفع كلمة الجزائر ، وتشريف سمعتها بمثل هذه الملتقيات الهادفة ، وهذه الجولات السياحية التي تعرف بما للجزائر من خامات سياحية ذات ثراء ليس له مثيل ٠

13

أعجب جميع الملتقين بسكان قرية الشرفاء الذين استقبلونا أحر استقبال ٠ واكرمونا اكراما سخيا برهن مرة أخرى على سخاء هذا الشعب وسبقه الى عمل الصالحات ٠

14

من أروع ما يستوقف الملاحظ ركوب السيد الوزير في احدى الحافلات العامة كغيره من الملتقين انه سلوك رفع شأن الجزائر في أعين الضيوف الى حد العبادة ٠ ان الامم ترقى بالعمل والتواضع ، لا بالكسل والتعالي ، فهل يدل سلوك السيد الوزير من حيث تواضعه على رقينا ؟ قد يكون أو يدل على بساطة الانسان الجزائري بوجه عام ؟ قد يكون ذلك ايضا ٠



INTERNATIONAL HERALD TRIBUNE, THURSDAY, MARCH 29, 1973

صحيفة هيرالد تريبيون (الدولية) الامريكية عدد ٢٩ مارس ١٩٧٣

بعض محاسن نظامنا الاجتماعى عن الاسرة والـزواج تقتبسها المانيـا الغربية

جاء فى صحيفة هيرالد تريبيون الامريكية (الطبعة الدولية) بتاريخ ٢٩ مارس ١٩٧٣ أن مجلس الوزراء فى حكومة بون (المانيا الغربية) اقر مشروع قانون يسمح للزوجة بالا تأخذ اسم زوجها (أى يبقى اسمها قبل الزواج واسم اسرتها قائما بعـد الزواج كما فى بلادنا الاسلامية) ـ كذلك اقر المجلس المذكور اباحة الطلاق (بالطبع حينما يوجد من الاسباب ما يدعو لـــه) ـ

وأباح المشروع نظما جديدة غير مألوفة مثل أن يسمح للزوج اذا شاء أن يأخذ اسم أسرة زوجته (! !) أو أن يتخلى الزوجان عن اسمى أسرتهما ويتفقان على اسم جديد (ربما لحل مشاكل الاطفال غير الشرعيين والتبنى فلا يكون هناك تمييز حقيقى بين الاب الشرعى وغير الشرعى) ·

وينفذ هذا القانون الجديد من نوفمبر ١٩٧٦ ·



التطــــوع والاســــلام

لسماحة الامام موسى الصدر ، رئيس المجلس الاسلامى الشيعى الاعلى فى لبنان ، بمناسبة مشاركته فى الملتقى السابـع للتعرف على الفكـر الاسـلامى فى تيـزى وزو

أيتها الشبيبة المتطوعة :

لقد وقفت أمـام حركتكم التطوعية خـلال رحلتى الى الجـزائر البطلة بانتبـاه واحتـرام ، فشعرت أن هذه الحركة تزرع فى القلوب بـذور الامـل الكبير ·

لم أقصـد بهذه الكلمـة تشجيعكم ، فقـد لا حظت مقابلتكم مع الرئيس القائـد بومديـن ،

ولكنى احببت فى كلمة وداعية ان احدثكم عن انطباعاتى عن عملكم ، وأن ارسم لكم ابعاده وامتداداته ، أملا منى بأن أكون قد ساهمت فيـه متطوعا مساهمة متواضعـة ·

ايها الشباب المتطوع !

ان عملكم التطوعى هذا يتجاوز فى ابعـاده بنـاء القريـة ومساعدة الفلاح ، وحتى تطويـر الزراعة فى البلاد بشكل ثـورى ·

بل انه فى نفس الوقت بداية صنع انسان ، وخلق مواطن ، وصناعة أمة · ان المحنة الكبرى فى حياة الانسان ، منذ أن كان ، أنه كان يعيـش لنفسه ، يحس بمصالحه الخاصة ، يتحرك لكـي يبنى ذاته ، ويشبع أنانياته ، وبالتعبير القرآنى « اتخذ الهه هواه » ، فعبد نفسـه ·

وجاء الانبياء ، وجاء المصلحون وقـادة الامم يحاولون بشتى الوسائل أن يوسعوا دائرة احساسـه وتحركـه ، ويشعروه بآلام الآخـرين وآمالهم ، ذلك لكي يسعى لبناء مجتمعه الـذى ينمو باستمرار فيسعد ويسعد ·

ان الدين هو هذا السلوك ، أى التحول من عبادة الذات الى عبادة الله ، وأفضل عباداتـه خدمة خلقـه ·

والاسلام فى كافة تعاليمـه ، فى ثقافاتـه وعقائده ، فى واجباته وأخلاقه يرسم تفاصيـل هذا التحول العميق ·

القـرآن الكريم يـؤكد ان أساس التقوى ، بعد الايمـان بالله وبعـد تـرسيخ هذا الايمـان بالصلوة ، هو اشراك الآخرين فيما وهبه اللـه للانسان من مـال ، أو جـاه ، أو طاقة ، أو علم وخبرة (١) وهذا كله يتخلص فى كلمة التطوع ·

ان رسولنـا العظيم يعتبر هذا التطوع فى حديث له هو الطريق الى الجنة (٢) ، كما انه ينفى الايمان عـن الذيـن يتنكرون لآلام الآخـرين ولا يتحركون لخدمتكم (٣) ·

أيها الشباب المتطوع :

ان عملكم التطوعى هذا له بعدان ٠ فهو ببعده الخارجى يعمر الارض ، ويبنى القرية ، ويرفع مستوى الحياة لدى المزارع ، ويقوى الوطن والامة ٠

وفى بعده الداخلى والنفسى يبنى ويعمر انسانا جديدا ، كبيرا فى تحسسه وتفكيره ، واسعا فى اهتماماته ومسؤولياته ، فتقدمون بذلك من انفسكم اناسا ومواطنين لرفع مستوى وطنكم وأمتكم ٠

انكم باتجاهكم نحو القرية ونحو توسعة الذات تتحركون بعكس اتجاه العالم اليوم ، فانه بشرقه وغربه يتحرك نحو المدينة ونحو تضييق الذات ، يعمق الانانيات ، ويرسخ المنافع الذاتية٠

انكم تحولون انفسكم الى أمة واحدة ، والعالم يحول الامة الى فئات وأفراد ، ويضع لكل منها ولكل منهم اطارا صلبا ٠

انكم تتحدون العصر ، وكم فى تاريخ الجزائر من تحديات ومعجزات !

أيها الشباب المتطوع !

هذه رؤيتنا لعملكم ، بل ان هذه رؤية التاريخ لكم ٠ فسيروا على بركة الله ، وقدسوا عملكم ٠

انكم تصنعون اليوم على الارض وعلى الانسان أسس المستقبل الذى يرفض التقلص والانانية ، ويتنكر لعبادة الذات ، مستقبل مفتوح يعبد فيه الله رب العالمين ، ويخدم فيه الانسان كل انسان ٠

ان عملكم التطوعى أيها الاعزاء بداية لاشرف أنواع الثورات المعاصرة ، وأكثرها شمولا وانسانية ، انها ثورة على النفس وعلى الغير ، ثورة على كل انحراف وتخلف ، انها الجهاد ، فى أرض الجهاد ، يا ابناء المجاهدين !



---

(١) القرآن الكريم ٠ سورة البقرة آية ٢

(٢) حديث شريف قال الرسول (ص) لاصحابه « هل أدلكم على طريق الجنة ؟ » قالوا نعم ، قال « انفقوا مما انفق الله عليكم » ٠

(٣) حديث شريف « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعانا وجاره جائع » ، والقرآن الكريم ، سورة الماعون « أرايت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين » ٠







سياسة فرنسا تجاه العرب

من ديغول
إلى بومبيدو

تأليف : بول بالطا
عرض : اسماعيل العربي

يحتوى الكتاب على تسعة فصول مختلفة الاحجام ، وهى تمثل ما يمكن تسميته « صلب العلاقات » العامة بين فرنسا والعالم العربى ، وعلى عدد من الملاحق التى تعالج العلاقات التجارية والثقافية الثنائية بين فرنسا والبلدان العربية ، كلا على انفراد ٠

ويبدأ الكتاب بفصل بعنوان « من شرلمان الى عهد الاستعمار » . وهذا الفصل الذي بذل المؤلف (أو بالاحرى المؤلفان) مجهودا ، صعبا بدون شك ، لتركيبه ، محاولة قد يرى البعض ان موضوع الكتاب في غنى عنها . لانه لو تراءى أن من الضروري تعميق الموضوع ، لاحتاج هذا الفصل الذي أريد منه ان يشكل خلفية الصورة ، الى ضعفي حجم الكتاب ... ولكنه ما دام من الصعب تسليط ضوء كاف على النتوءات التاريخية الاساسية ، فان هذه الصورة هي أشبه ما تكون بالصورة التي تؤخذ من الاقمار الصناعية للكرة الارضية . والحق ان من الصعب تلخيص تاريخ يمتد على عشرة قرون في خمس عشرة صفحة ...

ذلك ، على الاقل هو رأي قارئ عربي يهتم بالتاريخ ، ولكنه يجب الا ننسى ان الكتاب يتجه الى قارئ اروبي غير متخصص . وبالتالي ، فان تنوير ذهنه بلمحات خاطفة من الاحداث التاريخية الهامة ، أمر من شانه ان يتيح له قاعدة لفهم احداث الساعة ولتنبيم التطورات التي مرت بها السياسة الفرنسية تجاه العرب .

وكذلك يبدو ، مثلا ، ان اهمال الاشارة ، في معرض الحديث عن سياسة فرنسا المعاصرة ، الى المعاهدة التي عقدها فليب الثالث بن سان لويس ، مع أبي عبد الله محمد المستنصر بالله ، ملك تونس ، أمر سيحرم اطار العلاقات العربية الفرنسية من خلفية هامة للصورة . وذلك لان نصوص هذه المعاهدة تلقي ضوءا ساطعا يبدد كثيرا من الاكاذيب والخرفات الشائعة بين الجماهير الاروبية عن تعصب المسلمين المزعوم .

الا تنص هذه المعاهدة التي عقدت في القرن الثالث عشر الميلادي ، على حرية غير مقيدة للمسيحيين بالاستقرار في تونس وبممارسة عقائدهم الدينية ؟ الا تسمح للكهنة ببناء الاديرة والكنائس وبتخطيط المقابر للمسيحيين في الاراضي التي تمنحها لهم الدولة التونسية ، وتحت حماية الامير ورعايته ؟

ومن جهة اخرى ، يمكننا نحن (أو على الاقل ، اولئك الذين حرموا من الاطلاع على هذه التطورات) أن نستخلص درسا وعبرة من الاشارة الى العلاقات التي قامت بين فرانسوا الاول ، وسليمان الثاني الذي يلقبه الاتراك القانوني ، ويسميه الاروبيون ، سليمان العظيم . وهذه العلاقات لم تكن علاقات مباشرة بين الفرنسيين والعرب ، ولكنه ، نظرا لان العرب كانوا (فيما عدا مناطق محدودة ، مثل المغرب الاقصى) تابعين للخلافه العثمانية ، فهم سيعانون من آثارها الوخيمة حتى بعد زوال الخلافة ، بل وحتى بعد زوال الاستعمار شكليا .

فان المعاهدة التي تبلورت اليها هذه العلاقات (١٥٣٥ م .) هي التي نصت لاول مرة على ما أصبح يعرف بالامتيازات الاجنبية ، تلك الاغلال التي ظلت كثير من البلدان العربية والبلدان الاسلامية ترزح تحتها قرابة اربعة قرون ، اذ لم تلغ احكام هذه المعاهدة الا بموجب نصوص معاهدة لوزان (١٩٢٣ م) .

وهذه المعاهدة التي عقدت (لمواجهة توسع شارل كينت) في عهد كانت الامبراطورية العثمانية

(1) P. Balta et C. Rulleau, la Politique Arabe de la France, de De Gaule à Pompidou, Ed. Sindbad, Paris, 1973 275 pages, avec annexes.

فيه فى أوج عظمتها ، تفرض قيودا خطيرة الشان على سيادة الدولة فى مختلف أطراف الامبراطورية ٠ انها بكل بساطة تجرد الدولة الاسلامية من كل سلطان على الاجانب (المسيحيين) الذين يعيشون فى ارضها ، وتجعل كل اجنبى خاضعا لقوانين بلاده وللسلطات الديبلوماسية والقنصلية التى تمثل بلده ٠

وبقبوله هذه النصوص ، تنازل هذا الخليفة العظيم ٠ (كما يسمى) على واحد من النظم الاساسية التى نص عليها القرءان ، ونعنى بذلك ، التزام الدولة الاسلامية بحماية أهل الذمة ، وتحريرهم من بعض الواجبات المفروضة على المواطن المسلم (مثل الخدمة العسكرية) ، فى مقابل دفع الجزية ٠

والامتيازات الاجنبية التى منحت لاول مرة لفرنسا ، ثم حصلت عليها بريطانيا وغيرها من الدول الاوروبية ، ستتبلور فيما بعد الى فرض حماية حقيقية على الاقليات المسيحية التى تعيش فى ارض الاسلام وتستظل بعلمه اسميا ٠ وبموجب نصوص هذه الامتيازات ، ستتدخل فرنسا (الموارنة فى لبنان) وغيرها من الدول الاوروبية مباشرة فى شؤون الدولة العثمانية الداخلية ٠

والذين يهتمون بدراسة تطور الاستعمار الغربى ، سيجدون ، بدون شك ، فى الامتيازات الاجنبية الصخرة التى قفزت منها الدول الاوروبية لتمزيق أوصال الدولة العثمانية (استقلال دول البلقان) فى المرحلة الاولى ، ثم فرض سلطانها المباشر على رقعة فسيحة من العالم الاسلامى ٠

ليس من مهمة المؤلف ، بطبيعة الحال ، ان يلفت انظارنا ، معشر المسلمين ، الى هذه التطورات ، ولكننا رأينا أن من واجبنا أن نقف لحظة عندها لتأملها ولاستخلاص العبرة منها ٠

وفى مرحلة تالية من هذا الفصل نفسه ، يستعرض المؤلف بايجاز ، تاريخ العلاقات الديبلوماسية والتجارية بين فرنسا ودول المغرب ، تلك العلاقات التى سمحت لفرنسا باقامة قاعدة للتجارة والاستخراج المرجان فى منطقة القل ، كانت لها فروع فى جيجل وبجاية ٠

وفى عهد لويس الرابع عشر ، عقدت فرنسا اول معاهدة صلح مع المغرب الاقصى ، تنص خصوصا على تبادل الاسرى والرهائن بين الطرفين ٠

وفى سنة ١٦٤٩ ، أعلن لويس الرابع عشر (أو بالاحرى والدته التى كانت وصية عليه حيث كانت سنه لا تتجاوز الحادية عشرة) حماية فرنسا للاقلية المسيحية المارونية فى لبنان ٠

وفى غضون القرن الثامن عشر ، وحده ، عقدت فرنسا ما لا يقل عن ١٧ معاهدة واتفاقية وبرتكولا مع دولة الجزائر ، و ١٦ اتفاقية مع تونس و ٥ اتفاقيات مع المغرب الاقصى ، و ٤ اتفاقيات مع طرابلس الغرب ٠

ولكن هذه الاتفاقيات والمعاهدات التى تنظم العلاقات (وخصوصا العلاقات التجارية) بين بلدان المغرب وفرنسا ، لم تمنع الاخيرة ، من محاصرة ميناء تونس عامين (١٦٧٠ ــ ١٦٧٦ م) ومن احراق اسطول طرابلس ، ومن ضرب مدينة الجزائر بالمدافع فى عدة مناسبات ، ولا سيما فى عهد لويس الرابع عشر ٠

وهذه الشبكة من الاتفاقيات والمعاهدات التى حصلت فرنسا بموجبها على عدد من

سنوات · واذا كان قد فشل فى هذه المهمة ، فان ذلك كان بدون شك نتيجة لتصميم الشعب الجزائرى ولقوة عزيمته ، وليس أثرا لوخز ضمير متاخر ، أو لتحول سياسى مفاجئ · ولقد كانت سياسة الجنرال دوجول استعمارية ، وكذلك افكاره ، ولا يمكن القول بانها تكتسى طابع الاستعمار الجديد الا على سبيل التجوز والمبالغة فى مدحه ·

وسياسة دوجول الجزائرية ، مرت بمراحل متميزة ، أو ضحها المؤلف باقتباسات من تصريحاته ـ وهى نفسها تثبت لنا أن دوجول ، انما يتقدم تحت ضغط الظروف الخارجية وبخطى وئيدة ··· ـ :

١٣ يوليو ١٩٥٨ :

« القضاء على العصيان فى الجزائر
Pacification

« حتى يظل هذا البلد جسما وروحا الى الابد مع فرنسا »

وفى سبتمبر من نفس السنة :

« ان الاستقلال مستحيل · وكذلك الاندماج بالشكل المقترح » ·

وفى ٢٩ أبريل ١٩٥٩ :

« سلام الشجعان ! »

وفى نفس السنة (مخاطبا المعمرين) :

« ان جزائر الاجداد قد ماتت » ·

وفى يوليو ١٩٦١ :

« نريد ان تكون سنة ١٩٦١ ، بالنسبة للجزائر سنة عودة السلام الى ربوع هذا البلد ، بحيث يقرر السكان مصيرهم بحرية وبحيث تولد « الجزائر الجزائرية »

وفى ابريل من نفس السنة :

« الواقع ان تحرير المستعمرات امر من مصلحتنا ، وبالتالى ، فهو سياستنا »

وفى ١٠ نوفمبر من نفس السنة :

« ان مصلحة بلدنا تقضى بان تتولى الجزائر امرها بنفسها ، لا ضدنا ، بل معنا » ·

··· فى مدحه ·

ونحن نذكر موقف الجنرال دوجول ، حينما سقطت فرنسا فى سنة ١٩٤٠ ووقعت تحت الاحتلال الالمانى · فقد صاح الجنرال فيجان فى فورة من اليأس فى احدى المناسبات قائلا : « لقد ضاع كل شيء » · ولكن الجنرال دوجول اجابه غير هازل قائلا : « والامبراطورية ؟ ! » ·

وقد كان أول ما فكر فيه دوجول بعد تحرير فرنسا ، فعلا هو المحافظة على الامبراطورية · ووعد الجنرال كاترو سورية ولبنان بالاستقلال فى سنة ١٩٤١ ، لم تكن له الا قيمة لفظية ، كما ستدل على ذلك احداث طرد البريطانيين للفرنسيين من لبنان فيما بعد · واما المغرب والهند الصينية فهى بلدان لم تكن تحتلها جيوش الحلفاء ، ومن ثم ، فقد كانت سياسة الجنرال دوجول نحوها اكثر تحفظا ···

وقبل ان نختتم هذا القوس ، نريد ان نستشهد باعتراف المؤلف نفسه ، بان دوجول قد « ضيع على نفسه الفرصة ليكون محرر المستعمرات » (ص ٤٤) ·

ويمضى المؤلف فى عرض سياسة دوجول بشان الجزائر ، فيقول ، استنادا على مذكرات دوجول ، ان الجنرال كان مقتنعا لدى عودته الى الحكم ، بان استقلال الجزائر ، امر محتم (ص ٤٨)

الاحتكارات والامتيازات ، بالدهاء والمكر حينا ، وبالتهديد ، أو باستعمال القوة حينا آخر ، سيكون من نتائجها (ولا سيما بعد حملة نابليون على مصر) ، تيقظ بريطانيا ومنافستها للتوسع الفرنسى ، بتثبيت اقدامها فى اماكن اخرى من العالم العربى . وقد كانت الخطوة الاولى فى هذا الاتجاه ، عقد شركة الهند الشرقية البريطانية اتفاقية مع امام مسقط (١٧٩٨ م) ، بوحي من حاكم الهند البريطانى .

وفى هذه الاثناء ، كانت الجزائر ، عقب الثورة الفرنسية وخلال الادارة الخماسية Directoire تمد فرنسا بالقمح ، بما فى ذلك القمح الذي سيمون به نابليون حملته على مصر . وكذلك قدمت الجزائر ما قيمته ٧٠٠٠٠ قرشا Piastres اي ما يساوى ٣٥٠٠٠ فرنك ذهبيا ، بواسطة اثنين من رجال الاعمال الذين يمثلون الداى ، بكرى وبوشناق . وهذا الدين الذى رفضت فرنسا تسديده ، هو الذى سيؤدى الى « ضربة المروحة » المشهورة والى اعلان فرنسا الحرب على الجزائر فى يوليو سنة ١٨٣٠ .

العناصر الاساسية فى سياسة دوجول :

يقول الكاتب « ان سياسة دوجول ، لا يمكن فهمها الا اذا وضعت داخل الاطار الشامل للدور الذى حدده دوجول لفرنسا فى العالم ، وللمصير الذى كان يتصوره لبلده ، ولتطور الحقائق القومية والدولية » (ص ٣٤) .

ليس من شك ، فى ان العمود الفقرى لسياسة دوجول الدولية ، هى رغبته فى تحقيق « استقلال » فرنسا وفى استرجاع عظمتها القديمة . وقد رأى ان هذه الغاية البعيدة المنال ، لا يمكن تحقيقها الا بتخطيط دقيق لعلاقات فرنسا الخارجية ذلك التخطيط الذى ينبغى أن يرتكز فى نظره على منطقة حساسة وغنية بالامكانيات المادية والادبية، مثل المنطقة العربية (التى تكملها افريقية السوداء) فهذه البلدان الغنية بموارد النفط والتى تمثل راس حربة فى العالم الثالث ، تصلح لان تكون بوتقة لتجربة سياسية واسعة النطاق .

الى اي حد تصدق تهمة خصوم الجنرال دوجول لهذه السياسة بانها تكتسى طابع الاستعمار الجديد ؟

فى رأى المؤلف أن هذا النقد ينطبق على تطبيق سياسة الجنرال دوجول للتعاون ، أكثر مما ينطبق على المبدا نفسه .

ولكننا عند هذه النقطة ، مضطرون لفتح قوس لتسجيل رأي مخالف لراي المؤلف ، ولنذكر بان سياسة « العظمة القومية » كانت ترتبط ارتباطا وثيقا باستراتجية دوجول السياسية ، وان دوجول كان من الزعماء الغربيين القليلين الذين لا نكاد نلحظ التطور الذى طرا على افكارهم ... والحق انه كان منذ أن كتب كتابه الاول ، « على حد السيف » فى سنة ١٩٣٢ — حينما كان ضابطا شابا — لم يتغير الا تحت وطاة الظروف ، ولم يكن يتنازل على آرائه الا شبرا شبرا . ونحن هنا لا نريد أن نذكر بحرب الفيتنام الاولى وبحوادث القمع الوحشى التى وقعت تحت حكمه فى مختلف المستعمرات (بما فى ذلك حوادث سطيف) ، ولكننا نكتفى بان نعيد الى الاذهان انه لم يكن من محض الصدف أن يعود دوجول الى الحكم على حراب الجنرالات المتمردين ، حيث كان أملهم الوحيد فى انقاذ « الجزائر الفرنسية » ، وأنه فعلا ، بذل كل ما فى وسعه لهذه الغاية خلال اربع

وهنا قد يتساءل القارئ معنا : وفي هذه الحالة ، ما هي الضرورة التى قضت باستمرار اراقة الدماء ونشر الخراب أربع سنوات كاملة ؟

يجيب الكاتب بما معناه ، ان دوجول ، لم يكن ليبقى فى الحكم لو أعلن هذا الاعتقاد ٠

وهذه النقطة دقيقة، وتحتاج الى استيضاح : الم يكن فى امكان الجنرال دوجول الذى يرى فيه الفرنسيون محرر بلدهم ، والذى يتمتع بنفوذ لا مثيل له على الجيش ، أن يعلن فى أمانة ونزاهة موعدا أو مهلة معينة لحل مشكلة الجزائر او يستقبل من الحكم ان عجز عن ذلك ، كما صنع منديس فرانس قبل ذلك باربع سنوات حين التزم بان ينهى الحرب فى الهند الصينية فى ظرف شهر واحد ، او يعتزل الحكم ؟

المسالة هى أن مشكلة الجزائر ، ومشكلة الاستعمار بصفة عامة ، كانت مشكلات ثانوية فى نظر دوجول ، بالقياس الى « رسالته الكبرى » فى اعادة عظمة فرنسا ومجدها ٠ ومن ثم ، فهو لم يكن ليترك الشجرة تحجب عنه الغابة (كما يقول المثل الفرنسى) ، فيعتزل الحكم من أجل الجزائر (فى حالة عجزه عن حل المشكلة فى الموعد المحدد) ، ويضيع بذلك فرصة مواتية لتحقيق اهداف سامية لسياسته ٠

تقوم سياسة دوجول العربية على ضرورات أهمها الستراتيجية ، والسياسة ، والاقتصاد ، والنفط ، والتكامل الثقافى ٠

فعلى الصعيد الستراتيجى ، يمثل العالم العربى الذى تبلغ مساحة اراضيه ١٣،٥ مليون كيلو متر مربع ، مدخلا الى افريقية السوداء ، ومعبرا الى الشرق الاقصى ، ومنفذا الى البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى والبحر الاحمر والخليج ٠

والعالم العربى يشكل وحدة تقوم على أسس اللغة والتراث المشترك ، وهى عناصر أقوى من الاسس التى تقوم عليها الوحدة الاروبية ٠ ومن هنا ، فان للعالم العربى ثقلا خاصا فى ميزان العلاقات الدولية وبالتالى ، فى سياسة الجنرال دوجول ٠

وفى مجال التجارة ، بلغت قيمة مشتريات البلدان العربية فى سنة ١٩٧٠ من فرنسا ، ما قيمته ٤٤٠ مليون دولار ، ومشتريات فرنسا من البلدان العربية ١٩٦ مليون دولار ٠ وبذلك يكون العالم العربى فى مجموعه اكبر عميل تجارى لفرنسا ، بعد المانيا الغربية ٠ ويلاحظ المؤلف ان العلاقات التجارية العربية الفرنسية قد شهدت نموا ، خصوصا ، نتيجة لموقف دوجول بعد العدوان الاسرائيلى فى سنة ١٩٦٧ ٠

والعامل الاقتصادى الآخر المهم فى سياسة فرنسا العربية ، هم **العمال العرب** الذين يقومون بدور حيوى فى الاقتصاد الفرنسى ٠ واذا استثنينا بعض العمال الاسبان والبرتغاليين ، نجد ان اليد العاملة الاجنبية فى فرنسا كلها تقريبا من العرب ٠ وقد قدمت اليد العاملة المغربية مساهمة حاسمة فى نهوض الاقتصاد الفرنسى خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ٠ والعمال المغاربة الذين يعملون فى فرنسا حاليا يبلغ عددهم اكثر من مليون عامل ، حوالى ثلاثة ارباعهم من الجزائريين ٠

والنفط يشكل اهم مادة تستوردها فرنسا من العالم العربى · والنفط ، مثل اليد العاملة ، يلعب دورا هاما فى الصناعة الفرنسية ، وذلك بوصفه مادة اولية للصناعات المتفرعة عن النفط وبوصفه مادة للوقود حلت تدريجيا محل الفحم · والميزة الاساسية للنفط العربى ، هى قرب موارده من الناحية الجغرافية من جهة ، وانخفاض تكاليف استخراجه والبحث عنه ، من جهة اخرى وفى هذا السياق يقول المؤلف ان الذين يرددون أن « النفط كريه الرائحة » انما هم أشخاص « عديمو الشعور ، ومن ذوى النيات السيئة، أوهم ممن ينادون بالانتحار الاقتصادى· السيئة ، أو هم ممن ينادون بالانتحار الاقتصادى » · وصدق هذه الملاحظة من الوضوح بحيث لا يحتاج الى اثبات حيث تكلفت الظروف بان تثبت ان النفط ، ليس موردا للثورة فحسب ، بل هو أيضا سلاح سياسى خطير عرف قيمته أولئك الذين يحتقرونه ، قبل غيرهم ·

وقد كانت سياسة دوجول تتلخص فى ضمان تمرين فرنسا ومحاولة رفعها الى مستوى كبريات الدول النفطية وتخليصها ممن قبضة الشركات الاحتكارية الامريكية · وفيما يتعلق بعلاقات فرنسا النفطية بالجزائر ، ندد المؤلف بالاغلاط التى ارتكبتها فرنسا ـ تلك الاغلاط التى كلفتها كثيرا والتى كان من المكن تجنبها ـ وأورد نصوصا طويلة للتصريحات التى تمثل وجهة نظر الفرنسيين وللتصريحات التى تمثل وجهة المسئولين الجزائريين ، وفى مقدمتهم الرئيس هوارى بومدين ·

العلاقات الثقافية :

شرع المؤلف فى عرض هذه العلاقات بان لاحظ أن التعليم فى فرنسا يقفز من العصور الهلينية الرومانية الى العصور الوسطى دون أن يعرج على العصور الذهبية للحضارة العربية تلك الحضارة التى انتقل عن طريقها التراث الحضارى القديم الى اوربا التى كانت شعوبها لا تزال فى دور الطفولة · وكذلك استعرض فى هذا السياق عددا من الاسماء اللامعة ، مثل ابى الريحان البيرونى والخازن وغيرهما من حملة علم الثقافة والعلم فى عصر الظلمات ، واشاد بدور دمشق وبغداد والقيروان بوصفها مراكز الحضارة البشرية فى تلك العصور ، وقال ان الحروب الصليبية لم تكن مجرد مواجهة بين ديانتين ، بل كانت أيضا سببا فى قيام نهضة ادبية علمية فى العالم اللاتينى ، ومن ثم ، فان تقديم أوربا المساعدة التقنية للعالم العربى انما هو بمثابة تسديد بعض الدين المستحق له ·

وقد كانت الخطوة الاولى فى طريق تقرب فرنسا من الثقافة العربية ، هى انشاء كرسى فى « البكوليج دو فرانس » للغة العربية فى سنة ١٥٨٧ ، تحت هنرى الثالث · وكذلك كان استجلاب لويس الثالث عشر مطبعة عربية الى فرنسا حدثا آخر مهما فى هذا السياق · وقد تلت هذه الخطوات خطوات اخرى ، من أهمها ارسال لويس الرابع عشر بعثات الى الشرق الاوسط لتعلم اللغة العربية · ثم جاءت حملة نابوليون على مصر · فقد حمل معه نابليون الى مصر مطابع عربية ، كما اصطحب معه عددا من المستعربين والخبراء فى مختلف الشؤون الشرقية ·

وفى غضون القرن التاسع عشر ، قام عدد من الكتاب والرسامين والعلماء والرحالين بزيارات لمختلف البلدان العربية وتصويرها والكتابة عنها · وقد كان فى مقدمة هؤلاء شاطوبريان ونرفال ولامارتين وفلوبير · وكذلك كانت فرنسا ، قبل أن تغرق وادى النيل بالراسماليين ورجال الاعمال ، والمغرب بالجيوش والمعمرين ، تصدر بضاعة اساسية ، هى الافكار التى حافظت على كثير من سمعتها عبر الاجيال·

وهذا الرصيد ، هو الذى حاول الجنرال دوجول أن يبنى عليه علاقات جديدة لفرنسا مع العالم العربى • ولكنه اذا كانت سياسة دوجول الثقافية نحو العالم العربى واضحة المعالم ، فان تطبيقها اليومى كان يجرى طبقا لمقتضيات الحوادث ولحاجات فرنسا وامكانيات البلدان العربية ، ولا سيما بلدان المغرب التى تحتل مكانا بارزا فى برنامج فرنسا للتعاون الثقافى والعلمى والتقنى •

ولكن برنامج التعاون الثقافى مع بلدان المشرق كانت تعترضه عقبة مهمة ، وهى أن هذه البلدان باستثناء لبنان (١) ، كلها ، بحكم العوامل التاريخية تقع فى نطاق النفوذ الثقافى الانجليزى، وذلك على الرغم من ان مصر كانت تملك عددا من المؤسسات والمدارس الفرنسية ، قبل الخمسينات وقد تجمدت العلاقات الثقافية المصرية نتيجة لحوادث قناة السويس •

وفى المغرب ، نجد أن تونس تعتمد نظام الازدواجية (العربية والفرنسية) فى اللغة ، بينما لا تزال الجزائر ، على الرغم من سياسة التعريب التى تنهجها ، تعتمد الى حد بعيد على اللغة الفرنسية •

فان اكثر من نصف تلامذة المدارس الذين يبلغ عددهم ٢،٠٦٠٠٠٠ طالبا فى الجزائر يتعلمون اللغة الفرنسية ابتداء من السنة الثالثة• وكذلك **نجد ان عدد الجزائريين الذين يتعلمون لغتنا خمسة اضعاف العدد الذى كان يتعلمها قبل الاستقلال (٢) •**

وكذلك تعددت المراكز الثقافية الفرنسية والمؤسسات المشتركة بين فرنسا وبعض الدول العربية فى المشرق والدول العربية فى المغرب • وقد بلغ عدد هذه المراكز الثقافية فى سنة ١٩٧٠ ، ثلاثين مركزا ، وذلك بالاضافة الى عدد كبير من المدارس الثانوية والمدارس المتخصصة والكليات•

وفى نفس الوقت تقدم فرنسا دورات تدريبية وتستقبل بعثات دراسية فى مختلف المجالات ، بقصد توسيع نطاق عملها الثقافى وتحسين نوع تعليم اللغة الفرنسية •

ولكن المؤلف يعترف بوجود نواحى النقص فى برنامج التعاون الثقافى العربى الفرنسى • وذلك لان الثقافة ، فيما يقول ، تتطلب تبادلا بين الجانبين • وفرنسا لم تبذل سوى مجهودا ضئيلا لتشجيع تدريس اللغة العربية ولمعرفة العالم العربى الاسلامى • فان عدد الطلبة الذين يختارون اللغة العربية لغة ثانية فى المدارس الثانوية الفرنسية لا يتجاوز ٥٠٠ طالبا ، بينما تبلغ نسبة الذين يختارون اللغة الانجليزية ثلث مجموع الطلبة • وهذه الحالة غير مفهومة اذا نظرنا اليها على ضوء سياسة الجنرال دوجول العربية ، وعلى ضوء التطور التاريخى ، حيث كونت فرنسا مدرسة عظيمة من المستعربين • والاسوء من ذلك ، أن نرى انه فى الوقت الذى اعتمدت فيه اليونسكو اللغة العربية لغة للعمل زحزحت هذه اللغة من المكانة التى كانت تحتلها فى المدارس الثانوية الفرنسية بين اللغات الاجنبية المهمة •

واما معهد اللغات الشرقية الذى يستقبل فى السنة الاولى نحو ٢٠٠ طالبا وكثير منهم من الاجانب ، فانه لا يتابع الدروس فيه سوى ٢٥ طالبا فى السنة النهائية •

(١) نسي المؤلف ذكر سورية

(٢) علامة الاهمية من الناقد •

والكتب العربية المترجمة الى اللغة الفرنسية فى التاريخ والجغرافيا والادب ، لا تزال مجهولة لدى الجمهور ، وذلك مع العلم بان عددا كبيرا من الكتب العربية فى حاجة الى الترجمة · والناشرون باستثناء اثنين او ثلاثة ، لا يهتمون بنشر الآثار الادبية العربية · والمجلات القليلة التى تتناول الشئون العربية فى فرنسا ، **ليست فى مستوى** مثيلاتها من المجلات التى تعالج شئون الثقافة العربية فى البلدان الكبيرة الاخرى ، مثل بريطانيا والولايات المتحدة ·

والمستشرقون مجمعون على أن من الضرورى تدارك هذا النقص فى تعليم اللغة العربيةونشر الثقافة الاسلامية ، وعلى أنه ينبغى بذل مجهود على مستوى الدولة لتحسين الاتصالات بالعالم العربى · والامل معقود على أن قرار السيد بومبيدو الذى يقضى بانشاء جائزة خاصة فى سنة ١٩٧٢ لتتوج الناجح فى مسابقة عامة فى اللغة العربية ، ستكون الخطوة الاولى فى هذا الاتجاه ·

وقد خصص المؤلف فصلا خاصا للعلاقات الفرنسية الجزائرية تحت عنوان « محور الجزائر باريس » ، استعرض فيه تطور هذه العلاقات منذ استقلال الجزائر ، وهى حوادث معروفة ، كما خصص فصلا آخر بعنوان « القاهرة ، محور الشرق الاوسط » ، عالج فيه الحوادث التى تلت العدوان الاسرائيلى فى سنة ١٩٦٦ ، وصلتها باحداث اخرى وقعت بعد ذلك فى المنطقة ، وقال ان سياسة الجنرال دوجول تجاه هذه المنطقة ، سياسة طويلة الامد وتتسم ببعد النظر ·

والفصل الآخر المهم فى الكتاب ، هو الذى خصصه الكاتب لاستراتيجية الدول فى البحر الابيض المتوسط ، وهو موضوع كان الجنرال دوجول يوليه اهمية قصوى منذ اوائل العقد السادس ، حيث انه يتصل اتصالا وثيقا بسياسة « الاستقلال » التى كان ينتهجها بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى · ولكن محاولات الرئيس الفرنسى لحمل دول المنطقة على تنسيق جهودها من اجل اقرار السلام ، وبالتالى تضييق مجال تدخل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ستنهار ، نتيجة للعدوان الاسرائيلى الذى كانت له تلك النتائج الدولية المعروفة ·

وتحليل الكاتب لدوافع سياسة دوجول فى البحر الابيض فى الفترة التالية ، وربطه لهذه السياسة بمختلف المصالح والتيارات الدولية ، تحليل موضوعى بارع ويتسم بكل ما نبحث عنه عادة ، لدى الكتاب الاوروبيين من الدقة والنزاهة· والجداول التى يوردها المؤلف والتى تشتمل على عدد ما تملكه كل واحدة من دول المنطقة من الطائرات والسفن الحربية ، ذات قيمة خاصة ، بالنظر الى ما تحيط به جميع الدول ما تملكه من الاسلحة من السرية التامة ·

وقد قارن المؤلف بين الحالة فى الهند الصينية وفى البحر الابيض المتوسط من الناحية الستراتجية ، فخلص الى نتيجة مؤداها أن أسباب المنافسة بين العملاقين الروسى والامريكى لا ترجع الى اعتبارات اقتصادية فقط ، وانما يعمل الطرفان خصوصا لزحزحة الدول الاروبية التى ظلت تمارس سيطرتها على هذه المنطقة منذ نهاية القرن الخامس عشر ، اثر تقلص النفوذ العربى فى الشرق الاقصى ·

ولما تعرض لسياسة الاتحاد السوفيتى التى تقوم على ما يسمى بمبدا « لا حرب ولا سلام ،

فى الشـرق الاوسـط » لاحـظ المـؤلف أن هـذه السياسة التى تخدم مصالح روسيا ، قد استفادت منها الولايات المتحدة أيضـا ··· وهى حقيقـة من الوضوح بحيث يندهش الانسان كيف تفوت سياسيا عربيا مهما كان أفقه الفكرى ضيقا ·

وفى نفس السياق ، سجل المؤلف ملاحظة لا تقل عمقا ووضوحا عن الملاحظة السابقة ، وهى أن الولايات المتحدة التى تعمل لتضييق «الخناق» على الدول العربية التقدمية التى قد يخطـر لها ان تعمل لاحداث انقلابات سياسية ، مثل سورية والعراق وجنوب اليمن ، فاحاطتها بحجر صحى ، تعتمد خصوصا على المملكة العـربية السعودية وايـــران ·

وكـذلك تحدث المـؤلف عـن الستراتيجية الامريكية فى الخليج العربى وفى البحر الاحمر ، وذكـر بان الولايـات المتحدة سـجلت فى هـذه المنطقة « اهدافا » مهمة خصوصا بالفشل الذى مني به الانقلاب فى السـودان فى سنة ١٩٧١ ، والذى حرم الكرملين من نافذة على البحر الاحمر وبتقلص النفوذ المصرى ، بعد وفاة عبد الناصر ، فى البلدان الواقعة على الخليج ·

وفى الفصل الاخير ، استعرض المـؤلف حالة العمال الجزائريين ولفت الانظار الى مـا يعانونــه مــن الصعوبات ، ولا سيما فيما يتعلق بتوفير السكن الملائم ، كما نـوه بتقصير ارباب الصناعة والسلطات العمومية فى العمل لتذليـل هذه الصعوبات ·

ولما تعرض لموضوع التعاون ، اشار الـى التقرير الذى قدمته لجنة جورج جورس Gorse فى سنة ١٩٧١ ، والذى لم تنشر محتوياته حتى الآن ، فلاحظ ان نسبة ما تخصصه فرنسا مـن الدخل القومى الاجمالى لمساعدة الدول المتطورة ، قد نقص من ٣٥و١٪ فى سنة ١٩٦١ الى مجـرد ٦٧و٠٪ فى سنة ١٩٧١ ، (ولو أن مساعدة القطاع العام ارتفعت نسبتها قليلا) ·

وفيما يتعلق بالتعاون الثقافى مع البلدان العربية ، ركز المؤلف على تبيين ما يشوبه مـن النقص ، وضرب لذلك مثلا ، تطبيق الاتفاق الذى عقد بين العراق وفرنسا فى سنة ١٩٦٩ ، والذى كان مخيبا للامال · ويلح المؤلف بصفة خاصـة على عدم اعداد « المتعاونين » اعدادا كافيا بحيث يصلون الى البلدان التى ارسلوا للعمل فيها وهم يجهلون كـل شىء تقريبا عـن حاجات المجتمـع ونفسية الشعب الذى سيعيشون بـين ظهرانية ·

تلـك هى المـلامـح البـارزة للكتـــاب ، استعرضاها بما ينبغى من الامانـة ، راجين ان يجد القـارئى العـربى فى ذلك مـا يساعده على تكويـن فكـرة واضحـة عـن العلاقات العـربية الفرنسية· والملاحظات التى ادرجناها ضمن هذا العرض، هى كل ما يتطلبه المقام للتعليق على آراء المؤلف ، أو لتوضيحها · ولكنه مع ذلك ، يجب الايفوتنا ان نشيد بالروح المتحررة التى تسـود الكتاب فى مجموعة · فان القارئى العربى لمـا يكتبـه الاروبيون عن العـرب ، تعـود ـ بحكم التجربة ـ ان يتدرع بروح النقد ، بـل والتشكك احيانا · فان الطعن والغمز واللمز ، لدى الحديث عن تـراث العرب وقضاياهم المقدسة ، هـو دأب الاغلبية الساحقة من الكتاب الاروبيين والامريكيين ولذلك ، فان مما يثلج صدر الناقد أن يقع عـلى كتاب يعرض حقائق للاروبيين عن العرب بطريقة موضوعية وباسلوب رزيـن دقيق ، بعيدا عـن الرغبة فى الاثاره والاستفزاز ·

وكتـاب بول بالطاوكلودين رولـو ، هـو بدون شك من هذا النـوع ٠

وهو كتاب بناء من عدة اوجه ، اولا مـن حيث رصيد المعلومات التى تشتمل عليها والتى لا يتـاح جمعهـا وتصنيفها تصينفـا علميـا الا للتمرسين فى مهنة الاعلام مثل المؤلفين ٠ فهـذه المعلومات ، ستساعد الساسة والمفكرين العـرب على تحديد مواقفهم فى عدد من القضايا الهامة فى العلاقات العربية الفرنسية ٠

وهو بناء ، لانه يضع رجال الدولة والراى العام الفرنسى امـام مسئولياتهم ، فيما يتعلـق بالنقص الذى يشوب سياسات التعاون وبرامج المساعدة الثقافية والتقنية ٠

والكتاب ، اخيرا ، بناء ، لانه يفتح حوارا جديا بين العالم العربى وبلد مستعمر سابقـا ٠٠ وكم يستفيد ملف القضايا العربية لو تظهر كتب اخرى من نفس النوع تحت عناوين ، مثلّ «سياسة بريطانيا تجاه العرب من ايدن الى ماكميلان » ٠

واخيرا ، فهذا الكتاب يعالج قضايا خطيرة الشان بروح من الجد والنزاهة ٠ واقل ما يمكن ان يقال فيه انه لا يستغنى عنه القارئى العـربى الذى يـريد فهم العلاقات العربية الفرنسية فـى اواخر العقد الخامس وفى غضون العقد السادس٠

معركـــة البتـــرول أيقظـــت أوربـــا

وفي اطار ايجابيات مؤتمر القمة دائما هناك موضوع الطاقة ·

لقد اتخذ وزراء البترول العرب في الكويت قرارات استعجالية طارئة فرضتهـا المعركة وكان لا بد ان نلتقي لمناقشة هذا الموضوع لنخرج بتصور على ضوء مؤتم قرارات الكويت لنحدد معالم سياستنا في المستقبل وفي هذا الميدان كان الاتفاق كاملا ·

وهنا يجب ان ندرك بأن التحرك الفردى سواء في المجال الديبلوماسي أو المجال الاقتصادى ليست له سوى أثار هزيلة خاصة في هذا الظرف الخطير ·

ذلك اننا لن نستطيع التأثير على المجموعات الدولية الكبرى الا اذا تحركنا في كل الميادين كمجموعة عربية ·

وهكذا بالنسبة لاوروبا تم تحديد موقف أساسه المستقبل وليس مجرد موضوع الطاقة . ولقد مددنا يدنا لاوروبا وعليها ان تتعامل مع العـــرب كمجموعـــة بشرية لها دورها في الحضارة الانسانية ولها مصالحها المرتبطة بمصالح أوروبا التي يجب الا تحصر كل اهتماماتها في قضية البترول وارتباطه بالتدفئة وعطلات الاحد ·

لانه ثبت اليوم بانه لا يمكن ان يكون هناك استقرار حقيقي في أوروبا ما لـم تؤخذ مشاكلنا بعين الاعتبار ·

ويبدو ان معركة البترول قد أيقظت أوروبا مـــن سباتهـــا العميق والطويـل وأصبحت تشعر اليوم بوجود العرب كقوة مؤثرة على الاحداث ·

هذه باختصار صورة عن ظروف عقد المؤتمـــر ·

وحول قضية فلسطـين قال الرئيس :

لم يبق مجال للســؤال عن ممثل الشعب الفلسطيني ، فقد اجبنا عـــلى ذلـك واصبحت منظمة التحرير هي الطرف الشرعي الفلسطيني المعترف به عربيا ليكـــون هذا بداية الاعتراف الدولي به ، ولهذا انعكاساته في المستقبـل ·

وعن القضية نفسها قلنا بان قضية فلسطـين هي القضية الام واحتلال سينـــاء والجولان هي فـــروع عن الاصل ·

الرئيس بومدين في ندوة مع ممثلي الصحف العربية



من وراء البحار
أفكار ومذاهب

إعداد :

إسماعيل العربي

الديمقراطية والتضخم النقدى ــ فى طريق اصلاح نظام النقد الدولى ــ اروبا الغربية والعالم الثالث ــ تلوث المحيط الطبيعى والبيئة الاخلاقية ــ الرياضة قبل السياسة ام العكس ؟ هذا الكتاب عن افريقية السوداء ٠

الديمقراطية والتضخم النقدى :

تعانى الدول الصناعية المتقدمة فى الاعوام الاخيرة من داء عضال ، وهو التضخم النقدى وارتفاع الاسعار • وهذه ظاهرة عامة فى جميع الدول الصناعية ، وهى تزداد تفاقما مع مرور الزمن ، متحدية جميع الاجراءات النقدية والاقتصادية والضريبية التى لا تفتأ الحكومات تتخذها •

وهذا الموضوع ، هو الذى سلطت عليه الاضواء فى التقرير النصف السنوى الذى أصدرته فى أواخر شهر يوليو الماضى ، منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية (O.C.D.E.) التىتضم الدول الصناعية الراسمالية (١)•واهمية بعض الفقرات التى وردت فى هذا التقرير ، هى فى انها تربط ، لاول مرة منذ نهاية الحرب ، بين ظاهرة التضخم النقدى وانهيار الديمقراطية وقيام الفاشية والنازية • جاء فى التقرير :

« ان أخطر مشكلات الساعة وأعوصها ، هى بدون شك ، مشكلة التضخم النقدى الذى تضاعفت نسبته فى جميع الدول الاعضاء ، تقريبا » •

صحيح انه توجد علاقة واضحة بين التضخم النقدى والتشغيل الكامل ، والنمو الاقتصادى (ولكن اى نوع من النمو ؟) ، والتوسع فى تداول النقد الذى يغذى شرايين الحياة الاقتصادية • ولكن المسالة التى تستعصى الاجابة عنها • هى : ما هى درجة التضخم التى يمكن اعتبارها « مقبولة » ؟ • فا نالتضخم المالى فى نهاية التحليل لا تستفيد منه الا الطبقات المستغلة والتى تبنىثروات غير شرعية علىحساب الطبقات الكادحة والفئات الاجتماعية ذات الدخل المحدود• لان هذه الفئات لا تكاد تعرف زيادة فى دخلها • وبينما ترتفع الاجور والمرتبات بمعدل يتراوح بين ٤ و ٦٪ سنويا ، تسجل تكاليف المعيشة ارتفاعا بنسبة تتراوح بين ٧ و ١٠ ٪ سنويا • وبعبارة أخرى ، فان مستوى معيشة الجماهير الذى يفترض فيه ان يرتفع مع التوسع الاقتصادى وسرعة النمو ، يتجه على العكس الى الانخفاض ، سنة بعد سنة • فهل ترضى الجماهير بهذا الوضع الى الابد ؟

العلاج الذى يقترحه تقرير منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية هو : « العمل لتحقيق نتيجة معتدلة فى نمو الطلب » بحيث ينجم عن ذلك انخفاض فى الطاقة الانتاجية •

ولكن الخطر ليس هو من النوع الاقتصادى فقط • لان النظم السياسية الديمقراطية نفسها ، هى التى تواجه التهديد • « فان المخاوف قائمة فى ان تواجه الحكومات صعوبات متزايدة لاتخاذ اجراءات فعالة للتثبيت (النقدى) ، مما سيؤدى فى نهاية الامر الى ظهور حالة عدم اكتراث وتضعضع الثقة فى الاوساط الشعبية التى ترى كل محاولة لمعالجة الموقف وهما وعبثا » •

« وهذا الموقف ، قد تكون له عواقب مؤسفة ••• للمجتمعات الديمقراطية • فان ارتفاع نسبة التضخم ، أمر سيؤدى الى خلل واضطراب كبير فى هياكل الدخل والثروة • وهذه الحالة لا تتسم بالظلم والاجحاف فحسب ، بل هى تتولد عنها أيضا توترات اجتماعية دائمة ••• من النوع الذى لم تتسلح المجتمعات الديمقراطية لمقاومته »•

---

١) يمكن للقارىء الذى يهمه معرفة اهداف هذه المنظمة ووظيفتها ومختلف الاجهزة المتفرعة عنها ، مراجعة : اسماعيل العربى ، التعاون الاقتصادى للتنمية ، فى نطاق المنظمات الدولية ، نشر وزارة الثقافة السورية ، دمشق ، 1972 ، توزيع الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع ، ص 367 – 392

تطور الانتاج والاسعار فى الدول الصناعية الكبيرة

	نسبة نمـو الناتج المحلى الاجمالى سنويا بالحجم (٪)		نسبة النمو السنوى فى اسعار الناتج المحلى الاجمالى (٪)	
	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٢	١٩٧٣
كنــــدا	٥،٨٠	٧،٢٥	٤،٦٠	٥،٥٠
الولايات المتحدة	٦،٤٠	٧،٢٥	٣،٠٠	—
اليــابــان	٩،٢٠	١٣،٥٠	٤،٩٠	٧،٥٠
فرنســـا	٥،٥٠	٦،٠٠	٥،٧٠	٦،٧٥
المانيا الاتحادية	٢،٩٠	٦،٢٥	٦،١٠	٦،٢٥
ايطـاليـا	٣،٤٠	٤،٥٠	٦،٠٠	١١
المملكـة المتحـدة	٣،٤٠	٦،٢٥	٦،٧٠	٦،٥٠

والذين كانوا يتتبعون التطورات الدوليـة خــلال الفترة بـين الحربين العالميتين ، يذكرون بدون شك ، أن من الاسباب الاساسية التى أدت الى قيـام ، الفـاشية فى ايطاليا ، والنازيـة فى المانيـا ، التضخـم النقدى وفقد العملة قيمتهـا الشرائية · فان فنجان القهوة ، مثلا ، كان يكلف فى المـانيا فى منتصف العشرينيات ، عـدة آلاف من الماركات ·

ونحن نعرف أن الراسمالية تعيش خصوصا على اساس نوع من التوازن ··· بين متناقضاتها ولكن التضخم النقدى وما ينجم عنه من اتسـاع الفجوة بين الطبقات بحيث يزداد الفقراء فقـرا ، والاغنياء ثراء ، قد احدث اضطرابا خطيرا فى صفوف الرفقاء الاقتصاديين : ارباب الصناعـة والحكومات ، من جهة ، ونقابات العمال من جهة اخرى · وهذه الحالة قد تستمر حتى يعم السخط بين الطبقات الكادحة·وحينئذ ستضطر الحكومات الى فرض نظام جبرى للاسعار ، وبذلك يتحـول الاقتصاد الذى يســمى « ليبراليا » مـن احتكار الشركات الى احتكار الدولة · وان لم تفعـل ، فسيفلت زمام الموقف من يدها كلية ·

فى طريق اصلاح نظام النقد الدولى :

اصيب نظـام النقد الدولى الـذى اقامتـه اتفاقيـة برتـن وودز (١) على معيارى الـذهب والدولار بانهيار مفاجئى فى سنة ١٩٧١ ، حينما

(1) عقد مؤتمر برتن وودز (Bretton Woods) الذى اسفر على هذه الاتفاقية والذى اشتركت فيه 45 دولة ، خلال الفترة بين 1 ـ 22 يوليو ، 1944 ، للقارىء الذى يهمه الموضوع ، الفصل الذى قصصته فى المصدر المذكور لصندوق النقد الدولى ، ص 223 ـ 258

ظهرت الفجوة الساحقة التى تفصل بين قيمة الذهب وقيمة الدولار الحقيقية · وبعد عدة محاولات بذلت على صعيد وزارى ، أو على مستوى البنوك المركزية ، لترقيع هذا النظام ، توصلت الجماعة الدولية (أو بالاحرى ، جماعة الدول الثرية) الى ادخال اول تعديل جذرى على نظام النقد الدولى فى شهر ديسمبر ١٩٧١ · وبموجب هذا الاتفاق ، اعيد النظر فى علاقات تبادل النقد بين الدول الصناعية ، فخفضت قيمة الدولار ، بينما رفعت قيمة عملات معظم الدول الغربية واليابان ·

ولكنه ، بدلا من أن يؤدى هذا الاصلاح الى الاستقرار المنشود ، ظلت الحالة دقيقة ، تهدأ حينا وتضطرب أحيانا اخرى ، خصوصا تحت هجمات المضاربين فى اسواق العملة الراسمالية· وفى اوائل هذه السنة ، انفجر الموقف واقتضى الامر اجراء تخفيض جديد من قيمة الادولار الامريكى ·

وفى مايو ويونيو الماضى ، افلت زمام الامر من يد الحكومات والمنظمات الدولية المتخصصة تماما ، وعمت الفوضى اسواق تبادل النقد التى اصبحت لا تخضع الا لاوامر كبار المضاربين العالميين · وكذلك أصبح هؤلاء يتحكمون الآن ، بعد تعويم العملات الرئيسية ، لا فى أسواق الدول الصناعية الراسمالية فحسب بل وخصوصا فى مصير مئات الملايين من ابناء الدول المتطورة التى تعمل جاهدة لتنمية اقتصادها ولرفع مستوى معيشة سكانها · فان تخفيض قيمة الدولار ، معناه ، بالنسبة الى هذه الدول ، تناقص قيمة احتياطيها من الدولار (ذلك الاحتياطى الذى جمعته لا بالقمار والمضاربة ، بل بالعمل والتقشف والادخار) ، بنسبة تساوى اكثر من عشرين بالمائة · واذا اضفنا الى ذلك ، اثر اضطراب قيمة النقد فى حركة التضخم وارتفاع اسعار الآلات والخدمات التى تستوردها الدول المتطورة من الدول الصناعية ، ادركنا مدى خطورة الخسائر التى تتكبدها الدول المتخلفة اقتصاديا ·

على أن بارقة من الامل اخذت تساور الناس فى الايام الاخيرة اثر الاجتماع الذى عقدته لجنة الدول العشرين فى نهاية شهر يوليو الماضى فى واشنطون · وقد ظهرت البوادر الاولى التى تشير الى امكان وجود مخرج من الازمة ، بعد التصريح الضافى الذى ادلى به السيد جيسكار ديستنج وزير المالية الفرنسى لصحيفة التايمز اللندنية (٧٣/٧/٢٧) ، قبل سفره للاشتراك فى اعمال اللجنة على رأس الوفد الفرنسى · فان هذا التصريح الذى اتسم باعتدال فى اللهجة وانطوى على تنقيح لبعض المواقف الفرنسية المتشددة ، اثار اهتمام المعقبين والاوساط الديبلوماسية العالمية بصفة خاصة ·

وفى واشنطون ، احدث وزير مالية فرنسا اول ثغرة فى الازمة التى كانت تسود اجتماعات الدول العشرين حينما اقترح فرض عقوبات صارمة على الدول التى يتجاوز الاحتياطى الذى تملكه مستوى معينا (وكان هذا موقف الولايات المتحدة الذى تعارضه فرنسا) · ويقضى الاقتراح الفرنسى بأن تقوم الدول التى تسجل فائضا (فى نظام النقد الجديد) بايداع هذا الفائض فى صندوق النقد الدولى (F.M.I.) وتتلقى فى مقابله حقوق السحب الخاصة (D.T.S.) ثم تتخذ الاجراءات الضرورية لتخفيض فائضها ·

وفى مقابل هذه الترضية ، قدم وزير الخزانة الامريكى ومندوب الولايات المتحدة فى اللجنة ، ترضية اخرى ، حين اعلن ان بلده لا يصر على المطالبة بادخال تعديل على قيمة العملة ، هبوطا وارتفاعا ، بطريقة آلية ، كلما اقتضى الامر ذلك (وهو موقف كانت تعارضه جميع الدول الاعضاء فى لجنة العشرين التابعة للامم المتحدة) ٠

والتعديل الآخر الذى وقع فى موقف فرنسا فى ازمة النقد الدولى ، يتصل بالمكانة التى تشغلها الدول الاشتراكية فى اوربا الوسطى فى نظام النقد الجديد (وهذه الدول لا تتمتع بالعضوية فى الوقت الحاضر فى صندوق النقد الدولى) ٠ فقد صرح السيد جيسكار ديستانج (صحيفة لوموند ١٩٧٣/٨/١) فى جلسة مضيقة عقدتها اللجنة بانه « يجب ان يسمح نظام النقد الجديد بتسوية المعاملات مع هذه الدول وان يترك الباب مفتوحا على مصراعيه أمامها للدخول فيه » ٠

انه لما لا يخلو من مغزى عميق ان نرى فرنسا تتخذ هذه الخطوة فى نفس الوقت الذى يقوم فيه مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة Comecon الذى يضم الدول الاشتراكية فى اوربا الشرقية وآسيا ، بخطوات للتقرب من السوق الاوربية المشتركة ٠

وعلى الصعيد الاكاديمى ، ينبغى الا نختتم هذه الفقرة دون أن نشير الى مقال قيم نشره العلامة الفريد سوفى A. Sauvy فى صحيفة « الجرنال دوجنيف (١٤ ــ ٧٣/٧/١٥) وعالج فيه نظام النقد الدولى ، تحت عنوان : « مات السيد ، فمن سيخلفه فى تركته ؟ » ٠ ومما يزيد من قيمة آراء هذا العالم فى شئون النقد انه لم تعرف عنه آراء متحجرة فى الموضوع ، كما هى الحالة بالنسبة الى بعض الاختصاصيين الفرنسيين ، مثل جاك رويف J. Rueff مستشار دوجول سابقا فى شئون النقد الدولى ، وصاحب النظريات المشهورة فى معيار الذهب ٠

قال الفريد سوفى ، ان تخفيض قيمة الجنيه الاسترلينى ، كانت هى الخطوة الاولى فى طريق انحدار العالم الى الازمة ٠ ونظرا لان لندن ، هى المتحكمة فى اسواق المواد الاولية (التى تعتمد عليها الدول المتطورة اساسيا فى الحصول على دخلها) ، فقد ظلت اسعار هذه المواد بالجنيه بدون تغيير ، مما نجم عنه هبوط كبير فى تلك الاسعار بالدولار والفرنك الخ ٠

« وبعد الحرب العالمية الثانية ، جرت محاولة فى برتن وودز لبناء منزل جديد على انقاض المنزل القديم ٠ وقد اعتقد الذين قاموا بهذه العملية ، انهم احسنوا صنعا ، اذ رفضوا رفع قيمة الذهب ، وأحلوا اوراق خضراء (الدولار) محله ٠ وهذه التجربة نجحت بعض الوقت ٠ ولكن الولايات المتحدة استغلت هذا الوضع واغرقت العالم باوراقها الخضراء ٠ وهذا العامل هو الذى أدى الى انهيار نظام النقد الدولى » ٠

وبعد ما وجه الفريد سوفى سهما الى الخبراء الاقتصاديين الذين يتحملون على عاتقهم مسئوليات ثقيلة ، أضاف قائلا :

« ان الاغلبيه الساحقة من رجال النقد ، ترفض الآن نير الذهب لان نظام معيار الذهب من مخلفات العصور القديمة ، ولان الشعوب لم تعد تستطيع مواجهة تهديد مستمر بازمات مفاجئة بالبطالة وانهيار الاسعار » ٠

« وقد ذكر السيد روبرت موصى فى كتابه الاخير ان ازمة النقد لن يحلها حيوان بدائى منقرض (الذهب) ، وانما يحلها الانسان بما أوتى من الذكاء والحكمة وحسن النية » .

واختتم البحاثة مقاله ، فقال : «ان الغرب لم يعثر على سيد يخلف الراحل . وهذا السيد لن يولد الا بعد مخاض مصحوب بآلام كبيرة » .

* * *

اروبا الغربية والعالم الثالث :

يواجه العالم الثالث (تلك التسمية التى ليس لها مدلول سياسى أو اقتصادى أو ثقافى والتى ندين بها للعلامة الفريد سوفى (١)) وضعا ينطوى على اخطار لا يستهان بها لتجارة هذه البلدان واقتصادياتها ، نتيجة لقيام تكتل اقتصادى هائل فى اروبا الغربية . فان العراقيل والحواجز المرتفعة التى تقف فى طريق منتجاتها فى الاسواق الامريكية وفى اروبا الشرقية قد تضاعفت الآن بقيام هذا التكتل . وهذه الحالة تثير قلقا متزايدا فى الدول المتطورة التى تعتمد فى دخلها خصوصا على المواد الاولية غير المصنعة او التى لم تحول الا تحويلا طفيفا .

ومما يزيد من دقة هذه الحالة ، ان اسعار المواد الاولية ، لم تزل ، كما كانت منذ أن كان الاستعمار يبسط سلطانه على آسيا وافريقية ، تتحكم فيها أسواق المراكز الصناعية (٢) فنحن ، على سبيل المثال ، نشترى سيارة فى العالم الثالث وندفع ثمنها على اساس السعر الذى يحدده المنتج . ولكن سعر الحديد (الخام) والمطاط الذى صنعت منه تلك السيارة والذى تنتجه بعض البلدان المتطورة ، وانما يحدد فى بورصه المواد الاولية فى لندن أو فى نيويورك . وهذا ظلم واجحاف ، لا بالقياس الى توزيع العمل والتخصص الدولى فحسب ، بل وأيضا ، فى تقييم ثمرة العمل والالم البشرى .

وهذا الوضع وما ينطوى عليه من المخاوف بالنسبة الى اقتصاد الاغلبية الساحقة من الدول المتطورة ، كان ، بدون شك ، يشكل الصورة الخلفية للمؤتمر الوزارى الذى عقدته ثلاثون من الدول الافريقية فى لا جوس فى منتصف يوليو الماضى والذى كانت مهمته الاساسية ، تحديد موقف افريقى مشترك فى المفاوضات الواسعة النطاق التى ستجرى فى بروكسال بين هذه الدول والسوق الاروبية المشتركة . ونتيجة هذه المفاوضات ، هى التى ستضبط ، بدون شك ، العلاقات بين اروبا الغربية والعالم الثالث ، على الاقل ، خلال العقد السابع الجارى .

وغاية هذه المفاوضات غاية بعيدة ، ولكنها تستهدف فى المرحلة الاولى تجديد اتفاقية ياوندى الثانية التى ينتهى أجلها فى ٣١ ديسمبر ١٩٧٣ . ومن المعلوم أن هذه الاتفاقية تربط ١٩ دولة افريقية ومدغشقر وموريشيوس بالجماعة الاقتصادية الاروبية .

1) استعمل ألفريد سوفى تعبير « العالم الثالث » لاول مرة حينما اتخذه عنوانا لكتاب نشره فى سنة 1956 (A. Sauny. Tiers Monde, Paris 1956) وهذه التسمية ، على الرغم من شيوعها ، لا تعجبنى كثيرا لعدة اعتبارات شرحتها بالتفصيل فى مكان آخر (راجع اسماعيل العربى ، هيئة الامم المتحدة والتنمية الاقتصادية فى البلدان المتطورة ، نشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1972 ، ص 243 — 246 ، توزيع الشركة الوطنية الجزائرية للنشر والتوزيع

2) راجع John Picus, The Rich and The Poor Nations, Mac-Graw-Hill, New York, 1967. P. 236.

وفى المـرحلة الثانيـة ستطرح على بساط البحث فى هذه المفاوضات قضية تجديد اتفاقيـة أروشه Arusha التى تضبط العلاقات بين دول افريقية الشرقية الثلاث (التى هى اعضاء ايضا فى مجموعـة دول الكمنويلث) ، كينيا وتانزانيا وأوعنـــدا ·

وفى مرحلة ثالثة ، تستهدف هذه المفاوضات وضـع اسـس للارتباط بـين السـوق الاروبـية المشتركـة ونحو عشرين دولة متطورة من الدول الاعضاء فى الكمنويلث ، نتيجة لانضمام بريطانيا الى الجماعة الاقتصادية الاروبية ·

واما اتفاقية ياوندى الثانية التى عقدت فى سنة ١٩٦٩ ، لـمدة خمس سـنوات ، فهى تضمن حرية دخول منتجات الدول الافريقية الى اسواق دول الجماعة الاقتصادية الاروبية ، فيما عــدا بعض المنتجات الزراعـية التى تخضع لقيـود · وكذلك تضـمن اتفاقيـة ياوندى مساعدة ماليـة للتنمية للدول الافـريقية المرتبطة · وفى مقابـل ذلك تمنـح هذه الـدول لمنتجات دول الجماعـة الاقتصادية الاروبية تفضيـلا جمركيا (اصبـح يعـرف الآن باسم « التفضـيل المعكوس ») فى اسواقها القومية ، مع الاحتفاظ بحقها فى اقامـة الحواجز من جديد متى واجهت صعوبات ·

واتفاق أروشه ، يشبه فى مضمونه اتفاقية ياوندى الثانية ، ولكنه لا ينص على مساعدة مالية للتنميـة ·

ونظرا لاهمية القضايا المطروحة على بساط البحث فى هذه المفاوضات ، فقد شعـرت الدول الافريقية بالحاجة الى خلق جبهة موحدة للحصول على مسـاعدة ماليـة وتقنية اهـم ، وخصوصا للحصول على اسعار ملائمة لمنتجاتها من المـواد الاولية التى تشكل المورد الاساسى ان لم يكـن الوحيد لها من العملة الصعبـة ·

والدول الافريقية التى اشتركت فى مؤتمر لاجوس تنقسـم الى قسمـين : الدول المـرتبطة بالجماعة الاقتصادية الاروبية ، والدول التـى يطلق عليها وصف « قابلة للارتباط » · والفئـة الاولى ، وهى من الدول الناطقة باللغة الفرنسية ، تتخـوف مـن ان تفقد وضعها « الامتيازى » فى السوق الاروبية المشتركة ، ومن ثم ، فهى تنظـر بعين القلق الى الفئة الثانية من الدول ، وهى من البلدان الناطقة باللغة الانجليزية · بـل ان دول اتفاقيـة ياوندى الثـانى ، نفسهـا ، تتعـارض مصالحها فى كثير من المجالات · ومن هنا اهمية ازالة الشكوك وتسوية الخلافات وتنسيق المصالح بين الدول الافريقية الثلاثين ، قبل ان تدخل معمعة المفاوضات مع الدول الصناعية فى أروبا الغربية·

والامر الذى يستلفت النظر بصفة خاصة ، هو الاهمال الذى قوبل به مؤتمر لاجوس ، فـى اجهزة الاعـلام الغربية · واذا استثنينا صحيفة « الجرنال دوجنيف » (١٤ ـ ٧٣/٧/١٥) التى خصصت افتتاحية للاشادة باهميته ، فان جميع الصحف الغربية اكتفت بالاشارة اليه فى اسطـر معدودة ·

تلـوث المحيط الطبيعى ·· والبيئة الاخلاقية :

شهدت أروبا الغربية والولايات المتحـدة الامـريكية ، وخصوصا اليابـان ، فى الاعـوام الاخيرة ، ظاهرة تزداد خطورتها مع مرور الايام ، وهى ظاهرة التلوث ـ تلوث مياه البحار والانهار والهواء والغابات والمحيط الطبيعى الذى خلقـه

الله نقيا طاهرا ليستوحى منه الانسان سلوكــه الاخــلاقى ويستلهمه فى خلق روائع الفــن وفى استكشاف الكون ·

واى انسان ركب سفينة سارت به فى نهــر الراين وتجول فى الهضاب والتلال الوارفة الظلال التى تمتد على جناتــه ، وهــو يخترق سويســرا والمانيا وهولندا ، لا يحز فى نفسه ان يعرف ان هذا النهر الذى كانت ضفافه مسرحا لابطال الاساطير الجرمانية والذى خلده شعراء ، وفى مقدمتهــم هنريش هاين ، فى قصائدهم واغانيهم ، قد أصبح الآن نهرا ميتاخاثر المياه ولا يستطيــع الســمك الحياة فيه بسبب ما يــودع فيه مــن القاذورات والعناصر الكيميائية التي تصب فيه يوميا مــن النفاثات الصنــاعية والمــواد المهلكة للحيــوان والنبـــات ·

وانه لما لا يخلو من دلالة بالغة أن نعرف ان الولايات المتحدة قد منعت مؤخرا بيع السمــك المعروف بقنديل البحر والذى يصطاد فى سواحل كليفورنيا ، لا حتوائه على كميات كبيرة من عنصر الــزئبق ·

وفى اليابان ، حيث يشكل السمك الغــذاء الشعبى الرئيسى ، بلغ تلوث البحار ، من جــراء ما تدفع به المركبات الصناعية من القاذورات كل يوم ، درجة اضطرت معها وزارة الصحة الــى وضــــع قائمــة « ســوداء » بالاسماك المنتــوع اصطيادها وتناولها (لوموند ١٩٧٣/٧/١٩) · وقد اكد وزير الصحة فى بيان له ان اخطر أنواع التلوث ، هو التلوث الذى يزيد عنصر الزئبق فى السمــك · وهذا الحظر الذى يحرم اليابانى مــن تناول غذائه الاساسى (والمفضل ايضا) ، يمس حياة مئات الآلاف من صيادى الســمك ويحرمهم من كســب قــوتهــم ·

وفى ايطاليا ، اضطرت بلدية مدينة فنتميل Vintimille المشهورة بمصايفها التى يقصدها الآلاف للتمتع بنقاوة الهواء وبمياه البحر الدافئة ، الى اصدار امر باغلاق سبعة من شواطيها التسعة وخطــر السباحة فيهــا ، بسبب التلوث (لوموند ١٥ ـ ١٩٧٣/٧/١٦) ·

وفى فرنسا ذكــرت صحيفــة « لوبــوان » Le Point الاسبوعــية فى عددهــا الصــادر فى منتصف يوليو الماضى ، ان وزارة الصحة قــد قامت باجراء تحقيق شامل بشان حالة التلوث على الشواطىء الفرنسية · ولكن التقرير الذى وضع اثر هذا التحقيق ، منع نشره (لاسباب مفهومة)·

لقد انتبهت الدول الصناعية الى خطر التلوث فى زمن متاخر ، ولكن الوقت لم يفت لمعالجة هذه المشكلة التى تجاوزت الحدود القومية واصبحت مشكلة عالمية خصوصا لانها تمس عرض البحــار والاقيانوسات التى هى تركة مشتركة بين ابنــاء البشر فى مختلف القارات · وكذلك تدخلت الامم المتحدة فى هذا المجــال ايضــا وعقدت مــؤتمرا دوليــا فى صيف العــام الماضى فى استوكهلم ، اسفر ، بعد دراسة مستفيضة للوضع الــراهن ، على قرارات هامة ، سيؤدى العمل بها ، اذا نفذت بما ينبغى من الحــزم ، الى التخفيف من آثـــار التلوث الذى يهدد الانسان فى طعامــه وشــرابه وهــوائــه ·

وعلى الصعيد الاقليمى ، توصل الوزراء المسئولون عن شئون البيئة فى البلدان الاعضاء فى الجماعة الاقتصادية الاروبية ، الى اتفــاق ، اثر اجتماع عقدوه فى بروكسال فى ١٩ يــوليو الماضى ، على برنامج ينص على الاجراءات التى

يجب ان تتخذها دول المجموعة والاعمال التى تشترك فى القيام بها فى غضون السنوات المقبلة لمقاومة التلوث وللمحافظة على البيئة البشرية ·

* * *

على ان تلوث المحيط الطبيعى ـ على خطورته ـ لا تكاد تقاس اضراره بنوع آخر من التلوث ، التلوث الاخلاقى الذى اصبح يهدد ما شيدته اوروبا عبر القرون من القيم والنظم الفلسفية · فان المجتمع الغربى اصبح الآن ، باستثناء بعض الجيوب والحواشى الاجتماعية ، يدور فى دائرة مقفلة : الانتاج ـ الاستهلاك · وما دام الانتاج وسيلة وليس مطلوبا لذاته ، فان هذا المجتمع فى الحقيقة ، هو مجتمع استهلاك · والاستهلاك فى الغرب ، يتركز ، خصوصا ، فى الكماليات التى تصورها دعاية بالالوان محكمة التوجيه ، وكأنها من الضروريات الحيوية ·

ونظرا لان الدخل من عمل شريف لا يمكن ان يضمن الا حدا معينا من الكماليات ، فان الاتجاه الى السرقة والسطو والاعتداء تزداد خطورته فى كثير من البلدان الغربية بشكل يقض مضاجع السلطات فيها · وهذه الجرائم تنتشر خصوصا ، بين الاحداث ·

فان الاحصاءات الرسمية فى هولندا ، تدل على ان اغلبية حوادث السرقة والاعتداء انما يرتكبها اطفال تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والثالثة عشرة · ومن الامثلة التى وردت فى التقرير الذى يستعرض هذه الاحصاءات المخيفة ، ان صبيا قتل جدته للحصول على المال لشراء سيارة ·

وكذلك تزداد موجة الاعتداء فى الطريق فى وضح النهار فى هولندا بشكل أصبحت سلطات الامن العام معه مشلولة · فقد ذكر مراسل صحيفة لوموند فى لاهاى فى رسالة له (٧/١٥ ٧٣) حادثة تعطينا فكرة عما وصل اليه تدهور الاخلاق والسلوك الاجتماعى فى هذا البلد الشمالى المشهور بالهدوء ودماثة الاخلاق ·

قال ان مغنية مشهورة ذكر اسمها ، كانت تنتظر القطار على الرصيف فى المحطة فى مدينة هارلم ، حينما أحاطت بها زمرة من الاحداث واخذوا يضايقونها · ولما مسها احدهم صفعته · وبدلا من ان يتركوها وشانها انهالوا عليها بالضرب حتى كسروا انفها وفقئوا عينها ، وكل ذلك امام جمع من الناس ، ممن كانوا ينتظرون القطار مثلها ، ودون ان تمتد يد أو ينطلق لسان لنجدتها على الرغم من صياحها واستنجادها · ولما وصل البوليس الى مكان الحادث كان الاحداث قد هربوا فلم يحاول تتبعهم أو حتى فتح تحقيق ·

وكذلك انتشرت حوادث الاعتداء على العفاف فى الشوارع الكبيرة وعلى مرأى من المارة والتجار ، حتى اصبح خروج الفتاة من منزلها ينطوى على مخاطرة حقيقية · وقد نشرت صحيفة التلغراف ، التى هى اكبر الصحف الهولندية، مؤخرا رسالة لاحدى الامهات الهولندية تحتوى على الوصايا التى قدمتها الى ابنتها لمقاومة الاعتداء · وهذه «الوصايا» من الدقة والتفصيل بحيث تمنعنا اعتبارات الحياء من الاقتباس منها أو حتى تلخيصها للقارئى المسلم ·

ما هى اسباب هذا الانجراف والانحدار المذهل للاخلاق والسلوك الاجتماعى فى كثير من البلدان الصناعية ؟

ان هذه الاسباب متعددة ومتنوعة بحيث يحتاج استقصاؤها الى سفر كامل ، ولكننا ، مع ذلك نحاول اجمالها فى النقاط التالية ·

١ ـ تنمية اقتصادية مفرطة السرعة بدون تخطيط ودون ان ترافقها تنمية اجتماعية أو مجهود للتوعية بـ « اخطار الرخاء » ٠

٢ ـ افلام السينما والتليفزيون التى تتبارى فى الفحش والقسوة تحت شعار « الليبرالية »٠ وهذه الحرية التى لا تعرف حدا ، هى التى تحدث عنها احد كبار علماء الاجتماع الامريكيين مؤخرا ، الاستاذ ليبرت (Libert)

حينما قال (صحيفة هرالد تريبيون ١٤ ـ ١٩٧٣/٧/١٥) : « نظرا لان بلدنا من اكبر مصدرى الافلام ، فنحن الامريكيين بصدد اعداد العالم فى ظرف عشرين سنة للوحشية والبربرية » ٠

٣ ـ الدعاية فى الصحف والتليفزيون بأحدث الاساليب السيكلوجية ، بدون أية رقابة قانونية او اخلاقية ٠

٤ ـ انتشار المخدرات خصوصا فى أوساط الشباب والاطفال بشكل ذريع ٠

٥ ـ تقلص دور الكنيسة فى المجتمع وازدياد الاقتناع بان الانسان هو الغاية القصوى فى التطور الاقتصادى والاجتماعى٠

هذه ، كما قلنا ، بعض اسباب التدهور الخلقى فى البلدان الصناعية ، ولعلنا ان نستخلص منها العبرة ، ونحن نعيش فى مجتمع اسلامى متطور ٠ فان تدهور الاخلاق وانحطاط السلوك الاجتماعى وراء حدود معينة ، سيكون من علامات الزوال والتقلص الحضارى ٠ والسلطات الدينية فى اروبا والولايات المتحدة ، أدركت ، بعد ما عجزت عن اداء رسالتها فى المجتمعات التى نصبت نفسها راعية عليها ، ان المأزق الاخلاقى الحالى لا انفراج له وان الأسس التى تقوم عليها الحضارة والتعايش البشرى نفسها مهددة بالخطر٠

ومما لا يخلو من مغزى عميق فى هذا السياق ، ذلك الخبر الذى نشرته صحيفة الهرالد تريبيون (انترنا شيونال) الامريكية فى مكان بارز واحاطته باطار للالحاح على أهمية فى عددها الصادر فى ٢٣ يوليو الماضى ٠ فقد ذكرت الصحيفة ان الواعظ الانجيلى المشهور فى اروبا وامريكا ٠ بيلى جراهم ، خطب فى جمع قدر عدد المشتركين فيه بـ ٢٨،٦٥٠ شخصا فى مدينة سان بول ، وصرح بان الحياة العامة فى الولايات المتحدة تبدو عليها أعراض مشابهة للاعراض التى بدأت تظهر فى روما اثناء سقوط الامبراطورية الرومانية ٠

ومضى الدكتور جراهم ، فقال : « ان روما القديمة تشبه الولايات المتحدة فى العصر الحاضر من عدة اوجه ٠ وقد كانت روما ، مثل الولايات المتحدة تتزعم العالم ، ولكن زعامتها تقوضت من اثر الانحلال الداخلى » ٠ وقد عدد هذا الزعيم الدينى خمسة اسباب رئيسية لسقوط روما وكلها تشكو منها الحياة الامريكية : سرعة ازدياد الطلاق ، ارتفاع مستوى الضرائب ، جنون طلب الملذات ، بناء وتكديس اسلحة هائلة المفعول ، وانحلال الدين ٠

الرياضة قبل السياسة أم العكس ؟

واجهت بريطانيا فى اوائل شهر اغسطس مشكلة أو شكت ان تطغى على بقية المشكلات التى يعانى منها هذا البلد الصناعى، بما فى ذلك تدهور سعر الجنيه الاسترلينى العائم الذى فقد حوالى ٢٠ ٪ من قيمته تجاه الدولار منذ تعويمه فى سنة ١٩٧١ ٠ والمشكلة تلخص فيما يلي :

عرف السيد هيث ، رئيس الوزارة ببراعته فى الرياضة البحرية وبانه يملك يختا يقوده بنفسه فى المباريات فاز به فى عدة مسابقات دولية· وحدث أن مباراة دولية وصلت بريطانيا فيها الى الشوط النهائى ، ستجرى فى ١١ اغسطس · والمحقق انه اذا لم يمثل السيد هيث فى هذه المباراة بريطانيا التى تعتز بسمعتها الرياضية بقدر ما تعتز بزعامة دول الكومنويلث ، فانها ستخسر الكأس العالمية·

ولكن السيد هيث ، هو الذى يمثل حكومته فى مؤتمر رؤساء حكومات الكومنويلث الذى ينعقد فى تلك الفترة فى اتاوه ، بكندا · وهذا المؤتمر يعالج مسائل دولية ذات اهمية قصوى ، وفى مقدمتها مسئوليات بريطانيا تجاه نظام روديسيا العنصرى والتفجيرات النووية التى قامت فرنسا باجراءاتها مؤخرا فى المحيط الهادى وانضمام بعض دول الكمنويلث الى السوق الاوربية المشتركة ، ووضع برنامج ضخم لتقديم المساعدة المالية والتقنية للدول التى لم تستكمل بعد نموها الاقتصادى من دول المجموعة · فهل يترك رئيس الوزارة مؤتمر اتاوة ليعمل للفوز بالكأس السحرية ؟ ومما يزيد المشكلة تعقيدا ، ان الملكة اليزبث ، ملكة بريطانيا ورئيسة الكومنويلث ، هى التى ترأس بنفسها هذا المؤتمر ·

فاما السيد هيث ، فقد كان ، فيما يبدو مصمما على مغادرة المؤتمر فى منتصف الشوط ليمسك بعجلة قيادة يخته حتى لا يضيع على نفسه فرصة العمر·ولكن حزب العمال ، حزب المعارضة وجه انتقادات شديدة فى البرلمان الى رئيس الوزراء حينما عرفت نيته فى هذا الصدد ·

وقد صرح اللورد البورت ، زعيم حزب العمال فى مجلس اللوردات ، فى المناقشة التى جرت بهذا الشان فى المجلس ، بانه « اذا قدر لمؤتمر اتاوة ان يقدم خدمة لبلاد الكومنويلث على الصعيد الدولى ، فينبغى لاولئك الذين يجلسون حول مائدة المفاوضات ان يثبتوا تجردهم من العواطف الوطنية الضيقة ومن المصلحة الشخصية » (صحيفة التايمز اللندنية ٢٦/٧/ ١٩٧٣) · وفى ختام المناقشة حذر اللورد شيفرد رئيس الوزراء ، فقال انه اذا صح ما وردت به الاخبار من ان رئيس الوزراء مصمم على مغادرة مؤتمر أتاوة قبل نهايته ، فسيكون ذلك مأساة لرئيس الوزراء وللمؤتمر نفسه ! فان هذا العمل سيعتبر اهانة كبيرة لرؤساء حكومات دول الكومنويلث الذين يسهمون فى هذا المؤتمر ·

نحن نكتب هذه السطور فى أوائل اغسطس ومؤتمر اتاوة لا يزال يواصل مناقشاته · فماذا سيكون قرار السيد هيث ياترى ؟ ان المسالة طريفة حقا · ولربما لم يخطر ببال القارئ قط أن يضع الرياضة فى كفة والسياسة فى كفةاخرى ، ثم ينتظر ليرى اى الكفتين يكون لها الرجحان · ولكن هذا هو ما نفعله نحن الآن ·

هـذا الكتـــاب !

تاريـخ افـريقية السوداء منذ امبراطوريات العصـور الوسطى حتى العصور الحديثة (١)

وصف الاستاذ فرناند برودل المجهود الذى بذله كيزربو خلال عشر سنوات لاعداد هذا الكتاب الضخم عن دول وممالك افريقية الواقعة خلف الصحراء الكبرى ، بانه « مجهود جبار » · وهو

(1) Joseph Ki-Zerbo, Histoire de l'Afrique Noire, Hatier, 702 pages, photos, cartes 70 FF.

كذلك ، خصوصا ، اذا اعتبرنا أن هذه هى المرة الاولى التى يقوم فيها مؤرخ من ابناء تلك البلاد بوضع تاريخ شامل لشبه القارة السوداء · فان المؤرخين الافريقيين الذين سبقو كيزربو ، وفى مقدمتهم الغينى ، وابراهيم كابى ، والنيجرى ، وصاليفو ، والدهومى جليلو ، انما عالجوا فى دراساتهم ممالك ودولا معينة ·

واما العمل الذى وضعة المؤرخ الفرنسى ، روبر كورنفان R. Cornevin بعنوان « تاريخ شعوب افريقية السوداء » ، فانه غير كامل ، حيث انه يعالج تاريخ هذه المنطقة قبل ظهور الدول الجديدة فيها ، اى قبل حصولها على الاستقلال ·

والمؤلف ، استاذ يحمل شهادة التبريز فى العلوم التاريخية كما يشغل منصب أمين عام لحركة تحرير الفولتا العليا · وقد بدأ العمل فى وضع كتابه تحت تاثير عواطفه الوطنية ، حيث كان يستهدف خصوصا تسليط الضوء على النواحى الجيدة فى تاريخ بلاده وابراز العلاقات الايجابية التى تربط بلدان المنطقة والتى تصلح اساسا للوحدة الافريقية ·

ولكن وطنية كيزربو ليست من النوع الضيق وهو لا يريد ان يعزل وطنه عن محيطه الجغرافى والبشرى ·

« يجب الا يكون تاريخنا ملجأ ، بل منبعا رفراقا ، منبعا يسمح لنا برؤية انفسنا وتأمل ملامحنا ، كما يرى الانسان نفسه فى المرءاة ، منبعا نغترف منه لانفسنا ولنروى منه غيرنا » ·

وهذا الكتاب يهمنا نحن فى المغرب العربى بصفة خاصة، بسبب الامتداد الجغرافى والعلاقات الوثيقة التى كانت تربط معظم دول المغرب ، خصوصا عن طريق سجلماسة واودغست وواحات ورقلة ، بافريقية السوداء ، التى أمدت الفاطميين بالذهب الذى سمح لهم بغزو مصر والشام ، والتى دخلت فى العصور الوسطى فى دائرة التجارة والاقتصاد الدولى التى كان العالم الاسلامى قطب الرحى فيها · ثم ان صنهاجة الجزائر ، هم اخوة لصنهاجة افريقية الغربية الذين لا يزال السينغال يحمل اسمهم ، بتحريف ، حتى الآن · ومن هؤلاء خرجت امبراطورية المرابطين التى حكمت المغرب والاندلس خلال عهد هو من اكثر عهود المغرب ازدهارا ·





الحياة الثقافية

نشاط المركز الثقافى الاسلامى

أسس المركز الثقافى الاسلامى ، بامر رقم ٧/٧٢ مؤرخ فى ٦ صفر ١٣٩٢ هـ الموافق لـ ٢١ مارس ١٩٧٢ م ، وهو مؤسسة عمومية ، موضوعة تحت وصاية وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، ومن ذلك الحين اخذ يشق طريقه لخوض المعركة التى تعيشها بلادنا اليوم ، وهى معركة العلم ، والاصالة ، والتفتح والقضاء على الجهالة والامية ، واول المسائل التى يهتم بها المركز نشر الثقافة الاسلامية ، والسهر على ان تكون هذه الثقافة وسيلة لازدهار الفكر الاسلامى ، لدى الامة وهدفنا من كل ذلك هو البحث والتنقيب عن التراث الوطنى ، واحيائه ومعايشته ، ومن ثمة كانت نشاطات المركز متعددة • منها المشاركة فى الملتقيات الاسلامية على الصعيد العالمى ، ومنها تنظيم الحفلات الفنية الوطنية ، واخيرا تنظيم المحاضرات التى يلقيها اساتذة متخصصون وقد احرزت هذه المحاضرات نجاحا كبيرا لدى الجمهور ، ورغبة ملحة من طرف الطلبة ، مما اغرانا بالقاء محاضرة كل اسبوع ، تعقبها اسئلة ومناقشات بين الاستاذ المحاضر والسادة المستمعين • وبالاضافة الى كل هذا ، يحتوى المركز حاليا على مكتبتين وقاعة للمحاضرات ، واخرى للمحاضرات وعرض الافلام السنمائية ، سيعلن عن افتتاح كل من المكتبتين ، وقاعة المحاضرات ، وعرض الافلام فى الصحافة الوطنية •

ومن الجدير بالاهمية ، ان نعطى فكرة ولو ملخصة عن نوع المحاضرات التى تلقى فى المركز ، ليطلع القارىء على مدى ما يبذله المركز والاساتذة من جهد فى سبيل احياء تراثنا الوطنى ، ونشر الثقافة الاسلامية •

قام الاستاذ عثمان الكعاك ، المؤرخ التونسى الشهير ، بسلسلة من المحاضرات القى بعضها فى العاصمة الجزائرية ، والبعض الآخر فى مناطق متعددة من بلادنا كبرج منايل ، ودلس ، واقبو ، وجيجل وبجاية ، وغيرها وذلك اثناء زيارته لبلادنا للمشاركة فى الملتقى السابع للتعرف على الفكر الاسلامى• وقد راينا ان نسجل هنا خلاصة المحاضرات التى القيت بالجزائر ، لعلنا بذلك نسلط الاضواء على ما جاء فيها من القضايا الفكرية الجديدة ، ومن الحجج والنتائج العلمية الدامغة التى توصل اليها •

قسم الاستاذ عثمان الكعاك محاضرته الى شطرين • اما الشطر الاول : فقد تناول فيه الحياة الثقافية فى العصور القديمة • وتناول فى الشطر الثانى : نفس الموضوع فى العصر الحاضر يقول :

كان القطر الجزائرى قديما وثنيا فى العصر البربرى ، والرومانى ، ثم صار نصرانيا ، وما ان دخل القرن الاول الهجرى حتى صار كل سكان الجزائر مسلمين · ولم يقتصر دخولهم فى الاسلام باعلان الدين الاسلامى فحسب ، وانما كانت لهم اليد الطولى فى نشره ·

واثناء الحديث عن الدين الاسلامى الحنيف يقوم المحاضر بمقارنة بينه وبين الحضارة الغربية · فيذكران الدين الاسلامى ، نادى بضرورة العلم قبل قرنا ولم تتوصل اوربا الى ذلك سوى بعد قيام الثورة الفرنسية سنة والتى قررت التعليم الاجبارى نظريا على الرجال دون النساء ·

ثم يتلو علينا الاستاذ عثمان الكعاك ، مجموعة من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، التى تنادى بضرورة تعليم المرأة ، وتثقيفها باعتبارها الاستاذة الاولى فى البيت · وينتقل الاستاذ بعد هذا الى جمع اللغة والحديث ، ثم اجتهاد العلماء فى تفسير القرآن ، وكيف احتذى النصارى واليهود بالمسلمين فى تفسيرهم للقرآن· يقول : « فلما جاء التفسير عند المسلمين ، قاس عليه اليهود ···· والفوا تفسيرهم للتوراة وكذلك فعل النصارى بالانجيل الذى لم يكن مفسرا قبل ان ياتى علماء المسلمين ويضعوا علم التفسير » ·

كان من اعتناء المسلمين بدينهم الاسلام ، ان جرهم ذلك الى اختراعات عديدة كالساعة ، التى اخترعها عباس بن فرناس لمعرفة اوقات الصلاة ، والمكية ، وهى سفينة خاصة بالحج ، والاسطرلاب ، والبوصلة ، والارقام العربية ، والصفر الخ ··· وتبع هذه الاختراعات العديدة نهضة شاملة فى البلاد الاسلامية ، فاسست الجامعات ، وبنيت المعاهد ، وكان الاوربيون يدرسون فى هذه المعاهد والجامعات الى جانب المسلمين · ولم يكتف المسلمون بهذا ، بل جعلوا لاوربا جامعة طبية بمدينة (سابرن) ·

ونترك أوربا جانبا لنعود الى الجزائر فى هذه الفترة ، ونسال ما مدى انتشار الثقافة والعلم فى هذه البلاد ؟ يجيبنا الاستاذ قائلا : « اذا نظرنا الى الجزائر من هذه الناحية ، نجد ان العواصم الاولى التى نشات فيها حضارة فكرية هى مدينة طبنة ، وتخرج منها جماعة من الطبنيين ، امثال زيادة الله الطبنى ، وغيره ممن تولوا الوزارة ابا عن جد فى دولة بنى امية بالاندلس · وبعد طبنة ، ظهرت المسيلة ، وفيها كان الادب اغزر وأظهر من الفقه · ثم يخرج لنا الاستاذ برأى مخالف تماما لما هو شائع ومعروف فى الكتب الادبية ، فقد عرف لدى جل النقاد ، ان ابن هانىء اندلسى الاصل والمنشا ولكن الاستاذ عثمان الكعاك ، يرى ان ابن هانىء ولد بالمسيلة ، ونشأ فيها ثم ذهب الى الاندلس ونسب اليها غلطا ، وهو الذى وضع علم الانتولوجيا (علم المختارات الادبية) وله رواية خيالية · ثم يذهب المحاضر ، الى ان رواية بن رشيق الخيالية هى التى اثرت فى دانتى ، وليس كتاب رسالة الغفران ، لابى العلاء المعرى ، ولا كتاب التوابع والزوابع ، كما كان شائعا ومعروفا ، لان رواية ابن رشيق ، هى التى انتشرت فى صقلية ·

ثم يذكر الاستاذ المحاضر ، ان مركز الثقافة قد تحول من طبنة والمسيلة الى بونة (عنابة) ، التى ظهر فيها فقيه من اكبر الفقهاء وهو ابو مروان البونى ، الذى شرح كتاب الموطا ·

وهكذا ياتى دور قسنطينة ، التى يمتد تاثيرها من اوائل القرن الماضى ، الى الثلث الاول من القرن الحاضر ، وقبل هذا اشتهرت مدينة تلمسان ، التى كانت على صلة بالاندلس ثم نقفز مع الاستاذ الى عصرنا الحاضر ، فيحدثنا عن الدور الجبار الذى تقوم به وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ، فى ميدانى التعليم والثقافة · اما التعليم قد اختارت ان يكون تعليما اصليا مشتقا من اصالتنا ، ودينيا مستمدا من ديننا · وزيادة على هذا ، اضافت اليه الميادين العلمية الاخرى ، كالرياضيات ، والحساب وغيرهما من المواد التى تدرس فى المدارس الحكومية الاخرى ·

واما الثقافة ، فتتمثل فى عقد المحاضرات التى يقوم بها المركز الثقافى الاسلامى ، وتنظيم الملتقيات الاسلامية ، التى تدعو اليها الوزارة اساتذة وعلماء من كل بلاد العالم ، يبحثون ، ويناقشون ويدرسون ، قضايا الاسلام والمسلمين·

كانت هذه محاضرة الاستاذ عثمان الكعاك باختصار شديد · لننتقل بعدها الى محاضرة مصطفى الزرقاء ، استاذ الحقوق المقارنة والشريعة بجامعة الاردن ، وكان قد اختار لمحاضرته عنوان : « الحديث النبوى الشريف ، شانه فى بناء الاسلام ، وتيارات اعداء الاسلام من حوله » يقول : تعتمد الشريعة الاسلامية على مصادر لا بد من الرجوع اليها وهى اولا : القرآن الكريم ، ثم الحديث النبوى الشريف ، والاجماع والقياس الخ ··· القرآن الكريم ، هو دستور الاسلام الذى اتانا بالخطوط العريضة ، وترك التفاصيل والشرح للرسول ، الا فى بعض المسائل التى ارادها الله ان تكون كذلك ، كالميراث الذى تاخذ منه المراة نصف حصة الرجل · هكذا أراد الله حتى لا يقع اى لبس ولا اختلاف وكل ما سوى ذلك · انما اتانا به القرآن جملة لا تفصيلا· قال « امرهم شورى بينهم » وصف المسلمين بان امرهم شورى بينهم ، ولم يذكر لنا كيف تتحقق هذه الشورى ، وذكر الصلاة ولم يذكر كيف تؤدى ، وذكر الصيام ، وعلاقة الحاكم بالرعية ، الخ ···

كل هذه العلاقات لم يشرحها القرآن الكريم شرحا تفصيليا ، وانما ترك هذه المهمة للنبى عليه الصلاة والسلام ، وعلى هذا كان لا بد الى جانب القرآن الكريم الذى خط الخطوط العريضة من مبين وشارح لهذه الخطوط والاحكام الاجمالية ، فكانت السنة النبوية ، التى تتضمن كل شرح ، وكل تفصيل جزئى · والسنة النبوية ، لا تقتصر على اقوال النبى (ص) فقط ، بل اقواله وافعاله ، وسكوته ، واقراره لما راى · واذن فالحديث هو كل ما ينقل عن الرسول الكريم · واذا عدنا نتتبع مراحل جمع الحديث النبوى ، فاننا نجد اول من تنبه الى جمعه ، هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكان ذلك فى القرن الثانى للهجرة · فكتب الى عامله بالمدينة المنورة (ابى بكر بن حزم) قائلا : انى اخشى ان يضيع الحديث ، واذا ضاع حديث رسول الله ضاع الاسلام ، فانظر من عندك فى مدينة الرسول (ص) من العلماء ، فخذ عنهم ، وسجل ما يحفظونه ، وخصص له اناسا يبدأ بهم ، كعمرة بنت عبد الرحمن · ومن ذلك التاريخ بدأ تدوين السنة النبوية الشريفة ، التى بقيت ليومنا هذا مصدرا لا يستغنى عنه من مصادر الشريعة الاسلامية · ولكن ما يدعو الى الاسف ، هو ما يقوم به بعض

اعداء الاسلام ، من تشكيك ، وتكذيب ، لسنة نبى الله ، وادعائهم ان القرآن الكريم ، هو الذى ينبغى ان نعود اليه ، ونترك السنة • وهم يريدون بذلك ، ان يهدموا الاسلام من الداخل ، حين يزعزعون ثقة الناس فى حديث رسولهم • والسنة هى ديوان الاسلام التى بدونها لا يمكن تطبيق الكتاب الذى يبقى بدون الحديث حبرا على ورق • وهذا ما لا نقبله ، ولا نرضاه للاسلام •

أما محاضرة الدكتور السيد جعفر الشهيدى فقد تناول فيها موضوعا آخر غير هذا الذى تكلمنا عنه ، وهو « دور الايرانيين فى نشر اللغة العربية والحضارة الاسلامية •

وقد شرح فيها اتصال العرب بالفرس ايام الفتوحات الاسلامية • ثم تغلغل اللغة العربية داخل الكيان الفارسى ، الى ان ازدهرت على يد علماء افاضل ، امثال الزمخشرى ، والخوارزمى ، وابى سعيد بن عباد الرازى وغيرهم ، فتشابكت اللغتان وبلغتا من ناحية التعبير عن الافكار ، والقيم الانسانية الحد الذى يمكن ان نعبر عنه بانه ماء افرغ فى انائين •

ثم ينتقل الاستاذ المحاضر بعد هذا العرض الى الكلام عن اهمية اللغة العربية فى العصر الحاضر •

فيذكر لنا ان الشعب الفارسى ، من اشد الشعوب الشرقية تمسكا باللغة والادب العربى وفى الاطار الجامعى والثانوى ضرورى لكل طالب ان يتعلم شىء من الصرف ، والنحو ، والادب العربى ، ونصوصه •

وهناك فى كلية الاداب لطهران ، واصفهان قسم لتدريس اللغة العربية ، فضلا عن الكلية الالهية التى تتكون كل مواد دراساتها بالعربية كما انها ضرورية لكل طالب يدرس فى قسم الادب الفارسى ، ان يجيد اللغة العربية قراءة ، وكتابة ، وصرفا ، ونحوا •

اما الاستاذ احمد الشرباصى ، فقد تناول فى محاضرته موضوع « الرسول كما يصوره القرآن » •

فيلاحظ الاستاذ المحاضر ، ان القرآن الكريم قد صور شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام فى خمسة معارض أو ملامح •

المعرض الاول : هو معرض التشريف والتمجيد والتكريم والمعرض الثانى : هو التكليف والامر ، والطلب ، والنهوض والقيام بالمتابعات والمسؤليات ، والواجبات •

المعرض الثالث : هو الجمع لموقف واحد بين التكليف ، والتشريف • المعرض الرابع : هو معرض التذكير بالبشرية ، وعدم السلطة امام قدرة الله عز وجل • والمعرض الخامس : هو معرض العتاب أو المؤاخذة أو المحاسبة •

وفى كل معرض من هذه المعارض ، يستشهد الاستاذ بآيات من القرآن والاحاديث النبوية الشريفة ، واحيانا بحوادث وقعت للنبى او لبعض الصحابة • وهى محاضرة غنية جدا لا بد من الاطلاع عليها لمن يريد ان يوسع معلوماته فى هذا المجال •

اذا كانت الحياة الثقافية فى شهرى جويلية واوت قد اعتراها شىء من الهبوط بسبب الاجازات الصيفية كما قلنا ، فانها شهدت فى شهرى سبتمبر راكتوبر نوعا من النشاط المتزايد والمركز فقد ابتدأ التركيز اولا على دول عدم الانحياز نتيجة انعقاد المؤتمر الرابع لهذه الدول فى الجزائر فقد خرجت الاذاعة والتلفزة ببرامج مثل من باندونغ الى الجزائر استعرضت فيه نشاط هذه الكتلة و « قصة الثورة الكوبية » والجزائر فى عشر سنوات كما ان الصحف كانت تنشر يوميا المعلومات الواسعة والمركزة عن كل بلد من البلدان المشاركة وقد لوحظ اهتمام الصحافة بالادب الافريقى والثقافة الافريقية فنشرت القصص والاشعار والمقالات المختلفة عن ادب هذه البلدان .

كما تابعت الصحافة اليومية والاسبوعية تعليقاتها المرة على مهرجانى تيمقاد للفنون الشعوب ومستغانم لمسرح الهواة وكانت كلها تعليقات تتنبا بنهاية هذه المهرجانات اذا ما استمرت على طريقتها الحالية وهكذا تكون الصحافة قد دقت ناقوس الانذار .

وكانت الصحافة الجزائرية خلال مؤتمر عدم الانحياز مكانا لتجمع الصحافيين من جميع انحاء العالم فانتهزتها صحافتنا فرصة واجرت مقابلات صحفية مع العديد من هؤلاء الصحافيين ومنها مقابلة مع نائب رئيس اتحاد الصحفيين العرب الذى اشار ككل الصحافيين العالميين بانجازات الجزائر . وايضا خلال المؤتمر كان يقام فى بلادنا معرض الجزائر الدولى العاشر الذى احتوى زيادة على معروضاته التجارية والصناعية ومنجزات البلدان المشتركة مجموعة من العروض الثقافية والفنية احيتها فرق من امريكا اللاتينية ومن اوروبا بالاضافة الى فرق افريقية واسيوية عرضت فولكلورها الشعبى وتقاليدها الوطنية فكان ان اصبح المعرض معرضا تجاريا ـ ثقافيا وركزت الامسيات الشعرية المقامة فيه هذا التحول الذى يجرى بالتاكيد لمصلحة الحياة الثقافية فى بلدنا .

وشاهد المسرح الوطنى فى العاصمة عرضا لمسرحية المائدة وهذه المسرحية هى عمل جماعى لفرقة المسرح الجهوى فى وهران نابعة من الحياة الشعبية لفلاحينا منطلقة من مفهوم الثورة الزراعية وتجرى احداثها فى القرية النموذجية المسماة بالمائدة ومن هنا اخذت هذه المسرحية اسمها وقد لاقت ترحيبا واسعا فى اوساط المثقفين والصحافة الوطنية التى تابعتها باهتمام .

هذا وقد عادت قاعة الموقار لنشاطها فبالاضافة الى الافلام التى كانت تعرض من مختلف البلدان المشاركة فى المؤتمر استضافت فى ردحتها معرضا للفنان الجزائرى زعيدور وآخر لمورا الطيب وثالث للفنانة الالمانية السيدة كريستانيا زين العابدين التى قدمت مجموعة من اللوحات استوحتها من الواقع الجزائرى حيث انها تقيم مع زوجها العراقى المتعاون الفنى فى الجزائر ونوهت الصحافة برسومات هذه الرسالة .

واما فى مجال الكتب فقد شهدت المكتبة الجزائرية كتابا مهما طبع فى بيروت للمؤرخ الجزائرى محمد الميلى بعنوان « ابن باديس وعروبة الجزائر » وهو كتاب كما يتضح من عنوانه يبحث فى مواقف ابن باديس النضالية العملية والعلمية من اجل الكفاح فى سبيل عروبة الجزائر وتخليصها من طغيان الاستعمار الفرنسى . كما شهدت المكتبة قصة طويلة كتبها عرعار محمد العالى بعنوان «ما لا تذروه الرياح» يتحدث فيها عن المجتمع الجزائرى خلال الحرب التحريرية والروح النضالية السائدة فيه ومعالم القهر والاستعباد الفرنسى وقد طبعت ونشرت هذا الكتاب الشركة القومية للنشر « سنيد » .

واما الشاب الفلسطينى حسين ابو النجا والمقيم فى الجزائر منذ سنوات فقد اصدر مجموعة قصصية بعنوان « رصاص فى عقل متعب » وقد طبعت هذه المجموعة ونشرت فى بيروت ولم تصل الاسواق الجزائرية بعد على عكس الكتابين الدولين المعروضين الآن فى المكتبات .

ولكن لم يشأ شهر سبتمبر ان يغادرنا دون ان يحدث مأساة فقد اعلن عن وفاة الشاعر الجزائرى جان سيناك وهو من اصل فرنسى ناضل مع الثورة الجزائرية وكان آخر مقال كتبه فى جريدة لوموند تحت عنوان « الجزائر من تحرر الى تحرر » استعرض فيه تطورات الادب الجزائرى وقد اعلنت دوائر الامن ان مقتل الشاعر كان جريمة ارتكبها سارق .

وقد وقعت احداث تشيلى خلال شهر سبتمبر ايضا اذ قامت الرجعية المحلية والامبريالية العالمية بانقلاب ضد سلفادور الييندى الرجل الوطنى الاشتراكى فقامت هذه الزمرة بقتل الشاعر الشيلى الذائع الصيت بابلو نيرودا الذى كان تحت العلاج .

اما فى مصر فقد اصدر الرئيس محمد انور السادات عفوا عن الادباء والمثقفين الذين حظر انتاجهم وطردوا من اماكن عملهم وصار بامكانهم العودة الى الكتابة والى ممارسة اعمالهم المعتادة وكان هذا امر حسن اذ تم خلال انعقاد مؤتمر اللجنة التحضيرية للصحافيين الديمقراطيين العالميين فى بغداد والذى اكد تأييد الصحافة الديمقراطية لمسالة التحرر العربى من الاحتلال الصهيونى وبنفس الوقت الذى وجه فيه المؤتمر الخامس لاتحاد ادباء افريقيا وآسيا المنعقد فى المـا ـ آتـا عاصمة جمهورية كازخستان السوفييتية رسالة الى الرئيس انور السادات يطلب فيها العفو عن الادباء المصريين وقد وقع هذه الرسالة مجموعة من الادباء منهم كاتب ياسين ومحمود درويش وكذلك اعلن فى اواخر شهر سبتمبر وفاة الاديب القصصى الكبير محمود تيمور فى مدينة لوزان بسويسرا حيث كان فيه المعالجة والاستجمام .

اما شهر اكتوبر فقد كان حافلا هو الآخر بالنشاطات الثقافية ذلك لانه توافق مع شهر رمضان المعظم وعليه فقد جرت عـدة انشطة عبر التراب الوطنى ابتدات بالعاصمة التى شهد مسرحها الوطنى فرقة بالية القرن العشرين البلجيكية فهى من ارقى الفرق العالمية لرقص البالية غير ان مدير المسرح تصرف تصرفا ازعج الصحافة فبالاضافة الى انه رفع سعر التذكرة الى 45 دينارا لاول مرة فى تاريخ المسرح منذ الاستقلال فانه منع الصحافيين من الدخول مما جعل الصحافة الوطنية تهاجم مدير المسرح الذى شهد مسرحنا فى عهده اطول فترة من الجمود .

وبعد ذلك شهدت خشبة هذا المسرح مسرحية باب الفتوح وهى مسرحية ماخوذة من الترات العربى الاسلامى تتحدث عن القهر الثقافى والسياسى للشعوب كتبها محمود ذياب واقتبسها واخرجها المخرج محمد سليم رياض الذى شهدت له قاعات السنيما ايضا فيلم الطريق .

كما ان فرقة مسرح البحر قامت خلال هذا الشهر بعروض مسرحية خاصة بالعمال وكانت هذه العروض تتناول الهجرة الى فرنسا وما يلاقيه العامل الجزائرى من صعاب .

واما قاعة الموقار فكانت تشهد كل خميس وجمعة وسبت وطوال الشهر مهرجان الاغنية الجزائرية الاول الذى احصيت فيه الوان الغناء الجزائرى واشترك فيه العديد من الفرق المحترفة والهاوية ووزعت فى نهايته جوائز على الفرق الفائزة .

وفى نفس القاعة عرضت مجموعة من الافلام الجيدة وشهدت له ندوة للجنة الفكر والثقافة فى حزب جبهة التحرير الوطنى شارك فيه العديد من المثقفين الجزائريين الذين تسارعوا للبحث عن افضل الوسائل للمساهمة فى معركة التحرير العربية التى اندلعت فى المشرق العربى يوم 6 اكتوبر .

واعلن ان رواية « اللاز » التى كتبها الناصر الجزائرى الطاهر وطار هى فى طريقها الى الطبع فى شركة سنيد كما ان هناك رواية اخرى لنفس الكاتب بعنوان « الزلزال » .

واما عبر الولايات فقد القيت محاضرات دينية وثقافية بالاضافة الى المحاضرات فى العاصمة . ومن محاضرات الولايات محاضرة القاها بلقاسم حمانى فى ولاية عنابة حول حماية الاسرة ومحاضرة فى مدينة سعيدة القتها الكاتبة العامة للجنة الولاية لاتحاد النساء الجزائريات عن الهجرة الجزائرية فى فرنسا كما القيت محاضرة بالنادى الثقافى للحزب فى ولاية تلمسان حول التربية والثقافة العمالية .

وفى مدينة المدية اقيمت ندوة بعنوان « الجهـاد فى الاسلام وعدالته » وذلك فى قاعة سنيما العالمية اشترك فيها العديد من اساتذة المعهد الاسلامى والطلبة .

واما ولاية باتنة فقدشهدتبرنامجا ثريا حافلابالتظاهرات الثقافية مثلالمحاورات الدينيةوالعروض السنيمائية والمحاضرات الاقتصادية والسياسية وشهدت مسرحية اقامتها فرق مغربية .

وقد امتاز هذا الشهر بنشاط حثيث من قبل وزارة التعليم الاصلى والشؤون الدينية ان كان ذلك فى المحاضرات أو فى الاحاديث الاذاعية والتلفزيونية واما فى الوطن العربى فقد صدرت عن دار الكتاب العربى فى مجلدين ضخمين مجموعة اعمال كل من توفيق الحكيم وطه حسين كما سيصدر الدكتور محمد خلف الله آحمد كتابا آخر يضم مجموعة ابحاث حول الثقافة العربية وكان آخر كتاب قدمه هذا المثقف العربى المعروف كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الادب ونقده » عام 1947 واعتبر من اهم الكتب النقدية فى حينه .

كما صدرت فى عمان مجموعة قصصية للكاتب فخرى قعوار بعنوان « لماذا بكت سوزى كثيرا » كما كان قد صدر قبلها فى بيروت رواية «ايام الحب والموت» لرشاد ابى شاور . وصدرت فى العراق مجموعة اعمال الشاعر محمد مهدى الجواهرى فى ديوان سمى « ديوان الجواهرى » .

دور المثقــف فى المعركـــة

الى متى سيظـــل المثقف العــربى بعيدا عــن المعركة التى يخوضها الشعب العربى ضد القوات الصهيونية والامبريالية والرجعية المتحالفة مــع الاقطاع ؟

ما هى اهميــة تجنيد الجماهــير نفســـيا فى المعركة ؟ وما هو التاثير الحقيقى الذى تمارســه اجهزة الاعلام على سلوك الجماهير ؟

تلك هى الموضوعات التى دار حــولها "بحث والنقاش فى ندوة فى قاعة الوهار ، اشترك فيها كل من السادة عبد الله ركيبى الاستاذ بجامعة الجزائر ، وعلى بن محمد المستشار التقنى لــدى وزارة التعلــيم الابتدائى والثانــوى ، ومحجوب بوشنافه · وقد جرت المناقشة امام جمهور غفير من طلبة الجامعة والمناضلين واطارات الحـــزب والمثقفين الذين يتتبعون الاحداث وقد حضر هذه الندوةأيضا السيد محمد شريف مساعدية المسؤول عن شؤون الاعـــلام والتوجيه فى الحزب ، الى جانب عدد كبير من كبار الموظفين ·

وقد كان الهدف من هذه النــدوة التى نظمتها لجنة الاعلام والثقافة بالحزب ، هو التوعية بعدالة قضيتنا وبمعنى نضالنا وتفنيد المزاعم التى تذيعها اجهزة الاعلام والدعاية الصهيونية وتغذى بهــا عقول الذين تنقصهم المعلومات ·

والسؤال هو : ماذا ينبغى أن يكون دور المثقف فى المعركة التى يخوضها اخوانه العرب من أجل استعادة الارض التى اغتصبها الصهاينة مــن الوطن العــربى ، ومن اجـــل استعادة الشعب الفلسطينى حقوقه الشرعية · فهل يستطيع المثقف العربى ان يعيش بعد الآن ، على هامش المعركة ذات الابعاد المتعددة ، امام سيل الاخبار المزيفة التى تذيعها قطاعات صحـــافية واذاعية معينــة يوميا ، وأمام حملات التضــليل والتبرير لقضية خاسرة مسبقا ، لانها تقوم على العدوان والعنف ، كيف يواجـــه المناورات التى يحبكها الساســة والدعاية التى تتخذ الحقد والكذب سلاحا لها ·

يجب ان تعلن الحقيقة كلها الى الراى العــام العالمى الذى شلته الدعاية الصهيونية عن المصير الذى اعدته الدولة العنصرية للشعب الفلسطينى·

القلــم والسـيف :

ان حالة الشعب الفلسطينى الذى وقع ضحية لاكبر ظلــم ارتكــب فى التاريخ ، معـــروفة فى خطوطها العريضة ، ولكنها لم تــؤثر كثيرا على النفوس ولا تزال بعيدة عن ان تهز ضمير العالم·

فان هذه الدولة العنصرية التوسعية ، قد ظلت تراوغ منذ ربع قرن وتتهرب من مواجهة حــق الشعب الفلسطينى فى كيان قــومى وفى تقرير مصيره بنفسه · وهى تتجاهل كل مجهود دولى بذل لهذه الغاية ·

لم يعد احد يجهل بعد الآن ما تبديه هذه الدولة الغاصبة من الكبرياء والاحتقار تجــاه القرارات الدولية التى لم تتخذ فى صالحها · ومن ذا الذى يصدق الآن قصة الشعب الصغير الذى لا يطمــح

الا الى العيش فى سلام ودعة ؟ لا يمكن ان يصدق هذه الخرافة حتى اولئك الساسة الذين اصيبوا بالخذلان وراحوا يبحثون عن حظوة الناخبين ، ويذرفون دموع التماسيح على مصير الشعب اليهودى · ليس فى مقدور أحد ، بعد الآن القاء الستار على الحقيقة الناصعة ·

والدور الاساسى للمثقف العربى ، هو أن يقف لدحض الاكاذيب والترهات ولتذكير من نسى الحقائق بأن ارسال الملايين من اليهود الى أفران الغاز اثناء الحرب العالمية الثانية ، عمل لم يكن للعرب فيه يد ، وأن عددا كبيرا ممن يتبنون قضية الصهيونية اليوم ويدافعون عن اليهود ، هم من النازيين أو من المتعاونين المشهورين مع النازية والجيستابو سابقا ·

كانت هذه فى مجملها هى الملاحظات التى أبداها الخطيب الاول فى الندوة واما الخطيب الثانى · فقد تعرض لاهمية التعبئة النفسية للجماهير فى المعركة ، ووضع الحاحا خاصا على تبيين وسائل الدعاية الهائلة التى يستعملها الصهاينة للاستمرار فى تضليل الراى العام ولتغذية عقد الذنب فى قطاعات مهمة ممن لا يزالون يخلطون بين المعتدى والمعتدى عليه ولا يهتمون بمصير الشعب الفلسطينى المطرود من ارضه والذى يهدده موت بطىء ·

ولما تعرض المحاضر لنتائج هذا التحذير للرأى العام العالمى الذى استعملت له وسائل فعالة والذى ضمن استمرار الاعتقاد فى اسطورة الشعب الصغير « المتفوق » ، أشار الى الوسائل التى ينبغى اعتمادها لاذاعة الحقيقة عن أسرائيل ومطامحها التوسعية ، ثم عرج فذكر الحالة المؤلمة التى يعيش فيها الشعب الفلسطينى الذى ينتظر منذ اكثر من ربع قرن نهاية عهد الظلم الذى حاق بـه ·

تعبئة الجماهير نفسيا :

واما الخطيب الثالث ، فقد عالج تاثير أجهزة الاعلام فى سلوك الجماهير وتحدث بعد ذلك عن خرافة مناعة اسرائيل واستحالة قهر قوتها العسكرية التى انهارت وكانها منزل من الاوراق· وقال ان انتصار القوات العربية فى ردها على العدوان الصهيونى فى ٦ اكتوبر ، قد اثبت ان الجيش الذى نفخته الصحافة الصهيونية ، كان قابلا للعطب ، بل وللانهيار· وكذلك اثبتت عملية اجتياز قناة السويس واقتحام خط بارليف ، ومقتل الجنرال الذى كان يقود قوات المصفحات فى سيناء ، بعد ساعات معدودة من اعلان انتصارات وهمية امام صحافة تصدق كل شىء ، ما كان يعانيه الجيش الصهيونى من الاضطراب النفسى ذلك الجيش الذى بلغ به الأمر ان صدق الاكاذيب التى يذيعها هو نفسه !

ألم تنشر صحيفة فرانس سوار ، باحرف ضخمة وفى مكان بارز ، بعد بدء عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ ، باقل من ساعة ، أن مصر قد هجمت على اسرائيل ؟

ألم تلجا صحيفة الفيجارو الى نفس الخديعة لتعلن منذ اسبوع أن حشود الصهاينة قد اجتازت قناة السويس ، فوقعت بذلك فى غلطة كانت مثار الهزء والسخرية ؟

ان هذه الصحف المتسرعة لخدمة اسيادها ، كثيرا ما يبلغ بها الامران تتخذ مواقف مضادة لموقف الرأى العام ولموقف قرائها ، وبذلك تضحى

بمصالح شعوبها · وهؤلاء الخونة لبلادهم وللقواعد التى تقوم عليها مهنتهم اصبحوا الآن معروفين من الجميع ، ومن ثم ، فان اختلاقاتهم لم تعد تخدع أحدا ·

ان القوات العربية فى جبال الجولان وفى صحراء سينا قد اثبتت انه لا يوجد ما من شانه ان يعوق القوة العربية او يحطم عزيمة شعوبها التى قررت ان تعيش حرة كريمة ·

والمرتزقة الذين يعملون فى خدمة الصهيونية ، مثل الامبيريالية العالمية ، لا يستطعون وقف المقاتلين العرب الذين قرروا مواصلة المعركة حتى النصر النهائى ·

وقد اختتمت الندوة بمناقشة مثمرة وباتخاذ المساهمين فيها قرارين يؤيد احدهما مجلس الثورة والحكومة والمقاتلين العرب الذين اعادوا فى معمعة القتال معنى الكرامة والشرف الى العرب ، ويناشد القرار الثانى المثقفين العرب بان يساهموا بطريقة فعالة فى معركة التحرير ·

ان فى المعركة حقيقة يجب اعلانها ، وواجبا لا بد من القيام به · والمثقف العربى لا يحق له بعد الآن ان يتهرب من مسئولياته التاريخية ·





الفكر الوطني المبدع
هو طريق النجاة

خصصت مجلة « البيان » الكويتية دراسة عن (كاتب الكتاب) ابدى فيها كاتب الدراسة المشاكل التى تطرح على الدول النامية فى ميدان الثقافة والفكر، ومن بين هذه الدول الوطن العربى الذى يتخبط فى مشاكل التخلف ، ومما جاء فى الدراسة :

فى كل سنة تنشر اليونسكو مجموعة ضخمة من الدراسات العلمية الموضوعة باللغات الكبرى وفى مشكلات الانسان المعاصر ·

فى هذه المجموعة يتكرر ضعف الاصوات العربية كل سنة ، وتتكرر قلة عددها ·

وقد حدث ان نشرت اليونسكو فى ديسمبر الاخير ، قوائمها للكتب المنشورة عام 1973 ، وكان الجهد العلمى العربى فيها محدودا ونادرا ·

ولعل أوضح جوانب هذا الجهد بعض الدراسات المعقودة فى مسائل « التعليم » و « التربية » فى الوطن العربى ·

ولكن هناك « موضوعات » أخرى تنصف بالسخونة والاهمية بالنسبة للوطن العربى كله ولم نزل نفتقد فيها الجهد الفكرى المؤثر والذائع على مستوى رفيع ·

هناك مشكلات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ومشكلات تخطيط الصناعة والمدن وربط القرية بالمدينة ، والمشكلات الخطيرة التى يطرحها التقدم التكنولوجى على حياة الناس فى البلاد التى لم تأخذ حقها الكامل من هذا التقدم العلمى والحضارى

كل هذه المشكلات الحاسمة ، يكتب فيها علماء وباحثون من البلاد التقدمية التى شبعت حضارة ونالت ما هو أكثر من الترف الثقافى ، يكتب فيها علماء من السويد ذات الثراء العريض ، ومن المانيا التى تحتل بشطريها مكانين بين الدول العشر الصناعية الكبرى فى زماننا ·

ويكتب فيها علماء وباحثون من فرنسا ، ذات المكانة القيادية بالنسبة لاوروبا ، وعلماء من بريطانيا التى تعتبر واحدة من البلاد المصدرة للعقول العلمية ·

ويكتب فيها علماء وباحثون من الولايات المتحدة التى انشأت بنوكا للعقول البشرية وضمت الى رصيدها جهود علماء كثيرين من جنسيات مختلفة وفلسفات شتى ·

هؤلاء ، هم الذين يكتبون — فى غالب الامر — عن لمشكلات الساخنة التى تضغط على البلاد النامية

وتاتى اليونسكو،فتنشر مئات من هذه الكتابات المهمة ، التى ينتسب الجانب الاعظم منها الى «فكر» أوروبا وامريكا ويلتحق القليل منها بخبرات العلم والعقل المفكر ، فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية ·

واليونسكو تملك العذر والتبرير ·

انها تحاول ان تجعل الباحثين والعلماء من البلاد صاحبة مشكلات التنمية ، هم الذين يقدمون نتائج عملهم وخبراتهم ·

وفى هذا الاطار ، تظهر اسماء مؤلفين من بلاد مثل غانا والنيجر والسينغال،أو تطفو على السطح اسماء من الهند ومن بعض البلاد العربية ·

لكن مشكلات الفكر والحضارة اضخم الف مرة، من التعبير عن مشكلات التنمية فى البلاد المتخلفة وحديثة العهد بالاستقلال ·

الانسان يواجه فى عالمنا المعاصر أخطار«التفرق» الهائل الذى تحققه « الاقلية » القوية من الامم ، كما يواجه أيضا مصائب التخلف الذى ورثته شعوب الارض فيما ورثت من اعباء الزمن ·

ومواجهة « خطر » تفوق الاقوياء ومصائب تخلف الذات تحتاج الى نهضة فكرية مبدعة وشاملة ·

فى وجه هذه الضغوط الجهنمية حقا ، يكون الفكر القومى المبدع ، هو طرق النجاة ·

وبغير هذا الفكر القومى القادر على [illegible] اع ، تفقد كل الجهود الاخرى طريقها ، فاكبر المشروعات والمؤسسات ، تتحول الى منابع لمشكلات لا تقف الانتاجية ، تظل تدور فى مكانها ، وأعظم الابنية عند حد ·

رحلة المصير

من المفارقات الغريبة ان اهتمامنا بالآداب المغربية المكتوبة بالفرنسية لادباء من تونس والجزائر والمغرب ، يفوق اهتمامنا بالادب العربي في هذه المنطقة من الوطن الكبير • ان مؤلفات كاتب ياسين ومحمد ديب ومالك حداد اكثر شعبية في المشرق من مؤلفات عبد الكريم غلاب وعبد الله القويري • وربما كان ابو القاسم الشابي هو الشاعر التونسي الوحيد المعروف عندنا• وايا كانت مشكلات التوزيع وتحويل العملة ، فان المسؤول الاول في تقديري هو النقد الادبي ، الرسول المؤهل والمكلف بعقد الصلات بين اجزاء الوطن عبر الادب والفن •

ولاقطار المغرب العربي مشكلاتها الخاصة غير المعزولة عن مشكلاتنا ، بل ان بعض هذه المشكلات الخاصة تلزمنا بالكثير مما نستطيع القيام به ، كمشكلة اللغة •• فالتعريب في هذه البلدان معركة حقيقية لا تنفصل عن بقية المعارك التي تخوضها الشعوب المغربية ضد التخلف والاستعمار والرجعية المحلية • واذا كان « التعليم بالعربية » يقوم بواجبه في هذه المعركة الضارية ، فالثقافة — وفي مقدمتها الادب والفن — تقوم بدور اكبر • ان التعليم يتوقف عادة عند اعتاب اللغة بمفرداتها وقواعدها ولكن الثقافة تخالف العقل والوجدان وتغير الفكر والشعور •

ومن هنا كانت الرسالة الملقاة على عاتق الادباء والمثقفين عامة في المغرب ، كبيرة وثقيلة • وهم يقومون بها في شرف وصلابة ومثابرة تستحق ما هو اكثر من الاكبار والتقدير ••

تستحق التقييم الموضوعي الدقيق • وهذا هو العبء الذي يتعين على نقاد الادب في المشرق ان يتحملوا جزءا منه بشجاعة• انهم بذلك يسهمون في المعركة على اكثر جبهاتها حدة واشتعالا والمؤمنون منهم بمستقبل اللغة العربية ووحدة الثقافة العربية تتضاعف مسؤوليتهم في هذا الصدد •

ذلك ان الادب في المغرب العربي لا يناضل فحسب على جبهة اللغة ، وانما رواسب الفكر والشعور المتخلفة عن الاستعمار الفرنسي ، تترك بصماتها في وضوح على بناء هذا الادب وروحه •• ان القضية عند الاديب الجزائري او التونسي او المغربي لا تنتهي بمعرفته لاسرار اللغة العربية ، وانما هي تبدأ بعد ذلك • تبدأ مع القاعدة العريضة من القراء الذين تربوا في مناخ مشبع بالثقافة الاجنبية • تبدأ ايضا مع رد فعل المحتمل ضد الثقافات الاجنبية ، وما ينشأ عن ذلك من تعصب يرفضه الفكر العربي المستنير • تبدأ كذلك مع اجهزة السلطة الممزقة بين التعريب والتغريب • تبدأ اخيرا مع الادب العربي في المشرق ، حيث الابنية والاخيلة تعكس تراثا عميقا في الارض المحلية •

هكذا تبدو لي رحلة الكاتب في المغرب العربي ، رحلة عسيرة غاية العسر ، بالغة العذاب والضنى • واكثر الشاعر عذابا هو احساسه بانه يمضي في رحلته وحيدا • والناقد العربي في المشرق ، مرشح بالضرورة ، لان يكون رفيقا له في رحلة المصير الواحد •

« ••• شكـــري »
ـ البلاغ ـ اللبنانية



كتـــب :

اصدرت (دار النشر والطبـع فى مالى) مؤخرا كتابا بعنوان « تطبيق مبادىء الاسلام فى افـريقيا السوداء » وهو مـن تاليف بابا مختـار ندياي نفوس الحاصل على مؤهل عال فى الشريعة الاسلامية وعلى ديبلوم معاهد الدراسات الاسلامية العليا فى كراتشى وباريس وعلى عـدة جـوائز فى تفسير القرآن ويقوم بابا مختار باعداد برنامج « الالمام بالاسلام » الذى يذيعه رايدو مالي ·

وقد توجهت صحيفة « ليسور » التى تصدر فى مالي بعدة اسئلة الى المؤلف عن هذا الكتاب فقال انه ينقسم الى خمسة ابواب :

١ ــ اقوال لبعض الشهود عن صور لممارسة الدين فى الدول الافريقية الواقعة جنوب الصحراء وفى شرق افريقيـا ·

٢ ــ حياة محمد منذ مولده الى وفاته بما فى ذلك شبابـه وزواجـه والوحى الذى نـزل عليـه بالقرآن والهجرة والاسراء والحج الى مكة وغير ذلك ·

٣ ــ باب بعنوان « ما هو الاسلام » وهو تفسير لقواعد الاسلام الخمس وهى الشهادة والصـلاة والزكاة والصوم والحج مع ايراد العبارات التى تقال فى الصـلاة ·

٤ ــ نقل القرآن وترجمتـه ·

٥ ــ نقل الاسماء الحسنى وترجمتها ·

واشار المؤلف الى ما دعا اليه الرسـول من نشر العلم وقال : ان هذه الدعوة التى اطلقها الرسول بين قومه فى صحراء العرب منذ حوالى ١٤ قرنا سوف يستمر رنينها فى اذن كل انسـان عاقل وبالاحرى فى اذن المؤمن الذى حصل على المعارف الدينية وهذا ما جعلنى اؤلف هذا الكتاب·

واضاف : وهناك سبب آخر وهو ان الاسلام وانا اعتبره دينـا كاملا وشاملا مـا زال يسـاء فهمه فى افريقيا السوداء اذ يرى البعض انـه يحرم كل شىء ويصف كل شىء بانه اثم وهـذا ما يؤدى الى فساد منطق الانسان الذى تصل اليه الصورة مشوهة ومما يشكل اكبر تهديد للاصلاح فى افريقيا السوداء هو اساسا نقص المعلومات وكذلك الافتقار الى الجدية فى اتباع قواعد الدين·

وعزى المؤلف ذلك الى عدة عوامل منها مـا يتعلق بملقنى القرآن الذين يكتفون بتلقين الشباب المسلم آيات من الكتاب الكريم دون اهتمام بشرح معناها او مدلولها ومنها ان اغلب الشبـاب الذين تلقوا العلم فى المدارس الفرنسية يجاهرون بعداء شديد لمبادىء القرآن ويرون انها بالغة التزمـت فى حين انهم يجهلون كل شىء عن الدين ·

رسـالـة تونـس

ابن هانىء لم يكن تونسيا فهو مغربى



من مراسلنا صالح الحاجة

الاستاذ محمد اليعلاوى رجل من رجال الثقافة فى تونس يدرس فى الجامعة ، ويكتب بين الحين والاخر فى صفحتنا ومجلاتنا ، ويشارك فى اغلب المناقشات والندوات التى تنظمها النوادى الثقافية

وهذا الاستاذ شغوف بالثقافة العربية كاشد ما يكون الشغف ، مطلع على كنوزها ، عليم بخباياها وذواقة للادب العربى حديثه وقديمه •

ومنذ فترة قصيرة تحصل الاستاذ اليعلاوى على الدكتوراه من جامعة السوربون الجديدة ، وتناول فى اطروحته حياة وآثار الشاعر الاندلسى المغربى ابن هانىء بالبحث والتحليل •

فى لقاء لى مع الاستاذ محمد اليعلاوى سالتـه عن الاسباب التى جعلته يختار ابن هانىء بالذات ليكون موضوع اطروحته فقال :

كنت ولا ازال مشغوفا بالشاعر الكبـير ابى الطيب المتنبى وكنت انوى بعد حصولى على التبريز الشروع فى دراسة عن لغته وبلاغة شعره ، ولكن تبين لى بعد قليل انه من واجب التونسيين عامة ان يهتموا بتراث هذه الرقعة من العالم العربى الاسلامى ، خصوصا وان جانبا كبيرا من هـــذا التراث لا يزال مجهولا مغمورا ، ومن ناحية أخرى فان ابن هانىء كان يعتبر ولا يزال اعظم شعرائنا القدامى ولهـــذا استحق لقب « متنبى الغرب » فوجهت عنايتى الى هذا الشاعر الاندلسى ولادة والمغربى نشأة والشيعى ملة وانتسابا ، أملا منى فى مواصلة معاشرتى لابى الطيب المتنبى بمعاشرة صنوه المغربى ابن هانىء ، ثم ان اهتمامى القديم بالمذاهب الاسلامية والنحل المختلفة دفعنى الى دراسة شاعر الفاطميين الذى خصص كامــل ديوانه للاشادة بفضائل الائمة الاسماعيليين واعلاء كلمة الدولة التى أسسها عبيد الله المهدى •

وسألت الاستاذ اليعلاوى عـــن الجوانب التى أثارها فى اطروحته فقال

القسم الاول خصصته لضبط ترجمه ابن هانيء فبينت بتتبعى لمراحل حياته القصيرة انه يكـاد يكون عديم الانتساب الى الاندلس ، وانه ان لم يكن تونسيا ابن تونسى ، حسب عبارة العلامة حسن حسنى عبد الوهاب ، فهو بدون شك مغربى اذ قضى أثرى فترات حياته بالمسيلة فى الشرق الجزائرى ثم بالقيروان والمنصورية (صبـرة) ٠

اما القسم الثانى وهو الاهم فى نظرى ، فقد خصصتــه لا ستخراج الاشــارات التاريخيــة والمعلومات الحضارية من خلال مدائح هذا الشاعر للمعز الفاطمى ولكبار قواده وامرائه ٠

ومعلوم ان بحث المؤرخين العرب للآثار الادبية حتى ينيروا بها الفترات التى يدرسونها ، كان ولا يزال زهيدا . فلذلك ركزت اهتمامى فى هـذا القسم على الجوانب التاريخية من ديوان ابن هانىء وارجو ان اكون قد وفقت الى اكتشاف حادثــة لم يذكرها مؤرخو الفاطميين كالمقريزى وابن حماد والاستاذ فرحات الدشراوى مؤخرا : وهى ان المعز العبيدى قد عهد بامارة افريقية الى ابنه عبد الله قبل ان يسندها الى بلقين يوسف بن زيــرى الصنهاجى ، ولا يخفى على ان هذه الفكرة قابلة للنقاش والتدعيم ٠

وفى القسم الاخير حللت مقومات فن ابن هانيء فى شعره ومقومات شاعريته تلك التى جعلـت النقاد يقارنونه بالمتنبى ٠

وحول ما اذا كان ينوى الاستاذ نشر اطروحته قال لى :

طبعا ، ما فائدة البحوث ان بقيت فى دفاتـر اصحابها ؟ انى بصدد ترجمة الكتاب الى اللغـة العربية حتى اخرجه لجمهور القراء والباحثين فى المغرب والمشرق العربيـــين ، وحتى فى الشرق الاسلامى البعيد اذ من المعلـــوم ان طـــوائف الاسماعيلية القاطنين بالهند يهتمون بالتــراث الفاطمى اهتماما كبـــيرا ، ولعلهم حين يقتنعون باهتمام الباحثين التونسيين بالدولة الفاطميـــة ورجالاتها فىالفترة الافريقيةمنتاريخها، سيمدون الينا يد المساعدة باطلاعنا على كثير من الوثائق التى يحتفظون بها فى منتهى السر والكتمان ٠

وكان آخر سؤال طرحته على الاستاذ اليعلاوى هو : هل صادفته صعوبات فى العثور على المصادر التى اعتمدها لاطروحته ؟ فأجاب بقوله :

نعم ، واولى هذه الصعوبات تعذر الوصول الى جانب من نسخ ديوان ابن هانيء المحفوظة عنـد طوائف البهرة بغربى الهند . واخص بالذكر شرحا جزئيا لديوان الفه أحد علماء الطائفة وهو الشيخ حميد الدين على ، لكن والحق يقال قد وجدت بعض ضالتى فى الشرح الوافى الذى نشره منذ اربعين سنة حفيده المرحوم زاهد على الاسماعيلى الحيدر أبادىء ، وانتهز الفرصة لشكر صديقنا الحاج الحبيب اللمسى على اعارتى نسخة من هذا الشرح النفيس النادر ٠

وقد اسعفنى الحظ بأن وجدت بالمكتبة الوطنية نسخة نفسية من الديوان لم ينتبه اليها زاهـد

على ، وهى تحتوى على عدد من القصائد والمقطوعات المجهولة وقد حققتها ونشرتها بحوليات الجامعـة التونسية .

وكم كنت أود ان اعثر على الشرح الذى نسبه العلامة حسن حسنى عبد الوهاب الى التيفاشى القفصى بعنوان « الديبـاج الخسروانى فى شرح ديوان ابن هانىء » ولكن لم يرشدنا العلامة المرحوم الى مصادره ومراجعه ، وحتى الاستاذ محمد أبو القاسم كرو واهتمامه باعلام قفصة معروف لـم يجد آثرا لهـذا الشرح .

ومن الصعوبات التى قد تعترض كل باحث فى الفترة الفاطمية من تاريخنا ، الكراهية الشديدة التى تستشف من مؤلفات السنيين كلما تحدثوا عن الشيعة مما قد يؤدى احيانـا الى التحريف والتشويه والاتلاف لاثار الكتـاب أو الشعـراء المنتمين الى الدعوة الاسماعيلية .

★ ★ ★

دماء وحب و بلاستيك

مجموعة قصصية جديدةتضاف الى المجموعات القصصية التى صدرت خلال هذا العام فى تونس كاتب هذهالمجموعة هو عبدالواحد ابراهيم صاحب كتاب « فى بلاد كسرى » الذى تحدث فيه عـن رحلته الى ايران .

المجموعة صدرت عن الشركة التونسية للتوزيع وعنوانها « اظلال على الارض » وتحتوى على 17 قصة ومقدمة كتبها الاستاذ بشير بن سلامة الذى يبدو انه يعرف عبد الواحد ابراهيم أكثر من غيره الشيء الذى يقدم للقارىء مساعدة حقيقيـة على فهم القصص المنشورة فى الكتاب .

قسم الكاتب مجموعته القصصية الى قسمين قسم بعنوان ـ اظلال حمراء ـ ويضم 7 قصص ، وقسم آخر بعنوان ـ وظلال أخرى ـ ويضم 10 قصص .

وأول قصة فى الكتاب (ثمن الحصير) كتبت فى شتاء 1956 . وآخر قصة كتبت فى شتاء 1973 وبين هاتين القصتين مر الكاتب بمراحل مختلفة ، مما يدل على انه كاتب متطور ، فالبداية كانت بداية عاديةخصوصا من حيثالشكل ، ذات التزام مباشر ثم تجاوزها الى قصص غارقة فى الوصف وهامشيتها أكثر من رئيسياتها وتهدف الى تقديم النصح والارشاد ، قصص لها بداية وعقدة ونهاية واستطاع الكاتب ان يتجاوز هذا اللون الى قصص متمردة على الشكل والمضمون لا تخضع للمتعارف عليه (قصة مربعات البلاستيك) .

وخلال جميع هذه المراحل لم يخرج الكاتب من بلاده سواء فى ماضيها القريب أو فى حاضرها لقد التزم منذ البداية (قصة ثمن الحصير) بقضايا وطنه وبقى مخلصا لها حتى وهو يجرب كتابة القصة الحديثة ويستعد لمغامرة أخرى (ذلك ان عبد الواحد ابراهيم لم يكن فى عمله القصصى واقباله على هذا النوع من الفن الادبى بالذات منفصلا عن مدرسة ، اذا صح هذا التعبير ، ظهـرت قبيـل الاستقلال .

وترعرعت بعده . واكتملت على صفحات مجلة الفكر ببروز البشير خريف وتزعمه لهذا الفـن القصصى ٠

هذه المدرسة التى تعتمد واقع الشعب كما هو وتقترب فى لغتها منه أشد القرب ، ليست الا ترجمانا لحدث عظيم اختزله كيان هذا المجتمع وهو انتصار الشعب بطبقاته كلها ، وزوال الحكـم الاجنبى ، وتقلص هيمنة صنف من التونسيين احتكروا المناصب السياسية ، واستقلوا بالثروة واحتلوا الصدارة الادبية وفرضوا عـلى اللغـة نظرتهم وحنطوا العربية ليفوزوا بها فى متحف الشهرة وان بلا خلود من مقدمة الاستاذ بشير بن سلامة) ٠

واذا تجاوز عبد الواحد ابراهيم وطنه فى بعض الاحيان الى أوطان أخرى كما حدث فى قصة (رجل لبى النداء) فما ذلك الا ليؤكد ان تونس والجزائر والمغرب وطن واحد ، له ماض مشترك وحس واحد وقضايا متشابهة ، وان الحدود التى اصطنعهـا الاستعمار ما هى الا حدود مفتعلة لم تصمد امام نيران الثورات التى اشتعلت فى بـلاد المغرب العـربى ٠

القسم الاول (ظلال حمراء) أهم بكثير من القسم الثانى و (ظلال أخرى) فلقد جمع بين سبعـة قصص كلها تتحدث عن الدماء والشهداء والاستعمار وتصف المعارك التى خاضها هذا الشعب من أجل استرداد كرامته واستعادة حريته وبناء مستقبله فمن معركة المحافظة على الاصالة ومقومات واسباب بقاء الشعب (قصة ثمن الحصير) مرورا بمساهمة الحركة النقابية فى الكفاح والنضال ووقـوف العملة وقفة الرجل الواحد يوم استشهاد فرحات حشاد (قصة رجل يستقيظ) الى تحقيق الجـلاء وانتصار الشعب على قوى البغى (عندما تصرخ الدماء) كلها قصص تسجل تسجيلا فنيا بضعة سنوات هامة وحاسمة فى عمر هذا الشعب الذى دفع ثمن الحرية غاليا ٠

ان العيب الوحيد فى هذه القصص هو تمجيدها للبطولات الفردية والاقتصار على ابراز نواحى الشهامة والشرف والتضحية فى الانسان والارتفاع بهذا الانسان الى سماء المثالية بدون مراعـاة لضعفه وخذلانه وانهزامه وهى اشياء طبيعيـة فيه وكثيرا ما اعاقت الثـورة فى تونس عـن الاستمرار فى مسيرتها ٠

القسم الثانى الذى احتوى على 10 قصص يمكن ان نقول انه اقل قيمة مـن حيث الموضوعات المطروقة ومن حيث وعى الكاتب الذى اصيب وعيه بشىء من الضبابية فى هذا القسم ـ و (ظـلال أخرى) على عكس ما كان عليه من انفتاح ووضوح فى القسم الاول فاغلب ما نشر فى هذا القسم يحوم حول الحب والخيانة والزواج والفراق وهى موضوعات متهرئة وقع استهلاكها بألف طريقـة مما جعلها تتحول الى جثث لا تثير القارىء ورغـم ذلك فيمكن ان تكون هذه الموضوعات منطلقات هامة نحو الغموض فى مشاكل المجتمع والكشف عن امراضه العارضة والمزمنة ٠

لا بأس من الوقوف عند المشاكل الفرعية لبعض الناس وعند بعض الهموم الخاصة بفئة من فئات القوم ولكن ليكن كل ذلك في اطار من الوعي الحركي بالقضايا الحقيقية وربط الفرع بالاصل ٠

ان هذه الملاحظة لا تنفي وجود بعض القصص الذكية التي تشير بحذر واحتشام (!) الى بعض القضايا في مجتمعنا (قصة باب البحر , وقصة كنز السعادة) مما يدل على ان عبد الواحد ابراهيم يحاول ان يتخطى القضايا الهامشية كقضايا الحب والخيانة والبطولات الفارغة التي تهدف الى تحقيق الشرف والكرامة عن طريق الالتزام الاخلاقي اللاواعي ، ويحاول ان يجعل قصصه تحتضن القضايا الحيوية الواسعة لتكون شاهدا حقيقيا على عصره كما فعل في القسم الاول من المجموعة ٠

ان القصة التي يعتبرها عبد الواحد ابراهيم (قصة جلد ثعبان) بداية مرحلة جديدة في عمره القصصي لم أجد فيها ما يوحي بأني امام أدب جديد لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون، لا شيء فيها يلفت الانتباه لو يصدم أو يلسع الموضوع عادي ووقع استخدامه بطرق افضل والشكل أيضا عادي لا يمكن ان يعطي للقصة حق الانتماء الى الادب الجديد ولذلك فانني اعتبر قصة (مربعات البلاستيك) هي البداية الحقيقية لمرحلة جديدة يدخلها عبد الواحد ابراهيم وان كان دخوله اليها لم يفقده خيبته ككاتب محافظ فلقد ظل يحافظ على رصانته وحذره حتى وهو يقف على اعتاب مرحلة جديدة ٠



ان قصة (مربعات البلاستيك) تشير الى اكثر من قضية وتبسط أكثر من رأى وتدل على التناحر الفكري والفوضى المذهبية وعلى المفهوم الخاطىء للحرية وتتعرض الى الصراع بين الاجيال ولذلك فان هذه القصة تحتاج الى مناقشة عريضة للآراء الخطيرة التي تحملها في ثناياها وتدعو الى التأمل والامعان فيها وهي جديرة بالتحليل والتحرير ٠

ان هذه القصة تبشر بعطاءات ووعود سيفجرها عبد الواحد ابراهيم في قصصه القادمة ٠

• • •

قبل ايام زار بلادنا الكاتب المصري المعروف الدكتور مصطفى محمود ، وقضى بها حوالي عشرة ايام في زيارة خاصة ، وفي اليوم الاول التقيت به وتحدثنا طويلا

قبل تونس كان في الجزائر حيث حضر ملتقى التعرف على الفكر الاسلامي وغادر الجزائر قبل ان ينتهي الملتقى وهو يحمل معه انطباعات من هذا المؤتمر اهمها ان الملتقى متخم بالمحاضرات ، وذهب الى المغرب حيث امضى عدة ايام وجدت فيها جريدة « العلم » المغربية الفرصة لمهاجمة بعض افكار مصطفى محمود التي ركز عليها في كتبه اهمها الفكرة التي انطلق منها في كتابه « القرآن » الذي فسره بطريقة عصرية من زاوية المؤمن والواثق بدينه كبديل لجميع المذاهب الاخرى التي تحاول ان تجد لها مكانا تحت شمس العرب وكحل لجميع المشاكل التي تعاني منها الشعوب الاسلامية .

واهتم الدكتور مصطفى محمود في تفسيره العصري للقرآن بالنواحي الميتافيزيقية واهمل النواحي الدنيوية ، وهو شيء اخذه عدد كبير من المثقفين وهو نفس الراي الذي عبرت عنه جريدة « العلم » المغربية ، الذين يؤاخذون الدكتور مصطفى محمود يقولون ان اوضاعنا تفرض علينا ان نهتم بالجوانب

الاجتماعية الحياتية فى القرآن ، يجب ان نفى، دعوات «القرآن» التى تدعو الى العدل والمساوات والخير للجميع وتكافؤ الفرص والمحبة والسلام لا ان نفى، يوم القيامة والآخرة .

وهذا الكتاب ـ اى « محاولة عصرية لفهم القرآن » اثار حينما صدر ردود فعل عنيفة جدا جاءت من مصادر مختلفة ، ثار عليه بعض رجال الدين واستنكروه وقالوا ان باب الاجتهاد اغلق منذ زمن بعيد ويجب ان يبقى هكذا لا يفتح ابدا ، وراى البعض الآخر من رجال الدين ان محاولة مصطفى محمود محاولة عابثة قام بها رجل عابث ليست له الكفاءة التى تجعله قادرا عل فهم القرآن .

اما الدكتورة بنت الشاطى، فلقد ذهبت الى ابعد حد ممكن ، اتهمته بفساد دينه وضلاله وبانه من المخربين للدين وان ثقافته طبية لا تعطيه حق الغوص فى القرآن وتحليله ووطالبت بان لا يتقدم الى القرآن الا من كانت له ثقافة دينية وان لا يكتب فى امور الدين الا من درس الدين .

اكثر من ذلك اتهمت بنت الشاطى، الدكتور مصطفى محمود بانه سطا عل كتبها ونبشها ولفق منها كتابه ! !

وحول هذه النقطة بالذات قال لى : ان الدكتورة بنت الشاطى، امراة مخرفة ، شاخت وفقدت القدرة عل التركيز ، وانها تريد ان تجعل من الاجتهاد فى مجال الدين وقفا عليها وعل قلة من الناس والدين يرفض ذلك ويبيح لكل انسان النظر فيه والله يطالبنا بـــل يلزمنا بالنظر فى تكويننـــا الفزيولوجى والنظر فى امور ديننا وكوننا وخلقنا ، الدين لا يعرف الاحتكار .

قبل تونس والمغرب والجزائر زار الدكتور مصطفى محمود اغلب البلدان العربية وكتب عنها بضعة مقالات نشرها فى كتابه « حكايات مسافر » ، كتب عن لبنان وليبيا والمملكة العربية السعودية ، وقال ان لبنان كبارى كبير ، واذا كان فى القاهرة «بين المقهى والمقهى مقهى» فان فى بيروت «بين الكبارى والكبارى كبارى » وهاجموه فى لبنان وقالوا انه نظر الى بيروت بعين جنسية ولو نظر اليها بعين اخرى لوجد فيها البلد الذى يجمع بين الكبارى والكنيسة وبين الويسكى والكتاب ، اى ان فى بيوت اشياء جادة تتجاوز الكبريات وزجاجات الويسكى والليالى الحمراء .

وقلت لمصطفى محمود : ماذا وجدت فى تونس ؟ هل عندنا بين المقهى والمقهى مقهى ام عندنا بين الكبارى والكبارى كبارى فقال لى اننى لم ار بعد بلدكم ، فانا مازلت فى يومى الاول

ولكن يمكن ان اقول منذ البداية ان تونس تختلف تماما عن البلدان العربية التى زرتها ، انتم فى تونس استطعتم التوفيق بين ضرورات العصر وضرورات المحافظة عل الشخصية التونسية اى اخذتم من الحضارة بدون ان تذوبوا فى هذه الحضـــارة .

اتهام آخر موجه الى مصطفى محمود :

هذا الاتهام يتمثل فى انه يكتب وينتج كثيرا وترتيبه ياتى الـرابـع بعـــد العقـاد (90 كتابا) وتوفيق الحكيم (70 كتابا) وانيس منصور (60 كتابا) ، اما هو اى مصطفى محمود فله (51 كتابا) فقط ، ويقولون عنه ان يكتب بنفس السهولة التى ياكل بها ، اما موضوعاته فانها تتناول كـــل شى، تقريبا الجيولوجيا والفيزياء ، وعلم الاجتماع ، وعلـــم النفس ، والتاريخ ، والاديان ، والسياسة ، والمسرح والقصة وله كتب عن « لغز الموت » و « لغز الحياة » و « النسيـــة » و « الاحلام » « والشعوب البدائية » .

ويحس المتتبع للحياة الادبية العربية ان هناك تنافسا واضحا بين انيس منصور ومصطفى محمود ، الاول يصدر الكتب بشكل غريب ، كل شهر له كتاب جديد ، والثانى يحاول ان يفعل نفس الشى، ومع انهما دخلا الميدان فى نفس الوقت فان انيس منصور بقى متفوقا عل مصطفى محمود ، وتفسير ذلك كما قال لى مصطفى محمود ان انيس منصور يعتمد فى كتاباته عل الترجمة ، ومن يترجم يستطع ان يعطيك ما تشاء مـــن الكتـــب !.

فى البداية ، بداية حياة مصطفى محمود الادبية اى بعد ان ترك مهنة الطب ، فهو طبيب وكانت له عيادة ، كان يكتب فى السياسة والادب واهتماماته محدودة جدا « فى البداية كنت ماركسيا ، وقرات كل ما يتعلق بالماركسية ، اطنان من الكتب هضمتها اولها كتاب « راس المال » لكارل ماركس وآخرها اتفه كتاب عن الماركسية ، ودرست « اليوغا » عـلى ايدى الهنود وبالذات عل يدى « المهاريشى ماهيش » ، وبعد رحلتى مع الماركسية ، وهى رحلة فكرية كلفتنى الكثير من الجهد والطاقة والقراءة ، بالمناسبة اقول لك ان اغلب الذين يدعون الماركسية فى العالم العربى لم يقراوا كتاب راس المال ولم يطلعوا عليه وان حتى اطلعوا فانهم لم يقراوا الا مقتطفات منه فقط ، انه ادعاء يدعونه وموضة يتبعونها .

بعد رحلتى الفكرية مع المذهب الشيوعى اقتنعت ان الماركسية مذهب فاشل لا يصلح للانسان عموما وللانسان العربى خصوصا وساؤلف كتابا حول هذا الموضوع اسميه

.. لماذا رفضت الماركسية ؟ » وكيف تجاوزتها وتخطيتها نحو الدين الاسلامى الذى تجد فيه ما تشاء ، اذا اردت العلم ، فان القرآن يحث عليه ، واذا اردت تنظيم الحياة ، فان القرآن يوصى به وينص عليه ، واذا اردت المساواة ، فان القرآن يصر عليها ويلزم بها كل مسلم .

الاسلام هو البديل الذى يحفظ لك كرامتك ويعاملك على اساس انك مخلوق من قلب وعواطف وعقل وفكـــر ، الماركسية تلغى فيك كل هذه الامور وتجعل منك مسمارا فى آلة كبيرة اسمها المجموعاو المجتمع او الجماعية .

وهناك شىء آخر ان كل النظريات التى جاء بها ماركس اثبتت عقمها وفراغها ، لم تصمد امام التطور الحاصل فى الفكر الانسانى ، خذ مثلا هذه النظرية والماركسية التى تقول انه لا يمكن ان تتعايش الاشتراكية والراسمالية سلميا ، هـــذه النظرية سقطت مؤخرا وثبت انها خاطئة ، التقت الراسمالية والاشتراكية بالاحضان واتفقا على التعايش السلمى والتعاون الذى يوطد اركان هذه وتلك .

خذ ايضا نظرية قيام الثورة فى المانيا بعد التجمـــع والتصدع الثورة لم تقم فى المانيا وانما قامت فى روسيا .

كل نظريات ماركس سقطت فى الماء وثبت تاريخيـــا وعمليا انها فاشلة وانها عاجزة على الحياة ، بينما كل ما جاء فى القرآن سليم ولم يظهر الى الآن ما يؤيد انه عـلى خطـا ى اى كلمة من كلماته التى تكون فى النهاية نظريات وافكار واساليب لتنظيم المجتمعات بل ان كل ما ظهر فى العالم من اكتشافات علمية وظواهر اجتماعية تؤكد ان القرآن على صواب ودستور للحياة متماسك .

ويقال ان الدكتور مصطفى محمود تحول من مهنة الطب الى الكتابة لان الكتابة تدر اكثر مالا ويقال ايضا انه تحول من الكتابة فى الموضوعات الادبية الى الكتابة فى المسائـــل الدينية لنفس السبب ولان الكتب الدينية سوقها رائجة وارقام هذا النوع من الكتب فى تصاعد مستمر (احصاءات رسمية تؤكد ذلك) ولكن مصطفى محمود ينفى ذلك ويقول : انـــه كلام فارغ ، واتهامات سخيفة جدا ، عندما اكتب لا ارى قارئى واكتب من منطلقات فكرية لا من منطلقات تجارية .. انا لست تاجرا ، اود رويشا كما يقول عنى الحاسدون الذين عجزوا عن تقديم اى شىء ، اما انتقالى من مهنة الطب الى الكتابة فان ميولى الادبية هى التى رضت على ذلك ، وفى الطب لا تستطيع ان تعالج الا مريضا واحدا ، بينما بالكتابة تستطيع ان تعالج الاف المرضى .

الغريب ان مع ازدياد عدد الكتب الدينية والاجتهادات فى مجال الدين وانتشار هذه الكتب وتصاعد ارقام المبيعات منها لا شىء يدل على تغيير فى العالم العربى ، بل ان الظواهر المعاكسة للدين هى التى فى ازدياد من حيث الكم والاحجام .

حول هذا الموضوع قال لى الدكتور مصطفى محمود ان القراءة السلبية لا تغير ما بنفوس الناس وانما القراءة الجيدة التى تفضى الى الاقتناع هى التى تغير والى الآن لم تتحول هذه القراءة الى حالة عامة يعيشها جميع الناس وانما ما زالت فى حدود بعض الافراد القلائل ، ولذلك انتظر التغيير بعد ان ينتقل القارىء العربى من حالة القراءة السلبية الى القراءة الواعية التى تؤدى الى الاقتناع بما جاء فى الدين الاسلامى ، ولا يمكن ان يحدث اى تغيير طالما ان الاسلام الحقيقى لـــم ينتشر بين عامة الناس وطالما ان هؤلاء لا ياخذون الا بقشور الدين الاسلامى ، لا يمكن ان نخرج مما نحن عليه الآن من تخلف الا اذا تغيرت الذهنية العربية واقتنعت بجوهر الدين الدين الاسلامى الدين الاسلامى يقول لنا (اقرأ) ونحن لا نقرا وحتى اذا قرانا نقرا التافه من الكتب او نقرا قـــراءة سلبية وسريعة .

الدين الاسلامى يقول لنا (اعملوا) ونحن لا نعمل وانما نحبذ البطالة والتسكع والعيش ى فراغ ، وحتى اذا عملنا فاننا نعمل بلا اخلاص وبتكاسل ونذهب الى مواقع عملنا لنعيش حالات الارتخاء ولنثرثر ولندخن ونشرب القهوة ، بينما مصالح الناس معطلة وتنام فى الملفات .

الدين الاسلامى يقول لنا (قاتلوا) ونحن نجلس فى المقاهى ونتحدث عن الحرب وعن محو آثار العدوان ونحارب اسرائيل بالاغانى والاناشيد الحماسية والخطب والبرامج الادبية . الاسلامى الديـن الاسلامى يقـول لنـا (اقـرأ) ونحن لا لا نطلب العلم والمساجد ، وانما نذهب الى قاعات السينما ونقبل على افلام التفاهة والتفسخ والانحلال الاخلاقى والعهر الفكـــرى .

ALLOCUTION D'OUVERTURE DU VIIème SEMINAIRE
DE LA PENSEE ISLAMIQUE

prononcée par M. Mouloud-Kassim NAIT BELKACEM
Ministre de l'Enseignement Originel
et des Affaires Religieuses

TOUT MILITE EN FAVEUR DU REGROUPEMENT DE LA OUMMA

Excellences,

Distingués Professeurs,

Permettez-moi, tout d'abord, de vous souhaiter au nom du Président Boumediène, du Gouvernement et de toute l'Algérie une chaleureuse bienvenue en Algérie, en ces lieux mêmes, au pied de ces monts altiers qui ont affronté la conquête et l'occupation et combattu, à travers les siècles et les différents conquérents, un même ennemi : le colonialisme et l'avilissement, son corollaire !

Contrées combien chargées de gloire et d'Histoire, citadelles de la protestation et du témoignage, de l'abnégation et du sacrifice devant les émules de Ad et de Thamoud, ces montagnes du Djurdjura dont la cime la plus haute a pour nom Lalla Khadidja, mère de l'héroïque et prestigieuse Lalla Fatma N'Soumer, une femme, mais qui pourtant compte parmi les hommes les plus braves, et qui, en 1856-1857, à la tête d'une petite armée improvisée de moussebiline, a infligé à l'armée d'agression innombrable, où figuraient non moins de sept généraux, sous la conduite du commandant supérieur français en Algérie, le général et futur maréchal Randon, les pires épreuves, léguant ainsi à la postérité une image vivante et impérissable de la résistance et du sacrifice suprême !

Excellences,

Distingués Professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères et sœurs étudiants et étudiantes,

Nous nous retrouvons aujourd'hui, alors que se concentrent sur la nation islamique — je dis bien la nation islamique — ou sur ce qui en demeure, tous les moyens de destruction, de déchirement et d'égarement ! Nous nous retrouvons pour examiner en commun certains problèmes en rapport avec l'essence même de sa vie, et susceptibles, s'ils n'étaient résolus, de précipiter sa mort !

1°) LA LEGISLATION : Nous en attendons qu'elle lui montre sa voie et lui garantisse, si elle était appliquée, sa sauvegarde et sa cohésion, et même son développement et sa prospérité. Cette législation est, dans sont état actuel, et ceci dans la majorité écrasante, sinon dans la totalité, du monde de l'Islam, aussi éloignée, dans la plupart de ses aspects, de la religion que Dieu lui a prescrite, des fondements et des sources de cette loi islamique qui fut et reste l'âme des lois, la religion de l'action, de la lutte et de l'effort.

2°) SON UNITE : qui a été sa force et le support essentiel de son existence, Dieu sait dans quelles circonstances elle l'a risquée, par la faute de responsables aussi naïfs qu'insouciants, prompts à emboîter le pas à ceux-là mêmes qui ambitionnaient ni plus ni moins que sa destruction et son enterrement vivante, après avoir patiemment mis au point les complots destinés à en desserrer les liens et à en consommer la désagrégation.

Notre nation s'est trouvée, ô infamie ! applaudissant à tout corbeau croassant, à une multitude de corbeaux aux formes et aux plumages disparates, mais fortement unis et solidaires quant à leurs buts et à leurs objectifs. La haine s'installa entre ses fils Touraniens et Kahtanis, les nationalismes étroits achevèrent de la déchiqueter, la Dawnama eut beau jeu de la précipiter sur le chemin de sa décomposition ! Lawrence témoigna — piètre consolation ! — de son courage et de son génie, Abdulhamid II, parce que ne voulant pas composer, ne voulant pas accéder aux propositions de la Dawnama de lui troquer la Palestine contre l'effacement des dettes de la Sublime Porte, fut déposé et notre première Qibla, Jérusalem, disparut avec lui ! La nation sombra dans la léthargie, et le monde debout fit des gorges chaudes de son ignorance et de son impéritie !

La revue allemande «Der Spiegel» a publié très récemment un article sur l'Islam où il est dit notamment : «La constitution d'un nouveau «Khalifat» unissant la Oumma, de l'Indonésie au Maroc, demeurera un rêve d'idéalistes et une espérance d'utopistes».

Au siècle des grands ensembles qui s'opèrent à travers les continents et par-dessus les races, la langues et les confesssions, est-il concevable que pour la nation de l'Islam les choses demeurent en leur état actuel de dispersion et de discorde, de querelles et de déchirement, alors que tout milite en faveur de son regroupement et que rien ne justifie sa division ?

RELEVERONS-NOUS LE DEFI ?

Relèverons-nous le défi ? Ou bien le collier restera-t-il éparpillé et la gloire à jamais enfouie ?

3°) *L'intégrité de sa doctrine et l'authenticité de sa foi :*

Ne s'est-on pas suffisamment diverti au détriment des esprits crédules de nos fils et de nos filles, alors que nous pensions qu'ayant recouvré son indépendance contre laquelle les missionnaires avaient prêté main forte aux généraux en préparant le terrain à l'occupation, la nation islamique, dans son ensemble, allait sans plus tarder extirper chez elle les racines de ce mal et en détruire les germes ?

Oublierons-nous en Algérie, par exemple, le rôle joué par de Foucauld dans ce domaine, et par le Cardinal Lavigerie, qui a déployé toutes ses forces pour christianiser les orphelins de la famine de 1866, même si son entreprise n'a pas eu tout le succès qu'il en escomptait ?

Beaucoup de naïfs parmi nous sous-estiment les tentatives de ceux qui prêchent le détournement du droit chemin et l'apostasie et disent à leur propos qu'ils ne font que gaspiller inutilement leurs forces. Ils oublient qu'un Zweemer, orientaliste et missionnaire connu, disait que le but des missionnaires en terre d'Islam ne consistait pas nécessairement à évangéliser les musulmans mais surtout à semer la confusion dans leurs esprits et à les faire douter de leur foi et de leur authenticité.

Nous avons souligné à plusieurs reprises aux hommes de la religion chrétienne qui nous ont rendu visite, à leur initiative : protestants, catholiques et orthodoxes, que, tout en étant la tolérance même, l'Islam ne saurait démissionner, et que nous étions toujours disposés à les aider dans leur tâche, mais pour qu'ils accomplissent leur mission auprès des adeptes de leur religion, et qu'ils n'avaient pas à s'immiscer dans les affaires de nos enfants.

Malgré cela, nous recevons sans cesse des montagnes de lettres émanant de milieux missionnaires et de pays divers, orientaux et occidentaux, que nous apportent les pères des enfants à qui elles sont adressées par le courrier, ou distribuées devant les écoles. Ces pères viennent protester de ce que nous ne faisons rien pour arrêter ce déferlement d'entreprises criminelles visant à égarer des enfants innocents et désarmés, ce qui équivaut au viol de leur conscience.

4°) Les enfants de cette nation à l'étranger — je parle toujours de la nation islamique dans son ensemble —, les tentatives d'évangélisation, et d'autres encore plus séduisantes ou plus pressantes auxquelles ils sont exposés : que peut, à leur égard, cette nation, ou ce qu'il en subsiste ?

Il y a des millions de musulmans en Europe, en Amérique et en Océanie, et le nombre de leurs enfants croît de façon constante.

COORDINATION ET COOPERATION

N'est-il pas temps de multiplier les cercles culturels, les écoles primaires et les lycées bilingues ? C'est ce que certains Etats, telle l'Algérie, ont été amenés à envisager et qu'ils commencent, de fait, à réaliser.

Mais, comme dit le proverbe, «une seule main ne peut applaudir». Alors, ne peut-il y avoir coordination et coopération, au moins sur ce plan particulier ? Ne peut-il y avoir intervention agissante de la part d'associations de bienfaisance et initiatives individuelles, qui viendront s'ajouter aux efforts des Etats ?

5°) Dernier point — et ce n'est pas le moindre —. Cette nation souffre de ses tensions et de ses contradictions internes plus peut-être que des entreprises extérieures. Dieu n'est pas injuste envers ses sujets. Nous reprochons à autrui de nous vouloir du mal, alors que le mal est en nous. Nous reprenons la génération actuelle, le temps, le 14ème siècle de l'hégire ou bien le 20ème siècle chrétien, alors que tous les défauts sont en nous. Et c'est Abou Attayeb al Moutanebbi qui disait : «Nous blâmons notre temps, et le mal est en nous. Le temps, à part nous-mêmes, n'est condamnable en rien».

De fait, est-ce que cette nation n'est pas en train de travailler elle-même à sa propre perte ? Ne cherche-t-elle pas à détruire sa maison de ses propres mains ? Et ses Etats, n'exposent-ils pas l'innocence de leurs enfants aux poisons et aux virus, avec les spectacles de débauche et autres turpitudes qui sont programmés par leurs organismes officiels, sous forme de films appelant à l'athéisme et à la dissolution des mœurs, ce qui incite les jeunes à la délinquance et les adultes au crime, comme nous en avons constaté, hélas ! des exemples dont nous pourrions citer les noms ?

Nous voudrions souligner ici, sans exagération aucune, que certains films projetés par les télévisions de nombreux pays islamiques poussent directement à la dissolution des mœurs, à l'athéisme, à la délinquance juvénile et au crime, tous maux qui vont généralement ensemble ou se suivent.

Ne profiterons-nous pas des expériences des Etats qui exportent en nos pays de tels produits ? Ou bien voulons-nous créer chez nous les mêmes problèmes dont souffrent ces Etats, sans que nous ayons pour autant les moyens qui sont à leur portée pour les résoudre ou en atténuer l'impact ?

Le journal «Le Monde» du 30 mars 1973 a révélé que les Etats-Unis dépensaient 750 milliards d'anciens francs par an pour combattre la délinquance et le crime.

Avons-nous le droit — pour le plaisir de boire du vin et de nous pâmer devant les films policiers et criminels — de dépenser pareilles sommes — si nous en disposons — et d'exposer notre société aux secousses et aux tempêtes ?

C'est là toute la question !

Un journal européen a relaté récemment le cas d'un Français qui a actionné en justice une compagnie aérienne parce qu'elle avait projeté dans l'un de ses appareils en vol un film contraire aux bonnes mœurs alors qu'il s'y trouvait en compagnie de sa petite fille.

Cette initiative peut apparaître à d'aucuns comme une sorte de rébellion contre l'ordre des choses, mais ne mérite-t-elle pas de notre part considération et respect ? Ou bien aimons-nous n'emprunter à l'Europe que les exemples négatifs, tant il est vrai que la pente est toujours douce et que l'homme est facilement enclin au vice ?

ROLE DES MOYENS D'INFORMATION

5°) Les mass media sont — selon ce que nous voulons en faire — un redoutable et gigantesque moyen de pénétration de tous les maux, ou des universités populaires plus complètes et plus efficaces que les autres, s'infiltrant jusqu'aux fins fonds des foyers. Comment concevons-nous leurs programmes et que désirons-nous qu'y apprennent nos enfants ? Que voulons-nous faire — par leur intermédiaire — de notre nation ?

Telles sont les questions que les musulmans devraient poser à leurs moyens d'information et à leurs responsables. Car le mal est général et profond pour la plupart des parties de notre nation qu'il nous a été donné de visiter ou dont nous avons lu et lisons encore les nouvelles alarmantes. Combien sont nombreux ces pays qui méritent le reproche et le blâme ! Et l'Algérie se trouve, hélas ! en tête du groupe !

La responsabilité n'aura pas de sens tant que dans le monde de l'Islam ne se dresseront pas face aux responsables des interrogateurs, et si meurt dans les âmes le sens du bien et du mal ; si disparaît l'esprit de l'incitation au bien et de détournement du mal ; si les hommes de religion se contentent d'émettre des fetwas approuvant après coup et de souhaiter, dans leurs prières, longue vie et prospérité aux responsables de l'heure ; si, enfin, les intellectuels et les artistes se satisfont d'enjôliver, de polir et d'applaudir !

VIVRE DANS L'EXIL

N'existe-t-il pas des films scientifiques, historiques, musicaux, éducatifs, d'un haut niveau, pour remplir les programmes et nourrir les esprits et que la famille réunie peut voir sans appréhension ni réserve ?

Il est des pays européens qui interdisent certains spectacles non seulement dans la rue, mais même sur leurs plages et dans leurs campagnes et réservent les punitions les plus sévères aux contrevenants.

Et nous voyons ces spectacles, nous, non seulement dans les rues de nombreux pays musulmans, mais ces images nous poursuivent jusque dans nos foyers et pénètrent au cœur des familles.

Au bout du compte, sommes-nous sincèrement musulmans ou bien des musulmans au titre de l'hérédité et de l'imitation ? Sommes-nous en Islam ou bien y sommes-nous affiliés seulement de loin par les souvenirs, par une sorte de filiation nobiliaire, à l'exemple des ducs, des marquis, des princesses, des enfants des rois, des patriciens et des Césars qui, déchus de leurs pouvoir et chassés de leurs pays, vivent dans l'exil et ne possèdent des royaumes de leurs pères et de leurs mères que le titre honorifique dont ils ont hérité ?

Permettez-moi de terminer ce «prêche» — comme le verraient certains — avec cet avertissement dont les Allemands n'ont pas tenu compte dans l'une des phases de leur Histoire, ce qu'ils ont amérement regretté par la suite, à savoir :

«Wehret den Anfaengen ! », autrement dit : «gare au commencement ! ».

RECOMMANDATIONS

DU 7ème SEMINAIRE POUR LA CONNAISSANCE DE LA PENSEE ISLAMIQUE

TIZI – OUZOU

10 - 23 djoumada II 1393

10 - 23 juillet 1973

(Ce texte n'est qu'une traduction, c'est l'original arabe qui fait foi)

RECOMMANDATIONS

DU 7ème SEMINAIRE POUR LA CONNAISSANCE

DE LA PENSEE ISLAMIQUE

TIZI-OUZOU

10 - 23 djoumada II 1393

10 - 23 juillet 1973

Les recommandations ont été lues par Messieurs :

- Dr. Abdelqahhar MOUDHAKKIR — Président de la 1ère commission
- Dr. Othmane AMINE, en l'absence du Dr. Abdelaziz KAMEL — Président de la 2ème commission
- Professeur Othmane AL-KAAK — Président de la 3ème commission
- Dr. Abderrahmane BAYSSAR, en l'absence du Prof. Mohamed AL-FASSI — Président de la 4ème commission
- Prof. Sidi Mohammad Youssef DJIRI — Président de la 5ème commission

PREMIERE COMMISSION

«L'esprit du droit musulman et la réalité de la législation aujourd'hui dans le monde musulman»

LES RECOMMANDATIONS

Au Nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux.

En préambule, le 7ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique réaffirme les points fondamentaux suivants :

1°) La loi islamique est valable en tout temps et tout lieu. Elle est le remède décisif à tous les maux dont souffrent les sociétés des pays islamiques.

2°) Chaque Etat musulman doit puiser sa législation de la loi islamique, toute latitude lui étant permise de se baser sur le rite adopté par son peuple.

3°) Les dirigeants musulmans ainsi que leurs savants qualifiés doivent conjuguer leurs efforts en vue d'un retour aux règles prescrites par le Coran et la Sunnah du Prophète.

4°) Le Coran est la source fondamentale de la loi islamique. Il constitue également la base de l'organisation des rapports tant entre les musulmans, qu'entre eux et les autres peuples.

La Sunnah explicite le Coran et l'héritage Salafi en donne l'exégèse.

5°) Les portes de l'IDJTIHAD restent ouvertes à ceux qui en sont qualifiés. En aucun cas cet Idjtihad ne peut aller à l'encontre d'un texte ou d'un consensus (Idjmaa) Il ne peut y avoir d'Idjtihad à propos d'une question donnée si le droit musulman avec ses différents rites peut y apporter une solution.

6°) Le système consultatif (CHOURAH) avec ses règles islamiques doit constituer la voie à suivre dans l'organisation du pouvoir.

LES RECOMMANDATIONS

1°) Oeuvrer à l'application des peines légales sauf dans les cas de présomption. Aucune peine légale ne peut être appliquée à moins d'un accord de tous les rites du droit musulman sur la question.

2°) Appliquer les peines entre personnes, (QISASS) les peines corporelles et les indemnisations de rachat (DIYYA).

Pour les cas envers lesquels les textes n'auraient prévu ni peine légale, ni Qisass, il y a lieu d'appliquer des sanctions correctionnelles : (TAAZIR).

3°) Institution d'un système socio-économique cohérent, indépendant et distinct des idéologies et système philosophiques étrangers. Ce système doit être fondé sur l'entr'aide et la solidarité sociales assurant des chances de promotion égales pour tous, et sur une économie excluant les rapports régis par l'intérêt produit par l'argent.

Le séminaire insiste fermement, et d'une manière toute particulière sur l'obligation d'interdire tout rapport économique basé sur l'intérêt produit par l'argent, sous quelque forme que ce soit, et ce, aussi bien entre les personnes qu'entre les entreprises.

4°) a - Les règles de droit concernant la famille, y compris leurs ramifications, ne peuvent être déduites que du droit musulman dans tous ses rites.

b - Le nombre des épouses toléré en Islam ainsi que la répudiation ne doivent pas être subordonnés à des conditions autres que celles prévues par la législation islamique.

5°) Elaboration de projets de codes, à partir de la législation islamique, appelés à se substituer aux codes étrangers tout en entreprenant sans délai l'application des lois islamiques.

6°) Les enseignements islamiques doivent être dispensés dans l'ensemble des instituts, écoles et universités. A charge pour les enseignements primaire et secondaire de réserver une attention particulière à l'instauration d'un climat sain et d'une éducation adéquate sur le plan pratique.

Dans l'enseignement supérieur, les différentes facultés devront inscrire dans leur programme, chacune selon sa spécialité, des matières telles que l'économie, la technique, la philosophie, l'histoire des sciences et des lettres, propres à l'Islam.

7°) Création d'une académie de droit musulman où seront représentés tous les rites en usage dans les pays musulmans, à condition que cette académie soit à vocation universelle et ne soit lié à aucun Etat.

8°) Elaboration d'une encyclopédie de droit musulman sous l'égide de cette académie.

9°) Faire renaître le patrimoine islamique dans tous les domaines.

DEUXIEME COMMISSION

Les complots ourdis contre l'Unité de la nation musulmane hier
et auxquels est confronté ce qui en reste aujourd'hui
de la part du sionisme et d'ailleurs,
et les moyens d'y faire face.

LES RECOMMANDATIONS

— Considérant que le principe de l'Unité Islamique constitue une base essentielle parmi les fondements de l'Islam qui lui accorde une importance extrême, au point qu'il considère l'IDJMAA (consensus) de la Nation sur un point donné comme un moyen de connaître la loi divine et qu'il tient comme une déviation le fait de s'en écarter.

— Considérant les solutions préconisées par l'élite de la conscience musulmane.

— Exprimant les vœux des peuples musulmans.

— Prévenant les dangers qui menacent la Nation Islamique.

— Répondant à l'appel des différents séminaires, congrès, assemblées islamiques qui ont proclamé la nécessité d'une action sérieuse et rapide en vue de réaliser cette UNITE, et qui ont insisté sur les multiples aspects des rencontres entre les peuples musulmans, tout en évitant d'y soulever des questions controversées ou de cautionner toute action allant dans ce sens.

Le 7ème Séminaire de la Pensée Islamique

R E C O M M A N D E :

1°) Que chaque pays musulman coordonne l'activité de ses divers organismes chargés de l'action islamique, en vue de faciliter les relations entre ces organismes et les organismes similaires existant dans d'autres pays.

2°) La création d'un «Conseil de la Nation Islamique» rassemblant les représentants des congrès, séminaires, unions, organes islamiques existant dans chaque pays.

Ce CONSEIL établira les projets et tracera les programmes adéquats pour promouvoir la Renaissance du Monde Musulman et faire face aux défis.

3°) La création d'un organisme exécutif issu de ce Conseil qui sera chargé d'appliquer ses décisions et d'en suivre les étapes. Parmi ses tâches figurera nécessairement celle qui consiste à réunir les documents ayant trait aux problèmes qui intéressent les musulmans dans les différentes régions du monde.

TROISIEME COMMISSION

L'activité des missionnaires et leur rôle
colonialiste et destructeur hier et aujourd'hui.
Les mesures à prendre contre ce danger.

LES RECOMMANDATIONS

A) Les considérants :

1°) Considérant que les pays musulmans sont devenus indépendants à l'issue de la deuxième guerre mondiale, alors qu'ils se trouvaient sous le joug de régimes colonialistes ouverts ou déguisés et que les adversaires pensaient qu'il n'existait plus de force politique, idéologique ou morale à travers le monde.

2°) Considérant que ces pays disposent, au premier chef, d'énergie de civilisation de premier ordre (pétrole, gaz, matières premières d'alimentation et de construction.

3°) Considérant que ces pays détiennent la maîtrise de certaines voies maritimes et stratégiques de première importance.

4°) Considérant que cette situation inspire la crainte aux adversaires, aux rivaux et aux envieux, qu'ils soient des personnes, des groupes, des communautés religieuses, idéologiques ou autres.

5°) Considérant que cette conjoncture fait que les dits adversaires projettent de combattre les pays musulmans par tous les moyens et de s'allier contre eux en saisissant tous les prétextes et en usant de tous les stratagèmes et ce, en déchaînant une campagne générale et violente dans le domaine de l'activité missionnaire.

6°) Considérant que celle-ci revêt divers aspects, religieux, idéologiques, ou sociaux qui menacent la vie de notre culture, de notre mission universelle de civilisation, et qui détruisent l'individu et le groupe familial et constituent par là même une menace pour la survie de la nation islamique toute entière.

7°) Considérant que cette activité tend, au premier chef, à abolir, diminuer ou défigurer les valeurs propres de la nation islamique, et vise, d'une manière précise, les minorités et les grandes puissances musulmanes, en sapant leurs institutions, en semant le doute sur chaque élément qui en constitue la base, en utilisant dans ce but la tromperie, les arguments fallacieux, les rumeurs, ainsi que tous les moyens audio-visuels d'information (presse écrite et orale) qu'ils soient apparents ou clandestins.

B) Documents :

Après avoir entendu les communications faites à ce sujet ainsi que les discussions et commentaires qui en ont précisé et éclairci le sens et la portée.

C) Recommandations :

Compte tenu de tous ces éléments et des sources et documents qui s'y rapportent, la commission ad hoc recommande :

1ère Recommandation :

Il est du devoir des gouvernements et peuples islamiques de prendre conscience de ce danger mortel et de faire preuve de vigilance. Ils doivent mettre fin d'une manière ferme aux causes qui le provoquent : organismes de missionnaires, établissements scolaires étrangers menant sournoisement ou ouvertement une propagande contre l'Islam ; publications subversives locales ou importées ; organes d'information clandestins ou déclarés qui distillent le poison, livres de propagande et slogans importés, etc... Tout ceci est élaboré d'une manière déterminée et exhaustive, après des études techniques complètes se référant à des documents précis, en étendue et en profondeur.

2ème Recommandation :

Nous devons prendre garde aux immigrants étrangers en direction de pays musulmans lorsque leurs membres opèrent, à l'occasion de l'enseignement ou des causeries qu'ils dispensent ou du travail qu'ils accomplissent, une œuvre de destruction visant à saper par tous les moyens les pays d'Islam. Nous appelons également les gouvernements islamiques à n'accorder leur nationalité à tout étranger, quel qu'il soit, qu'après s'être assurés qu'il a embrassé la religion musulmane et qu'il l'a pratiquée pendant une période suffisamment longue pour prouver qu'il ne nourrit aucune intention subversive à l'égard de la société musulmane. Nous pensons que les premiers pays islamiques qui devaient appliquer cette initiative sont ceux de la presqu'île arabique, conformément aux principes établis par le Prophète (sur Lui la prière et la bénédiction) puisqu'il a dit qu'une seule religion doit exister en terre d'Arabie.

3ème Recommandation :

Protéger les musulmans émigrés : en créant des mosquées, des centres de prédication, des écoles ; en diffusant des journaux et des livres contenant des rectifications aux erreurs ; en organisant pour les fils et filles d'émigrés des voyages au pays d'origine, en vue de leur permettre de s'abreuver aux sources des valeurs musulmanes authentiques et de vivre un certain temps dans une atmosphère islamique.

4ème Recommandation :

Instituer des écoles pour les parents pour qu'ils soient au courant des dangers qui les menacent, eux et leurs enfants ; qu'ils sachent ce que représentent l'Islam authentique et sa mission historique ; qu'ils apprennent les méthodes d'éducation qui sont à l'origine de la formation de l'enfant au sein de sa famille, se doter d'une manière minutieuse en moyens de détection des germes destructeurs et des tentatives d'avilissement des valeurs.

5ème Recommandation :

Organisation de la jeunesse islamique, de manière à la prémunir contre les propagandes destructrices et génératrices du doute et de la perplexité.

6ème Recommandation :

Soutien de l'agence de presse islamique mondiale en l'alimentant par des moyens d'information proprement islamiques, qui rapporteront les nouvelles du monde musulman, que ce soit dans les pays musulmans souverains, ou dans les pays où sont implantées des minorités musulmanes, et ce, avec toute la diligence désirable, afin de porter un prompt secours, au moment psychologique, aux situations nécessitant une intervention immédiate, avant qu'il ne soit trop tard.

7ème Recommandation :

Elaboration d'un recueil de statistiques concernant le monde musulman, contenant les informations précises sur chaque pays et chaque minorité, en se basant sur les données les plus récentes et les plus sûres.

8ème Recommandation :

Préparation d'un index général qui servira de document de base et d'instrument indiquant les modalités d'utilisation et les objectifs du recueil.

9ème Recommandation :

Préparation d'une série de livres populaires, présentant dans chaque volume un pays musulman ou une minorité musulmane, afin de permettre aux musulmans une connaissance mutuelle.

10ème Recommandation :

Traduction d'ouvrages à caractère objectif écrits par des penseurs étrangers impartiaux, et traitant de la mission civilisatrice islamique mondiale, sur les plans des sciences, des lettres, des arts et de la culture.

11ème Recommandation :

Création de chaires dans le plus grand nombre possible d'Universités islamiques, qui seront consacrées à l'histoire des sciences, des lettres, des arts, de la philosophie, chez les musulmans, et l'influence qu'ils ont exercé sur l'évolution de l'Europe et de l'Amérique.

12ème Recommandation :

Délégations de missions d'enseignement auprès des minorités musulmanes, dans les différents pays, pour prendre en charge l'instruction et l'éducation de leurs enfants.

13ème Recommandation :

Formation adéquate des enseignants envoyés vers les pays musulmans, de manière à ce qu'il soient en mesure d'assumer la tâche de l'enseignement islamique, des langue et littérature arabes et de coopérer, bénévolement ou contre rétribution, en s'intégrant dans le corps enseignant local.

14ème Recommandation :

Elaboration de collections de livres simplifiés en langues islamique locales, mettant en relief les vertus, les principes, et les hauts faits de l'histoire de l'islam et de sa mission civilisatrice.

15ème Recommandation :

Création d'un ou de plusieurs instituts d'enseignement de langues islamiques africaines et asiatiques, ainsi que des langues d'autres nations, dont l'acquisition facilitera l'introduction de l'islam auprès d'elles, permettant ainsi l'établissement d'une liaison efficace et directe.

16ème Recommandation :

Création d'instituts islamiques authentiques destinés à préparer une jeunesse islamique saine, enthousiaste et militante.

Ces instituts seront pourvus d'informations et de documentation en provenance des ressortissants de pays islamiques qui ne disposent pas ou ne peuvent disposer d'instituts islamiques dignes de ce nom.

17ème Recommandation :

Révision des programmes d'enseignement et des manuels scolaires et principalement en histoire, afin de les épurer des concepts étrangers à l'islam, et des notions mensongères et tendancieuses qui le déprécient et en dénaturent le visage.

18ème Recommandation :

La commission propose que toutes les rencontres islamiques inscrivent dans leur ordre du jour le problème de la lutte contre l'activité missionnaire, les courants athées, les hérésies destructrices telles que le Qadianisme, l'Ahmadisme, le Bahaïsme etc...

19ème Recommandation :

La commission demande aux gouvernements des pays musulmans de mettre fin à l'activité des missions religieuses en pays musulman et d'interdire la diffusion de leurs publications diverses auprès des peuples islamiques.

20ème Recommandation :

La commission préconise la diffusion de la langue arabe auprès des musulmans dans les pays islamiques non-arabes, par l'intermédiaire de livres pour les enfants et les adultes conçus selon les méthodes pédagogiques scientifiques et répondant à la terminologie islamique en usage dans chaque pays musulman.

21ème Recommandation :

La commission souligne enfin l'importance des travaux accomplis par les séminaires de la pensée islamique, ainsi que les résultats théoriques et pratiques enregistrés sur les plans de la clarification et de l'affranchissement idéologiques.

Elle exprime sa gratitude au Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses et à sa tête le frère Mouloud KASSIM, ainsi qu'au gouvernement de la République Algérienne Démocratique et Populaire, pour leur chaleureux accueil, l'excellente organisation de ce séminaire, et le choix des thèmes qui exposent les problèmes du monde musulman.

Souhaite le renouvellement continu de ces rencontres afin d'apporter une solution aux problèmes du monde musulman.

QUATRIEME COMMISSION

Les dangers d'isolement et d'assimilation
auxquels sont exposés les enfants des communautés musulmanes
dans l'émigration et le devoir des Etats musulmans à leur égard.

LES RECOMMANDATIONS

La 4ème commission issue du 7ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée islamique, après avoir entendu et étudié avec soin les conférences de Messieurs les Docteurs : Mohammad INAN, Mohammad Abderrahman BISSAR, Larbi ZOUBIRI, ainsi que les discussions et remarques qui ont suivi ces exposés,

CONSIDERANT :

Les menaces qui pèsent sur les communautés musulmanes à l'étranger, du fait de leur isolement et des périls d'assimilation.

L'absence de toute organisation islamique officielle s'occupant des communautés musulmanes sur les plans matériel et moral.

L'absence des moyens suffisants pour faire face aux dangers des missionnaires, des charlatans et des semeurs de doute.

Les dangers qui menacent les minorités musulmanes exposées au racisme et à la persécution ; la nécessité de défendre leurs droits humains et de leur permettre d'exercer le culte de leur religion et de préserver leurs valeurs spirituelles.

RECOMMANDE :

1°) La création d'un organisme islamique, chargé de s'occuper des questions spirituelles, matérielles et éducatives des communautés musulmanes à l'étranger. Cet organisme sera composé de représentants de tous les Etats islamiques.

2°) Création de services (bureaux) auprès de chaque ambassade islamique, chargés plus particulièrement de ces problèmes, afin de préserver les émigrés musulmans des dangers de l'isolement et de la fusion dans les sociétés non-musulmanes.

3°) Création de centres islamiques dans les pays étrangers où la communauté musulmane est nombreuse. Ces centres seront placés sous l'égide des ambassadeurs musulmans auprès des dits pays. Ils s'occuperont des aspects culturels et de l'éducation islamique afin de permettre à nos émigrés de conserver leurs valeurs propres et leurs idéaux et de les protéger contre les dangers des missionnaires, et des campagnes athées visant à ébranler leur foi.

4°) Création d'un organisme islamique indépendant qui sera soutenu par les Etats et organisations islamiques. Cet organisme aura pour tâche de s'occuper des minorités musulmanes ; de les protéger contre les persécutions racistes ou religieuses et de les aider à améliorer leur sort par tous les moyens possibles. Il aura en même temps un rôle de coordinateur entre les autres institutions qui existent déjà et qui se préoccupent des intérêts des minorités islamiques.

5°) Il sera demandé aux gouvernementsdes pays d'accueil d'aider les musulmans résidant sur leur territoire à élever leurs enfants et à les éduquer conformément aux principes de leur religion et à tous les impératifs des composantes de leur personnalité.

Se basant sur cette recommandation, la quatrième commission estime que les Etats islamiques devraient conclure des accords culturels avec les Etats où vivent des minorités islamiques, afin de permettre à cet organisme de remplir son devoir à leur égard dans le domaine de la culture islamique, de la sauvegarde de leurs droits humains, de l'exercice du culte religieux et de leurs rapports avec leurs coreligionnaires ainsi que de leur participation à toute activité au service de l'Islam et des Musulmans à travers le monde.

6°) Nous demandons aux gouvernements islamiques d'intervenir auprès de l'Organisation des Nations Unies, en tant que protectrice des droits de l'homme, afin qu'elle agisse à son tour pour préserver les minorités musulmanes contre les dangers de la persécution raciale, confessionnelle et doctrinaire menaçant les Musulmans minoritaires dans de nombreux pays. Cette protection éviterait de déchaîner des réactions légitimes qui exposeraient les relations internationales à une perturbation dont l'humanité n'a nul besoin.

7°) Le 7ème Séminaire salue la décision du gouvernement algérien de créer en France, un Office Culturel chargé d'enseigner la langue nationale aux jeunes émigrés algériens ou musulmans d'une façon générale et d'avoir institué en Europe par la voie du Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses une Inspection dont la mission est de veiller aux intérêts spirituels et éducatifs de la communauté algérienne et islamique en général.

8°) Le 7ème Séminaire, en rendant hommage à ces deux initiatives algériennes et à celles qui ont été prises ou le seront par les autres Etats islamiques, souligne la nécessité de coordonner ces efforts afin qu'ils ne soient pas dispersés et qu'ils puissent porter les fruits souhaités.

CINQUIEME COMMISSION

"Le rôle des maas-media, tout particulièrement la presse, le cinéma et la télévision dans l'édification ou l'auto-destruction de ce qui reste de la nation musulmane sensée être en pleine bataille et récupération d'elle-même, et la responsabilité de ces organes dans la lutte contre l'athéisme, la délinquance juvénile, la criminalité même, et la dissolution des mœurs ou la propagation de ces maux."

LES RECOMMANDATIONS

Considérant l'étape historique difficile que traverse la nation islamique face à la guerre psychologique, sociale, culturelle, idéologique, économique et politique, et aux assauts déclenchés par les forces hostiles au monde musulman.

Considérant le rôle redoutable que joue l'information, avec ses moyens puissants illimités, dans l'orientation de l'opinion, sa formation et sa création même.

Considérant les dangers menaçant la société musulmane du fait des appareils d'information dont disposent le sionisme, la "nouvelle croisade" le capitalisme et le communisme, tendant à dénaturer les valeurs islamiques, à propager la dépravation et à nourrir le vice, la criminalité, la violence et à semer le doute dans tous les milieux sociaux et plus particulièrement auprès des jeunes.

Considérant les maux dont souffre notre société sur le plan de la dissolution des mœurs, de la déviation dans le domaine des idées, de la morale (costume, comportement), tendances répandues d'une façon alarmante dans la plupart de nos classes sociales et provoquées par les organes d'information (presse, agences de presse, cinéma, télévision, radio, théâtre, maisons d'édition) conséquence du suivisme et de l'imitation servile.

Considérant que ces périls visent, au premier chef, la destruction de la société islamique, au détriment de toute valeur morale, le Septième Séminaire de la Pensée Islamique,

RECOMMANDE

1) La nécessité de faire apparaitre par les divers organes d'information, la réalité de la foi musulmane et de l'Islam, d'une manière claire et purifiée, en utilisant un langage moderne et basé à la fois de l'ouverture et l'authenticité. Il recommande de présenter la culture et la pensée islamique avec la profondeur propre au style traditionnel et l'attrait artistique qu'offrent les moyens et possibilités modernes, en recherchant les meilleures voies d'influence et de persuasion.

2) De faire connaître l'Islam et les divers aspects de la foi, du rituel, des relations humaines, tout en s'efforçant de simplifier et de mettre en relief leur grandeur et leur richesse ainsi que leur influence, si grandes dans la civilisation européenne ; de montrer leur aptitude à être considérés comme un code parfait dans les différents domaines de la vie.

3) La nécessité de s'intéresser aux grands problèmes de l'héritage culturel des musulmans en traitant les sujets se rapportant à la vie du Prophète. Il faudrait en même temps rectifier les points de vue sur notre histoire et la protéger contre la falsification, tout en accordant à la pureté de la langue arabe une place de choix dans ces préoccupations.

4) Nécessité d'affronter les tentatives d'invasion culturelle et les vagues d'athéisme qui s'abattent sur la pensée et l'esprit des musulmans. Il faudrait opposer à ces fléaux, d'où qu'ils viennent, une pensée islamique véritable, sans pour cela observer constamment la défensive, car les appareils d'information islamique et les appareils de contact avec les foules devraient être en mesure de prendre l'initiative dans tous les domaines.

Pour arriver à ces résultats le Septième Séminaire appuie sur les points suivants :

1) La nécessité de voir tout appareil d'information islamique (que ce soit sur le plan national ou celui d'institutions adéquates) agir selon un plan général dont les buts tendent à servir la cause de l'Islam.

2) Nécessité d'augmenter en quantité les matières traitées par les organismes d'information (accroître les surfaces consacrées dans la presse aux questions islamiques, augmenter la durée des programmes islamiques diffusés par les postes de radio et de télévision ou présentés par les cinémas, les théâtres ou autres) tout en élevant le niveau des matières traitées et en veillant à leur tenue artistique.

3) Nécessité de les utiliser pour élargir la base de la culture islamique et remplir un rôle à la fois positif et actif sur le plan scolaire et universitaire et dans le domaine de l'enseignement pour adultes, de la lutte contre l'analphabétisme, l'obscurantisme et la superstition.

4) Le 7ème Séminaire estime qu'il est nécessaire d'établir un code de déontologie en matière d'information, par lequel les personnes qui appartiennent à cette activité seront obligées d'observer les valeurs, les principes et les traditions du vrai Islam, tout en s'engageant à combattre, par tous les moyens, ce qui porte atteinte à la société musulmane.

Ils ne se contenteront pas d'attendre les instructions qu'ils pourraient recevoir en cette matière, mais devront agir spontanément selon leur conscience et le sentiment qu'ils ont de leur responsabilité.

5) Pour que les appareils d'information remplissent parfaitement leur tâche, il faut qu'ils soient placés sous l'autorité d'hommes sûrs, animés par la foi et choisis par les penseurs musulmans.

Il est également nécessaire de créer des instituts islamiques d'information, dans les différents pays, afin de former dans ce domaine, des hommes spécialisés dans toutes ces techniques, ayant confiance en des principes vrais et sincères et considérant leur activité comme un devoir religieux et non comme un simple travail de routine. Ces agents doivent être instruits, expérimentés, capables d'accéder à tous les niveaux de la culture islamique et de présenter des productions de bonne qualité, avec un certain attrait qui les fasse aimer par le public. D'un manière générale, l'opinion des membres de ce septième séminaire est que la presse des pays musulmans a dépassé toute mesure dans la diffusion des nouvelles «excitantes» ou ayant trait aux crimes ou aux sujets dénués de sens.

C'est pourquoi ils demandent aux responsables de la presse de mettre fin à cet état de choses et de s'intéresser aux nouvelles ou questions qui consolident l'unité du monde musulman. Si le fait de publier des «nus» et devenu un danger dans certains journaux, le fait de diffuser des mots «crus» constitue en lui-même un danger plus grand.

Car le journaliste doit être, en pays musulman, une vraie mission et non point un négoce.

Les membres du Séminaire demandent instamment que l'Agence de Presse Islamique soit appuyée, aidée, et que les journaux et radiodiffusion islamique éliminent toutes matières en provenance d'agences de presse colonialistes ou étrangères qui essayent de nuire à l'Islam ou aux musulmans.

Ils demandent aux journaux et revues islamiques de publier des numéros spéciaux sur l'Islam, ses grandes dates et ses personnalités, d'ouvrir leurs colonnes aux savants, aux penseurs et spécialistes des questions musulmanes, afin de profiter de leur savoir et de leur expérience.

1) Il convient également d'augmenter le nombre de journaux et revues islamiques et de les faire paraître sous un aspect qui puisse attirer les masses.

Enfin, il faut créer des revues pour les enfants.

2) Le 7ème Séminaire enregistre avec satisfaction l'intérêt que portent certaines radios islamiques aux questions religieuses et le soin qu'elles mettent à présenter des programmes orientés vers un but utile. Il déplore par contre le fait que d'autres pays musulmans aient exagéré dans la diffusion de programmes superficiels et de chansons vulgaires et nuisibles aux auditeurs.

Il faudrait donc s'occuper beaucoup plus de sujets sérieux, augmenter la durée des programmes religieux, surtout ceux consacrés à la jeunesse musulmane.

De cette manière, la radiodiffusion musulmane aura rempli convenablement son rôle au service de la cause de l'Islam. Tout pays musulman devrait consacrer une chaîne ou plus à la propagation de l'Islam. Les Etats devraient étudier le projet de création d'une station islamique puissante, émettant dans toutes les langues vivantes et dans les langues parlées par les peuples musulmans.

Afin de permettre au cinéma et à la télévision de remplir parfaitement leur tâche, il est nécessaire de créer une société de films qui conjuguerait les efforts et les moyens des musulmans et présenterait des productions convenables et susceptibles d'être montrées dans de très nombreux pays. Une telle initiative serait certainement couronnée de succès.

3) Dans le domaine du théâtre, il faudrait interdire toutes les pièces insignifiantes ou traduites lorsqu'elles servent la cause colonialiste, encourager les œuvres sérieures s'inspirant de l'histoire de l'Islam .

4) Procéde à des échanges inter-islamiques afin de profiter de toutes les expériences et des programmes de chaque pays.

5) Interdire l'édition et la diffusion de livres ou sujets traités lorsqu'ils encouragent l'athéisme et la subversion, il serait excellent d'encourager par contre la publication des œuvres héritées de la civilisation islamique.

6) Créer des organismes de contrôle composés par des éléments de haute valeur morale et scientifique qui n'admettent aucune indulgence lorsqu'il s'agit de productions qui portent atteinte à la religion, à la conscience et aux valeurs morales.

7) Le 7ème Séminaire déplore l'attitude négative qu'adopte la plupart des organismes d'information en pays musulmans, lorsqu'il s'agit de rendre compte des activités de congrès consacrés à l'Islam. Il appelle ces organismes à accorder le maximum d'attention à ces assemblées, conformément au sentiment d'honneur qui devrait les animer alors qu'il s'agit de défendre l'Islam et les intérêts de ses adeptes.

8) Le Séminaire recommande la tenue d'un congrès rassemblant les ministres d'information des pays islamiques.

Les rédacteurs en chef et les responsables de la presse islamique y seraient conviés pour échanger leurs points de vue sur les problèmes d'information islamique. Il recommande également que leur soient communiquées les recommandations et décisions du 7ème Séminaire de la Pensée Islamique.

Les membres de ce Séminaire attendent avec impatience le jour où, dans un proche avenir, sera créée en faveur du monde musulman, une information islamique puissante, au service de la foi ; une information qui progresse dans la voie droite de l'Islam ; une information qui accorde de l'importance aussi bien à l'essentiel qu'à l'aspect extérieur, à la forme qu'au fond ; une information qui serve la masse des peuples musulmans selon un style qui s'accorde avec le dogme et la loi islamiques.

ALLOCUTION DE CLOTURE DU VIIème SEMINAIRE
DE LA PENSEE ISLAMIQUE

par M. Mouloud-Kassim NAIT BELKACEM

SEMINAIRE DU CONSENSUS

«Au Nom de Dieu, le Clément, le Miséricordieux. Que Son Salut et Sa Bénédiction soient sur Son Prophète».

Messieurs les distingués professeurs,

Mesdames et Messieurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes.

Après treize jours de travaux continus, nous voici arrivés au terme de ce 7ème Séminaire pour la Connaissance de la Pensée Islamique, que nous appellerons désormais «Séminaire de la Pensée Islamique».

Nous avons tous recueilli les fruits des conférences fertiles qui ont donné lieu à des commentaires et à des débats non moins enrichissants et qui invitent avec insistance à la réflexion. Nous en remercions Messieurs les professeurs qui ont accepté pour cela les fatigues du voyage et nous les félicitons pour ce qu'ils ont semé, ainsi que pour les services qu'ils ont rendus, et les profits mutuels qu'ils ont retiré les uns des autres.

Messieurs les distingués professeurs,

Frères étudiants, sœurs étudiantes.

Nous avons vécu des journées marquées par une atmosphère hautement fraternelle et, si le sentiment s'y est donné parfois libre cours, la raison a prévalu le plus souvent. Il se peut, d'ailleurs, que dans le feu des débats ouverts délibérément à tous, et dans la chaleur de Tizi-Ouzou, assez forte d'ordinaire, et qui a augmenté avec le Séminaire, beaucoup d'entre nous n'aient pas appréhendé toutes les dimensions de ce grand évènement islamique, qu'ils n'en aient pas saisi toute l'importance ni imaginé tout ce qui peut en résulter pour notre grande nation islamique !

Certes, des réunions et des assemblées se sont tenues entre des savants musulmans dans de nombreuses occasions et dans des capitales diverses de notre vaste monde islamique. Mais c'est, peut-être, la première fois dans notre époque moderne que des hommes appartenant à l'ensemble des rites islamiques se rencontrent en un séminaire commun, pour échanger leurs points de vuesur le destin unique de la nation unique !

Sois donc félicitée, ville de Tizi-Ouzou, puisqu'il t'a été donné d'accueillir et de réunir les docteurs malékites, zaïdites, chiîtes, ibadites, hanéfites, chaféïtes, hanbalites et dhahirites, qu'aucun d'entre eux n'ait été absent du rendez-vous, que tous aient répondu à ton appel, animés de bonne volonté et pourvus de viatique substantiel, et pour avoir été enfin aux oulama de l'Islam à la fois un lieu de rassemblement et une mosquée universelle !

Ils ont examiné à l'ombre de tes murs les causes de la loi islamique commune à tous, et se sont accordés sur la nécessité de ramener la nation, grâce à cette loi, vers la voie droite et clairement tracée, en conformité avec la lettre des textes et avec la raison. Ils ont fortifié l'édifice en consolidant ses bases et ont fait en sorte que le toit protège la maison et la préserve de l'opprobre et de la destruction, laissant, à cette condition, les portes de l'idjtihad largement ouvertes !

Vous vous êtes préoccupés au plus haut point du problème de l'unité islamique. et des manœuvres et complots auxquels elle a été exposée hier et qui ont failli sonner le glas de la nation islamique. Vous avez préconisé des mesures préparatoires destinées à ramener l'unité spirituelle qui a été hier le facteur décisif de l'unité totale.

Vous avez accordé la plus grande attention au problème des missions religieuses dites «d'évangélisation» et, d'une manière générale, à la question de la pénétration des masses, et plus particulièrement de la jeunesse, sur laquelle se concentrent les efforts des différents milieux idéologiques, aussi bien chrétiens que sionistes, athées ou prônant la déviation des mœurs. Vous avez recommandé aux responsables des pays musulmans de prémunir la Oumma contre cette entreprise d'égarement planifiée et pourvue d'un potentiel considérable et moderne de séductions, qui ont le plus d'influence, notamment sur les jeunes, et singulièrement sur la femme, cette épine dorsale de la famille, et, partant, la base de la nation.

Votre souci n'a pas été moindre, s'agissant des communautés et des minorités islamiques ou dénommées telles. Vous avez fortement insisté sur la nécessité de les protéger et de les garantir, ici, contre la désintégration et l'assimilation, et de les sauver, là, contre l'extermination et l'extinction, étant une partie indivisible de notre nation, sans parler des considérations strictement humanitaires qui doivent être respectées par toute conscience.

Est-il maintenant possible à toutes ces mesures et à tous les efforts d'édification qui s'accomplissent un peu partout d'avoir un effet positif et un résultat tangible, tant qu'il n'est pas mis résolument et définitivement un terme aux moyens de désintégration et d'extermination spirituelle collective qui sont dirigés à l'encontre de collectivités islamiques entières et, partant, de la Oumma toute entière, lesquels moyens sont représentés par les voies actuelles des organes de l'information et des mass media, c'est-à-dire la presse, la radio, le théâtre, le livre, et, particulièrement, LE CINEMA ET LA TELEVISION, avec leurs productions mortelles pour les sociétés et les nations, tant elles incitent à l'athéisme, à la dissolution des mœurs, à la délinquance juvénile et au crime ?

Prendra-t-on en considération vos conseils tendant à permettre à ces rouages d'assumer leur rôle véritable qui est la formation et l'orientation saines et authentiques?

De telles recommandations sont énoncées, à notre connaissance, pour la première fois à l'échelle du monde musulman. De leur application, nous espérons un remède à beaucoup des maux dont souffrent nos sociétés islamiques, et un nouvel élan pour rattraper et récupérer ce qui a été perdu, et réaliser la société honorable à laquelle tend l'humanité entière et que l'Islam nous invite à promouvoir.

Messieurs les distingués professeurs,
Mesdames et Messieurs,
Frères étudiants, sœurs étudiantes.

Je pense que vous avez tous ensemble accompli un travail considérable qui aura des résultats efficaces. Qu'il me soit permis de remercier encore une fois Messieurs les distingués professeurs qui ont sacrifié une partie de leurs vacances estivales, et plus particulièrement les âgés d'entre eux — que Dieu nous prolonge leur vie —, afin d'être utiles à tous. Ces remerciements sincères, qui n'ont d'égal que la probité profonde et la pureté de l'intention, je voudrais qu'ils intercèdent auprès de vous tous pour toute rudesse ou fermeté dont j'aurais fait preuve afin de faire régner l'ordre et la discipline et d'assurer le succès de ce séminaire, qui est le séminaire de tous, dans l'intérêt de la grande nation islamique et de l'humanité.

Je voudrais, enfin, remercier en votre nom à tous la Wilaya de Tizi-Ouzou, population et autorités, pour le chaleureux accueil qu'elles nous ont réservé, pour l'hospitalité généreuse dont elles nous ont comblés et pour la bienveillance et les soins dont elles nous ont entourés, toutes choses qui ont contribué largement au succès du Séminaire. comment oublier les marques de sympathie et de sollicitude qui nous ont été témoignées tout au long de nos déplacements et de nos périples, et je voudrais citer en particulier les populations de la cité de Tizi-Ouzou, de Cheurfa, d'Ighil Bamas, Beni Yenni et Bouadnane, qui ont ajouté au Séminaire une dimension supplémentaire inestimable !

Je ne terminerai pas cette courte allocution sans remercier nos frères des mass media ici présents qui ont déployé tous leurs efforts pour garantir au séminaire un prolongement là où il est indispensable, ainsi que les frères de la Présidence, des Affaires Etrangères, de l'Académie de Tizi-Ouzou, et tous ceux qui ont contribué, de près ou de loin, à l'accomplissement de la mission de ce Séminaire.

Comme je vous remercie et vous félicite, sœurs étudiantes, pour la bonne conduite et la discipline dont vous avez fait preuve, pour votre souci de vous instruire, et pour avoir contribué de manière effective aux débats pour donner à ce séminaire son visage authentique. Quant à vous, frères étudiants, je vous félicite pour la maturité et l'attention qui sont apparues dans vos questions, et, si nous avons été parfois durs avec certains d'entre vous je ne pourrais que conseiller aux organisateurs des futurs séminaires d'être avec vous encore plus fermes et plus attachés à la discipline dans votre intérêt et pour le bien de la nation.

Et puisqu'il est de tradition de déplacer le Séminaire chaque année d'une wilaya à une autre nous vous donnons rendez-vous pour le 8ème Séminaire dans la Wilaya de Sétif.

Ce sera plus précisément à An-Nassirya, capitale d'Annasser Ibn Illinas le Hammadite, cette cité qui, bien des siècles avant Paris, a été la Ville Lumière, a sillonné les mers avec ses flottes, suscité l'admiration de l'humanité avec ses Palais Ballara et Lou'lou'a, où se réunissaient rois et savants en présence du peuple, innondé cette humanité de ses sciences et arts, et éclairé l'Europe et le monde avec ses Universités et ses bougies : BIDJAIA !

COMMUNIQUE

8ème Séminaire de la Pensée Islamique

Le Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses organise à Bidjaïa (Bougie), du 01 au 12 rabiâ al awwal 1394 (25 mars au 5 avril 1974), le 8ème Séminaire de la Pensée Islamique, à l'intention des étudiants et étudiantes et des élèves des classes de première et terminale des Universités et lycées d'Algérie et d'ailleurs.

Des enseignants et autres fonctionnaires ayant le niveau sus-indiqué peuvent y participer dans la limite des places disponibles.

Le régime du Séminaire est l'internat. Cependant, les séminaristes qui le désireraient pourraient être admis en externat.

Les frais de séjour et de déplacement, à l'intérieur du territoire national, dans le cadre du Séminaire, seront pris en charge par le Ministère. Pour les Séminaristes venant d'Europe, le Ministère prendra en charge, en plus du séjour, leurs frais de voyage aller-retour par bâteau à partir de l'un des ports méditerranéens. Une contribution symbolique n'excédant pas cinquante Dinars sera demandée aux participants. En seront dispensés ceux et celles venant de l'extérieur du pays et ceux et celles résidant à Bidjaïa.

Les candidats devront joindre à leur demande un certificat de scolarité ainsi qu'un certificat médical.

D'éminents professeurs et chercheurs d'Algérie, du monde de l'Islam en général et d'autres pays seront invités à ce Séminaire pour faire des conférences et animer des débats entre eux en présence des Séminaristes et avec leur participation.

Les demandes de participation doivent être adressées à la Direction de la Recherche Islamique, Sous-Direction des Séminaires, Ministère de l'Enseignement Originel et des Affaires Religieuses — 4, rue Timgad, Hydra, Alger.

En prenant le soin de préciser sur un coin de l'enveloppe SEMINAIRE.

Le dernier délai d'envoi des demandes de participation sera le 07 moharram 1394 (31 janvier 1974), le cachet de la poste faisant foi.

L'ordre du jour du Séminaire sera le suivant :

1°) Situation des minorités et des communautés d'émigration en général et musulmanes en particulier dans divers pays des cinq continents et le devoir des savants, penseurs et hommes des mass-media à leur égard.

2°) Rôle du penseur à travers les âges, et particulièrement aujourd'hui, dans sa nation et à l'égard de l'Humanité, de ses problèmes de l'heure et de ses perspectives d'avenir.

3°) Contribution de Bidjaïa (Bougie) la Hammadite à la pensée et à la civilisation islamiques et universelles - Causes et effets de sa décadence.

4°) Contribution de la pensée et de la civilisation islamiques dans les divers domaines des sciences et des arts et du patrimoine humain en général. Facteurs de leur épanouissement. Causes de leur décadence et conditions de leur renaissance.

5°) Authenticité et ouverture. Que signifient-elles ? Sont-elles conciliables ? Degré d'importance de cette conciliation dans le monde d'aujourd'hui pour l'individu et la société et pour le sort de l'Humanité toute entière.

DU CONGRES DE BAKOU AU SOMMET D'ALGER

par Paul BALTA

Le 18 avril 1955 à Bandoung, le Tiers-monde avait fait une entrée spectaculaire sur la scène internationale : face à un Occident encore sûr de lui et dominateur, une trentaine de pays d'Asie et d'Afrique avaient alors affirmé leur volonté d'être partie prenante dans les affaires du monde contemporain. Si l'on a parlé de «l'esprit de Bandoung» c'est que cette conférence en mettant l'accent sur la nécessité de la libération nationale, avait marqué la renaissance politique de l'Orient et avait été, par la même, un «tournant de l'histoire».

Le 9 septembre 1973, à la clôture de la IVème Conférence au Sommet des Non-alignés on pouvait déjà, pour différentes raisons, parler de «l'esprit d'Alger». Tout d'abord, à cause de la maitrise apportée dans l'organisation de ces assises. Pour un pays indépendant depuis onze ans seulement, la réussite matérielle ne pouvait manquer d'avoir une résonance politique et morale et de prendre valeur d'exemple : elle confirmait à la fois, l'œuvre d'édification accomplie dans le pays hôte et la rentabilité des efforts consentis. Plus, que tout, sans doute, cette réussite démontrait que le sous-développement n'est pas une tare congénitale mais un phénomène historique que la volonté soutenue des Etats et des peuples peut dominer.

Comment ne pas évoquer à ce propos, ce que nous disaient des Québécois, il y a quelques années, lors de l'exposition universelle de Montréal : «Organiser cette gigantesque manifestation, avec toute l'infrastructure matérielle et humaine qu'elle suppose, était pour nous capital. Capital parce que les Canadiens anglais n'avaient cessé de nous répéter, depuis plus d'un siècle que nous n'avions pas le sens de l'organisation, que la technique et le management se pensaient en anglais, que le français était tout juste langue de culture et de littérature, que les Canadiens français étaient des agriculteurs ou des juristes, mais qu'ils ne pouvaient faire de bons industriels.

Nous nous devions de prouver à nous-mêmes et au monde que la technique, l'industrie et l'organisation s'exprimaient aussi en français». Montréal-Alger. Québec-Algérie. Singulier parallélisme entre deux peuples qui, après avoir subi les tribulations que l'on sait, ne cessent d'affirmer leur vocation à la modernité dans la fidélité à leurs racines culturelles et le dialogue avec le monde extérieur, l'un au seuil des Etats-Unis, l'autre aux portes de l'Europe.

«L'esprit d'Alger», c'était aussi le nombre et la qualité des participants. De ce point de vue, la présence au Palais des Nations, de douze des vingt-quatre Etats du continent latino-américain était un phénomène nouveau, révélateur de toute une évolution. En effet,

dans les années 1945-1950, alors que les Afro-asiatiques représentaient à l'O. N. U. le grand courant de la décolonisation, les latino-américains, trop dépendant encore des Etats-Unis, se tenaient à l'écart du mouvement de libération.

Ce fut d'ailleurs, grâce à l'appoint de leurs voix, que put être votée, par exemple, en 1947, la résolution sur le partage de la Palestine. Par la suite, ils ne manifestèrent — à travers leurs observateurs — qu'un intérêt de curiosité pour le non-alignement. En plus de la crainte du «gendarme américain», ils ne se sentaient guère concernés par les problèmes de l'Asie et de l'Afrique. Cuba fut donc le seul Etat du continent à adhérer comme membre à part entière dès le Sommet de Belgrade en 1961 et ce n'est sans doute pas un hasard si La Havane a été aussi la première capitale de l'hémisphère nord à rompre ses relations avec Israël.

L'importance de la participation latino-américaine et le dynamisme manifesté par les représentants du Chili — avant le putsch militaire — du Pérou et de l'Argentine, sont le corollaire de trois orientations qui se sont confirmées au Sommet d'Alger : la puissance d'attraction du non-alignement qui s'affirme comme une force morale autonome ; la nécessité de la solidarité des pays du Tiers-monde, par delà les zones géographiques auxquelles ils appartiennent ; la prise de conscience du fait que l'indépendance politique demeure limitée et précaire si elle ne s'appuie pas sur l'indépendance économique et culturelle. Trois thèmes qui ont non seulement été au centre des débats mais qui ont aussi permis au mouvement des non-alignés, composé d'une mosaïque d'Etats aux régimes différents et parfois opposés, de trouver un dénominateur commun. Pour toutes ces raisons, la rencontre d'Alger devrait constituer une étape majeure dans la longue marche du Tiers-Monde vers sa libération, chacun sachant fort bien, au demeurant, que la route est semée d'embûches et qu'échecs et succès alterneront.

Les observateurs occidentaux ont souvent eu tendance à juger les différentes rencontres des non-alignés indépendemment les unes des autres. Aussi, concluaient-ils généralement, que chacune d'elles ne donnait que de maigres résultats. Le fait est que de Colombo à Alger en passant par New Delhi, Kaboul, Belgrade, Le Caire, Dar Es Salem, Addis-Abeba, Lusaka La Havane Lima, Santiago du Chili ou Georgetown, la voix des peuples du Tiers-monde s'est trop souvent perdue dans le désert de l'indifférence ou de la mauvaise volonté occidentale.

Les peuples riches, étourdis, par les sirènes de la société de consommation, ne prennent guère le temps, il est vrai, de réfléchir au sort de plus de deux milliards d'hommes à qui ils achètent pourtant, à bas prix, les matières premières qui assurent leur bien être tout en accroissant leur enrichissement. Quant à leurs gouvernements, en dépit de quelques déclarations de principe, ils se sont, pour la plupart, efforcés de perpétuer dans la pratique le système en vigueur qui favorise la prospérité des Etats qu'ils dirigent : la décolonisation politique — qui n'est d'ailleurs pas achevée — n'a guère aboli, en général la domination culturelle et économique. Pour ce qui est de la décolonisation des esprits, elle reste, malheureusement, largement à faire.

En dépit de ces aspects négatifs, la réalité prend un autre visage si on considère les assises organisées par le Tiers-monde dans leur continuité historique au lieu de les analyser séparément. On s'aperçoit alors que l'idée d'indépendance nationale qui parais-

sait illusoire et bien lointaine en 1900, a pris corps en moins d'un quart de siècle avant de s'imposer comme une des réalités de notre temps depuis la seconde guerre mondiale. Qui se souvient, en effet, en Europe, du «Congrès pour le progrès des peuples opprimés», organisé à Paris en 1920 par un panafricaniste noir américain, Du Bois ?

Sans doute le «Congrès des peuples opprimés», convoqué en septembre 1920 par le Komintern, et qui est entré dans l'histoire sous le nom de «Congrès de Bakou», est-il plus connu, mais qui lui avait accordé quelque crédit à l'époque en Occident ? Or, à cinquante ans d'intervalle, on constate qu'il existe un fil d'Ariane qui va du Congrès de Bakou au IVème Sommet des non-alignés à Alger. N'avait-on pas vu, dans la capitale de l'Azerbaidjan, plusieurs congressistes s'opposer, déjà, aux positions européo-centristes de certains des organisateurs ? Ce fut notamment le cas de l'indien M.N. Roy et de Sultan Galiev, soviétique originaire du Turkestan et commissaire-adjoint aux nationalités. Galiev soutenait alors que «L'orientation exclusive de la révolution socialiste internationale vers l'Occident, en raison de l'ignorance de l'Orient et de la crainte qu'il inspire, est une erreur». (1).

A la même époque, Lénine s'écriait : «L'Orient, c'est-à-dire l'Asie, est maintenant dans une phase de révolution... L'Inde et la Chine surtout... qui constituent une majorité gigantesque de la population du globe». Lénine avait-il cependant saisi avec la même acuité l'importance du facteur islamique qui se traduira, selon les circonstances par le pan-islamisme, le pan-arabisme et la recherche d'un socialisme qui ne soit pas calqué sur le modèle soviétique ? En tout cas, Galiev n'hésita pas, alors, à proclamer : «Les peuples musulmans sont des nations prolétariennes. On peut affirmer que le mouvement national des pays musulmans a le caractère d'une révolution socialiste». Ce langage que n'auraient pas renié des hommes aussi différents que Nasser, Gueddafi ou Boumediène dut paraitre bien insolite aux dirigeants communistes de l'époque et c'est sans doute ce qui valut à Galiev d'être déchargé en 1923 de ses fonctions.

Comment ne pas constater, cependant, que les prédictions de Lénine se sont réalisées, du moins en ce qui concerne la Chine, et que celle de Sultan Galiev s'appliquent à une partie au moins du monde arabe ? Comment ne pas souligner, non plus, qu'en dépit de l'aide matérielle et politique apportée par l'Union Soviétique aux mouvements de libération nationale et aux pays du Tiers-monde, la thèse chinoise sur la division du monde en riches et pauvres — mais est-ce une thèse exclusivement chinoise ? — tend à s'imposer parce qu'elle correspond à une réalité, sans exclure pour autant, les conflits idéologiques ? Comment ne pas noter, enfin, que sur quatre conférences au sommet des non-alignés, deux se sont tenues dans des capitales arabes, Le Caire et Alger ? N'était-ce pas une façon de reconnaitre le poids politique, économique et culturel que le monde arabe — en dépit de ses divisions et des problèmes auxquels il est confronté — à acquis au sein du Tiers-monde ?

(1) Citer par Anouar Abdelmalek «du fondamentalisme islamique au modernisme libéral». In. Le Monde du 15 mars 1973.

Le Caire (1964) et Alger (1973) représentent, en tout cas, deux tournants dans l'histoire du non-alignement. Née dans les années 1950 — alors que la guerre froide battait son plein — l'idée d'une politique de non-alignement exprimait un double refus de la part des Etats nouvellement indépendants, celui d'être «marginalisés» et celui d'accepter la bi-polarisation du monde en blocs idéologiques antagonistes. Le 2ème Sommet du Caire se tient alors que s'amorce la coexistence pacifique entre les deux super-grands.

Dans son discours inaugural, le président Nasser déclarait alors d'une façon prémonitoire : «Nous ne voulons pas que la division du monde en un bloc occidental et un bloc oriental prenne fin pour que d'autres blocs plus grands et plus dangereux surgissent à leur place : un bloc des pauvres et un bloc des riches, un bloc des développés et un bloc des sous-développés, un bloc septentrional qui a droit à la prospérité et un bloc méridional qui n'a pour tout lot que la privation, un bloc des blancs et un bloc d'hommes de couleur».

Neuf ans plus tard, à quelques jours de l'ouverture de la Conférence d'Alger, le Président Boumediène devait constater que la récente rencontre Nixon-Brejnev avait «Constitué une nouvelle page dans les relations internationales». Et d'ajouter : «si, dans le passé, le monde était divisé en deux blocs, le bloc communiste et le bloc capitaliste, aujourd'hui, il est à notre avis composé de deux parties, le monde riche et le monde pauvre, celui des habitants du nord et des habitants du sud».

Que constate-t-on, en effet ? Dans le domaine culturel, trente deux pays développés représentant 30 % de la population du globe produisent plus de 80 % des livres publiés chaque année : 410 000 titres imprimés à 7 milliards d'exemplaires. Les autres pays — dont beaucoup ont une culture traditionnelle prestigieuse — ne produisent que 90 000 titres tirés à moins de 700 millions d'exemplaires alors qu'ils réunissent 70 % de la population mondiale.

Pourtant, nombre d'Etats font des efforts louables pour combattre l'analphabétisme comme le prouve la scolarisation intensive entreprise, par exemple, par la plupart des pays arabes. Il est vrai, cependant, que les enseignants sont souvent médiocrement payés ce qui incite les meilleurs d'entre eux à trouver dans d'autres administrations des postes plus rémunérateurs, que les recherches dans le domaine de la pédagogie en vue de renouveler et d'améliorer les méthodes d'enseignement — en particulier en ce qui concerne la langue arabe — sont des plus réduites, pour ne pas dire inexistantes, à quelques exceptions près, que le niveau de la recherche scientifique, enfin, reste quantitativement et qualitativement insuffisant. Il n'en demeure pas moins que pour assurer une véritable renaissance culturelle, des moyens considérables sont souvent nécessaires. Mais où se les procurer lorsque l'ordre international économique, financier et commercial si préjudiciable au Tiers-monde est défendu avec apreté par la plupart des Etats riches ?

En admettant que l'objectif fixé pour la seconde décennie du développement (1970-1980) puisse être atteint, le revenu national brut des pays en voie de développement n'augmenterait que de 85 dollars contre 1200 pour les Etats industrialisés. Au cours de la première décennie, le pourcentage des revenus des pays pauvres avait d'ailleurs

baissé, passant de 0,84 % du P.N.B. des pays de l'O.C.D.E. en 1960-1961 à 0,73 % en 1970-1971. Dans le même temps, l'aide accordée par les riches tombait de 0,53 % de leur P.N.B. à 0,35 % tandis que les prix des matières premières demeuraient faibles pendant que ceux des produits industriels montaient régulièrement perpétuant ainsi le cercle vicieux du sous-développement.

Un rapport sur l'énergie présenté au Sommet par l'Algérie rappelle opportunément que les pays du Tiers-Monde qui «fournissent presque les 2/3 du pétrole mondial, la moitié des quantités de cuivre, de fer, de plomb, de soufre et de zinc qui se consomment dans le monde, 80 % de la production de bauxite et d'étain, le tiers de la production de nickel», devraient pouvoir, eux aussi, tirer parti de ces matières premières pour se développer.

Le rapport soumet un problème, parmi d'autres, à la méditation des habitants des nations industrialisées, lorsqu'il rappelle qu'à vouloir situer chez eux toutes les activités de transformation des matières premières, y compris les produits agricoles achetés aux pays pauvres, les pays riches ont multiplié à l'excès les concentrations industrielles au point de transformer le milieu naturel en milieu hostile à la vie».

Mais la pire des pollutions n'est-elle pas celle qui affecte l'homme dans sa dignité ? Au rythme actuel — et si aucun changement majeur ne se produit — le monde industriel (Europe, Etats-Unis, U.R.S.S. et Japon) comprendra en l'an 2000 1,5 milliard d'habitants qui consommeront chacun de 5000 à 10 000 dollars par an alors que le Tiers-monde sera peuplé de 4,5 milliards d'hommes dont la consommation ne dépassera pas 300 dollars en moyenne. Ainsi, dans 25 ans — le temps d'une génération — la planète comptera trois fois plus de pauvres que de riches. A l'aube du XXIème siècle une telle situation ne serait pas seulement malsaine, elle serait profondément immorale.

Le Sommet d'Alger aura également contribué à préciser certaines idées. S'il a insisté sur la notion de riches et de pauvres, il n'a pas nié, pour autant, la division du monde en pays socialistes et en pays capitalistes tout en notant qu'il existe aussi des sous-groupes à l'intérieur de chacun des deux camps : les pauvres des riches et les riches des pauvres.

Ainsi, l'Europe, bien que riche, n'a pas le poids politique des super-grands, tandis que l'U.R.S.S. bien qu'industrialisée et puissante, n'est pas encore un pays vraiment riche. A l'inverse, l'Arabie Séoudite, malgré sa richesse, demeure un pays en voie de développement. Dans son discours de clôture, le Président Boumediène a ingénieusement introduit une utile précision qui contribue à clarifier le débat en rappelant qu'un des principaux clivages s'établit entre nations industrialisées et nations non-industrialisées.

Alors que, jusqu'ici, le non-alignement s'était surtout défini par des refus, le Président Boumediène a proposé qu'il s'affirme d'une manière positive et se dote même d'une stratégie autonome. «Il ne faut pas oublier, déclarait-il dans l'interview qu'il nous a accordée (2), que nous disposons de moyens pour résister aux pressions. C'est

(2) Le Monde du 5 septembre 1973.

une question de détermination et de volonté. Il est logique de s'attaquer au néo-colonialisme, au racisme, à l'impérialisme, mais nous ne devons pas oublier pour autant que nous avons aussi à assumer nos responsabilités au niveau national, au niveau régional, au niveau des non-alignés. Il ne faut pas rejeter toute la responsabilité sur les autres. Nous devons analyser nos propres faiblesses et nous efforcer de les corriger. Nous devons d'abord compter sur nous-mêmes et utiliser plus efficacement nos moyens humains et matériels. Ce faisant nous finirons par imposer le respect».

Ce langage qui est celui du courage et de la dignité a été compris et le Sommet a adopté ces idées. Reste à savoir dans quelle mesure la solidarité qui s'est dégagée à Alger résistera à l'épreuve du temps et des évènements. On peut penser, néanmoins, que la Commission chargée de la préparation du prochain Sommet qui se réunira à Colombo, veillera à maintenir «l'esprit d'Alger» qui a permis au Tiers-monde de s'affirmer comme il ne l'avait jamais fait auparavant.

A partir de là, deux voix sont possibles, ou bien une concertation s'établira entre les puissances industrielles et les pays en voie de développement pour promouvoir une coopération équitable, ou bien on s'orientera vers une série d'épreuves de force qui risquent d'être dommageables pour tous.

Dans un monde devenu multipolaire, l'Europe, si proche du monde arabo-africain, mais qui est familière de l'Asie et a bien des affinités avec l'Amérique latine, aurait vocation pour jouer un rôle de médiation. Evoquant une telle coopération entre les deux rives de la Méditerranée, le Président Boumediène nous déclarait : «Si l'Europe s'organise en fonction d'une véritable coopération fondée sur les intérêts réciproques — nous ne demandons pas plus — sur l'existence de complémentarités réelles, dans tous les domaines, chacun y trouvera alors son compte». Et d'ajouter «L'Europe a des choix fondamentaux à faire et elle doit les faire à l'échelle planétaire. Si elle assume ses responsabilités et agit en vue de favoriser la fin de l'emprise de l'impérialisme américain dans la région, elle trouvera un point de rencontre avec ses voisins d'Outre-Méditerranée. Mais pour le moment, cette vision de l'avenir et cette dimension historique semblent faire défaut à l'Europe. Et c'est dommage».

Comment ne pas évoquer à ce propos une confidence (3) que nous avait faite le Général de Gaulle, et à laquelle ces propos font écho. «Le commerce, l'économie, la culture, nous disait-il à propos des relations franco-arabes, c'est très important. Il faut parler de ce qui se fait parce que cela prépare l'avenir, et il faut voir loin. Voyez-vous, il y a de l'autre côté de la Méditerranée des pays en voie de développement. Mais il y a aussi chez eux une civilisation, une culture, un humanisme, un sens des rapports humains que nous avons tendance à perdre dans nos sociétés industrialisées et qu'un jour nous serons probablement très contents de retrouver chez eux. Eux et nous, chacun à

(3) In. La politique arabe de la France, d. Sindbad, Paris 1973.

notre rythme, avec nos possibilités et notre génie, nous avançons vers la civilisation industrielle. Mais si nous voulons, autour de cette Méditerranée — accoucheuse de grandes civilisations — construire une civilisation industrielle qui ne passe pas par le modèle américain et dans laquelle l'homme sera une fin et non un moyen, alors il faut que nos cultures s'ouvrent très largement l'une à l'autre».

Non, finalement, que les Sommets des non-alignés se soient tenus jusqu'ici dans trois capitales méditerranéennes et dans une capitale africaine, n'est pas fortuit et il est dans la logique des choses que le cercle s'élargisse maintenant à l'Asie et à l'Amérique latine.

PAUL BALTA.

24-9-1973.



LE VOLONTARIAT DE L'ISLAM

De son Eminence l'Imam Moussa ASSADR,
Président du Conseil Supérieur Islamique Chiite du Liban,
à l'occasion de sa participation au VIIe Séminaire de la Pensée Islamique
à Tizi-Ouzou.

Jeunesse volontaire,

Au cours de ma visite en Algérie, j'ai suivi avec intérêt et respect votre mouvement volontariste et j'ai senti qu'il était porteur d'un grand espoir. Mon propos n'a pas la prétention de vous apporter un encouragement, car j'ai observé votre rencontre avec le Président Boumediène et j'ai vu votre élan et votre enthousiasme.

J'ai voulu seulement, dans un mot d'adieu, vous dire mes impressions et vous expliquer à mon tour les dimensions et les prolongements de votre action, espérant ainsi y avoir participé moi-même, volontairement et modestement.

Jeunesse volontaire,

Votre travail volontaire dépasse, dans ses dimensions, l'édification du village, l'aide au fellah, et jusqu'au développement de l'agriculture dans votre pays de façon révolutionnaire.

Car il annonce, dans le même temps, la naissance d'un homme et d'un citoyen, le façonnement d'une nation. Le plus grand malheur dans la vie de l'homme, depuis qu'il existe, a été de vivre pour lui-même, d'avoir uniquement conscience de ses intérêts particuliers, de se mouvoir pour construire sa propre personne et satisfaire ses égoïsmes.

Selon l'expression coranique, l'homme «a pris pour Dieu sa passion» et a adoré son moi. Les Prophètes, ceux qui prêchent le bien et les dirigeants des nations se sont, par la suite, efforcés, par différents moyens, d'élargir le cercle de sa conscience et de son action, en l'éveillant aux souffrances et aux espoirs d'autrui, pour l'amener à participer à l'édification de sa société en perpétuelle évolution, et à œuvrer — dans ce cadre — à son bonheur et à celui des autres.

C'est cela la religion, c'est ce comportement, c'est le transfert de l'adoration de soi-même à l'adoration de Dieu, et la meilleure façon de l'adorer est de servir ses créatures.

Tous les enseignements de l'Islam, sa culture, sa doctrine, ses obligations, son code moral, déterminent les détails de cette mutation profonde.

Le Coran souligne que la base de la vertu, après la foi en Dieu et son enracinement par la prière, consiste à associer les autres à ce que Dieu a donné à l'homme : les

richesses, la considération, la puissance, la science, l'expérience (1), en fait tout ce que résume le mot «volontariat».

Notre grand Prophète considère ce volontariat dans l'un de ses hadiths comme la voie qui mène au Paradis (2).

Il dénie la foi à ceux qui se désintéressent des souffrances d'autrui et qui ne se dépensent pas pour venir en aide à leur prochain (3).

Jeunesse volontaire

Votre travail volontaire a deux dimensions essentielles : une dimension extérieure qui réside dans l'aménagement du territoire, la construction du village, l'élévation du niveau de vie des populations rurales, la consolidation de la patrie et de la nation.

La dimension intérieure, psychologique, c'est que ce volontariat bâtit un homme nouveau, grand par sa conscience et son esprit, large par ses préoccupations et ses responsabilités. Vous êtes en train de forger à partir de vous-mêmes des hommes et des citoyens qui rehausseront le niveau de leur patrie et de leur nation.

En vous dirigeant vers le village et vers l'élargissement de votre personnalité, vous êtes mûs par le contraire de ce qui constitue les motivations du monde d'aujourd'hui. Celui-ci, en effet, dans son Orient comme dans son Occident, est en marche vers la ville, vers l'étouffement de la personne, approfondissant ainsi les égoïsmes et enracinant davantage le besoin de satisfaire les intérêts particuliers.

Vous êtes en train de vous transformer en une nation unique, alors que le monde transforme les nations en fractions et en individus et qu'il assigne à chaque catégorie un cadre rigide.

Vous défiez le siècle, et l'histoire de l'Algérie est tellement fertile en défis et en miracles !

Jeunesse volontaire,

C'est ainsi que nous voyons votre action, c'est même ainsi que vous voient l'Islam et l'Histoire. En avant donc avec la bénédiction de Dieu et que votre travail soit sacré !

Vous façonnez aujourd'hui sur l'homme et sur la terre les bases d'un avenir qui refuse le repli sur soi-même et l'égoïsme, et rejette l'adoration du moi, un avenir ouvert où est adoré Dieu, le Créateur des Mondes, et où est servi l'homme, tout l'homme.

Votre travail volontaire, mes chers amis, est le commencement des plus nobles révolutions contemporaines, des plus complètes aussi et des plus humaines. Il est une révolution contre soi et contre les autres, une révolution contre toute déviation ou régression, il est le djihad. Au djihad donc, dans le pays du djihad, ô fils des moudjahidine !

(1) Coran, Sourate de la Vache, verset 2.
(2) Hadith. Le Prophète a dit à ses Compagnons :
«Vous indiquerai-je le chemin du Paradis ? » «Certes, oui». «Donnez de ce que Dieu vous a donné».
(3) Hadith : «N'a pas foi en Dieu et au jugement dernier celui qui dort la nuit, le ventre plein alors que son voisin a faim».
Coran, Sourate «Al Ma'oun» :
«Connais-tu celui qui ne croit pas à la religion ? C'est celui qui repousse l'orphelin et ne nourrit pas le pauvre».